دار الكتب المصرية

صبح الأعشى

الجزء الأوّل

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

كتاب
صبح الأعشى
تأليف
الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الأوّل

طبـــع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله جاعل المرء بأصغريه، قلبه ولسانه . والمتكلمَ بأجمليه، فصاحته وبيانه . راقِمِ حقائق المعانى بأقلام الإلهام علىٰ صفحات الأفكار . جامع اللسان والقلم علىٰ ترجمة ما فى الضمائر، ذاك للأسماع وهذا للأبصار. الذى حفِظ برسوم الخطوط ماتكلُّ الأذهانُ السليمة عن حفظه . وتَبْلُغ بوسائطها على البعد ما يعسر على المتحمل تأديتُه بصورة معناه ولفظه .

أحمده علىٰ أنْ وهب من بنات الأفكار ما يربو فى الفخر علىٰ ذُكُور الصوارم . ومنح من جواهر الخواطر ما يزكو مع الإنفاق ولا ينقص بالمكارم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يُوَقَّع لصاحبها بالنجاة من النار . ويُكْتَب قائلها فى ديوان الأبرار . وأن محمدا عبده ورسوله الذى آهتزَّت لهيبته الأسِرَّة وشَرُفت بذكره المنابر . وضاقت عن دَرْك وصفه الطروس ونَفِدت دون إحصاء فضله المحابر . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين قُلِّدوا أمورَ الدين فقاموا بواجبها . وحُمِّلوا أعباءَ الشريعة فانتشرت بهم فى مشارق الأرض ومغاربها . صلاةً تُسَطَّر فى الصحف . وتفوق بهجتُها الروضَ الأُنُف .

وبعــدُ فلمــا كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأربح البضائع وأنفعها . وأفضل المـآثر وأعْلاها . وآثَرِ الفضائل وأغلاها . لاسيما كتابة الإنشـاء التى هى منها بمنزلة سلطانها . وإنسان عينها بل عين إنسانهـا . لا تلتفِت الملوكُ إلا إليها . ولا تعوِّل فى المهمات إلا عليها . يعظِّمون أصحابها ويقرِّبون كُتَّابها . فخليفها أبدا خليق بالتقديم . جدير بالتبجيل والتكريم .

تَسُرُّ مَجَانِيهـا إذا ما جَنىٰ الظَّمَا * وتُرْوِى مَجارِيها إذا بَخِل القَطْر

وكانت الديار المصريه . والمملكة اليوسفيه . أعز الله تعالى حماها ! . وضاعف عُلَاها ! قد تعلقتْ من الثريَّا بأقراطها . ورجحت سائرَ الأقاليم بقيراطها . بشَّر بفتحها الصادقُ الأمين، فكانت أعظم بُشْرىٰ . وأخبر سيد المرسلين أن لأهلها نسبا وصهرا . فتوجهت إليهـا عزائم الصحابة زمَنَ الفاروقِ فجاسُوا خِلالَ الديار وَعْرِها وسهلها . وآقتطعتها أيدى المسلمين من الكفار ﴿وكانوا أحقَّ بِهَا وأهْلَها﴾ .

ثم لم يزل يعلو قدرها . ويسمو ذكرها . إلىٰ أن صارت دار الخلافة العباسيه . وقرار المملكة الإسـلاميه . وفَخَرتْ مملكتها بخـدمة الحرَمَيْن . وخدمها سائرُ الملوك والأمم لحيازة القِبْلتيْن .

تَنَاهَتْ عَلاءً والشَّـبابُ رداؤُها * فما ظَنُّكُمْ بالفَضْلِ والرَّأْسُ أَشْيَبُ؟

وحَظِيتْ من فُضلاء الكُتَّاب بمـا لم تحْظَ مملكةٌ من المـالك، ولا مصر من الأمصار . وحَوَتْ من أهل الفضل والأدب مالم يَحْوِقُطر من الأقطار . فما بَرِحتْ متوَّجةً بأهل الأدب فى الحـديث والقديم . مطرّزةً من فضلاء الكُتَّاب بكل مكينٍ أمينٍ، وحفيظ عليم .

نُجُومُ سَمَـاءٍ كُلَّما غابَ كَوْكَبٌ * بَدَا كَوْكَبٌ تأْوِى إليه كَوَاكِبُهْ

هـذا . والمؤلفون في هذه الصنعة قد ٱختلفتْ مقاصدهم في التصنيف . وتباينتْ مواردُهم في الجمع والتأليف . ففِرْقة أخذتْ في بيان أُصول الصنعة وذكر شواهِدِها . وأُخرىٰ جنحَتْ إلىٰ ذكر المصطلَحات وبيانِ مقاصدها . وطائفة ٱهتمَّت بتدوين الرسائل ليُقْتبَس من معانيهـا ويُتَمَسَّك بأذيالها . وتكونَ أُنْموذَجا لمن بعـدهم يسلك سبيلها، مَن أراد أن يَنْسِجَ علىٰ مِنْوالهـا . ولم يكن فيها تصنيف، جامعٌ لمقاصدها . ولا تأليف، كافلٌ بمصادرها الجليلة ومَوَاردها . بل أكثرُ الكتب المصنَّفة في بابها . والتآليفِ الدائرة بين أربابها . لايخرُجُ عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه . أو الألفاظ الرائقة ممـا وقع ٱختيار الكُتَّاب عليه . أو طَرَف من ٱصـطلاح قد رُفِض . وتغير أُنموذَجُه ونُقِض . فلا يغنِي النظر فيه المقلِّدَ من كُتَّاب الزمان . ولا يكتفِي به القاصرُ في أوانٍ بعد أوان . علىٰ أن معرفة المصطلَح هي اللازم المحتَّم . والمهمُّ المقدّم . لعموم الحاجة إليه . وٱقتصار القاصر عليه .

إنّ الصَّنيعةَ لا تَكُونُ صَنِيعةً * حتّٰى يُصَابَ بها طريقُ المَصْنع

وكان الدُّسْـتُور الموسومُ "بالتعريف . بالمصطلح الشريف" . صنعة الفاضـل الألمعيّ . والمِصْقَع اللوذعيّ . مَلِك الكتابة وإمامِها . وسلطانِ البلاغة ومالِك زمامِها . المقرّ الشهابيّ "أحمد بن فضل الله العدويّ العمريّ" سقىٰ الله تعالىٰ عهده العِهاد ! . وألبسه سوابغ الرحمة والرِّضوان يوم المَعَاد ! . هو أنفَس الكتبِ المصنَّفة في هذا الباب عِقْدا . وأعدلُها طريقا وأعذبُها وِرْدا . قد أحاط من المحاسن بجوانبها . وأُعْقِمت الأفكارُ عن مثله ففاز من الصنعة بأحمدِ مذاهِبها . فكان حقيقا بقوله في خطبته :

"يا طالِبَ الإنْشاءِ خُذْ عِلمَه * عَنِّي فعِلْمِي غير مَنْكُورِ !"

"ولا تَقِفْ في بابِ غَيْرِي فما * تَدْخُـلُه (إلا بدُسْتُورِي)"

إلا أنه قد أهمــل من مقاصد المصطلح أمورا لا يسُوغ ترْكها . ولا ينجبر بالفِدْية لدىٰ الفوات نُسُكُها . كالبطائق، والملطفات، والمطلقات . المكبرة فى جملة كثيرة من المكاتبات . فلم يقع الغِنىٰ به عما سواه . ولا الاكتفاءُ بالنظر فيه عما عَدَاه .

ثم تلاه المقرّ التقوى ٱبن ناظر الجيش (رحمه الله!) بوضع دُستوره المسمّى "بتثقيف التعريف" مقتفيا أثره فى الوضع، وجاريا علىٰ سَنَنه فى التأليف . مع إيراد ما أهمله فى تعريفه . وذِكْر ما فاته من مصطلَح مايُكتَب أو حدَثَ بعد تأليفه . فاشتهر ذكره وعز وُجوده . ووقع الضنُّ به حتّى بَخِل بإعارته مَن عُرِف كرَمُه وَجُوده . وكان مع ذلك قد ترك مما تضمنه التعريف مقاصدَ لا غنىٰ بالكاتب عنها . ولا بُدّ للتلبس بهذه الصناعة منها . كالوصايا والأوصاف، التى هى عمدة الكاتب . ومراكز البَرِيد وأبراج الحَمَام، وغير ذلك من متمات الواجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فصار كلُّ من الدُّستورَيْن منفردًا عن الآخَر بقدر زائد . ولم تقع الغُنْية بأحدهما عن الآخر، وإن كانا فى معنًى واحد .

وكيفما كان فالٱقتصار علىٰ معرفة المصطلح قُصور . والإضراب عن تعرُّف أصول الصنعةِ ضَعْف همَّةٍ وفُتُور . والمقلِّد لايوصف بالٱجتهاد . وشتَّانَ بين مَن يعرِف الحكم عن دليل ومن جمد على التقليد مع جَزْم الٱعتقاد .

وَلَمْ أرَ فى عُيُوبِ الناسِ شَيْئاً * كنَقْص القادرِينَ على التَّمَـامِ

وقد ثبت فى العُقول أن البناء لايقوم علىٰ غير أساس . والفرعَ لاينبُت إلا علىٰ أصل، والثمَرَ لا يُجتنىٰ من غير غِرَاس .

وكنت فى حدود سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة عند ٱستقرارى فى كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية، عظم الله تعالى شأنها! . ورفع قدرها! وأعز سلطانها!

أنشأت مقامة بنيتها علىٰ أنه لابدّ للإنسان من حرفة يتعلق بها . ومعيشة يتمسّك بسببها . وأن الكتابة هى الصناعة التى لايليق بطالب العلم من المكاسب سواها . ولا يجوز له العُدُول عنها إلىٰ ماعداها . وجنَحت فيها إلىٰ تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها . وتقديمها علىٰ كتابة الأموال وترشيحها . ونبّهت فيها علىٰ ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد . وما ينبغى أن يسلُكه من الجَوَادّ . وضمنتها من أصول الصنعة ما أرْبَتْ به على المطولات وزادت . وأوْدعتُها من قوانين الكتابة ما ٱستولَتْ به علىٰ جميع مقاصدها أو كادتْ . وأشرت فيها إلىٰ وجه تعلّقِى بحبال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلوبها مَلِيّاً (١) . وٱنتسابى إلىٰ أهلها وإن كنت فى النسبة إليها دَعِيّا .

وليس دَعِىُّ القومِ فى القَوْمِ كالّذِى * حَوىٰ نَسَباً فى الأكْرَمِينَ عَرِيقا

إلا أنها قد وقعَتْ موقعَ الوَحْى والإشاره . ومالتْ إلىٰ الإيجاز فا كتفَتْ بالتلويح عن واسع العباره . فعزّ بذلك مطلَبُها . وفات على المجتنِي ببُعد التناوُل أطيَبُها . فأشار مَنْ رأيه مقرون بالصواب . ومَشُورته عرِيّة عن الٱرتياب . أن أُتْبِعها بمصنَّف مبسوط يشتمل علىٰ أصولها وقواعدها . ويتكفّل بحلّ رموزها وذكْر شواهدِها . ليكون كالشرح عليها . والبيان لما أجملته والتّتمةِ لما لم يَسُقْه الفكر إليها . فامتثلت أمره بالسمع والطاعه . ولم أتلكّأ وإن لم أكن من أهل هذه الصناعه . غير أن القريحة بذلك لم تسمَحْ . وصار المقتضِى يضعُف والمانعُ يترجّح . لأعذار قد تشابه مُحْكَمُها . وضرورات ، إن لم يعلمها الخلق فالله يعلمُها . إلىٰ أنْ لاحتْ لى بوارقُ الفتح . وظهرت ولله الحمدُ آثار المَنْح . فعند ذٰلك بلغتْ النفس أملَها . وأضْفَتْ مواهبُ الٱمتنان حُلَلَها . وتلا لسانُ العناية على الغبى الحاسد ﴿مايَفْتَحِ اللهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَها﴾ .

(١) أى موسرا .

فشرعت فى ذلك بعد أن آستخرت الله تعالىٰ (وما خَابَ مَنِ استَخَار) . وراجعت أهل المَشُورة (وما نَدِمَ مَنِ اسْتَشار) . مستوعبا من المصطلَح ما آشتمل عليه "التعريف" و"التثقيف". موضحا لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قُرْب المأخَذ وحُسْن التأليف . متبرعا بأمور زائدة على المصطلح الشريف لايسَع الكاتبَ جهلُها . مُتَنَقِّلًا من توجيه المقاصدِ، وتبيين الشواهد، بما يُعَرف به فرعُ كل قضية وأصلُها . آتيًا من مَعالم الكتابة بكل معنًى غريب . ناقلًا الناظرَ فى هذا المصنَّف عن رتبة أن يَسألَ فلا يجاب إلىٰ رُتبة أن يُسئَلَ فيجيب . منبِّها علىٰ مايحتاج إليه الكاتب من الفنون، التى يخرج بمعرفتها عن عُهدة الكتابة ودَرَكِها(١) . ذاكرًا من أحوال الممالك المكاتَبة عن هذه المملكة مايُعرف به قدرُ كل مملكة ومَلِكها . مبينًا جهةَ قاعدتها، التى هى محل الملك شرقا أو غربا، أو جنوبا أو شمالا . معرّفا الطريقَ الموصل إليها، برا وبحرا، وآنقطاعا وآتصالا . ذاكرا مع كل قاعدة مشاهيرَ بُلْدانها، إكمالًا للتعريف . ضابطا لأسمائها بالحروف كى لايدخُلَها التبديل والتحريف .

وسمّيته (صبح الأعشىٰ فى كتابة الإنشا) راجيا من الله تعالىٰ أن يكون بالمقصود وافيا . وللغليل شافيا .

ولْيعذِرِ الواقف عليه، فنتائج الأفكار على آختلاف القرائح لاتتناهىٰ . وإنما ينفق كل أحد علىٰ قدر سعته ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلّا ما آتَاهَا﴾ . ورحم الله من وقف فيه علىٰ سهو أو خطإٍ فأصلحه عاذرا لا عاذلا . ومُنيلا لا نائلا . فليس المبرأُ من الخَطَل إلا من وقىٰ اللهُ وعصَم . وقد قيل: الكتّاب كالمكلف لايسلم من المؤاخذة ولا يرتفع عنه القلم؛ والله تعالى يقرنُه بالتوفيق! . ويُرشِد فيه إلىٰ أوضح طريق! . ﴿وما توْفِيقِي إلَّا باللهِ عَلَيْه توَكَّلْتُ وإليه أُنِيبُ﴾ .

وقد رتبْتُه علىٰ مقدّمة، وعشر مقالات، وخاتمة .

(١) الدَّرك ويسكن التبعة .

المقـــدّمة

في مبادٍ يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء ؛ وفيها خمسة أبواب

البـاب الأوّل

في فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذمّ حَمْقاهم؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — في فضل الكتابة .

الفصـــل الثاني — في مدح فضلاء الكُتّاب وذمّ حَمْقَاهم .

البـاب الثـاني

في ذكر مدلول الكتابة لغةً وٱصطلاحًا، وبيان معنىٰ الإنشاء ، وإضافة الكتابة إليه، ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عُرْف الزمان، والتعبير عنها بصـناعة الترسل ، وتفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائر أنواع الكتابة ، وترجيح النثر على الشعر . وفيه ثلاثة فصول .

الفصـــل الأوّل — في ذكر مدلولها، وبيان معنىٰ الإنشاء وإضافتها إليه. ومرادَفة التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسُّل.

الفصـــل الثاني — في تفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائر أنواع الكتابة .

الفصـــل الثالث — في ترجيح النثر على الشعر .

البـاب الثـالث

في صفات الكُتّاب وآدابهم؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — في صفاتهم الواجبة والعرفية .

الفصـــل الثاني — في آدابهـــم .

البـاب الرابع

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصل وضعه فى الإسلام

وتفرّقه بعد ذلك فى الممـالك؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى التعريف بحقيقته .

الفصـــل الثانى — فى أصل وضعه فى الإسلام وتفرقه بعد ذلك فى الممـالك بالديار المصرية وغيرها .

البـاب الخـامس

فى قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله، وآداب أهله؛ وفيه أربعة فصول

الفصـــل الأوّل — فى بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله ولقبه الجارى عليه فى القديم والحديث .

الفصـــل الثانى — فى صفة صاحب هذا الديوان وآدابه .

الفصـــل الثالث — فيما يتصرف فيه متولى هذا الديوان ويدبره ويصرفه بقلمه .

الفصـــل الرابع — فى ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وما يلزم رب كل وظيفة منهم، وما كان عليه الأمر فى الزمن القديم، وما آستقرّ عليه الحال بعد ذلك .

المقـالة الأولى

فيما يحتاج اليه الكاتب، وفيها بابان

البـاب الأوّل

فى الأمور العلميـــة، وفيه ثلاثة فصول

الفصـــل الأوّل — فيما يحتاج اليه الكاتب فى الجملة .

الفصـــل الثانى — فيما يحتاج الكاتب إلىٰ معرفته من موادّ الإنشـاء ، من معرفة اللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع ، وحفظ كتاب الله تعالىٰ ، والكثير من الأحاديث النبوية ، وخطب البلغاء ورسائلهم ومكاتباتهم ومحاوراتهم ومراوضاتهم ، (وأشعار العرب) والمولدين والمحدثين ، (وأمثال العرب) ومن جرى مجراهم ؛ والمعرفة بالتاريخ(وأنساب العرب) ، ومفاخراتهم ،ومنافراتهم ، وحروبهم ، وأوابدهم فى الجاهلية ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانيـة ، وأصـناف العلوم ، ومَن بَرَع فى كل علم منها ، والكتب الفائقة فى كل فنّ من فنونها وما يجرى مجرىٰ ذلك ؛ والمعرفة بصنعة الكلام وكيفية إنشائه ونظمه ، وتأليفه ، وترصيفه ، وما يحمد من ذلك وما يذم .

الفصـــل الثالث — فى معرفة الأزمنة والأوقات : من الأيام والشهور والسـنين على اختلاف الأمم فيها وتفاصـيل أجزائهـا ، وما ينخرط فى سلك ذلك من الفصول الأربعة وأعياد الأمم .

البـاب الثـانى

فيما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العَمَلية ، من الخط وتوابعه ولواحقه ؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأول — فى ذكر آلات الخط من الدُّوِىّ وما تُتَّخذ منه ومقاديرِها وكيفياتها ، ومعرفة أصـناف الأقلام وصنعة بِرَايتها : فتحا ونحتا وشقًّا وقطًّا ، ومقادير أطوالهـا وعدد ما يكون فى الدواة منها ، وكيفية عمل الحبر ، وحلّ الذهب ، وإذابة اللازورد والمَغَرة العراقية ، وغير ذلك ممـا يُحتاج إليه فى كتابة الديوان .

الفصـــل الثانى — فى الكلام علىٰ نفس الخط وأصل وضعه وآختلاف الأمم فيه ، وما يختص من ذلك بالخط العربىّ من تنويع أقلامه التى أحدثها أئمة الكتابة وتباين

أشكالها وآختلاف أوضاعها؛ وما يستعمل منها فى ديوان الإنشاء، وما يلتحق بذلك من النَّقْط والشكل والهجاء .

المقـالة الثانيـــة

فى المسالك والممـالك؛ وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

فى ذكر الأرض علىٰ سبيل الإجمال؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصـــل الأوّل — فى معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها ، وبيان جهاتهـا الأربع، وما آشتملت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية؛ وبيان موقع الأقاليم العرفيـة كمصر والشام من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعة لها .

الفصـــل الثانى — فى ذكر البحار التى يتكرر ذكرها بذكر البُلْدان فى التعريف بها والسفر إليها من البحر المحيط والبحار المنبثّة فى أقطار الأرض ونواحى الممـالك ممـا هو متصل به ومنقطع عنه وما بها من الجزائر المشهورة .

الفصـــل الثالث — فى آستخراج جهات البُلْدان والأبعاد الواقعة بينها .

البـاب الثـانى

فى ذكر الخلافة ومَنْ وليها من الخلفاء ومقرّاتهم فى القديم وما آنطوت عليه ممـالكهم من الأقطار؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى ذكر الخـلافة ومَنْ وليها من الخلفاء الراشدين من الصحابة (رضوان الله عليهم)، وخلفاء بنى أمية بالشام، وخلفاء بنى العباس بالعراق، ثم بالديار

المصرية، وخلفاء الفاطميين بمصر، وخلفاء بنى أمية بالأندلس، والمدّعين الخلافةَ من بقايا الموحدين بأفريقية .

الفصــــل الثانى — فيما انطوت عليه الخلافة العباسـية فى الزمن القديم وما كانت عليه من الترتيب وما هى عليه الآن .

البـاب الثـالث

فى ذكر الديار المصرية ومضافاتها من البلاد الشامية وما يتصل بها ؛ وفيــه ثلاثة فصول

الفصــــل الأول — فى الديار المصرية وذكــر فضائلها ومحاسنها ، وخواصّهـا وعجائبها وما بها من الآثار القديمة ، وذكر نيلها ومبدئه ونهايته ، وزيادته ونقصه ، ومقاييسه، وما ينتهى اليه فى الزيادة وما يصـــل اليه فى النقص ، والخلجان المتفرّعة عنه، وجسورها الحابسة لميـاه النيل على أرضها، وبحيرات الديار المصرية؛ وجبالها وزروعها ورياحينها وفواكهها، ومواشـيها ووحوشها وطيورها ؛ وذكر حدودها وابتداء عمارتها وتسميتها مصر، وتفرّع الأقاليم التى حولها عنها؛ وذكر أعمالها وقواعدها القديمة، والمبانى العظيمة الباقية على ممر الأزمان، وقواعدها المستقرّة وما اشتملت عليه من محاسن الأبنية؛ وذكر مَنْ ملكها جاهليةً وإسلاما قبل الطُّوفان وبعده ؛ وترتيب أحوالها ؛ وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب مملكتها فى القديم والحديث ؛ وبيـان وظائف دوَلها القديمة والمستقرّة لأرباب السيوف والأقلام .

الفصــــل الثانى — فى البلاد الشاميــة وما يتصل بهـا من بلاد الجزيرة الفراتيــة وبلاد الثغور والعواصم المعبر عنها الآن ـ ببلاد الأرمن ـ وبلاد الدربندات المعروفة الآن ـ ببلاد الروم ـ مما هو مضاف الى مملكة الديار المصرية، وفضل الشام وخواصه

وعجائبـه وحدوده وآبتـداء عمارته وتسميته شاما ، وذكر أنهاره وبحـيراته وجباله المشهورة ، وذكر زروعه وفواكهه ومواشـيه ووحوشه وطيوره ، وذكر أعمـاله وجهاته وأجناده وكُوَره القديمة والمسـتقرّة وقواعده العظام وما كانت عليه فى الزمن السابق ومَنْ ملكها جاهليةً وإسلاما وما آسـتقرّت عليه الآن من النيابات، وترتيب أحوالهـا ، وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب نياباتهـا وما بها من وظائف أرباب السيوف والأقلام وما آشتملت عليه من العُرْبان (١) .

الفصـــل الثالث — فى البلاد الحجازية وما ينخرط فى سلكها ، وذكر فضل الحجاز وخواصّـه وعجائبه وآبتـداء عمارته وتسميته حجازا، وذكر مياهه وعيونه وجبـاله المشهورة وزروعه وفواكـهه ورياحينه ومواشيه ووحوشـه وقواعده وأعمـاله ونواحيه ومعاملاته ونقوده وملوكه جاهلية وإسلاما .

البـاب الرابع

فى المـالك والبُلْدان المحيطة بمملكة الديار المصرية من الجهات الأربع والطرق الموصلة اليها؛ وفيه أربعة فصول

الفصـــل الأوّل — فى المـالك والبُلْدان الشرقية عن الديار المصرية، وما سامَتَ ذلك ووالاه من الجهة الجنوبية والجهة الشمالية، وما آشتملتْ عليه هذه الجهة من مملكة إيران التى هى مملكة الفُرْس قديما، وما آنطوت عليه من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد العراق وبلاد خُوزِسْتانَ وبلاد الأهواز وبلاد فارس وبلاد كَرْمانَ وبلاد سِجِسْتان وبلاد أَرمينية وأَذْرَبِيجان وبلاد الجبـال المعبَّر عنها بعراق العجم وبلاد الدَّيْلم وبلاد الجيل المعبر عنها بكيلان وبلاد مازندران وبلاد قومس وبلاد زابلستان وبلاد الغَوْر

---

(١) اشتهر هذا الجمع على الألسنة ولم نعثر عليه فى معاجم اللغة التى بأيدينا وان كان القياس لا يأباه .

وغيرها، ومملكة تُوران المعروفة بمملكة الترك قديما، وما آشتملت عليه من قسم ماوراء النهر من بخارىٰ وسَمَرْقند ومضافاتهما و بلاد تركستان وما مع ذلك ، وقسم خوارزم ودشت القبجاق المشتمل علىٰ خوارزم والدشت وأعمال السراى و بلاد القرم و بلاد الأزق وما ينضم إلىٰ ذلك من بلاد السرب والبلغار و بلاد الأولاق و بلاد الآص و بلاد الروس وغيرها ، وقسم مابِيَدِ صاحب التخت المعبر عنه (بالقان الكبير) المشتمل علىٰ بلاد الخطا و بلاد الصين، وما آتصل بهاتين المملكتين مما يلى الجنوب من بلاد البحرين ومملكة اليمن وما منها بيد أولاد رسول وما منها بيد إمام الزيدية، وممالك الهند المتصلة ببلاد الصين والواقعة فى جزائر البحر الهندى" .

الفصل الثانى — فى الممالك والبُلْدان الغربية عن مملكة الديار المصرية، من مملكة تونس المشتملة علىٰ بلاد أفريقية، ومملكة تِلِمْسان المشتملة علىٰ بلاد الغرب الأوسط، ومملكة فاس المشتملة علىٰ بلاد الغرب الأقصىٰ إلى البحر المحيط وما إلىٰ ذلك من ممالك جزيرة الأندلس وما بقى منها بيد المسلمين وما آستعاده منها ملوك الكفر.

الفصل الثالث — فى الممالك والبُلْدان الجنوبية عن مملكة الديار المصرية وما آشتملت عليه من بلاد السُّودان من مملكة البرنو ومملكة الكانم ومملكة مالى ومملكة الحبشة، و بيان ما من ذلك بيد ملوك المسلمين وما منه بيد ملوك الكفر .

الفصل الرابع — فى الممالك والبُلْدان الشمالية عن مملكة الديار المصرية مما بيد المسلمين من البلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وما بيد ملوك النصارىٰ من جزائر بحر الروم بجزيرة قبرس و جزيرة رودس و جزيرة أَقْرِيطِش و جزيرة المصطكى و جزيرة صِقِلِّيَّة وغيرها وما إلىٰ ذلك مما شمالى بحر الروم من مملكة القسطنطينية ومملكة البندقية ومملكة جنوه ومملكة رومية ومملكة فرنسة وغير ذلك .

المقـالة الثالثـــة

فى ذكر أمور تشترك فيهـا أنواع المكاتَبَات والوِلَايات وغيرهمـا من ذكر الأسماء والكُنىٰ والألقاب، وكيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعاتِ ونحوها علىٰ كُتَّاب الإنشاء، ومقادير قِطَع الورق وما يناسب كلَّ مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض فى أوّل الدَّرْج وحاشيته وبُعد ما بين السطور فى الكتابات، وبيان المستندات التى يصدر عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها، وكتابة الملخَّصات، وبيان الفواتح والخواتم؛ وفيها أربعة أبواب .

البـاب الأوّل

فى الأسماء والكُنىٰ والألقاب؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى الأسماء والكُنىٰ ومواضع ذكرهما فى المُكاتبات والولايات وما يجرى مَجْراهما .

الفصـــل الثانى — فى ذكر الألقاب وأصْـل وضعها وما آستعمله الكُتَّاب منهـا وما كان يلقّب به أهلُ كل دولة وما حدث من الزيادة بعـد ذلك حتّى صار الأمر إلىٰ ما عليه الحال فى زماننا، والألقاب التى آصطُلِح عليها لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم وما وُضع منها لأهل الكفر، وبيان معنىٰ كل لقب فى اللغة ومَن يقع عليـه فى الآصطلاح، وكيفية ترتيب بعضها علىٰ بعض .

البـاب الثـانى

فى بيان مقادير قِطَع الورق وما يناسب كلَّ مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض الذى يراعيه الكاتب فى كتابته؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى مقادير قِطَع الورق المستعملة بدواوين الإنشاء فى القديم والحديث

الفصـــل الثانى — فى بيان ما يناسب كل مقدار من مقادير قِطَع الورق المتقدّمة الذكر من الأقلام ، ومقادير البيـاض الذى يراعيه الكاتب فى أعلى الدَّرْج وحاشيته وبُعْد ما بين السطور فى الكتابة .

البـاب الثـالث

فى بيان المستندات وكتابة الملخصات، وكيفية التعيين، ومقادير قِطَع الورق وما يناسبها من الأقلام، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى بيـان المستندات التى يصدر عنها كتابة ما يكتب من تلقى كـاتب السر الأمر فى ذلك عن السلطان أو تلقيه وتلق كتّاب الدست بدار العدل، أو شمول القصة بالخط الشريف، أو كونه برسالة الدوادار أو بإشارة النائب الكافل أو إشارة أستاذ الدار أو إشارة الوزير أو بقائمـة من ديوان الخـاص وغيره، وكتابة الملخّصات التى تكتب من الكتب المطوّلات الواردة على الديوان، وترجمة الكتب الواردة بغير العربية إلى العربية .

الفصـــل الثانى — فى بيـان كيفية تعيين صـاحب ديوانـ الإنشاء القصص والمربعات وما فى معناها، وبيان مقادير قطع الورق المستعمل فى دواوين الإنشاء من الكامل والثلثين والنصف والثلث والعادة وما يناسب كل مقدار منها من مختصر الطومار وثقيل الثلث وخفيفه والتوقيعات والرقاع ومقادير البياض المرعيّة فى الكتابة فى أعلى الدَّرْج وحاشيته وبُعْد ما بين السطور .

البـاب الرابع

فى الفواتح والخواتم واللواحق ؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى الفواتح من البسـملة والحمدلة والتصلية والسـلام فى أوّل الكتب والبعديّة التى يقع بها فصل الكلام، وبيان أصول ذلك وأصل مشروعيته.

الفصـــل الثانى — فى الخواتم واللواحق من كتابة إن شـاء الله فى آخر المكتوب وكتابة التـاريخ ومعرفة معنـاه ومعرفة التواريخ القـديمة وأصـل وضع التـاريخ فى الإسلام والتاريخ بالهجرة والوقت الذى يؤرّخ فيه؛ وبيان بناء التاريخ العربىّ على الليالى دونَ الأيام، وآختلاف مذاهب النحاة والكتّاب فى التعبير عن ذلك، وبناء تاريخ العجم على الأيام دون الليـالى، ومعرفة آستخراج كل تاريخ من تواريخ الأمم من الآخر، وكتابة المستند والحمْدلة فى آخر الكتب والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم بعدها، والآختتام بالحَسْبَلة، وبيان مواضع ذلك جميعه من الورق وكيفية وضعه .

المقـالة الرابعة

فى المكاتبـات؛ وفيها بابان

البـاب الأوّل

فى أمور كلية : تتعلق بالمكاتبات؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى مقدّمات المكاتبات من أصـول يعتمدها الكاتب فيهـا من حسن الآفتتاح وبراعة الآستهلال وتقديم مقدّمة تناسب المكتوب فيـه فى أوّل المكاتبة، ومعرفة الفرق بين الألفاظ الجارية فى الخطاب ونحوه فى المكاتبات وما يناسب المكتوب إليه منها، ومواقع الدعاء فيها، والإتيـان لكل مَقْصَد من مقاصد المكاتبات بما يناسبه، ومخاطبة كل أحد من المكتوب اليهم علىٰ قدر طبقته

من اللغة العربية، ومراعاة الفصاحة والبلاغة فى الكتابة إلىٰ مَنْ يتعاناها ، ومراعاة رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه، ومواقع الشعر من المكاتبات وحسن الآختتام وما يجرى مَجْرىٰ ذلك، وبيان مقادير المُكاتَبات وما يناسبها من البَسْط والإيجاز وما يلائمها من المعانى، ومعرفة ما يختص من ذلك بالأجوبة وبيان ترتيبها .

الفصل الثانى — فى بيان أصول المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ومَذَاهب الكُتَّاب فيما تُفْتَتَح به المكاتَبَات فى القديم والحديث، وما يخاطب به أهل الإسلام وأهل الكفر فى المكاتبات، وبيان كيفية طىّ الكتاب وختمه وحمله وتأديته وفضه وقراءته وحفظه فى الإضْبارَة .

الباب الثانى

فى مُصْطَلَح المكاتبات الدائرة بين كُتَّاب الإسلام فى كل زمن من الصدر الأوّل وإلىٰ زماننا، وفيه ثمانية فصول

الفصل الأوّل — فى الكُتُب الصادرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ أهل الإسلام وملوك الكفر، وآختلاف آفتتاحها بحسب المقاصد .

الفصل الثانى — فى الكتب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بنى أمية، وخلفاء بنى العبَّاس، وخلفاء الفاطميين، وخلفاء بنى أمية بالأندلس وبقايا الموحدين بأفريقية : آبتداء وجوابا .

الفصل الثالث — فى الكتب الصادرة عن الملوك ومَنْ فى معناهم مما كُتِب به إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والخُلَفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم ، وخلفاء بنى أميـة، وخلفاء بنى العباس، وخلفاء الفاطِميِّين بالديار المصرية، وخلفاء

بنى أمية بالأندلس، وبقايا الموحدين بأفريقية؛ وما كتب به عن الملوك ومَنْ فى معناهم إلى الملوك ومَنْ فى معناهم من المكاتبات الدائرة بين مُلُوك الديار المصرية ومُلُوك الشرق والغرب، ووُزَراء الخلفاء ومُنَفِّذِى أمرِ الخلافة اللاحقين بشأْو الملوك، وما يَلْتحق بذلك من المكاتبات الصادرة إلىٰ ملوك الكفر وٱختلاف الأفتتاح فى ذلك.

الفصـــل الرابع — فى الكُتُب الصادرة عن ملوك الديار المِصْريَّة علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحالُ من ٱبتداء الدولة التُّركيَّة وإلىٰ زماننا علىٰ رأس الثمانمائة مما أكْثَرُه مأخوذ من ترتيب الدولة الأيُّوبية، التى هى أصل الدولة التركية مما هو صادر عنهم إلىٰ خلفاء بنى العباس، وإلى أهـل المملكة بمصر والشام والحجاز، وإلىٰ عظماء القانات بممالك الشرق كقان مملكة إيران الجامع لحدودها علىٰ ما كان الأمر عليـه إلىٰ آخر أيام أبى سعيد ثم مَنْ بعده ممن يبلغ شَأْوَه من القانات الصِّغار كالشيخ واويس ومَنْ تلاه إلىٰ زماننا، ومَنْ بهذه المملكة من صـغار الملوك والحُكَّام، وقانات مملكة تُوران من صاحب ما وراءَ النهـر من بخارىٰ وسَمَرْقند وما معهما، وصاحب خُوارِزْم والدَّشْت والقانِ الكبير صاحب التخت، وصاحب الهند، وصاحب اليمن وإمام الزيديَّة بها. وملوك بلاد المغرب كصاحب تُونُس، وصاحب تِلِمْسان، وصاحب فاس، وصاحب غَرْناطةَ من الأندُلُس، وملوك بلاد السُّودان كملك البرنو وملك الكانم، وصاحب مالى، وملوك الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الرُّوم من الجهة الشمالية، وملوك الكفر كملك الحبشة من البلاد الجَنُوبية وملك القُسْطنطِينِيَّة وسائر ملوك الفرنج وحُكَّامهم بجزائر الروم وغيرها ممن تقدّم ذكره فى الكلام على المسالك والممالك.

الفصـــل الخامس — فى الكتب الواردة على الأبواب السلطانية بالديار المِصْرية من ملوك الممالك المتقدّمة الذكر وحُكَّامها من أهل الإسلام والكُفْر ممن تَرِدُ مكاتبته علىٰ هذه المملكة.

الفصل السادس — فى المكاتبات الإخوانيَّات ممّا كان عليه مُصطَلَح السلف فمَنْ بعدهم فى كل زمن وما ٱستقرّ عليه الحال فى زماننا .

الفصل السابع — فى مقاصد المكاتَبَات من الأمور الخاصة بالملوك والخُلَفاء . كالكتب بالبِشَارة بولاية الخِلَافة ، والجلوس علىٰ تَخْت السلطنة ، والدَّعاية إلى الدِّين ، والحثّ على الجهاد ، والإخبار عن الفتوحات ، والأمر بلزوم الطاعة ، والتنبيه علىٰ مَوَاسم العبادة ، والمَوَاعظ عند حدوث الآيات السماوِية ، والأوامر والنواهى ، والنَّهْى عن التنازع فى الدين ، والكتب إلىٰ مَنْ نكث العهد أو خلَع الطاعة ، والتضييق علىٰ أهل الجرائم ، والبِشارة بالمواسم ، والأعياد ، ووفاء النيل ، وركوب الميادين ، والعَوْد من الغزو ، والكتب بالتلقيب علىٰ ما كان الأمر عليه فى الزمن المتقدّم ، و بالإحماد والإذمام ، والكتب قرين الإنعام السلطانى من الخيل والجوارح ، وسائر أصناف الإنعام ، والاعتذار عن السلطان فى الهزيمة ونحوها ، والأجوبة عن ذلك ، وما يشترك فيه الملوك ومَنْ عَدَاهم من التهانى كالتهنئة بالوظائف ، وتكرمة السلطان ، وتجدّد الأولاد ، والمساكن ، والعَوْد من الحج ، والقُدُوم من السفر ، والإبْلال من المرض ، ورضا السلطان وغُرّة السنة ، وشهر رمضان ، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى ، والنَّيْروز ، والمهرجان ، والدخول فى دين الإسلام ، والصَّرْف عن الخدمة فى سلامة ؛ ومن التعازى كالتعزية بالأب والأم والولد والقريب والصديق ، والتشوّقات ، والشَّفاعات ، والتهادى ، والٱستزارة ، وٱستماحة الحوائج ، وٱختطاب المودّة ، وخِطْبة التزويج ، والشكر ، والشكوىٰ ، والٱعتذار ، والعتاب ، والمداعبة ، وغير ذلك .

الفصل الثامن — فى معرفة إخفاء مافى الكتب من السرّ إمّا بطريق المترجم ، و إمّا بالكتابة بما يظهر بالمعالجة من عرضه على النار ، أو جعل دواء عليه وما أشبه ذلك .

المقـالة الخـامسة

فى الولايات ، وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

فى بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت ، وفيه ثلاثة فصول

الفصـــل الأوّل — فى بيـان طبقات الوِلايات وما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابتها مما يكتب فى وِلاية الخلافة والسلطنة والوِلايات الصادرة عن الخلفاء والملوك ، وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية والشام والحجاز لأرباب السُّيُوف وأرباب الأقلام وأرباب الوظائف الدِّيوانيَّة والوظائف الدِّينيَّة ، وغير ذلك .

الفصـــل الثانى — فى بيـان ما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة الولايات علىٰ سبيل الإجمال .

الفصـــل الثالث — فى بيان ما يَقَع به التفاوُت فى رُتَب الولايات .

البـاب الثـانى

فى البَيْعات ، وفيـــه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى معنى البَيْعات .

الفصـــل الثانى — فى ذكر تنويع البيعات مما يكتب للخلفاء ، وأصل مشروعيتها ؛ وبيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعيـة ، وما يجب علىٰ الكاتب مراعاته فى كتابة البَيْعة ؛ وبيان صورة ما يكتب فيها ، وآختلاف مذاهب الكُتَّاب فى ذلك ؛ وذكر نسخ من بَيْعات الخلفاء ممـا كان يُكتَب به فى الخلافة العبَّاسـية بالعراق ، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، وخلفاء بنى أمية بالأنْدَلُس وما يلتحق بذلك مما يكتب به لخُلَفاء بنى العباس الآن بالديار المصرية ، وما يكتب من البيعات للملوك علىٰ ما آصطلح عليه كُتَّاب بلاد الغرب والأندَلُس .

البـاب الثـالث

فى العهود، وفيـه فصلان

الفصـل الأوّل — فى معنى العهد .

الفصـل الثانى — فى بيان أنواع العُهُود ممـا يكتب به للخلفاء عن الخلفاء، ومايكتب به للملوك عن الخلفاء، ومايكتب به عن الملوك لوُلَاة العهد بالسلطنة وللملوك المنفردين بصغار البُلْدان ، ومذاهب الكُتَّاب فى ذلك ، وذكر نُسَخ من ذلك جميعه ممـا كتب به ببلاد المشرق والمغرِب والديار المصرية .

البـاب الرابع

فى الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب، من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصـل الأوّل — فيما كان يُكتَب من ذلك عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ، وخلفاء بنى أمية بالشام ، وخلفاء بنى العباس بالعراق ، وخلفاء بنى أمية بالأندَلُس ، وخلفاء الفاطميين بمصر ، ومدّعين الخلافَة من بقايا الموحدين ببلاد المغرب ، ومذاهب كُتَّاب الدُّول فى ذلك .

الفصـل الثانى — فيما يكتب من الولايات عن الملوك لأرباب السُّيُوف والأقلام وغيرهم من مصطلَح كُتَّاب المشرق بعد آنقراض الخلافة العباسية من العراق، ومصطلَح كُتَّاب المغرب والأندلس فى القديم والحديث، ومصطلَح كُتَّاب الديار المصرية فى الدولة الطُّولُونية وماوليها من الدولة الإخشيدية، والدولة الأيُّوبية وماوليها من الدولة التركية، وما آستقرّ عليه الحال فيها الى زماننا، مما يكتب لأرباب السيوف

والأقلام وغيرهم عن الأبواب السلطانيــة بالديار المصرية من التقاليــد والتفاويض والمراسيم والتواقيع على ٱختلاف مرَاتبها .

الفصـــل الثالث — فيما يكتب عن نُوَاب السلطنة بالممالك الشاميَّة لأرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم، وذكر نسخ من ذلك .

المقــالة السادسة

في الوَصَايا الدينية، والمُسامحات، والإطلاقات، والطرخانيات، وتحويل السنين، والتذاكر، وذكر نسخ من ذلك؛ وفيها أربعة أبواب

البــاب الأوّل

في الوَصَايا الدينية؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما لقُدماء الكُتَّاب من ذلك .

الفصـــل الثاني — فيما يكتب من ذلك، في زماننا .

البــاب الثــاني

في المسامحات، والإطلاقات؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما يكتب في المسامحات .

الفصـــل الثاني — فيما يكتب في الإطلاقات .

البـاب الثـالث

في الطرخانيات؛ وفيه فصـــلان

الفصـــل الأوّل — في طرخانيات أرباب السُّيوف .

الفصـــل الثانى — في طرخانيات أرباب الأقلام .

البـاب الرابع

في تحويل السنين، وما يكتب في التوفيق بين السنين القمرية والشمسية، وما يكتب في التذاكر؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — في تحويل السنين والتوفيق بين السنين الشمسية والقمرية .

الفصـــل الثانى — في التذاكـر .

المقـالة السـابعة

في الإقطاعات والمُقاطَعات، وذكر نُسَخ من ذلك؛ وفيها بابان

البـاب الأوّل

في ذكر مقدّمات الإقطاعات؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — في ذكر أمور تتعلق بالإقطاعات : من بيان معناها، وأصل وضعها في الشرع، وأوّل مَنْ وضع ديوان الجَيْش في الإسلام، ومَنْ يستحق إثباتَه في الديوان، وكيفية ترتيبهم فيه .

الفصـــل الثانى — في بيان حُكْم الإقطاع وآنقسامه إلىٰ إقطاع تمليك وآستِغْلال.

البـاب الثـانى

فيما يكتب فى الإقطاعات فى القديم والحديث؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصل ذلك فى الشرع، وبيان ماأقطعه النبيّ صلى الله عليه وسلم من البلاد والأرضين .

الفصـــل الثـانى — فى صورة ما كان يكتب فى الإقطاعات فى الزمن القديم عن خُلَفاء بنى العبَّاس بالعراق، وخُلَفاء الفاطميين بمصر، وعن الملوك القائمين على الخُلَفاء بالعراق، وملوك بنى أيُّوبَ بالديار المصرية، وما يكتب فى الإقطاعات فى زماننا مما استقرّ عليه الحال، ومايكتب فى ذلك من ديوان الجَيْش من المُربَّعات وماهى مترتبة عليه، ومايكتب فى ذلك من ديوان الإنشاء من المَنَاشير، وبيان مراتبها؛ وذكر قطع الورق الذى يكتب فيه؛ ومايكتب فى طُرَر المناشير ومايلتحق بذلك من الطُّغْراوات المشتمِلة على الألقاب السلطانية التى كانت تُلصَق بأعلى المناشير بين الطُّرَّة والبسملة؛ وما يختص من ذلك بالزيادات والتجديدات .

المقـالة الثـامنة

فى الأيمـان؛ وفيهـا بابان

البـاب الأوّل

فى أصول يتعين على الكاتب معرفتُها قبل الخوض فى الأيمـان؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما يقع به القَسَم من الأقسام التى أقسم الله تعالىٰ بها، والأقسام التي يُقسِم بها الخلق من أقسام العرب فى الجاهلية، والأقسام الشرعية التي يحلف بها

الفصل الثانى — فى بيان اليمين الغَمُوس ولَغْو اليمين ، والتحذير من الحِنْث والوقوع فى اليمين الغَمُوس .

الباب الثانى

فى نسخ الأيمان الملوكية، وفيه فصلان

الفصل الأول — فى نسخ الأيمان المتعلقة بالخُلَفاء .

الفصل الثانى — فى الأيمان المتعلقة بالملوك مما يحلف به المسلمون من أهل السُّنَّة وأرباب البِدَع وأهل الملل من اليهود والنصارىٰ، والمجوس وما يحلف به الحُكماء.

المقالة التاسعة

فى عقود الصُّلْح والفُسُوخ الواردة علىٰ ذلك، وفيه خمسة أبواب

الباب الأوّل

فى الأمانات ، وفيه فصلان

الفصل الأوّل — فى عقد الأمان لأهل الكفر .

الفصل الثانى — فى كتابة الأمانات لأهل الإسلام، وذكر أصل ذلك من السُّنَّة، وإيراد نسخٍ من ذلك .

الباب الثانى

فى الدفن ، وفيه فصلان

الفصل الأوّل — فى أصله وكونه مأخوذا عن العرب .

الفصل الثانى — فيما يكتب فى الدفن عن الملوك .

البـاب الثـالث

فيما يكتب فى عقد الذِّمّة وما يتفرّع على ذلك؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى الأصول التى يرْجِع إليها هذا العقد .

الفصـــل الثانى — فى صورة مايكتب فى متعلّقات أهل الذمة، و إلزامهم بالجَرْى علىٰ ما يقتضيه عقدُ الذمة لهم .

البـاب الرابع

فى الهُدَن الواقعة بين ملوك الإسلام، وملوك الكفر؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصول يتعين على الكاتب معرفتها من بيان معنى الهُدْنة وما يرادفُها من الألفاظ، و بيان أصل وضعها فى الشرع، وما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابتها .

الفصـــل الثانى — فى صورة ما يكتب فى المُهَادَنات وآختلاف مذاهب كُتَّاب الشرق والغرب والديار المصرية فى ذلك، وذكر نسخ منها، و بيان ما يكتب من ذلك من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية وما يرِدُ من ذلك مما يكتب عن ملوك الكفر .

البـاب الخامس

فى عُقُود الصلح الواقعة بين مَلِكَيْن مسلمَيْن؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصول تُعتَمد فى ذلك .

الفصـــل الثانى — فيما يُكْتب فى عقد الصلح، وذكر نسخ من ذلك مما كتب به عن الخلفاء والملوك فى القديم والحديث إلىٰ زمانا .

المقالة العاشرة

فى فنونٍ من الكتابة يتداولها الكُتَّاب و يتنافَسُون فى عملها ليس لهـا تعلُّق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ؛ وفيها بابان

الباب الأوّل

فى الِجدِّيات ؛ وفيه ستة فصول

الفصـــل الأوّل — فى المقامات وذكر نُسَخ منها .

الفصـــل الثانى — فى الرسائل : من الرسائل الملوكية المشتملة على الغَزْو والصيد ونحو ذلك ، والرسائل الواردة مورِد المدح ، والرسائل الواردة موردَ الذمّ ، ورسائل المفاخرات بين الأشياء النفيسة : كالمفاخرة بين العلوم والسيف والقلم ونحو ذلك ، والرسائل المشتملة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المكتَتَبة بالحوادث والمـاجَريات وذكر نسخ من ذلك جميعه .

الفصـــل الثـالث — فى قدمات البندق ، وذكر نسخ منه .

الفصـــل الرابع — فى الصَّدَقات الملوكية ، وصَدَقات الأعيان .

الفصـــل الخامس — فيما يُكتَب عن العلماء وأهل الأدب : من الإجازة بالفَتَاوِى وعِراضات الكتب والمرْويَّات ، ومايكتب على الكُتُب المصنَّفة والقصائد من التقريظات ، ومايكتب عن القُضَاة من التقاليد الحُكْمية و إسجالات العدالة والمطلقات وغير ذلك .

الفصـــل السادس — فى العُمُرات التى تكتب للحاجّ .

البـاب الثـانى

في الهَزْلِيَّـات؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما آعتنت الملوك ببعضه .

الفصـــل الثانى — فى سائر أنواع الهَزْل .

الخاتمـــة

في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة؛ وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

فى الكلام على البريد؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى مقدّمات يحتاج الكاتب إلىٰ معرفتها: من معرفة معنى البريد وأوّل مَنْ وضعه فى الجاهلية والإسلام، وبيان مَعَالمه .

الفصـــل الثانى — فى ذكر مراكز البريد بالديار المصرية والبلاد الشَّـامية على آختلاف طُرُقها .

البـاب الثـانى

فى مَطَارات الحَمَام الرسائلىّ، وذكر أبراجها المقرّرة بالديار المصرية والبلاد الشامية؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى ذكر مَطَاراته وآعتنـاء الملوك بشأنه فى القـديم والحديث ومسافات طَيَرانه .

الفصـــل الثانى — فى الأبراج المقرّرة له بالديار المِصرية والبلاد الشّاميّة .

الباب الثالث

فى ذكر مراكب الثلج الواصلِ من البلاد الشامية إلى الملوك بالديار المصرية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فى مراكبه .

الفصل الثانى — فى هُجُنه .

الباب الرابع

فى المَنَاور والمُحْرِقات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فى المناور التى كان يُستعلم بها حركة التتار إلى البلاد الإسلامية .

الفصل الثانى — فى المُحْرِقات التى كان يتوسل بها إلىٰ إحراق زروع التتار ومراعيهم بأطراف بلادهم .

المقـــــــدّمة

فى المبادى التى يجب تقديمها قبل الخوض فى كتابة الإنشاء،

وفيهـا خمســـة أبواب

البـاب الأوّل

فى فضل الـكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حَمْقاهم؛

وفيـــه فصلان

الفصل الأوّل

(فى فضـــل الـكتابة)

أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوىٰ دليل علىٰ رفعة شأنها، أن الله تعالىٰ! نسب تعليمها إلىٰ نفسه، وٱعتدّه من وافر كرمه و إفضاله فقال عز ٱسمه : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ مع مايُروىٰ أن هذه الآية والتى قبلها مفتَتَح الوحى، وأوّل التنزيل علىٰ أشرف نبىّ، وأكرم مرسَل صلى الله عليه وسـلم! وفى ذلك من الأهتمام بشأنها و رفعة محلها مالا خفاء فيه .

ثم بيَّن شرفها بأن وصف بهـا الحَفَظة الكِرام من ملائكته فقال جلَّت قدرته : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـافِظِينَ كِرَامًا كاتِبِينَ ﴾ ولا أعلىٰ رتبةً وأبذخ شرفًا ممـا وصف الله تعالىٰ به ملائكته ونعت به حفَظَته؛ ثم زاد ذلك تأكيدا و وفر محله إجلالا وتعظيما بأن أقسم بالقَـلَم الذى هو آلة الـكتابة وما يُسـطر به فقـال تقدّست عظمته : ﴿ نٓ والقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ما أنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ والإقسام لا يقع منه

سبحانه إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما آخترع : كالشمس والقمر والنجوم ونحوها إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ شرفها ورفعة قدرها .

ثم كان نتيجةُ تفضيلها، وأَثَرة تعظيمها وتبجيلها، أن الشارع نَدَب إلىٰ مقْصدها الأسنىٰ، وحَثّ علىٰ مطلبها الأغنىٰ، فقال صلى الله عليه وسلم : "قَيِّدُوا العِلْمَ بالْكِتَاب" مشيرا إلى الغرض المطلوب منها، وغايتها المُجْتناة من ثمرتها؛ وذلك أن كل ذى صَنْعة لا بدّ له فى معاناتها من مادّة جسمية تظهر فيها الصورة، وآلة تؤدى إلىٰ تصويرها، وغرض ينقطع الفعل عنده، وغاية تُسْتَثْمَر من صنعته .

والكتابة إحدى الصنائع فلا بدّ فيها من الأمور الأربعة .

فمادّتها، الألفاظ التى تخيَّلها الكاتب فى أوهامه، وتصوّر من ضمّ بعضها إلىٰ بعض صورةً باطنة تامة فى نفسه بالقوة؛ والخَطّ الذى يخطه القلم، ويقيد به تلك الصُّوَر . وتصير بعد أن كانت صورةمعقولة باطنة صورةً محسوسة ظاهرة . وآلتها القلم . وغرضها الذى ينقطع الفعل عنده تقييدُ الألفاظ بالرسوم الخطية، فتكمل قوّة النطق وتحصل فائدته للأبْعد كما تحصل للأقرب، وتحفظ صُوَره، ويؤمَن عليه من التغير والتبدّل والضَّياع . وغايتها الشىء المستثمَر منها، وهى آنتظام جمهور المَعاون والمَرافق العظيمة، العائدة فى أحوال الخاصة والعامّة بالفائدة الجسيمة فى أمور الدين والدنيا .

ولما كان التقييد بالكتابة هو المطلوبَ، وقع الحضّ من الشارع عليه، والحث على الاعتناء به تنبيها علىٰ أن الكتابة من تمام الكمال، من حيث إن العمر قصير والوقائعَ متسعة؛ وما ذا عسى أن يحفظه الإنسانُ بقلبه أو يحصِّلَه فى ذهنه .

قال ذو الرمّة لعيسى بن عمر : "أُكْتُبْ شِعرِى فالكتابُ أعجبُ إلىّ من الحفظ إن الأعرابىّ لينسى الكلمة قد سَهِرتُ فى طلبها ليلةً فيضَع موضِعَها كلمة فى وزنها لاتساويها، والكِتاب لاينسىٰ ولا يبدّل كلاما بكلام" .

وقد أطنب السلف فى مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأوًا لمادح حتّى قال سعيد بن العاص: "مَنْ لم يكتبْ فيمينه يُسرى" . وقال مَعْن بن زائدة : "اذا لم تكتب اليد فهى رِجْل". وبالغ مكحول فقال: "لاديةَ ليد لاتكتُب". قال الجاحظ: ولو لم يكن من فضل الكتابة إلا أنه لا يسَجِّل نبىّ سِجِلًّا ولا خليفة مرضىّ ولا يقرأ كتاب علىٰ منبر من منابر الدنيا إلا اذا ٱستُفْتح بذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وذكر الخليفة ثم يذكر الكتاب كما هو مشهور فى السجلات التى سجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نَجْرانَ وغيرهم وأكثرها بخط أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه فى شرفه ونبله وسابقته ونجدته .

ومن ثم قال المؤيد : "الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة، إليها ينتهى الفضل، وعندها تقف الرغبة" .

ومن كلام أبى جعفر "الفضل بن أحمد" فى جملة رسالة "الكتابة أُسُّ المُلك، وعماد المملكة، وأغصانٌ متفرّقة من شجرة واحدة. والكتابة قُطْب الأدب، ومِلاك الحكمة، ولسان ناطقٌ بالفصل، وميزان يدل علىٰ رَجَاحة العقل . والكتابة نور العلم، وفِدَامة[(١)] العقول ومَيْدان الفضل والعدل . والكتابة حِلْية وزينة ولَبُوس وجمال وهَيْبة ورُوحٌ جارية فى أقسام متفرّقة، والكتابة أفضل درجةً وأرفع منزلة، ومَنْ جهل حق الكتابة فقد وُسِم بوسم الغُواة الجَهَلة، وبالكتابة والكُتّاب قامت السياسة والرياسة، ولو أن فضلا ونُبْلا تصوّرا جميعا تصوّرت الكتابة، ولو أن فى الصناعات صناعةً مربُوبة لكانت الكتابة رَبًّا لكل صنعة .

قال صاحب موادّ البيان : ومن المعلوم أنّ جميع الصنائع وسائلُ إلىٰ دَرْك المطالب ونَيْل الرغائب، وأن عوائدها متفاضلة فى الكثرة والقلة بحسب تفاضلها فى الرِّفعة

(١) من معاني الفدامة المصفاة وهي مناسبة هنا .

والضَّـعَة، اذا كانــ منها ما لا يفى بالبُلْغة من قِوَام العيش : نحو الصنائع المَهِينة السُّوقِيَّــة الداخلة فى المرافق العامية، ومنها ما يوصل إلى الثروة ويجاوز حدّ الكفاية ويُحظى بالمــال والنِّعم الخطيرة وهى الصنائع الخاصَّة، و إذا تُؤمِّل ما هذه صفته منها عُلِم أنه ليس منها ما يلحق بصناعة الكتابة ولا يساويها فى هذا النوع، ولا ما يُكْسب ما تُكْسِبه من الفوائد والمَعَاون مع حصول الرَّفاهِيَــة والتنزه عن دَناءة المكاسب ولا ما يوصل إليه من الحظوية ورَفاهِيَة العيش ومشاركة الملوك فى ٱقتناء المساكن الفسيحة، والملابس الرفيعة، والمراكب النبيلة، والدوابّ النفيسة، والخَدَم المستحسَنة وغير ذلك من آلات المروءة والأدوات الملوكيــة فى أقرب المُدَد وأقلّ الأزمنــة ؛ وناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشرفها وٱرتفاع خَطَرها وسموّ قَدْرها اذ كان لها سَعة لمثل هذه الجدوىٰ التى لا يوجد مثلها فى غيرها من الصنائع .

وكفىٰ بالكتابة شرفا أنّ صــاحب الســيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمــه الكاتب فى سيفه .

قال فى موادّ البيــان : "ومن ثَمَّ صار السلطان الذى هو رئيسُ الناس ومستخْدِم أرباب كلّ صــناعة ومُصَرِّفهم علىٰ أغراضه يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلةً له مع ترفُّعه عن التلبُّس بصناعة من الصنائع الحسنة، وأَنَفته أن يقع اسمٌ من أسمائها عليه" قال : وذلك أنا نرىٰ كل ملك وسلطان يُؤْثِر أن يكونَ له حظ من بلاغة العِبارة وجَوْدة الخط، وفى ذلك ما يدل علىٰ أنها أشرف الصنائع رتبةً وأعلاها درجة، وأن المشاركين للسلطان فيها ممن تكتنفه سياسته أفضلُ من سائر المتحلّين بغيرها من الصنائع الأُخَر فقد عُلِم أن الصنائع كلَّها مَعاوِن ومَرافق، لا تنتظم عِمَارة العالم إلا بتضافُرها ومُرافَدة بعضها لبعض . و إنها علىٰ ضربين : خاصية وعامية، فالعاميَّة صنائع المِهْنة وأهل الأسواق والحِرَف و إن شاركهم الخاصَّــة فى الحاجة إليها لأنّ بها تنتظم أمورُ المعاملات وتعمُر

البلاد، والخاصيَّة التى تقع فى حيِّز الملوك والسلاطين، و يتوزعها أعوانُهم وأتْباعهم؛ وهذه الصنائع إنما يقع التميز بين أقدارها بالنظر إلىٰ مقدار عائدتها فى أمور المُلك والسلطان والرعية مما كان معلَّقا بالأمر الأهم، وكانت الحاجة إليه ألزم، وقدر المنفعة به أجسم، والفساد العائد بوقوع خَلَل فيه علىٰ أسباب المملكة أعظم، ومرتبته فى الصنائع الخاصة أشرف وألطف .

وليس من الصنائع صناعةٌ تجمع هذه الفضائل إلا صناعة الكتابة، وذلك لأن الملك يحتاج فى آنتظام أمور سلطانه إلىٰ ثلاثة أشياء لا ينتظم ملكه مع وقوع خلل فيها .

أحدها رسم ما يجب أن يُرْسَم لكلٍّ من العمال والمكاتِبِين عن السلطان ومخاطبتهم بما تقتضيه السياسة من أمر ونهى، وترغيب، ووعد ووعيد، و إحماد و إذمام .

والثانى آستخراج الأموال من وجوهها . وآستيفاء الحقوق السلطانية فيها .

والثالث تفريقها فى مستحقها من أعوان الدولة وأوليائها الذين يحمُون حَوْزَتها، ويسدُّون ثُغورها و يحفظون أطرافها، ويذُبُّون عنها وعن رعاياها، وغير ذلك من وجوه النفقات الخاصة والعامة ؛ ومعلوم أن هذه الأعمال لا يقوم بها إلا كُتَّاب السلطان ولا سبيل للكُتَّاب إلى الكتابة فيها إلا بالتدبر فى صناعة الكتابة، فهى إذَنْ من أشرف الصنائع لعظيم عائدتها على السلطان ودولته . قال الجاحظ : "من أبْيَن فضلها أن جُعِلت فى عِلْية الناس" قال صاحب موادّ البيان : "وقد عُرِف أن الذين وضعوها وآبتدعُوها ورسموا رسومَها هم الأنبياء عليهم السلام" .

وقد ذكر علماء التاريخ : أن يوسفَ عليه السلام كان يكتُب للعزيز، وهارونَ ويوشعَ بن نون كانا يكتبانِ لموسىٰ عليه السلام، وسليمانَ بن داود كان يكتب لأبيه، وآصفَ بن برخيا و يوسف بن عنقا كانا يكتبان لسليمان عليه السلام، و يحيىٰ بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام .

وقد آنتقل جماعة منها إلى الخلافة . فأبو بكر كان يكتب لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد ذلك . وعمـر بن الخطاب كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسـلم ثم صارت الخلافة إليه . وعثمان بن عفان كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب لأبي بكر بعده ثم صارت الخلافة إليه . ومعاوية كان يكتب للنبي صـلى الله عليه وسـلم ثم صارت الخلافة إليـه بعد الحسن . ومروان بن الحكم كان يكتب لعثمان بن عفّان ثم صـار الأمر إليه فيما بعـدُ وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية بن أبي سفيان ثم انتقل الأمر إليه . إلىٰ غير هؤلاء من أهل هذه الصـنعة ممن فَرَع الذِّروة العلية من السيادة ، والسَّنام الباذخ من الرياسة ، علىٰ تغير الدُّول وتنقلها بين العرب والعجم ؛ وفي ذلك ما يدل علىٰ علو خَطَرها ، وآرتفاع قدرها .

قال صاحب العقد وقد تنبَّه قوم بالكتابة بعدَ الخُمُول ، وصاروا الى الرتب العلية ، والمنازل السنية . منهم سرجون بن منصور الرومي كان روميًّا خاملا فرفَعته الكتَّابة وكتب لمعـاوية ويزيدَ بن معاوية ومَرْوانَ بن الحكم وعبد الملك بن مَرْوانَ . ومنهم حَسَّانُ النَّبَطيّ كاتب الحجاج ، وسالمٌ مولىٰ هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الأكبر ، وعبدالصمد ، وجَبَلَة بن عبدالرحمن ، وقَحْذم جدّ الحجاج (١) بن هشام القَحْذَميّ ، وهو الذى قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية ، والربيعُ ، والفضلُ بن الربيع ، ويعقوب بن داود ، ويحيىٰ بن خالد ، وجعفر بن يحيىٰ ، وآبن المقفَّع ، والفضل بن سهل ، وجعفر بن الأشعث ، وأحمد بن يوسف ، وآبن عبدالسلام الجُنْدَيْسابوريّ ، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات ، والحسنُ بن وهب ، وإبراهيم بن العباس ،

(١) في العقد الفريد جدّ الوليد بن هشام .

ونجاح بن سلمة، وأحمد بن عبد العزيز، وزاد صاحب الريحان والريعان (١) : مروان ابن الحكم، وعبدَ الملك بنَ مروان . قلت : وهؤلاء بعض من شرفته الكتابة ورفعت قدره . ولو آعتبر من شُرف بالكتابة وارتفع قدرُه بها لفاتوا الحصر وخرجوا عن الحدّ . وهذا الوزير المهلبيّ كان فى أوّل أمره فى شدّة عظيمة من الفقر والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقى فى سفره ضِيقةً حتّى اشتهى اللحم ولم يقدر عليه فقال آرتجالا :

أَلَا مَوْت يُبَاع فأشْتَرِيه ! * فهذا العَيْشُ ما لا خَيْرَ فيه !
أَلَا موتٌ لذيذُ الطَّعْم يأتِى * يُخَلِّصُنِى من المَوْتِ الكريهِ !
أَلَا رحِمَ المُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ * تصدّق بالوفَاةِ علىٰ أخيه !

وكان معه رفيق له فاشترىٰ لحما وأطعمه . ثم ترقّى بالكتابة حتّى وُزِّر لمعزّ الدولة آبن بويه الديلمىّ فى جلالة قدره . وهذا القاضى الفاضل أصله من بَيْسان من غير بيت الوزارة رفعتْه الكتابة حتّى وُزِّر للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعلَتْ رتبته عنده حتّى بلغ من رتبته لديه أنْ كان يكتب فى كتب السلطان صلاح الدين عن نفسه بما أحب، فكتب مرةً السلام على الملك العزيز آبن السلطان صلاح الدين فى كتاب عن أبيه، ثم كتب شعرا منه .

وغريبـةٍ قد جِئْتُ فيهـا أوّلًا * ومَنِ اقْتَفَاها كان بَعْدِى الثانِى
فرَسُولِىَ السُّلْطانُ فى إرسالها * والنـاسُ رُسْلُهُم إلى السُّلْطان

وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابى صاحب الرسائل المشهورة، كان علىٰ دين الصابئة مشدّدا فى دينه ، وبلغَتْ به الكتابة إلىٰ أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع

(١) أى فيمن نُبِهوا بالكتابة . وأما عدّهما السابق ففى المكتوب لهم .

والمطيع وعز الدولة بن بويه : وجَهَد فيه عز الدولة أن يسلم فلم يقعْ له ؛ ولمـا مات رثاه الشريف الرضيّ بقصيدة فلامه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا ، فقال : انمـا رثيت فضله .

قال فى موادّ البيان : "ولا عبرة بمَنْ قعد به الجَدُّ ، وتخلَّف عنه الحَظُّ من أهل هذه الصناعة ؛ إذ العبرة بالأكثر لا بالقليل النادر . علىٰ أن المبرِّز فى هذه الصناعة إن قعدتْ به الأيام فى حالٍ فلا بد أن يُرْفَع قدرُه فى أخرىٰ : لأنَّ دَوْلة الفاضل من الواجبات ، ودَوْلة الجـاهل من الممكنات ؛ خصوصا إذا صادف الكاتبُ الفاضلُ ملكا فاضلاً أو رئيسـا كاملاً ، فإنه يوفيه حقه و يرقِّيه إلىٰ حيثُ آستحقاقُه . فمن كلام بعض الحكماء : تَسْقُط الحظوظ فى دولة الملك الفاضل فلا يتسنَّم الرتبة العليَّة إلا مستوجبُها بالفضيلة .

و بالجملة ففَضْل الكتابة أكثر من أن يُحصىٰ وأجلُّ من أن يُستقصىٰ ؛ وانما حرِّمت الكتابة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ! ردّا على الملحدين حيثُ نسبوه إلى الآقتباس من كتب المتقدّمين كما أخبر تعالىٰ بقوله ﴿ وقالُوا أساطِيرُ الأوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِى تُمْلىٰ عليه بُكْرَةً وأَصِيلًا ﴾ وأكد ذلك بقوله ﴿ وما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ المُبطِلُونَ ﴾ .

وقد كان ، صلى الله عليه وسـلم ! يأتى من القِصَص والأخبار المـاضية منْ غير مُدارسـة ولا نظر فى كتاب بمـا لا يعلمه إلا نبيٌّ ، كما رُوِى أن قريشا بمكة وَجَّهت الى اليهود : أنْ عرِّفونا شيئاً نسأله عنه ؛ فبعثوا إليهم أن سَلُوه عن أنْبياءَ أخذوا أحدَهم فرمَوْه فى بئر و باعُوه ، فسألوه فنزلت سورة يوسف جملةً واحدة بمـا عندهم فى التوراة وزيادة .

قال العتبي : "الأُمِّيَّة فى رسول الله، صلى الله عليه وسلم! فضيلةٌ وفى غيره نَقِيصة لأن الله تعالى لم يعلِّمه الكتابة لتمكُّن الإنسان بها من الحيلة فى تأليف الكلام، وآستنباط المعانى فيتوسل الكُفَّار إلىٰ أن يقولوا آقتدر بها علىٰ ما جاء به".

قال صاحب موادّ البيان: "وذلك أنّ الإنسان يتوصل بها إلىٰ تأليف الكلام المنثور وإخراجه فى الصُّوَر التى تأخذ بمجامع القلوب؛ فكان عدم علمه بها من أقوى الحجج علىٰ تكذيب معانِدِيه، وحسم أسباب الشك فيه".

وقد حكىٰ أبو جعفر النحَّاس : أن المأمون قال لأبى العلاء المِنْقَرِىّ "بلغنى أنك أُمِّىٌّ، وأنك لاتقيم الشعر، وأنك تَلْحَن فى كلامك" فقال: "ياأمير المؤمنين ! أما اللحن فربَّما سبقنِي لسانى بالشىء منه؛ وأما الأمية وكَسْر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمِّيًّا وكان لايُنْشِد الشعر". فقال له المأمون: "سألتك عن ثلاثة عُيُوب فيك فزِدْتنى رابعا وهو الجهل، ياجاهلُ! ذلك فى النبى، صلى الله عليه وسلم! فضيلة وفيك وفى أمثالك نَقِيصة".

قال الحافظ : "وكلام أبى العلاء المنقرىّ هذا مِنْ أوابِد ماتكلَّم به الجُهَّال". علىٰ أن أصحابنا الشافعية رحمهم الله قد حكَوْا وجهيْن فى أنه صلى الله عليه وسلم هل كان يَعْلم الكتابة أم لا وصححوا أنه لم يكن يعلمها معجزةً فى حقه كما تقدّم .

قال أبو الوليد الباجى من المالكية: "ولو كتب، صلى الله عليه وسلم! لكان مُعْجِزة لخَرْق العادة . قال : وليست بأوّل مُعْجِزاته صلى الله عليه وسلم !" .

وإذا كانت الكتابةُ من بين سائر الصِّناعات بهذه الرتبةِ الشريفة والذِّروة المُنِيفة، كان الكُتَّاب كذلك من بين سائر الناس. قال الزبير بن بَكَّار : "الكُتَّاب ملوك وسائر الناس سُوقةٌ". وقال آبن المقفَّع : "الملوك أحوج إلى الكُتَّاب من الكتاب إلى الملوك". ومن كلام المؤيد "كُتَّاب الملوك عيونُهم المبصرةُ، وآذانُهم الواعية، وألسنتهم الناطقة".

وكانت ملوك الفرس تقول: "الكُتَّاب نِظام الأُمور، وجَمَال المُلْك، وبَهَاءالسلطان وخُزّان أمواله، والأُمَناء علىٰ رعيته وبلاده وهم أولى الناس بالحِباء والكرامة، وأحقُّهم بمحبة السلام".

ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد "للكُتّاب أقرّت الملوك بالفاقة والحاجة، وإليهم أُلْقِيت الأعِنّة والأزِمّة، وبهم ٱعتصَمُوا فى النـازلة والنَّكْبة، وعليهم اتّكلوا فى الأهل والولد والذخائر والعَقْد ووُلاة العَهْد وتدبير المُلْك وقِرَاع الأعداء، وتوفير الفيء، وحِياطة الحريم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب، ونظم الحروب".

قال فى موادّ البيان: "وما من أحد يتوسّل إلى السلاطين بالأدب، ويمُتُّ إليهم من العلم بسبب، إلا وهو باقلّه لاينوَّل ماينوّلُه الا علىٰ وجه الإرفاق، خلا الكاتبَ فإنه يُنَوّل الرغائب العظيمة من طريق الٱستحقاق، لموضع الٱفتقار إليه والحاجة، ومن المعلوم أنه لا بدّ من واسطة تقوم بين الملوك والرعية لبُعْد مابين الطبقتين: العُلْيا والدُّنْيا، وليس من طبقات الناس من يُساهِم الملوكَ فى جَلَالة القدر وعظِيم الخَطَر، ويُشارك العامّة فى التواضع والٱقتصاد سوى الكُتّاب فاحتيج إليهـم للسِّفارة فى مصالح الرعيّة عند السلاطين، وٱستيفاء حقوق السلاطين من الرعية والتلطف فى الصلة بينهما". قال: "ولعلم الملوك بخَطَر هذه الصناعة وأهلها وعائدتها فى أمور السلطان صرَفوا العِنـاية إلى الكَتَبــة وخَصُّوهم بالحُظْوة وعرَّفوا لهم فَضْــل ما جمعوه من الرأى والصــناعة، وكانت ملوك الفُرْس لرفعة رتبــة الكتابة عنـدهم تجمع أحداثَ الكُتّاب ونواشــئهم المعترضين لأعمــال الملك و يأمرون رؤساء الكتابة بامتحانهم فمن رُضى أُقرّ بالبــاب ليستعان به، ثم يأمر الملك بضمهم إلى العُمَّال، وٱستعمالهم فى الأعمــال، وينقّلهم فى الخِــدَم علىٰ قدر طبقاتهــم من حال إلىٰ حال حتّى ينتهىَ بكل واحد منهــم الىٰ

ما يستحقه من المنزلة ، ثم لا يُمَكَّن أحد ممن عُرِض ٱسمه على الملك من الخدمة عند أحد إلا باذن الملك .

وفى عهد سابورَ — "وليكن كاتبُك مقبولَ القول عندك ، رفيع المنزلة لديك ، يمنعه مكانُه منك وما يُظَنّ به من لطافة موضعه عندك من الضَّراعة لأحد والمُداهنَة له ، ليحمله ما أوْليته من الإحسان علىٰ محض النصيحة لك ، ومنابَذَة من أراد عيبك وٱنتقاصَ حقك" . ولم يكن يركبُ الهماليج فى أيامهم إلا الملكُ والكاتبُ والقاضى .

قلت : ولشرف الكتابة وفضْل الكُتَّاب صرف كثيرٌ من أهل البلاغة عنايتَهم إلىٰ وَضْع رسائل فى المفاخَرَة بين السيف والقلم ، إشارةً إلىٰ أن بهما قِوامَ الملك وترتيبَ السلطنة ، بل ربما فضل القلمُ على السيف ورُجِّح عليه بضروب من وجوه الترجيح كما قال بعضهم مفضلا للقلم بقَسَم الله تعالىٰ به :

إنِ ٱفْتَخَر الأبطالُ يوماً بسَيْفِهم * وعَدُّوه مما يُكْسِب المَجْدَ والكَرَمْ
كَفىٰ قَلَمَ الكُتَّاب عِزًّا ورِفْعةً * مَدَى الدَّهْرِ أَنّ اللهَ أقسَمَ بالقَلَمْ

وكما قال ٱبن الرومى :

إن يخدُمِ القلمُ السيفَ الذى خَضَعَتْ * لهُ الرِّقابُ ودانَتْ خَوْفَه الأُمَمُ
فالموتُ ، والمَوْتُ لا شىءٌ يغالبُهُ ، * ما زَالَ يتبَعُ ما يَجْرى به القَلَمُ
كذا قضى اللهُ للأقلام مُذْ بُرِيَتْ * أنّ السُّيوفَ لها مُذْ أُرهِفَتْ خَدَمُ

والمعنىٰ فى ذلك أنها تؤثر فى إرهاب العدوّ علىٰ بُعْدٍ والسيوف لا تؤثر إلا عن قُرْب مع ما فُضِّل به القلم من زيادة الجَدْوىٰ والكَرَم ، وإلىٰ ذلك يشير بعضهم بقوله مشيرا للقلم

فَلَكَمْ يَفُلُّ الجيشَ ، وهو عَرَمْرَمٌ ، * والبِيضُ ما سُلَّتْ مِنَ الأغْمادِ
وَهَبَتْ له الآجامُ حين نَشَا بها * كرمَ السُّيول وَصَوْلةَ الآسادِ

الفصل الثـانى

(فى مَدْح فضلاء الكُتَّاب وذمِّ حَمْقاهم)

أما فُضَلاء الكتّاب فلم يزل الشعراء يَلْهَجون بمدح أشراف الكُتَّاب وتقريظهم ويتغالَوْن فى وصف بلاغاتهم وحُسْن خطوطهم . فمن أحسن مامُدِح به كاتب قولُ ابن المعتز :

إذا أخَذَ القِرْطاسَ خلْتَ يمينَهُ * تُفَتِّح نَوْرا أو تُنَظِّم جَوْهَرا

وقول الآخر :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ المَنْثُورَ مَنْطِقُه * ويَنْظِمُ الدُّرّ بالأقلام فى الكُتُب

وقول الآخر :

وكَاتب يَرْقُم فى طِرْسِه * رَوْضًا بِه تَرْتَعُ ألْحاظُهُ
فالدُّرُّ ما تَنْظِم أقلامُه * والسِّحْر ما تَنْثُرُ ألفاظُه

وقول الآخر :

إنْ هزَّ أقلامَهُ يَوْمًا لِيُعْمِلَها * أنْساكَ كُلَّ كَمِيٍّ هَزَّ عامِلَه
وإنْ أقَرَّ علىٰ رَقٍّ أنامِلَهُ * أقَرَّ بالرِّقِّ كُتَّابُ الأنَامِ لَهُ

وقول الآخر :

لا يُخْطِر الفِكْر فى كتَابَتِه * كأنّ أقلامَهُ لَهَا خاطِرُ
القَوْلُ والفِعْلُ يَجْرِيَانِ مَعًا * لا أوّلٌ فِيهِمَا ولا آخِر

وقول الآخر :

وشادنٍ من بَنِى الكُتَّابِ مُقْتَدِرٍ * على البَلَاغة أحْلَى الناس إنشاءَ
فَلا يُجارِيهِ فى مَيْدانِهِ أحَدٌ * يُرِيكَ سَحْبانَ فى الإنْشاءِ إنْ شاءَ

وكذلك أُولِعُوا بذمّ حَمْقَ الكُتّاب ولَهِجُوا بهَجْوهم فى كل زمن .

فمن ذلك قول بعض المتقدّمين يهجُو كاتبًا :

حمارٌ فى الكِتَابةِ يدَّعِيها * كدَعْوىٰ آلِ حَرْبٍ فى زِيَادِ
فدَعْ عنْكَ الكِتَابَةَ لَسْتَ منها ! * ولو غَرِقتْ ثِيابُك فى المِدَاد

وقول الآخر :

وكاتبٍ كُتبْه تُذَكِّرنِى الـ * قُرءانَ حتّى أظلّ فى عَجَبِ
فاللَّفْظ "قالوا قُلُوبنا غُلُفٌ" . * والخَطُّ "تَبَّتْ يدَا أبِى لَهَب"

وقول الآخر :

يَعِى غيْرَ ما قُلْنا ويَكْتُبُ غيْرَ مَا * يَعيهِ ويَقْرَا غيْرَ ما هو كاتبُ

وقول الآخر :

وكاتبٍ أقلامُهُ * مُعَوّداتٌ بالغَلَطْ
يَكْشِطُ مايَكْتُبُهُ * ثم يُعِيدُ ما كَشَطْ

وقول ابن أبى العَيْناء يهجو أسد بن جَهْور الكاتب .

أو ما ترىٰ أسَدَ بنَ جهورَ قد غَدَا * مُتَشَبِّهًا بأجِلَّةِ الكُتّابِ؟
لكِنْ يُخَرِّقُ ألْفَ طُومارٍ إذا * ما احْتِيجَ منه إلىٰ جوابِ كِتَابِ

وقد أكثر الناس من الحكايات المضحكة عن هذا النوع من الكُتّاب مما صاروا به هزؤا علىٰ ممرّ الزمان وتعاقب الأيام . كما حكى عن محمد بن يحيى الكاتب أنه قرأ علىٰ بعض الخُلَفاء كتابا يذكر فيه حاضرطى" فصحَّفه حاضرطى فسخر منه أهل المجلس .

ويروىٰ إن كُتّاب الدواوين ألزموا بعضَ العمال مالًا مخرجًا عليه فبعث بحسابه إلىٰ عبيد الله بن سليمان فوقَّع عليه "هذا هذا" وردّ الحساب إلىٰ العامل فقدّر العاملُ

بضَعْف آدابه أنه صحَّح حجتــه وقَبِل الحساب منــه كما يقال فى تثبُّت الشيء هو هو وأخرج التوقيع إلى الكُتَّاب وناظرهم علىٰ أنّ ذلك يوجب إزالة المـال الذى لزمه عنه فلم يفهم أحد منهم ما أراد عبيد الله بن سليمان فرُدّ التوقيع إلىٰ عبيد الله فلم يزده فى الجواب علىٰ أن شدّد الكلمة الأخيرة ووقَّع تحتها "الله المستعان" إعلامًا له أن لفظ هذّا بالتشديد بمعنى الهذيان .

وحكى العبَّاس بن أســد : أن أبا الحسن علىَّ بن عيسىٰ كتب إلىٰ أبى الطيب أحمد بن عيسىٰ كتابًا من مكة(١) فقرأه ثم رمىٰ به إلىّ فقال : اقرأ . فقرأت : كتابى إليك يوم القُرّ، بالرفع . فقال : ما معنَى يوم القُرّ؟ فقلت : القُرّ البرد فقال : انمـا هو يوم القَرّ بالفتح، حين يَقِرّ الناس بمِنًى، وهو اليوم الثانى من النحر . ومثل ذلك كثير .

قال صاحب نهـاية الأرب : "وقد اتَّسع الخَرْق فى ذلك ودخل فى الكتابة مَنْ لايعرِفها البتَّة، وزادوا عن الإحصاء، حتّى إن فيهم مَنْ لا يفرق بين الضاد والطاء . قال : ولقد بلغنى عن بعض مَنْ أدخل نفسه فى الكتابة وتوسَّل إلىٰ أنْ كتب فى ديوان الرسائل : أنه رُسِم له بكتاب يكتُبه فى حقِّ رجل اسمه طرنطاى فقال لكاتب إلىٰ جانبه طرنطاى يكتب بالساقط أو بالقائم . قال : وصار الآنَ حدّ الكاتب عند هؤلاء الجُهَّال أنه يكتب على المجوِّد مدّة ويُتْقن بزعمه أسطرا فاذا رأىٰ من نفسه أنّ خطه قد جاد أدنىٰ جودة أصــلح بِزّته ، وركب بِرْذَوْنه أو بغلتــه ، وسعىٰ فى الدخول إلىٰ ديوان الإنشاء والانضمام إلىٰ أهله ؛ ولعل الكتابة انمـا يحصل ذمّها بسبب هؤلاء وأمثالهم . ولله درّ القائل!

تَعِس الزمانُ ! فقدْ أتىٰ بعُجَابِ(٢) * ومحـا فُنُون الفَضْل والآداب
وأتىٰ بكُتَّابٍ لو انْبسَطَتْ يَدِى * فِيهِـــمْ رَدَدْتُهُمْ إلى الكُتَّابِ"

(١) فى ضوء الصبح (من منى) .

(٢) فى الأصل بعجائب وقد اخترنا رواية الضوء .

قلت : وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل فى صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفىٰ لآستيلاء الأعاجم على الأمر، وتوسيد الأمر لمن لا يفرّق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها، حتىّٰ صار الفصيح لديهم أعجم(١)، والبليغ فى مخاطبتهم أبكم؛ ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وصِناعَتِي عَرَبِيَّةٌ وكأنَّنِي * ألْقىٰ بأكثرِ ما أقُولُ الرُّوما
فلِمَنْ أقُولُ؟ وما أقُولُ؟ وأيْنَ لى؟ * فأسيرَ، لا بل أيْنَ لى فأُقيما؟

وقد حكىٰ أبو جعفر النحاسُ عن بعضهم أنه قال : حضرت مجلس رجل فأجمتُ عن مسألة حاجتى لكثرة جَمْعه، فرأيته وقد أملىٰ علىٰ كاتبه "ولم أكتب بخطّى إليك خوفا من أن تقِف علىٰ رداوته" فكتب كاتبه "رداءته" علىٰ ما يجب فقال: أما تُحْسِن الهجاء ؟ أين الواو ؟ فأثبتها الكاتب فخسّ حينئذ فى عينى، فآجترأت عليه فدنوت منه وسألته حاجتى .

وحكىٰ صاحب ذخيرة الكُتّاب عن بعض الوزراء : أنه تقدّم إلىٰ كاتبه بأن يكتب ألقاب أمير ليثبتها علىٰ بُرْج أنشأه فكتب "أمر بعمارة هذا البُرْج أبو فلان فلان" وآستوفىٰ ألقابه إلىٰ آخرها، ودفع المثال إلى الوزير ليقف عليه فلما قرأه غضب حتّٰى ظهر الغضب فى وجهه ، وأنكر على الكاتب كونه كتب أبو فلان بالواو ولم يكتب أبى فلان بالياء محتجًّا عليه بأن أبو من ألفاظ العامة فلا تعظيم بها . فقال الكاتب : إن الحال آقتضتْ رفعَه من حيث إنه فى هذا الموضع فاعل؛ فزاد إنكاره عليه وقال : متىٰ رأيت الأمير فاعلا فى هذا الموضع يحمل الطين وينقل الحجارة علىٰ رأسه حتّٰى تنسبه إلىٰ هذا ؟ والله لولا سالفُ خدمتك لفعلت بك ! .

(١) فى الأصل أعجما . . . أبكما .

قال ٱبن حاجب النعان : ولمَّـا كان أرباب الأمور وولاتُها من الخلفاء فمَنْ دونهم يَنْقُدون مايكتب به الكُتَّاب عنهم وما يرد عليهم من الكُتُب ، ويناقشون على ما يقع فيها من خطإ أو يدخُلُها من خلل ، ويقدّمون الفاضل ويرفعون درجته ، ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته ، كان الكتّاب حينئذ يتبارَوْن على ٱقتناء الفضيلة . ويترفّعون عن أن يعلَق بهم من الجهل أدنىٰ رذيلة . ويَجْهَدون فى معرفة ما يحسِّن ألفاظهم ، ويزين مكاتباتهم ، لينالوا بذلك أرفع رتبة ، ويفوزوا بأعظم منزلة .

ولمـا ٱنعكست القضـية فى تقديم من غَلِط بهم الزمان . وغفل عنهم الحِدْثان . وٱستولَتْ عليهم شِرّة الجهْل . ونفرت منهم أوانس الرياسة والفضْل . وصار العالم لديهم حَشَفا ، والأديب مُحارَفا ، والمعرفة مَنْكرة ، والفضيلة مَنْقَصة ، والصمت لُكْنه ، والفصاحة هُجْنة ، ٱجتُنِبت الآداب ٱجتناب المحارم ، وهُجرت العلوم هَجْر كبائر المآثم .

ولو أنصف أحد هؤلاء الجُهَّال ، لكان بالحَشَف أولىٰ ، وبالحُرْفَة والمَنْقصة أجدر وأحرىٰ ، لكنه جهل الواجبات وأضاعها (١) . وسَـفِه حقَّ المرُوءة وأفسـد أوضاعها ويوصف بالحىّ الناطق ، والصامتُ أرجى منه عند أهل النظر وذوى الحقائق .

البـاب الثـانى

من المقدّمة

فى ذكر مدلول الكتابة لغة وٱصطلاحا ، وبيان معنى الإنشاء وإضافة الكتابة إليه ؛ ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان ، والتعبير عنها بصناعة الترسل ؛ وتفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائر أنواع الكتابة وترجيح النثر على الشعر ؛ وفيه ثلاثة فصول .

---

(١) فى الأصل وأوضاعها بواو زائدة وهى من زيادة الناسخ كما هو ظاهر .

الفصـــل الأوّل

فى ذكر مدلولها وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه ومرادفة التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسل

الكتابة فى اللغة مصدر كتب يقال كتب يكتُب كَتْبا وكتابًا وكِتابةً ومَكْتَبة وكِتْبة فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تكتَّبت القومُ إذا اجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل كَتِيبة، وكَتَبْت البغلة إذا جمعتَ بين شُفْريها بحَلْقة أو سَيْر ونحوه، ومن ثَمَّ سمّى الخَطُّ كتابة لجمع الحروف بعضها إلىٰ بعض كما سمّى خَرْز القربة كتابةً لضمّ بعض الخُرَز إلىٰ بعض . قال ابن الأعرابى: وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالىٰ ﴿أم عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبونَ﴾ أى يعلمون . وعلىٰ حدّ ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه لأهل اليمن حينَ بعث إليهم معاذا وغيره "إنِّى بَعَثْتُ إليْكُم كاتبًا" . قال ابن الأثير فى غريب الحديث "أراد عالمـا سُمِّى بذلك لأن الغالب علىٰ مَنْ كان يعلم الكتابة أن عنده علمًا ومعرفةً وكان الكاتبُ عندهم قليلًا وفيهم عزيزًا" .

أما فى الاصطلاح فقد عرّفها صاحب موادّ البيان : بأنها صناعة رُوحانيَّة تظهر بآلة، جُثْمانيَّةٍ، دالةٍ على المراد بتوسط نظمها . ولم يبين مقاصد الحدّ ولا مادخل فيه ولا ماخرج عنه، غير أنه فسَّر فى موضع آخر معنى الرُّوحانية فيها بالألفاظ التى يتخيلها الكاتبُ فى أوهامه ويصوّرُ من ضمِّ بعضها إلىٰ بعض صورةً باطنة قائمةً فى نفسه . والجُثْمانية بالخط الذى يخُطُّه القلم وتقيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورةً معقولةً باطنـة صورةً محسوسةً ظاهرة . وفسر الآلةَ بالقلم وبذلك يظهر معنى الحدّ وما يدخل فيه ويخرج عنه؛ ولا شك أن هذا التحديد يشمل جميع ما يُسَطِّره القلم ممـا يتصوّره الذهن ويتخيله الوَهْم فيدخل تحته مطلقُ الكتابة كما هو المستـفاد من

المعنى اللغوىّ . على أن الكتابة ، و إن كثرت أقسامها وتعدّدت أنواعها ، لاتخرج عن أصلين : همـا كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال وما فى معناهما علىٰ ماسـيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

إلا أنّ العرف فيما تقدّم من الزمان قد خصّ لفظ الكتابة بصـناعة الإنشاء حتّى كانت الكتابة إذا أُطْلقت لا يُراد بها غير كتابة الإنشاء والكاتب اذا أُطلِق لايراد به غير كاتبها حتّى سمّى العسكرىّ كتابه "الصناعتين الشعر والكتابة" يريد كتابة الإنشاء ، وسمّى آبن الأثير كتابه "المَثَل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" يريد كاتب الإنشاء إذ هما موضوعان لمـا يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب فى زماننا بالديار المصرية اسم الكاتب علىٰ كاتب المـال حتّى صار الكاتب إذا أطلق لا يُراد به غيره وصار لصناعة الإنشاء آسمان : خاصّ يستعمله أهل الديوان و يتلفظون به وهو كتابة الانشاء ، وعامّ يتلفظ به عامّة النـاس وهو التَّوْقيع . فأما تسميتها بكتابة الإنشاء فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذى هو أصل موضوعها وهو مصدر أنشأ الشيءَ إذا آبتدأه أوآخترعه علىٰ غير مثال يَحْتذيه ، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلِّفه من الكلام ويبتكُره من المعانى فيما يكتُبه من المكاتَبَات والوِلَايات وغيرهما أو أن المكاتَبات والوِلايات ونحوَها تنشأ عنه .

وأما تسميتُها بالتوقيع فأصله من التوقيع علىٰ حواشى القِصَص وظُهورِها كالتوقيع بخط الخليفـة أو السلطان أو الوزير أو صـاحب ديوان الإنشاء أو كُتَّاب الدست ومن جرىٰ مَجْراهم بما يُعتَمد فى القضية التى رُفِعت القِصَّة بسببها ؛ ثم أُطْلِق علىٰ كتابة الإنشاء جملة .

قال آبن حاجب النعمان فى ذخيرة الكُتَّاب : ومعناه فى كلام العرب التأثير القليلُ الخفيفُ ، يقال : جَنْب هذه الناقة مُوَقَّع إذا أثّرت فيه حبال الأحمال تأثيرا خفيفًا .

وحُكِى أنّ أعرابيَّة قالت لجارتها "حديثُك تَرْويع وزيارَتُك تَوْقيع" تريد أن زيارتها خفيفة. قلت: ويحتمل أن يكون من قولهم وَقَع الأمر إذا حَقَّ ولزِم ومنه قوله تعالىٰ ﴿ووَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أى حَقَّ، أو من قولهم وَقَّع الصَّيْقَلُ السيفَ إذا أقبل عليه بمِيقَعته يجلُوه لأنه بتَوقيعه فى الرُّقْعة يجلو اللَّبْس بالإرشاد إلىٰ ما يُعتَمد فى الواقعة، أو من مَوْقَعَة الطائر ــ وهى المكان الذى يأْلفه من حيثُ إن الموقِّع علىٰ الرقعة يألف مكاناً منها يُوقِّع فيه كحاشية القِصَّة ونحوها، أو من الموقعة بالتسكين(١) ــ وهو المكان المرتفِع فى الجبل لأرتفاع مكان المُوَقِّع فى الناس وعُلُوّ شأنه أو غير ذلك.

ووجْه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقدّم أن التوقيع فى الأصل آسم لما يُكْتَب على القِصَص ونحوها وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المُكاتَبَات والوِلايات ونحوها إنما يبنىٰ علىٰ مايخرُج من الديوان من التوقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو كُتَّاب الدست ومَنْ فى معناهم؛ وحينئذ فيكون التوقيع هو الأصل الذى يَنْبى عليه المنشئ، وقد يكون سمِّى بأصله الذى نشأ عنه مجازا؛ وقد يعبر عنها بصناعة الترسُّل تسميةً للشيء بأعم أجزائه إذ الترسل والمكاتَبَات أعظم كتابةِ الإنشاء وأعمُّها من حيثُ إنه لا يَستغنى عنها ملِك ولا سُوقةٌ، بخلاف الوِلايات فإنها مختصَّة بأرباب المناصب العليَّة دُون غيرهم؛ وعلىٰ ذلك بنى الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبىّ رحمه الله تسمية كتابه "حُسْن التوسُّل، إلىٰ صناعة الترسُّل".

---

(١) عبارة اللسان والقاموس والوقع بالتسكين المكان المرتفع من الجبل. فلعل مافى الأصول من تصحيف الناسخ فتأمل.

الفصـــل الثـانى

(فى تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة)

قد تقدّم فى الفصل الذى قبله أن الكتابة و إن كثرتْ أقسامها وتعدّدتْ أنواعُها لاتخرج عن أصلين : كتابةِ الإنشاء، وكتابةِ الأموال .

فأما كتابة الإنشـاء فالمراد بها كل مارجع من صـناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعانى : من المكاتَبات والولايات والمسامَحات والاطلاقات ومناشِــير الاقْطاعات والهُدَن والأمانات والأيمان وما فى معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها .

وأما كتابة الأموال فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تحصيل المـال وصَرْفه وما يجرى مَجْرى ذلك ككتابة بيت المـال والخزائن السُّلطانيـة ، وما يُجْبى إليها من أموال الخرَاج وما فى معناه ، وصرف ما يصرف منها من الجارى والنفقات وغير ذلك، وما فى معنى ذلك ككتابة الجيوش ونحوها ممـا يجرّ القولُ فيه إلى صَنْعة الحُسَّاب، ولا شك أن لكلٍّ من النوعين قدرًا عظيماً وخَطَرا جسيًما ، إلا أنّ أهــل التحقيق من علماء الأدب ما بَرِحُوا يرجِّحون كتابةَ الإنشاء و يفضلونها و يميزونها على سائر الكتابات و يقدّمونها، و يحتجُّون لذلك بأمو ر .

منهـا أن كتابة الإنشاء مستلْزِمة للعـلم بكل نوع من الكتابة، ضرورة أن كاتب الإنشاء يحتاج فيما يكتُبه من ولاياته ومكاتَبَاته مما يتعلق بكتابة الأموال إلى أن يُمثِّل لهم فى وصاياه من صِناعتهــم مايعتمِدونه، و يبينَ لهم مايأتونه و يذَرونه، فلا بُدّ أن يكون عالمـًا بصناعة مَنْ يكتب له . بخِلاف كاتب الأموال فإنه إنما يعتمد على رسوم مقرّرة وأُنمُوذَجات محرّرة لا يكاد يخرج منها ، ولا يحتاج فيهـا الى تغيير ولا زيادة ولا نقص .

ومنها آشتمالُ كتابة الإنشاء علىٰ البيان الدالّ علىٰ لطائف المعانى التى هى زُبَد الأفكار وجَوَاهِرُ الألفاظ، التى هى حِلْية الألسنة، وفيها يتنافسُ أصحابُ المناصب الخطيرة، والمنازل الجليلة، أكثَرَ من تنافسهم فى الدرّ والجوهر .

ومنها ماتستلزمه كتابة الإنشاء من زيادة العلم، وغزارة الفضيلة، وذَكاء القريحة، وجَوْدة الرويّة : لما يحتاج إليه من التصرف فى المعانى المتداوَلة والعبارة عنها بألفاظ غير الألفاظ التى عَبَّر بها مَنْ سبق إلىٰ آستعمالها مع حِفْظ صورتها وتأديتها إلىٰ حقائقها؛ وفى ذلك من المشقّة مالا خفاءَ فيه علىٰ مَنْ مارس الصِّناعة، خصوصًا إذا طلب الزيادة والعُلُو علىٰ مَنْ تقدمه فى آستعمالها، أو حذا حَذْوَ رسوم المبرِّزين الذين ينتحلون الكلام ويُوقِعُونه مواقِعه مع مراعاة رَشَاقة اللفظ، وحلاوة المعنىٰ، و بلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من آختراع المَعَانى الأبكار للأمور الحادثة التى لم يقع مثلُها، ولا سبق سابق إلىٰ كتابتها ــ لأنّ الحوادث والوقائع لا تتناهىٰ ولا تقف عند حدّ .

ومن هنا تنقَّص الوزيرُ ضياءُ الدين بنُ الأثير فى المَثَل السائر المقاماتِ الحريريَّةَ وآزدراها جانحًا إلىٰ أنها صور موضوعة فى قوالب حكايات مبنيَّة علىٰ مبدإ ومَقْطع بخلاف الكتابة فان أهوالها غير متناهية؛ ولو رُوعِى حال مايكتبه الكاتب فى أدنىٰ مدّة لكان مثل المقامات مرّات .

ومنها آختصاص كاتب الإنشاء بالسلطان وقُرْبه منه وإعظام خواصِّه وآعتمادهم فى المهمات عليه، مع كونه أحرز (١) بالسلامة من أرباب الأقلام المتصرفين فى الأموال. وقد قال بعض الحكماء : الكُتَّاب كالجوارح كل جارحة منها تَرْفِد الأخرىٰ فى عملها بما به يكون فعلها، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح الممازجة للبدن المدبرة لجميع جوارحه وحواسِّه .

(١) لعله مصحف عن أجدر أو أحرى ــ كما سيأتى له بعدُ .

قال فى موادّ البيان "ولا شك فى صحة هذا التمثيل : لأنّ كاتب الإنشاء هو الذى يمثل لكل عامل فى تقليده ما يعتمد عليه و يتصفح ما يرد منه و يصرفه بالأمر والنهى علىٰ ما يؤدّى إلىٰ آستقامة ماعدق به(١)، وهو حلية المملكة و زينتها لما يصدر عنه من البيان الذى يرفع قدرَها، ويُعْلِي ذكرها، و يعظِم خَطَرها، ويدلُّ علىٰ فضل ملكها، وهو المتصرف عن السلطان فى الوعد والوعيد، والترغيب، والإحماد والإذمام، وآقتضاب المعانى التى تُقِرّ الوالِيَ علىٰ ولايته وطاعته، وتَعْطف العدوّ العاصىَ عن عداوته ومعصيته . علىٰ أن بعض المتعصبين قد رجّح كتابة الأموال علىٰ كتابة الإنشاء بمغالطات أوردها، وتزويرات زخرفها ونَمَّقها، لا تخفىٰ علىٰ متأمّل، ولا تتغطّى علىٰ ذى ذهن سليم .

وقد أورد الحريرىّ فى "المقامة الثانية والعشرين" المعروفة بالفراتيّة ألفاظا قلائل فى المفاخرة بين كتابتى الإنشاء والأموال فقال علىٰ لسان أبى زيد السروجى .

"اِعلموا أنّ صِناعة الإنشاء أرفَع ، وصناعة الحِسَاب أنْفَع ، وقلَم المكاتبة خاطب، وقلَم المحاسبة حاطب، وأساطيرَ البلاغة تُنْسَخ لتُدْرَس، ودساتِيرَ الحُسْبانات تنسخ وتُدْرَس، والمنشئ جُهَينةُ الأخبار ، وحَقيبة الأسرار ، ونَجِيُّ العظماء ، وكبيرُ النُّدَماء ؛ وقلمُه لسان الدوله ، وفارسُ الجَوْله ، ولُقْمان الحِكْمه ، وتَرْجُمان الهِمّه ، وهو البشير والنذير ، والشفيع والسفير ؛ به تُسْتخْلَص الصَّياصِى ، وتُملْك النَّواصِى ، ويُقْتاد العاصى ، ويُسْتَدْنىٰ القاصى ؛ وصاحبه برىء من التَّبِعات ، آمنٌ كيدَ السُّعات ، مقرّظ بين الجَمَاعات ، غير معرّض لنظم الجِماعات .

ثم عقب كلامه بأن قال :

(١) فى الضوء عزق بالعين المهملة والزاى وهو المناسب ولعل مافى الاصل تصحيف .

"إلا أن صناعةَ الحِسَاب موضوعةٌ على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنيَّة على التلفيق، وقلَمَ الحاسب ضابط، وقلم المنشيء خابط؛ وبيْنَ إتَاوة توظيف المعامَلات، وتلاوة طوامير السِّجلَّات، بون لا يُدْركه قِياس، ولا يعتوره التباس؛ إذ الإتَاوةُ تملأ الأكياس، والتِّلاوة تفرّغ الراس، وخَرَاج الأَوارِج يُغْنى الناظر، وٱستخراج المَدَارج يُعَنِّى الخاطر.

ثم إن الحَسَبة حَفَظة الأموال، وحَمَلة الأثقال؛ والنَّقَلة الأثبات، والسَّفَرة الثِّقات، وأعلامُ الإنصاف والٱنتصاف، والشهود المَقَانع فى الٱختلاف؛ ومنهم المستوفِى الذى هو يَدُ السلطان، وقُطْبُ الديوان، وقِسْطاس الأعمال، والمهيمن علىٰ العُمَّال، وإليه المآل فى السِّلْم والهَرْج، وعليه المدار فى الدَّخْل والخَرْج؛ وبه مَنَاط الضَّرّ والنَّفْع، وفى يَده رِباط الإعطاء والمنع؛ ولولا قلم الحُسَّاب، لأودَتْ ثمرةُ الٱكتساب، ولٱتَّصلَ التَّغابُن إلى يوم الحِساب؛ ولكان نظامُ المعاملات محلولا، وجُرْح الظُّلامات مَطْلولا، وجِيدُ التناصُف مغلولا، وسَيْفُ التظالُم مسلولا. على أنّ يراعَ الإنشاء متقوِّل، ويراعَ الحِساب متأوّل، والحاسب مناقِش، والمنشيء أبو بَرَاقِش؛ ولكلَيْهما حُمَة حين يَرْقىٰ، إلى أن يُلقىٰ ويُرقىٰ، وإعْنات فيما يُنْشا، حتّى يُغشىٰ ويُرشىٰ ﴿إلَّا الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات وَقَلِيلٌ مَاهُمْ﴾".

قلت: وقد أوردت فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء المشار إليها بالذكر فى خطبة هذا الكتاب مِن فضلِ الكتابة ما يَشْدُو بذكره المترنِّم، وأودعتها من شرف الكُتَّاب ما يُذْعِن له الخصم ويسلِّم.

الفصل الثـالث

(فى ترجيح النثر على الشـــعر)

اعلم أن الشعر وإن كان له فضـيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرّده باعتدال أقسامه وتَوازُنِ أجزائه وتَساوِى قوافى قصائده، ممـا لا يوجد فى غيره من سائر أنواع الكلام، مع طُول بقائه علىٰ ممرّ الدهور وتعاقب الأزمان، وتداوُله علىٰ ألسِـنة الرُّواة وأفواه النَّقَلة لتمكُّنِ القوّة الحافظة منـه بٱرتباط أجزائه وتعَلُّقِ بعضها ببعض، مع شُـيوعه وٱستفاضته وسرعة ٱنتشاره وبُعْد مَسيره وما يؤثِّره من الرِّفْعة والضَّعَة باعتبار المدح والهجاء، وإنشاده بمجالس الملوك الحافلة والمواكب الجامعـة بالتقريظ وذكر المفاخر وتعديد المحاسن، وما يحصل عليه الشاعر المُجِيـد من الحِباء الجسيم والمَنْح الفائق، الذى يستحقه بحسن مَوْقِع كلامه من النفوس وما يحدثه فيها من الأرْيحيَّـة، وقبوله لمـا يرد عليه من الألحان المطربة المؤثِّرة فى النفوس اللطيفة والطباع الرقيقة وما اشتمل عليـه من شواهد اللغة والنحو وغيرهما من العلوم الأدبية وما يجرى مَجْراها وما يُستَدَلُّ به منها فى تفسير القرآن الكريم وكلامِ مَنْ أُوتِىَ جوامع الكلم، ومَجَامع الحِكم، صلى الله عليه وسلم ! وكونه ديوانَ العرب ومجتمَع تمكنها والمحيط بتواريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها — إلى غير ذلك من الفضائل الجمَّه، والمَفَاخر الضَّخْمه، فان النثر أرفع منه درجة، وأعلىٰ رتبة، وأشرف مَقَاما، وأحسن نِظاما، إذ الشعر محصور فى وزْنٍ وقافيةٍ يحتاج الشاعر معها إلىٰ زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود ومدّ المقصور، وصرف مالا ينصرف ومنع ماينصرف من الصرف، وٱستعمالِ الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك ممـا تُلْجِئ اليه ضرورةُ الشعر فتكون معانيه تابعةً لألفاظه؛ والكلام المنثور لايُحتاج فيه إلى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعةً لمعانيه؛ ويؤيد ذلك أنك إذا ٱعتبرت ما نُقِل

من معانى النثر إلىٰ النظم وجدتَه قد ٱنحطّت رتبته . ألا ترىٰ إلىٰ قول أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه ! "قيمةُ كلِّ ٱمرئٍ مايُحْسِن" : أنه لما نقله الشاعر إلىٰ قوله

فَيَالائِمِى دَعْنِى أُغالِى بِقِيمَتِى ✻ فَقِيمةُ كلِّ الناسِ مايُحْسِنُونه

قد زادت ألفاظه وذهبت طَلَاوته ، وإن كان قد أفرد المعنىٰ فى نصف بيت فإنه قد ٱحتاج الىٰ زيادة مثل ألفاظه مَرَّة أخرىٰ توطئةً له فى صدر البيت ومراعاةً لإقامة الوزن ، وزاد فى قوله فقيمة فاء مستكرهة ثقيلة لا حاجة إليها وأبدل لفظ ٱمرئ بلفظ الناس ولا شكّ أنّ لفظ ٱمرئ هنا أعذب وألطف ، وغيّر قوله يُحْسن إلىٰ قوله يُحْسِنونه ، والجمع بين نونين ليس بينهما إلا حرف ساكن غير معتدّ به مستوخَم ، وإذا ٱعتبرت ٠انقِل من معانى النظم إلىٰ النثر وجدته قد نقصت ألفاظه وزاد حُسْنًا ورَوْنقا ألا ترىٰ إلىٰ قول المتنبي يصف بلدا قد عُلِّقت القَتْلىٰ علىٰ أسوارها ؟ :

وكانَ بها مِثْلُ الجُنُونِ فأصبحَتْ ✻ ومِن جُثَثِ القَتْلىٰ عليها تَمَائِمِ

كيف نثره الوزير ضياء الدين بن الأثير فى قوله يصف بلدا بالوصف المتقدّم : "وكأنما كان بها جُنُون فبعث لها مِن عزائمه عزائِم ، وعَلّق عليها من رءوس القتلىٰ تمائم" فإنه قد جاء فى غاية الطَّلاوة خصوصا مع التورية الواقعة فى ذكر العزائم مع ذكر الجنون ؛ وهذا فى النظم والنثر الفائقين ولا عبرة بما عداهما .

وناهيك بالنثر فضيلةً أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز ونورَه المبين الذى ﴿لايَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ﴾ ولم ينزله على صفة نظم الشعر بل نزّهه عنه بقوله ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ وحرّم نظمه علىٰ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم تشريفًا لمحلّه وتنزيهًا لمَقامه منها علىٰ ذلك بقوله ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ﴾ وذلك أن مقاصد الشعر لا تخلو عن الكذب والتحويل علىٰ الأمور المستحيلة ، والصفات

المجاوِزة للحدّ، والنعوتِ الخارجة عن العادة، وقذف المُحْصَنات، وشهادة الزُّور، وقول البهتان، وسبِّ الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم! ولا سيما الشعر الجاهليّ الذى هو أقوى الشعر وأفحله . بخلاف النثر فإن المقصود الأعظم منه الخُطَب والترسُّل ، وكلاهما شريف الموضوع حسن التعلق ، إذ الخُطَب كلام مبنيّ علىٰ حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده والثناء عليه والصلاة علىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتذكير والترغيب فى الآخرة والتزهيد فى الدنيا والحض علىٰ طلب الثواب ، والأمر بالصَّلاح والإصلاح ، والحث علىٰ التعاضُد والتعاطُف ، ورَفْض التباغُض والتقاطُع ، وطاعة الأئمة ، وصلة الرحم ، ورعاية الذمم ، وغير ذلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ مما هو مستحسَن شرعًا وعقلا . وحَسْبُك رتبةً قام بها النبى صلّى الله عليه وسلم ! والخُلَفاءُ الراشدون بعده . والترسُّل مبنيّ علىٰ مصالح الأمة وقِوام الرعية لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسَرَاة الناس فى مهمَّات الدِّين وصلاح الحال وبَيْعات الخلفاء وعُهُودهم ، وما يصدُر عنهم من عهود الملوك ، وما يلتحق بذلك من وِلايات أرباب السيوف والأقلام الذين هم أركان الدولة وقواعدها . إلى غير ذلك من المصالح التى لا تكاد تدخُل تحت الإحصاء ولا يأخذها الحصر .

قال فى موادّ البيان " وقد أحسَّت العرب بانحطاط رتبة الشِّعر عن الكلام المنثور كما حُكِي أن آمرأ القيس بنَ حُجْر همَّ أبوه بقتله حين سمعه يترنَّم فى مجلس شرابه بقوله :

اسْقِيَا حُجْرًا علىٰ عِلَّاته * مِنْ كُمَيْتٍ لَوْنُها لَوْنُ العَلَق

وما يروى أنّ النابغة الجعدىّ كان سيدا فى قومه لايقطعون أمرا دُونه وأنّ قول الشعر نقصه وحطّ رُتْبته". قال: "ولا عبرة بما ذهب إليه بعضهم من تفضيل الشعر علىٰ النثر ٱتباعا لهواه بدون دليل واضح".

قال فى الصناعتين : "ومع ذلك فإن أكمل صفات الخطيب والكاتب أن يكونا شاعرين كما أن مِن أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتبا". قال: "والذى قَصَّر بالشعر كثرتُه وتعاطِى كل أحد له حتّى العامّة والسِّفْلة فلحقه بالنقص[(١)] مالحق الشِّطْرَنْج حين تعاطاه كل أحد". وسيأتى الكلام علىٰ ٱحتياج الكاتب للشعر فى بيان مايحتاج إليه الكاتب فيما بعدُ إن شاء الله تعالى !

الباب الثالث

فى صفاتهم وآدابهم؛ وفيه فصلان

الفصل الأوّل

(فى صفاتهم؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الصفات الواجبة التى لايسع إهمالُها؛ وهى عشر صفات)

الصفة الأولى، الإسلام — ليؤمَن فيما يكتبه ويُمْليه. ويُوثَق به فيما يَذَره ويأتيه إذ هو لسان المملكة، المرهبُ للعــدوّ بوقع كلامه، والجاذبُ للقلوب بلطف خطابه فلا يجوز أن يولّى أحد من أهل الكفر، إذ يكون عينا للكفّار علىٰ المسلمين، ومُطْلعا لهم علىٰ خَفَايَاهم فيصلون به إلىٰ ما لا يمكن ٱستدراكه، وقد قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ

(١) لعله من النقص وحرر.

آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ البَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ والمراد بالبطانة فى الآية من يَطَّلع علىٰ حال المسلمين كالاطِّلاع علىٰ مقدار خزائنهم من المـال، وأعداد جيشهم من الخيل والرجال .

قال أبو الفضل الصُّورى فى تذكرته "وإن من الفِطرة التى جُبل كل أحد عليها حنينَ كل شخص من الناس إلىٰ مَن يرىٰ رأيه ويدين دِينه" قال : "وهذا أمر يجده كل أحد فى نفســه ، ولذلك شرط بعضهم فى الكاتب أن يكون علىٰ مذهب المِلك الذى يتمذهب به من مذاهب المسلمين ليكون موافقا له من كل وجه".

ولـما فتحت الصحابة (رضوان الله عليهم) مصر ، بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلىٰ عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل فى عمل من أعمـال المسلمين كافرا فأجابه عمرو : بأن المسلمين إلىٰ الآنَ لم يَعْرِفوا حقيقة البلاد ، ولم يَطَّلِعوا علىٰ مقادير خراجها ، وقد ٱجتهدْتُ فى نصرانىّ عارف منسوب إلىٰ أمانة إلىٰ حين معرفتنا بهـا فنعزله ، فغضب عمر رضى الله عنــه وقال : كيف تؤمِّنهم وقد خوّنهم الله؟ وكيف تُعزُّهم وقد أذلهم الله؟ وكيف تقرّبهم وقد أبعدهم الله؟ ثم تلا ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية وقال فى آخر كتابه "مات النصرانىّ والسلام".

وقد روى أن أبا موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قدم علىٰ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومعه كاتب نصرانىّ فأُعْجِب عمرُ بخطه وحسابه ، فقال عمر "أحضر كاتبك ليقرأ" فقـال أبو موسى "إنه نصرانىّ لايدخل المســجد" فَزَبَره عمر رضى الله عنــه وقال "لاتؤمِّنوهم ، وقدخوّنهم الله ، ولا تُدْنوهم ، وقد أبعدهم الله ، ولا تُعِزُّوهم وقدأذلهم الله".

وقد قال الشافعى رضى الله عنه فى كتابه الأمّ : "ماينبغى لقاضٍ ولا والٍ أن يتخذ كاتبا ذمِّيا ، ولا يضعَ الذمىّ موضعا يَفْضُل به مسلما . ويَعِزُّ علىٰ المسلمين أن يكون لهم

حاجة إلى غير مسلم . وجزم الماوردى والقاضى أبو الطيب والبندنيجى وابن الصباغ وغيرهم من أصحابنا الشافعية رحمهم الله أنه يشترط فى كاتب القاضى أن يكون مسلما وهو الأصح الذى عليه الفتيا فى المذهب .

وإذا اشترط الإسلام فى كاتب القاضى والوالى ففى كاتب السلطان أولى لعموم النفع والضرّ به .

قال أبو الفضل الصُّورى : "ولا شك أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى فى أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثّل بنواهيه وأوامره ، والتدبّر لقوارعه وزواجره ؛ وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات ؛ وهو الذى يَشُدّ قُوى الكلام ، ويثبّت صحته فى الأفهام ؛ فمتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن ، عاريةً من الفضائل : لأنه الحجة التى لا تُدْحَض ، والحقيقة التى لا تُرْفَض ؛ فإذا كان الكاتب غير مسلم لم يكن لديه من ذلك شىء ، وكانت كتابته مغسولةً من أفضل الكلام . وخاليةً مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام . ومقصّرةً عن رتبة الكمال . ومنسوبة إلى العجز والإخلال . فإن تعاطى الكاتب الذمى حفظ شىء منه وكتبه فقد أُبيحت حرمة كتاب الله تعالى وانتهكت ، وأمكن منه مَنْ يتخذه هُزُوا ولعبا والله سبحانه يقول فى كتابه المكنون ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ . فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم" قال : "ولا يُحتج بالصابئ وأنه كتب للطيع والطائع من خلفاء بنى العباس ، ومعزّ الدولة ، وعز الدولة من ملوك الديلم ، وهما يومئذ عُمْدة الإسلام وعَضُد الخلافة ، وهو على دين الصابئة . فإن الصابئ كان من أهل ملةٍ قليلٍ أهلها ، ليس لهم ذكر ولا مملكة ، وليس منهم محارب لأهل الإسلام ، ولا لهم دولة قائمة فتُخشى غائلته وتُخاف عاقبتُه .

الصفة الثانية، الذكورة — فقد صرّح أصحابنا الشافعية، بأنه يُشْتَرط فى كاتب القاضى أن يكون ذكرا، وإذا آشـتُرِط ذلك فى كاتب القاضى ففى كاتب السلطان أولىٰ لمـا تقدّم من عموم النفع والضرّ به . وقد روى أن عمر بنَ الخطاب رضى الله عنه قال فى حق النساء "جَنِّبوهُنّ الكِتابَةَ، ولا تُسْكنُوهُنَّ الغُرَف، وآستَعينُوا عليهن بلا : فانّ نعم تُضَرِّيهِنَّ فى المسألة" . ومرّ علىّ كرّم الله وجهه علىٰ رجل يعلِّم آمرأة الخط . فقال " لَا تَزِدِ الشَّرّ شَرّا " .

ورأىٰ بعض الحكماء آمرأة تتعلم الكتابة فقال : "أفْعىٰ تُسقىٰ سُمًّا" ولله البسامىّ حيث يقول ! :

ما لِلنِّســاءِ ولِلْكِتَا ❊ بةِ والعِمَالَة والخطَابَهْ !
هٰـذا لَنَـا ولَهُنَّ مِنَّــا ❊ أن يَبِتْنَ علىٰ جَنَـابَهْ

فإن قيــل : قد كُنّ جماعةٌ من النساء يكتبْنَ ولم يرِد أن أحدا من السلف أنكر عليهن ذلك . فقد روىٰ أبو جعفر النحاس بسنده إلىٰ الحسن أن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها ! كانت تكتُب فى مكاتباتها بعد البسملة : من المُبَرَّأة عائشــةَ بنتِ أبى بكرٍ حبيبةِ حبيبِ الله . وحكى جعفر بن سـعيد أنه ذُكِر لعمر بن مَسْعدة كاتبِ المأمون توقيعاتُ جعفر بن يحيىٰ فقال : " قرأتُ لأمّ جعفر توقيعاتٍ فى حواشى الكُتُب وأسافلها فوجدتها أجود آختصارا وأجمـعَ للمعـانى " . وذكر محمد بن علىّ المدائنى فى كتاب القـلم والدواة أن عاملا لزُبَيْـدةَ كتب إليها كتابا فوقَّعتْ فى ظهره "أنْ أصلِحْ كتابَك وإلّا صَرَفْناك عن عَملك" فتأمله فلم يظهر له فيه شىء، فعرضه علىٰ بعض إخوانه فرأىٰ فيه فى الدعاء لها وأدام كرامتَك، فقال: "إنها تخيلتْ أنك دعوتَ عليها فإنّ كرامة النساء دَفْنُهنّ" فغيّر ذلك وأعاد الكتاب إليها فقبلته ؛ ومَنْ كان هذا شأنه فكيف يقال أنه لم يؤهل للكتابة ؟ .

فالجواب أن حديث عائشة لم يصرَّح فيه بأنها كتبتْ بنفسها ولعلها أمرت مَنْ يكتب فكتب كذلك بإملائها أو دُونه، و إن ثبت ذلك عنها فغيرها لا يُقاس عليها؛ ومَنْ عداها من النساء لا عِبْرة به .

الصفة الثالثة، الحُرّية — فقد شرطوا فى كاتب القاضى أن يكون حرا : لما فى العبد من النقص، فلا يُعتمَد فى كل القضايا، ولا يُوثَق به فى كل الأحوال؛ فكاتب السلطان كذلك بل أَوْلىٰ كما تقدّم.

الصفة الرابعة، التكليف — كما فى كاتب القاضى فلا يعوّل علىٰ الصبىّ فى الكتابة إذ لا وُثوقَ به ولا ٱعتمادَ عليه .

الصفة الخامسة، العَدَالة — فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقا فإنه بمنزلة كبيرة، ورتبة خطيرة، يحكُم بها فى أرواح الناس وأموالهم : لأنه لو زاد أدنىٰ كلمة أو حذف أيسرَ حرفٍ أو كتم شيئًا قد علمه أو تأوّل لفظا بغير معناه أو حرّفه عن جهته، أدّى ذلك إلى ضرر مَنْ لا يستوجب الضرر، ونَفْع مَنْ يجب الإضرار به، وكان قد موّه علىٰ الملك حتّى مدح المذمومَ وذمّ الممدوح . فمتىٰ لم يكن له دِين يحجُزُه عن ٱرتكاب المآثم ويَزَعُه عن ٱحتقاب المحارم كان الضرر به أكثر من الٱنتفاع، وأثّر فعله من الأضرار مالم تؤثّره السيوف، ولله القائل!

وَلَضَرْبةٌ مِنْ كاتِبٍ بِبَنانِهِ * أَمْضىٰ وأَقْطَعُ مِن رَقِيقِ حُسَامِ
قَوْمٌ إذا عَزَمُوا عَداوةَ حاسِدٍ * سَفَكُوا الدِّما بِأَسِنَّةِ الأَقْلامِ

وأيضا فإنه لا يُقْبل قول الفاسق فتضِيعُ به المصالح، وربما حمله الفِسْق وعدم الاكتراث بأمور الدِّينِ علىٰ وَهْن يدخله علىٰ الدِّين بقلمه، أو ضرر يجلُبه بلسانه .

وأيضا فالكتابة وِلاية شرعية والفاسق لا تصح توليتُه شيئًا من أمور المسلمين ؛ وقد أطلق القاضى أبو الطيبِ والمـاوردِىُّ من أصحابنا الشافعيــة القولَ باشــتراط العَدَالة فى كاتب القاضى فيجب مثلُه فى كاتب السلطان بل أَوْلىٰ على ما تقدّم .

الصفة السادسة، البَلَاغة — بحيث يكون منها بأعلىٰ رُتْبــة وأسنىٰ منزلة ؛ فإنه لسان السلطان الذى يَنْطِق به ، ويدُه التى بهـا يكتُب . ورُبَّ كاتبٍ بليغ أصاب الغرض فى كتابته فأغنىٰ عن الكتائب ، وأعمل القلم فكفاه إعمالَ البيضِ القواضِب ؛ واذا كان جَيِّد الفِطْنة صائبَ الرأى حسَنَ الألفاظ ، تتأتّى له المعانى الجَزْلةُ فيجلوها فى الألفاظ السهلة ، ويختصر حيث يكون الاختصار ، ويُطيــل حيث لايجد عن الإطالة بُدّا ويتهدّد فيملأ القلوبَ رَوْعةً ، ويشْكُر فيُلْقِى علىٰ النفوس مَسَرَّة ؛ وإن كتب إلى ملك كبير وذى رتبة خطير عَظَّم مملكة سلطانه وفَخَّمها فى معَارض كلامه من غير أن يُوجد أن ذلك قَصْدُه .

الصفة السابعة، وُفُور العقل، وجَزَالة الرأى — فان العقل أُسُّ الفضائل وأصلُ المناقب ؛ ومَنْ لا عقلَ له لا انتفاع به ، وكلام المرء ورأيُه علىٰ قدر عقله ؛ فاذا كان تامّ العقل كامل الرأى ، وَضَع الأشــياء فى مكاتَباته ومخاطَباته فى مواضــعها ، وأتىٰ بالكلام مِن وجهه ، وخاطب كلَّ أحد عن سلطانه بمـا يقتضيه الحـال التى يكون عليها ؛ فيشتدّ ما كانت الشدّةُ نافعة ، ويَلِين حينَ يكون إلىٰ اللِّين محتاجًا ، ويُوَبِّخ مَنْ لا يقتضى فعــلُه أكثَرَ من التوبيخ ، ويذُمُّ مَن تعدّىٰ الى ما يستوجب الذمّ ؛ ويأتى بالمكاتبات التى يقتضيها اختلاف الأحوال واقعةً مواقعَها صائبةً مرامِيَها .

الصفة الثامنة، العِلم بموادّ الأحكام الشرعية، والفنون الأدبية، وغيرها مما يأتى بيــانه — إذ الجاهل لا تمييزَ له بين الحق والباطل، ولا معرفةَ تُرْشِــده إلى الطرق المعتبرة فى الكتابة ؛ ومَنْ سلك طريقا بغير دليل ضل . أو تمسك بغير أصل زَلّ .

الصفة التاسعة، قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس — فإنه يكاتب الملوك عن ملكه. وكل كاتب يجذبه طبعه وجبلته وخيمه فى الكتابة إلى ما يميل إليه؛ ومكاتبة الملوك أحوج شىء إلىٰ التفخيم والتعظيم، وذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغّبة؛ فكلما كان الكاتب أقوىٰ نفسا وأشد عزما وأعلىٰ همة، كان فى ذلك أمضىٰ وعليه أقدر، ومهما نقص فى ذلك نقص من كتابته.

الصفة العاشرة، الكفاية لما يتولّاه — لأن العاجز يُدْخِل الضرر على المملكة ويُوجب الوَهْن فى أمر المسلمين؛ وربما عاد عليهم عجزُه بالوبال، أو أدّى بهم ضعفُه إلى الاضطراب والاختلال.

الضرب الثانى

(الصفات العُرْفية)

قال المهذّب بن مماتى فى كتابه "قوانين الدواوين": "ينبغى أن يكون الكاتب أديبا، حادَّ الذهن، قوىَّ النفس، حاضرَ الحسّ، جيِّدَ الحَدْس، حُلْوَ اللسان، له جَرَاءة يثبت بها الأمور علىٰ حكم البديهة، وفيه تُؤَدة يقف بها فيما لا يظهر له علىٰ حدّ الروية، شريفَ الأَنَفة، عظيمَ النزاهة، كريمَ الأخلاق، مأمونَ الغائلة، مؤدبَ الخُدّام".

قال محمد بن ابراهيم الشيبانى : من صفة الكاتب اعتدال القامة، وصغرَ الهامة، وخِفّة اللهازم وكثاثة اللِّحية، وصدق الحِسّ، ولُطْف المذهب، وحلاوة الشمائل، وخطف الإشارة، وملاحة الزِّىّ. قال : ومن حاله أيضا أن يكون بَهِىَّ المَلْبَس، نظيف المجلس، ظاهرَ المُروءة، عَطِرَ الرائحة، دقيق الذِّهن، حَسَن البيان، رقيق حواشى اللسان، حُلْوَ الإشارة، مليح الاستعارة، لطيف المسلك، مستَفْرَهَ المركَب،

ولا يكون مع ذلك فَضْفَاضَ الجثة، متفاوِت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة؛ ولله القائل !

وشَمُولٍ كأنَّمـا آعتَصَرُوها * مِنْ مَعَانِى شَمَـائِلِ الكُتَّاب"

وقال أبو الفضل الصُّورىُّ : "ينبغى أن يكون الكاتب فصيحًا بليغًا أديبًا، سنِىَّ الرتبـة، قوىَّ الحجة، شديد العارضة(١)، حَسَن الألفاظ؛ له مَلَكة يقتدر بها علىٰ مدح المذموم وذم المحمود" .

قال المهذب بن مماتى : "أمَّا حُسن الهيئة فإنه يرجع فى ذلك إلىٰ ما يعلمه من حال مخدومه من إيثاره إظهار نعمته علىٰ مَنْ هو فى خدمته أو إخفائها" . قلت : وهذا قد يخالف ما تقدّم : من أنه ينبغى أن يكون الكاتب بَهِى المَلْبَس . وبالجملة ففصاحة اللسان، وقوة البيان، والتقدُّمُ فى صناعة الكتابة هو الذى يرفع الرجل و يعظِّمه دون أثوابه البهية، وهيئته الزاهية . بل ربمـا كان التعظيم فى الفضل لرَثِّ الحالة المنحط الجانب أكثَرَ، وترجيحه علىٰ غيره أقرب .

وقد قال سهل بن هرون كاتبُ المأمون، وهو من أئمة هذه الصناعة : " لو أنَّ رجلين خَطَبا أو تحدّثا أو آحتجَّا أو وصَفَا وكان أحدهما جميلا بهيّا، ولَبّاسا نبيلاً . وذا حسب شريف؛ وكان الآخر قليـلا قميئًا : و باذَّ الهيئة دميمـا(٢)، وخامل الذِّكْر، مجهولا : ثم كان كلامهما فى مقدارٍ واحد من البلاغة، وفى دَرْب واحد من الصواب، لتصدّع عنهما الجمع وعامَّتهم يقضى للقليل الدميم علىٰ النبيل الجسيم، وللباذِّ الهيئة علىٰ ذى الهيئة؛ ويشغَلهم التعجُّب منه عن مناوأة صاحبه، ولصار التعجب علىٰ مساواته له سببا للتعجب به، والإكثار فى شأنه علة للإكثار فى مدحه . لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد؛ فلما ظهر منه خلافُ ما قدّروه وتضاعف

(١) فى الأصل المعارضة وهو تصحيف من الناسخ .
(٢) هو فعيل من دم الرجل باهمال الدال بمعنى قبح منظره و إعجامه فى الأصول تصحيف فتنبه .

حُسْن كلامه فى صدورهم كبُر فى عيونهم : لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أبعدَ فى الوهم كان أطرف ، وكلما كان أطرفَ كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ، وإنما ذلك كنوادر الصِّبيان ومُلَح المجانين ، فإنّ آستغراب السامعين لذلك أعجب ، وتعجُّبهم منه أكثر" . قال : "والناس مُوَكَّلون بتعظيم الغريب وآستطراف البديع ، وليس لهم فى الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم من الرأى والهوىٰ مثلُ الذى معهم فى الغريب القليل وفى النادر الشاذ ، وعلىٰ هذا السبيل يستظرفون القادم إليهم ، ويرحلون إلىٰ النازح عنهم ، ويتركون مَنْ هو أعَمُّ نفعا ، وأكثر فى وجوه العلم تصرفا ، وأخف مؤنةً وأكثر فائدة" .

الفصــــل الثــانى

(فى آداب الكُتَّاب ، وهى علىٰ نوعيْن)

النــــوع الأوّل

(حُسْن السيرة وشرف المذهب ، ولذلك شروط ولوازم)

منها اعتماد تقوىٰ الله تعالىٰ فى الإسرار والإعلان ، والإظهار والإبطان ، والمحافظةُ عليها ، والآستنادُ إليها فى مبادى الأمور وعواقبها . فإنها العُروة التى لاتنفصم ، والحبل الذى لا ينصرم ، والركن الذى لا ينهدم ، والطريق التى مَنْ سلكها آهتدىٰ ، ومَنْ حاد عنها ضلّ وتردّى ، والمحافظةُ علىٰ شرائع الدين التى فرضها الله تعالىٰ علىٰ خلقه ، والحَذَرُ من الآستخفاف فيها بحقه ، وتَوَقِّى غضبه بتأديتها ، والآستجنان من شقاء الدنيا والآخرة بتوقيها(١) .

---

(١) كذا فى الأصول من الوقاية ولعله بتوفيتها من الوفاء تأمل .

ومنها طلب الأجر[1] بما يُنيله من عز سلطانه ويُجْدِيه من فواضل نعمائه؛ وهذا هو أصح الأغراض التى يجب علىٰ كل عاقل أن يقدّمه علىٰ كل غرض، ويحصُلَ منه علىٰ السهم الوافر؛ فلا خير فى دنيا تنقطع السعادةُ عنها، وإنما السعادة بعد الموت ﴿ والدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾؛ ومن ٱختار الفانى المنصرم علىٰ الباقى الدائم، فقد خَسِرت صفقته، وبارَتْ تجارتُه .

والطريق الموصِّل إلىٰ هــذا المقصِد صلاحُ النية فيما يتولاه من أمور السلطان، وقصدُ النفع العامِّ له ولرعيته، والاجتهادُ فى إغاثة الملهوف، والأخذ بيد الضعيف، والنفع بجاهه عند سلطانه، وحمله علىٰ العدل فى الرعيّة، فإذا توخّى ذلك فاز بثواب الله تعالىٰ، وقضى حقَّ السلطان فيما عرضه له من الشكر والأجر، وقابل نعمة الله التى أقدره بها علىٰ هذه الأفعال الجميلة بما يرتبطها عنده ويستقرّ بها لديه .

ومنها : مجانبة الرِّيَب والتنزهُ عنها، والطهارةُ منها . فانها تُسْخط الله تعالى، وتَذْهب بمَهَابة المرء، وتُسْقطُه من العيون والقلوب . وأحقُّ مَنْ راعىٰ ذلك من نفســه مِنْ بين أتباع السلطان أهل هــذه الصناعة لاختصاصهم به، ولُطْف منْزلتهم عنــده . إذ المشهور عند نَقَلَة الآثار أن الذين تقدّموا من صدورها ومشايخها كانوا من جِلَّة العلماء، وسادة الفقهاء، وأفاضل أهل الورع، المبرئين من الدَّنَس والطمَع، المميزين علىٰ القضاة والحُكَّام، فى الاستقلال بعلوم الإسلام؛ المتميزين عنهم بفضل الآداب، ورواية الأشعار، والعلم بالأيام والسير، والارتياض بآداب الملوك وعِشرتهم ورسوم صحبتهم، وغير ذلك ممــا ينتظم فى صناعتهم . فقد ساوَوْهم فى علم الدِّين، وفاقُوهم فيما تقدّم ذكره مما لا يشاركونهم فيه . والسلطان والدِّين قرينان لا يفترقان، وعَوْنان علىٰ صلاح البلاد والعباد، فلا يحتمل السلطان ما ينكره الدِّين لأنه تابعه ورديفه .

(١) أى الثواب ولعله مصحف عن الآخرة كما يدل عليه السياق .

ومنهـا لزوم العَفَاف والصِّيانة فيما يتولاه للسلطان من أعماله ، ويتصرف فيه من أشغاله ، والتعفف عن المطامع الذميه . والمَطَاعم الوخيمه ، والترفُّع عن المكاسب اللئيمه ؛ فان ذلك يجمع القُرْبة إلىٰ الله تعالىٰ والحُظْوة عند السلطان ، وجميلَ السيرة عند الرعية — حتّى إن هذه الطريقة قد تقدّم بها عند السلطان المتخلفون فى الفهم والمعرفة ، وسادوا على مَنْ لايقاربونه فى غَنَـاء ولا كفاية ، وحصلوا على الأحوال السنية ، والمنازل العلية ؛ وقرب بها مَنْ كان بعيدا على من كان قريبا ، ومن لا مكانةَ له ولا حرمة علىٰ من له مكانة وحُرْمة ، واستُدْنِيَ لأجلها مَنْ لا يترشح لخدمة السلطان . ثم الذى يلزمه أن يعتمد التمسك بالصيانة والعَفَاف الذى عليه نظام معيشته ، والارتفاق فيما يحل و يطيب له من جاه خدمته — فانه قد قيل "الزم الصحة[(١)] يلزمك العمل" . لا أنه يمتنع من المنافع التى تصل إليه من أطيب المكاسب ، وتسلم من تبعات العاجل والآجل ، وتخلُص من قبيح الأُحْدوثة و إطلاق أَلْسُن الحَسَـدة بالطعن والتأنيب ، وينال بجاه السلطان ونفوذ الأمر من غير خيانة للمؤتمن ولا اشتكاء للرعية — فانه اولا هذه المنافع لغِنِي الانسان بالقَنَاعة ، ورِضِي بالكَفَاف ، وسلم من المخاطرة بدينه ودنياه فى سلامة السلطان . اذ لايجوز أن يستفرغ وُسْعه و يعرّض نفسه للخطر فيما لاتحسن له عائده ، ولا تخلص منه فائده ، فى جاه ولا مال . وقد عُلم ما كان عليه أهل هذه الطبقة فى سائر الدول وما حصلوه من الذخائر واقتنوْه من القُنْيات النفيسة ، التى أقدرتهم علىٰ إظهار مُرُوءاتهم[(٢)] ، واتخاذ الصنائع عند الأحرار ، وحراسة النعم علىٰ الدوائر والأعقاب . و إنمـا حصلوا علىٰ ذلك من حيث معرفتهم بوجوه المكاسب ، وأبواب المرافق ، لا من الخيانة وذميم الطعم[(٣)] — لأنهم كانوا فى أزمنـة لايغضىٰ فيها عن متكَسِّب من رشوة ولا مصانعة ولا اغتصاب ولا سبب من أسباب الظلم وان جلت منزلته وعظمت مرتبته

(١) هكذا بالأصل . (٢) لعله علىٰ الذرارى تأمل . (٣) لعله الطمع .

ومنها طلب الثناء والحمد وهو من أفضل المقاصد السنية وأعلاها رتبة — لأنه يتلو الأجر فى البقاء والدوام ، وكلما كانت الهمة أعظم وأشرف ، كانت اليه أرْغَبَ و به أكْلَفَ . ولفضل هذا رغب فيه الاشراف وعِلْية الناس حتّى قال الخليل عليه السلام ﴿وَٱجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ . وأولىٰ الناس باقتناء ذخائر الحمد وٱفتراض فرض الشكر من عرّض الله تعالى جاهه ، وطوّل يده ، وأمضىٰ عند السلطان لسانه ، فينبغى أن يختار هذه المَكْرُمة ، ويقوم بالنصيب الأوفَر منها ، ولا يَبْخَل بجاهه ولا ماله علىٰ قاصد ولا مؤمل ولا ذى رَحِم وذِمَام ، ولا يُضَجِّع فى أمر بطانته وحاشيته وأصحابه ، ولا يضَيِّق عليهم مع سَعَته ، ولا يقصِّر بهم فى كِفَايته ، ويجعل ٱكتسابها بجاهه وماله دون أموال سلطانه — فإن كثيرا من المتصرفين بذلوا ماأؤتُمنوا عليه فى هذا الغرض ورَضُّوا به أهل الشفاعات والرسائل ، فأعقبهم ذلك زوالَ النعم ، وسقوطَ الرتبة وذَهابَ المـال ، والوسمَ بمِيسم الخيانة والبَوَار إلىٰ الأبد . ولا يبالغ فى ٱبتناء المعالى وٱقتناء المحامد وبذل الرغائب وٱرتفاع الهمم ، فإن ذلك مما يختص بالملوك ولا ينبغى لأحد من أتباعهم من كاتب ولا غيره الإقدام عليه مُفاخِرا ولامُكاثِرا ولا مقايِسا ، فيكون قد عدا طَوْره ، وأضلّ رُشْده ، وتعرّض للعَطَب مع سلطانه ، وأوجد الطريق إلىٰ سُوء الظن به ، وفوّق سهام الحَسَدة إليه ، وأطلق ألسنتهم بالطعن عليه ؛ وربمـا أدّى به ذلك إلىٰ سقوط المنزِلة ان سلمت نفسه .

ومنها الاقتصاد فى طلب اللذة ، والاقتصار من ذلك على ما يُقيم المُروءة من أفضل الأخلاق وأشرفها : بأن يكون تناوُلُهم ما يتناولونه من ذلك بسلوك طريقـة محمودة يظهر فيها أثر التدبير السديد والرأى الأصيل ، من غير خروج الى الإقبال علىٰ اللذات والانهماك فى الشهوات . فان ذلك غير مستحسَن لملِك ولا سُوقة لأنه جالب للأسقام ، قاطع عن الأمور المهمة التي يجب صرف العناية إليها فى صلاح المعاش

وأمر الآخرة؛ ولكن لا يكلَّف تركَ اللذات جملة — اذ لا بد لكل أحد من ذوى الرتبة العلية من الأخذ بنصيب منها ، لما جُبِلت عليه الطبائع من الميل إليها والرَّغبة فى الاستمتاع بالنعم والملاذ ولكل منها حظ يضاهى رتبته .

وأهل هذه الصناعة لاختلاطهم بالملوك ومشاركتهم لهم فى آدابهم لا غنى بهم عما يقيم مروءاتهم من اللذات المشابهة لأقدارهم ومواضعهم من السلطان .

النـــوع الثـانى

حُسْن العِشْرة — التى هى من أفضل الخلائق الموجودة فى الغرائز طبعا والحاصلة بالتخلق تكسبا وتطبعا ، وأعونِها لمصالح الحياة والمعاش ومحبة الخاصة والعامّة وحصول الثناء والشكر والمودّة من الأفاضل الأخيار ، وكفاية الأراذل الأشرار ، وان لم يلتزمها الكاتب طوعا حمل عليها كرها .

واعلم أن أدب المعاشرة على خمسة اضرب :

الضرب الأوّل

(عِشْرة المـــلوك والعظماء)

قال علىّ بن خلف : ولا يقُوم بآدابها وأكمل رسومها إلا مَنْ علَتْ فى الأدب درجَتُه ، وسَمَتْ فى رَجَاحة العقل منزلته ، وتميَّزَ بغريزة فاضــلة وأدب مكتَسَب ، وصبَرَ على المشاقّ فى التحلّى بالهمم الشريفة ، والسموّ إلى المنازل اللطيفة ، من عز السلطان ومساعدة الزمان ، وتمكَّنَ من تصريف النَّفْســيْنِ الحيوانية والشهوانية على أغراض الناطقية ومطاوعتها ، وأخْذِهما بقبول ما تُرْشد اليه وتبعث عليه لأن صحبة السلطان أمر عظيم وصاحبَه راكب خَطَر جسيم ، بتمليكه نفسه لمتحكم فى شَعره و بَشَره ، قادر على نفعه

وضُره؛ لا يردّه عن مقابلته على يسير الخيانة بكبير النّكاية إلا ما يؤمّل من صَفْحه ومسامحته، ويرجو من عَطْفه ورأفته. وأوّل ما يجب علىٰ المتصل بخِدمة السلطان النظرُ فى عواقب أموره وحفظُ نفسه من جَرِيرة يجُرّها عليها باغفاله فرضا من فروض طاعته، وتضييعه المحافظةَ علىٰ حقوق خِدْمته، والعلم بأن لكل مصحوب خُلُقا يغلب عليه، ويرجع بغرِيزة الطبع اليه، لا يمكنه النزوع عنه ولا المفارقةُ له؛ إذ الانتقال عن الطِّباع، شديد الامتناع، فى الخدم والأتْباع؛ فكيف الملوكُ والرؤساءُ الذين لا يقابَلُون بلوم علىٰ خُلُق مذموم؛ بل العـادة جارية فى أدب خَدَمتهم بأن يصوّبوا ما يركبونه من خطإ ويُحسِّنُوا مايواقعونه من قبح. فعليه أن ينزل عن أخلاقه لأخلاق سلطانه، وما خالف سجيته فى إصـلاح زمانه؛ وأن ينزل عن هواه لهواه، ويتّبعَ فيما يَسْخَطه ويأباه، ما يُؤثره سلطانه ويرضاه. وينبغى أن لا يعرّض نفسَه لمـا يُسقِط منزلته ويُفْسد عاقِبتَه ولا يُوجِدَ للزمن طريقا إلىٰ التنكر له، ويُعينه بتفويق سِهامه والتصدّى لمواقعها. وقد علم أن الزمان وان عَمَّ بنوائبه فإنه يخصُّ صاحبَ السلطان منها بمـا يزيد على نصيب غيره. ومن أشق الأحوال أن يُدْفَعَ الإنسان إلىٰ تغير السلطان مع كون السبب فى ذلك شيئا جرّه إلىٰ نفسه بسوء اختياره، لمـا يجتمع عليه فى ذلك من مرارة النَّكْبة، وحرارة المَغَبَّة، وتقريع مَنْ يُزْرى علىٰ عقله، ويؤنِّبه بجهله.

ثم انه يلزمه بعد الاحتياط فيما تقدّم عدّة خصال أيضا.

منها الإخلاص وهو قِوَام الأمر فى المصاحبة؛ فإنَّ من صَحِب سلطانا بعقيدة مدْخُولة فى ولايته، مَشُوبة فى محبتـه، لم ينتظم له ولا لسلطانه أمر: لأن الضمائر المذوقة (١) والنيات السقيمة لا بد أن يصرِّح بمـا فيها ويظهرَ ما فى دخيلتها؛ وإذا اتضح ذلك للسلطان لم يقنع إلا بإتلاف نفسه، وإذهاب مُهْجته.

(١) لعله المذوقة. أى غير الخالصة من قولهم مذق فلان الودّ إذا لم يخلصه. تأمل.

ومنها النصيحة، وهى ترْب الإخلاص . والطريق الموصل إلى التوفية بها أن يُطالع السلطانَ بكل ما يفتقر إلى العلم به من خاصّ أموره وعامِّها؛ وعلى مَن آستخلصه السلطانُ لنفسه، وآئتمنه على رعيته، وأنطقه بلسانه، وأخذ وأعطى بيده، وأورد وأصدر برأيه، وتخيَّره لهذه المنزلة من بين رؤساء دولته وأعيان مملكته : أن لا يستر عنه دقيقًا ولا جليلا من أحوال ما فوّضه إليه، ولا يقف عن إنهاء تفاصيله وجُمَله توقِّيًا من لوم لائم، ولا يحمِله فرطُ النصح له على الإضرار برعيته، ولا الرغبةُ فى إثبات حقه على تضييع حقوقها، ولا القِيام بما يجب له دون ما يجب لها — فإنها به وهو بها .

ومنها الآجتهاد فيما يباشره من أحوال سلطانه بما يعود عليه نفعه بحيث لا يُبقِى فى ذلك ممكنا، ولا يدَع فيه شأْوًا للاحق .

ومنها كِتْمان السر . وهو من أفضل الآداب فى صُحْبة السلطان وغيره، وأعْودِها بالفلاح على صاحبها : لأن كثرة الآنتشار الداخل على الدول إنما توجَّه بتفريط بطائنها وصاحبها فى أسرارها، وإظهارهم بما تقرّر فى أذهان الملوك وعزائمهم قبل أن يظهروه؛ فيَجِد العدوّ بذلك الطريقَ إلى معالجة آرائهم بما ينقُضها، ومقابلتها بما يُفْسِدها . على أن إفشاء السر من الأخلاق التى طُبِع أكثرُ الناس عليها، وحِيل بينهم وبين الإقلاع عنها؛ فمن عَلِم من نفسه ذلك فليحذَر معاملة السلطان فى أسراره وبواطِن أموره، ولا سيما ما وُجِد منها فى باب حروبه ومكايده، فإنه إن ظُهِر منه على خيانة فى السر، عرض نفسه للهلكة .

ومنها الشُّكْر فانه وان كان واجبا على الإنسان مع أكفائه ونُظَرائه فانه مع السلطان الذى يَستظِلُّ بظله، ويستدرّ أخْلاف فَضْله أوجب . إذ المرء قد يقدر على مكافأة عارفة(١) صديقه بما يُضاهيها ويزيد عليها، ولا يقدِر على مكافأة سلطانه إلا

(١) العارفة المعروف كالعرف بالضم . قاموس .

بشُـكْر نعمته، والمحافظة علىٰ حقوق خدمتـه . ثم الشـكر بالقول يرتفع بين الرئيس والمرءوس، والخادم والمخدوم، إلا اليسير الذى يقضِى به حقُّ الخدمة : لأن الإكثار منه داخل فى حكم المَلَق والتثقيل؛ وإنمـا يظهر شُكر الخادم من أفعاله .

ومنها الوفاء . وهو من أهمِّ الخصال اللازمة وآكدِها؛ إذ هو الطريق إلىٰ صَلاح العباد وعِمارة البلاد؛ بل هو رأس مال الكاتب وربحُه ودوام عمله، والسبب الذى لأجله ترغَب السلاطين فى صحبته : لأنهم ما بَرِحوا يقرِّبون صاحب هذه الخَصْلة ويرَوْنه أهلا للاختصاص، موضـعًا للثِّقة؛ ولا أسوأَ حالا ممن نزل هذه المنزلةَ وهو بخلافها .

ثم الوفاء يكون بإظهار النصيحة، وبذل الاجتهاد، وقصدالمخالَصة، ومقابلَةَ كل نعمة تُفَاض عليه بالنهضة فيما آستند(١) اليه : ليدعوَ ذلك سلطانَه إلىٰ رَبِّ(٢) النعمة لديه، وإقرارها عليه .

ومن شروط الوفاء أن يلتزمه صاحبه لسلطانه، فى حال سعادته، وإقبال دولته، وفى حال تولِّيها عنه وعُطْلته . أمَّا فى حال إقبال الدولة عليه فأن يصحَبَه بقلبه دُون بدَنه ولا يتطلبَ صاحبا غيره ينتقل إلىٰ صحبته، ويستبدلُ بخدمتـه من خِدْمته؛ ولا يحدّث نفسَـه بأنه متىٰ وجد أنفع منه عدل إليه؛ ولا أن يرتِّبَ له جهة أخرىٰ يجعله مقدّمة لأمر يترقَّبه : لمـا فى ذلك كله من الخروج عن حدّ الإخلاص المقدّم وجوبه . وأما فى حال آنصراف الدولة عن صاحبـه، فإنه لا يباينه مباينَة المساعد للزمان عليـه، الموافِق للقادير فيه، ولا يخونُه عند حاجته إليه، ولا يُضيع حقوقَه عنده وصنائعَه لديه؛ ولا ينحاز بكُلِّيَّته إلىٰ من أقبلت أمور السلطان عليه؛ فإن ذلك

(١) فى الضوء . أسند . وهى أوضح .

(٢) أى زيادة النعمة .

ممـا يدل علىٰ خُبْث السجيَّة ومقابلتهـا علىٰ الإحسان بالإساءة ، وآستعمال العُقُوق ، وآطِّراح الحُقُوق .

ومنها مجانَبَة الإدْلال . إذ الدالَّة علىٰ السلطان والرئيس من أعظم مَصارع التَّلَف ، وأقرب الأشياء إلىٰ زوال النعم ، ولأجلها هلك مَنْ هلك من بِطانة السلطان وخاصته ووزرائه ؛ وفى قَصَصهم عِبْرة لمن أنعم النظر فى تأمُّلها . وعليه أن يعوّل فى الآعتداد بخِـدَمه ونصائحه له علىٰ آشتهارها وظهورها ، ولا يفيض فى تعديدها وذكرها ، ولا يواصل التثقيل بأغراضه والإلحافَ بأسئلته ، ولا يظهر التشحُّب عنـد التقصير به ، ولا الغضب اتِّكالا علىٰ سالِف خدمة ، وقليـل حرمة ؛ وأن يتناسىٰ ما أسـلفه من الخِـدْمة والصحبة ، ويكون فى كل حال عارفا بعوارفه ، معتدًّا بفواضـله ، موجبا الفروضَ له لاعليه ، فإن السلطان مجبول علىٰ أنفَة النفس وعِزَّتها ، ولا يحتمل التنازل لأحد : لتنزيله الكلَّ منازل الخَدَم والأرقَّاء ، وآعتقاده أنه سبب النعمة السابغة علىٰ الكافَّة ، وثقتِه بوجود العِوَض عمَّن يفقِدُه من الأعوان والأصحاب ، ومثابرة الناس علىٰ خدمته والآنتساب إلىٰ متابعته لمـا يصلون إليه من الحُظوة ، وينالونه من الجاه والثروة . وان كان فى باطن حاله علىٰ خلاف ما يؤثر ، أظهر الشكر والآعتداد وتلَطَّف فى بلوغ الغرض بأحسن تعريض ، ولم يطلق قلمَه كاتبا ، ولا لسانَه مخاطبا ؛ فإن ذلك إزراء علىٰ همة المصحوب ، ودلالة علىٰ إخلاله بتفقد الصاحب ، لكن يذكر النعمة وسُبُوغها ، والمِنَّة وشيوعها ، ويسأل الزيادة فيها ومضاعفتها . فإن ذلك يفضى ببلوغ آماله ، وسَدَاد أموره ، وسُهولة مطالبه . واذا زاده السلطان رِفْعة وتشريفا آزداد له تعظيما وتوقيرا . وإذا بسط يديه أن ينقبض عن كل مايَشِينه ، وإذا خَصَّه بأَثَرة وتقريب أن يزيد الخاصَّة والعـامّة بشرا وإيناسا ، وان آتهمه بهَفْوة لم يأته فى إقامة العُذْر والآحتجاج علىٰ براءة الساحة إلىٰ الغاية القُصْوىٰ . بل يتوسط فى ذلك ويسأل

من حُسْن الصّفح والإقالة وجميل التغمُّد(١) والعفو مايجعل للإحسان وجهًا ، ولتعقُّبه للسخط سببا . فإنه اذا صدع بالحجة فى براءة الساحة، فلا وجه لمعذرته وفيه تكذيب لرئيسه، وربمـا أدّى إلىٰ فساد ومُفاقَمة .

ومنها التمسك بآداب الخدمة بالمواظبة عليها، وصرفِ الاهتمام إليها ؛ إذ هى أعظم الذرائع إلىٰ نيل الرتب وبلوغ المآرب، والسبب الذى يقرّب البُعَداء، ويرفعهم علىٰ أهل الوسائل والحُرَم، وذوى المَوَاتّ(٢) والخَدَم ؛ ويُعمِى عن كل شَيْن، ويُصِمّ عن كل طعن . وما نال أحد عند السلطان مرتبةً إلا والمواظبة علىٰ خدمته سببُها والمواصلة موجِبُها . وأولىٰ الناس بلزوم السلطان كُتّابُه الذين لاغِنى به عن حُضورهم، فى ليله ونهاره، وأحيان شغله وفراغه : لأنه ربما بَدَهه ما يحتاج إلىٰ ٱستكفائه إيّاه وإسناده إليه، وإن تأخر عنــه فى تلك الحال ٱسـتدعىٰ من مَوْجِدته وٱستجرّ من لائمته مالا يُزِيله العذر إلا فى المدّة الطويلة . ورُبّمــا ٱضطُرّ لغَيْبته إلىٰ احضار من يستكفيه ماعَرَض له وأدّى ذلك إلىٰ ٱصطناعه وتصييره فى مَقامه وان كان لايساويه فى فضل ولا علم ولا غَناء، بخلاف ما إذا وجده مُسارعا إلىٰ أمثلته ؛ فإن ذلك يزيد فى حُظْوته، ويدعو إلىٰ ٱستخلاص مودّته .

فيجب عليه أن يخصّ سلطانَه من زمانه بالقِسم الأوْفَر، والنصيب الأغْزَر، ولا يُؤْثِر نيلَ لذةٍ عليه، ولا بلوغَ وَطَر إذا أدّى إلىٰ تنكُّره ؛ فإن ٱستطاع أن يوافقه علىٰ وقت يفرِضه له يتمكن فيه من بلوغ أوطاره، والوصول إلىٰ مَقاصده، كان أحمَدَ لعاقبته وأبلغ لقصده، وأحسَم لأسباب اللائمة فى غَيْبته . ولا يَنْهمِك فى الملاذّ ٱنهماكَ الآمن

(١) التغمُّد الستر من قولهم تغمده الله برحمته أى ستره .

(٢) جمع ماتّة — وهى الحرمة والوسيلة .

بل يقف عند الحدّ الذى يُبْقِى فيه فَضْلةً لعوارض السلطان ومُهِمَّاته الحادثةِ فى آناء الليل، وساعات النهار . فإن تعبه فى صلاح زمانه وراحة سلطانه مستَبْقٍ لِنعْمتِه ، مستَدْعٍ لزيادته . ولا يشتغل بكبير الأمور عن صغيرها ، ولا يبتهج بما أصلحه منها حتّىٰ ينظر فى عواقبه، ويسُوس ما رُدّ إليه بالسياسة الفاضلة : فَيلينُ فى غير ضَعْف ، ويشتدُّ فى غير عُنْف ، ويعفُو عن غير خَوَر، ويَسْطُو من غير جَوْر ، ويقرّب بغير تدله ، ويُبْعد بغير نُكر، ويخُصُّ فى غير مجازاة ، ويعُمُّ فى غير تضييع ، فلا يَشْــقى به المُحِقُّ وإن كان عدوّا، ولا يسعد به وإن كان وليا .

ومنها إذا حضر بين يدىْ سلطانه أو رئيسه فى المجلس الخاصّ أو العامّ أن يعتمد مقابلته بالإجلال والإعظام، والتوقير والإكرام، ولا يحمــله تأكد الخدمة وتطاوُل الصحبة علىٰ إهمال ذلك بل يحفظ رسْمَه ولا يغيِّر عادته .

ومنها أن يتخير لخطابه فى الأغراض والأوطار أوقاتاً يعلم خلو سِرِّه فيها، وفَرَاغ باله ، وٱنشراحَ صدره، وٱرتفاعَ الأفكار عن خاطره : إلا إن كان ما يخاطبه فيــه أمرا عائدا بانتظام سلطانه ، وٱستقامة زمانه، داخلاً فى مهمات أعمــاله التى متىٰ أخّرها نُسِب إلى التقصير، فيقدّم الكلام فيها خفّ أو ثقُل . وإذا خاطبه رئيسه من سلطان أو غيره فى أمر من الأمور ، فعليه أن يُرْعِيه عيْنَه ويُنصت إليه سمعَه، ويَشْغَل به فكره، ولا يستعمله فيما يعوقه عنه حتّىٰ يستوعب ما يلقيه إليه ، ويجيبه عنه أحسن الجواب . ولا يلتفت فى حال إقباله عليه إلى غيره، ولا يَصْغىٰ إلى كلام متكلم، ولا حديث متحدّث، حتّىٰ لو ٱمتحنه باستعادة ما فاوضه فيه وجده قد أحرز جميعه، فإن التقصــير فى ذلك ممــا ينكره الملوك والرؤساء، ويستدلُّون به علىٰ ضَعف المخاطَب . وإن كان فيما خاطبه فيه أمر يحتمل التأخير بادر بالٱعتــذار عنه : لئلا ينسب إلىٰ التقصير بتأخيره عنــد الكشف عنه، وإن كان فيه مايخالف الصواب

أمضاه؛ وإن تعـذر السبيلُ إلىٰ فعله لم يظهر التقاعُس عنـه لتخطئته، بل يقابله بالاستصواب . ثم يتلطف فى تعريفه مكان الخطإ فيما رآه .

ومنها أن يجرى فى الحال فى مجالســه علىٰ ما يعود بوفائه وإرادته . فإن مال إلىٰ الانبساط أطلق عِنَانه فيه إطلاقَ المتجنِّب للهُجْر والفُحْش، ورَفَث القول تابعًا لإيثاره، قاضيا لأوطاره . وإن أظهر الانقباض ذهب مذهَبَه فى ذلك، ولا ينبغى أن يخالفـه فى حال من أحواله، فإنّ من شروط هـذه الخدمة أن يتصرف صاحبها فى كل ما يُصرِّف فيه، ويُسرِعَ الانقيادَ إلىٰ كل ما يُدْعى إليه؛ ولا يكثر من الدعاء لرئيسه والثناء عليه والشكر علىٰ ما يوليه من العوارف فإن مثل ذلك يستثقل .

ومنها أن لا يحضُر سلطانَه فى ملابســه التى جرت العادة أن ينفرد بهـا كالوشى ونحوه؛ إلا أن يكون هو الذى يشرِّفه بها، وأن يقتصد فى لباسه : فينحطّ عما يلبَسُه سلطانه ويرتفع عما يلبسه السُّوقة، ويصرف عنايته إلىٰ التنظُّف والتعطُّر، وقطع الرائحة الكريهة من العَرَق وغيره، حتّى لاتقع عينُ رئيسه علىٰ دَنَس فى أثوابه، ولا يجدَ منه كريه رائحة فى حال دنوّه منه؛ ويواصل استعمال الطيب والبَخُور الفائق والتضمُّخ بالمسك؛ فإن الملوك ترىٰ أن مَنْ أغفل تعهُّد نفسه كان لغيرها أشدّ إغفالا .

ومنها أن يتجنب التفاصُح والتعمُّق فى مخاطبة رئيســه، والافتخارَ عليــه بالبلاغة والبيان : لمـا فى ذلك من الترفع عليه فى الكلام . بل يجعل ما يُلقيه إليه ضمن ألفاظٍ تدلُّ علىٰ معانيها بسهولة مع غضٍّ من صوته، وخفضٍ من طَرْفه، وسكونٍ من أعضائه : لأنه انما يُتَسامح بالإتيان بالفصاحة والذَّهاب بمذهب الجَزَالة للخطباء الذين يُثْنون علىٰ الملوك فى المواقف العـامّة ضرورةَ احتياجهم إلىٰ استعمال ألفـاظ تقع فى الأسماع أحسن المواقع .

ومنها أنه إذا تميز عند رئيسه وآرتفعت رتبته لديه أن يُجْمِل القول فى خاصَّته وعامَّته ، ويحسنَ الوَساطة لحاشيته ورعيته ، ويتجنبَ القدحَ عنــده فى أكفائه ونظرائه من بطانته ، والمقربين من حضرته ، ليكون ذلك داعيا إلىٰ محبته والثناء عليه مكافأةً له وإمساكِ الألسُن عن الطعن فيه .

ومنها أن يبادر إلىٰ المَشُورة عليه بالصواب فيما يستشيره فيه ، ويوردَه إيراد مستفيد لا مُفيد، ومتعلم لا معلِّم، ويتلطَّف فى أن يُوقِعه من نفسه موقعا يدعوه إلىٰ العمل به . فإنّ من عادة الملوك والرؤساء الأَنَفَةَ من الآنقياد إلىٰ ما ينتحله غيرهم من الآراء ولو كانت صائبة؛ وإن تمكَّن من صياغة حديث يودعه فيه فعل مخادَعة بذلك لنفسه الأبيَّة وعزَّته المتقاعسة .

الضرب الثانى
(آداب عِشرة الأكفاء والنُّظَـــراء)

قال علىّ بن خلف : ولا شك أنّ طريقة الآعتدال فى ذلك الموافاة فى الإخاء ، والمساواة فى الصَّفاء، ومقابلةُ كل حالة بما يُضاهيها . أما المسامحة بالحقوق والإغضاءُ عمن قصَّر ، والمحافظةُ علىٰ ودّ من فرّط ، فلا خلاف فى فضله والتمدّح بمثله ، لا سيما لمثل أهل هــذه الصناعة التى يرتفع حقُّ الآعتزاء اليها عن حقوق القرابات الدانية ، والأنساب الراسخة . ولذلك وقع فى كلام بعضهم « الكتابة نَسَب » . قال علىّ ابن خلف : والمعنىٰ فيه أن التناسبَ الحاصلَ بين أهلها تناسُبٌ نفسانىّ لاجِسمانىّ، يحصل عن تناسب الصور القائمة فى نفوسهم بالقوّة ، وعن تناسبها بعــد خروجها وظهورها من القوة إلىٰ الفعل ، بدليـــل ما نراه من آتفـاق خواطرهم علىٰ كثير من المعـانى التى يستنبطونها، وتوارُدِهم فيها . ولولا تناسُبُ الغرائز وتشابهها، لم يكن أن يتواطئُوا فى أكثر الأحوال علىٰ معانٍ متكافئة متوافية .

قال : "وإذا كنا نحفظ مَن مَتَّ إلينا بالأنساب الجسْميَّة التى لاتعارُف بينها فأولىٰ أن نحفظ مَن مَتَّ إلينا بالأنساب النفسانية التى يصح منها التعارف . ولذلك قال الحسن بن وهب : «الكتابة نفسٌ واحدة تجزأتْ فى أبدان متفرّقه» . وقال : لاعِبرة بمـا يقع بين بعضهم من التنافر والتباين، لأن المناسبة إنما تَقَع عند المساواة. أما من وقع دون رتبة الآخر من الفضيلة فليس بمناسب له فيصيرُ القاصِر حاسدا لمن فوقه، للتقصير الذى فيه" .

و بكل حال فإنه يجب عليه أن يعرف لأكفائه حقهم، و يحفظ مناسبتهم، ويتوخَّى مساهَمَتهم، و يتلقّاهم بالإكرام والتميز، ويجعلَهم فى أعلى المراتب عنده، و يزيدهم علىٰ الإنصاف ولا يقصِّربهم عمـا يستوجبونه ويستحقونه، ويخوّل بمثل ذلك نُظَراءه فى الرياســة من غير الكُتَّاب . وإن تعذر عليه الوصول إلىٰ ملتمَسهم أطاب قلوبهم بالوعد الجميل فى المستقبل، وآجتهد فى الوفاء به .

الضرب الثـالث

(آداب عِشــرة الأتبـاع)

قال علىّ بن خلف : وهى لاحقة بعِشرة الأكفاء: لأن الذين يستعينُ بهم الكاتبُ يُدْعَوْن كُتَّابا ولا يُدْعَوْن أعوانا، وانمـا الأعوانُ خُدّام الشُّرْطة ومَن يجرى مجراهم . قال : "وهم وإن كانوا أصحاب الكاتب ومرءُوسيه وأتباعَه، فاسم الكتابة يجمع بينه و بينهم، ومعاشَرتهم داخلة فى باب التكرم، والتفضـيل، والآستئثار بمحاسن الأفعال ومكارم الشيم" .

ثم قال بعد ذلك : "و ينبغى أن يخصَّهم بالنصيب الأوفر، من إكرامه، والقِسْم الأغْزَر، من ملاحظته وآهتمامه، و يفرض لهم من التقـديم والآختصاص وتفقد

الأحوال والشئون، والذى ينتهى اليه أمل المرءوس من الرئيس : ليجعل خِدْمتهم له بذلك خدمةَ مِقَة ومودّة، لاخدمةَ خوف ورهبة ؛ وأن يحبّب خدمته إليهم بترك مناقشتهم ، والتضييق عليهم ؛ وإنالتهم من الترفيه فى بعض الأوقات ما يجِدُون به السبيل إلىٰ الأخذ بنصيبٍ من لذاتهم وأوطارهم التى تميل النفوس إليها، وتتهافت عليها ؛ فإنهم متىٰ لحقهم التعب والنصَب، آعترضهم الضَّجَر والمَلَال، فقصّروا فى الأعمال، وتهاونوا بالأشغال؛ فلا بدّ لهم من راحة تصفو بها أذهانهم ويزول عنها الكَلَال ، ولا يفسح لهم فى مواصلة الراحة والإخلال بما يلزمهم ؛ فإن ذلك يحمل علىٰ سُوء العادة وقبح المذهب . وعليه أن يَحْفَظ لهم حقوقَ الصُّحْبة والخِدْمة ويُوجدهم من الإعانة مافيه صلاح حالهم ؛ فإنه يستعبِدُهم بذلك ويستخلص مودّتهم إذ القلوب مجبولة علىٰ حبّ من أحسن اليها " .

الضرب الرابع

(آداب عِشْرة الرعيــة)

قال آبن خلف : "وهو أمر عظيم النفع ، جسيم العائدة ، قاضٍ بالسلامة . إذ لا يطيب لأحدٍ عَيْش مع بُغض الرعية له ، ونفورهم عنه، وإن علت عندالسلطان رتبتُه، وآرتفعت طبقته، وظنّ بنفسه الآستغناء عنهم" . قال : "فينبغى أن يُوَفِّر العناية علىٰ آستصلاحهم له ، واستمالة أهوائهم إليه، ولين الجانب، ووَطَاءة الكَنَف(١) ، وخَفْض الجَناح، والبَسْط والإيناس وتألُّفهم : كما يوفرها علىٰ آستصلاح السلطان وسياسته ، لتصحَّ له رتبةُ آلتوسُّط بين الطبقتين ، ويسلَمَ من طَعْن الطاعن ، ولوم اللائم ، ويبرأ من البُغْض والشَّحْناء ، وينقُلَهم عما تسرع إليه الطِّباع الرديئة :

---

(١) أى دماثة الأخلاق كما يؤخذ من القاموس .

من الحسد والإيذاء إلىٰ التألُّف والمودّة . وقد أدّب الله تعالىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿ولو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ ” .

الضرب الخامس

(آداب عِشرة من يمُتُّ إليه بحُرْمة ، كالجار ، والقاصد ، والآمل ، والمُدِلّ بحقّ المُفاوضة ، والمطاعمة ، والمحاضرة ، والسلام والمعرفة فى الصِّبا ، والصداقة بين الآباء وغير ذلك من الحُرَم التى لايَطَّرِحها أهلُ المروءات)

قال ابن خلف : ” وينبغى أن يوفيهم حقوقَهم ، وينهضَ بما يسنَح من أوطارهم ومهمّاتهم ، ويعينَهم علىٰ ما يحـدُث من نوائب زمانهم ، ويُسْعِد فى بلوغ مَطَالبهم من سلطانهم ، ولا يَضِنّ عليهم بجاه ولا مال ، ولا يُخَيِّب أملَ آمِلهم ولا قصْدَه ، ويفرض لهم من إذعانه واعتنائه مايُعزُّ جانبَهم ، ويسَهِّل مآربهم ، ويكفّ الضيم والظلم عنهم ، ويبسُط العدل والإنصاف عليهم . فإنه اذا التزم ذلك لهم التزموا له الإعظامَ والإجلال ، وأطلقوا ألسنتهم بالثناء عليه ، والاعتداد بأياديه ، وأشاعُوا ذلك بين أمثالهم فاجتلبوا له مودّتهم وتعصُّبَهم له ” .

قلت : ومن تمام آداب الكاتب وكمالها أن يعرف حقوقَ مشايخ الصناعة وأئمتها الذين فتَحُوا أبوابها ، وذلَّلُوا سُبُلها ، وسهّلوا طرقها ؛ ويعاملَهم بالإنصاف فيما أعملوا فيه خواطرَهم ، وأتعبُوا فيه رَوِيَّاتِهم فيُنْزِلهم منازلهم ولا يَبْخسهم حقوقَهم . فمن آفات هــذه الصنعة علىٰ ذوى الفضــل من أهلها أن القاصر منهم لا يمتنع من ادّعاء منزلة المبرِّز بل لايُعْفيه من ادعاء التقدّم فى الفضــل عليه ، والمبرِّز فى الفضل لايقدر علىٰ إثبات نقص المتخلف ﴿واللهُ يَعْلَمُ المُفْسِدَ مِنَ المُصْلِحِ﴾ .

ثم أصل هذه الآداب الذى ترجع اليــه، ويَنْبُوعها الذى تفجَّرت منــه، رسالة عبد الحميد بن يحييٰ الكاتب، التى كتبها إلىٰ الكُتَّاب يوصيهم فيها . وهى :

أما بعدُ، حفِظكم اللهُ ياأهل صناعة الكتابة، وحاطكم ووفَّقكم وأرشدكم ! فإن الله عز وجل جعل الناس بعدَ الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين؛ ومِنْ بَعْدِ الملوك المكرمين أصنافًا، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً، وصَرَّفهم فى صُنُوف الصناعات، وضُرُوب المحاوَلات إلىٰ أسباب معايشهم، وأبواب أرزاقهم؛ فجعلكم معشرَ الكُتَّاب فى أشرف الجهات أهلَ الأدب، والمُروءة، والعلم، والرواية . بكُمْ تنتظم للخلافة محاسنُها، وتستقيم أمورُها؛ وبنصائحكم يصلحُ الله للخلق سلطانَهم، وتعْمُر بلادهم . لايستغنِى الملكُ عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم؛ فمَوْقِعُكم من الملوك مَوْقِعُ أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يُبْصِرون، وألسنتهم التى بها ينطِقون، وأيديهم التى بها يبطِشُون . فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم! ولا نَزَع عنكم ماأضفاه من النِّعمة عليكم! .

وليس أحدٌ أحوجَ إلىٰ آجتماع خِلال الخير المحمودة، وخصال الفَضْل المذكورة المعدودة، منكم أيُّها الكتّاب، إذا كنتم علىٰ مايأتى فى هـذا الكتّاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مُهِمَّات أموره أن يكون حليمًا فى موضِع الحلم، فهيما فى موضع الحُكْم، ومِقْداما فى موضع الإقدام، ومُحجِما(١) فى موضع الإحجام، مُؤْثرًا للعفاف، والعدل والإنصاف، كَتُوما للأسرار، وَفيًّا عند الشدائد، عالمـا بما يأتى من النوازل، ويضع الأمور مواضِعها، والطوارق أماكنها . قد نظر فى كل فنّ من فنون العلوم فأحكمه، فان لم يُحْكِمه أخذ منه بمقدار يكتفى به . يعرف بغَريزة عقله، وحُسْن أدبه، وفضل تجرِبته، مايرد عليه قبل وروده

(١) فى غير هذا الكتاب ومحْجاما .

وعاقبةَ مايَصْدر عنه قبل صدوره؛ فيعدّ لكل أمر عدّته وعَتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته . فتنافَسُوا يامعشر الكُتَّاب، فى صُنُوف الآداب، وتفقهوا فى الدِّين؛ وٱبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربيَّة فانها ثِقَاف ألسنتكم .

ثم أجيدوا الخَطّ فإنه حِلْية كتبكم، وارووا الأشعار، وٱعرفوا غريبَها ومعانيها؛ وأيامَ العَرَب والعجم، وأحاديثَها وسيرها؛ فان ذلك معين لكم علىٰ ماتسمُو إليه هِمَمُكم . ولا تضيِّعوا النظر فى الحِساب فإنه قِوام كُتَّاب الخراج؛ وٱرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيِّها ودنيِّها، وسَفْساف الأمور ومحَاقرها، فإنها مَذَلَّة للرقاب، مَفْسَدة للكُتَّاب؛ ونزهوا صِناعتكم عن الدَّناآت، وٱربَؤا بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات؛ وإياكم والكبرَ والصلف والعَظَمةَ، فإنها عداوة مجتلَبة من غير إحْنة، وتحابُّوا فى الله عز وجل فى صناعتكم، وتواصَوْا عليها بالذى هو أليق بأهـل الفضل والعدل والنُّبْل من سلفكم .

وإن نبا الزمان برجل منكم فٱعطِفُوا عليه وواسُوه حتّٰى يرجعَ إليه حاله، ويثوب إليه أمرُه؛ وإن أقعد أحدَكم الكِبَرُ عن مَكْسَبه ولقاء اخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، وٱستظهروا بفضل تجربته، وقِدَم معرفته . وليكن الرجل منكم علىٰ مَن ٱصطنعه وٱستظهر به ليوم حاجته إليه أحفَظَ منه علىٰ ولده وأخيه . فان عَرَضَتْ فى الشغل محمَدَة فلا يضيفها إلا إلىٰ صاحبه، وإن عرضت مَذَمّة فليحملها هو من دونه . ولْيحذر السَّقْطة والزلة والمَلَل عند تغيُّر الحال، فان العيب إليكم معشر الكتّاب أسرع منه إلىٰ القرّاء، وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم اذا صحبه الرجل، يبذُل له من نفسه مايجب له عليه من حقه؛ فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه، وشكره، وٱحتماله، وصبره، ونصيحته، وكتمان سرّه، وتدبير أمره، ماهو جزاء لحقه . ويصـدّق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والاضطرار إلىٰ مالديه .

فاستشعروا ذلكم وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء، والشدّة، والحرمان، والمواساة، والإحسان، والسراء، والضراء، فنعمت الشِّيمة هـذه لمن وُسِم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ! . فاذا وُلِّى الرجل منكم أو صُيِّر إليه من أمر خلق الله وعيـاله أمر، فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته ، وليكن علىٰ الضعيف رفيقا، وللمظلوم منصفا، فإن الخلق عيال الله وأحبهم اليـه أرفقهم بعياله . ثم لْيكُن بالعدل حاكما وللأشْراف مُكْرِما ، وللفىء موفِّرا، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألفا، وعن إيذائهم متخلفا، وليكن فى مجلسه متواضعا حليما، وفى سِجِلَّات خراجه ، وٱستقضاء حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه، فإذا عرف حَسَنَها وقبيحها أعانه علىٰ ما يوافقه من الحَسَن وٱحتال لصرفه عمـا يهواه من القبيح بألطف حيلة، وأجمل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رَمُوحا لم يَهِجْها اذا ركبها، وإن كانت شَـبُوبا اتَّقاها من قِبَل يديها ، وإن خاف منها شُرُودا توقّاها من ناحية رأسها ، وإن كانتْ حَرُونا قَمَعَ برفق هواها فى طريقها ، فإن ٱستمرت عطَفها يسيرا فيَسْلَسُ له قيادُها . وفى هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمن ساسَ الناس وعاملهم وخدَمهم وداخلَهم .

والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره، ويفهم عنه أو يخاف سَطْوته، أولىٰ بالرفق بصاحبه، ومداراته، وتقويم أوَده من سائس البهيمة التى لا تُحير جوابا، ولا تعرف صوابا، ولا تفهم خطابا، إلا بقـدر ما يصيِّرها اليـه صاحبها الراكبُ عليها . ألا فأمعِنوا رحمكم الله فى النظر، واعملوا فيـه ما أمكنكم من الروِيَّة والفِكْر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النَّبْوة، والٱستثقالَ والجَفْوة، ويصير منكم (١) الىٰ الموافقة ، وتصيروا منه الى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله تعالى .

(١) كذا فى الأصل . ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ

ولا يجاوزَنَّ الرجلُ منكم فى هيئة مجلسه وملْبَسه ومرْكَبه ومَطْعَمه ومَشْربه وبنائه وخَدَمه وغير ذلك من فنون أمره، قدرَ حقه . فإنكم مع ما فضَّلكم الله به من شَرَف صنعتكم خَدَمة لا تُحَمَّلون فى خدْمتكم علىٰ التقصير، وحَفَظَة لا تُحتمَل منكم أفعال التضييع والتبذير : وآستعينوا علىٰ عفَافكم بالقَصْد فى كل ما ذكرته لكم وقصَصْته عليكم . وآحذروا مَتَالف السرف، وسوء عاقبة التَّرَف؛ فإنهما يُعقِبان الفقر ويُذِلَّان الرِّقاب؛ ويفْضَحان أهلهما ولا سيَّما الكُتَّاب، وأرباب الآداب؛ وللأمور أشباه وبعضها دليل علىٰ بعض، فاستدلوا علىٰ مؤتَنَف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتُكم؛ ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحَها محَجَّة، وأصدَقَها حجَّة، وأحمدها عاقبة .

وآعلموا أن للتدبير آفةً مُتْلِفة — وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته؛ فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصدَ الكافى من منطقه، وليُوجِزْ فى آبتدائه وجوابه؛ وليأخذ بمجَامع حُجَجه؛ فإن ذلك مصلحة لفعله، ومَدْفَعة للتشاغل عن إكثاره . وليضْرَع إلى الله فى صِلَة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافَةَ وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه؛ فإنه إن ظن منكم ظانّ، أو قال قائل، إن الذى برز من جميل صنعته وقوّة حركته، إنما هو بفضل حيلته، وحسن تدبيره، فقد تعرّض بظنه أو مقالته إلىٰ أن يكِلَه الله عز وجل إلىٰ نفسه، فيصير منها إلىٰ غير كاف، وذلك علىٰ من تأمله غير خاف .

ولا يقُلْ أحد منكم إنه أبصَرُ بالأمور وأحملُ لعِبء التدبير من مُرَافقه فى صناعته ومُصاحِبه فى خدمته؛ فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب مَنْ رمى بالعُجْب وراء ظهره، ورأىٰ أن صاحبه أعقلُ منه وأحمدُ فى طريقته . وعلىٰ كل واحد من الفريقين أن يعرِف فضل نِعَم الله جلّ ثناؤه من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثُر

علىٰ أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيره، وحمدُ الله واجب علىٰ الجميع : وذلك بالتواضُع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدّث بنعمته" .

وأنا أقول فى كتابى هـذا ماسبق به المثل (مَن يلزم الصحة[1] يلزمه العَمَل) وهو جوهر هـذا الكتاب وغُرَّة كلامه، بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخرا وتممته به . تولانا الله وإياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولّى به مَنْ سبق علمُه بإسعاده وإرشاده! فإن ذلك اليه وبيده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الباب الرابع
من المقدّمة
فى التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء، وأصل وضعه فى الإسلام، وتفرّقه بعد ذلك فى الممالك؛ وفيه فصلان

الفصل الأوّل
(فى التعريف بحقيقته)

لا خفاء فى أنه ٱسمٌ مركَّب من مضاف وهو ديوان ومضاف اليه وهو الإنشاء ، أما الديوان فاسمٌ للوضع الذى يجلِس فيه الكُتَّاب وهو بكسر الدال . قال النحاس فى صناعة الكتاب "وفتحها خطأ" قال : "وأصله دِوّان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان" ويجمع علىٰ دواوين . وٱختلف فى أصله ، فذهب قوم الىٰ أنه عربىّ . قال النحاس : "والمعروف فى لغة العرب أن الديوان الأصل الذى يُرجَع اليه ويُعمَل

---

(١) فى نسخة النصيحة .

بما فيه" ومنه قول ٱبن عباس : « إذا سألتمونى عَنْ شَىْءٍ من غَرِيب القرآن فالتمسوه فى الشِّعْر فإن الشِّعر دِيوانُ العَرَب» . ويقال دوّنته أى أثبته وإليه يميل كلام سيبويه وذهب آخرون إلىٰ أنه عجمىّ وهو قول الأَصْمَعىّ وعليه ٱقتصر الجوهرىّ فى صحاحه، فقال الديوان «فارسىّ معرَّب» . وقد حكى المـاوَرْدىُّ "فى الأحكام السلطانية" فى سبب تسميته بذلك وجهين :

أحدهما — أن كِسرىٰ ذات يوم ٱطَّلع علىٰ كُتَّاب دِيوانه فى مكانٍ لهم وهم يحسُبون مع أنفسهم فقال "ديوانه" أى مجانين فسمِّى موضعهم بهذا الاسم ولزمه من حينئذ ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفا، فقيل ديوان وعليه ٱقتصر أبو جعفر النحاس فى صناعة الكتاب .

والثانى — أن الديوان بالفارسية ٱسم للشياطين، وسمِّى الكتَّاب بذلك لحِذْقهم بالأمور ووقوفهم علىٰ الجلىّ منها والخفىّ .

وأما الإنشاء فقد تقدّم أنه مصدر أنشأ الشىء ينشئه اذا ٱبتدأه وٱخترعه، وحينئذ فإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين :

أحدهما — أن الأمور السلطانية من المكاتَبَات والوِلَايات تُنْشأ عنه وتُبْتَدأ منه .

والثانى — أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالا . وقد كان هذا الديوان فى الزمن المتقدّم يعبر عنه بديوان الرسائل تسميةً له بأشهر الأنواع التى تصدر عنه لأن الرسائل أكثَرُ أنواع كتابة الإنشاء وأعمُّها، وربما قيل ديوان المكاتبات . ثم غلب عليه هذا الاسم وشُهِر به وٱستمرّ عليه إلىٰ الآن .

الفصـــل الثـانى

(فى أصل وضعه فى الإسلام وتفرّقه عنه بعد ذلك فى الممـالك)

اعلم أن هـذا الديوان أوّل ديوان وضع فى الإسلام؛ وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يُكاتب أُمراءه، وأصحابَ سَرَاياه من الصحابة؛ رضوان الله عليهم! ويكاتبُونه . وكَتَب إلىٰ مَن قَرُب من ملوك الأرض يدعوهم إلىٰ الإسلام؛ وبعث إليهم رُسـله بكُتُبه : فبعث عمرو بن أميَّة الضَّمْرىّ إلىٰ النجَاشىّ مَلِك الحبشـة، وعبـدَ الله بن حُذَافة إلىٰ كِسرى أبرويز ملك الفرس، ودِحيـةَ الكلبىّ إلىٰ هِرَقْل ملك الروم، وحاطِبَ بن أبى بَلْتعةَ إلىٰ المُقَوْقس صاحب مصر، وسَلِيطَ بن عمرو إلىٰ هَوْذةَ بن علىّ ملك اليمـامة ، والعَلاءَ بنَ الحضرمىّ إلىٰ المنـذر بن ساوىٰ ملك البحرين إلىٰ غير ذلك من المكاتبـات . وكتب لعَمْرو بن حزم عهـدًا حين وجَّهه إلىٰ اليمن . وكتب لتميم الدارىّ وإخوته بإقطاع بالشام . وكتب كتاب القَضِيَّة بعقد الهُدْنة بينه وبين قُرَيش عامَ الحديبية . وكتب الأمانات أحيانا . إلىٰ غير ذلك ممـا يأتى ذكره فى الاستشهاد به فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وهذه المكتوبات كلها متعلَّقها ديوان الإنشاء بخلاف ديوان الجيش ، فإن أوّل مَن وضعه ورتَّبه أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته .

علىٰ أنّ القضاعىّ قد ذكر فى تاريخه "عيون المعارف . وفنون أخبار الخلائف" أن الزبير بن العوّام، وجُهَيم بن الصَّلْت كانا يكتبان للنبى صلى الله عليه وسلم أموالَ الصَّدَقات، وأن حُذَيفة بن اليمان كان يكتب له خَرْص النخل، وأن المُغيرة بن شُعبة والحُصَين بن نُمَير كانا يكتبان المدايَنَات والمعاملات . فان صح ذلك فتكون هـذه الدواوين أيضا قد وُضِعت فى زمنه صلى الله عليه وسلم، إلا أنهـا ليست فى الشهرة وتواتُر الكتابة فى زمانه صلي الله عليه وسـلم : كما تقدّم من متعلَّقات كتابة الإنشاء .

وقد رأيت فى سِــيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبيّ صلى الله عليه وســلم نَيِّفٌ وثلاثون كاتبا : أبو بكر الصــدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعليّ بن أبي طالب، وعامر بن فُهَيرة، وخالد بنُ سعيد بن العاص بن أمية، وأبانٌ أخوه، وســعيد أخوهما، وعبد الله بن الأرقم الزُّهرىّ، وحنظلة بن الربيــع الأســدى، وأُبَىّ بن كعب، وثابت بن قيس بن شَمَّاس، وزيد بن ثابت، وشُرَحْبِيل بن حَسَنة، ومعاوية بن أبى سُفيان، والمُغيرة بن شُعبة، وعبدُ الله بن زيد، وجُهَيْم بن الصَّلْت، والزُّبير بن العوّام، وخالد بن الوليــد، والعَلَاء بن الحضرمىّ، وعمرو بن العــاص، وعبدُ الله بن رَوَاحة، ومحمد بن مَسْلمة، وعبد الله بن عبد الله بن أُبَىّ، ومُعَيقب بن أبى فاطمة، وطلحة بن زيد بن أبى سفيان، والأرقم بن الأرقم الزُّهرىّ، والعلاء بن عُتْبة، وأبو أيوب الأنصارىّ، وبُرَيدة بن الحصيب، والحصين بن نمير، وأبو سَلَمة المخزومىّ، وحُوَيطب بن عبد العُزّى، وأبو سفيان بن حرب، وحاطب بن عمرو، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح؛ وكان ألزمَهم له فى الكتابة معاويةُ بن أبى سفيان، وزيدُ بن ثابت .

وكتب لأبى بكر عثمانُ بن عفَّان، وزيدُ بن ثابت؛ وعثمانُ هو الذى كتب عهدَ عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه بالخلافة عن أبى بكر رضوان الله عليه كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وكتب لعمر رضى الله عنه زيدُ بنُ ثابت، وعبد الله بن خَلَف .

وكتب لعثمان رضى الله عنه مَرْوانُ بن الحكم .

وكتب لعلى عبدُ الله بن أبى رافع مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وســلم، وسعيد ابن نَجْرانَ الهَمْدانىّ .

وكتب للحسن بن علىّ رضى الله عنهما عبدُ الله بن أبى رافع كاتب أبيه .

ثم كانت دولة بنى أمية فتوالت خلفاؤهم من معاوية بن أبى سفيان فمن بعده ، وأمْر ديوان الإنشاء فى زمن كل أحد مفوَّضٌ إلىٰ كاتبٍ يُقيمه إلىٰ حين آنقراض دولتهم . وكان الخليفة هو الذى يوقِّع على القِصَص ويُحْدثها بنفسه ، والكاتب يكتُب مايَبْرُز إليه من توقيعه ويصرِّفه بقلمه على حُكْمه . وكان ممن اشتهر من كُتَّابهم بالبلاغة وقوة المَلَكة فى الكتابة حتّٰى سار ذكره فى الآفاق ، وصار يُضرَب به المثَل علىٰ ممرّ الأزمان عبد الحميد بن يحيىٰ كاتب مروان بن محمد آخرِ خلفائهم .

فلما بزغتْ شمس الخلافة العباسية بالعِراق ووَلِى الخلافة أبو العبَّاس السَّفَّاح أوّل خلفاء بنى العباس ، آستوزر أبا سلمة الخَلَّال . وهو أوّل من لُقِّب بالوزارة فى الإسلام علىٰ ما سيأتى ، وتوالت الوزراء بعده لخلفاء بنى العباس من يومئذ . وكان ديوان الإنشاء تارة يُضاف إلىٰ الوزارة ، فيكون الوزير هو الذى ينفذ أموره بقلمه ، ويتولّٰى أحواله بنفسه ، وتارة يُفْرَد عنه بكاتب ينظر فى أمره ، ويكون الوزير هو الذى ينفذ أموره بكلامه ، ويصرِّفها بتوقيعه علىٰ القِصَص ونحوها ؛ وصاحب ديوان الإنشاء يعتمد مايرد عليه من ديوان الوزارة ، ويمشى علىٰ ما يُلقىٰ إليه من توقيعه ؛ وربما وقَّع الخليفة بنفسه حتّٰى بعد غلبة ملوك الأعاجم من الديلم وبنى سلجوق وغيرهم علىٰ الأمر والأمر علىٰ ذلك تارة وتارة إلىٰ آنقراض الخلافة من بغداد .

وكان ممن آشتهر من وُزرائهم بالبلاغة حتّٰى صار يضرَب به المثل يحيىٰ بن خالد وزير الرشيد ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مَسْعَدة كاتب المأمون ، وآبن المقفَّع مترجم كتاب "كليلة ودمنه" ، وسَهْل بن هرون الذى ترجمها ، والأستاذ أبو الفضل آبن العميد ، والصاحب كافى الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد ، وأبو إسحاق الصابى فى جماعة آخرين منهم .

ثم لما آنقرضت الخلافة من بغدادَ فى وقعة هُولاكُو ملك التتار فى سنة (ست وخمسين وستمائة) وآستولت المغل والأعاجم علىٰ بغداد، بطل رسم الكتابة المعتبرة وصار أكثر ما يُكْتَب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسية ؛ والأمر علىٰ ذلك إلىٰ زماننا علىٰ ماسيأتى بيانه فى الكلام علىٰ دواوين الأمصار فى المكاتَبات والوِلايات وغيرهما إن شاء الله تعالىٰ .

وكانت بلاد الغرب والأندَلُس بأيدى نُوَّاب الخلفاء من حين الفتح الإسلامىّ فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، ولا عنايةَ لهم بديوان الإنشاء للتقرّب من البَدَاوة، وغايته المكاتبة إلىٰ ديوان الخلافة ونحو ذلك ؛ فلما غلب بَنُو العباس علىٰ الخلافة هرب طائفة من بنى أمية إلىٰ بلاد المغرب ، وجازت البحر إلىٰ الأندَلُس فآنتزعوه من النوّاب الذين كانوا به وملَكوه، وصاروا يَنْصِبون فيه خليفة بعد خليفة، جارين علىٰ سَنَن ما كانوا عليه بالشأم من ألقاب الخلافة، مضاهين لخلافة بنى العباس ببغداد : من إقامة شِعار الخلافة، واتخاذ ديوان الإنشاء، وآستخدام بُلَغاء الكُتَّاب وتعدّت دولتهم إلىٰ برّ العُدوة من بلاد المغرب فحكموه . ثم تقاصر أمرهم بعد ذلك شيئا فشيئا باستيلاء المستَوْلين المستبدّين عليهم بالأمر إلىٰ أن آنقرضت دولتهم من الأندلس وبلاد المغرب، وآستولت عليهما طوائف من الملوك وتنقلت بهم الأحوال فى آستيلاء الملوك علىٰ كل ناحية منهما ، وتتابعت الدول فى كل حين كلما خَبَتْ دولة نَجَمَتْ أخرىٰ علىٰ ما سيأتى ذكره فى مكاتبات ملوكهما إن شاء الله تعالى .

وكان حال ديوان الإنشاء فيهم بحسب ما يكونون عليه من الحَضَارة والبَدَاوة ، فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لاعناية لهم بكتابة الإنشاء، وإذا آستَحْضَرت الدولةُ صرفت آهتمامها إلىٰ ديوان الإنشاء وترتيبه إلىٰ أن استقرّ ما بقى من الأندلس بعد ما آرتجعته الفرنج منه بأيدى بنى الأحمر، والغربُ الأقصىٰ بيد بنى مرِين ،

والغربُ الأوسطُ بيدِ بنى عبد الواد، وإفْرِيقيَّة بيد بقاياَ الموحدين من أتباع المهدىّ ٱبن تُومَرت؛ وداخلَتْهم الحَضَارة، فأخذوا فى ترتيب دواوين الإنشاء بهذه الممالك، ومعاناة البلاغة فى المكاتبات ونحوها؛ وٱستمرّ الحال علىٰ ذلك إلىٰ زماننا .

وممن ٱشتهر بالبلاغة من كُتَّاب المغاربة والوزراء به أبو الوليد بن زَيْدون، والوزير أبو حفص بن برد الأصغر الأندلسىّ، وذو الوزارتين أبو المغيرة بن حزم، والوزير أبو القاسم محمد بن الحد فى جماعة أخرىٰ من متقدّمى كتابهم . ومن متأخريهم عبد المهيمن كاتب السلطان أبى الحسن المرّينى، وأربىٰ علىٰ كثير من المتقدّمين ٱبن الخطيب وزير ٱبن الأحمر صاحب غَرْناطة من الأندلس ممن أدركه من عاصرْناه .

أما الديار المصرية فلديوان الإنشاء بها خمسُ حالات :

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه مِن حينِ الفتح وإلىٰ بداية الدولة الطُّولونيَّة، ونُوَّاب الخلفاء تتوالىٰ عليها واحدا بعد واحد فلم يكن لهم عنايةٌ بديوان الإنشاء، ولا صرفُ همة إليه : للاقتصار علىٰ المكاتبات لأبواب الخلافة، والنزر اليسير من الولايات ونحو ذلك . ولذلك لم يصدُر عنهم مايُدوّن فى الكتب ولا يتناقل بالألسنة .

الحالة الثانية — ما كان الأمر عليه فى الدولة الطولونيَّة من ٱبتداء ولاية أحمد بن طُولون، وٱستفحال مُلْك الديار المصرية فى الإسلام، وترتيب أمرها، وإلىٰ حين ٱنقراض الدولة الاخشيديه؛ وفى خلال ذلك ترَتَّبَ ديوان الإنشاء بها، وٱنتظم أمر المكاتبات والولايات؛ وكان ممن ٱشتهر من كُتَّابهم بالبلاغة وحُسْن الكتابة، أبو جعفر محمد بن أحمد بن مَوْدود بن عبد : كان كاتبَ أحمد بن طولون، وكان مبدأَ الكُتَّاب المشهورين بها . وكتب بعده لخمَارويُه بن أحمد بن طولون إسحٰقُ بن نصر العبادىّ النصرانىّ، وتوالت الكُتَّاب بالديوان بعد ذلك .

الحالة الثالثة — ما كان الأمر عليه من ٱبتداء الدولة الفاطمية و إلىٰ ٱنقراضها .

ولمـا وَلِيَ الفاطميون الديارَ المصرية ، صَرَفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكُتّابه ، فارتفع بهم قدرُه ، وشاع فى الآفاق ذكره ، ووَلِي ديوان الإنشاء عنهم جماعةٌ من أفاضل الكُتّاب وبلغائهم : ما بين مسـلِمٍ وذمىّ ؛ فكتب للعزيز بالله ٱبن المعز أبو المنصور بن سوردين النصرانىّ ، ثم كتب بعده لٱبنـه الحاكم ومات فى أيامه ، فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر البهزكىّ ، ثم كتب بعده لٱبنه الظاهر . وكتب للستنصر القاضى ولىُّ الدين بن خيران ، ثم ولىُّ الدولة موسىٰ بنُ الحسن قبل ٱنتقاله إلىٰ الوزارة ، وأبو سعيد العميدىّ . وكتب للآمر والحافظ الشيخُ الأجلُّ أبو الحسن علىّ بن أبى أسامة الحلبىّ إلىٰ أن تُوفِّى سنة ٱثنتين وعشرين وخمسمائة . فكتب بعده ولدُه الأجلُّ أبو المكارم إلىٰ أن توفِّى فى أيام الحافظ ؛ وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرّآسـة أبو القاسم علىّ بن سليمان بن منجد المبصرى المعروف بابـن الصيرفىّ ، والقاضى كافى الكُفَاة محمود ٱبن القاضى الموفَّق أسعد بن قادوس ، وابن أبى الدم اليهودىّ . ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسـامة المتقدمِ ذكره القاضى الموفَّق ٱبن الخَلّال أيامَ الحافظ ، و إلىٰ آخر أيام العاضد ؛ وبه تخرّج القاضى الفاضل البَيْسانى . ثم شَرَّك العاضدُ مع الموفَّق ٱبنِ الخَلّال فى ديوان الإنشاء القاضىَ جلالَ الملك محمودَ بن الأنصارى وكان فى أيامه القاضى المؤتمن كاسيبويه . ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفَّق ابن الخلّال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة فى وزارة الملك النـاصِر صـلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدّة سجلّات ومكاتبَات عن العاضد آخرِ خلفائهم .

الحـالة الرابعة — ما كان الأمر عليـه من ٱبتـداء دولة بنى أيوب إلىٰ آخر انقراضها .

قد تقدّم أن القاضيَ الفاضلَ رحمه الله كان قد كتب بين يدَي الموفَّق ٱبن الخلَّال في وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين، فلما ٱستقلّ السلطان صلاح الدين المذكور بالمُلْك وخَطَب لبني العبَّاس علىٰ ما تقدّم في الكلام علىٰ ملوك مصر، فوّض إلىٰ الفاضل الوزارةَ وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيهما جميعا، وأقام علىٰ ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين، فكتب بعده لٱبنه العزيز وأخيه العادل أبي بكر. ثم مات؛ وكتب للكامل بن العادل القاضي أمينُ الدِّين سليمانُ المعروف بكاتب الدَّرْج إلىٰ أن توفِّي، فكتب بعده للكامل الشيخُ أمين الدين عبد المُحْسن الحلبي مدّةً قليلة؛ وتوالت كتّاب الإنشاء في الولاية إلىٰ أن ولي الملك الصالح نجم الدين أيوبُ فولّى ديوانَ الإنشاء الصاحبَ بهاءَ الدين زُهيرا. ثم صرفه وولَّى بعده الصاحبَ فخر الدين إبراهيم بن لقمان الإسْعَرْدِيَّ؛ فبقَى إلىٰ ٱنقراض الدولة الأيوبية.

الحالة الخامسة — ما كان الأمر عليه في الدولة التركية مما هو مستقِرّ إلىٰ الآن.

قد تقدّم أن الصاحبَ فخر الدين بنَ لقمان بقَي في ديوان الإنشاء إلىٰ آخر الدولة الأيوبيــة.

ولمـا صارت المملكة إلىٰ الدولة التركيــة، بقي في صَحَابة ديوان الإنشاء أيام أيبك التركماني، ثم أيام المظفَّر قطز، ثم أيام الظاهر بيبرس، ثم أيام المنصور قلاوون. فبـاشر ديوان الإنشاء في أيامه مدّةً، ثم نقله إلىٰ الوزارة، وولّى مكانه بديوان الإنشـاء القاضيَ فتح الدين بنَ القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في حياة والده، فبقي حتّى توفي المنصور قلاوون، وٱستقرّ بعده ٱبنه الأشرف خليل، وٱستمرّ عنده في كتابة السرّ برهة من الزمان وسافر معـه الى الشام، فمـات بالشام فولّى الأشرفُ مكانَه القاضيَ تاج الدين أحمد بن الأثير، وقفل السلطانُ راجعا إلىٰ مصر، فمـات

القاضى تاجُ الدين فى أثنـاء الطريق بمضىّ شهر من ولايتـه ، فولّى مكانه القاضىَ شرف الدين عبدَ الوهاب بنَ فضلِ الله فأقام بقية أيام الأشرف بن قلاوون ، وأيامَ أخيـه الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الأُولىٰ ، وأيامَ العادل كتبغا ، وأيام المنصور لاچين ، وأيامَ الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، وأيامَ المظفر بيبرس الجاشنكير ، وبرهةً من أيام الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثالثة .

ثم نقله إلىٰ كتابة السرّ بدمشق المحروسـة عوضًا عن أخيه القاضى محيى الدين بن فضل الله ، وولّى مكانه بمصر علاء الدين بن الأثير لسابق وعدٍ له منه حين كان معه فى الكَرَك ، وبقى حتّى مرض بالفالج وبطلت حركته ، فٱستدعىٰ الملك الناصر القاضىَ محيى الدين بن فضـل الله من الشأم ، فولّاه ديوان الإنشاء بالديار المصرية فى المحرم سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

وكان ولدُه القاضى شهابُ الدين هو الذى يقرأ البريد علىٰ السلطان وينَفِّذ المهمَّات إلىٰ سـنة ٱثنتين وثلاثين وسبعمائة فأعادهما الملك الناصر إلىٰ دمشق ، وولّى مكانهما القاضى شرف الدين بن الشهاب محمود فى شعبان من السنة المذكورة ، فبقى حتّى حَجَّ السلطان وعاد إلىٰ مصر ، فأعاد القاضى محيى الدين وَوَلَده القاضى شهاب الدين إلىٰ ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، فبقيا إلىٰ سنة ثمـان وثلاثين وسبعمائة .

وفى أواخر ذلك تغير السلطان علىٰ القاضى شهابِ الدين المذكـور وصَرَفه عن المباشَرة وأقام أخاه القاضىَ علاءَ الدين مكانَه يباشر مع والده ، وبقى الأمر علىٰ ذلك مدّة لطيفة .

ثم سأل القاضى محيى الديـن السلطان فى العود إلىٰ دمشق ، وقد كَبِرتْ سنُه وضعُفتْ حركته ، فأعاده وصحبتُه ولدُه القاضى شهابُ الدين وكتب له تقليد فى قطع

الثَّلُثين : بأن يستمرّ علىٰ صَحابة دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية، وأن يكون جميعُ المباشرين لهـذه الوظيفة بالبـاب الشريف فَمَنْ دونَه نُوَّابَه ، وأنه حيث حلّ يقرأ القِصَص والمظالم ، ويقرِّر الولاياتِ والعزلَ والرواتبَ وغير ذلك ، ويوقِّع فيها بمـا يراه، وتُجهَّز إلىٰ مصر ليعلَّم عليها العلامةُ الشريفة؛ وفوّض أمر ديوان الإنشاء بالديار المصرية لولده القاضى علاء الديـن آستقلالا ، وتجهَّز القاضى محيي الدين للسفر، فمرض ومات بعد أيام قلائل فى شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بالقاهرة . ثم نُقل إلىٰ دمشق سـنة تسع ، وبقِي ولده القاضى علاء الدين فبقى فى الوظيفة بقية أيام الملك الناصر، ثم أيامَ ولده المنصور أبى بكر، ثم أخيه الأشرف كجك، ثم أخيه الملك الناصر أحمد .

فلما خَلَع الناصر أحمدُ نفسَــه فى سنة ثلاث وأربعين وتوجه إلىٰ الكَرَك ، توجه القاضى علاءُ الدين معه ، فأقام عنده ؛ وآستقرّ الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون فى السلطنة بعد أخيه أحمد ، فقرّر فى ديوان الإنشاء القاضىَ بدرَ الدين محمد بن محيي الدين بن فضل الله ، فبقى فى الوظيفة إلىٰ أن عاد أخوه القاضى علاءُ الدين من الكَرَك ، فأعِيد إلىٰ منصِـبه ، وبقِي بقيةَ أيام الملك الصالح إسماعيل ، ثم أيامَ أخيه الكامل شعبان ، ثم أيام أخيه المظفَّر حاجِّى ، ثم أيامَ أخيه الناصر حسن فى سلطنته الأولىٰ، ثم أيام أخيـه الصالح صالح، ثم أيام النـاصر حسن ثانيا، ثم أيام المنصور محمد بن حاجِّى بن محمد بن قلاوون ، ثم أيام الأشرف شـعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون فتُوفِّى؛ وولى الوظيفةَ بعده ولدُه القاضى بدرُ الدين محمد، فبقى بقيةَ أيام الأشرف شعبان ، ثم أيام ولده المنصور علىّ، ثم أيامَ أخيه الصالح حاجى بن شعبان إلىٰ أن خُلِـعَ ؛ وجاءت الدولة الظاهرية برقوقِ فقرّر فى ديوان الإنشاء القـاضىَ أوحد الديـن عبدَ الواحد بن التركمانى ، فبقى حتّى تُوُفِّى فأُعيد القاضى بدرُ الدين

المذكور وبقى حتّى خُلِـع الظاهر برقوق وعاد المنصور حاجّى بن الأشرف شـعبان إلىٰ السلطنة وهو مستمرّ المباشرة .

فلما عاد الظاهر برقوق من الكَرَك حضر معه القاضى علاءُ الدين علىّ الكَرَكى ، فولّاه كتابة السرّ وبقَى حتّى توجه صُحبة السلطان إلىٰ الشام فى طلب مِنْطاش ، فمات القاضى علاء الدين ، وكان القاضى بدر الدين صحبتَه فأُعيد إلىٰ الوظيفة فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وعاد مولًى صحبةَ الركاب الشريف السلطانىّ . ثم توجه صحبتَه إلىٰ الشـام عند وُصُول تمر لبغداد ، فمرض ومات هناك ، فولّى الظاهرُ مكانَه القاضىَ بدر الدين محمود السراى الكلستانىّ فى شوّال سـنة ست وتسعين وسبعمائة ؛ وحضر صُحبةَ الركاب الشريف إلىٰ الديار المصرية ، فبقى حتّى تُوُفِّى فى جُمادىٰ الأولىٰ سنة إحدىٰ وثمانمائة ، فولّى الظاهر مكانَه المقرّ العالى الفتحى فتْح الله ، ففتح اللهُ به من أبواب ديوان الإنشاء ما كان مُغْلَقا ، وأصفىٰ به مِن وِرْده ما كان مكدَّرا .

وآنتقلت السلطنة بعد وفاة الظاهر برقوق إلىٰ ولده الناصر فرج ، فأجراه من المباشرة والإجلال والتعظيم علىٰ عادة أبيـه . ثم صرفه عن الوظيفة فى شهور سـنة ثمان وثمانمائة ، وأقام مكانه فى الوظيفة المَقَرّ السعدىّ إبراهيم بن غراب ، وهو يومئذ مشير الدولة بعد تنقله فى وظائف الديار المصرية والمشارُ إليه . وأقام بها مدّة لطيفة ، وعادت إلىٰ المَقَرّ الفتحىّ فتح الله المشار إليه ، وقيل : ﴿ هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ فجرىٰ فيها علىٰ الأُسْلوب الأوّل والمَهْيَع السابق : من العدل والإنصاف ، والإحسان إلىٰ الخلق ، وإيصال البرّ إلىٰ مستحقيه ، والمساعدة فى الله لمن عَرَف ومن لم يعرِف ؛ والله هو المـكافئ لعباده علىٰ جميل الصنع !

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لم يَعْـدَمْ جَوازِيَه * لَنْ يَذْهَبَ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والناس

الباب الخامس
من المقدّمة
فى قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله، وآداب أهله؛ وفيه أربعة فصول

الفصل الأوّل
(فى بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله ولقبه الجارى عليه فى القديم والحديث)

أما رِفْعة محله وشرفُ قدره، فأرفعُ محل وأشرفُ قدر، يكاد أن لا يكون عند الملك أخصُّ منه ولا ألزمُ لمجالسته؛ ولم يزل صاحب هذا الديوان معظَّما عند الملوك فى كل زمن، مقدَّما لديهم علىٰ من عداه : يُلْقون إليه أسرارهم، ويُخُصّونه بخفايا أمورهم، ويُطْلعونه علىٰ مالم يطَّلع عليه أخص الأخصاء: من الوزراء والأهل والولد، وناهيك برتبةٍ هذا محلها !

قال صاحب موادّ البيان "ليس فى منزلة خَدَم السلطان والمتصرِّفين فى مهماته أخصُّ من كاتب الرسائل . فإنه أوّل داخل علىٰ الملك وآخرُ خارج عنه، ولا غِنًى له عن مفاوضته فى آرائه، والإفضاء اليه بمهمانه، وتقريبه من نفسه فى آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه علىٰ حوادث دولته ومهمّات مملكته؛ فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثِقَتَه به، ولا يركَنُ إلىٰ قريب ولا نسيب رُكونَه إليه، ومحلُّه منه فى عائدة خدمته وأثَرة دولته محلُّ قلبه الذى يؤامره فى مشكل رأيه حتّى يتنقحَ، ويراجعُه فى مهمّ تدبيره حتّى يتضح؛ ولسانِه الذى يقرّر بترغيبه أولياءَه على الطاعة والموافقة، ويستقر(١) بترهيبه عن المعصية والمشاقَقَة، ويقر بأوامره

(١) كذا فى الأصل ولعله مصحف عن يُنفّر . أو يستنفر كما يقتضيه المقام .

ونواهيه أمور سلطانه، ويُنْزلها منازلها فى متمهد مجالسها، ويتمكن من سياسة أجناده، وعِمارة بلاده، ومصلحة رعيته، وآجتلاب مودّتهم، وآستخلاص نياتهم؛ وعينِه التى تلاحظ أحوال سلطانه، ويُرْعيها مهمات شانه؛ وأذنه التى يثق بماوَعَتْه، ولا يرتاب بما سمعتْه؛ ويده التى يبسُطُها بالإنعام، ويبطِشُ بها فى النقض والإبرام" .

قال : ومن كانت هذه رتبتَه فالسبب الذى رتَّبه فيها أفضلُ الأسباب، وأجدرها بالتقديم علىٰ الاستحقاق والآستيجاب .

قال ابن الطوير فى ترتيب الدولة الفاطمية "وكان هـذا المنصِب لا يتولّاه فى الدولة الفاطمية إلا أجلُّ كتّاب البلاغة، ويُخاطَب بالأجلّ، وإليه تسلَّم المكاتَبة واردة مختومة فيَعْرِضها علىٰ الخليفة من يده؛ وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها وربما بات عند الخليفة ليالىَ؛ وهذا أمر لا يصل إليه غيره" . قال "وهو أوّل أرباب الإقطاعات فى الكِسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلىٰ ديوانه أحد ولا يجتمع بأحد من كتّابه إلا الخواص؛ وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمَخَادّ والمُسْنَد، والدواة العظيمة الشأن؛ ويحمل دواته أستاذ من خواصّ الخليفة عند حضوره إلىٰ مجلس الخلافة" .

قلت : ومرتبته فى زماننا أرفع مرتبة، ومحله أعظم محل؛ إليه تلقىٰ أسرارُ المملكة وخَفَاياها، وبرأْيه يُستضاء فى مشكلاتها، وعلىٰ تدبيره يعوّل فى مهماتها، وإليه تَرِدُ المكاتبات، وعنه تصدر؛ ومن ديوانه تُكْتَب الولايات السلطانية كافّة، ويقوم توقيعُه علىٰ القِصَص فى نفوذ الأوامر مَقَامَ توقيع السلطان؛ وجميعُ ما يعلِّم عليه السلطان من جليل وحقير فى مرتبته حتّى ما يُكْتَب من ديوان الجيش من المناشير، وما يُكْتَب من ديوان الوزارة وديوان الخاصِ وغيرهما من المُرَبَّعات ونحوها . وليس

لأحد من المتولين لهذه المناصب التعرُّضُ لأخذ علامة سلطانيّة البتةَ ، وناهيك بذلك رفعةً وشرفا باذخًا .

وأمّا لَقَبه الجارى عليه فى كل زمن فقد تقدّم أنهم كانوا فى زمن بنى أُمَيَّة وما قبله يعبّرون عنه بالكاتب ، لا يعرفون غير ذلك كما أشار اليه القُضاعىُّ فى "عيون المعارف" . فلما جاءت الدولةُ العباسيَّة ، وآستقر السَّفَّاح أوّلُ خلفائهم فى الخلافة ، لقَّب كاتبَه أبا سلمة الخَلَّال بالوزارة وترك اسم الكاتب ؛ وآستقرّ لقب الوزارة علىٰ مَنْ يليها من أرباب السيوف والأقلام إلىٰ انقراض الخلافة من بغداد . وتقدّم أيضا أن هذا الديوان كان تارة يضاف إلىٰ الوزارة فيكون الوزير هو الذى يباشره بنفسه أو يفوّضه إلىٰ مَنْ يتحدّث فيه عنه ، وتارة ينفرد عنها ، فحيث آنفرد عن الوزارة لُقِّب متوليه بما يتضمن إضافته إلىٰ صحابة الديوان وولايته بحسب ما يشتهر به الديوان فى ذلك الزمن .

فحيث كان الديوان مشهورا بديوان الرسائل ، كما كان فى الزمن الأوّل ، لقِّب متوليه بصاحب ديوان الرسائل أو متولِّى ديوان الرسائل ، وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات ، أو متولِّى ديوان المكاتبات ، وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الإنشاء كما فى زماننا بالديار المصرية لُقِّب متوليه بصاحب ديوان الإنشاء . وربما جمعوا لفظ الديوان تعظيما لمتوليه ، فقالوا صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية . وعلىٰ هذا مصطلَح كُتَّاب الديوان فى زماننا فى تعريفه فيما يكتب له من تقليد أو غيره ؛ علىٰ أنه لو قيل ناظر دواوين الإنشاء لكان أعلىٰ فى الرتبة لما آشتهر فى العرف من أن لفظ ناظر الديوان أعلىٰ من صاحب الديوان .

قال ابن الطوير : "وكانوا يلقبونه فى الدولة الفاطمية بالديار المصرية كاتب الدَّسْت" .

قلت : وٱنتهى الأمر إلىٰ أوائل الدولة التركية والحـال فى ذلك مختلف، فتارة يلى الديوان كاتبٌ واحد يعبر عنه بكاتب الدَّسْت، وربمـا عُبِّر عنه بكاتب الدَّرْج، وتارة يليه جماعةٌ يعبر عنهم بكُتَّاب الدَّسْت . ويقال إنهم كانوا فى أيام الظاهر بيبرس ثلاثة نفر، أرفعُهم درجةً القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر. وبقى الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أن ولىَ الديوانَ القاضى فتحُ الدين بن عبد الظاهر فى أيام المنصور قلاوون علىٰ ما تقدّم ذكره، فلُقِّب بكاتب السر، ونقل لقب كاتب الدَّست إلىٰ طبقة دُونَه من كُتَّاب الديوان . وٱستمر ذلك لقبًا علىٰ كل من وَلِىَ الديوان إلىٰ زماننا علىٰ ماسيأتى ذكره . ويضاهيه فى ذلك من العُرْف العامّ متولى ديوان الإنشاء بدمشق، وبحلب، وبطرابلس، وبحمـاه، وبصَفَد؛ إلا أنه لا يقال فى واحد منهم فى مصطَلَح الديوان صاحب دواوين الإنشاء كما يقال فى متولى ديوان الإنشاء بالديار المصرية؛ بل يقال فى متولى ديوان دمشق صـاحب ديوان الإنشاء بالشام، وفى متولى ديوان حَلَب صاحب ديوان المكاتَبَات بحلب، وكذا فى الباقيات . أما غَزَّة، والكَرَك، والإسكندرية وغيرُها من النيابات الصِّغار فإنمـا يقال فى متولى شئ من دواوينهـا كاتب دَرْج ولا يطلق عليه كاتب سرّ بوجه .

وٱعلم أن العامة يبدلون الباء من كاتب السِّرّ بميم فيقولون كاتم السر، وهو صحيح المعنىٰ إما لأنه يكتُم سِرَّ الملك، أو من باب إبدال الباء بالميم علىٰ لغة ربيعة وان كانوا لا يعرفون الثانى .

الفصـــل الثـانى

(فى صفة صاحب هذا الديوان وآدابه)

قال أبو الفضل الصورى فى مقدّمة تذكرته : "يجب أن يكون صبيحَ الوجه، فصيحَ الألفاظ، طَلْق اللسان، أصيلًا فى قومه، رفيعا فى حَيِّـه، وَقُورا، حليما

مُؤْثِرا للجِدّ على الهزل، كثير الأَناة والرفق، قليلَ العَجلة والخُرْق، نَزْر الضحك، مَهيب المجلس، ساكن الظِّل، وَقُور النادى، شديدَ الذَّكاء، متوقد الفهم، حَسَن الكلام إذا حدَّث، حسن الإصغاء إذا حُدِّث، سريعَ الرضا، بطىء الغضب، رءُوفا بأهل الدين، ساعيا فى مصالحهم، محبًّا لأهل العلم والأدب، راغبا فى نفعهم؛ وأن يكون محبا للشُّغْل أكثر من محبته للفراغ، مقسِّما للزمان على أشغاله : يجعل لكل منها جزءا منه حتّى يستوعبه فى جميع أقسامها، ملازما لمجلس الملك إذا كان جالسا، وملازما للديوان إذا لم يكن الملك جالسا : ليتأسّى به سائر كتّاب الديوان، ولا يجدوا رخصة فى الغيبة عن ديوانهم ؛ وأن يُغَلِّب هوى الملك على هواه ورِضاه على رضاه — مالم يرِ فى ذلك خللا على المملكة، فإنه يجب أن يُهْدِى النصيحة فيها للملك من غير أن يُوجده فيما تقـدّم من رأيه فسادا أو نقصا، لكن يتحيل لنَقْص ذلك وتهجينه فى نفسه وإيضاح الواجب فيه بأحسن تأنٍّ وأفضل تلطف؛ وأن يَنْحَل الملك صائبَ الآراء ولا ينتحلها عليه؛ ومهما حدث من الملك : من رأيٍ صائب أو فعل جميل أو تدبير حميد، أشاعه وأذاعه، وعظمه ونخمه، وكرر ذكره، وأوجب على الناس حمدَه عليه وشكره . وإذا قال الملك قولا فى مجلسه أو بحضرة جماعة ممن يخدُمه فلم يره موافقا للصواب، فلا يَجْبَهْه بالرد عليه واستهجان ما أتى به — فان ذلك خطأ كبير؛ بل يصبر الى حين الخلوة ، ويُدخل فى أثناء كلامه ما يوضِّح به نهجَ الصواب من غير تلقٍّ بردّ، ولا يتبَجَّح بما عنده، ويكون متابعا للملك على أخلاقه الفاضلة، وطِباعه الشريفة : من بَسْط المَعْدَلَة ومدّ رُوَاق الأَمَنة، ونَشْر جَنـاح الإنصاف، وإغاثةِ الملهوف، ونُصْرة المظلوم، وجَبْر الكسير، والإنعام على المُعْتَرِّ المستحق، والتوفُّر على الصدقات، وعِمـارة بيوت الله تعالى، وصَرْف الهِمَم الى مصالحها، والنظرِ فى أحوال الفقهاء، وحَمَلة كتاب الله العزيز بما يَصْلُح، والالتفاتِ الى عِمـارة البلاد، وجِهاد الأعداء،

ونشر الهيبة، وإقامة الحدود فى مواضعها، وتعظيم الشريعة، والعمل بأحكامها. فيكون لجميع ذلك مؤكِّدا، ولأفعاله فيــه موطِّدا ممهِّدا. وإن أحسَّ منه بخَلَّةٍ تُنافى هذه الخِلالَ، أو فَعْلةٍ تخالف هذه الأفعال، نقله عنها بألطف سَعْى وأحسن تدريج، ولا يَدَعُ ممكنا فى تبيين قُبْحها، وإصــلاح رداءة عاقبتها، وفضـيلة مخالفتها إلا بينه وأوضحه الى أن يعيــده إلى الفضائل التى هى بالملوك النبــلاء أليقُ، وأن يكونَ مع ذلك بأعلى مكانة من اليَقَظة والاستدلال بقليلِ القول على كثيره، وببعض الشيء على جميعه، ويستغنى عن التصريح بالإشارة والإيماء، بل الرمز والإيحاء: لينبه الملك على الأمور من أوائلها، ويعرّفه خواتم الأشياء من مُفْتَتَحاتها، ويحذِّره حين تبــدو له لوائح الأمر من قبل أن يتساوى فيه العالم والجاهل — كما حكى عن خالد بنِ برمك: "أنه كان مع قَحْطَبَةَ فى معسكر، جالسين فى خَيْمة إذ نظر خالد إلى سِرْب من الظباء قد أتى حتّى كاد يخالط العســكر، فأشار على قحطبةَ بالركوب فسأله عن السبب، فقال الأمر أعجل أن أبيِّن سببه. فركب وأركب العسكر، فلم يستتمُّوا الركوب إلا والعدوّ قد دهمهم، وقد استعدّوا له فكانت النُّصرة لهم على العدوّ. فلمــا انقضى الحربُ سأل قَحْطَبةُ خالدا من أين أدرك ذلك؟ فقال: رأيت الظِّباء وقد أقبلَتْ حتّى خالطت العسكر، فعرفتُ أنهــا لم تفعل ذلك مع نُفورها من الإنس إلا لأمر عظيم قد دهمها من ورائها". وأن لا يكتب عن الملك إلا ما يقيم مَنَار دولته ويعظِّمها، ولا يخرج عن حكم الشريعة وحدودها؛ ولا يكتبُ ما يكون فيه عيب على المملكة ولا ذمٌّ لها على غابر الأيام، ومستأنَف الأحقاب؛ وإن أمر بشيء يخرُج عن ذلك، تلطَّفَ فى المراجعة بسببه، وبيَّن وجه الصواب فيه إلى أن يرجع به الى الواجب. وأن يكون من كتمان السر بالمنزلة التى لا يُدانيه فيها أحد، ولا يقاربُه فيها بشر، حتّى يقرّر فى نفسه إماتةَ كلِ حديث يعلمه، ويتناسى كلَّ خبر يسمعه. وأن لا يُطْلِع والدا

ولا ولدا، ولا أخا شقيقا، ولا صديقا صَدُوقا، علىٰ ما دَقَّ أو جلَّ؛ ولا يُعْلمه بما كثُر منه ولا قلَّ؛ ويتوهم بل يتحقق أنّ فى إذاعته ما يَعْلم به وَضْعَ منزلته وحَطَّ رتبته، ويجتهد فى أن يصير له ذلك طَبْعا مركَّبا وأمرا ضروريًّا .

قلت : وهذه الصفة هى الشرط اللازم، والواجب المحتَّم : بها شُهِر، وبالإضافة إليها عُرِف . وقد قال المأمون وهو من أعلىٰ الخلفاء مكاناً، وأوسعهم علما : "الملوك تحتملُ كلَّ شيء إلا ثلاثة أشياءَ : القَدْح فى الملك، وإفشاءُ السِّر، والتعرّضُ للحُرَم".

ومن كلام بعض الحكماء : "سرُّك من دمِك" قال صاحب العقد : يعنُون أنه ربَّما كان فى إفشاء سرك سَفْكُ دمك . وإلى ذلك يشير أبو مِحْجَن الثقفىّ بقوله :

قد أطْعَنُ الطَّعْنة النَّجْلاءَ عَنْ عُرُضٍ * وأكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبةُ العُنُقِ

وقال الوليد بنُ عتبة لأبيه : "إن أمير المؤمنين أسرّ إلىّ حديثًا أفلا أُخْبِرك به ؟ قال يا بُنىّ : إنَّ مَن كَتَمَ سرَّه كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه ؛ فلا تكُنْ مملوكا بعد أن كنتَ مالكا" . وقد كانت ملوك الفرس تقول "أعظمُ الناس حقًّا علىٰ جميع الطَّبَقات مَن وَلِيَ أسرار الملوك" .

وٱعلم أنه إذا كان إفشاء السر ربما أفضىٰ إلى الهَلَكة خصوصا أسرارَ الملوك، فعلىٰ صاحب هذه الوظيفة القيامُ من ذلك بواجبه وكتمانُ السِّر حتّٰى عن نفسه ؛ فقد حكى صاحب "الرَّيحان والرَّيعان" : أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظَ السر، فقال عبد الله :

ومُسْتَوْدِعِى سِرًّا تَضَمَّنْتُ سَتْره * فأوْدَعْتُه فى مُسْتَقَرّ الحَشَا قَبْرا

فقال ٱبنه عبيد الله، وهو صبىّ :

وما السِّرُّ من قَلْبي كَثاوٍ بحُفْرةٍ * لأنّى أَرى المَدْفُونَ يَنْتَظِرُ الحَشْرَا
ولٰكِنَّنِي أُخْفِيهِ حتّٰى كأنّني * مِنَ الدَّهرِ يَوْمًا ما أَحَطْتُ به خُبْرَا

وعلى صاحب هـذه الرتبة الاحتياط حالة تلقّي السرّ عن الملك بأن لا يتلقّاه عنه بحضرة أحد . فقد حكى أنّ بعض ملوك العجم آستشار وزيريه ، فقال أحدهما : " لا ينبغى للملك أن يستشير منّا أحدا إلا خالياً فإنه أصونُ(١) للسّرّ وأحْزَم للرأى وأجدرُ بالسلامة وأعفى لبعضنا من غائلة بعض ، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أوثقُ من إفشائه إلى آثنين و إفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ، لأن الواحد رَهْن بما أُفْشِى اليه . والثانى مُطْلق عليه ذلك الرهن . والثالث علاوة ، واذا كان السر عند واحد كان أحْرَى أن لا يُظْهره رغبةً أو رَهْبَةً ، و إن كان عند آثنين كان على شبهة وآتسعت عن الرجلين المعاريض(٢) ، فان عاقبهما عاقب آثنين بذنبِ واحد ، و إن آتهمهما آتهم بريئا بجناية مُجْرِم ، و إن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما ولا ذَنْب له ، وعن الآخر ولا حجةَ معه " .

قلت : وكما يجب عليه الاحتياط حالة تلقّي السر عن الملك فكذلك يجب عليه الاحتياط حالة إلقائه إلى كاتب يكتُبه ، فلا يلقيه إلى كاتبين جميعا ، ولا يخاطب فيه أحدَهما بحضرة الآخر لتكون العهدة فى دَرَكه على واحد بعينه . على أنه ربما أُفْشِىَ السر مع آحتراز صاحبه عن إفشائه ، فقد قيل : إن الجنّ تنقل الأخبار ، وتُفْشِى ماتَطَّلع عليه من الأسرار . وقد حكى عن علىّ بن الجَهْم أنه قال : دخلتُ على أمير المؤمنين المتوكّل فرأيت الفتح بن خاقان وزيرَه واقفا على غير مرتبته التى يقوم عليها ، متكئا على سيفه ، مُطْرِقا إلى الأرض فأنكرت حاله ، وكنت إذا نظرت اليه نظر الخليفة إلىّ ، و إذا صرفت وجهى إلى نحو الخليفة أطرق ؛ فقال لى الخليفة ياعلىّ أنكرت شيئًا ؟ — قلت نعم يا أمير المؤمنين ! — قال : ماهو ؟ — قلت : وقوف الفتح بن خاقان فى غير منزلته ، — قال : سوء آختياره أقامه ذلك المقام ، — قلت :

---

(١) فى الأصل أموت . وهو تصحيف ظاهر .

(٢) لعل الأظهر علىّ .

ما السبب ياأمير المؤمنين ؟ — قال : خرجتُ من عند جارية لى فأسررت إليه سِرًّا فما عدانى السرُّ أن عاد إلىّ . — قلت لعلك أسررت الى غيره، — قال : ما كان هذا ! — قلت فلعل مستمعا آستمع إليكما، — قال لا ولا هذا أيضا. قال فأطرقت مليًّا ثم رفعت رأسى، فقلت : ياأمير المؤمنين قد وجدت له مما هو فيه مخرجا . — قال وما هو؟ — قلت : خبر أبى الجوزاء، حدثنا أبو نُعَيم الفضلُ بن دُكَيْنٍ قال حدّثنا المعتمر بن سليمان عن أبى الجوزاء قال : طلقت آمرأتى فى نفسى وأنا بالمسجد ثم آنصرفت إلىٰ منزلى، فقالت لى آمرأتى : طلقتنى ياأبا الجوزاء ! قلت من أين لك هذا ؟ قالت حدّثتنى به جارتى الأنصاريّة قلتُ : ومِنْ أينَ لها هذا؟ قالت ذكرتْ أنَّ زوجها خَبَّرها بذلك قال : فغدوت علىٰ آبن عباس رضى الله عنهما فقصصْت عليه القِصَّة فقال : أمَا علمت أن وَسْواس الرجل يحدّث وَسْواس الرجل ؟ فمن هنا يفشو السر، فضحك المتوكل، وقال إلىّ يا فتحُ ! فصَبَّ عليه خِلعة، وحمله علىٰ فرس، وأمر له بمال، وأمر لى بدُونِه فانصرفت إلىٰ منزلى، وقد شاطرنى الفتح فيما أخذ فصار إلىّ الأكثرُ .

قال أبو نعيم وكان فى نفسى من حديث أبى الجوزاء شىء حتّى حدّثنى حمزة آبن حبيب الزيات . قال : خرجت سنةً أريد مكة فبينا أنا فى الطريق إذ ضلّت راحلتى فخرجت أطلُبها فإذا أنا بآثنين قد قبضا علىّ أُحِسُّ حِسَّهما ولا أرى شخصهما بل أسمع كلامهما، فأخذانى إلىٰ شيخ قاعِد وهو حَسَن الشَّيْبة فسلمت عليه فردّ علىّ السلام فأفرخ رَوْعى (١) . ثم قال من أين والىٰ أين ؟ قلت من الكوفة إلىٰ مكة . قال : ولِمَ تخلَّفت عن أصحابك ؟ قلت ضلَّتْ راحلتى فجئت أطلُبها، فرفع رأسه الىٰ قوم عنده، وقال : أَنِيخوا راحِلتَه، فأُنِيختْ بين يدَىَّ . ثم قال : تقرأ القرآن؟

(١) فى الأصول بالجيم وهو تصحيف . وصوابه بالخاء المعجمة يقال أفرخ روعه أى زال فزعه . أنظر القاموس .

قلت نعم . قال فاقرأ ، فقرأت حم الأحقاف حتى أتيت ﴿وإذْ صَرَفْنَا إلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجِنِّ﴾ فقال مكانك ، أتدرى كم كانوا ، قلت لا . قال كُنَّا أربعة : وكنتُ أنا المخاطِبَ عن النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، فقلت : ﴿ياقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ﴾ ثم قال أتقول الشعر ؟ قلت لا . قال فترْويه ؟ قلت نعم . قال هاته، فأنشدته قصيدة زُهَير بن أبى سُلْمىٰ "أَمِنْ أُمِّ أوفى" فقال لمن هذه؟ قلت لزهير بن أبى سُلْمىٰ قال الجنيّ ؟ قلت لا بل الإنسيّ . ثم رفع رأسه الى قوم عنده ، فقال ائتُونى بزهير فأُتِيَ بشَيخ كأنه قِطعة لحم فأُلْقِي بين يديه — قال يا زهير — قال لبيك ! قال "أمن أم أوفى" لمن هى؟ قال لى — قال هذا حمزة الزيات يذكر أنها لزُهَيْر بن أبى سُلْمىٰ؛ قال : صدق وصدقتُ ، قال وكيف هذا ؟ قال هو إلفى من الإنس وأنا تابعه من الجنّ، أقول الشيء فألقيه اليه فى فهمه و يقول الشيء فآخُذ عنه،فأنا قائلها فى الجنّ وهو قائلها فى الانس . قال أبونعيم : فصدق عندى حديثُ أبى الجوزاء أن وَسْواس الرجل يحدّث وَسْواس الرجل .

الفصـــل الثـالث

(فيما يتصرف فيه صاحبُ هذا الديوان بتدبيره، ويصرِّفه بقلمه، ومتعلّق ذلك اثنا عشرَ أمرًا)

الأمر الأوّل

(التوقيـــع والتعيين)

أما التوقيع فهو الكتابة علىٰ الرِّقاع والقِصَص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبـات فى الأمور المتعلقة بالمملكة ، والتحدّث فى المظالم ؛ وهو أمر جليـل ، ومنصب حفيل، إذ هو سبيل الاطلاق والمنْع ، والوصل والقطْع ، والولاية والعزل

إلىٰ غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السَّنِيَّة . وٱعلم أن التوقيع كان يتولاه فى ٱبتداء الأمر الخلفاءُ، فكان الخليفة هو الذى يُوقِّع فى الأمور السلطانية ، وفصل المظالم، وغيرهما .

الأمر الثانى

(نظره فى الكُتُب الواردة عليه)

قال أبو الفضل الصورىّ : "كان الواجب أن لا يقرأ الكُتُبَ الواردة علىٰ الملك إلا هو بنفسه ، ولما كان ذلك متعذرا عليه لوُفُورها ، وٱتساع الدولة ، وكثرة المكاتِبين من أصناف أرباب الخِدَم ، ووُصُول الكُتُب إليه من الأقطار النائية ، والممالك المتباعدة ، وضِيق الزمان عن تفَرُّغه لذلك ، وجب تفويضه إلىٰ متولِّى ديوان رسائله". قال : "ولما كان حال متولى صاحب الديوان كذلك لٱشتغاله بالحُضُور عند الملك فى بعض الأوقات لقراءة الكتب الواردة ، وتقرير ما يُجاب به عن كل منها ، مع شَغْله بتصَفُّح ما يكتَب فى الديوان والمقابلة به ، ٱحتاج أن يردّ أمْرَها إلىٰ كاتب يقوم مَقامَه" علىٰ ما سيُذكر فى صفات كُتَّاب الديوان فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الأمر الثالث

(نظره فيما يتعلق بردّه الأجوبة عن الكُتُب الواردة علىٰ لسانه)

قال أبو الفضل الصورىّ : "ومن أهم ما يلزم صاحبَ هذا الديوان إشعارُ الملك ما يراه من الآراء الصائبة ويعلمه أنّ من أعظمها خَطَرا أن يُصْدَر جواب كل كتاب يصل إليه فى يومه ولا يؤخرَه إلىٰ غَدِه ويؤرّخ فى آخره بتاريخ ذلك اليوم" فيقال "وكُتِب فى يوم وُصُول كتابك ، وهو يوم كذا" فإن ذلك يقيم للملِك هيبة كبيرةً ، ويدل

علىٰ تطلّعه للأمور، وٱنتصابه للتدبير، وقلة إهماله لأمور دولته، وكثرة احتفاله باستقامة شُئونهـا، ويؤثّر فى نفس المكاتَبين تأثيرا كبيرا، ويستشعرون منه حَذَرا وخِيفة".

قال: "وينبغى أن يأخذ جميعَ أرباب الخِدَم فى البلاد بتاريخ كُتُبهم ويحذّرَهم من ترك ذلك؛ فإن فى إهمـاله ضررا كبيرا من حيث إنه إذا ورد غير مؤرّخ لم يعلم بُعْدُ العهد بما ذكر فيه من قُرْبه، ولا هل فات وقت النظر فيما تضمّنه أم لا؛ وإذا كان مؤرّخا عرف ذلك وزالت الشبهة فيه، وإذا وصل اليه كتاب ٱقتضى تاريخه زيادة زمنٍ علىٰ مسافة الطريق، أنكر ذلك علىٰ حامله فإن خرج عن العهدة بإقامة الحجـة علىٰ أنه لم يتأخر به قدرا زائدا علىٰ مسافة طريقه، وأن العذر من تقدّم التاريخ قبل إرساله، أنكر ذلك علىٰ مرسله إنكارا يردَعُه عن ذلك ويزجُره عنه.

الأمر الرابـــع

(نظره فيما تتفاوت به المراتب فى المكاتَبات والوِلايات: من الٱفتتاح والدعاء، والألقاب، وقطع الورق ونحو ذلك)

وقد كان هذا الباب فى الزمن المتقدّم فى غاية الضّبْط والتحرير، خصوصًا فى زمن الخُلَفاء من بنى العبـاس والفاطميين؛ لا يُزاد أحد فى الألقاب علىٰ مالقّبه به الخليفة كبيرا كان أو صغيرا، ولا يُسمَح له بزيادة الدعوة الواحدة فضلا عما فوقها. أما الآن فقد صار ذلك موكولا إلىٰ نظر صاحب ديوان الإنشاء ينزل كل أحد من المكاتَبين وأرباب الوِلايات مَنْزِلتـه علىٰ مايقتضيه مصطلَح الزمان من عُلو وهُبوط؛ وحينئذ فعليــه أن يحتاط فى ذلك ويؤاخِذَ كُتّاب الإنشاء بالمشاحّة فيه، والوقوف عند ماحُدّ لهم من غير إفراط ولا تفريط. فقد قال صاحب موادّ البيان: "إن الملوك تسمَح ببَدَرات المال، ولا تسمَحُ بالدعوة الواحدة" وناهيك بذلك تشديدا وٱحتياطا.

الأمر الخامس

(نظره فيما يُكتَب من ديوانه وتصفُّحه قبل إخراجه من الديوان)

قال أبو الفضل الصورى : "علىٰ متولِّى الديوان أن يتصفح ما يُكتَب من ديوانه من الوِلايات والمَنَاشِير والمُكاتَبات ؛ إذ الكاتب غير معصوم من الخطإ واللحن وسبق القلم ؛ وعيب الإنسان يَظْهر منـه لغيره مالا يَظْهَر له ، فما أبصَره من لحن أو خطإ أصلحه ونبه كاتبه عليه فيحْذَر من مثله فيما يستأنِفُه ، فإنْ تكرر منه زجَره عن ذلك ، ورَدَعه عن العَوْد إلىٰ مثله ؛ إذ الغرض الأعظم أن يكون كلُّ ما يُكتَب عن الملك كاملَ الفضيلة خطًّا ولفظًا ومعنًى وإعراباً حتّٰى لايجد طاعن فيه مَطْعَناَ ، فربما زَلَّ الكاتب فى شيء فيَزِل بسببه متولِّى الديوان . بل السلطان . بل الدولة بأسرها . قال : فإذا فرغ من عَرْض الكتاب والوقوفِ عليه ، كتب عليه بخطه ما يدلُّ علىٰ وقوفه عليه ليكونَ ملتزما بدَرَكه " .

وكأنه يشير إلىٰ ماتقدّم من كلامه : من أنه إن كان رسالة كتب عنوانها بخطه ؛ وإن كان منشوراً ونحوه ، كتب تاريخه بخطه .

ثم قال : " فان كان متولِّى الديوان مشتغلا بحُضُور مجلِس السلطان ومخاطَبَاته والتلَقِّى عنه ، ولا يمكنه مع ضِيق الزمان توفيةُ كلِّ ما يُكتَب بالديوان حقَّ النظر فيه وتصفُّحُ ألفاظه ومعانيه ، نصب له فى ذلك نائبا كاملَ الصنعة حسَنَ الفِطْنة موثوقًا به فيما يأتى ويذَر ، يقوم مَقامه فى ذلك " . قال : " وليس ذلك لأنه يغنى عن نظر متولى الديوان ، ولكن ليتحمل عنه أكثرَ الكل ويصيرَ اليـه وقد قارب الصحةَ أو بلغها فيحصُل علىٰ الراحة من تعبها ، ويصرف نظره إلىٰ ما لعله خفى علىٰ المتصفح من دقائق المعانى وعَويص المَدارك (١) ، فيقلُّ زمنُ النظر عليه ، ويظْفَر بالغرض المطلوب فى أقربِ وقت " .

(١) العويص بالعين المهملة وهو ما يعسر فهمه . وإعجامه فى الأصول تصحيف .

الأمر السادس

(نظره فى أمر البريد ومتعلقاته، وهو من أعظم مهمات السلطان، وآكد روابط الملك)

قال زياد لحاجبه : "وَلَّيتك حِجابى وعزلتك عن أربع : هذا المنادِى إلىٰ الله فى الصلاة والفَلاح فلا تَعُوجَنَّه عنى ، ولا سلطان لك عليه ؛ وصاحبُ الطعام، فإن الطعام اذا أُعيد تسخينه فسدَ؛ وطارقُ الليل فلا تحجُبْه فشَرٌّ مَّاجاء به، ولو كان خيرا ما جاء فى تلك الساعة ؛ ورسولُ الثَّغْر ، فإنه ان أبطأ ساعة أفسد عمل سنةٍ فأدْخِلْه علىّ ولو كنت فى لِحافِى" . وقد تقدّم أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذى يتلقّى المكاتبات الواردة ويقرؤها علىٰ السلطان ويجاوبُ عنها، فيجب علىٰ صاحب هذه الوظيفة أن يكون متيقِّظا لما يَرِدُ على السلطان من نواحى ممالكه وقاصيات أعمالِه فإنه المعتمد عليه فى ذلك والمعوَّل عليه فى أمره .

وقد كان أمرُ البريد فى الزمن المتقدّم والدواداريَّةُ يومئذ أمراء صغار وأجناد معدّون لصاحب ديوان الإنشاء، تخرج رسالة السلطان علىٰ لسان بعض الدوادارية بما يرسُم به لمن يركب البريد فى المهمات السلطانية وغيرها ويأتى بها إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء فيعلق رسالته على ما تقدّم فى تعليق الرسالة ويعمل بمقتضاها . وكان للبريد ألواح من نُحاس كلُّ لوح منها بقدر راحة الكَفِّ أو نحوها منقوشٌ علىٰ أحد وجهَيْه ألقابُ السلطان ، وعلىٰ الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله أَرْسَلَه بالهُدىٰ ودينِ الحقِّ ليُظْهِرَه علىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ولَوْ كَرِه المُشْرِكُون. وفى رقبته شُرَّابةٌ من حرير أصفر يجعلها راكب البريد فى عنقه ويرسل اللوح على صدره علامة له . فإذا حضرت الرسالة إلىٰ كاتب السر دفع إلىٰ البريدىّ لوحا من تلك الألواح وكتب له ورقة بخطه إلىٰ أميراخور البريد بالإصطبل الساطانىّ بما تبرُز به الرسالة من الخيل،

ويكتبُ آسمَه فى آخر الكتاب الذى يُنْفَذ معه بين السطور، ويختِم الكتاب، ويُسَلَّم اليه، ويكتب له ورقة طريق بالتوجه إلىٰ جهة قصده، وحَمْلِه علىٰ ما رُسِم له به من خيل البريد علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ كتابة أوراق الطريق، ويترك آسمَه وتاريخ سَفرِه، والجهةَ التى توجه إليها، والشُّغْل الذى توجه بسببه بدفترٍ بالديوان .

فلما عظم أمر الدواداريَّة وآستقرّ عند الدوادار كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْت يعلِّق عنه الرسالة علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ تعليق الرسالة، رجع أكثَرُ الأمر فى ذلك إلىٰ الدَّوادار، وصار كاتبُ الدَّسْت الذى يخدُمه يعلِّق الرسالة عنه بذلك كما يعلِّقها عنه فى غيره علىٰ ما تقدّم . فإن كان البريد إلىٰ جهة الشام كتب فى ورقة لطيفة يرسم برسالة المقرّ المخدوم الفلانى أمير دوادار الناصرى أو الظاهرىّ مثلا أعز الله تعالىٰ أنصاره أن يكتب ورقة طريق شريفة باسم فلان الفلانى المرسومِ له بالتوجه إلىٰ الجهة الفلانية، ويُحْمَل علىفرس أو فرسين أو أكثر من خيل البريد . ثم يؤرّخ . وإن كان البريد إلىٰ الوجه القبلىّ أو البحرىّ أو غير ذلك كتب : أن يكتب ورقة فرسِ بريد باسم فلان الفلانى من غير تعرّض لذكر ورقة طريق، وباقى الكلام علىٰ نحو ما تقدّم، ويؤرّخ ويجهّز تلك الورقة صحبة البريدىّ إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء فيخلِّد الورقة بديوانه عند دواداره فى جملة أَضَابِيرِ الديوان، ويكتب له فى ورقة صغيرة أيضا ما مثاله : أميراخور البريد المنصور، يُحمل فلانٌ الفلانىُّ علىٰ فرس واحد أو أكثر من خيل البريد المنصور عند توجهه إلىٰ الجهة الفلانية ويؤرّخ، ويدفع إلىٰ البريدىّ ليدفعها إلىٰ أميراخور البريد تخلَّد عنده، ويكتب اسم البريدىّ فى آخر الكتاب علىٰ ما سيأتى فى أوّل المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ، ويُختَم الكتاب ويدفع اليه .

قلت : وقد بطل الآن ما كان من أمر الألواح وتركت ، وصار كل بريدىّ عنده شُرّابة حرير صفراءُ يجعلها فى عنقه من غير لوح . اللهم إلا أن يتوجه البريدىّ إلىٰ مملكة من الممالك النائية ، فيحتاج إلىٰ اللوح لتعارف أمر المملكة القديمة . وكذلك الحكم فيمن يتوجه إلىٰ الأبواب السلطانيـة من نيـابة من نيابات المملكة فى ورقة الطريق وخيـل البريد . ولصاحب ديوان الإنشـاء التنبُّه علىٰ مصالح مراكز خيل البريد فى الديار المصرية وغيرها .

وسيأتى الكلام علىٰ مراكز البريد بمصر والشام ، مفصلة فى موضعها إن شاء الله تعالىٰ .

وآعلم أنه يجب علىٰ الناظر فى أمر البريد : من الملك فمن دونه أن يحتـاط فيمن يرسله فى الأمور السلطانية ، فيوجه فى كل قضية من يقوم بكفايتها وينهَض بأعبائها ، ويختصُّ الملوكَ وأكابرَ النوّاب بأكابر البريدية وعقلائهم وأصحاب التَّجارِب منهـم ، خصوصا فى المهمات العظيمة التى يحتاج الرسول فيها إلىٰ تمنيق الكلام ، وتحسـين العبارة ، وسمـاع شبهة المُرْسَـل إليه ، وردّ(١) جوابه واقامة الحجة عليـه ، فإنه يقال : يُستدَلُّ علىٰ عقل الرجل بكتابه وبرسوله . وقد قيل : من الحق علىٰ رسول الملك أن يكون صحيحَ الفِكْرة والمِزَاج ، ذا بيانٍ وعارضـةٍ ولينٍ وآستحكام مَنَعة ؛ وأن يكون بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته ، مؤدّيا للألفاظ عن الملك بمعانيها ، صَدُوقا بريئا من الطمع . وعلىٰ مرسـله آمتحانُه قبل توجيهه فى مقاصِده ؛ ولا يُرسِل إلىٰ الملوك الأجانب ، إلا من آختبره بتكرير الرسائل إلىٰ نوّابه وأهل مملكته . فقـد كان الملوك فيما سلف من الزمن إذا آثَرُوا إرسال شخصٍ لمهمٍّ ، قدموا آمتحانه بإرساله إلىٰ بعض خواص الملك ممن فى قَرَار داره ، فى شىء من مهمّاته ، ثم يجعل عليه عَيْنا فيما يُرْسَل به من حيث لا يشـعُر ، فاذا أدّى الرسول رسالته رجع بجوابها وسأل الملكُ عينَه ، فإن

(١) فى الأصل ويرد وهو تصحيف ظاهر .

طابق ما قاله الرسول ما أتىٰ به من هو عَيْن عليـه وتكرر ذلك منه، صارت له المِيزةُ والتَّقْدِمة عند الملك ووجَّهه حينئذ فى مهمَّات أموره .

وكان أردشير بن بابك آخرُ ملوك الفرس يقول : "حقٌّ علىٰ الملك الحازم إذا وَجَّه رسولا إلىٰ ملك أن يُرْدِفه بآخَر، وإن وَجَّه برسولين وجَّه بعدهما باثنين، وإن أمكنه أن لا يجمع بين رُسُله فى طريقٍ فعل" .

ومن الحزم أن الرسول اذا أتاه برسالة أو كتاب فى خير أو شر أن لا يُحْدث فى ذلك شيئا حتّٰى يُرْسل مع رسول آخر يحكى له كتابه أو رسالته حرفًا حرفًا ومعنًى معنًى فإن الرسول ربما فاته بعضُ ما يؤمِّله فافتعل الكُتُب، وغيَّر ما شُوفِهَ به فأفسد مابَيْن المُرْسل والمرسَل إليـه : من ملك أو نائب ونحوهما؛ وربمـا أدّىٰ ذلك إلىٰ وقوع فتنة بين المَلِكين، أو خروج النائب عن الطاعة وتفاقَم الأمر بسبب ذلك وسرىٰ إلىٰ ما لا يمكن تداركه .

وقد حكى أن الإسكندر وجَّه رسولا إلىٰ بعض ملوك الشرق فجـاء برسالة شكَّ الإسكندر فى حرف منها فقال له : "وَيْلَك ! إن الملوك لا تخلو من مقوِّم ومسـدِّد اذا مالت وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ بينة المعـانى، وقد وجدتُ فيها حرفًا ينقضُها؛ أفعلىٰ يقين أنت من هذا الحرف أم شاكٌّ فيه ؟ فقال بل علىٰ يقين منه أنه قاله . فأمر الإسكندر أن تُكتَب الألفاظ حرفًا حرفًا و يعاد إلىٰ الملك الذى جاء ذلك الرسول من عنده مع رسولٍ آخر فيُقرأ عليه و يتَرْجَم له . فلمـا وصل الرسول الثانى إلىٰ ذلك الملك وقرأ عليه ما كَتَب اليه به الاسكندر فى أمر ذلك الرسـول، أنكر ذلك الحرَف الذى أنكره الإسكندر وقال للترجم : "ضَعْ يدك علىٰ هذا الحرف" فوضـعها فأمر أن يُعلَّم بعلامة وقال : " إنى أُجِلّ ما وصـل عن الملك أن أقطعه بالسِّكّين، ولكن ليصنَعْ هو فيه وفى قائله ما شاء" . وكتب إلىٰ الإسـكندر : " إن من أُسِّ المملكة صحةَ لَهْجة الرسـول؛ إذ كان عن لسانه ينطق، وإلىٰ أذنه

يؤدّى". فلما عاد الرسول إلىٰ الإسكندر دعا برسوله الأوّل وقال : "ما حملك علىٰ كلمة قصدتَ بها إفساد ما بين ملكين ؟ " فأقرّ أن ذلك كان منه لتقصيرٍ رآه من الملك، فقال له الإسكندر: "فأراك قد سعيت لنفسك لا لنا ! فاتَكَ ما أمّلتَ مما لا تستحقه علىٰ من أُرسِلت اليه فجعلت ذلك ثأرا تُوقِعه فى الأنفس الخطيرة الرفيعة ! ثم أمر بلسانه فنزع من قفاه." وكأنه رأىٰ إتلاف نفس واحدة أولىٰ من إتلاف نفوس كثيرة بما كان يُوقِعه بين الملكين من العداوة ويثير من الإحَن وضغائن الصُّدُور .

وقد كان أردشير بن بابك يقول : "كم من دمٍ سفَكَه الرسولُ بغير حِلِّه ! وكم من جُيُوش هُزِمت وقُتِل أكثرها ! وكم حُرْمة ٱنتُهِكت ! وكم مالٍ نُهِب وعقد نُقِض بخيانة الرسُل وأكاذيب ما يأتون به ! " .

الأمر السـابع

(نظره فى أمر أبراج الحمام ومتعلّقاته)

سيأتى فيما بعدُ ان شاء الله تعالىٰ أن بالديار المصريةِ أبراجا للحمام الرسائلىّ يحمل البطائق فى أجنحته من مكان إلىٰ مكان ؛ منها بُرْج بقلعة الجبل ، وأبراجٌ بطريق الشام بمدينة بِلبِيس، وأبراجٌ بطريق الإسكندرية . وكان قبل ذلك يدرج الىٰ قوص، ومنها إلىٰ أُسْوان وعَيْذاب ما يقطع ذلك الآن (١) . وحمام كل برج يُنْقَل منه فى كل يوم الىٰ البرج الذى يليه ليطلُب برجه الذى هو مستوطِنه إذا أُرْسِل . فإذا عرض أمرٌ مهم أو ورد بريد أو غيره ممن (٢) يحتاج إلىٰ مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التى فيها برج من أبراج الحمام، كتب واليها المتحدِّثُ فيها بذلك للأبواب السلطانية، وبعث بها علىٰ أجنحة الحمام . وقد جرت العادة

(١) كذا فى الأصل ولعله فانقطع ذلك الآن .

(٢) صوابه مما كما هو واضح .

أن تكتب بطاقتان وتُؤرَّخان بساعة كتابتهما من النهار ، ويعلَّق كل منهما فى جناح طائر من الحمام الرسائلىّ ويُرْسَلان ، ولا يكتفىٰ بواحد لاحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصول إلىٰ مقْصِــده . فاذا وصل الطائر إلىٰ البرج الذى وُجِّه به اليه ، أمسكه البرَّاج وأخذ البِطاقةَ من جناحه وعَلَّقها بجناح طائر من حمام البُرْج الذى يليه أى من المَنْقول إلىٰ ذلك البرج ، وعلىٰ ذلك حتّٰى ينتهى إلىٰ برج القلعة فيأخُذُ البرَّاج الطائرَ والبِطاقةُ فى جناحه ويُحْضِرُه بين يدَيِ الدَّوادار الكبير فيُعرَض عليــه ، فيضع البطاقة عن جناحه بيده . فإن كان الأمر الذى حضرت البِطاقة بسببه خفيفا لا يحتاج إلىٰ مُطالَعَــة السلطان به ، ٱستقلَّ الدوادار به ؛ وإن كان مهمًّا يحتاج إلىٰ إعلام السلطان به ، ٱستدعى كاتبَ السر وطلع لقراءة البطاقة علىٰ السلطان كما يفعل فى المكاتبَات الواردة . وكذلك الحكم فيما يطرأ من المهمَّات بالأبواب الســلطانية فإنَّه يوجَّه بالحمــام من برج القلعة إلىٰ الجهة المتعلِّقة بذلك المهــم . وفى معنىٰ ذلك كل نيابة من النيابات العِظام بالممالك الشامية كدِمَشْق ، وحَلَب ، وطَرابُلُس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى مواضعه إن شاء الله تعــالى .

الأمر الثــامن

(نظره فى أمور الفِــداوية)

وهم طائفة من الإسمــاعيلية المنتسِبين إلىٰ إسمــاعيل بن جَعْفرٍ الصادق بنِ محمدٍ الباقر بنِ علىّ زين العابدين بنِ الحسين السِّــبط إبنِ علىّ بن أبى طــالب كرم الله وجهه ! ، من فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وهم فِرْقة من الشِّيعة مَعْتَقَدُهم معتقَدُ غيرهم من سائر الشِّيعة أن الإمامة بعــد النبى صلى الله عليه وســلم !

ٱنتقلتْ بالنص إلىٰ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــه، ثم إلىٰ ٱبنه الحسن، ثم إلىٰ أخيه الحسين، ثم تنقَّلتْ فى بَنى الحُسَين إلىٰ جعفر الصادق، ثم هم يدَّعُون ٱنتقالَ الإمامة من جعفر الصادق إلىٰ ٱبنه إسماعيل، ثم تنقلت فى بنيه .

وسُمُّوا الفِداوية لأنهم يُفادُون بالمـال علىٰ مَن يقتُلونه . ويُسمَّوْن فى بلاد العجم بالباطنية لأنهم يُبطِنون مذهبهم ويُخْفُونه، وتارة بالمَلاحدة لأن مذهبهم كلَّه إلحاد . وهم يُسمُّون أنفسهم أصحابَ الدعوة الهـادية . وسيأتى الكلام عند ذكر تحليفهم فى الكلام علىٰ الأيمان إن شاء الله تعالىٰ . وكانوا فى الزمن المتقدّم قد علَتْ كلمتُهم، وٱشتدَّتْ شَكِيمتُهم، وقَوِيتْ شوكَتُهم، وٱستولَوْا علىٰ عِدّة قلاع ببلاد العجم وبلاد الشأم . فأمّا بلاد العجم فكان بِداية قوتهم وانتشارُ دعوتهم فى دولة السلطان ملكشاه السلجوقىّ فى المائة الخامسة . وذلك أنه كان من مقدَّميهم رجل ٱسمه عطاش فنشأ له ولد يسمّى أحمد فتقدّم فى مذهبهم وٱرتفع شأنه فِيهم، وألَمَّ به مَنْ فى بلاد العجم منهم، فغلب علىٰ قلعة بأَصْبهَان، كان قد بناها السلطان ملكشاه المتقدّم ذكره، وقلعــةٍ بالطالَقَان تعرف بقلعة الموت؛ وكان من تلامذته رجل يقال له الحسن بن الصباح ذو شهامة وتقدُّم فى علم الهندسة والحساب والنجوم والسِّحر، فٱتهمه بالدعوة للخلفاء الفاطميين، وهم من جملة طوائف الإسمـاعيلية ففرّ الحسن بن الصباح منه هاربا الىٰ مصر، وبها يومئذ المستنصرُ بالله خامسُ خلفاء الفاطميين فأكرمه وأحسن نُزُله، وأمره بأن يخرج إلىٰ البلاد للدعوة الىٰ إمامته فأجابه الىٰ ذلك، وسأله مَن الإمام بعده، فقال له : ابنى نِزار وهو الذى تنسب إليه النِّزَارية منهم . فخرج ٱبن الصَّبَّاح من مصر وسار إلىٰ الشام، والجزيرة، وديار بكر، وبلاد الروم يدعو إلىٰ إمامة المستنصر. ثم ٱبنه نِزار من بعده، وسار إلىٰ خُرَاسان وجاوزها إلىٰ ما وراء النهر، ودخل كاشْغَر يدعو إلىٰ ذلك، ثم عاد إلىٰ الطالَقَان وٱستولىٰ علىٰ قلعة الموت فى سنة ثلاث وثمانين

وأربعمائة ، ثم ٱستولى علىٰ قلعة أصْبهان وٱستضاف اليها عِدّة قلاع بتلك النواحى فى سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقويتْ شوكة هـذه الطائفة بتلك البلاد، وعَظُم أمرها، وخافها الملوكُ وسائر الناس ، وبقى ٱبن الصباح علىٰ ذلك حتّٰى مات فى سنة ثمانَ عشرةَ وخمسمائة . وتنقّلت تلك القلاعُ بعدَه حتّٰى صار أمرها إلىٰ شخص من عقبه يسمّٰى جلالَ الدين بن حسن ألكيا الصبّاحىّ فأظهر التوبة فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وبقِىَ علىٰ ذلك إلىٰ سنة ثمان وستمائة، فأظهر شعائر الإسلام، وكتب إلىٰ جميع قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم والشام، فأقيمت فيها، وبقى حتّٰى تُوُفِّى سنة ثمانَ عشرةَ وستمائة، وقام بعده ٱبنه علاءُ الدين محمد، وتداول مقدّموهم تلك القلاع إلىٰ أن خرج هُولاكو علىٰ بلاد العجم فى سنة ست وخمسين وستمائة باستصراخ أهل تلك البلاد من عَيْثهم وفسادهم، فخرّب قِلَاعهم عن آخرها .

وأما بلاد الشأم فكان أوّل قوتهم بها أنه دخل منهم إلىٰ الشأم رجل يسمى بَهْرام بعد قتل خاله إبراهيم الأسداباذى ببغداد فى أيام تاج الملوك بورى صاحب الشام، وصار إلىٰ دمشق ودعا إلىٰ مذهبه بها ، وعاضده سعيد المردغانىّ وزيرُ بورى حتّٰى علتْ كلمته فى دِمَشْق وسلم له قلعة بانياس(١)، فعظُم أمر بَهْرام وملك عدّة حصون بالجبال أظنها القلاع المعروفة بهم إلىٰ الآن، وهى سبع قلاع بين حماه وحمص متصلةٌ بالبحر الرومىّ على القُرب من طَرَابُلُس : وهى مِصْياف، والرُّصَافة ، والخَوَابى . والقُدْموس، والكَهْف، والعليقة، والمينقة، ومن هنا سمِّيتْ بقلاع الدعوة . وكان آخر الأمر من بهرام أنه قُتِل فى حرب جرَتْ بينه وبين أهل وادى التَّيْم، وقام مَقامَه بقلعة بانياس(١) رجل منهم ٱسمه إسماعيل، وأقام الوزيرُ المردغانىُّ عوضَ بهرام بدمشق رجلا منهم ٱسمه أبو الوفاء فعظُم أمره بدمشق حتّٰى صار الحكم له بها، وهَمَّ بتسليمها

(١) لعلها بُلُنْياس . قال ياقوت كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص .

للفرنج على أن يسلّموا له صُورَ عوضًا منها، فشَعَر به بورى صاحب دمشق فقتله وقتل وزيرَه المردغانىّ ومَنْ كان بدمشق من هــذه الطائفة، ولم يزل أمرهم يتنقّل بالشام لواحد بعد واحد من مقدّميهم إلى أن كان المقــدّمَ عليهم فى أيام الســلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبو الحسن راشدُ الدين سِنانٌ البصرىّ وكان بينهم وبين السلطان صلاح الدين مباينةٌ ووثبوا عليه مراتٍ ليقتُلوه فلم يظْفَروا بذلك إلى أن حاصر قِلَاعهم فى ســنة آثنتين وسبعين وخمسمائة وضيق عليهم، فسألوه الصَّفْح عنهم فأجابهم إلى ذلك وبقى راشدُ الدين سنانٌ مقدَّما عليهم حتّى مات فى سنة ثمــان وثمــانين وخمسمائة .

قال فى مسالك الأبصار : "وهم يعتقدون أن كل مَنْ ملك مصر كان مَظْهَرا لهم، ولذلك يتولّوْنه ويَرَوْن إتلاف نفوسهم فى طاعته لمــا ينتقل إليــه من النعيم الأكبر بزعمهمْ". قال : "ولصاحب مصر بمشايعتهم مزيّةٌ يخافه بها أعداؤه (١) لأنه يرسل منهم مَنْ يقتله ولا يبالى أن يُقْتَل بعده، ومَنْ بعثه إلى عدوّ له فجبُن عن قتله قتله أهلُه إذا عاد إليهم، وإن هرب تبِعوه وقتلوه" .

قلت : وكانوا فى الزمن المتقدّم يُسمُّون كبيرهم المتحدّث عليهم تارة مقدّم الفداويّة، وتارة شيخ الفِداويّة . أما الآن فقد سَمَّوْا أنفسهم بالمجاهدين وكبيرهم بأتابك المجاهدين؛ وقد كانت السلاطين فى الزمن المتقدّم تمنع هؤلاء من مخالطة الناس فلا يخرجون من بلادهم إلى غيرها الا من رُسِم له بالخروج لمــا يتعلق بالسلطان ولا يُمكَّن أحدٌ من التجار من الدُّخُول إلى بلادهم لشراء قُمَــاش وغيره . وكان يكتب بذلك مراسيم من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ويوجّه بها لنائب الشام المحروس . وسيأتى إيراد شىء من نسخ هذه المراسيم عند ذكر مرسوم أتابكهم فى الولايات إن شاء الله تعالى !

(١) لعله عدوّه بالافراد .

الأمر التاسع

(نظره فى أمر العيون والجواسيس)

وهو جزء عظيم من أُسّ المُلك وعِماد المملكة . وعلى صاحب ديوان الإنشاء مَدارُه وإليه رجوع تدبيره وآختيارُ رجاله وتصريفُهم . فيجب عليه الآحتياط فى أمر الجواسيس أكثَرَ مما يحتاط فى أمر البريديّة والرُّسُل : لأن الرسول قد يتوجه إلى الصديق وقد يتوجه إلى العدوّ والجاسوسُ لا يتوجه إلا إلى العدوّ ، واذا وَثِق بجاسوسه فإنه إلى ما يأتى به صائر ، وعليه معتمد ، وبه فاعل .

وقد شرطوا فى الجاسوس شروطا :

منها أن يكون ممن يُوثَق بنصيحته وصدقه ، فإن الظنين لا يُنتفَع بخبره وإن كان صادقًا لأنه ربما أخبر بالصدق فاتُّهِم فيه فتفوت فيه المصلحة . بل ربما آثر الضررَ لمن هو عَيْن له إذ المتهم فى الحقيقة عينٌ عليك لاعَوْن لك . وكيف يكون المتهم أمينا ! لاسيما فيما يصرف فيه جليل الأموال من القضايا العظيمة إن سلمت نفيسات النفوس .

ومنها أن يكون ذا حَدْس صائب وفِراسة تامّة : ليدرك بوُفُور عقله وصائب حَدْسه من أحوال العدوّ بالمشاهدة ما كتموه عن النطق به ، ويستدلَّ فيما هو فيه ببعض الأمور على بعض فإذا تفرّس فى قضية ولاح له أمر آخر يعضدها قوِىَ بحثُه فيها بانضمام بعض القرائن إلى بعض .

ومنها أن يكون كثير الدَّهاء والحيل والخديعة : ليتوصل بدهائه إلى كل موصل ، ويدخل بحيلته فى كل مَدْخَل ، ويدرك مقْصده من أىّ طريق أمكنه . فإنه متى كان قاصرا فى هذا الباب أو شك أن يقع ظَفَر العدوّ به أو يعودَ صِفْر اليدين من طَلِبته .

ومنها أن يكون له دُرْبَةٌ بالأسفار ومعرفةٌ بالبلاد التى يتوجه إليها : ليكون أغنىٰ له عن السؤال عنها وعن أهلها ، فربمـا كان فى السؤال تنبُّه له وتيقُّظ لأمره فيكون ذلك سببا لهلاكه ؛ بل ربمـا وقع فى العقوبة وسئل عن حال ملكه فدلَّ عليه وكان عَيْنا عليه لا له .

ومنها أن يكون عارفا بلسان أهل البلاد التى يتوجه إليها لِيَلْتقط مايَقَع من الكلام فيما يَذهب بسببه ممَّن يخالطه من أهل تلك المملكة وسُكَّانِ البلاد العالمين بأخبارها ، ولا يكون مع ذلك ممن يُتَّهم بمُمَالأة أهل ذلك اللسان من حيث إن الغالب علىٰ أهل كل لسان ٱتحادُ الجنس ، والجنسيَّةُ علة الضم .

ومنها أن يكون صَبُورا على ما لعله يصير إليه من عُقُوبة إنْ ظفر به العدوّ بحيث لا يخبر بأحوال مَالِكه ولا يُطْلِـع علىٰ وَهْن فى مملكته ؛ فإن ذلك لا يخلِّصه من يد عدوّه ، ولايدفَع سطوتَه عنه . بل ولايعترف أنه جاسوس أصلا ؛ فإن ذلك ممـا يحتِّم هلاكه ويُفْضِى إلىٰ حَتْفه : إلىٰ غير ذلك من الأمور التى لايسع استيعابُها . فإذا وَجَدَ من العيون والجواسيس مَنْ هو مستكمل لهــذه الشرائط وما فى معناها ، فعليه أن يُظْهر لهم الوُدّ والمصافاةَ ولا يُطلِـعَ أحدا منهم فى زمن تصرُّفه له أنه يتَّهمه ولاأنه غير مأمون لديه ؛ فربمـا أدّاه ذلك فى أضْيق الأوقات أنـ يكون عينا عليه ؛ فإن الضرورة قد تلجئه لمثل ذلك ، خصوصًا ان جَذَبه الىٰ ذلك جاذب يستميله عنـه مع ما هو عليه من الضرورة ، والضرورة قد تحمل الإنسان علىٰ مفاسـد الأمور ، ويُجْزِلَ لهم الإحسان والبرّ ، ولا يُغْفِل تعاهُدَهم بالصِّلات قبـل ٱحتياجه إليهم . ويزيدَ فى ذلك عند توجههم إلىٰ المهمات ، ويتعهدَ أهلِيهم فى حضورهم وغَيْبتهم ليملك بذلك قلوبَهم ويَستصْفِيَ به خواطرَهم . وان قُضِى على مَنْ بعثه منهم بقضاء أحسنَ إلىٰ مَن خَلَّفه من أهله ، وجعل لهم من بعــده من الإحسان ما كان يجعله له

اذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعيا لغيره علىٰ النصيحة . وإن قُدِّر أنْ عاد منهم أحد غيرَ ظافر بقَصْد أو حاصل على طِلبةٍ وهو ثقة، فلا يستَوْحِش منه بل يُوليه الجميل، ويعامله بالإحسان، فانه إن لم ينجَح المرَّةَ نجع الأخرىٰ . وعليه أن يحترز عن أن تعرِف جواسيسُه بعضُهم بعضا لا سيما عند التوجه للمهمَّات . وإن ٱستطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطةً فعل، وإن لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولَّى إيصاله إليه فإنه إذا علم بعضهم ببعض ربما أظهره، بخلاف ما إذا ٱختص الواحدَ بالسرّ . وأيضا فانه لا يؤمَن ٱتفاقهم عليه وممالأتُهم لعدوّه . وكذلك يحترز عن تعرّف أحد من عسكره عيونَه وجواسيسَه، فان ذلك ربما يؤدّى إلى ٱنتشار السرّ والعَوْدِ بالمَفْسدة . وعليه أن يصغىٰ إلى مايلقيه إليه كلٌّ من جواسيسه وعيونه وإن ٱختلفتْ أخبارُهم ويأخُذ بالأحوط فيما يؤدّيه إليه ٱجتهاده من ذلك ولايجعل إختلافهم ذنبا لأحد منهم، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله؛ إذ كل واحد قد يرىٰ ما لا يرىٰ الآخرُ، ويسمعُ ما لا يسمعه . وإذا عثر علىٰ أحد من جواسيسه بزَلَّة فليستُرْها عنه وعليه، ولا يُعاقبه على ذلك ولا يوبِّخه عليه فان وَبَّخه ففى خلوة بلطف مذكرا له أمر الآخرة وما فى ممالأة العدو والخيانة من الوَبَال فى الآخرة . ولا بأس بأن يُجْرى له ذكر ما عليه من مصافاته ومودّته وأنه مع العدو على غَرَرٍ لا يدرى ما هو صائر إليه، فان ذلك أدعىٰ لٱستصلاحه. ولا شك أن ٱستصلاحه إمّا فى الوقت أو فيما بعدُ خير من ثبات فساده، فربما أدّاه ذلك الى ممالأة العدوّ ومباطَنته، لا سيما اذا كان العدوّ معروفا بالحلم والصفح، وكثرة البذل والعطاء. وإذا حضر اليه جاسوس بخبر عن عدوّه ٱستعمل فيه التثبت ودوامَ البشر ولا يُظْهِر تهافتا عليه تظهر معه الخفَّة، ولا إعراضا عنه يفوت معه قدر المناصحة، ولا يُظْهِر له كراهة ما يأتيه به من الأخبار المكروهة فان ذلك مما يستدعى فيه كتمانَ السرّ عنه فيما يكره فيؤدّى الى الإضرار به .

وقد حكى عن بعض الملوك أنه كان يعطى من يأتيه بالأخبار المكروهة من الجواسيس أكثرَ مما يعطى من يأتيه بالأخبار السارّة .

واعلم أنه لا يمكن أحدا ممن (١) يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوّه . فيجب الاحتراز منهم بكتمان السرّ وسَتْر العورة ما أمكنه ؛ على أنه ربما دعتِ الضرورة فى بعض الأحيان إلىٰ أن يعرّف الملكُ عدوَّه بعض أموره علىٰ حقيقته لأمر يحاول به مكيدته . والطريق فى ذلك أن يتلطف الى أن يصيِّرَ جاسوسَ عدوّه جاسوسا له بأن يتودّد اليه بالاستمالة والبرّ وكثرة البذل حتّى يستخرج نصيحته ، فحينئذ يلق إليه ما أراد تبليغه إلىٰ صاحبه الاوّل مما فيه المكيدة فيوصله إليه فيكون أقرَب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتّهمه .

الأمر العاشر

(نظره فى أمور القُصّاد الذين يسافرون بالملَطَّفات من الكتب
عند تعذر وصول البُرُد الى ناحية من النواحى)

وهو من أعظم مهمات السلطنة وآكدها . وقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه : أن أوّل مَن اتخذ السُّعاة من الملوك معزّالدولة بن بويه أوّلُ ملوك الديلم بعدالثلاثين والثلثمائة :

وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد ، وأخوه ركنُ الدولة ابن بويه بأصبهان ومامعها فأراد معز الدولة سُرعةَ إعلام أخيه ركنِ الدولة بتجدّدات الأخبار فأحدث السُّعاةَ وانتشىٰ فى أيامه ساعيان اسم أحدهما فضل والآخرِ مرعوش ، وكان أحدهما ساعىَ السُّنة والآخرُ ساعى الشِّيعة ، وتعصّب لكل منهما فرقة ، وبلغ من شأنهما أن كل

(١) كذا فى الأصل . ولعل صوابه "لا يمكن أحدا أن يمنع الخ" فتنبه .

واحد منهما كان يسـير فى كل يوم نَيِّفًا وأربعين فرسخا ، وآستمرّ حكم السُّعاة ببغداد إلىٰ زماننا حتّٰى إنّ منهم ساعيين لِركّاب السلطان يمشيان أمامه فى المواكب وغيرها علىٰ قرب .

قلت : "وقد رأيتهما فى خدمة السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد حين قدم مصر فى دولة الظاهر برقوق فارّا من تمر" . أمّا الديار المصرية فإنه لا يتعانىٰ ذلك عندهم إلا خِفافُ الشباب من مكارية الدواب ونحوهم ممن يعتاد شدّة العَدْو إلا أنه اذا طرأ مهم سلطانىّ يقتضى إيصال ملطّف مكاتبةً عن الأبواب السلطانية إلىٰ بعض النواحى وتعذر إيصاله علىٰ البريد لحيلولة عدوّ فى الطريق أو آنقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لعارض ، آنتدب كاتبُ السرّ بأمر السلطان مَنْ يُعْرَف بسرعة المشى وشدّة العدو للسفر ليوصل ذلك الملطَّف إلىٰ المكتوب إليه والإتيانِ بجوابه . وربما كُتِب الكتابان فأكثرُ إلى الشخص الواحد فى المعنىٰ الواحِد ويجهز كل منهما صحبة قاصد مفرد خوف أن يُعترَض واحد فيمضى الآخر إلىٰ مقْصده كما تقدّم فى بطائق الحمـام الرسائلىّ . وقد أخبرنى بعض من سافر فى المهمات السلطانية من هؤلاء أنهم فى الغالب عند خوف العدو يمشُون ليلا ويكْمُنون نهارا وإذا مشَوْا فى الليل يأخذون جانبا عن الطريق الجادّة ، يكون بين كل آثنين منهم مقدار رمية سهم حتّٰى لا يسمع لهم حِسٌّ فاذا طلع عليهم النهار كَمَنوا متفرّقين مع مُواعدتهم علىٰ مكان يتلاقَوْن فيـه فى وقت المسير .

الأمر الحادى عشر

(نظره فى أمر المَنَـاور والمُحْرِقات)

أما المَنَاور فسيأتى أنه فى الزمن المتقدّم عند وقوع الحروب بين التتار وأهل هذه المملكة ، كان بين الفُرَات بآخر المـمالك الشامية وإلىٰ قريب من بِلْبِيس من أعمـال

الديار المصرية أمكنةٌ مرتَّبة برءوس جبال عوالٍ، بها أقوام مقيمون فيها، لهم رزق علىٰ السلطان من إقطاعات وغيرها إذا حدث حادث عدوّ من بلاد التتار، وٱتصل ذلك بمن بالقلاع المجاورة للفرات من الأعمال الحَلَبية : فإن كان ذلك فى الليــل أُوقِدت النار بالمكان المقارب للفرات من رءوس تلك الجبــال فينظره مَنْ بعده، فيُوقد النار فينظره مَنْ بعده، فيُوقد النار وهكذا حتّى ينتهى الوقود إلى المكان الذى بالقرب من بِلْبِيس فى يوم أو بعض يوم، فيرسل بِطاقَتَه علىٰ أجنحة الحَمــام بالإعلام بذلك فيُعْلَم أنه قد تحرّك عدوّ فى الجملة فيُؤخذ فى التأهُّب له حتّى تصل البُرُد بالخبر مفصَّلا .

وأمّا المُحْرِقات فسيأتى أنه كان أيضا قوم من هــذه المملكة مرتَّبُون بالقرب من بلاد التتار يتحيلون علىٰ إحراق زروعهم بأن تُمسَــك الثعالبُ ونحوها وتُربط الخرق المغموسة فى الزيت بأذناب تلك الثعالب وتوقد بالنار وتُرسَل فى زروعهم إذا يبست فيأخُذُها الذُّعْر من تلك النار المربوطة بأذنابها فتذهب فى الزروع آخذة يمينا وشمالا فمــا مَرَّت بشىء منه الا أحرقته وتواصلت النار من بعضها إلىٰ بعض فتُحرق المزرعة عن آخرها .

قلت : وهذان الأمران قد بطل حكمُهما من حين وقوع الصلح بين ملوك مصر وملوك التتار علىٰ ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

الأمر الثــانى عشر

(نظره فى الأمور العامّة ممــا يعود نفعه علىٰ السلطان والمملكة)

قد تقدّم فى أوّل هذا الفصــل فى الكلام علىٰ بيان رُتْبة صاحب ديوان الإنشاء من كلام صاحب موادّ البيان أنه ليس فى منزلة خَدَم السلطان والمتصرفين فى مهماته

أخصّ منه ، من حيث إنه أوّل داخل علىٰ الملك وآخر خارج عنـه وأنه لاغِنى به عن مفاوَضته فى آرائه والإفضاء إليه بمهماته ، وتقريبه من نفْسه فى آناء ليله وساعات نهاره ، وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، وإطلاعه علىٰ حوادث دولتـه ومهمات مملكته ، وأنه لا يَثِق بأحد من خاصته ثِقتَه به ، ولا يركن إلىٰ قريب ولا نسيب رُكونَه إليه ؛ ومَنْ كان بهذه الرتبة من السلطان والقرب منه ، وجب عليه أن لا يألُوَه نُصْحا فيما يعلم أنه أصلح لمملكته وأعمر لبـلاده وأرغم لأعاديه وحُسَّاده وأثبت لدولتـه وأقوى لأسباب مملكته .

فقد حكى عن علىّ بن زيد الكاتب : أنه صحِب بعضَ الملوك فقال للملك : "أصحبك علىٰ ثلاث خلال — قال وما هى ؟ — قال لا تَهْتِكُ لى سترا ، ولا تَشْتِم لى عِرْضا ، ولا تقبلُ فِىَّ قولَ قائل حتّٰى تستبرئ . فقال له الملك — هذه لك عندى فمالى عندك ؟ قال : لا أُفشى لك سرّا ، ولا أؤخِّر عنك نصيحةً ، ولا أُوثِر عليك أحدا — قال نِعْمَ الصاحبُ المستصحَب أنت ! .

فإذا ٱنتهىٰ إلىٰ صاحب الديوان خبر يتعلق بجَلْب منفعة إلىٰ المملكة أو دَفْع مضَرَّة عنها ، أطلع السلطان عليه فى أسرع وقت وأعجلِه قبل فوات النظر فيه ونَحَلَه فيـه صائب رأيه ، ثم ردّ النظر فيه إلىٰ رأى السلطان ليخرج عن عهدته . وإن ٱرتاب فى خبر المخبر أحضره معه إلىٰ السلطان ليشافِهَه فيه حتّٰى يكون بريئا عن تبعته ، ولا يهمل تبليغ خبره بمجرّد الريبة لٱحتمال صحته فى نفس الأمر فيلحق بواسطة إهماله ضرر لا يمكن تداركه . وكذلك الحال فى سائر ما يرجع إلىٰ صـلاح المملكة وحسن تدبيرها .

الفصـــل الرابع

(فى ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وما يلزمُ ربَّ كل وظيفة منهم فيما كان الأمر عليه فى الزمن القديم وٱستقرّ عليه الحال فى زماننا)

أما فى الزمن القديم فقد ذكر أبو الفضل الصُّورىّ فى مقدّمة تذكرته أن أرباب الوظائف فيه علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل ــ الكُتَّاب

(وقد عدّاهـــم إلى ســـبع(١) كتاب)

الأوّل ــ كاتب ينشئ ما يُكتَب من المكاتبات ، والولايات ، تتصدّىٰ للإنشاء ملكته وغريزة طبعه . قال : ويجب أن يكون هذا الكاتب لاحقًا بصفات متولّى الديوان بحيث يكون كاملا فى الصفات ، مستوْفيا لشروط الكتابة ، عارفا بالفنون التى يحتاج إليها الكاتب ، مشتملا علىٰ التقدّم فى الفصاحة والبلاغة ، قوىَّ الحجة فى المعارضة ، واسعَ الباع فى الكلام بحيث يقتــدر بملكته علىٰ مَدْح المذموم وذم المحمود وصرف عِنَان القول إلىٰ حيث شاء ، والإطناب فى موضع الإطناب ، والإيجاز فى موضع الإيجاز ؛ فإنه أجلّ كُتَّاب الديوان ، وأرفعُهم درجةً لأنه يتولّى الإنشاء من نفسه ، وتلقىٰ إليه الكلمة الواحدة والمعنىٰ المفرد فينشئ علىٰ ذلك كلاما طويلا ، ويأتى منه بالعبارة الواسعة ؛ وهو لسانُ الملك المتكلمُ عنه ، فمهما كان كلامه أبدعَ ، وفى النفوس أوقع ، عظُمت رتبة الملك ، وٱرتفعت منزلته علىٰ غيره من الملوك . وهو الذى ينشئ العهود والتقاليد فى الولايات والكُتُبَ فى الحوادث الكبار ، والمهمّات العظيمة التى

---

(١) الصواب تأنيث آسم العدد كما هو واضح .

تتلىٰ فيها الكتب علىٰ صَيَاصِى المنابر ورءوس الأشهاد . فقد حكى أن يزيد بن الوليد كتب إلىٰ إبراهيم بن الوليد، وقد همَّ بالعصيان: أما بعد فإنى أراك تقدِّم رِجْلا وتؤخر أخرىٰ فٱعتمد علىٰ أيهما شئت والسلام؛ فكان سببا لإقلاعه عما همَّ به .

الثانى — كاتب يكتب مكاتَبَاتِ الملوك عن ملِكه؛ وقد شرط فيه مع ماشرط فى المتصدّى للانشاء المتقدّم ذكرُه ان كان هو الذى ينشئ المكاتَبَات بنفسه عن الملِك أن يكون على دِين الملك الذى يكتُب عنه ومذهبِه؛ لما يحتاج إليه فى مكاتبة الملك المخالف من الاحتجاج علىٰ صحة عقيدته، ونصرة مذهبه، وإقامة الدلائل علىٰ صحة ذلك، ولن يحتجَّ للملة أو المذهب مَنِ ٱعتقد خلافه بل المخالف إنما تبدُو له مواضعُ الطعن لا مواضعُ الحِجَاج . وكذلك أن يكون من عُلُوِّ الهِمَّة، وقوّة العزم، وشرف النفس بالمحلِّ الأعلىٰ، والمكان الأرفع؛ فإنه يُكاتِب عن ملكه، وكل كاتب فإنه يجرّه طبْعه وجبِلّته وخِيمُه إلىٰ ما هو عليه من الصفات . فكلما كان الكاتب أقوىٰ جانبا وأشدّ عزما وأعلىٰ همة، كان علىٰ التفخيم والتعظيم، والتهويل والترغيب والترهيب أقدرَ، وكلما نقص من ذلك نقص مِنْ كتابته بقدره؛ وأن يكون عالما بقدر طبقة المكتوب إليه فى معرفة اللسان العربىّ فيخاطب كل قوم علىٰ قَدْر رتبتهم فى ذلك وما يَعْرِف من فهمهم .

الثالث — كاتب يكتُب مكاتَبَاتِ أهل الدَّوْلة وكبرائها، ووُلاتها، ووجوهها من النوّاب والقضاة والكتّاب والمشارفين والعمال، وإنشاءَ تَقليدات ذوى الخِدَم الصِّغار والأمانات، وكَتْب الأيمان والقسامات . قال : وهى وإن كانت دون الرتبتين المتقدّمتين فهى جليلة الخَطَر عالية القَدْر؛ ويجب أن يكون لاحقًا برُتَب الخَدَمة منها، وأن يكون مأمونًا علىٰ الأسرار، كافَّ اليد، نَزِه النفْس عن العَرَض

الدنيوىّ لأنه يطّلع علىٰ أكثر مايجرى فى الدولة، ويعلم بالوالى قبل تولّيه والمصروف قبل صَرْفه، ويكون مع ذلك سريعَ اليدِ فى الكتابة، حَسَن الخط اذ كان هذا الفنّ أكثرَ ما يُستعمَل ولا يكاد يقلّ فى وقت من الأوقات

الرابع — كاتب يكتُب المَنَاشير والكُتُبَ اللِّطافَ والنُّسخ . قال : وهذه المنزلة لاحقةٌ بالمنزلة التى قبلها وكأنها جزءٌ منها . ويجب أن يكون هذا الكاتب مأموناً كَتُوماً للسر، فيه من الأدب مايأمَن معه من الخطإ واللحن فى لفظه وخطه، ويكون حَسَن الخط أو بالغا فيه القَدْر الكافى . ولكن لمـا كان هذا الشغل واسعا وهو أكثر عمل الدِّيوان والذى لاينفك منه، لم يكد يستقِلُّ به رجل واحد فيحتاج إلىٰ معاضَدَته بآخر يكون دونه فى المنزلة، ويُجْعَل برسم تسطير المناشير والفصول المتقدّمة الى المقيمين بالحضرة، وكتابة تذاكر المستخدمين، ونقلها ممـا يمليه صاحب الديوان و يصدُر عنه فى نسخ تكون مخلدة فيه لا تُغادر المبيَّضَه بحرف لتكون موجودة متىٰ ٱحتيج اليها .

الخامس — كاتب يبيِّض ما ينشئه المنشئ ممـا يحتاج إلىٰ حُسْن الخط، كالعهود والبَيْعات ونحوها . قال الصورى : لمـا كانت البلاغةُ التامَّة التى يصلح صاحبها للإنشاء وحُسْنُ الخط قلما يجتمعان فى أحد، وجب أن يُختار للديوان مبيِّض برسم الإنشاءات والسِّجلات والتقليدات، ومكاتبات الملوك، وأن يكون حسن الخط إلىٰ الغاية الموجودة بحيث لايكاد يوجد فى وقته أحسَنُ خطا منه لتصدُرَ الكتب عن الملك بالألفاظ الرائقة والخط الرائع . فإن ذلك أكمل للملكة، وأكثر تفخيما عند مَنْ يكاتبه وتعظيما لها فى صدره . ويجب أن يكون مع ذلك فى الأمانة، وكِتْمان السر، ونَزَاهة النفْس علىٰ ماتقدّم .

السادس — كاتب يتصفّح ما يُكتَب فى الديوان . قد تقدم أنه لمـا كان كلُّ واحد ممن تقدّم ذكره غيرَ معصوم من السهو والزلل والخطإ واللحن وعَثَرات القلم . وكل واحد

يتغطى عنه عيب نفسه و يظهر له عيبُ غيره ، وكان زمن متولِّى الديوان أضيقَ من أن يُوفِى بكل مايكتَب بديوانه حقَّ النظر ، وكان القصد أن يكون كل مايكتب عن الملك كامل الفضيلة خطًّا ولفظا ومعنًى وإعرابا ، حتّٰى لا يجد طاعنٌ فيه مطعنًا ، وجب أن يستخدم متولِّى الديوان معيَّنا يتصفح جميعَ الإنشاءات والتقليدات والمكاتَبَات وسائر مايُسَطَّر فى ديوانه .

قال أبو الفضل الصورىّ : وينبغى أن يكون هذا المتصفِّح عالِى المنزلة فى اللغة والنحو وحفظِ كتاب الله تعالىٰ ، ذكِيًّا ، حسَن الفِطنة ، عاقلا ، مأمونًا وأن يكون مع ذلك بعيدا من الغرض والعداوة والشحناء حتّٰى لا يبخس أحدا حقَّه ، ولا يُحابِىَ أحدا فيما أنشأه أو كتبه — بل يكون الكل عنده فى الحق علىٰ حدٍّ واحد لا يترجح واحد منهم علىٰ الآخر . وعليه أن يُلزم الكُتَّاب بعرض جميع ما يكتُبونه وينشِئونه عليه قبل عرضه علىٰ متولِّى الديوان — فاذا تصفحه وحرره كتب خطه فيه بما يعرّف رضاه عنه ليلتزم بدَرَك ما فيه ويبرأ منشئه .

السابع — كاتب يكتب التذاكر والدفاتر المضمَّنة لمتعلَّقات الديوان .

قال الصُّورىّ : ويجب أن يُختار لذلك كاتبٌ مأمونٌ ، طويل الروح ، صبور علىٰ التَّعَب ، قال : والذى يلزمه من متعلَّقات الديوان أمور :

أحدها — أن يضع فى الديوان تذاكر تشتمل علىٰ مهمَّاتِ الأمور التى تُنهىٰ فى ضِمْن الكتب ، ويظن أنه ربما سُئِل عنها أو آحتيج إليها ، فيكون آستخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عليها والتنقير عنها من الأضابير . قال : ويجب أن تسلَّم إليه جميعُ الكتُب الواردة بعد أن يُكتَب بالإجابة عنها ليتأملَها وينقُل منها فى تذاكره مايُحتاج إليه ، وإن كان قد أجيب عنه بشيء نقله ، ويجعل لكل صفقة

أوراقا من هـذه التذاكر على حِدَة، تكون على رءُوس الأوراق علاماتٍ باسم تلك الصفقة أو الجهة ، ويكتب على هـذه الصفقة فصلٌ من كتاب فلان الوالى، أو المُشارِف ، أو العامل — ورد بتاريخ كذا — مضمونه كذا — أجيب عنه بكذا — أو لم يجب عنه إلى أن تفرُغ السنة يستجدّ للسنة الأخرى التى تتلُوها تذكِرة أخرى. وكذلك يجعل له تذكرة يسطِّر فيها مهماتِ ما تخرُج به الأوامر فى الكتُب الصادرة لئلّا تُغفل ولا يجابَ عنها ؛ وتكون على الهيئة المتقـدّمة من ذكر النواحى وأرباب الخِدَم. واذا ورد جواب عن شىء مهمٍّ نُزِّل عنده فيقول: ورد جوابه عن هذا الفصل بتاريخ كذا يتضمّن كذا ، فإنه اذا آعتمد هـذا وجد السلطانُ جميع ما يُسأل عنـه حاضرا فى وقته غير متعذر عليه .

الثـانى — أن يضع فى الديوان دفترا بألقاب الوُلاة وغيرهم من ذوى الخِـدَم ، وأسمائهم، وترتيب مخاطباتهم؛ وتحت اسم كل واحد منهم كيف يخاطَب : بكاف الخطاب أو هاء الكناية ، ومقدار الدعاء الذى يُدْعىٰ له به فى السِّجلات والمكاتَبات والمناشير، والتوقيعات : لآختلاف ذلك فى عُرْف الوقت . وكذلك يَضَع فيـه ألقابَ الملوك الأباعد والمكاتَبين من الآفاق وكُتَّابِهم وأسماءَهم ، وترتيب الدعاء لهم، ومقداره . ويكون هـذا الدفتر حاضرا لدى كُتّاب الإنشاء ينقُلون منه فى المكاتَبَات مايحتاجُون إليه : لأنه ربمـا تعذَّر حِفْظ ذلك عليهم — ومتى تغير شىء منـه كتبه تحته . ويكون لكل خِدْمة ورقة مفرَدة فيها آسم متولِّيها ولقبهُ ودُعاؤه — ومتى صُرِف كتب عليه صُرِف بتاريخ كذا ، وآستُخْدم عوضا منه فلانٌ بتـاريخ كذا وأُجرِى فى الدعاء على منهاجه، أو زيد كذا أو نقص . ولا يتغافَل عن ذلك : فإنه متَى أُهْمل شىء من ذلك زلَّ بزلله الكُتَّاب وصاحبُ الديوان بل والسلطانُ نفسُه .

الثالث — أن يضع بالديوان دفترا للحوادث العظيمة وما يتلوها مما يجرِى فى جميع المملكة، ويذكر كلا منها فى تاريخه، فإن المنفعة به كثيرة حتّى إنه لو جمع من هذين الدفترين تاريخ لاجتمع .

الرابع — أن يعمل فهرستا للكُتُب الصادرة والواردة مفصَّلا مُسانَهة ومشاهَرَة ومُياومة، ويكتُب تحت اسم كل مَن ورد من جهته "كتابٌ ورد بتاريخ كذا"، ويشير إلىٰ مضمونه إشارةً تدل عليه أو ينسَخُه جميعَه إن دعت الحاجة إلىٰ ذلك، ويسلمه بعد ذلك إلىٰ الخازن ليتولّى الاحتفاظ به علىٰ ما سيأتى ذكره .

الخامس — أن يعمل فهرستا للانشاءات، والتقاليد، والأمانات، والمناشير وغير ذلك مشاهَرة فى كل سنة بجميع شهُورها ؛ وإذا انقضت سنة استجدّ آخرَ، وعمل فيه علىٰ مثل ما تقدّم .

السادس — أن يعمل فهرستا لترجمة ما يترجَم من الكتب الواردة علىٰ الديوان بغير اللسان العربىّ من الرومىّ والفرنجىّ وغيرهما مصرِّحا بمعنىٰ كل كتاب ومَنْ ترجمه علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليه . قال الصورىّ : فإذا رُوعِيتْ هذه القوانينُ انضبطت أمورُه ولم يكد يخِلّ منه شيء، وكان جميع ما يُلتَمس منه موجودا بأيْسر سعْيٍ فى أسرع وقت .

الضرب الثانى

(غير الكتّاب، وهما اثنان)

أحدهما الخازن . قال الصورىّ : "ينبغى أن يختار لهذه الخدْمة رجلٌ ذكىٌّ فَطِن عاقلٌ مأمونٌ بالغٌ فى الأمانة والثِّقة ونزَاهةِ النفسِ وقِلّةِ الطمَع إلىٰ الحدّ الذى لا يزيد عليه : فإن زمام جميع الديوان بيده ؛ فمتىٰ كان قليلَ الأمانة ربَّما أمالَتْه الرِّشْوة إلىٰ

إخراج شيء من المكاتبات من الديوان، وإفشاء سرّ من الأسرار فيضرّ بالدولة ضَرراً كبيرا . ويجب أن يكون ملازما للحُضور بين يدَىْ كُتَّاب الديوان فمتىٰ كتب المنشئ أو المتصــدّى لمكاتبة الملوك، أو المتصدّى لمكاتبة أهل الدولة ، أو لكتابة المناشير وغيرها شيئا، سلمه للمتصدّى للنَّسْخ فينسخُه حرفا بحرف، ويكتُب بأعلىٰ نسخه كتاب كذا — ويذكر التاريخ بيومه وشهره وسنته علىٰ ماتقدّم فى موضعه، ويسلمه للخازن. وكذلك يفعل بالكتب الواردة بعد أن يأخذ خَطَّ الكاتب الذى كتب جوابَها بما مثاله . «ورد هذا الكتابُ من الجهة الفلانية بتاريخ كذا، وكتب جوابه بتاريخ كذا» . وإن كان لاجواب عنه، أخذ عليه خط صاحب الديوان أنه لاجواب عنه لتبرأ ذمّتُه منه ولا يتأوّل عليه فى وقت من الأوقات أنه أخفاه ولم يُعْلِم به . ثم يجمع كلَّ نوع إلىٰ مثله، ويجمع متعلّقات كل عمل من أعمال المملكة من المكاتبات الواردة وغيرها، ويجعل لكل شهر إضْبارَة، يجمع فيها كُتُب من يكاتَب من أهل تلك الأعمال، ويجعل عليها بطاقةً مثل أن يكتب «إضبارة لما ورد من المكاتبات بالأعمال الفلانية فى الشهر الفلانى» ثم يجمع تلك الأضابير ويجعلها إضبارةً واحدة لذلك الشهر ويكتب عليها بطاقة بذلك ليسهل ٱستخراج ما أراد يستخرجه من ذلك . قال : ويجب علىٰ هذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما فى هذا الديوان من الكتب الواردة ونُسَخ الكتب الصادرة، والتذاكر، وخرائط المهمّات، وضرائب الرسوم ٱحتفاظا شديدًا" .

الثـانى — حاجب الديوان . قال الصورىّ : "ينبغى لصاحب ديوان الإنشاء أن يُقيم لديوانه حاجباً لا يمكّن أحدا من سائر الناس أن يدخُل إليه، ماخلا أهلَه الذين هو معدوق بهم (١)، فإنه يجمع أسرارَ السلطان الخفيــةَ فمن الواجب كتمُها ومتىٰ أُهْمل

(١) فى الضوء معزوق بهم بالعين المهملة والزاى [وهى أصرح فى المقام ففى القاموس عزق به كفرح لصق] .

ذلك لم يؤمَن أن يُطّلع منهـا على ما يكون باظهاره سبب سقوط مرتبته و إذا كثر الغَاشُون له والداخلون إليه، أمكن أهلَ الديوان معه إظهارُ الأسرار اتّكالا علىٰ أنها تُنْسَب إلىٰ أولئك، فإذا كان الأمر قاصرا عليهم ٱحتاجوا إلىٰ كِتْمان مايعلمُونه خشيةَ أن يُنْسَب إليهم إذا ظهر" .

وأمّا ما ٱستقر عليه الحال فى زماننا فكُتّاب الديوان علىٰ طبقتين :

الطبقة الأولىٰ — كُتّاب الدَّسْت، وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواكب علىٰ ترتيب منازلهم بالقُدْمة (١) ويقرءُون القِصَص علىٰ السلطان بعد قراءة كاتب السر علىٰ ترتيب جلوسهم ويوقّعُون علىٰ القِصَص كما يُوقِّع عليهـا كاتب السر . وسُمُّوا كُتّاب الدست إضافة إلىٰ دست السلطان وهو مَرْتبـة جلوسـه : لجلوسهم للكتابة بين يديه ؛ وهؤلاء هم أحقُّ كُتّاب ديوان الإنشاء باسم الموَقّعين : لتوقيعهم علىٰ جوانب القِصَص بخلاف غيرهم .

وقد تقدّم أنهم كانوا فى أوائل الدولة التركية فى الأيام الظاهرية بيبرس وما والاها قبـل أن يلَقَّب صاحبُ ديوان الإنشاء بكاتب السر ثلاثةَ كتّاب ، رأْسهم القاضى محيي الدين بنُ عبد الظاهر ، ثم زادوا بعـد ذلك قليلا إلىٰ أن صاروا فى آخر الدولة الأشرفيـة شعبان بن حسين عشرة أو نحوها ، ثم تزايدوا بعـد ذلك شيئا فشيئا خصوصا فى سلطنة الظاهر برقوق، وٱبنه الناصر فرج حتّىٰ جاوزوا العشرين وهم آخذون فى التزايد .

وقد كانت هذه الرتبة لاحقةً بشاوِ كتابة السر فى الرفعة والرياسة إلىٰ أن دخل فيها الدخيل، وقدِّم فيها غيرُالمستحِق، ووليَها من لا يُؤَهَّل لمـا هو دُونَها، وٱنحطّت رتبتها وصار أهلها فى الحضيض الأوهد من الرياسة بعد أوْجها الا الأفذاذ ممن عَلَتْ رتبته وقليلٌ ماهُمْ .

(١) القدمة بالضمّ السبق . ولعل مراده السبق فى الفضل .

الطبقة الثانية — كُتَّاب الدَّرْج ، وهم الذين يكتُبون مايوقِّع به كاتبُ السر أو كُتّاب الدست أو إشارةَ النـائب أو الوزير ، أو رسالةَ الدوادار ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليـد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمـان والأمانات ونحو ذلك ممـا يجرى مجراه . وسُمُّوا كُتَّابَ الدَّرْج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها فى دُرُوج الورق ، والمراد بالدَّرْج فى العُرف العامّ الورق المستطيل المركَّب من عدّة أوصال ، وهو فى عُرْف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لاغير . قال آبن حاجب النعمان فى ذخيرة الكُتَّاب : وهو فى الأصـل اسمٌ للفعل أخْذا من درَجْت الكتاب أدْرُجه دَرْجا اذا أسرعتَ طيَّه وأدرجْته إدراجا فهو مُدْرَج اذا أعدته علىٰ مطاويه وأصلُه الإسراع فى حالة ، ومنه مَدْرَجة الطريقِ التى يُسْرِع الناس فيها وناقةٌ دَرُوج اذا كانت سريعة . ويجوز أن يطلق عليهم كتّاب الإنشـاء لأنهم يكتُبون ما يُنْشأ من المكاتبات وغيرها ممـا تقدّم ذكره ؛ ولا يجوز أن يطلق عليهم لَقَب الموقِّعين لمـا تقدّم من أن المراد من التوقيع الكتابةُ علىٰ جوانب القصَص ونحوها . وكما زاد كُتّاب الدَّسْت فى العدد زاد كتّاب الدَّرْج حتّى خرجوا عن الحـدّ ، وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كاتبـا ، وسقطت رياسة هذه الوظيفة وآنحط مقـدارها حتّى إنه لم يرضها إلا من لم يكن أهلا . علىٰ أن كُتّاب الدست الآن هم المتصـدّون لكتابة المهم من كتابة الدَّرْج : كمتعلّقات البريد المختصةِ بالسلطان من المكاتَبـات والعهود والتقاليد وكِبارِ التواقيع والمَراسيم والمَنَاشير، وصار كتّاب الدَّرج فى الغالب مخصوصِين بالمكاتَبَات فى خَلَاص الحقوق وما فى معناها . وكذلك صـغار التَّواقيع والمراسيم والمَنَاشير ممـا يكتب فى القَطْع الصغير، وربمـا شارك أعلاهم كُتَّاب الدست فى التقاليد وكِبَار التواقيع وما فى معناهما إذا كان حَسَن الخط ، ولا نظر إلى البلاغة جملةً بل كل أحد يلفِّق ما يتهيَّأ له من كلام المتقدّمين غيرَ مُبـالٍ بتحريفه ولا تصحيفه مبْتَهجا بذلك مطالعا

لغيره فى أنه الذى ٱبتدعه وإبتكره . وكل من لفّق منهم شيئا أو أنشأه كتبه بخطه على أىّ طبقة كان فى الخط، ما خلا عهودَ السلطنة ومكاتباتِ القانات من مُلُوك الشرق فانه رُبَّما ٱنتخِب لها أعلى أهلِ الزمان خَطًّا، تنويهاً بذكرها، ورفعةً لقدرها .

أما كتابة التذاكر والدفاتر فقد كان الأمر مستمرّا فى بعضها ككتابة ما فى المُكاتَبَات الواردةِ والصادرةِ بدفْتر فى الديوان إلى آخر مباشَرة القاضى بدر الدِّين بن فضـل الله فى الدولة الظاهرية برقوق، ثم رُفِض ذلك وتُرِك وٱقتصر على ما يَرد من المكاتَبات وما يكتب من الملَخَّصات وكتابة الموقِّع الذى يكتب الجواب بسدّ كل فصل تحته ليس إلا وترك ما وراء ذلك، وٱكتفى من الخازن بدوادار كاتب السر، وصـار هو المتولِّىَ لحفْظ ذلك وإيداعه فى الأَضَابِير على نحو ما تقدّم؛ وكذلك صار أمر حِجَابة الديوان إليـه . ثم للديوان أعْوان يسمَّوْن المدرا (١) جمع مدِير، شأنهم أخذُ القِصَص ونحوها وإدارتها على كاتب السر فَمن دُونَه من كُتَّاب الديوان ليكتبَ كلٌ منهم ما يلزمه من متعلَّقها ولذلك سُمُّوا بهذا الآسم .

---

(١) كذا فى الأصل والقواعد لا تساعد .

المقالة الأولى

بعد المقدّمة

(فى بيان ما يحتاج إليه كاتبُ الإنشاء من الموادّ، وفيه بابان)

البـاب الأوّل

(فيما يحتاج إليه الكاتبُ من الأمور العِلْميَّة، وفيـــه ثلاثة فصول)

الفصـــل الأوّل

فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال

وقد آختلفتْ مقاصِدُ المصنِّفين فى ذلك : فابنُ قتيبة بعد أن بنى كتابه أدبَ الكاتب على أمور من اللُّغَة والتصريف وطَرَف من الهجاء قال : "وليس كتابُنا هذا لمن لم يتعَلَّقْ من الإنسانيـة إلا بالجسم ، ولا من الكتابة إلا بالرَّسْم ، ولم يتقدّم من الأداه ، إلا بالقَلَم والدواه : ولكنه لمن شَدَا(١) شيئا من الإعراب فعرف الصَّدْر والمَصْـدَر ، وآنقلابَ الياء عن الواو ، والألف عن الياء ، وأشـباهَ ذلك من النظر فى الأشكال لمساحة الأَرَضِين حتّى يعرِفَ المثلَّث القائمَ الزاوية ، والمثلثَ الحـادّ ، والمثلَّث المنفرِج ، ومَساقط الأحجار، والمربَّعات المختلفات، والقِسِيَّ، والمدوَرات، والعمودَيْن، وتُمتَحَن معرفتـه بالعمل فى الأرَضِين لا فى الدفاتر، فإن المخبَرَ عنه ليس كالمُعايَن . وذكَر أن العجَمَ كانت تقولُ : من لم يكُنْ عالمـا بإجراء المياه، وحَفرِ فُرَض

(١) كذا فى الأصل وأدب الكاتب . وفى القاموس شدا أخذ طرفا من الأدب وهو معنى مناسب هنا . والذي فى الضوء سدّد .

المَشارب ورَدْم المَهاوِى ، ومَجَارى الأيَّام فى الزيادة والنقصان ، ودَوَرانِ الشمس، ومَطالِع النجوم، وحالِ القمر فى آستهلاله وآتصاله ، ووَزْنِ الموازين، وذَرْع المثلث والمربَّع والمختلف الزَّوايا، ونَصْب القناطر، والجُسُور، والدَّوالِى، والنَّواعير على المياه، وحال أدوات الصُّنَّاع ، ودقائق الحساب، كان ناقصا فى حال كتابتــه . ثم قال : ولا بدَّ له مع ذلك من النَّظَر فى جُمَل من الفقه والحديث، ودِراســة أخبار الناسِ ، وحِفْظ عُيون الأخبار ليُدْخلها فى تضاعيف سطوره متمثلا بها اذا كتب ، أو يصل بها كلامه اذا حاوَرَ . وختم ذلك بأن قال : ومدار الأمر فى ذلك كلّه على القُطْب وهو العقل وجودة القريحة؛ فإن القليل معهما بإذن الله تعـالى كافٍ، والكثير مع غيرهما مقصر" .

وتابعه أبو هلال العسكرى فى بعض ذلك فقال فى بعض أبواب كتابه «الصناعتين» : "ينبغى أن تعـلم أنّ الـكتابة تحتاج إلى آلات كثيرة ، وأدَوَات جَمَّــةٍ : من معرِفة العربيَّة لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى ؛ وإلى الحساب، وعلم المساحة، والمعرفة بالأزْمنة والشهور والأهِلَّة وغير ذلك ممـا ليس هذا موضِعَ ذكره وشرحه" .

ولا يخفى أن ما ذكره بعض ما ذكره آبن قتيبة، يتواردان فيه فى المعنى وإن آختلف اللفظ . وخالف أبو جعفر النحاس فى كثير من ذلك فذكر فى أوّل كتابه "صـناعة الكتّاب" فى المرتبة الثانية منه بعد ما يتعلق بالخط : أن من أدوات الـكتابة البلاغة، ومعرفةَ الأضداد ممـا يقع فى الكتب والرسائل، والعلمَ بترتيب أعمـال الدواوين ، والخِبْرة بمَجَارى الأعمال، والدُّرْبة بوجوه آستِخْراج الأموال، ممـا يجب ويمتَنِـع . ثم قال : فهذه الآلات ليس لواحد منها تميُّز بذاته، ولا آنفرادٌ باسمٍ يخصه؛ وإنمـا هو جُزْء من الكتابة وأصـلٌ من أركانها . أما الفِقْه والفرائض والعِلْم بالنحو واللغة وصناعة الحساب والمساحة والنُّجومِ ، والمعرفةُ باجراء المياه ، والعلمُ بالأنساب فكل

واحد منها منفرد على حدته وإن كان الكاتب يحتاج إلى أشـياءَ منها نحو ما يُكتَب بالألف والياء، وإلى شيء من المقصور والممدود. ولو كلف الكاتبُ ما ذكره مَنْ ذكره لجُعِل الأصعبُ طريقا للأسهل والأشَـقُّ مِفْتاحا للأهون وفى طِبـاع الناس النِّفَار عمـا ألْزَمهم من جميع هذه الأشياء.

قلت : والتحقيق أن ذلك يختلف باختلاف حال الكتابة بحسب تنوّعها، فكلُّ نوع من أنواعها يحتاجُ إلى معرفة فنّ أو فنون تختصُّ به.

وقد حكى أن عمرو بن مَسْعدة وزيرَ المعتصم قال : لمـا خرج المعتصِم من بلاد الروم وصار بناحية الرَّقّة، قال لى ويْلكَ يا عمرو! لم تزل تخدَعُنى حتَّى ولَّيتُ عُمَر بن الفَرَج(١) الرُّخَّجى الأهوازَ، وقد قَعد فى سُرَّة الدنيا يأكُلُها خَضْما وقَضْما! فقلت يا أمير المؤمنين فأنا أبعث إليه حتَّى يُؤْخَذ بالأموال ولو على أجنحة الطَّيْر — قال : كَلَّا بل تخرج اليه بنفسك كما أشرتَ به — فقلت لنفسى : إن هذه منزلة خَسيسة، بعدَ الوزارة أكونُ مستَحِثًّا لعاملِ خراجٍ! ولم أجِدْ بُدًّا من الخُروج رِضًا لأمير المؤمنين — فقلت : ها أنا خارج اليـه بنفسى يا أمير المؤمنين! قال : فضَعْ يدَك على رأسـك وآحلف أنك لا تُقيم ببغـدادَ، ففعَلْت وأحدثْت عهدا باخوانى ومنزلى وأُتِيَ إلىّ بزَوْرق ففُرِش لى فيه، ومضيت حتّى إذا صِرْت بيْنَ دَيْر هِرقْل ودَيْر العاقول إذا شابٌّ على الشط يقول : يا ملَّاحُ! رجل غريب يريد دَيْر العاقول فاحملنى يأجُرْكَ الله! — فقلت : يا غلامُ

(١) فى الأصل عمرو ... ... الرجى . والصواب ما أثبتناه فقـد قال ياقوت فى الكلام على رُخَّج مثال زُمَّج : وينسب الى الرخج فرج وابنه عُمَر بن فرج وكانا من أعيان الكتّاب فى أيام المأمون الى أيام المتوكل وكان عبد الصمد بن المعذل يهجو عمر بن فرج . فمن قوله فيه يخاطب نجاح بن سلمة

أبلغ نجاحا فتى الكتّاب مألكة * تمضى بها الريح إصدارا وإيرادا
لا يخرج المـال عفوا من يدى عمر * أو تغمد السيف فى فوديه إغمادا
الرُّخَّجيّون لا يوفون ما وعدوا * والرُّخَّجيات لا يخلفن ميعـادا اهـ

قرِّب له — فقال : جُعلت فِداك ! يؤذيك ويُضيِّق عليك — فقلت : قرِّب له لا أمّ لك ! فقرّب له وحمله على مؤخَّر الزورق . وحضر الطعامُ ، فهمَمْت أن لا أدعُوه إلى طعامى، ثم قلت : هلُمَّ يا فتى، فوثَب وجلَس ، فأكل أكْلَ جائعٍ نَهِم إلا أنه نظيف الأكل ؛ فلما فرغ من الطعام أحبَبْتُ أن يفعلَ ما يفعُلُ العوّام فيتنحَّى ويغسلَ يديه ناحيةً فلم يفعلْ، فغمزه الغِلْمانُ ليقومَ فلم يفعلْ، فتناوَمْت عمدًا لينهَضَ فلم يفعلْ، فاستويت جالسا وقلت يا فتى ! ما صِناعتك ؟ فقال جعلت فداك ! أنا حائك . فقلت فى نفسى : أنا والله جلَبْت هذه البليةَ ، وتغير لونى ، ففطِن أنى ٱستثقلتُه، فقال : جعلتُ فِداك ! انك قد سألتنى عن صناعتى فأجبتك، فأنت ما صناعتك ؟ فقلتُ : هذه والله أضرُّ من الأولى ألا ينظر إلى غلمانى ونِعْمتِى فيعلَمَ أن مثل هذا لايُسْئل عن الحِرْفة؟ ولم أجد بُدّا من الجواب، فلم أذهبْ إلى المرتبة العظمى من الوزارة لكنى قَرَّبت عليه ، فقلت : أنا كاتب — فقال جعلتُ فِداك الكُتَّاب خمسة فأيهم أنت ؟ فأورد علىّ مالم أسمع به قبلُ — فقلت : بيِّنهم لى — قال نعم، هُم كاتبُ رسائلَ يحتاج إلى أن يَعْرِف المفصُولَ والموْصُول، والمقْصُور والممدود، والابتداء والجواب ؛ حاذقا بالعُقود والفتوح — قلت :أجل وماذا ؟ قال : كاتب خَراجٍ يحتاجُ أن يعرِف السُّطُوح(١) والمِساحةَ والتَّقسيط، خبيرًا بالحِساب والمُقاسَمات . قلت : وماذا ؟ قال : كاتب قاضٍ يحتاجُ أن يعرِف الحَلالَ والحرام ، والتأويلَ والتنزيل — والمُتشابهَ والحُدود القائمة والفرائض، والاختلاف فى الأموال والفروج، حافظا للأحكام ، حاذقا بالشروط — قلت : وماذا ؟ قال : وكاتبُ جُنْدٍ يحتاج أن يعرف الحِلَى والشِّيات — قلت : وماذا ؟ قال : وكاتبُ شُرْطة يحتاج أن يعرف القصاصَ والجراحات، وموضعَ الحُدُود، ومَواقِعَ العَفْو فى الجنايات — قلت حسَن . قال : فأيُّهم أنت ؟ فكُنتُ متَّكِئا فاستويت جالسًا مُتعَجِّبا من قوله، فقلت :

(١) فى نسخة الطسّوج . وهو كتنور الناحية ، وربع دانق معرب اه قاموس .

أنا كاتبُ رسائلَ — قال : فإن أخًا من إخوانك واجبَ الحقِّ عليك معتنيا بأمورك لا يغْفُل منها عن صغير ولا كبير يكاتبك فى كل محبوب ومكروه وأنت له علىٰ مثل ذلك تزوّجتْ أمُّه كيف تكتب إليه ؟ أتُهنيه أم تُعَزيه؟ — قلت أهنيه . قال فهَنِّه فلم يتَّجِه لى شيء — فقلت : لا أُعَزِّيه ولا أُهَنِّيه، فقال : إنك لا تغْفُل له عن شيء ولا تجِدُ بُدّا من أن تكتب إليه — فقلت : أقِلْنى فأنا كاتب خَرَاج — قال : فإنَّ أمير المؤمنين وجَّه بك إلىٰ ناحيةٍ من عَمَله، وأمرك بالعَدْل والإنصاف وأنك لاتَدَع شيئًا من حقِّ السلطان يذهب ضَيَاعا ، وحذَّرك الظُّلم والجور ، فخرجتَ حتَّى قدِمْتَ الناحيةَ فوقَفُوك علىٰ قَرَاحِ أرض خطه قابل قسيا كيف تمسَحُه — قلت : آخُذ وسَطَه وآخُذ طُولَه فأضربُه فيه — قال : تختلِف عليك العُطُوف — قلت : آخُذ طُوله وعَرْضَه من ثلاثة مواضِعَ — قال : إن طرَفَيْــه محدُودان وفى تحديده تَقْوِيس وذلك يختلف فأعْيانِى ذلك — فقلت : أقلنى فأنا كاتب قاضٍ — قال : فإنَّ رجلا هلك وخلَّف زوجةً حرَّة وسُرِّيَّةً حاملتَيْن فوضَعتَا فى ليلة واحدة وضَعتِ الحرّة جاريةً، ووضعتِ السُّرِّيَّة غلاما، فوُضعت الجاريةُ فى مَهْد السُّرِّيَّةِ ، فلما أصبحت السُّرِّية قالت الغلامُ لِى ، وقالت الحُرّة بل هو لى كيف تحكم بينهما؟ — قلت : لاأدرى فأقِلْنى، فأنا كاتب جندٍ، قال : فإن رجُلين من أصحاب السلطان أتياك آسمُهما واحد، وأحدُهما مشقوق الشَّفَة العُلْيا، والآخر مشقُوق الشفة السُّفْلىٰ، ورِزْق أحدهما مائةٌ والآخَر ألف كيف تُحلِّيهما ؟ — قلت : فلان الأعلَمُ وفلان الأعلم، قال : إذَنْ يجىء هـذا ورزقه مائة فيأخُذ الألفَ ، ويجىء هذا ورِزْقه ألفٌ فيأخُذ المـائةَ — قلت أقلنى : فأنا كاتب شُرْطة، — قال : فإن رجلين تواثبا فشجَّ أحدُهما صاحبَه مُوضِحةً، وشجَّه الآخَر مأمومةً كيف يكون الحكم فيهما ؟ — قلت : لا أدرى فأقلنى ، . قال فقلت : إنك قد سألتنى فبيِّن لى — قال نعم .

أما الذى تزوّجتْ أمُّه فتكتبُ إليه : أما بعــد فإن الأمورَ تجرى علىٰ غير محَابِّ المخلوقين والله يختارُ لعباده ، فخَــار اللهُ لك فى قَبْضها إليــه فإن القُبور أكرم الأكفاء والسلام .

وأما القراح من الأرض ، فإنك تمسح ٱعوجاجَه حتى تعلم كم قَبْضة تكون فيــه فإذا ٱســتوىٰ فى يدك عِقْد تعرفه ضربت طَرفَه فى وســطه . وأما الحرّة والسُّرِّية فيُوزَن لبنهما فأيُّهما كان لبَنُها أخفَّ فالبنت لهــا . وأما المشقُوق الشَّفةِ العُلْيا فأعلَمُ والمشْقُوق الشَّفة السُّفْلىٰ فأفلَحُ . وأما المأمومة ففيها ثلث الدية وهى ثلاث وثلاثون من الإبل وثلثٌ . وأما الموضحة ففيها خمسٌ من الإبل . فقلت : ألست تزعم أنك حائك ؟ فقال : أنا حائكُ كلام لا حائك نِسَاجة . قال عمرو بنُ مَسْعدةَ : فأحسنت جائزتَه وٱستصحبته معى حتّى عُدْت إلىٰ المعتصِم ، فسألنى عمّــا لقِيتُ فى طريق ، فقصَصْت عليه القِصّــة فأُعْجِب به وقال : لِمَ يصلح ؟ فقلت : للعمائر . فقرّره فيها وعلَتْ رتبتُه ، فكنتُ ألقاه فى الموكِب النبيل فيترجَّلُ لى فأنهاه ، فيقول : هــذه نعمتك وأنت أفدْتَها .

فقد تبين بهذه الحكاية أن لكل نوع من الكتابة مادّة يُحتاج إليها بمفردها ، وآلةً تخصها لا يُستغنىٰ عنها .

على أن كاتب الإنشاء فى الحقيقة لا يستغنِي عن علم ولا يسَعُه الوقوف عند فنٍّ ، فقد قال الوزير ضياءالدين بن الأثير فى "المثل السائر" إن صاحب هذه الصناعةِ يحتاج إلىٰ التشبث بكل فنّ من الفنون حتّىإنه يحتاج إلىٰ معرفة ما تقوله النادبةُ بين النساء ، والماشطة عند جَلْوة العروس ، وإلى مايقوله المنادِى فى السُّوق علىٰ السِّلعة فمــا ظنُّك بمــا فوق هذا وذلك لأنه مؤهَّل أن يَهِيم فى كل واد ، فيحتاج إلىٰ أن يتعلق بكل فنّ .

بل قد قيل إن كل ذى علم يسوغ أن يُنْسَب إليه، فيقال فلان النحوىّ، وفلان الفقيه، وفلان المتكلِّم، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة إليها، فلا يقال فلان الكاتب لما يفتقر إليه من الخوض فى كل فن .

وآعلم أن كاتب الإنشاء وإن كان يحتاج إلى التعلق بجميع العلوم والخوض فى سائر الفنون فليس آحتياجُه إلى ذلك على حدٍّ واحد بل منها ما يحتاج إليه بطريق الذات وهى موادّ الإنشاء التى يستمدّ منها ويقتَبِس من مقاصدها : كاللغة التى منها آستمدادُ الألفاظ، والنحو الذى به آستِقامةُ الكلام، وعلوم البلاغة: من المعانى والبيان والبديع التى هى مَنَاط التحقيق والتحسين والتقبيح ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى . وعلى هذا آقتصر الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" وتبعه على ذلك الشيخُ شهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ رحمه الله فى كتابه "حسن التوسل" . ومنها ما يَحتاج إليه بطريق العَرَض كالطِّبِّ والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم؛ فإنه يحتاج إلى معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم، وإلى معرفة المشهورين من أهله ومَشاهير الكُتُب المصنَّفة فيه لينظِم ذلك فى خلال كلامه فيما يكتُب به من متعلَّقات كل فنّ من هذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يكتُب به لرئيس الطب . ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتُب به لمنجِّم، ونحوه من الهَنْدسة فيما يكتُبُ به لمهندس . وربما آحتاج إلى معرفة ماهُو دون ذلك فى الرتبة كمعرِفة مصطلَح رُماة البُنْدق فيما يكتُب به فى قدمات البندق، ومعرفة مصطلَح الفِتْيان فيما يكتب به فى دَسْكرة فُتُوّة ونحو ذلك، بل ربَّما آحتاج إلى معرفة مصطلَح سفَل الناس لكتابة أمورٍ هَزْلِيَّة : كمعرفة أحوال الطُّفيليَّة فيما يكتب به لطفيلىّ آقتراحا أو آمتحانا للخاطر أو ترويحا للنفس، مع معرفة مايجبُ عليه من وَصْف ما يَحتاجُ إلى

وصفه كأوصاف الأبطال والشُّجعان، والجوارى والغلمان، والخيل والإبل، وجليل الوَحْش وسائر أصنافه، وجوارح الوَحْش والطير، وطير الواجب، والحمـام الهدى، وسائر أنواع الطير؛ والسلاح بأنواعه؛ وآلات الحصار، والآلات المُلُوكِيَّة، وآلات السفر، وآلات الصَّيْد، وآلات المعاملة، وآلاتِ اللَّهْو والطَّرَب، وآلات اللعب، وآلات الشربة؛ والمدن، والحصون؛ والمساجد، و بيوت العبادات ؛ والرياض، والأشجـار، والأزهار، والثمـار؛ والبَرارىّ، والقفار، والمفاوز ، والجبال، والرمال، والأودية ؛ والبحار، والأنهار ، وسائر المياه ؛ والسفن، والكواكب ، والعناصر ، والأزمنة، والأَنواء، والرياح ، والمَطَر، والحر، والبَرْد، والثلْج ، وما يتعلق بكل واحد من هذه الأشياء أو ينخرط فى سلكه ؛ ونحو ذلك مما تدعو الحاجة إلىٰ وصفه فى حالة من حالات الكتابة علىٰ ماسيأتى بيانه فى آخر الفصل الثانى من هـذا الباب إن شاء الله تعالى .

الفصـــــل الثـانى

من البـابْ الأوّل من المقـالة الأولىٰ

(فيما يحتاجُ الكاتب إلىٰ معرفته من موادّ الإنشاء، وفيه طَرَفان)

الطـــرف الأوّل

(فيما يَحتاجُ إليه من الأدَوات، ويشتمل الغَرَض منه علىٰ خمسة عشر نوعا)

النـــوع الأوّل

(المعرفةُ باللغة العربيـــة، وفيه أربعة مقاصـــد)

المقْصِـــد الأوّل

(فى فضلها وما ٱختصَّت به علىٰ سائر اللغات)

أما فضـلها فقد أخرج ٱبنُ أبى شَيْبَة بسنده إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب (رضى الله عنه) أنه قال : "تعلَّمُوا اللَّحْنَ والفَرَائِضَ فإنَّهُ مِنْ دينِكُمْ" . قال يزيد بن هارون : "اللَّحْن هو اللُّغة". ولا خَفاء أنها أمتنُ اللغات وأوضَحُها بيانا، وأَذْلقُها لسانا، وأمدُّها رُوَاقا، وأعذَبُها مَذَاقا؛ ومن ثَمَّ ٱختارها الله تعالىٰ لأشرف رُسُله، وخاتَمِ أنبيائه، وخِيرته من خَلْقِه، وصَفْوته من بَرِيَّته؛ وجعلها لغةَ أهلِ سمائه وسُكانِ جنته، وأنزل بها كتَابَه المُبين الذى لا يأْتِيه الباطِلُ من بَيْنِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه .

قال فى صِنَاعة الكُتَّاب : "وقد ٱنْقادتِ اللُّغات كلُّها للُغة العرب، فأقبلتِ الأمم إليها يتعَلَّمونها".

وأما ما آختصَّتْ به علىٰ غيرها من اللغات، فقد حكىٰ فى "صناعة الكتّاب" أنها اللُّغة التامَّةُ الحُروف، الكاملةُ الألفاظ، لم ينقص عنها شىء من الحروف فيَشينها نُقْصانُه، ولم يزِد فيها شىء فيعيبَها زيادتُه؛ وإن كان لها فروع أخرىٰ من الحُروف فهى راجعةٌ إلىٰ الحُروف الأصلية؛ وسائرُ اللُّغات فيها حروف مولَّدة، وينقُص عنها حروفٌ أصليَّة: كاللغة الفارسية: تجِد فيها زيادةً ونُقْصانا. وكذلك يُوجد فيها من الأسماء مالا يُوجَد فى الفارسية وغيرها: كالحَقِّ والباطِل، والصواب والخطإ، والحلال والحرام، فلاينطق به أهلُ تلك اللغة إلا عربيا. قال الفراء: "وجدنا للغة العرب فَضْلا علىٰ لغة جميع الأمم آختصاصًا من الله تعالىٰ وكرامةً أكرمَهُم بها؛ ومن خصائصها أنه يُوجَد فيها من الإيجاز مالا يُوجَد فى غيرها من اللغات". قال: "ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضَّرْب كلمةً واحدةً فتوسَّعوا فيها، فقالوا للضرب فى الوجه لَطْم، وفى القَفَا صَفْع، وفى الرأس إذا أَدْمىٰ شَجّ؛ فكان قولُهم لُطِم أوجزَ من ضُرِب علىٰ وجهه". قال فى "المثل السائر": "حضَرْت مع رجلٍ يهودىّ عارفٍ باللُّغات فجرىٰ ذكر آسم الجمَل فقال: لا شَكَّ أن العربِيَّة أوجزُ اللغات، فانَّ اسمَ الجمل بالعِبرانيَّة كومل فسقط منه الواو وحُوِّلت الكافُ إلىٰ الجيم". قال أبو عبيد: وللعرب فى كلامها علاماتٌ لا يَشْرَكُهم فيها أحدٌ من الأُمَم كعلامة إدخالهم الألفَ واللامَ فى أوّل الاسم، وإلزامهم إياه الإعرابَ فى كل وجه مع نقلهم كلَّ ما آحتاجُوا إليه من كلام العجم إلىٰ كلامهم؛ فقد نُقِل ما قالتْ حكماء العجم والفلاسفةِ إلىٰ العربية ولم يقدر أحد من الأمم علىٰ نقل القرءان إلىٰ لغته لكمال لغة العرب. علىٰ أنَّ الكثيرَ من الناس حاولُوا ذلك فعَسُر عليهم نقلُه، وتعذَّرت عليهم ترجمته؛ بل لم يَصِلوا إلىٰ ترجمة البسملة إلا بنقل بعيد.

المقْصِــد الثـانى

(فى وَجْه آحتياج الكاتب إلىٰ اللغة)

لامِرْيَةَ فى أن اللُّغة هى رأسُ مال الكاتِب، وأُسُّ كلامه، وكَنْز إنفاقه؛ من حيثُ إن الألفاظ قوالِبُ للمعانِى التى يَقَع التصرُّف فيها بالكتابة؛ وحينئذ يحتاج إلىٰ طول الباع فيها، وسَعة الخَطْو، ومعرِفة بسائطها : من الأسماء والأفعال والحروف، والتصرُّفِ فى وجوه دلالتها الظاهرة والخفية : ليقتدِر بذلك علىٰ آستعمالها فى محالِّها، ووَضْعها فى مواضعها اللائقة بها، ويجدَ السبيلَ إلىٰ التوسُّع فى العبارة عن الصُّوَر القائمة فى نَفْسه فيَتَّسِع عليه نطاقُ النُّطْق، ويَنْفَسِح له المَجَالُ فى العبارة، ويَنْفتِح له باب الأوصاف فيما يَحتاجُ إلىٰ وصفه، وتَدْعو الضرورة إلىٰ نَعْته؛ فيستظهِر علىٰ ما يُنشِيه، ويُحيط علمًا بما يَذَره ويأتيه؛ إذ المعانِى وان كانتْ كامنةً فى نفْس المعبِّر عنها فإنما يقوىٰ علىٰ إبرازها وإبانتها مَنْ توفَّر حظُّه من الألفاظ، وآقتداره علىٰ التصرُّف فيها : ليأمنَ تداخُلَها وتكريرَها المُهَجِّنيْنِ للمعانى — وناهيك أن آبنَ قتيبة لم يُضَمِّن كتابه "أدب الكاتب" غيرَ اللُّغة إلا النَّزْر اليسير من الهِجاء؛ وأبا جعفر النحاسَ ضَمَّن كتابه "صناعة الكتّاب" جزءًا وافرا من اللغة؛ وأبا الفتح كُشاجِمَ لم يزد فى كتابه "كنز الكتّاب" علىٰ ذكر الألفاظ وصورة تركيبها .

المقْصِــــد الثالث

(فى بيان مايحتَاج إليه الكاتبُ من اللغة؛ ويرجع المقصود منه إلىٰ خمسة أصناف)

الصنف الأوّل — الغَرِيب، وهو ماليس بمألوفِ الآستعمال، ولادائرٍ علىٰ الألْسِنة

وذلك أن مَدار الكتابة علىٰ آستخراج المعانى من القرءانِ الكريم، والأحاديث النبويّة، والشعر؛ وألفاظُها لا تخلُو عنِ الغَريب؛ بل ربَّما غلب الغريبُ منها فى الشِّعر علىٰ

المألوف لاسيَّما الشعرُ الجاهليُّ . وقد قال الأصمعيّ "توسَّلت بالمُلَح ونِلْت بالغريب".
قال صاحب "الريحان والريعان" : والغريب و إن لم يُنْفِق منه الكاتبُ فإنه يجب أن يُعلَم ويُتطَلَّع إليه ويُستَشْرَف ؛ فرُبَّ لفظةٍ فى خِلال شِـعْر أو خُطْبة أو مَثَـل نادر أو حكاية ، فإن بقيتْ مُقْفَلة دونَ أن تُفْتَح لك ، بقى فى الصـدر منها حَزَازَة تُحْوِج إلىٰ السُّؤال ؛ و إن صُنْت وجهك عن السؤال ، رضيت، بمنزلة الجُهَّال . وقد عاب ٱبنُ قتيبة رجلا كتب فى وصْف بِرْذَوْن : "وقد بعثْتُ به أبيضَ الظهر والشَّفَتين" فقيل له : هَلَّا قلت فى بياض الشفتين أَرْثَم أَلْمَظ ؛ فقال لهم : فبياض الظهر، قالوا لا نَدْرِى، فقال : انما جَهِلت من الشفتيْنِ ما جَهِلتُم من الظَّهر. وذَمّ قوما من وُجُوه الكُتَّاب بأنه ٱجتمع معهم فى مجلس فتذاكَرُوا عُيوبَ الرقيق فلم يكن فيهم من يُفرّق بين الوَكَع والكَوَع ، ولا بين الحَنَف والفَـدَع(١) ، ولا بين اللَّمَىٰ واللَّطع . ثم قال : "وأىُّ مقام أخزىٰ لصاحبه من رجُل من الكُتَّاب ٱصطفاه بعضُ الخُلَفاء، وٱرتضاه لِسِرِّه، فقرأ عليه يومًا كتابًا فيه مُطِرْنَا مطرا كثُرعنه الكَلَأ ، فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكَلَأ ؟ فتردّد فى الجواب، وتعثَّر لسانُه ثم قال: لاأدرى؛ فقال : سَلْ عنه".
قال أبو القاسم الزجاجىُّ فى شرح مقدّمة أدب الكاتب : وهـذا الخليفة هو المعتصم والكاتب أحمد بن عَمَّار ، وكان يتقلَّد العَرْض عليه ؛ وكان المعتصمُ ضعيفَ البَصَر بالعربية ؛ فلما قرأ عليه أحمدُ بن عمَّار الكِتَابَ وسأله عن الكَلإ فلم يعرفه ، قال : إنَّا لله و إنَّا إليه راجعون ! خليفةٌ أمىّ ، وكاتب عامّىّ ؛ ثم قال مَنْ يقْرُب منا من كُتَّاب الدار فعُرِّف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقف علىٰ قَهْرمة الدار فأمر بإشخاصه ، فلما مَثَل(٢) بين يديه ، قال له ما الكلا ؟ قال : النبات كلُّه رَطْبه

(١) هو بالفاء والدال المهملة اعوجاج الرُّسْغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أوالقدم الى انسيها . قاموس . وفى الأصل القذع بالقاف والذال المعجمة وهو تصحيف ظاهر فتنبه .
(٢) هو من باب دخل كما فى المختار .

و يابِسه، فإذا كان رطْبا قيل له خَلًا، واذا كان يابسا قيل له حَشِيش، وأخذ فى ذكر النبات من ٱبتدائه إلىٰ ٱكْتِهاله إلىٰ هَيْجه، فقال المعتصم "ليتقلَّدْ هذا العَرْضَ علينا." ثم خُصَّ به حتّٰى ٱستوزره .

فقد ظهر أن معرفة الغريب من الأمور الضروريّة للكاتب التى هى من أهم شأنه، وأعنىٰ مقاصده . وجُلُّ كتب اللغة المصنَّفة فى شأنها راجعة إليه، كصحاح الجوهرىّ، ومُحْكَم ٱبن سيده، ومُجْمَل ٱبن فارس وغيرها من المصنَّفات التى لا تكاد تُحصىٰ كثرةً والصحاح أقربها مأخذًا، والمحكم أمثلُها طريقــة، وأكثَرُها جمعا، وأكملُها تحقيقا. وقد صرف قوم من المصنِّفين العناية من ذلك إلىٰ الاقتصار علىٰ ذكر الأسمـاء والأوصاف : كأوصاف الرجال والنساء المحمودةِ والمذمومةِ، ومايختص من ذلك بالرجال والنساء؛ وأوصاف الخيل، وأعضائها، وألوانها، وشِيَاتها، وأسنانها، وسَيْرها، وعَدْوها وما يخص الذكورَ والإناث منها؛ وأوصاف الوُحوش : من السباع والظِّباء والوُعُول والبَقَر والحُمُر الوحشِيَّيْنِ؛ وأسماء الطيْر: من الجوارح الصائدة والطيور المصيدة، وبُغَاث الطير كالرَّخَم، وصِغَاره كالنحْل والجراد؛ وأوصاف الهوامّ كالحَشَرات : من الحيَّات والوَزَغ ونحو ذلك ؛ وأوصاف العُلْوِيَّات : من السماء والسَّحاب والرِّياح والأمطار ؛ والأزمنة كأوقات الليل والنهار، وأوقات الشهر وفصول السنة ونحو ذلك ؛ وأسماء النَّبَات : من الشجر البرِّىّ كالطَّلْح والأَراك، والبُستانِىّ كالنخل والعِنَب ؛ والنبات البرِّى كالشِّيح والقَيْصُوم؛ وأنواع المَرْعىٰ ؛ وأسماء الأماكن : من البَرارِى والقِفَار، والرمال والجبال والأحجار، والمياه والبِحار والأنهـار والعُيون والسُّيُول ؛ والرِّياض والمَحَالّ والأبنية ؛ وأسماء جواهر الأرض: من اليواقيت ونحوها؛ وسائر مستخرجات المعادن، كالنُّحاس والرَّصَاص وما يجرى مجراها ؛ ومستخْرَجات البحر : من اللُّؤْلؤ والعَنْبر والمَرْجان وغيرها؛ وأسمـاء المأكولات : من الحُبوب، والفواكه، والأطعمة

المصنوعة والأطبخة؛ وأسماء الأشربة : كالمـاء، واللَّبَن، والعسل، والخمر؛ وأسماء السِّلاح : من السيوف، والرِّماح، والقِسِيّ، والسِّهام، والدروع وغيرها؛ وأسمـاء اللباس : من الثياب علىٰ ٱختلافها؛ وأسماء الأمتعة، والآنية وسائر الآلات؛ وأسماء الطيب : من المِسك، والنَّدّ، والغالية، والزَّعْفران، وما أشبهها . وكذلك كل مايجرى هذا المجرىٰ . و"كفاية المتحفظ" لٱبن الأجدابى، و"المذهبة والمعقبة" لٱبن أصبغ كافلتان بالكثير من ذلك . وفى "أدب الكاتب" لٱبن قتيبة و"فِقْه اللغة" للثعالبى الجزء الوافر من ذلك .

وصرف آخرون عنايتهم إلىٰ التأليف فى الأفعال وتصاريفها كابن درستويه وغيره . وفى "فصـيح ثعلب" جزء وافر من ذلك؛ ولعَصْرِيِّنا الشيخ مُقْبل الصَّرْغَتْمَشىّ النحوىّ كتاب زاد فيه عليه جمعا ووضوحا .

الصنف الثانى ـــ الفروع المتشعِّبة فى المعانى المختلِفة، وهى فروع كثيرة متَّسِعة الأرجاء، متباينة المقاصد؛ لا يكاد يجمعها مصنَّف، وإن كان الكاتب لا يَستغنِي عن شيء منها، ولا يحسن به تَرْكُه .

منهـا المتباين والمُترادِف . فأما المتباين فهو ما دلَّ لفظُ الكلمة منـه على خلاف ما دلت عليه الكلمة الأخرى، كالسواد والبياض، والطول والعَرْض؛ ويحتاج إليه فى التعبيـر عن المعـانى المختلفة لاتساع نطاق الكلام . وأما المترادف فهو المتوارِد الألفاظ علىٰ مسمًّى واحد كالأسـد والسبع للحيوان المفـترس؛ والثَّنِيَّة والقَلُوص للناقة، ونحو ذلك . ويحتاج إلىٰ معرفة ذلك للتَخَلُّص عند ضِيق الكلام عليه فى موضع لطول لفظة أو قِصَرها أو ٱختلاف وَزْنها فى شـعر، أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة فى نثر، أو غير ذلك ممـا يُضْطَر فيه إلىٰ إيراد بعض الألفاظ بدل بعضٍ، كما فى قوله :

وَثَنِيَّـــةٍ جاوزتها بثَنِيَّةٍ * حَرْفٍ يُعارِضها جَنِيبٌ أدْهَمُ

فإنه أراد بالثنية الأولىٰ العقبة ، وبالثنية الثانية الناقة ، والجنيب الأدهم استعارةٌ لظلها . فالثنيَّة من حيثُ وقوعُها علىٰ النــاقة والعقبةِ أوفقُ للتجنيس من الناقة ، إذ لو ذكر الناقة مع الثنية التى هى الطريق لفاته التجنيس . ومحل الكلام عليهما كتب الفقه(١) ونحوها .

ومنهـا الحقيقة والمجـاز . والحقيقة هى اللفظ الدالُّ علىٰ موضوعه الأصلىّ كالأسَد للحيوان المفترس ، والحمـارِ للحيوان المعروف . والمجازهو ما أريد به غير الموضوع له فى أصل اللغة ، كالأسَد للرجُل الشجاع بعلاَقة الشجاعة فى كل منهما ، والحمار للبليد بعلاقة البلادة فى كل منهما ؛ ويحتاج إليه لنقل الألفاظ من حقائقها إلىٰ الاستعارة والتمثيل والكناية لمـا بينهما من العلاقة والمناسبة ، كاليَد فإنها فى أصل اللغة للجارحة أُطْلِقت علىٰ القوة والنعمة مجازا ، من حيث إن القوة تَظْهَر فى اليد والنعمة تُولَى بها ومحل ذكرهما أصول الفقه وما فى معناها .

ومنهـا الألفاظ المتضادّة وهى التى تَقع كل لفظة منها علىٰ ضدّ ما تقع عليه الأخرىٰ كالأمانة والخيـانة ، والنصيحة والغش ، والفَتْق والرتْق ، والنقْض والإبرام ، ونحو ذلك فإن الكلام كثيرا ما يبنى علىٰ الأضداد وربما غلط الكاتب بجعل مقابل الشىء غيْرَ ضدّه فيلزمه النقصُ فى صناعته ، وفوات ما يقصده من المقابلة والطِّباق اللذين هما من أحسن أنواع البـديع . وفى "صناعة الكُتَّاب" لأبى جعفر النحاس جملة صالحة من ذلك ، وفى "كَنْز الكُتَّاب" لأبى الفتح كُشَاجِمَ جملةٌ جيدة منه أيضا .

ومنهـا تسـمية المتضادَّيْن باسم واحد كالجَوْن للأسود والأبيض ، والقُرْء للطُّهْر والحيض ، والصِّريم للَّيل والنهارِ ، ووراء لخلَف وقدّام ، ونحو ذلك . ويُحتاج إليـه للتمييز بين الحقائق التى يقَع اللَّبْس فيها . وفى "أدب الكـاتب" جملة من ذلك .

---

(١) لعله كتب أصول الفقه .

ومنها المَقْصور والممدود كالنـدىٰ للجُود ونَدىٰ الأرض ، والحَفَا لِكَلَال القَـدَم والحافِر ؛ والممدود كالسماء للفَلَك وكلِّ ما علاك ، والبقاء لِضِـدّ الفَناء ، ونحو ذلك ؛ وما يجوز فيه المدّ والقَصْر جميعا كالزِّناء والشِّرَاء (١) وما أشبههما . ويَحتاج إليه الكاتب من ثلاثة أوجُه : أحدها أن الدلالة تختلف باعتبـار المدّ والقصر كلفْظ الهَوَى فإنه إن قُصِر كان بمعنى هَوىٰ النفس ، وإن مدّ كان بمعنىٰ ما بين السماء والأرض . الثانى أنه إذا أُضِيف الممدود أضيف بزيادة واو فى الكتابة فى حالة الرفع وزيادة ياء فى حالة الخفض ، وإذا أضيف المقصور لم يُحتجْ إلىٰ زيادة واو ولا ياء ؛ ولو كان ممـا يجوز (٢) فيه المدّ والقصر ، جاز فيه بعض حركاته . ربما يمد كالبَلَاء والقَلاء ، فإنه اذا كُسر أوّلها قُصِرا وكُتِبا بالياء واذا فتح مُدًّا وكتبا بالألف . وكالباقلاء فإنه إذا خفِّف مُدّ وإذا شُدِّد قُصِر ؛ فمتىٰ لم يعرف الكاتب ذلك كان قاصرا فى صناعته ، وفى "أدب الكاتب" من ذلك جملة .

ومنها المذكر والمؤنث فإنه تختلِفُ أحوالُه باعتبار التذكير والتأنيث فى كثير من الأمور . وذلك أن المؤنث علىٰ ضربين : أحدهما مافيه علامة من علامات التأنيث الثلاثِ ، وهى الهاءُ نحو حمزةَ وطلحةَ ، والألفُ الممدودة نحو حمراء ، والألفُ المقصورة نحو حُبْلىٰ . وضرب لا علامةَ فيه وإنمـا يؤخذ من السَّماع : كالسماء ، والأرض ، والقَوْس ، والحَرْب ، وما أشبهها . وربمـا كان منه ما يجوز فيـه التذكير والتأنيث كالطَّرِيق ، والسبيل ، والموسىٰ ، واللِّسان ، والسُّلْطان ، وما أشبهها ؛ فإن من العرب من يذَكِّر ذلك ومنهم من يؤنِّثه . وربمـا وقع لفظ التأنيث علىٰ الذكر والأنثىٰ جميعا

(١) أهمله فى الأصل وهو من اهمـال الناسخ .

(٢) قوله ولو كان ممـا يجوز الخ كذا فى الأصـل وهو كما ترى غير مفهوم وهو محـل الوجه الثـالث الذى سقط من قلم الناسخ وحاصله أن الداعى إلى معرفتهما إما أن يرجع إلىٰ المعنىٰ وهو الأوّل أو إلىٰ الرسم والكتابة وهو الثانى أو إلىٰ النطق والرسم وهو الثالث الساقط فتأمل .

كالسَّخْلة والحَيَّة والحَمامة والنَّعامة والبَطَّة ونحوها . وأيضا فإن مِنْ وَصْف المؤنث ما يُحذَف منه الهـاء باعتبار تأويلٍ آخَرَ كصـيغة فَعِيل : فإنه إن كان بمعنى مفعول كقَتيل بمعنى مقتول وخَضِيب بمعنىٰ مخضوب، حُذِفت الهـاءُ من مؤنَّثه : فيقال آمرأةٌ قتيلٌ وكَفٌّ خَضِيب وما أشبه ذلك،وإن كان بمعنى فاعل كعَلِيم بمعنى عالم ورحيم بمعنى راحم، تثبُت الهاء فى مؤنَّثه : فتقول فيه عَلِيمة ورَحِيمة . وعلى العَكْس من ذلك فَعُول فإنه إن كان بمعنى فاعل كان بغير هاء نحو امرأةٌ صَبُور وشَكُور بمعنى صابرةٍ شاكرة، وإن كان بمعنىٰ مفعول كان مؤنَّثُه بالهـاء كالحَلُوبة بمعنىٰ المحلوبة ، والرَّكُوبة بمعنىٰ المركوبة ؛ وصيغةُ مُفْعِل ممـا لا يُوصَف به الذكورُ تكون بغير هاء كامرأة مُرْضِع ، فان أرادُوا الفعلَ قالوا مُرْضِعة؛وصيغةُ فاعل ممـا لا يكون وَصْفا لمذكر تكون بغير هاء أيضا نحو امرأة طالِق وحامل، وربَّمـا حُذِفت الهاءُ مما يكون للمذكر والمؤنَّث جميعا فتقول امرأة عاقِر ورجلٌ عاقِر . وفى "أدَب الكاتب" و"فصيح ثعلب" جملة من ذلك . وفى كتب النحو المبسوطة قواعدُ موصِّلة إلى مقاصده .

ومنها المَهْموزُ وغيرُ المهموز فإن المعنىٰ قد يختلف فى اللفظ الواحد باعتبـار الهمز وعَدَمه : كما تقول عَبَّأْت المتاعَ بالهمز، وعَبَّيت الجيشَ بغير همز ، وبارَأْتُ الكرِيَّ بالهمز من الإبراء،وباريتُ فلانا من المُفاخرة بغير همز.وتقول زنىٰ من الزِّنَا بغير همز، وزَنَأ فى الجبل إذا رَقِيَ فيه ونحو ذلك . وربما جاء الهمزُ وعدمُه فى الكلمة الواحدة كما تقول شِئْت بالهمز وشِيت بإسكان الياء من غير همز ونحو ذلك . فمتىٰ لم يكن الكاتب عارفا بالهمز ومواضعه ضَلَّ فى طريق الكتابة . وفى "أدب الكاتب" باب مفردٌ لذلك .

ومنها ما ورد من كلام العرب مُزْدَوِجا كقولهم الطِّمّ والرِّمّ، يريدون بالطِّمِّ البحرَ وبالرِّمِّ الثرىٰ، وكقولهم الحَجَر والمَدَر، فالحجر معروف والمَدَر التراب النَّدىُّ ونحوذلك .

فاذا عرف الكاتب ذلك تمكّن من وَضْعه فى مواضعه لتحسين الكلام وتمييقه فى الطباق والمقابلة؛ وفى "أدب الكاتب" نُبْذة من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مثنًّى إمّا علىٰ سبيل التغليب : كقولهم القَمرانِ يريدون الشمسَ والقمرَ، والعُمَران يريدون أبا بَكْر وعُمَر، وإما علىٰ الحقيقة : كقولهم ذَهَب منْه الأَطْيَبانِ، يريدون الأكْل والنكاحَ واختلَف عليه المَلَوانِ أو الجَديدانِ، يريدون الليلَ والنهار، ونحو ذلك؛ وفى "أدب الكاتب" أيضا طَرَف منه .

ومنها ما ورد من كلام العرب مرتَّبا كقولهم أوَّلُ النوم النُّعاس، وهو الآحتياجُ إلىٰ النَّوْم ؛ ثم الوَسَن، وهو ثِقَل النُّعَاس ؛ ثم الكَرَىٰ والغَمْضُ، وهو أن يكونَ بين النائم واليَقْظان؛ ثم التَّغْفيق، وهو النوم وأنت تسمعُ كلام القَوْم؛ ثم الإغْفاء، وهو النوم الخَفيف؛ ثم التَّهْجاع ، وهو النوم القليل ؛ ثم الرُّقاد ، وهو النوم الطويلُ ؛ ثم الهُجُوع ، وهو النوم الغَرِق؛ ثم التَّسْبيخ(١)، وهو أشدّ النوم، وما أشبه ذلك، وفى "فقه اللغة" للثعالبىّ قدرٌ صالح من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مَوْرِد الدعاء : إما علىٰ بابه فى الدعاء كقولهم "آستأْصَلَ الله شأْفَتَه" يريدون أذهَبَ الله أثَرَه كما يَذْهَب أثر الشَّأْفة، وهى قَرْحة تَخْرج فى القَدَم فتُكْوىٰ فتَذْهَب؛ وقولهم "أبادَ اللهُ خَضْراءهم" أى سَوَادهم ومُعْظَمَهم . أو لم يُقصَد به حقيقة الدعاء، كقولهمْ "تَرِبَتْ يَدَاكَ" أى أُلْصِقتْ بالتراب من الفاقة ، وقولهم "أرْغَمَ اللهُ أنفَه" أى أَلْصَقَه بالرَّغَام، وهم لا يَقْصِدون به الدعاءَ . وفى "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

---

(١) أهمله فى الأصل وهو من إهمال الناسخ .

ومنها ما تختلف أسمـاؤُه مع المشابهة فى المعنىٰ كالظُّفُر للإنسان، والحافر للفَرَس والبَغْل والحِمـار، والظِّلْف للبقر، والمَنْسِم للبعير، والبُرْثُن للسِّباع، وما يجرِى هذا المجرىٰ. وفى "فقه اللغة" جزء وافر منه.

ومنها ما تختلف أسمـاؤه وأوصافه باختلاف أحواله كالكأس لا يُقال فيه كأس إلا اذا كان فيه شَرَاب وإلا فهو قَدَح، ولا مائدةٌ إلا اذا كان عليها طعام والا فهى خِوَان، ولا قَلَم إلا اذا كان مبْرِيًّا والا فهو أُنْبُوبة، ولا خاتَمٌ إلا وفيه فَصّ وإلا فهو فَتَخَة ونحو ذلك، وفى "فقه اللغة" جملة منه.

ومنها معرفة الأُصُول التى تُشتَقُّ منها الأسماء كتسمية القمر قَمَرًا لبياضه، إذ الأقْمَر هو الأبيض؛ وكتسمية ليلة الرابع عشر من الشهر ليلَةَ البَدْر لُمبادَرة الشمسِ القمرَ بالطلوع، أو لتمامه وآمتلائه حينئذ من حيثُ إن كل تامّ يقـال له بَدْر؛ وكتسمية النَّجْم نَجْما، أخذًا من قولهم نَجَم إذا طَلَع ونحو ذلك، وفى "أدب الكاتب" جملة من ذلك.

ومنها ما نَطَقتْ به العَجَم علىٰ وَفْق لغة العَرَب، لعدم وجوده فى لغتهم (١) وهو المعرَّب كالكَفِّ والسَّاق والدَّلّال والوَزّان والصَّرّاف والجَمّـال والقَصّاب والبَيْطار وما أشبه ذلك؛ وفى "فقه اللغة" جزء من ذلك كافٍ.

ومنها ما آشترك فيه العربية والفارسيّة، كالتَّنُّور، والخَمِير، والدِّينار، والدِّرْهم، والصَّابُون، وما أشبه ذلك؛ وفى "فقه اللغة" أيضا نبْذة منه.

ومنها ما اضْطُرَّت العربُ إلى تعريبه وآستعماله فى لغتهم من اللُّغة العجمية كالكُوز، والإبريق، والطَّسْت، والخُوَان، والطَّبَق، وغيرها من الآنية؛ والسِّكْباج، والزيرباج، والطَّباهج، والجُوذاب، ونحوها من الأطعمة؛ والجُلّاب، والسَّكَنْجَبِين، ونحوهمـا

(١) قوله وهو المعرب كذا فى الأصل.

من الأَشْربة، والخُولَنْجان ، والكافُور ، والصَّنْدل ، وغيرها من الأَفَاويه ، والطِّيب ونحو ذلك؛ وفى "فقه اللغة" من ذلك جملةٌ جيِّدة . إلىٰ غير ذلك من الأمور التى لايَسَع استيفاؤها مما فى أدب الكاتب وفقه اللغة الكثيرُ منه .

ومنها ماتعدّدت لغاتُه ؛ ولْتعلم أنّ لغة العرب متعدّدة اللُّغات متسعة أرجاء الأُلْسُن بحيث لا تُساويها فى ذلك لغة . فمن ذلك مافيه لغتان كقولهم رِطْل ورَطْل بكسر الراء وفتحها وسَمّ وسُمّ بفتح السين وضمها ؛ وما فيه ثلاث لغات مثل بُرْقُع بضم القاف وبُرْقَع بفتحها وبُرْقُوع بضم الباء وزيادة الواو ، وخاتِم بكسر التاء وخاتَم بفتحها وخِيْتام ؛ وما فيه أربع لغات مثل نِطْع بكسر النون وفتحها وسكون الطاء ونَطَع بفتح النون والطاء جميعا وكَسْر النون ؛ وصَدَاق بفتح الصاد وصِدَاق بكسرها وصُداق بضمها وصُدْقة بضم الصاد وسكون الدال ؛ ومافيه خمس لغات كقولهم رِيح الشَّمال بفتح الشين من غير همز ، والشَّمْأل بالهمز ، والشَّامَل بغير همز ، والشَّمَل بفتح الميم ، والشَّمْل بسكونها ؛ وما فيه سِتُّ لغات كفُسْطاط بضم الفاء وفِسْطاط بكسرها ، وفُسْتَاط بضم الفاء وإبدال الطاء تاء ، وفِسْتاط بكسر الفاء ، وفُسَّاط بضم الفاء وتشديد السين ، وفِسَّاط بكسر الفاء ؛ وما فيه تسع لُغات كالأَنْمُلة بفتح الهمزة وضمها وكسرها مع فتح الميم وضمّها وكسرها ؛ وما فيه عَشْر لغات كالأصبع بفتح الهمزة وضمّها وكسرها مع فتح الباء وضمها وكسرها والعاشر أُصْبوع . وفى "أدب الكاتب" جملة من هذا النمط .

الصنف الثالث — الفصيح من اللغة . وآعلم أن اللغة العربيّة قد تنوّعت وآختلفتْ بحسَب تنوّع العرب وآختلاف ألسِنَتهم ؛ والذى آعتمده حُذَّاق اللغة وجَهابِذة العربية من ذلك مانطق به فُصَحاء العرب ، وهم الذين حَلُّوا أوساطَ بلاد العرب ، ولم يخالِطْهم مَنْ سِواهم من الأمم كثيرَ مخالطةٍ ، ولم يُصاقِبُوا بلاد العجم

فبقيتْ ألفاظُهم سالمة من التغييرِ والاختلاط بلغةِ غيرهم : كقُرَيش، وهُذَيل، وكِنَانةَ ، وبعضِ تميم ، وقَيْسِ عَيْلان ، ونحوهم من عَرَب الحجاز، وأوْساط نَجْدٍ . بخلاف الذين حلُّوا فى أطراف بلاد العــرب ، وجاوَرُوا الأعاجمَ فتغيرتْ ألفاظُهم بمخالطتهم : كحِمْيَرَ، وهَمْــدانَ، وخَوْلانَ، والأَزْد : لمجاورتهم بلادَ الحبشة ، وطيِّئ وغَسَّانَ : لمجاورتهم بلاد الرُّوم بالشام، وبعضِ تميم ، وعبد القيس : لمجاورتهم أهلَ الجزيرة وفارس .

وٱعلم أن التغيير يدخلُ فى لغة العرب من عِدَّة وجوه :

منها أن تُبْدل كلمةً بغيرها : كما يَستعمل أهلُ اللغة الحميريَّة "ثِبْ" بمعنىٰ ٱجلس، وهى فى عامَّة لغة العرب للأمر بالطَّفْرة . قال القاضى الرشيدُ فى شرح أُمْنِيَّة الألمعىّ "وربمـا غلَبتِ العُجْمة علىٰ أحدهم حتّٰى لا يُفْهَم عنه شىء" .

ومنها أن تُبْدل حرفا من الكلمة بحرف آخر : كما تُبْدل حميرُ كاف الخطاب شِينا معجمة فيقولون فى قُلتُ لك قلت لَش ، وربمـا أبدلُوا التاء أيضـا كافًا فيقولون فى قلت قُلْكُ، وكما تُبْــدل ربيعةُ الباء الموحدة ميما فيقولون فى بكر مَكْر ونحو ذلك، وكما يُبْــدل بعض العرب الصادَ المهملة بالسين المهملة فيقولون فى صابر سابر، وكما يُبْــدل بعضهم الطاءَ المهملة بتاء مثناة فوقُ فيقولون فى طالَ تالَ وتُسْمَع من عرب أهل الشرْق كثيرا، وكما يبدل قوم التاء المثناة فوقُ بضاد معجمة فيقولون فى أترّ أضر.

ومنها أن يُعاقَب بين حرفين فى الكلمة كما يقول بعضهم فى بَلْخ فَلْخ، وفى أَصْبَهَان أَصْفهان .

ومنها أن يأتى بحرفٍ بين حرفين فيأتُون بكاف بجيم فيقولون فى كَمَل جمل . قال ٱبن دريد : "وهى لغــة فى اليمن كثيرة فى أهــل بغداد" ويأتون بجيم ككاف

على العكس من الأوّل فيقولون فى رَجُل رَكُل يقرّبونها من الكاف، ويأتون بشين معجمة بجيم فيقولون فى ٱجتَمعوا ٱشْتَمعوا، ويأتون بصاد مهملة كزاى فيقولون فى صِرَاط زِرَاط، ويأتُون بجيم كزاى فيقولون فى جابِر زابر، ويأتون بقاف بين القاف والكاف المعقودة، قاله ٱبن سعيد عن سماعه من العرب؛ ولا يكاد يوجد منهم من يَنْطِق بها علىٰ أصلها الموصوفِ فى كتب النحويين. وقد ذكر الشيخ أثيرُ الدِّين أبو حيان ذلك جميعَه فى شرحه علىٰ تسهيل ٱبن مالك.

الصنف الرابع — ما تَلْحَن فيه العامة وتغيِّره عن موضعه بأن يكون مفتوح الأوّل والعامّةُ تكسِره: كقولهم فى جَفْن العين بفتح الجيم جِفْن بكسرها؛ أومفتوح الأوّل والعامّة تضمُّه: كقولهم فى القَبُول الذى هو خلاف الرّدّ قُبُول بضمها؛ أومكسور الأوّل والعامّة تفتحه: كقولهم فى دِرْهم بكسر الدال دَرْهِم بفتحها؛ أومكسور الأوّل والعامّة تضمُّه: كقولهم فى التِّمساح بكسر التاء تُمْساح بضمها؛ أو مضمُوم الأوّل والعامّة تفتحه: كقولهم فى العُصْفور بضم العين عَصْفُور بفتحها؛ أو مضموم الأوّل والعامّة تكسره: كقولهم فى الظُّفُر بضم الظاء ظِفر بكسرها؛ أو مفتوح الوَسَط: كقولهم فى القالَب بفتح اللام قالِب بكسرها؛ أو مكسُور الوسط والعامّة تفتَحُه: كقولهم فى الرجل المُوَسْوِس، والبُرّ المسوِّس، والجبن المدوِّد بكسر الواو فى الثلاثة: مُوَسْوَس ومُسَوَّس ومدوَّد بفتحها؛ أو مضموم الوسط والعامّة تفتحه كقولهم فى الجُدُد جمع جديد جُدَد بفتحها؛ أو محرّك الوسط والعامّةُ تسكِّنه: كقولهم فى التُّحَفة بفتح الحاء تُحْفة بإسكانها؛ أو ساكن الوسط والعامّة تحرّكه: كقولهم فى الحَلْقة بإسكان اللام حَلَقة بفتحها؛ أو مشدّدا والعامّة تخفِّفه: كقولهم فى العاريَّة بتشديد الياء عارِيَة بتخفيفها؛ أو مخففا والعامّة تشدّده: كقولهم فى الكَرَاهِيَة بتخفيف الياء كراهِيَّة بتشديدها؛ أو مهموزا والعامّة تحذف الهمز من أوّله: كقولهم فى الإهْلِيلَج بإثبات همزة فى أوّله

هِلِيلَج بحذفها ؛ أومهموز الوسط والعامّة تسهله : كقولهم فى المِرْءاة بإثبات الهمزة مراة بحذفها ، أو غير مهموز الأوّل والعامّة تثبت الهمزة فى أوّله : كقولهم فى الكُرَة ، أُكْرَة(١) ؛ أو كان بالظـاء المعجمة فجعلته بالضاد المعجمة كالوظيفة ونحوها ، أو بالضاد فجعلته بالظاء : كقول بعضهم فى البَيْضة بَيْظة ، أو بالذال المعجمة فجعلتـه بالدال المهملة كالذراع ، أو كان بالجيم فجعلته بالقاف : كقولهم فى مَجَاديف السفينة مَقَاديف ؛ أو بالدال المهملة فجَعَلَته بالتاء المثنّاة فوق : كقولهم فى دَخَارِيص القميص تَخَارِيص ، ونحو ذلك ممـا شاع وذاع وفى "أدب الكاتب" لآبن قتيبة نُبْـذَة من لحن أهل المشرق ، وكتاب "تثقيف اللسان" لآبن مَكّىّ التونسى موضوع فى لحن أهـل الغرب ، وفصيحُ ثعلب مشتمل علىٰ كثير من هذا المقصد .

الصنف الخامس — الألفاظ الكتابية ، وهى ألفاظٌ آنتخبها الكُتَّاب وآنتقَوْها من اللغــة آستحسانا لهـا وتمييزًا لهـا فى الطَّلاوة والرَّشاقة علىٰ غيرها . قال الجاحظ "ما رأيتُ أمثلَ طريقةً من هؤلاء الكُتَّاب ، فإنهم آلتمَسُوا من الألفـاظ ما لم يكن متوعِّرا حُوشِيًّا ، ولاساقطا سُوقِيًّا" . وقد ذكر آبن الأثير فى "المثل السائر" : أن الكُتَّاب غَرْبَلُوا اللغةَ وآنتقَوْا منها ألفاظًا رائقةً آستعملوها .

ثم هذه الألفاظ أسمـاء وأفعال : فالأسماء كقولك فى المدح فلانٌ غُرَّة القبيلة ، وسَنَامها ، وذُؤابتها ، وذِروتها ؛ وهو نَبْعة أَرُومته وأبْلَق كَتيبته ومِدْرَه عَشيرته ونحو ذلك . والأفعال كقولك فى إصلاح الفاسد : أصلح الفاسدَ ، ولَمَّ الشَّعَثَ ، ورَأَبَ الشَّعْب ، وضَمَّ النَّشَر ، ورَمَّ الرَّثَّ ، وجمَعَ الشَّتَات ، وجَبَر الكسر ، وأسَا الكَلْم ، ورَقَع الخَرْق ، ورَتَق الفَتْق ، وشَعَب الصَّدْع . وفى "كتاب الألفاظ" لعبد الرحمن آبن عيسى الكاتب كفايةٌ من ذلك . وله مختصَر أربىٰ عليه . وفى "كنز الكُتَّاب" لكُشَاجِمَ ما فيه مَقْنع .

---

(١) هى لغة كما فى القاموس .

المقصـــد الربع

(فى كيفية تصرف الكاتب فى الألفاظ اللُّغويَّة . وتصريفها فى وُجوه الكتابة)

لاخفاءَ أنه إذا أكْثَر من حفظ الألفاظ اللغوية ، وعَرَف الألفاظَ المترادِفةَ على المعنى الواحد والمتقارِبَةَ المعانى ، تمكَّنَ من التعبير عن المعانِى التى يُضْطَّر إلى الكتابة فيها بالعبارات المختلِفة ، والألفاظ المتبايِنَة ؛ وسَهُل عليه التعبيرُ عن مقصوده ، وهانَ عليه إنشاءُ الكلام وترتيبُه . وفى الأمثـلة التى أوردها كُشَاجِمُ فى "كنز الكُتَّاب" حيث يعبر عن المعنى الواحد بعبارات متعدّدة مايُرشِد إلى الطريق فى ذلك ، ويَهْدِى إلى سُلُوكِ الجادَّة المُوصِّلة إلى القَصْد منه .

وهذه نسخة مكاتبة منه فى التهنئة بمولود يُستضاءُ بها فى ذلك ، وهى :

قد جَعَلك اللهُ من نَبْعةٍ طابتْ مَغارِسُها ؛ أَرومةٍ رَسَختْ عُرُوقها ؛ شجرةٍ زَكَتْ غُصُونها ؛ فَرْعٍ شرُفتْ منابِتُه ؛ معدِنٍ زكتْ علائقُه ؛ جوهرٍ شاعَتْ مكارِمُه ؛ عنصرٍ بَسَقت فُروعه ؛ مَحْتِـد ذاعَتْ مَحامِدُه ؛ أصلٍ نَجُبتْ مآثِره ؛ سِنْخ خَلَصت مناقِبُه ؛ نِصابٍ صَرُحت مَفَاخِره ؛ نَجْر نَمَتْ مَسَاعِيه ؛ أصلٍ فَضَلت مَعالِمُه ؛ عُنْصرٍ نُصِرَتْ محاسِنُه ؛ منتمًى كَثُرتْ مناقِبه . فالزيادة فيها زيادة فى جوهرِ الكَرَم ، مُظَاهِر فى نَحْو ثرى الإفضال ، ذَخيرةٌ نَفِيســةٌ لذوى الآمال ، نِعْمةٌ كاملةُ السـعادة ، غِبطة شاملةُ البَشَاشة ، سرورٌ يواجه الأولياء ، حُبور تَجْتَوِيه الأعداء ، غِبْطة تَصلُ إلى الأحرار ، ابتهاج لذوى الأخْطار . فتولَّى الله نِعمه عندك بالحِراسة الوافية ، بالوِلاية الكافِيةِ ، الكِفَاية المُتظاهِرة ، الدِّفَاع الكالى ، الحِفَاظ الداعى ، الصُّنْع الجميل ، الدِّفاع الحَسَن ، العافية المتكاتِفَة . وبلغنى الخبرُ بهبة الله المستجِدّة ، الولَد المبارَك ، الفَرْع الطيِّب ، السليل الرَّضِىّ ، الولَدِ الصالح ، الابنِ السارّ ، الثمرة المُثْمِرة ، السُّلالة الزكيَّة ، النجل

الميمون، الذى عَمر أفْنيةَ السِّــيادة . زاد فى مواثيق العهد والرياسة، أرسىٰ قَواعِدَ السيادة، ثبّت أَسَاسَ الرِّفعة، أوثَق عُرى المجد، مكّن أركان الفَضْل، وطّد أساس المَكارِم ، أكّد علائِق الشَّرف ، أبّدَ أوَاخىَ الكرم، أبرَم حِبالَ الجُود، أمَرّ أسْبابَ الطَّوْل، شَــيّدَ بُنْيان الكمال، أحْصَفَ أيْدى السَّماحة، أحكَمَ قُوىٰ الرَّجاحة ، أوْثق عَقْد العُلا، رَفع دعائم الطَّهارة، أنار أعلامَ الغارة، أظْهر علامات الخَيْر . فتباشَرتُ به، ٱبْتهجتُ، ٱجْتذَلْتُ، ٱغتَبطْتُ، فرِحتُ، سُررت، ٱستَبْشَرتُ . جعله الله بَرّا تقِيًّا، سيِّدا، حَميدا، مَيْمونًا، مُباركًا، طَيِّبا، عَزيزا، سَعيدا، ظَهيرا، عَوْنا، ناصرًا، راجحًا، زَكيًّا، وَزَرًا، مَلْجأً . يتقَيَّل(١) سلفه، ويَقْتفِى أثَرَهم، يَسْلُك مِنْهاجَهُم، يَسُنّ سُنَّتهم، يَتْبَع قَصْدهم، يَسِير سَيْرَتَهم، يَسعىٰ مَساعِيَهُم، يَنْحُو مِثالَهم، يَحذو حَذْوهم، يتخَلّق بأخلاقِهم، يتَبصّر بصيرتَهم، ينوط أفعالهم، يترسّم رُسومَهم . وأيْمَن به عددَك، كَثَّر به ذُرِّيتك، أراكَ فيه غاية أملِك، شَفَعه الله بإخْوة بَرَرة، وفّقه الله لأداء حقِّك، جعله خيرَ خَلَف كما هو لخير سَلَف . زَيَّن به العَشــيرة، وَهَب له النَّمــاء، بلَغ به أكْلاَءَ العُمُر، مكّن له فى رَفِيع المراتب، حَقّق فيه فِراسَتك، وَهَب له تمامَ الفَضِيلة، وأوْزَعَك الشكر عليه، أجارك فيه من الثُّكل، سَرَّك بفائدته، أسعدك برؤيته، أطابَ عيْشَك به، متّعك بعَطِيَّته، ألْهمكَ شُكْرَ ماخوّلك، واصَلَ لك المَزِيدَ برحمته .

فإنه إذا أراد الكاتب أن يستخرج من ألفاظ هذا الكتاب عِدّة كتب بتهنئة بولد، فعل . كما إذا قال : قد جعلك اللهُ من نَبْعةٍ طابتْ مغارِسُها، فالزيادةُ فيها زيادةٌ فى جَوْهَرِ الكرم ، فتولّى الله نعمه عندك بالحِرَاســة ؛ وبلغنى الخبرُ بهبة الله الجديدة المستجِدّة، الولدِ المبارَك الذى عَمَر أفْنيةَ السيادة، فتباشرْتُ به ، جعله الله تعالىٰ برّا

(١) فى القاموس تقيّل أباه أشبهه .

تقيا، يتقيّل سَلَفه، وأيمن به عَددَك، وأوزَعَك الشكر عليه، وواصَل لك المزيد برحمته، كان ذلك كتابا كافيا فى هذا النوع. فتأمّل ذلك وقِس عليه .

النـــوع الثـانى

(المعرفة باللغة العجمية، وهى كل ما عدا العربية : من التركية، والفارسِيَّة، والرُّومِيَّة، والفِرِنْجية، والبربريَّة، والسُّودان، وغيرهم؛ وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه احتياج الكاتب إلى معرفة اللُّغات العجمية)

لا يخفى أن الكاتب يحتاج فى كماله إلى معرفة لغــة الكتب التى تَرِد عليــه لملكه أو أميره ليفهَمَها ويُجيب عنها من غير اطّلاع تَرْجُمان عليها، فإنه أصونُ لسرّ ملكه، وأبلغُ فى بُلوغ مقاصده .

وقد روى محمد بن عمر المدائنى فى "كتاب القلم والدواة" بسنده إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال : قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «إنه يَرِدُ علَىَّ أشياءُ من كَلامِ السُّرْيانيَّة لا أُحسِنُها فتعَلَّمْ كلامَ السُّرْيانيَّة فتعلَّمْتُها فى ستَّةَ عَشَرَ يوما» وفى رواية قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتُحسِنُ السُّرْيانيَّة؟ فإنَّه يأتِينِى كُتُبٌ بها، قلتُ لا . قال فتعلَّمْها فتعلَّمْتها فى سبْعةَ عَشَر يوما، فكنت أجيبُ عن رســول الله صلى الله عليه وســلم وأقْرأُ كُتُبَ يَهُودَ اذا وردَتْ عليه» وفى رواية، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يازَيْدُ تعَلَّمْ كتابَ يَهُودَ فإنّى والله لا آمَنُ يَهُودَ على كتابى قال فتعلمتُ كتابتَهم فما مرّ لى ستَّ عشرةَ ليلةً حتّى حذقته فكُنْتُ أقرأ له كُتُبَهم إذا كتبُوا إليه وأُجيبُ اذا كتب» وفى روايةٍ العِبْرانية بدل السُّرْيانية .

قال محمد بن عمر المدائنى بل قد قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفْهَم اللغاتِ كلَّها و إن كان عربيا لأن الله تعالىٰ بعثه إلى الناس كافَّةً ولم يكن اللهُ بالذى يبعَثُ نبيًّا إلىٰ قومٍ لا يفهم عنهم، ولذلك كلَّم سَلْمان بالفارسية . وساق بسنده إلىٰ عكرمة أنه قال: سُئِل ٱبنُ عبَّاس هل تكلَّمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالفارسيَّة قال نَعَمْ، دخَلَ عليه سَلْمانُ فقال له درسته وسادته قال محمد بن أمْيَل : أظنه مَرْحبًا وأهلا . وحينئذ فيكون النبي صلى اللهعليه وسلم إنَّما أمر زيدا بتعَلُّم كتابةِ السُّرْيانية أو العِبْرانية لتحريم الكتابة عليه لا أنه أمره بتعَلُّم لغتهم .

المقصـــد الثــانى

(فى بيان ما يتصرَّف فيه الكاتبُ من اللغة العجمية)

اعلم أن الذى ينبغى له تعلُّمــه من اللغــات العجمية هو ما تتعلَّق به حاجتُــه فى المخاطَبة والمكاتَبة .

أما المخاطبة فبأن يكونَ لسانُ ملكه بعضَ الألسُن العَجَمية أو كان الغالبَ عليه لسانٌ عجمىٌ مع معرفته بالعربية : كما غلبت اللغة التركية علىٰ ملوك الديار المِصرية، وكما غلَبتِ اللغة الفارسـية علىٰ ملوكَ بلاد العِراق وفارس، وكما غلب لسانُ البربر علىٰ ملوكَ بلاد المغرب مع تبعيَّة عسكر كل ملك فى اللسان الغالب عليه له فى ذلك فيحتاج الـكاتب إلىٰ معرفة لسان السلطان الذى يتكلم به هو وعسكره ليـكون أقربَ إلىٰ حصول قصدِه : من فهم الخطاب وتفهيمه، وسُرْعة إدراك ما يلقىٰ إليه من ذلك، وتأدية ما يقصــد تأديتــه منه؛ مع ما يحصــل له من الحُظْوة والتقريب بالموافقة فى اللسان؛ فإن الشخص يميل إلىٰ مَنْ يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه

كما يميل نفوسُ ملوكِ الديار المصرية وأمرائها وجُنْدها لمن يتكلم بالتركية: من العُلَماء والكُتَّاب ومَنْ فى معناهم علىٰ ما هو معلوم مشاهد .

وأما المكاتبة فبأن يكونَ يعرِف لسان الكُتُب الواردة علىٰ ملكه ليترجَمها له ويُجِيبَ عنها بلغتها التى وردتْ بها ؛ فإن فى ذلك وقعًا فى النفوس ، وآستجلابا للقلوب ، وصونا للسر عن آطِّلاع ترجمان عليه ؛ وأمْرُ النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت بتعلُّم السريانية أو العبرانية على ماتقدّم ظاهرٌ فى طلب ذلك من الكاتب وحثِّه عليه .

ثم اللغات العجمية علىٰ ضربين : أحدهما ماله قَلَم يُكتَب به فى تلك اللغة كاللغة الفارسية ، واللغة الرومية ، واللغة الفرنجية ونحوها ؛ فإن لكل منها قلما يخصُّه يُكتَب به فى تلك اللغة . والثانى ماليس له قلم يكتب به ، وهى لغات القوم الذين تغلب عليهم البَدَاوة كالترك والسُّودان . ولأجل ذلك ترد الكُتُب من القانات ملوكِ الترك ببلاد الشِّمال المعروف فى القديم ببيت بركة ، والآن بمملكة أزبك باللغة المغلية بالخط العربى ؛ وترد الكتب الصادرةُ عن ملوك السودان باللفظ العربى والخط العربى . أما اللغات التى لها أقلام تخصها فإن كتبهم ترد بخطهم ولغتهم : كالكتب الواردة من ملوك الروم والفِرنج ونحوهما ممن للغته قلم يخصه علىٰ اختلاف الألسنة واللغات .

النـــوع الثـــالث

(المعرفة بالنحو ؛ وفيـــه مَقْصِدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه آحتياج الكاتب إليـــه)

لا نزاعَ أن النحو هو قانون اللغة العربية ، ومِيزان تقويمها ؛ وقد تقدّم فى النوع الأوّل أن اللغة العربية هى رأسُ مال الكاتب ، وأُسُّ مَقاله ، وكنز إنفاقه . وحينئذ

فيحتاج إلى المعرفة بالنحو وطُرُق الإعراب، والأخذ فى تعاطِى ذلك حتّى يجعله دأْبَه، ويُصيِّره ديدنه : ليرتسم الإعرابُ فى فِكْره، ويَدُورَ على لسانه، وينطلِقَ به مَقالُ قلمه وكَلِمه، ويزولَ به الوهم عن سجيَّته، ويكونَ على بصيرة من عبارته . فإنه إذا أتى من البلاغة بأعلى رتبة ولحنَ فى كلامه، ذهبتْ محاسن ما أتى به، وانهدمتْ طبَقة كلامِه وأُلغِيَ جميع ما حسَّنه، ووُقِف به عند ما جهله . قال فى "المثل السائر": وهو أوّل ما ينبغِى إثبات معرفته، على أنه ليس مختصًّا بهذا العلم خاصَّةً بل بكل علم، لا : بل ينبغى معرفتـه لكل أحد ينطِق باللسـان العربىّ ليأمنَ مَعَرّة اللحن . قال صاحب "الرَّيحان والرَّيعان" ولم يزل الخلَفاءُ الراشدون بعد النبى صلى الله عليه وسلم يحُثُّون على تعلُّم العربيَّة، وحفْظِها والرِّعاية لمعانيها، إذ هى من الدِّين بالمكان المعلوم، والمحلِّ المخصوص . قال عثمان المهرىُّ : « أتانا كتابُ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه، ونحن بأَذْرَبِيجانَ يأمرنا بأشياءَ، ويذكر فيها : " تعلَّمُوا العربيَّة فإنها تثبِّت العقلَ، وتزيد فى المُرُوءة " . وكان خالد بن يزيد بن معاوية أَخٌ فجاءه يوما فقـال : إن الوليـدَ ابن عبد الملك يَعْبَثُ بى ويحتَقِرُنى، فدخل خالد على عبد الملك والوليدُ عنده فقال ياأمير المؤمنين ! : إن الوليد قد احتقر ابنَ عمه عبدَ الله واستصغره، وعبد الملك مُطْرِق فرفع رأسَه وقال : ﴿إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً أفْسَدُوها﴾ الآية — فقال خالد : ﴿وإذا أرَدْنا أنْ نُهلِكَ قَرْيةً﴾ الآية — فقال عبدُ الملك : أفى عبدالله تكلِّمُنى ؟ وقد دخل علىّ فمـا أقام لسانَه لحْنا — فقال خالد : أفعلَى الوليد تُعوِّل؟ فقال عبد الملك : إن كان الوليد يلْحَن فإن أخاه سليمانُ — فقال خالد : وإن كان عبد الله يلْحَن فإن أخاه خالدٌ فى كلام كثير طويل ليس هذا موضع ذكره .

وقال الرشيد يوما لبنيه : "ما ضرّ أحدَكم لو تعلَّم من العربيَّة ما يُصلِح به لسانه ؟ أيسُرّ أحدَكم أن يكونَ لسانُه كلسان عبـده وأَمَتِه ؟ " . ومن كلام مالك بن أنس

"الإعراب حَلْيُ اللِّسانِ فلا تَمْنَعوا أَلْسِنَتَكُم حُلِيَّها" . ولله درّ أبي سعيد البصريّ ! حيث يقول :

النَّحْوُ يَبْسُط مِنْ لِسَانِ الأَلْكَنِ * والمَرْءُ تُكْرِمُـه إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طَلَبْتَ من العُلُومِ أجلَّهـا * فأَجَلُّها عِنْدِى مُقِيمُ الأَلْسُنِ

قال صاحب "الريحان والريعان" واللحنُ قبيح فى كبراء الناس وسَرَاتهم، كما أن الإعرابَ جمال لهم ، وهو يرفع الساقط من السِّفْلة ويرتقي به إلىٰ مرتبة تُلحِقه بمن كان فوقَ نَمَطه وصِنْفه. قال وإذا لم يتجه الإعراب فسد المعنىٰ ؛ فإن اللحن يغيِّر المعنىٰ واللفظ ويقلِبُه عن المراد به إلىٰ ضِـدّه حتّى يفهم السامعُ خلاف المقصود منه . وقد رُوِى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ ورَسُولِه﴾ بجرّ رسوله فتوهم عطفه علىٰ المشركين فقال : أوَ بَرِئَ اللهُ من رسوله ؟ ، فبلغ ذلك عمرَ بنَ الخطاب رضى الله عنه فأمر أن لا يَقرأ القُرءان إلا مَنْ يُحْسن العربيـة . على أن الحسن قد قرأها بالجرّ علىٰ القسَم وقد ذهب علىٰ الأعرابىّ فهمُ ذلك لخفائه . وقرأ آخرُ ﴿إِنَّمـا يخشىٰ اللهُ مِن عِبَادِهِ العلماءَ﴾ برفع الأوّل ونصب الثانى ، فوقع فى الكفر بنقل فتحة إلىٰ ضمة وضمة إلىٰ فتحة فقيل له : يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحدا ! فتنبه لذلك وتفطَّن له . وسمع أعرابىّ رجلا يقول : أشهد أن محمدا رسولَ الله بفتح رسول الله فتوهم أنه نصبه على النعت فقال يفعل ماذا ؟ . وقال رجل لآخر ما شانَك؟ بالنصب فظنّ أنه يسأل عن شينٍ به فقال عِظَم فى وجهى . وقال رجل لأعرابىّ : كيف أهْلِك ؟ بكسر اللام وهو يريد السؤال عن أهـله فتوهَّم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه فقال صَلْبا . ودخل رجل علىٰ زيادِ بنِ أبيه فقال : إنَّ أبُونا ماتَ وإن أخِينا وَثَبَ علىٰ مال أبانا فأكله — فقال زياد لَلَّذى أضعتَه من كلامك أضَرُّ عليك ممـا أضعْتَه من مالك . وقيل لرجل من أين أقبلت ؟ فقال مِنْ عند أَهْلُونا ، فحسده آخر

حين سمعه وظن ذلك فصاحةً فقال أنا والله أعلم من أين أخذها ؟ من قوله ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوالُنا وأَهْلُونا﴾ فأضحكَ كلٌّ منهما من نفســه . قال صاحب "الريحان والريعان" وكان مَن يُؤْثر عقلَه من الخلفاء يعاقِب علىٰ اللحن وينفِر من خطإ القول، ولا يجيز أن يُخاطَب به فى الرسائل البُلْدانية ، ولا أن يُوقَف به على رءوسهم فى الخُطب المَقَامِيَّة قال : وهو الوجه . فأنديتُهم مَطْلَب الكمال ، ومَظانُّ الصواب فى إحكام الأفعال ، فكيف فى إحكام الأقوال . قال ٱبن قادم النحوىّ : "وجه إلىّ إسحاق بن إبراهيم المُصْعَبىّ : وهو أمير فأحضرنِى فلم أدرِ ما السببُ ، فلما قَرُبت من مجلســه تلقَّانى كاتبُه علىٰ الرسائل ميمونُ بنُ إبراهيم وهو علىٰ غاية الهَلَع والجزَع ، فقال لى بصوت خفىّ إنه إسحاق ! ومرّ غير متلبث حتّى رجع إلىٰ إسحاق ، فراعنى ما سمعتُ ، فلما مَثَلْت بين يديه ، قال كيف يقال وهذا المــال مالٌ أو وهذا المــالُ مالا ، فعلمت ما أراد ميمونٌ الكاتبُ فقلتُ له الوجهُ وهذا المــال مالٌ ويجوز وهذا المــال مالًا ، فأقبل إسحاق علىٰ ميمون كاتبه بغِلظة وفَظَاظة ثم قال : «ٱلزم الوجهَ فى كُتُبك ودَعْ ما يجوز ! » ورمىٰ بكتاب كان فى يديه ، فسألت عن الخبر فإذا بميمون قد كتب عن إسحاق إلى المأمون وهو ببلاد الروم وذكر مالا حمله إليه فقال «وهذا المــالُ مالا» ، فخط المأمون على الموضع من الكتاب ووقَّع بخطه فى حاشيته تُكاتِبنى باللحن ؟ ويقال إنه لم يتجــاوز موضع اللحن فى قراءة الكتاب فقامتْ عنــد إسحاق ؛ فكان ميمونٌ الكاتبُ بعــد ذلك يقول : لا أدرى كيف أشــكُر ٱبنَ قادم بَقّى علىّ رُوحى ونِعْمتى . ووقف بعضُ الخُلفاء على كتاب لبعض عُمَّاله فيه لحن فى لفظه فكتب إلى عامله : قَنِّعْ كاتِبَك هذا سوطًا معاقبةً علىٰ لحنه . قال أحمد بن يحيى : كان هذا مقدارَ أهل العلم ، وبحسبه كانت الرَّغبةُ فى طلبه والحِذْر من الزَّلل . قال صاحب "الريحان والريعان" : فكيف لو أبصر بعضَ كُتَّاب زماننا هــذا ؟ . قلت قد قال ذلك فى زمانه هو وفى الناس بعض الرَّمَق والعلمُ ظاهر وأهلُه مُكرَمُون ، و إلا فلو عَمَر إلى زماننا نحن لقال ﴿تلكَ أُمَّة قَدْ خَلَتْ﴾ .

ثم المَرجع فى معرفة النحو إلىٰ التلقِّى من أفواه العلماء الماهرين فيه ، والنظر فى الكُتُب المعتمَدة فى ذلك من كتب المتقدّمين والمتأخرين .

وٱعلم أن كتب النحو : من المبسوطات والمختصرات والمتوسطات أكثر من أن يأخذها الحصر . ومن الكتب المعتمدة فى زماننا عند أبناء المشرق "المفَصَّل" للزمخشرى و"الكافية" لٱبن الحاجب . وعند المصريين كتبُ ٱبن مالك : كالتسهيل والكافية الشافية والألفية وغير ذلك من كتب ٱبن مالك وغيرها .

قال أبو جعفر النحاس : وقد صار أكثر الناس يطعُنُ علىٰ متعلِّمى العربية جهلا وتعدّيا حتّى إنهم يحتجُّون بما يَزْعُمون أن القاسم بن مُخيمِرة قال : «النحو أوّله شُغل وآخره بَغْى» قال : وهذا كلام لامعنىٰ له لأن أول الفقه شُغْل وأول الحساب شُغْل وكذا أوائلُ العلوم . أفترىٰ الناس تاركين العلومَ من أجل أن أولها شغل ؟ . قال وأمّا قوله « وآخره بغى » إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حذقه صار فيه زَهْوٌ وٱستحقَرَ مَنْ يلْحَن فهذا موجود فى غيره من العلوم : من الفقه وغيره فى بعض الناس وإن كان مكروها . وإن كان يريد بالبغى التجاوُزَ فيما لا يحِلُّ فهذا كلامٌ مُحال فإن النحو إنما هو العلم باللغة التى نزل بها القرءانُ وهى لغة النبى صلى الله عليه وسلم وكلامُ أهل الجنة وكلامُ أهل السماء . ثم قال بعد كلامٍ طويل : وقد كان الكُتَّاب فيما مضى أرْغبَ الناس فى علم النحو وأكثَرَهم تعظيما للعلماء حتّى دخل فيهم مَنْ لايستحقُّ هذا الآسم فصَعُب عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب ، وبَعُدَتْ عليهم معرفة الهمزة التى ينضَمُّ وينفتح ما قبلها ، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها فيكتبون يقرؤه بزيادة ألف لامعنى لها : فى كلام آخر يتعلق بالهجاء ليس هذا موضع ذكره . — أمّا التعمُّق فى الإعراب والمبالغةُ فيه فإن حكمه فى الآستكراه حكُم التقعُّر فى الغريب ، وقد كانوا يذُمّون مَنْ يتعاناه ، ويَسْخَرون بمن يتعاطاه . قال الأصمعى

خاصمَ عيسىٰ بن عمـر النحوىُّ رجلا إلىٰ بلال بن أبى بُرْدَةَ فجعـل عيسىٰ يُشْبِـع الإعراب ويتعمَّق فى الألفاظ، وجعل الرجل ينظر إليه ـــ فقال له القاضى: "لأن يَذْهَبَ بعضُ حَقِّ هذا أَحَبُّ إليه مِنْ تركه الإعرابَ، فلا تتشاغَلْ به واَقصدْ بحُجَّتك".

وخاصم نحوىٌّ نحويًّا آخرَ عند بعض القُضاة فى دَيْن عليه فقال: "أَصْلَحَ الله القاضى! لى علىٰ هذا دِرْهمان" ـــ فقال خصمه: "والله أصلحك الله! إن هى إلا ثلاثةُ دراهم ولكنه لظهُور الإعراب ترك من حقه درهمـا". فهذا وشبهه قد صـار مذموما والمتشبِّثُ به مَلُوما؛ ولذلك كان بعضُ الكتّاب لشدّة اَقتداره علىٰ الإعراب يُعرِب كلامه ولا يُخَيِّل إلىٰ السامع أنه يُعْرِب، فإن عرض مع التعمق فى الإعراب لحن، كان ذلك أبلغَ فى الشَّناعة، وأَجْدَرَ بتوجُّه اللوم علىٰ صاحبه والسخرية من المتكلِّم به.

وقد قال الجـاحظ: «إنـــ أقبح اللحن لحنُ أصحاب التقعير والتشديق والتمطيط والجهورية والتفخيم». قال «وأقبح من ذلك لَحْنُ الأعاريب النازلين علىٰ طريق السابلة وبقُرْب مجامع الأسواق». وعلىٰ الجملة فالنحو لا يُستغنىٰ عنه ولا يوجد بدٌّ منه، إذ هو حَلْىُ الكلام، وهو له كما قيل كالملح فى الطعام. قال فى "المثل السائر": والجهل بالنحو لا يقْدَح فى فَصاحةٍ ولا بلاغةٍ ولكنه يقْدَح فى الجهل به نفسِه لأنه رُسومُ قوم تواضَعُوا عليه وهم الناطقُونَ باللغة فوجب اَتباعهم؛ ولذلك لم ينظم الشاعر شعره وغرضُه منه رفعُ الفاعل ونصبُ المفعول أو مجرى مَجْراهما وإنما غرضهُ إيراد المعنىٰ الحسَنِ فى اللفظ الحسن المتصفَيْن بصفة الفصاحة والبلاغة. قال: ولذلك لم يكن اللحنُ قادحا فى نفسِ الكلام: لأنه اذا قيل جاء زيد راكبٌ بالرفع لو لم يكن حسـنا إلا بأن يقال جاء زيد راكبا بالنصب لكان النحو شرطا فى حسن الكلام وليس كذلك فتبين أنه ليس الغرض من نظم الشـعر إقامة إعراب كلمـاته وإنمـا الغرضُ أمرٌ وراء ذلك ـــ وهكذا يجرِى الحكم فى الخُطَب والرسائل من المنثور مع

ما حُكِي أن اللحن وقع لجماعة من الشعراء المتقدّمين فى شعرهم ، كقول أبى نُوَاس فى محمد الأمين :

يا خَيْرَ مَنْ كانَ وَمَنْ يكُونُ * إلا النَّبيُّ الطاهر المأمونُ

فرفع المستثنى من الموجب . وكقول المتنبى :

أرأيتَ هِمَّــةَ ناقتِي فى ناقةٍ * نَقَلَتْ يَدًا سُرُحا وخُفًّا مُجْمَرَا
تَرَكَتْ دُخَانَ الرِّمْثِ فى أوْطانِها * طَلَبًا لقَوْمٍ يُوقِدُون العَنْــبرَا
وتَكَرَّمتْ رُكبَاتُها عن مَبْرَكٍ * تَقَعانِ فيه وليس مِسْكا أذْفَرَا

فجمع فى حالة التثنية، لأن الناقة ليس لها إلا رُكْبتانِ وقد قال رُكَباتها .

وآعلم أن اللحن قد فَشَا فى الناس ، والألسِنَةَ قد تغيرت حتّى صار التكلم بالإعراب عَيْبا ، والنطقُ بالكلام الفصيح عِيًّا . قلت : والذى يقتضيه حالُ الزمان ، والجرى علىٰ منهاج الناس أن يحافَظَ علىٰ الإعراب فى القرءان الكريم ، والأحاديث النبوية ، وفى الشعر والكلام المسجوع ، وما يُدوّن من الكلام ، ويُكتَب من المراسلات ونحوها ؛ ويغتفر اللحنُ فى الكلام الشائع بين الناس الدائرِ علىٰ ألسنتهم مما يتداولُونه بينهم ويتحاوَرُون به فى مخاطباتهم ؛ وعلىٰ ذلك جَرت سُنَّة الناس فى الكلام مذ فَسَدت الألْسِــنة ، وتغيرت اللغة حتّى حكى أن الفرّاء مع جلالة قدره وعلوّ رتبته فى النحو دخل يوما علىٰ الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه ؛ فقال جعفر بن يحيي يا أمير المؤمنين إنه قد لحن — فقال الرشيد للفرّاء أتَلْحن يا يحيىٰ؟ فقال يا أمير المؤمنين ! : إن طباع أهل البَدْو الإعرابُ وطباع أهلِ الحَضَر اللحنُ فاذا حفظتُ أو كتبت لم أَلْحَن وإذا رجعت الى الطبع لَحَنت — فاستحسن الرشيد كلامه . وقد قال الجاحظ فى كتابه "البيانِ والتبيين" « ومتى سَمِعت حفظك اللهُ نادرةً من كلام الأعراب فإياك أن

تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيرتهـا بأن لحنت فى إعرابها أو أخرجتها مخرج كلام المولَّدين والبلديِّين، خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير، وإن سمعتَ نادرة من نوادر العوامّ ومُلْحةً من مُلَحهم فإيَّاك أن تستعمل لها الإعرابَ أو تتخيرَ لهـا لفظا حسـنا ، فإن ذلك يُفسِد الإمتاع بهـا ويُخرجها من صُورتها التى وُضعت لها ويُذهبُ آستطابتَهم إياها » . قال : "واللحن من الجوارِى الظِّراف، ومن الكَواعب النَّواهِد، ومن الشَّوابِّ الملاح، ومن ذوات الخُدُور أيسرُ وربمـا آستَمْلح الرجلُ ذلك منهنّ مالم تكن الجارية صاحبةَ تكلُّف" ولكن إذا كان اللحن على سجيَّة سُكَّان البلد كما يستملحون اللَّثْغاء إذا كانتْ حديثة السنّ فإذا أسنت وآكتهلَتْ سُئِم ذلك الاستملاح . قال : "وممن آستملح اللحن فى النساء مالكُ بن أسماء فقال فى بعض نسائه :

أمُغَطًّى مِنِّى على بَصَرِى لِلْـ * ـحُبِّ أم أنتِ أكملُ الناسِ حُسْنا؟

وحـديثٍ ألَذُّه هو مِمَّـا * تَشْتَهِيه الأسمـاع يُوزَنُ وَزْنا

مَنِطقٌ صـائِبٌ وتَلْحَنُ أحيـا * نًا وخَيْرُ الحَدِيثِ ما كانَ لَحْنا"

والناس فى ذلك كله بحسب البلاد وأهلها، ألا ترى أن العرب وإن تغيرت ألسِنَتُهم بمخالطة مَنْ عداهم فإنهم لا يخلُو كلامُهم من مُوافقة الإعراب فى بعض الكلام والجَرْيِ على قواعد العربية خصوصا عَرَب الحجاز وأهل البـادية منهم . وقد قال الجاحظ فى أثناء كلامه «ولأهل المدينة ألْسِنَة ذَلِقة، وألفاظ حَسَنة، وعبارة جيِّدة؛ واللحن فى عوامِّهم فاشٍ وعلى مَنْ لم ينظر منهم فى النحو غالبٌ» .

المقصـــد الثـانى

(فى كيفية تصرّف الكاتب فى علم العربيـــة)

وٱعلم أن ٱنتفاع الكاتب بالنحو من وجهين : أحدهما الإعراب وما يُلْحَق به . ومن أهم ما يُعتنىٰ به من ذلك النَّسَبُ لكثرة ٱستعماله فى الألقاب ونحوها ، وكذلك العَدَدُ فإنه مما يقَعُ فيه اللَّبْس على المبتدئ؛ ومحل ذلك كلِّه كتبُ النحو. الثانى فيما يقع الكاتب فيه بطريق العَرَض، فيحتاج من ذلك إلىٰ معرفة النُّحاة ومشاهير أهل العربية كأبى الأسود الدؤلى، وسيبويه، والفرّاء، وأبى على، وأبى عثمان المـازنىّ وغيرهم من المتقدّمين؛ وٱبن عُصْفور وٱبن مالك وٱبن مُعْطى وغيرهم من المتأخرين؛ وكذلك أسماء كتبهم المشهورة فى هـذا الفن : من المبسوطـات والمختَصرات من كتب المتقدّمين والمتأخرين ومصطلحاتهم التى ٱصطلحوا عليها : من ذكر الأسم، والفعل، والمعرفة، والنكرة، والمبتدإ، والخبر، والحال، والتمييز، وألقاب الإعراب : من الرفع والنصب والجرّ والجزم وغير ذلك ممـا تجرى به عباراتهم ، ويدور على ألسنتهم فى ٱستعمالاتهم : من قولهم ضرب زيد عمرا ونحو ذلك ليُدْرِج ما عَنّ له من ذلك فى خلال كلامه حيث ٱحتاج إليه فى التواقيع والمكاتَبات وغيرها .

قال فى «التعريف» فى وصية نحوىّ: وهو زيد الزّمان، الذى يضربُ به المثَل، وعمرو الأوان؛ وقد كَثُر من سيبويه المَلَل ومازِنىُّ الوقت لكنه لم يَسْتَبِح الإبل ، وكسائىُّ الدهر الذى لو تقدّم لمـا ٱختار غيرَه الرشيدُ للأمون، وذو السُّودد لا أبو الأسود على أنه ذو السـابقة والأَجْر الممنون . وهو ذو البِرّ المأثور، والقـدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذيلُ فَخَاره المجرور . والمعروف بما لا يُنْكَر لمثله من الحَزْم ، والذاهبُ عملُه الصالح بكل العوامل التى لم يبق منهـا لحسوده إلا الجَزْم . وهو ذو الأبنيَة التى

لا يفصِح عن مثلها الإعراب ، ولا يُعرَف أفصحُ منهـا فيما أُخذ عن الأعراب . والذى أصبحتْ أهدابُه فوق عمائم الغمائم ثلاث ، ولم يزل طُولَ الدهر يُشْكَر منه أمسُه ويومُه وغدُه وإنما الكلمات ثلاث . فلْيتصدّ للإفاده ، ولْيعلّمْهم مثل ما ذكر فيه من علم النحو نحو هـذا وزياده . ولْيكُنْ للطلبة نَجْما به يُهْتدىٰ، وليرفعْ بتعليمه قدر كل حبر يكون خبرًا له وهو المبتدا . ولْيقدّم منهم كلَّ من صلَح للتبريز ، وآستحق أن يُنصَب إماما بالتميز . وليُورِدْ من موارِده أعذبَ النِّطاف، وليجرّ إليه كلَّ مضاف إليه ومضاف . وليوقفهم علىٰ حقائق الأسمـاء، ويعرّفْهم دقائق البحوث حتّٰى آشتقاقَ الآسم هل هو من السموّ أو من السَّماء . ولْيُبيِّن لهم الأسمـاء العجمية المنقولَة والعربيِة الخالصـه، ويدلّهم علىٰ أحسن الأفعال لا ما يتشـبَّه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصه، ولْيُحفِّظْهم المثل وكلماتِ الشعراء، ولْينصِب نفسه لحدّ أذهان بعضهم ببعض نَصْب الإغراء . وليعامل جماعةَ المستفيدين منه بالعَطْف ، ومع هذا كله فليترفّقْ بهم فما بلغ أحدٌ علما بقوّة ولا غايةً بعَسْف .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نُباتة رحمه الله من جملة توقيع مدرس : «ولأنه فى البيان ذو الآنتقاد والآنتقاء . والعربىّ الذى كان لرِقَاب الفضلاء آبنَ مالك فإنّ قريبه أبو البقاء .

وكما كتب القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى رسالة آقترِحت عليه فى هـذا الباب وهى : «حرس الله نعمة مولاى ! ، ولا زال كَلِمُ السعد من آسمه، وفعله ، وحرف قلمـه يأتلف ، ومنادَى جُوده لا يُرخَّم وأحمدُ عيشه لا ينصرف . ولا عَدِم مستوصلُ الرِّزق من براعته التى لا تقف الوصلَ (١) ولا عَدِمت نُحاة الجُود

(١) بياض فى الأصل .

من نَواله كلَّ موزون ومعدود ، ومن فضـله وظله كل مقصور وممدود . ولا خاطَبتِ الأيام مُلتَمسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوّه الا بلام الجحود . هذه المفاوضة اليه أعزه الله ! تفهمه أنا بلغنا أن فلانا أضمر سيدُنا له فِعلا غدا به منتصبا للمكايد ومعتَلًّا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد . وما ذاك إلا لأن معرفتَها داخلها التنكير، وقُدِّر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير . ونعوتَ صُحْبته تكررت لجاز قطعُها بسبب ذلك التكرير . وسيدُنا يعلم بالعلمية المذْكونَ(١) من الإنافة ، وما لإضافته إلى جلالته من الانتماء الذى يجب أن يكون لأجله عيْشُه به خفضا على الإضافة . وكان الظنّ أنّ الأشغالَ التى جُمِعت له لا تكون جمعَ تكسير بل جمع سلامة ، وآية لاتكلف تعليما على وصول لأنه فى الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه والحرفُ ليست له علامة . وحاش لله ! أن يُصبِح معرَبُ إحسانه مبنيّا ، وأن نزيلَ كرمه يكون للنكرات بأىّ محكيّا أو أن يأتى سيدُنا بالماضى من الأفعال فى معنى الاستقبال ، أو أن يجعل بَدلَ غلطه الإبدال للاشتمال . أويدغم من مودّته مُظهَرا ، أو أنه لا يجعل لمبتدا محبته مُخْبَرا ، أوأن لا يكون له من أبنية تدبير سيدنا مصدرا . ولا بَرِح سيدُنا نسيجَ وحدِه فى أموره ! ولا زال حلمُه يتناسى الهفوات لا يشتغِلُ مفعولُه عن فعله بضميره .

النـــوع الرابع
(المعـــرفة بالتصـــريف)

ويجب على الكاتب المعرفة به ليعرف أصل الكلمة ، و زيادتها ، وحذفها ، و إبدالها فيتصرّف فيها بالجمع والتصغير والنسـبة إليها وغير ذلك : لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصـغيرَها أو النسبةَ اليها ولم يعرِف الأصلَ فى حروف الكلمة و زيادتَها وحذفَها وإبدالَها ، ضلّ حينئذ عن السبيل ، ونشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن .

(١) كذا فى الاصل بالدال المهملة . ودُكن المتاع تنضيد بعضه على بعض وهو غير مناسب فلعله مصحف عن المزكون بالزاى بمعنى المعلوم فتأمل .

قال ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر": وتظهر لك فائدة ذلك ظُهورا واضحا فيما إذا قيل للنحوىّ الجاهل بعلم التصريف كيف تصغِّر لفظةَ آضطراب فإنه يقول ضُطَيريب(١)، ولا يلام فى ذلك لأنه الذى تقتضيه صناعة النحو . لأن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة علىٰ خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته منها، نحو قولهم فى منطلق مطيلق وفى جَحْمرِش جحيمرش(٢) . ولفظة منطلق علىٰ خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون، إلا أن الميم زيدت فيها لمعنًى فلذلك لم تُحذَف وحُذِفت النون. وأما لفظة جَحْمَرِش فخماسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا. فإذا بنىٰ النحوىُّ علىٰ هـذا الأصل، فإما أن يحذف من لفظة آضطراب الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو البـاء، وهذه الحروف غير الألف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الأصلى فيصغر لفظة آضطراب حينئذ علىٰ ضطيريب، ولم يعلم النحوى أن الطاء فى آضطراب مبدلة من تاء وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلىٰ الأصل الذى كانت عليه . فيقال ضتيريب فإن هذا ممـا لا يعلمه إلا التصريفىّ والنحاة أطلقوا ما أطلقوه من ذلك آتكالا منهم علىٰ تحقيقه مِن علم التصريف، إذ كل من النحو والتصريف علم منفرد برأسه، فتكليف النحوىّ الجاهل بعلم التصريف إلىٰ معرفة ذلك كتكليفه ماليس من علمه.

قال : فثبت بمـا ذكر أن علم التصريف مما يُحتاج إليه لئلا يغلط فى مثل ذلك.

قال: ومن العجب أن يقال إنه لا يُحتاج إلىٰ معرفة التصريف وهذا نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القرّاء السبعة قدرا وأفخمهم شأنا قد قال فى مَعَايِش معائِش بالهمز، وهذه اللفظة ممـا لايجوز همزه بإجماع من علمـاء العربية : لأن اليـاء فيها ليست

(١) أى باثبات الياء بعـد الراء وهى ياء التصغير وليست منقلبة عن ألف الأفتعال كما قد يتوهم بل ألف الأفتعال محذوفة .

(٢) كذا فى الأصل وصوابه جحيمر كما تقتضيه القواعد الصرفية . أُنظر باب التصغير من الكتاب.

مبدلة من همزة وإنما الياء التى تبدل(١) من الهمزة فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكونُ بعدها حرفٌ واحد ولايكون عينا نحو سَفَائن، ولم يعلم نافع الأصلَ فى ذلك فأُخِذ عليه وعيبَ عليــه من أجله وذلك أنه ٱعتقدَ أن مَعِيشةً علىٰ وزن فَعِيلة تجمع علىٰ فَعائِل ولم ينظر إلىٰ أن الأصل فى مَعِيشة مَعْيِشة علىٰ وزن مَفْعِلة لأن أصل هذه الكلمة من عاشَ لكن(٢) أصلها عيش علىٰ وزن فَعَل ، ويلزم مضارع فَعَل المعتــل العين يفعل لتصح الياء نحو يَعْيِشُ ثم تنتقل حركةُ العين إلىٰ الفاء فتصير يَعِيش ثم يبنىٰ من يَعِيشُ مفعول فيقال مَعْيُوشٌ به كما يقال مَسْيُور به ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال مَعِيش به كما يقال مَسِير به ثم تؤنَّث هذه اللفظة فتصير مَعِيشة . ومن جمــلة من عابه أبو عثمان المــازنى فقال فى كتابه فى التصريف : إنــ نافعا لم يدر ما العَرَبِيّة .

وحكى أبو جعفر النحاس أن عبيد الله بن سليمان نظر فى بعض كُتُب الكُتَّاب فإذا فيه حرف مُصْلَح هو : وقد لَهَوْت عن جباية الخراج ، فاغتاظ وقال لايحكه غيرى فحَكَّه فأصلحه وقد لَهِيت باليــاء بدل الواو . قال وحكى عن أحمد بن إسرائيل مع تقدّمه فى الكتابة أنه قال : وكانت رسومهم مُسَاناةً ثم صارت مشاهرة ثم صارتْ مُياومةً ثم صارت مُساعاةً، فأخطأ، وكان يجب أن يقول مُساوَعة . قال فى "المثل السائر" : وكثيرا مايَقع أهلُ العلم فى مثل هذه المواضع فكيف الجُهَّال الذيــن لا معرفةَ لهم بها ولا ٱطِّلاعَ لهم عليها ؛ وإذا علم حقيقة الأمر فى ذلك لم يقع الغلط فيما يُوجِب قَدْحا ولا طَعْنــا . قال : وقد وقع الغَلَط لأبى نُوَاس فيما هو أظهر من ذلك، وهو قوله فى صفة الخمر :

كأنَّ صُغْرىٰ وكُبْرىٰ مِنْ فَوَاقِعِها(٣) * حَصْباءُ درٍّ علىٰ أرضٍ من الذَّهَب

(١) أى التى تكون الهمزة بدلا منها .
(٢) لعله التى كما يقتضيه السياق .
(٣) المشهور فقاقعها . انظر شرح الأشمونى فى باب أفعل التفضيل .

فإن فُعْلىٰ أفعلَ لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فُعْلىٰ التى لا أفعَلَ لها نحو حُبْلىٰ الا أن تكون فُعْلىٰ أفعلَ مضافةً، وها هنا قد عَرِيت عن الإضافة وعن الألف واللام وكان الصواب أن يقال كأن الصُّغْرىٰ والْكُبْرىٰ أو كأن صُغْراها وكُبْراها . فانظر كيف وقع أبو نُوَاس فى مثل هذا الموضع مع قُرْبه وسُهُولته . وغلط أبو تمام أيضا فى قوله :

بِالْقائِمِ الثَّامِنِ الْمُسْتَخْلَفِ ٱطَّادَتْ * قَواعِدُ الْمُلْك مُمْتَدًّا لَها الطُّول

فقال ٱطَّادت والصواب ٱتَّطَدَتْ لأن التاءَ تُبْدَل من الواو فى موضعين أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع : لأنك إذا بنيت ٱفتعل من الوعد قلت ٱتَّعدَ وكذلك ٱتَّطَدَتْ فى البيت فإنه من وَطَد يَطِد كما يقال وَعَد يَعِد، فإذا بُنِى منه ٱفْتَعل قيل ٱتَّطَدتْ ولا يقال ٱطَّاد . وأما غير المَقِيس فقولهم فى وُجاه تُجاه وقالوا تُكْلان وأصله الواو لأنه من وَكَل فأبدلت الواو تاء للٱستحسان . ثم قال : إن المخطئ فى التصريف أندرُ وقوعا من المخطئ فى النحو لأنه قلَّما تَقَع له كلمة يحتاجُ فى ٱستعمالها إلىٰ الإبدال والنقل فى حروفها . والمعصوم من عصمه الله، والكلام فى تصرُّف الكاتب فى التصريف علىٰ ما تقدّم فى النحو .

النـــوع الخـامس

(المعرفة بعلوم المعانى ، والبيان، والبديع ؛ وفيه مقصدان)

المَقْصِـــد الأوّل

(فى وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

اعلم أنه لما كانت صناعةُ الكتابة مبنيَّة علىٰ سلوك سُبُل الفصاحة وٱقتفاء سَنَن

البلاغة، وكانتْ هذه العلومُ هى قاعدةَ عمود الفصاحة ومَسْقِطَ حجرِ البلاغة، اضْطُرَّ الكاتب إلىٰ معرفتها، والإحاطةِ بمقاصدها: ليتوصَّل بذلك إلىٰ فهم الخطاب، وإنشاء الجواب، جاريا فى ذلك علىٰ قوانين اللغة فى التركيب، مع قُوّة المَلَكة علىٰ إنشاء الأقوال المركَّبة المأخوذةِ عن الفصحاء والبلغاء: من الخُطَب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخُلوّها عن اللَّكَن، وتأدية المطلوب بها، وتكميل الأقاويل الشِّعرية نَثْرا كانت أو نَظْما، فى بلوغها غايتَها وتأدية ماهو مطلوب بها، وأنها كيف تتعيَّن بحسب الأغراض لتفيد ما يحصل بها من التخيل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض، والشىء يُذْكَر بضدّه، فيذكُر المحاسنَ بالذات والعيوبَ بالعرض.

قال أبو هلال العسكرى: "فإن صاحب العربية إذا أخَلَّ بطلب هذه العلوم، وفَرَّط فى التماسها، فاتَتْه فضيلتها، وعَلِقتْ به رذِيلة فوْتها، وعَفّى علىٰ جميع مَحاسنه، وعَمَّى سائر فضائله، لأنه إذا لم يَفْرُق بين كلامٍ جيِّد، وآخر ردىءٍ؛ ولفظٍ حَسَن، وآخر قبيح؛ وشِعْر نادر، وآخَر بارد، بانَ جهلُه، وظهَر نقْصه؛ وإذا أراد أن ينشئ رسالة أو يَضَعَ قصيدة وقد فاتته هذه العلوم، مزَجَ الصَّفْوَ بالكدَر، وخلط الغُرر بالعُرَر؛ فجعل نَفْسه مَهْزأة للجاهل، وعبرةً للعاقل. وكذلك إذا أراد تصنيفَ كلام منثور أو تأليفَ شِعر منظوم وتخطّى هذه، ساء اختيارُه، وقَبُحت آثارُه؛ فأخذ الردىءَ المردود، وترك الجَيِّد المقبول؛ فدلّ علىٰ قصور فهمه، وتأخر معرفته؛ مع ما فى هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلىٰ فهم كتاب الله تعالىٰ وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذينِ منهما يستمدُّ الكاتب شريفَ المعانى، ويستعير فَصِيح الألفاظ؛ بل منهما تُستفاد سائر العلوم، وتُقْتَبَس نفائس الفضائل". قال: "وقبيحٌ لعمرى بالفقيه المؤتَمِّ به، والقارئِ المقتدىٰ بهديه، والمتكلِّم المشار إليه فى حسن

مناظرته، وتمـام آلته فى مجادلته، وشدّة شكيمته فى حِجَاجه ؛ وبالعربىّ الصَّليب، والقُرَشىّ الصريح، أن لايعرِف فَهْمَ إعجاز كتاب الله إلا من الجهـة التى يعرفها منها الزِّنجىّ والنَبَطىّ، وأن يستدلّ عليه بما يستدلُّ به الجاهل الغبىّ" .

علىٰ أن الشيخ بهاء الدين السـبكى رحمه الله قد ذكر فى شرح تلخيص المفتاح أن أهل مصر لايحتاجون إلىٰ هذه العلوم وأنهم يَدْرُونها بالطبع، فقال فى أثناء خطبته : "أما أهل بلادنا فهم مستَغْنُون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذَّوْق السليم، والفهم المستقيم، والأذهان التى هى أرقُّ من النسيم، وألطفُ من ماء الحياة فى المُحَيَّا الوسـيم، أكْسَبَهُم النيلُ تلك الحَلاوه، وأشار إليهم بأصابعه فظهَرتْ عليهم هـذه الطَّلاوه ؛ فهم يدركون بطِبَاعهم ما أفْنَتْ فيه العلمـاء فضلا عن الأغمار، الأعمار، ويرَوْن فى مِرْءاة قلوبهم الصقيلةِ ما آحتجَبَ من الأسرار، خلف الأستار .

والسَّيْفُ ما لم يُلْفَ فيه صَيْقَلٌ * مِنْ طَبْعِـه لم يَنْتَفِـعْ بِصقَال

فيالهـا غنيمةٌ لم يُوجَف عليها من خَيْل ولا رِكاب، ولم يُزْحَف إليها بعْدَ وِعيديَّةٍ(١) ولا بلَحَاق لاحِقٍ وآنْسِكاب سَـكَاب ؛ فلذلك صرفُوا هِمَمهم إلىٰ العُـلوم التى هى نتيجةٌ أومادّة لعلم البيان، كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسيرالقرءان". ثم قال : "وأما أهـل بلاد الشرق الذين لهم اليدُ الطُّولىٰ فى العلوم، ولا سِيَّـما العلوم العقليَّة والمَنْطق، فاستوْفَوْا هِمَمهم الشامخةَ فى تحصيله، وآستولوا بجِدّهم علىٰ جملته وتفصيله . ووردوا مناهل هذا العلم فصَـدَروا عنها بمَلْء سِجَالهم، وكيف لا وقد أجْلَبُوا عليـه بخيلهم ورَجْلهم . فلذلك عَمَروا منه كل دارس، وعبرُوا من حُصُونه المَشيدة ما رقد عنه الحارس . وبلغوا عَنانَ السماء فى طلبه، و"لو كان الدِّينُ فى الثريا لنالَهُ رِجالٌ من

(١) أى نوق نجائب منسوبة الى بنى العيد حىّ من العرب . ولاحق وسكاب فرسان للعرب مشهوران . انظر اللسان .

فارس". إلىٰ أن خرج عنهم المِفْتاح، فكأنّ الباب أُغْلِق دُونهم، وظهر من مِشْكاة بلاد الغرب المصباح، فكأنما حِيل بينه و بينَهُم. وأدارت المنون علىٰ قُطْبهم الدوائر، فتعطّلت بوفاته من علومه أفواهُ المحابر و بُطون الدّفاتر. وآنقطعتْ زهَراتُهم الطيِّبة عن المقتطِف، وتسلَّط علىٰ العَضُد لسانُ من يعرف "كَيْفَ تُؤْكَلُ الكَتِف". فلم نظفر بعـد هؤلاء الأئمةِ رحمهم الله من أهل تلك البلاد بمن مَخَض هـذا العلم فألقىٰ للطالب زُبْدتَه، ومَحَض النُّصح فنشر علىٰ أعطاف العارى بُرْدته، ولا حملتْ قَبُول القَبُول إلينا عنهم بِطاقه، ولا حصَلتْ للتطلّعين لهذا العلم علىٰ تلك الأبواب طاقه، ولا رأينا بعد أن آنطمَست تلك الشموسُ المشرِقه، وآندرستْ طبقةُ تحرّى الفرقه، ولم يبق إلا رسوم هى من فضائلهم مسترَقه. مَنْ أطلع غُصنُ قلمه من روض الأذهان زهرةً علىٰ ورقه، ولا من علّق شنه بطبقتهم فيقال وافقَ شَنٌّ طَبَقه، بل ركَدَتْ بينهم فى هذا الزمان رِيحه، وخبَتْ مصابيحه، وناداهم الأدب سِواكُم أعنِي: و "رُبَّ كلمةٍ تَقُول دَعْنِي".

وما بَعْضُ الإقامة فى دِيارٍ * يُهانُ بها الفتَى إلا بَلَاء

فعند ذلك أزمع هذا العلم الترحل، وآذن بالتحوُّل.

وإذا الكَرِيمُ رأىٰ الخُمولَ نَزِيلَه * فى مَـنْزِلٍ فالرَّأْىُ أن يَتَحَوّلا

وفَزِع إلىٰ مصر فألقىٰ بها عصا التَّسْيار، وأنشد مَنْ نادىٰ من تلك الديار.

أقمْتُ بأرضِ مِصْرَ فلا وَرائى * تَخُبُّ بى الرِّكابُ ولا أَمامِى"

ولقد أحسن رحمه الله فى بيانِ السبب، والتعويل فى آنْجِبال أهل مصر علىٰ هذا العـلم علىٰ عَلاقة الصِّهْر والنسَب. حيث قال فى أوائل خطبته فى أثنـاء الصـلاة علي النبي صلى الله عليه وسلم: صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ما خَفَقتِ للبلاغة راية

مَجْدٍ فى بنى غالبِ بنِ فِهْرٍ ، وتعلَّقت بأزمّة الفصاحة أهـل مصر : لمـا لهم من نسب وصِهْرٍ " .

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمـه الله فى كتابه " حسـن التوسل إلىٰ صناعة الترسل ": وهذه العلوم وإن لم يُضطَرَّ اليها ذو الذِّهن الثاقب، والطبع السليم ، والقَريحة المطاوعة والفكرة المنقِّحة ، والبديهة المُجيبة ، والروية المتصرِّفة ، لكن العالم بها متَمَكِّن من أزمّة المعانى ، وصناعة الكلام ، يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقِد بحُجة ، ويتخير بدليل ، ويستحسِن ببرهان ، ويصوغ الكلامَ بترتيب " .

وحقيق ما قاله . فإن الأديب والكاتب العارِيَيْنِ عن هـذه العلوم قاصرانِ عن أدنىٰ رُتَب الكمال يحيدان ، ولا يَدْرِيان كيف يُجيبان . فلو سئل كل منهما عن علة معنًى آستحسـنه أو لفظ آستحلاه أو تركيب آستجاده ، لم يقدِر علىٰ الإتيان بدليل علىٰ ذلك .

وقد حكىٰ الإمام عبـد القادر الجُرْجانى قال : " ركب الكِنْدىُّ المُتفلسِفُ إلىٰ أبى العبَّاس وقال له : إنى أجِدُ فى كلام العرب حَشْوا — فقال له أبو العباس فى أىّ موضع — قال : وجدت العربَ تقول عبـد الله قائم ثم يقولون إن عبـد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله لقائم فالألفاظ متكررة والمعنى واحد — فقال له أبو العباس : لا ، بل المعانى مختلفة لآختلافِ الألفاظِ ، فقولهم عبـدُ الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولُهم إن عبدالله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب علىٰ إنكار منكر قيامه ، فمـا أحار المتفلسفُ جوابا . فإذا ذهب مثلُ هذا علىٰ الكندىّ فمـا الظنُّ بغيره ؟ وإن كان من محاسن الكلام ما لا يحكم فى آمتزاجه بالقـلوب غيرُ الذوق الصحيح كما قال الشاعر :

شَيءٌ به فُتِن الورىٰ غيْرُ الذى * يُدعىٰ الجمَال ولستُ أدرِى ما هُو

لكن الغالب فى الكلام أن يعلم سببُ تحسينه، وتعليل موادّ تمكينه . ويُجابَ عن العلة فى انحطاطه وارتفاعه ، ويذكَر المعنىٰ فى ارتقائه من حَضِيض القول إلىٰ يَفَاعِه .

قلت : وهذا العلم وإن شحَن أئمةُ(١) الكُتَّاب — كما قال أبو هلال العسكرى فى كتابه "الصناعتين" والوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المَثَل السائر" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى "حسن التوسل" فإنه ليس مختصا بفنّ الكتابة بل هو آلة لكل كلامٍ اقتضىٰ البلاغة ، كما أن المَنْطِق آلةٌ لكل العلوم العقلية، التى يُحتاج منها إلىٰ تصحيح الفكر .

وقد أكثر الناس من المصنَّفات فيه كالرُّمَّانى والجُرْجانىّ وغيرهما ؛ وأكثر اعتماد أهل الزمان فيه علىٰ تلخيص المِفتاح للقاضى جلال الدين القَزْوِينىّ فأغنىٰ ما وضع فيه عن إيراده هنا .

المقصد الثانى

(فى كيفية انتفاع الكاتب بهذه العلوم)

غير خاف أنه إذا مهر فيها وعرف طُرُقها، أتىٰ فى كلامه بالسِّحر الحلال؛ وصاغ من ألفاظه ومعانيه مايقضِى له بالفصاحة التامّة، والبلاغة الكاملة، من وجوه تحقيق الكلام، وتحسينه وتَدْبيجه وتنميقه . وإذا فاتَتْه هذه العلوم ، أو كان ناقصا فيها، نقصتْ صناعته بقدر ما يَنْقُص من ذلك . ثم كما يحتاج إلىٰ هذه العلوم بطريق الذات، كذلك يَحتاج إليها بطريق العَرَض من جهة المعرفة بالبُلَغاء الذين يُضرَبُ

---

(١) لعله وان شحن به أئمة الكتاب كتبهم وحرر .

بهم المَثَل فى البلاغة كقُسّ بن ساعدة ، وسَحْبانِ وائل ، وعَمْرو بن الأهْتم ، ونحوهم من بلغـاء العرب؛ وآبن المقفَّع ونحوه من المُحدَثيـن . وكما قيل فى عىّ باقِلٍ — وهو رجل آنتهىٰ به العِىُّ إلىٰ أنه آشـترىٰ ظبيـا بأحدَ عشرَ درهما ، فسأله سائل فى الطريق ، وهو ممسك الظبىَ : بكم آشتريتَهُ ؟ فلم يُحْسن التعبير عن أحد عشر، ففرّق أصابعه العشرة وأخرج لسانَهُ مشيرا إلىٰ أحدَ عَشَر فتفلّت الظبىُ وفرّ هاربا — . وكمعرفة أئمة الصِّناعة : كالجُرجانى والرُّمّانى . وكذلك المعرفة بالأسماء التى آصطلَح عليها أهلُها : من الفَصْـل ، والوَصْل ، والتشبيه كما تقـدّم ، والمقابلة ، والمطابَقَة ، وغير ذلك من أنواعها .

أما آحتياجه إلىٰ المعرفة بأسماء البُلَغاء ولغةِ أهل الصناعة ، فلأنه ربمـا آحتاج إلىٰ تفضيل بعض مَنْ يكتب له ممن يُنْسَب مثله إلىٰ البلاغة فيفضِّله بمساواته لبليغ من البلغاء ، أو إمام من أئمة الصنعة : كما كتب الوزير ضياء الدين بن الأثير فى ذمّ كاتب : هَـذا وهو يدَّعى أنه فى الفصاحة أُمَّة وحده ، ومَنْ قُسُّ إياد وسَحبانُ وائل عنـده ؛ وكما قال بعضهم يهجو ضيفا له :

أتانَا وَمَا دَاناهُ سَحْبانُ وائِلٍ * بيانًا وعِلْمًا بالذى هو قائِلُ
فما زَالَ عِنْد اللّقْمِ حتّى كأنَّهُ * مِنَ العِىّ لَمَّا أنْ تَكَلَّمَ باقِلُ

ومما أتىٰ علىٰ ذكر جماعة من أهل هذا الشأن قولِى فى كلام قليل جاء ذكره فى آخر رسالةٍ كتبتُ بهـا فى تقريظ المقـرّ الفتحى ، صاحب دواوين الإنشاء الشريف ، بالأبواب السلطانية بالديار المصرية — وهو : "علىٰ أنّى أستقيل من التقصـير فى إطرائه ، والتعرّض فى مدحه لمـا لا أنهض بأعبائه . فلو أن الجاحظ نَصِيرى ، وآبن المقفَّع ظَهيرى ، وقُسَّ بن ساعدة يُسْعدنى ، وسَحْبـانَ وائلٍ يُنْجِدنى ، وعَمْرو

ٱبن الأهتم يُرْشدنى؛ لكان ٱعترافى بالتقصير أبلغ مما آتيه، و إقرارى بالقُصُور أولىٰ مما أخفيه، من تَوَالى طَوْله وأياديه" .

وأما ٱحتياجه إلىٰ معرفة ألفاظ أهل الصناعة، فلأنه ربمـا ورّى بها فى تفاصيل كلامه ونحو ذلك — كما كتب الشيخ زينُ الدين أبو بكر بن العجمىّ علىٰ البديعيّة التى نظمها عيسىٰ العالية الشاعر، مضاهيا بها بديعية الصفىّ الحلىّ فقال :

"وبعدُ فقد وقفتُ علىٰ هـذه المعجزة التى أحيا بها عيسىٰ مَيِّتَ البديع ، وجوّد ماشاء فيها من التَّصْريع والترصيـع ، وَرَقم لأعطافها حُلَل التَّوشيح والتَّوْشيع ، ونظم لأجياد أبياتها فرائد المَعانى المستخْرَجةَ من بحر فكره علىٰ يَدِ يراعه المُريع، وقلدها من دُرَر لفظه بمـا هو أزهىٰ من زَهْر الزُّهْر علىٰ نهر المَجرة وهالات البُدُور، وشَنَّفَ المسامعَ منها بمـا هو أبْهىٰ من النور فى العُيون وأوقعُ من الشفاء فى الصُّدور، وأوْلج الليل فى النهار بما طَرَّس به الطُّروس ، وأطلعَ فى ذلك الليل مِن ناصع معانيه نجومًا تُزْهى علىٰ الشموس ، وأوْدعَ المَهارِقَ[(١)] شُــذُورا تُزَيِّف ذهب الأصائل، وتُسْفر عن وجوهٍ حِسان تفوق ٱبْتسامَ ثُغورالأزاهر بين الخمـائل ؛ وسلك فى البـديع طريقة مُثْـلىٰ ، أظهر فيها من شَهْد ألفاظه وجواهر مَعانيـه ماحَلَا وحَلّى ؛ ولم يَدَع للحَلِّىّ فى بهجتها محلّا ؛ وأحسن التذييل والترشيح والتهكم عليه، من غير ٱلتفات لمـا أهمله ولم يتعرّض إليه؛ وعادت المعانى تأوِى من حُسْن تصرفه إلىٰ ركنٍ شديد ، وتَحْوى بشَبَا أقلامه كل مارامه من تأبيد التأييد ؛ وتلقِى مقاليدَها منه إلىٰ ملىّ بحسن التحيُّل والتحوُّل فى نظمه ونثره، وتحكم لمن حَكَم له بكمال وصفه ووَصْف كماله بأنه نسيجُ وحدِه وفريد عصرِه ؛ وأجرىٰ فى حَلْبة البديع جيادَ أقلامه فحاز قَصَب الرِّهان، وأصفىٰ لها موارد النَّفْس فارتوت وٱستخرجَتْ من ظُلُمـاته جواهِرَ البيان ؛ ونطَقَتْ بمـا هو

(١) المهرق كمكرم الصحيفة معرب جمعه مهارق . قاموس .

المألوف من غرائب حِكَمِه الحسان ؛ وتأملتها فوجدتُها قد أجاد فيها براعة المَطْلَع ، وبالغ فى تحسـين المَنْزَع والمَقْطَع ؛ ودخل جِنان الجناس فاجتنىٰ من قُطوفها الدانية ماراق ، وٱطّردتْ له أنهارُها فٱسـتطرد منها فى أعلىٰ الطِّبَـاق ؛ وقابل وجوهَ حُورها أحسن المقابله ، آمنًا فيها من الاشتراك والمماثله ؛ وأوضح الفُروق بين التَّوْرِيَة والإبهام ، والتوجيه والاستخدام ؛ وأبان فى التتميم نقصَ أبى تَمَّـام ، وأوجب فى إبهامه عقدَ الخناصر علىٰ نظمه ، وفوّض بنزاهته التسليمَ له وطلبَ سِلْمِه ؛ ولم يقنع بمـا فيه الاكتفاء من التذييل والتذنيب ، بل أتىٰ فى الاستدراك علىٰ من تقدّمه بالعَجَب العَجِيب ؛ معتمدًا فى تكميـل مقاصـده الاقتصار والإيجاز ، ولو ادّعىٰ الإعجاز علىٰ الحقيقة لا المجاز لجاز ؛ وتحققتُ أن ليس له فى هذا الفن مُقاوٍ ولا مقاوم ، ولا مساوٍ ولا مساوم ؛ فكم جلب من بحر براعته دُرّة أشرقت فى ليالى الفترة المسودّة ، وكم حلب من ثدى يراعتـه دِرّة(١) لهـا ألف زُبْده ؛ وكم بلغ الناظر من وصف بيانه مجمع البحرين ، وسمع ورأىٰ من فصـله الجزل وفضـله الجزيل ماهو عين المراد ومراد العين ؛ وكم جلا من عرائس أفكاره وٱبتكاره صَبَاحَ الوجوه الصِّباح ، وخَفَق فى الخافقين لمَقاصـده وبصائره جَناحُ النجاح . قد أصبحت كلمـاتُه لخُصور الفرائد مَناطق ، ولبـدُور الفوائد مَشَارق ؛ ولطلائع أسرار المَبَانى ، آلات ، ولمَطالع أقمـار المعانى ، هالات ؛ وقد وقعتُ حين وقفْتُ علىٰ بديعيته هـذه بين داءين كل منهما الأخطر ، وبين أمرين أَمَرَّيْن كل منهما الأعسر ؛ إن لم أكتبْ عليهـا شيئا فقد أخللت بالفرض الواجب ، وإن كتبتُ فقد فضحتُ نفسى وعرّضتها للمعـايب ؛ ولكنى رُحت علىٰ ظَلْعى متحاملا ، وغدوتُ علىٰ حسب طاقتى فى هذا الباب قائلا :

---

(١) الدرة بالفتح المرة وبالكسر هيئة الدر وكثرته . مصباح [وقد أعجم الذال فى الأصل وهو من إهمال الناسخ كما هو ظاهر] .

عَاشَ البَدِيعُ وكانَ مَيْتًا وٱنْثنىٰ * بادِى المَحاسِنِ زاهِيًا مَحْروسَا
أحياه عيسىٰ نجلُ حَجَّاجٍ وكَمْ * مِنْ مَيِّتٍ أَحْياه قِدْما عِيسىٰ

النـــوع الســادس

(حفظ كتاب الله العزيز، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيـان ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك فى كتابته)

قال فى "حسن التوسـل" ولا بد للكاتب من حفظ كتاب الله تعالىٰ، و إدامة قراءته، وملازمة درســه، وتدبر معانيـه، حتّى لا يزال مصوّرا فى فكره، دائرا علىٰ لسانه، ممثلا فى قلبه ليكون ذاكرا له فى كلامه وكل مايرد عليه من الوقائع التى يحتاج إلىٰ الاستشهاد به فيها، و يفتقر إلىٰ قيـام قواطع الأدلة عليها ﴿فَلِلّهِ الْحُجَّـةُ البالِغَةُ﴾ وكفىٰ بذلك مُعِينا له علىٰ قصده، ومُغْنيا له عن غيره. قال تعالىٰ ﴿مافَرّطْنا فى الِكتَابِ مِنْ شَىْءٍ﴾ وقال جل وعز ﴿تِبياَنًا لِكُلِّ شىء﴾. قال فى "المثل السائر" كان بعضهم يقول: لو ضاع لى عِقَال لوجدته فى القرءان الكريم. قال فى "حسن التوسل" وقد أخرج من الكتاب العزيز شواهدُ لكل مايدور بين الناس فى محاوراتهم، ومخاطباتهم، مع قُصور كل لفظ ومعنًى عنه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسورة من مثله — كما حكى أن سائلا سأل بعض العلماء أين تجد فى كتاب الله معنىٰ قولهم "الجارُ قبلَ الدار"؟ قال فى قوله تعالىٰ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذينَ آمَنُوا ٱمْرأَتَ فِرْعَوْن إذْ قالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الجَنَّةِ﴾ فطلبت الجار قبـل الدار، ونظائر ذلك كثيرة.

وقد اختُلف فى جواز الاستشهاد بالقرءان الكريم فى المكاتبات ونحوها : فذهب أكثرُ العلماء إلىٰ جواز ذلك مالم يُحَلْ عن لفظه ولم يتغير معناه . فقد ثبت فى الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كَتَبَ فى كِتَابِهِ إلىٰ هِرَقْل ﴿ قُلْ يٰأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ إلىٰ قوله مسلمون ؛ وروى ذلك عن غير واحد من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم ، فكتب أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه فى عهده لعمر بن الخطاب ﴿ وِلِكُلِّ ٱمْرِئٍ ما ٱكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ . وسيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ علىٰ ما سيأتى فى ذكر عهود الخلفاء إن شاء الله تعالىٰ . وكتب علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهــه فى آخر كتاب إلىٰ معــاوية "وقد علمتَ مواقعَ سُيُوفنا فى جَدِّك وخالك وأخيك ﴿ وَمَاهِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ . وقال للمغيرة آبن شــعبة لمــا أشار عليه بتوليــة معاوية ﴿ وما كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُــدًا ﴾ . وكتب إلىٰ عامل من عُمَّاله بعد البسملة ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَــةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أشْــياءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ . وقال الحسن بن علىّ لمعــاوية حين نازعه فى الخلافة ﴿ وإنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إلىٰ حِينٍ ﴾ . ويروى عن آبن عباس مثلُه . وكتب الحسن إلىٰ معاوية : أما بعد فإن الله بعث محمدا صلى الله عليــه وسلم رحمةً للعالمين وكافَّةً للناس أجمعين ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلىٰ الْكَافِرِينَ ﴾ . وكتب محمدُ بن عبد الله بن الحسن بن علىٍّ إلىٰ المنصور فى صدر كتاب ﴿ طسم تِلْكَ ءايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ، نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلىٰ قوله ﴿ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْــذَرُونَ ﴾ . ولم يزل العلماء وفضلاء الكُتَّاب يستشهدون بالقرءان الكريم فى مكاتباتهم فى القديم والحديث ، من غير نكير ؛ وذلك كله دليــل الجواز . ونقل عن الحسن البصرىّ ما يدل علىٰ كراهة ذلك

حيث بلغه أن الحجاج أنكر علىٰ رجل ٱستشهد بآية فقال : أنسى نفسه حين كتب إلىٰ عبد الملك بن مروان : بلغني أن أمير المؤمنين عَطَس فشمّته مَنْ حضر فردّ عليهم ﴿يا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ . قال فى "حسن التوسل" : وإذا صحت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكاره علىٰ الحجاج لكونه أنكر علىٰ غيره ما فعله هو . وذهب بعضهم إلىٰ أنّ كل ماأراد الله به نفسه لا يجوز الاستشهاد به إلا فيما يضاف إلىٰ الله سبحانه مثل قوله ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وقوله ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله تعالىٰ .

فأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالة معنًى عما أريد به فلا يجوز بحال .

قال فى "المثل السائر" وإذا ضُمِّنت الآياتُ فى أماكنها اللائقة بها ، ومواضعها المناسبة لها ، فلا شبهة فيما يصير للكلام من الفَخَامة والجزالة والرونق . قال فى "حسن التوسل" : ومن شرف الاستشهاد بالقرءان الكريم إقامةُ الحجة ، وقطعُ النزاع ، وإذعانُ الخصم . قال فى "حسن التوسل" : وأين قول العرب — القَتْلُ أنفىٰ للقتل — لمن أراد الاستشهاد فى هذا المعنى من قوله تعالىٰ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ . وقد روى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين من ذرّية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتنى علىٰ ذلك بشاهد من كتاب الله تعالىٰ وإلا قتلتك فقرأعليه ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ فعيسى ٱبن بنته فأسكت الحجاج . وأيضا فإن الآية الواحدةَ تقوم فى بلوغ الغرض ، وتوفيَة المقاصد ما لا تقومُ به الكتب المطوّلة والأدلة القاطعة .

فمن أخْصَر ماوقع فى ذلك وأبلغ أنه كان علىٰ الروم بِهِرَقْلَةَ فى أيام الرشيد آمرأةٌ منهم ، وكانت تُلاطفُ الرشيدَ ولها ٱبن صغير ، فلما نشأ فوّضتْ الأمر إليه فعاثَ

وأفسدَ وخاشَنَ الرشيد، فخافَتْ علىٰ مُلْك الروم فقتَلَتْ ولدَها، فغضب الروم لذلك، فخرج عليها رجل منهم يقال له يَقْفُور فقتلها وآستولىٰ علىٰ المُلْك وكتب إلىٰ الرشيد: أما بعد، فإن هــذه المرأةَ وضــعَتْك موضِعَ الشاه، ووضعَتْ نفسَها موضعَ الرُّخّ، وينبغى أن تعلَمَ أنى أنا الشاه وأنت الرُّخّ فأدّ إلىَّ ما كانت المرأةُ تؤدّى إليك! فلما قرأ الكتاب. قال للكُتَّاب: أجيبُوا عنه فأتَوْا بمــا لم يَرْتضه، وكان الرشيد خطيبا شاعرا. فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلىٰ يَقْفُور كلبِ الروم. أما بعدُ، فقد فهِمت كتابَكَ، والجوابُ ما تراه لا ماتسمَعُه، والسلام علىٰ مِن آتَّبَع الهُــدىٰ.

ثم خرج فى جمع له لم يُسمَع بمثله فتوغَّل فى بلاده وفتك وسبىٰ. فأوقد يَقْفُور فى طريقة نارا شديدةً فخاضها محمد بن يزيد الشيبانى، وتبعه الناس حتّى صاروا من ورائها؛ فلمــا رأى يقفُور أنه لا قِبَــلَ له به، صالحه علىٰ الجزية يؤدّيها عن رأسه وعن سائر أهل مملكته.

وكتب ملك الروم إلىٰ المعتصم يتوعّدُه ويتهدّده فأمر الكتّاب أن يكتبُوا جوابه فلم يُعْجِبه ممــا كتبوا شىء فقال لبعضهم اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعــد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجوابُ ما ترى لا ماتسمع (وسَيَعْلَمُ الكافِرُ لِمَنْ عُقْبىٰ الدار). هذا مع ماينسبُ إليه المعتصم من ضعف البَصَر بالعربية كما تقدّم فى الكلام علىٰ اللغة. ولا يستكْثَرُ مثلُ ذلك علىٰ الطبع السليم، والرجوع إلىٰ سلامة العُنْصُر وطِيب المَحْتِد.

ومثل ذلك فى الجواب وأخصر منه أنــ الأدفونش ملك الفرنج بالأَنْدَلس. كتب إلىٰ يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس، بخط وزيرله يقال له

ٱبن الفخار : بٱسمك اللهمَّ فاطِرَ السموات والأرض والصلاة علىٰ السيد المسيح ٱبن مريم الفصيح ، أما بعدُ: فلا يخفىٰ علىٰ ذى ذهنٍ ثاقب ، وعقل لازِب ، أنى أميرُ الملة النصرانية ، كما أنك أمير الملة الحنيفية ، وقد علمتم ماهم عليه رؤساءُ جزيرةِ الأندلُس من التَّخاذُل والتواكُلِ والإخلاد إلىٰ الراحة وأنا أسُومُهم الخسف وأُخْلِي منهم الديار ، وأجُوسُ البلاد ، وأَسْبِي الذرارىّ ، وأقتُل الكهولَ والشُّبَّان لايستطيعون دفاعا ، ولا يُطِيقون ٱمتناعا ، فلا عذر لك فى التخلف عن نَصْرِهم ، وقد أمكنَتْك يدُ القدرة ، وأنتم تعتقدون أن الله عزّ وجل فَرَض عليكم قِتَال عشرةٍ منا بواحد منكم ، والآن خَفَّف اللهُ عَنْكُمْ وعَلِم أنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فلتُقاتِلْ عشرة منكم الواحدَ منا ؛ ثم بلغنى أنك أخذْتَ فى الٱحتفال ، وأشرفْتَ علىٰ ربوة الإقبال ، وتُماطِل نفسك عاما بعد عام : وأراك تُقَدِّم رجلا وتؤخِّر أخرىٰ ؛ ولست أدرى إن كان الجُبْنُ أبطأك أو التكذيبُ بما أنزل عليك ربُّك ؛ ثم حُكِى لى أنك لا تجد إلىٰ الجواز سبيلا لعلة لا يجوز لك التفخم(١) به معها ؛ فأنا أقول ما فيه الراحةُ لك ، وأعتذِرُ لك وعنك ، علىٰ أن تفِي لى بالعُهود والمواثيق والٱستكثار من الرهن ، وترسل إلىّ بجملة من عبيدك بالمراكب والشَّوانى ، وأجُوز بجُمْلتى إليك ، وأبارزك فى أعز الأماكن عليك ؛ فإن كانتْ لك فغنيمةٌ وُجِّهتْ إليك ، وهديَّة عظيمة مَثَلَتْ بين يديك . وإن كانتْ لى كانت يدى العُلْيَا عليك وأستوجب سيادة الملتين ، والحكم علىٰ الدِّينَيْن ، والله تعالىٰ يسهِّل ما فيه الإراده ، ويوفق للسعاده ؛ لارب غيره ، ولا خير إلا خيره .

فكتب رحمه الله جوابا علىٰ أعلىٰ كتابه ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

(١) كذا فى الأصل بالفاء والخاء المعجمة ويظهر أنه تصحيف عن التقحم بالقاف والحاء المهملة والتقحم فى الشيء الاقدام عليه من غير روية ولا تدبر وتأمل .

ونظير ذلك أن السلطان صلاحَ الدين يوسفَ بن أيوب كتب إلىٰ الديوان العزيز ببغـداد كتابا يعدّد فيـه موَاقِفه فى إقامة دعوة بنى العبـاس بمصر . فكُتِب جوابه من ديوان الخلافة ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

المقصـــد الثـانى

(فى كيفية ٱستعمال آيات القرءان الكريم)

وٱعلم أن تضمين الكلام بعضَ آى القرءان الكريم ينقسم عنـد أهل البلاغة إلىٰ قسمين :

أحدهمـا ــ الٱستشهادُ بالقرءان الكريم ، وهو أقلهما وُقُوعا فى الكلام ودَوَرانا فى الٱستعمال : وهو أن يضمَّن الكلام شيئا من القرءان الكريم وينبه عليه مثل قول الحريرى فى مقاماته : فقلت وأنت أصدق القائلين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ . وقول أبى إسحاق فى عهدٍ لملك عن خليفةٍ بعد الأمر بالتقوى والحثِّ عليها : فإذا ٱطّلع الله منـه علىٰ نَقاء جيبه ، وطَهارة ذيلِه ، وصِحّة مرُوءته ، وٱستقامة سيرته ، أعانه علىٰ حفظ ما ٱستحفظه ، وأنهضه بثِقْل ما حمله ، وجعل له مخلصا من الشُّبْهة ، ومَخْرجا من الحَيْرة . فقـد قال الله تعالىٰ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وقد قال الله تعالى عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقال عز ٱسمه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ إلىٰ آيٍ كثيرة حضّنا بهـا علىٰ كَرَم الخُلُق ، وأَسْـلَم الطُّرُق ؛ فالسعيد من نَصَبها رأْىَ ناظره ، والشقىُّ مَن نبذَها وراء ظهره ، وأشقىٰ منه من يَحُثُّ عليها وهو صادفٌ عنها ، فأجاب إليها وهو بعيد منها . وله ولأمثاله يقول الله عز وجل ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أفلا تَعْقِلُونَ ﴾ وأكثرُ مشى الصابى فى كتابه علىٰ هذا الأسلوب من الاستشهاد، والتنبيه علىٰ آى القرءان فى خلال كلامه، دون الإشارة إليه؛ والاقتصار علىٰ اقتباس معناه .

ومن ذلك قول علاء الدين بن غانم من خطبة (١) قَدْمة كَتَب بها لمظفَّر الدين موسى بن أقوش وقد صَرَع لَغْلَغَة، وادَّعىٰ بها للملك المؤيَّد صاحب حماه : نحمده علىٰ توفيقه الذى ساد به من ساد وسما، وأصاب بتَفْويقه بمعونة ربه طيرَ السما، فحسُن أن يتلىٰ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ .

ومن ذلك قولى فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء، فى الكلام علىٰ فضل الكتابة : فقد نطق القرءان الكريم بفضلها، وجاءت السُّنَّة الغرّاء بتقديم أهلها، فقال جل ثناؤه، وتقدّست أسماؤه ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه علَّم بالقلم، حيث وصف نفسه بالكرم، إشارة إلىٰ أن تعليمها من جزيل نعمه، وإيذانا بأن منْحَها من أوفر جوده وفائض ديمه؛ وقال جلت قدرته ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فأقسم بالقلم، وما سطرته الأقلام، وأتىٰ بذلك فى آكد قسم، فكان من أعظم الأقسام . وقال جلّت عظمته ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ . فجعل الكتابةَ من وصف الكِرام، كما قد جاء فعلُها عن جماعة الأنبياء عليهم السلام، وإنما مُنِعها النبيُّ صلى الله عليه وسلم معجزةً قد بين الله تعالى سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ .

وقولى من هذه المقامة فى التعبير عن المقرّ البدرى بن فضل الله :

---

(١) أى ان الخطبة عملت لتقال تحية لقدوم المظفر بعد صرع العدوّ المسمى لغلغة .

قلت حَسْبُك قد دلنى عليه عُرْفه ، وأرشدَنى إليه وَصْفُه ؛ وبان لى مَحْتِدُه الفاخر وحَسَبُه الصميم ، وعرفت أصلَه الزاكِىَ وفرعَه الكريم ﴿ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيــمِ ﴾ .

وقولى فى ٱختتام هــذه المقامة معبرًا عن المقرّ البدرىّ المشار إليه : فلما تحقّقت أنى قد أُثبتُّ فى ديوانه ، وكنت من جُمــلة غِلْمــانه ، رجعْتُ القهقرىٰ عن طلب الكسب ، وتساوىٰ عندى المَحْل والخِصْب ؛ فٱستغنَيْتُ بنظَرى إليه عن الطعام والشراب ، وتحققْت أن نظرة منه تُرَقِّينى إلىٰ السحاب ، وتلوتُ بلسان الصدق علىٰ الملإ وهم يســمعون ﴿ قُلْ بِفَضْــلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِــه فَبِذَلكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَــيْرٌ مِمَّــا يَجْمَعُون ﴾ .

وقولى فى بَيْعة خليفة أنشأتُها بعد ذكر تحاليف أهل البَيْعة : وَأَشْهَدُوا عليهم بذلك مَنْ حضر مجلسَ العقد من الأئمــة الأعلام ، والشهود والحُكَّام ، وجعــلوا الله علىٰ ما يقولون وكيلا ، فٱســتحق عليهــم الوفاء بقوله تعــالىٰ ﴿ ولا تَنْقُضُوا الْأَيْمَــانَ بَعْدَ تَوْكِيدها وقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْــكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وهم يرغَبون إلىٰ الله تعــالىٰ أن يُضاعف لهم بحسن نيتهم الأُجور ، ويلجَــُون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالىٰ إليه بقوله ﴿ الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّــلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ وأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وللهِ عَاقِبَةُ الأُمُور ﴾ .

وقولى فى بيعة أخرىٰ : والله يجعل ٱنتقالَهم من أدنىٰ إلىٰ أعلىٰ ، ومن يُسرىٰ إلىٰ يمنىٰ ، ويحقِّق لهم بمن ٱســتخلفه عليهم وعدَه الصادق بقوله تعــالى ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَــاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ٱرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

الثـانى — الاقتباس وهو أن يضمِّن الكلام شيئا من القرءان، ولا ينبه عليه : كقوله فى خطبة "التعريف" : نحمده على فواضلَ زادت محاسنَ العلوم . وعَرَّفتْ تفاوت درجات الأولياء اذ قالوا ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ . وقوله بعد ذلك : وسماء الشبيبة بضحى المَشيب قد تجلَّت، والنفسُ قد ﴿ أَلْقَتْ ما فِيهَا وتَخَلَّت ﴾ .

وقول ابن نبـاتة السـعدى فى بعض خطبه : فيأيها الغَفَلة المُطْرِقون . أما أنتم بهذا الحديث مُصَـدِّقُون . مالكم لاتسمعون . ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ . وقوله يوم يبعث الله العالَمين خَلْقا جديدا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وَقُودا . يوم تكونوا (١) ﴿ شهداء على الناس ويَكُونَ الرَّسُولُ عليكُم شهيدا ﴾ . ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

وقول غيره : أتظنون أنكم دون غيركم مخلَّدون ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقول الحريرى : فلم يكن ﴿ إلا كلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَب ﴾ . حتّى أنشد فأغرب . وقوله : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ . وأميز صحيح القول من عليله .

وقول ضـياء الدين بن الأثير فى فصـل من كتابٍ فى مدح الجُود وذمّ البخل : وقد علم أن المـال الذى يُخْتَزَن، كالمـاء الذى يُحْتَقَن، فكما أن هذا يَأْجُنُ بتعطيل الأيدى عن امتياح (٢) مَشارِبه . فكذلك يأجُنُ هـذا بتعطيل الأيدى عن امتناع مَواهبه . وأىّ فرق بين وُجوده وعدمه لولا أن تُمْلَكَ به القلوب . وتُفَلَّ به الخُطُوب . ويُرْكَبَ به ظهرُ العزم الذى ليس برَكُوب ؛ ومن بسطَ يده فيه ثم قبضها بُخْلُه، فإنه

(١) فى الضوء . ثم تكونون شهداء الخ .
(٢) لعله امتناح بالحاء المهملة .

يقف دون الرجال مغْمُورا . ويقْعُد عن نيل المَعالِى محسورا . وإذا أدركته منيّتُه مضىٰ وكأنه لم يَكُنْ شيئاً مَذْكُورا * وقوله فى وصف كاتب : له بنتُ فكرٍ ما تمخّضتْ بمعنًى إلا نُتجتْه من غيرِ ما تمْهِله . و﴿أتَتْ به قوْمَها تحمِلُه﴾ . ولم تُعْرَض علىٰ ملإٍ من البلغاء إلا ألْقَوْا أقلامَهُم أيُّهم يستعيرُه لا أيُّهم يكفله .

وقول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى من عهد لسلطان : وجمع بك شَمْلَ الأمة بعد أن كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهـم ، وعَضَدك(١) لإقامة إمامتِه بأولياءِ دولتِك الذين رضى الله عنهم ، وخصّك بأنصارِ دينِه الذين نَهَضُوا بما أُمِروا به من طاعتك وهم فارهون ﴿ وقَلّبُوا لَكَ الأُمُورَ حتّى جاءَ الحَقُّ وظَهَرَ أَمْرُ الله وهم كارِهُون ﴾ . وقوله من عهد السلطان الملك المنصور لاچين : وجعل عدوّه وإن أعرض بجيوش الرُّعْب محصورا . وكفاه بالنصر علىٰ الأعداء التوغُّلَ فى سفك الدماء فلم ﴿ يُسْرِف فِى الْقَتْلِ إنّهُ كانَ مَنْصُورا ﴾ . وقوله فى خطبة صداق فى وصف نكاح : وأحيا به الأمم وقد قضىٰ دينهم . وجمع بين متفرّقِينَ ﴿لَوْ أنفَقْتَ مَافِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ماأَلّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولَكِنّ الله أَلّفَ بَيْنَهُمْ﴾ . وقوله من توقيع بإمامة صلاة : وليعلم أنه فى المحراب مُنَاجٍ لربه . واقفٌ بين يَدَىْ من ﴿ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِه ﴾ .

وقولى فى خطبة هذا الكتاب فى الإشارة إلىٰ فتح الديار المصرية : فتوجّهتْ إليها عزائم الصحابة زمنَ الفاروق فجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ، وَعْرَها وسهلها . واقتطعتْها أيدى المسلمين من الكُفّار ، وكَانُوا أحَقَّ بِهَا وأهْلَها . وقولى فى المقامة المتقدّمة الذكر : قال إذَنْ قد تعلّقتَ من الصنعة بأسبابها . وأتيتَ البيُوت مِنْ أبْوابِها . وقولى فيها : قلت قد بانت لى عُلُومها . فما رُسُومها؟ — قال إن أعباءها لباهظة حِملا . وإنّها لَكَبِيرةٌ إلا . ولكن سأُحدِثُ لكَ ذِكْرا . وأنبّئُكَ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرا .

(١) هو من باب نصر بمعنى أعانك .

وقولى فى المفاخرة بين السيف والقلم فى الصلاة علىٰ النبى صلى الله عليه وسلم : صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين قامت بنُصْرتِهم دولةُ الإسلام فسمَتْ بهم على سائر الدول . وكَرَعتْ فى دماء الكفر سيوفُهم فعادت بخَلُوق النَّصر لا بحُمْرة الخَجَل . صلاة ينقضى دون ٱنقضائها تعاقُبُ الأيام . وتَكِلُّ ألسِنة الأقلام عن وصفها وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرةٍ أَقْلَام .

وربما ٱقتصر علىٰ التلويح والإشارة خاصة : كقول القاضى الفاضل فيما كتب به عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلىٰ الديوان العزيز ببغداد فى ٱلٱستصراخ وتهويل أمر الفرنج : رَبِّ إنِّى لا أَمْلِكُ إلَّا نَفْسِى ، وها هى فى سبيلك مبذوله ، وأخِى وقد هاجر إليك هِجْرة يرجوها مقبوله .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى وصف غُبار الحرب : وعقَدَ العجاجُ سقفا فانعقد . وأرانا كيف رفع السماء بغَيْر عَمَد . غير أنها سماء بُنِيتْ بسَنابك الجياد . وزينت بنُجوم الصِّعاد . ففيها ما يُوعَد من المنايا لا ما يُوعَد من الأرزاق . ومنها تُقذَف شياطينُ الحرب لا شياطينُ الٱستراق .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله : "والطريق فى ٱستنباط المعانى من القرءان الكريم وٱستعمال الآيات فى خلال الكلام أن تعمِدَ إلىٰ سورة من القرءان ، وتأخُذ فى تلاوتها وكلما مرَّ بك معنًى أثبتّه فى ورقة مفردة حتّٰى تنتهى إلىٰ آخرها ، ثم تأخُذ فى ٱستعمال تلك المعانى التى ظهرت وإدخالها فى خلال الكلام وكلما عاودت التلاوة وكررتها ظهر لك من المعانى مالم يظهر لك فى المرّة التى قبلها" .

ولتعلم أن الآية الواحدة قد تقع فى الٱستعمال علىٰ عدّة وجوه يورده الناثر فى معنى ثم ينقله لمعنًى آخر غيره كما فعل ضياء الدين بن الأثير فى قوله تعالىٰ حكاية

عن يوسف عليه السلام ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ . فقال فى دعاء كتاب : وصــل كتاب من الحضرة السامية أحســن الله أثرها، وأعلىٰ خَطَرها، وقضىٰ من العلياء وطَرها، وأظهر علىٰ يدها آياتِ المكارم وسُوَرَها، وأسجد لها كواكب السيادة وشمسَها وقمرها . ثم أبرزه فى معنى آخر فقال أكرمُ النعم ما كان فيه ذكرىٰ للعابدين . وتقدّمه إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَعَشَرَكَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . فهذه النعمة هى التى تأتى بتيسير العسير . وتجلو ظُلمة الخَطْب بإيضاح المنير . فٱنظر إلىٰ أَثَرِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ثم نقله إلىٰ معنًى آخر فقال من تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء : وقد علم أن أمير المؤمنين أدنىٰ مجلسه من سمائه، وآنسه علىٰ وحدة الانفراد بحُفَّل نَعمائه . ورفعه حتّٰى ودّت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من نُدَمائه . وذلك مقام لا تَستطيع الجُـدود أن ترَقىٰ إلىٰ رتبته . ولا الآمال أن تَطُوفَ حول كعبته، ولا الشِّفاه أن تتشرَّف بتقبيل تُرْبتِه . فليَزْدَدْ إعجابا بمـا نالَتْه من مواطئ أقدامه، ولينظُرْ إلىٰ سجود الكواكب له فى يَقَظته لا فى منامه .

قال فى "حسن التوسل" والناس فى ٱستخراج المعانى من القرآن الكريم، وٱستعمالها فى الكلام علىٰ قدر طبقاتهم وتفاوُت درجاتهم . فمفرط فى الحسن ومفرّط وفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ .

قلت : وكما يحتاج الكاتب إلىٰ حفظ كتاب الله تعالى والعلم بتفسيره ليقتبس من معانيه كذلك يحتاجُ إلىٰ معرفة العلوم المختصَّـة به كالعلم بالقراءات السبع والشواذ، ومعرفة رجالهـا، ومن ٱشتهر منهم وعرف بجودة القراءة، ومعرفة أعيان المفسرين ورءوسهم؛ ليمـاثل بأفاضلهم ويقايس بأعيانهم؛ فى خلال ما يعرض له من الكلام

مطابقا لذلك كما قال فى "التعريف" فى وصية مقرئ فى القسم الثالث من الكتاب : وليدُمْ علىٰ ماهو عليه من تلاوة القرءان، فإنه مصباح قلبه . وصَلاح قُرْبه، وصَباح القبول المؤذن له برضا ربه؛ وليجعل سُوَره له أسوارا، وآياته تظهر بين عينيه أنوارا . وليتل القرءان بحروفه وإذا قرأ آستعاذ، وليجمَعْ طُرُقه وهى التى عليها الجمهور ويترك الشواذّ . ولا يرتَدّ دون غاية لإقصار، ولا يقِفْ فبعد أن أتَمّ لم يبق بحمد الله إحصار، وليتوسع فى مذاهبه ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة أئمة الأمصار، وليبذل للطلبة الرِّغاب ، وليُشْبع فإنَّ ذوى النَّهْمة سِغاب . ولْيَرِ النّاسَ ما وهبه الله من الآقتدار فإنه آحتضن السَّبع ودخل الغاب ، وليتَّم مبانِىَ ما أتم آبن عامر وأبو عمرو له التعمير، ولَفَّه الكسائىّ فى كِساه ولم يقلْ جَدّى آبنُ كثير، وحُمَّ به لحمزة أن يعودَ ذاهب الزمان، وعرف أنه لاعاصمَ من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطُّوفان، وتدفَّق يتفجَّر علما وقد وقفت السيول الدوافع ، وضرَّ أكثرَ قراء الزمان لعدم تفهيمهم وهو نافع ، وليُقْبِل علىٰ ذوى الإقبال علىٰ الطلب ، وليأخذهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد آنتسب . وهو يعلم ما مَنَّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النعماء، ووصل سببَه منه بحبل الله الممتدّ من الأرض إلى السماء . فليقدُرْ حقَّ هذه النعمة بحسن إقباله علىٰ التعليم، والإنصاف إذا سئل فعلم الله لا يتناهىٰ وفَوْقَ كلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم .

النـــوع السابع

(الآستكثار من حفظ الأحاديث النبوية علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه آحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

قال "فى حسن التوسل" لابد للكاتب من حفظ الكثير من الأحاديث النبوية، والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم، وخصوصا فى السير، والمغازى،

والأحكام، وتأمّل فصاحتها، والنظر فى معرفة معانيها وغريبها ؛ وفقه ما لا بدّ من معرفته من أحكامها لينفق منها علىٰ سَعة، ويستشهدَ بكل شىء فى موضعه، ويحتجّ بمكان الحجة، ويستدلّ بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه، ويبنىَ كلامه علىٰ أصل لا يُزَلْزَل، ويسوق مقاصده إلىٰ سبيل لا يَضِل عنه، فإن الدليل علىٰ المقصِد إذا ٱستَنَد إلىٰ النص قويت فيه الحجة، وسلّم له الخصم، وأذعن له المعاند؛ والفصاحة والبلاغة إذا طُلِبت غايتها فإنها بعد كتاب الله فى كلام من أُوتِىَ جوامعَ الكلم وقال : "أنا أَفْصَحُ مَنْ نَطَق بالضَّاد" .

وقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالحديث، ويستدلون به فى مواطن الخلاف والنزاع، فينقاد الجَمُوح ويستسهل الصَّعْب، وقد رجع الأنصار يوم السَّقِيفة إلىٰ حديث "الأَئمَّةُ مِنْ قُرَيْش" حيث رواه لهم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه، وأذعنوا له، وبايعوه بعد ما ٱجتمعوا إلىٰ سعد بن عُبَادة وقالوا : "مِنَّا أميرٌ ومِنْكُمْ أَمِيرٌ" . علىٰ ما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله . ورجع عمر رضى الله عنه لحديث النهى عن دُخُول بلد الطاعون فعاد إلىٰ المدينة بعد أن قارب الشأم حين بلغه أن به الطاعونَ . وقال علىّ رضى الله عنه فى حق الأنصار : "لو زالُوا لَزُلْتُ معهم" لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أَزُولُ مَعَكُم حَيْثُ ما زُلْتُمْ" .

ثم الذى أشار إليه ٱبن قتيبة فى "أدب الكاتب" أن الأحاديث التى ينبغى للكاتب حفظها الأحاديثُ المتعلقة بالفقه وأحكامه : كقوله صلى الله عليه وسلم : "البَيِّنَةُ علىٰ المُدّعِى . واليَمِينُ علىٰ المدَّعىٰ عليه . والخَرَاج بالضَّمَان . وجَرْح العَجْماء جُبَار .

ولا يَغْلَق الرهنُ (١) . والمِنْحة مردودة . والعارية مؤدّاة . والزَّعيم غارم . ولا وصيَّة لوارث . ولا قَطْعَ فى ثَمر ولا كَثَر . ولا قودَ إلا بحديدة . والمرأة تُعاقل الرجلَ إلىٰ ثلُث ديتها . ولا تعقلُ العاقلةُ عمدا ولا عَبْدا ولا صُلْحا ولا آعترافا . ولا طَلاقَ فى إغلاق ، والبَيِّعانِ بالخيار ما لم يتفرّقا . والجارُ أحقُّ بصَقَبه . والطلاقُ بالرجال والعِدّة بالنساء . وكنهيه فى البيوع عن المُخابَرة والمحاقَلة ، والمزابَنة ، والمُعاوَمة ، والثُّنْيا ، وعن ربح ما لم يُضْمَن ، وعن بَيْع ما لم يُقْبض ، وعن بَيْعتَيْنِ فى بَيْعة ، وعن شرطَيْن فى بَيْع ، وعن بَيْعٍ وسَلَف ، وعن بَيْع الغرر وبيع المُواصفة ، وعن الكالِئ بالكالئ ، وعن تلَقِّ الركبان . وما أشبه ذلك ليغتنى بحفظها وتدبر معانيها عن إطالات الفقهاء " .

قلت : والتحقيق أن حاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه ، بل تتعلق بما هو أعم من ذلك خصوصا الحِكَم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثُرُ الآستشهاد به فى الكتابة والآقتباس من معانيه . قال فى "المثل السائر" : وينبغى أن يكون أوّلَ ما يحفظه من الأخبار ما تضمَّنه كتابُ "الشهاب فى المواعظ والآداب" للقضاعى ، فإنه كتاب مختصر وجميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمَّن حِكَمًا وآدابا ، فإذا حفظته وتدرّبت بآستعماله ، حصل عندك قوة علىٰ التصرف والمعرفة بما يدخل فى الآستعمال وما لا يدخل ؛ وعند ذلك تتصفَّح كتاب صحيح البخارى ، ومسلم ، والموطإ ، والترمذىّ ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وغيرها من كتب الحديث ؛ وتأخذ ما تحتاج إليه ، و"أهْلُ مَكَّةَ أخبَرُ بشِعَابِها" . قال والذى تأخذه إن أمكنك

(١) الحديث فى المصباح لا يَغلَق الرهن بما فيه . أى لا يستحقه المرتهن بالدَّين الذى هو مرهون به .

درســه وحفظه فهو المراد لأن ما لا تحفظه فلست منه علىٰ ثقة ؛ وإن كانـ لك محفوظاتٌ كثيرة : كالقرءان الكريم ، ودواوين كثيرة من الشعر ، وما ورد من الأمثال السائرة ، وغير ذلك مما تقدّمت الإشارة اليه وما يأتى ذكره ، فعليك بمداومة المطالعة للأخبار ، والإكثار من آستعمالها فى كلامك ، حتّى ترتقم علىٰ خاطرك فتكون إذا آحتجت منها إلىٰ شيء وجدته ، وسهُل عليك أن تأتى به آرتجالا ؛ فتأمل ذلك وآعمل به . ثم قال وكنت جرّدت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل علىٰ ثلاثة آلاف خبر تدخل كلها فى الآستعمال ، وما زلت أواظب مطالعتَه مدّة تزيد علىٰ عشر سنين ، فكنت أُنْهِى مطالعته فى كل أسبوع مرة حتّى دار علىٰ ناظرى وخاطرى ما يزيد علىٰ خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ منه عنى شيء .

المقصــــد الثــانى

(فى بيان كيفية آستعمال الأحاديث والآثار فى الكتابة)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير : وآعلم أن أكثر الأحاديث تدخل فى الآستعمال ، ولا يخرج عنه إلا القليل النادر ، ولقد دار بينى وبين بعض علماء الأدب فى هـذا الأُسلوب كلامٌ فآستوعره وآستنكره ، وقال : هذا لا يتهيأ إلا فى الشيء اليسير من الأخبار النبوية — فقلت لا ؛ بل يتهيأ فى الأكثر منها — فقـال قد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أنَّهُ آختُصم إليه فى جنينـ فقضىٰ علىٰ مَنْ أسقطه بغرّةٍ عبد أو أمة" فأين تستعمل هذا؟ فأفكرت فيما ذكره ، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام ، وأودعته فيه وهو : "قد كثُر الجهل حتّى لا يقـال فلان عالم وفلان جاهل وضُرب المثلُ بباقل وكم فى هـذه الصورة الممثّلة من باقل ، ولو عرف كل إنسان قدرَه لما مشىٰ بدنٌ إلا تحت رأسه ، ولا آنتصب رأسٌ إلا علىٰ بدنه ، ولكان صاحبُ العمامة

أحقّ بعمامته وصاحب الرسن أحقّ برسنه . وكنت سمعتُ بكاتب من الكُتّاب كَلِمُه إلىٰ غَثّاثه، وقَلَمُه بُغاثةٌ لا يَستَنْسر وأىُّ بطش لُبُغَاثَه . و إذا وجب الوضوء علىٰ غيره بالخارج من السبيلين، وجب عليه من سُبُل ثلاثه . هذا وهو يدَّعى أنه فى الفصاحة أُمّةٌ وحده، ومَنْ قُسُّ إيادٍ أو سَحْبانُ وائلٍ عنـده؛ و إذا كُشِف خاطره وجد بليدا لايخرُجُ عن العَمَه والكَمَه، و إن رام أن يستنتجَه فى حينٍ من الأحيان قضى عليه بغرّةِ عبد أو أمَه؛ وكثيرا مايتقدّم ونقيصتُه هذه علىٰ الأفاضل من العلماء، وقد صار الناس إلىٰ زمان يعلُو فيه حضيضُ الأرض علىٰ هام السماء". فلما أوردته عليه، ظهرت أمارة الحسد علىٰ صفحات وجهه مع إعجابه به وآستغرابه فيه إياه .

ثم قال : وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو "لاتَدْخُلُ الملائكة بَيْتًا فيه صُورةٌ ولاتمثالٌ" فهذا أين يُستعمل من المكاتبات؟ فتروّيت فى قوله تروّيا يسيرا ثم قلت : هذا يستعمل فى كتاب إلىٰ دِيوان الخلافة، وأمليت عليه الكتاب، فجاء هذا الحديث فى فصل منه، وهو : "إذا أفاض الخادمُ فى وصف وَلَائه، نَكَصَتْ هممُ الأولياء عن مقامه؛ وعلموا أنه أخذ الأمرَ بزِمامه؛ فقد أصبح وليس بقلبه سوىٰ الوَلاء والإيمان، فهذا يظهر أثرُه فى طاعة السِّرِّ وهذا فى طاعة الإعلان؛ وما عداهما فإن دخولَه إلىٰ قلبه من الأشياء المحظوره، والملائكة لاتدخُل بيتا فيه تِمْثال ولاصُوره، فليعوّل الديوان العزيزُ منه علىٰ سيف من سيُوف الله يَفْرِى، بلا ضارب؛ ويَسْرِى، بلا حامل؛ ولا يُسَلُّ إلا بيد حق، ولا يُغْمَدُ إلا فى ظهر باطل . وليَعْلَمْ أن كَرِشَه وعَيْبتَه فى تضمُّن الأسرار، وأنه أحد سعديْه إذا عُدَّتْ مواقف الأنصار" .

فلما رأىٰ هذا الفصل بُهِت له وعَجِب منه . قال : ولم أقنع بإيراد الحديث الذى ذكر حتّى أضفتُ اليه حديثا آخر، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم : "الأنصار كَرِشى وعَيْبتِى" .

ثم تضمين الكلامِ شيْئا من الأحاديث علىٰ ما تقدّم فى القرءان الكريم ؛ فينقسم إلىٰ الاستشهاد والاقتباس علىٰ ما تقدّم .

فأما الاستشهاد فهو أن يضمِّن الكلام شيئا من الحديث، وينبه عليه : كقول أبي إسحاق الصابي فى وصية عهدٍ من خليفة لسلطان : وأن يقومَ بما يعقِده الرجل من عَرْض المسلمين ، فإن ذمّته ذمّة جميع المؤمنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المسلِمُون يَسْعىٰ بِذِمَّتِهم أدْنَاهُمْ، وهُمْ يَدٌ علىٰ مَنْ سِوَاهُمْ" .

وكما كتب بعض الكُتّاب فى صدر كِتابٍ لديوان الخلافة : والحمد لله علىٰ أن صار إلىٰ أمير المؤمنينْ مِيراثُ الطاهرين من آبائه، وخصّه بما حاز له من جَزِيل الفضل وحِبَائه، وحقّق للدولة العباسية وعد النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول لعمه العباس رضوان الله عليه "ألَا أُبَشِّرُكَ ياعَمِّ! بِي خُتِمَتِ النُّبُوّةُ وبِوَلَدِكَ تُخْتَمُ الخلَافة" . وكقوله من عهدٍ آخر : وأمره أن يضَعَ الرصَد علىٰ مَنْ يختار(1) فى الحمالة من أُبَّاق العبيد، والاحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم : إلىٰ أن قال وأن يعرّفوا اللُّقَطَ ويتّبِعوا أثرَها، ويُشِيعوا خبَرها، فإذا حضر صاحبُها وعلم أنه مستوجِبُها، سُلِّمت إليه ، ولم يُعْترَض فيها عليه . والله جل وعز يقول : ﴿ إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلىٰ أهلِها ﴾ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ضَالّةُ المُؤْمِنِ حَرَق النَّار" إلىٰ غير ذلك من الاستشهادات .

وأما الاقتباسات فهو أن يضمِّن الكلام شيئا من الحديث ولا ينبِّه عليه .

فن ذلك ماذكره الحريرىّ فى مقاماته من قوله : وكِتمانُ الفَقْر زَهَاده ، وانتظارُ الفَرَج بالصبْرِ عباده . وقوله : شاهَتِ الوُجُوه، وقُبِحَ اللُّكَعُ ومَنْ يَرْجُوه .

وقد أكثر الوزير ضياء الدين بن الأثير من هذا الباب .

---

(1) لعله على من يجتاز فى العمالة .

فمن ذلك قوله فى دعاء كتاب: "أعاذ اللهُ أيامَهُ من الغِيَر، وبيَّن بخَطَر مجده نَقْصَ كل خَطَر. وجعل ذِكْره زادًا لكل ركب، وأُنْسًا لكل سَمَر. ومنحه من فضله ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعتْ ولا خَطَر علىٰ قَلْب بَشَر". أخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم فى وصْف نعيم الجنة "فِيهَا ما لَا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر علىٰ قلبِ بَشَر" فنقله إلىٰ الدعاء.

ومن ذلك ماذكره فى النصر علىٰ العدوّ فى مواطن القتال، وهو: "أخذنا بسُنَّة رسول الله فى النصر الذى نرجوه، ونَبذْنَا فى وجه العدوّ كفًّا من التراب وقلنا شاهت الوجوه، فثبَّتَ الله ماتزلزل من أقدامنا، وأقدَمَ حيزُومُ فأغنىٰ عن إقدامنا".
أخذ المعنى الأوّل من حديث غزوة حنين وأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ قَبْضةً من التُّراب وألقى بها فى وُجُوه الكفار وقال: "شاهتِ الوجوهُ". وأخذ المعنى الثانىَ من حديث غزوة بدر: وذلك أن رجلا من المسلمين لاقىٰ رجلا من المشركين وأراد أن يَضْرِبَه فخرّ علىٰ الأرض ميتا قبل أن يصِل إليه، وسمع الرجل المسلم صوتًا من فوقه وهو يقول أَقْدِم حَيْزُومُ فجاء النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: "ذلك من مَدَدَ السماء الثالثة".

ومن ذلك ماذكره فى ضِيق مَجَال الحرب، وهو: "وضاق الضرب بين الفريقين حتّى ٱتصلَتْ مواقعُ البِيض الذُّكور، وتصافحَتِ الغُرَر بالغُرَر والصُّدورُ بالصدور. وٱستُظِلَّ حينئذ بالسيوف لٱشتباك مَجَالها وتُبوِّئَتْ مقاعدُ الجنة التى هى تحت ظلالها". أخذ ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم "الجنةُ تَحْتَ ظِلَال السُّيُوف".

ومن ذلك ما ذكره فى وصف بعض البلاد الوخمة، وهو: "ومن صفاتها أنها مَدَرَة مُسْتوبَلة الطينه، مجموعٌ لها بين حَرّ مَكّةَ ولَأْواء المَدينه. إلا أنها لم يؤمَن

حَرَّها من الخَطْفه ، ولا نُقلتْ حُمَّاها إلىٰ الجحفه . أخذ المعنىٰ الاوّل من قوله صلى الله عليه وسلم "مَنْ صَبَرَ علىٰ حَرِّمَكَّةَ ولأواءِ المَدينةِ ضمنْتُ له علىٰ الله الجنّةَ" . والمعنىٰ الثانىَ من قوله صلى الله عليه وسلم فى دُعائه للمدينة : "اللهمَّ حَبِّبْها إلينْا كما حَبَّبْتَ إلَيْنَا مكّةَ وٱنْقُلْ حُمَّاهَا إلىٰ الجُحْفة" . ورشّح ذلك بمعنىٰ قوله تعالى ﴿أوَ لَمْ يروْا أنَّا جعلْنا حَرَمًا آمِنًا ويُتَخَطَّفُ الناسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ حيثقال إلا أنها لم يؤمن حَرُّها من الخطفة .

ومن ذلك ماذكره فى وصف كريم ، وهو : " فأغنىٰ بجوده إغناءَ المطر ، وسَمـا إلى المَعالِى سُمُوّ الشمس وسار فى منازلها مَسيرَ القمر . ونُتِج من أبكار فضائله ما إذا ادّعاه غيرُه قيل للعاهرِ الحَجَر" . أخذ ذلك من قول النبى صلى الله عليه وسلم "الوَلَدُ لِلْفراشِ ولِلْعاهِرِ الحَجَر" . إلىٰ غير ذلك من مقتبساته المستكْثَره ، وٱستنباطاته التى هى غير قاصرة ولا مستنكَره .

ومن ذلك ما ذكرته أنا فى المفاخرة بين السيف والقلم ، وهو : "وبدأ القلم فتكلَّم ، ومضىٰ فى الكلام بصدق عَزْم فمـا توقَّف ولا تلعْثَم ؛ فقال بٱسم الله تعالىٰ أستفتح ، وبحمده أتيَمَّنُ وأستنجح ؛ إذ من شأنى الكتابه ، ومن فَنِّى الخَطَابه ، وكلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبْدَأُ فيـه بٱسم الله تعالىٰ فهو أجْذَم ، وكل كلام لا يُفْتَتَحُ بحمد الله فأَساسُه غيرُ مُحكَم" . أخذت ذلك من قوله صـلى الله عليه وسلم "كلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبْدأُ فيه باسمِ اللهِ أوبحمدِ اللهِ فهو أجْذَمُ" علىٰ ٱختلاف الرواية فى ذلك .

وٱعلم أنه كما يحتاج الكاتب إلىٰ حفظ الأحاديث والآثار بطريق الذات للٱستشهاد بها ، والٱقتباس من معانيها علىٰ ماتقدّم بيانه : كذلك يحتاج إلىٰ المعرفة بأنواع الحديث وأقسامها : كالصحيح ، والحَسَن ، والمُرْسَل ، والمرفوع ، والمُسْنَد ، والمتصل ، والمنقطع ، ونحو ذلك . وكذلك المعرفة بأسمـاء الرجال ، والمشاهير من المحـدّثين :

كالبخاريّ، ومسلم، وأبى داود، والنسائى وغيرهم : ليورد ما يحتاج إليه من ذلك فى غُضُون كلامه عند احتياجه إليه فى كتابة ما يتعلق بذلك من توقيع محدّث ونحوه كما قال فى " التعريف " فى وصية لمحدّث فى قسم الوصايا من الكتّاب " وقد أصبح بالسنة النبوية مُضطلِعا ، وعلىٰ ما جمعه طُرُق أهل الحديث مُطَّلعا ، وصح الصحيح أن حديثه الحسن، وأن المُرْسَل منه فى الطلب مقطوع عنه كلُّ ذى لَسَن . وأن مُسْنَدَه هو المأخوذ عن العوالى، وسماعه هو المرقص منه طول الليالى . وأن مثله لا يوجد فى نسبه المُعْرق، ولا يُعْرَف مثله للحافظين : ابنِ عبد البر بالمغرب وخطيبِ بغداد بالمَشْرِق . وهو يعرف مقدارَ طلب الطالب فإنه طال ما شدّ له النِّطَاق، وسعىٰ له سَعْيه وتجشَّم المشاق . ورحل له يشتدّ به حرصه والمطايا مزمومة، ويُنبِّهه له طلبُه والجُفونُ مُقْفَلة والعيون مَهمُومه . ووقف علىٰ الأبواب لا يُضْجِره طولُ الوقوف حتّٰى يؤذنَ له فى وُلُوجها، وقَعد القُرْفُصاءَ فى المجالس لا تَضِيق به فُرُوجُها . فليعامل الطلبة إذا أتَوْه للفائده معاملةَ من جرّب ، وليَبْسُط للأقرباء منهم ويُؤْنِس الغُرَبَاء فما هو إلا ممن طلب آوِنةً من قريب وآوِنة تغرّب . وليُسفِرْ لهم صباحُ قصده عن النجاح، وليَفْتُقْ لهم من عُقُوده الصحاح، وليُوضِح لهم الحديثَ، وليُرِحْ خواطرهم بتقريبه ما كان يسار إليه السيرَ الحثيث ، وليؤْتِهم مما وسَّع اللهُ عليه فيه المَجال ، ويعلِّمْهم ما يجب تعليمُه من المُتُون والرجال، ويُبَصِّرْهم بمواقع الجَرْح والتعديل، والتوجيه والتعليل، والصحيح والمُعْتَل الذى تتناثر أعضاؤه سَقَما كالعليل . وغير ذلك مما لرجال هذا الشأن به عنايه، وما يُنَقَّب فيه عن دراية أو يُقْنع فيه بمجرّد روايه . ومثله ما يزاد حلما ، ولا يعرّف بمن رخّص فى حديثٍ موضوع أو كتم علما . وسيأتى ذكر هذه الوصية فى موضعها إن شاء الله تعالىٰ .

وكما قال الشيخ جمـال الدين بن نباتة من جمـلة توقيع لبعض مدرّسى الشام : "ولأنه الحافظ الذى أحيا ذكر ابن نُقْطَةَ بعـد ما دارت عليه الدوائر، وأغنىٰ وحده دمشقَ عمن أتىٰ فى النسَب بعساكر" .

النـــــوع الثـامن

(الإكثار من حفظ خُطَب البلغاء، والتفنُّن فى أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان)

المقصــــــد الأوّل

(فى وجه ٱحتيـاج الكاتب إلىٰ ذلك)

قال أبو جعفر النحاس : "وهى من آكد ما يحتـاج اليـه الكاتب ، وذلك أن الخطب من مستَوْدَعات سرّ البلاغة، ومجامع الحكم ؛ بهـا تفاخرت العـرب فى مَشَاهدهم ، وبها نطقت الخُلَفاء والأمراء علىٰ منابرهم ؛ بها يتميز الكلام ، وبهـا يُخاطَب الخاصّ والعامّ، وعلى منوال الخَطابة نُسِجت الكتابه ، وعلى طريق الخُطَباء مشَتِ الكُتَّاب . وقد قال أبو هلال العسكرى رحمه الله فى "الصناعتين" : والرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصـل ، فألفاظ الخطب تشـبه ألفاظ الكُتَّاب فى السهولة والعذوبة؛ وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل" . قال : "والفرق بينهما أن الخطبة يُشافَه بهـا بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كلفة" .

واعلم أنه كان للعرب بالخطب والنثر غايةُ الاعتنـاء حتّى قال صاحب "الريحان والريعان" : إن ماتكلمت به العرب من أهل المَدَر والوبَر من جَيِّد المنثور ومزْدَوِج

الكلام أكثر مما تكلمتْ به من الموزون إلا أنه لم يُحَفَظْ من المنثور عُشْره ، ولا ضاع من الموزون عُشْره . لأن الخطيب إنما كان يخطُب فى المقام الذى يقوم فيه فى مشافهة الملوك ، أو الحالات ، أو الإصلاح بين العشائر ، أوخِطْبة النكاح ؛ فإذا آنقضىٰ المقام حفِظه مَنْ حفِظه ، ونسيه من نسيه . بخلاف الشعر فإنه لايضيع منه بيت واحد . قال : " ولولا أن خطبة قُسّ بن ساعدة كان سندُها مما يتنافَسُه الأنام ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى رواها عنه فأطار ذكرها ، ماتميزت عما سواها " .

قلت : وليس ماأشار إليه لرفض النَّثْرعندهم وقلَّة آعتنائهم به ؛ بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه فى حاضرهم وباديهم ، وخاصّهم وعامّهم ؛ بخلاف الخَطَابة فإنه لم يتعاطَها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المَصَاقِع : فلذلك عزّ حِفْظُها وقلّ عنهم نقلُها . وقد كانت تقوم بها فى الجاهلية ساداتُ العرب ، ورؤساؤُهم ممن فاز بقِدْح الفضل ، وسبق إلىٰ ذُرىٰ المجد ، ويخُصُّون ذلك بالمواقف الكرام ، والمَشَاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحَفِيلة ، فيقوم الخطيب فى قومه فيحمد اللهَ ويُثْنِي عليه . ثم يذكر ماسنح له من مُطابق قَصده ومُوافِق طلبه : من وعظ يذكّر أو فخرأو إصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام .

فمن خُطَبهم فى الجاهلية خطبة كعب بن لؤى جدّ النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره أبو هلال العسكرى فى كتاب الأوائل . وهى : اسمعُوا وَعُوا ، وتعلَّمُوا تَعْلَموا ، وتَفَهَّمُوا تَفْهَموا ، ليلٌ ساج . ونهارٌ صاج (١) ، والأرض مِهاد ، والجبال أوتاد ، والأوّلون كالآخرين ، كلُّ ذلك إلى بَلاء ، فصِلُوا أرحامكم ، وأصلحوا أموالكم ، فهل رأيتم مَنْ

(١) لعله ضاج من قولهم ضج القوم يضجون اذا صاحوا وجلبوا . وفى الضوء ليل داج ونهار ساج تأمل

هلك رجع، أوميتا نُشِر، الدار أمامكم والظن خلاف ما تقولون، زيّنوا حَرَمكم وعظموه، وتمسَّكوا به ولا تُفارِقوه، فسيأتي له نَبأ عظيم، وسيخرج منه نبيٌّ كريم . ثم قال :

نَهارٌ ولَيْلٌ واْختِلافُ حَوادِثٍ * سَـواءٌ علينَا حُلْوها ومَرِيرُها
يئُوبان بالأحداث حتّى تأوّبا * وبالنِّعَم الضافي علينا سُتُورُها
صُرُوفٌ وأنباءٌ تقلَّبَ أهلُها * لها عُقَد ما يستحيل مَرِيرها
علىٰ غفْـلةٍ يأْتِي النبيُّ محمّدٌ * فيُخْبِرُ أخبارًا صَدُوقا خَبِيرُها

ثم قال :

ياليْتَنِي شاهِـدٌ فَحْواءَ دَعْوتِه ! * حِينَ العَشِيرةُ تبْغِي الحَقَّ خِذْلانَا

ومن ذلك خطبة قُس بن ساعدة الإيَادِيّ ، بسُوق عُكَاظ فيما نقله أصحاب السِّيَر عن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عنه وهي : أيها الناس ! اسمعُوا وَعُوا، مَن عاش ماتَ، ومَن مات فات، وكُلُّ ماهو آتٍ آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماءٌ ذاتُ أبراج، ونُجومٌ، تَزْهَر، وبحار تَزْخَر، وجبال مُرْساه، وأرض مُدْحاه، وأنهار مُجْراه . إنَّ في السماء لَخبرا، وإن في الأرض لَعِبَرا ! مابالُ الناسِ يَذْهَبون ولا يَرْجعُون . أرَضُوا فأقامُوا، أم تُرِكوا فنامُوا . يُقْسِم قُسٌّ باللهِ قسمًا لا إثم فيه إنّ لله دِينًا هو أرْضىٰ له وأفْضَـلُ من دينكم الذى أنتم عليه ؛ إنكم لتأتون من الأمر منكرا! . ويروىٰ أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول :

فى الذّاهِبِينَ الأوَّلِيـ * ـن من القُرُونِ لَنَا بَصائِرْ
لَمَّا رَأيْتُ مَـوَارِدًا * للموتِ لَيْس لَهَا مَصادِرْ
ورَأيْتُ قَوْمِي نَحْـوَها * تَمْضِي: الأكابِرُ والأَصَاغِرْ
لا يَرْجِـعُ الماضِي إلَيَّ * ولا مِنَ الباقِينَ غَابِرْ
أيقنْـتُ أنِّي لا محَـا * لَةَ حَيْثُ صارَ القَوْمُ صَائِرْ

قال صاحب الأوائل : ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يُعرَض هذا الكلام يوم القيامة على قُسِّ بن ساعدةَ فإن كان قاله لله فهو من أهل الجنة" .

ومن ذلك خطبة أبي طالب حين خَطبَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خديجةَ وهى : الحمدُ لله الذى جعلنا من زَرْع إبراهيم ، وذُرّية إسماعيل ، وجعل لنا بيتا مَحْجوجا ، وحَرَما آمنا . ثم إن محمدَ بنَ عبد الله بن عبد المطلب ابنَ أخى مَنْ لا يُوازَن بأحد إلا رجَحَه ، ولا يُعْدَلُ بأحد إلا فَضَله ، وإن كان فى المال قُلٌّ فإن المال ظلٌّ زائل ؛ وله فى خديجةَ رغبة ولها فيه مثلُها ؛ وما كان من صداق ففى مالِى ؛ وله نَبَأٌ عظيم وخبرٌ شائع .

ومن خطب النبى صلى الله عليه وسلم "أيها الناسُ كأنَّ الموتَ فيها على غَيْرِنا قدْ كُتب ، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا قد وَجَبْ ، وكأنَّ الذى نُشَيِّع من الأموات سَفْرٌ عمَّا قليلٍ إلينا راجعون ، نبوِّئُهُم أجداثَهم ، ونأكُل من تُراثِهِم كأنَّا مخلَّدون بعدهم ، ونسينا كُلَّ واعظة وأمِنَّا كلَّ جائحة ، طُوبى لمن شغَله عَيْبُه عن عُيوب الناس ، طُوبى لمَنْ أنفق مالًا ٱكتسبه من غير معصية ، وجالَسَ أهلَ الفِقْه والحِكْمة ، وخالَطَ أهْلَ الذُّلِّ والمَسْكنة ، طُوبى لمن زكَتْ وحَسُنَتْ خَليقَتُه ، وطابَتْ سَريرتُه ، وعَزَل عن الناس شرَّه ، طُوبى لمن أَنْفَقَ الفضلَ من ماله ، وأمسك الفضلَ من قوله ، ووَسِعَتْه السُّنَّة ولم تَسْتَهْوِه البِدْعة ! "

ومن خطب أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيما ذكره أبو جعفر النحاس فى "صناعة الكتّاب" وهى : ألا إن أشْقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك ، الملك إذا مَلَك زهَّده اللهُ جلّ وعز فيما عنده ، ورَغَّبه فيما فى يدَىْ غيره ، وٱنتقصه شَطْر أجله ، وأُشْرِب قَلْبَه الإشفاق ، وإذا وجبَتْ نفسُه ، ونَضَب عمرُه وضَحَا ظِلُّه ،

حاسبه الله جل ثناؤه وأشد حسابه، وأقل عفوه؛ وسترون بعدى ملكا عضوضا، وأمة شحاحا، ودما مباحا؛ وإن كانت للباطل نزوة، ولأهل الحق جولة، يعفو لها الأثر وتموت السنن، فالزموا المساجد واستشيروا القرءان(١)، وليكن الإبرام بعد التشاور، والصفقة بعد التناظر.

ومن خطب عمر رضى الله عنه: أيها الناس! إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرءان إنما يريد الله وما عنده؛ ألا وإنه قد خيل إلى أن أقواما يقرءون القرءان يريدون ما عند الناس! ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحى ينزل وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فقد رفع الوحى وذهب النبي عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لكم: ألا فمن أظهر لنا خيرا ظننا به خيرا وأثنينا به عليه!، ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه!، اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها، فإنها لملقة، وإنكم إلا تقدعوها تنزع بكم إلى شر غاية. إن هذا الحق ثقيل مرىء، وإن الباطل خفيف وبىء، وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة، ورب نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حزنا طويلا!.

ومن خطب عثمان رضى الله عنه: وقد أنكروا عليه تقديم بنى أمية على غيرهم: أما بعد فإن لكل شيء آفة، وآفة هذا الدين وعاهة هذه الملة قوم عيابون، طعانون، يظهرون لكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون. أما والله يامعشر المهاجرين والأنصار! لقد عبتم على أشياء ونقمتم منى أمورا قد أقررتم لابن الخطاب بمثلها ولكنه وقمكم وقما، ودمغكم(٢) حتى لايجترئ أحد منكم يملأ بصره منه ولا يشير بطرفه

(١) كذا فى الأصول بالشين المعجمة ولعله تصحيف عن الثاء المثلثة ففى اللسان وثور القرآن بحث عن معانيه وعن علمه. وأورد فى ذلك حديث عبدالله أثيروا القرآن فان فيه خير الأولين والآخرين. وحديثا آخر. من أراد العلم فليثور القرآن. (٢) فى غير هذا الكتاب وقمكم والوقم والدمغ القهر والإذلال.

إلا مُسارقةً إليه ؛ أما والله لأنا أكثرُ من ابن الخطّاب عَدَدا، وأقربُ ناصرا وأجدر إن قال هَلُمَّ(١) أن يُجَاب . هل تفقِـدُون من حقوقكم وأعطياتِكم شيئا فإنِّى إلَّا أفعَلْ فى الفضل ما أريد فلِمَ كنت إماما إذَنْ ؟ أما والله ما عاب علَىَّ مَنْ عاب منكم أمرا أجهَلُه ولا أتيتُ الذى أتيتُ إلا وأنا أعْرِفُه .

ومن خطب على كرم الله وجهه : حين بُويِـع بالخلافة : إن الله أنزل كتابا هاديا بيَّنَ فيه الخيرَ والشر، فخُـذُوا بالخير ودَعُوا الشر؛ الفرائضَ أدّوها إلى الله تؤدِّيكم إلىٰ الجنة . إن الله حَرّم حُرَما غير مجهولة ، وفَضَّل حُرمةَ المسـلم علىٰ الحُرَم كلها، وسدّد بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين . فالمسلِمُ مَنْ سَلِمَ المسلِمُون من لسانه ويده إلا بالحق؛ لا يحِل أذىٰ المسلم إلا بما يجب، فأدُّوا أمر العامَّة، وخاصةُ أحدكم الموتُ . فإن الناس أمامَكُم وإنما خَلْفَكُم الساعة تُذَكِّرُكم . تخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فإنما ينتظر بالناس أُخْراهم . اتقوا اللهَ عبادَ الله فى عباده وبلاده، فإنكم مسـئولون حتّى عن البِقَاع والبهـائم ؛ أطيعُوا اللهَ ولا تَعْصُوه . وإذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدَعُوه، وآذْكُروا إذ أنتُمْ قليلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فى الأرْضِ .

ومن خطب الحسن بن على رضى الله عنه : اعلموا أن الحلم زين ، والوقارَ مَوَدّة، والصِّلة نعمة ، والإكثار صَلَف ، والعَجَلة سَفَه ، والسَّفَه ضَعْف ، والقَلَق ورطة، ومجالسة أهل الدناءة شَيْن، ومخالَطة أهل الفسوق رِيبة .

ومن خطب معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه بصِفِّين : أيها الناس ! إن الحرب صَعْبة ، وإن السَّـلْمَ مَنّ ومَبَرّة ! ألا وقَدْ زَبَنَتْنَا الحربُ وزبَنّـاها

---

(١) فى غير هذا الكتاب وأقمن إن قلت هلم أن تجاب دعوتى من عمر . والروايات متقاربة .

وأَلِفْنَا وأَلِفْنَاها، فنحن بنُوها وهى أُمُّنَا . أيها الناس ! ٱستقيموا علىٰ سبيل الهدىٰ، ودَعُوا الأهواء المُضِـلَّة ، والبِدَع المُرْدِيَةَ ، ولستُ أراكم تزدادُون بعد الوَصاة إلا ٱستجراء ، ولن أزداد بعد الإعذار والحجة عليكم إلا عقوبة ! ، وقد ٱلتقينا نحن وأنتم عند السِّيف فمن شاء فليتحرّك أو يتَقَهْقر وما مَثَلِي ومثَلُكم إلا كما قال ٱبن قيس ٱبن رفاعة الأنصارىّ .

مَنْ يَصْلَ نَارِى بِلا ذَنْبٍ ولا تِرَةٍ * يَصْـلَىٰ بنـارِ كريم غيرِ غَدَّار
أنَا النـذِيرُ لكُمْ مِنِّى مُجَاهِرةً * كَىْ لا أُلامَ علىٰ نَهْيِى وإنذارى

ومن خطب عتبة بن أبى سفيان، وهو يومئذ أمير مصر وقد بلغه عن أهلها أمور أن صعد المنبر (١) وقال : يا حامِلِي ألأم أنوفٍ رُكِّبتْ بينَ أعيُنٍ ! إنمـا قلَّمتُ أظفارى عنكم ليَلِينَ مَسِّى إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم إذ كان فسادكم راجعا عليكم؛ فأمّا إذ أبَيْتم إلا الطَّعْن على الأمراء والعَتْبَ علىٰ السلف والخلفاء، فوالله لأُقَطِّعَنَّ بُطونَ السـياط علىٰ ظهوركم ! فان حسَمْت مُستشرِىَ دائكم وإلا فالسيف من ورائكم . فكم من عظةٍ لنَـا قد صَمَّت عنها آذانُكم ، وزَجْرةٍ مِنَّا قد مجَّتْها قلوبكم ؛ ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية ، ولا مؤيسا لكم من المراجعة إلىٰ الحسنىٰ إن صرتم إلىٰ التى هى أبرّ وأتقىٰ .

ومن خطب زياد بن أبيه حين قدم إلىٰ البصرة : أما بعدُ فإن الجَهالة الجَهْلاء ، والضَّلالَة العمياء ، والغَىَّ المُوفى بأهله على النار ما فيه سُفَهاؤكم، ويشتمل عليـه حُلَماؤكم من الأمور التى ينبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشىٰ عنها الكبير ؛ كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ماأعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب

---

(١) لعل عاملٍ أن محذوف والأصل فما كان منه الا أن الخ .

الأليم لأهل معصيته، فى الزمن السرمدىّ الذى لا يَزُول . إنه ليس منكم إلا مَنْ طَرَفت عينَه الدنيا ، وسدّت مسامعَه الشهوات ، وآختار الفانية على الباقية ؛ ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحَدَث الذى لم تُسبَقوا إليه : من تَركِكم الضعيفَ يُقْهَر، والضعيفة المسلوبة فى النهار لا تُنْصر(١)، والعدد غير قليل، والجمع غير مفترق . ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغُواة عن دَلَج الليل وغارة النهار ! قرّبتم القرابة ! وباعدتم الدِّين، تعتذرون بغير العذر ، وتُغْضُون على النُّكْر . كل آمرئ منكم يذّب عن سفيهه صُنْعَ من لا يخاف عقابا ولا يرجو معَادا . فلم يَزَل بهم ما تَرَوْن من قيامكم دُونَهم حتّى آنتهكوا حُرَم الإسلام ثم أطرفوا وراءكم كُنُوسا فى مَكَانِس الرِّيَب ، حرام علىّ الطعام والشراب حتّى أُسَوِّيَ هذه المواخيرَ(٢) بالأرض هَدْما وإحراقا ! . إنى رأيت آخرَهذا الأمر لا يصلحُ إلا بما صَلَح به أوّله : لينٌ فى غير ضَعْف ، وشدّة فى غير عُنْف ، وإنى لأقسم بالله لآخذنّ الولىّ بالمَوْلىٰ، والمقيمَ بالظاعن، والمطيع بالعاصى، حتّى يلقىٰ الرجل أخاه فيقولَ "آنْجُ سَعْدُ فقد هَلَك سَعيد" أو تستقيم لى قَناتُكم . إنّ كِذْبة الأمير بَلْقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم علىَّ بكذبة فقد حلتْ لكم معصيتى ؛ وقد كان بينى وبين قوم إحَنٌ فجعلْتُ ذلك دَبْر أذنِى وتحت قَدمى . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغْضى لم أكشف له قِناعا، ولم أهتك له سترا، حتى يُبْدِىَ لى صَفْحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم وراعوا(٣) على أنفسكم ، فربَّ مبتَئِس بقدومنا سيُسَرّ، ومسرورٍ بقُدُومنا سيَبْتَئِس ! . أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادةً نَسُوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا، فلنا عليكم السمعُ والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدلُ فيما وَلينا، فاستوجِبُوا عدلنا وفَيْئنا بمُناصحتِكم لنا ،

(١) فى العقد الفريد والصفقة المسلوبة فى النهار المبصر . (٢) وقع فى الأصل المناخير وهو تصحيف عن المواخير انظر اللسان والعقد الفريد . (٣) فى العقد الفريد وأعينوا .

فقام إليه عبد الله بن الأهتم وقال : "أشهد أيها الأمير لقد أُوتيتَ الحِكمةَ وفصلَ الخِطَاب" قال : "كذبْتَ" ذاكَ نَبِيُّ الله داودُ !

ومن خطب عبد الملك بن مروان، لما قتل عَمْرا الأشــدقَ بنَ سعيدِ بن العاص : إرمُوا بأبصـاركم نحوَ أهل المعصية، وٱجعلوا سَلَفكم لمن غَبَر منكم عِظَة، ولا تكونُوا أغفالا من حُسْن الاعتبار، فَتَنْزِلَ بكم جائحةُ السَّطوات، وتَجُوسَ خِلالَكم بَوادرُ النَّقِمات، وتَطَأَ رِقابكم بثِقَلها العقوبة فتجعلكم هَمَدا رُفاتا، وتشتمل عليكم بطونُ الأرض أمواتا . فإيَّاى من قول قائل، ورَشْقة جاهل ! فإنما بيني وبينكم أن أسمع النعوة (١) فأُصَمِّم تصميمَ الحُسام المَطْرور (٢)، وأَصولَ صِيالَ الحَنِق المَوْتُور، وإنما هي المصافَحَة والمكافَحَة بظُبات السُّيوف وأسِنَّة الرماح، والمعاودةُ لكم بسُوء الصَّباح، فتاب تائب، وهدل خائب (٣)، والتوْب مقبول، والإحسان مبذول، لمن عرف رُشْده وأبصر حظه . فٱنظروا لأنفسكم، وأقبِلوا علىٰ حظوظكم، ولتكن أهلُ الطاعة يدا علىٰ أهل الجهل من سفهائكم، وٱســتديموا النعمة التى ٱبتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زينتها، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجلِ الخَفْض والدَّعة، وآجلِ الجزاء والمَثُوبة عصمكم الله من الشيطان وفتْنتــه ونزغه، وأمدّكم بحُسن معزته وحفظه . انهَضُوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم غيرْ مَقطوعة عنكم، ولا مكدَّرةٍ عليكم .

فخرج القوم من عنده بِدارا كُلُّهم يخاف أن تكون السطوةُ به .

ومن خطب الحجـاج بن يوسف الثقفى عنـد قدومه الكوفة أمـيرا علىٰ العراق : يا أهل العراق أنا الحجاج بن يوسف ! .

(١) كذا فى الأصل الإهمال وهو تصحيف عن المعجمة . والنغوة والنغية أوّل الخبر قبل أن تستبينه .

(٢) المطرور بالراء بن المحدود المشحوذ وفى الأصل بالدال المهملة وهو تصحيف .

(٣) فى الأصل بالهاء واهمال الدال واعجام حائب ولعله بالميم واعجام الذال بمعنى ضجر وقلق واهمال الحاء من حائب لخرر .

أَنَا ٱبْنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنـايَا * مَتى أَضَـع العمامةَ تَعْرِفُونى

والله يا أهل العراق: إنى لأَرىٰ رءوسا قد أينعتْ وحان قطافها، وإنِّى لصاحبها! والله لكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللِّحى. يا أهـل العراق ما يُغمَز جانبِى كتَغْماز التِّين، ولا يُقعقَع لى بالشِّنان. ولقد فُرِرْت عن ذكاء، وفُتِّشْت عن تجربة، وأجريتُ من الغاية؛ وإن أمير المؤمنين عبد الملك نَثَر كنانتَـه بين يديه فعجَم عيدانَهـا عُودا عُودا فوجدنى أمرّها عودا. وأشـدّها مَكْسِرا، فوجَّهنى اليـكم ورماكم بى يا أهلَ الكُوفة، أهلَ الشِّقاق والنفاق، ومَسَاوى الأخلاق: لأنكم طالمـا أوضعتُم فى الفتنة، وٱضطجَعْتم فى مَنامِ الضَّلال، وسـنَنْتم سُنَن الغىّ، وٱيم الله لألْحُوَنَّكم لَحْوَ العُود، ولأَقْرَعَنَّكم قَرْع المروة، ولأَعْصِبَنَّكم عَصْبَ السَّـلَمة، ولأضربَنَّكم ضَرْب غريبة الإبل. إنى والله لاأحلف إلّا صدَقْت، ولا أعِدُ إلّا وَفَيت. إيَّاى وهذه الزَّرافاتِ، وقال وما يقولُ، وكان وما يكون. وما أنتم وذاك يا أهل العراق. إنمـا أنتم أهل قرية كانَتْ آمِنَةً مُطْمئنَّةً يأْتِيها رِزْقُها رَغَدا مِنْ كُلِّ مكانٍ فكَفَرتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فأتاها وعيدُ القُرىٰ من ربها. فٱستَوْثِقُوا وٱعتدِلُوا ولا تميلوا، وٱسمعُوا وأطيعوا، وشايعُوا وبايعُوا.

وٱعلموا أن ليس منى الإكثارُ والإهذار ولا مع ذلك النِّفار ولا الفِرار؛ إنمـا هو ٱنتضاءُ هذا السيف، ثم لا يُغْمَد الشتاءَ ولا الصيف، حتّى يُذِلَّ الله لأمير المؤمنين عِزَّكم، ويُقيم له أوَدَكم وصَعَركم. ثم إنى وجدتُ الصدق من البِر، ووجدت البرّ فى الجنَّـة، ووجدت الكذبَ من الفُجُور، ووجَدْت الفُجُور فى النـار. وإن أمير المؤمنـين أمرنى أن أُعطيَكم أعطياتكم، وأُشْخِصَكم لمجاهدة عدوّكم وعدوّ أمير المؤمنين؛ وقد أمرتُ لكم بذلك وأجَّلْتكم ثلاثا، وأعطيت الله عهـدًا يؤاخذنى به ويستوفيه مِنِّى: لئن تخلَّف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربنّ عُنُقَه وأنهبنّ ماله.

ثم ٱلتفتَ الى أهل الشام فقال أنتم البِطانةُ والعشيرة ! والله لرِيحُكم أطيبُ من ريح المسـك الأذْفَر، و إنما أنتم كما قال الله تعالى ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية . وٱلتفتَ الى أهل العِراق فقال والله لَرِيحُكم أنتَنُ من رِيح الأبْخَر، و إنما أنتم كما قال الله ﴿ومَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية .

ومن خطبه لمـا قدم البصرة يتهدّد أهل العراق و يتوعدهم :

أيُّها الناس : مَنْ أعياه داؤه فعندى دواؤه ! ، ومَن ٱستطال أجلَه ، فعليّ أن أُعْجِله ؛ ومن ثَقُل عليه رأسُـه وضعت عنه ثِقْله ، ومَنِ ٱستطال مَاضِيَ عُمُره قصّرت عليـه باقيَه . إنّ للشيطان طَيْفا ، وللسلطان سَيْفا ! ، فمن سَقُمتْ سريرتُه ، صحتْ عقوبته ؛ ومَنْ وضعه ذَنَبه ، رفعه صُلبه ؛ ومن لم تَسَعْه العافية ، لم تَضِقْ عنه الهَلَكة ؛ ومن سبقَتْه بادرة فمه ، سَبَق بدنَه بسفْك دمه ؛ إنى أُنْذِرُ ثم لا أُنظِر ، وأحَذِّر ثم لا أُعْذِر ؛ وأتوعد ثم لا أعفو . إنمـا أفسدكم ترنيق وُلاتكم ؛ ومن ٱسترخى لبه ، ساء أدبُه . إن الحزمَ والعزم سكنا فى وَسَطِى ، وأبدلانى به سيفى : فقائمُه فى يدى ، ونِجادُه فى عنق ، وذُبابُه قلادة لمن عصانى ! ؛ والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربتُ عنقه .

ولعمر بن عبد العزيز ، وسليمانَ بنِ عبد الملك من خلفاء بنى أميـة ؛ وأبى جعفر المنصور ، وهارونَ الرشيد ، وٱبنه المأمون من خلفاء بنى العباس وغيرهم ، من خلفـاء الدولتين وأمرائهـم خطبٌ فائقة ، وبلاغات معجبة رائقة ، يضيق هـذا الكتاب عن إيرادها ، وقد أوردنا من ذلك ما فيه كفاية للبيب ، ومقنع للأريب .

ومن خطب أبى بكر بن عبد الله أمير المدينة النبوية علىٰ ساكنها أفضـل الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، وقد بلغه عن قوم من أهل المدينة أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُسْعِفُهم آخرون على ذلك :

أيها النـاس! إنى قائل قولا فمن وعاه وأدّاه فعلى الله جزاؤه، ومَن لم يَعِه فلا يَعْدُ من ذِمَامها(١)؛ إن قصَّرتم عن تفصيله، فلن تعجِزُوا عن تحصيله. فأرْعُوه أبصاركم وأوْعُوه أسمـاعَكم وأشعروه قلوبكم؛ فالموعظَة حياةٌ؛ والمؤمنون إخوة؛ وعلَى الله قَصْـدُ السَّبِيل ولو شاءَ لَهَدا كُمْ أجْمَعِين. فأْتُوا الهـدى تهتدوا، وآجتنِبُوا الغَىّ ترشُـدوا. وأَنِيبُوا إلىٰ اللهِ جَمِيعًا أيُّها المُؤْمِنُونَ لَعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. والله جل جلاله. وتقدّست أسمـاؤه أمركم بالجماعة ورَضِيها لكم. ونهاكم عن الفُرْقة وسَخِطها منكم. فاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُون. وٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرّقُوا وٱذْكُرُوا نِعمةَ اللهِ عليكم إذ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّفَ بيْنَ قُلُوبِكُمْ فأَصْـبَحْتُمْ بِنِعْمتِهِ إخوانًا وكُنْتُم علىٰ شَـفَا حُفْرةٍ مِنَ النَّـارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها. جعلنا الله وإياكم ممن يتّبع رضوانَه ويجتنب سُخْطه فإنا نحن به وله. وإن الله بعث محمدا صـلى الله عليه وسـلم بالدِّين، وٱختاره على العالمين، وٱختار له أصحابا على الحق وُزَراء دون الخلق. إختصّهم به وٱنتخبهم له، فصدّقوه ونصروه وعَزَّروه ووقَّروه؛ فلم يُقْدِموا إلا بأمره، ولم يُحْجِموا إلا عن رأيه، وكانوا أعوانَه بعهده، وخلفاءه من بعـده. فوصـفهم فأحسن وصفهم وذكرهم فأثنىٰ عليهم فقال وقوله الحق ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ عَلىٰ الكُفَّارِ﴾ إلىٰ قوله ﴿مَغْفِرَةً وأجْرًا عَظِيمًا﴾ فمن غاظه كفر وخاب وفجر وخَسِر. وقال الله جل وعز ﴿للفُقَراءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْـلًا مِنَ اللهِ ورِضْوانًا﴾ إلىٰ قوله ﴿رَبَّنَا إنك رَءُوفٌ رَحِيم﴾ فمن خالف شريطة الله عليه لهم وأمْرَه إياه فيهم فلا حقَّ له فى الفىء، ولا سهم له فى الإسـلام فى آى كثيرة من القرءان، فمرق مارقةٌ من الدين. وفارَقُوا المسلمين وجعلوهم عِضِين. وحزبوا أحزابا، أُشَابات وأوْشابا. فخالفوا كتاب الله فيهم فخابوا وخسروا

(١) كذا فى الأصل ولكن باهمال الياء من يعد ولعل مراده فلا يخرج عن حرمتها أى المقالة.

الدنيا والآخرة . ذلِكَ هُوَ الخُسْرَانُ المُبِين . أفَمَنْ كانَ علىٰ بَيِّنةٍ من رَبِّه كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَله واتَّبَعُوا أهْواءَهُمْ . مالى أَرىٰ عُيونا خُزْرا، ورِقاباً صُعْرا، وبطُونا بُجْرىٰ(١)، شَجِى لا يُسِيغه الماء، وداءٌ لا يُشْرَب فيه الدواء . أفَنَضْرِب عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحا أنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِين . كَلَّا والله بل هو الهِناء والطِّلاء حتّى يظهر العُذر، ويَبُوح السرّ، ويَضِحَ العيب، ويَسُوسَ الجيب . فإنكم لم تُخلقوا عبثا ولم تتركوا سُدًى، ويْحَكُمْ إنِّى لستُ أتاوِيًّا(٢) أُعَلَّم، ولَا بَدَوِيًّا أُفَهَّم . قد حَلَبْتُكُم أشْطُرا، وقَلَّبتكم أبْطُنا وأَظْهُرا . فعرفت أنحاءكم وأهواءكم، وعلمت أن قوما أظهروا الإسلام بألسنتهم، وأسرّوا الكفر فى قلوبهم، فضربُوا بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض، وولّدوا الروايات فيهم، وضَرَبوا الأمثال، ووجدوا علىٰ ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعوانا يَأْذَنُون لهم، ويَصْغَوْن اليهم، مَهْلا مَهْلا ! قبل وُقُوع القوارع وطول الروائع . هذا لهذا ومع هذا، فلستُ أعتنش(٣) آئبا ولا تائبا، عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْه والله عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ . فأسِرّوا خيرا وأظهروه، وآجهَروا به وأخلِصوه . وطالما مَشَيْتُم القَهْقَرىٰ ناكصين . وليعلم من أدبر وأصرّ أنها موعظة بين يدىْ نِقْمة، ولست أدعوكم إلىٰ هوًى يُتَّبع، ولا إلىٰ رأى يبتدَع . إنما أدعوكم إلىٰ الطريقة المُثْلىٰ، التى فيها خير الآخرة والأُولىٰ، فمن أجاب فإلىٰ رُشْده، ومَنْ عَمِىَ فعن قصده . فهَلُمَّ إلىٰ الشرائع، الجدائع، ولا تُولُّوا عن سبيل المؤمنين، ولا تستبدلوا الذى هو أدْنَى بالذى هو خَيْرٌ ﴿بِئْس للظالمين بَدَلا﴾ . إياكم وبُنَيّاتِ الطريق، فعندها الترنيق والتَّرْهيق . وعليكم بالجادّة فهى أسدُّ وأورد، ودَعُوا الأمانِىَّ

(١) لعله بُجْرا جمع أبجر والبَجَر عظم البطن .

(٢) الأتاوىّ الغريب الذى ليس فى وطنه .

(٣) أى أظلم راجعا ولا تائبا مما حصل . ووقع فى الأصل أعيش وهو تصحيف لا معنى له هنا .

فقد أودتْ مَنْ كان قبلكم . وأنْ لَيْسَ لِلإنسان إلّا ماسَعىٰ . ولله الآخِرةُ والأُولى . ولا تَفْتَرُوا علىٰ الله الكَذِبَ فيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْترىٰ . ربَّنا لاتُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّاب .

ومن خطب خالد بن عبدالله أمير البصرة : أيُّها الناس ! نافِسُوا فى المَكارم وسارعوا إلىٰ المغانم . وٱشتَرُوا الحمدَ بالجُود، ولا تكسِبوا بالمَطْل ذَمًّا ، ولا تعتَدُّوا بالمعروف ما لم تُعَجِّلوه، ومهما يكُنْ لأحد منكم عند أحد نعمةٌ فلم يبلغ شكرها ، فالله أحسنُ لها جزاء ، وأجزلُ عليها عطاء . وٱعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمةٌ من الله عليكم ؛ فلا تملُّوا النِّعم فتُحوِّلوها نِقَما . وٱعلموا أنّ أفضل المال ما أكْسَبَ أجرا، وأوْرث ذِكْرا . ولو رأيتم المعروف رجلا ، رأيتموه حسنا جميلا يسُر الناظرين . ولو رأيتم البخل رجلا ، رأيتموه مشوّها قبيحًا تنفِر عنه القلوب ، وتُغْضِى عنه الأبصار. أيها الناس ! إن أجود الناس مَنْ أعطى مَنْ لا يرجوه ، وأعظمَ الناس عَفْوا مَنْ عفَا عن قُدرة ، وأوصلَ الناس مَنْ وصل مَنْ قطعه ؛ ومن لم يطِبْ حرثُه لم يَزْكُ نبته ؛ والأصول عن مَغَارسها تَنْمو ، و بأصولها تسمُو . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ومن خطب قَطَرىّ بن الفُجاءة خطبته المشهورة فى ذمّ الدنيا والتحذير عنها ، وهى :

أما بعد : فإنى أُحذِّركم الدنيا ، فإنها حُلْوة خَضِرة ، حُفَّتْ بالشهوَات ، وراقَتْ بالقليل . وتحببت بالعاجلة ، وحَلِيتْ بالآمال ، وتزينَتْ بالغُرور . لاتدوم نَضْرتها ، ولا تُؤْمَن فَجْعتها . غَرَّارة ، ضَرَّارة . وخاتلة ، زائلة . ونافدة ، بائدة . أكَّالة ، غَوّالة . لا تعْدُوا إذا تناهتْ إلىٰ أمنيَّة أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالىٰ ﴿ كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ

الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرا ﴾ مع أن آمرأً لم يكن منها فى حَبْرة، إلا أعقبَتْه بعدها عَبْرة، ولم يلق من سَرَّائها بطنا ، إلا منحته من ضَرَّائها ظَهْرا . ولم تَصله غيثة (١) رَخَاء ، إلا هطلَتْ عليــه مُزْنَةُ بلاء . وحَرِيَّة إذا أصبحتْ له منتصرة أن تُمسى له خاذلة متنكِّرة . وأىُّ جانبٍ منها آعذَوْذَب وآحلَوْلى ، أمَرَّ عليه منها جانب وأوبا (٢) . فإن آتت آمرأً من غصونها ورقًا أرهقته من نوائبها تَعَبا . ولم يُمْسِ منها آمرُؤ فى جناح أمْن إلا أصــبح منها على قوادم خوف ؛ غَرّارة غُرُور ما فيهــا ؛ فانية ، فانٍ مَنْ عليها ؛ لاخير فى شيء من زادها إلا التقوى . مَنْ أقلَّ منها آستكثر مما يؤمِّنه . ومن آستكثَرَ منها ، استكثر ممــا يُوبقه ويُطيل حُزْنه ، ويُبْكى عَيْنه . كم واثقٍ بها قد فَجَعتــه ، وذى حُكْم ثنته اليها قد صرعَتْه ، وذى آختيال فيهــا قد خدعَتْه . وكم ذى أُبَّهة فيها قد صيرَّته حقيرا ، وذى نَخْوة قد ردّتْه ذليلا . ومن ذى تاجٍ قد كَبَّته لليدين والفم . سلطانها دُوَل . وعَيْشها رَنَق ، وعَذْبها أُجَاج ، وحُلْوها صَبِر ، وغذاؤها سِمَام ، وأسبابها رِمَام . قِطَافُها سَلَع . حيُّها بعَرَض موت ، وصحيحُها بعَرَض سُقْم . منيعُها بعَرَض آهتضام . ومُلْكها مسلوب ، وعزيزها مَغْلوب . وسليمها منكوب ، وجارُها مَحْروب . مع أن وراء ذلك ســكَرَاتِ الموت ، وهولَ المُطَّلع ، والوقوف بين يدَيِ الحَكَم العَدْل ﴿ لِيَجْزِيَ الذين أَسَاءُوا بِمَــا عَمِلُوا ويَجْزِىَ الَّذينَ أحْسَنُوا بالحُسْنَى ﴾ . ألســتم فى مساكن مَنْ كان قبلكم أطولَ منكم أعمــارا ، وأوضحَ منكم آثارا ، وأعَدّ عَديدا ، وأكْثَفَ جُنودا ، وأشــدّ عُتُودا . تعبَّدُوا للدنيا أى تعبُّــد ، وآثرُوها أىَّ إيثار ، وظعَنُوا عنها بالكره والصَّغَار . فهل بلغكم أن الدنيا سمَحتْ لهم نفْسًا بفِدْية ، أو أغنَتْ عنها فيما قد أهلكتهم بخطب بل أرهقتْهم بالقوادح ، وضعضعَتْهم بالنوائب ،

(١) فى غير هذا الكتاب ولم تطله من الطل . و يظهر أن غيثة مصحفة عن غبية . والغبية الدفعة من المطر .

(٢) فى نسخة وأولى .

وعَقَرتهم بالفجائع . وقد رأيتم تنكُّرها لمن رادها وآثرها وأخلد إليها ، حين ظَعَنوا عنها لِفراقٍ إلى الأبد إلى آخر الأَمَد . هل زوّدتْهم إلا السَّغب ؟ ، وأحلّتهم إلا الضنك ، أو نوّرت لهم إلا الظُّلمة ، أو أعقبتْهم إلا النّدامة ؟ أفهذه تُؤثِرون ، أم على هذه تَحْرِصون أم إليها تطمَئِنُّون ؟ . يقول الله جل ذكره ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحياةَ الدُّنْيا وزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴾ بئست الدارُ لمن أقام فيها ! فاعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها الأبد ، فإنما هي كما وصفها الله تعالى باللعب واللهو ، وقد قال تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيةً تَعْبَثُونَ وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وإذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ .

إلى غير ذلك من خطب خلفاء الدولتين وأمرائهم مما يطول القول بإيراده ، ويخرج الكتاب بذكره عن حدّه .

المقصد الثانى

(فى كيفية تصرُّف الكاتب فى الخُطَب)

قد تقدّم فى أوّل المقصد الأوّل من هذا النوع قول أبى هلال العسكرى : إن الرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحَقُه وزن ولا تقفية والمشاكلةُ فى الفواصل وإن الخطب يُشَافَه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كُلْفة . وحينئذ فإذا أراد الكاتبُ نقل الخطبة إلى الرسالة أمكنه ذلك ، فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الخطب البليغة ، وعلم مقاصد الخَطَابة وموارد الفَصاحة ومواقع البلاغة ، وعرف مَصاقِع الخطباء ومشاهيرهم ، اتسع له المَجَال فى الكلام وسَهُلت عليه مستَوْعِرات النثر ، وذُلِّلت له صِعابُ المعانى ، وفاض على لسانه فى وقت الحاجة ما كَمَن من ذلك بين ضُلوعه فأودعه فى نثره ، وضمنه فى رسائله ،

فاستغنىٰ عن شَغْل الفكر فى ٱستنباط المعانى البديعة، ومشقَّة التعب فى تتبُّع الألفاظ الفصيحة، التى لاتنهَض فِكرته بمثلهـا ولو جَهَد ، ولا يسمَحُ خاطره بنظـيرها ولو دَأَب . إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ، ونوع من أنواعها، يحتاج الكُتَّاب إليها فى صـدور بعض المكاتبات ، وفى البَيْعات والعهود والتقاليـد والتفاويض وكبار التواقيع والمراسيم ، والمناشير، على ماسـيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعـالى ؛ وما لعله يُنْشئه من خُطبة صداق أو رسالة أو نحو ذلك . وكذلك يعرِف مَصَاقع الخطباء، ومشاهير الفصحاء ، والبلغاء ، كقُسّ بن ساعدة الإيادىّ الذى تقدّمت خطبته آنفا فى صدر الخطب . وسَحْبانَ الوائلىّ : وهو رجل من بنى وائل، لَسِنٌ بليغ يُضَرب به المثل فى البيان، وغيرهما ممن يُضْرَب به المَثل فى الفصاحة والبلاغة؛ ومن يُنْسَب إلىٰ العىّ والغَبَاوة كباقل : وهو رجل من العرب ٱشترىٰ ظبيا بأحد عَشَر درهما فقيل له بكم ٱشتريته ففتح كفيه وفرّق أصابعه العشرة وأخرج لسانه؛ يشير بذلك إلىٰ أحد عشر ولم يحسن التعبير عنهـا ، فانفلت الظبى فضُرِب به المثـل فى العِىّ . فإذا عرف البليغَ وغيرَ البليغ ، وعالِىَ الرتبـة وسافِلَها، عرَّض حينئذ بذكر من أراد منهم مقايسا للفاضل بمثله، وللغبىّ بنظيره : كما قال القـاضى الفاضل فى بعض رسائله، فى جواب كتاب ورد عليه من بعض إخوانه :

فأما شوقُه لعبده فالمولىٰ قد (١) أبقاه الله قد أُوتى فصاحة لسان . وسَحَب ذيل العىّ علىٰ سَحْبان .

وكما قال الشيخ ضياء الدين أحمد القرطبى من رسالة كتب بهـا للشيخ تقىّ الدين ٱبن دقيق العيد ، يصف رسالة وردت منه عليـه : إنَّ كلمها يَميس فى صُـدُورها وأعجازها ، وتنثال عليها أعراض المعانى بين إسهابها وإيجازها؛ فهى فرائد ٱئتلفَتْ فى أبكار الوائلىّ والإيادىّ .

---

(١) لعل كلمة قد هنا زائدة .

النــــوع التـاسع

(ممـا يحتاج إليه الكاتب من[1] حفْظ جانب جيد من مكاتَبَات الصدر الأوّل، ومحاوراتهم، ومراجعاتهم، وما آدّعاه كل منهم لنفسه أو لقومه، والنظر فى رسائل المتقدّمين : من بلغاء الكتّاب؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصــــد الأوّل

(فى وجه آحتياج الكاتب إلىٰ معرفة ذلك)

أما حفظ مكاتبات الصدر الأوّل ورسائلهم فلأنها مع [2] مبتدع البلاغة وكنز الفصاحة غير ملابسة لطريقة الكُتَّاب فى أكثر الأمور؛ فيستعان بحفظها علىٰ مواقع البلاغة ولا يطمع الخاطر بالآتكال علىٰ إيراد فصل منها برمّته لمخالفته لأسلوب الكتّاب فى أكثر الأمور .

وأما النظر فى رسائل البلغاء من فضلاء الكتّاب، فلما فى ذلك من تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر، وتسهيل الطُّرق، والنسج علىٰ مِنْوال المُجيــد، والآقتداء بطريقة المُحْسن، وآستدراك مافات، والآحتراز ممـا أظهره النقد، وردّ مابَهْرَجَه السبـك . وآقتُصِر علىٰ النظر فيها دون حفظها لئلا يتكل الخاطر علىٰ ما يأتى به بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يُعطَ فيكون كلابس ثَوْبَىْ زُور . اللهم إلا أن يريد بحفظها المحاضَرَة دون الإنشاء فإن اللائق به الحفظُ دون غيره .

---

(١) كذا بالأصل بزيادة من وفى الضوء إسقاطها وهو الصواب .

(٢) بياض بالأصل .

المقصـــد الثـانى

(فى ذكر شيء من مكاتبات الصدر الأوّل يكون مَدْخَلا إلىٰ معرفة مايُحتاج إلىٰ حفظه من ذلك)

أما مكاتباتهم المشتملةُ علىٰ المحـاورة والمراجعة، فمنهـا ما كتب به معاوية بن أبي سُفْيان رضى الله عنه إلىٰ أمير المؤمنين على بنِ أبى طالب رضى الله عنه فى زمن المشاجرة بينهما، وهى :(١)

أما بعد، فإن الله آصطفىٰ محمدا، وجعله الأمينَ علىٰ وحيه، والرسولَ إلىٰ خلقه؛ وآختار له من المسلمين أعوانا أيَّده بهم، وكانوا فى مَنازلهم عِنْـده علىٰ قدر فضائلهم فى الإسلام؛ فكان أفضلُهم فى الإســلام، وأنصحُهم لله ولرسوله الخليفةَ، وخليفةَ الخليفة، والخليفةَ الثالثَ؛ فكلَّهم حسَدْتَ، وعلىٰ كلهم بغَيْتَ . عرفْنا ذلك فى نظرك الشَّزْر، وتنفُّسك الصُّعَداء، وإبطائك علىٰ الخلفاء، وأنت فى كل ذلك تُقاد كما يُقاد البعير المَخْشُوش(٢) حتّٰى تُبايع وأنت كاره، ولم تكن لأحد منهم أشدّ حَسَدا منك لابن عمّك عثمان، وكان أحقَّهم أن لاتفعلَ ذلك به، فى قرابته وصِهْره؛ فقطعْتَ رحمه، وقبَّحتَ محاسِــنه، وألَّبْت عليــه الناسَ حتّٰى ضُربت إليه آباطُ الإبل، وشُهر عليه السلاح فى حرم الرسول، فقُتل معك فى المَحَلَّة وأنت تسمع فى داره الهائعة(٣)؛ لاتؤدّى عن نفسك فى أمره بقول ولا فعلٍ برّ؛ أُقسم قسما صادقا ! لو قمتَ فى أمره مَقاما واحدا تنهنهَ الناسَ عنه، ماعُدل بك ممّنْ قبلنا من النـاس أحد، ولَمَحَا ذلك عنــك ما كانوا يعْرِفُونك به : من المجانبــة لعثمان والبغْى عليه . وأخرى أنت بها عند أولياء

---

(١) كتاب معاوية بيّض له فى الأصل فنقلناه من العقد الفريد لابن عبد ربه جزء ٢ صحيفة ٢٨٥

(٢) أى المجعول فيه الخِشاش . وهو عود يجعل فى عظم أنف البعير . مصباح .

(٣) الهائعة الصوت المفزع .

ابن عَفَّان ضنين ، إيواؤكَ قتلة عثمان ، فهم بِطانتك ، وعَضُدك وأنصارك . فقد بلغنى أنك تنتفِى من دمه فإن كنت صادقا فآدفع إلينا قتلته نقتُلْهم به . ثم نحن أسرعُ الناس إليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ! والذى نفس معاوية بيده لأطلُبَنّ قتلة عثمان فى الجبال ، والرمال ، والبر ، والبحر ؛ حتّى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله ! .

فكتب إليه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى جواب ذلك :

أما بعد فقد أتانى كتابك ! تذكر فيه آصطفاء الله تعالىٰ محمدا صلى الله عليه وسلم لدينه وتأييدَه إياه بمَنْ أيده به من أصحابه ، فلقد خَبأ لنا الدهرُ منك عَجَبا ! أفطفِقْت تخبرنا بآلاء الله عندنا ، فكنت كناقل التمر إلىٰ هَجَر أو داعى مِدْرِه إلىٰ النِّضال ؛ وزعمتَ أن أفضل الناس فى الإسلام فلانٌ وفلان فذكرتَ أمرا إن تم آعتزلك كلُّه ، وإن نقص لم يلحقْك قُلُّه ؛ وما أنت والفاضل والمفضول والسائل والمسئول ! . وما للطُّلَقاء وأبناء الطلقاء والتمييزَ بين المهاجرين الأولين ، وترتيبَ درجاتهم ، وتعريفَ طبقاتهم ؛ هيهات لقد حَنّ قِدْح ليس منها ، وطفِقَ يحكم فيها من عليه الحُكْمُ لها ، ألا تَرْبَعُ علىٰ ظَلْعك ، وتعرِفُ قُصورَ ذَرْعك ، وتتأخَّر حيث أخَّرك القَدَر ، فما عليك غَلَبة المغلوب . ولا لك ظَفَرُ الظافر . وإنك لذَهّاب فى التِّيه ، روّاغ عن القصد . ألا ترىٰ غير مُخْبِر لك ولكن بنعمة الله أُحدِّث ، أنّ قوما آستُشْهدوا فى سبيل الله ولكل فَضْل حتّى إذا آستُشْهد شهيدُنا قيل سيد الشهداء ، وخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ، أولا ترى أن قوما قطعت أيديهم فى سبيل الله ولكلٍّ فضلٌ حتّى إذا فُعِل بواحدٍ منا ما فُعِل بواحد منهم قيل الطَّيّار فى الجنة وذو الجَناحَيْن ، ولولا ما نُهِى عن تزكية المرء نفسَه لذكر ذاكرٌ فضائلَ جمّةً ،

(١) المدره المقدّم فى القتال وزعيم القوم وخطيبهم .

تعرفها قلوبُ المؤمنين ، ولا تمجّها آذان السامعين . فدع عنك من مالت به الرمية فإنا صنائع ربنا، والناس بعدُ صنائع لنا، لم يمنعنا قديمُ عزنا، ومديد طَوْلنا علىٰ قومك أن خلطناهم بأنفسنا : فنكَحْنا وأنكحْنا ، فِعلَ الأكفاء ولستم هناك ، وأنّى يكون ذلك كذلك ! ومنا النبيّ ومنكم المكذب، ومنا أسدُ الله ومنكم أسدُ الأحلاف، ومنا سيدا شبابِ أهل الجنة ، ومنكم صِبْية النار، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حَمَّالة الحطب، فإسلامنا قد سمع وجاهليّتنا لا تدْفع ، كتابُ الله يجمع لنا ما شذَّ عنا وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وأُولُوا الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلىٰ ببَعْضٍ فِي كِتَابِ الله ﴾ وقوله تعالىٰ ﴿ إنَّ أوْلىٰ النَّاسِ بِإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوه وهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وليُّ المُؤْمِنِين ﴾ فنحن مرّة أولىٰ بالقرابة وتارة أولىٰ بالطاعة . ولما احتج المهاجرون علىٰ الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فَلَجُوا عليهم ، فإن يكن الفَلَج به فالحقُّ لنا دُونكم، وإن يكُنْ بغيره فالأنصار علىٰ دعواهم . وزعمتَ أنّى لكل الخلفاء حَسَدت، وعلىٰ كلهم بغَيْتُ، فإن يك ذلك كذلك فليست الجناية عليك ، فتكونَ المعذِرةُ إليك * وتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عنك عارها *

وقلتَ إنى كنتُ أُقاد كما يُقاد الجمل المَخْشُوش حتّى أبايع . ولعَمْر الله ! لقد أردتَ أن تذم فَحمدتَ ، وأن تفضح فافتضحْت ، وما علىٰ المسلم من غَضَاضة فى أن يكون مظلوما مالم يكن شاكًّا فى دينه، ولا مُرتابا فى يقينه . وهذه حجّتى إلىٰ غيرك قصدها، ولكنى أطلقتُ لك منها بقدر ما سنح لك من ذكرها .

ثم ذكرتَ ما كان من أمرى وأمر عثمان، فأيُّنا كان أعدىٰ له وأهدىٰ إلىٰ مَقَاتله : أمَنْ بذل له نُصرته فاستقعده واستكَفَّه أم مَنِ استنصره فتراخى عنه وبثَّ المنونَ إليه، حتى أتىٰ قدره عليه . كلا والله! لقد علم الله المُعوِّقينَ مِنْكُمْ والقَائلِينَ لإخْوانِهِم هَلُمَّ إلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ البَأْسَ إلا قليلا . وما كنت أعتذر من أنّى كنت أنقم عليه

أحداثا فإن يكن الذنبُ إليه إرشادى وهدايتى له "فربُّ ملُوم لاذنْبَ له . وقد يَسْتَفيدُ الظِّنَّةَ المُتَنَصِّحُ" وما أردتُ إلا الإصْلاحَ ما ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقى إلا بالله عليه تَوَكَّلْتُ و إليهِ أُنِيبُ .

وذكرت أنه ليس لى ولأصحابى إلا السيف فلقد أضحكتَ بعد ٱستعبار ! متىٰ ألفيْتَ بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين؟ أو بالسيوف مخوَّفين .

(ف)لَبِّث قليلًا يَلْحقِ الهَيْجا حَمَل * سيطْلُبك مَنْ تطْلُب، و يقرُب منك ما تستبعد، وأنا مُرْقِل نحوَك فى جَحْفَل من المهاجرين، والأنصار والتابعين لهم بإحسان، شديدٍ زحامهم، ساطع قَتامهم، مُسَرْبَلين سرابيلَ الموت . أحبُّ اللقاء إليهم لقاءُ ربهم . قد صحبتهم ذُرِّية بدرِيَّة وسُيوف هاشميَّة قد علِمْتَ مواقِعَ نِصالِها فى أخيك وخالك، وجدّك، وأهلك ﴿ وَمَا هِىَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

وكما كتب "أبو جعفر المنصور" ثانى خلفاء بنى العباس ، وهو يومئذ خليفة، إلىٰ محمد بن عبد الله بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط ، حين بُويع له بالخلافة وخرج علىٰ المنصور يريد ٱنتزاعها منه . من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلىٰ محمدبن عبد الله . أما بعد : فـ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . ولك ذمةُ الله وعهدُه وميثاقه وحقُّ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تُبْتَ من قبل أن يُقدَر عليك أن أؤمِّنك علىٰ نفسك وولدك و إخوتك ومَن بايعك وجميع شيعتك ، وأن أُعطيكَ ألفَ ألفِ درهم، وأُنزِلَك من البلاد حيث شئتَ ، وأقضى لك ماشئت من الحاجات، وأن أُطلق مَنْ فى سِجْنى من أهل بيتك وشِيعتك وأنصارك، ثم لا أُتْبِع أحدا منكم بمكروه

وإن شئت أن تتوثّق لنفسك فوجّه إليّ مَنْ يأخذ لك من الميثاق والعهد والأيمان ما أحببت . والسلام .

فأجابه محمد بن عبد الله بما نصه :

من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد . أما بعد : ﴿طسم، تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبِينِ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وفِرْعَوْنَ بالحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إنَّه كانَ مِنَ المُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ونَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ ونُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتَنى ، فقد تعلم أنَّ الحقَّ حقُّنا ، وأنكم إنما أُعطيتُموه بنا ، ونَهضتم فيه بسَعْينا وحُطْتُموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام ، كان الوصيَّ والإمام ، فكيف وَرِثتموه دوننا ، ونحن أحياء ! وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمُتُّ بمثل فَضْلنا ولا يَفْخَر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ، وإنا بنُو أمّ أبى رسول الله : فاطمةَ بنتِ عمرو فى الجاهلية دُونكم ، وبنو ابنته فاطمة فى الإسلام من بينكم ، فأنا أوسطُ بنى هاشم نسبًا ، وخيرهم أما وأبا ، لم تلدنى العجَم ، ولم تُعْرِق فىّ أمَّهات الأولاد .

وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا فولَدنى من النبيين أفضلُهم : محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أصحابه أقدمُهم إسلاما ، وأوسعُهم علما ، وأكثرهم جهادا : علىّ بن أبى طالب ، ومن نسائه أفضلُهن : خديجةُ بنت خويلد أوّل مَنْ آمن بالله وصلّى إلى القبلة ، ومن بناته أفضلُهن ، وسيدةُ نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسنُ والحسينُ سيدا شباب أهل الجنة . ثم قد علمت أن هاشما ولَدَ عليا مرتين ، وأنّ عبد المطلب ولد الحسن والحسين مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولَدَنى مرّتين من قِبَل جدَّىَّ الحسن والحسين، فما زال الإلهُ يختارُ لى حتّٰى آختار لى فى النار فولَدَنى أرفعُ الناس درجةً فى الجنة، وأهونُ أهل النار عذابًا يوم القيامة؛ فأنا آبنُ خيرالأخيار، وآبن خير الأشرار، وآبن خيرأهل الجنة، وآبن خيرأهل النار. ولك عهدُ الله إن دخلتَ فى بَيْعتى أن أؤمنكَ علىٰ نفسـك و ولدِك وكلّ ما أصبته إلا حدّا من حدود الله تعالىٰ، أو حقا لمسلم أو معاهَد . فقد علمت مايلزمك فى ذلك فأنا أوفىٰ بالعهد منك ، وأنت أحرىٰ بقبول الأمانــ منى . فأما أمانك الذى عرضت علىّ فأىُّ الأمانات هو؟ أأمان آبن هبيرة، أم أمانُ عمك عبدِالله بن علىٍّ، أم أمان مسلم والسلام .

فأجابه المنصور : من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله، أما بعد فقد أتانى كتابُك ، وبلغنى كلامُك، فإذا جُلُّ فخـرك بالنساء، لتِضـلَّ به الجُفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة، ولا الآباء كالعصبة والأولياء . وقدجعل الله تعالىٰ العمَّ أبا، وبدأ به علىٰ الوالد الأدنىٰ . فقال جل ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إِبْرَاهِيمَ وإِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ﴾ .

ولقد علمتَ أن الله تبارك وتعالىٰ بعث محمدا صلى الله عليه وسلم، وعمومتُه أربعة فأجاب آثنان أحدهما أبى، وكفر آثنان أحدهما أبوك .

وأما ماذكرتَ من النســاء وقراباتهن ، فلو أُعْطِين علىٰ قــدر الأنساب ، وحقّ الأحساب ، لكانـــ الخيركلُّه لآمنة بنتِ وهب، ولكن الله يختار لدينه مَنْ يشاء من خلقه .

وأما ماذكرت من فاطمةَ بنتِ أسدٍ أمّ علىّ بن أبى طالب، وفاطمة بنت الحسين وأن هاشمـا وَلَدَ عليا مرّتين ، وأن عبد المطّلب ولَدَ الحسـنَ مرّتين ، فخير الأوّلين

والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يَلِده هاشم إلا مرّة واحدة ، ولم يلده عبد المطلب إلا مرّة واحدة .

وأما ما ذكرت من أنك ٱبنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل قد أبىٰ ذلك فقال ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ولكنكم قرابة ٱبنته ، وإنها قرابة ذرّيته ، غير أنها ٱمرأة لاتحوز الميراث ، ولا يجوز أن تَؤُمَّ فكيف تُورَث الإمامة من قبلها ! ولقد ظلمها أبوك من كل وجه فأخرجها تُخاصِم ، ومَرَّضها سرّا ، ودفنها ليلا ، فأبىٰ الناس إلا تقديم الشيخين . ولقد حضر أبوك وفاةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيرَه . ثم أخذ الناسُ رجالا فلم يأخذوا أباك فيهم . ثم كان فى أصحاب الشُّورىٰ فكلٌّ دفعه عنها ، وبايع عبدُالرحمن عثمانَ وقبلها عثمانُ وحارب أباك طلحةُ والزبيرُ ، ودعا سعدا إلىٰ بيْعته فأغلق بابَه دُونه . ثم بايع معاويةَ بعده ، وأفضىٰ أمر جدّك إلىٰ أبيك الحسن فسلمه إلىٰ معاوية بخِرَق ودراهم وخرج إلىٰ المدينة ، فدفع الأمر إلىٰ غير أهله ، وأخذ مالا من غير حله . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه .

وأما قولك إن الله ٱختار لك فى الكُفْر فجُعِل أبُوك أهونَ أهل النار عذابا فليس فى الشر خيار ، ولا من عذاب الله هَيِّن ؛ ولا ينبغى لمسلِم يؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يفتخِر بالنار . ستَرِد فتعلم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

وأما قولك إنه لم تَلِدْك العجم ، ولم تُعْـرِقْ فيك أُمَّهاتُ الأولاد ، وإنك أوسطُ بنى هاشم نسبا ، وخيرُهم أمَّا وأبا ، فقد رأيتك فخَرت علىٰ بنى هاشم طُرًّا ، وقدّمتَ نفسك علىٰ من هو خير منك أوّلا وآخرا ، وأصلا وفصلا . فخَرت علىٰ إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىٰ والدِ ولده ؛ فانظر ويحك أين تكون من الله تعالى غدا وما وُلد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من علىّ

آبن الحسين وهو لأمّ ولد، ولقد كان خيرا من جدّك حسن بن حسن. ثم آبنه محمد بن عليّ خيرٌ من أبيك وجدّته أمّ ولد . ثم آبنُه جعفر وهو خير منك ولدته أمّ ولد . ولقد علمت أن جدّك عليا حَكَّم حكمَيْن وأعطاهما عَهْده وميثاقه علىٰ الرضا بما حكما به فآجتمعا علىٰ خَلْعه ، ثم خرج عمُّك الحسينُ علىٰ آبن مرجانة وكان الناس معه عليه حتّى قتلوه، ثم أتَوْا بكم علىٰ الأقتاب من غير أوطية كالسَّبْي المجلوب إلىٰ الشأم. ثم خرج منكم غيرُ واحد فقتلكم بنو أمية وحَرَّقوكم بالنار وصلَّبوكُمْ علىٰ جذوع النخل حتّى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تُدْرِكوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثناكم أرضَهم وديارهم بعد أن كانوا يلعَنُونَ أباك فى أدبار الصلاة المكتوبة كما تُلعنُ الكَفَرة فمنعناهم وكفَّرناهم، وبينا فضله وأشَدْنا بذِكره، فآتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا بما ذكرنا من فضل عليّ قدّمناه علىٰ حمزةَ والعباس وجعفر ، كل أولئك مضوا سالمين سلما منهم وآبتُلِي أبوك بالدماء . ولقد علمت أن مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم ، وولاية زمزم ، وكانت للعباس دُونَ إخوته فنازع فيها أبوك إلىٰ عمر فقضىٰ لنا عمر بها . وتُوفِّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحدٌ حيًّا إلا العباس فكان وارثَه دُونَ بنى عبد المطلب ، فطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم فلم ينَلْها إلا ولده . فآجتمع للعباس أنه أبو رسولِ الله صلى الله عليه وسلم خاتمِ الأنبياء، وبَنُوه القادةُ الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث، ولولا العباس أُخْرِج إلىٰ بدر كُرْها لمات عَمَّاك طالب وعقيل جُوعا أو يتجشَّمان جِفَان عُتْبة وشيبة، فأذهب عنهما العار والشَّنَار . ولقد جاء الإسلام والعباس يَمُون أبا طالب للأزْمة التى أصابَتْهم . ثم فدىٰ عَقِيلا يوم بدر فقد مُنَّاكم فى الكفر، وفديناكم من الأسر، وورثنا دونكم خاتمَ الأنبياء ، وحزنا شرف الآباء ، وأدركنا بثأركم إذ عجزتم عنه ووضعناكم حيث لم تضَعُوا أنفسكم والسلام .

ومن مكاتبات ملوك الفرس البلغاء ما كتب به أرسطوطاليس إلى الإسكندر : إنه إنما تملك الرعيّة بالإحسان إليها، وتظْفَر بالمحبة منها؛ فإنَّ طلبك ذلك بإحسانك، هو أدومُ بقاءً منه باعتسافك بعنفك. وآعلم أنه إنما تُمْلَك الأبدان، فآجمع إليها القلوب بالمحبة. وآعلم أن الرعية إذا قدرَتْ على أن تقول قدرت أن تفعل؛ فآجتهد أن لا تقول تَسلَمْ من أن تفعل .

ومما كتب به أبرويز إلى آبنه شيرويه يوصيه بالرعية كتابا فيه : ليكن مَنْ تختاره لولايتك رجلا كان فى وَضِيعة فرفَعْته، وذا شَرَف كان مهمَلا فآصطنعته . ولا تجعله امرأ أصبته بعقوبة فاتَّضع لها ، ولا أحدا ممن يقَع بقلبك أن إزالةَ سلطانك أحبُّ إليه من ثبوته؛ وإياك أن تستعمله ضريعا، غَمْرا، كثيرا إعجابُه بنفسه، قليلا تجربتُه فى غيره، ولا كبيرا مُدْبِرا، قد أخذ الدهر من عَقْله، كما أخذت السِّنُّ من جِسمه .

ومما كتب به أبرويز إلى آبنه شيرويه أيضا : إن كلمةً منك تَسْفِك دما، وأُخرى تحقِن دما، وإن سَخَطك سيفٌ مسلول على من سَخِطت عليه، وإنّ رضاك بَرَكة مفيدة على من رضيت عنه، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فآحترس فى غضبك من قولك أن يُخطِئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخفّ؛ فإن الملوك تعاقب جُرْما، وتعفو حِلْما .

ومما كتب به أردشير إلى رعيته : من أردشير المؤيد، ملك الملوك، وارث العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين ، والأساورة الذين هم حَفَظة البيضة ، والكُتَّاب الذين هم زَيْن المملكة، وذوى الحروب الذين هم عمدة البلد . السلام عليكم، فإنا نحمد إليكم الله سالمين، وقد وضعْنا عن رعيتنا بفضل رأفتِنا بها إتاوتَها الموظَّفة عليها، ونحن مع ذلك كاتبون بوصية : لا تستشعروا الحقد فيَدْهَمَكم العدوّ، ولا تحتكروا فيشمَلَكم

القحط ، وتزوّجوا القرائب فإنه أمس للرحم ، وأثبت فى النسب ، ولا تَعْدُوا هذه الدنيا شيئا ، ولا ترفُضوها ، فإن الآخرة لا تدرك إلا بها .

وأما رسائلهم ومخاطباتهم . فن ذلك رسالة الصدّيق رضى الله عنه إلىٰ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه حين تلكَّأ عن مبايعته ، علىٰ لسان أبى عبيدة بن الجرّاح رضى الله عنه ، مع ما آنضم إلىٰ ذلك من كلام أمير المؤمنين عمَر بن الخطاب رضى الله عنه وما كان من جواب علىّ عنها .

قال أبو حَيَّانَ علىُّ بن محمد التوحيدى البغدادى : سَمَرنا ليلةً عند القاضى أبى حامد أحمد بن بشر المَرْوَرُّوذىّ ببغداد ، فتصرف فى الحديث كل متَصَرَّف ؛ وكان غزير الرواية ، لطيف الدراية ، بجرىٰ حديثُ السقيفة ، فركب كلَّ مَرْكَبا ، وقال قولا ، وعرّض بشىء ، ونزع إلىٰ فنّ . فقال : هل فيكم مَن يحفَظ رسالةً لأبى بكر الصديق ، رضى الله عنه إلىٰ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجوابَ علىّ عنها ، ومبايعتَه إياه عقيب تلك المناظرة . فقال الجماعة : لا والله ، فقال : هى والله من بنات الحقائق ، ومخبآت الصنادق ؛ ومنذ حفِظتها ماروَيتها إلا لأبى محمد المهلَّبىّ فى وزارته ، فكتبها عنى بيده ، وقال : لاأعرِف رسالة أعقلَ منها ولا أبيَنَ ؛ وإنها لتدلُّ علىٰ علم وحلم ، وفصاحة ونباهة ، وبُعْد غور ، وشدّة غوص — فقال له العبَّادانىّ : أيها القاضى فلو أتممت المِنَّة علينا بروايتها ، أسمِعْناها ، فنحن أوعىٰ لك من المهلبىّ ، وأوجب ذِماما عليك ، فآندفع وقال :

" حدّثنا الخزاعى بمكة ، عن أبى مَيْسَرة ، قال حدّثنا محمد بن أبى فُلَيح عن عيسىٰ بن دوأب بن المتّاح ، قال : سمعت مولاى أبا عُبَيدة يقول : لما آستقامت الخلافةُ لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنةٍ كاد الشيطانُ بها ، فدفع الله شرها ويسّر خيرها ، بلغ أبا بكر عن علىّ تلكُّؤ وشِمَاس ، وتهمُّم ونِفَاس ،

فكره أن يتمـادىٰ الحالُ فتبدُوَ العورة، وتشتعلَ الجمرة، وتتفرّق ذاتُ البَيْن؛ فدعانى بحضرته فى خلوة، وكان عنده عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنـه وحده فقـال : يأبا عبيـدة ما أَيْمَنَ ناصِيَتَك، وأبْيَنَ الخـيْرَ بين عينيك؛ وطالما أعزَّ الله بك الإسلام وأصلح شأْنَه علىٰ يديك، ولقـد كنت من رسول الله صـلى الله عليه وسلم بالمَكان المَحُوط، والمحل المَغْبوط؛ ولقد قال فيك فى يوم مشهود "لِكُلِّ أمّةٍ أمِينٌ وأمِينُ هذه الأمّة أبُو عُبَيْـدَةَ" ولم تزل للدِّين ملتجا، وللمؤمنين مُرْتَجا؛ ولأهلك ركنا، ولإخوانك ردءًا . قد أردتك لأمرٍ خَطِرٍ مَخُوف، و إصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم ينـدمل جُرْحه بيسارك و رِفْقـك، ولم تُجِب حيته برقيتك، وقع اليأس، وأعضل البأس، واحتيج بعد ذلك إلىٰ ماهو أمرُّ منه وأعلَق، وأعسرُ منه وأغْلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه علىٰ يديك. فتأتَّ(١) له أبا عبيدة وتلطفْ فيه، وانصح لله عز وجل ولرسوله صـلى الله عليه وسلم، ولهذه العصابة غيرَ آلٍ جَهْـدا، ولا قالٍ حمدا، والله كالئك وناصرك، وهاديك ومبَصِّرك، إنْ شاء الله . امض إلىٰ علىّ واخفِضْ له جناحَك، واغضُضْ عنده صوتَك، واعلم أنه سُلَالة أبى طالب، ومكانُه ممن فقَدْناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانُه، وقل له البحرُ مَغْرقة، والبر مفرقة، والجو أكْلَف، والليلُ أغْدَف، والسماء جَلْواء، والأرض صَلْعاء، والصُّعود متعذِّر، والهُبُوط متعسِّر، والحق عَطُوف رءُوف، والباطل عَنُوف عَسُوف، والعُجْب قَدَّاحة الشر، والضِّغن رائد البَوار، والتعريض شِجار الفتْنة، والقِحَة ثَقُوب العَداوة، وهذا الشيطان متّكئ علىٰ شِمـاله، متحَيِّل بيمينه، نافخٌ خُصْيَيه لأهله، ينتظر الشَّـتات والفُرقة، و يدبُّ بين الأمّة بالشـحناء والعداوة، عنادًا لله عز وجل أوّلا، ولآدم ثانيًا، ولنَبِيِّه صلى الله عليه وسلم ودِينِه ثالثا، يُوَسْوِس بالفُجور، ويُدْلِى بالغُرور، ويمنِّى أهلَ الشُّرور. يُوحى إلىٰ أوليائه زُخْرُفَ القول غرورا بالباطل، دأبا له منذ

(١) تأتّى فلان للامر تهيأ له وأتاه من وجهه .

كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وعادةٌ له منذ أهانه الله تعالى فى سالف الدهر لامَنْجَى منه إلا بعَضّ الناجذ على الحق، وغَضّ الطرف عن الباطل، ووطْء هامة عدو الله بالأشدّ فالأشد، والآكد فالآكد، وإسلام النفس لله عز وجل فى ابتغاء رضاه. ولا بُدَّ الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السُّكوت وخِيف غِبُّه؛ ولقد أرشدك من أفاء ضالَّتك، وصافاك مَنْ أحيا مودّته بعتابك، وأراد لك الخير مَنْ آثر البقاءَ معك؛ ما هذا الذى تُسوِّل لك نفسُك، ويدوى به قلبُك، ويلتوِى عليه رأيك، ويتخاوَصُ دونه طَرْفُك، ويسرِى فيه ظَعْنك، ويترادّ معه نَفَسُك، وتكثُر عنده صُعَداؤك، ولا يَفيضُ به لسانك. أعُجمةٌ بعد إفصاح؟ أتلبيس بعد إيضاح؟ أدينٌ غير دين الله؟ أخُلُق غير خُلُق القرءان؟ أهدْى غير هدْىِ النبى صلى الله عليه وسلم، أمثلى "تمشِى له الضَّرَاءَ وتدِبُّ له الخَمَر؟"[1]، أم مثلك ينْقَبِض عليه الفضاء، ويُكْسَف فى عينه القَمر؛ ماهذه القَعْقعة بالشِّنان؟ وما هذه الوعوعة باللسان؟ إنك والله جِدُّ عارفٍ باستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا، هجرةً إلى الله عز وجل، ونصرةً لدينه فى زمان أنت فيه فى كِنِّ الصبا، وخِدْر الغَرارة، وعُنْفُوان الشَّبيبة، غافلٌ عما يُشِيب ويُريب، لاتعِى مايُراد ويُشَاد، ولا تحصِّل مايُساق ويُقاد، سوى ماأنت جارٍ عليه إلى غايَتِك التى إليها عُدِل بك، وعندها حُطَّ رحلك، غير مجهول القدر ولا مجحود الفضل؛ ونحن فى أثناء ذلك نُعانِى أحوالا تُزِيل الرَّواسى، ونُقاسِى أهوالا تُشيب النواصى، خائضِينَ غِمارها، راكبين تيَّارها، نتجرّع صابَها، ونَشْرَج عِيابها، ونُحكم آساسها، ونُبْرِم أمْراسَها، والعيون تحدِّج بالحسد، والأنوف تَعَطَّس بالكِبْر، والصُّدور تستعِر بالغَيظ، والأعناق تتطاوَلُ بالفخر، والشِّفار تُشْحَذ بالمكر، والأرض تميد

(١) مثل يضرب لمن يختل صاحبه.

بالخوف ، لا ننتظر عند المَساء صَباحا ، ولا عنـد الصَّباح مَساء ، ولا نَدْفَع فى نحرِ آمرئ إلا بعد أن نحسُوَ الموتَ دُونه ، ولا نبلغُ مرادا إلا بعـد الإِيَاس من الحياة عنده؛ فادِينَ فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأبِ والأُم ، والخـال والعم ، والمـال والنَّشَب ، والسَّـبَد واللَّبـد ، والهَلَّة والبِلَّة ، بطِيب أنفُس ، وقُرّة أعيُن ، ورَحْبِ أعطان ، وثَبات عزائم ، وصِحَّة عقول ، وطَلَاقة أوجه ، وذَلاقة ألْسُن ؛ هذا مع خَفِيَّات أسرار ، ومكنُونات أخبار ، كنتَ عنها غافلا ، ولولا سِنُّك لم تكن عن شىء منهـا ناكلا ، كيف وفُؤادك مشْهُوم(١)؟ ، وعُودُك معْجُوم . والآنَ قد بلغ اللهُ بك وأنهض الخيْرَ لك ، وجعـل مُرادَك بين يديك ، وعن علم أقول ماتسمع ؛ فآرتقبْ زمانَك ، وقلِّصْ أردانَك ، ودع التقَعُّس والتجَسُّس لمن لا يَظْلع لك إذا خَطا ، ولا يتزحْزَح عنك إذا عَطـا ؛ فالأمرُ غض ، والنفوس فيهـا مَضّ ، وإنك أديمُ هذه الأمّة فلا تَحْلَمْ لِجَاجا ، وسيفُها العَضْب ، فلا تنبُ آعوِجاجا ، وماؤها العذب ، فلا تَحُلْ أُجاجا . والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر ، فقال لى يا أبا بكر هو لمن يرغَبُ عنه لا لمن يُجاحِش عليه ، ولمن يتَضاءَلُ عنه لا لمن يتَنفَّج إليه ؛ هو لمن يُقال هو لك لا لمن يقُول هو لى .

ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى الصِّهر ، فذكر فِتيانا من قريش فقلت أين أنتَ من علىّ ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أكْرَه لفاطمة مَيْعةَ شَبابِه ، وحَداثةَ سِـنِّه . فقلت له متى كَنَفَتْه يدُك ورعَتْـه عينُـك ، حفَّت بهما البركة ، وأُسْبِغت عليهمـا النِّعمة ؛ مع كلام كثيرٍ خاطبته به رغبةً فيك ، وما كنت عرفت منك فى ذلك لاحَوْجاء ولالَوْجاء ، فقلت ماقلت وأنا أرىٰ مكان غيرك ، وأجد رائحة سِواك ؛ وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى ؛ ولئن كان عرّض بك رسـولُ الله صلى الله عليه وسـلم فى هذا الأمر ، فلم يكن مُعْرِضا عن غيرك ، وإن كان قال فيك

(١) بالشين المعجمة أى ذكىّ متوقد .

فما سكت عن سِواك؛ وإن تلجلجَ فى نفسك شىء، فَهَلُمَّ فالحُكم مَرْضىّ، والصواب مسمُوع، والحقُّ مُطاع. ولقد نُقِل رسول الله صلى الله عليه وسلم الىٰ الله عز وجل، وهو عن هذه العِصابة راض وعليها حَذِر: يسرُّه ماسرها، ويسوءه ماساءها، ويكيده ما كادها، ويُرْضيه ما أرضاها، ويُسْخِطه ما أسخطها. أما تعلم أنه لم يَدَعْ أحدا من أصحابه، وأقاربه، وسُجَرائه(١)، إلا أبانه بفضيلة، وخَصَّه بمزية، وأفرده بحالة. أتظنُّ أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمّة سُدًى بَدَدا، عباهِلَ(٢)، مَبَاهِل، طَلاحىٰ مفتونةً بالباطل، مغبونةً عن الحق، لا رائد ولا زائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقىَ ولا واقى، ولا هادىَ ولا حادى كلا! والله ما آشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المصير إلى رضوانه وقُرْبه، إلا بعد أن ضرب المدى، وأوضح الهُدى، وأبان الصُّوىٰ، وأمّن المسالك والمَطارح، وسهل المبارك والمَهايع، وإلا بعد أن شَدَخ يافوخ الشرك بإذن الله، وشَرَم وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَع أنفَ الفتنة فى ذات الله، وتَفَل فى عين الشيطان بعون الله، وصدَع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل.

وبعد، فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بُقعة واحدة، ودار جامعة، إن آستقالونى لك، وأشاروا عندى بك، فأنا واضعٌ يدى فى يدك، وصائرٌ إلىٰ رأيهم فيك. وإن تكن الأخرىٰ فآدخُل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العونَ علىٰ مَصالحهم، والفاتحَ لَمغالِقهم، والمرشد لضالَّتهم، والرادع لغَوَايتهم. فقد أمر الله تعالىٰ بالتعاوُن علىٰ البر والتقوىٰ، والتناصُر علىٰ الحق. ودَعْنا نقضى هذه الحياةَ الدنيا بصدور بريئة من الغِلّ، ونَلْقَ الله تعالىٰ بقلوب سليمة من الضِّغْن.

وبعد فالناس ثُمامةٌ فآرْفُق بهم، وآحنُ عليهم ولِنْ لهم، ولا تُشْق نفسَك بنا خاصّة

(١) بالسين المهملة جمع سجير كأمير وهو الصديق.

(٢) بالباء الموحدة فى الوزنين ومعناهما مهملة. أنظر اللسان.

فيهم، وأترك ناجم الحقد حصيدا، وطائر الشر واقعا، وباب الفتنة مُغْلَقا، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تأهبت للنهوض، قال عمر رضى الله عنه كن لدىٰ الباب هُنيهة فلى معك دَوْر من القول، فوقفت وما أدرى ما كان بعدى، إلا أنه لحقنى بوجه يَنْدىٰ تهللا، وقال لى قل لعلىٍّ الرُّقاد مَحْلَمه، والهوىٰ مَقْحمه، وما منا إلّا له مقام معلوم، وحقٌّ مشاعٌ أو مقسوم، ونبأٌ ظاهر أو مكتوم، وإن أكْيَس الكَيْس من منح الشارد تألُّفا، وقارب البعيد تلطُّفا، ووزن كلَّ شيء بميزانه، ولم يخلط خبره بعِيانه، ولم يجعل فِتْره مكان شِبره دِيناً كان أو دُنْيَا، ضلالا كان أو هدًى. ولا خير فى علم مستعملٍ فى جهل، ولا خير فى معرفة مشوبةٍ بنُكْر. ولسنا كجلدة رُفْغ البعير بين العِجَان والذنَب، وكل صالٍ فبناره، وكل سيل فإلىٰ قَراره. وما كان سكوت هذه العصابة إلىٰ هذه الغاية لِعِىٍّ وشَىٍّ، ولا كلامها اليوم لفَرَق أو رفق. وقد جدع اللهُ بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كلِّ ذى كِبْر، وقصمَ ظهر كل جبّار، وقطع لسانَ كل كَذُوب، فماذا بَعْدَ الحَقِّ إلّا الضَّلَال. ما هذه الخُنْزُوانة التى فى فَرَاش رأسك؟ ما هذا الشَّجا المعترضُ فى مَدَارج أنفاسك؟ ما هذه القَذَاة التى تغشَّت ناظرَك؟ وما هذه الوَحَرة التى أكلتْ شراسيفَك؟ وما هذا الذى لبِست بسببه جلد النَّمر، واشتملت عليه بالشحناء والنُّكْر، ولسنا فى كِسْرويَّة كِسرىٰ، ولا فى قَيْصَريَّة قيصر! تأمّلْ لإخوان فارس وأبناء الأصفر! قد جعلهم الله جَزَرا لسُيُوفنا، ودريئة لرِماحنا، ومرمًى لطِعَاننا، وتبعا لسُلطانِنا؛ بل نحن فى نور نُبوّة، وضياء رسالة، وثمرةِ حكمه، وأثَرة رحمه، وعُنْوان نِعمه، وظل عصمه، بل أمّة مهديَّة بالحق والصدق، مأمونةٍ علىٰ الرَّتْق والفَتْق، لها من الله قلب أبِىٌّ، وساعدٌ قوىٌّ، ويدٌ ناصره، وعينٌ باصره. أتظن ظنا يا علىّ أن أبا بكر وثب علىٰ هذا الأمر مُفْتاتا علىٰ الأمة خادعا لها،

أو متسلطا عليها ؟ أتُراه حل عُقُودها وأحال عقولها؟ أتراه جعل نهارها ليلا، ووزْنَها كَيْلا، ويَقَظَتها رُقادا، وصَلاحها فَسادا؛ لا والله سلا عنها فولِهتْ له، وتطامن لها فاصِقتْ به، ومال عنها فمالت إليه، واشمأزّ دونها فاشتملت عليه، حَبْوة حباه الله بها، وعاقِبة بلَّغه الله إليها، ونعمة سَرْبَلَه جَمَالها، ويدٌ أوجب الله عليه شكرها، وأُمّةٌ نظر الله به إليها . والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيَرة . وإنك بحيث لايُجهل موضعُك من بيتِ النبوّة، ومعدِن الرسالة، ولا يُجحَد حقُّك فيما آتاك الله، ولكن لك مَنْ يزاحمك بمنكِب أضخَم من منكبك، وقُرْبٍ أمَسَّ من قرابتك، وسنّ أعلىٰ من سنك، وشيبةٍ أروعَ من شيبتك، وسيادةٍ لها أصلٌ فى الجاهلية، وفرعٌ فى الإسلام، ومواقفُ ليس لك فيها جمل ولا ناقه، ولا تُذْكَر منها فى مقدّمة ولا ساقه، ولا تَضرِبُ فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرُج منها ببازل ولا هُبَع . ولم يزل أبو بكر حَبَّةَ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعِلاقة نفسه، وعَيْبة سره، ومفْزَع رأيه ومشورَته، وراحةَ كفه، ومَرْمَق طَرْفه . وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شُهْرته مغنية عن الدليل عليه . ولَعَمْرى إنك أقرب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، ولكنه أقربُ منك قُرْبة، والقَرابة لحم ودم، والقُربة نفس ورُوح . وهذا فرقٌ عرفه المؤمنون ولذلك صاروا إليه أجمعون، ومهما شككت فى ذلك، فلا تشكَّ أن يدَ الله مع الجماعه، ورضوانَه لأهل الطاعه، فادخل فيما هو خير لك اليوم، وأنفع لك غدًا، والفِظْ من فيك ما يعْلَق بلَهَاتِك، وانفُث سخيمةَ صدرك عن تُقَاتك، فإن يكُ فى الأمد طُول، وفى الأجل فسحة، فستأكله مريئا أو غير مرىء، وستشربه هنيئا أو غير هنىء، حين لا رادَّ لقولك إلا من كان آيسا منك، ولا تابعَ لك إلا من كان طامعا فيك يَمُضُّ إهابَك، ويعرُك أديمك، ويُزْرى علىٰ هديك . هنالك تقرَع السنّ من ندم ،

وتجرّع المـاء ممزوجا بدم، وحينئـذ تأسىٰ علىٰ ما مضىٰ من عمرك ، ودارج قوتك ، فتودّ أن لو سُـقيت بالكأس التى أبيتَها، ورُددت إلىٰ حالتك التى آستغويتها ، والله تعالىٰ فينا وفيـك أمر هو بالغُه ، وغيب هو شاهـده ، وعاقبـة هو المرجوّ لسَرّائها وضَرّائها ، وهو الولىّ الحميد، الغَفُور الودود .

قال أبو عبيدة، فتمشيت مترملا أنوء كأنمـا أخطو علىٰ رأسى، فَرَقًا من الفُرقة، وشفقًا علىٰ الأمّة، حتّٰى وصلْت إلىٰ علىّ رضى الله عنه فى خلاء، فآبتثثته بَثّى كلَّه، وبرئت إليه منـه ، ورفَقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسَرَتْ فى مفاصله حُمَيَّاها ، قال : "حلَّتْ مُعْلَوِّطه، وولَّت مُخْرَوِّطه" ، وأنشأ يقول :

إحدىٰ لَيَاليكِ فَهِيسِى هِيسِى * لاتَنْعَمِى اللّيْـلَةَ بالتَّعْرِيس

نعم ياأبا عبيدة أكلُّ هذا فى نفس القوم، ويُحِسُّون به، ويَضْطبِعون عليه ؟ قال أبو عبيدة : فقلت لاجوابَ لك عنـدى إنمـا أنا قاضٍ حقَّ الدّين ، وراتقٌ فتقَ المسلمين، وسادّ ثُلْمةَ الأمّة . يعلم الله ذلك من جُلْجُلان قلبى، وقَرارة نفسى .

فقال علىّ رضى الله عنه : والله ما كان قُعُودى فى كِنّ هذا البيتِ قصدًا للخلاف، ولا إنكارا للمعروف، ولا زِرايةً علىٰ مُسلم؛ بلْ لمـا قد وَقَذنِى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فِرَاقه ، وأودعَنِى من الحُزْن لفَقْده . وذلك أننى لم أشهد بعده مَشْهدا إلاجدّد علىّ حُزْنا، وذَكَّرنى شَجَنا . وإن الشوق إلىٰ اللَّحاق به كافٍ عن الطمَع فى غيره . وقد عكفتُ علىٰ عهد الله أنظُر فيه ، وأجمع ماتفرّق ، رجاءَ ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عملَه ، وسلَّم لعلمه ومشيئته، وأمرِه ونهيِه . علىٰ أنى ماعلمت أن التظاهر علىّ واقعٌ، ولا عن الحق الذى سبقَ إلىّ دافع؛ وإذ قد أُفْعِم الوادى بى، وحُشِد النادى من أجلى، فلا مَرْحبا بمـا أساء أحدا من المسلمين وسَرَّنى . وفى النفس كلام لولا

سابقُ عقـد ، وسالفُ عهد ، لشفَيْت غيظى بخِنْصِرى وبِنْصَرى ، وخُضْت لُجَّته بأخْمَصِى ومَفْرِقى ، ولكننى مُلْجَم إلىٰ أن ألقىٰ الله ربى ، وعنده أحتسب ما نزل بى . وإنى غادٍ إلىٰ جماعتكم ، مبايعٌ صاحبَكم ، صابرٌ علىٰ ما ساءنى وسرّكم ﴿ لِيَقْضِىَ اللهُ أمرًا كانَ مَفْعُولًا ﴾ .

قال أبو عبيدة : فعُدْت إلى أبى بكر رضى الله عنـه فقَصَصْت عليه القول علىٰ غَرِّه ، ولم أختزل شيئا من حُلوه ومُرّه ، وبكَّرت غُدوةً إلىٰ المسجد ، فلما كان صَباح يومئـذ وإذا علىّ مخترق الجماعة إلىٰ أبى بكر رضى الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيرا ، ووصف جميلا ، وجلس زَمِيتًا(١) ، وآستأذن للقيام فمضىٰ وتبعه عمر مُكْرِما له ، مستأثرا لمـا عنده .

فقال علىّ رضى الله عنه : ماقعدتُ عن صاحبكم كارهًا ، ولا أتيتُه فَرِقا ، ولا أقول ما أقول تَعِـلة . ولإنى لأعرف مُنتهىٰ طَرْفى ومَحَطّ قدمى ومَنْزَع قوسى ، ومَوقع سهمى ، ولكن قد أَزَمْت علىٰ فأسى ثِقةً بربى فى الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنه : كَفْكِفْ غَرْبك ، وآستوقِفْ سِربك ، ودَع العِصِىَّ بلِحائها ، والدِّلاء علىٰ رشائها . فإنا مِنْ خلفها ووارئها ، إن قدَحْنا أورينا ، وإن متَحْنا أرْوَيْنا ، وإن قَرَحنا أدمينا ، ولقد سمعتُ أماثيلك التى لغَزْت بهـا عن صدر أُكِلَ بالجَوىٰ ، ولو شئت لقلت علىٰ مقالتك ما إن سمعتَه ندمت علىٰ ما قلت . وزعمت أنك قعدتَ فى كِنِّ بيتك لمـا وقذَك به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فقدِه ، فهو وقذك ولم يَقِذْ غيرك ؟ بل مُصابُه أعظم وأعمُّ من ذلك ، وإنَّ من حق مُصابه أن لا تَصدَع شَمْل الجماعة بفرقةٍ لا عصام لها ، ولا يُؤْمن كيد الشيطان فى بقائها . هذه

(١) أى حليما وقورا .

العَرَب حولنا، والله لو تداعتْ علينا فى صُبْح نَهار لم نلتقِ فى مَسَائه . وزعمت أن الشوقَ إلىٰ اللّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرة دينه، وموازَرة أوليـائه، ومعاوَنتهم . وزعمت أنك عَكَفت علىٰ عهـد الله تجمعُ ما تفرَّق منـه؛ فمن العُكُوف علىٰ عهد الله النصيحة لعباد الله، والرأفةُ علىٰ خلق الله، وبذل ما يَصْلُحُون به، ويَرْشُدون عليه . وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهُر واقع عليـك وأىّ حق لُطَّ(١) دُونَك . قد سمِعتَ وعلمتَ ما قال الأنصـار بالأمس سِرّا وجَهرا، وتقلبتَ عليـه بَطْنا وظَهرا، فهل ذكَرَتْ أو أشارَتْ بك أو وجدْت رِضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلُح لهذا الأمر ؟ أو أومأ بعينه ؟ أو همّ فى نفسه ؟ أتظن أن النـاس ضلُّوا من أجْلك، وعادوا كُفَّارا زُهْدا فيك، وباعوا اللهَ تحاملا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءنى عَقِيل بن زياد الخزرجىُّ فى نفَر من أصحـابه ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقُوب الخزرجىّ وقالوا : إن عليًّا ينتظر الإمامة، ويزعم أنه أولىٰ بها من غيره، ويُنْكِر علىٰ مَنْ يعقد الخلافةَ، فأنكرتُ عليهم، ورددتُ القول فى نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحىَ ويتوكَّف مناجاة المَلَك . فقلتُ ذاك أمرٌ طواه الله بعـد نبيه محمد صلى الله عليه وسـلم، أكان الأمر معقودا بأُنْشُوطه، أو مشـدودا بأطراف لِيطه ؟ كلا ! والله لا عجماءَ بحمـد الله إلا أفصحت، ولا شوكاء إلا وقد تفتَّحتْ . ومن أعجب شأنك قولك : ولولا سالف عهد وسابقُ عَقْد، لشفيتُ غيظى؛ وهل ترك الدينُ لأهله أن يشفُوا غيظهم بيدٍ أو بلسان ؟ تلك جاهليَّة وقد استأصل الله شأْفَتَها واقتلع جُرْثُومتها، وهوّر ليلَها، وغوّر سيْلَها، وأبدل منها الرَّوْح والرَّيْحان، والهُدَى والبُرهان . وزعمت أنك مُلْجَم؛ ولعمرى إن مَن اتقى الله، وآثر رِضاه، وطلب ما عندهُ، أمْسكَ لسانه وأطبق فاه، وجعل سَعْيه لمـا وراه .

---

(١) لُطَّ . أى جحد . ووقع فى بعض النسخ لك وفى بعضها ليط وكلاهما تصحيف .

فقال عليّ رضى الله عنه : مَهْلًا ياأبا حفص والله مابذَلْت مابذَلْت وأنا أريد نَكْثه، ولا أقْررت ما أقْررت وأنا أبتغى حِولا عنه . وإن أخسر النـاس صفقةً عنـد الله مَنْ آثَر النفاق، وآحتضَن الشِّقاق وفى الله سَلْوة عن كل حادث ، وعليه التوكُّل فى جميع الحوادث . ارجع ياأبا حفص إلىٰ مجالسك ناقعَ القلب، مبرودَ الغليل، فسيحَ اللَّبان، فَصِيح اللِّسان؛ فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشُدُّ الأزر، ويَحُط الوِزر، ويضع الإصْر، ويجمع الأُلْفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فآنصرف عليّ وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعبُ ما مرّ على بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك كلام عائشة رضى الله عنها فى الآنتصار لأبيها .

يروىٰ أنه بلغ عائشـةَ رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلتْ إلىٰ أزْفَلةٍ من الناس فلمـا حضروا ، أسدَلَت أستارَها ، وعلَتْ وِسادَها . ثم قالت أبى : وما أَبِيَه ! أبى والله لاتَعْطُوه الأيدى، ذاك طَوْدٌ منيف؛ وفَرْع مَديد، هيهاتَ كذبَتِ الظُّنون، أنجحَ إذ أكْدَيتم، وسَبَق إذ ونَيْتم * سَبْقَ الجوادِ إذا آستولىٰ على الأمد * فتىٰ قريش ناشئا، وكهفها كَهْلا، يفُكّ عانيَها ويَرِيشُ مُمْلِقَها، ويرأبُ شَعْبها، ويلُمُّ شَعَثها حتّٰى حَلِيَتْه قلوبُها، ثم آسْتَشرىٰ فى دِين الله فما بَرِحتْ شكيمتُه فى ذات الله عز وجل حتّٰى آتخذ بفِنائه مَسْجِدا يحيي فيه ما أمات المبطلون؛ وكان رحمه الله غَزِير الدَّمْعة، وقِيذَ الجوانح، شَجِيَّ النَّشيج ، فانقضَّتْ إليـه نِسوانُ مكةَ ووُلْدانُها يَسْخَرون منه ويستهزئون به (اللّٰهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ويمدُّهُم فى طُغْيانهم يَعْمَهُون) فأكبرتْ ذلك رِجالاتُ من قريش فحَنت قِسيَّها وفوّقتْ سِهامها وآنتثلوه غرضا، فما فَلُّوا له صَفاة، ولا قَصفُوا له قناة، ومَرّ علىٰ سِيسائه، حتّٰى إذا ضرب الدِّينُ بجِرانه ،

ورسَتْ أوتاده ، ودخل الناسُ فيه أفواجا، ومن كل فِرْقة أرسالا وأشتاتًا، اختار الله لنبيِّه ما عنـده، فلما قبض الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم ضربَ الشَّيطانُ رُواقَه، ومدّ طُنُبه، ونَصَب حبائله ، وأجْلب بخَيْله ورَجْله ، واضطربَ حبلُ الإســلام ، ومَرِج عهـدُه وماجَ أهلُه ، وبُغِي الغوائل، وظنَّتْ رجال أن قد أكثبتْ أطماعَهم نُهَزُها ولاتَ حينَ الذى يرجون ، وأنَّى والصـدّيق بين أظهُرهم . فقام حاسِرا مشَمِّرًا، فجمع حاشِيتَيْه ورَفَع قُطْريْه ، فردّ رسَنَ الإســلام علىٰ غَرْبه (١)، ولَمَّ شـعثه بِطَبِّه، وانتاشَ الدين فنعَشَه، فلما أراح الحقَّ علىٰ أهله ، وقرّر الرءُوسَ علىٰ كواهلها، وحَقَن الدماء فى أُهُبِها، أتَتْه منيته، فسدّ ثُلْمته بنظيره فى الرحمة ، وشقيقه فى السيرة والمَعْدَلَة . ذاك ابنُ الخطاب لله دَرّ أمّ حَملتْ به ودرّتْ عليه ! لقد أوحدَتْ به ، ففَنَّخ الكَفَرة وديَّخَها ، وشرَّد الشِّرك شَــذَر مَذَرَ، وبعَج الأرضَ وبَخَعها فقاءتْ أُكْلَها ، ولفظَتْ خَبْأها، تَرْأَمُه ويَصْدِف عنها، وتصدّىٰ له ويَأْباها. ثم وَزَّع فيهـا فيأها وودَّعها كما صَحِبها . فأرُونى ماذا تَرْتَـُون وأىّ يومَىْ أبى تنقِمُون : أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظَعْنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هــذا وأستغفر الله لى ولكم . ثم أقبلتْ علىٰ الناس بوجهها فقالت أنشُدُكم الله هل أنكرتم ممـا قلت شيئا ؟ قالوا اللهم لا .

ومن ذلك كلام أمّ الخيْر : بنت الحُرَيش البـارقيّة يوم صِفِّين فى الانتصار لعلىّ رضى الله عنه .

يروىٰ أن معاوية كتب إلىٰ واليه بالكوفة أن يحمل إليه أمَّ الخير بنت الحريش البارقية برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . فلما ورد

(١) فى بعض الكتب فردّ نشر الدين على غره ولم شعثه بطبه .

عليه كتابُه، ركب إليها فأقرأها الكتاب، فقالت أما أنا فغيرُ زائغة عن طاعةٍ ولا معتلة بكذب! ولقد كنتُ أُحِبُّ لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صَدْرى . فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها يا أم الخير : إن أمير المؤمنين كتب إلىَّ أنه يجازينى بقولكِ فىَّ بالخير خيرا وبالشر شرا، فما عندكِ؟ : قالت ياهذا لا يُطْمِعنَّك بِرُّك بى أن أسُرَّك بباطل، ولا تُؤْيِسْك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق . فسارتْ خير مَسير حتّى قدمت علىٰ معاوية فأنزلها مع حريمه، ثم أدخلها عليه فى اليوم الرابع، وعنده جلساؤه فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . قال لها وعليك السلام يا أمّ الخير، وبالرغم منك دَعَوْتِينِى بهذا الاسم . قالت مَهْ يا أمير المؤمنين ! فإن بَدِيهة السلطان مَدْحَضة لما يجب علمه ﴿وِلكُلِّ أجَلٍ كِتابٌ﴾ . قال صدقت . فكيف حالك ياخالَة؟ وكيف كنتِ فى مَسيرِك ؟ . قالت لم أزَل فى عافيةٍ وسلامةٍ حتّى صرتُ إليك فأنا فى مجلس أنيق، عند مَلِك رفيق — قال معاوية بحُسن نيتى ظفِرتُ بكم — قالت ياأمير المؤمنين أعيذك بالله من دَحضِ المَقال وما تُرْدِى عاقبتُه قال ليس هذا أردنا . أخبِرينى كيف كان كلامُك يوم قُتِل عَمَّار بن ياسر؟ قالت لم أكن والله زوّرته قبْلُ ولا روَّيته بعد . وإنما كانت كلماتٌ نفثهن لسانى حينَ الصَّدْمة فإن شئتَ أن أُحْدث لك مقالا غير ذلك فعلت — قال لا أشاء ذلك . ثم التفت إلىٰ أصحابه فقال أيكم يحفَظ كلام أمّ الخير فقال رجل من القوم أنا أحفَظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد — قال هاتِه — قال : نعم كأنى بها ياأمير المؤمنين فى ذلك اليوم عليها بُرْد زبيدىّ كثيفُ الحاشية، وهى علىٰ جمل أرْمكَ وقد أُحِيط حولها، وبيدها سَوْط منتشر الظفر(١)، وهى كالفحل يهدِر فى شِقشِقته تقول :

(١) لعله الضفر بالضاد المعجمة أى الفتل .

﴿ يأيها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ الساعةِ شيءٌ عَظِيمٌ ﴾ ! إن الله قد أوضح الحقَّ ، وأبان الدليــل ، ونوّر السبيل ، ورفع العِلْم ، فلم يَدَعْكم فى عمياءَ مُبْهمة ! ولا سوداءَ مدلهِمَّة فإلىٰ أين تريدون رحمكم الله . أفِرارا عن أمير المؤمنين ، أم فِرارا من الزَّحْف ، أم رغبةً عن الإسلام ، أم ٱرتدادا عن الحق . أما سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حتّى نَعْلَمَ المُجاهِدِينَ مِنْكُمْ والصابِرِينَ ونَبْلُوَ أخْبارَكُمْ ﴾ .

ثم رفعتْ رأسها إلىٰ السماء وهى تقول .

قد عِيل الصبر ، وضَعُف اليقين ، وٱنتشرت الرَّغْبة ، وبيَدِك يارب أزِمَّةُ القُلوب فاجمع الكلمة علىٰ التقوىٰ ، وألِّف القلوب علىٰ الهــدىٰ ، هَلُمُّوا رحمكم الله إلىٰ الإمام العادل ، والوصىّ الوفِىّ ، والصدّيق الاكبر! إنها إحنٌ بدريّه ، وأحقاد جاهليه ، وضغائن أُحُديه ، وثب بها معاوية حينَ الغفلة ليُدْرِك بها ثارات بنى عبد شمس .

ثم قالت ﴿ قاتِلُوا أئِمَّةَ الكُفْرِ إنَّهُمْ لا أيْمـانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُون ﴾ . صبرًا معشرَ المهاجِرين والأنصار ، قاتلوا علىٰ بصيرة من ربكم ، وثَبَات من دينكم ، وكأنى بكم غدًا قد لقِيتم أهلَ الشام كحُمُر مستنفِرة ، فرّتْ من قَسْورة . لا تدرى أين يُسْلَك بها من فجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتَرُوا الضــلالة بالهدىٰ ، وباعوا البصـيرة بالعمىٰ وعَمَّا قليل ليُصْبِحُنَّ نادمين ، حين تَحُلّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة ! إنه والله مَنْ ضــلَّ عن الحق وقع فى الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل فى النار . أيها الناس إن الأكياس ٱستقصروا عمر الدنيا فرفَضُوها واستبطـُوا مدّة الآخرة فسعَوْا لهـا . والله أيها الناس لولا أن تبطُلَ الحقوق ، وتعطَّلَ الحُدود ، ويظهرَ الظالمون ، وتقوىٰ كلمة الشيطان ، لمـا ٱخترنا ورود المنايا علىٰ خَفْض العيش وطِيبه ؛ فإلىٰ أين تريدون رحمكم الله عن ٱبن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوْج ابنته وأبى ٱبنيه ؟ خُلق

من طِينَتِه ، وتفرّع عن نَبْعته ، وخصّه بسِرّه ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ويمضى على سَنَن آستقامته ، لا يعرّج لراحة اللذّات ، وهو مُفَلّق الهام ، ومكسّر الأصنام إذ صلّى والناسُ مشرِكون ، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتّى قَتل مُبارِزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وفرّق جمع هوازن ، فيالها وقائع ! زرعتْ فى قلوب قوم نفاقا ، ورِدّة وشِقَاقا ، وقد آجتهدت فى القول ، وبالغت فى النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردتِ بهذا إلا قتلى ! والله لو قتلتكِ ماحَرِجْت فى ذلك .

قالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يُجْرِىَ الله ذلك على يَدَىْ مَنْ يُسْعدنى الله بشقائه — قال هيهاتَ يا كثيرة الفُضُول ، ماتقولين فى عثمان بن عفان؟ — قالت وما عسيت أن أقول فيه : آستخْلَفه الناسُ وهم كارهون ، وقَتَلوه وهم راضون — فقال إيهًا يا أم الخير هذا والله أصلكِ الذى تبنين عليه — قالت لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصا ، ولقد كان سَبّاقا إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة — قال فما تقولين فى طلحةَ بنِ عبيد الله؟ — قالت وما عسى أن أقول فى طلحة آغتيل من مَأْمنه ، وأُتِىَ من حيث لم يَحْذَر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنةَ — قال فما تقولين فى الزبير؟ قالت ياهذا لا تَدَعْنى كَرَجِيع الضَّبُع يُعْرَك فى المِرْكَن — قال حقا لتقولنّ ذلك وقد عزمت عليك — قالت وما عسيت أن أقول فى الزبير آبنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَوَارِيّه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولقد كان سبّاقا إلى كل مكْرُمة فى الإسلام . وإنى أسألك بحق الله يامعاوية فإن قريشا تحدّث أنك من أحلمها أن تسعَنِى بفضل حلمك ،

وأن تُعفينى من هـذه المسائل، وآمض لمـا شئت من غيرها — قال نعم وكرامةً قد أعفيتك؛ وردّها مكرمة إلىٰ بلدها .

ونحو ذلك كلام الزرقاء بنت عدىّ بن قيس الهَمْدانيَّة يوم صفِّين أيضا .

يروىٰ أنها ذُكرت عند معاوية يوما، فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها؟ — قال بعضهم نحن نحفظه ياأمير المؤمنين — قال فأشيروا علىّ فى أمرها فأشار بعضهم بقتلها — فقال بئس الرأى أيحسُن بمثلى أن يقتـل آمرأة ؟ . ثم كتب إلىٰ عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثِقةٍ من ذوى مَحْرِمها وعِدّة من فُرْسان قومها ، وأن يمهِّد لهـا وِطاء لينا، ويستُرَها بستر خَصِيف، ويُوسع لهـا فى النفقة . فلما دخلتْ علىٰ معاوية، قال مرحبا بك وأهلا! قَدِمتِ خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ — قالت بخير ياأمير المؤمنين أدام الله لك النعمة ! — قال كيف كنتِ فى مَسِيرك ؟ قالت ربيبة بيتٍ أو طِفْلا مُمَهَّدا — قال بذلك أمرناهم . أتدرين فيم بعثت إليك — قالت وأنّى لى بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل — قال ألست الراكبة الجملَ الأحمر، والواقفةَ بين الصفَّيْن بصِفِّينَ تَحُضِّين الناس علىٰ القتال، وتُوقدين الحرب؟ فما حملك علىٰ ذلك؟ — قالت ياأمير المؤمنين مات الرأسُ، وبُتِر الذَّنَب، ولن يعود ماذهب، والدهر ذو غِيَرٍ، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر — قال لهـا معاوية أتحفظين كلامَكِ يومئذ؟ — قالت : لا والله ولقد أُنْسِيته — قال لكنى أحفَظُه لله أبوك حين تقولين :

أيهـا الناس ارعَوُوا وآرجعُوا ! إنكم أصبحتم فى فتنة غَشَّتْكم جَلابِيبَ الظُّلَم، وجارتْ بكم عن قَصْد المحجَّة . فيالها فتنة عمياء، صمـاء، بَكْماء لا تسمَعُ لناعقها، ولا تَسْلَسُ لقائدها . إن المصباح لايُضىء فى الشمس، والكواكب لاتنير مع القمر، ولا يقطَع الحديدَ إلا الحديد . ألا من آسترَشَـد أرشدناه ، ومن سألنَـا أخبرناه .

أيهـا الناس إن الحق كان يطلبُ ضالَّتــه فأصابها ! فصَــبْرا يامعاشر المهاجرين والأنصار علىٰ الغُصَص ، فكأنْ قد اندمل شَعْب الشَّتات ، والتأمت كلمة التقوىٰ ، ودمَغ الحقُّ باطـله ! فلا يجهَلنّ أحد فيقولَ كيف العدل وأنّىٰ : لِيَقْضِى اللهُ أمرًا كان مفعولا . ألا و إن خِضاب النساء الحِنَّـاء ، وخِضاب الرجال الدِّماء ! ولهذا اليوم مابعده ، والصـبر خير فى عواقب الأمور . إيهـا لحرب قُدُما غير ناكصين ، ولا متشاكِسين .

ثم قال لها يازرقاء لقد شَرِكْت عليا فى كل دم سَفَكه — قالت أحسن الله بشارتَكَ ، وأدام سلامتك ؛ فمثلُك من بَشَّر بخير وسر جليسَه — قال ويَسرك ذلكِ؟ — قالت : نعم سُرِرتُ بالخبر فأنّىٰ لى بتصـديق الفعل ؟ فضحك معاوية وقال : لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندى من حُبِّكم له فى حياته ! اذكرى حاجتك . قالت ياأمير المؤمنين آليت علىٰ نفسى أن لاأسأل أميرا أعنتُ عليه أبدا ، ومثلك من أعطىٰ من غير مسألة ، وجاد من غير طِلْبة — قال صدقت ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسًا .

وقريب من ذلك كلام عكرشةَ بنت الأَطْرش يوم صِفِّين أيضا .

يروىٰ أنها دخلتْ علىٰ معاوية متوكِّئة علىٰ عُكَّازٍ لهـا فسلمتْ عليــه بالخلافة ، ثم جلستْ — فقال لهـا معاوية : الآن صرتُ عندك أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم إذ لاعلىّ حىّ ! — قال ألستِ المتقلدةَ حمائلَ السيف بِصفِّين ؟ وأنت واقفــة بين الصفين تقولين : أيها الناس ! عليْكُم أنفُسَكُم لا يضُرّكُم مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُمْ . إن الجنــة لا يحزَنُ مَنْ قطَنها ، ولا يَهْرم مَنْ سكَنَها ، ولا يموت مَنْ دخلها ؛ فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم هُمُومها . وكونوا قوما مستبصِرين فى دينهـم مستظهِرين علىٰ حقهم ؛ إن معاوية دَلَف إليكم بعجم العرب ، لايفْقَهُونَ الإيمـان ، ولا يدرون ما الحِكْمة . دعاهم إلىٰ الباطل فأجابوه ، واستدعاهم إلىٰ الدنيا فلبَّوْه .

فاللهَ اللهَ عباد الله فى دين الله ! و إياكم والتواكُلَ فإن ذلك ينقض عُرىٰ الإسلام، ويطفئ نور الحق. هذه بَدْر الصغرىٰ، والعقبة الأخرىٰ؛ يامعشر المهاجرين والأنصار آمضوا علىٰ بصيرتكم، واصبِروا علىٰ عزيمتكم . فكأنِّى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كالحُمُر الناهقة تقصَع قَصْع البعير :

ثم قال : فكأنى أراكِ علىٰ عصاك هذه قد آنكفأ عليكِ العسكران يقولون هــذه عكرشةُ بنت الأطرش فإنْ كدتِ لتَقُلِّين أهل الشام لولا قَدَرُ الله وكَانَ أمْرُ الله قَدَرًا مَقْــدُورا، فمــا حملك علىٰ ذلك؟ ــ قالت يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره ﴿ يأَيُّها الَّذِين آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْـياءَ إن تُبْـدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ الآية، وإن اللبيب إذا كره أمرا لايحب إعادته ــ قال صدقتِ فاذكرى حاجتك ــ قالت كانت صدقاتُنا تؤخَذ من أغنيائنا فتُرَدّ علىٰ فقرائنا وقد فقدنا ذلك، فما يُجْبَر لنا كسير، ولا يُنْعَش لنا فقير . فإن كان عن رأيك فمثلك من آنتبــه من الغـفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فمــا مثلك من آستعان بالخَوَنة ولا آستعمل الظَّلَمة ــ قال معاوية : ياهذه، إنه ينوبُنا من أمور رعيتنا ثغور تنفتق، وبُحُور تندفق. ــ قالت سبحان الله! والله مافرض الله لنا حقًّا فجعل فيه ضررا لغيرنا وهو علّام الغيوب ــ قال معاوية هيهاتَ ياأهل العراق نَبَّهكم علىٌّ فلن تُطَاقوا . ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

والشاهد فى هــذه الحكايات كلام هؤلاء النسوة مع ما فيها : من المراجَعات ، والمخاطَبات، والمقاولات، والمحاوَرات، الصالحة للاستشهاد للفصل المتقدّم قبــل ذلك . وهذا باب متسع لايسع استيفاؤُه، ولا يمكن استيعابه وفيما ذكرنا مَقْنع .

ومن **ذلك** ماروى أنّ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ! أرســل إلىٰ معاويةَ بالشام كتابا صحبة صعصعةَ بن صُوحانَ، فساربه حتّٰى أتىٰ دمشق؛ فأتىٰ باب معاوية فقال لآذنه : آســتأذن لرسول أمير المؤمنين على بن أبى طالب؛ وبالبــاب جماعةٌ

من بني أميّـة ، فأخذتْه النّعـال والأيدى لقوله : " أمير المؤمنين " . وكثُرتْ عليه الجَلَبة ، فاتّصـل ذلك بمعـاوية فأذن له ، فدخل عليه ، فقال السلام عليك يابن أبى سُـفْيان هذا كتاب أمير المؤمنين — فقال معاوية أمَا إنه لو كانت الرسل تُقْتَل فى جاهلية أو إسلام ، لقتلتك . ثم اعترضه معاوية فى الكلام ، وأراد أن يستخبره ليعرف طَبْعا أو تكلفا — فقال له ممن الرجل — قال من نِزَار — قال وما كان نِزَار قال كان اذا غزا انكمش ، واذا لقى افترش، واذا ٱنصرف ٱحترش(١) . قال فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال من ربيعة — قال وما كان ربيعة ؟ — قال : كان يطيل النّجاد ، ويَعُول العباد ، ويضْرِب ببقاع الأرض العِماد — قال : فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال من جَدِيلة — قال وما كان جدِيلة ؟ — قال كان فى الحرب سَيْفا قاطعا ، وفى المَكْرُمات غيثا نافعا ، وفى اللقاء لَهَبا ساطعا — قال فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال : من عبد القيس — قال وما كان عبـد القيس ؟ — قال كان حَسَنا أبيضَ وهابا ؛ يقدّم لضيفه ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المَرَق ، طيب العَرَق ، يقوم للناس مَقام الغيث من السماء — قال ويحك يابن صُوحان ! فما تركت لهذا الحى من قُريش مجدا ولا فخرا ، — قال بلىٰ والله يابن أبى سفيان ! تركت لهم ما لا يصلح إلا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض والأصفر ، والسرير والمِنْبر ، والملك إلىٰ المحشَر ؛ ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل علىٰ قريش كلها ، قال صدقت يابن صُوحان إن ذلك لكذلك فعرف صَعْصَعة ما أراد ؛ فقال ليس لك ولا لقومك فى ذلك إصـدار ولا إيراد . بَعُدتم عن أنف المرعىٰ ، وعلَوْتم عن عَذْب المـاء — قال ولِمَ ذلك ويْلَك يابن صُوحان ! فقال الويل لأهل النـار ، ذلك لبنى هاشم — قال قم فأخرجوه — فقـال : صعصعة الوَعْد بينى

(١) أى جدّ . الأصمعى انكمش فى أمره وانشمروجدّ بمعنى واحد . وقوله افترش أى صرع . يقال لقى فلان فلانا فافترشه إذا صرعه وهو مناسب هنا . وقوله احترش أى كسب أو صاد .

وبينك لا الوعيد مَنْ أراد المُناجَزة يَقْبَل المحاجزة(١) — فقال معاوية لشيء مّا سوّده قومُه ووددْتُ أنى من صُلْبه؛ ثم ٱلتفت إلىٰ بنى أمية فقال: هكذا فلْتكُن الرجال.

ومن ذلك ما روى أن سعيد بنَ عثمان بن عفّان رضى الله عنه دخل علىٰ معاوية وابنُه يزيدُ إلىٰ جانبه فقال له: ائتَمَنك أبى، وٱصطَنَعك حتّٰى بلّغك باصطناعه إياك المدىٰ الذى لا يجـارىٰ، والغايةَ التى لا تُسامَى؛ فما جازيتَ أبى بآلائه حتّٰى قدّمت هذا علىّ، وجعلت له الأمر دُونى. "وأومأ إلىٰ يزيد" والله لأبى خيرٌ من أبيه وأمى خير من أمّه ولأنا خير منه! — فقال له معاوية. أمّا ما ذكرتَ يابن أخى من تواتُر آلائكم علىّ، وتظاهُر نَعْمائكم لدىّ، فقد كان ذلك ووجب علىّ المكافأة والمجازاة، وكان من شُكرى إياه أن طلبتُ بدمه حتّٰى كابدت أهوال البلاء، وغَشِيتُ عساكر المنايا إلىٰ أن شُفِيت حَزازات الصدور وتجلّتْ تلك الأمور. ولست لنفسى باللائم فى التشمير، ولا الزارى عليها فى التقصير.

وذكرت أن أباك خير من أبى هـذا "وأشـار بيده إلىٰ يزيد" فصـدقت لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية! أكْرَم كريما، وأفضَـل قديمـا، وأقربُ إلىٰ محمد صلى الله عليه وسلم رحما. وذكرت أن أمّك خير من أمه فلعمرى إن ٱمرأةً من قريش خيرٌ من ٱمرأة من بنى كلب. وذكرت أنك خير من يزيد فوالله يابن أخى ما يسرّنى أن الغُوطة عليهـا رجال مثلُ يزيدَ. فقال له يزيدُ "مَهْ يا أمير المؤمنين! ٱبنُ أخيك ٱستعمل الدالّةَ عليك، وٱستعْتَبك لنفسه، وٱستزاد منك فَزِدْه وأجْمِل له فى ردّك، وٱحمل علىٰ نفسك، ووَلّه خُراسان بشفاعتى وأعِنْه بمال يظهر به مَرُوءته" فولاه معاوية خراسان، وأجازه بمـائة ألف درهم؛ فكان ذلك أعجبَ ما ظهر من حلم يزيد.

(١) الذى فى المثل من أراد المحاجزة فقبل المناجزة. ولعل ما هنا تصحيف ان لم يكن من تصرف المنشئ.

ومن ذلك ما يروى أن زيد بن منبه قدم على معاوية فشكا إليه دَيْنا لزمه فأعطاه ستين ألف درهم، وكان عتبة بنُ أبى سفيان قد تزوّج ابنة يعلى أخى زيد بن منبِّه، وهو يومئذ عامل بمصر — فقال له معاوية : الْحَقْ بِصِهرك "يعنى عتبة" فقدم عليه مصر فقال : "إنى سرت إليك شهرين أخوض فيهما المَتَالف : ألبَس أرديةَ الليل مرّةً وأخوض فى لجج السراب أخرى، مُوقَرا من حُسْن الظن بك، وهاربا من دهر قَطِم، ودَيْن أزِم، بعد غِنًى جدَعْنا به أنوفَ الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مَهْرَبا وعليك معوّلا — فقال عتبة : مرحباً بك وأهلا ! إن الدهر أعاركم غِنًى وخلطكم بنا ثم استردّ وأخذ ما أمكنه أخذُه، وقد أبقى لكم منا مالاضِيقةَ معه وأنا رافع إليك يدى بيد الله" فأعطاه ستين ألفا كما أعطاه معاوية .

ومن ذلك ما يحكى أن عبد العزّى بن زُرَارة وفد على معاوية وهو سيد أهل الوَبَر، فلما أذن له وقف بين يديه وقال ياأمير المؤمنين لم أزل أهُزُّ ذوائب الرجاء إليك، ولم أجد معوّلا إلا عليك، أمتَطِى الليل بعد النهار، وأسِمُ المَجَاهل بالآثار، يقودُنى إليك أمل، ويسوقُنى إلَيْك بلوى، والمجتهد يُعْذر، وإذ بلغتك فقط . فقال معاوية فاحْطُطْ عن راحلتك رَحْلَها .

وخرج عبد العزّى هذا مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة وأبوه زُرارةُ عند معاوية فهلك هناك : فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك — فقال معاوية لزرارة : أتانى اليوم نَعْىُ سيد شَباب العرب — قال زرارة ياأمير المؤمنين هو ابنى أو ابنك؟ — قال بل ابنك فقال "للموت ما تلد الوالدة" . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال

وِلِلْمَوْتِ تغذُو الوالِدتُ سِخَالَها * كما لِخَرابِ الدَّهْرِ تُبْنَى المَسَاكِنُ

ومن ذلك ما يروى، أن مروانَ بن الحكم، وهو والٍ على المدينة فى خلافة معاوية حبس غلاما من بنى ليث فى جِناية جناها بالمدينة، فأتته جدّة الغلام "وهى أمّ

سِنانٍ بنتُ جشمية بن خرشــة المذحجية (١)، فكلمتْه فى الغلام ، فأغلظ لهــا مروانُ ، فخرجت إلىٰ معاوية فدخلتْ عليه فٱنتسبتْ له فعرفها، فقال : مرحبا بابنة جشمية ما أقدمك أرضَنا ؟ وقد عهدتُكِ تَشْتِمينا، وتُحضِّين علينا عدوَّنا، قالت : ياأمير المؤمنين! إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة، وأعلاما ظاهرة، لايَجْهَلون بعد علم، ولا يَسْفَهُون بعد حِلْم ، ولا يشْتُمون بعد عفو ، وإن أولىٰ الناس بٱتباع ماسنّ آباؤه لأنتَ، قال "صدقتِ نحن كذلك فكيف قولك :

عَزَب الرُّقادُ فمُقْلَــتِي لا تَرْقُــدُ * واللَّيْـــلُ يُصْدِرُ بالهُمُومِ ويُورِد
يا آلَ مذحِجَ لامُقــامَ فشَمِّروا * إنّ العَــدُو لآل مَذْحِجَ يَقْصِــد
هـــذا عَلِيٌّ كالهــلال تحفُّـــه * وَسَطَ السماء من الكواكب أسْعُدُ
خَـيْرُ الخلائقِ وٱبنُـ عَمِّ محمدٍ * إنْـ يَهْدِكُمْ بالنُّور مِنْـهُ تَهْتَدُوا
ما زالَ مُذْ شَهِد الحُروبَ مظَفَّرا * والنَّصْرُ فَــوْقَ لِوائِهِ ما يُفْـقَدُ"

قالت قد كان ذلك ياأمير المؤمنين وأرجو أن تكون لنــا خَلَفا بعده، فقال رجل من جلسائه كيف ياأمير المؤمنين؟ وهى القائلة :

إمَّا هلَكْتَ أبا الحُسَيْنِ فلَمْ تَزَلْ * بالحقِّ تُعْــرَفُ هادِيًا مَهْــدِيًا
فٱذهبْ عَلَيْكَ صَلاةُ رَبِّكَ مادعَتْ * فَوْقَ الغُصُونِ حَـمامةٌ قُمْــرِيًّا
قَدْ كُنْت بَعْـدَ محمدٍ خَلَفا لَنَــا * أوصىٰ إليكَ بنــا وكُنْتَ وَفِيًّا
واليــومَ لاخَلَفٌ يُؤَمَّل بَعْـــدَه * هيهــاتَ نَأْمُلُ بعــدَهُ إنسِــيَّا

قالت ياأمير المؤمنيــن : لسانٌ نطق، وقولٌ صدق، ولئن تحقق فيك ماظنناه، فحظُّك الأوفر، والله ما أورثك الشَّنَآنَ، فى قلوب المســلمين إلا هؤلاء، فأدْحِض

(١) لم نعثر على آسم بهذه الصيغة فليحرر .

مَقالتهـم، وأبْعِدْ منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تَزْدَدْ من الله قُرْبا ، ومن المسـلمين حُبًّا . قال وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : سـبحان الله ! والله ما مِثْلُك من مُدِح بباطل، ولا آعتُذِر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلبنا . كان علىّ والله أحبَّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك . قال ممن ؟ . قالت من مروان وسعيد بن العاص — قال وبم آستحققت ذلك عندك؟ — قالت بسَعةِ حلمك، وكريم عَفْوك — قال وإنهما يَطْمعَان فى ذلك — قالت هما والله من الرأى على ما كنتَ عليه لعثمانَ بن عفّان — قال لقد قاربت فما حاجتك ؟ — قالت : ياأمير المؤمنين ! إن مروان تَبَنَّكَ(١) فى المدينة تَبَنُّكَ من لا يريد منها البَرَاح، لا يحكُم بعدل، ولا يقضِى بسُنَّة؛ يتتبع عَوْرات المؤمنين؛ حبس آبن آبنى فأتيتـه فقال كَيْت وكَيْتَ، فأسمعتُه أخشن من الحجر، وألقمته أمرّ من الصَّبِر. ثم رجعت إلى نفسى باللائمة، وقلت لِمَ لا أصرِف ذلك إلى مَنْ هو أولى بالعفو منه؛ فأتيتك يا أمير المؤمنين، لتكون فى أمرى ناظرا، وعليه مُعْدِيا — قال صدقت لاأسألك عن ذنبه، والقيام بحجته، اكتبوا لها بإطلاقه — قالت ياأمير المؤمنين وأنَّى بالرجعة وقد نَفِد زادى، وكلَّتْ راحلتى، فأمر لها براحلة موطّأة وخمسة آلاف درهم .

ومن ذلك ماروى أن معاوية حج فسأل عن آمرأة من بنى كنانة كانت تنزِل الحَجُون يقال لها الدارِميَّة، وكانت سوداءَ كثيرةَ اللحم ، فأُخْبر بسلامتها فجىء بها، فقال ما حالكِ يا آبنة حامٍ؟ — قالت لستُ لحامٍ أُدعى، إن عِبْتنى أنا آمرأة من بنى كنانة — قال: صدقتِ أتدرين لِمَ أرسلت إليك؟ قالت لا يعلم الغيب إلا الله — قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببْتِ عليا وأبغضتينى ، وواليتيه وعاديْتِينى ؟ — قالت أو تُعْفِينى

(١) أى أقام اقامة من اخ .

يا أمير المؤمنين — قال لا أُعْفيك — قالت أما إذا أبيت، فإني أحببت عليا على عَدْله في الرعية، وقَسْمه بالسوية، وأبغضتك على قتالك مَنْ هو أولى بالأمر منك، وطلبك ما ليس لك بحق، وواليتُ عليا على ماعُقِد له من الوِلَاية، وعلى حبّه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفكك الدّماء، وجَوْرك في القضاء، وحكمك بالهوى — قال ولذلك ٱنتفخ بَطْنُك، وعظُم ثدياك، وربَتْ عجيزتُك — قالت ياهذا بهند كانت تضرب الأمثال، لابي — قال ياهذه ٱربَعِي فإنا لم نقل إلا خيرا إنه إذا ٱنتفخ بطن المرأة تَمّ خلْق ولدها، وإذا عظُم ثدياها تَروى رضيعها، وإذا عَظُمت عجيزتها رزُن مجلسها فرجعت وسكَنَتْ — قال لها فهل رأيت عليا؟ قالت لقد كنت رأيتُه — قال كيف كنت رأيتِيه، قالتْ رأيته لم يفتنه المُلْك الذى فتنك، ولم تشغله النِّعمة التى شغلتك — قال لها: فهل سمعتِ كلامه؟ قالت: نعم، والله كان يجلُو القلوبَ من العمى، كما يجلو الزيت الطَّست من الصدإ — قال: صدقت فهل لك من حاجة؟ قالت: وتفعل إذا سألتك؟ — قال نعم — قالت: تعطيني مائة ناقة حمراءَ فيها فحلُها وراعيها — قال تصنعين بها ماذا؟ — قالت أُغذِّى بألبانها الصِّغار، وأستحيي بها الكِبارَ، وأُصْلح بها بين العشائر — قال فإن أعطيتك ذلكِ فهل أحُلُّ عندك مَحَلَّ علي؟ — قالت ماءٌ ولا كصَدّاء، ومرعًى ولا كالسَّعْدان، وفتًى ولا كمالك، ياسبحان الله أو دُونَه، فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أَعُدْ بالحِـــلْم مِنّى إليكُمُ * فَمَنْ ذَا الَّذى بَعْدِى يُؤَمَّلُ لِلحِلْمِ؟
خُذِيها هنيئًا وٱذْكُرِى فِعْل ماجِدٍ * جَزَاكِ على حَرْبِ العَدَاوةِ بالسِّلْمِ.

ثم قال: أما والله! لوكان عليا ما أعطاكِ منها شيئا — قالت والله ولا وبَرَةً واحدة من مال المسلمين.

ومن ذلك ما يروى أن أم البراء بنت صفوان آستأذنت على معاوية فأذن لها فدخلت عليه، وعليها ثلاثة دُروع بُرود تسحبها ذراعا، قد لاثت على رأسها كَوْرا كالمِنْسَف فسلّمت وجلست، فقال لها معاوية كيف أنتِ ياآبنةَ صفوان؟ — قالت بخير يا أمير المؤمنين — قال كيف حالك؟ — قالت كَسِلْت بعد نَشاط — قال شتّان بينك اليومَ وحينَ تقولين :

يازَيْدُ دُونَكَ صارِمًا ذَا رَوْنَقٍ * عَضْبِ المَهَزَّةِ لَيْسَ بالخَوَّار
أَسْرِجْ جَوَادَكَ مُسْرِعًا ومشَمِّرًا * للحَرْبِ غَيْرَ مُعَوَّدٍ لِفرَار
أَجِبِ الإمامَ وذُبَّ تَحْتَ لِوَائِهِ * والقَ العَدُوَّ بِصَارِمٍ بَتَّارِ
ياليْتَنِي أصبَحْتُ لستُ قَعِيدَةً * فأَذُبَّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الفُجَّار

قالت قد كان ذلك، ومثلك مَنْ عفا عمّا سلف ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ منه﴾. قال هيهاتَ، أما والله لو عاد لعُدتِ، ولكنه اخْتُرِم منك — قالت أجل! والله إني لعلى بينة من ربي وهُدًى من أمرى — قال كيف كان قولك حين قتل؟ — قالت أُنْسيته؛ قال بعض جلسائه هو والله حين تقول :

ياللرِّجال لِعُظْمِ هَوْلِ مُصيبةٍ * فَدَحتْ فلَيْسَ مُصابُها بالحائِل
الشَّمسُ كاسِفةٌ لفَقْدِ إمامنَا * خَيْرِ الخلائِق والإمامِ العادِل
حاشَى النبيَّ لقد هَدَدتَ قُواءنا (١) * فالحقُّ أصْبح خَاضِعًا للباطِل

فقال معاوية : قاتلك الله فما تركت مقالا لقائل، آذكُرِي حاجَتَك — قالت أما الآن فلا، وقامتْ فعثَرتْ، فقالت تَعِس شانئُ علىّ! فقال زعَمتِ أن لا؛ قالت هو كما علمتَ؛ فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة، وقال إذا ضَيَّعتُ الحلْمَ فَمَنْ يحفَظه؟

(١) جمع القوة قوى مقصور وإنما مد للضرورة.

ومن ذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب إلىٰ عدىّ بن أرطاةَ : أن ٱجمع بين إياس بن معاوية والقاسمِ بن ربيعة فولِّ القضاء أنفَذهما ، فجمع بينهما ، وكانا غير راغبين فى القضاء . فقال إياسٌ : أيهـا الرجلُ سـلْ عنى وعن القاسم فقيهَى المصر الحسنَ وٱبنَ سِيرين، وكان القاسم يأتى الحسنَ وٱبنَ سـيرين، وإياسٌ لايأتيهما، فعلم القاسم أنه إن سألها عنه أشارا به، فقال له : لاتسأل عنى ولا عنه، فوالله الذى لاإله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه منى وأعلم بالقضاء، فإن كنتُ كاذبا فما أشير عليك أن توليني وأنا كاذب، وإن كنت صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى — قال له إياس إنك جئت برجل فوقفْتَ به علىٰ شفير جهنم فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما كان — قال له عدىّ : أما إذ فهمتها فأنت لها فٱستقضاه .

ومن ذلك : ماحكاه صاحب العقد عن زياد عن مالك بن أنس ، قال "خطَب أبو جعفر المنصور، فحمِد الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال : أيها الناس ٱتقوا اللهَ، فقام إليه رجل من عرَض الناس، فقال أُذَكِّرك الذى ذكَّرتنا به. فأجابه أبو جعفر بلا فكر ولا روِيَّة : سمْعًـا سمْعـا لمن ذكَّر بالله ، وأعوذ بالله أن أذَكِّرك به وأنساه فتأخُذُنى العِزَّة بالإثم ؟ لقـد ضَلَلْت إذًا وَمَا أنَا مِنَ الْمُهْتَدِين، وأما أنت فوالله ما اللهَ أردتَ بهذا، ولكن ليقال قام فقال، فعُوقِب فصـبرَ، وأهْوِنْ بهـا لو كانت ، وأنا أنذركم أيها الناس أختها، فإن الموعظة علينا نزلت، وفينا ٱنْبَتَّتْ . ثم رجع إلىٰ مكانه من الخطبة .

ومن ذلك : مايحكىٰ عن الربيع قال : كنا وقوفا علىٰ رأسِ المنصور، وقد طُرِحت للمهدىّ بن المنصور وسادةٌ إذ أقبل صالح بن المنصور، وكان قد رَشَّحه أن يولِّيه بعض أمره ، فقام بين السِّماطين والناس علىٰ قدر أنسابهم ومواضعهم ، فتكلم فأجاد ، فمدّ

المنصورُ يدَه إليه، ثم قال يا بُنَىّ ! وٱعتنقه، ونظر فى وجوه أصحابه هل فيهم أحد يذكر مقامه ويصف فضلَه ، فكلهم كره ذلك وهاب المهدىّ، فقام شبة بن عقال التميمىّ، فقال : "لله درّ خطيب قام عندك ياأمير المؤمنين ! ما أفصحَ لسانَه ! وأحسن بيانَه ! وأمضى جَنانَه ! وأبلّ ريقَه ! وأسهل طريقه ! . وكيف لايكون كذلك وأمير المؤمنين أبوه، والمهدىّ أخوه، وهو كما قال زُهَير بن أبى سُلْمىٰ :

يَطْلُبُ شَأْوَ آمْرأَيْنِ قَدّمَا حسنًا * بَذَّا الملوك وبَذَّا هذه السُّوَقَا
هُوَ الجَوَادُ فإن يَلْحَق بشَأْوِهما * علىٰ تَكَالِيفِه فمثلُهُ لَحِقا
أوْ يَسْبِقَاهُ علىٰ ما كان من مَهَل * فمثلَ ما قدّما مِنْ صَالِحٍ سبقا

قال الربيع : فأقبل علىّ بعضُ من حضر، وقال والله ما رأيت مثل هذا تخلُّصا(١) أرضىٰ أميرَ المؤمنين ، ومدح الغلام، وسلِمَ من المهدىّ . فالتفت إلىّ المنصور ، وقال : ياربيع لاينصرِفُ التميمى إلا بثلاثين ألف درهم .

ومن ذلك ما حكى أنّ رجلا دخل علىٰ المهدىّ ولىّ عهد المنصور ، فقال ياأمير المؤمنين إن أمير المؤمنين المنصورَ شَتَمَنى وقذف أمى، فإما أمرتنى أنْ أحلّله ، وإما عوَّضتنى فاستغفرت له — قال ولم شتمك ؟ — قال شتمت عدوّه بحضرته ، فغضب — فقال ومَنْ عدوّه الذى غضِب لشتمه — قال إبراهيم بن عبد الله بن حسن — قال إن إبراهيم أمسُّ به رَحِما، وأوجبُ عليه حقا، فإن كان شتمك كما زعمت فعن رَحِمه ذَبَّ، وعن عرضه دَفَع، وما أساء مَنِ ٱنتصر لٱبن عمه — قال فإنه كان عدوَّه — قال فلم ينتصر للعَداوة ، إنما ٱنتصر للرحم ، فأُسْكِت الرجل ، فلما ذهب ليوَلّى قال : لعلك أردتَ أمرا فلم تجد له ذريعةً عندك أبلغَ من هذه الدعوىٰ؟ — قال نعم، فتبسم وأمر له بخمسة آلاف درهم .

(١) فى الضوء محاجيا .

ومن ذلك ما حكى: أن المنصور قال لبعض قواده : صدق الذى قال "أَجِعْ كَلْبَكَ يَتْبَعَكَ" فقال له أبو العباس الطوسى : أما تخشىٰ يا أمير المؤمنين أن يلوّح له غيرُك رغيفا فيتبعَه ويَدَعَك .

ومن ذلك ما يحكى : أنه وفد أهل الحجاز من قريش علىٰ هشامِ بنِ عبد الملك بن مَرْوان، وفيهـم محمد بن أبى الجَهْم بن حذيفة العَدَوى ، وكان أعظمهم قـدرا ، وأ كبَرَهم سنا؛ فقال ــ أصلح الله أمير المؤمنين، إنّ خُطباء قريش قد قالت فيك ، وأقلَّتْ وأ كثرتْ وأطنبت، وما بلغ قائلُهم قدرَك ، ولا أحصىٰ مُطْنِبهـم فضلك ؛ وان أذنتَ فى القول قلت ــ قال قُلْ وأوْجز ــ قال تولّاك الله يا أمير المؤمنيـــن بالحسنىٰ، وزينك بالتقوىٰ،وجمع لك خير الآخرةوالأولىٰ! إن لى حوائج أفأذكرها، قال هاتها ــ قال كبِرتْ سِنِّى ودقَّ عظمى، ونال الدهر منى؛ فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يَجْبُرَ كَسْرِى، وينفِىَ فقرى ــ قال : وما الذى ينفى فقرك ويجبر كسرك؟ ــ قال ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار . فأطرق هشام طويلا، ثم قال : هيهات يآبن أبى الجَهْـم، بيتُ المـال لا يحتمل ماسألت ــ فقال : أما إن الأمر لواحد، ولكن الله آثرك لمجلســك فإن تعطنا فحقَّنـا أدّيت ، و إن تمنعنا نسأل الذى بيـده ماحوَيْت؛ إنّ الله جعـل العطاء محَبَّة، والمنع مَبْغضة، ولأن أُحِبَّك (١) أحبُّ إلىّ مِنْ أن أُبْغِضَـك ــ قال : فألف دينار لمـاذا؟ ــ قال أقضى بها دينا قد حُمَّ قضاؤه، وحَنَانِى حِمْـله ، وأضرَّبى أهـلُه ــ قال : فلا بأسَ تُنفِّس كُرْبة ، وتؤدِّى أمانة؛ وألفُ دينار لماذا؟ ــ قال أُزَوِّج بها مَنْ بلغ من وَلَدى ــ قال : نعم المَسْلك سلكْت، أغْضَضْت بصرا، وأعففْت ذكرا ، ورَوَّجْت نسلا، وألف دينار لمـاذا؟ ــ قال

(١) فى الأصل . ولئن وهو خطأ فى الرسم .

أشترِى بها أرضا يعيشُ بها وَلَدى ، وأستعين بفضلها علىٰ نوائب دهرى ، وتكون ذُخْرا لمن بعدى ؛ قال : فإنا قد أمرنا لك بما سألت — قال فالمحمودُ اللهُ علىٰ ذلك ، وخرج — فقال هشام : مارأيت رجلا أوجز فى مَقال ، ولا أبلغ فى بيان منه ، وإنا لنعرِف الحقَّ إذا نزل ، ونكره الإسراف والبَخَل ، وما نُعْطى تبذيرا ، ولا نمنع تقتيرا ، وما نحن إلا خُزَّان الله فى بلاده ، وأمناؤه علىٰ عباده ، فإن أذِن أعطينا ، وإذا منَع أبينا ، ولو كان كل قائل يصدق ، وكلُّ سائل يستحِقُّ ، ماجَبَهْنا قائلا ، ولا ردَدْنا سائلا ؛ فنسأل الذى بيده ما آستَحْفَظنا أن يُجْرِيَه علىٰ أيدينا فإنه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ويَقْدِر ، إنَّه كانَ بِعِبادِهِ خَبِيرًا بَصِيرا . فقالوا يا أمير المؤمنين لقد تكلَّمْت فأبْلغتَ ، وما بلغ فى كلامه ما قَصَصْت ، فقال إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمُقْتدى .

والحكايات والأخبار فى ذلك كثيرة ، والإطناب يُخْرِج عن المقصود ، ويؤدّى إلىٰ المَلال ، وفيما ذكرنا من ذلك مَقْنَع والله أعلم .

المقصد الثالث

(فى كيفية تصرُّف الكاتب فى مثل هذه المكاتبات والرسائل)

غير خاف علىٰ مَن تعاطىٰ صناعة النثر والنظم أنه لا يستقِلُّ أحد باستخراج جميع المعانى بنفسه ، ولا يستغنى عن النظر فى كلام مَنْ تقدّمه : لآقتباس مافيه من المعانى الرائقة ، والألفاظ الفائقة ، مع معرفة ترتيب أهل كل زمن وآصطلاحهم ، فيَنْسِج علىٰ منوالهم ، أو يقترح طريقة تخالفهم ؛ وتوارُد الكتّاب والشعراءِ علىٰ المعانى غير مجهول ، فإن التوارد يقع فى الشعر الذى هو مبنىّ على أصل واحد من وزن وقافية ، فإنه إذا وقف علىٰ المعنىٰ وترتيب الكلام ، عرف كيف ينسِج الكلام ؛ مثل أن

يكتب فى تهنئة بمولود: قد جعلك اللهُ من نَبْعة طابتْ مَغارِسها، ورسخَتْ عُروقها، فالزيادةُ فيها زيادةٌ فى جوهَر الكرم، وذخيرةٌ نفيسة لذوى الإقبال، فتولّى الله نِعمَه عندك بالحراسة الوافيه، والوِلاية الكافيه . وقد بلغنى الخبر بحُدوث الولد المبارك، والفَرْع الطيب، الذى عَمَر أفنيةَ السياده، وأضحك مطْلَع السعاده، فتباشرتُ بذلك وٱبتهجتُ به، فجعله الله بَرّا تقيًا، سعيدا حميدا، يتقيّل سلَفَه، ويقتفى أثرَهم، وأيمَنَ به عددك، وكثّر به ذرّيتك، وأوْزعَك الشكرَ عليه، وأجارك فيه من الثُّكْل برحمته .

فيأخذ آخَرُ المعنىٰ، ويورده بألفاظ أخرىٰ، فيقول : قد جعلك الله من شجرة زكَتْ غُصُونها، وفرع شَرُفت مَنَابته، فالنموّ فيها نعمة كاملةُ السعادة، وغِبْطةٌ شاملة السرور، فتولّى الله فضلَه عليك بالحِفَاظ الراعى، والدِّفاع الكالِى؛ وقد ٱتصل بى خبر السليل الرضِىّ، والولد الصالح الذى جدّد فوائدَ السيادة، وثبّت أساس الرفعة، فاغتبطْتُ به وٱستبشرتُ، جعله الله تعالىٰ ولدا ميْمُونا، ونجلا سعيدا، يسلك مَنَاهج سلَفه، ويحْذُو فى المحاسن حذوهم، وزاد به فى ثروتك، وأراك فيه غايةَ أملك، وسرّك بوجوده، وأسعدك برؤيته .

فالمعنى والفصل واحد، والألفاظ مختلفة . وكذلك ما يجرى هذا المجرى وما فى معناه .

قلت : ولا ينهض بمثل ذلك إلا مَنْ رسَخَتْ فى صنعة الكتابة قدمه، وٱمتزَج بأجزاء الفصاحة والبلاغة لحمه ودَمُه؛ وهذا المنهج هو أحد أنواع الإعجاز فى القرءان الكريم، فإن القِصّة الواحدة تتكرر فيه مرارا فى سُوَر متعدّدة، تردُ فى كل سورة بلفظ وتركيب غير الذى وردت به فى الأخرى، مع ٱستيفاء حدِّ البلاغة ونهاية أمَدِ الفصاحة؛ ولذلك قلّ مَنْ سلك هذا المنهج، أو ٱرتقى هذه الذِّرْوة، وقد أتىٰ علىّ بن

حمزة بنِ طلحة فى كتابه "الاقتداء بالأفاضل" من ذلك بالعَجَب العُجاب، فإنه قد استحسن كلامَ الخطيب ابن نُباتة الفارقىّ، والأمير قابوس الخُراسانىّ، والوزير أبى القاسم المقرى، والصاحب ابن عباد، وأبى إسحاق الصابى، الذين هم رؤساء الكتابة، وأئمة الخطَابة، من الرسائل والعهود البديعة، والخُطَب الموجَزة الرائقة، فجرّد معانيَها من ألفاظها، واخترع لها ألفاظا غير ألفاظها، مع زيادة تنميق، ومراعاة ترصيف، علىٰ أتم نظام، وأحسن التئام .

وهاتان نسختا كتابين، الأُولىٰ منهما كتب بها أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة ابن بُوَيه جوابا عن كتاب وصل إليه عن أخيه عَضُد الدولة يخبره بمولود وُلِد له . والثانية عارض بها عَلِىُّ بن حمزة المذكور أبا إسحاق الصابى فى ذلك بألفاظ أُخْرىٰ مع اتحاد المعنىٰ .

فأما التى كتب بها أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة إلىٰ عضد الدولة فهى :

"وصل كتابُ سيِّدى الأميرِ عضد الدولة أطال الله بقاءه بالخبر السارّ للأولياء، الكابتِ للأعداء، فى الولد الحبيب الأثير، والسيد المُقبَّل الخطير، الذى زاد الله به فى عددنا، وجدّد نعمه عندنا، وحقق فيه آمالَنا والآمال لنا ؛ فأخذ ذلك منى مأْخَذ الاغتباط ونزل عِنْدى أعلىٰ منازل الابتهاج، وسألت الله تعالىٰ أن يختصه بالبقاء الطويل، والعُمُر المديد، وأن يجعل مواهبه لسيدى الأمير نامية بنموّه، ناشية بنشوّه : ليكون كلُّ يوم من أيامه مُمِدّا له من فضله عاده، وواعدًا له من غَدِه بزياده، ومُحدِثا لديه مِنْحةً تتضاعف إلىٰ ما سبق من أمثالها، ومجدّدا له عازمة تتلو ما سلف من أشكالها ؛ وأن يريه إياه غرّةً فى وجه دولته، ووارثا بعد سالفه البقاء لمنزلته، قائما للملك قيامه، وسادّا منه مكانه ؛ ويَهَبَ له بعد الأكابر النجباء السابقين، أترابا من الإخوة لاحقين،

• تابع منهم من مباراة المتبوع، وشافع من مجاراة المشفوع، فى فائدة تقـدَم بمَقْدَمه، وعائدة تَرِد بمورِده؛ ويحرس هذه السعادة من خلل يعترض آتصالها، أو فَتْرة تخترم زمانها، أو نائبة تشوبها، أو تنغصها، أو رزِيَّة تَثْلِمها، أوتنقصها. إلا أنها (١) الأمدالأبعد والعمر الأطول؛ ثم تُفْضِى به غَضَارة هذه الدار الدنيا، إلىٰ قرارة الدار الأخرىٰ، مبوّأ أوْفَى مراتبها، مبلَّغا أقصىٰ مبالغها، حالًّا أرفع درجاتها، مختصا بأنعُمِها، مبتهجا بها، مستثمرا ما قدّمه لصالح سعيه، ومستوفِيًا ما أفاءه عليه مَتْجَرُه الرابح، وآثاره البادية لإنفاقه فى أيام نظرى (٢) التى آستشعَرتْ نُورا من سـنائه، وآنستْ جمالا من بهائه، وثابَتْ مصالحها ببركتِه، وتوافتْ خيراتها بيمينه؛ وآعتقدتُ أن السعادات طالعةعلىٰ بمطْلَعه، وأسبابها ناجمة إلىّ بمَنْجَمه؛ فلو آستطعت أن أكون مكان كتابى هذامشافها بالتهنئة لسيدى الأمير عضُدِ الدولة أطال الله بقاءه ومقبِّلا لبساطه، لكنت أولىٰ عبيده بالمسارعة إلىٰ بابه، وأحقَّهم بالمبادرة إلىٰ فِنائه: لأننى معوَّق عن تلك الخدمة بخدمة أنافيهامن قبله، ومقيم بهذه الحضرة، إقامةَ المتصرفين تحت أمره، وقد وفَّيت نعمةالله تعالىٰ، الواهبِ منه أيده الله تعالىٰ مايُقِرّ عينَ الولِىّ، ويُقْذِى عينَ العدوّ ويطرفها، حقَّها من الشكر المترى للمُقـام والمزيد، بدوام العز والتأييـد؛ وأسأل الله تعالىٰ أن يجعل ذلك مَقْبولا عنه، ونافعًا له، وعائدًا عليـه وعلينا بطُول العُمُر وبباهى النُّشُوّ والنمـاء، وأن يعرّف سيدى الأمير عضدَ الدولة أيده الله بركةَ مولده، ويُمْنَ مورده، ويبقيه حتّى يراه والأمراءَ السابقين أيدهم الله تعالىٰ آباءَ أمثالهم، وأشياخ ذريتهـم، مُبلَّغا فى كل منهم أفضلَ مارَشَّحته له أمانيه، وأعلىٰ ما آنبسطت آماله فيه، بقدرته.

وأنا أتوقع الـكتاب بمـا يقـرّر عليه آسم الأمير السـيد وكنيته، أعلاها الله تعـالىٰ لأستأنف إقامة الرسم فى مكاتبته، وتأديةَ الفرض فى خدمته؛ وسيدى عضد الدولة،

---

(١) لعله الى إنهاء كما يفيده السياق. (٢) كذا فى الأصول وليحرر.

أطال الله بقاءه، أعلىٰ عينا فيما يراه بمطالعتى بذلك وبكل ما يُولِيـه الله من مستأنَف نِعَمه، ويجدّده له فى حادث مواهبه له، لآخُذَ بحظى منهما، فأضربَ بسهمى فيهما، وتصريفى بين أمره ونهيه، وتشريفى بعوارض خدمته، إن شاء الله تعالىٰ .

وأما التى عارضها بها علىّ بن حمزة بن طلحة فهى :

وصلنى كتابُ سـيدى الأمير عضد الدولة ، أطال الله بقاءه ، بالبشرىٰ المبتَسِمة عن ناجذ السعد الآنف، والنُّعْمَى المنتَسِمة عن صَبا المجد المتضاعف ؛ التى أشرقتْ مطالع الإقبال عن مُحَيَّاها، وتضوعتْ نَفَحاتُ دَرْك الآمال عن رَيَّاها ، وصـدقت من الأولياء ظُنونهم المرتقَبه، وٱنتَخبَتْ من الأعداء عُيونَهم المرتعِبه ؛ بالولد النجيب الخطير، الأمير الحبيب الظَّهير، المجيد المعمَّر، المقَيَّل المؤمَّر، الذى كثر الله به عدَدَنا معشر أهليه، وعُدَدنا بما نرتقبه منه ونُراعيه، وهو تكَرِمة تُحَقِّق ظنونا بمـا له نرتجيه، وما نؤمِّله من السـعادة المقبلة فيه؛ فاسـتفزتنى غِبْطة ٱستحوذتْ علىٰ جوامع لُبِّى ، وتملكتنى بهجةٌ ثوتْ فى مَرابع قلبى؛ وطفِقتُ مبتهلا، وتضرَّعت متوسلا، إلىٰ ذى العَرْشِ المَجِيـد، الفَعَّالِ لِمَـا يُرِيد، أن يجمع له بين العُمُر المديد، والجدّ السعيد، كِفاءَ ماقرن له بين المجد العتيد ، والمُلْك الوطيد ؛ وأن يجعل تحيَّاتِ أياديه لدىٰ سـيدى الأمير متضاعفـة الأعداد، مترادفة الأمداد ، مبشرة بنُجَباء الأولاد، يربى آنفُها علىٰ السالف بسـعده، ويُلْهِى عن تالدها الطارفُ بعلو مجده ؛ وأن يريه إيَّاه علىٰ مَفْرَق دولته، وغُرَّة تُشْرق فى جبهة ذرّيته، وناهضا بأعباء مملكته، وقائما بنصرة دَعْوته، حتّٰى يرىٰ أولاد أولاده جُدُودا، مظفرا سعيدا؛ وأن يُتْبعه أترابا من الإخوة النجباء؛ الأماجد السعداء؛ متجارين فى حَلَبات علو الهمم، متبارين فى مَزِيَّات إيلاء النعم ؛ ليَترايدَ ٱزدحام وُفُود السـعادة فى عَتَبات بابه، ويترافد ٱقتحام جنود الإقبال رحيب جَنَابه؛ ويحرُس لديه ماخوّله من مواهبه وأياديه، ويحفظ عليه مابه فَضَّله من مناقبه

ومعاليه ؛ ويقيه من كيد عاند إذا عند ، ويحميه من شَرِّ حاسدٍ إذا حسد ؛ وأن يؤتيه عائدتى العاجلة والعقبىٰ ، ويُحْظِيه بسعادتى الآخرة والأولىٰ ؛ وأن يجعل سعيه فى مصالح عباده مشكورا ، ونظَرَه فى مَنَاجح بلاده مبرورا ؛ وأن يُغَادر مَتَاجِرَ بره وتقواه رابحه ، كما جعل خواطرَ سره ونجواه صالحه ؛ فرياض الأيام بعدله نواضر ، ونواظر الأنام إلىٰ فضـله نواظر ؛ ومصالحهـم بيُمْنه وبركته موافيه ، وبراعتهم بهمته وسـعادته مواتيه ؛ وإنى لأعتقد أن مَقِيلى فى أفياء السعاده ، ونَيْلى كلَّ مأمول وإراده ، وتوفيق فيما أُوفَّق فيه ، بمـا أعتمِده وآتيه ، جَدْول من تَيَّار فضـله وسعادته ، مَنُوط العُرىٰ بسموّ همتِه ؛ وأودّ أن أكونَ عوضًا عن كتابى هذا إليه ، وخِطابى الوارد آنفا عليه ؛ لأسعدَ بالأُلاء غُرَّته ، وأحظىٰ بالأشرف من خِدْمته ؛ أدام الله أيام دولتـه : لأنى أجدر عبيده بالمهاجَرة إلىٰ بابه ، وأولىٰ خَدَمه بالمبادرة إلىٰ جنابه ؛ ولولا تحملى أعباءَ خدمته التى طوّقنيها ، وكونى نائبه لدىٰ هـذه الحضرة فيهـا ، ثاويا بأوامره ونواهيه فى مَغَانيها ، لَـمَـا شَقَّ غبارى من أمّ ذُراه ، ولا ٱتَّبع آثارى مُسرِعٌ رام لُقْياه . ولقد قمت بالواجب علىّ للنعمة أيده الله المُنْزلةِ إلىّ ، والمَوْهِبـة بمَقدَمه كلأه الله المُكْمَلة لدىّ ، التى أضحت بها نواجذ المخلِص ضاحكةً مسـتبشره ، وأمستْ بسببها وجوه الـكاشحيـن عابسةً مستبسره : من وافر شكرٍ يمترِى المَزِيد ، وعتقِ الإماء والعبيد ، والصدقة الدارّة علىٰ التأبيد ؛ وأنا أرغب إلىٰ الله تعالىٰ رغبةَ متوسل إليه ، آمل بمـا لديه ، أن يجعل بركة كل خير درّتْ به أخلافه ، وكَرّت لأجله أحلافه ، عائدةً عليه ، ومَيامنَه ثائبة إليه ، مؤذنة بتعميره مَلِكا حُلاَحِلا ، لايلقىٰ مؤمِّلوه لِيَمِّ فضله ساحلا ؛ وأن يمدّ لسـيدى عضدِ الدولة فى البقاء ، ويمتعه به وبسابقيه من إخوته الأمراء ؛ ويريه فيهم وفيه ، قُصْوىٰ ماتسمو إليه هممه وأمانيه . وإنى لمتوكف لمـا يصلنى من كتاب ينبئُ عن ٱسمه الكريم وكنيته ، لأعتمد ما أستوجبه فى خدمته ومكاتبته ؛

وسيدى عضد الدولة أدام الله عُلاه، ولىّ مايستصوبه ويراه : من الأمر بمكاتبتى بذلك وبمتجددات النعم، وأوانف المواهب الغالية القيم، لآخذ وافر سهمى من السرور، وجزيل قَسْمى من الجَذَل والحبور، وتصريفى بين أمره الممتثل المطاع، ونهيه المقابَل بالآتباع، إن شاء الله تعالىٰ .

النــوع العاشر

الآستكثار من حفظ الأشعار الرائقة، خصوصا أشعارَ العرب وما توفرت دواعى العلماء بها علىٰ آختياره : كالحماسة، والمفَضَّليَّات، والأصمعيات، وديوان هذيل، وما أشبه ذلك؛ وفهم معانيها وآستكشاف غوامضها، والتوفر علىٰ مطالعة شروحها؛ ويلتحق بذلك شعرُ المولَّدين من العرب، وهم الذين كانوا فى أوّل الإسلام : كجرير والفرزدق، والأخطل وغيرهم؛ وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المفلقين من المحدَثين: كأبى تمام، ومسلم بن الوليد، والبحترى، وآبن الرومى، والمتنبى ونحوهم؛ وفيه مقصدان :

المقصــد الأوّل

(فى بيان آحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

أما شعر العرب والمولدين فلما فى ذلك من غزارة الموادّ، وصحة الآستشهاد، وكثرة النقل، وصَقْل مرْآة العقل، وآنتزاع الأمثال، والآحتذاء فى آختراع المعانى علىٰ أصح مثال؛ والآطلاع علىٰ أصول اللغة وشواهدها، والآضطلاع من نوادر العربية وشواردها . وقد كان الصدر الأوّل يعتنون بذلك غاية الآعتناء . قال محمد بن سلام عن بعض مشايخه "كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لايكاد يَعْرِض له أمر إلا أنشد

فيه بيت شعر". وذكر صاحب "الريحان والريعان" عن سعيد بن المسيب أنه قال: كان أبو بكر وعمر وعليّ يجيدون الشعر وعليّ أشعر الثلاثة . قال : وكان عمر بن الخطاب يقول أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدّمها بين يدى حاجته يستعطف بها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم . وقد ذكر عن الشافعيّ رضى الله عنه أو غيره من بعض الأئمة الأربعة : أنه كان يحفظ ديوان هذيل ، وأما قول الشافعيّ رضى الله عنه .

وَلَوْلا الشِّعرُ بالعُلماء يُزْرِى * لكُنْتُ اليومَ أشعرَ من لَبِيد

فإنه يريد مَنْ صرف همته إلىٰ الشعر، بحيث صار شأنَه وديدنَه ، وهو المعنيّ بقوله صلى الله عليه وسلم "لَأَنْ يَمْلَأَ أَحَدُكُمْ جَوْفَه قَيْحا خَيرٌ مِنْ أَنْ يَمْلَأَهُ شِعْرا" أى أراد صرف همته إليه حتّى يملأ جوفه منه . وقد قال صلى الله عليه وسلم "إنَّ منَ الشِّعْر لَحِكْمَةً" . وكان عمر رضى الله عنه يسمع البيت يُعجبه فيكرره مراتٍ كما ذكره الحافظ وغيره . وقد ذكر أبو البركات بن الأنبارىّ فى كتاب "طبقات الأدباء" فى ترجمة أبى جعفر أحمد بن إسحاق البهلول بن حسان الأنبارىّ : أنه كان فقيها ، عالما ، واسع الأدب وتقلد القضاء لعدّة من الخلفاء . ثم حكىٰ عن ولده أبى طالب أنه قال كنت مع والدى فى جَنازة بعض أهل بغداد من وجوه الناس وإلىٰ جانبه أبو جعفر الطبرىّ ، فأخذ أبى يعظ صاحبَ المُصيبة ويُسَلِّيه ، ويُنْشد أشعارا ، ويروِى له أخبارا ، فداخله الطبرىّ فى ذلك ، ثم آتسع الأمر بينهما فى المذاكرة ، وخرجا الى فنون كثيرة من الأدب والعلم آستحسنها الحاضرون وأُعْجِبوا بها ، وتعالىٰ النهار وآفترقنا ، فقال لى أبى يا بُنَىَّ مَنْ هذا الشيخ الذى داخلنا فى المذاكرة؟ فقلت : يا سيدى كأنك لم تعرفه ، فقال لا ، فقلت : هذا أبو جعفر الطبرىّ ، فقال إنا لله ! ما أحسنْتُ عِشْرتى معه ، فقلت كيف ياسيدى ؟ قال : ألا نَبَّهتنى فى الحال ،

فكنت أذاكره بغير تلك المذاكرة؟ هذا رجل مشهور بالحفظ والآتساع فى صنوف العلوم ، ماذاكرته بحسبها ؛ ومضت علىٰ ذلك مدة فحضرنا فى حقٍّ آخر وجلسنا ، وإذا بالطبرىّ قد دخل إلىٰ الحقّ . فقلت له : أيها القاضى هذا أبو جعفر الطبرىّ قد جاء مقبلا ، فأومأ إليه بالجلوس عنده ، فعدل إليه وجلس إلىٰ جانبه ، وأخذ يجاريه ، فكلما جاء إلىٰ قصيدة ذكر الطبرىّ منها أبياتا ، قال أبى : هاتها ياأبا جعفر إلىٰ آخرها فيتلعثم الطبرىّ فينشدها أبى إلىٰ آخرها ، وكلما ذكر شيئا من السِّيَر ، قال أبى هذا كان فى قصة فلان ، ويوم بنى فلان ، مرّ يا أبا جعفر فيه فربما مرّ فيه ، وربما تلعثم ، فيمرّ أبى فى جميعه . ثم قمنا ، فقال لى أبى : الآن شفيتُ صَدرى .

وأما أشعار المحدثين ، فللطف مأخذهم ، ودوران الصناعة فى كلامهم ، ودقة توليد المعانى فى أشعارهم ، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخَطابة ، والكتابة ؛ وخصوصا المتنبى ، الذى كأنه ينطق عن ألسنة الناس فى محاوراتهم ، وكثر الآستشهاد بشعره حتّى قلّ من يجهله ؛ فإذا أكثَرَ المترشّحُ للكتابة من حفظ الأشعار وتدبُّر معانيها ، ساقه الكلام إلىٰ إبراز ذخيرة ما فى حفظه منها ، فاستعملها فى محلها ، ووضعها فى أماكنها ، علىٰ حسب مايقتضيه الحال فى إيرادها وآقتباس معانيها .

المقصـــد الثـانى

(فى كيفية آستعمال الشـعر فى صناعة الكتابة)

علم أن للكاتب فى آستعمال الشعر فى كتابته ثلاث حالات :

الحـالة الأولى

(الاستشهاد)

وهوأن يُورد البيتَ من الشعر، أو البيتين، أو أكثرَ في خلال الكلام المنثور مطابقا لمعنىً ما تقدّم من النثر، ولا يشـترط فيه أن ينبه عليه بقال ونحوه كما يشـترط في الاستشهاد بآيات القرءان والأحاديث النبوية، فإن الشعر يتميز بوَزْنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلىٰ التنبيه عليه. وأكثر مايكون ذلك في المكاتَبَات الإخوانيات: مثل ما كتب به القاضي الفاضل إلىٰ بعض إخوانه يستوحِشُ منه، ويتشوّق إليه:

فيارَبِّ إن البَيْنَ أضحتْ صُروفُه * عليّ، ومالِي مِنْ مُعينٍ فكُنْ معِي
علىٰ قُرْبِ عُذَّالِي وبُعْدِ أحِبَّتِي * وأمْواهِ أجْفـانِي ونِيرانِ أضْلُعِي!

هذه تحية القلب المعذَّب، وسريرةُ الصبر المُذَبْذَب، وظُلامةُ عزم السلو المكذَّب، أصـدرتها إلىٰ المجلس وقد وَقَدَ في الحشا نارُها، الزفـيرُ أوارها، والدُّمُوع شَرارها، والشوق آثارها، وفي الفؤاد ثارُها:

لَوْ زارنِي مِنْكُمْ خيالٌ هاجِرٌ * لَهَدَتْه في ظَلْمـائه أنْوارُها

أسـفًا على أيام الاجتماع التي كـانت مواسمَ السرور والأسرار، ومباسمَ الثغور والأوطار، وتذكُّرًا لأوقات عَذُب مَذاقها، وامتدّ بالأُنس رواقها، وزوّجت بكرها، ودوعب ذكرها:

واللهِ مانَسِيَتْ نَفْسِي حَلاوتَها! * فَكَيْفَ أذْكُرُ أنِّي اليَوْمَ أذكُرُها؟

ومذ فارقت الجَناب، لازال جَنا جَنَابِه نَضِيرا، وسَنَا سَنائه مستطيرا، ومُلْكه في الخافقين خافقَ الأعلام، وعزُّه علىٰ الجديدين جديدَ الأيام، لم أقف منه علىٰ

كتاب تَخْلُف سطورهُ ما غسل الدمعُ من سَواد ناظرى ، ويُقْـدِم ببياض منظومه ومنثوره ما وَزَّعه البين من سُوَيداء خاطرى

ولم يَبْقَ فى الأحشاءِ إلّا صُبَابةٌ * من الصَّبْر تجرى فى الدُّموع البَوَادِر

وأسأله المَنَاب ، بشريف الجناب ، وأداءَ فرض ، تقبيل الأرض ، حيث تلتقى وفود الدنيـا والآخره ، وتعمُر البيوتَ العامره ، المنن الغامره ، وفضـلُ الظل غير منسوخ بهجيره ، ويُبَشِّر المجدُ بشخص لا تسمح الدنيا بنظيره :

تَظَاهر فى الدُّنيا بأشْرِف ظاهرٍ * فلم نَرَ أنْقىٰ منـه غيرَ ضَميره !
كَفَانِىَ فخرا أنْ أُسَمّى بعبْـدِه * وحَسْبِىَ هَدْياً أنْ أسيرَ بنُوره !
فأىُّ أميرٍ ليس يَشْرُف قـدرُه * اذا ما دَعاه صـادِقًا بأمـيره؟

وإنى فى السؤال بكتُبهُ أن يوصِّلها ليُوصِل بها لدىّ تهانى تملأ يدَى ويُودِع بها عندى مَسَرةً تقدَح فى الشكر زَنْدى .

عَهِدتُكَ ذا عَهْدٍ هو الوَرْدُ نَضْرةً * وما هُوَ مثلُ الوردِ فى قِصَرِ العَهْدِ

وأنا أترقب كتابه ٱرتقاب الهـلال : لتُفْطِر عين عن الكَرىٰ صائمه ، وتَرِدَ نفس عن موارد المـاء حائمه اه .

بل ربمـا كان كُلُّ المكاتبة أو جلها شعرا ، وقد يكون صدر المكاتبة شعرا وذيلُها نثرا ، وبالعكس . وقد يكون طَرَفاها نثرا وأوسطُها شـعرا ، وعكس ذلك بحسب مايقتضيه الترتيب ، ويسوق إليه التركيب ، وربمـا ٱكتفى بالبيت الواحد من الشعر فى الدلالة علىٰ المقصـد وبلوغ الغرض فى المكاتبة : كما كتب بعض ملوك الغرب إلىٰ من كرر كُتُبه ورسله إليه بقول المتنبي :

ولا كُتْبَ إلا المَشْرَفِيَّةُ عِنْـدَه * ولا رُسُلٌ إلا الخميسُ العرمْرَمُ

إلىٰ غير ذلك من المكاتبات المتضمنة للأشعار . أما مكاتبات الملوك الآن فقلَّ أن تستعمل فيها الأشعار، أو يستشهد فيها بالمنظوم والمنثور ، وقد تجيء التلقيحات بأبيات الشعر فى غير المكاتبات من الرسائل الموضوعة لرياضة الذهن ، وتنقيح الفكر كالرسائل الموضوعة فى صيد ملك أو فتح بلد أو نحو ذلك ؛ وقد أودعت المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء جملةً من الأبيات الشعرية ، أوردتها مورد الاستشهاد علىٰ ما يقتضيه المقام ، ويسوقُ إليه سياقُ الكلام ، علىٰ ماسلف ذكره عند الكلام علىٰ فضل الكتابة فيما تقدّم . وعند مطالعة كلامهم ، والوقوفِ علىٰ رسائلهم ، ترىٰ من أصناف الاستشهادات ما يروقك نظره ، ويُطربك سمْعُه .

الحـالة الثـانيـــة

(التضمين)

وهو أن يضمَّن البيتُ الكامل من الشعر أو نصفُ البيت لبعض القرينة . أما تضمين البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة فمثل ما كتب به القاضى الفاضل :

وصل من الحضرة

كتابٌ به ماءُ الحياةِ ونَقْعُه الـ * ـحَيَا فكأنّى إذ ظَفِرتُ بِه الخِضْر

فوقفت عنده منه علىٰ

عقود، هى الدُّرّ الذى أنتَ بحْرُه * وذلكَ ما لا يَدَّعِى مثْلَه البحرُ

ورتعت منه فى

رياض يدٍ تجنى وعينٍ وخاطرٍ * تَسابَقَ فيها النَّور والزَّهْرُ والثَّمْر

وكرعت منه فى حياض

تَسُرُّ مجانيها إذا ما جَنىٰ الظّما * وتُروِى مجارِيها إذا بَخِل القَطْرُ

وما زلت منه أنشده

كأنِّىَ سارٍ فى سَرِيرة ليـلةٍ * فلمّـا بَدَا كبَّرْتُ إذ طَلَع الفَجْرُ

و وافىٰ علىٰ ما كنت أعهد

نَخِلْتُ بأن العَيْنَ من سُحْبِ كَفِّه * فِمنْ ذا ومِنْ ذا فيـه يَنْتثِر الدُّرّ

وآسترجع فائت الدماء من مَوْرِده

وما كان عِنْدى بَعْدَ ذَنْبِ فِراقِهِ * بأنِّى أرىٰ يَوْمًا بِهِ بَعُـد الدَّهْرُ

ونَفَّس عن النَّفْس بأبيض أثمادِه وعَيَّن العَيْن بأسْوَد إثمده

به لَهُما سَبْحٌ(١) طويل فهـذه * علىٰ خاطرٍ بَرْدٌ ، وفى خَطَرٍ بَدْرُ

وجدّد إليه أشواقا جَدِيدُها

يَمُرّ بِهِ ثَوْبُ الجَدِيدَيْنِ دائمًـا * فيَبْلىٰ ولا يَبْلىٰ و إن بَلِىَ الدَّهْرُ

وذَكَّر أيامًا لا يزالُ يَستعِيدُها :

وهَيهاتَ أن يَأْتِى من الأمر فائتٌ * فدَعْ عَنْكَ هذا الأمْرَ قَدْ قُضِى الأمْرُ

وأما تضمين نصف البيت فمثل قول القاضى الفاضل :

وصل كتاب مولاىَ بعـدما ... * أجابَ المُنـادِى للصَّـلاةِ فأعْتَما

فلما آسـتقرّ لدىّ ... ... * تجلَّى الَّذى مِنْ جانِبِ البَدْر أظْلَما

فقـرأته ... ... * بعَيْنٍ إذا آسْتَمْطَرْتُهـا أمْطَرتْ دَمَا

وساءلته ... ... * فَسَاءلْتُ مَصْرُوفًا عن النُّطْقِ أعْجَما

(١) فى نسخة سمح . وفى أخرى سح . وكلاهما تصحيف كما هو ظاهر اذ يشير إلىٰ الآية الكريمة (إن لك فى النهار سبحا طويلا) .

ولم يردّ جوابا، ... ... * وَمَا ذَا عَلَيْـهِ لَوْ أجابَ الْمُتَيَّما ؟
وردّدتُه قراءةً، ... ... * فَعُوجِلْتُ دُونَ الحِـلمِ أنْ أتَحَلَّمَـا
وحفِظته، ... ... * كَمَا يَحْفَظُ الحُـرُّ الحَـدِيثَ الْمُكَتَّمَا
وكرّرته، ... ... * فَمـن حَيْثُ ما واجَهْتُـه قدْ تَبَسَّما
وقبّلتــه، ... ... * فَقَبَّلْتُ دُرًّا فى العُقُود مُنَظَّـمَا
وقُمْتُ له، ... ... * فكُنْتُ بمَفْـرُوضِ المَحَبَّـةِ قَيِّما
وأخلصتُ لكاتبه، ... ... * ولَيْس علىٰ حُكْمِ الحَوَادِث محـكما
ولم أصدّقه ! ... ... * ولكِنَّـــه قَدْ خالَطَ اللَّحْمَ والدَّمَا
وأرّخت وصوله، ... ... * فَكَانَ لايدى(١) الوسائم موسِما
وشفيتُ به غليـل ... ... * فؤادٍ أُمَنِّيــهِ وقَدْ بَلَغَ الظَّـما
وداويت عليل ... ... * حَشًا ضَرَّما فيـه من النار ضَرَّمَا
فأما تلك الأيام التى ... ... * حَمَاهـا علىٰ اللَّوْم المُقامُ علىٰ الحِمَـا
والليالى العِذاب التى ... ... * مَلأت بحُورَ الليـلِ بِيضًا وأنْجُما
وأرسلتُ الزفرة ... ... * فلَوْ صافَحَتْ رَضْوىٰ لَرُضَّ وهُدِّما
وأسبلتُ العبرة ... ... * كما أنشأ الأفقُ السحابَ المُدِيمَـا
وخطبت السَّلْوة ... ... * فأسألُ مَعْـدومًا وآمُـل مُعْـدِما
فأما الشكر فإنما ... ... * أُفُضُّ به مِسْـكًا عَلَيْـهِ مُخَتَّما
وأقوم منه بفرض ... ... * أرانى بِهِ دُونَ البرِيَّةِ أقْـوما
وأوفى واجب فرض ... ... * وكيْفَ تُوَفِّى الأرْضُ قَرْضًا من السما

---

(١) كذا فى الأصل ولعله جمع يد وأضيف للتكلم .

وربما ركبت القرينــة الكاملة علىٰ البيت أو نصف البيت كما كتب به القاضى الفاضل أيضا :

ورد كتاب الحضرة بعد أن عددت الليالى ليلة بعد ليلة لطلوع صديعه ... * وقد عِشْتُ دَهْرا لا أعُدُّ اللَّيَالِيَــا

وبعد أن انتظرتُ القيظَ والشتاءَ لفصل ربيعهِ ... ... * فَمَـا للنـوىٰ تَرْمِى بلَيْلَىٰ المَرامِيـا؟

واستروَحْت إلىٰ نسـيم سَحَره ... * إذا الصَّيفُ ألقىٰ فى الدِّيارِ المَرَاسيا

ومَددتُ يدى لاقتطافِ ثمـرِه ... * فلله ما أحْــلىٰ وأحْمىٰ المَجَانيـا !

ووقفت علىٰ شكواه من زمانه ... * فَبتُّ لِشَكْواهُ مِنَ الدَّهْرِ شـاكِيًا

وعجبت لعمىٰ الحظ عن مكانه ... * وقَدْ جَمَع الرحْمٰنُ فِيهِ المَعَانيَـا

وتوقَّعت له دولةً يعلوبها الفضل ... * إذا هَزَّ مِنْ تِلْكَ اليَراعِ عَوَاليا

ورتْبةً يرتقِى صَهْوتَها بحُكْمِ العدل ... * فربَّ مَراقٍ يُعْتَدَدْنَ مَهَـاوِيا

وإلىٰ الله أرغبُ فى إطلاع سعوده ... * زَوَاهِرَ فى أفْقِ العَــلاءِ زَوَاهِيـا

وفى إنهاض عثرات جُدودِه ... ... * فقد عثَّرتْ بعـد النُّهوضِ العواليا

وربمـا رُكِّب نصف البيت علىٰ نصف القرينة ، كما ذكرتُ فى المفاخرة بين السـيف والقلم فى الكلام علىٰ لسان السيف فى مخاطبته للقلم . وهو : وأنت وإن ذُكِرت فى التنزيل ، وتمسكْتَ من الامتنان بك فى قوله ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ بشُبهة التفضيل ، فقد حَرَّمَ الله تعالىٰ تعلُّم خطك علىٰ رسوله ، وحَرَمك من مسِّ أنامله الشريفة ما يُوسَىٰ علىٰ فوته ويُسَرّ بحصوله ؛ لكنى قد نِلْت من هــذه الرتبة أسنىٰ المقاصد ، وشهدت معه من الوقائع مالم تُشاهِدْ ، وحَلَّانى من كفه شَرَفا لا يزول حَلْيُه أبدا ، وقمت بنصره

فى كل مُعْتَرك . ، * فَسَلْ حُنَيْنًا وسَـلْ بَدْرا وسَلْ أُحُدا * ؛ فركّبت نصفَ بيت البردة على نصـف قرينـةٍ . وما ذكرته فى الرسالة التى كتبتها للمقرّ الفتحىّ صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وهو قد لبس شرفا لا تطمع الأيام فى خلعـه ، ولا يتطلّع الزمان إلى نزعه ، وآنتهى إليه المجد فوقّف ، وعرف الكرم مكانه فانحاز إليـه وعطف ، وحلّت الرياسةُ بفنَائه فآستغنَتْ به عن السِّوى ، وأناخت السيادة بأفيائه * فألقتْ عصَاها وآستَقَرَّ بها النوى *

وقد يضمِّن الكاتب بعض القرينة نصفَ بيت ، ثم يستطرد فيذكر أبياتًا كاملة الأجزاء على نَمَط أنصاف الأبيات التى يوردها ، كما فعل الشيخ ضياء الدين أحمد بن عمر بن يوسـف القرطبىّ فى رسالته للشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد تغمدهمـا الله برحمته فى قوله :

وينهى ورود عذرائه التى ... * لَهَا الشَّمْسُ خِدْنٌ والنُّجُومُ وَلائدُ
وحسنائه التى ... ... * لهـا الدُّرّ لفظٌ والدَّرارِى قلائدُ
ومشرفته التى ... ... * لهـا مِنْ بَرَاهِينِ البيَانِ شَواهِدُ
وكريمته التى ... ... * لهـا الفَضْل ورْد والمعالِى مَوارِدُ
وآيتها الكبرى التى دلّ فضلُهـا * على أنَّ مَنْ لم يَشْهَدِ الفَضْلَ جاحِدُ
وأنكَ سَـيْفٌ سـلَّهُ اللهُ للهدى * وليس لسَـيْفٍ سَـلَّهُ اللهُ غامِدُ

وقد يخالف بين قوافى أنصاف الأبيات التى يمزجها ببعض القرائن كما يخالف بين فواصل القرائن : كما فى قول البديع الهمذانى

أنا لقرب دار مولاى ... ... * كما طَرب النَّشْوَانُ مالَتْ بِهِ الخَمْـرُ
ومِنَ الآرتياح إلى لقائه ... ... * كما آنتَفَضَ العُصْـفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ

ومن الامتزاج بولائه ... ... * كما التقت الصَّهْباءُ والباردُ العَذْبُ
ومن الابتهاج بمزاره ... ... * كما اهتزَّ تحتَ البارح الغُصُن الرَّطْبُ

إلى غير ذلك من فنون الامتزاج التى يزاوج فيها بين المنثور والمنظوم، وينتهى فيها الكاتب إلى ما يبلغ به القدَر المحتوم .

أما تضمين بعض أبيات العرب فى بعض قصائد المحدثين كما فعل القاضى الأرجانىّ فى قوله من قصيدة مدح بها بعض الوزراء :

وأهْدِ إلى الوزير المدحَ يَجْمُلْ * لَكَ المِرْبَاعُ مِنْها والصَّفَايَا
وَرَافِقْ رُفْقَةً رَحلُوا إليه * فآبُوا بالنِّهَابِ وبالسَّبَايَا
وقُلْ للراحلين إلى ذُرَاه * ألَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا
ولا تَسْلُكْ سِوىٰ طُرُقِى فإنى * أنا ٱبْنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنَايَا

فإن ذلك من وظيفة الشاعر لا الكاتب، وإن كان الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى رحمه الله قد أشار فى كتابه "حسن التوسل" إلى التمثيل بذلك لما نحن بصدده.

الحالة الثالثة

(الحَلّ)

وهو أن يعمِد الكاتب إلى الأبياتِ من الشِّعر ذواتِ المعانى فيحُلَّها من عُقُل الشعر، ويَسْبُكها فى كلامه المنثور، فإن الشعر هو المادّة الثالثة للكتابة بعد القرءان الكريم والأخبار النبوية، على قائلها أفضل الصلاة والسلام، وخصوصا أشعارَ العرب فإنها ديوان أدَبهم، ومستودَع حِكَمهم، وأنفَس علومهم فى الجاهلية، به يفتخرون، وإليه يحتكمون . فإذا أكثر من حفظ الشعر وفهم معانيه، غَزُرت لديه الموادّ، وترادفت عليه المعانى، وتواردتْ على فكره، فيسهُل عليه حينئذ حَلُّها، ووضْعُها

فى مكانها اللائق بها بحسب مقتضيات الكتابة . قال صاحب "الريحان والريعان": وهو شأنُ حُذَّاق الكتّاب فى زماننا، وفيه من الجمـال فنون .

منها أنه يدل علىٰ حَفَالة أدب المُجيد ، وٱتِّساع الحفظ، والتيسير والتأتّى لسـبْك اللفظ .

ومنها أنه ليس يُشْهَر منها إلا النـادر للغاية فى الحُسْن ، فهى إذا حُلَّت يحاورها المنشئ بما يناسب حسنها فى البراعه ، وهذا كثير فى هـذه الصناعه . قال فى "المثل السـائر" وإنمـا جعل المنظوم مادّة للمنثور بخلاف العكس لأن الأشـعار أكثر، والمعانِىَ فيها أغزر ، قال : وسبب ذلك أن العرب الذين هم أهـل الفصاحة كان جُلُّ كلامهم شعرا ، ولا يوجد الكلام المنثور فى كلامهم إلا يسيرا، ولو كثر فإنه لم يُنْقَل عنهم بل المنقول عنهم الشـعر فأودعُوا أشعارَهم كل المعـانى كما قال الله تعالىٰ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ﴾ . ثم جاء الطِّراز الأوّل من المُخَضْرَمين فلم يكن لهم إلا الشعر . ثم ٱستمرّ الحال علىٰ ذلك فكان الشعر هو الأكثَر، والكلامُ المنثور بالنسبة إليه قطرةٌ من بحر، فلذلك صارت المعانى كلها مُودعة فى الأشعار . قال فى "حسن التوسل" والحَلُّ باب متسع علىٰ المجيد مجَاله ، وتتصرَّف فى كلام العارف به رويته وٱرتجاله .

قال صاحب "الريحان والريعان" وأول مَن فك رِقابَ الشعر، وسرَّح مقيَّده إلىٰ النثر، عبد الحميد الأكبر، كاتب بنى أمية إلىٰ ٱنقضاء خلافتهم . قال : وربما رامه غير المطبوع المتصرِّف فعقده وأفسده كما قال القائل : وبعضهم يَحُلُّ فيعقِد . قال : وكيفيـة الحل أن يتوخّى هـذا البيت المنظومَ وحَلَّ فرائده من سلكه . ثم ترتيبَ تلك الفرائد وما شابهها ترتيبَ متمكِّن لم يحظُره الوزن ولا ٱضطرّته القافية ، ويبرزَها

فى أحسن سلك، وأجمل قالَبٍ وأصح سبك، ويُكمّلها بما يناسبُها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة ، ويتخير لها القرائن . وإذا تم معه المعنىٰ المحلول فى قرينة واحدة فيفرض له من حاصل فكره، أو من ذخيرة حفظه، مايناسبه . وله أن ينقُل المعنىٰ إذا لم يفسده إلىٰ ماشاء ؛ فإن كان نسيبا وتأتّى له أن يجعله مديحا فليفعل ؛ وكذلك غيره من الأنواع . وإذا أراد الحل بالمعنىٰ فلتكن ألفاظه مناسبةً لألفاظ البيت المحلول غيرَ قاصرةٍ عنها، فمتىٰ قصَرَتْ ولو بلفظة واحدة، فسد ذلك الحل وعُدّ مَعِيبا . وإذا حلَّ اللفظ فلا يتصرف بتقديم وتأخير ولا تبديل، إلا مع مراعاة تدبير الفصاحة، وآجتناب ماينقُصُ المعنىٰ أو يحُطُّ رتبته .

قال : وهــذا الباب لاتنحصر المقاصد فيه، ولا حجر علىٰ المتصرف فيه .

ثم حل الأبيات الشعرية وآستعمالها فى النثر علىٰ ثلاثة أضرب :

الضـــــرب الأوّل

(أن يأخذ الناثر البيت من الشعر فينثُره بلفظه، وهو أدنىٰ مراتب الحَلّ)

قال فى "المثل السائر" وهو عيب فاحش إذ لم يزد فى نثره علىٰ أنه أزال رونق الوزن وطَلَاوة النظم لاغير . قال ومثَلُه كمن أخذ عِقْـدا قد أُتقِن نظمه ، وأُحْسِن تأليفه، فأوهاه وبدّده؛ وكان يقوم عذره فى ذلك لو نقله عن كونه عِقدا إلىٰ صورة أخرىٰ مثله أو أحسنَ منــه . وأيضا فإنه إذا نثَر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهورَ السرقة فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شىء .

وبالجملة فحل الشعر بلفظه لايخرج عن حالين :

الحال الأوّل — أن يكون الشعر ممـا يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها ، وله فى حله طريقان :

الطريق الأوّل ـــ أن يَحُله بالتقـديم والتأخير من غير زيادة فى لفظه : كما ذكر صاحب "الصناعتين" عن بعض الكتّاب أنه حلّ قول البحترى :

أطِلْ جَفْوَةَ الدُّنْيا وتَهْوِينَ شَأنِها * فما الغافِلُ المَغْرُورُ فيهـا بِعاقِل
يُرَجّى الخُلُودَ مَعْشَرٌ ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ * ودُونَ الّذِى يَرْجُونَ غَوْلُ الغَوائِل
إذا ما حَرِيزُ القَـوْمِ باتَ وما لَهُ * مِنَ اللهِ واقٍ فهو بادِى المَقاتِل

فقال فى نثرها : أَطِلْ تهوينَ شأنِ الدنيا وجَفْوتَها، فما المغرورُ الغافل فيها بعاقل . و يرجو مَعْشَر ضلَّ سعيُهم الخلودَ، وغولُ الغوائل دون مايرجُون . و إذا بات حرِيزُ القوم وماله من الله واقٍ فهو بادى المَقَاتل . فلم يزد فى ألفاظها شيئا .

الطريق الثانى ـــ أن يَحُلَّه بزيادة علىٰ لفظه كما حكىٰ الجاحظ عن قليب المعتزلىّ أنه سمع منشدا يُنْشد للعتبىّ .

أَفَلَتْ بِطَالتُـه وراجَعهُ * حِلْم وأعقَبَـهُ الهَوىٰ نَدَما
أَلقىٰ عليـه الدَّهرُ كَلْكَلَه * وأعاره الإقتـار والعَـدَما
فإذا ألَمّ بِهِ أخُو ثِقَـــةٍ * غَضَّ الجُفُونَ وجَمْجَمَ الكَلِمَا

فنثرها فقـال يسـتعطف بعض الملوك علىٰ رجل من أهـله : جعلنى الله فِدَاك ليس هو اليوم كما كان، إنه وحياتِك أفلَتْ بَطَالته، إى والله وراجعه حلمه، وأعقبَه وحقك الهوىٰ ندما . أخنى الدهرُ عليـه والله بكلكله، فهو اليوم إذا رأىٰ أخا ثقةٍ غضَّ بصره وجمجم كلامه . فزاد فى نثره ألفاظا علىٰ ألفاظ الشعر .

ونحو ذلك ما حكاه ضـياء الدين بن الأثير عن بعض العراقيين أنه نثر قول بعض شُعراء الحماسة :

وألدَّ ذِى حَنَقٍ عَلَىّ كأنَّما * تَغْلِى عداوةُ صَدْرِه فى مِرْجَل
أرْجَيتُه عَنِّى فأبصرَ قَصْدَه * وَكَوَيْتُه فَوْقَ النَّوَاظِرِ مِنْ عَلِ

فقال فى نثره : فكَمْ لقِىَ ألدّ ذا حَنِقٍ كأنه يَنْظُر إلىٰ الكواكب من عل وتغلى عداوة صدره فى مِرْجل فكواه فَوْقَ ناظِرَيْه، وأكبَّه لِفَمِه ويديه .

الحال الثانى — أن يكون الشعر مما لا يمكن حَلُّه بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها ، فيحتاج فى نثره إلىٰ الزيادة فيه ، والنقص منه ، وتغيير بعض ألفاظه حتّى يستقيم كقول الشاعر :

لِسَانُ الفتىٰ نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤادُه * فَلَمْ يَبْقَ إلَّا صُورَةُ اللَّحمِ والدَّمِ

فإن المصراع الثانى من البيت لا يمكنُ حلُّه بالتقديم والتأخير لأنك تقول فى المصراع الأوّل : فُؤاد الفتىٰ نصف ولسانه نصف ولا يمكن ذلك فى المصراع الثانى حتّى تزيد فيه أو تنقُص منه فتقول مثلا فُؤاد الفتىٰ نصف ولسانُه نصف علىٰ ماتقدّم . ثم تقول وصورته من اللحم والدم فضلةٌ لاغَناء بها دُونَهما ، ولا معوّل عليها إلا معهما .

قال فى "الصناعتين" : وزيادة الألفاظ التى تحصل فيه ليست بضائرة لأن بسط الألفاظ فى أنواع المنثور شائع ؛ ألا ترىٰ أنها تحتاج إلىٰ الآزدواج ؛ ومن الآزدواج ما يكون بتكرير كلمتين لهما معنًى واحدٌ وليس ذلك بقبيح ؛ إلا إذا آتفق لفظاهما ؛ إلا أن أكثَرَ مايحسُن فيه إيراد المعنىٰ علىٰ غاية مايمكن من الإيجاز ، ومعنىٰ قوله فلم يبق إلا صورة اللحم والدم داخل فى قوله * لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * والمصراع الثانى تذييل للمصراع الأوّل . قال : فإذا أردت أن تَحُلَّه حلا مقتصرا بغير لفظه ، قلت الإنسان شَطْران : لسان وجنان؛ وقريب من ذلك قول أبى نُوَاس .

أَلَا يابْنَ الذين فَنُوا وبادُوا * أمَا واللهِ ماذَهَبُـــوا لِتَبْقَىٰ

فإن المِصراع الأوّل يمكن حله بأن تقول ألا يابن الذين بادوا وفَنُوا فيكون مستقيما . أما المصراع الثانى فإنه إن قُدِّم فيه أو أخر بأن قيل ماذهبوا لتبقىٰ أما والله فإنه لايستقيم فتحتاج فى نثره إلىٰ تغيير وزيادة فتقول : ألا يا ٱبن الذين ماتوا ومضَوْا وظعَنُوا ونأَوْا أما والله ماظعنوا لتقــيم ، ولا راموا لترِيم ، ولا مُوِّتُوا لتحْيَا ، ولا فَنُوا لتبقىٰ . قال فى "الصناعتين" وفى هذه الألفاظ طول وليس بضائر علىٰ ما تقدم .

قال : وإن أردت ٱختصاره قلت أما والله إن الموت لم يصـبك فى أبيك إلا ليُصيبَك فيك .

الضـــرب الثـانى

(وهو أعلىٰ من الضرب الأوّل أن ينثُرِ المنظوم ببعض ألفاظه ويَغْرَم عن البعض ألفاظا أُخَر . ويحسن ذلك فى حالين)

الحال الأوّل — أن يكون فى الشِّعر ألفاظ لايقوم غيرُها من الألفاظ مَقامها بأن تكون مثلا سائرا أو جارية مجرىٰ المثل : كقول بعض شعراء الحماسة :

لو كُنْتُ مِنْ مازِنٍ لم تَسْتَبِحْ إبِلِي * بَنُو اللَّقِيطةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبانَا

فإن لفظ بنى اللقيطة لا يقوم غيره من الألفاظ مَقامَه لكونه علَمـا علىٰ قوم مخصوصين فيحتاج الناثر أن يبقيه بلفظه ، كما فعل "ضياء الدين بن الأثير" فى قوله فى نثر البيت المذكور : لست ممن تسبيح إبلَه بنو اللقيطه ، ولا الذى إذا همَّ بأمر كانت الآمال إليـه وسيطه ، ولكنى أحمِى الهمَل ، وأفوت الأمل ، وأقول سـبق السَّيْفُ العذَل . وكذلك كل ماجرىٰ هذا المجرىٰ ونحوه .

الحال الثانى — أن يكون فى البيت لفظ رائق : قد أخذ من الفصاحة بزمامها، وأحاط من البلاغة بجوانبها؛ فيبقيه على حاله ، ويقرنه بلفظ يماثله ويوازنه ، قال فى "المثل السائر" : وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشاكلة ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة ؛ فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد ، قد نقحه وصححه ،فقرنه بمالا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة؛ ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح ، والاستهداف للطعن . قال : وهو عندى أصعب منالا من نثر الشعر بغير لفظه؛ لأنه يسلك مضيقا، لما فيه من التعرّض لمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة . بخلاف نثر الشعر بغير لفظه فإن ناثره يتصرف فيه على حسب ما يراه ، ولا يكون مقيدا فيه بمثال يُضْطَّر إلى مؤاخاته ؛ ومثل لذلك بقول أبى تمام فى وصف قصيد له :

حَذَّاء تَملأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً * وبَلاغةً وتُدِرّ كُلَّ وَرِيدِ

ثم قال : فقوله تملأ كل أذن حكمةً من الكلام الحسن، وهو أحسن مافى البيت وأشهر، فلو قال قائل لمن هذا؟ قيل وهل يَخْفَى القَمر، وإذا عُرِف الكلام صارت المعرفة له علامه، ولم يُخْشَ عليه سرقة إذ لو سُرِق لدلت عليه الوَسَامه، ومن خصائص صفاته أنه يملأ كلَّ أذن حكمه ، ويجعل فصاحة كلِّ لسان عُجْمه . فبقّى لفظ تملأ كل أذن حكمة وأتى معها بما يناسبها من الألفاظ الحسنة الرائقة. ونحو ذلك ماذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى : أنه يؤاخى القرينة المحلولة بمثلها من عنده كما فعل هو فى تقليد من التقاليد فقال : * فكَمْ مُلَّ ضَوْءُ الصُّبحِ مِمَّا يُغيره * ثم قال : وظلامُ النَّقْع مما يُثيره . وقال أيضا : وفُلَّ حَديدُ الهِنْدِ مما يُلَاطِمه * ثم قال : والأجل مما يسابِقه إلى قبض النفوس ويُزاحِمه . والقرينتان الأوليان نصفا بيتين للتنبى فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها . قال : وهذا من أكثر ما يستعمل فى الكتابة .

الضرب الثـالث .

(وهو أعلىٰ من الضربين الأوّلين أن يأخذ المعنىٰ فيكسُوَه ألفاظا من عنده ويصُوغَه بألفاظ غير ألفاظه)

قال فى "المثـل السائر" : وثَمّ يتبيّنُ حِذق الصائغ فى صياغته ؛ فإن آستطاع الزيادة علىٰ المعنىٰ فتلك الدرجة العاليـة ، وإلا أحسن التصرف وأتقن التأليف ؛ ليكون أولىٰ بذلك المعنىٰ من صاحبه الأوّل .

ولْتعلم أن الأبياتَ الشعريةَ فى حلها بالمعنىٰ لهـا حالان .

الحال الأوّل — أن يكون البيت الشعر ممـا يتسع المَجالُ لناثره فى نثره فيورده بضروب من العبـارات . قال آبن الأثير "وذلك عنـدى شبيه بالمسائل السيالة فى الحساب التى يجاب عنها بعدّة من الأجوبة". فمن ذلك قول أبى الطيب المتنبي :

لا تَعْذِلِ المُشْتَاقَ فِى أَشْوَاقِه * حتّٰى تكُونَ حَشَاكَ فى أحْشَائِه

فهذا البيت يُتَصَرَّف فى نثره فى وجوه من المعانى . وقد نثر آبن الأثير هذا البيت فقال : "لاتعذِلِ المحبَّ فيما يهواه ، حتّٰى تطوِىَ القلب علىٰ ما طواه" . ونثره علىٰ وجه آخر فقال : "إذا آختلفت العينانِ فى النظر ، فالعذل ضرب من الهَذَر" . وكذلك قول المتنبي أيضا :

إنَّ القَتِيلَ مُضَرَّجاً بدموعِه * مثلُ القتِيلِ مضَرَّجا بِدِمائه

نثره آبن الأثير فقال : "القتيل بسيف العُيُون ، كالقتيل بسيف المَنُون ، غير أن ذلك لا يُجَرَّد من غِمْدِه ، ولا يُقادُ صاحبه بعَمْده" . فزاد علىٰ المعنىٰ الذى تضمنه البيت عدمَ القود بالعَمْد . ونثره علىٰ وجه آخر فقـال : "دمُ المُحِب ودم القتيـل ، متفقان فى التشبيه والتمثيل ، ولا تجد بينهما بونا ، سوىٰ أنهما يختلفان لونا" . قال وهذا أحسن من الأوّل .

وعلىٰ هذا النهج يجرى قول ٱبن الرومى فى وصف الحديث :

وَحَدِيثُها السِّحْرُ الحَلَالُ لَوَ ٱنَّهُ * لم يَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ

نثره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ فى وصف السيوف فقال : وكفىٰ السيوفَ فخرا أنها للجَنَّة ظلال ، وإلىٰ النصر مآل ؛ وإذا كان من بيان الحديث سِحْر ، فإنَّ بيان حديثها عمن كَلَّمته هو السحر الحلال . ثم نقله إلىٰ وصف الأسنة فقال : حَسْبُ ألسنة الأَسِنَّة شرفا أنَّ كَشْف خبايا القلوب يُذَمُّ إلا منها ، وأن بثَّ أسرار الضمائر تُكْرَه روايته إلا عنها ؛ فمكرِّر حديثها فى ذلك لا يُفْضِى إلىٰ ملاَل ، وإذا لم يكن حُسْنُ حديثها الذى يَسْحَر الألباب مما يحِلُّ ، فليس فى الحديث سِحْرٌ حلال . ثم نقله إلىٰ وصف البلاغة فقال : البلاغة تَسْحَر الألباب حتّٰى تخيل العرض جوهرا وتُحِيل الهواءَ المُدرَك بالسمع لانسجامه وعُذُوبته فى الذوق نهرا ؛ لكنه سِحر لم يَجْنِ قتلَ المُسْلِم المُتَحرّز ، فيتأوَل فى حِلّه ، وإذا كان فى الحديث ما هو عُقْلة للمستوفِز ، فهذا أُنْشُوطة نَشَاط البليغ وحَلُّ عِقال عقله . ونقله إلىٰ وصف الكتابة . فقال : خَطُّه شَرَك العقول ، وفتنة تَشغَل المطمئن بملاحة المرْئىّ المكتوب ، عن فصاحة المسموع المَقُول ؛ ولو لم يكن البيان سحرًا ، لما تجسَّدت منه فى طِرْسه هذه الدُّرَر ، ولو لم يكن بعضُ السحر حلالا ، لما ٱنجلىٰ ظَلامُ النِّقْس عما يُهتدىٰ به من هذه الأوضاح والغُرَر .

الحال الثانى — أن يكون البيت الشعر مما يَضِيق المَجَال فيه فيعسُر علىٰ الناثر تبديل ألفاظه ، وذلك قليل بالنسبة إلىٰ ما يتسع فى حَلّه المَجَال . قال فى "المثل السائر" وسببه أن المعنىٰ ينحصر فى مقْصِد من المقاصد حتّٰى لا يكاد يأتى إلا فذًّا . فمن ذلك قول أبى تمام الطائىّ من قصيدة .

تَرَدّى ثِيـابَ المَـوْتِ حُمْرًا فَمـا أتىٰ * بِها اللّيْلُ إلّا وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرِ

فإن أبا تمـام قصـد المؤاخاة فى ذكر لونى الثياب بين الأحمـر والأخضر، وجاء ذلك واقعا علىٰ المعنىٰ الذى أراده : من لون ثياب القتلىٰ وثياب الجَنّة ؛ فإن ثيابَ القتلىٰ حُمْر وثياب الجنة خضر .

قال ٱبن الأثير : فإذا فُكَّ نظم هـذا البيت وأريد صوغُه بغير لفظه لم يمكن ؛ فيجب علىٰ الناثر أن يحسن الصنعة فى فكّ نظامه ؛ لأنه يتصدّى لنثره بألفاظه ؛ فإن كان عنـده قوّةُ تصرُّف، وبَسْـطة عبارة، فإنه يأتى به حسنا رائقا . وقد نثر هذا البيت فقال : لم تكسُه المنايا نَسْج شِفَارها ، حتّى كستْه الجنةُ نَسْج شِعارها : فبُدِّل أحمرُ ثوبه بأخضره، وكأسُ حِمامه بكأس كَوْثَرِه . قال : وهـذا من الحُسْـن علىٰ غاية يكون كَمَدُ حسُودها، من جُمْلة شُهودها . ومن ذلك قول أبى الطيّب :

وكَانَ بِهامِثْلُ الجُنُونِ فأصبَحَتْ * ومِنْ جُثَثِ القَتْلىٰ عَلَيْها تَمـائمُ

فإن أبا الطيّب بنىٰ بيته علىٰ واقعة مخصوصة . وذلك أن حِصْنا من حصون سيف الدولة قصده الروم، وٱنتزعوه، وخرَّبوه؛ فنهَدَ سيفُ الدولة إليه وٱسترجعه، وجدّد بناءه، وهزم الروم، ونصب جملةً من جُثَث القتلىٰ علىٰ السور؛ فنظم أبوالطيّب فى هذا قصيدا أوّله .

* علىٰ قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتِى العَزائمُ *

ولمـا ٱنتهى إلىٰ ذكر الحِصن ، جاء بهـذا البيت فى جملة أبيات ، فشرح صورة الحال، فى ٱرتجاع الحصن بالقتال وتعليق القتـلىٰ عليه ؛ وأبرز ذلك فى معنىٰ التمثيل بالجنون والتمـائم . وهـذا لا يمكن تبديل لفظه؛ فيجب علىٰ الناثر حسـن الصنعة فى حله ونثره . وقد نثره ٱبن الأثير أيضا فقال : سرىٰ إلىٰ حصن كذا مستعيدًا منه سَبِيَّة نزعها العدوّ ٱختلاسا ، وأخذها مُخادَعة لا ٱفتراسا ؛ فمـا نزلها حتّى ٱستقادها،

ولا نازلها حتّى آستعادها، فكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم، وعلق عليها من رءوس القتلىٰ تمائم، ثم قال : وفى هذا من الحسن ما لا خفاء فيه . فمن شاء أن ينثُر شعرا فلينثُرْ هكذا وإلا فليترك . ثم نقله إلىٰ معنى آخر، وأبرزه فى صورة أخرىٰ فأضاف إليه البيت الذى قبله من القصيدة فصار علىٰ هذه الصورة .

بَنَاهَا فأعْلىٰ والقَنَا تَقْرَعُ القَنَـا * ومَوْجُ المَنَايَا حَوْلَهَـا مُتَلَاطِمُ
وكانَ بِها مِثْلُ الجُنُونِ فأصبَحَتْ * ومِنْ جُثَثِ القَتْـلىٰ عليها تَمَـائمُ

ثم نثرهما فقال : بناها والأسنة فى بنائها متخاصمه، وأمواج المنايا فوق أيدى البانِينَ متلاطمه؛ وما أجلَتِ الحربُ عنها حتّى زُلْزِلت أقطارها بِرَكْض الجياد، وأُصيبتْ بمثل الجنون فعُلِّقت عليها تمائمُ من الرءوس والأجساد . ولا شك أن الحربَ تُعرِّد[(١)] عمن عزَّ جانبُه، وتقول ألا هكذا فلْيكسِب المجدَ كاسبه . قال وهذا أحسن من الأول وأتمُّ معنًى . ثم تصرف فيه بزيادة علىٰ هذا المعنىٰ فقال : بنـاها، ودُونَ ذاك البناءِ شَوْكُ الأسَل، وطُوفانُ المنايا الذى لا يقالُ سآوِى منـه إلىٰ جبل؛ ولم يكن بناؤها إلا بعـد أن هُدِمت رءوس عن أعناق، وكأنمـا أصيبت بجنون فعُلِّقت القتلىٰ عليها مكان التمـائم أو شِينت بعَطَل فعُلِّقت مكان الأطواق . قال وهـذا الفصـل فيه زيادة علىٰ الفصل الذى قبله .

قلت : وكما ينبغى الإكثار من حفظ الأشعار علىٰ ما تقدّم ليوردَها فى خِلال كلامه آستشهادا وتضمينا أو يَحُلَّها ويقتبسَ معانيها فى نثره علىٰ ماتقدم بيانه كذلك ينبغى له معرفة المشاهير من الشعراء الطائرى السمعة : من شعراء الجاهليـة كآمرئ القيس آبن حُجْر، والنابغـة الذُّبيـانى، وطَرَفة بن العَبد، وأوْس بن حَجَر، وزُهَير آبن أبى سُـلمىٰ، والأفوه الأودى، والمتلمس، والأعشىٰ، وعلقمةَ بن عَبَدَة، وعمرو

(١) أى تفرّ وتجبُن يقال عرّد الرجل عن قرنه إذا فرونكل . انظر اللسان .

آبن كُلثوم، والمرقِّش، والنمر بن تَوْلب، ومُهَلْهِل، وطُفيل الغَنَوىّ، وعُرْوة بن الورد، وقيس بن الخَطِيم، والشَّماخ بن ضِرار، وعنـترة، والسَّمَوْءَل بن عادِيا، ومن جرىٰ مَجْراهم .

ومن المخضرمين، وهم الذين أدركوا الجاهليَّةَ والإسلام جميعا : كحَسَّان بن ثابت رضى الله عنه، ولَبِيد بن أبى ربيعة، وكعب بن زُهَير، وزيد الخيل الطائى، والنابغة الجعدىّ، وأميَّـةَ بن أبى الصلت، والحُطَيْئة، وعمرو بن معدى كرب، والزِّبرِقان آبن بدر التميمىّ، والعبَّاس بن مِرْداس السُّلَمىّ، والخَنْساء بنت عمرو بن الشَّريد، ومن فى معناهم .

ومن المولَّدين، وهم الذين وُلِدوا من العرب فى الإسلام : كالفرزْدق، وجَرير والأخطل، والقَطَامىّ، والكُمَيْت بن زيد الأسدىّ، والمُساوِر بن هند، وعدىّ بن الرِّقاع، وكُثَيِّر عَزَّة، وعُمَر بن أبى ربيعة، والراعى، وآبن مُقْبِل، وآبن مُفَرِّغ، وليلىٰ الأخيليَّة، ومن آنخرط فى سلكهم .

ومن المُحْدَثين، وهم الذين أتَوْا بعـد المولَّدين كإبراهيم بن هِرْمةَ، وآبن أُذَينة، وأبى نُوَاس، وأبى العَتاهِيَة، وطُفَيل الكنانىّ، وسِلْم الخاسر، وآبن مَيَّادة، وصالح آبن عبد القُدّوس، وأبى عُيينة، والعبَّاس بن الأحنف، والعتَّابىّ، وأشجَع السُّلَمىّ، والعَكَوّك، وآبن أبى زُرْعة الدَّمشقىّ، وأبى الشِّيص، والحمدونىّ، والعُتبىّ، ودِعْبِل الخُزَاعىّ، وإسحاق بن إبراهيم المَوْصِـلىّ، وإبراهيم بن إسحاق الموصـلىّ، وأبى علىّ البصـير، وأبى تَمَّـام الطائىّ، وأبى عُبـادة البُحْتُرىّ، وأبى الطيِّب المتنبى، وآبن بسَّام، والسرىّ الموصـلىّ، وأبى الفتح كُشَاجِم، وأبى الفتح العَبْسىّ، وأبى الفرج الببغا، وآبن الساعاتى، وآبن قلاقِس، والواوا الدِّمَشْقىّ، والعفيف التلمسانىّ، وآبنه، وآبن سَنَا الملك، وآبن شمس الخلافة، وآبن النبيه، والصفىّ الحلِّىّ ونحوهم .

ومعرفة الفرسان منهم : كآمرئ القيس، وخُفَاف بن نُدْبة، والزِّبْرقان بن بدر وعَنْترَة، وعمرو بن معدى كرب، ودُرَيد بن الصِّمَّة .

ومن كان منهم راجلا يسعىٰ علىٰ رجليه كسُلَيك بن السُّلَكة، وآبن بَرَّاقة، وتأبط شرًّا، والشَّنْفَرىٰ وغيرهم .

ومن تقدّم منهم فى نوع من الشعر، كمعرفة طفيل الغنوىّ بوصف الخيل، وأمية بن أبى الصلت فى أمر الآخرة وذكر الحرب ، وعمر بن أبى ربيعة فى وصف النساء ، وعُتَيبة بن مِرْداس بمراكب الإبل، وكُثَيِّر فى الأمثال، والفرزدق فى الأخبار ، وجرير فى المعانى .

ومعرفة من هو أكثرهم حفظا : كالأغلب الشاعر : قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة، ومعرفة أىّ القبائل كانت الشعراء فيها أكثر كهُذيل؛ فقد قيل إنه كان فيها أربعون شاعرا مُفْلِقا كلهم يَعْدُو على رجليه، ليس فيهم فارس؛ وأىّ قبيلة كان الشعراء فيها أقلّ : كشَيْبانَ، وكلب؛ فقد قيل إنه ليس فى الدنيا قبيلة أقلّ شعراء منهما وإنه ليس لكلب فى الجاهلية شاعر قديم علىٰ أنها مثل شيبان أربع مرات .

وقد ذكر آبن رشيق فى "عمدته" عن عبد الله بن سلام الجُمَحِىّ وغيره : أن الشعر كان فى الجاهلية فى ربيعة فكان منهم مُهَلْهِل بن ربيعة، وهو خال آمرئ القيس بن حُجْر، ويقال إنه أول من قصَّد القصائد والمُرَقِّشان الأكبرُ والأصغر، وطَرَفة بن العبد، وعمرو بن قَمِيئة، والحارث بن حِلِّزة، والمتلمس، والأعشىٰ، والمسيَّب بن عَلَس وغيرهم؛ ثم تحوّل الشعر إلىٰ قيس فكان منهم النابغتان الذُّبيانىّ والجَعْدىّ، وزُهَير بن أبى سُلْمىٰ، وآبنُه كعب، ولبيد، والحطيئة، والشمَّاخ . ثم آستقرّ الشعر فى تميم فكان منهم أوس بن حَجَر، ولم يتقدّمه أحد حتّى كان النابغةُ وزهير فأخملاه .

قلت : والمراد أن الشعر غلب فى هــذه القبائل وظهر فيها ، وكان فيها الشعراء المجيدون ؛ وإلا فالشعر موجود فى قبائل العرب قبل ذلك : كحِمْير وكَهْلان من اليمن ؛ بل فى عادٍ وثمودَ علىٰ ما تشهد به كتب السير والأخبار . فإذا عرف الكاتب ذلك ، آستعان به فى المساواة بمن شاء منهم فى التقريظات والتفضيل عليه كما كتبت فى تقريظ شاعر : فامرؤ القيس يَغْرَق فى مِقْياس معانيــه ، والنابغة الذُّبيانِىُّ يقْصُر عن أن يبلغَ مدىٰ شأوه أو يُدانيه ، وزُهَيْر يقتطف زَهَرات البلاغة من أفانينــه ، وأوسُ بن حَجر يَنْسِج علىٰ مِنْواله و يأتمُّ بقوانينه ، وطُفَيل الغنوىّ يتطفَّل علىٰ موائد شعره ، وطَرفَة بن العبد يقصُر عنه فى شيوع ذِكْره ، والأعشىٰ يعشو إلىٰ ضوء ناره ، وعمرو بن كُلْثوم يسعىٰ إلىٰ بابه ويقف بِفناء داره ، وكُثَيِّر فى أمثاله لا يعدّ من أمثاله ، وجَرير فى مَفَاخره يتمسك من الفَخَار بأذياله ، والفَرَزْدَق فى أوصافه يقلبه ما بين يمينه وشماله ؛ فلو رآه عبدُالملك بن مروان لآختاره علىٰ الأخطل ، أو آجتمع مع أبى نُوَاس لدىٰ الأمين لقال هذا هو المقدّم الأفضل ؛ أو أدركه أبو تمَّام ، لآعترف له بالتمــام ؛ أو بَصُر به أبو عُبَــادة لقال أنا له عبــد وغلام ؛ أو عاصره المتنبي لآعترف بفضله ، أو آبن الساعاتى لقال لا يأتى الزمان دون قيام الساعة بمثله . ونحو ذلك ممــا يجرى هذا المجرىٰ .

وكذلك ينبغى أن يعرف مصــطلَح أهــل العروض الذى هو ميزان الشــعر مثل الوَتِد ، والسبب ، والفاصلة ، والعروض ، والضرب ؛ وأسماء البحور : من الطويل ، والمديد ، والبسيط ، وأخواتها ؛ وألقاب الزحاف : كالخَبْن ، والخَبْل ، والقبض وغيرها : ليــدخلها تضاعيفَ كلامه عند آحتياجه إلىٰ ذلك كما قال صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثارىّ فى أوّل ألفيته فى العروض .

الحمدُ لله المليكِ الغافِرِ * ذى الطَّوْلِ والفضلِ المديدِ الوافِرِ
سبحانَهُ ماذا يقول البارعُ * فى كامِلٍ ليس له مُضَارِعُ
ورِزقه فى عَدْله بسيطُ * وعلمه بخلقه مُحِيطُ

وما ينخرط فى هذا السلك من الكلام المنثور أيضا .

النوع الحادى عشر
(الإكثار من حفظ الأمثال ؛ وفيه مقصِدان)

المقصد الأوّل
(فى وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلىٰ النظر فى كتب(١) الأمثال الواردة عن العرب نثرا ونظما والنظر فى الكتب المصنفة فى ذلك : كأمثال الميدانىّ ، والمفَضَّل بن سلمة الضبِّىّ ، وحمزة الأصبهَانىّ ، وغيرهم . وكذلك أمثال المولَّدين الواردة فى أشعارهم : كالأمثال الواردة فى شعر جرير ، والفرزدق ونحوهما ، إلىٰ غير ذلك من الأمثال الواردة نثرا ونظما ، والنظر فى أمثال المحدَثين الواردة فى أشعارهم : كأبى العَتَاهِيَة ، وأبى تمّام ، والمتنبى ؛ فحكم ما ورد من الأمثال فى شعر المولدين والمحدَثين حكم أمثال العرب الشعرية ؛ أمّا فى شعر المولدين فلجريهم علىٰ أسلوب العرب ، وركوب جادّتهم ؛ وأما المحدَثين فللطافة مأخذهم ، وٱستطراف ما يأتون به مما يجرى مجرىٰ النثر والنظم : من الأمثال الموضوعة علىٰ ألسنة الحيوان عن العرب وغيرهم ؛ فيستشهد به فى موضعه ، ويورده فى مكانه عارفا بأصل ذلك وما بُنِى عليه ، وذلك أن المثل له مقدّمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم ؛ وهذه

(١) لعل لفظ كتب زائد من قلم الناسخ .

الألفاظ الواردة فى المَثَـل دالة عليها، معـبرة عن المراد بها، بأخصَر لفظ وأوجزه، ولولا تلك المقـدّمات المعلومة، والأسـباب المعروفة، لمـا فهم من هـذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطوّلات، وأما الأمثال الواردة نثرا، فإنها كلمـات مختصرة، تورَد للدلالة علىٰ أمور كاية مبسوطة، كما تقدّمت الإشارة إليه، وليس فى كلامهـم أوجز منها . ولمـا كانت الأمثال كالرموز والإشارة التى يلَوَّح بها علىٰ المعانى تلويحا، صارت من أوجز الكلام وأكثره آختصارا . وحيث كانت بهـذه المكانة لاينبغى الإخلال بمعرفتها، قال صاحب العقد "والأمثال هى وَشْى الكلام، وجوهر اللفظ، وحَلْى المعانى، والتى تخيَّرتْها العرب، وقدّمتها العجم، ونُطِق بها فى كل زمان علىٰ كل لسان، فهى أبقىٰ من الشـعر، وأشرف من الخَطابة، لم يَسِرْ شىء كسيرها، ولا عَمَّ عمومَها، حتّٰى قالوا : أَسْيَرُ من مَثَل، قال الشاعر :

ما أنْتَ إلّا مَثَلٌ سائرُ * يَعْرِفُه الجاهِلُ والخابِرُ

وقد ضرب الله تعالىٰ الأمثال فى كتابه فقال ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمةً طَيِّبةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها فِى السَّماءِ﴾، وقال تعالىٰ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكا لايَقْدِر عَلىٰ شَىْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنا﴾ الآية، وقال ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهما أَبكَمُ لايَقْدِرُ علىٰ شَىْءٍ وهُوَ كَلٌّ عَلىٰ مَوْلاهُ أيْنَمَـا يُوَجِّهْهُ لَايَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بالعَدْلِ﴾ الآية، وقال ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ الآية وقال ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ وما يَعْقِلُها إِلّا الْعَالِمُونَ﴾ إلىٰ غير ذلك من آى القرءان .

وضرب رسولُ الله صـلى الله عليه وسلم الأمثالَ فقال " ضَرَبَ اللهُ مثلًا صِرَاطًا مستقيما، وعلىٰ جَنْبَيِ الصِّراطِ أبوابٌ مُفَتَّحةٌ، وعَلَىٰ الأبواب سُـتُورٌ مُرْخاةٌ، وعلىٰ رَأْسِ الصِّراطِ داعٍ يقول آدْخُلُوا الصِّرَاطَ ولا تُعَرِّجُوا : فالصِّرَاطُ الإسلامُ، والسُّتُور

حدُودُ الله ، والأبوابُ محَارِمُ الله ، والداعى القرءانُ " إلىٰ غير ذلك من الأمثال التى ضربها صلى الله عليه وسلم . ومحل الكلام علىٰ أمثال القرءان وأمثال الرسول صلى الله عليه وسلم، ما تقدّم من الكلام علىٰ القرءان الكريم والأخبار .

ثم هى علىٰ ضربين : قريبِ الفهم بظهور معناه ، وكثرة دورانه بين النـاس؛ وبعيد الفهم لخفائه ، وقلة دورانه بين الناس . فالقريب من الفهم الكثير الدوران علىٰ الألسنة مثل قولهم ، " عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرىٰ " ، وهو مثل يُضرَب للترغيب فى السير فى الليل ، والحث عليه؛ وأول من أرسله مثلا خالد بن الوليد رضى الله عنـه ، قاله فى صبح ليلة قطع فيها مفازةً كانت فى طريقه من العِراق إلىٰ الشام؛ وقولهم "أساءَ سَمْعًا فأَسَاءَ جابَةً" . وأول من قال ذلك سُهَيْل بن عمرو وكان تزوّج صفِيَّةَ بنتَ أبى جهل فولدت له آبنَه أنَسا ، فرآه الأخنسُ بن شَرِيق الثقفىُّ معه فقال من هذا ؟ فقال سُهَيل آبنى — فقال الأخنس حَيَّاك الله يابُنَىَّ ! أين أُمُّك؟ فقال : لا والله ما أُمِّى ثَمَّ ، آنطلقتْ إلىٰ بيتِ أمّ حنْظلةَ تطحَن دقيقا — فقال أبوه أساء سمعًا فأساء جابة — فلما رجعا قال أبوه فضَحَنى آبنكِ اليومَ قال كذا وكذا — فقالت إنمـا آبنى صبىٌّ وأنت لا تحبـه — فقال " أشبهَ آمرُؤ بعضَ بَزِّه " فأرسلها مثلا .

والبعيد من الفهم، مثـل قولهم " إنْ يَبْغِ علَيْكَ قَوْمُكَ لايبغ عليك القَمَر " . وهو مثل يضرب لمن ينكر الأمر الظاهرِ عِنادا . والأصل فى ذلك كما ذكره المفضَّل بنُ سلمَة الضبىّ أن بنى ثعلبة بن سـعد بنِ ضبّة فى الجاهليـة تراهنُوا علىٰ الشمس ، فقالت طائفة : تطلُعُ الشمس والقمرُ يُرىٰ ، وقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلُع الشمس ، فتراضَوْا برجل جعلوه بينهم حكَما ، فقال واحد منهم : إن قومى يبغون علىّ ، فقال الحكَم إن يبْغ عليك قومك لا يبْغ عليك القمر ، فجرتْ مثـلا . ومن المعلوم أن قول القائل إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر ، إذا أُخذ علىٰ حقيقته

من غير نظر إلىٰ القرائن المنوطة به، والأسـباب التى قيل من أجلها، لا يعطى من المعنىٰ ما قد أعطاه المَثَل ؛ بل ما كان يُفهَم من هذا القول معنًى يفيد لأن البغى هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا، فكان يصـير معنى المثل — إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر — وهو كلام مختل المعنىٰ ليس بمستقيم .

وقد أكثر الناس فى تصنيف كتب الأمثال، فمن ذلك الأمثال لأبى عبيد، وهو مرتب علىٰ ترتيب الوقائع التى تقع فيها الأمثال . ومن ذلك أمثال الميدانىّ ، وهى مرتبة علىٰ حروف المعجم وفى آخرها جملة من أيام حروب العرب، إلى غير ذلك من كتب الأمثال المصنفة فى هذا الباب : كأمثال الضبىّ، والقمىّ، وغيرها .

وأما الأمثـال الواردة نظما، فهى كلمات ٱستُحسِنت فى الشعر . وطابقتْ وقائع عامّةً جاريةً بين الناس ، فتداولهـا الناس ، وأجروها مجرىٰ الأمثال النثرية . وقد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم، كان يتمثل بقول طَرَفة .

* وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ *

وهو نصف بيت مجموعه :

سَتُبْدِى لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَـارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ويروىٰ أنه صلى الله عليه وسلم كان يُخْرِجه عن الوزن، ويُحيله عن طريق الشعر فكان يقول : "وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالأخبـارِ" فرارا من قول الشعر المنزَّه عنـه مَقامهُ العلىّ، وشرفه الرفيع ، لكن ثبت فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسـلم قال : "أَصْدَقُ كلِمةٍ قَالَهـا شاعرٌ كَلمةُ لبِيد :

* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلَا اللهَ باطِلُ * "

والمحرم عليه صلى الله عليه وسلم، إنما هو نظْم الشعر دون إنشاده وسماعه . وقد بسطت القول على ذلك فى كتابى المسمّى "بالغيوث الهوامع، فى شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع" فى الفقه فراجعه هناك ، ويروىٰ أن عمر رضى الله عنه تمثل بقول النابغة :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّـــه * علىٰ شَعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ

ثم قال : لمن هذا؟ فقيل له للنابغة، فقال : ذاك أشعرُ شعرائكم ؛ والمثل السائر فيه فى قوله : أىُّ الرِّجَال المهَذَّبُ ، وأمثال ذلك مما تمثل به الصحابة رضوان الله عليهم كثيرٌ، ولذلك وقع فى أمثال المحدثين الواردة فى أشعارهم مايستظرف ويستحلىٰ كقول القاضى الأرّجانىّ :

تَأَمَّلْ مِنْهُ تَحْتَ الصُّدْغِ خَالًا * لِتَعْـــلَمَ كَمْ خَبَـايَا فى الزَّوَايَا

يشير بذلك إلىٰ المثل الجارى علىٰ ألسنة الناس فى قولهم "فى الزَّوايا خَبَايَا" وهو من الأمثلة المستفيضة علىٰ ألسنة العامَّة الشائعة بينهم، وقول ٱبن عبد ربه .

قالُوا شَبَابُكَ قَدْ وَلَّى فقُلْتُ لَهُمْ : * هَلْ مِنْ جَدِيدٍ علىٰ كَرِّ الجَدِيدَيْنِ؟
صِلْ مَنْ هَوِيتَ وإنْ أبدى مُعَاتَبَةً * فَأَطْيَبُ العَيْشِ وَصْلٌ بينَ إلْفَيْنِ !
وٱقطَعْ حَبَائلَ خِدْنٍ لا تُلَائِمُـهُ * فرُبَّمَـا ضَاقَتِ الدُّنْيَـا بِإثْنَيْنِ .

وقول الآخر :

وَعَادَ مَنْ أهْوَاهُ بَعْدَ القِلىٰ * شَـقِيقَ رُوحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ
وأَصْـبَحَ الدَّاخِلُ ما بيْنَنَـا * كَسَـاقِطٍ بيْنَ فِرَاشَـيْنِ
قَدْ أُلْبِسَ البَغْضَاءَ مِنْ ذَا وذَا * لا يَصْلُحِ الغِـمْدُ لِسَـيْفَيْنِ
ما بَالُ مَنْ لَيْسَـتْ لَهُ حَاجَةٌ * يَكُونُ أنْفَـا بيْنَ عيْنَيْنِ؟

قال الأصمعى : ولم أجد فى شـعر شاعر بيتا أوّله مَثَـل وآخره مثل ، إلا ثلاثة أبيات بيتُ الحطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جوازِيَهُ * لا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والناسِ

و بيتا ٱمرئ القيس :

وأفْلَتَهُنَّ عِلْباءُ جَرِيضًا * ولَوْ أدْرَكْتَهُ صَفِرَ الوِطَابُ

وَقَاهُمْ جَدُّهم بِبَنِى أبِيهِـمْ * وبالأشْقَيْنَ ما كانَ العِقَابُ

قال صاحب العقد : "ومثل هذا كثير فى القـديم والحديث، ولا أدرى كيف أغفل القديمَ منه الأصمعىُّ، ومنه

* سَتُبْدِى لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا *

البيت المتقدّم؟ وهو من أشرف الأبيات وأعظمها بابا .

وأما الأمثال الموضوعةُ علىٰ ألسـنة الحيوانات ، فكما روى أنّ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، حين رأىٰ خلاف أصحابه وتَخَاذُلَهم ، تمثل بقولهم "إنَّمَـا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثورُ الأبْيَضُ" يعنى إنمـا خُذِلت يَوْمَ خُذِل عثمان ؛ وحكاية هذا المثل أنهم قالوا : ٱصطحب أسـدٌ، وثور أحمر، وثور أبيض، وثور أسـود فى أَجَمَة؛ فقال الأسد للأحمر والأسود : هــذا الأبيض يَفْضَـحُنا بلونه ، ويُطْمِع فينا مَنْ يقصِـدنا ! فلو تركتمانى آكُلُه ، أمِنَّا فضيحةَ لونه؛ فأذِنَا له فى ذلك فأكله؛ ثم قال للأحمر : هــذا الأسودُ يخالِفُ لونى ولونَكَ ولو بقيتُ أنا وأنت ، ظنك مَنْ يراك أسدا مثلى فدعنى آكُلْه ، فسكت عنه فأكله؛ ثم قال للثور الأحمر : لم يبق إلا أنا وأنت ، وأريد أن آكلك ! فقال إن كنتَ فاعلا ولا بدّ ، فدعنى أصعَدُ تلك الهَضْبة ، وأَصيحُ ثلاثة أصوات ، فقال : ٱفعل ماتريد ، فصعِدوصاح ثلاثة أصوات : "ألا إنَّمـا أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثورُ الأبيضُ" فجرت مثلا .

ويحكىٰ أن عبد الملك بن مَرْوان حج وقدم المدينة ، فقال علىٰ المنبر : ياأهل المدينة إنكم قُتِل عثمانُ بين أظهركم فنحن لانحبكم ! وأرسلنا مَسْلمة بن عُقْبة فقتلكم فى وَقْعة الحرّة ، فأنتم لاتحبُّوننا ، فمثلنا ومثلكم كما قال النابغة :

كما لَقِيتْ ذاتُ الصَّفا مِنْ حَلِيفها * وكانتْ تُرِيه المالَ غِبًّا وظاهِرَهْ
فَلَمَّا رأىٰ أنْ قَدْ تَثَمّر مالُه * وأثَّل مَوْجودًا وسَدَّ مَفاقِرَهْ
أكَبَّ علىٰ فأس يحُدّ غُرَابَها * مُذَكَّرةٍ مِنَ المَعَاوِلِ باتِرهْ
فلَمَّا وَقَاها اللهُ ضَرْبَةَ فأْسِه * ولله عَيْنٌ لا تُغَمَّضُ ناظِرَهْ
فقالَ تَعالَىْ نَجْعَلِ اللهَ بَيْنَنَا * علىٰ مالنَا أو تُنْجِزِى لِىَ آخِرَهْ
فقالَتْ يَمِينَ اللهِ أفعلُ إنَّنِى * رأَيْتُكَ سُخْرِيًّا يمينُكَ فاجِرَهْ
أَبَىٰ لِىَ قَبْرٌ لا يَزَالُ مُقَابِلِى * وضَرْبَةُ فأسٍ فوْقَ رَأْسِىَ فاقِرَهْ

وهذه الحكاية مشهورة فى الموضوعات علىٰ ألسُن الحيوان ؛ وهى أن أخوين هبطا بغنمهما واديًا يرعيان فيه ، فخرجتْ حية من تحت الصَّفا وفى فمها دينار فألقته إليهما وأقامت كذلك أياما ؛ فقال أحدهما لابدّ من قتل هذه الحية وأخذ هذا الكنز ! فنهاه أخوه فلم يقبل ، فخرجت فضربها بفأس فى يده ، فشجَّها وشدّتْ عليه فقتلته ؛ فدفنه أخوه مُقابِلَها ؛ فلما خرجَتْ قال لها هل لكِ أن نتعاهدَ علىٰ المودّة وعدم الأذية ، وتعطينى ذلك الدينار كل يوم؟ فقالت : لا ! — قال ولم؟ — قالت لأنك كلما نظرت إلىٰ قبر أخيك لاتصفو لى ، وكلما ذكرتُ الشجَّةَ التى فى رأسى لاأصْفُو لك .

المقصد الثانى

(فى كيفية ٱستعمال الأمثال فى الكتابة)

فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها ، ٱنقادتْ إليه معانيها ، وسِيقت إليه ألفاظها ، فى وقت الاحتياج إلىٰ نظائرها من الوقائع

والأحوال ، فأودعها فى مكانها، وآستشهد بها فى موضعها . والطريق فى آستعمالهـا فى النثر ، كما فى حل الأشعار وآستعمالهـا ، إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها ، ولا تغيير أوضاعها : لأنها بذلك قد عُرِفت وآشتهرت .

فمما آستعمله أهــل الصناعة من الأمثال المنثورة وأوردوه فى كلامهم قول المقــرّ الشهابىّ آبن فضــل الله فى "التعريف" فى وصية أمير مكة المعظمة "ولأنه أحقُّ بنى الزَّهْراء بمـا أبقَتْه له آباؤه، وألقَتْه إليه من حديث قُصَىٍّ جدِّه الأقصىٰ أبناؤه ؛ وهو أجدر مَنْ طَهَّر هذا المسجد من أشياءَ تَنَزَّهَ أن يلحق به خُش عابِها، وشَنْعاءَ هو يعْرِف كيف يتتبَّعُها "وأهلُ مَكَّةَ أخْبَرُ بشِعَابها" ، فاستعمل المثل السائر فى قوله : وأهــلُ مكة أخبر بشعابها؛ وقد وقع هذا المثــل فى كلامه أحسن موقع ، وجاء علىٰ أجمل نظام : لأنه قد أتىٰ به فى مكانه اللائق به ، ومحله المخصوص بوصفه ؛ وقد نقله الشيخ جمال الدين بن نُباتة رحمه الله فآستعمله فى غير هــذا المعنىٰ ، فجاء منحطًّا عن هذه الدرجة، وقاصرا عن رتبتها ، فقال فى وصية خطيب ، : ووصايا هذه الرتبة متشعبه، وهو كأهل مكة أخبرُ بِشِعابِها ، وأحوالها مترتبه، وهو علىٰ كل حال أدرَبُ وأدرىٰ بها ؛ إلا أنه قد ظَرَّف بذكر الجناس الآشتقاقىّ فى قوله متشعبة مع قوله بشعابها .

ومن ذلك قول الشيخ شهابِ الدين محمودٍ الحلبىّ رحمــه الله فى خطبة تقليد بفتوة عن ملك : "ونشهد أن محمدا عبده ورسوله" ، الذى نُورُ شريعته جَلِىّ، وجاهُ شَفاعته ملِىّ ، وبسيفه وبه جاء النصر والشرف من آنتمائنا إليه ، فلا سَيْفَ إلا ذُو الفَقَار ولا فَتَى إلَّا علىّ . وهذا علىٰ ماهو شائع علىٰ الألسنة ، وأن ذلك قيل فى يوم ضَربَ علىّ رضى عنه كافرا آسمُه مَرْحَب ، فشقَّ البيضة علىٰ رأسه نصفين ، وتمــادىٰ السيف فيه وفى جواده فشقَّهُما كذلك وخَلَص السيفُ بينهما فغاص فى الأرض شِبْرَيْنِ ؛ إلا أن المعروف عند المحدّثين وأصحاب السير أن ذا الفقار آسم سيف للنبىّ صلى الله عليه

وسلم، ٱصطفاه من خيبر لنفسه حينَ ٱصطفى صفِيَّة بنتَ حُيَيِّ بن أخْطَبَ رضى الله عنها، ولعله صلى الله عليه وسلم، أعطاه علياً رضى الله عنه بعد ذلك .

ومن ذلك ما ذكرته فى المفاخَرة بين السيف والقلم فى الكلام علىٰ لسان القلم : وهو "أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيقها المُرَجَّب، وكَرِيمها المبجل، وعالمها المهذب". فالقرينة الأُولىٰ فيها مَثَلان ، وأول من قالها الحُباب بن المنذر الأنصارىّ يومَ السَّقيفة ، حينَ ٱجتمع الأنصار إلىٰ سعد بن عُبادةَ، يوم مات النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سقيفة بنى ساعدة، وأرادوا تأميره فذهب إليهم أبو بكر وعمر، وأبو عبيدة ٱبنُ الجرَّاح، وقال الحُباب بنُ المنذر : مِنّا أمير ومنكم أمير، إلىٰ أن كان من كلامه هذان المثلان[(١)] . والجُذَيل تصغير جِذْلٍ، واحد الأجْذال ، وهى أصول الشجر العظام، وكانت العرب إذا جَرِبت الإبل نصبت لها جِذْلا فى باطن الوادى تحتكُّ فيه ، فلذلك قال جُذَيلُها المحكَّك ، أراد أنه يُستشفىٰ برأيه ، كما تستشفِى الإبل بالحك فى ذلك الجِذْل ، والعَذْق بفتح العين النخلة بحملها ، وكان من عادتهم أن النخلة الكريمة يبنى حولها بناء يمنعُها من السُّقوط ، فذلك هو الترجيب ، أراد أنه كريم فى قومه عزيز عليهم . وما ذكرته فى المفاخرة بين السيف والقلم أيضا علىٰ لسان السيف وهو : "فالشمس من شُعاعى فى خَجَل، والليل من ضوئى فى وَجَل، وما أسرعتُ فى طلب ثأر إلا قيل فات ما ذُبح، وسبق السيفُ العَذَل". ففى القرينة الأخيرة مَثَلان أحدهما "فات ما ذبح" وهو مثل يضرَب لمن طلب الشيءَ بعد فَواته ، وأصله أن بعض الملوك رأىٰ مع أعرابىٍّ بازيا ، فأعجبه فأرسل فى طلبه قاصدا ، فأتىٰ الأعرابىّ ولم يكن عنده ما يضيفه به ، فذَبح البازى وطبخه وقدّمه إليه، غير عالم بقصده ؛ فلما فرغ من أكله ذكر للأعرابى

(١) فى الأصل هذين المثلين ولعله سبق قلم من الناسخ .

أمرَ البــازى وما كان من طلب الملك له ، فقــال "فات ماذُبح" إنك أتيتنى ولم يكن عندى ما أضيفك به ، فذبحت البازى وطبختــه ؛ وهو الذى قدّمته إليك .

والمثل الثانى "سَبَقَ السـيفُ العَذَل" وهو مثل لمن يلوم علىٰ فعل شيء بعد وقوعه وفوات أمره .

ومما حُلَّ من الأمثال الواردة نظما، وٱستعمل فى النثر، قول القاضى شهاب الدين ٱبن فضــل الله فى "التعريف" فى وصــية أمير مكة المعظمة أيضا فى الوصية علىٰ وُفُود الحجيج : "وكل هؤلاء إنمــا يأتون فى ذِمَام الله ببيته الذى مَنْ دخله كان آمنا ، وإلىٰ محل ٱبن بنت نبيّــه الذى يلزمه من طريق بِرِّ الضــيف ما أُخِذَ لَهُم، وإن لم يكن ضامِنا ؛ فليأخذ بمن أطاع مَنْ عصىٰ ، وليردع كل مفسد ولا سيما العبيد، فإن العبد لا يردَعُه إلا العصا ، فقوله فان العبد لا يردعه الا العصــا يشــير به إلىٰ قول ٱبن دريد فى مقصورته .

واللَّومُ للحُــرِّ مُقــيمٌ رادِعٌ ❊ والعَبْدُ لا يَرْدَعُه إلَّا العَصَا

وقد ٱشتهر النصف الثانىْ من هذا البيت حتى جرىٰ مجرىٰ المثل ولعله كان مثلا سائرا قبل أن ينظمه ٱبن دُرَيد .

ومنه قول الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة رحمه الله من توقيع بنَظَر مدرســة بعد أن قدّم أنــ أهلها رفعوا قِصَصهم فى طلب ذلك الناظر : "وكيف لا وهو نِعْمَ الناظرُ والإنسان، وفى مصالح القول والعمل ذو اليدين واللِّسان، وذو العزائم الذى تقيَّدتْ فى حُبه الرُّتَب ومن وجد الإحسان" يريد البيت المشهور :

❊ ومَنْ وجَدَ الإحسانَ قيْدًا تقيَّدا ❊

وقد أتىٰ فيه بالآكتفاء، فزاد فى كلامه حُسنا وطَلَاوة .

وأعلىٰ منــه وأوقع فى النفوس قوله بعــد ذلك فى التوقيع المذكور "فاقتضىٰ علو الرأى أن يجاب فى طلبه إليهم سُؤالُ القوم، وأن يتصل أمسُ الإقبال باليوم؛ وأن

يعرب ، بن يشجب ، بن نابت ، بن إسماعيل ، بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ابن تارح ، وهو آزر ، بن أرغو ، بن فالغ ، بن عابر ، بن أرفخشذ ، بن سام ، بن نوح عليه السلام ، ابن يرد ، بن مهليل ، بن قينن(١) ، بن تاتش ، بن شيث ، بن آدم عليه السلام .

قال النووى : "والاتفاق على هذا النسب الشريف إلى عدنان ، وليس فيما بعده إلى آدم طريق صحيح" وفيما بعد عدنان ، إلى إسماعيل عليه السلام خلاف كثير ، قال القضاعى فى "عيون المعارف فى أحكام الخلائف" وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال "لا تجاوزوا معد بن عدنان ، كذب النسابون ، ثم قرأ وقرونا بين ذلك كثيرا ولو شاء أن يعلمه لعلمه" قال : والصحيح أنه من قول ابن مسعود رضى الله عنه .

المقصد الثانى

(فى أنساب العرب ، وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(فى أمور تجب معرفتها قبل الخوض فى النسب)

وأول ما تجب معرفته من ذلك من يقع عليه لفظ العرب ، قال الجوهرى "العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصار ، والأعراب سكان البادية ، والنسبة إلى العرب عربى ، وإلى الأعراب أعرابى" والتحقيق إطلاق لفظ العرب على الجميع ، وأن الأعراب نوع من العرب ، ثم اتفقوا على تنويع العرب إلى نوعين عاربة ومستعربة .
فالعاربة هم العرب الأول الذين فهمهم الله اللغة العربية ابتداء فتكلموا بها . قال

(١) فى القاموس قينان بن أنوش بن شيث .

الجوهرىّ "وقد يقال فيهم العَرب العَرْباء" . والمستعْرِبة هم الداخلون فى العربيَّة بعد العجمية . قال الجوهرىّ "وربما قيل لهم المتَعرِّبة" . وقد آختلف فى العاربة والمستعربة فذهب آبن إسحاق والطبرىّ إلىٰ أن العاربة هى عادٌ وثمودُ وطَسْم وجَدِيس وأُمَيم وعَبِيل والعَمَالقة وعَبْد ضَخْم وجُرْهُم الأولىٰ، ومَنْ فى معناهم. والمستعرِبةُ بنو قَحْطان بن عابر بن شالخ بن أرفَخْشذ بن سام بن نوح وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابر وإسماعيل كانت سريانية أو عبرانية ، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان فى زمانهم كعادٍ ونحوهم، وتعلم إسماعيل العربية من جُرْهُم من بَنِى قحطانَ النازلين علىٰ إسماعيل وأمّه بمكة . وذهب آخرون منهم المؤيَّد صاحب حماه إلىٰ أن بنى قَحْطان هم العاربة ، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط، والذى رجحه صاحب العبر الأوّل .

ثم قد قسم المؤرّخون العرب أيضا الىٰ بائدة وغيرها ، فالبائدةُ هم الذين بادُوا ودَرَستْ آثارُهم كعادٍ، وثمودَ، وطَسْم ، وجَديس، وغير البائدة هم الباقون فى القرون المتأخرة بعد ذلك من القَحْطانية : كطيئ ، ولخْم، وجُذَام ونحوهم، ومن العَدْنانية كفَزَارة وسُلَيم وقريش، ومن فى معناهم . ثم قد عدّ الماوردىّ وغيره طبقات أنساب العرب ست طبقات :

الطبقةُ الأُولى — الشَّعْب بفتح الشين وهو النَّسَب الأبعد الذى تُنْسب إليه القبائل كعَدْنانَ، ويجمع علىٰ شُعوب، وسمى شَعْبا لأن القبائل تتشعَّب منه .

الطبقة الثانية — القَبِيلة ، وهى ما آنقسم فيه الشعب كربيعة ومضر، وتجمع علىٰ قبائل، وسميت قبيلةً لتقابل الأنساب فيها، وربما سميت القبائل جَمَاجِم .

الطبقة الثالثة — العِمارة بكسر العين ، وهى ما آنقسم فيه أنساب القبيلة كقُرَيش وكِنَانة وتجمع علىٰ عمَائر وعِمَارات .

الطبقة الرابعة — البَطْن وهى ما آنقسم فيه أنساب العِمَارة كبنى عبـدِ مناف ، وبنى مَخْزوم وتجمع على بطون وأبطُن .

الطبقة الخامسة — الفَخِذ ، وهى ما آنقسم فيه أنساب البطن : كبنى هاشم ، وبنى أُمَيَّة ، وتجمع على أفخاذ .

الطبقة السادسة — الفصيلة — بالصاد المهملة — وهى ما آنقسم فيه أنساب الفَخِذ كبنى العَبَّـاس وبنِى أبى طالب ، وتجمع على فصائل ؛ فالفخذ يجمع الفصائل ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والعمارة تجمع البطون ، والقبيـلة تجمع العمائر ، والشَّعْب يجمع القبائل . قال النووىّ وزاد بعضهم العَشِيرة قبل الفصيلة ، قال الجوهرىّ "وعَشِيرة الرجل رَهْطه الأَدْنَوْن" وحكى أبو عبيدة عن آبن الكلبىّ عن أبيه تقـديم الشعب على القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العمارة ، ثم الفخذ ، فأقام الفصيلة مقام العمارة فى ذكرها بعد القبيلة ، والعمارة مقام الفصيلة فى ذكرها قبل الفخذ . وبالجملة فأكثر ما يدور على الألسـنة من الطبقات الست المذكورة القبيـلة ، ثم البطن ، وقَلَّ أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة ، وربما عَبَّروا عن كل من الطبقات الست بالحىّ ، إما بالعموم مثل أن يقال حىّ من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال حىّ من بنى فلان .

وممـا يجب على الناظر فى الأنساب أن يعرف عشرة أمور :

الأوّل — قال المـاوردىّ إذا تباعدت الأنساب ، صارت القبائل شعوبا ، والعمائر قبائل ؛ يعنى وتصير البطون عمائر ، والأفخاذ بطونا ، والفصائل أفخاذا ، والحادثُ من النسب بعد ذلك فصائلَ .

الثانى — قد ذكر الجوهرىُّ أن القبيلة هم بنو أبٍ واحد ، وقال آبن حزم جميع قبائل العرب راجعة إلى أبٍ واحد سوى ثلاث قبائل : وهى تَنُوخ ، والعُتَق ، وغَسَّان

فإن كل قبيـلة منهم مجتمعة من عدّة بطون ، وذلك أن تَنُوخا ٱسم لعشر قبائل ٱجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسُمُّوا بتَنُوخ أخذا من التَّنُّخ وهو المُقَام ؛ والعُتْق جمعٌ ٱجتمعوا على النبيّ صلى الله عليه وسلم فظفِر بهم فأعتقهم فسُمُّوا بذلك . وغَسَّان عدّة بطون من الأزد نزلوا على ماء يسمّى غَسَّان فسُمُّوا به .

الثالث — تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من قومه بأن يُشْهَر ٱسمه بهم لرياسة ، أو شجاعة ، أو كثرة ولد ، أو غيره فتُنْسَب بنُوه وسائر أعقابه إليه ، وربما ٱنضم إلى النسبة إليه غير أعقابه من عشيرته كإخوته ونحوهم ، فيقال فلان الطائىّ ، فإذا أتى من عقبه مَن ٱشتهر منهم أيضا بسببٍ من الأسباب المتقدّمة نُسبت إليه بنُوه ، وجعلت قبيلة ثانية ؛ فإذا ٱشتمل النسب على طبقتين فأكثر كهاشم ، وقُريش ، ومُضَر ، وعدنانَ ، جاز لمن فى الدرجة الأخيرة من النسب أن يُنْسب إلى الجميع : فيجوز لبنى هاشم أن يُنْسَبوا إلى هاشم ، وإلى قريش ، وإلى مضر ، وإلى عدنان : فيقال فى أحدهم الهاشمىّ ، والقُرَشىّ ، والمُضَرىّ ، والعدنانىّ ؛ بل قال الجوهرىّ : إن النسبة إلى الأعلى تغنى عن النسبة إلى الأسفل فإذا قلت فى النسبة إلى كلب بن وَبَرَة الكَلْبىّ ٱستغنيت أن تنسُبه إلى شىء من أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع فى النسب بين الطبقة العُلْيا والطبقة السُّفلى . ثم بعضهم يرى تقديم العُلْيا على السفلى : مثل أن يقال القرشىّ العَدَوىّ وبعضهم يرى تقديم السفلى على العليا ، فيقال العدوىّ القرشىّ .

الرابع — قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحِلْف والمُوالاة فينسب إليهم : فيقال فلان حَلِيفُ بنى فلان أو مَوْلاهم .

الخامس — إذا كان الرجلِ من قبيلة ثم دخل فى قبيلة أخرىٰ ، جاز أن ينسب

إلىٰ قبيلته الأُولىٰ، وأن ينسب إلىٰ القبيلة الثانية التى دخل فيها ، وأن ينسب إليهما جميعا مثل أن يقال التميمى ثم الوائلى، أو الوائلى ثم التميمى وما أشبه ذلك .

السادس — القبائل فى الغالب تسمّى باسم أبى القبيلة : كربيعة ومُضَر، والأَوْس والخَزْرج، وما أشبه ذلك . وقد تسمّى القبيلةُ باسم الأم : كخِنْدِف، وبَجيلة ونحوهما ؛ وقد تسمّى بآسم خاصّةٍ خصَّتْ أصل تلك القبيلة ونحو ذلك . وربما وقع النسب علىٰ القبيلة لحدوث سبب كغسّان (١) ، حيث نزلوا علىٰ ماء باليمن كسعد والحارث وغيرهما .

السابع — أسماء القبائل فى آصطلاح العرب علىٰ خمسة أضرب :

أوّلها — أن يطلق علىٰ القبيلة لفظ الأب كعاد، وثمود، ومَدْين، ومَنْ شاكلهم ؛ وبذلك ورد القرءان الكريم (وإلىٰ عَادٍ . وإلىٰ ثَمُودَ . وإلىٰ مَدْيَنَ) يريد بنى عاد، وبنى ثمود، وبنى مَدْيَنَ ، ونحو ذلك . وأكثر ما يكون ذلك فى الشُّعوب والقبائل العِظام بخلاف البطون والأفخاذ ونحو ذلك .

وثانيها — أن يطلق علىٰ القبيلة لفظ البنوّة : فيقال بنو فلان ؛ وأكثر ما يكون ذلك فى البطون والأفخاذ .

وثالثها — أن يرد ذكر القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالِبِيِّين والجَعَافِرة ونحوهما ؛ وأكثر مايكون ذلك فى المتأخرين دون غيرهم .

ورابعها — أن يعبَّر عنها بآل فلان : كآل ربيعة، وآل فَضْل، وآل مُرّ، وآل على ، وماأشبه ذلك ؛ وأكثر مايكون ذلك فى الأزمنة المتأخرة، لاسيما فى عرب الشام فى زماننا . والمراد بالآل الأهل .

---

(١) كذا فى الأصل ويظهر أن فيه سقطا .

وخامسها — أن يعبر عنها بأولاد فلان؛ ولا يوجد ذلك إلا فى المتأخرين من أفخاذ العرب على قلة : كقولهم أولاد زعازع، وأولاد قُريش ونحو ذلك .

الثامن — أسماء غالب العرب منقولة عمّا يدور فى خزانة خيالهم مما يُخالطونه ويُجاوِرونه ؛ إما من الحيوان المفترِس كأسَدٍ ، ونَمِر ؛ وإما من النبات كنبت ، وحَنْظَلَة ؛ وإما من الحشرات كحَيَّة ، وحَنَش ؛ وإما من أجزاء الأرض كفِهْر ، وصَخْر ونحو ذلك .

التاسع — الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء : ككَلْب ، وحَنْظَلَة ، ومُرَّة ، وضِرار ، وحَرْب ، وما أشبه ذلك ؛ وتسميةُ عبيدهم بمحبوب الأسماء : كفَلاح ونَجَاح ، ونحوهما . والمعنى فى ذلك ما حكى أنه قيل لأبى الدُّقَيْش[1] الكلابىّ : لِمَ تُسَمُّون أبناءكم بِشَرّ الأسماء نحو كلب وذِئب ، وعبيدَكُم بأحسن الأسماء نحو مَرْزوق ورَباح ؟ فقال : إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدَنا لأنفُسنا (يريد أن الأبناء مُعدّة للأعداء فاختاروا لهم شر الأسماء ، والعبيد معدّة لأنفسهم فاختاروا لأنفسهم خير الأسماء) .

العاشر — إذا كان فى القبيلة اسمان متوافقان : كالحارث والحارث ، وأحدهما من ولد الآخر أو بعده فى الوجود عَبَّروا عن الوالد أو السابق منهما بالأكبر ، وعن الولد أو المتأخر منهما بالأصغر ؛ وربما وقع ذلك فى الأخوين إذا كان أحدهما أكبر من الآخر .

المهيع الثانى

(فى معرفة تفاصيل أنساب العرب)

واعلم أن العرب على قسمين :

---

(١) أهمله فى الأصل وصوابه الإعجام .

القسم الأوّل

(العــرب البـائدة)

وهم الذين بادُوا ، ودَرسَت آثارهم ، وٱنقطعت تفاصـيل أخبارهم إلا القليل ؛ والمشهور منهم قبائل :

القبيلة الأولى — عاد ؛ وهم بَنُو عادِ بنِ عَوْص بنِ إرَم بنِ سـام بن نوح عليه السلام ، وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعُمَانَ : من البحرين إلىٰ حضرموت والشِّحْر ؛ وهم الذين بعث الله تعالىٰ إليهم هُودا عليه السـلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالريح كما ورد به القرءان الكريم .

القبيلة الثانية — ثمود ، وهم بنو ثمود بن جاثر (ويقال كاثر بالكاف بدل الجيم) ٱبن إرَم بن سام بن نوح عليه السـلام ، وكانت منـازلهم بالحِجْر ووادى القُرَىٰ ، بينَ الحجـاز والشام ؛ وكانوا يَنْحِتُون بُيوتَهم من الجبال مراعاةً لطول أعمارهم . بعث الله تعالىٰ إليهم صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا ، فأهلكهم الله بصَيْحة من السماء كما ورد به القرءان الكريم .

القبيلة الثالثة — العَمَالقة ، وهم بنو عِمْليق ، (ويقال عِمْلاق) بن لاوَذ بن إرَم بن سام بن نوح ؛ وهم أمة عظيمة يُضْرَبُ بهم المَثَلُ فى الطول والجُثْمان . قال الطبرى : وتفرّقت منهـم أمم فى البلاد ، فكان منهم أهـل عُمَان ، والبحرين ، والحجاز ، وملوك العِراق ، والجزيرة ، وجَبَابرةُ الشام ، وفَرَاعِنَة مصر .

القبيلة الرابعة — طسم ، وهم بنو طَسْم . قال ٱبـن الكلبى : وهم بنو طسم ٱبن لاوَذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السـلام . وذكر الجوهرى : أنهم من عاد ،

قال : وكانت منازلُهم الأحقافَ باليمن . وذكر فى "العبر" أن ديارَهم كانت باليمامة؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين إخوانهم جَدِيس الآتى ذكرهم .

القبيلة الخامسة — جَدِيس وهم بنو جَدِيس بن إرمَ بن سام بن نوح . وقال الطـبرىّ جَدِيسُ بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليـه السـلام ، وكانت مساكنهم بجوار طَسْم المقـدَّم ذكرهم ؛ وكان هلاكهـم بالحرب بينهم وبين المذكورين أيضا .

القبيلة السادسة — عَبْد ضَخْم ، وهم بنو عَبْدِ ضخم بنِ إرم بن سام بن نوح . قال فى "العبر" : كانوا يسكُنُون الطائف فهلكوا فيمن هلك . قال : ويقال إنهم أوّل من كتب بالخط العربىّ .

القبيلة السابعة — جُرْهُم الأولىٰ . قال ٱبن سعيد : وهم قبيلة من العرب كانوا علىٰ عهد عاد فبادُوا .

القبيلة الثامنة — مَدْيَن، وهم بنو مَدْيَن بن إبراهـيم عليه السـلام ؛ وهم أمة كبيرة قبائلُ وشُعوب، وكانت ديارهم ديارَ عاد وأرض مَعَان من أطراف الشام ممـا يلى الحجاز قريبا من عشيرة (١) قوم لُوطٍ بعث الله إليهم شُعَيْبا فلم يؤمنوا .

القســـم الثـانى

(من العرب الباقية أعقابهم علىٰ تعاقُب الزمان)

وأكثر مَنْ تدعو حاجة الكاتب إلىٰ معرفته مَنْ بقِى أعقابه منهم متفرّقةً فى أقطار الأرض إلىٰ الآن، وهم علىٰ ثلاثة أضرب :

---

(١) فى سبائك الذهب من أرض قوم لوط فتنبه .

الضرب الأوّل

(العــرب العـاربة)

قال الجوهرىّ : ويقال فيهم العرب العَرْباء، وهم بنو قَحْطان، بن عابَر، بن شالَخ ٱبن أرْفَخْشذ، بن سام، بن نوح عليه السلام، وهم عرب اليمن. والمشهور منهم شَعْبان.

الشَّعْب الأوّل — جُرْهم (بضم الجيم وسكون الراء وضم الهـاء) وهم بنو جُرْهُم بن قحطان، وهم غير جُرْهم الأولىٰ المقدّم ذكرها فى جملة العرب البائدة .

وكانت منازلهم أوّلا اليمنَ، ثم ٱنتقلوا إلىٰ الحجـاز فنزلوه، فأقاموا به حتّىٰ كان من نزول إسماعيل عليه السلام مع أبيه مكة ما كان، فنزلوا عليه بمكة، وٱستوطنوها علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ العرب المستعربة إن شاء الله تعالىٰ .

الشَّعْب الثانى — يَعْرُب، وهم بنو يعرُب بن قحطان المقدّم ذكره . ويقال إن العرب إنمـا سُمِّيت عَرَبا به، وهو أصل عرب اليمن الذين أقاموا به ومنه تناسـلُوا فوُلِد له يَشْجُب، وَوَلَد يَشْجُب سَبأً، ومنه تفرّعت جميع قبائلهم .

ومرجع المشهور فيه إلىٰ قبيلتين :

القبيلة الأُولىٰ — حِمْير وهم حِمْيرُ بن سبإٍ (بكسر الحاء وٱسمه العَرَنْجَج) . وقد ذكر ٱبن الكلبىّ : أنه كان لحميَرٍ عشرة أولاد من عَقِبه وكان غالبُ وجُلُّ قبائل حِمْير من ٱبنَيْـه : الهَمَيْسَع، ومالِك ملوك اليمن، وكانت بلادهم مشارقَ اليمن فظَفارِ وما حولهـا . ولحمير بقايَا موجودُون إلىٰ الآن، ومنه غالب قبائل قُضَاعة، ومنه غالب قبائل حمير، وهو قُضَاعة، بن مالك، بنِ عمرو، بن مُرَّة، بن زيد، بن مالك، بن حِمْير، وقيل قضاعة بن مالك بن حمير . وذهب بعض النَّسَّابة إلىٰ أن قُضَاعة من العَدْنانيَّة الآتى ذكرُهم . قال السهيلىّ : والصحيح أن أمّ قُضاعة (وهى جكرة) مات عنها مالكٌ

آبن حمير وهى حامل، فتزوّجها مَعَدُّ بن عدنانَ ، فولدت قُضاعةَ علىٰ فراشـه فتبنّاه فنُسِب إليه. قال المؤيد صاحب حماه: "وكان قضاعة مالكا لبلاد الشِّحْر وقبرُه بجبل الشِّحْر موجود" . ولقضاعة بقايا إلىٰ الآن ينسب إليهم، وإليهم يُنْسب القُضَاعىّ المصرىّ صاحبُ كتاب "الشهاب فى المواعظ والآداب" فى الحديث، وخطط مصر وغيرهمـا .

والمشهور من قضاعة سبعة أحياء :

الحىّ الأوّل ــ بَلِىّ (بفتح الباء) وهم بنو بَلِىّ، بن عمرو، بنِ الحافِى، بنِ قُضَاعةَ، ولهم بَقَايَا بالديار المصرية بصعيدها الأعلىٰ ، منهم بنو ناب وغيرهم ، وبقَايَا بالحجـاز وغيرهما، والنسبة إليهم بلَوِىٌّ بزيادة واو مكسورة قبل ياء النسب .

الحىّ الثانى ــ جهينة (بضم الجيم وفتح الهاء والنون)، وهم بنو جُهينة، بن زيد، آبن ليث، بن سُود، بن أسلم، بن الحافِى، بن قضاعة، وهى قبيلة عظيمة، ولهم بَقَايَا ببلاد الصـعيد من الديار المصرية وبالحجاز وغيرهمـا . والنسبة إليهم جُهَنِىٌّ بحذف الياء بعد الهـاء .

الحىّ الثالث ــ كلب، وهم بنو كلب، بن وَبَرَةَ، بن ثعلبة، بن حُلْوان، بن عِمْران، آبن الحافى ، بن قُضاعة ، ومنهم حارثة الكلبىُّ أبو زَيدِ بنِ حارثةَ مولىٰ رسـول الله صلى الله عليه وسلم .

قال صاحب حماه : وكان بنو كلب فى الجاهليـة ينزلون دُومةَ الجندل، وتبوكَ، وأطراف الشام . قال آبن سعيد : ومنهم الآن خَلْق عظيم علىٰ خليج القُسْطَنْطِينيَّة مسلمون . قال فى «مسالك الأبصار» : وبشَيْزَرَ، وحَلَب وبلادها، وتَدْمُر، والمَنَاظر أقوام منهم، والنسبة اليهم كَلْبىٌّ .

الحىّ الرابع ــ عُذْرةُ (بضم العين المهملة وسكون الذال المعجمة) وهم بنو عُذْرة

ابن سعيد[(١)]، بن هُذَيم، بن زيد، بن ليث، بن سُود، بن أسلم، بن الحافى، بن قضاعة، وإلى عُذْرة هؤلاء ينسَبُ العشق والتتيُّم؛ ومنهم عُرْوة بن حِزَام صاحب عَفْراء أحد المتيَّمين وجَميل صاحب بُثَينة . ومن أحسن ما يحكى أنه قيل لرجل منهم : ما بالُ العِشق يقتلُكم يا بنى عُذْرة ؟ قال لأنّ فينا جمالا وعِفَّة : وقيل لآخر منهم : ما بالُ الرجل منكم يموتُ فى هوى آمرأة ؟ إنما ذلك ضَعْف فيكم يا بنى عُذْرة — فقال : أما والله ! لو رأيتم النواظر الدُّعْج ، تحتَها المَبَاسِمُ الفُلْج ، فوقَها الحَواجِبُ الزُّجُّ ، لآتخذتموها اللّاتَ والعُزَّى؛ ولهم بقايا بالدَّقَهْلِية والمُرْتاحيَّة من الديار المصرية، وبقايا بالشام أيضا .

الحىّ الخامس — بَهْراء (بفتح الباء الموحّدة وسكون الهاء وألف بعد الراء المهملة)، وهم بنو بَهْراء، بن عَمْرو، بن الحافى: بن قُضَاعة؛ ومنهم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، منهم المِقْداد بن الأسود، أحدُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال : إن خالدَ بن بَرْمَك من آل بهراء . قال فى العِبَر : وكانت منازلهم شِمَالىّ منازل بَلِىّ من اليَنْبُع إلى عَقَبة أيلةَ ، ثم جاور بحرَ القُلْزُم منهم خلق كثير ، وآنتشروا ما بين بلاد الحَبَشة وصعيد مصر، وكَثُروا هناك ، وغلبوا على بلاد النُّوبة ، وهم يحاربون الحبشة إلى الآن .

الحىّ السادس — بنو نَهْد، بن زيد، بن ليث، بن سُود، بن أسلَمَ، بن الحافى، بن قُضَاعة، وكانت منازلهم باليمن، وإليهم كتب النبىّ صلى الله عليه وسلم كِتَابَهُ المشهور، وكان منهم طائفة بالشام أيضا فيما ذكره أبو عبيد . ومن مَشَاهير نَهد الصَّقْعَب؛ قال صاحب حماه : وكان رئيسا فى الإسلام .

---

(١) فى القاموس سعد بن هذيم بدون ياء وهو الصواب وهذيم عبد حبشى حضن سعدا فنسب إليه و إلا فهو سعد بن زيد بن ليث فليس زيد جدّا له كما قد يتوهم من العبارة فتنبه .

الحىّ السابع — جَرْم، وهم بنو جَرْم وآسمه عِلَاف، بن زَبَّان، بن حُلْوان، بن عِمْران، آبن الحافى، بن قُضَاعة. قال الحمدانىّ: ومنهم بنو جُشَم، وبنو قُدامة، وبنو عَوْف. قال فى العِبَر: ومنهم جماعة من الصحابة رضى الله عنهم. قلت ووهم القاضى ولىّ الدين بن خلدون بجعلهم هم الذين ببلاد غَزَّة، وقد تقدّم أن أولئك هم جرم طيّئ لا جرم قُضَاعة. وعدّ صاحب حماه فى تاريخه منهم تَنُوخ (بفتح التاء المثناة فوق وضم النون وخاء معجمة فى الآخر) قال الجوهرىّ: ولا تشدّد نونه، والتحقيق ماقاله أبو عبيد: أنهم ثلاثة أبطن من القحطانية نِزَار(١)، والأحلاف. قال: وسُمُّوا بذلك لأنهم حلفوا على المُقام بمكان بالشام والتَنَّخ المُقَام. قال آبن سعيد: ومن الناس من يطلق تَنُوخَ على الضَّجاعمة، ودَوْس الذين تنخوا بالبحرين. قال صاحب حماه: وكان بينهم وبين اللَّخْميين ملوكِ الحِيَرة حروب، ولتَنُوخَ بقايا بالمعرّة من بلاد الشام فيما ذكره الحمدانىّ.

القبيلة الثانية — من القَحْطانية كَهْلان (بفتح الكاف وسكون الهاء)، وهم بنو كَهْلانَ بن سبإ. قال أبو عبيد: وشعوبهم كلها متشعبة من زيد بن كَهْلانَ، وكانوا متداوِلينَ المُلْكَ باليمن مع بنى حِمْير، آنفرد بنو حمير بالملك، وبقيت بطون كهلان على كثرتها تحت ملكهم. قال فى العبر: ثم تقاصَرَ مُلْك حمير وبقيت الرياسة على العرب بالبادية لبنى كَهْلانَ، وهم أحياء كثيرة.

والمشهور منهم أحَد عشر حيًّا:

الحىّ الأوّل — الأزد (بفتح الهمزة وسكون الزاى وبالدال المهملة)، قال أبو عبيد: ويقال بالسين بدل الزاى. قال الجوهرىّ: بالزاى أفصح، وهم بَنُو الأزد، بن الغَوْث، بن نَبْت، بن مالك، بن أُدَد، بن زيد، بن كهلان، وهم من أعظم الأحياء وأكثرِهم بُطُونا. وقد قَسَّم الجوهرىّ الأزْد إلى ثلاثة أقسام:

(١) أى أسد وغطفان فهما آثنان ونزار الثالث.

أحدهما — أزدُ شَنُوءة، وهم بنو نَصر بن الأزْد، وشَنُوءة لقب لِنَصْر غلب علىٰ بنيه .

الثانى — أزد السَّراة، بإضافة أزد إلىٰ السَّراة (بالسين المهملة)، وهو موضع بأطراف اليمن نزل به فرقة منهم فعُرِفوا به .

الثالث — أزْدُ عَمَّان بإضافة أزد إلىٰ عمان (بفتح العين المهملة وتشديد الميم)[1]، وهى مدينة بالبحرين نزلها قوم منهم فعُرِفوا بها . وللأزد بقَايَا ببلاد الشام بزُرَع وبُصْرىٰ فيما قاله فى "مسالك الأبصار" .

ثم الأزد بطون كثيرة . منها غَسَّان (بفتح الغين المعجمة وتشديد السين المهملة ونون فى الآخر)، قال أبو عبيد : وهم بَنُو جَفْنة، والحارثُ وهو مُحَرِّق، وثَعْلبةُ وهو العَنْقاء[2]، وحارثة، ومالك، وكَعْب، وخارجة، وعَوْف بنُ عمرو، بنِ عامرٍ ماء السماء، ٱبن حارثَة الغِطْريف، بن ٱمرئ القيس البِطْرِيق ويقال البُهْلول، ٱبن ثعلبة، بن مازن، بن الأزد، وإنما سُمُّوا غسان لماء نزلوا عليه ٱسمه غَسَّان فشَرِبوا منه فسُمُّوا به . قال فى العبر : وهو علىٰ القرب من بلاد اليمن . قال أبو عبيد : وفى ذلك يقول بعض الأنصار :

إمَّا سألْتَ فإنَّا معشَرٌ نُجُبٌ * الأزْدُ نِسْبَتُنَا والماءُ غَسَّانُ

ولغسان هؤلاء كان مُلْكُ العرب بالشام بعد سَلِيح المقدّم ذكْرُهم إلىٰ أن كان آخِرَهم جَبَلَةُ بن الأيهم الذى أسلم فى زمن عمر ثم ٱرتدّ، ولحق ببلاد الكُفْر . وقد ذكر فى «مسالك الأبصار» أن لهم بقايا ببلاد الشام بالبَلْقاء واليَرْمُوك وحِمْص . ومنها الأَوْس والخَزْرَج ٱبنا حارثَةَ، بن ثعلبَةَ، بن عَمْرو مُزَيْقِيا، بن عامرٍ ماءِ السماء، بن حارثة الغِطْرِيف، بن ٱمرئ القيس البِطْرِيق، بن ثعلبَةَ، بن مازن، بن الأَزد، وكانت منازلهم

(١) هذا الضبط مخالف لما ضبطه الجوهرى بالقلم والقاموس أيضا وضبطه شارحه بالعبارة . فقال : كغراب بلد بالبحرين وكذا ياقوت وفيه أيضا أن المفتوح المشدّد بلد بأطراف الشام فحرر .

(٢) لقب بذلك لطول عنقه ووقع فى الأصل بالمثناة وهو تصحيف .

يَثْرِبَ ؛ ومنهم كانت أنصارُ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولهم بَقَايَا كثيرة متفرّقة بالمَشْرق والمَغْرِب . وقد ذكر الحمدانيّ : أن منهم جماعةً بمَنْفَلُوط من صعيد مصر من عَقِب حَسَّانَ بن ثابت ، وسعد بنِ معاذ سيد الأوْس رضى الله عنهما .

الحيّ الثانى — من كهلان طَيِّئ (بفتح الطاء وتشديد الياء بهمزة فى الآخر) أخذا من الطاءة علىٰ وزن الطاعة : وهى الإيغال فى المرعىٰ ، وهم بنو طيِّئ ، بن أُدَدَ آبن زيد ، بن يَشْجُب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كَهْلانَ ؛ والنسبة إليهم طائىّ ، وإليهم ينسب حاتم الطائىّ المشهور بالكرم ، وأبو تَمَّام الطائىّ الشاعر المشهورُ ، وهم كثير . قال فى العبر : وكانت منازلهم باليمن فخرجُوا منها علىٰ إثر خُروج الأزد عند تفرّقهم بسيل العَرِم ، فنزلوا بنَجْد والحجاز علىٰ القُرْب من بنى أسد ؛ ثم غلبوا بنى أسد علىٰ جبلَىْ أجَأ وسَلْمىٰ من بلاد نَجْد ، فنزلوهما فعرِفا بجبلَىْ طيِّئ إلىٰ الآن ؛ ثم آفترقوا فى أوّل الإسلام زمَنَ الفُتُوحات فى الأقطار ، ولهم بطون كثيرة . منهم ثُعَلُ (بضم الثاء المثلثة وفتح العين المهملة ولام فى الآخر) وهم بنو ثُعَل ، بن عمرو ، بن الغَوْث ، آبن طيِّئ . قال أبو عبيد : ومنهم البيت والعدد . قال صاحب حماه : ومنهم زيد الخيل .

ومنها جَدِيلةُ (بفتح الجيم وكسر الدال وسكون الياء وفتح اللام وهاء فى الآخر) ، ذكرهم الجوهرىّ ولم يرفع نسبهم ؛ ثم قال : وجَدِيلةُ أُمُّهم عرفوا بها : وهى جَديلة بنت سُبَيْع بن عمرو من حمير .

ومنها نَبْهان (بفتح النون وسكون الباء الموحّدة ونون بعد الألف) ، وهم بنو نَبْهان ، واسمه سُودانُ ، بن عمرو ، بن الغَوْث ، بن طيِّئ .

ومنها بَوْلانُ (بفتح الباء الموحدة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف) وهم بنو بَوْلانَ ، وآسمه غُصَيْن ، بن عمرو ، بن الغَوْث ، بن طيِّئ . ومنهم الثلاثة نفر الذين يقال

إنهم وضعوا الخط العربيّ على ما سيأتى ذكره فى الكلام على الخط فيما بعد إن شاء الله .

ومنها هِنَاء، وهم بنو هِنَاء، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ .

ومنهم إياس بن قَبِيصة الذى ملك بعد النُّعمان بن المنذر .

ومنها سُدُوس (بضم السين والدال المهملتين وسين مهملة فى الآخر)، وهم بنو سُدُوس بن أصمعَ من بنى سعد، بن نَبْهان، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ .

ومنهم جعفر بن عَطِيَّة الذى يقول :

مَدَحْت نَسِيبِى جعفرًا إن جَعْفَرًا * تُحَلِّبُ كَفَّاه النَّدى وأنامِلُه

ومنها سَلَامانُ (بفتح السين المهملة ونون فى الآخر)، وهم بَنُو سَلَامان، بن ثُعَل، آبن الغوث، بن طيئ .

ومنها بُحْتُر (بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة فوق وراء مهملة فى الآخر) ، وهم بنو بُحْتُر، بن عَتُود، بن عُنَيْز، بن سَلَامان ، بن ثُعَل ، آبن عمرو، بن الغوث، بن طيئ؛ منهم أبو عُبَادة البحترىُّ الشاعر الإسلامىّ المشهور.

ومنها زُبَيد (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر)، وهم بَنُو زُبَيْد، بن مَعْن، بن عَمْرو، بن عُنَيْز، بن سَلَامانَ، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ . قال آبن سعيد : وزُبَيْد هؤلاء هم الذين ببريَّة سِنْجار من الجزيرة الفُراتيَّة، وهم الذين ذكرهم المقرّ الشهابىّ بن فضل الله، وسماهم زُبَيد الأحلاف .

ومنها سُنْبُس[1] (بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مهملة فى الآخر) وهم بنو سُنْبُس بن معاوية، بن جَرْوَل، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغوث، بن

(١) ضبطه السويدىّ فى سبائك الذهب فقال بفتح السين وذكر فى القاموس أنه بالكسر وكذلك هو فى الصحاح واللسان بضبط القلم فتنبه .

طيئ. وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم طائفةً بثغْر دِمْياط، وأنه كان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميّين، وعدّ منهم ثلاثة بطون: وهم الخَزَاعلة، وعبيـد، وجَمُوح. والإمرة فى زماننا هذا فيهم، فى الخزاعلة، فى بنى يوسف بمدينة سخا من الأعمال الغربية. قال الحمدانى: ومنهم طائفة بالبطائح من بلاد العراق.

ومنها جرم (بفتح الجيم وسكون الراء وميم فى الآخر)، وهم بنو ثعلبة بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ. وقال الحمدانىّ جَرْم آسم أمه غلب عليه: وهى جرم بنت الغَوْث آبن طيئ؛ وهؤلاء هم جرم الذين ببلاد غَزَّة من البلاد الشامية. قال الحمدانىّ: وكانوا متفقين مع ثعلبة بالشام على تدافع الفرنج عن المسلمين، فلما فتح السـلطان صلاحُ الدين البلادَ، دخلت طائفة منهم مصر، وبقى بقاياهم بمكانهم ببلاد غَزَّةَ. وقد ذكر الحمدانىّ منهم ثلاثة بطون: وهم شمجان، وقمران، وجَيَّان. ثم قال: والمشهور من جَرْم الآن جَذِيمة؛ ويقال إن لهم نسبا فى قريش؛ وزعم بعضهم أنها ترجع إلى مَخْزُوم، وقيـل بل من جذيمة بن مالك، بن حنبل، بن عامر، بن لؤى، بن غالب، بن فِهْر. ثم قال وجَذِيمـة هؤلاء هم آل عَوْسَجة، وآلُ أحمد، وآل محمود. ثم قال: ومنهم أسلَم، وشبل، ورضيعة، ونيور، والقذرة، والأَحامدة، والرفثة، وكور، وموقع. ومنهم من بنى غوث العاجلة، والعبادلة، وبنو تمام، وبنو جميل، وبنو مقدام، وآل نادر. ومنهـم من بنى غوث بنو بها، وبنو خولة، وبنو هرماس، وبنو عيسى، وبنو سهيل؛ وأرضهم الداروم؛ وجاورهم قوم من زبيـد يعرفون ببنى فهيد. ثم آختلطوا بهم.

ومنها ثعلبة، وضبطُه معروف؛ وهم بنو ثَعْلَبَة بن سَلَامان، بن ثُعَل؛ بن عمرو؛ بن الغوث، بن طيئ، وهم رِعْيان دَرْما وزريق، آبنى عَوْف بن ثعلبة، وقيل آبنا ثعلبة وآسم دَرْما عمرو، ودرما آسم أمه غلب عليه. قال الحمدانى: وكانوا مع جرم بالشام يدا مع

الفرنج على المسلمين، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلادَ انتقلت طائفة منهم إلى مصر ونزلوا أطراف بلاد الشرقية؛ فمن بُطون دَرْما سلامةُ، والأحمر، وعمرو، وقصير، وأويس، وشبل، والحنابلة، والمراونة، والحَيَّانيّون؛ ومن بطون زريق بها بنو وهم والطليحيون؛ ومن الطليحيين آل حجاج، وآل عمران، وآل حفصان، والمصالحة؛ ومن بنى زريق أيضا الصبيحيون، ومن الصبيحيين الغيوث، والزُّموت، والروايات، والنمورة، والشمخيّون، والسَّعَالى، والرمالى، والمَعامرة، والسِّنْديُّون، والبحَابحة، والعُقَيليون، والمساهرة، والمعافرة، ومنهم أيضا العليميّون. قال الحمدانىّ: وكان مقدّمهم قديما عمرو بن عسيلة أُمِّر بالبوق والعَلَم. ومن العليميّين القمعة، والرياحين، والغوفة. قال الحمدانىّ: وكان فيهم رجال ذوو ذكر ونَبَاهة، خدموا الدول، وعضدوا الملوك، وقاموا ونصروا. ومنهم من أمر بالبوق والعلم. ومن بطون ثعلبة هؤلاء أيضا الجواهرة.

ومنها غَزِيَّة (بفتح الغين المعجمة وكسر الزاى وتشديد الياء المثناة تحت وهاء فى الآخر)، وهم بنو غَزِيَّة بن أفلَتَ، بن ثُعَل، بن عمرو، بن سَلَامان، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ. قال الحمدانىّ: وهم بالشام والعراق والحجاز، وفيما بين العراق والحجاز. قال فى العبر: وفيهم الإمارة فى العراق إلى الآن ولهم صَوْلة عظيمة. وهم بطون كثيرة: فمن بطونهم البطنين، وأفخاذهم، آل دعيج، وآل روق، وآل رفيع، وآل سرية، وآل مسعود، وآل تميم، وآل شرود. ومن بطونهم الأجود وأفخاذهم آل منيع، وآل سنيد، وآل منال، وآل أبى الحزم، وآل علىّ، وآل عقيل، وآل مسافر. هذا ما ذكره الحمدانىّ. وزاد فى مسالك الأبصار عن نصر بن برجس المشرقىّ، وأولاد الكافرة، وساعدة، وبنى جميل، وآل أبى مالك. قال فى "المسالك": وديار

آل أجود منهم الرخيميّة، والرقبىٰ، والفردوس، ولينة، والحدق. وديار آل عمرو بالحوف. وديار بقاياهم النصيف، والكمن، واليحموم، والأم، والمعينة. ويليهم ساعدة. وديارهم من الحضر إلىٰ برية زرود، إلىٰ سقارة، إلىٰ البقعاء، إلىٰ التيب، إلىٰ الساسة، إلىٰ حضر.

ومنها لام. وهم بنو لام بن عمرو، بن طَرِيف، بن عمرو، بن بَجِيلة، بن مالك، بن جَدْعاء، بن ذُهْل، بن رُومان، بن جُنْدَب، بن خارجة، بن سعد، بن قَطرة، بن طيئ. قال ٱبن سعيد: ومساكنهم المدينة النبوية وما حولها. وقال الحمدانىّ: ديارهم جبل أجأ وسلمى. ثم قال وظَفِير من لام، ومنازلهم الظعن قبالة المدينة النبوية، علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ومنها آل ربيعة، عرب الشام. وهم بنو ربيعة، بن حازم، بن علىّ، بن مفرج، بن دَغْفل، بن جراح، بن شبيب، بن مسعود، بن سعيد، بن حَرْب، بن السَّكَن، بن ربيع، ٱبن عَلْقىٰ، بن حَوْط، بن عمرو، بن خالد، بن مَعْبَد،(١) بن عدىّ، بن أفلت، بن سلسلة، بن غنم، بن ثَوب، بن مَعْن، بن عَتُود، بن عُنَيْز، بن سَلَامان، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغَوْث، ابن طيئ. قال فى "مسالك الأبصار": وتقول بنُو ربيعة الآن إنهم من ولد جعفر ابن يحيى، بنِ خالد، بن بَرْمك من العَبَّاسة بنت المهدىّ، أخت الرشيد، ويزعمون أنه كان يحضر مع الرشيد مجلسه الخاص وأنه كلمه فى تزويجها ليحِلَّ له نظرها لاجتماعهما بمجلسه فعقَد له عليها بشرط أن لا يطأها، فعانقها علىٰ حين غفلة من الرشيد، فحملت منه بولد كان ربيعة هذا من ولده. قال: ويقولون فى نسبه إنه ربيعة بن سالم، ٱبن شبيب، بن حازم، بن علىّ، بن جعفر، بن يحيىٰ، بن خالد، بن برمك؛ ويزعمون أن نكبة البرامكة كانت بسبب ذلك. ثم قال: وأصلهم إذا نسبوا إليه أشرف لهم:

(١) فى العبر ٱبن معبد بن عمرو.

لأنهم من سلسلَةَ بن عُنَيز، بن سلامان، بن طيئ، وهم كرام العرب وأهل البأس والنجدة؛ والبرامكة و إن كانوا قوما كراما فإنهم قوم عجم وشتَّانَ بين العـرب والعجم؛ وقد شرف الله تعالىٰ العرب أن بعث منهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنزل فيهم كتابه، وجعل فيهم الخلافة والملك، وآبتزَّ لهم ملك فارس والروم، ونزع بأسنتهم تاجَ كسرىٰ وقيصر، وكفىٰ بذلك شرفا لا يُطاوَل، ونخرا لا يُتناوَل . وذكر فى "التعريف" نحوه قال فى العبر : وكانت رياسة طيئ فى أيام الفاطميّين لبنى الجرّاح ، ثم صارت لآل ربيعة . قال الحمدانىّ : وكان ربيعة هذا قد نشأ فى أيام الأتابك زنكى وآبنه نورالدين الشهيد صاحب الشام ونبغ بين العرب وولِد له أربعة أولاد : وهم فضل، ومرا ، وثابت، ودغفل، ومنهم تفرّعت بطون آل ربيعة . ثم المشهور من آل ربيعة الآن ثلاثة بطون : وهم آل فضل، وآل مرا، وآل علىّ : فآل فضل هم بنو فضل بن ربيعة وآل مرا بنو مرا بن ربيعة . وأمّا آل علىّ فمن آل فضل، وهم بنو علىّ بن حَدِيثة، بن عُقْبة بن فضل المقدّم ذكره؛ وقد صارت آل فضل أيضا بعد ذلك بيوتا أرفعها قدرا بيتُ عيسىٰ بن مُهَنَّا، بن مانع، بن حديثة، بن عقبة، بن فضل . قال فى "مسالك الأبصار" وفيهم الإمرة دون سائر آل فضل . قال : ثم صار آل عيسىٰ بيوتا، بيت مهنا بن عيسىٰ، و بيت فضـل بن عيسىٰ، و بيت حارث بن عيسىٰ، و بيت محمد آبن عيسىٰ، و بيت هبة بن عيسىٰ . وسيأتى الكلام علىٰ تقسيم الإمرة فيهم فى الكلام علىٰ عرب الشام فى المسالك والممالك إن شاء الله .

الحىّ الثالث — من كهلان مَذْحِج (بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة وجيم فى الآخر)، وهم بنو مَذْحِج وآسمه مالك، بن أُدَدَ، بن زيد، بن يَشْجُب، آبن عَريب ، بن زيد ، بن كهلان هكذا قاله أبو عبيد، وقال الجوهرىّ : مَذْحِج

آبنُ يُحابِر، بن مالك، بن زيد، بن كهلان. وقد ذكر الحمدانىّ: أنهم إنمـا سمّوا مَذْحج لشجرة تحالَفُوا عندها آسمها مَذْحِج، فسُمُّوا بآسمها . ثم لمذحج بطون كثيرة :

منها خَوْلان، (بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف)، وهم بنو خَوْلانَ بن مالك، وهو مَذْحِج وإليهم ينسب أبو إدريس الخَوْلانىّ . قال فى العبر : وبلاد خَوْلانَ فى بلاد اليمن من شرقيّه، قال : وقد آفترقوا فى الفتوحات، وليس منهم اليوم ذرّية إلا باليمن؛ ثم قال وهم غالبون علىٰ أهله .

ومنها جَنْب (بفتح الجيم وسكون النون وباء موحدة فى الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه، والحـارث، والغـلى، وسـبحان، وشمران، وهفان بن يزيد، بن حرب، بن عِلَّة، آبن جَلْد، بن مَذْحِج . قال أبو عبيـد : وسُمُّوا بجنب لأنهم جانبوا عَمَّهم صُدَاءً، وحالفوا سعدَ العشيرةِ، وحالفت صُدَاءُ بنى الحارث بن كعب . ومن جَنْبٍ معاوية الخير الجنبىُّ صاحب لواء مَذْحِج فى حرب بنى وائل .

ومنها سعد العشيرة، وهم بنو سعد العشيرة بن مَذْحِج، وسُمِّى بذلك لأنه لم يمت حتّى ركب معه من وَلَده وولَد وَلَده ثلثُمائة رجل، فكان إذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشـيرتى دفعـا للعين عنهم، فقيل له سَعْد العشيرة . ثم من بُطون سـعد العشيرة أَوْد (بفتح الهمزة وسكون الواو وذال معجمة فى الآخر)(١)، وهم بنو أَوْد بن صَعْب بن سعد العشيرة، وإليهـم ينسب الأفوه الأوذىّ الشاعر المشهور . ومن بطون سعد العشـيرة أيضا جُعْفِىٌّ (بضم الجيم وسكون العين المهملة وكسر الفاء وياء مثناة تحت فى الآخر) وهم بنو جُعْفِىّ بن سـعد العشيرة والنسبة إليهم جُعْفِىّ علىٰ مثـل لفظه، وإليهم ينسب الإمام البخارىّ بالمُوالاة، فيقال الجُعْفِىُّ مولاهم . ومن بطون سـعد

(١) صوابه ودال مهملة آنظر القاموس وشرحه فى مادة أود على أنه لم توجد مادة أوذ بالمعجمة فيما بأيدينا من المعاجم فتنبه .

العشيرة زُبَيْد (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه بن صَعْب بن سعد العشيرة، وتُعَرف ز بيدٌ هؤلاء بزُبَيْد الأكبر، وهم زبيد الحجاز. قال فى مسالك الأبصار : وعليهم دَرَك الحاجّ المصرىّ من الصَّفراء إلىٰ الجحفة ورابغ. ومن زُبَيْد هؤلاء بطنٌ تعرف بزُبَيد الأصغر، وهم بنو مُنَبِّهِ الأصغر بنِ ربيعة بن سَلَمَة بن مازن بن ربيعة بن مُنَبِّه الأكبر. قال أبو عبيد ومن زُبَيْد هؤلاء عمرو بن معدى كرب.

ومنها النَّخْع (بفتح النون وسكون الخاء[(1)] المعجمة وعين مهلة فى الآخر)، وهم بنو النخع وآسمه جَسْر بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مَذْحِج. قال أبو عبيد: وسمى النَّخع لأنه آنتَخع عن قومه أى بَعُد، ومنهم الأشتر النَّخعِىُّ أحد تابعى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذى ولاه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه مِصْر، وكتب له بها عهدا علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ العهود عند ذكر الولايات فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ. وإليهم ينسَب إبراهيم النَّخعىُّ الإمام الكبير المشهور.

ومنها عَنْس (بفتح العين المهملة وسكون النون وسين مهملة فى الآخر)، وهم بنو عَنْس بن مذحج، منهم عَمَّار بن ياسر الصحابىُّ المشهور، وإليهم ينسب الأسود العنسىُّ الكَذَّاب، الذى أخبرَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بخروجه فآدَّعى النبوّة باليمن بعد ذلك.

ومنها بنو الحارث، ويقال بَلْحارِث بن كعب، وهم بنو الحارث بن كَعْب بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مذحج. قال فى "العبر" : وديارهم بنواحى نَجْرانَ من اليمن مجاوِرُون لبنى ذُهْل بن مُزَيقياء، منهم بشِير الحارثىُّ الذى قدم علىٰ النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : ما آسمك قال : أكبر، قال : بل أنت بشِير.

(١) الذى فى القاموس النخع بالتحريك قبيلة وفى المصباح والنخع بفتحتين قبيلة من مذحج فلينظر.

الحيّ الرابع — من بَنِي كَهْلان هَمْدانُ (بفتح الهـاء وسكون الميم ودال مهملة ثم ألف ونون)، وهم بنو هَمْدان، بن مالك، بن زَيْد، بن أَوْسلَة، بن رَبِيعَةَ، بن الخِيَار، ٱبن زيد، بن كَهْلان، . قال فى "العبر": وكانت ديارهم باليمن من شَرقيّه، ولمـا جاء الإِسلام تفرّق من تفرّق منهم، وبقى مَنْ بقى باليمن . قال : وكانت هَمْـدانُ شيعةً لأمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه عنـد وُقُوع الفتن بين الصحابة ؛ وفيهم يقول رضى الله عنه :

فَلَوْ كُنْتُ بَوّابًا علىٰ بابِ جَنَّةٍ * لَقُلْتُ لَهَمْدَانَ ٱدْخُلِي بِسَلَام

قال فى "مسالك الأبصار": و بالجبل المعروف بالطيّبين من الشام فرقة من همدان .

الحيّ الخـامس — من بنى كهلان كِنْدة (بكسر الكاف وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر)، وهم بَنُو كِندة، وٱسمه ثَوْر، بن عُفَير، بن عَدِىّ، بن الحارث، بن مرّة، بن أدد، بن زيد، بن يَشْجُب، بن عَرِيب، بن زَيْد، بن كَهْلان . قال صاحب حماة : وسمى كِنْدة لأنه كند أباه أى كَفَر نعمته . قال : و بلادهم باليمن قِبلىّ حَضْرَمَوْتَ، وكان لهم مُلْك بالحجاز واليمن؛ ومنهـم الأشعثُ بن قَيْس الصحابىُّ المشهور ؛ ومنهـم أيضـا القـاضى شُرَيْح قاضى علىٍّ رضى الله عنـــه . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن باللّوىٰ من بلاد الشام قوما ينسبون إلىٰ كِنْـدة ، ولهم بطون منها السُّكُون (بضم السين المهملة والكاف ونون بعد الواو)، وهم بنو السُّكون ٱبن أَشْرَس بن كِنْدة ؛ ومنهم معـاوية بن حُدَيْج قاتلُ محمـد بن أبى بكر الصـدّيق رضى الله عنهما؛ وعدّ منها صاحب حماة السَّكاسِك أيضا (بفتح السين الأولىٰ وكسر الثانية)، والذى ذكره أبو عبيد أنه من حِمير، وقال : هم بنو السَّكاسِك بن واثلةَ بن حمير . قال الجوهرىّ : والنسبة إلىٰ السَّكاسك سَكْسَكِىٌّ ردًّا له إلىٰ أصله كما يُنسب إلىٰ مساجد مَسْجِدِىّ .

الحيّ السادس — من بنى كَهْلان مُرَاد (بضم الميم وفتح الراء المهملة ودال مهملة بعد الألف)، وهم بنو مرادِ، بنِ مالك، بنِ أُدَدَ، بنِ زيد، بنِ يشْجُب، بنِ عَرِيب، آبن زيد، بنِ كَهْلان، قال الجوهرىّ : ويقال إن آسمه يُحابِر فتمرّد فسمى مُرَادا . وجعلهم فى العبر بَطْنا من مَذْحِج، فقال مراد بن مذحج . قال صاحب حماه : وبلادهم إلىٰ جانب زَبِيدَ من بلاد اليمن، قال : وإلىٰ مراد هذا ينسب كل مُرادىّ من عرب اليمن .

الحيّ السابع — من بنى كهلان أنمارٌ (بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الميم وراء مهملة بعد الألف)، وهم بنو أنمار، بن أراش، بن عمرو، بن الغوث، بن نَبْت، بن مالك، بن زيد، بن كَهْلان . ولهم بطنان — الأولىٰ بَجِيلةُ (بفتح الباء الموحدة وكسر الجيم وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر)، وهم بنو عَبْقَر، والغوثُ، وصُهَيبة، وحَزِيمة(١) بن أنمار، بن أراش . قال أبو عبيد : وبجيلة أمهم، عُرِفوا بها — وهى بجيلةُ بنت صَعْب بن سعد العشيرة، قال فى العبر : وكانت بلادهم فى سَرَوات اليمن والحجاز إلىٰ تَبَالة . ثم آفترقوا أيام الفتح الإسلامىّ فى الآفاق، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليل، قال الجوهرىّ : ويقال إنهم من العَدْنانية، لأن نزار بن معدّ بن عدنان وُلِد له مُضَرُ وربيعة وإياد وأنمار، وولد لأنمار بجيلة وخَثْعم فصاروا إلىٰ اليمن، وإلىٰ بجيلة هؤلاء ينسب جَرِير بن عبد الله البجلىّ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان جميلا فائق الجمال، حتّى إنه كان يقال له يُوسُف الأمة، وفيه يقول بعض الشعراء يمدحه :

لَوْلَا جَرِيرٌ هلكَتْ بَجِيله * نِعْمَ الفتىٰ وبِئْستِ القَبِيله

الثانيــة — خَثْعَم (بفتح الخاء المعجمة وسكون الثاء المثلثة وفتح العين المهملة وميم فى الآخر)، وهم بنو خَثْعم بن أنمار بن أراش المقدّم ذكره آبن هِنْد بنت مالك

(١) بفتح الحاء المهملة وكسر الزاى كما ضبطه كذلك فى سبائك الذهب .

آبن الغافِق بن الشاهد بن عد ، وفيهم مثـل ماتقدّم من كلام الجوهرى فى الكلام علىٰ بَجِيـلة أنهم من العدنانية : لأن خَثْعَم و بجيـلةَ يرجعون إلىٰ أنمـار . وكانت مساكنهم مع إخْوتِهم بجيـلة بسَرَوات اليمن فافترقوا فى الفتوحات الإسـلامية ، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليلُ . ومن خَثْعم هؤلاء أَكْلُب (بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم اللام و باء موحدة فى الآخر)، وهم بنو أكْلُب ، بن عُفَير، بن خَلَف (١) ، بن خَثْعم . قال أبو عبيد : و يقال إن أكلب من رَبيعة بنِ نَزَار . قال الحمدانىّ : وهم بطون كثيرة ، ومنازلهم بِبِيشةُ ، شرقىَّ مكة المشرفة . ومن خثعم أيضا بنومُنَبِّه والفرْع ، وبنو نَضْـلة ومعاوية ، وآل مهـدىّ ، وبنو نصر ، وبنو حام ، والورد ، ونادر ، وآل الصعافير ، والشماء ، و بلوس ، قال الحمدانىّ : ومنازلهم علىٰ القرب من بِيشـةَ شرقىّ مكة أيضا .

الحىّ الثـامن — من بنى كهلان جُذَام (بضم الجيم وفتح الذال المعجمة وألف ثم ميم) ، وهم بنو جُذَام ، بن عَدِىّ ، بن الحـارث ، بن مُرَّة ، بن أُدَد ، بن زيد ، آبن يشجُب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كهلان ، هذا ماذكره أبو عبيد : وجعلهم صاحب حمـاه فى تاريخه من ولد عمرو بن سبإ . قال الجوهرى ، وتزعم نسابة مُضَر أنهم من مُضَر يعنى من العدنانية ، وأنهم آنتقلوا إلىٰ اليَمَن فنزلوها ، فحُسِبوا من اليمن ، وآستشهد له بقول الكُمَيت يذكر آنتقالهم إلىٰ اليمن بانتسابهم فيهم :

نَعَاءِ جُذَامًا غيرَ مَوتٍ ولا قَتْلِ * ولٰكِنْ فِرَاقًا للدَّعائم والأَصْل !

وآستشهد له الحمدانى أيضا بقول جُنَادة بن خَشْرم الجُذامىّ :

وَمَا قَحْطَـانُ لِى بأبٍ وأمٍّ * ولا تَصْطادُنِى شُبَه الضَّلال
ولَيْسَ إليهـمُ نَسَبِى ولٰكِنْ * مَعَـدِّيًّا وجَدْتُ أبِى وخَالى

(١) أعجمه فى الأصل . وقال فى سبائك الذهب « حلف بفتح الحاء المهملة بنوه بطن من خثعم » .

قال الحمدانى : ويقال إنهم من ولد أعصر(١) بن مَدْين بن إبراهيم عليه السلام، وآستشهد لذلك بما رواه محمد بن السائب أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد جُذَام ، فقال "مَرْحَبًا بقَوْمِ شُعَيْبٍ وأصهارِ موسى" . قال صاحب حماة : وكان فيهم العَدَدُ والشَّرَف . قال الحمدانى : وهو أوّل من سكن مصر من العرب حين جاءوا فى الفتح مع عَمْرو بن العاص رضى الله عنه ، وأُقْطِعوا فيها بلادا بعضها بأيدى بنيهم إلى الآن . وكان لجُذام ولدان : هما حِشْم (بكسر الحاء المهملة وسكون الشين المعجمة وميم فى الآخر) ، وحَرَام (بفتح الحاء والراء المهملتين وألف ثم ميم) ؛ ومن ولد حِشْم عَتيت (بفتح العين المهملة وكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وتاء مثناة فوق فى الآخر) وهم بنو عَتِيت(٢) بن أسلم، بن مالك، بن شَنُوءة، بن تديل، آبن حِشْم بن جُذام . قال أبو عبيد : وهم اليوم ينتسبون فى بنى شَيْبان، ويقولون عَتِيت(٢) بن عوْف بن شيبان . قال وإليهم تنسب حُفْرة عَتِيت(٢) بالبصرة، قال الجوهرى : أغار عليهم بعض الملوك فسبى الرجال ، فكانوا يقولون إذا كَبِر صبيانُنا لم يتركونا، حتّى يفتكّونا ، فلم يزالوا عنده حتّى هلكوا فضَرَب لهم العرب مثلا فقالوا : أودى عَتِيت(٢) ، وفى ذلك يقول الشاعر :

تُرَجِّيها وقد وقَعَتْ بقُرٍّ * كما تَرْجُو أصاغِرَها عَتِيت(٢)

ثم لجذام الآن بطون كثيرة متفرقة فى الأقطار، منهم بالشرقية من الديار المصرية من بنى زيد بن حَرَام بن جُذَام ، وبنى مَخْرمة بن زيد بن حَرَام بن جُذَام ؛ فأما بنو زيد فمنهم بنو سُوَيْد، وبعجةُ، وبَرْدعة، ورِفَاعة ونائل، من بنى زيد بن حَرَام بن جُذَام، فمن ولد سُوَيد هَلْبا سويد، وهم بنو هَلْبا بن سُوَيد بن زيد بن حَرَام

(١) فى سبائك الذهب . يعفر . (٢) كذا رسم فى السبائك أيضا وهو بالباء الموحدة فى الصحاح والقاموس وأنشد الأوّل البيت بالباء الموحدة ومثله فى ياقوت فتنبه .

ٱبن جُذَام . قال الحمدانى . ومنهم العَطويون، والجابريُّون، والغَتَاورة، وحَمْدان، ورُومان، وصمران، وأسود. والحميديون ؛ومن الحميديين، أولاد راشد ؛ ومنهم البراجسة، وأولاد يبرين والجَراشنة، والكعوك، وأولاد غانم، وآل حمود، والأخيوه، والزرقان، والأساورَة، والحماريون. ومن بنى راشد أيضا الحَراقيص، والخَنافيس، وأولاد غالى، وأولاد جَوَّال، وآل زيد ؛ ومن النجابية أولاد نجيب وبنو فضيل .

ومن هَلْبا سُوَيد أيضا بنو الوليد، وهم بنو الوَلِيد بن سُوَيد المقدّم ذكره . ومنهم الحَيَادرة، وهم بنو حَيْدَرَة، بن يعرب، بن حبيب، بن الوليد، بن سُويد . قال الحمدانى : وهم طائفة كبيرة، ومنهم بنو عمارة، وهو عمارة بن الوليد. ومنهم عدد، والحَبّيون : وهم بنو حبة بن راشد بن الوليد . ومن ولد الوليد بن سُوَيد المذكور طريفٌ بن بكتوت الملقب زين الدولة، كان من أكرم العرب، وكان فى مضيفته أيامَ الغلاء ٱثنا عشر ألفا تأكل عنده كل يوم ؛ وكان يَهْشِم الثريد فى المراكب ؛ ومن أولاده من أُمِّر بالبوق والعَلَم ؛ وعدّ من أحلافهم أولاد الهوبرية، والرداليين، والحليفيين، والحضينيين، والربيعيين، وهم أولاد شريف النجابين، وذكر الحمدانى أن لهم نسبا فى قريش إلىٰ عبد مناف، بن قُصَىّ . ومن هلبا سويد هؤلاء هلبا مالك ، وهم بنو مالك بن سويد ؛ ومن هلبا مالك بنو عبيد وهم بنو عبيد بن مالك ؛ ومن بنى عُبَيد المذكور الحَسَنيُّون، وهم بنو الحسن بن أبى بكر بن مَوْهُوب بن عبيد ؛ والغَوارنة، وهم بَنُو الغَوْر بن أبى بكر بن مَوْهُوب بن عُبَيد ؛ وبنو أسير، وهم بنو أسير بن عبيد ؛ ومن هلبا مالك أيضا اللَّبيديون ، والبَكْريون، والعقيليون، وهم بنو عُقَيل بن قُرّة بن موهوب بن عُبَيد . ومنهم بنو رديني، وهم بنو رُدَيْنِيّ بن زياد، بن حُسَين، بن مسعود، بن مالك، بن سُوَيد. ومن ولد بَعْجَة هَلْبا بعجة، وهم بَنُو هَلْبا، ومنظور، وردا، ونائل بنى بعجةَ بن زيد بن سُوَيد بن بَعْجة ؛ فمن ولد

هلبا بعجة مُفَرّج بن سالم ، أمَّره المعز أيبك بالبوق والعلم ، ثم خلفه علىٰ إمرته ولده حَسَّان . ومنهم أولاد الهُرَيم من بنى غياث بن عِصْمة بن نِجَاد بن هلبا بن بعجة .

ومنهم جَوْشَن بن منظور بن بَعْجة ، وهو صاحب السَّرَاة المضروب به المثل فى الكرم والشجاعة .

ومن ولد ناثل مُهَنَّا بن عُلْوان بن علىٰ بن زبير بن حبيب بن ناثل ، كان جَوادا كريما طرقته ضُيُوف فى شتاء ولم يكن عنده حَطَب لطعامهم فأوقد أحمال بَزٍّ كانت عنده . ومن بنى حَرَام بن جُذَام أيضا بنو سَعْد . قال الحمدانى : وفى جُذَام خمس سعود آختلطت بمصر ، وهم سَعْد بن إياس بن حَرام بن جُذَام . وسَعْد آبن مالك بن أفصىٰ بن سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُذام ، وإليه ينسب أكثر السَّعْدِيِّين . وسعد بن مالك بن حَرَام بن جُذَام(١) ، وسعد بن سامة بن عَنْبس بن غَطَفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام ، وهم عشائر كثيرة منهم بنو فَضْل ، والسَّلاحمة ، وبرشاش ، وجَوْشَن ، وعَذْلان ، وفَزَارة . قال وأكثرهم مشايخ بلاد وخفراء ، ولهم مزارع ومآكل ، وفسادهم كثير ، وسكنهم مُنْية غمر إلىٰ ريفها . ومنهم شاوَر وزير العاضد الفاطمى ، وإليه تنسب أولاد شاور كبار منية غمر وخفراؤها ، علىٰ أن آبن خلكان قد ذكر أنه من سعد الذين أُرْضِع فيهم النبى صلى الله عليه وسلم . وأما بنو محرمة فمنهم الشَّوَاكر ، وهم بنو شاكر بن راشد . ومنهم أولاد العجار أدِلاء الحاجّ من زمن السلطان صلاح الدين وهلمّ جَرًّا .

ومن جذام أيضا بالشرقية العائد ، وهم بطن من جذام عليهم دَرَك الحاج إلىٰ العَقَبة . ومنهم أيضا بالشرقية بنو حَرَام . وقال الحمدانى : وقلَّ فى عرب مصر مَنْ يعرفها . ومنهم بالدقهلية عمرو وزُهَير ، عدّ منهم الحمدانى الحضينيين ، وردالة ،

(١) فى الأصل الخط تكرار فى الأسماء ونقص من العدد و يؤخذ من السبائك أن الساقط هو سعد آبن ربيل بن إياس بن حرام بن جذام فتنبه .

والأحامدة ، والحَمَــارنة ، وهم بنو حُمْران . قال الحمــدانى : وفى زُهَير هؤلاء من بنى عَمِرين ، وبنى شَبِيب ، وبنى عبــد الرحمن ، وبنى مالك ، وبنى عُبَيــد ، وبنى عبد القوىّ ، وبنى شاكر ، وبنى حَسَن ، وبنى سمان . وهم يتواردون فى أسماء بعض البطون مع غيرهم .

ومن جذام أيضا ببلاد الشام بنو صَخْر بالكَرَك ، وبنو مَهْدىّ بالبلقاء ، وبنو عُقْبة ، وبنو زُهَير بالشّوبك . ومنهم بنو سـعيد بصَرْخَد ، وحَوْران ؛ ومنهــم جماعة ببلاد الغَوْر ، وجماعة ببلاد البربر من بلاد السُّودان .

الحى التاسع — من بنى كهــلان لَخْم (بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم فى الآخر) ، وهم بنو لَخْم بن عدِىّ بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن زَيد بن يَشْجُب بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كَهْلان ؛ ولخم أخو جُذَام المقدّم ذكره ، وكل منهما عمٌّ لِكِنْدة المقدّم ذكره أيضا . وعدّ صاحب حماة لَخْما من بنى عمرو بن سبإ كما عدّ جُذَاما إذ كانا أخوين كما تقدّم . وقد كان للفاوزة من اللخميين مُلْك بالحِيرَة من بلاد العِراق ، ثم كان لبنى عَبَّاد من بقاياهم بالأندلس مُلْك بإشبيلِيَة . وذكر القضاعى أنهم حضروا فتح مصر ، واختلطوا بها ، هم ومَنْ خالطهم من جُذام . قال الحمدانى : وبصعيد الديار المصرية منهــم قوم يسكنون بالبر الشرقى ، ذكر منهم الحمدانى سبع أبطن . الأولى سِمَاك ، وهم المعروفون بالسماكين ، وبنو مُرّ ، وبنو مليح ، وبنو نَبْهان ، وبنو عَبْس ، وبنو كريم ، وبنو بُكَير ، وديارهم من طارف ببا بالبهنسا إلى مُنْحَدر دير الجمــيزه فى البر الشرقى . الثانيــة بنو حدّان ، وهم بنو محمد ، وبنو على ، وبنو سالم ، وبنو مُدْلج ، وبنو رعيش ؛ وديارهم من دير الجميزة ، الى ترعة صول . الثالثة بنو راشد ، وهم بنو معمر ، وبنو واصل ، وبنو مِرا ، وبنو حِبَّان ، وبنو معَاد ، وبنو البِيض ، وبنو حُجْرة ، وبنو شَنُوءة . وديارهم من مســجد موسى الى أسكر ، ونصف بلاد

إطْفيح . ولبنى البيض الحىُّ الصغير ، ولبنى شنوءة من ترعة شريف إلى مَعْصَرة بوش . الرابعة بنو جَعْد ، وهم بنو مسعود ، وبنو حُدَير ، وهم المعروفون بالحُدَيْرِيين ، وبنو زُبَير ، وبنو ثمال ، وبنو نَصَّار . ومسكنهم ساحل إطفيح . الخامسة بنو عدىّ ، وهم بنو موسى ، وبنو محرب ، ومساكنهم بالقرب منهم . السادسة بنو بحر ، وهم بنو سهل ، وبنو مِعْطار ، وبنو فَهْم ، وهم المعروفون بالفَهْمِيين ، وبنو عَسِير ، وبنو مسند ، وبنو سِبَاع ، ومسكنهم الحىّ الكبير . السابعة قيس ، وهم بنو غُنَيم ، وبنو عمرو ، وبنو حجرة ، ولبنى غنيم منهم العَدَوية ، ودَيْر الطِّين إلى جَسْر مصر ؛ ولبنى عمرو الرستق ولهم نصف حُلْوان ، ولبنى حجرة النصف الثانى ، ونصف طُرا .

ومن بطون لخم بنو الدار رَهْطُ تميم الدارىّ صاحب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهم بنو الدار بن هانئ ، بن حبيب ، بن نمارة ، بن لخم . قال الحمدانى وبلد الخليل عليه السلام معمور من بنى تميم الدارىّ رضى الله عنه ، وبيد بنى تميم هؤلاء الرُّقعةُ التى كتبها النبى صلى الله عليه وسلم لتميم وإخوته بإقطاعهم بيت حَبْرُون التى هى بلد الخليل عليه السلام وبعض بلادها ويقال إنها مكتوبة فى قطعة من أدم من خُفِّ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وبخطه .

الحى العاشر — من بنى كهلان الأشعريُّون . وهم بنو الأشعر بن أُدَد ، بن زيد ، بن يَشْجُب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كهلان . قال وسُمِّى الأشعرَ لأن أمه ولدته وهو أشعَر . وجعله صاحب حماة من بنى أشعر بن سبإ ، وهم رهط أبى موسى الأشعرىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحى الحادى عشر — من بنى كهلان عامِلةُ . وهم بنو عاملة ، واسمه الحارث ، بن عُفَير ، بن عدِىّ ، بن الحارث ، بن وَبَرة ، بن أُدَد ، بن زيد ، بن يشجُب ، بن

عريب، بن زيد، بن كهلان؛ وذكر أبو عبيد أن بنى عاملةَ هم بنو الحارث بن مالك؛ يعنى آبن الحارث بن مُرَّة بن أدد، وأنه كان تحته عاملةُ بنتُ مالك بن وَدِيعة بن عُفَير، آبن عدىّ، بن الحارث، بن مُرة بن أدد فعُرِفوا بها . وذكر صاحب حماة أنهم من ولد عاملةَ بن سبإ. وقد ذكر الحمدانى أن بجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجَمَّ الغفير.

الضـــــرب الثـــانى

(من العرب الباقين علىٰ ممرّ الزمان العرب المستعربة)

قال الجوهرىّ : ويقال لهم المتعرّبة أيضا ، وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، سُمُّوا بذلك لأن لسان إسماعيل عليه السلام كان العِبرانيَّة أو السُّرْيانية، فلما نزل جُرْهُم من القحطانِيَّة عليـه وعلىٰ أمه بمكة المشرّفة، تزوّج منهم، وتعلم هو وبنوه العربيـةَ من جُرهُم المذكورين فسُمُّوا لذلك المستعربةَ . وآعلم أن الموجودين من العرب من ولد إسماعيل عليه السلام كلهم من بنى عَدْنان بن أُدَدَ المقدّم ذكره فى عمود النسْب علىٰ خلاف فى نسبه إلىٰ إسماعيل يطول ذكره. قال فى العبر: ومَنْ عدا عدنانَ من ولد إسماعيل قد آنقرضوا، ولم يبق لهم عَقِب؛ ولذلك عُرِفت هذه العرب بالعَدْنانيَّة.

ثم العدنانية صنفان :

الصنف الأوّل [illegible] قبائلهم المتفرّعة من عمود النسب ستة أصول:

الأصل الأوّل — [illegible] بن معدّ بن عدنـان ؛ والمتفرّع منـه علىٰ حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولىٰ — إيَاد (بكسر الهمزة ودال مهملة فى الآخر) وهم بنو إياد بن نِزَار المقدّم ذكره : قال المؤيد صاحب حماة وفارق إيادٌ الحجاز وسار بأهله إلىٰ أطراف العراق فأقام به .

ومن إياد قُسّ بن ساعدة الإيادىّ، وكعبُ بن مَامَة الذى يضرب به المثل فى الكَرَم؛ يقال إنه كان معه ماء لايفضل عنه وله رفيقٌ فسقاه رفيقَه ومات عطشا.

القبيلة الثانية — أنمار (بفتح الهمزة وراء مهملة فى الآخر) وهم بنو أنمار بن نزار المقدّم ذكره؛ وقد آختلف فى تَعْقيبه، فذهب ذاهبون إلىٰ أنه ذهب إلىٰ اليمن ونزل بالسَّرَوَات من مشارق اليمن، وتناسل بنوه بها فعُدُّوا فى اليمانِيَة؛ وذهبَ آخرون إلىٰ أنه لا عقب له إلا من بنتٍ له زوّجها لأراش من اليمانيَة، فولدت له أنمارَ بنَ أراش المقدّم ذكره فى اليمانية؛ فبنو أنمار المعدودون فى اليمانيَة هم بنو أنمار بن أراش المقدّم ذكره فى اليمانية من بنت أنمـار بن نِزار؛ ولذلك وقع اللبس فيهما، قاله السهيلىّ.

القبيلة الثالثة — رَبيعةُ، وهم بنو ربيعة بن نِزَار ويعرف بربيعة الفَرَس: لأن أباه نزارًا أوصىٰ له من ماله بالخيل. قال فى "مسالك الأبصار" وبالرَّحبة قوم منهم.

ولربيعة بطنان. وهما أسد، وضُبَيْعة آبنا ربيعة، ولكل منهما عِدّة أفخاذ، وديارهم إلىٰ الآنَ بالجزيرة الفُراتية تُعرَف بديار ربيعة. أما أسَدٌ فأكثرهما أفخاذا.

فمن أسد بنو عَنَزَة (بفتح العين المهملة والنون والزاى وهاء فى الآخر) وهم بنو عَنَزة آبن أسد المقدّم ذكره؛ وكانت منازلهم خَيْبَر من ضواحى المدينـة. وجَدِيلة (بفتح الجيم وكسر الدال المهـملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر) وهم بنو جَديلة بن أسد المقدّم ذكره، والنسبة إليهم جَدَلىّ بحذف الياء بعد الدال.

ومن جديلة عَبْدُ القيس؛ وهم بنو عبدِ القيس، بن أفْصَى، بن دُعْمِىّ، بن جَدِيلة. قال فى العبر: وكانت ديارُهم بتِهامةَ حتّٰى خرجوا إلىٰ البحرَيْن وزاحمُوا مَنْ بهـا من بكر بن وائل وتميم، وقاسموهم المواطنَ، والنسبة إليهم عَبْـدِىٌّ، ومنهم من يَنْسُب إليهم عبدىّ قيسىّ، وبعضهم يقول عَبْقَسىّ.

ومن عبد القيس هؤلاء الأشجُّ الذى قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنَّ فيك لَخَصْلتينِ يُحِبُّهما الله : الحِلْمُ والأَنَاةُ" .

ومن جديلة أيضا بنو النِّمر (بفتح النون وكسر الميم) وهم بنو النمر بن قاسِط بن هِنْب آبن دُعْمِىّ بن جَدِيلة . قال فى العبر وديارُهم رأسُ العين من أعمال الجزيرة الفُراتيّة .

ومن جديلة أيضا بنو وائل (بالياء المثناة تحتُ) وهم بنو وائل بن قاسِط بن هِنْب ابن أفصى ، بن دُعْمِىّ ، بن جديلة المقدّم ذكره .

ومن وائل بَكْر (بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف) وتَغْلِب (بالتاء المثناة فى أوّله والغين الساكنة المعجمة وكسر اللام وباء موحدة) وهم بنو بكر وتغلب آبنى وائل المقدّم ذكره .

ومن تغلب بن وائل كليب مِلك بنى وائل الذى قتله جَسَّاس ، وهاجتْ بسببه الحرب المعروفة بالبَسُوس أربعين سنةً .

ومن تغلبَ أقوام بزُرَع ، وبُصْرى ، وبالقريتين منهم نفر .

ومن بكر أقوام بجِينِينَ وبلادها ، وبالرَّحبَة قوم منهم .

ومن بنى تغلبَ كانت بنو حَمْدان ملوكُ حلَبَ قديما .

ومن بكر بن وائل شَيْبانُ ، وهم بنو شَيبانَ بن ثعلبة ، بن عُكَابة ، بنُ صَعْب ، بن علىّ ، بن بكر .

ومن بنى شَيْبانَ هؤلاء مُرَّة وآبنُه جَسَّاس قاتل كُلَيب المذكور . ومنهم طَرَفة ابن العبد الشاعر .

ومن بنى شيبان أيضا سَدُوس (بفتح السين المهملة فى أوّله وسين ثانية فى آخره) وهم بنو سَدُوس بن ذُهْل بن شيبان .

ومن بكر بن وائل أيضا بنو حَنِيفة رَهْطُ مسيلمة الكذاب الذى تنبأ فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقُتِل فى خلافة الصدّيق رضى الله عنه ، وهم بنو حنيفة بن لجيم ، بن صَعْب ، بن علىّ ، بن بكر ، بن وائل .

ومن بكر أيضا بنو عِجْل ، بن لجيم ، بن صَعْب ، بن علىّ ، بن بكر ، بن وائل . قال فى العبر : وكانت منازلهم من اليمامة إلى البصرة ؛ قال ثم خَلَفهم الآن فى تلك البلاد بنو عامر المُنْتَفِق ، بن عَقِيل ، بن عامر ، بن صَعْصعةَ . وذكر الحمدانىّ أن بلادهم فى زمانه الجزيرةُ من بلاد حَلَب وأنه كان لهم دولة بالعراق .

وأما ضُبَيْعة بن ربيعة (فبضم الضاد المعجمة وفتح الباء الموحدة تصغير ضَبعة) وهى قبيلة لم تكثر بطونها . ومنهم المتلمس الشاعر الباهلىّ المشهور .

الأصل الثانى — مضر (بضم الميم وفتح الضاد المعجمة) وهو مُضَر بن نِزار المقدّم ذكره ، ويُعْرف بمُضَر الحمراءِ : لأن أباه أوصى له من ماله بالذَّهَب وما فى معناه ؛ وهى قبيلة عظيمة إلا أن أكثرها آندرج فيما بعدها لكونها على عمود النسب ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بنابُلُس من بلاد الشام بقيةً من مُضَر ، وبالرَحبة رجال منهم ، وله على حاشية عمود النسب فَرْع واحد قد جمع عدّة قبائل ، وهو قيس وقد آختلف فى نسبه فقيل قيس بن عيلان (بالعين المهملة) وآسمه الناس (بالنون) آبن مضر ؛ وقيل هو قيس بن مضر لصلبه ، وعَيْلانُ المضافُ إليه قيل فرسه وقيل كَلْبه . قال صاحب حماة : وجعل الله تعالى لقيس من الكثرة أمرًا عظيما ، ولكثرة بطونه غلَب على سائر العَدْنانية حتّى جعل فى المثل فى مقابل عرب اليمن قاطبةً فيقال قيس ويمن .

فمن قبائل قيس هَوَازِنُ ، وهم بنو هَوَازِنَ بن منصور بن عِكْرِمةَ بن خَصَــفة بن قيسِ عَيْلانَ، وهم الذين أغار عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسباهُمْ .

ومن هوازن بنو سَعْد الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضيعًا فيهم، وهم بنو سَعْد بن بكرِ بن هوازنَ . قال فى العبر : وقد آفترق بنو ســعْد هؤلاء فى الإسلام ولم يبق لهم حىّ فيُطرَق إلا أن منهــم فِرقةً بإفريقيَةَ من بلاد المغرب بنواحى باجةَ يعسكِرونَ مع جُنْد السلطان .

وقد ذكر آبن خلّكان أن شاوَرَ السعدىّ وزير العاضد الفاطمىّ خليفةِ مصر منهم وإن كان الحمدانىّ قد ذكر أنه من سَعْد جُذَام من القَحْطانية بالشرقية من الديار المصرية علىٰ ما سبق ذكره هناك .

ومن هوازن أيضا بنو عامر بن صَعْصَعةَ . وهم بنو عامر بن صَعْصعةَ بن مُعاوية آبن بَكْرِ بنِ هوازن؛ وإليهم يُنْسَب مجنون بنى عامرٍ الشاعرُ الذى كان يُشَبِّب بليلىٰ . ومن بنى عامر بن صعصعة بنُو كِلاب، وهم بنو كِلاب بن ربيعةَ بن عامر بن صعصعةَ . قال فى العبر : وكان لهم فى الإسلام دولة باليمـامة، وكانت ديارهم حِمىٰ ضَرِيَّةَ وهو حِمىٰ كُلَيب، وحِمىٰ الربَذَة فى جهات المدينة النبوية ، وفَدَكُ والعوالى ؛ ثم آنتقلوا بعــد ذلك إلىٰ الشأم فكان لهم فى الجزيرة الفراتيــة صِيتٌ وملكوا حَلَبَ ونواحِيَها، وكثيرا من مدن الشام، ثم ضَعُفوا . قال، وهم الآن تحت خِفَارة الأمراء من آل ربيعة من عرب الشام .

وذكر فى "مسالك الأبصار" أنهم يُنْســبون إلىٰ عبد الوهاب المذكور فى سيرة البَطّال وذكر أن آسمه عبد الوهاب بن نُوبَخْت .

ثم قال، وهم بأطراف حلب ، وهم عرب غُزّ يتكلمون بالتركية ، ويركبون الأكاديش، ولهم غارات عظيمة، وأبناءُ الروم وبناتُهم لايزالون يباعُون من سباياهم. وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفةً من بنى كلاب .

ومن بنى عامر بن صعصعة أيضا بنو هِلال ، وهم بنو هِلَال بن عامر بن صعصعةَ . قال الحمدانى: وكان لهم بلادُ صعيدِ مصر كلُّها، وذكرهم ابن سعيد فى عرب بَرقةَ، وقال منازلهم فيما بين مصر وإفريقيَةَ . قال فى العبر: وكانت رياستهم أيام الحاكم العُبيدى لماضى بن مقرب، ولما بايعوا لأبى رَكْوةَ بالمغرب وقتله الحاكم، سلّط عليهم الحُبوشَ والعرب فأفناهم، وانتقل مَنْ بقى منهم إلى المغرب الأقصى فهم مع بنى جُشَم هناك . وذكر الحمدانى أن بحلب طائفةً منهم، ثم صار لهم بلاد أُسوانَ وماتحتها . ثم قال: وبإخميمَ منهم بنو قُرَّة، إلى عيذابَ، وبساقية قُلْتةَ منهم بنو عمرو وبطونُهم، وهم بنو رفاعةَ ، وبنو حُجير ، وبنو عزيز . وبأَصْفُون وإسْنا منهم بنو عُقْبة ، وبنو جَميلة .

ومن بنى هلال حرب فيما ذكره ابن سعيد . قال الحمدانى، وهم ثلاث بطون بنو مسروح، وبَنُو سالم ، وبنوعُبَيدالله . قال: ومساكنهم الحجاز ومن حَرب زبيد الحجاز فيما ذكره الحمدانى، وذكر أن منهم بنى عمرو . ثم قال : ومن بنى عامر نُمَير بن عامر ابن صعصعة . قال فى العبر : وكانت منازلهم الجزيرة الفراتية والشام بعُدْوتَي الفُرات . قال وهم إحدى جَمَرات العرب، وكان لهم كثرة وعِدّة فى الجاهلية والإسلام، ودخلوا الجزيرة الفراتية وملكوا حَرَّان وغيرها ، ثم غلبهم عليها خلفاء بنى العباس أيامَ المعتز بالله فهلكوا بعد ذلك وبادُوا .

ومن بنى عامر بن صعصعةَ أيضا بَنُو عُقَيل (بضم العين المهملة وفتح القاف) وهم بنو عُقَيل بن كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . قال فى العبر: وكانت

مساكنهم بالبحرين فى كثير من قبائل العرب ، وكان أعظم القبائل هناك بَنُو عُقَيل هؤلاء ، وبنو تغلِبَ وبنو سُلَيم ، وكان أظهَرَهم فى الكثرة والغَلَب بنو تغلِبَ؛ ثم آجتمع بنو عُقَيل وبنو تغلِب علىٰ بنى سُلَيم فأخرجوهم من البحرين؛ ثم آختَلَف بنو عُقيل وبنو تغْلِبَ بعد مدّة فغلب بنو تغلب علىٰ بنى عُقَيل فطردوهم عن البحرين،فساروا إلىٰ العراق ، وملكوا الكُوفةَ والبلادَ الفُراتيَّةَ وتغلبوا علىٰ الجزيرة والمَوْصِل، وملكوا تلك البلاد؛ وكان منهم المقلد وقِرْواش وقُرَيش وآبنه مسلم ملوك الموصل ، وبقيت بأيديهم حتّى غلبهم عليها ملوك بنى سلجوق، فتحوّلوا عنها إلىٰ البحرين حيث كانوا أوّلا فوجدوا بنى تغلبَ قدضَعُف أمرهم فغلبوهم علىٰ البحرين، وصار الأمر بالبحرين لبنى عُقَيل .

ومن بنى عقيل هؤلاء آل عامر ، وهم بنو عامر بن عُقَيل المذكور،وهم الذين بيدهم بلاد البحرين . قال آبن سعيد : سألت أهل البحرين فى سنة إحدىٰ وخمسين وسبعمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين فقالوا : المملكة بها لبنى عامر بن عُقَيل، وبنو تغلبَ من جملة رعاياهم؛ علىٰ أن الحمدانىّ قد وَهِم فقال : وهم غير عامر المُنْتَفِق، وعامر بن صعصعة ، وتبعه علىٰ ذلك فى "مسالك الأبصار" . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفة من بنى عُقَيل

ومن بنى عُقَيل أيضا بنو عُبَادة(بضم العين المهملة و بالباء الموحدة والدال المهملة) وهم بنو عُبادة بن عُقَيل . قال آبن سعيد: ومنازلهم بالجزيرة الفراتيَّة مما يلى العراق لهم عَدَد وكثرة . قال : ومنهم الآن بقيةٌ بين الخازر والزَّابِ، يقال لهم عرب شَرف الدولة فى تجمُّل وعُدَد، ولهم إحسان من صاحب الموصل . ثم قال : وهم عدد قليل نحو المائة فارس .

ومن بنى عُقَيل أيضا خَفَاجةُ (بفتح الخاء المعجمة وفتح الفاء وجيم مفتوحة بعد الألف وهاء فى الآخر) وهم بنو خَفَاجة بن عمرو بن عُقَيل، وفيهم الإمرة بالعراق إلى الآن .

ومن بطون هوازن أيضا بنو جُشَم (بضم الجيم وفتح الشين المعجمة وميم فى الآخر) وهم بنو جُشَم بن معاوية بن بكر بن هَوازنَ . قال فى العبر : وكانت مساكنهم بالسَّرَوات، وهى تلال تفصل بين تِهامةَ ونجد، متصلةٌ من البحرين إلى الشام كسَرَوات الجبل . قال : وسَرَوات جُشَم متصلة بسَرَاة هُذَيل . ثم قال : وقد انتقل بعضهم إلى المَغْرب، وهم الآن به، ولم يبق بالسَّراة منهم إلا من ليس له صولة . قال صاحب حماة : ومن جُشَم هؤلاء دُرَيد بن الصِّمَّة .

ومن بطون هوازن أيضا ثَقِيفٌ (بفتح الثاء المثلثة وكسر القاف وسكون الياء وفاء فى الآخر) وهم رَهْط الحجاج بن يوسُف : وهم بنو ثقيف واسمه قَسِىُّ بن مُنَبِّه بن بكر بن هَوازِنَ؛ ويقال إنهم من إياد بن نِزَار المقدّم ذكره . وعن بعض النَّسابة أن ثقيفا من بقايا ثَمُودَ، وكان الحجاج ينكره ويقول كذبوا، قال الله تعالى: ﴿وثَمُودَ فما أَبقَىٰ﴾ أى أهلكهم ولم يبق منهم أحدا . قال فى العبر : وثَقِيف بطن واسع ، وكانت منازلهم بالطائف : وهى مدينة من أرض نَجْد علىٰ مرحلتين من مكة فى شرقيِّها وشماليِّها كانت فى القديم للعَمَالقة ، ثم نزلها ثمودُ قبل وادى القُرىٰ : ويقال إن الذى سكنها بعد العَمَالقة عَدْوانُ . ثم غلبهم عليها ثقيفٌ فهى الآن دارُهم .

ومن قبائل قيس أيضا باهِلةُ، وهم بنو سَعدِ مَناة بن مالك بن أَعْصُر، واسمه مُنَبِّه ابن سعد بن قَيْس عيلان ؛ وجعلهم فى العبر بنى مالك بن أَعْصُر . وباهلةُ أمّ سعدِ مناة عُرِفوا بها : وهى باهلةُ بنت صَعْب بن سعدِ العشيرة من مَذْحِج، منهم أبو أُمامة الباهلىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قبائل قيس بنو مازِنٍ ، وهم بنو مازِنِ بن منصور بن خَصَفة بن قَيْس عَيْلانَ . قال فى العبر : وعددهم قليل .

ومن قبائل قيس أيضا بنو غَطَفانَ بن قَيْس عيلان . قال فى العبر : وهم بطن متسعٌ كثير الشعوب والبطون . قال : وكانت منازلهم مما يلى وادىَ القُرىٰ وجَبَلَىْ طيىءٍ أجإ وسَلْمىٰ ، ثم تفرّقوا فى الفتوحات الإسلامية ، وآستولىٰ علىٰ مواطنهم هناك قبائل طيىءٍ .

ومن بطون غَطَفان بنو عَبْس (بفتح العين وسكون البـاء الموحدة وسين مهملة فى الآخر) وهم بنو عَبس بن بَغِيض بن رَيْث بن غطفان . منهم زُهير بن قيس صاحب حرب داحسَ والغَبْراء . وهمـا فرسان كانت إحداهما وهى داحسُ(١) لَعَبْس والأخرىٰ وهى الغبراء لفزارةَ فأُجْرِيتا فوقع الحرب بسببهما .

ومن عبسٍ هؤلاء عنترة بن شدّاد الشاعر الفارس المشهور .

ومن غَطَفان أَشْجعُ (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الجيم وعين مهملة فى الآخر) وهم بنو أَشْجَع بن رَيْث بن غَطَفان . قال فى العبر : وكانوا هم عربَ المدينة النبويّة ، وكان سيدُهم معقلَ بن سِنَان الصحابىّ . قال : ولم يبق أحد منهم بنجد إلا بَقايَا حولَ المدينة . ثم قال : وبالمغرب الأقصىٰ منهم حىّ عظيم يظعَنُون مع عرب معْقِل بجهات سِجِلْماسة ولهم عدد وذكر .

ومن غطفان أيضا ذِبْيانُ ، قال الجوهرىّ (بكسر الذال يعنى المعجمة وضمها) وهم بنو ذُبْيان بن رَيْث بن غَطَفان ومنهم النابغة الذبيانىّ الشاعر المشهور .

ومن ذبيان فَزَارة (بفتح الفاء والزاى والراء المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو فزارة آبن ذُبْيان . قال فى العبر : وكانت فزارةُ بنجد ووادى القُرىٰ ، فلم يبق منهم بنَجْد أحدٌ

(١) أنث الفرس المسمى بداحس ومقتضى القاموس تذكيره وقد صرفه فيه فليحرر .

ونزل جيرانهم من طيئ مكانهم . وذكر أن بأرض بَرْقة إلىٰ طَرَابُلُس الغرب منهم قبائل : رَوَاحةَ، وهِيت، وفَزان . قال : و بإفريقيَة والمغرِب منهم الآن أحياء كثيرة آختلطوا مع أهله، يحتاج المعقل من عرب المغرب الأقصىٰ إلىٰ الآستظهار بهم . قال ومنهم مع سليم بإفريقيــة طائفــة أخرىٰ أحلاف لأولاد أبى الليل من شعوب بنى سُليم، يستظهِرون بهم فى مواقف الحرب، ويقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . ثم قال وفى برقة ببلاد هِيت جمــاعةٌ منهم نازلُون بها؛ ومنهم طائفة بصحراء المغرب . قال الحمدانى : ومنهم بالديار المصرية جماعةٌ بالصعيد، وجمــاعة بضواحى القاهرة فى قليوب وما حولها، وبهم عُرِفت القرية المسماة بخَرَاب فَزارة هناك . ومن فزارة بنو مازِنٍ، وبنو بدر؛ فأمّا بنو مازن فهم بنو مازن بن فزارة؛ وأما بنو بدر فهم بَنُو بَدْر بن عَدِىّ بن فزارة : قال فى العبر، وفيهم كانت رياسة بنى فَزَارة فى الجاهليّة، يرأسون جميع غَطَفان وتدينُ لهم قيسٌ وإخوانهم بنو ثعلبــة بن عدىّ؛ ومنهم كان حذيفةُ بن بدر صاحب الفَرَس المعروفة بالغَبْراء المقدّم ذكرها؛ ومن بَنِى بدر هؤلاء وبنى عمهم بنِى مازنٍ جماعةٌ بالقليوبية من الديار المصرية .

قلت : وبَنُو بدر هم قبيلتنا التى إليها نعتزى، وفيها ننتسب؛ وأهل بلدتنا قَلْقَشَنْدَة نصفهم من بنى بدر ونصفهم من بنى مازن .

ومن قبائل قيسٍ أيضا بنو سُلَيم (بضم السين وفتح اللام) وهم بنو سليم بن منصور آبن عِكْرمة بن خَصَــفةَ بن قَيْس عيلان . قال الحمدانى : وهم أكبر قبـائل قيس . وكان لسُلَيم من الولد بُهْثَة (1) (بضم الباء الموحدة فى أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ومنه جميع أولاده . قال فى العِبَر : وكانت منازلهم فى عاليةَ نَجْد بالقرب من خيبر .

(١) ذكره فى القاموس فى باب الثاء المثلثة فقال وبهثة رجل من سليم فتنبه .

ومن منازلهم حَرَّة سُلَيم، وحرَّة النار بين وادى القُرىٰ وتَيْمـا . قال : وليس لهم الآن بنجد عَدَد ولا بقيَّة . ثم قال : وبإفريقِيَةَ منهم حىّ عظيم، وقد تقدّم أنه كان منهم جماعة بالبحرين فغلَبهم عليها بنو عُقَيل بن كَعْب وبنو تَغْلِب . وقال الحمدانى : ومساكنهم بَرْقَةُ ممـا يلى المغرب وممـا يلى مصر . قال : وفيهـم الأبطال الأنجاد، والخيل الجِيَـاد . قال فى العبر : وقد آسْـتَوْلَوْا علىٰ بَرْقَة، وهى إقليم طويلٌ واسعُ الأطراف، وخربوا مدنه ولم يتركـوا بها ولاية ولا إمرة إلا لمشايخهـم . قال فى "مسالك الأبصار" : والإمرة الآن فيهـم فى بنى عزاز، وهى الآن فى زماننـا لبنى عريف .

ومن سُلَيم هؤلاء لَبِيد ببرَقَةَ ؛ وهم بطون كثيرة العدد .

ومن قبائل قيسٍ عَدْوان (بفتح العين وسكون الدال المهملتين ونون فى الآخر) وهـم بنو عَدْوانَ وآسْمُه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان . قال أبو عبيد : وسمى عَدْوان لأنه عدا علىٰ أخيه فَهْمٍ فقتله . قال فى العبر : وهم بطنٌ متسع، وكانت منازلهم بالطائف من أرض نجد نزلوها بعد إيادٍ والعمالقةِ، ثم غلبهم عليها ثقيفٌ، فخرجوا إلىٰ تِهامة . وبإفريقيَةَ الآن منهم أحياء بادية . وقد عدّ الحمدانىّ عَدْوان من عرب برية الحجاز من أحلاف آل فَضْل من عرب الشام، فيحتمل أنهم هؤلاء وأنهم غيرهم .

الأصـل الثالث — إلياس (بكسر الهمزة وسكون اللام وفتح الياء المثناة تحت وسين بعد الألف) وهو إلياس بن مُضَر المقدّم ذكره، وكانت تحته خِنْدِف (بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال المهملة وفاء فى الآخر) وهى خِنْدف بنت حُلْوان ابن عِمْران بن الحافى بن قُضاعة ، فعُرِف بنوه بها فقيـل لهم خِنْدِف : لأن زوجها

إلياس رآها يوما تمشى، فقال لها : مالك تُخَنْدِفين ؟ والخَنْدَفة أن يقلب ظهر قدمه إلىٰ الأرض عند مشيه . وله فرعان علىٰ حاشية عمود النسب .

الفرع الأوّل — طابخةُ (بفتح الطاء المهملة وكسر الباء الموحدة بعد الألف وفتح الخاء المعجمة وهاء فى الآخر) وهم بنو طابخة، وآسمه عمرو بن إلياس بن مُضَر، وسمى طابخة لأنه كان هو وأخوه مدركةُ الآتى ذكره علىٰ عمود النسب ، وكان آسمه عامرا، فى إبل لهما فصادا صيدا، وقعدَا يطبُخانه فعدَتْ عادية علىٰ إبلهما فآستاقتها، فقال عامر لعمرو أتُدْرك الإبل أم تطبخ الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبُخ الصيد، فلحق عامر الإبل فجاء بها فلما جاءا أباهما أخبراه الخبر، فقال لعامر : أنت مُدْركةُ . وقال لعمر : أنت طابخةُ فسميا بذلك .

ويتفرّع عن طابخةَ قبائلُ كثيرة .

فمن قبائل طابخة تميم (بفتح التاء المثناة فوق وكسر الميم وسكون الياء المثناة تحت وميم فى الآخر) وهم بنو تَميم بن مُرّ بن مُرَاد بن طابخة . قال فى العبر : وكانت منازلهم بأرض نجد دائرةً من هنالك علىٰ البصرة واليمامة ، وآمتدّت إلىٰ العُذَيب من أرض الكوفة ، ثم تفرّقوا بعد ذلك فى الحواضر، ولم يبق منهم باديةٌ ، وورِث مساكنهم غَزِيّةُ من طيئ وخفاجَةُ من بنى عُقَيل بن كعب .

ومن بطون تميم بنو العنبر، وهم بنو العنبر بن عمرو بن تميم ؛ وإليهم يُنْسَب جَدِيلة آبن عبد الله العنبرىّ الصحابىّ .

ومن بطون تميم بنو حَنْظلة وضبطه معروف ، وهم بنو حَنْظَلَة بن مالك آبن زيد مناة بن تميم ؛ ويقال لهم حَنظلةُ الأكرمون . قال الجوهرى : وهم أكبر قبيلة فى تميم .

ومن حنظلة بنو يربوع (بفتح الياء المثناة تحتُ وسكون الراء المهملة وضم الباء الموحدة وسكون الواو وعين مهملة فى الآخر)؛ وهم بنو يَرْبُوع بن حنظلة .

ومن بنى يربوع بنو العنبر بن يربوع ؛ ومنهم سَجَاحِ التى تنبأتْ فى زمن مسيلِمةَ الكذاب وهم غير بنى العنبر المقدّم ذكرهم .

ومن قبائل طابخة بنو ضَبَّة (بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء) . قال فى العبر : وكانت ديارهم بالناحية الشمالية من نجد بجِوَار بنى تميم ثم ٱنتقلوا فى الإسلام إلىٰ العراق، وهم الذين قتلوا المتنبى الشاعر .

ومن قبائل طابخة أيضا مُزَيْنة (بضم الميم وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح النون وهاء فى الآخر) وهم بنو عثمان وأوس، ٱبنى عمرو، بن أُدّ بن طابخة، ومُزَيْنة أمهما عُرِفوا بها ؛ وهى مزينة بنت كَلْب بنِ وَبَرَة . ومنهم كعبُ بن زهير ناظمُ القصيدة المعروفة ببانَتْ سُعاد ، وإليهم يُنْسب الإمام إسماعيل بن إبراهيم المزنىّ صاحب الإمام الشافعى رضى الله عنه .

الفرع الثانى — قَمَعة (بفتح القاف والميم والعين المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو قَمَعة بن إلياس بن مضر . قال الجوهرىّ إن أباه سماه قَمَعة لما ٱنقمع فى بيته أى ٱنقهر وذل ولم يشتهر عقبه .

الأصل الرابع — مُدْركة (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر الراء المهملة وفتح الكاف وهاء فى الآخر) وهم بنو مدركة بن إلياس بن مُضَر ؛ وقد تقدّم سبب تسميته مدركة . وله فرع واحد علىٰ حاشية عمود النسب وهو هُذَيل (بضم الهاء وفتح الذال المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ولام فى الآخر) وهم بنو هُذَيل بن

مدركة . وهى قبيلة متسعة لها بطون كثيرة والنسبة إليها هُذَلىّ بحذف الياء بعد الذال، وإليهم يُنْسَب عبد الله بن مسعود الصحابىّ رضى الله عنه .

الأصل الخامس — خُزَيْمة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح الميم وهاء فى الآخر) وهو خُزَيمة بن مُدْرِكة . وله فرعان على حاشية عمود النسب، وهما الهُون وأسد .

فأما الهون (فبضم الهاء وسكون الواو ونون فى الآخر) وهو الهُون بن خُزَيمة،وهى قبيلة مشهورة .

ومن بطون الهُون عَضَد(1) (بفتح العين المهملة والضاد المعجمة ودال مهملة فى الآخر)، وهم بنو عَضَد بن الهُون .

ومن بطون الهُون أيضا الديش (بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وشين معجمة فى الآخر) وهم بنو الدِّيش بن مُلَيح بن الهُون، ويقال لهاتين القبيلتين وهما عَضَد والدِّيش القارَة . قال أبو عبيد : وسُمُّوا بذلك لأن الشَّدّاخ الليثىّ أراد أن يفرّقهم فى بطون كنانةَ فقال بعضهم : دعُونا قارةً لا نتفرّق فسُمُّوا القارةَ .

وأما أَسَدٌ وضبطه معروف، فهم بطن كبير متسع . قال فى العبر : ومنازلهم مما يلى الكَرْخَ من أرض نَجْد فى مجاورة طيئ . قال : ويقال إن بلاد طيئ كانت لبنى أسد، فلما خرج بنو طيئ من اليمن تغلبوا على أجإ وسَلْمى، وتفرّق بنو أسد بسبب ذلك فى الأقطار ولم يبق لهم حىّ . قال ابن سعيد : وبلادهم الآن لطيئ . قال فى "مسالك الأبصار" : وبغسل وما ينضم إليها من بلاد الشام قوم من بنى أسد .

(1) صوابه ولام فهو عضل لا عضد انظر القاموس .

ومن بطون أســد الكاهليَّة ، وهم بنو كاهل بن أسد . ومن بطونهم دُودانُ بن أسد أيضا .

الأصل السادس — كِنانة (بكسر الكاف ونون بعدها ألف ثم نون مفتوحة بعدها هاء) وهو كِنانةُ بن خزيمة، وهى قبيــلة عظيمة آشتهرت علىٰ عمود النسب . وقد ذكر الحمدانى أن منهــم جماعة بالإخميمية من صــعيد الديار المصرية يُعرفون بكنانة طلحة، وذكر فى "مسالك الأبصار" أن طائفة منهم قَدِموا الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك ونزلوا دِمياطَ وما حولهــا . وله علىٰ حاشية عمود النسب خمسة فروع :

الفرع الأوّل — مَلْكان (بفتح الميم وسكون اللام ونون فى الآخر) ، وهم بنو مَلْكان بن كنانة .

الفرع الثانى — عَبْد مناة بإضافة عبد إلىٰ مناة (بميم مفتوحة بعدها نون)، وهم بنو عبد مناة بن كنانة، ولهم عدّة بطون .

منهم غِفَار (بكسر الغــين المعجمة وفتح الفاء وراء بعد الألف)، وهو بنو غِفار آبن عبد مناة بن كنانة ، وهم رهط أبى ذرّ الغِفَارىّ صاحب رســول الله صــلى الله عليه وسلم، وإليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم "غفَارُ غَفَر اللهُ لها" .

ومنهم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومن بكر هؤلاء الدُّئل . وهم بنو الدُّئل بن بكر آبن عبد مناة، وإليهم ينسب أبو الأسود الدؤلى واضع علم النحو بأمر أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

ومنهم بنو لَيْث، وهم بنو ليث بن بكر بن عبد مناة منهم الصعْب بن جَثَّامة الليثىّ الصحابىّ رضى الله عنه . وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم طائفةً بساقية قُلْتة بالإخميمية من صعيد مصر .

ومنهم بنو الحارث، ويقال فيهم بَلْحارث؛ وهم بنو الحارث بن عبد مناة .

ومنهم بنو مُدْلج (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر اللام وجيم فى الآخر) ، وهم بنو مُدْلج بن مُرة بن عبد مناة . وفى بنى مُدْلج هؤلاء عِلْم القيافة، وهو إلحاق الابن بالأب ونحو ذلك بالشَّبَه . ومنهم طائفة الآن بصَرْخَد وحَوْران من بلاد الشام، وطائفة بالأعمال الغربية من الديار المصرية .

ومنهم بنو ضَمْرة (بفتح الضاد المعجمة وسكون الميم وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو ضَمْرة، بن بكر، بن عبد مناة، وإليهم ينسب عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمدانى أن منهم طائفةً بساقية قُلْتة وما يليها من بلاد إخْميم من صعيد مصر .

الفرع الثالث — عمرو بن كِنانة؛ وإليه ينسب العَمْرِيُّون من بنى كنانة .

الفرع الرابع — عامر بن كنانة؛ ومنه العامريُّون من كنانة .

الفرع الخامس — مالك بن كِنانة . ومن عَقِبه بَنُو فِراس، بن غنم، بن ثعلبة، بن الحارث، بن مالك . وفى بنى فِراس هؤلاء يقول أمير المؤمنين علىّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه لبعض من كان معه : "لَوَدِدتُ أن يَكُونَ لى بألف منكم سبعةٌ من بنى فِراس بن غنم". وقد ذكر الحمدانى أن منهم جماعة بساقية قُلْتة وما يليها من الإخميمية بمصر . وذكر الحمدانى أيضا أن من كنانة بنُ خَزيمة طائفةً بصعيد مصر بالأُشْمونَيْن وما حولها تُعْرَف بكنانة طلحة .

الصنف الثانى من العرب العدنانية — قُرَيش (بضم القاف وفتح الراء المهملة)، وهم بنو النَّضْر (بفتح النون وسكون الضاد المعجمة) ابن كنانة وقيل فى تسميته بذلك إنه كان فى سفينة ببحر فارِس إذ خرجتْ عليهم دابة عظيمة يقال لها قُرَيش نخافها أهل

السفينة على أنفسهم فأخرج سهما من كنانته ورماها فأثبتها، ثم قُرِّبت السفينة منها فأمسكها وقطع رأسها وحملها معه إلى مكة فسُمِّي باسمها . وقيل سمِّي بنوه بذلك لغلبتهم القبائل وقهرهم إياهم، تشبيها بالدابة المقدّم ذكرها من حيث إنها تقهر سائر دوابِّ البحر وقيل أخذا من التقرُّش، وهو الاجتماع لأن قُصَيًّا جمعهم عليه عند ولايته أمر قُرَيش . وقيل لتجارتهم أخذا من التقرّش، وهو التجارة .

ثم لقريش عشرة أصول على عمود النسب :

الأصل الأول — فِهْر بن مالك، ويتفرّع عن فهر على حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — بنو الحارث، وهم بنو الحارث بن فِهْر . ومن بني الحارث هؤلاء بنو الجَرّاح رهطُ أبي عُبَيدة بن الجراح، أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المقطوع لهم بالجنة .

القبيلة الثانية — بنو محارب بن فهر، المقدّم ذكره . ومنهم الضَّحَّاك بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأصل الثاني — غالب بن فهر . ويتفرّع عنه على حاشية عمود النسب قبيلة واحدة، وهم بنو الأدرم بن لؤيّ (١) بن غالب؛ والأَدْرم هو الناقص الذَّقَن .

الأصل الثالث — لُؤَيّ بن غالب . ويتفرّع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — سعد، وهم بنو سعد بن لؤى بن غالب، كان له من الولد عمار، وعمارى، ومخزوم، من امرأته بُنَانَة (بضم الباء الموحدة) وبها يُعرفونَ فيقال لهم بنو بُنَانة، ومنهم أبو الطُّفَيل أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فيه نظر فإن تيم الأدرم ابن غالب كما في القاموس في مادة ت ى م فلعل لفظ ابن لؤى مما طغى به قلم الناسخ .

القبيلة الثانية — خُزَيمة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى) وهم بنو خزيمة بن لؤىّ ؛ وكان تحته عائذة (بالعين المهملة والياء المثناة تحت والذال المعجمة) بنت الخمس بن قُحافة فعُرِف ولده بها فقيل لهم بنو عائذةَ .

القبيلة الثالثة — بنو عامر، وهم بنو عامر بن لُؤَىّ ، وكان له من الولد حِسْل وبَغِيض . ومن ولد حِسْل سُهَيل بن عمرو الذى عقد الصُّلْح مع النبىّ صلى الله عليه وسلم، يوم الحُدَيْبِيَة لقريش؛ ومنهم عمرو بن عبد وُدّ العامرىّ فارس العرب الذى قتله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

الأصل الرابع — كعب بن لُؤَىّ بن غالب ، ويتفرّع منه خارجا عن عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — هُصَيْص (بضم الهاء وفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت وصاد مهملة فى الآخر). ومن هُصَيْص بنو سَهْم، منهم عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ وكانت خُطَّة بنى سَهْم بفُسْطاط مصر حولَ الجامع العتيق . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى عمرو بن العاص أشتاتاً بالصعيد، ولهم حصة فى وقف عمرو على أهله بمصر .

ومنهم بنو جُمَح (بضم الجيم وفتح الميم وحاء مهملة فى الآخر) وهم بنو جُمَح بن هُصَيْص المقدّم ذكره؛ ومنهم أُمَيَّة بن خَلَف عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن من بنى جُمَح قوما بأذرعات من بلاد الشام .

القبيلة الثانية — بنو عَدِىّ ، وهم بنو عدىّ بن كعب؛ ومنهم أمير المؤمنين عمرُ آبن الخطاب رضى الله عنه وسعيد بن زيد أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة ؛ وقد ذكر القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" أنه وفد من بنى عدىّ جماعة إلى الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رُزِّيك وزير الفائز الفاطمىّ .

ومنهم رجال من بنى عُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنـه ومقـدّمهُم خَلَف بن نصر العُمَرىّ وأنهم لَقُوا من الصالح طلائع بن رُزِّيك وافرَ الإكرام ، ونزلوا بالبَرَلُّس[1] من سواحل الأعمال الغربية . وذكر أن من العُمَريين ببلاد الشام فرقةً بوادى بنى زيد وفرقةً بعجلون .

الأصـل الخامس — مُرَّة بن كعب ، ويتفرّع عنـه قبيلتان على حاشـية عمود النسب :

القبيلة الأولى — تَيْم ، وهم بنو تيم بن مرة بن كعب . ومنهم أبو بكر الصـدّيق رضى الله عنه ، وطلحةُ أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى الصـدّيق رضى الله عنه من بنى عبد الرحمن وبنى محمد ولدى أبى بكر رضى الله عنه جماعةً بالأُشْمُونَيْن والبَهْنسائية من صعيد مصر . قال الحمدانىّ ، وهم ثلاث فرقهم وأقرباؤهم وأُطْلِق على الكل بنو طلحة . فالفرقة الأولى منهم بنو إسحاق ، ويقال إن إسحاق ليس أبا لهم وإنما هو (إسحاق) مكان تحالفوا عنده فسُمُّوا به . والفرقة الثانية فضاء طلحة ، وهم بطون كثيرة ، وأكثرهم أشتاتٌ كثيرة فى البلاد لاحدّ لهم . والفرقة الثالثة بنو محمد ، وهم بنو محمد بن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، ومنازلهم بالبرجين وسَفْط سُكَّرة ، وطحا المدينة من بلاد الأُشْمونَيْن فيما ذكره الحمدانىّ ، وأكثرهم الآن بدَهْروط من البهنسائية ، وخرج منهم جماعة من العلماء على مذهبِي الإمامين : مالك والشافعىّ رضى الله عنهما .

القبيلة الثانية — بنو يقَظَة ، وهم بنو يقظة بن مُرَّة . ومنهم بنو مخزوم (بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة وضم الزاى وسكون الواو وميم فى الآخر) وهم بنو مخزوم بن

(١) قال ياقوت برلس بفتحتين وضم اللام وتشديدها وفى القاموس بُرُلُّس بالضمات وشدّ اللام .

يَقظة بن مُرّة بن كعب ، وبه ٱشتهرت القبيلة دون أبيه يَقظة لكثرة عَقِبه دون أبيه . منهم خالد بن الوليد أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو جَهْل ٱبن هشام عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخُوه العاص بنُ هشام ، قُتِلا يوم بدر كافِرَيْن، وأخوهما سلَمَةُ بن هشام، أسلم وكان من خيار المسلمين . ومنهم سَعِيد بن المسيّب التابعيّ المشهور ، وقد ذكر الحمدانيّ أن من بنى مخزوم جماعة بصعيد مصر بالأُشْمُونَيْن وفيهم بأس وشدّة . وذكر أيضا أن منهم خالد حمص وخالد الحجاز . وذكر أن كلا منهم يَدَّعِى بنوّة خالد بن الوليد رضى الله عنه. ثم قال: وقد أجمع أهل العلم بالنسب على ٱنقراض عقبه . قال ولعلهم مِنْ سواه من بنى مخزوم فهم أكثر قريش بقيةً وأشرفُهم جاهلية .

الأصل السادس — كلاب بن مُرّة ، ويتفرّع منه على حاشية عمود النسب قبيلةٌ واحدة، وهى زُهْرة (بضم الزاى وسكون الهاء وفتح الراء وهاء فى الآخر) وهم بنو زُهْرة بن كلاب بن مُرّة قاله أبو عبيد وغيره . وقد ذكر الجوهرىّ أن زُهْرَةَ ٱسم ٱمرأة كلاب نُسِب ولده إليها . منهم سعد بن أبى وَقّاص، وعبدُ الرحمن بنُ عَوْف كلاهما من العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم . ومنهم آمنةُ بنتُ وهبٍ أمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم جماعة ببلاد الأشمونين بصعيد مصر .

الأصل السابع — قُصَىّ بن كلاب بن مرة، وكان قُصَىٌّ عظيما فى قريش، وهو الذى جَمَعهم بعد التفرّق، وفى ذلك يقول الشاعر :

أَبُوكُم قُصَىٌّ حِينَ يُدْعَى مُجَمِّعا * بِهِ جَمَعَ اللهُ القبائِلَ مِنْ فِهْرِ

وآرتجع مفاتيح الكعبة من خُزَاعة بعــد أن كانوا آنتزعوها من بنى إسمـاعيل على ما تقدّم ذكره . ويتفرّع منه على حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — بنو عبد الدار، وهم بنو عبد الدار بن قُصَىّ، وبيــد بنيه كانت مفاتيح الكعبة دون سائر بنى قُصَىّ . وذلك أن قُصَيًّا لما أخذ مفاتيح الكعبة من أبى غَبْشانَ الخُزَاعىّ، أرسلها مع آبنه عبــد الدار هذا إلى البيت وقال : يابنى إسمـاعيل هذه مفاتيح بيت أبيكم إبراهيم وقد أعادها الله تعالى إليكم . فبقيت بيده من حينئذ، ومن ولده عثمان بنُ طلحة الحَجَبىّ الذى آنتزع النبىُّ صــلى الله عليه وسلم منه مفاتيح الكعبة عام حَجَّة الوداع حين طَلَبهـا منه لتدخُل عائشــةُ رضى الله عنها البيتَ ليلا فامتنع من ذلك وقال : إن الكعبة لم تُفْتَح ليلا قط فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ فأعادها إليه وقال "هِىَ فيكم إلى يومِ القِيامة". وقد ذكر فى المسالك أن بحَمَاة أقواما من بنى عبد الدار .

ومن بنى عبد الدار بَنُو شيبةَ بن عثمان المقدّم ذكره، آبن طلحة، بن أبى طلحة، بن عبد العزّى، بن عثمان، بن عبد الدار، وهم حَجَبَة الكعبة، ومفاتيحُها بيدهم إلى الآن . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى شيبة هؤلاء قوما بصعيد مصر بسِفْط وما يليها من بلاد البهنسائية يعرفون بجماعة نَهَار .

القبيلة الثانية — بنو عبد العُزّى، وهو عبد العزى بن قُصَىّ، منهم هَبَّار بن الأسْود كان يهجو النبىَّ صلى الله عليه وسلم، ثم أسلم فحَسُن إسلامه ومدحه .

ومن بنى عبد العزّى هؤلاء بنو أسد، وهم بنو أسد بن عبد العزى المقدّم ذكره .

ومن بنى أســد هؤلاء الزُّبَير بن العوّام، أحدُ العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم خديجة أمّ المؤمنين، زوجُ النبيّ صلى الله عليه وسلم، ووَرَقَةُ بن نَوْفل الذى أنته خديجةُ فى أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، فى آبتداء النبوّة حين جاءه المَلَك بحِرَاء . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى الزبير طائفةً بصعيد مصر ببلاد البهنسا وما يليها . فمن ولد عبد الله بن الزبير بَنُو بدر، وبنو مصلح، وبنو رمضان .

ومن بنى مُصْعَب بن الزبير جماعةٌ يعرفون بجماعة محمد بن ورّاق . ومن ولد عروة آبن الزبير بنو غَنِىّ .

الأصل الثامن — عبد مناف بن قصى، ولبنى عبد مناف فى قريش النسب الصَّميم، والحسب الكريم، وإلىٰ هذا أشار أبو طالب بقوله :

إذَا ٱفْتَخَرتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ بِمَفْخَرٍ * فَعَبْدُ مَنَافٍ أصْلُهَا وصَمِيمُها

ويتفرّع منه علىٰ حاشية عمود النسب ثلاثُ قبائل :

القبيلة الأولىٰ — بنو عبد شمس بنِ عبد مناف . ومن عبد شمس بنو أُمَيَّة، وهم بنو أُمَيَّة الأكبرِ وأمية الأصغرِ آبنى عبد شمس بن عبد مناف .

فأما أُمَيَّةُ الأكبر، فكان له عشرة أولاد : أربعة منهم يسمَّوْن الأعياص، وهم العاص، وأبو العاص، والعِيص، وأبو العِيص، وستة يسمَّوْن العَنابِس، وهم حرب، وأبو حرب، وسُفْيان، وأبو سُفْيان، وعمرو، وأبو عمرو .

ومن بنى أمية الأكبر أمير المؤمنين عثمانُ بن عفَّان رضى الله عنه، ومعاويةُ بن أبى سفيانَ بنِ حرب، والحَكَمُ بن العاص . ومن ولده كانت المَرَاوِنةُ خلفاء بنى أُمَيَّة .

وأما أمية الأصغر فيقال لأولاده العَبَلات، ومن عقب أمية الأصغر الثُّرَيا بنتُ عبد الله بن الحارث بن أمية، التى كان يشَبِّب بها عُمرُ بن أبى ربيعة، وكان تزوّجها سُهَيْل بن عبد الرحمن بن عوف، وفيهما يقول عمر بن أبى ربيعة :

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا * عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شامِيَّة إذا ما ٱستقلَّتْ * وسُهَيْلٌ إذا ٱستقلّ يمانِى

وقد ٱختلف فى النسبة إلىٰ أمية علىٰ مذهبين، أحدهما أنه أُمَوِىّ بضم الهمزة جريا علىٰ اللفظ فى أمية ، وإليه يميل كلام الشيخ أثير الدين أبى حيّان فى شرح التسهيل ، الثانى أنه ينسب إليها أَمَوِىٌّ بفتحها لأن أُمَيَّة تصغير أَمَة فإذا نسبت رددته إلىٰ أصله وعليه ٱقتصر الجوهرىّ .

القبيلة الثانية — نَوْفل ، وهم بنو نَوْفل بن عبد مَناف، ومنهم نافع بن طريب (١) ٱبن عمرو بن نوفل الذى كتب المصاحف لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ وكان نوفل وعبد شمس متآلفين فجرىٰ بنوهما علىٰ ذلك .

القبيلة الثالثة — بنو المُطَّلب ، وهم بنو المطلب بنِ عبد مناف ، وكان المُطّلب متآلفا مع أخيه هاشم بن عبد مناف المقدّم ذكره فجرىٰ بنوهما علىٰ ذلك ، حتّى قال النبىّ صلى الله عليه وسلم "لم يَفْتَرِق هاشِمٌ والمُطَّلِبُ فى جاهِلِيَّةٍ ولا إسلام" . ومن بنى المطلب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه .

الأصل التاسع — هاشم بن عبد مناف، وٱسمه عمرو ، وسمى هاشما لهَشْمه الثريد أيام المجاعة ؛ وفى ذلك يقول الشاعر :

عَمْرُو الّذِى هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِه * ورِجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

وٱنتهت إليه سيادة قريش . وكان له علىٰ حاشية عمود النسب أربعة أولاد . وهم نَضْلة، وأسد، وصيفىّ، وأبو صيفىّ، ولم يشتهروا كل الاشتهار .

الأصل العاشر — عبد المطلب بن هاشم ، وكان له ٱثنا عشر ولدا : عبدُ الله أبو النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب ، والزُّبير، وعبد الكعبة ، والعباس ،

(١) كذا فى سبائك الذهب أيضا والذى فى العقد الفريد شافع بن ظرب .

وضِرَار، وحَمْزة ، وحَجْل ، وأبو لَهَب ، وقُثَم ، والغَيْداق الملقب بالمُقَوِّم ، والحارث أعمام النبيّ صلى الله عليه وسلم علىٰ خلاف فى العدد فيهم . قال أبو عبيد : والعقب منهم لستة : حمزة والعباس رضى الله عنهما ، وأبو لهب ، وأبو طالب ، والحارث ، وعبد الله .

فأما عبد الله فمن ولده النبيّ صلى الله عليه وسلم ، خلاصةُ الوجود ، وزُبْدة العالَم . وأما العبــاس فمن ولده الخلفاء من زمن أبى العَبَّاس السَّفَّاح أوّل خلفائهم وهلم جرا إلىٰ المستعين بن المتوكل خليفة العصر . وأما حمزة فقد ذكر ٱبن حزم وغيره أن عقبه ٱنقرض . وأما أبوطالب فله ثلاثة أولاد ، وهم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجَعْفر ، وعَقِيل ؛ فمن ولد أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه الحَسَنُ والحُسَيْن عليهما الســلام ، من فاطمة بِنْت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعَقِبهما قد ملأ الشرق والغرب ؛ وقد ذكر الحمدانىّ أن منهــم بصعيد مصرَ جماعةً من الجَعَافِرة بنِى جَعْفر الصادق من ولد الحُسَيْن بن علىّ وقال مسكنهم من بحرىّ مَنْفَلُوط إلىٰ سَمَلُّوط غربا وشرقا ، وعدّ من بطونهــم الحَيادِرة ، وهم أولاد حَيْدرة ، والسلاطنة ، وهم أولاد أبى جُحَيش ، وذكر أنه كان منهم الشريف حِصْن الدِّين بن تَغلب صاحب دَرْوة سَرَبَام من الأُشْمونين ، وبه عرفت بدَرْوة الشريف ، وكان قد سَمَتْ نفسُه إلى المُلْك فى أواخر الدولة الأيوبية وبقى حتّى ملك الظاهر بيبرس ، فأعمل له غوائل الغدر حتّى قبض عليــه وشنقه بالإسكندرية . قال ومن بنى الحُســيْن قوم بحَرَجة مَنْفلُوط ، وبنى الحُســيْن هؤلاء تعرفُ القرية المسماة ببنى الحُسين . وفى أسيوط جماعة من أولاد جَعْفر الصادق يُعرَفون بأولاد الشَّريف قاسم . وذكر فى "مسالك الأبصار" أنّ بسَلَمِيَّة وحَلَب وبلادهما جماعةً من بنى الحسين .

ومن ولد جعفر بن أبي طالب أقوام ببلاد الشام بوادى بنى زيد، وبصَرْخد وبلادها جماعةٌ من عامر بن هلال، يَدَّعون أنهم من بنى جعفر بن أبى طالب أيضا. وفى بعض قُرىٰ أذْرِعات قوم يدّعون أنهم منهم. وأما الحارث وأبو لهب فقد ذكر فى العبر أن لهما عقبا موجودا ولم يصرح بمحله.

الضرب الثـالث

(من العرب الموجودين المتردّد فى عروبتهم)

وهم البَرْبَرُ (بباءين موحدتين مفتوحتين بينهـما راء مهملة ساكنة وراء مهملة فى الآخر). قال الجوهرىّ: ويقال فيهم البَرابِرة والهاء للعجمة والنسب ولا يمتنع حذفها. وقد ٱختُلف فى نسبهم ٱختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النسابين إلىٰ أنهم من العرب. ثم ٱختلِف فى ذلك فقيل أوزاع من اليمن، وقيـل من غَسَّانَ وغيرهم تفرّقوا عند سَيْل العَرِم قاله المسعودىّ؛ وقيل خَلَّفهم أبرهةُ ذو المَنَار أحدُ تَبَابِعة اليمن حين غزا المغربَ؛ وقيـل من ولد لُقْمان بن حِمْير بن سَبَإ، بعث سرية من بنيه إلىٰ المغرب ليعْمُروه، فنزلوا وتناسلوا فيه؛ وقيل من لخم وجُذَام، كانوا نازلين بِفَلَسْطِينَ من الشام إلىٰ أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلجئـوا إلىٰ مصر فمنعهم ملوكها من نزولهـا فذهبوا إلى المغرب فنزلوه؛ وذهب قوم إلىٰ أنهم من ولد لقشان بن إبراهيم الخليل عليه السلام. وذكر الحمدانىّ أنهم من ولد بَرْبَر بن قَيْدار بن إسماعيل عليه السلام، وأنه ٱرتكب ذَنْبا فقال له أبوه البَرَّ البَرَّ ٱذهب يابر فمـا أنت بِبَرّ، وقيل هم من ولد بَرْبَر بن ثميلا بن مازيغ بن كَنْعان بنِ حام بن نُوح عليـه السلام، وقيل من ولد بَرْبَر بن كسلاجيم بن حام بن نوح؛ وقيل من ولد ثميلا بن ماراب بن عمرو ٱبن عِمْلاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح؛ وقيل من ولد قِبْط بن حام بن نوح؛

وقيل أخلاط من كَنْعانَ والعماليق ؛ وقيل من حِمْيَرَ ومصر والقِبْط ؛ وقيــل من ولد جالُوتَ ملك بنى إسرائيل، وإنه لمـا قتله داود تفرّقوا فى البلاد فلما غزا إفريقش البلادَ نقلهــم من سواحل الشـام إلىٰ المغرب ، وهو الذى رجحه صاحب العبر .
وبالجملة فأكثر الأقوال جانحة إلىٰ أنهــم من العرب وإن لم نتحقق من أىّ عرب هم، وهم قبائل متشــعبة وبطون متفرقة ، وأكثرهم ببلاد المغرب ؛ وبديار مصر منهم طائفة عظيمة، قال فى العبر : وهى علىٰ كثرتها راجعة إلىٰ أصلين لا تخرُج عنهما : أحدهما البَرَانس، وهم بنو برنس بن برير . والثانى البُتْر، وهم بنو مادغش الأبتر بن برير . وبعضهم يقول إنهم يرجعون إلىٰ سـبعة أصول ، وهى اردواحة ، ومصمودة، وأَوْرَبَّة، وعجية، وكُتَامة، وصنْهاجة، وأوريغة . وزاد بعضهم لمطة، وهسكورة، وكزولة . وقد ذكر صاحب العبر منهم الجمَّ الغفيرَ؛ والذى تدعو الحاجة إلىٰ ذكره من ذلك طائفتان :

الطائفة الأولى — الذين كان منهم ملوك المغرب للحاجة إلىٰ ذلك لمعرفة أنساب الملوك عند المكاتبة إليهم، وهم ثلاث قبائل :

القبيلة الأولىٰ — مَصْمُودة (بفتح الميم وسكون الصاد المهملة وضم الميم وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو مَصْمُودَةَ بن برنس بن بَرْبَر . قال فى العبر : وهم أكبر قبائل البربر، وأكثرهم عددا، وأوسعهم شعوبا، ومنهم الموحدون أصحاب المهدىّ بن تومرت القائم بقاياهم بإفريقية إلىٰ الآن .

ومن مَصْمُودة هَنتاتة (بفتح الهـاء وإسكان النون وفتح التاء المثناة فوق وبعدها ألف ثم تاء ثانية مفتوحة وهاء فى الآخر) ومنهم أبو حفص أحد أصحاب المهدىّ بن تُومرت المقدّم ذكره ، وهو الذى ينسب إليه الحَفْصِيُّون ملوكُ إفريقيــة القائمون بتونس إلىٰ الآن علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام على المسالك والممـالك .

القبيلة الثانية — زِنَاتة (بكسر الزاى وفتح النون وبعـد الألف تاء مثناة فوق مفتوحة وهـاء فى الآخر) وهم بطن من البُتْر بن البربر . قال فى العبر : وآسم زِناتة جانا بالجيم ويقال شانا بالشين، آبن يحيي، بن صولات، بن ورساك، بن ضرى، بن رحيك، بن مادغش، بن بربر. ونقل آبن حزم عن بعضهم أن ضرى، بن شقعو، بن تبدواد، بن ثملا، بن مادغش، بن هوك، بن برسق، بن كداد، بن مازيع، بن هراك، آبن هريك، بن بدّا، بن بديان، بن كنعان، بن حام، بن نوح عليه السلام. وقيل: جانا آبن يحيي، بن ضريس، بن جالوت، بن هريك، بن جديلات، بن جالود، بن رديلات، آبن عصى، بن بادين، بن رحيك، بن مادغش الأبتر، بن قيس عيلان، وحينئذ تكون من العرب العدنانية. وقيل: جالوت، بن جالود، بن ديال، بن قحطان، بن فارس فتكون من الفرس . قال فى العبر : وتزعم نَسَّابة زِنَاتة الآن أنهم من حمير من التبابعة فيكونون من القَحْطانية، وبعضهم يقول إنهم من العمالقة . وقد تقدّم عددهم فى العرب .

ومن زِنَاتة بنو مَرِين (بفتح الميم وكسر الراء المهـملة وسكون اليـاء المثناة تحت ونون فى الآخر) وهم بنو مَرِين، بن ورتاجن، بن ماخوخ، بن وجريح، بن فاتن، آبن بدر، بن يحفت، بن عبد الله، بن زرتبيص، بن المعز، بن إبراهيم، بن رحيك، بن واشين، بن نصبين، بن سرا، بن احيا، بن ورسيك، بن اديت، بن جانا، وهو زناتة.

ومن بنى مَرِين هؤلاء بنو عبد الحق ملوك فاس القائمون بها إلىٰ الآن علىٰ ما يأتى ذكره فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك إن شاء الله .

ومن زناتة أيضا بنو عبد الواد ملوك تلمسان من المغرب الأوسط القـائمون بها إلىٰ الآن .

القبيلة الثالثة — صَنْهاجة (بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح الهـاء وألف بعدها جيم مفتوحة وهاء فى الآخر) وهم بنو صَنْهاجة، بن برنس، بن بربر.

وقيل صَنْهاج، بن أوريغ، بن برنس، بن بربر. ويقال إنهم من حمير من عرب اليمن قاله ابن الكلبي والطبري والبيهقي والمسعودي وعبد العزيز الجرجاني.

وحكى ابن حزم: أن صنهاج إنما هو ابن امرأة اسمها بَصْلى وليس له أب معروف وأنها تزوّجت بأوريغ، وهو معها، فولدت له هوّارة(١)، فكان صنهاج أخا هوّارة لأمّه.

ومن صَنْهاجة لَمْتُونة (بفتح اللام وسكون الميم وضم التاء المثناة فوق وفتح النون وهاء في الآخر)؛ ومن لمتونة ملوك المُرابِطِين الذين كان منهم أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين باني مدينة مَرَّاكُش من الغرب الأقصى، وهم الذين انقرض مُلْكُهم بدولة الموحّدين.

الطائفة الثانية — الذين منهم بالديار المصرية. قال في العبر: وهم قبيلتان:

القبيلة الأولى — هَوَّارة (بفتح الهاء وتشديد الواو وفتح الراء المهملة بعد الألف وهاء في الآخر)، وهم بنو هَوَّارة بن أوريغ، بن برنس، بن بربر. وذكر الحمداني أنهم من ولد بَرّ، بن قَيْذار، بن إسماعيل عليه السلام. قال في العبر: ونَسَّابتهم يقولون إنهم من عرب اليمن. فتارة يقولون إنهم من عامِلة إحدى بطون قُضاعة، وتارة يقولون إنهم من ولد المِسْور، بن السَّكَاسِك، بن وائل، بن حمير، وتارة يقولون من ولد السَّكاسك، بن أشْرَس، بن كِنْدة، فيقولون هوّار، بن أوريغ، بن حيور، بن المثنّى، ابن المسور. وقد عدّ الحمداني من بطونهم بالديار المصرية بني مجريش، وبني اسرات، وبني قطران، وبني كُريب، ولكنهم الآن قد اتسعت بطونهم، وكَثُرت شعوبهم، وصار لهم بطون كثيرة.

منها بنو محمد، وأولاد مأمن، وبندار، والعرايا، والشللة، وأشحوم، وأولاد مؤمنين، والروابع، والروكة، والبروكية، والبهاليل، والأصابغة، والداجلة، والمواسية

(١) في العبر بدون هاء التأنيث وقد اختلف الأصل الذي بيدنا فتارة يثبتها وتارة يحذفها.

والبلازد ، والصوامع ، والسدادرة ، والزيانية ، والجيافشة ، والطردة ، والأهلة ، وازلتين، واسلين ، وبنو قمير، واتيه، والتبابعة ، والغنائم، وفزارة ، والعبابدة، وساورة، وغلبان، وحديد، والسبعة . وذكر فى "مسالك الأبصار" أن لهم بالديار المصرية البحيرة ، ومن الإسكندرية غربا إلىٰ العقبة الكبيرة ، ولم يزل الأمر علىٰ ما ذكره إلىٰ آخر المائة الثامنة فى الدولة الظاهرية الشهيدية برقوق فغلبهم علىٰ البحيرة زنارة وحلفاؤهم من بقية عرب البحيرة ، فخرجوا عنها إلىٰ صعيد مصر، ونزلوا به بالأعمال الإخميمية فى جرجا وما حولها . ثم قَوِىَ أمرهم، وآشتدّ بأسهم ، وكثر جمعهم، حتّى آنتشروا فى معظم الوجه القبلىّ فيما بين أعمال قوص، وإلىٰ غربىّ الأعمال البهنسائية ، وأُقْطِعوا بها الإقطاعات، وصارت الإمرة فى بلاد إخميم لأولاد عمر ، وفى أعمال البهنسا وما حولها لأولاد غريب، والأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

القبيلة الثانية — لَوَاثة (بفتح اللام والواو والثاء المثلثة وهاء فى الآخر)[(1)] قال الحمدانىّ : ويقال لَوَاثا بالألف، وهم بنو لَوَاثا الأصغر، بن لَوَاثا الأكبر، بن رحيك، آبن مادغش الأبتر، بن برير. قال الحمدانىّ : وهم يقولون إنهم من قيس من غطفان، بن سعد، بن قيس عيلان . وذُكِر عن بعض النسابين أنهم من ولد برّ، بن قَيْذار، بن إسماعيل عليه السلام، وأنه تزوّج آمرأة من العماليق فولدت له أولادا منهم لَوَاثة .

وحكى آبن حزم عن بعض النسابة : أن لَوَاثة من القِبْط . ثم قال : وليس بصحيح . قال الحمدانىّ : ولهم بمصر بطون كثيرة، منهم بنو بلار، وجد وخاص، وبنو مجدول وبنو جديدى، وقطوفة، وبركين، ومالو، ومزورة . قال : وبنو جديدى تجمع أولاد

---

(1) ذكرها صاحب القاموس بهذا الضبط فى باب التاء المثناة من فوق فليتنبه .

قريش، وأولاد زَعَازِع، وهم أشهر مَنْ فى الصعيد . وقطوفة تجمع مَغَاغة وواهلة . وبركين تجمع بنى زيد وبنى روحين . ومزورة تجمع بنى وركان وبنى غرواسن . ثم قال : فأما بنو بلار ففرقتان فرقة بالبهنسائية، وهم بنو محمد، وبنو علىّ، وبنو نِزَار، ونصفُ بنى شهلان .

وأما الفرقة التى بالجيزية ، فبنو مَجْدول ، وسَقَّارة، وبنو أبى كَثير، وبنو الحلالس (١) . قال : ويقال لهذه الفرقة جد وخاص، ويقال للأولىٰ البلارية؛ ومنهم مَغَاغة ، ولهم سَمَلُّوط إلىٰ الساقية، ولبنى بركين قَلُوسَنا وما معها إلىٰ بحرىّ طَنْبَدى (٢)، ولبنى جد وخاص الكفور الصولية، وسَفْط أبوجِرْجا إلىٰ طنبدى (٢)، وإهريت . ومنهم بنو محمد، وبنو علىّ المقدّم ذكرهما، وأمراؤهم بنو زعازع .

وأما مزورة، فبنو وركان ، وبنو غرواسن ، وبنو جماز، وبنو الحكم ، وبنو الوليد، وبنو الحجاج، وبنو الحرمية .

وأما بنو نزار . فمن بنى زرية؛ ومنهم نصف بنى عامر، والحماسنة، والضباعنة؛ وهم فى إمارة بنى زعازع . ومنهم أيضا بنو زيد وأمراؤهم أولاد قريش، ومساكنهم النُّوَيْرة؛ وبالجيزة منهم صلامس : عرب البدرشين ، وبنو منصور : عرب منية رهينة، وبنو بكْم : عرب سَقَّارة، وبنو مَجْدول، وبنو يرنى، وبنو يوسف، وبهم تعرف الكفور الثلاثة المسماة باسمهم . وبالمنوفية منهم بنو يحيىٰ، والسوة ، وعبيد، ومصلة، وبنو مختار . ومن لَوَاتة هؤلاء زُنَّارة (بضم الزاى وتشديد النون وألف ثم راء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر)، وهم بنو زُنَّارة من ولد بر، بن قَيْذار، بن إسماعيل عليه السلام، وقال : إنه أخو هَوَّارة ، وأكثر زُنَّارة ببلاد المغرب ؛ ومنهم جماعة

(١) فى السبائك بنو الجلاس بالجيم وحرر .
(٢) فى معجم ياقوت طبنذة بالذال المعجمة وهاء التأنيث .

بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدّ الحمدانىّ من بطونهم بالبحيرة بنى مزديش، وهم مزداشة، وبنى صالح، وبنى سام وزمران، وأوريغة، وعزهان، ولقان . وزاد بعضهم بنى حبون، ووا كدة، وفرطيطة، وغرجومة، وطازولة، ونفاث، وناطورة، وبنى السعوية، ومزداشـة، وبنى أبى سعيد، وهم عرب بدر بن سـلام . ومن لواتة أيضـا مزاتة (بضم الميم وفتح الزاى والتاء المثناة فوق وهاء فى الآخر)، وهم بنو مُزَاتة، بن لَوَاتَة الأصغرِ، ومنازلهم من البحيرة غربا إلى العقبة الكبيرة ببَرْقة .

المقصد الثـالث

(فى معـــرفة أنساب العجـــم)

وهم مَنْ عدا العربَ من الفُرْس، والتُرْك، والرُّوم، وغيرهم . ويُحتاج إلى ذلك فى المكاتبات إلى ملوكهم، وعَقْد الهُدَن معهم، ونحو ذلك .

والمشهور من الأمم العجمية ست وعشرون أمة :

الأولى — الترك (بضم التاء المثناة فوقُ وسكون الراء المهملة وكاف فى الآخر)، وهم الأمّة المشهورة الذين منهـم مُلُوك الديار المصرية الآن، وهم من بنى تُرْك، بن كومر بن يافِث، بن نوح عليه السلام؛ وقيل من بنى طيراش، بن يافث، ونسبهم ابن سعيد إلى ترك، بن عابَر، بن شمويل، بن يافث . قال فى العبر : ويدخل فى جنس الترك القفجاق، وهم الخفشاج، والطغرغر، وهم التتر . ويقال فيهـم التتار بزيادة ألف، والططر بإبدال التـاء طاء، والخطا، والخزلخيـة والخَزَر، وهم الغـز الذين كان منهم ملوك السَّـلاجقة، والهَيَاطلة، وهم الصغدر والغور والعلان، ويقال : اللان، والشركس، والأزكش، والروس فكلُّهم من جيل الترك ونسبهم داخل فى نسبهم .

الثانية — الجَرَامِقة (بفتح الجيم وكسر الميم وفتح القاف وهاء فى الآخر)، وهم أهل المَوْصِل فى الزمن القديم . قال آبن سعيد: وهم من ولد جُرْموق، بن أشور، بن سام، آبن نوح عليه السلام . وقال غيره : من ولد كاثر، بن إرم، بن سام .

الثالثة — الجيل (بكسر الجيم وسكون المثناة تحت ولام فى الآخر) ، وهم أهل كِيلان من بلاد الشرق . قال آبن سعيد : وهم من بنى باسل، بن أشور، بن سام، آبن نوح عليه السلام .

الرابعة — الخَزَر (بفتح الخاء والزاى المعجمتين وراء مهملة فى الآخر) ، وهم التركمان . فى الإسرائيليات أنهم من ولد توغرجا، بن كومر، بن يافث، بن نوح؛ وقيل هم من بنى طيراش بن يافث؛ وقيل نوع من الترك .

الخامسة — الديلم (بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وميم فى الآخر) ، وهم الذين كان منهم ملوك بنى بُوَيه الخارجين علىٰ خلفاء بنى العَبَّاس ببغداد . قال فى العبر : هم من بنى ماداى ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقال آبن سعيد : من بنى باسل ، بن أشور ، بن سام، بن نوح ، وقيل هم من العرب وضعفه أبو عبيد .

السادسة — الرُّوم وضبطهم معروف ، وهم الأمة المعروفة الذين منهم ملوك القُسْطَنْطِينِيَّة الآن؛قيل هم من بنى كيتم بن يونان، وهو ياban، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد رومى، بن يونان، بن علجان، بن يافث، بن نوح، وقيل من ولد رعويل آبن عيصو، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام . وقال الجوهرىّ : من ولد رُوم، بن عِيصُو بن إسحاق .

السابعة — السُّرْيَان (بضم السين وسكون الراء المهملتين وفتح الياء المثناة تحت

وألف ثم نون)، قال آبن الكلبيّ : من بنى سُوريان، بن نبيط، بن ماش، بن آدم، آبن سام، بن نوح .

الثامنة — السِّنْد (بكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة فى الآخر)، فى الإسرائيليات أنهم من ولد شبا، بن رعما، بن كوش، بن حام، بن نوح؛ وحكى الطبرى عن آبن إسحاق : أنهم من بنى كوش بن حام .

التاسعة — السُّودان وضبطهم معروف . قال آبن سعيد : جميع أحيائهم من ولد حام بن نوح؛ ونقل الطبرىّ عن آبن إسحاق : أن الحبشــة من ولد كوش بن حام والنُّوبة، والزِّنج، والزُّغَاوة من ولد كَنْعان بن حام . وذكر آبن سعيد : أن الحبشة من بنى حَبَش والنُّوبة من ولد نُوبة أو بنى نوبى ، والزِّنج من بنى زَنج ، ولم يرفع فى نسبهم فيحتمل أنهم من بنى حام، وأنهم من بنى غيره .

العاشرة — الصَّقَالبة (بفتح الصاد المهملة وفتح القاف وألف بعدها لامٌ مكسورة وباء موحدة مفتوحة وهاء فى الآخر)، وهم عند الإسرائيليين من بنى بازان بن يافث آبن نوح، وقيل هم من بنى اشكناز، بن توغرما، بن كومر، بن يافث .

الحادية عشرة — الصِّين وضبطهم معروف، قيل هم من بنى صينى، بن ماغوغ آبن يافث، بن نوح؛ وقيل من بنى طوبال بن يافث . وذكر "هرشيوش" مؤرّخ الروم أنهم من بنى ماغوغ بن يافث .

الثانية عشرة — العِبْرانيُّون (بكسر العين المهـملة وسكون البـاء الموحدة وفتح الراء المهملة وألف بعـدها نون مكسورة وياء مثناة تحتُ مشدّدة مضمومة وواو ساكنة ثم نون)، وهم الذين يتكلم اليهود بلسانهم إلى الآن . قال الطبرىّ: وهم من ولد عابَر، بن شالَخ، بن أرنخشذ، بن سام، بن نوح .

الثالثة عشرة — الفُرْس (بضم الفاء وسكون الراء المهملة وسين مهملة فى الآخر) وهم الذين كان منهم ملوك الأكاسرة . قال ٱبن إسحاق : هم من ولد فارس، بن لاوَذ، ٱبن سام، بن نوح . وقال ٱبن الكلبيّ : هم من ولد فارس، بن طيراش، بن أشور، بن سام، بن نوح؛ وقيل من ولد طيراش، بن همدان، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من بنى أَميم، بن لاوذ، بن سام . ووقع للطبرىّ : أنهم من ولد رعويل، بن عيصو، بن إسحاق، ٱبن إبراهيم عليه السلام . قال فى العبر : ولا ٱلتفاتَ إلىٰ هذا القول لأن مُلْك الفُرْس أقدم من ذلك .

الرابعة عشرة — الفرنج (بفتح الفاء والراء المهملة وسكون النون وجيم فى الآخر) قيل من ولد طوبال، بن يافث؛ وقيل من ولد غطرما، بن كومر، بن يافث .

الخامسة عشرة — القبط (بكسر القاف وسكون الباء الموحدة وطاء مهملة فى الآخر)، وهم الذين كان منهم أهل مصر فى القديم . قال إبراهيم بن وصيف شاه : هم من بنى قبطيم، بن قفط، بن مصر، بن بيصر، بن حام، بن نوح؛ وعند الإسرائيليين أنهم من ولد قفط بن حام .

السادسة عشرة — القُوط (بضم القاف وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر)، وهم أهل الأندَلُس فى القديم . قال "هرشيوش" هم من ولد ماغوغ، بن يافث، بن نوح؛ وقيل هم من ولد قُوط، بن حام، بن نوح .

السابعة عشرة — الكُرْد (بضم الكاف وسكون الراء المهملة ودال مهملة فى الآخر)، وهم الذين كان منهم بنو أيُّوبَ ملوكُ مصر بعد الفاطميين . قال فى العبر : هم من بنى إيران بن أشور، بن سام، بن نوح . قال المقرّ الشهابىّ ٱبن فضل الله فى كتابه "التعريف" : ويقال فى المسلمين الكُرْد، وفى الكفار الكرج، وحينئذ فيكون الكُرْد والكُرْج نسبا واحدا .

الثامنة عشرة ــ الكَنْعانيُّون (بفتح الكاف وسكون النون وفتح العين المهملة وضم الياء المثناة تحتُ المشدّدة)، وهم الذين كان منهم جبابرة الشام من ولد كنعان ابن حام، بن نوح .

التاسعة عشرة ــ أَلَمَـان (بلام مفتوحة وميم بعدها ألف ونون)، وهم الذين كانوا قصدوا سواحل الشام فى الدولة الأيوبيّة ومواطنُهم فى شمالىّ البحر الرومىّ غربا بشمال . قال فى العبر : وهم من ولد طوبال، بن يافث، بن نوح .

العشرون ــ النَّبَط (بفتح النون والباء الموحدة وطاء مهملة فى الآخر)، وهم أهل بابل من العِراق فى الزمن القديم، وإليهم تنسب الفِلاحة النَّبَطِيَّة لآبن وَحْشِيَّة . قال آبن الكلبىّ : هم من بنى نبيط، بن ماس، بن إرم، بن سام، بن نوح . وقال آبن سعيد : هم من بنى نبيط، بن أشور، بن سام، بن نوح .

الحادية والعشرون ــ الهِنْـد وضبطه معروف . فى الإسرائيليات أنهم من ولد دادان، بن رعما، بن كُوش، بن حام، ونقل الطبرىّ عن آبن إسحاق أنهم من بنى كوش، بن حام، بن نوح من غير واسطة .

الثانية والعشرون ــ الأَرْمَنُ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم ونون فى الآخر) وهم أهل إرْمِينِيَةَ الذين بقاياهم ببلاد سيس؛ قيل هم من ولد قهويل، بن ناحور، بن تارخ، وهو آزر، وتارخ أبو إبراهيم عليه السلام .

الثالثة والعشرون ــ الأَشْبان (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة وألف ثم نون) قيل هم من ولد ماشح، بن يافث، بن نوح . وعند الإسرائيليين من ولد ياوان وهو يونان بن يافث، وعند آخرين أنهم من شعوب بنى عِيصُو بن

إسحاق؛ وقال الطبرىّ : أشك أنهم من ولد رعويل بن عيصو بن إسحاق، وهو قريب من الذى قبله .

الرابعة والعشرون اليونان — وهم الأمة الذين كان منهم الحُكَماء شرقىَّ الخليج القُسْطَنْطِينىّ، وهم من ولد يونان، وهو ياوان، بن يافث، بن نوح . وقال البيهقىّ : هم من ولد يونان، بن خلجان، بن يافث . وشذ الكِنْدىّ فقال : يونان، بن عابَر، بن شالَخ، ٱبن أرنخشذ، بن سام بن نوح؛ فجعل يونان أخا لقَحْطان أبى عَرَب اليمن . وقال : إنه خرج من بلاد العرب مغاضبا لأخيه قَحْطَانَ فنزل شرقىَّ الخليج القُسْطَنْطِينىّ؛ وردّ عليه أبو العباس الناشى بقوله :

تُخَلِّط يُونانًا بقَحْطانَ ضِــلَّةً * لَعَمْرِى لقد باعَدْتَ بينَهُمَا جِدًّا

ثم اليونانية علىٰ ثلاثة أصناف اللَّطِينيُّون، وهم بنو لَطِين بن يُونان، والإغريقِيُّون وهم بنو إغريقن بن يونان، واللّكيم، وهم بنو اللكيم بن يونان، وهى أصل الروم فيما يقال علىٰ ما تقدّم .

الخامسة والعشرون زُوَيْلة — (بضم الزاى وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر) وهم أهل بَرْقة فى القديم ، ومنهم الطائفة الذين وَصَلوا صُحْبَةَ جوهر المُعِزّىّ بانى القاهرة المنسوب إليهم باب زُوَيْلَةَ بالقاهرة، يقال إنهم من بنى حو بلا بن كوش بن حام بن نوح .

السادسة والعشرون يأجوج ومأجوج — وضبطهما معروف . قيل إنهم من ولد ماغوغ، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد كومر، بن يافث .

النوع الثـالث عشر

(المعرفة بمفاخَرات الأمم ومنافَراتهم ، وما جرىٰ بينهم فى ذلك من المُحاوَرات والمراجَعات والمُناقَضات ، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

لاخفاء أنه يتعين علىٰ الكاتب معرفة[(1)] المفاخَرات الواقعة بينهم ، من معرفة وجوه الأفتخار التى يمدح بمثلها : ممـا يُستعان بمثله علىٰ المدح والإطراء الواقع فى الولايات وما يُفَضَّل به كل واحد من البلغاء علىٰ خَصْمه ، وما يردُ عليه من الأجوبة المبطلة له لينسِجَ علىٰ منوال ذلك فيما يرد عليه من المخـاطبات ، والمكاتبات عند دِعايَةِ ضرورته إليه ، وٱحتياجه إلىٰ إيراده .

المقصـــد الثـانى

(فى ذكر أُنموذَج من المفاخرات ، والمنافرات يُنْسَج علىٰ منواله)

فأمّا المفاخرات ، فمنها مارُوِى أنه لمـا وَفَد علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَفْد بنى تميم سنَةَ الوُفود بعد فتح مكة ، فيهم عُطَارد بن حاجب ، بنِ زُرَارة ، بن عُدَسَ التميمىّ ، وقَيسُ بن عاصم ، وقيسُ بن الحـارث ، ونُعَيم بن زيد ، وعُتْبة بن حِصْنِ آبنِ حُذَيفــة بن بدر ، والأقرَعُ بن حابس ، فى لَفِّهم ولَفيفهـم ، ودخلُوا المسجد ونادَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من وراء حُجُراته أنْ ٱخرُج إلينا يامحمدُ ، فتأذّى رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، من صِياحهم نخرج إليهم — فقالوا : يا محمدُ جِئْناك

(١) لعله والتمكن من معرفة الخ كما يفيده السياق .

لنُفاخِرك . فأذنْ لشاعرنا وخَطيبنا ـ قال "قَدْ أذِنْتُ لخَطِيبِكُمْ فليَقُلْ" فقام عُطارِدُ بن حاجِبٍ فقال :

"الحمدُ للهِ الذى لَهُ عَلَيْنا الفضْلُ ، وهو أهلُه ، الذى جَعَلنا مُلُوكا ، ووهبَ لنا أمْوالًا عِظَاما نفعل منها المعروف ، وجعلَنا أعزَّ أهل المَشْرِق وأكثَرَه عددا ، وأشدّه عُدّة ، فَمَنْ مِثْلنا فى الناس ؟ ألسنا برءُوس الناس وأولِى فضلهم ؟ فمن فاخَرنا فليعْدُد مثلَ ماعَدَدْناه ، وإنا لو نشاءُ لأكْثَرْنا الكلامَ ولكنا نحيَّينَا عن الإكثار ، وأقول هذا لأن تأتُوا بمثل قَوْلِنا ، وأمْرٍ أفضل من أمرِنا" ثم جلس

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لثابت بن قيس الخَزْرجىِّ : "قُمْ فأَجِبِ الرجُلَ فى خُطْبته" فقام ثابت بن قيس فقال :

"الحمد للهِ الذى السَّمٰواتُ والأرضُ خَلْقُهُ ، قضىٰ فيهن أمْرَه ، ووسع كُرسِيُّه علمه ولم يكُنْ شيءٌ قطُّ إلا من فِعْله ، ثم كان من قُدْرته أن جعَلَنا مُلُوكًا واصطفىٰ من خير خلقه رسولًا ، أكرَمَه نسبًا ، وأصدَقَه حديثًا وأفضلَه حَسَبا ، فأنزل عليه كتابَه ، وائتمنه علىٰ خَلْقه ، وكان خِيرةً من العالمين ، ثُمَّ دعا الناسَ إلىٰ الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجِرُونَ من قومه وذَوِى رَحِمِه ، أكرمُ الناس أحسابا ، وأحسَنُهم وجوها ، وخيْرُ الناس فِعالًا ، ثم كان أوّلَ الخلق إجابةً ، واستجابَ لله حينَ دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نَحْنُ ، فنحن أنصارُ الله ، ووُزَراء رسول الله ، نُقاتِل الناسَ حتّى يؤمِنوا ، فمن آمنَ بالله ورسوله مُنِعَ بماله ودمه ، ومَنْ كفر جاهَدْناه فى الله أبدا ، وكان قتْلُه علينا يسيرا ، أقول هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم" .

فقام الزبرقان بنُ بَدْر التميمىّ فقال :

نَحْنُ الكِرامُ فلا حَىٌّ يُفَــاخِرُنا * مِنَّا المُلُوكُ وفِينا تُنْصَب البِيَــعُ
وكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الأَحْيَاء كُلِّهِــم * عِنْدَ النِّهاب وفَضْلُ العِزِّ يُتَّبَع
ونَحْنُ نُطْعِم عِنْدَ القَحْطِ مُطْعَمنا * من الشِّواء إذا لم يُونَسِ القَزَعُ

وهى أبيَّات .

فقال رسول الله صــلى الله عليه وســلم ، لحَسَّانَ بن ثابت "قُم فأجِبِ الرجُلَ فيما قال" فقال حسان رضى الله عنه :

إنَّ الذَّوائبَ منْ فِهْرٍ وإخْوَتِهِــمْ * قَــدْ بَيَّنُوا سُــنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضىٰ بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُه * تَقْوىٰ الإلٰهِ وَكُلُّ الخَــيْرِ يُصْطَنَعُ
قَوْمٌ إذا حارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُــمُ * أو حاوَلُوا النَّفْعَ فى أشياعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّــةٌ تِلْكَ مِنْهُــمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ * إن الخَــلائق فَٱعْلَمْ شَرُّها البِــدَعُ
إن كانَ فِى الناسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ * فكُلُّ سَــبْقٍ لأَدْنىٰ سَــبْقِهِمْ تَبَعُ
لا يَرْقَعُ الناسُ ما أوْهَتْ أكُفُّهُمُ * عِنْــد الدِّفَاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا
أَكْرِمْ بقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شيعتُهُمْ * إذا تفــاوَتَتِ الأهْواءُ والشِّــيَعُ

وهى أبيَّات .

ويروىٰ أن الزبرقان بن بدر قال :

أَتيْناكَ كَيْما يَعْــلَمَ الناسُ فَضْلَنَــا * إذا ٱختَلَفُوا عِنْدَ ٱحتِضارِ المَوَاسِمِ
فإنَّا فُروعُ النــاسِ فى كُلِّ مَوْطِنٍ * وأن لَيْسَ فى أرضِ الحِجَازِ كدارِمِ
وإنا بُدُور العالَمِينَ إذا ٱنْتَخَوْا * ونَضْرِبُ رَأْسَ الأَصْــيَدِ المُتفاقِمِ
وإنا لَنَــا المِــرْباعُ فى كُلِّ غارَةٍ * نُغِــيرُ بنَجْــدٍ أو بأرْضِ الأعاجِم

(١) فى سيرة ٱبن هشام . نذود المعلمين .

فقام حَسَّان بن ثابت فأجابه فقال :

هَلِ المَجْدُ إلا السُّودَد العَوْدُ والنَّدىٰ * وَجاهُ المُـــلُوكِ وآحتمالُ العَظائم
نَصــرْنا وآوَيْنَـا النبيَّ مُحمَّــدًا * علىٰ أنْفِ رَاضٍ منْ مَعَدٍّ ورَاغم
نَصَرْناهُ لَمَّا حَلَّ وَسْــطَ دِيَارِنَا * بِأسْيافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وظَالِم
جَعَلْنَــا بَنِينَا دُونَهُ وبَنَاتِنَـا * وَطِبْنَـــا لَهُ نَفْسًا بفَيْءِ المَغَـانِم
ونَحْنُ ضَرَبْنَا النَاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا * علىٰ دِينِــهِ بالمُرْهَفاتِ الصَّــوارِمِ
ونَحْنُ ولَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَهَا * ولَدْنَا نَبِيَّ الخَــيْرِ مِنْ آلِ هاشِمِ
بَنِي دارِمٍ لاتَفْخَرُوا إنّ فَخْرَكُمْ * يَعُودُ وَبَالًا عِنْــدَ ذِكْرِ المَكَارِمِ
هَبِلْــتُمْ عَلَيْنَـا تَفْخَرُونَ وأنْتُمْ * لَنَـا خَوَلٌ مِنْ بَيْنِ ظِئْرٍ وخادِمِ؟
فإنْ كُنْتُمُ جِئْــتُمْ لِحَقْنِ دِمَائِكُمْ * وأَمْوالِكُمْ أن تُقْسَمُوا فى المَقَاسِمِ
فلا تَجْعَــلُوا للهِ نِدًّا وأسْــلِمُوا * ولا تَلْبَسُــوا زِيًّا كَزِيِّ الأعَاجِمِ

فلما فرغ حَسَّان من قوله، قال الأقرع بنُ حابس: وأبِى! إن هذا الرجل مُراد، لَخطيبُه أخطَبُ من خطيبنا، ولَشاعره أشعرُ من شاعرِنا، ولأصواتُه أعلىٰ من أصواتنا؛ فأسلَمُوا وأحسن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، جوائزَهم .

ففى هـذا الوفد نزل ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قلت: وهذه مكابَرةٌ ظاهرة، وتجاهُلٌ فاحش من بنى تميم، حيث طلَبُوا المفاخَرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلُّ العرب علىٰ آختلاف شُعُوبهم، وتتابع قبائلهم معترِفُون لبنى هاشم بالسَّبْقِ في الشرف، والتقدّم فى الفضلِ، مع مافضَّل الله تعالىٰ به

رسوله صلى الله عليه وسلم، وخَصّه به من رفيع الشَّرَف الذى لم يبلغه نبىّ مرسَل، ولا مَلَك مقرّب .

وقد تعرّض أبو نُوَاس فى بعض أشعاره لمدح بَنِي تميم، و بالغ فى فخرهم فأفحش، فقال:

خُزَيْمَـةُ خَيْرُ بَنِي خازِم * وخَازِمُ خَـيْرُ بَنِي دارِمِ
ودارِمُ خَـيْرُ تميمٍ ومَا * مِثْـلُ تميمٍ فى بَنِي آدَمِ

ونقضـه عليه الشيخ فتح الدين بن سَيِّد الناس اليعمرىّ، فقال رحمه الله فأجاد القولَ، وفاز بالقِدْح المُعلَّى فقال :

مُحَمَّدٌ خَـيْرُ بَنِي هاشِمِ * فَمَن تَمِيمٌ وبَنُو دارِمِ؟
وهاشمٌ خيرُ قُرَيْشٍ ومَا * مِثْلُ قُرَيْشٍ فى بَنِي آدَمِ!

وهو مأخوذ من قول الأوّل :

قُرَيْشٌ خِيَـارُ بَنِي آدَم * وخيرُ قُرَيشٍ بَنُو هاشِمِ
وخَيْرُ بَنِي هاشِمٍ أحْمَدٌ * رسولُ الإلٰهِ إلىٰ العالَمِ

وإليه ينظر قول آبن عرسية :

لله مِمَّـا قَدْ بَرَا صَـفْوَةٌ * وصَفْوَةُ الخَلْقِ بَنُو هاشِمِ
وصَفْوةُ الصَّفْوةِ مِنْ بَيْنِهِمْ * محمدُ النُّـورِ أبُو القـاسِمِ

ولقد أنصف إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ حيث قال :

إذا مُضَرُ الحمراءُ كانَتْ أُرُومَتِي * وقامَ بِنَصرِى خازِمٌ وآبنُ خازِمِ
عَطَستُ بأنفٍ شامخٍ وتناوَلَتْ * يدایَ الثُّرَيَّا قاعِدًا غـيْرَ قائمِ

فإنه جعل مُضَر التى هى أُرومةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصلَ فخره وقُعْدُدَ سُودَده فأصاب الفخر فى قوله، وفاز بالشرف فى شعره .

قال المولىٰ صلاح الدين الصَّفَدىّ رحمه الله فى شرح لامية العجم "وإنما ذكر خازما لأنه مولىٰ خُزيمةَ بنِ خازم التميمىّ، وإنما نزل أبوه الموصلَ فنُسِب إليها".

ومن لطيف ما يحكىٰ أن معاوية بن أبى سُفيان كان جالسا وعنده جماعة من الأشراف، فقال معاوية "مَنْ أكرمُ الناس أبا وأمًّا، وجَدًّا وجدّة، وعَمًّا وعَمَّة، وخالا وخالة؟" — فقام النُّعمان بن العجلان الزُّرَقىّ بعد ما أخذ بيد الحسن فقال "هذا أبوه علىّ بن أبى طالب، وأمُّه فاطمةُ، وجدّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وجدّته خديجةُ، وعمُّه جعفر، وعمتُه أمّ هانئ ٱبنةُ أبى طالب، وخالُه القاسم، وخالته زينب، فهذا هو الشرف الذى لا يُدانىٰ والفضل الذى لا يُبارىٰ".

وقريب من ذلك ما يحكىٰ أنه جرىٰ بين عبد الله بن الزبير وبين معاويةَ كلامٌ طويل فى آخره — "فقال ٱبن الزبير، ما مِثْلى يُهارَشُ، ولكن عندك من قريش والأنصار، ومن ساكِنِى الحُجون والآطامِ مَنْ إن سألتَه حملك علىٰ محجَّةٍ أبينَ من ظهر الحَفير — قال: ومَنْ ذلك — قال هذا؟ يعنى أبا الجَهْم بن حُذَيفة — فقال معاوية تكلَّمْ يا أبا الجَهْم — فقال أَعْفِنى — فقال عزمْتُ عليك لتقولنّ — قال: نعم: أمُّك هند، وأمه أسماءُ بنتُ أبى بكر، وأسماء خير من هند، وأبُوك أبو سُفيان وأبوه الزُّبير ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثلَ الزبير، وأما الدنيا فلك، وأما الآخرة فله إن شاء الله تعالىٰ.

ومن ذلك ما حكاه ٱبن الكلبىّ. قال: قال كِسْرىٰ للنُّعمان بن المنذر يوما هل فى العرب قبيلة تشْرُف علىٰ قبيلة؟ قال نعم — قال فبأىّ شىء؟ قال: مَنْ كانت له ثلاثة آباء متواليةٌ رؤساء، ثم ٱتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت مَنْ قبيلتهُ فيه ويُنْسب إليه — قال فٱطلُبْ ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حُذَيفة بن بدر، وآل حاجِب ٱبن زُرارة، وآل ذى الجَدَّيْنِ، وآل الأشعث بن قيس بن كِنْدة — قال فجمع هؤلاء

الرهط ومَنْ تبعهم من عشائرهم وأَقعد لهم الحُكَّام والعُدول ، وقال ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه وليَصْدُقْ ، فكان حذيفةُ بنُ بدر الفزارىّ أوّل متكلم ، وكان أَلْسَن القوم ، فقال : قد علمتِ العربُ أن فينا الشرفَ الأقدمَ والأعزَّ الأعظم ، ومأثرةً للصنيع الأكرم — فقال مَنْ حوله ولِمَ ذاك يا أخا فزارة ؟ فقال ألَسْـنا الدعائمَ التى لا تُرام ، والعزَّ الذى لا يُضام ؟ قيل صدقت . ثم قام شاعرهم فقال :

فَزَارةُ بَيْتُ العِزِّ والعِزُّ فِيهِـمُ ! * فَزَارةُ قَيْسٍ حسبُ قَيْسٍ نِضالُهَا
لهـا العِزَّةُ القَعْساءُ والحَسَبُ الذى * بَنَـاه لقَيْسٍ فى القَـديم رِجالُهَا
فهَيْهاتَ قد أعْيَا القُرونَ التى مَضَتْ * مآثِرُ قَيْسٍ مَجْـدُها وفعـالُهَا
وهَـلْ أحَدٌ إن هَزَّ يومًا بكَفِّه * إلىٰ الشَّمْسِ فى مَجْرىٰ النُّجُوم ينالُهَا
فإن يَصْلُحُوا يَصْلُحْ لذاكَ جميعُها * وإن يَفْسُدوا يَفْسُدْ من الناس حالُهَا

ثم قام الأشعث الكندىّ ، وإنما أُذِن له أن يقوم قبل ربيعةَ وتميم لقرابته من النعمان بن المنذر ، فقال ، قد علمت العرب أنا نُقاتِل عديدَها الأكثرَ ، وزحْفَها الأكبرَ ، وإنا لَغِياث الكُرُبات ومَعْدِنُ المكْرُمات — قالوا ولم يا أخا كِندةَ ؟ قال لأنا ورِثْنا ملكَ كِندةَ فاستظللنا بأفيائه ، وتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسطنا بُحْبُوحه الأكرم ، ثم قام شاعرهم ، فقال :

إذا قِسْتَ أبيـاتَ الرِّجالِ بِبيْتِنَا * وجَدْتَ لنا فَضْلًا علىٰ مَنْ يُفاخِرِ
فَمَنْ قال كَلَّا أو أتانا بخُطـةٍ * ينـافِرُنا فيهـا فنحنُ نُخَاطِـر
تعالَوْا قِفُوا كَىْ يعلمَ الناسُ أيُّنَـا * لَهُ الفَضْـلُ فِيمَا أوْرَثَتْهُ الأكابِرُ

ثم قام بِسْطامُ الشَّيبانىّ فقال " قد علمت العرب أنا بُناةُ بيتها الذى لا يزولُ ، ومَغْرِس عزِّها الذى لا يحول ، قالوا ولِمَ يا أخا شيبان — قال لأنا أدركهم للثار ، وأضْرَبُهم للملك الجَبَّار ، وأقومهم للحُكْم ، وألَدُّهم للخصم . ثم قام شاعرهم فقال :

لَعَمْرِى بِسْطامُ أحَقُّ بفَضْلِها * وأوّلُ بيتِ العِزِّ عِزُّ القبائِلِ
فسائِلْ (أبَيْتَ اللَّعْنَ) عن عِزِّقومِها * إذا جدّ يومَ الفخر كلُّ مُناقِل
ألَسْنا أعزَّ الناس قوماً ونُصرةً * وأضْرَبَهُم للكَبْش بين القَبائل
وقائعُ عِزٍّ كلُّها رَبَعِيَّةٌ * تَذِلُّ لها عِزًّا رِقابُ المَحافِل
إذا ذُكِرتْ لم يُنْكِرِ الناسُ فَضْلَها * وعاذَ بِها مِنْ شَرِّها كُلُّ وائِل
وإنا مُلوكُ الناسِ فى كُلِّ بَلْدةٍ * إذا نزلَتْ بالناس إحدى الزّلازل

ثم قام حاجبُ بنُ زُرارة التميمىّ. فقال : قد علمت مَعَدٌّ أنّا فرعُ دعامَتِها، وقادةُ زَحْفِها — قالوا : ولِمَ ذاك ياأخا بنى تميم؟ قال لأنا أكثر الناس عديدا، وأنجبهم طُرًّا وليدا، وأنا أعطاهُم للجزيل، وأحملُهم للثقيل؛ ثم قام شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمَتْ أبناءُ خِنْدِفَ أننا * لنا العِزُّ قِدْما فى الخُطُوب الأوائِل
وأنا كِرامٌ أهلُ مَجْدٍ وثَرْوةٍ * وعِزٌّ قديم ليس بالمتَضائِل
فكَمْ فِيهِمُ من سَيِّدٍ وآبنِ سَيِّدٍ * أغرَّ نَجِيبٍ ذِى فَعالٍ ونائِل
فسائِلْ (أبَيْتَ اللعنَ) عنّا فإنّنا * دعائمُ هذا الناسِ عِنْد الجَلائِل

ثم قام قيسُ بن عاصم السعدىّ فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفَعُهم فى المكْرُمات دعائم، وأثبتُهم فى النائبات مقادم؛ قالوا : ولم ذاك يا أخا بنى سعد؟ قال لأنا أدركهم للثار، وأمنعهم للجار؛ وأنا لا نَنْكُل إذا حملنا، ولا نُرام إذا حلَلْنا. ثم قام شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمَتْ قَيْسٌ وخِنْدِفُ أنَّنا * وجُلُّ تميم والجميع الذى ترى
بأنّا عِمادٌ فى الأُمُور وأننا * لنا الشَّرَفُ الضَّخْمُ المُرَكَّبُ فى الندى
وأنا لُيوثُ الناس فى كُلِّ مأزِقٍ * إذا جُزَّ بالبِيضِ الجماجِمُ والطُّلى(١)

(١) الطلى بالضم جمع طلية وهى الأعناق .

فَمَنْ ذا لِيَوْمِ الفَخْرِ يَعْدِل عاصِمًـا * وقَيْسًا إذا مَرّتْ ألوفٌ إلى العُلا
فهيهاتَ قد أعْيـا الجَميعَ فِعالُهُمْ * وقاموا بيومِ الفَخْرِ مَسْعاةَ من سَعَى

فقال كِسرى حينئذ : ليس منهم إلا سـيد يصلح لموضعه ، وأسنَى حِباءَهم ، وأعظم صِلاتِهم ، وكَرّم مآبَهم .

قال أبو عبيدة : كانت العرب تعـدّ البُيوتاتِ المشهورةَ بعظم القدر والشرف : تُعَدّ بيتَ هاشم بن عبد مَنَاف ، وتعدّ أربعة ، أوّلُها بيت آلِ حُذَيفة بن بدر ، و بيت آل زُرارة الدارِمِيّين : بيت بنى تميم ، و بيت آل ذى الجَدَّين : عبد الله بن عمرو بن الحارث بن هشام : بيت بنى شيبان ، و بيت بنى الدَّيَّان من بنى الحارث بن كعب بيت اليمن . قال : فأما كندة فلا يُعَدّون فى البيوتات إنمـا كانوا ملوكا .

وآعلم أن المفاخرة قد تكون بحقيقة الحسب . وقد تكون فيها الفصاحة واللَّسن مَقامَ الحسب : كقول أبى تمـام الطائىّ يفتخر :

أنا آبْنُ الّذينَ اسْتُرْضِعَ المجدُ فِيهمُ * وسُمِّىَ فيهِـمْ وهو كَهْـلٌ و يافِع
مَضَـوْا وكأنّ المَكْرُماتِ لديهِـمُ * لكَثْرةِ ما وَصَّـوْا بهنّ شَرائعُ
فأىُّ يدٍ فى المجـد مُدّتْ فلم يَكُنْ * لهـا راحةٌ من مَجْدِهم وأصابِـعُ
هُمُ آستَوْدَعُوا المعروفَ محفوظَ مالِنَا * فضاعَ وما ضاعتْ لدينا الوَدائِـعُ

وقوله أيضا :

جرى حاتمٌ فى حَلْبةٍ منه لو جَرى * بها القَطْرُ شَأْوًا قيل أيُّهما القَطْر؟
فتًى ذَخَرَ الدُّنْيـا أُناسٌ ولم يَزَلْ * لهـا باذلًا فانْظُرْ لِمَنْ بَقِىَ الذُّخْر
فمَنْ شاءَ فلْيَفْخَرْ بمـا شاء من نَدًى * فليس لِحَىٍّ غيرِنا ذلك الفَخْـــرُ
جمَعْنا العُلَا بالجُودِ بَعْـدَ آفتِراقها * إلينـا كما الأيامُ يجمعُهـا الشَّهْر

قال فى شرح اللامية : وعند أكثر الناس أن أبا تمام كان أبوه نصرانيا يقال له تدرس العطار، من جاسم : قرية من قُرىٰ حَوْران من الشام، فغير آسم أبيه وآندس فى بنى طيئ؛ وذكر صاحب الأغانى أن رجلا قال لجرير: من أشعَرُ الناس؟ قال : قم حتّى أعرفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلىٰ أبيه عطيةَ، وقد أخذ عَنْزًا له فاعتقَلَها وجعل يَمصُّ ضَرْعَها، فصاح به آخْرُجْ يا أبت، فخرج شيخ دَمِيم، رثُّ الهيئة . وقد سال لبن العنز علىٰ لِحيْته ، فقال ترىٰ هـذا ؟ قال نعم . قال أو تعرفه قال لا . قال هذا أبى، أو تدرى لم كان يشرب من ضرع العنز؟ قال لا، قال مخافة أن يسمع صوتُ الحَلْب فيطلب منه؛ ثم قال أشعرُ الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم فغلبهم .

قال الصلاح الصفدىّ : ما هذه إلا وقاحة عظيمة من جرير فى مفاخرته أولئك الشعراء وهذا أبوه، لكنه تغفر له هذه الوقاحة بآعترافه لذلك الرجل، وإظهار بخل أبيه .

وربما كان الآفتخار بالتورية والتعريض بالأمور المقتضية للشرف، بحيث يظن السامعُ حقيقة الآفتخار والشرف بمجرد السماع، فإذا عرف المقصد تبين له خلاف ذلك، كقول أبى الحسن الجزار :

ألَا قُـلْ لِلَّذى يَسْأَ * لُ عَنْ قَوْمِى وعَنْ أهْلى
لَقَـدْ تَسْأَلُ عَنْ قومٍ * كِرَامِ الفَرْعِ والأصْلِ
يُرِيقُـونَ دَمَ الأَنْعَـا * مِ فى حَزْنٍ وفى سَهْلِ
وما زالُوا لمـا يُبْـدُو * نَ من باسٍ ومِنْ بَذْلِ
يُرَجِّيهِـمْ بَنُو كَلْبٍ * ويَخْشاهُمْ بنو عِجْـلِ

وقوله أيضا :

إنّى لَمِنْ مَعْشَرٍ سَـفْكُ الدِّماءِ لَهُمْ * دَأْبٌ، وسَلْ عَنْهُمُ من رَبِّ تَحْقيق

تُضِىءُ بالدَّم إشراقًا قواضِبُهُمْ * فكلُّ أيَّامِهِـمْ أيَّامُ تَشْرِيقِ

وعلىٰ هـذا المَنْهَج ما حكاه بعضهم ، قال : وجدت علىٰ قبرٍ مكتوبا أنا آبنُ من كانت الريحُ طوعَ أمره ، يحبسها إذا شاء ، ويُطْلِقها إذا شاء ، قال فعَظُم فى عينى ؛ ثم آلتفتُّ إلىٰ قبر آخر قبالته فإذا عليه مكتوب : لا يغتر أحدٌ بقوله ، فما كان أبوه إلا بعض الحدّادين ، يحبس الريح فى كِيره إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ؛ قال : فعجبت منهما يتسابّان ميتين ، فإذا طرق السمع شىء من ذلك ظنّ السامع أنه فى غاية الفخر والشرف حتّى يعلم حقيقته ، وأشباه ذلك ونظائره كثيرة ، وليس هذا موضعَ آستيعاب القول فى المفاخرة الحقيقية ولا غيرها .

وأمّا أيام المنافرة وهى المحاكمة فى الحسب ، فمن ذلك ما يحكىٰ أن الأعشىٰ أتىٰ علقمة ، بن عُلاثَةَ ، بن عَوْف ، بن الأحْوَص ، بن جعفر ، بن كلاب ، وهو يريد سلامةَ ذو فائْش (١) الحميرىّ من التبابعة ، فسأل الأعشىٰ علقمة أن يُتْلِيَـه أى يجيره ، فقال له علقمةُ : أُتْلِيك علىٰ بنى الأحوص — قال لا يُقْنِعنى — قال : فعلى بنى كلاب قال لا يقنعنِى — قال : فليس عندى أكثَرُ من هذا ؛ فأتىٰ عامرَ بنَ الطُّفَيْل بنِ مالك آبن جَعْفر بن كِلاب ، قال قد أُتْلِيك علىٰ الجنّ والإنس ، ثم أتىٰ سـلامةَ فآنصرف من عنده بحبائه .

وكان عامر وعلقمةُ المذكوران لما أسنّ أبو بَرَاء وهو عامر بن مالكٍ ، بن جعفر ، آبن مُلَاعب الأسِنَّة تنازعا فى الرياسة .

فقال علقمة كانت لجدِّى الأحوصِ وإنما صارت لعمك بسببه وقد قعَد عمُّك عنها وأنا آسترجعتُها فأنا أولىٰ بها منك ، فشَرِىَ الشرُّ بينهما وسارا إلىٰ المنافرة ،

(١) وقع فى الأصل وأقالفس وهو تصحيف من الناسخ .

وقدِم الأعشى على تَفِيئة[1] ذلك فصار هو ولبيد مع عامر، وصار مع علقمة الحُطيْئةُ، والسَّنْدرىُّ، وتنافروا .

فقال عامر لعلقمة : والله إنى لأكرم منك حَسَبا ، وأثبتُ منك نَسَبا ، وأطولُ منك قَصَبا .

فقال علقمة : والله لأنا خيرٌ منك ليلا ونَهارا .

فقال عامر : والله لأنا أحب إلى نسائك أن أُصْبح فيهنّ منك .

فقال علقمة : أنافرك إنى لبر، وإنك لفاجر، وإنى لولُود، وإنك لعاقر، وإنى لعَفٌّ، وإنك لَعَاهِر، وإنى لوافٍ، وإنك لغادر .

فقال عامر : أنت رجل ولُود وأنا رجل عقيم وقد وَفَيت لبنى عَمْرو بن تميم .

وقد زعموا أنى غَدَرت بهم وهم كاذبُون، ولكنى أنافرك : أنا أنْحَر منك لِلّقَاح، وخير منك فى الصَّبَاح، وأطعم منك فى السنة الشِّيَاح[2] .

فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس تزعم أنى جَبَان ، ولأن تلقى العدو وأنا أمامك أعزُّ لك من أن تلقاهم وأنا خَلْفَك ؛ وأنت رجل جواد والناس يزعمون أنى بخيل ولست كذلك ، وأنت تعطِى العشيرةَ إذا ألَمَّت ؛ ولكنى أنافرك : أنا خير منك أثرًا، وأحدّ منك بصرا، وأشرف منك ذِكْرا .

فقال عامر : أنت رجل فانٍ ، وليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك فى العَدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ؛ ولكنى أنافرك أنى أسمى منك سُمَّه ، وأطول منك قِمَّه ، وأحسنُ منك لِمَّه ، وأجعد منك جُمَّه ، وأسرعُ منك رحمه ، وأبعدُ منك هِمَّه .

(١) أى على أثره انظر القاموس فى مادة ف ى أ . (٢) الشياح بالكسر القحط .

فقــال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قَضيف ، وأنت جميل وأنا قبيح ؛ ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنَافرك فيهم ؛ ولكنى أنافرك : أنا خيرٌ منك عَقِبا ، وأطعمُ منك جَدْبا .

فقــال علقمة : قد علمتُ أن لك عقبا وقد أطعمت طيبا ؛ ولكنى أنافرك أنى خير منك وأولىٰ بالخير منك .

فقال عامر : إنى والله لأركبُ منك فى الحُمَاه ، وأقتَلُ منك للكماه ، وخير منك للموالاه .

فقــال بعض بنى خالد بن جعفر ، وكانوا يدا مع بنى الأحوص علىٰ بنى مالك بن جعفر : إنك لن تطيق عامرا ، ولكن قل له أنافرك لخيرنا ، وأقربنا للخيرات .

فقال علقمة : له ذلك .

فقال عامر : عير(١) وتيس وتيس وعنز فأرسلها مثلا نعم علىٰ مائة من الإبل إلىٰ مائة يعطاها الحكم أينا ينفر عليه صاحبُه أخرجها ففعلوا ، و وضعوا بها رَهْنا من أبنائهم علىٰ يدىْ رجل يقال له خُزَيمة بن عمرو بن الوَحيد فسُمِّى الضمِينَ ، وصارت علما عليه إلىٰ الآن ، وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد وعامر فيمن معه من بنى مالك وقد أتىٰ عامرُ بن الطفيل عمَّه عامرَ بن مالك بن جعفر وهو أبو براء ، فقــال : يا عماه أعِنِّى — فقال : ياآبن أخى سُبَّنى ، فقال : لا أسُبُّك وأنت عمى — قال : فسُبَّ الأحوص — فقال : عامر ولا أسُبُّ(٢) والله الأحوص وهو عمى ، فقال : ولكن دونك بعلى فإنى قد رَبَعت فيها أربعين مِرْباعا فاستعِنْ بها علىٰ منافرتك ، وجعلا منافرتهما إلىٰ أبى سفيان

(١) هكذا فى الأغانى .

(٢) لعله إبلى .

ٱبن حرب بن أمية فلم يقل بينهما شيئا ، وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما ، وقال لهما أنتما كركبتي البعير الأدرم ، وأبى أن يقضى بينهما ، فانطلقا إلى أبي جهل بن هشام ، فأبى أن يقضى بينهما ، فوثب مروان بن سراقة ، بن قتادة ، بن عمرو ، بن الأحوص وكان مع علقمة فقال :

يا لَقُرَيْشٍ بَيِّنُوا الكَلَامَا * إنَّا رَضِينَا مِنْكُم الأَحْكَامَا
فَبَيِّنُوا إذْ كُنْتُمُ الحُكَّامَا * كان أبُونا لهم إمَامَا
وعَبْدُ عَمْرٍو مَنَع الفِئَامَا * فى يومِ فَخْرٍ مُعْلَمٍ إعلاما
يُحْسِنُ فيه الكَرَّ والإقْدامَا * ودِعْلِج أقدمهُ إقداما
لولا الذى أجْشَمْتُم إجشاما * لا تَّخَذَتْهُمْ مَذْحِج أنعاما

فأبوا أن يقولوا بينهما شيئا ، فأتيا غيلان بن سلمة بن معتب الثقفيّ فردّهما إلى حرملة بن الأشعر المرّيّ ، فردّهما إلى هَرِم بن قُطْبة بن سنان الفَزاريّ ، وإنهما ساقا الإبل معهما حتّى أشتَتْ وأربعت لا يأتيان أحدا إلا هاب أن يقضى بينهما ، فوعدهما هَرِمٌ إلى العام القابل ، فأتيا للوعد ، وقال لبيد وكان مع عامر يومئذ يرتجز :

يا هَرِمُ ، وأنت أهلُ عَدْلِ * هل يَذْهَبَنَّ فَضْلُهُمْ لِفَضْلِى(1)
إن يفْخَرِ الأحْوصُ يوماً قبلى * ليَذْهَبَنَّ أهلُه بأهْلى
لا تجمعَنَّ شَكْلَهُمْ وشَكْلِى * ونَسْلَ آبائِهِمُ ونَسْلى
* قد علموا أنَّا كِرامُ الأصْل *

وقال أيضا :

إنِّى ٱمْرُؤٌ مِن مَالك بن جَعْفرِ * عَلْقَمَ قد نافَرْتَ غيرَ مُنْفَر
* نافرت سَقْبا من سِقاب العَرْعَر *

(1) لعله بفضلى بالباء .

فقال لُحَافة بنُ عوف بن الأحوص بن جعفر :

نَهْنِهِ إليكَ الشِّعْرَ يا لَبِيدُ * وٱصْدُدْ فقد يَنْفَعُكَ الصُّدود

سادَ أبُونا قَبْلَ أنْ تَسُودُوا * سُودَدُكُمْ صَغِيره زَهِيدُ

ثم قال :

إنِّى إذا ما نُسِى الحَيَاءُ * وضاعَ يَوْمَ المَشْهَدِ اللِّواءُ

أُنْمىٰ وقَدْ حُقَّ لِىَ النَّماءُ * إلىٰ كُهُول ذِكْرُها سَنَاءُ

إذ لا تَزال حُلْوةٌ كَوْماءُ * مَبْقُورَةً لِسَقْبِها رُغاءُ

لم يَنْهَنا عَنْ نَحْرِها الصَّفَاء * لَنَا عَلَيْكُمْ سَوْرَةٌ ولاء

* المَجْدُ، والسُّودَدُ، والعَطَاءُ *

ثم قال :

أنْتُمْ عَزَلْتُمْ عامِرَ بنَ مالِكِ * فى سَنَواتِ مُضَرَ الهَوالِكِ

* يا شَرَّ أحْيَاء وشَرَّ هالِك *

وكان السندرىّ مع علقمة فارتفع صوته، فقيل مَنْ ذا ؟ فقال :

أنَا لِمَنْ أنْكَر صَوْتِى السَّنْدَرِىّ * أنا الفَتىٰ الجعْدُ الطُّوالُ الجَعْفَرِىّ

* مِنْ وَلَدِ الأحْوَصِ أخْوالِى غَنِىّ *

فقال عامر للبيد : أجبه ! فرغب عن إجابته، وكان السندرىّ يقال لجدّته عَيْساء، وكانت أمةً لفاختة ٱبنة جعفر بن كلاب، ٱمرأةِ شُرَيح بن الأحوص، فوقع عليها شُرَيح فولدت له زَبَّان، ويزيد، وشهابا، فقال لبيد :

لَمَّا دَعانِى عامِرٌ لأسُبَّهُمْ * أبيْتُ وإنْ كان ٱبنُ عَيْساءَ ظالِمَا

ألَا أيُّنَا ما كان شَرًّا لمالك * فلا زال يَلْقىٰ فى الحَياة المَلَاوِمَا

لِكَيْلا يَكُونَ السَّنْدَرِىُّ نَدِيدَتى(١) * وأشتُمَ أعمامًا عُمُوما عَمَاعِمَا
وأَنْشُرَ مِنْ تَحْتِ القُبُورِ أُبُوَّةً * كِرَامًا هُمُ شَدُّوا عَلَىَّ التَّمَائِمَا
لَعِبْتُ علىٰ أَكْتَافِهِمْ وحُجُورِهِمْ * وَلِيدًا وسَمَّوْنى وليدا وعاصِمَا
بَلىٰ أيُّنا ما كانَ شَرًّا لِمَالِكٍ * فَلَا زالَ فِى الدُّنْيا مَلُوماً ولائِمَا

ووثب الحطيئة فقال :

مايُحْسِنُ الحُكَّامُ بالفَصْلِ بَعْدَمَا * بَدَا سابِقٌ ذُو غُرَّةٍ وحُجُولِ ؟

حتّٰى أتىٰ علىٰ قصيدة كاملة ، ثم قال :

يا عامِ قَدْ كُنْتَ ذَا بَاعٍ ومَكْرُمةٍ * لَوْ أَنَّ مَسْعاةَ مَنْ جَارَيْتَه أَمَمُ

وأقام القوم علىٰ ذلك أياماً ، فأرسل هَرِمٌ إلىٰ عامر فأتاه سِرّا لا يعلم به أحد ، فقال : ياعامر كنتُ أحْسَب أن لك رأيًا ، وأن فيك خيرا ، وما حبَسْتك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ؛ أتنافِر رجلا لاتفخَرُ أنت ولا قومُك إلا بآبائه ، فما الذى أنت به خير منه؟ فقال عامر : أنشُدُك الله والرحمَ أن لا تفضِّل علىّ علقمة ، فوالله لئن فعلتَ لا أُفْلِح بعدها أبدا ! هذه ناصيتى لك فٱجْزُزها وٱحتكم فى مالى ، فإن كنت لا بدّ فاعلا فسوِّ بينى و بينه — فقال ٱنصرف فسوف أرىٰ رأيِى : فخرج عامر وهو لايشك أنه سيفضله عليه ؛ ثم أرسل إلىٰ علقمة سرا ، وقال له مثل ماقال لعامر ، فردّ عليه علقمة بما ردّ به عامر وٱنصرف وهو لا يشك أنه ينفِّر عامرا عليه ؛ ثم إن هَرِما أرسل إلىٰ أخيه و بنى أخيه : إنى قائل غدا بين هذين الرجلين مقالةً ، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عَشْر جزائر فلينحرْها عن علقمة ، وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر ، وفرِّقوا بين الناس أن لا يكون لهم جماعة . وأصبح

(١) فى اللسان نديدتى وأجعل — أى ندّى . وعماعما أى متفرقة .

هَرِم فجلس مجلِسَه وأقبل الناس، وأقبل علقمة وعامر حتّى جلسا، فقال لبيد :

يا هَرِمُ ابنَ الأكْرِمِينَ مَنْصِبا * إنَّكَ قَدْ وَلِيتَ أمْرًا مُعْجِبا
فَاحْكُمْ وصوِّبْ رأْىَ مَنْ تُصوِّبا * إنَّ الَّذِى كُنْتَ عَلَيْهِ تُرْتُبا
لَخَيْرُنا خالًا وأُمًّا وأَبَا * وعامِرٌ خَيْرُهُما مُرَكَّبا
* وعامِرٌ أَدْنىٰ لِقَيْسٍ نَسَبا *

فقال هَرِم : إنكما يابَنِى جعفر قد تحاكمتما عِنْدى وأنتما كرُكْبَتِى البعير الفحلِ تقعان الأرض معا، فليس منكما واحد إلا وفيه ماليس فى صاحبه، وكِلَاكما سيّدٌ كريم، فعمد بنو هَرِم وبنو أخيه إلىٰ تلك الجُزُر فنحرُوها حيث أمرهم هَرِم، وفرّقوا بين الناس، ولم يفضِّل هرم واحدا منهما علىٰ صاحبه، وكره أن يجلُب بذلك شرًّا علىٰ الفتيين، وهما ابنا عم؛ فلما رأىٰ ذلك الأعشىٰ، خرج وهو يقول :

شاقَكَ مِنْ قَتْلَةَ أطلالُها * بالشَّطِّ فالوُتْرِ إلىٰ حاجِرِ
وقَدْ رآهَا وَسْطَ أتْرابِها * فى الحَىِّ ذِى البَهْجةِ والسَّامِر
إذْ هِىَ مِثْلُ الغُصْنِ مَيَّالَةٌ * تَرُوقُ عينَىْ ذِى الحِجَا الزائرِ
كَدُمْيةٍ صُوِّرَ مِحرابُها * بِمُذْهَبٍ فى مَرْمَرٍ مائرِ
تَشْفِى غلِيلَ النَّفْسِ لاهٍ بها * حَوْراءُ تَسْبِى نَظَرَ النَّاظر
عَهْدِى بِها فى الحَىِّ قَدْ سُرْبِلَتْ * هَيْفاءُ مِثْلُ المُهْرةِ الضَّامِر
مَمْشُوقةُ القَدِّ غُلَامِيَّةٌ * مَوْصُوفَةٌ بالخُلُقِ الطَّاهِر
قَدْ نَهَد الثَّدْىُ علىٰ نَحْرِها * فِى مُشْرِقٍ ذِى صُبُحٍ نائر
لَوْ أسْنَدتْ مَيْتًا إلىٰ نَحْرِها * عاشَ ولم يُنْقَلْ إلىٰ قابِر
حتّى يقولَ النّاسُ مِمّا رَأَوْا * يا عَجَبًا لِلميِّتِ النَّاشِر
عَلْقَمَ ما أنتَ إلىٰ عامِرٍ * النّاقِضِ الأوْتارَ والواتِر

والفارسِ الخَيْل بِخَيْـلٍ إذَا * ثارَ غُبَارُ الكَبَّة الثَّائِرِ
سُدْتَ بَنِي الأحوصِ لم تَعْدُهُمْ * وعامرٌ سادَ بَنِي عامِرِ
إنَّ الَّذِي فِيهِ تَمَارَيْتُمَا * بُيِّنَ لِلسَّامِعِ والنَّاظِرِ
حَكَّمْتُمُوهُ فقضىٰ بَيْنَكُم * أَبْلَجُ مِثْلُ القَمرِ الزَّاهِرِ
لا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ في حُكْمِهِ * وَلَا يُبَالِي غَبَنَ الخاسِرِ
فأَعْجَبُ الدهرَ متىٰ سُوِّيا ؟ * كمْ ضَاحِكٍ مِنْ ذا ومِنْ ساخِرِ ؟
فَاْقَنَ حَيَاءً أنتَ ضَيَّعتَه * مالَكَ بَعْدَ الشَّيْبِ مِنْ عاذِرِ
ولَسْتَ بالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى * وَإِنَّمَا العِزَّةُ لِلكَاثِرِ
أَقُولُ لَمَّا جاءني فَخْرُه * سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفَاخِرِ!
عَلْقَمَ لا تَسْفَهْ ولا تَجْعَلَنْ * عِرْضَكَ لِلوارِدِ والصَّادِرِ
قَدْ قُلْتُ قَوْلا فقضىٰ بَيْنَكُمْ * واعْتَرَفَ المَنْفُورُ للنَّافِرِ

وعاش هَرِم حتّى أدرك خلافةَ عمر رضى الله عنه ، فقال : يا هرِم أىّ الرجلين كنت مفضِّلا لو فعلتَ ؟ فقال : لو قلتُ ذلك اليومَ يا أمير المؤمنين، عادَتْ جَذَعة، ولبلَغَتْ شعَفَاتِ هَجَر — فقال عمر رضى الله عنه : "نِعْمَ مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ أنتَ يا هَرِم! مِثْلُك فلْيَسْتَوْدِع العشيرةُ أسرارهم، وإلىٰ مثلك فلْيَسْتَبْضِع القومُ أحكامهم" .

قال أبو عبيدة : ومات علقمةُ بحَوْران وهو والى عُمَر بن الخطاب . وأما عامرُ ابنُ الطُّفَيل فأصابته دعوةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابته الغُدّة ومات فى بيت سَلُولِيَّة، فقال : أغُدَّةٌ كغُدّة البعير وموتٌ فى بَيْتِ سَلُولِيَّة ؟

وفى هذه القصة مَقْنَع فى المنافرة عن غيرها ، وفى كتاب "الريحان والريعان" لبعض الأندلسيين جملة من هذه المفاخرات والمنافرات :

النوع الثـالث عشر

(المعرفة بأيام الحروب الواقعة، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصـــد الأول

(فى وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

قد ذكر فى "حسن التوسـل" : أن الكاتب يحتـاج إلىٰ معرفة أيّام العرب، وتسمية الأيام التى كانت بينهم، ومعرفة يوم كل قبيلة علىٰ الأخرىٰ، وما جرىٰ بينهم من الأشعار، والمناقضات؛ وذكر فارسٍ مشهور، أو ملِك مذكور، أو واقعة معينة لشخصٍ خاصّ؛ وما ادّعاه كل منهم لنفسه أو ليومه : لمـا فى ذلك من العلم بمـا يستشهد به من واقعة قديمة، أو يردُ عليه فى مكاتبة من ذكر يوم مشهور، أو فارسٍ معيّن، ونحو ذلك مما مضىٰ عليه أمر الجاهلية، أو حدَث فى الإسلام؛ فإن الكاتب إذا لم يكن عارفا بالوقائع، عالمـا بما جرىٰ منها، لم يدر كيف يُجيب عما يَرِد عليه من مثلها، ولا ما يقول إذا سئل عنها .

المقصــــد الثـانى

(فى ذكر أيام من ذلك تُرْشد إلىٰ معرفة المقصد منه)

ومن أشهرها ذكرا، وأعظمها حربا . يوم خُزَاز (خُزَاز ٱسم جبـل بين البَصْرة ومكة كانت الواقعة عنده فعرِفت به)؛ وكانت الحرب فيه بين بنى ربيعة الفَرَس، وهو ربيعة نِزار، وبين قبائل اليمن؛ وكانت الغلبة فيه لبنى ربيعة، فقتلوا من قبائل اليمن خلقا كثيرا، وكان قائدَ ربيعـة كُلَيبُ بن ربيعة ملكُ بنى وائل (وٱسمه وائل وكليب لقب عليه) وهو من ربيعة الفَرَس؛ وكان قد مُلِّك علىٰ بنى معدّ وقبـائل

جموع العرب وهزمهم وعظُم شأنه ،وبقي زمانا من الدهر، ثم داخله زَهْو شديد، وبغىٰ علىٰ قومه فصار يحمِي عليهم مواقع السَّحاب، ولا يُرعىٰ حِماه، ويقول : وحْشُ أرض كذا فى جِوَارى ، فلا يُصاد، ولا تَرِدُ إبل مع إبله ، ولا تُوقَد نار مع ناره ؛ وبقِيَ كذلك حتّٰى قتله جَسَّاس بن مُرَّة الوائلىّ أيضا ؛ ولما قُتِل كُلَيب توالت الحروبُ بسبب قتله بين بنى تغلِبَ، وبين بكر ٱبنى وائل ؛ وكان قائدَ بنى تَغلِبَ مُهَلْهِل أخو كليب، وقائدَ بنى بكر مُرَّةُ أبو جَسَّاس المقدّم ذكره ؛ فكان بينهم يوم عُنَيزَةَ، وتكافَأَ فيه الفريقان، ثم كان بينهم يوم وارِدَات، وٱنتصر فيه بنو تغلبَ علىٰ بكر، ثم كان بينهم يوم الحِنْو، وٱنتصرت فيه بكر علىٰ تغلب، ثم كان بينهم يوم العُصَيَّات ، وٱنتصرت فيه تغلب علىٰ بكر، وأصيب بنو بكر حتّٰى ظنوا أنهم قد بادُوا، ثم كان بينهم يوم قِضَّةَ ، وهو يوم التحالُق كثُر فيه القتل بين الفريقين ، فى أيام أُخَر لم يشتدّ فيها القتال .

ومن أيام غيرهم المشهورة يوم عَيْن أُبَاغ ، وعَيْنُ أُبَاغ موضع يقال له ذات الخيار، وكان الحرب فيه بين غَسَّان ولَخْم، وكان قائدَ غسَّان الحارثُ الذى طلب أدْرُعَ ٱمرئ القيس، وقيل غيره ، وكان قائدَ لخم المنذرُ بن ماء السماء بغير خلاف ؛ وفى هذا اليوم قُتِل المنذر، وٱنهزمت لَخْم، وتبعتهم غَسَّان إلىٰ الحِيرَة وأكثروا فيهم القتل . ويوم مَرْج حليمة، وكان بين غَسَّان ولخم أيضا ؛ وكان من أعظم الأيام وأشدّها حربا ، بلغت الجيوش فيه عددا كثيرا ، وعظُم الغُبار حتّٰى قيل إن الشمس احتجبت وظهرت الكواكب التى فى غير جهة الغبار . ويوم الكَدِيد، وكان بين كِنانةَ وسُلَيم، وٱنتصرت فيه سُلَيم علىٰ كنانة، وقتل فيه ربيعةُ بن مُكَدَّم فارسُ كنانة ؛ وبه يضرب المثل فى الشجاعة ؛ وكان يُعْقَر علىٰ قبره فى الجاهلية، ولم يُعْقَر علىٰ قبر غيره. ويوم الكُلَاب الأوّل ؛ والكُلَاب موضع بين البصرة والكُوفة ؛ وكان بين

الأخَوينِ : شَراحيل وسَلَمة آبنى الحارث بن عمرو الكندىّ؛ وشَراحِيلُ هو الأكبر وكان معه بكر وائل وغيرُهم، وسلمة الأصغر، وكان معه تغلب وائل وغيرهم، وآشتدّ القتال بينهـم ، وآنتصر سلمة وتغلبُ على شراحِيل و بكر، وآنهزم شراحيـلُ وتبعته خيل أخيه فقتلوه . و يوم الكلاب الثانى، وكان بين بكر ووائل . و يوم أُوَارةَ، (وأُوَارة آسمُ جبل) وكانت الحرب فيه بين المنذر بن آمرئ القيس ملك الحِيَرة، و بين مُنْذِر وائل بسبب الحِيَرة ، وظفر فيه المنذر ، وأقسم أنه لا يزال يذبحُهم حتّى يسيلَ دمُهم من رأس أُوارةَ إلى حَضِيضه، و بَقِى يذبَحُهم والدم يجمُد فسكب عليه ماء حتّى سال الدم من رأس الجبـل إلى حضيضه، و برّت يمينه . و يوم رَحْرَحانَ، (ورَحْرَحانُ آسم واد بالحجاز) وكانت الحرب فيه بين الأحوص بن جعفر بن كِلاب، و بنى دارِم، و بنى ماوِيَّةَ، و بنى مَعْبَد بن زُرَارة ، و بنى تميم؛ وآنهزمت فيه بنو تميم ومن معهم، وأُسِر مَعْبد بن زُرَارة ؛ وقصـد أخوه لقيطُ بن زرارة أن يَسْتَفِكّه فلم يقدر ، وعذّبوا معبَدا حتّى مات . و يوم شِعْب جَبَلة، وشِعْبُ جَبَلة هَضَبة حمراء بين الشَّريف والشَّرف . وكان من شأنه أنه لمـا آنقضت وقعة رحرحان المتقدّمة ، ومضى لها سنة، وذلك فى العام الذى وُلد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، آستنجد لقيطُ بنُ زُرارة التميمى بنى ذُبيان لثأر أخيه فأنجدته، وتجمّعتْ بنو تميم غيرَ بنى سعد، وخرجتْ معه بنو أسد، وسار بهم لَقيط إلى بنى عامر و بنى عَبْس فى طلب ثأر أخيه مَعْبَـدٍ ، فأدخلتْ بنو عامر وبنو عَبْس أموالهـم فى شِعْب جَبَلَة ، فحضرهم لقيط فخرجوا عليه من الشِّعب و كسروا جمائع لقيط وقتلوا لقيطا؛ وأسرُوا أخاه حاجب بن زُرارة، وآنتصرت بنو عامرٍ وبنو عَبْس نصرا عظيما؛ وقُتِل أيضا من بنى ذُبْيـان و بنى تميم ومن بنى أسد جماعة مستكثرة؛ و كان هذا اليوم من أعظم أيامهم . و يوم ذى قارٍ، وهو أقرب الوقائع المشهورة فى الجاهلية عهدا، و كان فى سنة أربعين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقيل عام بدر .

وكان من حديثه أن كِسرىٰ أبرويز غَضِب علىٰ النعمان بن المنـذر ملِك الحِيرَة ، فحبسه فهلَك فى الحبس ؛ وكان النُّعمانُ قد أودع حَلْقته (وهى السِّـلاح والدُّروع) عند هانِئ بن مسعود البكرىّ ، فأرسل أَبْرَوَيْز يطلبها من هانئ ، فقال هذه أمانة ، والحـرّ لا يسلم أمانته ؛ وكان أبرويز لمـا أمسك النعمان جعل مكانَه فى مُلْك الحِيرَة إياس بنَ قَبِيصــة الطائىّ ، فآستشار أبرويز إياسا ، فقال إياس : المصلحة التغافُل عن هانئ بن مسعود حتّى يطمئنّ ونتبَعهُ فنُدْرِكه — فقال أبرويز : إنه من أخوالك لا تَأْلُوه نُصْحا — فقال إياس : رَأْى الملِك أفضلُ ؛ فبعث أبرويز الهَزْبرانَ(١) فى ألفين من الأعاجم ، وبعث ألفا من بهراء ، فلما بلغ بكرَ بنَ وائل خبَرُهم أتوا مكانًا من بطن ذى قار ، فنزلوه ووصلت إليهـم الأعاجِم ، وآقتتلوا ساعة فآنهزمت الأعاجم هزيمة قبيحة ؛ فيروىٰ أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، خبّر بذلك أصحابَه ، فقال "اليومُ أوّلُ يوم آنتصفَ فيه العربُ من العَجَم وبى نُصِروا" .

ولأبى عُبَيدة مصنَّف مفرَد فى أيام العرب ، وقد أورد منها آبن عبد ربه فى كتاب "العقد" جملةً مستكثَرَةً ، وفى آخر كتاب الأمثـال للميدانىّ نبذة محرّرة من ذلك ، وليس بنا حاجة إلىٰ آستيعابها هنا .

وأما الحروب الواقعة فى صدر الإسلام . فمنها وَقْعة الجمَل ، وكانت بين علىّ كرم الله وجهه ، ومعه أهلُ الكوفة ، وبين عائشـةَ أمّ المؤمنين رضى الله عنها ؛ وكانت راكبةً يومئذ علىٰ جمـل آسمه عَسْكر وبه عُرِفت الوقعة ، وقُتِل بين الفريقين خلقٌ كثير ، وكانت النُّصْرة فيه لعلىّ ومن معه .

ومنها وقعة صِفِّينَ ، وكانت بين علىّ كرم الله وجهه ومعه أهـلُ العِراق ، وبين معاوية بن أبى سفيان ، ومعه أهلُ الشام ، وكان آبتداؤها فى سـنة ست وثلاثين ، وكان مدّةُ مُقامهم بِصفِّين مائةً وعشرةَ أيام أوقعوا فيها وَقَعاتٍ كثيرة ؛ قيل تسعين

(١) فى العقد الفريد ، ومعجم البلدان الهامرز ، وفسره بالمرزبان .

وقعة ، وكانت عدّة القتلىٰ بينهم فيما يقال من أهل الشام خمسةً وأربعين ألفا ، ومن أهل العراق ستة وعشرين ألفا ، منهم ستة وعشرون من أهل بدر ، وكان عمّار بنُ ياسِر مع علىّ رضى الله عنه ، وقاتل حتّى قُتِل ، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، قال : "يَقْتُلُ عمّـارا الفِئَةُ الباغِيَةُ" ومضت عليهما مدّة ، وعلىّ رضى الله عنه علىٰ العراق ، ومعاوية علىٰ الشـام ومصر إلىٰ أن قتـل علىّ رضى الله عنه .

ولا حاجة بنا إلىٰ الخوض فى أكثَرَ من ذلك ، فإن ذلك محمول على آجتهادهم ، والإمساك عما شجر بينهم واجب .

ومنها وَقْعة مَرْج راهِط ، وكان من حديثها أنه لمـا هلك يزيدُ بنُ معاوية ، كان سعيدُ بن بَحْدَلٍ علىٰ قِنَّسْرِينَ ، فوثب عليه زُفَر بن الحارث فأخرجه منها وبايع عبدَالله آبن الزُّبَيْر ، فلما قعد زُفَرُ علىٰ المِنْبر ، قال : الحمد لله الذى أقعدنى مَقْعَد الغادر الفاجِر وحَصِر ، فضَحِك الناس من قوله ، وكان حَسَّان بن بحدل علىٰ فِلَسْطِين ، والأرُدنّ ، فآستعمل علىٰ فلسطينَ رَوْح بن زِنْباع الجُذَامىّ ، ونزل هو الأردنَّ ، فوثب ناتل بن قيس الجُذَامىّ علىٰ رَوْح بن زنباع فأخرجه من فِلَسْطِين وبايع آبن الزبير ، وكان النعمانُ آبن بَشِير علىٰ حمص فبايع لآبن الزبير ، وكان الضَّحَّاك بن قيس علىٰ دمشق ، فجعل يقدّم رجلا ويؤخر أُخْرىٰ ، فقدِم عليه مروان بن الحكم فقال الضحاك هل لك أن تقدم علىٰ آبن الزبير ببيعة أهل الشام ، قال نعم ووافق علىٰ ذلك بنو أمية ، واليمانيُون ، فلما فشا ذلك أرسل الضحاك إلىٰ بنى أمية تصـدر إليهم ، وقال لمروان وعمرو بن سعيد : آكتبوا إلىٰ حسان بن بحدل فيسـير من الأردن حتّى ينزل الجابية ، ونسير نحن من هنا حتّى نلقاه فننظر هناك رجلا ترضونه ، فلما آسـتقلت رايات الضحاك من دمشقٍ ، قالت القيسية لا نصحبك دعوتنا إلىٰ بيعة آبن الزبير ، وهو رجلٌ هذه

الأمة، فلما بايعناك خرجت تابعا لهذه الأعراب بنى كلب، فأجابهم إلىٰ إظهار بيعة ٱبن الزبير، وسار حتّى نزل مرج راهط، وأقبل حسان حتّى لقى مروان، فسار مع مروان حتّى لَقَوُا الضحاك، وهم نحو من سبعة آلاف، والضحاك فى نحو ثلاثين ألفا وٱقتتلوا، فقتل الضحاك وقُتِل معه أشراف من قريش .

المقصـــد الثـالث

(فى كيفية ٱستعمال الكاتب ذكر هذه الوقائع فى كلامه)

لا يخفى أن الكاتب المترشح للكتابة إذا كان مِن(١) المعرفة بأيام الحرب، والعلم بتفاصيل أخبارها، ومَنْ يعدّ من فُرْسان حروبها، ومصاقِع خطبائها، ومُفْلِقى شعرائها، وما جرىٰ بينهم فى ذلك من الخُطَب والأشعار والمناقضات، كان مستعدّا لما يَستشهِد به من واقعة قديمة، أو يرد عليه فى مكاتبة: أو شعر: من ذكر أيام مشهورة، أو ذكر فارس معيّن، كما قال أبو تمام الطائىّ يمدح بنى شَيْبان :

إذا ٱفتَخَرَتْ يومًا تَمِيمٌ بقَوسِها * وزَادَتْ عَلىٰ ما وَطَّدَتْ مِنْ مَنَاقِب
فَأنتم بِذِى قارٍ أمالَتْ سُيُوفُكُمْ * عُرُوشَ الَّذِين ٱسْترهَنُوا قَوْسَ حاجِبِ

يشير إلىٰ أن حاجب بن زُرارة التميمىّ وفد علىٰ كسرىٰ فى سنة جَدْب فقال الحاجب مَنْ أنتَ؟ قال رجل من العرب، فلما دخل علىٰ كسرىٰ قال له من أنت؟ قال سيد العرب — قال ألم تقل بالباب إنك رجل من العرب —؟ قال كنت بالباب رجلا منهم فلما حضرت بين يدى الملك سُدْتُهم، فملأ فمه دُرّا، وشكا إليه مَحْلَ الحجاز، وطلب منه حِمْل ألف بعير بُرّا علىٰ أن يعيد قيمتَها، — فقال وما ترَهَنُنى علىٰ ذلك — قال قَوْسِى، فاستعظم همته وقال قبلتُ، وأعطاه حِمْل ألف بعير بُرّا، ومات حاجب فأحضر بَنُوه المال بعد موته وطلبوا منه قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك .

(١) لعله إذا كان على جانب من المعرفة بأيام الخ كما هو ظاهر .

فأشار أبو تمـام فى بيتيه إلىٰ هذه المنقبة : يقول يابنى شَيْبانَ فى يوم ذى قار أبدتم جيوش كسرىٰ الذى ٱسترْهنَ قوس حاجب .

وكما قال أبو نصر "الفتح بن خاقان" فى خطبة كتابه "قلائد العقيان": لو جاوره كُلَيْب ما طرق حِمَاه، أو ٱستجار به أحد من الدهر حَمَاه ؛ أو كان بوادى الأخْرم ، لطاف به ربيعـةُ وأحرم ؛ أو ٱستنجده الكِنْدىُّ ما كساه المُلاءه ، أو كان حاضرًا بِسطام لمـا خرّ علىٰ الألاءه .

وكما قلت فى المفاخرة بين السيف والقلم عند التعرض لذكر المقرّ الزينىّ أبى يزيد الدوادار الذى من أجله وضعت "فلو لقِيَه فارسُ عَبْس لولّى عابسا ، أو طرق حِمىٰ كُلَيْب لبات من حِمَـاه آيسا ؛ أو قارعه رَبيعة بنُ مكَدَّم لعلا بالسيف مَفْرَقه ؛ أو نازله بِسْطامٌ لبدّد جمعه وفرّقه" .

إلىٰ غير ذلك ممـا يجرى هذا المجرىٰ و ينتظم فى هذا السلك .

قال فى "حسن التوسل" : و إذا لم يكن صاحب هذا الفن عارفا بكل يوم من هذه الأيام، عالمـا بمـا جرىٰ فيها ؛ لم يَدْر كيف يُجيب عما يرد عليه من مثلها، ولا ما يقول إذا سئل عنها . قال : وحسبه ذلك نقصا فى صناعته، وقصورا عما يتعين عليه (١) من معرفته وحسن الجواب عنه عند السؤال عنه .

وأما الوقائع التى وردت فى حوادثَ خاصة بأقوام فقد قال الوزير "ضياء الدين بن الأثير" رحمه الله فى "المثل السائر": إنها كالأمثال فى الآستشهاد بها وذكر لها أمثلة. منها قوله من كتاب : ولا يُعدّ البرّ برّا حتّى يلحق الغُيَّب بالحضور، ويصل مَنْ لم يَصِله بجزاء ولا شُكُور؛ فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان، ولهذا نابتْ شِمَال (٢) رسول الله عن يمين عثمان . يشير إلى أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم، فى بيعة الحديبية

(١) لعل من زائدة من قلم الناسخ . (٢) فى بعض النسخ العقبة .

كان قد أرسل عثمانَ بنَ عفَّان رضى الله عنه إلىٰ مكة فى حاجة ، ولم يحضر البيعةَ ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيده الشِّمالِ علىٰ اليمين وقال "هذِهِ عَنْ عُثْمان وشِمَالِى خَيْرٌ مِنْ يَمينه" .

ومنها قوله من تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة : "وإذا آستعنْت بأحد علىٰ عملك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا تَرْضَ بما عرفته من مبدإ حاله ، فإن الأحوال تنتقل بِنَقْل الأجساد ، وإياك أن تُخْدَع بصلاح الظاهر كما خُدِع عمرُ بن الخطاب بالرَّبيع بن زياد .

يشير بذلك إلىٰ أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه آستدعىٰ أبا موسى الأشعرىَّ ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثىُّ ، فذهب الربيع بن زياد إلىٰ بعض موالى عمرَ وسأله عما يَرُوج عنده ويَنْفَق عليه ، فأشار إلىٰ خُشُونة العيش فمضىٰ ، ولَبِس جُبَّة صوف ، وعمامةً رثّاء ، وخُفًّا مطابَقا ، وحضر بين يديه فى جملة العُمَّال ، فصوّب عمرُ نَظَره وصعَّده فلم يقع إلا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثم أوصىٰ أبا موسىٰ الأشعرىَّ به .

ومنها قوله فى معارضة كتاب القاضى الفاضل إلىٰ ديوان الخلافة يُعَدِّد فيه مساعىَ الملك الناصر "صلاح الدين يوسف بن أيوب" وما قاساه فى الفتوح من الأهوال وهو : ومن جملتها ما فعل الخادم فى الدولة المصرية . وقد قام بها مِنْبر وسَرير ، وقالت منا أمير ومنكم أمير ، فردّ الدَّعوة العباسيَّة إلىٰ مَعَادها ، وأذكر المنابر ما نسيَتْه بها من زَهْو أعوادها . يشير بذلك إلىٰ ما تقدّم من آجتماع الأنصار فى اليوم الذى مات فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فى سَقيفة بنى ساعدة إلىٰ سعد بن عُبَادة ، وكيف ذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وقال الحباب بن المنذر : مِنَّا أَمِيرٌ ومنكم أمير ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : لا ، ولكنَّا الأمراءُ وأنتم الوزراء . إلىٰ غير ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ وينتظم فى هذا السِّلك .

النــــوع الرابع عشـــــر
(فى أَوَابد العـــرب)

وهى أمور كانت العرب عليها فى الجاهلية، بعضها يجرى مجرىٰ الديانات، وبعضها يجرى مجرىٰ الاصطلاحات والعادات، وبعضها يجرى مَجْرىٰ الخُرافات، وجاء الإسلام بإبطالها . وهى عدّة أمور :

منها الكَهَانة، وكان موضوعها عندهم الإخبارَ عن أمور غيبية بواسطة استراق الشياطين السمعَ من السماء، وإلقاء مايستمعونه من الغيْبيَّات إليهم . وقد كان فى العرب قبل البِعْثة عدّةُ كَهَنة تعتمد العرب كلامهم، ويرجعون إلىٰ حكمهم فيما يُخْبِرُون به .

ومن عجيب أخبارهم فى ذلك أن هنــدَ ابنة عُتْبة بنِ رَبيعة كانت تحت الفاكه ابن المغــيرة المخزومىّ، وكان له بيت للضــيافة يغشاه النــاس من غير إذن، فخــلا البيت يوما فاضطجع الفاكهُ هو وهند فيه، ثم نهض الفاكِه لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشىٰ البيت فولجه فلما رآها ولّى هاربا وأبصره الفاكه فأقبــل إلىٰ هند فركضها برجله وهى نائمة فانتبهت — فقال من ذا الذى خرج من عندك — فقالت لم أَرَ أحدا وأنت الذى أنبهتنى — فقال لهــا اذهبى إلىٰ بيت أبيــك فأقيمى عنده ! وتكلم الناس فيها — فقال له أبوها إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم، فحاكمنى إلىٰ بعض كُهّان اليمن، فخرجا فى جماعة من قومهما إلىٰ كاهن من كُهّان اليمن ومعهما هند ونسوة أُخَر، فلما شارَفُوا بلادَ الكاهن، قالت هند لأبيها إنكم تأتون بَشَرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يَسِمَنى مِيسمًا يكون علىّ سُبَّة — فقال أبوها سأخْتَبِره لكِ فصَفَّر لفرسه حتّى أدلىٰ، فأدخل فى إحليله حبةَ حنطة وشــدّ عليها بسير، فلما دخلوا علىٰ الكاهن، قال له عتبة : إنا قد جئناك فى أمر وقد خَبَأت لك خَبْأ أختبرك به فانظر ماهو فقال ثَمرة فى كَمَرة — فقال أريد أبينَ من هذا — فقال حبــة برّ، فى إحليل

مُهْر — فقال له ٱنظر فى أمر هؤلاء النِّسوة، فجعل يدنُو من إحداهنّ فيضربُ بيده علىٰ كتفها ويقول ٱنهَضِى حتّٰى دنا من هند فقال لهـا : ٱنهضى غير رَسْحَاءَ[1] ولا زانيه ولتَلِدِنّ ملِكا ٱسمُه معاويه، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبتْ يدَها من يده، وقالت إليك عَنِّى ! فوالله لأَحْرِصُ علىٰ أن يكُونَ من غَيْرِك ، فتزوّجها أبو سفيان ابنُ حرب فولدت له معاويةَ ، فكان من أمره ما كان إلىٰ أن ٱنتهت به الحال إلىٰ الخلافة . وقد أخبر جماعة من الكَهَنة بمَبْعَث النبىّ صلى الله عليه وسلم قُربَ ظهوره منهم سَطِيح الكاهن وغيره .

ولمـا بُعثَ النبىّ صلى الله عليه وسلم، حُرِست السماءُ ومُنعت الشياطين من ٱستراق السمع كما أخبر تعالىٰ بقوله ﴿وأنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقَاعِدَ للسَّمْع فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدا﴾ .

ومنها الزَّجْر والطِّيَرَة : وهما فى معنًى واحد، وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركَه زجروا الطير حتّٰى يطير، فإن طار يمينا كان له حكم، و إن طار شمالا كان له حكم، و إن طار أماما كان له حكم، و إن طار من فوق رأسه كان له حكم، ومن ثَمَّ سميت الطِّيَرَة أخذا من ٱسم الطير، وأ كثر ماعوّلوا عليه من ذلك الغرابُ، ثم تعدَّوْه إلىٰ غير الطير من الحيوان ، ثم جاوزوا ذلك إلىٰ ما يحـدُث فى الجمـادات من كسر أو صَدْع أو نحو ذلك، وربمـا ٱنتهىٰ بعض الزجر إلىٰ حدّ الكَهَانة .

وممـا يحكى من زجر الطير أنـ رجلا من لِهْبٍ : وهم بطن من العرب يُعرَفون بالعِيَافة ، خرج فى حاجة له ، ومعه سـقاء من لبن فسار صَـدْرَ يومه فعطِش فأناخ ليشربَ فإذا غُراب فنَعَب فأثار راحلتـه ، ثم سـار حتّٰى كان وقتُ الظهيرة أناخ ليشرب ، فنَعَب الغراب وتمرّغ فى التراب ، فضرب الرجل السِّـقاء بسيفه فإذا فيه

(١) الرسحاء بالمهملات من النساء القبيحة ووقع فى الأصل باعجام الشين وهو تصحيف فآحذره .

ثُعبان عظيم فقتله ، ثم سار فإذا غراب واقع علىٰ سِدْرة فصاح به فوقع علىٰ سَلَمة ، فصاح به فوقع علىٰ صخرة فٱنتهىٰ إليها ، فأثار من تحتها كنزا ؛ فلما رجع إلىٰ أبيه قال له ما صنعت؟ قال سِرْت صَــدْرَ يومى فأنختُ لأشرب فنعب الغراب — فقال : أثِرْ راحلتك و إلا فلست بِٱبْنِي — قال فعلت — قال ثم ماذا؟ قال سرت حتّى وقت الظهيرة فأنخت لأشرب فنعَبَ الغراب ، وتمرّغ فى التراب — فقال ٱضرب السِّقاء و إلا فلست بٱبنى . قال فعلت ؛ فوقع علىٰ صخرة قال أثِرْ ماتحتها و إلا فلستَ بابنى . قال فعلت ؛ فوجدت كنزا .

وقد وردت الســنة بإبطال حكم الزجر والطِّيَرَة بقوله صلى الله عليه وسلم "أقِرُّوا الطَّيْرَ فى وُكُناتها" وقوله صلى الله عليه وسلم "لا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ" وٱستحسن صلى الله عليه وسلم ، الفأْل فقال "ويُعْجِبُنِى الفَأْلُ وهى الكلمة الطَّيِّبة أسمعها". وقد فرق العلماء بين الفأل والطيرة بأن الطيرة تُقْصَد والفأل يأتى من غير قصد .

ومنها المَيْسِر : وهو ضرب من القِمار كانوا يقتسمون به لحمَ الجُزُر التى يذبحونها بحسب قِدَاح يضربُونها ، لكل قِدْح منها نصيب معلوم : وهى أحد عشر قِدْحا : سبعة منها لها حظ إن فازتْ وعليها غرم إن خابتْ بقدر مالها من الحظ عند الفوز ، وأربعة منها تُثَقَّل بهـا القداح لا حظَّ لهـا إن فازت ، ولا غرم عليها إن خابت . فأما السبعة التى لهـا الحظ إن فازت وعليها الغرم إن خابت . فأوّلهـا الفَذُّ : وهو قِدْح فى صَــدْره حَزٌّ واحد ، وله نصيب واحد فى الأخذ والغُرْم . والثـانى التَّوءَم ، وفى صــدره حَزَّان ، وله نصيبان فى الأخذ والغُرْم . والثالث الضَّرِيب (ويســمّى الرقيب) وفيه ثلاثة حزوز ، وله ثلاثة أنصباء . والرابع الحِلْس وفيه أربعة حزوز وله أربعة أنصباء . والخامس النافِسُ وفيه خمسة حُزُوز ، وله خمسة أنصباء . والسادس المُسْبِل ، ويسمّى المُصْفَح أيضا ، وفيه ستة حزوز وله ستة أنصباء . والسابع المُعَلَّى ،

وفيه سبعة حزوز، وله سبعة أنصباءَ، وهو أوفرها حظًّا ، ولذلك يُضربُ به المثــل فى الحظ فيقال قِدْحُه المُعَلَّى .

وأما الأربعة التى تُثَقَّل بها القداح فهى السَّفِيح، والمَنِيحُ، والمُضَعَّف، والوَغْد، وكان طريقهم فى ذلك أن القوم يجتمعون فيشــتَرُون جَزُورا فينحَرُونها ويُفَصِّلُونها علىٰ عشرة أجزاء، ويسْتَهِمُون فيها علىٰ سبعة أنصباء لا أكثر، وتسمى الأنصباء فيها الأَيْسار ، فإن كانوا أقلَّ من ســبعة وأراد أحدهم قِدْحين أو أكثر، أخذ وكان له فوزها ، وعليه غرمها؛ فإذا جزءُوا الجزور علىٰ ذلك، أتَوْا برجل يسمونه الحُرْضَة (١)، من شأنه أنه لم يأكُلْ لحمــا قطُّ بثمن ، ويؤتىٰ بالقداح فتشَــدُّ مجموعة فى قطعة جلد تســمَّى الرِّبابَةَ ، ثم يَلُفُّ الحُرْضَــةُ علىٰ يده اليمنىٰ ثوبا لئلا يجد مس قِدْح ، له مع صاحبه هوًى فيحابيه فى إخراجه، ثم يؤتىٰ بثوب أبيض يسمَّى المِجْوَلَ، فيُبْسَــط بين يدَيِ الحُرْضة، ويقوم علىٰ رأسه رجل يسمَّى الرَّقِيب، ويدفع رِبابة القِدَاح إلىٰ الحُرْضَة ، وهو محوَّلُ الوجه عنها ، فيأخذ الرِّبابة التى تُجمع فيها القِدَاحُ، ويدخل يدَه تحت الثَّوب فينكر القداح فاذا نهد فيها قِدْح يناوله دُفْعة إلىٰ الرقيب، فإن كان ممــا لَاحظّ له ، ردّ إلىٰ الرِّبابة فإن خرج بعــده المُسْبِل مثــلا أخذ الثلاثة الباقية وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور آخر، وعلىٰ ذلك أبدا يُفْعل بمن فاز ومن خاب، فربمــا نحروا عِدّة جُزُر، ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئا، وإنمــا الغُرْم علىٰ الذين خابوا، وكان عندهم أنه لايحل للخائبين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئا؛ فإن فاز قِدْح الرجل فأرادوا أن يُعيدوا قدحه ثانية علىٰ خطإ فعــلوا ذلك به؛ وقد نظم الصاحب إسماعيل بن عبَّاد أسماء القداح التى لها النصيب فَوْزا وغرما فى أبيات فقال :

(١) الحرضة بالضم والراء المهملة والضاد المعجمة أمين المقامرين . ووقع فى الأصل الحوصة بالواو والصاد المهملة وهو تصحيف من النساخ فآحذره .

إنَّ القِـداحَ أَمْرُها عَجِيبُ * القَـذُّ والتَّـوْءم والرَّقيب
والحِلْسُ ثم النافِسُ المُصِيب * والمُصْفَحُ المشتهِرُ النَّجيب
ثم المُعَـلَّىٰ حَظُّه الرَّغيبُ * هَاكَ فَقَدْ جَاء بهـا الترتيبُ

ومنها الأزلام : وهى ضرب من الطِّيَرة، كانوا إذا أرادوا فعـل أمر ولا يدرون ما الأمر فيه، أخذوا قِداحا مكتوبًا علىٰ بعضها ٱفعل، لاتفعَلْ، وعلىٰ بعضها نعم، وعلىٰ بعضها لا، وعلىٰ بعضها خُذْ، وعلىٰ بعضها سِرْ، وعلىٰ بعضها سريع، فإذا أراد أحدهم سـفَرا مثلا أتىٰ سادنَ الأوثان؛ فيضرب له بتلك القِداح ويقول : اللهـم أيُّها كان خيرا له فأخرِجْه فما خرج له عمل به، وإذا شكُّوا فى نسب رجل أجالوا القداح وفى بعضها مكتوبٌ صريح، وفى بعضها مكتوب مُلْحق؛ فإن خرج الصريح أثبتوا نسـبَه، وإن خرج المُلْحَق نفَوْه . وإن كان بين ٱثنين ٱختلاف فى حق سمّى كل منهما له سهما وأجالوا القِداح فمن خرج سهمُه فالحق له وقد نهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك بقوله ﴿ وأنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلَامِ ﴾ .

ومنها البَحيرة، والسائِبَةُ، والوَصيلة، والحامِى .

فأما البَحيرة، فكانت الناقة إذا أُنتِجتْ خمسة أبطن عَمَدُوا إلىٰ الخامس منها مالم يكن ذكرا فشَقُّوا أذنها وتركوها، فلا يُجَزُّ لها وبر، ولا يُحْمَل عليها شىء ولا يُذْكَرَ عليها إن ذُكِّيت ٱسمُ الله تعالىٰ، وتكون ألبانُها للرجال دون النساء .

وأما السائبة فكان الرجل يُسَيِّب الشىء من ماله : بهيمةً أو عبدا، فيكون حراما أبدا وتكون منافع ذلك للرجال دون النساء .

وأما الوَصيلة فكانت الشاة إذا ولدتْ سبعةَ أبطن عمَدُوا إلىٰ السابع فإن كان ذكرا ذُبح، وإن كان أنثىٰ تُركت فى الغنم، وإن كان ذكرا وأنثىٰ قيل وصلتْ أخاها فحَرُما جميعا، وكانت منافعهما ولبن الأنثى منهما للرجال دون النساء .

وأما الحامى، فكان الفحل إذا صار من أولاده عشرةُ أبطن، قالوا حَمىٰ ظهره، فيُترك، ولا يُحمَلُ عليه شىء، ولا يُركَب، ولا يُمْنَع ماءً، ولا مرعًى؛ وقد أخبر الله تعالىٰ ببطلان ذلك بقوله : ﴿ماجَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حامٍ﴾ .

ومنها إغلاق الظهر : كان الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمــد إلىٰ البعير الذى كملت به مائة فأغلق ظهره بأن ينزِعَ شيئا من فقراته ويعقر سنامه كى لا يُركَب لُيعْلم أن إبل صاحبه قد أَمْأَتْ .

ومنها التَّفقِئة، والتَّعْمِيَة . كان الرجل إذا بلغت إبله ألفا فقأ عين الفحل : وهى التفقئة، فإن زادتْ علىٰ ذلك فَقَأ العــينَ الأخرىٰ وهى التعمية، ويزعُمُون أن ذلك يدفع العين عن الإبل قال الشاعر :

وَهَبْتَها وأنتَ ذُو آمتنانِ ✻ تُفْقَأ فيهــا أعْيُنُ البُعْرانِ

ومنها نكاح المَقْت : وهو نكاح زوجةِ الأبِ — وكان من شأنهم فيه أن الرجل إذا مات قام أكبرُ ولده، فألقى ثوبَهُ علىٰ آمرأة أبيه فورِث نكاحَها، فإن لم يكن له فيها حاجة يُزَوّجها بعضَ إخْوته بمهر جديد، فكانوا يتوارثُون النكاح كما يرِثُون المـال، فأنزل الله تعــالى ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أن تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهًا ﴾، وحرم زوجة الأب بقوله ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءابَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كانَ فَاحِشَةً ومَقْتًا وسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ومن ثَمَّ سمى نكاحَ المَقْت .

ومنها رَمْيُ البعرة : كانت المرأة فى الجاهليــة إذا مات زوجُها، دخلَتْ حِفْشا (يعنى خُصًّا) ولبسَتْ شَرَّ ثيابها ولم تَمَسَّ طِيبا حتّى تَمضِىَ عليها سنةٌ، ثم يُؤْتى بدابة : حمارٍ أو شاةٍ أو طير، فتفْتَضُّ به أى تَمسَّح به فقلّما تَفْتَضُّ بشىء إلا مات، ثم تخرُج بعــد ذلك فتُعْطىٰ بعرةً فترمى بها، ثم تُراجع ما شاءت من طيب أو غيره فنَسَخ

الإسلامُ ذلك بقوله تعالىٰ ﴿ والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْواجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أربعةَ أَشْهُرٍ وعَشْرا ﴾ .

ومنها وَأْدُ البنات (وهو قتلهنّ). كانوا يقتلوهنّ خشيةَ العار، وممن فعل ذلك قيس ٱبن عاصم المِنْقرىّ، وكان من وجوه قومه ومن ذوى المـال ، وكان سبب ذلك أن النعمان بن المنذر أغزاهم جيشا فسَبَوْا ذراريّهـم فأناب القومُ وسألوه فيهم فقال النعمان : كل ٱمرأة ٱختارت أباها رُدّت إليـه ، وكل من ٱختارت صاحبها تُرِكت معه ، فكلهنّ ٱخترن آباءهنّ إلا ٱبنةً لقيس بن عاصم فإنها ٱختارت صاحبها عمرو بن الجَمُوح ، فنذر قيس أنه لا يولَدُ له ٱبنة إلا قتلهـا فكان يقتلهنّ بعد ذلك . وورد القرءان بإعظام ذلك بقوله ﴿ وإِذَا المَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَىّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

ومنها قتل الأولاد خشيةَ الإمْلاق والفاقة ، فكان الرجل منهم يقتُل ولده مخافة أن يَطْعَمَ معه إلىٰ أن نهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك بقوله ﴿ ولا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْـيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كان خِطْأً كَبِيرًا ﴾ .

ومنها حَبْس البَلَايا ، كانوا إذا مات الرجل يَشُدّون ناقتَه إلىٰ قبره ويُقْبِلون برأسها إلىٰ ورائها ويُغَطُّون رأسها بولية (١) وهى البرذعة فإذا أفلتت لم تردّ عن ماء ولا مرعًى ، ويزعُمون أنهم إذا فعلوا ذلك حُشِرتْ معه فى المَعَاد ليركبها قال أبو زبيد (٢) :

كالبَـلَايَا رُءُوسُها فى الوَلَايَا * مانحاتِ السَّمُوم حُرَّ الخُدُودِ

ومنها الهـامَةُ — كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قُتل ولم يطالَبْ بثأْره، خرج من رأسه طائر يسمّى الهـامَةَ ، وصاح : ٱسْقُونِى ٱسـقُونِى حتّى يُطالَب بثاره ؛ قال ذو الأصبع :

(١) فى الأصل بزلية وكذلك جمعها فى البيت زلايا وهو تصحيف فأحذره .

(٢) فى الأصل أبو زيد وهو تصحيف .

يا عَمْرُو إلَّا تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتِي * أَضْرِبْكَ حتَّى تقُولَ الهامَةُ ٱسْقُونِي

ومنها تأخير البكاء علىٰ المقتول للأخذ بثأره — كان النساء لا يَبْكِين المقتولَ منهم حتّى يؤخَذَ بثأره، فإذا أُخذ به بكَيْنه حينئذ، قال الشاعر:

مَنْ كانَ مَسْرُورًا بمَقْتَلِ مالكٍ * فَلْيأْتِ نِسْوَتَنَا بوَجْهِ نَهارِ
يَجِدِ النِّساءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَه * يَلْطِمْنَ حُرَّ الوجْهِ بالأَسْحارِ

ومنها تَصْفِيق الضالّ — كان الرجل منهم إذا ضلَّ فى الفَلَاة، قلب ثيابَهُ وحَبَس ناقته وصاح فى أُذُنها كأنه يُومِئ إلىٰ إنسان وصفَّق بيديه قائلا: الْوَحَا الْوَحَا النَّجاء النَّجاء هيكل: الساعةَ الساعةَ إلىّ إلىّ عجِّل، ثم يحرّك ناقته فيزعمون أنها تهتدى، إلىٰ الطريق حينئذ. قال الشاعر:

وآذَنَ بالتَّصْفِيقِ مَنْ ساءَ ظَنُّهُ * فلم يَدْرِ مِنْ أىِّ اليَدَيْنِ جَوابُها

يريد إذا ساء ظنُّه بنفسه حين يَضِلُّ.

ومنها الغُول — كانوا يزعمون أن الغُولَ تَتَراءى لأحدهم فى الفلاة فيتبعُها فتستهويه؛ وربما ٱدّعى أحدهم أنه قابلها وقاتلها قال تأبط شرًّا:

أَلَا مَنْ مُخْبِرٌ فِتْيانَ فَهْمٍ(١) * بما لاقَيْتُ عِنْدَ رَحَا بِطَانِ
بأنِّى قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِى * بسَهْبٍ كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ
فقُلْتُ لَهَا كِلَانَا نِضْوُ أَرْضٍ * أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّى لِى مَكَانِى
فشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِى فأَهْوَتْ * لها كَفِّى بمَصْقُولٍ يَمَانِى
فأَضْرِبُها بلا دَهَشٍ فخَرَّتْ * صَرِيعًا لليَدَيْنِ ولِلجِرَانِ

ومنها ضَرْب الثور ليشرب البقرُ — كانوا يزعمون أنّ الجنّ تركَبُ الثِّيرانَ فتصُدّ البقر عن الشرب، فيضربون الثورَ ليشرَبَ البقرُ، قال الشاعر:

(١) فى نسخة فهر. وفى ياقوت قومى. وقوله فى البيت الثانى بسهب فى الأصل بسيف وهو تصحيف.

كَذَاكَ الثَّوْرُ يُضْرَبُ بالهَرَاوَى(١) * إذا ما عافَتِ البَقَـــرُ الظِّماءُ

ومنها تعليق سِنّ الثَّعْلب وسنّ الهرّة وحيض السَّمُرة — كانوا يزعمون أن الصبيّ إذا خيف عليه نظرةٌ أو خَطْفة فعُلِّق عليه شيء من ذلك، سلم من آفته، وأن الجنية إذا أرادته لم تقدر عليه؛ قالت آمرأة تصف ولدا :

كانَتْ عَلَيْهِ سِـــنَّةٌ مِنْ هِرَّه * وثَعْلَبٍ والحيضُ حَيْضُ السَّمُره

ومنها تعليق كعب الأرنب — كانوا يعلّقونه على أنفسهم، و يزعمون أنه وِقايةٌ من العين والسِّحر، قائلين إن الجنّ تنفر من الأرنب لكونها تحيض، قال الشاعر :

ولا يَنْفَعُ التَّعْشِـيرُ إن حُمَّ واقِعٌ   ولا وَدَعٌ يُغْنِي ولا كَعْبُ أَرْنَبَ

ومنها تعليق الحُلِىّ على السليم (وهو الملسوع) — كانوا إذا لُسع فيهم إنسان عَلَّقوا عليه الحُلِىّ من الأساور وغيرها ، ويتركونه سبعة أيام ويمنع من النوم فيُفِيق ، قال النابغة :

يُسَهَّدُ من وَقْتِ العِشاء سَلِيمُها * لِحَلْى النِّساء فى يَدَيْهِ قَعَـاقِعُ

ومنها وطء المَقَالِيت القَتْلى — كانوا يزعمون أن المرأة المِقْلاتَ (وهى التى لا يَعِيش لهـا ولد) إذا وَطِئت قتيلا شريفًا بقى أولادها، قال بشر بن أبى خازم :

يَظَلُّ مَقَالِيتُ النِّساء يَطَأْنَهُ * يَقُلْنَ ألَا يُلْقَى على المَرْء مِئْزَرُ

ومنها مسح الطارف عين المطروف — كانوا يزعمون أن الرجل إذا طَرَف عين صاحبه فهاجتْ فمسح الطارفُ عينَ المطروف سبع مرات يقول فى كل مرة: بإحدى جاءت من المدينة : باثنتين جاءتا من المدينة ، بثلاث جئن من المدينة إلى سبع سكن هَيَجانها .

(١) فى الأصل بالهوادى وهو تصحيف فاحذره .

ومنها كىّ السليم من الإبل ليبرأ الجَرِب منها — كانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها عُرّ (وهو الجرب) فكَوَوْا صحيحا إلىٰ جانبه ليَشَمَّ رائحتـه برئ ، وربمـا زعموا أنه يؤمَنُ معه العدوىٰ، قال النابغة :

وكَلَّفتنِي ذَنْب ٱمْرِئٍ وتَرَكْتَـهُ * كذِى العُرِّ يُكْوىٰ غَيْرُهُ وهو راتِـعُ

ومنها ذَهَاب الخَدَر من الرجل — كانوا يقولون إن الرجُل إذا خَدِرتْ رجله فذكر أحبَّ الناس إليه ذهب عنه الخَدَر، قالت ٱمرأة من كلاب :

إذا خَدِرَتْ رِجلى ذَكَرْتُ ٱبنَ مُصْعَبٍ * فإنْ قُلْتُ عَبْدَ الله أجْلَى فُتُورُها

ومنها الحَلَى(١) عن الصبيان بجِبَاية الحىِّ و إطعامه الكلابَ — كانوا يَرَوْن أن الفتىٰ إذا ظَهَر فيه الحَلَى بشَفَته (وهى بُثُور تنبُت بالشَّفَة) فيأخذ منخلا علىٰ رأسه ويمرّ بين بيوت الحىّ وينادى الحَلَى الحَلَى فيُلْقَى فى منخله من هنا تَمْرة ، ومن هنا كِسرة ، ومن هنا قطعة لحم فإذا ٱمتلأ نثره بين الكلاب فيذهَب عنه الحَلَى .

ومنها شقُّ الرداء والبُرْقع ، لدَوَام المحبة — زعموا أن المرأة إذا أحبَّتْ رجلا أو أحبها ولم تَشُقَّ عليه رداءَه و يشُقَّ عليها برقُعَها فسد حبهُّما ، قال الشاعر :

إذا شُـقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبُرْدِ بُرْقُعٌ * دَوَالَيْـكَ حتَّى كُلُّنا غيرُ لابِسِ

فكَمْ قَدْ شَقَقْنا من رداء مُحَبَّرٍ * ومِنْ بُرْقُعٍ عَنْ طِفْلَةٍ غَيْرِ عانِسِ

ومنها رمى سن الصبىّ المُثغر فى الشمس — يقولون : إن الغلام إذا أثْغَر فرمىٰ سنَّه فى عين الشمس بسبَّابته و إبهامه وقال أبدلينى بها أحسن منها ، أَمِن علىٰ أسنانه العَوج والفَلَج والنَّغَل ، قال طَرَفة :

بَدَّلَتْه الشَّمْسُ مِنْ مَنْبِتِـه * بَرَدًا أبيضَ مَصْقول الأُشُر

(١) لعله دفع الحلى عن الخ . وهو فى الأصول مقصور وأورده القاموس واللسان فى باب المهموز وقال الأخير إن بعضهم لا يهمز .

ومنها التعشير — زعموا أن الرجلَ إذا أراد دخول قرية تخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشَّر كما ينهق الحمار ثم دخلها ، لم يصبه وباؤها ، قال عُرْوة آبن الورد :

لَعَمْرِى لَئِنْ عَشَّرْتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى * نُهَاقَ حَمِيرٍ إنَّنِى لجَزُوع

ومنها عَقْد الرَّتَم — وهو نَبْت معروف — كان الرجل إذا أراد سفرا عَمَد إلى رَتَم فعقده فإن رجع ورءاه معقودا ، آعتقد أن آمرأته لم تَخُنْه ، وإن رءاه محلولا آعتقد أنها خانته ، قال الشاعر :

خانَتْه لَمَّا رأتْ شَيْبًا بمَفْرِقِه * وغَرَّه حِلْفُها والعَقْدُ للرَّتَمِ

ومنها آعتبار دائرة المهْقُوع — وهى دائرة تكون فى عنق الفرس (١) يقال لها الهَقْعة على ما يأتى ذكره فى الكلام على الخيل فى الطَّرَف الآتى — كانوا يزعمون أن الفرس المهقوع إذا عَرِق تحت صاحبِه آغتلَمَتْ حليلته ، وطَلَبت الرجال ، قال الشاعر :

إذَا عَرِقَ المَهْقُوع بالمَرْءِ أنْعظَتْ * حَلِيلَتُه وآزْدادَ حَرًّا عِجَانُها

ومنها خِضَاب نحر الفرس السابِق — كان من عادتهم إذا أرسلُوا خَيْلا على صَيْد فسبَق أحدُها خضَبوا صَدره بدَمِ الصيد علامةً له ، قال الشاعر :

كأنّ دِماءَ العاويات (٢) بنَحْرِهِ * عُصارَةُ حِنَّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّل

ومنها جز ناصية الأسير — كانوا اذا أسروا رجلا ثم مَنُّوا عليه فأطلقوه ، جَزُّوا ناصيته ووضعُوها فى كنانة ، قالت الخنساء .

جَزَزْنا نَواصِىَ فُرْسانِهِمْ * وكانوا يَظُنُّون أن لاتُجَزّا

(١) فى اللسان فى زور الفرس أو عرض زوره . وسيأتى تفسيره بذلك فى الدوائر .

(٢) فى نسخة العاديات .

النوع الخامس عشر
(فى معرفة عادات العرب، وهى صنفان)

الصنف الأوّل
(نيران العرب)

قد ذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" للعرب ثلاثَ عَشْرةَ نارا .

الأُولىٰ نار المزدلفة — وهى نار تُوقَد بالمُزْدلِفة من مشاعر الحج ليراها مَنْ دفع من عرفةَ . وأوّل مَنْ أوقدها قُصَىّ بن كلاب، فهى تُوقَد إلىٰ الآن .

الثانية نار الاستمطار — كانوا فى الجاهليــة الأُولىٰ إذا احتبس المطرُ جمعوا البَقَر وعَقَدُوا فى أذنابها وعراقيبها السَّلَع والعُشَر، ويُصَعِّدون بها فى الجبل الوَعْر، ويُشْعِلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر، قال الشاعر :

أَجَاعِلٌ أَنْتَ بَيْقُورًا مُسَلَّعةً * وَسِيلَةً مِنْكَ بَيْنَ اللهِ والمَطَرِ

الثالثة نار الحِلْف — كانوا إذا أرادوا عَقْد حِلْف أوقدوا النار وعقدوا الحلف عندها، ويذكُرون خيرها، ويدعُون بالحِرْمان من خيرها علىٰ من نَقَضَ العهدَ، وحلّ العقْد . قال العسكرىّ "وإنما كانوا يخُصُّون النار بذلك لأن منفعتها تختص بالإنسان، لايشاركه فيها شيء من الحيوان غيره" .

الرابعة نار الطَّرْد — وهى نار كانوا يُوقِدونها خَلْف مَن يمضِى ولا يحبُّون رجوعه .

الخامسة نار الحرب — كانوا إذا أرادوا حربا أو توقعوا جيشا ، أوقدوا نارا علىٰ جبلهم ليبلغَ الخبرُ أصحابَهم .

السادسة نار الحَرَّتين : كانت فى بلاد عَبْسٍ فإذا كان الليل تضيء نار تسطع

وفى النهار دخان مرتفع ، وربمــا بَدَر منها عُنُق فأحرق مَنْ مرّ بها ، فحفر خالدُ بنُ سنان النبيّ، فدفنها ، فكانت معجزة له .

السابعة نار السَّعَالِى — تُرْفَع للتقفّر فيتبعها فتهوى به الغُولُ علىٰ زعمهم كما تقــدّم فى الكلام علىٰ أوابد العرب .

الثامنة نار الصيد — وهى نار تُوقَد للظباء تغشاها إذا نظرت إليها .

التاسعة نار الأسد — وهى نار توقد إذا خافوا الأسَدَ لينفِر عنهم فإن من شأنه النِّفارَ عن النار، يقال إنه إذا رأىٰ النار حدث له فكر يصدّه عن قصده .

العاشرة نار القِرىٰ — وهى نار تُوقَد ليلا ليراها الأضياف فيهتدوا إليها .

الحادية عشرة نار السليم (وهو الملسوع) : كانوا يُوقِدون النار للسوع إذا لُدِغ يُساهِرونه بها ،وكذلك المجروح إذا نَزَف دمُه ،والمضروب بالسِّياط ومن عضَّه الكلب كى لاينامُوا فيشتدّ الأمر بهم فيؤدّيهم إلىٰ الهلَكَة .

الثانية عشرة نار الفِداء — كان الملوك منهم إذا أسروا نساء قبيلة خرجت إليهم السادة منهم للفِــداء أو الاستيهاب فيكرهون أن يَعْرِضوا النساء نهارا فيفتضِحْن أو فى الظلمة فيخفىٰ قدر مايحبِسُونه لأنفسهم من الصَّفِيّ، فيوقدون النار لعَرْضهنّ .

الثالثة عشرة نار الوسم — وهى النار يَسِم بها الرجل منهــم إبله فيقال له ماسمة إبلك؟ فيقول كذا :

الصــــنف الثــانى

(أسواق العرب المعروفة فيما قبل الإسلام)

قد كان للعرب أسواق يُقِيمونها فى شهور السنة، وينتقلون من بعضها إلىٰ بعض ويحضُرها سائر قبائل العرب : ممن قَرُب منهم وبعُد . فكانوا ينزلون دُومة الجَنْدل

أوّل يوم من ربيع الأوّل، فيُقيمون أسواقها بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ وكان يَعْشُوهم فيها أُكَيْدِرُدُومَة — وهو ملكها — وربما غلب علىٰ السوق كَلْبٌ، فيعشُوهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك إلىٰ آخر الشهر . ثم ينتقلون إلىٰ سُوق هَجَر من البحرين فى شهر ربيع الآخر، فتكون أسواقهم بها، وكان يعشُوهم فى هذا السوق المنذرُ بن ساوىٰ أحد بنى عبد الله بن دارم — وهو ملك البحرين. ثم يرتحلون نحو عُمَان من البحرين أيضا فتقوم سوقُهم بها . ثم يرتحلون فينزلون إرَم وقُرىٰ الشِّحر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياما. ثم يرتحلون فينزلون عَدَنَ من اليمن أيضا فيشترون منه اللَّطائم وأنواع الطيب . ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويَجْلبُون منها الخَرَز والأدَمَ والبُرُود، وكانت تُجْلَب إليها من مَعَافِر . ثم يرتحلون إلىٰ عُكَاظَ فى الأشهر الحُرُم ، فتقوم أسواقهم ويتناشدون الأشعار، ويتحاجُّون؛ ومن له أسير سعىٰ فى فدائه ، ومن له حكومةٌ ٱرتفع إلىٰ من له الحكومة؛ وكان الذى يقوم بأمر الحكومة فيها من بنى تميم؛ وكان آخِرَ من قام بها منهم الأقرعُ بن حابس التميمىّ . ثم يقفون بعرفة ويقْضُون مناسك الحج . ثم يرجعون إلىٰ أوطانهم قد حصلوا علىٰ الغنيمة، وآبوا بالسلامة .

النوع السادع عشر

(النظر فى كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلىٰ معرفة وقائع التاريخ، وتفاصيلها؛ ولا يكاد يستغنى عن العلم بشىء منها لأمور . منها العلم بأزمنة الوقائع والماجَرَيات؛ وأحوال الملوك والأعيان والحوادث ، والماجَرَيات الحاصلة بينهم؛ فيحتج بكل واقعة منها فى موضعها، ويستشهد بها فيما يلائمها، ويحتج لمثل ذلك؛ فإنه متىٰ أخلَّ بمعرفة ذلك

آحتج بالقصة فى غير موضعها ، أو نسبها إلىٰ غير من هى له ، أو لبَّس عليه خصمه بالآستشهاد بواقعة لا حقيقة لها ، أو نسبها إلىٰ غير من هى له ليظهر حُجّته عليه ، وما يجرى مجرى ذلك ؛ وفيه مقصدان .

المقصـــــد الأوّل

(فى ذكر نبْذة تاريخية لا يسَع الكاتبَ جهلُها ممـا يحتج به الكاتبُ تارة ويذاكر به ملِكَه أو رئيسه أخرىٰ)

اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف علىٰ آختلاف فنونه : مابين مختصَر، ومبسوط : من مقتصِر علىٰ فن ، ومستوعِب لفنون ، وفى خلال تلك المصنَّفات نوادر غريبة ، ولطائف عجيبة ؛ لا يحصـل الوقوف عليها إلا بعد آستيعابها بالمطالعة ، كما لا يقع الظَّفَر بالجوهرة فى المعدن إلا بعد عمل كثير يحصل فى خلالهـا بغتـة ؛ فإذا التُقطت الجواهر من المعْـدِن ، سَهُل تناوُلُهـا لمريدها ؛ وهى علىٰ ضربين .

الضـــرب الأوّل

(الأوائل)

وهى معرفة مبادئ الأمور المهمة ، وقد أفردها أبو هلال العسكرىّ بالتصنيف ، وأورد الثعالبىُّ منهـا فى كتابه "لطائف المعارف" نبذة صالحة ، وتضمنت كتُبُ التاريخ منها جملة مما لم يتعرضا إليه ؛ وقد آقتصرت منها علىٰ ما تتشوّف نفوس أكثر الناس إلىٰ معرفته والآطِّلاع عليه : ممـا توفرت الدواعى عليـه ، فاستمر وجوده ، وآنسحب عليه حكم الآستعمال إلىٰ الآن ، أو آشتهر فى مبدإ أمره ، ثم زال بعدذلك ؛ جاريا فى ترتيبه علىٰ وجه يقرب تناوله ، مقدّما الأهم فالأهم بالنسبة إلىٰ حال الكاتب :

أمور تتعلق بالأنبياء عليهم السلام
(سوىٰ ما يأتى ذكره مما شاكل غيره)

أوّل من استرَقَّ الرقيقَ إدريس عليه السلام . أوّل من شاب إبراهيم الخليل عليه السلام؛ وهو أوّل مَنْ قَصَّ شاربه ، وأوّل من فَرَق شعره ، وأوّل من تَمَضْمَض ، وأوّل مَنِ آستاك ، وأوّل من قَلَّمَ الأظفار ، وأوّل من آستنجىٰ ، وأوّل من آختتن ، وأوّل من رمىٰ الجِمَار .

الخلافة وما يتعلق بها

أوّل من سُمِّى خليفةً أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه حين وُلِّى الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يخاطب بخليفة رسول الله؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الألقاب فى المقالة الثالثة إن شاء الله تعالىٰ؛ وهو أوّل من آستَخْلَف من الخلفاء : آستخْلَف عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فى مرض موته ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ولاية الخلفاء فى المقالة الخامسة؛ وهو أوّل خليفة فُرِض له العطاء فى بيت المال عن الخلافة، ولما أدركته الوفاة أوصىٰ باعادة جميع ما حُمِل إليه من ذلك إلىٰ بيت المال من ماله .

أوّل من سمِّى أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ هذا اللقب فى جملة الألقاب فى المقالة الثالثة؛ وهو أوّل من رَتَّب بيت المال فيما ذكره العسكرىّ ، لكنه قد ذكر فى موضع آخر أن عمر كان علىٰ بيت المال من قِبَل أبى بكر رضى الله عنه، فيكون أبو بكر قد سبقه إلىٰ ذلك ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ وَكَالة بيت المال فى المقالة الخامسة ؛ وهو أوّل من كوّر الكُوَر ومَسَح أرض السَّواد ، ورتَّب الخراج علىٰ الأَرَضِينَ ، والجِزْيَةَ علىٰ

الجَمَاجم (١)؛ وهو أوّل من حَمَل الطَّعام من مصر إلىٰ الحِجاز؛ وذلك فى عام الرمادة عند غلوّ السعر بالحجاز. وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ خليج القاهرة فى أوائل المسالك والممالك .

أوّل من أقطع القطائع من الخلفاء أمير المؤمنين عثمانُ بن عفان رضى الله عنه؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الإقطاعات فى المقالة السادسة، وهو أوّل من حَمَىٰ الحِمىٰ لنَعَم الصدقة من الخلفاء، وهو أوّل من ٱتخذ صاحب شُرْطة من الخلفاء .

أوّل من ٱتخذ بيتا تُرمى فيه قِصَص أهل الظُّلامات أميرالمؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وبقى حتّى كُتِب له شتمه فى رُقْعة، وطُرِحت فى البيت فتركه؛ ثم ٱتخذه المهدىّ بعده، ثم ترك بعد ذلك .

أوّل من سُلِّم عليه بالخلافة فقيل السلام عليك ياأمير المؤمنين معاوية؛ وكانوا قبل ذلك يقولون السلام عليكم؛ وهو أوّل من عَهِد إلىٰ ابنه بالخلافة، عهد بها إلىٰ ابنه يزيد، ثم تبعه الكثير من الخلفاء علىٰ ذلك؛ وهو أوّل من ٱستَخْلَف فى حال صحته وإلا فأبو بكر لم يستخلف عمرَ إلا فى مرض موته، وعمر لم يجعل الأمر شُورىٰ إلا وهو مطعون؛ وسيأتى ذكر ذلك جميعه فى الكلام علىٰ ولاية الخلفاء فى المقالة الخامسة، وهو أوّل من ٱتخذ المقصورةَ فى المسجد لصلاة الجمعة؛ وقيل ٱتخذها (٢) مروان قبله، وقيل عثمان؛ وهو أوّل من نهىٰ عن الكلام بحضرته من الخلفاء، وكان الناس قبل ذلك يردّون علىٰ الخليفة ويعترضونه فيما يقول؛ وهو أوّل من اتخذ ديوان الخاتم لختم الكتب؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ اللواحق من المقالة الثالثة، وهو أوّل من ٱتخذ البريد فى الإسلام؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ البريد فى خاتمة الكتاب .

---

(١) فى الأصل الزيادة وهو تصحيف .

(٢) يظهر أن قبله سقطا وما بعده يدل على أن المتكلم فيه الآن عبد الملك بن مروان فانه أوّل من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء فليحرّر .

أوّل من سار فى الناس بالجَبَرِيَّة من الخلفاء وأمر أن لا يُخاطب باسمه كما يخاطب الخلفاء قبله الوليدُ بن عبد الملك فاتفق أن خالف رجل فخاطبه باسمه فأمر به فوُطِئ .

أوّل من رَتَّب مراتب الخلافة وأقام حاجبا للاستئذان عليه أبو جعفر المنصور، وآتخذ فى قصره بيتا يجلس فيه الناس حتّى يُؤْذَن لهم؛ وهو أوّل من آتخذ الأتراك اتخذ حَمَّادا التركى، ثم آتخذ المهدىُّ بعده مباركا التركى، ثم أكثر الخلفاءُ من الأتراك بعد ذلك .

أوّل من جلس للصائب من الخُلَفاء علىٰ البساط دون الأنمـاط هارون الرشـيد حين نُعِى إليه قريبه : إبراهيم بن علىّ؛ فاتخذ الخلفاء ذلك دأبا فى المآتم .

أوّل من نُعِت علىٰ المِنْبر بنعت الخلافة الأمينُ بن الرشـيد فقيل : اللهم وأصلح عبدك وخليفتك عبدَ الله محمدا الأمين .

أوّل من أضيف لقبه من الخلفاء إلىٰ اسم الله المعتصِمُ فقيل المعتصم بالله ، ثم تبعه الخلفاء علىٰ ذلك؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخلفاء فى المقالة الثانية .

أوّل من حوّل السنة الشمسية إلىٰ السنة القمرية وأقرّ النيروز المتوكلُ ؛ وسيأتى ذكره فى تحويل السنين فى المقالة السابعة، وهو أوّل من أمر بتغيير زِىّ أهل الذِّمة؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ عقد الصلح لأهل الذمة فى المقالة السابعة .

أمور تتعلق بالملوك والأمراء

أوّل من لبس التاج الضَّحَّاك أحد ملوك الفرس وهو النمرود فيما يقال؛ وفى زمنه كان إبراهيم الخليل عليه السلام .

أوّل من مسح الأرَضـين ، ووضع الدواوين ، ووضع الخَرَاج علىٰ الأرَضِين ، ووظَّف الموظَّفات علىٰ البلاد قيذار أحد ملوك الفرس ، وآتخذ لذلك ديوانا وسماه ديوان العدل .

أوّل من جلس علىٰ السرير من ملوك العرب جَذِيمة الأبرش، وهو أوّل من وقعت له الشَّمْعة من ملوك العرب، وأوّل من لبس الطَّوْقَ منهم .

أوّل من مشَت الرجال معه وهو راكب الأشعثُ بن قيس، كانت بنو عمرو بن معاوية ملَّكوه عليهم وتوجُوه .

أوّل من مُشِى بين يديه بالأعمدة الحديد زيادُ ٱبنُ أبيه، وهو أوّل من جلس الناسُ بين يديه علىٰ الكراسىّ، وهو أوّل من ٱتخذ العَسَس والحَرَس .

أوّل من سُلِّم عليه بالإمرة المغيرة بن شعبة فقيل السلام عليك أيها الأمير، وكانوا قبل ذلك يقولون السـلام عليكم، ثم تبعه الأمراء علىٰ ذلك .

أوّل من حُمِل إليه الثَّلْج الحجَّـاج بن يوسف، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ حَمْل الثلج لصاحب الديار المصرية فى خاتمة الكتاب .

أوّل مَنْ نَقَش ٱسمه من الملوك علىٰ الدنانير والدراهم مع الخلفاء عِزُّ الدَّوْلة بن بُوَيه وإخوته ملوك الديلم القائمين علىٰ الخلفاء العبَّاسيين ببغداد، فى سنة أربع وثلاثة وثلثمائة، ثم تبعهم الملوك علىٰ ذلك .

أوّل من حُمِل السَّنْجَق علىٰ رأسه من الملوك غازى بن زنكى صاحب الموصل، وهو أوّل من ٱختار الأجناد أن يركبوا بالسيوف فى أوساطهم والدَّبابيس تحت ركبهم .

أوّل من حُمِل الشمع معه علىٰ البغال فى الليل من ملوك الديار المصرية محمـد بن طُغْج الإخشيد، وكانت الشمعة تجعل علىٰ مؤخر البغل وفرّاش راكب أمامها، وهو يلتفت فى كل قليل يصـلحها، فأبدلهـا الملوك بعده بهـذه الفوانيس التى تحمل علىٰ البغال مع الفانوسِيَّة أمام ملوك الديار المصرية فى الليل .

أوّل من لقِّب من وزراء الفاطميين بالديار المصرية بالملك فلان رضْوان بن ولخشى وزير الحافظ : لقب بالملك الأفضل، وكان مَنْ قَبْله من الوزراء لا ينعت بالملك .

أوّل من لف العمامة علىٰ الكلوتة من ملوك الديار المصرية الأشرف خليل بن قلاوون، وكانت ملوك بنى أيوب يَلْبَسون كلوتة صفراء بغير عمامة ولذلك تراهم يطلقون علىٰ أرباب الأقلام المتعممين فى مقابلة أن الجند كانوا بغير عمائم .

أول من ٱعتاد حلق رأسه من ملوك الديار المصرية الملك الناصر محمد بن قلاوون حين حج ، وتبعه الأمراء والجند علىٰ ذلك وٱستمر الأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن ، وكان لهم قبل ذلك غدائر شعر مرسلةٌ كعرب الحجاز ونحوهم .

الــوزراء

أوّل من سمى وزيرا فى الإسلام أحمد بن سليمان الخَلَّال، وزير السفَّاح أوّل خلفاء بنى العباس، ثم تبعه وزراء الخلفاء والملوك علىٰ ذلك، وكانوا قبل ذلك يقولون كاتبا.

أوّل من لُقِّب بالصاحب من الوزراء، كافى الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد، وكان السبب فى ذلك أنه كان يصحب الأستاذ ٱبنَ العميد فكانوا يقولون صاحب ٱبن العميد ، ثم غلب عليه اللقب حتّٰى قيل له الصاحب مجرّدا وتبعه الخلفاء علىٰ ذلك، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ هذا اللقب فى المقالة الثالثة .

أوّل من لقب بالملك الفلانىّ من وزراء الفاطميين بالديار المصرية رضوان بن ولخشى وزير الحافظ، لُقِّب الملك الأفضل ، ثم صار رسما لوزرائهم بعد ذلك ، وتبعهم ملوك الديار المصرية علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

القضــاة

أوّل قاض كان فى الإسلام عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه ، ٱستقضاه أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه، فى خلافته فمكث سنة لا يأتيه أحد فى قضية .

أوّل قاض بالمدينة النبوية عبد الله بن نَوْفَل ، آستقضاه عليها أمير المؤمنين عمر آبن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته .

أوّل قاض بالكوفة جُبَير بن القَشْعم .

أوّل قاض بالبصرة أبو مَرْيَم الحنفىّ ، أحد بنى حنيفة ، آستقضاه أميرها عُرْوة آبن غَزْوان فى سنة أربع عشرة من الهجرة .

أوّل قاض بمصر قيس بنُ أبى العاص السَّهْمىّ ، آستقضاه عليها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى خلافته فى سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

أوّل قاض جمع له القضاء والشُّرْطة بمصر عابس بن سعيد وليهما من قِبَل أميرها مَسْلَمة بن مُخَلَّد .

أوّل قاض بمصر نظر فى الأحباس يعنى الأوقاف بمصر أبو مِحْجَن تَوْبةُ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وكانت الأوقاف قبل ذلك بيد أربابها أو أوصيائهم — فقال : هذه مآلها إلىٰ الفُقَراء والمساكين فأنا أضع يدى عليها ، فما مضت له سنة حتّى صار لها ديوان عظيم .

أوّل قاض بمصر خرج لرؤية الهلال عبدُ الله بنُ لَهِيعة . قال أبو عمر الكندىّ ، وهو أوّل قاض وَلِىَ مصر عن خليفة ، وليها عن أبى جعفر المنصور فى أوّل سنة خمس وخمسين ومائة .

أوّل قاض ولى مصر ممن يقول بقول أبى حنيفة أبو الفضل إسماعيل بنُ اليَسَع الكندىّ ، وكان أهل مصر قبله لم يعرفوا مذهب أبى حنيفة ولم يألفوه ، وكان يرىٰ بطلان الأوقاف ، فكتب الليث فيه إلىٰ أبى جعفر المنصور فكتب إليه بعزله .

أوّل قاض بمصر أدخل النصارىٰ فى خصوماتهم إلىٰ المسجد أبو عبد الرحمن محمد ٱبن مسروق ، وكانتْ ولايته لها من قِبَل الرشيد فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وهو أوّل من ٱتخذ لمجلسه الشهود من قُضاة مصر .

أوّل قاض وَلِىَ مصر ممن يقول بقول مالك أبونُعَيْم إسحاق بن الفُرات مولىٰ معاوية ٱبن حُدَيج ، وللشافعى عليه ثناء جميل فى معرفة الخلاف ، وهو أوّل قاض ٱتخذ للشهود ديوانا وكتب أسماءهم فيه ، وكانت ولايته من قِبَل الرشيد فى سنة بضع وثمانين ومائة .

أوّل قاض وَلِّى علىٰ المصاحف أمينا بجامع الفُسْطاط الحارثُ بن مِسْكِينَ ، وكانت ولايته فى خلافة المتوكل .

أوّل ما ٱستقرّت قُضاة الديار المصرية أربعةً ، من كل مذهب قاضٍ فى سلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى . وذلك أن القضاء بها كان بيد القاضى تاج الدين ٱبن بنت الأعز وكان شافعياً ، فكانت تأتيه المكاتيب المخالفة لمذهبه فيتوقف فيها فشقّ ذلك علىٰ السلطان والأمراء فٱتفق رأيهم علىٰ أن يجعلوا من كل مذهب قاضيا ليقضى كل منهم بمذهبه .

أوّل ماخُصّ قاضى القضاة الشافعىّ بالديار المصرية بالتولية فى أعمالها دون رُفْقته الثلاثة فى سلطنة المنصور قلاوون فى شوّال سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ذكره ٱبن المكرم فى تذكرته .

الأمور العلميــــة

أوّل من أخطأ فى القياس إبليس ، حيث قال ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أو لم يعلم أن ماألقى إلىٰ جوهر الطين زاد ونما ، وماألقى إلىٰ جوهر النار اضمحل وتلاشىٰ .

أول من نطق بالحكمة أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

أول مَنْ دلَّ على تركيب الأفلاك ، وقدّر مسير الكواكب ، وكشف عن أحوال تأثيراتها ، ونبه على عجائب الصنع فيها إدريس عليه السلام .

أول من نظر فى الطب افريدون ملك الفرس بعد الضَّحاك ، وفى أيامه ظهرت الفلاسفة وتكلموا فى علومهم .

أول من وضع النحو أبو الأسود الدُّؤَلى بأمر أمير المؤمنـين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وهو أوّل من نقط المصاحف النقط الأول على الإعراب .

أول من صَنَّف فى علم الكلام واصل بن عطاء المعتزلىّ .

أول من تُرْجِم له كتب الطب والنجوم وغيرها من كتب العلوم الفلسفيَّة خالد بن يزيد ، ثم تلاه المأمون فأكثَرَ من ذلك .

أول من صنَّف فى غريب القرءان أبو عُبَيدة مَعْمَرُ بن المثنّى .

أول من صنَّف فى أصول الفقه الإمام الشافعى رضى الله عنه ، صنَّف فيه كتابه الرسـالة .

أول من صنَّف فى الفقه مالك بن أنس صنف كتابه المُوطَّأ .

أول من عمل العروض الخليـل بن أحمد ، وهو أول من صنف اللغة مرتبة على حروف المعجم صنف كتابه " العين " .

أول من صنف فى علم البديع عبد الله بن المعتز .

أول من سنّ الإساءة والأجتراء فى البحث فرعونُ ، بينا هو وموسى عليه السـلام فى مقام المُناظرة حيث قال ﴿وما رَبُّ العالَمين﴾ فأجابه موسى بقوله ﴿رَبُّ السَّموات والأَرض وما بَيْنَهُـمَا إن كُنْتُم مُوقِنِينَ﴾ إلى آخر المناظرة بينهما إذ قال ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إلٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ﴾ .

الخطـابة

أوّل من جَمَع قُريشا وخطبهم ونبه علىٰ أن النبي "صلى الله عليه وسلم" منهم قُصَىُّ ٱبن كلاب، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مكة فى المسالك والممالك فى المقالة الثانية.

أوّل من خطب علىٰ العصا وعلىٰ الراحلة قُسُّ بن ساعدة الإِيادىّ ، وقد تقـدّم ذكر خطبته التى خطبها علىٰ الراحلة فى الكلام علىٰ الخُطَب .

أوّل من عَمِل المِنْبر تميم الدارىُّ عمله للنبىّ صلى الله عليه وسلم، وكان قد رأىٰ منابر الكنائس بالشام .

أوّل من أُرْتِج عليه فى الخطبة عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه فقال : أيها الناس إن اللَّذيْنِ كانا من قبـلى كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلىٰ إمام عادل أحوجُ منكم إلىٰ إمام قائل، وستأتيكم الخطبة علىٰ وجهها فى الجمعة الأخرىٰ ثم نزل .

أوّل من خطب جالسا معاويةُ حين كَثُر شحمه .

أوّل من أقام الجُمعة بالمدينة قبل مَقْدَم النبي صلى الله عليه وسلم، أسعدُ بنُ زُرَارة الأنصارىّ ببنى بَيَاضة .

أوّل من رفع يده فى الخطبة يوم الجمعة عُبيدُ الله بن عبد الله بن عمر .

أوّل من أخرج المنبر فى العيد مروانُ بن الحكم ولم يكن قبل ذلك يُخْرَج .

الخـــط

أوّل من خط بالقلم فى الجملة قيل آدم عليه السلام وقيل إدريس .

أوّل من كتب بالعربية قيل هود عليه السـلام أنزل عليه ، وقيل إسمـاعيل ، وقيل ثلاثة نفر من بَوْلانَ من طيئ ٱصطلحوا علىٰ ذلك ، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخط فى الباب الثانى من هذه المقالة .

كتابة الإنشـاء

أوّل من كتب فى أوّل الكتب بسم الله الرحمن الرحيم سليمان عليه السلام، حين كتب لِبلْقِيسَ كما أخبر الله تعـالىٰ عنه بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثم كتبها النبيُّ صلى الله عليه وسلم لمـا نزلت .

أوّل من كتب فى أوّل الكتب باسمك اللهم أُمَيَّةُ بن أبى الصَّلْت، فكتبها قُرَيْشٌ فى كتبهم، وكان النبي صلى الله عليه وسـلم، يكتبها فى ٱبتداء الأمر، وسيأتى ذكر جميع ذلك فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة.

أوّل من كتب من فلان إلىٰ فلان قُسُّ بن ساعدة فيما قاله العسكرى وأقرّه النبي صلى الله عليه وسـلم ، فى مكاتباته ، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الفواتح فى المقالة الثالثـــة .

أوّل من زاد فى أوائل الكتب بعد التحميد "وأسأله أن يصـلى علىٰ محمد عبـده ورسوله" هارون الرشيد، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة.

أوّل من أرّخ بالهجرة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخواتم فى المقالة الثالثة .

أوّل من كتب فى آخر كتابه وكتب فلان بن فلان أُبَىُّ بن كعب قاله العسكرى .

أوّل من ختم الكتب سليمان عليه السـلام فقد قيل فى قوله تعـالىٰ حكاية عن بِلْقِيسَ ﴿ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ إن المراد به المختوم . وأوّل من ختمها فى الإسلام النبىَ صلى الله عليه وسـلم، حين قيل له : إن ملوك الأعاجم لا يقرءون كتابا غير مختوم فاتخذ خاتما نقش فصه محمد رسول الله فكان يختم به الكتب، وسيأتى ذكر ذلك فى الكلام علىٰ الخواتم .

أوّل من ٱتخذ الطين لختم الكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قاله الثعالبي فى "لطائف المعارف" .

أوّل من ٱتخذ ديوان الخاتَم معاويةُ بن أبى سفيان ، حين كتب لرجل بمائة ألف درهم ففك الكتاب فأصلحها مائتين ، قاله الثعالبي فى "لطائف المعارف" .

كتابة الأموال وما فى معناها

أوّل من ٱتخذ الديوان فى الإسلام أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب ، وضع ديوان الجيوش . وسيأتى ذكره فى الكلام على الإقطاعات فى المقالة السادسة .

أوّل من جعل الحساب فى دفاترَ خالدُ بن برمك فيما قاله الثعالبي ، وكان قبل ذلك فى أدراج من كاغَدٍ ورق .

أوّل من نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية الحجاجُ بن يوسف فى خلافة عبد الملك بن مروان ؛ نقله له صالح بن عبد الرحمن ؛ كاتب كاتِبه زاذانَ فَرُّوخ فكان كُتَّاب[1] العراقين علماءَ وتلاميذَ .

أوّل من نقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية عبدُ الملك بن مَرْوان ، نقله له سليمانُ بن سعيد مولى الحُسَين كاتبِ رسائل عبد الملك ، فولاه عبد الملك جميع دواوين الشام .

أوّل من نقل ديوان مصر من القِبْطيَّة إلى العربية عبدُ العزيز بن مروان فى إمارته على مصر، ذكره صاحب "المنهاج فى صنعة الخراج" .

أوّل من وسَّع فى أرزاق الكُتَّاب الفضلُ بن سهل وزير المأمون .

(١) فى الأصل فروح بالمهملة فكان كبار العراقين وهو تصحيف فٱحذره .

الخَرَاج والجِزْية

أوّل من وضع الخَرَاجَ وأزال المقاسمة كسرىٰ أنُوشروانَ؛ وذلك أنه مر علىٰ زرع وآمرأة تمنع ولدها منه؛ فسألها عن ذلك، فقالت : إن للملك فيه حقا، ولا نستحله حتّٰى يأخذ الملك حقه، فقرّر علىٰ الزرع قدرا معلوما وخلّٰى بين الغَلّة وأصحابها .

أوّل من وضع الخراج علىٰ الأرَضِينَ والجزيةَ علىٰ الجماجم فى الإسلام أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب حين مسح السَّواد؛ ثم رسم بالمقاسمة أبو جعفر المنصورُ حين خرِب السـواد .

أوّل من ألزم الخراج كلفة الحمل ومؤنته زياد آبن أبيـه فبقى حتّٰى أسقطه زياد آبن أبيـه (١) .

أوّل من عَرَّف العرفاء علىٰ الناس لجباية المـال وغيره زيادٌ، وكان يقول : العُرَفاء كالأيدى والمناكِبُ فوقها .

المعامـلات

أوّل من ضرب الدنانير والدراهم فى الإسلام عبد الملك بن مروان ، ضربها بالشأم من فضة خالصة ، وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بدراهم الفُرس والرُّوم؛ ولما ضربها عبد الملك كتب إلىٰ الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك ، فضرب الدراهم ونقش عليها قُلْ هُو اللهُ أحَدٌ إلىٰ آخر السورة ، فسمِّيت الدراهمَ الأحديَّة ، وكرهها الناس لنقش القرءان عليها ، مع أنه قد يحملها المحدث ، فسميت المكروهة .

قلت : وقد رأيت درهما من هذه الدراهم الأحدية ، أرانيه بعضُ أعيان حلب ، وذكر لى أن فلاحا أصاب رِكَازا لطيفا بها فأحضره إلىٰ نائب حلب خوفَ عُهْدته ،

---

(١) كذا فى الأصل .

فاقتسمه هو وأهلُ مجلسه ، وعوّضه من كل درهم أضعافه ، فحصل لوالد ذلك الرئيس هذا الدرهم فوصل إليه بعده .

أوّل من شدّد فى العيـار فى الدراهم يوسف بن عمر ، أمر أن لا يضرب درهم ينقص حبة فما فوقها ، ثم آستخَفَّ درهما فوجده ينقص حَبَّة ، فأمر أن يضرب كل رجل من الضرَّابين ألف سوط ، وكانوا مائة ضَرَّاب ، فضرب فى نقص حبة واحدة مائة ألف سوط .

أوّل من شدّد فى خلوص الذهب أحمد بن طُولون صاحب مصر والشام ، وذلك أنه حين وجد الكنزُ المشهورُ بعين شمس ، وأُتِىَ له منه بميِّت وعلىٰ صدره لوح ذهب مكتوب بالقِبْطية فعُرِّب فإذا فيه : أنا أكبر الملوك وذهبي أخلص الذهب ؛ فقال : قاتل الله من يكون هذا اللَّعين أكبرَ منه أو ذهبُه أخلص من ذهبه ، ثم شدّد فى التعليق حتّٰى كان قاضى القضاة يحضُره بنفسه ، وسيأتى الكلام علىٰ ذلك فى معاملة الديار المصرية فى المقالة الثانية .

أوّل من ضرب الدراهم الزُّيُوف فى الإسلام عبيد الله بن زياد .

أوّل من آتخذ ألسـنة الموازين من الحديد عبدُ الله بن عامر أميرُ المدينة من قبل عثمان .

أوّل من عمـل الأوزان الحجاجُ بن يوسف ، عملها له سمير اليهودىّ ، وذلك أن الحجاج حين ضرب الدراهم الأحَدِيَّة علىٰ ما تقـدّم ضربها سمير اليهودى من فضة خالصة أيضا وجعل فيها ذهبا فأراد الحجاج قتله ، فقال : ألا أدلك علىٰ ما هو خير للسلمين من قتلى ؛ قال : هاته ، فوضع الأوزان ، وزن ألف ، ووزن خمسمائة ، ووزن ثلثمائة إلىٰ وزن ربع قيراط فجعلها حديدا ونقشها وأتىٰ بها إلىٰ الحجاج فعفا عنه ، وكان الناس قبل ذلك إنما يأخُذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره .

أوّل من ٱتخــذ الذراع التي يُذْرَع بهــا الأرضون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين مسح السَّواد . وقيــل أوّل من ٱتخذها زياد ، نظر إلىٰ ثلاثة نفر من أطولهم ذراعا وأوسطه وأقصره فجمعها وأخذ ثلثها فجعلها ذراعا .

العـــــمارة

أوّل بيت وضع فى الأرض الكعبة ، بنتها الملائكة ؛ قال تعالىٰ ﴿ إنّ أوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ .

أوّل مَنْ جعل للكعبة بابا أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

أوّل من سقف بمكة سقفا قُصَىٌّ بن كلاب ، وكان الناس قبل ذلك إنمــا ينزلون فى العريش .

أوّل من بوّب بمكة بابا حاطبُ بن أبى بَلْتَعة .

أوّل من ٱتخذ بمكة رَوْشنا بُدَيْل بنُ ورقاءَ الخُزَاعىّ . وهو أوّل من بنىٰ بهــا بيتا مربَّعا ، وكانوا قبل ذلك يتحامَوْن التربيع فى البناء كيلا يُشْبِه بناء الكعبة .

أوّل قرية بُنِيت بعــد الطُّوفان قرية ثمــانينَ ، من الجزيرة الفُرَاتية ؛ بناها نوح عليه السلام ، وأنزل بها من كان معه فى السفينة وهم ثمانون رجلا .

أوّل مدينة بُنِيت بمصر بعد الطُّوفان مدينة مَنْف وأصلها بالسُّريانية مافه ومعناها ثلاثون ؛ سميت باسم جماعة مِصْر بن بَيْصر الذين كانوا معه ، وسيأتى ذكرها فى جملة قواعد مصر القديمة فى المقالة الثانية .

أوّل من عمل الحَمَّام سليمان عليه السلام ، صنعها له الجنّ وعملوا له النُّورة لإزالة شعرٍ كان علىٰ بلقيس حين تزوّجها فيما يقال .

أوّل من ٱتخذ الآجُرَّ هامانُ لفرعون حيث قال له ﴿ فأَوْقِدْ لى يا هامانُ علىٰ الطينِ فٱجْعَلْ لِى صَرْحًا ﴾ .

أوّل من بنى بالجِصّ والآجُرّ فى الإسلام زياد ابن أبيه بالبصرة .

الـــزرع

أوّل من غرس النخلة أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

الصـــناعات

أوّل من خاط الثياب إدريس عليه السلام، وكان الناس قبل ذلك يلبَسُون الجلود .

أوّل من عمل القراطيس يوسف عليه السلام . وقيل غيره ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام على ما يُكتَب فيه فى المقالة الثالثة .

أوّل من عمل الصابونَ سليمان عليه السلام؛ قاله الثعالبىّ .

أوّل من عمل الكيمياء قارون، ويقال إنه المراد بقوله تعالى حكاية عنه ﴿قَال إنَّمَا أُوتِيتُهُ علىٰ عِلْمٍ عِنْدِى﴾ .

أوّل من عمل الزجاج ملكى أحد ملوك مصر بعد الطوفان، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوكها فى المقالة الثانية .

أوّل من ٱتخذ الرِّحال عِلَافُ بن زَبَّانَ[1] الحميرىّ، وكانت العرب قبل ذلك يركبون المَخَاصر .

أوّل من كسا الكعبة فى الجاهلية تُبَّعٌ : أَسْعَدُ أبو كَرِب .

---

(١) وقع فى المخصص ربان بإهمال الزاى وفى القاموس والصحاح بإعجامها وهو الأقرب .

أوّل من ٱتخذ المحامل لَهُ الحجاجُ بن يوسف .

أوّل من ٱتخـذ السياط الأصبحُ بنُ مالك ، أحدُ ملوك اليمن فقيل السِّـياط الأَصْبَحيَّة .

اللبـاس

أوّل من لَبِس الثياب الحُمْر قارون ، ويقال إنه المراد بقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ . وهو أوّل من أطال ثيابه وسحبها علىٰ الأرض عُجْبا وتيهاً .

أوّل من قوّر طَيْلَسانا من العرب فى الإسـلام عبدُ الله بن عامر أميرُ المدينـة من قبل عثمان . والطَّيْلَسان المقوّر علىٰ نحو الطَّرْحة التى يلبَسُها الوزراء وقُضـاة القُضاة الآن ، وكانت وُزَراء الفاطميين يلبسونها . وهو أوّل من لَبِس الخز ، فقال أهـل المدينة لبِس الأمير جلدَ دُبّ .

أوّل ما لبس بنُو العبّاس السَّوادَ حين قَتَـل مروانُ بن محمد آخرُ خلفاء بنى أمية إبراهيمَ بنَ محمد الإمامَ أوّلَ قائم منهـم بطلب الخلافة حُزْنا عليه ، فٱستمر فيهم ؛ وفيه كلام يأتى فى المقالة الثانية عند الكلام علىٰ لِبْس الخلفاء .

أوّل من لبِس الخِفَاف الساذَجَة بالبصرة زياد ٱبن أبيه .

أوّل من ٱحتذىٰ النِّعال من العرب جَذيمة الأبرشُ .

أوّل من خلع نعلَيْه عند دخول الكعبة فى الجاهلية الوليدُ بنُ المغيرة .

أوّل من لبِس النِّعَال الصَّرَّارة المروانىُّ كان قصـيرا فاتخذ النعال الغلاظ الصرارة لتزيد فى طوله وليسمَعَه جواريه وحُرَمُه عند دخول بيته فتُصْلح شأنَها من كانت علىٰ غير هيئةٍ صالحة . قال العسكرىّ : من ثَمَّ ٱتخذ الناسُ نِعال الخشب يعنى القَباقيبَ .

أوّل من أمر بتغيير زىّ أهل الذمة المتوكِّل، أمرهم أن يلبَسُوا العَسلىَّ، ويتخذوا رُكب الخشب ونحو ذلك فيمتازوا عن المسلمين؛ وسيأتى ذكره فى عقد صلح أهل الذمة فى المقالة السابعة .

الحـــرب وآلاته

أوّل من ركب الخيل إسماعيلُ عليه السلام، وكانت قبله وُحُوشا لا تُركَب فراضها وركبها ، وتعلَّم بنوه رِيَاضتها منه ، فصارت فيهم إلىٰ الآن . ولذلك العرب أعرفُ الناس بالخيل . وهو أوّل من ميَّز بين العتَاق منها والهُجُن فى سهام أصحابها، فسبقت العِتاقُ الهُجُنَ .

أوّل من ٱتخذ الدروع ولَبِسها داودُ عليه السلام إذ يقول تعالىٰ ﴿ وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سابِغَاتٍ وقَدِّرْ فِي السَّرْدْ ﴾ وكانوا قَبل ذلك يلبسون تَنَانير(١) من حديد .

أوّل من ٱتخذ السِّلاح وجاهد سليمانُ عليه السلام فيما قاله العسكرىّ وفيه نظر .

أوّل من ٱتخذ الحديدَ من العرب ذُو يزَنَ الحِمْيرىّ ، وكانت أَسِنَّتُهم قبــل ذلك صَيَاصِىَ البقر .

أوّل من ٱتخذ الحصن من الجبل للكمائن الإسكندر .

أوّل من ٱتخذ المنجنيق الضَّحاك حين أراد إلقاء إبراهيم عليه السلام فى النار، وضعه فيه ورمىٰ به فى النار فكانت عليه بَرْدًا وسلاما . وأوّل من ٱتخذه من العرب جَذِيمة الأبرشُ .

أوّل من ٱتخذ الجواسيس والعُيون علىٰ العدوّ الإسكندر .

أوّل لواء عقده النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لِوَاء أبيضُ لعمه حمزةَ وقال "خُذْه يا أَسَدَ الله" وذلك فى رمضان من السنة التى هاجر فيها، وحمله له يزيد بن أبى يزيد .

---

(١) لعل مراده صفائح من حديد كما هو نص الأوائل والتفاسير واللفظة فى نسخة الخط غير مجوّدة .

أوّل ما عُقِدت الرايات فى الإسلام يوم حُنَين، عقد صلى الله عليه وسـلم، راية سَوداء من بُرْد عائشةَ، وكانوا قبل ذلك لا يعرفون إلا الألوية قاله العسكرىّ .

أوّل من قتله النبي صلى الله عليه وسلم، بيده أبىّ بنُ خلف لعنه الله، طعنه صلى الله عليه وسـلم طعنة خفيفة فوجد لها ألمـا شديدا فقيل له لن تبالِىَ فقال : لو أن مابى بأهل الأرض لقتلهم، ومات منها .

أوّل حرب كان بين أهل القِبْلة يومُ صِفِّين ، بين عائشة وعلىّ رضى الله عنهما .

الأسمـاء والألقاب

أوّل من سُمّى المصحف مُصْحفا أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه حين جمع القرءان.

أوّل من سُمِّى باسم النبىّ صلى الله عليه وسـلم ، محمدُ بنُ حاطب حين وُلِد بأرض الحبشة فى الهجرة الأولى .

أوّل من سمى بالحَسَن والحسين السِّـبطانِ ولَدَا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب من فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسـلم . قال أبو أحمد العسكرىّ فى كتابه "التصحيف والتحريف" قال المفضـل حجب الله هذين الأسمين عن أن يسمَّى بهما حتَّى سُمّى بهما النبى صلى الله عليه وسلم، آبنيه عليهما السلام أما حَسْن وحَسِين الموجودان فى أنساب طيئ فالأوّل بسكون السين والثانى بفتح الحاء وكسر السين .

أوّل من سمِّى عبد الملك فى الإسلام عبدُ الملك بن مروان .

أوّل من سمِّى بعد النبي صلى الله عليه وسلم أحمد أبو الخليل واضع العَرُوض ولذلك يقال فيه الخليل بن أحمد .

أوّل من سَمّى الغالية غالية معاويةُ بن أبى سفيان شمَّها من عبد الله بن جعفر فوصفها له فقال إنها غالية .

أوّل ما سميت العَطِيَّات جوائز فى زمن عثمان رضى الله عنه، وذلك أن ٱبن عامر كان على العراق من قبل عُثمان فبعث جيشا مع قَطَن بن عبد عوف الهلالى إلى كِرْمان، بجرى الوادى بسيل خِيفَ منه الغرق، فقال قَطَن من عَبَره فله ألف درهم، فعبَره رجلٌ ثم آخر ثم آخر حتّى جاز جميعهم فأعطاهم قَطَنٌ ألفا ألفا فكان جملة ذلك أربعة آلاف ألف، فاستكثرها ٱبن عامر فكتب بها إلى عثمان فأجازها، وقال : كلُّ ما كان فى سبيل الله فهو جائز .

أوّل ما لُقِّب بفلان الدولة فى أيام المكتفى بالله .

أوّل ما لقب بفلان الدين فى أيام القادر بالله ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة .

الضِّيفان

أوّل من قرى الضيف إبراهيمُ الخليل عليه السلام حتّى كُنِّى أبا الضِّيفان لكثرة قِراه لهم .

أوّل من سنَّ للضيف صدر المجلس بهرام جور : أحدُ ملوك الفُرْس .

أوّل من هَشَم الثَّرِيد للقِرى فى زمن المَحْل هاشمُ بن عبد مَنَاف، وبذلك سمى هاشما وكان ٱسمه قبلُ عمرا .

أوّل من فَطَّر جيرانه فى شهر رمضان عبيدُ الله بن العباس بن عبد المطلب . وهو أوّل من حمل الطعام على رءوس الناس لكثرته وأوّل من أنهبه .

وجوه البِرّ

أوّل من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى الوليدُ بن عبد الملك .

أول من ٱتخذ البيمارستان بمصر أحمدُ بن طولون بناه بالفُسْطاط ، وهو موجود إلىٰ الآن .

أول من فوّض إلىٰ الناس إخراج زكاتهم بأنفسهم عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه .

الأعيـاد والمواسم

أول من ٱتخذ النَّيْروز من الفرس جما الملك ، وهو الذى بنىٰ مدينة طوس ، يقال إنه كان فى زمن هود عليه السلام ، كان الدِّين قبله قد تغير وظهر الجور ، فلما ملك جدّد الدين وأظهر العدل فسمى اليوم الذى ملك فيه نَوْروز أى يوم جديد عرّبتـه العرب فقلبوا الواو ياء فقالوا نَيْروز .

أول هدية كانت فى النَّيْروز لجما الملك المتقدّم ذكره ، وذلك أنه لم يظهر القصبُ إلا فى أيامه فذاقه بعض الناس فاسـتحلاه فصنع منـه السكر فوافق فراغه فى أول يوم ملك فيه جما وهو يوم النَّيْروز فأهدىٰ إليه منه فى ذلك اليوم ، فصار سنة عندهم ، فهم يتهادَوْن فيه بالسكر ، ثم توسعوا فيه فتهادَوْا بغير السُّكَّر .

أول ما ظهر المهرجان فى زمن أفريدون القـائم بعد الضحَّاك من ملوك الفُرْس ، وذلك أنه لمـا ظفر بالضحاك فقيده وٱنقطع ما كان فى زمنه من الظلم والفساد سمّى اليوم الذى ظفر به فيه المهرجان . قال العسكرىّ : والمهر الوفاء كأن معناه سلطان الوفاء ، وكان سبيل الملوك فيه سبيل النَّيْروز .

أوّل من ٱفتتح المكاتبـة بتهنئة النيروز والمهرجان أحمد بن يوسـف أهدىٰ الىٰ المأمون سَفَط ذهب فيه قِطعةُ عُودٍ هندىّ فى طُوله وعَرْضه ، وكتب معه "هـذا يومٌ جرت فيه العاده ، بإلطاف العبيد الساده" .

الأقــوال

أوّل من قال أما بعد داود عليه السلام، ويقال إنها فصــل الخطاب المشار إليه بقوله تعالى ﴿وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ . وقيل أول من قالها قُسّ بن ساعدة .

أول من قال مَرْحَبًا سيفُ بن ذِى يَزَنَ، قال ذلك لعبدالمطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسـلم، حين وَفَد عليه ليهنّئه برجوع المُلْك إليه، فقال له "مَرْحَبا وأهلا، وناقةً ورَحْلا، ومُنَاخا سَهْلا، ومَلِكا رِبَحْلا(١)، يُعطِى عطاءً جَزْلا" .

أول من قال جعلت فِدَاك عبدُ الله بن عمر رضى الله عنهما قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الفتنةَ، فقال "جُعِلْتُ فِدَاكَ يارَسُولَ اللهِ فما أصْنَعُ ؟" . وقيــل أول من قالها له علىّ بن أبى طالب حين دعا عمرُو بنُ وَدّ العامرىّ إلى المبارزة، فقال علىّ "جُعِلتُ فِداك يارسول الله أتأذن لى؟" ثم آستعملها الكُتّاب بعد ذلك فى مكاتباتهم .

أول من قال أطال الله بقــاءك عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تكلم علىّ رضى الله عنــه بحضرته فى العدل بكلام أعجبه، فقال له : صدقت أطال الله بقاءك ؛ ثم نقلها الكتاب إلى استعمالها فى مكاتباتهم .

أول من قال أيّدك الله عمر بن الخطاب قاله لعلىّ عليه السلام أيضا .

الشعر والغِنَـاء

أوّل من قصّد القصــائد مُهلْهِل خال آمرئ القيس؛ والقصــيد ما زاد على سبعة أبيــات .

---

(١) فى نسخة الخط والمطبوع السابق ونحلا وهو تصحيف وقد ذكرت الكلمة فى اللسان فى مادة ر ب ح ل .

أوّل من أطال الرَّجَز العجَّاجُ . قيـل إن الرجز كان فى الجاهليـة إنمـا يقول منه الرجل البيتين أو الثلاثةَ فى الحرب ونحوه حتّى جاء العجَّاج ففتح أبوابه وشـبهه بالشـعر، ووصف فيه الديار وأهلها ، والرسوم والفلوات ، ونعت الإبل والطُّلول ؛ وكان فى أوّل الإسلام يشبه بامرئ القيس .

أوّل من آستخرج اللطيف من المعانى فى الشعر وجرىٰ علىٰ طريقه البديع مسلم آبن الوليد .

أوّل من أخرج الغِنَاء العربىّ جرادةُ جاريةُ آبنِ جُدْعان فيما قاله العسكرىّ . وفيه نظر فإن الغنـاء معهود من عهد عاد حتّى كان من جمـلة مغنّيَاتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال "غَنَّتْه الجَرَادتان" .

أوّل من علم الجوارىَ المُثَمَّنات الغناءَ إبراهيم الموصلى، وكان الناس بمكة لا يعلّمون الجارية الحسناء الغِناء .

النســـاء

أوّل آمرأة خُفِضت هاجَرُ أمّ إسمـاعيل؛ وذلك أنها حين تغيرتْ عليها سارةُ لتَسَرِّى(١) إبراهيم عليه السلام بها حلفَتْ لتقطعَنَّ شيئا من جسدها فأشار عليها إبراهيم أن تَخْفِضَها، وتثقبَ أذنيها، وتجعل فيهما قُرْطين ففعلتْ فزادت حُسْنا .

أوّل آمرأة آكتحلت بالإثمد زرقاءُ اليمـامة، وكانت تنظر مسيرةَ ثلاثة أيام .

أوّل آمرأة تنبأت سَجَاحِ التميميةُ التى تزوجها مُسَيْلِمة الكذّاب .

---

(١) فى نسخة الخط لبشرى وهو تصحيف ظاهر .

أوّل آمرأة لبست المصبَّغات فى الإسلام شُمَيلة زوج عباس ، وهى أوّل من عَبأت الطِّيب[1] .

الموت والدفن

أوّل آمرأة حُمِلت فى نعش زينبُ بنتُ جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم .

أوّل من دُفِن بالبقيع عثمانُ بنُ مظعون ، وهو أوّل من مات من المهاجرين بالمدينة .

أوّل من دُفِن بقرافة مصر رجلٌ آسمه عامر فقال عمرو بن العاص : عَمَرتْ والله .

أمور تنسب للجاهلية

أوّل من حَرَّم الخمر فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، وقيل قيسُ بن عاصم ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من حَرَّم القِمَار فى الجاهلية الأقرع بن حابس التميمى ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من رَجَم فى الزنا فى الجاهلية ربيع بن حدّان ، ثم جاء الإسلام بتقريره فى المُحصَن .

أوّل من حكم أن الولد للفِرَاش فى الجاهلية أكثمُ بن صَيْفِيّ حكيم العرب ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من قطع فى السرقة فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من سنّ الدية مائةً من الإبل عبدُ المطلب جدّ النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أنه نذر إن ولد له عشرةُ ذكور ليذبحنَّ العاشرَ فوُلِد له عشرة ، وكان عاشرهم عبدُ الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم ، فرام ذبحه ، فعارضه قريش فى أمره ، وأُشِير عليه بأن يُقْرِع بينه وبين الإبل حتّى تخرج القرعةُ على الإبل ؛ فأقرع بينه وبين عشرة

(١) فى اللسان يقال عبأ الطيب ... يعبؤه عبأ صنعه وخلطه .

فخرجت القرعة عليه، ثم زاد عشرة بعد عشرة وهى تقع عليه حتّى بلغ مائة من الإبل فوقعت القُرْعةُ عليها فنحرها، فكان النبى صلى الله عليه وسلم، يقول "أنا ابن الذَّبِيحَيْنِ" يعنى إسماعيلَ وعبدَ الله، ثم جاء الإسلام بتقريرها .

أوّل من أوقد النار بالمزدلفة حتّى يراها من بالموقف قصىُّ بن كلاب، فهى تُوقَد إلىٰ الآن .

أوّل من أهدىٰ البُدْن إلىٰ البيت إلياس بن مُضَر .

أوّل من أظهر التوحيد بمكة قبل البعثة قُسُّ بن ساعدة .

أوّل من خَضَب بالوَسْمة من قريش عبدُ المطلب .

أوّل من نَسَّأ النسىء، وسيَّب السوائب، وجعل الوصيلة والحامِىَ عَمْرُو بن لُحَىٍّ وهو أبو خزاعة .

الضــــرب الثـانى

(من النبذ التاريخية التى لا يسع الكاتب جهلُها نوادر الأمور ولطائف الوقائع والمـاجريات)

العــراقة وشرف الآباء

قال الثعالبى، أشرف[1] الأنبياء فى النبوّة يعنى تواصل الآباء فيها يوسُفُ بنُ يعقوب ابنِ إسحاق بن إبراهيم عليه السلام؛ وشاهد ماقاله أن النبى صلى الله عليه وسلم، يقول "الكَرِيمُ ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسُفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيم" ولا يخفىٰ أن إخوته عليهم السلام فى هذه الرتبة فى العَرَاقة .

أعْرَق الأكاسرة فى المُلْك شيرويه بن أبرويز بن أردشير بن بابك ملكٌ ابن ملك ابنِ ملِكٍ ابنِ ملكٍ .

(١) مراده أعرق الأنبياء كما تقتضيه العبارة بعد .

أعرق الناس فى صُحْبة النبىّ صلى الله عليه وسلم، محمدُ بنُ عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق بن أبى قُحَافة رضى الله عنهم، أربعتهم رأَوُا النبىّ صلى الله عليه وسلم، وصَحِبوه.

أعْرَق الخلفاء فى الخلافة المنتصرُ، بن المتوكل، بنِ المعتِصم، بن الرشيد، بن المهدىّ، بن المنصور فى آبائه خمسة آباء خلفاء وهو سادسهم فيها. وفى معناه أخواه المعتمد والمعتز؛ أما عبد الله بن المعتز وإن زاد أبا فى الخلافة فإنه لم تمض عليه مدّة تعتبر، ولذلك لا يعدّه أكثر المؤرّخين فى جملة الخلفاء.

أعرق الناس فى المُلْك والخلافة جميعا بآعتبار الأصول والحواشى من الذكور والإناث يزيدُ بنُ الوليد بن عبد الملك بن مروان. أما من جهة الخلافة فهو خليفة، وأبوه خليفة، وجدّه خليفة، وجدّ أبيه خَليفة، وعُمُومتُه خلفاء. وأما من جهة المُلْك فأمه شاهفرند بنتُ فَيْروز، بن يزدجرد، بن شهريار، وأمها من بنات شيرويه آبن أبرويز، وأمُّ شيرويه مريم بنتُ قيصر، وأمُّ فيروز بنت خاقان ملك الترك.

أعرقُ الوُزَراء فى الوزارة أبو علىّ الحسينُ، بن القاسم، بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، وأخوه أبو جعفر محمدبن القاسم؛ فإن القاسم وُزِّر للمقتدر ومحمد وُزِّر للقائم وأباهما القاسم وُزِّر للمعتضد ثم للمكتفى بعده، وعبيد الله وُزِّر للمعتضد، وسليمان وزر للمهتدى وبعده للمعتمد فكلّ من الحسين ومحمد وزير آبن وزير آبن وزير آبن وزير يعنى فى آبائه ثلاثة وزراء، وهو الرابع فيها.

أعرق الناس فى القتل عُمَارة بن حمزة بن مُصْعَب بن الزبير بن العوّام بن خُوَيلد، قُتل عمارةُ، وأبوه حمزةُ جميعا يوم قُدَيد فى حرب الإباضيَّة، وقتل مُصْعب بدير الجاثَلِيق فى الحرب بينه وبين عبد الملك، وقتل الزُّبَيْر بوادى السِّباع فى نَوْبة الجمل،

وقتل العَوّام فى حرب الفِجار ، وقُتِل خُوَيْلِد فى حرب خُزاعة . قال الثعالبىّ ولا يعرف فى العرب والعجم ستةٌ مغبونون فى نَسَق واحد إلا آل الزبير .

أعرق الناس فى الفقه إسماعيلُ بن حَمّاد بن أبى حنيفة ، كان كل من إسماعيل وحماد فقيها وأبو حنيفة الإمامُ الأعظم .

أعرق النـاس فى القضاء بلالُ بنُ أبى بُرْدة بنِ أبى موسىٰ الأشـعرى رضى الله عنه : كان بلال قاضيا علىٰ البصرة ، وأبو بُرْدة قاضيا علىٰ الكوفة ، وأبو موسىٰ قاضيا لأمير المؤمنين عمرَ رضى الله عنه .

أعرق الناس فى حِجَابة الخلفاء العَبّاسُ بن الفضل بن الرَّبيع ، فإن العباس حجب الأمين ، والفضل حجب الرشيد قبل أن يتقلد عنه الوزارة ، والربيع حجب المنصور والمهدىّ ؛ وفى ذلك يقول أبو نُوَاس من أبيات :

سادَ الرَّبيعُ وسادَ فضْـلٌ بَعْدَهُ * وَنَمَتْ بعبّـاس الكَرِيم فُـرُوعُ
عَبَّاسُ عَبّاسٌ إذا ٱحتَدَمَ الوَغىٰ * والفَضْل فَضْلٌ والرَّبيعُ رَبِيعُ

أعرق الناس فى الشعر سعيدُ بنُ عبد الرحمن بنِ حسّانَ بن ثابتِ بنِ المنـذر بنِ حرام ، ستة كلُّهم شعراء علىٰ نَسَق ؛ ثم كانت العَرَاقة فى الشـعر بعـده مع زيادة آباء لمتوّج ، بن محمود ، بن مروان ، بن يحيىٰ ، بن مروان ، بن الحبوب ، بن مروان ، ٱبن سليمان ، بن يحيىٰ ، بن أبى حفصة : مولىٰ عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ عشرة علىٰ نَسَق :

الغايات من طبقات الناس

أشرف الناس فى الأمّة نسبا الحسنُ والحسين عليهما السلام ، رسول الله صلى الله عليه وسلم جدّهمـا ، والقاسم بن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم خالهما ، وعلى بن

أبى طالب أبوهما ، وفاطمةُ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهما ، وخديجة بنت خُوَيلد جدّتهما .

أشرف النساء فى النسب والصِّهْر فاطمةُ ؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوها ، وخديجةُ أمها ، وعلىّ بن أبى طالب زوجها ، والحسن والحسين سيدَا شباب أهل الجنة ولداها .

أشرفُ النـاس فى المصاهرة عبدُ الله بن عمرو بن عثمان ، تزوّج إليه أربعة من الخلفاء؛ تزوج الوليد بن عبد الملك بنته عَبْدة ، وسليمانُ بن عبد الملك بنته عائشة ، ويزيدُ بن عبد الملك بنته أمَّ سعيد ، وهشام بن عبد الملك بنته رُقَيَّة : قال الثعالبىّ ولا يُعرَف رجل له أربعة أختان خلفاء إلا هو .

غرائب أمور تتعلق بالخلفاء

امرأةٌ ولَدَها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وطلحة والزبير ؛ وهى حفصــة ابنةُ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ؛ أبوها محمد المديَّج ؛ وأمها خديجة بنتُ عثمان بنِ عُروة بنِ الزبير ، وأم عُرْوة أسماء بنت أبى بكر ، وأمُّ المدَبَّج فاطمة بنت الحسـين بن علىّ ؛ وأمُّ الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأمُّ فاطمة بنت الحسين أمُّ إسحاق بنت عُبَيد الله ؛ وأمُّ عبد الله بن عمرو زينبُ بنتُ عبد الله بن عمرَ بن الخطاب ، فهى من ولد كلٍّ من المذكورين .

أربع نسوة فى الإسلام ولدت كل واحدة منهنّ خليفتين؛ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولدت الحسن والحسَيْن ، وقد بُويِـع لهما بالخلافة ؛ ووِلَادة بنتُ العباس العَبْسـية زوجةُ عبد الملك بن مروان ولدتْ له الوليدَ وسليمانَ ؛ وهما

خليفتان، وساهر بنت فَيْروز بن يزدجرد زوجة الوليد بن عبد الملك ولدت له يزيدَ وإبراهيم فوُلِّيا الخلافة، والخَيْزُران ولدت للمهدىّ موسىٰ الهادى وهارونَ الرشيد .

آمرأة لهـا آثنا عشر مَحْرما كل منهم خليفة ، وهى عاتكةُ بنت يزيدَ بن معاوية ، يزيد أبوها ، ومعاوية بن أبى سفيان جدّها ، ومعاويةُ بن يزيد أخوها ، وعبدُ الملك آبنُ مروان زوجُها ، ومَرْوان بن الحكم حَمُوْها ، ويزيدُ بن عبدالملك آبنُها ، والوليدُ وسليمان وهشام أبناءُ عبد الملك أولاد زوجها (١) .

ومثلها من بنى العباس زُبَيدة بنتُ جعفر بن المنصور، جدُّها المنصور ، وأخو جدِّها السفَّاح ، وزوجُها الرشيد ، وعمُّها المهدى ، وآبنها الأمينُ ، وأبناءُ زوجها المأمون والمعتصِم والواثق والمتوكل .

خليفة سـلم عليه بالخلافة عمُّه وعمّ أبيه وعمّ جدّه ، وهو هارونُ الرشيد سلم عليه سليمانُ بن المنصور ، والعباس بن محمد عمُّ أبيه المهـدىّ ، وعبدُ الصمد بن علىّ عم جدّه أبى جعفر المنصور .

خليفة سلم عليه من أهل بيته سبعة كل منهم آبن خليفة ، وهو المتوكل، سلم عليه أحمد بن الواثق ، وأحمد بن المعتصم ، وسليمان بن المأمون ، وعبـد الله بن الأمين ، وأبو محمد (٢) بن الرشيد ، والعباس بن الهـادى ، ومنصور بن المهدىّ .

خليفة قَبَّل هو وآبنه يد خليفة فأجاز آبنه بجائزة ثم قبـل المقبِّلةُ يدُه هو وآبنه يد المقبِّل أوّلا وهو خليفة فأجاز آبنه بمثـل تلك الجائزة، وهو المعتصم ، وقف لإبراهيم آبن المهـدىّ أيام خلافته ثم نزل المعتصم فقبَّل يده ثم أدنىٰ منـه آبنه هارون فقبل يده ، وقال ياأمير المؤمنين عبدك هارونــ آبنى فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما

(١) المعدود تسعة فقط وكذا فى المثل بها فتنبه .

(٢) كذا فى الأصل .

ٱستُخْلِف المعتصم وقف له إبراهيم بن المهدى ثم ترجل فى ذلك الموضع بعينه وقبَّل يده وأدنى منه ٱبنه هبةَ الله فقبَّل يده ، وقال : يا أمير المؤمنين عبدك هبة الله ٱبنى فأمر له بعشرة آلاف درهم . قال الصولى ولا يعرف مثل ذلك لخليفتين وابنيهما .

خليفة جرت أموره كلها على ثمانية ، وهو المعتصم ، فهو الثامن من خلفاء بنى العباس ، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وكان ثامنَ أولاد الرشيد ، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وخلف ثمانية بنين ، وثمان بنات ، وثمانية آلاف دينار ، وثمانية وعشرين ألف درهم ، وثمانية عشر ألف دابة ، وله ثمان فتوحات ، وتوفى لثمان بقين من شهر ربيع الأوّل ومن ثَمَّ سمى المثمّن .

خليفة له عشرة أولاد وعشرة إخوة ، وعشرة أولاد إخوة ، وهو مروان بن الحكم فأولاده العشرة عبد الملك ، ومعاوية ، وعبد العزيز ، وقُسّ ، وعمر ، ومحمد ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وأيوب ، وداود . وإخوته (١) عبد الواحد ، وعبد الملك ، وعبد العزيز ، وسعيد بنو الحارث بن الحكم ؛ وحرب ، وعثمان ، وعمر بنو عبد الرحمن ٱبن الحكم ، ويوسف ، وسليمان ، ويحيى بنو يحيى بن الحكم .

ليلة ولد فيها خليفة ، ومات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ؛ وهى ليلة السبت لأربع بقيت من ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة ؛ ولد فيها المأمون ، ومات فيها الهادى ، واستخلِف فيها الرشيد ؛ ولا يعهد مثل ذلك فى زمن من الأزمان .

خليفتان أحدهما ٱبن الآخر بين قبريهما بُعْد كبير ؛ وهما الرشيد والمأمون ، قبر الرشيد بطُوس وقبر المأمون بطَرَسُوس .

---

(١) المعدود أولاد اخوة وسقطت الاخوة من قلم الناسخ .

خليفة ركب البَرِيد ؛ وهو موسىٰ الهـادى ، مات أبوه المهدىّ وهو نائبـه علىٰ جُرْجان، فكتب إليه الرشيد بالخبر والبيعة ووجه إليه الخاتم والبُرْدة والقضيب فركب البريد وأتىٰ إلىٰ بغداد بعد ثلاثة عشر يوما من موت المهدىّ، ولا يعرف خليفة ركب البريد غيره .

خليفتان آسم كل منهما جعفر قتل كل منهما فى يوم الأربعاء وهمـا المتوكل والمقتدر .

خليفة وَلِىَ الخلافة ستين سنة متوالية ؛ وهو المستنصر بالله الفاطمىّ خليفة مصر علىٰ أن الثعالبىّ فى "لطائف المعارف" قال آستقرت ولاية معاوية بن أبى سفيان أربعين سنة عشرون منها إمارة وعشرون منها خلافة .

خليفة كانت خلافته يوما أو بعض يوم، هو عبـد الله بن المعتز، بويع بعد خلع المقتدر، فلمـا كان من الغد حاربه غِلْمـان المقتدر وعاونهم العامّة فهرب وآختفىٰ ثم ظفر به .

أربعة إخوة ولى كل منهم الخلافة، وهم الوليد، وسليمان، ويزيد، وهشام أولاد عبد الملك بن مروان .

لم يل الخلافة من أبوه حىّ سوىٰ أبى بكر الصـدّيق والطائع لله وكلاهمـا آسمه أبو بكر .

لم يل الخلافة مَن أبواه هاشميّان سوىٰ الحسن بن علىّ من فاطمة ومحمد الأمين آبن الرشيد من زبيدة .

لم يل الخلافة من آسمه العباس سـوىٰ أمير المؤمنين المستعين بالله أبى الفضـل العباس بن المتوكل علىٰ الله محمد خليفة العصر، علىٰ كثرة هذا الآسم فى أولاد الخلفاء العباسـيين وكونه آسم جدّهم الأكبر . قلت : وقد أخبرنى أمير المؤمنين المستعين

المشار إليــه أن تسميته العباس كانت برؤيا رآها الشــيخ بدر الدين البهنسيّ بمكة المشرفة، رأىٰ العباس بن عبد المطلب رضى الله عنــه فى النوم، وهو يقول له قل لولدى محمد، (يعنى المتوكل علىٰ الله) إذا ولد له ولد يسميه العباس .

وســيأتى ذكر ذلك فى الكلام علىٰ العهد الذى أنشأه قبل ولايتــه الخلافة بنحو ثمان سنين آمتحانا للخاطر فى جملة العهود فى المقالة الخامسة .

(أعجوبة) قال الصولى : الناس يَرَوْن أن كل سادس يقوم بأمر الدّين منذ أوّل الإسلام لا بد أن يخلع، النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، والحسن نخلع . ثم معــاوية، ويزيد، ومعاوية، ومروان، وعبد الملك، وعبد الله آبن الزبير نخلع . ثم الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام، والوليد بن يزيد نخلع . ثم كان منهم يزيد بن الوليد، وابراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد وهو آخرهم ولم يكن من بعده من بنى أمية من يتم العدد بهم ستة فألغى .

ثم كانت الدولة العباسية فكان السفّاح، والمنصور، والمهدىّ، والهادى، والرشيد، والأمين نخلع . ثم المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين نخلع . ثم المعتز، والمهتدى، والمعتمد، والمعتضد، والمكتفى، والمقتدر نخلع فى فتنة المعتز . ثم ردّ إلىٰ الخلافة ثم قتل، ولم يعتدّ بخلافة آبن المعتز لخلعه فى يومه . قال صاحب "رأس مال النــديم" والثعالبىّ فى "لطائف المعارف": ثم القاهر، ثم الراضى، ثم المتقى، ثم المستكفى، ثم المطيع، ثم الطائع نخلع . قال الصلاح الصفدى : ثم القادر، والقائم، والمقتدى، والمستظهر، والمسترشد، والراشد، نخلع . ثم المقتفى، والمستنجد، والمستضىء، والناصر، والظاهر، والمستعصم نخلع وقتل أيام هولاكو عند آستيلائه علىٰ بغداد .

قلت : هذا غلط فاحش من الصلاح الصفدىّ لا يليق بمثله فانه أســقط قبل المستعصم المستنصر وهو السادس .

وقد ذكر الشيخ شمس الدين آبن نباتة فى تاريخ الخلفاء أنهم لما بايعوا المستنصر المذكور خلعوه ثم أعادوه فرارا من التطير بخلع السادس ، وحينئذ فيكون من بعد المستنصر المستعصمُ المذكور ثم المستنصر أحمد، الذى أتى به الظاهر بيبرس وتوجه إلى الديار المصرية، ثم الحاكم أحمد، ثم آبنه المستكفى سليمان ، ثم آبنه المستعصم أحمد، ثم الواثق، إبراهيم فخلع . ثم المعتضد أبو بكر بن المستكفى، ثم آبنه المتوكل، ثم المعتصم زكريا ، ثم الواثق عمر، ثم المستعين أبو الفضل العباس خليفة العصر أدام الله أيامه وهو الخامس والله تعالى أعلم بمن يكون السادس وما يكون من أمره .

قال الصلاح الصفدى : وكذلك العُبَيْدِيُّون المعروفون بالفاطميين كان منهم بالمغرب عبد الله المهدى، والقائم بأمر الله، والمنصور، والمُعِزّ بانى القاهرة بالمغرب ثم بمصر والعزيز، والحاكم فقتلته أخته . ثم الظاهر، والمستنصر، والمستعلى، والآمر، والحافظ، والظافر فخلع وقتل؛ ثم الفائز، والعاضد وهو آخرهم . قال وكذلك بنو أيوب فى ملك مصر أوّلهم صلاح الدين، ثم ولده العزيز، وأخوه الأفضل بن صلاح الدين، والعادل الكبير أخو صلاح الدين ، والكامل ولده ، والعادل الصغير فخلع . ثم كان منهم الصالح نجم الدّين أيوب، ثم المعظم توران شاه، ثم أم خليل شجرة الدّر، ثم الأشرف موسى وهو الرابع ولم يكن منهم من يكمل الستة . قال : وكذلك دولة الأتراك ملوك مصر أوّلهم المعز أيبك، وآبنه المنصور، والمظفر قُطز، والظاهر بيبرس، وآبنه السعيد بَرَكة، وأخوه العادل سلامش فخلع؛ وملك السلطان الملك المنصور قلاوون .

قلت : ثم آبنه الأشرف خليل، ثم المعظَّم بيدرا ولم يعتدّ به لخلعه من يومه كما لم يعتدّ بابن المعتز فى الخلفاء، ثم الناصر محمد بن قلاوون، ثم العادل كتبغا، ثم المنصور لاچين، ثم المظفر بيبرس الجاشنكير فخلع؛ ثم المنصور أبو بكر بن الناصر محمد، ثم الأشرف كچك ابن الناصر محمد، ثم الناصر أحمد بن الناصر محمد، ثم الصالح إسماعيل بن الناصر محمد،

ثم الكامل شعبان بن الناصر محمد ، ثم المظفر حاجى بن الناصر محمد نخلع ؛ ثم الناصر حسن بن الناصر محمد، ثم الصالح صالح بن الناصر محمد، ثم المنصور محمد بن المظفر حاجى ، ثم الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد ، ثم آبنه المنصور على ، ثم الصالح حاجى بن الأشرف شعبان نخلع ؛ ثم الظاهر برقوق ، ثم الناصر فرج سلطان العصر وهو الثانى والله أعلم بمن يكون السادس .

غرائب تتعلق بالملوك

ملك مُلِّك وهو فى بطن أمه ؛ وهو سابور ذو الأكتاف أحد ملوك الفرس ، مات أبوه وهو حمل ولم يكن له ولد سواه ، فعقَدوا التاج علىٰ رأس أمه علىٰ أن يكون من فى بطنها هو الملك كائنا من كان ، فلما وضعته ملَّكوه .

ثلاثة من ملوك فارس آبن وأب وجدّ آسمهم واحد ، وهم بهرام بن بهرام بن بهرام ؛ ومثلهم من ملوك غسان من العرب الحارث بن الحارث بن الحارث . قال الثعالبيّ : وهذا التناسق لايقع إلا فى الأكابر والرؤساء وقد جاء من هذا النمط فى سادات الإسلام الحسن بن الحسن بن الحسن السبط .

ملكان إسلاميان أوّل آسم كل واحد منهما عين قتل كل واحد منهما ثلاثة ملوك أوّل آسم كل واحد منهم عين ، أحدهما عبد الملك بن مروان قتل عمرَو بن سعيد وعبدَ الله بن الزبير وعبدَ الرحمن بن محمد بن الأشعث . والثانى أبو جعفر المنصور اسمه عبد الله قتل أبا مسلم الخراسانى وآسمه عبد الرحمن وعمه عبد الرحمن بن على وعبد الجبار بن عبد الرحمن والى خراسان .

قال الثعالبيّ : أربعة فى الإسلام قتل كلُّ واحد منهم أكثر من ألف ألف رجل ، وهم الحجاج بن يوسف ، وأبو مسلم الخراسانى ، وبابك ، والبرقعي .

قلت : وقد وقع لتيمور كور كان المعروف بتمرلنـك صاحب ما وراء النهر علىٰ رأس الثمانمائة من الهجرة ما هو أ كثر من ذلك، فإنه قد فتح من الهنـد إلىٰ الخليج القسطنطيني، وقتل من كل إقليم من الخلق مالا يحصىٰ حتّى كان يبنى بالرءُوس فى كل مدينة يفتحها منارا .

غرائب تتعلق بسَرَاة الناس

ثلاثة بنو أعمام فى زمن واحد، كل منهم سيد جليل، لم يصلحُ للإمامة أو الرياسة ثم كان لكل منهم ٱبن ٱسمه محمد كذلك ، وهم علىّ بن عبد الله بن عباس وٱبنه محمد وعلىّ بن الحسـين بن علىّ بن أبى طـالب وٱبنه محمد، وعلىّ بنُ عبدِ الله بن جعفر ابن أبى طالب وٱبنه محمد . قال الجاحظ وهذا من غرائب ما يتفق فى العالَم ، فإن هذا أمر لم يشاركهم فيه أحد .

أب وٱبن تقارب ما بينهما من العمر تقاربا شديدا وهما عمرو بن العـاص وٱبنه عبد الله كان بينهما فى السن ثلاث عشرة سنة . قال الثعالبىّ ولا يعهد مثل ذلك .

أخوان تباعد ما بينهما فى السن تباعدا شديدا وهما موسىٰ بن عبيدة الرَّبَذى (١) المحدّث وأخوه عبد الله كان بينهما فى السن مائة سنة ولم يعرف مثل ذلك فى غيرهما .

أربعة إخوة كل واحد منهم أسنُّ من الآخر بعشر سنين ، وهم أولاد أبى طالب كان طالب أسنَّ من عَقِيل بعشر سنين، وعَقِيل أسنَّ من جعفر بعشر سنين، وجعفر أسنَّ من أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب بعشر سنين .

ثلاثة إخوة ولدوا فى سنة واحدة وقتلوا فى يوم واحد وسن كل واحد منهم اثنتان وأربعون سنة، وهم مِزْيد ، وزياد، ومدرِك أولاد المهَلَّب بن أبى صُفْرة . وهذه من غرائب النوادر .

(١) فى الأصل الزبيرى وهو تصحيف عن الربذى كما يعلم من الخلاصة للخزرجى .

رجل مكث عشر سنين لا يولَد له إلا رجل ولا يموت له إلا أنثى، وهو المهلّب آبن أبى صُفْرة فى غير أولاده الثلاثة المذكورين .

أربعة رجال فى الإسلام لم يمت كل منهم حتّى رأىٰ من ولده وولد ولده أكثَرَ من مائة فيما قاله الثعالبيّ وغيره ، وهم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخليفة بن براء السعديّ ، وعبد الرحمن بن عمر الليثى ، وجعفر بن سليمان الهاشمى؛ ومنهم من يذكر بدله أبا بكرة مولى النبى صلى الله عليه وسلم .

خمسة إخوة تباعدت قبورهم أشدّ تباعد، وهم بنو العباس بن عبد المطلب قبر عبد الله بالطائف، وقبر عبيد الله بالمدينة، وقبر معَدّ بافريقيَةَ، وقبر الفضل بالشام، وقبر قُثَم بسمَرْقَند .

قاض قضى فى الإسلام خمسا وسبعين سنة وهو شريح بن الحارث الكِنْدىّ آستقضاه عمر علىٰ الكوفة فبقى بها خلافة عمر وما بعدها إلىٰ تمام المدّة المذكورة لم يتعطل منها سوىٰ ثلاث سنين آمتنع فيها من القضاء فى فتنة آبن الزبير .

أوصاف جماعة من المشاهير

"من كان من الخلفاء أصْلَعَ" قال الثعالبيّ : كان الصَّلَع فى عمر ، وعثمان، وعلىّ، ومروان بن الحكم، وعمر بن عبد العزيز؛ قال ثم آنقطع الصلع من الخلفاء .

" من كان فى غاية الطول " ، كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه كأنّه راكب والناس يمشُون لطوله ؛ وكان عدِىّ بن حاتم إذا ركب تكاد رجلاه تخط فى الأرض؛ وكذلك جَرِير بن عبد الله البَجَلىّ ، وكان قُسّ بن ساعدة فى نهاية الطول والجَسَامة ، وكان عبد الله بنُ زياد إذا رءاه الرائى وهو ماشٍ ، ظن أنه راكب لطوله ؛ وكان علىّ بن عبد الله بن عباس فى غايةٍ من الطُّول، وكان أبوه عبد الله أطولَ منه ، وجدّه

العباس أطولَ من أبيه ؛ ويقال إن جَبَـلة بن الأيهـم الغَسَّانيّ كان طوله اثنَىْ عشر شبرا .

"من كان فى غاية القصر" قال الثعالبيّ : كان عبدُ الله بن مسعود رضى الله عنه شـديدَ القِصَر يكاد الجُلُوس يوازونه من قصره ؛ وكان إبراهيم بن عبـد الرحمن بن عوف قصيرا دَحْداحا ، وكان الحُطَيئة الشاعر مُفْرِط القصر ، ولذلك لُقِّب بالحُطَيئة ، وكان ذو الرُّمَّة الشاعر قصـيرا جدّا ؛ ورأيت فى بعض التواريخ أن كُثَيِّر عَزَّة كان طوله ثلاثة أشبار ؛ وكان العباس بن الحسن فى غاية من القِصر وفيه قيل :

لا تَنْظُرَنَّ إلىٰ العَبَّـاسِ مِنْ قِصَرٍ * وٱنظُرْ إلىٰ الفَضْلِ والمَجْدِ الذى شادَا
إنَّ النُّجومَ نُجُومَ الجَوِّ أصـغَرُها * فى العَيْنِ أبعَدُها فى الجَوِّ إصْعادا

"من عُرِف بالدهاء من العرب" مُعاوِية بن أبى سفيان ، زِيادُ ابن أبيه ، عمرو بن العاص ، المُغِيرة بن شُعْبة ، قَيْس بن سَعْد بن عُبَادة ، عبدُ الله بن بُدَيل الخُزاعى .

"من نُسِب منهم إلىٰ الحُمْق" عامر بن كُرَيْز ، معاوية بن مَرْوان بن الحكم ، بَكَّار ٱبن عبد الملك بن مروان ، العاص بن هشام ، عبد الله بن معاوية بن أبى سفيان ، سهل بن عمرو وأخوه سُهَيل ، العاص بن سعيد بن العاص .

"المؤلفة قلوبهـم فى أوّل الإسلام" قال الثعالبيّ : هم من قريش أبو سـفيان ٱبنُ حرب ، وسُهَيل بن عمرو ، وحُوَيطب بن عبد العُزّى ، وهَبَّار بن الأسود ، والحارثُ بن هشام ، وحَكِيم بن حِزام ، وصَفْوان بن أُمَيَّة ، وأنس بن عدى . ومن فَزَارة عُيَيْنة بن حِصْن . ومن تميم الأقرع بن حابس . ومن بنى سُـلَيم العَبَّاس بن مِرْداس . ومن ثَقِيف العَلَاء بن الحارث .

"من أصيبت عينه" أبو سـفيان بن حرب ، ذهبت عينه يوم الطائف ثم عمِى بعد ذلك . الأشعث بن قَيْس ، ذهبت عينه يوم اليَرْمُوك ، المغيرة بن شُعْبة كذلك

الأشتر النخَعِىّ جَرِير بن عبد الله البَجَلى، عدىّ بن حاتم، عُتْبة بن أبى سفيان، المختار ابن أبى عُبَيد، الأحنَف بن قَيْس، المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرة، طاهرُ بن الحسين، عمرو ابن الليث الصَّفَّار.

"من سُمِلتْ عيناه من الخلفاء والملوك" أما من الخلفاء فالقاهر، والمتقى، والمكتفِى؛ وأما من الملوك فهُرْمزُ بن أنو شروان أحد الملوك الأكاسرة، صَمْصام الدولة بن بويه، منصور بن نوح بن منصور السامانى.

"من كان مكفوف البصر من أشرف الناس" زُهْرة بن كلاب بن كعب؛ عبدُ المطلب بنُ هاشم؛ العَبَّاس بن عبد المطلب؛ الحَكَم بن العاص؛ أبو سفيان بن حرب؛ الحارث بن العبَّاس بن عبد المطلب؛ مُطْعِم بن عدى بن نَوْفَل بن عبد مناف؛ أبو بكر بنُ عبد الرحمن بنِ الحارث بن هشام بن المغيرة؛ عُتْبة بن مسعود الهذلى، عبد الله بن عُبَيْد الله بن عُتْبَة؛ أبو أحمد بن جَحْش بن مسعود الأسدى؛ جابر بن عبد الله الأنصارى، عبد الله بن أرقم؛ البَرَاء بن عازب؛ حَسَّان ابن ثابت؛ أبو أُسَيْد الساعدى؛ قتادة بن دِعامة؛ دُرَيد بن الصِّمَّة الجُشَمىّ؛ عزمة ابن نَوْفل الزُّهْرى؛ الفاكه بن المغيرة المخزومىّ؛ جَذيمة بن حازم النهشلى؛ أبو العباس الشاعر؛ على بن زيد بن جُدْعان؛ المغيرة بن مِقْسَم الضبىّ؛ الترمذىّ الكبير الحافظ الفقيه؛ منصور الشاعر المِصرىّ؛ ابن سِيده اللُّغوىّ؛ أبو العَلَاء المَعَرّى؛ بَشَّار بن بُرْد؛ أبو البقاء العُكْبَرىّ؛ أبو العَيْناء هشامُ بن معاوية الضرير النحوىّ الكوفىّ؛ أبو القاسم السُّهَيْلى صاحب الروض الأُنُف؛ أبو القاسم الشاطبىّ؛ الصرصرىّ الشاعر؛ أبو الحسن علىّ بن عبد الغنى الحصرى؛ أبو عبد الله بن خَلَصة المغربى النحوى؛ أبو عبد الله بن الخَيَّاط.

أصحاب العاهات من الملوك

من ملوك اليونان الإسكندر، كان أحنَف . ومن ملوك الفُرْس أَنُو شَرْوان كان أعور، يزدجرد كان أعرجَ . ومن ملوك العرب جَذِيمة الوَضَّاح، كان أبرص، النُّعمان آبن المنذر، كان أحمر العينين والشَّعر . ومن الخلفاء عبدُ الملك بنُ مرْوان أبْخر، يزيد آبن عبد الملك أفقَم، هِشَام بن عبد الملك أحْوَل، مَرْوان الحِمار أشقر أزرق، موسى الهادى شفته العُلْيا متقلصة، حتّى كان أبوه المهدى قدرتَّب له خادما يلازمه متى غَفَل وفتح فاه قال: موسى أطبق، إبراهيم بن المهدى كان أسود سَمِينا يلقَّب بالتِّنِّين .

ومن أشراف قريش وغيرهم أبو طالب أعرجُ، وأبو جَهْل أحولُ، أبو لَهَب كذلك، وكذلك زِياد، وعديٌّ بن زيد . الأحنفُ بن قيس، أحنفُ متراكِب الأسنان، صَعِل الرأس، مائل الذَّقَن . والرَّبيع بن زِياد أبرصُ، وكذلك الحارث بن حِلِّزة، وأيْمَن بن خُرَيم، والحسن بن قَحْطَبة، وكان عَبِيدة السَّلْمانىُّ أصمَّ، وكذلك آبن سيرينَ والكُميتُ الشاعر، والمرَقِّش الأكبر الشاعر أجدع .

أصحاب النوادر

ابن أبى عَتِيق، أشعبُ الطَّمِع، أبو الغُصن جُحَا، أبو العِبَر، أبو العَنْبَس، ابن الجصاص مِزْيد المدنىّ .

أجواد الإسلام

عُبيد الله بن عباس بنِ عبد المطلب، عبدُ الله بن جعفر بن أبى طالب، سعيدُ آبن العاص بن سعيد بن العاص بن أُمَيَّة، عبد الله بن عامر بن كُرَيز، حمزَة بنُ عبد الله بن الزبير بن العوّام، عُمَر بن عبيد الله بن مَعْمَر التيمىّ (١)، خالد بن عبد الله

(١) فى العقد الفريد اسم الجَوَاد عبيد الله بن معمر القرشىّ ثم التيمى .

ابن خالد بن أسد بن العاص ، قيس بن سعد بن عُبَادة الأنصارى ، عَتَّاب بن أبى وَرْقاء الحنظلىّ ، أسماء بن خارجة بن حِصن بن بدر الفَزَارىّ ، عبد الله بن أبى بكرة مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطَّلَحات المعروفون بالجُود

طلحة الفَيَّاض — وهو طلحة بن عبيد الله أحدُ العشرة ؛ وطلحة الجُود — وهو طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معْمَر التيمى ؛ وطلحة الدراهم — وهو طلحة بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق ؛ وطلحة الخير — وهو طلحة بن الحسن بن علىّ آبن أبى طالب ؛ وطَلْحة الندىٰ — وهو طلحة بن عبد الله بن عوف الزُّهْرى ؛ وطَلْحة الطَّلَحات — وهو طلحة بن عبد الله بن خَلَف الخُزَاعىّ .

أزواد الركب ثلاثة من قريش وهم مسافر بن أبى عمرو بن أُمَيَّة (١) ، وزمعة (١) ابن الأسود بن المطلب بن عبد العُزّى بن قُصَىّ ، والمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم : سُمُّوا بذلك لأنهم لم يتزوّد معهم أحد فى سفر قطّ لجُودهم .

من آشتهر عند أهل الأثر بلقبه

غَسيل الملائكة ، وهو حنظلة بن أبى عامر الأنصارى أصيبَ يوم أُحُد فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم أن الملائكة غَسَّلته . قتيل الجن ، هو سعد بن عُبَادة ، بال فى جُحْر فقتله الجن . مُصَافح الملائكة ، هو عِمْران بن حُصَيْن . حَمِىّ الدَّبْر ، هو عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح ، حَمتْه النحلُ إلىٰ أن كان الليـلُ . ذو الشَّهادتين هو خُزَيمة بن ثابت الأنصارى ، شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقضاء دينِ اليهودىّ حين أخبر النبىُّ صلى الله عليه وسلم أنه وفَّاه ، اعتمادا علىٰ خبر النبى صلى الله عليه

(١) فى الأصل مسلمة ... ... و ربيعة وهو سبق قلم من الناسخ والتصحيح من القاموس وشرحه .

وســلم ، فجعل صلى الله عليه وســلم شهادتَه بشهادتين . ذو العَيْن ، هو قتادة بن النعمان ، أصيبت عينه يوم أحد فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ . ذو اليدين هو عُبَيْد بن عَبْدِ عمرو الخزاعيّ كان يعمل بيــديه معا . ذو العِمامة ، هو أبو أُحَيْحة سعيدُ بن العاص بن أُميَّة ، كان إذا لبِس عمامته لم يلبَسْ قرشيٌّ عمامته حتّى ينْزِعها . ذو الثُّدَيَّة ، كانت إحدى يديه مُخْدَجة كالثدى ، كان رأس الخَوارج . ذو الثَّفِنَات ، كان يقال ذلك لعليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، ولعليّ بن عبد الله بن عباس لمـا علىٰ أعضاء السَّجَدات منهما من شبه ثَفِنات البعير . ذو السَّيْفين ، هو أبو الهيثم آبن التَّيِّهان ، سمى بذلك لتقلُّده فى الحرب بسيفين . سَيْف الله ، هو خالد بن الوليد . أســدُ الله ، هو حمزة بن عبد المطلب . ذات النِّطَاقين ، هى أسمــاءُ بنتُ أبى بكر ، سميت بذلك لأنها شَقَّت نِطاقها للسُّفرة فى الليلة التى هاجر النبى صلى الله عليه وســلم هو وأبوها إلىٰ المدينة . عُرْوة الصَّعَاليك ، هو عُرْوة بن الوَرْد ، كان إذا شَكا إليه أحد أعطاه فرسا ورُمْحا وقال له : إنـــ لم تستغْنِ بذلك فلا أغناك الله . سُــلَيك(١) المَقَانب ، هو سُــلَيك بن سُــلَكة ، كان أعدىٰ الناس حتّى إن الفرس لا يُدْرِكه . طُفَيل الأعراس ، رجل من غَطَفان ؛ وقيل هو من مَوالى عُثْمان بن عفَّان رضى الله عنه ، كان يتتبع الأعراس فيأتيها من غير دَعْوة وإليه تنسب الطُّفَيليَّة . أشجُّ بنى أمية هو عمرُ بنــ عبد العزيز . جبارُ بنى العَبَّاس هو هارونُ الرشيد : لأنه أغزىٰ آبنَه القاسمَ الرومَ فقتل منهم خمسين ألفا ، وأخذ منهم خمسة آلاف دابَّة بالسُّروج واللُّجُم الفِضَّة ، وأغزىٰ علىَّ بنَ عيسى بن ماهانَ بلادَ التُّرك فقتل منهم أربعين ألفا ، وغزا هو بنفسه بلاد الروم ففتح هِرَقْلَة ، وأخذ الجزية من مِلك الروم . بَنَات طارق ، هنّ بنــات العلاء بن طارق بن أُمية بن عبد شمس ؛ سُمِّين بجَدّهنّ ، يضرب بهنّ المثل

(١) فى الأصل سليل باللام وهو تصحيف انظر اللسان فى مادة س ل ك .

فى الحسن والشرف . بنات الحارث ، هنّ بنات الحارث بن هشام ؛ يُضرب بهنّ المثل فى الحُسْن وغلاء المهر .

من كان فردا فى زمانه بحيث يضرب به المثل فى أمثاله

كان الإسكندر ، فى طَوَفان الأرض ، وكسرىٰ أنُوشَرْوان ، فى العدل ، وزرقاءُ اليمامة ، فى حِدّة النظر ، وحاتم الطائىّ ، فى الكرم ، وكعبُ بنُ مامةَ ، فى الإيثار ، وارسطاطاليس ، فى الحكمة ، وبقراط ، فى الطب ، وقُسّ بن ساعدة ، فى الفَصاحة ، وسَحْبان وائل ، فى البلاغة ، وعمرو بن الأهتم ، فى البيان ، وباقل ، فى العِىّ ، وأبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فى معرفة الأنساب ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى قوّة الهَيْبة ، وعثمان بن عفان رضى الله عنه ، فى التِّلاوة ، وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فى القَضاء ، ومعاوية ، فى كثرة الآحتمال ، وأبو عبيدة بن الجرّاح ، فى الأمانة ، وأبو ذرّ ، فى صدق اللّهْجة ، وأبىّ بن كعب ، فى القرءان ، وزيدُ بن ثابت ، فى الفرائض ، وآبنُ عباس ، فى تفسير القرءان ، وعمرو بن العاص ، فى الدّهاء ، وأبو موسىٰ الأشعرىّ ، فى سَلامة الباطن ، والحسن البصرىُّ ، فى الوعظ والتذكير ، ووهْب بن منبِّه ، فى القَصَص ، وآبن سِيرينَ ، فى تعبير الرؤيا ، ونافع ، فى القراءة ، وأبو حنيفة ، فى القياس فى الفقه ، وآبن إسحاق ، فى المغازى ، ومقاتل ، فى التأويل ، والكلبىّ ، فى قَصَص القرءان ، وآبن الكلبىّ الصغير ، فى النسب ، وأبو الحسن المدائنى ، فى الأخبار ، ومحمد بن جرير الطبرىّ ، فى عُلُوم الأثر ، والخليل بن أحمد ، فى العَرُوض ، وفُضَيل بن عياض ، فى العبادة ، ومالك بن أنس ، فى العلم ، والشافعىّ ، فى فقه الحديث ، وأبو عبيدة ، فى الغَرِيب ، وعلىّ آبن المدِينى ، فى عِلَل الحديث ، ويحيىٰ بن مَعِين ، فى رجال الحديث ، وأحمد بن حنبل ، فى السنة ، والبخارى ، فى نقد الصحيح ، والجنيد ، فى التصوّف ، ومحمد بن نصر المروزىّ ،

فى الاختلاف ، وأبو علىّ الجُبَّائى ، فى الاعتزال ، وأبو الحسن الأشعرىّ ، فى علم الكلام ، وأبو القاسم الطبرانى ، فى عوالى الحديث ، وعبدُ الرزاق ، فى ارتحال الناس إليه ، وابن مَنْده ، فى سعة الرحلة ، وأبو بكر الخطيب ، فى سُرْعة القراءة ، وابن حزم ، فى مَذْهب الظاهر ، وسيبويه ، فى النحو ، وأبو الحسن البكرى السيرى ، فى الكذب ، وإياسُ بن معاوية ، فى الذكاء والتفرّس ، وعبدالحميد ، فى الكتابة والوفاء ، وأبو مسلم الخُراسانىّ ، فى علوّ الهمة والحزم ، وإسحاق الموصلىّ النـديم ، فى الغِناء ، وأبو الفرج الأصفَهانى صاحب الأغانى ، فى المحاضرة ، وأبو معشر ، فى النُّجوم ، والرازى ، فى الطّب ، وعمّار بن حمزة ، فى التّيه ، والفضل بن يحيىٰ ، فى الجُود ، وجعفرُ بن يحيىٰ ، فى التوقيع ، وابن زيدُونَ ، فى سَعَة العبارة ، وابن القِرّية ، فى البلاغة ، والجاحظ ، فى الأدب والبيان ، والحريرىّ ، فى المقامات ، والبديع الهَمَذانى ، فى الحفظ ، وأبونُوَاس ، فى المجُون والخلاعة ، وابن حَجّاج الشاعر ، فى سُخْف الألفاظ ، والمتنبى ، فى الحِكَم والأمثال شعرا ، والزمخشرىّ ، فى تَعاطِى العربية ، والنَّسَفى ، فى الجَدَل ، وجَرِير الشاعر ، فى الهجاء الخبيث ، وحمّاد الراوية ، فى شعر العرب ، والاحنف بن قيس ، فى الحِلْم ، والمأمون ، فى حُبّ العفو ، والوليد ، فى شُرْب الخمر ، وعطاء السُّلمىّ ، فى الخوف من الله تعالىٰ ، وابن البوّاب ، فى الكتابة ، والقاضى الفاضل ، فى الترسُّل ، والعِماد الكاتب ، فى الجِناس ، وأشعبُ ، فى الطمع ، وأبو نصر الفارابى ، فى معرفة كلام القدماء ونَقْله وتفسـيره ، وحُنَين بن إسحاق ، فى ترجمة اليونانى إلىٰ العربى ، وابن سينا ، فى الفلسفة وعلوم الأوائل ، والإمام فخر الدّين الرازى ، فى الاطّلاع علىٰ العلوم ، والجاحظ فى سَـعَة العبـارة ، والسيف الآمِدىّ ، فى التحقيق ، والنصير الطُّوسى ، فى معرفة المجسطى ، وابن الهيثم ، فى الرياض ونجم الدين الكاتبى ، فى المنطِق ، وابن الأعرابى ، فى الاطّلاع علىٰ اللغة ، وأبو العيناء ، فى الأجوبة المسكتة ، ومزْيد ، فى البخل ، والقاضي أحمد بن أبى دواد ، فى المُروءة

وحُسْن التقاضى؛ وآبن المعتز، فى التشبيه، وآبن الرُّومى، فى التطيُّر، والصولى فى الشِّطْرنج، والغزالى، فى الجمع بين المعقول والمنقول، وأبو الوليد بن رُشْد، فى تلخيص كتب الأقدمين الفلسفية والطبية، ومحيي الدين بن عربى، فى علوم التصوّف، وجابر ابن حيان فى علم الكيمياء .

غرائب آتفاق

اتفاقية جليلة — وُلِد النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وبُعِث يوم الاثنين، وهاجر يوم الاثنين، وتُوفِّى يوم الاثنين .

اتفاقيــة أخرى — قَتَل عبدُ الله بن زياد الحســينَ بنَ علىّ عليهما الســلام يوم عاشوراء، وقتله الله علىٰ يد إبراهيم بن الأشتر فى يوم عاشوراء .

أخرىٰ — قال عبد الملك بن عمير الليثىّ : رأيت فى قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بنِ علىّ بين يدى عبــد الله بن زياد علىٰ تُرْس؛ ثم رأيت فيه رأس عبــد الله آبن زياد بين يدى المختار بن أبى عُبيد؛ ثم رأيت فيه رأس المختار بين يدى مُصْعَب آبن الزبير؛ ثم رأيت فيه رأس مُصْعَبٍ بين يدى عبــد الملك بن مروان . قال : فحدّثت بهذا عبد الملك بن مروان فتطير منه ففارق مكانه .

أخرى — قال الصولى : حدّثنى الحسين بن يحيىٰ الكاتب أنه لمـا وَلى المعتز لم تمض مدّة لطيفة حتّى أحضر الناس وأُخْرِج المؤيد(١) وقيل آشهدوا أنه دُعِىَ فأجاب، وليس به أثر؛ ثم مضت مدّةُ شهر فأحضر الناس وأُخْرِج المستعين وقال : إن منيته أتت عليه، وها هو لا أثر به فآشهدوا ؛ ثم خُلِـع المعتز، وآستخلف المهتدى ؛ ولم يمض إلا مُدَيْدة حتّى أُخْرِج المعــتزُّ ميتا وقال : اشهدوا ، أنه قد مات حتف أنفه

---

(١) أى ميتا .

ولاأثر به؛ ثم لم تكمل السنة حتى آستُخْلِف المعتمد فأُخْرِج المهتدى ميتا وقال: اشهدوا أنه قد مات حَتْفَ أنفه من جراحته، فتعجب الناس من تلاحُقِهم فى مدّة يسيرة .

عِبْرة — مات المكتفى بالله عن مائةِ ألف ألف دينار، ولما غُسِّل لم توجد مِجْمَرة يبخر فيها إلا مجمرةً من خَزَف أحمرَ، وكان فيما خلف ألوف من مجامر الذهب والفضة . قال أحمد بن أبى دواد : لقد شددت لحيِ المأمون، والمعتصم، والواثق، بعد موتهم فلم أجد خرقة أشدّ بها لَحْيَ واحد منهم إلا ما أخرقه من الداريع التى تكون علىّ .

لطيفة — فى سنة ثلاث وثمانين ومائتين أمر المعتضد بردّ فاضل سِهام المواريث علىٰ ذوى الأرحام، وأبطل ديوانَ المواريث، وكتب بذلك إلىٰ الآفاق .

لطيفة — فى سنة أربع وثمانين ومائتين أخبر المنجمون بغَرَق أكثر الأقاليم بسبب كثرة الأمطار وزيادة الأنهار فتحفَّظ الناس من ذلك فقلَّت الأمطار حتى آستَسْقَوْا ببغداد مرَّات .

غريبة — ذكر آبن سينا فى المقالة الأولىٰ من كتابه الشفاء أنه نزل بجُرْجان صاعقةٌ من الهواء فنشبت فى الأرض، ثم نبَتْ نَبْوة الكُرة وسمع الناس لذلك صوتا عظيما هائلا فحفَرُوا عليها فإذا هى قطعة من حديد تقديرمائة وخمسين منًّا، وهى أجزاء جاوَرْشيّة صغارٌ مستديرة؛ التصق بعضها ببعض، فكتب محمود بن سبكتكين، صاحب خراسان بانفاذه إليه أو قطعة منه فتعذر نقله لثِقَله فحاولُوا كسر قطعة منه فلم تعمل فيه الآلات، فعُولج كسره فقطع منه قطعة لطيفة، وحملت إليه فرام أن يُطْبَع منها سيفا فتعذر عليه .

لطيفة أخرى — فى سنة إحدىٰ عشرة وخمسمائة جاء سيلٌ عظيم فغرّق مدينة سِنْجار من بلاد الجزيرة، وهدم المنازل، وأغرق خلقا كثيرا . ومن غريب ما حكي

أن السيل حمل مَهْدا فيه صبيّ صغير فتعلق المهد بشجرة زيتون ، وغاض المـاء، وبقي المهد معلّقا بالشجرة فسلم الصغير .

أُعجوبة — فى سنة ستين وأربعمائة كان بمصر وفِلَسْطِين زَلْزلة عظيمة، طلع فيها المـاء من رءوس الآبار، وزال البحر عن الساحل مسيرة يوم، فنزل الناس إلىٰ أرض البحر يلتقطون ما ٱنكشف البحر عنه ممـا فى أرضه فرجع المـاء عليهم فأهلك منهم خلقا كثيرا .

ثم فى سنة ٱثنتين وخمسين وخمسمائة وقع ببلاد الشام زلزلة عظيمة خربت شيزر، وحمـاة ، وحمص ، وحِصْن الأكراد، وطرابُلُس وأنطاكِيَة، وغيرها من البلاد التى حولها، ووقعت الأسواق والقلاع حتّى تداركها نور الدين الشهيد رحمه الله بالعمارة .

فائدة — فى سنة اثنتين وخمسمائة قلع المقتفى الخليفةُ باب الكعبة، وعمل عوضه بابا مصَفَّحا بالفضة المُذْهَبة، وعمل لنفسه من الباب الأوّل تابوتا ليُدْفَن فيه .

نادرة — فى سنة خمس وستين وسبعمائة وقع ثلجٌ عظيم بالشام فكسر الأشجار وقطع الطرق لا سيما بعُكْبَراء وما حولها .

أخرىٰ — فى سنة سبعين وسبعمائة ظهر بالشام جراد عظيم لم يُسمع بمثله ، وٱمتدّ من مكة إلىٰ الشام، وعظم بحَوْرانَ حتّى أكل الأشجار ، والأخشاب ، وأبواب الدور ، وما وصل إليه من الأصـبغة والقُماش ، وسُدّت أعين المـاء خوفا من أن يُفْسِـدها ، وكان من شأنه بعَجْلُون أنه امتلأت منه المدينـة وغُلِّقت الأسواق ، وطُبِّقت أبواب الدكاكين والطاقات ، وسدّت الأبواب وحضروا لصـلاة الجمعة فملأ عليهم الجامع ، وترامىٰ علىٰ الخطيب علىٰ المنبر حتّى شغله عن الخطبة، وكذلك حَيَّر الناس حتّى خرجوا من الجامع يَخُبُّون فيه خبا إلىٰ الركب، وأنتنت لكثرة ما قتل منه حتّى صار أهل البلد يَشَمُّون القَطِران ليغطّى رائحته ﴿وما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلّا هُو﴾.

أخرىٰ — فى سنة ٱثنتين وسبعين وسبعمائة رأىٰ أهل الشام فى السماء بعد مَغيب الشَّفَق حُمْرةً عظيمة من جهة الشمال ، ثم ٱشتدّت الحمرةُ حتّٰى صارت كالنار الموقدَة وانتشرت فى السماء حتّٰى كاد يغطى ثلثها ، وعم بلاد الشام حتّٰى كان بدِمَشْــق ، وبَعْلَبَكّ وحلَب ، وقاقُونَ ، والرملة ، والقُدْس ، وطرابُلُس ؛ حتّٰى خاف جميع أهل هذه البلاد علىٰ أنفسهم الهلاكَ ، وضَرَعوا إلىٰ الله تعالىٰ ، وٱبتهلوا إليه ، فكشف الله عنهم بعد نصف الليل .

قلت — : وقد رأيت مثل هذه الآية العظيمة بمصر فى سنة ٱثنتى عشرة وثمانمائة : وهو أنه ظهرت حمرة عظيمة من جهة الغرب فوق حمرة النار ، وجاء من وراء تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كلما لمع البرق داخل تلك الحمرة يخال الناظر أنها نار لا محالة حتّٰى داخلنى منه أنه عذاب قد صُبَّ علىٰ الناس ، ثم ٱنقشع بعد العشاء بقليل فلذلك لم ينتبه له أهل مصر . وبالجملة فوقائع الدهر وعجائبه أكثر من أن تحصر ، ولا يحتمل هذا الموضع أكثر من هذا القدر .

واللّيَالِى كَمَا عَلِمْتَ حَبَـالَىٰ * مُقْرِباتٌ يلِدْنَ كُلَّ عَجِيبِ

المقصـــد الثـانى

(فى وجه بيان ٱستعمال الكاتب ذلك فى خلال كلامه)

لايخفىٰ أن الكاتب إذا عرف أحوال المتقدّمين وسيَرهم ، وأخبارهم ، ومَنْ بَرَع منهم ، صـار عنده علم بمـا لعله يُسأل عنه ، وٱعتدادٌ لمـا يرد عليه من ذكر واقعة بعينها أو يحتَجُّ عليه به من صورة قديمة : ليكون علىٰ يقين منها ، مع ما يحتـاج إلىٰ إيراده فى خلال مكاتباته ورسائله : من ذكر من حَسُن الاحتجاج بذكره فى أمر من الأمور أو حالة من الحالات : كما كتب به البديع الهمذانىُّ إلىٰ أبى الحسين بن

فارس وقد بلغه أنه ذكر فى مجلسه فقال: إن البديع قد نسيَ حق تعليمنا إياه، وعقّنا، وشمَخ بأنفه عنا، والحمد لله علىٰ فساد الزمان، وتغير نوع الانسان . فكتب إليه :

" نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام ، إنه الحَمَأ المسنون ، وإن ظُنّت الظنون؛ والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقادم، وٱرتكبت الأضداد، وٱختلط الميلاد . والشيخ يقول فسد الزمان، أفلا يقول متىٰ كان صالحا ؟ أفى الدولة العباسية ، وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها ؟ أم المدّة المروانية ، وفى أخبارها " لاتَكْسَع الشَّوْل بأغبارها ؟ " أم السنين الحربية، والسيف يُغْمَد فى الطُّلا ، والرُّمح يُركَز فى الكُلَا ، وميتٌ بحجر فى الفلا، والحرتان وكربلا، أم البَيْعة الهاشمية، وعلىٌّ يقول: ليت العَشْرَة منكم براس ، من بنى فراس ؟ أم الأيام الأُمَويّة ، والنفير إلىٰ الحجاز ، والعيون إلىٰ الأعجاز ؟ أم الإمارة العَدَوية ، وصاحبها يقول : وهل بعد البُزُول إلا النزول ؟ أم الخلافة التيمية، وصاحبها يقول : طوبىٰ لمن مات فى نأنأة الإسلام (1)؟ أم علىٰ عهد الرسالة ويومَ الفتح قيل ٱسكُتِي يافلانه ، فقد ذهبت الأمانه ؟ أم فى الجاهلية ولبيد يقول :

ذَهَب الذين يُعَاشُ فى أكْنافِهِمْ * وبَقِيتُ فى خَلْف كِجلْد الأجْرَبِ .

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول :

بلادٌ بِهَا كُنّا وكُنّا نُحِبُّهَا * إذ النَّاسُ ناسٌ والزّمانُ زَمانُ .

أم قبل ذلك، ويروىٰ لآدم عليه السلام :

تَغيَّرتِ البِلادُ ومَنْ عَلَيْهَا * فَوَجْهُ الأرضِ مُسْوَدٌّ قَبِيح !

أم قبل ذلك والملائكة تقول : ﴿أتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ويَسْفِكُ الدِّماءَ﴾ ؟ وما فَسَد الناس، ولكن ٱطّرد القياس؛ ولا ظَلَمت الأيام، إنما امتدّ الإظلام؛ وهل

(1) أى فى أوّل الاسلام قبل أن يقوى أنظر اللسان .

يفسُد الشيء إلا عن صلاح، ويمسى المرء إلا عن صَبَاح؛ ولعمرى ! لئن كان كَرَم العهد كتابا يَرِد وجوابا يصدُر إنه لقريب المنال، وإنى علىٰ توبيخه لى لفقير إلىٰ لقائه، شفيق علىٰ بقائه، منتسب إلىٰ ولائه، شاكر لآلائه .

والغاية القُصوىٰ فى ذلك ما كتب به ذو الوزارتين "أبو الوليـد بن زيدونَ" رحمه الله علىٰ لسان محبوبته وَلَّادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصر إلىٰ إنسان استمالها عنه إلىٰ نفسه وهى :

أما بعدُ أيها المصابُ بعقله، المورَّط بجهله، البَيِّن سَقَطه، الفاحش غلطه، العاثر فى ذيل ٱغتراره، الأعمىٰ عن شمس نهاره، الساقطُ سُقُوطَ الذُّباب، علىٰ الشراب، المتهافت تهـافُتَ الفَرَاش فى الشِّهاب، فإن العُجْب أكذبُ، ومعرفةَ المرء نفْسَـه أصوب، وإنك راسلتنى مستهديا من صِلتِى ما صَفِرت منه أيدى أمثالك، متصدّيا من خُلَّتى لما قُدِعت فيه أنوفُ أشكالك، مرسلا خليلتَكَ مرتاده، مستعملا عشيقتك قَوَّاده، كاذبا نفسك فى أنك ستنزل عنها إلىّ، وتخلف بعدها علىّ :

ولَسْتَ بأوَّلِ ذِى هِمَّـةٍ * دعَتْهُ لما لَيْس بالنائِلِ !

ولا شكَّ أنها قلَتْك إذ لم تضِنَّ بك، وملَّتْك إذ لم تَغرْ عليك، فإنها أعذرت فى السِّفَارة لك، وما قَصَّرت فى النيابة عنك، زاعمةً أن المُروءة لفظٌ أنت معناه، والإنسانيةَ ٱسم أنت جسمه وهَيُولاه، قاطعة أنك ٱنفردت بالجمال، وٱستأثرت بالكمال واستعلَيْت فى مراتب الجَلال، حتّى خيَّلتْ أنَّ يوسف عليه السلام حاسَنَك فغضَضْت منه، وأن امرأة العزيز رأتْك فسَلَتْ عنه، وأن قارونَ أصاب بعضَ ما كَنَزْت، والنطف عَثَر علىٰ فضْل مارَكَزْت، وكِسرىٰ حمل غاشيَتَك، وقيْصَر رعىٰ ماشِيَتَك، والإسكندرَ قتل دارًا فى طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف بخُروجهم عن جماعتك، والضحاكَ ٱستدعىٰ مُسالمتك، وجَذيمةَ الأبرَش تمنّى منادمتك، وشِيرين

قد نافست بُورانَ فيك، وبِلْقِيس غايَرتِ الزَّبَّاء عليك؛ وأن مالك بن نُوَيْرة إنما أَرْدَف لك، وعُروةَ بن جعفر إنما رَحَل إليك؛ وكُلَيْب بن رَبيعة إنما حمىٰ المَرْعىٰ بعزّتك، وجَسَّاسا إنما قتله بأنَفَتك، ومُهَلْهِلا إنما طلب ثأرَه بهمّتك؛ والسَّمَوْءَل إنما وفىٰ عن عهدك، والأحنفَ إنما آحتبىٰ فى بُرْدِك؛ وحاتما إنما جاد بوَفْرِك، ولقِىَ الأضياف بِبِشْرِك؛ وزيد بن مُهَلْهِل إنما ركب بفَخِذيك، والسُّلَيْك بن السُّلَكة إنما عدا علىٰ رجليك؛ وعامرَ بن مالك إنما لاعب الأسِنَّة بيديك؛ وقيسَ بن زُهَيْر إنما آستعان بدَهَائك، وإياس بن معاوية إنما آستضاء بمصباح ذَكَائك؛ وسَحْبان وائل إنما تكلم بلسانك، وعمرو بن الأهتم إنما سَحَر ببيانك . وأن الصلح بين بكر وتغلِبَ تَمَّ برسالتك، والحَمَالاتِ فى دِماء عَبْس وذُبْيانَ أُسْنِدتْ إلىٰ كَفَالتك؛ وأن آحتيال هَرِم لعامر وعلقمةَ حتّىٰ رضيَا كان عن إشارتك، وجوابه لعُمرَ، وقد سأله عن أيهما كان ينفِّر وقع بعد مَشُورتك؛ وأن الحجاج تقلد وِلاية العراق بجِدّك، وقُتيبةَ فتح ما وراء النهر بَسَعْدك؛ والمهلَّب أوهن شَوْكَةَ الأزارقة بأيْدِك، وأفسد ذات بينهم بكيدك؛ وأن هرمس أعطىٰ بيلينوس ما أخذ منك، وأفلاطون أورد علىٰ أرسطاطاليس ما حدّث عنك؛ وبطليموس سوّى الإصطرلاب بتدبيرك، وصوّر الكُرَة علىٰ تقديرك؛ وأبقراط علم العلل والأمراض بلُطْف حِسّك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدِقّة حَدْسك؛ وكلاهما قلَّدك فى العِلاج، وسألك عن المِزاج؛ وآستوصفك تركيب الأعضاء، وآستشارك فى الداء والدواء؛ وأنك نَهَجْت لأبى معشر طريق القضاء، وأظهرت جابر بن حَيَّان علىٰ سر الكيمياء؛ وأعطيت النظّام أصلا أدرك به الحقائق، وجعلت للكِنْدىّ رسما آستخرج به الدقائق؛ وأن صناعة الألحان آختراعُك، وتأليف الأنقار توليدك وآبتداعُك؛ وأن عبد الحميد بنَ يحيىٰ بارِى أقلامك، وسهل بنَ هارون مدوّن كلامك؛ وعمرو بن بحر مستمليك، ومالك بن أنس مُسْتفتيك؛ وأنك الذى

أقام البراهين ، ووضـع القوانين ، وحدّ الماهيّه ، وبين الكيفية والكميه ، وناظر فى الجوهر والعرض ، وميز الصحة من المرض ، وحلّ المعَمّى ، وفصل بين الآسم والمسمّى ، وضرب وقسّم ، وعدّل وقوّم ، وصنف الأسماء والأفعال ، وبوّب الظّرف والحال ، وبنىٰ وأعرب ، ونفىٰ وتعجب ، ووصـل وقطع ، وثنّى وجمع ، وأظهر وأضمر ، وآبتدأ وأخبر ، وآستفهم وأهمل ، وقيـد وأرسل ، وأسند وبحث ، ونظر وتصفّح الأديان ، ورجّح بين مذهبي مانى وغيلان ، وأشار بذبح الجعد ، وقتل بَشّار آبن بُرْد ، وأنك لو شئت خَرَقْت العـادات ، وخالفت المعهودات ، فأحلت البحار عَذْبه ، وأعدت السِّلام رَطْبه ، ونقلت غدًا فصار أمسا ، وزدت فى العناصر فكانت خمسا ، وأنك المقول فيك "كلُّ الصَّيد فى جَوْفِ الفَرا" ، والمقول فيك :

لَيْس علىٰ اللهِ بمستَنْكَرٍ * أن يَجْمَع العالَمَ فى واحِدِ

والمعنىُّ بقول أبى تمـام :

فَلَوْ صَوَّرت نَفْسَكَ لم تَزِدْها * علىٰ ما فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ

والمرادُ بقول أبى الطيِّب :

ذُكِرَ الأَنَامُ لَنَا فكَانَ قَصيدةً * كنتَ البَدِيعَ الفَرْدَ مِنْ أَبْياتِها

فكَدَمْتُ فى غير مَكْدِم ، وآستسمنتُ ذا وَرَم ، وَنَفختُ فى غير ضَرَم ، ولم تجد لرِجْ مَهَزًّا ، ولا لشَـفْرة مَحَزًّا ، بل رضِيتُ من الغنيمة بالإياب ، وتمنَّيتِ الرجوعَ بخُفَّىْ حنين ، لأنى قلت لهـا :

* لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بالَتْ عليه الثَّعالِبُ *

وأنشــدت :

علىٰ أنَّها الأيَّامُ قَدْ صِرنَ كُلُّها * عجائبَ حتّى لَيْس فِيها عَجائِب

ونخرتُ وكفَرتُ ، وعبَستُ وبَسَرتُ ، وأبدأتُ وأعَدْتُ ، وأبرقتُ وأرعدت ،

وهَمَمتُ ولم أفعل، وكِدتُ وليتنى، ولولا أن للجوار ذِمّة، وللضِّيافة حُرْمة، لكان الجواب فى قَذَال الدُّمُسْتُق ؛ والنعل حاضرة إن عادت العَقْرب ، والعُقُوبة ممكنة إن أصرّ المُذْنِب؛ وهَبْها لم تلاحِظْك بعينٍ كليلة عن عيوبك مِلْؤُها حبيبُها وحَسَنٌ فيها من تودّ ؛ وكانت إنما حَلَّتك بحِلاك، ووسَمَتْك بسِيماك، ولم تُعِرْك شهاده، ولا تكلَّفَتْ لك زياده؛ بل صدَقت سِنَّ بكرها فيما ذكرتْه عنك، ووضَعتِ الهِناءَ مواضع النَّقَب فيما نسبَته إليك؛ ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك ، فالمُعَيْدِيّ تسمعُ به خير من أن تراه ، هجينُ القَذال ، أرْعَن السِّبال، طويل العُنق والعِلاوه؛ مُفرِط الحُمْق والغَبَاوه ؛ جافى الطبع ، سيئ الإجابة والسمع ، بغيض الهيئه ، سخيف الذَّهاب والجَيْئه، ظاهرُ الوَسواس، مُنتن الأنفاس؛ كثير المعايب، مشهور المثالب؛ كلامك تمتمه، وحديثك غمغمه؛ وبيانُك فَهْفَهه، وضحِكُك قَهْقهه، ومشيك هروله ، وغِنَاك مسأله ، ودِينك زندقه، وعلمك مخرقه :

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَوانِى * لَمَا أُمْهِرْنَ إلّا بالطَّلاقِ

حتّى إن باقلًا موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِن بك، وهَبنَّقَة مستحقٌّ لاسْم العقل إذا أُضِيف إليك؛ وأبا غبشان محمود منه سَدَاد الفعل إذا نسب إليك، وطُوَيسا مأثور عنه يمنُ الطائر إذا قِيسَ عليك [(١)]، فوُجودك عدم، والاعتناء بك نَدَم ؛ والخيبة منك ظَفَر، والجنة معك سَقَر؛ كيف رأيت لُؤْمك لكرمى كفاء ! وضَعتَك لشرفى وفاء ؛ وأنّى جهلت أن الأشياء إنما تنجذبُ إلى أشكالها ، والطيرَ إنما تقع على آلافها، وهلّا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشَعرت أن نارَي المؤمن والكافر لاتتراءيان، وقلت الخبيثُ والطيِّب لايستويان، وتمثلت :

* عَمْرَكَ اللهَ كيْف يلتقِيَان *

(١) هذه الفقرة ساقطة فى بعض شروح الرسالة .

وذكرت أني عِلْق لا يُباع ممن زاد، وطائر لا يصيده من أراد، وغَرَض لا يصيبه إلا من أجاد، فما أحسَبُك إلا قد كنت تهيأت للتهنيه، وترشحت للترفيه، لولا أن جُرْح العجماء جُبَار، للقيتَ ما لَقِيَ من الكواعب يَسَار، فما همّ إلا بدُون ما همَمْت به، ولا تعرّض إلا لأيسرَ مما تعرّضت له؛ أين ٱدّعاؤك روايةَ الأشعار، وتعاطيك حفظَ السِّيَر والأخبار؛ أما ثاب لك قول الشاعر:

بَنُو دارِم أكفاؤُهم آلُ مِسْمَع * وتُنْكَح فى أكفائها الحَبَطات

وهلّا عَشَّيْت ولم تَغْتَرّ، وما أمَّنك أن تكون وافد البَرَاجِم، أو ترجعَ بصحيفة المتَلَمِّس، أو أفعلَ بك ما فعله عَقِيل بن عُلَّفَة[1] بالجُهَنيّ الذى جاء خاطبا، فدهن ٱسته بزيت وأدناه من قرية النمل؛ ومتى كَثُر تلاقينا، وٱتَّصل ترائينا؟ فيدعُوَني إليك ما دعا ٱبنةَ الخُسّ إلىٰ عبدها من طُول السَّواد، وقُرب الوِساد؛ وهل فَقَدتُ الأراقِمَ فأنكِحَ فى جَنْب، أو عضَلَنى هُمَام بن مُرّة، فأقول زوجٌ من عُود، خير من قُعود، ولعمرى لو بلغت هذا المبلغ لٱرتفعت عن هذه الخِطّة، وما رضيت بهذه الخُطّة، فالنار ولا العار، والمَنِيّة ولا الدَّنِيَّه، والحُرّة تجوعُ ولا تأكل بثَدْيَيْها:

فكَيْفَ وفى أبناء قَوْمِىَ مَنْكَح * وفِتْيانِ هِزّانَ الطِّوالِ الغَرَانِقه

ما كنت لأتخطّى المِسْك إلىٰ الرَّماد، ولا أمتطِى الثَّوْر دُونَ الجَوَاد؛ وإنما يتيمَّم من لا يجد ماء، ويرعىٰ الهَشِيم، من عَدِم الجَميم؛ ويركب الصَّعْب من لا ذَلُولَ له؛ ولعلك إنما غرَّك من علِمتْ صَبْوتى إليه، وشُهِرتْ مساعَفَتى له من أقمار العَصْر، ورياحين المِصْر، الذين هم الكواكب عُلُوَّ هِمَم، والرياضُ طِيبَ شِيَم.

* مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ *

(١) فى الأصل علقمة وهو تصحيف أنظر مادة ع ل ف فى القاموس.

فَحَنَّ قِدْح ليس منها، ما أنت وهم؟ وأين تقَع منهم؟ وهل أنت إلا واوَ عَمْرو فيهم؟ وكالوَشِيظَة فى العظم بينهم؛ وإن كنت إنما بلغْتَ قَعْر تابو بتك، وتجافيت لقَميصك عن بعض قُوتك؛ وعطَّرت أردانَك، وجَرَرت هِمْيانك، وآختَلْتَ فى مِشْيتك، وحَذَفْت فُضُول لِحيتك؛ وأصلحت شارِبَك، ومطَطت حاجِبَك؛ ورقَّقْت خَطَّ عذارك، وآستأنفت عَقْد إزارك، رجاءَ الآكتنان فيهم، وطمعاً فى الآعتـداد منهم فظننت عَجْزا، وأخطأت آسـتُك الحُفْرة. والله لو كساك محرِّقُ البُرْدين، وحلَّتـك مارِيَةُ بالقُرْطين، وقلَّدك عمرُو الصَّمْصامة، وحَمَلك الحارث علىٰ النَّعامة، ما شككتُ فيك، ولا تكلمتَ بملء فيك، ولا سترتْ اياك، ولا كنت إلا ذاك. وهبك سامَيْتَهم فى ذِرْوة المجـد والحسَب، وجاريتهم فى غاية الظَّرف والأدب؛ ألستَ تأوِى إلىٰ بيت قعيدته لَكَاع، إذ كلهم عَزَب خالى الذراع، وأين من أنفرد به ممن لا غَلَب إلا علىٰ الأقَلّ الأخَسِّ منه؛ وكم بين من يعتمدنى بالقوّة الظاهره، والشهوة الوافره، والنفس المصروفة إلىَّ، واللذة الموقوفة علىَّ، وبين آخر قد نزحَتْ بِيره، ونضب غَديره، وذهب نَشاطه، ولم يبق إلا ضُرَاطه. وهل كان يجتمع لى فيك إلا الحشَفُ وسُوء الكِيله، ويقترن علىَّ بك إلا الغُدّة والموت فى بيت سلوليه:

تعـالىٰ اللهُ ياسلمُ بنَ عَمْرٍو * أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرِّجالِ

ما كان أخلقك بأن تُقـدِّر بذَرْعك، وترْبَع بذلك علىٰ ظَلْعك، ولا تكون براقِش الدالّةَ علىٰ أهلها، وعنْزَ السُّوء المستثيرة لحَتْفِها؛ فما أُراك إلا قد سَقَط العَشاءُ بك علىٰ سِرْحان، وبك لابظَبْى أعْفر؛ قد أعذرت إن أغنيت شَيًّا، وأسمعتُ لو ناديتُ حَيًّا، وقرعتُ عَصا العِتاب، وحذَّرت سوء العِقاب.

إنَّ العَصَا قُرعَتْ لِذِى الحِلْم * والشىء تحقره وقـد يَنْمِى

فإن بادرْت بالنَّدامة، ورجعت علىٰ نفسك بالملامه؛ كنت قد آشتريت العافية لك بالعافيةمنك؛ وإنقلت جَعْجَعة ولاطِحْن، فرُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة، وأنشدت:

لا يُونسنَّك من مُخَدَّرة * قولٌ تُغلّظه و إن جَرحا

فعُدتَ لمـا نَهيتُ عنه ، وراجعْتَ ما آستعفيتُ منه، بعثَت من يُزْعجك إلىٰ الخَضْراء دفعا، ويستحِثُّك نحوها وَكْزا وصَفْعا، فإذا صرت إليها عبثَتْ أكَّارُوها بك، وتسلط نَواطِيرُها عليك : فمن قَرْعة مُعْوجَّة تقوّم فى قَفَاك، ومن فُجْلة منْتِنة تُرْمىٰ بها تحت خِصَاك، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاك، لِكَيْ تَذُوقَ وَبالَ أمْرِكَ، وترىٰ ميزان قَدْرِك :

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُه قَدْرَهُ * رأىٰ غَيْرُه منه مالَا يَرىٰ

فلولا المعرفةُ بالتاريخ، والإحاطةُ بالوقائع والسِّيَر، والأقاصيص، والأمثال السائرة فى معنىٰ ذلك، لمـا تأتى للناثر الاقتدار علىٰ سبك هذه الوقائع، والتلويح بمقتضَياتها .

النوع السابع عشر

(المعرفة بخزائن الكتب ، وأنواع العلوم ، والكتب المصنفة فيها وأسمـاء الرجال المبرِّزين فى فنونها، وفيه مقصِدان)

المقصـــد الأوّل

(فى ذكر خزائن الكتب المشهورة)

قد كان للخُلَفاء والملوك فى القديم بها مزيد آهتمام، وكمال آعتناء، حتّى حصّلوا منها علىٰ العَدَد الجَمّ، وحصلوا علىٰ الخزائن الجليلة . ويقال إن أعظم خزائن الكُتُب فى الإسلام ثلاثُ خزائن :

إحداها — خِزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب ما لا يُحصىٰ كثرةً، ولا يقوّم عليه نفاسـة، ولم تزل علىٰ ذلك إلىٰ أن دَهَمت التتر بغداد، وقتل ملكهم هولاكو المستعصِمَ آخرَ خلفائهم ببغداد ، فذهبت خِزَانة الكُتُب فيما ذهب، وذهبت معالمها، وأعفيت آثارها .

الثانية — خِزانة الخلفاء الفاطميين بمصر، وكانت من أعظم الخزَائن، وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب مملكة الديار المصرية فى المقالة الثانية . ولم تزل على ذلك إلى أن آنقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم ، وآستيلاء السلطان صلاح الدين يوسفَ بن أيوب على المملكة بعدهم ، فاشترى القاضى الفاضل أكثرَ كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسته الفاضلية بدرب ملوخيا بالقاهرة، فبقيت فيها إلى أن آستولت عليها الأيدى فلم يبق منها إلا القليل .

الثالثة — خزانة خلفاء بنى أُمَيَّة بالأندلُس ؛ وكانت من أجلّ خزائن الكتب أيضا . ولم تزل إلى آنقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس، فذهبت كتبها كلَّ مَذْهَب .

أما الآنَ فقد قَلَّت عناية الملوك بخزائن الكتب، آكتفاء بخزائن كُتُب المدارس التى آبتَنَوْها من حيث إنها بذلك أَمَسُّ .

واعلم أن الكتب المصنَّفة أكثَرُ من أن تُحصىٰ ، وأجل من أن تُحْصَر؛ لا سيما الكتب المصنفة فى المِلَّة الإسلامية فإنها لم يصنَّفْ مثلُها فى ملة من الملل ، ولا قام بنظيرها أمة من الأمم ؛ إلا أن منها كتبا مشهورة قد توفرت الدواعى على نقلها ، والإكثار من نسخها ، وطارت سُمْعتها فى الآفاق ورُغِب فى آقتنائها .

المقصد الثانى

(فى ذكر العلوم المتداولة بين العلماء، والمشهور من الكتب المصنَّفة فيها ومؤلفيهم ويرجع المقصد فيها إلى سبعة أصول ، يتفرّع عنها أربعة وخمسون علما)

الأصل الأول

(علم الأدب، وفيه عشرة علوم)

الأول علم اللغة — من الكتب المختصرة فيه المنتخَب، والمجرَّد لكُرَاع؛ وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وفقه اللغة للثعالبىّ ، والفصيح لثعلب ، وكفاية المتحفظ

لٱبن الأجدابىّ، والألفية لٱبن أصبع . ومن المتوسطة فيه المُجمَل لٱبن فارس، وديوان الأدب للفارابى، وإصلاح المنطق لٱبن السكيت . ومن المبسوطة الجامع للأزهرى والعباب الزاخر للصاغانىّ، والصحاح للجوهرى . قال فى إرشاد القاصد : ولا أنفعَ ولا أجمعَ من المحكم لٱبن سيده .

الثانى علم التصريف — من الكتب المختصرة فيه التصريف الملوكى لٱبن جنى والتعريف لٱبن مالك . ومن المتوسطة تصريفُ ٱبن الحاجب، وهو من أحسن الكتب الموضوعة فيه وأجمعها . ومن المبسوطة فيــه الممتع لٱبن عُصْفور، وشروح تصريف ٱبن الحاجب وغيره .

الثالث علم النحو — من الكتب المختصرة فيه الكافية لٱبن الحاجب، والدّرّة الألفية لٱبن معطى، والخُلاصة لٱبن مالك . ومن المتوسطة المفصَّــل للزمخشرى والمقرّب لٱبن عصــفور، والكافيــة الشافية لٱبن مالك، وتسهيــل الفوائد له وهو الجامع علىٰ شدّة ٱختصاره . ومن المبسوطة كتاب سيبويه وشروحه، وشرح ٱبن قاسم علىٰ الألفية، وشرحه علىٰ التسهيل، وشرح شهاب الدين السمين عليه، وأوسع الكل شرح الشيخ أثير الدين أبى حَيَّان علىٰ التسهيل .

الرابع علم المعــانى — من الكتب المنفردة فيــه مصــنَّف تميْم الحرى (١)، وهو عزيز الوجود .

الخامس علم البيان — من الكتب المنفردة به كتاب نهاية الإعجاز للإمام فخرالدين الرازى، والجامع الكبير لٱبن الأثير الجزرى .

السادس علم البديع — من الكتب المنفردة به المختصَرة فيــه زَهْر الربيع للطرّزى . ومن المتوسطة فيــه البديع للتِّيفاشى، وشرح البديعية للصفىّ الحلىّ . ومن المبسوطة كتاب التحبير لٱبن أبى الأصبع .

(١) هكذا بهذا الرسم فى الأصل ولم نعثر عليه بعد البحث .

(تنبيه) ومن الكتب المشتملة علىٰ علوم المعانى والبيان والبديع روض الأزهار لآبن مالك ، والإيضاح لآبن مالك ، وأعظمها شهرة بالديار المصرية تلخيص المفتاح لقاضى القضاة جلال الدين الْقَزْوِينىّ وعليه عِدّة شروح . منها شرح الخلخالى ، وشرح الشيخ أكمل الدين ، وشرح الشيخ بهاء الدين السبكى ، وهو من أجل شروحه ، والمعوّل عليه منها شرح الشيخ سعد الدين التفتازانىّ .

السابع علم العروض — من الكتب المختصرة فيه عَرُوض آبن مالك ، ولآبن الحاجب فيه لاميّة كافية ، اعتنىٰ الناس بشرحها ، وممن شرحها الشيخ جمال الدين آبن واصل ، والشيخ جمال الدين الأسنوىّ . وللساوى لاميّة ضاهىٰ فيها لامية آبن الحاجب ، وللإمام القَزْوِينى عليها شرح حسن ، وللأيكى فيه مختصر بديع ، وللجوهرىّ فيه مختصر . ومن المتوسطة فيه عَرُوض ابن القَطّاع ، وعَرُوض آبن الخطيب التبريزى . ومن المبسوطة كتاب الأمين المحلى ، وعروض الأستاذ أبى الحسن العروضى المعروف بأستاذ المقتدر . وقد نظم فيه صاحبنا شعبان الآثارى محتسب مصر ألفيةً فائقة سماها "هداية الضَّلِيل إلىٰ علم الخليل" جمع فيها فأوعىٰ .

الثامن علم القوافى — من الكتب المختصرة فيها قوافى الأيكى . ومن المتوسطة قوافى آبن القَطّاع ، ومن المبسوطة قوافى ابن سيده .

التاسع علم قوانين الخط — فى أصول الخط ألفية لشعبان الآثارى ، ولآبن الحسين كتاب فى قلم الثلث ، ولآبن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مصنَّف فى قلم النسخ ، وفى صناعة الهجاء المختصة بالقرءان الرائية للشاطبى ، وفى خلال كتب النحو الجامعة كالتسهيل وغيره جملة من الهجاء ، وقد أودعت فى هذا الكتاب ما فيه كفاية من ذلك .

العاشر قوانين القراءة — فيه كتاب التنبيه لأبى عَمْرو الدانى .

الأصل الثـانى

(العلوم الشرعية، وفيه تسـعة علوم)

الأوّل علم النواميس المتعلقُ بالنبوّات — وفيـه كتاب لأرسطاطاليس، وكتاب لافلاطن، وأكثر مسائله فى "كتاب المدينة الفاضلة" لأبى نصر الفارابى، وفى آخر الطوالع والمصباح (١) للبيضاوى مسائلُ من ذلك .

الثانى علم القراءات — من الكتب المختصرة فيه التيسير لأبى عمرو الدانى، ونظمه الشاطبىّ فى قصيدته التى وسمها بحرز الأمانى، فأغنتْ عما سواها من كتب القراءات وآعتنى الناس بشرحها، ولآبن مالك داليَّة بديعة فى علم القراءات لكنها لم تشتهر . ومن الكتب المبسوطة فيه كتاب الروضة فى القراءات، وشروح الشاطبية كالفاسى وغيره .

الثالث علم التفسير — من الكتب المختصرة فيه زاد المَسِير لآبن الجوزىّ، والوجيز للواحدىّ، والنهر لأبى حيان . ومن المتوسطة فيـه الوسـيط للواحدىّ والكشاف للزَّمَخْشَرىِّ، ومعالم التنزيل للبغوىّ . ومن المبسوطة البسـيط للواحدىّ، وتفسـير القرطبىّ، وتفسير الامام فخر الدين، والبحر المحيط لأبى حيان .

واعلم أن كل واحد من المفسرين قد غلب عليه فنّ من الفنون يميل إليه فى تفسيره، فالتِّيفاشىُّ (٢) تغلبُ عليه القصص، وآبن عطية تغلب عليه العربية، وآبن عطية تغلبُ عليه أحكام الفقه، والزجاج تغلب عليه المعانى وغير ذلك .

الرابع علم رواية الحـديث — أضبطُ الكتب المصنفة فيه وأصحُّها روايةً صحيحُ البخارىّ، وصحيح مسـلم رضى الله عنهما، وبعدهما بقيةُ كتب السنن المشهورة، كسـنن أبى داود، والترمذى، والنَّسائى، وآبن ماجه، والدارقطنى . والمسنَدات المشهورة كمسنَد أحمد، وابنِ أبى شيبة، والبزار ونحوها .

---

(١) هو كتاب للبيضاوى فى علم الكلام . (٢) هما مفسران أحدهما متقدّم على الآخر وكلاهما مسمى بأبى محمد عبدالله الا أن المتقدّم دمشقىّ والمتأخر غرناطىّ كذا يؤخذ من كشف الظنون .

ومن كتب السِّير السيرة لابن هشام ، وزهر الخمائل لابن سيد الناس .
ومن الكتب المبسوطة المشتملة علىٰ متون الأحاديث دون الرُّواة جامع الأصول لابن الأثير. ومن المتوسطة الجمع فى ذلك الجمعُ بين الصحيحين للحُمَيْدى، ومختصر جامع الأصول لمصنفه[(1)] . ومن المختصرة فيما يتعلق بالأحكام، الإلمام بأحاديث الأحكام ، للشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد ، وعمدة الأحكام للحافظ عبد الغنى المقدسىّ .

ومما يتعلق بالترغيب والترهيب رياض الصالحين للنووىّ . ومما يتعلق بالأدعية كتاب الأذكار له ، وسلاح المؤمن لابن الامام . إلىٰ غير ذلك من أنواع المصنَّفات المختلفة المقاصد مما لا يُحصىٰ كثرةً .

الخامس علم دراية الحديث — من الكتب الموصلة للدخول فى ذلك علوم الحديث لابن الصلاح، وتقريب التيسير للنووىّ، وعلوم الحديث للحاكم، والكفاية للخطيب أبى بكر؛ وفى أوّل جامع الأصول المقدّم ذكره فى كتب رواية الحديث قطعةٌ من ذلك . ومن الكتب المبسوطة فى أسماء الرجال الكمال . ومن الكتب المبسوطة فى معانى الحديث شرح البخارى لابن بطال ، وشرحه لابن التين المغربى ، وشرحه لمغلطاى ، وشرحه للكرمانى ، وشرحه لشيخنا سراج الدين بن الملقن ، وشرح مسلم للقاضى عياض، وشرحه للشيخ محيي الدين النووى، وشرح سنن أبى داود للخطابى، وشرح العمدة للشيخ تقى الدين بن دقيق العيد، وشرحها للشيخ تاج الدِّين الفاكهانى .

ومن الكتب فى غريب الحديث كتاب الغريبين للهروى، والنهاية لأبى السَّعادات ابن الأثير، وغير ذلك من سائر الأنواع .

السادس علم أصول الدين — من الكتب المختصرة فيه الطَّوالع للقاضى ناصر الدين البيضاوى، والمصباح له ، وقواعد العقائد للخواجا نصير الدين الطُّوسى ، وكتاب الأربعين

(1) أي ابن الأثير الجزري .

للقاضي جمال الدين بن واصل . ومن المتوسطة المحصل للإمام فخر الدين، والصحائف للسمرقندى، وشرح الطوالع للسيد العِبْرى، وشرحها للشيخ عز الدين الأَصْفَهانى.

السابع علم أصول الفقه — من الكتب المختصرة فيه مختصر ابن الحاجب، ومنهاج البيضاوى، والتنقيح للقرافى، والقواعد لابن الساعاتى . ومن المتوسطة فيه التحصيل للأرموى . ومن المبسوطة فيه الإحكام للآمدى، والمحصول للإمام فخر الدين، وشروح مختصر ابن الحاجب : كشرح القطب الشيرازى، وشرح المسيلى، وشرح الشيخ شمس الدين الأَصْفَهانىّ، وأتقن شرح عليه للعضد؛ وكشرح منهاج البيضاوى لابن المطهر، وشرحه للشيخ جمال الدين الأسنوى، وغير ذلك؛ وكشرح التنقيح لمصنفه .

الثامن علم الجدل — من الكتب المختصرة فيه المُغْنِي للأَبْهَرِىّ، والفُصُول للنسفىّ والخُلاصة للراغى، والمَعُونة لأبى إسحاق الشيرازى . ومن المتوسطة فيه النفائس للعميدى، والوسائل للأرموى . ومن المبسوطة تهذيب النكت للأَبْهرِى .

التاسع علم الفقه — من كتب الشافعية المختصرة مختصر المُزَنِىّ، ومختصر البُوَيْطى والوجيز للغزالى، والتنبيه لأبى إسحاق الشيرازى، والمحرَّر للرافعى، والمنهاج للنووى والحاوى الصغير لعبد الغفار القَزْوينى، والعَجَب العُجاب، وجامع المختصرات، ومختصر الجوامع للشيخ كمال الدين الشيبانىّ . ومن المتوسطة المهذب لأبى إسحاق الشيرازىّ، والوسيط للغزالى، والشرح الصغير للرافعى، والروضة للنووى، والجواهر للقَمُولى، وأجمعُها على اختصارٍ المنتقى للشيخ كمال الدين الشيبانىّ . ومن المبسوطة الأمّ للامام الشافعىّ، والحاوى للماوردى، والبحر للرُّويانىّ، والنهاية لإمام الحرمين، والبسيط للغزالى، والشامل لابن الصَّبَّاغ، والتتمة للمتولى، والعُدّة لأبى المَكارم الرُّويانىّ، والشرح الكبير على الوجيز للرافعى، وشرح المهذب للنووى انتهى فيه إلى

أثناء الربا ، ولو كمل لأغنىٰ عن جُلّ كتب المذهب ، والكفاية فى شرح التنبيه لابن الرِّفْعة ، والمطلب فى شرح الوسيط له ، والبحر المحيط فى شرح الوسيط للقَمُولى .
ومن محاسنها المُهِمَّات علىٰ الرافعى ، والروضة للشيخ جمال الدين الأسنوى .

ومن كتب الحنفية المختصرة البداية ، والنافع ، والكنز ، ومجمع البحرين ، ومختار الفتوى . ومن المتوسطة الهداية . ومن المبسوطة المحيط ، والمبسوط ، والتحرير والجامع الكبير وغير ذلك .

ومن كتب المالكية المختصرة التلقين للقاضى عبد الوهاب ، ومختصر ابن الجَلَّاب ، ومختصر ابن الحاجب . ومن نفيس المختصرات فيها مختصر الشيخ خليل المالكى ، حذا فيه قريبا من حذو جامع المختصرات . ومن المتوسطة التهذيب للبرادعى ، والجواهر لابن شاس ، ونظم الدرّ للشارِمْسَاحِىّ . ومن المبسوطة النوادر لابن أبى زيد ، والبيان والتحصيل ، وكتاب ابن يونس ، وشرح التلقين للمازَرى ، وليس بكامل ، والذخيرة للقَرَافى .

ومن كتب الحنابلة المختصرة مختصر الخِرْقى ، والنهاية الصغرى لابن رَزِين . ومن المتوسطة المُقْنِع ، والكافى . ومن المبسوطة المغنى لابن قُدَامة .

ومن كتب الخلاف فى المذاهب الأربعة الاختلافُ والجمع لابن هبيرة الحنبلى .
ومن المشتمل علىٰ مذاهب السلف الإشراف لابن المنذر .

الأصل الثالث

(العلم الطبيعى ، وفيه اثنا عشر علما)

الأوّل علم الطب — من الكتب المختصرة فيه الموجَز لابن النفيس ، والفصول لأبقراط ، ومن المتوسطة المختار لابن هُبل ، والمائة للسيحى ، والشافى لابن القف . ومن المبسوطة كامل الصناعة المعروف بالملكي ، والقانون للرئيس أبى علىّ بن سينا

وهو الذى أخرج الطب من التلفيق إلىٰ التهـذيب والترتيب ، وهو أجمـع الكتب وأبلغها لفظا وأحسنها تصنيفا .

الثانى علم البيطرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب حنين بن اسحاق .

الثالث علم البيزرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب القانون الواضح وفى كتاب العلاجين لابن العوام جملة كافية من البيطرة والبيزرة .

الرابع علم الفِراسة — من الكتب المصنفة فيه كتاب أرسطاطاليس وكتاب الفِراسة للامام فخر الدين الرازى ، ولفيلن فيه كتاب مختص بالتفرّس فى النساء .

الخامس علم تعبير الرؤيا — من الكتب المختصرة فيه فوائد الفرائد لابن الدقّاق ، وتعبير الحنبلى المرتب علىٰ حروف المعجم . ومن المتوسطة فيه شرح البدر المنير للحنبلى . ومن المبسوطة فيه تأليف أبى سهيل المسيحى ، والبشرىٰ فى شرح كتاب الكرمانى .

السادس علم أحكام النجوم — من الكتب المختصرة فيه مجمل الأصول لكوشيار ، والجامع الصغير لمحيي الدين المغربى . ومن المتوسطة كتاب التاريخ والمغنى لابن هنبتا . ومن المبسوطة مجموع ابن سريخ . ومن الكتب المنفردة ببعض أجزائه الأدوار لأبى معشَر ، والإرشاد لأبى الريحان البيرونى ، والمواليد للخصيبى ، والتحاويل للسحرتى ، والمسائل للقيصرانى ، ودرج الفلك لسكلوشا . ومن المدخل إليه مدخل القبيصى ، والتفهيم للبيرونى مدخل إلىٰ هذا الفن ، وفيه ما يحتاج إليه من الرياض أيضا .

السابع علم السحر ، وعلم الحرف والأوفاق — ومن كتب السحر المعتبرة فى بعض طرائقه السر المكتوم المنسوب للامام فخر الدين ، وكتاب الجمهرة للخوارزمى ، وكتاب طيمارس لارسطاطاليس ، وفى غاية الحكم للجريطى فصول كافية فى بعض طرقه أيضا .

ومن كتب علم الحرف كتاب لطائف الإشارات للبونى ، وشمس المعـارف له ، وهو عزيز الوجود ، وفى النسخ المعتبرة من اللمعة النورانية للبونى قطعة كافية منه .

الثامن علم الطِّلَّسْمات — فى كتاب طبتانا الذى نقله ٱبن وحشيَّة عن النبط أُنْمُوذج لعمل الطِّلَّسْمات ومدخل إلىٰ علمها، وفى غاية الحكم للجريطى قواعد هـذا العلم . قال فى إرشاد القاصد إلا أنه ضنَّ بالتعليم كل الضن، ولأبى يعقوب السكاسكى فيه كتاب جليل القدر .

التاسع علم السيميا — رأيت فيه كتبا مجهولة المصنِّفين .

العاشر علم الكيميا — من الكتب المطوّلة فيه كتب جابر بن حَيَّان. قال فى إرشاد القاصد : وأمثل كتب الإسـلاميين فى ذلك التذكرة لٱبن كمونه ، ورُتْبة الحكيم للجريطى، وشرح الفصول لعون بن المنذر . ومن النظم الرائق فيه نظم الشذورى .

الحادى عشر علم الفلاحة — من الكتب المختصرة فيه الفِلاحة المصرية . ومن المبسوطة فيه الفلاحة النبطية، ترجمة أبى بكر بن وحشية .

الثانى عشر علم ضرب الرمل — من الكتب المصـنفة فيه تجـارب العرب، وفى مثلثات ابن محقق (١) حصر صوره .

تنبيه — لارسطاطاليس ثمـانية كتب فى الطبيعى يختص كل كتاب منها بجزء جردها ٱبن سينا فى مختصر ترجمه بالمقتضبات ، ولخصها أبو الوليد بن رشد تلخيصا مفيدا، والمتأخرون جمعوا فى غالب كتبهم بينه و بين الالهى فى التصنيف كما فى الطوالع والمصباح للبيضاوى .

الأصـــل الرابع

(علم الهندســـة، وفيه عشرة علوم)

الأوّل علم عقود الأبنية — من الكتب المصنفة فيه مصنف لٱبن الهيثم ، ومصنف للكرخى .

---

(١) فى كشف الظنون محقوق .

الثانى علم المناظر — من الكتب المختصرة فيه كتاب اقليدس . ومن المتوسطة كتاب على بن عيسى الوزير . ومن المبسوطة كتاب ابن الهيثم .

الثالث علم المَرَايا المُحرِقة — من الكتب المصنفة فيه كتاب لآبن الهيثم .

الرابع علم مراكز الأثقـال — من الكتب المعتبرة فيـه كتاب آبن الهيثم ، وفيه كتاب لأبى سهل الكوهى .

الخامس علم المسـاحة — من الكتب المختصرة فيـه كتاب آبن مجلى الموصلى . ومن المتوسطة كتاب آبن المختار . ومن المبسوطة، كتاب ارشميدس .

السادس علم إنباط الميـاه — للكرخىّ فيه مختصر جليل ، وفى خلال الفلاحة النبطية لآبن وحشية مهمات هذا العلم .

السابع علم جرّ الأثقال — فيه كتاب لفيلن .

الثامن علم البنكامات — فيه كتاب لارشميدس عمدة فى بابه .

التاسع علم الآلات الحربية — فيه كتاب لبنى موسٰى بن شاكر .

العاشر علم الآلات الروحانية — أشهر كتبه الكتاب المعروف بحيل بنى موسى، وفيه كتاب مختصر لفيلن، وكتاب مبسوط للبديع الجزرى .

الأصل الخامس

(علم الهيئة، وفيه خمســـة علوم)

الأول علم الزيجات — قال فى إرشاد القاصد : أقرب الزيجات عهدا بالرصـد الزيج العـلائى . قال وأهل مصر فى زماننا إنمـا يقيمون دفتر السنة من زيج لفقوه من عدّة أزياج ولقبوه بالمصطلح ، وأتم الزيجات فى زماننا الذى نحن فيه زيج الشيخ علاء الدين بن الشاطر الدمشقي ، وهو عزيز الوجود لم ينتشر ولم تكثر نسخه بعد .

الثانى علم المواقيت — من الكتب المختصرة فيه نفائس اليواقيت فى علم المواقيت . ومن المبسوطة جامع المبادى والغايات لأبى على المُرّاكشى .

الثالث علم كيفية الأرصاد — من الكتب المعتبرة فيه كتاب الأرصاد لآبن الهيثم، وكتاب الآلات العجيبة للحارثى يشتمل عليه .

الرابع علم تسطيح الكُرَة — من الكتب القديمة فيه كتاب تسطيح الكرة لبطليموس . ومن الكتب المحدثة فيه الكامل للفرغانى، والآستيعاب للبيرونى، وآلات التقويم للتراكشى .

الخامس علم الآلات الظلية — فيه عدّة مصنفات، ولابراهيم بن سنان الحرّانى فيه كتاب مبرهن .

الأصل السادس

(علم العدد المعروف بالارتماطيق، وفيه خمسة علوم)

الأوّل علم الحساب المفتوح — من الكتب المختصرة فيه مختصر آبن مجلى الموصلى ومختصر آبن فلوس الماردينى، ومختصر السموءل بن يحيى المغربى . ومن المتوسطة الكافى للكرخى . ومن المبسوطة الكامل لأبى القاسم بن السمح .

الثانى علم حساب التخت والميل — من الكتب المصنفة فيه على طريق الهندى كتب معدّة، ومن الكتب المصنفة فيه على طريق الغبار كتاب الحصار، وكتاب المدخل وغيرهما .

الثالث علم الجبر والمقابلة — من الكتب المختصرة فيه نصاب الجبر لآبن فلوس الماردينى، والمفيد لآبن مجلى الموصلى . ومن المتوسطة فيه كتاب المظفر الطوسى . ومن المبسوطة جامع الأصول لآبن المجلى ، والكامل لأبى شجاع بن أسلم .

الرابع علم حساب الخطأين — وفيه من الكتب الجامعة كتاب لزين الدين المغرّى

الخامس علم حساب الدور والوصايا — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب لأفضل الدين الحويحى .

الأصل السابع
(العلوم العملية، وفيه ثلاثة علوم)

الأوّل علم السياسة — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب السياسة لارسطاطاليس الذى ألفه للاسكندر، وكتاب المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى، وللشيخ تقى الدين ابن تيمية كتاب حسن فى السياسة الشرعية .

الثانى علم الأخلاق — ومن الكتب المختصرة فيه ، كتاب للشيخ أبى على آبن سينا . ومن المتوسطة كتاب الفوز لأبى على بن مسكويه . ومن المبسوطة كتاب للامام فخر الدين الرازى .

الثالث علم تدبير المنزل — ويحصل الآنتفاع فيها بالآطلاع علىٰ السير الفاضلة المحمودة للملوك وغيرهم، ولا أنفع من السيرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

فإذا عرف الكاتب هذه العلوم والفنون وما صنف فيها من الكتب ، أمكنه التصرف فيها فى كتابه بذكر علم نبيل لمساواته أو التفضيل عليه، وذكر كتاب مصنف فى ذلك حيث تدعو الحاجة إلىٰ ذكره : كما وقع لى فى تقريظ مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن، آبن سيدنا شيخ الإسلام أبى حفص عمر البلقينى الكنانى الشافعى " إن تكلم فى الفقه فكأنما بلسان الشافعىّ تكلم ، والربيع عنه يروِى ، والمزنىّ منه يتعلم، أو خاض فى أصول الفقه قال الغزالى هذا هو الإمام باتفاق، وقطع السيف الآمدىّ بأنه المقدّم فى هذا الفن علىٰ الإطلاق ، أو جرىٰ فى التفسير قال الواحدىّ هذا هو العالم الأوحد، وأعطاه آبن عطية صفقة يده بأن مثله فى التفسير لا يوجد، وآعترف له صاحب الكشاف بالكشف عن الغوامض، وقال الإمام فخر الدين هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل فارتفع الخلاف واندفع المعارض، أو أخذ فى القراءات والرسم أزرى بأبى عمرو الدانى، وعدا شأو الشاطبىّ

فى الرائية وتقدّمه فى حرز الأمانى ؛ أو تحدّث فى الحديث شهد له السفيانان بعلوّ الرتبة فى الروايه ، وآعترف له آبن معين فى التبريز (١) والتقدّم فى الدرايه ؛ وهتف الخطيب البغدادىّ بذكره على المنابر ، وقال آبن الصلاح لمثل هذه الفوائد تتعين الرحلة ، وفى تحصيلها تَنْفَد المَحابر ؛ أو أبدى فى أصول الدين نظرا تعلق منه أبو الحسن الأشعرىّ بأوفى زِمام ، وسدّ باب الكلام على المعتزلة حتّى يقول عمرو بن عُبَيْد وواصل بن عطاء ليتنا لم نفتح بابا فى الكلام ؛ أو دقق النظر فى المنطق بهر الأَبْهَرِىَّ فى مناظرته ، وكتب الكاشى وثيقة على نفسه بالعجز عن مقاومته ؛ أو ألمّ بالجَدَل رمى الأرموىُّ نفسَه بين يديه ، وجعل العميدىُّ عمدتَه فى آداب البحث عليه ؛ أو بسط فى اللغة لسانه آعترف له آبن سيده بالسياده ، وأقرّ بالعجز لديه الجوهرى وجلس آبن فارس بين يديه مجلس الآستفاده ، أونحا إلى النحو والتصريف أربى فيه على سيبويه ، وصرف الكسائىّ له عزمه فسار من البعد إليه ، أو وضع أنموذجا فى علوم البلاغة ، وقف عنده الجرجانى ، ولم يتعدّ حدّه آبنُ أبى الأصبع ولم يجاوز وضعَه الرُّمّانى ؛ أو روى أشعار العرب ، أزرى بالأصمعىّ فى حفظه ، وفاق أبا عُبَيدة فى كثرة روايته وغزير لفظه ؛ أو تعرض للعَرُوض والقَوَافى استحقهما على الخليل ، وقال الأخفش عنه أخذت المتدارَك وآعترف الجوهرىّ بأنه ليس له فى هذا الفن مثيل ؛ أو أصّل فى الطب أصلا ، قال آبن سينا هذا هو القانون المعتبر فى الأُصُول ، وأقسم الرازى بمحيي الموتى إن بقرط لو سمعه لما صنّف الفصول ؛ أو جنح إلى غيره من العلوم الطبيعية فكأنما طبع عليه ، أو جذبه بزمام فانقاد ذلك العلم إليه ، أوسلك فى علوم الهندسة طريقا لقال اقليدس هذا هو الخط المستقيم ، وأعرض آبن الهيثم عن حل الشكوك وولّى وهو كظيم ، وحمد المؤتمن بن هود عدم إكمال

(١) لعله بالتبريز .

كتابه الاستكمال، وقال عرفت بذلك نفسي وفوق كل ذى علم عليم، أو عرّج على علوم الهيئة لاعترف أبو الريحان البيرونى أنه الأُعْجوبة النادره، وقال ابن أفلح هذا العالم قطب هذه الدائره؛ أو صرف إلى علم الحساب نظره لقال السموءل ابن يحيي، لقد أحيا هذا العزّ الدارس، وانجلت عن هذا العلم غَيَاهبه حتّى لم يبق عَمَهٌ لعامِهٍ ولا غُمَّة على ممارس:

وقد وجَدْت مكانَ القولِ ذا سَعَةٍ * فإن وجَدْتَ لساناً قائلا فَقُلِ

وسوف أورد هذه الرسالة فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى؛ وكذلك يجرى القول فيما يكتب به من إجازات أهل العلوم ونحوها فى كل علم، وقد تقدّم ذكر شيء مما يجرى هذا المجرى فى الكلام على النحو ونحوه .

تم الجـــزء الأوّل

ويليه الجزء الثانى، أوّله "النوع الثامن عشر — المعرفة بالأحكام السلطانية"

(المطبعة المصرية ١٧/١٩٢٢/١٠٠٠)

فهرست الجزء الأول من كتاب صبح الأعشى

صحيفة

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس احمد القلقشندى

الجزء الثانى

طبع
بالمطبعة الاميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣١ هـ
١٩١٣ م

فهـــــرست الجزء الثـانى
من كتاب صبح الأعشى

(تم فهرست الجزء الثانى من كتاب صبح الأعشىٰ)
ويليه الجزء الثالث وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولىٰ
فى الكلام علىٰ نفس الخط)

بسم الله الرحمن الرحيم

النوع الثامن عشر

(المعرفة بالأحكام السلطانية)

ليعرف[1] كيف يخلص قلمه على حكم الشريعة المطهرة، وما يشترط فى كل ولاية من الشروط، فينبه عليها ويقف عندها، وما يلزم ربَّ كل وظيفة من أرباب الوظائف وما يندب له، فيورده فى وصاياه. وقد أورد أقضى القُضاة أبو الحسن علىّ بن[2] حبيب الماوردىّ رحمه الله فى الأحكام السلطانية ما فيه مَقْنَع من ذلك؛ ونحن نورد فى هذا الكتاب، نُبْذةً من كل باب، مما به يستغنِى الناظرُ فيه عن مراجعة غيره. والذى تكلم عليه الماوردىّ من الوظائف الأصولِ الإمامةُ، والوزارة، وتقليد الإمارة على البلاد، وتقليد الإمارة على الجهاد، والولاية على ضُروب المصالح، وولاية القضاء، وولاية المظالم، وولاية النِّقابة على ذوى الأنساب، والولاية على إقامة الصلوات، والولاية على الحج، والولاية على الصدقات، وقَسْم الفىء والغنيمة، ووَضْع الجِزْية والخَراج، ومعرفة ما تختلف أحكامه من البلاد، وإحياء الموات، وآستخراج المياه، والحِمىٰ، والأوقاف، وأحكام الإقطاع، وأحكام الديوان، وأحكام الجرائم، وأحكام الحِسْبة. وأنا أقتصر من ذلك هنا على ما تفضى إليه حاجة الكاتب من الأحكام، دُونَ ما عداه من الفروع الزائدة على ذلك؛ فإذا عرف حكم كل ولاية من

---

(١) أى الكاتب. (٢) هو على بن محمد بن حبيب انظر كشف الظنون.

هذه الولايات، وما يوجب توليتها، وما يعتبر فى متوليها من الشروط، وما يلزمه من الأمور إذا تولاها، وما ينافى أمورها، ويجانب أحوالها، عرف ماياتى من ذلك، وما يذر، فيكون ماينشئه من البيْعات، والعهود، والتقاليد، والتفاويض، والتواقيع، وما يجرى مجرى ذلك جاريا منه على السداد، ماشيا على القواعد الشرعية التى من حاد عنها ضلَّ، ومن سلك خلاف طريقها زلَّ. وكذلك المناشير المتعلقة بالإقطاعات، وعقد الجزية والمهادنات والمفاسخات، وما يجرى مجرى ذلك من الأمور السلطانية. فإذا عرف حكم كل قضية، وما يجب على الكاتب فيها، وفَّاها حقها، وأتى بذكر مايتعلق بها من الشروط، وجرى فى وصايا الولايات بما يناسب كل ولاية منها؛ فجرى الأمر فى ذلك على السَّداد، ومشَتْ كتابته فيها على أتم المراد؛ إن كتب بَيْعة، أو عهدًا لخليفة، تعرّض فيه إلى وجوب القيام بأمر الخلافة، ونَصْبِ إمام للناس يقوم بأمرهم، وتعرّض إلى آجتماع شروط الخلافة فى المولَّى، وأنه أحق بها من غيره. ثم إن كانت بيعة نشأت عن موت خليفة، تعرّض لذكر الخليفة الميت، وما كان عليه أمره من القيام بأعباء الخلافة، وأنه دَرَج بالوفاة، وأن المولَّى آستحقها من بعده دون غيره. وإن كانت ناشئة عن خلع خليفة تعرّض للسبب الموجب لخلعه: من الخروج عن سَنَن الطريق، والعدول عن مَنْهَج الحق ونحو ذلك مما يوجب الخلع لتصح ولاية الثانى. وإن كان عهدا تعرّض فيه إلى عهد الخليفة السابق إليه بالخلافة، وأنه أصاب فى ذلك الغرض، وجرى فيه على سَوَاء الصراط، ونحو ذلك مما يجرى هـذا المجرى من سائر الولايات على ما سيأتى ذكره فى مواضعه إن شاء الله تعالى.

وهذه فقرة من بيعة أنشأتها توضح ماأشرت إليه من ذلك.

فمن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلى وجوب القيام بالإمامة:

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بها من الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوىٰ دليل تنقطع دون نقضه الأَطْماع، وتنبو عن سماع مايخالفه الأسماع .

ومن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلىٰ آجتماع شروط الخلافة فى المولّى وهو : وكان فلان أمير المؤمنين، هو الذى جمع شروطها فوَفَّاها، وأحاط منها بصفات الكمال وآستوفاها، ورامت به أدنىٰ مراتبها فبلغت أغياها، وتسوّر معاليَهَا فرقِيَ إلىٰ أعلاها، وآتحد بها فكان صورتَها ومعناها .

ومن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلىٰ عقد البَيْعة : بجمع أهلَ الحل والعَقْد، المعتبرِين للآعتبار والعارفين بالنقد : من القضاة والعلماء، وأهل الخَيْر والصُلَحاء، وأرباب الرأى والنُّصَحاء، وآستشارهم فى ذلك فصوّبوه، ولم يروا العدُول عنه إلىٰ غيره بوجه من الوجوه .

ومن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلىٰ القبول، وقابل عَقْدَها بالقَبُول بمحضر من القضاة والشهود فلزمت، ومضىٰ حكمُها علىٰ الصحة فانبرمت، إلىٰ غير ذلك مما يتخرط فى هذا من سائر الولايات وغيرها .

قلت : وكما يجب عليه معرفة الأحكام السلطانية، يتعين عليه معرفة ماعدا ذلك من الأمور الصناعية التى ينتظم أصحابها فى سلك الولايات كالهندسة ونحوها، وسيأتى التنبيه فيما يجب علىٰ كل واحد من أرباب الولايات عند ذكر ولاية كل منهم فى موضعها إن شاء الله تعالىٰ .

الطرف الثانى

(فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه فى أصناف الكتابة مما تدعوه ضرورة الكتابة إليه علىٰ آختلاف أنواعها، ويشتمل علىٰ أنواع)

النوع الأوّل

(ممـا يحتاج إلىٰ وصفه النوعُ الإنسانى، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أوصافه الجسمية، وهى علىٰ ثلاثة أقسام)

القسم الأوّل

(مايَشترِك فيه الرجال والنساء، وهى عِدّة أمور)

منهـا حُسْن اللون، والألوانُ فى البَشَر، ترجِع إلىٰ ثلاثة أصول : وهى البياض، والسُّمْرة، والسَّواد ، ويعبَّر عن السواد بشدّة الأُدْمة ، وربما عبر عن البياض برِقّة السُّـمْرة. ويستحسن من هـذه الألوان البياضُ ، وأحسنُ البياض ما كان مُشْرَبا بحمرة، وقد جاء فى حديث ضِمام بن ثعلبة أنه حين سألَ عن النبى صلى الله عليه وسلم عند وُفوده عليه بقوله : "أيُّكم ابنُ عبدِ المُطَّلب ؟ قيل هو ذاك الأمغرُ المُتَّكِئُ" ، والامغرهو المُشْرَب بحمرة، اخذا من المَغْرة : وهى الصِّبْغ المعروف. وقد جاء فى وصفه صلى الله عليه وسـلم انه "أزْهَرُ اللَّوْن" . والأزهر هو الأبيضُ بصُفْرة خفيفةٍ . والسُّمْرة مستحسَنة عنـد كثير من الناسَ ، وهو الغالب فى لون العَرَب ، وقد قيل فى قوله صلى الله عليه وسلم ، "بُعِثتُ إلىٰ الأحْمَرِ والأسْوَدِ" إن المراد بالأحمر العجم لغلبة البياض فيهم، والمراد بالأسود العربُ لغلبة السُّمرة فيهم ؛ أما السواد فإنه غير ممدوح بل قد ذمَّ الله تعالىٰ السواد، ومدح البياضَ بقوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية. علىٰ أن كثيرا من الناس قد جَنَحُوا إلىٰ آستحسان السُّودان والميل إليهم، وتأنقوا فى الآحتفال بأمرهم، وقد نص أصحابنا الشافعية علىٰ أنه لو قال لزوجته إن لم

تكونى أحسن من القمر فأنت طالق لم تطلق وإن كانت زنجيةً سوداء، فقد قال تعالىٰ ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ . وبالجملة فالحَسَن فى كل لون مستحسن ولله القائل :

إنـــ المَليحَ مَليحٌ * يُحَبُّ فى كُلِّ لَوْنِ

ومنها حُسْن القدّ، وأحسنُ القدُود الرَّبْعة : وهو المعتدل القامة، الذى لا طُول فيه ولا قصَر، وليس كما يقع فى بعض الاذهان من أنَّ المراد منه دُون الاعتدال . وقد جاء فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم، "أنَّه كان رَبْعَةً" . ويستحسن فى القدّ القَوَام والرَّشَاقة، ويشبَّه بالرمح وبالغُصْن، وأكثر ما يشبه به فى ذلك أغصان البان لقوَامها .

ومنها سواد الشعر، وأكثر ما يكون ذلك فى السُّمْر، فإن ٱجتمع مع البياض سواد الشعر كان ذلك فى غاية من الحسن، ويشـبَّه سواد الشـعر بالليل، وربما وقعت المبالغة فيه فشُبِّه بفَحْمة الليل، وبدُجىٰ الليل، وبفَحْمة الدُّجىٰ، وقد يشـبَّه بالآبنُوس ونحوه ممـا يغلب فيه حَلَك السَّواد. وقد اختلف الناس فى جُعُودة الشعر وسُبُوطته ايهما احسن؟ فذهب قوم إلىٰ استحسان الجُعودة : وهى ٱنقباض الشعر بعض ٱنقباض وهو ممـا يستحسنه العرب، وإليه ذهب الفقهاء حتّى لو شرط البائع فى عبد كونَه جعدَ الشعر وظهر سَـبِطَ الشعر رُدّ بذلك بخـلاف العكس. وذهب آخرون إلىٰ ٱستحسان السُّبُوطة، وهى ٱسترسال الشعر وٱنبساطه من غير ٱنكماش، وأكثر ما يوجد ذلك فى الترك ومَنْ فى معناهم . ثم الذاهبون إلىٰ ٱستحسان الجُعُودة يستحسنون التواء شعر الصُّدْغ، ويشبِّهونه بالواو تارَة وبالعقرب أُخرىٰ .

ومنها وضوح الجبين، وسَـعةُ الجبهة، وٱنحسارُ الشـعر عنها، فيُستقبَحُ الغَمَم : وهو عموم الجبهة أو بعضها بشعر الرأس .

ومنها وَسَامة الوجه وحُسْن المُحَيَّا . ويشبَّه الوجه فى الحسن بالشمس، وبالقمر،

وبالسيف إلا أن التشبيه بالشمس وبالقمر أتمُّ من التشبيه بالسيف لما فيه من صورة الاستطالة؛ وقد جاء فى بعض الآثار أنه قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم: "هل كان وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف؟ فقال بل كالشمس والقمر".

ويستحسن فى الوجه حمرةُ الوجنتينْ؛ ويشبَّه لونُهما بالورد، وبالشَّقيق، وبالعَقيق، وبالعَنْدَم، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك مما تغلب فيه الحمرة المُشرِقَة.

ومنها بَلَج الحاجبين وزَجَجُهما، فالبَلَجُ انقطاع شعر الحاجبين: بأن لايكون بينهما شعَر يصل ما بينهما، وهو خلاف القَرَن؛ وربما استُحسن الخفىُّ من القَرن، وهو الذى دقَّ فيه شعر ما بين الحاجبين حتّى لايظهر فيه إلا خضرة خفِيَّة. والزَّجَج دقة الحاجب مع طوله بحيث ينتهى إلىٰ مُؤْخِر العين، وقد جاء فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم "أنَّهُ كانَ أَزَجَّ الحاجِبَيْنِ".

ويستَحْسَن فى الحاجبين سواد شعرهما، وأن يكونا مقوَّسين؛ ويشبَّه تقويسُهما بالنون تارة، وبالقوس أُخرىٰ.

ومنها حُسْن العينين؛ ويستحسَنُ فى العين الحَوَر: وهو خُلُوص بياض العين، والنَّجَل وهو سعتُها ويقال فيه حينئذ أنْجَل وربما قيل أعْيَنُ، ومنه قيل للحُور عِين، والدَّعَج: وهو شِدّة سواد الحَدَقة، والكَحَل: وهو أن تسودّ مواضع الكُحْل من العين خِلْقة.

وتشبه العين بالصاد تارة، وبالجيم أُخرىٰ. وتشبه بالنَّرْجس وربما شبهت بنَوْر الباقِلّى؛ واعتُرِض بأن فيه حَوَلا. وربما شبهت العينُ بالسيف، وبالسَّهْم، وبالسِّنَان. وقد يستحسن فى العينين الفُتُور وضعفُ الأجفان.

ومنها حُسْن الأنف؛ ويستحسن فيه القَنَا: وهو ارتفاع وسطِ الأنف قليلا عن طرفيه مع دِقَّةٍ فيه، وهو الغالب فى العرب؛ وقد جاء فى وصفه صلى الله عليه وسلم "أنَّهُ كان أقْنىٰ الأَنْف". ويستحسن فيه الشَّمَم أيضا: وهو استواء قَصَبة الأنف وعلُوُّ أَرْنبته. ويشبه الأنف بالسيف فى بَرِيقه.

ومنها حسن الفَمِ . ويستحسن فيه الضِّيق . ويشبَّه بالميم، وبالصاد، وبالخاتم.

ومنها حُسْن الشفتين . ويُستحسن فيهما الحمرة . وتشبه حُمْرتهما بما تُشَبَّه به الوجنة من الورد والعقيق والمرجان ونحوها . ويستحسن فيهما اللَّمَى : وهو سمرة تعلو حمرتَهما .

ومنها حسن الأسنان . ويستحسن فيها الشَّنَب : وهو بياض وبريق يعلوهما. وتشبه الأسنان فى البياض وحُسْن النظم باللؤلؤ، وبالبَرَد، وبالطَّلْع : وهو نبت أبيض، والأقاح، وبالحَبَب : وهو الذى يعلو الكأس عند شجِّه(١) بالماء. وقد تشبه بالجوهر، ويستحسَن فيها الأَشَر : وهو تحديد الأسنان كما يقع فى كثير من الصِّبيان، ويستحسن فى السِّنْخ : (وهو لحم الأسنان) حمرة لونه. ويشبه بالعقيق والورد وسائر مايشبه به الخدّ

ومنها حسن الجِيد : وهو العنق. ويستحسن فيه طُوله وبياضُه من الأبيض . ويشبه بإبريق فضة .

ومنها دِقَّة الخَصْر، وهو مَعْقِد الإزار حتى إنهم يشبهونه بدَوْر دُمْلُج، ودور خَلْخال وما أشبه ذلك .

قلت : وهذه الصفات وإن كانت مستحسنة فى الرجال والنساء جميعا فإنها فى النساء آكدُ . فإن الأمر فى الحسن منوط بهن، فمهما كانت المرأة أحسنَ كان أعظم لشانها، وأعز لمكانها ؛ وقد قيل لرجل من بنى عُذْرة : ما بال الرجُل منكم يموتُ فى هوى امرأة إنما ذلك لضعف فيكم يابنى عُذْرة ـ فقال "أما والله لو رأيتم النَّواظر الدُّعْج، فوقها الحواجب الزُّجّ، تحتها المَبَاسم الفُلْج، لاتَّخذتموها اللاتَ والعزَّى !"

وقد أكثر الشعراء من التغزل بهذه المحاسن بما ملأ الدفاتر مما لا حاجة بنا إلى ذكره هنا .

---

(١) أى مزجه يقال شج الخمر بالماء اذا مزجها به . انظر اللسان

القسم الثـانى

(ما يختص به الرجال)

وأخص ما يختص به الرجال من المحاسن اللِّحية ، وقد قيل فى قوله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِى الخَلْق ما يَشَاء ﴾ إن المراد اللحية ، علىٰ خلاف فى ذلك . ويستحسن فى اللحية آستدارتها وتوسُّطها فى المقدار ، وسواد شعرها . فإذا حسُنت اللحية من الرجل كُملت محاسنه . وتزيد الأحداث علىٰ الرجال فى الحُسْن بمقدّمات ذلك : فيستحسن منهم خُضْرة الشارب ، وخُضْرة العارض والعذار ، ويشبه كل منهما بالآس ، وبالريحان ، وبدَبِيب النمل ونحو ذلك . ويشبَّه العذار بالألف ، وباللام ، وبالباء . ويشبه الشارب الأخضر فوق حمرة الشفتين بقوس قُزَحَ ، وبالآس مع الورد ونحو ذلك ؛ علىٰ أن أهل الفِرَاسة قد آستحسنوا فى الرجل أمورا تخالف ماتقدّم .

منها سَعَة الفم وغِلَظ الشفتين وما أشبه ذلك قائلين إن ذلك مما يدل علىٰ الشجاعة وهو أمر مطلوب فى الرجل كما تقدّم .

القسم الثالث

(ما يختص به النســاء)

ومما ينفرد به النساء من الأوصاف الجسميَّة السِّمَنُ ، فهو أمر مَطلوب فى المراة ما لم يُفْرِط ويخرُج عن الحـدّ المطلوب ؛ ففى الصحيحين من حديث أمِّ زرع "بنتُ أبِى زَرْعٍ وما بِنْت أبى زَرْع؟ مِلْءُ كِسائهـا ، وغَيْظُ جارِتها" إشارة إلىٰ امتلائها بالشحم . ووصف أعرابىّ آمرأة فقال "بيَضْاءُ رُعْبُوبه ، بالشَّحْم مَكْروبه ، بالمِسْك مَشْبُوبه" . وهذا بخلاف الرجال فإن المطلوب فيهم الخِفَّة وقلة اللحم لأجل قوّة النَّهْضة ، وسرعة الحركة فى الحرب وغيره ، والسِّمَن يمنع ذلك ، مع ما يقـال إن فيه تبليدا للذهن قال بعضهم : "ما رأيت حَبْرا سمينا إلا محمد بن الحسن" يعنى

صاحب أبى حنيفـة رضى الله عنـه . وربمـا آستحسن قلة اللحم فى المرأة أيضا، وتوصف حينئذ بالهَيَف .

ومن ذلك ثِقَـل الرِّدف فهو ممـا يتمدّح به فى النسـاء بخلاف الرجل فإن ذلك فيه غير محمود .

ومن غريب ما يحكىٰ فى ذلك أن رجلا أخذ خَطَرا من قوم علىٰ أن يُغْضِب معاوية بنَ أبى سُـفْيان مع غلبة حِلْمه، فعمد إلىٰ معاوية وهو ساجد فى الصـلاة، فوضع يده علىٰ عجيزته وقال: ماأشبه هذه العجيزةَ بعجيزة هند! ـ يعنى أم معاوية ،فلما سلم من صلاته، التفت إلىٰ ذلك الرجل وقال : "يا هذا إن أبا سفيان كان محتاجا من هند إلىٰ ذلك وإن كان أحد جعل لك شيئا علىٰ ذلك فخذه" .

وممـا يستحسن فى المرأة طول الشعر فى الرأس، ودِقَّة العظم، وصغَر القـدم، ونُعُومة الجسد، وقلة شعر البدن، فى أمور أخرىٰ يطول ذكرها .

الضرب الثـانى

(الصفات الخارجة عن الجسد، وهى علىٰ ثلاثة أقسام أيضا)

القسم الأوّل

(ما يشترك فيه الرجال والنساء)

وهو يرجع إلىٰ أصلين : العقلِ والعِفَّة ؛ ويدخل تحت كل من هذين الأصلين عِدّة من أوصاف المدح . فأمّا العقل فيدخل تحته العلم . وصفاته المعرفة، والحياء، والبيان،والسِّياسة،والكِفَاية، والصَّدْع بالحُجَّة، والحلم عن سفاهة الجَهَلة وغير ذلك ممـا يجرى هذا المجرىٰ . ولا يخفى أن هـذه الأوصاف مطلوبة فى الرجال والنساء جميعا وإن كان أكثرها بالرجال أليَق .

وأما العِفّة فيـدخل تحتها القَناعة ، وقِلّة الشَّرَه، وطهارة الإزار، وغير ذلك ممـا لايستغنِي عنه رجل ولا آمرأةٌ؛ و إذا رُكِّب العقلُ مع العفّة حدث عنهما صـفاتٌ أُخرىٰ ممـا يتمدّح به: كالنَّزاهة، والرغبة عن المسألة، والآقتصار علىٰ أدنى معيشة، ونحو ذلك ممـا ينخرط فى هذا السلك .

القسم الثـانى

(ما يختص به الرجال دون النساء)

وهو يرجع إلىٰ أصلين أيضا : وهمـا العَدْل والشجاعة ؛ ويدخل تحت كل من الأصلين عدّة أوصاف من أوصاف المدح ، فيدخُل تحت العدل السَّماحة ، والتبرُّع بالنائل، و إجابة السائل، وقِرىٰ الضيف، وما شابه ذلك . ويدخل تحت الشجاعة عدّة أوصاف كالحِمَاية والدِّفاع، والأخذ بالثأْر ، والنِّكاية فى العدوّ، والمَهَابة، وقتل الأقران، والسير فى المَهَامِه المُوحشة، وما أشبه ذلك؛ و إذا رُكِّب العقل مع الشجاعة حدث عنهما صفات أُخرىٰ ممـا يتمدح به كالصبر علىٰ الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعد ونحو ذلك .

القسم الثالث

(ما يختص به النسـاء)

ويرجع إلىٰ أصلين مذمومين فى الرجل : وهما الجُبْن والبُخْل ؛ وذلك أن المرأة إذا جَبُنت كفَّت عن المَسَاوى خوفا علىٰ نفسها أو عِرْضها، وإذا بَخِلت حفِظت مال زوجها عن الضَّياع والإتلاف؛ وحينئذ فتكون أوصاف الرجال الممدوحة أربعةَ أوصاف : آثنان يشتركون فيهما مع النساء ــ وهما العقل والعفة ؛ وآثنان ينفردون بهما عن النساء ــ وهما العدل والشجاعة . وتكون أوصاف النساء الممدوحة أربعة أيضا اثنان يشترِكْن فيهما مع الرجال وهما العقل والعفة، واثنان ينفَردن بهما عن الرجال وهما

الجُبْن والبُخْل ؛ فيمدح كل من الصنفين بما هو مشتمل عليه بحسب ما يقتضيه المقام وما يوجبه الحال .

قال قُدَامة بن جعفر الكاتب فى نقد الشعر : "ومدائح الرجال تنقسم بحسب الممدوحين من أصناف الناس فى الآرتفاع والآتضاع وضروب الصناعات والتبدّى والتحضُّر، فيحتاج إلى الوقوع على المعنى اللائق بمدح كل ؛ فمدح الملوك يكون بما يلائم قدرهم من رفعة القدر وعلوّ الرتبة والآنفراد عن المِثل والقرِين : كقول النابغة فى النعمان بن المنذر .

أَلَمْ تَرَ أنّ اللهَ أعْطَاكَ سَوْرَةً * تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونها يتَذَبْذَبُ
بأنك شمسٌ والمُلُوكُ كواكِبٌ * إذا طَلَعَتْ لم يبْدُ منهنّ كَوْكَبُ

وما يجرى مجرى ذلك ؛ ومدح الوزير والكاتب بما يليق بالعقل والدُّرْبة ، وحسن التنفيذ والسياسة ، فإن أضيف إلى ذلك الوصف بالسرعة فى إصابة الحزم ، والآستغناء بحضور الذهن عن الإبطاء لطلب الإصابة كان أحسن وأكمل للمدح كما قيل :

بَدِيهَتُهُ مِثْلُ تَفْكيرِه * مَتى رُمْتَهُ فَهوَ مُسْتَجمع

وكما قيل :

يُرىٰ ساكِنَ الأَوْصَالِ باسِطَ وَجْهِه * يُرِيكَ الهُوَيْنىٰ والأُمُورُ تَطِيرُ

ويُمْدَح القائد يعنى الأمير الذى يقود الجيش بما يجانس البأس والنجدة ، ويدخل فى باب البطش والبَسَالة ، فإنْ أضيف إلى ذلك المدحُ بالجُود والسماحة والحِذْق والبَذْل والعطية ، كان أحسن وأتم : من حيث إن السخاء أخو الشجاعة ، وهما فى أكثر الأمور موجودان فى ذوى بُعْدِ الهِمّة ، والإقدام والصولة : كما قال بعضهم جامعا بين البأس والجود :

فَتًى دَهْرُه شَطْرانِ ممَّا يَنُوبه * فَفى بأسِه شَطر وفى جُودِه شَطر

فَلَا مِنْ بُغَـاةِ الخَـيْرِ فى عَيْنِهِ قَذًى * ولامِنْ زَئِيرِ الحَرْبِ فى أُذْنِهِ وَقْـر

قال : "وتمدح السُّوقة والمتعيشون بأصناف الحِرَف وضُروب المكاسب والصَّعاليك بما يضاهى الفضائل النفسانية من العقل والعِفَّة والعَدل والشَّجاعة، خاليا عن مثل مدح الملوك ومن تقدّم ذكره من الوزراء والكُتَّاب والقُوَّاد

ويمدح ذوو الشجاعة منهم بالإقدام والفتك والتشمير والتيقُّظ والصبر مع التحذُّق والسَّماحة وقلَّة الاكتراث بالخطوب الملمة ونحو ذلك" .

قلت : ويؤخذ ممـا ذكره قدامةُ أن القضاة والعلماء يُوصَفون بما يليق بمحلهم من ذلك فيوصف العالم بثَقَابة الذهن، وحِدَّة الفهم، وسَعَة الباع فى الفضل، ومايجرى مَجْرىٰ ذلك، ويُوصَفُ القُضاة بذلك وبالعدل والعفة ومباينة الجور ونحو ذلك، وستقف فى قسم الولايات فى نسخ البيعات والعهود والتقاليد والتواقيع والتفاويض والمراسيم ونحوها من ذلك بما(١) يتضح لك به سواء السبيل .

وٱعلم أن الكاتب كما يحتـاج إلىٰ معرفة الصـفات المحمودة من النوع الإنسانىّ كذلك يحتاج إلىٰ معرفة الصفات المذمومة منه، فربمـا ٱحتاج إلىٰ الكتابة بذم شئ من ذلك فيكون عنده من العلم بالصفات المذمومة ماينفق معه(٢) : كما حكى أن بعض العمال بعث إلىٰ الرشيد بعبد أسود فقلَب كتابه ووَقَّع عليه "أما بعدُ فإنَّك لو وجَدْتَ عَدَدا أقل من الواحد، أو لَوْنا شرًّا من السواد لبعثت به إلينا والسلام" .

ولا يخفى أن كل ما خالف صفة من الصفات المستحسنة المتقدّمة فهو مستقْبَح مع ماهو معلوم من الصفات المذمومة الجسمية : كالحَدَب والحَوَل ونحوهما، ومن الصفات المعنوية : كسُوء الخُلُق وبَذَاءة اللسان ونحوذلك . وفى هذا مَقْنَع فى الإرشاد إلىٰ المراد والتنبيه علىٰ القَصْد .

(١) أى على مايتضح . (٢) لعله منه .

النوع الثـانى

(ممـا يحتاج إلىٰ وصفه هى دوابّ الركوب، وهى أربعة أصناف)

الصنف الأوّل

(الخيـــل)

ويحتاج إلىٰ المعرفة بوصفها فى مواضع ؛ من أهمها وصفُها عنــد بعث شئ منها فى الإنعام والهدايا ، والجوابِ عن ذلك . ووصفُها فى ترتيب الجُيُوش والمَوَا كب وذكرها فى مجَالات الحرب، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك . ويشتمل الغرض منه علىٰ معرفة أصـنافها، وألوانها، وشِيَاتها؛ وما يُستَحْسَن ويستقبح من صفاتها؛ ومعرفة الدوائر التى تكون فيها؛ والبصَرِ بأمور أسنانها وأعمارها .

أما أصنافها فثلاثة

الأوّل ــ العِرَاب : وهى أفضلها وأعلاها قيمةً، وأغلاها ثمنا ، تطلب للسبق واللَّحاقِ؛ والملوك تتغالىٰ فى أثمانها وتُعِدّها لمهم الحرب . وتُوجَد ببلاد العرب ومحلاتهم فى أقطار الأرض : كالحجاز، ونجد، واليمن ، والعراق ، والشام ، ومصر ، وبَرْقة، وبلاد المغرب وغيرها .

الثانى ــ العَجَمِيَّات : وهى البَرَاذين ويقال لها الهَمَاليجُ، وتُعرَف الآن بالأكاديش وتُجلَب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم . وغالبُ ما تُوجد مشقوقةَ المناخر، وتطلب للصبر علىٰ السير وسرعة المشى .

الثالث ــ المُولَّد بين العراب والبرَاذين : فإن كان الأبُ عَجَمِياً والأم عربيَّة قيل له هَجِين، وإن كان بالعكس قيل له مُقْرِف؛ وهى تكون فى الجَرْى والمشيِ متوسطة بين النوعين .

وأما ألوانهـا فقد ذكر آبن أبى أصبع أن أُصول الألوان فيهـا ترجع إلىٰ أربعة ألوان، وما سواها مفرّع عنها .

الأوّل ـ البياض : وقلَّ أن يخْلُص من لون يخالطه؛ فإن صفا بياضه قيل فيه أشْهبُ قِرْطاسِىٌّ؛ فإن كان أذناه وقوائمه وعُرْفه وذيلُه سُودا، قيل مُطَرَّف، فإن خالط البياض شعرٌ أسود والأغلب فيه البياض قيل أشهبُ كافورىٌّ، وإن كان السوادُ فيه أغلبَ قيل أشهبُ حديدىٌّ، وأشهبُ أشمَطُ، وأشهبُ مخلَّس(١)، فإن كان فيه نُكَتٌ سُود قيل أشهب مُفَلَّس، فإن آتَّسعتْ قليلا قيـل أشهبُ مُدَنَّر، فإن كان فى شُهْبته طرائقُ، قيل أشهبُ مُجَزَّع، فإن كان فيه بُقَع من أىّ لَوْن كان دون البياض قيل مبَقَّع، فإن صغُرت تلك البُقَع قيل أبقَعُ، فإن تفرّقتْ وآختلفَتْ مقاديرُها قيل أشيَمُ، فإن تعادَلَ ذلك اللونُ مع البياض مع صِغَر النُّقَط من اللونين قيل أنْمَش، فإن تناهَتْ فى الصغر، قيل أبْرَشُ، فإن كان البياض نُكَتًا صـغيرة فى ذلك اللون قيل مُفوَّف، فإن كان شئ من ذلك كله فى عضو واحد قيد به، مثل قولك مُفَوَّف القَطَاة، وأنمش الصدر وما أشبه ذلك .

الثانى ـ السَّواد : فإذا كان الفرس شـديدَ السواد قيل فيه أدْهَمُ، فإن آشـتدّ سوادُه قيل أدْهَمُ غَيْهبىّ، فإن علا السوادَ خضرةٌ قيل أحْوَى والجمع حُوٌّ، فإن خالط سوادَه شُقْرة قيل أدْبَسُ، فإن آنضم إليه أدنىٰ حمرةٍ أو صُفْرةٍ قيل أحَمُّ، فإن ضرب سوادُه إلىٰ يَسيرِ بيـاض قيل أوْرَقُ، ونحوه الأَكْهَبُ، وفى دونه من السواد يقـال أرْبَدُ .

الثالث ـ الحمرة : إذا كان الفرس خالص الحمرة، وعُرفه وذَيْلُه أسودان، قيل فيه أوْرَد والجمع وِرَاد والأنثى وَرْدة؛ فإن خالط حُمرتَه سوادٌ فهو كُمَيْت، الذكر والأنثى فيه سواء، فإن صفت حمرته شيئا قليلا قيل كميت مُدَمًّى، فإن كان صافيا قليل

(١) فى الأصل بالصاد وهو تصحيف كما يفهم من مراجعة القاموس واللسان فى مادة خ ل س .

الحمرة وعُرْفه وذيله أشقران قيل أشْقر . فإن كان أحمر وذيلُه وعرفه كذلك قيل أمْغَر ، فإن خالط شُقرةَ الأشقر أو الكميتَ شَعْرةٌ بيضاء قيل صِنَابِيٌّ أخذا من الصِّنَاب وهو الخَرْدل بالزبيب ، فإن كانت حمرته كصدإ الحديد ، قيل أصدأُ ، فإن زاد فيه السواد شيئا يسيرًا قيل أجْأَى والآسم الجُؤْوَة .

الرابع ــ الصُّفْرة : فإن كانت صُفرته خالصةً تُشْبه لون الذهب وعُرْفه وذيله أَصْهبانِ مائلان إلى البياض قيل أصفر خالِصٌ ، فإن كانا أبيضين قيل أصفر فاضح فإن كانا أسودين قيل أصفر مطرّف وهو الذى يسمونه فى زماننا الحبشيّ ، فإن كان أصفر ممتزجا ببياض قيل أشهب سَوْسنِيّ ، فإن كان فى أكارعه خُطوط سُود قيل موْشِيٌّ .

وأما شياتها وهى البياض المخالف للونها ، فمنها الغُرّة : وهى البياض الذى يكون فى وجه الفرس اذا كان قَدْرُه فوق الدِّرْهم ، فإن كان دُونَ الدرهم قيل فى الفَرس أقْرَحُ والعامة تقول فيه أغَرُّ شعرات ، فإن جاوز البياضُ قدرَ الدرهم قيل فيه أعْرَمُ (١) ، ثم أوّل رتبة الغرّة يقال له النَّجْم ، فإن سالت الغُرّة ورَقّت ولم تجاوِز جبهته ، قيل فيه أغرّ عُصْفُوريّ ، فإن تمادَتْ حتّى جلّلت خَيْشُومه ولم تبلغ جَحْفَلته ، قيل أغرّ شِمْراخيّ ، فإن ملأتْ جبهته ولم تبلغ العينين قيل أشْدَخُ ، فإن أصابتْ جميع وجهه إلا أنه ينظر فى سوادٍ ، قيل مُبَرْقَع ، فإن فشَتْ حتّى جاوزتْ عينيه وآبيضّت منها أشفارُه ، قيل مُغْرَب ، فإن أصابت منه خدًّا دون خدّ قيل لَطِيم أيْمَنُ أو أيسَرُ ، فإن كان بشَفَته العُليا بياض قيل أرثَمُ ، وإن كان بالسفلى بياض قيل ألْمَظُ (٢) ، فإن نالهما جميعا قيل أرثَمُ ألْمَظُ .

(١) وقع فى الأصل أغرم بإعجام الغين وهو تصحيف .

(٢) فى الأصل أنمط بالنون والطاء وهو تصحيف .

ومنهـا التحجيل فى الرِّجْلين وما فى معنىٰ ذلك ، إن كان البياض فى مؤخر الرُّسْغ لم يستدرْ عليه قيل فى الفَرَس مُنْعَل ، وإن كان فى الأربع قيل مُنْعَل الأربع ، او فى بعضها أضيف إليـه فقيل مُنْعَل اليـدين أو الرجلين أو اليد أو الرجل ، اليمنىٰ او اليسرىٰ ، فإن آستدار علىٰ الرُّسْغ وهو المَفْصِـل الذى يكتنفُه الوظيفُ والحافرُ وكان فى إحدىٰ الرجلين ، قيـل أرجَلُ ، وإن كان فى الرجلين جميعا قيـل مُخَـدَّم وأخْدَمُ ، فإنْ جاوز رُسْغ الرِّجل وآتصل بالوَظِيف : وهو مابين الكعب وبين أسفله ولم يجاوز ثُلُثيه ، قيل مُحَجَّل ، أخذا من الحِجْل : وهو الخَلْخال ، فإن كان فى رِجْل واحدة ، قيل مُحَجَّل الرجل اليمنىٰ أو الرجل اليُسرىٰ ، فإن كان فى الرجلين جميعا قيـل محجَّل الرجلين ، فإن كان معه فى إحدىٰ اليدين بياض يجاوز الرُّسْغ إلىٰ دون ثلثى الوظيف قيل محجَّل الثلاث مطلقُ اليد اليمنىٰ أو اليسرىٰ ، فإن كان البياض فى اليد الأخرىٰ كذلك ، قيل محجَّل الأربع ، فإن كان البياض فى اليدين فقط قيل أعصَمُ ، سواء جاوز الرسغ أم لا ، ولا يُطْلق التحجيل علىٰ اليـدين أو إحداهما إلا بانضمام إلىٰ تحجيل الرجلين أو احداهما ، فإن كان فى اليد الواحدة قيل أعْصَمُ اليد اليمنىٰ أو اليسرىٰ ، وإن كان فيهما قيل أعصَمُ اليديْن ، وإن كان التحجيل فى يد ورجل من جانب واحد قيل مُمْسَك ، وإن كان ذلك من الجانب الأيمن قيل مُمْسَك الأَيامِن مطلقُ الأَياسر ، وإن كان بالعكس قيل مُمْسَـك الأياسر مطلقُ الأيامن ، وإن كان التحجيل فى يد ورجل من خلاف فهو الشِّكَال . وقيل الشكال بياضُ القائمتين من جانب ، وقيل بياض ثلاث قوائمَ ، فإن تعدّى البياضُ حتّى جاوز عُرْقوبَيِ الرِّجلين أو ركبتَيِ اليدين ، قيل فيه مُجبَّب ، فإن علا البياضُ حقْوىْ[1] رجليه ومِرْفَقىْ يديه قيـل أبلقُ ، فإن زاد علىٰ ذلك حتّى بلغ الأفخاذ والأعضاد ، قيـل أبلقُ مُسَرْوَل ، فإن آختص البياض بيديْه

(١) كذا فى الأصل بالقاف ولعله مصحف عن النون لان الحقو الخاصرة وبقية الكلام يأباه أما الحِنْو فهو الاعوجاج والغرض جاوز البياض العرقوبين ولم يبلغ الأفخاذ الخ .

وطال حتّى بلغ مِرْفقَيْه قيل أقْفَز ومُقَفَّز ، فإن كان البياض فى الوظيف غير متصل بالرسغ ولا بالعُرْقوب ولا بالرُّكبة قيل مُوَقَّف .

ومنهـا الشِّيات التى تخلل سائر جسدها ، فإن كان الفرس مبْيَضّ الأذنين أو فى أذنيه نَقْش بياض دون سائر اونه قيل فيه أَذْرأ ، وإن كان مبيض الرأس قيـل أصْقَع ، فإن ٱبيضّ قفاه قيل أقْنَف ، فإن شابت ناصيته قيل أسْعَف ، فإن ٱبيضّت جميعها قيل أصبَغُ الناصية ، فإن غَشّى البياض جميع رأسه قيل أغْشى ، وربمـا قيل فيه أرْخَم ، فإن ٱبيضّ رأسه وعنقه جميعا قيل أدْرَع ، فإن ٱبيض ظهره قيل أرْحَلُ ، فإن كان ذلك البياض من أثر الدَّبَر قيل مصرد ، فإن ٱبيضّ بطنه قيل أَنْبَطُ ، فإن ٱبيضّ جَنْباه قيل أخْصَفُ ، فإن كان البياض بأحد جَنْبيه قيل أخصَفُ الجنب الأيمن أو الأيسر ، فإن ابيضّ كفَلُه قيل آزرُ ، فإن ابيض عَرْض ذَنَبه من أعلاه قيل أشعَلُ ، فإن ٱبيض بعض هُلْبه دون بعض قيل مُخَصَّـل ، فإن ٱبيضّ جميعُ هُلْبه قيل أصبغ هُلْب الذَّنَب ، فإن عدى عرقوبه البياض جملة قيل بَهِيم ومُصْمَتٌ من أىّ لون كان .

وأما مايُستحسَن من أوصافها فقد قال العلماء بأمر الخيل : يستحَبُّ فى الفرس دِقَّة الأُذنين وطولهُما وٱنتصابهُما ، ودقة أطرافهما ، وقُرْب مابينهما ، وكل ذلك من علامات العِتْق . وفى الناصية ٱعتدال شعرها فى الطُّول ، بحيث لاتكون خفيفة الشعر ولا مُفْرِطةً فى كثرته . ويقال فى هذه الناصية الجَثْلة . ويُستحبُّ مع ذلك لِينُ الشَّكِير (وهو ماطاف بجَنْب الناصِـيَة من الزَّغَب) . ويستحب عِظَم الرأس وطُوله وسَعة الجبهة ، وأَسالة الخدّ ، ومَلاسته ، ودِقَّته ، وقلَّة لحم الوجه ، وعُرْيُ الناهِضَين (وهما عظمان فى الخدّ) وسَـعةُ العين ، وصفاء الحَدَقة ، وذلك كله من علامات العِتْق . ويستحبُّ فى العين السُّمُوّ والحِدّة ورِقَّةُ الجُفُون وبعدُ نظره . قال ٱبن قتيبة : وهم يصـفونها بالقَبَل والشَّوَس والخَوَص ، وليس ذلك فيها عيبا ولا هو خلقـةً ، وإنمـا

تفعله لعزة أنفسها . ويستحَبُّ فى المَنْخَر السَّعة : لأنه إذا ضاق شقَّ عليه النَّفَس . قال وربمـا شُقَّ مُنْخُره لذلك وبعد مابين المنخرين . ويستحب فى الفم الهَرَت (وهو طول شَقّ شِدْقيه من الجانبين) لأنه أوسع لخروج نَفَسه ، ورقة الجَحْفَلتين وهما الشـفتان لأنه دليل العِتْق ، وطولُ اللسان ليكثر ريقه فلا ينبهر ، ورقته لأنه أسرع لقضمه العلف ، وصـفاء الصهيل لأنه دليل صحة رئته وسهولة نَفَسه . ويسـتحب فى العُنُق الطُّول فقد كان سَـلْمان بن ربيعة يفرق بين العِتاق والهجن فدعا بطست من ماء فوضعت بالأرض ثم قدمت الخيـل اليها واحدا واحدا فمـاثنىٰ سُنْبُكه منها ثم شرب هَجَّنـه ، وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقا لأن فى أعناق الهجن قِصَرا فلا تنال المـاءَ حتّٰى تثنى سنابكها ؛ وقد روى أنه هَجَّن فرس عمرو بن معـدى كرب فٱستعدىٰ عليه أميرَ المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فقال سَلْمانُ ٱدع بإناء فيه ماء ثم أُتِى بفرس عتيق لاشك فى عتقه فأشرع فى الإناء فصف بين سُنْبُكَيه ومدَّ عنقَه فشرب . ثم قال ائتونى بهَجين لاشك فيه فأشرع فبرك فشرب ، ثم أُتِى بفرس عمرو بن معـدى كرب فأشرع فصف بين سنبكيه ومدّ عنقـه ثم ثنىٰ أحد سنبكيه قليلا فشرب فقال عمر أنت سلمانُ الخيـل . ويسـتحب فيها مع ذلك الكبر لأنه أقرب لٱنقياده وعَطْفِه ، وغلظُ مُرَكَّبِ عنُقه ودقةُ مَذْبَحه . ويستحب فيه ٱرتفاع الكَتِفين والحـارِك والكاهِل ، وقِصَر الظهر وعِرَض الصَّهوة (وهى مقْعَد الفارس من الظهر) وٱرتفـاع القَطَاة (وهى مقعد الرِّدْف من الظهر أيضا) وقلة لحم المتنَيْن وهما ماتحت دفتى السرج من الظهر . ويستحب فى الكفل الٱستواء والٱستدارة والمَلاَسـة والتدوير . ويستحب طُول السَّبِيب : وهو الشعر المسترسِلُ فى ذيله ، وقِصرُ العَسِيب : وهو عَظْم الذنب وجلدُه ؛ ولذلك قال بعض الأعراب "اختَرْه طويلَ الذَّنب قصـير الذَّنَب" يعنى طويل الشعر قصير العَسيب . قال ٱبن قتيبة

ويستحب أن يرفع ذَنَبه عند العَدْو، ويقال إن ذلك من شدّة الصُّلْب . ويستحب عِرَض الصدر : وهو ماعَرُض حيثُ ملتقىٰ أعلىٰ لبَبه، ويسمّى اللّبَان والكَلْكَل؛ وكذلك آرتفاعه عن الأرض مع دِقّة الزَّوْر، وهو ما استدق من صدره بين يديه، بحيث يقرُب مابين المِرْفَقين لأنه أشدّ له وأقوىٰ لجريه . ويستحب فيه عِرضُ الكتف وغِلَظه وقِصَر النَّسا : وهو عِرْق فى الساق مستبطِن الفَخِذ، وشَنَجُه، وقِصَر وَظيف اليد : وهو قَصَب يديه، وقِصَر الرُّسْغ، ودِقّة إبرة العُرْقوب وتحديده : لأنه أشدّ لقَصَب الساق؛ وطُولُ وَظيف الرجل ليخْذِف الأرضَ بها فيكون أشدّ لعدوه، وغِلَظُ عَظْم القوائم، وغِلَظُ الحِبَال : وهى عَصَب الذراعين، ولُطْف الرُّكْبة، وقُرْب مابين الركبتين، وشِدّة كَعْبه : لأن ضَعْف الكعب داعية الجَرَد[(١)]، وآنحناء الرجلين وتَوتُّرهما، وبُعْدُ مابين الرجلين : وهو الفَحَج : لأنه أشد لتمكُّن رجليه من الأرض. ويستحب صفاءُ الحافر، وصَلابتُه، وسعتُه، وكونه أزرقَ أوأخضَر غيرمَشُوب ببياض : لأن البياض دليل الضعف فيه، وأن يكون مع ذلك فيه تقعُّب، ولُطْف نُسُوره : وهى شئ فى باطن حافره كالنوىٰ : لأنه إذا ضاق موضعها كان أصلب لحافره؛ وأن تكون أطراف سَنَابكه وهى مقَادم حوافرِه رقيقةً . ويستحب فيه مع ذلك كلّه آتساع إهَابه وهو جلده، ورقّة أديمه، وصفاء لونِه، ولِينُ شعره، وكثرةُ عُرْفه، وكثرة نومه، وسَعة خطوه، وخِفّة عِنانه، ولِين ظهره، وحُسْن آستقلاله فى أوّل سيره، وخِفّة وَقْع قوائمه علىٰ الأرض إذا مشىٰ، وشدّة وقعها اذا عَدَا، مع حِدّة نفسه وسُرعة عَدْوه، وآتساع طرقته، وقد يغتفر القِطَاف فى المشى فى دوابّ الجَرْى . ثم إنه قد يحتمل فواتُ آلة الحسن والفَرَاهة فى المشى ولا يُغتفَر النقص فى آلة الجَوْدة وشدّة العَدْو والصَّبْر : لأن بهما يدرك مايطلُب، وينجو ممـا يهرُب .

(١) فى اللسان الجرد ورم فى مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتّى يمنعه المشي والسعي .

وأما مايُستقبح ويُذَمّ من أوصافها، فقد ذكروا للفرس عدّة عيوب، بعضها خِلْقية وبعضها حادثة .

فمن العيوب الخلقية البدد : وهو بُعْد مابين اليدين، والصَّمَم وهو أن لايسمع : وعلامته أن يراه يَصُرّ أذنيه أبدا إلىٰ خلف، وإذا جُرّ خلفه خشبةٌ ونحوها لايشعر ولم ينفر عنها، والخذاء : وهو أن يكون أذناه مسترخيتين منكوستين نحوَ العينين أوالخدّين كآذان الكلاب السَّلُوقيَّة ، والطَّوَل وهو أن تطول إحدىٰ أذنَيْه وتقصر الأخرىٰ ، وكونه أسَكَّ : وهو أن يكون صغير الأذن .

ومنها السَّفا : وهو قلّة شعر الناصية ، والغَمَم : وهو أن يكثُر شعر الناصية ويطُولَ حتّى يغطِّيَ العين : وهو عيب خفيف والسَّفا (١) : وهو خفة الناصية .

ومنها القَرَح : وهو أن يكون البيــاض الذى فى الوجه دُون قدر الدرهم كما تقدم إلا أن يكون معه بياض آخر من تحجيل ونحوه فلا يكره حينئذ، فإن كان فى وسط البياض فى الوجه سواد كان عيبا يُتشاءم به .

ومنها العَشا : وهو أن لا يُبْصر ليلا فيصير بمثابة نصــف فرس لأنه لا (٢) ينتفع به فى الليــل دون النهار ، وكونه قائم العين : وهو الذى يكون علىٰ ناظره سواد يضرب للخُضْرة والكُدْرة يقل معها بصرُه ، والحَوَل : وهو أن يكون بإحدىٰ عينيــه بياضٌ خارجَ سواد الحدقة من فوق، ويكون خلاف العين الأخرىٰ وهو مع ذلك مما يتبرَّك به بعض الناس ويقول : إذا كان ذلك فى العينين كان أعظم لبركته ، والخَيَف : وهو أن تكون إحدىٰ عينيه زرقاءَ : وهو ممــا يُتشاءم به لاسيمــا إذا كانت الزُّرقة فى العين اليسرىٰ، فإن آزرقَّت العينان جميعا كان أقلَّ لشُؤمه ، وغُــؤور العينين : وهو دخولهما فى وجهه ، والغَرَب : وهو بياض أشفار العينين، يكون عنه ضعف بصره فى القمر والحرّ الشديد، والكُمْنة : وهو أن يبصر قدّامه ، ولا يبصر عن يمينه ولاشماله .

(١) أى ان السفا بهذا المعنى عيب خفيف . (٢) فى الخط إسقاط لا وفى المطبوع اثباتها وهو الظاهر.

ومنها القَنَا : وهو ٱحدِيدَاب فى الأنف، ويكون فى الهُجْن، والخَنَس : وهو أن يُرىٰ فوق مَنْخِريه منخسفا : لأنه يضيق نَفَسه إذا ركَض .

ومنها الفَطَس : وهو أن تكون أسنانه العُلْيا داخلة عن أسنانه السُّفلىٰ، والطَّبْطَبة وهو أن تسترخىَ جَحْفاته السفلىٰ فإذا سار حركها وطبطبها كالبعير الأهْدَل، وأن يكون فى حنكه شامةٌ سوداء وسائر فمه أبيض .

ومنها قِصَر اللسان لأنه إذا قَصُر لسانه قلّ ريقه فيُسرِع إليه العَطَش، والخَرَس وعلامته أن تراه يصهَلُ ولا يُحَمْحِم، وهو عيب لطيف .

ومنها القَصَر : وهو غلظ فى العنُق، واللَّفَف : وهو ٱستدارة فيه مع قصر، والدَّنَن وهو طُمَأْنينة فى أصل العنق، والهَنَع : وهو طمأنينة فى وَسَط العنق، والقَوَد : وهو يُبْس فى العنق بحيث لايقدِر الفرسُ أن يدير عنقَه يمينا ولا شمالا ولا يرفع رأسه إذا مشىٰ، وهو عيب شديد، والجَسَأُ : وهو يُبْس المَعْطِف .

ومنها الكَتَف : وهو ٱنفراج يكون فى أعالى كَتِفَى الفرس مما يلى الكاهل؛ والقَعَس : وهو أن يطمئِنّ الصُّلْب من الظهر وترتفع القَطاةُ، والبَزَخ : وهو أن يطمئن الصُّلْب والقَطَاة جميعا، وهو عيب ردىء يَضُرُّ بالعمل؛ وكونُ الكَفَل فيه تحديد ويكون العجُز صغيرا، والفَرَق : وهو نُقصان إحدى حَرْقفَتِى الوركَيْنِ، فإن نقصتا جميعا فهو ممسُوح الكفل ولا عيْب فيه .

ومنها الدَّنَن : وهو تطامُن الصدر ودُنُوُّه من الأرض، وهو من أسوإ العيوب، والزَّوَر : وهو دخول إحدىٰ فَهْدتى الصدر وخروج الأخرىٰ .

ومنها الهَضَم : وهو ٱستقامة الضُّلوع ودخول أعاليها؛ والإخطاف : وهو لُحوق ماخلف المَحْزِم من بطنه، والثَّجَل : وهو خروج الخاصرة ورقَّة الصِّفاق .

ومنهـا العَصَل : وهو التواء عَسِيب الذَّنَب حتى يبرُز بعضُ باطنه الذى لاشعرَ عليه، والكَشَف : وهو أكثر من ذلك، والصَّبَغ : وهو بياض الذَّنَب، والشَّعَل : وهو أن يبيضَّ عَرْض الذنب وهو وسطه .

ومنهـا الفَحَج وهو إفراط بُعْد مابين الكعبين ، والخَلَل : وهو رَخَاوة الكعبين، و يلتحقُ به تقويسُ اليديــن ،وهو عيبٌ فاحش، والطَّرَق : وهو أن ترىٰ ركبتيه مفسوختين كالمقوّستين إلىٰ داخل ، وهو عيب فاحش، والقَسَط وهو أن ترىٰ رجلاه منتصبتين غير مُحَنَّبَتَين ، والبَدَد : وهو بُعد مابين اليدين ، والفَحَج وهو إفراط بُعدِ مابين العُرْقوبين ، والقَفَد : وهو انتصاب الرُّسْغ وإقبـالُه علىٰ الحافر ولا يكونـــ إلا فى الرِّجْل، والصَّدَف : وهو تدانِى الفخذين وتباعدُ الحافرَيْنِ فى التواء من الرُّسْغين بحيث ترىٰ رُسْغى يديه مفتوحين، والتَّوْجِيه : وهو نحو منه إلا أنه أقل من ذلك، والفَدَع وهو التواء الرُّسْغ من عُرْضه الوحشىِّ من الجانبين (١) من رأس الشَّظىٰ، ووطْؤُه علىٰ وحشىِّ حافريه جميعا وهو الجانب الخارجُ، والارتهاشُ : وهوأن يصُكَّ بعُرْض حافره عُرْض عُجَايته من اليـد الأخرىٰ وذلك لضَعْف يده، والحَنَف : وهو أن يكون حافرا يديه مكبوبين إلىٰ داخل، والنَّقَد : وهو أن يرىٰ الحـافر كالمتقشر، والشَّرَج : وهو أن يكون ذو الحافر له بيضة واحدة، والأَرَحُّ : وهو أن يمس الأرض بباطن حافره .

ومنها البَدَد فى اليدين : وهو أن يكون إذا مشىٰ يدير حافِرَه إلىٰ خارج عند النَّقْل وليس فيه ضرر فى العمل، والتلقُّف (٢) وهو أن يخبِط بيـديه مسـتوى لا يرفعُهما إلىٰ بطنه وهو خلاف البَدَد .

ومنها التَّلْويح : وهو أن يكون الفرس إذا ضربته حَرَّك ذَنَبه، وهو عيب فاحش فى الجُورة لأنه ربمـا بالت الحِجْر ورشَّت به صاحبَها .

(١) لعله أو من الجانبين . (٢) فى اللسان . فى آستنانه .

الضرب الثانى

(العُيوب الحادثةُ وهى عِدّة عيوب)

منها الحَدَب ، ويكون فى الظهر بمثابة حَدَبة الإنسان ، وهو عيبٌ فاحش ، والغُدّة وتكون فى الظهر أيضا بإزاء السُّرة .

ومنها العنق : وهو آنتفاخ ووَرَم بقدر الرُّمانة أو أقلُّ مما يلى الخاصرة ، وهو عيب فاحش لاعلاج فيه .

ومنها الخَمَر – وهو عيب يحدث عن تُخَمَة الشعير ، وربما كان من شرب الماء علىٰ التعب فيحدث عنه ثِقَل الصدر .

ومنها الآنتشار : وهو آنتفاخ العَصَب بواسطة التَّعَب ، ويكون من فوق الرُّسْغ إلىٰ آخر الركبة ، وهو عيب فاحش .

ومنها تحرُّك الشَّظَاة : وهو عظم لاصق بالذِّراع ، وهو علىٰ الفرس أشق من الآنتشار .

ومنها الرَّوَح : وهو داء يكون منه غِلَظٌ فى القوائم كمثل داء الفيل فى البشر .

ومنها المَشَش : وهو داء يكون فى بدء أمره ماءً أصفرَ ، ثم يصير دماً ، ثم يصير عظما . ويكون علىٰ الوظيف وفى مَفْصِل الركبة ، وهو علىٰ العَصَب والركبة شرٌّ منه علىٰ الوظيف .

ومنها القَمَع ، ويكون فى الرجلين فى طرف العُرْقوبين ، وهو غِلَظ يعتريهما . والمَلَح ، ويكون فى الرجلين تحت القَمَع من خَلْف : وهو آنتفاخٌ مستطيلٌ لايضر بالعمل ، والجَرَذ : وهو كالعظم الناتئ يكون فى الرجلين تحت العُرْقوبين علىٰ المَفْصِل من داخل ومن خارج ، وهو عيب فاحش تَئُول منه الدابة إلىٰ العَطَب ، والنَّفَخ :

وهو آنتفاخ يكون فى مواضـع الجَرَذ . وهو من دواعى الجَرَذ؛ والعُقَال : وهو أن تَقْلِص رجلُه ، وذلك يكون فى عصَب الرجل الواحدة دون الأخرىٰ ، وربمـا كان فى الرجلين جميعا؛ وهو عيب فاحش يضُرّ بالعمل؛ وهو فى البرد أشدّ منه فى الحرّ .

ومنها الشُّقَاق : وهو داء يصيبه فى أرساغه ، وربما آرتفع إلىٰ وظيفه؛ والسَّرَطان : وهو داء يأخذ فى الرُّسْغ فيُيَبِّس عروقَه حتّٰى ينقلب حافره .

ومنها العَرَن : وهو جُسوءٌ فى رُسْـغ رجله . والدَّخس : وهو ورم يكون فى حافره . والقَفَد : وهو تَشَنُّج عصب رُسْغه حتّٰى ينقلب حافره إلىٰ داخل فيمشى علىٰ ظاهر الحافر .

ومنها النَّمْلة : وهى شَقٌّ فى الحافر من ظاهره : والرَّهْسة : وهى ما يكون فى الحافر من صَدْمة ونحوها ، والعامة تقولهـا بالصاد . والقَشَر وهو أن تتقَشر حوافِرُه ، وهو عيب فاحش؛ والنَّاسُور : وهو الذى تسميه العامة الوَقْرة : وهو داء يحدث فى نُسُور الدابة فإذا قُطِع سال الدمُ منه .

ومنهـا الأُدْرة : وهى عِظَم الخُصْيتين ، وربمـا عَظُمت خُصْيتاه فى الصـيف وآحمرت(١) فى الشتاء . والمُدْلِى : وهو الذى يدلى ذكَرَه ثم لا يردّه ؛ وهو عيبٌ قبيح بحيث يقبحُ ركوب الفرس الذى به هذا العيب .

ومنها البَرَص : وهو بياض يعترى الفرَس فى مَرَقّاته : كالجَحْفَلَة وجُفُون العينين و بينَ الفخِذين والخُصْيتَين .

ومنها الخلد : وهو داءٌ شديد ينقُب موضعه من بَدَن الدابة يسيل منه ماءٌ أصفرُ، فإذا كُوِى بالنـار بَرَأ وآنفتح موضعٌ آخرُ، فلا يزال كذلك حتّٰى تعطَب الدابة؛ وهو

(١) لعله واضطمرتا

عيب فاحش ؛ فى عيوب أخرىٰ يطول ذكرها . وفى كتب البَيْطرة ذكر الكثير من ذلك مع علاج ماله عِلاجٌ منه و بيانِ مالا عِلاجَ له .

وأما الدوائر التى تكون فى الخيل فقد عدّها العرب ثمانِى عشرةَ دائرةً ، بعضها مستحب وبعضها مكروه . الأُولىٰ دائرة المُحَيَّا وهو الوجه : وهى اللاحقة بأسفل الناصية . الثانية دائرة اللَّطَاة : وهى دائرة تكون فى وسط الجبهة . الثالثة دائرة النَّطِيح : وهى دائرة ثانية فى الجبهة بأن يكون فى الجبهة دائرتان . الرابعة دائرة اللَّهْزِمة : وهى دائرة تكون فى لِهْزِمة الفرس . الخامسة دائرة المِقْوَد(١) : وهى التى تكون فى موضع القِلادة . السادسة دائرة السَّمَامَة : وهى دائرة تكون فى وَسَط العنق . السابعة والثامنة دائرتا البَنِيقتَيْنِ : وهما دائرتان فى نَحْر الفرس فيما قاله الأصمعى . وقال أبو عبيد البَنِيقة الشعر المختلف فى منتهىٰ الخاصرة والشاكِلةِ . التاسعة دائرة الناحر : وهى دائرة فى باطن الحلق إلىٰ أسفل من ذلك . العاشرة دائرة القالع : وهى دائرة تكون تحت اللِّبْد . الحادية عشرة دائرة الهَقْعة : وهى دائرة تكون فى عُرْض الزَّوْر . الثانيةَ عشرةَ دائرة النافذة : وهى دائرة ثانية تكون فى الزَّوْر بأن تكون فيه دائرتان فى الشِّقين فى كل شِقّ منهما دائرة وتسمّى النافذةُ دائرةَ الحزام أيضا . الثالثةَ عشرةَ والرابعةَ عشرةَ دائرتا الحَرَب : وهما اللتان يكونان تحت الصَّقرين وهما رأسا الجبتين اللتين هما العظمان الناتئان المشرفان علىٰ الخاصرتين كأنهما صَقْران . الخامسة عشرة والسادسة عشرة دائرتا الصَّقْرين : وهما دائرتان بين الجَبتين والقُصْرَيَيْن . السابعة عشرة والثامنة عشرة دائرتا الناخس : وهما دائرتان تكونان تحت الجاعرتين . قال ابن قتيبة وهم يكرهون منها أربع دوائر وهى دائرة الهَقْعة مع ذكره أن أبقىٰ الخيل المَهْقُوع . ودائرة القالع . ودائرة الناخس . ودائرة النطيح . قال وما سوىٰ ذلك من الدوائر فليس بمكروه .

---

(١) فى المخصص . العُمُوم .

وذكر صاحب زهر الآداب فى اللغة أنهـم يستحبون من الدوائر دائرة المِقْود(١)، ودائرة السَّمامَة، ودائرة الهَقْعة احتجاجا بأن أبقىٰ الخيل المَهْقُوع؛ ويكرهون دائرة النَّطيح، ودائرة اللَّهْزمة، ودائرة القالع .

ورأيت فى بعض كتب البيطرة أن المستحب منها ثلاث دوائر دائرة المِقْود ودائرة السَّمامَة ، ودائرة الهَقْعة وما عدا ذلك فهو مكروه ، وكره حكماء الهنـد دوائر أخرىٰ ذكروها وهى أن يكون فى مقدَّم يده دائرةٌ ، أو فى أصـل ذنبه من الجانبين دائرتان أو علىٰ ناصيته دائرة، أو علىٰ مَحْجِره دائرة، أو فى جَحْفلته السُّفْلىٰ دائرة، أو علىٰ سُرَّته دائرةٌ ، أو علىٰ مِنْسَجه دائرتان .

وأما أسنان الخيـل فأوّل ما تَضَع الحِجْرة جنينَها قيل مُهْر ، والأنثىٰ مُهْرة . فإذا فُصِل عن أمه قيل فَلُوٌّ . فإذا ٱستكمل حَوْلا قيل حَوْلىّ والأنثىٰ حَوْلِيَّة . فإذا دخل فى الثانية قيل جَذَعٌ والأنثىٰ جَذَعة . فإذا دخل فى الثالثة قيـل ثنىٌّ والأنثىٰ ثنِيَّة . فإذا دخل فى الرابعة قيل رَبَاع والأنثىٰ رَبَاعِيَـة . فإذا دخل فى الخامسة قيل قارِح للذكر والأُنثىٰ . وفى الغالب يلقى أسنانَه فى السنة الثالثة ، وربمـا تأخر إلقاؤها إلىٰ السنة الرابعة : وذلك إذا كان أبواه شابَّين، وقد يلقى أسنانه فى حول واحِد : وذلك إذا كان أبواه هَرِمَيْنِ، ثم لكل مُهْر اثنتا عَشْرَةَ سِنًّا : سِتّ من فوقُ وستٌّ من أسفَلُ، ويليها من كل جانب نابٌ، ويليها الأضراس . وتنبت ثَنَايَاه بعد وضعه بخمســة أيام . وتنبت رَبَاعِيَاته بعــد ذلك إلىٰ مدّة شهرين . وتنْبُت قوارحه بعد ذلك إلىٰ ثمانية أشهر . ويختص التبديل منها بالأسنان الاثنتى عشْرة دُون الأنياب والأضراس . وربما ألقىٰ المهر بعضَ أسنانه، ثم لاتنبُت . وإذا قَرَح المهر ٱصفرّت أسنانُه، وٱسودّت رءوسها وطالتْ فيبقى كذلك خمس سـنين ؛ فإذا جاوزت ذلك

(١) فى المخصص العموم .

ٱبيضت وحَفِي رءوسها ، ثم تنتقل فتصير كلون العسل خمسَ سنين ، ثم تبيض فتصير كلون الغُبَار و يزداد طولها . وربما دلَّس النَّخَّاسون فنشروا أسنانها وسوَّوْها .

ومما وجد فى الكتب القديمة أنّ الفرس تتحرك ثناياه فى سبع وعشرين سنةً ، وتتحرّك الرَّباعِيَات فى ثمان وعشرين سنة ، وتتحرّك القَوارِح فى تسع وعشرين سنة ، ثم تسقُط الثنايا فى ثلاثين سنة ، والرَّباعِيَات فى إحدىٰ وثلاثين سنة ، والقَوَارِح فى ٱثنتين وثلاثين سنة وهو عمر الدابة .

وأما التفرّس فى الخيل فاعلم أن المُهْر و إن ظهرت فيه علامات النَّجابة أو العكس لا عبرة بذلك ، فإنه قد يتغير فيقبُح منه ما كان حَسَنا ، ويحسن منه ما كان قبيحا ؛ و إنما يتفرّس فيه إذا ركبه لحم العَلَف ، وذهب عنه لحمُ الرَّضاع . وأفضل الفِراسة فى المهر أخذُه فى الجرْىِ ، فإنه صنعتُه التى خلق عليها و إليها يئول ، فإذا أحسن الأخذ فى الجرى فهو جَوَاد ، ولكنه ربما تغير أخذه للجرى إذا رُكِب لضَعْف فيه حينئذ ، وقصور عن بلوغ مدىٰ قوّته ؛ وقد لا يجرى جَذَعا و يجرى ثنِيًّا ، وقد لا يجرى ثنِيًّا ويجرى رباعِياً ، وقد لا يجرى رباعِياً ويجرى قارحًا حين تجتمع له قوّته . و يعرَف ضَعف الضعيف منها بتلوّيه تحت فارسه وعَجْزه عنه وفترته إذا نزل عنه .

ومما يدل علىٰ جَوْدة الفرس وحُسن جريه أنه يراه إذا أخذ فى الجرى سَمَا بهاديه ، وأثبتَ رأسه ، ولم يستعن بهما فى حُضْره وٱجتمعت قوائمُه ، وسَبَح بيديه وضَرَح برجليه ، ولها فى حُضْره ، وامتدّ ، و بسط ضَبْعيه حتّىٰ لا يجد مزيدا ، وتكون يداه فى قَرَن ، ورجلاه فى قَرَن ، فإذا كان الفرس كذلك فهو الجَواد السابق . وقد قيل : إن خير الخيل الذى إذا مشى تكفَّأ ، و إذا عدا بسط يديه ، و إذا أدبر جَفَا ، و إذا أقبل أقعىٰ .

الصنف الثـانى

(البِغـال)

وفيها نوعيّة من الخيل والحَمِير: من حيث إنها تتولّد بين حِصَان وأتان، أو بين حمار وحِجْرة[(١)] . وفيها النفيس المختار لركوب الرؤساء : من العلمـاء ، والوُزَراء، والحكام وسائر رؤساء المتعمّمين . و إنه صلى الله عليه وسلم، في يوم أُحُد كان راكبا بغلةً، ولولا شرَفُها ونَفاستُها وقيامُها مَقام الخيل لمـا ركبها النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى موْطِن الحرب؛ وألوانها وأسـنانها علىٰ ماتقدّم فى الخيل، ويستحسن فيها غالب مايستحسن فى الخيـل؛ وقد قيل إن خيار مايقتنىٰ من البِغَال ما آشـتدّت قوائمه، وعظُمت قَصَرتُه، وعنُقُــه وهامَتُــه ، وصـفَتْ عيناه ، ورحب جوفُه، وعَرُض كفَلُه ، وسلم من جميع العيوب والعِلَل ،

ومـا يستحسن فى البغال دون الخيل السَّفَا: وهو خفة شعر الناصية.وأن يكون بيديها ورجليها خُطُوط مختلفة: جُلُّ ماتكون للسِّنَّور :ويقال إن خير مايختار للسرج والركوبِ البِغالُ المصرية : لأن أمَّهاتِها عِتاق وهُجْن ، وخيار ما يُحتاج إليـه للسَّرايا والمواكب والرَّكْض مع الخيل بِغالُ الجزيرة وإفريقِيَة .

ومـا ينبغى التنبيه عليه أن فى البغلات منها شدّةَ محبة للدوابّ إذا ربطت معها وفسادا للدواب إذا آعتادتها حتّى يصير أحدهما لا يفارق الآخر إلا بمشقة . ويحسن فى البغال الخَصْى ، وفى البغلات التَّحْويص ، ولا يُعاب ركوب شىء منها حينئذ إذا كان نفيسا .

(١) قد تكرر فى هذا المقام تأنيث الحجر بالهاء، وفى القاموس مانصه والحجر الأنثى من الخيل وبالهاء لحن قال شارحه وهو عامى مسترذل ثم نقل عن الشهاب تصحيحه فتنبه .

الصنف الثالث

(الإبل)

ويشتمل الغرض منها علىٰ معرفة أنواعها ، وألوانها ، وأسنانها ؛ وما يُستقْبَح ويُستحسن من صفاتها .

أما أنواعها فإنها ترجع إلىٰ نوعين . الأول البَخَاتِيُّ : وهى جمال جُفَاة القُدُود، طويلةُ الوَبَر ، تجلَب من بلاد الترك . الثانى العِرَاب وهى الإبل العربية وأصنافها لايأخذها الحَصْر . وأما ألوانها فترجع إلىٰ ثلاثة أصول .

الأول البياض ، فالجملُ إذا كان خالص البياض قيل آدمُ والأنثىٰ أدْماء علىٰ الضدّ من بنى آدم ، فإن خالط البياضَ يسيرُ شُقْرة قيل أعْيَس والأنثىٰ عَيْساء .

الثانى الحُمْرة فإن احمرّ وغلبت عليه الشُّقْرة قيل أصْهَبُ والأنثىٰ صَهْباء ، فإن خلَصت حمرتُه قيل أحمرُ والأنثىٰ حمراءُ ، فإن خالط حمرته قُنُوءٌ قيل كُمَيت ، فإن صفتْ حمرتُه قيل أحمر مُدَمًّى ، فإن خالط الحمرة خُضرةٌ قيل أحْوىٰ ، فإن خالطها صُفْرة قيل أحمر رادِنِىّ بكسر الدال . فإن خالطها سَوادٌ قيل أَرْمَكُ والأنثىٰ رَمْكاءُ . فإن كانت حمرته كصَدَإ الحديد قيل أَجْأَى .

الثالث السواد ، فإن كان السواد فيه ضعيفا قيل أكْلَفُ ، فإن خالط السواد صفرةٌ قيل أحْوىٰ ، فإن عَلِق بسواده بياضٌ قيل أوْرَقُ . فإن زادت وُرْقته حتّى أظْلم بياضُه قيل أدهم ، فإن اشتدّ سواده قيل جَوْن ، فإن كان بين الغُبْرة والحمرة قيل خَوَّار والأنثىٰ خَوَّارة .

وأما أسنانها فإنه يقال لولد الناقة عند الوضع قبل أن يُعرفَ أذكر أم أنثىٰ سَلِيل . فإن بان أنه ذكر قيل سَقْب ، وإن بان أنه أنثىٰ قيل حائل . ثم هو حُوَار حتّى

يُفْطم، فإذا فُطِم وفُصِل عن أمه قيل فصيل . وذلك فى آخر السنة الأُولىٰ من وضعه، فإذا دخل فى الثانية قيل ٱبن مَخَاض: لأن أُمَّه فيها تكون من المخاض (وهى الحوامل) والأنثىٰ بنت مخاض، فإذا دخل فى الثالثة قيل ٱبن لَبُونٍ: لأن أمَّه فيها تكون ذات لبن والأنثىٰ بنت لبون، و إذا دخل فى الرابعة قيل حِقٌّ: لأنه يستحق أن يحملَ عليه والأنثىٰ حقَّة ، فإذا دخل فى الخامســة قيل جذَع والأنثىٰ جذَعة ، فإذا دخل فى السادسة قيل ثَنِيّ لأنه يُلْقِى فيها ثَنِيَّتَه والأنثىٰ ثَنِيَّة . فإذا دخل فى السابعة قيل رَبَاع (بفتح الراء) لأنّ فيها يلقى رَبَاعِيَته والأنثىٰ رَبَاعِيَة بالتخفيف ، فإذا دخل فى الثامنة قيل سَدِيس وسَــدَس الذكرُ والأنثىٰ فيه سواء ، وربمــا قيل فى الأنثىٰ سَــدِيسة . فإذا دخل فى التاســعة قيل بازِلٌ لأنه فيها يَبْزُل نابُه ، والذكر والأنثىٰ فيه سواء ، وقد يقال فيه فاطِر ، فإذا دخل فى العاشرة قيل مُخْلِف ، وليس وراء ذلك للإبل ضَبْط بل يقال مُخْلِف عامٍ ومخلِف عامين فأكثر ، فإذا علا السنّ بعد ذلك قيل فيه عَوْد والأنثىٰ عَوْدة ، فإن علا عن ذلك قيل قَحْر ، فإن تكسرتْ أنيابه لطُول هَرَمه قيل ثِلْب والأنثىٰ ثِلْبــة ، و يقال فى الناقة إذا كان فيها بعضُ الشباب عَزُوم ، و ربما قيل شارِف .

وأما ما يستحسن من صفاتها فقد رأيت فى بعض المصنَّفات أن كلّ ما يستحب فى الفَرَس يستحب فى البعير خلا عِرَض غارِبه ، وفتــل مِرْفَقِه ، ونَكْس جاعِرَته وهى أعلىٰ الوَرِك ، وٱنْدلاق بطنه ، وتفرّش رجليه ، فإن ذلك يستحب فى الإبل دون الخيل .

وقد صرح الشعراء فى أشعارهم بعدّة أوصاف مستحسنة فى الناقة ، منهــا دقة الأُذُن ، وتحديد أطْرافها ، وكِبَر الرأس ، وٱستطالة الوجه ، وعِظَم الوجنتين ، وقُنُوُّ الأنف ، وطول العُنق وغلَظه ، ودقة المَذْبَح ، وطُول الظهر ، وعظم السَّنَام . وهى الكَوْماء ، وطُول ذنبها ، وكثرةُ شعره ، غليظةُ الأطراف ، قليلة لحم القوائم ، ليست

رَهِلة ، ولا مسترخيةً ، وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم ، مَلْساءَ الجلد ، تامَّةَ الخلق ، قويَّةً ، صُلْبة ، خفيفة ، سَريعة السير .

وأما كرمها فإنه يقال لكل كريم خالص من الإبل هِجَان من نِتاج مَهْرَةَ : وهى قبيلة من قُضاعةَ باليمن ، والعيديَّة منسوبة إلى بنى العِيد من قبيلة مَهْرة المذكورة ، والأرْحَبِيَّة منسوبة إلى بنى أرحَبَ ، والغُرَيريَّة منسوبة إلى غُرَيْرٍ ، وهو فحل كريم مشهور فى العرب . والشَّذْقَمِيَّة منسوبة إلى شَذْقَم : فحل كريم أيضا ، والجَديليَّة منسوبة إلى جَدِيل : فحل كريم ، والدَّاعِريَّة منسوبة إلى داعر : فحلٍ كريم كذلك . قال فى كفاية المتحفظ ، والشَّدَنِيَّة منسوبة إلى فحل أو بلد .

الصنف الرابع

(الحمير)

ومنها النَّفِيس الغالى الثمنِ وخيرها حُمُر الديار المصرية ، وأحسنُها ما أُتِى به من صعيدها . وهى تنتهى فى الأثمان إلى مايقارب أثمانَ أوساطِ الخيل ، وربما يميَّز العالى القدر منها على المنحط القدر من الخيل ؛ والأحسن فيها ما كان غليظ القوائم ، تامّ الخَلْق ، حَديدَ النفس . ولا عيبَ فى ركوب الحمار ولا وَهِيصةَ(١) فقد ثبت فى الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، "رَكِبَ الحِمار" ولا عبرة برَفْع من ترَفَّع عن ركوبه بعد أن ركبه النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) مراده ولا نقص ولكن لم نقف فى مادة ر ه ص ولا و ه ص على هذا المعنى .

النوع الثـالث

(مايحتاج إلىٰ وصفه من جليل الوحش وكريم صيوده، وهو أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(جليل الوحش)

وهو مايتخذه الملوكُ للزِّينة وما فى معناها، ويحتاج الكاتب إليه لوصفه فى الهدايا والمواكب ، وما يجرى مجراهما .

والمعوّل عليه من ذلك خمسة أضرب .

الأوّل الأَسَد ــ ويجمع علىٰ أُسْد وأُسُد وأُسُود وآساد ، ويقال له أيضا اللَّيْث والضَّيْغم ، والضِّرْغام ، والهِزَبْر، والهَيْصَم ، والهِرْماس ، والفُرَافِصَة ، وحَيْدرةُ ، والقَسْوَرَةُ . وله أسمـاء كثيرة سوىٰ هذه ، لا تكاد تدخل تحت الحصر ، حتّى قال ٱبن خالويه للأسد خمسمائةِ ٱسم . ويقـال لولده الشِّبْل ولأُنْثاه اللَّبُؤة . قال ٱبن السـندى فى كتابه "المصايد والمطارد" : وإذا تأملت أصـناف الحيوان وبحثت صُوَرها وما أُعطِيتْ من الأَسْلِحة ومقادير الخَلْق ، وجدتَ الأسـد أعظم خلْقة ، وأكثر آبِدةً، وأشدّ إقداما من جميعها، ليست له غريزة فى الهَرَب البتَّة .

ومن خصائصه وعجيب خَلْقه أن عَظْم عُنُقِه عظمٌ واحد ليست له خَرَز عظام كما فى غيره من الحيوان بدليل أنه لايَلْوِى عنقَه، ولا يلتفت، ومع ذلك فهو يبتلع الشئ العظيم، ولَبْوَته لاتلد إلا جِرْوا واحدا،وإنما تضعه كاللَّحْمة ليس فيه حِسٌّ ولا حركة فتحرُسه ثلاثةَ أيام، ثم يأتى أبوه فينفُخ فيه المرَّةَ بعد المرّة حتّى يتحرّك، ثم تأتى أمُّه فتُرْضعه ، ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام ؛ ويكتسب لنفسه بالتعليم من أبويه بعد ستة أشهر، وهو قليل الشرب للمـاء وإن كان لا يفارق الغِيَاض، وله صبر علىٰ

الجوع ولكنه إذا جاع ساءت أخلاقُه، وليس يُلْقِى رَجِيعه إلا مرةً واحدة فى اليوم، ويرفع رجله عند البول كما يفعل الكلب، ويبول إلىٰ خَلْف كما تبول الجِمَال، وهو أشدّ السِّباع ضَراوةً علىٰ أكل بنى آدم، وإذا ٱفترس فريسةً وأكل منها، لا يعود إليها، ولا يطأ أثَرَه شئ من السباع . قال ٱبن السندى فى "المصايد والمطارد" ولا يأكل من فريسةِ غيره من السباع . وقد قيل إنه يهرُب من الهرّ، ومن الجِرْو، ومن الدِّيك الأبيض، وإنه إذا رأىٰ النار عرضت له فكرة أورثته بَهْتة، وأنه يهرُب من عُوَاء الجِرْو إذا عُرِكَتْ أذنه، ويقال إن جلده إذا جعل فيما يخاف عليه السُّوس من الثياب وغيرها أمِنَ من ذلك، وإنه إذا عمل منه وتَرقوس وأُضِيف إلىٰ أوتارٍ من فِرَاء ومِعًى أو غيرهما أبطل أصواتها وعلا صوته عليها، ومن طبعه أنه لا يشرب ماء وَلَغ فيه كلب وإن مات عَطَشا .

الثانى النُّمُور — جمع نَمِر (بفتح النون وكسر الميم) ويجمع أيضا علىٰ أنمار ونِمَار، والأنثىٰ نَمِرة؛ وهو حيوان مُرَقَّع اللون بسَواد وبياض، أقربُ شئ من خِلْقة الفَهْد، وهو أَخبَثُ من الأسد، لا يملك نفسَه عند الغضب حتّى إنه ربما قتل نفْسَه من شدّة غضبه . قال : ابن السندى : وهو وَدُود لجميع الحيوان، عَدُوٌّ للنَّسْر، وينام ثلاثةَ أيام، والحيوان يُطِيف به ويميل إليه، ٱستحسانا لجلدته .

وهو جنسان أحدهما عظيم الجُثَّة، صغير الذَّنَب، والثانى صغير الجُثَّة عظيم الذنب . قال فى "المصايد والمطارد" ويصاد بالخمر لأنه يحبها . قال : ومَن أراد قتله تَمسَّحَ بشحم ضَبُع ودخل عليه فقتله .

الثالث الكَرْكَدَنُّ — (بفتح الكافين وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة ونون مشدّدة فى الآخر)(١) قال الزمخشرى فى "ربيع الأبرار" : وهو وَحْش يكون ببلاد الهِنْد يسمّى الحِمَار الهندىّ، له قرن واحد فى جبهته يبلغ غِلَظُه شبرين؛ وهو

(١) ضبطه فى القاموس بشدّ الدال أى وتخفيف النون وقال والعامة تشدّد النون

محدّد الرأس إلا أنه ليس بالطويل وأنه إذا قطع ظهرت فيه صور عجيبة : وانه رُبّما نطح الفيل فبعَجَه بقَرْنه ، وأن أُنثاه تحمل سبع سنين ، وأنه إذا كان بأرض لم يدع شيئا من الحيوان حتّى يكون بينه وبينه مائة فرسخ من جميع جهاته هيبةً له وهربا منه .

الرابع الفيل — وهو حيوان يُؤْتىٰ به من بلاد الهند والحبشة . قال الجاحظ : وهو من الحيوانات المـائية وإن كان لا يسكُن المـاء ، وهو من ذوات الخَراطيم ، وخرطومه أنفه كما أن لكل شيء من الحيوان أنفا ، وهو يده ، وبه يَتنـاوَل الطعام والشراب ، ومنه يُغَنِّى ويجرّ فيه الصوتَ كما يجرّه الزامر فى القصـبة بالنفخ . قال : وأصحابنا يزعُمون أن بينه وبين السِّنَّور عداوة وأن الفيلَ يهرُب منه هَرَبا شديدا . وذكر صاحب "الحيل فى الحروب" أنه يقصر(١) عن صوت الخنزير وأنه بذلك ينَفَّر فى الحروب . وقد ذكر الجوزى أن للفيل إقداما علىٰ السبع . قال الجاحظ : وهو يعادى البعوضَ لأنه يثقُب جلده بقرصه ، ومن ثم يرىٰ الفيل دائما يحرك آذانه ليطرد عنـه الناموس ، وهو مخصوص بخفة وقع قوائمه علىٰ الأرض إذا مشىٰ حتّى لو أن إنسانا كان جالسا وجاء الفيل من خلفه لمـا شعر به . وذكر عبد القاهر(٢) البغدادىُّ أن الفِيلةَ تحمل سبْعَ سنين ، وقيل سنتيْنِ ، وقيل ثَلاث(٣) قبل أن تضع ، وأن لسان الفيل مقلوب : طرَفُه داخلَ حَلْقه وأصله من خارج علىٰ العكس من سائر الحيوان ، وأن ثدييها علىٰ كبدها وترضع أولادها من تحت صدرها . وقد ذكر الغزالى أن فرجها تحت بطنها فإذا كان وقت الضِّراب ٱرتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها .

الخامس الزَّرَافة — (بفتح الزاى وضمها) وهى حيوان يؤتىٰ به من بلاد الحبشة واليمن ، طويلُ اليدين ، قصيرُ الرجلين ، ذَنَبـه وحوافره كذَنَب البقر وحوافِرِها ،

(١) لعله يقصو بالواو بدل الراء أى يبعد .

(٢) فى حياة الحيوان عبد اللطيف وسيأتى بعد صحائف على الصواب مرارا .

(٣) كذا فى الاصل وعبارة الحياة ولا ينزو عليها اذا وضعت الا بعد ثلاث سنين .

ورقبتُه ورأسه كرقبة الجمل ورأسه، ولونه مُوَشًّى بالبياض والصُّفْرة. قال الجاحظ: وقد زعموا أن الزرافة تتولد من الناقة من نُوق الحبشة وبين بقَر الوحش وبين الذِّيخ ـ وهو ذكر الضِّبَاع. وذلك أن الذيخ يعرض للناقة فيسفِدُها فتلقح بولد يجيء خلقه بين الناقة والضبع فإن كان الولد أنثى عَرَض لها الثور الوحشى فيضربها فيأتى الولد زرافةً، وإن كان ذكرا تعرّض للمهاة فألقحها فيأتى الولد زرافة أيضا. قال: ومنهم من يزعم أن الزَّرافة الأنثى لا تَلْقَح من الزَّرافة الذكر. ثم قال وهذا مشهور باليمن والحبشة. ثم إن كانتْ أسنانها سُودا دلت على هَرَمها، وإن كانت بيضًا دلت على حَدَاثة سِنِّها.

ومن أمراضها الكَلَب (وهو كالجنون يعتريها كما يعترى الكلب فيقتلها) وكلُّ من عضته وهى على هذه الحالة قتلته إلا ٱبن آدم فإنه ربما عولج فسلم. ومن أمراضها أيضا الذِّبْحة والنِّقرس.

الصنف الثانى

(مُعَلَّمات الصيد)

وقد يعبر عنها بالضَّوَارى. وهى كل ما يقبل التعليم من الوُحُوش كائنا ما كان حتّى حكى عن السُّودانىّ القَنَّاص أنه بلغ من حذقه أنه ضرّى ذِئبا حتّى ٱصطاد به الظباءَ وما دونها، وألّفه حتّى رجع إليه من ثلاثين فرسخا، وضرّى أسدا حتّى ٱصطاد به حُمُر الوحش. ويقال إن ٱبن عِرْس يُجْعَل حبل فى عنقه ويُدخَل على الثعلب فلا يخرج إلا به. وهى على ضربين.

الأوّل الفُهودة ـ جمع فَهِد[1] بكسر الهاء. وقد زعم أرسطوطاليس أنه يتولد من أسد ونَمِرة أو من نمر ولَبُوة؛ وهو من السباع التى تصادُ ثم تُؤنَّس حتّى تصيد،

(١) فى المصباح الجمع فهود كفَلْس وفلوس وكذا بقية معاجم اللغة فلعل مافى الاصل من التحريف والتصحيف وهو الأقرب.

وهو من الحيوان المحدّد الأسنان ، وأسنانه يدخل بعضها فى بعض كالكلب وغيره قال : فى "التعريف" وأوّل من صاد به كسرى أنوشَروان أحدُ ملوك الطبقة الأخيرة من الفُرس قال: فى"المصايد والمطارد" ويصطادونه بضروب من الصيد .

منها الصوت الحَسَن فإنه يصغى إليه إصغاء شديدا .

ومنها كدّه وإتعابُه حتّى يحمىٰ ويعيا وينبهر ويحفى ، فإذا أخذ غُطِّيت عيناه وأُدْخِل فى وعاء، وجعل فى بيت مادام وحشيًّا، ووضع عنده سراج ولازمه سائسه ليلا ونهارا ولم يدَعْه يرىٰ الدنيا، ويجعل له مَرْكَبًا كظهر الدابة يعوّده رُكوبَه ويُطعمه علىٰ يده فلا يزال كذلك حتى يتأنّس، فإذا ركب مؤخّر الدابة فقد صار داجنا وصاد .

وفى طباعه أمور .

منها كثرة النوم حتّى يضرَب بنومه المَثَل فيقال "أنوَمُ مِنْ فَهْد". وكثرةُ الحياء حتّى إنه لا يعلم أنه عاظَـلَ أنثىٰ بين يدى الإنس ، وقد عُنى بمراعاته فى ذلك فلم يوقَف عليه . وإن كان الأسد يفعل ذلك كثيرا . ونقل ابن السندى عن بعض الفَهَّادة أن سائسه إذا أمرّ يده عليه اطمأن إليه ومال فإذا وضع يده علىٰ فرجه نفَر وعضّ يده .

ومنها الغَضَب حتّى إنه إذا أُرْسل علىٰ صيد فلم يحصِّلْه احتد، وإن لم يأخذ سائسه فى تسليته قتل نفسه أو كاد . قال : صاحب "المصايد والمطارد" والمسنّ من الفُهُود إذا صيد كان أسرع فى الصيد من الجِرو الذى يُربّى ويؤدَّب، والأنثىٰ أصيدُ من الذكر كعامّة إناثِ الجَوَارح . قال: وليس شىء من الوحش فى قدر جِرْم الفهد إلا والفَهْد أفضل منه . قال : فى "المصايد والمطارد" وضدُّ الفهد الظباءُ والوعول علىٰ اختلاف أجناسها .

الثانى الكلاب ــ جمع كَلْب ويجمع علىٰ أَكْلُب أيضا وعلىٰ كَلِيب كعبد وعَبِيد والأنثىٰ كَلْبة، وتجمع علىٰ كلبات بالفتح، وهو حيوان شديد الرِّياضة، كثير الوَفاء

مشتَرِك الطِّباع بين السبع والبهيمة: لأنه لو تم له طباع السَّبُعية لما ألف الناسَ ولو تم له طِباع البهيمية لما أكل اللحم. ويقال إنه يحتلم وأُنْثاه تحيض، وتحمل أنثاه ستين يوما، وربما حملت أقلَّ من ذلك، ويَسْفِد بعد سنة، وربما تقدّم علىٰ ذلك. ولها عند السِّفاد آشتباك عظيم، وإذا سفَدَ الأنثىٰ كلبان مختلِفان أتت من كل واحد بلونه. وفيه من اقتفاء الآثار وشَمِّ الرائحة ما ليس لغيره من الحيوان، والمَيْتَةُ أحبُّ إليه من اللحم الغَرِيض.

ومن طبعه أنه يحرُس صاحبه شاهدا أو غائبا، ذاكرا أو غافلا، ونائما أو يقظانَ، وهو أيقَظُ حيوان فى الليل، وإذا نام كَسر أجفان عينيه ولا يُطْبقها لِخفَّة نومه. ومن عجيب شأنه أنه يكرم الرئيسَ من الناس فلا ينبَحُه وإنما ينبَح أوْباش الناس. ومن طبعه أن الضبع إذا مشَتْ علىٰ ظله فى القمر رمىٰ بنفسه بين يديها فتأكله، وإذا ظَفِر بكلب غريب كاد يفترسه.

وقد أجاز الشارع آتخاذها للصيد ونحوه، وأباح صَيْدها مع نجاسة عينها. قال فى "التعريف": وأول من آتخذها للصيد دارَا أحدُ ملوك الفُرْس قال فى "المصايد والمطارد": وإذا كسر الكلب الأرانب فهو نهاية وإن كان يُطيق فوق ذلك. والكلب يمسك لصاحبه، ولذلك لا يأكُل من الصيد بخلاف سائر الجوارح. قال: وإناثها أسرع تعلُّما من الذكور، وأطول أعمارا حتّٰى إنها تعيش عشرين سنة.

ومن خاصية الكلب أنه إذا عايَنَ الظِّباء قريبةً كانت أو بعيدة، عرف منها العليلَ من غيره، والعنز من التيس فيتبع التيس منها دون العنْز وإن كان التيس أشدّ عَدْوا وأبعدَ وَثْبةً: لأنه يعلم أن التيس إذا عدا شَوْطا أوشوطين غلب عليه البولُ ولايستطيع إرساله فى عدوِه فيقلُّ عند ذلك عَدْوُه ويقصر مَدَى خُطاه فيدركه الكلب، بخلاف العنز فإنها إذا اعتراها البول أرسلته لسَعَةِ مَسِيله، والكلب يعرف ذلك كلَّه طبعا،

وكذلك يعرِف جِحَرة الأرانب والثَّعالِب وإن ركبها الثلج والجليد بشمه فيقف عليه ويثير مافيهـا من الوحش، وإذا صَعِد منه أرنبٌ إلىٰ أعلىٰ جبل شاهق، كان له من التلطُّف فى الآرتقـاء والصعود ما لا يلحقه غيره بل لا يخفى عليه من الصيد الميتُ من المُتماوِت .

ومن خصائص الأنثىٰ أنها تحمل سـتين يوما ويبقى جِرْوها بعد الولادة اثنَىْ عشرَ يوما أعمىٰ . وأكثرُ ماتضع ثمانيةُ أجْراء، وربما وضعت واحدا فقط، ورأس الكلب كله عظمٌ واحد، والكلب يطرح مَقادِمَ أسنانه ويخلفها ولكنه لا يظهر لكثير من الناس لانه لا يُلقِى منهـا شيئاً حتّى ينبت فى مكانه غيرُه، والفرق بين الذكر والأُنثىٰ أن الذكر إذا أدرك يرفع رجله عند البول والأنثىٰ تبول مُقْعِية وربما رفعت رجلها، والذكر يَهِيج للسِّفاد فى السنة قبـل الأنثىٰ، وأسنان الذكر أكثر ومَضْغه أشـدّ . قال الجـاحظ : وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلىٰ لون الأسـد بين الصفرة والحمرة ثم البيض اذا كانت عيونها سَوْداء . وذكر صاحب "المصايد والمطارد" أن الأبيض أفرهُ والأسودَ أصبرُ علىٰ الحرّ والبرد . ومن علامة النجابة والفَرَاهة فيه أن يكون تحت حنكه طاقةُ شعر مفردةٌ غليظة، وأن يكون شعر خدّيه جافيـا . ومن علامة الفَرَاهة طُول ما بين يديه ورجليه وقِصَر ظهره وصِغَر رأسه وطُولُ عُنُقه وغَضَف أُذُنيه وبُعْدُ ما بينهما، وزُرْقة عينيه، وضخامة مُقْلتيه، ونتوُ حدقته، وطولُ خَطْمه وذَقَنه، وسَعَةُ شِدْقه، ونتوّ جبهته وعِرَضها . ويستحب فيه أن يكون قصير اليدين طويل الرجلين، طويل الصدر، غليظه، قريبَهُ من الأرض، ناتئَ الزور، غليظ العَضُدين مستقيم اليدين، منضمّ الأظافير، عريض ما بين مفاصل الأعطاف، عَريض ما بين عظمَىْ أصل الفخذين مع طولها وشدّة لحمهما، دقيق الوسَط، مستقيم الرجلين، قصير الساقين، غير مَحْنِىِّ الركبتين، قصير الذنب إن كان ذكرا مع دقة وصلابة، وإن الكلبة

إذا ولدت واحدا كان أفرَهَ من أبويه وإن ولدت اثنين كان الذكر منهما أفرَهَ من الأُنثى وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى فى شَبَه الأم كانت أفره من الثلاثة وإن كان فى الثلاثة ذكر واحد كان أفرهها وإذا أُلْقِيت الجِراءُ وهى صغار فى مكان ندىّ فأيها مشى على أربع فهو أفره .

ومن أعظم أدوائها الكَلَب (بفتح اللام) وهو داء كالجنون يعترى الكَلْب يؤثِّر فيمن عضه أنه يخرج من ذكره جِراءٌ صغار .

ومن عجيب ما يحكى فى ذلك أن رجلا عضّه كَلْب كَلِب فتلقاه بكمه فأصابته أسنانه ولُعَابه فشمر كُمَّه ساعةً ثم نشره فتساقط منه جِراءٌ صغار .

ثم كلاب الصيد على ضربين : سَلُوقيَّة (بفتح السين) وزُغَارِيَّة (بضم الزاى) . فأمّا السَّلُوقية فمنسوبة إلى سَلُوقَ بلدة من اليمن كما قاله صاحب "المصايد والمطارد" والمؤيد صاحب حماه فى تقويم البُلْدان والمقرّ الشهابى ابن فضل الله فى "التعريف" قال فى "التعريف" : وهى مولدة بين الثعالب والكلاب، ولذلك لا تقبل التعليم إلا فى البطن الثالث منها ؛ قال : ولها سِلَاح جيد ؛ قال فى "المَصَايد والمَطَارد" ولها أنساب كأنساب الخيل ، قال : وقلّ أن يعرِض لها مَرَضُ الكَلَب . وأمّا الزُّغَارِيَّة فهى ألطفُ قَدّا من السَّلُوقية ولم أدر إلى ماذا تُنْسَب .

الصنف الثالث

(ما يعتنى بصيده من الوحش والمشهور منه عشرون ضربا)

الأوّل الحمارة العتابية — وهى حيوان فى صورة البِرْذَوْن موشّى الجلد بالبياض والسَّواد يَرُوق الناظرَ حسنُها، وقد كان أُهْدِى للظاهر برقوق سقى الله عهده حمارةٌ من هذا النوع فأقامت مدّة، ثم أعطاها فقيرا من فقراء العجم فكان يركبها كما تركب

الخيل والحمير ويمشِى بها فى القاهرة ، ثم عوّضــه الناصر بن الظاهر سلطانُ العصر عنها عِوضًا ، وآعتادها منه ، وأرسلها فى هديّة لآبن عثمان صاحب بلاد الروم غربىّ الخليج القُسْطنطينى .

الثـانى البقر الوحشية ـ وتعرف بالمَهَا ، وهى دونَ البقر الأهلية فى المِقدار ، ولها قَرْنان فى رأسها ، فى كل قرن منهما شُعَب ، وهى من جليل الصيد ، ويقال للفتِىّ منها المَهَا ، وبها يضرَب المثل فى حُسْن العُيون وسوادِها . ومن طبْعه الشَّبَق وشِدّة الشهوة ، ولذلك إذا حملت أنثاه هرَبَتْ منه خوفا من تعبُّثه بها وهى حامل ، وربما ركب الذكرُ الذكرَ لشدّة شــبقه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وكل إناث الحيوان أرق صوتا من الذكور إلا البقر الوَحْشــية فإن الأنثىٰ أفخم صوتا وأظهر من الذكر . ومواضعها من البرية الوَهَدات ، وما آستوىٰ من الأرض ودنا من المـاء والعُشْب ، وليست ممـا يسكُن الجبــلَ ؛ ولذلك عِيب فى ذلك محمدُ بن عبد الملك الزيّاتُ كاتبُ المعتصم ووزيرُه حيث وصــف ثورا من ثِيرانها برَعْيِه فى الجبــل . وهى ممـا يُصاد بالطَّرْد علىٰ الخيل ، ويقال إن أوّل مَنْ طردها علىٰ الخيل ربيعة بن نِزَار بن معَدّ بن عدنان فإنه أوّل من ركب الخيــل علىٰ قول ؛ ولمـا ركبها رأىٰ بقرة وحشية فطرَدَها فلجأت إلىٰ مكان يمكنه أخذها منه فرَقَّ لهـا وتركها . ويقال : إن من الكلاب ما يتسلط عليها ويتعلّق بها ، وأقدر مُعِين له عليها من جوارح الطير العُقاب . قال آبن السندىّ : ودمها أسرع إلىٰ الجُمُود من دم سائر الحيوان .

الثالث الحُمُر الوحشية ـ ويقال للأنثىٰ من حُمُر الوحش أتانٌ وللذكر حِمَار وعَيْر كما يقال فى الحُمُر الإنسية ، وربمـا قيل الفَرَأُ ، وهو من أشدّ الصــيد عَدْوا ولذلك يُضْرَب به المثل فيقال "كُلُّ الصَّيْدِ فى جَنْبِ الفَرَا" أو "فى جَوْف الفَرَا" . وبه تشــبِّه العرب خيْلَها وإبلَها فى السُّرْعة ؛ ويقال إن الحمــار الوحشىّ لا ينْزُو إلا إذا

كان له من العُمرُ ثلاثون شهرا وإن الانثى لا تَلْقَح منه حتّى يتم له ثلاث سنين، وقيل سنتان وستة أشهر . ويوصف بشدّة الغيرة على أتنِه حتّى يقال إن فيها ماإذا وُلِد له ولد ذكَرٌ كَدَم قضيبَه وخُصيَيْه حتّى يقطعهما . قال فى "المصايد والمطارد" وليس يتعلّق به شيء من الضَّوارِي ولا الجوارح إلا العُقَاب، ولا شيء أبلغُ فى صيده من الرمى بالنُّشّاب .

الرابع الغِزْلان ــ ويقال لها الظِّباء بكسر الظاء واحدها ظَبْى؛ ثم الظِّباء على ثلاثة أضرب : أحدُها البِيض، ويقال لها الآرَام جمع رِئْم، ومساكنُها الرمل، ويقال هى ضأْن الظِّباء . وثانيها الأُدْم؛ وهى ظِباءٌ سُمْر الظُّهور، بيضُ البُطون، طويلةُ الأعناقِ والقوائم؛ وهى أسرعُها عَدْوا . ومساكنها الجبال والشِّعاب . وثالثها العُفْر وهو صنف يعلوه مع البياض حُمْرة؛ قِصار الأعناق؛ ومسكنها صِلَاب الأرض .

ويصيد جميعَها الفَهْدُ والكلبُ والعُقَاب. وتُصاد أيضا بالحِبالة والشَّرَك، وربما صِيدَت بإيقاد النار بإزائها: لأن الظبى إذا رأى النار فى الليل تأملها وأدْمنَ النظر إليها وعَشِى بصرُه وذَهل؛ وقد يُضاف إلى النار تحريكُ جَرَس ونحوه فيزداد ذُهُوله فيؤخذ. وتصاد بأمور أخرى غير ذلك .

الخامس الأيابيل ــ جمع أُيَّل (بضم الهمزة وتشديد الياء المثناة تحت ولام فى الآخر) . وهو حيوان قريبُ الشَّبَه من الظباء، له قرنان فى رأسه كالظبى . قال فى "المصايد والمطارد" وهو معتصم بالجبل قلَّما يحُلُّ السهلَ، وقُرونه مُصْمَتة لا تجويفَ فيها، ويخلُفها فى كل عام غيرها، ويبتدئ فى ذلك بعد مضىّ سنتَيْن من ولادته، وله أربع أسنان فى كل ناحية من ناحيتَيْ فيه؛ وذَكَرُه عَصَب لا لحم فيه ولا غُضْروفَ ولاعَظْمَ؛ ودمُ كل حيوانٍ يَجْمُد إلا دمه؛ وليس للأُنْثى منها قرونٌ البتَّةَ؛ وأصوات ذكورها أحمدُ من أصوات إناثها؛ وهو يَرتاح لسماع الغناء . وإذا

مر بشجرة الزيتون ذَلَّ لها، ويأكل الحيات ولا يضره سمها، وسـيأتى فى الكلام علىٰ الأحجار أن البادزهر الحيوانى من صنف منه . ومن خواصه أنه إذا بخر بقرنه مع كِبْريت أحمر هَرَبت الحيَّات .

السادس الأرانب — جمع أَرْنَب والأرنب مؤنَّثة(١) وهى حيوان صغيرة الجُثَّة قصيرة اليدين قريبٌ من لون الثعلب، وليس شىء مما يُوصَف بِقِصَر اليدين أسرعَ منها .

ومن خصائصها كثرة الشَّـعر حتّى إنه لينبت فى بطون شدقَيْها وتحت رجليها . وقضيبُ ذكر الأرنب من عَظْم ؛ وربمـا ركبت الأنثىٰ الذكر فى السِّفَاد، ولا ينام الأرنبُ الا مفتوح العين . ومن طبعها أنهـا تطأ الأرض بباطن كفها لتُعفِّى أثَرَها إلا أن الكلب المـاهر يدرك أثر قوائمها .

ومن شأنها أن لا تأوى إلىٰ ساحل البحر، وإذا طُردت لجأتْ إلىٰ الجبال واشتدّ عدْوها فيها، والأنثىٰ لاتسمن، وهى عند العرب ممـا يحيض، وتُسفَد وهى حبلىٰ، وتلد الأوّل والثانى علىٰ مافى بطنها .

السابع الذِّئاب — جمع ذئب وهو حيوان فى صورة الكلب فى لونه بَلَق بكُمُودة والذئبة أَجْرأُ من الذئب وأشدّ عَدْوا، وأسنانه عظم مخلوق فى فكيه ليست مغروسة فيهما كسائر الحيوان . قال آبن السندى : وأخبرنى أبو بكر الدقيشى أن هذه الخلقة فى أسـنان الضبع أيضا، والذئب صاحب خلوة وآنفراد . ومتى رأىٰ الإنسانَ قبل أن يراه أخفىٰ صوتَه؛ وإن رآه جَزِع منه آجترأ عليـه وسـاوره، وإذا تسافد هو وأنثـاه التحما التحاما شـديدا حتّى يقال إنه إذا هجم عليهما داخلٌ فى هـذه الحالة قتلهما كيف شاء ولذلك يبعُدان فى هذه الحال إلىٰ مكان لا يُريَان فيه، وإذا تهارش ذئبان فأدمىٰ أحدهما الآخر عدا الذى أَدْمىٰ علىٰ المُدْمىٰ فقتله خوفًا من أخذ الثار ،

(١) فى المصباح ويقع على الذكر والانثى وقد يؤنث بالهاء فتدبر .

وإذا عجز الذئب عن الدفع عوى فاجتمع إليــه الذئاب نُصْرةً له ، وإذا لقى الفارسَ والأرض مثلوجة نَحَش الثلج بيديه ورمى به فى وجه الفارس ليُدْهِشه ثم يعقر دابّته فيتمكّن منــه ، ومتى وطئ الفرسُ أثَرَ الذئب رُعِد وخرج الدُّخَان من جســده كله ولذلك قلَّ مَنْ يطرد من الفُرْسان ولا يتفطّن لوطء أثره . ويصاد بالكلاب وغيرها وقد تقدّم أن السودانىَّ ضرّى ذئبا حتّى اصطاد له الظباء .

الثامن الثعالب — جمع ثعلب . وهو حيوان معروفٌ ، موصوفٌ بكثرة الرَّوَغان فى عَدْوه وبالحيل حتّى إنه يتمـاوَتُ عند رؤية الغُراب فينزل عليه الغرابُ على ظنِّ موته ليأكل منه فيقبضَه هو . ومن خُبْثه وحيلته يختاط بكِبَار الوُحُوش وجِلَّتها ، قال فى "المصايد والمطارد" . ومن فضائله تشبيههم مِشْية الخيل بمِشيته التى يقال لها الثعلبية .

ومن عجائبه أن قضيبه فى خلقة الأنبوبة أو سطُه عظم فى صورة الثقب والباقى عَصَب ولحم . وهو كريم الوَبَر ، والأسود من وبره فى الغاية القُصوى ، والأبيضُ منه لا يكاد يُفرَق بينه وبين الفَنَك .

ومن خصائصــه أنه يتمرَّغ فى الزرع فلا ينبُت موضعُه ، وربمـا سَفَد الكلبة فولدت كلبا فى خِلْقة السَّلُوقىّ الذى لا يُقدر على مثـله . وقد تقدّم ذكر ذلك فى الكلام على الكلاب السَّلُوقية . ومواضعه الكروم والآجام ؛ ويصــيده الفهد والكلب وجوارح الطير

التاسع الضِّباع — جمع ضبع ، ويقال لها أم عامر ، وهى مما يؤكل وإن كانت من ذوات الناب لورود النص بذلك ، وتزعُم العرب أنها تكون سنة ذكرا وسنة أنثى .

ومن خصائصها أنها إذا رأت الكلب فى ليـلة مقمرة على سطح ووطِئَت ظلَّه وقع فأكلته ، وإذا اقتحم عليها مقتحم وِجارَها وقد سدّ جميع منافذ جحرها حتّى يمتنع

منه الضوء فلا يبقى فيه خرم إبرة ، ربطها بحبل وخرج بها ؛ وإن بقىٰ مايدخل منه الضوء ، ولو قَدْرَ سَمِّ إبرة وثبَتْ عليه فأكلته . ومن كان معه شئ من الحنظل لم تقربْه الضبع .

العاشر سِنَّور البر ــ وهو التفا ، وفى حله عند الشافعية وجهان أصحهما التحريم وَصَيدُه يحتاج إلىٰ علاج كبير ، وربما وثب علىٰ وجوه الناس ، وطردُه بالخيل من أعسر الطراد ، وأولىٰ مايُصاد به الرمى ، ومنهم من يعدّه فى السباع قال فى "المصايد والمطارد" وقلّما ٱنتُفِع به فى صيد إلا أنه يَثِب علىٰ الكُرْكِىّ وما فى مقداره من الطيور فيصيدُه . أما السِّنَّور الأهلىّ ، وهو الهر المعروف فغير مأكول ولا يصيد إلا الفأر وما فى معناه من خَشَاش الأرض ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم ، فى الهِرّة ولكنها من الطَّوّافين عليكم بمعنى أنها تطُوف علىٰ النائم فى بيته فتقبض ما لعله يسرح عليه من الخَشَاش .

الحادى عشر الدُّب ــ وهو حيوان قريب فى الصورة من السبع ، وهو يسكن الجبال والمغاير(١) ، والأنثىٰ ترفع ولدها أياما هَرَبا به من الذرّ والنمل لأنها تضعه كقِطعة لحم فلا تزال تنقله وتراعيه حتّى تشتدّ أعضاؤه ، وتجعله تحت شجرة الجوز وتصعَدُها فتجمع الجوزَ فى كفها ثم تضربُ اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ وترمى إليه ، فإذا شبع نزلتْ وربما قطعتْ من الشجرة العُودَ الذى يعجِز الناسُ عنه وتقبض عليه فى موضع مقبِض العصا وتشدّ به علىٰ الفارس وغيره فلا تُصيب به شيئا إلا أهلكته . ومن خصيصته أنه يستتر فى الشتاء فلا يظهر إلا فى الصيف بخلاف سائر الحيوان .

الثانى عشر الخنزير ــ وهو حرام بنص القرءان ، نجس فى مذهب الشافعى رضى الله عنه قياسا علىٰ الكلب ؛ بل قالوا إنه أسوأ حالا منه لعدم حِلّ ٱقتنائه إلا أنه مباح القَتْل فيكون فى معنىٰ الصيد . وهو حيوان فى نحو مِقدار الحمار وشعرُه كالإبر

(١) الاولى والمغارات كما لا يخفى .

وله نابان بارزان من فَكّه الأسفلِ. ومن خاصّته أنه لا يُلْقِي شيئا من أسنانه، بخلاف سائر الحيوان فإنها تلقي أسنانَها خلا الأضراسَ؛ وهو كثير السِّفاد، كثير النَّسْل، حتّى إنه ربما بلغت عدّة خَنَانيصه(١) وهي أولاده اثنَيْ عشر خِنَّوْصا(١). قال في "المصايد والمطارد" وهو من الحيوان البريّ الجاهل الذي لا يقبَل التأديب والتعليم، ويقبل السِّمَنَ سريعا، ويقال إنه إذا جعل بين الخيل سَمِنت.

الثالث عشر السَّمُّور ــ (بفتح السين وبالميم المشدّدة المضمومة على وزن السَّفُّود والكَلُّوب). وهو حيوان برّي يشبه السِّنَّوْر، وقد يكون أكبر منه. قال عبد اللطيف البغدادي: وهو حيوان جَرِيء ليس في الحيوان أجرأُ منه على الإنسان، لا يُصاد إلا بالحِيَل؛ ووقع للنووي في تهذيب الأسماء واللغات أن السَّمُّور طير، ولعله سبق قلم منه وأغرب ابن هُشام البستيّ في شرح الفصيح فقال: إنه ضرب من الجن. والتحقيق أنه من جملة الوحوش كما تقدّم. وحكمه حِلُّ أكله، ومنه يتخذ نَفِيس الفِراء التي لا يلبَسُها إلا الملوك وأكابر الأعيان ممن يداني الملوك لحُسْنها ودِفائها؛ وأحسنه ما كان منه شديدَ النُّعومة مائلا إلى السواد.

الرابع عشر الفَنَك ــ (بفتح الفاء والنون) وهو دُوَيْبَّة لطيفة، لها وبَرحَسَنٌ أبيض يخالطه بعضُ حمرة يُتَّخذ من جُلودِه الفراء. قال ابن البيطار: وفروهُ أطيبُ من جميع الفِراء، ومزاجه أبردُ من السَّمُّور وأحر من السنجاب، ويصلح للأبدان المعتدلة قال وكثيرا مايُجلَب من بلاد الصَّقَالبة.

الخامس عشر القاقُمُ ــ (بقافين الثانية منهما مضمومة) وهو دُوَيْبَّة في قدر الفأر لها شعر أبيض ناعم، ومنه يُتَّخذُ الفراء، وهو أبرد مِزَاجا وأرطبُ من السِّنْجاب؛ ولذلك كان لونُه البياضَ، وهو أعز قيمة من السنجاب.

(١) في الأصل بالسين وهو تصحيف أنظر كتب اللغة.

السادس عشر الدَّلَق ـ (بفتح الدال المهملة واللام وقاف فى الآخر) فارسىّ معرّب، وهو دُوَيْبَّة تقرب من السَّمُّور . قال عبد اللطيف البغدادى: وهو يفترِس فى بعض الأحايين ويكْرَع فى الدم . وذكر آبن فارس أنه النِّمْس . وقد ذكر الرافعىّ أنه يسمّى آبن مُقْرِض والمعروف أن الدَّلَق حيوان تتخذ منه الفِراء .

السابع عشر السِّنجاب ـ وهو حيوان أكبر من الفأر ووبَرُه فى غاية النُّعومة وجلده فى نهاية القوّة . وحكمه الحِلُّ، وقال بتحريمه بعض الحنابلة . ويتخذ من جلده الفِراء النَّفيسة التى يلبَسها أعيانُ الناس ورؤساؤُهم . ومن شأنه أنه إذا أبصر الإنسان صَعِد الشجر العالى، وفيها يأوِى، ومنها يأكل؛ وهو كثير ببلاد الفرنج والصقالبة؛ وأحسن ألوانه الأزرقُ؛ ثم إنه يقال إنه ربما تبقىٰ زُرْقته(١) لأنه يُخنق ولا يُذَكَّى، فإن صح ذلك فهو ميتة لا يطهرُ شعره بالدباغ علىٰ أظهر القولين من مذهب الشافعى رضى الله عنه خلافا للأستاذ أبى إسحاق الاسفراينى وآبن أبى عَصْرون فإنهما يريان طهارة الشعر بالدباغ وهو رواية الربيع الجيزىّ عن الشافعى وآختاره الشيخ تقىّ الدين السبكى رحمه الله .

الثامن عشر سِنَّوْر الزَّباد ـ وهو فى صورة السِّنَّور الأهلىّ إلا أنه أطول ذَنَبا منه وأكبرُ جثّة، ولونه إلىٰ السواد أميلُ، وربما كان أنمَر، وهو يُجْلَب من بلاد الهند والسند، والزَّبَاد فيه شبيه بالوسخ الأسود اللزج، ذَفِر الرائحة، يخالطه طِيب كطيب المسك، ويوجد فى باطن إبطه، وباطن أفخاذه، وباطن ذنبه، وحول دُبُره . فيؤخذ من هذه الأماكن بمِلْعقة ونحوها .

التاسع عشر السِّنَّور الأهلىّ ـ (وهو الهرّ) ويقال فى أصل خلقه إن أهل السفينة شكَوْا إلىٰ نوح عليه السلام ضرر الفأر فمسح علىٰ وجه الأسد بيده فعَطَس فخرج السِّنَّور من أنفه ولذلك هو يشبهه فى التكوين وكيفية الأعضاء، وفيه مشاركة

(١) كذا بالأصل .

للإنسان فى خصال . منها أنه يَعْطِسُ، و يتثاءب، ويتناول الشيء بيده ، ويأكل اللحم، ويمسح وجهه بلُعابه كأنه يغسله ، وإذا آتسخ شيء من بدنه نظّفه، وإذا قضى حاجته خبأ ما يخرج منه ، ويشَمُّه حتّى تخفى رائحته . ويقال إنه يفعل ذلك كيلا يشَمَّه الفأر فيهرُب ، وهو يهيج للسِّفاد فى آخر الشتاء، ويُكثِر الصياح حينئذ، وتحمل الأنثى منه مرة فى السنة ، وتُقيم حاملا خمسين يوما ، وإذا ألف منزلا منع غيره من السنانير من الدخول إليه ، وإذا طرده أهل البيت تملّق لهم وترقق ، وإذا آختطف شيئا هرب به خوفَ المعاقبة عليه . والهِرّةُ إذا جاعت أكلت أولادها ــ ويقال إنها تفعل ذلك من شدّة الحنوّ. وقد ذكر القَزْوينىُّ أن نوعا من السنانير له أجنحة كأجنحة الخفافيش متصلة من أذنها إلى ذنبها .

العشرون النِّمْس ــ قال الجوهرى : وهو دُوَيْبَّة عريضة كأنها قطعة قَدِيد ، تكون بأرض مصر تقتل الثُّعْبان، والنِّمس بمصر معروفٌ ــ وهو حيوان قصير اليدين والرجلين أغبرُ اللون ، طويل الذَّنَب ، يصيد الدَّجاج، وإذا رأى ثعبانا قبض عليه وقتله ، وربما صيد وأُنِّس فتأنَّس .

فإذا علم الكاتب صفاتِ الوحوش وخصائصَها ، عرف كيف يُورد الجليل منها من الأسد والفيل ونحوها مواردَه فى الوصف ، وكيف يصف ضوارِيَ الصيد كالفَهْد وكيف يصف وحوش الصيد كالظِّباء ، وبقر الوحش ، وحُمُر الوحش وغيرها .
وكذلك مايقع من التشبيهات بشيء من الحيوان كما قال بعض الشعراء :

وتَجْتَنِبُ الأُسُودُ وُرُودَ ماءٍ * إذا كان الكلابُ يَلَغْنَ فيه

وكما أنشد الجاحظ :

جاءتْ مع الأفشين فى هَوْدج * تُزْجى إلى البَصْرة أجنادَها
كأنَّها فى فِعْلها هِرَّة * تُرِيد أن تأكُلَ أولادَها

مشيرا بذلك إلىٰ ماتقدم من أكل الهرّة أولادها وغير ذلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ وسيأتى ذكر مافى معنىٰ ذلك من الرسائل المتعلقة بأوصاف الحيوان فى المقالة العاشرة المعدّة لذلك إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الرابع
(فيما يحتاج إلىٰ وصفه من الطيور)

ويحتاج الكاتب إلىٰ ذلك فى رسائل الصيد، وإهداء الجوارح، والجواب عن إهدائها، وكتابة قدم البُنْدق، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك؛ وهو علىٰ أربعة أصناف .

الصـــنف الأوّل
(الجـــوارح)

وهى يُصاد بها الطير والوحش؛ ويحتاج الكاتب إلىٰ وصفها فى الرسائل الصيديّة وفى إهداء شىء من الجوارح أو الجواب عنها .

واعلم أن الصائد الكبير الجُثّة المعتبرَ فى الصيد فى جميع أجناس الجوارح هى الإناث؛ أما ذكورها فإنها ألطف فى المقدار وأضعَفُ فى الصـيد علىٰ مايأتى بيانه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ . قال فى "التعريف" ويستحب فى الجوارح كِبَرهامتها، ونتو صدْرها، وآتساع حَماليقها، وقوّة إبصارها، وحدّة مَنَاسِرها، وصفاءُ ألوانها، ونُعومة رِيَاشها، وقوّة قَوادمها، وتكاثُف خَوَافيها، وثِقَل محملها، وخِفَّةُ وَثَباتها، وآشتدادها فى الطلب، ونَهَمها فى الأكل؛ وقد قسمها فى "التعريف" إلىٰ قسمين: صُقُور وبُزَاة، وفرّق بينهما بأن الصَّقْر ما كان أسودَ العين والبازِىَ ما كان أصفر العين علىٰ آختلاف المسَمَّيات، ثم قال "أما العُقَاب فإنه لا يعدّ فى الصُّقور ولا فى البُزَاة وهو معدود فى الجوارح، وفى الطير الجليل" . وبالجملة فالجوارح علىٰ ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل

(العُــقَاب ، وهو ضربان)

الضرب الأوّل ـ المخصوص باسم العُقَاب وهى مؤنّثة لاتذكّر، ويجمع على عِقْبان وأَعْقُب . قال فى "المصايد والمطارد" وهى من أعظم الجوارح ، وليس بعد النَّسْر فى الطير أعظم منها . وأصل لونها السواد .

فمنها سوداء دَجُوجِيّة، وخُدَاريَّة، وهى التى لابَيَاضَ فيها . ومنها البَقْعاء ـ وهى التى يخالط سوادَها بياضٌ . ومنها الشَّقْراء ـ وهى التى فى رأسها نُقَطُ بياض . قال أبو عبيدة و يونس : و يقال لذكر العُقَاب الغَرَنُ بفتح الغين والراء المهملة ـ و يقال إن ذُكور العُقْبان من طير آخَر لِطافِ الجرم، لاتُساوى شيئا، تلعب بها الصِّبْيان . والعُقَاب من أسرع الطير طَيَرانا ، فقد حُكى أن عُقَابا حملت كفَّ عبد الرحمن بن عَتَّاب ابن أسيد المسمّى بيَعْسُوب قريش ، المقتول يوم الجمل بالكوفة ، فألقتْها بمكة فأُخِذتْ فوُجِد بها حَلْقَـة فعرف أنها كفه ، وأُرِّخ ذلك الوقت فتبـيَّن أنها ألقتها يوم الجمل الذى قتل فيه ، وأوّلُ مَن صادها أهلُ المغرب ، فلما نظرت الرُّوم إلىٰ شِدّة أمرها و إفراط سُلَاحِها قال حكماؤهم هذا لايفِى خيرُه بشرِّه .

وصفة الوثيق النجيب منها وَثَاقَةُ الخلق ، وثُبُوت الأركان ، وحُمْرة اللون ، وغُـُـور العين بالحماليق ؛ وأن تكون صَقْعاء ، عَجْزاءَ ، لا سيما ما كان منها من أرض سُرْتَ أو جبال المَغْرب . وهى تصيد الظِّباءَ والثَّعالِبَ والأرانب ، وقد تصيد حُمُر الوحش ، وطريق صيدها إيَّاها أنها إذا نظرتْ حِمار الوحش رمتْ بنفسها فى المـاء حتّى يبتلَّ جناحاها ثم تخرج فتقَع علىٰ التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يَعْلَق بهـما ، ثم تطير طَيَرانا ثقيــلا حتّى تقع علىٰ هامته فتُصفِّق علىٰ عينيه بجناحيها فيمتلئان ترابا من ذلك

التراب الذى عَلِق بجناحيها، فلا تستطيع المَسيرَ بعد ذلك فيدركها القانصُ فيأخذها وربما كسَرت الآدمىَّ .

ومما يحكىٰ فى ذلك أن قيصر ملك الرُّوم أهدىٰ إلىٰ كسرىٰ ملك الفُرْس عُقَابا، وكتب إليه إنها تعمل أكثرَ من عمل الصُّقُور، فأمر بها كسرىٰ فأُرسلتْ علىٰ ظبْى فاقتنصته، فأعجبه ما رأىٰ منها فٱنصرف وجوّعها ليصيد بها فوثبت علىٰ صبىّ له فقتلته، فقال كسرىٰ : إن قيصر قد جعل بيننا و بينه دما ثائرا بغير جَيْش . ثم إن كسرىٰ أهدىٰ إلىٰ قيصر نَمِرا وكتب إليه : أن قد بعثت إليك فَهْدا يقتل الظباء وأمثالها من الوحش، وكتم ماصنعت العُقَاب فأَعجبَ قيصرَ حسنُ النمر ووافق صفتُه ما وصف من الفهد وغفل عنه فافترس بعض فِتْيانه فقال صادنا كسرىٰ .

ومن شأنها أنها لاتطلب شيئا من الوحش الذى تصيده، وهى لاتقرُب إنسانا أبدا خوفا من أن يطلب صيدها، ولاتزال مرقبة(١) علىٰ مرقب عال، فإذا رأت بعضَ سباع الطير قد صاد شيئا ٱنقضَّت عليه، فإذا أبصرها هرب وترك الصيد لها، فإن جاعتْ لم يمتنع عليها الذئبُ فى صيدها، وربما ٱغتالت البُزَاة فقتلتْها،

ومن خصائصها أنها أشدّ إخفاء لفِراخها من سائر الطير . قال غِطْريف بن قُدَامة الغسانى صاحب صَيْد هشام بن عبد الملك : "وأوّلُ من لعب بالعُقَاب أهلُ المغرب"، فلما عرفوا أسرارها نَفَّذوه إلىٰ ملك الروم فاستدعىٰ جميع حكمائه فقال لهم : ٱنظروا فى قوة هذا الطير، وعِظَم سلاحه، كيف تجب تربيته، وتعرّفوا أسراره فى صيده وتعليمه، وكيف ينبغى أن يكون ـ فأجابوا جميعا بأن هذا الطائر دون سائر أجناسه كالأسد فى سائر الوحوش وكما أن الأسد ملك كذلك هذا ملك بين سائر سباع الطير ـ وعند العداوة والغضب كلُّ الأجناس عنده من سائر الحيوان

(١) لعله مرتقبة

علىٰ ٱختلاف أنواعه واحد لقوّة غضبه وشدّة بأسه فهو لا يستعظم الآدمىّ ولا غيره من الحيوان .

الضرب الثانى ـ الزُّمَّج (بضم الزاى وفتح الميم المشدّدة ثم جيم) والعامّة تبدل الزاى جيما والجيم زايا ـ وهو طائر معروف تصيد به الملوكُ الوحشَ، وأهل البيْزرة يعُدّونه من خِفَاف الطير الجوارح، إلا أنهم يِصفُونه بالغَدْر وقِلّة الإلف لكثافة طبعه وكونه لا يقبل التعليم إلا بعد بطء،

ومن عادته أنه يصيد علىٰ وجه الأرض . وأحسن صفاته أن يكون أحمر اللون . وقال الليث : الزُّمَّج طائر دون العُقاب حمرتُه غالبة، والعجم تسميه دُوْبَرَا دَرَان ومعناه أنه إن عجز عن الصيد أعانه عليه أخوه .

القسم الثانى

(من الجوارح البُزَاة . وهى ما ٱصفرّت عينُه،
وهى علىٰ خمسة أضرب)

الأوّل ـ البازى المختص فى زماننا باسم البازى ؛ وفى ضبطه ثلاثُ لغات أفصحها بازِى بكسر الزاى وتخفيف الياء فى الآخر، والثانى بازٍ بغير ياء فى آخره، والثالث بازىّ باثبات الياء وتشديدها حكاها ٱبن سيده ؛ ويقال فى التثنية بازِيَان وفى الجمع بوَازٍ وبُزَاة ـ ولفظه مشتق من البَزَوان ـ وهو الوَثْب . وهو خفيف الجَنَاح، سريع الطَّيَران . وهو من أشرف الطُّيور الجوارح، وأحرصها علىٰ طَلَب صيده. ففى أخبار نصر بن سَيَّار أن بعض كُبَراء الدَّهَاقِين غَدَا عليه بطَبَرِسْتان ومعه مِنْديل فيه شىءٌ ملَفَّف، فكشف عنه بين يديه فإذا فيه شِلْو بازٍ ودُرّاجة، فأطلقه عليها فأحسَّت به ، وكنت قد أمرت بإحراق قَصَب قد أفسد أرضا لى فتحاملت الدُّرّاجة حتّى

آقتحمت النارَ هاربة من البازى ،وآشتدّ طلبه لهـا وحرصه عليها فلم تردّه النارُ عنها وآقتحمها فى أثرهـا فأسرعَتْ فيهما فأدركهما وقد آحترقا ، فأحضرهمـا إلىٰ الأمير ليراهما فيرىٰ بهما ثمرَةَ إفراط الحرص و إفراط الجُبْن . وهو من أشدّ الحيوان كبْرا وأضيقها خُلُقـا . قال القَزْوِينىّ ولا يكون إلا أُنْثىٰ ، وذكرها نوع آخر من حِدَأة أو شاهينٍ أوغيرهما . ولذلك تختلف أشكالُها . والبازى قليل الصبر علىٰ العطَش ومأواه مساقِطُ الشجَرِ .

ومن فضـيلته أن الصيد فيه طبيعةٌ لأنه يؤخذ من وَكْره فرخا منْ غير أن يكون يَصِيد مع أبويه فيصيد آبتداء وقريحةً من غير تضرية ، بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ قبل أن يتصيد مع أبويه لم يَنْجُب ولم يصِدْ ، و إذا كان قد لحق أبو يه وصاد معهما ثم عُوِّد أكثرَ ممـا يوجد عنـده فى تلك الحـال وجُرِّئَ علىٰ ما هو أكبر من الظباء اعتاد ذلك ومَهَر فيه .قال صاحب "المصايد والمطارد" : وعددُ ريش جَناح البازى عشرون ريشةً ، أربع قوادم، وأربع منا كِبُ، وأربع أباهِرُ، وأربع كُلَى، وأربع خوافٍ . و يقال سبعُ قوادمُ ، وسبعُ خَوَافٍ ، وسائره لَغَب . والخَوَافى أخفُّ من القوادم .

والمستحب من صفاته صغر المِنْسَر، والرأس، وغِلَظ العنق، وسَعة اللحيين ، ودائرتى الأذنين والشِّدْقين، وسَعةُ الحَدَقة،وطُول القَوَادم،وقِصرُ الخوافى والذَّنَب، وشِدّة اللحم ، وعِرَض مابين المنكبين والزَّوْر، وسَعة الحَوْصَلاء، وسَعة ماينتقل إليه طُعْمه، وعِرَض المَخالب ، ورَزَانة المَحْمَل، وغِلَظ خُطوط الصدر، وذَكاء القلب، والتشميرُ، وكثرةُ الأكل ، وتتابعُ النَّهْش، وسُرعةُ الاستمراء ، وشدّة الآنتفاض، وضخامة السَّلَاح(١)، وبُعدالذَّرْق . وأن تراه كأنه مُقْعِيًا(١) إذا استقبلته علىٰ يد حامله تشبيها بالغُراب الأبْقَع . قال صاحب " المصايد والمطارد" : والمختـار من ألوانها الأحمرُ

(١) كذا فى الاصل .

الأكثرُ سوادا ، الغليظُ خطُوط الصدر ، والأشهبُ الشديدُ الشُّهبة ، الشَّبيه بالأبيض، والأصفر المدبَّج الظهر . قال : وسواد لسانه أدلُّ علىٰ نجابته ،

والبازى يصيد الكلبَ ، والأرنبَ ، والغزالَ ، والكُرْكِيَّ ومافى معناه، والدُّرّاجَ ، والحجلَ ، وسائر الحمام، والبطَّ ، وسائر طيور الماء .

ومن محاسن البازى عدمُ الإباق فإنه إن صاد بَقِىَ علىٰ فريسته و إن لم يصد وقف مكانه فلا يحتاج إلىٰ كدّ ولا تعب ولا طَرْد خيل . وأوّل من صاده من الملوك قُسْطنطين ملك الروم — وذلك أنه مر يوما بِلِحْف جبل فرأىٰ بازياً يطير ثم نزل علىٰ شجرة كثيرة الأغصان كبيرة الشوك ، فأعجبته صورته ، وراقه حسنُ لباسه ؛ فأمر بأن يصاد له جملةٌ من البُزاة فصيدتْ له وحملت إليه فأرتبطها فى مجلسه ، فعرض لبعضها فى بعض الايام أَيْمٌ (١) فوثب عليه فقتله — فقال : هذا ملك يُغضبه ما يغضبُ الملوك فنصب له بين يديه كندرة ، وكان هناك ثعلب داجنٌ ، وهو الذى يربىٰ فى البيوت فَوثَب عليه فما أفْلت إلا جريحا — فقال هذا ملك جبَّار لايحتمل ضيما — ثم مرّ به طائر فكَسَره ونهش منه — فقال هذا ملكُ نوعه لما جاع أخذ طعامه بسلطان وقدرة — فحمله علىٰ يده وصاد به .

الثانى الزُّرّق — (بضم الزاى المعجمة وتشديد الراء المهملة المفتوحة وقاف فى الآخر) وهو ذكر البازى قال فى "المصايد والمطارد" وهو يصيد ما يصيد البازى من دِقّ الطير ولا ينتهى إلىٰ صيد الكُرْكِىّ .

الثالث الفقيمى (٢) — وهو بازٍ قَضيفٌ قليل الصيد ذاهلُ النفس .

الرابع الباشَق — (بكسر الشين وفتحها) فارسى معرّب وهو طائر لطيف

(١) الايم الحية انظر القاموس (٢) فى حياة الحيوان العقصى ولم نجدهما فى القاموس .

وصـفاته المحمودة كصفات البازى المحمودة . وأفضلها أثقلها وزنا قال فى" المصايد والمطارد" وهو يصيد العصافير وما قاربها . وقال فى حياة الحيوان : إنه يصيد أخر مايصيده البازى وهو الدُّرّاج والحَمَام والوَرَشان ، و إذا قوىَ على صـيده لايتركه إلا أن يتلَفَ أحدهمـا .

الخامس البَيْدق ـ وهو دون الباشق ، وصيدُه العصافيرُ .

القسم الثـالث

(من الجوارح الصقور ـ وهى السُّود العيون من الجوارح ؛ وهى ضربان)

الضرب الأوّل ـ الشَّواهين (واحدها شاهين) وهى صنفان . الأوّل المشتهر باسم الشاهين وقد ذكر العلمـاء بالجوارح أن الشَّواهين هى أسرع الجَوارِح كلها وأشجَعُها وأخفُّها وأحسنُها تقلبا ، و إقبالا ، و إدبارا ، وأشدّها ضَراوةً على الصيد ؛ إلا أنهم عابوها بالإبَاق وما يعتريها من شدّة الحِرْص ، حتّى إنها ربمـا ضربَتْ نفسها على الغَلْظ من الأرض فماتتْ ، وهى أصلب عظاما من غيرها من سائر الجوارح ـ و يقال إن صدرها عَصَب مجدول مُلْحم . ولذلك تجدها تضرب بصدرها ثم تَعْلَق بكفها ، وهم يحمَدُون منها ماقَرْنص داجناً دُون ماقرنص وحشِيًّا .

ومن كلام بعضهم : الشاهين كآسمه يعنى كالميزان المسمّى بالشاهين ، فإنها لا تحمل أيسر حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع ؛ بل حالهُا معتدل كاعتدال الميزان . و يقال إن الحمـام يخافها أكثَرَ ممـا يخاف غيرها من الصقور .

ثم المختار من صـفاتها فيما ذكره صاحب " المصايد والمطارد" الأحمرُ اللونِ إذا كان عظيم الهامة ، واسع العينين حادّهما ، سائل السُّفْعتين ، تامّ المَنْسِر ، طويلَ العُنق ، رَحْب الصـدر ، ممتلئ الزَّوْر ، عرِيض الوسَـط ، جليل الفخذين ، قصير

الساقين ، قريب القعدة من القفا ، طويلُ الجناحين ، قصير الذَّنَب ، سَبْط الكف ، غليظ دائرة الخَصْر ، قليل الريش لَيِّنه ، تامّ الخَوافى ، ممتلِئ العكوة ، رقيق الذَّنَب إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شيء من ذنبه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وأهل الاسكندرية يزعمون أن السود منها هى المحمودة وأن السواد هو أصل لونها و إنما آنقلبت إلىٰ لون البرارى لخالات . قال والحمر منها تكونُ فى الأرياف والمواضع السَّهْلة ، والشُّهُب فى الجبال والبرارى . ثم قال ولا يصيد منها الكركىّ والحَبْرَج إلا البَحْرِيَّة . وأوّل من صادها فيما يقال قُسْطنطين ملكُ الروم أيضا ، وذلك أنه رأىٰ شاهينا محلِّقا علىٰ طير الماء يصطاده فأعجبه ماعاين من فَرَاهته ، وسُرْعة طيرانه وحُسْن صيده ؛ فإنه رآه يحَلِّق فى طيرانه حتّٰى يلحق بعَنَان الجوّ ثم يعود فى طرفة عين فيضْرِب طيرَ الماء فيأخذُه قِنَاصا . فقال ينبغى أن يصاد هذا الطائر ويُعلَّم ، فإن كان قابلا للتعليم ظهر منه أُعْجوبة فى أمر الصيد ، فأمر بصيده وتعليمه فصيد وعلم وحمله علىٰ يده . قال فى "المصايد والمطارد" وانه كان من رتبة ملوك الروم أنه إذا ركب سارت الشواهين حائمة علىٰ رأس الملك حتّٰى ينزل فتقع حَوْله إلىٰ أن ركب بها ملك منهم ، وسار وهى علىٰ رأسه فطار طائر فانقضّ بعض تلك الشواهين عليه فاقتنصه وأُعْجب الملك به فضَرَّاها علىٰ الصيد وصاد بها .

وقال آبن عُفَير : كانت ملوك العرب إذا ركبت فى مواكبها طيَّروا الشواهين فوق رءوسهم ، وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة .

الثانى من الشواهين الأنيوه (١) قال فى "المصايد والمطارد" وهو دونَ الشاهين فى القوة ، وله سُرْعة لاتزيد علىٰ صيد العصافير .

الضرب الثانى — من الصقور ماعدا الشواهين وهى أصناف .

الأوّل السُّنْقر . قال فى "التعريف" وهو أشرفُ الجَوَارح و إن كان لا ذِكْر له

(١) لم نعثر على هذا الاسم .

فى القـديم . قال والسَّنَاقِر تُجْلَب من البحر الشامىّ مغالًى فى أثمـانها . ثم قال وكان الواحد منها يبلُغ ألف دينار، ثم نزل عن تلك الرتبة، وآنحط عن تلك الهَضْبة .

الثانى ــ المخصوص فى زماننا باسم الصَّقْر ويجمع علىٰ أصْقُر وصُقُور وصُقور وصَقورَة قال فى "التعريف" والعرب تسمى هذا النوع الحُرّ . ويقال له الأكدر، والأجْدل . قال فى "المصايد والمطارد" ويقال لهـا بِغَال الطير : لأنها أصبر علىٰ الأذىٰ، وأحمل لغليظ الغـذاء، وأحسن إلفا ، وأشـدّ إقداما علىٰ جِلَّة الطير، ومِزَاجُه أبرد من البازى والشاهين، وبسبب ذلك يُضَرَّى علىٰ الغزال والأرنب ولا يُضَرَّى علىٰ الطير لأنه يفوته، وهو أهدىٰ من البازى نَفْسا، وأسرع آستئناسا بالناس وأكثرها قُنعا، وأبرَدُ مِزاجا ، لا يشرب ماءً وإن أقام دهرا . ونوع يُوصـف بالبَخَر ونَتْن الفم ومسكنه المغائر والكهوف وصُـدوع الجبال دون رءوس الأشجـار وأعالى الجبال، والعـرب تحمَدُ من الصُّقُور ما قَرْنص وحشيًّا ، وتذم ما قرنص داجِناً ، وتقول إنه يتبلد ولا يكاد يفلح . وهى تصيد الكُرْكىَّ ومافى معناه، والبَطَّ وسائر طير المـاء .

والصقور من أثبت الجوارح جنَانا فى الطيران ، وأحرصها فى آتباع الصيد، حتىٰ يحكى أن بعض ملوك مصر أرسـل صقرا علىٰ كركىّ صبيحة يوم الجمعـة بمصر فبينما الناسُ يصلُّون الجمعة بدمشق إذ وقع هو والكركىّ بالجامع الأموىّ بدمشق ، فأخذ فوجد فيـه لَوْحُ السلطان فعرف به، فكتب نائب الشام إلىٰ السلطان يخبره وأرسله إليه هو وصيده . قال فى "المصايد والمطارد" ومن ألوان الصقر كونه أحمر، وأبغَثَ، وأحوىٰ ، وأبيضَ، وأخْرجَ، وهو الذى فيه نقط بيض . قال ويستحب فى الصقر أن يكون أحمرَ اللون، عظيمَ الهـامة، واسعَ العينين، تامّ المَنْسر، طويلَ العُنق، رَحْب الصَّـدْرِ، ممتلئ الزَّوْر، عريض الوَسَـط، جليل الفَخذين، قصير الساقيْنِ، قريب القَعْدة من القفا، طويلَ الجناحيْنِ، قصيرَ الذَّنَب، سَبْط الكف،

غليظَ الأصابع فيروزَجَها، أسود اللسان . قال وتجمع هذه الصفاتُ الفَرَاهةَ والوَثاقةَ والسرعةَ . قال أدهم بن محرز : وأوّل من لعب بالصقر الحارثُ بن معاوية بن كِنْدَةَ الكِنْدىّ ــ خرج يوما الى الصيد فرأىٰ صيَّادِين قد نصبوا شِبَاكا عِدّة، فوقع فيها عصا فِيرُ عدّة فحين رآها صقر من الجوّ آنقضَّ عليها يطلُبها فأمر الحارث بنصْب الشباك للصقور فنُصِبت لها فآصطاد منها جملةً . ويقال إن صيد الصقر غير طبيعىّ له . وإنما يستفيد ذلك بالتعليم بدليل أن فراخ الباز إذا أخذت من العُشّ وعلّمت آصطادت أجودَ صيد لأن صيدها طبيعىّ بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ من الوَكْر ثم كَبِر فإنه لايصطاد غير طُعْمه فلذلك يُنْهىٰ عن تربية الصقر .

الثالث الكُونَج ــ قال فى حياة الحيوان نسبته من الصقور كنسبة الزُّرَّق إلىٰ البازى إلا أنه أحرُّ منه، ولذلك كان أخفَّ جناحا وأقلَّ بَخَرا . قال ويصيد أشياءَ من طير الماء ويعجز عن الغَزال لصِغره .

الرابع الكُوهِيَّة ــ وهى موشَّاة بالبياض والسواد يخالط لونَها صُفْرة ، قال فى "التعريف" وتجلب من البحر .

الخامس السقاوة، وهى قريبة الشكل من الصقر .

السادس اليُؤْيُؤ ــ (بضم الياء المثناة تحت وهمزة بعدها وضم الثانية وهمزة بعدها أيضا) قال فى "المصايد والمطارد" وتسميه أهل مصر والشام الجَلَم، وبهذا سماه فى "التعريف" وهو طائر صغير أسود اللون يَضْرِب للزُّرْقة ، وهى مع صغرها يجتمع الاثنان منها علىٰ الكركىّ فيصيدانه، وسمَّوْه الجَلَم أخذا من الجَلَم : وهو المِقَصّ تشبيها به لأن له سرعةً كسُرْعة المِقَص فِى قطعه، ومزاجُه بالنسبة إلىٰ الباشَق بارد رَطْب لأنه أصبر نَفَسا منه ، وأثقل حركةً . وهو يشرب الماء شُرْبا ضروريا كما يشربه الباشَق، ومزاجه بالنسبة إلىٰ الصقر حارّ يابس ولذلك هو أشجعُ منه . ويقال

إن أول من ضرّاه على الصيد واصطاد به بهْرام جور : أحدُ ملوك الفرس ، وذلك أنه رأى يُؤْيُؤا يطارد قُنبُرة ، ويراوغها ، ويرتفع معها ثم لم يتركها حتّى صادها ؛ فأمر بتأديبه والصيد به .

الصـــــنف الثـانى

(الطير الجليـــل)

وهو المعبر عنه بطير الواجب ، وبه تعتنى رماة البندق ونحوها ، وتفتخر بإصابته وصَرْعه ويحتاج إليه فى الرسـائل الصـيدية ، وفى كتابة قدم البندق ونحوها . وهو أربعـة عشر طائرا ؛ وهى على ضربين .

الضرب الأوّل ــ طيور الشتاء ــ وهى التى يكثر وُجْدانها فيه ــ وهى عشرة طيور .

الأوّل الكُرْكِىّ ــ وهو طائر أغبرُ ، طويل الساقين ، فى قدر الإوزّة ، ويجمع على كَراكِىّ ؛ وفى طبعه خَوَر يحمله على التحارُس ، حتّى إنه إذا اجتمع جماعة من الكَراكىّ لابدّ لهـا من حارس يحرسُها بالنَّوْبة بينها . ومن شأن الذى يحرُس منها أن يهتف بصوت خَفِىّ كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبتـه ، قام واحد ممن كان نائمـا يحرُس مكانَه حتّى يقضى كلٌّ منها نوبتَه من الحِراسة ، ولا تطير متفرّقة بل صـفًّا واحدا ، يقْدَمها واحد منها كالرئيس لها وهى تتبعه ، يكون ذلك حينا ثم يخلفه آخرُ منها مقدّما حتّى يصـير الذى كان مقدَّما مؤخّرا ، وفى طبعها التناصُر والتعاضُد . ومن خاصتها أنّ أنثاها لاتقعد للسفاد بل يَسْفِدها وهى قائمة ، ويكون سفاده سريعا كالعصفور . وذكر جُمَيع بن عمير التميمى أنّ الكراكِىّ تبيض فى السماء ، ولا تقع فِراخُها ، وكذبه المحدّثون فى ذلك وإن كان قد روى عنه أهل السنن .

قال القَزوِينى فى عجائب المخلوقات ، والكُرْكىّ لايمشى على الأرض إلا بإحدى رجليه

ويعلِّق الأُخرىٰ ، وإن وضعها وضعا خفيفا مخافة أن تُخسَف به الأرضُ قال في "المصايد والمطارد" وهو من أبعد الطير صَوْتا يُسمَع علىٰ أميال . قال وإذا تقدّم مجيئها في الفصل ٱستُدِلّ بذلك علىٰ قوة الشتاء. ويقال إن الكراكيّ تأتى إلىٰ مصر من بلاد التُّرك. وفي طلبه وصيده تتغالىٰ ملوكُ مصر تغَاليا لايدرك حدّه، وتنفق في ذلك الأموال الجَمَّة التى لانهاية لها . وكان لهم من علو الشأن بذلك مالا يكون لغيرهم . وأكله حلال بلا نِزاع .

الثانى الإوز – بكسر الهمزة وفتح الواو – واحدته إوَزّة وجمعوه علىٰ إوَزُّون والمراد هنا الإوز المعروف بالتركىّ ، وهو طير في قدر الإوز البلدىّ أبيضُ اللون . وله تبختُر في مِشيته كالحَجَل، وهو من جملة طير الماء مقطوع بحل أكله .

الثالث اللَّغْلَغ – وهو دون الإوز في المقدار، لونه كلون الإوز الحبشىّ إلىٰ السواد، أبيض الجَفْن، أصفر العين . ويعرف في مصر بالعِرَاقى، ويأتى إليها في مبادئ طلوع زرعها في زمن إتيان الكراكىّ إليها . ومن شأنها أن يتقدّمها واحد منها كالدليل لها، ثم قد تكون صفا واحدا ممتدّا كالحبل ودليلُها في وسطها متقدِّمٌ عليها بعضَ التقدّم . وقد يصُفُّ خلفه صفين ممتدّين يلْقيانه في زاوية حادّة حتى يصير كأنه حرف جيم بلاعراقة، متساوية الطرفين . ومن خاصتها أنها إذا كبِرت حدث في بياض بطونها وصدورها نقطٌ سُود، والفرخ منها لا يعتريه ذلك .

الرابع الحُبْرج – (بضم الحاء المهملة وسكون الموحدة وضم الراء المهملة وجيم في الآخر) – وهو الحُبارىٰ . قال في "المصايد والمطارد" ويقع علىٰ الذكر والأنثى ويجمع علىٰ حُبارَيات وذكر غيره أنّ واحده وجمعه سواء. وبعضهم يقول إنّ الحُبْرُج هو ذكر الحبارىٰ . قال في "المصايد والمطارد" وهو طائر في قَدْرِ الديك، كثير الرِّيش : ويقال لها دَجاجة البَرّ . قال في حياة الحيوان : وهى طائر طويل العُنُق،

رَمَادِىّ اللون ، فى مِنْقاره بعضُ طول ، يقـال لذكر الحبارى الخَرْب (بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وباء موحدة فى الآخر) (١) ـ ويجمع على خِرَاب وأخراب وخِرْبان .

ومن خاصته أنّ الجارح إذا اعتنقها أرسلت عليه ذَرْقا حاصلا معها، متى أحبت أرساته ، فيه حدّة تمعِّط ريشَه ، ولذلك يقال : سُـلاحُها سِلاحها . قال فى حياة الحيوان : وهى من أشدّ الطير طَيَرَانا ، وأبعدها شَوْطا ، فإنها تُصاد بالبصرة فيوجد فى حواصلها الحبةُ الخضراء التى شجرُها البُطْم، ومنابتُها تُخوم بلاد الشام، وإذا نُتِف ريشها وأبطأ نباته ماتت كمدا ـ قال وهى من أكثر الطير جَهْدا فى تحصيل الرزق، ومع ذلك تموت جُوعا بهذا السبب . قال فى "المصايد والمطارد" : وهى مما يُعاف لأنها تأكل كلّ شئ حتّى الخنافس ـ وقال فى حياة الحيوان : حكمها الحلُّ لأنها من الطيبات، واستشهد له بحديث الترمذى من رواية سَفِينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال : "أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حُبارى" ويقال لولدها اليَحبُور، وربمـا قيل له نَهَار كما يقال لولد الكَرَوان ليل .

الخامس التَّمُّ ـ بفتح التاء وتشديد الميم ـ وهو طائر فى قدر الإوز أبيضُ اللون، طويلُ العنق، أحمرُ المِنْقار، وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدرا .

السادس الصوغ (٢) ـ بضم الصاد المهملة وغين معجمة فى الآخر ـ وهو طائر مختلط اللون من السواد والبياض، أحمرُ الصدر، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار .

السابع العُنَّاز ـ بضم العين المهملة وتشديد النون وزاى معجمة فى الآخر ـ وهو طائر أسودُ اللون، أبيضُ الصدر، أحمر الرجلين والمِنْقار .

---

(١) لعله وفتح الراء . أنظر القاموس .

(٢) ذكره المجد وغيره فى فصل الضاد المعجمة من باب العين المهملة وضبطه كصرد فليتنبه .

الثامن العُقَاب وقد تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ الجوارح حيث هو معدود منها ومن طير الواجب؛ومما يتعلق بهذا المكان أنها منها الأسود،والخوخية،والسُّفْع، والأبيض، والأشقر. ومنها ما يَأْوِى الجبال، وما يَأْوِى الصحارىٰ، وما يَأْوِى الغِياض، وما يَأْوِى حول المُدُن.

وقد تقدّم ذكر الخلاف فى أن ذَكَرها من جنسها أو من جنس آخرَ فى الكلام علىٰ الجوارح. وحكمُها تحريم الأكل لأنها من ذوات المِخْلَب من الطير، وٱختلف فى قتلها هل هو مستحبٌّ أم لا لجزم الرافعىّ والنووىّ من أصحابنا الشافعية فى الحج باستحباب قتلها. وجزم النووىّ فى شرح المهذب بأنها من القسم الذى لايستحب قتله ولا يكره،وهو مايجتمع فيه نفع ومضرة،وبه جزم القاضى أبو الطيب رحمه الله.

التاسع النسر بفتح النون، ويجمع فى القلة علىٰ أَنْسُر. وفى الكثرة علىٰ نُسُور، وسمّى نَسْرًا لأنه ينْسُر الشئ ويبتلعه. والنَّسر ذو مَنْسِر وليس بذى مِخْلَب وإنما له أظفار حِدَاد المَخالب، وهو يَسْفِد كما يسفِد الديك. وزعم قوم أن الأنثىٰ منه تبيض من نظر الذكر إليها وهى لاتحضُن بيضها، وإنما تبيض فى الأماكن العالية الظاهرة للشمس فيقوم حرّ الشمس للبيض مَقام الحَضْن. والنسر حادّ البصر يرىٰ الجِيفة من أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسَّة شمه فى الغاية؛ ويقال إنه إذا شم الرائحة الطيبة مات لوقته؛ وهو أشدّ الطير طَيرانا وأقواها جناحا حتّى يقال إنه يطير مابين المشرق والمغرب فى يوم واحد. وإذا وقع علىٰ جيفة وعليها عِقْبان تأخرتْ ولم تأكل مادام يأكل منها، وكل الجوارح تخافه، وهو فى غاية الشَّره والنَّهَم فى الأكل إذا وقع علىٰ جيفة وٱمتلأ منها لم يستطع الطيران حتّى يثبَ وَثَبات يرفع بها نفسَه طبقةً فى الهواء حتى يدخل تحت الريح، وربما صاده الضعيف من الناس فى هذه الحالة، والأنثىٰ منه تخاف علىٰ بيضها وفراخها الخُفَّاش فتفرُش فى أوكارها ورق الدُّلب لتنفر منه

الخُفَّاش ، وهو من أشـدّ الطير حزنا علىٰ فراق إلْفه حتّى إذا فارق أحدُهمـا الآخَر مات حُزْنا .

وهو من أطول الطير أعمارا حتّى يقال إنه يُعمَّر ألفَ سنة . وحكمه تحريم أكله لأنه يأكل الجِيَف .

العاشر الأنيسة ـ قال فى حياة الحيوان : بذلك تسميه الرُّماة وإنما ٱسمه الأَنِيس . قال : وهو طائر حادّ البصر، يشبه صوتُه صوتَ الجمل، ومأواه قربَ الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة الأشجار، وله لونٌ حسَن، وتدبير فى معاشه . وقال ارسطو : إنه يتولد من الشقِرّاق والغراب . وذلك بيِّن فى لونه . ويقال إنه يحب الأنس، ويقبل الأدب والتربية، وفى صَفيره وقَرْقَرَته أعاجيبُ ، حتّى إنه ربمـا أفصح بالأصوات كالقُمرىّ، وغذاؤه الفاكهةُ واللحم وغير ذلك . ومن شأنه أُلفة الغِياض . وحكمه الحل لأنه طيب غير مستخْبَث . فإن صح تولده من الشِّقِرَّاق والغراب فينبغى تحريمه . والأَنِيسـة ذات ألوان مختلفةٍ، بدنُها يميل إلىٰ الغُبْرة، وعنقُها يشتمل علىٰ خضرة وزُرْقة، ويقال إنها أشرف طيور الواجب وأعزُّها وجودا .

الضرب الثانى طيور الصيف ـ وهى التى يكثر وجودها فيه، وهى أربعة أطيار .

الأوّل الكى (١) بضم الكاف : وهو طير أغبر اللون إلىٰ البياض، أحمر المِنْقار والحَوْصَلَة، رجلاه تَضْرِبان إلىٰ السواد .

الثانى الغِرْنَوْق ـ بكسر الغين المعجمة وفتح النون ـ ويقال فيه غُرْنَيْق ـ بضم الغين وفتح النون، ويجمع علىٰ غَرانيقَ . قال الجوهرى : وهو طائر أبيض من طير الماء طويلُ العنق، وتبعه الزمخشرىّ علىٰ ذلك . وقال أبو خيرة : وسمى غُرْنَيْقا لبياضه . وقال صاحب "المصايد والمطارد" الغرنيق كركىّ إلا أنه أخضرُ طويل المِنْقـار،

(١) لم نعثر عليه فى حياة الحيوان ولم يذكر فى معاجم اللغة .

وقيل : لونه كلون الكركىّ إلا أنه أسود الصدر والرأس ، وله ذُؤابتان فى رأسه . وقال : ومن خصائصها أن ريشها فى شبيبتها يكون رَمَاديًّا، فإذا كبِرت ٱسودّ وليس ذلك فى سائر الطير، فإن الريش لا يحوّل بياضه إلىٰ السواد بل يحوّل سواده إلىٰ البياض : كما فى الغِرْبان والعصافير والخَطَاطِيف .

الثالث المرزم ــ وهو طير أبيضُ فى أطراف ريشه حُمْرة، طويل الرجلين والعُنُق، وهو حلال الأكل .

الرابع الشُّبَيْطر ــ بضم الشين المعجمة وفتح الموحدة والطاء المهملة ، ويسمّى اللَّقْلَق أيضا، ويعرف بالبلارح (١). وكنيته عند أهل العراق أبوخَدِيج ــ وهو طائر أبيض، أسودُ طرفَىِ الجناحين، ورجلاه ومنقارُه حُمْر، وهو يأكل الحَيَّات ولكنه يوصف بالفِطْنة والذكاء . وفى حله عند الشافعية وجهان أصحهما فى شرح المهذَّب والروضة الحرمة وإن كان من طير المـاء .

وسيأتى الكلام علىٰ ما يحمل من هذه الطيور الأربعةَ عشرَ بأعناقه وما يحمل منها بأسيافه فيما يتعلق بمصطلَح الرماة فى الكلام علىٰ كتابة قدم البندق فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . وطيور الواجب كلُّها حلال إلا النَّسْر والعُقَاب .

الصـــــنف الثـالث

(ما عدا الطير الجليل ممـا يُصاد بالجوارح وغيرها، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل مايحل أكله ــ وهو أنواع كثيرة لايأخذه الحصر، ونحن نقتصر علىٰ ذكر المشهور من أنواعه .

فمنها النَّعام ــ وهو ٱسم جنس الواحدة نَعَامة ، وهو طائر معروف مركَّب من

---

(١) مصحف لم نهتد اليه . ولعله البارح .

صورتَى جَمَل وطائر ولذلك تسميه الترك دَواقش بمعنى طير جمل، وتسميه الفُرْس آشترمرك، ومعناه جمل وطائر. ويجمع النعامة علىٰ نعامات، ويسمّى ذكرها الظَّلِيمَ؛ ومن المتكلمين علىٰ طبائع الحيوان من لم يجعلها طيرا وإن كانت تبيض لعدم طَيَرانها؛ ومن الناس من يظنّ أنها متولدة من جمل وطير ولم يصح ذلك. ومساكنها الرملُ، وتضع بيضها سطرا مستطيلا بحيث لو مدّ عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن الأخرىٰ، ثم تعطى كلَّ بيضة منها نصيبها من الحَضْن : لأنها لاتستطيع ضم جميع البيض تحتها، وإذا خرجت للطُّعْم فوجدت بيض نعامة أخرىٰ حضنَتْه ونسِيَتْ بيضها، فربما حضنَتْ هذه بيض هذه، وربما حضنَت هذه بيضَ هذه؛ ولذلك توصف فى الطير بالحُمْق؛ ويقال إنها تقسم بيضها أثلاثا فمنه ماتحضُنه، ومنه ما تجعله غِذاءً لها، ومنه ما تفتحه وتجعله فى الهواء حتّى يتولد فيه الدود فتتغذّى به أفراخها إذا خرجَتْ. وليس للنعام حاسَّةُ سمع ولكنه قوىّ الشم، يستغنى بشمِّه عن سماعه حتّى يقال إنه يَشَمُّ رائحة القانص من بُعْد؛ والعرب تقول إن النعامة ذهبت تطلُب قَرْنَين فقطعوا أذُنَيْها. وهو لا يشرب ماء، وإن طال عليه الأمد، ولذلك يسكن البرارىَّ التى لا ماء فيها. وأكثر ما يكون عَدْوُها إذا آستقبلت الريح.

ومن خصائصها أنها تبتلع العظم الصُّلْب والحجر والحديد فتذيبُه معدتُها حتّى تدفعه كالماء، وتبتلع الجمر فيطفئه جوفُها، وإذا رأت فى أذن صغير لؤلؤةً أوحلْقة آختطفتها. وحكُمه حِلٌّ أكله إجماعا. ومن خاصته أن مرارته سَمٌّ وَحِىّ.

ومنها الإوزُّ ـ بكسر الهمزة وفتح الواو ـ وهو آسم جنس واحده إوزَّة، وجمعوه علىٰ إوَزُّون، وهو مما يُحِبُّ السِّباحة فى البحر، وإذا خرج فرخه من البيضة سبح فى الحال، وإذا حضنت الأنثىٰ قام الذكر يحرسها لايفارقها، ويخرُج فرخها فى دون الشهر من البيضة. وهو من الطيبات، وغِذاؤه جيد إلا أنه بطىء الهضم.

ومنها البَطُّ، وهو من طيور المـاء واحده بَطَّة للذكر والأنثىٰ وليس بعربى، وهو عند العرب من جملة الإوز .

ومنها القِرِلىّ ـ بكسر القاف، ويسمّى مُلَاعبَ ظِله . وهو طائر صغير الجرم من طيور المـاء، سريعُ الأختطاف، لا يزال مرفْرِفا علىٰ وجه المـاء علىٰ جانب كطيران الحِدَأة، يهوِى بإحدىٰ عينيه إلىٰ قعر المـاء طمعا، ويرفع الأخرىٰ حذرا؛ فإن أبصر فى المـاء ما يستقلُّ بحمله من السمك أو غيره أنقضّ عليه كالسهم المرسَل فأخرجه من قعر المـاء، وإن أبصر فى الجوّ جارحا، مرّ فى الأرض . وبه يضرب المثل فى الإقبالِ علىٰ الخير والإدبار عن الشرّ، فيقال: "كأنه قِرِلّى، إن رأىٰ خيرا تدلّى، أو رأىٰ شرّا تولّى".

ومنها الغَطَّاسُ ـ ويقـال له الغوّاص، وهو طائر أسودُ نحو الإوَزَّة، يغوص فى المـاء فيستخرج السمك فيأكله؛ ووَهِم فيه فى حياة الحيوان بجعله القِرِلىّ .

ومنها الدجَاجُ ـ بفتح الدال المهملة وكسرها وضمها، حكاه آبن معن الدِّمْشْقِىّ وآبن مالك وغيرهمـا، وأفصحها الفتح وأضعفها الضم، والواحدة دجاجة والذكر والأنثىٰ فيه سواء . قال آبن سِيده : وسميت دجاجةً لإقبالها وإدبارها، يقال : دَجَّ القوم إذا مَشَوْا بتقارب خَطْوٍ، وقيل إذا أقبلوا وأدبروا، والفرخ يخرج من البيضة بالحَضْنِ، وتارة بالصنعة والتدفئة بالنار، وإذا خرج الفرخ من البيضة خرج كاسيا، ظريفا، سريع الحركة، يُدْعىٰ فيُجيب؛ ثم كلمـا مرّت عليه الأيام حَمُقَ ونقص حسـنه . وممـا يعرف به الذكر من الأنثىٰ فى حالة الصغر أن يعلق الفرخُ بمنقاره فإن آضطرب فهو ذكر، وإلا فهو أنثىٰ . والدجاج يبيض فى جميع السنة، وربمـا باضت الدجاجة فى اليوم مرتين، ويتم خلق البيض فى عشرة أيام وتخرج لينة القشر

فإذا أصابهـا الهواء تصلَّبت . وتشتمل البيضة علىٰ بياض وصُفرة ويسمّى المُحّ ، ومن البياض يتخلق الولد ، والصفرة غذاء له فى البيضة يتغذاه من سُرَّتهِ ، وربما كان للبيضـة بياضان ، ويتخلق من كل بياض فرخ فإذا كبرت الدجاجة ، لم يبق لبيضها مُحٌّ وحينئذ فلا يخلق منه فرخ . ثم الدجاج من الطيور الدواجن فى البيوت ، وقد ورد فى سُـنَنِ ٱبن ماجه من رواية أبى هريرة رضى الله عنـه أمر الاغنيـاء باتخاذ الغنم وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج . قال عبـد اللطيف البغدادىّ : أمر كل قوم من الكسب بحسب مَقْدُرَتهم .

ومن عجيب أمر الدجاجة أنها تمرّ بها سائر السبـاع فلا تحَاماها فإذا مرّ بها ٱبن آوىٰ وهى علىٰ سطح رمت نفسها إليـه ؛ وهى توصف بقلة النوم وسرعة الاّنتباه ، ويقال إن ذلك لخوفها وخَوَرِ طباعها .

ومن الدجاج نوع يقـال له الحبَشِىّ . أرقط اللون ، متوحش ، وربمـا ألف البيوت . والحكم فى الجميع الحل .

ومنها الديك ــ وهو ذكر الدجاج ، ويجمع علىٰ دِيَكَةٍ ودُيُوك ، وهو أَبْلَهُ الطبيعة حتّى إنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلىٰ دار أهله ، ومع ذلك فقد خصه الله تعالىٰ بمعرفة الأوقات حتّى رجح الرافعىّ من مذهب الشـافعىّ رضى الله عنه ٱعتماد الديك المجرّب وِفَاقا لِلْمُتَوَلِّى والقاضى حسين .

ومن عجيب أمره أنه يُقَسِّطُ أوقات الليل تقسـيطا لا يُخِلُّ فيه بشئ طال الليل أم قصر . لكن قد ورد فى معجم الطبرانىّ وغيره : إنّ لله سـبحانه وتعـالىٰ ديكا أبيض ، جَناحاه مُوَشـيان بالزَّبَرْجَد والياقوت واللُّؤْلؤ ، له جَناحٌ بالمشرق وجناح بالمغرب ، رأسه تحتَ العرش ، وقوائمه فى الهواء ، يُؤَذِّنُ كلّ سَحَر فيسمَع تلك

الصيحةَ أهلُ السموات وأهل الأرض إلا الثقلين : الجنَّ والإنسَ ، فعند ذلك تُجيبه دُيوكُ الأرض ؛ وحينئــذ فيكون الديك فى ذلك تابعــا . وقد ورد عدّةُ أحاديثَ فى النهى عن سَبِّ الديك ، ومدحِ الديك الأبيض ، والحثِّ علىٰ ٱتخاذه .

ومن حميد خصال الديك أنه يسوّى بين دجاجه : ولا يُؤْثِرُ واحدة علىٰ الأخرىٰ . ويقال إنه يبيض فى السنة بيضة ؛ ويَفْرُق بين بيضته وبيضة الدجاجة أن بيضته أصغر من بيضة الدجاجة ، وهى مدوّرة لا تحديد فى رأسها .

ومنها القَطَا ــ بفتح القاف : وهو طائر معروف واحده قطاة ويجمع علىٰ قَطَوَاتٍ وقَطَيَاتٍ ، وأكثر مايبيض ثلاث بيضات ، ويسمّٰى قَطَا لحكاية صوته : لأنه يصيح " قطَا قطَا " ولذلك تصــفها العرب بالصدق . قال الجوهرىّ ، وهو معدود من الحَمَــام ، وبه قال ٱبن قتيبة ، وعليه جرىٰ الرافعىّ فى الحج والأطعمة : قال الشيخ محب الدين الطبرىّ : والمشهور خلافه .

ثم القطا نوعان : كُدْرِىٌّ وجُونِىٌّ ، وزاد الجوهرىّ نوعا ثالثا وهو الغَطَاط ، فالكدرىّ غُبْرُ اللون ، رُقْشُ البطون والظهور ، صــفر الحلوق ، قصار الاذناب . والجُونِىُّ سُــودُ بطون الأجنحة والقوادم ، وظهرها أغبرُ أرقطُ ، تعلوه صُفْرة ، وهى أكبر جِرْمًا من الكُدْرِىّ ، تعـدِل كلُّ جُونيَّة كُدْرِيَّتين ، والكدرية تُفْصِح باسمها فى صياحها ، والجُونِيَّة لا تفصح بل تُقَرْقِرُ بصوت فى حلقها .

ومن خاصتها أنها لا تسير إلا جماعة . ومن طبعها أنها تبيض فى القَفْرِ علىٰ مسافة بعيدة من المــاء . وتطلب المــاء من مسافة عشرين ليلة وفوقها ودونها . وتخرج من أفاحيصها فى طلب المــاء عند طلوع الفجر فتقطع إلىٰ حين طلوع الشمس مسيرةَ سبع مراحل ، فترد المــاء فتشربُ ثم تُقيمُ علىٰ المــاء ساعتين أو ثلاثا ثم تعود إلىٰ

المـاء ثانية . والجُونية تخرج إلىٰ المـاء قبل الكُدْرِيَّةِ،وهى توصف بالهداية فتأتى أفاحيصَها ليلا ونهارا فلا تضلّ عنها، وتوصف بحُسْن المشْى، وبقلة النوم .

ومنها الكَرَوانُ ـ بفتح الكاف والراء ـ وهو طائر فى قدر الدجاجة، طويل الرجلين، حسن الصوت، لا ينـام الليل؛ ويجمع علىٰ كِرْوَان بكسر الكاف والأنثىٰ كَروانة .

ومنها الحَجَلُ ـ بفتح الحاء المهملة والجيم، وهو طائر علىٰ قدر الحَمَام كالقَطَا، أحمر المِنْقَار والرجلين؛ ويسمّٰى دَجَاجَ البر، ويقع علىٰ الذكر والأنثىٰ، وقد يقال له القَبْجُ أيضا بفتح القاف وسكون الموحدة وجيم فى الآخر، يقال للذكر والأنثىٰ منه قَبْجة، ويسمّٰى الذكر منه اليَعقوب؛ والقَبَجُ(١) بفتح القاف والموحدة وجيم فى الآخر، ويقال فى الأنثىٰ منه حَجَلة . وهو صِنْفان : نَجْدِىٌّ وتِهامِىٌّ،فالنجدىّ أحمر الرجلين،والتهامىّ فيه بياض وخضرة؛ ومن شأْنه أنه يأتى إلىٰ مصر عند هَيَجان زرعها ويصيح صياحا حَسَنًا، تقول العامّة : إنه يقول فى صياحه : "طَابَ دَقِيقُ السَّبَلِ" . ومن شأن الأنثىٰ منه إذا لم تَلْقَحْ، أنها تمرغ فى التراب وتصبه علىٰ أصول ريشها فتَلْقَحُ؛ ويقال : إنها تلقح بسماع صوت الذكر، وبريح يَهُبُّ من قِبَـلِهِ؛ وإذا باضت ميز الذكرُ الذكورَ منها لحضـنها، وتحضنُ الأنثىٰ الإناثَ . وكذلك فى التربية، وفرخها يخرج كاسيا بِزَغَبِ الريش كما فى الدَّجاج؛ وفى "المصايد والمطارد" أن القَبَجَ كثير السِّـفاد، وأنه إذا آشتغلت عنه الأنثىٰ ورأى بيضها، كسره . قال التوحيدى : ويعيش الحجل عشر سنين ويعمل عُشَّيْن، يجلس الذكر فى واحد والأنثى فى واحد؛ وهو من أشدّ الطيور غَيْرَةً علىٰ أنثاه حتّٰى إن الذكرين ربما قتل أحدهما الآخر بسبب الأنثىٰ، فمن غلب منهما دانت له .

(١) هذا معطوف على القبج الاول اشارة الى لغة أخرى وليس معطوفا على اليعقوب كما قد يتوهم .

ومن طبعه أنه يأتى عُشَّ غيره فيأخذ بيضه ويحضُنه، فإذا طارت الفراخ لحقت بأمهاتها التى باضتها؛ وفيه من قوّة الطيران ما يظنه مَنْ لم يُحَقِّقْهُ عند طيرانه أنه حجر رُمِىَ بِمِقْلاع لسرعته .

ومنها القُمْرِىُّ ـ بضم القاف وسكون الميم : وهو طائر معروف حسن الصوت، ويجمع علىٰ قَمَارِىَّ غير مصروف . قال فى المحكم : ويجمع علىٰ قُمْرٍ أيضا؛ والأنثىٰ منه قُمْرِيَّةٌ، ويقال للذكر منه الوَرَشَانُ ـ بفتح الواو والراء المهملة والشين المعجمة، ويقال له أيضا سَاقُ حُرّ. قال البَطَلْيَوْسِىّ : وسُمِّى ساقَ حُرّ حكاية لصوته كأنه يقول ذلك، ويكنىٰ أبا الأخضر، وأبا عِمْران، وأبا الناجية . قال ابن السمعانىّ : والقُمْرِىّ منسوب إلىٰ القُمْرِ، وهى بلدة تشبه الجِصّ لبياضها . قال : وأظنها بمصر . وقال ابن سِيده القُمْرِىّ طير صغير، وعدّه فى المحكم من الحَمَام . ويقال : إن الهوامّ تهرُب من صوت القَمارِىّ . قال القَزْوِينى : ومن خاصية القَمارِىّ أنها إذا ماتت ذكورها لم تتزاوج إناثُها؛ والوَرَشَانُ الذى هو ذكر القُمْرِىّ يوصف بالحُنُوّ علىٰ أولاده حتّٰى إنه ربما قتل نفسه إذا رءاها فى يد القانص . قال عطاء : وهو يقول فى صياحه "لِدُوا لِلْمَوْتِ وَٱبْنُوا لِلْخَرَابِ" . ومنه نوع أسود حجازىّ يقال له النوىٰ، شجىّ الصوت جدّا .

ومنها الفاخِتة ـ بالفاء والخاء المعجمة والتاء المثناة والجمع الفواخت بفتح الفاء وكسر الخاء : وهى طائر من ذوات الأطواق، حِجَازية فى قدر الحَمَام، حَسَنة الصوت، ويقال إنّ الحيَّات تهرُب من صوتها . حتّٰى يحكى أنّ الحياتِ كثُرت بأرض، فشكا أهلُها ذلك إلىٰ بعض الحكماء، فأمرهم بنقل الفواخت إليها فانقطعت الحَيَّات عنها؛ وفى طبعها الأنس بالناس؛ وتعيش فى الدُّور، إلا أن العرب تسِمها بالكَذِب فإن صوتها عندهم تقول فيه هذا أوان الرطب، وهى تقول ذلك والنخل لم يُطْلِعْ بَعْدُ، ولذلك تقول العرب فى أمثالهم : "أَكْذَبُ مِنْ فَاخِتَه" .

ومنها الدُّبْسِىُّ ــ بضم الدال، وهو طائر صغير منسوب إلىٰ دِبْسِ الرُّطَبِ ــ بكسر الدال، وذلك أنهم يُغَيِّرونَ فى النسب فيقولون فى النســبة إلىٰ الدَّهْر دُهرِىّ ونحو ذلك، وهو ضرب من الحمام. ثم هو أصناف: مصرىّ، وحجازىّ، وعِراقىّ؛ وكلها متقاربة، لكن أنخرُها المصرىّ، ولونه الدُّكنة، وقيل هو ذكر اليمـام. وفى طبع الدُّبْسِىّ أن لا يُرىٰ ساقطا علىٰ وجه الأرض، بل فى الشتاء له مَشْتًى، وفى الصيف له مَصِيفٌ، لا يعرف له وَكْرٌ.

ومنها الشَّفْنِينُ ــ بفتح الشين(١) المعجمة وسكون الفـاء ونون مكسورة بعــدها ياء مثناة تحت ثم نون: وهو الذى تسميه العامّة بمصر اليمام، وهو دون الحمام فى المقدار ولونُه الحمرة مع كُمُودَةٍ، وفى صوته ترجيع وتحزين. ومن شأنها أنها تَحْسُنُ أصواتها إذا ٱختلطت. ومن طبعه أنه إذا فَقَدَ أُنثاه، لم يزل أَعْزَبَ إلىٰ أن يموت، وكذلك الأنثىٰ إذا فَقَدتْ ذكرها؛ وفيه أُلْفة للبيوت، وعنده ٱحتراس.

ومنها الدرَّاجُ ــ بفتح الدال(٢)، وكنيته أبو الحجّاج وأبو خَطَّار: وهو طائر ظاهر جناحيه أغبرُ وباطنهما أسودُ، علىٰ خِلْقة القَطَا إلا أنه ألطفُ. وهو يطلق علىٰ الذكر والأنثىٰ؛ والجاحظ يَعُدُّه من جنس الحَمَـام لأنه يجمع بيضــه تحت جَنَاحه كما يفعل الحمام، والناس يُعَبِّرون عن صوته بأنه يقول "بِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَمُ". ويقال إنه طائر مبارك، وهو كثير النتاج، يبشر بقُدُوم الربيع؛ وهو يصلح بهبوب الشَّمَال، وصفاء الهواء؛ ويسوء حاله بهبوب الجَنُوب حتّى لا يقدر علىٰ الطيران.

ومنها العُصْفُورُ ــ بضم العين، وحكى ٱبن رَشِيقٍ فى كتاب الغرائب فتحها، والأنثىٰ عُصْفورة، وكنيته أبو الصَّفْوِ، وأبو مُحْرِز، وأبو مُزاحِم، وأبو يعقوب. قال حمزة:

---

(١) الذى فى حياة الحيوان أنه بالكسر اه.

(٢) فى حياة الحيوان والقاموس ضبطه بضم الدال أما الذى بالفتح فهو القنفذ.

سمى عصفورا لأنه عصىٰ وفرّ، وهو أنواع كثيرة وأشهرها المعروف بالدُّورِىّ، وَوَكْرُه العُمْران تحت السقوف خوفا من الجوارح، فإذا خلتْ مدينة من أهلها ذهبت العصافير منها، وهو كثير السِّفَاد حتّٰى إنه ربما سَفَدَ فى الساعة الواحدة مائة مرة، ولفرخه تدرّب علىٰ الطيران حتّٰى إنه يُدْعىٰ فيجيب . قال الجاحظ : بلغنى أنه يرجع من فرسخ .

ومنها الشَّحْرُورُ ـ بفتح الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة (١)، وهو طائر أسود فُوَيْقَ العصفور له صوت شجىّ، ويكون بأرض الشَّأْم كثيرا .

ومنها الهَزَارُ ـ بفتح الهاء والزاى المعجمة، طائر نحو العصفور له صوت حسن ويسمّٰى العَنْدَلِيبَ أيضا ويجمع علىٰ عَنَادِلَ .

ومنها البُلْبُلُ ـ بضم الموحدتين وسكون اللام الأولىٰ والثانية (٢)، وهو طائر أسود فوق العصفور، والبحرى منه فوق ذلك؛ ويقال له النُّغَرُ ـ بضم النون وفتح الغين المعجمة وراء مهملة فى الآخر، والكُعَيْت ـ بضم الكاف وفتح العين المهملة ومثناة فوقية فى الآخر، والجُمَيْلُ ـ بضم الجيم، وقد ثبت فى الصحيحين من رواية أنس رضى الله عنه أنه قال : "كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحسَنَ الناس خُلُقا، وكان لى أَخٌ لأمّى فَطِيمٌ يقال له عُمَيْرٌ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءنا قال : يا أبا عُمَير، ما فَعَلَ النُّغَير؟ لنُغَر كان يلعب به" .

ومنها السُّمَانىٰ ـ بضم السين المهملة وفتح النون ولا تشدّد ميمه، وهو طائر معروف فوق العصفور ويجمع علىٰ سُمَانَيَات : وهو من الطيور التى لا يعرف من أين تأتى، بل يأتى فى البحر المِلْح يغوص بأحد جناحيه فى الماء ويقيم الآخر كالقِلْع للسفينة

(١) قال فى حياة الحيوان انه كسحنون وكذلك ضبطه فى القاموس بالضم .

(٢) لعل هذا اللفظ من زيادة الناسخ .

فتدفعــه الريح حتّى يأتىَ الساحل ؛ وكثيرا ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صــوت حسن . ومن شأنه أنه يسكت فى الشتاء فإذا أقبل الربيع صاح .

ومنها الحَسُّون ـ وتسميه أهــل الجزيرة والشأم وحلب وتوابعها زقيقية ، وهو طائر فَطِنٌ ، ويسميه الأندلسيُّون أبو الحسن والمصريون أبو زقاية ، وربما أبدلوا الزاى منه سينا ؛ وهو عصفور ذو ألوان : حُمْرة وصُفْرة وبياض وسواد وزرقة وخضرة ؛ وهو قابل للتعليم يُعَــلَّمُ أخذَ الشئ كالفَلْس ونحوه من يد الإنسان علىٰ البعد والإتيانَ به لصاحبه .

ومنها أبو بَرَاقِش ـ بكسر القاف وبالشين المعجمة : وهو طائر كالعصفور يتلوّن ألوانا ، وبه يضرب المثل فى التلوّن .

ومنها الزاغ ـ بزاى وغين معجمتين بينهما ألف : وهو ضرب من الغِرْبانِ صغير أخضرُ اللون لطيفُ الشكل حسنُ المَنْظَرِ ، وقد يكون أحمرَ المِنقار والرجلين ، وهو الذى يقال له غراب الزيتون ، سمى بذلك لأنه يأكل الزيتون .

ومنها الغُدَافُ ـ بضم الغين المعجمة وبالدال المهملة والفاء فى آخره ، وهو غراب الغيط (١) ويجمع علىٰ غِدْفان بكسر الغين ؛ قال ابن فارس : هو الغراب الضخم ، وقال العبدرىّ : هو غراب صغير أسودُ لونه كلون الرَّماد ، وقد قال النووىّ فى الروضة بتحريمه وإن كان الرافعىّ قد جزم بحِلِّه ورجحه صاحب المهمات .

ومنها غراب الزرع ـ وهو غراب أسودُ المِنقار ؛ وفيه وجه بالتحريم .

الضرب الثـانى ـ ما يحرم أكله

وهو أنواع كثيرة أيضا .

منها الطاوس ـ ويجمع علىٰ طواويس ، وهو طائر فى نحو مقدار الإوَزَّة حسن

(١) الذى فى القاموس وحياة الحيوان غراب القيظ .

اللون ، والذكر منه غايةٌ فى الحُسْنِ ، له فى رأسه رياش خضر قائمة كالشربوش ، وفى ذنبه ريش أخضر طويل فى أحسن مَنْظَرٍ ، وليس للأنثىٰ شئ من ذلك ، وهو فى الطير كالفرس فى الدواب عزا وحُسْنا ، وفى طبعه الزَّهْو بنفسه والخُيَلَاءُ والإعجاب بريشه ، والأنثىٰ منه تبيض بعد ثلاث سنين من عمرها ، وفى هذا الحدّ يكمل ريش الذكر ويتم لونُه ، وبيضه مرةٌ واحدة فى السنة ، ويكون بيضه من آثنتى عشرة بيضة إلىٰ ما حولها ، ولا يبيض متتابعا ، وسِفَادُهُ فى أيام الربيع ، وفى الخريف يُلْقِى ريشه كما يُلْقِى الشجر ورقَه حينئذ ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه ، وهو كثير العَبَثِ بالأنثى إذا حَضَنَتْ وربما كسر بيضها ، ولذلك يُحْضَنُ بيضُه تحت الدَّجاج لكن لا تقوىٰ الدجاجة علىٰ حَضْنِ أكثر من بيضتين منها ، وتُتعاهدُ الدجاجة بالطُّعْمَةِ والسقية وهى راقدة عليه ، كيلا تقومَ عنه فيفسد بالهواء إلا أن ما تحضُنُه الدجاجة يكون ناقصَ الجثة عما تحضُنُه أنثاه ، وليس له من الحسن والبهجة ما لذلك ، ومدّة حضنه ثلاثون يوما ، وفرخه يخرج من البيضة كالفرُّوج كاسيا بالريش يلقط الحب للحال .

ومنها السَّمَنْدَلُ — بفتح السين المهملة والميم وسكون النون وبفتح الدال المهملة ولام فى الآخر ، وقال الجوهرىّ : السَّنْدل بغير ميم . وقال آبن خَلِّكَانَ : السَّمَنْدُ بغير لام : وهو طائر يكون بأرض الصِّينِ والهند ، ومن خاصته أنه لا تؤثر النار فيه حتّى يقال إنه يبيض ويُفْرِخُ فيها ويستلذ بمكثه فيها ، ويتخذ من ريشه مناديل ونحوها فإذا آتسخت ألقيت فى النار فتأكل النار وسخها ولا تتأثر هى فى نَفْسها . قال آبن خَلِّكَانَ فى ترجمة يعقوب بن صابر المنجنيق : رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة علىٰ هيئة حزام الدابة فى طوله وعرضه ، فألقيت فى النار فما أثَّرت فيها فغُمِس أحد جوانبها فى الزيت وجُعِل فى النار فآشتعل وبقى زمانا طويلا ثم أطفئ ، وهو علىٰ حاله

لم يتغير، قال : ورأيت بخط عبداللطيف البغدادى أنه أُهْدِىَ للظاهر آبن السلطان صلاح الدين صاحب حلب قطعةٌ منه عرض ذراع فى طول ذراعين ، فغُمِست فى الزيت وقربت من النار فاشتعلَتْ حتّى فَنِيَ الزيتُ ، ثم عادت بيضاء كما كانت ، وبعضهم يقول إنه وحش كالثعلب وإن ذلك يعمل من وَبَرِهِ .

ومنها البَبَّغَاء ـــ ببـاءين مفتوحتين الأولىٰ منهـما مخففة والثانية مشدّدة وغين معجمة بعـدها ثم ألف ؛ وهو المعبر عنه بالدُّرَّة بدال مهملة مضمومة ، وقال آبن السمعانى فى الأنساب : هى باسكان البـاء الثانية ، وهى طائر أخضرُ اللون فى قدر الحمام يحاكِى مايسمعه من اللفظ ؛ ثم هى علىٰ ضربين : هِنْدِىٌّ وهى أكبر جثةً ومنقارها أحمرُ ، ونُوبِىٌّ وهى أدونهـا ومنقارها أسود ، ويقال : إن منها نوعا أبيضَ ، ويذكر أنه أُهْدِى لمعز الدولة آبن بُوَيْهِ بَبَّغَاء بيضاءُ اللون سوداءُ المِنْقَارِ والرجلين ، علىٰ رأسها ذؤابة فُسْتُقِيَّةٌ ؛ وهى طائر دَمِث الأخلاق ، ثاقب الفهم ، له قوة علىٰ حكاية الأصوات وقبول التلقين ، تتخذه الملوك والأكابر لِيَنِمَّ بمـا يسـمع . ومن شأنه أنه يتناول طُعْمَهُ برجله كما يتناوله الإنسان بيده ؛ والهندىّ منـه أقرب إلىٰ التعليم من النوبىّ .

ومنها أبو زُرَيْقٍ ـ بزاى مضمومة ثم راء مهملة وفى آخره قاف ، ويقال له القِيق بكسر القـاف والزِّرْيَابُ بزاى معجمة مكسورة ثم راء مهملة ساكنة ثم ياء مثناة تحت وبعد الألف باء موحدة ؛ وهو طائر ألوف للناس يقبل التعليم ، سريع الإدراك لمـا يعلَّم ، وقد يزيد علىٰ الببغاء إذا أنجب ، بل إذا تعلم جاء بالحروف مُبَيَّنَـةً حتّى يظن سامعُه أنه إنسان ، بخلاف الببغاء فإنها لا تُفْصِحُ كلَّ الإفصاح .

ومن غريب ما يحكى فى أمره ما حكاه صاحب "مَنْطِقِ الطير" أن رجلا خرج من بغداد ومعـه أربعمائة درهم ، لا يملك غيرها ، فوجد فى طريقه عدّة من فراخه

فاشتراها بمـا معه ثم رجع إلىٰ بغداد فعلقها فى أقفاص فى حانوته، فهبت عليها ريح باردة فماتت كلُّها إلا واحدا كان أضعفَها وأصغرَها فثقل ذلك عليه و بات ليلته تلك يبتهل إلىٰ الله تعالىٰ بالدعاء وينادى ياغياث المستغيثين أغثنى ، فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذى بقى يصيح بلسان فصيح : ياغياث المستغيثين أغثنى ، فٱجتمع الناس عليه يسمعون صوته فٱجتازت جارية للخليفة فٱشترته منه بألف درهم .

ومنها الهُدْهُدُ ــ بضم الهـاءين وإسكان الدال المهملة بينهما، وهو طائر معروف ذو خطوط مَوْشِيَّةٍ وألوان، ويجمع علىٰ هَدَاهِدَ، ويذكر عنه أنه يرىٰ الماء من باطن الأرض كما يراه الإنسان فى باطن الزجاج ، قُوَّةٌ ركبها الله تعالىٰ فيه، ولذلك عُنِيَ به سليمانُ عليه السـلام مع صِغَرِه كما قاله البيهقى فى "شُعَب الإيمـان" . ويقال : إنه كان دليلا لسليمانَ عليه السـلام علىٰ الماء ، وقصته مع سليمان مذكورة فى التنزيل . وقد ذكر الزمخشرىّ أن سبب تخلفـه عن سليمان أنه رأىٰ هُدْهُدا آخر، فحكى له عظيم مُلْك سليمان، فحكى له ذلك الهدهدُ عظيمَ مُلْك بِلْقِيسَ باليمن، فذهب ليكشف الخبرَ فلم يرجع إلا بعد العَصْر، فلمـا عاد إليه توعَّدَه فأرخىٰ رأسه وجناحيه تواضعا بين يديه، وقال : يانبىّ الله ٱذكر وقوفك بين يدى الله ! فٱرتعد سليمان وعفا عنه .

ومنها الخُطَّافُ ــ بضم الخاء المعجمة ويجمـع علىٰ خَطَاطِيفَ، وهو طائر فى قدر العصفور، أسودُ، وباطن جناحيه إلىٰ الحمرة ، والناس يسمونه عصفور الجنة لأنه يُعْرِضُ عن أقواتهم ويقتـات البعُوضَ والذُّبَاب . ومن شأنه السكنىٰ فى البيوت المعمورة بالناس فى أفاحيص يبنيها من الطين، ويختار منها السقوف والأماكن التى لا يصل إليه فيها أحد . وقد ذكر الثعلبي فى تفسيره فى سورة النمل أن سبب قُربِ الخطاطيف من الناس أن الله تعالىٰ لمـا أَهْبط آدم إلىٰ الأرض، ٱستوحش، فآنسه الله تعالىٰ بالخُطَّافِ وألزمه البيوت فهو لا يفارق بنى آدم أُنْسًالهم ، والخُفَّاش يعاديه

فلذلك إذا أفرخ جعــل فى عُشّه قُضْبانَ الكَرَفْسِ لينفّر الخُفّاشَ عنها .

ومن عادته أنه لايُفْرِخُ فىعُشٍّ عتيق حتى يُطَيِّنَهُ بطين جديد، ولا يلق شيئا من ذَرْقِهِ فى عُشه بل يلقيه إلىٰ ما شاء ؛ وإذا سمع حس الرعد يكاد يموت ، ويوجد فى عُشّــه حَجَرُ اليَرَقَانِ وهو حجر صغير فيه خطوط بين الحمرة والسواد إذا علق علىٰ من به اليَرَقَانُ أو شرب من سُحالته بَرِئَ؛ وإنمـا يأتى بهذا الحجر إذا أصاب فِراخَه اليَرَقَانُ ،ولذلك يحتال بعضُ الناس بلطخ فراخه بالزعفران ليظن أن اليَرَقَانَ قد أصابها فيأتى إليها بهذا الحجر فيُؤْخذ منه .

ومن الخطاطيف نوع آخر ألطفُ قدرا من هذا ،يَسْكُن شطوط الأنهار وجوانبَ المياه، وعدّوا من أنواعه أيضا الذى يسميه أهل مصر الخُضَيْرِى، وهو طائر أخضر دون البَبَّغاء فى المقدار لا يزال طائرا وهو يصيح ، يقتات الفَرَاشَ والذباب .

ومنهـا الصُّرَد ـ بضم الصاد وفتح المهملة ودال مهملة فى الآخر، ويجمع علىٰ صِرْدَان. قال ابن قتيبة : وسمى صُردًا ،حكاية لصوته،ويسمَّى الواقِ بكسر القاف، وكنيته أبو كثير ، وهو طائر فوق العصفور ، نصــفه أبيض ونصــفه أسود ، ضخم الرأس، ضخم المنقار والبراثن، لايُرىٰ إلا فىشَعَفَة أو شجرة بحيث لايَقْدِر عليه أحد، وله صَفِير مختلف . ومن شأنه أنه يصيد العصافير وما فى معناها، فيصَفِّر لكل طير يريد صيدَه بلغته، يدعوه إلىٰ التقرّب منه فيثب عليه فيأكله ، والعرب تتشاءم به وتتنفر من صياحه، وهو ممـا وردت الشريعة بالنهى عن قتله .

ومنها العَقْعَقُ ـ بعينين مهملتين مفتوحتين بينهما قاف ساكنة، وربما قيل فيه القَعْقَع علىٰ القلب ، قال الجاحظ : سمى بذلك لأنه يَعُقُّ فراخه فيتركهــم أياما بلا طُعْم . ويقال لصوته العَقْعقة : وهو طائر علىٰ قدر الحمامة فى شكل الغُراب وجَناحاه أكبر من جناحى الحمامة،ذو لونين : أبيضَ وأسودَ،طويلُ الذَّنَب . ومن شأنه أنه

لا يأوى تحت سقف ولا يستظل به، بل يهيئ وكره فى المواضع المُشرِفة، وفى طبعه الزنا والخيانة، ويوصف بالسرقة والخُبْث، وإذا رأى حُليًّا أو عِقْدا، آختطفه؛ والعرب تضرب به المَثَل فى جميع ذلك، وإذا باضت الأنثى منه أخفت بيضها بورق الدُّلْب خوفًا عليه من الخُفَّاش، فإنه متى قرُب من البيض مَذِرَ وتغير من ساعته. ويقال إنه يخبأ قُوتَه كما يخبؤه الإنسان والنملة إلا أنه ينسى مايخبؤه؛ وبعضهم يعدّه فى جملة الغِرْبان؛ وفيه وجه عندنا بحل أكله.

ومنها الشَّقْرَاقُ — بفتح الشين المعجمة وسكون القاف وألف بين الراء المهملة والقاف الثانية، ويجوز فيه كسر الشين أيضا، وربما قلبوه فقالوا الشَّرْقاق، ويسمّى الأخيلَ أيضا، وهو طائر صغير بقدر الحمام أخضر مُشْبَع الخُضْرة، حسنُ المنظر فى أجنحته سواد، والعرب تتشاءم به. وفى طبعه الشَّرَهُ حتّى إنه يَسْرِقُ فِراخَ غيره وعدّه الجاحظ نوعا مِن الغرْبان، ويكثر ببلاد الشام والروم وخُراسَانَ. ولا يزال متباعدا من الإنس، يألف الرَّوابِيَ ورُءوس الجبال، إلا أنه يَحْضُن بيضه فى عوالى العُمْران التى لا تنالُها الأيدى. وعُشُّه شديد البُنْيان، وله مَشْتًى ومَصِيف. قال الجاحظ: وهو كثير الآستغاثة، إذا مرّ به طائر ضربه بجناحه وصاح كأنه هو المضروب. وفيه وجه بِحِلِّ أكله.

ومنها الغُرَابُ الأبقع — قال الجوهرىّ: وهو الذى فيه بياض وسَواد، ويسمّى غراب البين أيضا، قال صاحب "المجالسة" سمى بذلك لأنه بان عن نوح عليه السلام حينَ أرسله لينظر الماء فذهب ولم يرجع. قال آبن قتيبة: وجعل فاسقا لأجل ذلك، ويسمّى الأعور إمّا لأنه يُغْمِضُ إحدى عينيه لقوّة بصره، وإما لصفاء عينيه وحدّة بصره من باب الأضداد. ومن طبعه الخيانة والسرقة والعرب تتشاءم به وتكره صوته. وقد سبق القول على ذلك فى أوابد العرب من هذه المقالة.

ومن طبع الغراب ٱلٱستتار عند السِّــفاد وأنه يَسْفِدُها مواجهة مُلْقاة علىٰ ظهرها ، والأنثىٰ تبيض أربع بيضات وخمسا ، وإذا خرجت الفِراخ من البيض نفرعنهـا الأبوان لبشاعة مَنْظَرِها حينئذ فتغتذى من البعوض والذباب الكائن فى عُشِّها حتّٰى ينبت ريشها فيعود الأبوان إليها ، وعلىٰ الأنثىٰ الحَضْنُ وعلىٰ الذكر أن يأتيها بالطُّعْم ؛ وفيه حَذَر شــديد وتناصُر ، حتّٰى إنه إذا صــاح الغراب مستنصرا ٱجتمع إليه عدّة من الغِرْبان .

ومنها الغُراب الأسود الكبير ـ وهو الجَبَلِىّ ؛ وفيه وجه بحله .

ومنهــا الحِدَأَةُ ـ بكسر الحاء والهمز الطائر المعروف ويجمع علىٰ حِدَإ وحِدْءَانٍ . ومن ألوانها السُّودُ والرُّمْدُ ، وهى لا تصــيد بل تخطَف ، ومن طبعها أنها تَصُــفُّ فى الطيران وليس ذلك لشىء من الكواسر غيرها ، وزعم ٱبن وحشية وٱبن زهر أن الحِدَأَةَ والعُقَابَ يتبدّلان فتصير الحِدأةُ عُقابا والعُقابُ حدأةً . وربمــا قيل الغراب بدل العُقاب ، ويقال : إنها تصير سنةً ذكرا وسنةً أنثىٰ ، ويقال : إنها أحسن الطير مجاورة لما جاورها من الطير حتّٰى لو ماتت جوعا لاتعدو علىٰ فرخ جارتها . وفى طبعها أنها إنما تختطف ممن تختطف منه من يده اليمنىٰ دون اليسرىٰ حتّٰى يقال إنها عسراء ؛ وقد ثبت فى الصحيحين حل قتلها فى الحل والحرم .

ومنها الرَّخَمة ـ بفتح الراء المهملة والخاء المعجمة ، وكنيتها أم جِعْرانَ ، وأمّ رِسَالَة وأمّ عَجِيبة ، وأم قَيْس ، وأم كَثير (١) . ويقال لها الأَنُوقُ بفتح الهمزة : وهى طائر أبقع ببياض وسواد فوقَ الحِدَأَةِ فى المقدار تأكل الجِيَف ، وهى معدودة فى بُغَــاثِ الطير ، وهى تسكُن رءوس الجبال العالية وأبعدَها من أماكن أعدائه ، ولذلك تضرب العرب المثل

(١) الذى فى حياة الحيوان "أم كبير" .

ببيضه فيقولون : "أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الأَنُوقِ" والأنثىٰ لا تمكن من نفسها غيرَ ذكرها وتَبِيض بيضة واحدة وربما باضت بيضتين .

ومنها البُومة ــ بضم الباء الموحدة وفتح الميم ــ للذكر والأنثىٰ : وهو طائر من طير الليل فى قَدْر الإوزَّة ، لها وجه مستدير بالريش النابت حوله ، يشبه وجه الآدمىّ فى صفرة عينين وتوقُّدِهما ، ويقال للذكر منها الصَّدىٰ والضُّوَعُ ــ بضم الضاد المعجمة ــ والفَيَّادُ ــ بالفاء وتشديد المثناة تحت ، ويقال للأنثىٰ الهامَةُ . وكنية الأنثىٰ أمُّ الخَرَاب ، وأمُّ الصِّبيان ، ولها فى الليل قوّةُ سلطان لا يحتملها شىءٌ من الطير ، تدخل علىٰ كل طائر فى وَكْره فى الليل فتُخْرِجه منه وتأكل فِراخَه وبَيْضه ، ولا تنام الليلَ ، والطير بجملته يُعاديها من أجل ذلك ، فإذا رأَوْها(١) فى النهار قتلوها ونَتَفُوا ريشها ، ومن ثم يجعلها الصيَّادون فى شِباكهم ليقع عليها الطير فيَقْتَنِصُونها ، فهى لا تظهر بالنهار لذلك . ونقل المسعودىّ فى مروج الذهب عن الجاحظ أنها إنما تمتنع من ظُهُورها فى النهار خَوفًا من أن تصاب بالعين لحسنها وجمالها ، لأنها تصوّر فى نفسها أنها أحسن الحيوان . ومن طبعها سكنىٰ الخراب دون العامر .

ومن غريب ما يُحكى ما ذكره الطرطوشى فى "سراج الملوك" : أن عبدالملك بن مَروان أَرِقَ ليلةً فاستدعىٰ سَمِيرا يحدّثه ، فكان مما حدّثه أن قال : ياأمير المؤمنين كان بالبصرة بُومة وبالمَوْصِل بُومة فخطبت بُومة الموصل إلىٰ بُومة البصرة بنتها لابنها ــ فقالت بومة البصرة : لا أفعل حتّى تجعلى فى صداقها مائة ضيعةٍ خراب ــ فقالت بومة الموصل : لا أقدر علىٰ ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلَّمه الله علينا سنة واحدة فعلت ، فاستيقظ لها وجلس للمظالم .

---

(١) عبارة حياة الحيوان فاذا رآها الطير . . . قتلنها ونتفن وهى أصوب .

ومنها البُؤة (١) ــ بضم الباء وفتح الهمزة ــ قال الجوهرى : وهو طائر يشبه البُومة إلا أنه أصغر منها . وذكر ابن قتيبة فى أدب الكاتب نحوَه ، ويقال له البُوهة أيضا ، وهى من طير الليل أيضا ، ولا يخفى أنها التى يسميها الناس فى زماننا المَصَّاصَة ويزعمون أنها تنزل على الأطفال فتمَصُّ أُنُوفَهم .

ومنها الخُفَّاش ــ بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء وبالشين المعجمة ، ويجمع على خَفَافِيشَ ــ وهو طائر غريب الشَّكْل والوصف لا ريشَ عليه ، وأجنحتُه جلدة لاصقة بيديه ، وقيل لا صقة بجنبه ؛ وسمى خُفَّاشا لأنه لا يبصِر نهارا ، وبه سمى الرجل أخفشَ ، والعامّة تسميه الوَطْواط ، وقيل الخُفَّاش الصغير ، والوَطْواط الكبير ، ويقال إن الوطواط هو الخُطَّاف لا الخُفَّاش . وليس هو من الطير فى شئ ، فإن له أسنانا وخُصيتين ، ويحيض ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويبول كما تبول ذوات الأربع ، ويُرضِع ولده من ثديه . ولما كان لا يبصر نهارا آلتمس وقتا يكون بين الظلمة والضوء وهو قريب غروب الشمس : لأنه وقت هَيَجان البعوض فالبعوض يخرج فى ذلك الوقت يطلب قُوتَه من دماء الحيوان ، والخُفَّاشُ يخرج لطلب الطُّعْم فيقع طالبُ رزق على طالب رِزْق ؛ ويقال إنه هو الذى خلقه المسيح عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله . قال بعض المفسرين : ومن أجل ذلك كان مباينا لغيره من الطيور ، ولذلك سائر الطيور مُبْغِضَةٌ له وتسطو عليه ؛ فما كان منها يأكل اللحم أكله ، وما كان منها لا يأكل اللحم قتله ؛ وهو شديد الطَّيَران ، سريع التقلب ، يقتات البعوض والذباب وبعض الفواكه ؛ وهو موصوف بطول العمر حتّى يقال : إنه أطول عمرا من النَّسْر ، وتلد الأنثى ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وكثيرا ما يَسْفِدُ وهو طائر فى الهواء ، وهو يحمل ولده

(١) لم يهمزه أحد من اللغويين بل ذكروه فى باب الهاء وقد رسم فى الصحاح بالواو وكذا فى القاموس وقال بالضم .

معه إذا طار، تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه حُنُوًّا عليه، وربما أرضعت الأنثىٰ ولَدها وهى طائرة . وفى طباعه أنه متىٰ أصابه ورق الدُّلْب خَدِرَ ولم يطر، وقد ورد النهى عن قتله .

فإذا عرف الكاتبُ أحوالَ الطير وخواصَّها ، تصرّف فيها بحسب ما يحتاج إليه فى نظمه ونثره كما فى قول الشاعر :

وإذا السعادةُ لاحظَتْكَ عيونُها، * نَمْ ، فالمَخَاوِفُ كلُّهنّ أمانُ
واصْطَدْ بها العنقاءَ فهى حبائلُ ، * واقْتَــدْ بهــا الجَوْزاءَ فهى عِنانُ

إشارةً إلىٰ عِظَم العنقاء وعدمِ القدرة علىٰ مقاومتها، ومع ذلك تنقاد بالسعد . وكما فى قول أبى الفتح كُشَاجم، مخاطبا لولده يطلب البرّ منه :

اتَّخِــذْ فِىَّ خُلَّةً فى الكَرَاكِى * أَتَّخِذْ فيــك خُلَّة الوَطْوَاط
أنا إن لم تَبَرَّنِى فى عناء * فَبِبِرى ترجو جَوَازَ السراط

يشير إلىٰ ما تقدّم من أنّ فى طبع الكُرْكِىّ بِرَّ والديه إذا كَبِرَا ، كماأن فى طبع الوَطْوَاط برَّ أولاده بحيث يحملها معه إلىٰ حيث توجه؛ وكما فى قولِ الشاعر :

مثل النهار يَزِيدُ إبصارَ الورىٰ * نُورا ، ويُعْمِى أعيُنَ الخُفَّاش

إشارة إلىٰ أنّ الخُفَّاشَ لا يُبْصِرُ نهارا ، بخلاف سائرأرباب الأبصار ؛ وكما قيل فى وصف شارد عن القتال :

وهُمْ تركوه أَسْلَحَ مِنْ حُبَارىٰ (١) ، * رأىٰ صقرا ، وأَشْرَدَ من نَعَامِ

يريد ما تقدّم مما يَعرِضُ للحبارىٰ من إرسالها سَلْحَهَا علىٰ الجارح عند آقتناصه لها ، وأنّ النَّعَام فى غاية ما يكون فى البرية من الشِّراد والنِّفار، ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ .

---

(١) ورد هذا البيت فى حياة الحيوان هكذا : وهم تركوك ... ... رأت

الصـــنف الرابع
(الحمـام)

وقد ٱختلف فى الحمـام فى أصـل اللغة فنقل الازهرىّ عن الشافعىّ رضى الله عنه أن الحمام يطلق علىٰ كل ماعَبّ وهدر وإن تفرّقت أسماؤه، فيدخل فيه الحمام، واليَمَام، والدَّباسِىّ، والقَمَارِىّ، والفواخت وغيرها. وذهب الأَصْمَعِىّ إلىٰ أن الحمام يطلق علىٰ كل ذات طوق كالفواخت والقمارىّ وأشـباهها . ونقل أبو عُبَيْدٍ عن الكسائىّ سماعا منه أن الحَمَام هو الذى لا يألَفُ البيوت، وأن اليمام هو الذى يألف البيوت لكن الذى غلب عليه إطلاق الحمـام هذا النوع المخصوص المعروف .

ثم هو علىٰ قسمين .

أحدهمـا ما ليس له ٱهتـداءٌ فى الطيران من المسافة البعيـدة . والثـانى ماله ٱهتداء، ويعرف بالحمـام الهدى وهو المراد هنا ؛ وقد ٱعتنى الناس بشأنه فى القديم والحديث، وٱهتم بأمره الخلفاء : كالمهدىّ ثالثِ خلفاءِ بنى العباس، والواثقِ، والناصرِ وتنافس فيه رؤساء النـاس بالعراق، لاسيما بالبَصْرَةِ . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا فى ٱقتنائه، ولَهِجُوا بذكره، وبالغوا فى أثمانه حتّى بلغ ثمنُ الطائر الفارهِ منها سَبْعَمائة دينار ؛ ويقال إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية أَلْفَ دينار ؛ وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراهة بعشرين دينارا ، وإنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمـام كأنساب العرب، وإنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العَدْلُ من ٱتخاذ الحمام والمنافسة فيه والإخبارِ عنها، والوصف لأثرها والنعتِ لمشهورها، حتّى وجه أهل البصرة إلىٰ بكار بن قتيبة البكرانى، قاضى مصر، وكان فى فضله وعقله ودينه وورَعه ما لم يكن عليه قاض، بحمامات لهم مع ثِقَات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولّى إرسالها بنفسه، وكان الحمام عندهم مَتْجَرًا من المتاجر لا يَرَوْنَ بذلك بأسا .

وذكر المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" أن الحمام أوّل ما نشأ ـ يعنى فى الديار المصرية والبلاد الشامية ـ من الْمَوْصِلِ وأنّ أوّل مَن آعتنىٰ به من الملوك ونقله من الموصل الشهيدُ نور الدين بن زنكى صاحب الشام رحمه الله فى سنة خمس وستين وخمسمائة ، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، و بالغوا حتّى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وقد آعتنىٰ بعض المصنفين بأمره، حتّى صَنَّفَ فيه أبو الحسن بن ملاعب القوّاس البغدادىّ، كتابا للناصر لدين الله العباسى ، ذكر فيه أسماء أعضاءِ الطائر، وريَاشِه، والوشومِ التى توشم فى كل عُضْوٍ، وألوانَ الطيور، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفيةَ إفراخها ، وبعضَ المسافات التى أُرْسِلَتْ منها، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجرى مجرىٰ ذلك . وذكر فى "التعريف" أن القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر صنف فيها كتابا سماه "تمائم الحمائم"

ويتعلق الغرض منها بأمور .

الأمر الأوّل

(ذكر ألوانها)

قال أبو الحسن القوّاسُ : وقد أكثر الناس من ذكر ألوانها ويرجع القصد فيها إلىٰ ذكر ألوان ستة .

اللون الأوّل البياض ـ ومنه الأبيض الصافى، والأشقر : وهو ما كان يعلوه حمرة؛ فإن كان الغالب فى شُقْرَتِهِ البياض، قيل فِضِّىٌّ؛ فإن زاد، قيل أشقرُ .

اللون الثانى الخضرة ـ إن كانت خضرته مُشْبَعةً إلىٰ السواد، قيل أخضر مسنِّىّ؛ فإن كان دون ذلك، قيل نَبْتِىٌّ الخضرة؛ فإن كان دون ذلك، قيل صافى الخضرة؛ فإن تكدّرت خضرته بأن لم يكن صافى الخضرة، قيل أسمر .

اللون الثالث الصُّفْرة ـ وهى عبارة عن أن تكون خضرته تميل إلىٰ البياض، فإن كان صافيا، قيل أصفر قرطاسىّ .

اللون الرابع الحمرة ـ إذا كان شديدَ الحمرة، قيل عُنَّابِىّ، فإن كان دون ذلك، قيل خَمْرِىّ ؛ فإن كان دون ذلك، قيل خَلُوقىٌّ ؛ فإن كانت حُمْرَته تضرب إلىٰ الخضرة، قيل أكْفَأ ؛ فإن كانت حمرته تضرب إلىٰ البياض، قيل أحمر صَدَفىّ .

اللون الخامس السواد ـ إذا كان شديد السواد لابياض فيه، قيل أسود مُطْبق ؛ فإن كان لون سواده ناقصا، قيل أسود أخْلَس ؛ فإن كان سواده يضرب إلىٰ الخضرة، قيل أسود رَمادِىّ ؛ فإن كان فى سواده مائية، قيل أسود بَرَّاق ؛ فإن كان ساقاه أيضا أسودين، قيل أسود حالك وأسود زِنْجِىّ .

اللون السادس النَّمَرىّ ـ وهو أن يكون فى الطائر نقط يخالف بعضُها بعضا ، ويختلف الحال فيه باختلاف كِبرِ النُّقَط وصِغَرِهَا، فتارة يقال مدَنَّر ، وتارة يقال ملَمَّع ، وتارة يقال أبْرَش، وتارة يقال مُوشَّح، وتارة يقال أبْقَع ، وتارة يقال أبْلَق، وتارة يقال دَبَاسِىّ، وتارة يقال مُدَرَّع إلىٰ غير ذلك مما لايُستوفىٰ كثرةً . ثم إن كان الطائر أكحَلَ العينينِ وحَولَ عينيه حمرةٌ، قيل فقيع ؛ فإن كان أصفر العين، قيل أصفَرُ زِرْنِيخِىّ ؛ فإن كان أبيض العنق، قيل هِلالىّ، وهو أحسنها ، والأصفرُ العينِ بعده ؛ فإن كانت العين بيضاءَ وفيها حمرة، قيل رُمّانىّ العين .

الأمر الثـانى

(فى عدد ريش الجناحين والذنب المعتدّ به وأسمائها)

أما الجناحان فإن فيهما عشرين ريشة، فى كل جناح منهما عشرُ ريشات، الأولىٰ منها ـ وهى التى فى طرف الجناح ـ تسمّى الصمة ، والثانية وهى التى بعدها تسمّى

المُضَافة الرئيسية ، والثالثة وهى التى بعدها تُسمَّى الواسطية ، والرابعة وهىَ التى بعدها تسمَّى المُضَافة ، والخامسة وهى التى بعـدها تسمَّى المنْظفة ، والسادسة وهى التى بعدها تسمَّى المُنْحدِرة ، والسابعة وهى التى بعـدها تسمَّى الناقصةَ ، والثامنة وهى التى بعدها تسمَّى المُؤْنسة ، والتاسعة وهى التى بعدها تسمَّى الزَّامِلَة ، والعاشرة وهى التى بعدها تسمَّى المُعينة .

وبعضهم يسمى الأولىٰ الصغيرة ، والثانيـة الرقيقة ، والثالثـة الموفية ، والرابعة الباحلة ، والخامسة الحيرة ، والسادسة الصرافة ، والسابعـة ممسكة الرمى ، والثامنة والتاسعة الحافظتين ، والعاشرة المَلِكة .

وربمـا كان فى كل جناح إحدىٰ عشرة ريشةً فيسمَّى الطائر حينئذ أعلم .

ولهذه الريشات العشرِ عشرُ ريشـات مع كل واحدة منها رادفةٌ : وهى الريش الصِّـغَارُ التى تغطِّى قصَب الجَنَـاح من ظاهره ، ولكل ريشة من هذه الريشات العشر ريشة صغيرة تغطى قصبتها ، لكل واحدة منها آسم يخصها .

ومن ريش الجناح أيضا الخَوَافِى ، وهى الريش المسَطَّر مع العشر ريشات الطِّوال المنقلبُ برءُوسه إلىٰ مُؤخَّر الجناح . وهى تسع ريشات ، الأولىٰ منها تسمَّى الحدقة ، والثانية الرَّتَمة ، والثالثة الغرّة ، والرابعة الحز ، والخامسة الجائزة ، والسادسة المسلِّمة ، والسابعة الملازمة ، والثامنة الشعثة ، والتاسعة اللامعة . وبعضهم يسمِّى الأولىٰ بنت الملكة ، والثانية الإبرة ، والثالثة المقشعرّة ، والرابعة الصافية ، والخامسة المصفية ، والسادسة المصفرة ، والسابعة الزرقاء ، والثامنة السوداء ، والتاسعة المزرَّقة . وعدّ فيها عاشرة تسمَّى المخضرَّة ـ ولكل ريشة من الريشات التِّسع ريشةٌ صغيرة تغطى قصبتها لهـا آسم يخصها أيضا .

وبعد الخوافى الغفار ، ولكل ريشة من الغِفَار ريشة صغيرة من باطنها تغطِّى قَصَبتها .

ومن ريش الجناحين المُقَوِّمات : وهى ثلاث ريشات فى طَرَف الجناح، تسمّى الزوائد . ومن فوقها ثلاثُ ريشات صغارٌ تغطى قصبتها، تسمّى الغَواشِى، وأصلها مع أصلِ(١) أيضا .

وأما الذَّنَبُ، فالمعتبر فيه آثنتـا عشرة ريشةً من كل جانب : منه ست ريشات تسمّى الأولىٰ منها الغزالة ، والثانية العَرُوس ، والثالثة الباشِقة ، والرابعة الباقيـة ، والخامسة المجاورة، والسادسة العمود، ومن الجانب الآخَر كذلك .

الأمر الثـالث

(الفرق بين الذكر والأنثىٰ)

وقد ذكروا بينهما فروقا ؛ منها أنّ الأنثىٰ إذا تمشت ، قدّمتِ الرِّجْلَ اليسرىٰ ؛ والذكرُ يقدّم الرِّجلَ اليُمْنى . ومنها أن يُرىٰ الذكر مُقْتَدِرًا فى الأرض مُسْتَشِـيطا ، والأنثىٰ بالضـدّ من ذلك ؛ ومنها أنّ ريشَ الذكر أعرضُ وأطولُ وأحسنُ آستواءً من الأنثىٰ؛ ومنها أن مَذْبَحَ الذكر يكون عريضا ومذبَح الأنثىٰ دقيقا؛ ومنها أن يكون وجه الذكر عريضَ الخـدّ والأنثىٰ بالضـدّ من ذلك ؛ ومنها أنّ الأنثىٰ إذا طارت فتحت جناحيها والذكر إذا طار أخرج عَشْرَيه .

الأمر الرابع

(فى بيان صفة الطائر الفارِه)

قال أبو الحسن القوّاس : علامته أن يكون رأسه مكعبا، وعينه معتدلَةً، غيرَ ناتئة ولا غائرة ، ولا فاترة، ولا قلقة منزعجة، وأن يكون منقاره غليظا قصيرا، وأن يكون وسط المَنْخرينِ، مُكَانَم القِرطِمَتَينِ، أَهْرَتَ الشِّدْقَيْنِ، واسعَ الصدر، نَقِيَّ الريش،

(١) لعله مع أصل الزوائد أيضا كما يفيده المقام تأمل .

طويلَ الفَخِذين ، قصيرَ الساقين ، غليظَ الاصابع ، شَثْنَ البراثن ، طويلَ القَوادِم من غير إفراط .

ويستحب فيه قِصَرُ الذنب ، ودِقَّتُه ، واجتماع ريشه من غير تفرّق ، وأن يكون ظهره معتدلا وإلى القِصَرِ أقرب ؛ وأن يكون جُؤْجُؤُه : وهوجانب الصدر طويلا ممتدّا ، وعُنُقُه طويلا منتصبا ، وريش قَوَادمه وخوافيه مَبْنِيًّا متطابقا بعضُه مع بعض من غير تفرّق ولا تَمَعُّط ، وأن يكون شديد اللحم ، مكتنزا غير رِخْوٍ ولا رَهِلٍ .

ويستحب فيه أيضا أن يكون قليلَ الرِّعْدة عند الفزع ، سريع اللَّقْطِ للحب ، خفيفَ الحركة والنُّهوض ، والنزول من غير طَيْش ولا اختلاط ، وأن يكون ظهره مُسَطَّحًا لا أحدبَ ولا أوقصَ ؛ ويستحب فيه إذا وقف ، أن ينصب صدرَه ، ويرفع عُنُقَه ، ويفتح ما بين فَخِذَيْه شبه البازى .

ومن علامة فَرَاهته أنه إذا طال عليه الطَّيَرَان (١) وأراد النزول على سطحه أن لا يُدَلِّيَ رجليه حتّى يقع صدره على سطحه لانه إذا دلّى ساقيه ، كان عيبا عظيما يقولون قد انحلت سراويله بمعنى أنه قد أدّى جميع ما عنده من القوّة والطاقة ؛ ويكره فيه دقة المَغْرِزِ ، وطولُ الذَّنَب ، وتفرّق الريش .

الأمر الخامس

(الفِرَاسة فى الطائر من حال صغره قبل الطيران)

قالوا من علامة الطائر الفاره فى صِغَرِه أن يكون حديدَ النظر ، شديدَ الحِذْر ، خفيف اللحم ، قليلَ الريش ، سريعَ النَّهْضة ، كثيرَ التَّلَفُّتِ فى الجو ، ممتدَّ العظم ، مستويا ، لطيفَ الذَّنَب ، خارجَ العُنُقِ ، قصيرَ الساقين ، طويل الفَخِذَينَ ، مُحَجَّلا ،

---

(١) لعلّ الجار ومجروره من زيادة الناسخ .

مذيلَ المنقار، مدوّرَ القَرَاطم، مضاعفَ المحَاجِر، يلزم موضعا واحدا من صغره إلىٰ ازدواجه، فإذا ٱزدوج علىٰ السَّطْح يكون حريصا علىٰ طائرته، حسنَ الأخلاق معها لا يَطْرُدُها طردَ الكلاب، ولا يغتالُ غِيلَةَ الذئاب، قليـلَ الذَّرْق، كثيرَ الدهن، مُدِلًّا بنفسه، كأنه يعلم أنه فاره. فإن كان فيه بعضُ هذه الخصال، كانت فراهته علىٰ قدر مافيه من ذلك.

قال أبو الحسن الكاتب: ومن علامة شهامة الفرخ أن تكون فيـه الحركة وهو تحت أبيه وأمّه، وكلما جمعتْه لتضمَّه تحتها، خرج من تحتها و يعتلق للخروج، وأن يكون ريش رأسه كأن فيه جَلَحا، وريشُ جسـده وجناحه مسـتطيلا عند نَبْعه من جسـده، وأن يطول ريشُه حتّى يغطّىَ ظهره ولا ينتشر إلا بعـد ذلك، وأن يكون من جؤجؤ الصدر إلىٰ مَغْرِزه أقصر من بطنه إلىٰ رأس بَرَاثِنه.

وفى الحمام طائر يقال له الأندم، وصفته أن يكون أسود المِنْقار ليس فيه بياض، ورأس مِنْقاره وأصله سواء، لاتحديد فى رأسه، عريضَ القَرَاطم، غليظَ الشِّدقين، منتشر المَنْخِرَين، جَهْوَرِىَّ الصوت، غائرَ العين، قال أبو الحسن القوّاس: ولا تكون هذه الصفة إلا فى الطائر الفاره الأصيل، الكريم الأب والأم.

الأمر السادس

(بيان الزمان والمكان اللائقين بالإفراخ)

أما الزمان فأصلح أوقات التأليف أيلول، وتشرين الأول، وتشرين الثـانى، وأذار، ونيسان، وايار، فإذا وقع الإفراخ فى شئ من هذه الأوقات كانت الفراخ أقوياء، نُجَباء، أذكياءَ، ونُهوا عن الإفراخ فى كانون الأول، وكانون الثانى، وشباط، وآب، وتموز، وحزيران، فإن الذى يُفْرِخ فيه لا يزال ناقصَ البدن، قليلَ الفطْنة، يلقى ريشَه فى السنة مرتين فيضْعف.

وأما المكان فقد حكى عن إقليمن الهندى أن أولىٰ ما أفرخ الحمامُ بالسُّطوح ، وذلك أنّ الفرخ يخرج من القشر فيلقىٰ خشونة الهواء وحَرّ الموضع فيصير له عادة ثم لاينهض حتّى يعرِف وطنه وينقلب إليه أبوه وأمه بالزَّقّ والعَلَف فيعرف السَّطْح حقَّ المعرفة ، وينتقل خلفهما فيعلمانه الصُّعود والهُبوط . وربما أخذاه إلى الرَّعْى بالصحراء فلا يكمل حتّى يصير شهما عارفا بأمور الطيران . بخلاف ما إذا أفرخ بالسُّفْل فإنه يتربىّ جسده علىٰ برودة الفَىْء ولين الهواء ، فإذا كمل وترقّىٰ إلىٰ السطح لقيه خشونة الهواء وقوّة الحرّ ، فيُحْدِث له الحرّ الجامد بفؤاده الكُبَادَ والدِّقّ .

الأمر السابع
(فى مسافة الطيران)

قد تقدّم أنّ طائرا طار من الخليج القُسْطنطينىّ إلىٰ البَصْرة ، وأن الحمام كان يُرَسَل من مصر إلىٰ البصرة أيضا . وذكر ابن سعيد فى كتابه "جنى المحل وجنى النحل" أنّ العزيز ثانِىَ خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأىٰ القَرَاصِيَة البعلبكية ، وأنه يحب أن يراها ، وكان بدمشق حمامٌ من مصر وبمصر حَمَام من الشام ، فكتب الوزير بِطَاقةً يأمر فيها مَنْ بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصرىّ ويعلق فى كل طائر حَبّاتٍ من القَرَاصِيَة البعلبكية وتُرسَل ففعل ذلك فلم يمض النهار إلا وعنده قدر كثير من القَرَاصِية فطلع بها إلىٰ العزيز من يومه . وذكر أيضا فى كتابه "المُغْرب فى أخبار المَغرِب" أن الوزير اليازورى المغربى وزير المستنصر الفاطمى وجه الحمام من مدينة تونس من افريقيَةَ من بلاد المغرب إلىٰ مصر فجاء إلىٰ مصر .

وقد ذكر أبو الحسن القوّاس فى كتابه فى الحمـام أنَّ حماما طار من عَبَّـادانَ إلىٰ الكُوفة ، وأن حماما طار من التُّرْنَاوَذ إلىٰ الأُبُلَّةِ ونحو ذلك ، وسـيأتى الكلام علىٰ أبراج الحمام بالديار المصرية فى المقالة العاشرة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

النوع الخـامس

(مايحتاج إلىٰ وصفه من نفائس الأحجار)

ويحتاج الكاتب إليه من وجهين : أحدهما من حيث مخالطةُ الملوك فلا بدّ أن يكون عارفا بصـفات الجواهر وأثمـانها والنَّفِيس منها وخواصِّها لأنه ربمـا جرىٰ ذكر شئ من ذلك بحضرة ملكه ، فتكون مشاركته فيه زيادة فى رِفْعة محله ، وعلوّ مِقداره ، وهذا هو الذى عوّل عليه صاحب "موادّ البيان" فى ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك . والثانى أن يحتاج إلىٰ وصف شئ من ذلك مع هدية تصدُر عن ملكه أو هديةٍ تصل إليه ، مع مايحتاج إليه من ذلك لمعرفة التشبيهات والاستعارات التى هى عمودُ البلاغة ، فمن لم يكن عارفا بأوصاف الأحجار ، ونفائس الجواهر لايُحسِن التعبير عنها ؛ ألا ترىٰ إلىٰ تشبيهات ٱبن المعتز ووصفه للجواهر كيف تقَعُ فى نِهاية الحُسْنِ ، وغاية الكمال لمعرفته بالمشاهدة فهو يقول عن علم ، ويتكلم عن معرفة "وليس الخبرُ كالمعاينة" وقد ٱعتنى الناس بالتصنيف فى الأحجار فى القديم والحديث .

فممن صنف فيـه فى القديم من حكماء الفلاسفة أرسطوطا ليس ، وبلينوس ، وياقوس الإنطاكى .

وممن صنَّف فيه من الإسلاميين أحمد بن أبى خالد المعروف بٱبن الجزار ، ويعقوب بن إسحاق الكِنْدىّ وغيرهما . وأحسن مصنَّف فيه مصنَّف أبى العباس أحمد بن يوسف التِّيفاشِىّ .

والذى يتعلق الغرض منه بذلك ٱثنا عشر صنفا .

الصنف الأوّل

(اللؤلؤ)

وهو يتكوّن فى باطن الصَّدَف ؛ وهو حيوانٌ من حَيَوان البحر المِلْح له جِلْد عَظْمِىٌّ كالحَلَزون، ويغوص عليه الغوّاصُون، فيستخرجُونه من قعر البحر، ويصْعَدُون به فيستخرجُونه منه . وله مَغَاصات كثيرة ، إلا أن مَظَانَّ النفيس منه بسَرَنْدِيبَ من الهند، وبكِيش ، وعُمَانَ ، والبحرين من أرض فارس ؛ وأفخرُه لؤلؤ جزيرة خارَكَ ، بين كِيش والبحرين .

أمّا مايوجد منه ببحر القُلْزم وسائر بحار الحِجاز فردىء ولو كانت الدُّرّة منه فى نهاية الكبر : لأنه لا يكون لها طائل ثمن . وجَيِّد اللؤلؤ فى الجملة هو الشَّفّاف الشديد البياض، الكبيرُ الجِرم ، الكثيرُ الوزْن ، المستدير الشكل ، الذى لا تَضْرِيس فيه، ولا تَفَرْطُحَ، ولا آعوجاجَ . ومن عيوبه أن يكون فى الحبة تفرْطُح، أو آعوجاجٌ، أو يلصق بها قِشْر أو دودة، أو تكون مجوّفة غير مصمتة، أو يكون ثقبها متسعا .

ثم من مصطلح الجوهريين أنه إذا اجتمع فى الدرّة أوصاف الجَوْدة ، فما زاد علىٰ وزن درهمين، ولو حبة يسمّٰى درّا . فإن نقصت عن الدرهمين ولو حبة سمّيتْ حَبَّة لؤلؤ ؛ وإذا كانت زنتها أكثر من درهمين وفيها عيب من العيوب ، فإنها تسمّٰى حبَّة أيضا، ولا عبرة بوزنها مع عدم اجتماع أوصاف الجَوْدة فيها، وتسمّٰى الحبة المستديرةُ الشكلِ عند الجوهريين الفارة ، وفى عرف العامّة المُدَحْرَجة . ومن طبع الجوهر أنه يتكوّن قشورا رقاقا طبقةً علىٰ طبقة حتّٰى لو لم يكن كذلك فليس علىٰ أصل الخلقة بل مصنوع .

ومن خواصه أنه إذا سُحِق وسُقِى مع سَمْن البقر نفع من السُّمُوم .

وقال ارسطوطاليس: من وقف علىٰ حل اللؤلؤ من كباره وصغاره حتّٰى يصير ماء رَجْراجا ثم طَلَى به البرص أذهبـه؛ وقيمة الدرّة التى زنتُها درهمـان وحبة مثـلا أو وحبتان مع اجتماع شَرائط الجَوْدة فيها سبعمائة دينار؛ فإن كان اثنتان علىٰ هـذه الصفة كانت قيمتهما ألفى دينار كل واحدة ألف دينار لاتفاقهما فى النظم؛ والتى زنتها مثقال وهى بصفة الجودة قيمتها ثلثمائة دينار، فإن كان اثنتان زنتهما مثقال وهما بهذه الصفة علىٰ شكل واحد لا تفريق بينهما فى الشكل والصورة، كانت قيمتهما أكثر من سبعمائة دينار. وقد ذكر ابن الطوير فى تاريخ الدَّولة الفـاطمية أنه كان عنـد خلفائهم دُرّة تسمّٰى اليتيمة زنتها سبعة دراهم تجعل علىٰ جبهة الخليفة بين عينيه عند ركوبه فى المواكب العظام علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب دولتهم فى المسالك والممـالك إن شاء الله تعالىٰ.

ويضُرُّه جميع الأدهان، والحُموضات بأسرها لاسيما الليمون، ووهج النار، والعَرَق، وذَفَر الرائحة، والاحتكاك بالأشياء الخشنة؛ ويجلوه ماء حماض الأترج إلا أنه إذا أُلِحّ عليه به قَشَره ونَقَص وزنه، فإن كانت صـفرته من أصل تكوّنه فى البحر فلا سبيل إلىٰ جِلائها.

الصنف الثـانى

(اليـاقوت)

قال بليناس: وهو حجر ذهبيٌّ، وهو حصًى يتكوّن بجزيرةٍ خلفَ سَرَنْدِيبَ من بلاد الهند بنحو أربعين فرسخا، دورها نحو ستين فرسخا فى مثلها، وفيها جبل عظيم يقال له جبل الرَّاهُون تُحْدِر منه الرياحُ والسيولُ الياقوتَ فيُلْتَقَط، والياقوتُ حصباؤه. وهو الجبل الذى أهبط الله تعالىٰ عليه آدم عليه السـلام، فإذا لم تُحْدِر السيولُ منه

شيئا، عمد أهلُ ذلك الموضع إلىٰ حيوان فذبحوه وسلَخُوا جلده وقَطَّعوه قِطَعا كِبارا وتركوه فى سفح ذلك الجبل فيختطفه نُسُور تأوِى إلىٰ ذلك الجبل فتصعَد باللحم إلىٰ أعلاه فيلصق بها الياقوت ثم تأخذه النسور وتنزل به إلىٰ أسفل فيسقط منه ماعَلِق به من الياقوت؛ فإذا أخذ كان لونه مظلما ثم يشف بملاقاة الشمس ويظهر لونه علىٰ أىّ لون كان .

ثم هو علىٰ أربعة أضرب .

الضرب الأوّل الأحمر — ومنه البَهْرَمان ، ولونه كلون العُصْفُر الشديد الحمرة الناصع فى القوّة الذى لايشوب حمرته شائبة، ويسمّى الرُّمّانىّ: لمشابهته حبَّ الرُّمَّان الرائِق الحب ،وهو أعلىٰ أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمنا .

ومنه الخِيرىُّ : وهو شبيه بلون الخيرىِّ : وهو المنثور، ويتفاضل فى قوّة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

ومنه الوَرْدِىُّ : وهو كلون الورد ويتفاضل فى شدّة الصبغ وضعفه حتّى يقرب من البياض .

وأردأ ألوانه الوردىُّ الذى يضرب إلىٰ البياض ،والسَّمَّاقىّ الذى يضرب إلىٰ السَّواد .

الضرب الثانى الأصفر — وأعلاه الجُلَّنارىُّ ، وهو أشدّه صفرة، وأكثره شُعاعا ومائيةً، ودونه الخَلُوقىّ ، وهو أقلُّ صُفرةً منه ،ودونه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير المـاء ساطع الشُّعاع .

وأردأ الأصفر ما نقص لونه ومال إلىٰ البياض .

الضرب الثالث الأبيض — ومنه المهانِىُّ :وهو أشدّها وأكثرُها ماءً وأقواها شُعاعا ؛ ومنه الذكر : وهو أثقلُ من المهانىّ وأقلُّ شُعاعا وأصلبُ حَجَرًا ؛ وهو أَدْوَنُ أصناف

الياقوت وأقلها ثمنا . وأجود الياقوت الأحمرُ البهرمانىّ والرمانىّ والوردىّ النيّر المشرقُ اللون الشَّفَّافُ، الذى يَنْفُذُه البصر بسرعة. وعيوبه الشَّعْرَةُ : وهى شبه تشقيق يُرىٰ فيه، والسُّوس : وهو خروق توجد فيه باطنة ويعلوها شئ من ترابية المَعْدِنِ .

ومن أردإ صفاته قبح الشكل .

ومن خواصّ الياقوت أنه يقطع كلَّ الحجارة كما يقطعها المَـاسُ، وليس يقطعه هو علىٰ أىّ لون كان غيرُ المَـاسِ .

ومن خواصه أيضا أنه لا ينحكُّ علىٰ خشب العُشَر الذى تجلىٰ به جميعُ الأحجار، بل طريق جلائه أن يُكَسَّر الجَزْعُ اليمـانى ويحرَق حتّٰى يصير كالنُّورة ثم يسحق بالمـاء حتّٰى يصـير كأنه الغِرَاءُ ثم يحك علىٰ وجه صفيحة من نحاس حجرُ الياقوت، فينجلى ويصيرُ من أشد الجواهر صَقَالَةً .

ومن خواصــه أنه ليس لشيء من الأحجار المُشِفَّة شعاعٌ مثـله ، وأنه أثقل من سائر الأحجار المساوية له فى المقدار، وأنه يصبر علىٰ النار فلا يتَكَلَّسُ بها كما يتكلس غيره من الحجارة النفيسة، وإذا خرج من النـار بَرَدَ بسرعة حتّٰى إنّ الإنسانَ يضعه فى فيه عَقِبَ إخراجه من النار فلا يتأثر به ، إلا أن لون غير الأحمر منه كالصـفرة وغيرها يتحوّل إلىٰ البياض ، أمّا الحمرة فإنها تَقْوىٰ بالنار، بل إذا كان فى الفص نُكْتَةٌ حمراء، فإنها تَتَّسِعُ بالنار وتنبسط فى الحجر. بخلاف النكتة السوداء فيه، فإنها تنقُص بالنار فما ذهبت حمرته بالنار فليس بياقوتٍ بل ياقوت أبيضُ مصـبوغ ، أو حجر يشبه الياقوت .

ومن منافعه ما ذكره أرْطاطاليس ، أنّ التختم به يمنع صـاحبَه أن يصيبه الطاعونُ إذا ظهر فى بلد هو فيه، وأنه يعظم لا بِسه فى عيون الناس، ويسهلُ عليـه

قضاء الحوائج، وتتيسر له أسباب المعاش، ويقوّى قلبه ويشجعه، وأن الصاعقة لا تقع علىٰ من تختم به . وإذا وضع تحت اللسان، قطع العطش . وآمتحانه أن يُحَكَّ به ما يشبهه من الأحجار، فإنه يَجْرَحُها بأسرها ولا تؤثر هى فيه . قال التيفاشى : وقيمة الأحمر الخالص علىٰ ماجرىٰ عليه العُرْف بمصرَ والعراقِ أن الحجرَ إذا كان زنتُه نصفَ درهم، كانت قيمته ستةَ مثاقيل من الذهب الخالص، والحجرَ الذى زنته درهمٌ قيمته ستة عشر دينارا، والحجرَ الذى زنته مثقالٌ قيمته بدينارين القيراط، والحجرَ الذى زنته مثقال وثلثٌ قيمته ثلاثة دنانيرَ القيراط إلىٰ ثلاثة ونصف، ويزيد ذلك بحسب زيادة لونه ومائيته وكبر جرمه حتّى ربما بلغ مازنته مثقال من جيده مائةَ مثقال من الذهب إذا كان بهرمانا نهايةً فى الصِّبْغ والمائية والشعاع، قد نقص منه بالحك كثيرٌ من جِرْمه؛ وقيمة الأصفر منه زنة كل درهم بدينارين؛ وقيمة الأزرق والماهانىّ كل درهم بأربعة دنانير؛ وقيمة الأبيض علىٰ النصف من الأصفر . ويختلف ذلك كله بالزيادة والنقص فى الصِّبغ والمائية مع القرب من المَعْدِن والبعد عنه؛ وقد ذكر آبن الطوير فى ترتيب مملكة الفاطميين أنه كان عندهم حجرُ ياقوت أحمر فى صورة هلالِ زنته أحد عشر مثقالا يُعْرَفُ بالحافر، يجعل علىٰ جبين الخليفة بين عينيه مع الدّرّة المتقدّمة الذكر عند ركوبه .

الصنف الثالث

(البَلَخْشُ)

قال فى مسالك الأبصار : ويسمّى اللَّعْلَ . قال بلينوس : وآنعقاده فى الأصل ليكون ياقوتا إلا أنه أبعده عن الياقوتية عِلَلٌ من اليُبْس والرطوبة وغيرهما، وكذلك سائر الأحجار الحُمْر؛ ومعدن البلَخْش الذى يتكوّن فيه بنواحى بلَخْشان، والعجمُ

تقول : بَذَخْشَان بذال معجمة وهى من بلاد الترك تتاخم الصين (١) . قال التيفاشى : وأخبرنى من رأىٰ مَعْدنَه من التِّجَارِ أنه وجد منه فى المعدن حجرا وفى باطنه ما لم يكمل طبخه وٱنعقاده بعد، والحجر مجتمع عليه، وهو علىٰ ثلاثة أضرب : أحمر مُعَقْرَبٌ وأخضر زَبَرْجَدِىٌّ، وأصفر، والأحمر أجوده. قال التيفاشى : وليس لجميعه شىء من خواص الياقوت ومنافعــه ، وإنمـا فضيلته تشبهه به فى الصِّبْغ والمـائية والشعاع لا غير. قال : وقيمته فى الجمــلة غالبا علىٰ النصف من قيمة الياقوت الجيد . قال فى مسالك الأبصار : وهو لا يؤخذ من مَعْدِنِه إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد لا يوجد بعــد التعب والإنفاق ، ولهذا عز وجودُه ، وغَلَتْ قيمتُه، وكثر طالبُه، والتفتت الأعناق إلىٰ التحلى به . قال : وأنفس قطعة وصلت إلىٰ بلادنا من البَلَخْش قطعة وصلت مع تاجر فى أيام العادل كتبغا وأُحضرت إليــه وهو بدِمَشْق، وكانت قطعةً جليلةً مثلثة علىٰ هيئة المُشْطِ العُودىّ . وهى فى نهاية الحسن وغاية الجَوْدَةِ ، زنتها خمسون درهمـا ، كاد المجلس يُضِىء منها، فأحضر الصاحبُ نَجمَ الدين الحنفىَّ الجوهرىَّ وسأله عن قيمتها فقال له نجمُ الدين الجوهرىُّ : إنمـا يعرف قيمتَها من رأىٰ مثلها ، وأنا وأنت والسلطان ومن حضر لم نر مثلها فكيف نعرف قيمتها ؟ فأُعْجِب بكلامه، وصالح عليها صاحبها .

الصنف الرابع
(عَيْنُ الْهِرِّ)

قال التيفاشى : وهو فى معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتصرةَ به اقعدته عن الياقوتية ، ولذلك إنمـا يوجد فى مَعْدِنِ الياقوت المتقــدّم ذكره ، وتخرجه الرياح

---

(١) فى ياقوت أنها فى أعلى طخارستان متاخمة لبلاد الترك .

والسيول كما تُخْرِجُ الياقوتَ علىٰ ما تقدّم ، قال : ولم أجده فى كتب الأحجار، وكأنه مُحْدَثُ الظهور بأيدى الناس ، والغالب علىٰ لونه البياض بإشراق عظيم ومائية رقيقة شفافة، إلا أنه تُرىٰ فى باطنه نُكْتة علىٰ قدر ناظر الهِرِّ الحامل للنور المتحرك فى فَصِّ مقلتــه وعلىٰ لونه : علىٰ السواد، و إذا تحرّك الفَصُّ إلىٰ جهة، تحركت تلك النكتة بخلاف جهته . فإن مال إلىٰ جهة اليمين، مالت النكتة إلىٰ جهة اليسار و بالعكس، وكذلك الأعلىٰ والأسفل، وإن كسر الحجر أو قطع علىٰ أقل جزء ، ظهرت تلك النكتة فى كل جزء من أجزائه، ولذلك يسمّى عينَ الهر .

وأجوده ما ٱشتدّ بياض أبيضه وشفيفُه، وكثرت مائية النكتة التى فيه مع سرعة حركتها وظهور نورها و إشراقها ؛ ولا يخفىٰ أن حُسْنَ الشكل وكِبَرَ الجرم يزيدان فى قيمته كسائر الأحجار . قال التيفاشى : والمشهور من منافعه عند الجمهور أنه يحفظ حامله من أعين السوء . ونقل عن بعض ثقات الجَوْهَرِيِّين أنه يجمع سائر الخواصّ التى فى الياقوت البهرمانىّ فى منافعه، و يزيد عليه بأن لا يَنْقُصَ مالُ حامله ولا تعتريه الآفات ، وأنه إذا كان فى يد رجل وحضر مَصافَّ حرب وهُزِم حزبه فألقىٰ نفسه بين القتلىٰ ، رآه كل من يمرّ به من أعدائه كأنه مقتول متشحط فى دمه ؛ وان ثمنه بالهند مع قُرَب معدِنه أغلىٰ من ثمنه ببلاد المغرب بكثير، لعلمهم بخواصه ؛ وقيمته تختلف بحسب الرغبة فيه ؛ و إذا وقع ببلاد المغرب بيعَ المثقالُ منه بخمسة دنانير، و يزيد علىٰ ذلك بحسب الغرض .

وذكر التيفاشى عن بعض التجار أن حجرا منه بِيعَ فى المَعْبَر من بلاد الهند بمائة وخمسين دينارا وأنه بيع منه حجر ببلاد الفُرْس بسبعمائة دينار .

الصنف الخامس

(المَـاسُ)

قال بلينوس فى كتاب الأحجار : وٱبتدأ فى مَعْدِنِه لينعقد ذهبا، فأبعدته العوارض عن ذلك؛وهو يتكوّن فى مَعْدِنِ الياقوت المقـدّم ذكره وتخرجه الرياح والسـيول من معدنه كما تخرج الياقوت؛وهو ضربان : أحدهما أبيض شـديد البياض يشبه البِلَّوْرَ يسمّى البِلَّوْرِىَّ لذلك ، والثانى يخالط بياضَه صفرةٌ فيصير كلون الزُّجَاج الفرعونى، ويعبر عنه بالزيتى . قال الكندىّ : والذى عاينته من هـذا الحجر ما بين الخردلة إلىٰ الجوزة ولم أر أعظم من ذلك .

ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمرّ عليه ، وإذا وضع علىٰ سـندال حديد ودُقَّ بالمِطْرَقَةِ لم ينكسر، وغاص فى وجه السندال والمِطْرَقَةِ وكسرهما، ولا يلتصق بشىء من الأجساد إلا هُشِمَ ويمحو النقوشَ التى فى الأحجـار كلِّها . وإنمـا يكسر بأحد طريقين : أحدهما أن يُجْعَلَ داخلَ شىء من الشمع ويدخل فى أنبوب قصب وينقر بمطرقة أو غيرها برفق بحيث لا يباشر جسمُه الحديد ، فينكسر حينئذ ؛ أو يجعـل فى أُسْرُبٍّ وهو الرَّصَاصُ ويفعل به ذلك فيكسر أيضا .

ومن خواصه أن الذباب يشتهى أكلَه فما سقطت منـه قطعة صغيرة إلا سقط عليها الذباب وٱبتلعها أو طار بها، ومتىٰ ٱبتلع منه الإنسانُ قطعةً ، ولو أصغر مايكون خَرَقَتْ أمعاءه وقتلته علىٰ الفور . قال أرسطوطاليس : وبينـه وبين الذهب محبة يَتَشَبَّثُ به حيث كان .

ومن خاصـته أن كلَّ قطعة تؤخذ منـه تكون ذاتَ زوايا قائمةِ الرأس : ستِّ زوايا وثمـان زوايا وأكثر، وأقله ثلاث زوايا ، وإذا كسر لا ينكسر إلا مثلثا ،

وبه يثقب الدرّ والياقوت والزُّمُرُّدُ وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار كما يثقب الحديد الخشب، بأن يُرَكَّب فى رأس منقار حديد منه قطعةٌ بقدر ما يراد من سعةِ الثَّقْبِ وضِيقِه ثم يثقب به، فيثقب بسرعة .

ومن منفعتـه فيما ذكره ارسطوطاليس أن مَنْ كان به الحصاة الحادثة فى المثانة فى مجرى البول إذا أخذ حبة من هـذا الحجر وألصـقها فى مِرْوَدِ نُحَاس بِمُصْطَكَى إلصاقا مُحْكَماً ثم أدخل المِرْوَدَ إلى الحصاة فإنهـا تثقبها . قال أحمد بن أبى خالد : وبذلك عالجت وصيفا الخادمَ من حصاة أصابته وآمتنع من الشق عليها بالحديد .

وقال آبن بوسطر : وإذا عُلِّقَ على البطن من الخارج، نفع من المَغْسِ الشديد ومن فساد المعدة، وقيمته الوُسْطىٰ فيما ذكره التيفاشى أن زنة قيراط منه بدينارين، ونقل عن الكِنْدِىّ أن أغلىٰ ما شاهد منه ببغداد المثقال بثمـانين دينارا وأرخصَ ما شاهد منه ببغـداد أيضـا المثقال بخمسـة عشر دينارا، وأنه إذا بدرت منـه قطعة كبيرة تصـلح لفَصٍّ قدرِ نصـف مثقال يضاعف ثمنها على ما هو قدر الخردلة أو الفلفلة ثلاثةَ أضعاف وأربعةً وخمسةً .

الصنف السادس
(الزُّمُرُّدُ)

يقال بالذال المعجمة والمهملة . قال بلينوس : والزُّمُرُّدُ آبتدأ لينعقد ياقوتا، وكان لونه أحمرَ إلا أنه لشدّة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عَرَضَ له السوادُ وامتزجت الحمرة والسـواد فصار لونه أخضرَ، ومَعْدِنُه الذى يتكوّن فيـه فى التخوم بين بلاد مصرَ والسودان خلف أسوان من بلاد الديار المصرية ، يوجد فى جبل هناك ممتدٍّ كالجسر فيه معادن . قال فى مسالك الأبصار : وبينه وبين قُوص ثمانية أيام بالسير

المعتدل ولا عمـارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه، والمـاء عنده على مسيرة نصف يوم أو أكثر فى موضع يعرف بغَدِير أعيَنَ . فمنه مايوجد قِطَعًا صغارا كالحصى منبثة فى تراب المعْدِن وهى الفصوص وربما أصيب العرْقُ منه متصلا فيُقْطَع وهو القصب وهو أجوده . قال فى مسالك الأبصار : وتلك العُروق منبثةٌ فى حَجَرٍ أبيضَ تستخرج منه بقطع الحجر . قال التيفاشى : ويوجد على بعضه تُرْبة كالكُحْل الشديد السواد، وهو أشدّه خضرة وأكثره ماء . وقد ذكر المؤيد صاحبُ حَماه فى تاريخه أن السلطان صلاحَ الدين يوسفَ بن أيُّوب رحمه الله لما آستولى على قصر الفاطميين بعد موت العاضد، وجد فيه قصبة زُمُرُّدٍ طولهـا أربعة أذرع أو نحوُها .

وهو على ثلاثة أضرب .

الأوّل الذُّبَابِىّ ــ وهو شديد الخُضْرة، لايشوب خضرتَه شئ آخرُ من الألوان : من صفرة ولا سواد ولا غيرهما، حسنُ الصَّبغ، جيدُ المـائية، شديدُ الشُّعاع، ويسمّى ذبابيا لمشابهة لونه فى الخضرة لونَ كِبار الذُّباب الأخضر الربيعىّ : وهو من أحسن الألوان خُضْرةً وبصيصا . قال فى مسالك الأبصار : وهو أقلُّ من القليل بل لا يكاد يوجد .

الثانى الرَّيْحَانِىُّ ــ وهو مفتوح اللون، شبيه بلون ورق الرَّيْحَان .

الثالث السِّلْقِىّ ــ وخضرته أشبه شئ بلون السِّلْق .

الرابع الصابونىّ ــ ولونه كلون الصابون الأخضر، قال فى "مسالك الأبصار": وإذا آستخرج الزُّمُرُّدُ من المَعْدِن ، جُعِل فى زيت الكَتَّان ثم لُفَّ فى قطن وصرّ فى خرقة كَتَّان ونحوها، ولم يزل العمل فى هذا المعدن إلى أثناء الدَّوْلَةِ الناصرية محمد آبن قلاوون فتُرِكَ لكثرة كُلْفته .

وأفضل أنواعه وأشرفها الذبابىّ، ويزداد حسنه بِكِبرِ الجرم ، وآستواء القصبة،

وعدم الاعوجاج فيها . ومن عيوب الذبابىّ اختلاف الصِّبغ بحيث يكون موضع منه مخالفا للموضع الآخر ، وعدمُ الاستواء فى الشكل ، والتشعيرُ : وهو شِبْه شُقُوق خفية إلا أنه لا يكاد يخلو منه ، والرَّخاوة ، وخفة الوزن ، وشدّة المَلاسة والصِّقال والنُّعومة ، وزيادةُ الخضرة والمائية إذا ركب على البطانة ؛ وهو ينحل بالنار ويتكلس فيها ، ولا يثبت ثباتَ الياقوت .

ومن خاصِّيَّة الذبابىّ التى امتاز بها عن سائر الأحجار أن الأفاعِىَ إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه ، انفقأتْ عيونُها . قال التيفاشى : وقد جربت ذلك فى قطعة زُمُرُّدٍ ذبابىّ خالصٍ ، فحصَّلتُ أفعىً وجعلتها فى طَشْتٍ وألصقته بشمع فى رأس سهم وقرَّبته من عينها فسمعت قعقعة خفية كما فى قَتْل صُؤابةٍ فنظرت إلى عينيها فإذا هما قد بَرَزَتَا على وجهها وضَعُفت حركتها . وبهذه الخاصّة يمتَحن الزُّمُرُّدُ الخالص من غيره كما يُمْتحن الياقوت بالصَّبر على النار .

ومن منافعه أن من أدْمن نظَرَه أذهب عن بصره الكَلَال ؛ ومن تختم به دفع عنه داء الصَّرْع إذا كان قد لبسه قبل ذلك ؛ ومن أجل ذلك كانت الملوك تعلقه على أولادها ؛ وإذا كان فى موضع لم تقربه ذوات السموم ؛ وإذا سُحِل منه وزن ثمان شعيرات وسقيتَه شارب السُّم قبل أن يعمل السم فيه ، خلصته منه ؛ وإذا تختم به من به نَفْث الدم أو إسهاله ، منع من ذلك ؛ وإذا عُلِّق على المعدة من خارج ، نفع من وَجَعِهَا ؛ وشُربُ حُكَاكتِه ينفع من الجُذَام . وقيمة الذبابىّ الخالص فى الحجر الذى زِنَتُه درهم أربعة دنانير القيراط ، ويتضاعف بحسب كِبَرِه ، وينقص بحسب صِغَرِه ؛ إلا أنه لا ينقص بالصِّغَر نقصَ غيرِه من الأحجار لوجود خاصيته فى الكبير والصغير والمُعْوجّ والمستقيم . أما بقية أصناف الزُّمُرُّدِ ، فإنه لا قيمة لها يعتدّ بها لعدم المنافع الموجودة فى الذبابىّ .

الصـــنف السابع
(الزَّبَرْجَدُ)

وهو حجر أخضرُ يتكوّن فى مَعْدِنِ الزُّمُرُّدِ، ولذلك يظنه كثير من الناس نوعا منه إلا أنه أقلُّ وجودا من الزُّمُرُّدِ . قال التِّيفاشى : أما فى هـذا الزمان فإنه لا يوجد فى المَعْدِن أصلا، وإنمـا الموجود منه بأيدى الناس فصوص تستخرج بالنبش من الآثار القـديمة بالإسكَنْدرية، وذكر أنه رأى منـه فَصًّا فى يد رجل أخبره أنه آستخرجه من هنالك، زِنته درهم، لا يكاد البصر يُقْلِعُ عنه لرقة مائه، وحسن صفائه . وأجوده الأخضر المعتدل الخُضرةِ، الحسن المـائية، الرقيق المستشَفّ، الذى يَنْفُذه البصر بسرعة، ودونه الأخضر المفتوح اللون؛ وليس فيـه شئ من خواص الزُّمُرُّدِ إلا أن إدمان النظر إليه يجلو البصرَ . وقيمة خالصه نصف درهم بدينار .

الصـــنف الثـامن
(الفَيْرُوزَجُ)

وهو حجر نُحاسىّ يتكوّن فى مَعَادن النُّحَاس من الأبخرة الصاعدة منهـا، إلا أنه لا يوجد فى جميع معادن النُّحاس؛ ومعدنه الذى يوجد فيه بِنَيْسَابُورَ، ومنه يجلب إلى سائر البُلْدَان؛ ومنـه نوع آخر يوجد فى نشاور إلا أنّ النيسابورىّ خير منه؛ وهو ضربان بسحاقىّ وخَلَنْجِىّ (١)، والخالص منه العتيق هو البسحاقىّ وأجوده الأزرق الصافى اللون، المشرق الصفاء، الشديد الصَّقالة، المستوى الصَّبغ؛ وأكثر ما يكون فصوصا؛ وذكر الكِنْدىُّ أنه رأى منه حجرا زنته أوقية ونصف .

ومن خاصته أنه يصفو بصـفاء الجوّ ويكْدُر بكُدْرَته وإذا مسـه الدُّهن أذهب حسنه وغيَّر لونَه، والعَرَقُ يطفئ لونَه، والمسك إذا باشره، أفسده وأذهب حسنه؛

---

(١) فى مفردات ابن البيطار سنجابى ولعل مافى الأصل تصحيف .

وإذا وضع الفَصُّ الجيد منه إلىٰ جانب ماهو دونه فى الجَوْدَةِ، أذهب بهجته؛ وإذا وضع إلىٰ جانب الدَّهْنَج غلب الدهنج علىٰ لونه فأذهب بهجته ولو كان الفَصُّ الفَيْرُوزَجُ فى غاية الحسن والجَوْدَةِ .

ومن منافعه أنه يجلو البصرَ بالنظر إليه ؛ وإذا سحق وشرب نفع من لدغ العقارب ؛ وقيمته تختلف باختلاف الجَوْدَةِ آختلافا كثيرا فربما كان الفَصَّانِ منه زنتهما واحدة وثمن أحدهما دينار وثمن الآخر درهم . وبالجملة فالخَلَنْجِيّ الجيد علىٰ النصف من البسحاقى الجيد . قال التيفاشى : وأهل المَغْرِبِ أكثر الناس له طلبا وأشدّهم فى ثمنه مغالاة، وربما بلغوا بالفَصِّ منه عشرةَ دنانير مَغْرِبية ويَحْرِصون علىٰ التختم به، وربما زعموا أنه يدخل فى أعمال الكيمياء .

الصنف التاسع
(الدَّهْنَجُ)

وقد ذكر أَرَسْطوطاليس أنه ايضا حجر نُحَاسِىّ يتكوّن فى معادن النحاس يرتفع من أبخرتها وينعقد، لكنه لايوجد فى جميع معادن كَرْمَانَ وسِجِسْتَانَ من بلادفارس . قال : ومنه ما يؤتى به من غار بنى سُلَيْم من برية المغرب، فى مواضع أخرىٰ كثيرة .

وأجودأنواعه أربعة : وهى الافرنديّ، والهنديّ، والكَرْمَانىّ، والكركىّ؛ وأجوده فى الجملة الأخضر المُشْبَع الخضرة، الشبيه اللون بالزُّمُرُّدِ، معرّق بخضرة حسنة، فيه أَهِلَّة وعيون بعضها من بعض حسان، وأن يكون صُلْباً أملسَ يقبل الصَّقالة .

ومن خاصته فى نفسه أن فيه رخاوةً بحيث إنه إذا صنع منه آنية أو نُصُبٌ للسكاكين ومرت عليه أعداد سنين ، ذهب نوره لرخاوته وآنحل ، ولذلك إذا حُكَّ آنحك سريعا، وإذا خرط خرزا أو أوانى أو غيرَ ذلك، كان فى خرطه سهولة،

وإذا نقع فى الزيت آشـتدّت خضرته وحَسُن، فإن غُفِلَ عنـه حتّى يطول لُبْثُه فى الزيت، مال إلىٰ السواد .

ومن منافعه أنه إذا مسح به علىٰ مواضع لدغ العقرب، سكنه بعض السكون؛ وإذا سحق منه شيء وأذيب بالخل ودلك به موضعُ القوبة الحادثة من المِرَّة السوداء، أذهبها .

ومن عجيب خواصّه أنه إذا سقى من سُحَالته شارب سُمٍّ نفعه بعضَ النفع؛ وإن شَرِب منه من لم يشرب سمـا، كان سما مفْرِطا يُنَفِّطُ الأمعاء، ويُلْهِب البـدن، ويحدث فيه سما(١) لايبرأ سريعا، لاسيما إذا حُكَّ بحديدة؛ ومن أمسكه فى فيه ومصه أضرَّبه؛ وقيمته أن الافريدىّ الخالص منه كل مثقال بمثقالين من الذهب، ويوجد منـه فصوص وغيرها . وقد ذكر يعقوبُ بن إسحاق الكندىّ أنه رأىٰ منه صحفةً تسع ثلاثين رِطلا .

الصنف العاشر
(البِلَّوْر)

قال بلينوس : وهو حجر بُورَقِيٌّ وأصله الياقوتية إلا أنه قعدتْ به أعراضٌ عن بلوغ رتبة اليـاقوت؛ وقد آختلف أصحابنـا الشافعيةُ رحمهـم الله فى نفاسـته علىٰ وجهين، أصحهما أنه من الجوهر النفيس كالياقوت ونحوه، والثانى أنه ليس بنفيس لأن نفاسته فى صنعته لا فى جوهره . ويوجد بأماكن، منها برِّية العرب من أرض الحجاز وهو أجوده، ومنه مايؤتىٰ به من الصين وهو دونه، ومنه ما يكون ببلاد الفرنجة وهو فى غاية الجَوْدَة، ومنه معادن توجد بأَرْمِينِيَة تميل إلىٰ الصفرة الزجاجية . وقد ذكر التيفاشى أنه ظهر فى زمنه مَعْدِنٌ منـه بالقرب من مَرَّاكُش من المغرب

(١) فى مفردات ابن البيطار بثرا . وهى أوضح .

الأقصى إلا أن فيه تشعيرا، وكثر عندهم حتى فرش منه لملك المغرب مجلسٌ كبير: أرضا وحيطانا . ونقل عن بعض التُّجَّارِ أن بالقرب من غَزْنة من بلاد الهند على مسيرة ثلاثة عشر يوما منها بينها و بين كاشْغَر، جبلين من بلور خالص مطلّين على وادٍ بينهما وأنه يُقْطَعُ فى الليل لتأثير شُعَاعه إذا طلعت عليه الشمس بالنهار فى الأعين . وأجوده أصفاه وأنقاه وأشفُّه وأبيضه وأسلمُه من التشعير، فإن كان مع ذلك كبيرَ الجِرْمِ، آنية أو غيرها كان غاية فى نوعه . وقد ذكر الكندى أن فى البلور قطعا تخرج كل قطعة منه من المَعْدِنِ أكبر من مائة منّ . ونقل التيفاشى : أنه كان بقصر شهاب الدين الغورى صاحب غزنة أربعُ خوابٍ للماء كل خابية تسع ثلاث رَوَايَا ماء على محاملَ من بلور، كل محمل مابين ثلاثة قناطير إلى أربعة. وذكر أيضا أنه رأى منه صورةَ دِيك مخروط من صنعة الفرنج إذا صب فيه الشراب ظهر لونه فى أظفار الديك .

ومن خاصّتِه ما ذكره أو فرسطس الحكيم أنه يذوب بالنار كما يذوب الزجاج ويقبل الصِّبْغَ .

ومن خاصته أيضا أنه إذا استقبل به الشمس ووجه موضع الشعاع الذى يخرج منه إلى خِرْقَةٍ سوداءَ، احترقت وظهر فيها النار .

ومن منافعه أن من تختم به أو علقه عليه لم ير منام سوء . وقيمته تختلف بحسب كِبَرِ آنيته (١) وصغرها وإحكام صنعتها . قال التيفاشى : وبالجملة فالقطعة التى تحمل منه رطلا إذا كانت شديدةَ الصَّفاء سالمةً من التشعير، تساوى عشرة دنانير مصرية .

---

(١) مراده تزن ولكنه كثيرا مايستعمل بعض لغات العامة .

الصنف الحادى عشر
(المَرْجَانُ)

وهو حَجَر أحمرُ فى صورة الأشجار المتشعبة الأغصـان، ومَعْدِنه الذى يتكوّن فيه بموضع من بحر القُلْزُم بساحل إفريقية، يعرف بمرسى الخرز، ينبت بِقَاعِه كما ينبت النبات، وتُعْمَلُ له شِبَاك قوية مُثَقَّلة بالرَّصاص، وتدار عليه حتّى يَلْتَفّ فيها، ويجذب جذبا عنيفا فيطلُعُ فيها المَرْجَان . وربمـا وجد ببعض بلاد الفِرنْجَـة إلا أن الأكبر والأكثر والأحسن بمرسى الخرز، ومنـه يجلب إلى بلاد المشرق . ولأهل الهنـد فيه رغبةٌ عظيمة، وإذا آستخرج، حك على مِسَنّ المـاء، ويجلى بالسُّنْبَاذَجِ المعجونِ بالماء على رُخَامَةٍ فيظهر لونه، ويحسن، ويثقب بالفولاذ أو الحديد المسقّى . وأجوده ماعظم جِرْمه، وآستوت قَصَبَاته، وآشتدّت حُمْرته، وسَلِمَ من التسويس : وهوخروق توجد فى باطنه حتّى ربمـا كان منه شئٌ خاوٍ كالعَظْم، وأردؤه مامال منه إلى البياض أو كثرت عُقَدُهُ وكان فيه تشطيب، ولا سبيل إلى سـلامته من العُقَد لوجود التشعب فيه، فإن آتفق أن تَقَعَ منه قطعة مُصْمَتَة مستوية لاعُقَدَ فيها ولا تشطيبَ، كانت فى نهاية الجَوْدَة . وقد يوجد منـه قِطَع كِبَار فتحمَل إلى صاحب إفْرِيقِيَـةَ فيعمل له منها دُوِيٌّ وأنصِـبةُ سكاكينَ . قال التيفاشى : رأيت منهـا مَحْبَرَة طول شبر ونصف، فى عرض ثلاث أصابع، وآرتفاع مثلها، بغطائها فى غاية الحمرة وصفاء اللون . وقد ذكر آبن الطوير فى تاريخ الدَّولة الفاطمية بالديار المصرية وترتيبها : أنه كان لخلفـاء الفاطميين دَوَاة من المَرْجَان تُحمل مع الخليفـة إذا ركب فى المواكب العظام أمامَ راكب على فرس، كما سيأتى ذكره فى الكلام على المسالك والممـالك، فى المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ومن خاصته فى نفسه أنه إذا ألقى فى الخل لَانَ وآبيضَّ، وإن طال مكثه فيـه

آلخلّ، وإذا آتخذ منه خاتم أو غيرهُ ولُبِّس جميعه بالشمع ثم نقش فى الشمع بإبرة بحيث ينكشف جِرْم المَرْجَان وجعل فى خل الخمر الحاذق يوما وليلة أو يومين وليلتين ثم أخرج وأزيل عنه الشمع ، ظهرت الكتابة فيه حَفْرا بتأثير الخل فيه ، وبقية الخاتم على حاله لم يتغير . قال التيفاشى : وقد جربنا ذلك مرارا ؛ ومتى ألقى فى الدهن ظهرت حُمْرته وأشرق لونها .

ومن منافعه فيما ذكره الإسكندرُ أنه إذا علق على المصروع أو مَنْ به النِّقْرِسُ ، نفعه ؛ وإن أحرق وآسْتُنَّ به ، زاد فى بياض الأسنان وقلع الحفر منها وقوّى اللِّثَةَ ؛ وطريق إحراقه أن يجعَل فى كوز فخار ويُطيَّن رأسه ويوضع فى تَنُّور ليلة ؛ وإذا سحق وشَرِبَه من به عسر البول ، نفعه ذلك ؛ ويحلل أورام الطحال بشربه ، وإذا علق على المَعِدَة نفع من جميع عللها كما فى الزُّمُرُّد ؛ وإذا أحرق على ما تقدّم وشرب منه ثلاثة دوانق مع دانِق ونصف صمغ عربىّ ببياض البيض وشرب بماء بارد ، نفع من نَفْثِ الدم . قال التيفاشى : وقيمته بإفريقيَةَ غشيما الرطل المصرىّ من خمسة دنانيرَ إلى سبعة مَغْرِبية ، وهى بقدر دينارين إلى مايقاربهما من الذهب المصرى ، وبالإسكندرية على ضِعْفَىْ ذلك وثلاثةِ أضعافه ، ومن اسكندرية يحمل إلى سائر البلاد ؛ ويختلف سعره بحسَب قرب البلاد وبعدها ، وقلتِه ، وكثرته ، وصغره ، وجَوْدَتِه ، ورداءته ، وحسنِ صَنعته .

الصنف الثانى عشر
(البادزهر الحيوانىّ)

وهو حجر خفيف هَشّ . وأصل تكوّنه فى الحيوان المعروف بالأيِّل بتخوم الصين . وإن هذا الحيوان هناك يأكل الحيات ، قد آعتاد ذلك غذاء له ، فيحدث عن ذلك

وجود هذا الحجر منه على ماسيأتى بيانه، وقد آختلف الناس فى أىّ موضع يكون من هذا الحيوان، فقيل إنه يتكوّن فى مآقِى عينيه من الدموع التى تسقط من عينيه عند أكل الحيات ويتربّى الحَجَر حتّى يكبر فيحتكّ فيسقط عنه. وقيل يكون فى قلبه فيصاد لأجله ويذبح ويستخرج منه. وقيل فى مرارته. قال أرسطاطاليس: وله ألوان كثيرة منها الأصفر والأغبر المُشْرَبُ بالحمرة والمشرب بالبياض. وأعظم مايوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل. وأجوده الخالص الأصفر الخفيف الهَشّ. ويستدلّ على خلوصه بكونه ذا طبقات رِقاق متراكبة كما فى اللؤلؤ، وبه نقط خفية سُود، وأن يكون أبيض المَحَكّ مُرّ المذاق. قال التيفاشى: وكثيرا ما يُغَشّ فتصنع حجارة صغار مطبقة من أشياء مجموعة تشبه شكل البادزهر الحيوانىّ ولكنها تتميز عن البادزهر الحقيقىّ بأن المصنوع أغبر كَمِدُ اللون ساذَج غير منقط، والبادزهر الحقيقىّ الخالص أصفر أو أغبر بصفرة فيه نقط صغار كالنَّمَش، وطبقاته أرقّ من طبقات المصنوع بكثير، وهو أحسن من المصنوع وأهش ومَحَكّه أبيض.

ومن خاصته فى نفسه أن آحتكاكه بالأجسام الخشنة يخشّنه ويغيّر لونه وسائرَ صفاته حتّى لا يكاد يعرف. وقد ذكر التيفاشى أنه كان معه حجر منه، فجعله مع ذهب فى كيس وسافر به فآحتك بالذهب فتغير لونُه ونقص وزنُه حتّى ظَنّ أنه غير عليه، وأنه ربطه بعد ذلك فى خرقة وتركه أياما فعاد فى الصفة إلى ما كان، إلا أنه بَقِيَ على نقص ماذهب منه.

ومن منافعه دفع السموم القاتلة وغيرِ القاتلة، حارّةً كانت أو باردةً: من حيوان كانت أو من نبات، وأنه ينفع من عضّ الهوامّ ونهشها ولدغها، وليس فى جميع الأحجار ما يقوم مَقَامه فى دفع السموم. وقد قيل إن معنى لفظ بادزهر النافى للسم، فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى آثنتى عشرة شعيرة مسحوقة

أو مسحولة أو محكوكة علىٰ المِبْرَدِ بزيت الزيتون أو بالمـاء ، أخرج السم من جسده بالعَرَق ، وخلصه من الموت . وإذا سحق وذُرّ علىٰ موضع النهشــة جذب السم إلىٰ خارج وأبطل فعــله . قال آبن جمع : وإن حُكَّ منــه علىٰ مِسَنّ فى كل يوم وزن نصف دانِق وسـقيته الصحيح علىٰ طريق الآسـتعداد والآحتياط، قاوم السموم القَتَّالة ولم تخش له غائلة ولا إثارة خلط ؛ ومن تختم منــه بوزن آثنتى عشرة شعيرة فى فَصِّ خَاتَم ثم وُضِـع ذلك الفَصُّ علىٰ موضـع اللدغة من العقارب وسائر الهوامّ ذوات السموم، نفع منها نفعا بينا؛ وإن وضع علىٰ فم الملدوغ أو من سُقِى سما نفعه .

قلت : هذه هى الأحجار النفيسة الملوكية التى تلتفت الملوك إليها وتعتنى بشأنها، أما غيرها من الأحجـار كالبنفش ، والعقيق، والجَزْع، والمِغْناطيس، واليشم ، والسبج ، واللّازِوَرْد وغيرها مما ذكره المصـنفون فى الأحجار فلا آعتدادَ به ولا نظر إليه ولذلك أهملت ذكرَه .

النوع السـادس
(نفيس الطيب)

ويحتاج الكاتب إلى وصفه عند وصوله فى هَدِيَّةٍ وما يجرى مَجْرىٰ ذلك، والمعتبر منه أربعة أصناف .

الصنف الأوّل
(المِسْك)

وهو أجلُّها . قال محمد بن أحمدَ التميمىّ المقـدسى فى كتابه ”طيب العروس“ : وأصل المسك من دابة،ذات أربع،أشبهِ شئ بالظبى الصغير؛ قيل لها قرن واحد، وقيل قرنان؛ غير أن له نابين رقيقين أبيضين فى فكه الأسفل خارجين من فيه قائمين

فى وجهه كالخِنزير . قال بعض أهل المعرفة بالمسك : وهو فضلٌ دموىّ يجتمع من جسمها إلىٰ سرتها، بمنزلة الموادّ التى تَنْصَبُّ إلىٰ الأعضاء فى كل سنة فى وقت معلوم، فيقع الوَرَمُ فى سُرَّتِها ويجتمع إليها دم غليظ أسودُ فيشتدّ وجعها حتّى تُمْسِكَ عن الرَّعْيِ وورود المياه حتّى يسقط عنها .

ثم قيل إن تلك الظباءَ تصاد وتذبح وتؤخذ سُرَرُها بما عليها من الشعر، والمسك فيها دم عَبِيط : وهى النوافج؛ فإن كانت النافجة كثيرة الدم ، اكتفى بما فيها ؛ وإن كانت واسعة قليلة الدم ، زِيدَ فيها من غيرها؛ ويصب فيها الرصاص المذاب وتخاط بالخوص وتعلق فى حلق مستراح أربعين يوما، ثم تخرج وتعلق فى موضع آخر حتّى يتكامل جفافها وتشتد رائحتها ، ثم تُصَيَّرُ النوافج فى مزاودَ صغار وتخيطها التُّجَّار وتحملها . وقيل انه يبنىٰ لهذه الظباء حين يَعْرِض لها هذا العارض بناءٌ كالمنارة فى طول عَظْم الذراع لتأتىَ الظباء فتحك سُرَرَها بذلك البناء فتسقط النوافج، حتّى إنه يوجد فى تلك المراغة ألوفٌ من النوافج ما بين رَطْب وجامد .

ثم قيل إن هذه الظباء توجد بمفازات بين الصين وبين التُّبَّتِ والصُّغْد من بلاد الترك، وإن أهل التُّبَّتِ يلتقطون ما قرب إليهم، وقد قيل إن المسك يحمل إلىٰ التُّبَّت من أرض بينها وبين التُّبَّتِ مسيرةُ شهرين .

وبالجملة فإنه تختلف أسماء أنواعه باختلاف الأماكن التى ينسب إليها، إما باعتبار أصل وجوده فيها، وإما باعتبار مصيره إليها . وأجوده فى الجملة ماطاب مرعىٰ ظبيه، ومرعىٰ ظِبَائه النباتُ الذى يتخذ منه الطيب كالسنبل ونحوه ، ولا يخفىٰ أن بعضَ نبات الطيب أطيبُ رائحةً من بعض حتّى يقال إن منه ماراٮحته كرائحة المِسْك . وقيل أجوده ما كَمُل فى الظبى قبل بينونته عنه . وقال أحمد بن يعقوبَ : وأجود المسك فى الرائحة والنظر ما كان تُفَّاحِيًّا تشبه رائحتُه رائحةَ التفاح اللُّبْنَانِيّ،

وكان لونه يغلب عليه الصُّفْرة ، ومقاديره وسطا بين الجِلَال والرِّقَاق ، ثم ما هو أشدّ سوادا منه إلا أنه يقاربه فى الرأى والمنْظَر ، ثم ماهو أشدّ سوادا منه ، وهو أدناه قدرا وقيمةً . قال : وبلغنى عن تُجّار الهند أن من المسك صِنْفَين آخرين يُتَّخذان من نبات أرض : أحدهما لايفسد بطول المُكْث ، والثانى يفسد بطول المُكْث ؛ والمشهور منه عشرة أصناف .

ونحن نوردها علىٰ ترتيبها فى الفضل مقدّما منها فى الذكر الأفضلُ فالأفضل علىٰ ما رتبه أحمد .

الأول التُّبَّتى — وهو ما حمله التِّجّار من التُّبَّت إلىٰ خُراسانَ علىٰ الظهر لطِيب مَرْعاه، وحملِه فى البر، دون البحر .

الثانى الصُّغْدىّ — وهو ماحمِل من الصُّغْد من بلاد التُّرك علىٰ الظهر إلىٰ خُراسانَ .

الثالث الصِّينىّ — وإنما نقَصت رتبته لأن مَرْعاه فى الطِّيب دون مرعىٰ التُّبَّتىّ، ولما يلحَقُه من عُفُونة هواء البحر بطول مكثه فيه . وأفضل الصينىّ ما يؤتىٰ به من خانفو : وهى مدينة الصين العظمى ،وبها ترسو مراكب تجار المسلمين ، ومنها يحمل فى البحر إلىٰ بحر فارس ،فإذا قرب من بلد الأُبلَّة آرتفعت رائحته ، وإذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر .

الرابع الهندى — وهو ما يحمل من التُّبَّت إلىٰ الهند ثم يحمل من الهند إلىٰ الدَّبِيل ثم يحمل فى البحر إلىٰ سِيرافَ من بلاد العجم ، وعُمَان من البحْرين ، وعدَنَ من اليمن ، وغيرها من النواحى . وسبب آنحطاط رتبته عن الصينىّ وإن كان من جنس التُّبَّتى مع أنه أقربُ مسافةً من الصينىّ ما ذكره المسعودىّ : أنه إذا حمل إلىٰ الهند أخذه كَفَرة الهند فلطَّخوه علىٰ أصنامهم من العام إلىٰ العام ثم يبدِّلونه بغيره ، ويبيعه سدنةُ الأصنام فبِطُول مُكْثِه علىٰ الأصنام تضعف رائحته . علىٰ أن محمد بن العباس قد فضَّل الهندىّ علىٰ الصينى لقرب مسافة حمله فى البحر .

الخامس القنبارى – ويؤتىٰ به من بلد تسمّى قنبار بين الصين والتُّبَّت . قال أحمد بن يعقوب : وهو مِسْك جيد إلا أنه دون التبتى فى القِيمة ، والجوهر، واللون، والرائحة . قال : وربمـا غالطوا به فنسبوه إلىٰ التبتى .

السادس الطُّغُرْغزىّ – وهو مِسْــك رَزِين يضرب إلىٰ السَّواد، يؤتىٰ به من أرض الترك الطغرغز وهم التتر، وهو بطىء السحق، ولا يسلم من الخشونة إلا أنهم ربمـا غالطوا به أيضا .

السابع القصارىّ – ويؤتىٰ به من بلد يقال لهـا القصار بين الهند والصــين . قال ابن يعقوب : وقد يُلْحَق بالصينىّ إلا أنه دونه فى الجوهر والرائحة والقيمة .

الثامن الجَزِيرىّ – وهو مِسْك أصفرُ، حسَن الرائحة ، يشابه التبَّتىّ إلا أن فيه زَعَارة .

التاسع الجبلىّ – وهو مســك يؤتىٰ به من السِّند من أرض المولبان ، وهو كبير النوافج حسن اللَّوْن إلا أنه ضعيف الرائحة .

العاشر العصمارى – وهو أضعف أصــناف المِسك كلها وأدناها قيمة ، يخرج من النافجة التى زنتها أوقية زنةُ درهم واحد من المِسْك .

قلت : أمّا المسك الدارىُّ فإنه منسوب إلىٰ دارِينَ : وهى جزيرة فى بحر فارس معدودة من بلاد البحرين ترسو إليها مراكب تُجَّار الهند ، ويحمل منها إلىٰ الأقطار وليست بمعدِن للسك .

الصنف الثـانى

(العنــبر)

قال محمد بن أحمد التميمى : والأصــل الصحيح فيه أنه ينْبُع من صُخُور وعُيُون فى الأرض ، يجتمع فى قَرَار البحر، فإذا تكاثَفَ اجتذبته الدَّهَـانة التى هى فيه علىٰ

ٱقتطافه من موضعه الذى تعَلَّق به، وطَفَا علىٰ وجه المـاء، وهو حارّ ذائب فتَقَطَّعه الريحُ وأمواج البحر قطعا كبارا وصغارا فترمى به الريح إلىٰ السواحل، لا يستطيع أحد أن يدنو منه لشدّة حره وفوَرانه، فإذا أقام أياما وضربه الهواء جمد، فيجمعه أهلُ السواحل. قال أحمد بن يعقوب: وربمـا ابتلعته سمكة عظيمة يقال لهـا ا كيال وهو فائر فلا يستقرّ فى جوفها حتّٰى تموت فتطفُو ويطرحُها البحر إلىٰ الساحل فيُشَقُّ جوفُها ويُستخْرَج منها، ويسمّٰى العنبر السَّمَكِىّ، والعنبر المَبْلوع. قال التميمى: وهو فى لونه شبيه بالنار، ردىء فى الطيب: للسُّهوكة التى يكتسبها من السمك. قال: وربما طرح البحر القِطعة العنبر فيبصِرُها طائر أسودُ كالخُطَّاف فيرفرف عليها بجناحيه، فإذا سقط عليها ليختطف بِمنقاره منها تعلَّق منقاره ومخـاليبه بها فيموت ويبلىٰ ويبقىٰ منقاره ومخاليبه فيها، ويعرف بالعنبر المَناقِيرِىّ.

قال التميمى: ولأهل سواحل البحر التى يوجد بهـا العنـبر نُجُب يركبونها مؤدَّبةٌ تعرِف العنبر، يسيرون عليها فى ليالى القَمَر علىٰ شاطئ البحر فإذا رأت العنـبر وقد نام راكِبُها أو غفلَ، بركت بصاحبها حتّٰى ينزل عنها فيأخُذَه.

قال التميمى: وألوان العنبر مختلفةٌ. منها الأبيض: وهو الأشهب، والأزرق، والرَّمادى، والخزازى: وهو الأبرش، والصفايح: وهو الأحمر، وهمـا أدنى العنبر قَدْرا. قال: وأفضل العنبر وأجوده ما جمع قوّةَ رائحةٍ، وذكاءً بغير زعارة.

قال أحمد بن يعقوبَ: وأنواع العنبر كثيرة، وأصنافه مختلفة، ومعادنه متباينة. وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره، والذى وقفت علىٰ ذكره منه ستة أضرب.

الأوّل الشَّحْرِىّ ــ وهو ما يقذفه بحر الهند إلىٰ ساحل الشَّحْرِ من أرض اليمن. قال: وهو أجود أنواع العنبر، وأرفعه، وأفضله، وأحسنه لوناً، وأصفاه جوهرًا وأغلاه قيمةً.

الثانى الزَّنْجِىُّ ـ وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذُ من بحر الهند فى جهة الجنوب إلىٰ سواحل الزَّنج وما والاها . قال التميمى : وزعم الحسين بن يزيدَ السيرا فىّ أنه أجود العنبر وأفضله، ويؤتىٰ به منها إلىٰ عدن، ولونه البياضُ .

الثالث السلاهطى ـ قال التميمى : وأجوده الأزرق الدَّسِمُ الكثير الدُّهْن ، وهو الذى يستعمل فى الغَوالى .

الرابع القَاقُلِّىّ ـ وهو ما يؤتىٰ به من بحر قَاقُلَّةَ من بلاد الهند إلىٰ عَدَن من بلاد اليمن، وهو أشهبُ جيد الريح، حسن المَنْظَرِ خفيف،وفيه يبس يسير . وهو دون السلاهطى لا يصلح للغوالى إلا عن ضرورة. وهو صالح للذرائر والمُكَلَّسات .

الخامس الهِنْدِىّ ـ وهو مايؤتىٰ به من سواحل الهند الداخلة، ويحمل إلىٰ البَصْرَة وغيرها ؛ ومنه نوع يؤتىٰ به من الهند يسمّى الكرك بالوس ؛ يأتون به إلىٰ قرب عُمَانَ تشتريه منهم أصحاب المراكب .

السادس المَغْرِبِىُّ ـ وهو ما يؤتىٰ به من بحر الأَنْدَلُس فتحمله التُّجار إلىٰ مصر، وهو أردأ الأنواع كلِّها .وهو شبيه فى لونه بالعنبر الشَّحْرِىِّ .قال التميمى : ويغالط به فيه .

قال التميمى : ومن العنبر صنف يعرف بالنَّدّ، ونقل عن جماعة من أهل المعرفة أن دابة تخرج من البحر شبيهةً ببقر الوحش فتلقيه من دبرها فيؤخذ وهو لَيِّن يمتدُّ فما كان منه عَذْبَ الرائحة حسنَ الجوهر فهو أفضله وأجوده . قال : وهو أصناف أحدها الشَّحْرِىُّ : وهو أسودُ فيه صفرة ، يَخْضِبُ اليدَ إذا لُمِس، ورائحته كرائحة العنبر اليابس، إلا أنه لا بقاء له علىٰ النار . وإنما يستعمل فى الغوالى إذا عزَّ العنبر السلاهطى ؛ ومنه الزَّنْجِىُّ : وهو نظير الشَّحْرِىّ فى المَنْظَرِ ودونه فى الرائحة : وهو أسودُ بغير صُفْرَة؛ ومنه الخمرىُّ : وهو يَخْضِبُ اليد وأصولَ الشعر خَضْبا جيدا، ولا ينفع فى الطيب .

قلت : أمّا المعروف فى زماننا بالعنبر ممـا(١) يلبسه النساء فإنمـا يقال له النَّد، وفيه جزء من العنبر . قال فى نهاية الأرب : وهو علىٰ ثلاثة أضرب .

الأول المُثَلَّث ـ وهو أجودها وأعطرها، وهو يركّب من ثلاثة أجزاء : جزء من العنبر الطيِّب، وجزء من العود الهندىّ الطيّب، وجزء من المسك الطيب .

الثـانى وهو دونه أن يجعل فيه من العنبر الخام الطيّب عشرةُ مثاقيلَ، ومن النَّدِّ العتيق الجيد عشرةُ مثاقيل، ومن العود الجيد عشرون مثقالا .

الثالث ـ وهو أدناها أن يؤخذ لكل عشرة مثاقيلَ من الخام عشرةُ مثاقيلَ من النَّدِّ العتيق وثلاثون مثقالا من العود، ومن المسك ما أحب .

الصنف الثـالث
(العــود)

قال التميمىّ : أخبرنى أبى عن جمـاعة من أهل المعرفة أنه شجر عِظامٌ تنبت ببلاد الهنـد، فمنه مايجلب من أرض قِشْمير الداخلة : من أرض سَرَنْدِيبَ، ومن قَمَـارِ، وما آتصل بتلك النواحى، وأنه لاتصيرُ له رائحة إلا بعد أن يَعْتَق . ويُقَشَّر فإذا قشر وجفف، حمل إلىٰ النواحى حينئذ . قال : وأخبرنى بعضُ العلماء به أنه لا يكون إلا من قلب الشـجرة، بخلاف ما قارب القِشْر كما فى الآبَنُوس والعُنَّاب ونحوهمـا من الأشجار التى داخلها فيـه دَهَانَةٌ وما فى خارجها خشب أبيض، وأنه يقطَع ويقلَع ظاهره من الخشب الأبيض، ويدفن فى التراب سـنينَ حتّى تأكل الأرض ما داخله من الخشب ويبقىٰ العود لا تؤثر فيه الأرض .

وحكىٰ محمـد بن العباس أنه يكون فى أودية بين جبال شاهقـة، لا وصولَ

---

(١) مراده باللبس الاستعمال .

لأحد إليها لصعوبة مَسْلَكها، فيتكسر بعض أشجاره أو يتعفَّن بكثرة السـيول لِمَمَرّ الأزمان فتأكل الأرض مافيه من الخشب ويبقىٰ صميمُ العود وخالصُه فتجرّه السيول وتُخْرِجُه من الأودية إلىٰ البحر فتقذفُه الأمواج إلىٰ السواحل فيلتقطه أهلُ السواحل ويجمعونه فيبيعونه . ويقال إنه يأتى به قوم فى المراكب إلىٰ ساحل الهند فيقفون علىٰ البعد بحيث لاترىٰ أشخاصهم، ثم يطْلُعون ليلا فيضعونه بفرضة تلك البلاد، ويخرج أهل البلد نهارا فيضعون بإزائه بضائعَ ويتركونها إلىٰ الليل، فيأتى أصحابُ العود فَمَنْ أعجبه ما بإزاء متـاعه أخذه وإلا تركه ؛ فـيزيدونه حتّى يُعْجِبَه فيأخذه، كما يحكىٰ فى السَّمُّورِ وغيره فى ساكنىٰ أقصىٰ الشّمال .

وأجود العود ما كان صُلْبًا، رزينا، ظاهرَ الرُّطوبة، كثير المائية والدُّهْنية، الذى له صبر علىٰ النار، وغَلَيَانٌ، وبقاء فى الثياب .

أمّا اللون فأفضـله الأسود والأزرق الذى لا بيـاض فيه ؛ ثم منهم من يفضل الأسود علىٰ الأزرق ؛ ومنهم من يفضـل الأزرق علىٰ الأسود .

وهو علىٰ ثمـانية عشر ضربا .

الأول المَنْدَلِىُّ — نسبة إلىٰ مَعْدِنِه ؛ وهو مكان يقال له المَنْدَلُ من بلاد الهند . قال محمد بن العباس الخشيكى : وهو أرفع أنواع العُود وأفضـلُها وأجودُها وأبقاها علىٰ النار وأعبقها بالثياب . علىٰ أن التُّجَّار لم تكن تَجْلُبُه فى الجاهلية وإلىٰ آخر الدولة الأُمَوِيَّةِ، ولا ترغب فى حمله للمرارة فى رائحته (١) إلىٰ أن دخل الحسين بن بَرْمك إلىٰ بلاد الهند هاربا من بنى أمية ، ورأىٰ العود المندلىّ فآستجاده ورغَّب التجارَ فى حمله ، فلما غلب بنو العباس علىٰ بنى أمية، وحضر بنو برمك إليهم وقرَّبوهم، دخل الحسين

(١) هكذا بالاصل .

آبن برمك يوما على المنصور فرآه يتبخر بالعود القَمَارِىّ فأعلمه أن عنده ماهو أطيب منه، فأمره بإحضاره، فأحضره إليه فاستحسنه، وأمر أن يكتب إلى الهند بحمل الكثير منه، فاشتهر بين الناس وعز من يومئذ، وآحتمل مافيه من مرارة الرائحة وزعارتها لأنها تقتل القمل وتمنع من تكوّنه(١) فى الثياب .

الثانى القَامِرُونىّ — وهو مايجلب من القامِرُون : وهو مكان مرتفع من الهند. وقيل القامِرُون آسم لشجر من شجر العود ؛ وهو أغلى العودِ ثمنا وأرفعه قدرا .

قال التميمى : وهو قليل لايكاد يُجْلَب إلا فى بعض الحِين ؛ وهو عود رطب جدّا، شديد سوادِ اللون، رزينٌ، كثير المـاء . وذكر الحسين بن يزيد السيرافىّ أنه ربما ختم عليه فآنطبع وقَبِلَ الختمَ للينه . قال : ويكون فيه ما قيمة المنّ منه مائتا دينار .

الثالث السَّمَنْدُورىّ — وهو مايجلب من بلاد سَمَنْدُور، وهى بلد سُفالَةَ الهند، ويسمّى لطيب رائحته رَيْحَانَ العود، وبعضه يفضُل بعضا . قال التميمى : وتكون القطعة الضخمة منه منًّا واحدا .

الرابع القمارِىّ — وهو ما يجلب من قَمَـار، وهى أرض سُفالَةَ الهند، وبعضه يفضل بعضا أيضا، وتكون القطعة منه نصفَ رطل إلى مادون ذلك .

الخامس القَاقُلِّىّ — وهو ما يجلب من جزائر بحر قَاقُلَّة ، وهو عود حسن اللون ، شديد الصَّلابة دسِم ، فيه رَيْحَانِيَّة خُمْرَةٍ، وله بقاء فى الثياب إلا أن قُتَارَهُ ربمـا تغير على النار فينبغى أن لا يُستقصَى إلى آخره .

السادس الصَّنْفِىّ — وهو ما يجلب من بلد يقال لها الصَّنْف ببلاد الصين، وهو من أحلى(٢) الأعواد وأبقاها فى الثياب . قال التميمى : ومنهم من يفضـله على القَاقُلِّىّ ويرى أنه أطيب وأعبق وآمن من القُتَار، وربما قدّموه على القَمَارِىّ أيضا . قالوا :

(١) فى الاصل تلوثه وهو تصحيف (٢) فى ياقوت . وهو من أردإ العود لافرق بينه و بين الخشب الااليسير .

وأجود الصَّنفِىّ الأسودُ الكثير المـاء، وتكون القطعة منه مَنًّا وأكثر وأقلّ. ويقال إن شجره أعظم من شجر الهندىّ والقَمارِىّ .

السابع الصندفورى — وهو ما يجلب من بلاد الصندفور من بلاد الصين، وهو دون الصَّنْفِىّ . ويقال إنه صِنْفٌ منه ولذلك كانت قيمته لاحقةً بقيمته، وفيه حسن لون وحلاوة رائحة، ورَزَانة، وصَلَابة؛ إلا أنه ليس بالقِطَع الكبار .

الثامن الصِّينِىّ — ويؤتى به من الصِّينِ ، وهو عود حسن اللون ، أوّل رائحته تشا كل رائحة الهندىّ إلا أن قُتَارَهُ غير محمود ، وتكون القطعة منه نصف رطل وأكثر وأقلّ .

التاسع القطعى — وهو عود رطب حلو طيب الرائحة، وهو نوع من الصِّينِىّ .

العاشر القسور — وهو عود رطب حُلْوُ طيّب الرائحـة؛ وهو أعذب رائحةً من القطعىّ إلا أنه دونه فى القيمة .

الحـادى عشر الكاهى — وهو عود رطب يمضغ ، وفيه زَعَارَةٌ، وشدّة مرارة للدّهانة التى فيه، وهو من أعبق الأعواد فى الثياب وأبقاها .

الثـانى عشر العولاتى — وهو عود يجلب من جزيرة العولات بنواحى قَمـار من أرض الهند .

الثالث عشر اللوقينى — وهو مايجلب من لوقين : وهى طرف من اطراف الهند وله خُمْرَةٌ فى الثياب إلا أنه دون هذه الأعواد فى الرائحة والقيمة .

الرابع عشر المـانطائى — وهو ما يجلب من جزيرة ما نطاء، وقيمته مثـل قيمة اللوقينى، وهو خفيف ليس بالحسن اللون . قال أحمد بن العباس : وهو قطع كبار، مُلْسٌ لا عُقَدَ فيها إلا أن رائحته ليست بطيبة وإنمـا يَصْلُح للأدوية .

الخامس عشر القندغلى — ويؤتى به من ناحيـة كَلَه (١) ، وهى ساحل الزنج ، وهو يشبه القَمَارِى إلا أنه لاطِيبَ لرائحته .

السادس عشر السمولى — وهو عود حسن المَنْظَرِ، فيه خُمْرَةٌ وله بقاء فى الثياب .

السابع عشر الرانِجِىُّ — وهو عود يشـبه قرون الثيران ، لا ذَكاءَ له ، ولا بقاءَ فى الثياب .

الثامن عشر المُحَرَّم — سمى بذلك لأنه قد وقع بالبصرة فشـكَّ الناس فى أمره ، فحرّمه السلطان ومنعه فسمى المحرّم ، وهو من أدنى أصناف العود ، وجعل بعضهم بين الصَّنِفِىِّ والقَاقُلِّىّ صِـنْفا يقال له العطلى يؤتى به من الصِّـينِ ، وهو عود صُلْبٌ خفيف حسن المَنْظَر إلا أنه قليل الصبر على النار . وقد ذكر أحمد بن العباس بعد ذلك أصنافا من العود ليست بذات طائل . منها الأفليق — وهو عود يؤتى به من أرض الصِّينِ ، يكون فى العِظَم مثل الخَشَب الرانجى الغِلاظ يباع المنّ منه بدينار وأقل وأكثر . والعود الطيب الريح فى قشوره ، وداخلُه خشب خفيف مثـل الخلاف ، وإذا وضع على الجمر وجد له فى أوّله رائحة حُلْوَةٌ طيبة ، فإذا أخذت النار منه ظهرت منه رائحة رديئة كرائحة الشعر .

الصـــــنف الرابع
(الصَّنْدَل)

وهو خشب شجر يؤتى به من سُفَالة الهند ، وهو على سبعة أضرب .

الأوّل المَقَاصِيرىّ — وهو الأصفر ، الدَّسِم ، الرَّزِين ، الذى كأنه مُسِحَ بالزَّعْفران الذكىّ الرائحة . واختلف فى سبب تسميته بالمقاصيرىّ فقيـل نسبة إلى بلد تسمّى

---

(١) الذى فى معجم البلدان لياقوت أنها كَلْوَة وأما كَلَه فقد قال إنها فرضة بالهند اهـ .

مقاصير، وقيل إن بعض خلفاء بنى العباس آتخذ لبعض أمهات أولاده ومَحَاظِيِّه بمقاصيرَ منه؛ وهو شجر عظام يُقْطَع رطبا، وأجوده ما آصـفرّ لونه وذكت رائحتـه ولم يكن فيه زَعَارة . قال التميمى : وهو يدخل فى طيب النساء : الرطب واليابس؛ وفى البرمكيات، والمثلثات، والذَّرائر، ويتخذ منه قلائد، ويدخل فى الأدوية؛ ويقال إن صاحب اليمن الآن يعمل له منه الأَسِرّةُ وإنه يأمر بقطع مايحمل منـه من اليمن إلىٰ غيرها من البلاد قِطَعا صغارا حتّى لا يكون منها مايعمل سريرا لغيره من الملوك .

الثـانى الأبيض منه الطيب الريح ــ وهو من جنس المقاصيرى المتقدّم ذكره لايخالفه فى شىء إلا فى البياض؛ ويقال إنّ المقاصـيرى هو باطن الخشب وهذا الأبيض ظاهره .

الثالث الجَوْزى ــ وهو صُلْب العود أبيض، يَضْرِب لونُه إلىٰ السُّمْرة، ويؤتىٰ به من موضع يقال له الجَوْز، وهو طيب الرائحةِ إلا أنه أضعف رائحة من الذى قبله .

الرابع الساوس ويقـال الكاوس ــ وهو صـندل أصفرُ طيب الرائحة إلا أنّ فى رائحته زعارةً، ويستعمل فى الذرائر، والمثلثات : فى الطيب والبَخُورات .

الخامس، يضرب لونه إلىٰ الحمرة ــ وهو علىٰ نحو من الذى قبله .

السادس صـندل جعد الشعرة ــ لا بَسَاطةَ فيه إذا شقق بل يكون فيه تجعيد كما فى خشب الزيتون، وهو أذكى أصناف الصندل إلا أنه لايستعمل فى شىء سوىٰ البَخُورات والمثلثات .

السابع أحمر اللون ــ وهو خشب حسن اللون، ثقيـل الوزن لا رائحة له، إلا أنه تتخذ منه المنجورات والمخروطات كالدُّوِىّ وقِطَع الشِّطْرَنْج ونحوها مع ما يدخل فيه من الأعمـال الطيبة .

قلت : هذا ما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه من أصناف الطيب النفيسة مما يهدىٰ أو يرد هدية، ويجرى ذكره فى مكاتبات الملوك، أما ماعدا ذلك من أصناف الطيب كالسُّنْبُلِ، والقَرَنفلِ، والكافور، فليس من هذا القبيل .

النوع السابع

(ما يحتاج إلىٰ وصفه من الآلات : وهى أصناف)

الصنف الأوّل

(الآلات الملوكيـــــة)

ويحتاج الكاتب إلىٰ وصفها عند وصف المواكب الحفيلة ، التى يركب فيها السلطان وهى عدّة آلات .

منها الخَاتَمُ بفتح التاء وكسرها، وحكىٰ فيه ٱبن قتيبة والجوهرىُّ وغيرهما خَيْتام وخَاتَام، وهو مايجعل فى الإصبع من الحلىّ، وهو مأخوذ من الختم، وهو الطبع : سمى بذلك لأنه يختم بنقشه علىٰ الكتب الصادرة عن الملوك . وسيأتى فى الكلام علىٰ خَتْم الكتب "أن النبى صلى الله عليه وسلم أرادَ أنْ يكتُبَ إلىٰ بعض ملوك الأعاجم فقيل له إنهم لا يَقْرءُون كتابا غيرَ مختومٍ فٱتخذ خَاتَما من وَرِقٍ وجعل نقشه محمد رسول الله وٱقتدىٰ به فى ذلك الخلفاء بعده ، ثم توسعوا فيه إلىٰ أن جعلوا للكتب طَابَعا مخصوصا وأفردوا له ديوانا سموه "ديوان الخاتم" وٱقتفىٰ الملوك أَثَرهم فى ذلك، ثم غلب بمملكتنا وماناهزها الاكتفاءُ فى المكاتبات باللِّصاق، وصار ٱسم الخاتَم مقصورا علىٰ ما يجعل فى الإصبع خاصة سواء كان فيه نقش أم لا ، وصارت الملوك إنما تَلْبَسُ الخواتم بفصوص الجواهر من اليواقيت ونحوها تَجَمُّلًا ، وربما بَعَثَتْ بها فى تأمين الخائف علامة للرضا عليه والصفح عما جناه وٱقترفه .

ومنها المِنْديل بكسر الميم ، وهو مِنْديل يُجعل فى المِنْطَقَةِ المشدودة فى الوسط مع الصولق وغيره ، ثم جرى ٱصطلاح الملوك على البَعْثِ به فى الأمانات كما تقدّم فى الخاتم ؛ والمِنْديل آلة قديمة للملوك ؛ فقد حكى أنه كان للأفضل بن أمير الجيوش أحدِ وزراء الفاطميين مائةُ بَدْلة معلقة على أوتاد من ذهب ، على كل بَدْلة منها مِنْديل من لونها ؛ ولم يكن المنديل من آلات الخلافة بل إنما كان من آلاتها البُرْدَةُ على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها التَّخْتُ ، ويقال له السرير : وهو مايجلِسُ عليه الملوك فى المواكب ؛ ولم يزل من رسوم الملوك قديما وحديثا ، رفعةً لمكان الملك فى الجلوس عن غيره حتّى لا يساويه غيرُه من جُلسَائه ؛ وقد أخبر تعالى فى كتابه العزيز أنه كان لسليمان عليه السلام كرسىٌّ بقوله "وأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا" ورأيتُ فى بعض التواريخ أنه كان له كرسىٌّ من عاج مُغَشًّى بالذهب .

ثم هذه الأسِرَّة تختلف بٱختلاف حال الملوك ، فتارة تكون من أبنية : رُخام ونحوه ، وتارة تكون من خشب ، وتارة من فُرُشٍ محشوّة متراكبة ؛ وقد حكى أنه كان لملوك الفُرْس سريرٌ من ذهب يجلسون عليه ؛ وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو أمير مِصْرَ يجلس مع قومه على الأرض غير مرتفع عليهم ، ويأتيه المُقَوْقِسُ ومعه سرير من ذهب ، يحمل معه على الأيدى ، فيجلس عليه فلا يمنعه عمرو من ذلك ، إجراءً له على عادته فى المُلْكِ فيما قيل ، لما عقده له من الذمّة وٱتخذه معه من العهد .

ومنها المِظَلَّةُ ، وٱسمها بالفارسية الجتر بنون بين الجيم والزاى المعجمة ، ويعبر عنها العامّة الآنَ بالقُبَّة والطَّيْر : وهى قبة من حرير أَصْفر ، تحمل على رأس الملك ، على رأس رمح بيد أمير يكون راكبا بحذاء الملك ، يُظِلُّهُ بها حالةَ الركوب من الشمس فى المواكب

العِظام؛ وسيأتى ذكرها فى الكلام على ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية . وهذه الدولة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها الرَّقَبَةُ : وهى لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر، قد طُرِّزت بالذهب الزَّرْكَش حتّى غلب عليها وصار الحرير غيرَ مرئىّ فيها، تشدّ على رقبة فرس المَلِك فى المواكب العظام لتكون مضاهيةً لما يركب به من الكنبوش الزركش المغطّى لظهر الفرس وكَفَله .

ومنها الغاشِيَةَ، وهى غاشية سَرْج من أديم مخروزةٌ بالذهب، يظنها الناظر كلَّها ذهبا، يلقيها على يديه يمينا وشمالا .

ومنها الجفتاه، وهى فَرَسَان أشهبان قريبا الشبه، برقبتين من زركش، وعدّة تضاهى عدّة مركوب السلطان كأنهما مُعَدَّان لأن يركبهما السلطان، يعلوهما مملوكان من المماليك السلطانية قريبَىِ الشبه أيضا، على رأس كل منهما قُبَّعَةٌ من زَرْكَشٍ مشابه للآخر .

ومنها المِنْطَقَةُ بكسر الميم : وهى مايشدّ فى الوسط، وعنها يعبِّر أهل زماننا بالحِيَاصة، وهى من الآلات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين : علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه كان له مِنْطَقَةٌ . وهذه الآلة قد ذكرها فى "التعريف" فى الآلات الملوكية، على أن ملوك الزمان لم تجرِ لهم عادةٌ بشدّ مِنْطَقَةٍ، وإنما يُلْبِسها الملكُ للأمراء عند إلباسهم الخِلعَ والتشاريفَ، وهى تختلف بحسب اختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصّع بالفُصُوص، ومنها ماليس كذلك .

ومنها الأعلام: وهى الرايات التى تُحْمل خلف السلطان عند ركوبه، وهى من شعار المُلْك القديمة؛ وقد ورد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْقِدُ لأمراء

سراياه الراياتِ عنـد بَعْثها ؛ ثم قد يعبَّرُ عن بعضها بالعصائب جمع عِصَابة : وهى الألوية، أخذا من عصابة الرأس: لأن الراية تَعْصِبُ رأس الرمح من أعلاه؛ وقد يعبر عنها بالسَّنَاجق جمع سَنْجَقٍ ، والسَّنْجَق باللغـة التركية معناه الطعن ؛ سميت الراية بذلك لأنها تكون فى أعلىٰ الرمح، والرمح هو آلة الطعن يسمّٰى بذلك مجازا .

ومنها الطُّبُول ، ويقال لها الدَّبَادِبُ ، والبُوقَاتُ، والزمر المعروف بالصهان الذى يُضْرَبُ به عشيَّةَ كل ليلة بباب الملك وخلفَه إذا ركب فى المواكب ونحوها ، وهى المعبر عنها بالطَّبْلَخَانَاه، وهى من شعار المُلْك القديم . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن الطبل فى بلاد المَغْرِب يختص ضربه بالسلطان دون غيره من كل أحد كما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مملكة المغرب فى المسالك والممـالك إن شاء الله تعالىٰ . والسر فيها إرهابُ العدو، وتخذيلُه كما كتب به أرسْطُو فى كتاب "السياسة" للإسكندر، أو تقويةُ النفوس وتشجيعُها علىٰ الحرب كما قاله الغزالى رحمـه الله فى "الإحيـاء" وكلمـا كثرت أعدادها ، كان أفخم لشأن المَلِك وأبلَغ فى رفعـة شأنه . وقد حكى أن دبادب الإسكندر كانت أربعين حملا .

قلت : وقد ذكر فى "التعريف" من جمـلة الآلات الملوكية الدواةُ، والقـلمُ، والمِرْمَلَةَ . ولا يخفىٰ أنها بآلات الكُتَّابِ أليق وإن كان السلطان لا يسـتغنِى عنها؛ وسيأتى الكلام عليها فى الكلام علىٰ آلات الكتابة من هذه المقالة إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــنف الثانى

(آلات الركوب ــ وهى عدّة آلات)

منها السرج ــ وهو ما يقعُد فيـه الراكب علىٰ ظهر الفرس ؛ واشكال قوالبـه مختلفة؛ ثم من السرج مايكون مُغَشًّى بالذهب، وهو ممـا يصلح للملوك .

ومنها مايكون مغشًّى بالفضة البيضاء، وكل منها قد يكون منقوشا وقد يكون غير منقوش، ومنها ما يكون بأطراف فضة، ومنها مايكون ساذَجا .

ومنها اللِّجام — وهو الذى يكون فى فَكِّ الفرس يمنعه من الجِمَاح؛ وقوالبه أيضا مختلفة؛ ثم منها مايكون مطلِيًّا بالذهب، ومنها مايكون مطلياً بالفضة، ومنها مايكون ساذَجًا، ومنها مايكون رأسه وجنباه محلًّى بالفضة، ومنها مايكون غير محلًّى .

ومنها الكنبوش — وهو مايستر به مؤخرُ ظهر الفرس وكَفَلُه ؛ وهو تارةً يكون من الذهب الزركش، وتارةً يكون من المخايش : وهى الفِضة المُلَبَّسَةُ بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم؛ و به يركب القضاةُ وأهلُ العلم .

ومنها العباءة بالمدّ — وهى التى تقوم مقام الكنبوش .

ومنها المِهْمَازُ — وهو آلة من حديد تكون فى رِجْل الفارس، فوق كعبه، فوق الخف وما فى معناه؛ ومؤخره إصبع محدَّدُ الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحرّكت وأسرعت فى المشى أو جدّت فى العَدْوِ . وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من فِضَّة، وتارة يكون من حديد مَطْلِىٍّ بالذهب أو الفضة؛ وقد اعتاد القضاة والعلماء فى زماننا تركَهُ .

ومنها الكُور — وهو ما يقْعُد فيه الراكب فى ظهر النجيب : وهو الهَجِين، والعرب تسميه الرَّحْلَ؛ ثم قد يكون مقدّمه ومؤخره مغشًّى بالذهب أو الفضة، وقد يكون غير مغشًّى .

ومنها الزِّمَام — وهو ما يُقاد به النَّجيب، و يَضْبِطُه به الراكب كما يَضْبِطُ الفارس الفرس بالعِنَان .

ومنها الرِّكَابُ — وهو ماتجعل فيه الرِّجْلُ عند الركوب، وكانت العرب تعتاده

من الجلد والخشب ، ثم عُدِل عن ذلك إلىٰ الحـديد . قال أبو هلال العسكرىّ : فى كتابه "الأوائل" وأوّل من ٱتخذه من الحديد المُهَلَّبُ بنُ أبى صُـفْرَة ، وكانت رُكُبُ العرب من خَشَب فكان الفارس يصُكُّ الراكب (١) بركابه فيوهن مِرْفَقَه .

ومنها السَّوْط ـ وهو ما يكون بيـد الراكب يَضْرِبُ به الفرسَ أو النجيبَ ، وأهل زماننا يعبرون عنه بالمِقْرعة لأنه يُقْرَع به المركوب إذا تقاعس، وهو بدل من القضيب الذى كان للخلفاء علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثـالث

(آلات السفر، وهى عدّة آلات)

منها المِحَفَّةُ بكسر الميم : وهى مَحْمِلٌ علىٰ أعلاه قُبَّة ،وله أربعة سواعد : ساعدان أمامَها وساعدان خلفَها، تكون مغطاة بالجوخ تارة و بالحرير أخرىٰ، تُحْمَل علىٰ بغلين أو بعيرين يكون أحدهمـا فى مقدّمتها، والآخر فى مؤخرتها، إذا رَكِبَ فيها الراكب صار كأنه قاعد علىٰ سرير، لا يلحقـه ٱنزعاج ، وقد جرتْ عادة المـلوك والأكابر باستصحابها فى السفر خشية مايَعْرِضُ من المرض .

ومنها المِحْمَلُ (٢) بكسر الميم الأولى وفتح الثانية :وهو آلة كالمِحَفَّةِ إلا أنه يحمل علىٰ أعلىٰ ظهر الجمل بخلاف المِحَفَّةِ فإنها تحمل بين جملين أو بغلين .

ومنها الفَوَانيس، جمع فانُوس ، وهى آلة كُرِيَّةٌ ذات أضلاع من حديد، مغشَّاةٌ بخرقة من رقيق الكَتَّانِ الصافى البياض يتخذ للاستضاءة بغرز الشمعة فى أسفل باطنه

---

(١) لعله المركوب.

(٢) ضبطه فى القاموس والصحاح كمجلس . ولعل ما فى الأصل لغة ثانية نظرا لكونه آلة .

فيشفُّ عن ضوئها ، ومن شأنها أن يحمل منها اثنان أمامَ السلطان أو الأمير فى السفر فى الليـــل .

ومنهـا المَشَاعل جمع مَشْـعَل : وهى آلة من حديد كالقَفَص مفتوحُ الأعلىٰ ، وفى أسفله خرقة لطيفة ، توقد فيه النار بالحطب فيبسط ضوءه ، يحمل أمام السلطان ونحوه فى السفر ليلا أيضا .

ومنها الخِيَام جمع خَيْمةٍ ، ويقال لهـا الفُسْطَاطُ والقُبَّة أيضا : وهى بيوت تتخذ من خِرَق القطن الغليظ ونحوه ، تحمل فى السـفر لوقاية الحرّ والبرد ، وكانت العرب تتخذها من الأديم ، وقد آمتنَّ الله تعالىٰ عليهم بذلك فى قوله تعالىٰ "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ" والملوك تتناهىٰ فى سَعَتِها، وتتباهىٰ بكبرها . وسـيأتى فى الكلام علىٰ ترتيب الدولة الفاطميـة أنه كان لبعض خلفائهـم خَيْمةٌ تسمّى القاتول سميت بذلك لأن فَرَّاشًا من الفَرَّاشين وقع من أعلىٰ عمودها فمـات لطوله .

ومنها الخركاه : وهى بيت من خشب مصنوع علىٰ هيئة مخصوصة ويغشّى بالجوخ ونحوه ، تحمل فى السفر لتكون فى الخيمة للبيت فى الشتاء لوقاية البرد .

ومنها القُدُورُ، جمع قِدْرٍ: وهى الآلة التى يطبخ فيها وتكون من نُحَاس غالبا ، وربما كانت من بِرَام . والملوك تتباهىٰ بكثرتها وعِظَمِها : لأنها من دلائل كرم الملك وكثرة رجاله ، وقد أخبر الله تعالىٰ عن سليمان عليه السـلام بعظيم قَدْرِ ما كانت الجن تعمله له من القُـدُور بقوله "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَـاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ" .

ومنها الأَثَافِيّ ، وهى الآلة المثلثة التى تعلَّق عليها القدْر عند الطبخ ، وتكون من حـــديد .

ومنها النار التى يوقد بها للطبخ ونحوه؛ وقد تقدم فى الكلام على نيران العرب ذكر نار القِرىٰ، وهى نار كانت تُرْفَعُ ليلا ليراها الضيف فيهتدىَ بها إلى الحىّ .

ومنها الجِفَانُ جمع جَفْنَةٍ : وهى الآنية التى يوضع فيها الطعام، وقد تقدّم فى الكلام على القدور أنها ممـا كانت الجن تعمله لسليمان عليه السـلام أيضا . وقد كانت العرب تفتخر بِكِبَرِ الجِفَانِ لدلالتهـا على الكرم ، وفى ذلك يقول الأعشىٰ فى مدح الْمُحَلَّق ليلَةَ بات عليه :

نفىٰ الذَّامَ عَنْ آلِ الْمُحَلَّق جَفْنَةٌ * كَجَابِيَةِ الشَّـيْخِ العِرَاقِىّ تَفْهَقُ

قيل أراد بالشيخ العراقىّ كِسْرىٰ، فشبه جفنته بجفنته .

ومنها حِيَاضُ المـاء : وهى حياض من جلد تحمل فى السفر ليبقىٰ المـاء فيها لسقى الدَّوابّ ونحوها، وكِبَرُ قَدْرها دليل على رِفْعة قدر صاحبها ونخامته : لدلالتها على كثرة دوابه، وآتساع عَسْكره .

الصـــنف الرابع

(آلات السلاح ؛ وهى عدّة آلات)

منهـا السَّيف : وهو معروف . وسيأتى فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أنه مأخوذ من قولهم : ساف إذا هَلَكَ لأنه به يقع الْهُلْكُ .

وآعلم أن السيف إن كان من حديد ذَكَرٍ : وهو المعبَّر عنه بالفُولاذ، قيل سيف فُولاذ ، وإن كان من حديد أنثىٰ : وهو المعبر عنه فى زماننا بالحديد ، قيل سـيف أَنِيث ؛ فإن كان متنهُ من حديد أنثىٰ وحدّاه من حديد ذكر كما فى سيوف الفِرِنْجَةِ ، قيل سـيف مُذَكَّر ؛ ويقال إن الصاعقة إذا نزلت إلى الأرض وردّت (١) ، صارت حديدا ، وربما حفر عليها وأخرجت فطبعت سيوفا ، فتجىء فى غاية الحُسْنِ والمَضَاءِ .

(١) هكذا فى الأصل ولعلها مصحفة عن بردت .

ثم إن كان عريض الصَّفيح ، قيل له صَفيحة ؛ وإن كان محدقا لطيفا ، قيل له قَضيب ؛ فإن كان قَصِيرا قيل أبْتَر ؛ فإن كان قِصَرُه بحيث يحمل تحت الثياب ويُشتمَل عليه ، قيل مِشْمَلٌ بكسر الميم ؛ فإن كان له حدّ واحد وجانبه الآخر جاف، قيل فيه صَمْصامة ، وبهذا كان يُوصَفُ سيفُ عمرو بن معدى كرب فارس العرب . فإن كان فيه حُزُوز مستطيلة قيل فيه فَقَارات، وبذلك سمى سيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذا الفَقَار ، يروى أنه كان فيه سبعَ عشرةَ فَقَارة . ثم تارة ينسب السيف إلى الموضع الذى طبع فيه ، فيقال فيما طبع بالهند هِنْدىٌّ ومُهَنَّد ، وفيما طبع باليمن يَمانٍ ، وفيما طبع بالمَشَارف : وهى قُرًى من قُرى العرب قريبة من رِيف العِراق ، قيل له مَشْرَفِىٌّ ؛ فإن كان من المعدن المسمّى بقُسَاس : وهو معْدن موصوف بجَوْدة الحديد قيل له قُسَاسىّ ، وتارة ينسب السيفُ إلى صاحبه كالسيف السُّرَيْجىّ نسبة إلى قَيْن من قُيُون العرب آسمه سُرَيج معروف عندهم بحُسْن الصنعة . ويوصف السيف بالحُسَام : وهو القاطع أخذا من الحَسْم : وهو القطع ، وبالصارِم : وهو الذى لاينبو عن الضَّرِيبة . والناس يبالغون فى تحلية السُّيوف فتارة تُرصَّع بالجواهر ، وتارة يُحَلُّونها بالذهب ، وتارة يحلونها بالفِضة ؛ وإن كان الاعتبار إنما هو بالسيف لا بالحِلية .

ومنها الرُّمْح : وهو آلة الطعن . والرماح ضربان : أحدهما متَّخَذ من القَنَا ، وهو قَصَب مسدود الداخل ، ينبُت ببلاد الهند يقال للواحدة منه قَنَاة ، ويقال لمَفَاصلها أنابيبُ ، ولعُقَدها كُعُوب ؛ فإن كان قد نشأ فى نباته مستقيما بحيثُ لا يحتاج إلى تثقيف ، قيل له الصَّعْدة ــ بفتح الصاد وسكون العين المهملتين ، وإن آحتاج إلى تقويم مقوّم قيل له مثقَّف . ويُوصَف القنا بالخطّىّ ــ بفتح الخاء المعجمة ، نسبة إلى

(١) لعله مدققا (٢) كذا بالاصل . وصوابه مطمئنة كما فى المخصص واللسان .

الخَطّ : وهى بلدة بالبحرين تجلَبُ إليها الرِّماح من الهند ، وتنقل منها إلىٰ بلاد العرب، وليست تُنْبِت القَنا كما توهَّمه ٱبن أصبغ فى أرجوزته المذهبة .

الثانى ما يُتَّخذ من الخشب كالزان ونحوه، ويسمّى الذابِل (بالذال المعجمة وكسر الموحدة) .

ويقـال للحديد الذى فى أعلىٰ الرُّمْح السِّـنان ، وللذى فى أسفله الزُّجّ والعَقِب . ويُوصف الرُّمْح بالأسمر : لأن لون القَنَا السُّمْرةُ ، وبالعَسَّال : وهو الذى يضطَرِب فى هزه ، وباللَّدْن : وهو اللين، وبالسَّمْهرىّ نسبة إلىٰ بلدة يقال لهـا سَمْهَرة من بلاد الحبشة، وقيل إلىٰ السَّمْهرة، وهى الصَّلَابة .

ومنها الطَّبَر، وهو باللغة الفارسية الفأس ، ولذلك يسمّى السُّكَّر الصُّلب بالطَّبَرْزَد يعنى الذى يكسَر بالفاس . وإلىٰ الطَّبَر تنسب الطَّبَرْدارِيَّة : وهم الذين يحملون الأطبار حولَ السلطان علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى المسالك والممالك إن شاء الله تعالىٰ .

ومنهـا السِّكِّين ، وسيأتى ذكرها فى آلات الدَّواة فى الكلام علىٰ آلات الكتابة وإنمـا سميت سِكِّينا لأنها تُسَكِّن حركة الحيوان . وتسمّى المُدْيَةَ أيضا لأنها تقطع مَدىٰ الأجَلِ ، وهـذه الاشتقاقات أوْلىٰ بآلة الحرب من آلة الكتابة . وحاصل الأمر أن السكين تختلفُ أحوالُها بحسَب الحاجة إليها ، فتكون لكل شىء بحسب ما يناســبه .

ومنها القَوْس ، وهى مؤنثة . والقِسِىُّ علىٰ ضربين : أحدهمـا العربيـة ، وهى التى من خشب فقط ،ثم إن كانت من عُودٍ واحد قيل لها قَضِيب ، وإن كانت من فِلْقَيْن قيل لهـا فِلْق . الثانى الفارسية : وهى التى تُرَكَّب من أجزاء : من الخشب والقَرْن والعَقَب والغراء . ولأجزائها أسمـاء يخص كلَّ جزء منها ٱسْمٌ، فموضع إمساك

الرامى من القوس يسمّى المَقبِض ، ومجرى السهم فوق قبض الرامى يسمّى كَبِد القوس ، وما يُعْطَف من القوس يسمّى سِيَةَ القوس ، وما فوق المَقْبِض من القوس ، وهو ماعلى يمين الرامى يسمّى رأس القوس ، وما أسفله ، وهو ماعلى يسار الرامى يسمّى رِجْل القوس .

ومنها النُّشَّاب ، والنَّبْل ، فالنَّبلُ ما يرمى به عن القِسِىّ العربية ، والنُّشَّاب ما يرمى به عن القِسِىّ الفارسيَّة حكاه الأزهرى ؛ ومَجْرى الوَتَر من السَّهم يسمّى الفُوق ؛ وحديدُه يسمّى النَّصْلَ ؛ والريشُ يسمّى القُذَذَ ؛ والسهم قبل تركيب الريش يسمّى القِدْحَ (بكسر القاف وسكون الدال المهملة) .

ومنها الكِنَانَةُ ، ويقال لها الجَعْبَةُ : وهى بكسر الكاف : وهى ظَرْف السهام ، وتكون تارةً من جلد ، وتارةً من خَشَب .

ومنها الدَّبُّوس ، ويسمّى العامودَ : وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها فى قتال لابس البيضة ومَنْ فى معناه . ويقال إن خالد بن الوليد رضى الله عنه به كان يقاتل .

ومنها العصا : وهى آلة من خشب تفيد فى القتال نحو إفادة الدبُّوس .

ومنها البَيْضَةُ : وهى آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ، وليس فيه مايرسل على القفا والآذان ، وربما كان ذلك من زَرَدٍ .

ومنها المِغْفَرُ ، بكسر الميم : وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافا مسدولة على قفا اللابس وأذنيه ، وربما جعل منها وقايةً لأنفه أيضا ، وقد تكون من زَرَدٍ أيضا .

ومنها الدِّرْعُ : وهو جُبَّة من الزَّرَدِ المنسوج يلبَسها المقاتل لوقاية السيوف والسهام ، وهى تذكر وتؤنث ، وقد أخبر الله تعالى عن داود عليه السلام أنه أُلِينَ

له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالىٰ ﴿وأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ وقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ولذلك تنسب الدروعُ الفائقةُ إلىٰ نَسْجِ داودَ عليه السلام .

ومن الدروع ما يقال لها السَّلُوقِيَّةُ نِسبةٌ إلىٰ سَلُوقَ ، قريةٌ من قُرىٰ اليمن ، وربما قيل دُرُوع حطومِيَّةٌ[(١)] بضم الحاء المهملة نسبة لحطوم رجل من عَبْدِ القَيْسِ .

وٱعلم أن لِبْسَ العرب فى الحرب كان الزردَ ، أما الآن ، فقد غلب عمل القَرْقَلَاتِ من الصفائحِ المتخذة من الحديد المتواصل بعضُها ببعض .

ومنها التُّرْس : وهو الآلة التى يتقىٰ بها الضرب والرمى عن الوجه ونحوه ، وتسمّٰى الجُنَّـةَ أيضا بضم الجيم أخذا من الاجتنان وهو الاختفاء ، وربمـا قيل لهـا الحَجَفَةُ بفتح الحاء المهملة والجيم ؛ ثم هى تارة تكون من خشب ، وتارة تكون من حديد ، وتارة تكون من عيـدان مضموم بعضُها إلىٰ بعض بخيط القطن ونحوه ؛ فإن كانت من جلد ، قيل لهـا دَرَقَةٌ بفتح الدال والراء المهملتين .

الصنف الخـامس

(آلات الحصار ؛ وهى عدّة آلات)

منها المَنْجَنِيقُ ، بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقافٍ فى الآخر ، وحكىٰ ٱبن الجوَاليقى فيه كسرَ الميم ، وحكىٰ فيه أيضا منجنوق بالواو ومَنْجَمِيق بإبدال النون الثانيـة ميمـا ، وهو ٱسم أعجمىّ ؛ فإن الجيم والقاف لايجتمعان فى كلمة عربية ، ويجمع علىٰ مجانيق ومناجيق . قال الجوهرىّ : وأصله مَنْ جِى نِيك وتفسيره بالعربية ما أجودنى . قال ٱبن خلكان : تفسيـر مَنْ وتفسير جى ايش ، وتفسير نيك جيد ، قال ٱبن قُتَيْبَةَ فى كتابه "المعارف" وأبو هلال العسكرىّ

---

(١) لعل زيادة الواو من تحريف النساخ . والصواب حُطَمية نسبة الى حُطَم رجل الخ . أنظر اللسان والقاموس .

فى " الأوائل " : وهو آلة من خشب لهـا دَفَّتَانِ قائمتان بينهما سهم طويلٌ رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كِفَّةُ المَنْجَنِيق التى يجعل فيها الحجر ، يجذب حتّٰى ترفع أسافله علىٰ أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبُه الذى فيه الكِفَّةُ فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه .

وأول من وضع المَنْجَنِيق جَذِيمَةُ الأبرشُ مَلِكُ الحِيرَةِ علىٰ العرب . وذكر الواحدىّ فى تفسير سورة الأنبياء : أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام لم يَقْدِروا علىٰ القرب من النار ليُلْقوه فيها ، فجاءهم اللَّعين إبليس فعلمهم وضع المنجنيق فعَمِلوه وأَلْقَوْهُ فيه فقذفوا به فى النار ، فكان أول مَنْجَنِيقٍ عُمِلَ .

ومما يلتحق بالمنجنيق الزيارات : وهى اللَّوالب والحبال التى يجذب بها المنجنيق حتّٰى ينحط أعلاه ليرمىٰ به الحجر .

ومنها السِّهام الخطاية (١) ، وهى سهام عِظَامٌ يرمىٰ بها عن قِسِىٍّ عِظَام توتر بلوَالب يجرّ بها و يرمىٰ عنها فتكاد تَخْرِقُ الحجر .

ومنها مَكَاحل البارود ، وهى المدافع التى يرمىٰ عنها بالنِّفْط . وحالها مختلف : فبعضها يرمىٰ عنه بأسهم عِظَام تكاد تَخْرِقُ الحجر ، وبعضها يرمىٰ عنه ببُنْدُقٍ من حديد من زِنَةِ عشرة أرطال بالمصرىّ إلىٰ ما يزيد علىٰ مائة رِطْل ، وقد رأيت بالإسْكَنْدَرِيَّةِ فى الدَّولة الأشرفية ، شَعْبَانَ بن حُسَين ، فى نيابة الأمير صلاح الدين بن عَرَّام رحمه الله ، بها مدفعا قد صُنِع من نُحَاس و رَصاصٍ وقُيِّد بأطراف الحديد رُمِىَ عنه من المَيْدَانِ ببُنْدُقَةٍ من حديد عظيمةٍ محماة ، فوقعتْ فى بحر السلسلة خارج باب البحر ، وهى مسافة بعيدة .

---

(١) لعله مصحف والذى يؤخذ من المخصص أن السهم الخاطى هو السهم الغليظ الحادر فلعل هذا منه كما يفيده التفسير بعد تأمل .

ومنها قوارير النِّفط، وهى قدور ونحوها يجعل فيها النِّفْطُ ويرمىٰ بها علىٰ الحصون والقِلَاع للإحراق، علىٰ أن القوارير فى اللغة ٱسم للزُّجَاج وإنما ٱستعيرت فى آلات النِّفْطِ مجازا .

ومنها الستائر، وهى آلات الوقاية من الطوارق، وما فى معناها ممـا يستر به علىٰ الأسوار والسفن التى يقع فيها القتال ونحو ذلك .

الصنف السادس

(آلات الصيد ؛ وهى عدّة آلات)

منها قوس البُنْدُق (ويسمّى الجُلَاهِق) قوس يتخذ من القنَا ويلف عليه الحرير ويغرّىٰ، وفى وسط وَتَرِه قطعةٌ دائرة تسمّى الجوزَة، توضع فيها البُنْدُقَةُ عند الرَّمْي.

ومنها الجراوة ، وهى آلة من جلد يجعـل فيها البُنْدُقُ الطين الذى يرمىٰ به عن القوس المقدّم ذكره .

ومنها الشِّبَاكُ ، وهى آلة تتخذ تعقد من خِيطَانٍ وتنصب لٱقتناص الصيد، وكذلك تطرح فى المـاء فيصاد بها السمك .

ومنهـا الزَّبَطَانَةُ(١)، وهى آلة من خشب مسـتطيلةٌ كالرمح مجوّفةُ الداخل يجعـل الصائد بُنْدُقَةً من طين صـغيرةً فى فِيهِ ، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحدّة فتصيب الطير فترميه، وهى كثيرة الإصابة .

ومنها الفَخُّ، وهو آلة مُقَوَّسةٌ لهـا دَفَّتَانِ تفتحان قسرا ، وتعاقان فى طرف شَظَاة ونحوها إذا أصابها الصيد، ٱنطبقت عليه .

ومنها الصَّنَانِيرُ جمع صِنَّارَةٍ، وهى حديدة مُعَقَّفَةٌ محدّدة الرأس يصاد بها السمك .

---

(١) فى الأصل الزبربطانة . والتصحيح من القاموس .

الصنف السابع
(آلات المعاملة ، وهى عدّة آلات)

منها الميزان ، وهو أحد الآلات التى يقع بها تقدير المقدّرات ، فالموازين قديمة الوضع قال تعالىٰ : ﴿ والسَّماءَ رفعها ووضع الميزان ألَّا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ وأمر شعيب عليه السلام قومه بإقامة القسط بالوزن كما أخبر تعالىٰ عنه بقوله ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ . قال أبو هلال العسكرىّ : وأوّل من آتخذ الموازين من الحديد عبد الله بن عامر . قال : وأوّل من وضع الأوزان سمير اليهودىّ ، وذلك أن الحجّاج ضرب الدراهم بأمر عبد الملك آبن مروان ونهىٰ أن يضربها احدٌ غيره ، فضربها سمير فأمر الحجاج بقتله لآجترائه عليه . فقال سمير : أنا أدُلّك علىٰ ماهو خير للسلمين من قتلى ، فوضع الأوزان : وزن ألف ، وخمسمائة ، وثلثمائة ، إلىٰ وزن رُبْع قيراط ، وجعلها حديدا ، فعفا عنه . وكان الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره ، وأكثرها يؤخذ عددا .

ومنها الذراع ، مؤنثة ، وهى إحدى الآلات التى تقدّر بها المقادير أيضا ، بها تقدّر الأرضون ، ويقاس البزّ وما فى معناه ، ولم تزل الناس قديمًا وحديثًا يتعاملون بها علىٰ آختلافها ، وقد ورد ذكرها فى القرءان الكريم فى قوله تعالىٰ ﴿ فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه ﴾ . وقد ذكر الماوردىّ فى الأحكام السلطانية سبع أذرع .

إحداها العُمَريّة ، وهى الذراع التى قدّرها أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضى الله عنه لمسح سواد العراق . قال موسىٰ بن طلحة : وطولها ذراع وقبضة وإبهام . قال الحكم بن عتيبة : عَمَدَ عمرُ رضى الله عنه إلىٰ أطولها ذراعا وأقصرها ذراعا ، فجمع منها ثلاثة وأخذ الثُّلُث منها وزاد عليها قبضةً وإبهاما قائمةً ، ثم ختم فى طرفها بالرَّصاص ، وبعث بذلك إلىٰ حُذَيْفة وعثمانَ بن حُنَيف فمسحا بها السَّوادَ .

الثانية الهـاشمية ، وتسمَّى الزيادية . قال : وهى أربع وعشرون إصـبعا، كل إصبع سبع شعيرات مُعْتَدِلات معترضات ، ظَهْرًا لبطنٍ ، كل شعيرة عرض سبع شَعَرَات من شعر البِرْذَوْنِ، وهذه الذراع التى يعتمدها الفقهاء فى الشرعيات ، وبها قدّروا البريد المعتبَر فى مسافة قصر الصلاة وغيرها ، وربما عَبَّروا عنها بذراع الملك؛ وسميت بالهـاشمية لأن أبا جعفرٍ المنصورَ ثانىَ خلفـاء بنى العباس آعتـبرها وعَمِل بمقتضاها فى المساحة وتبِعَه سائرُ خلفائهم علىٰ ذلك ، وبنو العباس من بنى هـاشم، فنسبت إلىٰ بنى هاشم مباينةً لِمَنْ تقدّمهم من خلفاء بنى أُمَيَّةَ . قال المَـاوَرْدِىُّ : وتسمَّى الزِّيَادِيَّةَ : لأن زيادا مسح بها السَّواد أيضا .

الثالثة البِلاَلِيَّةُ ، وهى أنقص من الهـاشمية المقدّم ذكرها ثلاثةَ أرباع عُشْرِها ؛ وإنمـا سميت البِلاَلِيَّةَ لأن بلال بن أبى بُرْدَةَ بن أبى موسىٰ الأشعرى هو الذى وضعها، وذكر أنها ذراعُ جدّه أبى موسىٰ .

الرابعة السَّوْدَاءُ ، وهى دون البلالية باصـبعين وثلثى اصبع ؛ وأوّل من وضعها الرشيد، قدّرها بذراعِ خادم أسودَ، كان قائما علىٰ رأسه . قال المـاوردىّ : وهى التى يتعامل بها الناس فى ذرع البَزِّ والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

الخـامسة اليُوسُفِيَّة ، وهى دون الذراع السوداء بثلثى إصـبع ؛ وأوّل من وضعها أبو يوســف صاحبُ أبى حنيفة . قال المَـاوَرْدِىّ : وبها يَذْرَعُ القضاةُ الدُّورَ ببَغْدَادَ .

السادسة القصـبة ، وهى أنقصُ من الذراع السوداء بإصبع وثلثى إصبع ؛ وأوّل من وضـعها آبن أبى ليلىٰ القـاضى . قال المـاوَرْدِىّ : وبها يتعامل أهل كَلْوَاذَىٰ .

السابعة المَهْرانية، قال الماوَرْدِيّ : وهى بالذراع السوداء ذراعان وثلثا ذراع؛ وأوّل من وضعها المأمونُ، وهى التى يُتَعامل بها فى حفر الأنهار ونحوها .

ومنها المِقَصُّ (بكسر الميم) وهو الآلة المعروفة، ويُنْتفع به فى أمور مختلفة .

الصنف الثامن
(آلات اللَّعِب ؛ وهى عدّة آلات)

منها النَّرْد (بفتح النون وسكون الراء المهملة) وهو من حِكَم الفُرْس ؛ وضعه أردَشِيرُ بن بَابَك أوّلُ طبقة الأكاسرة، من ملوكهم، ولذلك قيل له نَرْدَشِير، وضعه مثالا للدّنيا وأهلها، فرتب الرقعةَ اثنى عشر بيتا بعدد شهور السنة، والمهاركَ ثلاثين قِطْعَةً بعدد أيام الشهر، وجعل الفصوصَ بمثابة الأفلاك، ورميَها مثلَ تقلبها ودَوَرانها ، والنُّقَطَ فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة ، وهى الشش ، ويقابله اليك ، والبنج ، ويقابله الدو ، والجهار ، ويقابله الثا ، وجعل مايأتى به اللاعبُ من النقوش كالقضاء والقَدَر : تارة له وتارة عليه، وهو يصرف المهارك علىٰ ماجاءت به النقوش، إلا أنه إذا كان عنده حُسْن نظر عرف كيف يتالى وكيف يتحيل علىٰ الغَلَب وقهر خَصْمِه، مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص كما هو مذهب الأشاعرة؛ لكن قد وردت الشريعة بذمّه قال صلى الله عليه وسلم "مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدَشِير فكأنما غَمَس يده فى لحم خِنْزِير" وفى رواية "ملعونٌ مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدِشير". وفى تحريمه عند أصحابنا الشافعية وجهان، أصحهما التحريم، والثانى الكراهة . وإذا قلنا حرام، فالأصح أنه صغيرة وقيل كبيرة .

ومنها الشَّطْرَنْج[1] ، بفتح الشين المعجمة أو السين المهملة لغتان ، والأولىٰ منهما

(١) الذى فى القاموس أنه بكسر الشين ولا يفتح أوّله وفى لسان العرب أن الكسر فيه أجود ليكون من باب جِرْدَحْل .

أفصح، وهو فارسىّ معرَّب، وأصله بالفارسية شش رنك، ومعناه ستة ألوان وهى الشاه (والمراد بها المَلِكُ) والفرزان، والفيل، والفرس، والرُّخّ، والبيدق، ثم الشِّطْرَنْجُ من أوضاع حكماء الهند وحِكَمِهم . وضعه صصه بن داهر الهندىّ لبلهيب مَلك الهند مساواة لأردشير بن بَابَك فى وضعه النرد ، وعرضه علىٰ حكماء زمانه فقضَوْا بتفضيله ، ثم عرضه علىٰ الملك وعرّفه أمرَه، فقال : آحتكم علىّ، فتمنّى عليه عددَ تضعيف بيوته ، من قمحة إلىٰ نهاية البيوت ، فاستصغر همته وأنكر عليه مواجهته بطلب نَزْرٍ يسير، فقال هذه طَلِبَتِى فأمر له بذلك ، فَحَسَبَه أربابُ دواوينه فقالوا للملك : إنه لم يكن عندنا مايقارب القليل من ذلك، فأنكر ذلك فأوضحوه له بالبرهان، فكان إعجابه بالأمر الثانى أكثرَ من الأوّل . قال آبن خلِّكَانَ : ولقد كان فى نفسى من هذه المبالغة شىءحتّى آجتمع بى بعض حُسَّاب الإسكندرية فأوضح لى ذلك و بينه ، وذلك أنه ذكر أنه ضاعف الأعداد إلىٰ البيت السادس عشر، فأثبت فيه آثنين وثلاثين ألفا وسبعمائة وثمانيةً وستين حبةً ، وقال : تجعل هذه الجملة مقدار قَدَحٍ ، ثم ضاعف السابع عشر إلىٰ البيت العشرين فكان فيه ويبة ، ثم آنتقل من الويبات إلىٰ الإردب، ولم يزل يُضَعِّفُها حتّى آنتهىٰ فى البيت الأربعين إلىٰ مائة ألف إردب وأربعة وسبعين ألف إردب وسبعمائة وآثنين وستين إردبا وثلثى إردب، وقال : هذا المقدار شونة ، ثم ضاعف الشُّوَن إلىٰ بيت الخمسين فكانت الجملة ألفا وأربعا وعشرين شونة، وقال : هذا المقدار مدينة، ثم إنه ضاعف ذلك البيت إلىٰ الرابع والستين ، وهو نهايتها ، فكانت الجملة ست عشرة ألف مدينة وثلثمائة وأربعا وثمانين مدينة ، وقال : تعلم أنه ليس فى الدنيا مدن أكثر من هذا العدد

قال الصلاح الصَّفَدِىّ فى شرح اللامية : وآخر ما آقتضاه تضعيف رقعة الشِّطْرَنْج ثمانية عشر ألف ألف ست مرات ، وأربعمائة وستةٌ وأربعون ألفا خمس مرات،

وسبعمائة وأربعةٌ وأربعون ألفا أربع مرات ، وثلاثة وسبعون ألفا ثلاث مرات ، وسبعمائة وتسعة آلاف مرتين ، وخمسمائة وأحد وخمسون ألفا وستمائة وخمس عشرة حبة عددا .

قال الشيخ شمس الدين الأنصارىّ : إذا جمع هذا العدد هَرَمًا واحدا مُكَعَّبا ، كان طوله ستين مِيلاً ، وعرضُه كذلك ، وآرتفاعه كذلك ، بالميل الذى هو أربعة آلاف ذراع .

واللعب بالشِّطْرَنْج مباح ؛ وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازىّ رحمه الله فى "المهذب" أن سعيد بن جُبَيْرٍ الإمامَ الكَبيرَ التابعىَّ المشهورَ كان يلعب الشِّطْرَنْج عن آستدبار . وممن يضرب به المثل فى لَعِبِ الشِّطْرَنْج الصُّولِى : وهو أبو بكر محمد آبن يحيىٰ بن عبد الله بن العباس بن صُول تكين الكاتب ؛ ويقال إن المأمونَ كان لايجيد لَعِبَ الشِّطْرَنْج ، فكان يقول : عجباً منى كيف أدبِّرُ مُلْكَ الأرض من الشرق إلىٰ الغرب ولا أُحْسن تدبيرَ رقعة : ذراعين فى ذراعين . ثم فى حِلّه عند أصحابنا الشافعية ثلاثة أوجه أصحها أنه مكروه والثانى أنه مباح والثالث حرام ، فإن آقترن به رَهْن من الجانبين أو أحدهما ، فإنه محرّم بلا نزاع .

الصنف التاسع
(آلات الطرب : وهى عدّة آلات)

منها العُودُ : وهو آلة من خشب مخرقةٌ ؛ له عنق ورأسه ممال إلىٰ خلفه ، وهو آلة قديمة ، وتسميه العرب المِزْهَرَ بكسر الميم ، وهو أفخر آلات الطرب وأرفعُها قدرا وأطيبُها سماعا ، حتّى يقال إنه قيل له هل يُسْمَع أحسن منك ؟ فقال : لا ، وأمال رأسه إلىٰ خلفه فهى ممالة لأجل ذلك .

ومنها الجنك، قال فى "التعريف" : وهو آلة مُحْدَثَةٌ طيبة النَّغْمة، لذيذ السماع يقارب العود فى حسنه، وشكلُه مباين لشكل العود، ورأسه ممال إلىٰ أسفل؛ يقال إنه قيل له : هل يُسْمَع أحسنُ منك ؟ فقال : نعم، يريد العود .

ومنها الرَّبَابُ (بفتح الراء) : وهى آلة مجوّفة مركب عليها خُصْلَةٌ لطيفة من شعر يُمَرّ عليها بقوس وَتَرُهُ من شعر فيسمع لهـا حِسٌّ طَيِّبٌ؛ وأكثر من يعانيها العربُ .

ومن أنواعها نوع يعبر عنه بالكَمَنْجة لطيف القدر فى تدوير، أطيب حسا وأشجىٰ من الرَّباب .

ومنها الدُّفُّ (بضم الدال) : وهو معروف، ثم إن كان بغير صُنُوج، وهى المعبر عنها فى زمننا بالصراصير، حلّ سمـاعُه، أو بصُنُوج، فالأصح كذلك .

ومنها الشَّبَّابَةُ (بفتح الشين) : وهى الآلة المتخذة من القَصَبِ المجوّف، ويقال لها اليَرَاع أيضا تسميةً لها بأسم ما اتخذت منه، وهو اليراع يعنى القصبَ، وربمـا عُبِّر عنهـا بالمِزْمار العراقىّ؛ وتصحيح مذهب الشافعى رضى الله عنه يختلف فيها فالرافعى رحمه الله يجيز سَماعها والنَّوَوِىُّ يمنع من ذلك .

الصـــنف العاشر

(المسكرات وآلاتها ؛ وهى عدّة أشياء)

منها الخَمْرُ : وهى ما اتخذ من عصير العِنَب خاصّـة ؛ وهى مُحَرَّمَةٌ بنصّ القرءان. قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وأبو حنيفةَ يبيحها للتداوى والعطش، ولم تُبَحْ عند الشافعية إلا لإساغة لقمة المغصوص خاصّةً؛ وشاربها يحدّ بالاتفاق؛ وحكم بنجاستها تغليظا فى الزجر عنها، وأباح أبو حنيفةَ المُثَلَّثَ : وهو ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه وقال بطهارته ، وجرىٰ عند أصحابنا الشافعية وجه بالطهارة .

أما المتخذ من الزبيب والتمر وما شاكله ، فإنما يقال له نبيذ ؛ وقد ذهب الشافعىّ رضى الله عنه إلىٰ القول بتنجيسه والحدِّ بشربه و إن لم ينته منه إلىٰ قدر يحصل منه سُكْر . ومنع أبو حنيفةَ الحدَّ فى القدر الذى لا يُسْكِر ؛

ثم للخمر أسماء كثيرة باعتبار أحوال فتسمّى الخمرَ لأنها تُخَمِّرُ العقلَ : أى تغطيه ، والحُمَيَّا لأنها تُحْمِى الجسد ، والعُقَار لأنها تعاقر الدَّنَّ : أى تطول مدّتها فيه إلىٰ غير ذلك من الأسماء التى تكاد تجاوز مائةً .

ومنها الإبريق : وهو الإناء الذى يُصبّ منه ؛ والإبريق فى أصل اللغة ماله خرطوم يصبُّ منه .

ومنها القَدَحُ : وهو إناء من زجاج ونحوه يصبُّ فيه من الإبريق المقدّم ذكره .

ومنها الكَأْس : وهو القَدَحُ بعد امتلائه ، ولا يسمّى كَأْسًا إذا كان فارغا بل قَدَحًا كما تقدّم .

ومنها الكُوبُ بالباء الموحدة : وهو الذى لاعُرْوَةَ له يُمسك بها ، أما إذا كانت له عروة ، فإنه يقال له كوز بالزاى المعجمة .

قلت : والعَجَبُ ممن يُذْهِب طيِّباتِه فى حياته الدّنيا ، ويفوز بما وَصْفُهُ المرارة وطبعه إزالة العقل الذى به تُدْرَكُ اللذة ، ويفوت النعيمُ المقيمُ فى دار البقاء! فقد ورد "أن من شَرِب الخمر فى الدُّنيا لم يَطْعَمْهَا فى الآخرة". قال العلماء : إذا رآها ، لايشتهيها ولم تطلبها نفسُه ، وقد وصف الله تعالىٰ حال خمر الجنة بقوله : "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَايُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ" وأتبع ذلك بكمال النعمة فى قوله : "وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ."

اللهم لا عيشَ إلّا عيش الآخرة ! فلا تحرمنا خير ما عندك بشر ما عندنا .

ومنها الحَشيشَةُ التى يأكلها سَفِلَةُ الناس وأراذلهم ، وتسميها الأطباء الشَّهْدَانِج ، وعبر عنها ٱبن البيطار فى مفرداته بالقِنَّب الهِنْدِىّ . وهى مذمومة شرعا، مضرة طبعا، تُفْسِد المِزاج ، وتؤثر فيه الجَفاف وغلبـةَ السوداء، وتفسد الذهن ، وتورث مَسَاءة الأخلاق ، وتَحُطُّ قدرَ متعاطيها عند الناس إلىٰ غير ذلك من الصـفات الذميمة المتكاثرة . وكلام القاضى حُسَيْن يدل علىٰ أنه لا يحدّ متعاطيها وإن فُسِّقَ ، فإنه قال : وغير الخمر مثل البَنْج ، وجَوْزِ مَاثِلٍ ، والأفيونِ لا يحدّ متعاطيه بحال ؛ بل إن تعمد تناوُلَه فُسِّقَ به ، وإن تناوله غَلَطًا أو للتداوى به ، لم يُفَسَّـقْ ؛ وقد أفرد ٱبن القسطلانى الحشيشة بتصنيف سمـاه "تَكْرِمَةَ المَعِيشه ، فى ذمّ الحشيشه" ذكر الكثيرَ من معانيها ومساوى متعاطيها ، أعاذنا الله تعالىٰ من ذلك .

النوع الثامن

(ممـا يحتاج إلىٰ وصفه الأفلاك والكواكب ، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأول

(فى بيان ما يقع عليه ٱسم الفَلَك وعددِ أُكَرِه[(١)] ، وما بين كل كُرَتَيْنِ وحركة الأفلاك فى اليوم والليلة)

أما ما يقع عليه ٱسم الفلك ، فالمراد بالأفلاك السموات . قال صـاحب "مناهج الفكر" : تواطأت الأمم علىٰ تسمية أجرام السموات أفلاكا ، وقال ٱبن قُتَيْبَة فى "أدب الكاتب" : الفلك مَدَار النجوم الذى يضمها ، وٱحتج بقوله تعالىٰ بعد

---

(١) فى القاموس الأُكرة لغية فى الكرة . وقد جمعها المؤلف علىٰ هذه اللغة وفى اللسان أن أكرا جمع كرة مقلوب اللام إلىٰ موضع الفاء فانظره .

ذكر النجوم : " وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ " قال : وسمى فَلَكاً لاستدارته ومنه قيل فَلْكَةُ المِغْزَلِ لاستدارتها .

وأما شكل الفلك وهيئتُه ، فقد اختلف علماء الهيئة فى ذلك : فذكر الأكثرون منهم أنها كُرِيَّةٌ لا مسطَّحة ، لأن أسرع الأشياء حركةُ السموات وأسرعَ الأشكال حركة الكُرَة لأنها لاتثبت على مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أُكَرِه ، فقد ذكر الجمهور من علماء الهيئة : أن الفلك عبارة عن تسع أُكَرٍ متسقة ، ملتفة بعضها فوق بعض التفافَ طبقات البصلة ، بحيث يماس محدّب كلِّ كُرَةٍ سُفلى مقعر كُرَةٍ أخرى عُليا إذ لاخلاَء بينهما عندهم . قالوا : وأقربُ هذه الأُكَرِ إلى الأرض كُرَةُ القَمرِ ، ثم كُرَةُ عُطَارِدَ ، ثم كرة الزُّهَرَةِ ، ثم كرة الشَّمس ، ثم كرة المِرِّيخ ، ثم كُرة المُشْتَرِى ، ثم كرة زُحَلَ ، ثم كرة الكواكب الثابتة ، ثم كرة الفَلَك الأطلس ، وسمى بالأَطْلَس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفَلَكُ المحيط . ويسمّى فَلَكَ الكل ، وفلكَ الأفلاك ، والفلَكَ الأعلى ، والفلك الأعظم ، وحكى النوبختى (١) فى " كتاب الآراء والديانات " أن بعض القدماء ذهب إلى أن كُرَةَ الشمس أعلى من سائر كُرَات الكواكب ، وبعدها كُرَة القمر ، وبعدها كرة الكواكب المتحيرة ، ثم كرة الكواكب الثابتة . والمتفلسفون من الإسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالاقتصار على ذكر سبع سموات ، زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعةِ هو الكُرْسِىّ ، والفلكَ التاسع هو العرشُ . وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة إلى أنّ فوق الكُرَة التاسعة كُرَةً عاشرة هى المحرّكة لسائر الأُكَرِ . وذهب آخرون إلى أن وراء نهاية الأجرام السماوية خَلاَءً لانهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة إلى أن وراءها عالَم الصورة ، ثم عالَم النفس ، ثم عالَم السياسة ، ثم عالَم العِلَّة الأولى ، ويعنون به البارى تعالى عن الجهة . والصابئة يسمون هذه العوالم أفلاكا .

(١) أهمله فى الأصل ولم نعثر عليه بعد البحث .

وأما ما بينَ كلِ كُرَتَينِ ، فذهب أهـل الهيئة إلىٰ أنها متراصَّة لاخلاء بينها لكن قد ورد الشرع بمـا يخالف ذلك، فأطبق القُصَّاصُ من أهل الأثرعلىٰ أن بين كلِّ سماء وسماء خَمْسَمائة سنة؛ وفى سُنَنِ التِّرْمِذِىّ أن "بين كل سماء وسماء واحدة أو آثنتان أو ثلاثٌ وسبعون سنة" .

وأما حركة الأفلاك اليوميةُ، فإن الفَلَكَ الأطلسَ المقدَّمَ ذكُره يتحرّك بما فى ضمْنه فى اليوم والليلة حركةً واحدة دَوْريَّةً علىٰ قُطْبَيْنِ مائلين يسميان قُطْبَي العالَمِ أحدهمـا(١) عظمى تقطع هذا الفَلَكَ نصفين تسمّٰى دائرة مُعَدِّلِ النهار، لأن الشمس متىٰ حَلَّتْ بها ، آعتدل النهار فى سائر الأقطار ، وتقاطع هذه الدائرةَ دائرةٌ أخرىٰ متوهَّمة تقسم هذا الفَلَكَ نصفين علىٰ نقطتين متقابلتين ، يصير نصفها فى شَمَـالِيِّ مُعَدِّلِ النهار ونصفها الآخر فى جَنُوبِيِّه ، ويسمّٰى مِنْطَقَةَ البروج، وهذه الدائرة ترسمها الشمس بحركتها الخاصـة فى السنة الشمسية ، ومن ثَمَّ قسمت آثنى عشر قسما ويسمّٰى كلُّ قسم منها برجا .

المقصـــد الثـانى

(فى ذكر الكواكب ومحلها من الأفلاك ؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الكواكب الســـبعة السيّارة)

وهى زُحَلُ ، والمُشْـتَرِى ، والمِرِّيخُ ، والشَّمْسُ ، والزُّهَرَةُ ، وعُطَارِدٌ ، والقمر ويتعلق القول بها من جهة مراتبها ، وآشـتقاقِ أسمـائها، ومقاديرِ أبعادها من الأرض،وقدر مَحَطِّ كل كوكب منها .

(١) فى المواعظ للقريزى . [ويقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين ... ... وتسمى هذه الدائرة دائرة معدل النهار .] فلعل فى عبارة الأصل سقطا من الناسخ وحرر .

فأما القمر، فمأخوذ من القُمْرَة : وهى البياض، سمى بذلك لبياضه ؛ وقد تقدّم أنّ فَلَكه أقرب الأفلاك إلىٰ الأرض ، وهو المعبر عنه بالسماء الدّنيا ، ودَوْرُه ألف ومائة وخمسةٌ وثمــانون ميلاً ، وهو جزء من تسعة وثلاثين جزءًا من الأرض، وبُعْدُه عن الأرض مائة ألف وسـبعة آلاف وخمسُمائة وتسعون ميلاً . وهو يسمّٰى هلالا الليلةَ الأولىٰ والثانيةَ والثالثةَ، ثم هو قمرٌ إلىٰ آخر الشهر . ويسمّٰى فى ليلة أربعَ عشرة بالبدر، قيل لمبادرته الشمس(١) قبل الغروب، وقيل لتمامه وآمتلائه كما قيل لعشرة آلافٍ بَدْرَةٌ لأنها تمــام العدد ومنتهاه ؛ ويَسْتَسِرُّ ليلة فى آخر الشهر، وربمــا آسْتَسَرَّ ليلتين فلا يُرىٰ بمعنىٰ أنه يختفى فلا يُرىٰ، ويسمّٰى هذا الآختفاءُ السِّرارَ .

وأما عُطَارِدٌ، فمعناه النافذ فى الأمور، ولذلك سمى الـكاتِبَ؛ وهو فى الفلك الثانى بعد فَلَك القمر؛ ودَوْرُ قُرْصِه سبعُمائة وعشرون ميلا، وهو جزء من آثنين وعشرين جزءًا من الأرض؛ وبُعْدُ ما بينه وبين الأرض مائتا ألف وخمسةُ آلاف وثمانُمائة ميل .

وأما الزُّهَرَةُ ، فمأخوذة من الزاهر وهو الأبيض ، سميت بذلك لبياضها ؛ وهى فى الفلك الثالث من القمر ، ودَوْرُ قرصها ستةُ آلافٍ وسبعة وأربعون ميلًا ، وهى جزء من ستة وثلاثين جزءا من الأرض ، وبعدها عن الأرض خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألفا وستمائة وأربعة عشر ميلاً .

وأما الشمس ، فسميت بذلك لشبهها بالشمسة : وهى الواسطة التى فى المِخْنَقَة لأن الشمس واسطة بين ثلاثة كواكبَ سُفْلِيَّةٍ : وهى القمر وعُطَارِدُ والزُّهَرَةُ، وبين ثلاثة عُلْوِيَّة : وهى المِرِّيخُ والمُشْتَرِى وزُحَلُ، وذلك أنها فى الفَلَك الرابع من القمر؛ ودورقرصها مائة ألف وثمــانُمــائة وثمــانون ميلا ؛ وهى مثل الأرض مائة وستٌّ وستون مرة وربع وثمن مرةً، وبُعْدُها عن الأرض ثلاثة آلافِ ألفٍ وخمسةُ آلاف وآثنان وتسعون ألفًا ومائة وثلاثةٌ وأربعون ميلاً .

(١) أى بطلوعه قبل غروب الشمس .

وأما المِرِّيخُ، فمأخوذ من المَرْخ : وهو شجر تَحْتَكُّ أغصانه فتورى النـارَ، فسمى بذلك لشـبهه بالنار فى آحمراره ، وقيل المِرِّيخُ فى اللغة هو السهم الذى لا ريشَ له ، والسهم الذى لاريشَ له يلتوى فى سيره ، فسمِّى النجم المذكور بذلك لكثرة التوائه فى سيره ؛ وهو فى الفَلَك الخامس من القمر ، وهو مثل الأرض مَرَّةً ونصفا ؛ وبُعْده عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وتسعُمائة ألف وآثنا عشر ألفا وثمـانمائة وستة وستون مِيلًا .

وأما المُشْتَرِى ، فسمى بذلك لحسنه كأنه آشترىٰ الحسنَ لنفسه، وقيل لأنه نجم الشِّراء والبيع عندهم ؛ وهو فى الفلك السادس من القمر، ودَوْرُ قرصه أحدٌ وتسعون ألفا وتِسْعُمائة وتسعةٌ وسبعون ميلا ،وهو مثل الأرض خمس وسبعون مرة ونصف وثمنُ مَرَّةٍ، وبُعْدُه عن الأرض ثمـانية وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانيةٌ وستون ألفا ومائتا مِيلٍ .

وأما زُحَلُ ، فمأخوذ من زَحَلَ إذا أبطأ، سمى بذلك لبطئه فى سيره، وقد فَسَّر به بعض المفسرين قولَه تعالىٰ "النَّجْمُ الثَّاقِبُ" ودَوْرُ قرصه تسعون ألفا وسبعُمائة وتسعة عشر مِيلًا ، وبُعْده عن الأرض ستة وأربعون ألفَ ألفٍ ومائتا ألفٍ وسبعمائة وسبعةٌ وسبعون مِيلًا ، وأهـل المغرب يسمون زُحَلَ المُقَـاتِلَ ، ويسمون المِرِّيخَ الأحمرَ، ويُسَمُّونَ عُطَارِدَ الكاتبَ .

والفُرْسُ يسمون الكواكب السبعةَ بأسماءٍ بلغتهم فيسمون زحلَ كِيوَانَ،والمُشْتَرِى تير، والمِرِّيخَ بهرامَ،والشمسَ مهر،والزهَرَةَ أناهيد،وعُطَارد هرمس، والقمر ماه .

وآعلم أن لكل من هذه الكواكب السبعة حركتين ، إحداهمـا قَسْرِيَّةٌ ، وهى حركته بحركة فلك الكل فى اليوم والليلة حركةً تامةً، وتسمَّى الحركةَ السريعةَ ؛ والثانية حركة ذاتية يتحرك فيها هو بنفســه من المغرب إلىٰ المشرق وتسمَّى الحركةَ البطيئة ،

ويختلف الحال فيها بالسير باختلاف الكواكب فلكل واحد منها سيرٌ يخصه، وهذه الحركة فى القمر أبينُ لسرعة سيره، إذ يقطع الفَلَكَ بالسير من المغرب إلىٰ المشرق فى كل ثمانية وعشرين يوما مرة . وقد مثَّل القدماء من الحكماء للحركتين المذكورتين بمثالين، أحدهما بحركة السفينة براكبها إلىٰ جهة جريان الماء وتحرك الراكب فيها إلىٰ خلاف تلك الجهة، والثانى تحرّك نملة تدِبُّ علىٰ دُولاب إلىٰ ذات الشِّمال والدُّولاب يدور إلىٰ ذات اليمين .

الضرب الثانى

(الكواكب الثابتة)

وهى الكواكب التى فى الفَلَك الثامن علىٰ رأى علماء الهيئة ، وسميت ثابتة لأنها ثابتة بمكانها من الفَلَك لاتحرك من المَغرِب إلىٰ المَشْرِق، كما تحرك السبعة السيارة، إلا حركة يسيرة جدّا ، وإنما تحرك بحسب حركة فلَك الكل بها من المشرق إلىٰ المغرب فى اليوم والليلة ؛ والذى يُحتاج إلىٰ ذكره منها الكواكبُ المشهورة مما نُتَعرّف به الأزمنة علىٰ ما تقدّم ذكره ، أو ما يدخل تحت الوصف والتشبيه .

وهى ثلاثة أصناف .

الصِّنْفُ الأوّل

(نجوم البروج التى تنتقل فيها الشمس فى فصول السنة)

وهى آثنتا عشرة صورة فى آثنى عشر برجا، بعضها من منازل القمر، وبعضها من صور أخرىٰ جَنُوبيةٍ وشَمَاليةٍ، وبعضها من كواكبَ متفرّقةٍ لاتنسب إلىٰ صورة .

الأوّل الحَمَلُ : وهو الكَبْشُ، وهو صورة كبش علىٰ خط وسط السماء مُقَـدَّمُهُ فى المغرب ومؤخره للشرق، وأوّل مايطلُعُ منه فَمُهُ وهو الكوكب الجنوبىّ المنفرد من

الكوكبين الشّماليين من مَفْصِلِ اليد من الشَّرَطَين ، وعلىٰ قرنيه الكوكبان الجنوبيان المقتربان من الشَّرَطينْ ، وعلىٰ عينه اليمنى الكوكبُ الشّمالىّ المضىء من الشَّرَطين ، وعلىٰ عينه اليسرىٰ كوكبٌ خفىّ بقرب الشَّمالىّ من الشَّرَطين ، وعلىٰ لَحْيِيْهِ آخرُ مثلُه ، وعلىٰ مَفْصِـلِ يده الكوكبان الشّماليان اللذان علىٰ عَقِبِ الرِّجل اليسرىٰ من الثريا ، وهو الذى يقال له البُطَيْنُ ، ويده وساقاه ممتدّان إلىٰ الشَّمال ، وكأنه إنمـا يظهر منه يد واحدة ورِجْلٌ واحدة ، والثريا علىٰ طرف أَلْيَتِهِ .

الثانى الثَّوْرُ : وهو صورة ثور علىٰ خط وسط السماء ، مُقَدَّمُهُ إلىٰ المشرق ومؤخره إلىٰ المغرب ، وظهره إلىٰ الشمال ، ويداه ورِجْلاه إلىٰ الجنوب ، وعلىٰ مؤخره أربعة كواكب تسمّى القَطْعَ أى هى موضع ذنبه المقطوع ، والدَّبَرَانُ وجهُه ، وركن الدَّبَرَانِ فَمُهُ ، والكوكب المضىء الذى فى الدَّبَرَانِ عينهُ ، وكوكبان خارجان عن الدَّبَرَانِ فَرْدة قَرنِهِ ، وقرنه الآخر كوكبٌ متباعد عن الدَّبَرَانِ نفسه إلىٰ الشَّمال ، وليس وجهه مستويا ولكنه شبيه بالمقطوع الذى جُعِل خدّه علىٰ رأس عُنُقه ويداه منحطتان إلىٰ الجَنُوب ، ويظهر منه رِجْل واحدة ويدان ، وذَنَبُهُ أبتر ، والثريا خارجة عنه إلىٰ الشَّمال وكذلك اللَّطْخة ، وهى ثلاثة أنجم تشبه الثريا بين الثريا والدَّبَرَانِ وليستا من صورته .

الثالث التَّوْءَمُ : وهو المعبر عنه فى أَلْسِنَةِ الناس بالجوزاء . قال الحسين بن يونس الحاسبُ فى كتابه فى "هيئة الصُّوَر الفلكية" : والنـاس مخطئون فى ذلك وإنمـا الجوزاء هى الصورة المعروفة بالجَبَّار فى الصور الجنوبية ، وقدم التوءم الأيمن (١) بعض كواكب الجَبَّار التى علىٰ تاجه . قال : والتوءم علىٰ خط وسـط السماء جَسَدان ملتصقان برأسين ، يظهر لكل واحد منهـما يد واحدة ورِجْل واحدة ، والرأسان فى جهة المشرق ، ورجلاهما فى جهة المغرب ، والذراع الشامىّ هو الرأسان ، ويده

(١) لعل الصواب اليمنى .

اليمنى وهى التى فى جهة الشّمال هى الذراع اليمانى والمضىء من الذّراع اليمانىّ يسمّى الشِّعْرى الغُمَيْصاء، ويده اليسرى ممتدّة إلى التوابع .

الرابع السَّرَطَانُ : وهو صورة سَرَطَانٍ على وسط السماء، رأسه إلى الشّمال ومؤخره إلى الجنوب، والنَّثْرَةُ على صدره، وعيناه كوكبان خفيّان تحت النثرة يُدْعَيَانِ بالحمارين وزُبَاناه كوكبان فيهما خفاء، وأحدهما أضوا من الآخر، يكونان شَمَالِيين من التوءم ومؤخّره كفُّ الأسد .

الخامس الاسد، فى وسط السماء ، فَمُهُ مفتوح إلى النَّثْرة، وعلى رأسه كواكب مضيئة، والطَّرْف على عنقه، والجبهة على صدره، وقلبه الكوكب الجنوبىّ المضىء من النَّثْرة، وهو عظيم النور، وكاهله كواكب خفية خارجة عن الطَّرْف والجبهة إلى الشّمال والخراتان خاصرته، والصَّرْفة ذنبه، وكَفُّه المتقدّمة فى آخر السَّرطَان، وكفه الأخرى بعد هذه الكف إلى المشرق، ورجله الأولى تخرج من الكوكب القبلىّ من الخَرَاتين إلى الجنوب، والأخرى تحت هذه للشرق، وكبده كوكب يتوسط مع الجبهة شمالىّ منها، وسائر فقاراته إلى المشرق .

السادس العَذْراء، فى وسط السماء . قال حسين بن يونس : والعرب تسميها السُّنْبُلَةَ، وهو خطأ، وإنما هى حاملة السنبلة، ورأسها فى الشّمال بميلة إلى المغرب ورِجْلاها فى الجنوب، وهى مستقبلة المَشرق وظهرها إلى المغرب . قال : ورأسها كواكبُ صغار مستديرة كاستدارة رأس الإنسان تكون جنوبية من كوكبى الخَرَاتين ومَنْكِباها أربعة كواكب تحت هذه إلى الشرق، وجَنَاحها الأيمن ستة كواكبَ كهيئة الجَنَاح .

السابع الميزان، وهو صورة ميزان، كِفَّتَاها(١) إلى جهة المشرق وقَبُّها إلى جهة المغرب، والسماك الأعزل على قَبِّها من الجهة اليمنى ومقابله كوكب آخرُ على قَبِّها

(١) فى المصباح «الميزان مذكر» فلعل تأنيث المؤلف له باعتبار أنه صورة.

من الجهـة الشّمالية، وكوكب آخر خارج من وسطها إلىٰ المغرب علىٰ علاقتهـا ، وهو علىٰ قصبة السُّنْبُلَةِ، وكوكبان من الغَفْرِ علىٰ محامله مع كواكبَ أُخَرَ ؛ وزُبَانيـا العقرب كِفَّتَاه .

الثامن العقرب، وهو صورة عَقْرَب علىٰ وسـط السماء، رأسه فى المغرب وذَنَبُه فى المشرق، وإحدىٰ رِجْليه فى الجنوب، والأخرىٰ فى الشَّمال، والغَفْرُ علىٰ رأسه والزُّبَانيان اللذان همـا كِفَّتَا الميزان زُبَانياه، وعيناه كوكبان خفيان فيما بينهما وبين الإكليل ، والإكليل علىٰ صدره ، والقلب هو قلبه ، ونِيَاط القلب كوكبان خفيان والقلب فى وسطهما ، وهو خارج عنهما إلىٰ الشَّمال ، والشَّوْلة ذَنَبه ، والكواكب التى علىٰ طرفها جبهته، وإبرته لَطْخة مسـتطيلة فيما بين الشَّوْلة والنَّعائم الصادرة؛ ففيـه من منازل القمر خمسُ منازلَ : وهى الغَفْر، والزُّبَانان، والإكليل، والقلب، والشَّوْلة ؛ وأظهرُ ماتكون صورةُ العقرب وهو علىٰ الأنف عند الغروب؛ ففيه من منازل القمر ثلاثُ منازلَ : الإكليلُ والقلبُ والشولةُ .

التاسع القَوْس، ويسمّٰى الرامى، ونجوم هذا البرج نصفه شبه فرس، وهو مؤخره إلىٰ جهة المغرب، ونصفه وجه إنسان تقوس وهو فى جهة المشرق، ورأسه فى الشَّمال ورجلاه فى الجنوب، والنَّعائم الواردة علىٰ وسطه، وهو علىٰ الجسـد الذى يشبه بدن القوس، وذنبه يشبه لَطْخة مستطيلة مع كوكب صغير تحتها والكواكب بدعمان (١) أى النعائم، والبَلْدة علىٰ مقْبِض القوس ويده اليمنىٰ قابضة علىٰ رأس السهم، وهى كواكب تكون تحت لطخة صغيرة قريبة منها .

العاشر الجَدْىُ : وهو صورة جَدْيٍ مستلقٍ علىٰ ظهره مُقَـدَّمه فى المغرب ومؤَخَّره فى المشرق، وظهره للجنوب ويداه ورجلاه إلىٰ الشَّمال، وهو شبيه بالمنقلب إلىٰ القوس

(١) كذا فى المخطوط ولم نهتد الى ايضاحه .

وقرناه إلىٰ بطنه، وفمه إلىٰ القوس، وليس له إلا يد واحدة، والكوكب الشَّمالىّ من سَعْد الذابح أحدُ قَرْنَيْه، والجنوبىّ منه قرنه الآخر، وكوكب آخر خفىّ تحت سهم القوس غربىّ سَعْد الذابح فمُه، وعلىٰ كَتِفِه سعد بُلَع، وعلىٰ وَرِكه سَعْد السُّعود، والمضىء من سعد السعود حُقُّ وَرِكه وشق الحوت الجنوبىّ علىٰ ظهره، وطَرَف يده ثلاثة كواكب مضيئة بقرب اللامح فيها خفاء، وطرف رجله الكوكبُ المسمّى رأس الدّلو .

الحادى عشر الدَّلْو: وهو صورة رَجُل قائم بيده دَلْوٌ، رأسه إلىٰ الشَّمال، ورجلاه إلىٰ الجنوب، وظهره إلىٰ المشرق، ووجهه إلىٰ المغرب، والكواكب التى تسمّى الخِباءَ من سعد الأخبية رأسُه، ويده اليسرىٰ من فوق رأسه حتّى تنزل إلىٰ الدَّلْو الذى عن يمينه، وسعد الأخبية مِرْفَقُه الأيسر، وبطنه يسمّى الجرّة، ودلوه أربعة سعود من السُّعود السبعة التى ليست من منازل القمر، هى سعد نَاشِرَة، وسَعد المَلِك، وسعد البِهَام وسعد المائح، وكل سعد منها كوكبان، وعلىٰ رِجْله اليسرىٰ كوكب عظيم النور، وعلىٰ رِجْله اليمنىٰ كوكب أبيض يقرب فى العِظَم من الذى قبله، والفَرْغ المقدّم خارج عن صورته إلىٰ الشَّمال .

الثانى عشر الحُوت : وهو صورة سمكتين إحداهما المنزلة التى تسميها أصحاب المنازل بطن الحُوت وهى شمالية ، والثانية جنوبية عنها ، وهى أطول منها وأخفىٰ الكواكب ، والكواكب السبعةُ السيارةُ ترسُم الجنوبيةَ منهما بمسيرهن ، وشِق السمكة الجنوبية ثلاثة من السُّعود السبعة التى من غير منازل القمر هى سعد الهُمَام وسعد البارِع وسعد الماطر (١) ، وليس الفَرْغ المؤخّر فى جسم الحوت بل خارج عنه إلىٰ الشَّمال والمغرب .

---

(١) الذى فى القاموس سعد مطر .

الصـــــنف الثـانى

(نجوم منازل القمر التى ينتقل فيها القمر من أوّل الشهر إلىٰ الثامن والعشرين منه)

وهى ثمـان وعشرون منزلة يداخل أكثرُها صورَ البروج الاْثنى عشر المتقدّمة .

الأولىٰ الشَّرَطانِ ، والشَّرَطان تثنية شَرَط ، وهو العلامة كأنه سمى بذلك لكونه علامةً علىٰ طلوع الفجر عند طلوعه ، وتسمّٰى أيضا النَّطْحَ والناطحَ : لأنها عند أصحاب الصور قَرْنا الحَمَل ؛ وهمـا كوكبان نَيِّران بينهـما قابُ قَوْسين ، أحدهمـا فى الشَّمال والآخر فى الجنوب إلىٰ الجـانب الجنوبىّ ، ومنها كوكب ألطف منه يعدّ معه أحيانا ولذلك يسمِّى بعضهم هـذه المنزلةَ الأشراطَ علىٰ الجمع لا علىٰ التثنية ، وهذه الثلاثة الكواكب إذا ظهرت فى المشرق ، ظهرت كأنها مقلوبة منكَّسة ، وواحد منها أحمرُ مضىء وتحته آخر خفىّ والثالث فى الشَّمال وهو أحمرُ مضىء .

الثانية البُطَيْنُ ، تصغير بطن ، وإنما صُغِّر فرقا بينه وبين بطن الحوت الآتى ذكره فى جملة المنازل ؛ والبُطَيْنُ ثلاثة كواكب مثـل أَثَافِىّ القِدْرِ : وهى الشكل المُثَلَّثُ الذى ينصب عليه القِدْر عند الطبخ ؛ وهى علىٰ القرب منها فى موضع بطن الحَمَل من الصورة ؛ وواحد منها مضىء واْثنان خفيان ، والخفيان يَطْلُعان قبل المضىء .

الثالثة الثُّرَيَّا ، ويسمّٰى النجم عَلَما عليها ، وبه فسر قوله تعالىٰ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوىٰ﴾ وهى ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعةَ أنجم ، وهى فى شكل مثلثٍ متساوى الساقين ، وبين نجومها نجومٌ صـغار جدّا كالرشاش ، ومطلَعُها إلىٰ الشمال عن مطلع الشَّرَطَينِ والبُطَيْنِ ؛ وأوّل ما يطلُع منهـا ويغيب هو الجانب العريض دون الأخذ منها ؛ وهى عنـد أصحاب الصور بالقرب من محل ذَنَبِ الثور المقطوع . قال ابن يونس : وليست من صورة الثور ، وبعضهم يسميها أَلْيَـةَ الحمل لقربها منه .

الرابعة الدَّبَرَانُ ، ويسمَّى تَالِيَ النجم لكونه يطلع تِلْوَ الثريَّا ، وربما سمى حادِيَ النجم لذلك ، ويسمَّى أيضا المُجْدَحَ وعينَ الثور ، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال ، واحد منها مضيء أحمر عظيم النُّور ، وآسم الدَّبَرَان واقع عليه فى الأصل ثم غلب عليه وعلىٰ باقى المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هى رأس الثَّور ، وأوّل ما يطلع منه طرف الدال ، ويكون رميها إلىٰ الجنوب وفتحها إلىٰ الشَّمال ، والكوكب الأحمر المضيء هو آخر ما يطلع منها ؛ والعرب تقول للكوكبين القريبين منه : كَلْباه ، والباقى غَنَمهُ ، وربما قالوا : قِلَاصه ، ويقولون فى خرافاتهم : إنّ الدَّبَرَانَ خطب الثريَّا إلىٰ القمر فقالت : ما أصنع بِسُبْرُوتٍ ؟ فساق إليها الكواكبَ المسماة بالقِلَاص مَهْرًا ، فهربت منه فهو يطلبها أبدا ، ولا يزال تابعا لها ، ومن ثَمّ قالوا فى أمثالهم : "أَوْفىٰ من الحَادِى(١) وأغدر من الثريَّا" .

الخامسة الهَقْعَةُ ، سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون فى عُنُق الفرس ، وقد مر القول عليها فى الكلام علىٰ أوصاف الخيل ؛ وهى ثلاثة كواكبَ محاذية صغار تسمَّى الأثافِيَّ ، وهى علىٰ أعلىٰ القدم اليسرىٰ من التوءم المعبر عنه بالجوزاء .

السادسة الهَنْعَةُ : وهى خمسة أنجم علىٰ شكل الصَّوْلَجَانِ : أربعة منها علىٰ خط مستقيم ، الثالث منها يسمَّى قوسَ الجَوْزَاءِ ، والخامس منعطف إلىٰ جهة الجنوب مقدارَ شِبْرٍ فى رأى العين ، وسميت هَنْعَةً لآنعطافها أخذا من قولهم : هنعتُ الشئَ إذا عطفتَه ، وبعضهم يسميها التحية(٢) ، وهى عند أصحاب الصُّوَر خلاف لأحد التوءمين المعبر عنهما بالجوزاء ، ويقال : الهنعة قوس الجوزاء يرمى بها ذراع الأسد ، وقائل ذلك يزعم أنها ثمانية أنجم فى صورة قوس من مقبضها النجمان اللذان يقال

---

(١) المراد بالحادى الدبران كما تقدم فى كلامه وكما يشير اليه قول الشاعر : ⁕ كما وفى بقلاص النجم حاديها ⁕ ووقع فى الأصل الجارى وهو تصحيف .

(٢) الذى فى القاموس واللسان فى مادة (هـ ن ع) أنها تحياة وجمعها تحايى .

لها الهنعة، و بعضهم يقول : إن الهَنْعَة كوكبان مقترنان ، الشَّمالىُّ منهـما أضوءُهمـا وحذاءَهما ثلاثة كواكبَ تسمَّى التَّحَايِي ربمـا عدل القمر فنزل بها .

السابعة الذِّراع : وهى كوكبان : أحدهما نيِّر والآخر مظلم، بينهما قدر سوط فى رأى العين، وفيما بينهما كواكبُ صِغَار تسميها العرب الأظفارَ، وسميت هذه المنزلة بالذراع لأنها عندهم ذراع الأسد وللأسد ذراعان : مقبوضـةٌ وفيها ينزل القمر، وهى جنوبية؛ وسميت مقبوضةً لأن الأخرىٰ أرفع منها فى السماء، ولهذا سميت مبسوطةً، وهى مثلها فى الصورة؛ وأصحاب الصور يجعلون هذه الذراع فى صورة الكلب الأصغر، وربمـا عدل القمر عن المقبوضة فنزل بها .

الثـامنة النَّثْرة ، وهى لَطْخة كقِطْعـة سحاب يجعلها أصحاب الصُّوَر علىٰ صـدر السَّرَطَان . وسميت نَثْرة لأن إلىٰ جانبها نجمين صغيرين همـا عند العرب علىٰ مَنْخِرى الأسد، وتسميهما الحمارين ، وقيل إنها لما كانت أمامَ جبهة الأسد شبهت بشئ نثره من أنفه، ويقال إنها فم الأسد ومنخراه، وتسمَّى اللَّهَاةَ أيضا وتشبَّه بالمَعْلَف .

التاسعة الطَّرْفُ ، وهى كوكبان خفيان مقترنان بين يدى الجَبْهَة ، سميا بذلك لموقعهما موقع عينى الأسد، وقدّامهما ستة كواكبَ صـغار تسميها العرب الأشفار آثنان منها فى نَسَقِ الطَّرْفِ، والأربعة البواقى بين يديه .

العاشرة الجَبْهَةُ، ثلاثة كواكب نيرة قد عدل أوسطها إلىٰ الشرق، فهى لذلك علىٰ شكل مُثَلَّثٍ مسـتطيل القاعدة قصير الساقين، و إلىٰ الجنوب عنها نجم أحمرُ مضىء جدّا يسمَّى قلبَ الأسد يرسمه المنجمون فى الأسطرلاب ، وأصحاب الصور يجعلون الجبهة علىٰ كَتِفِ الأسد .

الحادية عشرة الخراتان، وتسمَّى الزُّبْرَة وعُرف الأسـد والزبرتين، وهما كوكبان نيِّران بينهما فى رأى العين مقدارُ ذراعين ، وهما معترضان ما بين المشرق والمغرب ،

يمتدّان عند التوسط مع خط الاستواء، وسميا الخراتان تشبيها بثُقْبَين فى السماء، ومنه خَرْتُ الإبْرَة ، وتحتَ هذين النجمين تسعةُ أنْجُم صغار . وسميت الزُّبْرَة لشعر يكون فوق ظهر الأسـد ممـا يلى خاصرته ، وعدّوا الجميع أحد عشر كوكبا منها نجمان همـا الخراتان والتسعة الشعر .

الثانية عشرة الصَّرْفَةُ : وهى كوكب نيِّر، وهو عند أصحاب الصور قُنْبُ الأسـد والقُنُبُ وعاء القضيب، وبالقُرْب من هذا الكوكب سبعة أنجم صغار طُمْس ملاصقةٌ له ، وسمى هذا الكوكبُ بالصَّرْفَةِ لانصراف الحَرِّ عند طلوعه مع الفجر من المشرق وانصراف البرد إذا غرب مع الشمس، ويقال الصَّرْفَةُ نابُ الدَّهر لأنَّها تَفْـتَرِع عن فَصْل الزمانين، ويشكل مع الخَرَاتان مثلَّثا له زاوية قائمة وإحدىٰ ساقيه أطولُ من الأخرىٰ وفى قاعدته قِصَر .

الثالثة عشرة العَوَّاء، وهى خمسة كواكبَ نيِّرةٌ علىٰ شكل لام(١)، كان اعتُبِر ابتداؤها من الشَّمال وعطفها من جهة الجنوب لكن المصطف منها أربعة والمنعطف واحد، ويقال لهـا أيضا وَرِكَى الأسـد، وتشبهها العرب بكلاب تَعْوى خلف الأسد لأنها وراءه، ولذلك سميت العَوَّا، وأصحاب الصور يجعلونها فى السُّنْبُلَة علىٰ صدرها .

الرابعة عشرة السِّمَاكُ، وهو السِّماكُ الأعزل : وهوكوكب نَيِّر يميل لونه إلىٰ الزُّرْقة وسمى سِمَاكًا لكونه قريبا من سَمْتِ الرأس، وسَمْتُ الرأس أعلىٰ ما يكون من الفَلَك وسمَّتْه العربُ الأعزلَ لأنه يطلُع إلىٰ جانبه نجمٌ مضىء يسمونه السِّماكَ الرَّامِحَ لكوكب صغير بين يديه، والأعزلُ لاشىء بين يديه ففرق بينهـما، وأحدهما جنوبىّ ، وهو المنزلة، وأصحاب الصُّوَر يثبتون السماكين : الأعزلَ والرامحَ فى صورة العذراء، وهى السنبلة، والعرب تجعلهما ساقى الأسد، وربما عدل القمرُ فنزل بعَجُزِ الأسد، وهو أربعة كواكبَ بين يدى السِّماك الأعزل ، يقال لها عرش السِّماك ، وتسمَّى أيضا

(١) فى لسان العرب كأنها كتابة ألف ... ويقال كأنها نون .

الخِبَاء، والأحمال، والغُراب، وهذه المنزلة حدّ مابين المنازل اليمانية والمنازل الشامية، فما كان أسفل من مَطْلَعه فهو يمانى، وهو شِق الجنوب، وما كان فوقه فهو شامى، وهو شِقّ الشَّمال.

الخامسة عشرة الغَفْرُ، ثلاثة كواكب خفية على خَطٍّ فيه تقويس، وسميت بذلك لخفائها مأخوذة من المَغْفِرَةِ التى تستُر الذنبَ وتخفيه يوم القيامة، ومنه المِغْفَر الذى فوق الرأس، وقيل لأنها زُبَانَىٰ العقرب، وقيل مأخوذة من الغَفْرَة: وهى الشعر الذى فى طرف ذنَب الأسد، وأصحاب الصور يجعلونها بين ساقَىِ الأسد.

السادسة عشرة الزُّبَانَانِ، وهما كوكبانِ نَيِّران هما عند العرب يد العقرب يترس بهما: أى يدفع عن نفسه، وأصحاب الصُّوَر يجعلونهما كِفَّتَى الميزان، وبينهما فى رأىِ العين قدرُ قامة الرجل.

السابعة عشرة الإكْليلُ، وهو ثلاثة كواكبَ مجتمعةٌ فى خفاء الغَفْرِ مصطفّةٌ معترضة، بين كل كوكب وكوكب منها قدرُ ذراع فى رأى العين، سميت بذلك لأنها فوق جبهة العقرب كالتاج، وهى عند أصحاب الصُّوَر على عمود الميزان.

الثامنة عشرة القَلْبُ، وهو كوكب أحمرُ نَيِّرٌ مضطرب قريب من الجبهة بين كوكبين خفيين تسميهما العرب نِيَاطَى القلب أى عِلَاقتيه، وسَمَّتْه أصحاب الصُّوَر قَلْبا لوقوعه موضع القلب من صورة العقرب، والقلوب أربعة هذا أحدها، والثانى قَلْب السمكة، والثالث قلب الثور، والرابع قلب الأسد. وحيثُ ذكر القلب على الإطلاق دون إضافة فالمراد قلب العقرب هذا.

التاسعة عشرة الشَّوْلَةُ، وهى كواكبُ متقاطرة على تقويس فى بُرْج العقرب أشبه شئ بذَنَب العقرب إذا شالته، ولذلك سميت الشَّوْلَةَ، وفى الشولة كوكبان خفيّان

ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإِبْرَةَ والحُمَةَ ، وخلفهما نجم صغير لا يزايلهما يقال له التابع . وقال قوم : إنما ينزل القمر الشَّوْلة علىٰ المحاذاة ولا ينحط إليها لأنها منحدرة عن طريقه ، وربما نزل بالسفار فيما بين القلب والشَّولة ، وهى ستة كواكبَ بيض منعطفة .

العشرون النَّعَائم ، وكواكبها ثمانية ، منها أربعة يمانية نَيِّرة تشكل مربَّعا فيه أطراف تسمى الواردة وهى المنزلة ، وسميت واردة : لأنها لما كانت قريبة من المَجَرَّة شبهت بنَعَام وردت نهرا ، والأربعة الأخرىٰ تسمّى النعائم الصادرة : لأنها لما كانت بعيدة من المجرَّة شبهت بنَعَام وردت ثم صدرت ، والواردة التى هى المنزلة عند أصحاب الصُّوَر واقعة فى يد الرامى الذى يجذب بها القوس .

الحادية والعشرون البَلْدَةُ ، وهى فُرْجَةٌ فى السماء مستديرة شبه الرُّقعة ليس فيها كواكبُ ، والبلدة فى كلام العرب الفُرْجَةُ من الأرض ، ويقال لصدر الإنسان البَلْدة لأنها قطعة مستطيلة ، ويدل عليها ستةُ كواكبَ مستديرةُ صغار خفية تشبه القوسَ ، وبعضهم يسميها الأُدْحِيَّ لأن بالقرب منها كواكبَ تسميها العرب البَيْضَ لقربها من النعائم ، وربما عدل القمر فنزل بالأُدْحِيّ ، وأصحاب الصور يجعلون البلدة علىٰ جبهة الرامى .

الثانية والعشرون سعدُ الذَّابحُ ، وهو كوكبان صغيران بينهما فى رَأْىِ العين أقلُّ من قدر ذراع ، أحدهما مرتفع فى ناحية الشَّمال والآخر منخفض فى ناحية الجَنُوب سمى سعدا لانهمال الأمطار فى أيام طلوعه ، وسمى ذابحًا لقوّة البرد فى إبَّانِ طلوعه فتموت المواشى ببرده ، وقيل سمى ذابحا لأن بالقرب من نجمه الشَّمالِىِّ نجما صغيرا كأنه ملتصق به ، تقول العرب : هو شَاتُه التى تُذْبح ، ولذلك جعلوا الذابحَ صفةً لسعد

بخلاف سائر السـعود ، فإنها يضاف إليها ما بعـدها كما قاله الزجاج فى مقدّمة أدب الكاتب، وأصحاب الصُّوَر يثبتون هذا السعد فى موضع قَرْنَى الجَدْى من الصورة .

الثالثة والعشرون سعد بُلَعَ ، وهو نجمان أيضا يشبهان سعدا الذابحَ فى المسافة التى بينهما لكن أحد الكوكبين خَفِىّ، وهو الذى بلعه، وهذا السعد عند أصحاب الصُّوَر علىٰ كَعْب ساكب المـاء القريبِ من صـورة الدَّلوِ، وسمى بُلَعَ لأنه فى أيامْ طلوعه تغيض الأنهار وتزيد الآبار، فكأن الأرض ٱبتلعت ماءها، وقيل لأنه يطلُع فى الوقت الذى قيل فيه "يَا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَاءَكِ وَيَاسَمَـاءُ أَقْلِعِى" زمن نوحٍ (عليه السلام) .

الرابعة والعشرون سعد السُّعُود، وعدّته كوكبان أيضا علىٰ ماتقدّم فى السعدين من البُعْد، وقيل هو ثلاثة كواكبَ أحدها نَيِّر والآخران دونَه فى النور، وأصحاب الصُّوَر يثبتونه علىٰ صدر ساكب المـاء القريب من صورة الدَّلْو، وربمـا قصر القمر فنزل سعدَ نَاشِرَةَ، وهو أسفل من سعد السعود ، ويسمِّى أصحاب الصور نجميه بالمُحِبَّيْنِ، وهمـا فى مؤخر الجَدْى، ومنهم من يثبت سعد السعود نجما واحدا .

الخامسة والعشرون سعد الأَخْبِيَةِ، والناس مختلفون فيه ؛ فمنهم من يقول : إنه كوكبٌ واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رِجْلَ بَطَّةٍ والكوكب هو السعد والثلاثة الخباء، ومنهم من يجعـل الكوكب الذى فى وسط الثـلاثة عمودَ الخِباءِ ، وهو عنـد أصحاب الصُّوَر علىٰ الكَتِف الشرقية من جسـد ساكب المـاء، وسمى سعدَ الأخبية لخروج المخبَّآت فيه من الثمـار والحشرات ، وكانت العرب تتبرك به لآخضرار العود فيه .

السادسة والعشرون الفَرْغ المقدّم ، ويقال فيه مقدّم الدَّلْوِ والفرغ الأوّل والفرغ الأعلىٰ وعَرْقوة الدَّلْو العُلْيا، وهو كوكبان نَيِّران بينهما فى رأى العين نحوٌ من خمسة أذرع، وأصحاب الصُّوَر يزعمون أن الشَّمالىَّ منهما علىٰ متن الفرس .

السابعة والعشرون الفَرْغُ المؤخَّر، ويقال له مؤخر الدَّلْو السُّفْلىٰ ، وهو كوكبان يشبهان ما تقدّم ، احدهما شَمالىٌّ والآخر جنوبىٌّ ، وهما عند أصحاب الصُّور علىٰ مؤخر الفرس، وربما قصر القمر فنزل فى الكَرِبِ الذى فى وسط العَرَاقِى، وربما نزل ببَلْدة الثعلب .

الثامنة والعشرون الحُوتُ ، وهو آخر المنازل ، ويقال لها السَّمَكة ، وتسمّى الرِّشَاء أيضا ، وهى ثمانية عشر كوكبا تشكل شكلَ سمكة رأسها فى جهة الشَّمال وذَنَبُها فى جهة الجنوب، وفى الشرقىِّ منها كوكب نَيِّر، يسمى سُرَّةَ الحُوت ، وبطنَ الحوت،وبطنَ السمكة،وقلبَ السمكة،وربما عدل القمر فنزل بالسمكة الصُّغرىٰ، وهى من السمكة الكبرىٰ فى الشَّمال مثل صورتها إلا أنها أعرضُ منها وأقصرُ؛ وأصحاب الصُّوَر يجعلون الكوكب النَّيِّرَ من الحوت فى حدّ المرأة المسلسلة ، ورأسها هو الشمالىُّ من الفَرْغ المؤخَّر .

الصنف الثالث

(من النجوم الثوابت ماليس داخلا فى شىء من البروج ومنازل القمر مما هو مشهور مما ذكرتْه العرب فى شعرها، وشبهت به، وضربت به الأمثال)

وهى عدّة نجوم .

منها بنات نَعْشٍ : وهى سبعة أنجم علىٰ القرب من القُطْب الشَّمالىّ ، منها أربعة فى صورة نَعْشٍ وثلاثةٌ أمامه مستطيلةٌ، وهى المعبَّر عنها بالبنات ، وتُعْرَفُ هذه ببنات نعش الكُبرىٰ، وبالقرب منها سبعةُ أنجم علىٰ شكلها .

ومنها الجَدْىُ الذى تعرف به القِبْلة ، وهو نجم صغير علىٰ القرب من القُطْب الشَّمالىّ يستدلّ به علىٰ موضع القُطْب، ويقال له جَدْى بنات نعشٍ الصغرىٰ .

ومنها الفَرْقَدَانِ، وهما كوكبان متقاربان معدودان فى بنات نَعْشٍ .

ومنها السُّهَا ، وهو كوكب خفىّ فى بنات نَعْشٍ الكبرىٰ ، والنـاس يَمْتَحِنُون به أبصارَهم لخفائه .

ومنها السِّماكُ الرامحُ ، وهو غير الأعْزَلِ المقدّم ذكره فى منازل القمر ، سمى رامحا لكوكب يقْدُمه ، تقول العرب : هو رُمْحُه بخلاف الأعزل فإنه الذى لا رُمْحَ معه .

ومنها النَّسْرُ الواقع ، وهو ثلاثة أنجم كأنها أثافى ، سمى الواقعَ لأنهم يجعلون آثنين منه جَنَاحيه ويقولون : قد ضمهما إليه كأنه طائر وقع .

ومنها النَّسْر الطائر، سمى بذلك لأنهم يجعلون آثنين منه جَنَاحيه، ويقولون : قد بسطهما كأنه طائر، والعامّة تسميه الميزانَ .

ومنها الكَفُّ الخَضِيب ، وهو كف الثُّرَيَّا المبسوطةُ ، ولهـا كف أخرىٰ يقال لهـا الجَذْماء، وهى أسفل من الشَّرَطين .

ومنها العَيُّوقُ ، وهو فى طَرَف المجَرَّة الأيمن، وعلىٰ أثره ثلاثةُ كواكبَ بَيِّنَةٌ يقال لهـا الأقلام، وهى من مواقع العَيُّوق .

ومنهـا سُهَيْلٌ ، وهو كوكب أحمرُ منفرد عن الكواكب ولقربه من الأُفُقِ كأنه أبَدًا يضطرب ، وهو من الكواكب اليمـانية ، قال آبن قُتَيْبَةَ : ومطْلَعه عن يسار مُسْتَقْبِلِ قبـلةِ العراق . قال : وهو يُرىٰ فى جميع أرض العرب ، ولا يرى فى شىء من بلاد أَرْمِينِيَةَ .

ومنها الشِّعْرَيَانِ : العَبُورُ، وكانت تعبد فى الجاهلية لقوله تعالىٰ : "وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرىٰ" وهى فى الجوزاء ، والشِّعْرىٰ الغُمَيْصَاءُ ، ومع كل واحدة منهـما كوكب يقال له المِرْزَمُ .

ومنها سعد ناشِرةَ، وسعد المَلِكِ، وسعد البِهَامِ، وسعد الهُمَامِ، وسعد البارع، وسعد مَطَر، وكل سعد منها كوكبان ، بين كل كوكبين فى رَأْىِ العين قَدْرُ ذراع فهى متناسقة، وهذه السعود الستة غير السعود الأربعة المتقدّمة فى منازل القمر، تكون جملةُ السعود عشرةً .

فإذا عَرَفَ الكاتب أحوالَ الأفلاك والكواكب وأسماءَها وصفاتِها، عرف كيف يصفها عند آحتياجه إلىٰ وصفها ، وكيف يعبِّر عنها عند جَرَيَان ذكرها .

كما قال بعضهم يمدح بعض الرؤساء :

لَا زِلْتَ تَبْقىٰ وتَرْقىٰ للعُـلَا أبدًا * ما دام للسبعةِ الأفلاكِ أحكامُ
مَهْرٌ ومَاهٌ وكَيوَانٌ وتيرُ معـا * وهُرْمِسٌ وأناهيـدٌ وبَهْـرَام

مشيرا بذلك إلىٰ ذكر الأفلاك السبعة ، وما لهـا من الكواكب السبعة السيارة بالأسمـاء الفارسية المقدّم ذِكْرُها .

وكما قال الطُّغْرَائى فى لامية العجم :

وإن عَلَانِى مَنْ دُونِى، فـلا عَجَبٌ * لِى أُسْوَةٌ بانحطاطِ الشمس عن زُحَلِ

مشيرا إلىٰ كون فلَك زُحَلَ أعلىٰ من فَلَك الشمس لمـا تقدّم أنها فى الرابع، وهو فى السابع .

وكما قال بعضهم يَصف خُضْرة السماء، وما لهـا من الكواكب :

كأنّ سَمَاءَنا، والشُّهْبُ فيهـا * وأَصْغَرُهَا لأَكْبرها مُزَاحِمْ
بِسَاطُ زُمُرُّدٍ نُثِرتْ عليـه * دنانيرٌ يخالِطُهـا دَرَاهِـمْ

وكما قال ذو الرُّمّة وقد ذكر الثريّا :

يَدِفُّ علىٰ آثارهـا دَبَرَانُهـا * فلا هو مَسْـبُوقٌ ولَا هو يَلْحَقُ
بعشرين من صُغْرىٰ النجومِ كأنها * وإيَّاه فى الخَضْراء لو كان يَنْطِقُ

قِلَاصٌ حَدَاها راكبٌ متعمِّم * إلىٰ الماء من جَوْز التَّنُوفة مُطْلَقُ

مشيرا إلىٰ ماتقدّم من خِطْبَةِ الدَّبَرَانِ الثريَّا وهَرَبِها منه وإمهارِه إياها بالقلائص: وهى النجوم التى حولها .

وكما قال أبو الفَرَجِ البَبَّغَا ذاكرا حال مختفٍ يُرْجىٰ له الظهورُ :

سَتَخْلُصُ من هذا السِّرارِ وأيَّما * هلالٌ توارىٰ فى السِّرار فما خلص

مشيرا بذلك إلىٰ حالة توارِى القمر حالةَ السِّرار ثم خلوصه عند إهلاله .

النوع التاسـع

(ممـا يحتاج الكاتبُ إلىٰ وصفه العُلْويَّات ممـا بين السماء والأرض، وهى علىٰ أصـناف)

الصـنف الاوّل .

(الريح)

وهى مؤنثة، يقال هبت الريح تَهُبُّ هبوبا، وتجمع علىٰ رياح، وقد دل الاستقراء علىٰ أنها حيث وردتْ فى القرءان الكريم فى مَعرِض العـذاب ، كانت بلفظ الإفراد وحيث وردت فى معرض الرحمة، كانت بلفظ الجمع . قال تعالىٰ فى جانب العذاب : "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" وقال : "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا" وقال فى جانب الرحمـة : "وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ" وقال جلت قدرته : "اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً" إلىٰ غير ذلك من الآيات . ومن ثَمَّ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتدّت الريح قال : "اللّهمَّ اجْعَلْها رِيَاحًا ولا تجْعَلْها رِيحًا" وقد ورد القرءان الكريم بأن الله تعالىٰ هو الذى يرسلها، قال تعالىٰ : "اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً"

وذهبت الفلاسفة إلىٰ أنها تَحْدُثُ عن الطبيعة، وأن سبب ذلك دُخَان يرتفع من الأرض فيضربه البرد فى ٱرتفـاعه فيتنكَّس و يتحامل علىٰ الهواء و يحرّكه الهواء بشدّة فيحصل الريح .

وأصول الرياح أربعة :

الاولىٰ الصَّبَا : وهى التى تأتى من المَشْرِق، وتسمّى القَبُول أيضا : لأنها فى مقابلة مُسْتَقْبِلِ المشرق، قال فى صناعة الكُتَّاب : وأهل مِصْر يسمونها الشرقيةَ : لأنها تأتى من مَشْرِق الشمس ، وهى التى نُصِر بها النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله : " نُصِرْتُ بالصَّبَا " .

الثانية الدَّبُور ، ومَهَبُّها من مغرب الشمس إلىٰ حدّ القطب الجنوبىّ ، وسميت الدَّبُورَ لأن مستقبِل المشرق يستدبرها ، وتسمّى الغربيةَ لهبوبها من جهة المغرب ، وبها هلَكَتْ عاد كما أخبر عليه السـلام بقوله : " وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ " .

الثالثة الشَّمَالُ ، ويقال فيها شَمَـال وشَمْأَلٌ وشَامَلٌ وشَأْمَلٌ مهموزا وغير مهموز ، ومَهَبُّها من حدّ القطب الشمالىِّ إلىٰ مغرب الشمس ، وسميت شَمَـالًا لانها علىٰ شمَال من ٱستقبل المشرق ، قال فى صناعة الكُتَّاب : وتسمى البَحرية لأنها يُسَار بها فى البحر علىٰ كل حال .

الرابعة الجَنُوبية ، ومَهَبُّها من حدّ القطب الأسفل إلىٰ مطلع الشمس ، وتسمّى بالديار المصرية القِبْلِيَّـةَ لأنها تأتى من القبـلة فيها ، وتسمّى بها أيضا المَرِيسيَّة لأن فى الجهة القبلية بلاد المَرِيس : وهم ضرب من السُّودان ؛ وهى أردأ الرياح عنـد اهل مصرَ. وقال النحاس : وكل ريح جاءت من مَهَبَّىْ ريحين تسمّى النَّكْبَاء، سميت بذلك لأنها نَكَبَتْ عن مَهَابِّ هذه الرياح وعَدَلت عنها، قال فى " فقه اللغة": وإذا

جاءت بنَفَسٍ ضعيف ورَوْحٍ فهى النسيم ؛ وإن ٱبتدأت بشِـدَّة قيل لهـا النافجة ؛ فإن حركت الأغصـانَ تحريكا شـديدا وقلعت الأشجار قيـل زَعْزَع ؛ فإن جاءت بالحَصْـباء قيـل حاصبة ؛ فإذا هَبَّتْ من الأرض كالعـمود نحو السماء قيـل لهـا إعْصار . وقد ورد بها القرءان فى قوله تعـالىٰ : "فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ" والعامَّة تسميها الزَّوْبَعَةَ ، ويزعمون أن الشيطان هو الذى يثيرها ، ومن ثَمَّ سمـاها الترك نعـيم بك يعنى الشـيطان ؛ فإذا كانت باردة ، فهى الصَّرْصَر . وقد وقع ذكرهـا فى قوله تعـالىٰ : "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا" ؛ فإذا لم تُلْقِح شجرا ولم تحمل مَطَرا ، فهى العَقِيم . وقد قال تعالىٰ فى قصة عاد : "إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" كانت لامطر فيها .

الصـــــنف الثانى

(السَّحاب)

وهو الأجرام التى تَحْمِل المطرَ بين السماء والأرض يُنْشِـئُها الله سـبحانه وتعـالىٰ كما أخبر بقوله : "وَيُنْشِئُ السَّـحَابَ الثِّقَالَ" ويسوقهـا إلىٰ حيث يشاء كما ثبت فى الصحيح "أنّ رجلا سمِـع صوتا من سَحابة : ٱسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ" .

وذهب الحكماء إلىٰ أنه بُخَار متصاعد من الأرض مرتفع من الطبقة الحارّة إلىٰ الطبقة الباردة فيثْقُل ويتكاثف وينعقِد فيصير سحابا . قال الثعالبىّ فى "فقه اللغة" : وأوّل ماينشأ يقال له النَّشْء ؛ فإذا ٱنسحب فى الهواء ، قيل له سَحاب ؛ فإذا تغيرت به السماء ، قيل له غَمَام ، فإن سُمِـع صوت رعده من بعيد قيل فيه عَقْر ؛ فإذا أظل ، قيل عارِضٌ .

وقد أخبر تعالىٰ عن قوم عاد بقوله : "فَلَمَّـا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا

هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا "؛ فإن كان بحيث إذا رُؤى ظُنَّ أنّ فيه مطرا ، قيل له مُخَيِّلَةٌ ؛ فإن كان السحاب أبيض ، قيل له مُزْنٌ ؛ فإذا هراق مافيه ، قيل جَهَامٌ ، وقيل الجَهَامُ هو الذى لامَطَر فيه .

وقد أُولِع أهل النظم والنثر بوصفه وتشبيهه .

الصنف الثالث

(الرعد)

وهو صوت هائل يُسمَع من السحاب ، وقد آختلف فى حقيقته فروى أنه صوت مَلَكٍ يزجُرُ به السحاب ، وقيل غير ذلك ؛ والنصيرية من الشِّيعة يزعمون أنه صوت أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه حيث زعموا أنّ مسكنه السحابُ ؛ وذهبت الفلاسفة إلى أنه دُخَان يتصاعد من الأرض و يرتفع حتّى يتصل بالسحاب و يدخُل فى تضاعيفه و يَبْرُدَ فيصيرَ ريحا فى وسط الغيم ، فيتحرّك فيه بشدّة فيحصل منه صوت الرعد ، و يقال منه رَعَدت السماء ؛ فإذا زاد صوتها ، قيل آرتجست ؛ فإذا زاد ، قيل أرْزَمَتْ ودَوَّتْ ؛ فإذا آشتدّ ، قيل قصَفَت وقعقَعَتْ ؛ فإذا بلغ النهاية ، قيل جَلْجلت وهَدْهَدتْ .

الصنف الرابع

(البرق)

وهو ضوء يُرى من جوانب السحاب ، وقد آختلف فيه أيضا فروى أنّ الرعدَ صوت مَلَكٍ يزجُرُ به السحابَ وأنّ البرق ضَحِكُه ؛ والنصيرية من الشِّيعة يزعمون أنه ضَحِكُ أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه أيضا ، والفلاسفة يقولون إنه دُخَان يرتفع

من الأرض حتّى يتصل بالسحاب كما تقدّم فى الرعد ، ثم تَقْوىٰ حركته فيشتعِل من حرارة الحركة الهواءُ والدخانُ فيصير نارا مضيئة وهو البرق؛ ويقال ومَضَ البرق إذا لمع لَمَعَانا قويًّا ، وأومض إذا لمع لَمَعَانا خفيًّا؛ فإن أطمع فى المطر ثم ظهر أن لامطر فيه، قيل خُلَّبٌ .

الصــــنف الخامس

(المطـــر)

وهو المـاء الذى يخلقه الله تعالىٰ فى السحاب ويسوقه إلىٰ حيث يشاء .

وقد ذهب الحكماء إلىٰ أنه بُخَـار يتصاعد (من الأرض أيضا فيه أو فى حرارة الشمس أو فيهما)[1] فيجتمع ، وربمـا أعانت الريحُ علىٰ جمعه بأن تسوق البعض إلىٰ البعض حتّى يتلاحق ؛ فإذا آنتهىٰ إلىٰ الطبقة البـاردة تكاثف وصار ماء وتقاطر كالبخار الذى يتصاعد من القِدْرِ وينتهى إلىٰ غِطاء القـدر وعنـد أدنىٰ برودة ينعقد قَطَرات .

ثم للمطر زمان يكثر فيـه ، وزمان يَقِلُّ فيـه ؛ وقد رتب العرب ذلك علىٰ أنواء الكواكب التى هى منازل القمر، وجعلوا لكل منها نَوْءًا ينسب إليه . قال أبو حنيفةَ الدِّينَوَرِىُّ فى "كتاب الأنواء الكبير" : كانت العـرب تقول : لا بدّ لكل نَوْء كوكبٍ من أن يكون فيه مطر، أو ريح ، أو غيم ، أو حر، أو برد . ينسبون ما كان فيه من ذلك إليه ؛ وقد آختلف فى معنىٰ النَّوْءِ فذهب ذاهبون إلىٰ أن النَّوْءَ فى اللغة النُّهُوضُ ؛ وذهب الفرّاء إلىٰ أنه السُّقوط والمَيَلان ؛ وذهب آخرون إلىٰ أنه يطلق علىٰ النهوض والسقوط جميعا ، علىٰ أنهم متفقون أن العرب كانت ترىٰ الأمر للسقوط

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب من الارض أيضا أو من حرارة الشمس أو منهما .

دون الطلوع، فمن ذهب إلىٰ أن المراد بالنَّوْءِ السقوطُ يجريه علىٰ بابه، ومن ذهب إلىٰ أن المراد بالنوء النهوضُ يقول: إنما سمى نوءًا لطلوع الكوكب لا لسقوط الساقط، ومنهم من يطلق النَّوْءَ علىٰ السقوط وإن كان موضوعه فى اللغة النهوض من باب التفاؤل كما يقال للديغ سَلِيم ولِلْمَهْلَكَةِ مفازة، علىٰ أن بعضهم قد ذهب إلىٰ أن الكوكب ينوء بمعنى يَنْهَضُ ثم يسقط، فإذا سقط فقد مضىٰ نَوْءُهُ ودخل نوء الكوكب الذى بعده، قال أبو حنيفة الدِّينَوَرِىُّ: وهو التأويل المشهور الذى لا ينازع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذى بين يديه، أطَلَّ هو علىٰ السُّقوط وكان أشبه حالا بحال الناهض. وقد عدّها أبو حنيفة ثمانيةً وعشرين نوءًا بعدد منازل القمر المتقدّمة الذكر، وذكر ان بعضها أجهرُ وأشهر من بعض.

الأوّل نوء الشَّرَطَيْنِ، وهو ثلاث ليال، وأثره محمود عندهم.

الثانى نوء البُطَيْنِ، وهو ثلاث ليال، وليس بمذكور عندهم ولا محمود. قال ٱبن الأعرابى: يقال إنه مانَاء البُطَين والدَّبَرَان أو أحدهما فكان له نظر، إلا كاد ذلك العام يكون جَدْبا.

الثالث نوء الثريَّا، وهو خمس ليال وقيل سبع؛ وأثره محمود عندهم مشهور.

الرابع نوء الدَّبَرَان، وهو ثلاث ليال وقيل ليلة؛ وليس بمحمود عندهم، ولم يسمع فى أشعارهم له ذكر.

الخامس نوء الهَقْعَةِ، وهو ست ليال، ولا يذكرون نَوْءَهَا إلا بنوء الجوزاء التى الهقعةُ رأسها، والجوزاء مذكورة النوء مشهورة.

السادس نوء الهَنْعَةِ، وهو ثلاث ليال لايكاد ينفرد عن نَوْءِ الجوزاء.

السابع نوء الذِّراعِ المقبوضة، وهى خمس ليال، وقال ٱبن كناسة: ثلاث ليال،

وهو أوّل أنواء الأسد ، وأثره محمود عنـدهم موصوف؛ وربمـا نسب إلىٰ المِرْزَمِ، وهو أحد كوكبي الذراع المذكورة، وربما نسب إلىٰ الشِّعْرىٰ الغُمَيْصَاءِ، وهو كوكبها الآخر الذى هو أنور من المِرْزَمِ ؛ وقد ذكر العرب مع الذراع المقبوضة الذراعَ المبسوطة فتجمعُهُمَا معا فى النوء، وهما لاينوآن معا بل ولا يطلعان معا، لكن لكثرة صحبة إحداهمـا للأخرىٰ فى الذكر وآجتماعهما فى آسم واحد مع تجاورهما وكونهما عُضْوَىْ صورة واحدة، وهى صورة الأسد .

الثامن نوء النَّثْرَةِ، وهو سبع ليال، وله عندهم ذكر مشهور .

التـاسع نوء الطَّرْفَةِ ، وهو ست ليال ، ولم يسمع به مفردا لغلبـة الجبهة الآتية الذكر عليه .

العاشر نوء الجبهة، وهو سبع ليال، وذكره مشهور لديهم .

الحادى عشر نوء الزُّبْرَةِ، ونوءها أربع ليال، وقلما تنفرد لغلبة الجبهة عليها أيضا .

الثـانى عشر نوء الصَّرْفَةِ ، وهو ثلاث ليـال ، ولا يكاد يوجد لهـا ذكر عندهم فى أشعارهم .

الثالث عشر نوء العوّاء، وهو ليلة واحدة، وليس من الانواء المشهورة .

الرابع عشر نوء السِّمَاكِ الأعزل، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور، وكثيرا مايذكر معه السِّماك الرامح ، وليس له نوء معه ولكنهما متقاربان فى الطلوع، وحينئذ فإفراد السِّماك الرامح بالنوء خطأ .

الخامس عشر نوء الغَفْرِ، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة ، وما بينه وبين نوء الهنعة المتقدمة الذكر من أنواء الأسد، وهى ثمانية أنواء أوّلها الذراع، وآخرها نوء السماك؛ وليس له فى السماء نظير فى كثرة الأنواء .

السادس عشر نوء الزُّبانى، وهو ثلاث ليال .

السابع عشر نوء الإكليل، وهو أربع ليال .

الثامن عشر نوء القلب، وهو ليلة واحدة، وليس بمحمود .

التاسع عشر نوء الشَّوْلَةِ، وهو ثلاث ليال، وقلما يذكر.

العشرون نوء النعائم، وهو ليلة واحدة، وليس له ذكر .

الحادى والعشرون نوء البَلْدَةِ، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة .

الثانى والعشرون نوء سعدِ الذابح، وهو ليلة واحدة .

الثالث والعشرون نوء سعدِ بُلَعَ، وهو ليلة واحدة .

الرابع والعشرون نوء سعد السعود، وهو ليلة، وليس بمحمود، ولا مذكور .

الخامس والعشرون نوء سعدِ الأخبية، وهو ليلة واحدة .

السادس والعشرون نوء الفَرْغ المقدّم، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور .

السابع والعشرون نوء الفرغ المؤخر، وهو أربع ليال، وله ذكر أيضا .

الثامن والعشرون نوء الحُوت ، وهو ليلة واحدة، وليس بالمذكور من حيث إنه يغلب عليه ما قبله وما بعده فلا يذكر . قال أبو حنيفة الدِّينَوَرِىُّ : والأيام فى هذه الأنواء تابعة لليالى لتقدّم الليل عليها، قال : وإنما جعلوا لهذه النجوم أنواءً موقوتة وإن لم تكن جميع فصول السنة مَظِنَّةَ الأمطار لأنه ليس منها وقت إلا وقد يكون فيه مَطَر ، وقال آبن قُتَيْبَةَ : أوّل المَطَر الوَسْمِىُّ سمى بذلك لانه يَسِمُ الأرض بالنبات، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم . قال الثعالبي عن أبى عمرو : إقبال الشتاء الخريف ، ثم الوَسْمِىُّ، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم (١) .

---

(١) فى فقه اللغة الصميم .

الصـــــنف السادس

(الثـــلج)

وهو شيء ينزل من الهواء كالقطن المندوف فيقع علىٰ الجبال وعلىٰ سطح الأرض فتُذِيب الشمسُ منــه مالاقته شدّةُ حرارتها، ويبقى فى أماكنَ مخصوصــةٍ من أعالى الجبال بالأمكنة الباردة جميعَ السنة؛ وقد ذكر الحكماء أنه بُخَار يتصاعد من الأرض إلىٰ الهواء كما يتصاعد المطر فيصيبه برد شديد قبل أن ينعقد قطرات فيتساقط أجزاء لطيفة ، ثم ينعقد بالأرض إذا نزل إليها، ويوصف بشــدّة البرد وشــدّة البياض ؛ وسيأتى الكلام علىٰ ماينقل منه من الشام إلىٰ ملوك الديار المصرية فى خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــــنف السابع

(البَرَد بفتح الراء)

وهو حب يســقط من الجوّ؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخــار يتصاعد من الأرض أيضا ويرتفع فى الهواء فلا تدركه البرودة حتّى يجتمع قطرات ، ثم تدركه حرارة من الجوانب فتنهزم برودتها إلىٰ مواطنها فتنعقد؛ وحب هذا البَرَد متفاوت المقــادير منه ماهو قدر الحِمِّص فمــا دونه، ومنه ماهو فوق ذلك؛ ويذكر أنه يقع منه ماهو بقدر بيض الحمــام والدَّجاج . قال الحكماء : ولا يتصوّر وقوعه إلا فى الخريف والربيع ويوصف بمــا يوصف به الثلج من شدّة البرد وشــدّة البياض ، ويُشَبَّهُ به أسنانُ الإنسان الناصعة البياض .

الصـــــنف الثـامن
(قوس قُزَحَ)

وهو قوس يظهر فى الجو من حُمرة وخضرَة ، وقد ورد النهى عن تسميته قوسَ قُزَحَ، وتسميتُه قوسُ الله لأن قزح آسم للشيطان . قال الحكماء : والسبب فيه أن الهواء إذا صار رطبا بالمطر مع أدنىٰ صـقالة صار كالمرآة، والمحاذى له إذا كان الشمس فى قفاه يَرىٰ الشمس فى الهواء كما يرىٰ الشمس فى المـرآة، ويشتبك ذلك الضوء بالبخار الرطب فيتولد منه هذا القوس .

قال الحكماء : ويكون له ثلاثة ألوان يعنون حُمْـرَةً بين خضرتين أو خضرةً بين حمرتين، وربما لا يكون اللون المتوسط، ويكون مرتفعا آرتفاعا قريبا من الأرض، فإن كان قبل الزوال، رُؤى ذلك القوس فى المغرب، وإن كان بعد الزوال، رؤى فى المشرق، وإن كانت الشمس فى وسط السماء، فلا يمكن أن يرىٰ إلا قوسا صغيرا فى الشتاء إن اتفق .

وفيه تشبيهات للشعراء يأتى ذكرها فى آخر المقالة العاشرة إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــــنف التـاسع
(الهَـالَة)

وهى الدائرة التى تكون حول القمر . قال الحكماء : والسبب فيها أن الهواء المتوسط بين البَصَر وبين القمر صقيل رَطْبٌ ، فيُرىٰ القمر فى جزء منه، وهو الجزء الذى لو كان فيــه مرآة لرؤى القمر فيها ، ثم الشئ الذى يُرىٰ فى مرآة من موضع لو كانت فيــه مَرَاءٍ كثيرةٌ محيطة بالبصر، وكانت موضوعةً علىٰ تلك النســبة فيُرىٰ

الشىء فى كل واحدة من المَرائى ، فإذا تواصلت المرائى رؤى فى الكل ، فتُرى
حينئذ دائرة .

ولأهل النظم والنثر فيها وصف وتشبيه .

الصـــــنف العـــاشر
(الحَـــرُّ)

وسُلْطانه أواخِرَ فصــل الربيع وأوائلَ فصل الصــيف ، والسبب فيه مسامتة الشمس للرءُوس، فتشتدّ ثائرةً فى الهواء وجِرْمِ الأرض، لاسيما الحجازَ وما فى معناه.

وأهل النظم، والنثر مُولَعون بوصف شدّة حرّه .

الصنف الحـادى عشر
(الـــبَرْدُ)

وسلطانه أواخِرَ فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء .

وأهل النظم والنثر مُكْثِرون من ذكره ووصفه، حتّى إنه ربمـا أفرد بعضُ الناس ماقيل فيه وفى وصفه بالتصنيف .

الصنف الثـانى عشر
(الهَبَـاءُ)

وهو الذى يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كَوَّةً يدخل منها الضوء، فيكون شبه عمود ممتدّ من الكَوَّة إلىٰ حيث يقع ضوء الشمس من الأرض ، وفيــه أجزاء لطيفــة متفاوتة تُحَسُّ بالنظر دون اللمس ؛ وقد شــبه الله تعالىٰ به أعمــال الكُفَّار

فى القيامة فقال جل من قائل : "وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا" ومن النـاس من يزعم أن الواحدة من أجزائه هى المراد بالذرّة المذكورة فى القرءان بقوله تعـالى : "فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره" ولأهل النظم والنثر أيضا فيه الوصف والتشبيه .

النوع العـاشر
(ممـا يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية، وهى على أصناف)

الصـــنف الأوّل
(الجبـال، والأودية ، والقفار)

فأما الجبال فهى أوتاد الأرض ، أرسى الله تعالى بها الأرض حيث مادت لمـّا دحاها الله تعالى على المـاء . وقد روى أن الكعبة كانت رابية حمراء طافية على وجه المـاء قبل أن يدحو الله الأرض، وأن الأرض منها دحيت ، فلما مادت وأرسيت بالجبال ، كان أوّل جبل أرسى منها جبل أبى قبيس بمكة المشرّفة فلذلك هو أقرب الجبال من الكعبة مكانا . وقد نقل أن قاف جبـل محيط بالدنيا عنه تتفرّع جميع جبال الأرض، والله أعلم بحقيقة ذلك . وتوصـف الجبال بالعظمة فى القدر والعلوّ وصعوبة المسلك، وما يجرى مجرى ذلك .

وأما الأودية ، فهى وهاد فى خلال الجبال جعلها الله تعالى مجارى للسيل ونبات الزرع ومدارج الطرق وغير ذلك . وتوصف بالاتساع وبعد المسافة والعمق، وربما وصفت بخلاف ذلك .

وأما القفار، فهى البرارى المتسعةُ الأرجاء الخاليةُ من الساكن . وتوصف بالسَّعةِ وبُعْد المسافة وقلةِ المــاء والإيحاش وصعوبة المَسْلَك، وما يجرى مجرىٰ ذلك .

الصــنف الثـانى

(الميــاه الأرضــية ؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل ــ المــاء الملح

ووقع فى لغــة الإمام الشــافعى رضى الله عنه المــاء المــالح؛ وهو أحد العناصر الأربعة ، وســيأتى فى الكلام علىٰ الأرض فى المقالة الثانية أنه محيط بالأرض من جميع جهاتها إلا ما آقتضــته الحكمة الإلهية لعمارة الدنيا من كشف بعض ظاهرها الأعلىٰ ، وأنه تفرّعت منه بحار منبثَّة فى جهات الأرض لتجرىَ السفنُ فيها بما ينفع الناس؛ وقد ذكر الحكماء أنّ فى المــاء الملح كَثَافةً لا توجد فى المــاء العَذْب ، ومن أجل ذلك لاترسب فيه الأشياء الثقيلة كما ترسب فى المــاء العذب، حتّٰى يقال : إن السفن التى تَغْرَقُ فى البحر المِلْح لا تبلُغ أرضَه بخلاف التى تَغْرَقُ فى الأنهار فإنها تنزل إلىٰ قعرها . وشاهد ذلك أنك إذا طرحتَ فى المــاء العذب بيضــةَ دَجاجة ونحوها غَرِقت فيــه ، فإذا أذبتَ فى ذلك المــاء مِلْحا بحيثُ يغلب علىٰ المــاء وطرحت فيه البيضة ، عامت؛ وقد آختلف فى المــاء المِلْح هل هو كذلك من أصــل الخلقة أو عرضت له الملوحة بسبب مالاقاه من سَبَخ الأرض علىٰ مذهبين؛ ومن خصائص البحر الملح أنه فى غاية الصَّــفاء حتّٰى إنه يُرىٰ ما فى قعره علىٰ القرب من شَــطِّه . ويوصف البحرُ بالسَّعة والطول والعرض وكثرة العجائب حتّٰى يقال فى المثل "حَدِّثْ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ" .

الضرب الثانى ــ المـاء العذب

قالت الحكماء والسبب فيه أن الأبخرة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل فى الجبال وتحتبس فيها ، ولا تزال تتكامل و يتحصل منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها .

وهو على ثلاثة أنمـاط :

النَّمَط الأوّل ــ ماء الأنهار ، وهى ما بين صغار وكبار وقريبة المَدى و بعيدته ، وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار، وهى سَيْحون، وجَيْحون، والدِّجلة، والفُرات ، ونِيل مِصْر، والنيل أفضل الخمسة وأعذبها وأخفُّها ماء على ما سيأتى ذكره فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى، وفى الأنهار الكبار تسير السفن .

النمط الثـانى ــ العيون : وهى مياه تَنْبُعُ من الأرض وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح فى قُنِيٍّ قد حُفِرت لهـا ، وهى منبثة فى كثير من الأقطار .

النمط الثالث ــ البِئار : وهى حفائرُ تحفر حتّى ينبُع المـاء من أسـفلها و يرتفع فيها ٱرتفاعا لا يبلغ أعلاها ، وقد ٱختلف فى المـاء الذى نبع من الأرض هـل هو الذى نزل من السماء أو غيره ، فذهب ذاهبون إلى أنه هو الذى نزل من السماء محتجـين لذلك بقوله تعـالى : "وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَـدَرٍ" الآية ، وذهب آخرون إلى أن الذى نبع من الأرض غير الذى نزل من السماء محتجين بقوله تعالى : "فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا". و يوصف الماء للاستحسان بالعذوبة ، والصـفاء ، والرقة ، والخِفَّة ، وشدّة البرد، وفى معناه الشَّبِمُ . ويشَـبَّه فى شدّة البرد بالزُّلَال : وهو مايتربّى داخل الثَّلْج فى تجاويف توجد فيـه فيكون من أشدّ المـاء بَرْدا .

الصــــنف الثالث

(النبات ، وفيه ثلاثة مقاصدَ)

المقصد الأوّل ـــ فى أصل النبات

قد ذكر المسعودى فى مروج الذهب : أن آدم عليه السلام لما هبط إلىٰ الأرض ، خرج من الجنة ، ومعه ثلاثون قَضِيبا مودعةً أصناف الثمر ، منها عشرة لها قِشْر : وهى الجَوْز ، واللَّوْز ، والجِلَّوْز ، والفُسْتُق ، والبَلُّوط ، والشاه بَلُّوط ، والصَّنَوْبر ، والنَّارَنْج ، والرُّمَّان ، والخَشْخَاش . ومنها عشرة لثمرها نَوًى : وهى الزَّيْتون ، والرُّطَب ، والمِشْمِش ، والخَوْخ ، والإجَّاص ، والغُبَيراء ، والنَّبِق ، والعُنَّاب ، والمُخَيْطِىٰ(١) ، والزُّعْرور . ومنها عشرة ليس لها قِشْر ولا نَوًى : وهى التُّفَّاح ، والسَّفَرْجل ، والكُمَّثْرىٰ ، والعِنَب ، والتِّين ، والأُتْرُجّ ، والخُرْنُوب ، والتُّوت ، والقِثَّاء ، والبِطِّيخ .

المقصـــــد الثـانى

(فيما تختص به أرض دونَ أرض من أنواع النبات)

اعلم أن النبات منه ما يوجَد فى كثير من الآفاق ، ومنه مايختَصّ ببعض الأماكن دُونَ بعض ، وقد حكى أبو بكر بن وحشِيَّة فى كتاب الفِلاحة النبطيَّة : أن ببلاد سِجِلْماسة من جَنوبىّ بلاد المغرب الأقصىٰ شجرةً ترتفع نصف قامة أو أرجح ، ورقُها كورق الغار ، إذا عُمِل منها إكليل ولبسه الرجلُ علىٰ رأسه ومشىٰ أو عدا أو عَمِل عملًا ، لم ينَمْ مادام ذلك الإكليل علىٰ رأسه ، ولا ينالُه من ضرر السَّهر وضَعْف القوّة ما ينالُ من سَهِر وعَمِل . وفى بلاد إفْرِنْجة شجرة إذا قعد الإنسان تحتها نصفَ ساعة مات ، وإن مسَّها ماسٌّ أو قطع منها غصنا أو ورقة أو هَزَّها مات .

---

(١) كذا فى المفردات لابن البيطار أيضا ولكن فى القاموس (وكثمامة وجميز) فلعل فيه لغة ثالثة .

قلت ومما يختصّ بأرض دونَ أرض البَلَسانُ : وهو شجرة لطيفة على نحو ذراع تتفرّع فروعا، لا تنبُت فى سائر الدنيا إلا فى الديار المِصْرية بموضع مخصوص من بَلْدة يقال لها المَطَرية، على القُرْب من مدينة عَيْن شمس، وتسقى من بئرٍ هناك؛ ويقال إنه اغتسل فيها المسيحُ عليه السلام ولذلك النصارى يعظمون البَلَسانَ ويتبرّكون به.

المقصد الثالث

(فى ذكر أصناف النبات التى أُولِع الكُتَّاب والشعراءُ بوصفها وتشبيهها : وهى على أضرب)

الضرب الأوّل — ماله ساقٌ

وهو الشجَر، وأكثر ما أُولِع أهلُ النظم والنثر بثمارها أو نَوْرها، فى الوصف والتشبيه نثرا ونظما : كاللَّوْز، والفُسْتُق، والجِلَّوز : وهو البُنْدق، والشاه بَلُّوط : وهو القَصْطَل، والصَّنَوْبر، والرُّمَّان، والجُلَّنار، والإجَّاص، والقَرَاصيا، والزُّعْرور، والخَوْخ، والمِشْمِش، والعُنَّاب، والنَّبِق، والعِنَب، والتِّينُ، والتُّوت، والتُّفَّاح، والسَّفَرْجَل، والكُمَّثْرى، واللُّفَّاح، والخَرُّوب، والأُتْرُجّ، والنارَنْج، واللَّيْمُون، والطَّلْع، والبَلَح، والبُسْر، والتمر، والرَّانَج : وهو جوز الهند، والتُّجّار يسمُّونه النارَجيل. وربما وقع الوصف والتشبيه لبعض أصول الشجر : كالنخل والكرم وغيرهما.

الضرب الثانى — ماليس له ساق

وقد أُولِعوا بالوصف والتشبيه منه، فمن ذلك الزرع : من البُرّ والشعير ونحوهما، ويتبَعُ ذلك نَوْر الباقِلاء، وكذلك الخَشْخاش، والكَتَّان، والبِطِّيخ الهندىّ : وهو الأخضر، والخُراسانىّ : وهو العَبْدلىّ، نسبة إلى عبد الله بن طاهر، فإنه أوّل من نقله

من خُراسان إلىٰ مصرَ، والبِطّيخ الصينىّ : وهو الأصفر، والرسنيتو : وهو المعروف باللُّفّاح، والقِثّاء، والخِيار، والباذنْجان، والسّلْجم : وهو اللِّفْت، والجَزَر، والثُّوم، والبَصَل، والكُرّاث، والرِّيباس، والهِلْيَوْن، والنَّعْناع، وغير ذلك .

الضرب الثالث ـــ الفواكه المشمومة

والذى أُولِـع بوصفه وتشبيهه منـه الوردُ علىٰ آختلاف ألوانه : من أحمرَ، وأبيضَ، وأصفَرَ ، وأزرقَ، وأسودَ، والنِّسْرِينُ ، والبانُ، والخِلَاف ، والنَّيْلُوفَر ، والبَنَفْسَج ، والنَّرْجِس ، والياسَمِين ، والآس ، والزَّعْفَران ، والرَّيْحان .

الضرب الرابع ـــ الأزهار

والذى وقع الوَلُوع بوصفه وتشبيهه من ذلك الخِـيرِىُّ : وهو المنثور : من أصفرَ أو أزرق ، والسَّوْسَن ، والآذَريون : وهو ورد أصفر له ريح ، والخُزَم : وهو الخُزامىٰ ، والشَّقِيق (١) . ويسمّى الشقَاق ، ويقال له شَقائقُ النُّعمان : لأن النُّعمان بن المنـذر حمىٰ ظهر الكوفة وبه هذا النبات فعُرِف به ، والبَهار : وهو نَوْر أحمر ، والأُقْحُوان ، وغير ذلك .

الضرب الخامس ـــ الرياض

وهى الأماكن المشـتملة علىٰ الأشجار ، والأزهار ، والمياه الجارية ونحو ذلك .

وقد آتفق جوّابُو الأرض علىٰ أن منتزهات الأرض أربعـةُ مواضعَ : وهى سُـغْد سَمَرْقَندَ، وشِعْب بوّانَ، ونهر الأُبُلَّة، وغُوطة دِمَشْقَ .

وقد أكثر الشعراء فى وصف الرياض ووَلِـع الكُتّاب بمثل ذلك .

---

(١) لعله والشقيقة ففى اللسان أن الشقائق لاواحد له أو واحدته شقيقة وعلل لذلك فانظره .

الطرف الثالث من الباب الأوّل من المقالة الأولىٰ

(فى صنعة الكلام، ومعرفة كيفية إنشائه، ونظمه، وتأليفه : وفيه مقصدان)

المقصـــــد الأوّل

(فى الأصول التى يبنىٰ الكلام عليها : وهى سبعة أصول)

الأصـــــل الأوّل

(المعرفة بالمعانى . والنظر فيه من وجهين)

الوجه الأوّل

(فى شرف المعانى ، وفضلها)

اعلم أن المَعانِىَ من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثِّياب . فالألفاظ تابعة، والمعانى متبوعة؛ وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعانى؛ بل المعانى أرواح الألفاظ وغايتهـا الّتى لأجلها وُضِـعت ، وعليها بُنِيتْ؛ فاحتياج صاحب البلاغة إلىٰ إصابة المعنىٰ أشـدّ من ٱحتياجه إلىٰ تحســين اللفظ : لأنه إذا كان المعنىٰ صوابا واللفظ منحطًّا ساقطا عن أسْـلُوب الفَصاحة ، كان الكلام كالإنسان المشوّه الصورةِ مع وجود الرُّوح فيـه ، وإذا كان المعنىٰ خطأ كان الكلام بمنزلة الإنسان الميِّت الذى لارُوحَ فيه، ولو كان علىٰ أحسن الصُّور وأجملها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" : ومـما رأيته من المدّعين لهذا الفنّ الذين حَصَلوا منه علىٰ القُشُور ، وقَصروا معرفتهم علىٰ الألفاظ المسجوعة الغَثَّةِ ، التى لا حاصلَ وراءها، أنهم إذا أُنْكِرتْ هذه الحالةُ عليهم ؛ وقيـل لهم إن

الكلام المسجوعَ ليس عبـارةً عن تواطُؤ الفِقَر علىٰ حرف واحد فقط، إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثَرَ الناس أن يأتُوا به من غير كُلْفة ، وإنمـا هو أمر وراء هذا ، وله شروط متعدّدة ؛ فإذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوّهم عن معرفته ؛ وإذا أُنْكِر عليهـم الاقتصارُ علىٰ الألفاظ المسـجوعة ، وهُدُوا إلىٰ طريق المعانى ، يقولون : لنا أُسْوة بالعرب الذين هم أربابُ الفصاحة ؛ فإنهم إنما اعتَنَوْا بالألفاظ ، ولم يعتَنُوا بالمعانى اعتناءهـم بالألفاظ . فلم يكفِهِم جهلُهم فيما ارتكبوه حتّىٰ ادّعَوُا الأُسْوة بالعرب فيـه فصارت جَهالتُهم جَهَالتين . قال : ولم يعلموا أن العرب، وإن كانت تعتنىٰ بالألفاظ فتُصْلِحها وتهذّبهـا فإن المعانى أقوىٰ عنـدها ، وأكرم عليها ، وأشرف قَدْرا فى نُفُوسها . ولمـا كانت الألفاظ عُنوانَ المعانى وطريقَها إلىٰ إظهار أغراضها أصلَحُوها ، وزيّنُوها وبالغوا فى تحسينها : ليكون ذلك أوقع لهـا فى النفس، وأذهب بها فى الدِّلالة علىٰ القصد . ألا ترىٰ أن الكلام إذا كان مسجوعا لَذَّ لسامعـه فحفِظه ، وإذا لم يكن مسجوعا لم يَأْنَسْ به أُنْسَه فى حالة السجع ؛ فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحَسَّـنُوها ورقّقُوا حواشِيَها وصقَلُوا أطرافها ، فلا تظُنَّ أن العناية إذ ذاك إنمـا هى بالألفاظ فقط ؛ بل هى خدمة منهـم للمعانى ، فصار ذلك كإبراز صورة الحَسْناء فى الحُلَل الموَشّاة والأثواب المحبَّرة ؛ فإنا قد نجد من المعانى الفاخرة ما شوّه من حسـنه بَذاذة لفظه وسوءُ العبارة عنه .

قال أبو هلال العسكرى رحمه الله : ومَنْ عرف ترتيب المعانى واستعمل الألفاظ علىٰ وجوهها بلُغة من اللُّغات ثم انتقل إلىٰ لغة أخرىٰ، تهيأ له فيها من صَنْعة الكلام ماتهيأ له فى الأُولىٰ . ألا ترىٰ أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلةَ الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسىّ، وحوّلها إلىٰ اللسان العربىّ . فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من تَكَمّل لإصابة المعنىٰ وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال .

قال فى "المثل السائر" : وآعلم أن المعانى الخَطَابية قد حُصِرت أصولُها، وأوّل من تكلم فى ذلك حكماء اليونان ؛ غير أن الحصر كلىّ لا جزئىّ ، ومُحَال أن تُحصر جزئيات المعانى وما يتفرّع عليها من التفريعات التى لا نهايةَ لهـا، لا جَرَمَ أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحبُ هذا العلم ، ولا يفتقر إليه ؛ فإن البدوىّ البادىَ راعِىَ الإبل ما كان يمرّ شئ من ذلك بفهمه، ولا يخطُر بباله ، ومع هذا ؛ فإنه كان يأتى بالسِّحر الحلال إن قال شعرا أو تكلم نثرا . قال : ولقد فاوَضَنى بعضُ المتفلسفين فى هـذا ، وآنساق الكلام إلىٰ شىء ذكره لأبى علىّ بن سينا فى الخَطَابة والشِّعر، وذكر ضَرْبا من ضُروب الشعر اليونانىّ يقال له اللوغاذيا ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبى علىّ ووقفنى علىٰ ماذكره، فلما وقفت عليه آستجهلته؛ فإنه طوّل فيه وعَرَّض كأنه يخاطب بعض اليونان وكل هـذا الذى ذكره لغو ، لا يستفيد به صاحب الكلام العربىّ شيئا، ثم مع هـذا جميعِـه فإن معوَّل القوم فيما يذكر من الكلام الخَطَابىّ أنه يُورَد علىٰ مقدّمتين ونتيجة، وهذا مما لم يخطُر لأبى علىّ بن سينا ببال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع عمله ، وعند إفاضته فى صَوْغ ماصاغه لم تخطُر المقدّمتان والنتيجة له ببال ، ولو أنه فكَّر أوّلا فى المقدّمتين والنتيجة ، ثم أتىٰ بنظم أو نثر بعد ذلك، لمـا أتىٰ بشىء يُنْتَفَع به،ولطال الخَطْب عليه. قال : بل إن اليونان أنفسَهم لما نظموا مانظموه من أشعارهم، لم ينظموه فى وقت نظمه وعندهم فكرة فى مقدّمتين ولانتيجة، وإنمـا هذه أوضاع توضَع وتطول بها مصنَّفات كتبهم فى الخَطَابة والشعر، وهى كما يقال :

قَعاقِعٌ لَيْس لهـا طائِلٌ * كأنَّها شِعْر الأبِيوَرْدِى

الوجه الثـانى

(فى تحقيق المعانى، ومعرفة صوابها من خَطَئها، وحُسْنها من قبحها .
وقد قسم صاحب الصناعتين المعانى علىٰ خمسة أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(ما كان من المعانى مستقيما حسنا : كقولك رأيت زيدا ،
وهو أعلىٰ الأنواع الخمسة وأشرفها)

قال فى الصناعتين : والمعنىٰ الصحيح الثابت ينادِى علىٰ نفسه بالصحة، ولا يحوج إلىٰ التكلُّف لصحته حتّىٰ يوجد المعنىٰ فيه خطيبا .

فأما المعنىٰ المستقيم الجَزْل من النظم، فمن الوعظ قول النَّمِر بن تَوْلَب يذم طول الحيـاة :

يَوَدُّ الفتىٰ طُولَ السَّـلامَةِ والغِنىٰ * فكيف تَرىٰ طُولَ السلامة يَفْعَلُ ؟
يَكادُ الفتىٰ بَعْدَ ٱعْتِـدالٍ وصِحَّةٍ * يَنُوء إذا رام القِيـامَ ويُحْمَـــلُ

وقول أبى العَتاهِيَة فى الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وكانتْ فى حَياتِكَ لِى عِظَاتٌ * وأنتَ اليومَ أَوْعَظُ منك حَيًّا !

وفى وصف الأيام قول أبى تَمَّـام :

علىٰ أنها الأيَّامُ قد صِرْنَ كُلُّها * عجائِبَ حتّىٰ ليس فيها عجائِبُ

ومن المدح قول أمية بنِ أبى الصَّلْت :

عَطَاؤكَ زَيْنٌ لِآمرئٍ إنْ حَبَوْتَه * بسَيْبٍ وما كُلُّ العَطَـاءِ يَزِينُ
وليس بشَيْنٍ لِآمْرِئٍ بَذْلُ وَجْهِه * إليـكَ كما بعضُ السُّؤال يَشِينُ

وقول أبى تمـام :

يَسْتَعْذِبُونَ مَنَايَاهُمْ كأَنَّهُمُ * لايَيْئَسُون من الدُّنْيا إذا قُتِلوا

وقول الاخر :

هُمُ الأُولىٰ وهَبُوا للمَجْدِ أَنْفُسَهُم * فما يبالُون مانالُوا إذا حُمِدُوا

ومن الفخر قول مَعْن بن أوس :

لعَمْرُكَ ما أَهْدَيتُ كَفِّى لِرِيبـةٍ * ولا حَمَلَتْنِى نحوَ فاحِشةٍ رِجْلِى !
ولا قادَنِى سَمْعِى ولا بَصَرِى لها * ولا دَلَّنِى رأْيِى عَلَيْهـا ولا عَقْلِى !
وأعْـلَمُ أنِّى لم تُصِبْنِى مُصِيبةٌ * من الدَّهْرِ إلا قدأصابَتْ فتًى قبْلِى !
ولَسْتُ بمـاشٍ ماحَيِيتُ لُمنْكَرٍ * من الأمر لايَمْشِى إلىٰ مِثْله مِثْلِى !
ولا مُؤْثِرٍ نَفْسِى علىٰ ذِى قَرابةٍ * وأُوثِرُ ضَيْفِى ما أقام، علىٰ أهْلِى !

وقول الآخر :

ولَسْتُ بنَظَّارٍ إلىٰ جانِبِ الغِنى * إذا كانَتِ العَلْياءُ فى جانِبِ الفَقْرِ

وقول الشنفرىٰ :

أُطِيـلُ مِطالَ الجُوعِ حتَّى أُمِيتَه * وأَضرِبُ عنه القَلْبَ صَفْحا فيَذْهَلُ
ولولا آجتِنابُ العارِلم يُلْفَ مَشْرَبٌ * يُعـاشُ بِهِ إلا لَدَىَّ ومَأْكَلُ

ومن الغزل قول جرير :

إن العُيونَ التى فى طَرْفِها حَوَرٌ * قتَلْنَنا ثم لَمْ يُحْيِينَ قَتْـلانَا
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتّى لاحَرَاكَ بِهِ * وهُنَّ أَضْعفُ خَلْقِ اللهِ أرْكانَا

وقول النظام :

تَوَهَّمَـه طَرْفِى فآلَمَ خَـدَّه * فصار مَكانَ الوهْم من نَظَرِى أَثْرُ

وصافَحَــهُ قلبي فآلَمَ كَفَّــه * فَمِنْ صَفْحِ قلْبِي فى أناملِه حَفرُ
ومَرّ بفِكْرِي خاطِرًا بجرحْتُـه * ولم أرَ خَلْقا قطُّ يَجْرَحُه الفِـكْر

ومن التشبيب قول القائل :

ومِنْ عَجَبٍ أنّى أَحِنُّ إليهِمُ * وأسأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أرىٰ وهُمُ معِى
وتَطْلُبهم عَيْنِي وهُمْ فى سَوادِها * ويَشْتاقُهُمْ قلبِي وهُم بينَ أضْلُعِى

وقول الآخر :

إن لم أزُرْ رَبْعَكُمْ سَعْيا علىٰ حَدَقِي * فإنَّ وُدِّى مَنْسوبٌ إلىٰ المَلَق
تبَّتْ يَدِى إن تَنَنِي عن زِيارَتِـكُمْ * بِيضُ الصِّفَاح ولوسُدّتْ بها طُرُقِي

ومن الحكمة قول المتنبي :

والظُّلم من شِيَم النُّفُوس فإنْ تجِدْ * ذا عِفَّــةٍ فلِعِــلَّةٍ لا يَظْـلِمُ

وقول الآخر :

إذا أنت لم تَشْرَبْ مِرَارا علىٰ القَذىٰ * ظَمِئْتَ وأىُّ الناس تَصْفُو مَشَارِبُهْ؟

وقول الآخر :

ولَسْتَ بمسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّــه * علىٰ شَعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ؟

ومن الهجو قول الطرمّاح فى تميم :

تَمِيمٌ بِطُرْقِ اللُّؤم أهْدىٰ من القَطا * ولو سلَكَتْ سُبْلَ المَكارِمِ ضَلَّتِ

وقول الآخر :

لَوِ اطَّلَعَ الغُرابُ علىٰ تميمٍ * وما فيها من السَّوْءاتِ شابَا

إلىٰ غير ذلك من معانى الشعر الحسنة البهيجة الرائقة .

ومما ينخرط فى هذا السلك من النثر ما يُحكىٰ أن أعرابيا وقف علىٰ عبد الملك بن مَرْوان برملة اللِّوىٰ فقال : رحم الله امرأً لم تمجَّ أُذُناه كلامى، وقدَّم معَاذه من سوء مُقامِى، فإن البلاد مُجْدِبه، والحال مُسْغِبه، والحياء زاجر، يمنع من كلامكم، والفقر عاذِر، يدعو إلىٰ إخباركم، والدعاء إحدىٰ الصدَقتين، فرحم الله امرأ أمر بمَيْر، أو دعا بخَيْر .

ومعانى القاضى الفاضل هى التى ترقُص لها القلوب، وتطرَبُ لها الألباب، و يهجُم قَبولُها علىٰ النفوس من غير حاجب ولا بَوَّاب . فمن ذلك قوله :

"يابنى أيُّوبَ لو ملكتُم الدهرَ لأمتطيتُمْ لياليَه أداهِم، وقلَّدتم أيامه صَوَارِم، وأفنيتم شموسه وأقماره فى الهِباتِ دنانيرَ ودَراهم، وأيَّامُكم أعراس وما ثَمَّ فيها علىٰ الأموال مآتِم، والجُود فى أيديكم خاتَم، ونفس حاتِم فى نقش ذلك الخاتَم".

فهذا هو السِّحر الحلال، والمعانى التى تخضع لها شُمُّ الجبال، ولا يقال فيه قيل ولا قال .

الصنف الثانى

(ما كان مستقيما قبيحا كقولك قد زيدا رأيت)

قال فى "الصناعتين" وإنما قَبُح لأنك أفسدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير. وهذا النوع يسميه علماء المعانى التعقيد . وسماه ابن الاثير فى "المثل السائر" المُعاظَلة المعنوية، وهو تقديم ما الأَوْلىٰ به التأخير : كتقديم الصفة أو ما يتعلَّق بها علىٰ الموصوف، وتقديم الصِّلة علىٰ الموصول ونحو ذلك؛ وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة : لأن المعنىٰ يختلُّ به و يَضْطرب. قال فى "المثل السائر" وهو ضدّ

الفصاحة : لأن الفَصَاحة هى الظُّهور والبيان ، وهذا عارٍ عن هذا الوصف . فمن ذلك قول بعضهم :

فأصبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجتِها * كأن قَفْراً رُسُومَهَا قلمـا

يريد فأصبحت بعدَ بهجتِها قَفْرا كأنَّ قلَمًا خط رسومَها فقدَّم خبر كأنّ، وهو خَطَّ عليها فجاء مختلا مضطربا؛ وأقبح منه وأكثر آختلالا قول الفرزدق :

إلىٰ مَلِكٍ ماأمُّه من مُحارِبٍ * أبُوه، ولا كانتْ كُلَيبٌ تُصاهِره

يريد إلىٰ ملك أبوه ماأمُّه من محارب ، والمعنىٰ ماأم أبيــه من محارب ؛ يمدحه بذلك ذمًّا لمحارب . وكذلك قوله، يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مِثْلُه فى الناسِ إلا مملَّكا * أبُو أُمِّه حَىٌّ أبُوه يُقـارِبُه

يريد وما مثـله فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مُمَلَّكا أبو أمه أبوه ، وهو خاله ؛ فلمـا آستعمل فيــه التقديم والتأخير فى غير موضــعه جاء مشوَّها رثًّا كما تراه . قال الوزير "ضياء الدين آبن الأثير": وقد آستعمل الفرزدق من التعاظل كثيرا كأنه يقصد ذلك ويتعمَّده لأن مثله لايجىء إلا متكلَّفًا مقصودا ، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفْسَه تجرى علىٰ سجيَّتِها وطبعِها فى الآسترسال ، لم يعرض له شىء من هــذا التعقيد ؛ ألا ترىٰ أن المقصود من الكلام معدوم فى هــذا النوع ، إذ المقصود من الكلام إنمـا هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنىٰ ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصودُ من الكلام ، ذهب المراد به . ولا فرق عنــد ذلك بينــه وبين غيره من اللغات كالفارسـية والرومية وغيرهمـا .

الصـــنف الثـالث

(ما كان مستقيما ولكنه كَذِب : كقولك حَمَلْتُ الجبلَ ،
وشربت ماءَ البحر، وما أشبه ذلك)

وآعلم أن المعـانى المستعمَلةَ فى الشعر والكتابة أكثرُها جارٍ علىٰ هذا الأُسْـلُوب خصوصا المعانِى الشعريَّة، فإنه مقدّمات تخييلية تُوجب فى النفس آنقباضاً وآنبساطا علىٰ ماهو مقرر فى علم المنطق . وقد قال فى "الصناعتين" إن أكثر الشعر مبنىّ علىٰ الكذب والآستحالة : من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادة، والألفاظ الكاذبة : من قذف المُحْصَـنات ، وشهادة الزُّور ، وقول البهتان ، ولا سِيما الشعر الجاهلىّ الذى هو أقوىٰ الشـعر وأفحله . قال : وليس يراد منـه إلا حُسْن اللفظ وجَوْدة المعنىٰ، فهـذا الذى سوّغ آستعمال الكذب وغيرِه ممـا جرىٰ ذكره فيـه . وقيـل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب فى شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يُراد من الأنبياء عليهم السـلام . قال الشيخ زكى الدين بن ابى الأصـبع رحمه الله فى كتابه تحرير التحبير : وأنا أقول قد آختُلِف فى المبالغة، فقوم يرون أن أجود الشعرأكذبه، وخير الكلام مابُولِـغ فيه ، ويحتجُّـون بمـا جرىٰ للنابغة الذُّبيانىّ مع حسانـ بن ثابت رضى الله عنه فى آستدراك النابغة عليه تلك المواقع الجمّة فى قوله :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمَعْنَ بالضُّحىٰ ﴿﴾ وأسـيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا

فإن النابغة إنمـا عاب علىٰ حسانـ تركَ المبالغة، والقصـة مشهورة . قال : والصواب مع حسان وإن رُوِى عنه آنقطاعه فى يد النابغة ؛ وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام ، ولا يرون من محاسنه إلا ماخرج مَخْرَجَ الصـدق، وجاء علىٰ مَنْهَج الحق ، ويزعمون أن المبالغة من ضَعْف المتكلم وعَجْزه عن أن يخترع معنًى، أو يفرّع

معنًى من معنًى، أو يحلِّى كلامه شيئا من البديع، أو ينتخبَ ألفاظا موصوفة بصفات الحسن، ويجيد تركيبها؛ فإذا عجز عن ذلك كله عدل إلىٰ المبالغة يسدّ بها خَلَله ويتم نقصه: لما فيها من التهويل علىٰ السامع، ويَدَّعون أنها ربما أحالت المعانى فأخرجتها عن حدّ الإمكان إلىٰ حدّ الآمتناع. قال: وعندى أن هذين المذهبين مردودان. أما الأوّل فلقول صاحبه إن خير الكلام ما بولغ فيـه، وهذا قول من لا نظَرَ له لأنا نرىٰ كثيرا من الكلام والأشعار جاريا علىٰ الصـدق المحض خارجا مَخرَج البحث، وهو فى غاية الجَوْدة، ونهاية الحسن، وتمام القوة، وكيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن، والمحاسن لاتُحصر ضروبُها؛ فكيف يقال إن هذا الضرب علىٰ آنفراده يفضُل سائر ضروب المحاسن علىٰ كثرتها؛ وهذا شعر زُهير والحطيئة وحسان؛ ومَنْ كان مذهبُه توخِّى الصدقِ فى شعره غالبا، ليس فوقَ أشـعارهم غايةٌ لمترقٍّ؛ ألا ترىٰ إلىٰ قول زهير:

وَمَهْما يَكُنْ عِنْدَ آمرِئٍ من خَلِيقةٍ * وإن خالهـا تَخْفىٰ علىٰ الناسِ تُعْـلَمِ

وإلىٰ قول طَرَفة:

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ماأخْطأ الفتىٰ * لَكَا لطِّوَلِ المُرْخَىٰ وثِنْياهُ فى اليَدِ

وإلىٰ قوله:

ستُبْدِى لكَ الأيَّامُ ما كُنْتَ جاهِلًا * ويَأْتِيكَ بالأخْبـارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ

وإلىٰ قول الحطيئة:

مَنْ يفْعَلِ الخيْرَ لايَعْدَمْ جوَازِيَهُ * لايَذْهَبُ العُرْفُ بيْنَ اللهِ والناسِ

فإنك تجد هـذه الأشعار فى الطبقة العُلْيا من البلاغة، وإن خلَتْ من المبالغة؛ والذى يدل علىٰ أن مذهب أكثر الفُحول ترجيح الصِّدق فى أشـعارهم علىٰ الكذب

مارُوِى عن الحرورية آمرأةِ عمرانَ بن حِطَّانَ قاضى الصُّفْرِيَّةِ من الخوارج أنها قالت له يوما : أنت أعطيتَ الله تعالىٰ عهدا أن لا تكذب فى شعرك ، فكيف قلت :

فهُناك مَجْزَأةُ بنُ ثَوْ * رٍ كان أشجعَ من أُسامه .

فقال : ياهذه إن هذا الرجل فتح مدينةً وحده وما سمعت بأسد فتح مدينة قط ، وهذا حسان يقول :

وإنما الشعر لُبُّ المرء يَعْرِضُه * علىٰ المَجَالس إن كَيْسًا وإن حمقَا
وإنَّ أشعَرَ بيتٍ أنت قَايِلُهُ * بيتٌ يقال إذا أنشدتَه : صَدَقا

علىٰ أن هؤلاء الفحولَ وإن رَجَّحوا هذا المذهب ، لا يكرهون ضدّه ، ولا يَجْحَدُون فضله ، وقلَّما تخلو بعض أشعارهم منه إلا ان توخِّىَ الصدق كان الغالبَ عليهم ، وكانوا يكثرون منه ، ومَنْ أكثر من شيء عُرِفَ به كما أن النابغة ومن تابعه علىٰ مذهبه لايكرهون ضدّ المبالغة ، وإلا فكل آحتجاج جاء به علىٰ النُّعْمان فى الاعتذار جار مجرىٰ الحقيقة كقوله :

حلفتُ فلم أترُكْ لنفسِك رِيبةً * وليس وراءَ الله للمرء مَذْهَبُ

فعائب الكلام الحَسَنِ بترك المبالغة فقط مخطئ ، وعائب المبالغة علىٰ الإطلاق غير مصيب ، وخير الأمور أوساطها .

والتحقيق أن المبالغة إذا لم تخرج عن حدّ الإمكان ، ولم تَجْرِ مَجْرىٰ الكَذِب المحض ، فإنها لاتُذَمّ بحال ، كقول قيس بن الخَطِيم :

طعَنْتُ آبنَ عبد القيس طَعْنَةَ ثائر * لها نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضاءَها
ملكتُ بها كَفِّى فأنْهَرْتُ فَتْقَها * يرىٰ قائمٌ من دونِها مَنْ (١) وراءَها

(١) فى اللسان ما . ولعلها رواية .

فإن ذلك من جيـد المبالغة ، إذ لم يكن خارجا مَخْرَج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية فى وصف الطعنة؛ وكذلك قول أبى تمّـام .

تكاد تَنْتَقِلُ الأرواحُ لو تُرِكَتْ * من الجُسُوم إليهـا حين تَنْتَقِلُ

فإنه لم يقنع بصحيح المبالغة وقربها من الوقوع فضـلا عن الجواز بتقديم كادَ، حتّى قال : لو تُرِكت، قال : وهذا أصح بيت سمعته فى المبالغة وأحسنه، وعلى حدّه ورد قول شاعر الحَمَاسة، وقد بالغ فى مدح ممدوحه فقال :

رهَنْتُ يَدِى بالعَجْزِ عن شُكْرِ بِرِّه * وما فوقَ شُـكْرِى للشَّكُورِ مزيدُ
ولو كان ممـا يُسْتَطاعُ استطعتُه * ولكنّ مالا يُسْـتطاعُ شـديدُ

فإن هـذا الشاعر ألقى بيـده وأظهر عجزه ، واعترف بقصوره عن شكر بِرِّ هذا الممدوح ، وفَطِنَ أنه لو اقتصر على ذلك، لاحتمل أن يقـال له : عجزك عن شكره لا يدل على كثرة بِرّه : لاحتمال أن يكون لضعف مادّتك عن الشكر، إذ لا يلزم من عجز الإنسان عن شئ تعظيم ذلك الشئ ولا بُدَّ : لاحتمال أن يكون العجز لضـعف الإنسان، فاحترز عن ذلك بقوله :

* وما فَوْقَ شُكْرِى للشَّكُورِ مَزِيدُ *

ثم تمم المعنى بأن قال للشَّكُور، للمبالغة فى الشكر ، فإن شكورا معدول عن شاكر للمبالغة كما تقدّم؛ ثم أظهر عذرَه فى عجزه بأن قال فى البيت الذى يليه :

* ولو كان ممـا يُستطاع استطعته *

ثم ذيل هذا المعنى بإخراج بقية البيت مُخْرَجَ المثل السائر ليكثر دَوَرَانُه على الألسنة فيحصل تجديد مدح الممدوح كل حين، والتنويهُ بذكره فى كل زمان حيث قال :

* ولكنّ مالا يُسْتَطَاعُ شَديدُ *

أما إذا خرجت المبالغة عن حدّ الإمكان، وجرت مجرى الكذب المحض، فإنها مذمومة فى الشرع، وإن كان الشعراء يستبيحون مثل ذلك، ولا يتحاشَوْنَ الوقوع فيه. وقد أخبر تعالىٰ عنهم بالكذب بقوله : "أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ" وفى قوله صلى الله عليه وسلم : "أَصْدَقُ كلمةٍ قالها شاعِرٌ كلمةُ لَبِيدٍ :

* أَلَا كُلُّ شَىْءٍ ماخَلَا اللهَ بَاطِلُ" *

إشارةٌ لذلك أيضا.

فمن المبالغة فى الشعر المنتهية إلىٰ حدّ الكذب قول البُحْتُرِىّ :

ولو قِسْتَ يومًا حِجْلَهَا بِحِقابِها * لكانا سواءً، لابل الحِجْلُ أوسعُ

وَصَفَها بِرِقَّةِ الخَصْرِ وغِلَظِ الساق حتّٰى جعل حِجْلَها الذى يدور علىٰ ساقها أوسعَ من حِقَابِها الذى يدور علىٰ خَصْرِها، وأبلغ منه قول الآخر :

من الهِيفِ لو أنَّ الخَلَاخِيلَ صُيِّرت * لها وُشُحًا، جَالَتْ عليها الخَلَاخِلُ

فجعل الخَلْخَال يجول فى جميع بَدَنها، لكنه ليس من المدح فى شئ لأن الخَلْخَالَ لو صار وُشَاحًا للمرأة، لكانت فى غاية الدَّمامة حتّٰى تصير فى خِلْقَةِ الجِرْوِ[(1)] والهِرِّ.

وأبلغ منه قول الآخر.

ورَحْبُ صَدْرٍ لو أنَّ الأرضَ واسعةٌ * كَوُسْعِه، لم يَضِقْ عن أهلِه بَلَدُ

فجعل صدره فى السَّعَةِ والرُّحْبِ أوسَع من الأرض، ونحوُه قول الآخر :

ويوم كَطُولِ الدّهرِ فى عَرْض مِثْلِه * وَوَجْدِىَ من هـذا وهَاذَاكَ أطولُ

إلا أنه آستعمل العَرْضَ فى غير موضعه، إذ الدهر يوصف بالطول لا بالعَرْض، وهو قد جعل له طولا وعَرْضا، ويقرب منه قول أبى الطَّيِّب :

كفىٰ بِجِسْمِى نُحُولًا أنَّنِى رجلٌ * لولا مخاطَبَتِى إيَّاك، لم أبنِ[(2)]

(١) الجرو مثلث الجيم (٢) المشهور فى الرواية لم ترنى وهى التى شرح عليها العكبرى.

فجعل كلامه هو الذى يدل عليه من شدّة النُّحُول. قال الشيخ زكىّ الدين بن أبى الأصبع : ومما يجرى به التمثيل فى باب المبالغة قولُ بعض العرب يذم إنسانا بقوله : فلان تَكُونُ له الحاجةُ فيَغْضَبُ قبل أن يطلُبَها، وتكون إليه فيردُّها قبل أن يفهمَها . وقول بعض بلغاء الكُتّاب : إن من النعمة علىٰ المُثْنِى عليك أن لايخلوَمن مساعد، ولا يخشىٰ من معاند، ولا تلحقه نقيصة المُكَذِّبِ، ولا يُكْرِهُه عَوَزُ الأوصاف بالتطلب، ولا ينتهى من القول إلىٰ منتهًى إلا وجد بعده مقتضًى ووراءه منحًى . وسيأتى من المبالغة فى أوصاف الخيل والسلاح، وغيرها فى قسم الأوصاف من ذلك مافيه مَقْنَعٌ إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــنف الرابع

(ما كان محالا : وهو مالا يمكن كونه البتة : كقولك آتيك أمس، وأتيتك غدا، وما أشبه ذلك)

قال فى الصناعتين : فإن ٱتصل الكذب بمحال، صار كذبا محالا كقولك : رأيت قاعدا قائما، ومررت بيقظانَ نائمٍ، فإنه كذب للإخبار بخلاف الواقع، ومحال لعدم إمكان الجمع بين النقيضين، وقد تقدّم فى النوع الثالث أن أكثر الشعر مبنىٌّ علىٰ الكذب والٱستحالة : من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادة، وذلك فى الكذب مما لانزاع فى كثرته فى الشعر كما تقدّم .

أما المحال فإنه قليل الوقوع، نادر فى النظم والنثر، معدود من المعايب، محكوم عليه بالردّ .

فمن ذلك قول عبد الرحمٰن بن عبد الله القَسِّ :

وإنّى إذا ما الموتُ حَلَّ بنفْسِها، * يُزَالُ بنفسِى قبْـلَ ذاكَ فَأُقْبَرُ

قال العسكرىّ : هذا من المحال الذى لاوجه له ، قال : وهو شبيه بقول القائل : إذا دخل زيد الدار ، دخل عمرو قبله ، ثم قال : وهذا عين المحال الممتنع الذى لا يجوز . يريد أنه قد توقف كل من الأمرين علىٰ الآخر لأنه لا يوجد إلا به فيلزم الدَّوْر، وهو محال، فيحكم فيه بالبطلان وقطع الدَّوْر .

ومما يلتحق بالمحال وينخرط فى سِلكه تناقض المعانى وآضطرابها .

فمن ذلك قول المُسَيَّبِ بن عَلَسٍ فى وصف ناقة :

قَتُسُلّ حاجتها اذا هى أعرضَتْ * بخَمِيصَةٍ سُرُحِ اليدين وَسَاعِ
فكأنَّ قَنْطَرَةً بموضع كُورِهَا * ملساءَ بينَ غَوَامِضِ الأَنْسَاعِ
وإذا أطفتَ بها، أطفتَ بِكَلْكَلٍ * بِيضِ الفَرَائِصِ مُجْفَرِ الأضْلَاعِ

قال فى "الصِّناعتين" : وهــذا من المتناقض لأنه قال بخميصة ، ثم قال موضع كُورِهَا قَنْطَرَةٌ، وهى مُجفَرة الأضلاع فكيف تكون خَميصة وهذه صفتها ؟

وقريب منه قول الحُطَيْئَة :

حَرِجٍ يُلاوذُ بالكِناس كأنَّهُ * متطوِّف حتّٰى الصباح يدُور
حتّٰى إذا ما الصُّبْحُ شَقَّ عمودَه * وعلاه أسْطَعُ من سَنَاه مُنِير
وحَصٰى الكَثِيبِ بصَفْحتيه كأنَّهُ * خَبَثُ الحديد أطارَهُنَّ الكِير

زعم أنه لم يزل يطوف حتّٰى أصبح وأشرف علىٰ الكثيب، فمن أين صار الحصىٰ بصفحتيه ؟ . وقول المُرَقِّش الأصغر :

صَحَا قلبُــه عنها علىٰ أنَّ ذُكْرَةً * إذا خطرتْ دارتْ به الأرضُ قائما

وكيف صحا عنها مَنْ إذا ذكرت دارت به الأرض ؟ .

الصـــــنف الخامس

(ما كان غَلَطًا : وهو أن تريد الكلام بشئ فَيَسْبِقَ لسانك إلىٰ خلافه ، كقولك : ضَرَبَنِي زيدٌ وأنت تريد ضربتُ زيدًا)

قال فى "الصناعتين" : فإن تعمدْت ذلك، صار كَذِبا، وهذا النوع أكثر وقوعا من الذى قبله، قال : وقد وقع فيه الفحول من الشعراء .

وأصناف الغلط فى المعانى كثيرة : فمن ذلك الغلط فى الأوصاف، وهى علىٰ وجوه : منها وصف الشئ بخلاف ما هو عليه وذكره بما ينافيه .

فمن غريب هذا النوع قول الراعى فى وصف المِسْك :

يَكْسُو المَفَارِقَ واللَّبَّـاتِ ذا أَرَجٍ * من قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافُور درّاجِ

فجعل المِسْكَ من قُصْبِ الظَّبْيِ، وهو مِعاهُ، وجعل الظَّبْيَ يعتلف الكافورَ فيتولد منه المسك، وهذا من طرائف الغَلَط . وقريبٌ منه قولُ زُهَيرٍ يصف الضَّفادعَ :

يَخْرُجْن من شَرَبَاتٍ ماؤها طَحِلٌ * علىٰ الجُذُوع تخافُ الغَمَّ والغَرَقَا (١)

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق، ونشوءُها فيه . وقريب منه قولُ ذى الرُّمَّةِ :

إذا ٱنجابت الظَّلْمَاء ، أضحتْ رءُوسها * عليهن من جَهْدِ الكَرىٰ وهي ضُـلَّعُ

فوصف الرءوس بالضَّلَع . قال ٱبن أبي فروة : ما أغفلتُ هـذا ، ولقد قلت لذى الرمة : ماعلمتُ أحدا أَضْلَعَ الرءُوسَ غيرَك، قال : أَجَلْ .

(١) فى اللسان يخفن فـا فى الاصل رواية له .

قال فى الصناعتين : ومما لم يُسمع مثلُه قط قول عَدِىّ بن زيد فى الخمر :

والمُشْرِفُ الهَيْـدَبُ يسعىٰ بها * أخضرَ مطموثًا بمـاء الحَرِيص

فوصف الخمر بالخضرة، والحريصُ السحابة تَحْرِصُ وجه الأرض أى تَقْشُرُها ، ومنه سميت إحدىٰ الشِّجَاج فى الرأس الحارصة لأنها تشق الجلد .

ومنها وصف الشئ علىٰ خلاف المعهود والعادة المعروفة .

فمن ذلك قول المَرَّار :

وخَالٍ علىٰ خَدَّيْكَ يبـدُو كأنه * سنَا البدرِ فى دَعْجَاءَ بادٍ دُجُونُها

والمعروف أن الِخيلَانَ سُودٌ أو سُمْرٌ ، والخدود الحسان إنمـا هى البيض ، فأتىٰ هذا الشاعر بقلب المعنىٰ؛ ومثله قول الآخر :

كأنمـا الِخيلانُ فى وجْهه * كواكبٌ أَحْدَقْنَ بالبَـدْر

قال أبو هلال العسكرىّ : ويمكن أن يُحْتَجّ لهذا الشاعر بأن يقال : تشبيه الِخيلَانِ بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون .

ومن ذلك قول امرئ القيس فى وصف الفرس أيضا :

وللسوط أُلْهُوبٌ وللساق دِرَّة * وللزَّجْرِ منه وَقْعُ أَخْرجَ مُهْذِبِ

قال أبو هلال العسكرىّ : فلو وصف أخسَّ حمارٍ وأضعفَه ، ما زاد علىٰ ذلك ؛ وقول القائل :

صبَبْنا عليها ظالمينَ سِيَاطَنَا * فطارتْ بها أيدٍ سراعٌ وأرجُلُ

فجعل ضربها بالسـوط من باب الظلم لأنها لا تحوجه إلىٰ ذلك؛ ومن ذلك قول امرئ القيس :

وأَرْكَبُ فى الرَّوْع خَيْفانَةً * كَسَا وجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشر

شـبه ناصـية الفرس بسَعَف النخلة لطُولهـا، وإذا غطّى الشـعر عينَ الفرس لم يكن كريمـا .

ومثله قول طَرَفَةَ يصف ذَنَبَ البعير :

كأنَّ جَنَـاحَىْ مَضْرَحِىٍّ، تكنَّفَا * حِفَافَيْه، شُكَّا فى العَسِيبِ بِمِسْرَدِ

فجعـل ذَنَبَه كثيفا ، طويلا عريضا ، وإنمـا توصـف النجائب بخفـة الذَّنَبِ ورِقَّة الشعر .

ومنها أن يجرىَ فى مقاصد المعـانى علىٰ خلاف المألوف المعروف ، وذلك قول جُنَـادة :

من حبها أتمنّى أنـ يُلاَقِيَنِى * مِنـ نَحْوِ بَلْدَتِها ناعٍ فينعاها

لِكَىْ يكونَ فراقٌ لا لِقَـاءَ لَه * وتُضمِرَ النفسُ يَأْسًا ثم تَسْلاَها

فإذا تمـنّى المحب للحبيب الموتَ فمـا ذا عسىٰ أنـ يتمنّى البغيضُ لبغيضـه ؟ وقول الآخر :

وَلَقَـدْ هَمَمْتُ بقتلها من حُبّها * كيما تكونَ خَصِيمتى فى المَحْشَرِ

فذكر أن شدّةَ الحبِّ حملته علىٰ قتل محبوبته حتّى تخاصمَه فى الحشر لطلب حقها، وشدّةُ الحب لا تحمل إلا علىٰ الإكرام والبِرّ، علىٰ أنها قد تكون تكرهه، فتترك حقّها له حتّى لا يطول وقوفها معه للخصام، وقول نُصَيْبٍ :

فإن تَصِلِى، أَصِلْك وإن تعودى * بهَجْرٍ بعـــد ذاك ، فلا أُبَالِى

والعاشق يلاطف قلبَ محبوبه ولا يُحَاجُّه، ويلاينه ولا يُلاَجُّه .

الأصـــل الثـانى

(من صناعة إنشاء الكلام النظر فى الألفاظ، والنظر فيها من وجهين)

الوجه الأوّل

(فى فضـــل الألفـاظ وشرفها)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المعانى أن الألفاظ من المعانى بمنزلة الثياب من الأبدان فالوجه الصبيح يزداد حسنا بالحُلَلِ الفاخرة، والملابس البهيّة، والقبيح يزول عنـه بعض القُبْحِ : كما أن الحَسَنَ ينقصُ حُسْنُهُ بِرَثَاثَةِ ثيابه وعدم بهجة ملبوسه، والقبيح يزداد قبحا إلىٰ قُبْحه . فالألفاظ ظواهر المعانى، تَحْسُنُ بحسـنها وتَقْبُحُ بِقُبْحِها؛ وقد قال أبوهلالٍ العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين": ليس الشأْنُ فى إيراد المعانى، لأن المعانِيَ يعرفها العربىّ والعجمىّ والقَرَوِىُّ والبـدوىّ، وإنمـا هو فى جَوْدَةِ اللفظ، وصَفَائه . وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقَائه، وكثرة طَلَاوَتِه ومائه، مع صحة السَّبْك والتركيب، والخلوّ من أَوَدِ النظم والتأليف . قال : وليس يطلب من المعنىٰ إلا أن يكون صوابا، ولا يُقْنَعُ من اللفظ بذلك حتّى يكون علىٰ ماتقدّم من نعوته . ثم قال : ومن الدليـل علىٰ أن مَدَار البلاغة تحسينُ اللفظ أن الخُطَبَ الرائعة، والأشعار الرائقة، ماعملت لإفهام المعانى فقط لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام، وإنمـا يدل حسنُ الكلام وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجَوْدَةُ مَقَاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه، علىٰ فضل قائله، وفهم مُنْشِئِه؛ وأكثر هـذه الأوصاف ترجع إلىٰ الألفاظ دون المعانى، وتَوَخِّى صوابِ المعانى أحسنُ من توخِّى هذه الأمور فى الألفاظ، فلهذا يَتَأَنَّقُ الكاتبُ فى الرسالة، والخطيبُ فى الخُطْبَةِ، والشاعرُ فى القصيدة، ويبالغون فى تجويدها، ويُغْلُونَ فى ترتيبها، ليدُلُّوا علىٰ براعتهم،

وحِذْقِهِم بصناعتهم، ولو كان الأمر فى المعانى لطَرَحُوا أكثر ذلك فرَبِحُوا كدًّا كثيرا، وأسـقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا ؛ وأيضا فإن الكلام إذا كان لفظه حُلْوًا عَذْبا، وسَلِسًا سهلا، ومعناه وَسَطًا، دخل فى جمـلة الجيِّـد، وجرى مع الرائع النادر، كقول الشاعر :

ولمـا قَضَيْنَا من مِنًى كُلَّ حاجة، * ومَسَّحَ بالأركان مَنْ هو مَاسِحُ،
وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهَارِى رِحَالُنا * ولم يَنْظُرِ الغَادِى الذى هو رَائحُ،
أَخَذْنا بأطراف الأحاديثِ بيننـا، * وسَالَتْ بأعنـاق المطِىِّ الأباطِحُ

وليس تحت هذه الألفاظ كثيرُ معنًى، وهى رائقة مُعْجَبَةٌ، وإنمـا هى : ولمـا قَضَيْنَا الحَجَّ ومَسَّحْنَا بالأركان، وشُدَّتْ رِحَالُنا على مَهَازيل الإبِل، ولم ينتظر بعضُنا بعضا، جعلنـا نتحدّث وتسـير بنا الإبِلُ فى بطون الأودية ؛ وإذا كان المعنى صوابا واللفظ بارِدا فاترا كان مستهجنا مَلْفُوظًا، ومذموما مردودا، كقول أبى العَتَاهِيَة فى أبى عثمان سعيدِ بنِ وَهْبٍ :

مَاتَ وَاللهِ سعيدُ بنُ وَهْبِ * رَحِمَ اللهُ سَعيدَ بنَ وَهْبِ
يا أبا عثمانَ أبْكَيْتَ عينى * يا أبا عُثْمَانَ أوجعت قَلْبِى

الوجه الثـــانى

(الألفاظ المفردة، وبيان ما ينبغى آستعماله منها، وما يجب تركه)

اعلم أن الذى ينبغى أن يستعمل فى النظم والنثر من الألفاظ هو الرائق البَهِجُ الذى تقبله النفس، ويميل إليه الطبع، وهو الفصيح من الألفاظ دون غيره .

والفصيح فى أصل اللغة هو الظاهر البـيِّنُ، يقال أفصح الصبح إذا ظهر وبان ضوءه، وأفصح اللبن إذا تجلت عنـه رغوته وظهر، وأفصح الأعجمىّ وفَصُحَ إذا

أبان بعد أن لم يكن يُبِينُ ، وأفصح الرجل عما فى نفسه، إذا أظهره . قال فى المَثَلِ السائر : وأهل البيان يَقِفُونَ عند هذا التفسير، ولا يكشفون عن السر فيه . قال : وبهذا القول لا تتبين حقيقةُ الفصاحة لأنه يلزم أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحا جَيِّدًا ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحا ؛ على أنه قد يكون اللفظ ظاهرا لزيد ولا يكون ظاهرا لعمرو، فيكون فصيحا عند واحد دون آخرَ، وليس كذلك، بل الفصيح مالم يُخْتَلَفْ فى فصاحته : لأنه إذا تحقق حدّ الفصاحة وعُرِفَ ما هى ، لم يبق فى اللفظ المختص بها خلاف ؛ وأيضا فإنه لو جىء بلفظ قبيح ينبو عنه السمْع، وهو مع ذلك ظاهر بيِّن، فينبغي أن يكون فصيحا، وليس كذلك لأن الفَصَاحة وصفُ حُسْنِ اللفظ لا وصفُ قُبْحه . قال : وتحقيق القول فى ذلك أن يقال : الكلام الفصيح هو الظاهر البَيِّنُ، والظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لايحتاج فى فهمها إلى آستخراج من كتب لغة ؛ وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفةَ الآستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرةً فى كلامهم، وانما كانت مألوفة الاستعمال دائرة فى الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حُسْنها، وذلك أن أرباب النظم والنثر غَرْبَلُوا اللغة باعتبار ألفاظها، وسَبَرُوا وقسَّموا فاختاروا الحَسَن من الألفاظ فاستعملوه ، ونَفَوُا القبيحَ منها فلم يستعملوه، فَحُسْنُ الألفاظِ سبب آستعمالها دون غيرها، وآستعمالُها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها، فالفصيح إذَنْ من الألفاظ هو الحَسَنُ . ثم قال : والمرجع فى تحسين الألفاظ وقبحها إلى حاسة السمع، فما يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحَسَن، وما يكرهه وينفر عنه هو القبيح، بدليل أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشُّحْرُورِ، ويميل إليهما ؛ ويكره صوت الغراب وينفِر عنه، وكذلك يكره نَهِيقَ الحِمَارِ، ولايجد ذلك فى صهيل الفرس، والألفاظ جارية هذا المجرى، فإنه لاخلاف فى أن لفظة المُزْنَة والدِّيمة يستلذهما السمع ، ولفظة البُعَاق

قبيحة يكرهها السمع ، والألفاظ الثلاثة من صفة المطر ومعناها واحد ، وأنت ترىٰ لفظتى المُزنَةِ والدِّيمَـةِ وما جرىٰ مجراهمـا مألوفةَ الاستعمال وترىٰ لفظَ البُعَاقِ وما جرىٰ مجراه متروكا لايستعمل ، وإن استعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو مَنْ ذَوْقُه غير سليم ، لا جَرَمَ أنه ذمّ وقدح فيه ، ولم يلتفت إليه ، وإن كان عربيًّا محضا من الجاهلية الأقدمين ، فإن حقيقة الشئ إذا علمت ، وجب الوقوف عندها ، ولم يُعَرَّجْ علىٰ ما خرج عنها .

إذا علمت ذلك فلا يوصف اللفظ المفرد بالحُسْنِ حتّٰى يتصف بأربع صفات :

الصـــــفة الأولىٰ

(أن لايكون غريبا : وهو ماليس مأنوسَ الاستعمال ولا ظاهرَ المعنىٰ)

ويسمّٰى الوحشىَّ أيضا ، نسبة إلىٰ الوحش لِنفَاره وعدم تأنُّسه وتألُّفه ، وربما قُلِب فقيل الحُوشِىّ نسبة إلىٰ الحوش : وهو النِّفار (١) . قال الجوهرىّ : وزعم قوم أن الحُوش بلاد الجنّ وراء رمل يَبْرِين ، لايسكنها أحد من الناس ، فالغريب والوحْشِىُّ والحُوشِىُّ كله بمعنى .

ثم الغريب علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ــ ما يُعاب استعمالُه مطلقـا : وهو مايُحتاج فى فهمه إلىٰ بحث وتنقيب ، وكَشْف من كتُب اللغة : كقول ابن جَحْدَر .

حلَفْتُ بمـا أرقَلَتْ حولَهُ * هَمَرجَلَةٌ خَلْقُهـا شَـيْظَمُ
وما شَبْرَقَتْ من تَنُوفيَّةٍ * بها من وَحىٰ الجنّ زِيزيَزَم

فالإرقال ضرب من السير : وهو نوع من الخَبَب ، يقال منه أرقلت الناقةُ تُرْقِل إرقالا ، والهَمَرْجلةُ الناقة السريعة ، وقال أبو زيد : الهَمَرْجَلة الناقة النَّجيبة الراحلة .

(١) كذا فى الضوء أيضا وفيه تساهل لان النفار معنًى لانحاش لاالحاش انظر القاموس .

والشَّيْظَمُ الشديد الطويل وهو من صفات الابل والخيل والأنثىٰ شَيْظمةٌ . والشَّبْرقة القَطْع، يقال شبْرقْتُ الثوب أُشَبرقه شَبْرقة إذا قطعته، وشبرقت الطريق إذا قطعتها والتَّنُوفة المفازة، ويقال فيها تَنُوفِيَّة أيضا . والوَحىٰ هنا الصوت الخفِيُّ، يقال سمعت وَحَاةَ الرعد: وهو صوته الممتدُّ الخفِيّ، وقوله زيزيزَم حكاية لأصوات الجن إذا قالت زى زى؛ وحاصله أنه يقول حلفْتُ هذه الحلفة بما سارت هذه الناقة الشديدة السير العظيمة الخَلْق، وما قطعت من مَفَازة لايُسمع فيها إلا أصواتُ الجنّ ؛ وهذا مما لايوقف علىٰ معناه إلا بكدّ وتعب فى كشفه وتتَبُّعه من كتب اللغة .

الضرب الثانى — مايحتاج إلىٰ تدقيق النظر فى التصريف وتخريج اللفظ علىٰ وجه بعيد : كلفظ مسرّج من قول العجاج .

ومُقْلةً وحاجِبًا مُزَجَّجا * وفاحِمًا ومَرْسِنًا مُسَرَّجا

فالمُقلة شحمة العين، والحاجب معروف، والمزجج المُقَوّس مع طُولٍ ودقَّةٍ فى طَرَفه والفاحم الشَّعر الأسود الذى لونُه كلون الفَحْم، والمَرْسِنُ الأنف، وصفه بكونه مُسَرّجا إما أنه كالسيف السُّرَيْجِىّ فى الدِّقّة والاستواء، والسُّرَيْجِىُّ نسبة إلىٰ قَيْن يسمّى سُرَيْجًا تنسب إليه السُّيوفُ، وإما أنه كالسِّراج فى البَرِيق واللَّمَعان ؛ أو من قولهم سَرّج الله وجهَه إذا بَهَّجه وحسَّنه . فهذا ومثله مما لا يقف علىٰ معناه إلا من عرف التصريف وأتقنه .

إذا تقرر ذلك فاعلم أن اللفظ يختلف فى الغَرابة وعدمها باختلاف النِّسَب والإضافات ؛ فقد يكون اللفظ مألوفا متداوَلَ الاستعمال عند كل قوم فى كل زمن، وقد يكون غريبا متوحِّشا فى زمن دون زمن، وقد يكون غريبا متوحشا عند قوم، مستعملا مألوفا عند آخرين .

وهو أربعة أصناف .

الصــــــنف الأوّل

(المألوف المتداوَلُ الاستعمال عند كل قوم فى كل زمن)

وهو ما تداول استعمالَه الأوّلُ والآخِرُ من الزمان القديم وإلىٰ زماننا : كالسماء والأرض ، والليل والنهارِ ، والحرّ والبرد ، وما أشبه ذلك ؛ وهو أحسن الألفاظ ، وأعذَبُها ، وأعلاها درجة وأغْلاها قيمةً ؛ إذ أحسن اللفظ ما كان مألوفا متـداوَلا كما تقدّم ؛ وهذا لايقع عليه اسم الوحشىِّ بحال . قال فى : "المثل السائر" وأنت إذا نظرت إلىٰ كتاب الله العزيز الذى هو أفصحُ الكلامِ ، وجدتَه سهلا سَلِسا ، وما تضمنه من الكلمـات الغريبة يسير جِدّا ـ هذا وقد أنزل فى زمن العرب العَرْباء ، وألفاظه كلُّها من أسهل الألفاظ ، وأقربها استعمالا وكفىٰ بالقرءان الكريم قُدْوةً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسـلم ، "ما أُنْزِلَ فى التَّوْراةِ ولا فى الإنْجِيل مثلُ أمِّ القُرْءان وهى السَّبْعُ المَثَانِى" يريد فاتحـة الكتاب . وإذا نظرت إلىٰ ما اشتَمَلت عليـه من الألفاظ ، وجدتها سَهْلة قريبة يَفْهَمُها كل أحد حتّٰى صبيانُ المكاتبِ وعوامُّ السُّوقة ، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبَلاَغة ، فإن أحسن الكلام ماعرف الخاصةُ فضْلَه ، وفهم العامَّة معناه ؛ وهكذا فلْتَكُن الألفاظ المستعملةُ فى سهولة فهمها وقُرب متَناوَلهـا ؛ والمقتـدى بألفاظ القرءان يكتفى بها عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة ؛ وقد كانت العرب الأُوَل فى الزمن القديم تحاشىٰ اللفظَ الغريب فى نظمها ونثرها ، وتميل إلىٰ السهل وتستعذِبهُ ؛ ويكفى من ذلك كلام قبِيصةَ بن نُعَيْم لمـا قدم علىٰ امرئ القيس فى أشـياخ بَنِى أسد يسألونه العفْوَ عن دمِ أبيـه ، فقال له : "إنك فى المحلّ والقَدْر من المعرفة بتصرُّف الدَّهْر وما تُحْدِثه أيَّامه وتنتقل به أحوالُه بحيث لاتحتاجُ إلىٰ تذكيرٍ من واعظ ، ولا تبصيرٍ من مجرِّب ، ولك من سُودَد مَنْصِبك وشَرَف أعْراقك ، وكَرَم أصْلك فى العرب مَحْتِدٌ يحتمل ما حُمِّل عليه :

من إقالة العثْرة ورُجوعٍ عن الهفْوة ؛ ولا تتجاوزُ الهِمَم إلىٰ غاية إلا رجعَتْ إليك فوجدَتْ عندك من فضيلة الرأى ، وبصيرة الفهْم ، وكرم الصَّفْح مايطوِّلُ رَغَباتها ، ويستغْرِق طَلِباتها ، وقد كان الذى كان : من الخَطْب الجَلِيل ، الذى عمَّتْ رزيّتُه نِزارا واليَمَن ، ولم تُخْصَص بذلك كِنْدةُ دُونَنا : للشرف البارِع الذى كان لِحُجْر ، ولو كان يُفْدىٰ هالكٌ بالأنفس الباقيةِ بعده لما بَخِلت كَرَائمنا بها علىٰ مثله ، ولكنه مضىٰ به سبيلٌ لايَرْجِعُ أُخْراه علىٰ أُولاه ، ولا يَلْحقُ أقصاه أدْناه ؛ فأحمدُ الحالاتِ فى ذلك أن تَعْرِف الواجبَ عليك فى إحدىٰ خِلالٍ ثلاث : إما أن اخترتَ من بنى أسدٍ أشرفَها بيتا ، وأعلاها فى بناء المَكْرُمات صوتا ، فقُدْناه إليك بنسعة تذهب مع شَفَرات حُسامك بباقى قَصَرته ، فنقول : رجل امتُحِن بهالكٍ عزيز فلم يستَلَّ سَخِيمتَه إلا تمكينُه من الانتقام . أو فداء بما يَرُوح علىٰ بنى أسد من نَعَمِها ، فهى أُلُوف تجاوز الحِسْبَة فكان ذلك فِداءً رجعتْ به القُضُب إلىٰ أجفانها لم يرددها تسليط الإحَن علىٰ البرءاء . وإما أن وادَعْتنا إلىٰ أن تضعَ الحواملُ فتُسدل الأُزُر وتعْقَد الخُمُر فوق الرايَات".

فبكى امرُؤ القيس ساعةً ، ثم رفع رأسَه فقال .

"لقد علِمَتِ العربُ أنه لا كُفْءَ لِحُجْر فى دم ، وأنى لن أعتاضَ به جملا ولا ناقةً ، فأكتسبَ به سُبَّة الأبدِ ، وفتَّ العَضُد ؛ وأما النَّظِرة فقد أوجبتها الأجِنَّة فى بطون أمهاتها ، ولن أكون لعطَبها سببا ؛ وستعرفون طلائع كِنْدة من بعد ذلك ، تحمل فى القلوب حَنَقا وفوق الأسنَّة عَلَقا .

إذا جالَتِ الحرْبُ فى مَأْزِقٍ * تُصافِحُ فيه المَنَايَا النُّفوسا !

أتقيمون أم تنصرفون ؟ " قالوا بل ننصرف بأسوإ الاختيار وأبلىٰ الاجترار ، بمكروه وأذيَّه ، وحَرْب وبليَّه .

ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لَعَلَّكَ أن تستَوْخِمَ الوِرْدَ إن غدَتْ * كتائبُنا فى مأزِقِ الحـرب تُمْطِر

فقال آمرؤ القيس لا والله ! ولكن أستعذبه ، فرويدا ينفرِجْ لك دُجاها عن فُرْسان كِندةَ وكتائب حِمْير . ولقد كان ذِكر غير هذا بى أولىٰ إذ كنتَ نازلا بربعِى ، ولكنك قلت فأوجبت .

فقال قبيصة مايُتوقَّع فوق قدر المعاتبة والإعتاب ، فقال آمرؤ القيس هو ذاك .

قال فى : " المثل السائر " فلينْظر إلىٰ هذا الكلام من الرجلين : قبيصةَ وآمرئ القيس حتّى يدَعَ المتعمقُون تعمُّقهم فى آستعمال الوحشىّ من الألفاظ . فإن هذا الكلام قد كان فى الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله ، وكذلك هو كلام كل فصيح من العرب مشهور ، وما عداه فليس بشئ . قال : وهذا المشار إليه هاهنا هو من جَزْل كلامهم ، وهو علىٰ ما تراه من السَّلاسَة والعُذُوبة ؛ وإذا تصفَّحت أشعارَهم أيضا وجدت الوحشىّ من الألفاظ قليلا بالنسبة إلىٰ المسلسَل فى الفَمِ والسمع ؛ وعلىٰ هذا المَنْهج فى الجَزالة والسُّهولة يجرى من النظم قولُ آمرئ القيس :

فلَوْ أنَّ ماأسعَى لِأَدْنىٰ مَعيشةٍ ، * كَفَانِى ولم أطْلُبْ قليلٌ من المالِ

ولكنَّما أسْعىٰ لِمَجْدٍ مُؤَثَّل * وقد يُدْرِكُ المَجْدَ الموثَّل أمْثَالِى

فآنظر إلىٰ هذين البيتين ليس فيهما لفظةٌ غريبة ، ولا كره مع مافيهما من الجزالة وكذلك أبيات السَّمَوءل المشهورة وهى .

إذا المَرْءُ لم يَدْنَسْ من اللُّؤْمِ عِرْضُه * فكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلُ

وإنْ هُو لم يَحْمِل علىٰ النَّفْسِ ضَيْمَها ، * فلَيْس إلىٰ حُسْنِ الثَّناء سَبِيلُ

تُعَيِّرُنا أنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنا * فقُلْتُ لها إنَّ الكِرامَ قَلِيلُ

وما ضَرَّنَا أنا قليل وجارُنَا * عَزِيزٌ وَجارُ الأكْثَرِين ذَلِيلُ

يُقَرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالَنَا لَنَا * وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتطُولُ
وما ماتَ مِنَّا سَيِّدٌ فى فِرَاشِهِ * ولا طُلَّ مِنَّا حيثُ كان قَتِيلُ
وأسْيافُنا فى كُلِّ غَرْبٍ ومَشْرِقٍ * بها مِنْ قِراعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعوَّدةٌ أنْ لاتُسَلَّ نِصَالُها * فتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ

فإذا نظرت ماتضمنته هذه الأبيات من الجَزَالة، خِلْتَها زُبَرا من الحديد مع ماهى عليه من السُّهولة والعُذُوبة وأنها غير فَظَّة، ولا غليظة . وقد ورد للعرب فى جانب الرِّقة من الأشعار مايكاد تَذُوب لرِقَّته القلوبُ : كقول عروة بن أُذَينة :

إن التى زَعَمَتْ فؤادَكَ مَلَّها * خُلِقَتْ هَوَاكَ كما خُلِقْتَ هَوًى لها
بَيْضَاءُ باكَرَها النَّعِيمُ فصَاغَهَا * بلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وأَجَلَّها
حَجَبَتْ تحيتَها فقلتُ لصاحِبِى : * ماكان أكثرَها لنا وأقلَّها !
وإذا وجَدْتُ لها وَساوِسَ سَلْوَةٍ، * شَفَعَ الضميرُ إلى الفؤادِ فسَلَّها

وقول يَزِيدَ بن الطَّثَرِيَّة فى محبوبته من بنى جَرْم .

بنَفْسِىَ من لو مَرَّ بَرْدُ بَنَانه * على كَبِدِى، كانت شفاءً أنامِلُه

وإذا كان هذا قول ساكن الفَلَاة، لايرى إلا شيحة أو قيصومة ولا يأكل إلا ضبا أو يَرْبُوعًا، فما بَالُ قوم سكنوا الحَضَر، ووجدوا رِقَّة العيش يتعاطَوْنَ وَحْشِىَّ الألفاظ وشَظِفَ العبارات ؟ ولا يُخْلِدُ إلى ذلك إلا جاهلٌ بأسرار الفصاحة، أو عاجزٌ عن سلوك طريقها، فإن كل أحد ممن حصل على نَبْذَةٍ من علم الأدب يمكنه أن يأتىَ بالوَحْشِىِّ من الكلام، إما بأن يلتقطه من كتب اللغة، أو يتلقفه من أربابها . وأما الفصيح المُتَّصِفُ بصفة الملاحة، فإنه لايَقْدِر عليه ولو قَدَرَ عليه لما علم أين يضع يده فى تأليفه وسَبْكه .

قال : و إن مارىٰ فى ذلك مُمَـارٍ، فلينظر إلىٰ أشعار علماء الأدب ممن كان يُشار إليه حتّٰى يعلم صحةَ ذلك ؛ فإن ٱبن دُرَيْد قد قيل إنه أشعر علماء الأدب و إذا نظرتَ إلىٰ شعره، وجدته بالنسبة إلىٰ شعر الشعراء المجيدين مُنْحَطًّا، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عُشْرَ مِعْشَـار ما علمه ، وأين شـعره من شعر العباس ٱبن الأحنف ؟ وهو من أوائل الشـعراء المُحْدَثِينَ ، وشعره كمَرّ نسـيم علىٰ عَذَبَاتِ أغصان، أو كاؤلؤاتِ طَلٍّ علىٰ طُرَر رَيْحَان، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يُحتاج إلىٰ ٱستخراجها من كتاب من كتب اللغة، كقوله :

و إنّى لَيُرْضِينى قليـــلُ نوالِكم * وإن كنتُ لاأَرْضىٰ لكم بقليل
بحُرمةِ ماقد كانَ بَيْنِى و بينَــكُمْ * من الوُدّ إلا عُدْتُمُو بجميل

وقوله فى محبوبته فَوْز :

يا فَوْزُ يا مُنْيَـــةَ عَبَّـاسِ * قلبى يُفَدِّى قلبَكِ القـاسِى
أسأتُ إذ أحسنتُ ظَنِّى بكم * والحَزْمُ سُوءُ الظنِّ بالنـاسِ
يُقْلِقُنِى شَـــوْقِى فآتِيـــكُمُ * والقلبُ مملوءٌ من اليـاسِ

وهل أعذبُ من هذه الأبيات؟ وأعلقُ بالخاطر،وأسرى فى السمع؟ ولمثلها تسهر راقدات الأجفان ، وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرِّهان ؛ ومن الذى يستطيع أن يسلك هذه الطريقَ التى هى سَهْلَةٌ وَعْرَة، قريبة بعيدة؟ .وقد كان أبو العتاهية أيضـا فى غُرَّة الدولة العباسية، وشعر العرب إذ ذاك موجود كثيرا، وإذا تأملت شعره وجدتَه كالمـاء الجارى، رقَّةَ ألفاظٍ ، ولَطافَةَ سبك ، وليس بركيك ولا واهٍ ، وٱنظر إلىٰ قصيدته التى يمدح بها المهدىَّ و يشبب بجاريته عتب وهى :

أَلَا مَا لِسَـــيِّدَتِى ما لَهَـا * تُدِلُّ، فأحْمِـــلُ إِدْلَالَهَـا

ألا إنّ جارية للإما * م قد أُسْكِنَ الحُسْنُ سِرْبَالَهَا
لقد أتعب اللهُ قلبي بها * وأتعب فى اللَّوم عُذّالَهَا
كأنّ بعينىّ فى حَيثُ ما * سلكت من الأرض تِمْثالَهَا

فلما وصل إلىٰ المديح قال من جملته :

أَتَتْه الخلافةُ منقادةً * إليه تُجرِّرُ أذيالَهَا
فلم تَكُ تَصْلُحُ إلّا لَهُ * ولم يَكُ يصْلُح إلّا لَهَا
ولو رامها أحدٌ غيرُه، * لزُلْزِلتِ الأرضُ زِلْزالَهَا
ولو لم تُطِعْه نِيَاتُ القُلوب، * لَمَا قَبِلَ اللهُ أعمالَهَا

فهذه الأبيات من أَرَقِّ الشعر غَزَلًا ومديحا، وقد أذعن لمديحها الشعراءُ من أهل ذلك العصر، وهى علىٰ ماترىٰ من السَّلاسَةِ واللَّطَافة علىٰ أقصىٰ الغايات، حتّى قال بَشَّارٌ عند سماع المهدىِّ لها من أبى العتاهية : "انظروا إلىٰ أمير المؤمنين هل طار عن أَعْوَادِه" يريد هل زال عن سريره طَرَبا بهذا المديح . وعلىٰ هذا الأسلوب كان أبو نُوَاسٍ فى السهولة والسَّلاسَة والرِّقَة ، ولذلك قُدِّم علىٰ شعراء عصره مع مافيه من فحول الشعراء ومفلقيهم كمسلم بن الوليد وغيره ، وذلك لرقة شعره وسهولته : كقوله فى محبوبته جِنَان :

ألم تَرَ أنّنى أفنيْتُ عُمْرِى * بِمَطْلَبِها ومَطْلَبُهَا عَسِير
فلَمّا لم أجِدْ سَبَباً إليها * يُقَرِّبُنى وأَعْيَتْنِى الأُمُور
حَجَجْتُ وقلت : قد حَجّتْ جِنَان * فيجمعُنى وإيَّاها المَسِير

فانظر إلىٰ هذه الأبيات ليس فيها لفظة منغلقة، وكذلك سائر شعره، وكان هو وأبو العَتَاهِيَة كأنما يُنْفقَانِ من كيس واحد . ومن لطيف مايحكى فى تَوَافُقِ طريقتهما

واتحاد مأخذهما أن أبا نُوَاس جلس يوما إلىٰ بعض التُّجَّار ببغدادَ هو وجماعة من الشعراء فاستسقىٰ أبو نُوَاسٍ ماءً فلما شرب قال :

* عَذُبَ المَـاءُ وَطَابَا *

ثم قال : أجيزوه، فأخذ أولئك الشعراءُ يتردّدون فى إجازته وإذا هم بأبى العتاهية مجتازا فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا كَيْتَ وكَيْتَ وقد قال أبو نُوَاسٍ :

* عَذُبَ المَـاءُ وَطَابَا *

فقال أبو العتاهية مجيزا له :

* حَبَّذَا المَـاءُ شَرَابَا *

فَعَجِبُوا لقوله علىٰ الفور من غير تلبث، فهذا هو الكلام السهل الممتنع تراه يُطْمِعُك أن تأتىَ بمثله ، فإذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب ؛ وهكذا ينبغى أن يكون مَنْ خاض فى كتابة أو شعر ، فإن خير الكلام مادخل الأُذُنَ بغير إذْنٍ .

ومن النثر قول سَعيد بن حُمَيْدٍ : وأنا مَنْ لايُحَاجُّكَ عن نفسه ، ولا يغالطك عن جُرْمِهِ، ولا يستدعِى بِرَّكَ إلا من طريقته ، ولا يَسْتَعْطِفُكَ إلا بالإقرار بالذَّنْب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجُرْمِ ، نَبَتْ بى عنك غِرَّة الحَدَاثة ، وردّتنى إليك الحُنْكَةُ، وباعدتْنى منك الثقةُ بالأيَّام، وقادتْنى إليك الضَّرورة، فإن رأيتَ أن تستقبل الصنيعة بقبول العُـذْر، وتجدّد النعـمة باطِّراح الحِقْد ، فإنَّ قَديم الحُرْمة وحديث التوبة يمحقانِ ما بينهما من الإساءة، وإن أيامَ القدرة وإن طالت قصيرة، والمُتْعَة بها وإن كَثُرت قليلة ، فَعَلْتَ إن شاء الله تعالىٰ .

فانظر إلىٰ قوّة هذا الكلام فى سهولته، وقُرْب مأخَذه مع بُعْـد تنـاوله والإتيان بمُشَاكله . وأجزلُ منـه مع السهولة قول الشَّعْبِىِّ للحَجَّاج ، وأراد قتله لخروجه عليه

مع ابن الأشعث : "أجْدبَ بنا الجَنَابُ، وأحْزَنَ بنـا المَنْزِل، فاسْتَحْلَسْنَا الحَـذَرَ، وا كْتَحَلْنَا السهرَ، وأصابَتْنا فتنةٌ لم نكن فيها بَرَرَةً أتقياء، ولا فَجَرَةً أقوياء" فعفا عنه.

قال صاحب الصناعتين : وقد غلب الجهل علىٰ قوم فصاروا يَسْتَجِيدُونَ الكلامَ إذا لم يَقِفوا علىٰ معناه إلا بِكَدٍّ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كَزَّةً غليظة، وجَاسِيَةً غريبة، ويستحقرون الكلام إذا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبا، وسهلا حُلْوًا، ولم يعلموا أن السهل أمنعُ جانبا، وأعزُّ مطلَبا، وهو أحسن موقعا، وأعذب مُسْتَمَعًا، ولهذا قيل "أجود الكلام السَّهْلُ الممتنع" وكان المُفَضَّل يختار من الشعر ما يَقِلُّ تداول الرواة له، ويكثر الغريب فيه. قال العسكرى : وهذا خطأ فى الآختيار : لأن الغريب لم يكثر فى كلام إلا أفسده، وفيه دِلَالَةٌ علىٰ الآستكراه والتكلف.

ووصف الفضلُ بنُ سهلٍ عَمرو بنَ مَسْعَدَةَ فقال : هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتُب مثل كُتُبه، فإذا رامها، تعذرت عليه،

وقال العباس بن ميمون : قلت للسيد : ألا تستعمل الغريب فى شعرك ؟ فقال ذلك عِيٌّ فى زمانى، وتَكَلُّفٌ منى لو قلته، وقد رُزِقت طبعا وآتساعا فى الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يحتاج إلىٰ تفسير، ثم أنشدنى :

أيا رَبِّ إنِّى لم أُرِدْ بالذى به * مَدَحْتُ عَلِيًّا غيرَ وجهِك فارحم

قال فى الصناعتين : فهذا كلامُ عاقلٍ يَضَعُ الكلام موضعه، ويستعمله فى إبَّانِه.

ومن كلام بعض الأوائل : تلخيص المعانى رِفْقٌ، والتشادق فى غير أهله نقص، والنظر فى وجوه الناس عِيٌّ، ومس اللِّحْيةِ هُلْكٌ، والآستعانة بالغريب عَجْز، والخروج عمـا بُنِيَ عليه الكلامُ إسهاب، فأجود الكلام ما كان جَزْلا سهلا، لا يَنْغَلِقُ معناه، ولا يَسْتَبْهِم مَغْزاه، ولا يكون مكدودا مستكْرَها، ومتوعرا مُتَقَعِّرا، ويكون بريئا من

الغَثَاثة، عاريا من الرَّثَاثة، فالكلام إذا كان لفظُه غثًّا، ومَعْرِضُه رثًّا، كان مردودا، ولو آحتوىٰ علىٰ أجلِّ معنًى وأنبله، وأرفعِه وأفضلِه . قال فى "المثل السائر": أما البداوة والعُنْجُهِيَّةُ، فتلك أمة قد خَلَتْ، ومع أنها قد خَلَتْ وكانت فى زمن العرب العاربة فإنها قد عِيبتْ علىٰ مستعملها فى ذلك الوقت فكيف الآن، وقد غلب علىٰ الناس رقة الحَضَر ؟

الصـــــنف الثانى

(الغريب المتوحش عند كل قوم فى كل زمن)

وهو ما لم يكن متداول الآستعمال فى الزمن الاوّل ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب كما هومرفوض عند غيرهم، ويسمّى الوَحْشِيَّ الغليظ، والعِكَر، والمتوعِّر

وهو علىٰ ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(مايعاب آستعماله فى النظم والنثر جميعا)

قال فى "المثل السائر": والناس فى قبح آستعماله سواء، لا يختلف فيه عربِىٌّ بَادٍ، ولا قَروِىٌّ مُتَحَضِّرٌ . قال : وليس وراءه فى القبح درجة أخرىٰ، ولا يستعمله إلا أجهلُ الناس ممن لم يخطُر بباله شىء من معرفة هذا الفنّ أصلا، وهو مامَجَّهُ سمعُك، ونَبَا عنه لسانك، وثَقُل عليك النطقُ به ؛ علىٰ أنه قد وقع منه ألفاظ لبعض الشعراء المُفْلِقِينَ من العرب والمُحْدَثين . فمن ذلك لفظ الجَحِيش فى قول تأبط شرًّا من أبيات الحَمَـاسَةِ :

يَظَـــلُّ بِمَوْمَاةٍ ويُمْسِى بِغَـــيْرِهَا * جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المَسَالِكِ

فإن لفظة جَحيشٍ من الألفاظ المُنْكَرَةِ القبيحة، قال فى "المَثَل السائر" : ويالله العجب ! أليس أنها بمعنى فَرِيد ؟ وفريدٌ لفظة حَسَنَةٌ رائقة لو وضعت فى هذا البيت موضع جَحيشٍ لما ٱختل شيء من وزنه، فتأبط شرا ملوم من وجهين : أحدهما ٱستعماله القبيحَ، والثانى أنه كانت له مندوحة عن ٱستعماله فلم يعدِل عنها؛ وأقبح من ذلك لفظ ٱطْلَخَمَّ فى قول أبى تَمَّام :

قد قلتُ لما ٱطْلَخَمَّ الأمرُ وٱنْبَعَثَتْ * عَشْوَاءُ تَالِيَةً غُبْسًا دَهَارِيسَا

فإن لفظةَ اطْلَخَمَّ من الألفاظ المنكرة التى جمعت الوصفين القبيحين من أنها غريبة، وأنها غليظة فى السمع، كريهة على الذَّوْق؛ وكذلك لفظة دَهَاريس فى آخر البيت المذكور.

وعلى حدّ ذلك ورد لفظ جَيْدَر فى قوله من أبيات فى وصف فرس :

نِعْم متاعُ الدّنيا حَبَاكَ به * أرْوَعُ لا جَيْدَرٌ ولا جِبْسُ

فلفظة جيدر وحشية غليظة، وأغلظ منها لفظة جَفَخَتْ فى قول أبى الطَّيِّب المتنبى :

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفَخُونَ بها بهم * شِيَمٌ على الحسب الأغرِّ دلائلُ

فإن لفظة جَفَخَ مُرَّةُ الطعم، وإذا مَرَّتْ على السمع ٱقْشَعَرَّ منها، وكان له مندوحة عن ٱستعمالها فإنَّ جَفَخَتْ بمعنى فَخَرَتْ وهما فى وزن واحد، فلو أتى بلفظ فَخَرَتْ ويَفْخَرُونَ مكان جَفَخَتْ ويَجْفَخُونَ، لٱستقام وزن البيت وحَظِىَ فى ٱستعماله بالأحسن، فهو فى ذلك كتأبَّطَ شَرًّا فى لفظة جَحِيشٍ فى توجه الملامة عليه من وجهين.

قال فى "المثل السائر" : وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على هؤلاء الفحول من الشعراء؟ هذا ما أورده ٱبن الأثير من هذا النوع؛ ويشبه أن يكون منه لفظ الحَقَلَّد فى قول زُهَيرٍ :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لم يُكَثِّرْ غَنِيمَةً * بِنَهْكَةِ ذِى قُرْبى وَلَا بِحَقَلَّدِ

والْحَقَلَّدُ السيئ الخلق. قال في "الصناعتين"(١): وقد أخذ الرُّواة علىٰ زُهَيْرٍ فى لفظة الْحَقَلَّد فاستبشعوها، وقالوا: ليس فى لفظ زُهَيْرٍ أنكر منها، وكذلك لفظ الجِرِشَّى فى قول أبي الطَّيِّبِ فى مدح سيف الدولة بن حمدان وٱسمه عَلِيٌّ:

مُبَـارَكُ الاسْمِ أغرُّ اللَّقَبْ * كَرِيمُ الجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَب

فلفظ الجِرِشَّى مما يكرهه السمع، وينبو عنه اللسان، والجِرِشَّى بمعنى النَّفْسِ فجعل ٱسمه مباركا، ولقبَه أغرَّ، ونفسَه كريمةً، ونسبه شريفا، وذلك أنه كان يسمَّى عَلِيًّا وهو ٱسم مبارك لموافقة ٱسم أمير المؤمنين: علىٍّ كرم الله وجهه ويلقب سيفَ الدولة وهو لقب أعرابى مشهور، وأغرُّ أخذا من غرّة الفرس لأنها أشهر ما فيها، ووصفه بكرم النفس إما باعتبار الحَسَبِ والعَـرَاقَةِ، وإما باعتبار بَذْل المـال وكثرة العطاء، وأشار إلىٰ شرف نسبه باعتبار عَرَاقَتِه فى بيت الملك وعَرَاقَةِ حَسَبِه.

الضرب الثـانى

(مايعاب ٱستعماله فى النثر دون النظم)

وهذا الضرب مما ذكر صاحب المثل السائر أنه ٱستخرجه بفكره، ولم يجد فيه قولا لغيره. قال: وهذا ينكره مَنْ يسمعه حتّى ينتهىَ إلىٰ ماأوردتُه من الأمثلة، ولربما أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم الذوق السليم عنده، ثم ذكر منه أمثلة.

منها لفظ شَرَنْبَثَةٍ من قول الفرَزْدَق:

ولولا حَيَاءٌ، زِدتُ رأسَك شَجَّةً * إذا سُبِرَتْ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِي
شَرَنْبَثَةً شَمْطَاءَ مَنْ يَرَ مَابِهَا * يُشَبِّهُ وَلَوْ بَيْنَ الخُمَاسِيِّ وَالطِّفْلِ

---

(١) فى القاموس «الحقلد فى قول زهير الاثم» ومثله فى لسان العرب.

قال : فلفظة شَرَنْبَثَة من الألفاظ الغريبة التى يسوغ ٱستعمالهـا فى الشعر، وهى هاهنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت فى كلام منثور من كتاب أو خطبـة ، لعيبت علىٰ مستعملها .

ومنها لفظة مُشْمَخِرٍّ الواردةُ فى أبيات بِشْرٍ فى وصفه لقاءَهُ الأسد حيث قال :

وأطلقتُ المُهَنَّـدَ عن يمينى * فَقَدَّ لَهُ من الأضلاع عَشْرَا

فَخَـرَّ مُضَرَّجًا بِدَمٍ كأَنِّى * هَدَمْتُ بِهِ بِناءً مُشْـمَخِرًّا

وكذلك فى قول البُحْتُرِىِّ فى قصيدته التى يصف فيها إيوان كسرىٰ :

مُشْـمَخِرٌّ تَعْـلُو لَهُ شُرُفَاتٌ * رُفِعَتْ فِى رُءوسِ رَضْوىٰ وَقُدْسِ

فإن لفظةَ مُشْـمَخِرٍّ لا يحسُن ٱستعمالهـا فى الخطب والمكاتبات ، ولا بأس بها فى الشعر، وقد وردت فى خُطَب الشيخ الخطيب ٱبن نُبَاتَة كقوله فى خُطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة : ٱقْمطَرّ وَبَالُها، وٱشْمَخَرَّ نَكَالُهَا، فما طابت ولا ساغت .

ومنها لفظة الكَنَهْوَرِ من أوصاف السحاب كقول أبى الطَّيِّب :

يَا لَيْتَ بَاكِيَـةً شَجَانِى دَمْعُهَا * نَظَرَتْ إليكَ كما نظرتُ فَتَعْـذِرَا

وتَرَىٰ الفَضِـيلَةَ لَا تُرَدُّ فَضِـيلَةً * الشَّمْسَ تُشْرِقُ والسَّحَابَ كَنَهْوَرَا

فلفظة الكَنَهْوَرِ لاتعاب نظما، وتعاب نثرا .

ومنها لفظة العِرمِس، وهو ٱسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ ٱستعمالهـا فى الشعر ولا يُعاب مُسْتَعْمِلُها كقول المتنبى :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُـهُ علىٰ قَدَمِى * تَعْجِزُ عنه العَرَامِسُ الذُّلُلُ

فإنه جمع هـذه اللفظة ولا بأس بها، ولو ٱسـتعملت فى الكلام المنثور من

الخطب لما طابت ولا ساغت؛ وقد جاءت مُوَحَّدَةً فى شعر أبى تمـام فى قوله :

هى العِرِمِسُ الوَجْناء وابن مُلِمَّـةٍ * وجاشٌ على مايُحْدِث الدهرُ خافِضُ

ومنها لفظة الشَّدَنِيَّة فى قول أبى تمـام أيضا .

* ياموضِع الشَّدَنِيَّةِ الوجناء *

وهى ضرب من النُّوقِ ، فإن الشدَنيَّة لاتعاب شـعرا وتعاب لو وردت فى كتابة أو خطبة . هـذا ما أورده فى "المثل السائر" لهذا الضرب من الأمثلة . ثم قال : وهكذا يجرى الحكمُ فى أمثال هذه الألفاظ ؛ وعلى هذا فآعلم أن كل مايسوغ آستعماله فى الكلام المنثور يسوغ آستعماله فى الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ آستعماله فى الكلام المنظوم يسوغ آستعماله فى الكلام المنثور . قال : وذلك شئ آستنبطته وآطلعت عليه لكثرة ممـارستى هـذا الفن ، ولأن الذوق الذى عندى دلَّنى عليه ؛ فمن شاء أن يقلِّدَنى فيـه ، وإلا فليُدْمِنِ النظرَ حتّى يطَّلع على ما آطلعت عليه . والأذهان فى مثل هذا المقام تتفاوت ، على ان الشيخ سعد الدين التفتازانى رحمه الله قد تابعه على ذلك فى شرح التلخيص فلا أعلم أقلده فى ذلك أمّ ذوقه أدّاه إليه ؟ .

الضرب الثـالث

(مايعاب آستعماله بصيغة دون صيغة)

قال فى "المثل السائر" : وهذا الضرب من هذه الصناعة بمنزلة عليَّة ، ومكانة شريفة ، وجُلُّ الأسرار اللفظية منوط به . قال : وقد لقيت جماعة من مُدَّعى فنّ الفصاحة وفاوضتهم وفاوضونى ، وسألتهم وسألونى ، فمـا وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا الموضع كما ينبغى ، وقد آستخرجت فيه أشياء لم أُسْـبَق إليها فإن اللفظة الواحدة قد

تنتقل من هيئة إلىٰ هيئة، أو من صفة إلىٰ صفة، فتنتقل من القُبْح إلىٰ الحُسْنِ وبالعكس فيصير القبيح حَسَناً، والحَسَنُ قبيحا، والمرجع فى ذلك إلىٰ الذوق الصحيح والطبع السليم؛ وقد نبه منه علىٰ تسعة أنمـاط .

النمط الأول ـ مايترجح فيه الآسم فى الآستعمال علىٰ الفعل، وذلك فى مثل لفظ خَوْدٍ، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت إلىٰ صـيغة الفعل، قيل خَوَّدَ علىٰ وزن فَعَّلَ بتشـديد العين ومعناها أسرع . يقال : خوّد البعير إذا أسرع فى مَشْيِهِ، فهى علىٰ صيغة الآسم حسنة رائقة، قد وردت فى النظم والنثر كثيرا، وإذا جاءت علىٰ صيغة الفعل، لم تكن حسنة كقول أبى تمّـام :

وإلىٰ بنى عبدِ الكريم تَوَاهَقَتْ * رَتْكَ النَّعَامِ رأىٰ الطريقَ[(١)] فَخَوَّدَا

إلا أن لفظةَ خَوَّدَ قد آستعملت علىٰ غير هـذا الوجه فى بعض المواضع فزال عنها بعضُ القُبْح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن، كقول بعض شعراء الحماسة :

أقولُ لنفسى حين خَوَّدَ رَألُهَا : * رُوَيْدَكِ لما تُشْفِقِى حين مَشْفَقِ
رُوَيْدَكِ حتّى تَنْظُرِى عَمَّ تَنْجَلِى * عَمَـايَةُ هـذا العـارِضِ المتألِّقِ

والرَّألُ النعام، والمراد أن نفسه فرّت وفَزِعت، شبه بإسراع النعام فى فِراره وفزعه فلمـا أورد ذلك علىٰ سبيل المجـاز، زال بعض القبح . قال : وهـذا يدركه الذوق الصحيح فهى فى بيت أبى تَمَّامٍ قبيحةٌ سمجةٌ، وهاهنا بينَ بينَ، ويقاس علىٰ ذلك أشباهُه ونظائرُه .

النمط الثانى ـ مايترجح فيه فعل الأمر والمستقبل فى الآستعمال علىٰ الفعل الماضى وذلك فى مثل لفظة وَدَع، وهى فعل ماض ثلاثىّ لاثِقَلَ بها علىٰ اللسان، ومع ذلك

(١) فى المثل السـائر . الظَّلام . وكذا فى ديوان أبى تمـام .

فإنها لا تستعمل على صيغتها الماضيـة إلا جاءت غير مُسْتَحْسَنةٍ، فإذا آستعملت على صـيغة الأمر أو الآستقبال، جاءت حسنة بهجة رائقة، أما على صيغة الأمر فكما فى قوله تعالى: "فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا"(١) ولم ترد فى القرءان الكريم إلا على هـذه الصـيغة، وأما على صـيغة الآستقبال فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد واصل فى شهر رمضانَ فواصل معه قوم، فقال: "لو مُدّ لنـا الشَّهرُ لواصَلْنَا وِصالًا يَدَعُ له المتعمِّقُون تعمُّقَهم" وقد آستعملها أبو الطَّيِّبِ على هذا الوجه فى قوله:

تَشُقُّكُمْ بِقَنَاهَـا كُلُّ سَـــاهِبَةٍ ✻ والضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فوق مَايَدَعُ

فجاءت فى كلامه بهجة رائقـة، وأما المـاضى من هذه اللفظة، فلم يستعمل إلا شاذا ولا حُسْنَ له، كقول أبى العتاهية:

أَثْرَوْا فلم يُدْخِلُوا قبورَهُم ✻ شيئًا من الثَّرْوَةِ التى جَمَعُوا

وَكَانَ ماقَدَّمُوا لأنفسهم ✻ أعظمَ نَفْعًامن الذى وَدَعُوا

فلم تقع فى كلامه من الحسن موقعا، ولا أصابت من الطَّلاوة غَرَضًا؛ وهذه لفظة واحدة لم يتغير شئ من أحوالها سوى أنها نقلت من صيغة إلى صيغة؛ وكذلك لفظة وَذَرَ فإنها لاتستعمل ماضية، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى: "ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا". وتستعمل مستقبلة أيضا كقوله تعالى: "سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ" ولم ترد فى القرءان الكريم إلا على هاتين الصيغتين؛ وكذلك فى غير القرءان الكريم من فصيح الكلام، أما فى حالة المضىّ، فإنها أقبح من لفظة وَدَعَ، وقد آستعملت ماضية مع شذوذ، وهذه لم تستعمل أصلا.

النمط الثالث ــ مايترجح فيه الإفراد فى الآستعمال على التثنية، وذلك فى مثل لفظ

(١) كان عليه أن يمثل بقوله تعالى: "وَدَعْ أَذَاهُمْ".

الأَخْدَع ، فإنها يحسن ٱستعمالها فى حالة الإفراد دون التثنية ؛ فما ورد فيه مفردة فجاءت حسنة رائقة، قول الصِّمَّةِ بن عبد الله من شعراء الحماسة :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَىِّ حتَّى وَجَدْتُنِى * وَجِعْتُ مِنَ الإِصْغاءِ لِيتاً وَأَخْدَعَا

ومما ورد فيه لفظ التثنية فجاء ثقيلا مستكرها قول أبى تَمَّام :

يَادَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ * أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ

هكذا ذكره فى المَثَلِ السائر، ثم قال : وليس لذلك سبب إلا أنها جاءت مُوَحَّدَةً فى أحدهما فَحَسُنَتْ، وجاءت مثناة فى الآخر فقَبُحت .

النمط الرابع — ما يترجح فيه الإفراد فى الاستعمال على الجمع ، وذلك كلفظة الأرض فإنها لم ترد فى القرءان الكريم إلا مفردة، ســواء أفردت بالذكر عن السماء كما فى قوله تعالىٰ : ”وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً“ أو قُرِنت بالسماء مفردة كما فى قوله تعالىٰ : ”وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ“ أو مجموعةً كما فى قوله تعالىٰ : ”الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ“ ولو كان ٱستعمالها بلفظ الجمع مستحسنا، لكان هذا الموضعُ وشبهُهُ به أليق لمقابلة الجمع فى السموات، ولما أراد أن يأتىَ بها مجموعةً قال : ”اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ“ وكذلك لفظة البُقْعَة ، وكذلك لفظة طَيْفٍ فى ذكر طَيْف الخيال ، فإنها تجمع علىٰ طُيُوف ، وهى فى حالة الإفراد من أَرَقِّ الألفاظ وألطفها؛ فإذا جمعت زالت عنها تلك الطَّلاوة، وفارقتها تلك البَهْجَةُ ، ولذلك وردت فى القرءان الكريم بلفظ الإفراد قال تعالىٰ : ”إِنَّ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ“. ولم تزل الشعراء فى القديم والحديث يستعملونه بلفظ الإفراد فيقع أحسنَ موقع ، ولم يُلِمُّوا بٱستعماله مجموعا، قال فى المَثَل السائر : ويالله العجب ! من هذه اللفظة ومن أختها

عدّة ووزنا، وهى ضيف فإنها تستعمل مفردة ومجموعة، وكلاهما فى الاستعمال حسن رائق، قال: وهذا مما لا يُعْلَمُ السرّ فيه، والذوق السليم هو الحاكم فى الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مَجْراهمـا، وكذلك يجرى الحكم فى جميع المصـادر، فإنها فى حالة الإفراد أحسنُ منها فى حالة الجمع، وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة فجاءت غَثّة مستكرهة، كما فى قول عنترة:

فإن يَبْرأْ فلمْ أَنفِثْ عليهِ * وإن يُفْقَدْ فحَقَّ لَهُ الفُقُودُ

فالفقود جمع مصدر من قولنا: فقد يفْقِد فَقْدا، وليس له من الرَّوْنق والطَّلاوة ما لمفرده، وهو لفظ فَقْدٍ، وإن كان جائزا من جهة العربية.

النمط الخامس ـــ ما يترجح فيه الجمع فى الاستعمال علىٰ الإفراد كلفظة اللُّبّ الذى هو العقل، فإن استعمالها بصيغة الجمع فى غاية الحسن والبهجة والطّلاوة، وقد ورد بهذه الصيغة فى غير موضع من القرءان الكريم، كقوله تعالىٰ: "وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ" وقوله: "وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَـابِ" إلىٰ غير ذلك من الآيات الوارد فيها ذلك بصـيغة الجمع، أما فى حالة الإفراد فإنها قليلة الاستعمال مع أنها لفظة ثلاثية خفيفة علىٰ النطق، بعيدة المخـارج، ليست بمستثقلة ولا مكروهة، قال فى المَثَل السائر: وإذا تأملت القرءان الكريم ودققتَ النظر فى رموزه وأسراره، وجدتَ هـذه اللفظة قد رُوعى فيها الجمع دون الإفراد فإن أضـيفت أو أضيف إليها، حسن استعمالهـا، وساغ فى طريق الفصاحة إيرادها. أما إضـافتها فكقول النبى صلى الله عليه وسلم فى ذكر النساء: "مَارَأَيْتُ نَاقِصَـاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَامَعْشَرَ النِّسَاءِ" وأما الإضافة إليها فكقول جرير:

إنّ العُيونَ التى فى طَرْفِها حَـوَرٌ * قتَلْنَنَا، ثم لم يُحْيِينَ قَتْـلانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِ حتّى لاَحَرَاكَ به * وهُنّ أضـعفُ خلقِ اللهِ إنسانَا

إنْسَانَا

قال فى المَثَل السائر : فإن عَرِيت هـذه اللفظة عن الجمع والإضـافة ، لم تأت حسنة . قال : ولا تجد دليلا علىٰ ذلك إلا مجرّدَ الذوق السليم ، وكذلك لفظة كوب فإنها لم ترد فى القرءان الكريم إلا مجموعة ، وهى و إن لم تكن مستقبحة فى حالة الإفراد ، فإن الجمع فيها أحسن . وٱنظر إلىٰ ماعليها من الطَّلاوة والمـائية فى قوله تعالىٰ : " يَطُوفُ عَلَيْهِـمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَعِينٍ " وعلىٰ هـذا النحو لفظ رَجًا بالقصر ، ومعناه الجانب ، فإنهـا قد وردت فى القرءان بلفظ الجمع فى قوله تعـالىٰ : "والْمَلَكُ عَلىٰ أَرْجَائِهَا" أىَ جوانبها ، ولم تستعمل مفردة : لأن الجمع يُكْسِبها من الحسن ما لم يوجد لهـا حالة الإفراد ، فإن أضـيفت حالة الإفراد كرجا البـئر ونحوه ، حسنت كما فى حالة الجمع . قال فى المَثَل السائر : وليس كذلك لفظ الصُّـوف والأصواف ، و إن كان لم يرد فى القـرءان الكريم إلا مجموعا حيث قال تعـالىٰ : " وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَـامِ بُيُوتًا تَسْـتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْـعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَـاعًا إِلىٰ حِينٍ " لأن لفظ الصوف مسـتحسنٌ فى حالة الإفراد كما فى حالة الجمع . قال : وإنمـا قَبُح ذكره فى قول أبى تَمَّـامٍ :

كَانُوا بُرُودَ زمانِهم فتصدّعوا * فكأنَّمـا لَبِسَ الزمانُ الصُّوفَا

لأنها جاءت مجازية فى نسبتها إلىٰ الزمان . قال : وعلىٰ هـذا النَّهْج وردت لفظة حِبْر وأحبار فإنها مجموعةً أحسنُ منها مفردةً ، ولم ترد فى القرءان الكريم إلا مجموعة .

النمط السادس ــ ما يترجح فيه بعضُ الجموع فى الٱستعمال علىٰ بعض كما فى جمع صـائب من قولك : سهم صائب ، فإنه يقـال فى الجمع سِهَام صوائبُ وصائبات وصُيَّب بالتشديد ، وهذه الجموع كلها حسنة ، رائقة ، مُعْجِبَةٌ ، دائرة علىٰ ألسنة أرباب النثر والنظم ، ويقال فى جمعه أيضا صُيُبٌ علىٰ وزن كُتُب ، وهو جمع قبيح ،

مرفوض الآستعمال، ثقيل على النطق، جاف عن السمع، وقد آستعمله أبو نُوَاسٍ في شعره حيث قال :

مأَحلَّ اللهُ ماصَنَعَتْ * عينُه تِلك العشيةَ بِي

قَتَلَتْ إنسانُها كَبِدِى * بِسِهَام للردىٰ صُيُبِ

فجاءت غَثَّةً كريهة نابيــة عن السمع، نافرة عن اللسان؛ وكذلك الجمع فى قَيْدٍ، فإنه يجمع علىٰ قيود، وهو جمع سائغ القبول، شائع الآستعمال؛ ويقال فى جمعه أيضا أقياد، وهو من الجموع المستكرهة الخارجة عن الآستعمال، وقد ورد فىقول عُوَيْفِ القوافى من أبيات الحماسة :

ذهب الرُّقَادُ فمـا يُحَسُّ رُقَادُ * ممـا شَجَاكَ ونامت العُوَّادُ

لمـا أتانى من عُيَيْنَةَ أنه * أمست عليه تُظَاهَرُ الأقيادُ

فلم يحسن ولم يَرُقْ، وكذلك القول فى جمع قُبَّةٍ، فإنه يجمع علىٰ قبـاب وهو جمع حسن دائر علىٰ ألســنة الفصحاء من أهل النظم والنثر، ويجمع أيضا علىٰ قُبَبٍ، وليس بمستحسَن، وإن كان هو فى الكراهة دون أقياد فى جمع قَيْدٍ، وقد آستعمله آبن مُحْكَانَ التَّمِيمِىُّ فى قوله :

مَا ذَا تَرَيْنَ أَنُدْنِيهِـــمْ لِأَرْحُلِنَا * فِي جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبْنِي لَهُمْ قُبَبَا ؟

فلم يحسن كحسن قباب بل جاءت كريهة مستشنعة؛ وأعجب ما فى هذا الباب أن الجمع قد يكون متفقا فى لفظة واحدة إلا أنها مختلفة المعنىٰ فيختلف الآســتعمال فى الجمع بآختلاف المعـانى حتّى لو جىء بجمع فى مكان جمع لم يحسن آســتعماله وإن كان جائزا من جهة العربيــة : كلفظ العين، فإنها تطلق من جمـلة مدلولاتها علىٰ العين الباصرة، والعين من الناس، وهو النَّبِيهُ منهم، والعينُ الباصرة تجمع علىٰ

عيون، والعين من الناس تجمع علىٰ أعيان، وقد شذ هذا الموضع علىٰ المتنبي فى قوله :

وَالْقَوْمُ فى أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ * وَالْخَيْلُ فِى أَعْيَانِهَا قَبَلُ

بجمع العين الباصرة علىٰ أعيان فى الموضعين، قال فى "المَثَل السائر" : وكأن الذوق يأبىٰ ذلك ولا يجد له علىٰ اللسان حلاوةً و إن كان جائزا، وأعجبُ من ذلك كله أنك ترىٰ وزنا واحدا من الألفاظ ، فتارةً تجد مفردَه حسنا، وتارة تجد جمعه حسنا ، وتارة تجدهما جميعا حسنين .

فمما مفرده أحسن من جمعه حُبْرُورٌ : وهو فَرْخُ الحُبَارىٰ، فإنه يجمع علىٰ حَبَارِيرَ ومفرده أحسنُ من جمعه ، وكذلك طُنْبُورٌ وطنابير ، وعُرْقُوبٌ وعراقيبُ ، وما أشبه ذلك .

ومما جمعه أحسن من مفرده بُهْلُولٌ وبَهَاليل ، ولُهْمُومٌ ولهاميم ،وهذا ضدّ الأوّل .

ومما مفرده حسن وجمعه حسن جُمْهُورٌ وجماهير ، وعُرْجُونٌ وعَرَاجينُ وما أشبه ذلك .

النمط السابع — مايترجح فيه أحد صور الوزن الواحد بٱختلافه بالحركة والسكون كلفظ الثاث والربع إلىٰ العشر، فإنها فى حالة سكون الوسط كلها حسنة سائغة الٱستعمال فإذا تحركت أوساطها فقلت ثُلُث ، ورُبُع ، وخُمُس وكذلك إلىٰ عُشُر ، فإن الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهى الثُّلُثُ ، والخُمُس ، والسُّدُس أما الربُع ، والسبُع ، والثمُن ، والتُسع ، والعُشر فليس كذلك فى حسنه . قلت : إنما يظهر ذلك فى السبُع ،والتُسع ، والعُشر خاصة فان الثِّقَلَ ظاهر فيها، أما الربعُ والثمنُ فانهما فى الحسن مع تحريك الوسط كالثلُث ،والخمُس ،والسدُس ،وقد ورد القرءان بتحريك الوسط فيهما فى سورة النساء حيث قال تعالىٰ : "وَلَكُمْ نِصْفُ مَاتَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ

لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ" وقوله : "وَلَهُنَّ الرُّبعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّـا تَرَكْتُمْ" وأىُّ حُسْن وفصاحة بعـد وروده فى القرءان الكـريم ؟

النمط الثامن ــ ما تترجح فيه أبنية بعض أسمـاء الفاعلين فى الاستعمال على بعض كاسم الفاعل المبنىّ من فَعِلَ بفتح الفاء وكسر العين، فإنه يبنى على فاعل وفَعِلٍ بكسر العين وفَعْلانَ نحو حَمِدَ فهو حامد ، وحَمِدٌ ، وحَمْدَانُ ، وفَرِحَ فهو فَرِحٌ ، وفارح ، وفرحانُ ، وغَضِبَ فهو غَضْبان ، وغاضب ، فالأفعال الثلاثة على وزن واحد ، وصيغُ أسمـاء الفاعلين المبنية منها مختلفةٌ فى الأحسن الغالب استعماله ، فحامد من حَمِدَ أحسن من حَمِدٍ وحَمْدَانَ ، وفَرِحٌ من فَرِحَ أحسن من فارح وفرحان ، وغضبان من غَضِبَ أحسن من غاضب ، وإن كان جائزا ؛ وقد جاء بناء اسم الفـاعل من فَرِحَ على فارح فى قول بعض شعراء الحَمَـاسة :

فما أنا من حُزْنٍ وإن جَلَّ جَازِعٌ * ولَا بِسُرُورٍ بعْـدَ موْتِكَ فَارِحُ

فلم يحسن كحسن فَرِحٍ ، أما ماجاء منه على وزن فُعَلةٍ نحو هُمَزَةٍ ولُمَزَةٍ وجُثَمَةٍ ونُوَمَةٍ ولُكَنَةٍ ولُحَنَةٍ ، وما أشبه ذلك ، فقد قال فى "المَثَل السائر" : الغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة .

النمط التاسع ــ ما يترجح من أوزان الأفعال بعضها على بعض كلفظة فعل وافتعل فإن لفظةَ فعل لهـا موضع تستعمل فيه : ولفظةَ افتعل لهـا موضع تستعمل فيه ، تقول : قعـدت إلى فلان إذا جلستَ اليه ، واقتعدت غارب الجمل ، إذا ركبتَ عليه ، ولا يحسن أن تقول اقتعدت إلى فلان وقعدت على غارب الجمل ، وإن كان ذلك جائزا ، وكذلك أفعل وافْعَوْعَلَ فإنك تقول أَعْشَبَ المكان ، فإذا كثر عُشْبهُ قلت : اعشَوْشَب فلفظة افعوعل للتكثير ، وهى على مافيها من تكْرار الحروف طيّبةٌ

عَذْبة، وكذلك سائر مافى وزنها نحو آخشَوْشَن المكان، وآغْرَوْرَقت العين، وآحلَولى الطعم، وما أشبه ذلك، قال فى "المَثَل السائر" : وهذا كله مما أخذته بالآستقراء، وفى اللغة مواضع كثيرة من ذلك لا يمكن آستقصاؤها .

فانظر إلى مايفعله آختلاف الصيغة بالألفاظ، وعليك بتفقُّد أمثال هذه الكلمات لتعلمَ كيف تضع يدك فى آستعمالها، فكثيرا مايَقع لفحول الخطباء والشعراء فى مثلها، ومؤلِّف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرَّتْ به الألفاظ عرضها على ذوقه الصحيح، فما يجده الحسُّ منها مُوَحَّدًا وحَّده، وما يجده الحس منها مجموعا جمعه ؛ وكذلك يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ .

الصنف الثالث

(المتوحش فى زمن دون زمن)

وهو ما كان متداولَ الآستعمال فى زمن العرب، ثم رُفِضَ وتُرِك بعد ذلك، وبهذا لا يعاب آستعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم وَحْشِيًّا، ولا لديهم غريبا كما سيأتى التنبيه عليه، وإنما يُعاب آستعماله على غيرهم ممن قَصُر فهمهم عنه، وقَلَّتْ معرفتُهم به؛ وقد كان كلام العرب مشحونا به فى نظمهم ونثرهم، دائرا على ألسنتهم فى مخاطَباتهم ومحاوَراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه؛ وآنظر إلى ماتضمنته خطبهم وأشعارهم من الغريب ترى ذلك عِيانا؛ فمن ذلك قول أبى المُثَلَّم الهُذَلِىِّ :

آبِى الهَضِيمَة نَابٍ بِالعَظِيمَة متْـ * ـلَافُ الكَرِيمَة جَلْدٌ غيرُ ثُنْيَانِ
حَامِى الحَقِيقَة نَسَّالُ الوَدِيقَة معْـ * ـتَاقُ الوَسِيقَة، لَانِكْسٌ وَلَاوَانِ
رَبَّاءُ مَرْقَبَةٍ مَنَّاعُ مَغْلَبَةٍ * وَهَّابُ سَلْهبَةٍ، قَطَّاعُ أَقْرَانِ
هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ * شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ سِرْحَانُ فِتْيَانِ

وقول أعرابىّ فى وصـف إبل : كُومٌ بَهَازِر ، مُكُد خَنَاجِر ، عِظَامُ الحَنَاجِر ، سِباطُ المَشَافِر ، أجوافها رِغَاب ، وأعطانها رِحَاب ، تُمنَع من البَهم ، وتبرك للجُمَم . يريد بالكُوم جمع كَوْماءَ ، وهى الناقة العظيمة السَّنَام ، والبَهَازِر جمع بُهْزُرة : وهى الناقة العظيمة ، والمُكُدُ جمع مَكُودٍ : وهى الناقة الغزيرة اللبن ، والخناجر جمع خُنْجور : وهى بمعـنى المَكُود أيضا ، والعِظَام الحناجر غِلَاظُ الأعنـاق ، وسِبَاطُ المَشَافر أى مرسَلات المشافر ، والمِشْفَرُ من الناقة كالجَحْفَلةِ من الفرس ؛ ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ وينخرط فى هـذا السِّلْك ؛ فهذا ومثله لا يعاب آستعماله علىٰ العرب لأنه لم يكن عندهم غريبا ولا لديهم وَحْشِيًّا ، بل شائعا بينهم ، دائرا علىٰ ألسنتهم فى نظمهم ونثرهم ؛ وأعظم شاهد لآستحسان آستعماله عندهم ووضوح مَنْهَجِه لديهم أن القرءان الكريم الذى هو أفصح كلام وأبهج لفظ قد آشتمل علىٰ ألفـاظ مـن ذلك كقوله تعـالىٰ : "وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ" وقوله : "إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ" وما أشبه ذلك ؛ وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب ، معلومةَ المعـانى عند المخاطَبِين : لأنّ الله تعالىٰ قد خاطبهم به وأمرهم فيه ونهاهم ، والخطاب بما لا يُفْهَم بعيد ، وقد قال تعالىٰ : "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ" . وكذلك ورد فى الأخبار النبوية جملة مستكْثَرة من ذلك ، وهى المعبر عنها بغريب الحديث . كقوله صلىٰ الله عليه وسلم "مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لم يَذْكُرِ اللهَ تعالىٰ فيه كانت عليه من الله تعالىٰ تِرَةٌ" أى نقص ، وقيل تَبِعَة ، وقيل حَسْرة . وقوله صلىٰ الله عليه وسلم "لِيَسْتَرْجِعْ أحدُكم حتّى فى شِسْعِ نَعْلِهِ فإنها من المَصَائب" والشِّسْعُ أحد سيور النعل ؛ وقوله صـلىٰ الله عليه وسـلم : "أَلِظُّوا بياذا الجَلَال والإكرام" أى آلزموا هذه الدعوة وأكثروا منها . وقوله صلىٰ الله عليه وسلم فى الدعاءِ : "وآغْسِلْ حَوْبَتِي وآسْلُلْ سَخِيمَةَ قلبى" وأشباه ذلك .

وحديث أمّ زَرْعٍ صريح فى شيوع ذلك فيهم، وعمومه فى مخاطَبَاتهم ومكالَمَاتهم، وهو ماثبت فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : "جَلَس إحدىٰ عشرةَ آمرأةً فتعاهَدْنَ وتعاقَدْنَ أن لا يَكْتُمْنَ من أخبار أزواجهن شيئا .

قالت الأولىٰ : زوجى لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ علىٰ رأس جبل، لاسَهْلٍ فيرتقىٰ ولا سمينٍ فيُنْتَقىٰ، وفى رواية فينتقل .

قالت الثانيـة : زوجى لاأَبُثُّ خبَره، إنّى أخافُ أن لاأَذَرَه، إن أذكُرْه أذكُرْ عُجَرَه وبُجَرَه .

قالت الثالثـة : زوجى العَشَنَّقُ، إن أَنْطِقْ أُطَلَّق، وإن أسكُتْ أُعَلَّقْ .

قالت الرابعة : زوجى كلَيْلِ تِهَامَه، لاحَرٌّ ولا قُرٌّ ولا خوفٌ ولا سَآمه.

قالت الخامسة : زوجى إن دخل فَهِد، وإن خرج أَسِد، ولا يَسْأَل عما عَهِدَ.

قالت السادسة : زوجى إن أَكَلَ لَفَّ، وإن شَرِب آشْـتَفَّ ، وإن آضطَجَع آلْتَفَّ، ولايُولِج الكَفَّ، ليعلم البَثَّ.

قالت السابعة : زوجى عَيَـايَاءُ طَبَاقَاءُ ، كلُّ داءٍ له داء، شَجَّكِ أو فَلَّكِ أو جَمَعَ كُلًّالَكِ .

قالت الثامنـة : زوجى الريحُ ريحُ زَرْنَب، والمَسُّ مَسُّ أرنَب .

قالت التاسعة : زَوْجِى رَفِيعُ العِمَادِ، طويلُ النِّجَاد، عظيم الرَّماد، قريبُ البيتِ من النَّاد .

قالت العاشرة : زوجى مَالِكٌ وما مَالِكٌ ؟ مالك خيرٌ من ذلك، له إبلٌ قليلاتُ المَسَارح، كثيراتُ المَبَارِك ، وإذا سَمِعْنَ صوت المِزْهَرِ أيْقَنَّ أنهنَّ هَوَالِك .

قالت الحادية عشْرةَ : زوْجِى أبو زَرْع وما أبُو زَرع ؟ أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَىَّ ،

وَمَلأَ من شَحْمٍ عَضُدَىَّ ، وبَجَّحَنِى فَبَجِحَتْ إلىّ نفسى ، وَجَدَنِى فى أهل غُنَيْمَةٍ بِشِقٍّ ، فَجَعَلَنِى فى أهل صَهِيلٍ وأَطِيطٍ ودائِسٍ ومُنَقٍّ ، فَعِنْدَهُ أقولُ فلا أُقَبَّحُ ، وأَرْقُدُ فأَتَصَبَّحُ ، وأَشْرَبُ فأَتَقَنَّحُ ، (وفى رواية فأَتَقَمَّحُ) ، أُمُّ أبى زَرْعٍ فما أُمُّ أبى زرعٍ ؟ عُكُومُهَا رَدَاحٌ ، و بَيْتُها فَسَاحٌ ، ابن أبى زَرْعٍ فما ابن أبى زَرْعٍ ؟ مَضْجَعُهُ كَمَسَلِّ شَطْبَةٍ ، وتُشْبِعُهُ ذِرَاعُ الجَفْرَةِ ، بنت أبى زَرْعٍ فما بنت أبى زَرْعٍ ؟ طَوْعُ أبيها ، وطَوْعُ أُمِّها ، ومِلْءُ كِسَائِهَا ، وغَيْظُ جارتها ، جارِيَةُ أبى زَرْعٍ فما جارية أبى زرعٍ ؟ لا تَبُثُّ حَدِيثَنَا تَبْثِيثًا (وفى رواية لاتَنُثُّ حَدِيثَنَا تَنْثِيثًا) ، ولا تُنَقِّثُ مِيرَتَنَا تَنْقِيثًا ، ولا تَمْلأُ بيتَنَا تَعْشِيشًا . قالت : خرج أبو زرع والأَوْطابُ تُمْخَضُ ، فَلَقِىَ امرأة معها وَلَدَانِ لها كالفَهْدَيْنِ يَلْعَبانِ من تحت خَصْرِهَا بِرُمَّانَتَيْنِ فطلّقنى ونَكَحَهَا ، فَنَكَحْتُ بعده رجلا سَرِيًّا ، رَكِبَ شَرِيًّا ، وأخذ خَطِّيًّا ، وأَرَاحَ علىّ نَعَمًا ثَرِيًّا ، وأعطانى من كلِّ رائِحَةٍ زوجًا ، (وفى رواية فأعطانى من كل ذَابِحَةٍ زوجا) . وقال : كُلِى أُمَّ زَرْعٍ ومِيرِى أَهْلَكِ ، فلو جمعتُ كلَّ شَىْءٍ أعطانِى ما بلغ أصغرَ آنِيَةِ أبى زَرْعٍ

قالت عائشة : قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كنتُ لكِ كأبِى زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ (وفى رواية غير أنِّى لاأطلِّقك) .

فاذا كان هذا كلامَ نسائهم الدائرَ فيما بينهن من محادثاتهن مع بعضهن فى خَلَوَاتِهِنّ ، فما ظنك بفُرْسان الكلام فى نظمهم ونثرهم ؟ فأنَّى يُعاب عليهم ذلك ، ويُنْكَر عليهم الإتيان بمثله ؟

وقد اختصم رجل وامرأة إلى يحيى بن يَعْمَر ، وهو من أكابر التابعين وجِلَّتِهِم ، فقال للرجل : أَأَنْ سَأَلَتْكَ ثَمَنَ شَكْرِها وشَبْرِكَ ، أنشأت تَطُلُّها وتَضْهَلُها ؟ . أما غير العرب ممن تكلف ذلك وأتى به فى كلامه المعتاد فى مخاطَبَاته أو نثره ونظمه فإنه يعاب عليه ذلك ، ويحطّ به عن درجة الفَصَاحة ، ويخرج به عن قانونها ؛ إذ

المقصود من الكلام إنما هو الإفهام لا غير ، فيخاطب كلُّ أحد بما يفهمه ولا يُكَلَّف بما لا يعلمه ، وخير الكلام ماجاد وأفاد . قال بِشْر بن المعتمر : إيَّاك والتَّوعُّرَ ، فإنه يُسْلِمك إلىٰ التعقيد والتقييد ، وهو الذى يستهلِكُ معانِيَكَ ، ويمنعُك مَرَامِيَكَ .

قال أبو هلال العسكرى : وربما غلب سوءُ الرأى وقلةُ العقل علىٰ بعض علماء العربية فيخاطبون السُّوقِيّ ، والمملوكَ والأعجمىّ ، بألفاظ أهل نجد ، ومعانى أهل السَّرَاةِ ؛ وحكاياتهم فى ذلك كثيرةٌ . قال أبو نَصْرٍ الجوهرىّ : سقط عيسىٰ بن عُمَرَ عن حمار له فاجتمع عليه الناس فقال : مَا لَكُمْ تَكَأْكَأْتُمْ عَلَيَّ تَكَأْكُؤَكُمْ علىٰ ذِى جِنَّةٍ ؟ افْرَنْقِعُوا عَنِّى . أى ما لكم ٱجتمعتم علىّ ٱجتماعَكُم علىٰ ذى جِنَّة تفرّقوا عنى . وذكر الجاحظ هذه الحكايةَ عن أبى عَلْقَمَةَ النحوىّ بزيادة فقال : مر أبو عَلْقَمَةَ ببعض طُرُق البصرة فهاجت به مِرَّةٌ فوثب عليه قوم يَعَضُّونَ إبهامَه ويؤذِّنون فى أذنه ، فأَفْلَتَ من أيديهم وقال : مَا لَكُمْ تَكَأْكَأْتُمْ علىّ كَمَا تَكَأْكَأُونَ علىٰ ذى جِنَّةٍ افْرَنْقِعُوا عَنِّى . فقال بعضهم : دَعُوه فإن شيطانه يتكلم بالهِنْدِيَّة .

وقال أبو علقمة يوما لحاجمه : أُشْدُدْ قَصَبَ المَلَازِم ، وأرْهِف ظُبَاتِ المَشَارِط ، وأَمِرَّ المسحَ ، وٱستَنْجِل الرَّشْحَ ، وخَفِّف الوطء ، وعَجِّل النَّزْع ، ولا تُكْرِهَنَّ أَبِيًّا ، ولا تَرُدَّنَّ أَتِيًّا ؛ فقال له الحَجَّامُ : ليس لى علم بالحروف .

ونظر إليه رجل وتحته بَغْل مِصْرِىّ حسن المَنْظَرِ ، فقال : إن كان مَخْبَرُ هذا البغل كَمَنْظَرِه فقد كَمَل ! فقال أبو عَلْقَمَةَ : واللهِ لقد خرجتُ عليه من مِصْرَ فتنكَّبتُ الطريقَ مخافة السُّرَّاقِ وجَوْرِ السلطان ، فبينا أنا أَسِيرُ فى ليلة ظَلْمَاءَ ، قَتْمَاءَ ، طَخْيَاءَ مُدْلَهِمَّةٍ ، حِنْدِسٍ ، داجِيَةٍ ، فى صَحْصَحٍ أَمْلَسَ ، إذ أحس بنَبْأَةٍ من صوت نُغَرٍ ، أو طَيَرَانِ ضُوَعٍ ، أو نَغْضِ سُبَدٍ ، فَحَاصَ عن الطريق مُتَنَكِّبًا لِعِزَّة نفسه ، وفَضْلِ

قُوَّتِهِ ، فبعثته باللجام فَعَسَلَ ، وحرَّكته بالركاب فَنَسَلَ ، وٱنْتَعَلَ الطريق يغتاله مُعْتَزِمًا ، والْتَحَفَ الليل لايهابه مُظْلِمًا ، فوالله ماشبهته إلا بظَبْيَة نافرة تَحْفِزُها فَتْخَاءُ شَاغِيَةٌ ، فقال الرجل فادعُ اللهَ وسَلْهُ أن يحشرَ معك هذا البغلَ يوم القيامة ، قال : ولِمَ ؟ قال : لِيُجيزَكَ الصِّراطَ بطَفْرَةٍ .

وكانت ٱمرأة تأكل الطِّين(١) فحصل لها بسببه إسهال مَرِضَت منه ، وكان لها ولد يتكلم بالغريب ، فكتب رِقَاعا وطَرَحها فى المسجد الجامع بمدينة السَّلام . فيها صِينَ ٱمْرُؤٌ ورُعِىَ ، دعا لامرأة إنْقَحْلَةٍ مُقْسَئِنَّةٍ قد مُنِيَتْ بِأَكْلِ الطُّرْمُوق فأصابها من أَجلِه الاسْتِمْصَالُ أن يمُنَّ الله عليها بالاطْرِغْشَاشِ . فكل من قرأ رُقعته ، دعا عليه ولعنه ولعن أمه .

وحكىٰ محمد بن أبى المغازى الضبى عن أبيه قال : كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم إلا بالغريب ، فخرج إلىٰ ضَيْعة له علىٰ حِجْرٍ ، معها مُهْر فأفلَتَتْ ، فذهبت ومعها مُهْرُها فخرج يسأل عنها ، فمرّ بخَيَّاطٍ فقال : ياذا النِّصَاحِ وذَاتِ السَّمِّ ، الطاعنَ بها فى غير وَغًى لغير عِدًّى ، هل رأيت الخَيْفَانَةَ القَبَّاءَ يتبعها الحَاسِنُ المُسَرْهَفُ ؟ كأنّ غُرَّته القمر الأزهر ، ينير فى حُضْره كالْحَلَب الأجرد ، فقال الخياط : ٱطْلُبها فى ترللج ؟ فقال : وَيْحك ما تقول ! قَبحك الله ، فإنى ما أعرف رَطَانَتَكَ . قال : لعن الله أبغضَنا لفظًا وأخطأنا مَنْطِقا .

وضرب عمرُ بنُ هبيرةَ عيسىٰ بنَ عمر النحويَّ ضربا كثيرا من أجل وديعة فكان يقول وهو يضرب : ماهى إلا أثيَابٌ فى أُسَيفَاط أخذها عَشَّارُوك . وسأله رجل عن مسألة . فقال : ليست مسألتك يَتْنًا : أى ليست مستوية ، وأصل اليَتْن خروج رِجْل الولد قبل رأسه . وسأله آخر عن كتابته ، فقال : كتبت حتّى ٱنقطع

(١) كذا فى الصناعتين أيضا ولعله مصحف عن الطير بالراء بدليل بقية الكلام فان الطرموق اسم للخفاش وهو من الطير .

سوائى أى ظهرى ، علىٰ ان أبا جعفر النحاسَ قد عدّ عيسىٰ بن عمر من المطبوعين فى ذلك . قال الجاحظ : رأيتهم يديرون فى كتبهم هذا الكلامَ فإن كانوا إنما رَوَوْهُ ودوّنوه لأنه يدل علىٰ فصاحة وبلاغة، فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة، وإن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العَجّاج وشعر الطِّرِمّاح وأشعار هُذَيْلٍ تأتى لهم مع الرصف الحسن علىٰ أكثر من ذلك . فلو خاطب أحد الأَصْمَعِىَّ بمثل هذا الكلام، لظننتُ أنه يستجهل نفسه، وهذا خارج عن عادة البلغاء .

الصنف الرابع
(الغريب المتوحش عند قوم دون قوم)

وذلك ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلىٰ أهل الحَضَر منهم، فإن أهل الحَضَر يألفون السَّهْلَ من الكلام، ويستعملون الألفاظ الرقيقةَ، ولا يستعملون الغريب إلا فى النادر ، وأهل البادية يألفون اللفظ الجَزْل ويميلون إلىٰ ٱستعمال الغريب، وإذا نظرتَ إلى أهل مكةَ وكلامِ قريش الذين نزل القرءان بلغتهم وبُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أَرُومَتِهِمْ، وكلامِ أهل حَضْرَمَوْتَ وما جاورها من اليمنِ ومَخَاليف الحجاز، علمتَ فرقَ مابين الكلامين، وتبايُنَ مابين الطَّرَفين، حتّى كأنَّ البادى يَرْطُنُ بالنسبة إلىٰ الحاضر، ويتكلم بلغة غير العربية؛ وكانت لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يتكلم بها علىٰ الدوام ، ويخاطب بها الخاص والعامَّ، لغة قريش وحاضرةِ الحجاز، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أُوتِىَ جوامع الكلم وجمع إلىٰ سُهُولة الحاضرة جزالةَ البادية، فكان يخاطب أهل نجد وتِهَامَةَ وقبائلَ اليمن بلغتهم، ويخاطبهم فى الكلام الجزل علىٰ قدر طبقتهم .

فمن ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم لِطَهْفَةَ النَّهدىّ وكتابُه إلىٰ بنى نَهْدٍ، وذلك أنه لما قَدِمَ وُفودُ العرب علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم قدم عليه طَهْفَةُ بن أبى زُهَيرٍ

النَّهْـدِىّ . فقال : أتيناك يارسول الله من غَوْرِ تِهَامَةَ علىٰ أَكْوار المَيْس ، ترتمى بنا العِيسُ، نستحْلِب الصَّبِيرَ، ونستخْلِب الخَبِيرَ، ونَسْتَعْضِدُ البَرِيرَ، ونَسْتَحِيلُ الرِّهَامَ، ونَسْتَخِيلُ الجَهَامَ، من أرض غائلة النِّطَاء، غليظة الوِطَاء، قد جَفَّ المُدْهُنُ، ويبس الجِعْثِنُ، وسَــقَطَ الأُمْلُوجُ، ومات العُسْلُوجُ، وهَلَكَ الهَدِىُّ، وفادَ الوَدِىُّ؛ بَرِئْنَا إليك يارسول الله من الوَثَنِ والعَنَنِ، وما يُحْدِثُ الزمنُ؛ لنا دعوةُ السلام، وشريعة الإسلام ماطَمَا البحر، وقَامَ تِعَارُ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أَغْفَالٌ، ماتَبِضُّ بِبِلَالٍ؛ وَوَقِيرٌ كثير الرَّسَلِ، قليل الرِّسْلِ، أصابتها سُنَيَّةٌ حمراءُ مُؤْزِلَةٌ، ليس لها عَلَلٌ ولا نَهَلٌ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهمّ بارك لهم فى مَحْضِهَا ومَخْضِهَا ومَذْقِهَا وفِرْقِها، وٱبعث راعِيَها فى الدَّثْرِ بيَانع الثَّمرِ، وٱفْجُرْ لهم الثَّمَد، وبارك لهم فى المال والوَلَد، مَنْ أقام الصلاة، كان مسلما. ومَنْ آتىٰ الزكاة، كان مُحْسِنا. ومَنْ شهد أن لا إله إلا الله، كان مُخْلِصا. لكم يابَنِى نَهْدٍ ودائعُ الشِّرك، ووَضائع المُلْك، لاتُلْطِط فى الزكاة، ولا تُلْحِدْ فى الحياة، ولا تَتَثَاقَلْ عن الصلاة".

وكتب معه كتابا إلىٰ بنى نهدٍ فيه "بسم الله الرحمن الرحيم السلام علىٰ مَنْ آمنَ بالله ورسوله، لكم يابنى نَهْدٍ فى الوظيفة الفريضـةُ، ولكم العارضُ والفَرِيشُ وذو العِنَان الرَّكُوب، والفَلُوُّ الضَّبِيسُ؛ لا يُمْنَع سَرْحُكم، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكم ولا يمنع دَرُّكم مالم تُضْمِروا الإمْآقَ، وتأكلوا الرِّباقَ؛ من أقرّ فله الوفاء بالعهد والذِّمَّة ؛ ومن أبىٰ فعليه الرِّبْوَةُ."

ومن ذلك كتابه صـلى الله عليه وسـلم إلىٰ قبيلة هَمْدَانَ، وذلك أنه لما قَدِمَ عليه صـلى الله عليه وسلم وفود العرب قَدِمَ وَفْدُ هَمْـدانَ علىٰ رسول الله صـلى الله عليه وسـلم منهم مالك بن نَمَطٍ أبو ثَوْرٍ، وهو ذو المِشْـعار، ومالك بن أيفعَ، وضِمَـام ابن مالك السلمانى، وعميرة بن مالك الخَارِفِىّ، فلقُوا رسول الله صـلى الله عليه وسلم

مَرْجَعَهُمْ من تَبُوكَ وعليهم مُقَطَّعات الحِبَرَاتِ والعمائم العَدَنِيَّة، برحال المَيْس على المَهْرِيَّة والأرحَبِيَّة، ومالكُ بن نَمَطٍ ورجلٌ آخر يرتجزان بالقوم، يقول أحدهما:

هَمْدَانُ خيرُ سُوقَةٍ وأقيالْ * لَيْسَ لَهَا فى العالَمِينَ أمثالْ

مَحَلُّهَا الهَضْبُ ومنها الأبْطالْ * لها إطاباتٌ بها وآكَالْ

ويقول الآخر:

إلَيْكَ جاوَزْنَ سَوَادَ الرِّيفِ * فى هَبَوَاتِ الصَّيْفِ والخَرِيفِ

* مُخَطَّمَاتٍ بِحِبَالِ اللِّيفِ *

فقام مالك بن نَمَطٍ بين يديه، ثم قال: يارسول الله! نَصِيَّةٌ من هَمْدَانَ من كل حاضر وبادٍ، أَتَوْكَ على قُلُصٍ نَوَاجٍ، متَّصِلةٌ بحبال الإسلام، لاتأخذُهم فى الله لومةُ لائم، من مِخْلَافِ خَارِفٍ، ويامٍ، وشاكرٍ، أهل السَّواد والقُرَى، أجابوا دَعْوة الرسول، وفارقوا آلهة الأنصاب، عهدُهم لاينقضُ ماأقام لَعْلَعٌ، وماجرى اليَعْفُورُ بِصُلَّعٍ.

فكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم! هـذا كتابٌ من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لِمِخْلَافِ خَارِفٍ وأهل جناب الهَضْبِ وحِقَاف الرَّمْلِ، مع وافدها ذى المِشْعار: مالك بن نَمَطٍ، ولِمَنْ أسلم من قومه على أن لهم فِراعَهَا وَوِهَاطَهَا ما أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة، يأكلون عِلَافَهَا ويَرْعَوْنَ عَافِيَهَا، لهم بذلك عهدُ الله وذِمَام رسوله، وشَاهِدُهُم المهاجرون والأنصار."

فقال فى ذلك مالك بن نَمَطٍ:

ذَكَرْتُ رسولَ الله فى فَحْمَةِ الدُّجَى * ونحنُ بأعلى رَحْرَحَانَ وصَلْدَدِ

وهُنَّ بنا خُوصٌ طلائحُ تعتلِى * بِرُكْبَانِهَا فى لَاحِبٍ مُتَمَدِّدِ

على كُلِّ فَتْلَاءِ الذِّرَاعَيْنِ جَسْرَةٍ * تَمُرُّ بنا مَرَّ الهِجَفِّ الخَفَيْدَدِ

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصَاتِ إلىٰ مِنًى * صَوَادِرَ بالرُّكْبَانِ من هَضْبِ قَرْدَدِ
بأن رسولَ الله فينا مُصَــدَّقٌ * رسولٌ أتىٰ من عند ذِى العَرْش مُهْتَدِ
فما حَمَلَتْ من نَاقَةٍ فوق رَحْلِهَا * أبرَّ وأوفىٰ ذمّةً من مُحَمَّـدِ
وأعطىٰ إذا ما طَالِبُ العُرْفِ جَاءَهُ * وأمضىٰ بِحَدِّ المَشْرَفِىِّ المُهَنَّـدِ

وفى رواية أن فى كتابه إليهم، إن لكم فِرَاعَها ووِهَاطَهَا وعَزَازَهَا تأكلون عِلافَهَا وتَرْعَوْنَ عَفَاءَهَا، لنا من دِفْئِهِم وصِرَامهم ما سلَّمُوا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصَّدَقَةِ الثِّلْبُ والنَّـابُ، والفَصِـيلُ والعارضُ، والدَّاجِنُ والكَبْشُ الحَوَرِىّ، وعليهم فيها الصَّالِـغُ والقَـارِحُ .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لأُكَيْدِر دُومَةَ. قال أبو عبيدة أنا قرأته فإذا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسولِ الله، لأُكَيْدِرَ حين أجاب إلىٰ الإسلام، وخَلَعَ الأَنْدَادَ والأصنامَ، مع خالد بن الوليد، سيف الله فى دُومَةِ الجَنْدَلِ وأكنافها، إنّ لنا الضَّاحِيَـةَ من الضَّحْلِ(١) والبُوْرَ والمَعَامِىَ وأغْفَالَ الأرض، والحَلْقَةَ والسِّلاحَ والحَافِرَ والحِصْنَ، ولكم الضَّامِنَةَ من النخل، والمَعِينَ من المعمور، لاتُعْدَلُ سَارِحَتُكُمْ، ولا تعدّ فَارِدَتُكُمْ، ولا يُحْظَرُ عليكم النبات، تُقِيمون الصلاة لوقتها، وتُؤْتون الزكاة بِحَقِّهَا، عليكم بذلك عهدُ اللهِ والميثاقُ، ولكم بذلك الصـدقُ والوفاءُ، شهد اللهُ ومَنْ حضر من المسلمين" .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسـلم إلىٰ وائل بنِ حُجْرٍ وأهل حَضْرَمَوتَ، وهو "بسمِ الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلىٰ الأقيال العَبَاهِلَةِ من أهل حَضْرَمَوتَ بإقامة الصـلاة وإيتاء الزكاة، علىٰ التِّيعَةِ الشَّاةُ، والتِّيمَةُ لصَاحِبِهَا، وفى السُّيُوبِ

(١) الضحل بالسكون القليل من الماء ويروى " لكم الضاحيـة من البعل " وهو النخل

الخُمُسُ ، لاخِلَاطَ ولا وِرَاطَ ، ولا شِنَاقَ ولا شِغَارَ ، ومن أجْبىٰ فقد أربىٰ ، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ . وفى رواية أنه كتب إليهم "إلىٰ الأقيال العَبَاهِلَةِ والأرْواعِ المَشَابِيبِ ، وفى التِّيعَةِ شاةٌ لامُقْوَرَّةُ الألْيَاطِ ولا ضِنَاكٌ ، وأنْطُوا الثَّبَجَةَ وفى السُّيُوبِ الخُمُسُ ، ومن زنىٰ من امْبِكْرٍ فاصْقَعُوه مائة ، واسْتَوْفِضُوه عاماً ، ومَنْ زَنىٰ من امْثَيِّبِ فَضَرِّجوه بالأضَامِيمِ ، ولا تَوْصِيمَ فى الدين ، ولا غُمَّةَ فى فرائض الله تعالىٰ ، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ ، ووائل بن حُجْرٍ يترَفَّل علىٰ الأقيال" .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله "فى المَثَلِ السائر" : وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لاتقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد فى كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كحديث طَهْفَةَ وما جرىٰ مجراه ، علىٰ أنه قد كان فى زمنه أوّلا متداولا بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم ! لم يستعمله إلا يسيرا لأنه أعلم بالفصيح والأفصح .

الصفة الثانية

(للفظ الفصيح أن لايكون مبتذلا عاميًّا ، ولا ساقطا سُوقِيًّا)

واللفظ المبتذل علىٰ قسمين

القسم الأوّل

مالم تغيره العامّة عن موضعه اللغوىّ إلا أنها اختصت باستعماله دون الخاصة فابتذل لأجل ذلك وسَخُف لفظُه ، وانحطّت رتبته لاختصاص العامة بتداوله ، وصار من استعمله من الخاصة مَلُوما علىٰ الإتيان به لمشاركة العامة فيه ؛ وقد وقع ذلك لجماعة من فحول الشعراء فَعِيبَ عليهم .

فمن ذلك قول الفرزدَقِ من قصيدة :

وأصْبَحَ مُبْيَضُّ الضَّرِيبِ كأنه * علىٰ سَرَوات النَّبْت قُطْنٌ مُنَدَّفُ

فقوله منّدف من الألفاظ العامية المبتذلة ، و إن كان له أصل فى اللغة يقال نَدَف القُطْنَ إذا ضربه بالمِنْـدَف، ولذلك قيل للقُطْنِ المندوف نَدِيف .

ومن ذلك قول أبى نُوَاسٍ :

وَمُلِحَّةٍ بالعَذْلِ تَحْسَبُ أننى * بالجهل أترُكُ صُحْبَةَ الشُّطَّارِ

فالشطار جمع شاطر، وهو فى أصل اللغة آسم لمن أعيا أهلَهُ خُبْثًا، يقال منه شَطَر وشَطُر بالفتح والضم شَطَارَةً بالفتح فيهما، ثم آستُعمِل فى الشجاع الذى أعيا الناس شجاعةً، وغلب دَوَرَانُه علىٰ لسان العامة فآمتُهِن وآبتُذِل ، فاستعمال أبى نُوَاسٍ له غير لائق، وكذلك قوله أيضا :

يامَنْ جَفَـانى ومَلَّا * نَسِيتَ أهلًا وسَهْلا
وما تَمَـرْحَبْتَ لمـا * رأيتَ مالى قَـــلَّا
إنى أظُنُّـــك فيما * فعلتَ تَحْـكِى القِرِلَّى

فلفظ القِرِلَّى من أشدّ ألفاظ العامة آبتذالا ، وهو آسم لطائر صغير من طيور الماء يخطَفُ صِغَار السمك من المـاء برجليه ومِنْقَاره، فإذا سقط علىٰ المـاء ولم يحصـل علىٰ صيد، آرتفع بسُرْعة، فتضرب به العامة المَثَل تقول : فلانٌ كأنه قِرِلَّى، إن وَجَدَ خيرا تَدَلَّى، و إن وجد شرا تَعَلَّى .

وقوله أيضا :

وأَنْمِرِ الجِـلْدَةِ صَـــيَّرْتُه * فى النـاس زَاغًا وشِقِرَّاقَا
مَازِلْتُ أُجْرِى كَلْكَلِى فَوْقَهُ * حتّى دعا من تحتِه قَاقَا

فقوله قَاقَا حكاية لصوت يضرب به المثل لصياح المغلوب ، يقال فعلت بفلان كذا وكذا حتّى قال : قاق ؛ وأقبح من ذلك كله فى الآبتـذال بين العامة والسَّخافة قول المتنبي :

ومن النـاس مَنْ يجُوزُ عليهِمْ * شُـعَراءُ كأنهـا الخَـازِ بازِ

قال فى "المثل السائر" : وهـذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة البِرْسام الذى ذكره فى قوله :

إن بعضًا من القَرِيض هُذاءٌ * ليس شيئا ، وبعضَه أحْكامُ -

فيــه مايَجْلُبُ البراعةُ والفَهْـــمُ، وفيــه مايَجْلُبُ البِرْسَامُ

وعدّ منه فى "المثل السائر" قول البُحْتُرِىّ :

وجوهُ حُسَّادِكَ مُسْوَدَّةٌ * أم صُبِغَتْ بعدى بالزَّاجِ ؟

قال : فلفظة الزاج من أشدّ ألفاظ العامة آبتذالا ، وكذلك عدّ منه قول النابغة الذُّبْيَـانِىّ :

أو دُمْيَة فى مَرْمَرٍ مرفوعة * بُنِيَتْ بِآجُرٍّ يُشَـادُ بِقَرْمَـدِ

قال : فلفظة آجُرّ مبتذلة جدّا ، وإذا شئت أن تعلم شيئا من سرّ الفصاحة التى تضمنها القرءان الكريم ، فآنظر إلىٰ هذا الموضع فإنه لمـا جىء فيه بذكر الآجُرّ لم يذكر بلفظه ، ولا بلفظ القَرْمَدِ أيضا ، ولا بلفظ الطُّوبِ الذى هو لغة أهل مِصْرَ ، فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر فى القرءان علىٰ وجه آخر ، وهو قوله تعالىٰ : "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَاعَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَاهَامَانُ عَلىٰ الطِّينِ فَاجْعَـلْ لِى صَرْحًا" فعبر عن الآجُرّ بالوُقود علىٰ الطين ؛ نَعَمْ من الألفاظ المبتذلة السخيفة لفظة الكَنْس ، وما آشـتق منه ، ولذلك عابها القاضى الفاضل رحمه الله تعالىٰ علىٰ آبن سـناء الملك فى بعض أشعاره حيث قال من أبيات :

يُزَخْرَفُ منها وجهُها فهو جَنَّــةٌ * ويَخْضَرُّ منها نَضْرَةً فهو سُنْدُسُ
صِلِيني وهذا الحسنُ بَاقٍ فرُبَّمَـا * يُعَزَّلُ بيتُ الحُسْنِ منه ويُكْنَسُ

فلمـا وقف القاضى الفاضل رحمه الله علىٰ هذه القصـيدة، كتب إلىٰ آبن سناء الملك من جملة فصل : وما قلت هذه الغاية، إلا وتعلمنى أنها البدايه، ولا قلت هذا البيت آية القصيدة إلا تلا مابعده : وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ . ولا عيب فى هذه المحاسن إلا قصور الأفهام، وتقصير الأنام، وإلا فقد لَهِجَ الناس بمـا تحتها، ودوّنوا مادُونَهَا ، وشغلوا التصانيف والخواطر والأقلام بمـا لايقاربها ، وسارت الأشعار وطالت بمـا لايبلغ مُدَّها ولا نَصِيفه، والقصيدة فائقة فى حسنها، بديعـة فى فَنِّها ، وقد ذَلَّت السين فيها وآنقادت، فلو أنها الراء لمـا رادت ؛ وبيت يُعَزَّل ويكنس أردت أن أَكْنُسَه من القصيدة ، فإن لفظة الكنس غير لائقة فى مكانها .

فأجابه آبن سناء الملك قائلا : وعلم المملوكُ مانبه عليه مولانا من البيت الذى أراد أن يكنُسَه من القصيدة، وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت ، مستحِليا له متعجبا منه، معتقدا أنه قد مَلَّح فيه، وأنَّ قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدةُ قوافيه ، وما أوقعه فى الكنس إلا آبن المعتز فى قوله :

وقَوَامِى مثـلُ القَنَاةِ من الخطِّ وخدّى من لِحْيتى مكنوسُ

والمولىٰ يعـلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثَّر، ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر، ولا آنَسَ نارَه إلا لَمَّا وجدعليها هُدًى ، ولا مال المملوك إلا إلىٰ طريق مَنْ ميَّلَهُ إليه طبعهُ ، ولا سار قلبه إلا إلىٰ مَنْ دَلَّهُ عليه سمعُه، ورأىٰ المملوك أبا عُبَادَةَ قد قال :

ويا عاذلِى فى عَبْرَةٍ قد سَفَحْتُها * لِبَيْنٍ، وأُخْرىٰ قبلها للتجنُّبِ
تُحَـاوِلُ منِّى شيمةً غيرَ شيمتى ، * وتطْلُبُ منِّى مَذْهَبًا غيرمَذْهَبِى ؟

وقال :

وما زَارَنى إلّا وَلِهتُ صَبابةً * إليْه، وإلّا قلتُ : أهْلا ومَرْحَبا

فعلم المملوك أنَّ هذه طريقةٌ لا تُسْلَك ، وعَقِيلة لا تُمْلَك ، وغاية لا تُدْرَك ؛ ووجد أبا تمّامٍ قد قال :

* سَلِّم علىٰ الرَّبْعِ من سَلْمىٰ بِذِى سَلَمَ *

وقال : * خَشُنْتِ عَلَيْهِ أُخْتَ بَنِى خُشَيْنِ * ؛

فاشمأزّ من هذا النَّمَط طبعُه، وآقشعرّ منه فهمه ، ونَبَا عنه ذوقُه ، وكاد سمعه يتجرّعه ولا يكاد يُسِيغُهُ، ووجد هذا السيد عبد الله بن المعتز قد قال :

وَقَفْتُ فى الرَّوْض أبْكِي فَقْدَ مُشْبِهِهِ * حتّى بَكَتْ بدُموعى أعيُنُ الزَّهَرِ

لو لم أُعِرْهَا دُموعَ العينِ تَسْفَحُها * لرحمتى، لآسْتعارتْها من المَطَرِ

وقال :

قَدُّكَ غُصْنٌ لاشَكَّ فيه كما * وجْهُك شمسٌ نهارُه جَسَدُكْ

فوجد المملوكُ طبعه إلىٰ هذا النَّمَط مائلا، وخاطره فى بعض الأحيان عليه سائلا ؛ فَنَسَجَ علىٰ هذا الأسلوب، وغلب عليه خاطرُه مع علمه أنه المغلوب؛ "وَحُبُّكَ الشيء يُعْمِى ويُصِمُّ" فقد أعماه حبُّه وأصمه إلىٰ أن نظم تلك اللفظة فى تلك الأبيات تقليدا لآبن المعتز حيث قالها، وحَمَل أثقالها ؛ وهى تُغْفَر لذاك فى جَنْبِ إحسانه، فأما المملوك فهى عَوْرة ظهرت من لسانه ؛

فأجابه القاضى الفاضل رحمه الله بقوله : ولا حجة فيما آحتج به عن الكنس فى بيت آبن المعتز ، فإنه غير معصوم من الغلط ، ولا يُقَلَّد إلا فى الصواب فقط ؛ وقد علم ماذكره آبن رَشِيقٍ فى عمدته من تهافُت طبعه ، وتباين وضعه ؛ فذكر من محاسنه مالا يُعلَّق معه كتاب، ومن بارده وغثّهِ مالا تُلبس عليه الثياب .

وقد تَعَصَّبَ القاضى السعيد علىٰ أبى تَمَّامٍ فنقصه من حظه ، وللبُحْتُرِىّ فأعطاه أكثَرَ من حقه، وما أنصفهما :

ولو كان هذا مَوْضِعَ العَتْبِ لأشْتَفَىٰ * فُؤادِى ولكنْ للعِتَاب مواضعُ

قال المولىٰ صلاح الدين الصَّفَدِىّ رحمه الله تعالىٰ فى شرح لامية العجم : وقد آستعمل آبن سناء الملك رحمه الله تعالىٰ هـذه اللفظة فى غير هذا الموضع ولم يتّعظ بنهى الفاضل ولا آرعوىٰ، ولا آزدجَرَ عما قبحه لأنه غلب عليه الهوىٰ، فقال :

تَوَسْوَسَ شِـعْرِى به مُدّةً * وما بَرِحَ الحَلْىُ والوَسْوَسه

وخَلَّصَنِى من يدَىْ عِشْقِه * ظلامٌ علىٰ خدّه حَنْدَسَـه

كَنَسْتُ فؤادىَ من عِشْقِه * ولِحْيتُـه كانت المِكْنَسَه

قال : وأما القاضى الفاضل، فما أظنه خلا فى هذا الإيراد، من ضعف آنتقاد؛ وأحاشى ذاك الذهن الوَقَّاد، من هـذا الآعتقال فى ورطة هذا الآعتقاد ؛ وما أراه إلا أنه تعمّد أن يعكس مراده ، ويُوهِىَ ماشـدّه ويُوهنَ ماشاده؛ ويرميـه ببلاء البَلَاده، إما علىٰ سبيل النَّكال أو النَّكاده : لأن الفاضـل رحمه الله ممن يتوخّى هذه الألفاظ ويقصدها، وينشيها ويُنْشدها، ويورى زِنَادَها ويُوردها .

فمن كلام القـاضى الفاضل فى بعض رسائله ، وما آستطاعت أيديهم أن تَقْبِضَ جمره ، ولا ألبابهم أن تسيغ خمره ، ولا سيوفهم أن تكنُس قميمه . قال فى "المثل السائر" : ومثل هذه الألفاظ إذا وردت فى الكلام ، وضعتْ من قدره ولو كان معناه شريفا . قال : وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لايكاد يخلو منه شعر شاعر، لكن منهم المُقِلُّ ومنهم المُكْثِر .

القسم الثانى

(ما كان من الألفاظ دالًّا على معنًى وضع له فى أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالًّا على معنًى آخر. وهو على ضربين)

الضرب الأوّل ـ ماليس بمستقبح فى الذكر ولا مستكره فى السمع . وذلك كتسميتهم الإنسانَ إذا كان دَمِثَ الأخلاق، حَسَن الصورة أو اللباس أوماهذا سبيله ظريفا، والظَّرْفُ فى أصل اللغة مختص بنُطْق اللسان فقط، كما أن الصَّبَاحَةَ مختصة بالوجه، والوضاءةَ مختصة بالبَشَرة ، والجمالَ مختص بالأنف ، والحلاوةَ مختصة بالعينين ، والملاحةَ مختصة بالفم ، والرَّشاقةَ مختصة بالقدّ، واللّباقةَ مختصة بالشمائل؛ فالظَّرْفُ إنما يتعلق بالنطق فغيرته العامة عن بابه ونقلته إلى أعمّ من موضوعه كما تقدّم؛ وممن وقع له الذُّهول عن ذلك فغلِط فيه أبو نُوَاسٍ فى قوله :

اِختَصَم الجُودُ والجَمالُ * فيك فصارا إلى جِدَال

فقال هذا يمينه لى * للعُرْف والبَذْلِ والنوالِ

وقال هذاك وجهه لى * للظَّرْفِ والحُسْنِ والكمال

فافترقا فيك عن تراضٍ * كلاهما صادقُ المَقَال

فوصف الوجه بالظَّرْفِ ، وهو من صفات النطق كما تقدّم ؛ وكذلك أبو تَمَّامٍ فى قوله :

لَكَ هضْبَةُ الحِلْمِ التى لو وازنت * أَجأً إذًا ثَقُلَتْ، وكان خفيفا

وحلاوةُ الشِّيَمِ التى لو مازَجَتْ * خُلُقَ الزمانِ الفَدْمِ، عاد ظريفا

فوصف الشِّيَمَ بالحلاوة وهى مختصة بالعينين، ووصف الخُلُقَ بالظَّرْفِ وهو مختص بالنطق كما تقدّم بيانه .

الضرب الثانى ـ ما يُستقبح ذكره كما فى لفظ الصُّرم بالصاد المضمومة والسُّرْم بالسين، فإن الصُّرم بالصاد فى أصل اللغة عبارة عن القطع، يقال صرمه يَصْرِمُه صَرْما وصُرْما بالفتح والضم إذا قطعه، وبالسين عبارة عن المحل المخصوص، وقد كانت العرب تستعمله بالصاد المضمومة فى أشعارها بهذا المعنىٰ فلا يعاب عليها؛ قال أبو صخر الهُذَلىّ :

قد كان صُرْمٌ فى المَمَات لنا * فعجِلْت قبلَ المَوْتِ بالصّرْم

فٱستعمله بمعنى القطع ولم يُعَب عليه لأن الألفاظ فى زمن العرب لم تتغير بل كانت باقيةً علىٰ أوضاعها الأصلية، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا وٱستعملت لفظ الصُّرْم الذى هو القطع فى المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبحا وسماعه مستكرها، وعيب علىٰ أبى الطَّيِّب ٱستعماله فى قوله :

أذاق الغَوانِى حُسْنُه ماأذقْنَنِى * وعَفَّ،فجازاهنّ عنِّى بالصُّرْمِ

علىٰ أنه إنما يكره ٱستعماله بصيغة الٱسم لما تقدّم، أما إذا ٱستعمل بصيغة الفعل مثل صَرَمَ ويَصْرِمُ وما شاكل ذلك، فإنه لا حَجْر فى ٱستعماله، وقد ٱستعمله ٱبن الرومى بالسين علىٰ بابه فجاء أقبحَ وأشنعَ، فقال يهجو الوَرْد :

كأنه سُرْم بغل حين يُخْرِجه * عند البِراز، وباقِى الرَّوْثِ فى وَسَطِه

قال الصلاح الصَّفَدىّ: وأين هذا التشبيه القبيح من قول الآخر فى الورد أيضا :

كأنَّهُ وَجْنةُ الحبيبِ وقَدْ * نَقَّطها عاشِقٌ بدينار

قال : فانظر إلىٰ هذا، وَجْنة، وحبيب، ودينار؛ وإلىٰ ذلك، سُرْمٌ، وبغل، ورَوْث . وشتّانَ ما بينهما .

الصـــــفة الثالثة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح أن لا يكون متنافِرَ الحروف ، فإن كانت حروفه متنافرةً بحيث يثقُل علىٰ اللسان ويعْسُر النطقُ به فليس بفصيح)

وذلك نحو لفظ الهُعْخُع فى قول بعض العرب عن ناقة : تركتها تَرْعىٰ الهُعْخُعَ : بالخاء المعجمة والعين المهملة ، وهو نبت أســود ، وكذلك لفظ مستَشْزِرات من قول آمرئ القيس فى قصيدته اللامية التى من جملة القصائد السبع الطِّوال :

غَـــدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلىٰ العُلىٰ * تَضِلُّ المَدَارِى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ

فلفظ مستشزرات من المتنافر الذى يثقل علىٰ اللسان، ويعسُر النطق به . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى "المَثَل السائر": ولقد رءانى بعض الناس وأنا أَعيب علىٰ آمرئ القيس هذا اللفظ فأَكْبَرَ ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد فى أن آمرأ القيس أشعرُ الشعراء، فعجبت من آرتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة، وقلت له : لايمنع إحسانُ آمرئ القيس من آستقباح مَالَه من القبيح ، بل مثال ذلك كمثال غَزَال المِسْك فإنه يخرج منه المِسْك والبَعْر ، ولايمنعُ طِيبُ مايخرج من مسكه من خُبْثِ ما يخرج من بَعْره ، ولا تكون لَذَاذَةُ ذلك الطِّيب حامِيةً للخبيث من الآستكراه، فَأُسْكِتَ الرجلُ عند ذلك .

إذا علمتَ ذلك ، فإن معظم اللغة العربية دائرة علىٰ ذلك ، لأن الواضع قسَّمها فى وضعه إلىٰ ثلاثة أقسام ؛ ثُلَاثِيًّا ، ورُباعيًّا ، وخُماسيًّا ، فالثلاثىّ من الألفاظ هو الأكثر، ولايوجد فيه مايكره آستعماله إلا النادر، والخماسىّ هو الأقلّ، ولايوجد فيه مايستعمل إلا الشاذ النادر، والرباعىّ وسط بين الثُّلاثىّ والخُمَـاسىّ فى الكثرة عَدَدا وآستعمالا، فيكون أكثر اللغة مستعملا غير مكروه . قال : ولا تقتضى حكمة هـذه

اللغة التى هى سـيدة اللغات إلا ذلك ، ولذلك أسـقط الواضعُ منها حروفا كثيرة فى تأليف بعضها مع بعض آستثقالا وآستكراها، فلم يؤلِّف بين حروف الحلق كالحاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف، ولابين اللام والراء، ولا بين الزاى والسين ، وذلك دليـل علىٰ عنايته بتأليف المتباعِد المخارِج دون المتقارب ، وكيف كان الواضع يُخِلُّ بمثل هذا الأصل الكلّى فى تحسين اللغة وقد آعتنىٰ بأمور جزئيـة دون ذلك ؟ كمماثلته بين حركات الفعل فى الوجود وبين حركات المصدر فى النطق كالغَلَيَانِ ، والضَّرَبَانِ ، والنَّقَزَانِ ، والنَّزَوَانِ ، وغير ذلك ممـا يجرى هـذا المجرىٰ ، فإن جميع حروفه متحركات ليس فيها حرف ساكن ، وهى ممـاثلة لحركات الفعل فى الوجود .

ومن نظر فى حكمة وضع هذه اللغة إلىٰ هذه الدقائق التى هى كالأطراف والحواشى فكيف كان يخلّ بالأصل المعوّل عليه فى تأليف الحروف بعضها إلىٰ بعض ؟ .علىٰ أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مَخَارج الحروف عنـد آستعمال الألفاظ ، أهى متباعدة أو متقاربة ؟ لطال الخَطْب فى ذلك وعَسُر، ولَمَـا كانـ الشاعر يَنْظِم قصيدا، ولا الكاتب ينشئ كتابا إلا فى مدّة طويلة، والأمر بخلاف ذلك، فإن حاسَّة السمع هى الحاكمة فى هـذا المقام فى تحسين لفظ وتقبيح آخر، .علىٰ أنه قد يجىء من المتقارب المَخارِج ما هو حسن رائق ، ألا ترىٰ أن الحروف الشَّجْرِيَّة : (وهى الجيم والشين والياء) متقاربةُ المخارج : لأنها تخرُج من وَسَط اللسان بينه وبين الحَنَك، وإذا تركب منها لفظ جاء حسـنا رائقا، فإن لفظة جَيْشٍ قد آجتمع فيها الحروف الشَّجْرية الثلاثة، وهى مع تقارب مخارجها حسنة رائقة، وكذلك الحروف الشَّفَهية (وهى الباء والميم والفاء) متقاربة المخارج فإن مَخْرَجَ جميعها من الشَّفَة، وإذا تركب منهـا لفظ جاء سَلِسا غير متنافر، كقولك أكلت بفمى ، وهو فى غاية الحسن ،

والحروف الثلاثة الشفهية مع تقارب مخارجها مجتمعة فيها ؛ وقد يجىء من المتباعد المخارج ما هو قبيح متنافر كقولك مَلَع بمعنى عدا ، فإن الميم من الشفة والعينَ من حروف الحلق واللام من وسط اللسان ، فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فإنها كريهة الاستعمال ، ينبُو عنها الذوق السليم ، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح ؛ علىٰ أنه لو عُكِست حروف هذه اللفظة صارت علم وعاد القبح منها حُسْنا مع انه لم يتغير شيء من مخارجها ، علىٰ أن اللام لم تزل فيها وَسَطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها ؛ ولو كانت مخارج الحروف معتبرة فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة بتقديم بعض الحروف وتأخير بعض ، وليس ذلك لأن إدخال الحروف من الشَّفَةِ إلىٰ الحلق فى مَلَع أعسَرُ من إخراجها من الحلق إلىٰ الشَّفَة فى عَلِم ، فإنّ لفظة بَلَعَ فيها الباء وهى من حروف الشفة واللام وهى من وَسَط اللسان والعين وهى من حروف الحَلْق وهى غير مكروهة .

قال فى "المَثَل السائر" : ولربما اعترض بعض الجهال بأن الاستثقال فى لفظ مستَشْزِرات إنما هو لطولها وليس كذلك ، فإنا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مستشزر، لكان ثقيلا أيضا لأن الشين قبلها تاء وبعدها زاى ، فَثَقُلَ النطق بها ، نعم لو أبدلنا من الزاى راءً ومن الراء فاءً فقلنا مُسْتَشْرِفٌ لزال ذلك ، ومن ثَمَّ ظهر لك أن اعتبار ابن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيبا غيرُ معتبر، وقد ورد فى القرءان العظيم ألفاظ طِوَالٌ لا شكَّ فى حسنها وفصاحتها كقوله تعالىٰ : ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فإن لفظ فسيكفيكهم مركب من تسعة أحرف ، ولفظ ليستخلفنهم مركب من عشرة أحرف ، ولفظ مستشزرات مركب من ثمانية أحرف . قال : والأصل فى هذا الباب أن الأصول لا تحسُن إلا فى الثلاثىّ وفى بعض الرُّباعىّ : كقولك عَذْب وعَسْجَدٌ ، فالأولىٰ ثُلاثيَّة

والثانية رُبَاعيَّـة ، أما الخُمَـاسىّ من الأصول، فإنه قبيح كقولك : صَهْصَلِق وَجَحْمَرِشٌ، وما جرىٰ مَجْراهما، ولهذا لا يوجد فى القرءان الكريم من الخماسىّ الأصولِ شىء إلا ما كان من آسم نبىّ عُرِّب آسمـه ، ولم يكن فى الأصل عربيـا كإبراهيم وإسماعيل ونحوهما .

الصـــــفة الرابعة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح، أن لا يكون علىٰ خلاف القانون المستنْبَط من تتبع مفردات ألفاظ اللغة العربية، وما هو فى حكمها)

كوجوب الإعلال فى نحو قام والإدغام فى نحو مدّ ، وغير ذلك ممـا يشتمل عليه علم التصريف ، فإنه لو فَكَّ الإدغام فى مدّ فقـال مَدَد ، لم يكن فصيحا، وعلىٰ حدّ ذلك جاء قول بعض العرب .

* الحمدُ للهِ العَـلِيِّ الأَجْلَلِ *

فإنّ قياس بابه الإدغام فيقال الأجَلّ .

قال الشيخ سـعد الدين التفتازانى فى شرح التلخيص : وأما نحو أبىٰ يأبىٰ وعَوِر وآستَحْوَذَ وقَطِط شعره وما أشبه ذلك من الشواذ الثابتة فليست من المخالفة فى شىء لأنها كذلك ثبتت عن الواضع، فهى فى حكم المستثناة .

فهذه الصفات الأربع هى عمود الفَصَاحة فى اللفظ المفرد، وقطب دائرة حسنه، فمتىٰ آتصف بها وسلم من أضـدادها، كان بالفصاحة متَّسِما، وبالحسن والرونق مشـتملا ، وللطبع ملائمـا ، وللسـمع موافقا ، ومتىٰ عَرِى عن ذلك خرج عن طرائق الفصاحة ، وحاد عن سبيل الحسن ، ومال إلىٰ الهُجْنة ، فَمَجَّه السمع ، وقَلَاه الطبع ورفضَـتْه النفوس ، ونفَرت منه القلوب ، فلزم العيبُ قائلَه ، وتوجه العَتْبُ علىٰ مسـتعمله . قال آبن الأثير رحمه الله : وقد رأيت جماعة من الجُهَّال إذا قيـل

لاحدهم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة ، أنكر ذلك وقال : بل كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا . قال : ومن يبلغ جهله إلىٰ غاية لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العُسْلوج ، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسْفِنْط ، وبين لفظة السَّيْف ولفظة الخَنْشَلِيل ، وبين لفظة الأسد ولفظة الفَدَوْكَس ، فلا ينبغى أن يُخَاطَبَ بخطاب ، ولا يُجاب بجواب ، بل يترك وشأنَه كما قيل : "أُتركُوا الجاهلَ بجهله ، ولو ألقىٰ الجَعْرَ فى رَحْلِه"

وما مثاله فى ذلك إلا كمن يسوّى بين صورة زنجية سوداءَ مظلمة السواد، شوهاء الخَلْق ذاتِ عين محمّرة ، وشَفَةٍ غليظة، وشعر قَطَط ، وبين صورةِ رُوميَّة بيضاء مُشْرَبة بحمرة، ذات خدّ أَسِيل، وطَرْف كحيل، ومَبْسِم كأنما نُظِم من أَقَاح، وطُرّة كأنها ليل علىٰ صَبَاح . فإذا كان بإنسان من سُقْم النظر أن يسوّىَ بين هذه الصورة وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سُقْم الفكر أن يسوّىَ بين هذه الألفاظ وهذه ، ولافرق بين السمع والنظر فى ذلك، فإن هذه حاسَّة وهذه حاسَّة، وقياس حاسة علىٰ جاسة غيرُ ممتنع ، ولا عبرةَ بمن يستحسن الألفاظ القبيحة ، ويميل إلىٰ الصورة الشنيعة، فإن الحكم علىٰ الكثير الغالب، دون الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال، فإنا لو رأينا من يُحِبُّ أكل الفَحْم والجِصّ والتراب، ويختار ذلك علىٰ مَلَاذّ الأطعمة، فإنا لانستجيد هذه الشهوةَ بل نحكم عليه بالمرض وفساد المَعِدة، وأنه يحتاج إلىٰ العلاج والمُداواة ، ومن له أدنىٰ بصيرة يعلم أن للالفاظ فى الأذن نَغْمة لذيذة كنغمة الأوتار، وصوتا مُنْكَرا كصوت الحمار، وأن لها فى الفم حلاوةً كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحَنْظَلِ . ولا حجة لاستعمال العرب لهذه الألفاظ، فإن استحسان الألفاظ واستقباحَها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه ليس للتقليد فيه مَجَال . وإنما له خصائص وهيئات وعلامات إذا وُجدت، عُلِم حسنه من قبحه والله أعلم .

الأصـــل الثالث

(من صناعة إنشاء الكلام تركيب الكلام، وترتيب الألفاظ)
(والنظر فيه من وجوه)

الوجه الأوّل

(فى بيان فضل المعرفة بذلك، ومسيس حاجة الكاتب إلىٰ معرفته، والإشارة إلىٰ خفىّ سره وتوعُّر مَسْلَكه)

قال أبو هلال العسكرىّ : وأجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل، والخُطَب، والشعر؛ وجميعها يحتاج إلىٰ حُسْن التأليف، وجَوْدَةِ التركيب؛ وحسنُ التأليف يزيد المعنىٰ وضوحا وشرحا ، ومع سُوء التأليف ورداءة الرّصــف والتركيب شُعْبَةٌ من التعمية، فإذا كان المعنىٰ سيِّئا، ورصف الكلام رديئا، لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليــه طَلَاوة . فإذا كان المعنىٰ وسطا ورَصْــف الكلام جيدا، كان أحسن مَوْقِعا وأطيب مُسْتَمَعًا ، فهو بمنزلة العِقْد إذا جُعِــل كل خرزة منه إلىٰ مايليق بها ، كان رائقا فى المرأىٰ ، وإن لم يكن مرتفعا نبيــلا؛ وإن آختلّ نظمه فَضُمَّت الحبة منه إلىٰ ما لا يليق بهــا، آقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا؛ وحُسْنُ الرَّصْفِ أن توضَع الألفاظ فى مواضــعها ، وتمكَّن من أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفا لا يُفْسِــد الكلام ، ولا يُعَمِّى المعنىٰ ، وتُضم كل لفظة منها إلىٰ شكلها وتُضاف إلىٰ وَفْقِها؛ وسوء الرَّصْفِ تقديم ماينبغى تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الآستعمال فى نظمها. وقد قال العتابىّ : الألفاظ أجساد والمعانى أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمتَ منها مؤخرا وأخرتَ منها مقدّما ، أفســدتَ الصورة وغيرت المعنىٰ ، كما أنه لو حُوّل رأسٌ إلىٰ موضع يدٍ أو يدٌ إلىٰ موضع رأس أو رِجْلٍ، لتحوّلت الخلقة وتغيرت الحِلْيَةُ .

قال فى "الصناعتين" : وقد أحسن فى هذا التمثيل .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى "المَثَل السائر": وهذا الموضع يَضِلُّ فى سلوك طريقه العلماءُ بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر، فكيف الجهالُ الذين لم تَنْفَحْهُم منه رائحة ؟ ومَنِ الذى يؤتيه الله فِطْرة ناصعة يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار، حتّٰى ينظر إلىٰ أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها فى مواضعها ؟ وذلك أن تفاوت التفاضل لم يقع فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها، إذ التركيب أعسر وأشقُّ، ألا ترىٰ أن ألفاظ القرءان الكريم من حيث آنفرادها قد آستعملتها العرب ومَنْ بعدهم، وهى مع ذلك تفوق جميع كلامهم وتعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب . وآنظر إلىٰ قوله تعالىٰ : " وَقِيلَ يا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلقَوْمِ الظَّالِمِينَ "وما آشتملت عليه هذه الآية من الحُسن والطلاوة والرونق والمائية الّتى لا يقدر البشر علىٰ الإتيان بمثلها، ولا يستطيع أفصحُ الناس وأبلغُ العالَم مضاهاتها، علىٰ أن ألفاظها المفردة كثيرة الآستعمال دائرة علىٰ الألسنة، فقوّة التركيب وحسن السبك هو الذى ظهر فيه الإعجاز وأَفْحمت فيه البلاغةُ من حيث لاقت اللفظةُ الأولىٰ بالثانية والثالثة بالرابعة، وكذلك سائر الألفاظ إلىٰ آخر الآية . ويشهد لذلك أنك لو أخذت لفظة منها من مكانها وأفردتها عن أَخَواتها لم تكن لابسة من الحُسْن والرونق ما لبِسته فى موضعها من الآية، ولِكُلّ كَلِمةٍ مَعَ صَاحِبَتِهَا مَقَامٌ .

قال آبن الأثير : ومن عجيب ذلك أنك ترىٰ لفظتين يدلّان علىٰ معنى واحد، كلاهما فى الآستعمال علىٰ وزن واحد وعدّة واحدة، إلا أنه لا يحسن آستعمال هذه فى كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يُفْرَق بينهما فى مواضع السَّبْك، وهذا مما لا يدركه إلا من دقّ فهمُه، وجلّ نظره . وإذا نظرت إلىٰ قوله تعالىٰ : "مَا جَعَلَ اللهُ

لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ" وقوله تعالىٰ : "رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مافِي بَطْنِي مُحَرَّرًا" رأيت ذلك عِيانا ، فإن الجوف والبطن بمعنى واحد ، وقد آستُعمِل الجوف فى الآية الأولىٰ والبطنُ فى الآية الثانية ولم يُستعمل أحدهما مكان الآخر، وكذلك قوله تعالىٰ: "مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَارَأَىٰ" وقوله : "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَىٰ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" فالقلب والفؤاد سواء فى الدلالة وإن كانا مختلفين فى الوزن، ولم يستعمل أحدُهما موضع الآخر .

ومما يجرى هذا المجرىٰ قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نَحْنُ بَنُو الموت إذا المَوْت نَزَلْ * لا عَارَ بالموت إذا حُمَّ الأَجَلْ

* الموت أحلىٰ عِنْدنا من العَسَل *

وقول أبى الطيب المُتَنَبِّى :

إذا شِئْتُ حَفَّتْ بى علىٰ كل سابح * رِجالٌ كأَنَّ المَوْتَ فى فَمِها شَهْدُ

فلفظة الشهد ولفظة العسل كلاهما حَسَنٌ مستعمل ، وقد جاءت لفظة الشهد فى بيت أبى الطَّيِّب أحسن من لفظة العسل فى بيت الأعرج، علىٰ أن لفظة العسل قد وردت فى القرءان دون لفظة الشهد فجاءت أحلىٰ من الشهد فى موضعها؛ وكثيرا ماتجد أمثال ذلك فى أقوال الشعراء المُفْلِقِينَ و بُلَغَاء الكُتَّاب ومصاقع الخطباء، وتحتها دقائقُ ورموز، إذا عُلِمتْ وقِيسَ عليها كان صاحب الكلام قد آنتهىٰ فى النظم والنثر إلىٰ الغاية القصوىٰ فى وضع الألفاظ فى مواضعها اللائقة بها . قال : وأعجب من ذلك أنك ترىٰ اللفظة الواحدة تَرُوقك فى كلامٍ، ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها، وقد جاءت لفظة فى آى القرآن الكريم بِهَجة رائقة ، ثم جاءت تلك اللفظة بعينها فى كلام آخر فجاءت ركيكة نابيةً عن الذوق ، بعيدة من الآستحسان ؛ فمن ذلك لفظة يؤذى فإنها وردت فى قوله تعالىٰ : "إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي

منكُمْ وَاللّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ " فجاءت فى غاية الحسن ونهاية الطلاوة، ووردت فى قول أبى الطيب :

تَلَذُّ له المُرُوءةُ وهى تُؤْذِى * ومَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ له الغَرامُ

فجاءت رَثَّةً مستهجنة، وإن كان البيت من أبيات المعانى الشريفة، وذلك لقوة تركيبها فى الآية وضعف تركيبها فى البيت الشعر، والسبب فى ذلك أن لفظة تؤذى إنما تحسن فى الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقةً به كما فى الآية الكريمة حيث قال : " إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِىَّ " وفى بيت المتنبي جاءت منقطعة ليس بعدها شئ تتعلق به حيث قال :

* تَلَذُّ له المُروءةُ وهى تُؤْذِى *

ثم ٱستأنف كلاما آخر فقال :

* ومَنْ يَعْشَقْ يلَذُّ له الغَرامُ *

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوىّ مضافةً إلىٰ كاف خطاب، فأخذت من المحاسن بِزِمَامِها، وأحاطتْ من الطَّلاوة بأطرافها، وذلك أنه لما ٱشتكى النبيّ صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فَرَقَاهُ فقال : " بسم الله أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ داءٍ يُؤْذِيك" فصارت إلىٰ الحُسْن بزيادة حرف واحد، وهذا من السِّرّ الخفىّ الذى يَدِقُّ فهمه . وعلىٰ نهج لفظة يؤذى يردُ لفظة لى، فإنها لا تَحْسُن إلا أن تكون متعلقة بما بعدها، ولذلك لَحِقَها هاء السَّكْتِ فى قوله تعالىٰ : " مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ " لما لم يكن بعدها ما تتعلق به، بخلاف قوله : "إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً ولِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ" فإنه لم تلحقها هاءُ السكت ٱكتفاء بما هى متعلقة به .

ومما يجرى مثل هــذا المجرى لفظة القُمَّلِ، فإنها قد وردتْ فى قوله تعالىٰ : "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ والقُمَّلَ والضَّفَادِعَ والدَّمَ" فجاءت فى غاية الحسن، ووردتْ فى قول الفرزدق :

مِنْ عِزِّهِ ٱجْتَحَرتْ كُلَيْبٌ عنده * زَرْبا كأَنَّهُمُ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

فجاءت منحطة نازلة ، وذلك لأنها قد جاءت فى الآية منــدرجةً فى ضمن كلام لم ينقطع الكلامُ عنــدها ، وجاءت فى البيت قافيةً ٱنقطع الكلام عندها . هــذا ملخص ما ذكره ٱبن الأثير، وقال : إنه لم يُسْبَق إليــه، وجعل الحاكم فيه الذوق السليم دون غيره . وعلىٰ الجمــلة فلا نزاع فى أن تركيب الألفاظ يُعْطِى الكلامَ من القوّة والضَّعف ما تزيد به قيمةُ الألفـاظ الفصيحة ، ويرتفع به قدرها ، أو يُحُطّ مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلىٰ رتبة القبح والٱستهجان .

الوجه الثــانى

(فى بيان ما ينبنىٰ عليه تركيبُ الكلام وترتيبه . وله ركنان)

الركن الأول ــ أن يُسْلك فى تركيبه سبيل الفصاحة والخروج عن اللُّكْنةِ والهُجْنة .

والفصاحةُ فى المركب بأن يتصف بعد فصاحة مفرداته بصفات .

الصفة الأولىٰ

(أن يكون سليما من ضَعْفِ التأليف)

بأن يكون تأليف أجزاء الكلام علىٰ القانون النحوىّ المشتهر فيما بين معظم أصحابه حتّى لا يمتنع عند الجمهور ، وذلك كالإضمـارِ قبل الذكر لفظًا أو معنًى ، نحو ضرب غلامُه زيدا ، فإنه غير فصيح وإن كان ما ٱتصل بالفاعل فيــه ضميرَ المفعول به

ممـا أجازه الأخفش وتبعه آبن جنى لشـدّة آقتضاء الفعل المفعول به كالفـاعل ، وآستشهد بقوله :

لمـا عصىٰ أصحـابُه مُصْـعَباً * أدّى إليه الـكيلَ صَاعًا بِصَاع

وقوله :

جزىٰ بَنُوه أبَا الغِيلَانِ عن كِبَرٍ * وحُسْنِ فِعْلٍ كَما يُجْزىٰ سِنِمَّارُ

وقوله :

ألَا ليتَ شِعْرِى، هَلْ يَلُومَنّ قومُه * زُهَـيرًا علىٰ ما جَرَّ من كُلِّ جانِبِ

الصفة الثانية

(أن يكون سليما من التعقيد)

وهو أن لا يكون الكلام ظاهرَ الدلالة علىٰ المعنىٰ الذى يُراد منه ، وهو علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ــ وهو الذى يسميه ابن الأثير (المعاظلة المعنوية) أن لا يكون ترتيب الألفاظ علىٰ وَفْق ترتيبِ المعانى بسبب تقديم أو تأخير، أو حذف أو إضمار، أو غير ذلك ممـا يوجب صُعوبَةَ فهمِ المراد، و إن كان ثابتا فى الكلام، جاريا علىٰ القوانين كقول الفَرَزْدَقِ، فى مدح إبراهم بن هشام بن إسمـاعيل المخزومىّ، خالِ هشامِ بن عبد الملك :

وما مِثْلُهُ فى الناس إلا مُمَلَّكًا * أبو أمّـه حَىٌّ أبُوه يُقارِبه

أىْ وما مثل هذا الممدوح فى الناس حىٌّ يقاربه ويُشْبهه فى الفضائل إلا مُمَلَّكًا ، أبو أمّ ذلك المملَّك أبو الممدوح ، فيكون الممدوح خالَ المُمَلَّكِ ، والمعنىٰ أنه لا يمـاثل

أحدُ هذا الممدوحَ الذى هو إبراهيم بن هشام إلا ابن أخته هشام، افسده وعقّد معناه، وأخرجه عن حدّ الفصاحة إلىٰ حدّ اللُّكْنة، وكذلك قوله فى الوليد بن عبد الملك :

إلىٰ مَلِكٍ، ما أُمُّــه من مُحَارِبٍ * أبوه، ولا كانَتْ كُلَيْبٌ تُصاهِرُهْ

يريد إلىٰ مَلِكٍ ماأمّ أبيه من مُحارِبٍ، وقوله :

تعَالَ فإنْ عاهَدْتَنِي لا تَخُونُنِي * نَكُنْ مثلَ مَنْ ياذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ

يريد نكن ياذئب مثلَ مَنْ يصطحبان، وقوله :

وليست خُرَاسَانُ التى كان خالِدٌ * بها أَسَــدٌ، إذ كان سيفا أميرُها

يريد أن خالد بن عبد الله كان قد وَلِىَ خراسَانَ و وليها أَسَــدٌ بعده ، فمدح خالدا بأنه كان سيفا، بعد أن كان أسدٌ أميرَها، فكأنه يقول وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفا إذ كان أسد أميرها . قال ابن الأثير : وعلىٰ هــذا التقدير ففى كان الثانية ضميرُ الشأن والحديث ، والجملة بعدها خبرٌ عنها، وقد قُدِّمَ بعض ما إذْ مضافةٌ إليه وهو أســد عليها، وفى تقديم المضاف إليه أو شىء منه علىٰ المضاف من القبح مالا خفاء به . قال : وأيضا فإن أسدا أحدُ جزأى الجملة المفسِّرَةِ للضمير ، والضمير لايكون تفسيره إلا من بعده، ولو تقدّم تفســيره قبله لمـا احتاج إلىٰ تفسير، ولمـا سماه الكوفيون الضمير المجهول، وعلىٰ نحو ذلك ورد قول الآخر :

فَأَصْبحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا * كَأَنَّ قَفْرًا رُسَــومَهَا قَلَمَــا

يريد فأصبحت بعــد بهجتها قَفْرا كأنّ قَلَمًا خط رسومها ، فقــدّم خبر كأنَّ وهو خَطَّ عليها بجاء مختلًّا مضطربا، قال فى "المَثَل السائر" : وهذا البيتُ من أقبح هذا النوع لأن معانيَه قد تداخلتْ، وركب بعضُها بعضا، علىٰ أن ذلك قد وقع لجمع من فحول شعراء العرب . كقول امرئ القيس :

هُمَا أَخَوَا فى الحَرْب من لاأَخَا لَهُ * إذا خاف يوما نَبْــوَةً فدَعَاهُمَــا

يريد أخوا من لاأخوَىْ له فى الحرب، وقول النابغة :

يُثْرِنَ الـثَّرىٰ حتّى يباَشِرْنَ بَرْدَهُ * ، إذا الشمسُ مجَّتْ ريقها، بالكَلاَ كِلِ

قال أبو هلال العسكرىّ : وهذا البيت مستهجَن جِدًّا لأن المعنىٰ تَعَمّى فيـه ، يريد يُثِرْن الثرىٰ حتّى يبـاشرن برده بالكلاكل إذا الشـمس مجّتْ ريقها ؛ وقول أبى حَيَّةَ النُّمَيْرىِّ :

كَمَا خُطَّ الكِتَابُ بِكَفِّ، يوما، * يَهُــودِىٍّ يُقَـارِبُ أو يُزِيلُ

يريد كما خط الكتاب بكف يهودىّ يوما يقارب أو يزيل؛ وقول ذى الرمة :

نَضَا البُرْدَ عنه وهو مِنْ،ذو،جُنُونِه * أجارِىَّ،صَهَّالٌ وصوتُ مُبَرْسَمِ

يريد وهو من جنونه ذو أَجارِىَّ ؛ قال فى "الصناعتين" : كأنه تخليط كلامِ مجنون أو هُجْرُ مبرسَمٍ؛ وقول الشماخ :

تَخَامَصُ عن بَرْدِ الوِشَاحِ إذا مَشَتْ * تَخَامُصَ حَافِى الخَيْلِ فى الأمْعزِ الوَجىٰ

يريد تَخَامُصَ حافى الخيل فى الوجىٰ الأمعز ؛ قال أبو هلال العسكرىّ : وليس للمُحْدَثِ أن يجعل هـذه الأبياتَ حجةً و يبنىَ عليها فإنه لايُعْذَر فى شئ منها ، لإجماع الناس اليومَ علىٰ مجانبة أمثالهـا وٱستجادة مايَضِحُ من الكلام و يستبين ، وٱسترذال ما يُشْكِلُ منه و يَسْتبهم؛ وقد كان عمر رضى الله عنه يمدح زهيرا بأنه لم يكن يُعاظل بين الكلام .

قال فى "المثل السائر" : والفرزدق أكبر الشعراء تعاظلا وتعقيدا فى شعره، كأنه كان يقصـد ذلك ويتعمَّده، لأن مثله لايجىء إلا متكلَّفا مقصودا، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسَـه تجرِى علىٰ سَجِيَّتِها وطبعها فى الٱسترسال لم يعرِض له شيء من هذا التعقيد، بدليل أن المقصود من الكلام معدوم فى هذا النوع، إذ المقصود من

الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنىٰ ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به، ولا فرقَ عند ذلك بينه و بين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الضرب الثانى من التعقيد ـ أن لايكون الكلام ظاهر الدلالة علىٰ المراد بخلل فى انتقال الذهن من المعنىٰ الأوّل المفهومِ بحسب اللغة إلىٰ الثـانى المقصود، لإيراد اللوازم البعيدة المفتقرة إلىٰ الوسائط الكثيرة، مع خفاء القرائن الدالة علىٰ المقصود، كقول العبَّاس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عنكم لِتقْرُبُوا * وتَسْكُبُ عَيْنَاىَ الدُّموعَ لِتَجْمُدَا

يريد إنى أطلب بُعْدَ الدار عنكم لتقربوا منى ، وتسكُبُ عينـاى الدّموع لتجمد وتكُفَّ الدمعَ بحصول التلاقى ، والمعنىٰ أنّى طبت نفسا بالبعد والفِراق ، ووطَّنْتُ نفسى علىٰ مقاساة الأحزان والأشـواق ، وأتجَرَّعُ الغُصَص ، وأحتمل لأجلها حُزْنا يُفيضُ الدّموع من عينَىَّ لأتسببَ بذلك إلىٰ وصل يدوم، ومَسَرَّة لا تزول، فتجمُد عينى و يرقأ دمعى ، فإن الصـبر مِفْتَاحُ الفَرَجِ ؛ فكنّٰى بسَكْبِ الدموع عن الكا بة والحُزْن ، وهو ظاهر المعنىٰ لأنه كثيرا ما يُجعـل دليلا عليـه ، يقال أبكانى الدهرُ وأضحكنى بمعنى ساءنى وسرّنى؛ وكنّٰى بجمود العين عما يوجبه دوامُ التلاقى من الفرح والسرور، فإن المتبادر إلىٰ الذهن من جمود العين بخلُها بالدمع عند إرادة البكاء حال الحزن ، بخلاف ماقصـده الشاعر من التعبير به عن الفَرَح والسرور ، وإن كانت حالة جمود الدمع مشتركةً بين بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء، وبين زمن السرور الذى لم يُطلب فيه بكاء؛ وكذلك يجرى القول فى كل لفظ مشترك ينتقل الذهن فيه من أحد المعنيين إلىٰ الآخر إذا لم يكن هناك قرينة تصرفه إلىٰ أحدهما ، كما صرح به الرمانىّ وغيره، خصوصا إذا كان أحد المعنيين الذى يدلّ عليه اللفظ المشترَك

مستقبحا كما نبه عليه ابن الأثير فى الكلام على فصاحة اللفظ المفرد؛ ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والإكرام، وبين الإهانة بسبب الخيانة التى لا توجب الحدّ : من الضرب وغيره، والمعنيان ضدّان فحيث وردت معها قرينة صرفتها إلى معنى التعظيم جاءت حَسَنَةً رائقة، وكانت فى أعلى درجات الفصاحة؛ وعلى نحو ذلك ورد قوله تعالى : ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وقوله : "فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ" الآية فإنه لما ورد معها قرينة التوقير فى الآية الأولى وقرينة الإيمان والنصر فى الآية الثانية زال اللبس وحَسُنَ الموْقع، ولو وردت مهملةً بغير قرينة بإرادة المعنى الحسن، لسبق الفهم إلى المعنى القبيح، كما لوقلتَ عزَّر القاضى فلانًا وأنت تريد أنه عظمه، فإنه لا يتبادر من ذلك إلى الفهم إلا أنه أهانه، وعلى هذا النَّهج يجرى الحكم فى الحسن والقبح مع القرينة وعدمها .

قال ابن الأثير رحمه الله : فمما ورد مع القرينة فجاء حسنا قول تأبط شرا :

أقول لِلَحْيَانٍ ، وقد صَفِرَتْ لَهُمْ * وِطَابِى ويَوْمِى ضَيِّقُ الجُحْرِ مُعْوِرُ

فإنه أضاف الجُحْرَ إلى اليوم فأزال عنه هُجْنة الاشتباه لأن الجحر يطلق على كل ثقب كجحر الحَيَّة واليربوع ونحوهما، وعلى المحل المخصوص من الحيوان (١) فإذا ورد مهملا بغير قرينة تُخَصِّصُه سبق إلى الفهم المعنى القبيحُ لاشتهاره دون غيره، . ومما ورد مهملا بغير قرينة فجاء قبيحا قول أبى تَمَّام :

أعطيتَنِى ديةَ القتيلِ وليس لى * عَقْلٌ ولا حَقٌّ عليك قَدِيمُ

فإن المتبادر إلى الأفهام من قوله وليس لى عقل أنه من العقل الذى هو ضدّ الجنون ولو قال وليس لى عليك عقل لزال اللبس . قال : فيجب إذًا على صاحب هذه الصناعة أن يراعىَ فى كلامه مثل هذا الموضع .

---

(١) أى الفرج .

الصـــــفة الثالثة

(أن يكون الكلام سليما من تَنافُر الكلمات و إن كانت مفرداته فصيحة)

وقد ٱختلف فى معنىٰ هذا التنافر علىٰ ثلاثة مذاهب .

المذهب الأول ـ أن المراد بتنافر الكلمات أن يكون فى الكلام ثِقَلٌ علىٰ اللسان و يَعْسُرُ النطقُ به علىٰ المتكلم ، و إليه ذهب السَّكّاكىّ وغيره من علماء البيان .

وهو علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ـ أن يكون فيه بعض ثقل ، كقول أبى تَمّـام :

كَرِيمٌ متىٰ أمدحْه أمدحْه والورىٰ * معى ، و إذا مالُمْتُه ، لُمْتُه وَحْدِى

فقوله أمدحه أمدحه فيه بعضَ الثِّقَل علىٰ اللسان فى النطق به ، وذلك أن ا لحاء والهـاء متقاربان فى المخرج ، وقد ٱجتمعا فى قوله أمدحه ، ثم تكررت الكلمة فى البيت مع تَقَارُبِ مخرج الحرفين فثقلت بعض الثقل .

وأوّل من نبه علىٰ ذلك الأستاذ ٱبن العَميد رحمه الله .

وممـا يحكىٰ فى ذلك أن الصاحب بن عَبّادٍ أنشد هذا البيت بحضرة ٱبن العَمِيد ، فقال له ٱبن العميد : هل تعرف فى هذا البيت شيئا من الهُجْنَة ؟ فقال : نعم ، مقابلة المدح باللوم و إنمـا يقابل المدح بالذم والهجاء ، فقـال له ٱبن العميد : غيرَ هـذا أريدُ ، قال : لا أرىٰ غير ذلك . فقال ٱبن العَميد : هـذا التكرير فى أمدحه أمدحه مع الجمع بين الحاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حدّ الاعتدال ، نافر كلَّ التنافر ، فاستحسن الصاحب بن عَبّادٍ ذلك .

قال الشيخ سعد الدّين التفتازانىّ فى شرح تلخيص المِفْتاح : ولا يجوز أن يراد أن الثقل فى لفظة أمدحه دون تكرار ، فإنّ مثل ذلك واقع فى التنزيل نحو قوله تعالىٰ :

"فسبحه" والقول باشتمال القرءان على كلام غير فصيح مما لايجترئ عليه المؤمن .

الضرب الثانى ـ ما كان شديد الثقل بحيث يضطرب لسان المتكلم عند إرادة النطق به، كقوله :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرِ * وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قال فى عجائب المخلوقات : إن من الجن نوعا يقال له الهاتف، فصاح واحد منهم على حَرْبِ بن أُمَيَّة فمات، فقال ذلك الجنِّىّ هذا البيتَ . قال المسعودىّ فى "مروج الذهب" : والدليل على أنه من شعر الجن أمران ، أحدهما الرواية ، والثانى أنه لا يقوله أحد ثلاث مرات متواليات إلا تَعْتَعَ فيه . قال ضياء الدين بن الأثير : والسبب فى ثقل البيت تكرير حرفى الباء والراء فيه، فهذه الباءات والراءات فيه كأنها سِلْسِلة ، ولا خَفَاءَ بما فى ذلك من الثقل . قال : وكذلك يجرى الحكم فى كل ما تكرر فيه حرف أو حرفان إلا أنه لم يُطْلِق على ذلك آسمَ التنافر، وجعل التنافر قسما مستقلا برأسه كما سيأتى ، وعدّ هذا من أنواع المعاظلة اللفظية، ثم ذكر من أمثلته قول الحريرى فى مقاماته :

وٱزْوَرَّ مَنْ كان له زَائِرًا * وعافَ عَافِى العُرْفِ عِرْفَانَهُ

وقول كُشَاجِم :

والزَّهْرُ والقَطْرُ فى رُبَاهَا * مابينَ نَظْمٍ وبين نَثْرِ

حدائقٌ ، كَفُّ كلِّ رِيحٍ * حلَّ بها خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وقول الآخر :

مَلِلْتُ مِطَالَ مولود مُفَدًّى * مَلِيحٍ مانع مِنِّى مُرَادى

وقول المتنبى :

كَيْفَ تَرْثِى التى ترىٰ كُلَّ جَفْنٍ * رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقى

وعاب بيت الحريرىّ لتكرر العين فيه فى قوله :

* وَعَافَ عَافِى العُرْفِ عِرْفَانَهُ *

وعاب البيت الثانى من بيتى كشاجم لتكرر الكاف فيه فى "كَفّ وكُلّ" الاولىٰ و"كل "الثانية، وقال هذا البيت يحتاج الناطق به إلىٰ بِرْكَارٍ يضعه فى شِدْقِهِ حتّٰى يديره له ؛ وعاب البيت الذى يليه لتكرر الميم فيه فى أوائل الكلمات ، وقال : هذه الميمات كأنها عُقَدٌ ، متصـلة بعضها ببعض ؛ وعاب بيت المتنبى لتكرر الجيم والراء فى أكثر كلماته ، وقال : هذا وأمثاله إنمـا يَعْرِض لقائله فى نوبة الصَّرْع التى تنوبه فى بعض الأيام . قال : وكان بعض أهـل الأدب من أهل عصرنا يستعمل هذا القسمَ من المعاظلة كثيرا فى كلامه نثرا ونظما ، وذلك لعدم معرفتـه لسلوك الطريق كقوله فى وصف رجل سخىّ : "أنت المُرِيح كبِد الريح ، والمُلِيح إن تجهَّم المَلِيح بالتكليح ؛ عند سائل يَلُوح ، بل تفوق إذ تَرُوق مَرْأىٰ يُوح ؛ يامغْبوقَ كأسِ الحمد يامَصْبُوح ضاق عن نَدَاك اللَّوح ، وببابك المفتوح يستريح ويُرِيح ذو التَّبْرِيح ، ويُرَفَّه الطَّلِيح" فانظر إلىٰ حرفى الراء والحاء كيف لزمهما فى كل لفظة من هذه الألفاظ فجاء علىٰ ما تراه من الثقل والغَثَاثة .

ثم قال : وٱعلم أن العرب الذين هم الأصـل فى هذه اللغة قد عَدَلُوا عن تكرير الحروف فى كثير من كلامهـم ، وذاك أنه إذا تكرر الحـرف عنـدهم أدغموه ٱستحسانا ، فقالوا فى جعـل لك : جَعَلَّكَ ، وفى تضربوننى تضربُونِّى ، وكذلك قالوا : ٱستعدّ فلان للأمر إذا تأهب له ، والأصل فيه ٱستعدد، وٱسْتَتَبَّ الأمر إذا تهيأ والأصـل فيه ٱستتبب ، وأشـباه هـذا كثير فى كلامهم حتّٰى إنهم لشدّة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا الحرفينِ (١) المكررين حرفا آخر غيره ، فقالوا : أمليتُ

(١) صوابه أحد الحرفين كما هو نص العبارة فى المثل السائر .

الكتاب ، والاصل فيه أملت ، فأبدلوا اللامَ ياءً طلبا للخفة وفِرارا من الثقل ، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك فى اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التى يتبع بعضها بعضا .

قلت : ليس تكرار الحروف مما يوجب التنافر مطلقا كما يقتضيه كلامه بل بحسب التركيب ، فقد تتكرر الحروف وتترادف فى الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخفّتها على اللسان ، وسهولة النطق بها ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿قِيلَ يَانُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كيف ٱجتمع فيه ست عشرة ميما فى آية واحدة ، قد تلاصق منها أربع ميمات فى موضع وميمان فى موضع ، مع ما ٱشتملت عليه من الطّلاوة والرَّوْنَقِ الذى ليس فى قدرة البَشَر الإتيان بمثله ، والله أعلم .

المذهب الثانى — أن المراد بتنافر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير متلائمة ، ومعانيه غير متوافقة بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره ، أو البيت الثانى غير مشاكل للبيت الأوّل ، وعليه جرى العسكرى فى "الصناعتين" فمما ٱختلفت فيه أجزاء البيت الواحد قول السموءل :

فَنَحْنُ كماءِ المُزْنِ مافى نِصَابِنَا * كَهَامٌ ولا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ

فليس بين قوله مافى نصابنا كَهَامٌ وقوله فنحن كماء المزن مناسبة لأن المراد بالكَهَام الذى لا غَنَاءَ به ولا فائدة فيه ، يقال قوم كَهَامٌ أى لَاغَنَاءَ عندهم ، ورجل كَهَامٌ أى مُسِنٌّ ، كذلك سَيْفٌ كَهَامٌ أى كَلِيلٌ ، ولسان كَهَامٌ أى عَيِيٌّ ، وفرس كَهَامٌ أى بطىء ، فهو يصف قومه بالنَّجْدَةِ والبأس ، وأنه ليس فيهم من لا يُغْنِى ، وماء المزن إنما يحسُن فى وصف الجود والكرم . قال فى "الصناعتين" : ولو قال : ونحن لُيُوث الحرب وأولو الصَّرامة والنجدة ، ما فى نِصَابنا كَهَامٌ ، لكان الكلام مستويا ،

أو فنحن كماء المزن صَفَاءَ أخلاق وبذل أَكُفٍّ ، لكان جيدا ، ومن ذلك قول طَرَفة :

ولستُ بِحَلَّالِ التِّـلَاعِ مخـافةً * ولكن متىٰ يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِد

فالمصراع الثانى من البيت غير مشاكل لصورة المصراع الأوّل وإن كان المعنىٰ صحيحا لأنه أراد ولست بحلّال التِّلَاعِ مخافةَ السؤال ولكنى أنزل الأمكنة المرتفعة ليَنْتابونى وأَرْفِدَهم ، وهذا وجه الكلام فلم يعبر عنه تعبيرا صحيحا ولكنه خلطه وحذف منه حذفا كثيرا فصار كالمتنافر ، وأدواء الكلام كثيرة ، ومنه قول الأعشىٰ :

وإنّ ٱمرأً أسرىٰ إلَيْكِ ودُونَهُ * سُهُوبٌ ومَوْمَاةٌ وبيداء سَمْلَقُ ،

لَمَحْقُوقَةٌ أن تَسْتجيبي لِصَوْتِهِ * وأن تَعْلَمِى أن المُعَانَ مُوَفَّقُ

فقوله : وأن تعلمى أن المُعَانَ موفق غير مشاكل لمـا قبله ، وعلىٰ نحو ذلك ورد قول عَنْتَرَةَ :

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لَحْيَيْ رَأْسِه * جَلَمَـانِ بالأخبار هَشٌّ مُولَعُ

إنَّ الذِينَ نَعَبْتَ لِى بِفِراقِهِم * هُمْ أسلمُوا لَيْلَ التَّمامِ وَأَوْجَعُوا

فليس قوله بالأخبار هشٌّ مُولَعُ من صفة جناحيه ولَحْيَيْه ، وقريب منه قول أبى تَمَّـام :

مُحَمَّدُ إنَّ الحاسِدِينَ شُهُودُ * وإنَّ مُصَابَ المُزْنِ حيث تُرِيدُ

فليس النصف الثانى من النصف الأوّل فى شىء ، وكذلك قول الطالبىّ :

قومٌ هدىٰ اللهُ العبادَ بجدّهم * والمُؤْثِرُون الضيفَ بالأزواد

فلا مناسبة بين صدر البيت وعَجُزه بوجه .

وعدّ بعض الأدباء من هذا النوع قول ٱمرئ القيس :

كأَنِّىَ لم أرْكَبْ جوادًا لِلَذَّةٍ ، * ولم أَتَبَطَّنْ كاعِبًا ذاتَ خَلْخَالِ

ولم أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقُلْ * لِخَيْلِيَ كُرِّى كَرَّةً بعـد إجفال

وقال : لو وضع مصراعَ كل بيت من هـذين البيتين فى موضع الآخر، لكان أحسن وأدخل فى آستواء النسج، فكان يقال :

كأنى لم أركب جوادا، ولم أقل * لخيلى كُرِّى كرة بعـد إجفال

ولم أسبإ الزق الروىّ للذة، * ولم أتبطَّنْ كاعبا ذات خَلْخَال

لأن ركوب الجواد مع ذكر كرور الخيل أجود، وذكر الخمْر مع ذكر الكواعب أحسن . قال فى "الصـناعتين" : قال أبو أحمد : والذى جاء به آمرؤ القيس هو الصحيح لأنّ العرب تضع الشىء مع خلافه، فيقولون : الشدّة والرخاء، والبُؤْس والنعيم، ونحو ذلك . وكذلك كل مايجرى هذا المَجْرىٰ . قال أبو هلال العسكرىّ : أخبرنى أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعةٌ من أحداث بغـدادَ ممن يتعاطىٰ الأدبَ نختلف إلىٰ مُدْرِك نتعلم منـه الشعر، فقال لنا يوما : إذا وضعتم الكلمة مع لِفْقِهَا، كنتم شعراء . ثم قال : أجيزوا هـذا البيت :

* أَلَا إِنَّمـا الدُّنيا مَتَـاعُ غُرُورِ *

فأجازه كل واحد منا بشىء، فلم يَرْضَهُ . فقلت أنا :

* وإن عَظُمَتْ فى أَنْفُسٍ وصُدُورِ *

فقال : هـذا هو الجيِّد المختار . قال : وأخبرنى أبو أحمد الشطنىّ قال : حدثنا أبو العباس بن عربىّ، قال : حدثنا حمـاد بن يزيد بن جبلة، قال : دفن مسلمةُ رجلا من أهله ثم قال :

* نَرُوحُ ونَغْدُو كُلَّ يومٍ وليلةٍ *

ثم قال لبعضهم : أجز فقال :

* فحتّى متىٰ هذا الرَّواحُ مَعَ الغُدُوّ *

فقال مسلمة : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : اجز فقال :

* فيالك مَغْدًى مرَّةً ومَرَاحَا *

فقال : لم تصنع شيئا، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* وعَمَّا قليلٍ لا نَرُوحُ ولا نَغْدُو *

فقال : الآن تم البيت ، وأشباه ذلك ونظائره كثيرة . ومما آختلف فيه البيت الأوّل والثانى قول آبن هَرْمَةَ :

وإنِّى وتَرْكى ندَى الأكْرمِينْ * وقَدْحِى بِكَفِّىَ زَنْدًا شَحَاحَا

كتَاركةٍ بَيْضَهَا بالعَـــرَاء * ومُلْبِسَةٍ بيضَ أخرىٰ جَنَاحَا

وقول الفَرَزْدَقِ :

فإنَّكَ إذ تَهْجُو تميمًا وترتَشِى * سَرَابيلَ قَيْسٍ أو سُحُوفَ العَمائم

كَمُهْرِيقِ ماء بالفَلاةِ، وغَرَّهُ * سَرَابٌ أَذَاعَتْهُ رِياحُ السَّمائم

كان ينبغى أن يكون بيت آبن هَرْمَةَ الأوّلُ مع بيت الفرزدق الثـانى ، وبيتُ الفرزدق الأوّلُ مع بيت آبن هَرْمَةَ الثانى، فيقال فى الأوّل :

وإنى وتركى ندىٰ الأكرمين * وقدحى بِكَفِّيَ زَنْدًا شحـاحا

كمهريق ماءٍ بالفـلاة وغرّه * سراب أذاعته رياح السمائِمِ

مع تغيير إحدىٰ القافيتين، ويقال فى الثانى :

وإنك إذ تهجو تميما وترتشى * سرابيلَ قَيْسٍ أو سحوفَ العمائمِ

كتاركة بيضهـا بالعـــراء * وملبسة بيض أخرىٰ جنَاحا

مع تغيير إحدىٰ القافيتين حتّى يصح التشبيه للشاعرين جميعا .

المذهب الثالث ـ أن المراد بتنافر الكلمات أن تذكر لفظة أو ألفاظ يكون غيرها مما فى معناها أولىٰ بالذكر، فتجيء الكلمة غير لائقة بمكانها، وهو ما اصطلح عليه ابن الاثير فى "المَثَل السائر" . وهو علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ، ما يوجد منه فى اللفظة الواحدة فيمكن تبديله بغيره مما هو فى معناه، سواء كان ذلك الكلام نظما أو نثرا، وهو علىٰ أنواع شتّى .

منها فك الإدغام فى غير موضع فَكِّه، كقول ابن أمّ صاحب :

مَهْلًا أعاذلَ قد جَرَّبْتِ من خُلُقِي * أنى أجودُ لأقوام وإنْ ضَنِنُوا

ففكّ الإدغام فى ضننوا، وكان الأحسن أن يقال : وإن ضنوا أى بَخِلُوا .

وعلىٰ حدّ ذلك ورد قول المتنبي :

فلا يُبْرَمُ الأمرُ الذى هو حَالِلٌ * ولا يُحْلَلُ الأمرُ الذى هو يُبْرِمُ

فلو أدغم لجاءت اللفظة قارّة فى مكانها، غير قلقة ولا نافرة، وكذلك كل ما جاء علىٰ هذا النهج فلا يحسن أن يقال بَلَّ الثوبَ فهو بالل، ولا سَلَّ السيفَ فهو سالل، ولا هَمَّ بالامر فهو هامم، ولاخط الكتاب فهو خاطط، ولاحَنَّ إلىٰ كذا فهو حانن، وهذا لو عُرِض علىٰ من لاذوق له أدركه، فكيف من له ذوق صحيح كابى الطيب ؟ لكن لابدّ لكل جواد من كبوة .

ومنها زيادة حرف فى غير موضعه، كقول دِعْبِلٍ :

شفيعَك فاشكُرْ فى الحوائج، إنَّهُ * يَصُونُكَ عن مكروهها وهو يَخْلَقُ

فالفاء فى قوله فاشكر زائدة فى غير محلها، نافرة عن مكانها . قال الوزير ضياء الدين ابن الاثير : أنشدنى بعض الأدباء هذا البيت فقلت له : عجز هذا البيت حسن، واما صدره فقبيح : لأن سبكه قَلِقٌ نافر، والفاء فى قوله فاشكر كأنها رُكْبَةُ البعير،

وهى فى زيادتها كزيادة الكَرِش، فقال : لهذه الفاء فى كتاب الله تعالىٰ أشباه : كقوله تعالىٰ : ﴿يٰأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فقلت له بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أوّلا وبالذوق ثانيا، أما العلم فإن الفاء فى قوله تعالىٰ : "وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ" فهى الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله : "قُمْ فَأَنْذِرْ" وهى مثل قولك : ٱمْشِ فأسْرِع، وقلْ فأبْلِغْ، وليست الفاء التى فى قول دِعْبِلٍ : شفيعك فاشكر من هذا القبيل ، بل هى زائدة ولا موضع لها ، وإنما نسبتها أن يقال ربك أو ثيابك فطهر من غير تقدّم معطوف عليه(١)، وحاشا فصاحة القرءان من ذلك. فأذعن بالتسليم ورجع إلىٰ الحق . قال : ومثل هذه الدقائق التى ترد فى الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطَّن لها إلا الراسخُ فى علم الفصاحة .

ومنها وصل همزة القطع فى الشعر وإن كان ذلك جائزا فيــه بخلاف النثر كقول أبى تمَّـام :

قَرَانِى اللُّها والوُدَّ حتّٰى كأنَّمـا ✻ أفاد الغِنَى من نائلِى وفوَائِدِى
فأصْبَح يلْقانِى الزَّمانُ مِنَ ٱجْلِه ✻ بإعْظَامِ مــولُودٍ ورأفةِ والِدِ

فقوله من ٱجله بوصل همزة القطع من الكلام النافر، وعلىٰ حدّه ورد قول أبى الطَّيِّب :

يُوَسِّــطُهُ المَفَـاوِزَ كُلَّ يَوْم ✻ طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَاَا لِٱنْتِظَارُ

فقوله لا الٱنتظار بوصل همزة الانتظار كلام نافر .

ومنها قطع همزة الوصل فى الشعر أيضا وإن كان جائزا فيه كقول جميل :

أَلَا لَا أرىٰ إثْنَيْنِ أجمــلَ شِــيمَةً ✻ علىٰ حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنّى ومن جُمْلِ

---

(١) لم يذكر الثانى وقد ذكره فى " المثــل السائر " فقال . وأما الذوق فانه ينبوعن الفاء الواردة فى قول دعبل ويستثقلها ... الى أن قال فلمـا سمع ما ذكرته أذعن الخ .

وقوله أيضا :

إذا جَاوَزَ الإثْنين سِرٌّ فإنَّهُ * بِنَشْرٍ وتَكْثِيرِ الوُشَاةِ قَمِينُ

فقطع ألف الوصل فى لفظ الاثنين فى البيت الأوّل والثانى .

ومنها أن يفرّق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدّم ذكره كقول البُحْتُرِىّ :

حَلَفْتُ لهـا باللهِ يَوْمَ التفرُّقِ * وبالوجْدِ مِنْ قَلْبِى بها المُتَعَلِّقِ

تقديره من قلبى المتعلق بها، فلما فصل بين الموصوف الذى هو قلبى والصفة التى هى المتعلق بالضمير الذى هو بها ، قَبُحَ ذلك . ولو قال من قلب بهـا متعلق لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهُجْنة . ونحو ذلك .

الأصــــل الرابع

(المعرفة بالسجع الذى هو قِوام الكلام المنثور وعُلوّ رتبته، ويتعلق به ستة أغراض)

الغرض الأوّل

(فى معرفة معناه فى اللغة والاصطلاح، وبيان حكمه فى حالتى الدرج والوقف)

اما فى اللغة فقال فى "موادّ البيان" : إنه مشتق من الساجع : وهو المستقيم لاستقامته فى الكلام، واستواء أوزانه . وقيل من سجع الحمامة: وهو ترجيعها الصوت علىٰ حدٍّ واحد، يقال منه سَجَعَتِ الحمـامةُ تَسْجَعُ سَجْعا فهى ساجعة ؛ سمِّى السجع فى الكلام بذلك لأن مقاطع الفصـول تأتى علىٰ ألفاظ متوازنة متعادلة ، وكلمـات متوازية متمـاثلة . فأشبه ذلك الترجيعَ .

وأما فى الاصطلاح، فقال فى "موادّ البيان" : هو تقْفِيَة مقاطع الكلام من غير وزن، وذكر نحوه فى "المثل السائر" فقال : هو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور علىٰ حرف واحد؛ ويقال للجزء الواحد منه سجعة ، وتجمع علىٰ سَجَعَاتٍ ، وفِقْرَةٍ (بكسر

الفاء) أخذا من فِقْرَةِ الظهر : وهى إحدىٰ عظام الصُّلْبِ، وتجمع علىٰ فِقَرٍ وفِقْرات بكسر الفاء وسكون القاف وفتحها ، وربمـا فتحت الفاء والقاف جميعا ، ويقـال لهـا أيضا قَرِينـة لمقارنة أختها وتجمع علىٰ قرائنَ ، ويقال للحرف الأخير منها حرف الرَّوِىّ والفاصلة .

وأما بيـان حكمه فى الوقف والدّرج فآعلم أن موضوع حكم السـجع أن تكون كلمات الأسجاع ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها بالسكون فى حالتى الوقف والدّرج: لأن الغرض منها المناسبة بين القرائن ، أو المزاوجة بين الفِقَر، وذلك لايتم إلا بالوقف. ألا ترىٰ أن قولهم : ما أبْعَدَ مافات ، وما أقْرَبَ ماهوآت ، لو ذهبت تصل فيه لم يكن بدّ من إعطاء أواخر القرائن ما يعطيـه حكم الإعراب فتختلف أواخرُ القرائن ويفوت الساجع غرضُه .

الغرض الثانى

(فى بيان حُسْن موقعه من الكلام)

قال فى "الصناعتين" : لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتّى يكون مُزْدَوِجًا ، ولا تجد لبليغ كلاما محلولا من الآزدواج، وناهيك أن القرءان الكريم الذى هو عنصرُ البلاغة ومَنَاطُ الإعجاز مشحونٌ به ، لاتخلو منه سورة من سُوَرِهِ وإن قَصُرتْ. بل ربمـا وقع السجع فى فواصل جميع السورة ، كما فى سورة النجم، وآقتربت، والرحمن وغيرها من السُّوَر . بل ربمـا وقع فى أوساط الآيات، كقوله تعالىٰ : ﴿الَّذى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وقوله : "لَوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ" وقوله : "وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ" وما أشبه ذلك . وكذلك وقع فى الكثير من كلام رسول الله صلى الله عليه وسـلم كقوله عليه السلام

عند قدومه المدينة الشريفة : "أَفْشُوا السَّلام، وأَطْعِمُوا الطَّعَام، وصِلُوا الأرْحام، وصَلُّوا باللَّيْل والنَّاسُ نِيَام، تَدْخُلوا الجنَّةَ بسَلَام". بل ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها فى تصريف اللغة طلبا للمزاوَجَة : كقوله فى تعويذه لآبن آبنته : "أُعِيذُه مِنَ الهـامَّة والسامَّه، والعَيْنِ اللَّامَّه" وأصلها فى اللغة المُلِمَّة لأنها من أَلَمَّ، فعبر عنها باللامة لموافقة الهامَّة والسامَّة ؛ وكذلك قوله صـلى الله عليه وسلم للنساء : "آنْصَرِفْنَ مَأْزُورات غَيْرَ مَأْجُورات" والأصـل فى اللغة أن يقال مَوْزُورات أخذا من الوِزْر، فعبر بمأزورات لموافقة مأجورات ؛ وعلىٰ ذلك كان يجرى كلام العرب فى مُهِمّ كلامهـم من الدعاء وغيره : كقول بعض الأعراب وقد ذهب السـيل بابنـه : اللهم إن كُنْتَ قد أَبْلَيْتَ ، فطَالَمـا عافَيْت . وقول الآخر : اللهم هَبْ لنا حبك ، وأرْضِ عنا خلقك، ونحو ذلك . أما ماورد من أنه صـلى الله عليه وسلم حين قضى علىٰ رجل فى الجَنِين بغرّة عبدٍ أو أمةٍ، فقال الرجل : أَأَدِى من لاشَرِب ولا أكل ؛ ولا نَطَقَ ولا آستَهَل، ومثل ذلك يُطَل . فقال النبى صلى الله عليه وسلم "أسجعا كَسَجْع الكُهَّان " فليس فيه دلالة علىٰ كراهة السجع فى الكلام وإن تمسك به بعض من نَبَا عن السجع طَبعُه ، ونفرت منه قريحته . إذ يحتمل أنه صـلى الله عليه وسلم إنمـا كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه حينئذ سجعَ الكُهَّان، لمـا فى سجعهم من التكلُّف والتعسُّف كما وجهه أبو هلال العسكرى ، وإما لجريانه علىٰ عادتهم فى الجواب فى الأحكام وغيرها بالكلام المسجوع كما وجهه غيره ؛ أو أنه إنمـا كره حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع بانكار إيجاب الدية لا نفس السجع المأتى به كما آختاره صاحب "المَثَـل السائر" ولو كره صلى الله عليه وسلم السجع نفسَه، لآقتصر علىٰ قوله أسجعا ولم يقيده بسجع الكُهَّانِ .

الغرض الثالث

(فى بيان أقسام السجع ، وهى راجعة إلىٰ صنفين)

الصـــنف الأول

(أن تكون القرينتان متفقتين فى حرف الرَّوِىّ، ويسميه الرُّمَّانِىُّ السجع الحالِى وعليه عمل أكثر الكُتَّاب من زمن القاضى الفاضل، وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا؛ وفيه ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ ـ أن تكون ألفاظ القرينتين مستوية الأوزان متعادلة الأجزاء ويسمّى التصريع، وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها . ومنه فى النثر قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ ، وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى دعائه : " اللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِى، وَاغْسِلْ حَوْبَتِى". وقوله للأنصار" إنكم لتَكْثُرُونَ عند الفَزَع، وتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَع" وقول بعض الأعراب فى وصف سنةٍ جَدْبة : سنة جَرَدَتْ، وحالٌ جَهَدَتْ، وأيدٍ جمدت، ونحو ذلك . ومثاله فى النظم قول الخنساء :

حَامِى الحقيقةِ، محمودُ الخليقة، مهـ * ـدِىُّ الطريقـةِ ، نَفَّاعٌ وضَرَّارُ !

جوّاب قاصيـةٍ ، جَزَّازُ ناصـية، * عـدّاد ألوية، للخيـل جرّارُ !

المرتبة الثانية ـ أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفِقْرتين فقط ، دون ماعداهما من سائر الألفاظ، كقوله تعالىٰ : ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ ثم قال : ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ﴾. وكقول الحريرىّ فى مقاماته : أَلْجَأَنِى حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطٌ، إلىٰ أن أَنْتَجِعَ أرضَ وَاسِط. وقوله : وأَوْدَىٰ الناطقُ والصَّامت، ورَثَىٰ لنا الحاسدُ والشَّامِت، وما أشبه ذلك .

المرتبة الثالثة — أن يقع الاتفاق فى حرف الرَّوِىّ مع قطع النظر عن التوازُن فى شىءٍ من أجزاء الفِقْرة فى آخرٍ ولا غيره، ويسمّى المطرّف . كقوله تعالىٰ : ﴿مَالَكُمْ لَاتَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ وقولهم : جَنابه مَحَطُّ الرِّحال، ومُخَيَّمُ الآمال. وما يجرى هذا المَجْرىٰ .

الصنف الثانى

(أن يختلف حرف الرَّوِىّ فى آخر الفِقْرتين، وهو الذى يعبرون عنه بالازدواج . والرُّمانىّ يسميه السَّجْع العاطل، وعليه كان عملُ السلف من الصحابة ومَن قارب زمانهم : وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أن يقع ذلك فى النثر : وفيه مرتبتان)

المرتبة الأولىٰ — أن يراعىٰ الوزن فى جميع كلمات القَرِينتين أو فى أكثرها، مع مقابلة الكلمة بما يُعادلها وَزْنا ، ويسمّى التوازُن وهو أحسنها وأعلاها . كقوله تعالىٰ: "وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ"وكقول الحريرىّ: اسْودّ يومى الأبيض، وٱبْيَضَّ فَوْدِى الأَسْوَد .

المرتبة الثانية — أن لا يُراعىٰ التوازُنُ إلا فى الكلمتين الأخيرتين من القَرِينتين فقط، ويسمّى التوازنَ أيضا ، ومنه قوله تعالىٰ : " وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ " وقولهم : اِصْبِرْ علىٰ حَرِّ القِتال ، ومَضَضِ النِّزَال، وشِدّة النِّصَاع، ومُداوَمة البِرَاز ، وما أشبه ذلك .

الضرب الثـانى
(السَّجْع الواقع فى الشِّـــعر)

ويسمّى التصريعَ فى البيت الأوّل ، ومحل الكلام عليه علمُ البديع . وقد ذكره فى "المثل السائر" فى أعقاب الكلام علىٰ السجع فى الكلام المنثور، وجعله علىٰ سبع مراتب .

المرتبة الأولىٰ ــ وهى أعلاها درجةً ــ أن يكون كل مصراع من البيت مستقلًّا بنفسه، غيرَ محتاج إلىٰ مايليه؛ ويسمّى التصريعَ الكاملَ : كقول آمرئ القيس :

أَفَاطِمَ مَهْلًا بعضَ هــــذا التَّــدَلُّلِ * وإن كُنْتِ قد أَزْمَعْتِ هَجْرِى فأَجْمِلِى

فإن كل مصراع من البيت مفهوم المعنىٰ بنفسه، غير محتاج إلىٰ مايليه فى الفهم، وليس له به آرتباط يتوقف عليه .

المرتبة الثانية ــ أن يكون المِصْراع الأوّل مستقلًّا بنفســه ، غير محتاج إلىٰ الذى يليه إلا أنه مرتبط به، كقول آمرئ القيس أيضا :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرىٰ حَبِيبٍ ومَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللِّوىٰ بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فإنّ المِصْراع الأوّل منــه غير محتاج إلىٰ الثـانى فى فهم معناه ، ولكنه لمـا جاء الثانى صار مرتبطا به .

المرتبة الثالثة ــ أن يكون الشاعر مخيَّرا فى وضع كل مصراع موضع الآخر، ويسمّى التصريع المُوَجّه، كقول آبن حَجّاج :

مِنْ شُرُوطِ الصَّبُوحِ فى المَهْرجَانِ * خِفَّـةُ الشُّرْب مع خُلُوِّ المَكَانِ

فإنه لو جعل المِصْراع الثانى أوّلا والآخر ثانيا، لساغ له ذلك .

المرتبة الرابعة ــ أن يكون المِصْراع الأوّل غيرَ مستقلّ بنفسه، ولا يُفْهَم معناه إلا بالثانى؛ ويسمّى التصريعَ الناقصَ، وليس بمستحسَن . كقول المتنبى :

مَغَانِى الشِّعب طيبًا فى المَغَانِى * بمَنْزِلَةِ الربيع منَ الزَّمَانِ

فإنّ المِصْراع الأوّل لايستقلّ بنفسه فى فهم معناه دون المِصْراع الثانى .

المرتبة الخامسة ــ أن يكون التصريعُ فى البيت بلفظة واحدة فى الوسط والقافية، ويسمّى التصريعَ المكررَ؛ ثم اللفظة التى يَقَع بها التصريع قد تكون حقيقةً لا مجازَ فيها، كقول عبيدِ بن الأبرص :

وكُلُّ ذِى غَيْبةٍ يَئُوبُ * وغائبُ الموتِ لا يَئُوب

وقد تكون اللفظة التى يَقَع بها التصريع مجازيَّة كقول أبى تمَّامٍ الطائىّ :

فَتًى كانَ شِرْبًا للعُفَاةِ ومَرْتَعَا * فأصبحَ للهِنْدِيَّةِ البِيضِ مَرْتَعَا

المرتبة السادسة ــ أن يكون المصراع الأوّل معلَّقا علىٰ صفة يأتى ذكرها فى أوّل المصراع الثانى؛ ويسمّى التصريع المعلَّق . كقول آمرئ القيس :

أَلَا أيُّها الليلُ الطَّويلُ ألا ٱنجَلِى * بِصُبْحٍ وما الإِصْباحُ فيك بأمْثَلِ

فإن المصراع الأوّل معلق علىٰ قوله بصُبْحٍ، وهو مستقْبَح فى الصنعة .

المرتبة السابعة ــ أن يكون التصريع فى البيت مخالِفًا لقافيته؛ ويسمّى التصريعَ المشطورَ، وهو أنزل درجات التصريع وأقبحُها . كقول أبى نُوَاسٍ :

أَقِلْنِى قَدْ نَدِمْتُ علىٰ الذُّنوبِ * وبالإقرارِ عُذْتُ من الجُحُودِ

فإنه قد صَرَّع فى وسط البيت بالباء ثم فى آخره بالدال .

قلت وإنما أوردت هذا الصنف مع السجع وإن كان من خصوصيات الشعر لأنه قد يَقَع مثله فى النثر إذ الفِقْرة من النثر كالبيت من الشعر، فالفقْرتان كالبيتين، وأيضا فإن الشعر من وظيفة الكاتب :

الغرض الرابع

(فى معرفة مقادير السَّجعات فى الطُّول والقِصَر، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(السَّــجَعات القِصَـار)

وهى ماصيغ من عشرة ألفاظ فما دونها، قال فى "حسن التوسل": وهى تدل علىٰ قوّة التمكن وإحكام الصنعة، لا سيما القصير منها للغاية، وأقل مايكون من لفظتين كقوله تعالىٰ: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ وما أشبه ذلك، وأمثاله فى القرءان الكريم كثير إلا أن الزائد علىٰ ذلك أكثر. كقوله تعالىٰ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوىٰ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ﴾ وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ونحو ذلك.

الضرب الثـانى

(الســجعات الطِّوال)

قال فى "حسن التوسل": وهى ألَذُّ فى السمع، يتشوّق السامع إلىٰ مايرد مترايدا علىٰ سمعه، وأقلُّ ما تتركب من إحدىٰ عشرة كلمة فما فوقها، وغالب ما تكون من خمس عشرة لفظة فما حولها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ فالأُولىٰ من إحدىٰ عشرةَ لفظة، والثانية من ثلاث

عشرَة لفظة ، وقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَاإِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ فالأُولىٰ من أربعَ عشرةَ لفظة ، والثانية من خمسَ عشرةَ ، وقوله : ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فالأُولىٰ عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرةَ ، وهذا غاية ما آنتهىٰ إليه الطُّول فى القرءان الكريم . وينبغى أن يكون ذلك نهاية الطول فى السجع وقوفًا مع ماورد به القرءان الكريم الذى هو أفصح كلام، وأقوَمُ نظام، وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى وغيرهما، قد صرحوا بأنه لاضابط لأكثره .

وآعلم أنه قد جرتْ عادة كُتَّاب الزمان ومصطَلَحُهم أن تكون السجعة الأولىٰ من آفتتاح الولاية من تقليد أو توقيع أو غير ذلك قصيرةً بحيث لايتعدّىٰ آخرها السطر الثانى فى الكتابة ليقع العلم بها بمجرّد وقوع النظر علىٰ أوّل المكتوب . وعلىٰ هذا فيختلف القِصَرُ فيها باختلاف ضيق الورق وسعته فى العرض .

الغرض الخامس

(فى ترتيب السجعات بعضِها علىٰ بعض فى التقديم والتأخير باعتبار الطول والقصر، وله حالتان)

الحالة الأُولىٰ

(أن لايزيد السجع علىٰ سجعتين، وله ثلاث مراتب)

المرتبة الأُولىٰ ــ أن تكون القرينتان متساويتين لاتزيد إحداهما على الأُخرىٰ كقوله تعالىٰ : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ وقوله : ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ وأمثال ذلك.

المرتبة الثانية ـ أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولىٰ بقَدْر يسير كقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فالأولىٰ ثمان كلمات ، والثانية تسع ونحو ذلك ؛ أما إذا طالت الثانية عن الأولىٰ طولا يخرج عن الاعتدال، فإنه يستقبح حينئذ ، ووَجَّهَهُ فى "حسن التوسل" بأنه يُبْعِد دخول القافية علىٰ السامع فيقلّ الالتذاذ بسماعها . والمرجع فى قدر الزيادة والقِصَر إلىٰ الذوق .

المرتبة الثالثة ـ أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأُولىٰ. قال فى "المثل السائر": وهو عندى عيب فاحش ، لأن السمع يكون قد استوفىٰ أَمَدَه من الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يجىء الفصل الثانى قصيرا فيكون كالشىء المبتور، فيبقىٰ الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلىٰ غاية فيعثرُ دُونها ؛ وفيما قاله نظر، فقد تقدّم فى قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ﴾ الآيتين أن الأولىٰ عشرون كلمة والثانية تسع عشرة، بل قد اختار تحسين ذلك أبو هلال العسكرىّ فى "الصناعتين" محتجًّا له بكثرة وروده فى كلام النبوّة كقوله صلى الله عليه وسلم للأنصار : " إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الفَزَعِ ، وَتقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ " وقوله : " المُؤْمِنُون تَتَكَافَؤُ دِماؤُهم ، وهم يَدٌ علىٰ مَنْ سِوَاهم " وقوله : " رَحِمَ اللهُ من قال خيرا فَغَنِم ، أو سَكَتَ فسَلِم " .

الحالة الثانيــــة

(أن يزيد السجع علىٰ سجعتين . ولهـا أربع مراتب)

المرتبة الأُولىٰ ـ أن يقع علىٰ حدّ واحد فى التّساوى ، وهو مستحْسَن ، وقد ورد فى القرءان الكريم بعض ذلك كقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ فهذه السجعات الثلاث مركبة من لفظتين لفظتين .

المرتبة الثانية ـ أن تكون الأولىٰ أقصر والثانية والثالثة متساويتين كقوله تعالىٰ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ فالأولى من ثمان كلمات، والثانية والثالثة من تسع تسع .

المرتبة الثالثة ـ أن تكون الأُولىٰ والثانية متساويتين، والثالثة زائدة عليهما؛ وقد أشار إلىٰ هذه المرتبة فى "حسن التوسل" حيث قال : فإن زادت القرائن علىٰ آثنتين فلا يضر تساوى القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة، ولم يمثّل لها .

المرتبة الرابعة ـ أن تكون الثانية زائدة علىٰ الأولىٰ، والثالثة زائدة علىٰ الثانية. قال فى "المثل السائر" : وينبغى أن تكون فى هذه الحالة زيادة الثالثة متميزة فى الطول علىٰ الأولىٰ والثانية أكثر من تميز الثانية علىٰ الأولىٰ . ثم قال : فإذا كانت الأُولىٰ والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدىٰ عشرة لفظة، ومثّل له فى "حسن التوسل" بقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ فالأولىٰ من ثمان كلمات ، والثانية من تسع ، والثالثة من عشر، ومثل له فى "المثل السائر" بقوله فى وصف صديق : فقلت : الصديق مَنْ لم يَعْتَضْ عنك بخالف، ولم يُعامِلْكَ معاملة الحالف، وإذا بَلَغَتْه أُذُنُه وشايةً أقام عليها حدَّ السارق أو القاذف؛ فالأولىٰ : وهى لم يعتض عنك بخالف والثانية بعدها أربع كلمات ، والثالثة عشر كلماتٍ . ثم قال : وينبغى أن يكون مايستعمل من هذا القبيل، فإن زادت الأولىٰ والثانية علىٰ هذه العدّة زادت

الثالثة بالحساب، وإن نقصت الأولى والثانية، فكذلك . لكن قد ضبط فى "حسن التوسل" الزيادة فى الثالثة بأن لاتجاوز المِثْل، والأمر فيما بين الضابطين قريب، ولا يخفى حكم الرابعة فى الزيادة مع الثالثة . قال فى "حسن التوسل": ولا بدّ من الزيادة فى آخر القرائن .

الغرض السادس

(فيما يكون فيه حسن السجع وقبحه)

أما حسنه ، فيُعتبر فيه بعد ما يقع فيكون به تحسين الكلام من أصناف البديع ونحوها بأمور أخرى .

منها أن يكون السجع بريئا من التكلف، خاليا من التعسف، محمولا على مايأتى به الطبع وتُبْديه الغريزة ، ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنى، بأن يُقْتَصر من اللفظ على ما يُحتاج إليه فى المعنى دون الإتيان بزيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع ، حتّى لو حصلت زيادةٌ أو نقص بسبب السجع دون المعنى، خرج السجع عن حيِّز المدح إلى حيز الذم .

ومنها أن تكون الألفاظ المسجوعة حُلوةً حادّة، لاغَثَّة ولا باردة، مُونَقَةَ المعنى، حَسَنة التركيب، غيْرَ قاصرة على صورة السجع الذى هو تواطؤ الفِقَرِ ، فيكون كمن نقش أثوابا من الكُرْسُف ، أو نظم عِقْدا من الخَرَزِ الملون . قال فى "المَثَلِ السائر": وهـذا مقام تَزِلُّ عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . قال : ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا، ولولا ذلك كان كل أديب سَجَّاعًا إذ مامنهم من أحد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة فى الجملة .

ومنها أن تكون كلُّ واحدة من الفِقْرتين المسجوعتين دالّة علىٰ معنى غير المعنىٰ الذى دلّت عليه أختها ، لأن ٱشتمال السجعتين علىٰ معنى واحدٍ يمكن أن يكون فى إحداهما بمفردها هو عين التطويل المذموم فى الكلام ، وهو الدلالة علىٰ المعنىٰ بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها علىٰ ماهو مقرّر فى علم البيان . قال فى "المَثَل السائر" : فلا يكون مثْلَ قول الصابى فى وصف مُدَبِّر : "يسافر رأيُه وهو دان لم ينْزَح ، ويسير تدبيرُه وهو ثاوٍ لم يَبْرَحْ" ولو قال : يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ، ويُثْخِنُ الجِراح فى عدوّه وسيفُه فى الغِمْد لم يجرح ، لَسَلِمَ من هُجْنَةِ التكرار : فإنه تصير كل سجعة محتوية علىٰ معنًى بحياله .

ومنها أن يقع التحسين فى نفس الفواصل ، كقولهم : إذا قَلَّتِ الأنصار ، كَلَّت الأبصار ، وقولهم : ماوراءَ الخَلْقِ الدَّميم ، إلّا الخُلُقُ الذميم ، ونحو ذلك .

ومنها أن يقع فى خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعا فى سجع ، كقوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وقوله : ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ فإن قوله : ﴿علىٰ أموالهم﴾ وقوله : ﴿علىٰ قلوبهم﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وقوله : ﴿بآخذيه﴾ وقوله : ﴿تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها : ﴿غَنِىٌّ حَمِيد﴾ وعدّ العسكرىّ منه قولهم : عاد تَعْرِيضُك تصريحا ، وتَمْرِيضُك تَصْحيحا .

وأما قبحه فيعتبر بأمور .

منها التجميع ، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأوّل بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى كما حكىٰ قُدَامَةُ : أن كاتبا كتب فى جواب كتاب ، وصل كتابك فوصل به

ما يَسْتَعْبِدُ الحرّ، وإن كان قديمَ العبودية، ويَسْتَغرِقُ الشكرَ؛ وإن كان سالف فضلك لم يُبْقِ شيئا منه؛ فإن العبودية بعيدة عن مشاكلة منه .

ومنها التطويل ، فيما ذكر قَدَامَةُ وغيرُه : وهو أن يجيء الجزء الأوّل طويلا فيحتاج إلىٰ إطالة الثانى بالضرورة . كما حكىٰ قُدَامَةُ أن كاتبا كتب فى تعزية : إذا كان للمحزون فى لقاء مِثْلِه كبيرُ الراحة فى العاجل، وكان طويل الحُزْنِ راتبا إذا رجع إلىٰ الحقائق وغيرَ زائل . قال فى "الصناعتين" : وذلك أنه لما أطال الجزء الأوّل ، وعَلِمَ أن الجزء الثانى ينبغى أن يكون مثله أو أطول، ٱحتاج إلىٰ تطويل الثانى فأتىٰ باستكراه وتكلف . قال فى "موادّ البيان" والإطالة بقوله وغير زائل . .

الأصل الخامس

(حسن الآتباع، والقدرة علىٰ الآختراع)

وٱعلم أن لكاتب الإنشاء مسلكين :

المسلك الأوّل

(طريقــة الآتبـاع)

وهى نظر الكاتب فى كلام من تقدّمه منَ الكُتَّابِ ، وسلوك منهجهم ، وٱقتفاء سبيلهم، وسماها ٱبن الأثير التقليدَ؛ وهى علىٰ صنفين .

الصنف الأوّل

(الآتبـاع فى الألفـاظ)

وهو ٱعتماد الكاتب علىٰ ما رتبه غيره من الكُتَّابِ، وأنشأه سواه من أهل صناعة النثر، بأن يَعْمِدَ إلىٰ ما أنشأه أفاضلُ الكُتَّابِ ورتبه علماء الصناعة : من نثر أو نظم فيأخذه برُمَّته، ويأتِى عليه بصيغته؛ وغايته أن يكون ناسخا ناقلا لكلام غيره، حاكيا

له . ولمثل ذلك توضع الدساتير ، وتدوّن الدواوين . على أنه ربما غيّر وبدّل، وحرّف وصحّف ، وأزال اللفظ عن وضعه ؛ وأحال المعنى عن حكمه . وبعضهم ربما حملته الأنفة والخوف من أن يقال أخذ كلام فلان برمّته ، فعدل إلى كلام غيره، فالتقط من كل مكان سجعتين أو سجعات، ورتب بعضها على بعض حتّى تقوم بمقصوده، وينتهى إلى مراده .

فإن كان لطيفَ الذوق ، حسَنَ الاختيار ، رائق الترتيب ، فاختار من خلال السجع لطيفَه ، وأحسن رَصْفَهُ وتأليفه ، جاء بَهِجًا رائقا . لأنه أتى من كل كلام بأحسنه ، إلا أن فيه إخراجَ الكلام عن وضعه الذى قصده الناثر، وتفريقَ مادُوّن من كلام الأفاضل، وتبديدَ شمله، وخروجَ الكلام عن أن يُعْرَفَ قائلُه، ويعلم منشئه، فيقعَ من القلوب بمكان صاحبه ويهتدى بهديه، وينسج على منواله .

وإن لم يكن لطيف الذوق، ولا حَسَن الاختيار، جاء مالَفّقَهُ من كلام غيره رَثًّا ركيكا، نابيًا عن الذوق، بَعِيدا عن الصنعة، يُعاد من النسخ إلى المسخ، وأخرج الكلام عن موضوعه، وأفسده فى وضعه وتركيبه . فإن صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامّة الكبرى، والمُصيبة العظمى . ثم لايكتفى بذلك حتّى يتبجح به، ويعتقد أن ذلك عين الإنشاء وحقيقته، محتجا فى ذلك بقول الحريرى: "إن صِناعةَ الحِسَابِ موضوعةٌ على التحقيق، وصناعةَ الإنشاء مبنية على التلفيق". ظانًّا أن التلفيق هو ضم سجعات منتظمة، وفِقَرات مؤلَّفة بعضها إلى بعض . ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلى أختها، وإضافة كلمة إلى مشاكِلتها . وشتّانَ ما بين التلفيقين، وبُعْدًا لما بين الطريقين :

وللزُّنْبُورِ والبَازِى جميعًا * لَدَى الطَّيرانِ أَجْنِحَةٌ وخَفْقُ
ولٰكِنْ بَيْنَ ما يَصْطَادُ بَازٍ * وَمَا يَصْطَادُهُ الزُّنْبُورُ فَرْقُ

وقد عابوا أخذ المعنىٰ إذا كان ظاهرا مكشوفا فما ظنك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصيرُ ناسخا لكلام غيره، وناقلا له؟ فأىّ فضيلة فى ذلك؟ وقد قيل من أخذ معنىً بلفظه كان سارقا، ومن أخذ بعض لفظه كان سالخا، ومن أخذه فكساه لفظا من عنده كان أولىٰ به ممن تقدمه، وأين من هو أولىٰ بالشىء ممن سبقه إليه ممن يُعَدّ سارقا وسالخا؟ ويقال إن أبا عُذْرَةِ الكلام مَنْ سبك لفظه علىٰ معناه . ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب . هذا فيمن أخذ سجعة أو سجعتين فى خطبة أو رسالة، أو بيتا أو بيتين فى قصيدة وما قارب ذلك؛ أما من أخذ القصيدة بكمالها، أو الخطبة أو الرسالة برُمَّتِهَا، أو لَفَّقها من خطب أو رسائلَ فذاك إنما يعدّ ناسخا إن أحسن النقل، أو ماسخا إن أفسده .

وٱعلم أن الناثر الماهر والشاعر المُفْلِقَ قد يأتى بكلام سبقه إليه غيره، فيأتى بالبيت من الشعر أو القرينةِ من النثر أو أكثر من ذلك بلفظ الأول من غير زيادة ولا نقصان، أو بتغيير لفظ يسير، وهذا هو الذى يسميه أهل هذه الصناعة وقوع الحافر علىٰ الحافر . وقد سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان علىٰ لفظ واحد ومعنى، فقال : عقول رجال توافت علىٰ ألسنتها .

والواقع من ذلك فى كلامهم علىٰ قسمين .

القسم الأوّل

(ما وقع الاتفاق فيه فى المعنىٰ واللفظ جميعا)

كقول الفَرَزْدَق :

وغُرٍّ قد وَسَقْتُ مُشَمَّراتٍ * طوالِعَ لا تُطِيقُ لها جَوَابا
بكُلِّ ثَنِيَّــةٍ وبكُلِّ ثَغْــرٍ * غَرائِبُهُنَّ تَنْتَسِبُ ٱنْتِسابا
بَلَغْنَ الشمسَ حِينَ تكون شرقا * ومَسْقَطُ رأسِها من حيثُ غابا

ووافقه جرير فقال مثل ذلك من غير زيادة ولا نقص . ويروى أنّ عُمَر بن أبي ربيعة أنشد ٱبن عباس رضى الله عنه :

* تَشُــطُّ غَدًا دارُ جيرانِنـا *

فقال ٱبن عباس رضى الله عنه :

* ولَلدَّارُ بَعْـدَ غدٍ أبعَـدُ *

فقال عمر: والله ماقلتُ إلا كذلك. قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين": وأنشدت الصاحب إسماعيل بن عَبَّادٍ رحمه الله :

* كانت سَرَاةُ الناس تَحْتَ أَظَلِّهِ *

فسبقنى وقال :

* فَغَدَتْ سراةُ النـاسِ فوق سَرَاتِهِ *

وكذلك كنتُ قُلْتُ . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى كتابه "المَثَل السائر" : ويحكى أن آمرأة من عُقَيل يقال لهـا ليلىٰ، كان يتحدّث إليها الشَّبَابُ ، فدخل الفَرَزْدَقُ إليها وجعل يحادثها ، وأقبل فتًى من قومها كانت تَأْلَفُهُ فدخل إليها فأقبلت عليه وتركت الفَرَزْدَقَ، فغاظه ذلك فقال للفتىٰ : أتصارِعُنى ؟ فقال : ذاك إليك ، فقام إليه فلم يلبَثْ أن أخذ الفَرَزْدَقَ فصرَعه وجلس علىٰ صـدره فضَرط، فوثب الفتىٰ عنه وقال ياأبا فِرَاسٍ : هذا مَقَام العائذ بك ، والله ما أردت ماجرىٰ ، قال : ويحك ! والله ما بى أنك صرعتِنى ولكن كأنِّى بابن الأتان،(يعنى جريرا)وقد بلغه خبَرِى، فقال يهجونى :

جَلَسْتَ إلىٰ ليلىٰ لِتَحْظىٰ بِقُرْبِهَا * فخـانك دُبْرٌ لا يزالُ يَخُونُ
فلو كنتَ ذَا حَزْمٍ شَدَدْتَ وِكَاءَهُ * كَمَا شَـدَّ جُرْبَانَ الدِّلَاص قُيُونُ

فما مضى إلا أيام حتى بلغ جريرًا الخبر، فقال فيه هذين البيتين . قال :
وهذا من أغرب مايكون فى هذا الموضع وأعجبه! قال فى "الصناعتين" : وإذا كان القوم فى قبيلةٍ واحدة، فى أرض واحدة، فإن خواطرهم تقع متقاربةً، كما أن أخلاقهم وشمائلهم تكون متضارعة . قال فى "المثل السائر" : ويقال إن الفَرَزْدَق وجريرا كانا ينطِقان فى بعض الأحوال عن ضمير واحد . قال : وهذا عندى مستبعَد، فإن ظاهر الأمر يدل على خلافه، والباطن لايعلمه إلا الله تعالى، وإلا فإذا رأينا شاعرا متقدّم الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده، علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه . وهب أن الخواطر تتفق فى ٱستخراج المعانى الظاهرة المتداولة، فكيف تتفق الألسنة أيضا فى صوغ الألفاظ ؟ وكلام العسكرى فى "الصناعتين" يوافقه بالعَتْبِ على المتأخر، وإن ٱدّعى أنه لم يسمع كلام الأوّل فى مثل ذلك .

القسم الثانى

(ماوقع الاتفاق فيه فى المعنى وبعض اللفظ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(ما ٱتفق فيه المعنى وأكثرُ اللفظ)

كقول ٱمرئ القيس :

وُقُوفًا بها صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهم * يقولون : لاتَهْلِكْ أَسًى، وتَجَمَّلِ

وقول طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بها صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهم * يقولون : لاتَهْلِكْ أَسًى، وتَجَلَّدِ

فالتخالف بينهما فى كلمة القافية فقط .

وقول البَعيث :

أَتَرْجُو كُلَيْبُ أن يَجِيء حَدِيثُها * بِخَيْرٍ، وقد أعْيَا كُلَيْباً قَدِيمُهَا ؟

وقول الفَرَزْدَق :

أَتَرْجُو رَبِيعُ أن تجِيء صِغَارُهَا * بِخَيْرٍ وقد أَعْيا رَبِيعًا كِبَارُها ؟

فالتخالف بينهما فى موضعين من البيت ، كلمة القافية وآسم القبيلة .

وقول بعض المتقدّمين يمدح مَعْبَدًا صاحبَ الغِنَاء :

أجادَ طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعدَه * وما قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلا لِمَعْبَدِ

وقول الفَرَزْدَق بعده :

مَحَاسِنُ أصنافِ المُغَنِّينَ جملةٌ * وما قَصَبَاتُ السَّبْق إلا لِمَعْبَد

فاتفقا فى النصف الثانى، وآختلفا فى النصف الأوّل . إلىٰ غير ذلك من الأشعار التي وقعت خواطرُ الشعراء عليها، وتوافقت عقولهم عندها .

الضرب الثانى

(ما آتفق فيه المعنىٰ مع يسير اللفظ؛)

فمن ذلك قول البُحْتُرِىّ فى وصف غلام :

فوق ضَعْفِ الصغيرِ إنْ وُكلَ الأمـ * ـرُ إليه، ودُونَ كَيْدِ الكِبَارِ

أخذه من قول أبى نُوَاسٍ :

لم يَجْفُ من كِبَرٍ عما يُرَادُ به * من الأمور، ولا أزرىٰ به الصِّغَرُ

وقول أبى تَمَّامٍ :

ولم أمدَحْك تفخيما بِشِعْرِى * ولٰكنِّى مدحتُ بك المَدِيحَا

أخذه من قول حسانَ بن ثابت ، يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم :

ماإنْ مَدَحْتُ محمدًا ! بمَقالَتِي * لكِنْ مَدَحْتُ مَقالَتِي بمحَمَّد !

وقول أبي الطَّيِّب :

أين أزْمعتَ أيُّهـاذا الهُـمَامُ * نحْنُ نَبْتُ الرُّبَا،وأنت الغَمَامُ

أخذه من قول بَشَّارٍ :

كأنَّ الناسَ حين تَغِيبُ عَنْهُم * نباتُ الأرضِ أخطأه القِطَارُ

الصنف الثـانى
(التقليـــد فى المعـانى)

وهذا مما لايَسْتغنى عنه ناظم ولا ناثر . قال أبو هلال العسكرىّ رحمه الله فى كتابه "الصناعتين" : ليس لأحد من أصناف القائلين غِنًى عن تناول المعانى ممن تقدّمهم والصَّبِّ علىٰ قوالب مَنْ سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها ، أن يكسوها ألفاظا من عندهم، و يبرزوها فى معارضَ من تأليفهم،و يوردوها فى غير حِلْيتها الأُولىٰ، و يزيدوا عليها فى حسن تأليفها وجَوْدَةِ تركيبها، وكمال حليتها ومعرضها ، فإذا فعـلوا ذلك فهم أَوْلىٰ بها ممن سـبق إليها . قال : ولولا أن القائل يؤدّى ما سمع لمـا كان فى طاقته أن يقول، و إنمـا ينطق الطفل بعد آستماعه من البالغين . وقد قال أمير المؤمنـين علىّ كرّم الله وجهه ! : لولا أن الكلام يعاد، لنَفِدَ . ومن كلام بعضهم : كلُّ شيء إذا ثَنَيْتَه قَصُرَ إلا الكلام،فإنك إذا ثنيته طال، والمعانى مشتركة بين العقلاء، فربمـا وقع المعنىٰ الجيّد للسُّوقِىّ والنَّبَطِىِّ والزِّنجىّ . و إنما يتفاضل الناس فى الألفاظ و رصـفها، وتأليفها ونظمها . وقد أطبق المتقدّمون والمتأخرون علىٰ تداوُل المعانى

بينهم ، فليس على أحد فيه عيبٌ إلا إذا أخذه بكل لفظه ، أو أفسده فى الأخذ وقصّر فيه عمن تقدّمه . قال فى "الصناعتين" : وما يُعْرَف للتقدّم معنى شريفٌ إلا نازعه فيه المتأخر، وطلب الشركة فيه معه ، إلا بيت عنترة :

وخَلَا الذُّبَابُ بها فلَيْس ببارِحٍ * غَرِدًا كفِعْلِ الشارب الْمُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِراعَهُ بِذراعِهِ * قَدْحَ الْمُكِبِّ على الزِّنادِ الأجْذَمِ

فإنه ما نُوزِع فيه على جَوْدَتِه . قال : وقد رامه بعض المحدَثين فافتضح مع العلم بأن ٱبتكار المعنى والسبق إليه ليس فيه فضيلة ترجع إلى المعنى ، وإنما ترجع الفضيلة فيه إلى الذى ٱبتكره وسبق إليه ؛ فالمعنى الجيّد جيّد ، وإن كان مسبوقا إليه ، والوسط وسط ، والردىء ردىء وإن لم يكن مسبوقا إليهما . على أن بعض علماء الأدب قد ذهب إلى أنه ليس لأحد من المتأخرين معنًى مُبْتَدَعٌ ، محتجًّا لذلك بأن قول الشعر قديم مذ نُطِق باللغة العربية ، وأنه لم يبق معنًى من المعانى إلا وقد طُرِق مرارا . قال فى "المثل السائر" : والصحيح أن باب الٱبتداع مفتوح إلى يوم القيامة ، ومَن الذى يحجُر على الخواطر وهى قاذفة بما لا نهاية له ؟ إلا أنّ من المعانى ما يتساوى فيه الشعراء ولا يُطْلَق عليه ٱسم الٱبتداع لأوّل قبل آخر لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى ٱتباع الآخر الأوّلَ . كقولهم فى الغزل :

عَفَتِ الدّيارُ وماعَفَتْ * آثارُهُنّ من القُلُوب

وقولهم فى المديح : إن عطاءه كالبحر أو كالسّحاب ، وإنه لا يمنع عطاءُ اليوم عطاءَ غدٍ ، وإنه يجود بمالِه من غير مسألة ، وأشباه ذلك .

وقولهم فى المَرَاثى : إن هذا الرزء أوّل حَادِثٍ ، وإنه ٱستوى فيه الأباعد والأقارب ، وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلةً ، وإنّ بعد هذا الذاهب لا يُعدّ للمنيّة ذنب ، وما أشبه ذلك . وكذلك سائر المعانى الظاهرة التى تتوارد عليها الخواطر من

غير كُلْفَة، ويستوى فى إيرادها كُلُّ بارع . قال : ومثل ذلك لا يُطْلَق علىٰ الآخِرِ فيه آسم السرقة من الأوّل ، وإنما يطلق آسم السرقة فى معنًى مخصوص . كقول أبى تَمَّـام :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبى له مَنْ دُونَه * مَثَلًا شُرودًا فى النَّدىٰ والبَاسِ،
فاللهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لنُورِهِ * مَثَلًا من الْمِشكاةِ والنِّبْراسِ

فإن هذا معنًى آبتداعُه مخصوص بأبى تَمَّام، وذلك أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدتَه السينيةَ التى مطلعها :

* مافِى وُقُوفِك ساعةً مِن باس *

آنتهى إلىٰ قوله منها :

إقْدام عَمْرو فى سَمَاحةِ حاتمٍ، * فى حِلْمِ أَحْنَفَ، فى ذَكاء إياسِ

فقال الحكيم الكِنْدِىّ : وأىّ فخر فى تشبيه آبن أمير المؤمنين بأجلاف العرب؟ فأطرق أبو تَمَّـام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إيَّاه بعمرو وحاتم وإياس . فالحال يشهد بابتداعه هذا المعنىٰ ، فمن أتىٰ بعده بهذا المعنىٰ أو بجزء منه كان سارقا له ، وكذلك كُلُّ ماجرىٰ هذا المجرىٰ . ولم يزل الشعراء والخطباء يقتبسون من مَعَانى مَنْ قبلهم، ويبنون علىٰ بناء مَنْ تقدّمهم .

فمما وقع للشعراء من ذلك قول أبى تَمَّـامٍ :

خُلِقْنا، رجالا للتَّجلُّدِ والأَسىٰ * وتِلْكَ الغَوانِى للبُكَا والمآتِمِ

أخذه من قول عبد الله بن الزُّبَيرِ لمـا قتـل مُصْعَبُ بن الزبير : وإنمـا التسليم والسُّلُوّ لحُزَماء الرجال، وإن الجزَع والهَلَع لربَّاتِ الحِجَال، وقوله أيضا :

تَعَجَّبُ أن رأَتْ جسْمِى نحِيفًا * كأَنَّ المَجْدَ يُدْرَكُ بالصِّرَاعِ

أخذه من قول زياد ابن أبيه لأبى الأسود الدؤلى : لولا أنك ضعيف لآستعملتك، وقول أبى الأسود له فى جواب ذلك : إن كنتَ تُرِيدنى للصِّراع فإنى لا أصْلُح له وإلا فغير شديد أن آمُرَ وأنهىٰ؛ وقوله من قصيدة البيت المتقدّم :

أطالَ يَدِى علىٰ الأيّام حتّى * جَزَيْتُ صُروفَها صاعا بِصَاعِ

أخذه من قول أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه :

فإن تُقْتَلا أو يُمْكِنِ اللهُ مِنْكُمَا، * نَكِلْ لَكُمَا صاعاً بصاعِ المُكَايِلِ

وقول أبى الطَّيِّب المتنبي :

وإذا كانتِ النُّفُوسُ كِبَارا * تَعِبتْ فِى مُرادها الأجسامُ

أخذه من قول أرسطوطاليس : إذا كانت الشهوةُ فوق القُدْرة، كان هلاكُ الجسم دونَ بلوغ الشهوةِ .

وقول الخاسر :

مَنْ راقب الناسَ مات غَمًّا * وفازَ باللَّذَّةِ الجَسُورُ

أخذه من قول بَشَّارٍ :

مَنْ راقب الناسَ لم يَظْفَرْ بحاجَتِه. * وفاز بالطَّيِّبَاتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

فلما سمع بَشَّارٌ بيت الخاسر، قال : ذهب آبنُ الفاعلة ببيتى . ومثل هذا وأشباهه مما لا ينحصر كثرةً، ولا يكاد أن يخلو عنه بيت إلا نادرا .

ومما وقع للكُتَّاب من ذلك ما كتب به إبراهيم بن العبَّاس من قوله فى فصل من كتاب : إذا كان للمحسن من الثواب ما يُقْنِعُه، وللمسىء من العقاب ما يَقْمَعُه، آزداد المحسنُ فى الإحسان رَغْبـه ، وآنقاد المُسىء للحقّ رَهْبه . أخذه من قول علىّ كرم الله وجهه ! : يجب علىٰ الوالى أن يتعهّد أموره ، ويتفقّد أعوانَه، حتّى

لا يَخْفىٰ عليه إحسان مُحْسِنٍ، ولا إساءة مُسِيء؛ ثم لا يترك واحدا منهما بغير جزاء، فإنْ تركَ ذلك تهاون المحسنُ واجترأ المسيء، وفَسَد الأمر، وضاع العَمَل .

وما كتب به بعض الكُتَّاب فى فصل وهو : لو سكتَ لسانى عن شُكْرِك، لنطق أثَرُك علىّ . وفى فصل آخر : ولو جحدتُكَ إحسانَك، لأكذبَتْنِى آثارُك، ونَمَّتْ علىّ شواهدُها . أخذه من قول نُصَيْبٍ :

* ولو سَكَتُوا أثْنتْ عليك الحَقائِبُ *

وما كتب به أحمدُ بن يوسفَ من فصل ،وهو : أحقُّ مَنْ أثبت لك العذرَ فى حال شُغْلك، مَنْ لم يخلُ ساعةً من بِرِّك فى وقت فَرَاغك . أخذه من قول علىّ رضى الله عنه ! : لاتكونن كَمَنْ يعجِز عن شُكْرِ ما أُولِى، ويلتمسُ الزيادة فيما بَقِى .

والاقتباس من الأحاديث والآثار كثير، وقد تقـدّم الكلام عليـه قبل ذلك . قال فى "الصناعتين" : ومِنْ أخفىٰ أسباب السرقة أن يأخذ معنًى من نظم فيوردَه فى نثر؛ أو من نثر فيوردَه فى نظم؛ أو ينقل المعنىٰ المستعملَ فى صفة خمر فيجعلَه فى مَدِيح . أو فى مديح فينقله إلىٰ وصف . إلا أنه لا يصل لهذا إلا المُبَرِّز الكاملُ المقـدّم .

وقال فى "المَثَل السائر" : أشْكَلُ سرقات المعانى، وأدقُّها، وأغربها، وأبعدها مذهبا أن يؤخَذ المعنىٰ مجرّدا من اللفظ . قال : وذلك ممـا يصعُب جدّا ولا يكاد يأتى إلا قليلا، ولا يتفطَّنُ له ويستخرجه من الأشـعار إلا بعضُ الخواطر دون بعض .

فمن ذلك قول أبى تَمّـام فى المدح :

فَتًى ماتَ بينَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ مِيتَةً * تقومُ مَقامَ النَّصْرِ إذْ فاتَه النَّصْرُ

أخذه من قول عُروة بن الوَرْد من شعراء الحماسة :

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذا عِيَالٍ ومُقْتِرًا * من المال، يَطْرحْ نفسَه كلَّ مَطْرَح

لِيُبْلِغَ عُذْرًا أو يَنَالَ رَغِيبَةً * ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذرَها مثلُ مُنْجِحِ

فعروة جعل ٱجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تَمَّامٍ جعل الموت فى الحرب الذى هو غايةُ ٱجتهاد المجتهد فى لقاء العدوّ قائما مقام الانتصار .

قال فى "المثل السائر": وكلا المعنيين واحد، غير أن اللفظ مختلف . وأظهرُ من ذلك أخذا قول القائل :

وقد عزّى ربيعةَ أن يَوْمًا * عَلَيْها مثلَ يومِكَ لايَعودُ

أخذه من قول ٱبن المُقَفَّع فى باب المَرَاثى من الحماسة :

وقد جَرَّ نَفْعا فَقْدُنا لك أننا * أَمِنَّا علىٰ كلِّ الرَّزَايا مِنَ الجَزَعْ

علىٰ أنه ربما وقع للتأخر معنًى سبقه إليه مَنْ تقدّمه، من غير أن يُلِم به المتأخر ولم يسمعه . ولا ٱستبعاد فى ذلك كما يستبعد ٱتفاق اللفظ والمعنىٰ جميعا . قال أبو هلال العسكرىّ : وهذا أمر قد عرفتُه من نفسى فلا أَمْتَرِى فيه ! وذلك أنى كنت عملت شيئا فى صفة النساء، فقلت :

* سَفَرْنَ بُدُورا وٱنْتَقَبْنَ أَهِلَّةً *

وظننت أنى لم أُسبَق إلىٰ جمع هذين التشبيهين حتّى وجدت ذلك بعينه لبعض البَغْداديين فكثُر تعجبى ، وعزمت علىٰ أن لا أحكم علىٰ المتأخر بالسرقة من المتقدّم حكما حتما .

إذا تقرر ذلك فسرقة المعنىٰ المجرّد عن اللفظ لا تخرُج عن ٱثنى عشر ضربا .

الضرب الأوّل

أن يؤخذ المعنىٰ ويستخرجَ منه مايشبهه ، ولا يكون هو إيَّاه . قال فى "المَثَـل السائر" : وهذا من أدق السرقات مَذْهبا وأحسنها صورة ، ولا يأتى إلا قليـلا . فمِنْ ذلك قول المتنبي :

وإذا أتتْكَ مَذَمَّتِي من نَاقِصٍ ، * فهى الشَّهادةُ لِى بأنِّى كَامِـلُ

وهذا المعنىٰ آستخرجه المتنبي من قول بعض شعراء الحَمَاسة ، وإن لم يكن صريحا فيه حيث يقول :

لَقَــدْ زادَنِى حُبّاً لِنَفْسِىَ أنَّنِى * بَغِيضٌ إلىٰ كلِّ آمرئٍ غيرِ طَائِلِ

قال فى "المَثَل السائر" : والمعرفة بأنّ هذا المعنىٰ من ذلك المعنىٰ عَسِرٌ غامض غير متبيِّن إلا لمن أعرق فى ممـارسة الشـعر ، وغاص علىٰ آستخراج المعـانى . قال : وبيـان ذلك أن الأوّل يقول : إن بغض الذى هو غير طائل إيَّاى قد زاد نفسى حبـا إلىّ أى قد جمَّلها فى عينى وحسنها عنـدى كونُ الذى هو غير طائل منقصى ؛ والمتنبي يقول : إن ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بُغْضِ الذى هو غير طائل نفسَ ذلك عنده .

وأظهر من ذلك أخذا من هذا الضرب قول البُحْتُرِىّ فى قصيدة يفخَرُ فيها بقومه :

شَيْخَانِ قد ثَقُلَ السِّلاحُ عليهما * وعداهما رَأْىُ السميعِ المُبْصِرِ

رَكِبا القَنَا من بعد ما حَمَلَا القَنَا * فى عَسْكَرٍ متحاملٍ فى عَسْكَرِ

أخذه من قول أبى تمَّـامٍ فى وصف جَمَلٍ :

رَعَتْه الفَيَافِى بعــد ما كان حِقْبَــةً * رَعَاها ، وماءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُه

فأبو تمّـام ذكر أن الجمل رعى الارض، ثم سار فيها فرعته أى أهزلته، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها؛ والبحترىّ نقله إلى وصف الرجل بعلو السنّ والهرم، فقال: إنه كان يحمل الرمح فى القتال، ثم صار يركب الرمح أى يتوكأ منه على عصا، كما يفعل الشيخ الكبير.

وأوضح من ذلك وأكثر بيانا فى الأخذ قول البحترىّ أيضا:

أَعَاتِكَ ما كان الشَّبَابُ مُقَرِّبِي * إليكِ، فَأَلْحَى الشَّيْبَ إذْ هُوَ مُبْعِدِى

أخذه من قول أبى تمّـام:

لا أَظْلِمُ النَّأْىَ، قد كانتْ خلائقُها * من قَبْلِ وَشْكِ النوى عِنْدِى نَوًى قُذُفَا

الضرب الثـانى

أن يُؤخذ المعنى فيعكس، قال فى "المَثَل السائر": وذلك حَسَنٌ يكاد يخرجه حسنه عن حدّ السرقة.

فمن ذلك قول أبى نُوَاسٍ:

قالوا: عَشِقْتَ صغيرةً، فأجبتُهم * أشهى المَطِىِّ إلىّ ما لم يُرْكَبِ.

كم بَيْنَ حَبّـةِ لؤلؤ مَثْقُوبةٍ * نُظِمتْ وحَبَّةِ لُؤْلؤ لم تُثْقَبِ؟

وقول ابن الوليد فى عكسه:

إن المَطِيَّـةَ لا يَلَذُّ رُكُوبها * حتى تُذَلَّلَ بالزِّمام وتُرْكَبَا.

والدُّرّ ليس بنـافِعٍ أربابَه، * حتّى يُزَيَّنَ بالنِّظام ويُثْقَبَا.

ومنه قول ابن جعفر:

ولَمَّـا بَدَا لى أنها لا تُرِيدُنِى * وأنَّ هواها ليسَ عَنِّى بمُنْجَلِي،

تمنَّيت أن تَهوى سِوَاىَ لعلَّها * تَذُوقُ صَبَابَاتِ الهوى فتَرِقَّ لِى

وقول غيره فى عكسه :

وَلَقَدْ سَرَّنِى صُـدُودُكِ عَنِّى * فى طِلَابِيكِ ، وٱمتناعُكِ منِّى
حَذَرًا أنْ أكونَ مِفْتَاحَ غَيْرِى ، * وإذا ما خَلَوتُ ، كنتِ التَّمَنِّى

أما ٱبن جعـفر فإنه ألقىٰ عن منكبيه رداء الغَيْرَة ؛ وأما الآخر ، فإنه جاء بالضدّ من ذلك وبالغ غايةَ المبالغة .

ومنه قول أبى الشِّيص :

أَجِدُ المَلَامةَ فى هَوَاكِ لذيذة * شَغَفًا بذِكْرِكِ ، فلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

وقول أبى الطيب فى عكسه :

أَأُحِبُّهُ وأُحِبُّ فيه مَلامةً ، * إنّ المَلَامةَ فيـه من أَعْدَائِهِ

ومنه قول أبى تَمَّـام :

ولولا خِلَالٌ سَنَّهَا الشِّعْر ما دَرىٰ * بُغَاةُ العُلىٰ من أين تُؤْتَى المَكَارِمُ

وقول الوزير ضياء الدين بن الأثير فى عكسه :

لَوْلا الكِرام وما سَنُّوهُ من كَرَمٍ ، * لم يَدْرِ قائلُ شِعْرٍ كيف يَمْتَدِحُ

الضرب الثـالث

(أن يؤخذ بعضُ المعنىٰ دون بعض)

فمن ذلك قول أُمَيَّةَ بن أبى الصَّلْتِ يمدح عبدالله بن جُدْعانَ :

عطاؤكَ زَيْنٌ لٱمرئٍ إن حَبَوْتَهُ * بِبَـذْلٍ ، وما كُلُّ العطاء يَزِينُ

وقول أبى تَمَّـام بعده :

تُدْعىٰ عطاياه وَفْرًا ، وهْىَ إنْ شُهِرَتْ ، * كانتْ فَخَارًا لمن يَعْفُوه مُـؤْتَنِفَا
ما زِلتُ منتَظِرا أُعْجُـوبةً زَمَنًـا * حتّى رأيتُ سُـؤالا يُجْتَنىٰ شَرَفَا

فأمية بن أبي الصَّلتِ أتىٰ بمعنيين : أحدهما أن عطاءك زَيْن ، والآخر أن عطاءَ غيرِك ليس بزين؛ وأبو تمَّــام أتىٰ بالمعنىٰ الأوّل فقط .

ومنه قول عليّ بن جَبَلة :

وأ ثّلَ ما لم يَحْوِهِ مُتَقَــدِّمٌ، * و إن نال منه آخِرٌ، فهو تابعُ

وقول أبي الطَّيِّب بعده :

تَرَفَّعَ عن عُونِ المكارِمِ قَدْرُهُ ، * فمـا يَفْعَـلُ الفَعْلَاتِ إلا عَذَارِيَا

فٱبن جبلة أتىٰ بمعنيين، أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد ممن تقدّمه ، و إن نال الآخِرشيئا فهو مقتدٍ به وتابعٌ له ؛ وأبو الطَّيِّب أتىٰ بالمعنىٰ الأوّل فقط ،وهو أنه فعل مالم يفعله غيره مشيرا إلىٰ ذلك بقوله : فما يفعل الفَعْلَاتِ إلا عَذَارِيَا أى يستبكرها ويُزِيل عُذْرتها .

ومنه قول الآخر :

أَنْتِجِ الْفَضْلَ أو تَخَلَّ عن الدنـــيا، فَهَاتَان غَايَةُ الهِــمَمِ

وقول البُحْتُرِيّ بعده :

إدْفَعْ بأمثـالِ أبي غَالِبٍ * عاديةَ العُدْمِ، أو ٱسْتَعْفِفِ

فالبُحْتُرِيُّ ٱقتصر علىٰ بعض المعنىٰ ولم يستوفه

الضرب الرابع

أن يؤخذ المعنىٰ فيزاد عليه معنى آخَر. قال في "المَثَل السائر" : وهذا النوع من السَّرِقات قليل الوقوع بالنسبة إلىٰ غيره .

فمن ذلك قول الأخنس بن شِهاب :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنَا، كان وَصْلُها * خُطَانَا إلىٰ أعدائِنـا، فنُضَارب

وقول مسلم بن الوليد بعده :

إنْ قَصُر الرُّمحُ لم نَمْشِ الخُطَا سَدَدا * أو عَرّدَ السيفُ لم نَهْمُمْ بتعرِيد

أخذ مسلم المعنىٰ الذى أورده الأخنس : وهو وصْل السـلاح إذا قصُر بالخُطَا إلىٰ العدوّ وزاد عليـه عدم تعريدهم أى فِرارهم إذا عرّد السيف . ومنه قول جرير فى وصف أبيات من شعره :

غَرائِب آلاف إذا حانَ وِرْدُها * أخذْنَ طَريقًا للقَصائِدِ مُعْلَمـا

وقول أبى تمـام بعده :

غرائبُ لاقَتْ فى فِنائِكَ أُنْسَها * من المَجْدِ فَهْىَ الْآنَ غَيْرُ غرائِبِ

فزاد أبو تمـام علىٰ جرير قِرَان ذلك بالممدوح ومدحَه مع الأبيات . ومنـه قول المُعَذَّل بن غيلان :

ولسْتُ بنَظّارٍ إلىٰ جانِبِ الغِنىٰ * إذا كانَتِ العَلْياءُ فى جانِبِ الفَقْرِ

وقول أبى تمـام بعده :

يَصُدُّ عنِ الدُّنْيا إذا عَنَّ سُودَدٌ * ولو بَرَزَتْ فى زِىِّ عَذْراءَ ناهِدِ

فزاد عليه قوله :

* ولو برزتْ فى زىّ عَذْراء ناهِدِ *

وممـا ٱتفق لى نظمه فى هـذا الباب أنه لمـا عُمِّرت مدرسـة الظاهر برقوق بين القصرين بالقاهرة المحروسة ، وكان القائم بعمارتها الأمير جركس الخليلىّ أميراخور الظاهرىّ ، وكان قد ٱعتمد بناءَها بالصُّخور العظيمة التى لاتُقِلُّها الجِمال حَمْلا ، ولا تحمَلُ إلا علىٰ العجل الخَشَب فأُولِع الشعراءُ بالنظم فى هذا المعنىٰ ؛ فنظم بعض الشعراء أبياتا عرّض فيها بذكر الخليلىّ وقيامه فى عمارتها ، ثم قال فى آخرها :

وبَعْضُ خُدّامه طَوْعًا لخدْمته * يدعو الصُّخُور فتأتِيه علىٰ عَجَل

وألزمني بعضُ الإخوان بنظم شيء في المعنى، فوقع لي أبيات من جملتها :

وبالخليليّ قد راجتْ عِمَــارتُها * في سُرْعةٍ بُنِيَتْ من غيْرِ ما مَهَلِ
كَمْ أظْهرتْ عَجَباً أسْواطُ حِكْمتِهِ * وقد غَدَتْ مثلاً ناهِيكَ مِنْ مَثَلِ
وكَمْ صُخُورٍ تَخَــالُ الجنَّ تَنْقُلُها * فإنَّهــا بالوَحَا تأتِي وبالعَجَلِ

فزدت عليه ذكر الوَحَا الذي معناه السرعة أيضا وصار مطابقا لما يأتي به المعزِّمون في عزائمهــم من قولهم الوحَا الوحَا العَجَلَ العجَلَ مع ما تقــدّم له من التوطئة بقولي تخال الجنّ تنقُلُها، على أني لستُ من فُرْسان هذا المَيْدان، ولا من رجال هذا الوَغى

الضرب الخــامس

أن يُؤْخَذَ المعنى فيُكْسى عبارةً أحسن من العبارة الأُولى قال في "المثل السائر" وهذا هو المحمود الذي يَخْرُج به حُسْنُه عن باب السرقة، فمن ذلك قول أبي تمام :

إنَّ الكِرَامَ كَثِيرٌ في البِلَادِ وإنْ * قَلُّوا كما غيْرُهم قُلٌّ وإن كَثُرُوا

أخذه البحْتُرِيُّ فقال :

قَلَّ الكِرامُ فصــار يَكْثُرُ فَذُّهُمْ * ولقــد يَقِلُّ الشيءُ حَتّى يَكْثُرا

ومنه قول أبي نُوَاس :

يَدُلُّ على ما في الضَّمِيرِ مِنَ الفَتَى * تَقَلُّبُ عيْنَيْهِ إلى شَخْصِ مَنْ يَهْوَى

وقول أبي الطيب بعده :

وإذا خامَرَ الهَوَى قَلْبَ صَبٍّ * فعلَيْــهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيــلُ

ومنه قول أبي العلاء بن سليمان في مَرْثِيَّة :

وما كُلْفَةُ البَــدْرِ المُنِيرِ قَدِيمــةٌ * ولكِنَّها في وَجْهِــهِ أَثَرُ اللَّطْمِ

وقول القيسرانىّ بعده :

وأهوىٰ الّذِى يَهْوِى لَهُ البَدْرُ ساجدًا * ألَسْتَ ترىٰ فى وَجْهِـهِ أثَرَ التُّرْبِ

ومنه قول ٱبن الرومىّ :

إذا شَنأَتْ عينُ امْرِئٍ شَيْبَ نَفْسِه * فعَيْنُ سِـوَاهُ بالشَّناءَةِ أجْـدَرُ

وقول مَنْ بعده :

إذا كان شَيْبِى بَغِيضًا إلَىَّ * فكَيْفَ يَكُونُ إليْهَـا حَبِيبَا

الضرب السادس

أن يؤخذ المعنىٰ ويسبك سَبْكا مُوجَزا قال فى "المثـل السائر" وهو من أحسن السرقات : لمـا فيه من الدلالة علىٰ بَسْطة الناظم فى القولْ وسَعَة باعه فى البلاغة ، فمن ذلك قول أبى تمـام :

بَرَّزْتَ فى طَلَبِ المَعَالِى واحِدا * فيهـا تَسِـيرُ مُغَوِّرًا أو مُنْجِدَا

عَجَبـا بأنَّكَ سَالِمٌ من وَحْشَـةٍ * فى غايةٍ ما زِلْتَ فيهـا مُفْـرَدَا

وقول ٱبن الرومى بعده :

غرَّبَتْهُ الخَلاَيِقُ الزُّهْرُ فى النَّا * سِ وما أوْحَشَـتْه بالتَّغْرِيبِ

فأخذ معنىٰ البيتين فى بيت واحد، ومنه قول أبى العَتَاهِيَة :

وإنّى لَمعْـذُورعلىٰ فَرْطِ حُبِّها : * لأنَّ لهـا وَجْهًا يَدُلُّ علىٰ عُذْرِى

أخذه أبو تمـام فقال :

لَهُ وَجْــهٌ إذا أبْصَرْ * تَهُ ناجاكَ عَنْ عُذْرِى

فأوجز فى هذا المعنى غاية الإيجاز، ومنه قول أبى تمام يمدح أحمد بن سعيد :

كانتْ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْــبِرُنِى * عَنْ أحْمدَ بْنِ سَعِيدٍ أطْيَبَ الخَبَرِ

حتّى التقَيْنَا فَلَا واللهِ ما سَمِعتْ * أُذْنِي بأحسَنَ مما قَدْ رأىٰ بَصرِى !

أخذه أبو الطيب فأوجز فى أخذه فقال :

وأسْتَكْبِرُ الأخبارَ قَبْلَ لِقائِه * فلَمَّا التقَيْنَا صَغَّر الخَبَرَ الخُبْرُ

ومنه قول بعض الشعراء :

أمِنْ خَوْف فَقْرٍ تعجَّلْتَهُ * وأخَّرْتَ إنْفاقَ ما تَجْمَعُ ؟

فصِرْتَ الفقِيرَ وأنْتَ الغنىّ * وما كُنْتَ تَعْدُو الذى تَصْنَعُ

أخذه أبو الطيب فقال :

ومن يُنْفِقِ الساعاتِ فى جَمْعِ مالِهِ * مَخَافَةَ فَقْرٍ فالذى فَعَلَ الفَقْرُ

الضرب السابع

زيادة البيان مع المساواة فى المعنىٰ ، بأن يؤخذ المعنىٰ فيُضْرَب له مثال يوضحه ، فمن ذلك قول أبى تمام :

هو الصُّنْع إنْ يُعْجَلْ فَنَفْع وإن يُرِثْ * فَلَلرَّيْثُ فى بعضِ المَوَاطِنِ أنْفعُ

أخذه أبو الطيب فقال :

ومِنَ الخَيْرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عَنِّى * أسْرَعُ السُّحْبِ فى المَسِيرِ الجَهَامُ

فزاده وضوحا بضرب المثال له بالجَهام : وهو السحاب الذى لا مَطَر فيه .

ومنه قول أبى تمام أيضا :

قد قَلَصتْ شَفَتاهُ من حَفِيظَتِه * فَخِيلَ مِنْ شدَّةِ التَّعْبِيس مُبْتَسِمَا

أخذه أبو الطيب فقال :

وجاهِلٍ مَدَّهُ فى جَهْلِهِ ضَحِكى * حتّى أتَتْهُ يَدٌ فَرَّاسَةٌ وفَمُ

إذا رأيتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بارِزَةً * فلا تَظُنَّنَّ أنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

فضرب له مثالا بظهور أنياب الليث فزاده وضوحا .

ومنه قول أبي تمـام أيضا :

وكذاكَ لم تُفْرِطْ كآبَةُ عاطِـلٍ * حتّى يُجاوِرَها الزَّمانُ بِحالِ

أخذه البحتريُّ فقال :

وقد زادَها إفراطَ حُسنٍ جِوارُها * لأخْلاقِ أصْفارٍ من المَجْدِ خُيَّبِ

وحُسْنُ دَرارِيِّ الكَواكِبِ أن تُرىٰ * طَوالِعَ فى داجٍ من اللَّيْلِ غَيْهَبِ

فضرب له مثالا بالكواكب فى ظَلام الليل، فأوضحه وزاده حُسْنا .

الضرب الثـامن

اتحـاد الطريق وٱختلاف المَقْصود ، مثل أن يسْلُك الشاعران طريقا واحدةً فتخرجَ بهما إلىٰ مَوْرِدين، وهناك يتبين فضل أحدهما علىٰ الآخر .

فمن ذلك قول النابغة :

إذا ماغَزا بالجَيْشِ حلَّقَ فَوْقَهُ * عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدى بِعَصَائِبِ

جَوَانِحَ قدْ أيْقَنَّ أنَّ قَبِيلَهُ * إذا ما ٱلْتَقَى الجَمْعَانِ أوَّلُ غالِبِ

وهذا المعنىٰ قد توارده الشعراء قديما وحديثا، وأوردوه بضروب من العبارات،

فقال أبو نُوَاس :

يَتَوخّى الطَّيْرُ غَزْوتَهُ * ثِقَةً باللَّحْم من جَزْره

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوّدَ الطَّيْرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بهَا * فهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فى كُلِّ مُرْتَحَـلِ

وقال أبو تمـام :

وقد ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أَعْلامه ضُحًى * بِعقْبانِ طَيْرٍ فى الدِّمَاءِ نَوَاهِـلُ

أقامَتْ مع الرَّاياتِ حتّىٰ كأنَّهـا ✻ من الجَيْشِ إلا أنَّهـا لاتُقَاتِلُ

وكل هؤلاء قد أتَوْا بمعنًى واحد لا تفاضُلَ بينهم فيه إلا من جهة حُسْن السبك أو من جهة الإيجاز . قال ولم أر أحدا أغرب فى هذا المعنىٰ فسلك هـذا الطريق مع آختلاف مَقْصِده إلا مسلم بن الوليد فقال :

أَشْرَبْتَ أرواحَ العِـدَا وقُلُوبَها ✻ خَوْفاً فأنفُسُها إليـكَ تَطِـيرُ

لو حاكَمْتَكَ فطالَبَتْكَ بذَحْلِهـا ✻ شَهِدتْ عليك ثَعـالِبٌ ونُسُورُ

فهذا قد فضل به مسلم غيْرَه فى هذا المعنىٰ، ولما آنتهى الأمر إلىٰ أبى الطيب سلك هذه الطريق التى سلكها مَنْ تقدّمه إلا أنه خرج فيها إلىٰ غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع، وحاز الإحسان بجملته، وصار كأنه مبتدِع لهذا المعنىٰ دون غيره فقال :

سَحَابٌ من العِقْبانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَـا ✻ سَحَابٌ إذا آستَسْقَتْ سَقَتْها صَوارِمُهُ

فَحَوىٰ طرَفَيِ الإغراب والإعجاب

الضرب التـاسع

بيـاض بالأصل(١)

(١) إقتصر فى الضوء علىٰ أحد عشر نوعا وجعل العاشر تاسعا الخ وكذلك عدّها صاحب المَثَل السائر .

الضرب العـاشر

أن يكون المعنىٰ عامًّا فيجعلَ خاصًّا أو خاصًّا فيجعل عامًّا، وهو من السرقات التى يسامَحُ صاحبها؛ فأما جعل العامّ خاصا، فمن ذلك قول الأخطل (١).

لاتَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِىَ مِثْـلَهُ * عارٌ عَلَيْـكَ إذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

أخذه أبو تمـام فقال :

أأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وأغْتَدِى * للبُخْلِ تِرْبًا؟ ساءَذاكَ صَنِيعَا!

فالأخطل نهىٰ عن الإتيان بمـا ينهىٰ عنه مطلقا فجاء بالخُلُق منكَّرا فجعله شائعا فى بابه؛ وأبو تمـام خصَّص ذلك بالبُخْل، وهو خُلُق واحدٌ من جملة الأخلاق .

وأما جعل الخاص عاما، فمن ذلك قول أبى تمـام .

ولو حارَدَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقاحَها * ولكِنْ مَنَعْنَ الدَّرّ والضَّرْعُ حافِلُ

أخذه أبو الطيب فجعله عاما فقال :

وما يُؤْلِمُ الحِرْمانُ من كَفِّ حارِمٍ * كما يُؤْلِمُ الحِرْمانُ من كَفِّ رَازِقِ

الضرب الحادى عشر

قلبُ الصورة القبيحة إلىٰ صُورة حسنة . قال فى "المثل السائر" وهذا لايسمّى سرقة بل يسمَّى إصلاحا وتهذيبا، فمن ذلك قول أبى نُوَاس فى أُرْجوزة يصف فيها اللَّعِبَ بالكُرَة والصَّوْلَجَان فقال من جملتها :

جِنٌّ علىٰ جِنٍّ وإن كانوا بَشَرْ * كأنَّمـا خِيطُوا عليْها بالإبَرْ

أخذه المتنبى فقال :

فكأنَّهـا نُتِجَتْ قِيامًا تَحْتَهُمْ * وكأنَّهُمْ خُلِقُوا علىٰ صَهَواتِها

(٢) كذا فى "المثل السائر" أيضا — وفى ديوان الأخطل صحيفة ٣٣٨ أن هذا البيت للتوكل الليثى .

فهذا فى غاية العلوّ والارتقاء بالنسبة إلى قول أبى نُوَاس، ومنه قول أبى الطيب.

لو كانَ ماتُعْطِيهِمُو من قَبْلِ أنْ * تُعْطِيهمو لم يَعْرِفُوا التَّأْمِيلَا

وقول ابن نباتة السعدىّ :

لم يُبْقِ جُودُكَ لِي شَيئًا أؤمِّلُهُ * تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيا بلا أَمَلِ

فكلام ابن نباتة أحسن فى الصورة من كلام المتنبى هنا، وإن كان مأخوذا منه.

الضرب الثانى عشر

قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة، وهو الذى يعبِّر عنه أهل هذه الصناعة بالمسخ، وهو من أرذل السرقات وأقبحها، فمن ذلك قول أبى تمام :

فَتًى لايَرَى أنّ الفَرِيصةَ مَقْتَلٌ * ولكِنْ يَرَى أَنَّ العُيوبَ مَقَاتِلُ

أخذه أبو الطيب فمسخه فقال :

يَرَى أنَّ مَا مَابَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ * بأقْتَلَ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لِعَائِبِ

ومنه قول عبد السلام بن رغبان :

نَحْنُ نُعَزِّيكَ ومِنْكَ الهُدَى * مُسْتَخْرَجٌ والصَّبْرُ مُسْتَقْبَلُ

أخذه أبو الطيب فمسخه فقال من أبيات :

وبِأَلْفاظِكَ اهتَدَى فإذا عَزَّاكَ قال الَّذى له قُلْتَ قَبْلَا

المسلك الثانى
(طريقة الاختراع)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" فهى أن لا يتصفح كتابة المتقدّمين ولا يطّلع على شىء منها، بل يصرفُ هِمَّته إلى حفظ القرءان الكريم وكثير من الأخبار النبوية وعدّة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادةُ

فى المعانى والألفاظ ، ثم يأخذ فى الاقتباس من القرءان والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقع ، ويُخْطِئ ويُصيب ، ويَضِلُّ ويهتدى ، حتّى يستقيم إلىٰ طريق يفتحها لنفسه ، وأَخْلِقْ بتلك الطريق أن تكون مبتدَعة غريبة ، لاشركة لأحد من المتقدّمين فيها ! . قال : وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد وصاحبها يعدّ إماما فى الكتابة كما يعدّ الشافعىّ وأبو حنيفة ومالك وغيرهم من المجتهـدين فى علم الفقه ، إلا أنها مستوْعرة جدّا ، لايستطيعها إلا من رزقه الله تعالىٰ لسانا هَجّامًا ، وخاطرا رَقّاما . قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مُرْتَبِطا فى كتابته بما يستخرجه من القرءان الكريم ، والأخبار النبوية والأشعار ، بحيث إنه لاينشئ كتابا إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرءان الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشـعار ، ثم نقَّب عن ذلك تنقيبَ مطّلع علىٰ معانيه ، مفتش علىٰ دفائنه ، وقلَبَه ظهرًا لبطن ، عرف حينئذ من أين تؤْكل الكَتِف فيما ينشئه من ذات نفسـه ، واستعان بالمحفوظ علىٰ الغريزة الطبيعيـة . علىٰ أنه لابدّ للكاتب المرتقِى إلىٰ درجة الاجتهـاد فى الكتابة مع حفظ القرءان الكريم ، والاستكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار المختارة ، من العلم بأدوات الكتابة وآلات البيان : من علم اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، والبديع : ليتمكن من التصرف فى اقتباس المعانى واستخراجها فيرقىٰ إلىٰ درجة الاجتهاد فى الكتابة ؛ كما أن المجتهد من الفقهاء إذا عرف أدوات الاجتهاد : من آيات الأحكام ، وأحاديثها ، ونعتها ؛ وعرف النحو والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسـنة ، والحسابَ والفرائض وإجماع الصحابة ، وغير ذلك من آلات الاجتهاد وأدواته ، استخرج بفكره حينئذ مايؤدّيه إليه اجتهاده . فالمجتهد فى الكتابة يستخرج المعانى من مظانّها من القرءان الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشـعار ، والأمثال ، وغير ذلك بواسطة آلة الاجتهاد ، كما أن المجتهد فى الفقهيات يستخرج

الأحكام من نصوص الكتاب والسنة بواسطة آلة الاجتهاد . فإذا أراد الكاتب المتصف بصفة الاجتهاد فى الكتابة إنشاء خطبة أو رسالة أو غيرهما مما يتعلق بفنّ الإنشاء

بياض بالأصل

الأصل السادس

(وجود الطبع السليم، وخلو الفكر عن المشوّش)

أما وجود الطبع فقال فى "موادّ البيان" : أوّل مَعَاوِن هذه الصناعة الجليلة القريحةُ الفاضلة، والغَرِيزة الكاملة، التى هى مبدأ الكمال، ومَنْشأ التمام، والأساس الذى يبنىٰ عليه، والركنُ الذى يُستند اليه، فإن المرء قد يجتهد فى تحصيل الآداب، ويتوفَّر علىٰ ٱقتناء العلوم وٱكتسابها ، وهو مع ذلك غير مطبوع علىٰ تأليف الكلام فلا يفيده ما ٱكتسبه ،بخلاف المطبوع علىٰ ذلك، فإنه و إن قصَّر فى ٱقتباس العلوم وٱكتساب الموادّ فقد يُلْحَق بأوساط أهل الصناعة ؛ وذلك أن الطبع يخص الله تعالىٰ به المطبوعَ دون المتطبِّع، والمناسبَ بغريزته للصناعة دون المتصنِّع، ولا سبيلَ إلىٰ ٱكتساب سُهولة الطبع ولا كَزَازته ، بل هو مَوْهَبة تَخُصُّ ولا تعُم ، وتوجد فى الواحد وتُفْقَد فى الآخر .

قال ٱبن أبى الأصبع فى "تحرير التحبير" ومن الناس من يكون فى البديهة أبدعَ منه فى الرَّوية، ومن هو مُجِيد فى الرَّوية وليست له بَدِيهة؛ وقلَّما يتساويانِ.

ومنهم مَنْ إذا خاطب أبدع ، وإذا كاتب قَصَّر، ومن هو بضـدّ ذلك ، ومن قَوِى نثره ضَـعُف نظمه ، ومن قَوِى نظمه ، ضـعُف نثره ، وقلمـا يتساويان . وقد يُبَرِّز الشاعر فى معنًى من مقاصد الشـعر دون غيره من المقاصد، ولهذا قيل : أشـعَرُ النـاس آمرؤُ القيس إذا رِكب، وزُهَيْر إذا رَغِب، والنـابغة إذا رَهِب ، وعنـترة إذا كَلِب(١) ، والأعشىٰ إذا طَرِب . قال فى "المثـل السائر" بل ربمـا نَفَذَ فى بعض أنواع الشعر دون بعض فيُرىٰ مُجِيدا فى المدح دون الهَجْو، أو بالعكس، أو ماهرا فى المَقَامات ونحوها دُونَ الرسائل، أو فى بعض الرسائل دون بعض . قال آبن أبى الاصبع : ولربما واتاه العملُ فى وقت دون وقت ، ولذلك قال الفرزدق : إنى ليمرّ علىَّ الوقت ولَقَلْعُ ضِرس من أضْراسى أيسرُ علىّ من قول الشعر، ولذلك عز تأليف الكلام ونظمه علىٰ كثير من العلمـاء باللغة والمهَرَة فى معرفة حقائق الألفاظ من حيث نُبُوّ طباعهم عن تركيب بسائط الكلام الذى قامت صور معانيه فى نفوسهم وصَعُب الأمر عليهم فى تأليفه ونظمه ، فقد حكى أن الخليل بن أحمـد مع تقدّمه فى اللغة ومَهَارته فى العربية، وآختراعه علم العروض، الذى هو ميزان شعر العرب، لم يكن يتهيأ له تأليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعانى فى نفسـه علىٰ صورة النظم إلا بصُعوبة ومشقّة، وكان إذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول يأبانى جيِّـدُه وآبىٰ رديئه، مشيرا بذلك إلىٰ أن طبعـه غير مساعد له علىٰ التأليف المرضىّ الذى تحسُن نسبته إلىٰ مثله . وقيل للمفضَّل الضبِّىّ ألا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به، فقال علمى به يمنعنى من قوله وأنشد :

أبىٰ الشِّـعْرُ إلا أن يَفِىءَ رَدِيئُه * علَىّ ويأْبىٰ منـه ما كانَ مُحْكَما
فياليتنى إنْ لم أَجِدْ حَوْكَ وَشْيِه * ولم أَكُ من فُرْسانِه كنت مُفْحَما

(١) أى غضب .

وأنشد أبو عبيدة خَلَفًا الأحمرَ شعرا له فقال : اخْبَأْ هذا كما تَخْبَأُ السِّنَّورة حاجتها، مع ما كان عليه أبو عبيدة من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام حروبها، وما يجرى مجرىٰ ذلك من موادّ تأليف الكلام ونظمه . ويحكىٰ عن أبي العباس المبرِّد أنه قال : لا أحتاج إلىٰ وصف نفسى : لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد بين الخافقَيْنِ تختلج فى نفسه مسئلةٌ مُشْكلة إلا لقِينى بها وأعدّنى لها ، فأنا عالم ومُعَلِّم ، وحافظ ودارس، لايخفىٰ علىّ مشتبه من الشعر، والنحو، والكلام المنثور، والخُطَب ، والرسائل ؛ ولربما آحتجت إلىٰ آعتذار من فَلْتة ، أو التماس حاجة، فأجعل المعنىٰ الذى أَقصِد نُصْب عينى ثم لاأجد سبيلا إلىٰ التعبير عنه بيدٍ ولا لسان؛ ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاوَلْت أن أكتب إليه رُقْعة أشكُره فيها وأعرِّض ببعض أُمُورى فأتعبت نفسى يوما فى ذلك فلم أقدر علىٰ ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما فى ضميرى فينحرف لسانى إلىٰ غيره، ولذلك قيل زيادة المنطق علىٰ الأدب خُدْعة، وزيادة الأدب علىٰ المنطق هُجْنة .

فقد تبين لك أن العبرة بالطبع وأنه الأصل المرجوع إليه فى ذلك؛ علىٰ أن الطبع بمفرده لاينهض بالمقصود من ذلك نُهوضَه مع اشتماله علىٰ الموادّ المساعدة له علىٰ ذلك من الأنواع السابقة فيما تقدّم فى أول هذه المقالة : من العلم باللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع وحفظ كتاب الله تعالىٰ ، والإكثار من حفظ الأحاديث النبوية والأمثال والشعر والخطب ورسائل المتقدّمين وأيام العرب وما يجرى مجرىٰ ذلك مما يكون مساعدا للطبع ومُسَهِّلا طريق التأليف والنظم ، بل يتفاوت فى العلو والهُبوط بحسب التفاوت فى ضعف المساعد من ذلك وقوّته؛ إذ معرفته هذه الأمور قائمةٌ من الإنشاء مَقامَ المادّة ،والطبعُ قائم منه مقام الآلة،فلا يتم الفعل وإن قامت الصورة فى نفس الصانع مالم تُوجَد المادّةُ والآلةُ جميعا ، ولو كان حصول المادّة

كافيا فى التوصـــل إلىٰ حسن التأليف الذى هو نظم الألفاظ المتناسبة وتطبيقها علىٰ المعانى المساوية لكانت صناعة الكلام المؤلَّف من الرسائل والخطب والأشعار سهلةً، والمُشاهَد بخلاف ذلك : لقُصور الأفاضل عن بلوغ هذه الدرجة .

وأما خلوّ الفكر عن المشوّش فإنه يرجع إلىٰ أمرين .

الأمر الأوّل

(صــــفاء الزمان)

فقد قال أبو تمـام الطائىّ فى وصيته لأبى عُبَـادة البحترىّ مرشِـدا له للوقت المناسب لذلك : تخيَّرِ الأوقاتَ وأنت قليــلُ الهُموم ، صِفْرٌ من الغُمُوم ؛ وٱعلم أن العادة فى الأوقات إذا قَصَد الإنسان تأليفَ شىء أو حفظَه أن يختار وقت السَّحَر، فإن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقِسْطها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاء، وصَفَا الدِّماغ من أكثر الأبخرة والأدْخِنة ،وسكنت الغَمَاغِم، ورقَّت النسائم، وتغنَّت الحمائم .

وخالف ٱبن أبى الأصبع فى ٱختيار وقت السحر، وجنح إلىٰ ٱختيار وسط الليل، أخذا من قول أبى تمـام فى قصيدته البائية :

خُذْها ٱبْنَةَ الفِكْرِ المُهَذَّبِ فى الدُّجىٰ ⁂ واللَّيْــلُ أسْوَدُ رُقْعَــةِ الجِلْبابِ

مفسرا للدُّجىٰ بوســط الليل ، محتجا لذلك بأنه حينئذ تكون النفْس قد أخذت حظها من الراحة ،ونالت قِسطها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَل الغِذاء، فيكون الذهن حينئذ صحيحا ، والصدر منشرحا ، والبدن نشيطا، والقلب ساكنا . بخلاف وقت الســحر فإنه وإن كان فيه يرِقُّ النسيم وينهضم الغذاء ، إلا أنه يكون قد ٱنتبه فيه أكثر الحيوانات : الناطقُ وغيره ، ويرتفع معظم الأصــوات ، ويجرى الكثيرُ من الحركات، وينقشِع بعضُ الظَّلْماء بطلائع أوائل الضوء ، وربمـا ٱنهضم عن بعض

الناس الغذاء فتحرّكت الشهوة لإخلاف ما انهضم منـه وخرج من فضلاته، فكان ذلك داعيا إلىٰ شُغْل الخاطر، وباعثا علىٰ انصراف الهمّ إلىٰ تدبير الحَدَث الحاضر، فيتقسم الفكرُ، ويتذبذب القلْبُ، ويتفرّق جميع الهمّ . بخلاف وسط الليـل فإنه خال من جميع ذلك .

الأمر الثـانى
(صـــفاء المكان)

وذلك بأن يكون المكانُ الذى هو فيه خاليا من الأصوات، عاريا عن المَخُوفات والمَهُولات والطوارق، وأن يكون مع ذلك مكانا رائقا مُعْجِبا رقيقَ الحَوَاشى فَسِيحَ الأرجاء، بسيط الرِّحاب، غير غَمٍّ ولا كَدِر، فإن انضم إلىٰ ذلك مافيه بَسْط للخاطر: من ماء وخُضرة وأشجار وأزهار وطيب رائحة، كان أبسط للفكر وأنجح للخاطر .

وقد ذهب بعضهم إلىٰ أنه ينبغى خُلوُّ المكان من النقوش الغريبة والمَرَائى المعجبة، فإنها وإن كانت ممـا يُنَشِّط الخاطر فإن فيها شُغْلا للناظر فيتبعه القلب فيتشتَّتُ .

المقصـــــد الثـانى
(من الطرف الثالث فى بيان طُرُق البلاغة ووجوه تحسين الكلام، وكيفية إنشائه، وتأليفه، وتهذيبه، وتأديته، وبيان مايُستحسَن من الكلام المصنوع، وما يُعاب به)

أما إنشاؤه وتأليفه فقد قال ابن أبى الأصبع فى "تحرير التحبير": يجب علىٰ كل من كان له ميْل إلىٰ عمَل الشعر وإنشاء النثر أن يتعهد أوّلا نفســه ويمتحنها بالنظر فى المعانى، وتدقيق الفكر فى استنباط المخترعات، فإذا وجد لها فِطْرة سليمة وجِبِلَّة

• موزونة وذكاء وقّادا وخاطرا سَمْحا وفكرا ثاقبا وفهـما سريعا وبصـيرة مُبصِرة وألمعيَّـة مهذَّبة وقوّةً حافظة وقدرةً حاكية وهمة عاليـة ولَهْجة فصيحة وفِطْنة صحيحة ، أخذ حينئذ فى العمل ؛ وإن كان بعض ذلك غيرَ لازم لرب الإنشاء ، ولا يُضْطَرُّ إليه أكثرُ الشعراء ، ولكن إذا كملت هذه الصفات فى الكاتب والشاعر ، كان موصوفا فى هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفيسة .

قال أبو هلال العسكرى فى "الصناعتين" : إذا أردتَ أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببـالك ، ونَقِّ له كرائم اللفظ ، فآجعلها علىٰ ذُكْر منك ليقرُب عليك تناوُلُها ، ولا يتعبَكَ تطلُّبها ، واعمَلْه مادمت فى شباب نشاطك ، فإذا غشيك الفُتُور ، وتخوَّنك المَلَال ، فأمسك : فإن الكثير مع المَلَال قليل ، والنفيس مع الضَّجَر خسيس ، والخَوَاطر كاليَنابِيع يُسقىٰ منها شىء بعد شىء فتجد حاجتك من الرِّىّ ، وتنال أربك من المنفعة ، فإذا أكثرت عليها نَضَب ماؤها ، فقلَّ عنك غَناؤها . وينبغى أن تخرج مع الكلام مُعارِضــه ، فإذا مررت بلفظ حَسَن أخذت برقَبته ، أو معنًى بديع تعلقتَ بذَيْله . وتحرَّزْ أن يسبقك ، فإنه إن سبقك تعبت فى تطلُّبــه ، ولعلك لا تلحقه علىٰ طول الطلب ، ومواصلة الدَّأَب ، وهذا الشاعر يقول :

إذا ضَيَّعْتَ أوّلَ كلِّ شىء * أبتْ أعجـازُه إلَّا الْتِواء

وقد قالوا ينبغى لصانع الكلام أن لا يتقدّم الكلام تقدّما ولا يتبع ذُنَابَاه تَتَبُّعا ، ولا يحمله علىٰ لسانه حَمْلا ، فإنه إن تقدّم الكلامَ لم يتبعه خفيفُه وهزيله وأعجَفُه والشاردُ منه ، وإن تتبعه فاتتْه سوابقه ولواحِقُه ، وتباعدت عنه جِياده وغُرَره ؛ وإن حمله علىٰ لسانه ثقُلتْ عليه أوساقه وأعباؤه ، ودخلت مَساويه فى مَحَاسنه ، ولكنه يجرى معه فلا تَندّ عنـه نادّة تُعْجبه سِمَنا إلا كَبَحها ، ولا تتخلف عنه مُثْقَلة هزيلةٌ إلا أَرْهقها ، وطورا يفرّقه ليختار أحسنه ، وطورا يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر ،

ويتناوله من تحت لسانه ، ولا يسلِّط الملل على قلبه ، ولا الإكثار على فكره ، فيأخذ عَفْوَه ويستغزِر درّه ، ولا يكره آبيا ولا يدفع آتيا . وإيَّاك والتعقيد والتوعُّر ، فإنَّ التوعُّر هو الذى يستهلك معانيَك ويَشِين ألفاظك ، ومن أراغ معنًى كريما ، فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حقَّ المعنىٰ الشريف اللفظُ الشريفُ ، ومن حقهما أن يصونهما عما يُدَنِّسهما ، ويفسدهما ويُهجِّنهما ، فتصيرَ بهما إلىٰ حدّ تكون فيه أسوأ حالًا منك قبل أن تلتمِسَ البلاغة ، وترتِهنَ نفسك فى مُلَابستها ؛ وليكن لفظك شريفا ، عذبا ، فَخْما ، سهلا ، ومعناه ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا ؛ فإن وجدتَ اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصِلْ إلىٰ مركزها ، ولم تتصل بشَكْلها ، وكانت قلِقةً فى موضعها ، نافرةً عن مكانها ، فلا تُكْرِهْها علىٰ ٱغتصاب أماكنها ، والنزول فى غير أوطانها ؛ وإن بُلِيت بتكلف القول ، وتعاطى الصناعة ، ولم تسمح لك الطبيعةُ فى أوّل وهلة ، وعصَتْ عليك بعد إجالة الفكر ، فلا تعجَلْ ، ودَعْه سحابةَ يومك ، ولا تضجَرْ ، وأمهله سَوَادَ ليلتك ، وعاوِدْه عند نَشَاطك ، فإنك لا تعْدَم الإجابة والمُواتاة إن كانت هناك طبيعة ، أو جَرَيْت من الصناعة علىٰ عُرْف ؛ وينبغى أن تعرف أقدار المعانى ، فتوازنَ بينها وبين أوزانِ المستمعين وأقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاما ، ولكل حال مَقاما ، حتّٰى تقسم أقدار المستمعين علىٰ أقدار الحالات ، فإن المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مَقام من المقال .

قال فى "موادّ البيان" ويكون ٱستعمال كلٍّ من جزل الألفاظ وسهلها ، وفصيحها وسَلِسها وبهجها فى موضعه ، وأن يسلك فى تأليف الكلام ، الطريق الذى يخرجه عن حُكْم الكلام المنثور العاطل ، الذى تستعمله العامّة فى المخاطبات ، والمكاتبات ، إلىٰ حكم المؤلَّف الحالِى بحِلَى البلاغة والبديع ، كالٱستعارات ، والتشبيهات ، والأسجاع ، والمقابَلات ، وغيرها من أنواع البديع .

قال فى ” الصناعتين “ وإنْ عملت رسالة أو خُطْبــة فتخَطَّ ألفاظَ المتكلِّمين : كالجِسْم ، والجَوْهر ، والعَرَض ، واللون ، والتأليف ، واللاهوت ، والنـاسوت ، فإن ذلك هُجْنة .

قال فى ” موادّ البيان “ وذلك بأن يقصد الكاتب إلىٰ ألفاظ الصِّــناعة فيخرج منها إلىٰ ألفاظ غريبة عن الصناعة غير مجانِسة لها . قال وإنما يُؤتىٰ الكاتب فى هذا الباب من جهة أن يكون له شَرِكة فى صناعة غير الكتابة ، كصــناعة الفِقْه والكلام وغيرهمــا : مثل صناعة أصحاب الإعراب ونحوها ؛ فلكل طبقة من هذه الطبقات ألفاظٌ خاصة بها ، يستعملونها فيما بينهم عند المحاورة والخوض فى الصــناعة ؛ ومن عادة الإنسان إذا تعاطىٰ بابا من هذه الأبواب أن يسبق خاطِرُه إلىٰ الألفاظ المتعلِّقة به ، فيُوقعها فى الكتُب التى ينشئها لغلبــة عادة ٱستعماله إياها فيهجِّنها بإدخاله فيهــا ماليس من أنواعها .

قال فى ” الصناعتين “ وتخيُّرُ الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام ، وهو من أحسن نُعُوته وأزْيَن صــفاته ، فإن أمكن مع ذلك ٱنتظامُه من حروف سَهْلةِ المخارج ، كان أحسن له ، وأدْعىٰ للقلوب إليه ؛ وإن ٱتفق له أن يكون موقِعُه فى الإطنــاب أو الإيجاز أليق بموقعــه ، وأحق بالمقام والحال ، كان جامعا للحُسْن ، بارعا فى الفضل ؛ فإن بلغ مع ذلك أن تكون موارِدُه تُنْبِيك عن مَصَادره ، وأوّلُه يكشف قناعَ آخره ، كان قد جمع نِهايةَ الحسن ، وبلغ أعلىٰ مراتب التمام .

قال فى ” موادّ البيان “ وإذا سلكت طريقا فمرّ فيها ، ولا تتنازل عنها إن كانت رفيعة ، ولا ترتفع عنها إن كانت وضيعة . وخالف ٱبن أبى الاصبع ، فقال : ولا تجعل كل الكلام شريفا عاليا ، ولا وضيعا نازلا ، بل فَصِّله تفصيل العُقُود ، فإن العِقْد إذا

كان كله نفيسا لا يظهر حسنُ فرائده، ولا يبين جمالُ واسطته ، فإن الكلام إذا كان متنوّعا فى البلاغة، أُفْتِنَت الأسماعُ فيه، ولا يلحق النفوسَ مَلَلٌ من ألفاظه ومَعَانيه؛ ولا يخرج عن غرض إلىٰ غيره حتّى يكمل كل ماينتظم فيه : كما إذا كان ينشئ كتابا فى العَذْل والتوبيخ ، فيشوبُ ألفاظَه بألفاظ أخرىٰ تخرُج عن الخشونة إلى اللّين ، فإن ٱختلاف رُقْعة الكلام من أشدّ عيوبه .

قال فى "الصناعتين" ولا تجعل لفظك حُوشِيًّا بدوِيًّا، ولا مبتذَلا سُوقِيًّا، ورتّب الألفاظ ترتيبا صحيحا ، فتقدّمُ منها ما يحسُن تقديمه ، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره ؛ ولا تقدّم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا تُؤَخر ما كان التقديم به أليق، ولا تكرر الكلمة الواحدة فى كلام قصير : كما كتب سعيد بن حميد: "ومَثَلُ خادمك بين يديه ما يملك فلم يجد شيئًا يَفِى بحقّك، ورأىٰ أن تقريظك بما يبلغه اللسان وإن كان مقصرا عن حقك أبلغُ فى أداء مايجب لك". فكرر ذكر الحق مرتين فى مقدار يسير . علىٰ أن أبا جعفر النحاس قد ذكر فى "صناعة الكتاب" أنّ ذلك ليس بعيب عند كثير من أهل العربية ، وهو الحق فقد وقع مثل ذلك من التكرير فى القرءان الذى هو أفصح كلام ، وآنَقُ نظام ، فى قوله تعالىٰ : ﴿ والسَّمَاءَ رفَعَها ووَضَعَ المِيزانَ أَنْ لا تَطْغَوْا فِى المِيزانِ وأَقِيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات فى مقدار يسير من الكلام ، وأمثاله فى القرءان الكريم كثير .

قال فى "الصناعتين" فإن ٱحتاج إلىٰ إعادة المعانى أعادها بغير اللفظ الذى ٱبتدأ به : كما قال معاوية : "مَنْ لم يكن من بنى عبد المطلب جَوَادا فهو دَخِيل، ومن لم يكن من بنى الزُّبير شُجاعا فهو لَزِيق، ومن لم يكن من بَنِى المُغِيرة تَيَّاها فهو سَنِيد" . فقال دَخِيل ، ثم قال لَزِيق ، ثم قال سَنِيد والمعنىٰ واحد ، والكلام علىٰ ما ترىٰ

حسن . ولو قال لَزِيق ثم أعاد لسَـمُج . على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" قد ذكر ماينافى ذلك، وتعقَّب أبا إسحاق الصابى فى قوله فى تحميدة كتاب : الحمد لله الذى لا تُدْرِكُهُ الأعينُ بألحـاظها ، ولا تَحُدّه الألسُن بألفاظها ، ولا تُخْلِقه العُصور بمرورها ، ولا تُهْرِمه الدُّهور بكُرورها ، وقوله بعد ذلك فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسـلم : لم يَرَ للكُفْر أَثَرا إلَّا طَمَسه ومَحَاه ، ولا رَسْمـا إلا أزاله وعَفَّاه ؛ فقـال لا فرقَ بين مُرور العصور ، وكُرور الدهور ؛ وكذلك لا فرق بين مَحْو الأثر وإعفاء الرسم ؛ ويحتمل أن يقال إنمـا كره صاحب "المثل السائر" ذلك لتوافق القرينتين فى جميع المعنىٰ بخلاف كلام معـاوية فإنه متوافق فى اللفظة الأخيرة فقط .

قال فى "الصناعتين" وتجنّب كلَّ ما يُكْسِب الكلام تعمية : كما كتب سـعيد ٱبن حميد، يذكر مَظْلِمة إنسان فى كتابه : لفلانٍ وله بى حُرْمةٌ مَظْلِمةٌ ، يريد لفلانٍ مظلِمـة وله بى حرمة، بمعنى أنه راعى حرمتـه . قال : وٱعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسـائل والخُطَب هو أن تجعلها مُزْدوِجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجعُ فإن جعلتها مسجوعةً كان أحسَنَ مالم يكن فى سَجْعك استكراه، وتنافُر، وتعقيـد ؛ وكثيرا مايقع ذلك فى السجع ، وقلَّما يسلم إذا طال من ٱستكراه وتنافر .

قال ٱبن أبى الأصبع : ولا تجعـل كلامك كلَّه مبنيًّا علىٰ السجع ، فتظهرَ عليـه الكُلْفة ، ويتبيَّنَ فيه أثرُ المشقَّة ، وتتكلَّف لأجل السجع ٱرتكاب المعنىٰ الساقط ، واللفظِ النازل ؛ وربمـا ٱستدعيتَ كلمة للقَطْع رغبـةً فى السـجع فجاءت نافرة من أخواتها ، قَلِقة فى مكانها . بل ٱصرف كلَّ النظر إلىٰ تجويد الألفاظ وصحة المعانى ، وٱجْهَد فى تقويم المبَانى ، فإن جاء الكلام مسجوعا عَفْوا من غير قَصْد ، وتشابهت مَقَاطعُه من غير كسب كان ، وإن عزَّ ذلك فاتْرُكْه وإن ٱختلفت أسجاعه وتباينَتْ

فى التقفية مقَاطعه ، فقد كان المتقدّمون لايحتفلون بالسَّجع جملة ، ولا يقْصِدونه ، إلا ماأتت به الفَصَاحة فى أثناء الكلام ، واتّفق من غير قصد ولا اكتساب ، وإنما كانت كلماتهم متوازِيه ، وألفاظُهم متُساوِيه ، ومعَانيهم ناصعه ، وعبارَتُهم رائعه ، وفصولهم متقابله ، وجملُ كلامهم متماثله ، وتلك طريقة الإمام على رضى الله عنه ومن اقتفى أثره من فُرْسان الكلام : كابن المقفَّع ، ويزيدَ بنِ هارون ، وإبراهيمَ بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مَسْعَدة ، وأبى عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء .

قال فى " موادّ البيان " : وأقلُّ مايكون من الازْدِواج قرينتان .

قال فى " الصناعتين " : وينبغى أن يجتنب إعادة حروف الصِّلات والرباطات فى موضع واحد إذا كتب ، فى مثل قول القائل له منه عليه ، أو عليه منه ، أو به له منه ، وحقه له عليه . قال وسبيله أن يداويه حتّى يزيله ، بأن يفصل مابين الحرفين مثل أن يقول : أقمتُ به شهداءَ عليه ، كقول المتنبى :

وتُسْعِدُنِى فى غَمْرةٍ بعدَ غَمْرةٍ * سَبُوحٌ لهَا مِنْها عَلَيْها شَوَاهِدُ

قال ابن أبى الاصبع : وليراع الإيجاز فى موضعه ، والإطناب فى موضعه ، بحسَب مايقتضيه المقام ويتجنَّب الإسهاب والتطويلَ غير المفيد .

قال العسكرى : وينبغى أن يأتى فى تأليفه الكلامَ بآيات من الكتاب العزيز فى الأمور الجليلة ، للترصيع والتحلية ، والاستشهاد للمعانى علىٰ مايقع فى موقعه ، ويليق بالمكان الذى يُوقَع فيه ، ولكنه لايَستكثِر منه حتّى يكون هو الغالبَ علىٰ كلامه ، تنزيها لكلام الله تعالىٰ عن الابتذال ، فإنه إنما يستعمله علىٰ جهة التبرُّك والزينة ، لاليُجعلَ حَشْوا فى الكلام ، وإذا استُعِير منه شىء أُتِى به علىٰ صورته ، ولا ينقله عن صيغته ، ليسلم من تحريفه ، ومخالفة اختيار الله تعالىٰ فيه . قال وكما لا يجوز الإكثار منه لا يجوز

أن يخلِّي كلامه من شيء منه تحليةً له ، فإن خلوّ الكلام من القرءان يَطْمِس محاسِنَه ، ويَنْقُص بَهْجته ؛ ولذلك كانوا يسمُّون الخطبة الخالية من القرءان بَتْراء .

وينبغي أن لا يستعمل في كتابتـه ما جاء به القرءان العظيم من الحذف ومخاطَبة الخاصّ بالعامّ، والعامّ بالخاص، والجماعة بلفظ الواحد، والواحد بلفظ الجماعة، وما يجرى هـذا المَجْرىٰ ، لأن القرءان قد نزل بلغة العرب ، وخوطب به فُصحاؤهم ، بخلاف الرسائل .

قال في "الصناعتين" لا يجوز أن يستعمل فيها مايختص بالشِّعر من صَرْف مالا ينصرف، وحذف مالا يُحذف، وقَصْر الممدود، ومدّ المقصور، والإخفاء في موضع الإظهار، وتصغير الآسم في موضع تكبيره، إلا أن يريد تصغير التعظيم كقول القائل "أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيقُها المُرَجَّب" . ومما يُستحسن من وصية أبي تمام لأبي عُبَادَةَ البُحتُرىّ في الشعر مما لايستغنِي الناثرُ عن المعرفة به، والنَّسْج علىٰ مِنْواله : لانه يجب أن يُنَاسب بين الألفاظ والمعانِي في تأليف الكلام ، ويكونَ كخَيَّاط يقـدّر الثيابَ علىٰ قدر الأجسـام، وأن يجعـل شهوتَه لتأليف الكلام هي الذَّرِيعـةُ إلىٰ حُسْن نظمه، فإنَّ الشهوة نِعْمَ المعين! ويَعتبر كلامَه بما سلَف من كلام المـاضين، فمـا آستحسنه العلمـاء فليَقْصِده، وما آستقبحوه فلْيجتنِبْه، وينبغي أن يعمل السجعات مفرّقة بحسب مايجود به الخاطر ثم يرتبها في الآخِر ويحترزَ عند جمعها من سُوء الترتيب ، ويتوخّى حُسْن النسَق عنـد التهذيب ، ليكون كلامه بعضـه آخذا بأعناق بعض، فإنه أكمل لحسنه، وأمثل لرصفه ؛ وأن يجيد المَبْدأ والمَخْلص والمَقْطَع ، ويميز في فكره محط الرسالة قبل العمل ، فإنه أسهل للقصد ؛ ويجتهد في تجويد هذه المواضع وتحسينها ؛ ويوضّح معانيه ما آستطاع .

قلت وقد سبق في أوّل هـذه المقالة في بيان مايحتاج إليه الكاتب من الأدوات

وذكر أنواعها بيانُ كيفية الاقتباس من آيات القرءان الكريم والأحاديث النبوية والاستشهاد بها، وكيفيَّة حلّ الشعر إلى النثر، وتضمينه فى خلال الكلام المنثور وما يجرى هذا المَجْرى فأغنى عن إعادته هنا .

وأما بيان مايُستحْسَن من الكلام المصنوع فقد قال فى "الصناعتين" إن الكلام يحسُن بسَلَاسته وسُهُولتِه ونَصَاعته، وتخيُّر لفظه، وإصابةِ معناه، وجودةِ مَطَالعه، ولِين مَعَاطفه، واستواء تقَاسيمه، وتعادُل أطرافه، وتشبُّه أعجازه بهَوَاديه، وموافَقة أواخره لمَبَاديه، مع قِلَّة ضروراته بل عدمها أصلا، حتّى لايكونَ لها فى الألفاظ أثرٌ فتجدُ المنظومَ مثلَ المنثور فى سُهولة مَطْلَعه، وجَوْدة مَقْطَعه، وحُسْن رَصْفه وتأليفه وكمال صَوْغه وتركيبه؛ فإذا كان الكلام قد جمع العُذُوبة والجَزَالةَ والسُّهولة والرَّصانة مع السَّلاسة والنَّصاعة، واشتمل على الرَّوْنق والطَّلاوة، وسَلِم من ضَعْف التأليف، وبَعُد من سَمَاجة التركيب، صار بالقَبول حَقيقا، وبالتحَفُّظ خَليقا؛ فإذا ورد على السمع المُصيب استوْعبه ولم يَمُجَّه، والنفس تَقْبَلُ اللطيفَ، وتَنْبُو عن الغليظ، وتَقْلَق عن الجاسِى البَشِع، وجميعُ جوارح البدن وحواسّه تسكُن إلى مايوافقُه وتنفر عما يُضَادُّه ويخالفه؛ والعين تألف الحَسَن، وتَقْذَى بالقَبِيح؛ والأَنْف يرتاحُ للطِّيب ويَعَاف المُنْتِن؛ والفَمُ يلتَذُّ بالحُلْو، ويمُجُّ المرّ؛ والسمع يتشوّق للصوت الرائع، وينْزوِى عن الجَهِير الهائل؛ واليد تنْعَم باللِّين، وتتأذَّى بالخَشِن؛ والفَهْم يأْنَس من الكلام بالمعروف، ويسكُن إلى المألوف، ويَصْغَى إلى الصواب، ويَهْرُب من المُحَال، وينقبض عن الوَخِم، ويتأخَّر عن الجافى الغليظ، ولا يقبل الكلام المُضْطَرِب إلا الفهمُ المضطرب والرويَّةُ الفاسدة .

قال وليس الشأن فى إيراد المعانى لأن المعانى يعرفها العربىّ والأعجمىّ، والقَروِىُّ والبَدَوىّ، إنما هو فى جَوْدة اللفظِ وصَفَائه، وحُسْنه وبَهَائه، ونَزاهته ونقائه، وكثرة

طَلَاوته ومائه، وصحة السـبك والتركيب ، والخُلُوّ من أَوَد النظم والتأليف ؛ وليس يُطْلَب من المعنىٰ إلا أن يكون صـوابا ، ولا يُقْنَع من اللفظ بذلك حتّى يكون على ماوُصف من نعوته التى تقدّمت . ألا ترىٰ أن الخُطَب الرائعة، والأشعار الرائقة، لم تُعمَل لإفهام المعانى فقط : لأن الردىء من الألفاظ يقوم مَقَام الجيـد منها فى الإفهام ؛ وإنمـا يدلُّ حسن الكلام، وإحكام صـنعته، ورَوْنَق ألفاظه وجودةُ مَقَاطعه، وبديعُ مَبَاديه ، وغـريب مَبَانيه ، علىٰ فضل قائله ومنشيه . وأيضا فإن الكلام إذا كان لفظا حُلْوا عَذْبا وَسَطا دخل فى جملة الجيد، وجرىٰ مع الرائع النادر. وأحسنُ الكلام ماتلاءَمَ نَسْجُه ولم يَسْخُف ، وحَسُن نظمُه ولم يَهْجُن ، ولم يُستعمَل فيه الغليظ من الكلام فيكون خَلَقا بغيضا ، ولا السُّوقِىُّ من الألفاظ فيكون مُهَلْهَلا دُونا ، ولا خيرَ فى المعانى إذا ٱستُكْرِهتْ قهرا ، والألفاظ إذا أُجْبِرَتْ قَسْرا ؛ ولا خير فيما أُجِيـد لفظُه إلا مع وضوح المَغْزىٰ وظهور المَقْصِـد . قال وقد غلب علىٰ قوم الجهـلُ فصاروا يستجيدُون الكلام إذا لم يَقِفوا علىٰ معناه إلا بكَدّ ، ويستفْصِحُونه إذا وجدوا ألفاظه كَزَّة غليظة وجاسِيَةً غريبة ، ويستحْقِرون الكلام إذا رأَوْه سَلِسا عَذْبا ، وسَهْلا حُلْوا ؛ ولم يعلموا أن السهلَ أمنعُ جانِبا ، وأعزُّ مَطْلَبا ؛ وهو أحسن مَوْقِعا ، وأعذَبُ مستَمَعا ؛ ولهذا قيل أجودُ الكلامِ السهلُ الممتنع . وقد وصف الفضلُ ٱبنُ سهْل عمرو بنَ مَسْعَدة فقال : هو أبلغُ الناس ، ومن بَلاغتـه أنّ كلّ أحد يظُنُّ أنه يكتُب مثلَ كُتُبه ؛ فإذا رامها تعذّرتْ عليه ؛ وأنشـد إبراهيم بن العبّاس لخاله العبّاس بن الأحنف :

إن قال لم يَفْعَلْ وإن سِيلَ لَمْ * يَبْـذُلْ وإن عُوتِبَ لم يُعْتِب
صَبٌّ بعِصْـيانِى ولو قالَ لِى * لاتَشْرِبِ البـارِدَ لم أَشْرَبِ

ثم قال هذا والله الشعر الحسن المعنىٰ ، السهلُ اللفظِ، العذبُ المستَمَع ، القليلُ

النظير، العزيز الشبيه، المُطْمِع الممتنع ، البعيدُ مع قربه ، الصَّعْبُ مع سُهولته ، قال فجعلنا نقول هذا الكلام والله أحسن من شعره. وقيل لبعضهم: ألا تَسْتعمِلُ الغريب فى شعرك؟ فقال: ذلك عِىٌّ فى زمانى، وتكلُّف منِّى لوقلتُه ، وقد رُزِقت طَبْعا وآتساعًا فى الكلام فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يَحْتاج إلىٰ تفسير .

وقال أبو داود : رأس الخَطَابة الطبعُ ، وعمودُها الدُّرْبة ، وجناحاها رِوَايةُ الكلام وحَلْيها الإعراب، وبَهَاؤُها تخيُّرُ الألفاظ ، والمحبةُ مقرونةٌ بقلة الآستكراه ، وما كان من الكلام لفظُه سهلا ومعناه مكشوفًا بَيِّنا فهو من جملة الردىء المردود، لا سيما إذا آرتُكِبتْ فيه الضرورات ، فأما الجَزْل المختارُ من الكلام، فهو الذى تعرفه العامَّة إذا سمعته، ولا تستَعْمِله فى مُحَاوراتها ، وأجودُ الكلام ما كان سَهلا جَزْلا ، لا يَنْغلِق معناه، ولا يستَبْهِم مَغْزاه، ولا يكون مَكْدودا مستكْرَها، ومتوعِّرا متقعِّرا، ويكون بريئا من الغَثَاثة، عاريا من الرَّثاثة. فمن الجَزْل الجَيِّد من النثر قولُ سعيد بن حميد : وأنا مَنْ لايحاجُّك عن نفسه، ولا يُغالِطك عن جُرْمه، ولا يلتمِس رِضاك إلا من جهته، ولا يستدعِى بِرَّك إلا من طريقته، ولا يستعطِفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك إلا بالآعتراف بالجُرْم ، نبَتْ بى عنك غِرَّةُ الحَدَاثة ، وردّتْنى إليكَ الحُنْكة، وباعَدَتْنى منكَ الثقةُ بالأيَّام، وقادَتْنى إليك الضرورة ، فإن رأيت أن تستَقْبِل الصنيعةَ بقَبُول العُذْر، وتجدّد النعمة بآطِّراح الحِقْد، فإنَّ قديم الحُرْمة وحديثَ التوبة يمحَقَان ما بينهما من الإساءة، وإن أيام القدرة وإن طالتْ قِصيرة، والمتعةَ بها وإن كثُرتْ قليلة ، فعلْتَ إن شاء الله تعالى .

وأجزلُ منه قول الشعبىّ للحجاج، وقد أراد قتْلَه لخُروجه عليه مع ابنِ الأشعثِ أجدبَ بنا الجَنابُ ، وأحْزنَ بنا المَنْزِل ، فاستَحْلَسْنا الحَذَر، واكتحَلْنا السَّهَر ، وأصابتنا فتنةٌ لم نكُنْ فيها بررةً أتقياءَ، ولا فَجَرة أقوياء . فعفا عنه .

ومن النظم قول المرّار :

لاتَسْألِى القَوْمَ عن مالِى وكَثْرتِه * قد يُقْتِرُ المرءُ يوما وهو مَحْمُود
أَمْضِى علىٰ سُنَّةٍ من والِدِى سَلَفَتْ * وفى أَرُومَتِــه مايَنْبُتُ العُــودُ

فهذا وان لم يكن من كلام العامّة فإنهم يعرفون الغَرَضَ منــه ويَقِفُون علىٰ أكثر معانيه لحُسْن ترتيبه وجودة نَسْجه؛

قال فى "الصناعتين" أما إذا كان لفظ الكلام غَثًّا، ومَعْرِضـه رَثًّا، فإنه يكون مَرْدودا، ولو آحتوى علىٰ أجلّ معنًى وأنبلِه، وأرفَعِه وأفْضلِه، كقول القائل :

أَرىٰ رِجالًا بأدْنىٰ الدِّينِ قد قَنِعُوا * ولا أَرَاهُمْ رَضُوا فى العَيْشِ بِالدُّونِ
فاستَغْنِ بالدِّينِ عن دُنْيَا المُلوكِ كما آسـ * ـتَغْنىٰ المُـلوكُ بدُنْيـاهُمْ عن الدِّينِ

قال : فهو لايدخل فى جملة المختار، ومعناه كما ترىٰ جميل، فاضلٌ جليل، وأما الجَزْل الردىءُ الفَجُّ، الذى ينبغى تركُ آستعماله فقد مر فى الكلام علىٰ الغريب الحُوشىّ .

المقصِد الثـالث

(فى بيان مقادير الكلام ومقتضيات إطالته وقِصَره)

اعلم أن الكلام المصنوع من الخطب، والمكاتبات، والولايات وغيرها علىٰ ثلاثة ضروب .

الضرب الأوّل

(الإيجـاز)

وهو جمع المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلةِ، وعليه ورد أكثرُ آيِ القرءان الكريم فمن ذلك قوله تعالىٰ فى مُفْتَتَح سورة الفاتحة : ﴿ الحمْدُ لِلهِ رَبِّ العالَمِين ﴾ . آنتظم فيه خلق السموات والأرض وسائرِ المخلوقات لم يشِذَّ عنه شيء فى أوْجَز لفظ وأقربِه

وأسهلِه ؛ ومنـه قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ آستوعبَ جميعَ الأشياء علىٰ الآستقصاء فى كلمتين لم يخرج عنهما شىء؛ وقولُه ﴿أُولَٰئِكَ لَهُـمُ الْأَمْنُ﴾ فدخل تحت الأَمْن جميعُ المحبوبات لأنه نفىٰ به أن يخافوا شيئا : من الفَقْر والموتِ وزوال النِّعمة والجَوْرِ وغير ذلك ؛ وقوله : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُـمْ ﴾ جمع منافع الدنيا والآخرة ؛ وقوله فى صفة خَمْر أهل الجنة : ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ آنتظم بقوله : ولا هم عنها ينزَفُون عدمَ ذَهابِ العقل وذَهابِ المـالِ ونَفَاد الشراب ، فلم يكن فيها شىء من ذلك ؛ وقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فجمع فيها مكارم الأخلاق بأسْرِها : لأنَّ فى العفو صِلةَ القاطعين ، وإعطاء المـانعين ؛ وفى الأمر بالمعروف تقوىٰ الله تعالىٰ ، وصلةَ الرحم ، وصونَ اللسان عن الكذب ، وغضَّ الطَّرْف عن المحرّمات ، والتبرِّى من كل قبيح ؛ إذ لا يأمر بالمعروف من هو ملابس شيئا من المنكر ؛ إلىٰ غير ذلك من الآيات التى لا تحصىٰ كثرةً .

ومن كلام النبوّة قوله صلى الله عليه وسلم : "نِيَّةُ المَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِه" وقوله عليه السلام : "حُبُّكَ الشَّىْءَ يُعْمِى ويُصِمُّ" إلىٰ غير ذلك من جَوَامع الكَلِم .

الضرب الثـانى
(الإطناب)

وهو الإشباعُ فى القول ، وترديدُ الألفاظ المترادفَة علىٰ المعنىٰ الواحد . وقد وقع منه الكثيرُ فى الكتاب العزيز، مثل قوله تعالىٰ : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله جلَّ وعزَّ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ كرر اللفظ فى الموضعين تأكيدا للأمر وإعلاما أنه كذلك لا محـالة . وقولهٰ : ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فكرر إنى

لكم منه نذيرٌ مبين من حيث إن الكفر وإن تعـدَّدت أقسامُه لا يخرجُ عن تعطيل أو شرك ففى قوله فَفِرُّوا إلىٰ اللهِ نفىُ التَّعطيل بإثبـات الإلٰه وفى قوله : ولا تَجْعَلُوا مع اللهِ إلهًـا آخَرَ نفىُ الشّرك . وقد كرر سبحانه فى سورة الرحمن قوله : ﴿فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيثُ عَدَّد فيها نِعَـمه ، وأذكر عبـادَه آلاءه ، ونبَّههـم علىٰ قَدْرها ، وقدرتِه عليها ، ولُطفِه فيها ، وجَعلها فاصِلةً بين كُلّ نعمة ونعمة ، تنبيهًا علىٰ موضع ماأسداهُ إليهم فيها ، وكذلك كَرَّر فى سورة المرسَلات : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ تأكيدًا لأمر القيامة المذكورة فيها . وقد وقع التكرار للتأكيد فى كلام العرب كثيرا كما فى قول الشاعر :

* أَتَاكَ أَتَاكَ اللَّاحِقُونَ أَتَاكَا(١) *

وقول الآخر :

* كَمْ نِعْمَة كانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وكَمْ *

إلىٰ غير ذلك ممـا وقع فى كلامهم ممـا لا تأخذه الإحاطة .

الضرب الثـالث

(المساواة)

بأن تكون الألفـاظ بإزاء المعانى فى القلة والكثرة لا يزيد بعضها علىٰ بعض . وقد مثل له العسكرىّ فى "الصناعتين" بقوله تعالىٰ : ﴿حُورٌ مَقْصُوراتٌ فى الخِيَامِ﴾ وقوله : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ وقولِ النبى صلى الله عليه وسلم "لا تَزالُ أُمَّتِى بخَيْرٍ ما لم تَرَ الأَمَانَة مَغْنَمًا والزَّكاةَ مَغْرَمًا" وقوله "إيَّاكَ والمُشَارَّةَ، فإنها تُميت الغُرَّة(٢)

---

(١) فى الضوء بدله (آحبس آحبس) وهو المشهور فى البيت .

(٢) أى العمل الصالح الحسن تشبيها له بغرة الفرس . والعرة العمل السئ تشبيها له بالعذرة . انظر اللسان .

وتُحْيِي العِزّة". وقول بعض الكُتّاب : سألتَ عن خَبَرِى وأنا فى عافية لا عَيْبَ فيها إلا فَقْدُك، ونِعْمةٍ لامَزِيدَ فيها إلا بك . وقول آخر : وقد علَّمَتْنِى نَبْوتُك سَلْوتَك، وأسلمنى يَأْسِى مِنْك، إلىٰ الصَّبْر عنك . وقول آخر : فتولَّى اللهُ النعمةَ عليك وفيك، وتولَّى إصلاحَك والإصلاحَ بك، وأجزل من الخير حَظَّكَ والحظَّ منك، ومنّ عليك وعلينا بك . وقول الشاعر :

أَهَــابُكِ إجْلالًا وما بِكِ قُدْرةٌ * عَلَيّ ولٰكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها

وماهَجَرتْكِ النَّفْسُ أنَّكِ عِنْـدَها * قَلِيــلٌ ولا أنْ قَلَّ مِنْكِ نَصِيبُها

إذا علمت ذلك فقـد ٱختلف البلغاء فى أىِّ الثلاثة أبلغ وأولىٰ بالكلام، فذهب قوم إلىٰ ترجيح الإيجاز، محتجِّينَ له بأنَّه صورة البلاغة وأن ما تجاوز مقدارَ الحاجة من الكلام فَضْلة داخلةٌ فى حَيِّز اللَّغو والهُذْر، وهما من أعظم أدْواء الكلام، وفيهما دلالة علىٰ بَلَادة صاحب الصِّناعة وغَباوته . وقد قال الأمين محمد بن الرشيد : عليكم بالإيجاز فإن له إفهاما وللإطالة ٱستبْهاما . وقال جعفر بن يحيىٰ لكاتبه : إن قَدَرتم علىٰ أن تجعلوا كُتُبكم توقيعاتٍ فٱفعلوا . وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز أَنْجَعُ من البيان بالإطناب، وقيل لبعضهم : ماالبَلَاغة ؟ قال الإيجاز . وقيل لٱبن حازم لم لا تُطِيل القصائد فأنشد :

أبىٰ لِى أن أُطِيلَ الشِّعْرَ قَصْدِى * إلىٰ المَعْنىٰ وعِلْمِى بالصَّــوابِ

وإيجــازِى بمُخْتَصَرٍ قَــرِيبٍ * حَذَفْتُ به الفُضُولَ من الجَوَابِ

وذهبت طائفة إلىٰ أن الإطناب أرجح، وٱحتجُّوا لذلك بأن المَنْطق إنمـا هو بيان والبيان لايحصل إلا بإيضاح العبارة، وإيضاح العبارة لا يتهيأ إلا بمرادَفة الألفاظ علىٰ المعنىٰ حتّى تُحيط به إحاطةً يُؤْمَن معها من اللَّبْس والإبهام، وإن الكلامَ الوجيزَ لا يُؤْمَن وقوعُ الإشكال فيـه . ومن ثم لم يحصل علىٰ معانيه إلا خواصُّ أهل اللُّغة

العارفين بدَلَالات الألفاظ . بخلاف الكلام المُشْبَع الشافى فإنه سالم من الالتباس لتَساوِى الخاصّ والعامّ فى جهته . ويؤيد ذلك ماحكى أنه قيل لقَيْس بن خارجة : ماعِنْدكَ فى حَمَالاتِ ذاتِ حُسْن؟ قال : عندى قِرىٰ كل نازل، ورِضَا كلّ ساخِط، وخُطْبَةٌ من لَدُنْ تطلُعُ الشمسُ إلىٰ أن تغرُبَ، آمُرُ فيها بالتواصُل، وأنهىٰ عن التقاطُع. فقيـل لأبى يعقوب الخُرَمى" هلَّا اكتفىٰ بقوله آمُر فيها بالتواصـل عن قوله وأنهىٰ عن التقاطع ؟ فقال : أو ماعلمت أن الكناية والتعريضَ لا تعملُ عَمَلَ الإطناب والتكشُّف؟ ألا ترىٰ أن الله تعالىٰ إذا خاطب العربَ والأعرابَ أخرج الكلام مُخْرَجَ الإشارة والوَحْى، وإذا خاطب بَنِى إسرائيل أو حكىٰ عنهم جعلَ الكلامَ مبسوطا، وقلمـا تَجِد قصةً لبنى إسرائيل فى القرءان إلا مطوَّلة مشروحة ومكررةً فى مواضع مُعادةً لبُعد فهمهم، وتأخُّر معرفتهم، بخلاف الكلام المُشْـبَع الشافى فإنه سـالمٌ من الالتباس لتساوى الخاصّ والعامّ فى فهمه .

وذهبت فرقة إلىٰ ترجيح مساواة اللفظ المعنىٰ، واحتجوا لذلك بأن مَنْزَع الفضيلة من الوسَط دون الأطراف وأن الحُسْن إنمـا يوجد فى الشىء المعتـدِل .

قال فى "موادّ البيان": والذى يوجبه النظر الصحيح أن الإيجاز والإطناب والمساواةَ صـفاتٌ موجودة فى الكلام ولكل منها موضع لايخلُفـه فيه رديفُه، إذا وضع فيه انتظمَ فى سِلك البلاغة ودلّ علىٰ فضل الواضِع، وإذا وُضع غيره دلَّ علىٰ نقص الواضع وجهلِه برُسُوم الصِّناعة .

فأما الكلام الموجز فإنه يصلح لمُخَاطَبـة الملوك، وذوى الأخطار العاليـة، والهمم المستقيمة، والشُّـون السنِيَّة، ومن لا يجوز أن يُشْغَل زمانه بمـا هَمُّتـه مصروفةٌ إلىٰ مطالعة غيره .

واما الإطناب فإنه يصلح للمكاتبات الصادرة فى الفُتُوحات ونحوها مما يُقْرأ فى المحافل، والعُهودِ السلطانية، ومخاطبةِ من لا يصل المعنىٰ إلىٰ فهمه بأدنىٰ إشارة. وعلىٰ ذلك يحمل ما كتبه المهلَّب بنُ أبى صُفْرةَ إلىٰ الحجّاج فى فتح الأزارِقة من الخوارج والظهور عليهم علىٰ ٱرتفاع خَطَر هذا الفتح وطول زمانه وبُعْد صيتِه، فإنه كتب فيه: "الحمد لله الذى كفىٰ بالإسلام قَصْدَ ما سواه، وجعل الحمدَ متصلا بنُعْماه، وقضىٰ أن لاينقطع المزيدُ وحبلُه، حتّى ينقطع الشكْرُ من خلقه. ثم إنا كنا وعدوّنا علىٰ حالتين مختلفتين، نرىٰ منهم مايسُرُّنا أكثَرَ مما يسرُّهم، ويَرَوْن منا مايسُوءُهم أكثَرَ مما يسرُّهم فلم يزل ذلك دأبَنَا ودأْبَهم: ينصرنا اللهُ ويَخْذُلهم، ويمحِّصنا ويمحَقُهم، حتّى بلغ الكتابُ بناديهم أجَلَه، فقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين.

فإن الذى حمله علىٰ الاختصار فى هذا الكتاب إنما هو كونه إلىٰ السلطان الذى من شأنه ٱختصارُ المكاتبات التى تُكتَب إليه، بخلاف مالوكُتِب به عن السلطان إلىٰ غيره، فإنه يتعين فيه بَسْطُ القول وإطالتُه علىٰ ماسيأتى ذكره فى أوّل المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاءالله تعالىٰ.

وأما مساواة اللفظ للمعنىٰ فإنه يصلُح لمخاطبة الأكفاء والنُّظَراء والطَّبَقة الوُسْطىٰ من الرؤساء. فكما أن هذه المرتبةَ متوسِّطة بيْن طرفَىِ الإيجاز والإطناب كذلك يجب أن تُخَصّ بها الطبقةُ الوُسْطىٰ من الناس. قال أما لو ٱستعمل كاتبٌ ترديد الألفاظ ومرادفَتها علىٰ المعنىٰ فى المكاتبة إلىٰ ملك مصروفِ الهمةِ إلىٰ أمور كثيرةٍ متىٰ ٱنصرف منها إلىٰ غيرها دخلها الخلَلُ، لرتَّب كلامه فى غير رُتَبه، ودلّ علىٰ جهله بالصناعة. وكذا لو بنىٰ علىٰ الإيجاز كتابا يكتبُه فى فتحٍ جليل الخطَر، حسَن الأثر، يُقْرأ فى المحافل والمساجد الجامعة علىٰ رءُوس الأشهاد من العامّة ومَن يُراد منه تفخيمُ شأن السلطان

فى نفسه، لأوْقعَ كلامه فى غير موقعه، ونزَّله فى غير منزِلته : لأنه لاأقبحَ ولاأسمَج من أن يُستنفَر الناسُ لسماع كتاب قد ورد من السلطان فى بعض عظائم أمور المملكة أو الدِّين، فإذا حضر النـاسُ كان الذى يمـرّ علىٰ أسماعهم من الألفاظ واردا موْرِدَ الإيجاز والاختصار لم يحسُن موقعه وخرج من وَضْع البلاغة لوَضْعه فى غير موضعه .

قلت وما ذكرته من الأصول والقواعد التى تبنىٰ عليهـا صنعة الكلام هو القدر اللازم الذى لا يسعُ الكاتبَ الجهلُ بشىء منـه، ولا يُسْمَح بإخلاء كتابٍ مصنَّفٍ فى هذا الفنّ منه .

أما المتمِّمات التى يكمُل بها الكاتب : من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوهِ تحسين الكلام من المعانى والبيان والبديع فإن فيها كتباً مفردة، تكاد تخرُج عن الحَصْر والإحصاء فاقتضىٰ الحال من المتقدّمين للتصنيف فى هذا الفنّ أن قد قَصَروا تصانيفَهـم علىٰ علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثـل السائر" وأبى هلال العسكرىّ فى "الصناعتين" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى "حسن التوسل" كما تقدّمت الإشارة إليه فى مقـدّمة الكتاب ، فليُطْلَبْ ذلك من مظانّه من هـذه الكُتُب وغيرها . إذ هذا الكتاب إنمـا يذكر فيه مايشق طلبه من كتب متفرّقة ، وتصانيف متعدِّدة، أو يكونُ فى المصنَّف الواحد منه النَّبذة غيرُ الكافية، ولا يجتمع منه المطلوب إلا من كشفِ الكثيرِ من المصنَّفات المتفرّقة فى الفنون المختلفة .

الفصـــــل الثالث

(من الباب الأوّل من المقالة الأُولىٰ)

في معرفة الأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين علىٰ آختلاف الأمم فيها، وتفاصيل أجزائها، والطرق الموصِّلة إليها، ومعرفة أعياد الأمم . وفيه أربعة أطراف

الطرف الأوّل

(فى الأيام ، وفيــه ست جمل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى مدلول اليوم ومعناه، و بيان آبتداء الليل والنهار)

وقد آختلفَ الناس فى مدلول اليوم علىٰ مذهبين .

المذهب الأوّل (وهو مذهب أهل الهيئة) ــ أنّ اليوم عبارة عن زمانٍ جامعٍ لليل والنهـــار ، مدّتُه ما بين مفارقة الشمس نصفَ دائرة عظيمة ثابتـــةِ الموضع بالحركة الأولىٰ إلىٰ عودها إلىٰ ذلك النصف بعينه ، وأظهر هذه الدوائر الأفق وفلكُ نصف النهار . والحُذَّاق من المنجِّمين يُؤْثِرون فلكَ نصفِ النهار علىٰ الأفُق بسهولة تحصل بذلك فى بعض أعمــالهم ؛ لأن آختلاف دَوَائره فى سائر الأوقات آختلافٌ واحد ؛ وبعضهم يُؤْثِر آســتعمال الأفُق : لأن الطلوع منه والغروب فيه أظهرُ للعِيان ، وهو الموافق لمــا نحن فيه .

ثم منهم مَنْ يقــدّم الليل فيفتتح اليومَ بغروب الشمس ويختم بغروبها من اليوم القابل،وعلىٰ ذلك عمل المسلمين وأهلِ الكِتاب،وهو مذهب العرب : لأن شهورهم مبنية علىٰ مسير القمر، وأوائلها مقدّرة برؤية الهلال .

ومنهم من يقدّم النهار على الليل فيفتتح اليومَ بطلوع الشمس ويختِم بطلوعها من اليوم القابل، وهو مذهبُ الروم والفُرْس .

ويحكىٰ أن الاسكندر سأل بعضَ الحكماء عن الليـل والنهار أيُّهما قبـل صاحبِه فقال : هما فى دائرة واحدة، والدائرة لا يُعْلَم لها أوّلٌ ولا آخر، ولا أعلىٰ ولا أسفَلُ .

المذهب الثانى (وهو مذهب الفقهاء) ــ أن اليوم عبارة عن النهار دُونَ الليل حتّىٰ لو قال لزوجته أنت طالق يومَ يقدَمُ فلان فقدِم ليلا لم يقع الطلاقُ علىٰ الصحيح . ثم القائلون بذلك نظروا إلىٰ الليل والنهار باعتبارين : طبيعىّ وشرعىّ .

أما الطبيعىّ فالليل من لَدُنْ غروبِ الشمسِ وٱستتارها بحَدَبة الأرض إلىٰ طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصفِ قُرْص الشمس من المشْرِق إلىٰ غيبوبة نصفها فى الأُفُق فى المغرب، وسائر الأمم يستعملونه كذلك .

وأما الشرعىّ ــ فالليل من غروب الشمس إلىٰ طلوع الفجر الثانى، وهو المراد بالخيط الأبيض من قوله تعالىٰ : ﴿حتّىٰ يَتَبَـيَّنَ لَكُم الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسودِ مِنَ الفَجْرِ﴾ والنهار من الفجر الثانى إلىٰ غروب الشمس ، وبذلك تتعلق الأحكامُ الشرعية من الصوم والصلاة وغيرهما .

وٱعلم أن الشمس فى الليـل تكون غائبةً تحت الأرض، فإذا قَرُبَتْ منا فى حال غيبتها أحسَسْنا بضيائها المحيط[(١)] بظل الأرض الذى هو الليـل ، وهذا الضياء طليعةٌ أمامَها يطلعُ، فى السَّحَر بياضٌ مستطيل مستدِقّ الأعلىٰ، وهو الفجر الكاذب إذ لا حكم له فى الشريعة ، ويُشَبَّه بذَنَب السِّرحان لٱنتصابه وٱستطالته ودِقَّته ، ويبقىٰ مدّة ثم يزداد هـذا الضوء إلىٰ أن يأخذ طُولا وعَرْضًا وينبسط فى عَرْض الأُفُق، وهو الفجر الثانى ويسمّىٰ الصادق ، وعليـه تترتب جميعُ الأحكام الشرعية المتعلقةِ

(١) لعله المحجوب بظل الارض كما يفيده المقام .

بالفَجْر، وبعده يحمرّ الأفق لاقتراب الشمس وسُطوع ضيائها على المدوّرات الغربية من الأرض، ويتبعه الطلوع؛ وعند غُروبها ينعكس الحكمُ فى الترتيب المتقدّم فيبقى الأُفُق محمرّا من جهة المغرب بعدَ الغروب، ثم تزول الحُمْرة ويبقى البَياضُ الذى هو نظير الفجر الصادق، وبالحمرة حكم صلاة العشاء عند الشافعية، وبالبياض حكمُها عند الحنفيـة؛ ثم يزداد البياض ضعفا شيئا فشيئا إلى أن يغيب، ثم يتبعه البياض المستطيل المنتصب نظير الفجر الكاذِب مدّة من الليل ثم يذهب؛ وهذا لا حكم له فى الشرعيات . والهند لا يَعُدُّون الفجرَ ولا الشَّفَق من الليـل ولا من النهار، ويجعلونهما قِسْما مستقلا وهذا فى غاية البُعْد لأن الله تعالى قسم الزمان إلى ليل ونهار ولم يذكر معهما سواهما .

الجمـــلة الثـانية

(فى آختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والآستواء باختلاف الأمكنة)

واعلم أن البلاد والنواحى على قسمين :

القســـم الأوّل

(ما يستوى فيه الليل والنهار أبدًا، لا يختلفان بزيادة ولا نُقْصانٍ)

وذلك فى البلاد التى لا عَرْضَ لهـا . وهى مامرّ عليـه خط الآستواء؛ والعلة فى التَّساوى هى أن أصحاب الهيئة لما توهموا أن بين قُطْبَىْ فلك البُروج دائرةً عظمى تَقْسِم سطحَ السماء نصفيـن على السَّواء وسَمَّوْها دائرة معدّل النهار، توهموا أيضا فى موازاتها دائرة أُخرى تقسم سطحَ الارض نصفيْنِ وسَمَّوْها دائرة الآستواء، وخط الآستواء؛ وكل بلد يمرّ عليه هذا الخط لاعَرْض له : وذلك لآنقسام الكرة فيه وطلوع

الشمسِ أبدا علىٰ رءُوس ساكنيه ، وميلها فى ناحيتى الشمال والجنوب بقدْر واحد، ودوائر الأوقات تقطع جميع الدوائر الموازية لدائرة معدّل النهار بنصــفين نصفين ، فيكون قوس النهار : وهو الزمان الذى من طلوع الشمس إلىٰ غروبها مساويا لقوس الليل : وهو الزمان الذى من غروب الشمس إلىٰ طلوعها فيكون الليل والنهار متساويين أبدا فى هذه المواضع فى جميع السنة .

القســـم الثـانى

(ما يختلف فيه الليل والنهار فى السنة بالآستواء والزيادة والنُّقْصانِ، وهى البلاد ذواتُ العُروض)

والعلّةُ فى الزيادة والنُّقصان أن المواضع التى تميــل عن خَطِّ الآستواء إلىٰ الشمال تميــل فى كل موضع منها دائرةُ معدّل النهــار إلىٰ الجَنُوب وتحطُّ الشمسُ ويرتفعُ القطب الشمالىُّ من الأفُق ويصير للبلد عَرْض بحسب ذلك الآرتفاع ، وبقَدْر بُعْــده عن الخَطِّ . وإذا مالت الدائرة قطعت الآفاق كلَّ دائرة من الدوائر الموازية لهــا بقطعتين مختلفتين، فيكون ما فوق الأرض من قسمَيْها أعظمَ من الذى تحتها : لأن القطب لمــا آرتفع آرتفعت الدوائر الشمالية فظهر مِن كل واحدة أكثرُ من نصــفها وآنحط مَدارُ الشمس عن سَمْت الرأس إلىٰ جهة الجنوب فبَعُد مَشْرِقُ الصــيف عن مَشْرِق الشــتاء فطال النهار وقَصُرا لليل، وكلمــا زاد آرتفاعُ القطب فى الاقاليم زاد الآختلاف الذى هو بين هــذه القِطَع إلىٰ أن تكون نهــايةُ الأطوال حيث يكون آرتفاع القطب آثنتَىْ عشرةَ درجةً ونصفًا وربعًــا وهو أوّل المعمور، آثنتَىْ عشرةَ ساعةً ونصفا وربعا، وحيث يكون آرتفاعهُ تسعا وعشرين درجةً وهو آخر الإقليم الثـانى ، ثلاثَ عشْرةَ ساعةً ونصفا وربعا، وحيث يكون آرتفاعه ثلاثا

وثلاثين درجةً ونصفًا وهو آخر الإقليم الثالث أربعَ عشرةَ ساعةً وربعا ؛ وحيث يكون ٱرتفاعه تِسعا وثلاثينَ درجةً وهو آخر الإقليم الرابع أربعَ عشرةَ ساعة ونصفا وربعا؛ وحيث يكون ٱرتفاعه ثلاثا وأربعين درجةً ونصفا وهو آخر الإقليم الخامس خَمْس عَشْرةَ ساعة ورُبعا، وحيث يكون ٱرتفاعهُ سبعا وأربعين درجةً وهو آخر الأقليم السادس خمس عَشْرةَ ساعة ونصفا وربعا ، وحيث يكون ٱرتفاعه خمسين درجة وهو آخر الإقليم السابع ست عشرة ساعة وربعا .

ولا يزال ٱختلاف مَطَالع البروج يزداد بالإمعان فى الشمال ويتسعُ شَرْقَا المنقلَبَيْنِ ويتقاربان مع مَغْرِبيهما إلىٰ أن يلتقِيا فى العَرْض المُساوى لتمام المَيْل الأعظم : وهو حيث يكون ٱرتفاع القُطْب سِتًّا وستين درجةً. وفى هذا الموضع يكون قطبُ فلك البروج فى دَوْره يمرُّ علىٰ سمت الرؤوس ، ويكون أوّل السَّرطان فقط ظاهرا فوق الأرض أبدا، ومَدار أوّل الجَدْى فقط غائبا أبدا . فيكون مقدارُ النهار الأطولِ أربعا وعشرين ساعة لا ليل فيه . ويعرض فى هذه المواضع عند موازاة قُطْب فلك البروج سَمْتَ الرؤوس أن دائرة فلك البروج تنطبق حينئذ علىٰ دائرة الأفق ، فيكون أوّل الحَمَل فى المشرق، وأوّل الميزان فى المَغْرِب ، وأوّل السَّرطان فى الأفق الشَّمالىّ، وأوّل الجَـدْى فى الأفق الجنوبىّ . فإذا صار قطبُ فلك البروج والأفق نصفين وٱرتفع النصف الشرقىّ من فلك البروج وٱنخفض النصف الغربىّ فيطلُع حينئذ ستةُ بروج دفعةً واحدةً ، وهى من أوّل الجَدْى إلىٰ آخر الجوزاء ؛ وكذلك تغرب الستة الباقية دفعة واحدة . وحيث يكون ٱرتفاع القطب سبعا وستين درجةً وربعا فهناك يكون مَدار مابين النصف من الجوزاء إلىٰ النصف من السَّرطان ظاهرا فوقَ الأرض أبدا، وما بينَ النصف من القَوْس إلىٰ النصف من الجَدْى غائبا أبدا، فيكون مقدار شهر من شهور الصيف نهارا كلَّه لا ليل فيه وشهر من الشتاء ليلا كله لا نهار فيه

والعشرة الأشهرِ الباقيةُ من السنة كلَّ يوم وليلة أربعاً وعشرين ساعةً. وحيث يكون ٱرتفاع القطب تسعا وستين درجة ونصفا وربعا فهناك يكون مَدَار بُرْجَيِ الجوزاء والسَّرَطان ظاهرا فوق الأرض ، ومدار برجَيِ القوس والجَدْى غائبا تحت الأرض أبدا . ولذلك يكون مقدارُ شهرين من الصيف نهاراً كلّه ، وشهرين من الشتاء ليلا كُلّه . وحيث يكون ٱرتفاعُ القطب ثلاثا وسبعين درجة يكون ما بين النصف من الثور إلىٰ النصف من الأسد ظاهرا أبدا والأجزاء (١) النظيرةُ لها غائبةً أبدا ، فيكون مقدارُ ثلاثة أشهر من الصيف نهاراً كُلّه ، وثلاثةِ أشهر من الشتاء ليلاً كُلّه . وحيث يكون ٱرتفاع القطب ثمانًا وسبعين درجة ونصفا فهناك يكون مَدَار الثور والجَوْزاء والسَّرَطان ظاهرا أبدا والبروج النظيرةُ لها غائبة أبدا ، فيكون أربعةُ أشهر من الصيف نهارا كلّه وأربعةُ أشهر من الشتاء ليلاً كُلّه . وحيث يكون ٱرتفاع القطب أربعا وثمانين درجةً فهناك يكون مَدَار ما بين النصف من الحَمَل إلىٰ النصف من السُّنْبلة ظاهرا أبدا والبُروج النظيرةُ لها غائبةً أبدا فيكون خمسةُ أشهر من الصيف نهاراً كلّه وخمسةُ أشهر من الشتاء ليلا كُلّه .

ومما يعرض فى هذه المواضع التى تقدّم ذكرها أنه إذا كان قطب فلك البروج فى دائرة نصف النهار مما يلى الجَنوبَ كان أوّلُ الحمل فى المَشْرق وأوّلُ الميزان فى المغرب ، وتكون البروج الشماليةُ ظاهرةً أبدا فوق الأرض والجَنُوبِيَّة غائبة تحتها ، وهناك يطلع ماله طلوع من آخر الفلك فيما بين الجَدْى والسَّرَطان منكوسًا ، فيطلُع الثورُ قبل الحَمَل ، والحملُ قبل الحوت ، والحوتُ قبل الدلو . وكذلك تغرب نظائرها منكوسةً ، وحيث يكون ٱرتفاع القطب تسعين درجة فيصير علىٰ سَمْت الرأس فهناك تكون دائرة معدّل النهار منطبقةً علىٰ الأفق أبدا ، ويكون دور الفلك

(١) المراد بها البروج كما يدل عليه بقية العبارة .

رَحَوِيًّا موازيا للأُفُق ويكون نصف السماء الشمالى عن معدّل النهار ظاهرا أبدا فوق الأرض والنصف الجَنُوبىُّ غائبا تحتها، فلذلك إذا كانت الشمس فى البروج الشمالية كانت طالعة تدور حول الأُفُق ويكون أكثرُ آرتفاعها عنه بمقـدار مَيْلها عن معدّل النهـار، وإذا كانت فى البروج الجنوبية كانت غائبة أبدا فتكون السنة هناك يوما واحدا ستة أشهر ليلا وستة أشهر نهارا، ولا يكون لها طلوع ولا غروب. فظهر من هـذا أن حركة الفلك بالنسـبة للآفاق إما دُولابِيّة، وهى فى خط الآستواء؛ وإما حَمائلية، وهى فى الآفاق المائلةِ عنه، وإما رَحَوِيَّة: وهى فى المواضع التى ينطبق فيها قطبُ العالَم على سَمْت الرأس فسبحان مَنْ أتقن ما صنع!

الجمـــــــلة الثـالثة

(فى معرفة زيادة الليل والنهار ونقصانهما بتنقُّل الشمس فى البروج)

اِعلم أن للشمس حركتين: سريعةً وبطيئةً.

أما السريعة فحركة فلك الكُلِّ بها فى اليوم والليلة من المَشرِق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، وتسمّى الحركةَ اليوميَّةَ.

وأما الحركة البطيئة فقطعها فلكَ البروج فى سنة شمسيَّة من الجَنُوب إلى الشَّمال ومن الشَّمال إلى الجَنُوب، ولتَعْلَمْ أن جهة المشرق وجهة المغرب لا تتَغَيران فى أنفسهما بل جهة المشرِق واحدةٌ وكذلك جهة المغرب، وإن آختلفت مطالعهما. قال تعالى ﴿رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ﴾ أى جهة الشُّروق وجهة الغُروب فى الجملة، إلا أن الشمس لها غايةٌ ترتفع إليها فى الشَّمال ولتلك الغاية مَشْرِق ومَغْرِب وهو مَشْرِق الصيف ومغربُه، ومطلعها حينئذ بالقُرب من مَطْلَع السِّماك الرامح، ولها غاية تنحطُّ إليها فى الجَنُوب، ولتلك

الغاية أيضا مَشْرق ومَغْرِب : وهو مشرق الشتاء ومغربه ، ومطلَعها حينئذ بالقُرْب من مطْلَع بطن العقرب ، وهذان المَشْرقان والمَغْرِبان هما المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ ورَبُّ المَغْرِبَيْنِ ﴾ وبين هاتين الغـايتين مائة وثمـانون مَشْرِقا ويقابلها مائة وثمانون مَغْرِباً ، ففى كل يوم تطْلُع فى مَطْلَع من المشرق غيرِ الذى تطلُع فيه بالأمس ، وتغرُب فى مغرب غير الذى تغرب فيه بالأمس . وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ربُّ المَشَارِقِ والمَغَارِب ﴾ ونقطةُ الوسط بين هاتين الغايتين : وهى التى يعتدل فيها الليـلُ والنهارُ يُسـمَّى مَطْلَع الشمس فيها مَشْرِق الآستواء ، ومَغْرِب الأسـتواء ، ومطلعها حينئذ بالقرب من مَطْلَع السماك الأعْزَلِ .

وقد قَسَّم علماء الهيئـة مابين غاية الآرتفاع وغاية الهُبُوط آثنَىْ عشرقِسْما ، قالوا : والمعنىٰ فى ذلك أن الشمس فى المبدإ الأوّل لـما سارتْ مَسِيرَها الذى جعله الله خاصًّا بها قطعتْ دَوْر الفلك التاسع فى ثلثمائة وستين يوما ، وسميت جملةُ هـذه الأيام سنة شمسية ورَسَمت بحركتها هذه فى هذا الفلك دائرةً عُظْمىٰ علىٰ ماتوهَّمه أصحاب الهيئة ، وقسمت هذه الدائرة إلىٰ ثلثمائة وستين جزءا وسمَّوا كلَّ جزء درجةً ، ثم قسمت هذه الدَّرَج إلىٰ اثنىْ عشر قسما علىٰ عدد شهور السنة ، وسَمَّوْا كل قسم منها برجاً ، وجعلوا آبتداء الأقسام من نقطة الآعتدال الربيعىّ : لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة ، ووجدوا فى كل قسم من هذه الأقسام نجوما تتشكَّل منها صورةٌ من الصُّوَر فسمَّوْا كلَّ قسم بآسم الصورة التى وجدوها عليه ، وكان القسم الأوّل الذى ابتدؤا به نجوما إذا جُمِـع متفرِّقها تشكلتْ صورةَ حَمَل ، فسمَّوْها بالحمل ، وكذلك البواقى .

قال صاحب "مَنَاهج الفكر" : وذلك فى أوّل ما رَصَدُوا ، وقد آنتقلت الصُّوَر عن أمكنتها علىٰ ما زعموا فصار مكانَ الحمل الثورُ ، وهى تنتقل علىٰ رأى بطليموس فى ثلاثة آلاف سنة وعلىٰ رأى المتأخرين فى ألفَىْ سنة .

إذا علمت ذلك فآعلم أن الدَّوْرة الفلكية فى العُرُوض الشَّماليـة تنقسم إلىٰ ثلثمائة وستين درجة ، كما تقدّمت الإشارة إليه ؛ والسـنةُ ثلثمائة وستون يوما منقسمة علىٰ الآثنى عشرَ برجا المتقدّمِ ذكرها ، لكل برج منها ثلاثُون يوما؛ وتُوزَّع عليها الخمسة أيام والربع يوم ، والليـل والنهار يتعاقبان بالزيادة والنُّقْصان بحسب سير الشمس فى تلك البُروج فما نقص من أحدهما زيد فى الآخَر . وذلك أنها إذا حلَّتْ فى رأس الحَمَل وهى آخذةٌ فى الآرتفاع إلىٰ جهة الشّمال ، وذلك فى السابع عَشَر من برمهات من شُهور القبط ، ويوافقه الحادى والعشرون من آذار من شهور السُّرْيان ، وهو مارس من شهور الروم ، والرابع والعشرون من حردادماه من شهور الفرس ، آعتـدل الليلُ والنهار ، فكان كل واحد منهما مائةً وثمانين درجة ؛ وهو أحد الآعتدالين فى السنة ، ويسمَّى الآعتـدالَ الربيعىَّ : لوقوعه أوّل زمن الربيع فيزيد النهارُ فيـه فى كل يوم نصفَ درجة ، وينقص الليلُ كذلك ، فتكون زيادةُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجة ، ونقصُ الليـل كذلك ، ويصـير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وتسعين درجةً ، والليل علىٰ مائة وخمس وستين درجةً .

ثم تنقُل إلىٰ الثور فيزيد النهار فيـه كلَّ يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشرَ درجات ونقصُ الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره علىٰ مائتين وخمس درجات ، والليل علىٰ مائة وخمس وخمسين درجةً .

ثم تنتقل إلىٰ الجوزاء فيزيد النهارُ فيها كلَّ يوم سُدْسَ درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيها لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ، ونقص الليـل كذلك ، ويصير النهار آخِرها علىٰ مائتين وعشر درجات والليل علىٰ مائة وخمسين درجة ، وذلك غاية آرتفاعها فى جهة الشمال . وهذا أطول يوم فى السنة وأقصر ليلة فى السنة .

ويسمَّى سيرُ الشمس فى هذه البروج الثلاثة شَمَالِيًّا صاعدا : لصعودها فى جهة الشمال .

ثم تنْقُل الشمس إلىٰ السَّرطان وتكُر راجعةً إلىٰ جهــة الجَنُوب، ويسمّى ذلك المُنقلَبَ الصيفيَّ، وذلك فى العشرين من بؤنة من شُهور القبط، ويبقىٰ من حزيران من شهور السُّرْيان، ويونيه من شهور الروم خمســةُ أيام، وحينئذ يأخُذ الليلُ فى الزيادة والنهارُ فى النقصان، فينقُص النهارُ فيه فى كل يوم سُدُسَ درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقصُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصــير النهارُ بآخره علىٰ مائتين وخمس دجات، والليل علىٰ مائة وخمس وخمسين درجة.

ثم تنتقل إلىٰ الأسد فينقُص النهارُ فيــه كل يوم ثُلثَ درجة، فيكون نقص النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشْرَ درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصــير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وتسعين درجةً، والليل علىٰ مائة وخمس وستين درجةً.

ثم تنتقل إلىٰ السُّنْبلة فينقص النهار فيهــا كلَّ يوم نصــفَ درجة، ويزيد الليــل كذلك، فيكون نقصُ النهار فيها لمدّة ثلاثين يوما خمْسَ عَشْرَةَ درجةً، وزيادة الليل كذلك، ويصــير النهار بآخرها على مائة وثمــانين درجة والليــل كذلك، فيستوى الليلُ والنهار. ويســمّى الاعتدال الخريفيَّ: لوقوعه فى أول الخريف. ويسمّى سير الشمس فى هذه البروج الثلاثة شماليا هابطا، لهُبُوطها فى الجهة الشَّمالية.

ثم تنتقل إلىٰ الميزان فى الثـامن عشر من توت من شهور القبط، وهى آخذة فى الهُبُوط، والنهار فى النقص والليل فى الزيادة، فينقُص النهار فيه كلَّ يوم نصفَ درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقصُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجةً، وزيادة الليل كذلك، ويصــير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وستين درجة والليل علىٰ مائة وخمس وتسعين درجةً.

ثم تنقل إلى العَقْرب ، فينقص النهارُ فى كل يوم ثُلُثَ درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقصُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشرَ درجات ، وزيادةُ الليل كذلك ؛ ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى القوس ، فينقص النهار فيه كلَّ يوم سُدُس درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمسين درجة ، والليل على مائتين وعشر درجات ، وهو أقصر يوم فى السنة وأطول ليلة فى السنة ؛ وذلك غايةُ هبوطها فى الجهة الجنوبية . ويسمّى سيرُ الشمس فى هذه البروج جَنوبياً هابطا، لهُبُوطها فى الجهة الجنوبية .

ثم تنقل إلى الجَدْى فى السابع عشر من كيهك وتكُرُّ راجعة ، فتأخذ فى الارتفاع ويأخُذ النهار فى الزيادة والليل فى النقصان ، فيزيد النهار فيه كلَّ يوم سُدُس درجة ، وينقص الليل كذلك ؛ فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ونقصُ الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجةً ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى الدلو ، فيزيد النهار فيه كلَّ يوم ثلثَ درجة ، وينقص الليل كذلك ؛ فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشرَ درجات ونقصُ الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة .

ثم تنقل إلى الحُوت فيزيد النهار فيه كلَّ يوم نصفَ درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجةً ونقص الليل كذلك ،

و يصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقــدّم . ويســمّى سير الشمس فى هذه البروج الثلاثة جنوبيـا صاعدا : لصعودها فى الجهة الجنوبيَّة ؛ وهذا شأنها إلى أن يرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خير الوارثين .

وهــذا العمل إنمـا هو فى مصر وأعمالهـا ؛ فإذا ٱختلفت العُروض كان الامرُ فى الزيادة والنُّقصان بخلاف ذلك والله أعلم .

تنبيه ــ إذا أردت أن تعرف الشمس فى أىّ برج من البُروج وكم قطعَتْ منه فى أىّ وقت شئت فأقرب الطرق فى ذلك أن تعرف الشهر الذى أنت فيه من شهور القبط وتعرف أمسه (١)

الجملة الرابعـــة

(فى بيان ما يعرَف به ٱبتداء الليل والنهار)

وقد تقدّم أن النهار الطبيعىَّ أوّله طلوعُ الشمس وآخرُه غروبُها، والنهار الشرعىَّ أوّله طلوع الفجر الثانى وآخره غروب الشمس ؛ فيخالفـه فى الٱبتداء ويوافقـه فى الٱنتهاء، وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاصّ والعامّ . أما الفجر فإن أمره خفىّ لا يعرفه كلُّ أحد ؛ وقد تقدّم ٱنقسامه إلى كاذب : وهو الأوّل، وصادق : وهو الثانى، وعليه التعويل فى الشرعيات، فيحتاج إلى مُوضِّح يوضِّحــه و يظهره للعِيَان. وقد جعل المنجِّمون وعلماءُ الميقات له نجوما تدلُّ عليه بالطُّلوع والغروب والتوسط، وهى منـازل القمر، وعدّتها ثمـانٌ وعشرون منزلة : وهى الشَّرَطان ، والبُطَـيْن، والثُّرَيّا، والدَّبَران، والهَقْعــة، والهَنْعــة، والذِّراع، والنَّثْرة، والطَّرْف، والجَبْهــة،

(١) بياض فى الأصل .

والخَرَتَان، والصَّرفة، والعوَّاء، والسِّماك، والغفْر، والزُّبانان، والإكليل، والقَلْب، والشَّولة، والنَّعائم، والبَلْدة، وسَعْدُ الذابحُ، وسَعْدُ بُلَع، وسعدُ السُّعودِ، وسَعدُ الأخبيةِ، والفَرْغُ المقدّم، والفَرْغ المؤخَّر، وبطن الحُوت،

والمعنىٰ فى ذلك أن الشمس إذا قَرُبت من كوكب من الكواكب الثابتة أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون، فصار يظهر(١) نهارا ويختفى ليلا ويكون خفاؤه غيبةً له، ولا يزال كذلك خافيا إلىٰ أن تبعُدَ عنه الشمسُ بُعْدا يمكن أن يظهر معه للأبصار وهو عند أوّل طلوع الفجر فإن ضوء الشمس يكون ضعيفا حينئذ فلا يغلبُ نورَ الكوكب فيُرىٰ الكوكب فى الأفق الشرقىِّ ظاهرا، وحصةُ كل منزلة من هذه المنازل من السنة ثلاثةَ عشرَ يوما وربعَ سبع يوم ونصفَ ثُمُن سبع يوم علىٰ التقريب كما سيأتى(٢) علىٰ المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ماذكر من العدد والكسور ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوما: وهى ثلاث عشرة درجة من درج الفلك وجمع مافضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوما بعد انقضاء أيام المنازل الثمانية والعشرين فكان يوما وربعا فجعل يوما فى المنزلة التى توافق آخر السنة وهى الجبهة فكان حصتها أربعة عشر يوما، وبقى ربع يوم ونُسِئَ أربعَ سنين حتّى صار يوما فزيد علىٰ الجبهة أيضا، فكانت كواكب المنازل المذكورة تطلُع مع الفجر منها أربعة عشر يوما ثلاث سنين وفى السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوما.

فأما الشَّرَطان: وهما المنزلةُ الأولىٰ، فأوّل طلوعهما بالفجر فى الثالث والعشرين من برمودة من شهور القبط، وهو الثامن عشر من نَيْسان من شهور السُّرْيان.

وأما البُطَين: وهو المنزلة الثانية فأوّل طلوعه بالفجر فى السادس من بشنس من شهور القبط، وهو أوّل يوم من أيَّارمن شهور السُّرْيان.

(١) لعله يختفى نهارا و يظهر ليلا. ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة.
(٢) كذا فى الأصل ولعله فان أيام السنة اذا قسمت علىٰ الخ.

وأما الثُّريَّا : وهى المنزلة الثالثة فأوّل طلوعها بالفجر فى التاسع عشر من بشنس من شهور القبط، وهو الرابع عشر من أيار من شهور السُّريان .

وأما الدَّبَران : وهو المنزلة الرابعــة فطلوعها بالفجر فى الثانى من بؤنه من شهور القبط، وهو السادس والعشرون من أيار من شهور السريان .

وأما الهَقْعة : وهى المنزلة الخامســة، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس عشر من بؤنه من شهور القبط، وهو التاسع من حزيران من شهور السريان .

وأما الهَنْعة : وهى المنزلة السادســة ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وهو الثانى والعشرون من حزيران من شهور السريان .

وأما الذِّراع : وهو المنزلة السابعــة ، فأوّل طلوعه بالفجر فى الحــادى عشر من أبيب من شهور القبط، وهو الخامس من تَمُّوز من شهور السريان .

وأما النَّثْرة : وهى المنزلة الثامنــة ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تموز من شهور السُّريان .

وأما الطَّرْف : وهو المنزلة التاسعة، فأوّل طلوعه بالفجر فى السابع من مسرى من شهور القبط : وهو اليوم الآخر من تموز من شهور السُّريان .

وأما الجبهة : وهى المنزلة العاشرة ، فأوّل طلوعها بالفجر فى العشرين من مسرى من شهور القبط، وهو الثالث عشر من آب من شهور السريان .

وأما الخَرَتان : وهو المنزلة الحاديةَ عشرةَ ، فأوّل طلوعه بالفجر فى الرابع من أيام النسيء القبطىّ، وفى السنة الكبيسة فى الخامس منه، وهو السابع والعشرون من آب من شهور السريان .

وأما الصَّرْفة : وهى المنزلة الثانيةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثانى عشر من توت من شهور القبط، وهو التاسع من أيلول من شهور السُّرْيان .

وأما العَوّاء : وهى المنزلة الثالثةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس والعشرين من توت من شهور القبط، وفى الثانى والعشرين من أيلول من شهور السُّرْيان .

وأما السِّماك : وهى المنزلة الرابعةَ عشرةَ ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن من بابه من شهور القبط، وهو الخامس من تشرين الأوّل من شهور السريان .

وأما الغَفْر : وهى المنزلة الخامسةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الحادى والعشرين من بابه من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تشرين الأوّل من شهور السُّريان .

وأما الزُّبانانِ : وهما المنزلة السادسةَ عشرةَ، فأوّل طلوعهما بالفجر فى الرابع من هاتور من شهور القبط، وهو آخر يوم من تشرين الاول من شهور السُّريان .

وأما الإكليل : وهو المنزلة السابعةَ عشرةَ ، فأوّل طلوعه بالفجر فى السابع عشرَ من هاتور من شهور القبط، وهو الثالث عشر من تشرين الثانى من شهور السريان .

وأما القَلْب : وهو المنزلةُ الثامنةَ عشرة، فأوّل طلوعه بالفجر فى آخر يوم من هاتور من شهور القبط، وهو السادس والعشرون من تشرين الثانى من شهور السُّريان .

وأما الشَّولة : وهى المنزلة التاسعةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثالث عشر من كيهك من شهور القبط، وهو التاسع من كانون الأوّل من شهور السريان .

وأما النَّعَائم : وهى المنزلة العشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى السادس والعشرين من كيهك من شهور القبط، وهو الثانى والعشرون من كانون الأوّل من شهور السريان .

وأما البَلْدة : وهى المنزلة الحادية والعشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى التاسع من طوبه من شهور القبط، وهو الرابع من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سعدُ الذابحُ : وهو المنزلة الثانية والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثانى

والعشرين من طوبه من شهور القبط، وهو السابع عشر من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سَعْدُ بُلَعَ : وهو المنزلة الثالثة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس من أمشير من شهور القبط، وهو الثلاثون من كانون الآخر من شهور السُّريان .

وأما سَعْدُ السُّعود : وهو المنزلة الرابعة والعشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن عشر من أمشير من شهور القبط، وهو الثانى عشر من شباط من شهور السُّرْيان .

وأما سَعْدُ الأخبِيةِ : وهو المنزلة الخامسة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر أوّل يوم من برمهات من شهور القبط، وهو الخامس والعشرون من شباط من شُهُور السريان .

وأما الفَرْغ المُقدَّم : وهو المنزلة السادسةُ والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الرابع عشر من برمهات من شهور القبط، وهو السابع من آذار من شهور السريان .

وأما الفَرْغ المؤخَّر : وهو المنزلة السابعة والعشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى السابع والعشرين من برمهات من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من آذار من شهور السريان .

وأما بَطْن الحوت : وهو المنزلة الثامنة والعشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى العاشر من برموده من شهور القبط، وهو الخامس من نيسان من شهور السريان .

وقد نظم الشيخ كمال الدين حفيدُ الشيخ أبى عبد الله محمد القرطبي أبياتا، يعلم منها مَطَالع هذه المنازل بالفجر بحروف رمزها للشهور والأعداد والكواكب، وربما غَلِط بعض الناس فنسبها إلى الشيخ عبد العزيز الديرينى رحمه الله، وهى هذه :

تبيص تهكع بحس بكأغ هـدز * هـيزاء هلق كيجش ككون برز

ططب طكبذ أهب أيحس بأخ * بيــدم بكزم بيت بكجش رمز[١]
وليس فيها من الحشوات قط سوى * أواخر النظم فافهــم شرحها لتعز

و بيانُ ذلك أنّ الحرف الأوّل من كل كلمة آسم للشهر الذى تطلُع فيه تلك المنزلة والحرفَ الآخرَ منها آسمُ المنزلةِ وما بين الآخِر والأوّل عددُ ما مضى من الشهر بحساب الجمَّل، مثال ذلك التاء من تبيص كناية عن توت ، والصاد منها كناية عن الصّرفة ، والياء والباء اللذان بينهما عددهما بالجمَّل آثنا عشر، إذ الياء بعشرة والباء باثنين فكأنه قال فى الثـانى عشر من توت تطلُع منزلة الصّرفة بالفجر ، وكذلك البواقى ، إلا أنه لا عبرة بأواخر البيتين، وهى برز فى البيت الأوّل، ورمز فى البيت الثانى .

ونظم الإمام محب الدين جار الله الطبرىّ أبيــاتا كذلك على شهور السريان ، وهى هذه :

تهس تحيـــغ تلز تجىء * توكق كطش كبكن نزول
كدب كويذ كلب شبيس * شـــهكح أزيم أبكم ألول
نهـــب نحيش أآب * أوكد حطت حبكه ضجول

والحال فى هذه الكلمات من أوائل الأبيات وأواخرها وأوساطها كالحال فى الأبيات المتقدّمة ، فالتاء من تهس إشارة لتشرين الأوّل والسين إشارة للسماك ، والهاء بينهما بخمسة ففى الخامس من تشرين الأوّل يطلُع السماك ، وعلى هذا الترتيب فى البواقى .

وآعلم أن هذه المنازل لا تزال أربعَ عشرةَ منزلة منها ظاهرةً فوق الأرض فى نصف الفلك وأربع عشرة منزلة منها خافيةً تحت الأرض فى نصف الفلك ، وهى مراقبة بعضها لبعض لآستواء مقادير أبعادها، فإذا طلعت واحدة فى الأفق الشرقىّ غَرَبت واحدة فى الأفق الغربىّ، وكانت أخرى متوسطة فى وسط الفلك فهى كذلك أبدا .

(١) بعده بيت ناقص غير موجود بالاصل و به تكمل الشهور والمنازل .

والقاعدة فى معرفة ذلك أنك تبتدئ بأية منزلة شئتَ ، وتعدّ منها ثمانية من الطالع فالثامنة هى المتوسطة والخامسة عشرة هى الغاربة ؛ فإذا كان الطالعُ الشَّرَطين فالمتوسط النَّثْرة والغارب الغَفْر ؛ وكذلك فى جميع المنازل ؛ وفى مراقبة الطالع منها للغارب يقول بعضُ الشعراء مقيِّدا لهـا علىٰ الترتيب بادئا بطلوع النَّطْح : وهو الشَّرطان وغروب الغفر حينئذ :

كَمْ أمالُوا من ناطِحٍ باغْتفارٍ * وأحالُوا علىٰ البُطَيْن الزُّبانىٰ
والــثُّرَيَّا تكَلَّلت فرأينـا الـ * ـقلْبَ منها يُشَــعِّرُ الدَّبَرَانَا
هَقَعُوا شَـوْلَةً وهنعُوا نَعامًا * بَعْــدَ ماذَرَّعُوا البِلَادَ زمانا
نَثَرُوا ذَبْحُهُـــم بطَرْف بُلَيْعٍ * جَبهةَ السَّعْد فى خَرَات خبانا
فانصرَفْنا وفى المُقَــدَّم عَوّا * آخرا والسِّماك مَــدّ رِشانا

وقال آخر :

النَّطْح يَغْفِر والبُطَيْن مُزابِن * ثم الـثُّرَيَّا تبتغى إكْليـــلا
والقَلْب للدَّبَران خِلٌّ عاذِر * من أجْل هَقْعةِ شَولةٍ ماقيلا
تَهْوى الهُنَيعةُ للنَّعائم مثلَ مَا * يَنْوى الذِّراع لَبَلْدةٍ ترحيلا
والنَّثْريَذبح عند طَرْف بُلُوعه * وبجبهة سَــعْدٌ غدا منقولا
ولزُبْرة وسـطَ الخِباء إقامةٌ * فاصرِفْ مقدّمَذ كرها تعجيلا
يهوِى المُؤَخَّرإن سِماكُ مَرّةً * مدّ الرِّشاءَ بِجيــده تنْكيلا

وقد نظم صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشورىّ الشهير بالسهروردىّ أُرجوزةً ، ذكر فيها الطالع ، ثم الغـارب فى بيت وبعـده المتوسط ثم الوتد وهو الذى يقابله تحت الارض فى بيت ثان ــ قال :

إن طلع الشرطان (١)

بُطَيْنُها نُورَ الزُّبانيْنِ خَلَعْ * فناعِسُ الطَّرْف رمىٰ سعدَ بُلَع
ثُرَيَّا مَعَ الإكليلِ بالوَقُودِ * تُنَوِّرُ الجبهةَ فى السُّعُود
والدَّبَرانُ القَلْب منه يَخْفِقُ * فالخَرتانُ للخِباء يَطْرُق
وهَقْعَةٌ شَوْلتُها مُنْهَزِمهْ * وصَرْفةٌ بفَرْغِها مُقدَّمه
وهَنْعَةٌ منها النَّعائِمْ نَفَرتَ * بعَوَّة بالفَرْغ قد تأخَّرتْ
رمىٰ الذراعُ بَلْدةً أصابَها * سماكُ بطنِ الحوتِ ما أصابها
فهذه جملتها مكمَّله * للشمس فى ثلاثَ عشْرَ منزِله

الجملة الخامسة

(فى ساعات الليل والنهار)

قال أصحاب الهيئة : لما كان الفلك متحرّكا حركاتٍ متعدّدةً يتلُو بعضُها بعضا، جُعِل مقدار كل حركة منها يوما، ولما كانت الشمس فى حركة من هذه الحركات تارةً تكونُ ظاهرة لاهل الرُّبْع المعمور وتارة مستترةً عنهم بحدَبة الأرض، انقسمَ لذلك مقدارُ تلك الحركة إلىٰ الليل والنهار، فالنهار عبارةٌ عن الوقت الذى تظهر فيه الشمْس علىٰ ساكنى ذلك الموضع من المَعْمور، والليل عبارة عن الوقت الذى تخفىٰ عنهم فيه، فإنه يوجد وقتُ الصبح فى موضعٍ وقتَ طلوع الشمس فى موضعٍ آخر، وفى موضع آخَرَ وقت الظهر، وفى موضع آخر وقت المغرب، وفى موضع آخر وقت نصف الليل.

ولما كانت منطقة البروج مقسومةً إلىٰ اثنَىْ عشر برجا، وكل برج إلىٰ ثلاثين درجة، وكانت الشمس تقطع هذه المنطقةَ بحركة فلك الكل لها فى زمان اليوم

(١) بياض بالاصل.

الجامع لليل والنهار، قُسِّم كل واحد منهما إلىٰ آثنى عشر جزءا، وجعل قسطُ كل جزء منها خمسَ عشرةَ درجةً، وسمِّى ساعة. ثم لما كان الليل والنهار يزيد أحدهما علىٰ الآخر ويتساويان فى الآعتدالين علىٰ مامرّ، اضطُرَّ إلىٰ أن تكون الساعات نوعين: مستوية، وتسمَّى المعتدلةَ، وزمانيَّـة وتسمَّى المعوجَّة . فالمستوية تختلف أعدادها فى الليل والنهار ، وتتفق مقاديرُها بحسب طول النهار وقصره . فإنه إن طال كانت ساعاته أكثر، وإن قَصُر كانت ساعاته أقلَّ، مقدارُ كل ساعة منه خمسَ عشرة درجة لاتزيد ولا تنقص، والمعوجة تتفق أعدادُهـا وتختلف مقاديرُها، فإنّ زمان النهـار طال أو قصر ينقسم أبدا إلىٰ آثنتىْ عشرةَ ساعة، مقدار كل واحدة منها نصفُ سُدُس الليل والنهار ، وهى فى النهار الطويل أطول منها فى القصير . والذى كانت العرب تعرفه من ذلك الزمانيَّةُ دون المستوية ، فكانوا يَقْسِمون كلا من الليـل والنهار إلىٰ آثنتىْ عشرةَ ساعةً ، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهار أسمـاءً تخُصُّها .

فأما ساعاتُ الليل فسَمَّوُا الأُولىٰ منها الشاهِدَ، والثانيةَ الغَسَق، والثالثة العَتَمة ، والرابعة الفَحْمة، والخامسة المَوْهِن، والسادسة القِطْع، والسابعة الجَوْشَن، والثامنة الهُتْكة ، والتاسعة التَّباشير(١) ، والحـاديةَ عشرةَ الفجرُ الأوّل ، والثانيـةَ عشرةَ الفجر المعـــترض .

وأما النهار فسمَّوُا الساعة الأولىٰ منه الذُّرور، والثانية البُزُوغ، والثالثة الضُّحىٰ ، والرابعة الغَزَالة ، والخامســة الهاجِرَة، والسادسةَ الزَّوال، والسابعة الدُّلُوك، والثامنة العَصْر، والتاسعة الأَصِـيل ، والعاشرة الصَّبوب ، والحاديةَ عشرةَ الحدود(٢)، والثانيةَ عشرةَ الغُرُوب .

---

(١) العاشرة غير موجودة فى الاصل . وعد فى نهاية الأرب بعد التباشير الفجر الأوّل ثم الفجر الثانى ثم المعترض وبه تعلم ماهنا (٢) لعل صوابه الحَدُور .

وتروى عنهم على وجه آخر، فيقال فيها: البُكور، ثم الشُّروق، ثم الإشْراق، ثم الرَّأْد، ثم الضُّحىٰ، ثم المُتُوع، ثم الهاجِرَة، ثم الأَصِيل، ثم العَصْر، ثم الطَّفَل (بتحرك الفاء)، ثم العَشِىّ، ثم الغُروب. ذكرهما ابن النحاس فى "صناعة الكتّاب".

قال فى "مناهج الفكر": ويقال إن أوّل من قسم النهار إلى اثنتى عشرة ساعة آدمُ عليه السلام، وضَمَّن ذلك وصيةً لابنه شيثٍ عليه السلام، وعرَّفه ماوُظِّف عليه كلَّ ساعة من عمل وعبادة والله أعلم.

الجملة السادسة

(فى أيام الأسبوع، وفيها أربعة مَدَارك)

المُدْرَك الأوّل

(فى ابتداء خَلْقها وأصل وجودها)

وقد نَطَق القرءان الكريم بذكر ستة أيام منها على الإجمال والتفصيل.

أما الإجمال فقال تعالى: ﴿وهُو الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوات والأرْضَ فِى سِتَّةِ أيّامٍ﴾.

وأما التفصيل فقوله تعالى: ﴿قل أئنَّكم لتَكْفُرونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأرضَ فى يَوْمَيْنِ وتَجْعَلُون لَهُ أنْدادًا ذَلكَ رَبُّ العَالَمِينَ وَجَعَل فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وبَارَكَ فيها وقَدَّرَ فيهَا أقْوَاتَهَا فى أرْبَعةِ أيَّامٍ سَواءً للسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوىٰ إلى السَّماءِ وهِىَ دُخَانٌ فقَالَ لَهَا ولِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أوْ كَرْهًا قالَتَا أتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰواتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ والمراد بالأربعة الأولى بما فيها من اليومَيْن المتقدّمين، ومثله فى كلام العرب كثير، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "إذا نَامَ أحَدُكُم جاءَ الشيْطانُ فعَقَد تَحتَ رأسه ثَلاثَ عُقَد، فإذا اسْتَيْقَظَ فذكر اللهَ تعالى انحلَّتْ عُقْدةٌ، فإذا تَوضَّأ انحلَّتْ عُقْدتانِ، فإذا صَلَّى انحلَّتْ الثالثةُ" فالمراد بقوله عقدتان عُقدةٌ والعُقدة الأولى. وقد ظهر بذلك أن

المراد من الآية ستة أيام فقط ، وهو ما ورد به صريحُ الآيات فى غير هذه الآية أن خلقَ السموات والأرض وما بينهما فى ســتة أيام، وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ٱبنُ جَرِير من رواية ٱبن عباس رضى الله عنهــما "أنَّ اليهودَ أتتِ النبيَّ صــلى الله عليه وسلم، تسأله عن خَلْق السمٰوات والأرض، فقال خلَق اللهُ الأرضَ يومَ الأحدِ ويومَ الاثْنَيْنِ، وخلقَ الجبالَ يوم الثّلاثاء وما فيهنّ من منافــعَ، وخَلَق يومَ الأربعاء المَدائنَ والشَّجرَ والعُمْران والخَرابَ ، فهذه أربعةُ أيّام، وخلق يومَ الخميس السماء، وخلَقَ يومَ الجمعــة النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكةَ إلىٰ ثلاث ساعات بقيَتْ منــه؛ وفى الثانية ألقىٰ الآفةَ علىٰ كل شىء مما ينتفع به الناسُ، وفى الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنّةَ وأمر إبليسَ بالسُّجود له ، وأخرجه منها فى آخر ساعة" قالت اليهود، ثم ماذا؟ قال "ثم ٱسْتوىٰ علىٰ العرش" قالوا : أصبت لو أتممت ،قالوا : ثم ٱستراح فغضبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم غَضَبا شديدا فنزل ﴿ولقَدْ خَلَقْنا السَّمٰواتِ والأرضَ وما بيْنَهما فى سِتَّةِ أيَّامٍ وما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾ قال الشيخ عماد الدين بن كثير فى تفسيره : وفيه غرابة ، ولا ذكر فى هذا الحديث ليوم السبت فى أوّل الخلق ولا فى آخره، نعم ثبت فى صحيح مسلم من رواية أبى هريرة رضى الله عنه، أنه قال "أخذَ رسولُ الله صلى الله عليه وســلم، بِيَدِى فقال خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْت ، وخلق فيها الجبالَ يَوْمَ الأحدِ ، وخَلَق الشَّجَر يوْمَ الاثْنينِ ، وخلق المكروه يوم الثّلاثاء ، وخَلَق النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعاء، وبَثَّ فيها الدَّوابَّ يَومَ الخَميس ، وخَلَق آدمَ بعْــدَ العَصْر يوم الجُمُعة آخِرَ الخلْق فى آخِر ساعةٍ من ساعات الجُمُعة، فيما بيْنَ العَصْر إلىٰ اللَّيْل" قال ٱبن كثير وهو من غرائب الصحيح، وعلله البخارىُّ فى تاريخه فقــال رواه بعضهم عن أبى هريرة عن كعبِ الأحبارِ،وهو أصح. فقد ورد التصريح فى هذا الحديث بذكر الأيّام الســبعة ووُقوع الخلق فيها . قال أبو جعفر النحاس زعم محمد بن إسحاق أن هــذا

الحديث أولىٰ من الحديث الذى قبلَه ، وٱستدلّ بأن الفَرَاغ كان يوم الجُمُعة ، وخالفه غيرُه من العلماء الحُذَّاق النُّظَّار . وقالوا دليلُه دليلٌ علىٰ خَطَئِه : لأن الخلق فى سِتَّة ايام يومُ الجمعةِ منها كما صح عن النبىّ صلى الله عليه وسلم برواية الجماعة ، فلو لم يدْخل فى الأيام لكان الخَلْقُ فى سبعة ، وهو خلاف ما جاء به التنزيل . علىٰ أن أكثر أهل العلم علىٰ حديث ٱبن عباس ، فتبين أن الآبتداء يومَ الأحد إذ كان الآخِر يومَ الجمعة ، وذلك ستة أيام كما فى التنزيل . قال أبو جعفر : علىٰ أن الحديثين ليسا بمتناقضين ، لأنا إن عملنا علىٰ الآبتداء بالأحد فالخلق فى ستة أيام وليس فى التنزيل أنه لايخلق بعدها شيئا وإن عملنا علىٰ الآبتداء بالسبت فليس فى التنزيل أنه لم يخلق قبلها شيئا .

إذا علمت ذلك فقد حكىٰ أبو جعفر النحاسُ أن مقدار كلِّ يوم من أيام خلق السموات والأرض ألفُ سنة من أيام الدُّنيا ، وأنه كان بين ٱبتدائه عز وجل فى خلق ذلك وخَلْق القلَمَ الذى أمره بكتابة كلِّ ما هو كائن إلىٰ قيام الساعة يومٌ : وهو ألف عامٍ ، فصار من ٱبتداء الخلق إلىٰ ٱنتهائه سبعةُ آلاف عام ، وعليه يدل قول ٱبن عباس : إن مدّة إقامة الخَلْق إلىٰ قيام الساعة سبعةُ أيَّام كما كان الخلق فى سبعة أيام .

قال أبو جعفر وهذا بابٌ مَدَاره علىٰ النقل دُونَ الآراء .

المُــــدْرَك الثانى

(فى أسمائها . وقد ٱختُلِف فى ذلك علىٰ ثلاث روايات)

الرواية الأولىٰ — مانطَقتْ به العربُ المستعرِبة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرىٰ عليه الآستعمال إلىٰ الآن : وهوالأحدُ والاثنان والثّلاثاءُ والأربعاءُ والخَميس والجُمعة والسَّبْت .

والأصل فى ذلك مارُوِى عن ٱبن عباس رضىالله عنهما أنه قال : "إن اللهَ عز وجلَّ خَلَقَ يومًا واحدا فسمَّاه الأحَدَ، ثم خلق ثانيًا فسمَّاه الآثنين، ثم خلق ثالثافسمَّاه الثَّـلاَثاءَ، ثم خلق رابعا فسمَّاه الأربعـاءَ، ثم خلق خامسًا فسمَّاه الخميسَ" ولاذكر فى هذه الرواية للجمعة والسبت . وقد ذكرهما اللهُ تعالىٰ فى كتابه العزيز. قال تعالىٰ ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إذا نُودِىَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ ﴾ وقال جل وعز ﴿ إِذْ تأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمِ شُرَّعاً ﴾ . وسيأتيان فى غير هــذه الرواية عند ذكر الآختلاف فيما آبتُدِئَ فيه الخَلْق منها .

فالأحدُ بمعنىٰ واحد ويقال بمعنىٰ أوّل ورجحه النحاس ، وهو المطابِق لتسـمية الثانى بالآثنين . والثالث بالثّلاثاء . وقيل أصـله وَحَد بفتح الواو والحاء كما أن أَنَاة أصـلها وَنَاة[1] ، ويجمع فى القِـلَّة علىٰ آحادٍ وأحَدَاتٍ ، وفى الكثرة علىٰ أُحُود وأوحاد ويحكىٰ فى جمعه أُحُد أيضا قال النحاس : كأنه جمع الجمع .

والاثنان بمعنى الثانى . قال النحاس ،وسبيله أن لايثنّى ،وأن يقال فيه : مضت أيامُ الاثنـين إلا أن تقول ذوات قال : وقد حكى البصريُّون الأَثْن والجميع الثُّنِيّ . وقال ٱبن قتيبة فى أدب الكاتب : إن شئت أن تجمعه فكأنه مبنى للواحد قلت أَثَانِينُ . وحكى النحاس مثله عن كتاب الفرّاء فى الأيام وقال : إنمـا يجوز علىٰ حيلة بعيدة ، وهى أن يقال اليوم الاثنانُ فتضُمُّ النونَ فتصير مثل عِمْران فتثنيه وتجمعه علىٰ هـذا . وحكى عن الفراء أيضا فى جمع الكثرة أَثانٍ فتقول مضت أثانٍ مثل أسمـاء وأَسَامٍ قال : وقرأت علىٰ أبى إسحاق فى كتاب سيبويه فيما حكاه اليوُم الثِّنىٰ فتقول علىٰ هذا فى الجمع الأَثْناء .

---

(١) لعله إحاد بدليل عبارة النحاس

والثَّلاثاء بمعنى الثالث، ويجمع علىٰ ثَلاثاوات وحكىٰ الفراء أَثالِثَ . قال النحاس ويجوز أثاليثُ ، وكذا ثَلاثثُ مثل جمع ثلاثة لأن ألفيَ التأنيث كالهاء . وتقول فيه مضت الثَّلاثاءُ علىٰ تأنيث اللفظ ومضىٰ علىٰ تذكير اليوم ، وكذا فى الجمع تقول مضت ثلاثُ ثَلاثاوات، وثلاثةُ ثلاثاوات .

والأَرْبِعاء بمعنىٰ الرابع ، ويجمع علىٰ أَرْبِعاوات وكذا أرابِيعُ والياء فيه عوضُ ما حُذِف ، فإن لم تعوّض قلت أَرَابع . وأجاز الفراء أربِعَاءات مثل ثلاثاءات ومنعه البصريون للفرق بين ألف التأنيث وغيرها .

والخميس بمعنىٰ الخامس ، ويجمع فى القِلَّة علىٰ أخْمِسة . وفى الكثرة علىٰ خُمُس وخُمْسان كرُغُف ورُغْفان . ويقال أخْمِساء كأنصباء، وحكىٰ عن الفراء فى الكثرة أخامِس .

والجمعة (بضم الميم وإسكانها) ومعناها الجمع . وٱختلف فى سبب تسميته بذلك فقال النحاس : لٱجتماع الخلق فيه، وهذا ظاهر فى أن الٱسم كان بها قديما وقيل لٱجتماع الناس للصلاة فيه . ثم ٱختلف فقيل سميتْ بذلك فى الجاهلية وٱحتُجَّ له بما حكاه أبو هلال العسكرىّ فى كتابه الأوائل أن أوّل من سمّى الجمعة جمعةً كعبُ ٱبنُ لؤىّ جدُّ النبى صلى الله عليه وسلم، وذلك أنّه جمع قُرَيشا وخطَبهم فسميت جمعة وكانوا لا يعرفون قبلَ ذلك إلا العَروبة . وقيل إنما سميت بذلك فى الإسلام وذلك أن الأنصار قالوا : إن لليهود يوما يجتمعون فيه بعدَ كل ستة أيام ، وللنصارىٰ كذلك فهَلُمُّوا نجعَلْ لنا يوما نجتمع فيه نذكُر الله تعالىٰ ونُصَلِّى ، فقالوا يوم السبتِ لليهود ويوم الأحد للنصارىٰ فٱجعلوا يوم العروبة لنا فٱجتمعوا إلىٰ سعدِ بنِ زُرَارة الأنصارىّ فصلّى بهم يومئذ ركعتينِ وذكّرهم فسمَّوْه يوم الجمعة لٱجتماعهم فيه فأنزل الله تعالىٰ سورةَ الجمعة . علىٰ أن السُّهيْلِيَّ قد قال فى الروض الأُنُف : إن يوم الجمعة كان يسمّى بهذا الٱسم قبل أن يصلِّى الأنصارُ الجمعةَ .

أما أوّل جمعة جَمَّعها رسول الله صلى الله عليه وســلم فيما حكاه صاحبُ الأوائل فإنه لمـا قدِم المدينة مُهاجِرا نزل علىٰ بنى عَمْرو بن عوف وأقام عندهم أيّاما ثم خرج يوم الجمعة عائدا إلىٰ المدينة فأدركَتْه الصـلاة فى بنى سالِم بنِ عوف فى بطن وادٍ لهم فخطب وصلّى بهم الجمعةَ . وتجمع علىٰ جُمَع وجُمْعات بالفتح والتسكين (١) .

والسبت ومعناه القطع بمعنىٰ أنه قُطِع فيــه الخَلْق علىٰ رأى مَنْ يرىٰ أن السبت آخِرُ أيام الجمعة، وأنه لاخلْقَ فيه علىٰ ماسيأتى ذكره . وقولُ النحاس إنه مشتقٌّ من الراحة أيضا لاعبرة به لمُضاهاة قول اليهود فيه علىٰ ماسيأتى إن شاء الله تعالىٰ . ويجمع فى القلّة علىٰ أسبُت وسَبَتات بالتحريك، وفى الكثرة علىٰ سُبُوت بضم السين مثل قَرْح وقُرُوح .

الرواية الثـانية ـ مايُروىٰ عن العرب العاربة من بنى قَحْطانَ وجُرْهم الأُولىٰ : وهو أنهم كانوا يُســمُّون الأحد أوّلَ لأنه أوّلُ أعداد الأيام ويسمُّون الاثنين أَهْوَنَ أخذا من الهَوْن والهُوَينىٰ، وأَوْهَدأيضا أخذا من الوَهْدة : وهى المكان المنخفِض من الأرض لانخفاضه عن اليوم الأوّل فى العدد . ويسمُّون الثّلاثاء جُبَارا (بضم الجيم) لأنه جُبِر به العددُ . ويسمُّون الأربعاء دُبَارا (بضم الدال المهملة) لأنه دَبَرماجُبِر به العــدد بمعنىٰ أنه جاء دُبُره . ويســمون الخميس مُؤْنِسا لأنه يُؤْنَس به لبركته . قال النحاس : ولم يزل ذلك أيضا فى الإسلام، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتبرَّك به ولا يُسافر إلا فيه وقال : "اللهُمَّ بارِكْ لِأُمَّتِى فى بُكُورها يَوْمَ خَميسها" . ويسمُّون الجمعــة العَرُوبة (بفتح العين مع الألف واللام) وفى لغة شاذّة عَرُوبة بغير ألف ولام مع عدم الصرف، ومعناه اليوم البيِّن أخذا من قولهم أعرب إذا أبانَ، والمراد أنه بيِّنُ العظَمة والشَّرَف ، إذ لم يزل معظَّما عند أهل كل ملة وجاء الإسلام فزاده

(١) وجُمُعات أيضا بضمتين . قال فى المصباح كغرفات فى وجوهها .

تعظيما ؛ وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "خَيْرُ يومٍ طَلَعَتْ عليه الشمسُ يومُ الجمعة، فيه خُلِق آدمُ، وفيه دَخَل الجنَّةَ، وفيه أُخْرِجَ منها" . ويسمُّونه أيضا حَرْبَةَ بمعنى أنه مرتفع عالٍ كالحَرْبة التى هى كالرُّمْح ، كما يقال مِحْراب لآرتفاعه وعلوِّ مكانته ؛ ويسمُّون السبت شَيارًا (بفتح الشين المعجمة وكسرها مع الياء المثناة تحتُ) أخذا من شُرْت الشىء إذا آستخرجْته وأظهرْته من مكانه إمّا بمعنى أنه آستخرج من الأيام التى وقع فيها الخلْق على مذهب من يرى أنه آخر أيام الأسبوع وأن آبتداء الخلق الأحدُ وآنتهاءه الجمعةُ، وإما بمعنى أنه ظهر أوّل أيام الجمعة على مذهب مَنْ يرى أنه أوّل الجمعة وكان ابتداء الخلق فيه ، وإلى هذه الأسماء يشير النابغة بقوله :

أؤمّل أنْ أَعِيشَ وأنَّ يَوْمِى * لِأَوّلَ أو لِأَهْوَنَ أو جُبارِ
أو التالى دُبارِ فإن أَفُتْه * فمُؤْنِسٍ أو عَرُوبَةَ أو شِيارِ

الرواية الثالثة ــ ماحكاه النحاس عن الضَّحَّاك : إن الله تعالى خلق السموات والأرض فى ستة أيّام، ليس منها يوم إلا له آسمٌ أبْجَد هَوَّز حُطِّى كلمن سعَفَص قرشتْ . وقد حكى السهيلى رحمه الله أن الأسماء المتداوَلة بين الناس الآن مرويَّة عن أهل الكتاب، وأن العرب المستعرِبة لما جاورتْهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرِفون إلا الأسماءَ التى وضعتها العرب العاربةُ : وهى أبجد هَوَّز حُطِّى كلمن سعفص قرشَتْ التى خلق الله تعالى فيها سائر المخلوقات : عُلْويَّها وسُفْليَّها . وهذا يخالف ما تقدّم فى الرواية الثانية عن العرب العاربة . وعلى أنها أسماءٌ للأيام التى وقع فيها الخلق يحتمل أن يكون أبجد آسما للأحد على مذهب من يرى أن آبتداء الخلق يوم الأحد ويكون السبت لا ذكر له فى هذه الرواية(١) .

---

(١) أسقط الناسخ الأحتمال الثانى وقد ذكره فى الضوء بقوله (ويحتمل أن أبجد اسم للسبت على رأى من يرى أنه ابتدئ فيه الخلق وتكون الجمعة لا ذكر لها) .

المُــــدْرَك الثـالث

(فى بيان أوّل أيام الأُسبوع، وما كان فيه ٱبتداء الخلق منها .
وقد ٱختلف الناس فى ذلك علىٰ ثلاثة مذاهبَ)

المذهب الأوّل ــ أن أوّل أيام ٱلأسبوع وٱبتداءِ الخلق الأحدُ . وٱحتج لذلك بما تقدّم من حديث ٱبن عباس "أن اليهودَ أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألَتْه عن خلق السمٰواتِ والأرض فقـال خلَق اللهُ عز وجلّ الأرضَ يومَ الأحدِ" الحديث وبحديثه الآخر "خلق اللهُ يومًا واحدا فسمّاه الأحَدَ" وإذا كان ابتداء الخلق الأحدَ لزم أن يكون لأوّل الأسبوع الأحد .

المذهب الثـانى ــ أن أوّل أيام الأسبوع وٱبتداء الخلق السبتُ . وٱحتج له بحديث أبى هريرة المتقدّم "أخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيدِى فقال خَلَق اللهُ التُّرْبَةَ يومَ السبْت" الحـديثَ ، وإذا كان ٱبتداءُ الخلْق السبتَ لزم أن يكون أوّلُ الأسبوع السبتَ .

المذهب الثـالث ــ أن أوّلَ أيام الأســبوع الأحدُ ، لحديث "خَلَقَ اللهُ يومًا وَاحِدًا فَسَمَّاهُ الأحَدَ ثُمَّ خَلَقَ ثَانِيًا فَسَمَّاهُ الاثْنَيْنِ" الحـديث . وٱبتداءُ الخلقِ يومَ السبت لحديث أبِى هريرةَ المتقدّمِ . قال النحاس : وهذا أحسنها .

المُــــدْرَك الرابع

(فى التفاؤلِ بأيام الأســبوع والتطيُّرِ بها وما يُعْزىٰ لكلٍّ منهَا
من خير أو شرٍّ، علىٰ ماهو متداوَل بين الناس)

وٱعلم أنه لاأصل لذلك من الشريعة، ولم يرد فيه نصٌّ من كتاب ولا سنة . وقد وردت القرعةُ عن جعفر الصادق رضى اللهُ عنه فى توزيع الأعمـال علىٰ الأيام: أنه قال : السبت يوم مَكْرٍ وخَديعةٍ؛ ويوم الأحد يوم غَرْسٍ وعِمارةٍ؛ ويومُ الاثنين

يوم سفر وتجارة؛ ويوم الثلاثاء يوم إراقة دمٍ وحربٍ ومُكافحة؛ ويوم الأربعاء يوم أخذٍ وعطاءٍ؛ ويقال يوم نحسٍ مستمرّ؛ ويوم الخميس يومُ دخول على الأمراء وطلَبِ الحاجات؛ ويوم الجمعة يوم خَلْوة ونكاح . ووجهوا هذه الدعوى بأن قريشا مكَرَتْ فى دار الندوة يوم السبت، وأن الله ابتدأ الخلق يومَ الأحد، وأن شعيبا سافر للتجارة يومَ الاثنين، وأن حوّاءَ حاضتْ يوم الثلاثاء، وفيه قتَل قابيلُ هابيلَ أخاهُ، وأن فرعونَ غَرِق هو وقومُه يومَ الأربعاء، وفيه أهلك اللهُ عادًا وثمودًا(١)، وأن إبراهيمَ دخل على النُّمرودِ يومَ الخميس، وأن الأنبياءَ عليهم السلامُ كانت تَنْكِحُ وتخطُب يومَ الجمعة .
وقد نظم بعض الشعراء هٰذهِ الاختيارات فى أبياتٍ وإن كان قد خالف الواضعَ فى مواضعَ فقال :

لَنِعْمَ اليومُ يومُ السَّبْتِ حقًّا * لصيدٍ إن أرَدْتَ بِلا امتراءِ
وَفِى الأحَد البِناءُ فإنّ فيهِ * تَبَدّى اللهُ فِى خَلْقِ السماءِ
وَفِى الإثْنَيْنِ إن سَافَرْتَ فيهِ * سَتَرْجعُ بالنجاحِ وبالغناءِ
وَإن تُرِدِ الحِجَامَةَ فِى الثّلاثا * ففى سَاعَاتِهِ هَرْقُ الدِّمَاءِ
وَإنْ شَرِبَ امرؤٌ منكمْ دَوَاءً * فَنِعْمَ اليومُ يومُ الأربعَاءِ
وَفِى يوم الخَمِيس قضَاءُ حَاجٍ * فإنَّ اللهَ يأذَنُ بالقَضَاءِ
وَيومَ الجُمْعَةِ التَّزْوِيجُ حقًّا * وَلَذّاتُ الرِّجَالِ مَعَ النِّسَاءِ

وسيأتى الكلامُ على مايتعلق من ذلك بأيامِ الشهرْ فى الكلام على الشُّهورِ فى الفصْلِ السابِع من الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) ثمود يصرف ولا يصرف .

الطرف الثـانى

(فى الشّهورِ، وهى علىٰ قسمين : طبيعىٍّ وآصطلاحىٍّ)

القسم الأوّل

(الطّبيعىّ والمراد به القمرىّ)

وهو مدّة مَسير القمر من حين يفارق الشمسَ إلىٰ حين يفارقها مرة أخرىٰ :

وهى علىٰ ضربين :

الضربُ الأوّلُ

(شُـــهُورُ العَـــرَب)

والشهرُ العربىُّ عبارة عَمّـا بين رؤيةِ الهلال إلىٰ رؤيته ثانيا، وعددُ أيامه تسعةٌ وعِشْرونَ يوما ونصفُ يومٍ علىٰ التقريب ، ولمـا كان هـذا الكسرُ فى العددِ عَسِرًا عدّوا جملةَ الشهرين تسعةً وخمسينَ يوما ، أحدُهما ثلاثونَ وهو التام، والآخر تسعةٌ وعشرونَ وهوَ الناقص . وقد ثبتَ فى صحيح مسلم من حديث أُمِّ سَلَمَةَ رضى اللهُ عنها «أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حَلَفَ لا يدخُل علىٰ بعضِ نسائهِ شَهْرًا فلمامضىٰ تِسعةٌ وعشرونَ غَدا عليهِـمْ أو رَاحَ فقيـلَ يا رسولَ الله حلفتَ لا تدخلُ عليهنّ شهرًا فقالَ الشهرُ يكونُ تسعة وعشرينَ» . وذلك بحسب مَسيرِ النيِّرينِ : الشمْسِ والقمرِ بالمسيرِ الأوسط . أما بالمسـير المقوّم فإنه يتفق إذا آسـتكمل الشهرُ برؤيةِ الهلال عِيانا أن يتوالىٰ شهران وثلاثة تامّةً ونتوالىٰ كذلك ناقصةً وعلىٰ ذلك عَمَلُ العربِ واليهود .

ولهمْ فى آستعمالهِ طريقتَان .

الطَّرِيقةُ الأولىٰ

(طَرِيقَــةُ العَــرَب)

ومُدّةُ الشهرِ عنـدهُم من رُؤيةِ الهـلالِ إلىٰ رُؤيةِ الهـلالِ، وهى أسهلُ الطُّرُق وأقربُها، وعليها جاء الشرْعُ، وبها نطقَ التنزيلُ قال تعالىٰ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ . وفيها جملتان :

الجمـــلةُ الأولىٰ

(فى أحوالِ الأهِلَّةِ التى عليها مدارُ الشهورِ فى ٱبتدائها وٱنتهائها)

واعلم أن مسيرَ القمرِ مقدّرٌ بمعرفةِ الشهورِ والسنين قال تعالىٰ ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْـلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ والشمسُ تُعْطِيـه فى كل ليلةٍ ما يَسْتَضِىءُ بِه نصفُ سُبُعِ قُرْصِهِ حتّىٰ يَكْمُلَ ثم تسلبه من الليلة الخامسةَ عشْرَةَ كلَّ ليلةٍ نصفَ سُبع قرصه حتّىٰ لا يبقىٰ فيه نورٌ فيستتر .

ويروىٰ عن جعفر الصادق رضى اللهُ عنه أنهُ سُئِلَ عن القمرِ فقال : يُمحق كل ليلةٍ ويُولَدُ جديدا، ويبعدُ مثل هذا عن جعفر الصادق .

إذا علمتَ ذَلك فالقمر حركتان : سريعة وبطيئة كما تقدّم فى الشمس .

أما الحركةُ السريعــةُ فحركةُ فَلَك الكلِّ بِه من المشرق إلىٰ المغرب، ومن المغرِب إلىٰ المشرق فى اليومِ والليلةِ .

وٱعلم أن الهلال إذا طلَع مع غُروبِ الشمسِ كان مَغيبُـه علىٰ مضىِّ ستة أسباعِ ساعةٍ من الليلِ، ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه فى كل ليلة ماضية هذا المقدارَ حتّىٰ يكون مغيبه فى الليلة السابعة نصفَ الليلِ، وفى الليلة الرابعة عشرةَ طلوعَ الشمسِ،

ثم يكون طلوعه فى الليلة الخامسة عشرة على مضىّ ستة أسباع ساعة منها، ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه فى كل ليلة ماضية بعد الإبدار هذا المقدار حتّى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصفَ الليل، وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغَدَاة .

وإذا أردت أن تعلم على مضىّ كم من الساعات يغيب أو يطلُع من الليـل، فإن أردت المغيب وكان قد مضى من الشهر خمسُ ليال تقديرا فآضربها فى ستة تكون ثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى آثنان فيكون مغيبه على مضىّ أربع ساعات وثلاثة(١) أسباع ساعة ، وكذلك العمل فى أىّ ليـلة شئت ؛ وإن أردت الطلوع وكان قد مضى من الإبدار ستُّ ليال مثلا فآضرب ستة فى ستة يكون ستة وثلاثين فأسقطها سبعةً سبعةً يبقى واحد، فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع ، وكذلك العمل فى أىّ ليلة شئت .

وقد قسمت العرب ليالىَ الشهر بعـد آستهلاله كلَّ ثلاثة أيام قسما وسمتها بآسم فالثلاث الأُوَل منهـا هِلال ، والثلاث الثانية قَمَـر ،والثلاث الثالثة بُهْر، والثلاث الرابعةُ زُهْر (والزَّهَر البياض)، والثلاثُ الخامسة بِيضٌ : لأن الليالى تَبْيَضُّ بطلوع القمر فيها من أوّلهـا إلى آخرها، والثلاث السادسةُ دُرْع : لأن أوائلها تكون سُودا وسائرها بِيضٌ ، والثلاث السابعة ظُلَم، والثلاث الثامنة حَنادِس ، والثلاث التاسعة دَآدِئُ (الواحدةمنها دَأْدَأَة على وزن فَعْلَلَة)، والثلاث العاشرة ليلتان منها مِحَاق وليلة سِرَار لإمحاق الشمس القمرَ فيها .

ومنهم من يقول ثلاثُ غُرَر : (وغُرَّة كلِّ شئ أوّله) ، وثلاث شُهْب ، وثلاث زُهْر، وثلاث تُسَع(٢) : لأن آخر يوم منها اليوم التاسع، وثلاث بُهْر، بُهِر فيها ظلامُ الليل، وثلاثُ بِيض، وثلاث دُرْع ، وثلاث دُهْم وحُم وحَنَادِس، وثلاث دَآدِئُ .

ويروى عنهم أنهم يسمُّون ليـلة ثمـانٍ وعشرين الدَّعْجاء، وليـلة تِسْع وعشرين

(١) لعل الصواب وسبعان كما هو واضح (٢) لعل هذه الثلاثة قبل التى قبلها بدليل التعليل .

الدَّهْماء، وليــلة ثلاثين اللَّيْلاء، وهم يقولون فى أسجاعهم : القمر ٱبن ليله ، رَضاعُ سُخَيله، حَلَّ أهلُها بِرُمَيْله ؛ وٱبن ليلتين حديثُ أَمَتين ، كَذِبٌ ومَيْن ؛ وٱبن ثلاث ، قليل اللَّبَاث ؛ وٱبن أربع ، عَتَمة أمّ رُبَع ، لاجائع ولامُرْضَع ؛ وٱبن خمس ، حديثٌ وأُنْس ، وعَشَاء خَلِفات قُعْس ؛ وابن سِتّ ، سِرْ وبِتّ ؛ وٱبن سبع ، دُلْجة ضَـبْع ، وحديثٌ وجَمْع ؛ وابن ثمــان ، قمرٌ إضْحِيَان ؛ وٱبن تسع ، مَحْذُوٌّ النِّسْع ، ويقال الشِّسْع ؛ وٱبن عَشْر ، مُخَنق الفَجْر ، وثُلُثُ الشَّهر .

هذا هو المحفوظ عن العرب فى كثير من الكتب .

قال صاحب مناهج الفكر : وعثرت فى بعض المجاميع على زيادة إلى آخر الشهر ، وكأنها والله أعلم مصنوعه ، وهى على ألسنة العرب موضوعه ، وهى : وٱبن إحدى عشره ، يُرى عِشاءً ويرى بُكْره ، وٱبن ٱثنتى عشرة ، مُرْهِق البشر بالبَدْو والحَضَر (١) ، وٱبن ثلاث عشرة ، قمر باهِرْ ، يُعْشِى الناظر ، وٱبن أربع عشرة مُقْبِل الشباب ؛ مضىءُ دُجُنَّات السَّحاب ؛ وٱبن خمس عشرة تمَّ التمــام ، ونَفِدَت الأيَّام ، وٱبن ستَّ عشرةَ نَقَص الخلْق ، فى الغَرْب والشَّرق ، وٱبن سبع عشرة ، أمْكنتِ المُقْتفرَ القفرة ، وٱبن ثمــانَ عَشرةَ قليــلُ البَقاء ، سريع الفَناء ؛ وٱبن تِسعَ عَشرةَ بَطِىء الطُّلوع ، سَريعُ الخُشُوع ؛ وابن عشرين يَطْلُع سُحْره ، ويَغيبُ بُكْره ؛ وٱبن إحدى وعشرين كالقَبَس ، يَطْلُع فى الغلَس ؛ وٱبن ٱثنتين وعشرين يُطيــل السُّرى ، رَيْثَمــا يُرى ؛ وٱبن ثلاثٍ وعشرين يُرى فى ظُلْمة الليال ، لا قمرٌ ولا هِلَال ؛ وٱبن خمس وعشرين دنا الأجَلْ ، وٱنقطع الأَمــل ؛ وٱبن ست وعشرين دَنَا مادَنَا ، فمــا يُرى إلَّا سَــنا ، وٱبن سبع وعشرين يَشُقُّ الشمسَ ، ولا يُرى له حسّ ، وٱبن ثمــانٍ وعشرين ضَئيل صَـغِير لا يراه إلا البَصير .

(١) فى بعض الروايات . للشمس . . . والحضره

وأما حركته البطيئة ، فحركته من جهة الشَّمال إلىٰ جهــة الجَنُوب، ومن جهة الجَنُوب إلىٰ جهــة الشمال وتنقله فى المنازل الثمـانية وعشرين فى ثمـانية وعشرين يوما بلياليها كالشمس فى البروج قال تعالىٰ ﴿ والقَمَرَ قَدَّرْناه مَنَازِلَ حَتّٰى عاد كالعُرْجُون القَدِيْم ﴾ فما تقطعه الشمس من الشمال إلىٰ الجَنُوب و بالعكس فى جميع السنة يقطعه القمر فى ثمـانية وعشرين يوما . والمنازل للقمر كالبُروج للشَّمس ؛ وذلك أنه لمـا ٱتصل إلىٰ العرب ماحققه القُدماء برَصْدِهم من الكواكب الثابتة ، وكان لاغِنًى لهم عن مَعْرفة كواكِبَ تُرشِدُهم إلىٰ العِـلْم بفصول السنة وأزمنتها ، رصـدوا كواكبَ وٱمتحنوها، ولم يستعملوا صُوَر البروج علىٰ حقيقتها : لأنهم قَسَّموا فلك الكواكب علىٰ مقدار الأيام التى يقطعه القمر فيها، وهى ثمـانيةٌ وعشرون يوما، وطلبوا فى كل قسم منها علامَةً تكون أبعادُ ما بينها وبيــن العـلامة الأُخْرىٰ مقدارَ مسير القمر فى يوم وليلة ، وسَمَّوْها منزلة إلىٰ أن تحقق لهم ثمـانية وعشرون علىٰ ما تقدم ذكره فى الكلام علىٰ طلوعها بالفجر : لأن القــمر إذا سار سـيْرَه الوسطَ ٱنْتَهىٰ فى اليوم التاسع والعشرين إلىٰ المِحَاق الذى بدأ منه، فحَذَفت المتكرِّرَ، فبقىَ ثمـانية وعشرين ويزاد بالشَّرطين : لأن كواكبه من جملة كواكب الحَمَل، الذي هو أوّل البُروج .

ثم هذه المنازل علىٰ قسمين : شَمَالِىّ وجَنُوبىّ كما فى البروج، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشمالىُّ منها ما كان طُلُوعه من ناحية الشام، وتسمّٰى الشامِيَّة : وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال، التى هى رأس الحمل والميزان صاعدا إلىٰ جهة الشمال ،وهى : الشَّرطان، والبُطَيْن ،والثُّرَيَّا، والدَّبَرانُ، والهَقْعة، والهَنْعة، والذِّراع ، والنَّـثْرة ، والطَّرْف، والجَبْهة، والخَرَتان، والصَّرفة، والعوّاء، والسِّماك . وبطلوعها يطول الليــل ويقصر النهار . والجنوبىّ منها ما كان طُلُوعه من ناحية اليمن وتسمّٰى اليمـانِيَة : وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال المذكور هابطا إلىٰ جهة الجنوب .

وهى : الغَفْر، والزُّبانان، والإكْليل، والقَلْب، والشَّوْلة، والنَّعائِم، والبَلْدة، وسَعدُ الذابِحُ، وسَعْدُ بُلَعَ، وسَعْدُ السُّعود، وسعدُ الاخبيةِ، والفَرْغُ المقدّم، والفَرْغُ المؤخَّر، وبطن الحوت؛ وبطلوعها يقصُر الليل ويطولُ النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قِطْعة من الفلك مقدارها رُبْعَ سُبْعِ الدور، وهو جزء من ثمانية وعشرين جزءا من الفلك عبارة عن (١) لا عن الكواكب، وإنما الكواكب حدود تَفْرُق بين كل منزلة وأُخْرىٰ، فعُدل بالتسمية إليها وغلبتْ عليها .

ونزول القمر فى هذه المنازل علىٰ ثلاثة أحوال إما فى المَنْزِلة نفْسِها وإما فيما بينها وبين التى تليها وإما محاذِياً لهـا خارجًا عن السمت شمَـالا أو جَنُوبا . وقد تقـدّم الكلام علىٰ عُدُول القمر عن بعض المنازل ونزوله فى غيرها .

ولتَعْلَمْ أن المنازل مقسومةٌ علىٰ البروج الاثْنىْ عَشَر موزعةٌ عليها : فالشَّرَطان والبُطَين وثلث الثريا للحَمَل ، وثلثا الثُّريَّا والدَّبَرانُ وثلثا الهَقْعة للثّور، وثلثُ الهَقْعة والهَنْعـةُ والذِّراع للجَوْزاء ، والنَّثرةُ والطَّرْف وثُلث الجَبْهة للسَّرَطان ، وثلثا الجبهة والخَرَتان وثلثا الصَّرفة للأَسـد ، وثلث الصَّرفة والعوَّاءُ والسِّماكُ للسُّنْبُلة ؛ والغَـفْر والزُّبانان وثُلُث الإكليل للميزان، وثلثا الإكليل والقلبُ وثلثا الشولة للعقرب؛ وثلث الشولةِ والنعائم والبلدة للقوْس، وسعدُ الذابح وسعدُ بُلَعَ وثلث سعد السعود للجَدْى (٢)، وثلث الفرغ المقدّم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت .

إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعرف القمرَ فى أىّ منزلة هو أو كَمْ مضىٰ له فيها من الأيام ، فخذ ما مضىٰ من سنة القبط شهورا كانت أو أياما أو شهورا وأياما

---

(١) بياض بالاصل .

(٢) يظهر أن فيه سقطا هو [وثلثا سعد السعود وسعد الأخبية وثلثا الفرغ المقدم للدلو] .

وآبسُطْها أياما ، وأضف إلىٰ ما حصـل من ذلك يومين ، ثم آطرح المجموع ثلاثةَ عشَرَ ثلاثةَ عشَرَ، وهو عدد لُبْث القمر فى كل منزلة من الأيام ، وآجعـل أوّل كل منزلة من العدد الخرتان، فما بقى من الأيام دون الثلاثة عشر فهو عدد مامضىٰ من المنزلة التى آنتهى العدد إليها .

مثال ذلك أن يمضىَ من سَـنَة القبط شهر توت وأربعـة أيام من بابه فتبسطها أياما تكون أربعة وثلاثين يوما فتضيف إليها يومين تصير ستة وثلاثين يوما فاطرح منها ثلاثة عشر مرتين بسـتة وعشرين للخرتان منها ثلاثة عشر وللصَّرْفة ثلاثة عشر تبقىٰ عشرة، وهى مامضىٰ من المنزلة الثالثة وهى العوّاء .

وإن أردت أن تعرف فى أىّ برج هو فاحسُبْ كم مضىٰ من الشهر العربىّ يوما وزد عليه مثله ثم زد علىٰ الجملة خمسةً وأعط لكل برج خمسة وآبدأ من البرج الذى فيه الشمس فأعط لكل برج خمسة فأينما نَفِد حسابُك فالقمر فى ذلك البرج، والآعتماد فى ذلك علىٰ كم مضىٰ من الشهر العربىّ بالحساب دون الرؤية والله أعلم .

الجمـــلة الثـانية

(فى أسمـائها : وفيها روايتان)

الرواية الأولىٰ ـ مانطقت به العرب المستعرِبة،وجرىٰ عليه الآستعمال إلىٰ الآنَ وقد نطق القرءان الكريم بِصِدْقها قال تعالىٰ : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ آثْنَا عَشَرَ شَهْراً فى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ﴾ والمراد شهور العرب الذين نزل القرءان بلغتهم ، ومدارها الأهلَّة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسـعةً وعشرين . الشهر الأوّل منها المحرّم، سمِّى بذلك لأنهم كانوا يحرّمون فيه القتالَ، ويجمع علىٰ مُحَرَّمات ومَحَارِم ومَحَاريم . الشهر الثانى صَفَر، سمى بذلك لأنهم كانوا يُغيرون فيه علىٰ بلاد يقال لها

الصَّفَرِيَّة ، ويجمع علىٰ صَفَرَات وأصْفار وصُفُور وصِفَار. الشهر الثالث ربيع الأوّل سمى بذلك لأنهم كانوا يُحَصِّلون فيه ما أصابوه فى صَفَرَ . والرَّبيع فى اللغة الخِصْب ، وقيل لآرتباعهم فيه . قال النحاس والأول أولىٰ بالصواب ، ويقال فى التثنية رَبِيعان الأوّلان وفى الجمع رَبِيعات الأوّلاتُ . ومن شرط فيه إضافة شهر قال فى التثنية شهرا ربيع الأوّلان وفى الجمع شَهرات ربيع الأوّلات والأوائل ، وإن شئت قلت فى القليل أشهر وفى الكثير شهور ، وحكى عن قطرب الأَرْبِعة الأوائل ، وعن غيره رُبُعٌ الأوائلُ . الشهر الرابع ربيع الآخر ــ والكلام فى تسميته وتثنيته وجمعه كالكلام فى رَبيع الأوّل . الشهر الخامس جمادىٰ الأولىٰ ، سمى بذلك لجمود الماء فيه : لأن الوقت الذى سُمِّى فيه بذلك كان الماء فيه جامدًا لشدّة البَرْد ، ويقال فى التثنية جُمَادَيَان الأُولَيَان وفى الجمع جُمادَيات الأُولَيَات . الشهر السادس جمادىٰ الآخرة ــ والكلام فيه تسميةً وتثنيةً وجمعًا كالكلام فى جُمَادىٰ الأولىٰ . الشهر السابع رجب ، سمى بذلك لتعظيمهم له أخذا من الترجيب : وهو التعظيم ، ويجمع علىٰ رَجَبات وأرْجاب ، وفى الكثرة علىٰ رِجَاب ورُجُوب . الشهر الثامن شَعْبان ، سمى بذلك لتشعُّبهم فيه لكثرة الغارات عقِبَ رَجَب ، وقيل لتشعب العود فى الوقت الذى سُمِّى فيه . وقيل لأنه شَعَب بين شهرىْ رجبَ ورمضانَ ويجمع علىٰ شَعْبَاناتٍ وشعابة(1) علىٰ حذف الزوائد ، وحكىٰ الكوفيون شَعَابِينَ ، قال النحاس وذلك خطأ علىٰ قول سيبويه كما لا يجوز عنده فى جمع عُثْمان عثَامِين . الشهر التاسع رمضان ــ سمى بذلك أخْذًا من الرمضاء لأنه وافق وقتُ تسميته زمَنَ الحرّ ، ويجمع علىٰ رَمَضانات وحكى الكوفيون رَمَاضِين ، والقول فيه كالقول فى شَعَابِين ، ومَنْ شرط فيه لفظ شهر قال فى التثنية شَهْرا رَمضانَ وفى الجمع شَهْرات رمضانَ وأشْهُر رمضان وشُهور رمضان . الشهر العاشر شوّال سمى بذلك أخذا من شالَتِ الإبل بأذنابها إذا حملت : لكونه أوّل شهور الحج وقيل من

(1) لعله وشعاب . بدون الهاء .

شال يَشُول إذا ٱرتفع : ولذلك كانت الجاهليـة تكْرَه التزويج فيه لما فيه من معنىٰ الإشالة والرفع إلىٰ أن جاء الإسلامُ بهَدْم ذلك . قالت عائشةُ رضى الله عنها فيما ثبت فى صحيح مسـلم "تَزوَّجَنِى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فى شَوّالٍ وبَنىٰ بِى فى شَوّالٍ فأىُّ نِسائِهِ كان أحظَى عنده مِنِّى" ويجمع علىٰ شَوّالات وشَواوِيل وشَواوِل . الشهر الحادى عشر ذو القِعدة، ويقال بالفتح والكسر، سمّى بذلك لأنهم كانوا يَقْعُدُون فيه عن القتال لكونه من الأشهُر الحرم، ويجمع علىٰ ذَوات القَعدة، وحكى الكوفيون أُولاتُ القَعْدة، وربما قالوا فى الجمع ذات القعدة أيضا . الشهر الثانى عشر ذو الِحجة سمى بذلك لأن الحجَّ فيه، والكلام فى جمعه كالكلام فى ذى القَعْدة . ثم من الأشهر المذكورة أربعة أشهر حُرُم كما قال تعالىٰ : ﴿ مِنْها أَرْبعَةٌ حُرُم ﴾ وقد أجمعت العلمـاء علىٰ أن الأربعة المذكورة هى رَجَب وذُو القَعدة وذو الِحجّة والمحرَّم. وقد ٱختلف فى الابتداء بعـددها فذهب أهـل المدينة إلىٰ أنه يُبْتدأ بذى القَعدة فيقال ذو القَعدة وذو الحجَّة والمحرمُ ورجَب ، ويحتجُّون علىٰ ذلك بأنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم عدّها فى خُطْبة حجَّة الوَداع كذلك فقال "السَّنَةُ ٱثْنا عَشَرَشَهْرا ، منها أربعةٌ حُرُم ، ثلاثةٌ مُتَوالِياتٌ وواحِدٌ فَرْدٌ: ذُوالقَعْدة وذُوالِحجَّة والمحرَّم ورَجَب" وٱختاره أبوجعفر النحاس. وذهب أهل الكوفة إلىٰ أنه يبتدأُ بالمحرَّم فيقال المحرّم ورجب وذُو القَعْدة وذو الِحجَّة : ليأتوا بها من سنة واحدة وإليه ميلُ الكُتّاب . قال النحاس : ولا حُجَّةَ لهم فيه لأنه إذا عُلِم أن المقصود ذكرها فى كل سنة فكيف يتوهم أنها من سنتين. وكانت العربُ فى الجاهلية مع ماهم عليه من الضَّـلال والكُفْر يعظّمون هذه الأشهرَ ويحرّمون القتالَ فيها حتّى لولَقِىَ الرجلُ فيها قاتلَ أبيه لم يَهِجْه، إلىٰ أن حَدَث فيهم النسىءُ فكانوا يُنْسِئُون المحرّم فيؤخرونه إلىٰ صَـفَر فيحرّمونه مكانه ويُنْسِئُون رجبًـا فيؤخّرونه إلىٰ شَعْبان فيحرّمونه مكانَه ليستبيحوا القتال فى الأشهر الحرم .

وآعلم أنه يجوز أن يُضاف لفظُ شهر إلى جميع الأشهر فيقال شَهْر المحرم، وشهرُ صَفَر، وشهر ربيع الأوّل وكذا فى البواقى . على أنَّ منها ثلاثةَ أشهر لم تكد العرب تنطِقُ بها إلا مضافةً إليها، وهى شهرا ربيع وشهر رمضان؛ ويؤيد ذلك فى رمضان ما ورد به القرءان من إضافته قال تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْءانُ﴾ وقد روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال "لاتقُلْ رمضانُ ولكن قل كما قال الله عز وجل شَهرُ رمضان فإنك لا تدرى ما رمضان" وعن عطاء نحوه وأنه قال لعلَّ رمضانَ آسمٌ من أسماء الله تعالى، لكن قد ثبت فى الصحيحين من رواية أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال "إذا جاء رمضانُ أُغْلِقَتِ النِّيرانُ وصُفِّدَتِ الشَّياطِينُ" الحديث . وهذا صريح فى جواز تعريته عن الإضافة .

وقد آختلف الناس فى ذلك على ثلاثة مذاهبَ أصحها أنه يجوز تعريته عن لفظ شهر مطلقا ، سواء قامت قرينة أم لا فيقال جاء رمضان وصُمتُ رمَضانَ، وما أشبه ذلك وهو ما رجّحه النووىّ فى شرح مسلم . والثانى المنعُ مطلقا، والثالث إن حَفَّت قرينة تدلُّ على الشهر كما فى قوله صُمتُ رمضان فقد جازت التعرية ، وإن لم تَحُفَّ قرينة لم تجُزْ، وزاد بعضهم فيما يضاف إليه لفظ شهر رَجَبٌ أيضا . وقال كل شهر فى أوّله حرف راء فلا يقال إلا بالإضافة . ويقال فى المحرَّم أيضا شهر الله المحرَّم ويقال فى الربيعين ربيع الأوّلُ وربيع الآخِرُ وفى الجُمادَيْينِ جُمادى الأولى وجُمادى الآخِرة . قال آبن مكىّ : ولا يقال جمادى الأوّل بالتذكير وجوّزه فى كلامه على "تثقيف اللسان"

قال النحاس وإنما قالوا ربيع الآخِر وجمادَى الآخِرة ولم يقولوا ربيع الثانى وجمادى الثانية كما قالوا السنة الأولى والسنة الثانية : لأنه إنما يقال الثانى والثانية لما له ثالث وثالثة ، ولما لم يكن لهذين ثالثٌ ولا ثالثةٌ قيل فيهما الآخِر والآخِرةُ

كما قيل الدنيا والآخرة، على أن أكثر استعمال أهل الغرب على ربيعِ الثانى وجمادى الثانية . ويقال فى رجب الفَرْدُ : لانفراده عن بقية الأشهر الحُرُم، ويقال فيه أيضا رجبُ مُضَرَ الذى بين جُمَادى وشَعْبان، ويقال فى شَعْبان المكرّم لتكرمته وعلوّ قدره، • فى رمضان المُعظَّم والمعظم قدرُه : لعظمته وشرفه، وفى شوّال المُبارَك : للفرق بينه وبين شعبان خشيةَ الالتباس فى الكتابة، ويقـال فى كلٍّ من ذى القَعدة وذى الحِجَّة الحَرَام . قال النحاس وقد جاء فى ذى الحجة أيضا الأَصَمُّ ، وروى فيه حديثا بسنده من رواية مُرَّة الهَمْدانى عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قام فينا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خطيباً على ناقةٍ حمراءَ مُخَضْرَمةٍ(١)، فقال : أتَدْرُونَ أىُّ يومٍ يومُكم هذا ؟ قلنا : يومُ النحْر قال : صدَقْتُم يومُ الحجِّ الأكبرِ، أتَدْرُونَ أىُّ شَهْرٍ شهرُكُمْ هذا؟ قلنا : ذو الحِجَّة قال: صدَقْتُم شَهْرُ الله الأَصَمُّ .

الرواية الثانية ــ ما رُوِى عن العرب العاربة، وهو أنهم كانوا يقولون فى المحرّم المُؤْتَمِر : أخْذا من أَمَرِ القومُ إذا كثُروا بمعنى أنهم يحرّمون فيه القتالَ فيكثُرون . وقيل أخْذا من الائتمار بمعنى أنه يؤتَمَـر فيه بترك الحرب، ويجمع على مؤتَمِرات ومآمِرَ ومآمِيرَ . ويقولون فى صفر ناجِر إما من النَّجْر والنِّجار (بفتح النون وكسرها) الأصلِ، بمعنى أنه أصل للحرب : لأنه يبتدأ فيه بعد المحرّم، وإما من النَّجْر وهو السَّوْق الشديد . لشدّة سَوْقِهم الخيلَ إلى الحرب فيه، وإما من النجر، وهو شدّة الحرّ لشدّة حرارة الحرب فيه، ويجمع على نواجر . ويقولون فى شهر ربيع الأوّل خَوّان (بالخاء المعجمة) : لأن الحرب تشتدّ فيه فتخونهم فتَنْقُصهم : ويجمع على خَوّانات وخَوَاوِين وخَوَاوِن . ويقولون فى ربيع الآخِرِ وَبْصـان ، أخذا من الوَبِيص وهو البَرِيق : لبَرِيق الحديد فيـه : ويجمع على وَبْصانات، وحكى قطربٌ فيـه بُصّان فيجمع على أَبْصِنةٍ

(١) أى قطع طرف أذنها . قاموس .

وفى الكثرة بِصْنَان . ويقولون لجمادىٰ الأولىٰ حَنِين : لأنهم يحِنُّون فيه إلىٰ أوطانهم : لكونه كان يقع فى زمن الربيع ، ويجمع علىٰ أَحِنَّة وحُنُن كرغيف ورُغُف . ويقولون لجمادىٰ الآخرة رُبّى ورُبَّة : لأنه يجتمع به جماعة من الشهور التى ليست بحُرُم : وهى مابعد صفر . قال أبو عبيد رُبَّان كل شئ جماعته ، ويجمع علىٰ رُبِّيات ورَبَايَا مثل حَبَالىٰ . ومن قال رُبَّة جمعه علىٰ مآريب(١) . ويقولون فى رجب الأصمُّ : لما تقدّم من أنه لايُسمع صوتُ السلاح ولا الاستغاثات فيه ، ويجمع علىٰ أَصَامَّ . قال النحاس ولا تقل صمّ لأنه ليس بنعت كما أنك لو سمَّيتَ رجلا أحمر جمعته علىٰ أَحامِرَ ولم تجمعه علىٰ حُمْر . ويقولون فى شعبان عادِلٌ ، بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لتشعبهم فى القبائل ويجمع علىٰ عَوادِل . ويقولون فى رمضان نَاتِقٌ : لكثرة المال عندهم فيه لإغارتهم علىٰ الأموال فى الذى قبله ، ويجمع علىٰ نَواتِق . ويقولون فى شوّالٍ وَعِلٌ أخذا من قولهم : وَعَلَ إلىٰ كذا إذا لجأ إليه لأنهم يهرُبون فيه من الغارات لأن بعده الأشهُرَ الحُرُم فيلجئُون فيه إلىٰ أمكنة يتحصَّنون فيها ، ويجمع علىٰ أوعال ككَتِف وأكتاف ، وفى الكثرة وُعُول . ويقولون فى ذى القَعْدة وَرْنَة والواو فيه منقلبة عن همزة أخذا من أَرِن إذا تحرّك : لأنه الوقت الذى يتحرّكون فيه إلىٰ الحج ، أو من الأُرُون ، وهو الدنوّ : لقُرْبه من الحج ويجمع علىٰ وَرَنَاتٍ ورِان بِجُدَان . ويقولون فى ذى الحجة بُرَكُ ، غيرَ مصروف : لأنه معدول عن بارك ، أو علىٰ التكثير كما يقال رجل حُكَم وهو مأخوذ من البَرَكة : لأن الحج فيه ، أو من بَرْك الجمل لأنه الوقت الذى تَبْرُك فيه الإبل للوسم ، ويجمع علىٰ بِرْكان مثل نُغَرٍ ونِغْران .

وفى هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة والمشهور ماتقدّم ذكره .

---

(١) كذا فى الضوء أيضا ولعله مصحف عن رِبَاب أو رُبَب تأمل

وقد نظم بعضهم ذلك فى أبيات على الترتيب فقال .

بمؤتمرٍ وناجرٍ ابتـــدأنا * وبالخَوَّانِ يتبعه البُصَانُ
ورُبَّى ثم أيِّدة تليـــه * تَعُود أصمُّ صُمُّ به السِّنَان
[وعادلة وناطــلة جميعــا * وواغلة فهم غُرَرٌ حسان](١)
ووَرْنَةُ بعدها بُرَكٌ فتمّت * شُهورُ الحول يُعْرِبها البَيَانُ

ثم للنـاس فى إخراج أوّل الشهر العربىّ طُرُق، أسهلها أن تعرِفَ أوّلَ يوم من المحرَّم، ثم تعدّ كم مضى من السنة من الشهور بالشهر الذى تريد أن تعرِف أوّله وتَقْسِمها نصفين، فإن كان النصــف صحيحا أضفتَ على الجملة مثل نصفه، وإن كان مكسورا كمّلته وأضفته على الجملة؛ ثم تبتدئ من أوّل يوم من الســنة وتعدّ منه أياما على توالى أسماء الأيام بعدد ماحصل معك من الأصل والمضاف فحيث آنتهى عددُك فذلك اليومُ هو أوّلُ الشهر .

مثال ذلك فى الصحيح النصــف : إن أردت أن تعرِف أوّلَ يوم من شــعبانَ وكان أوّلُ المحرَّم يوم الأحد مثــلا فتعدّ من أوّل المحرم إلى شــعبان وتدخل شعبان فى العدد فيكون ثمــانية أشهر فتقسمها نصفيْنِ يكون نصفُها أربعةً فتضيف الأربعةَ إلى الثمانية تكون آثنى عَشَر، ثم تبتدئ من يوم الأحد الذى هو أوّلُ المحرّم فتعدّ الأحد والآثنين والثّلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت، ثم الأحد والآثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس فيكون آنتهــاء الآثنى عشر فى يوم الخميس فيكون أوّل شــعبانَ يوم الخميس .

ومثاله فى المكسور النصف إذا أردت أن تعرف أوّل رمضان أيضا وكان أوّل

(١) سقط هذا البيت من نسخة الأصل وقد وجدناه فى "نهاية الأرب" للنويرى فأثبتناه كما ترى وبه تمت عدّة الشهور .

المحرم الأحد كما تقدّم فتعدّ مامضى من شهور السنة وتعدّ منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسِمُها نصفين يكون نصفُها أربعةَ ونصفا فتكملها بنصف تصير خمسة فتُضيفها إلى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعةَ عشرَ، ثم تبتدئ عدد الأيام من أوّل المحرم، وهو الأحد كما تقدّم فيكون آنتهاء الرابعَ عشرَ فى يوم السبت فيكون أوّلُ رمضان يومَ السبت .

ومن الطُّرُق المعتبرة فى ذلك أن تنظُر فى الثالث من أيام النسيء من شهور القبط كم يوما مضى من الشهر العربىّ فما كان جعلته أصلا لتلك السنة، فإذا أردتَ أن تعرِف أوّلَ شهر من الشهور العربية أو كم مضى من الشهر الذى أنت فيه، فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وآنظر كم مضى من السنة القبطية شهرا فخذ لكل شهرين يوما، فإن انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبُرْها بيوم زيادة حتّى تصير زَوْجا، وزد على ذلك يومين أصلا أبدا؛ ثم آنظر كم يوما مضى من الشهر القبطىّ الذى أنت فيه فأضفه على ما آجتمع معك، وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقى فهو عدد ما مضى من الشهر العربىّ، ومنه يعرف أوّله .

ومثال ذلك نظرت فى الثالث من أيام النسيء فوجدت الماضى من الشهر العربىّ ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة ثم نظرت فى الشهور القبطية فوجدت الشهر الذى أنت فيه أمشير مثلا فتعدّ من أوّل شهور السنة القبطية : (وهو توت) إلى أمشير يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذى معك من أيام النسيء : وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها آثنين يصير المجموع ثمانية، ثم تنظر فى الشهر القبطى الذى أنت فيه : (وهو أمشير) تجده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكون عشرة، وهو الماضى من الشهر العربىّ الذى أنت فيه ومنه يُعرف أوّلُه .

الضرب الثـانى

(شهور اليهود)

والشهر عندهم من الاجتماع إلى الاجتماع، وهو اقتران الشمس والقمر فى آخر الشهر ولذلك توافق شهورُهم فى التقدير شهورَ العرب، ولا تخـالف أوائلَها إلا بيوم واحد فى بعض الأحيان لأسباب فى مِلَّتهم ولكنها لا تُطابق شهرا لشهر، فإنَّ شهور العرب غيرُ مكبوسة، وشهور اليهود مكبوسة؛ وهذه الطريقة لاتعرف إلا بتقويم الكواكب ومعرفة سير الشمس والقمر. ولذلك لايَعرِف شهورَ اليهود منهم إلا الآحادُ، وشهورهم وهى اثنا عشر شهرا بعضها ثلاثون، وبعضها تسـعة وعشرون على مايقتضيه مسـير الشمس والقمر؛ وفى السنة الكبيسة تكون شهورُهم ثلاثةَ عشرَ شهرا كما سـيأتى؛ وشهورهم توافق شهور السُّرْيان فى بعض أسمائها دون بعض، الأول تشرى، الشهر الثانى مرحشوان، الشهر الثالث كسلا، الشهر الرابع طابات، الشهر الخامس شباط، الشهر السادس آذار، الشهر السابع نيسان، الشهر الثامن أيَّار، الشهر التاسع سيوان، الشهر العاشر تموز، الشهر الحادى عشر آب، الشهر الثانى عشر أيلول؛ وفى السنة التى يكبسون فيها بعد كل سنة أو بعد كل سنتين على ما سيأتى بيانه يكبسون شهرا كاملا بعد آذار وهو الشهر السادس من شهورهم ويسمونه آذار الثانى، وسيأتى ذلك مفصلا فى الكلام على السنين إن شاء الله تعالى. وقد تقدّم أنها توافق شهور العرب إلا فى القليل إلا أنها يدخلها الكَبْس لأمور فى مِلَّتهم، وسيأتى الكلامُ على كَبْسهم عند ذكر السنين إن شاء الله تعالى.

القسم الثانى

(من الشهور الاصطلاحىّ والمراد به الشمسىّ)

وهى مدّة قطع الشمس مَدَار بُرْج من بروج الفلك الاثنَىْ عشَر، وذلك ثلاثون يوما وثلاثة عشر يوما تقريبًا (١)، وعليه عملُ القبط، والفرس، والسريان، والروم .

وهى على صنفين :

الصـــــنف الأوّل

(ما يكون كلُّ شهر من شُهور السنة ثلاثين يومًا، وما فضل عن ذلك جعل نسيئا بين الشهور : وهو الشهور القبط، والفرس)

فأما شهور القبط (وتنسَب لدقلطيانوس الملك) فكل شهر منها ثلاثون يوما وأيام النسيء فى آخر الثانى عشر منها، وهى خمسة أيام .

الشهر الأوّل منها توت، ودُخُوله فى العشرين من آب من شهور السُّرْيان، وآخره السادسُ والعشرون من أيلول منها؛ فيه يُدرِك الرُّطَب، ويكثر السَّـفَرْجل والعِنَب الشَّتْوىّ، وتبتدئ المُحَمضات . وأوّل يوم منه يوم النَّيْروز وهو رأس سنة القِبْط؛ وفى سابعه يبتدئ لَقْط الزيتون؛ وفى سابع عشره عيدُ الصليب، فيـه تفتَحُ أكثرُ الترع بمصر؛ وفى ثامن عشره أوّل فصل الخريف؛ وفى تاسع عشره يبتدئ هَيَجان السوداء فى البدن؛ وفى العشرين منـه يُفْصَد البَلَسان؛ وفى الحادى والعشرين منه يبتـدئ بَيضُ النَّعام؛ وفى الرابع والعشرين منـه أوّل دى ماه من شهور الفرس؛ وفى الثامن والعشرين منـه يذهَبُ الحر؛ وفى التاسع والعشرين منـه أوّل رَعْى الكَرَاكِىّ؛ وفى الثلاثين منه وهو آخره يُزْرَع الهِلْيَوْن .

---

(١) لعله وثلاثة أعشار يوم .

الشهر الثانى بابه، ودخولُه فى السابع والعشرين من أيلول ، من شهور السُّرْيان ، وآخره السادس والعشرون من تشرين الأوّل منها ، فيه يُبْذَر كلُّ مالا تُشَق له الأرضُ كالبِرْسيم وغيره ؛ وفى آخره تُشَقُّ الأرض بالصعيد ؛ وفيـه يُحصَد الأرز ، ويطيب الرُّمّان ، وتضَع الضأنُ والمَعْز والبقر الخيسـيَّة ؛ ويُستخْرَج دُهن الآس والليـنوفر ، ويُدْرِك الثمُر والزبيبُ وبعض المُحَمضات ؛ وفى ثالثه رأسُ سنة السريان ؛ وفى رابعه أوّل تشرين الأوّل من شُهُورهم ؛ وفى خامسـه عُرْس النيل ؛ وفى سادسه يطيب شُرْب الدواء ؛ وفى سابعه نِهايةُ زيادة النيل ؛ وفى ثامنه يكره خُروج الدم ؛ وفى حادى عشره يبتـدئ النيـل فى النقص ؛ وفى ثالث عشره بداية الوخم ؛ وفى رابع عشره يكثر الناموس ؛ وفى خامس عشره يبتدئ زرع القُرْط ؛ وفى سادس عشره تبتدئ كثرة السُّعال ؛ وفى تاسع عشره يبتدئ زرع السَّـلْجَم ، وفى الثانى والعشرين منه يبتدئ صَلَاح المَوَاشى ، وفى الثالث والعشرين منه تبتدئ كثرةُ الغُيوم ، وفى الرابع والعشرين منه تبتدئ أهـل مصر الزَّرْع . وفى السابع والعشرين منـه يبتدئ سِمَنُ الحيتان ، وفى الثـامن والعشرين منه أوّل المدّ ، وفى التاسع والعشرين منه أوّل الليالى البُلْق .

الشهر الثـالث هتور ؛ ودخوله فى السابع والعشرين من تشرين الأوّل ؛ وآخره الخامسُ والعشرون من تشرين الثانى . فيه يُزْرَع القمح ويطْلُع البنَفْسَج والمَنْثور ، وأكثر البُقُول ، ويجمع ما بَقِى من الباذِنجـان وما يجرى مجراه ، ويُحْمَـل العنبُ من قُوص ، وفى ثانيه يبتدئ حصاد الأرز ، وفى خامسـه أوّلُ تشرين الثانى من شهور السريان ، وفيه يبتدئ برد المياه ، وفى سادسه أوّل المَطَر الوسمىِّ ، وفى سابعه يبتدئ أهل الشام الزَّرْع ، وفى ثامنه يبتدئ هُبوبُ الرياح الجَنُوبِيَّـة ، وفى تاسعه يبتدئ زرعُ الخَشْخاش ، وفى حادى عشره يبتدئ اختفاء الهوامّ ، وفى ثالث عشره يبتـدئ

غَلَيان البحر، وفى رابع عشره تَعْمىٰ الحَيَّات، وفى سادس عشره يُجمَع الزعْفَران، وفى ثامن عشره تكثُر الوحوشُ، وفى الثامن والعشرين منه يُغْلَق البحر الملح وتمتنع السُّفُن من السفر فيه لشدّة الرياح، وفى الثالث والعشرين منه تبتدئ سُخونةُ بطن الأرض، وفى الرابع والعشرين منه أوّل اسفيدار ماه من شهور الفُرْس .

الشهر الرابع كيهك، ودخوله فى السادس والعشرين من تشرين الثانى من شهور السُّرْيان، وآخره الخامس والعشرون من كانون الأوّل منها . فيه تدرك الباقِلّاء، وتُزْرع الحُلْبة وأكثرُ الحبوبِ، ويُدرِك النَّرجس والبنَفْسَج، وتتلاحق المحمضات، وفى أوّله آبتداء أربعينيَّات مصر، وفى ثالثه يبتدئ موتُ الذُّباب، وفى خامسه أوّل كانون الأوّل من شهور السُّرْيان، وفى سابعه آخرُ الليالى البُلْق وأوّل الليالى السُّود، وفى حادى عشره يبتدئ الشجرُ فى رَمْى أوراقه، وفى ثانى عشره تظهر البَراغيثُ، وفى سابع عشره أوّل فصل الشتاء: وهو أوّلُ أربعينيَّات الشام، وفى ثامن عشره يتنفَّس النهار، وفى الحادى والعشرين منه يكثُر الطير الغريبُ بمصر، وفى الثالث والعشرين منه أوّل مردوماه(١) من شهور الفُرْس، وهو نَوْروزهم وأوّل سنتهم، وفى الخامس والعشرين منه يهيج البَلْغَم، وفى السادس والعشرين منه تَلْقَح الإبل، وفى السابع والعشرين منه يكثُر شُرْب الماء فى الليل، وفى الثلاثين منه يبتدئ تقليم الكُرُوم .

الشهر الخامس طوبه، ودخوله فى السادس والعشرين من كانون الأوّل من شهور السريان، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثانى منها، فى زرع القمح فيه تغرير، وفيه تُشَق الأرض للقَصَب والقُلْقاس، ويتكامل النَّرجس، وفى أوّله تبيتُ الرياح الشديدةُ، وفى ثانيه يُدْرِك القُرْطُ، وفى سادسه أوّل كانون الثانى من شُهور السُّريان،

(١) سيأتى قريبا أن نيروز الفرس وأوّل سنتهم أفرودين ماه ونظنه الصواب لأنه الذى ورد فى مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر فى أسماء الشهور الآتية .

وفى عاشره آخر أربَعينِيَّات مصر، وفى حادى عشره أوّل نصب الكروم، وفى ثانى عشره يشتدّ البرد، وفى ثالث عشره يبتدئ زرع المَقَات، وفى سابع عشره يبتدئ غَرْس الأشجار، وفى ثامن عشره تبتـدئ كثرة النَّدىٰ؛ وهو آخر الليـالى السود، وفى تاسع عشره يبتدئ وقُوعُ الثلج بالشام وغيره، وفى الرابع والعشرين منه يبتدئ صَفْوُ ماء النيل، وفى التاسع والعشرين منه يبتدئ ٱختلاف الرياح .

الشهر السادس أمشير، ودخوله فى الخامس والعشرين من كانون الثانى من شهور السريان وآخره الثالث والعشرون من شباط منها . فيه تُغْرَس الأشجار، وتقَلَّم الكروم، ويُدْرِك النبق واللوز الأخضر، ويكثر البَنَفْسَج والمنثور، وفى رابعه يبتـدئ إفراخ النخل، وفى سادسه أوّل شباط من شهور السُّريان، وفى حادى عشره يبتدئ إنتاج الطيور وزرع بُقُول الصَّيف، وفى ثانى عشره يبتدئ تحرك دوابّ البحر، وفى الثانى والعشرين منـه ثانى جمرة فاترة، ويبتدئ مرض الأطفال، ويبتدئ خروجُ ورق الشجر، وفى الثالث والعشرين منه يبتدئ خروج الدوابّ للَرّعىٰ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل حرادماه من شهور الفُرْس، وفى الخامس والعشرين منه يبتدئ هيَجَان الرِّياح، وفى السابع والعشرين منه تبتدئ ثالث جمرة حامية، وفى الثامن والعشرين منه أوّل المفرطات، وفى التاسع والعشرين منه آخر نهى ابقراط .

الشهر السابع برمهات، ودخوله فى الرابع والعشرين من شباط من شُهور السُّرْيان، وآخره الخامس والعشرون من آذار. فيه تُزْهِرُ الأشجار، ويعقِدُ أكثَرُ الثِّمـار، ويُزْرَع أوائل السِّمْسِم، ويُقْلَع الكَتَّان، ويُدْرِك الفُول والعَدَس، وفى ثانيه يحمـد خروج الدم، وهو أوّل الأعجاز، وفى ثالث عشره تُفَتِّح الحياتُ أعينها، وفى خامس عشره تطِيبُ الألبانُ، وفى سادس عشره يبتـدئ خروج دود القَزّ، وفى ثامن عشره يَهِيج الدم، وفى تاسع عشره ظُهُور الهوامّ، وفى العشرين منه يُزْرع السِّمْسم، وفى

الرابع والعشرين منـه أوّل تيرماه من شهور الفُرْس ، وفى السادس والعشرين منه يبتدئ شُرْبُ المُسْهل ، وفى السابع والعشرين منه خروج الذُّباب الأزرق .

الشهر الثامن برموده ، ودخوله فى السادس والعشرين من آذار من شهور السريان ، وآخره الرابع والعشرون من نيسان منها ، فيه تُقْطَف أوائل عَسَل النحل ، وفيه تكثر الباقِلاء ، ويُنْفَض جَوْز الكَتَّان ، ويكثر الورد الأحمر ، والبطنُ الأوّل من الجُمَّيْز ، ويقْلَع بعض الشعير ، ويُدْرِك الخيار شنبر . وفى أوّله يُؤكَل الدَّرِيك ، وفى رابعه يُعصَر دُهْن البَلَسان ، وفى خامسه تبتدئ كثرة الزهور ، وفى سادسه أوّل نيسان من شهور السُّرْيان ، وفى ثانى عشره يُخاف على بعض الزرع ، وفى ثامن عشره آخر قلع الكَتَّان ، وفى العشرين منه يُنْهىٰ عن أكل البُقُول ، وفى الثانى والعشرين منه ظهور الكَمْأة ، وفى الثالث والعشرين منه الخِتَام الكبير للزرع ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل تردماه من شهور الفرس ، وفى الخامس والعشرين منه نهاية مَدّ الفُرات ، وفى الثامن والعشرين منه يَبيض النَّعام .

الشهر التاسع بشنس ، ودخوله فى الخامس والعشرين من نيسان من شهور السريان ، وآخره التاسع والعشرون من أيَّار منها . فيه يكثر التُّفَّاح القاسمى ، ويبتدئ التُّفَّاح المِسْكىّ ، والبِطِّيخ العَبْدلِىّ والحَوْفى ، والمِشْمِش ، والخَوْخ الزُّهرِى ، والورد الأبيض . وفى نصفه يُبْذَر الأَرُز ، ويُحْصَدُ القمح ، وفى سادسه أوّل أيَّار من شهور السُّريان ، وفى رابع عشره يجمع الخَشْخاش ، وفى ثامن عشره يجمع العُصْفُر ، وفى الحادى والعشرين منه تبتدئ بُرودةُ الأرض ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل شهر برماه من شهور الفُرْس .

الشهر العاشر بؤنه ، ودخوله فى الخامس والعشرين من أيَّار من شهور السُّريان ، وآخره الثالث والعشرون من حزيران منها ، فيه يكثر الحِصْرِم ويطيب بعض العنب

والتين البونىّ وهو الديفور، والخوخ الزَّهْرى والمُشْعِر، والكُمَّثْرَى البوهىّ، والقراصيا، والتُّوت، ويطلُع البلَح، ويُقطَف جمهور العســل؛ وفى ثالثه يبتــدئ توحُّم النيل، وفى سادسه يكمل الدِّرْياق، وفى سابعه أوّل حزيران من شهور السُّريان، وفى تاسعه يبتــدئ مَهَبُّ الريح الشَّمالية، وفى عاشره يبتدئ تنفُّس النيــل، وفى خامس عشره تتحرّك شهوةُ الجماع، وفى ثانى عشره عِيد ميكائيلَ، فى ليلته يُوزن من الطين زِنةُ ستة عشر درهمــا عند غروب الشمس ويُرفَعُ فى مكان ويُوزنُ عند طلوع الشمس فما زاد كان بكل خروبة زادت على السّتة عشر ذراعٌ، وفى ثالث عشره يبتدئ نقصُ الفُرَاتِ، وفى رابع عَشره تَهُبّ الرياحُ السَّمائم، وفى تاسع عشره تذهبُ البراغيثُ، وفى العشرين منــه تَهِيجُ الصفراءُ، وفى الثانى والعشرين منــه يَعْقِدُ الجوز، ويَقْوَى اندفاعُ النيل، وفى الرابع والعشرين منه يَثُور وجعُ العين وهو أوّل مهرماه من شهور الفرس، وفى السابع والعشرين منــه يُؤخَذ قاعُ النيل، وفى الثامن والعشرين منه يُنادَى عليه، وفى التاسع والعشرين منه يُدْرِكُ البِطّيخُ .

الشهر الحادى عشر أبيب، ودخوله فى الرابع والعشرين من حزيران من شهور السريان، وآخره الثالث والعشرون من تمُّوز منها، فيــه يكثُر العنبُ والتينُ ويَقِلُّ البِطّيخ العَبْدَلِىُّ ويَطِيبُ البلحُ وتُقطَفُ بقاياَ العسلِ وتَقْوَى زيادةُ النيل، وفى رابعه أوّل نَهْى أبقراط، وفيــه يموتُ الجرادُ، وفى سابعه أوّل تَمُّوز من شهور السريان، وفى عاشره يَبتــدئ وقع الطاعون، وفى ثانى عشره تبتــدئ قوّة السمائم، وفى ثالث عشره تُدرِكُ الفاكهةُ، وفى سابع عشره تَغُورُ العيونُ، وفى ثامن عشره يُجمَعُ السُّمّاقُ، وفى الثانى والعشرين منه يُدرِكُ الفُسْتُقُ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل أبانماه من شهور الفرس، وفى السادس والعشرين منه طلوعُ الشِّعرَى اليمَــانِيَة، وفى التاسع والعشرين منه يُدرِكُ نخلُ الحجاز .

الشهر الثانى عشر مسرىٰ؛ ودخوله فى الرابع والعشرين من تموز من شهور السريان ، وآخره السابع والعشرون من آب منها . فيه يُعمَلُ الخَلُّ، ويُدرِكُ البُسر والمَوْزُ وتتغيَّر طُعومُ الفاكهة لغلبة المـاء علىٰ الأرض ، ويُدرِكُ اللَّيمونُ التُّفَّاحىُّ ، ويبتدئ إدراكُ الرُّمَّان ، وفى رابعه نُقصانُ الدِّجلة ، وفى خامسه أوّل العصير ، وفى ثامنه أوّل آب من شهور السُّرْيان ، وفى ثانى عشره فِصَال المَوَاشى ، وفى رابع عشره تَقِلُّ الألبانُ ، وفى خامس عشره تَسخُنُ المياهُ ، وفى سابع عشره تختلفُ الرياح ، وفى ثامن عشره يُحذَرُ لَسْعُ الهوامِّ ، وفى الثانى والعشرين منه آخرُ العصير ، وفى الرابع والعشرين منه يَهيجُ النَّعام ، وفى الخامس والعشرين منه تَكثُرُ الغُيومُ ، وفى الثامن والعشرين منه آخر السَّمائِمِ ، وفى التاسع والعشرين منه أوّل آذرماه من شهور الفرس .

أيام النسىء ــ ودخولها فى الثامن والعشرين من آب من شهور السريان ويختلف آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها .

وقد وضعَ الناسُ طُرُقًا لإخراج أوّل الشهر القبطى بالحساب أقربُها أن تعرفَ يوم النَّيْروز ثم تَعُدَّ مامضىٰ من الشهور القبطية بالشهر الذى تريد أن تَعرِفَ أوّله فما كان فأضْعِفْه فما تحصَّل فأسقط منه واحدا أبدا ، ثم أسقط الباقىَ سبعةً سبعةً فما فضل فعُدَّ من يوم النَّيْروز إلىٰ آخر الباقى بعد الإسقاط علىٰ توالى الأيام فأينما انتهى العَدَدُ فذلك اليوم هو أوّل الشهر المطلوب .

مثال ذلك : كان يوم النيروز الأحدَ ، وأردنا أن نعرفَ أوّل أمشير ، عَدَدْنا كم مضىٰ من أوّل الشهور القبطيـة وعَدَدْنا منها أمشير ، وجدنا ذلك ستة ، أضعفناها صارت اثنى عشر ، أسـقطنا منها واحدا بقى أحد عشر ، أسقطنا منهـا سبعةً بقى أربعةٌ ، عددنا من يوم النـيروز وهو الأحدُ أربعةً فكان آخرها يومَ الأربعاء فعلمنا أن أوّل أمشير الاربعاءُ .

وأما شهور الفُرس، فهى آثنا عشر شهراً كلُّ شهر منها ثلاثون يوما وأيامُ النسىء خمسة أيام فى آخر الشهر الثامن منها وهو أبان ماه . الشهر الأوّل منها افرودين ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من كيهك من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من طوبه منها، وأوّل يوم منه نَيروزُ الفرس ورأسُ سنتهم . الشهر الثانى ارديهشتماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من طوبه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أمشير منها . الشهر الثالث حردادماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من أمشير من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهات منهـا . الشهر الرابع تيرماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من برمهات من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برموده منهـا . الشهر الخامس تردماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من برموده من شهور القبط، وآخره الثـالث والعشرون من بشنس منها . الشهر السادس شهر برماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بشنس من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بؤنه منها . الشهر السابع مهرماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أبيب منها . الثامن أبان ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من مسرىٰ منها. أيام النسىء، وتسمى بالفارسية الاندركاه، ودخولهـا فى الرابع والعشرين من مسرىٰ، وآخرها الثامن والعشرون منها . الشهر التاسع ادرماه، ودخوله فى التاسع والعشرين من مسرىٰ من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من توت . الشهر العـاشر دى ماه . ودخوله فى الرابع والعشرين من توت من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بابه منهـا . الشهر الحادى عشر بهمن ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بابه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من هاتور منها[1] . الشهر

(١) وقع فى الاصل شىء من السقط والتحريف وقد صححناها من نهاية الارب ومن الضوء و بمعونة ترتيب الشهور القبطية فتنبه .

الثانى عشر [اسفندارماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من هاتور من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من كيهك منها] .

ولكل يوم من أيام الشهر عندهم آسم خاص يزعمون أنه آسم ملك من الملائكة موكل به .

وقد علم مما تقدم من شهور القبط مايقع فى هذه الشهور من والفواكه وغيرها .

الصنف الثانى

(من الشهور الأصطلاحية مايختلف عدده بالزيادة والنقصان، فيكون بعض الشهور فيه ثلاثين ، وبعضها أقلّ ، وبعضها أكثر ، وهو شهور السريان والروم)

فأما شهور السريان وتنسب للإسكندر فآثنا عشر شهرا، منها أربعة كل شهر منها ثلاثون يوما، وشهر واحد ناقص عن الثلاثين ، وسبعة زائدة عليها . الشهر الاول منها تشرين الأول، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ودخوله فى الرابع من بابه من شهور القبط، وآخره الرابع من هاتور منها؛ ويوافقه اكتوبر من شهور الروم، وهو الشهر العاشر منها . الشهر الثانى تشرين الثانى، وهو ثلاثون يوما؛ ودخوله فى الخامس من هاتور من شهور القبط، وآخره الرابع من كيهك منها، ويوافقه نوفمبر من شهور الروم، وهو الشهر الحادى عشر منها . الشهر الثالث كانون الأوّل وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله فى الخامس من كيهك من شهور القبط، وآخره الخامس من طوبه منها، ويوافقه دجنبر من شهور الروم، وهو الشهر الثانى عشر منها . الشهر الرابع كانون الثانى، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله فى السادس من طوبه من شهور القبط،

وآخره السادس من أمشـير منها ، ويوافقه ينير من شهور الروم ، وهو الشهر الأوّل منها . الشهر الخامس أشباط ، ويقال شباط ، وهو ثمانية وعشرون يوما ، ودخوله فى السابع من أمشير ، وآخره الرابع من برمهات منها ، ويوافقه فبرير من شهور الروم ، وهو الثانى من شهورهم . الشهر السادس آذار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى الخامس من برمهات من شهور القبط ، وآخره الخامس من برمودة منها ، ويوافقه مارس من شهور الروم ، وهو الثالث من شهورهم . الشهر السابع نيسان ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله فى السادس من برمودة من شهور القبط ، وآخره الخامس من بشنس منها ، ويوافقه ابريل من شهور الروم ، وهو الرابع من شهورهم . الشهر الثامن أيّار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى السادس من بشنس من شهور القبط ، وآخره السادس من بؤنه منها ، ويوافقه مايه من شهور الروم ، وهو الخامس من شهورهم . الشهر التاسع حزيران ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله فى السابع من بؤنه من شهور القبط ، وآخره السادس من أبيب منها ، ويوافقه يونيه من شهور الروم ، وهو السادس من شهورهم . الشهر العاشر تمّوز ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى السابع من أبيب من شهور القبط ، وآخره السابع من مسرى منها ، ويوافقه يوليه من شهور الروم ، وهو السابع من شهورهم . الشهر الحادى عشر آب ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى الثامن من مسرى من شهور القبط ، وآخره الثالث من توت منها ، ويوافقه اغشت من شهور الروم ، وهو الثامن من شهورهم . الشهر الثانى عشر أيلول ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله فى الرابع من توت من شهور القبط ، وآخره الثالث من بابه منها ، ويوافقه ستنبر من شهور الروم ، وهو التاسع من شهورهم ، وبذهابه يذهب الحرجملة ، وفى ذلك يقول أبو نواس :

مَضَى أيْلولُ وآرتَفَع الحَرُورُ * وأخْبتْ نارَها الشِّعرَى العَبُورُ

وقد نظمها صاحبنا الشيخ ابراهيم الدهشورى فى أبيات ابتدأ فيها بأيلول فقال :

وابدأ بأيلول من السريانى * تشرين الأول يتبعه الثانى
كانون كانون شباط يطلع * آذار نيسان أيار يتبع
ثم حزيران وتموز وأب * تبارك الرحمن يهدى من أحب

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزانى رحمه الله أبياتا ذكر فيها الأشهر التى منها ثلاثون يوما والناقصة عن الثلاثين ولم يتعرض للزائدة على الثلاثين وليست بالطائل، وهى هذه :

شهور الروم ألوان * زيادات ونقصان
فتشرينهم الثانى * وأيلول ونيسان
ثلاثون ثلاثون * سواء وحزيران
شباط خص بالنقص * وقدر النقص يومان

ونظم صاحب "مناهج الفكر" تداخلها مع شهور القبط فى أرجوزة فجاءت فى غاية الحسن والوضوح إلا أن فيها طولا، وهى هذه :

متى تشأ معرفة التداخل * من أول الشهور فى المنازل
فعد من توت بلا تطويل * أربعة فهى ابتدا أيلول
وبابة كذاك مع تشرين * الأول السابق فى السنين
والخامس المعدود من هتور * أول تشرينهم الأخير
أول كانون بغير دلسه * إذا نقصت من كيهك خمسه
وطوبة إن مر منه سته * أتاك كانون الأخير بغته
ومن شباط أول يوافق * سابع أمشير حساب صادق
أول آذار إذا جعلته * لبرمهات خامسا وجدته

أوّل نيسانٍ لدى التّجريد * السادسُ المعدودُ من برمود
ومثـله أيارُ معْ بشَنْس * واحـــدةٌ مقـرونةٌ بخمس
أمّا حَزيرانُ فيحْسبُونَهْ * أوّلُه السـابعُ من بؤُنه
كذلك السـابعُ من أبِيبِ * أوّلُ تمُّـوزٍ بلا تكْذِيب
أوّلُ آبٍ عند مَنْ يُحَصِّل * ثامنُ مسرى ذاك مالا يجْهَل

وبالغ بعض المتأخرين فنظم معنى هذه الأرجوزة فى بيت واحد، الحرف الأول من الكلمة منه للشهر السريانىّ والحرف الأخير للشهر القبطىّ وما بينهما لعدد الأيام التى إذا مضت من ذلك الشهر القبطىّ دخل ذلك الشهر السريانى وهو :

أدّت تدب تهه كهك كوط أزا * أهب نوب أوب حزب تزا أحم

فالألف من أدّت إشارة لأيلول من شهور السُّريان، وهو آخر شهورهم، والتاء إشارة لتوت من شهور القبط، وهو أوّل شهورهم، والدال من أدت بأربعة، ففى الرابع من توت يدخل أيلول، والتاء من تدب إشارة لتشرين الأول، والباء إشارة لبابه، والدال بينهما بأربعة، ففى الرابع من بابه يدخل تشرين الأوّل، والتاء من تهه إشارة لتشرين الثانى، والهاء الأخيرة إشارة لهتور، والهاء المتوسطة بينهما بخمسة ففى الخامس من هاتور يدخل تشرين الثـانى، والكاف الأولى من كهك إشارة لكانون الأوّل والكاف الأخيرة إشارة لكيهك والهـاء بينهما بخمسة، ففى الخامس من كيهك يدخل كانون الأوّل، والكاف من كوط إشارة لكانون الثانى، والطاء إشارة لطوبه، والواو بينهما بستة، ففى السادس من طوبه يدخل كانون الثانى، والألف الأولى من أزا إشارة لأشباط، والألف الأخيرة إشارة لأمشير، والزاى بينهـما بسبعة، ففى السابع من أمشير يدخل أشباط، والألف من أهب إشارة لآذار، والباء إشارة لبرمهات، والهـاء بينهما بخمسة، ففى الخامس من برمهات يدخل آذار، والنون من

نوب إشارة لنيسان ، والباء إشارة لبرموده ، والواو بينهما بستة ، ففى السادس من برموده يدخل نيسان؛ والألف من أوب إشارة لأيَّار، والباء إشارة لبشنس، والواو بينهما بستة، ففى السادس من بشنس يدخل أيَّار؛ والحاء من حزب إشارة لحزيران، والباء إشارة لبؤنه، والزاى بينهما بسبعة، ففى السابع من بؤنه يدخل حزيران، والتاء من تزأ إشارة لتموز ، والألف إشارة لأبيب، والزاى بينهما بسبعة ، ففى السابع من أبيب يدخل تَمُّوز، والألف من احم إشارة لآب، والميم إشارة لمسرىٰ، والحاء بينهما بثمانية، ففى الثامن من مسرى يدخل آب .

وأما شهور الروم : (وتنسَبُ لأغشطش ملك الروم) وهو قيصر الأوّل، فاثنا عشَرَ شهرا؛ بعضها ثلاثون يوما، وبعضها زائد علىٰ الثلاثين، وبعضها ناقص عنها كما فى شهور السريان؛ وهى مطابقة لشهور السريان فى العَدَد، مخالفةٌ لها فى الأسماء والترتيب . الشهر الأوّل ينير، ويُوافقه كانون الثانى من شهور السريان، وهو الرابع من شهورهم، وفى أوّل يوم منه يكون القلنداس، ويُوقد أهل الشام فى ليلته نيرانا عظيمة، لاسيما مدينة أنطاكِيَةَ، وكذلك سائر بلاد الشام وأرض الروم، وسائر بلاد النصارىٰ . الشهر الثانى فبرير، ويوافقه شباط من شهور السريان؛ وهو الخامس من شهورهم . الشهر الثالث مارس، ويوافقه آذار من شهور السريان، وهو السادس من شهورهم . الشهر الرابع ابريل؛ ويوافقه نيسان من شهور السريان، وهو السابع من شهورهم . الشهر الخامس مايه، ويوافقه أيَّار من شهور السريان، وهو الثامن من شهورهم . الشهر السادس يونيه ، ويوافقه حزيران من شهور السريان ، وهو التاسع من شهورهم . الشهر السابع يوليه، ويوافقه تَمُّوز من شهور السريان ، وهو العاشر من شهورهم . الشهر الثامن أغشت ، ويوافقه آب من شهور السريان، وهو الحادى عشر من شهورهم . الشهر التاسع شتنبر، ويوافقه أيلول من شهور

السريان ، وهو الثانى عشر من شهورهم . الشهر العاشر أكتوبر ، ويوافقه تشرين الأوّل من شهور السريان ، وهو الأوّل من شهورهم . الشهر الحـادي عشر نونمبر ، ويوافقه تشرين الثانى من شهور السريان ، وهو الثـانى من شهورهم . الشهر الثانى عشر دجنبر ، ويوافقه كانون الأول من شهور السريان ، وهو الثالث من شهورهم ،
وقد نظمها الشيخ ابراهيم الدهشورى فقال :

ينـير فـبرير مارسٌ للروم * أبريل مايُهْ خامس المعلوم
يُنْيهْ ويُلْيه ثُمَّ آغشت شتنبر * أكتوبر نونمبر دجنبر

الطرف الثـالث

(فى السنين : وفيه ثلاث جمل)

الجمـــلة الأُولىٰ

(فى مدلول السـنة والعـام)

يقال : السنة ، والعام ، والحول ؛ وقد نطق القرءان بالأسماء الثلاثة قال تعالىٰ : ﴿ فلبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنةٍ إلَّا خَمْسِينَ عامًا ﴾ فأتىٰ بذكر السنة والعام فى آية واحدة ، وقال جلّ وعزّ : ﴿وَالْوالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ ﴾ وقد تختص السنةُ بالجَدْب والعامُ بالخِصْب ، وبذلك ورد القرءانُ الكريم فى بعض الآيات قال تعالىٰ : ﴿ ثم يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ فعبر بالعام عن الخِصْب وقال جل ذكره : ﴿ ولَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ونَقْصٍ من الثَّمَرَاتِ ﴾ فعبر بالسنين عن الجَدْب . علىٰ أنه قد وقع التعبير بالسِّنين عن الخِصْب أيضا فى قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوه فِي سُنْبُلِهِ ﴾ . أما الحول فإنه يقع علىٰ الخِصْب والجَدْب جميعا .

الجملة الثانية

(فى حقيقة السنة، وهى علىٰ قسمين : طبيعيَّة وٱصطلاحية كما تقدّم فى الشهور)

القسم الأوّل

(السنة الطبيعية : وهى القَمرِيَّة)

وأوّلها ٱستهلال القمر فى غُرَّة المحرّم، وآخرها سَلْخ ذى الحِجَّة من تلك السنة، وهى ٱثنا عَشَر شهرا هِلاليًّا قال تعالىٰ : ﴿إِنَّ عِدّة الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ﴾. وعدد أيّامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وخمسُ وسدسُ يوم تقريبا؛ ويجتمع من هذا الخُمس والسدُس يومٌ فى كل ثلاث سنين فتصيرُ السنة ثلثمائة وخمسةً وخمسين يومًا، ويبقىٰ من ذلك بعد اليوم الذى ٱجتمع شىء، فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه فى السنة السادسة يوم واحد، وكذلك إلىٰ أن يبقىٰ الكسر أصلا بأحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة، وتسمّى تلك السنين كبائس العَرَب .

قال السهيلى: كانوا يُؤَخِّرون فى كل عام أحدَ عشَرَ يوما حتّى يَدُورَ الدورُ إلىٰ ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلىٰ وقته، فلما كانت سنةُ حَجَّة الوَدَاع : وهى سنة تسع من الهجرة، عاد الحجُّ إلىٰ وقته ٱتفاقًا فى ذى الحِجَّة كما وُضِع أوّلا فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحجَّ، ثم قال فى خطبته التى خطبها يومئذ : "إنَّ الزمانَ قد ٱستَدارَ كهيْئتِه يوم خلقَ اللهُ السَّمٰواتِ والأرضَ، " بمعنىٰ أن الحج قد عاد فى ذى الحِجَّة . وفى بعض التعاليق أن سِنِى العرب كانت موافقةً لِسنِى الفُرْس فى الدخول والٱنْسلاخ فحَدَث فى أحوالهم ٱنتقالاتٌ فسَد عليهم بها الكَبْس فى أوّل السنة السادسة من ملك أغيطش، وذلك بعد ملك ذى القرنين بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوما فسَنُّوا كبس

الربع من ذلك اليوم فى كل سنة فصارت سنينُهم بعد ذلك الوقت محفوظةَ المواقيتِ . وقيل لم تزل العرب فى جاهليتها علىٰ رسم إبراهيم وإسمـاعيل عليهما السـلام لاتَنْسأ سِنِيها إلىٰ أن جاورتهم اليهود فى يثرب، فأرادت العرب أن يكون حجُّهم فى أخصب وقتٍ من السـنة، وأسهلِ زمان للتردُّد بالتجارة فعلموا الكبس من اليهود والله أعلم أىُّ ذلك كان .

القســـم الثـانى

(الاصطلاحيـــة : وهى الشمســـيَّة)

وشهورها آثنا عشَرَ شهرًا كما فى السنة الطبيعية إلا أنـ كل طائفة راعتْ عدَم دَوَران سِنِيها جعلت فى أشهرها زيادةً فى الأيام إما جملة واحدة وإما متفرّقة وسمَّتْها نسيئًا، بحسب ما آصطلحوا عليه كما ستقف عليه فى مصطلَح كل قوم إن شاء الله تعالىٰ. وعدد أيَّامها عند جميع الطوائف : من القبط، والفرس، والسريان، والروم، وغيرهم ثلثُمائةِ يوم وخمســةٌ وستون يوما وربعُ يوم ، فتكون زيادتها علىٰ العربية عشرةَ أيام وثمانيةَ أعشار يوم وخمسةَ أسداس يوم . وقد قال بعض حُذَّاق المفسرين فى قوله تعالىٰ ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا﴾ : إنه إن حمل علىٰ السنين القمرية فهو علىٰ ظاهره من العدد، وإن حمل علىٰ السنين الشمسية فالتسع الزائدة هى تفاوت زيادة الشمسية علىٰ القمرية لأنَّ فى كل ثلثمائة سنة تسعَ سنينَ لاتُخِلُّ بالحساب أصلا

قال صاحب "مناهج الفكر" ولذلك كانوا فى صَدْر الإسلام يُسْقِطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سـنة عربيَّة سنةً ويسمُّونها سنة الازدلاف : لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية آثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبا . قال وإنما حملهم علىٰ ذلك الفرار من آسم النسىء الذى أخبر الله تعالىٰ أنه زيادة فى الكفر .

ثم المعتبرون السنة الشمسية آختلفت مصطلَحاتُهم فيها بحسب آختلاف مقاصدهم .

المصطَلَح الأوّل ـ مصطَلَح القبط ، وقد آصطلحوا علىٰ أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدّم فإذا آنقضت الآثنا عشرَ شهرا أضافوا إليها خمسة أيام يسمُّونها أيام النسىء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية ، فإذا كانت السنة الرابعة أضافوا إلىٰ خمسة النسىء المذكورة ما آجتمع من الربع يوم الزائد علىٰ الخمسة أيام فى السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كبيسة فى تلك السنة ، وبعض ظُرَفائهم يسمِّى الخمسة المزيدة السنةَ الصغيرة .

قال أصحاب الزيجات وأوّلُ آبتدائهم ذلك فى زمن أغشطش . وكانوا من قبلُ يتركون الربع إلىٰ أن تجتمع أيام سنة كاملة وذلك فى ألف سنة وأربعمائة وإحدىٰ وستين سنة ويسقطونها من سنيهم ، وعلىٰ هذا المصطلَح آستقرّ عملهم بالديار المصرية فى الإقطاعات ، والزرع ، والخَراج ، وما شاكل ذلك .

المصطلح الثانى ـ مصطَلَح الفُرْس ، وشهورهم كشهور القبط فى عدد الأيام علىٰ ماتقدّم ، فإذا كان آخر شهر أبان ماه ، وهو الشهر السابع (١) من شهورهم أضافوا إليه الخمسة الأيام الباقية وجعلوه خمسة وثلاثين يوما ، وتسمِّى الفرس هذه الأيام الخمسة الاندركاه ، ولكل يوم منها عندهم آسم خاص كما فى أيَّام الشهر ، ولما لم يَجُزْ فى معتقَدهم كبسُ السنة بيوم واحد بعد ثلاث سنين كما فعل القبط كانوا يؤخِّرونه إلىٰ أن يتم منه فى مائة وعشرين سنة شهرٌ كامل فيُلْقونه ، وتسمِّى السنةُ التى يلقىٰ فيها بهرك (٢) ، قال المسعودىّ فى "مروج الذهب" وإنما أخَّروا ذلك إلىٰ مائة وعشرين سنة لأن أيَّامهم كانت سُعودا ونُحُوسا فكَرِهوا أن يكبِسُوا فى كل أربع سنين يوما فتنتقل بذلك أيام السُّعود إلىٰ أيام النُّحوس ، ولا يكون النَّيْروز أوّل يوم من الشهر .

---

(١) الصواب الثامن كما يعلم مما تقدم . (٢) فى مروج الذهب ـ الهارك ، وفى الضوء ـ بهرك .

وعلىٰ هــذا المصطلح كان يُجْبىٰ الخَرَاج للخلفاء وتُمشى الأحوال الديوانية فى بداية الأمر وعليه العمل فى العراق وبلاد فارس إلىٰ الآن .

المصطلح الثالث ـ مصطلح السريان ، وشهورهم علىٰ ما تقدّم : من كونها تارةً ثلاثين يوما وتارة زائدة عليها ، وتارة ناقصة عنها ، وإنمــا فعلوا ذلك حتّٰى لايلحقهم النسىءُ فى شهورهم إذ الأيام الخمسة المذكورة الزائدة علىٰ شهور القبط والفُرْس مُوزَّعة علىٰ رءُوس الزوائد من شهورهم ، وذلك أنّ من شهورهم ســبعةَ أشهر يزيد كل شهر منهــا يوما علىٰ الثلاثين : وهى تشرين الأوّل ، وكانون الأوّل ، وكانون الثانى ، وآذار ، وأيَّار ، وتموز ، وآب ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط : وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقىٰ خمسة أيام ، وهى نظير النَّسِىء فى سنة القبط والفُرْس ، ويبقىٰ بعد ذلك الربع يوم الزائد علىٰ الخمسة أيام فى الســنة الشمسية ، فإذا ٱنقضت ثلاث ســنين متواليات جمعوا الأرباع الثلاثة الملغاة إلىٰ الربع الرابع فيجتمع منهــا يوم فيجعلونه نظيرَ اليوم الذى كبسه القبطُ ويُضِيفونه إلىٰ شباط ، فيصير تســعةً وعشرين يوما .

المصطلح الرابع ـ مصطلح اليهود ، وشهورهم وإن كانت قَمَــريَّة كالعربية كما تقدّم فقد ٱضْطُرّوا إلىٰ أن تكون سنتُهم شمســيَّة : لأنهم أمروا فى التوراة أن يكون عيد الفطر فى زمان الفَرِيك فلم يتأتَّ لهم ذلك حتّٰى جعلوا سنيهم قسمين : الأوّل بشيطا ومعناه بسيطة وهى القمرية ، والثانى معبارت ، ومعناه كبيسة وهم يكبسون شهرا كاملا ، ومعبارت ٱسم موضوع عندهم علىٰ الكامل ، فإنه لما كان فى بطنها زيادة عليها كانت هذه الســنة مثلها باضافة الشهر المكبوس إليها ، وكل واحدة من السنين ثلاثة أنواع أحدها جسارين ومعناه ناقصــة ، وهى التى يكون الشهر الثانى والثالث منها (وهمــا مرحشوان وكسلا) ناقصين ، وكل واحد منهما تسعة وعشرون يوما ؛

والنوع الثانى شلاميم ومعناه تامّة، وهى التى يكون فيها كل شهر من الشهرين المذكورين تامّا ؛ والنوع الثالث كسدران ومعناه معتدلة ، وهى التى تكون أشهرُها ناقصٌ يتلوه تامٌّ؛ وهذا يلزم من جهة أنهم لا يجيزون أن يكون رأس سنتهم يوم أحد ولا يوم أربعاء ولا يوم خميس .

وأما معبارت فإنها تكون فى كل تسعَ عشرةَ سنة سبع مرات ، ويسمُّون الجملة مخزورا ومعناه الدور، وهذه السبعة لا تكون على التوالى، وإنما تكون تارة سنتان بشيطان يتلوهما معبارت، وتارة سنة بشيطا يتلوها معبارت، كل ذلك حتّى لاتخرم عليهم قاعدة الثلاثة أيام التى لا يختارونها أن تكون أوّل سنتهم، فإذا انقضى آذار من هذه السنة كبسوا شهرا وسموه آذار الثانى، فإذا انقضت التسع عشرة سنة أعادوا دورا ثانيا وعَمِلوا فيه كذلك وعلى هذا أبدا .

أما مصطَلَح المنَجِّمين فالسنة عندهم من حُلُول الشمس فى أوّل نقطة من رأس الحَمَل إلى حلولها فى آخِرِ نقطة من الحوت ، ومنهم من يجعلها من حلول الشمس فى أوّل نقطة من رأس الميزان إلى حلولها فى آخر نقطة من السُّنْبلة ، والأوّل هو المعروف . وتساهل بعضهم فقال : هى من كونِ الشمس فى نقطة مّا من فَلَك البروج إلى عودها إلى تلك النقطة، ويقال إن سنة الجُنْد والمرتزِقة بالديار المصرية كانت أوّلا على هذا المصطَلَح، وبه يعملون فى الإقطاعات ونحوها .

الجمـــلة الثـالثة

(فى فصول السنة الأربعة : وفيه ثلاثة مَهَايِـعَ)

المَهْيَعُ الأوّل

(فى الحكمة فى تغيير الفصول الأربعة فى السنة)

وٱعلم أن الفُصول تختلِف بحسَب ٱختلاف طبائع السـنة لتبايُنِ مصالح أوقاتها حكمةً من الله تعالىٰ . قال بطليموس : تحتاج الأبدان إلىٰ تغيير الفصول ، فالشـتاء للتجميد ، والصيف للتَّحْليل ، والخريف للتَّدْريج ، والربيع للتَّعْديل . وعلىٰ ذلك يقال : إن أصل وَضْع الحمَّـام أربعةَ بيوت بعضها دون بعض علىٰ التدريج ترتيبُها علىٰ الفصول الأربعة .

المَهْيَع الثـانى

(فى كيفيَّة ٱنقسام السنة الشمسية إلىٰ الفُصول)

وٱعلم أن دائرة منطقة البُروج لما قاطعت دائرة معدّل النهار علىٰ نقطتين متقابلتين مال[(١)] عنهما فى جهتى الشمال والجنوب بقـدر واحد فالنقطة التى تجوزُ عليها الشمس من ناحيـة الجَنُوب إلىٰ الشمال عن معدّل النهـار تسمّٰى نقطة الاعتدال الربيعىّ ، وهى أوّل الحَمَل ، والنقطة التى تجوز عليها من الشمال إلىٰ الجنوب تسمّٰى نقطة الاعتدال الخَرِيفىّ : وهى أوّل المِيزان . ويتوهم فى الفلك دائرة ثالثة معترضـة من الشمال إلىٰ الجنوب تمرّ علىٰ أقطاب تقـابل الدائرة المخطوطة علىٰ الفلكين تقطَعُ كلَّ واحد من فلك معدّل النهار وفلك البروج بنصفين ، فوجب أن يكون قطعها لفلَك البروج علىٰ

---

(١) لعله مال نصفها فى جهة الشمال والآخر فى جهه الجنوب كما يستفاد من المقريزى .

النقطتين اللتين هما فى غاية المَيْل والبُعْد عن معدّل النهار فى جهتى الشمال والجنوب : فتسمّى النقطة الشمالية نُقطة المُنْقَلَب الصيفىّ : وهى أوّل السَّرطان، وتسمّى النقطة الجنوبية نقطة المُنْقَلَب الشَّتْوىّ ، وهى أوّل الجَدْى . وآختلافُ طبائع الفصول عن حركة الشمس وتنقّلها فى هـذه النُّقَط ، فإنها إذا تحرّكت من الحمل ، وهو أوّل البروج الشمالية أخَذَ الهواءُ فى السُّخُونة لقربها من سَمْت الرءُوس وتواتر الإسخان إلىٰ أن تصل إلىٰ أوّل السرطان ، وحينئذ يشتدّ الحرّ فى السَّرطان والأسدِ إلىٰ أن تصل إلىٰ الميزان ، فحينئذ يطيبُ الهواءُ ويعتـدلُ ؛ ثم يأخذُ الهواء فى البُرودة ويتواتَرُ إلىٰ أوّل الجَدْى ، وحينئذ يشتدّ البرد فى الجَدْى والدَّلْو لبُعْد الشمس عن سَمْت الرءُوس إلىٰ أن تصل إلىٰ الحَمَل فتعود الشمس إلىٰ أوّل حركتها .

المهيع الثالث

(فى ذكر الفصول، وأزمنتها، وطبائعها، وما حصة كلّ فصل منها من البروج والمنازل ؛ وهى أربعة فصول)

الأوّل — فَصْل الربيع — وآبتداؤه عند حُلُول الشمس برأس الحَمَل . وقد تقدّم ومدّته أحدٌ وتسعون يوما وربعُ يوم ونصف ثمن يوم . وأوّله حُلول الشمس رأسَ الحَمَل، وآخرُه عند قطعها بُرجَ الجوزاء ؛ وله من الكواكب القمر، والزُّهَرة؛ ومن المنازل الشَّرَطان ، والبُطَين ، والثُّرَيَّا ، والدَّبَران، والهَقْعة ، والهَنْعة ، والذِّراع بما فى ذلك من التداخل كما مر ؛ ومن الساعات الأُولىٰ والثانيةُ والثالثةُ ؛ ومن الرِّياح الجَنُوب؛ وطبعه حارٌّ رَطْب ؛ وله من السِّنّ الطُّفُوليّة والحَداثة ؛ ومن الأخلاط الدمُ؛ ومن القُوىٰ الهاضمة . وفيه تتحرّك الطبائع ،وتظهَر الموادّ المتولدة فى الشِّتاء، فيطلُع النباتُ، وتُزْهِر الأشجارُ وتُورِق، ويهيج الحيوان للسِّفاد، وتذوب الثُّلُوج،

وَتَنْبُع العُيون ، وتَسِـيل الأوْديةُ ، وأخَذَت الأرضُ زُخْرُفَها وٱزَّيَنَتْ فتصـير كأنها عَرُوس تبدَّت لُخُطَّابها ، فى مُصَبَّغَات ثيابها ؛ ويقـال : إذا نزلت الشمسُ رأسَ الحمل.تصرّم الشتاءُ ، وتنفَّس الربيعُ ، وٱختالتِ الأرضُ فى وَشْيِها البديع ، وتبرَّجتْ للنُّظَّاره ، فى مَعْرِض الحُسْن والنَّضَاره .

ومن كلام الوزير المغربىّ : لو كان زمنُ الربيع شخصًا لكان مُقَبَّلا ، ولو أن الأيام حيوان لكان لها حليا ومُجَلّلا : لأن الشمس تخلُص فيه من ظُلُمات حُوتِ السماء ، خَلاَصَ يونُسَ من ظُلُمات حُوتِ المـاء ، فإذا وردت الحَمَـلَ وافت أحبَّ الأوطان إليها ، وأعزَّ أماكنها عليها .

وكان عَبْدوس الخزاعىّ يقول : من لم يَبْتَهِج بالربيع ولم يستَمْتِـع بأنواره ، ولا ٱستروَحَ بنسيم أزهاره ، فهو فاسدُ المِزَاج ، محتاجٌ إلى العِلاج .

ويروى عن بقراط الحكيم مثله ، وفيه بدل قوله "فهو فاسدُ المزاج" فهو عديمُ حِسّ ، أو سقيم نفْس . ولجَلاَلة محلِّ هذا الفصل فى القلوب ، ولنزوله من النفوس مَنْزلةَ الكاعِب الخَلُوب ، كانت الملوك إذا عَدِمتْه ٱستعملَتْ ما يُضاهِى زَهْره من البُسُط المصوَّرة المنقَّشه ، والنَّمـارق المُفَوّفة المرقَّشـه . وقد كان لأنوشروانَ بِساط يسميه بِساطَ الشِّتاء مرصَّعٌ بأزرقِ الياقوتِ والجواهر وأصفره وأبيضـه وأحمره ، وقد جعل أخضرُه مكانَ أغصان الأشجار ، وألوانه بموضع الزَّهْر والنوّار . ولمـا أُخِذ هذا البساطُ فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى واقعة القادِسيَّة ، حُمِل إليه فيما افاء الله على المسلمين ، فلمـا رآه قال : "إن أُمَّةً أدّتْ هذا إلى أميرها لأمينةٌ" ثم مزَّقه فوقع منه لعلىّ عليه السلام قطعةٌ فى قسمه مقدارُها شبر فى شبر فباعها بخمسـةَ عشرَ ألف دينار .

وقد أطنب الناس فى وصف هذا الفصل ومدحه ، وأتوا بمـا يقصُر عن شرحه ،

وتغالى الشعراء فيه غاية التّغالى ، وفضّلوا أيامه ولياليه على الأيّام والليالى ، وما أحلى قولَ البحتُرِىّ ! :

أتاكَ الربيعُ الطّلْقُ يختالُ ضاحكًا * من الحُسْن حتّى كاد أن يتكلّما
وقد نبّه النّورُوزُ فى غسَقِ الدُّجى * أوائلَ وردٍ كُنّ بالأمْسِ نُوّما
يُفتِّحُها بَرْدُ النّدى فكأنّما * يَبُثُّ حديثًا بينهنّ مُكتّما
ومِنْ شَجَرٍ ردَّ الرّبيعُ رِداءَهُ * كما نَشَرتْ ثوبًا عليه مُنمْنَما
أحلَّ فأبْدى للعُيونِ بَشاشَةً * وكانَ قذًى للعَيْنِ إذْ كانَ مُحرِما
ورَقَّ نَسيمُ الجَوِّ حتّى كأنّما * يجيءُ بأنْفاسِ الأحِبّةِ نُعَّما

وأحلى منه قول أحمد بن محمد العلوىّ :

أوَ ما ترى الأيّامَ كيْفَ تبرّجتْ * ورَبيعُها والٍ عليْها قَيِّمُ ؟
لبِسَتْ بِهِ الأرضُ الجمالَ فحُسْنُها * مُتأزِّرٌ بِبُرُودِهِ مُتعمِّمُ
أُنْظُرْ إلى وَشْيِ الرِّياضِ كأنّهُ * وَشْيٌ تُنشِّرُهُ الأكُفُّ مُنَمْنَمُ
والنَّورُ يَهْوى كالعقُودِ تبدّدتْ * والوَرْدُ يخْجلُ والأقاحى تَبْسِمُ
والطَّلُّ يَنْظِمُ فوقَهُنَّ لآلِئًا * قَدْ زانَ مِنْهُنَّ الفُرادى التَّوْءَمُ
ويَكادُ يُذْرِى الدَّمْعَ نرْجِسُها إذا * أضحى ويقْطُرُ مِنْ شَقائِقِها الدَّمُ

ومنها :

أرضٌ تُباهِيهَا السماءُ إذا دَجا * لَيْلٌ ولاحَتْ فى دُجاها الأنْجُمُ
فلِخُضْرةِ الجَوِّ اخْضِرارُ رِياضِها * ولِزَهْرِهِ زَهْرٌ ونَوْرٌ يَنْجُمُ
وكما يَشُقُّ سَنا المَجرّةِ جَرّه * وادٍ يَشُقُّ الأرضَ طامٍ مُفْعَمُ
لم يَبْقَ إلا الدَّهْرُ إذ باهَتْ به * وحَيًا يجودُ بِهِ مُلِثٌّ مُرْزِمُ

وقول الآخر:

طَرَقَ الحَيَاءُ بِبِرِّهِ المَشْكُورِ * أهْلًا به مِنْ زَائِرٍ ومَزُورِ!
وحَبَا الرِّياضَ غِلالةً مِنْ وَشْيِهِ * بغَرائِبِ التَّفْوِيفِ والتَّحْبِيرِ
وأعَارَهَا حَلْيًا تأنَّى الغيثُ فى * تَرْصِيعِهِ بجَواهِرِ المَنْثُورِ
بمُوَرَّدٍ كمُوَرَّدِ اليَاقُوتِ قا * رَنَ أبيضًا كمَصاعِدِ الكافُورِ
ومُعَصْفَرٍ شَرِقٍ وأصْفَرَ فاقِعٍ * فى أخْضَرٍ كالسُّنْدُسِ المَنْشُورِ
فكأنَّ أزرَقَهُ بقَايَا إثْمِدٍ * فى أعْيُنٍ مَكْحُولةٍ بفُتُورِ
كَمُلَتْ صِفاتُ الزَّهْرِ فيه فنابَ عَمَّـ * ـا غاب مِنْ أنْواعِهِ بحُضُورِ

وقول الآخر:

اِشْربْ هَنِيئًا قَدْ أتاكَ زَمانُ * متعطِّرٌ متَهَلِّلٌ نَشْوانُ
فالأرضُ وَشْيٌ والنَّسِيمُ مُعَنْبَرٌ * والماءُ راحٌ والطُّيُورُ قِيَانُ

الثانى ــ فصل الصيف: وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم وآبتداؤه إذا حلّت الشمسُ رأسَ السَّرطانِ، وآنتهاؤه إذا أتتْ على آخر درجة من السُّنْبلة؛ فيكون له من البُروج السرطانُ، والأسدُ، والسنبلة. وهذه البروج تدلّ على السُّكون، وله من الكواكب المِرِّيخ والشمسُ؛ ومن المنازل النَّثْرةُ، والطَّرْفُ، والجبهةُ، والزُّبرة، والصَّرْفة، والعوَّاءُ، والسِّماكُ يتداخل فيه؛ وله من الساعات الرابعة والخامسة والسادسة، ومن الرياح الصَّبَا، وطبعُه حارّ يابس؛ وله من السنّ الشَّبابُ؛ ومن الأخلاط المِرَّةُ الصفراءُ؛ ومن القُوَى القوّة النفسية والحيوانية. وللعرب فى هذا الفَصْل وغَرَاتٌ: وهى الحُرورُ؛ منها وغْرَةُ الشِّعْرى، ووَغْرة الجوزاءِ، ووَغْرة سُهَيل، أوّلها أقواها حرًّا؛ يقال إن الرجل فى هذه الوغرة يَعْطَشُ بين الحوضِ والبئر، وإذا طلع سُهيلٌ ذهبت الوَغَراتُ؛ وتُسمَّى الرياحُ التى فى هذه

الوَغَراتِ البَوارِحَ؛ سميت بذلك لأنها تأتى من يسار الكعبة كما بَرَح الظَّبْىُ إذا أتاك من يسارك ؛ وقد أُولِعَ الناسُ بيْن لَفَحات الحرّ وسَمُومه ، وأَتوا فيه ببدائعَ تقلَعُ من قلب الصَّبِّ غَمامَ غُمومه . وفى ذلك قول بعضهم : أوقدت الظهيرةُ نارَها ، وأذْكَتْ أُوارَهـا ، فأذابت دِمَاغَ الضَّبّ ، وألهبت قلبَ الصَّبّ ؛ هاجرةٌ كأنهـا من قلوب العُشَّاق ، إذا آشتعلت فيها نارُ الفِراق ؛ حَرٌّ تَهرُبُ له الحِرْباءُ من الشمس ، وتستجير بمترا كم الرَّمْس ؛ لا يطيب معـه عيش ، ولا يَنْفَع معه ثَلْج ولا خَيْش ؛ فهو كالقلب المهجور ، أو كالتَّنُّور المَسْجور . ووصف بعضُهم : وهو ذو الرمّة حَرَّ هَاجرةٍ فقال :

وهَاجرةٍ حَـــرُّها واقِـــدٌ * نَصَبْتُ لحـاجِبِها حاجِبى
تَلُوذُ من الشَّمْسِ أطْلاؤُها * لِيَـاذَ الغَرِيمِ من الطَّـالب
وتَسْـجُد للشمسِ حِرباؤها * كما يَسْـجُد القَسُّ للرَّاهِبِ

وقال سوّار بن المُضَرِّس :

وهاجِرةٍ تُشْـتَوَى بالسَّمُوم * جَنَـادِبُها فى رُءُوسِ الأَكَمْ
إذا المَوْتُ أخْطَأَ حِرْباءَهَا * رمىٰ نَفْسَه بالعَمىٰ والصَّمَمْ

وقال أبو العلاء المَعرّى :

وهَجِـيرةٍ كالهَجْرِ مَوْجُ سَرَابِها * كالبَحْرِ لَيْس لِمـائها من طُحْلُبِ
وافىٰ بِه الحِرْباءُ عُودَىْ مِنبَرٍ * للظُّهْـــر إلا أنه لم يَخْطُبِ

وقال آخر :

ورُبَّ يَوْمٍ حَـرُّه مُنْضِجٌ * كـأنَّهُ أحْشَـاءُ ظَمْآنِ
كأنَّمـا الأَرضُ علىٰ رَضْفَةٍ * والجَـوُّ مَحْشوٌّ بِنِـيرانِ

وبالغ الأمير ناصرُ الدين بن الفقيسى فقال من أبيات :

فى زَمانٍ يَشْـوِى الوُجُوهَ بحَـرٍّ * ويُذِيبُ الجُسُـومَ لو كُنَّ صَخْـرا

لا تَطِيرُ النُّسورُ فِيهِ إذا مَا * وَقَفَتْ شَمْسُهُ وقارَبَ ظُهْرا
يَشْتَكي الضَّبُّ ما اشتكىٰ الصَّبُّ فِيهِ * ولِحِرْبائِهِ إلىٰ الظِّلِّ حَرَّا
وَيَودُّ الغُصْنُ الرَّطِيبُ بِهِ لَوْ * أنَّهُ مِنْ لِحائِهِ يتَعَرَّى

وقال أيضا يَصف ليلة شديدة الحرّ

يا لَيْلَةً بِتُّ بِها ساهِرًا * مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ وفَرْطِ الأُوَارْ
كأنَّنِي فى جُنْحِها مُحْرِم * لو أنَّ لِلْعَوْرَةِ مِنِّي ٱسْتِتَارْ
وكَيْفَ لا أُحْرِمُ فى لَيْلَةٍ * سماؤُها بالشُّهْبِ تَرْمِي الجِمَارْ

علىٰ أن أبا علِيّ بن رَشِيق قد فَضَّله علىٰ فصل الشتاء فقال :

فَصْلُ الشِّتاءِ مُبِينٌ لا خَفاءَ بِهِ * والصَّيْفُ أفضَلُ مِنْهُ حِينَ يَغْشَاكَا
فِيهِ الَّذِي وَعَدَ اللهُ العِبادَ بِهِ * فِي جَنَّةِ الخُلْدِ إن جاءُوه نُسَّاكَا
أنْهارُ خَمْرٍ وأطْيارٌ وفاكِهَةٌ * ماشِئْتَ مِنْ ذَا ومِنْ هَذَا ومِنْ ذاكَا
فَقُلْ لِمَنْ قال لَوْلَا ذاكَ لَمْ يَكُ ذَا * إذًا تُفَضِّلُ علىٰ أُخْراكَ دُنْياكَا
سَمِّ الشِّتاءَ بِعَبَّاسٍ تُصِبْ غَرَضًا * من الصَّوابِ وسَمِّ الصَّيْفَ ضَحَّاكَا

الثالث ـ فصل الخريف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم . وأوّله عند حُلُول الشمس رأسَ الميزان؛ وذلك فى الثامن عشر من توت وإذا بَقِيَ من أيلول ثمانية أيام؛ وآخره إذا أتت الشمسُ علىٰ آخر درجة من القَوْس؛ فيكون له من البروج الميزانُ والعقربُ والقوسُ؛ وهذه البروج تدلُّ علىٰ الحركة، وله من الكواكب زُحَلُ، ومن الساعات السابعة والثامنة . والطالع فيه مع الفجر من المنازل الغَفْر والزُّبَانان والإكليل والقَلْب والشَّوْلة والنَّعائم والبَلْدة يتداخل فيه . وهو بارد يابس، له من السِّن الكُهُولة؛ تهيج فيه المِرَّة السَّوْداء وتقوىٰ فيه القوّة الماسكةُ، وتهبُّ فيه الرياح الشَّمالِيَّة، وفيه يبرُد الهواء، ويتغيَّر الزمانُ، وتتصرم

الثِّمارُ، ويتغير وجهُ الأرض، وتُهْزَل البهائم، وتموت الهوامّ، وتَجْحَرُ الحشرات، ويطلب الطير المواضع الدَّفِئة، وتصير الأرض كأنها كَهْلَةٌ مُدْبِرة . ويقال : فصل الخريف ربيعُ النفْس كما أن الربيعَ ربيعُ العين : فإنه ميقاتُ الأقوات، ومَوْسم الثِّمار وأوانُ شَبَاب الأشجار، وللنُّفوس فى آثاره مَرْبَع، وللجُسوم بمواقع خيراته مستمْتَع .

وقد وصفه الصابى فقال "الخريف أصحُّ فصول السنة زمانا، وأسهلها أوانا، وهو أحد الاعتدالين المتوسِّطين بين الانقلابين، حين أبدَتِ الأرض عن ثمرتها، وصَرَّحت عن زُبْدتها، وأطلقت السماءُ حَوَافِلَ أنوائها، وآذنتْ بانسكاب مائها، وصارتِ المَوَارد، كمُتون المَبَارد، صفاءً من كَدَرها، وتهذبا من عَكَرها، واطِّرادا مع نَفَحات الهواء، وحركات الرِّياح الشَّجْواء، واكتست الماشيةُ وبَرَها القشيب، والطائرُ ريشَه العجيب" .

ومن كلام ابن شبل : كلُّ مايظهرُ فى الربيع نُوَّارُه، ففى الخريف تُجتَنَى ثِمارُه .

وقال أبو بكر الصنوبرى :

ما قضَى فى الرَّبيع حَقَّ المَسَرَّا * تِ مُضِيعٌ لحَقِّها فى الخَرِيف
نحنُ مِنْه على تَلَقِّى شِتاءٍ * يُوجِبُ القَصْفَ أو وداعِ مَصِيف
فى قَمِيصٍ من الزَّمانِ رَقِيقٍ * ورِداءٍ من الهَواءِ خَفِيف
يَرْعُدُ الماءُ فيه خوفاً إذا ما * لَمَسَتْه يَدُ النَّسيمِ الضَّعِيف

وقال ابن الرومى يصفه :

لَوْلَا فواكِهُ أيْلُولٍ إذا اجتمعَتْ * من كُلِّ فَنٍّ ورَقَّ الجوُّ والماءُ
إذًا لَمَا حفَلَتْ نفسى إذا اشتمَلَتْ * علىَّ هائلَةُ الحالَيْنِ غَبْراءُ
ياحَبَّذَا ليلُ أيْلُولٍ إذا بردَتْ * فيهِ مَضاجعُنا والرِّيحُ شَجواءُ !
وخَمَّش القُرُّ فيه الجِلْدَ والتأمَتْ * من الضَّجِيعيْنِ أجسامٌ وأحْشاءُ

وأسفرَ القمرُ الساري بصفحتِهِ * يُرىٰ لها في صفاءِ الماءِ لألاءُ
بل حبَّذا نفحةٌ من ريحِهِ سَحَراً * يأتيك فيها من الرَّيحان أنباءُ
قُلْ فيه ما شئتَ من فضل تَعَهَّدُه * في كُلِّ يومٍ يدٌ لله بيضاءُ

وقال عبد الله بن المعتز يصفه ويفضله علىٰ الصيف من أبيات :

طابَ شُرْبُ الصَّبُوحِ في أيْلُولِ * بَرَدَ الظلُّ في الضُّحىٰ والأصيلِ
وخبَتْ لَفْحةُ الهوا جِرِعَنّا * وآستَرَحْنا من النَّهار الطَّويلِ
وخرجْنا من السَّمُومِ إلىٰ بَرْ * دِ نسيمٍ وطيبِ ظلٍّ ظليلِ
فكأنّا نزدادُ قربا من الجنّـ * ـةِ في كُلِّ شارقٍ وأصيلِ
ووجُوهُ البِقاعِ تنتظِرُ الغيـ * ـثَ آنتظارَ المُحِبِّ رَدَّ الرَّسُولِ

وقريب منه قول الآخر :

اِشْرَبْ علىٰ طيبِ الزَّمانِ فقدْ حَدَا * بالصَّيفِ للنُّدْمانِ أطيَبُ حادِ
وأشَمَّنا باللَّيلِ بَرْدَ نسيمِهِ * فآرتاحتِ الأرْواحُ في الأجْسادِ
وافاكَ بالأنْداءِ قُدّامَ الحَيا * فالأرضُ للأمطارِ في آستِعْدادِ
كَمْ في ضمائِرِ تُرْبِها من روْضةٍ * بمسيلِ ماءٍ أو قرارةِ وادِ
تَبْدُو إذا جاء السَّحابُ بقَطْرِهِ * فكأنَّما كُنّا علىٰ ميعادِ

ومما يقرُب منه قول جَحْظةَ البرمكيّ :

لا تصغَ للّوْمِ إن اللَّوْمَ تضليلُ * وآشرَبْ ففي الشُّرب للأحْزان تحليلُ
فقدْ مضىٰ القيْظُ وآجتُثّت رواحلُهُ * وطابت الرِّيحُ لما آلَ أيلُولُ
وليس في الأرضِ بيتٌ يشتكي مَرَهاً * إلا وناظِرُه بالطَّلِّ مكحُولُ

وبالغ بعضهم فسوّىٰ بينه وبين فصل الربيع فقال في ضِمْن تهنئةٍ لبعض إخوانه :

هُنِّيتَ إقبالَ الخريـ * ـف وفُزْتَ بالوجه الوَضِـ

تَمَّ ٱعتِـدَالًا فى الـكَا * ل بجاء فى خَلْقٍ سَـوِىّ
فَحَـكَى الرَّبيعَ بحُسْـنِهِ * ونَسِـيمِ رَيّاهُ الذَّكِىّ
ويَنُـوبُ وَرْد الزَّعفَـرا * نِ له عَنِ الوَرْدِ الجَـنِىّ

وأبلغ منه قول الآخر، يفضله علىٰ فصل الربيع الذى هو سيدُ الفصول ورئيسُها :

مَحَاسِنُ للخَرِيفِ لَهُنَّ فَخْرٌ * علىٰ زَمَن الرَّبيع وأَىُّ فَخْر
بِهِ صار الزَّمانُ أَمَامَ بَرْدٍ * يُرَاقِبُ نَزْحَه وعَقِيبَ حَرّ

ومع ذلك فالأطباء تذمُّه لٱستيلاء المِرّة السَّوْداء فيـه، ويقولون إنَّ هواءه ردىءٌ متىٰ تشبَّث بالجسم لا يمكن تَلَافيه، وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

خُذْ فِى التَّدَثُّرِ فى الخَرِيفِ فإنَّهُ * مُسْتَوْبَلٌ ونَسِيمُه خَطَّافُ
يَجْرِى مَعَ الأَيَّامِ جَرْىَ نِفَاقِهَا * لصَدِيقِها ومن الصَّدِيقِ يُخَافُ

الرابع ــ فصـل الشتاء : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصفُ ثُمن يوم، ودخولُه عند حُلول الشمس رأسَ الجَـدْى، وذلك فى الثامن عشر من كيهك وإذا بَقِى من كانون الأوّل ثمانيةُ أيام، وآخره إذا أتت الشمسُ علىٰ آخر درجةٍ من الحُوت فيكون له من البروج الجَـدْىُ والدَّلْو والحُوت، وهـذه البروج تدلُّ علىٰ السكون، والطالعُ فيه مع الفجر سـعدُ الذابحُ، وسعدُ بُلَعَ، وسعدُ السُّعود، وسـعدُ الأَخْبِيَة، والفَرْغُ المقدَّم والفَرْغ المؤخَّر، والرِّشاء. فيه تَهُبُّ رياح الدَّبُور، وهو بارد رَطْب. فيه يَهِيج البَلْغَم، وتضعُف قُوىٰ الأبدان. له من السِّن الشيْخُوخة ومن القُوىٰ البدنيَّة القُوّة الدافعة، وفيه يشتدّ البَرْد، ويَخْشُن الهواء، ويتساقط ورقُ الشَّجَر، وتَنْجَحِرُ الحيَّات، وتكثر الأنواء، ويُظْلم الجوُّ وتصير الأرضُ كأنها عجوزٌ هَرِمة، قد دنا منها الموتُ. وله من الكواكب المُشـتَرِى وعُطاردُ. ومن الساعات العاشِرةُ والحـادية عشرةَ. ويقال إذا حلَّت الشمسُ الجَدْىَ مدّ الشِّتاء رُواقَه، وحلّ نِطاقَه، ودبَّت

عقاربُ البَرْد لاسِـبَه ، ونفع مُدَّخُرُ الكسبِ كاسِـبَه . وللبلغاء فى وصف حال من أظله ، مُلَحٌ تدفَع عن المقرور متىٰ ٱستعدّ بها طَلَّه ووبْلَه .

فمن ذلك قول بعضهم يَصف شِدّة البرد: "برد يغَيِّر الألوان، ويَنَشِّف الأبدان؛ ويُجَمِّد الرِيقَ فى الأشْداق، والدَّمع فى الآماق ؛ بردٌ حال بيـن الكلبِ وهَريره، والأسدِ وزَئيره؛ والطيرِ وصَفيره، والمـاءِ وخَريره" .

ومن كلام الفاضل : "فى ليلة (١) جَمَد خمرُها، وخَمَد جمرُها؛ إلىٰ يومٍ تَوَدّ البَصَلة لو ٱزدادت قُمُصا إلىٰ قُمُصها، والشمسُ لو جَرَّت النارَ إلىٰ قُرْصها؛ أخذه بعضهم فقال :

ويَوْمُنا أرياحُــهُ قَــرَّةٌ * تَخْمِش الأبْدانَ من قَرْصِها
يَوْمٌ تَوَدُّ الشمسُ من بَرْدِهِ * لو جَرَّتِ النـارَ إلىٰ قُرْصِها

ولآبن حكينا البغدادىّ :

اِلْبَسْ إذا قَـدِمَ الشِّـتاءُ بُرودَا * وٱفْرُشْ علىٰ رَغْمِ الحَصِـيرِ لُبُودَا
الرِّيقُ فى اللَّهواتِ أصْبَحَ جامِـدًا * والدَّمْعُ فى الآماقِ صـارَ بُرُودا
وإذا رَمَيْتَ بفَضْلِ كأسِكَ فى الهَوَا * عادَتْ إلَيْـكَ من العَقِيقِ عُقُودا
وترىٰ علىٰ بَرْدِ المِيـاهِ طُيورَهـا * تختـارُ حَرَّ النـارِ والسَّـفُّودا
ياصاحِبَ العُودَيْنِ لا تُهمِلْهُــما * حَرِّقْ لنـا عُـودًا وحَرِّكْ عُودا

ولبعضهم :

شِتاءٌ تَقْلِصُ الأشداقُ منه * وبَرْدٌ يجعَلُ الشُّـبَّانَ شِيبَا
وأرضٌ تَزْلَقُ الأقدامُ فيها * فمـا تَمْشِى بهـا إلَّا دَبِيبَا

ومن كلام الزمخشرى :

أقبلْتَ يابَرْدُ بِــبَرْدٍ أجْـرَدِ * تَفْعَل بالأوْجُهِ فِعْــلَ المِبْرَدِ

---

(١) لعله من بدليل الى .

أَظَلُّ فى البَيْتِ كمِثْلِ المُقْعَدِ * مُنْقَبِضًا تحتَ الكِسَاءِ الأَسْوَدِ
لَوْ قِيلَ لِى أنْتَ أميرُ البَلَدِ * فهاتِ للبَيْعةِ كَفًّا يُعْقَدِ

ومن كلام أبى عبد الله بن أبى الخِصَال، يصف ليلةً باردةً من رسالة : والكلبُ قد صافَحَ خيشومُهُ ذَنَبَه، وأنكر البيتَ وطُنُبَه، والتوى اْلتِوَاءَ الحُبَاب، وٱستدار استِدَارةَ الحُبَاب، وجلَّده الجَليد، وضَرَبه الضَّرِيب، وصَعَّد أنفاسَه الصَّعيد، فحِمَاه مُبَاح، ولا هَرِيرٌ ولا نُبَاح .

ومن شعر الحماسة فى وصف ليلة شديدة البَرْد :

فى ليلةٍ من جُمادىٰ ذاتِ أنْدِيَةٍ * لايُبْصِرُ الكَلْبُ من أنْدائِها الطُّنُبا
لايَنْبَحُ الكَلْبُ فيها غَيْرَ واحِدةٍ * حتّى يَلُفَّ علىٰ خَيْشُومِه الذَّنَبا

ولأبى القاسم التنوخىّ :

ولَيْلَةٍ تَرَكَ البَرْدُ البِلَادَ بها * كالقَلْبِ أُسْعِرَ نارًا فهو مَثْلُوج
فإنْ بَسَطْتَ يَدًا لم تَنْبَسِطْ خَصَرًا * وإنْ تَقُل فبِقَوْلٍ فيه تَثْبِيجُ
فَنَحْنُ منه ولم نُخْرَسْ ذَوُو خَرَسٍ * ونَحْنُ فيه ولم نُفْلَجْ مَفَالِيجُ

وقال بعضهم يصف يوما باردا كثير الضَّبَاب :

يَوْمٌ من الزَّمْهَرِيرِ مَقْرُورُ * عَلَيْهِ جَيْبُ السَّحابِ مَزْرُورُ
وشَمْسُهُ حُرَّةٌ مُخَدَّرةٌ * لَيسَ لَهَا مِنْ ضَبَابِهِ نُورُ
كأنَّما الجَوُّ حَشْوُهُ إبَرٌ * والأرْضُ مِنْ تَحْتِهِ قَوارِيرُ

وحكى أنَّ أعرابيًّا ٱشتدّ به البردُ فأضاءتْ نارٌ فدَنَا منها ليَصْطَلِىَ، وهو يقول : اللهم لاتَحْرِمْنِيها فى الدُّنيا ولا فى الآخرة! . أخذه بعضُهم فقال، وهو فى غاية المبالغة :

أيارَبِّ إن البَرْدَ أصْبَحَ كالِحًا * وأنتَ بِحَالِى عالِمٌ لا تُعَلَّمُ
فإن كُنْتَ يَوْمًا مُدْخِلِى فى جَهَنَّمٍ * فَفِى مِثْلِ هَذَا اليَوْمِ طابَتْ جَهَنَّمُ

وقد اعتنى الناس بمدحه فقال بعضهم : لو لم يكن من فضله إلا أنه تَغِيبُ فيه الهَوَامُّ وتَنْجَحِر الحَشَرات، ويموت الذُّباب، ويَهْلِكُ البَعُوض، ويَبْرُد الماء، ويَسْخُن الجوف، ويَطِيبُ العِنَاق، ويظهر الفرش، ويكثر الدخن، وتلذ جمرة البيت .

وتابعه بعض الشعراء فقال :

تركَتْ مقدِّمةُ الخَرِيف حميده * وبدا الشِّتاءُ جَدِيدُه لا يُنْكَرُ
مَطَرٌ يرُوقُ الصَّحْوُ منه وبَعْدَهُ * صَحْوٌ يَكادُ من الغَضَارةِ يمطر
غَيْثانِ : والأَنْوَاءُ غَيْثٌ ظاهِرٌ * لَكَ وجْهُه والصَّحْو غَيْث مُضْمَر

وقال أبو الفتح كُشَاجم :

أذِنَ الشِّتاءُ بلَهْوِهِ المستَقْبَلِ * فَـدَنَتْ أوائلُه بغيثٍ مُسْبَلِ
مُتَكاثِفِ الأنواءِ مُنْغَدِقِ الحَيَا * هَطِلِ النَّدَى هَزِجِ الرُّعود بجُلْجُلِ
جاءتْ بعَزْلِ الجَدْبِ فيهِ فبَشَّرتْ * بالخِصْبِ أنواءُ السِّمَاكِ الأعْزَلِ

وقد وَلِع الناسُ بذكْرِ الاعتدادِ لها قديما وحديثا .

قيل لأعرابي ماأعدَدْتَ للبرد ؟ فقال طُولُ الرِّعْده، وتَقَرْفُص القِعْده، وذوبُ(١) المِعْده . أخذه ابن سُكَّرة، فقال :

قِيلَ ماأعْدَدْتَ للبَرْ * دِ وقد جاء بِشِدّه
قُلْتُ دُرَّاعةُ عُرْيٍ * تَحْتَها جُبَّةُ رِعْدَه

واعلم أن ما تقدّم من أزمان الفصول الأربعة هو المصطَلَح المعروف، والطريق المشهور . وقد ذكر الأبّيّ فى كتاب الدرّ أن العرب قسَّمت السنةَ أربعة أجزاء فجعلوا الجزء الأوّل الصَّفَرِيَّة، وسَمَّوا مطرَه الوَسْمِيَّ، وأوّلُه عندهم سُقُوط عَرْقُوة الدَّلْو السُّفْلَى، وآخِرُه سقُوط الهَقْعة، وجعلوا الجزء الثانى الشتاء، وأوّله سقوط الهَنْعة،

(١) لعل الصواب وذَرَب بالراء بدل الواو .

وآخره سقوطُ الصَّرْفة . وجعلوا الجزء الثالث الصيف، وأوّله سقُوط العوّاء، وآخره سقُوط الشَّوْلة . وجعلوا الجزء الرابع القَيْظ، وسموا مطَره الخَريف، وأوّله سقُوط النَّعائم، وآخره سقوط عَرْقُوَة الدَّلْو العُلْيا .

وذكر ابن قتيبة فى " أدب الكاتب " طريقا آخر فقال .

"الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذى يتبعُ الشتاءَ، ويأتى فيه الوردُ والكَمْأَة، والنَّوْر؛ ولا يعرِفون الربيع غيرَه . والعرب تختلف فى ذلك : فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تُدْرِك فيه الثمارُ، وهو الخريف ، وبعده فصلُ الشتاء ، ثم فصل الصيف : وهو الوقت الذى تسمِّيه العامَّةُ الربيعَ ؛ ثم فصلُ القَيْظ : وهو الذى تسميه العامة الصيفَ ، ومنهم من يسمِّى الفصلَ الذى تُدْرِك فيه الثمارُ : وهو الخريف الربيعَ الأوّل، ويسمِّى الفصل الذى يلى الشتاء وتأتى فيه الكَمْأَة والنَّوْر الربيعَ الثانى؛ وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع" .

وفى بعض التعاليق أن من العرب من جعل السنة ستة أزْمنة . الأوّل الوَسْمِىّ وحِصَّتُه من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازلَ وثُلثا منزلةٍ : وهى العَوّاء، والسِّماك والغَفْر، والزُّبَانانِ، وثلثَا الإكليل . الثانى الشتاءُ، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلُثا منزلة : وهى ثلُثُ الإكليل، والقلبُ، والشَّوْلة، والنَّعائمُ، والبَلْدة ، وثلُثُ الذَّابِح . الثالث الربيع ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلثَا منزلةٍ ، وهى ثلثَا الذابح ، وبُلَعُ ، والسُّعُود ، والأَخْبِيَةُ ، والفَرْغ المقدّم . الرابع الصيف، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل وثلثا منزلة، وهى الفَرْغ المؤخَّر، وبطْن الحوت ، والشَّرطان ، والبُطَين ، وثلثا الثريّا . الخامس الحَميم، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلثَا منزلة : وهى ثلث الثريا ، والدَّبرانُ ، والهَقْعة ، والهَنْعة ، والذِّراع وثلُثُ النثرة . السادس

الخريف، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلُثَا منزلة : وهى، ثلثا النَّثْرة، والطَّرْف، والجَبْهة، والخَرَتان، والصَّرْفة .

والأوائل من علماء الطِّب يقسِمُون السنة إلىٰ الفصول الأربعة إلا أنهم يجعلون الشتاء والصيف أطولَ زمانا وأزيد مُدَّة من الربيع والخريف ، فيجعلون الشِّتاء أربعةَ أشهر، والصيفَ أربعة أشهر، والربيع شهرين، والخريف شهرين، إذ كانا متوسطَين بين الحرّ والبرد وليس فى مُدّتهما طُول ولا فى زمانهما ٱتِّساع .

وٱعلم أن ما تقدّم من تفضيل بعض الفُصول علىٰ بعض إنما هو أقاويل الشُّعَراء وأفانينُ الأدباء، تفنُّنا فى البلاغة، وإلا فالواضع حكيم جعل هذه الفصولَ مشتملةً علىٰ الحرّ تارة وعلىٰ البرد أخرىٰ لمَصَالح العباد، ورتَّبها ترتيبا خاصًّا علىٰ التدريج، يفهَم ذلك أهلُ العقول وأرباب الحِكْمة، جلَّتْ صنعتهُ أن تكون عَرِيَّة عن الحكمة أو موضوعة فى غير موضعها ﴿ماتَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ من تَفَاوُتٍ فارجِعِ البَصَرهَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ ثم ٱرْجِعِ البَصَرَ كَرَّتيْنِ يَنْقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خاسِئًا وهو حَسِيرٌ﴾ :

الطـــرف الرابع

(فى أعياد الأمم ومواسمها : وفيه خمس جمل)

الجملة الأُولىٰ

(فى أعيـاد المسلمين)

واعلم أن الذى وردت به الشريعة وجاءت به السنَّة عيدانِ : عيدُ الفِطْر، وعيدُ الأضحىٰ . والسبب فى ٱتخاذهما مارواه أبو داود فى سُنَنه عن أنس بن مالك رضى الله عنه "أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدِم المدينةَ ولِأهْلِها يَوْمانِ يَلْعَبُونَ فيهما، فقال : ماهٰذانِ اليَوْمان؟ فقالوا كُنَّا نَلْعَبُ فيهما فى الجاهليَّةِ ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم إنّ اللهَ عزَ وجلَّ قد بَدَّلَكُمْ خيرًا مِنْهما يومَ الأضحى، ويومَ الفِطْر" فأوّل مابُدِئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك فى سنة آثنتين من الهجرة . وروى آبن باطيش فى كتاب الأوائل أن أوّل عيد ضحّى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سنةَ آثنتين من الهجرة وخرج إلى المصلّى للصلاة، وحينئذ فيكون العيدانِ قد شُرِعا فى سنةٍ واحدة؛ نعم قد آبتدعت الشيعة عيدا ثالثا وسمّوه عيد الغَدير . وسبب آتخاذهم له مؤاخاة النبيّ صلى الله عليه وسلم لعلىّ كرم الله وجهه يومَ غَدِير خُمّ : وهوغَدِير على ثلاثة أميال من الجُحْفة يَسْرَةَ الطريق تصُبّ فيه عينٌ وحوله شجرٌ كثير، وهى الغَيْضة التى تسمّى خُمًّا . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من حَجّة الوَدَاع نزل بالغَدير وآخى بين الصحابةِ ولم يؤاخِ بين علىٍّ وبينَ أحدٍ منهم فرأى النبىّ صلى الله عليه وسلم منه آنكسارا فضمَّه إليه وقال "أمَا تَرْضَى أن تكونَ مِنّى بمنزلة هارُونَ من مُوسى إلا أنّه لا نبىَّ بَعْدِى والتفتَ إلى أصحابه وقال مَنْ كُنْت مَوْلاه فعلىّ مَوْلاه ، اللهم وَالِ مَنْ وَالاهُ، وعادِ مَنْ عاداه" وكان ذلك فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنةَ عشرٍ من الهجرة . والشيعة يُحيُون ليلةَ هذا العيد بالصلاة ويصلُّون فى صبيحتها ركعتين قبل الزوال وشِعارُهم فيه لُبْس الجديد، وعِتْقُ العبيد، وذَبْح الأغنام، وإلحاق الأجانب بالأهل فى الإكرام . والشعراء والمترسلون يهنّئون الكبراء منهم بهذا العيد .

الجملة الثانية

(فى أعياد الفرس)

وكان دينهم المجوسية، وأعيادهم كثيرة جدّا حتّى إن علىّ بن حمزة الأصبهانىّ عَمِل فيها كتابا ذكر فيه أسباب آتخاذهم لها، وسببَ سُلُوكهم فيها؛ وقد آقتصرنا منها على المشهور الذى وَلِع الشعراءُ بذكره، وآعتنى الأمراء بأمره؛ وهى سبعة أعياد .

العيد الأوّل النَّيْروز ـــ وهو تعريب نُوروز ، ويقال إن أوّل من ٱتخذه جم شاد أحد ملوك الطبقة الثـانية من الفُرْس ومعنىٰ شاد الشُّـعاع والضياء . وإن سبب ٱتخاذهم لهذا اليوم عيدا أن الدِّين كان قد فســد قبله ، فلمـا ملك جدّده وأظهره، فسمِّى اليوم الذى ملك فيه نوروز أى اليوم الجديد. وفى بعض التعاليق أن جم شاد ملَك الأقاليمَ السـبعةَ والجنّ والإنس ، فٱتخـذ له عَجَلة رِكبَها ؛ وكان أوّل يوم ركبها فيه أوّل يوم من شهر افرودين ماه، وكان مدّة ملكه لا يُريهم وجهه، فلما ركبها أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ من الجَمَـال وافرٌ، فجعـلوا يوم رؤيتهم له عيدا، وسمَّوْه نوروزا . ومن الفرس من يزعُم أنه اليومُ الذى خلق الله فيه النُّور، وأنه كان معظَّما قبـل جم شاد . وبعضهم يزعم أنه أوّل الزمان الذى ٱبتدأ الفَلَكُ فيـه بالدَّوَران . ومدّته عندهم ستة أيام أوّلهـا اليوم الأوّل من شهر افرودين ماه الذى هو أوّل شهور سنتهم . ويسـمُّون اليومَ السادس النُّوروزَ الكبير، لأن الأكاسرة كانوا يقضُون فى الأيام الخمسة حوائجَ الناس علىٰ طَبَقاتهم، ثم ينتقلون إلىٰ مجالس أُنْسِهم مع ظُرَفاء خواصِّهم .

وحكىٰ ٱبن المقفَّع أنه كان من عادتهم فيه أن يأتىَ الملِكَ رجل من الليل قد أُرْصِد لما يفعله ، مليح الوجه ، فيقفُ علىٰ الباب حتّى يُصْبِح ، فإذا أصبح دخل علىٰ الملِك من غير ٱستئذان ، ويقف حيثُ يراه ، فيقول له : من أنتَ ؟ ومن أين أقبلتَ ؟ وأيْن تُرِيد؟ وما ٱسمُك ؟ ولأىّ شىءٍ ورَدْت؟ ومامعك؟ فيقول : أنا المنصورُ! وٱسمى المُبارَك! ومن قِبَل الله أقبلتُ! والملِكَ السعيدَ أردتُ! وبالهَنَاء والسلامة ورَدْت ! ومعى السَّـنةُ الجديدة ! ثم يجلس، ويدخُلُ بعــده رجل معه طَبَق من فِضَّة وعليه حِنْطة، وشعير، وجُلْبانٌ، وحِمَّص، وسِمْسِم، وأَرُزّ : من كل واحد سَبْعُ سُنْبُلات ، وسبعُ حَبَّات ، وقطعةُ سُكَّر ، ودينارٌ ودِرْهم جديدان؛ فيضع الطبق بين

يدى المَلِك ، ثم تُدْخَل عليه الهَدَايَا ، ويكون أوّل من يدخل عليه بها وزيره ، ثم صاحب الخَرَاج ، ثم صاحبُ المَعُونة ، ثم النـاس علىٰ طبقاتهـم ؛ ثم يقدّم للملك رغيف كبيرٌ من تلك الحبوب مصنوعٌ موضوع فى سَلَّة ، فيأكُل منـه ويُطْعِم من حضر ؛ ثم يقول : هـذا يومٌ جديدٌ ، من شهر جديدٍ ، من عامٍ جديد ، يحتاج أن يُجدّد فيه ما أَخْلَقَ من الزّمان ؛ وأحق الناس بالفضـل والإحسان الرأسُ : لفَضْله علىٰ سائر الأعضاء . ثم يخلَعُ علىٰ وُجُوه دولته ، ويصِلُهم ، ويفرّق عليهم ماوصـل إليه من الهَدَايا .

وأما عوامُّ الفرس فكانت عادتُهم فيه رفعَ النار فى ليلته ، ورشَّ الماء فى صَبِيحتِه ؛ ويزعمون أن إيقاد النّيران فيه لتحليل العفُونات التى أبقاها الشّتاءُ فى الهواء . ويقال إنمـا فعلوا ذلك تنويها بذكره ، وإشهارا لأمره . وقالوا فى رَشّ المـاء : إنمـا هو بمنزلة الشُّهْرة لتطهير الأبدان ممـا آنضاف إليها من دُخَان النار المُوقَدة فى ليلته .

وقال آخرون : إن سبب رش الماء فيه أن فَيْروز بن يزدجرد لما آستتم سُورَ جَىّ ، وهى أَصْبَهان القديمة لم تُمْطَر سبعَ سـنين فى مُلْكه ؛ ثم مُطِرت فى هذا اليوم ففرح الناسُ بالمطر وصَبُّوا من مائه علىٰ أبدانهـم من شِدّة فَرَحهم به ، فصار ذلك سُـنّة عندهم فى ذلك اليوم من كل عام ، وما أحْلىٰ قولَ بعضهم يخاطب مَنْ يهواه ، ويذكر ما يُعتَمَد فى النيروز من شب النّيران وصَبّ الأمواه :

كَيْفَ آبتِهاجُكَ بالنَّيْروزِ ياسَكَنِى * وكلُّ مافيــه يَحْكِينى وأَحْكيهِ
فتارَةً كلَهِيب النَّارِ فى كَبِـدِى * وتارةً كتَــوَالِى عَــبْرَتِى فيهِ
أَسْلَمْتَنِى فيه ياسُؤْلِى إلىٰ وَصَبٍ * فكَيْفَ تُهْدىٰ إلىٰ مَنْ أنتَ تُهْدِيهِ

وأوّل من رسم هدايا النَّيْروز والمَهْرجان فى الإسلام الحجاجُ بنُ يوسفَ الثّقفىّ ، ثم رفع ذلك عمرُ بنُ عبد العزيز رضى الله عنـه ، وآستمرّ المنعُ فيه إلىٰ أن فتح باب

الهديَّة فيه أحمدُ بن يوسف الكاتبُ فإنه أهدىٰ فيه للمأمون سَـفَطَ ذهبٍ فيه قِطْعة عُودٍ هندىّ فى طُوله وعَرْضه، وكتب معه : هــذا يومٌ جَرَتْ فيه العاده، بإتحاف العَبيد الساده، وقد قلت :

عَلىٰ العَبْدِ حَقٌّ وهْو لاشَكَّ فاعِلُهْ * وإن عَظُم المَوْلىٰ وجَلَّتْ فَواضِلُهْ

أَلَمْ تَرَنَا نُهْــدِى إلىٰ الله مالَهُ * وإنْ كان عَنْهُ ذاغِنًى فهو قابِلُهْ

فلَوْ كان يُهْـدىٰ للجَليلِ بقَدْرِه * لَقَصَّر عَنْهُ البَحْرُ يَوْمًا وساحِلُهْ

ولٰكِنَّنا نُهْـدِى إلىٰ مَنْ نُجِلُّهُ * وإنْ لم يَكُنْ فى وُسْعِنا مايُشَاكِلُهُ

وكتب سعيد بن حميد إلىٰ صديقٍ له يوم نَيْروز: هٰذا يومٌ سَهَّلتْ فيه السنَّةُ للعبيد الإهــداءَ للملوك ، فتعَلَّقَتْ كلُّ طائفةٍ من البِرّ بحسَب القُدْرة والهِمَّة، ولم أَجِد فيما أملِكُ مايَفِى بحقِّــك، ووجدتُ تقريظَــك أبلغَ فى أداء مايجب لك، ومن لم يُؤْتَ فى هَدِيَّته، إلا من جِهَة قُدرته، فلا طعنَ عليه .

هذا مايتعلق بنَيْروز الفُرْس من ذكر الهَـدَايا فيه ، وإيقادِ النار، ورشِّ المـاء، وأوّلِ من سنَّه . وأما تعلُّقه بالخراج فسيأتى الكلام علىٰ ذلك إن شاء الله تعالىٰ عند الكلام علىٰ جِبَاية الخَراج فى فنِّ الدِّيْونة .

العيد الثانى من أعياد الفُرس المَهْرجانُ ـــ وهو فى السادس والعشرين من تشرين الأوّل من شهور السُّرْيان، وفى السادس عشر من مَهْرماه من شهور الفُرْس، وفى التاسع من أبيب من شُهور القبط ؛ و بينـه وبين النيروز مائةٌ وسبعةٌ وستون يوما، وهذا الأوانُ فى وسط زمان الخريف، وفى ذلك يقول الشاعر :

أُحِبُّ المَهْرَجانَ: لأنَّ فيه * سُرورًا للُملوك ذَوِى السَّناء

وباباً للمَصِـــيرِ إلىٰ أَوانٍ * تُفَتَّحُ فيـه أبوابُ السَّماء

ومدّته ستة أيام، ويُسمّى اليوم السادس منه المَهْرجان الاكبر، كما يُسمّى اليوم السادس من أيام النَّيْروز عندهم النيروز الأكبر،

قال المسعودى : وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم أنهم كانوا يُسمُّون شُهُورهم بأسماء ملوكهم، وكان لهم ملك يسمّى مَهْر، يسير فيهم بالعُنْف والعَسْف، فمات فى النصف من هذا الشهر، وهو مَهْرماه، فسمّى ذلك اليوم مهرجان، وتفسيره نفس مهر ذهبت، والفُرْس تقدّم فى لغتها ماتؤخره العرب فى كلامها وهذه اللغة الفهلوية وهى الفارسية الأولىٰ . وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حِفَاظ وجان الروح، وفى ذلك يقول عبيدُ الله بن عبدِ الله بن طاهر :

إذا ما تَحَقَّقَ بالمَهْرَجا * نِ مَنْ لَيْس يَعْرِفُ مَعْناهُ غاظا
ومَعْناهُ أن غَلَبَ الفُرْسُ فِيهْ * فَسَمَّوْهُ للرُّوح فِيهِ حِفَاظا

ويقال إنما ظهر فى عهد افريدون الملك، ومعنىٰ هذا الاسم إدْراكُ الثار، وذلك أن افريدون أخذ بثار جدّه جم شاد من الضَّحَّاك، فانه كان أفسد دينَ المَجُوسيَّة وخرج علىٰ جم شاد فأخذ منه المُلْك وقتله، فلما غَلَبه افريدون قتله بجبل دُنْباوَنْدَ، وأعاد المجوسية إلىٰ ما كانت، فاتَّخذ الفُرُس يوم قَتْله عيدا، وسمَّوْه مَهْرجان، والمهر الوفاء، وجان سلطان، وكان معناه سلطان الوفاء،

وزعم بعضُ الفُرْس أن الضحَّاك هو النُّمْرود وافريدون هو إبراهيم عليه السلام، بلغتهم .

ويقال إن المَهْرجان هو اليوم الذى عُقِد فيه التاج علىٰ رأس اردشير بن بابك، أوّل ملوك الفُرْس الساسانيَّة . وكان مذهب الفرس فى المهرجان أن يَدَّهِن ملكُهم بدُهن البان تبرُّكا، وكذلك العوام، وأن يَلْبَس القصبَ والوَشْى، ويتوّج بتاج عليه صورة الشمس وعجلتها الدائرة عليها، ويكون أوّل مَنْ يدخل إليه المُوبَذان بطبق فيه

أُتْرُجَّة، وقطعة سُكَّر، ونَبِقٌ، وسَفَرْجل، وعُنَّاب، وتُفَّاح، وعنقودُ عِنَب أبيض، وسبع طاقاتِ آسٍ، قد زَمْزَم عليها؛ ثم تدخُل الناس علىٰ طبقاتهم بمثل ذلك، وربما كانوا يذهَبون إلىٰ تفضيله علىٰ النَّيروز، وفيه يقول عبيدُ الله بن عبد الله بن طاهر:

أخَا الفُرْسِ إن الفُرْس تَعْلَمُ إنَّهُ * لَأَطْيَبُ مِنْ نَيرُوزِها مَهْرَجَانُها
لِإدبار أيَّامٍ يغُمُّ هـــواؤُها * وإقْبـالِ أيَّامٍ يَسُرّ زَمَانُهـا

قال المسعودى: وأهلُ المُرُوءات بالعراق وغيرها من مُدُن العجم يجعلون هـذا اليوم أوّلَ يوم من الشتاء فيُغَيِّرون فيه الفُرُش والآلاتِ، وكثيرا من المَلَابس.

العيد الثالث السَّذَق ـ ويسمَّى أبان روز، ويعمل فى ليلة الحادى عَشَر من شهر بهمن ماه من شهور الفُرْس، وسُنَّتهم فيه إيقاد النِّيران بسائر الأدهان والوَلُوع بها حتَّى إنهم يُلْقُون فيها سائر الحُبُوب؛ ويقال إن سبب ٱتخاذهم لهذا العيد أن الأب الأوّل، وهو عندهم كيومرت لما كمل له من ولده مائةُ ولد زوّج الذكور بالإناث، وصنع لهم عُرْسا أكثر فيه وَقُود النيران، ووافق ذلك الليلةَ المذكورة فاستسنَّتْ ذلك الفرسُ بعده. وقد وَلِعت الشعراءُ بوصف هذه الليلة فقال أبو القاسم المطرِّز يصف سَذَقا عمِله السلطان ملكشاه بدَجْلة، أشعل فيه النِّيران والشموعَ فى السُّمَارِيَّات(١) من أبيات:

وكُلُّ نارٍ علىٰ العُشَّاقِ مُضْرَمَـــةٌ * من نارِ قَلْبِي أوْ مِنْ لَيْـلَةِ السَّـــذَقِ
نارٌ تَجَلَّتْ بهـا الظَّلْمـاءُ وٱشتَبَهَتْ * بسُـــدْفة الليـــل فيهـا غُرَّة الفَلَقِ
وزارتِ الشمْسُ فيها البَدْرَ وٱصطَلَحا * علىٰ الكَواكِبِ بَعْـــدَ الغيْظ والحَنَقِ
مَدَّتْ علىٰ الأرض بُسْطًا من جَوَاهِرِها * ما بَيْنَ مُجْتَمِـــعٍ وارٍ ومُفْـــتَرِق
مِثْـــلَ المَصَابِيحِ إلَّا أنَّهَـا نَزَلَتْ * مِنَ السَّماءِ بـــلا رَجْمٍ ولا حَرَقِ
أعْجِبْ بِنَـارٍ ورِضْـوانٌ يسَـــعِّرُها * ومالكٌ قائمٌ منهـا عـلىٰ فَـرَقِ
فى مَجْلِسٍ ضَحِكتْ رَوْضُ الجِنَان لَهُ * لمـا جَلَا ثَغْـرُه عن واضحٍ يَقَقِ

(١) كذا فى نهاية الارب أيضا والاظهر السُّمَيْرِيَّات وهو اسم لنوع من السفن.

وقال ٱبن حجاج من أبيات، يمدح بها عَضُد الدولة :

لَيْلَتُنَا حُسْنُهَا عَجِيبُ * بالقَصْف والتِّيه قد تَحَقَّقْ
لِنَارِها فى السَّما لِسانٌ * عن نُور ضَوْءِ الصَّبَاح يَنْطِقْ
والجَوُّ منها قد صارَ جَمْرا * والنَّجْمُ منها قد كاد يُحْرِقْ
ودِجْلَةٌ أُضْرِمتْ حَرِيقًا * بألْفِ نارٍ وألِف زَوْرق
فماؤُها كُلُّهُ حَمِيمٌ * قد فار مما غَلَى وبَقْبَق

وقال عبد العزيز بن نُبَاتَةَ من أبيات يمدح بها عضد الدولة أيضا :

لَعَمْرِى لقَدْ أذْكَى الهُمَامُ بأرْضِهِ * مُشَهَّرَةً يَنْتَابُها الفخرُ صالِيَا
تَغِيبُ النُّجُوم الزُّهْرُ عِنْدَ طُلُوعِها * وتَحْسُدُ أيَّامُ الشُّهورِ اللَّيالِيَا
قِلادَةُ مَجْدٍ أغْفلَ الدَّهْرُ نَظْمَها * عليه (١) وقد السِّنِينَ الخَوالِيَا
هِىَ اللَّيْلَةُ الغَرَّاءُ فى كُلِّ شَتْوَةٍ * تُغَادِرُ جِيدَ الدَّهْرِ أبْلَجَ حالِيَا

العيد الرابع الشركان ـ وهو فى الثالث عشر من تيرماه من شهور الفُرْس، زعموا أن أرس رمى سهمه لما وقعت المُصالحةُ بين منوجهر وقراسياب التركى من المملكة على رَمْية سهم، فٱمتدّ السهمُ من جبال طَبَرِسْتان إلى أعالى طخارِستان .

العيد الخامس أيام الفرودجان ـ وهى خمسة أيام؛ أوّلها السادس والعشرون من أبان ماه من شهور الفُرْس، ومعناه تربِيَة الرُّوح : لأنهم كانوا يعملون فيها أطعمةً وأشربةً لأرواح موتاهم، ويزعمون أنها تغتذى بها .

العيد السادس رُكُوب الكَوْسَج ـ ويعمل فى أوّل يوم من ادرماه من شهور الفُرْس، وسُنَّتهم فيه أن يركب فى كل بلد من بلادهم رجل كَوْسَج، قد أُعِدّ لما يُصْنَع

(١) كذا فى الاصل . ولعله وقد بذ الخ

به بأكل الأطعمة الحارّة كالجَوْز، والثُّوم، واللَّحْم السمين ونحوها، وبشُرْب الشراب الصِّرف أيّاما قبل حلول الشهر، فإذا حلَّ الشهر لبس غِلالةً سابُورِيَّة، وركب بقرة وأخذ علىٰ يده غُرابا، ويتْبَعه الناس يصُبُّون عليه الماء، ويَضْرِبونه بالثَّلْج، ويروِّحُون عليه بالمَرَاوح، وهو يصيح بالفارسية كرم كرم أى الحرّ الحرّ، يفعل ذلك سبعةَ أيام، ومعه أوباش الناس ينهَبُون ما يجِدُون من الأمتعة فى الحوانيت؛ وللسلطان عليهم مال، فإذا وُجِدوا بعد عصر اليوم السابع ضُرِبوا وحُبِسوا .

قال المسعودى : ولا يُعْرَف ذلك إلا بالعراق، وأرض العجم؛ وأهلُ الشام والجزيرة ومصرَ واليمن لا يعرفون ذلك . ويقال إن هذا الفِعْل كان يتداوله أهلُ كل بيت منهم كَوْسَجٌ، وحكىٰ الزمخشرى فى كتابه "ربيع الأبرار" أن سبب ذلك أن كَوْسجا كان يَشْرَب فى هذه الأيام الدَّواء، ويَطْلِى بدنه فيها فغَلَب عليها، وفى ذلك يقول الشاعر :

قَدْ رَكِبَ الكَوْسَجُ ياصَاحِ * فَٱنْزِلْ علىٰ الزَّهْرة والرَّاحِ
وَٱنْعَمْ بآذِرْماه عَيْشًا وخُذْ * من لَذَّة العَيْشِ بأفْيَاحِ

والسَّنَة عندهم منقسمة علىٰ أقسام، فى أوّل كل قسم منها خمسةُ أيَّام تسمّى الكنبهارات، زعم زرادشت أن فى كل يوم خلق الله تعالىٰ نوعا من الخليقة فهم يتخذونها أعيادا لذلك .

العيد السابع عيد بهمنجة — ويتخذونه فى يوم بهمن من شهر بهمن ماه، وسُنَّتهم فيه أنهم يأكلون فيه البَهْمَن الأبيض باللَّبن الحامض علىٰ أنه ينفع الحفظ؛ ورؤساء خُراسانَ يعملون فيه الدَّعَوات علىٰ طعامٍ يطبُخُون فيه كلَّ حبٍّ مأكولٍ ولحم حيوانٍ يؤكل، ويحضر ما يوجد فى ذلك الوقت من بقل أو نبات .

فهذه أعياد الفُرْس المشهورة الدائرة بين عامّتهم وخاصّتهم .

الجملة الثالثة
(فى أعياد القبط)

وآعلم أن أعياد القبط كثيرة، وقد أتينا علىٰ ذكر تفصيلها سردا فى خلال شهور القبط مع ذكر غيرها ، وأوردنا كلَّ عيد منها فى يومه من شهور القِبْط، وربما ذكرنا بعضها أيضا فى شهور السُّريان والروم، علىٰ أن منها مالا يتعلق بوقتٍ مقيدٍ كالفِصْح الأكبر عندهم، فإنه متعلق بفِطْرهم من صومهم الأكبر، وهو غير مؤقت بوقتٍ معينٍ، بل يتغير بالتقديم والتأخير قليلا علىٰ ما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالىٰ، ونحن نقتصر فى هذا الفصل علىٰ المشهور من أعيادهم دون غيره ، ونبين أوقاتها ، ونشرح أسبابها . وهى أربعة عشر عيدا . وهى علىٰ ضربين : كبار وصغار .

الضرب الأوّل
(الكبار : وهى سبعة)

العيد الأول البِشارة، ويَعْنون به بِشارة غِبْرِيال، (وهو جبريل علىٰ زعمهم) لمريم عليها السلام بميلاد عيسىٰ صلواتُ الله عليه، يعْمَلُونه فى التاسع والعشرين من بَرمهات من شهور القبط .

الثانى الزَّيْتونة، وهو عيد الشَّعانين، وتفسيرُه بالعربيَّة التَّسْبيح، يعملونه فى سابع أحد من صومهم . وسنَّتُهم فيه أن يَخْرُجوا بسَعَف النخل من الكنيسة، وهو يوم ركوب المسيح لليَعْفُور، (وهو الحمار) فى القُدْس ودُخولِه صِهْيَوْن وهو راكب والناس يسبِّحُون بين يديه، يأمر بالمعروف ويَنْهىٰ عن المنكر .

الثالث الفِصْح، وهو العيد الكبير عندهم، يعْمَلونه يوم الفِطر من صومهم الأكبر، يزعُمُون أن المسيح قام فيه بعْدَ الصَّلَبُوت بثلاثة أيام، وخَلَّص آدم من

الجحيم، وأقام فى الأرض أربعين يوما آخرهـا يوم الخميس، ثم صَـعِد إلىٰ السماء . قاتَلَهُمُ اللهُ أنّى يُؤْفَكُون .

الرابع خميس الأربعين، ويسميه الشامِيُّون السُّلَّاق : وهو الثانى والأربعون من الفِطْر، يقولون إن المَسِيح عليه السلام تَسَلَّق فيه من تلاميذه إلىٰ السماء بعد القيام، ووعدهم بارسال الفارقليط، وهو رُوح القُدُس عندهم .

الخامس عيد الخميس، وهو عيد العُنْصُرة يعملونه بعـد خمسين يوما من القيام؛ وهو فى السادس والعشرين من بشنس، ويقولون إن رُوح القُدُس حلَّتْ فى التلاميذ وتفرّقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة، وذهب كلُّ واحد منهم إلىٰ بلاد لسانِهِ الذى تكلَّم به يدعوهم إلىٰ دين المسيح .

السادس الميلاد، وهو اليوم الذى يقولون إن المسيح ولد فيه ببيتِ لَحْمٍ (قرية من أعمـال فِلَسْطين) ويعملونه فى التاسع والعشرين من كيهك من شهور القِبْط، وهم يقولون إنه وُلِد يوم الاثنين، فيجعلون عشـيَّةَ الأحد ليلةَ المِيلاد، فيُوقِدون فيهـا المصابيحَ بالكنائس ويزيِّنُونها .

السابع الغِطَاس، يعملونه فى الحادى عشَرَ من طوبه، من شهور القبط . يقولون إن يحيىٰ بن زكريَّا عليه السلام وينعَتُونه بالمعمدان غَسَل عيسىٰ عليه السلام بِبُحَيرة الأُرْدُنّ، وأن عيسىٰ لمـا خرج من المـاء اتصل به روح القدس علىٰ هيئة حمامة، والنصارىٰ يغْمِسون أولادهم فيه فى المـاء علىٰ أنه يقع فى شـدّة البرد، إلا أنّ عقبه يحمىٰ الوقت، يقول المصريون : غَطَّستم صيَّفتم، ونَوْرَزْتم شَتَّيتم .

الضرب الثاني

(من أعياد القبط الأعياد الصِّغار . وهى سبعة أيام)

الأوّل الخِتَان، ويعملونه فى سادس بَـونة من شُهور القبط . ويقولون : إن المسيح خُتِن فى هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

الثانى الأربعون، يعملونه فى الثامن من شهر أمشير من شُهور القبط، ويقولون : إن سَمْعان الكاهن دخل بعيسىٰ عليه السـلام مع أمه بعد أربعـين يوما من ميلاده الهَيْكَل وبارك عليـه ؛ تلك عقول أضلَّها باريها، وإلا فأين مَقَامُ الكاهن من مَقَام عيسىٰ عليه السلام . وهو رُوح الله وكلمتُه .

الثالث خَمِيس العهد، يعملونه قبل الفِصْح بثلاثة أيام، وشأنهم أن يأخذوا إناء ويملـئوه ماء ويزمزموا عليه، ثم يغسل البطريرك به أرجل جميع النصارىٰ الحاضرين، ويزعمون أنّ المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه فى هذا اليوم يعلِّمُهم التواضعَ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضُهم لبعض، والعامّة من النصارىٰ يُسمُّون هذا الخميس خميس العَدَس ؛ وهم يطبخون فيه العَدَس علىٰ ألوانٍ .

الرابع سَبْت النُّور، وهو قبل الفِصْح بيوم . يقولون : إن النُّور يظهر علىٰ مقبُرَة المسيح فى هـذا اليوم فتشتعِل منه مصابيحُ كنيسةِ القُمامة بالقُدْس . قال صاحب "مناهج الفكر" وغيره : وما ذاك إلا من تخييلاتهم النيرنجية التى يفعلها القِسِّيسون منهم ليستميلُوا بها عقولَ عوامِّهم الضعيفةَ . وذلك أنهم يعلِّقون القناديل فى بيت المَذْبَح ويتحيَّلُون فى إيصال النار إليها بأن يمدّوا علىٰ جميعها شريطا من حديد فى غاية الدقة مدهونا بدُهْن البَلَسان ودهن الزنبق، فإذا صلَّوْا وجاء وقتُ الزوال فتحُوا المَذْبَح فتدخل الناس إليه، وقد آشتعلت فيه الشموعُ ويتوصّلُ بعضُ القوم إلىٰ أن يُعْلِق

النـار بطَرَف الشريط الحديد فتسرى عليـه فتتقد القناديل واحدا بعد واحد ، إذ من طبيعة دُهْن البَلَسان عُلُوق النار فيه بسُرْعة مع أدنىٰ ملامسة ، فيظنّ مَنْ حضر من ذوى العُقول الناقصةِ أن النار نزلتْ من السماء فأوقدتِ القناديلَ ، فالحمد لله علىٰ الإسلام .

الخـامس حدّ الحُدُود ، وهو بعـد الفِصْح بثمانية أيام ، يعملونه أوّل أحدٍ بعـد الفِطْر : لأن الآحاد قبله مشغولةٌ بالصوم ، وفيه يجدّدون الآلات وأَثَاث البُيوت ، ومنه يأخذون فى الاستعداد للمعاملات والأمور الدُّنْيويّةِ .

السادس التجلّى ، ويعملونه فى الثالث عشر من مسرىٰ من شهور القبط ، وآخره السابع والعشرون منها . يقولون : إن المسـيح عليه السـلام تجلّى لتلاميذه بعد أن رُفِع فى هذا اليوم ، وتمنَّوْا عليه أن يُحْضِرَ لهم إيليا وموسىٰ عليهما السلام ، فأحضرهما لهم بمصلّى بيت المَقْدِس ثم صَعِدَ وصَعِدا .

السابع عيد الصَّليب ، وهو فى السابع عشر من توت من شهور القبط ، والنصارىٰ يقولون : إن قُسْطَنطين بن هيلانى انتقل عن اعتقاد اليونان إلىٰ اعتقاد النصرانيـة وبنىٰ كنيسة قُسْطَنْطِينية العظمىٰ وسائر كنائس الشام ، ويزعمون أن سبب ذلك أنه كان مجاورا للبُرْجان (١) فضـاق بهم ذَرْعا من كثرة غاراتهم علىٰ بلاده ، فهمّ أن يصانعهم ويَفْرِض لهم عليه إتاوة فى كلّ عام ليكفُّوا عنه ، فرأىٰ ليلةً فى المنام أن ملائكةً نزلتْ من السماء ، ومعها أعلامٌ عليها صُلْبانٌ فحاربت البُرْجان فانهزمُوا ؛ فلمـا أصبح عمل أعلاما وصوّر فيها صُلْبانا ثم قاتل بهـا البُرْجان فهزمهم ، فسأل من كان فى بلده من التُّجّار هل يعرِفون فيما طافوه من البلاد دينا هـذا زِيُّه ؟ فقـالوا له دينُ النصرانيّة وإنه فى بلد القُدْس والخليـل من أرض الشـام . فأمر أهل مملكته بالرُّجُوع عن دينهم إليه ، وأن يقُصُّوا شعورَهم ويحلِقُوا لحَاهم . وإنمـا فعل ذلك لأنهم يزعمون

(١) البُرْجان جنس من الروم (قاموس) .

أن رُسُل عيسىٰ عليه السلام كانوا قد ورَدُوا علىٰ اليُونان قبلُ يأمرونهم بالتعبُّد بدين النصرانيـة فأعرضوا عنهم ومَثَّلوا بهم هـذه المُثْلة نَكَالا لهم ففعلوا ذلك تأسِّياً بهم .
ولمـا تنصَّر قسطنطين خرجت أمّه هيـلانى إلىٰ الشام فبنت به الكنائس، وسارتْ إلىٰ بيت المَقْـدِس وطلبت الخشـبةَ التى زعمتِ النصارىٰ أن المسيح صُلِب عليها فحُمِلتْ إليها فغشَّتْها بالذهب، وٱتخذت ذلك اليوم عيدا .

وسيأتى الكلام علىٰ ذلك مفصَّلا فى ترجمة قُسْطنطين فى خاتمة الكتاب عند ذكر الملوك الذين ٱسـتَوْلَوْا علىٰ الديار المصرية ، وفيما ذكرنا هنا مَقْنع والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقد صار من أعيـادهم المشهورة بالديار المصرية النَّيْروز، وهو أوّل يوم من سنَتِهم، وإن لفظة النيروز فارسـية معرّبة، وكأن القبط والله أعلم ٱتخذوا ذلك علىٰ طريقة الفُرْس وٱسـتعاروا ٱسمه منهـم فسمَّوُا اليوم الأوّل من سَنتِهم أيضا نَيْروزا وجعلوه عيدا .

قال فى "مناهج الفكر" وهم يظهرون فيه من الفَرح والسرور، وإيقاد النيران، وصَبِّ الأمواه أضعافَ مايفعله الفُرْس، ويشاركهم فيه العوامُّ من المسلمين .

قال المسعودىّ : وأهل الشام يعملون مثلَ ذلك فى أوّل سنتهم أيضا، وهو أوّل يوم من ينير من شهور الروم ويوافقه كانون الثانى : وهو الشهر الرابع من شهور السُّرْيان ، وذلك فى السادس من طوبة من شهور القبط ، ويسمُّونه القلنـداس، إلا أن أهل مِصْر يزيدون فيه التَّصَافُع بالأنطاع ، وربمـا حملهم تركُ الآحتشام علىٰ ان يتجرءُوا علىٰ الرجل المُطَاع، ولولا أنَّ وُلاة الأمر يرْدَعُونهم ويمنعونهم من ذلك، لمنعُوا الطريقَ من السالك، وهم مع ذلك مَنْ ظَفِروا به لايتركونه إلا بمـا يُرْضيهم .
والذى ٱستقرّ عليه الحال بالديار المصرية إلىٰ آخر سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة أنهم

يقتصرون على رَشّ الأمواه والتَّصافُع، وترك الاحتشـام دون إيقاد النيران، إلا من يفعل ذلك من النصارى فى بيته أو خاصّته .

ولهم أعياد ومواسمُ سِوى ما تقـدّم، ذكرها صاحب التذكرة ونحن نذكرها على ترتيب شهور القبط، وهى :

عيد سيغورس، وعيد متّى الإنجيلى، وهمـا فى الثانى من توت . عيد سَمْعان الحبيس، وهو فى الرابع من توت . عيـد ماما، وهو فى الخـامس من توت . عيد شـعيا، وهو فى السادس من توت . عيد ساويرس، وهو فى السابع من توت . عيد موسى النبيّ عليه السـلام، وهو فى الثـامن من توت . عيد تُوما التلميذ، وهو فى التاسع من توت . وخروج نُوحٍ عليه السلام من السفينة، ومَوْلِد مَرْيَمَ عليها السلام، وهما فى العاشر من توت . عيد باسيليوس، وهو فى الحادى عشَرَ من توت . عيد ميخائيل، وصوم جدليا، وهما فى الثالث عشَرَ من توت . عيد سمعان الحبيس، وعيد تادرس الشهيد، وهمـا فى الرابع عشر من توت . عيد اسفانوس، وهو فى السادس عشر من توت . وصوم كبور، وهو فى العشرين من توت . ونياحة أبى جرج، وهى فى الثانى والعشرين من توت . عيد أولاد الفرس، وهو فى الثالث والعشرين من توت . عيد أليصابات، وهو فى السادس والعشرين من توت . عيد اسطاتوا، وانتقال يوحنا، وهما فى السـابع والعشرين من توت . عيد اجرويفون، وهو فى أوّل بابه . عيد سوسنان، وهو فى الثانى من بابه . عيد يعقوب بن حلفا، وهو فى الخـامس من بابه . عيد أبو بولا، وهو فى السابع من بابه . عيد تُوما، وهو فى الثامن من بابه . عيد أبى مسرجة، وهو فى العاشر من بابه . عيد يعقوب، وهو فى الحادى عشر من بابه . وشهادة متّى، وهى فى الثانى عشر من بابه . عيد الفُرَات، وهو فى الثالث عشر من بابه .

وشهادة يُوحَنّـا ؛ وهى فى العشرين من بابه . وتذكار السـيدة ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بابه . عيد لُوقا ؛ وهو فى الثـانى والعشرين من بابه . عيـدِ أبى جرج؛ وهو فى الثالث والعشرين من بابه . ودخول السيدة الهيكل؛وهو فى الحادى والعشرين من بابه . عيد يَعقوبَ و يُوسـفَ ؛ وهو فى السادس والعشرين من بابه . عيد أبى مقار؛ وهو فى السابع والعشرين من بابه . عيد مُرْقُص ؛ وهو فى آخر يوم من بابه . عيد بُطْرُس البطرك ؛ وهو فى أوّل يوم من هاتور . عيد زَكَرِيَّا ؛ وهو فى الرابع من هاتور. وآجتماع التلاميذ؛ وهو فى السادس من هاتور . وتكريزأبى جرج ؛ وهو فى السابع من هاتور . وعيد الأربع حيوانات ؛ وهو فى الثامن من هاتور . وتَذْكار الثلثمائة وثمـانية عشر؛ وهو فى التـاسع من هاتور . ونِيَاحة إسحاق؛ وهو فى العاشر من هاتور . عيد ميكائيل؛ وهو فى الثانى عشر من هاتور . وشهادة أبى مينا؛ وهو فى الخامس عشر من هاتور . عيد فيلبس الرسول؛ وهو فى التاسع عشر من هاتور . عيد أساسـياس ؛ وهو فى العشرين من هاتور . عيد شَمْعون؛ وهو فى الحادى والعشرين من هاتور . تَذْكار الشهداء، وهو فى الثانى والعشرين من هاتور . عيد مركوريوس ؛ وهو فى الرابع والعشرين من هاتور . عيدَ أبى مقورة ؛ وهو فى الخـامس والعشرين من هاتور . عيد ادفيانيوس ؛ وهو فى السادس والعشرين من هاتور . عيد يعقوب الْمُقَطَّع؛ وهو فى السابع والعشرين من هـاتور . عيد ياهور؛ وهو فى الثـانى من كيهك . عيـد اندراس ؛ وهو فى الرابع من كيهك . عيد سيورس ؛ وهو فى الخامس من كيهك . عيد بزباره ، وهو فى السابع من كيهك . عيد أيامين ؛ وهو فى الثامن من كيهك . عيد مارى نُقُولا ؛ وهو فى العـاشر من كيهك . عيـد سَمْعان؛ وهو فى الرابع عشر من كيهك ونِيَاحة يوحنا؛ وهى فى السادس عشر من كيهك؛ وصوم الميلاد؛ وهو فى الثـالث

والعشرين من كيهك . وقتل الاطفال ؛ وهو فى الثـالث من طوبه . عيد يُوحَنَّا الإنجيـلى ؛ وهو فى الرابع من طوبه . وعيد توما ؛ وهو فى السابع من طوبه . عيد الخِتَان؛ وهو فى الثامن من طوبه . عيد إبراهيم؛ وهو فى التاسع من طوبه . وصوم الغطاس؛ وأوّله العاشر من طوبه . وصوم العذارىٰ؛ وهو فى الثالث عشر من طوبه . عيد ملسوس ؛ وهو فى الرابع عشر من طوبه . عيـد غاريوس ؛ وهو فى الخامس عشر من طوبه . عيد قيلانوس؛ وهو فى السادس عشر من طوبه . عيد يوحنس ؛ وهو فى التاسع عشر من طوبه . ونزول الإنجيل، وتذكار السيدة؛ وهما فى العشرين من طوبه . وصوم نينوى؛ وهو فى الحادى والعشرين من طوبه . ومقتل يحيىٰ؛ وهو فى الرابع والعشرين من طوبه . عيد أبى بشارة؛ وهو فى الخامس والعشرين من طوبه . عيـد الشهداء؛ وهو فى السادس والعشرين من طوبه . عيد طيارس الرسول ؛ وهو فى السابع والعشرين من طوبه ؛ وآخر نيـاحة نقولا ؛ وهو فى اليوم الآخر من طوبه . عيد العذارىٰ، وعيد يهوذا ؛ وهما فى الأوّل من أمشير . عيد مقار؛ وهو فى الثانى من أمشير . ونياحة تيادرس؛ وهو فى السادس من أمشير . ونياحة برصوما ، وهو فى التاسع من أمشـير . عيد بيطن ، وشهادة يعقوب؛ وهما فى العاشر من أمشير . عيد أبى مسرجة؛ وهو فى الرابع عشر من أمشير . عيد قلانوس ؛ وهو فى السادس عشر من أمشير . عيد يعقوب الرسول ؛ وهو فى السابع عشر من أمشير . عيد بطرس الشهيد؛ وهو فى التاسع عشر من أمشير . ونزول السيدة من الجبل؛ وهو فى الحادى والعشرين من أمشير . وشهادة سدرس؛ وهو فى السادس والعشرين من أمشير . ووجود رأس يوحنا؛ وهو فى اليوم الآخر من أمشير . عيد الجلبانة؛ وهو فى الثالث من شهر برمهات . عيد أرمانوس؛ وهو فى السابع من برمهات . عيد المعمودة ؛ وهو فى التـاسع من برمهات . وظهور

الصليب ؛ وهو فى العاشر من برمهات . عيد أبى مينا ؛ وهو فى الحادى عشر من برمهات . عيد ميلاخى ؛ وهو فى الثانى عشر من برمهات . عيد إلياس الشهيد؛ وهو فى السابع عشر من برمهات . ونياحة بولص ؛ وهى فى الثانى والعشرين من برمهات . عيد العازر؛ وهو فى الثالث والعشرين من برمهات . عيد الشعانين؛ وهو فى الرابع والعشرين من برمهات . عيد المرسونة؛ وهو فى الخامس والعشرين من برمهات . وغسل الأرجل ؛ وهو فى الثامن والعشرين من برمهات . وجمعة الصلبوت ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمهات . عيد مرقص الإنجيلى ؛ وهو فى اليوم الآخر من برمهات . عيد توما البطرك ؛ وهو فى الثانى من برموده . عيد حزقيال النجيب؛ وهو فى الخامس من برموده . عيد مرقص؛ وهو فى السابع من برموده . والأخذ بالحديد؛ وهو فى الثامن من برموده . عيد يوحنا الأسقُفّ؛ وهو فى الحادى عشر من برموده . عيد جرجس؛ وهو فى الثالث عشر من برموده . عيد أبى مَتّى؛ وهو فى السادس عشر من برموده . عيد يعقوب، عيد سنوطه ، وهما فى التاسع عشر من برموده . وذكران الشهداء ؛ وهو فى الحادى والعشرين من برموده . عيد ساويرس ؛ وهو فى السادس والعشرين من برموده . عيد أبى نيطس ؛ وهو فى السابع والعشرين من برموده . عيد أصحاب الكهف ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برموده . عيد مرقص الإنجيلى ، وهو فى اليوم الآخر من برموده . عيد تيادرس؛ وهو فى الثانى من بشنس . عيد شمعون؛ وهو فى الثالث من بشنس . عيد الخندس ؛ وهو فى الرابع من بشنس . ونياحة يعقوب ؛ وهو فى السابع من بشنس . عيد دفرى سوه ؛ وهو فى السادس من بشنس . عيد أساسياس ؛ وهو فى السابع من بشنس . وصعود المسيح عندهم فى الثامن من بشنس . عيد دير القصير؛ وهو فى الحادى والعشرين من بشنس . ونزول السيد

إلىٰ مصر؛ وهو فى الرابع والعشرين من بشنس . عيد سوس ؛ وهو فى الخامس والعشرين من بشنس . عيد توما التلميـذ ؛ وهو فى السادس والعشرين من بشنس . عيـد سمعون العجاس؛ وهو فى السابع والعشرين من بشنس . عيـد طيمارس؛ وهو فى التاسع والعشرين من بشنس . عيد الورد بالشا؛ وهو فى اليوم الآخر من بشنس . عيد أبى مقار، وهو فى الثانى من بـؤونه . ووجود عظام لوقا؛ وهو فى الثالث من بـؤونه . عيد توما ، وعيد مامور ؛ وهمـا فى الرابع من بـؤونه . عيـد يوحنا ، ونزول صحف إبراهيم (عليه السلام) ؛ وهما فى التاسع من بـؤونه . عيد أبى مينا ؛ وهو فى الخامس عشر من بـؤونه . عيد أبى مقار، وهو فى السادس عشر من بـؤونه . عيد السيدة؛ وهو فى الحادى والعشرين من بـؤونه . عيد اتريب وهو فى الثالث والعشرين من بـؤونه . عيد أبى مينا، وهو فى (١) والعشرين من بـؤونه ؛ وتذكار تيادرس ؛ وهو فى أوّل أبيب . ونياحة بولص؛ وهو فى الثانى من أبيب والثالث منه أيضا . وعيد المعينة؛ وعيد القيصرية ؛ وهما فى الخامس من أبيب . وعيد أبى سنوبة؛ وهو فى السابع من أبيب . وعيد اسنباط؛ وهو فى الثامن من أبيب . وشهادة هرون، وعيد سمعان؛ وهما فى التاسع من أبيب . وعيـد تادرس نطيره؛ وهو فى العاشر من أبيب . وعيد أبى هور ؛ وهو فى الثانى عشر من أبيب . وعيد أبى مقار؛ وهو فى الرابع عشر من أبيب . وعيد اقدام السرياني ؛ وهو فى الخـامس عشر من أبيب . وعيـد يوحنا وزكريا؛ وهو فى السادس عشر من أبيب . وعيد يعقوب التلميذ، وهو فى السابع عشر من أبيب . وعيد بولاق، وهو فى التاسع عشر من أبيب . وعيد تادرس الشهيد، وهو فى العشرين من أبيب . وعيد السـيدة ، وعيد ميخائيل؛ وهما فى الحادى

(١) بياض بالاصل

والعشرين من أبيب . وعيد سمعان البطرك، وعيد شنوده، وهما فى الثالث والعشرين من أبيب . وعيد سمنود، وهو فى الرابع والعشرين من أبيب . وعيد مرقوريوص، وهو فى الخامس والعشرين من أبيب . وعيد حزقيل النبيّ عليه السلام، وهو فى السابع والعشرين من أبيب . ورفعة إدريس عليه السلام، وعيد مريم، وهما فى الثامن والعشرين من أبيب . وحرم السيد، وهو فى اليوم الآخر من أبيب . وعيد الخندق، وهو فى اليوم الأوّل من مسرى . وعيد أبى مينا، وهو فى اليوم الثانى من مسرى . وعيد سمعان المعموديّ، وهو فى الثالث من مسرى . ودخول نوح السفينة، وهو فى الثامن من مسرى . وعيد طور سينا، وعيد السيدة، وهما فى التاسع من مسرى . وعيد اللباس، وهو فى العاشر من مسرى . وشهادة أنطونيوس، وعيد العدوية، وهو فى الخامس عشر من مسرى . وعيد يعقوب الشهيد، وهو فى السابع عشر من مسرى . وعيد أبى مقار، وهو فى الثامن عشر من مسرى . وعيد اليَسَع، وهو فى التاسع عشر من مسرى . وعيد أصحاب الكهف، وهو فى العشرين من مسرى . وصوم الأربعين، وهو فى الحادى والعشرين من مسرى . وعيد الجوزة بِدِمَشْقَ، وهو فى الثالث والعشرين من مسرى . وعيد صوفيل، وهو فى السادس والعشرين من مسرى . وعيد إبراهيم وإسحاق، وهو فى الثامن والعشرين من مسرى . وعيد موسى الشهيد، وشهادة يوحنا، وهو فى اليوم الآخر من مسرى .

الجمـــلة الرابعة

(فى أعياد اليهود ، وهى على ضربين)

الضرب الأوّل

(ماانطقت به التوراة بزعمهم؛ وهى خمسة أعياد)

العيد الأوّل ـ رأس السنة ، يعملونه عند رأس سنتهم ويسمُّونه عيد رأس هيشا أى عيـد رأس الشهر ، وهو أوّل يوم من تشرى يتنزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا ، ويقولون : إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السـلام بِذَبْح إسمـاعيل ٱبنه فيه وفَدَاه بِذِبْحٍ عظيم .

العيـد الثانى ـ عيد صومَاريا : ويسمونه الكبور ، وهو عندهم الصوم العظيم الذى يقولون : إن الله تعالى فرض عليهم صومه ، ومن لم يصمه قُتِل عندهم . ومدّة هـذا الصوم خمس وعشرون ساعة يُبْدأ فيها قبـل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرى ، ويختم بمضىّ ساعة بعد غروبها فى اليوم العاشر، وربمـا سَمَّوْه العاشور . ويُشْـترط فيه لجواز الإفطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عنـد الإفطار وهى عنـدهم تمـام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم فى يوم الاحد ، ولا فى يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة ؛ ويزعمون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ماخلا الزنا بالمحصَنَة ، وظلمَ الرجل أخاه ، وجحده ربوبية الله تعالى .

العيد الثـالث ـ عيد المِظَلّة : وهو سـبعة أيام أوّلهـا الخامس عشر من تشرى وكلها أعياد عندهم ، واليوم الآخر منها يسمّى عرايا أى شجر الخلاف ، وهو أيضا حج لهم ، يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلَالٍ من جريد النخل وأغصان الزَّيْتون

والخِلافِ، وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقُه علىٰ الأرض؛ ويزعمون أن ذلك تَذْكار منهم لإظلال الله إياهم فى التيهِ بالغمام .

العيد الرابع — عيد الفَطِير : ويسمُّونه الفِصْح ، ويكون فى الخامس عشر من نَيْسَانَ؛ وهو سبعة أيام أيضا ، يأكلون فيها الفطير، ويُنَظِّفون بيوتهم فيها من خبز الخمير لأن هذه الأيامَ عندهم هى الأيامُ التى خلَّص الله فيها بنى إسرائيل من يَدِ فرعون وأغرقه، فخرجوا إلىٰ التيهِ، فجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفَطِير وهم بذلك فرحون ، وفى أحد هذه الأيام غرق فرعون .

العيد الخامس — عيد الأسابيع : ويسمَّى عيد العُنْصرة وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ؛ وٱتخاذهم لهذا العيد فى السادس من سيوان من شهور اليهود ، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القِبْط . يقولون : إنه اليوم الذى خاطب الله فيه بنى إسرائيل من طُورِ سينا، وفى جملة هذا الخطاب العشر كلمات : وهى وصَايَا تضمنت أمرا ونهيا، وضمنت التوفيق لمن حَصَّلها حفظا ورعيا، وهو حج من حجوجهم ؛ وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع ، والفطير، والمِظَلة ؛ وهم يعظمونه، ويأكلون فيه القطائف، ويتفننون فى عملها، ويجعلونها بدلا عن المنّ الذى أنزل الله عليهم فى هذا اليوم، ويسمَّى هذا العيد أيضا عشرتا، ومعناه الاجتماع .

الضرب الثانى

(ما أحدثه اليهود زيادة علىٰ ما زعموا أن التوراة نطقت به، وهو عيدان)

العيد الأوّل — الفوز : وهو عندهم عيد سرور ولَهْو وخَلاَعةٍ يُهْدِى فيه بعضُهم إلىٰ بعض؛ وهم يقولون : إن سبب ٱتخاذهم له أن بختنصر لما أجلىٰ مَنْ كان ببيت المَقْدس من اليهود إلىٰ عراق العجم، أسكنهم بجَىّ، وهى إحدىٰ مدينتى أصفَهَان

ثم ذهبت أيام الكلدانيين وملكت الفرس الأولىٰ والأخيرة فلمــا ملك أردشــير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمونه بلغتهــم هيمون، ولليهود يومئذ حَبْرٌ يسمّٰى بلغتهم مردوخاى، فبلغ أردشــير أن له ٱبنةَ عَمٍّ من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلا، فطلب تزويجها منه فأجابه لذلك، فَخَظِيت عنده حُظْوة صار بها مردوخاى قريبا منه ، فأراد هيمون إصـغاره وٱحتقاره حسدا له، وعزم علىٰ إهلاك طائفة اليهود التى فى جميع مملكة أردشير، فرتب مع نوّاب الملك فى جميع الأعمال أن يقتلَ كلٌّ أحد منهم من يعلمه من اليهود، وعين له يوما : وهو النصف من آذار، وإنما خَصَّ هذا اليوم دون سائر الأيام : لأن اليهود يزعمون أنّ موسىٰ ولد فيه وتُوُفِّى فيه، وأراد بذلك المبالغةَ فى نِكَايتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وبموت موسىٰ فٱتضـح لمردوخاى ذلك من بعض بِطَانة هيمون، فأرسـل إلىٰ ٱبنة عمه يُعْلِمها بما عزم عليه هيمون فى أمر اليهود، وسألهــا إعلام الملك بذلك، وحضَّها علىٰ إعمــال الحيلة فى خلاص نفسها وخلاص قومها فأعلمت الملك بالحال وذكرت له إنمــا حمله علىٰ ذلك الحسد علىٰ قُرْبنا منــك ونصيحتنا لك ، فأمر بقتل هيمون وقتلِ أهــله ، وأن يكتبِ لليهود بالأمان والبِرِّ والإحسان فى ذلك اليوم ، فٱتخذوه عيدا . واليهود يصومون قبــله ثلاثة أيام ، وفى هــذا العيد يصوّرون من الورق صورة هيمون ويملئُون بطنها نخالة ومِلْحًا ويلقونها فى النــار حتّٰى تحترق، يخدعون بذلك صِبْيانهم .

العيد الثانى، عيــد الحنكة، وهو ثمــانية أيام، يُوقِدون فى الليــلة الأولىٰ من لياليه علىٰ كل باب من أبوابهم سراجا ، وفى الليــلة الثانية سراجين، وهكذا إلىٰ أن يكون فى الليلة الثامنة ثمــانيةُ سُرُج . وهم يذكرون أن سبب ٱتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبابرة تغلَّب علىٰ بيت المقدس وفَتَكَ باليهود وٱفتَضَّ أبكارهم ، فوثب عليه

أوّلا كُهّانُهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم، وطلب اليهود زيتا لوَقُود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا ورّعوه على عدد مايُوقِدونه من السُّرُج على أبوابهم فى كل ليلة إلى تمام ثمان ليال فاتخذوا هذه الأيام عيدا وسَمّوه الحنكة، ومعناه التنظيف لأنهم نَظّفوا فيه الهيكَل من أقذار شِيعة الجبار، وبعضهم يسميه الربانى .

الجملة الخامسة
(فى أعياد الصابئين)

ومَدَار أعيادهم على الكواكب، وأعيادهم عند نزول الكواكب الخمسة المتحيِّرة : وهى زُحَلُ، والمشتَرِى، والمِرِّيخُ، والزُّهَرَةُ، وعُطَارِدُ فى بيوت شَرَفها، وذلك أن من البروج مايقوم لهذه الكواكب مَقَام قصر العز للملك، يشتهر فيه ويعلو ويشرُف، وفيها درجات معلومة يُنْسَب الشرف إليها، ومنها مايَخْمُلُ فيه ويفسُد حاله، ويكون ذلك أيضا فى درجات معلومة، تقابِلُ درجاتُ الشرف به من البرج المقابِل . ويسمّى ذلك هُبُوطا، فزُحَلُ شرفه فى إحدى وعشرين درجة من الميزان، ويهبِط فى مثلها من الحَمَل، والمشترِى يشرُف فى خمس عشرة درجةً من السَّرَطان، ويهبط فى مثلها من الجَدْيِ، والمِرِّيخ يشرف فى ثمانَ عشرةَ درجة من الجَدْى، ويهبط فى مثلها من السَّرَطان، والزُّهَرة تشرُف فى تسع وعشرين درجة من الحُوت، وتهبط فى مثلها من السُّنْبلة، وعُطَارِدُ شرفُه فى خمسَ عشرةَ درجة من السنبلة، ويهبط فى مثلها من الحوت، وكذلك الشمس تشرُف فى تسعَ عشرةَ درجة من الحَمَل، وتهبط فى مثلها من الميزان، والقمر يشرُف فى ثلاث درجات من السنبلة، ويهبط فى مثلها من الحوت . وهم يعظمون اليوم الذى تنزل الشمس فيه الحَمَلَ، ويلْبَسون فيه أفخر ثيابهم . وهو عندهم من أعظم الأعياد . وكانت ملوكهم تَبْنِي الهياكل وتجعل لها أعيادا بحسَب الكواكب التى بُنِيت على آسمها فيه .

البـاب الثـانى

من المقـــــالة الأولىٰ

(فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية : وهو الخط وتوابعه ولواحقه ؛
وفيه فصــلان)

الفصـــل الأوّل

(فى ذكر آلات الخط، ومباديه، وصوره، وأشكاله، وما ينخرط فى سلك ذلك؛
وفيه ثلاثة أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى الدّواة وآلاتها ؛ وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى نفس الدّواة ، وفيه أربع جمل)

الجمـــلة الأُولىٰ

(فى فضـــلها)

قد أخرج ابن أبى حاتم من رواية أبى هريرة رضى الله عنـه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال "خَلَق اللهُ النُّونَ : وهى الدَّواة" وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال : "لَمَّا خلق اللهُ النُّونَ : وهى الدَّواة وخلَقَ القلَمَ، فقال : اكْتُبْ، فقال : وما أَكْتُبُ؟ قال : اكتُبْ ماهو كائن إلىٰ يوم القيامة" . وهذا

الخبر والأثر دالّان على أن المراد بالنون فى الآية هو الدَّواة، وإن فسره بعضهم بغير ذلك . إذ الدواة هى المناسبة فى الذِّكر لذكر القلم وتسطير الكتابة فى قوله تعالى : ﴿نٓ والقَلَمِ وما يَسْطُرُونَ﴾ . وبالجملة فإن الدواة هى أُمُّ آلات الكتابة، وسِمْطُها الجامعُ لها . ولا يخفى ما يجب من الاهتمام بأمرها ، والاحتفال بشأنها، فقد قال عبد الله بن المبارك : مَنْ خَرَج من بيته بغير مِحْبَرة وأداةٍ، فقد عَزَم على الصَّدَقة". قال المدائنى : يعنى بالأداة مثل السِّكِّين، والمِقْلَمة، وأشباههما . قال محمد بن شعيب ابن سابور : مَثَل الكاتب بغير دَوَاة، كمَثَل مَنْ يسير إلى الهيجاء بغير سِلاح .

الجملة الثانية

(فى أصلها فى اللغة)

قال أبو القاسم بن عبد العزيز : تقول العرب : دَوَاة ودَوَيات فى أدنى العدد، وفى الكثير دُوِىٌّ ودِوِىٌّ (بضم الدال وكسرها) ويقال أيضا دُوَاء، ودِوَاء (بضم الدال وكسرها) ودَوَايَا مثل حَوَايَا، وأدْوَيت دَوَاة أى اتخذت دواة، ورجل دَوَّاء (بفتح الدال وتشديد الواو) إذا كان يبيعها، كقولك عَطَّار وبَزَّاز .

الجملة الثالثة

(فيما ينبغى أن تتخذ منه، وما تحلّى به)

أمّا ما تتخذ منه فينبغى أن تُتَّخذ من أجود العِيدَان وأرفعها ثمنا كالآبِنُوس، والسَّاسَم ، والصَّنْدَل ، وهذا اعتماد منه على ما كان يعتاده أهلُ زمانه ، ويتعاناه أهلُ عصره .

قلت : وقد غلب على الكُتَّاب فى زماننا من أهل الإنشاء وكُتَّاب الأموال اتخاذُ الدُّوِىّ من النُّحاس الأصفر، والفُولاذ ، وتغالَوْا فى أثمانها وبالغُوا فى تحسينها .

والنُّحاس أكثر ٱستعمالا ، والفُولاذ أقلُّ لعِزَّته ونَفَاسته ، وٱختصاصه بأعلىٰ درجات الرياسة، كالوزارة وماضاهاها .

وأمّا دُوِىُّ الخشب فقد رُفِضت وتركت إلا الآبِنُوس والصَّـنْدل الأحمر، فإنه يتعاناه فى زماننا قضاةُ الحكم ومُوَقِّعوهم و بعض شهود الدواوين .

وأمّا التحلية، فقال الحسن بن وهب : سبيل الدَّواة أن يكون عليها من الحِلْيـة أخفُّ مايكون و يمكن أن تُحَلَّىٰ به الدُّوِىُّ، فى وَثَاقةٍ ولُطْفٍ : ليأمن من أن تتكسر أو تتقَصم فى مجلســه ، قال : وحق الحليـة أن تكون سَاذَجَةً بغير حُفَرٍ ولا ثَنَيَات فيها : ليأمن من مسارعة القَذىٰ والدَّنَس إليها ، ولا يكون عليها نقْشٌ ولا صُورة . وحقُّ هــذه الحِلْيَةِ مع ماذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه دون الفضَّة والذهب . علىٰ أن بعض الكُتَّاب فى زماننا قد ٱعتاد التحلية بالفضة ، ولا يخفىٰ أنَّ حكم ذلك حكم الضبة فى الإناء فتحرم مع الكِبَر والزينة ، وتكره مع الصغر والزينة والكِبَر والحاجة ، وتباح مع الصغر والحاجة من كَسْرٍ ونحوه، كما قرّره أصحابنا الشافعية رحمهم الله ، نعم يحرم التكفيت بالذهب والفضة ، وكذلك التمويه إذا كان يحصل منه بالعرض علىٰ النار شيء، والله أعلم .

الجمـــــلة الرابعة

(فى قـــدرها وصــــفتها)

قال الحسن بن وهب : سبيل الدَّواة أن تكون متوسطة فى قَدْرها : لا بالقصيرة فتقصُر أقلامها وتقبُح ، ولا بالكثيفة فيثقل مَحْمَلُها وتُعجف . فلا بدّ لصاحبها أن يحملها و يضَعَها بين يدى مَلِكه أو أميره فى أوقات مخصوصة ، ولا يحسن أن يتولّى ذلك غيره . قال الفضل : و يكون طُولهـا بمقدار عَظْمِ الذراع أو فُوَيْقَ ذلك قليلا

لتكون مناسبة لمقدار القلم . قلت : وقد ٱختلفَتْ مقاصد أهل الزمان فى هيئة الدواة : من التدوير والتربيع . فأما كُتَّاب الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدوّرة الرأسين، لطيفة القَدّ، طلبا للخِفّة، ولأنهم إنما يتعانون فى كتابتهم الدَّرْجَ، وهو غير لائق بالدواة فى الجملة . علىٰ أن الصغير من الدَّرْج لا يأبىٰ جعله فى الدواة المدوّرة . وأما كُتَّاب الأموال، فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا، ليجعلوا فى باطن غطائها ما ٱستخفوه مما يحتاجون إليه من وَرَق الحِسَاب الديوانىّ المناسب لهذه الدواة فى القطع . وعلىٰ هذا الأنموذج يتخذ قضاة الحكم ومُوَقِّعوهم دُوِيَّهم، إلا أنها فى الغالب تكون من الخشب كما تقدّم .

وٱعلم أنه ينبغى للكاتب أن يجتهد فى تحسين الدواة وتجويدها وصونها . ولله المدائنى حيث يقول :

جوِّد دَوَاتَكَ، وٱجتهد فى صَوْنِها * إن الدُّوِىَّ خزائنُ الآدابِ

وأهدىٰ أبو الطَّيِّب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد بن الفرج الكاتب إلىٰ صديق له دواة آبِنُوس مُحَلَّاة وكتب معها .

لم أَرَ سَوْداءَ قبلَها ملَكَتْ * نَوَاظِرَ الخَلْقِ والقُلوبَ مَعَا
لا الطُّولُ أزرىٰ بِهَا ولا قِصَرٌ * لَكِنْ أتتْ للوُصولِ مجتَمِعا
فَوْقَكَ جُنْحٌ من الظَّلام بها * وبارِقٌ بِٱئْتلاقها لَمَعَا !
خُذْهَا لِدُرٍّ، بها تُنَظِّمُه * يَرُوقُ فى الحُسْن كُلَّ مَنْ سَمِعا

أما المِحْبَرة المفرَدة عن الدواة فقد ٱختلف الناس فيها : فمنهم من رجَّحها ومالوا إلىٰ ٱتخاذها لخِفَّة حَمْلها، وقالوا : بها يكتب القرءان والحديث والعلم . وكرهها بعضهم وٱستقبحها من حيث إنها آلة النسخ الذى هو من أشدّ الحِرَف وأتعبها، وأقلها مَكْسَبا .

ويروى أن شعبة رأى فى يد رجل مِحْبرة، فقال : ارم بها فإنها مشؤومة لا يبقى معها اهل ولا ولد، ولا أمّ ولا أب .

الطـــرف الثـانى

(فى الآلات التى تشتمل عليها الدواة، وهى سبع عشرة آلة، أوّل كل آلة منها ميم)

الآلة الأولى ـ المِزْبَرُ (بكسر الميم)، وهو القلم أخذا له من قولهم زَبَرت الكتاب إذا اتقنتَ كتابته، ومنه سميت الكُتُب زُبُراً كما فى قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ وفى حديث أبى بكر أنه دعا فى مرضه بدواة ومِزْبَرٍ أى قلم .

وفيه جملتان .

الجمـــلة الأولى

(فى فضــــله)

عن الوليد بن عُبادة بن الصـامت رضى الله عنه قال : دعانى أبى حين حضره الموتُ فقال : إنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "أوّلُ ماخَلَق الله القَلَمُ، فقال : اكتُبْ، قال : يارَبِّ وما أكتُب ؟ قال : اكتبِ القدَرَ وما هو كائنٌ إلى الأبَد" رواه أحمد وأبو داود والتِّرمذىّ، وقال : حسن غريب، وابن أبى حاتم واللفظ له . وعن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه "إن أول ماخَلَق اللهُ القلَمُ والحُوتُ، فقال له اكتُبْ، فقال : يارَبِّ وما أكتُب ؟ قال : اكتُبْ كلَّ شىء كائن إلى يوم القيامة" ثم قرأ "ن والقلَم" رواه الطبرانىّ ووقفه ابن جرير على ابن عبَّاس . وفى رواية قال ابن عباس : "أوّل ماخلق اللهُ القـلَمُ، قال : اكتب، قلل : وما أكتب ؟ قال : اكتب القَدَر، فجرى بما يكون من ذلك

اليوم إلىٰ يوم قيـامِ الساعة ، ثم خلق النون ورفع بُخار المـاء ، فتفتَّقتْ منه السماءُ وبُسِطت الأرضُ علىٰ ظهر النُّون ، فاضـطرب النُّون ، فمـادَتِ الأرضُ ، فأُثبِتتْ بالجبال ، فإنها لتَفْخَر علىٰ الأرض : لأنها أُثبِتَتْ عليها" رواه ابن جرير وآبن أبي حاتم .

وروىٰ محمد بن عمر المدائني بسنده إلىٰ مجاهد "إنَّ أوّلَ ماخلق الله اليراعُ ، ثم خَلَقَ من اليَرَاع القَـلَمَ ، فقال له : آكتُب ، قال : ما أَكتُب ؟ قال : ما هو كائن ، قال : فزبَرَ القلمُ بمـا هو كائن إلىٰ يوم القيامة" . وأخرج بسـنده إلىٰ آبن عباس ، قال : "أوّلُ ماخلَق اللهُ اليراعُ : وهو القَصَب المُثقَّبُ ، فقال : آكتُبْ قضائي في خَلْقِي إلىٰ يوم القيامة" . ويروىٰ أنه لما خلقه الله تعالىٰ نظر إليه فانشَقَّ بنصـفين ، ثم قال : آجْرِ قال : يارب بمـا أجرى ؟ قال : بمـا هو كائن إلىٰ يوم القيامة ، فجرىٰ علىٰ اللوح المحفوظ بذلك ، وكان منه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ . ويروىٰ أنَّ خلقَه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألفَ سنة .

وآعلم أن القلم أشرفُ آلات الكتابة وأعلاها رتبة ، إذ هو المبـاشر للكتابة دون غيره ، وغيرُه من آلات الكتابة كالأعوان ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم به ، وذلك في غاية الشرف . ولله أبو الفتح البُسْتِيُّ حيث يقول :

إذا أَقْسَمَ الأبطالُ يومًا بِسَيْفِهِمْ * وعَدُّوهُ مما يُكْسِبُ المجدَ والكَرَمْ
كفىٰ قَلَمَ الكُتَّابِ عِزًّا ورِفْعَـةً * مدىٰ الدَّهرِ أن اللهَ أقسمَ بِالْقَلم

وقال تعـالىٰ : ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ فأضاف التعليم بالقلم إلىٰ نفســه . قال آبن الهيثم : من جلالة القلم ، أن الله عز وجل لم يكتب كتابا إلا به ، لذلك أقسم به . قال المدائني : وقد روى أن النبي صـلى الله عليه وسلم قال "مَنْ قَلَمَ قَلَمًا يكتب به علما أعطاه الله شجرةً في الجنة ، خيرٌ من الدُّنْيا وما فيها" . وقد قيل الأقلام مَطَايا الفِطَن ، ورُسُل الكَرَم . وقال عبد الحميد : القلم شجرةٌ ثمرها الألفاظ ،

والفِكْر بحر لُؤْلؤه الحِكْمة، وفيــه رِىُّ العُقُول الكامنة . وقال جبل بن يزيد : القلم لسان البصر يناجيه بمـا سُتِر عن الأسماع . وقال ٱبن المقفَّع : القلم بريد العلم يحث علىٰ السحر(١)، ويبحث عن خفىّ النظر . وقال أحمد بن يوسـف : ماعبَرات الغوانى فى خُدودهن بأحسَنَ من عبَرات الأقلام . وقيل : القلم الطلسم الأكبر . وقيل : البيان ٱثنان : بيان لسان، وبيان بَنَان؛ ومن فضل بيان البنَان أن ما تثبته الأقلام باقٍ علىٰ الأبد، وما ينْبِسُه اللسان تدرُسه الأيام . ويقال : عقول الرجال تحت أسِنَّة أقلامها ، بنوء الأقلام يَصُوب غيثُ الحكمة . وقال جعـفر بن يحيىٰ : لم أر باكيًا احسن تبسُّما من القلم .

قال ٱبن المعتز : القلم مجهِّز لجيوش الكلام ، تخدُمه الإراده ، ولا يَمَـلُّ من الٱستزاده، كأنه يُقَبِّل بساط سُلْطان، أو يفَتِّح نَوْرَ بُسْتان .

ومن إنشاء الوزير ضـياء الدين بن الأثير الجزرىّ ، من جواب كتبه للعماد الأصْـفَهانى : وكيف لا يكون ذلك ، وقلَمُها هو اليراع الذى نفَثَت الفصـاحة فى رُوعِه ، وكَمَنت الشـجاعة بين ضُـلُوعه ! فإذا قال أراك كيف تُنَسِّق الفرائد فى الأجيـاد .

ومن كلام ابى حفص بن برد الأندلسىّ : ما أعجَبَ شأنَ القلم ! يشرب ظُلْمَةً، ويلْفِظ نُورا؛ قد يكون قلم الكاتب، أمضىٰ من شَباةِ المُحارِب؛ القلم سهم ينْفُذ المَقاتِل، وشَفْرَةٌ تَطيح بها المفاصل . ومن كلام العميد : عمرَ بن عثمان الكاتب : قلم يُطْلِقُ الآجالَ والأرزاق، وينْفُث السّم والدرياق؛ قلم تَدِقُّ عن الإدارك حركاتُه، وتحلّى بالنفائس فتكاته ؛ يُسرِع ولا ٱنحدارَ السيـل إلىٰ قراره، وٱنقداحَ الضوء من شراره، معطوفة الغايات علىٰ المبـادى، مصروفة الأعجاز إلىٰ الهوادى؛ وإذا صال

(١) كذا بالاصل ولعلها الحبر .

أراك كيف آختلاف الرماح بين الآساد . وله خصائصُ أخرىٰ يبدعها إبداعا، فإذا لم يأت بها غيره تَطَبُّعًا أتىٰ بها هو طبعا، فَطَوْرًا يُرىٰ إماما يُلْقِى درسا ، وطَوْرا يرىٰ ماشطة تجلو عِرْسًا ، وطورا يُرىٰ وَرْقَاءَ تصـدَحُ فى الأوراق ، وطورا يرىٰ جوادا مُخَلَّقا بخلوق السِّباق ، وطورا أُفعُوانا مطرقا ، والعجب أنه لا يزهو إلا عند الإطراق! ولطالمـا نَفَثَ سِحْرا ، وجلب عِطْرا ، وأدار فى القِرْطاسِ خمرا ، وتصرَّف فى صنوف الغَنَاء فكان فى الفتح عُمَر ، وفى الهَدْيِ عمّارا ، وفى الكيد عمْرا ، فلا تَحْظىٰ به دولة إلا نخرت علىٰ الدول ، وآستغنت عن الخيل والخَوَل .

وقال الإسكندر : لولا القلم ما قامت الدنيـا ، ولا آسـتقامت المملكة . وكلُّ شيءٍ تحت العقل واللسان لأنهما الحاكمان علىٰ كل شيء ، والقلم يريكهما صورتين ، ويوجدُ كَهُما شكلين .

وقال بعض حكماء اليونان : أمور الدنيا تحت شيئين : السيف والقلم ، والسيف تحت القلم . وقال آخر : فاقتْ صـنعة القلم عند سائر الأمم ، جمع الحكم فى صحون الكتب . وقال العتـابى : ببكاء القـلم تبسم الكتب . وقال البُحْتُرِىّ : الأقلام مَطَايا الفِطَن . وقال أبو دُلَف العِجْلىّ : القلم صائغ الكلام ، يفرغ ما يجمعه الفكر ، ويصوغ ما يسبكه اللب . وقال سهل بن هارون : القلم أنف الضـمير ، إذا رُعِف أعلن أسراره ، وأبان آثاره . وقال ثمامة : ماأثرَّته الأقلام ، لم تطمع فى دَرْسه الأيام . وقال هشام بن الحكم : أحسن الصنيع صنيع القلم والخطّ الذى هو جَنَىٰ العقول . وقال على بن منصور : بنور القلم تُضِىء الحكمة . وقال الجاحظ : من عرف النعمة فى بيـان اللسان ، كان بفضل النعمة فى بيان القلم أعْرَف . وقال غيره : بالقلم تُزَفُّ بنـاتُ العقول إلىٰ خُدُور الكُتُب . وقال المأمون : لله درّ القلم كيف يحوك وَشْىَ المملكة . وقال بعض الأعراب : القـلم ينهَضُ بمـا يَظْلَع بحمله اللّسان ، ويبلغ مالا

يبلغه البيان . وقال بعضهم : القلم يجعل للكتب ألسُنا ناطقة ، وأعيُنا ملاحظَة ؛ وربما ضمنها من ودائع القلوب مالا تبوح به الإخوان عند المشاهدة . وقال أوميرس الحكيم : الخط شيء أظهره العقل بواسطة سِن القلم ، فلما قابل النفس عشِقَتْه بالعنصر . وقال مرطس الحكيم : الخط بالقلم يُنَمِّى الحكمة . وقال جالينوس : القلم الطلسم الأكبر . وقال بقراط : القلم علىٰ (١) إيقاع الوتر ، والمَهْنة المنطقيـة مقدّمة علىٰ المَهْنة الطبيعية . وقال بليناس : القلم طبيب المنْطِق . وقال أرسطاطاليس : القلم العلّة الفـاعلة ، والمِداد العلة الهَيُولانِيَّـة ، والخط العلة الصُّورية ، والبلاغة العلّة التمامية . وقد أكثر الشعراء القول فى شرف القلم وفضله .

فمن ذلك قول أبى تمّام الطائىّ :

إن يَخْدُمِ القلمُ السَّيفَ الذى خَضَعَتْ * له الرِّقَابُ وذلّتْ خَوْفَـه الأممُ
فَالمَوْتُ والمــوتُ لا شيءٌ يغـالبه * مازال يَتْبَـعُ ما يجرى به القَـلَمُ
كَذا قضىٰ الله للأقلام مـــذ بُرِيَتْ * أن السيوفَ لهـا مُذْ أرْهِفَتْ خَدَمُ

وقوله :

لك القَــلمُ الأعلىٰ الذى بِشَـبَاتِهِ * تُصَاب من الأمرِ الكُلَىٰ والمفاصِلُ
لُعَـابُ الأفاعِى القـاتلاتِ لُعَـابُهُ * وأَرْىُ الجنىٰ آشتارته أيدٍ عَوَاسِلُ
له رِيقَـــة طَلٌّ ، ولكنّ وقْعَها * بآثاره فى الشَّرْق والغــرب وَابِلُ
فَصِيح إذا آستنطقته وهو راكب * وأعجمُ إن خَاطَبْتَـه وهو رَاجِلُ
إذا ما آمتطىٰ الخمسَ اللّطافَ وأُفْرِغَتْ * عليه شِـعَابُ الفِكْرِ وهى حَوَافِلُ
أطاعته أطرافُ القنَـا ، وتقوّضت * لنَجْواه تقويضَ الخِيَـامِ الجَحَافِلُ
إذا آستغزر الذهنُ الجلىّ وأقبلت * أعاليــه فى القِرْطاس وهى أسَافِلُ

(١) لعله مقدم على أو نحو ذلك .

وقد رَفَدَتْهُ الخِنْصِرانِ وسدّدت * ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأنامِلُ
رأيتَ جليلًا شأْنُه وهو مُرْهَف * ضَنًّا، وسَمِينًا خطبُه وهو نَاحِلُ

وقول أبى هلال العسكرىّ :

أُنظرْ إلىٰ قلمٍ يُنَكِّسُ رأسَه * لِيَضُمَّ بين مُوَصَّل ومُفَصَّل
تَنْظُرْ إلىٰ مِخْلَابِ لَيْثٍ ضَيْغَمٍ * وغِرَارِ مسنون المَضَارب مِفْصَل
يَبْدُو لناظره بلَوْنٍ أصْفَرٍ * ومَدَامعٍ سُودٍ وجِسْمٍ مُنْحَل
فالدَّرْجُ أبيضُ مثلُ خدٍّ واضحٍ * يَثْنِيه أسودَ مثلَ طَرْفٍ أكحل
قسم العَطَايا والمَنَايا فى الورىٰ * فإذا نظرتَ إليه فٱحذَرْ وأْمُلِ
طَعْمانِ شَوْبُ حلاوةٍ بمرارةٍ * كالدّهر يَخْلِط شَهْدَهُ با لحَنْظَل
فإذا تَصرَّفَ فى يديك عِنَانُه، * ألحقتَ فيه مؤمّلا بمؤمّل
ومُذَلَّلا بمعَزَّز، ولربّما * ألحقتَ فيه معزَّزا بمذَلَّل

وقوله :

لكَ القَلَمُ الجارى ببُؤْسٍ وأَنْعُمٍ * فمنها بَوَادٍ تُرْتَجىٰ وعوائدُ
إذا مَلَأَ القرطاسَ سُودُ سُطوره * فتلك أُسُودٌ تُتَّقىٰ وأَسَاوِدُ
وتلك جِنَانٌ تُجْتَنَىٰ ثمراتُها * ويلقاك من أنفاسهنّ بَوَارِدُ
وهنّ بُرودٌ مالهن مَنَاسِجٌ * وهنّ عقودٌ مالهن مَعَاقِدُ
وهنّ حَيَاة للوَلِىِّ رَضِيَّةٌ * وهنّ حُتوفٌ للعدوّ رَوَاصِدُ

الجمـــــلة الثـانية

(فى آشـــتقاقه)

وقد اختُلِف فى ذلك ؛ فقيل : سمى قَلَمًـا لاستقامته ، كما سميت القِدَاحُ أقلاما فى قوله تعـالىٰ : ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُـمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ قال بعض المفسرين : تشاحُّوا فى كفالتها فضربوا عليها بالقداح ، والقداح مما يضرب بها المَثَل فى الآستقامة ؛ وقيل : هو مأخوذ من القُلَّامِ : وهو شجر رِخْوٌ فلما ضارعه القلم فى الضـعف سمى قلمـا ؛ وقيل : سمى قلما لِقَلْم رأسه ، فقد قيل إنه لا يسـمّى قلمـا حتّى يُبْرىٰ ، أما قبل ذلك ، فهو قَصَبة . كما لايسمّى الرمح رُمحا إلا إذا كان عليه سِنَانٌ و إلا فهو قَنَاة . ومنه قُلَامة الظفر ، و إلىٰ ذلك يشير أبو الطَّيِّب الأزدىّ بقوله :

قَـــلَمٌ قَـــلَّمَ أظفــارَ العِـــدا ❊ وهو كالإصبع مقصوصُ الظُّفُرْ
أَشْـــبَهَ الحَيَّـــةَ حتّى إنه ❊ كُلَّمـا عَمَّـــرَ فى الأيدى قَصُرْ

وقيل لأعرابىّ : ما القلم ؟ ففكَّر ساعة وقلب يده ، ثم قال : لا أدرى ، فقيل له : توهَّمْه . قال : هو عود قُلِّمَ من جوانبه كتقليم الظُّفُر ، فسمى قلما .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى صـــفته)

قال إبراهيم بن العباس لغـلام بين يديه يعلمه الخطَّ : ليكن قلمك صُـلْبًا ، بين الدّقة والغِلَظ ، ولا تَبْرِه عند عُقْدة فإن فيه تعقيدَ الأمور ، ولا تكتبْ بقلم ملتوى ، ولا ذى شَقٍّ غير مستوى ، و إن أعوزك البحرىّ والفارسىّ ، واضطررت إلىٰ الأقلام النبطية فاختر منها ما يميل إلىٰ السُّمْرة .

وقال إبراهيم بن محمد الشيباني : ينبغي للكاتب أن يتخيَّر من أنابيب القصب أقلَّه عُقَدا ، وأكثفه لحما ، وأصلبه قِشْرا ، وأعدله آستواء . وقال العتابي : سألني الأصْمَعِيُّ يوما بدار الرشيد: أيّ الأنابيب للكتابة أصلَحُ وعليها أصبر؟ فقلت: ما نَشِف بالهجير ماؤه، وستره من تلويحه غِشَاؤه، من التِّبْرِيَّةِ القشور، الدُّرِّيَّةِ الظهور، الْفِضِّيَّةِ الكُسُور . وكتب عليّ بن الأزهر إلى صديق له يستدعي منه أقلاما :

أما بعدُ فإنا على طول الممارسة لهذه الكتابة، التي غلبت على الآسم، ولزمت لزوم الوَسْم؛ فحلَّت محل الأنساب ، وجَرَتْ مجرى الألقاب ، وجدنا الأقلام الصخريَّة اجرى في الكَوَاغد ، وأمرّ في الجلود ؛ كما أن البحريَّة منها أسْلَسُ في القراطيس ، وألين في المعاطف ، وأشدّ لتصرُّف الخط فيها؛ ونحن في بلد قليل القصب رديئه، وقد أحببت أن تتقدّم في آختيار أقلام صخرية ، وتتنوّق (١) في آقتنائها قبلَك، وتطلبها من مظانِّها ومنابتها : من شطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم؛ وأن تتيمن (٢) باختيارك منها الشديدة الصُّلبة ، النقيَّة الجلود ، القليلة الشحوم ، الكثيرةَ اللحوم ، الضيِّقة الأجواف، الرزينة المَحْمَل : فإنها أبقى على الكتابة، وأبعد من الحَفَاء . وأن تقصد بانتقائك الرقاق القُضْبان ، المقوّمات المتون ، المُلْس المعاقد ، الصافية القشور ، الطويلة الأنابيب ، البعيدة ما بين الكعوب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القَوَام ، المستحكمة يُبْسًا ، وهي قائمة على أصولها لم تُعْجَل عن إبَّان يَنْعِهَا، ولم تؤخر إلى الأوقات المخوفة عليها من خَصَرِ الشتاء، وعَفَن الأنداء . فإذا آستجمعت عندك، أمرت بقطعها ذراعا [ذراعا] (٣) قَطْعا رفيقا، ثم عَبَّأت منها حُزَمًا فيما يصُونها من الأوعية (٤)، وتكتب معه بعدّتها وأصنافها من غير تأخير ولا توان .

(١) في العقد الفريد تتأنق وهو بمعناه . قال ذو الرمة .

كان عليها سَحق لفق تنوّقت ✻ به حضرميات الأكفِّ الحوائك

(٢) في العقد الفريد تتيمم . (٣) الزيادة عن العقد الفريد . (٤) في العقد . ووجهتها مع من يؤدي الامانة في حراستها وحفظها وايصالها وكتبت الخ .

وأهدى ٱبن الحرون إلى رجل من إخوانه الكُتَّاب أقلاما، وكتب إليه :

إنه لما كانت الكتابة (أبقاك الله) أعظمَ الأمور، وقِوام الخلافة، وعمود المملكة، أتحفتك من آلتها بما يخف مَحْمَله، وتثقل قيمتُه، ويعظم نفعه، ويَجِلُّ خطَره؛ وهى أقلام من القصب النابت فى الصخر، الذى نَشِف بحرّ الهجير فى قشره ماؤه، وستره من تلويحه غشاؤه؛ وهى كاللآلئ المكنونة فى الصَّدف، والأنوار المحجوبة فى السَّدَف، تِبْرِيَّةُ القشور، دُرِّيَّةُ الظهور، فِضِّيَّةُ الكسور؛ قد كستها الطبيعة جوهرا كالْوَشْيِ المُحَبَّر، ورونقا كالديباج المنيَّر .

ومن كتاب لأبى الخطاب الصابئ، يصف فيه أقلاما أهداها فى جملة اصناف :

وأضفتُ إليها أقلاما سليمةً من المعايب، مُبَرَّأة من المثالب، جَمَّة المحاسن، بعيدةً عن المطاعن؛ لم يربها طُول ولا قصر، ولا ينقصها ضَعْف خَوَر؛ ولا يَشِينها لين ولا رخاوة، ولم يَعِبْها كَزَازة ولا قساوة؛ وهى آخذة بالفضائل من جميع جهاتها، مستوفِيَة للمَمادح بسائر صفاتها، صُلْبة المَعَاجم، لَدْنة المقاطع، موفية القدود(١) والألوان، محمودة المَخْبَر والعيَان؛ وقد ٱستوى فى المَلاسة خارجها وداخلها، وتناسب فى السَّلاسة عاليها وسافلُها، نبتت بين الشمس والظل، وٱختلف عليها الحرّ والقُرّ؛ فلفَحها وَقَدَانُ الهَوَاجر، ولفَعها سَمَائِم شهر ناجر؛ ووقذها الشَّفَّان بصَرِده، وقذفها الغمام ببَرَده، وصابَتْها الأنواء بصَيِّبها، وٱستهلَّتْ عليها السحائب بشآبِيبها؛ فاستمرَّت مرائرها على إحكام، وٱستحصد سَحْلُها(٢) بالإبرام؛ جاءت شَتَّى الشِّيات، متغايرة الهيئات، متباينة المحالّ والبُلْدان، تختلفُ بتباعد ديارها، وتأتلف بكرم نِجَارها .

فمن أنابيبِ قَنًا ناسبَتْ رماحَ الخط فى أجناسها، وشاكَلَت الذهب فى ألوانها،

(١) لعله وافية القدود . أى تامة كاملة .

(٢) لعله حبلها وحرر .

وضاهت الحرير فى لَمعانها، مضابطة الحفاء، نَمِرَةَ القُوىٰ ؛ لا يسيطها القط ، ولا يُشَعَّبُ بها الخط .

ومن مِصْريَّة بيض كأنها قَباطِيُّ مِصْر نقاء، وغِرْقِئُ البيض صفاء؛ غَذاها الصعيد من ثراه بلُبِّه، وسقاها النيل من نَمِيره وعَذْبه؛ فجاءت ملتئمة الأجزاء، سليمة من الٱلتواء؛ تستقيم شقُوقُها فى أطوالها ، ولا تَنكَّب عن يمينها ولا شمالها ، مقترن بها صفراءُ كأنها معها عِقْيانٌ قُرِنَ بلُجَيْن، أو ورقٌ خُطَّ بعيْن؛ تختال فى صُفْر مَلَاحفها ، وتميس فى مُذْهَب مَطَارِفها؛ بلونِ غِياب الشمس، وصِبْغ ثياب الوَرْس .

ومن منقوشة تَرُوق العين، وتونِقُ النفس؛ ويُهْدِى حسنُها الأَرْيَحِيَّةَ إلىٰ القلوب، ويَحُلُّ الطَّرْف لها حَبْوة الحليم اللبيب ؛ كأنها ٱختلاف الزَّهر اللامع ، وأصناف الثمر اليانع .

ومن بحريَّة مَوْشِيَّة اللِّيط، رائقةِ التخطيط؛ كأنّ داخلها قطرةُ دم، او حاشية رداء مُعْلَم؛ وكأنّ خارجها أرقم، أومتن وَادٍ مُفْعَم؛ نشرت ألوانا تُزْرِى بوَرْدِ الخدود، وأبدتْ قامات تفضَح تأوّد القُدُود .

ومن كلام ٱبن الزيات : خير الأقلام ما ٱستحكم نُضْجه وخف بزره؛ قد تساعدتْ عليه السعود فى فلَك البروج حولا كاملا، تؤلفه بمختلِف أركانها وطباعها، ومتباين أنوائها وأنحائها ؛ حتّى إذا بلغ أشدّه وٱستوىٰ ، وشقّتْ بوازله ، ورَقَّتْ شمائله؛ وٱبتسم من غشائه ، وتأدّىٰ من لحائه ؛ وتعرّىٰ عنه ثوب المَصِيف، بانقضاء الخريف ، وكشف عن لَوْن البَيْض المكنون ، والصَّدَف المخزون ؛ قُطِعَ ولم يُعَجَّلْ عن تمام مصلحته، ولم يؤخَّر إلىٰ الأوقات المخوفة عاهاتُها عليه من خَصَر الشتاء، وعَفَن الأنداء ؛ فجاء مستوِىَ الأنابيب معتدلها ، مُثَقَّفَ الكعوب مقوَّمها .

وقد حرر الوزير أبو علىّ بنُ مقلةَ رحمه الله مَنَـاط الحاجة من هذه الأوصاف، وٱقتصر علىٰ الضرورىّ منها فى ألفاظ قلائل فقال :

خير الأقلام ما ٱستحكم نُضْجه فى جرمه، ونَشِف ماؤه فى قشره، وقُطِـع بعد إلقاء بزره، وبعد أن ٱصفرَّ لِحَاؤه ورَقَّ شحمه، وصلب شحمُه، وثُقل حجمه .

الجمـــــلة الرابعة

(فى مساحة الأقلام فى طولهـا وغِلَظها)

قال ٱبن مقلة : خير الأقلام ما كان طولُه من ستةَ عشر إصبعا إلىٰ ٱثنى عشر، وٱمتلاؤه ما بين غِلَظِ السَّبَّابة إلىٰ الخِنْصر . وهــذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام علىٰ ٱختلافها .

وقال فى موضع آخر : أحسنُ قُدود القلم أن لا يُتجاوَز به الشِّــبْر بأكثر من جِلْفَتِه ويشهد له قول الشاعر :

فَتًى لو حوىٰ الدّنيـا لأصبح عَارِيًا * من المـال، معتاضا ثيابا من الشُّكْرِ
له تَرْجُمَانٌ أخرسُ اللفظِ صامتٌ، * علىٰ قَابِ شِبْرٍ بل يزيد علىٰ الشِّبْرِ

وقال الشيخ عماد الدين الشيرازى : أَحْمَدُ الأقلام ما توسطت حالاته فى الطول والقِصَر، والغِلَظ والدقة ، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليــه الأنامل فيبقى مائلا إلىٰ مابين الثلث، والغليظَ المفرطَ لاتحمله الأنامل .

وقال فى الحِلْيَة : إذا كانت الصحيفة لينة ينبغى أن يكون القلم لَيِّن الأُنْبوب، وفى لحمه فضل، وفى قِشْره صلابة؛ وإن كانت صُلْبَةً، كان يابس الأُنْبوب صُلْبَه، ناقص الشحم : لأن حاجته إلىٰ كثرة المداد فى الصحيفة الرِّخْوَة أكثر من حاجته إليه فى الصحيفة الصُّلْبَةِ . فرطوبته ولحمــه يحفَظان عليه غزارة الٱستمداد ؛ ويكفى

فى الصحيفة الصُّلْبَة ما وصل إليها فى القلم الصُّلْبِ الخالى من المداد ، والله جل ذكره أعلم .

الجملة الخامسة
(فى بَرْى القلم ؛ وفيه خمسة أنظار)

النظر الأوّل
(فى آشتقاقه وأصل معناه)

يقال بَرَيْت القلم أَبْريه بَرْيًا وبِرَاية غير مهموز، وهو قلم مَبْرِىٌّ، وأنا بَارٍ للقلم بغير همز أيضا . قال الشاعر :

يا بَارِىَ القَوْسِ بَرْيًا ليس يُحْكِمُهُ * لاتُفْسِدِ القوس، أَعْطِ القَوْسَ بَارِيَهَا

ويقال أيضا بَرَوْتُ القلم والعُودَ بروًا بالواو، والياءُ أفصح . ويقال لما سقط منه حالة البَرْى بُرَايَةٌ (بضم الموحدة فى أوّله) علىٰ وزن نُزَالَةٍ وحُثَالَةٍ، والفُعالة آسم لكل فضلة تفضل من الشىء، وتقول فى الأمر : آبر قلمك .

النظر الثانى
(فى الحث علىٰ معرفة البِرَاية)

قال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلىٰ خِلال ؛ منها جودة بَرْى القلم ، وإطالة جِلْفَتِه ، وتحريف قَطَّته ، وحسن التأتى لآمتطاء الأنامل ، وإرسال المَدّة بعد إشباع الحروف ، والتحرز عند فراغها من الكشوف ، وترك الشكل علىٰ الخطإ والإعجام علىٰ التصحيف .

ومن كلام المَقَرّ العلائى آبن فضل الله ، طيب الله مَهْجَعه ! : من لم يحسن **الأستمداد، وبرىَ القلم، والقطَّ وإمساك الطُّومار ، وقسمةَ حركة اليد حال الكتابة ، فليس هو من الكتابة فى شىء .**

ويحكى أنّ الضّحاك كان إذا أراد أن يبرىَ قلمـا، توارىٰ بحيث لا يراه احد، ويقول : الخط كلُّه القلم . وكان الأنصارىّ إذا أرادأن يبرى فعل ذلك، فإذا أراد أن يقوم من الديوان قطع رءوس الأقلام حتّٰى لا يراها أحد .

وقال إسحاق بن حَمّاد : لاحذْقَ لغير مميز لصنوف البِرَاية . ورأىٰ إبراهيم بن المحبس رجلا يأخذ علىٰ جاريةٍ قَلَمَ الثلث، فقال : أعلمتها البِرَاية؟ قال : لا، قال : كيف تحسن أن تكتب بمـا لاتحسن بِرَايته ؟ تعليم البراية أكبر من تعليم الخط .

قال المقر العلائى ٱبن فضل الله : ورأيت بخط أبى علىّ بن مقلة رحمه الله، نَعَمْ نَعَمْ مِلَاك الخطِّ حسن البِراية، ومَنْ أحسنها سهُل عليه الخط، ولا يقتصر علىٰ علم فنّ منها دون فنّ، فإنه يتعين علىٰ من تعاطىٰ هـذه الصناعة أن يحفظ كل فنّ منها علىٰ مذهبه : من زيادة فى التحريف، ومن النقصان منه، ومن ٱختلاف طبقاته . ومن وعىٰ قلبهُ كثرةَ أجناس قَطِّ الأقلام، كان مقتـدرا علىٰ الخط، ولا يتعلَّم ذلك إلا عاقل، والقلم للكاتب كالسيف للشُّجاع .

وقال الضحَّاك بن عَجْلان : القلم من أجناس الأقلام كاللحن من أجناس الألحان فى الصناعة، والبراية الواحدة من أجناس البراية كذلك .

ومن كلام المقر العلائى ٱبن فضل الله : جَوْدَةُ البراية نصفُ الخط .

ومنهم من ذهب إلىٰ أن العبرة بحسن الصنعة دون برى القلم، حتّٰى حكى الغزالىٰ رحمه الله فى نصيحة الملوك أن الصاحب بن عَبَّـاد كان وزيرا لبعض الملوك، وكان معه ستة وزراء غيره فكانوا يحسُدونه، ولم يزالوا حتّٰى ذكروا للملك أنه لا يُحْسِن بِراية القـلم، وعمـدوا إلىٰ أقلامه فكسروا رءوسها، ثم إنّ الملك أمره بكتبِ كتاب فى المجلس، فوجد أقلامه كلَّها مكسرة الرءوس فأخذ قلمـا منها، وكتب به إلىٰ أن ٱنتهىٰ إلىٰ آخر الكتَّاب بخط فائق رائق، فقـال له الملك : إن هؤلاء يزعمون أنك لاتحسن بَرْى القلم، فقال : إن أبى علمنى كاتبا ولم يعلمنى نجّارًا .

النظـــر الثـالث

(فى معرفة محلّ البِرَاية من القلم)

قال إبراهيم بن محمد الشَّيْبَانِىّ : يجب أن يكون البرى من جهة نبات القصـبة، يعنى من أعلاها إذا كانت قائمة علىٰ أصـلها ، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس . وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار أبو تَمَّـامٍ الطائىّ بقوله فى أبياته المتقدّمة :

وأقبلت * أعاليه فى القِرْطاس وهى أسافِلُ

وقال أبو القاسم : إذا أخذ القلم ليبْرِيَه فلا يخلو من ٱستقامة فى البنية أو ٱعوجاج فى الخلقة ، فإن كان مسـتويا فالبرية من رأسـه ، وهو حيث ٱستدق ، وإن كان مُعْوَجًّا ودعت الضرورة إليه، فالبرية من أسفله لأن أسفله أقل ٱلتواءً من أعلاه .

النظـــر الرابع .

(فى كيفية إمساك السِّكِّين حال البرى)

قال ٱبن البربرىّ : إذا بدأت بالبِراية فأمسـك السكين باليد اليمنىٰ ؛ والأنبوبة باليسرىٰ، وضع إبهامك اليمنىٰ علىٰ قفا السكين، ثم ٱعتمد علىٰ الأنبوبة ٱعتمادا رفيقا .

النظر الخـامس

(فى صـــنعة الـــبراية)

قال العَتَّـابىّ: سألنى الأَصْمَعِىّ يوما بدار الرشـيد : أىُّ نوع من البرى أَصْوَبُ وأَكْتَبُ؟ فقلت : البَرْية المســتوية القَطَّة التى عن يمين سنها برية تأمن معها المجةَ عند المدّة والمطة، الهواءُ فى شـقها فتيق، والريح فى جوفها خريق، والمـداد فى خرطومها رقيق .

واعلم أنه ربمـا حَسُن الخط باعتبـار براية القلم ، وإن لم يكن علىٰ قواعد الخط وهندسته ، فقد قيل : إن الأحول المحرر كان عجيب البراية للقلم ، فكان خطه رائقا بَهِجًا من غير إحكام ولا إتقان . قال الأنصارى المحرر : كنت أكتب فى ديوان الأحول ، فقرُبت منه وأخذت من خطه ، وسرقت من دواته قلمـا من أقلامه ، فجاد خطى به ، فلاحت منه نَظْرة إلىٰ دواتى ، فرأىٰ القلم فعرفه ، فأخذه وأبعدنى . وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رءوس أقلامه كلَّها .

وٱعلم أن البَرْىَ يشتمل علىٰ معان .

المعنىٰ الأوّل — فى صفته ، ومقداره فى الطول ، والتقعير .

قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : ويجب أن يكون فى القلم الصُّلْبِ أكثر تقعيرا ، وفى الرِّخْوِ أقلّ ، وفى المعتدل بينهما . وصفته أن تبتدئ بنزولك بالسكين علىٰ الٱستواء ، ثم تُميلَ القطعَ إلىٰ مايلى رأس القلم ، ويكون طول الفتحة مقـدار عُقْـدة الإبهام ، أو كمناقير الحمـام ، وإلىٰ ذلك أشار الشيخ علاء الدين السرَّمرى رحمه الله فى أرجوزته بقوله :

وطُولُهـا كعُقْدة الإبهامِ لا * أعلىٰ ولا أدنىٰ يكون أرذَلا

قال الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب رحمه الله : كل قلم تقصُرِ جلفَتُه ، فإن الخط يجىء به أوْقصَ ، والوَقَص قِصَرُ العنق ، ولذلك سمى متفاعلن فى عروض الكامل إذا حذفت منه التاء أوقص ، وكأنه يريد بالقِصَرِ مادون عقدة الإبهام .

وقد قال إبراهيم بن العباس الصولى الكاتب : أطِلْ خُرْطوم قلمك . فقيل له : اله خرطوم قال : نعم . وأنشد .

كأنّ أُنوفَ الطير فى عَرَصَاتِها * خراطِـيمُ أقلامٍ تَخُطُّ وتُعْجِمُ

وقال عبد الحميد بن يحيىٰ كاتبُ مَرْوان لرغبان، وكان يكتب بِقلم قصير البَرْيَة : أتريد أن يَجُود خطُّك ؟ قال : نعم . قال : فأطل جلْفَةَ قلمك وأسْمنها ، وحرِّف القطة وأيمنها ؛ قال رغبان : ففعلت ذلك فجاد خَطِّى . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : إذا طالت البَرْية ، فإنه يجىءُ الخط بها أخف وأضعف وأجلىٰ ؛ وإذا قصرت، جاء الخط بها أصفىٰ وأثقل وأقوىٰ .

المعنى الثانى — النحت .

قال الوزير أبو علىّ بن مقلة : وهو نوعان، نحت حواشيه، ونحت بطنه . أما نحت حواشيه، فيجب أن يكون متساويا من جهتى السن معا ، ولا يحمل علىٰ إحدى الجهتين فيضعف سنه ، بل يجب أن يكون الشق متوسطا بجِلْفَةِ القلم دَقَّ أو غَلُظَ . قال : ويجب أن يكون جانباه مسيَّفين، والتسييف أن يكون أعلاه ذاهبا نحو رأس القلم أكثر من أسفله ، فيحسن جرىُ المداد من القلم . قال : وأما نحت بطنه فيختلف بحسب آختلاف الأقلام فى صلابة الشحم ورخاوته ؛ فأما الصُّلْبُ الشحمة فينبغى أن يُنْحت وجهه فقط ،ثم يجعل مسطحا وعرضه كقدر عرض الخط الذى يُؤْثِرُ الكاتبُ أن يكتبه . وأما الرخو الشحمة فيجب أن تستأصل شحمته حتّى تنتهى إلىٰ الموضع الصُّلْب من جرم القلم، لانك إن كتبت بشحمته، تشظّى القلم ولم يَصْفُ جريانه .

ومن كلام آبن البربرى : لاتقصع البِرَاية ،ولا تخالف بين حدّى القلم؛ فإن ذلك حِياَكة ، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول .

ثم الجِلْفَةُ علىٰ أنحاء : منها أن يرهف جانبى البَرْية، ويُسْمن وسطها شيئا يسيرا؛ وهذا يصلح للبسوط والمعلَّق والمحقَّق .

ومنها ماتستأصل شحمته كلها، وهذا يصلح للرسل والممزوج والمفتح .

ومنها مايرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية فى الأيمن؛ وهذا يصلح للطوامير وما شابهها .

ومنها مايرهف من جانبى وسطه ، ويكون مكان القطة منه أعرض ممـا تحتها؛ وهذا يصلح فى جميع قلم الثلث وفروعه .

المعنى الثـالث ـ الشق : وفيه مهيعان .

المهيع الأوّل

(فى فائدته)

قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : لو كان القـلم غير مشقوق ما ٱستمرّت به الأنامل، ولا ٱتصل الخط للكاتب، ولكَثُر الاستمداد، وعُدِم المشق، ولمال المداد إلىٰ أحد جنبى القلم علىٰ قدر فتل الكاتب له .

المهيع الثـانى

(فى صفة الشق، وفيه مُدْرَكَان)

المُـــــدْرك الأوّل

(فى قدره فى الطول)

قال ٱبن مقلة : ويختلف ذلك بحسب ٱختلاف القلم فى صلابته ورخاوته . فأما المعتدل فيجب أن يكون شَقُّه إلىٰ مقدار نصف الفتحة أو ثلثيها . والمعنىٰ فيه أنه إذا زاد علىٰ ذلك ٱنفتحت سنا القلم حال الكتابة وفسد الخط حينئذ. وإذا كان كذلك أمن من ذلك .

وأما الصُّلْبُ ، فينبغى أن يكون شـقه إلىٰ آخر الفتحة ؛ وربمـا زاد علىٰ ذلك

بمقدار إفراطه فى الصــلابة . وقد نظم ذلك الشيخ علاء الدين السُّرَّمَرّىّ رحمه الله فى أرجوزته فقال :

وٱعلم بأن الشَّقَّ أيضـا يَخْتَلِفْ * بحسَب الأقلام، فافهم ما أَصِفْ
فإن يكن معتدلا شُــقَّ إلىٰ * مقدار ثُلْثِ الحِلْفَةِ ٱنقل وٱقبــلا
والرِّخْوُ للنصف أو الثلثين زد * والصُّـلْبُ بالفتحة أَلْحِقْ تَسْـتَفِدْ
وربّمــا زادوا عــلىٰ ذاك إذا * أَفْرَطَ فى الصلابة، ٱعرِف ذا وذا

المُدْرَك الثـانى

(فى محله من الحِلْفَةِ فى العرض)

وقد تقدّم من كلام ابن مقلة رحمه الله فى المعنىٰ الثالث أنه يجب أن يكون الشق متوسطا بِحلْفَةِ القلم، وعليه جرىٰ الأســتاذ أبو الحسن بن البوّاب رحمه الله فقال : وليكن غِلَظ الســنين جميعا سواءً . قال : ويجوز أن يكون الأيمن أغلظَ من الأيسر دون العكس علىٰ كل حال؛ وهذا إنمــا يأتى إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلىٰ جهة اليسار ، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلىٰ جهة اليمين كالقبطية فإنه يكون بالعكس من ذلك لأنه يقوىٰ الآعتماد علىٰ اليسار دون اليمين .

المعنى الرابع ــ القَطّ، وفيه مهيعان :

المهيع الأوّل

(ٱشــتقاقه ومعنــاه)

يقال قطَطْت القلم أقُطُّه قَطًّا فأنا قاطٌّ وهو مَقْطُوط وقَطِيط : إذا قطعت سِــنَّهُ وأصل القَطّ القطع؛ والقَطُّ والقدّ متقاربان، إلا أنّ القط أكثر ما يستعمل فيما يقع السيف فى عَرْضــه ، والقدّ ما يقع فى طُوله . وكان يقال : إذا علا الرجل الشيءَ

بسيفه قدّه ، وإذا عرضـه قَطَّه . وذلك أن مخرج الطاء والدال متقاربان، فأبدل أحدهما من الآخر كما يقال مط حاجبيه، ومدّ حاجبيه .

المهيع الثـانى
(فى صفته)

وٱعلم أن أجناس القَطّ تختلف بحسب مقاصد الكُتَّاب ، وهو المقصود الأعظم من البِرَاية ، وعليـه مَدَار الكتابة . قال الضَّحَّاك بن عجلان : من وعىٰ قلبـه كثرةَ أجناس قطّ الأقلام ، كان مقتدرا علىٰ الخط . وقال المقرّ العلائىّ ابن فضل الله تغمده الله برحمتـه : كان بعض الكُتَّاب إذا أخذ الأنْبوبة ليَبْرِيها تفرّس فيها قبـل ذلك ، فإذا أراد أن يقُطّ توقف ثم تحرّى ، فتوقف ثم يقُطّ علىٰ تثبُّت .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والقط علىٰ نوعين :

النوع الأوّل ــ المحرّف ، وطريق بريه أن يحرف السكين فى حال القط ، وهو ضربان : قائم ومصوّب : أما القائم فهو ماجعل فيه ٱرتفاع الشحمة كارتفاع القشرة وأما المصوّب ، فهو ما كان القِشْر فيه أعلىٰ من الشحم .

النوع الثانى ــ المستوى ، وهو ماتساوى سناه ، وأجودهما المحرّف ، وقد صرح بذلك الوزير أبو على بن مُقْلة ، فقال : وأحمدها ما كان ذا سنّ مرتفع من الجهـة اليمنىٰ ٱرتفاعا قليـلا إذا كان القلم مصوّبا ، وهذا معنىٰ التحريف ، وذلك إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلىٰ جهة اليسار كما تقدّم عند ذكر سِنّي القلم ، بخلاف ما إذا كان آخذا من جهة اليسار إلىٰ جهة اليمين . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : وأجودها المحرفة المعتدلة التحريف ، وأفسدها المستوية ، لأن المستوى أقلّ تصرفا من المحرّف . قال : وقد كان بعض مَنْ لا يعتدّ به يقط القلم علىٰ ضـد

مايعتمده الأستاذون، فيصير الشحم من القلم هو المشرف علىٰ ظاهره ، فكان خطه لا يجيء إلا رديئا ، و إذا كانت القَطَّة علىٰ الضد من ذلك ، كان الكاتب متصرّفا فى الخط، متمكنا من القرطاس . قال الوزير ابن مقلة : وأَضْجِع السكين قليلا إذا عزمْت علىٰ القَطّ ولا تنْصِبها نصبا ، يريد بذلك أن تكون القطة أقرب إلىٰ التحريف، وأن تكون مصوّبة . قال الشيخ شمس الدين بن أبى رقيبة : سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله عن الكتابة بالأقلام، والتحريف والتدوير، فقال : الرقاع والتواقيع أميلُ إلىٰ التدوير بينَ بينَ ، قَطَّةٌ مُربَّعة ، والنسخ والمحقّق والمشعر أميل إلىٰ التحريف، والمحقق أكثر تحريفا منهما . وقد فسر ٱبن الوحيد قول ٱبن البوّاب : لكن جملة ما أقول بأنه ما بين تحريف إلىٰ تدوير، إن المعنى أن لكل قلم قَطّ صفة ، فقطّة الريحانى أشدّها تحريفا ، ثم يَقِلُّ التحريف فى كل نوع من أنواع قط الأقلام حتّى تكون الرقاع أقلها تحريفا .

النظر السادس

(فى معرفة صفات القلم فيما يتعلق بالبِرَاية، وما لكل من سِنَّىِ القلم من الحروف)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : من لم يَدْرِ وجه القلم، وصدْره، وعَرْضه، فليس من الكتابة فى شيء. وقد فسر ذلك الوزير أبو علىٰ بن مقْلة فقال: ٱعلم أن للقلم وَجْها وصَدْرا وعَرْضا، فأما وجهه فحيث تضع السكين وأنت تريد قَطّه، وهو مايلى لمة القلم وأما صدره فهو مايلى قشرته ، وأما عرضه، فهو نزولك فيه علىٰ تحريفه. قال : وحرف القلم هو السنّ العليا وهى اليمنىٰ .

الجمـــــلة السادسة

(فى مساحة رأس القلم ومقـدارها من حيث موضع القطة، وتفرّعها عن قلم الطومار، ونسبتها من مساحته علىٰ ٱختـلاف مقاديرها فى الدقة والغِلَظ والتوسُّط، وما ينبغى أن يكون فى دواة الكاتب من الأقلام) :

أما مساحة رأس القلم، فاعلم أن رءُوس الأقلام تختلف باختـلاف الأقلام التى جرىٰ ٱلاصطلاح عليها بين الكُتَّاب، وأعظمها وأجلُّها وأكثرها مساحةً فى العَرْض هو قلم الطُّومار : وهو قلم كانت الخلفاء تُعَـلِّمُ به فى المكاتبات وغيرها . وصفته أن يؤخذ من لب الجريد الأخضر، و يؤخذ منه من أعلىٰ الفتحة مايسع رءُوس الأنامل ليتمكن الكاتب من إمساكه، فإنه إذا كان علىٰ غير هذه الصورة، ثقل علىٰ الأنامل ولاتحتمله؛ و يتخذ أيضا من القصب الفارسىّ؛ ولا بدّ من ثلاثة شقوق لتسهل الكتابة به ويجرِىَ المداد فيه . ولهم قَـلَمٌ دونه يسمّى مختصر الطومار، و به يكتب النوّاب والوزراء ومن ضاهاهم الاعتمادَ علىٰ المراسيم ونحوهـا . وقدّروا مساحة عرضه من حيث البراية بأربع وعشرين شعرةً من شـعر البِرْذَونِ مُعْتَرِضَات، وهو أصل لمـا دونه من الأقلام، فقلم الثلثين من هذه النسبة مقدّر بست عشرة شعرة، وقلم النصف مقدّر باثنتى عشرة شعرة، وقلم الثلث مقدّر بثمـان شعرات، ومختصر الطومار مابين الكامل منه والثلثين . وكل من هـذه الأقلام فيه ثقيل وهو ما كان إلىٰ الشِّبَع أميـل، وخفيف، وهو ما كان إلىٰ الدقة أقرب . إذا تقرّر ذلك فطول الأَلِف فى كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه فى مثله ويجعل طولها نظيرذلك، ففى قلم الطومار يضرب مقـدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة فى مثلها خمسمائة وستا وسبعين شعرة وهو طولهـا ؛ وفى قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطُّومار

وهو ثمان شعرات فى مثلها بأربع وستين، فيكون طولها أربعا وستين شعرة وكذلك الجميع فاعلمه .

وأما عدد أقلام الدواة فقد قال الوزير أبو علىّ بن مقلة : ينبغى أن تكون أقلامه علىٰ عدد مايؤثره من الخطوط، وكأنه يريد أن يكون فى دواته قلم مبرىّ للقلم الذى هو بصدد أن يحتاج إلىٰ آبته ليجده مهيأ، فلا يتأخر لأجل بزايته .

الآلة الثانية — المِقْلَمة : وهى المكان الذى يوضع فيه الأقلام، سواء كان من نفس الدواة أو أجنبيا عنها، وقد لاتعدّ من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالبا .

الآلة الثالثة — المُدْيَةُ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأوّل

(فى معناها وآشتقاقها)

قال الجاحظ : تقال بضم الميم وفتحها وكسرها وتجمع علىٰ مُدًى : وهى السكين، وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كانتِ امْرأَتانِ معَهُما آبناهُمَا فجاء الذئبُ فذهَبَ بابن إحداهما، فقالتْ لصاحبَتِها : إنما ذَهَب بابنِك، وقالت الأخرىٰ إنما ذهب بابنِك . فتحاكَمَا إلىٰ داودَ فقضىٰ به للكُبْرىٰ، فخرجَتَا إلىٰ سليمانَ بنِ داودَ فأخبرَتَاه، فقال : ائتونِى بالسِّكِّين أشقُّه بينهما، فقالت الصغرىٰ : لاتَفْعَلْ رحمك الله هو آبنُها، فقضىٰ به للصُغْرىٰ" قال أبو هريرة : إنْ سَمِعتُ بالسكين إلا يومئذ ماكنا نقول إلا المُدْية .

ثم الأصل فى السكين التذكير، قال أبو ذؤيب :

يُرىٰ ناصِحًا(١) لِى ما بَدَا، فإذا خَلَا، * فذلِكَ سِكِّينٌ علىٰ الحَلْقِ حاذِقُ

(١) فى اللسان والصحاح يرى ناصحا فيما بدا .

قال الكسائى : ومن أنث أراد المدية وأنشد :

فعيَّثَ(١) فى السَّنام غداة قُرٍّ * بسِكِّينٍ موثَّقة النِّصابِ

ويقال سِكِّينة بالهـاء، وهو قليل . وفى حديث المَبْعَث "أنه لما شَقَّ المَلَكُ بطنه صلى الله عليه وسلم قال : ائتِنى بالسِّكِّينة" وتجمع علىٰ سَكاكين، سميت مُدْية أخذا من مَدىٰ الأجل وهو آخره : لأنها تأتى بالأجل فى القتل علىٰ آخره ، وسميت سِكِّينا لأنها تسَكِّن حركة الحيوان بالموت. ونِصابُ السكين أصلُها، ونصاب كل شيءٍ أصله قال الشاعر :

وإنَّ نِصابِى إن سألتِ ، وأُسْرَتى * من الناس حيٌّ يقتنون المُزَنَّما(٢)

، أى وإن أصلى . ويقال أنصَبْت السكين إذا جعلتَ لها نِصابا، كما يقال أقبَضْتها إذا جعلتَ لها مَقْبِضًا، وأقربْتُها إذا جعلت لها قِرابًا، وأغلفتها إذا جعلت لها غِلافا، والحديدةُ الذاهبـة فى النصاب سيلانٌ. ويقال أحْددتُ(٣) السكين فأنا أُحِدّه إحداد وحَدّ السكينُ نفسُـه صـار حادّا، وأحَدّ فهو مُحِدّ، وسكين حادّ، فإذا أمرتَ مِنْ أحدّه قلتَ أَحْدِدْه، ومن حدّه قلتَ حُده .

الوجه الثـانى

(فى صفتها)

قال بعض الكُتَّاب : هى مِسَنُّ الأقلام ، تستحَدّ بها إذا كَلَّتْ ، وتطلق بها إذا وقفَتْ ، وتلُمُّها إذا تشعَّثت . فتجب المبالغة فى سَقْيها وإحدادها ليتمكن من البرى ، فيصفو جوهر القلم ، ولا تشظّى قَطَّتُه . وينبغى أن لايستعملها فى غير البِراية لئلا تَكِلّ وتفسُد . قال الصُّولى : وأَحْدِدْ سكينك ولا تستعملها لغير ذلك . قال الوزيرأبوعلى بن مقلة رحمه الله : وٱستحِدّ السكين حدّا، ولتكن ماضية جدّا ؛ فإنها

(١) أى أثر فى السنام بالسكين انظر اللسان (٢) المزنَّم من الابل الكريم تقطع أذنه و يترك لها زنمة
(٣) أى وحددتها أيضا كما يستفاد من نهاية عبارته .

إذا كانت كالّة جاء الخط رديئا مضطربا . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : فساد البِراية من بَلادة السكين . قال محمد بن عمر المدائني : ينبغى أن تكون لطيفة القدّ، معتدلة الحدّ . فقد كره المبالغةَ فى سقيها، لتمكن البارى من بريها . ولاعيب فى حملها فى الكُمِّ والخُفّ، فقد روى المدائنى عن الأعمش عن إبراهيم أنه قال : اتخاذ الرجل السكينَ فى خُفّه من المُروءة . قالوا : وأحسنها ما عَرُض صدرُه، وأُرْهِف حدُّه، ولم يَفْضُلْ عن القَبْضة نِصَابُه، وآستوى من غير آعوجاج . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ورأيت والدى وجماعةً من الكُتّاب يستحسنون العُقَابِيَّة: وهى التى صدرها أعرض من أسفلها . ووصف بعضهم سكينا، فقال : وسكّين عتيقة الحَديد، وَثِيقة الشَّعيرة، مُحْكَمَة النِّصاب، جامعةُ الأسباب، أحدُّ من البَيْن، وأحسنُ من آجتماع مُحِبَّيْن، وأمضى من الحُسَام، فى بَرْى الأقلام . ولله القائلُ فى وصفها :

أنا إن شئْتَ عُدّةٌ لعدوّ * حين يُخْشى على النفُوس الحِمَامُ
انا فى السِّلم خادمٌ لدَوَاة * وبحدّى تُقَوَّمُ الأقلامُ

الآلة الرابعة ـ المِقطُّ (بكسر الميم) كما ضبطه الجوهرىّ فى الصِّحاح إلا أنه قال فيه : مِقطّة بالتأنيث .

قال الصّولى : ينبغى أن يكون المِقطُّ صُلْبًا فتمضى القَطَّة مستوية لامَشْظِيَّة . قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : إذا قططتَ فلا تَقُطّ إلا على مِقَطٍّ أملسَ صُلْبٍ غير مُثَلَّم ولا خَشِنٍ لئلا يَتَشَظّى القلم : وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ويتعين أن يكون من عود صُلْبٍ كالآبنُوس والعاج، ويكون مسطَّحَ الوجه الذى يُقَطُّ عليه، ولا يكون مستديرا : لأنه إذا كان مستديرا تشظّى القلم، وربما تهللت القَطَّةُ فتأتى الإدارات والتشعيرات غيرَ جيِّدة . قلت وينبغى أن لايكون مع ذلك

مانعا كالحديد والنُّحاس ونحوه فإن ذلك يفسد السكين، ولا تجيء القَطَّةُ صالحة .

الآلة الخامسة ـ المِحْبرة، وهى المقصود من الدواة، وتشتمل على ثلاثة أصناف .

الصنف الأوّل ـ الجُونة، وهى الظَّرف الذى فيه اللِّيقة والحِبْر .

قال بعض فضـلاء الكُتَّاب : وينبغى أن تكون شكلا مدوّر الرأس يجتمع على زاويتين قائمتـين، يوقذهمـا خط، ولا يكون مربعا على حال لأنه إذا كان مربعا يتكاثف المداد فى زواياه فيفسد المداد، فإذا كان مستديرا كان أبقى للمداد، وأسعد فى الاستمداد .

الصنف الثـانى ـ الليقة، وتسميها العرب الكُرْسُف تسميةً لهـا باسم القُطْن الذى تتخذ منه فى بعض الأحوال كما سيأتى، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأوّل

(فى اشـــتقاقها)

يقال أَلَقْتُ الدواة ولِقْتُها، أخذا من قولهم : فلان لاتُلِيقُ كفُّه درهمـا أى لاتحْبِسُه ولا تُمْسكه، وأنشد الكسائىّ :

كَفَّـاكَ كَفٌّ ما تُلِيق دِرْهَمَـا * جُودا، وكَفٌّ تُعْطِ بالسيف الدَّمَا

يصفه بالجُود، أى كَفَّاكَ ما تُمسِكُ درهما، ويقال : مالاقَتِ المراة عند زوجها أي ما عَلِقَتْ . قال المبرد : دخل الأصْمَعِىّ على الرشيد بعد غَيْبةٍ غابها، فقال له : كيف حالُك ياأصمعىّ؟ فقال : ما ألاقَتْنى نحوكَ أرضٌ ياأمير المؤمنـين : نأمسك الرشيدُ عنه، فلما تفرّق أهل المَجْلِس، قال له : مامعنى ألاقتنى؟ قال : ماحبستْنى، فقال : لا تكلِّمْنى فى مجلس العامّة بمـا لا أعلم . قال الجاحظ : ولا تسـتحق اسم اللِّيقة حتّى تُلَاق فى الدواة بالنِّقْس : وهو المِداد .

الوجه الثانى
(فيما تتخذ منه وتتعاهد به)

قال بعض الكُتَّاب : تكون من الحرير والصُّوف والقطن، ويقال فيه الكُرْسُف، والبِرْس، والطُّوط، والعُطْبُ، والأولىٰ أن تكون من الحرير الخَشن : لأن انتفاشها فى المِحْبرة وعدم تَلَبُّدِها أعونُ علىٰ الكتابة . قال بعض الكُتَّاب : ويتعين علىٰ الكاتب أن يتفقد اللِّيقة ويطيِّبها بأجود ما يكون، فإنها تُرْوِح علىٰ طول الزَّمَن، ولله القائل :

مُتَظَرِّفٌ شَهِدَتْ عليه دواتُهُ * أن الفتىٰ لا كان غيرَ ظَرِيفِ
إن التفقُّدَ للدَّواة فضيلةٌ * موصوفةٌ للكاتب الموصوفِ

وكان بعض الكُتَّاب يطيِّب دواته بأطيبِ ما عنده من طِيبِ نفسه، فسئل عن ذلك، فقال : لأنى أكتبُ به اسمَ الله تعالىٰ واسمَ رسوله صلى الله عليه وسلم واسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وربما سبق القلم بغير إرادتنا فنلحَسُه بألسنتنا ونمحوه بأكمامنا .

قال الشيخ علاء الدين السُّرَّمَرِّىّ : ويتعين علىٰ الكاتب تجديد اللِّيقة فى كل شهر، وأنه حين فَرَاغه من الكتابة يُطبِّق المِحْبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه، فيفسد الخط . ونظم ذلك فى أرجوزته فقال :

وَجَدِّدِ اللِّيقَةَ كُلَّ شَهْرِ * فَشَيْخُنَا كان بهذا يُغْرِى
لأجل ما يَقَعُ فيها مِنْ قَذىٰ * فينْتَشِى من ذاك فى الخَطِّ أذىٰ

وينبغى له مع ذلك أن يصُونها عن الأشْيَاء القَذِرة كالبُصَاق ونحوه ، فقد حكىٰ محمد بن عمر المدائنى أن بعض العلماء رأىٰ صبيًّا يبصُق فى دواته فزجره، وقال لمعلّمه : امنع الصِّبيان عن مثل هذا ، فإنما يكتبون به كلام الله . قال محمد بن عمر

المدائنى : كأنه تحرّج أن يُكتبَ القرءان بمـداد غير نظيف . قال المدائنى : وكان بلغنى عن آبن عباس أنه أجاز أن يبصُـق الرجل فى دواته، فسألت أحمد بن عمرو البزاز عن ذلك فأنكره، وقال : هذا حديث كذب، وضعه عاصم بن سليمان الكودن، وكان كَذّابا ذكرته لأبى داود الطيالسى فقـال : هو كذّاب يجب أن تعرفوا كذبه، صفوا له مسئلة حتّى يحدّثكم بحديثٍ، فقال : فجئت أنا وعمر بن موسىٰ الحـارثىّ فى جماعة، فقال له عمر : ما تقول فى الرجل يبْزُق فى الدواة و يستمدّ منها ؟ وكان قد ذهب بصره، فقال : حدّثنا عبد الله بن نافع عن آبن عمر أنه كان يبزق فى الدواة و يستمدّ منها، ثم قال : وحدّثنا هشام بن حسان عن عكرمة عن آبن عباس مثـل ذلك، قال : فهمز بعض أصحابنـا وقال : كان آبن عباس لا يبصر، قال : ففهم، فقال : نعم . كان آبن عباس لا يرىٰ بذلك بأسا . .

الصنف الثالث ـ المداد والحبر وماضاهاهما . والنظر فيه من أربعة أوجه

الوجه الأوّل

(فى تسميتهما وآشتقاقهما)

اما المِدَاد فسمّىَ بذلك لأنه يَمُدّ القلم أى يُعِينه، وكل شىء مددت به شيئا فهو مداد، قال الأخطل :

رَأتْ(١) بارقاتٍ بالأ كُفّ كأنّها * مصابيحُ سُرْج أُوقدَتْ بِمِدَادِ

سمّى الزيت مدادا لأن السِّراج يُمَـدُّ به، فكل شىء أمددت به الليقة مما يكتب به فهو مِدَاد، وقال آبن قتيبة فى قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ لَوْكَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَـاتِ رَبِّى﴾ : هو من المداد لامن الإمداد . ويقال : أمدّ القلم فى الخير مثل ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ﴾ ومدّه فى الشر، مثل ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾. ويقال فيه أيضا نِقْسٌ

(١) فى اللسان رأوا بواو الجماعة .

ونَقْس ، بكسر النون وفتحها مع إسكان القاف ومع السين المهملة فيهما ؛ والكسر أفصح ، ويجمع على أنْقَاس .

وأما الحِبْر ، فأصله اللون ، يقال فلان ناصع الحِبْر يراد به اللون الخالص الصافى من كل شىء ، قال آبن أحمر يذكر آمرأة :

تِتيهُ بفاحِمٍ جَعْـدٍ * وأبيضَ ناصعِ الحِبْرِ

يريد سواد شعرها ، وبياض لونها ، وفى الخبر "يَخْرُج من النار رجُلٌ قد ذَهَبَ حِبْرُه وسِبْرُه" بكسر الحاء المهملة والسين فيهما . قال آبن الأعرابى : حِبْره حسنه ، وسِبْره هيئته ، وقال المبرد : قال التوّزى : سألت الفرّاء عن المداد لم سمى حبرا ؟ فقال يقال لِلْمُعَلِّم حَبْر وحِبْر يعنى بفتح الحاء وكسرها ، فأرادوا مداد حبر أى مداد عالم ، فحذفوا مِدَاد وجعلوا امكانه حِبْرا . قال : فذكرت ذلك للأَصْمعِىّ ، فقال : ليس هذا بشىء إنما هو لتأثيره . يقال : على أسنانه حِبْر إذا كثُرتْ صُفْرتها حتّى صارت تضرب إلى السواد ، والحبر الأثر يبقى فى الجلد ، وأنشد :

لقد أَشْمَتَتْ بى آلَ فَيْدٍ وغَادَرَتْ * بجِلْدِىَ حِبْرًا بِنْتُ مَصَّانَ بَادِيَا

أراد بالحبر الأثر ، يعنى أثَرَ الكتابة فى القرطاس ، قال المبرد : وأنا أَحْسَب أنه سمى بذلك لأن الكتّاب يُحَبَّر به أى يُحَسَّن ، أخذا من قولهم حَبَّرْتُ الشئ تحبيرا إذا حَسَّنْتُهُ .

الوجه الثانى

(فى شرف المداد والحبر، وآختيار السواد لذلك)

فى الخبر "يُؤْتَى بمِدادِ طالِبِ العِلْمِ ودَمِ الشهيد يومَ القيامةِ ، فيُوضَعُ أحدهما فى كِفَّةِ الميزان والآخر فى الكِفَّةِ الأخرى فلا يرجَحُ أحدُهما على الآخرِ" قال بعض الحكماء : صُورة المداد فى الأبصار سوداء ، وفى البصائر بيضاءُ . وقد قيل : كواكبُ

الحِكَم فى ظُلِمَ المِدَاد . ونظر جعفر بن محمد إلىٰ فتى علىٰ ثيابه أثر المِدَاد ، وهو يستره منه ، فقال له : ياهذا ! إن المِدَاد من المُرُوءة . وأنشد أبو زيد :

إذا ماالمِسْكُ طَيَّبَ ريحَ قَوْمٍ * كَفَتْنِى ذاك رائحةُ المِـدَادِ

وما شيءٌ بأحسَنَ من ثِيَابٍ * علىٰ حافَاتِهَا حَمَمُ السَّـــوَادِ

وقال بعض الأدباء : عَطِّروا دفاتر الآداب بسَوَاد الحِبر . وكان فى حِجْرْ إبراهيم ابن العباس قِرْطاس يَمْشُق فيه كلاما فأسقط ، فمسحه بكُمِّه ، فقيل له لو مسحته بغيره ؟ فقال المـال فرع والقلم أصل ، والأصل أحق بالصون من الفرع . وأنشد فى ذلك :

إنَّمـا الزَّعْفَرَانُ عِطْرُ العَذَارىٰ * ومِدَادُ الدُّوِىِّ عِطْرُ الرِّجَالِ

وأنشد غيره :

مَنْ كان يُعجِبه أن مَسَّ عَارِضَهُ * مِسْكٌ يُطَيِّبُ منه الريحَ والنَّسَمَا

فإنَّ مِسْكِى مِدَادٌ فوق أُنمُلتى * إذا الأصَابِـعُ يوما مَسَّتِ القَلَمَا

علىٰ أن بعضهم قد أنكر ذلك ، وقال : المداد فى ثوب الكاتب سَخَافه ، ودَنَاءة منه وقلة نَظَافه . قال أبو العالية : تعلمت القرءان والكتابة ، وما شَـعَرَ بى أهلى ، وما رؤى فى ثوبى مِدَادٌ قط . وأنشدوا :

دَخيـــلٌ فى الكتابة يدَّعيها * كدَعْوىٰ آل حَرْبٍ فى زِيَادِ

يُشَـــبِّهُ ثوبهُ للمَحْوِ فيـــه * إذا أبصرته ثَوْبَ الحِـدَادِ

فَدَعْ عنك الكِتابةَ لَسْتَ منها * ولو لَطَّخْتَ وَجْهَكَ بالمِدَادِ

وقال فارس بن حاتم : ببريق الحبر تَهْتَـدِى العقولُ لخبَايَا الحِكَم : لأنه أبقىٰ علىٰ الدهر ، وأنمىٰ للذِّكْر ، وأزيدُ للأجْر .

وآعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مَدار الربع منها وأنشدوا فى ذلك :

رُبْعُ الكتابة فى سَوَادِ مِدَادِهَا * والرُّبْعُ حُسْنُ صِناعة الكُتَّابِ

والرُّبْعُ من قلمٍ تُسَوِّى بَرْيَهُ * وعلى الكَوَاغِدِ رَابِعُ الأسْبَابِ

قال بعض العلماء رحمهم الله : وإنما آختير فيه السواد دون غيره لمضادّته لون الصحيفة . قال : وليس شىءٌ من الألوان يضادّ صاحبه كمضادّة السواد للبياض . قال الشاعر :

فالوجْهُ مثلُ الصبح مُبْيَضٌّ * والفَرْعُ مثلُ الليل مُسْوَدُّ

ضِدَّان لما آستجمعا حَسُنَا * والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

ويقال فى المداد : أسودُ قاتِمٌ، وهو أوّل درجة السواد، وحالكٌ وحَانِكٌ، وحُلْكُوكٌ، وحُلْبُوبٌ، وداجٍ، ودَجُوجِىٌّ، ودَيْجُورٌ، وأَدْهَمُ، ومُدْهَامٌّ .

قال المدائنى : حدّثنى بذلك محمد بن نصر عن أحمد بن الضحاك عن أبى عبيدة .

كتب جعفر بن حدار بن محمد إلى دَعْلَجَ بن محمد يستهديه مِدَادا :

يا أخى للوِدَادِ لا لِلمِدَادِ * وصَدِيقى من بين هذا العِبَادِ

والذى فيه أَلْفُ مَجْدٍ طَرِيفٍ * قد أُمِدَّتْ بِأَلْفِ مَجْدٍ تِلَادِ

أنا أشكو إليك حالَ دَوَاتِى * أَصْبَحَتْ تَقْتَضِى قَمِيصَ حِدَادِ

ولله منصور بن إسماعيل حيث يقول :

وَسَوْدَاء مُقْلَتُهَا مِثْلُهَا * وأجفانُها من لُجَيْنٍ صَقِيلْ

إذا أَذْرَفَتْ عَبْرَةً خِلْتَهَا * كَغَالِيَةٍ فوقَ خَدٍّ أَسِيلْ

الوجه الثالث

(فى صنعتهما، وفيه نظران)

النظر الأوّل ــ فى مادّتهما .

وآعلم أن الموادَّ لذلك منها ما يُستعمل بأصله ولا يُحتاج فيه إلىٰ كبيرِ علاج وتدبير كالعَفْص، والزاج، والصمْغ، وما أشبهها . ومنهـا مايحتاج إلىٰ علاج وتدبير، وهو الدُّخَان . قال أبو القاسم خلوف بن شعبة الكاتب : ويُتَوخّى فى الدخان أن يكون من شىء له دهنية، ولا يكون من دخان شىءٍ يابس فى الأصل لأن دخان كل شىء مثله وراجع إليه .

قال أحمد بن يوسف الكاتب : كان يأتينا رجل فى أيام خُمَارويه ببغداد لم أر أنعمَ منه، ولا أشدّ سوادا منه . فسألته من أىّ شىء آستخرجته ؟ فكتم ذلك عنى، ثم تلطفت به بعد ذلك، فقال لى : من دهن بزر الفُجْل والكتّان، أضع دُهْنَ ذلك فى مَسَارجَ وأَوقِدها، ثم أجعل عليها طاسا حتّى إذا نَفِد الدهن، رفعتُ الطاس، وجمعت ما فيها بمـاء الآس والصمغ العربىّ . وإنمـا جمعه بمـاء الآس ليكون سواده مائلا إلىٰ الخُضْرة، والصمغ يجمعه ويمنعه من التطاير .

قال صاحب الحلية : وإن شئت أخذت من دخان مَقَالى الحِمَّص وشبهه، وتُلقى عليه ماء، وتأخذ مايعلو فوقه وتجمعـه بمـاء الآس، والعسـل والكافور والصمغ العربى والملح، وتمدّه وتقطعه شوابير، والدخَان الأول أجود والله أعلم .

النظر الثانى ــ فى صنعتهما، وفيه مسلكان

المسلك الأوّل

(فى صنعة المداد، وبه كانت كتابة الأوّلين من أهل الصنعة وغيرهم)

قال الوزير أبو علىّ بن مُقْلة رحمه الله : وأجود المداد ما اتُّخِذ من سُخَام النِّفْط ، وذلك أن يؤخذ منه ثلاثة أرطال ، فيجاد نخله وتصفيته ، ثم يلقىٰ فى طِنْجير ، ويُصَبُّ عليه من الماء ثلاثة أمثاله ، ومن العسل رطل واحد ، ومن الملح خمسة عشر درهما ، ومن الصَّمْغ المسحوق خمسةَ عشر درهما ، ومن العَفْص عشرة دراهم ، ولا يزال يساط علىٰ نار لينة حتّٰى يثخن جِرْمُه ويصير فى هيئة الطين ، ثم يترك فى إناء ويرفع إلىٰ وقت الحاجة . وما ذكره فيه إشارة إلىٰ أنه لاينحصر فى سُخَام النِّفْط ، بل يكون من دُخَان غيره أيضا كما تقدّم . نَعَمْ ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك إلىٰ الكافور لتطيب رائحته ، والصَّبِر ليمنع من وقوع الذباب عليه . وقيل : إن الكافور يقوم مقام الملح فى غير الطيب .

المسلك الثانى

(فى صنعة الحبر، وهو صنفان)

الصنف الأوّل ــ ما يناسب الكاغَد أى الورق : وهو حبر الدُّخَان ، ونحن نذكر منه صفات إن شاء الله تعالىٰ .

"صفة" يؤخذ من العَفْص الشامىّ قدر رطْلٍ يُدَقُّ جريشا ويُنْقَع فى ستة أرطال ماءً مع قليل من الآس : (وهو المرسين) أسبوعا ، ثم يغلىٰ علىٰ النار حتّٰى يصير علىٰ النصف أو الثلثين ، ثم يصفّٰى من مئزر ويترك ثلاثة أيام ، ثم يصفّٰى ثانيا ، ثم يضاف لكل رطل من هذا الماء أوقية من الصَّمْغ العربىّ ، ومن الزاج القُبْرسىّ كذلك ، ثم يضاف إليه من الدخان المتقدّم ذكره مايكفيه من الحلاكة . ولابدّ له مع ذلك من الصَّبِر والعسل ليمتنع بالصَّبِر وقوعُ الذباب فيه ، ويُحفَظ بالعسل علىٰ طول الزمن ؛ ويجعل

من الدخان لكل رِطْل من الحبر (١) بعد أن تَسْحق الدخان بكُلْوة كفك بالسكر النبات والزعفران الشعر والزّنجار إلىٰ أن تُجِيد سَحْقه ، ولا تَصْحنه فى صلاية ولا هاوُن يفسُد عليك .

الصــنف الثانى ــ ما يناسب الرّقّ ، ويسـمّى الحِبرَ الرأس ، ولا دُخَان فيه ، ولذلك يجىء بَصّاصا برّاقا ، وبه إضرار للبصر فى النظر إليه من جهة بَرِيقه ، ويفسِدُ الكاغَدَ علىٰ طول ؛ ونحن نذكر منه .

"صفة حبر" وهى ، يؤخذ من العفص الشامى رِطْل واحد فيُجْرَش ، ويلقىٰ عليه من المـاء العذب ثلاثة أرطال ، ويجعل فى طِنْجِيرٍ ، ويوضع علىٰ النار ويوقَد تحته بنار لَيِّنة حتّى ينْضَجَ ، وعلامة نُضْجِهِ أن تكتب به فتكون الكتابة حمراء بَصّاصَةً ، ثم يلقىٰ عليه من الصَّمْغ العربىّ ثلاث أواقٍ ، ومن الزاج أوقية ثم يصفّى ويودَع فى إناء جديد ، ويستعمل عند الحاجة .

"صفة حبر سَفَرىّ" يعمل علىٰ البارد من غير نار ، يؤخذ العفص فيُجْرش جرشا جيِّدا ويسحق لكل أوقيةِ عَفْصٍ درهم واحد من الزاج ، ودرهم من الصمغ العربِىّ ، ويلق عليه ويرفع إلىٰ وقت الحاجة . فإذا آحتاج إليــه صُبَّ عليــه من المـاء قدر الكفاية وآستعمله .

الوجه الرابع
(فى لِيَق الآفتتاحات)

وهى ما يكتب به فواتح الكلام : من الأبواب ، والفصول والآبتـداءات ونحوها ، ولا مدخل لشىء من ذلك فى فنى الإنشاء والدَّيوْنة ، إلا الذهب فإنه يكتب به فى الطّغْراوات فى كتب القَانَات ، وفى الأسماء الجليلة منها ، كما سيأتى فى موضعه من

(١) بياض بالاصل . وفى الضوء ثلث أوقية بعد الخ .

المكاتبات من فنّ الإنشاء إن شاء الله تعالى، وباقى ذلك إنما يحتاج إليه كُتّاب النَّسْخ إلا أنه لا بأْس بالعلم به فإنه كمال الكاتب .

ونحن نذكر منه ما الغالب آستعمالُه وهو أصناف :

الصنف الأوّل ــ الذهب ، وطريق الكتابة به أن يُحَلَّ ورقُ الذَّهب ؛ وصفة حله أن يؤخذ ورق الذهب الذى يستعمل فى الطِّلاء ونحوه ، فيجعل مع شراب الليمون الصافى النَّقىّ ، ويقتل فيه فى إناء صِينىّ أو نحوه حتّى يضمحلّ جِرْمُه فيه ، ثم يصب عليه الماء الصافى النقىّ ويغسل من جوانب الإناء حتّى يمتزج الماء والشراب ، ويترك ساعةً حتّى يَرْسُبَ الذهب ، ثم يصفَّى الماء عنه ويؤخذ ما رَسَبَ فى الإناء ، فيجعل فى مفتلة زجاج ضيقة الأسفل ، ويجعل معه قليل من اللِّيقة ، والنزْرُ اليسير من الزعفران بحيث لا يُخْرِجه عن لون الذهب ، وقليلٌ من ماء الصمْغ المحلول ، ويكتب به . فإذا جَفَّ صقل بِمِصْقلة من جَزْعٍ حتّى يأخذ حدّه ، ثم يُزَمَّك بالحبر من جوانب الحرف .

الصنف الثانى ــ اللَّازِوَرْدُ ، وأنواعه كثيرة ، وأجودها المعدِنىُّ ، وباقى ذلك مصنوع لا يناسب الكتابة ، وإنما يستعمل فى الدِّهانات ونحوها ، وطريق الكتابة به أن يذاب بالماء ، ويلقىٰ عليه قليل من ماء الصمْغ العربىّ ، ويجعل فى دواةٍ كدواة الذهب المتقدّم ذكرها ، وكلما رَسَبَ حُرّك بالقلم ، ولا يكثر به الصمغ كى لا يَسْوَدّ ويفسُد .

الصنف الثالث ــ الزُّنْجفُرُ ، وأجوده المغربىّ ، وطريق الكتابة به أن يسحق بالماء حتّى ينعَمَ ؛ وإن سحق بماء الرمّان الحامض فهو أحسن ، ثم يضاف عليه ماء الصمغ ، ثم يُلاق بليقة كما يُلاق الحبر ، ويجعل فى دواة ويكتب به .

الصنف الرابع ــ المَغْرة العِراقية ، وهى مما يُكتب به فى نفائس الكتب ،

وربمـا كتب بها عن الملوك فى بعض الأحيان . وطريقه فى الكتابة كما فى الزُّنْجُفْرِ، والله أعلم .

الآلة السادسة ـ المِلْوَاقُ ، بكسر الميم ، وهو ما تلاق به الدّواة أى تحرّك به الليقة . قال بعض الكُتَّاب : وأحسن ما يكون من الآبِنُوسِ لئلا يغيره لونُ المداد . قال : ويكون مستديرا مخروطا، عريض الرأس ثخينه .

الآلة السابعة ـ المِرْمَلَة ، وآسمها القديم المِتْرَبَةُ، جَعْلًا لها آلة للتراب، إذ كان هو الذى يُتَرَب به الكتبُ .

وتشتمل علىٰ شيئين :

الأول ـ الظرف الذى يُجعل فيه الرملُ، وهو المسمّىٰ بذلك . ويكون من جنس الدّواة إن كانت الدواة نُحاسًا ، أو من النحاس ونحوه إن كانت خشـبا علىٰ حسب ما يختاره رَبُّ الدواة. ومحلها من الدواة ما يلى الكاتب ممـا بين المِحْبرة وباطن الدواة مما يقابل المِنْشاة الآتى ذكرها، ويكون فى فمها شُبَّاك يمنع من وصول الرمل الخشن إلىٰ باطنها . وربمـا آتُّخِـذت مِرْملة أخرىٰ أكبر من ذلك تكون فى باطن الدواة لآحتمال أن تَضيق تلك عن الكفاية لِصغَرها. وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم يتخذون مِرْمَلَة كبيرة تقارب حبةَ الرَّانِج(١)، لهـا عنق فى أعلاها ، تكون فى الغـالب من جنس الدواة من نُحَاسٍ ونحوه، وربمـا آتُّخِذت من خشب لقُضاة الحكم ونحوهم .

وممـا ألغز فيها القاضى شهاب الدين ابن بنت الأعز :

ظَرِيفةُ الشَّكْلِ والتِّمثال، قد صُنِعتْ * تَحْكِى العَرُوسَ ولكن لَيْسَ تَغْتَـلِمُ
كأنَّها من ذَوِى الألباب خاشِـعَةٌ * تَبْكِى الدِّماءَ علىٰ ماسَـطَّرَ القَـلَمُ

(١) أى الجوز الهندى .

وتسمّى المِتْرَبَةَ أيضا، وفى ذلك يقول الوجيه المناوى :

يا مَادِحًا أمرًا ولم يَأْتِهِ * ولم ينَلْ منه ولَا جَرَّبَهْ
لَاتَغْبِطِ الكاتبَ فى حاله، * فإنه المِسْكينُ ذُو المِتْرَبَهْ

الثانى ـ الرمل، وقد آختار الكُتّابُ لذلك الرملَ الأحمرَ دون غيره، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة مالايكسوه غيره من أصناف الرمل؛ وخيرُه ما كان دقيقا .

وهو علىٰ أنواع :

النوع الأول ـ ما يؤتىٰ به من الجبل الأحمر الملاصِق للجبل المُقَطَّم من الجهة الشرقية، وهو أكثر الأنواع وأعمُّها وجودا بالديار المصرية .

النوع الثانى ـ يؤتىٰ به من الْوَاحَاتِ، وهو رمل متحجِّر شديدُ الحمرة، يَتَّخذ منه الكُتَّابُ حجارة لِطَافًا تُحَتُّ بالسكين ونحوها علىٰ الكتابة، وأكثر ما يستعملها كُتَّابُ الصعيد والفيُّوم وما والاهما .

النوع الثالث ـ يؤتىٰ به من جزيرةٍ ببحر القلزم من نَوَاحى الطُّور، وهو رمل دقيق أصفرُ اللون، قريب من الزعفران، وله بَهْجة علىٰ الخط إلا أنه عزيز الوجود .

النوع الرابع ـ رمل بين الحُمْرة والصُّفْرة، به شُذُور بَصَّاصَة يخالُها الناظر شُذُور الذهب، وهو عزيز الوجود جدّا، وبه يُرَمِّل الملوكُ ومن شابههم .

الآلة الثامنة ـ المِنْشاة، وتشتمل علىٰ شيئين أيضا .

الأوّل ـ الظرف، وحاله كحال المِرْمَلَةِ فى الهيئة والمحلّ من الدواة من جهة الغطاء إلا أنه لاشُبَّاكَ فى فَمِه ليتوصَّل إلىٰ اللصاق، وربما آتخذ بعض ظرفاء الكُتَّاب مِنْشَاةً أخرىٰ، غير التى فى صدر الدَّواة من رَصَاصٍ علىٰ هيئة حُقٍّ لطيف، ويجعلها

فى باطن الدواة كالمِرْملة المتوســطة ، فإن اللصاق قد يتغيّر بمكثه فى النُّحاس ، بخلاف الرَّصَاص .

الثانى ـ اللِّصاق ، وهو علىٰ نوعين : أحدهما النَّشَا المتخذ من البُرّ ، وطريقه ان يطبخ علىٰ النار كما يطبَخ للقُماش ، إلا أنه يكون أشدّ منه ، ثم يجعل فى المِنْشاة ، وهو الذى يستعمله كُتَّابُ الإنشاء ولا يعوّلون علىٰ غيره لسرعة الالصاق به ، وموافقة لونه للورق فى نَصَاعة البياض ، والثانى المتخَذ من الكَثِيراءِ ، وهو أن تُبَلَّ الكَثِيراءُ بالمـاء حتّى تصير فى قِوَام اللِّصاق ، ثم تجعل فى المِنْشاة . وكثيرا ما يستعمله كُتَّابُ الدِّيْوَنَةِ ، وهوسريع التغير إلىٰ الخُضْرة ولا يسرع اللصاق به . وينبغى أن يستعمل فى اللِّصاق فى الجملة المَـاوَرْدُ والكافور لتطيب رائحتُه .

الالة التاسعة ـ المِنْفَذُ ، وهى آلة تشبه المِخْرَز . تتخذ لخرم الورق ، وينبغى أن يكون محل الحاجة منها متساويا فى الدِّقَّة والغِلَظ ، أعلاه وأسفله سواء ، لئلا تختلف أثقاب الورق فى الضـيق والسَّـعَةِ ، خلا أن يكون ذُبَابه دقيقا ليكون أسرع وأبلغ فى المقصود ، وحكمه فى النِّصاب فى الطول والغِلَظ حُكْمُ المُدْية ، وقد سبق . وأكثر مَنْ يحتاج إلىٰ هـذه الآلة من الكُتَّاب كُتَّابُ الدواوين ، وربمـا آحتاج إليها كاتب الإنشاء فى بعض أحواله .

الآلة العاشرة ـ المِلْزَمَةُ ، قال الجوهرىّ : الملزم بالكسر خشبتان تشدّ أوساطهما بحديدة تكون مع الصَّياقلة والأبَّارين ، ولم يزد علىٰ ذلك . وهى آلة تتخذ من النُّحَاسِ ونحوه ، ذات دَفَّتين يلتقيان علىٰ رأس الدَّرْجِ حال الكتابة ليمنع الدرج من الرجوع علىٰ الكاتب ، ويُحْبَس بمَحْبَس علىٰ الدَّفَّتين .

الالة الحادية عَشْرَةَ ـ المِفْرَشَة ، وهى آلة تتخذ من خِرَقٍ كَتَّان : بِطانةً وظِهارة ، أو من صوف ونحوه ، تُفْرَش تحت الأقلام وما فى معناها مما يكون فى بطْن الدواة .

الآلة الثانية عشرة ـ المِمْسَحة، وتسمّى الدفتر أيضا، وهى آلة تتّخذ من خِرَقٍ متراكبة ذات وجهين ملوّنين من صوف أو حرير أو غير ذلك من نفيس القُمَاش، يُمْسَح القلم بباطنها عند الفَرَاغ من الكتابة لئلا يجفّ عليه الحبر فيفسد ؛ والغالب فى هذه الآلة أن تكون مدوّرة مخزومة من وسطها . وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سَعَةِ الدواة . وفيها يقول القاضى الفاضل رحمه الله :

مِمْسَحَةٌ نَهارُها * يُجِنُّ ليلَ الظُّلَمِ
كأنها مُذْ خُلِقَتْ * مِنْدِيلُ كُمِّ القَلَمِ

وقال نور الدّين علىّ بن سعيد المغربىّ فيها :

ومِمْسَحةٍ لَاحَتْ كَأُفْقٍ تَبَدَّدَتْ * به قِطَعُ الظَّلْماءِ، والصُّبحُ طَالِعُ
ولَمّا أطالَ الليلُ فيها ورُودَه، * حَكَتْهُ، ومُدَّتْ للصَّباحِ المَطَالِعُ

وقال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

ومِمْسَحَةٍ تَنَاهَى الحُسْنُ فيها * فأضْحَتْ فى المَلَاحَةِ لَا تُبَارَى
ولَا نُكْرٌ على القَلَمِ المُوَافِى * إذا فى وَصْلِهَا خلعَ العِذَارَا

الآلة الثالثة عشرة ـ المِسْقاة، وهى آلة لطيفة تتخذ لصب الماء فى المِحْبَرَة وتسمّى المَاوَرْدِيَّةَ أيضا : لأن الغالب أن يجعل فى المِحْبرة عِوَضَ الماء ماوَرْدٌ لتطيبَ رائحتها، وأيضا فإن المياه المستخرجة كماء الوَرْدِ والخِلَافِ والرَّيْحَانِ ونحو ذلك لا تُحِلُّ الحبر ولا تفسده، بخلاف الماء . وتكون هذه الآلة فى الغالب من الحلزون الذى يخرج من البحر المِلْح، وربما كانت من نُحَاس ونحوه، والمعنى فيها أن لا تخرج المِحبرة من مكانها، ولا يصب من إناء واسع الفم كالكوز ونحوه، فربما زاد الصب على قدر الحاجة .

الآلة الرابعة عشرة ـ المِسْطرة، وهى آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها مايُحتاج إلىٰ تسطيره من الكتابة ومتعلّقاتها، وأكثر مَنْ يحتاج إليها المُذَهِّبُ .

الآلة الخامسة عشرة ـ المِصْقلة ،وهى التى يُصْقَلُ بها الذهب بعد الكتابة، وهى من آلات الدّواة لامحالة .

الآلة السادسة عشرة ـ المُهْرَقُ (بضم الميم وفتح الراء) وهو القِرْطاس الذى يكتب فيه ، ويجمع علىٰ مَهَارِقَ . قلت : وعدّ صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثاريّ منها المِدادَ، وهو ظاهر، والمِخْيَط، وفى عدّه بُعْدٌ .

الآلة السابعة عشرة ـ المِسَنُّ، هو آلة تتخذ لإحداد السكين، وهو نوعان: أكْهَبُ اللونِ ، ويسمّى الروميّ، وأخضرُ، وهو علىٰ نوعين : حجازيّ، وقوصيّ؛ والروميّ أجودها ، والحجازيّ أجوده الأخضرُ .

الطرف الثالث ـ فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة كما سبقت الإشارة إليه فى بعض الأبيات المتقدّمة ؛ وفيه ثلاث جمل .

الجملـــة الأولى

(فيما نطق به القرءان الكريم من ذلك)

وقد نطق القرءان بثلاثة أجناس من ذلك :

الأول اللّوح . قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ قرأ العامّة بفتح اللام علىٰ أن المراد اللوح واحد الألواح؛ سمى بذلك لأن المعانىَ تلوحُ بالكتابة فيه؛ ثم آختلفوا : فقرأ نافع برفع محفوظ علىٰ أنه نعت للقرءان بتقدير بل هو قرءان مجيد محفوظ فى لوحٍ، وصفه بالحفظ لحفظه عن التغيير والتبديل والتحريف . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ،وقرأ الباقون بالجرّ علىٰ نعت اللوح .

قال أبو عبيد : وهو الوجه ، لأن الآثار الواردة فى اللوح المحفوظ تصدّق ذلك ، وهو أم القرءان ، منه نُسِخَ القرءان الكريم والكتب المُنزَّلة ، ومنه تنسَخُ الملائكة أعمالَ الخلق . قال ابن عباس : وهو لَوْحٌ من دُرّة بيضاء ، طوله مابين السماء والأرض ، وعرضه مابين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدُّرّ والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وأصله فى حِجْرِ مَلَكٍ . وقال أنس : اللوح المحفوظ فى جبهة إسرافيلَ عليه السلام ، وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العَرْش .

قال ابن عباس : وفى صدر اللوح مكتوب "لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دينه الإسلام ، ومحمد عبدُه ورسولُه . فمن آمن بالله وصدّق بوعده واتبع رُسُلَه أدخله الجنة" . وسمى محفوظا لأن الله تعالىٰ حَفِظه عن الشياطين ، وقيل : حَفِظه بما ضمنه :

وقيل : اللوح صدر المؤمن .

وقرأ يحيىٰ بن يَعْمَرَ فى لُوحٍ بضم اللام ، وهو الهواء . يقال لما بين السماء والارض اللُّوحُ ، والمعنىٰ أنه شىء يلوح للملائكة فيقرءُونه . وهو ذو نور وعلوّ وشرف . وقد ورد فى القرءان بلفظ الجمع ، قال تعالىٰ : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد ألواح التوراة . قال الكلبىّ : كانت من زَبَرْجَدَةٍ خضراء . وقال سعيد بن جُبَير : من ياقوتة . وقال مجاهد : من زُمُرُّدٍ أخضر . وقال أبو العالية والربيع بن أنس . من بَرَدٍ : وقال الحسن : خَشَبٍ : وقد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم . قال : "الألواحُ الّتِي أُنْزِلتْ علىٰ موسىٰ من سِدْرِ الجَنَّة ، وكان طُولُ كلّ لوح منها اثنىَ عشر ذراعا" . وقال وهب بن منبه : من صخرة صَمَّاء ألانها الله له فقطعها بيده ، ثم قطعها بأصابعه .

وآختلف فى عددها، فقيل : سبعة، رواه سعيد بن جُبَير عن آبن عباس؛ وقيل لوحان، رواه أبو صالح عن آبن عباس أيضا ، وجُمعت علىٰ عادة العرب فى إيقاع الجمع علىٰ التثنية كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ يريد داود وسليمان عليهما السلام وآختاره الفرّاء . وقيل عشرة . قاله آبن منبه ، وقيل تسعة . قاله مقاتل . وقال أنس : نزلت التوراة وهى سبعونَ وِقْر بعير .

الثانى ــ الرق (بفتح الراء) قال تعالىٰ : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ قال المبرد : هو ما يرقّق من الجلود ليُكْتب فيه . قال المعافى بن أبى السيار : ومن ثَمّ آستُبعِد حمله علىٰ اللوح المحفوظ ، والمنشور المبسوط ؛ وآختلف فى الكتاب المسطور فيه : فقيل اللوح المحفوظ (١)، وقيل القرءان، وقيل ما كتبه الله تعالىٰ لموسىٰ وهو يسمع صرير الأقلام .

الثالث ــ القرطاس والصحيفة ، وهما بمعنى واحد وهو الكاغَدُ .

أما القرطاس، فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ قال آبن أبى السيار : القِرْطاس كاغَدٌ يتخذ من بَرْدِىّ مِصْر، وكل كاغَد قِرْطاس، قال : والجمهور علىٰ كسرها، وضمها أبو زيد وعكرمةُ وطلحةُ ويحيىٰ بن يَعْمَرَ ، والذى حكاه الجوهرىّ عن أبى زيد يخالف ذلك ، فإنه قال فيه قَرْطَسٌ بفتح القاف من غير ألف بعد الراء ؛ والمراد بالكتاب فى الآية الكريمة المكتوبُ لا نفس الصحيفة . قاله المعافىٰ .

وأما الصحيفة ، فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع . قال تعالىٰ : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ ﴾ وقال جل وعز : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى الصُّحُفِ

(١) يظهر أنه وقع هنا تخليط من الناسخ والحاصل على ما يؤخذ من كتب التفسير أنه آختلف فى الرق فقيل الجلد وقيل اللوح المحفوظ . وآختلف أيضا فى الكتاب المسطور فيه فقيل القرءان وقيل ما كتبه الخ . فتنبه .

الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ وتجمع أيضا على صحائف ، وسمى المصحف مُصْحَفا لجمعه الصحف . قال الجوهرى : وسمى التصحيف تصحيفا للخطإ فى الصحيفة .

الجملة الثانية

(فيما كانت الأمم السالفة تكتب فيه فى الزمن القديم)

وقد كانت الأمم فى ذلك متفاوتة ، فكان أهل الصِّينِ يكتُبون فى ورق يصنعونه من الحشيش والكلإ ، وعنهم أخذ الناسُ صنعةَ الورق ، وأهل الهند يكتبون فى خِرَق الحرير الأبيض ، والفُرْسُ يكتُبُون فى الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش ، وكذلك كانوا يكتبون فى اللِّخاف (بالخاء المعجمة) : وهى حجارة بيض رِقَاق ، وفى النُّحاس والحديد ونحوهما ، وفى عُسُب النخل (بالسين المهملة) : وهى الجريد الذى لا خُوصَ عليه ، واحدها عَسِيب ، وفى عظم أكتاف الإبل والغَنَم . وعلىٰ هـذا الأسلوب كانت العربُ لقربهم منهـم . واستمرّ ذلك إلىٰ أن بُعث النبىّ صلى الله عليه وسلم ونزل القرءان والعربُ علىٰ ذلك ، فكانوا يكتُبون القرءان حين ينزل ويقرؤه عليهم النبى صلى الله عليه وسلم فى اللِّخاف والعُسُب . فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال عند جمعه القرءان " فجَعَلْتُ أَتَتَبَّعُ القُرْءانَ من العُسُب واللِّخاف " . وفى حديث الزهرىّ " قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرءانُ فى العُسُب " وربما كتب النبي صلى الله عليه وسلم بعض مكاتباته فى الأَدَم كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

وأجمع رأىُ الصحابة رضى الله عنهم علىٰ كتابة القرءان فى الرَّقّ لطُول بقائه ، أو لأنه الموجود عندهم حينئذ . وبقِىَ الناس علىٰ ذلك إلىٰ أن وَلِيَ الرشيدُ الخلافةَ وقد كَثُر الورق وفشا عمله بين الناس أمر أن لا يكتب الناس إلا فى الكاغَد :

لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادةَ فتقبل التزوير، بخلاف الورق، فإنه متىٰ مُحِى منه فسد، وإن كُشِط ظهر كَشْطُه . وٱنتشرت الكتابة فى الورق إلىٰ سائر الأقطار، وتعاطاها من قَرُب وبعد، وٱستمرّ الناس علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى بيان أسمـاء الورق الواردة فى اللغة، ومعرفة أجناسه)

الوَرَق (بفتح الراء) ٱسم جنس يقع علىٰ القليل والكثير، واحده ورقة ، وجمعه أوراق، وجمع الوَرَقة وَرَقات . وبه سمى الرجل الذى يكتب ورّاقا . وقد نطق القرءان الكريم بتسميته قِرْطاسا وصَحيفة كما مر بيانه . ويسمّى أيضا الكاغَد بغين ودال مهملة، ويقال للصحيفة أيضا طِرْس، ويجمع علىٰ طُروس، ومُهْرَقٌ (بضم الميم وإسكان الهـاء وفتح الراء المهملة بعدها قاف) ، ويجمع علىٰ مَهَارِق . وهو فارسىّ معرّب، قاله الجوهرىّ . وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غرفا صَقيلا، متناسب الأطراف، صبورا علىٰ مُرُور الزمان . وأعلىٰ أجنـاس الورق فيما رأيناه البَغدادىّ : وهو ورق ثخين مع ليونة ورِقّة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جدّا، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة . وربمـا ٱستعمله كُتّاب الإنشاء فى مكاتَبات القانات ونحوها كما سيأتى بيانه فى المكاتبات السلطانية . ودونه فى الرتبة الشامىّ؛ وهو علىٰ نوعين : نوع يعرف بالحَموىّ، وهو دون القطع البغدادىّ . ودونه (١) فى القـدر وهو المعروف بالشامىّ ، وقطعه دون القطع الحموىّ، ودونهـما فى الرتبة الورق المصرىّ؛ وهو أيضـا علىٰ قطعين : القطع المنصورىّ، وقطع العادة والمنصورىّ أكبر قطعا . وقلّما يُصْقل وجهاه جميعا . أما العادة فإن فيـه مايصقل وجهاه ويسمّى فى عرف الورّاقين المصلوح . وغيره عندهم علىٰ رتبتين : عال

(١) أى ونوع دونه الخ فتنبه .

ووسط . وفيه صِنْفٌ يعرف بالفوّى" صغير القطع ، خشن غليظ خفيف الغرف ، لا يُنْتفع به فى الكتابة يُتَّخذ للحَلْوَىٰ والعِطْر ونحو ذلك . وإنما نبهت علىٰ ذلك وإن كان واضحا لأمرين : أحدهما أن لا نُخْلى كتابنا من بيان الورق الذى هو أحد أركان الكتابة ، الثانى أنه قد ينتقل الكُتَّاب إلىٰ إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصرى" كما لا يَعْرِف المِصريُّون ورق غير مصر معرفَتَهُمْ بورق مصر ، فيقع الاطلاع علىٰ ذلك لمن أراده . ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجة فهو ردىء جدّا ، سريع البِلَى ، قليل المكث ، ولذلك يكتبون المصاحف غالبا فى الرَّقّ علىٰ العادة الأولىٰ طلبا لطول البقاء .

وسيأتى الكلام علىٰ مقادير قطع الورق عند أهل التوقيع وأهل الدَّيْوَنَة عند ذكر ورق كل فنّ ، وما يناسبه من القطع إن شاء الله تعالىٰ .

تم الجزء الثانى ، ويتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الثالث ، وأوّله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولىٰ ،

فى الكلام علىٰ نفس الخط)

صبح الأعشى

الجزء الثالث

دار الكتب الخديوية

كتاب صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الثالث

طبـــع
بالمطبعة الامـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٢ هـ
١٩١٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثانى

من الباب الثانى من المقالة الأولىٰ

(فى الكلام علىٰ نَفْس الخط ؛ وفيه سبعة أطراف)

الطَّرَف الأوّل

(فى فضيلة الخط)

قال تعالىٰ : ﴿اِقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ فأضاف تعليم الخط إلىٰ نفسه، وآمتَنَّ به علىٰ عباده؛ وناهيك بذلك شرفا !

وقال جل وعز : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وما يَسْطُرُونَ ﴾ فأقسم بما يَسْطُرونه .

وعن آبن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالىٰ : ﴿ أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ أنه الخط كما تقدّم الكلام عليه.

ويروىٰ أنّ سليمان عليه السلام سأل عِفْرِيتا عن الكلام فقال : ريحٌ لا يبقىٰ ! قال فما قَيْدُه ؟ قال : الكتابة .

وقال عبيد الله بن العباس : الخط لِسانُ اليد .

وقال جعفر بن يحيىٰ: الخط سِمْط الحكمة، وبه تُفَصَّل شُذُورها، وينتظم منثورها.

وقال النَّظَّـام: الخط أصل الروح له جسدانية فى سائر الأعمال (١). إلىٰ مايَجْرِى هذا المَجْرىٰ.

وقال إبراهيم بن محمد الشيبانى: الخط لسان اليَد، وبَهْجة الضمير، وسَفِير العُقُول، ووَصِىُّ الفِكْر، وسِلاح المَعرِفة، وأُنْس الإخوان عنـد الفُرْقة، ومحادَثتهم علىٰ بُعْـد المسافة، ومستودَع السِّر، ودِيوان الأمور.

وقال مسلم بن الوليد: من عجائب الله تعالىٰ فى خلقه، وإنعامه عليهم من فضله، تعليمُه إيَّاهم الكِتَابَ المُفِيدَ للباقين، حِكَمَ الماضين، والمخاطِبَ للعيون بسرائر القلوب، علىٰ لغات متفرّقة، فى معانٍ معقولة، بحروف مؤلَّفة من ألف، وباء، وجيم، ودال، متباينـاتِ الصُّوَر مختلفاتِ الجهات، لَقَاحُها التفكير، ونِتـاجُها التأليف؛ تَخْرَس مُنْفردة، وتَنْطِق مُزْدوِجة، بلا أصواتٍ مسموعة، ولا أَلْسُن مزوّرة، ولا حركاتٍ ظاهرة؛ ما خلا قَلَمًـا جَوَّف باريه بطنَه لِيعْلَق المِـدادُ به، وأرهف جانبيـه ليردّ ما ٱنتشر منه إليه، وشقّ رأسه ليحتبس الاستمداد عليه، وأربع من شَفَتيه، ليجمعا حَواشىَ تصويره إليه؛ فهناك ٱشتدّ القلم برشْفه، وقذف المـادّة إلىٰ صدره، ثم مَجَّها من شـقِّه بمقدار ما ٱحتملت شَفَتاه بتخطيط أجزاء النقط التى أراد بهـا الخطوط، فالأبصار لها سامِيَة، فإذا حكَتْها الألسُن فالآذان لها واعية. وأَوْلىٰ أسمائها بها حينئذ الكلامُ الذى سَدّاه العقلُ وأَلْحَمَـه اللسان، وقطَعَتْه الأسـنان، ولفَظَتْه الشَّـفَتان، وصَدّاه الجو، وجُرِّعته الأسماع علىٰ أنحاءٍ شتّىٰ، وسُمِّيت لها (٢) الأشياء لتعريف متناكِرِها، وتمييز متشابِهِها، وتبيين معلومها من مجهولها. فمن ذلك فَضَل الكِتَابُ الصِّناعات.

---

(١) عبارة الضوء. "قال بعض العلماء: الخط كالروح فى الجسد".

(٢) لعله وسمت أى تطلعت ونظرت. أو وسميت بها الخ.

وبالجملة فليس يذكُر ذاكر شيئا مما يجرى به الخاطر، أو يميلُ إليه العقل، أو يُلْقيه الفهم، أو يقع عليه الوهم، أو تُدْرِكه الحواسّ، إلا والكتّابُ والكلام موكّلان به، مدبِّرانِ له، معبِّران عنه .

فلما أن تضمّنت الحروفُ الدلالة، وقامت الألفاظُ بالعبارة، نطقت الأفواه بكل لغة، وتصرَّف المَنْطِق بكل جهة، فلم تكتف منه أُمّة بأمة، ولم تستَغْنِ عنه مِلّة دُونَ مِلّة، فَعُرِّب ذلك بلغة العرب التى هى القاهرةُ لجميع اللُّغات، المنظِّمة لجميع المعانى فى وجيز الصِّفات .

ولو لم يكن من شَرَف الخط إلا أن الله تعالىٰ أنزله علىٰ آدم أو هُودٍ عليهما السلام كما تقدّم ذكره، وأنزل الصُّحُف علىٰ الأنبياء مسطورةً، وأنزل الألواح علىٰ موسىٰ عليه السلام مكتوبةً، لكان فيه كفاية .

وأيضا فإنَّ فيه من حِفْظ الحُقوق، ومنع تمرُّد ذَوِى العقوق، بما يُسطَّر عليهم من الشهادات، التى تقع فى السجلات، والمكاتَباتِ بين الناس لحوائجهم من المسافات البعيدة التى لاينضبْط مثلُ ذلك لحامل رسالة، ولا ينـاله الحاضرُ بمشافَهة وإن كثر حفظه وزادت بلاغته . ولذلك قيل : الخطُّ أفضلُ من اللفظ : لأن اللفظ يُفَهِّم الحاضر فقط، والخط يفَهِّم الحاضر والغائب . ولله القائل فى ذلك يصف القلم .

وأخْرَس يَنْطِق بالمُحْكَمات * وجُثْمانُه صامِتٌ أجْوَفُ
بمكّةَ يَنْطِقُ فى خُفْيـةٍ * وبالشـام مَنْطِقُه يُعْرَف

الطرف الثـانى
(فى بيـان حقيقــة الخط)

قال الشيخ شمس الدين بن الاكفانى فى كتابه " إرشاد القاصد " فى حصر العلوم :

وهو علم نتعرّف منــه صورُ الحروف المفردة ، وأوضاعَها ، وكيفيــةُ تركيبها خطًّا ، أو ما يكتَب منها فى السُّطور، وكيف سبيله أن يُكْتَب، وما لا يُكْتَب ؛ وإبدالُ ما يُبْدل منها فى الهِجاء وبمـا ذا يُبْدل . قال : وبه ظهَرتْ خاصَّــة النوع الإنسانىّ من القُوَّة إلىٰ الفعل، وآمتاز به عن سائر الحيوان، وضَبْطُ الأموال، وترتيبُ الأحوال، وحفظُ العلوم فى الأدوار، وآستمرارُها علىٰ الأطوار، وآنتقالُ الأخبـار من زمان إلىٰ زمان، وحمل السِّرِّ من مكان إلىٰ مكان .

وبهذه الفضائل حافظت الغريزة الإنسانية علىٰ قَبُوله بطلب تعلُّمه محافظةً لم يحتج بها إلىٰ تَذْكار بعد الغَيْبة. ولهذه العلة آستَغْنىٰ عن كتاب يُصنَّف فيه .

ثم قال : وجميع العلوم إنما تعرف بالدلالة عليها : بالإشارة، أو اللفْظ، أو الخط ؛ والإشـارة نتوقَّف علىٰ المشاهدة ؛ واللفظ يتوقَّف علىٰ حضور المخاطَب وسمـاعه ؛ أما الخط فإنه لايتوقَّف علىٰ شيء فهو أعمُّها نفعا وأشرفُها .

وآعلم أنه قد تقدّم فى الكلام علىٰ اللغة فى "النوع الأوّل مما يحتاج إليه الكاتب" أنه ينبغى للكاتب أن يتعلَّم لغــةَ من يَحتاج إلىٰ مخاطبته أو مكاتبته من اللغـات غير العربيــة، فكذلك ينبغى أن يتعلم من الخطوط غيرِ العربيــة ما يَحْتاج إليه من ذلك فقد قال محمد بن عمر المدائنىّ فى كتاب "القلم والدواة" : إنه يجب عليه أن يتعلم الهندية وغيرها من الخطوط العجميَّة . ويؤيد ذلك ماتقدّم فى الكلام علىٰ اللغــة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم "أمر زيدَ بنَ ثابت رضى الله عنه أن يتعلَّم كتَابَ يَهُودَ من السُّرْيانية أو العبرانية فتعلَّمَها" وكان يقرأ علىٰ النبى صلى الله عليه وسلم كُتُبَهم ويجيبهُم عنه .

الطرف الثالث

(فى وضع الخط، وفيه جملتان)

الجملة الأولىٰ

(فى بيان المقصود من وضعه، والمُوازنة بينه وبين اللفظ)

أما بيان المقصود من وضعه اعْلَم(١) أن وضع اللفظ لأداء المعنىٰ الحاصل فى الذهن المشعور به للسمع؛ إذ لا وقوفَ علىٰ ما فى الذهن؛ ووضع الخط لأداء اللفظ المقصود فهمه للناظر فيه . فإذا أردت إيقافك أحدا علىٰ ما فى ذهنك من المعانى تكلمتَ بألفاظ وُضِعتْ لها، وإذا أردت تأدية ألفاظٍ لذلك الإيقاف إلىٰ أحد بغير شِفَاهٍ، نقشْتَ النُّقوش الموضوعة لتلك الألفاظ، فيطالع تلك النقوش، ويفهم منها تلك الألفاظ، ومن الألفاظ تلك المعانى؛ ولا علاقةَ معقولةٌ بين المعانى والألفاظ علىٰ الأمر العام، ولا بين الألفاظ والنقوش الموضوعة؛ ومن ثَمَّ جاء ٱختلافُ اللُّغات والخُطُوط كالعربيَّة والرُّوميَّة وغيرِهما .

وأما المُوازنةُ بينه وبين اللفظ، فالأصلُ فى ذلك أن الخطَّ واللفظَ يتقاسمانِ فضيلةَ البيان ويشتركان فيها : من حيث إن الخط دالٌّ علىٰ الألفاظ والألفاظَ دالَّةٌ علىٰ الأوهام؛ ولٱشتراك الخط واللفظ فى هذه الفضيلة وقع التناسبُ بينهما فى كثير من أحوالها؛ وذلك أنهما يعبِّران عن المعانى إلا أن اللفظ معنًى متحرِّك والخطَّ معنًى ساكنٌ، وهو وإن كان ساكنا فإنه يفعلُ فعلَ المتحرّك بإيصاله كلَّ ما تضمنه إلىٰ الأفهام وهو مستقرّ فى حيزه ومكانه فانم(٢) كما أن اللفظ فيه العَذْب الرشيقُ السائغ فى الأسماع كذلك الخط فيه الرائق المستحسَنُ الأشكالِ والصُّور . وكما أن اللفظ

(١) أى فنقول ٱعلم الخ . (٢) لعل وجه الكلام هكذا [مستقر فى حيزه، قائم فى مكانه، وكما الخ] .

فيه الجَزْل الفصيح الذى يسـتعمِلُه مَصَاقِـع الخُطَباء، ومَفَالِق الشُّـعَراء، والمبتذَلُ السخيف الذى يستعمله العوامّ فى المكاتبة والمحاطبة، كذلك الخَطُّ فيه المحرَّر المحقَّق الذى تكتب به الكُتُب السلطانية والأمور المهـمة، وفيـه المُطْلق المرسَـل الذى يتكاتَب به الناس و يستعملونه فيما بينهم . وكما أن اللفظ يقَع فيه لحنُ الإعراب الذى يهجِّنه كذلك الخط يقع فيـه لَحْن الهِجَاء . وكما أن اللفظ إذا كان مقبولا حُلْوا رفع المعنىٰ الخسيسَ وقرَّبه من النُّفُوس ، و إن كان غَثًّا مسـتكْرَها وضـع المعنىٰ الرفيعَ و بعَّده من القلوب، كذلك الخط إذا كان جَيِّـدا حسَنًا، بعث الإنسـان علىٰ قراءة ما أُودِع فيه و إن كان قليل الفائدة، وان كان ركيكا قبيحا، صَرَفه عن تأمُّل ماتضمَّنه و إن كان جليلَ الفائدة .

ولمـا ٱشترك اللفظ والخط فى الفوائد العامَّة التى جُعِلت فيهما وقع الٱشتراك أيضا بين آلتيهما إذ آلة اللفظ اللسانُ ، وآلة الخط القـلَمُ ؛ وكل منهما يفعل فعل الآخر فى الإبانة عن المعانى إلا أن اللفظ لمـا كان دليلا طبيعيًّا جُعِلت آلتُـه آلة طبيعيةً، والخط لما كان دليلا صِنَاعيًّا جعلت آلته آلةً صناعيَّة ؛ ولمـا تقاسمت الآلتان الدلالةَ نابت إحداهما مناب الأخرىٰ فأوقعوا ٱسمَ اللسان علىٰ القلم فقالوا : الأقلام ألْسِـنَةُ الأفْهام، وشَرَّكُوا بينهما فى الٱسم فقالوا : القلمُ أحدُ اللِّسانين .

الجمـــــلة الثـانية

(فى أصل وضـــعه ؛ وفيه مَسْلَكان)

المسلك الأوّل

(فى وضـــع مطلق الحروف)

قيل إن أوّل مَنْ وضع الخُطوط والكتُبَ كلَّها آدمُ عليه السلام : كتبها فى طين وطبخه؛ وذلك قبل موته بثلثمائة سـنة؛ فلمـا أظلَّ الأرضَ الغرقُ أصاب كلُّ قوم

كتابهم . وقيل أَخْنُوخ (وهو إدريس عليه السلام) . وقيل إنها أنزلت على آدم عليه السلام فى إحدى وعشرين صحيفة . وقضية هذه المقالة أنها توقيفية علمها الله تعالى بالوحى، والمقالتان الأولتان محتملتان لأن تكون توقيفية وأن تكون آصطلاحية وضعها آدم وإدريس عليهما السلام . على أنه يحتمل أن يكون بعض ذلك توقيفيا علمه الله تعالى بالوحى، وبعضه آصطلاحيا وضعه البشر : واحدٌ أو جماعةٌ، فيصير الخلاف فيه كالخلاف فى اللغة هل هى توقيفية أو آصطلاحية على ماهو مقرّر فى علم الأصول . والله سبحانه وتعالى أعلم .

المسلك الثانى

(فى وضع حروف العربيــة)

قال الشيخ أبو العباس البُونى رحمه الله فى كتابه "لطائف الإشارات، فى أسرار الحروف المعلومات":

يروى عن أبى ذرّ الغِفَارى رضى الله عنه أنه قال : "سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسولَ اللهِ كلُّ نبيٍّ مُرْسَل بم يُرْسلُ؟ ــ قال بكتاب منَزَّل ــ قلت يارسولَ الله أىُّ كتابٍ أُنْزِل على آدمَ ؟ ــ قال : ا ب ت ث ج إلى آخره ــ قلت يارسول الله كم حَرْف ؟ ــ قال : تسعٌ وعشرونَ ــ قلت يارسول الله عدَدْتَ ثمانيةً وعشرين، فغَضِب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتّى آحمرَّت عيناه، ثم قال ياأبا ذرّ: والَّذِى بَعَثنِى بالحقِّ نبيًّا ! ماأنزَلَ اللهُ تعالى على آدم إلا تِسْعةً وعشرين حرفاً ــ قلت يارسول الله فيها ألف ولام ــ فقال عليه السلام : لام ألف حرفٌ واحد، أنزله على آدم فى صحيفةٍ واحدةٍ، ومعه سبعونَ ألفَ ملَك، من خالف لام ألف فقد كفر بما أُنْزِل على آدم ! ومَنْ لم يعــدّ لام ألف فهو برىء منِّى وأنا برىء منه ! ومَنْ لا يُؤْمِنُ بالحروف وهى تسعةٌ وعشرون حرفاً لايخرج من النار أبدا مكذبه .

وهذا الخبر ظاهر فى أن المراد منه حروف العربيـة فقط، إذ قد أجاب صلى الله عليه وسلم أبا ذرّ رضى الله عنه بحروف ا ب ت ث وأثبت منها لام ألف، وليس ذلك فى غير حروف العربية ؛ وقضية ذلك أن حروف العربية أنزلت علىٰ آدم عليه السلام وهو الموافق لما فى أوّل الفصل قبله، لكن فى كتاب "التنبيـه علىٰ نقط المصاحف وشكلها" للشيـخ أبى عمرو الدانىّ رحمه الله أنها أنزلت علىٰ هُودٍ عليـه السلام، ولا تباين بينهما: لجواز أن تنزل علىٰ آدمَ مرّة وعلىٰ هُودٍ أخرىٰ، فربما نزلت الآية علىٰ نبىّ ثم نزلَتْ علىٰ نبىّ آخر كما قيل فى قوله تعالىٰ: ﴿حٰمٓعٓسٓقٓ كَذٰلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ وإلىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إنه ما بعث اللهُ تعـالىٰ نبيًّا إلا وأنزل عليه ﴿حٰمٓعٓسٓقٓ﴾ وقد أنزلت ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ علىٰ سليمان عليه السلام، ثم أنزلت علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم؛ وربما أنزلت الآية الواحدة علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّتين كما فى الفاتحة فإنها نزلت مرةً بمكة ومرةً بالمدينة علىٰ أحد الأقوال .

وعلىٰ الجملة فمقتضيته أنها توقيفيّة وهو الموافق لأحد الأقوال فى مطلق الحروف .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول مَنْ وضع الحروف العربيةَ ثلاثةُ رجال من بَوْلانَ، (و بَوْلانُ قبيلةٌ من طيئ) نزلوا مدينة الأنبار، وهم مُرَامِر(١) بنُ مُرَّة، وأسلمُ بن سِدْرة، وعامرُ بنُ جَدَرَة، اجتمعوا فوضعُوا حروفا مقطّعة وموصولة، ثم قاسُوها علىٰ هِجَاء السُّريانية؛ فأما مُرامِر(١) فوضع الصُّوَر، وأما أسْلَمُ ففصَل ووصل، وأمّا عامر فوضع الإعجام، ثم نُقِل هذا العِلم إلىٰ مكة وتعلّمه مَنْ تعلمه وكثُر فى الناس وتداولُوه .

ونقل الجوهرىّ عن شَرْقىّ بن القَطَامىّ أن أوّل من وضعه رجال من طيئ منهم مُرَامِر(١) بن مُرَّة وأنشد عليه :

---

(١) فى الأصل مرار . والذى فى جميع معاجم اللغة مرامر، وكذا فى البيت أيضا .

تَعَلَّمْتُ باجَادٍ وآلَ مُرَامِرٍ * وسَوَّدْتُ أثوابِي ولَسْتُ بِكَاتِبِ

قال الجوهرىّ : وإنما قال آل مُرَامِر لأنه كان قد سمّى كل واحد من أولاده بكلمة من أبى جاد وهم ثمانية . وذكر غيره نحوه فقال : أوّل مَن ٱخترعه وألّف حروفه ستة أشخاص من طَسْمٍ كانوا نُزُولا عند عَدْنانَ بن أُدَدَ ، وكانت أسماؤهم : أبجد ، و هوّز ، و حطى ، و كلمن ، و سعفص ، و قرشت ، فوضعُوا الكتابةَ والخطَّ علىٰ أسمائهم ، فلما وجدوا فى الألفاظ حروفا ليست فى أسمائهم ألحقوها بها ، وسمَّوْها الرَّوادِف ، وهى الثاء المثلثة ، والخاء ، والذال ، والظاء ، والغين ، والضاد المعجمات علىٰ حسب مايلحق من حروف الجُمَّل ، ثم ٱنتقل عنهم إلىٰ الأنبار ، وٱتصل بأهل الحِيرَة ، وفَشَا فى العرب ولم ينتشر كلَّ الآنتشار إلىٰ أن كان المَبْعثُ .

وقيل إن نفيسًا ونَصْرا وتيما ودومة بنى إسماعيل وضعوا كتابا واحدا وجعلوه سطرا واحدا موصول الحروف كلِّها غير متفرّق ، ثم فرّقه نَبْت وهَمَيْسَعُ وقَيْذار ، وفرّقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر . وعن هشام بن محمد عن أبيه قال : أخبرنى قومٌ مَن علماء مصر أن أوّل من كتب الكتّاب العربِىَّ رجُل من بنى النَّضْر بن كنانة ، فكتبته العرب حينئذ .

وقضيةُ هذه المقالات أنها ٱصطلاحية .

وفى السيرة لآبن هشام : أن أوّل من كتب الخطَّ العربىَّ حِمْيَرُ بنُ سبإٍ عُلِّمه فى المَنَام قال : وكانوا قبل ذلك يكتُبون بالمُسْنَد سمِّى بذلك لأنهم كانوا يُسْنِدونه إلىٰ هود عليه السلام . وهو مخالف لما تقدّم من كلام أبى عمرو الدانى : أن العربىّ أنزل علىٰ هود عليه السلام .

قال السهيليّ رحمه الله فى" التعريف والإعلام" : والأصح ماروينـاه من طريق أبى عُمَر بن عبد البر رحمه الله يرفعه إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : "أوّلُ مَنْ كَتَب بالعَرَبِيَّة إسماعِيلُ عليه السلام" قال ٱبن عبد البر : وهذا أصح من رواية "أوّلُ مَنْ تَكَلَّم بالعرَبِيَّة إسماعيلُ" وهذا محتمل للتوقيف أيضا : بأن يكون إسماعيل عُلِّمها بالوحى ، وللاصطلاح : بأن يكون وضعه من نفسه .

ثم أوّل ما ظهرت الكتابة العربية بمكة من قِبَلِ حَرْب بن أُمية . قال المدائنى : حدثنى حسانُ بن عبد الملك الأنصارىّ قال : حدثنى سليمان بن سعيد المرّىّ قال : سمعت الفرّاء يقول حدّثنى العمرىّ أنه قيل لٱبن عباس من أيْنَ تعلَّمتم الهِجاء والكتابة والشَّكْل؟ قال عُلِّمناه من حَرْب بن أُمَيَّة ، قيل : ومن أين عُلِّمه حرب بن أُمَيَّـة ؟ قال : من طارئٍ طرأ علينا من اليمن ، قيل : ومن أين عُلِّمه ذلك الطارئ؟ قال : كانت(١) بالوحى لهود عليه السلام .

وذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب " التنبيه علىٰ النقط والشـكل " نحوه . وقيـل أوّل ماظهرت باليمن من قِبَل أبى سُفْيان بن أمية : عمّ أبى سفيان بن حرب ، وأتته من قِبَل رجل من أهل الحِيرة ، قال أهل الحِيرة : أخذناها من أهل الأنبار .

وقال أبو بكر بن أبى داود عن علىّ بن حرب عن هشام بن محمد بن السائب قال : تعـلم بشر بن عبد الملك الكتابةَ من أهل الأنبـار ، وخرج إلىٰ مكة ، وتزوج الصَّهباء بنتَ حرب . وقيل إنه لمـا تعلم أبو سفيان بنُ حرب الخطَّ من أبيه تعلمه عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه وجماعة من قريش ، وتعلمه معاويةُ بنُ أبى سفيان من عمه سُفْيانَ .

---

(١) فى الضوء [من كاتب الوحى] .

أما الأوس والخزرج فقد روىٰ الواقدىّ بسنده إلىٰ سعد بن سعيد قال : كانت الكِتَابةُ العربية قليلًا فى الأَوْس والخَزْرَج ، وكان يهودىٌّ من يهودِ ماسكةَ قد عُلِّمها فكان يعلِّمها الصِّبيان بخاء الإسلام وفيهم بِضْعةَ عشرَ يكتُبون ؛ منهم سعيد بن زُرارة ، والمنذر بنُ عمرو ، وأُبَىٌّ بن كعب ، وزيدُ بن ثابت ، يكتُب الكتابين جميعا العربية والعِبْرانية ، ورافعُ بن مالك ، وأُسيْد بن حُضَيْر ، ومَعْنُ بن عدىّ ، وأبو عَبْس بن كثير ، وأَوْسُ بن خَوَلِىٍّ ، وبشير بن سعد .

قال صاحب " الأبحاث الجميلة فى شرح العقيلة " : والخط العربىّ هو المعروف الآن بالكُوفىّ ومنه آستُنْبِطت الأقلامُ التى هى الآن . وقد ذكر آبن الحسين فى كتابه فى قلم الثُّلُث أن الخطَّ الكوفىّ فيه عدّة أقلام مَرْجِعُها إلىٰ أصلين وهما التقوير والبسط .

فالمقور هو المعبَّر عنه الآن باللَّيِّن : وهو الذى تكون عراقاته وما فى معناها منخسفة منحطة إلىٰ أسفل كالثلث والرقاع ونحوهما .

والمبسوط : هو المعَبَّر عنه الآن باليابس وهو مالا آنخسافَ وآنحطاط فيه كالمحقَّق وعلىٰ ترتيب هذين الأصلين الأقلامُ الموجودةُ الآن . ثم قد ذكر صاحب " إعانة المنشئ " أن أوّل مانُقِل الخط العربىّ من الكوفىِّ إلىٰ آبتداء هذه الأقلام المستعملة الآن فى أواخر خلافة بنى أُمَيَّة وأوائل خلافة بنى العباس .

قلت : علىٰ أن الكثير من كُتَّاب زماننا يزعمون أن الوزير أبا علىّ بنَ مقلة (رحمه الله تعالىٰ) هو أوّلُ من آبتدع ذلك ، وهو غلط فإنا نجد من الكُتُب بخط الأوّلين فيما قبل المائتين ما ليس علىٰ صورة الكوفىّ بل يتغير عنه إلىٰ نحو هذه الأوضاع المستقرّة وان كان هو إلىٰ الكوفىّ أميل لقُرْبه من نقله عنه .

قال أبو جعفر النحاس فى "صناعة الكتّاب": ويقال إن جَوْدة الخط آنتهت إلى رجلين من أهل الشأم يقال لهما الضحّاك وإسحاق بن حَمّاد، وكانا يخطانِ الجليلَ؛ وكأنه يريد الطُّومار أو قريبًا منه .

قال صاحب "إعانة المنشئ" وكان الضحاك فى خلافة السَّفّاح : أوّلِ خلفاء بنى العباس، وإسحاق بن حَمّاد فى خلافة المنصور والمهدىّ .

قال النحاس : ثم أخذ إبراهيم (يعنى الشجرىّ) عن إسحاق بن حماد الجليلَ وآخترع منه قلما أخفَّ منه سماه قلم الثلثين، وكان أخطَّ أهلِ دهره به، ثم آخترع من قلم الثلثين قلما سماه قلم الثلث .

قال صاحب "الأبحاث الجميلة": وأخذ يوسف أخو إبراهيم الشجرىّ القلمَ الجليلَ عن إسحاق أيضا، وآخترع منه قلما أدق منه وكتبه كتابة حسنةً فأُعْجِب به ذوالرياستَيْنِ الفضلُ بنُ سهل وزيرُ المأمون، وأمر أن تحرّر الكتبُ السلطانية به، ولا تكتب بغيره وسماه القلم الرِّياسىّ . قال بعض المتأخرين : وأظنه قَلَم التوقيعات .

قال النَّحّاس : ثم أخذ عن إبراهيم الشجرىّ الأحولُ الثلثين والثلثَ، وآخترع منهما قلما سماه قلم النصف، وقلما أخفَّ من الثلث سماه خفيف الثُّلُث، وقلما متصلَ الحروف ليس فى حروفه شىء ينفصل عن غيره سماه المُسَلْسَل، وقلما سماه غُبار الحِلْية، وقلما سماه خط المُؤَامَرات، وقلما سماه خطَّ القِصَص، وقلما مقصوعا سماه الحَوَائجىّ . قال : وكان خطه يوصف بالبهجة والحُسْن من غير إحكام ولا إتقان، وكان عجيبَ البَرْى للقلم، وكان وجه النعجة مقدّما فى الجليل . قال : وكان محمد بن معدان يعنى المعروف بأبى ذرجان مقدّما فى خط النِّصف، وكان قلمه مستوىَ السِّنَّيْن، وكان يشُقُّ الطاء، والظاءَ، والصاد، والضاد بعرض النصف؛ ويعطف

مثل يا، ويصل كلَّ ياءٍ من يساره إلىٰ يمينه بعَرْض النصف لا يرىٰ فيه ٱضطراب. وكان أحمد بن محمد بن حفص المعروف بزاقف أجلَّ الكُتَّاب خَطًّا فى الثلث، وكان ٱبنُ الزَّيَّات فى أيام ٱبن طولون وزيرِ المعتصم يعجبه خطُّه ولا يكتب بين يديه غيرُه، وٱنتهت رياسةُ الخط بمصر إلىٰ طَبْطب المحرِّر جودةً و إحكاما .

قال النحاس : وكان أهل مدينة السلام يحسُدونَ أهل مصر علىٰ طَبْطب وٱبن عبد كان يعنى كاتب الإنشاء لٱبن طولون، ويقولون بمصر كاتبٌ ومحرّرٌ ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلُهما .

قلت : ثم ٱنتهت جودة الخط وتحريرُه علىٰ رأس الثلثمائة إلىٰ الوزير أبى علىّ محمد ٱبن مقلة وأخيه أبى عبد الله .

قال صاحب "إعانة المنشئ" : وولّدا طريقة ٱخترعاها وكتب فى زمانهما جماعة فلم يقاربوهما . وتفرّد أبو عبد الله بالنَّسْخ، والوزير أبو علىّ بالدَّرْج؛ وكان الكمال فى ذلك للوزير، وهو الذى هَنْدَس الحروفَ وأجاد تحريرها ، وعنه ٱنتشر الخطُّ فى مَشَارق الأرض ومَغَاربها، ولله قول القائل :

سَبَقَ الدَّمْعُ فى المَسِيرِ المَطَايَا * إذ روىٰ من أحِب عنه بقُلّه
وأجادَ السُّطورَ فى صَفْحةِ الخدّ ولمْ لا يُجِيد وهْو ٱبنُ مُقْله

وقول الآخر:

تَسَلْسَلَ دَمْعِى فَوْقَ خَدِّى أَسْطُرا * ولا عَجَبٌ مِنْ ذاكَ وهو ٱبنُ مُقْلةِ

ثم أخذ عن ٱبن مقلة محمد بن السمسمانى، ومحمد بن أسد؛ وعنهما أخذ الأستاذ أبو الحسن علىّ بن هلال المعروف بابن البوّاب، وهو الذى أكمل قواعد الخط وتممها وٱخترع غالبَ(١) الأقلام التى أسسها ٱبن مقلة؛ ولما مات رثاه بعضهم بقوله :

(١) فى الضوء . وٱخترع عدة أقلام .

وٱستَشْعَرَ الكُتَّابُ فَقْدكَ سالِفًا * فَجَرتْ بِصِـــحَّةِ ذلك الأيَّامُ
فلِذاكَ سَوَّدتِ الدُّوِىُّ وُجُوهَها * أســفًا عليــكَ وشُقَّتِ الأقْلامُ

وممن أخذ عنــه محمدُ بنُ عبد الملك ، وعن محمدِ بنِ عبد الملك أخذتِ الشــيخةُ المحدِّثة الكاتبة زينبُ الملقَّبةُ بشُهْدة ٱبنةُ الابرى ؛ وعنها أخذ أمينُ الدين ياقوتٌ ، وعنــه أخذ الولىُّ العجمىّ ؛ وعليه كتب العفيفُ ؛ وعن العفيف أخذ ولدُه الشيخُ عماد الدين ، ويقال إنه كان كٱبن البوّاب فى زمانه . وعن الشــيخ عماد الدين بن العفيف أخذ الشيخ شمسُ الدين بنُ أبى رُقَيبةَ محتسبُ الفُسْطاط ، وهو ممن عاصَرْناه ؛ وأخذَ عنه شيخُنا الشيخ شمسُ الدين محمدُ بن علىّ الزِّفْتــاوىّ المكَتِّب بالفُسْطاط ، وصنف مختصرا فى قلم الثلث مع قواعدَ ضمَّها إليه فى صــنعة الكِتابة ، أحســن فيه الصنيعَ ؛ وبه تخرّج صاحبُنا الشــيخ زين الدِّين شَــعْبان بن محمد بن داود الآثارىّ محتسبُ مِصْر ، ونظم فى صنعة الخط ألفيــة وسَمَّها (بالعِناية الربَّانيــه فى الطريقة الشَّعبانيه) لم يُسبَقْ إلى مثلها ؛ ثم توجه بعد ذلك إلى مكة ، ثم إلى اليمن والهنــد ؛ ثم عاد إلى مكة فأقام بها ونبغ .

قلت : وقد علم مما تقدّم ذكره أن ألقاب الأقلام : من الثلثين والنصف والثلث وخفيف الثُّلُث والمُسَلْسَل والغُبَار قديمةٌ ، وإن وقع فى أذهان كثير من الناس أنهــا من مخترعات ٱبن مقلة وٱبن البوّاب فمن بعدهما .

الطرف الرابع

(فى عَدَد الحروف، وجهة آبتدائها، وكيفية ترتيبها؛ وفيه أربع جمل)(١)

الجملة الأولىٰ

(فى مطلق الحروف فى جميع اللغات)

وآعلم أن الحروف تختلف بآختلاف اللُّغـات بحسب تَعـدُّد مخارجها، فحروف السُّرْيانيين، والرُّوم، والفُرْس، والصَّقْلَب، والتُّرك من أربعة وعشرين حرفا إلىٰ ستة وعشرين حرفا؛ وحروف العِبْرانيين، واليُونانيين، والقِبْط الأُوَل، والهُنود وغيرهم من آثنين وثلاثين إلىٰ سـتة وثلاثين؛ فيوجد فى غير العربيـة من الحروف ما لا يوجد فى العربية كما يوجد فى العربية ما لا يوجد فى غيرها من اللُّغات، ويكثر فى الآستعمال فيهـا ما لا يكثر فى غيرها. فالحـاء المهملة، والظاء المعجمة ممـا أُفْرِدت بها العربُ فى لغاتها، وآختصت بها دون غيرها من أرباب اللُّغات؛ والعين المهملة قليلة فى كلام بعض الأمم ومفقودة فى كلام كثير منهـم؛ وكذلك الصاد والضاد والذال المعجمة ليست فى الفارسية، والثاء المثلثـة ليست فى الروميَّة ولا فى الفارسية، والفاء ليست فى التركية.

قال الشـيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله: ولذلك يقولون فى فقيه پقيـه بالباء الموحدة المشربة الفَيَوِيَّة.

الجملة الثـانية

(فى حروف العربيـــة)

وآعلم أنا لمـا كنا بحمد الله أُمَّةً وسـطًا خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجتْ للناس، وكان خيرُ الأمور أوسَاطَها، وكانت حروف اللُّغات ما بين أربعةٍ وعشرين حرفا إلىٰ سـتة وثلاثين كما

---

(١) المعدود خمس.

تقدّم، كانت حروف الكلام العربىّ التى بها رُقِم القرءان الكريمُ ثمانيةً وعشرين حرفًا فى اللفظ، متوسطةً بين حروف اللُّغـات، وهى ا ب ت ث إلىٰ آخره، وتسمى حروفَ الهِجاء وحروف التَّهجِّى، ويسميها سيبويه والخليلُ حروفَ العربية أى حروف اللغة العربية، وهى التى يتركَّب منها الكلامُ العربىّ، وتسمى أيضا حروفَ المُعْجَم، إما لأنها مقطَّعة لا تُفْهَم إلا بإضافة بعضها إلىٰ بعض، وإما لأن منها مايُنَقَط النقطَ المعروفَ، أو تنقط كلُّها أى تُشْكَل إذ النقط قد يكون بمعنىٰ الشَّكْل. وقال بعض أهل اللغة: النقط (١) بالسواد كمثل التاء عليها نقطتان، يقال منه أعجمتُ الحروف، ومعناه حرف الخط المُعْجم. وبعضهم (٢) يجعل المُعْجم مصدرا بمعنىٰ الإعجام من أعجمتُ الشىء إذا بيَّنته فكأنها مبيِّنة للكلام، وتكون الهمزةُ فى أعجمت للإزالة أى أزلت عُجمتَه إما بنقطِه أو شكله.

قال الشيخ عبد الخالق بن أبى القاسم المصرىّ: وإذا اعتبرت سائر اللغات بالتحقيق لن يزيد ذلك علىٰ ثمانيـة وعشرين حرفًا (يريد غير اللام ألف) فى الحروف العربية والقائل بذلك يجعل اللام ألف مركبا من حرفين فلا يعدّه حرفا مستقلًّا.

قال علماء الحرف: وجعلت ثمانية وعشرين حرفا علىٰ عدد منازل القمر الثمانية والعشرين.

قالوا: ولما كانت المنازلُ القمريةُ يظهَر منها فوق الأرض أربع عشرة منزلةً ويغيبُ تحت الأرض أربعَ عشرةَ كانت هـذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعةَ عشرَ بعدَد المنازل الظاهرة: وهى الألف، والباء، والحاء المهملة،

---

(١) أى العجم النقط الخ كما فى اللسان.

(٢) هو المبرد كما نقله عنه فى اللسان.

والخاء المعجمة ، والعين المهملة ، والغين المعجمة ، والفاء ، والقاف ، والكاف ، واللام ، والميم ، والهاء ، والواو ، والياء المثناة تحتُ . تقول الألف والباء والحاء فتظهر اللام فى لفظك وكذلك فى البواق . وما يندغم منها أربعةَ عشرَ حرفا أيضا بعدد المنازل الغائبة : وهى التاء المثناة من فوق ، والثاء المثلثة ، والدال المهملة ، والذال المعجمةُ ، والراء ، والزاى ، والسين المهملة ، والشين المعجمة ، والصاد المهملة ، والضاد المعجمة ، والطاء المهملة ، والظاء المعجمة ، والنون . تقول التاء ، والثاء ، والدال فتخفىٰ فى لفظك ، وكذلك فى البواق .

وقد تقدّم فى خبر أبى ذرّ رضى الله عنه أنها نزلت علىٰ آدم عليه السلام تسعةً وعشرين حرفا عدّ منها اللام ألف وهو الموجود فى التصوير فلا يعوّل إلا عليه إن صح الحديث .

ثم للحروف العربية فروعٌ توجَدُ فى اللفظ دون الكتابة مستحسَنةٌ ومستَقْبَحة ، تبلغ بها الحروف العربية سبعة وأربعين حرفا ، ولا يوجد ذلك فى لغة أمة من الأمم ، أضربنا عن ذكرها لعدم تعلّقها بالخط الذى نحن بصدده ، وبالله المستعان .

الجملة الثالثة

(فى بيان جهة ٱبتداآت الحروف)

وٱعلم أن أصحاب الأقلام ٱختلفوا باعتبار مقاصدهم فى البُداءة بالحروف .

فمنهم من يبدأ من اليمين إلىٰ اليَسَار كالعرب والعِبْرانيين والهُنُود وأهل الطبيعة والسُّرْيانيين ، آخذا فيه علىٰ سير الفلك من المشرق إلىٰ المغرب ، والمشرق عندهم يمين الفلك ويقال له مأخذ كَوْرىّ ، وقيل لأن فيه الٱستمداد من الكبد إلىٰ القلب .

ومنهم من يبـدأ من اليسار إلىٰ اليمين كالروميـة واليونانيَّـة والقِبْطية ، وفنٌّ من الفارسـية آخذا فيه علىٰ سير الكواكبَ السبعة السـيارة من المغرب إلىٰ المشرق . ويقال له مأخذ دَوْرىّ ؛ وقيل لأنه ناشئ عن حركة القلب إلىٰ الكبد .

الجملة الرابعـة

(فى كيفية ترتيب الحروف)

وآعلم أن ترتيب الحروف علىٰ ضربين : مفردٍ ومزدَوِجٍ ؛ وبين أهـل الشرق وأهل الغرب فى كل من النوعين خلاف فى الترتيب .

أما المفرد فأهل الشرق يرتبونه علىٰ هذا الترتيب :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ
ع غ ف ق ك ل م ن ه و لا ى

وأما أهل الغرب فإنهم يرتبونه علىٰ هذا الترتيب :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض
ع غ ف ق س ش ه و لا ى

وأما المزدَوِجُ فأهل الشرق يرتبونه علىٰ هذا الترتيب :

أبجد ، هوّز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ .

وأهل الغرب يرتبونه علىٰ هذا الترتيب :

أبجد ، هوّز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ظغش(١) .

---

(١) كذا فى الأصل والضوء ولعل الصواب ظغفض .

علىٰ أنه قد ٱختلِف فى كلمات أبجد هل لها معنًى أم لا، وهل يكره تعلُّمُها أم لا، وأكثر الناس فى الشرق والغرب علىٰ تعلُّمِها .

وقد جاء أنها كانت تُعَلَّم فى زمن عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه؛ ويشهد لذلك قول الأعرابىّ فى أبياته :

أَتَيْتُ مُهاجِرِينَ فعَلَّمُونِى * ثلاثةَ أَسْطُرٍ مُتَتابِعاتِ

وخَطُّوا لِى أبا جادٍ وقالوا * تَعلَّمْ سَعْفَصًا وقُرَيِّشاتِ

وقيل : إن أبجد، وهوز، وحطى، وكلمن، كانت أسماء ملوك مَدْيَن، وإن كلمن كان فى زمن شُعَيْب عليه السلام، وقد تقدّم أن الأربعة المذكورة كانت أسماء واضِعِى الخط العربىّ علىٰ قولٍ والله أعلم .

الجملة الخامسة

(فى كيفية صور الحروف العربية وتداخل أشكالها)

قد تقدّم أن الحروف العربيةَ علىٰ تسع عشرة صورة : وهى صورة الألف، وصورة الباء والتاء والثاء، وصورة الجيم والحاء والخاء، وصورة الدال والذال، وصورة الراء والزاى، وصورة السين والشين، وصورة الصاد والضاد، وصورة الطاء والظاء، وصورة العين والغين، وصورة الفاء والقاف[(١)]، وصورة الكاف، وصورة اللام، وصورة الميم، وصورة النون، وصورة الهاء، وصورة الواو، وصورة اللام ألف، وصورة الياء، وفرقوا بينها بالنقط كما سيأتى، وقصدوا بذلك تقليل الصُّوَر للٱختصار لأن ذلك أخف من أن يجعل لكل حرف صورة فتكثُر الصُّوَر . ثم ترجع الصور التِسْعَ عشرةَ صورةً[(٢)] بعد ذلك إلىٰ خمس صور : وهى الألف والجيم والراء والنون والميم؛ ففى

(١) لعله وصورة القاف ليتم العدد ولٱختلاف الصورتين فى الرسم .

(٢) لعله زائد من الناسخ والصواب إسقاطه .

صورة الألف إحدىٰ عشرة صورة ألف قائمة : وهى ا وسبْعُ ألفات(١) مسطوحة : وهى ب ت ث ، ك ل ى ، فكل هذه علىٰ صورة الألف غير أن فيهـا ماتَكرّر فيه صورةُ الألف : وهى الكاف واللام ، وألِفانِ مبطوحتان : وهى ط ظ ؛ وألف معطوفة : وهى لا ؛ وفى الجيم سبع صور جيم مُرَقَّلة : وهى ج ح خ ، وجيمان محذوفتان وهما د ذ ، وجيمان شاخصتان وهما ع غ ؛ وفى الراء ثلاث صور وهى ر ز و ؛ وفى النون ست صور وهى ن س ش ص ض ق ؛ وفى الميم صورتان وهما م ه .

الطرف الخـامس

(فى تحسين الخَطّ ، وفيـــه جملتان)

الجملة الأُولىٰ

(فى الحث علىٰ تحسين الخط)

لاخفاءَ أن حُسْن الخط من أحسن الأوصاف التى يتصفُ بها الكاتبُ ، وأنه يرفع قَدْرَه عنـد الناس ، ويكون وسيلةً إلىٰ نُجح مقاصده ، وبلوغ مآربه ؛ مع ماينضم إلىٰ ذلك من الفوائد التى لا تكاد تُحْصىٰ كثرةً .

وقد قال أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه : "الخط الحَسَنُ يزيد الحَقَّ وضُوحا".

وقال بعض العلماء : الخط كالروح فى الجسد ، فإذا كان الإنسانُ جسيما وسيمـا حسن الهيئة ، كان فى العيون أعظم ، وفى النفوس أفخم ؛ وإذا كان علىٰ ضدّ ذلك سَئِمَتْه النفُوسُ ، ومَجَّتْـه القلوب ؛ فكذلك الخط إذا كان حسنَ الوصف ، مليحَ الرَّصْف ،

---

(١) لم يذكر إلا ستة ولعل الساقط الفاء فانها لم تذكر فى الصور الاتية .

مفتّح العيون، أملس المُتون، كثير الائتلاف، قليل الاختلاف، هشّتْ إليه النفوس، وٱشتهته الأرواح، حتّى إن الإنسان ليقرؤه وإن كان فيه كلامٌ دَنىء، ومعنًى ردىء، مستزيدا منه ولو كَثُر، من غير سآمة تلحقُه ؛ وإذا كان الخط قبيحًا مجَّتـه الأفهام، ولفظَتْه العيون والأفكار، وسَئِم قارئه، وإن كان فيه من الحِكْمة عَجائبُها، ومن الألفاظ غَرائبُها .

ويقال : إن الخط مُوازٍ للقراءة، فأجود الخط أبينُه، كما أن أجود القراءة أبينُها ؛ ولا يخفىٰ أن الخط الحَسَن هو البَيِّن الرائقُ البَهِج . ثم قد تقدّم فى الكلام علىٰ أصل وضع الخط أن الخَطَّ واللفظ يتقاسمانِ فضيلةَ البيان، ويشتركان فيها .

قال فى "موادّ البيان" : ولما كان الخط قسيما للَّفْظ فى البيان الذى ٱمتَن الله تعالىٰ بتعليمه علىٰ الإنسان، وجب علىٰ الكاتب أن يُعْنىٰ بأمر الخط، ويُراعِىَ من تَجْويده وتصحيحه، ما يراعيه من تهذيب اللفظ وتنقيحه : ليـدُلَّ علىٰ سُرْعةٍ وسهولةٍ كما يدُلُّ اللفظ البليغ البَيِّن : لأن الخط وإن كان علىٰ الإطلاق فى المنزلة التى لاتُسـاوىٰ من الشرف فإنمـا تحصل فضائلُه للجيد منه، كما أن المَنطِق وإن كان من الشرف فى هذا الحدّ فإنمـا تحصل فضائله التامَّةُ لمَنْطِق البليغ اللَّسِن ، دون مَنْطِق العَيِّ الألكن ؛ وكذلك سائر الصـنائع الفاضلة علىٰ الإطلاق إنمـا يحصل فضلها للمـاهر فيها دون المبتدئ .

قال : فينبغى للكاتب أن لا يقدّم علىٰ تهذيب خطه وتحريره شيئا من آدابه فإن جَوْدة الخط أوّلُ الأدوات التى ينتظم بحصولهـا له ٱسم الكتابة، ويُحْكم عليـه إذا حازها بأنه من أهلها . وقد دخل بحُسْن الخط فى الصـناعة مَنْ إذا فُحص عن مقدار معرفته وجب أن تُنزَّه الكتابةُ عن نسبته إليها .

ويجب مع ذلك أن يراعى تأسيس الخط على الوضع الذى اصطلح عليه المجيدون من الكُتّاب . فقد قسم أهلُ الصناعة الخط إلى قسمين : محقّق ومُطْلَق .

فأما المحقّق فما صَحّتْ أشكاله وحروفُه على اعتبارها مفردة .

قال فى "موادّ البيان": وهذا القسم هو الذى يُستعمل فى الأمور الجسيمة: كَكُتُب العهود، والإسجالات، والتمليكات التى تبقى على الأعقاب، والمكاتبات الصادرةِ عن الملوك إلى الملوك، الدالة على قدر المكتوب عنه والمكتوب إليه .

وأما المُطْلَق فهو الذى تداخلت حروفه واتصل بعضُها ببعض .

قال فى "موادّ البيان" : وهو خط مولَّد من المحقَّق، يستعمل فى تنفيذ مالا يمكن تأخيره من المكاتبات المهمّة والأمور العامّة . قال : ويجب أن يَلْزَم الطريقة فى كل واحد من الخطين، ولا يخالِط حروف أحدهما بحروف الآخر.

الجملة الثانية

(فى الطريق إلى تحسين الخط ، ويتوصّل إلى ذلك بأمور)

الأوّل(١) — معرفة تشكيل الحروف

قال فى "موادّ البيان" : وهو الأصل فى أدَبِ الخط : لأن الخط إنما يسمّى جيدا إذا حسُنَتْ أشكال حروفه، وإنما يسمّى رديئا إذا قَبُحتْ أشكال حروفه . وحُسْن صور حروف الخط فى العين شبيهٌ بحُسْن مخارج اللفظ العَذْب فى السّمْع .

قال : والوجه فى تصحيح الحروف أن يبدأ أوّلا بتقويمها مفردةً مبسوطةً لتصح صورة كل حرف منها على حيالها، ثم يؤخذ فى تقويمها مجموعة مركبة، وأن يُبْدأ

---

(١) لم يذكر غيره ولعله اكتفى بما تقدم فى الأدوات من حسن البراية والحبر والليقة وغير ذلك فليتنبه .

من المرَكَّب بالثنائىّ والثلاثىّ، ثم بالرباعىّ، ثم بالخماسىّ؛ فإن هذه هى أمثلة الأسماء والحروف الأصلية، وأن يعتمد فى التمثيل علىٰ توقيف المَهَرة فى الخطوط، العارفين بأوضاعها ورسومها وآستعمال آلاتها، فإن لكل خط من الخطوط قَلَما من الأقلام يصلُح لذلك الخط؛ وهذه الأقلام المختلفة نظير آلات الصنائع المختلفة التى يصنع الصانع بكل آلة منها جزءا من صِناعته لا يصنع به غيره؛ ولا يعوّل علىٰ كتابة خط من الخطوط بنقل مثاله بنفسه فإن ذلك لا يكفيه، إذ لو كان ذلك كافيا لآستُغْنى فى جميع الصنائع عمن يُوَقِّف عليها . علىٰ أن كثيرا من أصحاب الخطوط قد كتبوا طبعا دون التوقيف من أحد علىٰ طريقة من طرق المحرّرين، إلا أن الأفضل أن يبنىٰ الخطُّ علىٰ أصل يكون له أساسا، فإذا فُصِّلت أحواله آنكشف فسادُ كثيرٍ من حروفه .

الطرف السادس

(فى قواعِدَ تتعلق بالكتابة ، لا يَستغنِى الكاتب المُجِيد عن معرفتها؛ وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى هندسة الحروف، ومعرفة آعتبار صحتها ونحن نذكرها علىٰ ترتيب الحروف)

الألف

قال الوزير أبو علىّ بن مقْلَةَ : وهى شَكْل مركّب من خطٍّ منتصب، يجب أن يكون مستقيما غير مائل إلىٰ آستلقاء ولا آنكباب . قال : وليست مناسِبةً لحرف فى طُول ولا قصَر .

قال الشيخ شرف الدين محمد بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام : وهى قاعدة الحروف المفردة، وباقى الحروف متفرّعة عنها ومنسوبة إليها .

ثم الذى ذكره صاحب "رسائل إخوان الصفا" فى رسالة الموسيقى، عند ذكر حروف المعجم ٱستطرادا أن مساحتها فى الطول تكون ثمانَ نُقَط من نُقَط القلم الذى تكتب به ليكون العرض ثُمُن الطُّول .

والذى ذكره الشيخ شرف الدين محمد بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام : أنها مقدّرة بست نقط .

والذى ذكره الشيخ زين الدين شعبان الآثارىّ فى ألفيته أنها مقدّرة بسبع نقط، فما زاد على ذلك كان زائدا عن مقدارها وما نقص كان ناقصا عنه .

قال ٱبن عبد السلام : وتكون النقطة مربعة . قال : ويكون ٱبتداؤها بنقطة وآخرها بشَظِيَّة .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبارها أن تخط إلى جانبها ثلاث ألِفات أو أربع ألِفات فتجد فضاء ما بينها متساويا .

قال ٱبن عبد السلام : وتكون تلك الألفاتُ المخطوطةُ إلى جانبها مناسِباتٍ لها فى الطول متساوياتِ الرءوس والأذناب .

البـاء

قال ٱبن مقلة : هى شكلٌ مركّب من خطين : منتصبٍ ومنسطح . قال : ونسبته إلى الألف بالمساواة .

قال ٱبن عبد السلام : ويكون المنتصب طولُه بمقدار ثُلثِ ألِفِ خطِّه . قال ويُبْدأ أوّلُه بنقطة، وكذلك آخره إن كان مُرْسَلا ، فإن كان معطوفا فليكُنْ بسِنّ القلم

اليسرىٰ، والمستدير فيه مثل المنتصب، ولكن يكون المنتصبُ أرجَحَ من المستدير بنَزْرٍ يسير، وتكون السِّنَّة المبتدأُ بها مترجِّحةً فى الطُّول علىٰ آخرها المعطوفِ .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبارُ صحَّتها أن تزيد فى أحَدِ سِنَّيْها ألِفـا فتصير لاما . وزاد ابن عبدالسلام فى إيضاحه فقال : أن تزيد المنتصب تكملة ألف بحيث يكون طول جملته كطول المنسطح لا أطولَ ولا أقْصَر. ثم قال : وهذا الحرف وما يَجْرِى مَجْراه من يَمْنة إلىٰ يَسْرة، وكلُّ ما كان كذلك فينبغى أن يمـال القلم فيه نحو اليَسْرة قليلا .

ولا يخفىٰ أن التــاء والثــاء فى معنىٰ الباء فى ذلك جميعه .

الجــــيم

قال ٱبن مقلة : هى شكل مركَّب من خَطَّيْن : مُنْكَبٍّ ونصف دائرة، وقُطْرها مساوٍ للألف . وأبدل ٱبن عبد السـلام المُنْكَبَّ بالمُنْسطِح . ثم قال : والمنسطح كثُلثَىْ ألِفٍ من خطه، وربما يكون أنقَصَ بنُقْطة . قال : ومساحة نصف الدائرة كألِفٍ ونصفِ ألِفٍ من قلم الكتابة، ورأسُها يكونُ من يَسْرةٍ إلىٰ يَمْنةٍ علىٰ ٱستقامةٍ تقريبا، وكلُّ ما كان كذلك ينبغى أن يمال برأس القلم فيه إلىٰ اليَمْنة قليلا، يُبْدأ أوّله بشَظِيَّة بالسِّنّ اليمنىٰ من القلم، وآخر تَعْريجها بالسِّنّ اليُسرىٰ منه .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبارُ صحتها أن تخُطَّ عن يمينها وشِمالها خطَّيْن فلا تنقص عنهما شيئا يسيرا ولا تخرج .

وقال ٱبن عبد السلام : وٱعتبار صحة رأسها أن تكتُبه من يَسْرة إلىٰ يَمْنة علىٰ ٱستقامةٍ تقريبا. قال : وحسْنُها أن تَخْفِضها من الجهة ايمنىٰ قليلا، وميزانُها أن تُسطِّر سطرا وتأخذ عليه من يَسْرة إلىٰ يَمْنةٍ مقدارَ ثُلثَىْ ألِفٍ من قلم الكتابة، بحيث لا يرتفع

أوّلهـا عن آخرِها إلاّ يسيرا، ولا آخرُها عن أوّلها بل تكون منسبكة فيه . وٱعتبار نِصف الدائرة أن تقابله بنصف آخر فيصير دائرة. ثم قال : ولْيَقْصِد أن يجعل رأسَ الجيم ســواءً آخذا ٱبتداء الدائرة فى جسد ثلث الرأس، منسبكا فيه ، بحيث يكون الثلث ضِلَعا واحدا .

ولايخفىٰ أن الحـاء والخـاء فى معنىٰ الجيم فى جميع ماتقدّم .

الدال

قال ٱبن مقلة : هى شَكْل مركّب من خطين: منكَبٍّ ومنسطح، مجموعهما مساوٍ للألف . وجعل ٱبن عبدالسلام منها شكلا آخَرَ مركّبًا من ثلاثة خطوط : منكَبٍّ، ومُنْسطح، ومستدير . وكأنه يريد الدال المجموعة . ثم قال : فالمنكب طوله بمقدار نصف ألِف خطِّه لاغيْرُ، وكذلك المنسطح . وٱبتداء أوّلها بنقطة، وآخرها إن كان مرسلا بقَطّة، وان كان معطوفا بسِنّ القلم اليُسْرىٰ .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن تصل طَرَفيها بخطٍّ فتجده مثَلَّثا متساوى الأضلاع .

ولا يخفىٰ أن الذال فى معنىٰ ماتقدّم .

الراء

قال ٱبن مقلة : وهى شكْلٌ مركّب من خطٍّ مقوَّس هو ربع الدائرة التى قُطْرها الألف وفى رأسه سِنَّة مقدّرة فى الفكر .

قال ٱبن عبد السلام : وتبدأ أوّلهـا بنقطة، وآخرها إن كان مُرْسَلا فبسِنّ القلم اليمنىٰ، وإن كان معطوفا فبسنِّه اليسرىٰ .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن تَصِلها بمثلها فتصير نصفَ دائرة .

ولا يخفىٰ أن الزاى فى معناها .

السين

قال ٱبن مقلة : وهو شكلٌ مركَّب من خمسة خُطُوط : منتصبٍ ، ومقوَّس ، ومنتصبٍ ،ومُقَوَّسٍ ،ثم مُقَوَّس .

قال ٱبن عبد السلام: ومساحة رأس السين من أول سِنّ منها إلىٰ ثالث سِنّ كثلثَيْ ألفِ خطِّه . قال : ومساحةُ قَوْسها إن كان معطوفا مساحةُ ألف من خطه، و إن كان مُرْسَلا مساحةُ ألفين من خطه . وطول كل سِــنَّة مثلُ سُدُس ألف خطه ، يُبْدأ أوّلهــا بنقطة، أما آخرها فإن كان مرسلا فبسنّ القلم اليمنىٰ ، و إن كان معطوفا فبسِــنِّه اليسرىٰ. قال : و إذا ٱبتدأت بالسِّنَّة وطلعت إلىٰ الثانية فخُذ إلىٰ الثالثــة من أعلاها ليصير بياض من أسفلها، فإنك متىٰ أخذت رأس سِنَّة من أسفلها صار أسفلها مصطحبا،و يكون البياض الذى بين السنات علىٰ السوية فى البياض .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها يعنى صحة رأسها أن تُمِرّ بأعلاها وأسـفلها خطين فلا تخرج عنهما شيئا ولا تنقص .

ولا يخفىٰ أن حكم الشين أيضا كذلك .

الصــاد

قال ٱبن مقلة : هى شكل مركب من ثلاثة خطوط : مقوَّس ،ومنسَطِح ،ومقوَّس .

قال ٱبن عبد السلام : وٱبتداؤه بشَظِيَّة، أما ٱنتهاؤه فإن كان مرسلا فبسنّ القلم اليمنىٰ، وإن كان معطوفا فبسنه اليُسْرىٰ . قال : ومساحة رأس الصاد فى الطول كُثُلثَىْ ألفِ خطه ، ومساحةُ قوسِها إن كان معطوفاً مساحةُ ألفِ الكتابةِ ؛ وإن كان مرسلا فمساحة ألفين من قلم خطه .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن تجعلها مُرَبَّعة فتصير متساويةَ الزَّوايا فى المِقْدار.

وقال ٱبن عبد السلام : ٱعتِبار صحتها أن يكون أعلاها كراء معلَّقة ، والمنسطح كباء، والمقوّس كنون، ويكون رأس النون مُشْرِفا علىٰ آخرها .

ولا يخفىٰ أن **الضاد** كذلك .

الطاء

قال ٱبن عبد السلام : هو شكلٌ مركَّب من ثلاثة خطوط : منتصبٍ، ومقوّسٍ، ومنسطِح ، يبدأ أوّلُه بنقطة وآخره بنقطة. قال : ومساحة ضَوْء الطاء فى الطول كثُلثَى ألفِ خطِّه .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبارها كٱعتبار (١) .

وقال ٱبن عبد السلام : ٱعتبار صحتها أن يكون المنتصب كألف من خطه فى الٱنتصاب والطول، والمقوّس كراء معلقة ، والمنسِطح كباء مرسلةٍ .

ولا يخفىٰ أن حكم **الظاء** فى ذلك كالطاء .

---

(١) بياض فى الأصل بقدر كلمة .

العين

قال ٱبن مقلة : وهى شكلٌ مركَّب من خطين : مقوّسٍ ومنسطحٍ أحدهما نصف الدائرة .

وقال ٱبن عبدالسلام : هى شكل مركب من ثلاثة خطوط : مقوّس،(١) ومنكب، يبدأ أوّلها بشظِيَّة ، وآخر تعريجها بسنّ القلم اليسرىٰ ، والتعريجة نصف دائرة ؛ ومساحة القوس كألِفٍ وثلث من قلم الكتابة ، ومساحة الرأس فى الطول كثلثَىْ ألِف خطه ، ويصوّر من رأسها رأس صاد .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها كٱعتبار الجيم .

وقال ٱبن عبدالسلام : ٱعتبارها أن تخط عن يمينها خطا من أعلاها إلىٰ منتهىٰ تعريجها فلا يقصر ظهر القوس عن يسارها يسيرا بنقطة تكون سدس ألف خطها لاغير .

ولا يخفىٰ أن الغين فى الحكم كذلك .

الفاء

قال ٱبن مقلة : هى شكلٌ مركَّب من أربعة خطوط : منكَبٍّ ، ومستَلْقٍ ، ومنتصب ، ومنسطح .

قال ٱبن عبد السلام : تبدأ أوّله بنقطة وتأخذه علىٰ سطر إلىٰ جهة اليسار ، ثم تأخذ المستلق إلىٰ أن تنتهِىَ إلىٰ قُبالة المنسطح بحيث يصير كالدال المقلوبة ، ثم

(١) لعله مقوّسين . وفى الأصل تضبيب إشارة إلىٰ التوقف .

تأخذ من حيث ٱنتهيت إلىٰ أن تَلْصَق بالمنسطح فيبقىٰ مثلَّثا متساوىَ الأضلاع، مساحةُ ضوئه نقطةٌ بمقدارِ سدسِ ألِفِ خطّه، ثم إن كان معطوفا ختمته بسِنّ القلم، وإن كان مرسلا فبقطته .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحته أن تصل بالخط الثانى منها خطا فيصير مثلّثا قائم الزاوية .

القـاف

قال ٱبن مقلة : هو شكل مركَّب من ثلاثة خطوط : منكَبٍّ، ومستلقٍ، ومقوّس .

قال ٱبن عبد السلام : هو مركب من أربعة خطوط، رأسها كرأس الفاء سواء بجميع ماتقدّم، وإرسالُها كالنون علىٰ ماسيأتى ذكره، فإن كان آخرها معطوفا فبسنّ القلم اليسرىٰ، وإن كان مرسلا فبسنّه اليمنىٰ . قال : ومساحة ضوء القوس من أوّله إلىٰ آخره إن كان معطوفا كألِفِ قلم الكتابةِ، وإن كان مرسلا فكألفين .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها كٱعتبار النون، وسيأتى ذكره .

الكاف

قال ابن مقلة : شكلٌ مركَّب من أربعة خطوط : منكبٍّ، ومنسطِحٍ، ومنتصبٍ، ومنسطِحٍ .

وقال ٱبن عبد السلام : وهو مركَّب من أربعة خطوط، مستَلْقٍ، ومنسطحٍ، طوله مقدارُ ألِفٍ وثلُث ألف من قلم الكتابة، ومنكبٍّ طوله مقدار ثلث ألف

من خطه ، ومنسطحٍ ، طوله مقدار ألفين من خطه ، يفصل منتهىٰ المنسطح ما بين المنسطحين .

قال : ولك أن تزيد الأسفل عن رأس الكاف بمقدار ثُلث ألِف الكتابة بسبب مايتصل به ، فيصير فضاءُ مابين ما ٱتصل بآخرها إلىٰ رأس الكاف مثلَ الفضاء الذى بين المنسِطحين .

قال : ولا يجوز أن تُكتب مختَلسةً إذا لم يتصل آخرُهـا بحرف ، بل إذا كانت آخر كلمـة تكتب منتصـبةً قائمةً لا غيرُ ، وتكتب إذا كانت منتصـبة كاللام علىٰ ماسيأتى بيـانه .

قال : وتبدأ أوّلها بشَظِيَّة فإذا ٱنتهيتَ إلىٰ ٱتصال رأسها بالمنسطح تشير بتدويرها دون تحديدها .

قال ٱبن مقـلة : وٱعتبار صحتها أن ينفصل منها ياءان . قال ٱبن عبد السلام : يعنى مستقيمةً ومقلوبةً .

اللام

قال ٱبن مقلة : هى شكل مركَّبٌ من خطين : منتصبٍ ، ومنسَطِح .

قال ٱبن عبد السلام : فالمنسطح ألف والمنتصب ياء ؛ فإن كان معطوفا فبِسنِّ القلم اليسرىٰ ، وإن كان مرسلا فبقَطِّه .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن تُخْرج من أوّلها إلىٰ آخرها خطا يُماسُّ الطرفين فيصير مثلَّثا قائمَ الزاوية .

قال : وتكتب علىٰ الأنواع الثلاثة التى تكتب عليها الباء .

المـــــيم

قال ٱبن مقلة : هى شكل مركَّب من أربعـة خطوط : مُنْكَبٌّ، ومسـتَلْقٍ، ومنسطِح، ومُقوَّس .

وقال ٱبن عبدالسلام : مركَّب من أربعة خطوط : منكبٌّ، ومقوَّس، ومستلق بتقويس، ومقوّس كالراء يكون ربع دائرة؛ فإن كان آخرها منتصـبا فهو فى الوضع والطُّول مثل ألِفٍ من خطه غير مائل إلىٰ ٱستلقاء ولا ٱنكباب،تبدأ أوّل الميم بشَظِيَّة وآخرها بشَظِيَّة .

قال : ومساحةُ ضوئها مثل سدُس ألِف خطِّها؛ وهو مستطيلٌ مستدير كالبيضة منتصب إلىٰ جهة اليمين .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبارها كٱعتبار الهاء، وسيأتى .

النون

قال ٱبن مقـلة : هو شكل مركَّب من خطٍّ مقوّس، هو نصف الدائرة؛ وفيه سِنة مقدّرة فى الفكر .

قال ٱبن عبد السـلام : يبدَأُ أوّلُه بنقطة، وآخره إن كان معطوفا فبسِنِّ القـلم اليسرىٰ ومساحة ضوئه ألف من قلم خطه، وإن كان مُرْسَـلا فبسنّ القلم اليمنىٰ، ومساحة ضَوْئه ألفان من قلِم خطِّه .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن يُوصَل بها مثلها فتكون دائرةً .

الهـاء

قال ابن مقـلة : هى شكل مركّب من ثلاثة خطوط ، منكبّ ، ومنتصبٍ ، ومقوّس .

وقال ابن عبد السـلام : من ثلاثة خطوط ، منكبّ ، ومنسـطح بترطيب ، ومسـتلقٍ ؛ تبدأ أوّلها بنقطة وآخرها إرسالة بسنّ القلم اليمنى ؛ طول المنكبّ كطول نصف ألف من خطه ، وطول المنسـطح كثلث ألف من خطه ، وطول المسـتلقى كنصف ألف قلم خطه .

قال ابن مقـلة : واعتبار صحتها أن تجعلها مربّعـة فتتساوى الزاويتـان العُلْياوان كتَساوِى الزاويتين السُّفْلاوَيْنِ .

وقال ابن عبد السـلام : اعتبار صحتها أن تجعل ردّتها فى ثلثيها ، فاذا كمل وضعها فاجعلها مربعة فتتساوى الزاويتان العاليتان والزاويتان السافلتان .

الـــواو

قال ابن مقـلة : هى شكل مركّب من ثلاثة خطوط : مسـتلقٍ ، ومنكبٍّ ، ومقوّس .

وقال ابن عبد السـلام : هى مركّبة من أربعة خطوط ، رأسها كرأس الفـاء ، وتقويسها كالراء ، وهو ربع دائرة ؛ تبدأ أوّلها بنقطة ، وآخرها إن كان معطوفا فبسنّ القلم اليسرى ، وإن كان مرسلا فبسِنّه اليمنى .

اللام ألف

قال ٱبن عبد السلام : هى شكل مركَّب من ثلاثة خطوط : منكَبٌّ ، ومنسطِح مستقيم ، ومستلق ؛ طول المنكَبِّ كطول ألِف من قلم الكتابة ، وطول المنسطح كثلثى ألف الكتابة ، وطول المستلق كطول ألف الكتابة ؛ تبدأ أوّلَ المنكبِّ بنقطة ، وكذلك المستلق .

قال : وٱعتبار صحتها أن يكون ثلثها من أسفلها والثلثان من أعلاها ، وأن تخط من رأس اللام إلىٰ رأس الألف خطا مســتقيما ، وأن تخط من أعلاها إلى أسفلها خطا فلا يقصر عنها ولا يخرج .

قال : ومنها نوع آخر مركب من ثلاثة خطوط : منكبٌّ ، ومســتديرٍ يقارب ألفا ، ومستلق يقابل طرفه طرف المُنْكَبِّ .

اليـاء

قال ٱبن مقلة : شكْل مركَّب من ثلاثة خطوط ، مستلقٍ ، ومنْكَبٍّ ، ومقوّس .

قال ٱبن عبْد السلام : وهى كالنون ؛ وتبدأ أوّلها بشَـظِيَّة رأسها كدال مقلوبة ، طول المستلق منها كنصف ألِف من خطه ، وكذلك المنكَبُّ علىٰ ماتقدّم فى الدال .

قال : والمقوّس إن كان معطوفا فمساحته كألِف من خطِّه وآخره بسِنِّ القلم اليسرىٰ وإن كان مرسَلا فمساحته كألفين من خطه وآخره بسنِّ القلم اليمنىٰ .

قال : ومنها نوع كرأس الكاف المستلق والمنسطِحُ سواءٌ .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبارها كٱعتبار الواو .

الجملة الثانيـــة

(فى معرفة مايقع به ٱبتداء الحروف وٱنتهاؤها : من نُقْطة أو شظيَّة أو غير ذلك)

أما الأبتداء فعلىٰ ثلاثة أضرب .

الضرب الأوّل

(ما يبتـــدأ بنقطة ،وهو تسع صور[1])

صورة البـاء وأختيها ، وصورة الدال وأختها ، وصورة السـين وأختها ، وصورة اللام ، وصورة النونـــ ، وصورة العين وأختها . وقد جمعها السَّرَّمَرِّىُّ فى أُرْجوزته فى أوائل كلمات بيتٍ واحد ، وهو قوله :

إذا بَدَتْ دَعْدٌ رَقَا سَنَاها * لعاشِقٍ ناحَ علىٰ هَوَاها

علىٰ أن الشيخ شرف الدين بن عبد السلام قد وَهِم فعدّ منها الفاء ، وليس كذلك بل هى مما يبتدأ بجلفة[2] علىٰ ماسيأتى ذكره .

الضرب الثـانى

(ما يبتدأ بشــظيَّة ،وهو صُوَر خمسة أحرف)

الحـاء ، والطـاء ، واليـاء ، والصـاد ، والـكاف

وقد جمعها السرمرىُّ فى قوله : "خطى يصك" .

وجعل ٱبن عبد السلام الخمسة

الغينـــ ، والطـاء ، والحـاء ، والكاف ، والصـاد

(١) لم يصل العدد إلىٰ التسع ولعله سبع وسقطت صورة الراء وأختها كما يظهر بالتأمل فى بقية الأضرب .

(٢) لعله بحلقة .

وجمعها فى قوله : ”غط خصّك“ وألحق بها أشباهها .

الضرب الثالث

(مايبتدأ بجلفة[1] . وهو صور أربعة احرف)

القـاف ، والمـيم ، والواو ، والفـاء

وقد جمعها السرمرىّ فى قوله : ”قُمْ وفِّ“ .

وأما الاختِتام فعلى ثلاثة أضرب أيضا :

الضرب الأوّل

(ما يختم بقطّة القلم . وهو صور ستة أحرف)

الطـاء ، والفـاء ، والبـاء ، واللام ، والدال ، والكاف

وجمعها ابن عبدالسلام فى قوله : ”دَبَّ طِفْلك“ ولا يخفى أن أخواتها فى معناها .

الضرب الثانى

(مايختم بشظيّة ، وهو صورة واحدة)

وهى الألف

الضرب الثالث

(مايرسل فى ختمه إرسالا ، وهو صورة أحدَ عشرَ حرفا ، وهى)

السين ، والراء ، والحاء ، والميم ، والنون ، والياء ،

والعين ، والقاف ، والصاد ، والواو ، والهاء .

(١) لعله بحلقة .

يجمعها قولك "سرح منيع وقصه" .

الطـــــرف السابع

(فى مقدّمات تتعلق بأوضاع الخط وقوانين الكتابة ، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولىٰ

(فى كيفية إمساك القَلَم عند الكتابة ، ووضعه علىٰ الوَرَق)

قال الوزير أبو علىّ بن مقلة رحمه الله : يجب أن تكون أطراف الأصابع الثلاث : الوُسْطىٰ والسبَّابة والإبهام علىٰ القلم ، و إلىٰ ذلك يشير أبو تَمَّـام الطائىّ بقوله :

وسدّت * ثلاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلاثُ الأنامِلُ *

أما قول القائل فى وصف القلم أيضا :

وَذِى عَفَافٍ راكِعٍ ساجِد * أخُو صَلاحٍ دَمْعُه جارِى
مُلَازِمُ الخَمْسِ لِأوقاتِهَـا * مُجْتَهِـدًا فى طاعة البارِى

يريد بالخمس الأصابعَ الخمسَ ، فإنه علىٰ سبيل المجاز ، من باب مجاز المجاورة .

قال الشيخ عمـاد الدين بن العفيف : وتكون الأصابع مبسوطةً غير مقبوضة ، لأن بسـط الأصابع يتمكن الكاتب معه من إدارة القلم ، ولا يتكئ علىٰ القلم الاتكاء الشديد المُضْعف له ، ولا يمسكه الإمساك الضعيف فيضعف اقتدارُه فى الخط ، لكن يجعل اعتماده فى ذلك معتدلا .

وقال حنون : إذا أراد الكاتب أن يكتُب فإنه يأخذ القلم فيتكئ علىٰ الخِنْصِر ، و يعتمد بسائر أصابعه علىٰ القلم ، و يعتمد بالوُسْطىٰ علىٰ البِنْصِر ، و يرفع السـبَّابة علىٰ القلم ، و يُعْمِل الإبهام فى دَوَرانه وتحريكه .

قال ٱبن مقلة : ويكون إمساك القلم فُوَيْق الفتحة بمقدار عَرْض شعيرتين أوثلاثٍ ؛ وتكون أطراف الأصابع متساويةً حولَ القلم لاتفضُل إحداهن علىٰ الأخرىٰ .

قال صاحب "الحلية" : وتكون الأصابع علىٰ القلم منبسطة غير منقبضة ليتمكَّنَ من إدارة القلم، ولا يدار حالة الآستمداد .

قال ٱبن العفيف : وعلىٰ حسب تمكُّن الكاتبِ من إدارة قلمه وسرعة يَدِه فى الدَّوَران يكون صفاء جوهر حروفه .

الجملة الثانيـــــة

(فى كيفية الآستمداد، ووضع القلم علىٰ الدَّرْج)

أما الآستمداد فهو أصــل عظيم من أصول الكتابة . وقد قال المقرّ العـلائىّ بن فضل الله : من لم يُحْسِن الآستمدادَ وبَرْىَ القلم فليس من الكتابة فى شيء .

قال الشيـخ عماد الدين بن العفيف : واذا مدّ الكاتب فليكن القلم بين أصابعـه علىٰ صورة إمساكه له حين الكتابه، ولا يديره للآستمداد : لأن أحسن المذاهب فيه أن يكون من يد الكاتب علىٰ صورة وضعه فى الكتّاب، ويحرّك رأس القلم من باطن يَده إلىٰ خارجها فإنه يمكن معه مقام القلم علىٰ نصبته من الأصـابع، ومتىٰ عدل عن هذا لَحِقتْه المَشَقَّة فى نقل نَصْبة الأصابع فى كل مَدّة .

قال : وهــذا من أكبر ما يحتاج إليه الكاتب ، لأن هــذا هو الذى عليه مَدَار جَوْدة الخط .

ثم قال : وقَلّما يُدْرِك علم هذا الفصل إلا العالِمُ الحاذق بهَنْدَسَة الخط، مع مايكون معه من الأَنَاة وحسن التأدية .

ومن كلام المقرّ العلائىّ بن فضل الله : ينبغى للكاتب أن لا يُكْثر الاستمداد بل يمدّ مَدًّا معتدلا ، ولا يحرّك اللّيقة من مكانها ، ولا يعثر بالقلم فإن ذلك عيب عند الكُتّاب ، ولا يردّ القلم إلىٰ اللّيقة حتّى يستوعبَ مافيه من المدَاد ، ولا يُدْخِل منه الدواةَ كثيرا ، بل إلىٰ حدّ شقّه ، ولا يجاوز ذلك إلىٰ آخر الفتحة : ليأمن تسويد أنامله ، وليس ذلك من خصال الكُتّاب .

وأما وضع القلم علىٰ الدَّرْج فقال أبوعلىّ بن مُقلةَ : ويجب أن يكون أوّلَ ما يُوضَع علىٰ الدَّرْج موضعَ القطة منكبًّا .

الجملة الثالثة

(فى وضع القلم علىٰ الأُذُن حالَ الكتابة عند التفكر)

قال محمد بن عمر المدائنى : يُستحبُّ للكاتب فى كتابته إذا فكّر فى حاجة أن يَضَعَ القلم علىٰ أُذُنه ، وساق بسنده إلىٰ أنس بن مالك رضى الله عنه أنّ معاوية بنَ أبى سُفيان كان يكتب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا رأىٰ من النبىّ صلى الله عليه وسلم إعراضا وضَعَ القَلَمَ فى فيه ، فنظر إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم وقال : "يا مُعاويةُ إذا كُنْتَ كاتِبًا فَضعِ القَلَم علىٰ أُذُنِك فإنَّهُ أذْكَرُ لَكَ ولِلمُمْلِى" .

وساق بسنده أيضا إلىٰ زيد بن ثابت رضى الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نَظَر إليه وهو يَكْتُب فى حَوائجه فقال له : "ضَعِ القَلَمَ علىٰ أُذُنِكَ فإنَّهُ أذكَرُ لكَ" .

وأخرج أيضا من رواية أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم لكاتبه "ضَعِ القَلَمَ علىٰ أُذُنِكَ يَكُنْ أذكَرَ لَكَ" .

وفى رواية عن أنس : "كان معاويةُ كاتبًا للنبىّ فرآه يومًا قد وَضَعَ القَلَمَ علىٰ الأرضِ فقال : يامعاوية إذا كَتَبْتَ كاتبًا فضعِ القَلَمَ علىٰ أُذُنِك" .

وأخرج أيضا "أن كَعْبا كان يتحدّث عند عائشةَ، فذكر إسرافيلَ فقال : له جَناح بالمَشْرِق وجَناح بالمغرب وجَناحٌ مُسَرْبَل به والقَلَمُ علىٰ أُذُنِه فإذا نزلَ الوَحْيُ جرىٰ القلَمُ ودرَسَتِ الملائكةُ . فقالت عائشةُ : هكذا سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم".

الطرف الثـامن (١)

(فى ذكر قوانينَ يعتمدها الكاتبُ فى الخط، وفيه ستُّ جمل)

الجملة الأولىٰ

(فى كيفية حركة اليد بالقلم فى الكتابة، وما يجب أن يُراعىٰ فى كلّ حرف)

قال السَّمَرِىّ وٱبنُ عبد السلام وغيرهما : كلُّ خط منتصب ينبغى أن يكون الاعتماد فيه من القلم علىٰ سِنَّيْه معًا، وكل خط من يَمْنةٍ إلىٰ يَسْرةٍ ينبغى أن يمال القلم فيه نحو اليَسْرة قليلا، وكل خط من يَسْرةٍ إلىٰ يَمْنة ينبغى أن يُمَال رأسُ القلم فيه إلىٰ اليَمْنة قليلا، وكل شظِيَّة ينبغى أن تكون بالسِّنّ اليمنىٰ من القلم، وكل نُقْطة ينبغى أن تكون بسِنِّى القلم، وكل تقعير كما فى النون وتعريقة الصاد يجب أن تكون بالسنّ الأيمن وكل إرسالة يجب أن تكون بسنّ القلم اليمنىٰ، وكل تعريج كما فى عراقة الجيم والعين يجب أن يكون بسنّ القلم اليُسْرىٰ، وكل ما أُخِذ فيه من يَمْنة إلىٰ يَسْرة كاللام ونحوها ينبغى أن يُمـال فيه رأسُ القلم إلىٰ اليَسْرة قليلا، وكل ما أُخِذ فيه من يَسْرةٍ إلىٰ اليمنة كرأس الجيم ينبغى أن يُمال رأسُ القلم فيه إلىٰ اليَمْنة قليلا، وكلُّ خط منتصبٍ فيجب أن يكون ٱنتهاؤه إرسالة، وطول كل سنة من السين ونحوها مثل سُدُس ألِف خطها، وقيل مثل سبعه، وكلُّ شظية فى أوّلٍ أو آخرٍ مثلُ سُبع ألِف خطِّها .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : وللسِّنّ الأيمن من القلم الألُف واللام ورَفعة الطاء والنون والباءُ والكافُ إذا كانت قائمة مبتدأة، وأواخر التعريقات والمدّات

---

(١) تقدم أن الأطراف سبعة فهذا زائد عليها .

وطبقة الصاد والضاد، ومَدّة السين والشين؛ وللأيسر الجيمُ وأختاها والرّدّات وتدوير رُءُوس الفاءات والقافات والهاءات والواوات والكافات المشقوقة .

قال : وكل رَدّة من اليسار إلىٰ اليمين تكون بصَدْر القلم .

قال : ويجب أن تكون المَطّات الطويلة بسِنّ القلم اليمنىٰ مُشَظّاةً ممالة، فتكون المَطّة من رأس شَظِيّتها، وأن تُكتب المَدّات القصيرةُ بحرف القَلَم؛ وإذا ٱبتدأ بالمَدّة وجب أن يُدار القلمُ علىٰ سِنّه مثل مَطّة الطاء؛ وإذا وُصلت المطّةُ بحرفٍ مثلِها كُتبت بوجه القلم مثل مَطّة الفاء المفردة . ثم قال : وهذا من أعظم أسرار الكتابة .

الجملة الثـانيــــة

(فى تناسُبِ الحروف ومقاديرها فى كل قلم)

قال صاحب "رسائل إخوان الصفا": فى رسالة المُوسيقىٰ منه : ينبغى لمن يَرْغَب أن يكون خطُّه جيّـدا وما يكتُبه صحيحَ التناسُب، أن يجْعلَ لذلك أصلاً يَبْنِى عليه حروفَه : ليكون ذلك قانوناً له يرجع إليه فى حروفه، لايتجاوزه ولا يُقَصِّر دُونَه .

قال : ومثال ذلك فى الخطّ العربىّ أن تخط ألِفا بأىّ قلم شِئْتَ، وتجعل غِلَظَه الذى هو عَرْضه مناسبًا لطُوله وهو الثمن : ليكون الطُّولُ مثلَ العَرْض ثمانَ مَرّاتٍ . ثم تجعَلُ البركار علىٰ وَسَـط الألف وتُدِير دائرةً تحيط بالألف لايخرُج دَوْرُها عن طرفَيْه، فإن هـذا الطريق والمَسْلَك يُوصِّلان إلىٰ معرفة مقادير الحروف علىٰ النسبة، ولا تحتاج فى مقاييسك ماتقصده إلىٰ شىء يخرج عن الألف وعن الدائرة التى تحيط به .

فالباء وأخواتها : كل واحدة منها يجب أن يكون تسطيحُها إذا أضيفَتْ إليه سنُّها مساويا لطول الألف، فإن زاد سَمُج وإن قَصُر قَبُح ؛ ومقدار ٱرتفاع سِنّها وجميع

السنن التى فى السين والشين ونحوها لا يتجاوز مقدار ثمن الألف . والجيمُ وأخواتُها مقدارُ مدَّتها فى الآبتداء لايقصُر عن نصف طُول الألف .

وكذلك يجرى الأمر فى العين، والغين، والسين، والشين، والصـاد، والضاد، والراء والزاى : كل واحدة منها مثل ربع محيط الدائرة؛ والدال، والذال كل واحدة منهما يجب أن يكون مقدارها إذا أُزيل الآنثناء الذى فيهـا وأعيدت إلىٰ التسطيح لايتجاوز طول الألف ولا يقصر دونه .

والسين، والشين : كلُّ واحدة منهما يجب أن تكون سِنَنُها إلىٰ فوقُ مثلَ مقدار ثمن الألف، وفى العرض بمقدار نصفها، وفى التعريق مثل نصف الدائرة المحيطة بالألف.

والصاد، والضاد : مقدار عَرْض كلٍّ منهما فى مَدَاها مثلُ مقدار نصف الألف وفتحة البياض فيها مقدارُ ثمن الألف أو سدسها، وتعريقها إلىٰ أسفل مثل نصف الدائرة المحيطة بالألف .

والطاء، والظاء: كلُّ واحدة منهما فى ناحية يجب أن يكون مقدارُه مثـلَ مقدار جميع طول الألف وعرضُه مثلَ نصف الألف .

والعين، والغين كلُّ واحد منهما مقدارُ تقويسه فى العَرض مثـلُ نصِف الألف أو مثلُ الألف إذا أعيدت إلىٰ التسطيح وأزيل تثَنِّيه، وتقويسُه من أسـفل مثلُ نصِف محيط الدائرة .

والفاء : يجب أن يكون تسطيحُه إلىٰ قُدَّام بعـد الطالع منه من فوق مثلَ طول الألف .

وحَلْقته وحلقة الواو والميم كلُّها إلىٰ فوقُ مثلُ سدس الألف، وإلىٰ أسفل فى الميم . والواوُ : مثلُ الراء . والقافتقويسُها من فوقُ ينبغى أن يكون مثلَ سُدُس طول الالف، وتعريقها مثل مقدار نصف الدائرة .

والكاف : ينبغى أن يكون الأعلىٰ منها طولَ الألف ، وفتحةُ البياض التى داخِلَه مثلَ سدس طول الألف ؛ وتسطيحه من أسفل مثلُ أعلاه وكسرته إلىٰ فوق مثلُ نصف طول الألف .

واللام : يجب أن يكون مقدارُ طُول قائمتها مثلَ الألِف ، ومدّتها إلىٰ قدّام مثل مقدار نصف الألف .

والنون : يجب أن يكون مقدارُه مثلَ نصف محيط الدائرة .

واليـاء : ينبغى أن يكون مَبْدؤه دالا مقلوبةً لا تجاوز مقدار طُول الألف ، وتعريقها إلىٰ أسفلَ مثلُ نصف محيط الدائرة .

ثم قال : وهذه المقادير وكميةُ نسبة بعضها إلىٰ بعض هو ما توجبه قوانينُ الهندسة والنسبة الفاضلة ، إلا أن مايتعارفه الناس ويستعمله الكُتَّاب علىٰ غير ذلك .

وقد أشار الشيخ عمادالدين بن العفيف إلىٰ ضوابط فى ذلك علىٰ ماتقتضيه أوضاع الكُتَّاب يجب الوقوف عندها فقال : وٱعلم أنّ مقادير الحروف متناسبةٌ فى كل خط من الخطوط .

وٱعلم أن صاحبنا الشـيخ زين الدين شـعبان الآثارىّ فى ألفيته قد جعل طول الألف سبعَ نقط من كل قلم ، ومقتضاه أن يكون العرض سُبُعَ الطُّول .

ثم قال : إن ما زاد عن ذلك فهو زائد فى الطول ، وما كان ناقصـا عن ذلك فهو ناقص ، وعلىٰ ذلك تختلف المقـادير المقدّرة بالألف من الحروف بنقص قدر الثمن من الطول .

فالألف واللام قَدْرٌ سواء فى كل خط ، وكذلك الباء وأختاها ، والجيم وأختاها ، والعين والغين قدرٌ سواء ، والنون ، والصاد ، والضاد ، والسين ، والشين ، والقاف ، والياء المُعرّقة قدر سواء ، والراء ، والزاى ، والميم ، والواو قدرٌ سواء .

قال : وكل عراقة بدأتَ بها فى كل خط مّا فعلىٰ مثلها يكون آنتهاؤها .

ثم قال : فتفَهَّمْ هذا القدرَ فإنه كثيرا مايختلط علىٰ الكُتَّاب الحُذَّاق .

وقد ذكر الشيخ شرف الدين بن عبد السلام من ذلك أضربا :

أحدهـا ــ ما هو متناسب الطُّول، وهو خمس صور : صورةُ الألف، وصورةُ اللام، وصورةُ القاف، وصورةُ التاء، وصورة الكاف ويجمعها قولك "القتك" وفرَّع عليها أربع صور يجمعها قولك "بث مى" .

الثـانى ــ ما يجوز مدُّه من أوّل السطر إلىٰ آخره وقصره ما شـاء، ما لم يَقْصُر عن طول الألف، وهى البـاء، والكاف، واللام؛ ويجمعها قولكُ "بكل" ويتفرّع عليها أخواتها .

الثالث ــ ما هو متناسِبٌ فى المِقْدار، وهو ثلاث صور : يجمعها قولك "ديل" .

والمنكبُّ من الدالَ والمستلقى منها والمنسطح والمستلقى منها والمنكَبُّ من الياء بمقدار نصف ألِف خطّه .

الرابع ــ ما هو متناسب المساحة فى حال العطف والإرسال : وهى القـاف، والسيـن، والبـاء، واليـاء، والضاد، ويجمعها قولك "قبس يض" وكل أخت تُلْحَق بأختهـا .

الخـامس ــ ماهو متناسب فى الإرسـال وهو الميم، والواو، والزاى، ويجمعها قولك "موز" .

السادس ــ ماهو متناسبٌ فى الضَّوْء والإرسال، وهو ست صور : هى الفاء، والقاف، والهـاء، والميم، والواو، واللام ألف؛ ويجمعها قولك "فقه مولا" .

السابع ـ ماهو متناسبُ ضـوء الباطن ، وهو ثلاث صور : الصاد ، والطاء ، والعين وأخواتُها .

الثامن ـ ماهو متناسب الرءُوس ، وهو ثلاث : الصاد ، والعين ، والطـاء ؛ ويجمعها قولك "صعط" ويُلْحَق بها أخواتُها .

التاسع ـ ماهو متناسبُ فى التعريج ، وهو العين ، والجيم ، ويجمعهما قولك "عج" .

الجملة الثالثـــة

(فيما يجب ٱعتماده لكل ناحية من نواحى القلم)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ بِرَاية القـلم أن للقلم سِـنًّا أيمَن وسنًّا أيْسَر ، وعَرْضا ، ووَجْها ، وصَدْرا ؛ وأنه يتعيَّن علىٰ الكاتب معرفةُ كلٍّ واحد منها : ليُعطِىَ كل واحدٍ منها حقَّه فى الموضع الذى يقتضيه الحال . وقد ذكر السَّرَمَرِّىُّ فى أرجوزته جُمَلا كلية إذا عرفها الكاتب سَهُل عليه مايرومُه من ذلك فقال :

"إن كل خط منتصبِ الشَّكْل كالألف ونحوه يجب فى كتابته الاعتماد علىٰ سنَّى القلم جميعا ، وكلَّ خطٍّ آخذٍ من اليمين إلىٰ اليسار يجب إمالةُ القلم فيه إلىٰ اليسار شيئا يسيرا ، وكلَّ خطٍّ آخذٍ من اليسار إلىٰ اليمين يجب إمالةُ القلم فيه إلىٰ اليمين شيئا يسيرا ، وكل نقطة يعتمد فيها بسنيه جميعا ، وكل شـظيَّة فإنها تُخْتَلسُ بسنه اليمنىٰ ٱختلاسا ، وكل إرسـالةِ تعقيب كما فى الجيم والعين يُعتمدُ فيها علىٰ السن الأيسر ، وكلَّ تَقْعير كما فى النون يكتب بالسنِّ اليمنىٰ " .

وأفصح عن ذلك الشيخ عماد الدين بن العفيف فقال :

إن لِلسِّن الأيمنِ الألفَ واللامَ ، ورفعة الطاء ، والنونَ ، والباء ، والكاف إذا كانت قائمة مبتدأة ، وأواخرَ التعريقات والمدّات ، وطَبْقة خطة الصـاد والضاد المستفلةَ ،

وبدء السين والشين . وللسن الأيسر الجيمَ وأختيها ، والرّدات ، وتدوير رءُوس الفاءات والهـاءات والواوات والكافات المشقوقة (١) . ثم قال : وكل ردّة من اليسار إلى اليمين تكون بصدر القلم .

الجملة الرابعـــــــة

(فى الترويس)

والذى يدخله الترويس فى الجملة الألف ، والباء ، والجيم ، والدال ، والراء ، والطاء ، والكاف ، واللام المجموعة ، ويختلف الحالُ فى ترويسها وعدمِه بٱختلاف الأقلام .

فمنها ما يروّس حتما ، ومنها ما يمتنع فيـه الترويس ، ومنها ما الكاتبُ فيـه بالخيار بين الترويس وعدمه ، وربمـا رُوّس بعض الحروف فى بعض الأقلام ولم يُرَوّس فى بعضها . ثم قد ذكر أهل الصـناعة أن ترويس الألف كسُبعِه . وذهب ياقوتٌ إلى الزيادة على ذلك ، وترويس البـاء وأختيها بقـدر نُقْطتين ، وترويس الجيم بقدر نصف نصبها ، وترويس الصاد والطاء كالسين ، وترويس الفـاء والقاف كالبـاء . وسيأتى الكلام على ترويس كل حرف منها فى قلمه إن شاء الله تعالى .

الجملة الخامســـة

(فيما يُطمس من الحروف ويفتح)

وهى المعبر عنها بالعُقَد ، وهى صورة الصاد ، والطاء ، والعين ، والفاء ، والقاف ، والميم والهاء ، والواو ، واللام ألف المخففة ، ويختلف الحال فيها :

---

(١) لعله المشكولة كما يستفاد من التعريف عن أشكال الحروف الآتى .

فمنهـا ما لا يُطْمَس بحال، وهى الصـاد وأختها، والطاء وأختها، والعين المفردة والمبتدأة وأختها .

ومنها مايطمس فى بعض الأقلام دون بعض وهى: العين المتوسطة، والعين الأخيرة؛ وكذلك الغين، والفاء، والقاف، والميم، والهـاء، والواو، واللام ألف .

وسيأتى الكلام علىٰ ما يُطْمَسُ ويفتَحُ من ذلك فى كل قلم عند ذكره .

ثم الطَّمْس فيما يُطْمَس منها علىٰ سبيل الجواز لاعلىٰ سبيل اللزوم .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والرجوع فى ذلك إلىٰ قانون مضبوط،وهو أنه كُلَّما غَلُظتِ الأقلام كان الطمس فيها علىٰ خلاف الأصل،وكُلَّما رقَّتْ كان الفتح فيها علىٰ خلاف الأصل،وذلك أنَّنا عدَلْنا عن الفتح إلىٰ الطَّمْس لأجل التلطيف .

الجملة السادسة

(فى ذكر الأقلام المستعْمَلة فى ديوان الإنشاء فى زماننا)

وسيأتى فى المقالة الثالثة فى الكلام علىٰ ما يناسب كل مقدار من مقادير قطع الورق من الأقلام: أن المقرّ الشهابىَّ بنَ فضل الله ذكر فى ذلك خمسة أقلام،وهى: مختصَر الطُّومار، والثُّلُث، وخَفِيف الثُّلُث، والتوقيع، والرِّقاع . مختصر الطُّومار لقطع البغدادىّ الكامل، والثُّلُث لقَطْع الثلثَيْنِ،وخفيفُ الثلث لقطع النصف، والتوقيع لقطع الثلث، والرقاع لقطع العادة .

ويلتحق بالخمسة التى ذكرها ثلاثةُ أقلام أُخَر،وهى : الطُّومار الكامل،والمحقَّق، والغُبَـار .

فالطُّومار : يكْتُبَ به السـلطان علاماتِهِ علىٰ المكاتَبـات والوِلَايات ومنَاشـير الاقطاع .

والمحقَّق : ٱستُحْدِثت كتابتُــه فى طُغْراوات كُتُب القـانات علىٰ ما سـيأتى بيانه فى موضعه .

والغُبَار : يُكْتَب به بطائقُ الحمام والملطِّفات وما فى معناها .

وحينئذ فيكون المسـتعملُ بديوان الإنشـاء فى الجملة ثمـانيةَ أقلام : الطُّومار، ومختَصر الطُّومار، والثُّلث، وخَفِيف الثلث، والتَّوقيع، والرِّقاع، والمحقَّق، والغُبار.

وقد ٱختلف الـكُتَّاب فى تسمية قلم الثُّلُث وما فى معناه من الأقلام المنسوبة إلىٰ الـكُسُور كالثلثين والنصف علىٰ مَذْهبين :

المذهب الأوّل ــ مانقله صاحب "منهاج الإصابة" عن الوزير أبى علىّ بن مقلة أن الأصل فى ذلك أن للخط الكُوفىّ أصلين من أربعَ عشرة طريقة ، هُمَا لهـا كالحاشيتين : وهمـا قلم الطومار : وهو قلم مبسوط كله ليس فيه شىءٌ مسـتدير .

قال : وكثيرا ماكُتِب به مصاحفُ المدينة القديمةُ ، وقلم غُبَار الحِلْية : وهو قلم مسـتدير كلُّه ليس فيه شىءٌ مستقيمٌ ، فالأقلام كلُّها تأخذ من المستقيمة والمسـتديرة نسبا مختلِفة ، فإن كان فيــه من الخطوط المستقيمة الثلثُ سمى قَلَمَ الثلث ، وإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثُلثانِ سمى قلم الثلثين ، وعلىٰ ذلك ٱقتصر صاحب "منهاج الإصـابة" .

المذهب الثانى ــ ماذهب إليه بعض الكُتَّاب أن هذه الأقلام منسوبة من نسبة قلم الطُّومار فى المساحة ، وذلك أن قلم الطُّومار الذى هو أجلُّ الأقلام مِساحةُ عَرْضِه أربعٌ وعشرون شَعْرة من شعر البِرْذون كما سيأتى ، وقلمُ الثلث منه بمقدار ثُلُثه : وهو ثمـان شعرات ، وقلمُ النصف بمقدار نصفه ، وهو ٱثنتا عَشْرةَ شـعرّة ، وقلم الثلثين بمقدار ثلثيه : وهو ثمانَ عشرةَ شعرة . وإلىٰ ذلك كان يذهب بعض مشايخ الـكُتَّاب الذين أدركناهم ، وعليه ٱقتصر المولىٰ زين الدين شعبان الآثارىّ فى ألفيته .

وهذه صور حروف الأقلام السبعة التى تستَعْمَل فى ديوان الإنشاء ولوازمه وهى : الطُّومار، ومختَصره، والثلُث، وخفيفُ الثلث، والرِّقاع، والمحقَّق، والغُبار فى حالتى الإفراد والتركيب .

القـــــلم الأوّل

(قـــلم الطُّومار بإضـافة قلم إلىٰ الطُّومار)

والمراد بالطُّومار الكاملُ من مقادير قَطْع الورق أصل عمله ، وهو المعبَّر عنه فى زماننا بالفَرْخة ، فأضيف هذا القلم إليه لمناسبة الكتابة به فيه . وقد تقدّم أنه قلمٌ جليلٌ قدّرَ الكُتَّاب مِساحةَ عَرْضِه بأربع وعشرين شعرةً من شَعْر البِرْذَوْن ، و به كانت الخلفاءُ تكتُب علاماتِهم فى الزمن المتقدّم فى أيام بَنِى أُمَيَّة فَمَنْ بعدهم .

فقد حكىٰ أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقِىُّ فى مناقب عُمَرَ بنِ عبد العزيز : أن عُمَرَ بن عبد العزيز أُتِىَ بطُومار ليكْتُب فيه فامتنَع وقال : فيه ضَياعُ الوَرَق وهو من بيتِ مالِ المسلمين ، و بالضرورة فلا يُكْتَب فى الطُّومار إلا بقَلَم الطُّومار ، وهذا دليل علىٰ أنه كان موجودا فيما قَبْله ، وأظُنُّه من الامور التى رتَّبها معاويةُ بنُ أبى سُفْيان ، إذ هو اوّلُ من قرّر أُمُورَ الخلافة ، ورتَّب أحوالَ المُلْك ، و به آستقرّتْ كتابةُ ملُوك الديار المصرية من لَدُن السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوُون" وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا .

قال صاحبُ "مِنْهاج الإصابة" : ويكونُ من لُبِّ الجريد الاخضَر ، ويُؤخَذ منه من أعلىٰ الفتحة مايَسَعُ رءُوس الأنامل . قال : ويمكن أن يكونَ من القَصَب الفارسىِّ .

قلت : والذى آستقرّ عليه الحالُ فى كتابة العُهود بالديار المصْريَّة بقَصَب البُوص الأبيض الغليظِ الأنابيب ، ينتقىٰ قَصَبه من جَزائر الصعيد بالوجه القبْلىِّ ، وفى كل سنة

يُجَهَّز بَرِيدىٌّ بطلب هذه الأقلام من وُلَاة الوجه القِبْلى، ويُؤْتىٰ بها فتحفظ عند كاتب السِّر ويُبْرىٰ منها مايحتاج اليه (١) يوضع فى دواته بقَدْر الحاجة .

قال فى "منهاج الإصابة" : ولابدّ فيه (١) بقدر مايحتاج إليه فى مَجِّ القلم الحِبْرَ فى القرطاس .

وآعلم أن للكُتَّاب فيه طريقتين :

إحداهما ـ طريقةُ الثلُث فتجرى الحال فيه علىٰ الميل إلىٰ (١)

الثانيـة ـ طريقـة المُحقَّق فتجرى الحال فيه علىٰ الميل إلىٰ (١) بطريقتين، وكيفيـة تشـكل (١) والفاء والقـاف فيه أوسـطها لحـدده (١) مدوّرة البيـا (١) الأحرف كمثـله (١) الرابع أن يكون فيـه صاد مدوّرة (١) وكاف مشكولة .

وذكر المولىٰ زين الدين شعبان الآثارى فى ألفيته : (١) فيه الترويس فى الألف، والباء، والجيم، والدال (١) واللام والنون فى الإفراد والتركيب عند الآبتـداء وأنه (١) الطمس فى شىء من عقـده كالصاد، والطـاء، والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف المحققة بحال، والمعنىٰ فيه أن الطمس لا يليق بالخط الجليل .

---

(١) وقع طمس بالحبر فى هذه الصحيفة فى مواضع .

وهذه صورة كتابة آسم السلطان فى المكاتبات والولايات وغيرها منسوبا للسلطان

السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون

صورة مايكتب فى جليل المكاتبات

صورة مايكتب فى متوسطات المكاتبات

صورة مايكتب فى صغار المكاتبات

وهذه صورة كتابة العلامة على المناشير للإقطاع لمن علامته
الله أملي بيـاء راجعة

القـــــــلم الثانى

(قـــلم مختصـــر الطـــومار)

بإضافة قلم إلىٰ مختصر، وربمـا قيل فيه مختصر الطُّومار بحذف المضاف، وهو الذى يكتب به فى قَطْع البغدادىّ الكامل .

وقد ذكر المولىٰ زين الدّين شعبان الآثارىّ فى أَلْفِيَّتِه : أن مقدار مساحته مابين كامل الطُّومار وبين قلم الثلثين، وحينئذ فيكون مقـداره مابين عرض ست عشرة شعرةً من شعر البِرْذَوْنِ وبين أربع وعشرين شعرةً، والحـامل له علىٰ ذلك أن أعلىٰ ما وضـعوه من الأقلام المنسوبة لكسرٍ من الكسور قلمُ الثلثين، وهو عرض ستَّ عشرةَ شعرة، فلو كان مرادهم بمختصر الطومار هـذا المقدار، لعبروا عنه بقلم الثلثين دون مختصر الطومار، فتعين أن يكون فوق ذلك ودون الطومار الكامل، فيكون مابين عرض ثمـانَ عشرةَ شعرة وعرض أربع وعشرين شعرة .

ثم هذا القلم يجوز أن يُكْتَب به علىٰ طريقة الثلث فى الميل فى حروفه إلىٰ التقوير وعلىٰ ذلك يكتُب كُتَّاب ديوان الإنشاء فى عهود الملوك عن الخلفاء، والمكاتبـة إلىٰ القانات العظام من ملوك بلاد الشرق . ويجوز أن يكتب به علىٰ طريقة المحقَّق فى الميـل فى حروفه إلىٰ البسط كما فى الطريقة الثانية من قلم الطُّومار، وسيأتى ذكر تشكيل الثلث فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

ولايخفىٰ أن هذا القلم بالنسبة إلىٰ الترويس وعدم الطمس علىٰ ماتقدّم فى الطومار لحوقه به فى الجلالة وسَعة مساحة العرض .

وهـــــذه صـــــــ

صـــــورة كتابتـــــه

القـــــلم الثـالث

قــلم الثلث

بإضافة قلم إلىٰ الثلث ،ويقال فيــه الثلث بحذف المضاف وهو الذى يُكْتَب به فى قَطْعِ الثلثين .

وقد تقــدّم آختلاف الكُتَّاب فى نسبته هل هو باعتبار التقوير والبسط أو باعتبار أنه ثلثُ مساحة الطومار، من حيث إن عَرْض الطومار أربع وعشرون شعرةً من شعر البِرْذَوْنِ، وعرض الثلث ثمانُ شعرات وهى الثلث من ذلك؛ وقَطَّة هذا القلم محرّفة : لأنه يحتاج فيه إلىٰ تشعيرات لاتتأتى إلا بحرف القلم،وهو إلىٰ التقوير أميل منه إلىٰ البَسْط، بخلاف المحقَّق علىٰ ماسيأتى ذكره، والترويس فيه لازم .

وقد ذكر المولىٰ زين الدين شعبان الآثارىّ فىأَلْفِيَّتِهِ :أنه يروّس فيه من الحروف الألف المفردة، والجيم وأختاها، والطاء،والكاف المجموعة، واللام المفردة، والسنة المبتدأة؛وعُقَدُه من الصاد وأختها ،والطاء وأختها ،والعين وأختها، والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف المحققة كلُّها مفتحة لايجوز فيها الطمس بحال .

وهو علىٰ نوعين :

النــــــوع الأوّل

(الثلث الثقيل)

وربمــا قيل فيه ثقيل الثلث ، وهو المقدّرة مساحته بثمانِ شـعرات علىٰ ما تقدّم ذكره، وهذه صُوَره مفردة ومركبة .

الألف علىٰ ضربين مفردة ومركبة، فالمفردة علىٰ ثلاثة أنواع .

الأوّل ـــ الألف المطلق

وطريقه : أن تبتدئ فيه بصدر القلم من قفا الألف ، ثم تصعد إلىٰ هامتها فإذا بلغتها نزلت بعرض القلم إلىٰ وجهه ، ثم تنزل بوجه القلم معتمدا فى نزولك علىٰ السنّ اليمنىٰ حتّىٰ إذا بلغت شاكلة الألف أدرت القلم برفق حتّىٰ تختمه بحرفه .

الثانى ـــ المشـــعر

وطريقه : كالذى قبله إلا أنه إذا جئت آخر الألف عطفت ذنبها ويكون موصولا بغيره ، فإن لم يوصل بغيره فالغالب أن يكون مطلقا .

الثالث ـــ المحـــرَّف

وطريقه : أن يبدأ فيه من هامة الألف بوجه القلم فتضعه علىٰ تحريفه وتنزل به مستويا ، حتى إذا بلغت شاكلته أدرت حرف القلم علىٰ مامضىٰ من الشرط فى المطلق والمُشَعَّر .

الضرب الثـانى

(المركَّب مع غيره من الحروف)

ولا يكون إلا طرفا أخيرا، إذ لا يوصل بما بعده، لأن الألف مطيَّة يُرْكَبُ عليها ولا تَرْكَبُ، وطريقه أنك تصعد به بعد تمـام الحرف الذى قبله بصدر القلم عكسا لنزولك بالألف المحرّف ، فإذا بلغتَ هامة الألف وقفت بالقـلم حتّى يكون بمنزلة رأس الألف المحرّف.

وكذلك يفعل فى اللام الطالع،وهذه صورته .

الطـالع

الصـــــــورة الثانيـــــــة

(صورة البـاء)

وهى علىٰ ضربين

الضرب الأوّل

المفـــردة

وهى ثلاثة أنواع : مجموسة،وموقوفة، ومبسوطة . ولك فى آبتـدائها فى الثلاث الصور وجهان : إن شئت بدأت من قفاها بتشـعيرة علىٰ ما مضىٰ من صفة الألف المطلق، وهو مذهب الأستاذ أبى الحسن،و إن شئت بصدر القلم . ثم لكل صورة منها طريقة تخصها .

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ من رأسها بوجه القلم حتّٰى إذا بلغت فتلة البـاء وهى الإدارة الخفية التى تجمع بين الخط القائم والمبسوط، فتلت القلم ومططت الباء بصدره، حتّٰى إذا صرت إلىٰ آخرها ختمت بحرف القلم الأيمن ، ونَثَرتَ يدَك برفق حتّٰى ترفع ذنب الباء، حتّٰى يجىء رأسها فى نهاية الدقة .

المجموعة

وأما الموقوفة : فطريقها كطريق المجموعة فى جميع ماتقدّم ، إلا أنك إذا بلغت المكانَ الذى ترفع فيه من ذنب المجموعة ، وقفتَ فيه بعرض القلم فتأتى مطة محرّفة كتحريف القلم .

الموقـــوفة

وأما المبسوطة(١) :

المبســـوطة

وأما المركبة(٢) : فعلى نوعين: متوسطة، ومتطرّفة .

فأما المتوسطة : فلها حالان .

أحدهما ــ أن يكون قبلها وبعدها مثلها، فتكون الوسطىٰ مرتفعة علىٰ أخواتها. وإذا رفعتها أكثر من أخواتها، رجعت فى خط يلاصقها. وهذا فى كل حرف صغير كالنون، والباء، والتاء .

الثـانى ــ أن لا يكون قبلها وبعدها مثلها ، فهى كإحدىٰ السنات .

(١) لم يتكلم عليها . (٢) هذا هو الضرب الثانى من ضربى الباء وهى المركبة .

وأما المتطرفة : فلها حالان أيضا .

أحدهما ــ أن تكون مبتدأة : وهى التى تكون فى أوّل الكلمة ، فطريقها أن تبدأ فيها بعرض القلم تحدّرا من يمينك إلىٰ يسارك ، وهى تصحب الجيم وأختيها .

الثانى ــ أن تكون فى آخر الكلمة ، وتكون محذوفة الرأس للتركيب كرأس السين المبسوطة ، وتكون صورة مدّتها كصورة المفردة سواءً فى جميع أحوالهـا : فى الجمع والبسط والوقف ؛ وهذه صورها .

مركبة مجموعة مركبة موقوفة مركبة مبسوطة

الصورة الثـالثة

(صـــورة الجيم وما شاكلها)

وهى علىٰ أربعة أضرب : مرسَلة ، ومسْبلَة ، ومجموعة ، وملوَّزة ؛
وٱبتداء جميع الصور علىٰ وجهين ، من رأسها ومن جبهتها .

فأما المبتدأة من رأسها فيخيَّر الكاتب فيها بين أمرين : إن شاء جعلها جرّا ، وإن شاء جعلها مشـعَّرة ، فإنها يُبْدأ فيها بصدر القلم ، وهو مذهب الأستاذ أبى الحسن ، والمشـعَّرة يخْطَفها بحرف القلم أو بصـدره علىٰ ما مضىٰ ؛ فإذا بلغتَ جبهتها أدرت بجررت بوجه القلم ، وأنت فى الجرّة بالخيار : إن شئت جئت بها علىٰ خط مستقيم ، وإن شئتَ رطّبتها شيئا يسـيرا ؛ فإذا بلغت قفاها ، كنت أيضا مخيرا : إن شئت رجعت فى الخط الذى جئت فيه ، وإن شئت رجعت فى خط تحته يلاصقه بصدر القلم ؛ فإذا وصلت تحت هامة الجيم أدرت القلم علىٰ تحريفه فنزلت بعرضه حتّى إذا بلغت آخر عجز الجيم ختمتها بحرف القلم . ولا يخرج صدر الجيم عن الخط الموازى

لجبهتها، كما لايجوز أن يخرج طَرَف ذَنَبها عن الخط الموازى لقَفَاها، حتّٰى لو نصب عليها خطوطا لناسبت أعاليها أسافلها، وهذه صورتها .

مفردة مرســـلة

وأما المسبلة : فإنها كالمرسلة فى الصورة والصفة، والفرق بينهما أنك فى المرسلة إذا بلغت الصدر ونزلت فيه، أسبلت ذنبها، وهذه صورتها .

مفردة مســـبلة

وأما المجموعة : فإنها كالمرسلة أيضا فى جميع أوصافها و يزيد عليها أنك إذا وفيت بهـا علىٰ مامضىٰ من صِـفة المرسلة رددت ذنبها علىٰ عجزها فصارت هنالك دائرة ، وهذه صورتها .

مفردة مجمـــوعة

وأما الملوّزة : فإنها لا تكون إلا قبل الألف، وطريقها أن تبدأ بعرض القلم من تحت الألف فيما تقدّر، فإذا بلغت جبهة الجيم، جررت بوجه القلم جرّة مبطنة حتىٰ يصـير البياض الأوسط لَوْزَةً محققة، فترفع الألف مع جبهة الجيم وتبقىٰ تحت ذنب الألف بقية رأس الجيم، وهذه صورتها .

مبتدأة مركبة ملوّزة

وزاد المتأخرون صورة أخرىٰ تسمى الرّتقاء، وصورتها أنك تبتدئ برأس واو من واوات الثلث مفردة، وتكون مرتفعة الرأس بقـدر نقطة من نقط الخط، ثم تكمل عليها ببقية العمل المتقدّم ذكره علىٰ الثلاث حالات المتقدّمة فى الباب، وهى المرسلة والمسبلة، والمجموعة، وهذه صورها .

رتقاء مرسـلة — رتقاء مسـبلة — رتقاء مجمـوعة

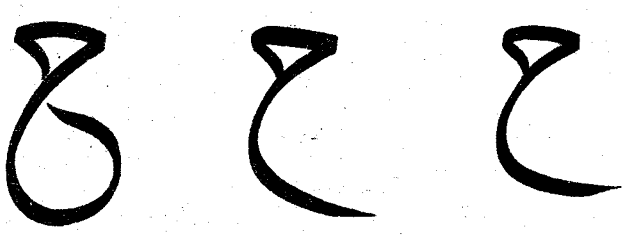

وزاد المتأخرون صُوَرا أخرىٰ فى التركيب : وهى ثلاث : أُولىٰ، ووُسْطىٰ، وأخيرة .

أما الأولىٰ : فٱبتداء العمل فيها كٱبتداء العمل فى الثلاث حالات الأول، ثم تكمل بالحرف الذى تريد، وهذه صورتها .

مركبة مبتدأة محققة

وتارة تكون ملَوَّزة وهى التى تصحب الألف وما شابهها كالدال، واللام، واللام ألف، وقد صوّروها مع الألف فتقاس علىٰ ماعداها .

وهذه صورتها مع اللام
مركبة مبتدأة ملوّزة
مع شبه الألف

وهذه صورتها مع اللام ألف
مركبة مبتدأة ملوّزة
مع شبه الألف

وهذه صورتها مع الدال
مركبة مبتدأة ملوّزة
مع شبه الألف

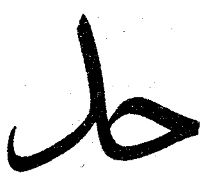

واما المتوسطة : فالعمل فيها كالعمل فى المبتدأة المحقَّقة المركبة كما تقــدّم ولكن بغير ترويس، وهذه صورتها .

مركبة متوسطة محققة

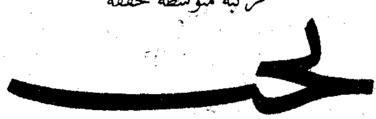

وأما الأخيرة : فالعمل فيها كالعمل فى الثلاث حالات الأُوَل : المرسلة ، والمسبلة ، والمجموعة ، ولكن بغير ترويس ، وهذهِ صورها .

مركبة مختتمة مرسلة　　مركبة مختتمة مسبلة　　مركبة مختتمة مجموعة

الصورة الرابعـــة

(صـــورة الدّال وأختهـا)

وهى علىٰ ضربين : مفردة ، ومركبة

الضرب الأوّل

المفــــردة

ولها صورة واحدة ، وهى شكل مُثَلَّثٍ علىٰ زاوية واحدة ، ويجمع طرفها جمعا يسيرا ، وهذه صورتها :

مفـــــردة

الضرب الثانى

المركبـــة

ولها أربعة أشكال : مجموعة، ومبسوطة، ومخطوفة، ومقطوفة .

أما المجموعة : فإنك ترفَعُها بعد فراغك من الحرف الذى قبلها، ولك فى ذلك مذهبان :

أحدهما ـ مذهب الوزير أبى علىّ بن مقلة(١) .

والثانى ـ مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب، وطريقه أن ترفعها مائلا إلىٰ اليسار ميلا خفيفا .

ثم علىٰ كلا المذهبين ترجع بخط يلاصق الخط الذى صَعِدت به وبظهر القطة فى الانتهاء، وتأتى بالعراقة علىٰ شكل عراقة الدال المفردة فى الجمع، وهذه صورتها :

مجموعة مركبـــة

وأما المبســوطة : فحكمها فى جميع صـفاتها حكم المجموعة، إلا أنك إذا نزلت فى المبسوطة إلىٰ العراقة وفتلتها، أرسلت العراقة بعرض القلم، وهذه صورتها :

مركبة مبســـوطة

(١) لم يبين طريقه ولعله سقط من قلم الناسخ فحرر .

وأما المخطوفة : فهى كالمجموعة أيضا ، إلا انك تخْطَفها بحرف القلم وتختمها بأدَقِّ ماتقدر عليه من النحافة ، وهذه صورتها :

مركبـــة مخطوفة

وأما المقطوفة : فهى كالمخطوفة ، إلا أنك بعد الفتلة تُبْقِى لها ذَنَباً صغيرا بحرف القلم وهذه صورتها :

مركبـــة مقطوفة

الصورة الخـامسة

(صـــورة الراء وأختهـا)

وهى علىٰ ضربين : مفردة ، ومركبة

الضرب الأوّل

المفـــردة

ولهـا ثلاثة أشكال : مجموعة ، ومبسوطة ، ومقورة ، وابتـداؤها فى جميع الصور علىٰ وجهين .

أحدهما ــ أن تبدأ من قفاها صاعدا إلىٰ هامتها ثم تنزل إلىٰ وجهها .

والثانى ــ أن تبدأ بها حدّا من رأسها ، وهو مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب .

ثم لكل واحدة منها بعد ذلك عمل يخصها . فأما المجموعة فطريقها أن تبدأ فيها بوجه القلم وتنزل علىٰ خط الآستواء بقدر ربعها ، ثم تدير القلم وتبدأ فى العراقة بصدر القلم ، ويكون تنزيلك إيَّاها أكثَرَ صبا من الباء المفردة قليلا ، فإذا عرقت مثلَىْ مانزلت به أوّلا علىٰ خط الآستواء نثرت يَدَك بالقلم إلىٰ فوقُ وأنت تريد ذات اليمين بإشارة لطيفة ، ويكون خَتْمها بسنِّ القلم اليمنىٰ ؛ وهذه صورتها :

مفـــردة مجموعة

واما المبسوطة : فطريقها أن تنزل بها علىٰ ما ذكرناه ، وترسل ما عرقت منها علىٰ ما تقـدّم فى الدّال المجموعة وتنقص منها النـثرة الأخيرة ، وتحـدّد طرفها ؛ وهذه صورتها :

مفـــردة مبسوطة

وأما المقوّرة : فطريقها أن تنزل بأقلَّ ممـا ذكرناه شيئا يسيرا ، وهذه صورتها :

مفـــردة مقوّرة

الضرب الثـانى

المركبـــة

ولهـا أربعة أشكال : مخطوفة، ومقطوفة، وبتراء، ومدغمة .

فأما المخطوفة : فهى كالمقوّرة فى الصورة، غير أن عراقتها بحرف القلم؛ وهـذه صورتها :

مركبـــة مخطوفة

وأما المقطوفة : فإنك تُبْقِى لها ذَنَبًا صغيرا، وهذه صورتها :

مركبة مقـــوّرة

وأما البتراء : فإنك تقطفها من الثلثين فتحذف ثلثها وتأتى بها مستدقة الطرف ، وهذه صورتها :

مركبـــة مقطوفة

وأما المدغمة : فإنها تصلح بعد كل حرف وتقبح بعد المدّ، وسميت مدغمة مجازا وإلا فالحرف الذى قبلها هو الذى يدغم فيها، لكنهم لما حذفوا منها شيئا لقبوها بذلك ، ولا بُدَّ أن تحذف من الحرف الذى قبلها شيئا من آخره وتحذف منها شيئا من أوّلها .

وتُبْقِ من كل واحد منهما مايدل عليه ؛ وهذه صورتها :

مركبـــة مدغمة

الصورة السادســـــة

(صورة السين)

وحكمها فى حالتى الإفراد والتركيب سواءٌ، غير أنها فى حالة الإفراد تزيد العراقة ، وعراقتها كعراقة النون فى الجمع والبسط والتقوير؛ وسيأتى الكلام علىٰ ذلك فى حرف النون إن شاء الله تعالىٰ .

ثم هى علىٰ نوعين : محقَّقة، ومعلقة .

فأما المحققة : فلها شكلان، مُظْهَرة، ومدغَمة .

فطريق المظهرة أن تبـدأ بوجه القلم ثم تدير القـلم منها إلىٰ أختها إدارة لطيفـة فى نهاية الاعتدال، وتحدّد رأس الثانية بسن القلم اليمنىٰ ، ويكون الذى بين الأولىٰ والثانية أقلَّ ممـا بين الثانية والثالثة ، وهو مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب .

وإذا كان قبلها شيء يكون سواء، ويجوز أن تكون مصدّرة مقلوبة؛ وهذه صفتها :

محققة مظهـــرة

وأما المعلقة : فصفتها أنك تحذف السين حذفا وتقيم جرّةً مقامها، وتبدأها بوجه القلم عاملا إلىٰ آخرها .

هذا إذا كانت مبتدأة، فإن كانت متوسطة، فالأولىٰ أن تكون محققة، ولا بدّ من جرّ فوقَ المعلقة نقطت أو لم تنقط، وهذه صورتها :

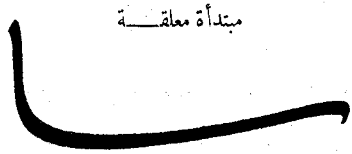

وتحسن قبل الكاف المشكولة وقبل الألف، ولا تكون قبل الصاد والعين والكاف المعرّاة، وقيل إنها لم ترفى خط ٱبن البوّاب إلا مفردة .

الصـــــورة السابعـــــة

(صـــورة الصاد)

والكلام فى عراقتها كالكلام فى عراقة السين : من الجمع، والبسط، والتقوير، وسيأتى الكلام علىٰ ذلك فى حرف النون .

نعم لا تكون عراقتها إلا حديدة الطرَف فى جميع صورها، ولا يجوز فيها الوقف بحال . أما نفس الصاد فلها شكل واحد، وهى تقارب التلويزة . وللناس فيها مذهبان : الاول إظهار مبدإ الصاد تحت رأس العراقة، والآخر إخفاؤه، وفى كلا المذهبين لا بدّ من ظهور رأسها شيئا يسيرا . فإن كانت متوسطة، فيكون رأسها بحرف القلم

محدّد الطَّرَف . و إن كانت مفردة أو متطرّفة فإنها تكون عريضة الرأس بوجه القلم . و إذا ركبت علىٰ خط قبلها ، لا يكون خطا علىٰ خط ولا يظهر أكثر من خط واحد ، وهذه صورتها :

مجموعة

الصورة الثامنة

(صورة الطاء وأختها)

وهي ثلاثة أنواع : موقوفة ، ومرسلة ، ومحققة

فأما الموقوفة : فطريقها أن تبدأ بها علىٰ صورة الألف المطلق . فإذا وفيت به ، رجعت طالعا من تلقاء ذَنَبِ الألف حتّى تقارب شاكلته ، فترجع إلىٰ يمينك ، فتركب عليه شكلا علىٰ صورة اللوزة ، وتخرج ذَنَبَ اللوزة من تحت الألف وتقف عليه بعوض القلم فتظهر القطة ؛ وهذه صفتها .

مفردة موقوفة

وأما المرسلة : فهى علىٰ نحو ما تقدّم فى الموقوفة غير أن الجرّة السفلىٰ هاهنا مبطنة ، وفى الموقوفة علىٰ خط مستقيم ؛ وهذه صفتها .

مفردة مبسوطة

وقد ٱختلف الكُتَّاب فى رأس الطاء، فكان بعضهم يذهب أن يكون علىٰ طَرَف اللَّوْزة من غير ركوب عليها،وهو أحد المذاهب فيها .

قال الشيخ أبو القاسم : سألت بعض مشايخى عن" طى " كيف يكون وضع الياء فيها ؟ بحضرة جماعة من الكُتَّاب،فقال : تُكتَب طـاء جيدة بعدها ياء حسـنة، فقلت : الحمـد لله الذى أبقىٰ علىٰ جديد الأرض مَنْ يُحْسِنُ صفة الخط بمثل هـذا الضبط . فلمـا أردت الانصراف أشار إلىّ أن ٱجلسْ فجلست حتّى ٱنصرف القوم، فقـال : قد كنتُ سألتُ عنها شـيخنا أبا الحسن بن هلال فقال لى : إذا فرغت من الطاء فاحذف رأس اليـاء وألصـق قفا الياء بذَنَبِ الطاء، ثم تممها علىٰ مذهبك فى اليـاء أنّى شئتَ، ولا تخرج صدر الياء من تحت رأس الطاء . وعلامة صحتها أنك إذا حذفت لوزة الطاء بقيت فى نهاية الصحة إن كان بعـدها ياء . وإن كان بعدها واو بقيت أيضا فى نهاية الكمال .

قال الشيخ أبو القاسم : فينبغى أن يكون رأسها فى آخر اللوزة، ولا يكون مركبا علىٰ ظهرها لانه إذا تركب بطل هذا القياس .

وأما المحققة : فإنك تبدأ فيها علىٰ صورة اللام المبتدأة المعلقة، ويأتى الكلام علىٰ ذلك فى حرف اللام إن شاء الله تعالىٰ .

وأ كثر ما تستعمل هـذه الطاء إذا كانت مشعَّرة بألف قبلها وألف بعـدها فتستحسن،وهذه صفتها .

متوسطة بين قائمين

وآعلم أنه لا بدّ للطاء من مدّة قبلها تركب عليها، ويكون طرفها ينتهى إلىٰ تحت رأس الطاء من غير زيادة ولا نُقصان، ويجوز فى طَرَف هذه المدّة الجمعُ وعدمه، وكلا المذهبين حسن .

الصورة التاسعة

(صورة العين وأختها، ولها حالان)

الحال الأوّل : أن لاتكون متصلة بما قبلها،وهى علىٰ نوعين : ملَوَّزة، ومركَّبة.

أما الملوزة : فإنك تبدأ فيها من رأس العين بحرف القلم فى غاية الدّقة، حتّٰى إذا وصلت إلىٰ هامتها، مَكَّنت إدارة قلمك فصرت عاملا بوجهه إلىٰ قَمَحْدُوةِ العين فتصير علىٰ صورة اللوزة؛ وتكون هذه العين قبل الهاء المدغمة؛ وهذه صفتها .

ملوزة

وتكون أيضا قبل هاء الردف؛ وهذه صورتها .

ملوزة مع هاء الردف

وأما المركبة : فهى مركبة من راءين محققة ومعلقة ، وآبتداؤها علىٰ ما تقدّم فى الملوزة؛غير أنك إذا صرت إلىٰ هامتها وأدرت القَمَحْدُوَة، نزلت علىٰ خطٍّ مستقيم أو قريب من الآستقامة . والذى وجد بخط الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب علىٰ

الاستقامة ، وهــذه العين لا يكون بعدها إلا حرف طالع كالألف واللام وما جرىٰ مَجْراهما ، وهذه صفتها .

مركبــــة ونعلية

وكثيرٌ من الكُتَّاب يخلطونها مع ما قبلها كالجماعة والبضاعة ، فإنهم يردّون من الألف إلىٰ العين جرّة مبطنة يجعلونها عاليــة العين ، وهى مستحسنة ، ولا بدّ لها من ألف قبلها وحرفٍ طالع بعدها ، وهذه صفتها .

مردوفة ومشكولة

الحال الثــانى : أن يكون قبلها شيء متصل بهــا ، وتســمى المربعة ، وهى علىٰ نوعين : منوّرة ، ومطموسة .

فأما المنوّرة : وتسمّى المحققة ، فإنك إذا خرجت من الحرف الذى قبلها أتبعت خطا محدودبا مبطنا إلىٰ يسارك بصدر القلم ، ثم حررت عالية العين بوجه القلم ثم علىٰ الجرّة الأولىٰ جرة تنــاقضها مثلها فى القــدر والمساحة بقطع الخط الأوّل ، ثم إن كانت معرقة عرقت . وإن كانت غير ذلك اتبعتها مابعدها .

وعلامة صحتها أن تلتمس البياض الذى فى وسطها فإن تناسبت زواياه فهو فى غاية الصحة وقد تم تركيبها، وإلا فتحرر حتّى يصح ما رسم؛ وهذه صفتها .

مربعة مفتوحة

وأما المطموسة ، وتسمّى المعلقة ولا تكون إلا فى قلم التوقيعات والرقاع، فصفتها أن تكون وقصاء غير مفتوحة ، ولا يجوز فيها من العراقات غير المجموعة ، وهذه صورتها .

معلقة مطموسة

ثم إن كانت معرّقة مفردة أو مركبة، فالعراقة على ثلاثة أنواع : مسبلة، ومرسلة، ومجموعة، كعراقات الجيم .

فأما المسبلة : فإنك إذا نزلت من ظهرها أسبلت العراقة فتكون أكثر من نصف الدائرة، ولا يخرج الصدر عن الرأس ولا الظهر عن القَمَحْدُوة، بل يكون كل واحد منهما مساويا لما فوقه، غير زائد عليه ولا ناقص عنه . وكان الوزير أبو علىّ بن مقلة رحمه الله يقول : "المرء على ترك شىء مما يعمله أقدرُ منه على تكلف شىء لم يعتده" ويأمر الطلبة بإخراج ذَنَبِ العين من تحت صدرها ؛ وهذه صورتها .

مفردة مسبلة

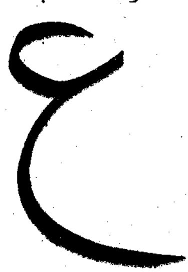

وأما المرسلة : فإنك تأتى بالعراقة نصف دائرة محققة ، ونتأمل فيها من المسامتة ما وصف فى المسبلة والمســبلة تكون حديدة الطرف ، والمرسلة يجوز فيهـا التحديد والوقف ، والتحديد مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب ؛ وهذه صورة التحديد ، وهذه صورة الوقف .

مفردة مرســـلة

وأما المجموعة : فإنها كالمرسلة أيضا فى جميع أوصافها ، وتزيد عليها أنك إذا وَفَّيت بها علىٰ ما مضىٰ من صــفة المرسلة ، رددت ذَنَبها علىٰ عجزها فصارت هنالك دائرةٌ ؛ وهذه صفتها .

مفـــردة مجموعة

الصــــــورة العــاشرة

(صــــورة الفــاء)

وهى علىٰ ضربين : مفردة، ومركبة

فأما المفردة : فعلىٰ ثلاثة أقسام : مجموعة، ومبسوطة، وموقوفة . وقد تقدّم الكلام علىٰ هذه العراقات فى حرف الباء، فأغنىٰ عن إعادته هنا؛ وهذه صفة العراقات الثلاث .

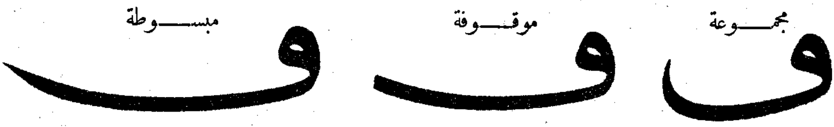

وأما المركبــة : فإنها تكون مقلوبة ، وذلك أن بياضها يكون الحادّ منه فى ملتقىٰ الخطين اللذين يتقاطعان فى ذَهَابها ومجيئها ، و يكون عرضه عند هامتها؛ وهذه صفة المتوسطة .

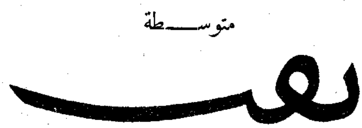

الصـــــــورة الحــادية عشرة

(صـــورة القاف)

وهى علىٰ ضربين أيضا : مفردة، ومركبة

فأما المفردة : فحكم رأسها حكم الفاء، وحكم عراقتها حكم النون، وستأتى، غير أنها تكون مفردة مبسوطة وهى مستحسنة بخلاف النون؛ وهذه صفتها .

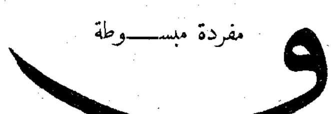

وأما المركبة : فإنها كالفاء فى جميع ما تقدّم، فلا حاجة إلىٰ تمثيلها .

الصـــــورة الثانيـــــة عشرة

(صورة الكاف)

وهى علىٰ ثلاثة أنواع : مبسوطة ، ومشكولة، ومعرّاة ؛

ولكل واحدة منها موضع يخصها

فأما المبسوطة : فتكون مفردة ومركبة، و إفرادها قليل؛ والمركبة منها موضـعها الأبتداءات والوسط،ولا تكون طرفا أخيرا بحال؛وطريقها أن تبدأ فيها بصدر القلم من رأسها حتّىٰ ترد جبهتها فتخط عاليتها بوجه القلم وتفتل علىٰ هذا المنهاج إلىٰ المَطَّة السُّفْلىٰ،وتمطها بصدر القلم وتقط ذنبها؛ وتتوخّىٰ فى عاليتها أن تكون علىٰ خط مستقيم لتجعلها قالبا للطة السفلىٰ؛وآعتبار صحتها باعتبار البياض الذى فى وسطها إذا آستقام آستقامت؛ وهذه صورتها فى الإفراد، والتركيب، والأبتداء .

متوسطة مبسوطة — مبتدأة مبسوطة — مفردة مبسوطة

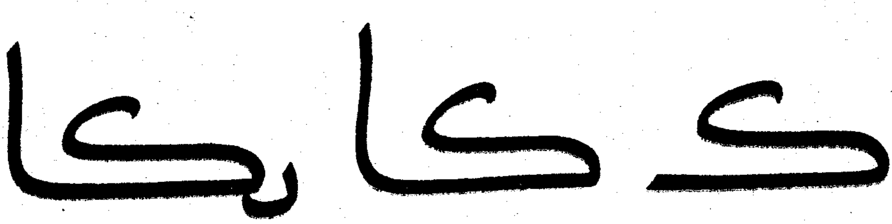

وأما المشكولة: فلا تكون إلا مركبة؛وموضعها الأبتداءات والوسط ،ولا تنفرد البتة؛وتكون علىٰ هيئة شق لوزة فإن وصلت بألف أو لام تبينت ولا يخرج الحرف الذى يكون بعدها من تحت رأسها أصلا لأن الكاف المبسوطة والمشكولة لا يجوز

أن يأتى بعدهما مدّة، وإنما سميت مشكولة للجرّة التى عليها، وهذه صورتها فى الابتداء وفى الوسط .

مبتـــدأة مشكولة متوســـطة مشكولة

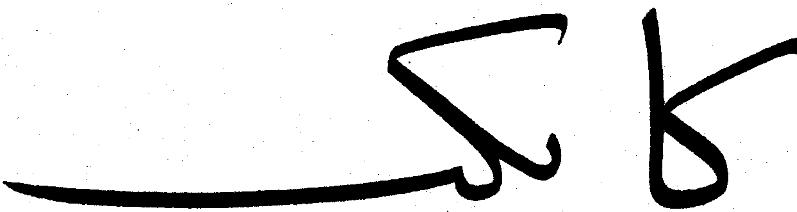

وأما المعرّاة : فلا تكون إلا طَرَفا أخيرا وهى فى الصورة والشبه كاللام المطلقة، والفرق بين اللام والكاف المعرّاة أن القائم من الكاف ثلثا المبسوط، والمبسوط من اللام كالقائم فيها ؛ وهذه الكاف لا تجمع أبدا، فإن مواضعها أواخر السطور، وهذه صفتها .

مفردة معـــراة

الصورة الثالثـــــة عشرة

(صـــــورة اللام)

وهى علىٰ ضربين : مفردةٍ، ومركبةٍ

الضرب الأوّل

المفـــردة

وهى علىٰ نوعين : مجموعة، ومطلقة

فأما المجموعة : فطريقها ان تبدأ من قفاها علىٰ نحو ما وصف فى الألف المطلق لأن الالف واللام يجريان علىٰ نظام واحد فى كل خط لأنهما صاحبان، كالباء والتاء؛ وكالحاء والخاء ؛ وكالعين والغين . فإذا وصلت إلىٰ شاكلته عرقت اللام عراقة أكثر حُدُورا من الباء، وجمعت ذنبها كما تقدّم فى حرف الراء؛ وهذه صفتها .

مجموعـــة

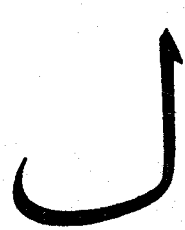

مطلقـــة

الضرب الثاني

المـــركبة

وهى علىٰ قسمين : محققة، ومبتدأة معلقة .

فأما المبتــدأة المحقَّــقة : فهى كالمرسلة غير أنها محذوفة المَطَّة لأجل التركيب ؛ وهذه صفتها .

مبتدأة محققة

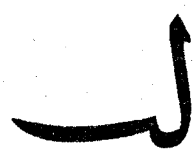

وأما المبتدأة المعلقة : فتنزل فيها بعرض القلم مائلا من يمينك إلىٰ يسارك ، وهى تختص بثلاثة أحرف من سائر الحروف وهى الجيم ، والحاء، والخاء؛ ويكون مبتدؤها يوازى قفا الجيم من غير زيادة ولا إشارة إلىٰ العراقة ؛ وهذه صفتها :

مبتـــدأة معلقة

الصورة الرابعـــــة عشرة

(صـــورة الميم)

وهى علىٰ خمسة أضرب : محققة، ومعلقة، ومسبلة، ومبسوطة، ومفتولة .

الضرب الأوّل

المحققـة

وهى علىٰ نوعين : مبتدأة ، وغير مبتدأة

فأما المحققة المبتدأة : فإنهـا كثيرا ما تصحب اللام، وصفتها إذا أردت[1] وضعها أنك إذا صرت إلىٰ آخر الحرف الذى تريد منه الميم المحققة، تميل فيه يسيرا ثم ترجع بخط آخر بجواره طالعا فيه، ثم تعرّق كتعريق الميم المعلقة، وهذه صفتها .

مبتـــدأة محققة

وكان الشـيخ عمـاد الدين بن العفيف إذا آنتهىٰ من الحرف الذى قبل هـذه الميم، يقف فيه ثم يبدأ من يمينه براء مدغمة، وهذه صفتها .

محققـــة مختتمة

وأما المحقّقة غير المبتدأة:[2] ... ...

---

(١) فى العبارة شيء يظهر للتأمل . (٢) سقط الكلام عليها من النسخة .

الضرب الثـانى

المعلَّقــة

وهى علىٰ نوعين، مبتدأة، وغير مبتدأة

فأما المعلقة المبتدأة : فإنها لاتحسن إلا مشَـعَّرة مع ما قبلها ، ولا تكون إلا قبل الألف، وهذه صفتها .

معلقة مبتـــدأة

وأما المعلقة غير المبتداة: فإنها تختص بالبسملة علىٰ مذهب الحُذَّاقِ.

وطريقها : أنك إذا مططت إلىٰ آخر المطة، رجعت بالميم فى الخط الذى جئت فيه، حتّٰى إذا بلغت هامتهـا فارقت ذلك الخط لئلا تجىء منافرة ؛ فإذا وصلت إلىٰ جبهة الميم، عَرَّقتها علىٰ ما رسم فى الراء المجموعة والمقوّرة والمبسوطة والمخطوفة .

وكان الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب لا يفردها، وهذه صفتها .

معلقـــة مختتمة

وأما المعلَّقة المبتدأة : فإنك تبدأ فيها كابتداء المحققة ، فإذا بلغت فتلتها ألصقت مَدَّتها بقفاها ، والأَوْلىٰ أن تكون مطموسة ، فاذا بلغت جبهتها عَرَّقت كتعريق الراء المُدْغَمة ، لا يستعمل فيها غير ذلك ، وهذه صفتها .

معلقة مبتـــدأة

الضرب الثـالث

المُسْــبَلة

ولا بأس بتركيبها وانفرادها ، غير أنك إذا وصلت إلىٰ جبهتها أسبلت عراقة كهيئة الألف ، مَلْأىٰ من فوقُ ، وتكون حديدة الطرف ، وهذه صفتها .

مفردة مسبلة

مركبـــة

الضرب الرابــــع

المبسوطة

وهى كالمحققة ، وهى مفردة ، وهذه صفتها .

مبســـوطة

الضرب الخامس

المفتـــولة

وأكثر مواضعها بعد الهاء المدغمة على مذهب الحُذَّاق. وبعض الكتّاب يجيزها مع غير الهاء، والأول أجود .

وطريقها أنك إذا جئت بها بعد الهـاء المدغمـة تقوّس بصـدر القـلم ثم تنزل بقدر ما قوّست، ثم تدير الميم عن يمينك وتردُّ إلى يسارك شكلا مدوّرا، وتعرّقها على ماتقدّم فى المعلقة والمحققة؛ وهذه صفتها .

مفتـــولة

الصورة الخامســـة عشرة

(صـــورة النون)

وهى على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأوّل

المفـــردة

وهى على اربعة أنواع : مجموعة، ومقوّرة، ومبسوطة، ومدغمة

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ بوجه القلم على خطٍّ مستقيم . فإذا نزلت منها بمقدار ماينزل من البـاء وبلغت الفتلة، أدرت القلم برفق من الفتلة بصـدر القلم،

ثم تصـير العراقة جمعا بصـدر القلم ، حتىّٰ إذا بلغت ذنبها ختمت بحرف القـلم ؛ وهذه صفتها .

مفردة مجموعة

وأما المقوّرة : فإنها تكون كنصف دائرة ،و يكون ذَنَبها موازيا لرأسها من غير زيادة عليه ؛ و يجوز أن يكون ناقصا عنه شيئا يسيرا ، وذلك قليل ؛ وهذه صفتها .

مفردة مقوّرة

وأما المبسوطة : فأكثر ماتكون متطرّفة ولا تكون مفردة بحال . وطريقها أنك إذا نزلت علىٰ ماوصف فى المجموعة و بلغت بها الفتلة وأدرت صدر القلم إلىٰ العراقة ، جعلتها قِطْعَةَ قَوْسٍ من دائرة عُظْمىٰ ، حتّٰى يكون فيها تبطين يسـير ، وتختمها بحرف القلم ،ولا يجوز فى شىء من مبسوطات العراقة أن يكون مرفوعا ،ولا يجوز أن يكون إلا حديد الطَّرَف ؛ وهذه صفتها :

مفردة مبسوطة

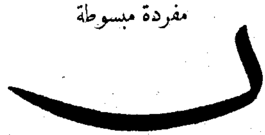

وأما المدغمة : فإنها لاتنفرد البَتَّةَ ، ولاتحسُن إلا مع ثلاثة أحرف ، مع الميم وهى كثيرة المؤاخاة لها ، ومع الكاف ومع العين .

وكان بعض الكُتّاب يأبىٰ إدغام النون و يكرهه ، إلا الأستاذ أبا الحسن بن البوّاب .

ولا يتقدّم هــذه النونَ من سائر الحروف إلا ثلاثةُ أحرف : الميم المعلقة من سائر الميمات ، والعين الملوّزة : وهى الصاديَّة من أشكال العين خاصّة ، والكاف المشكولة من أشكال الكاف خاصّة .

وطريقها أنك إذا بلغت قفا الميم أو صدر العين أو قاعدة الكاف ، صببتَ النون صبًّا فى عَرْض اللام المبتــدأة المعلقة ، فاذا صببتَ ثلثيها ، ختمت العراقة علىٰ مارسم فى الراء المدغمة وعراقة الميم المدغمة ، وهذه صورها :

مدغمة مع الميم — مدغمة مع الكاف — مدغمة مع العين

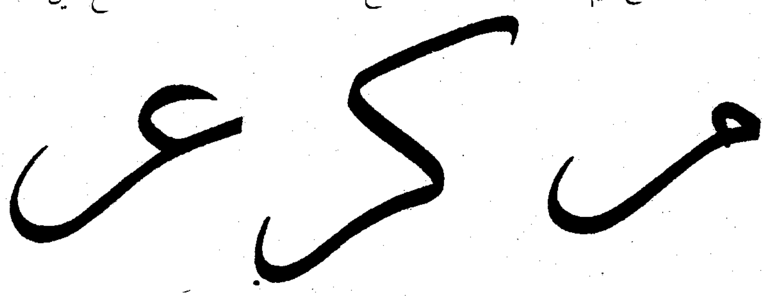

الصورة السادســـةَ عشرةَ
(صـــورة الهـاء)

وهى علىٰ ضربين : مفردةٍ ، ومركبةٍ

الضرب الأوّل
المفـــردة

وهى علىٰ نوعين : معرّاة ، ومركبة

فأما المعرّاة : فطريقها أن تبدأ من رأسها بوجه القلم ثم تنزل إلىٰ عجزها مميلا إلىٰ ذات اليمين شيئا يسيرا ، ثم تفتل إلىٰ قاعدتها بصدر القــلم إلىٰ صدرها ، ثم تصعد بمثل ما كنت آنحدرت به من وجهها إلىٰ قفاها ، وهذه صفتها .

معـــراة

وأما المركبة : فهى فى الصورة قريبة من المُعَرّاة إلىٰ صدرها؛ فاذا بلغتَ صدرها وأنت طالع إلىٰ وجهها، رفعته بعرض القلم وأخرجت وجه الهاء إلىٰ قفاها؛ والكاتب مخير بين التقليل والتكثير فى ذلك. و يكون الطرف الخارج إلىٰ قفاها محـدّدا؛ وهذه صفتها :

مركبــة

و إنمـا سميت مُرَكَّبة و إن كانت مفردة مجازا لتركيب طرفها وإلا فالمراد بالمركَّب كيفما وقع فى المصطلح المختلِطُ بغيره .

الضرب الثـانى

المركبــة

وهى علىٰ قسمين

القســـم الأوّل

المشــقوقة

وهى علىٰ ستة أنواع : ملوّزة، ووجه الهر، ومشقوقة طولا، ومشقوقة عرضا، ومختَلَسة، ومدغَمَة .

فأما الملوّزة : فتكون مبتدأة، ومتوســطة، ولا تتأخر بحـال . فإن كانت مبتدأة فطريقها أن تبدأ بصدر القلم مقدارَ نصف الهاء المفردة، ثم تدير القلم من يسارك إلىٰ يمينك حتّٰى إذا وصلت إلىٰ المكان الذى ٱبتـدأت منه أدرت إلىٰ يمينك أيضا حتّٰى يصير مركز نصف دائرة محققة لطيفة بصدر القلم، وتقف عليها وقفة خفيفة، ثم تنزل بوجه القلم من غير إدارة حتّٰى تصير إلىٰ المكان الذى ٱبتدأتَ منه أوّلا، فيصير رأس الهاء حادّا فى الغاية .

ومذهب الأستاذ أبي الحسن أن يكون النصف الأعلى أصغر من النصف الأسفل بجزء يسير ، وهذه صفتها .

مقـــورة

وإن كانت متوسطة : فهى غير مستحسنة إلا قبل الألف ، وطريقها على ماتقدّم ولها حكم : وهو أنك تجىء بالخط الذى قبلها حتّى يشقها متصلا بالألف ، حتّى لو طرحتَ الهاء لاتصل الألف بمـا قبله مستغنيا عن الهاء كأنما ركبت من فوقه تركيبا ، ويكون هذا العمل فى كل حرف يقع معها ، وهذه صفتها .

مقورة مســـتديرة

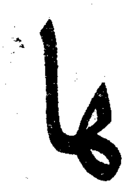

وأما وجه الهر : فتكون أيضا مبتدأة ، ومتوسطة ، ولا يجوز تأخيرها . وطريقها فى الابتداء والتوسط أنك تبدأ من رأسها بوجه القلم معتدل النزول شيئا قليلا ، ثم تردّها عن يمينك إلى يسارك صاعدة معتدلة ، ثم يصير جميعها دائرة على مركزين ، فإذا بلغت المكان الذى ابتدأت منه تكفَفتها طولا حذارا من أن يقع فيها حَوَلٌ ، وهو أن يكون أحد شقيها أوسعَ من الآخر . وكثيرا مايكون شقها بحرف القلم إذا كانت متوسطة .

فإن كانت مبتدأة فشقها بوجه القلم .

وهذه صورتها فى الابتداء

وجه الهـــــر

وهذه صورتها فى التوسط

وجه الهر متوسطة

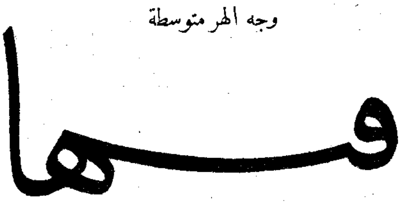

وأما المشقوقة طولا : فإنها لاتكون إلا متوسطة ، ولا يجوز تقديمها ولا تأخيرها ، ولا تصـحب من حروف المعجم غير اللام وحدها ، وطريقها كطريق وجه الهر ، ويفترقان فى القاعدة فتكون قاعدتها مستديرة ، وتكون اللام نازلة عليها من فوقها ، وعلامة صحتها أنك إذا حذفت الهاء صارت اللام متصلة بما بعـدها كأنما زيدت الهاء عليها ، وهذه صفتها .

مشـــــقوقة طولا

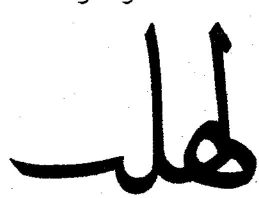

وأما المشقوقة عرضا : فلا تكون إلا صحبة اللام أيضا ، وطريقها أنك إذا نزلت باللام معتدلة ، أدرت الهاء فَاَصِقتها بوجه اللام وشققت الهاء عرضا ، ولا بدّ من مدّة لطيفة تكون بعدها ، وهذه صفتها .

مشـــــقوقة عرضا

وأما المختَلَسة: فإنها لا تكون إلا مبتدأة، ويكون بعدها من الحروف حروف المدّ واللين: وهى الألف، والواو، والياء؛ وهى مطموسة؛ وهذه صفتها .

مختلســـة

وأما المدغمة: فلا تكون إلا متوسطة؛ وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها أدرت منه إدارة لطيفة، ونزلت بها نزلة إلىٰ ذات اليمين، ثم صَعِدت فى خط يلاصق الخط الذى هبطت فيــه من غير وخز يكون بينهما؛ وتكون مطموسة أيضا ولا يكون أسفلها أوسع من أعلاها بل يكون أعلاها أوسع شيئا يسيرا؛ ويتوخّى فيها الترطيب: وهو شــدّة الاستدارات، فمتىٰ كان العمل فيهـا يابسا كان رديئا؛ وهذه صورتها :

مدغمـــة

القســـــم الثـانى

ما يقع فى آخر الكلمة وهى علىٰ نوعين

هاء الرِّدْف، والمُخْفَاة

فأما هاء الردف : فطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها طَلَعْت فيه بصدر القلم، ثم نزلتَ فى الخط الذى صعِدتَ فيه .

هذا مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب .

ومذهب الوزير أبى علىّ بن مقلة أن تنزل فى خط يلاصق الخط الذى صَعِدت فيه ، وكلاهما مستحسن؛ فاذا بلغت ثلثى ماصعدت به جئت بصدر القلم إلىٰ وجه الهاء ولا تخرج رأسها إلىٰ قفاها البتة؛ وهذه صفتها :

مردوفـــة

وأما المُخْفاة: فأكثر ماتصحب الحروفُ القِصَار ، وهى يمين أليق؛ وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها أدرت منه إلىٰ الهـاء إدارة لطيفة مهلَّلة، ثم تأتى بنصف راء مدغمة حديدة الطَّرَف مخطوفة؛ وهذه صفتها :

مخطـــوفة

الصورة السابعـــــة عشرة

(صـــــورة الواو)

ونظيرها فى التركيب الفاء، وفى الإفراد القاف، لكن القاف أكبر مساحة من الواو، وتكون علىٰ خمسة أنواع : مجموعة، ومبسوطة، ومقوّرة، وبتراء، ومخطوفة؛ ويكون ذلك فى الإفراد والتركيب .

وكان بعض الكُتَّاب يجعلها معلقة كالراء المدغمة لأنها قدرها . وقد تقدّم أن الراء والزاى، والميم، والواو قدر سواء فى كل خط .

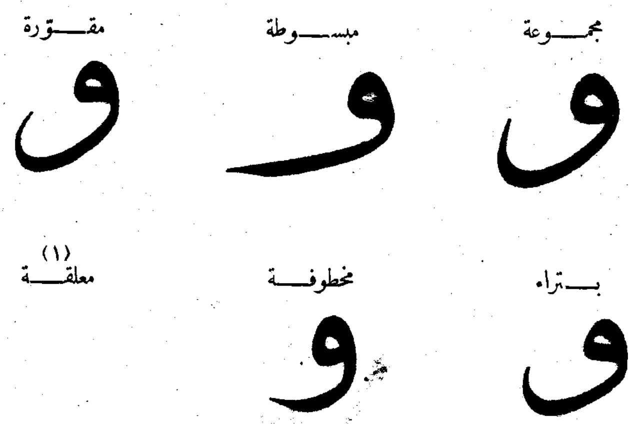

الصـــــورة الثـامنة عشرة

(صورة اللام ألف)

ولها ثلاث صور : محققة، ومخففة، ووراقية

فأما المحققة : فلا تكون إلا مفـردة ولا يجوز تركيبها بحال ؛ وطريقها أن تبـدأ بوجه القلم ثم تنزل به علىٰ تلك الصورة، ثم تفتل إلىٰ قاعدتها بوجه القلم، ثم ترفع القلم

---

(١) لم يضع لهـا رسمـا فى الأصل .

وقد بَطَّنْتَ قلمك فصيرت بطنه ممـا يلى يمينك وظهره عن يسارك، ويكون قدر الألف واللام قدرا سواء فى الطول والالتواء والغِلَظ والنَّحافة، ويكون ما بينهما كواحد منهما، وتكون القاعدة على هيئة رأس الفاء المبسوطة لكنها مقلوبة، وهذه صورتها :

محققة مفـــردة

وأما المخففة : فيجوز فيها التركيب والإفراد وكلاهما مستحْسَن جيد . وصورتها فى التركيب كصورتها فى الإفراد، وطريقها أن تأتى بلام معلَّقة على ماتقدّم فى اللام المعلقة فى حرف اللام، ثم ترمى عليها ألفا مُعْوَجَّةً إلى ذات اليمين ويكون ذنب الألف موزونا على الخط الذى لا مست به الحرف الذى قبل اللام إن كانت مركبة ؛ وهذه صفتها :

محففة مركبـــة

وإن لم تكن مركبة فتشعرهما معا، وهذه صورتها فى الإفراد :

وأما الوراقيـــة : فإنها كالمحققة ، فإذا كتبت اللام ركبت عليها الألف وأخرجتها عنها، ثم صيرت لها منها قاعدة مثلثة حادّة الزوايا، والأولى أن تكون مفردة .

قال الشيـخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : ولايكون هذا الشكل إلا فى قلم النسخ وما شاكله وفى قلم المحقق وماشابهه؛ وهذه صفتها :

وراقيــة

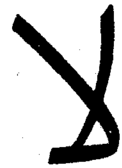

الصورة التاســـعة عشرة

(صـــورة اليـاء)

وهى على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأوّل

المفـــردة

وهى على ثلاثة أنواع : مجموعة، ومقوّرة، ومبسوطة

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ بصدر القلم فتعمل رأسها دالا مقلوبة وصدرها أيضـا دالا مسـتوية ،فإذا تركبت الدالان جررت العراقة؛وعلامة صحتها أن تكون الدالان صحيحتين كما تقـدّم . وإذا ركبت خطا من ذنبها إلى صـدرها، صار صادا جيدة؛ وهذه صفتها :

مفـــردة مجموعة

وأما المقوّرة : فبـــدؤها كبدء المجموعة ، غير أنك إذا وصلت إلىٰ صدرها عرقت نصف دائرة ، ويكون ذنبها يحاذى صدرها ، وتكون حديدة الطرف ، ولا يجوز فيها الوقف ولا الجمع ، ويكون رأسها موزونا علىٰ صدرها ، لا يجاوزها ، سواء آنفردت أو تركبت ، وهذه صورتها :

مقـــوّرة

وأما المبســوطة : فعلىٰ ما تقدّم فى المقوّرة ، وتفارقها من الصدر فتكون العراقة قطعة قوس مهلّلة ، وتكون حديدة الطرف ولايجوز فيها الوقف ، وهذه صورتها :

مبســـــوطة

الضرب الثـانى

المركبـــة

وهى علىٰ ثلاثة أنواع : مبتدأة ، ومتوسطة ، ومتأخرة

فأما المبتدأة والمتوسطة : فحكمهما حكم الباء ، والتاء ، والنون ، وماشابهها .

وأما المتأخرة : فعلىٰ ثلاث صور ، محققة ، وراجعة ، ومعلقة .

فأما المحققة : فعلىٰ ماتقدّم أوّلا ، غير أنك تحذف رأسها للتركيب ، وهذه صورتها :

محققـــة

وأماالراجعة : فتختصُّ ببعض الكلم دون بعض : كالفاء ، واللام ، وهى مع الفاء أكثر آستعمالا .

وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها بطنته شيئا يسيرا وجئت برأس كرأس الياء ، ويكون فيها شيء من تبطين ، ثم تجر القلم إلىٰ ذات اليمين جرّة معتدلة فى التكييف ، فاذا بلغت ثلاثة أرباعها أدرت القـلم برفق ، ولا تظهر الإدارة ، ثم تمرّ وأنت مديرٌ لقلمك حتّٰى تختمها بحرف القلم فى نهاية الدقة والتحديد ، وهذه صورتها :

راجعـــة

واما المعلقة : فتكون علىٰ صورة اللام المجموعة واللام المرسلة ، وهذه صفتها :

معلقـــة

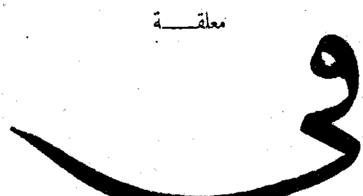

النـــــــوع الثـانى

قلم الثلث الخفيف

ويقال فيه خفيف الثلث ،وهو الذى يكتب به فى قَطْع النصف ،وصُوَرُه كصُوَر الثلث الثقيل المتقـدّمة الذكر لاتختلف ، إلا أنه أدق منه قليلا وألطف مقادير منه بنزر يسير .

قال الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ : والفرق بينه وبين الثلث الثقيل أن الثقيـل تكون منتصباته ومبسوطاته قدر سَبْع نُقَط علىٰ ما فى قلمه ،علىٰ ماتقدّم ، والثلث الخفيف يكون مقدار ذلك منـه خمس نقط . فإن نقص عن ذلك قليلا ، سمى القلم اللؤلؤىّ .

القـــــــلم الرابع

قـــلم التوقيع

بإضافة قلم إلىٰ التوقيع ،سمى بذلك لأن الخلفاء والوزراء كانت توقع به علىٰ ظهور القِصَص ،ويقال فيه قلم التوقيعات علىٰ الجمع أيضا ،وقد يقال فيه التوقيع والتوقيعات بحذف المضاف إليه . ثم هو علىٰ نوعين .

النـــــــوع الأوّل

قلم التوقيع المطلق

وهو الذى يكتب به فى قَطْع الثلث ،وقد تقدّم أن أوّل من آخترعه يوسُف أخو إبراهيم الشجرىّ ،وأن ذا الرياستين : الفضلَ بن هارون أُعْجِب به ،وأمر أن تحرّر الكتابة السلطانية به دون غيره وسماه القلم الرياسىّ ، ولعله إنمـا سمى الرياسىّ لمـا تقدم من آختصاص الكتب السلطانيــة به أخذا من الرياســة ؛ وقواعد حروفه وأوضـاعُه فى الأصل قواعد قلم الثلث إلا أنه يخالفه فى أمور .

أحدها ـ أن قَطَّته إلىٰ التدوير أميل، بخلاف الثلث فإن قَطَّته إلىٰ التحريف أميل . وذلك أن التوقيع آمتلاء حروفه علىٰ السواء بخلاف الثلث، فإن فيه تشعيرات تحتاج إلىٰ التحريف .

الثانى ـ أن حروفه إلىٰ التقوير أميل من الثلث، وإن كان فى الثلث ميل إلىٰ التقوير فإنه لايبلغ فى ذلك مبلغ التوقيع .

قال لى الشيخ عبد الرحمن المُكَتِّب(١) الشهير بابن الصائغ : ويكون فى سطره تقوير مّا علىٰ نسبة تقوير حروفه .

قال الشيخ زين الدين شعبان فى ألفيته : وتكون منتصباته مروّسة كما فى الثلث .

قال لى الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ المُكَتِّب : ويجوز ترك الترويس فى بعض حروفه .

قال الشيخ زين الدين شعبان الآثارى : ويخيَّر فيه بين الطمس والفتح فى العين المتوسطة، والفاء، والقاف، والميم ، والواو، وعقدة اللام ألف المحققة . وخص الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ طمس العين بالآخرة .

قال الشيخ زين الدين شعبان الآثارى : ويختص من الحروف الزائدة علىٰ الثلث، بالراء المقورة، والراء البتراء، والراء المخطوفة، والواو المقورة، والواو البتراء، والواو المخطوفة ، والعين البتراء ؛ وسيأتى ذكرها عند تشكيل الحروف فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) قال فى الصحاح للجوهرى : والمُكْتِب الذى يعلم الكتابة ، قال الحسن : كان الحجاج مُكْتِبا بالطائف يعنى معلما . وفى المصباح كتبت الغلام تكتيبا علمته الكتابة . [ففيه لغتان] .

حرف الألف

مطـــلق مشـــعر محـــرّف مركب

البـاء

مجمـــوعة موقـــوفة مبســـوطة

مدغمة مجموعة مدغمة مبسوطة مركبة مبتدأة . مركبة متوسطة

مركبـــة موقوفة مركبـــة مبسوطة

الجيم

مرسلة — مسبلة — مجموعة

رتقاء مفردة مرسلة — رتقاء مقوّرة مسبلة — رتقاء مفردة مجموعة

مركبة مبتدأة ملوزة — رتقاء مبتدأة — مركبة متوسطة

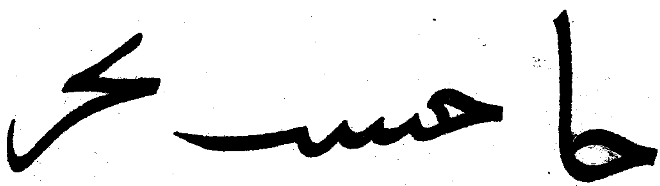

مركبة مختتمة مرسلة — مركبة مسبلة — مجموعة

الدال

مفردة مجموعة — مختلســـــة — مركبة مجموعة

مركبة مختلسة — مركبة مخطوفة — مركبة مشعرة

الراء

مقـــورة — مخطـــوفة — مفردة مبسوطة

مفردة مدغمة — مركبة مبسوطة — مركبة مدغمة

مفردة مجموعة — مركبة مجموعة

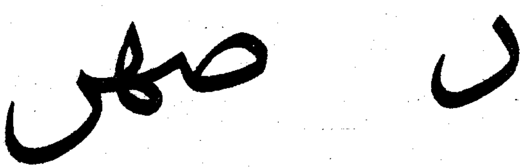

السين

مخسوفة   مجموعة   مبسوطة

س س س

مبتدأة مركبة   متوسطة   مخسوفة

سا حس عس

مطرفة مبسوطة   مطرفة مجموعة   مفردة معلقة

عس عس س

مركبة مطرفة معلقة   مركبة متوسطة معلقة

عس حسا

الصـاد

مخســوفة مجمــوعة مبســوطة

مبتــدأة متوســطة مطرفة مخسوفة

مطرّفة مجمــوعة مطرفة مبســوطة

الطـاء

مفــردة مرسلة مفــردة موقوفة مركبــة ملفوفة

مبتدأة مبسوطة — متوسطة لقائمين — متوسطة لمبسوطين

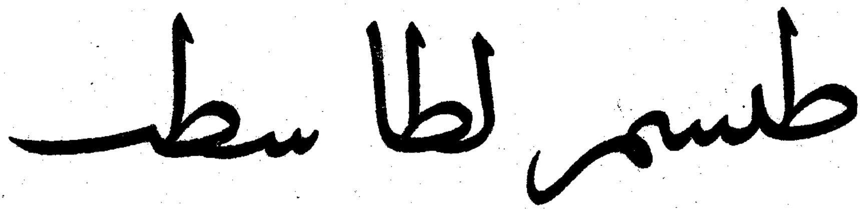

مطرفة موقوفة — مطرفة مرسلة

العين

مرسلة — مسبلة — مجموعة — نعلية بينها منتصب

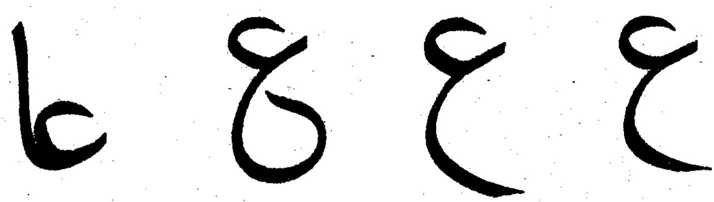

نعلية بينها ما هو فى حكم المنتصب — صادية بينها مبسوط — صادية بينها ما هو فى حكم المبسوط

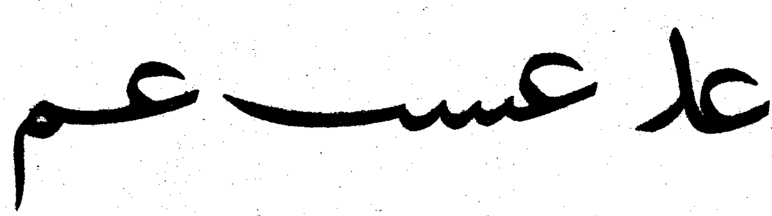

مولفة مع الإفراد | مولفة مع التركيب | بـــتراء

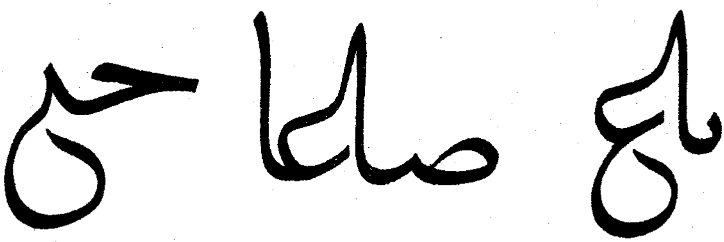

الفاء

مجمـــوعة | موقـــوفة | مبســـوطة

مبتـــدأة | متوســـطة | متطرفة مجموعة

مطرفة موقوفة | مطرفة مبسوطة

القــاف

مفردة مجوعة — مخســـوفة — مبســـوطة

مطرفة مجموعة — مطرفة مخسوفة — مطرفة مبسوطة

الكاف

مجموعة مفردة — موقـــوفة — مبســـوطة

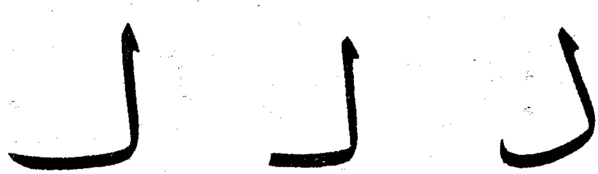

مشكولة مبتدأة — متوســـطة — مبسوطة مبتدأة

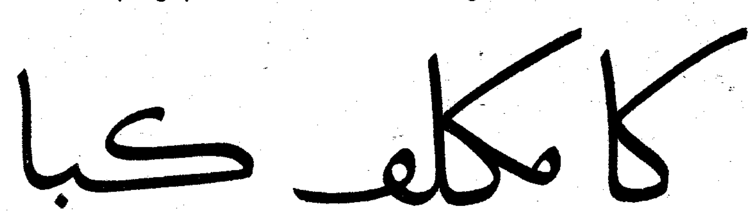

متوسـطة   مشكولة مبتدأة   وسـطى

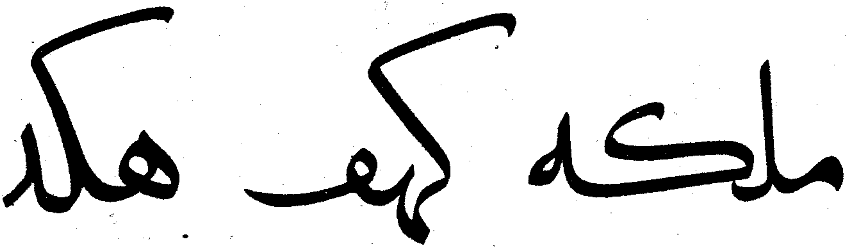

مشكولة مركبة   مطرفة مجموعة بزورقها   منزول عليها   مبسـوطة

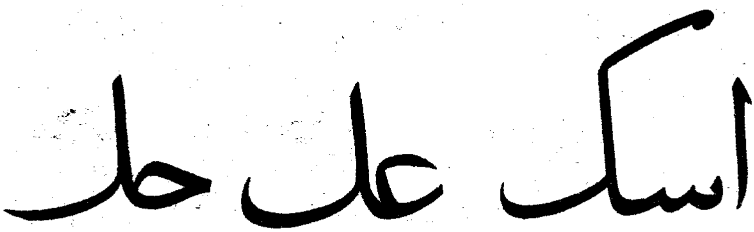

اللام

مفـردة   يخرج منها نون على رأى ابن البوّاب   يخرج منها قاف على طريقة ياقوت

أو ياء على طريقة ابن العفيف   مركبة مبتدأة   وسـطى   مطـرفة

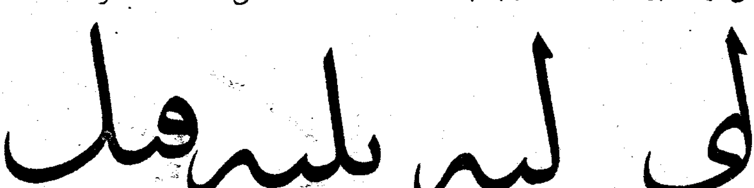

المـــيم

مفـــردة مخطـــوفة مســـبلة مبتدأة مشعرة

وسطى مقلوبة وسطى محققة مسبلة ملفوفة مسبلة ملوّزة

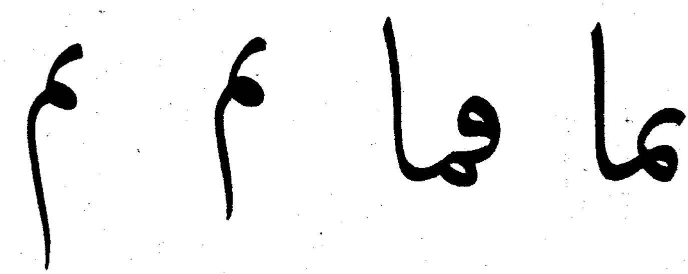

النون

مفردة مجموعة مدغمـــة مختلســـة وســـطى

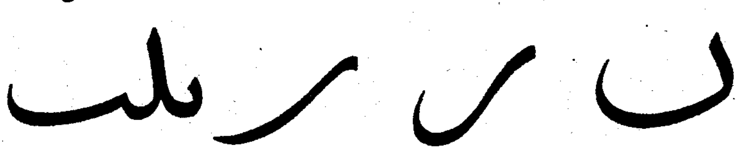

مركبة مطرفة مجموعة مدغمـــة مختلســـة

الهـاء

مفردة مربعة — مفردة مثلثة — مركبة مبتدأة ملوزة

وجه الهر — مدغمـــة — طالعـــة

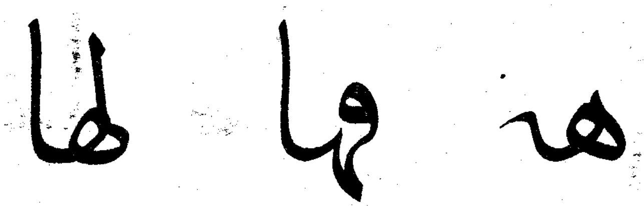

مخطوفة — محدودبة — محققة — مردوفة

الـــــواو

مجموعة مشدودة   مبسوطة مشدودة   مجموعة مفتوحة   مبسوطة مفتوحة

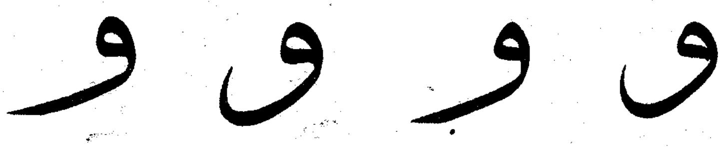

مقـــورة   مخلوفة منوّرة   بـــتراء

اللام الف

محققة مفردة   مرشوقة مفردة   مركبة محققة

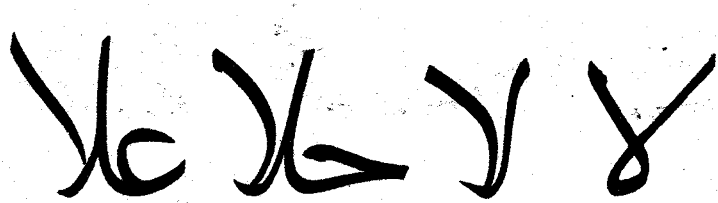

اليــاء

مفردة مجموعة — مركبــة — راجعــة

مبتدأة ثم وسطى — مركبة مجموعة — مركبة مبسوطة

مركبة راجعة — مركبة مخسوفة — مركبة مبسوطة

القـــــلم الخـامس

من الأقلام المستعملة بديوان الإنشاء

قــلم الرِّقَاع

بإضافة قلم إلىٰ الرقاع ،والمعنىٰ أنه يُكْتَبُ به فى الرِّقَاع جمع رُقْعَةٍ ، والمراد الورقة الصـغيرة التى تكتب فيها المكاتبـات اللطيفة والقِصَص وما فى معناها ،وهو الذى يكتب به فى قَطْع العادة من المنصورى والقطع الصغير ، وصُوَره فى الأصل كصُوَر حروف الثلث والرِّقَاع(١) فى الإفراد والتركيب إلا أنه يخالفه فى أمور :

أحدها ــ أن قلمه أميل إلىٰ التدوير من قلم التوقيع الذى هو أميل إلىٰ التدوير من قلم الثلث .

قال لى الشـيخ عبد الرحمن بن الصائغ المُكَتِّبُ : وتكون جِلْفَـةُ قلمه فى البِرَاية أقصر من الثلث والتوقيع .

الثـانى ــ أن حروفه تكون أدقَّ وألطف من حروف التوقيع .

الثالث ــ أن الترويس لايقع فى منتصـباته من الألف المفردة وأخواتهـا إلا فى القليل ، بخلاف الثلث والتوقيع فإن الترويس فيهما لازم .

الرابع ــ أنه يغلب فيه الطمس فى العين المتوسـطة والأخيرة ، وكذلك الفاء ، والقاف ، والميم ، والواو ، وعقدة اللام ألف المحققة . أما الصاد والطاءُ والعين المفردة والمبتدأة فإنها لاتكون الا مفتوحة .

الخامس ــ أنه يوجد فيه من الحروف ما لا يوجد فى غيره كالألف الممـالة إلىٰ جهة اليمين علىٰ ماسيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعل الصواب . والتوقيع .

وهـــذه صورة حروفه إفرادا وتركيبا

الألف

مطـــلق مشـــعر محـــرّف طالــــع

البــاء

مجمـــوعة مدغمة مفردة مدغمة مبسوطة مفردة موقوفة

مبتدأة . وسطى . مطرفة مطرفة موقوفة مطرفة مبسوطة

الجـــيم

مفردة مرسلة　مفردة مسبلة　مفردة مجموعة

رتقاء مرسلة　رتقاء مجموعة　رتقاء مسبلة

مبتـــدأة　وســـطى　وسطى مفتوحة

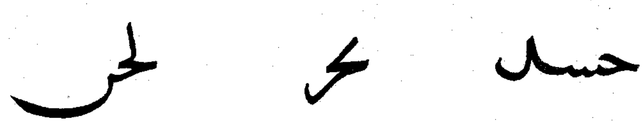

مطرفة مرسلة　مطرفة مسبلة　مطرفة مجموعة

الدال

مفردة مجموعة	مختلســـة	مخطـــوفة	مشـــعرة
د	د	د	هد

مركبة مجموعة	مختلســـة	مخطـــوفة
مد	عد	مد

الـــراء

مجمـــوعة	مقـــورة	مخطـــوفة	بـــتراء
ر	ر	ر	ر

محققـــة	مدغمـــة	مقطـــوفة
ر	ر	ر

السين

مجموعة معلقة مخسوفة

مبسوطة مبتدأة متوسطة

مطرفة مجموعة مبسوطة مخسوفة معلقة

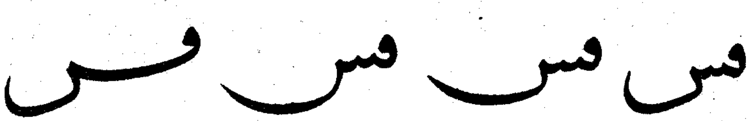

الصـــاد

مجمـــوعة

مبســـوطة

مخســـوفة

أولى مركبة

وسطى مركبة

مطرفة مجموعة

مطرفة مبسوطة

مطرّفة مخسوفة

الطاء

مرسلة	موقوفة	مبتدأة
ط	ط	طا
متوسطة	**مطرفة مرسلة**	**مطرفة موقوفة**
حط	حط	عط

العين

مرسلة	مسبلة	مجموعة
ع	ع	ع
مبتدأة نعلية	**مبتدأة صادية**	**متوسطة**
عا	عـــ	بعد
مطرفة مرسلة	**مطرفة مسبلة**	**مطرفة مجموعة**
مع	مع	مع

الفـــــاء

مجمـــوعة

موقـــوفة

مبســـــوطة

أولىٰ مركبة

وســـــطىٰ

مطرفة مجموعة

مطرفة موقوفة

مطرفة مبسوطة

القـــاف

مفردة مجموعة — مخســـوفة — مبســـوطة — مبتـــدأة

متوســـطة — مطرفة مجموعة — مطرفة مخسوفة — مبســـوطة

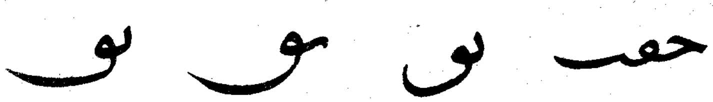

الـــكاف

مجمـــوعة — موقـــوفة — مبســـوطة — أولى مشكولة

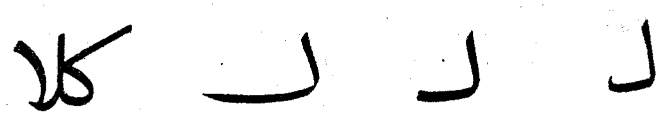

وسطى مشكولة — مركبة مجموعة

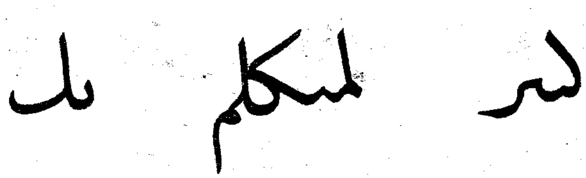

مركبة موقوفة — مركبة مقورة — أولىٰ مبسوطة

وسطىٰ مبسوطة — مشكولة موصولة — مشكولة مفصولة

اللام

مفردة مجموعة — موقـــوفة — مبســـوطة — مبتـــدأة

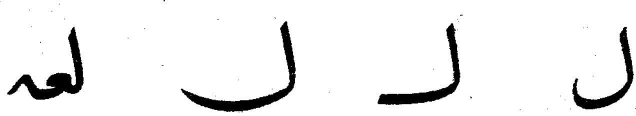

متوســـطة — مجموعة مركبة — مبســـوطة — موقـــوفة

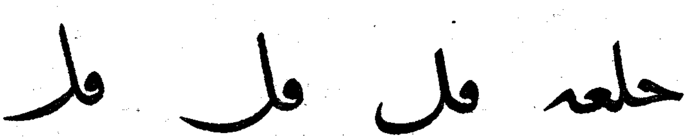

الميم

مفردة معلقة — مخطــوفة — مســبلة — مبتدأة مركبة

وسطى مركبة — مطارفة معلقة — مركبة مسبلة — مختتمة محققة

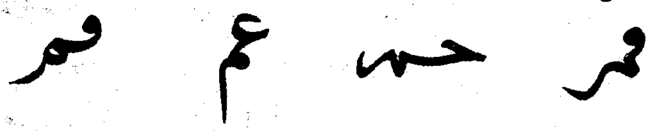

النون

مجمــوعة — مدغمة مجموعة — مدغمة مبسوطة

مبســوطة — مخســوفة — أولى . وسطى

مجموعة مركبة — مبسوطة مركبة — مخسوفة مركبة

الهـــــاء

مدغمـــة	وجه الهر	مدوّرة	مربعـــة

محدودبة	مشقوقة طولا	ملـــوّزة	مشقوقة عرضا

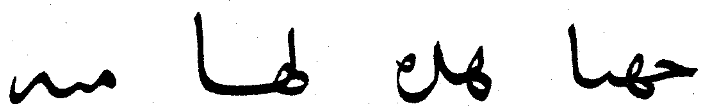

مختلســة	مختطفــة	محققــة

الـــــواو

مبسوطة مركبة	مجموعة مركبة	مبسوطة مفردة	مجموعة مفردة

اللام ألف

محققة مفردة — مفـــردة — محققة مركبة — مرفـــلة

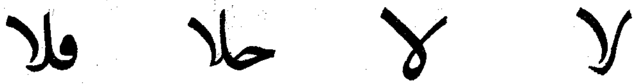

اليـاء

مجموعة مفردة — مخســـوفة — راجعـــة — مبتدأه ، وسطى

مجموعة مركبة — مخسوفة مركبة — راجعة مركبة مختتمة

القـــلم السـادس (١)

قـلم الغُبَارِ

سمى بذلك لدقته، كأن النظر يضعُف عن رؤيته لدقتـه كما يضعُف عن رؤية الشيء عند ثَوَرَانِ الغُبَار وتغطيته له، وهو الذى يكتب به فى القطع الصغير من ورق الطير وغيره .

وبه تكتب بطائق الحمام التى تحمل علىٰ أجنحتها فى ورق الطير. وبعضهم يسميه قلم الجَنَاح لذلك، وهو قلم ضئيل مولَّد من الرقاع والنسخ، مُفَتَّح العُقَدِ من غير ترويس فيه، وينبغى أن تكون قَطَّته مائلة إلىٰ التدوير لتفرّعه عن الرقاع والنسخ .

وهذه صورة حروفه إفرادا وتركيبا :

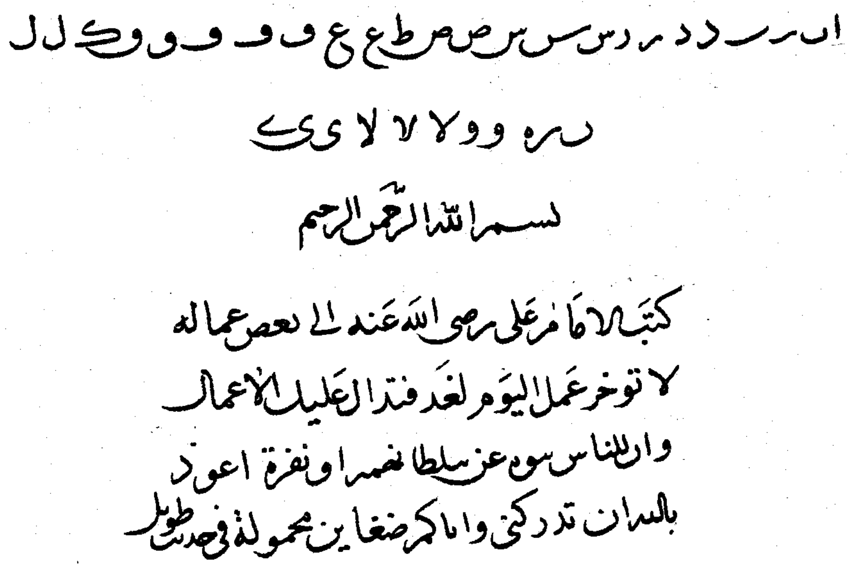

(١) هو فى الحقيقة سابع لتكلمه علىٰ خفيف الثلث فيما سبق فى الكلام علىٰ قلم الثلث حيث قسمه الىٰ نوعين : ثقيل وخفيف . فلم يترك من الأقلام شيئا كما قد يتوهم .

وهذه الصورة المصطلح عليها الآن : (وقد أجازوا فيها الفتح والطمس جميعا)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي
قال الإمام أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه
المعروف قروض والأيام دول ومن توانى
عن نفسه ضاع ومن قاهر الحق قهر والسلام

الجملة السابعة
(فى كتابة البسملة)

و بيان صورتها فى كل قلم من الأقلام المستعملة فى ديوان الإنشاء؛ وفيها مَهْيَعان

المَهْيع الأوّل

(فى ذكر قواعدَ جامعةٍ للبسملة فى جميع الأقلام؛وتشتمل علىٰ ثمانِ قواعدَ)

الأولىٰ ــ قد اتفق الكُتّابُ علىٰ تطويل باء البسملة أكثرَ مما يطوّل به غيرها من الباءات التى فى أوّل الكلمة . وسيأتى فى الكلام علىٰ البسملة فى المقالة الثالثة أنها طوّلت بدلا من الألف المحذوفة بينها وبين السين لكثرة تَكْرارها . وقد ذكر بعضُ المصنِّفين فى الخط أنها تكون بمقدار ثُلُثَىْ ألِف ذلك الخطّ .

وقد سبق القول علىٰ مقدار ألِف كلّ قلم فيما تقدّم؛ وهذا أصل يترتب عليه غيره .

الثانيــة ــ فى البسملة خمسُ أخوات متساويات فى الطول والانتصاب، وهى : ألفُ الجلالة، والألف واللام من الرحمن ، والألف واللام من الرحيم؛ فكلُّها علىٰ مقدار واحد، وقد سبق .

الثالثة ــ فيها أربع أخوات متساويات فى الإرسال: وهى إرسالةُ الميم من بسم وإرسالة الراء من الرحمن، وإرسالة الراء من الرحيم، وإرسالة الميم من الرحيم .

الرابعة ــ فيها أربع أخَوات متساويات فى الضَّوْء : وهى الميم من بسم، والهاء من الجَلالة، والميم من الرحمن، والميم من الرحيم .

الخامسة ــ فيها أختان متناسبتان فى المقدار : وهما الحاء من الرحمن ، والحاء من الرحيم .

السادسة ــ أن لامات الجلالة تكون موازيةً من أعلاها للباء فى أول البسملة إلا أن اللام الثانية من لامات الجلالة تكون أخفضَ من اللام الأولىٰ بيسير .

قال ابن عبد السلام فى الميزان : بحيث لايُدْرَك ذلك إلا بتأمل . والذى ذكره الشيخ زينُ الدين الآثارى أنها تكون ناقصة عنها بقدر نُقْطة (يعنى من نُقَط قلم كتابتها) وتكون الهاء أخفض من اللام الثانيةِ مثل ذلك .

السابعة ــ أن يكون بين الباء والسين قدرُ رُبُعِ ألِفٍ من ألفات ذلك الخط، وتكون أسنان السين منها محدّدةَ الأطراف، ويكون الأخذ من كل سِنٍّ من أسنان السين من أعلاها آخذا فيها إلىٰ أسفل مع التساوى من الأعلىٰ وكذا من الأسفل، بحيث إنه إذا خُطَّ خطٌّ من أسفل الباء إلىٰ آخر السين لاصق بهما ووقع علىٰ الاستقامة، ثم يأخذ فى مدّ السين من أعلىٰ السنة الأخيرة منها، وتكون أصابعه مقدّمة وكُلْوة يده مؤخَّرةً .

الثامنة ــ أن يكون البسط بين اللام الأولىٰ والثانية منخسفا لامستويا، وكذلك ما بين اللام الثانية والهاء .

المهيع الثانى

(فى بيان صورة البسملة فى كل قلم من الأقلام التى تستعمل فى ديوان الإنشاء)

قد تقدّم أن الأقلام التى تستعمل فى ديوان الإنشاء مما يكتب به كُتَّابُه ستةُ أقلام وهى : مختَصَرُ الطومار، وقلم الثلث الثقيل والخفيف ، وقلم التوقيعات، وقلم الرِّقاع، وقلم الغُبَار، إلا أن المحقَّق لا بسملةَ له فى ديوان الإنشاء : لأنه إنما يستعمل فى كتابة طغراة كتاب على ما تقدّم ذكره، ولا بَسملة للطغراة .

اللهم إلا أن يكتب مختصر الطُّومار على طريقة المحقَّق فتكتب البسملة فيه على طريقة المحقق، بخلاف قلم الغُبار فإنه يكتَبُ به فى المَلَطَّفات فيُحتاج إلى البسملة وإن لم يحتج إليها فى البطائق .

ولتعلم أن صورة البسملة فى هذه الأقلام تختلف ما بين صورة واحدة لكل قلم فأكثر . وقد ذكر صاحب العناية الربانية صُوَرا من ذلك : وأنا أوردها على الترّتيب إن شاء الله تعالى .

فأما بسملة قلم مختصر الطومار، فقد تقدّم أن طريقته طريقة الطُّومار، وأن الطُّومار تارةً يُكْتَب على طريقة المحقَّق وهو الأكثر، وتارةً يُكْتَب على طريقة الثلث، وعليه عمل كُتَّاب الإنشاء، وربما عملوا على طريقة المحقَّق ؛ وحينئذ فإن كان المكتوب على طريقة المحقَّق فبسملته على طريقة المحقق مع آمتلاء قلمه على حَدِّ قلم مختصر الطومار على ما تقدّم بيانه .

وهـــذه صورة بســـملته

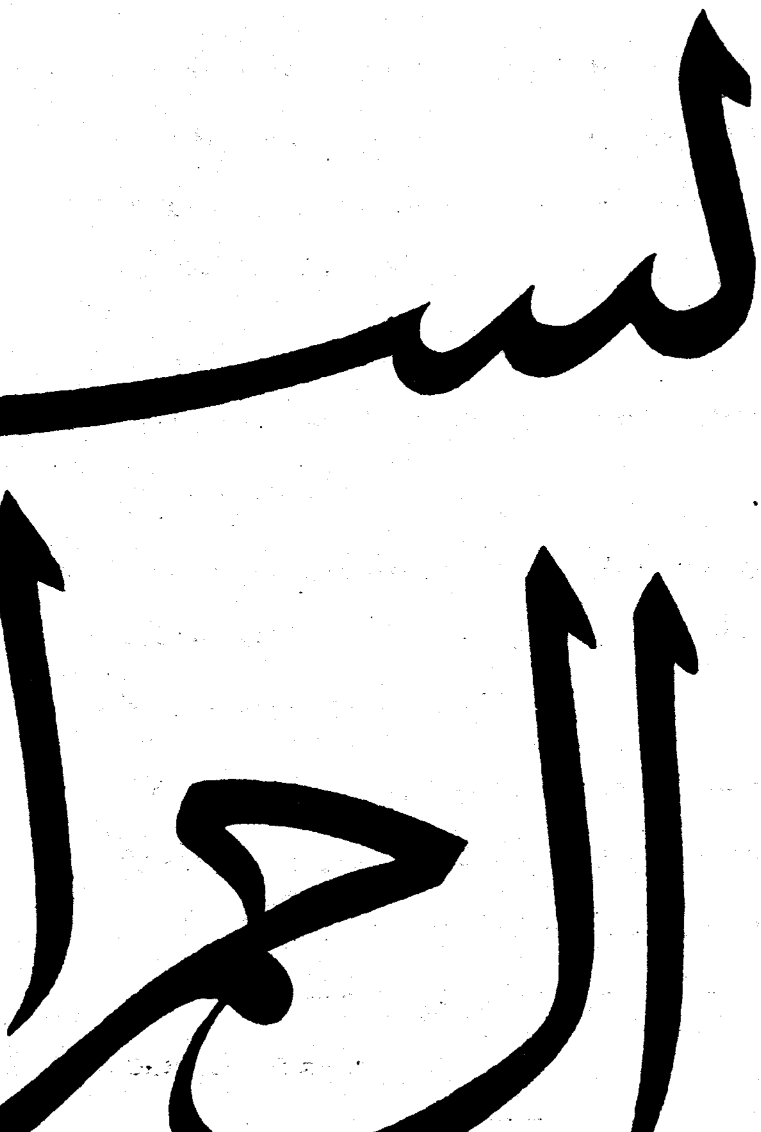

على طريقـــــة الثلث

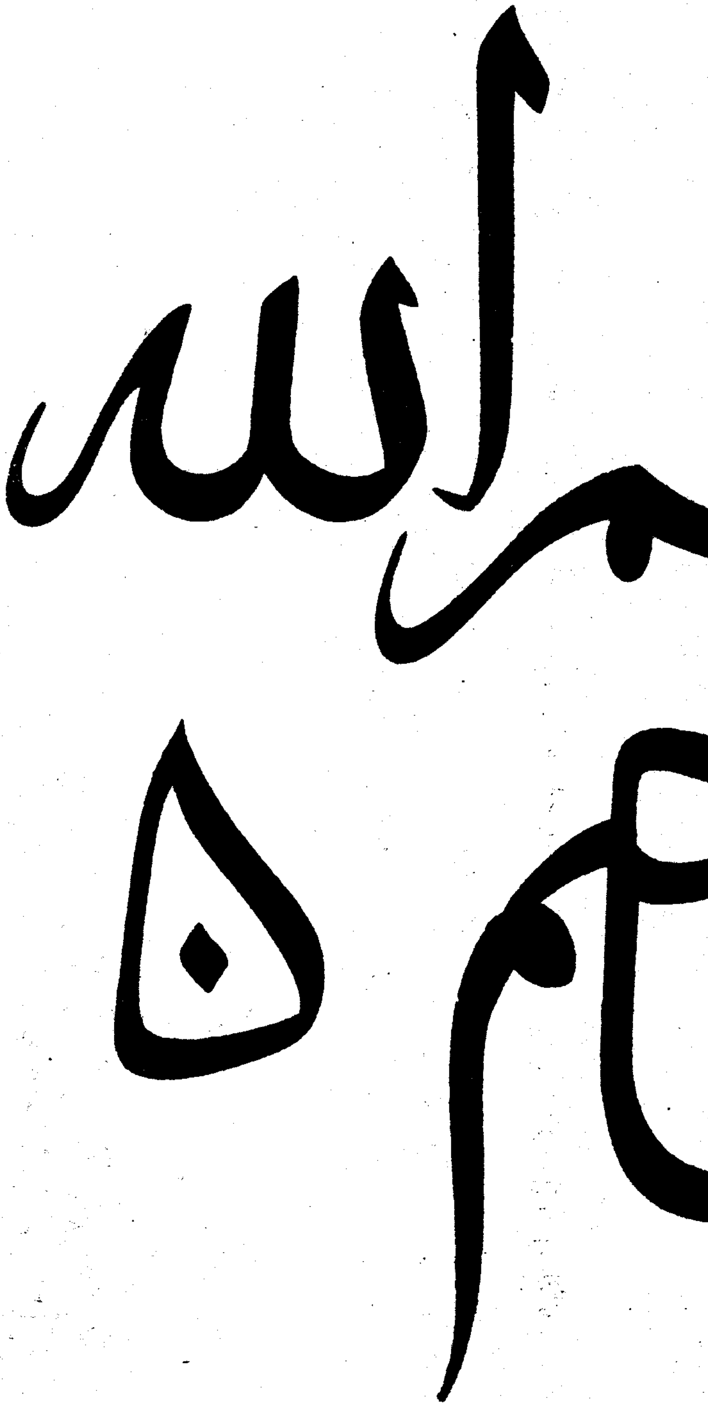

وأما قلم الثلث الثقيل وقلم الثلث الخفيف فطريقهما واحدة لا خُلْفَ بينهما إلافى رِقَّة القَلَم وغِلَظه علىٰ ماتقدّم بيانه فى الكلام علىٰ أصل الأقلام.

وللبسملة فيهما ثلاثُ صُوَر .

الصورة الأولىٰ ــ أن تكون الراء فى الرحمن وفى الرحيم مخسوفةً ، وهذه صورتها :

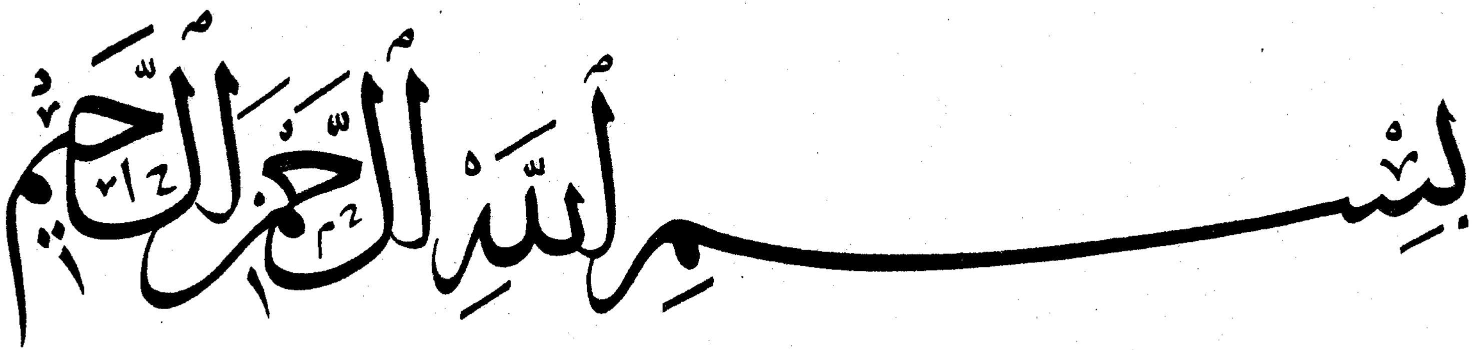

الصورة الثانيــــة ــ أن تكون الراء فيهما مجموعة والنون فى الرحمن مجموعة ؛ وهذه صورتها :

الصورة الثالثـــة : أن تكون الراء فيهما مُدْغَمَة والنون فى الرحمن مُدْغَمَة ؛ وهذه صورتهـا :

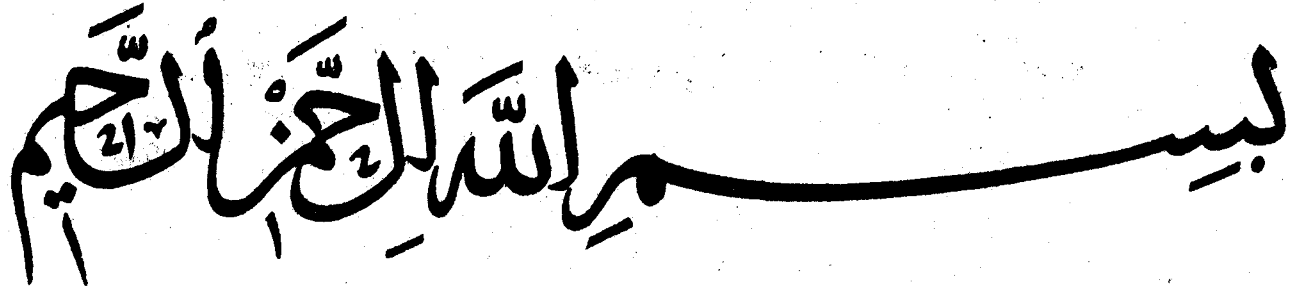

وأما بسملة قَلم التوقيع فلها ثلاثُ صُورَ :

الصورة الأولى ــ مختصرة من قلم الثُّلُث فتكون كهى ، إلا أنها أدقُّ قلما منها ؛ وهذه صورتهـا :

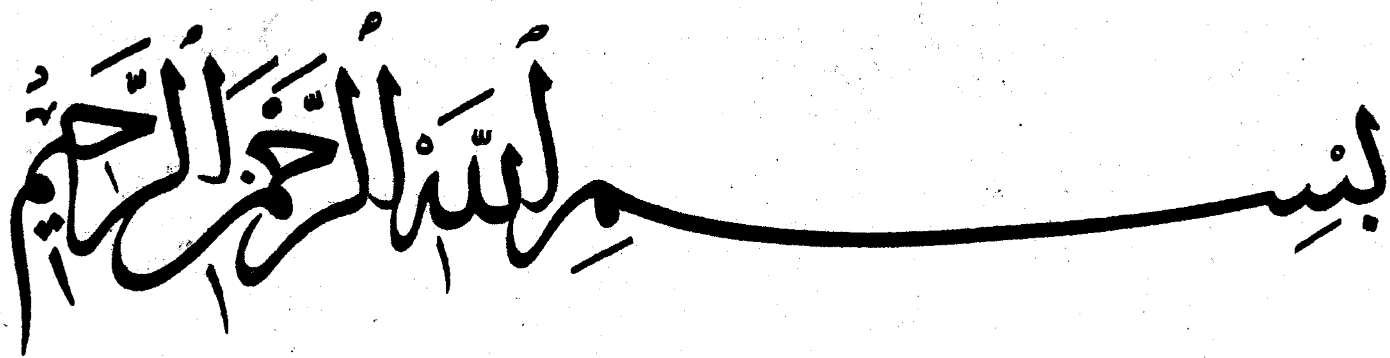

الصورة الثانية ـ أن تكون الحاء فيها فى الرحمن مقلوبة وفى الرحيم مُلَوَّزة ؛ وهذه صورتها :

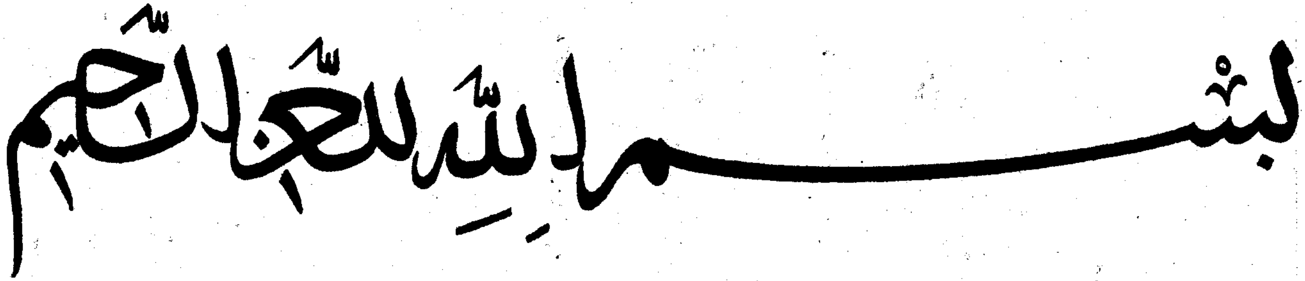

الصورة الثالثة ـ أن تكون الحاء فيها فى الرحمن والرحيم مقلوبة ؛ وهذه صورتها :

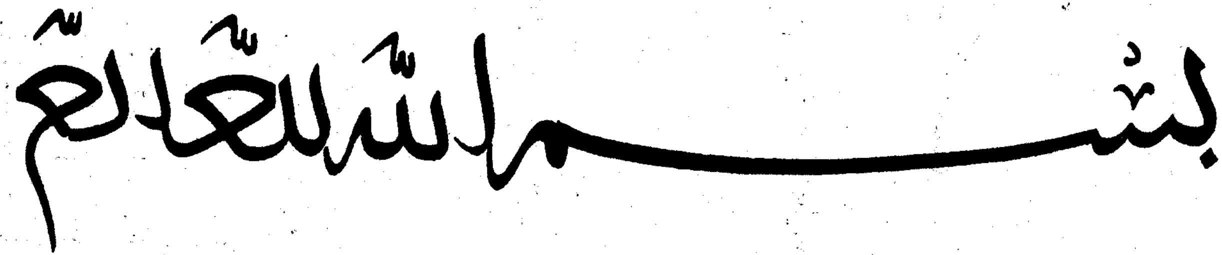

وأما بسملة قلم الرقاع ، فإن السين تكون فيها بالتدريج ، كل سنٍّ دون التى قبلها بيسير ، والكاتب فيها مخير بين وصل أسنانها وفصلها فصلًا يسيرا . وقد آصطلحوا علىٰ أن تكتب الألفُ التى قبل الجلالة فيها متصلةً بميم بسم ، وتكون مثل الألف والصاعد فى قَلَم الرِّقاع ، ثم يجعل لها ذَيْلٌ وتُوصَل بالجلالة ، ولها ثلاث صور .

الصورة الأولى ـ أن تكون الراء فيها مدغَمَة ، والحاء فى الرحمن والرحيم مقلوبة ، وهذه صورتها :

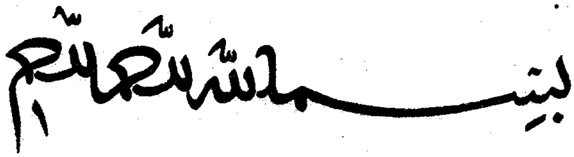

الصورة الثانية ـ أن تكون الراء فيها مدغمة والحاء رتقاءَ ، وهذه صورتها :

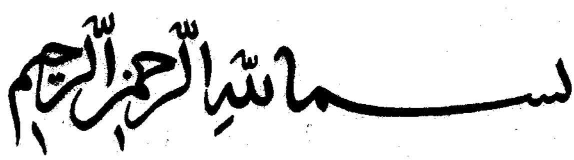

الصورة الثالثة ـ أن توصل الألف بالجلالة من أعلاها ، وهذه صورتها :

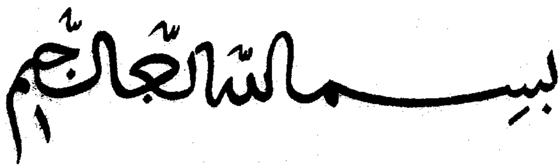

وأما بسملة الغبار(١)

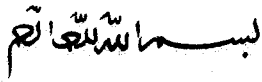

(١) لعله فلها صورة واحدة وهى هذه .

الجمـــــلة الثـامنة

(فى وجوه تجويد الكتابة وتحسينها؛ وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(حسن التشـــكيل)

قال الوزير أبو علىّ بن مُقْلة : وتحتـاج الحروف فى تصحيح أشكالهـا إلىٰ خمسة أشياء :

الأوّل ـ التوفيَـة؛ وهى أن يُوَفَّىٰ كلُّ حرف من الحروف حَظَّه من الخُطُوط التى يركب منها : من مقوّس ومُنْحنٍ ومُنْسَطِح .

الثـانى ـ الإتمام؛ وهو أن يعطىٰ كلُّ حرف قِسمتَه من الأقدار التى يجب أن يكون عليها : من طُول أو قِصَر أو دِقَّة أو غِلَظ .

الثـالث ـ الإكمال ؛ وهو أن يؤتىٰ كلُّ خط حظَّه من الهيئات التى ينبغى أن يكون عليها : من ٱنتصاب، وتسطيح، وٱنكباب، واستلقاء، وتقويس .

الرابع ـ الإشباع؛ وهو أن يؤتىٰ كلُّ خط حظه من صَدْر القلم حتّى يتساوىٰ به فلا يكون بعض أجزائه أدقَّ من بعض ولا أغلظَ إلا فيما يجب أن يكون كذلك من أجزاء بعض الحروف من الدقة عن باقية مثل الألف والراء ونحوهما .

الخامس ـ الإرسال؛ وهو أن يُرْسِلَ يدَه بالقلم فى كل شكل يجرى بسُرْعة من غير ٱحتباس يُضَرِّسه ولا تَوَقُّف يرعشه .

الضرب الثـانى

(حسن الوضـــع)

قال الوزير : ويحتاج إلىٰ تصحيح أربعة أشياء .

الأوّل ــ الترصيف، وهو وصل كلّ حرف متصل إلىٰ حرف .

الثـانى ــ التأليف، وهو جمع كل حرف غير متصل إلىٰ غيره علىٰ أفضل ماينبغى ويحسن .

الثالث ــ التسطير، وهو إضافة الكلمة إلىٰ الكلمة حتّٰى تصير سـطرا منتظم الوضع كالمِسْطَرة .

الرابع ــ التنصيل، وهو مواقع المَدَّات المستحسنة من الحروف المتصلة .

وآعلم أن المَدَّ فى الخط قديم، فقد حكىٰ أبو جعفر النحاس فى "صناعة الكتّاب": أن أهـلَ الأنبار كانوا يكتُبون المَشْق . وكأنه يريد أنهم كانوا علىٰ ذلك فى القديم، فقد تقدّم أن أوّل ما تعلَّم أهلُ الحجاز الخَطَّ من أهل الأنبار . علىٰ أن صاحب "موادّ البيان" قد حكىٰ أن جماعة من المحرّرين كانوا يكرهون المَشْق لإفساده خطَّ المبتدئ ودلالته علىٰ تَهاوُن المنتهِى .

قال : ولذلك كرهوا كتابة البسملة بغير سـين مبيَّنة ثم صارت كراهة ذلك سُـنَّة وعُرْفا . والذى عليه حُذَّاق المحررين آستعمال المدّ .

قال فى "موادّ البيان" وهذه المدّات تستعمل لأمرين: أحدهما أنها تحسِّن الخط وتفخِّمه فى مكان كما يُحَسِّن مَدُّ الصوت اللفظَ ويفخِّمه فى مكان . الثانى أنها ربمـا أوقعت ليتم السَّطْر إذا فضـل منه مالا يتَّسع لحرف آخر : لأن السطر ربمـا ضاق عن كلمتين وفَضَل عن كلمة فتمدّ التى وقعت فى آخر السطر لتقع الأخرىٰ فى أوّل السطر الذى يليه .

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : مواضع المدّ أواخر السطور ، وتُكْره إذا كانت سينا مدغمة .

قال فى "موادّ البيان" : فيجب على الكاتب أن يعرف أحكامها لئلَّا يوقِعَها فى غير المواضع اللائقة بها فيشتبه الحرف بغيره ويفسُد المعنى ، مثل أن يوقع المدّ فى متعلم بين الميم والتاء فتشتبه بمستعلم ، أو يوقع المدّ فى متسلم بين الميم والتاء فتشتبه بمستسلم . ثم قال : وبالجملة فالكلمة الأصلية اسما كانت أو حرفا أو فعلا لا تخرج عن أربعة أصناف :

الصنف الأوّل

(الثنائية)

وهى إما أسماء مضاعفة أو أفعال أو حروف .

فالأسماء : نحو ندّ ، وضر ، وسِرّ ، وشَرّ ، وظِلّ ، وطَلّ ، وما أشبه ذلك .

والأفعال : نحو قُلْ ، وكُلْ ، وقُمْ ، وعُدْ ، ونَمْ ، وسِرْ ، ونحو ذلك .

والحروف : نحو هل ، وبل ، وقط ، وقد ، ومذ ، وعن ، ولو ، ولم ، ومِنْ ، وما ، وما يجرى مجرى ذلك .

فأما الأسماء والأفعال الثنائية فقد ذكر فى "موادّ البيان" : أنه لا يحسن المدّ فى شىء منها إلا فى سِرّ ، وشَرّ ، من الأسماء وسِرْ من الأفعال لأن السين أو الشين وان كان كل منهما حرفا على حياله فى صورة ثلاثة أحرف .

قال : وقد يحسن فى نحو ظل ، وطَلّ ، فى بعض المواضع .

وأما الحروف الثنائية فقد ذكر فى "موادّ البيان" : أنه لا يَحْسُن المدُّ فيها .

وحكىٰ صاحب "منهاج الإصابة" : أن بعض الكتّاب كان يمدّ فى أواخر السطور مثلَ ما، وهل، وعن . ثم حكى عن أبى القاسم بن خلوف : أن ذلك لايجوز فى عن فى أوّل السطر ولا فى آخره .

الصنف الثـانى

(الثلاثية)

قال فى "موادّ البيان" : والمدّ فيها علىٰ الأكثر قبيح لأنها لاتنقسم بقسمين متساويين .

قال : ومنها ما يُسمَح فى مدّه للضرورة كما إذا وقع فى آخر سطر يحتاج إلىٰ التتميم فيُمَدُّ كبيع وقطع ونحوهمـا . وعلىٰ نحو من ذلك جرىٰ صاحب "مِنْهاج الإصابة" ثم قال : ويجوز أن تمدّ إذا كان ثالثها ألفا أو لاما .

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : كان والدى يمدّ فى الكلمة الثلاثيّة إذا كان أوّلَها الجيمُ وأختاها، والطاء، والسين، والعين .

قال فى "موادّ البيان" : وينبغى إذا مُدَّ أن يُقـدَّم الحرفان الأوّلان وتُوضَع المدّة بينهما وبين الثالث . أما عسىٰ، ومتىٰ، وفتًى، ونحوها فانها لاتحتمل المدّ بحال .

الصنف الثـالث

(الرباعية نحو محمد وجعفر)

قال أبو القاسم بن خلوف : والمدّ فيه جائز بل المدّ فيه أحسن من القصر .

قال فى "موادّ البيان" : ولايجوز أن يقدّم منها ثلاثة أحرف ويوقع المدّة بينها وبين الحرف الرابع ولا بالعكس بل يوقع المدّ بين الحرفين الأوّلين والحرفين الآخِرين فقط .

قال : علىٰ أن منها مالا يحسُن المدّ فيه نحو تغلب، وخبير، ونمير .

الصنف الرابع
(الخُمَاسية)

نحو : مشتمِل ، ومستقِلّ ، ومسيطِر ، ومهيمِن .

وقد آختلف علماء الخط فيه على مذهبين : فذهب صاحب "موادّ البيان" إلى أن المدّ فيها لايحسُن ، فإنها لاتنقسم بقسمين متساويين كما فى الثُّلاثِيَّة ، وذهب أبو القاسم بن خلوف إلى أن المدّ فيها لازم ، لا يجوز تركه . ثم إذا مَدّ فالذى ذكره فى "موادّ البيان" أن الأحسن أن يُقدّم حرفين ويُوقِعَ المدَّ بينهما وبين الثلاثة الأحرف الأخر .

أما ما كان زائدا على خمسة فقد ذكر صاحب "العناية الرَّبانية" أنه يُرجَع فيه إلى الأصول . ويعتبر من السُّداسىّ (١) فإنه مدّ فيما بعد السين من مسلمون وبعد التاء من معتبر .

قال فى "موادّ البيان" : ويصح المدُّ فيما جاء من الأسماء والأفعال والحروف موصولا بضمير كناية مثل ، كتبته ، وعلمته ، وفيه ، ومنه ، وعليه ، وإليه ، إذا وقعت المَدّةُ بين تمام الكلمة والضمير .

قال : ومَشْق السين يُحَسِّن الخطَّ فى بعض المواضع ، ويقبُح إذا وقعت طَرَفا نحو مَشْق السين من العباس والحوّاس ، وأقبحُ من ذلك مشقُها إذا كانت موصولة بحرف واحد يتقدّمها نحو يأنس ، وعانس ، وجالس ، وناعس . وإذا توالتْ سينان أو سين وشين ، فالأحسن أن يفصل بينهما فى الخط المحرّر بمَدّة لطيفة نحو مَسسْت وغَشَشْت ورَشَشْت .

---

(١) لعل الصواب من الثلاثى بالتاءين المثلثتين .

قال أبو القاسم بن خلوف : ومن الحروف مالا يحسُــن المدُّ بعده إذا كان مبتدأ وهو الباء وأختاها، والياء، والفاء، والقاف، واللام ؛ وأما الكاف المشكولة فإنه لايجوز مدُّ مابعدها فى ٱبتداءٍ ولا توسُّطٍ .

وقد ذكر الشيخ زين الدين شعبان الآثارىّ فى ألفيته حروفا يجوز مدُّها فى مواضع :

أحدها ــ الباء وأختاها، فتمدّ إذا كان بعــدها دال مثل بَدْر، أو راء مثــل بَرّ، أو ميم مثــل تم، أو هاء مثل بهز ؛ وأنه ربمــا مُدَّت إذا كان بعدها لام مثل بل، أو لام ألف مثل بلا .

الثانى ــ الجيم وأختاها، فتمدّ إذا كان بعدها دال مثل حداد، أو راء مثل حرير، أو ميم مثل حم، أو هاء مثل جهر .

الثالث ــ السين وأختها، وتمدّ إذا كان بعــدها راء مثل سرّ، أو ميم مثل سم، أو هاء مثل سهم .

الرابع، والخامس ــ الصاد وأختها، والطاء وأختها، فلا يجوز مدُّ[(1)] واحدٍ منها بحال .

السادس ــ العين وأختها، فتمدّ إذا كان بعدها دال مثل عد، أو راء مثل عر، أو ميم مثل عم، أو هاء مثل عهن .

السابع، والثامن، والتاسع، والعاشر، والحادى عشر ــ الفاء، والقاف، واللام، والميم، والهاء، فحكمها حُكم العين وأختها فى جواز المدّ فيما تقدّم .

قال الشــيخ عماد الدين بن العفيف : ولا يجوز الجمع بين مدّتين فى كلمة واحدة و "علىٰ" تمدّ إذا كانت الياء معرّقةً، فإن كانت راجعــة لم يجز المدُّ أصــلا : لأنه يجتمع فى كلمة ثُلاثيَّةٍ مدّتان .

قال فى "موادّ البيان" : ويقبُح أن تُمـدّ حرفين تُوالِى بينهما فى سطر واحد، وأن تُوقِـعَ حرفين ممدودين فى سطرين : أعلىٰ وأسفل علىٰ تقابلٍ وتحاذٍ .

---

(١) الكلام فيما يجوز مده نا ثبات هذا القسم سهو عن المَقْسم .

قال السَّمرمَرِّىّ : وإن كان فى آخر الكلمة ياء لم يجز المدّ قبل الياء . قال : ولذلك لا يجوز المدّ بعد السين فى ٱسم موسىٰ، ولا قبل السين فى ٱسم عيسىٰ (١) .

قال الآثارىّ : وأجاز بعضُهم مدَّ العين منه بخلاف السين .

قال ٱبن العفيف : ولا تُدْغم الواو والنون بعد مدّ أصلا فى خفيفٍ ولا ثقيلٍ .

قال : ولا يحسُن إدغامُ السين بعد الكاف المشكولة، ويجوز بعد اللام والميم .

قال فى "موادّ البيان": ويقبُح أن تكتب ياءان معطوفتان متقاربتان فى سطر واحد.

قال الشيخ عماد الدين بن الشيرازىّ : وإذا توالت العراقات وكان فيها الياء وجب أن تكون راجعة إلىٰ ذات اليمين .

قال ٱبن أبى رقيبة : سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف : هل يكون ذلك فى كل قلم ؟ قال نعم ! إذا تمكّن الكاتبُ من وضعها إلا فى المحقَّق فإنه غير جائز .

قال السَّمرمَرّىّ : وإن أتتْ ياءان متقاربتان مثل قول القائل "لى صلى" رُدَّ ياء الأخرىٰ من الكلمتين دون الأُولىٰ، وإن شئت عَرَّقتهما جميعا، وهو ٱختيار الوزير ٱبن مقلة. قال : وتردّ الياءُ بعد الألف واللام مثل إلىٰ فى خفيف الأقلام دون ثقيلها علىٰ الأحسن .

قال الآثارىّ : وإذا توالت حروفٌ متشابهةٌ كتبت القصير منه مقدَّما علىٰ الطويل .

الصنف الخامس (٢)

(مراعاة فواصل الكلام)

قال فى "موادّ البيان": وذلك بأن تميز الفصول المشتملَ كلُّ فصلٍ منها علىٰ نوع من الكلام عمَّا تقدّمه : لتُعْرف مَبادئُ الكلام ومَقاطعُه ؛ فإن الكلام ينقسم فُصُولا طِوالا

(١) كذا فى الضوء أيضا والمراد سواء ٱتصل المد بالياء أو كان قبله فى كلمته .

(٢) لم يترجم فى الضوء بخامس ، ولا بسادس ، وٱقتصر فى الترجمة علىٰ مابعدهما وهو المناسب .

وقِصارا ، فالطِّوال كتقسيم منثور المترسل إلىٰ رسائله ، ومنظوم الشاعر إلىٰ قصائده . ومثل هـذا لا يحتاج إلىٰ تفصيل : لأنه لا يشكل الحال فيه فى الرسالة أو القصيدة بغيرها ٱتصالا وٱنفصالا .

والفصول القصار كانقسام الرسالة إلىٰ الفصول ، والقصيدة إلىٰ الأبيات . ومثل هـذا قد يشكل ، فينبغى أن يُميَّز تمييزا يؤمَنُ معهُ من الآختلاط ، فإن ترتيب الخط يفيد مايفيده ترتيبُ اللفظ . وذلك أن اللفظ إذا كان مرتَّبا تخلَّصَ بعضُ المعـانى من بعض ، و إذا كان مُخَلَّطا أشكلت معانيه ، وتعذر علىٰ سامعه إدراك محصوله .

وكذلك الخط إذا كان متميز الفُصُول ، وصل معنىٰ كلِّ فصل منه إلىٰ النفْس علىٰ صورته ، و إذا كان متصلا دعا إلىٰ إعمال الفِكْر فى تخليص أغراضه .

وقد ٱختلفت طُرُق الكُتَّاب فى فصول الكلام الذى لم يُمَـيَّزْ بذكر باب أو فصل ونحوه . فالنُّسَّاخ يجعلون لذلك دائرة تفصِـل بين الكلامين ، وكُتَّابُ الرسائل يجعلون للفواصل بياضًا يكون بين الكلامين من سجع أو فصل كلام ، إلا أن بياض فَصْـل الكلامين يكون فى قدر رأس إبهام ، وفصل السجعتين يكون فى قدر رأسِ خِنْصر .

قال فى "موادّ البيان" : و ينبغى أن لا تكون الجملة فى آخر السطر والفاصلة فى أوّل السطر الذى يليه ، فإنه مُلْبِس لآتصال الكلام ، بل لا يجعل فى أوّل السطر بياضا أصلا لأنه يقبح بذلك لخروجه عن نسبة السطور ، ولا أن يُفْسِح بين السطر والذى يليه إفْسَاحًا زائدا عما بين كل سطرين ، ولكن يُراعِى ذلك من أوّل شروعه فى كتابة السطر فيقدّر الخط بالجمع والمشق حتّى يخلُصَ من هذا العيب .

الصنف السادس

(حسن التدبير فى قطع الكلام ووصله فى أواخر السطور وأوائلها)

لأن السطور فى المنْظَر كالفصول، فاذا قطع السطر علىٰ شىء يتعلَّق بما بعده كان قبيحا، كما إذا كتب بعض حروف الكلمة فى آخر السطر وبعضها فى أوّل السطر الذى يليه .

ثم للفصل المستقبَح فى آخِر السطر وأوّل الذى يليه صنفان :

الصنف الأوّل

(فصلُ بعض حروف الكلمة الواحدة عن بعض، وتفريقها فى السطر والذى يليه)

مثل أن تقع معه لفظة "كتاب" فى آخر السطر، فيكتب الكافَ والتاءَ والألف فى آخر السطر والباءَ فى أوّل السطر الذى يليه؛ أو يقع فى آخر السطر لفظُ "مسرور" فيكتب الميمَ والسينَ والراءَ فيه والواوَ والراءَ الثانيةَ فى أوّل السطر الذى يليه ونحو ذلك .

قال فى "موادّ البيان" : وهو قبيح جدًّا لأنه لا يجوز فصل الاسم عن بعضه .

قال : وأكثر ما يوجد ذلك فى مصاحف العامّة وخطوط الورّاقين؛ والحامل لهم علىٰ ذلك فى الغالب هو ضيق آخر السطر عن الكلمة بكمالها؛ ومن هنا احتاج الكاتب إلىٰ النظر فى ذلك بالجمع والمشق من حين شُروعه فى كتابة أوّل السطر علىٰ ما تقدّم .

قال صاحب "منهاج الإصابة" : وإنما وقع مثل ذلك فى المصاحف التى كتبت فى زمن أمير المؤمنين : عثمان بن عفان رضى الله عنه لأنها كتبت بقلم جليل مبسوطٍ، فربما وقع فى بعض الأماكن اللفظة فيقطعها فى آخر السطر ويجعل باقِيهَا فى السطر الثانى .

وعلىٰ ذلك حمل ما رُوِى أن عثمان رضى الله عنــه . قال : "إنَّ فى المُصْحَفِ لَحْناً ستُقِيمُه العربُ بألْسِنَتِها" إذ لاجائز أن يكون ذلك لحْنا فى اللفظ فقد أجمع الصحابةُ رضوانُ الله عليهم علىٰ أن مابين دَفَّتَى المصحَف قُرْءانٌ، ومحالٌ أن يجتمعوا علىٰ لحن. علىٰ أن هذه الروايةَ غيرُ مشهورة عن عثمان رضى الله عنه كما أشار إلىٰ ذلك الشاطبىّ بقوله فى الرائية :

وَمَنْ رَوىٰ ستُقِيمُ العُرْبُ ألسُنَها * لَحْنًا بِهِ قولَ عثمانٍ فما شُهِرا

الصنف الثانى

(فصـــل الكلمة التامة وصلتها)

مثل ان يكتب "وصلَ كتابُك وأيَّدك الله" مُفَصَّلات، فيكتب "وصل" فى آخر السطر و"كتابك" فى أوّل الذى يليــه، أو يكتب "أيَّدك" فى آخر سطر وٱسم "الله" تعالىٰ فى أوّل الذى يليه، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك .

قال فى "موادّ البيان" : والأحسن تجنُّبه إذا أمكن، فإن لم يمكن فيتجنَّبُ القبيحُ منه، وهو الفصل بين المضاف والمضاف إليه : كعبد الله وغلام زيد وماأشبه ذلك : لأنَّ المضــاف والمضاف إليــه بمنزلة الآسم الواحد، والفصــلُ بين الآسم وما يتلوه فى النسب : كقولك زيدُ بنُ محمد، فلا يجوز أن يُفْصَل بين الآسم والمنسوب إليــه كما لايجوز أن يفصَل بين المضاف والمضاف إليه . قال : فإن كان المراد بلفظة ٱبن تثبيت البنوّة كقولك لزيد ٱبنٌ جاز قطع الآبن عما تقدّمه . وكأنه إنما ٱمتنع ذلك لأن لزيد لا يستقل بنفسه فلا يدخله لبس بخلاف غلام زيد ونحوه . ثم قال : ومما يقبُح فصلُه الفصْلُ بين كل ٱسمين جُعلا ٱسمــا واحدا نحو حضرموت، وتأبط شرًّا، وذى يَزَن، وأحدَ عشر .

قلت : وباب الخط وأقلامه وحسن تدبيره متسع لا يسع ٱستيفاؤه .

الفصــل الثـالث

من البـاب الثـانى من المقـالة الأُولىٰ

(فى لواحق الخط ،وفيه مقصدان)

المقصـد الأوّل

(فى النقط ، وفيــه أربع جمــل)

الجمـلة الأولىٰ

(فى مسيس الحـاجة إليــه)

قال محمد بن عمر المدائنىّ : ينبغى للكاتب أن يُعْجِم كِتَابَهُ، ويبيِّن إعرابه، فإنه متىٰ أعراه عن الضبط، وأخلاه عن الشكل والنقط، كثر فيه التصحيف، وغلب عليه التحريف . وأخرج بسنده إلىٰ ٱبن عباس رضى الله عنه أنه قال "لِكُلِّ شىءٍ نُورٌ، ونُورُ الكِتاب العَجْمُ" . وعن الأوزاعىّ نحوه .

وقال أبو مالك الحَضْرِمىُّ : أىُّ قلم لم تُعجَم فُصُوله ،ٱستعْجَمَ مَحْصولُه . ومن كلام بعضهم "الخُطُوط المُعْجَمة، كالبُرُود المُعْلَمة" .

ثم قد تقـدّم فى الكلام علىٰ عدد الحروف أن حروف المعجم تسـعةٌ وعشرون حرفا،وقد وُضِعتْ أشكالُها علىٰ تسعةَ عشرَ شكلا. فمنها مايشترِك فى الصُّورة الواحدة منـه الحرفان : كالدال والذال،والراء والزاى،والسـين والشين . ومنها ما يشــترك فى الصورة الواحدة منه الثـلاثةُ : كالباء والتاء والثاء، والجيم والحاء والخاء . ومنها ماينفرد بصورة واحدة كالألف . ومنها ما لايلتبس حالةَ الإفراد،فإذا رُكِّب ووُصِل بغــيره ٱلتبس : كالنون والقاف ، فإن النون فى حالة الإفراد منفردةٌ بصورة ،

فإذا رُكِّبت مع غيرها فى أوّل كلمة أو وَسَطها، آشتبهت بالبـاء وما فى معناها، والقاف إذا كانت منفردة لا تلتبس، فإذا وصلت بغـيرها أوّلا أو وسـطا آلتبست بالفـاء، فاحتيج إلىٰ مميز يُمَيِّز بعض الحُروف من بعض : من نقط أو إهمـال ليزول اللَّبْس، ويذهبَ الآشتراكُ .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : ولذلك ينبغى أن القاف والنون إذا كتبا فى حالة الإفراد علىٰ صُورتهما الخاصَّة بهما لا يُنْقطان، لأنه لاشبه بينَهُما ولا يُشْبِهان غيرهما، فيكونان إذ ذاك كالكاف واللام . قال : ومنع بعضُ مشايخنا الآشـتراكَ فى صورة الحروف . وقال : الصورةُ والنقطُ مجموعُهما دالٌّ علىٰ كل الحرف ؛

إذا تقرَّر ذلك فالنقط مطلوب عند خوف اللَّبْس، لأنه إنمـا وُضِع لذلك، أما مع أمن اللَّبْس فالأَوْلىٰ تركُه لئلا يُظْلِم الخَطُّ من غير فائدة .

فقد حكى أنه عُرِض علىٰ عبدالله بن طاهر خطٌّ بعضِ الكُتَّاب فقال ما أحسَنَه! لولا أنه أكثرَ شُونيزَه .

وقد حكىٰ محمد بن عمر المـدائنى أن جعفرا المتوكل كتب إلىٰ بعض عُمَّـاله أن أحْصِ مَنْ قِبَلَك من المذنِّبِين وعَرِّفنا بمبلغ عددهم، فوقع علىٰ الحاء نقطة فجمع العاملُ مَنْ كان فى عمله منهم وخَصَاهم فماتُوا غير رجلين أو واحد .

وقد حكىٰ المدائنى عن بعض الأدباء أنه قال : كثرةُ النَّقْط فى الكِتَاب سُوء ظنٍّ بالمكتوب إليـه .

أما كُتَّاب الأموال فإنهم لا يَرَوْن النقط بحال، بل تعاطيه عندهم عيبٌ فى الكتابة .

الجملة الثانية
(فى ذكر أوّل من وضع النقط)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ وضع الحروف العربية أن أوّل مَنْ وضع الحُروفَ العربية ثلاثةُ رجال من قبيلة بَوْلان علىٰ أحد الأقوال . وهم : مُرار بنُ مُرَّة[(١)]، وأسلَمُ آبنُ سِدْرة ، وعامر بنُ جَدَرةَ ، وأن مرارا[(١)] وضع الصُّوَر ، وأسلَمَ فصلَ ووصل ، وعامرا وضع الإعجام . وقضية هذا أن الإعجام موضوع مع وضع الحروف .

وقد روى أن أوّل من نَقَط المصاحفَ ووضع العربيةَ أبو الأسود الدُّؤلىّ من تلقين أمير المؤمنين : "علىّ كرم الله وجهه" . فإن أريد بالنقط فى ذلك الإعجام ، فيحتمل أن يكون ذلك آبتداء لوضع الإعجام ، والظاهر ماتقدّم ؛ إذ يبعُد أن الحروف قبل ذلك مع تشابه صورها كانت عَرِيَّةً عن النقط إلىٰ حينِ نَقْط المصحف .

وقد روى أنَّ الصحابة رضوانُ الله عليهم جَرَّدوا المصحفَ من كل شيءٍ حتّى من النقط والشكل . علىٰ أنه يحتمل أن يكون المرادُ بالنقط الذى وضعه أبوالأسودِ الشكلَ علىٰ ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة الثالثة
(فى بيان صورة النقط ، وكيفية وضعه)

قال الوزير أبو علىّ بن مقلة رحمه الله : وللنَّقْط صورتان : إحداهما شكلٌ مربَّع والأُخرىٰ شكل مستدير .

قال : وإذا كانت نقطتان علىٰ حرف ، فإن شئت جعلت واحدة فوقَ أُخْرىٰ ، وإن شئت جعلتَهما فى سطرٍ معًا ، وإذا كان بجوار ذلك الحرف حرفٌ يُنْقَط لم يجز أن يكون النَّقْط إذا آتسعت إلا واحدةً فوق أُخرىٰ ، والعلة فى ذلك أن النُّقَط إذا كُنَّ

(١) تقدّم التنبيه عليه .

فى سطر خرجْنَ عن حروفهن فوقع اللَّبْس فى الأشكال، فإذا جعل بعضُها علىٰ بعض كان علىٰ كل حرف قِسْطه من النُّقَط فزال الإشكال .

قلت : وإذا كان علىٰ الحـرف ثلاث نُقَط ، فإن كانت ثاء جعلت واحدة فوق آثنتين، وإن كانت شينا فبعضُ الكُتَّاب ينقطه كذلك ، وبعضهم ينقطه ثلاث نقط سطرا، وذلك لسعة حرف الشين بخلاف الثاء المثلثة .

أما السين إذا نقطت من أسفلها فإنهم ينقُطُونها ثلاثةً سطرا واحدًا .

الجملة الرابعـــة

(فيما يختصُّ بكل حرف من النقط وما لا نَقْطَ له)

قد تقـدّم أنَّ حروفَ الْمُعْجَم ثمانية وعشرون حرفًا سوىٰ اللام ألف، وان ذلك علىٰ عَدَد منازل القَمَر الثمانيةِ والعشرين، وأن المنازل أبدًا منهـا أربعةَ عشرَ فوق الأرض، وأربعـةَ عشرَ تحتَ الأرض، ثم إنه لا بُدَّ أن يَبْقىٰ مما فوقَ الأرض منزِلةٌ مختفيَةٌ تحتَ الشَّـفَق، فكانت الحروف المنقوطةُ خمسـةَ عَشَر حرفا بعدَد المنـازل المختفيَة : وهى الأربعةَ عَشَر التى تحت الأرض، والواحدةُ التى تحت الشُّعاع، إشارةً إلىٰ أنها تحتاج إلىٰ الإظهار لآختفائها : وهى الباء، والتاء ، والثاء، والجيم، والخاء، والذال، والزاى، والشين، والضاد، والظاء، والغين، والفاء، والقاف، والنون، والياء، آخر الحروف .

وكانت الحروف العاطلةُ ثلاثةَ عَشَر بعـدد المنازل الظاهرة : وهى الألفُ، والحاء، والدال، والراء، والسين، والصاد، والطاء، والعين، والكاف، واللام، والميم، والهاء، والواو .

فأمّا الألف فإنها لا تُنْقَط لانفرادها بصورةٍ واحدة، إذ ليس فى الحروف مايُشْبِهها فى حالتى الإفراد والتركيب .

وأما الباء فإنها تُنْقَط من أسفلَ لتخالِفَ التاءَ المثناة من فوقُ، والثاءَ المثلثةَ فى حالتى الإفراد والتركيب، والياء المثناة من تحتُ، والنون فى حالة التركيب ابتداءً أو وسَطا ونُقِطت من أسفلُ لِئلَّا تلتبس بالنون حالة التركيب .

وأما التاء فإنها تُنْقَط باثنتين من فوقُ لتخالف ما قبلها وما بعدها من الصورتين فى حالة الإفراد وتخالفهما مع الياء والنون حالة التركيب ابتداءً أو وسَطا .

وأما الثاء فإنها تُنْقَط بثلاثٍ من فوقُ لتخالفَ ماقبلها من الصورتين فى الإفراد وتخالفَهُما مع النون والياء أيضا فى التركيب ابتداء أو وَسَطا .

وأما الجيم فإنها تنقط بواحدة من تحت لتخالفَ الصورتين بعدها .

وأما الحاء فإنها لا تُنْقَط، ويكون الإهمال لها علامةً، وحُذَّاق الكُتَّاب يجعلون لها علامة غير النقط: وهى حاء صغيرةٌ مكان النُّقْطة من الجيم .

وأما الخاء فإنها تُنْقَط بواحدةٍ من أعلاها لتخالِفَ ماقبلها: من الجيم والحاء .

وأما الدال فإنها لا تُنقَطُ ولا تعلَّم، ويكون تركُ العلامة لها علامةً .

وأما الذال فتُنْقَط بواحدة من فوقُ فَرْقا بينها وبين أختها .

وأما الراء فإنها لاتنقَط ولا تعَلَّم، ويكون الإهمال لها علامةً .

وأما الزاى فإنها تنقَط بواحدةٍ من فوقُ فَرْقا بينها و بين الراء .

وأما السين فإنها لا تُنْقَط، وتكون علامتُها الإهمالَ كغيرها، وبعض الكُتَّاب ينقطها بثلاث نقطٍ من أسفلها .

وأما الشين فإنها تُنقَط بثلاث من فوقُ فَرْقا بينها وبين أختها، فإن كانت مدغمة فلا بدّ من جَرَّة فوقها؛ ثم إن كانت محقَّقة فاللائق التأسيس بنقطتين وجعل نقط ثالث من أعلاهما، وان كانت مدغَمة فالأولىٰ جعلُ الثلاث نقط سطرا واحدا .

وأما الصاد فإنها لا تنقط؛ نعم حُذَّاق الكُتَّاب يجعلون لها علامة كالحاء، وهى صاد صغيرة تحتها .

وأما الضاد فإنها تنقَطُ بواحدة من أعلاها فَرْقا بينها وبين أختها .

وأما الطاء فإنها لا تُنْقَط لكن لها علامةٌ كالصاد والحاء، وهى طاء صغيرة تحتها.

وأما الظاء فإنها تنقَط بواحدة من فوقها فَرْقا بينها وبين أختها .

وأما العين فإنها لاتُنْقط، ولها علامة كالحاء، والصاد، والطاء، وهى عين صغيرة فى بطنها .

وأما الغين فإنها تنقَطُ بواحدة فَرْقا بينها وبين أختها .

وأما الفاء فمذهب أهل الشرق أنها تنقط بواحدة من أعلاها، ومذهب أهل الغرب أنها تنقط بواحدة من أسفلها .

وأما القاف فلا خلافَ بين أهل الخط أنها تنقَطُ من أعلاها إلا أنَّ مَنْ نقَطَ الفاء بواحدة من أعلاها نقط القاف بٱثنتين من أعلاها ليحصل الفرق بينهما، ومَنْ نقط الفاء من أسفلها نقط القاف بواحدة من أعلاها .

وقد تقدّم من كلام الشيخ أثير الدين أبى حيان رحمه الله عن بعض مشايخه : أنَّ القاف إذا كتبت علىٰ صورتها الخاصة بها ينبغى أن لا تُنْقط إذ لا شبه بينهما (١) وذلك فى حالتى الإفراد والتطرّف أخيرا .

(١) أى بين القاف والفاء .

وأما الكاف فإنها لا تنقط، إلا أنها إذا كانت مشكولة عُلِّمت بشكلة، وإن كانت معراة رسم عليها كاف صغيرة مبسوطة لأنها ربما ٱلتَبَستْ باللام .

وأما اللام فإنها لا تُنْقَط ولا تعَلَّم، وتركُ العلامة لها علامةٌ .

وأما الميم فإنها لاتنقط ولا تعلَمَ أيضا لٱنفرادها بصورة .

وأما النون فإنها تنقط بواحدة من أعلاها، وكان ينبغى ٱختصاصُ النقط بحالة التركيب ٱبتداءً أو وَسَطا لٱلتباسها حينئذ بالباء، والتاء، والثاء أوائل الحروف، والياء آخر الحروف؛ بخلاف حالة الإفراد والتطرُّف فى التركيب أخيرا فإنها تختص بصورة فلا تلتبس كما أشار إليه الشيخ أثير الدين أبوحيان رحمه الله، إلا أنها غلبت فيها حالة التركيب فروعيت .

وأما الهاءُ فإنها لاتنقط بجميع أشكالها، وإن كثرت: لأنه ليس فى أشكالها مايلتبس بغيره من الحروف .

وأما الواو فإنها لا تنقَط وإن كانت فى حالة التركيب تقاربُ الفاء، وفى حالة الإفراد تقارب القاف : لأن الفاء لاتشابهها كلَّ المشابهة، ولأن القاف أكبرُ مساحةً منها .

وأما اللام ألف فإنها لاتنقط لٱنفرادها بصورة لايشابهها غيرها .

وأما الياء فإنها تنقط بنقطتين من أسفلها، وإن كانت فى حالة الإفراد والتطرُّف فى التركيب لها صورة تخصُّها : لأنها فى حالة التركيب فى الٱبتداء والتوسط تشابهُ الباء، والتاء، والثاء، والنون، فيحتاج إلىٰ بيانها بالنقط لتغليب حالة التركيب علىٰ حالة الإفراد كما فى النون، وربما نقطها بعض الكُتَّاب فى حالة الإفراد بنقطتين فى بطنها والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

المقصـــــد الثـانى
(فى الشكل، وفيـــه خمس جمـــل)

الجملة الأولى
(فى اشـــتقاقه ومعنـاه)

قال بعض أهل اللغة : هو مأخوذ من شَكْلِ الدابة ، لأن الحروف تُضبَط بقيد فلا يلتبِس إعرابها كما تُضْبط الدابَّة بالشِّكال فيمنعها من الهُروب . قال أبو تمام :

تَرىٰ الأمْرَ مَعْجُومًا إذا كان مُعْجَمًا * لَدَيْه ومَشْكُولا إذا كانَ مَشْكُولَا

الجملة الثانيـــة
(فى أوّل من وضع الشَّـــكْل)

وقد اختلفت الرواية فى ذلك علىٰ ثلاث مقالات، فذهب بعضُهم إلىٰ أن المبتدئ بذلك أبو الأسود الدؤليُّ : وذلك أنه أراد أن يعمل كتابا فى العربيَّـة يقوِّم النـاسُ به مافسد من كلامهم : إذ كان ذلك قد فَشَا فى الناس .

فقال : أرىٰ أن أبتدئ بإعراب القرءان أوّلا ، فأحضر من يُمْسك المصحَف ، وأحضر صِبْغا يخالف لون المِدَاد . وقال للذى يمسك المصحف عليه : إذا فتحتُ فاىَ فاجعل نقطةً فوق الحرف ، وإذا كسرتُ فاىَ فاجعل نقطة تحتَ الحرف ، وإذا ضممتُ فاىَ فاجعل نقطةً أمام الحرف ، فإن أتبعت شيئا من هذه الحركات غُنَّـة (يعنى تنوينا) فاجعل نقطتين . ففعل ذلك حتّى أتىٰ علىٰ آخر المصحف .

وذهب آخرون : إلىٰ أن المبتـدئ بذلك نصر بن عاصم الليثىّ ، وأنه الذى خَمَّسها وعَشَّرَها .

وذهب آخرون : إلى أن المبتدئ بذلك يحيى بن يَعْمَر .

قال الشيخ أبو عمرو الدانىّ رحمه الله : وهؤلاء الثلاثة من جِلّة تابعى البصريين .

وأكثر العلماء على أن أبا الأسود جعل الحركات والتنوين لاغير . وأن الخليل ابن أحمد هو الذى جعل الهمزة والتشديد عن(١) الروم والإشمام .

الجملة الثالثة
(فى الترغيب فى الشكل والترهيب عنه)

وقد اختلفت مقاصد الكُتَّاب فى ذلك ، فذهب بعضهم إلى الرغبة فيه ، والحث عليه : لما فيه من البيان والضَّبْط والتقييد .

قال هشام بن عبد الملك : أَشْكُلوا قرائن الآداب ، لئلا تَنِدَّ عن الصواب .

وقال علىّ بن منصور : حَلُّوا غرائِب الكَلِم بالتقييد ، وحَصِّنوها عن شُبَه التصحيف والتحريف .

ويقال : إعجام الكُتُب يمنع من استعجامها ، وشَكْلُها يصونُها عن إشكالها ، ولله القائل :

وكأنَّ أحْرُفَ خطِّه شَجَرٌ * والشَّكْلُ فى أغْصانِهِ ثَمَرُ

وذهب بعضهم إلى كراهته ، والرغبة عنه .

قال سعيد بن حميد الكاتب : لَأَنْ يُشْكِل الحرفُ على القارئ أحبُّ إلىّ من أن يُعَابَ الكاتبُ بالشكل . ونظر محمد بن عَبَّاد إلى أبى عُبَيْد وهو يقيِّد البسملةَ فقال : لو عرَفْتَه ما شكلتَه . وقد جَرَّد الصحابةُ رضوان الله عليهم المصحفَ حين جمعوا القرءان من النقط والشكل وهو أجدر بهما ، فلو كان مطلوبا لما جرّدوه منه .

(١) كذا فى الأصل .

قال الشيخ أبو عمرو الدانيّ : وقد وردَتِ الكراهةُ بنقط المصاحف عن عبد الله آبن عمر، وقال بذلك جماعة من التابعين .

وآعلم أن كُتّاب الدّيْونة لا يعرّجون علىٰ النقط والشـكل بحال، وكُتّاب الإنشـاء منهم مَنْ منع ذلك محاشاة للكتوب إليه عن نسبته للجهل بأنه لايقرأ إلا ما نُقِط أو شُكِل ، ومنهم مَنْ ندب إليه : للضبط والتقييد كما تقدّم .

والحق التفريق فى ذلك بين مايقَع فيــه اللَّبْس ويتطرّق إليه التحريف لغلاقته أو غرابته وبين ماتسُهل قراءتُه لوضوحه وسهولته .

وقد رخَّص فى نَقْط المصاحف بالإعراب جماعة : منهم ربيعة بن عبد الرحمن، وآبن وهب . وصرح أصحابنـا الشافعيةُ رضى الله عنهم بأنه يُنْدب نقطُ المصحف وشكْلُه ؛ أما تجريد الصحابة رضوان الله عليهم له من ذلك فذلك حين آبتداءِ جمعه حتّى لايُدْخلوا بين دفتى المصحف شيئا سوىٰ القرءان، ولذلك كرهه مَنْ كرهه .

وأما أهـل التوقيع فى زماننـا فإنهم يَرْغَبون عنه خشية الإظلام بالنَّقْط والشَّكل إلا ما فيه إلباس علىٰ مامر؛ وأهل الدَّيْونة لايرون بشىء من ذلك أصلا ويَعُـدّون ذلك من عيوب الكتابة وإن دعت الحاجة إليه؛والله سبحانه وتعالى أعلم .

الجملة الرابعـــة

(فيما ينشأ عنـه الشكل ويترتَّبُ عليـه)

وآعلم أن الشكل جارٍ مع الإعراب كيفما جرىٰ، فينقسم إلىٰ السُّكون (وهو الجزم)، وإلىٰ الفتح (وهو النصب)، وإلىٰ الضم (وهو الرفع)، وإلىٰ الجرّ (وهو الخفض) .

أما السـكون فلأنه الأصـل . وأما الحركات الثلاث فقـد قيـل إنها مشاكلة للحركات الطبيعيـة : فالرفع مشاكل لحركة الفَلَك لآرتفاعها، والجرّ مشاكل لحركة

الأرض والماء لانخفاضها، والنصب مشاكل لحركة النار والهواء لتوسطها؛ ومن ثَمَّ لم يكن فى اللغة العربيــة أكثرُ من ثلاثة أحرف بعدها ساكن إلا ما كان معدولا . فسبحان من أتقن ما صنع ! .

ثم الذى عليه أكثر النُّحَاة أن الحركات الثلاثَ مأخوذة من حروف المدّ واللين وهى الألف، والواو، والياء، ٱعتمادا علىٰ أن الحروف قبل الحركات والثانىَ مأخوذ من الأوّل . فالفتحة مأخوذة من الألف إذ الفتحة علامة النصب فى قولك : رأيت زيدا، ولَقِيتُ عمرا، وضربت بكرا؛ والألف علامة النصب فى الأسماء المعتلة[(1)] المضافة كقولك : رأيت أباك، وأكرمت أخاك؛ ويكون إطلاقا للرَّوِىِّ المنصوب كقولك : المذهبا، وأنت تريد المذهب، فلما أشبعت الفتحة نشأت عنها الألف؛ والكسرة مأخوذة من الياء لأنها أختها ومن مخرجها، والكسرة علامة الخفض فى قولك مررت بزيد، وأخذت عن زيد حديثا، والياء علامة الخفض أيضا فى الأسماء المعتلة[(1)] المضافة كقولك : مررت بأبيك وأخيك وذى مال؛ والضمة من الواو لأنها من مخرجها : من الشَّفَتَيْنِ، وهى علامة الرفع فى قولك : جاءنى زيد، وقام عمرو، وخرج بكر، والواو علامة الرفع فى الأسماء المعتلة[(1)] المضافة كقولك : جاءنى أخوك وأبوك وذو مال .

وذهب بعض النُّحَاةِ إلىٰ أن هذه الحروفَ مأخوذة من الحركات الثلاث، الألف من الفتحة، والواو من الضمة، والياء من الكسرة ٱعتمادا علىٰ أن الحركات قبل الحروف، بدليــل أن هذه الحروف تحدُث عند هذه الحركات إذا أُشْبعت، وأن العرب قد ٱستغنت فى بعض كلامها بهــذه الحركات عن هــذه الحروف ٱكتفاء بالأصل عن الفرع : لدلالة الأصل علىٰ فرعه .

---

(1) أى الأسماء الخمسة أو الستة علىٰ الخلاف .

وذهب آخرون إلىٰ أن الحـروف ليست مأخوذةً من الحركات ، ولا الحركات مأخوذة من الحروف ،ٱعتمادا علىٰ أن أحدهما لم يسبق الآخر،وصححه بعض النُّحَاةِ.

الجمـــلة الخامســـة

(فى صور الشكل ومَحَالّ وضعه علىٰ طريقة المتقدّمين والمتأخرين)

وٱعلم أن المتقدّمين ...[1] ... فىغالب الصور إلىٰ النقط بلون يخالف لون الكتابة .

وقال الشيخ أبو عمرو الدانىّ رحمه الله : وأرىٰ أن أستعمل النقط لونين، الحمرة والصُّـفْرَة، فتكون الحمرة للحركات،والتنوين، والتشـديد،والتخفيف، والسكون، والوصل، والمدّ،وتكون الصفرة للهمزة خاصة .

قال : وعلىٰ ذلك مَصَاحف أهل المدينة . ثم قال : وإن ٱستعملت الخضرة للٱبتـداء بألفات الوصـل علىٰ ما أحدثه أهلُ بلدنا ، فلا أرىٰ بذلك بأسا . قال : ولا أستجيز النَّقْطَ بالسواد لمـا فيه من التغيير لصورة الرسم .وقد وردت الكراهة لذلك عن عبد الله بن مسعود وعن غيره من علماء الأمة .

وأما المتأخرون فقد أحدثوا لذلك صُوَرًا مختلفة الأشكال لمناسبة تخص كل شكل منها،ومن أجل ٱختلاف صُوَرِها وتبايُنِ أشكالها رَخَّصوا فى رسمها بالسواد.

ويتعلق بالمقصود من ذلك سبع صور .

الأُولى

(علامة السكون)

والمتقدّمون يجعلون علامة ذلك جرّةً بالحُمْـرَةِ فوق الحرف، سواء كان الحرف المسكّن همزة كما فى قولك : لم يَشَأْ،أوغيرها من الحروف كالذال من قولك :ٱذْهبْ.

(١) لعل المراد يميلون فى شكل غالب إلخ . وفى الضوء كانوا يجعلون الشكل نقطا إلخ.

أما المتأخرون فإنهم رسموا لها دائرة تشبه الميم إشارة إلى الجزم إذ الميم آخر حرف من الجزم، وحذفوا عراقة الميم آستخفافا، وسمَّوْا تلك الدائرة جزمة، أخذا من الجزم الذى هو لقب السكون، ويحتمل أن يكونوا أَتَوْا بتلك الدائرة على صورة الصِّفر فى حساب الهنود ونحوهم إشارة إلى خلوّ تلك المرتبة من الأعداد لأن الصفر هو الخالى، ومنه قولهم: "صِفْر اليَدَيْن" بمعنى أنه فقير ليس فى يديه شيء من المال.
وحُذَّاقُ الكُتَّاب يجعلونها جيما لطيفة بغير عراقة إشارة إلى الجزم.

الثانيـــــة

(علامة الفتح)

أما المتقدّمون فإنهم يجعلون علامة الفتح نُقْطَةً بالحمرة فوق الحرف. فإن أُتْبعت حركة الفتح تنوينا، جعلت نقطتين، إحداهما للحركة، والأخرى للتنوين.

والمتأخرون يجعلون علامتها ألفا مضطجعة. لما تقدّم من أن الألف علامة الفتح فى الأسماء المعتلة ورسموها بأعلى الحرف موافقة للتقدّمين فى ذلك، وسَمَّوْا تلك الألف المضطجعة نَصْبة أخذا من النصب، ويجعلون حالة التنوين خطّين مضطجعتين من فوقه كما جعل المتقدّمون لذلك نقطتين، وعبروا عن الخطتين بنصبتين.

قال الشيخ عماد الدّين بن العفيف رحمه الله: ويكون بينهما بقدرِ واحدة منهما.

الثالثـــــة

(علامة الضم)

أما المتقدمون فإنهم يجعلون علامة الضمة نقطة بالحُمْرة وسطَ الحرف أوأمامه، فإن لحق حركةَ الضم تنوينٌ، رسموا لذلك نقطتين: إحداهما للحركة، والأخرى للتنوين على ما تقدّم فى الفتح.

وأما المتأخرون فإنهم يجعلون علامة الضمة واوا صغيرة : لمـا تقدّم أن الواو من علامة الرفع فى الأسماء المعتلة، وسَمَّوْها رفعة لذلك، ورسموها بأعلىٰ الحرف ولم يجعلوها فى وسطه كيلا تَشِينَ الحرف، بخلاف المتقدّمين لمخـالفة اللون ولطافة النقطة . فإن لحق حركَةَ الضم تنوينٌ رسموا لذلك واوا صـغيرة بخَطَّة بعدها : الواوُ إشارة للضم، والخَطَّة إشارة للتنوين ، وعبروا عنهما برفعتَينِ . وبعضهم يجعـل عوض الخطة واوا أخرىٰ مردودة الآخر علىٰ رأس الأولىٰ .

الرابعـــــة

(علامة الكسر)

والمتقدّمون يجعلون علامة الجرّة نقطة بالحُمْرَةِ تحت الحرف . فإن لحق حركَةَ الكسر تنوين رسموا لذلك نقطتين .

والمتأخرون جعـلوا علامة الكسر شَـظِيَّةً من أسفل الحرف إشارة إلىٰ الياء التى هى علامة الجرّ فى الأسماء المعتلة علىٰ ما مر، وسَمَّوْا تلك الشَّظِيَّةَ خَفْضَةً، أخذًا من الخفض الذى هو لقب الكسر، ولم يخالفوا بينها وبين علامة النصب لآختلاف محلهما . فإن لحق حركَةَ الكسر تنوينٌ رسموا له خطتين من أسـفله : إحداهمـا للحركة، والأخرىٰ للتنوين .

الخـامســـــة

(علامة التشديد)

والمتقدّمون آختلفوا : فمذهب أهل المدينة أنهم يرسُمُون علامة التشديد علىٰ هذه الصورة ((١)) ولا يجعلون معها علامات الإعراب بل يجعلون علامة الشدّ مع الفتح فوق الحرف، ومع الكسر تحت الحرف، ومع الضم أمام الحرف .

(١) بياض فى الأصل والضوء .

قال الشيخ أبو عمرو الدانيّ رحمه الله : وعليه عامّة أهل بلدنا . قال : ومنهم من يجعل مع ذلك نقطةً علامة للإعراب، وهو عندى حَسَن .

وعامَّة أهل الشرق علىٰ أنهم يرسُمُون علامة التشديد صورة شين من غير عراقة علىٰ هذه الصورة (ـّ) كأنهم يريدون أوّل شديد، ويجعلون تلك العلامة فوق الحرف أبدا ويُعْرِبونه بالحركات . فإن كان مفتوحا جعلوا مع الشدّة نقطة فوق الحرف علامة الفتح، وإن كان مضموما جعلوا مع الشدّة نقطة أمام الحرف علامة الضم، وإن كان مكسورا، جعلوا مع الشدّة نقطةً تحت الحرف علامة الكسر . وعلىٰ هذا المذهب ٱستقرّ رأىُ المتأخرين أيضا، غير أنهم يجعلون بدل النقط الدالة علىٰ الإعراب علامات الإعراب التى ٱصطلحوا عليها من النصبة، والرفعة، والخفضة . فيجعلون النصبة والرفعة بأعلىٰ الشدّة، ويجعلون الخفضة بأسفل الحرف الذى عليه الشدّة . وبعضهم يجعلها أسفل الشدّة من فوق الحرف . ولا فرق فى ذلك بين أن يكون المشدّد من كلمة واحدة أو من كلمتين كالإدغام من كلمتين .

السادسة

(علامة الهمزة)

والمتقدّمون يجعلونها نقطة صفراء ليخالفوا بها نقط الإعراب كما تقدّم فى كلامِ الشيخ أبى عمرو الدانيّ رحمه الله : ويرسُمُونها فوق الحرف أبدا، إلا أنهم يأتون معها بنقط الإعراب الدالة علىٰ السكون والحركات الثلاث بالحُمْرَةِ علىٰ ماتقدّم . وسواء فى ذلك كانت صورة الهمزة واوا أو ياء أو ألفا، إذ حق الهمزة أن تلزم مكانا واحدا من السطر : لأنها حرف من حروف المعجم . والمتأخرون يجعلونها عينا بلا عراقة، وذلك لقرب مخرج الهمزة من العين، ولأنها تمتحن بها كما سيأتى .

ثم إن كانت الهمزة مصوّرة بصورة حرف من الحروف : فإن كانت الهمزة ساكنة، جعلت الهمزة من أعلىٰ الحرف مع جزمة بأعلاها . و إن كانت مفتوحة، جعلت بأعلىٰ الحرف أيضا مع نصبة بأعلاها . و إن كانت مضمومة، جعلت بأعلىٰ الحرف مع رفعة بأعلاها . و إن كانت مكسورة، جعلت بأسفل الحرف مع خفضة بأسفلها . و ربما جعلت بأعلىٰ الحرف والخفضة بأسفله .

وقد ٱختلف القـدماء من النحويين فى أىّ الطَّرَفين من اللام ألف هى الهمزة . فحكى عن الخليل بن أحمد رحمـه الله أنه قال : الطَّرَف الأوّل هو الهمزة، والطَّرَف الثانى هو اللام .

قال الشيخ أبوعمرو الدانىّ رحمه الله : و إلىٰ هذا ذهب عامّةّ أهل النقط ، وٱستدلوا علىٰ صحة ذلك بأن رسم هـذه الكلمة كانت أوّلا لاما مبسوطة فى طرفها ألف علىٰ هـذه الصورة "لـــا" كنحو رسم ما أشبه ذلك مما هو علىٰ حرفين من سائر حروف المعجم مثل "يا ، وها" وما أشبههما إلا أنه ٱستثقل رسم ذلك كذلك فى اللام ألف خاصةً لٱعتدال طرفيه لمشابهة كتابة الأعاجم فحسن رسمه بالتضفير فضم أحد الطرفين إلىٰ الآخر فأيهما ضم إلىٰ صاحبه كانت الهمزة أُولىٰ ضرورةً . وتعتبر حقيقة ذلك بأن يُؤخَذ شىء من خيط ونحوه فيُضَفَّر و يخرج كل واحد من الطرفين إلىٰ جهة، ثم يقام الطرفان فيتبين من الوجهين أن الأوّل هو الثانى فى الأصل، وأن الثـانِىَ هو الأوّل لا محالة فى التضفير .

وأيضا فقـد ٱتفق أهل صناعة الخط من الكُتَّاب القدماء وغيرهم علىٰ أنه يُرسَم الطَّرَف الأيسر قبل الطَّرَف الأيمن ، ولا يخالف ذلك إلا من جهل صناعة الرسم إذ هو بمنزلة من ٱبتدأ برسم الألف قبل الميم فى "ما" وشبهه مما هو علىٰ حرفين ، فثبت بذلك

أن الطرف الأوّل هو الهمزة، وأن الطرف الثانى هو اللام : إذ الأوّل فى أصل القاعدة هو الثانى، والثانى هو الأوّل علىٰ مامرّ؛ وإنما آختلف طرفاها من أجل التضفير.

وخالف الأخفش: فزعم أن الطرف الأوّل هو اللام، والطرف الثانى هو الهمزة، وآستشهد لذلك بأن ما تُلفظ به أوّلا هو المرسوم أوّلا وماتُلفِّظ به آخرا هو المرسوم آخرا، ونحن إذا قرأنا لأنت ولأنه ونحوهما لفظنا باللام أوّلا ثم بالهمزة بعدها. ونازعه فى ذلك الشيخ أبو عمرو الدانىّ . والحق أن ذلك يختلف باختلاف اللام ألف علىٰ مارتبه متأخرو الكُتَّاب الآن . ففى المضفورة علىٰ ماتقدّم، وفى المصوّرة بهذه الصورة "لا" بالعكس.

وإن كانت الهمزة غير مصوّرة بحرف من الحروف كالهمزة فى جزء وخَبْءٍ، جعلت العلامة فى محل الهمزة من الكلمة مع علامة الإعراب: من سكون، وفتح، وضم، وكسر. فإن عرض للهمزة مع حركة من الحركات الثلاث تنوينٌ، جعل مع الهمزة علامة التنوين: من نصبتين أو رفعتَينِ أو خفضتين علىٰ ما مرّ فى غير الهمزة.

قال الشيخ أبو عمرو الدانىّ رحمه الله : وتمتحن الهمزة فى موضعها من الكلام بالعين، فحيث وقعت العين وقعت الهمزة مكانها، وسواء كانت متحركة أو ساكنة لحقها التنوين أو لم يلحقها، فتقول فى آمنوا عامنوا، وفى وءاتىٰ المال وعاتىٰ المال، وفى مستهزئين مستهزعين، وفى خاسئين خاسعين، وفى مبرّءون مبرعون، وفى متكئون متكعون، وفى ماء ماع، وفى سوء سوع، وفى أولياء أولياع، وفى تَنُوء تنوع، وفى لَتَنُوء لتنوع، وفى أن تبوّءا أن تبوّعا، وفى تَبُوء تبوع، وفى مِنْ شاطِئِ من شاطع، وكذلك ما أشبهه حيث وقع فالقياس فيه مطّرد.

السابعـــــة

(علامة الصلة فى ألفـات الوصل)

أما المتقدّمون فإنهم رسموا لهـا جرّة بالحمرة فى سائر أحوالها ، وجعلوا محلها تابعا للحركة التى قبل ألف الوصل . فإن وليها فتحة كما فى قوله تعالىٰ: "نَتَّقُونَ الَّذِى" جعلت الصلة جرّة حمراء علىٰ رأس الألف علىٰ هذه الصورة (آ) وإن وليها كسرة كما فى قوله تعالىٰ: "رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ" جعلت الصلة جرّة حمراء تحت الألف علىٰ هذه الصورة (إ) وإن وليها ضمـة كما فى قوله تعالىٰ : " نَسْتَعِينُ ٱهْدِنَا " جعلت الصـلة جرّة حمراء فى وسطها علىٰ هذه الصورة(ـ|ـ). فإن لحق شيئا من الحركات التنوينُ جعلت الصلة أبدا تحت الألف، لأن التنوين مكسور للساكنين ما لم يأت بعـد السا كن الواقع بعد ألف الوصل ضمّةٌ لازمة نحو قوله تعالىٰ : "فَتِيلًا ٱنْظُرْ" و"عُيُونٍ ٱدْخُلُوهَا ". قال بعضهم بضم التنوين فتجعل الجرّة علىٰ ذلك فى وسط الألف .

وأما المتأخرون [فإنهم رسموا لذلك صادًا(١) لطيفـة إشارة إلى الوصل] وجعلوها بأعلىٰ الحرف دائمـا ولم يُراعُوا فى ذلك الحركاتِ، ٱكتفاءً باللفظ .

تنبيـــــــه

قد تقدم فى ... (١) ... الأوّل من الهجاء أن اللفظ قد يتعين فى الهجاء إلىٰ الزيادة والنقصـان ، ولاشَكَّ أن الشكل يتغير بتغير ذلك، ونحن نذكر من ذلك مايختص بالهجاءِ العرفىّ دون الرسمىّ بٱعتبار الزيادة والنقص .

---

(١) ما بين الدائرتين بيض له فى الأصل وأخذناه عن "ضوء الصبح" .

(٢) بيـاض فى الأصل .

أما الزيادة، فمثل أُولئك، وأُولُو، وأُولات ونحوها .

قال الشيخ أبو عمرو الدانىّ : وسبيلك أن تجعل علامة الهمزة نقطة بالصُّفْرَةِ فى وسط ألف أولئك وأولو وأولات، وتجعلَ نقطةً بالحُمْرَةِ أمامها فى السطر لتدل علىٰ الضمة . قال : وإن شئت جعلتها فى الواو الزائدة : لأنها صورتها ، وهو قول عامّة أهل النقط . هذه طريقة المتقدّمين .

أما المتأخرون : فإنهم يجعلون علامة الهمزة علىٰ الواو وهو مخالف لما تقدّم من ٱعتبار الهمزة بالعين فإنها لو ٱمتحنت بالعين، لكان لفظها عولئك وكذلك البواقى .

وأما النقص فمثل النبيِّينَ إذا كتبت بياء واحدة، وهؤلاء، وياءادم إذا كتبتا بحذف الألف بعد الهاء فى هؤلاء والألف الثانية فى ياءادم فترسم علامة الهمزة من النقطة الصفراء وحركتها علىٰ رأى المتقدّمين، وصورة العين علىٰ رأى المتأخرين قبل الياء الثانية فى النبيين . وتجعل ذلك علىٰ الألف الثانية فى يا آدم لأنها صورتها وعلىٰ الواو فى هؤلاء لأنها صورتها .

و وراء ماتقدّم من الشكل أمور تتعلق بالإدغام، والإظهار، والإخفاء، والإقلاب، والمدّ وغيرها : من متعلقات القراءة ليس هذا موضع ذكرها والله أعلم .

(فائدة)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : ولابدّ من تناسب الشكل والنقط وتناسب البياضات فى ذلك للحروف .

الفصل الرابع

من الباب الثانى من المقالة الأُولىٰ

(فى الهجاء، وفيه مقصدان)

المقصد الأوّل

(فى مصطلحه الخاصّ، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(المصـــطلح الرسمىّ)

وهو ما آصـــطلح عليه الصحابة رضوان الله عليهم فى كتابة المصحف عنـد جمع القرءان الكريم، علىٰ ما كتبه زيد بن ثابت رضى الله عنه، ويسمّىٰ الاصطلاح السَّلَفى أيضا، ونحن نورد منه ما جرّ إليه الكلام أو وافق المصطلح العرفىّ .

الضرب الثانى

(المصـــطلح العَرُوضِىّ)

وهو ما آصطلح عليه أهل العَرُوضِ فى تقطيع الشعر، وآعتمادهم فى ذلك علىٰ مايقع فى السمع دون المعنىٰ، إذ المعتدّ به فى صنعة العَرُوضِ إنما هو اللفظ: لأنهم يريدون به عدد الحروف التى يقوم بها الوزن متحرّكا وساكنا فيكتبون التنوين نونا، ولا يُراعون حذفها فى الوقف، ويكتبون الحرف المدغم بحرفين، ويحذِفُون اللام وغيره ممـا يدغم فى الحرف الذى بعده: كالرحمٰن والذاهب والضارب، ويعتمدون فى الحروف علىٰ أجزاء التفعيل، فقد تنقطع الكلمة بحسب مايقع من تبيين الأجزاء كما فى قول الشاعر :

سَتُبْدِى لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ.

فيكتبونه على هذه الصورة :

سَتُبْدِى ، لَكَا لأَيْيا ، مُمَا كُنْ ، تجَاهِلَنْ * وَيَأْتِى ، كَبِالأَخْبَا ، رِمَلَّمْ ، تُزَوِّدِى .

المقصد الثانى

(فى المصطلح العام)

وهو ما آصطلح عليه الكُتَّاب فى غير هذين الاصطلاحين ، وهو المقصود من الباب؛ وفيه جملتان :

الجملة الأُولى

(فى الإفراد، والحذف، والإثبات، والإبدال، وفيه مُدْرَكان)

المُدْرَك الأَوّل

(فى بيان الأصل المعتمد فى ذلك ،وما يكتب على الأصل)

وآعلم أن الأصل فى الكتابة مطابقة المنطوق المفهومَ، وقد يزيدون فى وزن الكلمة [ما ليس فى وزنها(١) ليفصلوا بالزيادة بينه و بين المشبه له ، و ينقصون من الكلمة] عمَّا هو فى وزنها آستخفافا وآستغناء بما أبقى عما آنتقص إذا كان فيه دليل على مايحذفون : كما أن العرب تتصرف فى الكلمة بالزيادة والنقصان، و يحذفون ما لا يتم الكلام فى الحقيقة إلا به آستخفافا و إيجازا إذا عَرَف المخاطَب مايقصدون .

قال آبن قتيبة : ورُبَّما تركوا الآشتباه على حاله ، ولم يفصلوا بين المتشابهين وآكتفَوْا بما يدل عليه من متقدّم أومتأخر: كقولك للرجل الواحد : يغزوا ، وللآثنين

---

(١) سقطت هذه الجملة من الأصل و وجدناها " فى أدب الكاتب " و " فى ضوء الصبح " فأثبتناها لانها مرادة له وليستقيم الكلام .

لن يَغْزُوَا وللجميع لن يَغْزُوا بالواو والألف فى الجميع من غير تفريق بين الواحد والاثنين والجمع، وبقّوه علىٰ أصله .

إذا علمت ذلك، فالمكتوب علىٰ المصطَلح المعروف هو علىٰ قسمين .

القســـم الأوّل

(ماله صورة تخصُّه من الحروف، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما هو علىٰ أصله المعتبر فيه فى ذوات الحروف وعددها بتقدير الابتداء بها والوقوف عليها، سواء بقِىَ لفظه علىٰ حاله أم انقلب النطق به إلىٰ حرفٍ آخر)

فيكتب لفظ "امّحىٰ" بغير نون بعد الألف، وإن كان أصله انمحىٰ علىٰ وزن انفعل من المحو : لأن الإدغام من كلمة واحدة؛ بخلاف ما إذا كان الإدغام من كلمتين، فيكتب لفظ "مِنْ مالٍ" بنون فى مِنْ منفصلةً من ميم مَالٍ وإن كانت النون الساكنة تدغم فى الميم .

ويكتب لفظ خَنْقٍ مصدر خَنَق[1] ولفظ أَنْتَ وما أشبهها بنون، وإن كانت النون مُخْفاة فى القاف من خَنْقٍ وفى التاء من أنت . وكذلك حالة التركيب نحو مِن كَافِرٍ .

ويكتب عَنْبَرٌ وما أشبهها بنون أيضا وإن كانت النون الساكنة تنقلب عند الباء ميما؛ وكذلك فى حالة التركيب نحو مِنْ بَعْد . ويكتب مثل اضربوا القوم ويغزو الرجل بواو، وكذلك كلُّ مافيه حرف مدّ حذف لساكن يليه لأنه لولا التقاء الساكنين لثبتت هذه الواو لفظا . ويكتب أنا بألف بعد النون وإن كانت فى وصل الكلام لا إشباع فى الفتحة لأن الوقف عليه بألف . ومن أجل ذلك كتبت ﴿لَكِنَّا هُوَ اللهُ﴾

(١) فى المصباح أن فعل خنق من باب قتل ومصدره ككتف ويسكن للتخفيف .

بألف بعد النون فى لٰكنّا إذ أصله لكنْ أنا . ويكتب المنوّن المنصوب مثل زيدا وعمرا من قولك : رأيت زيدا وضربت عمرا بالألف لأنه يوقف عليه بالألف بخلاف المنوّن المرفوع والمجرور نحو جاء زيد ومررت بزيدٍ، إذ الوقف عليه بحذف نون التنوين وإسكان الآخر علىٰ الصحيح . وتكتب إذًا المنوّنة بالألف علىٰ رأى المازنىّ رحمه الله ومَنْ تابعه : لأن الوقف عليها بالألف لضَعْفها، والمبرد والاكثرون علىٰ أنها تكتب بالنون . قال الأستاذ ٱبن عُصْفُورٍ : وهو الصحيح : لأن كل نون يوقف عليها بالألف كتبت بالألف وما يوقف عليها نفسها كما توصل كتبت بالنون وهذه يوقف عليها عنده بالنون، وأيضا فإنها إذا كتبت بالنون كانت فرقا بينها وبين إذًا الطرفية لئلا يقع الإلباس . وفصّل الفرّا فقال : إن أَلغيت كتبت بالألف، وإن أُعْملت كتبت بالنون لقوّتها . ويحكىٰ عن أبى العَبَّاس محمد بن يزيد أنه كان يقول : أشتَهِى أن أَكْوِىَ يَدَ من يكتب إذَنْ بالألف لأنها مثل أَنْ ولَنْ، ولا يدخل التنوين فى الحروف .

ويكتب نحو لَنَسْفَعًا بالألف لأن الوقف عليها بالألف ، وكذلك يكتب اِضْرِبًا زيدا ولا تَضْربًا عمرا بالألف علىٰ رأى من ٱدّعىٰ أنه الأكثر ، ووجَّهَهُ بأن النون الخفيفة تنقلب ألِفًا إذا كان ماقبلها مفتوحا فى الوقف .

وذهب بعضهم إلىٰ أنها تكتب بالنون تشبيها لنونه (١) بنون الجمع نحو اضْرِبُنْ للجمع المذكر وبه جزم الشيخ أثير الدين أبو حَيَّانَ . ووجَّهَهُ بأنه لو كتب بالألف لٱلتبس بأمر الٱثنين ونهيهما فى الخط ، وإن كنت إذا وقفتَ عليه وقفتَ بالألف فلم تُراعَ حالة الوقف فى ذلك لأن الوقف منع من ٱعتباره ما عرض فيه من كثرة الإلباس :

(١) أى تشبيها لنون التوكيد التى فى الفعل المسند الى المفرد بنون التوكيد التى فى الفعل المسند الى الجمع .

لأنهم لو أرادوا (علىٰ الوقف بالألف) كتابتَه بالألف، كَثُر اللَّبْس بالوقف والخط، فتجنبوا ما كثر به الإلباس . ويكتب كل آسم فى آخره ياء نحو قاضى وغازى وداعى وحادى وسارى ومُشْتَرِى ومُهْتَدِى ومُسْتَدْعِى ومُفْتَرِى فى حالتى الرفع والجرّ بغير ياء؛ كما فى قولك جاء قاضٍ ومررت بقاضٍ ،وكذا فى الباقيات ؛وفى حالة النصب بالياء مع زيادة ألفٍ بعدها كما فى قولك : رأيتُ قاضـيًا وغازيا وداعيا وما أشبهه .

وإن كان جَمْعًا : فإن كان غير منصرف كُتِبَ فى حالتى الرفع والخفض بغـير ياء علىٰ ماتقدّم .

فيُكْتَبُ فى الرفع هؤلاء جوارٍ وغواشٍ وسَوَارٍ ودَواعٍ ، وفى الخفض مررت بجَوَارٍ وسَوَارٍ وغواشٍ ودواعٍ بغير ياء فى الحالتين .

ويكتب فى النصب بالياء إلا أنه لاتزاد الألف بعدها ، فتكتب رأيت جوارىَ وسوارىَ ودواعِىَ .

فإذا دخلت الألف واللام فى جميع هذه الأسماء، أثبتت فيها الياء سواء المنصرف وغير المنصرف، فيكتب هذا الداعى والغازى والقاضى والمستدعى وهؤلاء الجوارى والسوارى والدواعى بالياء فى الجميع .

قال آبن قتيبة : وقد يجوز حذفها، وليس بمستعمل إلا فى كتابة المصحف .

ويكتب نحو رَهْ أمرا بالرؤية ،ولم يَرَهْ نفيا للرؤية ،وقِهْ أمرا بالوقاية ،ولم يقِهْ نفيا لذلك وما أشبهه بالهاء وإن كانت الهاء تسـقط منه حالة الدَّرْج ،لأن الوقف عليها بالهاء . وكذلك قولهم : مَهْ(١) أنت، ومَجِىءَ مَهْ جئتَ : لأن الوقف علىٰ ماالآستفهامية بعد حذف ألفه بالهاء فيكتب بالهـاء ، بخلاف ما إذا وقعت ما المحذوف ألفها بعد

(١) كذا فى الضوء أيضا ولعله [مِمَّــه أتيت] .

الجار نحو حَتَّامَ وإِلَامَ وعَلَامَ فإنه لاتلحقها الهاء لشدّة الاتصال فلا تكتب بالهاء. وتكتب تاء التأنيث فى نحو رحمة ونعمة ونقمة وقسمة وخدمة وطلحة وقمحة بالهاء لأن الوقف عليها بالهاء علىٰ الصحيح، وبعضهم يقف عليها بالتاء، وهى لغة قليلة فتكتب بالتاء موافقةً للوقف. وقد وقع فى رسم المُصْحَف الكريم مواضعُ من ذلك نحو قوله تعالىٰ: ﴿أَفَبِنِعْمَتِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ كتبوا أَفَبِنِعْمَتْ بالتاء، والأكثر ماتقدّم.

قال ابن قتيبة : وأجمع الكُتَّابُ علىٰ كتابة السَّلامُ عليكَ ورحمت الله وبركاته فى أوّل الكتاب وآخره بالتاء. قال : فإن أضفت تاء التأنيث إلىٰ مضمر، صارت تاء فتكتب شَجَرتك وناقتك ورحمتك وما أشبهه بالتاء.

أما أخت وبنت، وجمعُ المؤنث السالمُ مثل قائمات وصائمات وتائبات، وتاءُ التأنيث الساكنةُ فى آخر الفعل نحو قامتْ وقعدتْ، وما أشبه ذلك، فإنه يكتب جميع ذلك بالتاء لأن الوقف عليها بالتاء.

قال ابن قتيبة : وهَيْهَاتَ يوقف عليها بالهاء والتاء، والإجماع علىٰ كتابتها بالتاء. ثم اللفظ الذى يكتب علىٰ نوعين :

النـــوع الأوّل

(أن يكون اسما لحرف من حروف الهجاء، وهو علىٰ وجهين)

الوجه الأوّل

(أن يكون اسما قاصرا علىٰ الحرف لم يُسَمَّ به غيره، وله حالان)

أحدهما ـ أن يقصد اسم ذلك الحرف لا مُسمّاه فيكتب الملفوظ به نحو جيم إذا سئل كتابته فيكتب بجيم وياء وميم.

(١٢)

الثـانى ــ أن يقصد مسماه لا ٱسمه فيجب الاقتصار فى الكتابة علىٰ أوّل حرف فى الكلمة، ويكتب بصورة ذلك الحرف مثل قٓ نٓ صٓ ، ولذلك كتبت الحروف المفتتح بهـا السور علىٰ نحو ما كتبوا حروف المعجم . وذلك لأنهم أرادوا أن يضعوا أشكالا لهـذه الحروف تتميز بها ، فهى أسماءٌ مدلولاتها أشكال خَطِّية ، ولو لم يضَعُوا لها هذه الأشكالَ الخطية ، لم يكن للخط دلالة علىٰ المنطوق . ولو ٱقتصروا علىٰ كتبها علىٰ حسب النطق ولم يضـعوا لهـا أشكالا مفردة تتميز بها لم يمكن ذلك : لأن الكتابة بحسب النطق متوقفـةٌ علىٰ معرفة كل حرف حرف وشكلُ كل حرف حرف غير موضوع ، فٱستحال كتبها علىٰ حسب النطق . ألا ترىٰ أنك إذا قيل لك : ٱكتب جيم ، عين ، فاء ، راء ، فإنما تكتب هـذه الصورة "جعفر" والملفوظ بلسان الآمر بالكتابة جيم والمكتوب ج . ولو كان تصوير اللفظ بصور هجائه ، لكان المكتوب "جيم" كالملفوظ علىٰ قياس غيره من الألفاظ .

ويشهد لذلك ما حكِيَ أنّ الخليل رحمه الله قال يوما لطلبته : كيف تنطِقون بالجيم من جعفر ؟ فقالوا جيم فقال : إنمـا نطقتم بالاسم ولم تلفِظُوا بالمسئول عنه ، ثم قال : الجواب جَه لأنه المسمّى من الكاب (يريد جيما مفتوحة ، وإنمـا أتىٰ فيها بالهاء ليمكن الوقف عليها) .

الوجه الثـانى

(أن لا يكون الاسم قاصرا علىٰ الحرف بأن يسمّى به غيره أيضا كما إذا سُمِّيَ رجل بقاف أو بياسين ، فللكُتّاب فيه مذهبان) :

أحدهما ــ أن تكتب صورة الحرف هكذا قٓ و يسٓ .

والثانى ــ أن يكتب الملفوظ به هكذا "قاف" و "ياسين" وهو ٱختيار أبى عمرو بن الحاجب رحمه الله .

النـــــوع الثـانى

(أن لا يكون آسما لحرف من حروف المعجم، وهو على وجهين أيضا)

الوجه الأوّل

(أن يكون له معنًى واحدٌ فقط)

فيكتب هكذا (زيد) إذا طلب كتابة زاى، ياء[١]، دال.

الوجه الثـانى

(أن يكون له أكثر من معنى واحد)

فيكتب بحسب القرينة كما إذا قيل لك: آكتب شعرا فإن دلت القرينة على أن المراد هذا اللفظ كتب هكذا (شعرا) وإلا فيكتب ماينطبق عليه الشعر إذ هو معنى الشعر.

الضرب الثـانى

(ما تغير عن أصله، وهو على ثلاثة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(ما تغير بالزيادة. والزيادة تقع فى الكتابة بثلاثة أحرف)

الحرف الأوّل

(الألف، وتزاد فى مواضـــع)

(منها) تزاد بعد الميم فى مائة فتكتب على هذه الصورة (مائة) فرقا بينها وبين مِنْهُ، وإنمـا كانت الزيادة من حروف العـلة دون غيرها لأنها تكثر زيادتها، وكان حرف العـلة ألفا لأنها تشبه الهمزة، ولأن الفتحة من جنس الألف. ولم تكن الزيادة ياء، لأنه يستثقل فى الخط أن يُجْمَعَ بين حرفين مثلين فى موضـع مأمون فيه اللبس.

(١) عبارة الضوء فان كان له معنى (أى واحد) كتب على هذه الصورة "زيد" وهى أوضح.

ألا ترىٰ إلىٰ كتابتهم خطيئة علىٰ وزن فعيلة بياء واحدة ولو كتبت علىٰ صيغة لفظها، لوجب أن تكتب بياءين، ياء لبناء فعيلة، وياء هى صورة الهمزة . ولم تكن الزيادة واوا لأستثقال الجمع بين الياء والواو، وجُعِلَ الفرق فى مائة ولم يجعل فى منه لأن مائة آسم ومنه حرف والآسم أحمل للزيادة من الحرف، ولأن المائة محذوفة اللام بدليل قولهم: أمْأَيت الدراهم، فجعل الفرق فى مائة بدلا من المحذوف مع كثرة الآستعمال؛ ثم آختلف فى المثنّى منه فقيـل لا يزاد فى مائتين لأن موجب الزيادة اللبس ولا لَبْس فى التثنية، والراجح الزيادة كما فى الإفراد : لأن التثنية لا تغير الواحد عما كان عليه .

أما فى حالة الجمع، فقد آتفـقوا علىٰ منع الزيادة فكتبوا " مئين ومئات " بغـير ألف بعد الميم : لأن جمع التكسير يتغير فيه الواحد وجمع السلامة ربما تغير فيه أيضا فغلبت .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله : وقد رأيت بخط بعض النحاة " مأة " علىٰ هذه الصورة بألف عليها نبرة الهمزة دون ياء . قال : وكثيرا ما أَكْتُبُ أنا "مئة" بغير ألف كما تكتب "فئة" لأن كَتْبَ مائة بالألف خارج عن القياس . فالذى أختاره أن تكتب بالألف دون اليـاء علىٰ وجه تحقيق الهمزة، أو باليـاء دون الألف علىٰ وجه تسهيلها .

(ومنها) تزاد بعد واو الجمع المتطرّفة فى آخر الكلمة إذا آتصلت بفعل ماض أو فعل أمر مثـل ضَرَبُوا وآضْرِبوا وما أشبههما فتكتب بألف بعد الواو . وسمّى آبن قتيبة هذه الألفَ ألفَ الفصل لأنها تفصل بين الفعل (١) كى لا تلتبس الواو فى آخر الفعل بواو العطف . فإنك لو كتبتَ أَوْرَدُوا وصـدَرُوا مثلا بغير ألف ثم آتصلت بكلام

(١) لعل الأظهر لأنها تفصل بين الفعل وما بعده من الكلام .

بعدها، ظن القارئ أنها واو العطف. ولمّا فعلوا ذلك فى الأفعال التى تنقطع واوُها عن الحرف كالفعلين المتقدّمين، فعلوا ذلك فى الأفعال التى تتصل واوُها بالحرف قبلها نحو كانوا و بانوا ليكون حكم هذه الواو فى جميع المواضع واحدا. أما إذا لم تقع طَرَفا فى آخر الكلام نحو ضربوهم وكَالُوهُمْ ووَزَنُوهُمْ، لم تلحق به الألف. فلو ٱتصلت واو الجمع المذكورة بفعل مضارع نحو لن يضربوا ولن يذهبوا. فمذهب بعض البَصْرِيِّينَ أنه لا تلحقها الألف. ومذهب الأخفش لُحُوقُها كالماضى والأمر.

ولو ٱتصلت باسم نحو ضاربوهم وضاربو زيد. فمذهب البَصْرِيِّينَ أنها لا تُلْحَق بل يجعل الاسم تلو الواو. ومذهب الكوفيين أنها تلحق فيكتبون ضارِبُوا زيد وقاتِلُوا عمرو وهُمُوا بألف بعد الواو فى الجميع، والراجح الأوّل.

(ومنها) زادها الفرّاء فى يدعو و يغزو فى المفرد حالة الرفع خاصّةً تشبيها بواو الجمع.

وأطلق ٱبن قتيبة النقل عن بعض كُتَّاب زمانه بأنها لا تُلْحَق فى مثل ذلك: لأن العلة التى أُدخِلتْ هذه الألف لأجلها فى الجمع لا تلزم هنا: لأنك إذا كتبتَ الفعل الذى تتصل واوه به من هذا الباب مثل أنا أرجو وأنا أدعو لم تشبه واوُه واوَ العطف أيضا إلا بأن تزيل الكلمة عن معناها لأن الواو من نفس الفعل لا تفارقه إلا فى حال جزمه، والواو فى صَدَرُوا، ووردُوا واوُ جمع مكتنف بنفسه يمكن أن يجعل للواحد وتتوهم الواو عاطفةً لشىء عليه. قال: وقد ذهبوا مذهبا. غير أن متقدّمى الكُتَّاب لم يزالوا على إلحاق ألف الفَصل بهذه الواوات كلها ليكون الحكم فى كل موضع واحدا.

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان: وفَصَّل الكسائىّ فى حالة النصب فقال: إن لم يتصل[1] به ضمير نحو لن يدعوك، كتب بغير ألف فرقا بين الحالين.

---

(١) لعل الصواب [إن لم يتصل به ضمير نحو لن يدعو كتب بألف. وإن ٱتصل به ضمير نحو الخ].

(ومنها) تزاد شـذوذا بعـد الواو المبدَلة من الألف فى الرِّبٰو فتكتب بألف بعد الواو علىٰ هذه الصورة (الربوا) تنبيها علىٰ أن الأصـل أن يكتب بالألف . ووجه الشذوذ أنه من ذوات الواو فكان قياسه أن يكتب بالألف .

وقد زيدت فى مواضع من المصحف، كما فى قوله تعالى: "إِنِ ٱمْرُؤًا هَلَكَ" تنبيها علىٰ أنه كان ينبغى أن تكون صورة الهمزة ألفا علىٰ كل حال ولا يعتدّ بالضم والكسرة إذ اللغة الأصلية فيها إنما هى فتح الراء دائما، والقياس كتابته بصورة الحركة التى قبل الهمزة ، وكذلك كتبوا "لَاأَوْضَعُوا" بزيادة ألف بعد اللام ألف ، وذلك مختص برسم المصحف الكريم دون غيره، فلا يقاس عليه والله أعلم .

الحرف الثـانى

(الواو ، وتزاد فى مواضع أيضـا)

(منهـا) تزاد فى عمرو بعد الراء إذا كان عَلَمًا فى حالتى الرفع والجر فرقا بينه و بين عُمَر . وكانت الزيادة واوا ولم تكن ياء لئـلا يلتبس بالمضاف إلىٰ ياء المتكلم ، ولا ألفا لئـلا يلتبس المرفوع بالمنصوب . وجعلت الزيادة فى عمرو دون عُمَر، لأن عَمْرا أخفُّ من عُمَر من حيث بناؤه علىٰ فَعْل ومن حيث ٱنصرافُه . أما فى حالة النصب فلا تزاد فيه الواو ويكتب عمرو بألف وعُمَرُ لا يكتب بألف لأنه لا ينصرف ، وكذلك المحلّى باللام كالعَمْر والمضاف كعَمْرِه والواقع قافية شعر كقول الشاعر :

إِنَّمَـا أَنْتَ فِى سُـلَيْمٍ كَوَاوٍ * أُلْحِقَتْ فِى الهِجَاء ظُلْمًا بِعَمْرِ

وكذلك عَمْرٌ واحد عُمُور الأسنان : وهو اللحم الذى بينها، وما هو بمعنىٰ المصـدر مثل قولهم : لَعَمْرُ الله لا تزاد فيه الواو إذ لا لَبْس . ولم يفرقوا فى الكتابة بين عُمَر العَلَم وعُمَر جمع عُمْرَةٍ لأنهما ليسا من جنس واحد فلا يلتبسان .

(ومنهـا) تزاد فى أولئك بين الألف واللام فرقا بينها وبين إليك إذ حذفوا ألف أولئك الذى بعد اللام لكثرة الاستعمال فالتبست بإليك، وكانت الواو أولى بالزيادة من الياء: لمناسبة ضمة الهمزة، ومن الألف: لاجتماع صورتى الألف وهم يحذفون الواحدة إذا اجتمعت صورتاها، وجعلت الزيادة فى أولئك دون إليك: لأن الاسم أحمل للزيادة من الحرف ولأن أولئك قد حذف منـه الألف فكان أولى بالزيادة لتكون كالعوض من المحذوف.

قال ابن الحاجب: وحملوا أولى عليه مع عدم اللبس كما حملوا مائتين على مائة.

(ومنها) تزاد فى أُولِى وفى أُولُو بين الألف واللام، أما فى أُولِى فللفرق بينها وبين إلى، وأما فى أولو فبالحمل على أُولِى بالياء، صرح به الشيخ أبو عمرو بن الحاجب، وقاله الشـيخ أثير الدين أبو حيان بحثا وادّعى أنه لم يَظْفَرْ فى تعليله بنصّ. قال: وحمل التأنيثُ فى أُولَات على التذكير فى أولى.

(ومنها) تزاد فى أُوَخىّ تصغير أَخِى بين الألف والخـاء، والتغيير يأنس بالتغيير. وجعلت الزيادة واوا لمناسـبة ضمة الهمزة كما فى أولئك ونحوه. وأكثر أهـل الخط لا يزيدونها لأن التصغير فرع عن التكبير وليس ببناء أصلىّ.

الحرف الثالث

(اليـاء المثنـاة تحت)

وتزاد فى مواضعَ من رسم المصحف الكريم فيكتبون قوله تعالى: ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ بياءين بين الألف والدال من قوله: "بِأَيْيدٍ". وقوله تعالى: ﴿من نَبَإِى الْمُرْسَلِينَ﴾ بياء بعد الألف من نبإ، وقوله تعالى: ﴿من مَلَإِيه﴾ و﴿من مَلَإِيهِمْ﴾ بياء قبل الهاء فيهما. وهذا مما يجب الانقياد إليه فى المصحف اقتداءً بالصحابة رضوان الله عليهم.

أما فى غير المصحف فيكتب بأيد بياء واحدة لأن الهمزة فيه أوّلُ كلمة فتصوَّر ألفـا كغيرها من الهَمَزات الواقعة أوّلا علىٰ ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعـالىٰ . و يكتب من نبإ ومن ملئه ومن ملَئهـم بغير ياء لأن الهمزة فى نبإ وملإ أخيرة بعد فتحة فتصوّر أَلِفًا كما فى نحو كلإ وخطإ، وكذلك إذا أضيف إليه الضمير .

وذهب بعضهم إلىٰ أنها تكتب فى هذا ياءً علىٰ ما يناسب حركتها سواء أضيفت نحو من كلئه أو لم تضف نحو من الكَلَئِ .

قال بعضهم : والأقيسُ أن يكتب ياء مع الضمير المتصل نحو من خطئـه لأنها صارت معه كالمتوسـطة و يكتب ألفا إذا تطرّفت نحو من خطإ آعتبارا بمـا يؤول إليه فى التخفيف والله أعلم .

النـــــوع الثـانى

(ما يغيَّر بالنقص)

والنقص يقع فى الكتابة علىٰ وجهين .

الوجه الأوّل

(ما لا يختص بحرف من الحروف، وهو المدغَمُ)

فيكتب كلُّ مشدّد من كلمة واحدة حرفا واحدا نحو شدّ ومدّ وآدّكر ومقرّ وآقشعرّ فيكتب بدال واحدة فى شـدّ ومدّ وآدّكر و راءٍ واحدة فى مقرّ وآقشـعرّ و إن كان فى اللفظ حرفان، فإن الحرف المدغم فيما بعده هو متلفظ به ساكنا مدغما، فكان قياسه أن تكتب له صورة بحسب النطق، لكنه لما أدغم ضَعُفَ بالإدغام، إذ صار النطق به و بالمدغم فيــه نطقا واحدا فآقتصر فى الكتابة علىٰ حرف واحد ولم يجعــل للأوّل صورة آختصارا . وسواء كان المدغم إدغام مثل نحو رَدَّ أومقارب نحو آطَّجع أصله

ٱضطجع . وأجروا نحو قَنَتُّ مُجرىٰ ما هو من كلمة واحدة و إن كان من كلمتين لشدّة ٱتصال الفعل بالفاعل مع كون الحرفين مثلين .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله : وكذلك نحو مِمَّ وعَمَّ وإلَّامَ (١) .

الوجه الثانى
(ما يختص بحرف من الحروف)

و ينحصر ذلك فى خمسة أحرف :

الحرف الأوّل
(الألف ، وتحذف فى مواضع)

(منها) تحذف مع لام التعريف إذا دخلت عليها لام الجرّ، فيكتب لِلْقوم ولِلْغلام وللناس بلامين متواليتين من غير ألف ؛ بخلاف ما إذا دخلت عليها باء الجرّ فإنها لا تُحذَف، فيكتب بالقوم و بالغلام وبالناس بألف بين الباء واللام . و إن كان فى أوّل الكلمة ألف ولام من نفس الكلمة ليستا اللتين للتعريف نحو الألف واللام فى ٱلتقاء وٱلتفاتٌ وٱلتباس . ثم دخلت لام الجرّ أو باؤه ثبتت الألف ، فيكتب بالتقائنا ولِٱلتفاتنا و لِٱلتباس الأمر علىّ و بٱلتباسه ، فإن أدخلتَ ألف التعريف ولامه علىٰ الألف واللام اللتين من نفس الكلمة للتعريف ولم تَصِلِ الكلمةَ بلام الجرّ وبائه لم تحذف شيئا ، فيكتب الٱلتقاء والٱلتفات والٱلتباس بلامين (٢) ولامين ، وكذلك إذا وصلتهما بلام الجرّ أو بائه ، فيكتب بالٱلتقاء و بالٱلتفات و بالٱلتباس وللٱلتقاء وللٱلتفات وللٱلتباس .

(ومنها) تُحذَف بعد اللام الثانية من لفظ الله تعالىٰ ، و بعد الميم من الرحمن إذا دخلت عليها الألف واللام ، فيكتب الله بلامين بعدهما هاء علىٰ هذه الصورة "الله"

(١) ليس من الباب فالصواب حذفه كما وقع فى الضوء . (٢) لعله بألفين ولامين .

وإن كانت المدّة بعد اللام الثانية توجب أَلِفًا بعدها، ويكتب الرحمن بنون بعد الميم علىٰ هـذه الصورة "الرحمن" وإن كانت المدّة علىٰ الميم توجب ألفا بعدها : لأنه لا ٱلتباسَ فى هذين الاسمين، ولكثرة الاستعمال . فلو تجرّدا عن الألف واللام كتبا بالألف كما قالوا : لَاهِ أبوك يريدون لله أبوك، فحذفوا حرف الجرّ والألف واللام وكتبوه بالألف . وكقولك : رَحمانُ الدنيا والآخرة فيكتبونه بالألف .

(ومنها) تحذف بعد اللام من السلام فى عبد السلام وفى السلام عليكم، فيكتبان علىٰ هذه الصورة : "عبد السَّلٰم" و"السَّلٰم عليكم" .

(ومنها) تحذف بعد اللام من ملائكة، فتكتب علىٰ هذه الصورة : "ملٰئكة" .
قال أحمد بن يحيى : لأنه لا يشبهه لفظ مثله، ولكثرة الاستعمال .

(ومنها) تحذف بعد الميم من سموات، فتكتب علىٰ هذه الصورة : "سمٰوات" .

قال الشيـخ أثير الدين أبو حيـان : وعلة الحذف فيه علة الحذف فى الملائكة من كثرة الاستعمال وعدم الشـبه . وأما الألف الثانية منه وهى التى بعد الواو، فإنها لا تحذف : لأنها دليل الجمع، ولأنها لو حذفت لاجتمع فى الكلمة حذفان، وقد كُتِبَتْ فى المصحف بحذف الألفين جميعا فيجب الانقياد إليه فى المصحف خاصَّةً .

(ومنها) تحذف بعـد اللام فى أُولئك، وبعد الذال من ذلك فيكتبان علىٰ هذه الصورة : "أولئك" و"ذلك" . فلو تجرّد أولاء وذا عن حرف الخطاب وهو الكافُ، كتِبا بالألف فيكتبان علىٰ هذه الصورة : "أولاء" و"ذا" .

(ومنها) تحذَف بعـد ها التنبيه إذا ٱتصلت بذا (١) التى للإشارة وكانت خالية من كاف الخطاب فى آخر الكلمة، فتحذف من هذا وهذه وهؤلاء، فيكتب الجميع بغير ألف، فان ٱتصلت باسم الإشـارة الكاف نحو ذاك ٱمتنع الحذف، فيكتب بألف

(١) أى وأولاء كما يؤخذ من التمثيل .

بعد الهاء على هذه الصورة "ها ذاك" ولا يضر آختلاف حرف الخطاب بالنسبة للإفراد والجمع والتذكير والتأنيث . وأما تا وتِى فى الإشارة بتا (١) للمذكر وبتى للمؤنث، فإن الألف لاتحذف معهما إذا آتصلت بهما ها التنبيه، فيكتب هاتا وهاتى وهاتان.

وذكر أحمد بن يحيىٰ : أنها حذفت من هـأنتم وهـأنا وهـأنت أيضا، فتكتب بألف واحدة بعد الهاء فى جميع ذلك . قال : وهو القياس؛ وكان الأصل أن تكتب بألفين علىٰ هذه الصورة : ها أنتم وها أنا وها أنت؛ ثم تلى الهمزة . ودليل أن ألف ها قد حذفت من ها التنبيه فى غير آتصالها بذا وما والاها من رسم المصحف فى ثلاثة مواضع من القرءان الكريم فى النور ﴿ أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وفى الزخرف ﴿ يٰأَيُّهَ السَّاحِرُ ﴾ وفى الرحمن ﴿ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾.

قال آبن قتيبة : ويكتب أيها الرجل وأيها الأمير بالألف وإن كان قد كتب فى القرءان الكريم بالألف وغير الألف لآختلافهم فى الوقف عليها .

(ومنها) تحذف من ثمانية عشر وثمانى نساء، بخلاف ما إذا حذفت الياء منها نحو ثمان عشرة وعندى من النساء ثمانٍ فإنه لا تحذف الألف، بل تكتب علىٰ هذه الصورة : "ثمان عشرة وعندى من النساء ثمان" لأنه قد حذف منه الياء فلو حذف الألف، لتوالىٰ الحذف فيكثر : فمثل قول الشاعر :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ ثَمٰنِيًا وثَمٰنِيًا * وثَمَانَ عَشَرَةَ وَٱثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعَا

يكتب الأوّلان بغير ألف والثالثة بالألف . وفى ثمانين وجهان : أحدهما إثبات الألف بعد الميم فيها : لأنه قد حذف منه الياء إذ الياء فى ثمانين ليست ياء ثمانية لأنها حرف الإعراب المنقلبُ عن الواو فى حالة الرفع، فلو حذفت الألف أيضا لتوالىٰ فيه الحذف . والوجه الثانى الحذف : لأن الياء منه كأنها لم تحذف بدليل أنه قد عاقبتها

(١) كذا فى الضوء أيضا ولعله سهو أو سبق قلم فان تا وتى للمؤنث كما هو واضح .

ياء أخرىٰ فهما لايجتمعان، فكأن الياء موجودة إجراء للعاقِب مجرىٰ المُعاقَب . و إذا قلت ثمانون بالواو،لحكمهُ حكم ثمانين بالياء فى جواز الوجهين .

(ومنها) تحذَف بعد اللام من ثلاث فيكتب علىٰ هذه الصورة : "ثَلٰث" سواء كانت مفردة، نحو عندى ثَلٰث من البَطِّ، أو مضافة نحو ثَلٰث نساء، أو مركبة نحو ثلث عشرة ٱمرأة، أو معطوفة نحو ثلٰث وثلاثون جارية، وحكم ثلثـة بالتاء كذلك فى جميع الصور .

وكذلك تحذف أيضا من ثلاثين وثلاثون بالياء والواو، فيكتبان علىٰ هذه الصورة : "ثلثين" و "ثلثون" .

فأما ثُلاثَ المعدولُ كما فى قوله تعالىٰ : "مَثْنىٰ وثُلَاثَ" . فقال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمـه الله : لم أقف فيـه علىٰ نَقْل . قال : والذى أختاره أن يكتب بالألف لوجهين : أحدهما أنه لم يكثر كثرة ثلٰث، وثلثة، وثلثين، وثلثون . والثانى أنها لو حذفت لٱلتبست بثلٰثٍ الذى ليس بمعدول .

قال ٱبن قاسم رحمه الله : وقد ذكر فى " المقنع " أنه محذوف فى الرسم .

(ومنها) تحذف من ــ يا ــ التى للنداء إذا ٱتصلت بهمزة نحو ياأحمد، ياإبراهيم، ياأبا بكر، ياأبانا، فتكتب علىٰ هـذه الصورة : يٰأحمد، يٰإبرهيم، يٰأبابكر، يٰأبانا . ثم الأظهر أن المحذوف هو ألف يا لا صورة الهمزة .

وقال أحمد بن يحيىٰ : المحـذوف صورة الهمزة لا الألف من يا نعم إذا كانت الهمزة المتصلة بيا كهمزة آدم ٱمتنع الحـذف، وكتبت بألفين علىٰ هذه الصورة : ياآدم : لأنهم قد حذفوا ألفا من آدم لتوالى أَلِفَيْنِ، وحرف النداء مع المنادىٰ كالكلمة الواحدة بدليـل أنه لايجوز الفصل بينهما فلو حذفت الألف من يا لٱجتمع فيما هو كالكلمة الواحدة حذف أَلِفَيْنِ .

أما إذا لم يلِ يا همزةٌ البتةَ نحو يازيد، و ياجعفر، فالذى يستعمله الكُتَّابُ فيه إثبات الألف فى يا . وفى كلام أحمد بن يحيىٰ تجويز كتابته بغير ألف أيضا، توجيها بأنهم جعلوا يا مع ما بعدها شيئا واحدا، إذ أقاموا يا مُقَامَ الألف واللام بدليل أنهم لاينادون ما فيه ألف ولام، فلا يقولون يا الرجل .

(ومنها) تحذف من الحارث إذا كان عَلَماً ودخلت عليه الألف واللام ، فيكتب علىٰ هـذه الصورة : الحٰرث . أما إذا عَرِىَ عن الألف واللام ، فإنه يثبت فيه الألف لئلا يلتبسَ بحرب بالباء المُوَحَّدَةِ إذ قد سمى به، وإنما ٱمتنع اللبس مع الألف واللام لأنهما إنما يدخلان من الأعلام علىٰ ما كان صفةً إذا أريد به معنىٰ التفاؤل وحَرْبٌ ليس بصفة فلم يدخلا عليه وإن كانا قد دخلا علىٰ بعض المصادر كالعَلَاء. وكذلك إذا كان حارث ٱسم فاعل من الحرث فإنه يكتب بالألف أيضا كما إذا عرى عن الألف واللام .

(ومنها) تحذف مما كثر ٱستعماله من الأعلام الزائدة علىٰ ثلاثة أحرف إذا لم يحذف منها شيء، سواء كان ذلك العلم من اللغة العربية نحو مالك، وصالح، وخالد، أو من اللغة العجمية نحو إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وهارون، وسليمان، فتكتب علىٰ هذه الصورة: ملٰك، وصلٰح، وخلٰد، وإبرٰهيم، وإسمٰعيل، وهٰرون، وسليمٰن. بخلاف ما إذا لم يكثر ٱستعماله كحاتم، وجابر، وحامد، وسالم، وطالوت، وجالوت، وهاروت وماروت، وهامان، وقارون، فإنها لاتحذف ألفها .

وقد حذفت فى بعض المصاحف من هاروت ، وماروت ، وهامان ، وقارون، فكتبت علىٰ هذه الصورة: هروت، ومروت، وهمن، وقرون .

قال الشيخ أثير الدّين أبو حيان رحمه الله: وذكر بعض شيوخنا أن إثباتها فى نحو صالح، وخالد، ومالك جيدٌ .

وقال أحمد بن يحيىٰ : يجوز فيه الوجهان، وهو قضية كلام ٱبن قتيبة .

أما إذا كان العَلَمُ الذى كَثُر ٱستعماله علىٰ ثلاثة أحرفٍ فما دونها نحو هَالة وأَوْس[(١)] ولام ، فإنه لا تحـذف ألفه، وكذلك إذا حذف منه شيء غير الألف نحو إسراءيل وداود، لأنهم قد حذفوا من إسراءيل صورة الهمزة، ومن داود الواو فٱمتنع حذف الألف لئلا يتوالىٰ الحذف .

ويلتحق بذلك فى الإثبات مالو خيف بالحذف ٱلتباسه : كعامر، وعَبَّاس ، فلا تحـذف منه الألف أيضا، لأنه لو كتب بغير ألف، لٱلتبس عامر بعُمَر، وعباس بعبْس .

(ومنها) تحذف ٱستحسانا مما كثر ٱستعماله ، مما فى آخره الألف والنون نحو شعبان، وعثمان وما أشبهما، فيكتبان علىٰ هذه الصورة "شعبن" و "عثمن".

قال الشيخ أثير الدّين أبو حيان رحمه الله : إلا أنهم لم يحذفوا ألفَ عِمْرَان والإثبات فى نحو شعبان حسنٌ أيضا .

قال ٱبن قتيبة : فأما شَيْطَان، ودِهْقَان، فإثبات الألف فيهما حسن. وكان القياس إذا دخلت عليهما الألف واللام أن يكتبا بغـير ألف، إلا أن الكُتَّابَ مُجْمِعُون علىٰ تَرْك القياس فى ذلك.

(ومنها) تحذف من كل جمع علىٰ وزن مفـاعل أو وزن مفاعيل، إذا لم يحصـل بالحذف ٱلتباس الجمع فيه بالواحد لموافقته له فى الصورة، بحيث لا يقع اللَّبْس مثل خواتم ودوانق فى وزن مفاعل ومحاريب وتمـاثيل وشـياطين فى وزن مفاعيل

---

(١) كذا فى الأصل والضوء أيضا .

تحذف الألف فيكتب على هذه الصورة : خوٰتم ، ودوٰنق ، ومحٰريب ، وتمٰثيل ، وشيٰطين ، ودهٰقين . إذ المفرد منها خَاتَمٌ ، ودَانِقٌ ، ومِحْرَابٌ ، وتِمْثَالٌ ، وشيطان ، ودِهْقَان ، وهى لاتشابه صور الجمع فيها . بخلاف ما إذا كان يلتبس فيه الجمع بالواحد ، مثل مساكين فى وزن مفاعيل جمع مِسْكين فإنه يكتب بالألف لئلا يلتبس بالواحد . فلو كان الحذف يؤدّى إلى موافقته للواحد فى الصورة لكنه فى غير موضع المفرد نحو ثلاثة دراهم ، ودراهم جياد ، ودراهم معدودة ، حذفتْ منه الألفُ وكتب على هذه الصورة : ثلٰثة درٰهم ، ودرٰهم جياد ، ودرٰهم معدودة ، لأنه لايلتبس حينئذ . بخلاف عندى دراهم ونحوه فإنه لو حذفت الألف منه ، لالتبس بدرهم المفرد .

ثم الحذف فى مفاعل ومفاعيل على ما تقدّم إنما هو على سبيل الجواز ، وإلا فالإثبات أَجْوَدُ .

وشَرط بعض المغاربة فى جواز الحذف شرطا : وهو أن لاتكون الألف فاصلا بين حرفين متماثلين ، فلا تحذَف الألف من نحو سكاكين ، ودكاكين ، ودنانير، لئلا يجتمع مثلان فى الخط وهو مكروه فى الخط ككراهته فى اللفظ .

وقد كُتِبَ فى المصحف مساكين ، ومساكنهم بغير ألف على هذه الصورة مَسٰكِينُ ، ومَسٰكِنُهُمْ ، وإن كان اللبس موجودا .

قال الشيخ أثير الدّين أبو حيان رحمه الله : وإنما كتبتا كذلك لأنهما قد قرئا بالإفراد فكتبتا على مايصلح فيهما من القراءة . كما كتبوا ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ﴾ بغير ألف على هذه الصورة ﴿وَمَا يُخٰدِعُونَ﴾ لأنه يصلح لقراءة يَخْدَعُونَ من الثلاثىّ .

(ومنها) تحذف الألف الأولى مما كان فيه ألفان ، مما جمع بالألف والتاء المزيدتين نحو صالحات ، وعابدات ، وقانتات ، وذاكرات ، فتكتب على هذه الصورة "صٰلحٰت ، وعٰبدٰت ، وقٰنتٰت ، وذٰكرٰت" .

وكذلك تحذف من صفات جمع المذكر السالم نحو الصالحين، والقانتين، فيكتب علىٰ هذه الصورة : "الصّٰلحين" و"القٰنتين" وإن لم يكن فيه ألف أخرىٰ حملا علىٰ المؤنث .

وقال بعض المغاربة : إن كان مع ألف الجمع ألف أخرىٰ كالسماوات، والصالحات، فيختار حذف ألف الجمع وإبقاء الأخرىٰ . وثبت فى المصحف بحذف الألفين جميعا علىٰ هذه الصورة : "سموت، وصلحت" وكذلك سياحات، وغيَابات . وإن كان ليس فيه ألف أخرىٰ فالمختار إثبات الألف كالمسلمات ، وثبت أيضا فى المصحف محذوف الألف علىٰ هذه الصورة : مسلمت .

قال : وتحذف أيضا فى جمع المذكر السالم من الصفات المستعملة كثيرا : كالشاكرين، والصادقين، والخاسرين، والكافرين، والظالمين، وما أشبهها فى كثرة الاستعمال فتكتب علىٰ هذه الصورة "الشكرين، والصدقين، والخسرين، والكفرين، والظلمين" .

نعم إن خِيفَ اللبس فيما جمع بالألف والتاء مثل طالحات، امتنع الحذف لأنه لو حذفت الألف منه، لالتبس بطَلْحَاتٍ جمع طَلْحَةٍ . وكذلك لو خيف اللبس فيما جمع بالواو والنون، نحو حاذرين، وفارهين، وفارحين . فلو حذفت الألف منه، لالتبس بحَذِرين، وفَرِهين، وفَرِحين، وهما مختلفان فى الدلالة، لأن فاعلا من هذا النوع مذهوب به مَذْهَب الزمان، وفَعِل يدل علىٰ المبالغة لا علىٰ الزمان، .

وكذلك لو كان مضعَّفا مثل شَابَّات ، والعادّين ، فلا يجوز فيه حذف الألف لأنه بالإدغام نقص فى الخط إذ جعلوا الصورة للمُدْغَم والمُدْغَم فيه شكلا واحدا . ولذلك كتبوا فى المُصْحَف الضَّالّين والعادّين بالألف . وقد أجرى مُجْرىٰ المُضَعَّف فى الإثبات مابعد ألفه همزةٌ نحو الخائنين . وقد حذفت ألفه فى بعض

المصاحف، فكتب على هذه الصورة "الخطئين". ويتعين الإثبات أيضا فيما هو معتل اللام مثل دانيات حملا على دانين، كما حذف من الصالحين حملا على الصالحات، ومثل الرامين لأنه قد حذف منه لام الفعل . وحمل ماجمع بالألف والتاء عليه كما حمل الصالحين على الصالحات فى حذف الألف، وإن كانت العلة فيهما مفقودة .

قال ٱبن قتيبة : وكذلك ما كان من ذوات الياء والواو لايجوز فيه حذف الألف نحوهم القاضُون، والرامُون، والساعُون : لأنهم حذفوا الياء لٱلتقاء الساكنين لمّا ٱستثقلوا ضمةً فى الياء بعد كسرة فسكنوا ثم حذفوا الياء، فكرهوا أن يحذفوا الألف أيضا لئلا يخلُّوا بالكلمة .

(ومنها) تحذف إحدى الألفين مما ٱجتمع فيه ألفان مثل أادم، وأازر، وأامن، وأامين، وأاتين، وأانفا، ووراأك، وقراأة، وبراأة، وشناان، وشبهه، فتكتب على هذه الصورة "آدم، وآزر، وآمن، وآمين، وآتين، وآنفا، ووراءك، وقراءة، وبراءة، وشنآن" فلو ٱنفتح الأول منهما كما فى قرأا لفعل الٱثنين من القراءة، كتب بألفين على هذه الصورة : (قرأا)، لئلا يلتبس بفعل الواحد، إذ المفرد تقول فيه قرأ فتكتبه بألف واحدة. وذهب قوم إلى أنه فى التثنية يكتب أيضا بألف واحدة مسندا إلى ألف الٱثنين، وبه قال أحمد بن يحيى. والذى عليه المتأخرون وهو الأجود عند ٱبن قتيبة ما تقدّم .

(ومنها) تحذف إحدى الألفات مما ٱجتمع فيه ثلاث ألفات، مثل براأات جمع براءة، ومساأات جمع مساءة، فتكتب بألفين فقط على هذه الصورة : "براآت" و"مساآت" لأنها فى الجمع ثلاث أَلِفَاتٍ . فلو حذفوا ٱثنتين، أَخَلُّوا بالكلمة .

(ومنها) تحذف من أوّل الكلمة فى الٱستفهام فى ٱسم، أوفعل، نحو آللهُ أَذِنَ لَكُمْ ؟ آلسِّحْرُ إِنَّ الله سَيُبْطِلُهُ؟ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين؟ أاصطفى البَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ؟

أالرجل فى الدار؟ أاسمك زيد أم عمرو؟ فتكتب بألف واحدة علىٰ هذه الصورة : آللهُ؟ آلسِّحْرُ؟ آلذَّكَرَيْنِ؟ آلرجل؟ آسمك؟ آلآن؟ .

ثم مذهب أحمد بن يحييٰ، وعليه جرىٰ آبن مالكٍ رحمه الله : أنه لافرق بين المكسورة، والمضمومة. والذى ذهب إليه المغاربة أنها تكتب بألفين، إحداهما ألف الوصل، والأخرىٰ همزة الآستفهام .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله : وجاز فى نحو ألرجل الأمران، ورسمت فى المصحف بألف واحدة نحو آلذكرين، آلآن .

(ومنها) تحذف من ما الآستفهامية إذا دخل عليها حرف من حروف الجرّ، نحو عَمَّ تسأل؟ وفِيمَ تُفَكِّر؟ ومِمَّ فَرِقْتَ؟ ولِمَ تكَلَّمتَ؟ وبِمَ عَلِمْتَ؟ وحَتَّامَ تَغْضَبُ؟ وعَلَامَ تَدْأَبُ؟ فتكتب كلها بغير ألف فى آخرها فرقا بينها وبين ما الموصولة، ويصير حرف الجرّ كأنه عوض من الألف المحذوفة . وكان الحذف من الآستفهامية دون الموصولة لأن آخرها منتهىٰ الآسم، والأطراف محلُّ التغيير. بخلاف الموصولة: لأنها متوسطة من حيث إنها تحتاج إلىٰ صلة .

وحكىٰ الكوفيون ثبوتها فى الآستفهامية أيضا، والله أعلم .

تذنيب

تحذف الهمزة المصوّرة بصورة الألف فى أربعة مواضع :

الأول ــ تحذف بعد الباء من بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، فتكتب بغير ألف علىٰ هذه الصورة: "بسم". والقياس إثباتها كما تكتب يأيها بالألف لكنها حذفت لكثرة الآستعمال، أما فى غير بسم الله الرحمن الرحيم، فظاهر كلام آبن مالك أنها لاتحذف، فتثبت فى بآسم ربك، وفى باسم الله، مفردا .

وقال بعضهم : إن كان مضافا إلىٰ لفظ الله تعالىٰ وليس متعلَّقُ الباء ملفوظا به، حذفت و إلا فلا، فتثبت فى بآسم ربك لأنه غير مضاف إلىٰ لفظ الله تعالىٰ، وفى نحو قولك تبركت بآسم الله : لأن متعلقه ملفوظ به .

وقال الفرّاء فى قوله تعالىٰ : ﴿ بِسْمِ اللهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ إن شئتَ أثبتَّ و إن شئت حذفتَ، فمَنْ أثبت قال : ليست مبتدأ بها، وليس معها الرحمن الرحيم؛ ومَنْ حذف، قال : كان معها الرحمن الرحيم فى الأصل، فحذفت فى الآستعمال . فإن أضفتَ الآسم إلىٰ الرحمن أو القاهر ونحوه، فقال الكسائىّ : تحذف، وقال الفرّاء : لايجوز أن تحذف إلا مع الله لأنها كررت معه، فإذا عَدَوْتَ ذلك أثبت الألف .

الثانى — تحذف بين الفاء والواو، وبين همزة هى فاء الفعل من وزن الكلمة، مثل قولك فَأْت وأْت : لأنهم لوأثبتوا لها صورة الألف، لكان ذلك جمعا بين ألفين : إحداهما صورة همزة الوصل، والأخرىٰ صورة الهمزة التى هى فاء الفعل، مع أن الواو والفاء شديدتا الآتصال بما بعدهما لا يوقف عليهما دونه، وهم لم يجمعوا بين ألفين فى سائر هجائهم إلا علىٰ خلاف فى المتطرّفة كما مر، لأن الأطراف محلّ التغييرات والزيادة، فلذلك حذفوها فى نحو فأذن، وأْتُمن فلان، وعليه كتبوا ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ ﴾ فلو كانت الهمزة بين غير الفاء والواو وبين الهمزة التى هى فاء الفعل ثبتت، نحو آئتو و ﴿ الَّذِى آؤْتُمِنَ ﴾ . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ آئْذَنْ لِّى ﴾ وكذلك لو كانت آبتداء والهمزة فاء الفعل، نحو آئْذن لى، آؤتمن فلان، ثبتت أيضا؛ أو ليست فاء، نحو ثم آضرب، وآضرب، فاضرب . وكذلك فى ﴿ وأْتُوا البيوت ﴾ .

الثالث — تحذف فى آبن وآبنة مما وقع فيه آبن مفردا صفةً بين عَلَمين، غير مفصول، فيكتب نحو جاء فلان بن فلان، أو فلانة بنة فلان بغير ألف فى آبن وآبنة . ولا فرق فى ذلك بين أن يكون العَلَمَان آسمين، نحو هذا أحمد بن عُمَر، أو كُنْيَتين،

نحو هــذا أبو بكر بن أبي عبد الله، أو لقبين، نحو هذا نَبْت بن بطة، أو ٱسما وكنيةً، نحو هــذا زيد بن أبي قُحَافَةَ، أو لقبا وٱسما، نحو هــذا أنفُ الناقة بن زيد، أو كنية ولقبا، نحو هذا أبو الحٰرث بن نَبْت، أو لقبا وكنية، نحو هذا بدر الدين بن أبي بكر.

فهذه سبع صور: تسقط فيها الألف من ٱبن ولا تسقط فيما عداها، فلو قلتَ هذا زيد ٱبنك، وٱبن أخيك، وٱبن عمك، ونحو ذلك مما ليس له صيغة بين علمين،(١) أثبتَّ فيـه الألفَ. وكذلك إذا كان خبرا كقولك: أظنّ زيدًا ٱبنَ عمرو، وكأنّ بكرا ٱبنُ خالد، وإن زيدا ٱبنُ عمرو، فتثبت الألف فى الجميع. ومنه فى القرءان الكريم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارىٰ الْمَسِيحُ ٱبْنُ اللهِ﴾ كتبتا فى المصحف بالألف. فلو ثنيت الٱبن، ألحقتَ فيـه الألف صـفة كان أو خبرا، فتكتب قال عبدالله: وزيدٌ ٱبنا محمد كذا وكذا، وأظنّ عبد الله وزيدا ٱبنى محمد فعَلَا كذا بالألف. وكذلك إذا ذكرتَ ٱبنًا بغير ٱسم، فتكتبُ: جاء ٱبن عبـد الله بالألف أيضا. وحكم ٱبنة مؤنثا فى جميع ما ذكر حكم الٱبن، تقول: جاءت هندُ بْنةُ قيس، فتحذف الألف.

وشرط الأستاذ أبو الحسن بن عُصْفُورٍ أن يكون مذكرا فلا تسقط من ٱبنة.

ونقل أحمد بن يحيىٰ عن أصحاب الكسائىّ: أنه متىٰ كان منسوبا إلىٰ ٱسم أبيـه أو أمه أو كنية أبيه أو أمّه وكان نعتا، حذفوا الألف فلم يُجزه فى غير الٱسم والكنية فى الأب والأم. قال: وأما الكسائىّ فقال: إذا أضفت إلىٰ ٱسم أبيه أو كنية أبيه، وكانت الكنية معروفا بها كما يعرف بٱسمه، جاز الحذف، لأن القياس عنده الإثبات، والحذف ٱستعمال، فإذا عدى الٱستعمال، رُجِعَ إلىٰ الأصل.

وحكىٰ ٱبن جنى عن متأخرى الكُتَّاب: أنهم لا يحذفون الألف مع الكنية، تقدّمت أو تأخرت. قال: وهو مردود عند العلماء علىٰ قياس مذاهبهم.

---

(١) فى الضوء [مما ليس بين علمين] وهى أوضح. [ولعل الأصل مما ليس صفة ... ...].

والألف تحذف من الخط فى كل موضع يحذف منه التنوين وهو حُذِفَ مع الكُنىٰ .

الرابع - تحذف من كل مُعَرّف بالألف واللام إذا دخلت عليه لامُ الآبتداء، نحو ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أو لامُ الجرّ، نحو للدّار ألُف ساكن غيرك؛ وقياسها الإثبات كما أثبتوها فى لأبنك قائم، ولِأبيك مال؛ وسبب حذفها آلتباسها بلا النافية .

وذهب بعضهم : إلىٰ أنها لاتحذف مع لام الآبتداء فرقا بينها وبين الجارّة. ولم يحذفوها من نحو مررت بالرجل والله أعلم .

الحرف الثانى
(اللام، وتحذف فى مواضع)

(منها) تحذف من الذى للزومها، فكأنها ليست منفصلة، وكذلك تحذف من جمعه وهو الذين لأنه يشبه مفرده فى لزوم البناء، ولفظ الواحد كأنه باق فيه؛ ولم يحذفوه من المثنّى كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾ فكتبوه بلامين فرقًا بينه وبين الجمع. وإنما آختصت التثنية بالإثبات، لأنها أسبق من الجمع، واللبس إنما حصل بالجمع .

(ومنها) تحذف من الّتى للزومها كما تقدّم، ومن تثنيتها وهى الّتان، وجمعها : وهى الّاتى لأنهما لايلتبسان، بخلاف تثنية الذى وحروفه .

وقال أحمد بن يحيىٰ : كتبوا اللاتى (الّتى) واللائى (الّئى) وأسقطوا لاما من أولها وألفا من آخرها . قال : وهذا للآستعمال لأنه يقل فى الكلام مثله، ويدل عليه ما قبله وما بعده، ولو كتب علىٰ لفظه كان أولىٰ .

قال الشيخ أثير الدين أبوحيّان رحمه الله: والذى عهدناه من الكُتَّاب أنه لاتحذف الألف لئلا يلتبس بالمفرد .

(ومنها) تحذف من الليل والليلة علىٰ أجود الوجهين ، فيكتبان بلام واحدة علىٰ هذه الصورة : "اللّيل واللّيْلة" : لأنّ فيه آتباع المصحف ؛ وأجاز بعضهم كتابته بلامين . قال أبو حيّان : وهو القياس .

(ومنها) تحذف من ... ...[1] ونحوه ، ممـا دخل عليه لام الجرّ فيكتب بلامين وإن كان فى اللفظ ثلاث لامات .

(ومنها) قال أحمد بن يحيىٰ : يكتب الّطيف بلام واحدة لأنه قد عُرِفَ فحذف ، وهذا بخلاف اللّهْو ، واللّعِب ، واللُّعْبَة ، واللاعبين ، واللّغو ، واللُّؤلُؤ ، واللّاتِ ، واللهم ، واللّهَب واللوّامة ، فإنها لاتحذف منها اللام .

قال آبن قتيبة : وكل آسم كان أوّلُه لامًا ثم أدخلت عليــه لام التعريف ، كتبتَه بلامين ، نحو اللهم ، واللابن ، واللحم ، واللجام ، وما أشبه ذلك . وإن كانوا قد آختلفوا فى الليل والليلة لموافقة المصحف كما تقدّم .

الحرف الثـالث

(النون ، وتحذف فى مواضع)

(منهـا) تحذف مِنْ عَنْ إذا وصلت بِمَنْ أو بِمَـا ، فتكتب عَمَّن وعَمَّا وعَمّ .

(ومنها) تحذف مِنْ مِنْ الجارّة إذا وُصِلَتْ بِمَنْ أو ما ، فتكتب مِمَّن ومِمَّـا .

(ومنها) تحذف مِنْ إنْ إذا وُصِلَتْ بلَمْ ، فتكتب إلَّمْ .

(ومنها) تحذف من أنْ المفتوحة إذا وُصِلَتْ بلا ، فتكتب أَلَّا .

---

(١) بياض بالأصل ولعله من اللّعِب ونحوه الخ .

الحرف الرابع

(الواو، وتحذف فى مواضع)

(منها) تحذف لأمْنِ اللبس، مثل ما كتبوا من قوله تعالىٰ : ﴿ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾. ﴿ وَيَمْحُ اللّٰهُ الْبَاطِلَ ﴾ بغير واو فى يدعو و يمحو، لأن ذكر الدّاع فى الأوّل، وذكر الله تعالىٰ فى الثانى يمنع أن يكون الفاعلُ جماعةً فلا يحصل اللبس، بخلاف قولك لاتضربوا الرجل : فإنه لو حذف لٱلتبس الجمع فيه بالواحد.

(ومنها) تحذف مما توالىٰ فيه واوان فى كلمة واحدة، مثل داوود، وطاووس، ورؤوس، ويَسْتَوُون، ويَلْوُون، وأْوُوا إلىٰ الكَهْفِ، ويُسَوُّوا، وتَبَوَّؤُوا، وجَاؤُوا، وبَاؤُوا، وأَسَاؤُوا، ويَؤُودُهُ، ويَؤُوسٌ، و، فادرؤوا، ومُبَرَّؤُون، فيكتب بواو واحدة.

وكتب بعضهم طاوُوس ونحوه بواوين علىٰ الأصل، والقياس الاقتصار علىٰ واو واحدة كراهة ٱجتماع المثلين .

وٱستثنىٰ ٱبن عُصْفُورٍ من ذلك موضعًا، وهو أن لايؤدّى إلىٰ اللبس، نحو قؤول وصؤول علىٰ وزن فَعُول فإنه يلتبس بقَوْلٍ وَصَوْلٍ، وٱختاره أحمد بن يحيىٰ .

(ومنها) تحذف مما توالىٰ فيه ثلاث واوات فى كلمتين ككلمة، مثل ليسوءوا، وينوءون، فتكتب ليسوءوا، وينوءون، بواوين فقط، ويكتب لَوَّوْا، وٱجْتَوَوْا، وٱلْتَوَوْا، بواوين، لأنه لو حذفت إحدىٰ الواوين لٱلتبس الجمع بالمفرد.

ووقع فى المصحف كتابة يَسْتَوُونَ، ويَلْوُونَ، بواو واحدة، وذلك لأن فى يستوون ونحوه ٱجتمع واوان وضمة، فناسب الحذف، وفى لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ، ونحوه ٱنفتح ماقبل الواو فناسب الإثبات .

(ومنها) تحذف للجزم كما فى قولك لم يَغْدُ فتحذف الواو علامةً للجزم، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

الحرف الخامس

(الياء، وتحذف فى مواضع)

(منها) للجزم كما فى قولك : لم يَقْضِ، فتحذف الياء من آخره علامةً للجزم .

(ومنها) تحذف لمراعاة الفواصل، نحو قوله تعالىٰ : "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ" بغير ياء فى آخرها لمراعاة ماقبله من قوله "والْفَجْرِ" .

(ومنها) تحذف فيما توالىٰ فيه ياءان أو ثلاثة، فتَكْتُبُ النَّبِيِّينَ، وخَاسِئِينَ، وخَاطِئِينَ، و إِسْرَائِيل، وما أشبه ذلك بياءين فقط[1]، و إن كان فى اللفظ ثلاث ياءات .

(ومنها) تحذف لأمن اللبس، فتَكْتُبُ قارءين جمع قارئ بياء واحدة، فرقا بينها و بين قَارِئَيْنِ تثنية قارئ فإنها تكتب بياءين .

(ومنها) تحذف مدّة ضمير[2] الغائب مثل قولك : ضربه، فتكتبه بغير واو، و إن كنت تلفظ به لأنك إذا وقفت حذفتها و وقفت علىٰ الهاء ساكنة ، وكذلك مدّة ضمير الغائبين، مثل قولك : ضربهُمُ فى لغة من وصل الميم، وكذلك حذفوها إذا وليت الكاف، نحو ضربكُمُ زيد ولكُمُ فى لغة من وصل الميم بواو و بياء، لأنه إذا وقف حذف الصلة والله أعلم .

النوع الثالث

(ما يُغيَّر بالبدل)

والحروف التى يدخلها البدل ثلاثة أحرف : الألف، والواو، والياء، والألف والياء أكثرهما تعاقبا .

فتنوب الياء عن الألف فى ثلاثة محالّ :

---

(١) لعل فى العبارة سقطا والأصل فيكتب بياء فقط وان كان فى اللفظ ياءين و بياءين فقط وان كان الخ .

(٢) تعلق هذا بالحرف الرابع أكثر منه بالخامس .

المحل الأوّل

(الاسم، وهو ثلاثة أحوال)

الحال الأوّل ـــ أن تكون الألف فيه رابعة فصاعدا، نحو المِعْزىٰ، والمُسْتَدْعىٰ، والحُبْلىٰ، والمَرْضىٰ، والمَلْهىٰ، والمَدْعىٰ، والمُشْتَرىٰ، ومِقْلىٰ، ومَثْنىٰ، وكذلك أَعْمىٰ، وأعْشىٰ، وأظْمىٰ، وأقْنىٰ، وأدْنىٰ، وأعْلىٰ، ومُعَافىٰ، ومُنَادىٰ، وما أشبه ذلك، فتكتب الألف فى جميع ذلك ياءً سواء كان منقلبا عن واو أو منقلبا عن ياء، لأنك إذا ثنيته ثنيته بالياء، ومن ثم كتبت ياويلتىٰ، وياحسرتىٰ، ويا أسفىٰ، بالياء إشعارا بأنها مما تمال أو تقلبها عند التثنية ياء، إلا فيما قبلها ياء نحو الدُّنْيا، والعُلْيا، والقُصْيا، وهُدْيا، ومَعْيَا، ومَحْيَا، وعام حَيًّا ورُؤْيَا، وسُقْيَا، فإنك لاتكتب الألف فيها ياءً كراهة أن تجتمع ياءان فى الخط. نعم يغتفر ذلك فى نحو يحيىٰ ورَيّىٰ عَلَمين: للفرق بينْ يحيىٰ علما وبينه فعلا وبين ريّىٰ علما وبينه وصفا، وكان البدل فى العلَم دون الوصف والفعل لأن الفعل والصفة أثقل.

قال ٱبن قتيبة: وأحسبهم ٱتبعوا فى يحيىٰ رسم المصحف.

فلو كان مهموزا، نحو مستقرأ ومستنبئا[(١)]، أو قبل آخره ياء نحو خَطَايَا، وزَوَايَا، ورَكَايَا، والحَوَايَا، والحيا، وما أشبهه كتب بالألف.

الحال الثانى ـــ أن تكون الألف فيه ثالثةً، فإن كانت مبدلة عن ياء، نحو فتىٰ، ورحىٰ، وسوىٰ، والهُدىٰ، والمَدىٰ للغاية، والهوىٰ لهوىٰ النفس، ونَدىٰ الأرض، ونَدىٰ الجُود، وحَفىٰ الدابة، والكرىٰ النوم، والقَذىٰ، والأَذىٰ، والخَنىٰ: فُحْشُ القول، والضَّنىٰ: المرض، والرَّدىٰ: الهلاك، والطَّوىٰ: الجوع، والأَسىٰ: الحُزْن، والعَمىٰ: فى القلب والعين، والجَنىٰ: جَنى الثمرة، والصَّدىٰ: العطشُ، والشَّرىٰ: فى الجسد، والضَّوىٰ:

(١) كذا فى الضوء أيضا وليس مما نحن فيه.

الهُزَال، والثَّرىٰ : التراب النَّـدِىّ، والجَوىٰ : داء فى الجوف، والسُّرىٰ : [سَـيْرُ] الليل، والسَّلىٰ : سَلىٰ الناقة، ومِنًى : المكان المعروف، والمَدىٰ الغاية، والصَّدىٰ آسم طائر يقـال إنه ذكر البوم، والنَّسىٰ : عرق فى الفَخِذ، وطُوًى : وَادٍ، والوَغىٰ : الحـربُ، والوَحىٰ : العَجَلُ، والوَرىٰ : الخَلْقُ، والذَّرىٰ : الناحيـة وأنا فى ذَرىٰ فلان، والمِعىٰ واحد الأمعاء، والحِجىٰ والنُّهىٰ العَقْلُ، والحَشىٰ واحد الأحشـاء، وما أشبه ذلك كتب بالياء .

و إن كانت منقلبة عن واو، نحو عصـا ، ومَنَا للقَدْر، ورَجَا لجانب البئر، والقَنَا فى الأنف، والرِّما والقرَا للظهر، والعَشا فى العين، والقفَا: قفَا الإنسان، والصَّغَا : ميلُك للرجل، ووَطَا جمع وطاة، و[لُهًا جمع] لهاة، والفَلَا جمع فلاة، كتب بالألف .

وتفترق الواو من الياء فيه بطرق أقربها التثنية تقول فى الأوّل فتيان ، ورحيان، وسويان .

قال آبن قتيبة: فلو ورد عليك آسم قد ثُنِّى بالواو والياء عَمِلْتَ علىٰ الأكثر الأعم . وذلك نحو رَحًى، فإن من العرب من يقول رحوت الرَّحاء، ومنهم من يقول رحَيت، قال: وكَتْبها بالياء أحبُّ إلىّ لأنها اللغة العالية .

وكذلك الرِّضا من العرب من يقول فى تثنيته رضيان ؛ ومنهم من يقول رضوان، قال : وكتابته بالألف أحب إلىّ : لأن الواو فيه أكثر، وهو من الرضوان. وكذلك الحكم فى متىٰ، لأنها لو سُمِّى بها وثُنِّى، لقلتَ متيان، فيعلم أنه من ذوات الياء ــ وتقول فى الثانى : عَصَوَان ومَنَوَان ورَجَوَان، فيعلم أنه من ذوات الواو. فاذا أشكل عليك شىء فلم تَعلَمْ أهو من ذوات الواو [أو من ذوات اليـاء](٢) ؟ نحو خَسًا بالخاء المعجمة والسين المهملة، كتبته بالألف لأنه هو الأصل .

---

(١) تقدم فهو مكرر . (٢) الزيادة عن ضوء الصبح .

ومنهم من يكتب الباب كلّه بالألف علىٰ الأصل وهو أسهل للكُتّاب. وعلىٰ تقدير كَتْبِها بالياء فلو كان منوّنا فالمختار عندهم أنها تكتب بالياء أيضا، وهو قياس المبرّد وقياس المازنىّ أن يكتب بألف إذ هى ألف التنوين عنده فى جميع الأحوال.

وقاس سيبويه المنصوب(١) بالألف لأنه للتنوين فقط.

قال ٱبن قتيبة: وتعتبر المصادر بأن يرجع فيها إلىٰ المؤنث، فما كان فى المؤنث بالياء كَتَبْتَه بالياء، نحو العمىٰ، والظّمىٰ، لأنك تقول عَمْيَاء وظَمْيَاء، وما كان المؤنث فيه بالواو كتبته بالألف، نحو العَشَا فى العين، والعَثَا وهو كثرة شعر الوجه، والقَنا فى الأنف، لأنك تقول عَشْواء، وقَنْواء، وعَثْواء.

قال: وكل جمع ليس بين جمعه وبين واحده فى الهجاء إلا الهاء من المقصور، نحو الحصىٰ، والقَطَا، والنّوىٰ، فما كان جمعه بالواو كتبته بالألف، وما كان جمعه بالياء كتبته بالياء.

وكتبت لَدىٰ بالياء لٱنقلابها ياء فى لَدَيْكَ.

وأما كِلَا، فالصحيح من مذهب البصريين أنها تكتب بالألف، لأن ألفه عن واو. ومن زعم أنها عن ياء كالمعىٰ، كَتَبَها بالياء. وأجاز الكوفيون كتبها بالياء وهو خطأ علىٰ مذهبهم لأن الألف عندهم للتثنية، وألف التثنية لايجوز أن تكتب ياء لئلا يلتبس المرفوع بغيره. وقياس كلتا عند البَصْريين أن تكتب ياء، وشذ كتابتها بالألف.

قال ٱبن قتيبة: والذى أستحِبُّه أن تُكْتَبَ كِلَا وكِلْتَا فى حال الرفع بالألف، وفى حالتى الجرّ والنصب بالياء. فإذا قلت: أتانى كِلَا الرجلين أو كِلْتَا المرأتين، كتبته بالألف. وإذا قلت: رأيت كلى الرجلين أو كلتى المرأتين كتبته بالياء، لأن العرب قد فرقت بينهما فى اللفظ(٢) فقالوا: رأيت الرجلين كليهما، ومررت بالرجلين كليهما، ومررت بالمرأتين كلتيهما. وقالوا: جاءنى الرجلان كلاهما، والمرأتان كلتاهما.

(١) لعله المنصوب فقط فقال يكتب بالألف الخ. (٢) أى مع المكنى كما هى عبارة ٱبن قتيبة.

وتَتْرىٰ إن لم تنوّن، فألفها للتأنيث وإن نوّنت فهى للإلحاق، وقياسها أن تكتب باليـاء . ومن زعم أنه فَعْل، فألفه بدل التنوين كألف صبرا، فهو قياسه .

ووقع فى كلام ٱبن البادس أن تترىٰ فى الخط بياء، وهو خلاف المعروف .

تنبيـــــه

لو ٱتصل الأسم الذى يكتب بالياء بضمير متصل، نحو رَحَاك، وقَفَاك، ومَلْهَاك، ومَرْعَاك، فقيل يكتب بالياء كحال عدم ٱتصالها، فيكتب علىٰ هذه الصورة: رحيٰك، وقفيٰك، ومَلْهيٰك، ومَرْعيٰك .

قال الشيخ أثير الدين أبوحيّان رحمه الله : وٱختيار أصحابنا فيه بالألف إذا ٱتصل به ضمير خفض أو ضمير نصب، سواء كان ثلاثيا أم أزيد، إلا إحدىٰ خاصةً فإنها تكتب بالياء حال ٱتصالها بضمير الخفض، نحو من إحديٰهما كحالها دون الأتصال، وٱختلفوا إذا ٱتصلت بتاء تأنيث تنقلب هاء فى الوقف؛ فذهب البَصْريون إلىٰ كتابتها ألفا، نحو الحصاة، وٱختار الكوفيون كتابتها بالياء نحو الحصيٰة .

الحال الثالث ــ أن تكون الألف فيه ثانية، نحو ما وذا إذا كانا ٱسمين، فيكتب بالألف علىٰ صورة النطق به .

المحل الثـانى

(الفعل، وله حالان)

الحـال الأوّل ــ أن تكون الألف فيه رابعةً فصاعدًا، نحو أعطىٰ، وٱستعلىٰ، وتَدَاعىٰ، وتعادىٰ، وٱسْتَدْنىٰ، وما أشبهه فتكتبه كلّه بالياء إلا أن يكون مهموزا، نحو أخطأ، وٱنبأ، وتخاطأ، وٱستنبأ، فإنه يكتب بالألف . وكذلك إذا كان قبل آخره ياءٌ، نحو ٱستحيا، وتحايا، وأعيا، وتعايا، وٱستعيا، وما أشبهه فإنك تكتبه بالألف .

ووقع فى بعض المصاحف ﴿ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ بالألف فى آخر نخشىٰ ، وفى بعض المصاحف بالياء .

الحال الثانى – أن تكون الألف ثالثةً ، فتردّه إلىٰ نفسك ، فإن ظهرتْ فيه الواو فٱكتبه بالألف ، نحو قولك : عدا ، ودعا ، ومحا ، وغزا ، وسلا ، وعلا من العلوّ ، لأنك تقول : عدوت ، ودَعَوْتُ ، ومحوت ، وغزوت ، وسلوت ، وعلوت . وشذ زكىٰ ، فكتب بالياء وإن كان من ذوات الواو ، لأنه من زكىٰ يزكو ، إلا أن العرب يُميلون الأفعالَ ذوات الواو . وإن ظهرت فيه الياء فٱكتبه بالياء ، نحو قولك : قضىٰ ، ومشىٰ ، وسعىٰ ، وعسىٰ ، لأنك تقول : قضيت ، ومشيت ، وسعيت ، وعسيت ، ويجوز كتابته بالألف أيضا .

تنبيـــــه

لو ٱتصل بالفعل ضمير متصل ، نحو رماه ، وجزاه ، ورعاه ، فقيل يكتب علىٰ حاله بالياء ، فيكتب علىٰ هذه الصورة : رمٰيه ، وجزٰيه ، ورعٰيه ، والصحيح كتابته بالألف .

قال ٱبن قتيبة : وكل ما لحقته الزيادة من الفعل لم تنظر إلىٰ أصله ، وكتبته كله بالياء ، فتكتب أَغْزىٰ فلان فلانا ، وأدنىٰ فلان فلانا ، وألهىٰ فلان فلانا بالياء . وهو من غزوت ، ودنوت ، ولهوت ، لأنك تقول فيه : أغزيت ، وأدنيت ، وألهيت . وكذلك تكتب يُغْزىٰ ، ويُدْنىٰ ، ويُلْهىٰ ، علىٰ البناء لما لم يسم فاعله بالياء ، لأنك تقول فى تثنيته : يُغْزَيان ، ويُدْنَيَانِ ، ويُدْعَيَانِ .

المحـــــل الثالث

(بعض الحروف)

وٱعلم أن الحرف الذى فى آخره ألف فى اللفظ إنما يكتب أَلِفاً علىٰ صورة لفظه ، نحو ما ، ولا ، وألا ، وما أشبهها ، وٱستثنَوْا من ذلك أربع صور فكتبوها بالياء .

إحداها ـ بَلَىٰ ،قال بعض النحاة لإمالتها : وقال سيبويه : لأنه إذا سمى بها وثنيت قيل بَلَيَانِ كما يقال فى متىٰ مَتَيانِ .

الثانية ـ إلىٰ ، وكُتبت بالياء لأنها تُرَدّ إلىٰ الياء فى قولهم إليك .

الثالثة ـ علىٰ ،وكتبت بالياء لأنها تُرَدُّ إلىٰ الياء أيضا فى قولهم عليك .

قال ابن قتيبة : وكان القياس فيها وفى إلىٰ أن تكتبا بالألف لعدم جواز الإمالة فيهما .

الرابعة ـ حتّىٰ ، وكتبت بالياء حملا علىٰ إلىٰ لكونهما بمعنىٰ الانتهاء والغاية ، ولأنه قد روى فيها الإمالة عن بعض العرب فروعى حكمها .

تنبيــــــــه

لو وليتْ ما الاستفهامية حتّىٰ ، أو إلىٰ ، أو علىٰ ، كُتِبْنَ بالألف علىٰ هذه الصورة : حَتَّام ، و إلام ، وعَلاَمَ ، لأنها شديدة الاتصال بما الاستفهامية بدليل أن ما بعدها لا يوقف عليه إلا بذكرها معه ، فكأنّ الألف وقعت وَسَطًا فصارت كحال ما كتب بالياء إذا اتصل بضمير خفض أو ضمير نصب ، فإنه يكتب بالألف .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله : فإن وُصل فى حَتَّامَ و إلىٰ الهاء الحائرة ، فلك أن تجريها علىٰ الاتصال ولا تَعْتَدَّ بها ، ولك أن تعتدّ بها وترجعَ الألف فى حتّىٰ ، و إلىٰ ، وعلىٰ ، إلىٰ أصلها ، فتكتب بالياء يعنى علىٰ هـذه الصورة حتّىٰ مه ، و إلىٰ مه ، وعلىٰ مه .

(فائدة)

قد يُكْتَبُ بالياء ما هو من ذوات الألف للمجاورة كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ والضُّحىٰ وَاللَّيْلِ إذا سَجىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلىٰ ﴾ فإن الضُّحىٰ ونحوه قياسه عند البصريين

أن يكتب بالألف لأنه من ذوات الواو، ولكنه كتب بالياء لمجاورة سجىٰ، وسجىٰ وإن كان من ذوات الواو أيضا ، كتب بالياء لمجاورة قَلىٰ الذى هو من ذوات الياء، فسجىٰ مجاور، والضحىٰ مجاور المجاور .

وأما الواو فقد نابت عن الألف فى مواضعَ من رسم المصحف الكريم : وهىَ الصلاة، والزكاة، والحياة، والنجاة، ومِشْكَاة، ومَنَاة، فتكتب علىٰ هذه الصورة : الصلٰوة، والزكٰوة، والحيٰوة، والنجٰوة، ومنٰوة، ومِشْكٰوة . فمنهم من كتبها كذلك فى غير المصحف أيضا آتباعا للسَّلَف فى ذلك، ومنهم من كتبها بالألف وهو القياس، ووجه بأن رسم المصحف متبع فى القرءان خاصةً . ولا يكتب شىء من نظائر ذلك إلا بالألف . كالقناة، والقطاة، آقتصارا علىٰ ما ورد به الرسم السلفىّ .

قال آبن قتيبة : وقال بعض أهل الإعراب : إنهم كتبوا هذه الكلمات بالواو علىٰ لغات الأعراب، وكانوا يَميلون فى اللفظ بها إلىٰ الواو شيئا . وقيل بل كتبت علىٰ الأصل، إذ الأصل فيها واو، لأنك إذا جمعت قلت : صلوات، وزكوات، وحيوات، وإنما قلبت أَلِفًا، لما آنفتحت وآنفتح ماقبلها .

قال : ولولا آعتياد الناس لذلك فى هذه الأحرف الثلاثة : أى الصلاة، والزكاة، والحياة، لكان من أحب الأشياء إلىّ أن تكتب كلها بالألف . وجمعوا فى الربا بين العوض والعوض منه، فكتبوه بواو وألف بعدها علىٰ هذه الصورة : الربوا .

وفى بعض المصاحف ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا﴾ بألف بغير واو، وما سواه فلا خلاف فيه .

تنبيـــــه

لو آتصل بشىء مما أبدلت ألفه واوا ضمير، نحو صلاتهم، وزكاتهم، وحياتك، ونجاته، ومِشْكَاته، ورباه، كتبت بالألف دون الياء (١) ، والله أعلم .

---

(١) كذا فى الضوء أيضا . ولعل صوابه دون الواو .

القســـم الثـانى

(ما ليس له صـــورة تخصـــه)

وهو الهمزة، إذ تقع علىٰ الألف والواو والياء، وعلىٰ غير صورة ؛ ولها ثلاثة أحوال .

الحـال الأوّل

(أن تكون فى أوّل الكلمة)

فتكتب ألفا بأىّ حركة تحرّكت : من فتحة، مثل أحمد، وأيوب، وأحد ؛ أو ضمة : نحو أُخذ، وأُكْرِمَ، وأُوحِىَ، وأولئك ؛ أو كسرة : نحو إبراهيم، وإسمعيل، وإسحق، وإثْمِد، وإبِل، وإذ، وإذا، وإلىٰ، وإلّا، وإمّا، سواء فى ذلك همزة القطع مثل أَكْرَمَ، وهمزة الوصل مثل ٱتخذ، والهمزة الأصلية مثل ٱمرئٍ، والهمزة الزائدة مثل إشاح. وذلك لأن الهمزة المبتدأة لا تخفف أصلا من حيث إن التخفيف يقرّبها من الساكن، والساكن لا يقع أوّلا ، فجعلت لذلك علىٰ صورة واحدة . وٱختصت الألف بذلك دون اليـاء والواو حيث شاركت الهمزةَ فى المخرج ، وفارقت أختيها فى الخِفّـة ، ولا فرق فى ذلك بين أن تكون الهمزة مُبْتَـدَأَةً كما فى الصور المذكورة ، أو تقدّمها لفظ آخر، نحو ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ و فَبِأَىّ ، و أفأنت، و بأنه ، وكأنه ، وكأين، و بإيمان، ولإيلاف، ولَبِإمام، وسأترك، ولأُقَطِّعن، ومررت بأحمد، وجئتُ لِأُكْرِمَك، وٱكتحلتُ بالإثمد، إلا فيما شذّ من ذلك، نحو هؤلاء، وٱبْنَؤُمّ، ولئن، ولِئَلّا، و يومئذ، وحينئذ، وما أشبهها، فإنه كان القياس أن تكتب الهمزة فيها ألفا لأنها وقعت أوّلا، لكنهم خالفوا فكتبوا همزة هؤلاء، وٱبْنَؤمّ بالواو، وإن كانت فى الحقيقـة مبتدأة بدليل أن ها حرف تنبيه وهو منفصل عن ٱسم الإشارة . وكذلك ٱبنُ ٱسم أضيف إلىٰ الأم، لكنهم شبهوها بهمزة لَؤُم، فكتبوها بالواو، وراعَوْا فى ذلك كثرة لزوم

هاء الإشارة، وعدم انفكاك ابنؤم الواقع فى القرءان، فكأنها صارت همزة متوسطة . وكتبوا همزة لئن ، ولئلا ، وحينئذ ، و يومئذ ، وما أشبهها ياء و إن كانت أوّل كلمة وكان القياس أن تكتب بالألف . أما لئن ، فلأن أصلها لَإنْ بلام ألف ونون . وأما لَئَلّا ، فلأن أصلها لِأَنْ ، بلام ألف ونون منفصلة من لا ، بدليل أنهم إذا لم يجيئوا بعدها بلا ، كتبوها لِأَنْ ، نحو جئتَ لأن تقرأ ، لكنهم جعلوا اللام مع أنْ كالشيء الواحد . وكذلك حينئذ ، و يومئذ ، فإن الأصل أن يفصل الظرف المضاف للجملة التى بقىٰ منها إذٍ المنوّنة تنوينَ العِوَض وأن يكتَبَ بالألف ، لكن جعل الظرف مع إذٍ كالشيء الواحد ، فوصل بإذ ، وجعلت صورة الألف ياءً كما جعلوها فى يَئِس . وكذلك الحكم فى كل ظرف أضيف إلىٰ ماذكر ، سواء المفرد : كالأمثلة المذكورة ، والجمع نحو أزْمَانئِذٍ . وسيأتى الكلام علىٰ ما يتعلق من ذلك فى الفصل والوصل إن شاء الله تعالىٰ .

الحال الثانى

(أن تكون متوسطة ، ولها حالتان)

الأولىٰ — أن تكون ساكنة ، فلا يكون ما قبلها إلا متحرّكا وتكتب بحركة ما قبلها . فإن كان ما قبلها مفتوحا ، كتبت أَلِفًا نحو رأس ، وكأس ، و بأس ، و يأس ، وضأن ، وشأن ، ودأب ، وتأمُرُ ، وتأكُلُ . و إن كان ما قبلها مضموما ، كتبت واوًا ، نحو مؤْمن ، ونؤْمن ، وتُؤْوى ، وتُؤْتى ، ومؤتى ، و يؤفك ، وما أشبهها . و إن كان ما قبلها مكسورا ، كتبت ياء ، نحو بئر ، وذئب ، و بئس ، وأنبِئْهم ، ونبئنا ، وجئت ، وجئنا ، وشئت ، وشئنا ، ولَمُلِئْتَ ، وما أشبهها .

الثانية — أن تكون الهمزة متحركة ، والنظر فيها باعتبارين .

الاعتبار الأوّل ـ أن يكون ماقبلها ساكنا، وحينئذ فلا يخلو: إما أن يكون حرفا من حروف العلة (وهى الألف والواو والياء) أوحرفا صحيحا . فإن كان الساكن الذى قبلها حرفَ علة نُظِرَ: إن كان حرف العلة ألفا، فإن كانت حركة الهمزة فتحةً، فلا تثبت للهمزة صورة نحو ساءل، وأبناءنا، وأبناءكم، ونساءنا، ونساءكم، وجاءنا، وجاءكم، (وساءل، فَاعَلَ من السؤال) وما أشبهه . وإن كانت ضمة تثبت لها صورة الواو، نحو التَّسَاؤُلُ، وآباؤكم، وأبناؤكم، وأولياؤكم، وبآبائنا (١)، وشبه ذلك؛ وإن كان حرف العلة واوا أو ياء : فإما أن تكونا زائدتين للمدّ، أوتكون الياء للتصغير أوأصليتين أوملحقتين بالأصل . فإن كانتا زائدتين للمدّ نحو خطيئة، ومقروءة، وهنيئا، مريئا، أو ياءَ تصغيرٍ نحو أُفَيْس تصغير أَفْؤُس جمع فاسٍ، فلاصورة للهمزة . وإن كانتا أصليتين نحوسوْءة، وهيئة، أوملحقتين بالأصل نحو جيْئَل (وهو الضَّبُعُ)، وحَوْءَبَة (وهو الدلو العظيم)، والحَوْءَبُ (آسم موضع)، والسَّمَوْءَل (آسم رجل)، فإنك تحذفها وتنقل حركتها إلىٰ الساكن قبلها فتقول : سوَة، وهيَة، وجيَل، وحوبَة، وحَوب وسَمول . ولا صورة للهمزة حينئذ فى تحقيقها ولا فى حذفها . وإن كان الساكن الذى قبلها حرفا صحيحا، نحو المرْأَة، والكَمْأَة، ويَسْأَمُ، ويُسْئِمُ، ويَلْؤُمُ ونحو ذلك، فتنقل حركة الهمزة إلىٰ الساكن قبلها وتحذف الهمزة . والأحسن الأقيس أن لا تثبت لها صورة فى الخط لافى التحقيق ولا فى الحذف والنقل .

ومنهم من يجعل صورتها الألف علىٰ كل حال، فيكتبها علىٰ هذه الصورة: المرأة والكَمْأة، ويسأم، ويسإم، ويلأُم، وهو أقل آستعمالا . وقد كتب منه حرف فى القرءان بالألف، وهو قوله تعالىٰ : "يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ" .

---

(١) كذا فى الأصل، وليس هذا موضعها كما هو ظاهر .

ومنهم من يجعل صورتها على حسب حركتها، فيكتب المرأة، والكمأة، ويَسْأَمُ، بالألف، ويكتب يُسْئِمُ بالياء، ويكتب يَلْؤُمُ بالواو . وآستثنى بعضهم من ذلك ما إذا كان بعدها حرف علة، نحو سَئُول، ومَشْئُوم، فلم يجعل لها صورة أصلا، وإذا كان مثل رءوس يكتب بواو واحدة فلا صورة لها . وكذلك الموءودة فى قوله تعالى : ﴿وَإِذَا الْمَوءودَةُ سُئِلَتْ﴾ على ما كتبت فى المصحف بواو واحدة لا يجعل لها صورة .

الآعتبار الثانى ـ أن يكون ماقبلها متحرّكا فينظر : إن كانت مفتوحة مفتوحا ماقبلها، كتبت ألفا نحو سَأَلَ، ورَأَيْتُ، ورَأَوْكَ، وبدأكم، وأَنْشَأَكم، وقرأه، ولِيَقْرَأَهُ، وشبه ذلك . إلا إن كان بعدها ألف فلا صورة لها، نحو مَآل ومَآب . وذهب بعضهم إلى أنها تصوّر ألفا فتكتب بألفين . وإن كانت مفتوحة مكسورا ما قبلها نحو خاطئة، وناشئة ولَيُبَطِّئَنَّ، ومَوْطِئًا، وخَاسِئًا، ويُنْشِئَكُمْ، وشَانِئَكَ، صوّرت بمجانس ماقبلها (وهو الكسرة) فتصوّر ياء . وإن كانت مفتوحة، مضموما ما قبلها نحو الفُؤَاد، والسؤال، ويُؤَدِّه إليك، ويؤلف، ومُؤَجَّلا، ومُؤَذِّنٌ، وهُزُؤًا، وشبهه، صَوّرتها بمجانس ماقبلها . وإن كانت مضمومة، مضموما ماقبلها، نحو نُؤُم، كَصُبُرٍ جمع صبور، أومضمومة، مفتوحا ما قبلها نحو لَؤُم، كتبت بالواو فى الحالتين، إلا إن كان بعدها فى الصورتين واو(١)، نحو رءوس، ونَئُوم، وإن كانت مضمومة، مكسورا ماقبلها نحو يَسْتَهْزِءُونَ، وأُنْبِئُكم، ولايُنَبِّئُكَ، وسَنُقْرِئُكَ، كتبت بواو على مذهب سيبويه، وياء وواو بعدها(٢) على مذهب الأخفش .

---

(١) أى فلا صورة لها . (٢) هذا خاص بنحو يستهزءون و يقرءون .

الحـال الثـالث

(أن تكون الهمزة آخرا، ولهـا حالتان أيضا)

الأولىٰ

(أن يكون ماقبلها ساكنا، والنظر فيها باعتبارين)

الاعتبـار الأول ــ أن يكون ما قبلها صحيحا، فتحذف الهمزة وتلقى حركتها علىٰ ما قبلها ولاصورة لها فى الخط، نحو جزء، وخبء، ودفء، والمرء، وملء. سواء فى ذلك حالة الرفع والنصب والجرّ. وقيل: إن كان ما قبـل الساكن مفتوحا، فلا صورة لهـا. وإن كان مضموما، فصورتها الواو، وإن كان مكسورا، فصورتها الياء مطلقا. وقيل: إن كان مضموما أومكسورا فعلىٰ حسب حركة الهمزة، فيكتب الجزء، والدفء، بالواو فى الرفع وبالألف فى النصب وبالياء فى الجرّ. وإن كان شيء من ذلك منصوبا منوّنا فيكتب بألف واحدة، هى البدل من التنوين. وقيل: يكتب بألفين، إحداهما صورة الهمزة، والأخرىٰ صورة البدل من التنوين.

الاعتبار الثانى ــ أن يكون ماقبلها معتلا، فينظر: إن كان حرف العلة زائدا للمدّ، فلا صورة لها نحو نبيء، ووضوء، وسمـاء، والسُّوء والمسيء، وقرّاء، وشاء، ويشاء، والمـاء، وجاء،[1] إلا إن كان منوّنا منصوبا فيكتُبهُ البَصْريون بألفين، والكوفيون وبعض البَصْريين بواحدة، وهذا إذا كان حرف العلة ألفا نحو سماء: الألف الواحدة حرف العلة، والأخرىٰ البدل من التنوين. فإن اتصل ماقبله ألف بضمير مخاطب أو غائب، فتصوّر الهمزة واوا رفعا، نحو هذا سمـاؤك، وياءً جرّا نحو نظرت إلىٰ سمائك، وألفا واحدة هى ألف المدّ نَصْبـاً، نحو رأيت سماءك. أما إذا كان حرف

(١) هذه الألفاظ الأربعة ليس فيها مد زائد ولعله مصحف وأصله [و بناء ونساء والمساء وخباء الخ]. فليحرر.

العلة ياء أو واوا نحو رأيت وضوءا، فيكتب بألف واحدة. وإن كان حرف العلة غير زائد للمدّ، فلا صورة للهمزة فى الخط .

الحالة الثانية

(أن يكون ما قبل الهمزة متحركا)

فتكتب صورة الهمزة علىٰ حسب الحركة قبلها. فإن كانت الحركة فتحة، رسمت ألفا، نحو بَدَأَ، وأَنْشَأَ "ومِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ" والمَلأ، ويُسْتَهْزَأُ، علىٰ البناء للمفعول، ويُنْشَأُ كذلك، ورأيت آمْرَأً وما أشبهه. وإن كانت كسرة رسمت ياء، نحو قُرِئَ، وآستُهْزِئَ، ولكل آمْرِئٍ، ومن شَاطِئ، ويَسْتَهْزِئُ، علىٰ البناء للفاعل، وبرئ ومررت بامرئ. وإن كانت ضمة، رسمت واوا، نحو آمْرُؤ، واللؤلؤ، وما أشبه ذلك، إلا فى مثل النبأ إذا كان منصوبا منوّنا فقيل : يكتب بألفين نحو سمعت نبأا ، وقيل : بواحدة وهو الأَوْلىٰ . وإن آتصل بها ضمير، فعلىٰ حسب الحركة قبلها كحالها إذا لم يتصل بها ضمير. وقيل : إن كان ماقبلها مفتوحا، فبألف نحو لن يقرأ، إلا أن تكون هى مضمومة فبواو، إن قلنا بالتسهيل بين الهمزة والواو، وبالياء إن قلنا بإبدالها ياء، وقيل إن آنضم ما قبلها أو آنكسر، فكما قبل الآتصال بالضمير، فتجعل صورتها علىٰ حسب الحركة قبلها. وإن آنفتح ماقبلها وآنفتحت، فبالألف نحو لن يقرأ، وكذلك إذا آنفتح ماقبلها وسكنت نحو لم يقرأ، ولم يُنَبَّأْ، وآقرأ، وإن نشأ وما أشبهه. وإن آنفتح ما قبلها وآنضمت، فبالواو نحو يقرؤ . وقيل بالواو والألف كما كتبوا فى المصحف ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا﴾ و ﴿نَبَؤُا الْخَصْمِ﴾ و ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا﴾ بواو وألف فى الجميع. أو آنكسرت، فبالياء نحو من المقرئ، وقيل بها وبألف كما كتبوا فى المصحف ﴿مِن نَّبَأِى الْمُرْسَلِينَ﴾ بألف وياء .

تنبيـــــــــه

قد تقدّم فى الحذف أن همزة الوصل تحذف فى بعض مواضعَ وتثبت فيما عداها. فحيث ثبتت، كتبت بحسب حالها إذا ٱبتدئ بها. فإن كانت يبتدأ بها مضمومة، كتب مايليها واوا إن كانت همزة أو واوا مبدلة منهـا، نحو اؤْتُمِنَ فلان، وقلت لك اؤمر فلانا بكذا؛ وإن كانت يبتـدأ بها مكسورة، كتب ما يليها ياء إن كانت همزة أو ياء مبـدلة منها، نحو ٱئذن لى يازيد، ائت القوم، ائت عليهم كذلك وإن كان النطق بها واوا بضم ما قبلها نحو ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ ٱئْذَنْ لِى﴾ تكتبه ياءً علىٰ الهمزة فى الٱبتـداء بها؛ ويستثنىٰ فاء افعل من نحوِ يَوْجل مثـل يَوْسن فإنها تكتب واوا بعد الواو والفاء كما فى قولك فٱوجل، وٱوجل. يكتبان بإثبات ألف الوصل، والواو بعدها ولم يكتبوها علىٰ ٱبتداء الهمزة. أما بعد غير الواو والفاء، فإنها تكتب بحسب الٱبتداء بها نحو قلت لهـا ٱيجلى، أو ثم ٱيجلى، وقلت لكم ٱيجلوا، فانك تلفظ به واوا وتكتبه ياء للانفصال؛ وإن كانت قبلها كسرة كانت ياء لفظا وخطا، نحو قلت لكِ ٱيجلى، وكذلك إذا ٱبتدئ بهمزة الوصل نحو ٱيجلى ياهند.

وٱعلم أنه إذا وقعت همزة ٱستفهام وبعدها همزة قطع صوّرت همزة القطع بعدها بمجانس حركتها. فإن كانت الحركة فتحة كتبت ألفا، نحو أأسجد وإن كانت الحركة ضمـة كتبت واوا نحو أؤُنْزِل وإن كانت الحركة كسرة كتبت ياء نحو أَئِنَّـكَ لأنها إذا خُفِّفت بالبدل كان إبدال المفتوحة ألفا، وإبدال المضمومة واوا، وإبدال المكسورة ياء. وقد تحـذف المفتوحة خطا فتكتب بألف واحدة، نحو أسجـد كما فى رسم المصحف.

وٱختلف فى الساقطة من الهمزتين والحالة هذه: فقيل الثانية، وهو قول أحمد ٱبن يحيىٰ: وقيل الأولىٰ وهو قول الكسائىّ.

فلو كانت ثلاث ألفات فى اللفظ نحو قوله تعالىٰ : ﴿ أآلِهَتُنَا خَيْرٌ ﴾ فقال أحمد ابن يحيىٰ : تكتب بواحدة .

وآختلف فى الثابتة ، فذهب الفراء وثعلب وآبن كيسان إلىٰ أنها الآستفهامية لأنها حرف معنًى . وحكىٰ الفراء عن الكسائى : أنهـا الأصلية وحكاه آبن السيد عن غير الكسائى وحُكى عنه أنها ألف الجمع .

وقد تكتب غير المفتوحة ألفا نحو قوله أإنَّك ،لأن الألف هى الأصل ، والهمزة حرف زائد لمعنًى كالواو والفاء فلا يعتدّ به ، لكنه قليل ، والله أعلم .

الجملة الثـانية

(فى حالة التركيب والفصل والوصل)

وآعلم أن الأصل فصل الكلمة من الكلمة ،لأن كل كلمة تدل علىٰ معنًى غير معنىٰ الكلمة الأخرىٰ ، فكما أن المعنيين متميزان فكذلك اللفظ المعبِّر عنهما يكون متمـيزا . وكذلك الخط النـائب عن اللفظ يكون متميزا بفصله عن غيره . ويستثنىٰ من ذلك مواضعُ كتبت علىٰ خلاف الأصل .

(منها) أن تكون الكلمتان كشىء واحد، وذلك فى أربعة مواضعَ .

الموضع الأول ــ أن تكون الكلمتان قد رُكِّبتا تركيبَ مزج ،مثل بعلبك : ليدل علىٰ أن التركيب الذى يعتـبر(١) فيه وصل الكلمة بالأخرىٰ هو تركيب المزج ،وهو أن يتحد مدلول اللفظين . بخلاف ما إذا رُكبتا تركيبَ إسناد نحو زيد قائم ،أو تركيبَ إضافة نحو غلامُ زيدٍ ،أو تركيبَ بناءٍ لم يتحد فيه مدلول اللفظين نحو خمسة عشرَ ، وصباحَ مساءَ ، وبينَ بينَ ، وحَيْصَ بَيْصَ ، فإن هـذا كله يكتب مفصولا لا تخالط فيه كلمة بأخرىٰ .

---

(١) لعله يغتفر .

الموضع الثانى ـ أن تكون إحدىٰ الكلمتين لا يبتدأ بها فى اللفظ، نحو الضمائر البارزة المتصلة، ونون التوكيد، وعلامة التأنيث والتثنية والجمع فى لغة أكلونى البراغيث، وغير ذلك مما لا يمكن أن يبتدأ به، فكل هذا يكتب متصلا وإن كان من كلمتين .

الموضع الثـالث ـ أن تكون إحدىٰ الكلمتين لا يوقف عليها، وذلك ما كان نحو باء الجر، وفاء العطف، ولام التأكيد، وفاء الجزاء، فإن هـذه الحروف لا يوقف عليها، فلما امتزجت فى اللفظ امتزجت فى الخط فتكتب متصـلة وإن كانت فى الحقيقة كلمتين .

الموضع الرابع ـ أن تكون الكلمة مع الأخرىٰ كشىء واحد فى حال مّا فاستصحب لها الاتصال غالبا : مثل بعلبك، إذا أعرب إعراب المضاف والمضاف إليه، فإن هـذا الإعراب يقتضى أن تفصل إحدىٰ الكلمتين من الأخرىٰ، لأن الإعراب قد فصلهما . أما إذا أعرب إعراب مالا ينصرف فلا يصح فيه الفصل أصلا، لأنّ اللفظ الثانى منتهىٰ الاسم، فهو مفرد فى المعنىٰ وفى اللفظ .

وكتبوا لئلّا مهموزةً وغير مهموزة بالياء (وكان القياس أن تكتب بالألف) كما تكتب لأنْ إذا كانت اللام مكسورة بالألف فكذلك إذا زيدت عليها لا، إلا أن الناس اتبعوا رسم المصحف، وكذلك لَئِنْ فعلت كذا تكتبه بالياء اتباعا للمصحف، وإن كان القياس أن يكتب بالألف . وسيأتى الكلام علىٰ وصل لا بإن فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

(ومنها) توصل مِنْ الجارّة وهى المكسورة الميم بما بعدها بعد حذف النون منها علىٰ ما تقدّم فى موضعين :

الموضع الأوّل ـ توصل بِمَن المفتوحة الميم مطلقا، سواء كانت موصولة نحو أخذت الدرهم مِمَّنْ أخذتَه منه، أو موصوفة كما فى المثال المذكور فإنها فيه تحتمل

المعنيين جميعا، أو آستفهامية نحو مِمَّنْ أنت ؟ أوشرطية نحو مِمَّن تأخُذْ درهما آخُذْ منه، وإنما وصلت بها لأجل آشتباههما خطا إذ لو كتبتا مِنْ مَنْ لكانتا مشتبهتين فى الصورة فأُدغمت نون مِنْ فى ميم مَنْ ونُزِّلت منزلة المدغم فى الكلمة الواحدة، فلم يجعل له صورة بل حذف مع كتبه متصلا ، وقد تقدّم الكلام على ذلك فى الحذف . هذا هو المشهور الراجح .

وقال الأستاذ بن عصفور: إن كانت مَنْ آستفهاميةً، كتبت مفصولة على قياس ماهو من المدغمات على حرفين .

الموضع الثانى – توصل بعد حذف النون أيضا بما ، إذا كانت موصولة نحو عجبتُ مما عجبتَ منه، أو آستفهامية نحو مِمَّ هذا الثوب؟ أو زائدة كما فى قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطَايَاهُمْ أُغْرِقُوا﴾ . أما إذا كانت شرطية نحو مِنْ ماتأخُذْ آخُذْ، أوموصوفة نحو أكلتُ من ما أكلتَ منه، فإن القياس يقتضى أن تكون مفصولة .

وقال الأستاذ أبو الحسن بن عصفور : إذا كانت ما غير آستفهامية، كتبت مِنْ معها، وقضيته أنها لاتكتب متصلة إلا فى حالة الأستفهام فقط، وتكتب منفصلة فيما عداها .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيّان رحمه الله : والأوّل أصح لأنّ علة الوصل فى مِمَّن مفقودة فى مما، وهى آلتباس اللفظين خطا .

(ومنها) توصل عن بما بعدها بعد حذف النون منها على ما تقدّم، فى موضعين .

الموضع الأوّل – توصل بمَنْ الموصولة غالبا ، نحو رَوَيْتُ عَمَّنْ رويتَ عنه ، ويجوز فصلها، فتفصل عن مِنْ مَنْ وتثبت النون فى عن ، وأما مَنْ غيرُ الموصولة، فالقياس فصلها، فتكتب فى الأستفهام عن من تسأل؟ وفى الشرط، عن مَنْ ترض أرضَ عنه، فتفصل عَنْ مِنْ مَنْ على ما مر .

وزعم ٱبن قتيبة أن عَنْ مَنْ تكتب موصولة بكل حال ، سـواء الموصولة وغيرها كما تكتب عمّ وعما موصولة من أجل الإدغام. وزعم غيره أنه لا يؤثر الإدغام فى ذلك لأنهما كلمتان إلا فى نحو عما قليل لزيادتها .

الموضع الثانى ـ توصل بمـا الآستفهامية، كما فى قوله تعالىٰ ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وتحذف الألف من ما علىٰ ماتقدّم فى الحذف .

(ومنها) توصل مَعَ بما إذا كانت زائدة، وتقطع إذا كانت موصولة، قاله ٱبن قتيبة .

(ومنها) توصل فى بمَنْ فى موضعين :

الموضع الأول ـ توصل بمَنْ الآسـتفهامية دائمـا نحو قولك : فيمَنْ تفكر ؟ ولكن لاتحذف اليـاء منها كما حذفت النون من عَنْ ومن، إذ لا إدغام هنا .

الموضع الثانى ـ توصل بما إذا كانت موصولة فى الغالب نحو فكَّرْتُ فيما فكَّرت فيه ، ولا تسقط الياء علىٰ مامر . ويجوز فى هذه الحالة فصلها ، فتفصل "فى" عن "ما". وتكتب علىٰ هذه الصورة "فى ما" . وكذلك توصل بما إذا كانت آستفهامية نحو قوله تعالىٰ : ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ ولا تحذف ياؤها كما تقدّم .

أما مع إذا آتصلت بمـا أو بمن، فإنها تكتب منفصلة . قاله ٱبن قتيبة .

قال بعض النحاة : أظنّ سبب ذلك قلة الآستعمال ، و إلا فما الفرق بين مع و بين فى . قال : وقد يمكن أن يفرق بينهما فى الآسمية ، فإن فى لا تكون إلا حرفا ، ومع إن تحرّكت كانت آسمـا ، و إن سكنت ، فخلاف والأصح الآسمية ، وأيضا فإنها تنفصل ممـا بعدها .

(ومنها) توصل الحروف النواصبُ للاسم ، الروافعُ للخبر، إذا دخلت علىٰ ما الزائدةِ نحو إنما وكأنما وليتما . فتكتب إنَّ وكأنَّ ولَيْتَ متصلات بما ، نحو إنما فعلت كذا ، و إنمـا كلمتُ أخاك ، و إنمـا أنا أخوك ، وكأنمـا وجْهُه قمر ، وليتما هذا الشيءُ لى ،

ونحو ذلك . فإن كانت ما موصولة، كتبت مفصولة نحو إنَّ ما قلتَ لَحَقٌّ ، وكأنّ ما حَدَّثْت صحيحٌ، وليت ما لَكَ لى . على أنه قد جاء فى القرءان كثير من ذلك متصلا . وزعم بعضهم أنه لم يأت فى القرءان مفصولا إلا قوله تعالى فى الأنعام : ﴿إِنَّ مَاتُوعَدُونَ لَآتٍ﴾. وقد كتبوا فى المصحف : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ فى الطور وغيره متصلا ،وكذلك : ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾. مع رفع كيد ونصبه،و إن كانت ما موصولة فى الموضعين .

(ومنها) توصل قَلّ بما إذا دخلت عليها نحو قَلَّمَا أتيتك مائة مرة .

(ومنها) توصل إن الشرطية بلا إذا دخلت عليها بعد حذف النون نحو : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ﴾ .

(ومنها) توصل إن الشرطية بما إذا جاءت بعدها بعد حذف النون نحو : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ . و إنما حذفت النون فى هذه وماقبلها لإدغامها كما فى مما وعما ونحوه .

(ومنها) توصل أين بما نحو : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّٰهُ﴾. لأن ما إذا دخلت على أين صارت جازمة إذ تقول : أين تكون أكون ، فترفع النون، فإذا دخلت عليها ما، قلت : أينما تَكُنْ أَكُنْ بجزمت، فصارت أين وما كأنها كلمة واحدة. فإن كانت ما موصولة، فصلت نحو أين ما آشتريتَ تريد أين الذى آشتريتَ.

ولم يصلوا متى بما بل كتبوها منفصلة عنها، إذ لو وصلت للزم قلب الياء ألفا كما فى حتام فتكتب مَتَامَ فيتعذر إدراكها .

(ومنها) توصل حيث أيضا بما نحو : ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. كما تقدّم فى أين .

(ومنها) توصل كل بمـا المصدرية، إذا دخلت عليها، نحو كُلَّمَا جئتَنى أحسنتُ إليك . فإن كانت نكرة منعوتة كتبت مفصولة نحو كُلُّ ماتفعلُ حسنٌ، وكُلُّ ما كان منك حسنٌ .

قال ابن قتيبة : وكُلُّ مَنْ مقطوعة علىٰ كل حال ومكان .

(ومنها) توصل هلْ بِلَا، وتحذف إحدىٰ اللامين علىٰ هذه الصورة (هَلَّا فعلت) وتقطعها من بل، فتكتب (بَلْ لاتفعل) .

قال ابن قتيبة : والفرق بينهما أنَّ لا إذا دخلت علىٰ هل تغير معناها، فكأنها معها كلمة واحدة، وإذا دخلت علىٰ بل لم تغير المعنىٰ تقول : بل تفعل، وبل لاتفعل، كما تقول : كى تفعل، وكى لاتفعل .

(ومنها) توصل بين بمـا الزائدة، نحو بينما أنا جالس، وبينما أنا أمشى .

(ومنها) توصل أىُّ بما إذا كانت ما زائدةً كما فى قوله تعالىٰ حكاية عن موسىٰ عليه السلام : ﴿أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ وكما تقول : أيَّمـا الرجلين لقيتَ فأكرم . فإن كانت ماموصولة قطعت فتكتب أىُّ ماتراه أوفقُ، أىُّ ماعندك أفضلُ، مقطوعةً .

(ومنها) يوصل يوم وحين بإذٍ من قولك يومئذ وحينئذ، وكان القياس الفصلَ، علىٰ ما تقدّم فى الهمزة .

(ومنها) توصل لَئِنْ ولِئَلَّا وإن كان كل منهما كلمتين . إذ الأصل لَإِنْ ولِأَنْ لا وقد تقدّم بيان كتابتهما بالياء دون الألف، لكونهم جعلوه مع مابعده كالشىء الواحد .

(ومنها) توصل أَنْ المفتوحة بلا إذا دخلت عليها بعد حذف النون علىٰ أحد الأقوال فتكتب علىٰ هذه الصورة (أَلَّا) . (والثانى)، تفصل منها وتثبت النون، فتكتب علىٰ

هذه الصورة : (أن لايقوم) . و(الثالث)، يُفَصَّل بين أن تكون مخفَّفة عن الثقيلة، فتكتب مفصولة نحو علمت أن لا يقومُ زيدٌ، وعلمت أنْ لا ضرر عندك ، التقدير أنه لا يقوم وأنه لا ضرر عنــدك ولذلك ثبتت فى قوله تعالىٰ : ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أو ناصبة للفعل فتقدّر كَتْبَها متصلة علىٰ اللفظ وتحذفها فى الخط، نحو يعجبنى ألَّا تقوم وهو قول الأخفش وٱبن قتيبة وٱختيار ٱبن السيد . (والرابع)، التفصــيل بين أن تدغم بِغُنَّةٍ، فتكتب منفصلة أو بغير غُنَّةٍ فينوَى الٱتصال وتحذف خطا . ويروىٰ عن الخليل، وٱستحسنه بعض الشيوخ : وقد وقع فى القرءان مواضع متصلة ومواضع منفصلة فيجب ٱتباعها ٱقتــداء بالسلف . وقد وقع فى المصحف وصل مواضعَ القياسُ فصلُها ، فيجب وصلها فى المصحف ٱتباعا لرسمه ، وتوصل فى غيره فى الغالب أو فى بعض الأحوال .

(ومنها) وصلت بئس بمــا فى موضعين :

أحدهما ـ ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ فى البقرة .

والثانى ـ ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى﴾ فى الأعراف .

(ومنها) وصلت نعم بمــا للادغام . وحكىٰ ٱبن قتيبة فيه الفصل والوصل .

(ومنها) وصلت إن بلم مع حذف النون للإدغام فى قوله تعالىٰ : ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فى هُودٍ، بخلاف التى فى القَصَص فإنها كتبت مفصولة بإثبات النون .

(ومنها) وصلت أن بلَنْ مع حذف النون للإدغام فى ســورة الكهف فى قوله : ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ .

(ومنها) وصلت أَمْ بمَنْ فى نحو قوله تعالىٰ : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ .

قال محمد بن عيسىٰ : كل مافى القرءان من ذكر أم فهو موصول إلا أربعة مواضع

فى النساء : ﴿ أَم مَّنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ . وفى التوبة : ﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ . وفى الصَّافَّات : ﴿ أَم مَّنْ خَلَقْنَا ﴾ . وفى فُصِّلَتْ : ﴿ أَم مَّنْ يَأْتِي آمِنًا ﴾ .

(ومنهـا) وصلت كى بلا فى نحو كَيْلَا ولِكَيْلَا فى أربعـة مواضعَ فى المصحف ، ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَافَاتَكُمْ ﴾ فى آل عمران . و ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ فى الحج و ﴿ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ فى الأحزاب . و ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ فى الحـديد وما عداها فهو مقطوع كما فى أوّل الأحزاب .

ووجه ابن قتيبة المقطوع بأنك تقول : أتيتك كى تفعل وكى لا تفعل ، كما تقول : حتّى تفعل وحتّى لاتفعل فيختلف المعنىٰ بالنفى والإثبات فيه .

الفصل الخـامس

من البـاب الثـانى من المقـالة الأولىٰ

(فيما يُكْتَب بالظاء ، مع بيان ما يقع الاشتباهُ فيه ممـا يُكْتَب بالضاد)

وإنمـا خصت الظاءُ بالذكر دُونَ الضاد لقلَّة وقوع الظاء وكثرة وقوع الضـاد ؛ وخُصَّ ما يكتَب بالظـاء بالذكر دُونَ ما يُكتَب بالذال المعجمة ، لأن الدال والذال فى صُورة الكِتَابة واحد ، فلا يظهَر خَطَأ الكاتب فيـه ، بخلاف الظاء والضاد : فإن شكْلَهما مختلف فيظهَر خطأ الكاتب وعُوَارُه فيه ؛ فلذلك وقعتِ العِناية بالتنبيه علىٰ ما يكتب بالظاء دُونَ ما يكتَب بالذال المعجَمة .

وقد أوردْتُه علىٰ حروف المعجَم ليقربَ تناوُلُه .

حرف الألف

فيه ــ أظلَّه الشىء : إذا غَشِيَهُ ؛ أما أضَلَّه من الضَّلال إذا ضَلَّ دابتَه إذا ندَّتْ ، فبالضـاد .

حرف البـاء

فيه ــ بَهَظه الأمرُ : إذا أتعبه. وفيه، البَظْر : وهو اللَّحمة المتدلِّية من فَرْج المرأة، التى تُقْطَع بالختان .

حرف التاء المثناة فوق

فيه ــ التَّقْرِيظ : وهو المدح، والتلمُّظ : وهو تحريك الشفتين بعد الأكل لابتلاع ما حَصَل بين الأَسنان .

حرف الجيم

فيه ــ الجَوَّاظ : وهو الجافى المتكبِّر، أو الأَكُول ؛ والجُحُوظ : وهو نُتُوُّ العين ونُدُورها، ومنه أبو عُثْمان الجاحظ، وجَحْظَة البرمَكِىُّ .

حرف الحاء المهملة

فيه ــ الحِفْظ : وهو ضِدُّ النِّسيان، والحَفِيظة : وهى المَوْجِدَة، والحَظُّ : وهو الغِنى والنصيب . ومنه قوله تعالى : ﴿ إنَّهُ لَذُوا حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ . وقوله : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ . أما الحَضُّ بمعنى الحث فإنه بالضاد . ومنه قوله تعالى : ﴿ ولا يَحُضُّ علىٰ طَعَامِ المِسْكِينِ ﴾ . والحُظْوة : وهى الرفعة، والحَظْر : وهو المنع . ومنه قوله تعالى : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هٰؤُلاءِ وهٰؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وما كانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ . وقوله : ﴿ كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ ﴾ . وفى معناه الحَظِير : وهو المحوَّط من قصب ونحوه . أَمَّا الحُضُور خلافُ الغَيْبة فإنه بالضاد، والحَنْظَل : وهو النَّباتُ المُرُّ المعروف .

حرف الشين المعجمة

فيه ــ الشَّظِيَّة : وهى القِطْعة من الشىء، والشِّظَاظ : وهى عِيدانٌ لِطَاف يُجْمَع بها العِدْلان ؛ والشَّظَف : وهو خُشُونة العيش ؛ والشُّوَاظ : وهو لَهَب النـار . ومنه

قوله تعالىٰ : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نارٍ ونُحَاسٌ﴾ . والشَّيْظَمُ : وهو الفَرَس الطويل الظهر، والشَّنَاظِى : وهى أطراف الجبال .

حرف الظاء المعجمة

فيه ــ الظَّنُّ : بمعنىٰ التخمين والشَّكِّ، والظِّنَّة : وهى التُّهْمة . أما الضَّنُّ بمعنىٰ البخل فإنه بالضاد، وعلىٰ المعنيين قرئ قوله تعـالىٰ : ﴿ وَمَا هُوَ عَلىٰ الغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾ بالضاد والظاء : لاتِّجاه المعنيين فى النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذ ليس بِبَخِيل ولامتَّهَم ؛ وفيه ظَلَّ يفعل كذا : إذا فعله نهارا . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فظَلُّوا فِيـهِ يَعْرُجُونَ ﴾ . وقولُه : ﴿ فظَلْتُمْ تفـكَّهُونَ ". وقوله : "وانْظُرْ إلىٰ إلٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفًا ﴾ .

أما ضَلَّ من الضلال : خلاف الهدىٰ، وضَلَّ الشيءُ : إذا ضاع ، فبالضاد . وفيه الظِّلُّ : خلاف الحَرِّ حيثما وقع وما يُشْـتقُّ منه ، والظُّلْم وما يَتَشـعَّب منه ، والظَّلام وما يتفرّع منه ، والظَّلْمُ (بفتح الظاء) وهو ماء الأسنان ، والظَّلِيمُ : وهو ذَكَر النَّعام ، والظَّبْيُ : واحدُ الظِّباء ، والظَّبْيـة الأنثىٰ منه ، والظَّبْية : حَيَاءُ النـاقة ، والظُّبَة : وهو حدُّ السيف ، والظَّرْف : وهو الوِعاء الحَسَن ، والظَّعْن : وهو السَّفَر . ومنـه قوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إقَامَتِكُمْ﴾ . والظِّرَاب : وهى الهِضاب . أما الضِّرابُ مصدر ضاربتُه فإنه بالضاد ، والظَّعينةُ : وهى المرأة ، والظِّلْف : وهو للبقر والغَنَم كالحافر للخيل ، والظَّلَف : وهو نزاهة النفس ، والظُّفُر : واحدُ الأظفار ، والظَّفَر : وهو النصر . أما ضَفْر الشَّعر ونحوه فبالضاد ، والظِّئْر : وهى المُرْضِـعة ، والظَّهْر : وهو العُضْو المعروف . أما الضَّـهْر : وهو صخرة فى الجبـل يخالف لونُهـا لونَه فإنه بالضاد ، والظَّهِير : وهو المُعين ، والظَّهِيرة : وهى وَسَط النهار ، والظَّمأ : وهو العَطَش ، والظِّرار جمع ظِرٍّ : وهو الغليظ من الأرض . أما الضَّرِير : بمعنىٰ الأعمىٰ فبالضاد ،

والظَّرِبَان : وهى دُوَيْبَّةٌ منتنة الريح، والظَّلَعُ : وهو الغَمْز يقال ناقة ظالع إذا غمزتْ فى المشى. أما الضِّلَع واحد الأضلاع فإنه يكتَب بالضاد، ومنه قولهم فرسٌ ضَلِيع.

حرف العين المهملة

فيه ـ العَظْم : وهو معروف، والعَظَمة : وهى الكِبرياء وما تصرَّف منها، وعَظَّه الدهر وعَظَّته الحرب. أما العَضُّ بالأسنان فبالضاد، والعَظْل (١) : وهو الشدّة، ومنه تَعاظُلُ الجراد والكلاب فى السِّفاد. أما العَضْل بمعنى المنع فإنه بالضاد، ومنه قوله تعالى : ﴿فلا تَعْضُلُوهُنَّ أن يَنْكِحْنَ أزْواجَهُنَّ﴾. وكذلك قولهم : أعضَلَ الأمرُ إذا صَعُب. ومنه الداء العُضَال، وسوق عُكَاظ : وهو سُوق كان يقام للعرب فى الجاهلية وأصل العَكْظِ الحَبْس.

حرف الغين المعجمة

فيه ـ الغَيْظ بمعنى الحَنَق وما تَفرَّع عنه، أما غاض الماءُ بمعنى غار والغَيْضَة وهى مَنْبِتُ الشجر فى الماء فبالضاد، والغِلَظ وما تصرف منه.

حرف الفاء

فيه ـ الفَظَاظة : وهى القسوة ومنه قوله تعالى : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ﴾. أما ٱنْفِضاض الجمع فبالضاد، ومنه قوله تعالى : ﴿لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾. وكذلك ٱفْتِضاض البكر والكِتَاب، والفَظِيع : وهو الشنيع، وفاظَ الرجُل إذا مات. أما فَيْض الإناء والدمع بمعنى السَّيَلان، فبالضاد، ومن ثَمَّ جاز أن يكتب فاظَتْ نفسُه بالظاء على معنى ماتت نفسه ويجوز أن يكتب بالضاد على معنى سالَتْ نفسه.

---

(١) كذا فى الضوء أيضا بالظاء المشالة. وفى اللسان فى مادة (ع ض ل) ... [وأصل العضل المنع والشدة] أى بالضاد الساقطة ولم يذكره بهذا المعنى فى مادة (ع ظ ل).

حرف القـاف

فيه ـ القَيْظ وهو صميم الحرّ وما تصَرَّف منه . أما القَيْض الذى هو القشر الأعلىٰ من البيض فبالضاد ، وكذلك قَيَّضَ الله له كذا أى أتاحه له ، والقَرَظ : وهو ثمرة شجرة السَّنْط التى يدبَغُ بها الجلد . أما القَرْض بمعنىٰ القطع فبالضاد ، ومنه قَرْض المال .

حرف الكاف

فيه ـ الكَظْم : وهو كَتْم الحُزْن ، والكَظُّ : وهو شدّة الحرب ، وكاظِمَةُ : وهو آسم مكان بالبحرَيْن .

حرف اللام

فيه ـ لَظَى : آسمُ جهنَّمَ ، واللَّظُّ : وهو اللزوم . ومنـه " أَلِظُّوا بيـاذا الجَلَالِ والإكرام " أى آلزموا هـذا الآسم فى الدعاء والمناجاة به ، واللَّحْظ : وهو النظر بمُؤْخِر العين ، واللَّمظ : وهو بياضُ الجَحْفلة السُّفْلىٰ من الفرس ، ومنه قيل فرس أَلْمَظُ ، واللَّفْظ : وهو معروف وما تصرف من جميع ذلك .

حرف النون

فيه ـ النَّظْم وما تصرف منه ، والنَّظَر بالعين وما تصرف منه ، والنَّظِير وهو المثل . أما النَّضَارة بمعنىٰ البَهْجة فبالضاد ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ . ومنه آشتقاق بنى النَّضِير وفى معناه النُّضَارُ آسمُ الذهب ، والنَّظَافة : وهى خلاف القَذَارة .

حرف الواو

فيه ـ الوَظِيف : مافوقَ الرُّسْغ من ذوات الحافِر ، والوَظِيفةُ ، وأصلها الطعام الراتِب ثم آستُعمِلت فيما هو أعَمُّ من ذلك .

حرف اليـاء

اليَقَظَة : وهى خلاف النوم .

المقالة الثانية

فى المسالك والممالك؛ (وفيها أربعة ابواب)

الباب الأوّل

فى ذكر الأرض على سبيل الإجمال

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأوّل

(فى معرفة شكل الأرض، و إحاطة البحر بها، وبيان جِهَاتها الأربع، وما ٱشتملت عليه من الأقاليم الطبيعية، وبيان مَوْقِع الأقاليم العُرْفية من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعةِ لها، ومعرفة طريق ٱستخراج جهة كل بلد؛ وفيه طَرَفان) .

الطَّرَف الأوّل

(فى شكل الأض، و إحاطة البحر بها)

أما شكل الأرض فقد تقرّر فى علم الهيئة أن الأرض كُرِيَّة الشَّكْل والماء مُحِيط بها من جميع جهاتها إلا ما ٱقتضته العِنَاية الإلٰهيَّة من كشف أعلاها لوقوع العِمارة فيه؛ وقيل هى مُسَطَّحة الشَّكْل؛ وقيل كالتُّرْس؛ وقيل كالطَّبْل. والتحقيق الأوّل؛ وبكل حال فالماء محيط بها من جميع جهاتها كما تقدّم .

قال فى "تقويم البُلْدان" (١): وأحواله معلومة فى بعض المواضع دون بعض، فمن المعلوم الحالِ الجانبُ الغربىُّ ويسمّى بحر أُوقِيانُوسَ (بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة ثم قاف مكسورة ثم ياء مثناة تحتُ مفتوحةٌ ثم ألف بعدها نون ثم واو ثم سين مهملة).

(١) هذه الفقرة تناسب الكلام على البحار وقد ذكرها هناك .

ثم للأرض أربع جهات :

الأولىٰ ـ المَشْرِق، سميت بذلك لشُرُوق الشمس منها، ويقال لها الشَّرْق أيضا .

الثانية ـ المَغْرِب، سميت بذلك لغروب الشمس فيها، ويقال لها الغَرْب أيضا .

الثالثة ـ الشَّمَالَ (بفتح الشين) وهى التى إذا ٱستقبلتَ المَشْرِق كانت علىٰ شِمَالك ويقال لها الشام أيضا، لأن الشـام كانت فى جهة الشَّمال عن بلاد المغرب فسميت الجهة به، وأهل مصر يسـمون هذه الجهةَ البَحْرِيَّة : لكونها جهة البحر الرومىّ، أوتسميةً لها بٱسم الريح التى تهب منها فقد سبق أنهم يسـمُّون الرِّيح التى تَهُبُّ من الشمال البحريةَ : لأنها يساربها فى البحر كيف كان .

الرابعة ـ الجَنُوب (بفتح الجيم) وهى التى إذا ٱستقبلت المَشْرِق كانت علىٰ جانبك الأيمن ولم يُسمَّ بالأيمن كما سُمِّى مقابلُه بالشَّمال، لأنه لمـا ذكر الشَّمال لم يبق إلا الجانبُ الأيمن فٱستُغْنِىَ عن ذكره، وأهل مصر يسمون هذه الجهة القبلية : لوقوعها فى جهة قِبْلتهم ولذلك يبدَءُون بها فى التحديد، وإن كان الأصل الآبتداءَ بالمشرق : لأن منه مبدأ حركة الفَلَك .

ثم كُرَة الأرض يقسـمُها خطٌّ فى وسَطَها بنصـفين : نصفٍ جنوبِىٍّ، ونصف شَمَالىّ، ويسمَّى هذا الخط خط الآستواء لآستواء الليل والنهار عنده فى جميع فصول السنة، ويقاطعه خطٌّ آخرُ يقسِمُها بنصفين : نصفٍ شرقىّ ونصف غربىّ، وتصير الأرضُ به أربعـةَ أرباع، ويسمى هذا الخط خطَّ نصفِ النهار لمسامتة الشمس له فى نصف النهار، وكلٌّ من هـذين الخطين مقسوم بمِائة وثمـانين درجةً، كل درجة ستون دقيقةً . وسيأتى تقدير ذلك بالأميال والفراسخ والمراحل والبُرُد فى الكلام علىٰ بُعْد ما بين البُلْدان فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وآعلم أن كُلّ مابَعُد عن أقصى العِمارة فى المغْرِب إلىٰ جهة المَشْرِق يعبَّرعنه عند علماء الهيئة والمِيقات بالطُّول ؛ وقد آختلف فى آبتداء ذلك : فالقُدَماء آبتدءُوه من جزائر بالبحر المحيط تُعْرَف بالخـالدات ، يأتى الكلام عليها فى جمـلة جزائر البحر المحيط ، والمحقِّقون علىٰ آبتــداء ذلك من ساحل البحر المحيط الغَرْبىّ الذى هو أقصىٰ العمارة الآنَ ،و بينهما عَشْرُ دَرَج ، ونهايةُ العمارة فى المشرق موضعٌ يقال له كُنْدُر ، ومنتصفُ مابين الآبتداء والنهاية الشرقية يسمّى قُبَّة أرين ، و يعبَّر عنه بقبة الأرض ؛ وهى علىٰ بعد رُبْع الدَّوْر من المبدإ الغربىّ ، ويختلف الحال فيه بآختلاف الآبتداء من الجزائر الخالدات أومن الساحل . ومابَعُد عن خط الآستواء المقدّم ذكره يعبَّرعنه بالعَرْض ؛ فإن كان فى جهة الجنوب فالعَرْض جنوبىٌّ ، و إن كان فى جهة الشَّمال فالعَرْض شَمَالىّ . و يعتبرَ الطُّول والعرض فى الأمكنة من البُـلْدان وغيرها بالدَّرَج والدقائق علىٰ ما سيأتى بيانه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

ثم النِّصف الجنوبىُّ من الأرض لاعِمَارة فيه إلافيما قارب خَطَّ الآستواء فى بعض بلاد الزِّنْج والحبشة ، وما والىٰ ذلك ممـا لايزيد عَرْضُه علىٰ ثلاث دَرَج فيما أورده السلطان عماد الدين صاحب حماه فى "تقويم البُلْدان" أوستَّ عشْرَةَ درجةً وخمسٍ وعشرين دقيقة فيما ذكره إسحاق الحارثىّ وغيره . وأكثر المعمور إنما هو فى النصف الشَّمالىِّ ؛ والعمارة فيه فيما بين خط الآستواء إلىٰ نهاية ستٍّ وستين درجةً ونصف درجة فى العَرْض ؛ وماوراء ذلك إلى نهاية الشَّمال خرابٌ لاعمارةَ فيه ، وغالب العمارة واقع بينما يجاوز عَرْضُه عشْرَ درج إلىٰ حدود الخمسين درجةً ، وما وراء ذلك فى جهة الجنوب إلىٰ خط الآستواء ، وفى جهة الشَّمال إلىٰ حدّ العمارة غالبهُ جبال وقِفَار ؛ وغالبُ العمارة فى الطُّول من ساحل البحر المحيط الغربىِّ إلىٰ تسعين درجة فما دُونَها .

الطَّـــرَف الثـانى

(فيما آشتملت عليه الأرضُ من الأقاليم الطبيعية)

قد قَسَّم الحكماءُ المعمورَ إلىٰ سبعة أقاليم ممتدّة من المغرب إلىٰ المشرق فى عُرُوض قليلة تتشابهُ أحوال البقاع فى كل إقليم منها، ثم آختلفوا فى ترتيبها بحسَب العرض، فقوم جعلوا آبتداء الأوّل منها خطَّ الآستواء، وآخِرَ السابع منتهىٰ العمارة فى الشَّمال وهو ستٌّ وستون درجة علىٰ ماتقدّم .

قال فى "تقويم البُلْدان": والذى عليه المحقِّقون أن آبتداء الإقليم الأوّل حيثُ العَرض آثنتا عشرةَ درجة وثلثا درجة، وما وراء ذلك إلىٰ خط الآستواء خارج عن الإقليم الأوّل فى جهـة الجنوب، وآخر الإقليم السابع حيثُ العرضُ خمسون درجة وثلث درجة، وما وراء ذلك إلىٰ نهاية العُمْران فى الشَّمال خارجٌ عن الإقليم السابع إلىٰ الشمال فيكون من العمران مالم يدخل فى الأقاليم السبعة، وعليه وقع الترتيب فى هذا الكتاب .

الإقليم الأوّل — مبـدؤه حيثُ العرض آثنتا عَشْرةَ درجةً وثلثَا درجة كما هو مذهب المحققين علىٰ ماتقـدّم، ووَسَطه حيث العرض ستَّ عشرةَ درجة ونصفُ وثمن درجة، وآخره حيث العرض عشرون درجة وربعُ وثُمنُ درجة، فتكون سعته سبع درجات وثلثى درجة وثمن درجة .

الإقليم الثانى — مبدؤه حيث العرض عشرون درجة وربعُ وثمن درجةٍ، ووسَـطُه حيث العرض أربع وعشرون درجة وثلثـا درجة، وآخره حيثُ العرض سبعٌ وعشرون درجة ونصفُ درجة ؛ فتكون سَـعَتُه بالتقريب سبع دَرَج وثلاثَ دقائق .

الإقليم الثالث — مبدؤه حيث العرضُ سبعٌ وعشرون درجة ونصفُ درجة، ووسَطُه حيث العرض ثلاثون درجة وثلثا درجة، وآخره حيث العرض ثلاث وثلاثون درجة ونصف وثمن درجة (١) بالتقريب .

الإقليم الرابع — مبدؤه حيث العرض ثلاث وثلاثون درجة ونصفُ وثمن درجة، ووسطه حيث العرضُ ستٌ وثلاثون درجة وخمُسُ وسدُسُ درجةٍ، وآخره حيث العرضُ تسع وثلاثون درجة إلا عُشْرا، فتكون سعتُه خمسَ دَرَج وسبعَ عشرةَ دقيقةً بالتقريب .

الإقليم الخامس — مبدؤه حيث العرضُ تسع وثلاثون درجة، ووسطه حيث العرضُ إحدىٰ وأربعون درجةً وربعُ درجة، وآخره حيث العرضُ ثلاث وأربعون درجة وربعُ وثمنُ درجةٍ، فتكون سعَتُه أربعَ درجات وربعَ وثمنَ وعُشْر درجةٍ بالتقريب .

الإقليم السادس — مبدؤُه حيث العرض ثلاث وأربعون درجة وربعُ وثمنُ درجة، ووسطه حيث العرض خمس وأربعون درجة وعُشْرُ درجة، وآخره حيث العرض سبع وأربعون درجة وخمُسُ درجة، فتكون سَعتُه ثلاثَ درجات ونصف وثمَنَ وخُمسَ درجة .

الإقليم السابع — مبدؤه حيث العرضُ سبع وأربعون درجة وخمُسُ درجة، ووسطه حيث العرض ثمانٌ وأربعون درجة ونصفُ وربعُ وثمنُ درجة، وآخره حيث العرضُ خمسون درجةً وثلثُ درجة، فتكون سعته ثلاثَ درجات وثمانَ دقائق .

(١) فتكون سعته ست درجات وثمن درجة [ولعل هذه الفذلكة سقطت من قلم الناسخ وقد ذكرت فى الضوء وتقويم البُلْدان] .

وأما أطوال هذه الأقاليم فإنها تختلف فى الطُّول والقِصَر بٱعتبار القُرْب من خط الٱستواء والبعدِ عنــه ؛ فكلَّما قرُب الإقليم من خط الٱستواء كان أكثر طُولا من الذى يليــه : ضرورةَ أن أوسع الكُرَة وسَطُها وما بعده من الجانبين يقصُر شيئا فشيئا .

فطول الإقليم الأوّل ـ من ٱبتدائه من ساحل البحر المحيط الغربىّ إلى ساحل البحر المحيط الشرقىّ فيما ذكره فى "تقويم البُلْدان" مائةٌ وٱثنتان وسبعون درجةً وسَبْعٌ وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم الثانى ـ مائة وأربع وستون درجة وعشرون دقيقةً .

وطول الإقليم الثالث ـ مائة وأربع وخمسون درجة وخمسون دقيقة .

وطول الإقليم الرابع ـ مائة وأربع وأربعون درجة وسبع عشرَة دقيقة .

وطول الإقليم الخامس ـ مائة وخمس وثلاثون درجة وٱثنتان وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم السادس ـ مائة وستٌّ وعشرون درجة وسبع وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم السابع ـ مائة وتسعَ عشرة درجة وثلاث وعشرون دقيقة .

الفصل الثانى

من الباب الأوّل من المقالة الثانية

(فى البحار التى يتكرر ذكرها بذكر البُلْدان فى التعريف بها والسَّفَر إليها، وفيه طرفان)

الطـــرف الأوّل

(فى البحر المحيط)

وهو المستدير بالقَدْر المكشوف من الأرض . وأحوالُه معلومة فى بعض المواضع دون بعض .

فمن المعلوم الحـالِ منه الجانبُ الغربىُّ، ويسمّى بحر أُوقيانُوس، وفيـه الجزائر الخالدات المتقدّم ذكرها فى الكلام علىٰ الأطوال.

ويأخذ فى الآمتداد من سواحل بلاد المغرب الأقصىٰ من زُقَاق سَبْتَةَ الذى بين الأنْدَلُس وبَرِّ العُدْوة إلىٰ جهة الجنوب حتّى يتجاوز صحراء لَمْتُونة : وهى بادية البربر بين طَرَف بلاد المغرب من الجَنُوب وبين طرف بلاد السودان من الشَّمال، ثم يمتدّ جَنُوبا علىٰ أرضٍ خرابٍ غير مسكونة ولا مسلوكة حتّى يتجاوز خط الآستواء المتقدّم ذكره إلىٰ الجنوب .

قال الشريف الإدريسى : وماؤه هناك ثخين غليظ شديد الملوحة، لا يعيش فيه حيوان، ولا يسْلُك فيه مركب .

ثم يعطِف إلىٰ جهة الشرق وراءَ جبـال القُمْر التى منها منابع نيل مصر الآتى ذكْرُها، فيصير البحر المذكور جنوبيا عن الأرض، ويمتدّ شرقا علىٰ أراض خراب وراء بلاد الزنج، ثم يمتدّ شرقا وشمالا حتّى يتصل ببحر الصين والهند، ثم يأخذ مشرِّقا حتّى يسامت نهـاية الأرض الشرقية المكشوفة، وهناك بلاد الصين، ثم ينعطف

فى شرق الصين إلىٰ جهة الشّمال ويصير فى جهة الشرق عن الأرض، ويمتدّ شمالا علىٰ شرقى بلاد الصين حتّى يتجاوز حدَّ الصين ، ويسامت سدّ يأجوج ومأجوج ، ثم ينعطف ويستدير علىٰ أرضٍ غير معلومة الأحوال؛ ويمتدّ مغرِّبا ويصير فى جهة الشمال عن الأرض، ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها؛ ثم ينعطف غربا وجنوبا ويستدير علىٰ الأرض ويصير فى جهة الغرب منها، ويمتدّ علىٰ سواحل أمم مختلفة من الكُفّار حتّى يُسامتَ بلاد رُومية من غربها ، ثم يمتدّ جنوبا ويتجاوز بلاد رومية ويسامت البلاد التى بينها وبين الأندلس ، ويتجاوزها إلىٰ سواحل الأندلس؛ ويمتدّ علىٰ غربِىّ الأَندَلُس جنوبا حتّى يجاوزه وينتهى إلىٰ زُقاق سَبْتة الذى وقعت البداءة منه .

الطَّـــرَف الثانى

(فى البحار المنبَثّة فى أقطار الأرض، ونواحى الممالك، وما بها من الجزائر المشهورة)

وهى علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(الخارج من البحر المحيط وما يتصل به)

والمشهور منه ثلاثة أبحر .

البحر الأوّل

(الخارج من البحر المحيط الغربىّ إلىٰ جهة الشرق)

وهو (بحر الروم) وأضيف إلىٰ الروم لسكنىٰ أممهم عليه من شَمَالِيِّه، ويعبر عنه بالبحر الرومىّ أيضا، وقد يعبَّر عنه بالبحر الشامىّ : لوقوع سواحل الشام عليه من شرقيه، ومَخْرَجُه من المحيط من بحر أُوقِيانُوس المتقدّم ذكره بين الأندلس وبَرِّ العُدْوة

من بلاد المغرب، ويُسمّى هناك بحرَ الزُّقاق، وربما قيل زُقاق سَبْتَة ـ لمجاورته لها علىٰ ما سيأتى؛ وهو هناك فى غاية الضيق .

قال الشريف الإدريسىّ : والثابت فى الكتب القديمة أن سَعَته عشرةُ أميال ولكنه آتسع بعد ذلك .

قال آبن سعيد : وهو فى زماننا ثمانيةَ عشرَ ميلا .

قال فى "الروض المعطار" ويذكر أنه كان عليه قنطرة عظيمة بين الأندلس وساحل طَنْجة من بر العُدْوة، مبنيّةٌ بالحجارة، لايُعلم لها نظير فى معمور الأرض، يمرّ عليها الناس والدوابُّ من جانب إلىٰ جانب، وأن البحر قبل الفتح الإسلامىّ بمائة سنة طمىٰ فأغرق القنطرةَ؛ وربما ظهرتْ لأهل المراكب تحت الماء . قال : والناس يقولون إنه لابُدَّ من ظهورها قبل فَنَاء الدنيا .

ويبتدئ هذا البحر من أوّل بحر الزُّقاق المقدّم ذكرُه، ويمتدّ علىٰ (سواحل الغرب) إلىٰ حدود الديار المِصْريَّة فيمرّ علىٰ مدينة (طَنْجَة) حيث الطول ثمانُ درج، والعرض خمس وثلاثون درجةً ونصفٌ؛ ثم يَعْطِف جنوبا وشرقا إلىٰ مدينة (سَلَا) .

ثم يمتدُّ شَرْقا وشَمالا إلىٰ مدينة (سَبْتَة) ويمتدّ كذلك حتّى يسامت مدينة (فاس) قاعدة الغرب الأقصىٰ علىٰ بُعْد منه؛ ثم يمتدّ إلىٰ حدود مدينة (تِلِمْسَان) قاعدة الغرب الأوسط، ثم يأخذ شرقا بمَيْلة إلىٰ الشمال حتّى يصير عند (الجزائر) فُرْضة بِجَايَةَ، ويمرّ حتّى يسامت (بجاية) .

ثم يمتدُّ حتى يجاوز مدينة (مَرْسىٰ الخرز) الذى به مَغَاص المَرْجان شرقىَّ قُسَنْطينَةَ : آخرِ مملكة بِجَايَةَ من الشرق، ثم يتجاوز مملكة بجايةَ إلىٰ أول حدود أفريقية، ويمرّ فى سمت وسط المشرق حتّى يقابل مدينة (تُونُس) قاعدة أفريقية من شماليها، ويدخل منه خور إلىٰ تُونُس المذكورة .

ثم يمتدّ بعد أن يتجاوز تُونُس نحوَ تسعين ميلا شرقا نَصًّا، ثم يَعْطِف جنوبا حتّٰى يصير له دخلة كبيرة فى الجنوب؛ وفى فَمِ هذه الدخلة حيث يعطف البحر عن الشرق إلىٰ الجنوب جزيرة (قَوْصَرَة) مقابلة لجزيرة صقلية .

ثم يمتدّ فى الجنوب إلىٰ قريب من مدينة (سُوسَة)؛ ثم يشرق إلىٰ سُوسَةَ المذكورة ثم يأخذ شرقا وجنوبا إلىٰ مدينة (المَهْدِيَّة)؛ ثم يمرّ شرقا وجنوبا حتّٰى يتجاوز مدينة (صَفَاقُس)، ويمتدّ حتّٰى يجاوز جزيرة (جِرْبَة)؛ ثم يعطف شمالا ويصير للبر الجنوبى دخلةٌ فى البحر، ويمتـدّ شرقا وشَمَالا حتّٰى يبلغ مدينة (أطْرابُلُس) : وهى آخر مدنِ أفريقيَة؛ ثم يمتدّ شرقا حتّٰى يجاوز حدود أفريقية عند طول إحدىٰ وأربعين درجة، ثم يمتـدّ شَمَـالا علىٰ سواحل (بَرقَة) الآتى ذكرها فى جملة نواحى الديار المصرية إلىٰ (طَلْميثا) ثم ينعطف إلىٰ جهة الشمال، ويكون للبر فى البحر دخلةٌ إلىٰ (رأس أوثان): وهو جبل داخل فى البحر، ثم يشرق من رأس أوثان إلىٰ (رأس تُنْبىٰ) : وهو جبل فى البحر قبـالة رأس أوثان من جهة الشرق؛ ثم يعطف إلىٰ الجنوب ويمتدّ جنوبا حتّٰى يسامت (عقبـة بَرْقة) : وهى أوّل حدود الديار المصرية ، علىٰ ما يأتى ذكره فى تحديدها .

ثم يمتدّ علىٰ سواحل مصر، ويمرّ شرقا وجنوبا إلىٰ مدينة (الإسكندرية) من قواعد الديار المصرية .

ثم يأخذ شرقا إلىٰ عند مَصَبِّ فِرْقة النيل الشرقية، ويأخذ مشرّقا إلىٰ (رشيد) (١) ثم إلىٰ (الفَرَما) ثم إلىٰ (العَرِيش) ثم إلىٰ (رَفَح) : وهى منزلة فى طَرَف رمل الديار المصرية

---

(١) بياض فى الأصل . وفى الضوء [رشـيد عند مصب فرقة النيـل الغربية ، ويمتدّ كذلك إلىٰ مدينة دمياط ، عند مصب فرقة النيل الشرقية ، ويأخذ شرقا إلىٰ الطينة ثم إلىٰ الفرما ... ... الخ] .

من جهة الشام علىٰ مرحلة من غَزَّةَ، حيث الطُّول نحو ستٍّ وخمسين درجة ونصفٍ والعرضُ آثنتان وثلاثون درجة؛ ومن هنا ينقطع تشريقه .

ثم ينعطف ويأخذ شَمَالا علىٰ (سواحل الشام) الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ المملكة الشامية فيمتدّ إلىٰ مدينة (غَزَّةَ)، ثم إلىٰ (عَسْقَلان)، ثم إلىٰ (يَافَا) مِيناء الرملة من أعمال الصَّفْقة الساحلية من دمشق، ثم إلىٰ (قَيْسارِيَّة). (بفتح القاف) وهى مدينة خراب تعدّ من جُنْد فلسطين، كانت من أمَّهات المُدُن، ثم إلىٰ (عَثْليث) من أعمال صَفَد، ثم إلىٰ (عَكَّا) من أعمالها، ثم إلىٰ (صُور) من أعمالها، ثم إلىٰ (بيْرُوت) من أعمال الصفقة الشمالية من دمشق، ثم إلىٰ (جُبَيل): وهى مدينة قديمة خراب، ثم إلىٰ (أَنَفَة): من أعمال طرابلس، ثم إلىٰ مدينة (طرابلس)، ثم إلىٰ (أَنْطَرْطُوس) من أعمالها، ثم إلىٰ (بُلُنْيَاس)(١) من أعمالها، ثم إلىٰ (جَبَلَة) من أعمالها، ثم إلىٰ (اللَّاذِقيَّة) من أعمالها، ثم إلىٰ (السُّوَيْدية) ميناء أَنْطاكِيَةَ من أعمال حَلَب، ثم يأخذ البحر غربا بشمال إلىٰ (أَيَاس)، مدينة الفتوحات الجاهانية، ثم إلىٰ (المَصِّيصة) ثم إلىٰ (أَذَنَة) ثم إلىٰ (طَرَسوس) ثم يمتدّ شَمَالا بغَرْب حتى يجاوز حدود بلاد الأرمن؛ ويمتدّ علىٰ سواحل بلاد الروم التى هى الآن بيد التركمان الآتى ذكرها فى مكاتبات ملوكهم إلىٰ (الكُرْك). (بضم الكاف وسكون الراء المهملة) وهى بلدة بساحل بلاد المسلمين هى الآن بيد صاحب قبرس؛ ثم يمرّ شَمَالا إلىٰ (العَلَايَا)، ويقابلها من البر الآخر (دِمياط) من سواحل الديار المصرية تقريبا؛ ثم يمرّ إلىٰ (أَنْطالِيَة)، ثم إلىٰ (بَلَاط)، ثم إلىٰ (طنفزلو)، ثم إلىٰ (اياس لوق)، ثم إلىٰ (مَغْنيسيا)، ثم إلىٰ مدينة (ابزو): وهى بلدة علىٰ فم الخليج القسطنطينى من الشرق، وبها يعرف الخليج فيقال فم ابزو، ويقابلها من البر الآخر غربىٌّ مدينة الإسكندرية، فيما بينها وبين بَرْقة؛ ثم يجاوز الخليج المذكور ويمتدّ مغرّبا بمَيْلة إلىٰ الجنوب علىٰ سواحل الروم والفرنجة، فيمرّ علىٰ بلاد المرا : وهى مملكة أوّلها فم الخليج القسطنطينى

(١) قال فى معجم البلدان [بضمتين وسكون النون] . وفى القاموس [بِلِنْيَاس كسِرطِراط] فلعل فيه لغتين .

المتقدّم ذكره من جانبه الغربىّ . كانت فى الأيام النـاصرية آبن قلاوون مشتركة بين صاحب القسطنطينية وبين طائفــة الكيتلان من الفرنج ، وقد فتحها الآن آبن عثمان وآستملكها من الروم .

ثم يأخذ بين الغرب والجنوب حتى يجاوز بلاد (الملفجوط) وهم جنس من الروم لهم لسان ينفردون به . ويقابلها من البر الآخر شرقىّ بَرْقَةَ ، ثم يمتــدّ فى الغرب إلىٰ بلاد اقليرنس ، ثم إلىٰ بلاد البـاسليسة : وهى آمرأة ملكت هـذه البلاد بعد السبعمائة فعُرِفَتْ بها .

ويقابلها من البر الآخر أوساط بَرْقة . وبآخر هذه المملكة من جهةِ الغرب (جَوْن البنادقة) وهو خليج يخرج من بحر الروم هـذا ، ويمتدّ غربا بشَمَالٍ حتّى يصير طَرَفُه غربىَّ رومية ، وعلىٰ طرفه مدينة (البُنْدُقية) ومن فمه إلىٰ منتهاه نحو سبعمائة ميل ، ثم يجاوز فم الخور المذكور إلىٰ مملكة بولية ، وأوّلها فم خور البنادقة من الجانب الغربىّ .

ويقابلها من البحر الآخر (طَلْمِيثا) فُرْضة بَرْقة المتقدّمة الذكر ، ثم يمتدّ فى الغرب إلىٰ بلاد (قلفريه) من جملة مملكة بوليه المتقدّمة الذكر .

ويقابلها من البر الآخر بلاد أطْرابُلُس من بلاد إفريقية ، ثم يمتدّ إلىٰ ساحل (رومِيه) ، المدينة المعظمة المشهورة .

ويقابلها من البر الآخر شرقىّ تُونُس من إفريقية . ثم ينقطع تغريبه ويأخذ جَنُوبا حتّى يجاوز سواحل بلاد رومية المذكورة إلىٰ بلاد التُّسْقان : وهم جنس من الفرنج وبلادهم معروفة بنبات الزَّعْفران .

ويقابلها من البر الآخر مدينة تُونُس : قاعدة أفريقية المتقدّمة الذكر ، ويمتــدّ فى الجنوب إلىٰ بلاد (بيزه) وهى بلدة علىٰ الركن الشمالىّ من جزيرة الأندَلُس إليهــا ينسب الفرنج البيازنة والحديدُ البيزانىّ .

ويقابلها من البر الآخر (مَرْسَى الخَرَز) آخر مملكة بِجَاية من الشرق على ماتقدّم ذكره. ثم يمتــدّ إلى بلاد (جَنوة) الآتى ذكرها فى الكلام على البلاد الشمالية، ثم يأخذ غربا إلى جبل البُرت: وهو الجبل الفاصل بين جزيرة الأندلس وبين الأرض الكبيرة ذات الأمم المختلفة، ثم ينقطع تغريبه ويعطف مشرّقا ويدخل الركن الشرقىّ من الأندلس فيه؛ ويمتدّ فى الشرق، ويستدير على الركن المذكور، ثم يعطف غربا ويمتدّ على (سواحل الأندلس) إلى مدينة (بَرْشَلُونه) ثم إلى مدينة (طَرْطُوشه).

قال فى "الروض المعطار": ويقابلها من البر الآخر مدينة بجاية.

قال فى "تقويم البلدان": وعرض البحر بينهما ثلاثة مجار؛ ثم يمتدّ كذلك بين الغرب والجنوب إلى مدينة بَلَنْسِية، ثم يعطف غربا إلى دانِيَة؛ ثم يمتــدّ غربا بجنوب إلى مدينة مالَقَة ثم يمرّ إلى الجزيرة: وهى مقابلة لساحل سَبْتة وطَنْجة حيث وقع الابتداء.

وسيأتى الكلام على ضبط مالم يُضبط من البلاد على ساحل هذا البحر بالحروف مع ذكر صفاتها عند التعرّض لذكرها فى الكتاب فى مواضعها إن شاء الله تعالى.

وطول هذا البحر من البحر المحيط إلى ساحل الشام فيما يُذكَر ألفُ فرسخ ومائة وسبعون فرسخا، وغاية عَرْضه فى بعض الأماكن ستمائة ميل.

وأما مايتصل بالبحر الرومىّ المتقدّم الذكر فبحر نِيطِش (بنون مكسورة وياء مثناة تحت ساكنة وطاء مهملة مكسورة وشين معجمة فى الآخر). وهو المعروف فى زماننا ببحر القِرِم: لتركب بلاد القِرِم على ساحله، ويعرف أيضا بالبحر الأرمنىّ: لتركب بعض بلاد أرمِينِيَة على بعض سواحله، وربما قيل فيه البحر الأسودُ: وهو متصل ببحر الروم المذكور من شماليّه، ويتركب عليه من آخره (بحر مانيطِش) بزيادة لفظ "ما" فى أوّله وباقى الضبط على ماتقدّم وهو المعروف فى زماننا ببحر الأَزَق: لتركب بلاد الأَزَق على ساحله الشرقىّ وليس وراءه بحر متصلٌ به: ولذلك يُعبر عنه بعضهم ببحيرة ما نيطش وهو

يصبُّ فى بحر نيطش، وبحر نيطش يصب فى بحر الروم؛ ولذلك تُسرع المراكبُ فى سيرها من القِرِم إلىٰ بحر الروم، وتبطئ فى سيرها من بحر الروم إلىٰ القِرِم لآستقبالها جَرَيان المـاء .

وأوّل بحر نيطش المذكور ممـا يلى بحر الروم . (الخليج القسطنطينى) المتقدّم ذكره فى تحديد بحر الروم : وهو خليج ضيق للغاية بحيث يرىٰ الإنسان صاحبه من البر الآخر .

قال آبن سعيد : وطول هذا الخليج نحو خمسين ميلا .

وذكر فى "تقويم البُلْدان" عن بعض المسافرين أن طوله سبعون ميلا وآتصاله بالبحر الرومىّ من جانبه الشمالىّ، ويمتدّ شمالا علىٰ (سواحل بلاد الروم) من البر الشرقىّ منه إلىٰ (قلعة الجرون) وهى قلعة خراب علىٰ ساحل هذا الخليج مقابِلَ القسطنطينية ويمتدّ من الجرون شمالا بميلةٍ يسيرة إلىٰ الشرق إلىٰ مدينة كربى علىٰ خليج القسطنطينية علىٰ القرب من الجرون المذكورة؛ ثم يمتـدّ شرقا بشَمَالٍ إلىٰ مدينة (كتروا)، وهى آخر مدن القسطنطينية التى علىٰ هذا الساحل، ثم يمتدّ إلىٰ مدينة (كِينولِى) وهى بلدة علىٰ الخليج القُسْطنطينىّ، ثم يأخذ بين الشَّمَال والغرب، ويكون للبر دخلة فى البحر إلىٰ جهة الغرب، وعلىٰ طَرَف هذه الدّخلة فرضة (سنوب) من سواحل الروم الآتى ذكرها فى مكاتبات ملوك الكفر، ثم يأخذ فى الآتساع إلىٰ مدينة (سامسون)، وهى بلدة من سواحل بلاد الروم، ثم يأخذ مُشَرِّقاً إلىٰ مدينة (طرابزون)، وهى فُرْضَةٌ للروم بهذا الساحل، ثم يمتد شَمَالًا بميلة إلىٰ مدينة (سُخُوم)، وهى مدينة علىٰ ثلاثة أيام عن طرابزون شرقا بِشَمَالٍ، وبينها وبين بلاد الكَرَج يوم واحد، ويقال إنها من بلاد الكَرَج؛ ثم يمتدّ شرقا بشمال إلىٰ مدينة (أَبْخَاس)، وهى مدينة فى جبل علىٰ ساحل البحر علىٰ القرب من سُخُوم؛ ثم يتضايق البحر مُغرِّبًا ويضيق من البر الآخر حتّى يتقارب البرّان ويصير

الماء بينهما مثل الخليج، وهو مصب بحر مَا نِيطش فى بحر نِيطش، وعلىٰ جانب هذا الخليج مدينة (الطامَانِ) من سواحل الروم: وهى حدّ بلاد الروم، من مملكة بركة المشتملة علىٰ القِرم، ودَشْت القَبْجَاقِ، والسراى، وخُوَارِزْم علىٰ ما سيأتى بيانه فى مكاتبات القانات؛ ثم يأخذ فى الاتساع شرقا وشَمالا وغربا ويصير كالبركة، ويمتدّ علىٰ سواحل الأَزَقِ الآتى ذكرها فى مكاتبات حاكمها إلىٰ مدينة الشقراقِ، وهى أوّل بلاد الأَزَقِ، ومنها ينتهى تشريقهُ، ثم يَعْطِفُ إلىٰ الشَّمال ويأخذ إلىٰ مدينة (الأَزَقِ)، ثم يستديرُ من الأزقِ حتّٰى يصير إلىٰ الغرب، وينتهى إلىٰ الخليج الذى بين بحر نيِطش وبحر مانيِطش المتقدّم ذكره.

وهناك مدينة الكِرْش من بلاد الأَزَقِ مقابل مدينة الطَّامَانِ المتقدّمة الذكر من البر الآخر، ثم يمرّ جَنُوبا ويمتدّ علىٰ سواحِل القِرم الآتية الذكر فى مكاتبة حاكمها، فيمرّ إلىٰ مدينة (الكَفَا) فرضةِ القِرم.

ويقابلها من البر الآخر مدينة طرابزون المتقدّمة الذكر، ثم يمتدّ كذلك إلىٰ مدينة صُوداقَ: وهى فُرْضة ببلاد القِرم أيضا.

ويقابلها من البر الآخر مدينة سامسون المتقدّمة الذكر، ثم يأخذ فى الانضمام جنوبا ويعطف مشرقا بحيث يكون للبر دخلة فى البحر، ويمتد علىٰ سواحل بلاد البلغار إلىٰ مدينة صَارِى كِرمان من بلاد البلغار، وبينها وبين صُلْغَات مدينة القِرم خمسة أيام.

ويقابلها من البر الآخر مدينة سَنُوب المتقدّمة الذكر، ثم يأخذ فى الاتساع غربا بميلة إلىٰ الجنوب ويمتدّ كذلك إلىٰ مدينة أقْجا كِرمَان من بلاد البلغار، ثم يأخذ جنوبا ويمتدّ علىٰ (سواحل بلاد القُسْطَنْطِينِيَّة) إلىٰ بلدة صَقْجى، وعندها يصب نهر طُنَا (بطاء مهملة مضمومة بعدها نون وألف). وهو نهر عظيم بقدر مجموع دِجْلَةَ والفُرَات، ثم

(١٦)

يتضايق و يأخذ شرقا حتّى ينتهى إلىٰ أوّل الخليج القُسْطَنْطِينِىّ المتقدّم ذكره، ثم يأخذ جنوبا و يتقارب البَرّانِ و يمتدّ كذلك إلىٰ مقابل مدينة كربى المتقدّمة الذكر، ثم يمتدّ كذلك إلىٰ مدينة (القُسْطَنْطِينِيَّة) قاعدة ملك الروم الآتى ذكرها فى مكاتبة مَلِكها .

ويقابلها من البر الآخر قلعة الجرون المتقدّمة الذكر، ثم يمتدّ حتّى يصبّ فى بحر الروم حيث وقع الابتداء. وسيأتى الكلام علىٰ ضبط مالم يضبط من البلاد التى علىٰ ساحل هذا البحر المتقدّمة الذكر مع ذكر صفاتها عند الكلام علىٰ مكاتبات ملوكها وحُكّامها إن شاء الله تعالىٰ .

وبحر نيطش المتقدّم ذكره علىٰ القرب من الخليج القُسْطَنْطِينىّ جزيرة (مَرْمرا) الآتى ذكرها عند الكلام علىٰ مكاتبة مَلِكها فى جملة ملوك الكفر إن شاء الله .

البحر الثـانى

(الخارج من المحيط الشرقىّ إلىٰ جهة الغرب)

وهو بحر يخرج عند أقصىٰ بلاد الصِّينِ الشرقية الجنوبية مما يلى خط الاستواء حيث لا عرض، وقيل : علىٰ عرض ثلاث عشرة درجة فى الجنوب، و يمتدّ غربا بشَمال علىٰ (سواحل بلاد الصِّينِ) الجنوبية، ثم علىٰ المفاوز التى بين الصِّينِ والهِنْد حتّى ينتهىَ إلىٰ (جبال قَامُرُون) الفاصلة بين الصِّينِ والهِنْد .

قال ابن سعيد : ومدينة الملك بها فى شرقيها، ثم يجاوز (جبال قامرون) المذكورة و يمتدّ علىٰ سواحل بلاد (الهند) من الجنوب، ويمرّ علىٰ (سُفَالة الهند) وهى سُوفَارة، و يمتدّ حتّى ينتهىَ إلىٰ آخر الهند، ثم يمتدّ علىٰ مفازة السِّنْد الفاصلة بينه و بين البحر، و يمرّ حتّى ينتهىَ إلىٰ فم بحر فارس الخارج من هـذا البحر إلىٰ جهة الشَّمال علىٰ ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

ويجاوزه إلىٰ بلاد اليَمَن فيمرّ علىٰ (ساحل مَهْرَة) : أوّل بلاد اليَمَن، ويمتدّ من شَمَاليّها علىٰ سواحل اليَمَن من جنوبيه حتّى ينتهىَ إلىٰ مدينة (عَدَن) فُرْضَةِ اليَمَن، ثم يمرّ من عَدَن إلىٰ الشَّمال بميلة إلىٰ الغرب نحو مجرا حتّى ينتهىَ إلىٰ (باب المَنْدَب) وهو فُرْضَةٌ بين جبلين، ويخرج منه ويمتدّ غربا بميلة إلىٰ الشَّمال آثنى عشر ميلاً، ثم يعطف شَمَالا ويمتدّ علىٰ سواحل اليَمَن الغربية إلىٰ (عَلاَفِقَة) فرضة مدينة (زَبِيد)، ثم يمتدّ شَمالا أيضا إلىٰ مدينة (حَلْى) من أطراف اليَمَن من جهة الحجاز، وهى المعروفة بحَلِى آبن يعقوبَ ثم يمتدّ شَمالا علىٰ (ساحل الحجاز) إلىٰ (جُدَّة)، فرضةٌ علىٰ بحر القُلْزُم، ثم يمتدّ شمالا إلىٰ (الجُحْفَة) ميقاتِ الإحرام لأهل مصر، ثم يمتدّ شمالا بميلة إلىٰ الغرب حتّى يتصلَ بساحل (يَنْبُعَ)، ثم يأخذ بين الغرب والشَّمال حتّى يجاوز (مَدْيَنَ) الآتى ذكرها فى كُوَرِ مصر القديمة، ويمتدّ شَمالا بجنوب حتّى يقارب (أَيْلَةَ) الآتى ذكرها فى كُوَر مصر القديمة أيضا، ثم يعطف إلىٰ الجنوب حتّى يجاوز أَيْلَةَ المذكورة إلىٰ مكان يعرف (برأس أبى محمد) ويكون للبر دخلة فى البحر فى جهة الجنوب، ثم يعطف شَمالا حتّى ينتهىَ إلىٰ فُرْضَةِ (الطُّور) : وهى مكانُ حَطٍّ وإقلاعٍ لمراكب الدّيار المصرية، وما يصل إليها من اليَمَن وغيرها، ويمرّ فى الشَّمال حتّى يصل إلىٰ فُرْضَةِ (السُّوَيْس) : وهى مكانُ حَطٍّ وإقلاعٍ للديار المصرية أيضا، وعنده ينتهى بر العرب ببحر القلزم ويبتدئ بر العجم.

وهناك يقرب هذا البحر من بحر الروم علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ أصل هذا البحر.

ثم من السُّوَيْس يعطف إلىٰ الجنوب علىٰ ساحل مصر، ويمتدّ موازيا لبلاد الصعيد حتّى ينتهى إلىٰ مدينة (القُلْزُم) التى ينسب إليها هذا البحر الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ كُوَرِ مصر القديمة، ويقابلها من برّ الحجاز أَيْلَةُ، ثم يأخذ عن القُلْزُم جنوبا بميلة إلىٰ الشرق حتّى يسامتَ فُرْضَةَ الطُّورِ المتقدّم ذكرها، وتصير فرضة الطُّور بين أَيْلَةَ

والقُلْزُم غربىّ الدخلة المتقدّم ذكرها؛ ثم يمتدّ كذلك حتّى ينتهى إلىٰ (القُصَير)، فُرْضَة قُوص؛ ثم يتسع فى جهتى الجنوب والشرق حتّى يكون ٱتّساعه تسعين مِيلًا، وتسمّى تلك القطعة المتسعة بِرْكَة الغُرُنْدُل : وهى التى أغرق الله تعالىٰ فيها فرعون؛ ثم يأخذ جنوبا بميلة يسيرة إلى الغرب إلىٰ (عَيْذابَ)، فُرْضَةُ قُوص أيضا . ويقابلها من برّ الحجاز جُدَّةُ فُرْضَةُ مكة المشرّفة؛ ثم يمتدّ فى سمت الجنوب علىٰ (سواحل بلاد السودان) حتّى يصير عند (سَوَاكِنَ) من بلاد البجاة؛ ثم يمتدّ كذلك حتّى يحيط (بجزيرة دَهْلَكَ) وهى جزيرة قريبة من ساحل هـذا البحر الغربىّ، وأهلها من الحَبَشَـةِ المسلمين . ويقابلها من البر الآخر جنوبىُّ حَلْيِ ٱبن يعقوبَ من بلاد اليَمَن، ويمتـدّ حتّى يصل إلىٰ رأس (جبل المَنْدَب) المتقدّم ذكره .

وهناك يضيق البحر حتّى يرىٰ الرجل صاحبه من البر الآخر.

ويقال : إنه بقدر رميتى سَهْم؛ وتُرىٰ جبـال عَدَنَ من جبال المَنْدَبِ فى وقت الصحو، ثم يتجاوز باب المَنْدَب ويأخذ شرقا وجنوبا، ويتسع قليلا قليلا ويمرّ علىٰ بقية سواحل الحبشة حتّى يمرّ بمدينة (زَيْلَعَ) من بلاد الحبشة المسلمين .

ويقابلها عَدَن من برّ اليَمَن، وهى عن عدَن فى الغرب بميلة إلىٰ الجنوب، ثم يمرّ إلىٰ مدينة مَقْدِشُو[1]؛ ثم يمتدّ كذلك حتّى ينتهىَ إلىٰ (خليج بَرْبَرَا) الخارج من بحر الهند فى جانبه الجنوبىّ علىٰ ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

ويتجاوز فم هذا الخليج ويمتدّ علىٰ (سواحل بلاد الزِّنْج) حتّى ينتهىَ إلىٰ آخرها؛ ثم يمتدّ علىٰ (سواحل بلاد الواق واق) علىٰ أماكنَ مجهولة حتّى ينتهى إلىٰ مبدئه من البحر المحيط الشرقىّ . علىٰ أنه فى تقويم البُلْدان لم يتعرّض لساحل هـذا البحر الجنوبىّ فيما هو شرقىّ باب المَنْدَبِ لعدم تحققه .

(١) فى تقويم البُلْدان [بكسر الدال] وفى معجم البلدان [بفتح الدال] فهما لغتان .

وآعلم أن هــذا البحر يسمّى فى كل مكان باسم ما يسامته من البُلْدان ، أو بآسم بعض البُلْدان التى عليــه . فيسمّى فيما يقابل بلاد الصِّين بحرَ الصِّين ، وفيما يقابل بلاد الهِنْــد إلىٰ ماجاورها إلىٰ بلاد اليمن شرقىّ باب المَنْــدَبِ بحرَ الهند ، وفيما دون باب المندب إلىٰ غايته فى الشمال والغرب بحرَ القُلْزُمِ نسبةً إلىٰ مدينة القُلْزُمِ المتقدّمة الذكر فى ساحل الديار المصرية .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وطول هذا البحر من طَرَف بلاد الصِّين الشرقىّ إلىٰ القُلْزُم ألفان وسبعمائة وثمانية وأربعون فرسخا بالتقريب ، ومقتضىٰ كلام آبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" أن طوله أربعة آلاف وتسعمائة وستة وستون فرسخا وثلثان : فإنه قد ذكر أن طول بحر الصين والهنــد إلىٰ باب المَنْدَبِ أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ ، ثم ذكر أن طول بحر القُلْزُمِ ألف وأربعمائة مِيلٍ ، وهى أربعمائة وســتة وستون فرسخا وثلثان وبين الكلامين بَوْنٌ .

وكلام صاحب تقويم البُلْدَان أقرب إلىٰ الصواب . فإنه آستخرجه من تضريب الدَّرَج وآستخراج أميالهــا وفراسخها . وبآخر بحر القُلْزُمِ من الذراع الآخذ إلىٰ جهة السُّوَيْسِ علىٰ مِيلٍ من مدينة القُلْزُمِ موضــع يعرف (بذَنَبِ التِّمْسَاحِ) يتقارب بحر القلزمِ وبحر الروم فيما بينه وبين الفَرَما حتى يكون بينهما نحو ســبعين مِيلا فيما ذكره ابن سعيد .

قال فى "الروض المِعطار" : وكان بعض الملوك قد حفره ليوصل مابين القلزمِ وبحر الروم فلم يتأت له ذلك لآرتفاع القلزم وآنخفاض بحر الروم ، والله تعالىٰ قد جعل بينهما حاجزا كما ذكر تعالىٰ فى كتابه . قال : ولمــا لم يتأت له ذلك آحتفر خليجا آخر مما يلى بلاد تِنِّيسَ ودِمْياط وجرىٰ المــاء فيه من بحر الروم إلىٰ موضع يعرف بقيعان (؟) .

فكانت المراكب تدخل من بحر الروم إلىٰ هذه القرية، وتدخل من بحر القُلْزُمِ إلىٰ ذَنَب التمساح فيقرب ما فى كل بحر إلىٰ الآخر، ثم ٱرتدم ذلك علىٰ طول الدّهر .

وقد ذكر ٱبن سعيد أن عمرو بن العاص كان قد أراد أن يخرق بينهما من عند ذَنَب التمساح المتقدّم ذكره فنهاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وقال : إذَنْ يَتَخَطَّفُ الرومُ الحُجَّاجَ .

وذكر صاحب "الروض المِعْطَار" أن الرشيد همّ أن يوصل ما بين هذين البحرين من أصل مَصَبّ النيل من بحر بلاد الحبشة وأقاصى صعيد مصر فلم يتأت له قسمة ماء النيل، فرام ذلك مما يلى بلاد الفَرَمَا فقال له يحيىٰ بن خالد : إن تَمَّ هذا تُتَخطَّف الناسُ من المسجد الحرام ومكة، وٱحتجَّ عليه بمنع عمر بن الخطاب عمرو بن العاص من ذلك، فأمسك عنه .

ويتفرّع من البحر الهندىّ بحران عظيمان مشهوران ، وهما (بحر فارس، والخليج البربرىّ) .

فأما بحر فارس، فهو بحر ينبعث من بحر الهند المتقدّم ذكره من شماليّه، ويمتدّ شَمَالا بميلة إلىٰ الغرب غربىّ (مفازة السِّنْدِ) الفاصلة بينه وبين بحر الهند، ثم علىٰ غربىّ بلاد السند، ثم علىٰ أرض (مُكْرَانَ) من نواحى الهند ، ويخرج منه من آخر مُكْرَانَ خَوْرٌ يمتدّ شرقا وجنوبا علىٰ ساحل مُكْرَانَ والسِّنْدِ حتّٰى يصير السند غربيّه ، ثم ينعطف آخره علىٰ (ساحل بلاد كِرْمَانَ) من شماليها حتّٰى يعودَ إلىٰ أصل بحر فارس، فيمتدّ شمالا حتّٰى ينتهىَ إلىٰ مدينة (هُرْمُوز) وينتهى إلىٰ آخر كِرْمَانَ فيخرج منه خَوْر يمتدّ علىٰ ساحل كِرْمَانَ من شماليّها ، ثم يرجع من آخره علىٰ ساحل بلاد فارس من جنوبيها حتى يتصلَ بأصل بحر فارس ، ويمتدّ شَمَالا ثم يعطف ويمتدّ مغرّبا إلىٰ (حصن ٱبن عُمَارَةَ) من بلاد فارس، وقيل من بلاد كِرْمَانَ، وهو اليوم خراب؛

ثم يمتدّ مغرّبا فى جبال منقطعة ومفاوزَ إلىٰ مدينة (سِيْرَافَ)؛ ثم يمتدّ كذلك إلىٰ (سِيفِ البحر) بكسر السين : وهو ساحل من سواحل فارس، فيه مزارع وقرى مجتمعة؛ ثم يمتدّ إلىٰ (جُنَّابَةَ) من بلاد فارس ، ثم يمتدّ إلىٰ (سِينِيزَ) من بلاد فارس ، وقيل من الأهواز ثم يمتدّ إلىٰ مدينة (مَهْرُوبَانَ) من سواحل خوزستان، وقيل من سواحل فارس، وهى فُرْضَةُ (أَرَّجَانَ) وما والاها، ثم يمتدّ مغرّبا بميلة يسيرة نحو الشّمال إلىٰ مدينة (عَبَّادَانَ) من أواخر بلاد العِرَاقِ من الشرق علىٰ القرب من البَصْرَةِ عند مَصَبِّ دِجْلَةَ فى هذا البحر؛ ثم ينعطف و يمتدّ جَنُوبا إلىٰ (كَاظِمَةَ) وهى جَوْنٌ علىٰ ساحل البحرين مما يلى البصرة علىٰ مسيرة يومين منها؛ ثم يمتدّ إلىٰ (القَطِيف) من بلاد البَحْرَيْنِ ثم يمتدّ كذلك إلىٰ مدينة (عُمَانَ) فُرْضَةُ بلاد البحرين، وإليها تنتهى مراكب السند والهند والزَّنْج، ويخرج علىٰ القرب منها عن يمين المُقْلِعِ من ساحلها فى جهة الغرب بحرٌ ببلاد (الشِّحْرِ) من اليَمَن أيضا، وإليها ينسب العَنْبَر الشِّحْرِىُّ الطَّيِّبُ كما تقدّم ذكره فى النوع الخامس فيما يحتاج إليــه من نفيس الطيب؛ ثم يمرّ علىٰ سواحل (مَهْرَةَ) من شرقىّ بلاد اليمن حتّى ينتهى إلىٰ مبْدَئه من بحر الهند .

قال فى "تقويم البُلْدان": وبفم هذا البحر ثلاثة أجبُلٍ يخشاها المسافرون، يقال لأحدها كُسَيْر، والثانى عُوَيْر، والثالث ليس فيه خَيْر .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات": وطول هذا البحر أربعمائة فرسخ وأربعون فرسخا، وعُمْقُه ثمـانون باعا .

وأما الخليج البَرْبَرِىّ، فهو ينبعث من بحر الهنــد المتقدّم ذكره فى جنوبىّ جبل المَنْــدَبِ المتقدّم الذكر، ويمتــدّ فى جنوبىّ بلاد الحبشة، ويأخذ غربا حتّى ينتهى إلىٰ مدينة بَرْبَرَا (بباءين موحدتين مفتوحتين وراءين مهملتين الأولىٰ منهما ساكنة)

وهى قاعدة الزّغَاوَةِ من السُّودَان،حيث الطولُ ثمـان وستون درجةً والعرضُ ست درج ونصف .

قال فى "تقويم البُلْدان": وطوله من المشرق إلىٰ المغرب نحو خمسمائة مِيلٍ .

قال الشريف الإدريسىّ : وموجه كالجبال الشـواهق ولكنه لا ينكسر. قال: يركب فيه إلىٰ جزيرة قنبلو ويقال قنبلة،وهى جزيرة للزَّنْج فى هذا البحر .

قال فى "القانون": وطولها آثنتان وخمسون درجة،وعرضها فى الجنوب ثلاث درج.

قال الإدريسىّ : وأهلها مسلمون .

البحر الثـالث

(الخارج من المحيط الشمالىّ،المعروف ببحر بَرْدِيلَ)

(بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت ولام فى الآخر) .

قال آبن سعيد : ويقال له بحر برطانية أيضا،وهو بحر يخرج من شَمالىّ الأَنْدَلُس ويأخذ شرقا إلىٰ خلف جبـل الأبواب الفاصـل بين الأَنْدَلُس والأرض الكبيرة ، ويقرب طرفه الشرقىّ حتّىٰ يبقىٰ بينـه وبين بحر الروم المتقدّم ذكره أربعون مِيلًا، وهناك مدينة (بَرْدِيلَ) التى يضاف البحر إليها .

الضرب الثـانى

(من البحار المنبثة فى أقطار الأرض ما ليس له آتصال بالبحر المحيط)

وهو بحر الخَزَرِ (بفتح الخاء والزاى المعجمتين،وراء مهملة فى الآخر) .

ويسمّى بحر جُرْجَانَ لوقوع مدينة جُرْجَانَ علىٰ ساحله ، وبحرَ طَبَرِسْتَانَ لوقوع ناحية طَبَرِسْتَانَ علىٰ ساحله أيضا ، وهذا البحر بحر مِلْحٌ منفرد عن البحار لا آتصال له بغيره البتة .

قال آبن حوقل : وهو مظلم القعر، ويقال إنه متصل بحر نِيطش من تحت الأرض .

قال المسعوديّ : وهو غلط لا أصل له ، ولم أدر من أين أخذه قائله أَمِنْ طريق الحِس، أم من طريق الآستدلال والقياس .

قال الشريف الإدريسيّ : وهو مدوّر الشكل إلىٰ الطُّول ، وقيل مثلث الشكل كالقِلْع ، وعلىٰ ساحله الجنوبيّ بلاد الجيل والدَّيْلَم ، وعلىٰ جانبه الشرقيّ بلاد جُرْجَانَ والمفازةُ التى بين جُرْجَانَ وخُوَارِزْم ، وعلىٰ جانبه الشّمالىّ بلاد التُّرْك والخَزَر وجبال سِياهْكُوهْ ، وعلىٰ جانبه الغربىّ بلاد إيلاقَ وجبال الفتيق ، وآبتداؤه من جهة الغرب عند مدينة (باب الحديد) المعروف بباب الأبواب من بلاد أَرّانَ ، حيث الطول ست وستون درجة ، والعرض نحو إحدىٰ وأربعين درجة علىٰ القرب من دَرْبَنْد شرْوَانَ ، ثم يمتدّ جنوبا من باب الحديد أحدا وخمسين فرسخا ، وهناك مصب نهر الكُرّ فيه ، ثم يمتدّ مشرقا بانحراف إلىٰ الجنوب ستة عشر فرسخا ، فيمر علىٰ أراضى مُوقان من عمل أَرْدَبِيل من أَذَرْبِيجانَ ، ثم يمتدّ جنوبا وشرقا حتّى تبلغ غايته فى الجنوب حيث العرض سبع وثلاثون درجة قبالة مدينة (آمل) قصبة طَبَرِسْتَانَ ، ثم ينعطف ويمتدّ شرقا حتّى يجاوز بلاد الجيل إلىٰ مدينة آبَسْكُونَ ، وهى فُرْضَةُ جُرْجَانَ ، ثم يمتدّ إلىٰ نهايته فى الشرق حيث الطول ثمانون درجةً ، والعرض نحو أربعين عند مدينة جُرْجانَ ، وهى فى الشرق منه قريبة من ساحله ، ثم ينعطف ويمتدّ شمالا وغربا حتّى يبلغ نهايته فى الشمال حيث العرضُ نحو خمسين درجة ، والطولُ تسع وسبعون

درجة؛ وفى شمـاليّه وغربيّه يصبّ نهر إتِل(١) الذى عليه مدينة السراى قاعدة مملكة أزبك الآتى ذكرها فى مكاتبة قانهم إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وليس فى هذا البحر جزيرة مسكونة .

الفصـــل الثـالث

من البـاب الأوّل من المقـالة الثـانية

(فى كيفية آستخراج جهات البُلْدان والأبعاد الواقعة بينها، وفيه طَرَفان)

الطرف الأوّل

(فى كيفية آسـتخراج جهات البُلْدان)

إذا كنتَ فى بلد وأردتَ أن تعرف جهة بلد آخر عن البلد الذى أنت فيه، فالذى أطلقه كثير من المُصَنّفين أنك تعرف طول البلد الذى أنت فيه وعرضَه، وطولَ البلد الآخر وعرضَه، وتقابل بين الطولين وبين العرضين فإن كان ذلك البلد أعرضَ من بلدك مع مساواته له فى الطول، فهو عنك فى جهة الجنوب . وإن كان أطولَ من بلدك مع مساواته له فى العرض، فهو عنك فى جهة الشرق . وإن كان أقلّ طولا مع مساواته فى العرض، فهو عنك فى جهة الغرب . وإن كان أطولَ وأعرضَ من بلدك، فهو عنك بين الشرق والشّمال . وإن كان أقلّ طولا وعرضا، فهو عنك بين المغرب والجنوب . وإن كان أقلّ طولا وأكثرَ عرضا، فهو عنك بين الجنوب والشّمال . وإن كان أكثر طولا وأقل عرضا، فهو عنك بين الشرق والجنوب .

والذى ذكره المحققون من علمـاء الهيئـة أن البلد إذا كان أطولَ من بلدك مع مساواته له فى العرض، يكون عنك فى جهة الشرق بميلة إلىٰ الشّمال . وإذا كان أقلّ

(١) فى معجم البلدان بالمثناة الفوقية [بوزن إبل] .

طولا مع مساواته له فى العرض ، يكون فى جهة الغرب بميلة إلىٰ الشَّمال أيضـا . وإذا كان أقلَّ طولا وعرضا، يكون بين المغرب والجنوب علىٰ ماتقدّم، إلا أن يقلّ الفصل بينهما بأن يكون أقل من درجة ، فإنه يحتمل أن يكون كذلك وأن يكون علىٰ وسط المغرب . وإذا كان أقلَّ طولا وأكثر عرضا، فإنه يكون بين المشرق والمغرب علىٰ ماتقدّم، إلا أن يقل الفصل بينهما فيحتمل أن يكون كذلك وأن يكون علىٰ وسط المشرق .

الطرف الثـانى

(فى معرفة الأبعاد الواقعة بين البُلْدان)

قد تقـدّم أن الأطوالَ والعُرُوضَ فى الأمكنة والبُلْدان تعتبر بالدَّرَج والدّقائق، وأن الدّرجة مقسومة بسـتين دقيقة، ثم الذى حققه القدماء كَبَطْلَيْمُوسَ صاحبِ المَجَسْطِى وغيره تقدير الدّرجة بستة وستين مِيلاً وثلثَىْ ميل، وبه أخذ أكثر المتأخرين، وعليه العمل . وما وقع لأصحاب الرَّصَدِ المَأْمُونِىّ مما يخالف ذلك بنقص عشر درج ممـا لا تعويل عليه .

وقد نقل علاء الدّين بن الشاطر من المتأخرين فى "زيجه" عن القدماء أنهم قدّروا الدرجة بالتقريب بعشرين فرسخا ، وبستين مِيلاً، وبمائتى ألفٍ وأربعين ألف ذراع، وبخمسة بُرُدٍ، وبمسير يومين .

وقدّر الشافعىّ رضى الله عنه ذلك بسير يومين بالأيام المعتدلة دون لياليهما، وقدّر السير بالسير المعتدل، وتقدير الدرجة كما بين الفُسْطَاطِ ودِمْيَاطَ، فإنّ عَرْضَ دِمْيَاطَ يزيد علىٰ عرض الفُسْطَاطِ بدرجة وكسر يسير علىٰ ما سيأتى ذكره .

فاذا أردت أن تعرف كم بين البلد الذى أنت فيه وبين بلد آخر علىٰ الخط المستقيم، فلك حالتان :

الحالة الأولى — أن يكون ذلك البلد علىٰ سَمْتِ بلدك الذى أنت فيه فى الطول أوالعرض، فآنظركم درجة بينهما بالزيادة والنقص فاضربه فى ست وستين، وهو ما لكل درجة من الأميال، فما خرج من الضرب فهو بُعْـد ما بينهما من الأميال علىٰ الخط المستقيم، فآعتبره بما شئتَ من المراحل والفراسخ والبُرُدِ علىٰ ما تقدّم بيانه .

الحالة الثانية — أن لايكون ذلك البلد علىٰ سَمْت بلدك الذىأنت فيه. فطريقك أن تقابل بين عَرْض بلدك وطوله، وبين عرض البلد الآخر وطوله، وتنظركم فَضْلُ ما بين الطولين وبين العرضين، وهو ما يزيده أحد الطولين أو أحدالعرضين علىٰ الآخر فتضرب كُلًّا من فَضْل الطولين وفضل العرضين فى مثله، وتجمع الحاصل من الضربين فما كان خذ جَذْرَهُ، وهو القدر الذى إذا ضربتَه فى مثله حصل عنه ذلك العدد، فما بلغ فهو مقـدار ما بين بلدك والبلد الآخر من الدرج، فآضربه فى ست وسـتين وثُلُثين علىٰ ما تقدّم، فما بلغ فهو أميال . فآعتبره بما شئت من المراحل والفراسخ والبُرُدِ علىٰ ما تقدّم .

مثال ذلك — أن الفُسْطَاطَ طوله خمس وخمسون درجة، وعرضه ثلاثون درجة ودِمَشْقَ طولُها ستون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثوندرجة ونصفُ درجة، ففضل ما بين طوليهما خمس درج، وفضل ما بين عرضيهما ثلاث دَرَج ونصف درجة، فتضرب فضل ما بين الطولين : وهو خمس درج فىمثله يبلغ خمسا وعشرين، وتضرب فضل ما بين العرضين، وهو ثلاث ونصف فى مثله يبلغ آثنى عشر وربعا، فتجمع ما حصل من الضَّرْبَين، وهو خمس وعشرون وآثنا عشر وربع يكون سـبعا وثلاثين وربعا نخذ جَذْرَها يكن سـتا ونصفَ سُدُسٍ تقريبا، وهو مابين الفُسْطَاطِ ودِمَشْقَ من الدَّرَجِ، فاضربه فى ست وسـتين وثُلُثين، وهى ما للدّرجة الواحدة من الأميـال يكن أربعمائة وخمسةَ أميـال وثلثَ سدسِ مِيلٍ، فإذا آعتبرت كل أربعة

وعشرين مِيلًا بمرحلة علىٰ ما تقـدّم، كانت سبع عشرة مرحلةً تقريبا، وهو القـدر الذى بين الفُسْطَاطِ ودِمَشْقَ علىٰ الخط المستقيم .

أما الطرق المسلوكة إلىٰ البُلْدان علىٰ التعاريج بسبب البحار والجبـال والأودية وغيرها، فإنها تقتضى الزيادة علىٰ ذلك .

وقد ذكر أبو الرَّيْحان البيرونىّ فى كتابه "القانون": أن زيادة التعريج علىٰ الآستواء يكون بقـدر الخُمُس تقريبا. فإذا كان بين البلدين أربعون مِيلًا علىٰ الخط المسـتقيم كانت بحسب سير السائر خمسين مِيلًا .

قلت : وفيه نظر لطول بعض التعاريج علىٰ بعض فى الزيادة بالبحار والجبال عن الخط المستقيم علىٰ ما هو مشاهد فى الأسفار .

اللهم إلا أن يريد الغالب كما تقدّم بين الفُسْطَاطِ ودِمَشْقَ، فقد مرّ أن بينهما علىٰ الخط المسـتقيم سبع عشرة مرحلة بالتقريب، فإذا أضيف إليها مثـلُ خمسها، وهو ثلاثة وخمسان، كانت عشرين مرحلة، وهو القدر المعتاد فى سيرها بالسير المعتدل .

وآعلم أن أطوال البُـلْدان وعُرُوضَها قد وقع فى الكتب المصـنفة فيها ككتاب "الأطوال" المنسوب للفُرْس . و"رسم المَعْمُورِ" المترجم للمأمون من اللغة اليونانية . و" الزيجات " وغير ذلك آختلاف كثير وتبـاين فاحش . وممن صرح بذكر ذلك أبوالريحان البيرونىّ فى كتابه "القانون" فقال عند ذكرها : ولم يتهيأ لى تصحيح جميعها، وقد صححتُ ما أمكن منها .

قال فى "تقويم البُلْدان" : إلا أن معرفة ذلك بالتقريب خير من الجهل بالكلية .

البـاب الثـانى
من المقـالة الثـانيـــــة

(فى ذكر الخلافة ومَنْ وليها من الخلفاء، ومقَرّاتهم فى القديم والحديث، وما انطوت عليه الخلافة من الممـالك فى القديم، وما كانت عليه من الترتيب، وما هى عليه الآن، وفيه فصلان)

الفصـل الأول

فى ذكر الخلافة ومن وليهـا من الخلفاء : من خلفاء بنى أُمَيَّـة بالشام، وخلفاء بنى العبّاس بالعراق، وخلفاء الفَاطِمِيِّينَ بمصر، وخلفاء بنى أُمَيَّة بالأَنْدَلُس .

أما الخلافة، فسيأتى فى المقالة الخامســة فى الكلام على الولايات أن المراد بها خلافة النبىّ صلى الله عليه وسلم بعده فى أمته . ولذلك كان يقال لأبى بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه : خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الراجح أنه لايجوز أن يقال فى الخليفة خليفة الله إلى تمام القول فيما سيأتى ذكره هناك، إن شاء الله تعالى .

وأما مَنْ وليها من الخلفاء، فعلى أربع طبقات .

الطبقة الأولى

(الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم)

وأوّلهم «أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه»؛ بويع بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم ! على ما سيأتى ذكره فى الكلام على البيعات من المقـالة الخامسة إن شاء الله تعالى .

وبقى حتّى تُوُفِّىَ لتسع ليال بَقِينَ من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ودفن مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ! فى حُجْرة عائشة رضى الله عنها

وبويع بعده «عمر بن الخطاب رضى الله عنه» فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر رضى الله عنـه بعد أن عَهِدَ له بالخلافة ، وتُوُفِّىَ يوم السبت سلْخَ ذى الحجة الحرام سنة ثلاث وعشرين بطعنة أبى لُؤْلُؤَةَ : غلامِ المغيرة بن شعبة ، ودفن مع النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه

وفى أيامه فتحت الأمصـار ففتحت دِمَشْقُ علىٰ يد خالد بن الوليد وأبى عُبَيدة آبن الجَرَّاح ، وتبعها فى الفتح سائرُ بلاد الشام ؛ ففتحت بَيْسَانُ ، وطَبَرِيَّةُ ، وقَيْسَارِيَّة ، وفِلَسْـطِينُ ، وعَسْقَلانُ ، وبعلبَكُّ ، وحِمْصُ ، وحَلَبُ ، وقِنَّسْرِينُ ، وأنْطاكِيَةُ ؛ وسار إلىٰ بيت المَقْدِس فى خلال ذلك ، ففتحه صُلْحًا .

وفُتِح من بلاد الجزيرة الفراتية الرَّقَّةُ ، وحَرَّانُ ، والمَوْصِلُ ، ونَصِيبِينُ ، وآمِدُ والرُّها .

وفُتِح من العراق القَادِسِـيَّةُ ، والمَدَائنُ ، علىٰ يد سعد بن أبى وَقَّاصٍ ، وزال مُلْكُ الفُرْسِ ، وآنهزم مَلِكُهم يَزْدَجِرْدُ إلىٰ فَرْغَانَةَ من بلاد التُّرْك .

وفتحت أيضا كُوَرُ دِجْلَةَ ، والأُبُلَّةِ ، علىٰ يد عُتْبَةَ بن غَزْوَانَ .

وفتحت كُوَرُ الأَهْوَازِ علىٰ يد أبى موسىٰ الأشعرىّ .

وفتحت نَهَـاوَنْدُ ، وإصْطَخْرُ ، وأَصْبَهَانُ ، وتُسْتُرُ ، والسُّوسُ ، وأَذْرَبِيجَانُ ، وبعض أعمال خُرَاسَانَ .

وفتحت مِصْرُ ، والإسْكَنْدَرِيَّةُ ، وأَنْطَابُلُسُ ، وهى بَرْقَةُ ، وطَرَابُلُسُ الغرب ، علىٰ يد عمرو بن العاص .

وبويع بالخلافة بعده «عثمان بن عَفَّانَ رضى الله عنـه» لثلاث بقين من المحرّم سنة أربع وعشرين ؛ وقتل بالمدينة لثمـانَ عشرةَ ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقيل يوم الأضحىٰ ، وقيل غير ذلك .

وبويع بالخلافة بعده (عليّ كرم الله وجهه) يوم قَتْل عثمان، وقتل لسبعَ عشرةَ ليلة خلت من رمضان سنة أربعين من الهجرة بالعراق، ودفن بالنَّجَف على الصحيح المشهور.

وبويع بالخلافة لأبنه (الحسن) بالكوفة من العراق يوم قتل أبيه، وسلم الأمر لمعاوية لخمس بقين من ربيع الأوّل سنة إحدىٰ وأربعين، وقيل في ربيع الآخر، وقيل في جمادىٰ الأولىٰ، ولحق بالمدينة فأقام بها إلىٰ أن تُوفِّي بها في ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين، وقيل ست وخمسين.

الطبقـــــة الثـانية
(خلفاء بني أمية)

أوّلهم (مُعَاوِيَةُ بن أبِي سُفْيَانَ) كان أميرا علىٰ الشام في خلافة عمر بن الخَطَّاب رضي الله عنـه، وآستمرَّ بها إلىٰ أن سلم الحسـنُ إليه الأمرَ، فآستقلَّ بالخلافة وبقِيَ حتّىٰ توفي بِدِمَشْقَ مستهلَّ رجب الفرد سنة ستين من الهجرة، وقيل في النصف من رجب، وهو أوّل من رتب أمور الملك في الإسلام.

وقام بالأمر بعده آبنه (يَزِيدُ) بالعهد من أبيه؛ وبويع له بعد وفاته في رجب سنة ستين، وتوفي لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل سنة أربع وستين.

وقام بالأمر بعده آبنه (مُعَاوِيَةُ) وبويع له بالخلافة في النصف من شهر ربيع الآخر سـنة أربع وسـتين، فأقام بالخلافة أربعين يوما، وقيل ثلاثة أشهر، وقيل عشرين يوما.

وقام بالأمر بعـده (مَرْوَانُ بن الحَكَم)؛ وبويع له بالخلافة بالجابِيَة في رجب سـنة أربع وستين، ثم جُدّدت له البَيْعَةُ في ذى القَعْدَةِ من السـنة المذكورة، وتُوُفِّيَ بالطاعون بِدِمَشْقَ في شهر رمضان سنة خمس وستين.

وقام بالأمر بعده آبنه ﴿عبد الملك﴾ بالعهد من أبيه؛ وبويع له بالخلافة فى الثالث من شهر رمضان المذكور، وتوفِّى بدِمَشْقَ منتصف شوّال سنة ست وثمانين .

وقام بالأمر بعده آبنه ﴿الوليد﴾ بالعهد من أبيه؛ وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه، وتوفى بدِمَشْقَ فى منتصف جمادىٰ الآخرة سنة ست وتسعين .

وقام بالأمر بعده أخوه ﴿سليمان بن عبد الملك﴾ ؛ وبويع له يوم موت أخيه الوليد، وكان أبوه قد عهد أن يكون هو الخليفة بعد أخيه الوليد، وتوفى بدَابِقَ لعشر خلون من صفرَ سنة تسع وتسعين .

وقام بالأمر بعده آبن عمه ﴿عمر بن عبد العزيز﴾ بعهده له؛ وبويع له بالخلافة يوم موته، وتُوُفِّىَ بخُنَاصِرَةَ لخمس وقيل لستٍّ بقين من رجب سنة إحدىٰ ومائة .

وقام بالأمر بعده ﴿يزيد بن عبد الملك بن مَرْوان﴾ بعهد من أخيه سليمان أن يكون له الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز، وقيل بعهد من أبيه أن يكون له الأمر بعد أخيه سليمان، ولكنه سلم لآبن عمه عُمَر؛ وبويع له يوم موت عمر، وتوفى بجَوْلانَ لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة .

وقام بالأمر بعده أخوه ﴿هشام بن عبد الملك﴾ بعهد من أخيه يَزِيدَ؛ بويع له بالخلافة فى يوم موته ، وتوفى بالرُّصَافَةِ لِستٍّ خلون من ربيع الأوّل سنة خمس وعشرين ومائة .

وقام بالأمر بعده ﴿الوليد بن يَزيدَ بن عبد الملك﴾؛ بويع له بالخلافة لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وقتل لليلتين بقيتا من جمادىٰ الآخرة سنة ست وعشرين[(١)] .

(١) أى فكانت خلافته سنة واحدة وشهرين .

وقام بالأمر بعــده آبنه ﴿يزيد﴾ المعروف بالناقص ؛ سمى بذلك لنقصــه الجند ما كان زادهم يَزِيدُ، بويع له بالخلافة يوم قَتْلِ الوليد، وتوفى بِدَمْشْق لعشر بقين من ذى الحجة من السنة المذكورة .

وقام بالأمر بعــده أخوه ﴿إبراهيم بن الوليد﴾ ؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه فى ذى الحجة المذكور، فمكث أربعة أشهر، وقيل أربعين يوما ثم خلع نفسه .

وقام بالأمر بعــده ﴿مَرْوان بن محمد بن مروان بن الحكم الجعــدىّ﴾ بتسليم إبراهيم بن الوليد الأمرَ إليه ؛ وفى أيامه ظهرت دعوة بنى العبّاس، وقصدته جيوشهم فهرب إلى مصر، فأُدْرِك وقتل بقرية يقال لها بُوصِير من الفَيُّوم، و بزواله زالت دولة بنى أُمَيَّةَ .

الطبقـــة الثـالثة

(خلفاء بنى العَبّاس بالعِـــرَاق)

وأول من قام بالأمر منهم بعــد خلفاء بنى أُمَيَّــةَ ﴿السَّــفَّاحُ﴾ وهو أبو العبّاس عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس : عم النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ بويع له بالخلافة بالكوفة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة آثنتين وثلاثين ومائة، وتوفى بالأنبار لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة .

وقام بالأمر بعــده أخوه ﴿المنصور﴾ أبو جعفر عبد الله ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه السَّفَّاح، وتوفى بطريق مكة وهو محرم بالحج سنة ثمانٍ وخمسين ومائة، ودفن بالحَجُونِ .

وقام بالأمر بعده آبنه ﴿المَهْدِىّ﴾ أبو عبد الله محمد ؛ بويع له بالخلافة يوم مات أبوه بطريق مكة وهو يومئذ ببغداد، وتوفى بماسَبَذانَ فى المحرّم سنة تسع وستين ومائة .

وقام بالأمر بعده آبنه ﴿الهادى﴾ أبو محمد موسٰى ؛ بويع له بعد أبيه يوم موته وهو غائب[1]، فسار إلى بغداد ودخلها بعد عشرين يوما، وتوفى لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة .

(١) وكان مقيما بجرجان يحارب أهل طبرستان بعسكر أبيه .

وقام بالأمر بعده ﴿الرشيد﴾ أبو محمد هرون بن المَهْدىّ؛ بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه الهادى، وتوفى ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ﴿الأمين﴾ أبو عبد الله محمد، ويقال أبو موسى، ويقال أبو العبّاس، بالعهد من أبيه هرون الرشيد؛ وبويع له صبيحة الليلة التى توفى فيها أبوه الرشيد، وقتل لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة .

ثم قام بالأمر بعده أخوه ﴿المأمون﴾ أبو العبّاس، ويقال أبو جعفر عبد الله، بالعهد له من أبيه الرشيد أن يكون له الأمر بعد أخيه الأمين؛ وبويع له بالخلافة يوم قتل أخيه الأمين ببغداد وهو غائب؛ وبويع له البيعة العامة لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة، وتوفى بأرض الروم لليلة بقيت من رجب، وقيل لثمان خلون منه سنة ثمانى عشرة ومائتين، ودفن بطَرَسُوس .

وقام بالأمر بعده أخوه ﴿المعتصم بالله﴾ أبو إسحاق محمد بن هرون الرشيد؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه المأمون وهو يومئذ بطَرَسُوس، فسار إلى بغداد، فدخلها مستهلَّ رمضان سنة ثمانى عشرة ومائتين، وتوفى بسَامَرّا لثمانى عشرة ليلة مضت من ربيع الأوّل سنة سبع وعشرين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه ﴿الواثق بالله﴾ أبو جعفر هرون؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه، وتُوُفِّى بِسُرَّمَنْ رَأَى لِستٍّ بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

وقام بالأمر بعده أخوه ﴿المتوكل على الله﴾ أبو الفضل جعفر؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه الواثق، وقتل لثلاث خلون من شوّال سنة سبع وأربعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ٱبنه ﴿المستنصر بالله﴾ أبو جعفر محمد، بويع له بالخلافة صبيحة قتل أبيـه المتوكل، وتوفى بسَامَرّا لثلاث خلون من ربيع الآخر، وقيل لخمس خلون من ربيع الأوّل سنة ثمان وأربعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ﴿المسـتعين بالله﴾ أبو العباس أحمد بن المعتصم بالله المتقدّم ذكره، بويع له بالخلافة فى اليوم الثانى من موت المستنصر، وخلع نفسه لأربع خلون من ربيع الآخر سـنة ثمـان وأربعين ومائتين، وجهّز إلىٰ واسط، فقتـل بها فى آخر رمضان من السنة المذكورة .

وقام بالأمر بعـده ﴿المُعتَزّ بالله﴾ أبو عبد الله محمد، وقيل أبو الزبير ٱبن المتوكل علىٰ الله المتقدّم ذكره، بويع له ببغداد حين خلع المستعينُ نفسَه، وبايعه المستعين فيمن بايع، وخلع لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، ثم قتل بعد ذلك .

وقام بالأمر بعـده ﴿المهتدى بالله﴾ أبو عبـد الله، ويقال أبو جعفر محمد بن الواثق بالله المتقدّم ذكره، بويع له بالخلافة بعد ليلتين من خلع المعتز بالله، وقتل لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سـنة ست وخمسـين ومائتين؛ وكان يقـال هو فى بنى العبّاس مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أُمَيَّةَ .

وقام بالأمر بعـده ﴿المعتمد علىٰ الله﴾ أبو العباس، ويقال أبو جعفر أحمد بن جعفر المتوكل المتقدّم ذكره، بويع له بالخلافة يوم قتل المهتدى بالله، وتوفى لإحدىٰ عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ﴿المعتضد بالله﴾ أبو العباس أحمد بن الموفق، طلحة بن جعفر المتوكل، بويع له بالخلافة يوم قتل المعتمد علىٰ الله، وتوفى ببغداد لسبع وقيل لثمـان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمـانين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ٱبنه «المكتفى بالله» أبو محمد علىّ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيــه المعتضد وهو غائب بالرَّقَّة، وكتب إليه بذلك فأخذ البيعة علىٰ من عنده وسار إلىٰ بغداد، فدخلها لثمــان خلون من جمادىٰ الأولىٰ من سنته، وتوفى ببغــداد لثلاث عشرة ليلة، وقيل لثنتى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين .

وقام بالأمر بعــده أخوه «المقتــدر بالله» أبو الفضــل جعفر بن المعتضد بالله المتقدّم ذكره، وخُلِـع لعشر بَقِين من ربيع الأوّل سنة ست وتسعين ومائتين .

وبويع «المرتضى بالله» أبو محمد عبد الله بن المعتز، فأقام يوما وليلة ثم ٱضطرب عليه الأمر فٱختفىٰ، وعاد الأمر إلىٰ المقتدر فظفِر بابن المعتز فصادره، ثم أُخرج من دار السلطان ميّتاً لليلتين خلَتَا من ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم خَلَع المقتدرُ بالله نفسَه؛ وبويع بالخلافة أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد فأقام يومين، ثم عاد الأمر إلىٰ المقتــدر بالله وبقى حتّى قُتِل لثلاث خلون من شوّال سنة عشرين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعــده أخوه «القاهر بالله» المتقدّم ذكره، لليلتين بقيتا من شوّال ســنة عشرين وثلثمائة ، ثم خلع وسُمِلت عيناه لِستٍّ خلون من جمادىٰ الأولىٰ ســنة ٱثنتين وعشرين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبن أخيه «الراضى بالله» أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله المتقدّم ذكره، وتوفى لستَّ عشرةَ ليلة خلت من ربيع الأوّل سنة تسع وعشرين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعده أخوه «المتقى بالله» أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله المتقدّم ذكره؛ بويع له بالخلافة لعشر بقين من ربيع الأوّل ســنة تسع وعشرين وثلثمائة، وخُلِـع وسُمِلت عيناه لعشر بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعده آبن عمه «المستكفى بالله» أبوالقاسم[(١)] عبد الله بن المكتفى بالله المتقـدّم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم خلع المتقى بالله بمشـاركته[(٢)] له، ثم خلع وسملت عيناه فى جمادىٰ الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعده آبن عمه «المطيع لله» أبو القاسم، ويقال أبو العباس الفضل آبن المقتـدر بالله المتقدّم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم خلع المستكفى، وخلع نفسه منها للعجز بالمرض فى الثالث عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستين وثلثمائة .

وولى الخلافة بعده آبنــه «الطائع لله» أبو بكر عبد الكريم؛ بويع له بالخلافة يوم خَلْع أبيــه المطيع لله، وقُبِضَ عليه لآثنتى عشرة ليلة بقيت من شعبان سـنة إحدىٰ وثمانين وثلثمائة، فخلع نفسه .

وقام بالأمر بعــده «القادر بالله» أبو العباس أحمد بن إسحاق؛ بويع له بالخلافة يوم خلع الطائع، وكان غائبا بالبطائح فأُحْضر، وجدّدت له البيعة ببغداد فى شهر رمضان من السنة المذكورة، وتوفى حادى عشر ذى الحجة سنة آثنتين وعشرين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده آبنه «القائم بأمر الله» أبو جعفر عبد الله ، بالعهد من أبيه، وجدّدت له البيعة بعد موت أبيه، توفى ثالث عشر شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده آبن آبنه «المقتدى بأمر الله» عبد الله [بن] ذخيرة الدّين محمد ابن القائم بأمر الله المتقدّم ذكره، وتوفى فجأة فى الخامس والعشرين من المحرّم سـنة سبع وثمانين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده آبنه «المستظهر بالله» أبو العباس أحمد؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه، وتوفى سادسَ عشر ربيع الآخر سنة آثنتَىْ عشرة وخمسمائة .

---

(١) كذا فى العقد أيضا وفى حياة الحيوان [أبو العباس].

(٢) ليست هذه الكلمة فى العقد ولا فى حياة الحيوان وهى قليلة الجدوىٰ كما ترىٰ .

وقام بالأمر بعده ٱبنه «المسترشد بالله» أبو منصور الفضل ؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه المستظهر، وقتل فى قتال الباطنية سابعَ عشر ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنه «الراشد بالله» أبو جعفر المنصور، بالعهد من أبيه ؛ وجدّدت له البيعة يوم قتله ، وخلع فى منتصف ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده «المقتفى لأمر الله» أبو عبد الله محمد بن المستظهر المتقدّم ذكره ؛ بويع له بالخلافة يوم خلع الراشد بالله ، وتوفى ثانى ربيع الأوّل سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنه «المستنجد بالله» أبو المُظَفَّرِ يوسف ؛ بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه المقتفى ، وتوفى تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنه «المستضىء بالله» أبو محمد الحسن ؛ بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه المستنجد من أقاربه بَيْعَةً خاصة ، وفى عشره[1] بَيْعَةً عامة ، وتوفى ثانى ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنه «الناصر لدين الله» أبو العباس أحمد ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المستضىء ، وتوفى أوّل شوّال سنة ٱثنتين وعشرين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنه «الظاهر بأمر الله» أبو نصر محمد ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه الناصر ، وتوفى رابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنه «المستنصر بالله» أبو جعفر المنصور ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه الظاهر ، وتوفى لعشر خلون من جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنه «المستعصم بالله» أبو أحمد عبد الله ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المستنصر بالله ، وقتله هُولَاكُو مَلِكُ التَّتَارِ فى العشرين من المحرّم سنة

(١) أى عاشر ربيع الآخر التالى للبيعة الخاصة الواقعة فى التاسع .

ست وخمســـين وستمائة . وبقتله آنقرضت الخلافة العباسية من بغداد، وهو الثامن والثلاثون من خلفاء بنى العباس ببغداد إذا عدّت خلافة آبن المعتز، وحسبت خلافة القاهر أوّلا وثانيــا خلافةً واحدة .

الطبقة الرابعـــــة

(خلفاء بنى العبّاس بالديار المصرية من بَقَايا بنى العبّاس)

وأوّل من قام بأمر الخلافة بها «المستنصر بالله» أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله أبى نصر محمد المتقــدّم ذكره . وذلك أنه لمــا قتل التتر المستعصم المتقــدّم ذكره، وبقيت الخلافة شاغرةً نحوا من ثلاث سنين ونصف ثم قَدِمَ جماعة من عرب الحجــاز إلىٰ مصر فى رجب ســنة تسع وخمسين وستمائة أيامَ الظاهر بيبرس، ومعهم المستنصر المذكور، وذكروا أنه خرج من دار الخلافة ببغداد لمّــا ملكها التَّتَرُ، فعقد الملك الظاهر له مجلسا حضره جماعة من العلماء، منهــم الشيخ عز الدّين بن عبد السلام شيخ الشافعية، وقاضى القضاة تاجُ الدين ابن بنت الأعز الشافعى، وهو يومئذ قاضى الديار المصرية بمفرده، وشهد أولئك العرب بنسبه، ثم شهد جماعة من الشهود علىٰ شهادتهم بحكم الآستفاضة، وأثبت آبن بنت الأعز نسبَه، ثم بايعه الملك الظاهر بالخلافة وأهلُ الحلِّ والعقد، وآهتم الملك الظاهر بأمره، وآستخدم له عسكرا عظيما، وتوجه الملك الظاهر إلىٰ الشام وهو صحبته فجهَّزه من هناك بعسكره إلىٰ بغداد طمعا أن يســتولى عليها وينتزعها من التَــار، فخرج إليه التتار قبل أن يصل بغداد فقتلوه، وقتلوا غالب عسكره فى العشر الأوّل من المحرّم سنة ستين وستمائة . فكانت خلافته دون السنة، وهو أوّل خليفة لقب بلقب خليفة قبله، وكانوا قبل ذلك يلقبون بألقاب مرتَجَلَة .

وقام بالأمر بعده ﴿الحاكم بأمر الله﴾ أبو العباس أحمد بن حسين بن أبي بكر آبن الأمير أبي على القبّي آبن الأمير حسن بن الراشد بالله أبي جعفر المنصور المتقدّم ذكره في الخلفاء ببغداد . قدِمَ مصر سنة تسع وخمسين وستمائة ، وهو آبن خمسَ عشرةَ سنة في سلطنة الظاهر بيبرس ، وقيل إن الظاهر بعث من أحضره إليه من بغداد ، وجلس له مجلسا عاما أثبتَ فيه نسبَه ، وبايعه بالخلافة في سنة ست وستين وستمائة ، وأشركه معه في الدعاء في الخطبة على المنابر ، إلا أنه منعه التصرفَ والدّخول والخروج . ولم يزل كذلك إلىٰ أن ولِيَ السلطنة الملكُ الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، فأسكنه بالكبش بخط الجامع الطولوني ، فكان يخطب أيام الجمعة في جامع القلعة ويصلي ، ولم يطلق تصرفه إلىٰ أن تسلطن المنصور لاچين ، فأباح له التصرف حيث شاء وأركبه معه في الميادين ، وتوفي في شهور سنة إحدىٰ وسبعمائة .

وقام بالأمر بعده آبنه ﴿المستكفي بالله﴾ أبو الربيع سليمان بالعهد من أبيه الحاكم ، وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه ، وآستقرّ علىٰ ما كان عليه أبوه من الركوب والنزول وركوب الميادين مع السلطان إلىٰ أن أعيد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلىٰ السلطنة المرّة الثانية بعد خلع الملك المظفر بيبرس الجاشنكير في شهور سنة تسع وسبعمائة ، فحصل عند السلطان منه وحشة ، فجهزه إلىٰ قُوصٍ ليقيم بها ، وبقي بقُوص حتّى توفي في سنة أربعين وسبعمائة .

وولي الخلافة بعده آبنه ﴿المستعصم بالله﴾ أبو العباس أحمد بعهد من أبيه المستكفي بأربعين شاهدا بمدينة قوص ، ودعى له علىٰ المنابر في العشر الأخير من شوّال سنة أربعين وسبعمائة .

ثم خلعه الناصر محمد بن قلاوون ، وبايع بالخلافة ﴿الواثق بالله﴾ أبا إسحاق إبراهيم آبن الحاكم بأمر الله المتقدّم ذكره ، وأمر بأن يدعىٰ له علىٰ المنابر ، وتحمل له راية الخلافة ،

فجرىٰ الأمر علىٰ ذلك. وكان قد همّ بمبايعته بعـد موت المستكفى فلم يتم له . فلما توفى الملك الناصر فى العشرين من ذى الحجة سـنة إحدىٰ وأربعين وسـبعمائة ، أعيد المستعصم بالله أحمد المتقـدّم ذكره إلىٰ الخلافة بعـد خلع الواثق إبراهيم ، وبقى حتّى توفى رابعَ شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

ثم ولى الخلافة بعده أخوه «المعتضد بالله» أبو الفتح أبو بكر بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان سابع عشر شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، وتوفى عاشر جمادىٰ الأولىٰ سنة ثلاث وستين وسبعمائة .

وولى الخلافة بعده ٱبنـه «المتوكل علىٰ الله» أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله المتقـدّم ذكره بالعهد من أبيه المعتضد، وٱستقرّ له الأمر بعد وفاة أبيه يوم الخميس ثانى عشر جمادىٰ الأولىٰ سـنة ثلاث وستين وسبعمائة ، وبقى حتّى خلعه الأمير أَيْبَكْ أتابكُ العساكر فى سلطنة الملك المنصور علىّ بن الأشرف شعبان بن حسين .

وولى الخلافة مكانه «المستعصم بالله» أبو يحيىٰ زكريا بن الواثق إبراهيم المتقدّم ذكره ، فأقام فى الخلافة دون ثلاثة أشهر . ثم أعيد المتوكل علىٰ الله محمدبن أبى بكر إلىٰ الخلافة ثانيا فى أواخر المحرّم أو أوائل صفر سـنة تسع وسبعين وسبعمائة ، وٱستمرّ حتّى قبض عليـه الظاهر برقوق وٱعتقله بقلعة الجَبَل فى مستَهَلّ شهر رجب سـنة خمس وثمانين وسبعمائة .

وولّى الخلافة مكانه «الواثق بالله» أبوحفص عمر بن الواثق بالله إبراهيم المتقدّم ذكره ، فبقى حتّى توفى فى العشر الأول من شوّال سنة ثمـان وثمـانين وسبعمائة ، فأعاد الظاهر برقوق المستعصم بالله زكريا المتقدّم ذكره ثانيا إلىٰ الخلافة ، والمتوكل علىٰ الله فى الٱعتقال والناس لا يَرَوْنَ فى كل ذلك الخليفةَ غيره .

ثم عنّ للملك الظاهر برقوق بعد ذلك فأطلق المتوكلَ علىٰ الله من الاعتقال، وأكرمه وأحسن إليه فى ثانى جمادىٰ الأولىٰ سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة، وبقى فى الخلافة حتّى توفى سابع عشرى شهر رجب الفرد سنة ثمان وثمانمائة .

وولى الخلافة بعده ٱبنه ﴿ أبو الفضل العباس ولُقِّبَ المستعينَ بالله ﴾ وبقى فى الخلافة علىٰ سَنَنِ من تقدّمه من الخلفاء العبّاسيين بالدّيار المصرية من قصور أمره علىٰ العهد إلىٰ السلطان والدعاء له علىٰ المنابر قبل السلطان إلىٰ أن قبض علىٰ الناصر فرج بن برقوق بالشام فى الثانى عشر من ربيع الأول من سنة خمس عشرة وثمانمائة، فاستقلَّ بالأمر وٱستبدّ به، وأجمع له أمر الخلافة : من ضرب ٱسمه علىٰ السِّكَّةِ فى الدّنانير والدّراهم والدّعاء له علىٰ المنابر بمفرده، والعلامة علىٰ التقاليد والتواقيع والمكاتبات وغيرها، وفوَّض أمر تدبير دولته للأمير "شيخ" وكُتب له تفويضٌ فى ورق، عرضُه ذراعٌ ونصفٌ بذراع البز، يزيد عما كان يكتب فيه للسلاطين نصف ذراع بقلم مختصر الطومار .

وكان المتولى لأمر كتابته المقرّ الشمسىّ محمد العمرى عين أعيان كُتّاب الدّست الشريف بالأبواب الشريفة السلطانية، ونائب كاتب السر . وسيأتى ذلك فى الكلام علىٰ التواقيع فى المقالة الخامسة إن شاء الله تعالىٰ .

وأما مقرّات الخلفاء، فهى أربع مقرّات :

المقرة الأُولىٰ

(المدينة النبوية علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام)

كانت مقرّة الخلفاء الراشدين إلىٰ حين ٱنقراضهم، وذلك أن مبدأ النبوّة كان بمكة ثم هَاجَر النبىُّ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المدينة، وأقام بها حتّى تُوُفِّىَ[1] فى الثالث عشر من ربيع الأوّل سنة إحدىٰ عشرةَ من الهجرة .

---

(١) المشهور أن وفاته يوم الاثنين الثانى عشر الخ ولكن فى العقد "لثلاث عشرة خلت من ربيع الأوّل" ولعل المؤلف ٱعتمده .

ثم كان بعده فى الخلافة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علىّ، ثم الحسن إلىٰ حين سَلَّمَ الأمر لمعاوية، وإنما كان مُقام علىّ والحسن بالعراق زمن القتال بينهما وبين معاوية .

المقرّة الثانيــــة

(الشـــأم)

وهى دار خلفاء بنى أُمَيَّة إلىٰ حين ٱنقراضهم

قد تقــدّم أن معاوية كان أميرا علىٰ الشأم قبــل الخلافة، ثم ٱستقل بالأمر حين سَــلَّم إليه الحسنُ، وبقى فى الشأم هو ومَنْ بَعْدَهُ إلىٰ حين ٱنقراض خلافتهم، فقتل مَرْوَانُ بن محمــد علىٰ ماتقدّم ذكره . وكانت دارُ إقامتهــم دِمشق، وإن نزلوا غيرها فليس لإقامة .

المقرّة الثـالثـــة

(العِـــراق)

وهى دار خلفاء بنى العبّاس

وكان أوّل مبايعة السَّفَّاحِ به بالكوفة علىٰ ماتقدّم، ثم بنىٰ بعد ذلك بالأَنْبَارِ مدينةً وسماها الهـاشمية ونزلها . فلما ولى أخوه أبو جعفر المنصورُ الخلافةَ بعده بنىٰ بَغْدَادَ وسكنها وصارت منزلا لخلفاء بنى العبّاس بعده إلىٰ حين ٱنقراض الخلافة منها بقتل التتر المستعصمَ آخرَ خلفائهم بهـا .

المقرّة الرابعــــة

(الديار المصرية)

وهى دار الخلافة الآن

وقد تقدّم سبب ٱنتقال الخلافة إليها بعد ٱنقراضها من بغداد فى الكلام علىٰ من ولى الخلافة من الخلفاء، فأغنىٰ عن إعادته هنا .

وقد تقدّم أن الحاكم بأمر الله ثانىَ خلفائهم بمصر أسكنه الأشرفُ خليل بن قلاوون بالكبش بخُط الجامع الطُّولُونىّ . أما الآن فاستقرّت دار الخلافة بخُطّ المشهد النفيسىّ بين مصر والقاهرة، ولا أخلىٰ الله هذه المملكة من آثار النبوّة .

الفصل الثانى

من الباب الثانى من المقالة الثانية

(فيما انطوت عليه الخلافة من الممالك فى القديم، وما كانت عليه من الترتيب ، وما هى عليه الآن)

أما ما انطوت عليه من الممالك، فاعلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد فتح مكة وما حول المدينة من القرىٰ كخَيبر ونحوها .

وفتح خالد بُصْرىٰ من الشأم فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه، وهى أوّل فتح فُتِح بالشأم، ثم كانت الفتوح الكثيرة فى خلافة عمر رضى الله عنه، ففتح بلادَ الشأم، وكُوَر دِجْلَة والأُبُلَّة، وكُوَرَ الأهْوازِ، وإصْطَخْر، وأَصْبَهَان، والسُّوس، وأَذْرِبيجان، والرَّىّ، وجُرْجَان، وقَزْوِين، وزَنْجان، وبعض أعمال خُرَاسَان، وكذلك فتحت مِصْرُ، وبَرْقَةُ، وطَرَابُلُس الغرب .

ثم فتح فى خلافة عثمان رضى الله عنه : كَرْمَانُ، وسِجِسْتَان، ونَيْسَابُورُ، وفَارِسُ، وطَبَرَسْتَان، وهَرَاةُ، وبقية أعمال خُرَاسَانَ. وفتحت أَرْمِينِيَةُ، وحَرَّانُ، وكذلك فتحت أَفْرِيقِيةُ، والأَنْدَلُس، وسدّ الإسلامُ ما بين المشرق والمغرب، وكانت الأموال تُجْبىٰ من هذه الأقطار النائية والأمصار الشاسعة، فتحمل إلىٰ الخليفة، وتوضع فى بيت المال بعد تكفية الجيوش وما يجب صرفه من بيت المال. ولم يزل الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أثناء خلافة بنى العباس، ماعدا الأَنْدَلُس فإن بقَايَا خلفاء بنى أمية استولَوْا عليه

حتّى يقال : إن الرشـيد كان يستلقى علىٰ ظهره وينظر إلى السحابة مارّة ويقول : "آذهبي إلىٰ حيث شئتِ يأتِينِي خَرَاجُكِ" ثم آضـطرب أمر الخلافة بعـد ذلك وتقاصر شأنها وآستبدّ أكثر أهل الأعمال بعَمَله من خلافة الراضى علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب الخلافة فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

وأما ترتيب الخلافة : فله حالتان ،

الحـالة الأُولىٰ

(ما كان عليه الحال فى الزمن القـــديم)

اِعلم أن الخلافة لآبتداء الأمر كانت جارية علىٰ ما أُلِفَ من سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ! : من خُشونة العيش، والقُرْب من الناس، وآطّراح الخُيَـلاء وأحوال الملوك، مع ما فتحَ الله تعـالىٰ علىٰ خلفاء السلف من الأقاليم، وجبى إليهم من الأموال التى لم يفُزْ عظماء الملوك بجزء من أجزائها . ونَاهِيكَ أنهم فتحوا عِدّةً من الممالك العظيمة التى كانت يضرب بها المثَل فى عظَم قدرها، وآرتفاع شأن ملوكها، من ممالك المشرق والمغرب . حتّى ذكر عظماء الملوك عند بعض السلف فقال: "إنما المَلِكُ الذى يأكل الشـعير ويَعُسُّ علىٰ رجليه بالليل ماشيا وقد فُتِحَتْ له مشارقُ الأرض ومغاربُها" يريد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ أن سـلَّمَ الحسنُ رضى الله عنـه الأمرَ لِمُعَاوِيَةَ ؛ وإلىٰ ذلك الإشـارة بقوله صلى الله عليه وسلم ! "الخِلَافَةُ فى أُمَّتِي ثلاثُونَ سنةً ثم مُلْكٌ بعد ذلك" فكان آخر الثلاثين خلافةَ الحسن .

فلما سلَّم الحسن رضى الله عنه لمعاوية بعدوقوع الآختلاف وتَبَايُنِ الآراء، آقتضى الحال فى زمانه إقامةَ شِعَارِ الملك، وإظهارَ أُبَّهَةِ الخِلَافة، فأخذ فى ترتيب أمور الخلافة علىٰ نظام الملك لمـا فى ذلك من إرهاب العدوّ وإخافتـه . بل كان ذلك شأنَه وهو

أمير بالشأم قبل أن يلى الخلافة. حتّى حكىٰ صاحب "العِقْد" وغيرُه أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنـه قدِمَ الشأم فى خلافته وهو راكب علىٰ حمار، ومعه عبـد الرحمن بن عوف، ومعـاويةُ أميرٌ علىٰ الشام، فخرج معاوية لملاقاته فى مَوْكب عظيم، فلقيـه فى طريقه فى خِفٍّ من القوم فلم يشعُرْ به وتعدّاه طالبا له؛ ثم عُرِّفَ ذلك فيما بعد، فرجع وسلَّم علىٰ أمير المؤمنين عمر، ومشىٰ إلىٰ جانبه، فلم يلتفت إليـه وطال به ذلك، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبْتَ الرجل ياأمير المؤمنين، فالتفت إليه حينئذ، وقال: أنت صاحب المَوْكب الآنَ مع مابلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك؟ ـ فقال: ياأمير المؤمنين: إنا بأرضٍ يكثر فيها جواسيسُ العدو فأحتاجُ أن أُظْهِر لهم من أُبَّهَةِ المُلْك والسلطان ما يَزَعُهُمْ، فإن أمرتنى به، ٱئتمرت؛ وإن نهيتَنى عنه، ٱنتهيت ـ فقال: إن كان ماقلتَ حَقًّا، فإنه لَرَأْىُ أديبٍ! وإن كان غيرَ حق، فإنه لخُدْعة أريب. لاآمُرُك ولا أَنْهاك ـ فقال عبد الرحمن: لَحَسَنٌ ياأمير المؤمنين! ما صـدَرَ به هذا الفتىٰ عما أورَدْتَه فيه ـ فقال: لِحُسْنِ مَصَادِرِه وموارده جَشَّمْنَاهُ ما جشمناه.

فلما صارت الخلافة إليه، زاد فى حسن الترتيب وإظهار الأُبَّهـة، وأخذ الخلفاء بعده فى مضاعفة ذلك والٱحتفال به حتّى أمست الخلافة فى أغنىٰ مايكون من ترتيب الملك، وفاقت فى ذلك الأَكاسِرَةَ والقياصرة. بل ٱضْمَحَلَّ فى جانب الخلافة سـائر الممالك العظام، وٱنطوىٰ فى ضمنها ممالك المشارق والمغارب، خصوصا فى أوائل الدّولة العباسية فى زمن الرشيد ومَنْ والاه.

حتّى يحكىٰ أن صاحبَ عَمُّورِيَّةَ من ملوك الروم كانت عنـده شريفةٌ مأسـورةٌ فى خلافة المُعْتَصِمِ فعذّبها، فصاحت وَا مُعْتَصِماه! فقال لها: لايأتى المعتصم لخلاصك إلا علىٰ أبْلَقَ. فبلغ ذلك المعتصم، فنـادىٰ فى عسكره بركوب الخيـل البُلْقِ، وخرج

وفى مقدّمة عسكره أربعـةُ آلاف أبلق، وأتىٰ عَمُّورِيَّةَ فحاصرها وخلص الشريفة، وقال : ٱشهدى لى عند جدّك المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم أنى جئت لخلاصِك، وفى مقدّمة عسكرى أربعة آلافِ أَبْلَقَ .

وقد حكىٰ ٱبن الأثير فى تاريخه : أنه لمـا وصلت رُسُل ملك الروم إلىٰ بغداد فى سنة خمس وثلثمائة فى خلافة المقتدر، رُتِّبَ من العسكر فى دار الخلافة مائة وستون ألفا ما بين راكب وراجل، ووقف بين يدى الخليفة سبعُمائة حاجب، وسبعة آلاف خادم خَصِيٍّ : أربعـة آلاف بِيض وثلاثة آلاف سُود، ووقف الغِلْمـان الحَجَرِيَّةُ الذين هم بمثابة مماليك الطباق الآن بالباب، بتمام الزينة والمناطق المُحَلَّاةِ، وزينت دار الخلافة بأنواع الأسلحة، وغرائب الزينـة، وغُشِّيت جُدْرَانُها بالستور، وفرشت أرضها بالبُسُطِ، وكان عدّة البسط ٱثنين وعشرين ألف بساط، وعدّة الستور المعلقة ثمـانيةً وثلاثين ألف ستر، منها ٱثنا عشر ألف ستر من الديباج المُذْهَبِ؛ وكان من جملة الزينة شجرة من الذهب والفضة بأغصانها وأوراقها، وطيورُ الذهب والفضة علىٰ أغصانها، وأعضانُها تتمـايل بحركات موضوعة، والطيور تُصَفِّرُ بحركات مرتبة، وألقيت المراكب والدبادب فى دِجْلَةَ بأحسن زينـة . وكان هنـاك مائة سَبُعٍ مع مائة سَبَّاعٍ، إلىٰ غير ذلك من الاحوال الملوكية التى يطول شرحها .

هذا مع تقهقر الخلافة وٱنحطاط رتبتها يومئذ . ولم تزل الخلافة قائمةً علىٰ ترتيبٍ واحد فى النفقة والجرايات والمطابخ وإقامة العساكر إلىٰ آخر أيام الراضى بالله .

فلما ولى المُتَّقِى لله، تقاصر أمرُ الخلافة وتناقص، وقَنِـع الخلفاء من الخلافة بالدعاء علىٰ المنابر وضَرْبِ ٱسمهم علىٰ الدنانير والدراهم، وربما خطب الواحد منهم بنفسه، ومع ذلك فكان الخليفة هو الذى يولِّى أربابَ الوظائف من القُضاة وغيرهم، وتكتب عنه العهود والتقاليد وغيرها لا يشاركه فى ذلك سُلْطان .

وأما شِعار الخلافة :

فمنها ـ الخَاتَمُ : والأصل فيه ماثبت فى الصحيح "أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم ! قيل له : إن الملوك لا يَقْرءُون كتابا غير مختوم فاتَّخذ خَاتَمًا من وَرِقٍ، وجعل نَقْشَهُ محمدٌ رسول الله " فلما تُوُفِّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لبسه أبو بكر بعده ثم لبسه عمر بعد أبى بكر، ثم لبسه عثمانُ بعد عمرَ، فوقع منه فى بئر فلم يُقْدَرْ عليه .

وآتخذ الخلفاء بعد ذلك خواتيمَ ، لكل خَاتَم نقشٌ يخصه، وبقى الأمر على ذلك إلى آنقراض الخلافة من بَغْدَادَ .

(ومنها) البُرْدة : وهى بردة النبىِّ صلّى الله عليه وسلم التى كان الخليفة يلبسها فى المواكب .

قال آبن الأثير : وهى شَمْلَةٌ مُخَطَّطة ، وقيل كِساءٌ أسودُ مربَّع فيه صِغَرٌ، وقد آختلف فى وصولها إلى الخلفاء .

فحكى المَاوَرْدِىُّ فى الأحكام السلطانية عن أبان بن تغلب أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم كان وَهَبها لكعب بن زُهَيْرٍ حين آمتدحه بقصيدته التى أولها : "بَانَتْ سُعَادُ" فآشتراها منه معاوية . والذى ذكره غيره أن كعبا لم يسمح ببيعها لمعاوية، وقال : لم أكن لأوثِر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا . فلما مات كعب آشتراها معاويةُ من ورثته بعشرة آلاف درهم .

وحكى المَاوَرْدِىّ أيضا عن حَمْزَةَ بن ربيعة أن هذه البردة كان النبىّ صلّى الله عليه وسلم أعطاها لأهل أَيْلَةَ أمانًا لهم ، فأخذها منهم عبد الله بن خالد بن أبى أوفى وهو عامل عليهم من قِبَلِ مَرْوانَ بن محمد آخرِ خلفاء بنى أُمَيَّةَ وبعث بها إليه ، وكانت فى خِزانته حتّى أُخِذت بعد قتله . وقيل آشتراها أبو العبَّاس السفَّاحُ : أوّلُ خلفاء بنى العبّاس بثلثمائة دينار .

(ومنها) القَضيب : وهو عُود كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يأخذه بيده .

قال المــاوردىّ : وهو من تركة النبيّ صلّى الله عليه وسلم التى هى صدقة .

قلت : وكان القضيب والبردةُ المتقــدّما الذكر عند خلفاء بنى العبَّاس ببغدادَ إلىٰ أن آنتزعهما السلطان سنجر السَّلْجُوقِىّ من المسترشد بالله، ثم أعادهما الىٰ المقتفى عند ولايته فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . والذى يظهر أنها بقيت عندهم إلىٰ آنقضاء الخلافة من بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فإن مقدار ما بينهما مائةٌ و إحدىٰ وعشرون سنة، وهى مدّة قريبة بالنسبة إلىٰ ماتقدّم من مدّتهما .

(ومنها) ثياب الخلافة : وقد ذكر السلطان عماد الدّين صاحب حماه فى تاريخه فى الكلام علىٰ ترجمة الملك السعيد إسماعيل أحد ملوك بنى أيوبَ باليَمَنِ أنه كان به هَوَجٌ، فآدّعىٰ أنه من بنى أمية ولبس ثياب الخلافة، ثم قال: وكان طول الكم يومئذ عشرين شِبْرًا، فيحتمل أنه أراد زمن بنى أمية، وأنه أراد زمن بنى أيوب .

(ومنها) اللون فى الأعلام والخِلَع ونحوها .

وكان شــعار بنى أُميــة من الألوان الخُضْرَة، فقد حكىٰ صاحب حماة عن الملك السعيد إسمــاعيل المتقدّم ذكره : أنه حين آدّعىٰ الخلافة وأنه من بنى أُمَيَّــةَ لبس الخُضْرَةَ، وهذا صريح فى أنه شِعَارُهم .

أما بنــو العباس فشــعارهم السَّوَادُ، وقد آختلف فى سبب آختيارهم السَّوادَ، فذكر القاضى المَــاوَرْدِىّ فى كتابه "الحاوى الكبير" فى الفقه : أن السبب فى ذلك أن النبىّ صــلّى الله عليه وسلم فى يوم حُنَيْنٍ ويومِ الفَتْح عقد لعمه العبَّاس رضى الله عنه رايةً سوداء .

وحكىٰ أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : أن سبب ذلك أن مَرْوَانَ ٱبن محمد آخِرَ خلفاء بنى أُمَيَّةَ حين أراد قتل إبراهيم بن محمد العبّاسىّ : أولِ القائمين من بنى العبَّاس بطلب الخلافة قال لشيعته : لايَهُولنكم قتلى،فإذا تمكنتم من أمركم فاستخلفوا عليكم أبا العبَّاس يعنى السَّفَّاحَ ، فلما قتله مَرْوان، لبس شيعتُه عليه السَّوادَ، فلزمهم ذلك وصار شِعَارًا لهم .

ومن غريب ماوقع مما يتعلق بذلك ما حكاه ٱبن سعيد فى "المغرب" أن الظافر الفاطمىّ أحدَ خلفاء مصر لما قتله وزيره عباس،بعث نساءُ الخليفة شعورَهن طىَّ الكُتُب إلىٰ الصالح طلائع بن رزيك ، وهو يومئذ والٍ بمنية بنى خَصِيبٍ (١) ، فحضر إليهم وقد رفع تلك الشعور علىٰ الرماح ، وأقام الرايات السود إظهارا للحرب علىٰ الظافر، ودخل القاهرة علىٰ ذلك ، فكان ذلك من الفأل العجيب ، وهو أن مصر ٱنتقلت إلىٰ بنى العباس بعد خمس عشرة سنة، ورفعت راياتهم السُّود بها .

⁂

وأما تولية الملوك عن الخلفاء، فكان الحال فيه مختلفا بٱعتبار السلطان بحضرة الخلافة وغيره. فإن كان الذى يوليه الخليفةُ هو السلطانَ الذى بحضرة الخلافة،كبنى بُوَيه وبنى سلجوق وغيرهم ، فقد حكىٰ ٱبن الأثير وغيره أن السلطان طغرلبك بن ميكائيل السَّلجُوقىّ لما تقلد السلطنة عن "القائم بأمر الله" فى سنة تسع وأربعين وأربعمائة،جلس له الخليفة علىٰ كرسىٍّ ٱرتفاعُه عن الأرض نحو سبعة أذْرُعٍ، وعليه البُرْدَةُ ، ودخل عليه طغرلبك فى جماعةٍ ، وأعيانُ بغداد حاضرون، فقَبَّل طغرلبك الأرضَ ويَدَ الخليفة ، ثم جلس علىٰ كرسىٍّ نُصِب له ،ثم قال رئيسُ الرؤساء وزيرُ الخليفة عن لسان الخليفة : "إن أمير المؤمنين قد ولَّاك جميعَ ماولَّاه الله تعالىٰ من

(١) معجم البلدان [منية أبى الخصيب] .

بلاده، وردَّ إليك أمرَ عباده، فاتق الله فيما ولّاك، وآعرف نعمته عليك" ثم خُلِع علىٰ طغرلبك سبعُ جبات سود بزيق واحد، وعمامة سوداء، وطُوّق بطوق من ذهب، وسُوّر بسِوَارَيْن من ذهب، وأُعْطِى سيفا بغلاف من ذهب، ولقبه الخليفة، وقرئ عهده عليه فقبل الأرض ويدَ الخليفة ثانيا وآنصرف ؛ وقد جُهِّز له فرس من إِصْطَبْلَاتِ الخليفة بمَرْكَب من ذهب مقندس فركب وآنصرف إلىٰ داره، وبعث إلىٰ الخليفة خمسين ألفَ دينار، وخمسين مملوكا من الترك بخيولهم وسلاحهم مع ثياب وغيرها . ولعل هذا كان ترتيبهم فى لبس جميع ملوك الحضرة .

— وإن كان الذى يوليه الخليفة من ملوك النواحى البعيدة عن حضرة الخليفة كملوك مصر إذ ذاك ونحوهم، جهز له التشريف من بغداد صحبة رسول من جهة الخليفة، وهو جُبَّة أطلس أسود بطراز مُذْهَبٍ وطوق من ذهب يجعل فى عنقه، وسِوَارَانِ من ذهب يجعلان فى يديه، وسيفٌ قِرَابُه مُلَبَّسٌ بالذهب، وفرس بمركب من ذهب، وعَلَمٌ أسودُ مكتوب عليه بالبياض آسم الخليفة ينشر علىٰ رأسه ، كما كان يبعث إلىٰ السلطان صلاح الدّين يوسف بن أيوب ثم أخيه العادل . فإذا وصل ذلك إلىٰ سلطان تلك الناحية، لبس الخِلْعَةَ والعمامة، وتقلد السيف وركب الفرس وسار فى موكبه حتّىٰ يصل إلىٰ محل ملكه . وربما جهز مع خلعة السلطان خِلَعٌ أخرىٰ لولده أو وزيره أو أحدٍ من أقاربه بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ .

وآخر من وصلت إليه الخِلْعةُ والطوق والتقليد من ملوك بنى أيوب من بغداد الناصرُ يوسف بن العزيز بن السلطان صلاح الدين عن المستعصم فى سنة خمس وخمسين وستمائة .

وأما الوظائف المعتبرة عندهم ، فعلىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(وظائف أرباب السيوف ، وهى عدّة وظائف)

(منها) الوزارة فى بعض الأوقات دون بعض .

وقد ذكر القُضَاعىّ وغيره أن أوّل من لُقِّب بالوزارة فى الإسلام ، أبو سلمة ، حفص بن سليمان الخلال وزير أبى العبَّاس السَّفَّاح أوّل خلفاء بنى العبّاس ، ولم يكن ذلك قبله ، ثم جرىٰ الأمر علىٰ ذلك فى آتخاذ الخلفاء الوزراءَ إلىٰ آنقراض الخلافة ببغداد بقتل التتار المستعصمَ فى سنة ست وخمسين وستمائة ، ووزيره يومئذ مؤيد الدين بن العلقمىّ ، وقتله هولاكو ملك التتار بعد قتل المستعصم لممالأته علىٰ المستعصم مع التتار ، وهو آخر وزراء الخلافة ببغداد .

(ومنها) الحِجَابة : وكان موضوعها عندهم حفظَ باب الخليفة والآستئذانَ للداخلين عليه ، لا التَّصَدّى للحكم فى المَظَالم كما هو الآن .

وقد ذكر القضاعىّ فى " تاريخ الخلائف " ما يقتضى أن الخلفاء لم تزل تتخذ الحُجَّابَ من لَدُنِ الصِّدِّيق رضى الله عنه فَمَنْ بعده ، خلا الحسنَ بن علىّ فإنه لم يكن له حاجب .

(ومنها) وِلَاية المَظَالم : وموضوعها قَوْدُ المتظالمين إلىٰ التناصف بالرَّهْبة ، وزَجْر المتنازعين عن التجاحُد بالهيبة . كما قاله المَاوَرْدِىُّ فى " الأحكام السلطانية " وهى شبيهة بالجوبية الآن فى هذا المعنىٰ ؛ وكانت عندهم من أعلىٰ الوظائف وأرفعها رتبة لايتولّاها إلا ذوُو الأقدار الجليلة ، والأخطار الحفيلة .

(ومنها) النِّقَابَةُ علىٰ ذوى الأنساب : كالطالبيين والعباسيين ومَنْ فى معناهم ، كما فى نِقَابة الأشراف الآن بالديار المصرية وأعمالها ؛ وكانت لديهم من وظائف

أرباب السيوف، ولذلك ٱسْتُصْحِبَ هذا المعنىٰ فى نقيب الأشراف الآن، فيكتب فى ألقابه الأميرىُّ، وإن كان من أرباب الأقلام علىٰ ما سيأتى ذلك فى كتابة توقيعه إن شاء الله تعالىٰ .

الضرب الثـانى

(وظائف أرباب الأقلام، وهى نوعان، دينية وديوانية)

فأما الديوانية ـ فأجلُّها الوِزَارَةُ إذا كان الوزير صاحب قَلَم . وقد مر القول فى ٱبتداء وزارة الخلفاء وٱنتهائها فى الكلام علىٰ وزارة أرباب السيوف فى الضرب الأوّل .

وأما الدينية ـ (فمنها) القَضَاء، وكانت ولاية القضاء عن الخليفة تارةً تكون عامّةً لبغداد وأعمالها ، وتارة قاصرةً علىٰ بغداد أو أحد جانبيها .

(ومنها) الحِسْبَةُ وأمرها معروف .

(ومنها) ولاية الأوقاف والنظر عليها .

(ومنها) الولاية علىٰ المساجد والنظر فى أمر الصلاة .

ومن الوظائف الخارجة عن حضرة الخلافة لأرباب السيوف الإمارةُ علىٰ الجهاد، والإمارةُ علىٰ الحج، وغيرهما .

ومن الوظائف الخارجة عن الحضرة لأرباب الأقلام ولايةُ قضاء النواحى ، والحسبةُ بها إلىٰ غير ذلك من ولايات زعماء الذمة وغيرهم .

الحـالة الثانيـــة

ما صار إليه الأمر بعد ٱنتقال الخلافة إلىٰ الديار المصرية عند ٱستيلاء التتار علىٰ بغـداد لمـا بايع الملك الظاهر بيبرس البندقدارىّ فى سـنة تسع وخمسـين وستمائة

" المستنصر بن الظاهر " أوّل الخلفاء بمصر على ماتقـدّم ذكره وكتب له عهد عنه بالسلطنة من إنشاء القاضى محى الدّين بن عبد الظاهر، وعمل له السلطان الدّهاليز وآلات الخلافة ورتب له الجمـدارية، وآستخدم له عسكرا عظيما وجهزه إلى بغداد للآستيلاء عليها فقتله التتار على ماتقدّم .

ثم لما بايع الظاهر أيضا الإمامَ "الحاكم بأمر الله" ثانىَ خلفائهم أيضا فى سنة تسع وخمسين وستمائة على ماتقدم ذكره، بقى مدة، ثم أشركه معه فى الدّعاء فى الخطبة على المنابر فى سنة ست وستين وستمائة، إلا أنه منعه من التصرف والدخول والخروج. ولم يزل كذلك إلى أن ولى السلطنةَ الملكُ الأشرفُ "خليل بن المنصور قلاوون" فأطلق سبيله، وأسكنه فى الكبش على القرب من الجامع الطُّولُونِىّ، وكان يخطب أيام الجمع بجامع القلعة إلى أن ولى السلطنة الملكُ المنصورُ حُسَام الدّين لاچين، فأباح له التصرف والركوب إلى حيث شاء؛ وبقى الأمر على ذلك إلى أن ولى الخلافةَ "المستعصم بالله" أبو العباس أحمد بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان المرّة الثانية بعد موت الملك الناصر محمد بن قلاوون، ففوّض إليه السلطان نظر المشهد النفيسىّ، وآستقرّ بأيدى الخلفاء إلى الآن .

والذى آستقرّ عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوّض الأمور العامة إلى السلطان، ويُكْتبُ له عنه عهدٌ بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا فى مصلّى السلطان خاصة فى جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة، ويستبدّ السلطان بما عدا ذلك : من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتّى للخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك .

قلت : ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن قُبِض على السلطان الملك الناصر فرج آبن الظاهر برقوق بالشأم فى أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة على ما تقدّم ذكره،

فاستقل الإمام "المستعينُ بالله" خليفة العصر بأمر الخلافة : من الكتابة علىٰ العهود ومناشـير الإقطاعات، والتقاليد، والتواقيع، والمكاتبات وغيرها ، وأُفرد بالدعاء علىٰ المنابر، وضرب آسمه علىٰ الدنانير والدراهم والطرر علىٰ ما تقـدّم ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب الخلفاء، وهيئته فى لبسه عند ركوبه بالمدينة فى المواكب أو غيرها .

فعمامته مدوّرة لطيفة عليهـا رَفْرَفٌ من خَلْفه تقـدير نصف ذراع فى ثلث ذراع مرسل من أعلىٰ عمامته إلىٰ أسفلها ، وفوق ثيابه كامليةٌ ضـيقة الكُمِّ مُفَرَّجَةُ الذيل من خلف وتحتها قباء ضيق الكُمِّ .

أما تمليده السلطان السلطنة،فالذى رأيته فى بعض التواريخ فى عهد الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس : أحمد بن أبى الربيع سليمان،إلىٰ السلطان الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد مبايعة الحاكم المذكور عند موت أبيه فى سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة : أنه طلع القضاةُ والأمراء إلىٰ القلعة وآجتمعوا بدار العدل، وجلس الخليفة علىٰ الدرجة الثالثة من التخت،وعليه خِلْعَةٌ خضراء،وعلىٰ رأسه طرحة سوداء مرقومة بالبياض، وخرج السلطان من القصر إلىٰ الإيوان من باب السرّ علىٰ العادة، فقام له الخليفة والقضاة والأمراء، وجاء السلطان فجلس علىٰ الدرجة الأولىٰ من التخت دون الخليفة، ثم قام الخليفة فقرأ : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ إلىٰ آخر الآية ،وأوصىٰ السلطانَ بالرفق بالرعية،وإقامة الحق،وإظهار شعائر الإسلام ونُصْرة الدِّين ؛ ثم قال : "فوضت إليك جميع أمر المسلمين، وقلدتك ما تقلدته من أمور الدين" . ثم قرأ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَـايِعُونَكَ إِنَّمَـا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ إلىٰ آخر الآية ، ثم أُتِيَ الخليفـةُ بِخِلْعَةٍ سوداءَ وعمـامة سـوداء مرقومة الطرف بالبياض ، فألبسها السلطانَ وقلَّده سـيفَه، ثم أُتِى بالعهد المكتوب عن الخليفة للسلطان فقرأه القاضى علاءُ الدين بن فضل الله كاتب السر إلىٰ آخره . فلما فرغ من قراءته، تناوله الخليفة

فكتب عليه ما صورته ـ فوّضت إليه ذلك ـ وكتب ـ أحمد بن عم محمد صلّى الله عليه وسلم ـ وكتب القضاة الأربعة شهادتهم بالتولية، ثم أُتى بالسماط على العادة .

وأخبرنى مَنْ حضر تقليد السلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق عن الإمام المتوكل على الله أبى الفتح : محمد المشار إليه فيما تقدّم : أنه حضر الخليفة وشيخ الإسلام سراجُ الدين البلقينىّ، والقضاة الأربعة وأهل العلم، وأمراء الدولة إلى مَقْعَد بالإصْطَبْلَات السلطانية يعرف بالحرّاقة، وجلس الخليفة فى صدر المكان على مَقْعَد مفروش له، ثم أتى السلطان وهو يومئذ حَدَثٌ، فجلس بين يديه، وسأله شيخ الإسلام عن بلوغه الحُلُمَ فأجاب بالبلوغ، فخطب الخليفة خطبةً، ثم خاطب السلطان بتفويض الأمر إليه على نحو ما تقدّم ذكره، ثم أُتِىَ الخليفةُ بخِلْعَةٍ سوداء وعمامة سوداء مرقومة فوقها طرحة سوداء مرقومة، ثم جلس الخليفة فى مكانه الذى كان جالسا فيه، ونُصِبَ للسلطان كرسىٌّ إلى جانب مقعد الخليفة فجلس عليه، وجلس الأمراء والقضاة حوله على قدر منازلهم، وقد آستقرت جائزة تقليد السلطنة للخليفة ألف دينار مع قماش سكندرىّ .

أما حضوره بمجلس السلطان فى عامة الأيام، عند حضوره إلى السلطان لسلام أو مُهِمٍّ أو غير ذلك، فقد أخبرنى بعض جماعة الخليفة أن الإمام المتوكّلَ المتقدّمَ ذكرُه كان إذا حضر إلى مجلس السلطان الظاهر، قام له، وربما مشى إليه خطوات وجلس على طَرَف المَقْعَدِ وأجلس الخليفة إلى جانبه .

البـاب الثـالث

من المقـالة الثانيـــة

(فى ذكر مملكة الدّيار المصرية ومضافاتها، وفيه ثلاثة فصول)

الفصـــــل الأوّل

(فى مملكة الدّيار المصرية ومضافاتها، وفيه طرفان)

الطرف الأوّل

(فى الدّيار المصرية، وفيه آثنا عشر مقصدا)

المقصد الأوّل

(فى فضـلها ومحاســنها)

أما فضـلها فقد ورد فى الكتاب والسنة ما يشهد لهـا بالفضيلة، ويقضى لهـا بالفخر قال تعـالىٰ : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَـا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَـا﴾ يريد بالقوم بنى إسرائيـل، وبالأرض أرض مصر؛ ووصفها بالبركة إما بمعنىٰ الفضل كما فى قوله تعالىٰ : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصىٰ الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ . وإما من الخصب وسَعَة الرزق بدليـل قوله تعالىٰ مخبرا عن قوم فرعون : ﴿فَأَخْرَجْنَـاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾ . وقال جل وعز : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلىٰ مُوسىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فأمر بالعبادة فى بيوتها إشارة إلىٰ شرف أرضها ورفعة قدرها .

وقد ذكر الله تعالىٰ ٱسمها فى غير موضع من كتابه العزيز فى ضمن قِصَص الأنبياء عليهم السلام . فقال تعالىٰ إخبارا عن يوسف عليه السلام : ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ﴾ وفى موضع آخر . ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ وقال حكاية عن فرعون لعنه الله : ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِى﴾ وفى معناه قوله تعالىٰ خطابا لبنى إسرائيل : ﴿اهْبِطُوا مِصْرَ فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ علىٰ قراءة الحسن والأعمش مصر غير مصروف.

قال القضاعىّ : وكذلك قراءة من قرأ ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ مصروفا بناء علىٰ أن مصر مذكر سمى به مذكرا فلم يمنع الصرف فيه، والتصريح بذكرها دون غيرها من الأقاليم دليل الشرف والفضل .

وقد ورد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ بِلَادًا يُذْكَرُ فيها القِيراطُ فٱستوْصُوا بأهلها خيرًا فإن لأهلها نَسَبًا وصِهرًا" أراد بالنسب هاجَرَ أم إسماعيل عليه السلام، وكان بعض ملوك مصر قد وهبها لزوجته سَارَّةَ . وأراد بالصِّهر مارِيَةَ أمَّ إبراهيم : ولَدِ النبىّ صلى الله عليه وسلم، كان المُقَوْقِسُ قد أهداها للنبىّ صلى الله عليه وسلم فى جملة هديته .

ويروىٰ أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال : "إذا فتحَ اللهُ عليكم مِصْرَ فٱتّخِذوا بها جُنْدا كثيفا، فذاك خير جند الأرض، قيل : ولم ذاك يارسول الله ؟ قال : لأنهم فى رِبَاطٍ إلىٰ يوم القيامة" .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : "مِصْرُ أطيبُ الأرَضينَ ترابا وعَجَمُها أكرم العَجَم نِصَابا" .

ويقال فى التوراة : "مِصْرُ خزائنُ الله، فَمَنْ أرادها بسوء قَصَمه الله".

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه ولايةُ مِصْرَ جامعةً تعدل الخلافة .

ومن كلام كعب الأحبار ”مصرُ بلد معافًى من الفتن ، فمن أرادها بسوء كبه الله علىٰ وَجْهه “ .

ووصفها الكِنْدِىّ فقال : جَبَلُها مُقَدس ، ونيلها مبارَك ، وبها الطُّور الذى كلَّم الله تعالىٰ عليه موسىٰ عليه السلام .

قال كعب الأحبار : كلم الله تعـالىٰ موسىٰ من الطور إلىٰ طُوًى وفى التوراة وادٍ مقدّس أفيح ، يريد وادى موسىٰ عليه السلام .

ودخلها جماعة من الأنبياء عليهم السـلام ، منهم إبراهيم ، ويعقوب ، ويوسف ، وإخوته عليهم السلام .

ونقل فى ”الروض المعطار“ عن الجاحظ أن عيسىٰ بْن مريم عليه السلام ولد بها بكُورةِ أَهْناسَ الآتى ذكرها فى كُوَرِ مصر المقدّسـة ، وأن نخلة مريم كانت بأهناس قائمـة إلىٰ زمانه . وذكر أيضا أن موسىٰ عليه السـلام وُلِدَ بها بمدينـة أسْكَرَ شرقىّ النيـل ، وهى الآن قرية من الأعمـال الإطفيحية الآتى ذكرها فى أعمـال الدّيار المصرية .

وبها سجن يوسفَ عليه السـلام بمدينة بُوصير الخراب من الأعمـال الجيزية علىٰ القرب من البَدْرَشِين .

قال القُضَاعىّ : أجمع أهـل المعرفة من أهل مِصْرَ علىٰ صحة هـذا المكان ، وأن الوَحْىَ كان ينزل عليه به ، وسطحه معروف بإجابة الدّعاء .

سأل كافور الإخشيدىّ الإمامَ أبا بكر بن الحدّاد الفقيـه الشافعىّ عن موضع يستجاب فيه الدّعاء ، فأشار عليه بالدّعاء علىٰ سطح هذا السجن .

قال القضاعىّ : وعلىٰ القرب منه مسجد موسىٰ عليه السلام ، وهو مسجد مبارك .

وبسفح المُقَطَّم بالقرافة الصغرىٰ قبرُ (يَهُوذَا ورُوبِيل) من إخوة يوسف عليه السلام.

وقد روى أنه دخلها من الصحابة رضوان الله عليهم ما يزيد علىٰ مائة رجل، ودُفِن بقرافتها جماعة منهم فيما ذكره ٱبن عبد الحكم عن ٱبن لَهِيعَةَ خمسةُ نفر وهم: عمرو بن العاص، وعبد الله بن حُذَافَةَ، وأبو بَصْرة الغفاريّ، وعُقْبَةُ بن عامر الجُهَنِيّ، وعبد الله بن الحٰرث الزبيديّ، وهو آخرهم موتًا.

قال القُضَاعيّ: وذكر غير ٱبن لَهِيعَةَ أن مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّدٍ الأنصاريّ أيضا مات بها، وهو أميرها.

**

أما محاسنها، فلا شك أن مصر مع ما ٱشتملت عليه من الفضائل، وحُفَّتْ به من المآثر أعظمُ الأقاليم خَطَرًا، وأجلُّها قَدْرًا، وأفخمها مملكة، وأطيبُها تُرْبَةً، وأخفُّها ماء، وأخْصَبُها زَرْعًا، وأحسنُها ثِمارًا، وأعْدَلُها هواءً، وألطفها ساكِنًا.

ولذلك ترىٰ الناس يرحلون إليها، وُفُودا، ويَفِدُون عليها من كل ناحية، وقلَّ أن يخرج منها مَنْ دخلها، أو يرحلَ عنها من وَلَجَهَا، مع ما ٱشتملت عليه من حسن المَنْظَرِ، وبهجة الرَّوْنَقِ لا سيما فى زمن الربيع، وما يبدُو بها من الزروع التى تملأ العينَ وَسَامَةً وحُسْنًا، وتروقُ صورةً ومعنًى.

قال المسعوديّ: وصف الحكماءُ مِصْرَ فقالوا: ثلاثة أشهر لؤلؤةٌ بيضاء، وثلاثة أشهر مِسْكَةٌ سوداء، وثلاثة أشهر زُمُرُّدَةٌ خضراء، وثلاثة أشهر سَبِيكَةٌ حَمْراء.

فاللؤلؤة البيضاء، زمانَ النيل، والمِسْكَةُ السوداء زمانَ نُضُوب الماء عن أرضها والزُّمُرُّدَةُ الخضراء زمانَ طلوع زرعها، والسَّبِيكَةُ الحمراء زمانَ هَيْج الزرع وٱكْتِهاله.

وقد قيل: لو ضُرِب بينها وبين غيرها من البلاد سورٌ، لغَنِي أهلها بها عما سواها ولما ٱحتاجوا إلىٰ غيرها من البلاد. وناهيك ما أخبر الله تعالىٰ به عن فرعون مع

عتوّه وتجبُّره وآدّعائه الربوبيةَ بآفتخاره بملكها بقوله : ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .

قال آبن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وهي إقليم العجائب، ومعْـدِن الغرائب؛ كان أهلها أهلَ مُلْك عظيم، وعز قديم؛ وإقليمها أحسنَ الأقاليم مَنْظَرًا، وأوسعها خيرا؛ وفيها من الكنوز العظيمة ما لا يدخله الإحصـاء . حتّى يقـال إنه ما فيها موضع إلا وفيه كنز .

قلت : أما ما ذكره أحمد بن يعقوبَ الكاتب في كتابه في "المَسَالِكِ والممـالك" من ذمّه مصر بقوله : هي بين بحر رَطْبٍ عَفِنٍ كثير البُخَارات الرديئة، يولد الأدْوَاءَ ويُفْسِد الغِذَاءَ، وبين جَبَل وبَرٍّ يابس صلْدٍ، لشدّة يبسه لا تنبت فيه خَضْراء، ولا تنفجر فيه عين ماء، فكلامُ مُتَعَصِّبٍ خرق الإجمـاع، وأتى من سخيف القول بمـا تنْفر عنه القلوب وتُمُجّه الأسمـاع؛ وكفى به نقيصة أَنْ ذَمَّ النيلَ الذي شهد العقلُ والنقل بتفضيله، وغَضّ من المُقَطَّم الذي وردت الآثار بتشريفه .

المقصـــــد الثـاني

(في ذكر خواصها وعجائبها، وما بها من الآثار القديمة)

أما خواصُّها، فمن أعظمها خَطَرًا مَعْـدِنُ الزُّمُرُّدِ الذي لا نظير له في سائر أقطار الأرض، وهو في مَغَارةٍ في جبل على ثمـانية أيام من مدينة قُوص، يوجَدُ عروقا خُضْرًا في تطابيق حَجَرٍ أبيضَ، وأفضـله الذُّبابيُّ، وهو أقل من القليل، بل لا يكاد يوجد .

ولم يزل هـذا المعدن يستخرج منه الزُّمُرُّدُ إلى أثناء الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" فأهمل أمره وترك .

قال فى "مسالك الأبصار" : وجميع ملوك الأرض وأهلُ الآفاق تستمدّ منه، وقد مرّ القول عليه فى جملة الأحجار الملوكية فى أواخر المقالة الأولى .

وأعظم خطرا منه وأرفع شأنا البَلَسَانُ الذى تسميه العامّة البَلْسَم، وهو نبات يزرع ببُقْعة مخصوصة بأرض المَطَرِيَّةِ من ضواحى القاهرة على القرب من عَيْن شَمْسٍ، ويسقى من بئر مخصوصة هناك، يقال إن المسيح عليه السلام اغتسل بها حين قَدِمت به أُمُّه إلى مصر، والنصارى تزعم أنه حفرها بعَقِبِهِ وهو طِفْلٌ، حين وضعته أُمُّه هناك .

ومن خاصتها أن البَلَسان لا يعيش إلا بمائها ولا يوجد فى بقعة من بقاع الأرض غير هذه البقعة .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وطول هذه الأرض مِيلٌ فى مِيلٍ، وشأنه أنه يُفْصد فى شهر كيهك من شهور القِبْط، ويجمع ما يسيل من دُهْنه ويصفى ويطبخ ويحمل إلى خِزانة السلطان، ثم ينقل منه قَدْر معلوم إلى قلاع الشام والبيمارستان ليستعمل فى بعض الأدوية؛ وملوك النصارى من الحَبَشة والروم والفرنج يستهدُونه من صاحب مصر ويهادونه بسببه، لما يعتقدونه فيه من أثر المسيح عليه السلام فى البئر، وله عليهم بذلك اليَدُ الطُّولى والمِنَّةُ العظمى، لا يساويه عندهم ذهب ولا جوهر .

قال فى "مسالك الأبصار" : والنصارى كافَّةً تعتقد فيه ماتعتقد، وترى أنه لا يتم تنصُّر نَصْرانِىّ حتّى يوضع شىء من هذا الدهن فى ماء المعمودية عند تغطيسه فيها .

وبها معدن النَّطْرُون، وهو منها فى مكانين .

أحدهما — بِرْكة النَّطْرون التى بالجبل الغربىّ غربىّ عمل البحيرة الآتى ذكره

فى جملة أعمالهـا المســتقرّة ، وهى من أعظم المعادن وأكثرها مُتَحَصِّلًا على حَقَارة النطرون وقلة ثمنه .

قال فى "التعريف" : لا يعرف فى الدنيا بركة صغيرة يُستَغَلّ منها نظيرها، فإنها نحو مائة فَدّانٍ تغل نحو مائة ألف دينار .

والثـانى ـ مكان بالخَطّارة من الشرقية ، ولا يبلغ فى الجَوْدَةِ مبلغ البركة الأولى ، ولا يبلغ فى المُتَحَصِّلِ قريبا من ذلك .

وبها أيضا مَعْدن الشبِّ على القرب مِن أُسْـوان، وهو من المعادن الكثيرة المتحَصِّل أيضا إلى غير ذلك من الخواصّ .

وبها معدن النِّفْطِ على ساحل بحر القُلْزُمِ ، يسيل دهنه من أعلى جَبَلٍ قليلا قليلا وينزل إلى أسفله فيتحصل فى دِبارٍ قد وضعها له الأوّلون، وتأتى العرب فتحمله إلى خزائن السلاح السلطانية .

⁂

وأما عجائبها، فكثيرة .

(منها) جبل الطير شرقىّ النيل مقابل مُنْيَةِ بنى خَصِيبٍ فيه صَدْع يأتى إليه جنس البواقير من الطير، وهو المعروف بالبَحّ فى يومٍ من الســنة فيضعون مناقيرهم فى ذلك الصدع واحدا بعد واحد حتى يتعلق منها واحد فى ذلك الصدع فيتركونه ويذهبون .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : قال أبو بكر الموصلىّ : سمعت من أعيان تلك البلاد أنه إذا كانــ العام مخصبا ، يُقْبَض على طائرين، وإن كان متوسطا، يقبض على طائر واحد، وإن كان جَدْباً، لم يقبض على شىء .

(ومنها) مكان بالجبل الشرقىّ عن النيل، على القرب من أنْصِنا به تلال رمل إذا صُـعِد إلى أعلاها وكسح الرمل إلى أسافلها سمعت له أصوات كالرعد، يســمع من البر الغربىّ من النيل .

وقد أخبرنى بعض أهل تلك البلاد أنه إذا كان الذى صَعِد على ذلك المكان جُنُباً أو كانوا جماعة فيهم جنب، لم يسمع شىء من تلك الأصوات لو كسح الرمل .

(ومنها) مكان بالجبل المذكور على القرب من إِخْمِيمَ به تِلَالُ رمل إذا كسحها الإنسان من أعلى إلى أسفل، عادت إلى ما كانت عليه وآرتفع الرمل من أسفلها إلى أعلاها .

قال فى "الروض المعطار" : وعلى النيل جبل يراه أهل تلك الناحية مَنْ آنتضى سيفَهُ وأولجه فيه وقبض على مَقْبِضه بيديه جميعا، آضطرب السيفُ فى يديه وآرتعد فلا يقدِر على إمساكه ولو كان أشدّ الناس، وإذا حُدّ بحجارة هذا الجبل سِكِّينٌ أو سيف لا يؤثر فيه حديد أبدا، وجذب الإبر والمَسَالّ أشدّ جذبا من المِغْناطيس، ولا يبطل فعلها بالثوم كما يبطل المغناطيس، أما الحجر نفسه فإنه لا يجذب .

قال القُضَاعِىّ : وبجبل زماخير الساحرة يقال إن فيه خِلْقَةً من الجبل ظاهرةً مشرفةً على النيل لا يصل إليها أحد يلوح فيها خط مخلوق "باسمك اللهم" . وعلى القرب من الطُّور عين ماء فى أَجَمَةِ رملٍ ينبُعُ الماء من وسطها فوراتٍ لطيفةً وينبسط ماؤها حولها نحو الذراع، ثم يغوص فى الرمل فلا يظهر له أثر، ولا يعرف أحد إلى أين يذهب، وهى على ذلك مدى الدهور والأيام لا ينقطع نبعها، ولا يجتمع ماؤها فى مكان يدركه البصر، وعجائبها أكثر من أن تذكر .

المقصد الثالث

(فى ذكر نيلها ومبدئه وآنتهائه، وزيادته ونَقْصه، وما تنتهى إليه زيادته، وما تصل إليه فى النقص قاعدتُه)

أما آبتداؤه وآنتهاؤه، فاعلم أن آبتداءه من أوّل الخراب الذى هو جنوبىّ خط الآستواء المقدّم ذكره، ولذلك عَسُرَ الوقوف على حقيقة خبره .

وقد ذكر الحكماء أنه ينحدر من جبل القمر، إما (بفتح القاف والميم كما هو المشهور، وإما بضم القاف وسكون الميم) كما نقله فى "تقويم البُلْدَان" عن ضبط ياقوت فى "المشترك" وآبن سعيد فى "معجمه".

قال فى "رسم المعمور" وطَرَفه الغَرْبىّ عند طول . . . .[1] ونصف وعرض إحدىٰ عشرة ونصف فى الجنوب، وطرفه الشرقىّ حيث الطول إحدىٰ وستون درجةً ونصف والعرض بحاله . قال فى الرسم : ولونه أحمر . وذكر الطوسىّ أنهم شاهدوه علىٰ بُعْدٍ، ولونه أبيض لما غلب عليه من الثلج . وآعترضه فى "تقويم البُلْدان" بأن عرض إحدىٰ عشرة فى غاية الحرارة لا سِيَّما فى الجنوب لحضيض الشمس .

قال بطليموس : والنيل ينحدر من الجبل المذكور من عشرة مَسِيلات، بين كل مسيلين منها درجة فى الطول المقدّم بيانه، والغربىُّ منها، وهو الأوّل عند طلوع ثمان وأربعين درجة، والثانى عند طلوع تسع وأربعين، وعلىٰ ذلك حتّى يكون العاشر منها عند طلوع سبع وخمسين، كل مَسِيل منها نهر، ثم تجتمع العشرة وتصب فى بطيحتين كلُّ خمسةٍ منها تصب فى بَطِيحة، ثم يخرج من كل واحدة من البطيحتين أربعة أنهار، ثم تتفرّع إلىٰ ستة أنهار، وتسير الستة فى جهة الشمال حتّى تصب فى بحيرة مدوّرة عند خط الآستواء تعرف ببحيرة كورى، فيفترق النيل منها ثلاث فِرَق . ففرقة تأخذ شرقا وتذهب إلىٰ مَقْدَشو من بلاد الحبشة المسلمين علىٰ ساحل البحر الهندىّ مقابل بلاد اليمن . وفرقة تأخذ غربا وتذهب إلىٰ التُّكْرُورِ وغانةَ من مملكة مالى من بلاد السُّودان، وتمرّ حتّى تصب فى البحر المحيط الغربىّ عند جزيرة أوليل وتسمّى نيل السودان .

---

(١) بياض فى الأصل .

وفرقة تأخذ شَمَالًا ــ وهى نيل مصر ــ فيمرّ فى الشَّمال علىٰ بلاد زَغَاوَةَ، وهى أوّل مايلقىٰ من بلاد السودان .

ثم يمرّ علىٰ بلاد النُّوبة حتّى ينتهى إلىٰ مدينتها دُنْقُلَةَ الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ ممالك السُّودان .

ثم يمرّ شَمَالا بميلة إلىٰ الغرب إلىٰ طول إحدىٰ وخمسين، وعرض سبع عشرة علىٰ حاله .

ثم يمرّ مغرّبا بميلة قليلة إلىٰ الشَّمال إلىٰ طول آثنتين وثلاثين، وعرض تسع عشرة .

ثم يرجع مُشَرِّقًا إلىٰ طول إحدىٰ وخمسين .

ثم يمرّ فى الشمال إلىٰ الجَنَادِلِ : وهو الجبل الذى ينحدر عليه النيل بين منتهىٰ مراكب النُّوبة فى آنحدارها ومراكب مصر فى صُعُودها ، حيث الطول ست وخمسون درجة، والعرضُ آثنتان وعشرون درجة .

ثم يمرّ شَمَالا إلىٰ مدينة أُسْوان الآتى ذكرها فى أعمال الدّيار المصرية علىٰ القرب من الجنادل المقدّمة الذكر .

ويمرّ شَمَالا بميلة إلىٰ الغرب إلىٰ طول ثلاث وخمسين، وعرض أربع وعشرين .

ثم يُشَرِّقُ إلىٰ طول خمس وخمسين .

ثم يأخذ فى الشمال حتّى ينتهىَ إلىٰ مدينة الفُسْطَاط الآتى ذكرها فى قواعد مصر المستقرّة .

ويمتدّ فى جهة الشَّمال أيضا حتّى يصير بالقرب من قرية تسمّى شَطَّنَوْف[1] من قرىٰ مصر، من عمل مَنُوف فيفترق بفرقتين : فرقة شرقية وفرقة غربية . فأما الفرقة الشرقية، فتمرّ فى الشَّمال حتّى تأتى علىٰ قرية تسمّى المنصورة من عمل المُرْتاحية،

(١) كذا ضبطه ياقوت بالعبارة . وقال فى القاموس " شَطَنُوف كَحَلَزُون " .

فتتشعب شُـعْبتين وتمرّ الغربية منهما، وهى العظمىٰ إلىٰ دميـاط من شرقيّها، وتصب فى بحر الروم حيث الطول ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة، والعرض إحدىٰ وثلاثون وخمس وعشرون دقيقة، وتمرّ الشرقية منهما علىٰ أُشْمُوم طَنَاح، من غربيها حتّىٰ تجاوز بلاد المَنْزِلَة، وتصب فى بحيرة شرقىّ دِمْياط حتّىٰ بحيرة تِنِّيس حيث الطول أربع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة .

وأما الفِرقة الغربية، فتمرّ من شَطَّنُوف المقدّم ذكرها حتّىٰ تأتى بالقرب من قرية تسمى بأبى نُشَّابَةَ من عمل البحيرة، فتتشعب شعبتين، الغربية منهما، وهى العظمىٰ تأخذ شمالا بين عمل البحيرة من شرقيها وبين جزيرة بنى نصر من غربيها، والشرقية تأخذ شمـالا أيضا بين جزيرة بنى نصر من شرقيها، وبين عمل الغربية من غربيها . ويسمّىٰ هـذا البحر بحر أَبيار، ويمرّ حتّىٰ يلتقىَ مع الفِرقة الغربية عند قرية تسمّىٰ الفَرَسْـتَق من الغربية بالقرب من مدينة أَبْيـار المنسوب إليها البحر المقدّم ذكره، ويصـير شعبة واحدة ويمرّ حتّىٰ يصب فى البحر الرومىّ غربىّ قرية تسمّىٰ رشيد حيث الطول ثلاث وخمسون، والعرض إحدىٰ وثلاثون .

ومن هذه الفرقة يتفرّع خليج صغير يدخل إلىٰ بُحَيرة نَسْتَرُوه[(١)] الآتى ذكرها فى جملة البحيرات، ويتفرّع من كل فرقة من هـذه الفرق وما يليها من أعلىٰ النيل خُلْجانٌ يأتى ذكر المشهور منها فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وأما زيادته ونقصـه، فقد ٱختلف فى مَدَد زيادته : فنقل المسعودىّ عن العرب أنه يستـمدّ من الأنهـار والعيون . ولذلك تَنِيض الأنهـار والعيون عنـد زيادته . وإذا غاض زادت، ويؤيده ما روىٰ القضاعىّ بسـنده إلىٰ عبد الله بن عمرو بن العـاص أنه قال : "إنَّ نيل مصر سـيدُ الأنهار، سخر الله له كلّ نهر بين

(١) كذا ضبطها المؤلف فيما يأتى وألحق بها الهـاء، وكذلك ياقوت إلا أنه حذف منها الهـاء : نَسْتَرُو .

المشرق والمغرب أن يُمِدّه، فأمدّته الأنهار بمائها، وفجّر الله له الأرض عيونا فانتهى جريُه إلى ما أراد الله، فأوحى الله إلى كل منها أن يرجع إلى عُنْصُره".

ويقال عن أهل الهند زيادته ونقصه بالسيول، ويعرف ذلك بتوالى الأنواء وكثرة الأمطار، ورُكود السحاب.

وقالت القِبْطُ: زيادته من عيون فى شاطئه رآها مَنْ سافر ولَحِق بأعاليه، ويؤيده ماروواه القضاعى بسنده إلى يزيد بن أبى حبيب "أن معاوية بنَ أبى سفيان رضى الله عنه قال لكعب الأحبار: أسألك بالله! هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله عز وجل خبرا؟ قال: إى والله! إن الله عز وجل يُوحِى إليه فى كل عام مرتين، يوحى إليه عند خروجه، فيقول: إن الله يأمرك أن تجرىَ، فيجرى ما كتب الله له، ثم يُوحى إليه بعد ذلك، فيقول: يانيلُ إن الله يأمرك أن تنزلَ، فينزل". ولا شك أن جميع الأقوال المتقدّمة فرع لهذا القول، وهو أصل لجميعها.

وبكل حال فإنه يبدأ بالزيادة فى الخامس من بُؤُونه من شهور القِبْط. وفى ليلة الثانى عشر منه يوزن الطِّين، ويعتبر به زيادة النيل بما أجرى الله تعالى العادة به، بأن يوزن من الطين الجافّ الذى يعلوه ماء النيل زنة ستة عشر درهما على التحرير، ويرفع فى ورقة أونحوها ويوضع فى صُنْدُوقٍ أو غير ذلك، ثم يوزن عند طلوع الشمس، فمهما زاد آعتبرت زيادته كل حبة خروب بزيادة ذراع على الستة عشر درهما.

وفى السادس والعشرين منه يُؤخذ قاع البحر وتقاس عليه قاعدة المقياس التى تبنى عليها الزيادة.

وفى السابع والعشرين ينادى عليه بالزيادة، ويحسب كل ذراع ثمانية وعشرين أصبعا إلى أن يكمل آثنى عشر ذراعا، فيحسب كل ذراع أربعا وعشرين أصبعا، فإذا وفّى ستة عشر ذراعا، وهو المعبر عنه بماء السلطان، كسر خليج القاهرة،

وهو يوم مشهود ، ومَوْسِمٌ معدود؛ ليس له نظير فى الدّنيا ؛ وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل إلىٰ سائر أقطار المملكة، وتسير بها البُرُدُ، ويكون وفاؤه فى الغالب فى مسرىٰ من شهور القِبْط، وفيها جُلُّ زيادته .

وفى النيروز، وهو أوّل يوم من توت يكثر قطع الخُلْجَانِ والتُّرَع عليه ، وربما آضطرب لذلك ثم عاد .

وفى عيد الصليب ، وهو السابع عشر من توت المذكور يقطع عليه غالب بقية التُّرع .

وقد حكىٰ القُضَاعِىّ عن آبن عفير وغيره عن القِبْطِ المتقدّمين أنه إذا كان الماء فى آثنى عشر يوما من مسرىٰ آثنى عشر ذراعا ، فهى سَنَةُ ماء ، وإلا فالماء ناقص، وإذا تَمَّ الماء ستة عشر ذراعا قبل النوروز فالماء يتم ، ثم غالب وفائه يكون فى النصف الأوّل من مسرىٰ ، وربما وفىٰ فى النصف الثانى منها ، وقد يتأخر عن ذلك .

وفى الثامن من بابه يكون نهاية زيادته .

ورأيت فى "تاريخ النيل" أنه تأخر وفاؤه فى سنة ثمان وسبعمائة إلىٰ تاسع عشر بابه فوفىٰ ستة عشر ذراعا، وزاد أصبعين بعد ذلك فى يومين : كل يوم أصبع بعد أن آستسقىٰ الناس أربع مرات، وهذا مما لم نسمع بمثله فى دهر من الدّهور .

وقد جَرَتْ عادتُه أنه من حين آبتداءِ النداءِ بزيادته فى السابع والعشرين من بؤونه إلىٰ آخر أبيب تكون زيادته خفيفة ما بين أصبعين فما حولها إلىٰ نحو العشرة، وربما زاد علىٰ ذلك . فإذا دخلتْ مسرىٰ، آشتدّت زيادته وقويت، فيزيد العشرة فما فوقها، وربما زاد دون ذلك . وأعظم ما تكون زيادته علىٰ القرب من الوفاء حتىٰ ربما بلغ سبعين أصبعا .

ومن العجيب أنه يزيد فى يوم الوفاء سبعين أُصْبُعًا مثلا، ثم يزيد فى صبيحة يوم الوفاء أصبعين فما حولها، ويتم علىٰ ذلك . وله فى آخر بابه زيادة قليـلة يعبر عنها بصَبَةِ بابه لما يَنْصَبُّ إلىٰ النيل من ماء الأملاق .

وقد ذكر عبـد الرحمن بن عبد الله بن الحَكَم وغيره أنه لما فتح المسلمون مصر أتىٰ أهلُها إلىٰ عمرو بن العاص حين دخل شهر بـؤونه، فقالوا : أيُّها الأمير إن لِنيلنا هذا سُنَّةً لايجرى إلا بها، وهو أنه إذا كان آثنا عشر من هذا الشهر عمدنا إلىٰ جاريةٍ بِكْرٍ من أبويها فأرضيناهما فيها، وزيناها بأفضل الزينة، وألقيناها فيـه . فقال : هـذا مما لا يكون فى الإسلام، فأقاموا أبيب ومسرىٰ وهو لا يزيد قليلا ولا كثيرا . فلما رأىٰ عمرو ذلك كتب إلىٰ أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنه يعرّفه ذلك ، فكتب إليـه أن أصبت ، وكتب رُقْعَـةً إلىٰ النيل فيها " من عَبْدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلىٰ نيل مصر .

أما بعدُ، فإن كنتَ تجرى من قِبَلِكَ، فلا تَجْرِ ؛ و إن كان الله الواحدُ القهَّارُ الذى يُجْرِيكَ، فنسأل الله أن يُجْرِيَكَ " .

و بعث بها إليه ، فألقاها فى النيل ، وقد تهيأ أهل مصر للخروج منهـا ، فأصبحوا يوم الصليب، وقد بلغ فى ذلك اليوم ستة عشر ذراعا .

و يروىٰ أنه وقع مثـل ذلك فى زمن موسىٰ عليه السـلام ، وهو أنّ موسىٰ عليه السلام دعا علىٰ آل فِرْعَوْنَ، فحبس الله عنهم النيل حتّٰى أرادوا الجَلَاء، فَرَغِبوا إلىٰ موسىٰ فدعا لهم بإجراء النيل رجاء أن يؤمنوا، فأصبحوا وقد أجراه الله فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا .

ورأيت فى "تاريخ النيل" المتقدّم ذكره : أنه فى زمن المستنصر أحَدِ خلفاء الفاطميين

بمصر مكث النيــل سنتين لم يطْلُع ،وطلع فى السنة الثالثة وأقام إلىٰ الخامسة لم ينزل، ثم نزل فى وقتــه ونَضَب المـاء عن الأرض، فلم يوجد من يزرعها لقــلة النـاس؛ ثم طلع فى السنة السادسة وأقام حتّى فرغت السابعة، ولم يبق إلا صُبَابة من الناس، ولم يبق فى الأقاليم مايمشى علىٰ أربع غير حمار يركبه الخليفة المستنصر،وأنه وفّى ست عشرة ذراعا (١) فى ليلة واحدة بعــد أن كان يخاض من بَرّ إلىٰ بَرّ؛ وأقل ما آنتهىٰ إليه قاع النيل فى النقص ذراع واحد وعشرة أصابع، ووقع ذلك من سنة الهجرة وإلىٰ آخر الثمانمـائة مرتين فقط : المرّة الأولىٰ ـ فى سنة خمس وستين ومائة من الهجرة. وبلغ النيل فيها أربع عشرة ذراعا وأربعة عشر أصبعا . والمرّة الثانية ـ فى سنة خمس وثمـانين وأربعمائة . وبلغ فيها سبع عشرة ذراعا وخمسة أصابع .

وقد وقع مثــل ذلك فى زماننـا ، فى سنة ست وثمـانمـائة . وأغيىٰ ما آنتهىٰ إليــه القاعُ فى الزيادة ممـا رأيتُه مسطورا إلىٰ آخر ســنة خمس وعشرين وسبعمائة تسعة أذرع . وسمعت بعض الناس يقول إنه فى ســنة خمس وستين وسبعمائة كان القاع آثنتى عشرة ذراعا .

وأقل ما بلغ النقص فى نهاية الزيادة آثنا عشر ذراعا وأصــبعان . وذلك فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة،وأغيىٰ ما كان ينتهى إليه فى الزمن المتقدّم ثمانية عشر ذراعا حتّى تعجب النـاس من نيل بلغ تسع عشرة ذراعا فى زمن عمر بن عبد العزيز، ثم آنتهىٰ فى المـائة السابعة إلىٰ أن صار يجاوز العشرين فى بعض الأحيان .

ومن العجيب أنه فى ســنة تسع وســبعين وثلثمائة كان القــاع علىٰ تسع أذرع، ولم يُوفِ بل بلغ خمس عشرة ذراعا وخمس أصابع ؛ وفى سنين كثيرة كان القاع فيها

(١) الذراع والاصبع يذكران و يؤنثان وقد جريا فى كلامه تارة بالتذكير وتارة بالتأنيث وكل صحيح .

دون الذراعين ، وجاوز الوفاء إلى ثمانى عشرة ذراعا فما دونها . ولا عبرة بقول المسعودى فى "مروج الذهب" إن أقلّ مايكون القاع ثلاثة أذرع ، وإنه فى مثل تلك السنة يكون متقاصرا . فقد تقدم ما يخالف ذلك ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ .

قلت : وقد جرت عادة صاحب المقياس ، أنه يعتبر قياسه زمن الزيادة فى كل يوم وقت العصر، ثم ينادى عليه من الغَدِ بتلك الزيادة أصابعَ من غير تصريح بذَرْع إلا أنه يكتب فى كل يوم رقاعا لأعيان الدّولة من أرباب السيوف والأقلام ، كأرباب الوظائف من الأمراء، وقضاة القضاة من المذاهب الأربعة، وكاتب السرّ، وناظر الخاصّ ، وناظر الجيش ، والمحتسب ، ومَنْ فى معناهم ؛ فيذكر زيادته فى ذلك اليوم من الشهر العربىّ وموافقه من القِبْطِىّ من الأصابع وما صار إليه من الأذرع ويذكر بعد ذلك ما كانت زيادته فى العام الماضى فى ذلك اليوم من الأصابع وما صار إليه من الأذرع والبعادة بينهما بزيادة أو نقص ، ولا يُطْلِع على ذلك عوامّ الناس ورَعَاعَهم ؛ فإذا وفّى ستة عشر ذراعا صرح فى المناداة فى كل يوم بما زاد من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويصير ذلك مشاعا عند كل أحد .

وأما مقاييسه ، فقد ذكر إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب "العجائب" أن أوّل من وضع مقياسا للنيل (خصليم) السابع من ملوك مصر بعد الطوفان : صنع بركة لطيفة وركب عليها صورتى عُقَابٍ من نُحَاسٍ : ذكر وأنثى ، يجتمع عندها كهنتهم وعلماؤهم فى يوم مخصوص من السنة ، ويتكلمون بكلام فيصَفِّر أحد العقابين . فإن صفر الذكر آستبشروا بزيادة النيل . وإن صفَّرت الأنثى آستشعروا عدم زيادته فهيَّئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة .

قال المسعودى : وقد سمعتُ جماعة من أهل الخبرة يقولون : إن يوسفَ عليه السلام حين بنىٰ الأهرام ٱتخذ مقياسا لمعرفة زيادة النيل ونقصانه .

قال القضاعىّ : وذلك بمدينة مَنْف ، وقيل : إن النيل كان يقاس بأرض يقال لهـا علوة إلىٰ أن بنى مقياس مَنف ، وان القِبْط كانت تقيس عليه إلىٰ أن بطل .

قلت : وموضع المقياس بِمَنف إلىٰ الآن معروف علىٰ القرب من الأهراء اليوسفية من جهة البلدة المعروفة بالبَدْرَشين ، وقيل كانوا يقيسونه بالرصاصة .

قال المسعودىّ : ووَضَعت دَلُوكة العجوز ملكة مصر بعد فرعون مقياسا بأَنْصِنَا صغير الأذرع ، ووضعت مقياسا آخر بإخْمِيمَ ، ووضعت الرُّومُ مقياسا بقَصْرِ الشَّمع .

قال القضاعىّ : وكان المقياس قبـل الفتح بقَيْسارية الأكسية بالفُسْطَاطِ إلىٰ أن ٱبتنىٰ المسلمون أبنيتهم بين الحصن والبحر ، ثم جاء الإسـلام وفتحت مصر والمقياس بِمَنْف .

كان النيل يقاس بمنف ويدخل القيّاس إلىٰ الفسطاط فينادى به ، ثم بنىٰ عمرو بن العاص مقياسا باسوان ، ثم بنىٰ مقياسا بدَنْدَرَةَ ، ثم بنىٰ فى أيام معاوية مقياسا بأَنْصِنَا .

فلمـا ولى عبد العزيز بن مَرْوَانَ مصر ، بنىٰ مقياسا صـغير الاذرع بحُلْوَانَ من ضواحى الفُسْطَاطِ ، ثم لمـا ولى أسَامَةُ بن زيد التَّنُوخىّ بنىٰ مقياسا فى جزيرة الصِّنَاعة المعروفة الآن بالرَّوْضَةِ بأمر سليمان بن عبد الملك : أحد خلفاء بنى أُمَيَّة سـنة سبع وتسـعين من الهجرة ، وهو أكبرها ذَرْعا ، ثم بنىٰ المأمون (١) مقياسا أسـفل الأرض بالجزيرة المذكورة فى سـنة سبع وأربعين ومائتين فى ولاية يزيد بن عبد الملك (٢) علىٰ مصر ، وهو المعمول عليه إلىٰ زماننا هذا .

(١) صوابه المتوكل كما هى عبارة المقريزى و ياقوت .

(٢) صوابه يزيد بن عبد الله التركى كما فى المقريزى .

وكانت النصارىٰ تتولّىٰ قياسه فعزلهم المتوكل عنه ورَتَّب فيه أبا الرّدّاد عبدَ الله بن عبد السلام بن أبى الرّدّاد المؤدّب، وكان رجلا صالحا، فٱستقرّ قياسه فى بَنِيهِ إلىٰ الآن؛ ثم أصلحه أحمد بن طولون فى سنة تسع وخمسين ومائتين .

ثم كل ذراع يعتبر بثمانية وعشرين أصبعا إلىٰ تمام ٱثنتى عشرة ذراعا، ثم يكون كل ذراع أربعةً وعشرين أصبعا ، فلما أرادوا وضعه علىٰ ستة عشر ذراعا ، وزعوا الذراعين الزائدين، وهما ثمانية وأربعون أصبعا علىٰ ٱثنى عشر ذراعا لكل ذراع منها أربعة أصابع ،فصار كل ذراع ثمانية وعشرين أصبعا ،وبقى الزائد علىٰ ذلك كل ذراع أربعة وعشرون أصبعا .

قال القضاعىّ : وكان سبب ذلك فيما ذكره الحسين[1] بن محمد بن عبد المنعم فى رسالة له أن المسلمين لما فتحوا مصر عرض علىٰ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يلقاه أهلها من الغلاء عند وقوف النيل فى حدّ لمقياس لهم فضلا عن تقاصره ، ويدعوهم ذلك إلىٰ الاحتكار، والاحتكار يدعوهم إلىٰ زيادة الأسعار ، فكتب عمر إلىٰ عمرو ٱبن العاص يسأله عن حقيقة ذلك، فأجابه : إنى وجدت ما تروىٰ به مصر حتّىٰ لا يَقْحَط أهلها أربع عشرة ذراعا،والحدّ الذى يروىٰ منه سائرها حتّىٰ يفْضُل عن حاجتهم ويبقىٰ عندهم قوت سنة أخرىٰ ست عشرة ذراعا، والنهايتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان : فى الظمإ والاستبحار، ٱثنتا عشرة ذراعا فى النقصان وثمانى عشرة ذراعا فى الزيادة .فٱستشار عمر رضى الله عنه علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه فى ذلك ، فأشار بأن يكتب إليه أن يبنى مقياسا ، وأن يَفُضّ ذراعين علىٰ ٱثنتى عشرة ذراعا، ويبقى مابعدهما علىٰ الأصل .

---

(١) فى الخطط للقريزى "الحسن" .

قال القضاعىّ : وفى هذا نظر فى وقتنا لزيادة فساد الأنهار، وآنتقاض الأحوال، وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية من أوّلها إلىٰ آخرها أربعة وعشرون أصبعا كل ذراع بغير زيادة علىٰ ذلك .

قال المسعودىّ : فإذا تم النيل خمس عشرة ذراعا، ودخل فى ست عشرة، كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يُسْتَسْقىٰ فيه، وكان فيه نقص من خراج السلطان . وإذا آنتهت الزيادة إلىٰ ستة عشر ذراعا، ففيه تمام خراج السلطان وأخصبَ الناسُ، وفيه ظمأ ربع البلد، وهو ضارّ للبهائم لعدم المرعىٰ .

قال : وأتم الزيادات العامة النافعة للبلد كله سبع عشرة ذراعا ، وذلك كفَافُها ورَيُّ جميع أرضها . وإذا زاد علىٰ السبع عشرة ذراعا وبلغ ثمانى عشرة، آستبحر من مصر الربع، وفى ذلك ضرر لبعض الضِّياع . قال : وذلك أكثر الزيادات .

قلت : هذا ما كان عليه الحال فى زمانه وما قبله وكان الحال جاريا علىٰ ماذكره فى غالب السنين إلىٰ ما بعد السبعمائة .

أما فى زماننا، فقد عَلَتِ الأرض مما يرسب عليها من الطين المحمول مع الماء فى كل سنة وضَعُفت الجسور، وصار النيل بحكمة الله تعالىٰ إلىٰ ثلاثة أقسام : متقاصرة وهى ست عشرة ذراعا فما حولها؛ ومتوسطة وهى سبع عشرة ذراعا إلىٰ ثمان عشرة ذراعا فما حولها؛ وعالية وهى مافوق الثمان عشرة، وربما زادت علىٰ العشرين .

المقصـــد الرابع فى ذكر خُلْجَانها،

(وخلجانها القديمة ستة خُلُجٍ)

الخليج الأوّل

(المَنْهَى)

وهو الخليج الذى حفره "يوسف الصدّيق عليه السلام" ومَخْرَجه بالقرب من دَرْوَة سَرَبَام، من عمل الأُشْمُونِين الآتى ذكرها، وهى المعروفة بِدَرْوَةِ الشَّرِيف، ويأخذ شَمالا إلىٰ مدينة البهنسىٰ، ثم إلىٰ قرية اللَّاهُون من عمل البهنسىٰ، ويمرّ فى الجبل حتّىٰ يجاوزه إلىٰ إقليم الفَيُّوم، ويمرّ بمدينته وينبثُّ فى نواحيه.

وهذا النهر من غرائب أنهار الدنيا تجِفُّ فُوَّهته فى أيام نقص النيل، وباقيه يجرى فى موضع ويجف فى آخر إلىٰ إقليم الفَيُّوم، فيجرى شتاءً وصيفًا من أعين تتفجر منه ولا يحتاج إلىٰ حفرٍ قطُّ.

ويقال: إن "يوسفَ عليه السلام" حفره بالوَحْىِ ومياهه منقسمة علىٰ آستحقاق مقدّرٍ، كما فى دِمَشْقَ من البلاد الشامية.

قال فى "الروض المعطار": وكانت مَقَاسِمُه بحجر اللَّاهُون علىٰ القرب من القرية المنسوبة إليه المتقدّمة الذكر. قال: وهو من عجائب الدّنيا، وهو شاذَرْوان بين قبتين من أحكم صنعة، مُدَرّج علىٰ ستين درجة، فيها فوارات فى أعلاها وفى وسطها وفى أسفلها، يسقى الأعلىٰ الأرضَ العُلْيَا، والأوسطُ الأرضَ الوُسْطىٰ، والأسفل الأرضَ السُّفْلىٰ بوزن وقدر معلوم.

قال: ويقال إن يوسف عليه السلام عمله بالوحى، وإن مَلِكَ مِصْرَ يومئذ لما عاينه قال هذا من مَلَكُوت السماء.

ويقال إنه عمل من الفضّــة والنحاس والرخام . قلت : قد ذهبت معالم هذا اللاهون وبقى بعض بنائه ونُقِلت المقاسم إلىٰ مكان آخر بالفيوم تسقى الآن الأراضى علىٰ حكمها .

ومن غرائب أمره أن به التمـاسيحَ التى لا تحصىٰ كثرةً ، ولم يشتهر فى زمن من الأزمان أنها آذتْ أحدا قطُّ .

الخليج الثـانى

(خليج القاهرة الذى يكسر سدّه يومَ وفاء النيل)

حفره عمرو بن العاص وهو أمير مصر، فى خلافة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه .

قال القضاعىّ : أمر بحفره عام الرَّمادة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وساقه إلىٰ بحر القُلْزُم، فلم يتم عليــه الحول حتّى جرَتْ فيــه السفن وحمل فيها الزاد والأطعمة إلىٰ مكّةَ والمدينةِ، ونفع الله بذلك أهلَ الحجاز .

وذكر الكِنْدىّ فى كتاب "الجند العربى" أن حفره كان سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، وفرغ منه فى ســتة أشهر ، وجرت فيــه السفن ووصلت إلىٰ الحجـاز فى الشهر السابع .

قال الكِنْدِىّ : ولم يزل يحمل فيه الطعام حتّى حَمَلَ فيه عمر بن عبد العزيز ، ثم أضاعتــه الوُلاة فترك وغلب عليــه الرمل ، وصار منتهاه إلىٰ ذنَب التمساح من ناحية الطُّور والقُلْزُم .

وذكر ابن قديد : أن أبا جعفر المنصور أمر بسدّه حين خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب ليقطع عنه الطعام .

ولم يكن عليه قنطرة إلى أن بنى عليه عبد العزيز بن مَرْوَانَ قنطرة فى سنة تسع (١) ...
وقد ذكر المسعودىّ فى " مروج الذهب " أنه ٱنقطع جريان هذا الخليج (٢) عن الإسكندرية إلى سنة ٱثنتين وثلاثين وثلثمائة لردم جميعها وصار شرب أهلها من الآبار .

قال ٱبن عبد الظاهر : وليس لها أثر فى هذا الزمان . قال : وإنما بنى السلطان الملك الصالح أيوب ٱبن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب هاتين القنطرتين الموجودتين الآن على بستان الخشاب وباب الخرق ، يعنى قنطرة السدّ وقنطرة باب الخرق فى سنة نيف وأربعين وستمائة .

وذكر فى موضع آخر من خِطَطه أن القنطرة التى عليه خارجَ باب القنطرة بناها القائد جوهر سنة ستين وثلثمائة ، وقنطرة اللؤلؤة — وهى التى كانت بالقرب من مَيْدان القمح ، وبعضها باق إلى الآن — من بناء الفاطميين أيضا ، واللؤلؤة التى تنسب هذه القنطرة إليها مَنْظَرة على برّ الخليج القبلىّ ، بناها الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمىّ ، كانت مستنزها لخلفاء الفاطميين ينزلون فيها فى أيام النيل ويقيمون بها إلى آخر النيل .

قلت : أما باقى القناطر التى على هذا الخليج : كقنطرة عمر شاه ، وقنطرة سنقر ، وقنطرة أمير حسين ، فكلها مستحدَثة فى الدولة التركية ، وغالبها فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون .

قال ٱبن أبى المنصور فى " تاريخه " : وأول من رتب حفره على الناس المأمونُ ٱبن البطائحىّ ، وكذلك البساتين فى دولة الأفضل ، وجعل عليه واليا بمفرده .

---

(١) لعله تسع وستين فان ٱبتداء ولايته لمصر فى خمس وستين .

(٢) هذه الفقرة غير مناسبة هنا وقد ذكرها قريبا بلفظها فى الكلام على خليج الاسكندرية فتنبه .

الخليج الثـالث
(خليج السَّـــرْدُوس)

ويقال السَّرْدُوسىّ بزيادة ياء فى آخره، وهو الذى حفره هامانُ لفرعون .

قال ابن الأثير فى "عجـائب المخلوقات" : ويقـال : إنه لمـا حفره سأله أهل البلاد أن يجريه إليهم علىٰ أن يجعـلوا له علىٰ ذلك مالا ، فتحصل له من ذلك مائة ألف دينار فحملها إلىٰ فرعون، فقال : ويحك ! إنه ينبغى للسـيد أن يعطف علىٰ عبيده ولا ينظر إلىٰ مافى أيديهم، وأمر بردّ المـال إلىٰ أربابه .

قال : وكان هـذا الخليج أحد نزهات الدّنيا يُسار فيه يوما بين بساتينَ مشتبكة وأشجار مُلْتفَّةٍ وفواكه دانية . قلت : أما الآن فقـد ذهب ذلك ، وبطل الخليج وعوّض عنه بحر أبى المنجا الآتى ذكره .

الخليج الرابع
(خليج الإسكندرية)

وهو خليج مخرجه من الفرقة الغربية من النيل عنـد قرية تسمّى العَطْف تُقَابِلُ فُوَّة، مدينةِ المزاحمتين، ويميل غربا حتّى يتصل بجُدْران الإسكندرية، وتدخل منه قناةٌ تحت الأرض إلىٰ داخلها ، ويتشعب منها شُعَبٌ كثيرة تدخل دُورَها، وتخرج من دار إلىٰ أخرىٰ، ويخالط آبارها فيحلو ماؤها وتملأ منها صهاريجها حينئذ فتمكث من السنة إلىٰ السنة .

وكانت فُوَّهَةُ هذا الخليج فيما تقدّم جنوبىّ فُوَّهته الآن عندقرية تسمّى الظاهرية من عمل البُحيْرَةِ ، وكان يمرّ علىٰ دَمَنْهور مدينـة البحيرة ، ثم نقل إلىٰ مكانه الآن، ويقال إن أرضه فى القديم كانت مفروشة بالبلاط .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وهو من أحسن المنتزهات لأنه مخضرّ الجانبين بالبساتين، وفيه يقول ظافر الحدّاد الشاعر السكندرىّ :

وعَشِيَّةٍ أهدَتْ لِعَيْنِكَ مَنْظَرًا * جَاءَ السُّرُورُ بِهِ لقَلْبِكَ وَافِدَا
رَوْضٌ كَمُخْضَرِّ العِذَارِ وجَدْوَلٌ * نَقَشَتْ عَلَيْهِ يَدُ الشَّمَالِ مبَارِدَا
والنَّخْلُ كالغِيدِ الحِسَانِ تَزَيَّنَتْ * ولَبِسْنَ مِنْ أَثْمَارِهِنَّ قَلَائِدَا

وقد ذكر المسعودىّ فى "مروج الذهب" : أنه ٱنقطع جَرَيان هذا الخليج عن الإسكندرية إلىٰ سنة ٱثنتين وثلاثين وثلثمائة لردم جميعها، وصار شرب أهلها من الآبار .

الخليج الخامس

(خليج منجا)

ويقال إن الذى حفره بَرْصا : أحد ملوك مصر بعد الطوفان .

الخليج السادس

(خليج دِمْياط)

ولم أقف علىٰ تفاصيل أحواله .

أما بحر أبى المنجا، فإنه وإن عظم شأنه مستحدَث حفره الأفضل بن أمير الجيوش وزير المستعلى بالله الفاطمىّ .

قال ٱبن أبى المنصور فى "تاريخه" : وكان سبب حفره أن البلاد الشرقية كانت جارية فى ديوان الخلافة، وكان معظمها لا يروىٰ فى أكثر السنين ولا يصل الماء إليها إلا من خليج السَّرْدوس المتقدّم ذكره أو من غيره من الأماكن البعيدة .

وكان يشارف العمل يهودىٌّ ٱسمه أبو المنجا فرغب أهل البلاد إليه فى فتح ترعة يصل الماء منها إليهم فى ٱبتدائه فرفع الأمر إلىٰ الأفضل، فركب فى النيل فى ٱبتدائه فى مركب ورمىٰ بحُزَمٍ من البُوصِ فى النيل وجعل يتبعها بمركبه إلىٰ أن رماها النيل إلىٰ فَم ذلك البحر فحفر من هناك ، وٱبتدأ حفره يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ست وخمسمائة، وأقام الحفر فيه سنتين وغُرِمَ فيه مال كثير . وكان فى كل سنة تظهر فائدته ، ويتضاعف ٱرتفاع البلاد التى تحته ، وغلب عليه إضافته إلىٰ أبى المنجا لتكلمه فيه . فلما عرض علىٰ الأفضل ما صرف عليه ٱستعظمه وقال غَرِمنا عليه هذا المال العظيم والآسم لأبى المنجا ، فسماه البحر الأفضلىّ فلم يتم له ذلك ولم يعرف إلا بأبى المنجا ، ثم سطى بأبى المنجا المذكور بعد ذلك ونُفِى إلىٰ الإسكندرية . ولما ولى المأمون بن البطائحى الوزارة تحدّث معه الأمراء فى أن يتخذ لفتحه يوما كفتح خليج القاهرة، فٱبتنىٰ عند سدّه منظرة متسعة ينزل فيها عند فتحه .

قلت : وكانت فيه معدّية يعدّى فيها بين قليوب و بيسوس،وكان يحصل للناس بها مشقة عظيمة لكثرة المارّين، فعمر عليها الظاهر بيبرس رحمه الله قنطرةً عظيمة بحجر صَلْد، من غرائب البناء، تمرّ عليها الناس والدّواب، فحصل للناس بها الآرتفاق العظيم، وهى باقية علىٰ جِدَّتِها إلىٰ زماننا .

وكان سدّه يقطع فى عيد الصليب فى سابع عشر توت ، ثم ٱستقرّ الحال علىٰ أن يقطع يوم النَّوْروز فى أول يوم من توت حرصا علىٰ رىّ البلاد .

وأما بقية خُلُجِ الدّيار المصرية المستحدثة وتُرَعها بالوجهين : القبلىّ والبحرىّ، فأكثر من أن تحصر، ولكل منها زمن معروف يقطع فيه .

المقصـــــــد الخامس

(فى ذكر بُحَيرات الديار المصرية ، وهى أربع بحيرات)

الأولىٰ منها — بُحَيْرَةُ الفَيُّوم ، ويُعَبَّر عنها بالبِرْكة ، وهى بُحيرةٌ حُلْوَةٌ بالقرب من الفيوم بين الشمال والغرب عنه ، علىٰ نحونصف يوم ، يصب فيها فضلات مائه المنصب إليه من خليجه المَنْهىٰ المتقدّم ذكره ، وليس لها مَصْرِفٌ تنصرف إليه لإحاطة الجبل بها ، ولذلك غلبت علىٰ كثير من قرىٰ الفَيُّوم وعلا ماؤها علىٰ أرضها .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وطولها شرقا بغرب نحو يوم ، وبها أسماك كثيرة تحصل من صيدها جملةٌ كثيرةٌ من المال ، وبها من آجام القَصَب والطَّرْفاء والبَرْدىّ ما يتحصل منه المال الكثير .

الثانية — بحيرة بُوقِيرَ (بضم الباء المُوَحَّدَةِ وسكون الواو وكسر القاف وسكون الياء المثناة تحتُ وراء مهملة فى الآخر) وهى بُحَيْرَةُ ماء مِلْحٍ يخرج من البحر الرومىّ بين الإسكندرية ورشيد ، ولها خليج صغير مشتق من خليج الإسكندرية المتقدّم ذكره ، يأتيها ماء النيل منه عند زيادته ، وبها من صيد السمك ما يتحصل منه المال الكثير ، وفيها من أنواع الطير كلُّ غريب ، وبجوانبها المَلَّاحَاتُ الكثيرة التى يحمل منها المِلْحُ إلىٰ بلاد الفرنج وغيرها .

قلت : وقد وقع للسلطان عماد الدّين صاحب حماة رحمه الله وَهَمٌ بجعل هذه البحيرة هى بحيرة نَسْتَرُوه الآتى ذكرها ، علىٰ أن هذه البحيرة قد انقطع مَدَدها من البحر الملح فى زماننا بواسطة غَلَبَةِ الرمل علىٰ أَشْتُونها الموصل إليها الماء من بحر الروم فجفَّت وصارت سبخة طويلة عريضة ، ومات ما كان يصاد منها من السمك البُورِىّ ، وما يتحصل منها من المِلْحِ المنعقد بسواحلها ، وعاد علىٰ الإسكندرية

بواسطة ذلك ضرر كبير لأنه كان الغالب علىٰ أهلها أكل السمك ويحصل لهم بالملح رفق كبير .

الثـالثة ـ بُحَيْرَة نَسْتَرُوه (بفتح النون وسكون الســين المهملة وفتح التاء المثناة فوقُ وضم الراء المهــملة وسكون الواو وهاء فى الآخر) وهى بحــيرة ماء مِلْح أيضــا بالقرب من البَرَلُّس فى آخر بلاد الأعمــال الغربية الآتى ذكرها، متســعة الأرجاء إذا توسطها المركب لا تُرىٰ جوانبها لعظمها، لبعد مركزها عن البر ، وبالقرب منها قرية تسمّى نَسْــتَرُوْه ، وهى التى تضاف إليها، وداخلها قرية أخرىٰ تسمّى سِنْجار لا زرع فيهــما ولا نفع ، وليس بهما غير صــيد السمك ، وهى الغاية القُصْوىٰ فيما يتحصل من المــال .

قال صاحب حماة : يبلغ متحصل صيد سمكها فى كل سنة فوق عشرين ألف دينار مصرية، وليس يساويها بحيرة من البحيرات فى ذلك .

قلت : وأخبرنى بعض مباشريهــا أنها فى زماننا قد تميز متحصلها عن ذلك نحو مثله للاجتهاد فى الصيد، وكثرة الضبط وارتفاع السعر .

الرابعــة ـ بحيرة تِنِّيس قال السمعانىّ (بكسر التاء المثناة فوق والنون المشدّدة المكسورة ثم ياء مثناة تحت وسين مهملة فى الآخر) وهى بُحَيْرَةٌ متصلة بالبحر الرومىّ أيضا بآخر عمل الدقهلية والمُرْتاحية الآتى ذكره، وفيها مصبُّ بحر أُشْمُومَ المنفرق من الفرقة الشرقية من النيل، ولذلك يعذب ماؤها فى أيام زيادة النيل،وبوسطها تِنِّيس الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ الكُوَرِ القديمة .

قال صاحب "الروض المعطار" : طمىٰ عليها البحر قبل الفتح الإسلامىّ بمــائة سنة فغرّقها وصارت بحيرة ، ويتصل بهذه البحيرة من جهة الغرب "بحيرة دمياط" وهما فى الحقيقة كالبحيرة الواحدة .

المقصـــد السادس
(فى ذكر جبالهـا)

اِعلم أن وادىَ مِصْرَ يكتنفه جبلان شرقا وغربا ، يبتدئان من الجنادل المتقدّمة الذكر فوق أُسْوان آخِذَيْن فى جهة الشَّمال علىٰ تقارب بينهـما بحيث يُرىٰ كل منهما من الآخر والنيل مارّ بين جَنَبَتيهما .

فأما الشرقىّ منهما فيمرّ بين النيل وبحر القُلْزُم المتقدّم الذكر حتّٰى يجاوز الفُسْطَاطَ فينعطف ويأخذ شرقا حتّٰى يأتىَ علىٰ آخر بحر القُلْزُم من الشَّمال، يرتفع فى موضع وينخفض فى آخر، وفى أوائل هـذا الجبل من جهة الجنوب علىٰ القرب من مدينة قُوص (مَعـدِن الزُّمُرُّدِ) المتقدّم ذكره فى خواص الدّيار المصرية، فى مغارة طويلة فى قطعة جبل عالية، تسمّٰى قرشنده ليس هناك أعلىٰ منها، وعلىٰ القرب من ذلك (مقطع الرُّخامِ) الملوّن من الأبيض والسُّمَّاقىّ وسائر الألوان المستحسنة التى لا تساوىٰ حُسْناً .

ويسمّٰى الجبل المطلُّ منه علىٰ النيـل مقابل المراغات من عمل إخميم . (جبـل الساحرة) وأظنه جبـل زماخير الساحرة المتقدّمة الذكر فى عجائب الدّيار المصرية .

ويسمّٰى الجبـل المطل منه علىٰ النيل مقابل مدينة مَنْفَلُوط (جبل أبى فيدة) بفاء وياء مثناة تحت .

ويسمّٰى الجبل المطل منـه علىٰ النيل مقابل منية بنى خصيب من الأُشْمُونين . (جبل الطيلمون) ، ويعرف الآن بجبل الطَّير ، وقد تقـدّم ذكره فى جملة عجـائب الديار المصرية .

ويسمّٰى ماسامت الفُسْطَاط والقرافة منه (المُقَطَّم) وربمـا أُطلِقَ المُقَطَّم علىٰ جميع المُقَطَّم[(١)]، وقد ٱختلف فى سبب تسميته بذلك ، فقيـل سمى باسم مُقَطَّم الكاهن كان مقيما فيه لعمل الكِيمياَ .

(١) لعله علىٰ جميع الجبل .

وقال أبو عبد الله اليمنى : سمى بالمُقَطَّمِ بن مصر بن بيصر، وكان عبدا صالحا آنفرد فيه لعبادة الله تعالىٰ .

وذكر الكِنْدِىّ فى كتاب "فضائل مصر" ما يوافق ذلك : وهو أن عمرو بن العاص رضى الله عنـه سار فى سفح المُقَطَّم ومعه المُقَوْقِسُ ، فقال له عمرو : ما بالُ جبلكم هذا أقرعَ ليس عليـه نبات كجبال الشام ؟ فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل وغرسناه نخلا — فقال المقوقس : وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر البلاد أشجارا ونبتـا وفاكهة ، وكان ينزله المُقَطَّمُ بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، فلمـا كانت الليلة التى كلم الله تعالىٰ فيها موسىٰ عليـه السلام ، أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ الجبـال : إنى مكلِّمٌ نبيا من أنبيائى علىٰ جبل منكِ فسمَتِ الجبال كلُّها وتشامخت إلا جبلَ بيت المقدس فإنه هبط وتصاغر، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليهِ : لِمَ فعلت ذلك؟ وهو به أخبر، فقال : إعظاما وإجلالا لك يارب! فأمر الله تعالىٰ الجبال أن يحيُّوه كل جبل ممـا عليه من النبت ، فجاد له المُقَطَّمُ بكل ما عليه من النبت حتىٰ بقِىَ كما ترىٰ ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه إنى معوّضك علىٰ فعلك بشجر الجنة أوغَرْس الجنة .

وأنكر القضاعىّ وغيره أن يكون لمصر ولد آسمه المقطم، وجعلوه مأخوذا من القطم وهو القطع، لكونه منقطع الشجر والنبات .

قال آبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وفيه كنوز عظيمة ، وهيا كلُ كثيرة ، وعجائبُ غريبـة . وللملوك مصر فيه من الجواهر والذهب والفضة والأوانى ، والآلات النفيسة ، والتماثيل العجيبة ، وتراب الصنعة ما يخرج عن حدّ الإحصاء .

قال فى "الروض المعطار" وإذا دُبِّرَتْ تُرْبَتُه حصـل منها ذهب صالح .

ويلى المُقَطَّمَ من جهة الشَّمال (اليَحَامِيمُ)، وهى الجبال المتفرّقة المطلة علىٰ القاهرة من جانبها الشرقى وجَبَّانَتهَا .

قال القضاعىّ : وقيل لها اليَحَامِيمُ لآختلاف ألوانها، واليَحْمُوم فى كلام العرب الأسْوَدُ المظلمُ، ولعله يريد الجبل الأحمر وما والاه .

وفى شرقىّ المُقَطَّم علىٰ بحرالقُلْزُم (طُورُسِينَا) الذى كلَّم الله تعالىٰ موسىٰ عليه السلام عليه، وهو جبل مرتفع للغاية، داخل فى البحر .

قال الأزهرى : وسمى الطُّورَ بطُور بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

قال آبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ومن خاصَّته أنه كيفما كُسِرَ، ظهر فيه صورة شجر العليق،وقد بُنِىَ هناك دَيْرٌ بأعلىٰ الجبل، وغرس بواديه بَسَاتِينُ وأشجارٌ .

⁂

وأما الغربىّ منهـما ، فإنه يبتدئ من الجنادل أيضا و يمرّ فى الشَّمال فيما بين بلاد الصـعيد والصحراء ، ثم فيما بين بلاد الصعيد والْوَاحَاتِ ، ثم فيما بين بلاد الصعيد والفَيُّوم حتّى ينتهىَ إلىٰ مقابل الفُسْطَاطِ . وهنـاك موقع الهَرَمَيْنِ العظيمين المقدّم ذكرهما علىٰ القرب من بُوصِير،ثم ينعطف و يأخذ غربا بشَمَالٍ فيما بين بلاد ريف الوجه البحرىّ والبَرّيَّة حتّى يجاوز بِرْكة النَّطْرُون،ويمضى إلىٰ قريب من الإسكندرية .

و يسمّى فيما سامت الواحات (جبل جالوت) نسبة إلىٰ جالوت البربرى .

و يتصل به من جنوبىّ الْوَاحَاتِ (جبل اللَّازوَرْد) قيل إن به معدن لازورد، وانه آمتنع آستخراجه لآنقطاع العمارة هناك .

المقصـــــــد السابع

(فى ذكر زروعها، ورياحينها، وفواكهها، وأصناف المطعوم بها)

أما زروعها فيزرع فيهـا من أنواع الحبوب المُقْتاتة وغيرها كالبُرّ والشعير والذُّرَةِ والأُرْزِ، والبَاقِلّىٰ، والحِمَّص، والعَدَس، والبِسلا، والجُلْبَان، واللُّوبِيَا، والسِمْسِم، والقُرْطُم، والخَشْخَاش، والخِروَع، والسَّلْجَم، و بِزر الكَتَّان، والبَرْسِيم، وغير ذلك .

وبها قصب السُّكَّرِ فى غاية الكثرة، والبِطِّيخُ ، والقِثّـاءُ علىٰ آختـلاف أنواعها، والمُلُوخيا، والقُلْقَاسُ ، واللِّفتُ ، والبَاذنْجَان ، والدُّبّاء، والهِلْيَوْنُ، والقُنَّبِيطُ ، وأنواع البقول المختلفة ، كالثُّومِ ، والبصَلِ ، والكُرَّاثِ ، والفُجْلِ وغيرها ؛ وعامة زرع حبوبها علىٰ النيل عنـد نزوله عن أرضها من أثناء بَابَه من شهور القِبْطِ إلىٰ أثناء طُوبَه منها بحسب ما يقتضـيه حال الزرع . وربما زرع فيها علىٰ السواقى والدّواليب ؛ وأكثر ما يكون ذلك فى بلاد الصَّـعِيدِ خصوصا فى سنين الجَدْب ؛ ويُزْرَع فى الفيوم فى غير زمن النيل علىٰ نهره المنهىٰ المتقـدّم ذكره فى جملة الأنهار . ولا زرع فيها علىٰ المطر إلا القليل النادر بأطراف البحيرة مما لا عبرة به علىٰ قلة المطر بها بل فقده بصعيدها .

وأما رَيَاحِينُها ، ففيها الآسُ ، والوَرْدُ ، والبَنَفْسَجُ ، والنَّرْجِسُ ، واليَـاسَمِينُ ، والنِّسْرِينُ ، والبَانُ ، واللَّيْنُوفَرُ ، وأزهار المحمضات ، والرَّيْحَانُ الفَارِسىّ علىٰ آختلاف أنواعه ، والمنثورفيها بقلة ، وإنمـا كثر بالإسكندرية ، إلىٰ غير ذلك من بقايا الأنواع التى يشق آستيعابها .

وأما فواكهها ، ففيها الرُّطَبُ ، والعِنَبُ ، والتِّينُ ، والرُّمَّانُ ، والخَوْخُ ، والمِشْمِشُ ، والقَراصِيَا ، والبَرْقُوقُ ، والتُّفَّاحُ ، والكُمَّثْرىٰ ، والسَّـفَرْجَلُ بِقِلّةٍ ، واللَّوْزُ الأخضر ، والنَّبِقُ ، والتُّوتُ ، والفِرْصَادُ ، والمَوْزُ . ولا يوجد فيها الجوْزُ ، والفُسْتُقُ ، والبُنْدُقُ ، والإجَّاصُ إلا مجلوباً بعـد جفافه . وإنْ زرع بأرضها شىء من ذلك ، لم يُفْلح ؛ والزيتون فيها بِقِلّةٍ ، ولا يستخرج منه زيت البتة وإنمـا يؤكل مِلْحًا .

وفيهـا من المحمضات الأُتْرُجُّ ، والحُمَّـاضُ ، والكِباد ، والنَّارَنْجُ ، واللَّيْمُونُ ، علىٰ آختلاف أنواعها .

وأما أصناف المطعوم ففيها ما يستطاب من الأَلْبَانِ، والأَجْبَانِ، والعَسَلِ، الذى لا يُساوىٰ حُسْـنا ، ولا يشبهه غيره من سائر الأعسال، والسُّكَّرِ الكثير من المُكَرَّرِ والتبع، والوسط ، والنبات . ومنها يجلب إلىٰ أكثر البـلاد . قال فى "مسـالك الأبصار" : وقد نُسِى به ما كان يذكر من سُكَّر الأهواز .

وبها من أنواع الحلوىٰ والأشربة المتخذ ذلك من السُّكَّر والأشربة(؟)الفائقة مالا يوجد فى غيرها من الأقاليم .

وبهـا من لحم الضأن ، والبقر، والمعز، ما لا يعادله غيره فى قُطْرٍ من الأقطار لطافةً ولَذَّةً .

قلت : ومن محاسنها أن فاكهتها لايدوم نوع منها فى جميع السنة فَيُمَلّ، بل يأتى كل نوع منها فى وقت دون وقت ، فتتشوّف النفوس إلىٰ طلبـه ، ويكون لقدومه بهجة . ولا يعترض ذلك بدوام أُكل الجنة، فإن الجنة أُكلها لا يمَلُّ بخلاف مآكل الدنيا . ولأهل الرفاهِيَة بذلك فرحةٌ، وتتغالىٰ فيه فى ٱبتدائه مع أنه يجتمع فى الحين الواحد من الفواكه والرياحين مالا يحتاج معه فى زمنه إلىٰ غيره .

قال المهـذب بن ممـاتِى فى "قوانين الدواوين" : بعثتُ غلاما لى لِيُحْضِر من فَكَّاهِى القاهرة ما وجد بها من أنواع الفاكهة والرياحين، فأحضر لى منها الوَرْدَ، والنَّرْجِسَ، والبَنَفْسَجَ، والياسَمِينَ، والمَنْثُورَ، والمَرْسِينَ، والرَّيْحَانَ، والطَّلْحَ، والبَلَحَ، والجُمَّـارَ، والخِيَارَ، والبِطِّيخَ الأخضرَ، والبَاقِلّىٰ، والتُّفَّاح، والفَقُّوسَ، والأُتْرُنْج، والنَّارَنْج، والأشْبَاه، واللَّيْمونَ، والتَّمْرَهِنْدِى الأخضر، والعِنَبَ، والحِصْرِمَ.

وقال بعض الجوّالين فى الآفاق : طفت أكثرَ المعمورِ من الأرض فلم أر مثل ما بمصر من ماء طوبه، ولَبَنِ أمشـير، وخَرُّوبِ برمهـات ، ووَرْدِ برموده ، ونَبِق بشنس، وتينِ بـؤونة، وعَسَلِ أبيب، وعِنَبِ مسرىٰ، ورُطَبِ توت، ورُمَّانِ بابه، ومَوْزِ هتور، وسَمَك كيهك .

المقصـــد الثامن
(فى ذكر مواشيها، ووحوشها، وطيورها)

أما مَوَاشِيها، ففيها الإبل المستجادة، والبقر العظيمات القدود، والأغنام المستطابة اللحوم، والخيول المُسَوَّمَةُ، والبغال النفيسة، والحُمُرُ الفارهة ممـا ليس له نظير فى إقليم من الأقاليم، ولا مصرٍ من الأمصار .

وأما وُحُوشُها، ففى براريِّها الغِزْلَانُ، والنَّعامُ، والأَرَانِبُ، والثَّعالب، والضِّباعُ، والذِّئَابُ، وغير ذلك، ويجاب إلىٰ سلطانها الفِيَلَةُ، والزَّرَافَاتُ، وغيرها من الوحوش من البلاد القاصية، والسِّـبَاعُ من بلاد الشام من مملكته لتكون فى إصطبلاته زينةً لمملكته .

وأما طيورهـا ففيها من الطيور الدَّواجن فى البيوت الدَّجَاجُ، والإوزُّ، والحَمَامُ؛ ومن الطيور البَرِّيَّةِ الصَّقْرُ، والعُقَابُ، والنَّسْرُ، والكُرْكِىّ، واللَّغْلَغُ، والإوزُّ التُّركىّ، والمرزم، والبَجَعُ، والبَلَشُون، والحُبْرُجُ، والحَجَلُ، والكَرَوانُ، والسُّمانىٰ، والبُلْبُلُ، وسائر أنواع العصافير، والأنواع المختلفة من طيور المـاء . ويجلب إلىٰ سلطانهـا سائر أنواع الجوارح الصائدة علىٰ ٱختلاف أجنـاسها من أقاصى البُـلْدان، ويقع التغالى فى أثمـانها للغاية القصوىٰ علىٰ ما يأتى ذكره فى الكلام علىٰ أوصافها إن شاء الله تعالىٰ .

المقصـــد التـاسع
(فى ذكـر حدودها)

قد ٱضطربت عبارات المُصَنِّفِينَ فى المسالك والممـالك فى تحديدها، والذى عليه الجمهور أن حدّها الشَّمالىّ، وهو المعبر عنه عنـد المصريين بالبحرىّ يبتدئ ممـا بين الزعقة ورَفَحٍ عنـد حدّها من الشام والبحر شمـاله، ويمتـدّ غربا علىٰ ساحل البحر

المذكور حيث الشجرتان عند الشجرة التى يعلق فيها العوامّ الخِرَق وتقول هذه مفاتيح الرمل، عند الكُثُب المجنبة عن البحر الرومىّ، إلىٰ رَفَح ثم إلىٰ العريش آخذا علىٰ الجِفَار، إلىٰ الفَرَما، إلىٰ الطينة، إلىٰ دِمْياط، إلىٰ ساحل رشيد، إلىٰ الإسكندرية، وهى آخر العمارة بهذا الحدّ. ثم يأخذ علىٰ اللينونة، علىٰ العميدين، إلىٰ بَرْقَة، إلىٰ العَقَبة الفاصلة بين الديار المصرية وإفْرِيقِيَّة علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ سواحل البحر الرومىّ .

وحدّها الغربىّ يبتدئ من ساحل البحر الرومىّ حيث العَقَبة، ويمتدّ جنوبا، وأرض إفْرِيقِيَّة غربيه، علىٰ ظاهر الفَيُّوم والْوَاحَاتِ حتّى يقع علىٰ صحراء الحبشة علىٰ ثمان مراحل من أُسْوان .

وحدّها الجَنُوبىّ وهو المعبر عنه عند المصريين بالقِبْلِىّ، يبتدئ من آخر هذا الحدّ بصحراء الحبشة ويمتدّ شرقا، وبلاد الروم من بلاد البَرِّيَّة جنوبيّه حتّى يأتى إلىٰ أسوان، ثم يمتدّ من أسوان شرقا حتّى ينتهى إلىٰ بحر القُلْزُم مقابل أسوان علىٰ خمس عشرة مرحلة منها .

وحدّها الشرقى يبتدئ من آخر هذا الحدّ ويمتدّ شمالا وبحرُ القُلْزُم شرقيُّه إلىٰ عَيْذَابَ إلىٰ القُصَيرِ إلىٰ القُلْزُم إلىٰ السُّوَيْس، ثم يأخذ شرقا عن بركة الغُرُنْدُل التى أغرق الله تعالىٰ فيها فرعون من بحر القُلْزُم إلىٰ تِيهِ بنى إسرائيل؛ ثم يعطف شمالا ويمرّ علىٰ أطراف الشام حتّى يحطّ علىٰ ما بين الزعقة ورَفَحٍ ساحل البحر الرومىّ حيث وقعت البداءة .

وعلىٰ هذا التحديد جرىٰ السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تقويم البُلْدان" والمقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" إلا أنه فى "تقويم البُلْدان" جعل ابتداء الحدّ الشمالىّ نفس رَفَحٍ، ونهاية الحدّ الغربىّ حدود بلاد النُّوبة؛ وفى "التعريف"

جعل ٱبتداءَ الحدّ الشمالى ما بين الزعقة ورَفَح، ونهاية الحدّ الغربى صحراءَ بلاد الحبشة علىٰ ما تقدّم فى التحديد، والأمر فى ذلك قريب .

وخالف فى ذلك القُضَاعىّ فجعل ٱبتداء الحدّ الشّمالىّ من العَريش ، وليس فيه بُعْـدٌ عن رَفَح بل فى الآثار ما يدل عليه . كما سـيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ، وجعل الحدّ الجَنُوبىّ يقطع بحر القُلْزُم و ينتهى إلىٰ ساحل الحجاز بالحَوْراء: أحدِ منازل طريق الحجـاز من مصر، والحدّ الشرقىّ يمتدّ علىٰ ساحل البحر الشرقىّ إلىٰ مَدْيَنَ، إلىٰ أَيْلَةَ، إلىٰ تِيهِ بنى إسرائيـل، إلىٰ العَرِيش . فأدخل بحر القُلْزُمِ من حدّ الحَوْراء إلىٰ نهايته فى الشّمال، وما علىٰ ساحله من برّ الحجاز مما يسامت العَرِيشَ كأَيْلَةَ ومَدْيَنَ ونحوها فى أرض مصر .

قلت : وفيـه نظر، والظاهر ما تقـدّم لأن البر الشرقىّ من القُلْزُمِ معدود من ساحل الحجاز من جمـلة جزيرة العرب، وهى ناحية علىٰ ٱنفرادها؛ وكأن الذى حمل القُضَاعىّ علىٰ ذلك مسامتة هذا الساحل لحدّها بساحل البحر الرومىّ علىٰ ما تقدّم .

وٱعلم أن جميع المحـدّدين لهـا و إن ٱختلفت عباراتهـم فى ٱبتـداء الحدّ الشّمالى الفاصل بينها و بين الشام، هـل هو من العريش أو من رَفَح أو بين الزعقة ورَفَح ؟ متفقون علىٰ أن ٱبتداء الحدّ حيث الشجرتان ، وكأنهـما شجرتان قديمتان حدّد فى الأصل بهما .

قال فى "التعريف" : وما إخال الآن بقاءَ الشجرتين، و إنما هو موضع الشجرة التى تعلّق فيها العوامُّ الِخرَقَ ، و يقولون هذه مفاتيح الرمل عند الكُثُب المجنبة عن البحر الرومىّ قريبا من الزَّعْقَةِ .

قال : فأما الأشجار التى بالمكان المعروف الآن بالسردية(١)، و يعرف قديمـا بالعُشّ فهى و إن عظمت محدثة من زمن مَنْ حدّد الأقاليم، وليست فى موضع ماذكروه .

(١) فى الضوء، والتعريف "بالخرّوبة" .

ثم لها طُول وعَرْضٌ ، فطولها ما بين جهتى الشَّمال والجنوب، وعَرْضها ما بين جهتى المشرق والمغرب . وقد قيل إن طولها مسيرة شهر وعرضها مسيرة شهر .

وذكر القضاعىّ أن ما بين العريش إلىٰ بَرْقة أربعون ليلة .

المقصـــــــد العاشر

(فى ٱبتداء عمارتها، وتسميتها مصر، وتفرّع الأقاليم التى حولها عنها)

أما ٱبتداء عمارتها، فقد ذكر المؤرّخون أنها عُمِرت مرتين :

المرّة الأولىٰ ــ قبل الطُّوفان، وأوّل من عَمَرها قبل الطوفان نقراووس بن مصريم ٱبن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام[1]، نزلها فى سبعين رجلا من بنى غرباب جبابرة، فعمَرَها . وهو الذى هَنْدس نِيلَها وحفره حتّىٰ أجراه ، ووجه إلىٰ البرية جماعةً هندسُوه وأصلحُوه، وبنىٰ المُدُنَ وأثارَ المعادنَ، وعمل الطلسمات .

المرة الثانية ــ بعد الطُّوفَانِ ، وأوّل من عَمَرها بعد الطوفان مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، قدم إليها هو وأبوه بيصر فى ثلاثين رجلا من قومه حين قسَم نوح الأرضَ بين بنيه ، فنزلوا بسفح المُقَطَّم ، ونَقَرُوا فيــه منازل كبيرة نزلوا بها ثم ٱبتنَوْا مدينة مَنْف وسكنوها علىٰ ما يأتى ذكره فى الكلام علىٰ قواعد مصر القديمة إن شاء الله تعالىٰ .

قال ٱبن لَهِيعَةَ : وكان نوح عليه السـلام قد دعا لمصر أن يُسْكِنَه الله تعالىٰ الأرضَ الطيّبة المبـاركة التى هى أَمْنُ البلاد وغَوْثُ العباد ، ونهرها أفضل الأنهار، ويجعلَ له فيها أفضـلَ البركات، ويُسَخِّرَ له الأرضَ ولولده ويُذَلّلَهَا لهم، ويقوّيهم عليها . فسأله عنها فوصفها له، وأخبره بها .

---

(١) لم تتفق الكتب علىٰ هذه الأسماء بل كل كتاب يخالف الآخر فلذلك لم نعول عليها وٱقتصرنا علىٰ ما فى نسختنا الخطية .

وأما تسميتها مصر ، فقيل : إن نقراووس بن مصريم أول ملوكها قبل الطوفان حين عمرها سماها باسم أبيـه مصريم تبركا ، وأن مصر بن بيصر إنمـا سمي باسمه . وأكثر المؤرّخين علىٰ أنها سميت بمصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام . وعلىٰ الوجهين تكون عَلَمًا منقولا عن آسم رَجُل .

وقال الجاحظ فى رسالة له فى مدح مصر : إنمـا سميت مِصْرَ لمصير الناس إليها

قلت : ويجوز أن تكون سميت مِصْرَ لكونها حدّا فاصلا بين بلاد المشرق والمغرب إذ المصر فى أصل لغة العرب آسم للحدّ بين الأرْضَيْن كما قاله القُضَاعىّ . ومنـه قول أهل هجر : آشـتريت الدار بمُصُورِها ، أى بحدودها .

قال القضاعىّ : وكيف ما ...(١) أما أن أريد بالمصر البلد العظيم فإنه ينصرف ويجمع علىٰ أمصار .

وأما تَفَرُّعُ الأقاليم التى حولها عنها . فعن آبن لَهِيعة أنه لما آستقرّ مصر بن بيصر بهذه البلاد هو وأبوه بيصر وإخوته : فارق ، وماح ، وياح وكثر أولادهم ، قال له إخوته : قد علمت أنك أكبرُنا وأفضلُنا ، وأن هذه الأرضَ أسكنك إياها جدُّك نوحٌ ، ونحن نضيّق عليـك أرضَك ، ونحن نطلب إليـك بالبركة التى جعلك فيها جدّك نوح أن تبارك لنـا فى أرض نلحق بها ونسكنها ، وتكون لنـا ولأولادنا ، فقال : نعم عليكم بأقرب البلاد إلىّ ، لاتباعدوا منى ، فإن لى فى بلادى هذه مسيرة شهر من أربعة وجوه أحوزها لنفسى ، وتكون لى ولولدى وأولادهم ، فحاز مصر لنفسه مابين الشجرتين اللتين بالعريش إلىٰ أُسوان طولا ، ومن بَرْقَةَ إلىٰ أيْلَةَ عَرْضا ؛ وحاز فارق لنفسـه ما بين بَرْقَةَ إلىٰ إفْرِيقِيَّـة ، فكان ولده الأفارقة ، وبذلك سميت إفْرِيقِيَـةُ ، وذلك مسـيرة شهر ؛ وحاز ماح ما بين الشجرتين من منتهىٰ حدّ مصر إلىٰ الجزيرة ، مسيرة

(١) كذا فى الأصل بدون بياض وهو غير مستقيم ولعله وكيفما كان فإنها لاتنصرف . أما إن الخ .

شهر، وهو أبو نَبَطِ الشام . وحاز ياح ماوراء الجزيرة كلها من البحر إلىٰ الشرق مسيرة شهر، فهو أبو نَبَطِ العراق .

وقد قال القضاعىّ بعد ذكر حدود مصر الأربعة : وما كان بعد هذا من الجانب الغربىّ فهو من فتوح أهل مصر وثغورهم من بَرْقَةَ إلىٰ الأَنْدَلُس .

قلت : وذلك أن المسلمين بعد فتح مصر توجهت طائفة منهم إلىٰ إفْرِيقِيَّةَ ففتحتها، ثم توجهت طائفة من إفْرِيقِيَّةَ إلىٰ الأَنْدَلُس ففتحته علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مكاتبات ملوك الغرب إن شاء الله تعالىٰ .

المقصد الحادى عشر

(فى ذكر قواعدها القديمة ، والمبانى العظيمة الباقية علىٰ ممرّ الأزمان، والقواعد المستقرّة، وما فيها من الأبنية الحسنة)

وقواعدها القديمة علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(ما قبل الطوفان)

والمعروف لها إذ ذاك قاعدتان :

القاعدة الأولىٰ — مدينة أمسوس، وهى أوّل مدينة بنيت بالدّيار المصرية قبل الطوفان، بناها نقراووس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام : أوّل ملوك مصر قبل الطوفان، وموضعها خارج الإسكندرية تحت البحر الرومىّ كما ذكره بعض المؤرّخين، وشق لها نهرا يتّصل بها من النيل .

القاعدة الثانية — مدينة برسان، وهى مدينة بناها نقراووس المتقدّم ذكره لابنه مصرايم وأسكنه فيها، ولم أقف علىٰ مكانها .

الضرب الثـانى
(قواعدها فيما بعد الطوفان)

والمشهور منها ثلاث قواعد :

القاعدة الأولىٰ ـ مدينة مَنْف. قال فى "تقويم البُلْدان": (بكسر الميم وسكون النون وفاء فى الآخر) والجـارى علىٰ الألسنة منف (بفتح الميم) وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : طولها ثلاث وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وهى أوّل مدينة بنيت بمصر بعـد الطوفان، بناها مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام حين نزل مصر .

قال فى "الروض المعطار" : وأصلها بالسريانية مافه ومعناها بالعربية ثلاثون وذلك أن مصر حين نزلها كان فى ثلاثين رجلا من أهل بيته، فسماها بعددهم .

قال آبن الأنبارى فى كتابه "الزاهر" : وهى علىٰ آثنى عشر ميلًا من الفُسْطَاطِ .

قلت: ومَنْفُ هذه فى جنوبىّ الفُسْطَاطِ علىٰ القرب من البلدة المعروفة بالبَدْرَشِين من عمل الجيزة، وهى المعروفة بمصر القديمة، وقد خَرِبت وصارت كيمانا، وبها آثار بنيان من الحجر الكَذَّان، يوجد تحت الردم علىٰ القرب من أحجار الأهرام فى العظمة والمقدار وبوسطها آثار بِرْبَاةٍ عظيمة، بها صنمـان عظيمان من حجر صوّان أبيض، طول كل صنم منهما نحو عشرين ذراعا، وهمـا مطروحان علىٰ الأرض، وقد غطّى الطين أسفلَهما .

وكان علىٰ القرب منهما بيت عظيم من حجر أخضر، قطعة واحدة: جوانبه الأربعة وأرضـه وسقفه، ولم يزل علىٰ ذلك إلىٰ الدولة النـاصرية حسن بن الناصر محمد بن

قلاوون، وأراد الأمير شيخو أتابك العساكر نقله إلى القاهرة صحيحا فعولج فانكسر فأمر بأن تنحت منه أعتاب فنحتت وجعل منها أعتاب خانقاه وجامعه بصليبة الجامع الطولونى ؛ وشرقىّ هذه المدينة معالم سور مبنىّ بالحجر الكَذّان النحيت فصوصا صغارا بالطين والجير الذى قد علمت، لونه لون الحجر . ويقال : إنه سور الأهراء التى بناها يوسف عليه السلام لادّخار الحنطة فى سنبلها .

ويذكر بعض أهل تلك البلاد أنه يوجد بعض السُّنْبُلِ الذى أخبر به يوسف عليه السلام تحت تلك الأرض إلى الآن، وأنه فى المقدار فوق مقدار الحنطة المتعارفة بقليل .

وفى شمالىِّ هذه المدينة بلدةٌ صغيرة تعرف بالعزيزية ، يقال إنها كانت منزلة العزيز وزير الملك، وهناك مكان على القرب منها يعرف بزَلِيخَا ، وفى غربيِّها إلى الشَّمال فى سفح جبل مصر الغربىّ سِجْن يوسف عليه السلام، وإلى جانبه مسجد موسى عليه السلام، وعلى القرب من السُّور المقدّم ذكره مسجد يعقوب عليه السلام .

ويقال إن النيل كان تحت هذا السُّور، وهناك مكان يعرف بالمقياس إلى الآن .

*
* *

القاعدة الثانية — مدينة الإسكندرية نسبة إلى الإسكندر بن فيلبس المقدونىّ ملك اليونان المقدّم ذكره .

وقد ذكر القضاعىّ : أنه كان بها عدّة عجائبَ ، من أعجبها المَنَارة ، وهى مَنَارة مبنية بالحجر والرّصاص ارتفاعها فى الهواء ثلثمائة ذراع كل ذراع ثلاثة أشبار ، وقيل أربعمائة ذراع ، وقيل مائة وثمانون ذراعا ، وقيل بالحجر (١) لغلبة الجير فيه . وعلى رأسها مرآة من أخلاط يرى فيها من حضر إليها على بُعْـدٍ ، وتهتدى بها المراكب السائرة إلى الإسكندرية إذ برّها منخفض لا جبال فيها ، تحرق بشعاعها ما أرادوا إحراقه

(١) لعله وقيل بالجير أى هى مبنية بالحجر والرصاص وقيل بالجير الخ تأمل .

من المراكب الواصلة ، آحتال عليها النصارىٰ فى أوائل الإسـلام فى خلافة الوليد آبن عبـد الملك الأُمَوِىّ فكسروها، وتداعىٰ هدم المنـارة شيئا فشيئا إلىٰ أوساط المـائة الثامنة فاستؤصلت و بقِىَ أثرها .

(ومنها) المَلْعَبُ الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة ثم يرمون بكُرَةٍ فلاتقع فى حِجْرِ أحد إلا مَلَك مصر ؛ و إن حضر فيه ألف ألف من النـاس كان كل منهم ناظرا فى وجه صاحبـه ؛ وإن قرئَ كتاب ، سمعوه جميعا ؛ أو أُتِى بنوع من اللعب رَأَوْهُ عن آخرهم لا يتظالمون فيه بأكثر من مراتب العِلْيَةِ والسِّفِلَةِ .

وكان من غريب هذا المَلْعَبِ أنـ عمرو بن العاص رضى الله عنه حضر فيه فى الجاهلية فى يوم لَعِبِ الكُرَةِ فوقعت الكُرَةُ فى حِجْرِه ، وهم لا يعرفونه ، فتعجب القوم منــه وقالوا ما رأينـا هذه الكُرَة كذبت قَطُّ إلا هذه المرّة ، فآتفق أَنْ ملَكها فى الإسلام . و (عمود السَّوارى) الذى بظاهر الإسكندرية الآن أحد عُمُــدِ هذا الملعب ،وهو عمود عظيم يرمى الرجل القوىّ السهمَ عن قَوْسٍ قوىّ فلا يبلغ رأسه .

(ومنها) عمودا الإعيـاء ، وهما عمودان ملقيان وراء كل منهــما جبل حَصْباؤه كصُــبَرِ الجمـار بمِنًى يُقْبِل العيّ بسبع حصيات حتّى يستلقىَ علىٰ أحدهمـا ، ثم يرمى وراءه بالسبع و يقوم ولا يلتفت ، و يمضى لطَلِبته فلا يُحِس بشىء من تعبه .

(ومنها) القبــة الخضراء ، وهى قبة ملبسة نُحَاسا كأنه ذهب إبريز لا يُبْليـه القِدَم ولا تُخْلقه الدهور .

(ومنها) المِسَلَّتان ، وهمـا جبلان(١) قائمـان علىٰ سَرَطانات نحاس فى أركانهما كل ركن علىٰ سرطان ، فلو أراد مريد أن يدخل تحتها شيئا إلىٰ الجانب الآخر لفعل .

قال آبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وهاتان المِســلَّتان إحداهمـا فى الركن الشرقىّ من البلد ، والثانيــة ببعض البلد ، وهمـا عمودان مُرَبَّعَان من حجر أحمر ،

(١) لعله — هيكلان — أو بناءان .

وعَرْض قواعدهما من الجهات الأربع أربعون شبرا، طول كل واحدة منهما خمس قامات، وأعلاها مُسْتَدِقٌّ[(١)]، وعرض قاعدتهما من الجهات الأربع أربعون شبرا .

ويقال إن عليهما مكتوب بالسريانية : "أنا يَعْمَر بن شدّاد، بنيت هذه المدينة وأردت أن أجعل فيها من الآثار المعجزة، والعجائب الباهرة، فأرسلت البتون بن مرة العادىّ ومقدام بن يعْمَر بن أبى رِغَال الثمودىّ إلى جبل بَرِيم الأحمر، فاقتطعوا منه حجرين وحملاهما على أعناقهما ، فانكسرت ضلع البتون ، فودِدْت أن أهل مملكتى كانوا فداء له ، فأقامهما القطن بن حازم[(٢)] المؤتفكى فى يوم السعادة" .

وقد قيل فيها : إنها إِرَمُ ذات العِمَادِ ، ولم تزل عامرة إلى الفتح الإسلامىّ، فلما فتحها عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

"أما بعد، فإنى فتحت مدينة لا أَصِفُ ما فيها، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بِنْيَة ، وأربعة آلاف حَمَّامٍ ، وأربعين ألف يهودىّ عليهم الجزية، وأربعمائة مَلْهًى للملوك". ويقال إنه وجد فيها أربعة آلاف بَقَّالٍ يبيعون البَقْل ، وكان فيها من الروم يومئذ مائة ألف من أهل القوّة لحقوا بأرض الروم فى المراكب، وكان مَنْ بقى ستمائة ألف سوى النساء والصبيان .

قلت : وقد ذهب جلُّ ذلك وزال أكثره ، ولم يبق من عجائبها ظاهرا إلا عمود السَّوارى ، وهو عمود عظيم من حجر صوّان خارج المدينة لا يكاد يكون له نظير فى الدنيا ، ويقال إنه كان قبلها مدينة فى مكانها تسمّى رقوره بناها مصر بن بيصر بن حام بن نوح المتقدّم ذكره حين بنى مدينة مَنْف ، وعلى مِنْوالها نسج الإسكندر مدينته .

⁂

القاعدة الثالثة ـ قَصْرُ الشَّمعِ الذى هو داخل مدينة الفُسْطَاطِ الآن، وهو المعبر عنه فى كتب الفتوح بالحصن ، بناه كسرجوس الفارسىّ أحد نوّاب مَلك الفُرْس

(١) يظهر أنه مكرر مع المذكور فى السطر قبله . (٢) فى ياقوت قَطْن بن جَاوُد .

عند آستيلائهم على مصر بعد غلبة بُخْتَنَصَّر الآتى ذكره فى الكلام على ملوكها .

قال القضاعىّ : ولم يكمله وإنما كمله الروم بعد ذلك (١) التى فتحت مصر وهى مقرّة الملوك بها . وقد قيل : إن المُقَوقِس كان يقيم بالإسكندرية أربعة أشهر من السنة، وبمدينة منف أربعة أشهر، وبقصر الشمع أربعة أشهر .

وآعلم أنه قد كان بالديار المصرية مستقَرّات أخرى عظام كانت قواعد لبعض ملوكها فى بعض الأزمان، ومدن دون ذلك يأتى الكلام على جميعها بعد ذكر الكور القديمة والأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالى .

*
* *

وأما المبانى العظيمةُ الباقية على ممرّ الأزمان ، فاعلم أن ملوك مصر الأقدمين كان لهم من العناية بالبناء ما ليس لغيرهم ، وكانوا يتفاخرون بذلك لإخباره على طول الزمن بعَظَمة مُلْكهم وآقتدارهم على مالم يبلغه غيرهم، ومن أعظم أبنيتهم (الأهرام). وهى قُبورٌ آتخذوها فى غاية الوَثَاقة حفظا لأجسامهم ، وكان لهم بها العناية التامّة ، وآبتَنَوْا منها عدّة بالجَبَل الغربىّ من النيل، بعضها مقابل الفُسْطَاطِ، وبعضها ببُوصِير السِّدْر وسَقَّارَةَ ودَهْشُورَ من الأعمال الجيزية ، وبعضها بمَيْدُومَ من البهنساوية ؛ وأعظمها خَطَرا وأجلُّها قدرا الهَرَمَانِ المقابلان للفُسْطَاطِ ، يقال إن طول عمود كل هرم منهما ثلثمائة وسبعة عشر ذراعا، تحيط بها أربعة سطوح متساوية الأضلاع، طول كل ضلع منها أربعمائة وستون ذراعا .

قال أبو الصلت : ليس على وجه الأرض بناءٌ باليد حجر على حجر بهذا المقدار .
ويقال : إن لهـا أبوابا فى أزَج فى الأرض طول كل دَرَج مائة وخمسون ذراعا؛ وباب الهَرَم الشرقىّ من الجهة البحرية، وباب الهرم الغربىّ من الناحية الغربية،

(١) بياض بالأصل .

والصابئة تحجُّ هذين الهَرَمَيْنِ ويقولون : إن أحدهما قبر إدريس عليه السلام، والآخر قبر ٱبنه صابئ الذى إليه ينتسبون .

وقد ٱختلف فى بانيها فأكثر المؤرّخين على أن بانيها سوريد بن سهلوق أحد ملوك مصر قبل الطوفان، الآتى ذكره فى الكلام على ملوكها فيما بعدُ إن شاء الله تعالى ، جعلها قبورا لأجسادهم وكنوزا لأموالهم ، حين أخبره مُنَجِّمُوهُ وكَهَنَتُه بما دلهم عليه الرَّصْد النجومىّ من حدوث حادثة تعم الأرض؛ ورجحه محمد بن عبد الله ٱبن عبد الحكم وقال : لو بُنِيت الأهرام بعد الطوفان ، لكان علمها عند الناس .

وذكر ٱبن عُفَير عن أشياخه أن بانيها جَيَّاد بن مياد بن شمر بن شدّاد بن عاد ٱبن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

قال : ولم تزل مشايخ مصر يقولون : إن الذى بناها شدّاد بن عاد . وذهب المسعودى وغيره إلى أنه بناها يوسف عليه السلام .

وقال ٱبن شبرمة بنتها العمالقة حين ملكوا مصر . وبالجملة فهما من أعظم الآثار وأقدمها وأجلِّ المبانى وأدومها؛ ولله القائل .

أُنْظُرْ إلى الهَرَمَيْنِ وٱسْمَعْ مِنْهُمَا * ما يَرْوِيَانِ عَنِ الزَّمانِ الغَابِرِ
لَوْ يَنْطِقَانِ، لَخَبَّرَانَا بِالَّذِى * صَنَعَ الزمانُ بأَوَّلٍ وبآخِرِ

وكيفما كان فمآلها إلى الخراب، شأن الدنيا ومبانيها .

وقد كان المأمون : أحد خلفاء بنى العبّاس حين دخل إلى مصر فى سنة ست عشرة ومائتين قصد هدمهما فلم يقدر، فأعمل الحيلة فى فتح طاقة فى أحدهما يتوصل منها إلى مزلقان، يصعد فى أعلاه إلى قاعة بأعلى الهرم، بها ناووس من حجر، وينزل فى أسفله إلى بئر تحت الأرض لم يعلم ما فيها . ويقال : إنه وَجَدَ فى أعلاه مالا فاعتبره

فإذا هو قــدر المـال الذى صرفه من غير زيادة ولا نقص ؛ وقد أخذ الآن فى قطع حجارتهما الظاهرة لاتخاذ البلاط منها . فإن طال الزمان يوشك أن يخربا كغيرهمـا من المبـانى .

ولله المتنبي حيث يقول :

أَيْنَ الذى الهَرمانِ من بُنْيَانِهِ؟ * ما قَوْمُهُ؟ مَا يَوْمُهُ؟ مَاالْمَصْرَعُ؟
تَتَخَلَّفُ الآثَارُ عن أصحابِها * دَهْرًا، ويُدْرِكُها الفَنَـاءُ فَتَتْبَعُ!

قال إبراهيم بن وصـيف شاه فى كتاب " العجائب " : وقد قيل إن هوجيب أحد ملوك مصر قبـل الطوفان أيضا بنىٰ الهَرَمَ الكبير الذى بدَهْشُور ؛ والثانى بناه قِفْطريم، بن قِفط، بن قبطيم، بن مصر، بن بيصر، بن حام، بن نوح عليه السلام بعد الطُّوفان .

قال القُضاعىّ : أما الهَرَمُ الذى بدير أبى هِرْميس : وهو الهرم المدرّج يعنى الذى شمـالىّ أهرام دهشور ، فإنه قبر قرياس، وهو فارس أهـل مصر، كان يعدّ فيهم بألف فارس، فلما مات جزع عليه ملكه وبنىٰ له هذا الهرم فدفنه فيه .

قال : وقبر الملك نفسه الهَرَمُ الكبير من الأهرام التى غربىّ دير أبى هِرْميس، وعلىٰ بابه لوح من الحجر الكذّان طوله ذراع فى ذراع مكتوب بالخط البرباوىّ .

ومن عظيم بنيانهم أيضا ولطيف حِكَمهم (البَرَابى) وهى بيوت عبادة كانت لهم، زَبَرُوا فيها حِكَمهم، ورقموا تواريخ ملوكهم، وصوّروا فيها صُوَر الأمم التى حولهم. فمتى قصدتهم أمة من الأمم، أوقعوا بصُوَرهم المصوّرة من النّكال ما أرادوا، فيصيب تلك الأمة علىٰ البُعْـد ما أوقعوه بتلك الصور، إلىٰ غير ذلك من الحِكَم التى أودعوها والطِّلّسْمات التى وضعوها بجُدْرانها .

ويقـال : إن أوّل من بنىٰ البرابى بمصر دَلُوكة العجوز، التى ملكت مصر بعد فرعون لعنه الله !

قال فى "مسالك الأبصـار" : وقد أخبرنى الحكيم شمس الدين محمد بن سـعد الدمَشْقِىّ أنه رآها وتأمّلها، فوجدها مشـتملة علىٰ جميع أشكال الفَلَك ، وأن الذى ظهر له أنه لم يعملها حكيم واحد بل تولّى عليها قوم بعد قوم حتّى تكاملت فى دَوْرٍ، وهو ثلاثون ألف سنة : لأن مثل هذه الأعمـال لا تُعْمل إلا بالأرصاد ولا يكمل رصد المجموع فى أقل من هذه المدّة .

قلت : ويجوز أن يكون الرَّصْدُ حصـل علىٰ الوجه المذكور ، وزُبِرَ ورُقِمَ فى الكُتُب فلمـا بنىٰ الثـانى هـذه البرابىَ، نقل منها ما زُبِرَ فى الكتب من ذلك الزمن المتقدّم .

وٱعلم أن أكثر البرابى بالوجه القبلىّ من الديار المصرية، وبالوجه البحرىّ القليلُ منهـا ، وقد ٱسـتولىٰ الخراب علىٰ جميعها، وذهبت معالمها ولم يبـق إلا آثارها ، والذى وقفتُ عليه فى التواريخ، ووقفتُ علىٰ آثار غالبه ورسومه سبعُ برَابٍ .

(منها) بِرْبا سَمَنُّودَ، كانت بظاهر سَمَنُّود من الأعمال الغربية بالوجه البحرىّ .

قال الكندىّ : رأيتهـا وقد خَزَّنَ فيها بعضُ عُمّالهـا قَرَظا فرأيت الجمل إذا دنا من بابها بحمله وأراد أن يدخلها ، سـقط كل دبيب فى القرظ فلا يدخل منها شىء إلىٰ البربا .

قال القضاعى : ثم خربت عند الخمسين وثلثمائة .

(ومنها) بربا تُمَىّ بالمُرْتاحية من الوجه البحرى علىٰ القُرْب من مدينة تُمَىّ الخراب وعامة أهل تلك الناحيـة يقولون بربا عاد، وهى باقية بجُدْرانها، وسقوفُها من أعظم

الحجارة العظيمة ، إلىٰ الآن باقية ، وبأعلىٰ بابها قطعة مبنية بالطوب الآجُرّ والجِصّ ، وداخلها أحواض عظيمة من الصوّان غريبة الشان .

(ومنها) بربا إخميم ، وهى بربا بظاهر مدينـة إخميم من الوجه القبليّ ؛ كانت من أعظم البَرَابى وأحسنها صنعةً وأكبرها حكمةً ، ولم تزل عامرة إلىٰ أوساط المائة الثامنة ، فأَخَذ فى هـدمها والعمارة بأحجـارها خطيب إخميم ، ولم يَبْق إلا آثارها ، وبعض جُدْرانها قائمة إلىٰ الآن .

(ومنها) بربا دَنْدَرَة من الأعمال القُوصية .

قال القضاعىّ : وهى بربا عجيبة فيها مائة وثمـانون كُوّة تدخل الشمس فى كل يوم فى كوّة منها ، ثم تكُرّ راجعة إلىٰ الموضع الذى بدأت منه ، وهى الآن خراب لم يبق إلا آثارها .

(ومنها) بربا الأَقْصُر : وكانت بربا عظيمة فهُدِمت أيضا ، ولم يبق منها إلا آثارها .

ومن بقايا الآثار بها صنم عظيم من حجر صوّان أملس ، قائم علىٰ باب ضريح الشيخ أبى الحجـاج الأَقْصُرىّ علىٰ حاله إلىٰ الآن ، ومر عليه زمنُ الشيخ وهو علىٰ ذلك ، ولعله إنمـا أراد ببقائه التنبيهَ علىٰ ضـعف عقول عَبَدَة الأصـنام لكونهم يعبدون حجرا مثل هذا .

(ومنها) بربا أَرْمَنْت ، وهى بربا صـغيرة قد ذهبت معالمها ، ولم يبق بها إلا عُمُد صوّان قائمة من غير شيء محمول عليها .

(ومنهـا) بربا إسْـنا ، وهى متوسـطة القدر بين الكبر والصـغر ، وقد بقى منها قطعة جيدة جُعِلت شونة للغلال ، وأهل إسـنا يذكرون أن الفأر لا يدخلها ، وإن دخلها مات .

ومن الآثار العجيبة بمصر أيضا مِسَلَّتان بعين شمس على القرب من المَطَرِيَّة من ضواحى القاهرة من حجر صوّان أحمر محدّدتا الرأسين. ذكر القضاعىّ : أن الشمس تطلعُ على الجنوبية منهما فى أقصر يوم فى السنة، وعلى الشَّمالية فى أطول يوم فى السنة؛ وتتردّد فيما بينهما فى بقية السنة. وذكر أنه كان عليهما صَوْمعتان من نُحَاس، إذا كان زمن زيادة النيل تقاطر الماء من أعلاهما إلى أسفلهما، فينبتُ حولها العَوْسَجُ، وما فى معناه من الحشيش.

ومن العجائب حائطُ العجوز، وهو حائط من لَبِنٍ، بنتها دَلُوكة ملكة مصر بعد فرعون، من العَرِيش إلى أُسْوان، دائرة على أراضى مصر من شرقيّها وغربيّها فى لِحْف جبليها؛ وجعلت بين كل ثلاثة أميال مَحْرَسا، وشقَّت خليجا من النيل إلى جانبها، وآثارها باقية إلى الآن بالجانب الشرقىّ والجانب الغربىّ.

المقصد الثانى عشر
(فى ذكر قواعدها المستقرّة)

وهى ثلاث قواعد، قد تقاربت واختلطت حتّى صارت كالقاعدة الواحدة.

القاعدة الأولى
(مدينة الفُسْطَاط)

بفاء مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء مهملة مفتوحة بعدها ألف ثم طاء ثانية فى الآخر. ويقال فيه فُسْتَاط بإبدال الطاء الأولى تاء وفُسَّاط. قال الجوهرىّ : وكسر الفاء لغة فيهن؛ وهى المدينة المعروفة بين العامة بمصر واسمها القديم باب أَلْيُونَ (١).

قال أبو السعادات بن الأثير فى نهايته : بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الياء المثناة تحت وسكون الواو ونون فى الآخر.

(١) وفى ياقوت بابِلْيُون الباء الثانية مكسورة واللام ساكنة وقد ذكره أيضا فى أليون

قال القضاعىّ : وهو آسمها بلغـة الرُّومِ والسُّودَانِ ، ولذلك يعرف القصر الذى بالشرق بباب أَلْيُونَ ، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال فى "كتاب الأطوال" : وطولها ثلاث وخمسون درجة ، وعَرْضها ثلاثون درجة وعشر دقائق .

وقال فى "القانون" : طولها أربع وخمسون درجة وأربعون دقيقة ، وعَرْضها تسع وعشرون درجة وخمس وخمسون دقيقة .

وقال آبن سعيد : طولها ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها تسع وعشرون درجة وخمس وخمسون دقيقة .

وقال فى "رسم المعمور" : طولها أربع وخمسون درجة وأربعون دقيقة .

والذى عليه عمل أهل زماننا فى وضع الآلات وغيرها طول خمس وخمسين درجة ، وعرض ثلاثين .

وآختلف فى سـبب تسميتهـا بالفُسْطَاط ، فقال آبن قُتَيْبَةَ : إن كل مدينـة تسمَّى فُسْطَاطًا ، ولذلك سميت مصر الفُسْطَاطَ .

وقال الزَّمَخْشرِىّ : الفُسْطَاطَ آسم لضَرْب من الأبنية ، فى القدر دون السُّرادِقِ والذى عليـه الجمهور أنه يسـمَّى بذلك لمكان فُسْـطَاط عمرو بن العاص رضى الله عنه يعنى خيمته ، وذلك أن عمرا لمـا فتح الحصن المعروف بقصر الشَّمَع فى سـنة إحدى وعشرين من الهجرة وآسـتولىٰ عليه ضرب فُسْطَاطَه علىٰ القرب منه فلمـا قصد التوجه إلىٰ الإسكندرية لفتحها ، أمر بنزع فُسْطَاطِه للرحيل ، فإذا بحَمَام قد أفرخ فيه فقـال : لقد تحرّم مِنَّا بحَرَم ، وأمر بإقرار الفُسْطَاط مكانه ، وأوصىٰ علىٰ الحَمَـام ، وسار إلىٰ الإسكندرية ففتحها ، ثم عاد إلىٰ فُسْطَاطِه ونزل به ونزل الناس حوله ، وآبتنىٰ داره الصغرىٰ التى هى علىٰ القرب من الجامع العتيق مكانَ فُسْطَاطِه ، وأخذ الناس فى الآختطاط حوله فتنافست القبائل فى المواضع والآختطاط ، فولّى عمرو

على الخطَط معاوية بن حُدَيْج التُّجيبي، وشريك بن سُمَىّ الغُطَيفى، وعمرو بن قَحْزَم الخَوْلَانِىّ، وحَيْويل بن ناشرة المَعَافرى، ففصلوا بين القبائل وأنزلوا الناس منازلهم، فآختطوا الخطَط وبنَـوْا الدور والمساجد، وعُرفت كل خطة بالقبيلة أو الجماعة التى آختطتها، أو بصاحبها الذى آختطها .

فأما الخِطَط والآدُر التى عرفت بالقبائل والجماعات .

(فمنها) خِطَّةُ أهل الراية، وهم جماعة من قُرَيْش، والأنصار، وخُزَاعَة، وأَسْلَم، وغِفَارٍ، ومُزَيْنَةَ، وأَشْجَع، وجُهَينَة، وثَقِيف، ودَوْسٍ، وعَبْس بن بَغِيض، وجُرَش من بنى كِنَانَةَ، ولَيْث بن بكر، لم يكن لكل منهم من العـدد ما ينفرد به بدعوة من الديوان فجعل لهم عمرو بن العاص رايةً لم ينسبها إلىٰ أحد، وقال يكون وقوفكم تحتها، فكانت لهم كالنسب الجامع، وكان ديوانهم عليها فعُرِفوا بأهل الراية، وآنفردوا بخطَّة وحدهم، وخِطَّتهم من أعظم الخِطَط وأوسعها .

(ومنها) خِطَّة مَهْرَة، وهم بنو مَهْرَةَ بن حَيْدانَ بن عمرو بن إلحَاف بن قُضاعَةَ آبن مالك بن حِمْيَر، من قبائل اليَمَن .

(ومنها) خِطَّة تُجِيبَ، وهم بنو عَدِىّ وسعد ابنى الأَشْرس بن شَبِيب بن السَّكَن بن الأشرس بن كِنْدَة، وتُجِيبُ آسم أمهما عرفت القبيلة بها .

(ومنها) خِطَطُ لَخْم، وهى ثلاث : الأولىٰ بنو لخم بن عَدِىّ بن مُرَّةَ بن أُدَد، ومَنْ خالطهم من جُذَام . والثانية، بنو عبد ربه بن عمرو بن الحرث بن وائل بن راشدة[1] آبن لَخْم . والثالثة، بنو راشدة بن أَذَبَّ بن جَزِيلة بن لَخْم .

(ومنها) خِطَطُ اللَّفِيف، وهم جماعة من القبائل تسارعوا إلىٰ مراكب الرُّوم حين بلغ عمرا قدومُهم الإسكندرية عند فتحها، فقال لهم عمرو[2]، وقد آستكثرهم : إنكم

(١) كذا فى آبن دقماق أيضا ووقع فى المقريزى "بنورية" وهو تصحيف .
(٢) فى خطط المقريزىّ وآبن دقماق "فقال لهم عمرو بن جمالة" .

لكما قال الله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ فسُمُّوا اللَّفِيفَ من يومئذ .

(ومنها) خِطَط أهل الظاهر ، وهم جماعة من القبائل قَفَلوا من الإسكندرية بعد قفول عمرو بن العاص ، فوجدوا الناس قد أخذوا منازلهم ، فتحاكموا إلىٰ معاوية بن حُدَيْج الذى جعله عمرو علىٰ الخِطَط ، فقال لهم : إنى أرىٰ لكم أن تظهروا علىٰ هذه القبائل فتتخذوا لكم منازل ، فسميت منازلهم الظاهر .

(ومنها) خِطَط غَافِق ، وهم بنو غافق بن الحٰرث بن عَكّ بن عُدْثَانَ بن عبد الله ابن الأَزْدِ .

(ومنها) خِطَط الصَّدِف : بفتح الصاد وكسر الدال المهملتين . وهم بنو مالك بن سَهْل بن عمرو بن قيس بن حِمْيَر من قبائل اليَمَن ، وقيل بنو مالك بن مُرَقَّع بن كِنْدة ، سمى الصَّدِف لأنه صَدَف بوجهه عن قومه حين أتاهم سَيْلُ العَرِم .

(ومنها) خِطَط خَوْلاَن ، وهم بنو خَوْلان بن عمرو بن مالك بن زيد بن عَرِيب .

(ومنها) خِطَطُ الفارسيين ، وهم بقايا جند باذانَ ، عامل كسرىٰ ملك الفُرْس علىٰ اليَمَن .

(ومنها) خِطَط مَذْحِج ، وهم بنو مالك بن مُرَّة بن أُدَدَ بن زيد بن كَهْلان بن عبدالله .

(ومنها) خِطَّة يَحْصُبَ ، وهم بنو يَحْصب بن مالك بن أسلم بن زيد بن غَوْث ابن حِمْيَر .

(ومنها) خِطّة رُعَيْن ، وهم بنو رُعَين بن زيد بن سهل بن يَعْفُر بن مُرَّة بن أُدَدَ .

(ومنها) خِطَّة بنى الكُلاَع ، وهو الكُلاَعُ بن شُرَحْبيل بن سَعْد بن حِمْيَر .

(ومنها) خِطَّة المَعَافِر ، وهم بنو المَعَافر بن يَعْفُر بن مُرَّة بن أُدَدَ .

(ومنها) خِطَط سَبإٍ ، وهم بنو مالك بن زيد بن وليعة بن معبد بن سَبَا .

(ومنها) خِطَّة بنى وائل ، وهو وائل بن زيد مناة بن أَفْصٰى بن إياس بن حَرَام بن جُذَام بن عَدِىّ .

(ومنها) خِطَّة القَبَض، وهم بنو القبض بن مَرْثَدٍ.

(ومنها) خِطَط الحَمْراوات، وهى ثلاث؛ سميت بذلك لنزول الروم بها، وهم حُمْر الألوان :

الأولىٰ ــ الحمراء الدُّنْيـا ، وبها خطة بَلِيٍّ ، وهم بنو بلِيّ بن عمرو بن إلْحَاف بن قُضَاعَة إلا من كان منهم فى أهـل الراية؛ وخِطَّة ثراد من الأزد، وخطة فَهْمٍ، وهم بنو فَهْمِ بنْ عمرو بن قيس بن عَيْلَانَ، وخطة بنى بحر بن سَوَادة من الأَزْدِ .

الثـانية ــ الحمراء الوُسْطىٰ ، وبها خطة بنى نبه ، وهم قوم من الروم حضروا الفتح؛ وخِطَّة هُذَيْل ، وهم بنو هذيل بن مُدْرِكَةَ بن إلْيَاسَ بن مُضَر؛ وخِطَّة بنى سَلَامَانَ من الأَزْدِ .

الثالثة ــ الحمراء القُصْوىٰ،وهى خطة بنى الأزرق من الرُّوم،وحضر الفتح منهم أربعمائة رجل؛ وخِطَّة بنى يَشْكُرَ بن جَزِيلَةَ من لَخْم،وإليهم ينسب جبل يَشْكُرَ الذى بُنِى عليه جامع أحمد بن طولون الآتى ذكره مع جوامع الفُسْطَاطِ إن شاء الله تعالىٰ .

(ومنها) خِطَط حَضْرَمَوتَ، وهم بنوحَضْرَمَوتَ بن عمرو بن قَيْس بن معاوية بن حِمْيَرَ؛ إلىٰ غيرذلك من الخطط التى دَرَسَتْ قبل الاهتمام بالتأليف فى الخِطَطِ .

⁂

واعلم أنه كان فى خلال هذه الخِطَط دُور جماعة كثيرة من الصحابة رضوان الله عليهم ممن حضر الفتح .

(منها) دار عمرو بن العاص، ودار الزُّبَيْر بن العوّام، ودار قَيْس بن سَعْد بن عُبَادة الأنصارىّ، ودار مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد الأنصارىّ، ودار عبد الرحمن بن عُدَيْسٍ البَلَوِىّ، ودار وَهْب بن عُمَير بن وَهْب بن خَلَف الجُمَحِىّ، ودار نافع بن عبد القيس بن لَقِيط الفِهْرِىّ ، ودار سَـعْد بن أبى وَقَّاصٍ، ودار عُقْبَـةَ بن عامر الجُهَنِىّ، ودار القاسم

وعمرو ٱبنَيْ قيس بن عمرو، ودار عبد الله بن سعد بن أبي سَرْحٍ العامريّ، ودار مسعود بن الأسود بن عبد شمس بن حَرَامٍ البَلَوِيّ، ودار المستَوْرِد بن شدّاد الفِهْرِيّ، ودار حُيَيّ بن حَرَامٍ اللَّيثيّ، (وفي صحبته خلاف)، ودار الحرث بن مالك اللَّيثيّ المعروف بٱبن البَرصاء، ودار بِشْر بن أَرْطَاةَ العامريّ، ودار أبي ثعلبة الخُشَنِيّ، ودار إِيَاس بن البُكَير الليثيّ، ودار مَعْمَر بن عبد الله بن نَضْلة القُرَشيّ العَدَوِيّ، ودار أبي الدَّرْدَاء الأنصاريّ، ودار يعقوب القِبْطِيّ رسول المُقَوْقِس إلىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلم مع مارِيَةَ: أمّ ولده إبراهيم وأختها شِيرين، ودار مُهَاجِرٍ مولىٰ أم سَلَمَةَ زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلم، ودار عُلْبَةَ بن زيد الأنصاريّ، ودار محمد ٱبن مَسْلَمَةَ الأنصاريّ، ودار أبي الأسود مَسْروح بن سدر الحصني، ودار عبد الله ٱبن عُمَر بن الخَطَّاب، ودار خارجةَ بن حُذَافة بن غانم العَدَوِيّ، ودار عُقْبَة بن الحرث، ودار عبد الله بن حُذَافة السهميّ، ودار محمية بن جَزْء الزَّبِيدِيّ، ودار المُطَّلب بن أبي وَدَاعة السَّهمِيّ، ودار هُبَيْب بن مَعْقِلٍ الغِفارِيّ، وبه يعرف وادي هُبَيْبٍ بالقرب من الإسكندرية، ودار عبد الله بن السائب المخزوميّ، ودار جَبْر القِبْطيّ رسول المُقَوْقِسِ إلىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ودار يزيد بن زياد الأسْلميّ، ودار عبد الله بن ريّان الأسلميّ، (وفي صحبته خلاف)، ودار أبي عميرة رشيد بن مالك المُزَنِيّ، ودار سِبَاع بن عُرْفُطَةَ الغِفَارِيّ، ودار نضلة بن الحرث الغِفَاريّ، ودار الحرث بن أسد الخزاعيّ (وفي صحبته خلاف)، ودار عبد الله بن هشام بن زُهْرَة من ولد تيم بن مُرَّة، ودار خارجة[(١)] بن حُذَافَة بن غانم العدويّ، وهو أوّل من ٱبتنىٰ غُرْفة بالفُسْطَاطِ، فكوتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أمرها فكتب إلىٰ عمرو بن العاص: أن ٱدخُل غرفة خارجة وٱنْصِب فيها سريرا، وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن ٱطّلع من كُوَاها فاهدِمْها . ففعل عمرو فلم

(١) تقدم قريبا فهو مكرر .

يبلغ الكُوىٰ فأقرّها، ودار محمد بن حاطب الجُمَحى، ودار رِفاعة الدَّوْسِىّ، ودار فَضالة آبن عبيد الأنصارىّ، ودار المطلب بن أبى وَدَاعة السهمىّ(١). إلىٰ غير ذلك من الدور التى أغفلت ذكرَها أصحابُ الخِطَط .

قلت : وكان أمراء مصر القائمون مقام ملوكها الآن ينزلون بالفُسْطَاط، ولم يكن لهم فى آبتداء الأمر مَقَرَّة معيَّنة، ولا دارٌ للإمارة مخصوصة . فنزل عمرو بن العاص أوّلُ أمرائها بداره علىٰ القرب من الجامع ، ولم يزل كلُّ أمير بعده ينزل بالدار التى يكون بها سكنه إلىٰ آخر الدولة الأُمَوِيَّة، وكان عبد العزيز بن مَرْوانَ ، وهو أمير مصر فى خلافة أخيه عبد الملك بن مَرْوَانَ قد بنىٰ دارا عظيمة بالفُسْطَاط سنة سبع وستين من الهجرة وسماها دار الذهب، وجعل لها قُبَّة مُذْهَبة إذا طلعت عليها الشمس لايستطيع الناظر التأملَ فيها خوفا علىٰ بصره، وكانت تعرف بالمدينة لسَعَتِها وعِظَمِها، وكان عبد العزيز ينزلها ، ثم نزلها بنوه بعده . فلما هرب مَرْوان بن محمد آخِرُ خلفاء بنى أُمَيَّةَ إلىٰ مصر، نزل هذه الدار فلما رهقَه القوم، أمر بإحراقها، فلامه فى ذلك بعض بنى عبد العزيز بن مَرْوَانَ فقال : إن أَبْقَ ، أَبْنِها لَبِنَةً من ذهب ولَبِنَةً من فِضّة، وإلا فما تصاب به فى نفسك أعظم، ولا يتمتع بها عدوّك من بعدك .

فلما غلب بنو العبّاس علىٰ بنى أُمَيَّةَ وهرب مَرْوانُ بن محمد آخرُ خلفاء بنى أُمَيَّةَ إلىٰ الديار المصرية، وتبعه علىّ بن صالح بن علىّ الهاشمىّ إلىٰ أن أدركه بمصر وقتله وآستقر أميرا علىٰ مصر فى خلافة السَّفَّاح أوّلِ خلفاء بنى العبّاس، آبتنىٰ دارا للإمارة ونزلها ، وصارت منزلةً للأمراء بعده إلىٰ أن وَلِى أحمد بن طولون الديار المصرية فنزل بها فى أوّل أمره، ثم آختطَّ بعد ذلك قَصْره المعروف بالمَيْدَان فيما بين قلعة الجبل الآن والمَشْهد النَّفِيسىّ وما يلى ذلك فى سنة ست وخمسين ومائتين ،

(١) سبق ذكرها فإعادتها سهو .

وكان له عدّة أبواب : بعضها عند المشهد النفيسى، وبعضها عند جامعه الآتى ذكره، وآختطّ الناس حوله، وآقتطع كل أحد قطيعة آبتنىٰ بها، فكان يقال: قطيعة هارون بن خُمَارويه، وقطيعة السُّودَان، وقطيعة الفَرّاشين، فعرف ذلك المكان بالقطائع، وتزايدت العمارة حتّى آتّصلت بالفُسْطَاط، وصار الكل بلدا واحدا، ونزل أحمد بن طولون بقصره المذكور، وكذلك بَنُوه بعده، وأهملت دار الإمارة التى آبتناها علىّ بن صالح بالفُسْطَاط. وآستقرّ الأمر علىٰ ذلك بعده أيام آبنه خُمَارَوَيْهِ وولديه جيش وهارون، وزادت العمارة بالقطائع فى أيامهما، وكثرت الناس فيها حتّى قتل هارون بن خُمَارَوَيْهِ بعد قتل أبيه وأخيه، وسار محمد بن سليمان الكاتب بالعساكر من العراق من قِبَلِ المُسْتَكْفِي بالله، ووصل إلىٰ مصر فى سنة آثنتين وتسعين ومائتين، وقد ولّى الطُّولُونِيَّةُ عليهم رَبيعَةَ بن أحمد بن طولون، فتسلم البلَد منه وخرّب القطائع وهَدَم القصر وقلع أساسه، وخرب موضعه حتّى لم يبقَ له أثر.

وكان بَدْرٌ الخفيفى غلام أحمد بن طولون قد بنىٰ دارا عظيمة بالفُسْطَاطِ عند المُصَلّى القديمة، وقيل آشتراها له أحمد بن طُولُونَ، ثم سَخِط عليه أحمد فنكبه، وسكنها بعده طاهر بن خُمَارَوَيْهِ، ثم سكنها بعده الحمامى غلام أحمد بن طولون. فلما هدم محمد بن سليمان الكاتبُ قصر بنى طولون بالقطائع، سكن هذه الدارَ، ثم سكنها عيسىٰ النَّوْشَرِىّ أميرُ مصر بعده، وآستقرّت منزلةً للأمراء إلىٰ أن وَلِيَ الإخشيدُ مصر فزاد فيها وعَظَّمها، وعمل لها مَيْدَانًا وجعل له بابا من حديد، وذلك فى سنة إحدىٰ وثلاثين وثلثمائة، ولم تزل منزلةً للأمراء إلىٰ أن غلبت الخلفاءُ الفاطميون الإخشيديةَ علىٰ مصر وبنىٰ القائد جوهرٌ القاهرةَ والقصرَ، فنقل باب هذه الدار إلىٰ القاهرة، وصار القصر منزلة لهم علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ خطَط القاهرة إن شاء الله تعالىٰ.

وصار الفُسْطَاطُ فى كل وقت تتزايدعمارته حتّٰى صار فى غاية العمارة ونهاية الحسن. به الآدُرُ الأَنِيقة، والمساجد القائمة، والحمامات الباهية، والقَيَاسِرُ الزاهية، والمستنزهات الرائقة، ورحل الناس إليه من سائر الأقطار، وقصدوه من جميع الجهات، وغصَّ بسُكَّانِه، وضاق فَضَاؤه الرحيب عن قُطَّانِه. حتّٰى حكىٰ صاحب "إيقاظ المُتَغَفِّل" عن بعض سُكَّان الفُسْطَاط أنه دخل حمَّاما من بناء الرُّوم فى أيام خُمَارَوَيْهِ بن طولون فى سنة سبع عشرة وثلثمائة فلم يجد فيها صانعا يخدُمه، وكان فيها سبعون صانعا قلَّ منهم من معه ثلاثة نَفَرٍ يغسلهم، وأنه دخل بعدها حمّاما ثم حمّاما فلم يجد من يخدمه إلا فى الحمّام الرابعة، وكان الذى خدمه معه ثان.

وحكىٰ فى موضع آخر عمن يثق به عن أبيه أنه شاهد من مسجد الوكرة (١) بالفُسْطَاط إلىٰ جامع ٱبن طولون قصبة سوق متصلة، فعدّ ما بها من مقاعد الحِمَّص المصلوق فكانت ثلثمائة وتسعين مقعدا غير الحوانيت وما بها.

وحكىٰ أيضا عمن أخبره أنه عدّ الأَسْطَال النُّحَاس المؤبدة فى البَكَر لٱستقاء الماء فى الطاقات المُطِلَّة علىٰ النيل، فكانت ستة عشر ألف سطل. قال: وبلغ أجرة مقعد يكرىٰ عند البيمارستان الطولونىّ بالفُسْطَاطِ فى كل يوم ٱثنى عشر درهما.

وذكر ٱبن حَوْقَلٍ أنه كان بالفُسْطَاطِ فى زمانه دار تعرف بدار ٱبن عبد العزيز بالموقف يُصَبّ لمن فيها من السكان فى كل يوم أربعمائة راوية ماء، وفيها خمسة مساجد، وحَمَّامَان، وفُرْنان.

قلت: ولم يزل الفُسْطَاط زاهىَ البنيان، باهى السُّكَّان، إلىٰ أن كانت دَوْلَةُ الفاطميين بالديار المصرية، وعمرت القاهرة علىٰ ماسيأتى ذكره، فتقهقر حالُه وتناقص، وأخذ الناس فى الٱنتقال عنه إلىٰ القاهرة وما حولها، نخلا من أكثر سُكَّانه، وتتابع الخراب

(١) الذى فى الخطط للمقريزى حين روىٰ هذه الحكاية عن "إيقاظ المتغفل" أيضا، "مسجد عبدالله" فلعله يسمى بذلك أيضا.

فى بنيانه، إلىٰ أن غلب الفرنج علىٰ أطراف الديار المصرية فى أيام العاضد: آخر خلفاء الفاطميين، ووزيرهُ يومئذ شاور السعدىّ فخاف علىٰ الفُسْطَاطِ أن يملكه الفرنج ويتحصنوا به، فأضرم فى مساكنه النار فأحرقها فتزايد الخراب فيه وكثر الخلوّ.

ولم يزل الأمر علىٰ ذلك فى تقهقر أمره إلىٰ أن كانت دولة الظاهر بِيبَرْس: أحد ملوك التُّرك بالديار المصرية، فصرف النـاسُ همتهم إلىٰ هـدم ماخلا من أخطاطه والبناء بنِقْضه بساحل النيل بالفُسْطَاط والقاهرة، وتزايد الهدم فيه وٱستمرّ إلىٰ الآن، حتّى لم يبق من عمارته إلا ما بساحل النيل، وما جاوره إلىٰ مايلى الجامع العتيق وما دانىٰ ذلك، ودثرت أكثر الخِطَط القديمة وعفا رسمها، وٱضْمَحلَّ ما بقى منها وتغيرت معالمه.

وإذا نظرت إلىٰ خطط الكندىّ والقضاعىّ والشريف النَّسَّابة، عرفت ما كان الفُسْطَاط عليه من العمارة وما صار إليه الآن، وإنما أجرينا ذكر بعض الخطط المتقدّمة، حفظا لأسمائها وتنبيها علىٰ ما كانت عليه . إلا أن فى ساحله المُطِلِّ علىٰ النيل الآن وما جاور ذلك المبانى الحسنة، والدور العظيمة، والقصور العاليـة، التى تبهج الناظر، وتسرّ الخاطر .

وكان أكثر بنيانه بالآجُرِّ المحكوك والجبس والجير من أوثق بناء وأمكنه، وآثاره الباقيـة تشهد له بذلك، وقد صار ما خرب منه ودَثَر كيمانا كالجبال العظيمة، وهجر غالبها وترك، وسكن فى بعضها رَعَاعُ الناس ممن لايعبَأُ به فى جوانب منها لا تعدّ فى العامر .

ومن كيمانه المشهورة التى ذكرها القضاعىّ كوم الجارح، وكوم دينار، وكوم السمكة وكوم الزينة، وكوم الترمس، وزاد صاحب "إيقاظ المتغفل" كوم بنى وائل، وكوم آبن غراب، وكوم الشقاف، وكوم المشانيق .

ويقابل الفُسْطاط من الجهة البحرية جزيرةُ الصِّناعة المعروفة الآن بالرَّوْضَة ، كانت صناعة العمائر أولا بها فنسبت إليها .

قال الكندىّ : وكان بناؤها فى سنة أربع وخمسين ثم غلب عليها آسم الروضة لحسنها ونَضَارتها وإطافة الماء بها ، ومابها من البساتين والقُصُور ؛ وهى جزيرة قديمة كانت موجودة فى زمن الروم . وكان بها حصن عليه سور وأبراج ؛ وبين الفُسْطاط وبينها جسر ممتدّ من المراكب علىٰ وجه النيل كما فى جسر بغداد علىٰ الدجلة ولم يزل قائما إلىٰ أن قدم المأمون مصر فأحدث عليه جسرا من خشب تمرّ عليه المارّة وترجع ، وبعد خروج المأمون من مصر هبَّت ريح عاصفة فى الليل فقطعت الجسر القديم ، وصدمت بسفنه الجسر المحدَث فذهبا جميعا ، ثم أعيد الجسر المحدَث وبطل القديم .

وقدذكر القضاعىّ : أنه كان موجودا إلىٰ زمنه ، وكان فى الدولة الفاطمية ، ثم جدّد الحصن المذكور أحمد بن طولون أمير مصر فى خلافة المعتمد فى سنة ثلاث ومائتين ؛ ثم آستهدم بعد ذلك بتأثير النيل فى أبراجه ومرور الزمان عليه ؛ ثم بنىٰ الصالح نجم الدين أيوب قلعةً مكانه فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وبقيت حتّى هدمها المعز أيبك التركمانى أوّل ملوك الترك ، وعمر من نِقْضها مدرسته المُعِزِّية برحبة الخرّوب ، وآتخذ الناس مكانها أملاكا ، وهى علىٰ ذلك إلىٰ زماننا ، ولم يبق بها إلا بعض أبراج آتخذها الناس أملاكا وعمروا عليها بيوتا . فلما ملك الظاهر بيبرس ، هَمَّ بإعادتها فلم يتفق له ذلك وبقيت علىٰ حالها .

قلت : وكانت أُرْفة[1] النيل التى بين جزيرة الصناعة وبين الفُسْطَاط هى أقوىٰ الفرقتين والتى بين الجزيرة والجيزة هى الضعيفة ، ثم آنعكس الأمر إلىٰ أن صار مابين الجزيرة والفسطاط يجف ولا يعلوه الماء إلا فى زيادة النيل ، ويبدو بين آخر

(١) فى الأصل أزفة وهو تصحيف والأرفة بالراء المهملة الحد والمُسنَّاةُ والمراد بها هنا الفرقة .

الفُسْطاط وهــذه الجزيرة علىٰ فُوَّهة خليج القاهرة حيث السدّ الذى يفتح عنــد وفاء النيل مكانٌ كالجزيرة، يعرف بمُنْشَأة المَهْرانى كان كوما يحرق فيه الآجُرُّ يعرف بالكوم الأحمر، عدّه القضاعىّ فى جملة كِيان الفُسْطَاط .

قال صــاحب "إيقاظ المتغفل" : وأوّل من ٱبتدأ فيــه العمارة بلبان المهرانىّ فى الدولة الظاهرية بيبرس فنسبت المنشأة إليه .

ويلى الفُسْطَاطَ من غربيّه بركَةٌ تعرف ببركة الحَبَش، وهى أرض مزدرعة .

قال القضاعىّ : كانت تعرف ببركة المَعَافِرِ وحِمْيَرَ، وكان فى شرقيّها جنّات تعرف بالحبش فنسبت إليها .

وذكر ٱبن يونس فى تاريخه أن تلك الجنــات تعرف بقَتَادَة بن قيس بن حبشى الصدفىّ، وهو ممن شهد فتح مصر .

قلت : وهى الآن موقوفة علىٰ الأشراف من ولد علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وقفها عليهم الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاضد من الخلفاء الفاطميين، ويليه من قبليّه حيث القرافة المكانُ المعروف بالخندق، كان قد ٱحتفره عبد الرحمن بن عُيَيْنَةَ خندقا فى سنة خمس وستين من الهجرة عند مسير مَرْوان بن الحكم إلىٰ مصر، فعرف بذلك .

⁂

وأما جوامعـــــه فســــــتة :

الأوّل

(الجامع العتيق المعروف بجامع عمرو)

وذلك أن عمرا لمـا بنىٰ داره الصغرىٰ مكان فُسْطَاطِه علىٰ ما تقدّم ذكره، ٱختط الجامع المذكور فى خِطَّة أهل الراية المتقدّمة الذكر .

قال القضاعىّ : وكان جنانا فيما ذكر الليث بن سعد . قال : وكان الذى حاز موضعه قَيْسَبَةَ بن كُلْثوم التُّجِيبىّ أحد بنى سُوم، فنزله فى حصار الحصن المعروف بقصر الشَّمَع، فلما رجع عمرو من الإسكندرية، سأل قَيْسَبَةَ فيه ليجعله مسجدا فسلمه إليه، وقال : تصدّقتُ به على المسلمين، وآختط له خِطَّة مع قومه فى بنى سومٍ فى تُجِيب؛ فبُنِى فى سنة إحدى وعشرين، وكان طوله خمسين ذراعا فى عرض ثلاثين ذراعا؛ ويقال : إنه وَقَفَ على قبلته ثمانون رجلا من الصحابة رضوان الله عليهم : منهم الزُّبَيْر بن العَوَّام، والمِقْدادُ بن الأَسْوَد، وعُبَادَةُ بن الصَّامِت، وأبو الدَّرْدَاء، وأبو ذَرٍّ الغِفَارِىّ، وأبو بَصْرَةَ الغِفَارِىّ وغيرهم؛ ولم يكن له يومئذ محراب مُجَوَّف بل عمد قائمة بصدر الجذار، وكان له بابان يقابلان دار عمرو آبن العاص، وبابان فى بَحْرِيّه، وبابان فى غَرْبِيّه، وطوله من قِبْلِيِّه إلى بحريّه مثل طول دار عمرو، وبينه وبين دار عمرو سبعة أذرع . ولما فرغ من بنائه، آتخذ عمرو بن العاص له مِنْبَرًا يخطب عليه، فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعزم عليه فى كسره، ويقول : أما يكْفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟ فكسره . ويقال إنه أعاده إليه بعد وفاة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه .

وقيل إن زكريا بن مرقيا(١) ملك النُّوبة أهدى لعبد الله بن أبى سَرْحٍ العامرىّ فى إمارته على مصر منبرا فجعله فى الجامع؛ ثم زاد فيه مسلَمة بن مُخَلَّدٍ الأنصارىّ فى سنة ثلاث وخمسين من الهجرة، وهو يومئذ أمير مصر من قِبَل معاوية بن أبى سُفْيان زيادةً من بَحْرِيِّه، وزَخْرَفه؛ وهو أوّل من صلّى على الموتى داخل الجامع، وتوالت فيه الزيادات والتجديدات إلى زماننا . وأوّل من رتب فيه قراءة المصحف

(١) فى آبن دقاق المخطوط "آبن مرقى".

عبدُ العزيز بن مَرْوَانَ فى إمارته فى سنة ست وسبعين ،ورفع عبد الله بن عبد المَلك سقفه فى سنة تسع وثمـانين بعد أن كان مطأطأ ؛ ثم جعل فيـه المحرابَ المجوَّفَ قُرَّة ٱبن شَرِيك العبسىّ ٱتّباعا لعمر بن عبد العزيز فى محراب مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلم فى المدينة ، وأحدث فيه المقصورة تبعا لمعاوية حيث فعل ذلك بالشأم .

وفى سـنة ٱثنتين وثلاثين ومائة أمر موسىٰ بن نصر اللخمىّ وهو أمير مصر بٱتخاذ المنابر فى جميع جوامع قُرىٰ مصر . وأوّل من نصب اللوحَ الأخضر فيـه عبدُ الله ٱبن طاهر ، وهو أمير مصر فى سـنة ٱثنتى عشرة ومائتين ؛ ثم ٱحترق الرّواق الذى فيه اللوح الأخضر فى ولاية خُمَارَوَيْهِ بن أحمد بن طولون ، فعمره خُمَارَوَيْهِ فى سنة خمس وسبعين ومائتين . ثم جدّد اللوحَ "الظاهرُ بيبرس" فى سنة ست وستين وستمائة ثم جدّد اللوحَ الأخضر بُرْهَانُ الدين المَحَلِّى التاجر فى سلطنة "الظاهر برقوق" فى أواخرها

وقد وصـف صاحب "إيقاظ المتغفل" الجامع علىٰ ما كان فى زمانه فى حدود ثلاث عشرة وسبعمائة فقال : إن ذَرْعه ثمانية وعشرون ألفا بذراع العمل ، مقدّمه ثمـانية آلاف ذراع وتسعمائة ذراع وخمسون ذراعا ، ومؤخَّره ثمـانية آلاف ذراع وتسعمائة وخمسون ذراعا ، وصحنه خمسة آلاف ذراع ، جانبه الشرقىّ ألفا ذراع وخمسمائة ذراع وخمسون ذراعا ، وجانبه الغربىّ كذلك ؛ وأبوابه ثلاثة عشر بابا لكل باب منها ٱسم يخصه ، فى جانبه القبلى باب واحد ؛ وبه أربعة وعشرون رواقا ، سبعة فى مقدّمه ، وسبعة فى مؤخَّره ، وخمسة فى شرقيّه ، وخمسـة فى غربيّه ؛ وفيه ثلثمائة عمود وثمـانية وسـتون عمودا ، بعضها منفرد وبعضها مضاف مع غيره ؛ وبصدره ثلاثة محاريب : المحراب الكبير المجاور للمنبَر ، والمحراب الأوسط ، ومحراب الخمس ؛ وفيه خمس صوامع : إحداها فى ركنه القبلىّ ممـا يلى الغربى ، وهى الغرفة ؛ والثانية فى ركنه القبلى ممـا يلى الشرقىّ ، وهى المنـارة الكبرىٰ ؛ والثالثة فى ركنه البحرىّ

ممـا يلى الشرقى ، وتعرف بالجديدة ، والرابعة فيما بين هـذه المنارة والمنـارة الآتى ذكرها ، وتعرف بالسعيدة ، والخامسة فى الركن البحرى مما يلى الغربى مقابل باب السطح ، وتعرف بالمستجدّة .

وهو على هذه الصفة إلى الآن لكنه قد آستهدم رواق اللوح الأخضر والرواقات التى داخله ، فأمر السـلطان الملكُ الظاهرُ ببنيانها ، فعلقت جُدُرُه على الخشب ، فآخترمته المنية قبل الشروع فى البناء ، وأخذ القاضى برهان الدين المَحَلّى تاجر الخاص فى عمـارة ذلك ، فهدم رواق اللوح الأخضر وما داخله ، وجدّد اللوح الذى كان قد نصبه الظاهر بيبرس ، وعمر الرواقات المستهدمة أنْفَس عمارة وأحسنها .

قلت : وممـا يجب التنبيه عليه أنه قد تقدّم أنه وقف على إقامة محراب هـذا الجامع ثمـانون رجلا من الصحابة ، وحينئـذ فيلحق بمحاريب البصرة والكوفة على الوجه الصائر إليـه بعض أصحابنا الشافعيـة فى أنه لا يجتهد فى التيامن والتياسر فى محاريبهما كما نبه عليه الشيخُ تَقِىّ الدين السبكى فى شرح منهاج النووى فى الفقه ، لكن قد ذكر القضاعى فى خِطَطه عن الليث بن سعد وآبن لَهِيعَةَ أنهما كانا يتيامنان فى صـلاتهما فيه ، وأن محرابه كان مشرّقا جدّا ، وأن قُرَّةَ بن شريك حين هـدمه وبناه ، تيامن به قليلا .

وقد حكى الشيخ تقى الدين السبكى فى شرح المنهاج أيضا عن بعض علماء الميقات : أنه أخبره أن فيـه الآن آنحرافا قليـلا . قال : ولعله من تغيير البناء ، وقد سألت بعض علماء هذا الشأن عن ذلك ، فأخبرنى عن الشيخ تقى الدين أبى الطاهر رأس علماء الميقات فى زماننا أنه كان يقول : من الدلالة على صحة عملنا فى آستخراج القبلة موافقته لمحراب الجامع العتيق .

الثـانى
(الجـامع الطُّولونى)

بناه أحمدبن طولون فى سنة تسع وخمسين ومائتين علىٰ الجبل المعروف بجبل يَشْكُر.

قال القضاعىّ : وينسب إلىٰ يَشْكُرَبن جزيلة من لخم، كان خِطَّة لهم .

قال ٱبن عبد الظاهر : وهو جبل مبارك معروف بإجابة الدعاء فيه .

قال : ويقال : إن الله تعالىٰ كلم موسىٰ عليه السـلام عليه . ويقال : إنّ ٱبن طولون أنفق علىٰ هـذا الجامع مائة ألف دينار وعشرين ألفا من كَنْزٍ وجده . ويقال : إنه لمـا فرغ من بنـائه أمر بتسـمع ما يقوله الناس فيـه من العيوب، فسمع رجل يقول : محرابه صغير، وآخر يقول : ليس فيه عمود، وآخر يقول : ليس فيه ميضأة، فقال : أما المحراب، فإنى رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم، وقد خطه لى، فأصبحت فرأيت النَّمْلَ قد أطافت بالمكان الذى خطه لى . وأما العُمُدُ، فإنى بنيته من مال حلال، وهو الكنز الذى وجدته فمـا كنت لأشوبه بغيره، والعمد لا تكون إلا من مسجد أو كنيسة فنزهته عن ذلك . وأما الميضأة، فأردت تطهيره من النجاسات، وها أنا أبنيها خلفه، ثم أمر ببنائها علىٰ القرب .

ويحكىٰ أنه كان لا يعبث بشىء قط، وأنه أخذ يوما دَرْج ورق أبيض وأخرجه ومدّه كالحَلَزُون، ثم ٱستيقظ لنفسـه وظن أنه فُطِنَ له، فأمر بعمارة المنارة علىٰ تلك الهيئة، وعلىٰ نظيرالعشارى الذى علىٰ رأسها عُمِل العشارى الذى علىٰ رأس قبة الإمام الشافعىّ رضى الله عنه . ولمـا فرغ من بناء الجامع رأىٰ فى منامه كأنّ نارا نزلت من السماء فأحرقت الجـامع دون ما حوله فعبر(١) رؤياه علىٰ عابر فقال له : بُشْرَاكَ قبوله، فإن الأمم الخالية كانوا إذا قرّبوا قربانا فتُقُبِّلَ، نزلت نارمن السماء فأكلته، كما فى قصة هَابِيلَ وقَابِيلَ، ورأىٰ مرةً أخرىٰ كأنّ الحق سبحانه وتعالىٰ تجلّى علىٰ ماحول الجامع

(١) لعله فقَصَّ كما فى المقريزى .

فعبّره له عابر بأنه يخرب ما حول الجامع ويبقى هو، بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ وكان الأمر كذلك، فهدمت منازل بنى طولون فى نكبتهم ولم يبق منها إلا الجامع .

الثالث

(جامع راشدة)

بناه الحاكم بأمر الله الفاطمىّ جنوبىّ الفُسْطَاط، على القرب من الرصد، وأدخله فى وقفه مع الجامع الأزهر وجامع المَقْسِ .

قال فى " إيقاظ المتغفل " : ليس هو بجامع راشدة حقيقة، وإنما جامع راشدةَ كان بالقرب منه، وهو جامع قديم بنته قبيلة يقال لها راشدة عند الفتح الإسلامى، فلما بنى الحاكم هذا سمي باسمه . قال : وقد أدركت بعضه ومحرابه، وكان فيه شجر كثير من شجر المُقْل .

الرابع

(جامع الرصد)

بناه الأمير عز الدين أيْبَك الأفرم أمير جاندار الصالحىّ النجمىّ فى شهور سنة ثلاث وستين وستمائة، عَمر منظرته المعروفة به هناك، وعَمر رباطا بجانبه قرّر فيه عددا تنعقد به الجمعة مقيمين فيه ليلا ونهارا .

الخامس .

(جامع الشُّعيبية بظاهر مصر أيضا)

بناه الأمير عز الدين الأفرم المذكور فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وسكنه الشيخ شمس الدين بن اللبان الفقيه الشافعىّ الصوفىّ فعرف به الآن .

السـادس

(الجـامع الجـديد)

بنـاه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالقرب من مَوْرَدة الخلفاء، وبدأ بعمارته فى التاسع من المحرّم فى سنة إحدىٰ عشرة وسبعمائة، وآنتهت عمارته فى ثامن صفر سنة آثنتى عشرة وسبعمائة، وخطب به قاضى القضاة بدُر الدين بن جماعة الشافعىّ، وصلّى فيه الجمعة فى التاسع من الشهر المذكور، ورتب فيه صوفية يحضُرُونه بعد العصر كما فى الخوانق، وهو من أحسن الجوامع وأنزهها بقعة خصوصا فى أيام زيادة النيل.

✣

وأما مساجد الخمْس، فكانت علىٰ العدد الذى لا يحصىٰ لكثرتها، وخِطَط القضاعىّ شاهدة بذلك:

وقد رأيت فى بعض التواريخ أن الفَنَاء وقع فى أيام كافور الاخشـيدىّ حتى لم يجدوا من يقبـل الزكاة، فأتوا بها إلىٰ كافور فلم يقبلها، وقال: آبنوا بها المساجد وآتخـذوا لهـا الأوقاف، فكان ذلك سبب زيادة الكثرة فيهـا، ولكنها الآن قد خربت بخراب الفُسْطَاط ودَثَرت ولم يبق إلا آثار القليل منها.

✣

وأما المدارس، فكان المتقدّمون يجلسون للعلم بالجامع العتيق؛ وأوّل من أحدث المدارس بالفُسْطَاطِ بنو أيوب، فعَمَر السلطان صلاح الدين رحمه الله مدرستين.

إحداهمـا ــ مدرسة المـالكية، المعروفة بالقَمْحية فى المحرّم سنة ست وستين وخمسمائة، وسميت بالقمحية لأنّ معلومها يصرف للمدرّسين والطلبة قمحا.

قال العماد الكاتب: وكانت قبل ذلك سوقا يباع فيه الغزل.

والثانية ــ المدرسة المعروفة بابن زين التجار، وكانت سجنا يُسْجَن فيه فبناها السلطان صلاح الدين مدرسة ووقفها علىٰ الشافعية، ووقف عليها الصاغة المجاورة لها

ثم عَمَر الملك المظفر تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بالمكان المعروف بمنازل العز بالقرب من باب القنطرة قبلىّ الفُسْطَاط مدرسةً ووقف عليها أوقافا من جملتها جزيرة الصِّناعة المعروفة بالرَّوْضَة .

ثم بنى السلطان الملك المعزّ أيبك التُرُكَانى أوّل ملوك الترك مدرسته المعزية برحبة الحرُّوب فى شهور سنة أربع وخمسين وستمائة .

وعَمَر الصاحب شرف الدين بن الفائزىّ مدرسته الفائزية قبل وزارته فى شهور سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وعمر الصاحب بهاء الدين بن حنا المدرسة الصاحبية بزقاق القناديل بعد ذلك .

⁂

وأما الخوانق والرُّبُط فلم تعهد بالفُسْطَاط ، غير أن الصاحب بهاء الدين بن حنا عَمَر رباط الآثار الشريفة النبوية بظاهر قبلىّ الفسطاط واشترى الآثار الشريفة وهى مِيلٌ من نُحَاس ، ومِلْقَطٌ من حديد ، وقطعة من العَنَزَة ، وقطعة من القَصْعة بجملة مال وأثبتها بالاستفاضة وجعلها بهذا الرباط للزيارة .

⁂

وأما البيمارستان فأوّل من أنشأه بالفُسْطَاطِ أحمد بن طولون فى سنة تسع وخمسين ومائتين وأنفق عليه ستين ألف دينار .

قال القضاعىّ : ولم يكن قبله بيمارستان بمصر، وشرط أن لا يعالج فيه جُنْدِىٌّ ولا مملوك .

القاعدة الثـانية

(القـاهرة)

(بألف ولام لازمين فى أولهـا وقاف مفتوحة بعدها ألف ثم هاء مكسورة وراء مهملة مفتوحة ثم هاء فى الآخر) ويقال فيها القاهرة المُعِزِّيَّة نسبة إلىٰ المُعِزّ الفاطمىّ الذى بنيت له ، وربمـا قيل المعزية القاهرة، سميت بذلك تفاؤلا ، وهى المدينة العظمىٰ التى ليس لهـا نظير فى الآفاق ، ولا يسمع بمثلها فى مصر من الأمصار .

بناها القائد جوهر المعزىّ لمولاه المعزّ لدين الله أبى تميم مَعَدّ، بن المنصور أبى الطاهر إسماعيل، بن القائم أبى القاسم محمد، بن المهدىّ بالله أبى محمد عبيدالله الفاطمىّ فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، عند وصوله إلىٰ الديار المصرية من المغرب، واستيلائه عليها، وموقعها شمالىّ الفُسْطاط المتقدّم ذكره علىٰ القرب منه .

قال فى "الروض المعطار" : وبينهما ثلاثة أميال . وكأنه يريد ما كان عليه الحال فى ٱبتداء عمارة القاهرة وهو ما بين سور الفُسْطَاطِ وسور القاهرة .

أما الآن فقد ٱنتشرت الأبنيـة وٱتصلت العمارة حتّى كادت المدينتان تتصـلان أو ٱتصلتا .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الله الظاهر فى خِطَط القاهرة : والذى ٱستقرّ عليه الحال أن حدّ القاهرة من السبع سقايات إلىٰ مشهد السيدة رُقَيّة عرضا، وكان قبل ذلك من المجنونة .

قال ٱبن سعيد : وكان مكانها قبل العمارة بستانا لبنى طولون علىٰ القرب من منازلهم المعروفة بالقطائع . وكيفما كان، فطولهـا وعرضها فى معنىٰ طول الفُسْطَاطِ وعرضه أو أكثر عرضا بقليل، وكان ٱبتداء عمارتها أَنَّ أمر إفْرِيقِيَّةَ وغيرها من بلاد المغرب كان قد أفضىٰ إلىٰ المُعِزّ المذكور، وقوىَ طمعه فى مصر بعد موت كافور الإخشيدى

وهى يومئذ والشأم والحجاز بيد أحمد بن على بن الاخشيد أستاذ كافور وهو صبىّ لم يبلغ الحلم، والمتكلم فى المملكة أهل دولته، والحسين بن عبدالله، فى الشأم كالنائب أو الشريك له يدعىٰ له بعده علىٰ المنابر.

وكانت مصر قد ضَعُف عسكرها لما دَهِمَها من الغلاء والوباء، فجهز المُعِزّ قائده جوهرا المتقدّم ذكره، فبرز جوهر إلىٰ مدينة رَقّادة من بلاد إفْرِيقِيَّةَ فى أكثر من مائة ألف وما يزيد علىٰ ألف صندوق من المال، وخرج المُعِزّ لتشييعه، فقال للشايخ الذين معه : "والله لو خرج جوهر هذا وحده، لفتح مصر، وليدخُلَنها بالأردية من غير حرب، ولينزلن فى خرابات ٱبن طُولون، ويبنى مدينة تسمّى القاهرة تَقْهَر الدنيا" وكان للعز غلام ببَرْقة اسمه أفلح، فكتب إليه المُعِزّ أن يترجل لجوهر إذا عبَرَ عليه ويقبل يديه، فبذل مائة ألف دينار علىٰ أن يُعْفىٰ من ذلك، فأبىٰ المُعِزّ إلا ذلك، فترجَّل من مكانه وقبّل يديه؛ وسار جوهر حتّى دخل مصر وتسلمها لسبع عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، ونزل فى مُنَاخه من سفره موضع القاهرة الآن ليلا، وٱختط القصرَ وأخذ فى بنائه وعمارة القاهرة، وٱختط الناس حوله.

فأما القصر، فإنه ٱختطه فى الليلة التى أناخ فيها قبل أن يُصْبِحَ، فلما أصبح رأىٰ فيه ٱزورارات غيرمعتدلة فلم يعجبه، ثم قال: قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه علىٰ حاله وتمادىٰ فى بنيانه حتّى أكمله.

ومكانه الآن المدرسة الصالحية بين القصرين إلىٰ رحبة الأيدمرىّ طولا؛ ومن السبع خُوَخ إلىٰ رحبة باب العيد عَرْضا؛ والحدّ الجامع لذلك أن تجعل باب المدرسة الصالحية علىٰ يسارك وتمضىَ إلىٰ السبع خُوَخ، ثم إلىٰ مشهد الحسين، ثم إلىٰ رحبة الأيدمرىّ، ثم إلىٰ الركن المخلّق، ثم إلىٰ بين القصرين حتّى تأتى إلىٰ باب المدرسة

الصالحية من حيث ٱبتدأتَ، فما كان على يسارك فى جميع دَوْرتك فهو موضع القصر.

وكان له تسعة أبواب بعضها أصليٌّ و بعضها مستحدَث .

أحدها — باب الذهب، ويقال إنه كان مكانَ المدرسة الظاهرية الآن .

الثـانى — باب البحر، ويقال إن مكانه باب قصر يشبك . قال ٱبن عبد الظاهر: وهو من بناء الحاكم .

الثالث — باب الزُّهومة، ومكانه قاعة شيخ الحنابلة بالمدرسة الصالحية، وكانت الصاغة مَطْبخا للقصر وكانوا يدخلون بالطعام إلى القصر من ذلك الباب فسمِّى باب الزهومة لذلك، والزُّهومة الذَّفَر .

الرابع — باب التربة، ويقـال إن مكانه بين باب الزُّهومة المتقـدّم الذكر ومشهد الحسين .

الخامس — باب الدَّيْلَم، وهو باب مشهد الحسين .

السادس — باب قَصْر الشوك، ومكانه بالموضع المعروف بقصر الشـوك على القرب من رحبة الأيدمرىّ .

السـابع — باب العِيد، وهو باب البيمارستان العتيق، سمى بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه لصلاة العيد، و إليه تنسب رحبة باب العِيد .

الثـامن — باب الزُمُرُّد، وهو إلى جانب بابِ العيد المتقدّم ذكره .

التـاسع — باب الريح، وقد ذكر ٱبن الطُّوَيْر أنه كان فى ركن القصر الذى يقابل سور دار سعيد السعداء التى هى الخانقاه الآن .

ثم ٱستجدّ المأمون بن البطائحى وزير الآمر تحت القوس الذى بين باب الذهب و باب البحر ثلاث مناظر، وسمى إحداها الزاهرة، والثانية الفاخرة، والثالثة الناضرة.

وكان "الآمر" يجلس فيها لعرض العساكر فى عيد الغَدِير، والوزير واقفٌ فى قوس باب الذهب، وكان مكان السيوفيين الآن سلسلةٌ ممتدّة إلىٰ ما يقابلها تعلق فى كل يوم من وقت الظهر حتّى لا يجوز تحت القصر راكب، ولذلك يعرف هذا المكان بدرب السلسلة .

ومما هو داخل فى حدود القصر مشهد الحُسَيْن .

وسبب بنائه أن رأس الإمام الحسين عليه السلام كانت بعَسْقَلَان، فخشِىَ الصالح طلائعُ بن رزيك عليها من الفرنج فبنىٰ جامعه خارج باب زُوِيلَةَ، وقصد نقل الرأس إليه فغلبه الفائز علىٰ ذلك، وأمر بابتناء هذا المشهد، ونقل الرأس إليه فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

ومن غريب ما اتفق من بركة هذه (١) الرأس الشريفة ما حكاه القاضى محيي الدين ابن عبد الظاهر : أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حين استولىٰ علىٰ هذا القصر بعد موت العاضد: آخر خلفاء الفاطميين بمصر قبض علىٰ خادم من خُدَّام القصر وحلق رأسه وشدّ عليها طاسا داخله خنافس فلم يتأثر بها، فسأله السلطان صلاح الدين عن ذلك وما السر فيه، فأخبر أنه حين أحضرت الرأس الشريفة إلىٰ المشهد حملها علىٰ رأسه، فخلّى عنه السلطان وأحسن إليه .

وكان بجوار القصر قصر صغير يعرف بالقصر النافعىّ من جهة السبع خُوَخ فيه عجائز الفاطميين .

قلت : ولم يزل هذا القصر منزلة الخلفاء الفاطميين من لدن المُعِزّ أوّل خلفائهم بمصر وإلىٰ آخر أيام العاضد آخر خلفائهم، وكانت الوزراء ينزلون بدار الوزارة التى ابتناها أمير الجيوش بدر الجمالىّ داخل باب النصر مكان الخانقاه الركنية بيبرس

(١) أنث الرأس مجاراة للغة العامة واللغة العربية تذكيره .

الآن . فلما وَلِىَ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة عن العاضد بعد عمه أسد الدين شيركوه ، نزل بدار الوزارة المذكورة ، وبقى بها حتّى مات العاضد فتحوّل إلىٰ القصر وسكنه ؛ ثم سكنه بعده أخوه العادل أبو بكر . فلما ملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر آنتقل منه إلىٰ قلعة الجبل علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ القلعة إن شاء الله تعالىٰ . وصارت دار الوزارة المتقدّمة الذكر منزلا للرسل الواردين من الممالك إلىٰ أن عَمَر مكانها السلطانُ الملك المظفر بيبرس الجاشنكير الخانقاه المعروفة به ، وخلا القصر من حينئذ من ساكنيه ، وأهمل أمره فخرب .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : قال لى بوّاب لباب الزُّهومة آسمه مرهف فى سنة ثلاثين وستمائة : كان لى علىٰ هذا الباب المدّة الطويلة ما رأيته دخل فيه حَطَب ولا رمى منه تراب . قال : وهذا أحد أسباب خرابه لوقود أخشابه وتكويم ترابه ؛ ثم أخذ الناس بعد ذلك فى تملكه وآستحكاره ، وعمرت فيه المدارس والأدُر . فبنىٰ السلطان الملك الصالح "نجم الدين أيوب" فيه مدرسته الصالحية ، ثم بنىٰ "الظاهر بيبرس" فيه مدرسته الظاهرية ، وبنىٰ فيه بشتاك أحد أمراء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فيه قصره المعروف به ، وجعلت دار الضرب فى وسطه ، ولم يبق من آثاره إلا البيمارستان العتيق ، فإنه كان قاعة بناها العزيز بالله بن المُعِزّ الفاطمىّ علىٰ ما سيأتى ذكره .

وكذلك القبة التى علىٰ رأس السالك من هذا البيمارستان إلىٰ رحبة باب العيد ، وبعض جُدُرٍ لا يعتدّ بها قد دخلت فى جملة الأملاك .

⁂

وأما (أبواب القاهرة وأسوارها) ، فإن القائد جوهرا حين آختطها جعل لها أربعة أبواب : بابين متقاربين ، وبابين متباعدين . فالمتقاربان (بابا زُوَيلة) نسبة إلىٰ زوَيْلَة

قبيلة من قبائل البربر الواصلين مع جوهر من المغرب، ولذلك يقع فى عبارة الموثّقين وغيرهم بابا زُوَيلة ،وأحد هذين البابين القَوْسُ الموجود الآن المجاور للمسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام، والثانى كان موضع الحوانيت التى يباع فيها الجبن علىٰ يَسْرَةِ القوس المتقدّم ذكره يدخل منه إلىٰ المحمودية . وكان سبب إبطاله وسدّه أن المُعِزَّ الذى بنيت له القاهرة لما دخلها عند وصوله من المغرب،دخل من القوس الموجود الآن هناك فآزدحم الناس فيه وتجنبوا الدخول من الباب الآخر،وآشتهر بين الناس أن مَنْ دخل منه لم تقض له حاجة ، فرُفِضَ وسُدَّ ، وجعل زقاق جنوبيّه يتوصل منه إلىٰ المحمودية، وزقاق شماليّه يتوصل منه إلىٰ الأنماطيين وما يليها .

والبابان المتباعدان هما القوس الذى داخل باب الفتوح خارج حارة بهاء الدين، وقوس آخر كان علىٰ حياله داخل باب النصر بالقرب من وكالة قيسون الآن، فهدم ثم آبتنىٰ أمير الجيوش بدر الجمالىّ المتقدّم ذكره فى سنة ثمانين وأربعمائة سورا من لَبِنٍ دائرا علىٰ القاهرة،وبعضه باق إلىٰ زماننا بخط سوق الغنم داخل الباب المحروق؛ ثم آبتنىٰ الأفضل بن أمير الجيوش باب زُوَيْلَةَ ، وباب النصر، وباب الفتوح الموجودين الآن فيما ذكره القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى خِطَطه ، إلا أنه ذكر فى مواضع أخر منها أن باب زويلة بناه العزيز بالله وأكمله بدر الجمالىّ ، وهو من أعظم الأبواب وأشمخها، وليس له باشورة علىٰ الأبواب، وفيه يقول علىّ بن محمد النيلى :

ياصَاحِ لو أبْصَرْتَ بَابَ زُوَيْلَةٍ ، * لعَلِمْتَ قَدْرَ مَحَلِّه بُنْيَانَا
بابٌ تَأَزَّرَ بالمَجَرَّةِ وآرْتَدَىٰ الشِّعرىٰ ولاَثَ بَرأْسِهِ كِيوَانَا
لو أَنَّ فِرْعَوْنًا رآه لم يُرِد * صرحا ولا أَوْصَىٰ به هَامَانَا

قال ابن عبد الظاهر : (وباب سعادة) ربما ينسب إلى سعادة بن حيان غلام المُعِزّ، وكان قد ورد من عنده فى جيش إلىٰ جوهر وولى الرملة بعد ذلك .

قال : (وباب القنطرة) منسوبٌ إلىٰ القنطرة التى أمامه، وهى من بناء القائد جوهر بناها عند خوفه من القَرامطة ليجوز عليها إلىٰ المَقْس. والقوس الذى بالشارع الأعظم خارج باب زويلة علىٰ رأس المنجبية عند الطيوريين الآن كان بابا بناه الحاكم بأمر الله خارج القاهرة، وكان يعرف بالباب الجديد .

(وباب الخوخة) الذى علىٰ القرب من قنطرة الموسكى أظنه من بناء الفاطميين أيضا، ولما ملك السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" الديار المصرية انتدب لعمارة أسوار القاهرة ومصر فى سنة تسع وستين وخمسمائة الطواشىَ بهاء الدين قراقوش الأسدىّ الرومىّ علىٰ كثرة من أسرىٰ الفرنج عندهم يومئذ (١)، فبنىٰ (١) سورا دائرا عليها وعلىٰ قلعة الجبل والفُسْطَاط، ولم يزل البناء به حتّى توفى السلطان صلاح الدين رحمه الله وهو الموجود الآن، وجعل فيها عدّة أبواب :

منها باب البحر، وباب الشعرية، وباب البرقية، والباب المحروق ؛ وابتنىٰ برجين عظيمين أحدهما بالمَقْس علىٰ القرب من جامع باب البحر، وهو الذى هدمه الصاحب شمس الدين المَقْسىّ وزير الأشرف شعبان بن حسين علىٰ رأس السبعين والسبعمائة، وأدخله فى حقوق الجامع المذكور حين جدّد بناءه ؛ والثانى بباب القنطرة جنوبىّ الفُسْطَاطِ .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : وقياس هذا السور من أوله إلىٰ آخره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة وذراعان بالهاشمىّ ؛ من ذلك من باب البحر إلىٰ البرج بالكوم الأحمر يعنى رأس منشأة المهرانى المتقدّم ذكرها فى الكلام

(١) لم يذكر هذه الجملة فى خطط المقريزى .

علىٰ خِطَط الفُسْطَاط عنـد فُوَّهة خليج القاهرة عشرة آلاف ذراع ؛ ومن الكوم الأحمر المذكور إلىٰ قلعة الجبـل من جهة مسجد سعد الدولة سـبعة آلاف ذراع ومائتـا ذراع ؛ ومن مسجد سـعد الدولة المذكور إلىٰ باب البحر ثمـانية آلاف ذراع وثلثمائة وآثنان وتسـعون ذراعا ، ودائر القلعـة ثلاثة آلاف ذراع ومائة وعشرة أذرع .

وآقتصر السلطان عمـاد الدين صاحب حماة فى تاريخه علىٰ ذَرْع السُّور من غير تفصيل ولم يتعرّض للذراعين الزائدين .

قلت : وهذا السور قد دَثَر أكثره ، وتغيرت معالم غالبه : للصوق عمائر الأملاك به حتّىٰ إنه لا يتميز فى غالب الأماكن من الأملاك ، وسقط ما بين باب البحر إلىٰ الكوم الأحمر حتّىٰ لم يبق له أثر . علىٰ أن ما هو داخل سور القاهرة الأوّل من الأماكن أرضه سبخة وماؤه زُعَاق .

قال آبن عبد الظاهر : ولذلك عَتَب المُعِزّ عند وصوله إلىٰ الديار المصرية ودخوله القاهرة علىٰ جوهر لكونه لم يعمُرْها مكان المَقْس علىٰ القرب من باب البحر أو جنوبىّ الفُسْطَاط علىٰ القرب من الرصد لتكون قريبة من النيل ، عَذْبة مياه الآبار .

وآعلم أن خطط القاهرة قد آتسعت وزادت العمارة حولها ، وصار ما هو خارجَ سورها أضعاف ما هو داخله . ثم منهـا ماهو منسوب إلىٰ دولة الفاطميين ، ومنها ماهو منسوب إلىٰ من تقدّمهم من الملوك ، إما لدروس آسمه الأوّل وغلبة آسمه الثانى عليه ، وإما لآستحداثه بعد أن لم يكن ؛ ومنها ماهو مجهول لآنقطاع شهرته بطول الأيام ومرور الليالى . وإنمـا يقع التعرّض هنا للأماكن الظاهرة الشُّهْرَة ، الدائرة علىٰ الألسنة دون غيرها ، وأنا أذكرها علىٰ ترتيب الأماكن لا علىٰ ترتيب القِدَم والحدوث .

أما خططها المشهورة داخل السور .

(فمنها) ””حارة بهاء الدين““ داخل باب الفتوح ، وتعرف بالطواشى بهـاء الدين قراقوش بانِى ســور القاهرة المتقدّم ذكره، وكانت فى دولة الفاطميين تعرف ببين الحـارتين ، ثم آختطها قوم فى الدولة الفاطمية يعرفون بالرَّيحانية والعزيزية فعرفت بهم . فلما سكنها بهاء الدين قراقوش المذكور، آشتهرت به ونُسِى ماقبل ذلك .

(ومنها) ””حارة بَرْجَوَانَ““وتعرف ببَرْجَوَان الخادم، كان خادم القُصُور فى أيام العزيز بالله آبن المُعِزّ ثانى خلفاء الفاطميين بمصر، ووصّاه علىٰ آبنه الحاكم فعظُم شأنه، ثم قتله الحاكم بعد ذلك . ويقال إنه خلف فى تركته ألف سراويل بألف تكة حرير .

وبهذه الحارة كانت دار المظفر بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ .

(ومنها) ””خط الكافورى““ كان بستانا لكافور الاخشيدىّ، وبنيت القاهرة وهو بستان ، وبقى إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسين وستمائة ، فاختطه طائفة البحرية والعزيزية إصطبلات، وأزيلت أشجاره وبقيت نسبته إلىٰ كافور علىٰ ما كانت عليه .

(ومنها) ””خُط الخرنشف““(١) كان ميدانا للخلفاء الفاطميين، وكان لهم سِرْداب تحت الأرض إليه من باب القصر يمرّون فيه إلىٰ الميدان المذكور راكبين، ثم جعل مصرفا للمـاء لما بنيت المدرسة الصالحية، ثم بنىٰ به الغُزّ بعد الستمائة إصطبلات بالخرنشف وسكنوها فسمى بذلك .

(ومنها) ””درب شمس الدولة““ علىٰ القرب من باب الزُّهومة ، وكان فى الدولة الفاطمية يعرف بحارة الأمراء، وبها كانت دار الوزير عبـاس وزير الظافر، وبها المدرســة المسرورية بناها مسرور الخادم ، وكـان أحد خُدَّام القصر فى الدولة الفاطمية وبقى إلىٰ الدولة الأيوبية، وآختص بالسلطان صلاح الدين وتقدّم عنده،

(١) فى المقريزى ””الخرشتف““ وفسره بأنه المتجمد من وقود الحمامات بعد إحراقها وهى تسمية عرفية .

ثم سكنها شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف ، وعمر بها دربا فعرف به ونسب إليه .

(ومنها) "حارة زُوَيْلة" وتنسب إلىٰ زُوَيلة قبيلة من البربر الواصلين صحبة القائد جوهر علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ باب زويلة ، وهى حارة عظيمة متشعبة .

(ومنها) "الجودرية" وتعرف بطائفة يقال لهم الجودرِيّة من الدولة الفاطمية نسبة إلىٰ جودر خادم عبيد الله المهدىّ أبى الخلفاء الفاطميين ، آختطوها وسكنوها حين بنىٰ جوهرُ القاهرة ، ثم سكنها اليهود بعد ذلك إلىٰ أن بلغ الحاكم الفاطمىّ أنهم يَهْزءُون بالمسلمين ويقَعُون فى حق الإسلام ، فسدّ عليهم أبوابهم وأحرقهم ليلا ، وسكنوا بعد ذلك حارة زُوَيلة المتقدّمة الذكر .

(ومنها) "الوَزِيرية" وتعرف بالوزير أبى الفرج يعقوب بن كلس وزير المعز بالله الفاطمىّ ، وكان يهودىّ الأصل يخدُم فى الدولة الاخشيدية ، ثم هرب إلىٰ المُعِزّ الفاطمىّ بالمغرب لمال لزمه ، فلقى عسكر المعز مع جوهر فرجع معه ، وعظُمت مكانته عند المُعِزّ حتّى آستوزره ، وكانت داره مكان مدرسة الصاحب صفىّ الدين ابن شكر : وزير العادل أبى بكر بن أيوب المعروفة بالصاحبية بسويقة الصاحب ، وكانت قبل ذلك تعرف بدار الديباج .

(ومنها) "المحموديّة" قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : ولعلها منسوبة إلىٰ الطائفة المعروفة بالمحمودية القادمة فى أيام العزيز بالله الفاطمىّ إلىٰ مصر .

(ومنها) "حارة الروم" داخل بابَىْ زُوَيلة ، آختطها الرُّوم الواصلون صحبةَ جوهر القائد حين بنائه القاهرة فعُرِفت بهم ونسبت إليهم إلىٰ الآن .

(ومنها) "الباطلية" قال آبن عبد الظاهر : تعرف بقوم أتوا المُعِزّ بانى القاهرة وقد قسم العطاء فى الناس فلم يعطهم شيئا ، فقالوا : نحن علىٰ باطل؟ فسميت الباطلية .

(ومنها) "حارة الدَّيْلم" وتعرف بالديلم الواصلين صحبـة افتكين المعزّى غلام المعز ٱبن بويه الديلمىّ، وكان قد تغلب علىٰ الشام أيام المُعِزّ الفاطمىّ وقاتل القائد جوهرا وٱستنصر بالقرامطة، وخرج إليهم العزيز بالله فأسره فى الرملة وقَدِم به إلىٰ القاهرة فأجزل له العطاء، وأنزله هو وأصحابه بهـذه الخِطَّة. وبها كانت دار الصالح طلائع ٱبن رزيك بانى الجامع الصالحىّ خارج باب زويلة، وكان يسكنها قبـل الوزارة؛ وخوخته بها معروفة إلىٰ الآن بخوخة الصالح.

(ومنها) "حارة كُتَامة" علىٰ القرب من الجامع الأزهر بجِوَار الباطلية، تعرف بقبيلة كُتَامة من البربر الواصلين صحبة جوهر من الغرب.

(ومنها) "إصطبل الطارمة" بظاهر مشهد الحسين، كان إصطبلا للقصر، وبهذا الخط كانت دار الفِطرة التى يعمل فيها فطرة العيد، بناها المأمون بن البطائحى وزير الآمر، وكانت الفطرة قبل ذلك تعمل بأبواب القَصْر، وسيأتى الكلام علىٰ الفطرة مستوفىً فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ.

(ومنها) "حارة الصالحية" قبلىّ مشهد الحسين: كانت طائفة من غلمان الصالح طلائع بن رزيك قد سكنوها فعرفت بهم ونسبت إليه.

(ومنها) "البَرْقية" قال ٱبن عبدالظاهر: ٱختطها قوم من أهل بَرْقة قَدِمُوا صحبة جوهر فعرفت بهم. ورأيت بخَطّ بعض الفضلاء بحاشـية خِطَطِ ابن عبد الظاهر أن الصالح طلائع بن رزيك لما قتل عباسا وزير الظافر وتقلد الوزارة عن الآمر، أقام جماعة من الأمراء يقال لهم البرقية عَوْنا له وأسكنهم هذه الخِطَّة فنسبت إليهم.

(ومنها) "قَصْر الشوك" علىٰ القرب من رَحَبة الأيْدُمْرِى، قال ٱبن عبدالظاهر: كان قبل عمارة القاهرة منزلة لبنى عُذْرة تعرف بقصر الشوك.

(ومنها) ... ... (١) وكانت خزانة السلاح فى الدولة الفاطمية ، ثم جعلت سِجْنا فى الأيام المستنصرية ، ثم آحتُكِرت بعد ذلك وجعلت آدُرًا .

(ومنها) "رَحَبة باب العيد" تنسب إلىٰ باب العيد : أحد أبواب القصر المسمّى بباب العيد المقدّم ذكره .

(ومنها) "دَرْب مُلُوخِيَّة" ينسب لمُلُوخيَّة صاحب رِكَاب الحاكم ، وبه مدرسة القاضى الفاضل وزير السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وبه كانت دارُه .

(ومنها) "العُطُوف" وأصل آسمها العُطُوفية : نسبة إلىٰ عطوف خادم الحاكم .

(ومنها) "الجَوّانية" قال آبن عبد الظاهر : وهى صفة لمحذوف ، وأصلها حارة الرُّوم الجَوّانية ، وذلك أن الرُّوم الواصلين صحبة جوهر آختطوا حارة الروم المتقدّمة الذكر وهذه الحارة ، وكان الناس يقولون : حارة الروم البَرّانية وحارة الروم الجَوّانية فثقل ذلك عليهم ، فأطلقوا علىٰ هـذه الجَوّانيةَ وقَصَروا آسم حارة الروم علىٰ تلك . قال : والورّاقون إلىٰ هذا الوقت يقولون حارة الروم السفلىٰ وحارة الروم العُلْيا المعروفة بالجَوّانية ، ثم قال : ويقال إنها منسوبة إلىٰ الأشراف الجَوّانيين الذين منهم الشريف الجوّانى النَّسّابة .

وأما خططها المشهورة خارج السور :

(فمنها) "الحُسَينِيَّة" كانت فى الأيام الفاطمية ثمانَ حارات خارج باب الفتوح أوّلها الحارة المعروفة بحارة بهاء الدين المتقدّم ذكرها ، وهى حارة حامد ، والمُنْشأة الكبرىٰ ، والحارة الكبيرة ، والمُنْشأة الصغيرة ، وحارة عَبِيد الشراء ، والحارة الوسطىٰ ، وسوق الكبير بمصر ، والوَزِيرية ، وكان يسكنها الطائفة المعروفة بالوزيرية والريحانية من الأرمن والعُجْمان وعبيد الشراء .

---

(١) بياض بالأصل .

قال آبن عبـد الظاهر : وكان بهـا من الأرمن قريب من سبعة آلافِ نفس، ثم سكنها جماعة من الأشراف الحُسَينيين قَدِموا فى أيام الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من الحجاز إلىٰ مصر، فنزلوا بهذه الأمكنة وآستوطنوها فسميت بهم، ثم سكنها الأجناد بعد ذلك وبنَوْا بها الأبنية العظيمة والآدُرَ الضخمة .

قال آبن عبد الظاهر : هى أعظم حارات الأجناد .

قلت : وذلك بحسب ما كان الحال عليه فى زمانه ، ولكنها قد خربت فى زماننا هذا ، وآنتقل الأجناد إلىٰ الأماكن القريبة من القلعة بصليبة الجامع الطولونىّ ونحوها .

وبنىٰ بهاء الدين قراقوش خانا للسبيل تنزلة المارّة وأبناء السبيل فعرف خطه به .

(ومنها) "الخندق" خارج الحسينية بالخندق ، كان عنده خندق آحتفره العزيز بالله الفاطمىّ وكان المُعِزّ قد أسكن المغاربة هناك فى سـنة ثلاث وسـتين وثلثمائة حين تبسطوا فى القرافة والقاهرة وأخرجوا الناس من منازلهم، وأمر مناديا ينادى لهم كل ليلة : من بات منهم فى المدينة آستحق العقوبة .

(ومنها) "أرض الطَّبَّالة" منسوبة لآمرأة مغنية آسمها نَسَب ، وقيل طَرَب ، كانت مغنية للمستنصر الفاطمىّ وآسمه مَعَدّ .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : ولمـا ورد الخبر عليـه بأنه خُطِب له ببغداد فى نَوْبة البساسيرى قريب السنة غنته نَسَب هذه :

يا بَنِي العَبَّاسِ صُدّوا ＊ قَدْ وَلِيَ الأمْرَ مَعَـدُّ
مُلْكُكُمْ كَانَ مُعَـارًا ＊ والعَوَارِى تُسْـتَرَدُّ

فوهبها هـذه الأرض فى سنة آثنتين وثلاثين وأربعمائة فحُكِرت وبنيت آدرا فعرفت بها . قال : وكانت من مُلَح القاهرة وبهجتها، وفيها يقول آبن سعيد المغربىّ مجانسا بين القُرْط الذى ترعاه الدوابّ والقُرْط الذى يكون فى الأذن .

سقى الله أرضا كلّما زُرْتُ رَوْضَها، * كَسَاها وحَلَّاها بزينته القُرْطُ
تَجَلَّتْ عَرُوسًا والمِيَاهُ عُقُودُها * وفى كُلِّ قُطْرٍ من جوانبها قُرْطُ

(ومنها) "خط باب القنطرة" قال ابن عبدالظاهر : ذكر لى عَلَم الدين بن مماتى أنه فى كتب الأملاك القديمة يسمى بالمُرْتاحية .

(ومنها) "المَقْس" قال القضاعىّ فى "خططه" : كانت ضيعة تعرف بأُمّ دُنَيْنٍ، وكان العاشر الذى يأخذ المَكْس يقعد بها لاستخراج المال ، فقيل المكس بالكاف ثم أبدلت الكاف فى الألسنة قافا .

قال ابن عبد الظاهر : ومن الناس من يقول فيه المَقْسِم لأن قسمة الغنائم فى الفتوح كانت فيه . قال : ولم أر ذلك مسطورا ، وكانت الدكة من نواحيه بستانا إذا ركب الخليفة من الخليج يوم الكسر أتى إليه فى البر الغربىّ من الخليج فى مركبه ويدخله بمفرده فيسقِي منه فرسه، ثم يخرج إلى قصره على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية . إن شاء الله تعالى .

قال ابن عبد الظاهر : والدكة الآن آدُرٌ وحارات شهرتها تغنِي عن وصفها فسبحان من لا يتغير .

قلت : وقد خَرِب أكثر تلك الآدُر والحارات حتّى لم يبقَ منها إلا الرسوم ، وبعضها باق يسكنه آحاد الناس .

(ومنها) "مَيْدان القمح" كان قديما بستانا سلطانيا يسمّى بالمَقْسِىّ يدخل الماء إليه من الخليج المعروف بالخليج الذكر الذى بناه كافور الاخشيدىّ، ثم أمر الظاهر الفاطمىّ بنقل أنشابه وحفره وجعله بركة قدّام اللؤلؤة ، وأبقى الخليج المذكور مسلطا على البركة ليستنقع الماء فيها . فلما ضعف أمر الخلافة الفاطمية ، وهُجِرت رُسومها القديمة فى التفرج فى اللؤلؤة وغيرها ، بنت السُّودان المعروفون بالطائفة

الفَرَحيــة الساكنون بالمَقْس عند ضِــيقهِ عليهم قُبــالةَ اللؤلؤة حارة سميت حارة اللُّصوص بسبب تعدّيهم فيهــا مع غيرهم ، ثم تنقلت بها الحال حتّىٰ صار علىٰ ما هو عليه الآن .

(ومنها) "برآبن التبان" غربىّ خليج القاهرة ، وينسب إلىٰ آبن التبان رئيس حِرَّاقة الخلافة الفاطمية ، وكان الآمر الفاطمىّ قد أمر بالعمارة قُبَالة الحرق غربىّ الخليج ، فأوّل من عمر به آبن التَّبَّان المذكور ، أنشأ به مسجدا وبستانا ودارا فعرفت الخِطَّة به إلىٰ الآن .

(ومنها) "خط اللوق" وهو خط قديم متسع ينتهى إلىٰ الميدان المعدّ لركوب السلطان عند وفاء النيل ، قد عُمِر بالأبنية وسكنه رَعَاع الناس وأوباشُهم والمكان المعروف الآن بباب اللُّوقِ جزء منه .

(ومنها) "بِرْكة الفِيل" وهى بركة عظيمة متَّسِعة جنوبىّ سور القاهرة عليها الأبنية العظيمة المستديرة بها .

قال آبن عبد الظاهر : وتنسب إلىٰ رجل من آصحاب آبن طولون يعرف بالفيل وما أحسن قولَ آبن سعيد المغربىّ :

أُنْظُرْ إلىٰ بِرْكَةِ الفِيلِ التى آكْتَنَفَتْ * بهــا المَنَــاظِرُ كالأَهْدَابِ لِلْبَصَرِ
كأنَّمَــا هِىَ والأَبْصَــارُ تَرْمُقُهَــا * كَوَاكِبٌ قَدْ أَدَارُوها عَلىٰ القَمَرِ

(ومنها) "خط الجامع الطولونى" من الصليبة وماوالاها ، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خِطَط الفُسْطاط أن هذه الأرض كانت منازل لأحمدَ بن طولون وعَسْكره ، والجبل الذى فى جانبها البحرىّ يعرف بجبل يَشْكُرَ ، وعليه بناء الجامع الطولونىّ المذكور ، وآســتحدث الملكُ الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله عليــه قصورا جاءت فى نهاية الحســن والإتقان ، وهى المعروفة بالكَبْش ، ولم يزل يسكنها أكابر الأمراء إلىٰ أن

خَرَّبها العوامّ فى وقعة الجلبان قبل السبعين والسبعمائة وهى علىٰ ذلك إلىٰ الآن ، وقد شرع الناس الآن فى ٱستحكار أماكنها للعمارة فيها فى حدود سنة ثمانمائة .

(ومنها) "خط حارة المَصامِدة" وتنسب لطائفة المَصامِدة من البربر الذين قَدِموا مع المُعِزّ من المغرب، وكان المقدّم عليهم عبدَ الله المصمودىّ، وكان المأمون بن البطائحىّ وزير الآمر قد قدّمه ونوه بذكره، وسلم إليه أبوابه للمبيت عليها ، وأضاف إليه جماعة من أصحابه .

(ومنها) "الهِلَالية" قال ٱبن عبد الظاهر : أظنها الحارة التى بناها المأمونُ بن البطائحىّ خارج الباب الجديد الذى بناه الحاكم بالشارع علىٰ يَسْرة الخارج منه للمَصامدة لما قدّمهم ونوه بذكرهم، وحذر أن يبنىٰ بينها و بين بركة الفيل حتّى صارت هذه الحارة مُشْرِفة علىٰ شاطئ بركة الفيل إلىٰ بعض أيام الحافظ .

(ومنها) "المُنْتَجِبية" قال ٱبن عبد الظاهر : بلغنى أنها منسوبة لشخص فى الدولة الفاطمية يعرف بمُنْتَجِب الدولة .

(ومنها) "اليانِسيَّة" قال ٱبن عبد الظاهر : أظنها منسوبة ليانس وزير الحافظ ، وكان يلقب بأمير الجيوش سيف الإسلام، ويعرف بيانس الفاصد لأنه فَصَد حَسَن ٱبن الحافظ، وتركه محلول الفِصَادة حتّى مات .

قال : وكان فى الدولة مَن ٱسمه يانس العزيزىّ، واليانِسيَّة جماعة كانوا فى زمن العزيز بالله، ومنهم يانس الصقلىّ، ونسبة هذه الحارة محتملة لأن تكون لكل منهم، وقد ذكر ٱبن عبد الظاهر عدّة حارات كانت للجند خارجَ باب زويلة غير ما لعله ذكره سردا، منها ما هو مشهور معروف ، وهو حارة حلب والحبانية . ومنها ما ليس كذلك وهو الشوبك، والمأمونية، والحارة الكبيرة، والمنصورة الصغيرة، وحارة أبى بكر .

وأما جوامعها فأقدمها (الجامع الأزهر) بنـاه القائد جوهر بعـد دخول مولاه المُعزّ إلى القاهرة و إقامته بها، وفرغ من بنائه وجُمّعت فيه الجمعة فى شهر رمضان لسبع خلون من سنة إحدى وستين وثلثمائة، ثم جدّد العزيز بن المعزّ فيه أشياءَ وعَمَر به أماكنَ، وهو أوّل جامع عُمِر بالقاهرة .

قال صاحب "نهاية الأرب" : وجدّده العزيز بن المُعِزّ، ولما عَمَر الحاكم جامعه نقل الخُطْبة إليه وبقىَ الجامع الأزهر شاغرا ، ثم أُعيـدَت إليه الخطبة وصلى فيه الجمعـة فى ثامن شهر ربيع الآخر سـنة خمس وستين وستمـائة فى سلطنة الظاهر بيبرس، وتزايد أمره حتّى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قَدْرا .

قال آبن عبدالظاهر : وسمعتُ جماعة يقولون إن به طلسما لا يسكُنه عُصْفُور.

الجـامع الثـانى
(الجـامع الحاكمىّ)

بناه الحاكم الفاطمىّ علىٰ القرب من باب الفتوح وباب النصر، وفُرِغ من بنائه فى سـنة ست وتسعين وثلثمائة ، وكان حين بنائه خارج القاهرة إذ كان بناؤه قبل بناء باب الفتوح وباب النصر الموجودين الآن، وكان هو خارجَ القوسين اللذين هما باب الفتوح وباب النصر الأوّلان .

ثم قال : وفى سيرة العزيز أنه آختط أساســه فى العاشر من رمضان سنة تسع وسبعين وثلثمائة ، وفى سيرة الحاكم أنه آبتدأه بعض الوزراء وأتمه الحـاكمُ؛ وعلىٰ البَدَنة المجاورة لباب الفتوح أنها بنيت فى زمن المستنصر فى أيام أمير الجيوش سـنة ثمـانين وأربعمائة، ثم آستولىٰ عليها مَنْ ملكها والزيادة التى إلىٰ جانبـه بناها الظاهر آبن الحاكم ولم يكملها، ثم ثبت فى الدولة الصالحية نجم الدين أيوب أنها من الجامع

وأن بها محرابا، فآنتُزِعت ممن هى معه وأُضِيفت للجامع، وبُنِيَ بها ما هو موجود الآن فى الأيام المعزية أيبك التُّرْكُمَانِىّ ولم تسقف .

الجامع الثالث
(الجامع الأقمر)

بناه الآمر الفاطمىّ بوَسَاطة وزيره المأمون بن البطائحى ؛ وكمل بناؤه فى سنة تسع عشرة وخمسمائة؛ ويذكر أن آسم الآمر والمأمون عليه .

قلت : ولم يكن به خُطْبة إلىٰ أن جدّد الأمير يَلْبُغا السالمىّ : أحد أمراء الظاهر برقوق عمارتَهُ فى سنة إحدىٰ وثمانمائة ورتَّب فيه خُطْبة .

الجامع الرابع
(الجامع بالمَقْس بباب البحر، وهو المعروف بالجامع الأنور)

بناه الحاكم الفاطمىّ أيضا فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة .

الجامع الخامس
(الجامع الظافرىّ، وهو المعروف الآن بجامع الفَكَّاهين)[1]

بناه الظافر الفاطمىّ داخل بابَىْ زُويلة فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وكان زَرِيبة للكِبَاش، وسبب بنائه جامعا أن خادما كان فى مشترف علىٰ الزريبة فرأىٰ ذَبَّاحًا وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمىٰ سِكِّينته وذهب لقضاء حاجة له ، فأتىٰ رأس الغنم الآخر فأخذ السكين بفمه ورماها فى البالوعة ، وجاء الذَّبَّاحُ فلم يجد السِّكِّين ، فآستصرخ الخادمُ وخلصه منه ، فرفعت القصة إلىٰ أهل القصر فأمروا بعمارته .

(١) فى خطط المقريزى "الفاكهين".

الجـامع السـادس
(الجامع الصالحىّ)

بنـاه الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاضد من الفاطميين خارج باب زُوَيلة، بقصد نقل رأس الحسين عليه السلام من عَسْقلانَ إليه، عند خوف هجوم الفرنج عليها، فلما فرغ منه لم يمكِّنه الفائز من ذلك، وآبتنىٰ له المشهد المعروف بمشهد الحُسَيْن بجوار القصر، ونقله إليه فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة؛ وبنىٰ به صِهْريجا وجعل له ساقية تنقل الماء إليه من الخليج أيام النيل علىٰ القرب من باب الخرق. ولم يكن به خُطبـة، وأوّل ما أقيمت الجمعة فيـه فى الأيام المُعِزِّيَّة أيبك التُّرْكُمَانِىّ فى سنة آثنتين وخمسين وستمـائة، وخطب به أصـيل الدين أبو بكر الإسعِرْدىّ؛ ثم كَثُرت عمـارة الجوامع بالقاهرة فى الدولة التركيـة خصوصا فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون وما بعدها، فعمربها من الجوامع ما لا يكاد يحصىٰ كثرة: كجامع المـارديني وجامع قُوصون خارج باب زُوَيْلة وغيرهمـا من الجوامع، وأقيمت الجمعة فى كثير من المدارس والمساجد الصِّـغار المتفرّقة فى الأخطاط لكثرة الناس وضيق الجوامع عنهم.

⁂

وأما مدارسها، فكانت فى الدولة الفاطمية وما قبلها قليـلةَ الوجود بل تكاد أن تكونَ معدومة، غير أنه كان بجوار القصر دارٌ تعرف "بدار العلم" خلف خان مسرور، كان داعى الشيعة يجلس فيها، ويجتمع إليه من التلامذة مَنْ يتكلم فى العلوم المتعلقة بمذهبهم، وجعل الحاكم لهـا جزءا من أوقافه التى وقفها علىٰ الجامع الأزهر وجامع المَقْس وجامع راشدةَ؛ ثم أبطل الأفضل بن أمير الجيوش هذه الدار لآجتماع الناس فيها والخوض فى المذاهب خوفا من الآجتماع علىٰ المذهب النِّزَارىّ؛ ثم أعادها الآمر

بواسطة خُدّام القصر بشرط أن يكون مُتَوَلّيها رجلا دينًا والداعى هو النـاظر فيها ، ويقام فيها متصدّرون برسم قراءة القرءان .

وقد ذكر المسبحىّ فى تاريخه : أن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس سأل العزيز بالله فى حمله رزق جماعة من العلماء ، وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق، وبنىٰ لهم دارا بجانب الجامع الأزهر،فإذا كان يوم الجمعة حَلقوا بالجامع بعد الصلاة وتكلموا فى الفقه، وأبو يعقوب قاضى الخندق رئيسُ الحَلْقَةِ والملقِى عليهم إلىٰ وقت العصر،وكانوا سبعة وثلاثين نفرا . ثم جاءت الدولة الأيوبية فكانت الناتحةَ لباب الخير، والغارسةَ لشجرة الفضل، فآبتنىٰ الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر (دار الحديث الكاملية) بين القصرين فى سنة آثنتين وعشرين وستمائة، وقرر بها مذاهب الائمة الأربعة وخطبةً، وبقى إلىٰ جانبها خراب حتّى بُنِى آدُرا فى الأيام المُعِزِّيَّة أيبك التُّرْكُمَانِىّ فى سنى خمسين وستمائة ، ووُقِف علىٰ المدرسة المذكورة ، وبنىٰ من بنىٰ من أكابر دولتهم مدارس لم تبلغ شأْو هذه، وشتّان بين الملوك وغيرهم .

ثم جاءت الدولة التركية فأربت علىٰ ذلك وزادت عليه ، فآبتنىٰ الظاهر بيبرس (المدرسة الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الصالحية، ثم آبتنىٰ المنصور قلاوون (المدرسة المنصورية) من داخل بيمارستانه الآتى ذكره وجعل قبالتها تُرْبةً سنية .

ثم آبتنىٰ الناصر محمد بن قلاوون (المدرسة الناصرية) بجوار البيمارستان المذكور.

ثم آبتنىٰ الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (مدرسته العظمىٰ) تحت القلعة، وهى التى لم يُسْبَق إلىٰ مثلها،ولا سمع فى مصرٍ من الأمصار بنظيرها، يقال إن إيوانها يزيد فى القدر علىٰ إيوان كسرىٰ بأذرع .

ثم آبتنىٰ آبنُ أخيه الأشرف شعبان بن حسين (المدرسة الأشرفية) بالصُّوّة تحت

القلعة ومات ولم يكملها، ثم هدمها الناصر فرج بن الظاهر برقوق لتسلطها علىٰ القلعة فى سنة أربع عشرة وثمانمائة، ونقل أحجارها إلىٰ عمارة القاعات التى أنشأها بالحوش بقلعة الجبل، ولم تعهد مدرسة قُصِدت بالهدم قبلها .

ثم آبتنىٰ الظاهر برقوق (مدرسته الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الكاملية فجاءت فى نهاية الحسن والعَظَمة، وجعل فيها خطبة، وقرر فيها صوفية علىٰ عادة الخوانق ودروسا للأئمة، فتعانى(١) فيها ضخامة البناء، ونظم الشعراء فيها، فكان مما أتىٰ به بعضهم من أبيات :

وبَعْضُ خُدَّامِهِ طَوْعاً لِخِدْمَتِهِ * يَدْعُو الصُّخُورَ فَتَأْتِيه عَلىٰ عَجَلِ

وتواردوا كلهم علىٰ هذا المعنىٰ، فآقترح علىَّ بعضُ الأكابر نظم شىء من هذا المعنىٰ فنظمت أبياتا جاء منها :

وبالخليلىّ قد راجتْ عِمارَتُها * فى سُرْعَةٍ بُنِيَتْ مِنْ غَيْرِ مَا مَهَلِ
كَمْ أظهرتْ عَجَبًا أَسْوَاطُ حِكْمَتِهِ * وَكَمْ غَدَتْ مَثَلًا نَاهِيكَ مِنْ مَثَلِ
وكم صخورٍ تَخَالُ الجِنَّ تَنْقُلُهَا * فإنَّها بالوَحَا تَأْتِى وبالْعَجَــلِ

وفى خلال ذلك آبتنىٰ أكابرُالأمراء وغيرهم من المدارس ماملأ الأخطاط وشحنها .

⁂

وأما الخوانق والرُّبُطُ، فما لم يعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبيـة، وكان المبتكر لهـا السلطانَ صلاح الدين يوسـف بن أيوب رحمه الله، فآبتنىٰ (الخانقاه الصلاحية) المعروفة بسعيد السعداء، وسعيد السعداء لقب لخادم للمستنصر الفاطمىّ آسمه قنبر كانت الدار له، ثم صارت آخر الأيام سكن الصالح طلائع بن رزيك، ولمـا ولى الوزارة فتح من دار الوزارة إليهـا سِرْدابا تحت الأرض، وسكنها شاور

(١) لعله وتغالى فى ضخامة البناء .

السعدىّ وزير العاضد ثم ولده الكامل . فلما ملك السلطان صلاح الدين جعلها خانقاه، ووقف عليها قَيْسارِيَّة الشُّرْب داخل القاهرة، وبستان الحَبَّانية بزقاق البركة .

⁂

وأما مساجد الصلوات الخمس، فأكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى؛ بكل خط منها مسجد أو مساجد لكل منها إمام راتب ومصلُّون .

⁂

وأما البيمارستان، فقال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : بلغنى أن البيمارستان كان أولا بالقَشَّاشين يعنى المكان المعروف الآن بالخراطين على القرب من الجامع الأزهر، وهناك كانت دارُ الضرب بناها المأمون بن البطائحى وزير الآمر قبالةَ البيمارستان المذكور، وقرر دُورَ الضرب بالإسكندرية وقُوص وصُور وعَسْقلان، ثم لما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية وآستولى على القصر، كان فى القصر قاعةٌ بناها العزيز بن المُعِز فى سنة أربع وثمانين وثلثمائة، فجعلها السلطان صلاح الدين بيمارستانا : وهو البيمارستان العتيق الذى داخل القصر، وهو باقٍ على هيئته إلى الآن، ويقال إن فيها طلسما لا يدخلها نمل، وإن ذلك هو السبب الموجب لجعلها بيمارستانا .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : ولقد سألت المباشرين بالبيمارستان المذكور عن ذلك فى سنة سبع وخمسين و ... ...[1] مائة فقالوا صحيح .

ثم آبتنى السلطان الملك "المنصور قلاوون" رحمه الله دارَستِّ الملك أخت الحاكم، المعروفة بالدار القُطْبية بيمارستانا فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة بمباشرة الأمير علَم الدين

(١) لعله وستمائة.

الشجاعى ، وجعل من داخله المدرسة المنصورية والتربة المتقدّم ذكرهما فبقّ معالم بعض الدار على ما هو عليـه ، وغيّر بعضها . وهو من المعروف العظيم الذى ليس له نظير فى الدنيا . ونظره رتبة سنيةٌ يتولاه الوزراء ومَنْ فى معناهم .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهو الجليـل المقدار ، الجليـل الآثار ، الجميل الإيثار ، لعظيم بنائه ، وكثرة أوقافه ، وسَـعَة إنفاقه ، وتنوع الأطبـاء والكحّالين والجرائحية فيه .

قلت : ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتُها ، وتتجدّد معالمها ، خصوصا بعد خراب الفُسْطَاط وآنتقال أهـله إليها على ما تقدّم ذكره حتّى صارت على ما هى عليه فى زماننا : من القصور العَلِيَّة ، والدور الضخمة ، والمنازل الرحيبة ، والأسواق الممتدّة ، والمناظر النزهة ، والجوامع البَهِجَة ، والمدارس الرائقـة ، والخوانق الفاخرة ، ممـا لم يُسْمع بمثـله فى قُطْرٍ من الأقطار ، ولا عُهِد نظيره فى مصر من الأمصار . وغالب مبانيها بالآجُرّ، وجوامعها ومدارسها و بيوت رؤسائها مبنيةٌ بالحجر المنحوت ، مفروشة الأرض بالرخام ، مؤزَّرة الحيطان به ، وغالب أعاليها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة ، وكلها أو أكثرها مُبَيَّضَةُ الجُدُر بالكلْس الناصع البياض ، ولأهلهـا القوّة العظيمة فى تَعْلِيَة بعض المساكن على بعض حتّى إن الدار تكون من طبقتين إلى أربع طبقات بعضها على بعض ، فى كل طبقـة مساكنُ كاملةٌ بمنافعها ومرافقها ، وأسطحة مقطعة بأعلاها بهندسة محكمة ، وصناعة عجيبة .

قال فى "مسالك الأبصار" : لا يرى مثـل صُـنَّاع مِصْر فى هـذا البـاب ، وبظاهرها البساتين الحِسَانُ ، والمناظر النَّزِهَةُ ، والآدُرُ المُطِلَّةُ على النيل ، والخُلْجَانُ الممتدّة منـه ومن مدّه ، وبها المستنزهات المستطابة ، خصوصا زمنَ الربيع لغُدْرانها الممتدّة من مقطعات النيل وما حولها من الزروع المختلفة وأزهارها المـائسة التى تسرّ الناظر وتبهج الخاطر .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وأجمع المسافرون برّا وبحرا أنه لم يكن أحسن منها مَنْظَرًا ، ولا أكثر ناسا ، وإليها يُجلَب مافى سائر أقاليم الأرض من كل شيء غريب وزِيٍّ عجيب ؛ وملكها مَلِكٌ عظيم ، كثير الجيوش ، حسن الزِّيّ لا يماثله فى زِيِّه ملك من ملوك الأرض ؛ وأهلها فى رَفَاهِيَة عَيْش وطيب مأْكَلٍ ومَشْرَب ، ونساؤها فى غاية الجمال والظَّرْف .

قال فى "مسالك الأبصار" : أخبرنى غير واحد ممن رأى المُدُنَ الكِبَارَ أنه لم ير مدينة ٱجتمع فيها من الخَلْق ما ٱجتمع فى القاهرة .

قال : وسألت الصدر مَجْدَ الدين إسماعيلَ عن بَغْدَادَ وتُورِيزَ هل يجمعان خلقا مثل مصر ؟ فقال : فى مصر خلق قدر مَنْ فى جميع البلاد .

قال فى "التعريف" : (والقاهرة اليوم أُمُّ الممالك ، وحاضرة البلاد ، وهى فى وقتنا دارُ الخلافة ، وكرسىّ الملك ، ومَنْبَع الحكماء ، ومَحَطُّ الرحال ، ويتبعها كل شرق وغرب خلا الهند فإنه نائى المكان ، بعيد المدى ، يقع لنا من أخباره مانُكْبِره ، ونسمع من حديثه ما لا نألفه .

قال : وكان يحق لنا أن نجعل كل النُطُقِ بالقاهرة دائرة ، وإنما نفردها بما ٱشتملت عليه حدود الديار المصرية ، ثم نديرِ بأُمِّ كل مملكة نِطَاقها ، ثم إليها مرجع الكل وإلى بحرها مصب تلك الخُلُج) .

قال فى "مسالك الأبصار" : إلا أن أرضها سَبِخة ، ولذلك يَعْجَلُ الفساد إلى مبانيها .

وذكر القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر نحو ذلك وأن المُعِزَّ لام القائدَ جوهرا على بنائها فى هذا الموضع ، وتَرْك جانب النيل عند المَقْس أو جنوبىّ الفُسْطاط حيث الرصد الآن .

القـاعدة الثالثــــة

(القلعـــة)

بفتح القاف، ويعبر عنها بقلعة الجبل، وهى مَقَرَّةُ السلطان الآن ودار مملكته .

بناها الطواشى بهاء الدين قراقوش المتقدّم ذكره للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، وموقعها بين ظاهر القاهرة والجبل المُقَطَّم والفُسْطَاط، وما يليه من القرافة المتصلة بعمارة القاهرة والقرافة، (١) وطولها وعرضها على ما تقدّم فى الفُسْطَاط أيضا، وهى على نَشَزٍ مرتفع من تقاطيع الجبل المقطم، ترتفع فى موضع وتنخفض فى آخر .

وكان موضعها قبل أن تبنى، مساجدَ من بناء الفاطميين : منها مسجد ردينى الذى هو بين آدُرِ الحريم السلطانية .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : قال لى والدى رحمه الله : عرض علىّ الملك الكامل إمامته، فآمتنعت لكونه بين آدُرِ الحريم . ولم يسكنها السلطان صلاح الدين رحمه الله، ويقال : إن آبنه الملك العزيز سكنها مدّة فى حياة أبيه، ثم آنتقل منها إلى دار الوزارة .

قال القاضى محيي الدين بن عبـد الظاهر : قال لى والدى رحمه الله : كنّا نطْلَع إليها قبل أن تُسْكَن فى ليالى الجُمَع نبيت متفرّجين كما نبيت فى جواسق الجبل والقرافة .

وأوّل من سكنها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب آنتقل إليها من قصر الفاطميين سنة أربع وستمائة، وآستقرّت بعده سكنا للسلاطين إلى الآن .

ومن غريب ما يحكى أن السلطان صـلاحَ الدين رحمه الله طلع إليها ومعه أخوه العادل أبو بكر، فقـال السلطان لأخيه العادل : هذه القلعة بُنِيت لأولادك، فثقُل ذلك على العادل وعرف السلطان صـلاح الدين ذلك منه ـ فقال : لم تفهم عنى

(١) لعله زائد أو سهو .

إنما أردت أنى أنا نَجِيب فلا يكون لى أولاد نُجَباء، وأنت غير نجيب فتكون أولادُك نجباءَ فسُرِّى عنه، وكان الأمر كما قال السلطان صلاح الدين، وبقيت خالية حتّى ملك العادل مصر والشام، فآستناب ولَدَه الملك الكامل محمدا فى الديار المصرية فسكنها .

وذكر فى "مسالك الأبصار" أن أوّل مَنْ سكنها العادل أبو بكر، ولما سكنها الكامل المذكور، آحتفل بأمرها وآهتمّ بعمارتها وعَمَر بها أبراجا، منها البرج الأحمر وغيره .

وفى أواخر سنة آثنتين وثمانين وستمائة عَمَر بها السلطان الملك المنصور قلاوون بُرْجًا عظيما على جانب باب السر الكبير، وبنى عليه مشترفاتٍ حسنةَ البنيان، بهجة الرخام، رائقة الزَّخْرفة . وسكنها فى صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

ثم عَمَر بها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثلاثة أماكن، كملت بها معانيها، وآستحق بها القلعةَ على بانيها .

أحدها ـــ القصر الأبلق الذى يجلس به السلطان فى عامة أيامه، ويدخل عليه فيه أمراؤه وخواصُّه، وقد آستجدّ به السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" رحمه الله فى جانبه مقعـدا بإزاءِ الإصطبلات السلطانية جاء فى نهاية من الحسن والبهجة .

والثـانى ـــ الإيوان الكبير الذى يجلس فيـه السلطان فى أيام المواكب للخدمة العامة وإقامة العدل فى الرعية .

والثالث ـــ جامع الخُطْبة الذى يصلى فيه السلطان الجمعة، وستأتى صفة هذه الأماكن كلها .

وهذه القلعة ذاتُ سور وأبراج، فسيحة الأفنية، كثيرة العمائر، ولها ثلاثة أبواب يدخل منها إليها .

أحدها ــ من جهة القرافة والجبل المُقَطَّم، وهو أقل أبوابهـا سالكا وأعزُّها آستطراقا .

والثانى ــ باب السر، ويختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخواصّ الدولة : كالوزير وكاتب السر ونحوهما ، يتوصل إليه من الصوّة : وهى بقية النَّشَز الذى بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة، بتعريج يمشى فيه مع جانب جدارها البحرى حتّٰى ينتهى إليه بحيث يكون مدخله منه مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أيام المواكب، وهذا الباب لا يزال مُغْلَقًا حتّٰى ينتهىَ إليه من يستحق الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يغلق .

والثالث ــ وهو بابها الأعظم الذى يدخل منه باقى الأمراء وسائرُ الناس، يتوصل إليــه من أعلىٰ الصوّة المتقدّم ذكرها، يرقىٰ إليه فى درج متناسبة حتّٰى يكون مدخله فى أول الجانب الشرقىّ من القلعة، ويتوصل منه إلىٰ ساحة مستطيلة ينتهى منها إلىٰ دُرْكَاه جليلة يجلس بها الأمراء حتّٰى يؤذَن لهم بالدخول ، وفى قبـلىّ هـذه الدركاه (دار النيابة) ، وهى التى يجلس بها النائب الكافل للحكم إذا كان ثَمَّ نائب، و(قاعة الصاحب) ، وهى التى يجلس بها الوزير وكُتَّاب الدولة، و(ديوان الإنشاء) ، وهو الذى يجلس فيــه كاتب السر وكُتَّاب ديوانه، وكذلك (ديوان الجيش) ، وسـائر الدواوين السلطانية .

وبصـدر هذه الدُّرْكَاه باب يقال له باب القُلَّة يدخل منـه إلىٰ دهاليز فسيحة ، علىٰ يَسْرَةِ الداخل منها بابٌ يتوصل منـه إلىٰ جامع الخطبة المتقدّم ذكره، وهو من أعظم الجوامع ، وأحسنها وأبهجها نظرا، وأكثرها زَخْرَفة، متسع الأرجاء، مرتفع البناء، مفروش الأرض بالرخام الفائق، مُبَطَّنُ السُّقُوف بالذهب، فى وسطه قبة يليها مقصورة يصلِّى فيها السلطان الجمعة، مستورة هى والرواقات المشتملة عليها بشبابيك

من حديد محكمةِ الصنعة ، يَحُفُّ بصحنه رواقات من جميع جهاته ، ويتوصل من ظاهر هذا الجامع إلىٰ باب الستارة، ودور الحريم السلطانية .

وبصدر الدهاليز المتقدمة الذكر مَصْطَبَةٌ يجلس عليها مقدَّم المماليك، وعندها مَدْخَل باب السر المتقدم ذكره، وفى مجنبة ذلك مَمرٌّ يدخل منه إلىٰ ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير المتقدّم ذكره، وهو إيوان عظيم عديم النظير، مرتفع الأبنية، واسع الأفنية، عظيم العُمُد، عليه شَبَابيكُ من حديد عظيمةُ الشأن محكمةُ الصنعة، وبصدره سرير الملك ، وهو مِنْـبَرٌ من رُخَامٍ مرتفعٌ ، يجلس عليه السلطان فى أيام المواكب العِظام لقدوم رسل الملوك ونحو ذلك .

ويُتَيَامن عن هذا الإيوان إلىٰ ساحة لطيفة بها باب القصر الأبلق المتقدّم ذكره، وبنواحيها مصاطبُ يجلس عليها خواصّ الأمراء قبل دخولهم إلىٰ الخدمة، ويُدْخَل من باب القصر إلىٰ دهاليز عظيمة الشأن، نبيهة القدر، يتوصَّل منها إلىٰ القصر المذكور، وهو قصر عظيم البناء، شاهق فى الهواء، به إيوانان فى جهتى الشَّمال والجنوب، أعظمهما الشَّمالىّ، يُطَلُّ منهما علىٰ الإصطبلات السلطانية، ويمتدّ النظر منهما إلىٰ سوق الخيل والقاهرة والفُسْطَاط وحواضرها ، إلىٰ مجرىٰ النيل ، وما يلى ذلك من بلاد الجيزة والجبل وما والىٰ ذلك، وبصدره مِنْبر من رخام كالذى فى الإيوان الكبير يجلس عليه السلطان أحيانا فى وقت الخدمة علىٰ ما يأتى ذكره .

والإيوان الثانى وهو القبلىّ خاص بخروج السلطان وخواصّه منه، من باب السر إلىٰ الإيوان الكبير خارج القصر للجلوس فيه أيام المواكب العامّة، ويدخل من القصر المتقدّم ذكره إلىٰ ثلاثة قصور جَوّانية : واحد منها مسامت لأرض القصر الكبير، وآثنان مرفوعان، يُصْعَد إليهما بدَرَجٍ، فى جميعها شبابيكُ من حديد تُشْرِفُ علىٰ ما يُشرِف عليه القصر الكبير، ويدخل من القصور الجَوّانية إلىٰ دور الحريم وأبواب الستور

السلطانية ، وهذه القصور جميعها ظاهرها بالحجر الأسود والأصفر ، وداخلها مؤزَّر بالرخام والفَصّ المُذْهَب المشجَّر بالصَّدَف وأنواع الملوّنات ، والسقوفُ المبطَّنة بالذهب واللّازوَرْد تُخرق لضوء فى جُدْرانها (١) بطاقات من الزجاج القُبْرسىّ الملوّن كقِطَع الجوهر المؤلفة فى العقود ، وجميع أرضها مفروشة بالرخام المنقول من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله .

قال فى "مسالك الأبصار": فأما الآدُر السلطانية فعلى ما صح عندى خبره أنها ذوات بساتين وأشجار ومُنَاخات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور الدَّواجن .

وخارج هذه القصور طِبَاق واسعة للماليك السلطانية ، ودُورٌ عظامٌ لخوّاص الأمراء من مقدّمى الألوف ، ومَنْ عَظُمَ قدره من أمراء الطَّبْلَخَانَاه والعشرات ، ومن خرج عن حكم الخاصكية إلى حكم البرانيين .

وبها بيوت ومساكنُ لكثير من الناس ، وسوق للمآكل ، ويباع بها النَّفيس من السلاح والقماش مع الدَّلالين يطوفون به .

وبهذه القلعة مع ارتفاع أرضها وكونها مبنية على جبل بئرُ ماء مَعِين منقوبة فى الحجر ، احتفرها بهاء الدين قراقوش المتقدّم ذكره حين بناء القلعة ، وهى من أعجب الآبار ، بأسفلها سَوَاقٍ تدور فيها الأبقار ، وتنقل الماء فى وسطها ، وبوسطها سواق تدور فيها الأبقار أيضا وتنقل الماء إلى أعلاها ، ولها طريق إلى الماء ينزل البقر فيه إلى معينها فى مجاز ، وجميع ذلك نَحْتٌ فى الحجر ليس فيه بناء .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر : وسمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت ، جاء ماؤها عَذْبا فأراد قراقوش أو نوّابُه الزيادة فى مائها فوسع نقرا فى الجبل ، فخرجت منه عين مالحة غيرت عذوبتها . ويقال : إن أرضها تسامِتُ أرض

---

(١) فى المقريزى هكذا [وقد موّهت باللازورد والنور يخرق فى جدرانها الخ] .

بركة الفيل ؛ وهـذه البئر ينتفع بهـا أهل القلعة فيما عدا الشرب من سائر أنواع الاستعمالات . أما شُرْبهم فمن الماء العذب المنقول إليها من النيل بالرّوايا على ظهور الجمال والبغال مع ما ينساق إلى قصور السلطان ودور أكابر الأمراء المجاورين للسلطان من ماء النيل فى المجارى ، بالسواقى النّقّالات والدواليب التى تديرها الأبقار وتنقل الماء من مقرّ إلى آخر حتّى ينتهى إلى القلعة ، ويدخل إلى القصور والآدُر فى ارتفاع نحو خمسمائة ذراع .

وقد استجدّ السلطان الملك الظاهر برقوق بهذه القلعة صِهْريجا عظيما يُمْلأ فى كل سنة زمَنَ النيل من الماء المنقول إلى القلعة من السواقى النّقّالات ، ورتب عليه سبيلا بالدِّرْكاه التى بها دار النيابة يسقى فيه الماء وحصل به للناس رفق عظيم .

وتحت مشترف هـذه القلعة مما يلى القصور السلطانية مَيْدَانٌ عظيم يحول بين الإصطبلات السلطانية وسوق الخيل ، ممرّج بالنجيل الأخضر ، فسيح المدى ، يسافر النظر فى أرجائه ؛ به أنواع من الوحوش المستحسنة المَنْظَر ، وتُربَط به الخَوَاصُّ من الخيول السلطانية للتفسح ؛ وفيه يصلى السلطان العيدين على ماسيأتى ذكره ؛ وفيه تعرض الخيول السلطانية فى أوقات الإطلاقات ووصول التقادم والمشترى ، وربما أطعم فيه الجوارح السلطانية ؛ وإذا أراد السلطان النزول إليه خرج من باب إيوان القصر وركب من درج تليه إلى إصطبل الخيول الخاص ، ثم نزل إليه راكبا وخواصُّ الأمراء فى خدمته مشاةٌ ، ثم يعود إلى القصر كذلك .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى "خططه" : وكان هذا المَيْدَان وما حوله يعرف قديما بالميدان ، وبه قصر أحمد بن طولون وداره التى يسكنها ، والأماكن المعروفة بالقطائع حوله على ما تقدّم ذكره فى خطط الفُسْطَاطِ ، ولم يزل كذلك حتّى بنى الملك الكامل بن العادل بن أيوب هـذا المَيْدَانَ تحت القلعة حين

سكنها ، وأجرىٰ الســواقى النَّقالات من النيل إليــه ، وعَمَر إلىٰ جانبه ثلاث بِرَك تملأ لسقيه ؛ ثم تعطل فى أيامه مدّةً ، ثم آهتم به الملك العـادل ولده ، ثم آهتم به الصالح نجم الدين أيوب آهتماما عظيما، وجدّد له ساقية أخرىٰ ، وغرس فى جوانبه أشجارا فصار فى نهاية الحسن . فلما تُوفِّىَ الصـالح تلاشىٰ حاله إلىٰ أن هُدِم فى سنة خمسين وستمائة، أو سنة إحدىٰ وخمسين فى الأيام المُعِزِّيَّة أيبك التركمانىّ، وهُدمت السواقى والقنـاطر وعَفَت آثارها ، وبقى كذلك حتّى عَمَره الســلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله ، فأحسن عمـارته ورَصَّفه أبدع ترصـيف ، وهو علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

أما المَيْدَانَ السلطانىّ الذى بخُطِّ اللوق، وهو الذى يركب إليه السلطان عند وفاء النيل للَعِب الكُرَة ، فبناه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وجعل به المناظر الحسنة ونصب الطَّوارق علىٰ بابه كما تُنْصب علىٰ باب القـلاع وغيرها ، ولم تزل الطوارق منصوبة عليه إلىٰ مابعد السبعمائة ؛ وسيأتى الكلام علىٰ كيفية الركوب إليه فى المواكب فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

والقلعة التى بالرَّوْضَةِ تقدّم الكلام عليها [فى الكلام] علىٰ خِطَط الفُسْطاط .

⁂

وممـا يتصل بهــذه القواعد الثلاث ويلتحق بها القرافةُ التى هى مَدْفَن أمواتها، وهى تربة عظيمة ممتدّة فى سفح المُقَطَّم ، موقعها بيـن المقطم والفُسْطَاطِ وبعض القاهرة، تمتدّ من قلعة الجبل المتقدّم ذكرها آخذةً فى جهة الجَنوب إلىٰ بركة الحبش وماحولها . وكان سبب جعلها مَقْبُرة ماروه آبن عبد الحَكَم عن الليث بن سعد : أن المقوقس سأل عمرو بن العاص أن يبيعه سفحَ المقطم بسبعين ألفَ دينار، فتعجب عمرو من ذلك ، وكتب إلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذلك،

فكتب إليه عمر : أنْ سَلْه لِمَ أعطاك به ماأعطاك وهى لا تُزْرع ولا يُسْتنبط بها ماء ولا ينتفَع بها ؛ فسأله ، فقال : إنا لنجد صِفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذلك ، فكتب إليه عمر : "إنّى لا أرى غَرْس الجنة إلا المؤمنين فاْقبُرْ بها مَنْ مات قِبلَك من المسلمين ولا تَبِعْها بشىء" فقال المقوقس لعمرو: ماعلى ذا عاهدتنا ، فقطع لهم قِطْعة تُدفَن فيها النصارى ، وهى التى على القرب من بركة الحبش ؛ وكان أوّلُ من قُبِر بسفح المقطم من المسلمين رجلا من المَعَافِر آسمه عامر ، فقيل عَمَرت .

ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ على سفح المقطم فى سياحته ومعه أُمُّه ، فقال : "ياأمّاه ! هذه مَقْبُرة أمّة محمد صلى الله عليه وسلم". وفيها ضرائح الأنبياء عليهم السلام كإخوة يوسف وغيرهم . وبها قبر آسيةَ آمرأة فرعون ، ومشاهدُ جماعة من أهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزُّهَّاد والأولياء .

وقد بنى الناس بها الأبنية الرائقة ، والمناظر البَهِجَة ، والقصورَ البديعة ، يَسْرَحُ الناظر فى أرجائها ، ويبتهج الخاطر برؤيتها ؛ وبها الجوامع والمساجد والزوايا والرُّبُط والخوانق ، وهى فى الحقيقة مدينة عظيمة إلا أنها قليلة الساكن .

الفصل الثانى

من المقالة الثانية

(فى ذكر كُوَرِ الديار المصرية ؛ وهى على ضربين)

الضرب الأوّل

(فى ذكر كُورها القديمة)

وقد جعلها القُضَاعىّ فى "خططه" ثلاثة أحياز ، وتشتمل على خمس وخمسين كُورة ، إلا أنه ذكرها سَرْدا غير مبيَّنة ولا مُرَتَّبة ، وقد أوردتُها هنا مبيَّنة مرتَّبة ،

ونبهتُ على ما هو مســتمرّ منهــا على حكمه، وما تغــيّر حكمه بإضافته إلى غيره من الأعمال المستمرّة مع بقاء أسمائه، ومادرس ٱسمه ونُسِى، أو تغير ولم تعلم له حقيقة .

الحيز الأوّل

(أعلى الأرض، وهو الصعيد)

والمراد ماهو من كُوَرِهَا جنوبىّ الفُسْطَاط إلى نهايته فى الجنوب، وسمى صعيدا لأن أرضــه كُلّمــا وغَلَتْ فى الجنوب، أخذت فى الصُّعود والٱرتفــاع .

وقد ذكر القُضَاعِىُّ فيه عشرين كورة :

الأولى ـ (كُورَةُ الفيوم) وهى كُورة باقية مســتمرّة الحكم إلى الآن، وسيأتى ذكرها فى الكلام على الأعمال المستقرّة فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الثانية ـ (كُورَةُ مَنْفٍ) ومَنْفُ هى مدينة مصر القديمة المتقدّمة الذكر، التى بناها مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه الســلام . وقد تقدّم أنها على ٱثْنَىْ عشر ميــلًا من الفُسْطَاط فى جَنُوبِيِّه على القرب من البلدة المعروفة الآن بالبَدْرَشِين .

الثـالثة ـ (كُورَة وَسِيمَ) ووَسِيمُ بفتح الواو وكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وميم فى الآخر، بلدة من عمل الجيزة معروفة؛ والثابت فى الدواوين أَوْسِيمُ بزيادة ألف فى أوّلهــا وسكون الواو .

الرابعة ـ (كُورَةُ الشرقية) وكأن المراد بها عمل إطفيح الآن إذ هو شرقىّ النيل وليس بالوجه القبلىّ عمل مستقلٌّ شرقىّ النيل سواه .

الخامسة ـ (كُورَةُ دَلَاصَ وبُوصِير) أما دَلَاصُ فبدال مهملة مفتوحة ولام ألف ثم صاد مهملة قال فى "الروض المعطار" : كانت مدينة عظيمة بها عجائب الأبنية، وبها كان مجتمَع سَحَرَة مصر . وأما بوصير فالمراد هنا بُوصِير قُورِيدُس التى قتــل بها

مَرْوَانُ الحِمَار : آخر خلفاء بنى أُمَيَّةَ ، ودَلَاص وبُوصِير هذه كلاهما الآن من عمل البهنسىٰ ، وسيأتى ذكره فى الأعمال المستقرّة .

قال فى "الروض المعطار" : قال الجاحظ : بها ولد عيسىٰ بن مريم عليه السلام. وذكر أن نخلة مريم كانت قائمة بها إلىٰ زمانه .

قلت : والمعروف أن مولد عيسىٰ عليه السلام كان بالقُدْسِ من أرض الشام علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الأيمـان فى أواخر الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

السادسة ـ (كُورَةُ أَهْنَاس) وأَهْنَاسُ بفتح الهمزة وسكون الهـاء وفتح النون وألف وسين مهـملة فى الآخر، وتعرف بأَهْنَاس المدينة، كانت مدينة فى القديم، وهى الآن من جملة عمل البَهْنَسىٰ الآتى ذكره فى الأعمال المستقرّة .

السابعة ـ (كُورَةُ القَيْس) والقَيْسُ بفتح القاف وسكون الياء المثناة تحتُ وسين مهملة فى الآخر، كانت مدينةً فى القـديم ، وهى الآن قرية معدودة من عمل البَهْنَسىٰ أيضـا .

الثامنة ـ (كُورَةُ البَهْنَسىٰ) وهى ذات عمل مستقرّ، وسيأتى ذكرها فى الكلام علىٰ الأعمال المستقرّة فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

التاسعة ـ (كُورَةُ طَحَا وحَيِّز شَنُودَةَ) . أما طحا فبفتح الطاء والحاء المهملتين وألف فى الآخر، كانت فى القـديم مدينةً ذات عمل، ولذلك تعرف بطَحَا المدينة، وهى الآن من عمل الأُشْمُونَيْنِ الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ الأعمال المستقرّة، وإليها ينسب أبو جعفر الطَّحَاوِىّ إمام الحنفية ومحدّثهم .

وأما حيز شَنُودة، فمن الأسماء التى دَرَست ولم تعلم حقيقتها .

العـاشرة ـ (كُورَةُ بُوَيْطَ) قال ٱبن خِلِّكَانَ : بُوَيْطُ بضم الباء الموحدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وطاء مهملة فى الآخر . وقال فى "تقويم البُلْدان"[1]

(١) نص ياقوت علىٰ الضبطين وقال أ كثر ما يقال بغير همز .

بهـمزة مفتوحة فى أوّله وباء ساكنة ، وهو آسم واقع على بلدتين بالديار المصرية : إحداهما بعمل البهنسى فى لِحْف الجبل على طريق المارّة ، وإليها ينسب أبو يعقوب البُوَيْطى : أحد رواة الجديد عن الإمام الشافعىّ رضى الله عنه . والثانيـة من عمل سُيُوط وتعرف ببُوَيْط البتينة ، وإليها ينسب شرق بويط والظاهر أنها المرادة هنا .

الحادية عشرة — (كُورَةُ الأُشْمُونَيْنِ وأَنْصِنَا وشُطْب) . أما مدينة الأُشْمُونَيْنِ ، فذات عمل مستقرّ ، وسيأتى ذكرها فى الكلام على الأعمال المستقرّة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وأما أَنْصِنَا ، فقال فى "تقويم البُلْدان" : هى بفتح الهمزة وسكون النون وكسر الصاد المهملة وفتح النون وألف فى الآخر ، وهى مدينـة قديمة خرابٌ فى البر الشرقىّ من النيل قُبَالة الأُشْمُونَيْنِ .

وقد ذكر آبن هشام فى السيرة : أن مارِيَةَ القِبْطية التى أهداها المُقَوْقِسُ للنبىّ صلّى الله عليه وسـلم من كُورَتِها من قرية يقال لهـا حَفْن ، وأنصنا الآن من جملة عمل الأُشْمُونين .

وأما شُطْبٌ ، فبضم الشين المعجمة وسكون الطاء المهملة وباء موحدة فى الآخر ، وهى مدينـة قديمة بنيت فى زمن شدّاد بن عديم أحد ملوك مصر بعد الطوفان قد خربت وعُمِر عليها قرية صـغيرة سميت بآسمها ، وهى الآن من جملة عمل سُيُوط الآتى ذكره فى الأعمال المستقرّة .

الثانيةَ عشرةَ — (كُورَةُ سُيُوط) وهى مستقرّ الحكم ، وسيأتى ذكرها فى الأعمال المستقرّة .

الرابعةَ عشرةَ — (كُورَةُ قَهْقُوهَ) وهى من الأسماء التى درست ونُسِيت ، ولم أعلم بالصعيد بلدةً تسمّى الآن بهذا الآسم .

الخامسةَ عشرةَ — (كورة إخميم والدَّيْر وأبْشَاية) : أما كورة إخميم، فمن الكُوَر المستمرّة الحكم، وسيأتى الكلام عليها فى الكُوَر المستقرّة .

وأما الدير، فيجوز أن يكون المراد به الدَّيْر والبَلَّاص ، وهى بلدة فى شرقىّ النيل شَمالىّ قِنَا، هى الآن من عمل قُوص الآتية الذكر .

وأما أبْشاية، فمن الأسماء التى جهلت .

السادسةَ عشرةَ — (كورة هُوْ ودَنْدَرَة وقِنَا) : أما هُوْ، فبضم الهاء وسكون الواو، وهى مدينــة صغيرة علىٰ ساحل البر الغربىّ الجنوبىّ من النيل ، ويضاف إليها فى الدواوين الكوم الأحمر، فيقال هُوْ والكومُ الأحمر .

وأما دَنْدَرَة، فبفتح الدال المهملة وسكون النون وفتح الدال الثانية والراء المهملة وهاء فى الآخر، وهى مدينــة قديمة خرابٌ علىٰ الساحل الغربىّ الجنوبىّ من النيل فى شرقىّ هُوْ، وبها كانت البِرْباة العظيمة المتقدّم ذكرها فى عجائب الديار المصرية .

وأما قِنـا، فبكسر القاف وفتح النون وألف فى الآخر، وهى مدينة شرقىّ النيل وبها ضريح السـيد الجليـل عبد الرحيم القِنـائى ، المعروف بالبَرَكة وإجابة الدعاء عنده . وهــذه البلاد الثلاث الآن من جملة عمل قوص الآتى ذكره فى الكلام علىٰ الأعمال المستقرّة .

السابعةَ عشرةَ — (كُورَة قِفْطِ والأُقْصُر). أما قفط، فبكسر القاف وسكون الفاء وطاء مهملة فى الآخر، كانت مدينة قديمة بالبر الشرقىّ من النيل جنوبىَّ قِنَا المتقدّمة الذكر، بناها قِفْطُ بن قبطيم[(١)] بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السـلام أحد ملوك مصر بعد الطوفان، فخربت و بقيت آثارها وعمرت علىٰ القرب منهـا مدينة صغيرة سميت بآسمها .

(١) فى ياقوت قفط بن مصر ... ثم قال وأصـله فى كلامهم قفطيم ومصريم ولكن الذى فى المقريزى نحو ما فى الاصل .

وأما الأُقْصُر، فبضم الهمزة وسكون القاف وضم الصاد المهملة وراء مهملة في الآخر، وتسمَّى الأُقْصُرَيْنِ أيضا على التثنية، وهى مدينة خراب بالبر الشرقىّ من النيـل ، قد عُمِر على القرب منها قرية سميت بآسمها ، وبها ضريح السـيد الجليل أبو الحَجَّاج الأُقْصُرِىّ، وكانت بها بِرْباة عظيمة فخربت، وآعلم أن بين قِفْط والأُقْصُر مدينة قوص، وقد ذكر القضاعىّ كورتها فى جملة الكُوَرِ، فكيف يستقيم أن تذكر قِفْطُ والأُقْصُر كورة واحدة ؟ .

الثامنةَ عشرةَ — (كورة قُوص) وهى مستمرّة الحكم ، وسـيأتى الكلام عليها فى جملة الأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالىٰ .

التاسعةَ عشرةَ — (كورة أَسْنَا وأَرْمَنْتَ) . أمّا أَسْـنَا (١) ، فبفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح النون وألف فىالآخر،وهى مدينة حسنة بالبر الغربىّ من النِّيل، ويقـال : إنه لم يسلم من تخريب بُخْتَ نَصَّر من مدن الديار المصرية سواها ، وذلك أن أهلها هربوا منه إلى الجبل بالقرب منها فتبعهم وقتلهم هناك وترك البـلد على حالهـا .

وأمّا أَرْمَنْتُ، فبفتح الهمزة وسكون الراء المهـملة وفتح الميم وسكون النون وتاء مثناة فوقُ فى الآخر، وهى مدينة صغيرة بالبرّ الغربىّ الشّمالىّ من النيل بينهـا وبين أَسْنَا مرحلة ، وكلاهما الآن من عمل قُوص، وقد جرىٰ على الألسـنة الجمع بينهما فى اللفظ فيقال : أَسْنَا وأَرْمَنْت، وكأن ذلك لكثرة آجتماعهما فى إقطاعٍ واحد .

العشرون — (كورة أُسْوان) : وسيأتى ذكرها فىالكلام على الأعمال المستقرّة مع الأعمال القُوصية إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) ضبطه ياقوت بكسر الهمزة .

الحيز الثـانى
(أســفل الأرض)

وقد ذكر القضاعىّ : أنها ثلاث وثلاثون كورة فى أربع نواحٍ .

النـاحية الأُولىٰ
(كُوَر الحَوْف الشرقىّ، وبها ثمانُ كُوَر)

الأولىٰ ـ (كورة عَيْنِ شَمْسٍ) وعين شمس مدينة قديمة خرابٌ علىٰ القرب من المَطَرِيَّةِ من ضواحى القاهرة الآتى ذكرها فى الأعمال المستقرّة .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : رأيت علىٰ حاشية بعض كتب التواريخ أن مَلِكَها كان عظيمَ الشأن، وعاش إلىٰ زمن يوسف عليه السلام وتزوّج ٱبنته .

الثانية ـ (كورة أَتْريب) وأتريب مدينة خرابٌ علىٰ القرب من بِنْها العَسَل من أعمال الشرقيــة الآتى ذكرها فى الأعمال المستقرّة، بناها أتريب بن قبطيم بن مصر ٱبن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام .

الثـالثة ـ (كورة بَنَا وتُمَىّ) أما بَنَا ، فلا يعرف بالحوف الآن بلدة ٱسمها بَنَا ، وإنمـا بَنَا بعمل الغربية، وسيأتى ذكرها مع بُوصير هناك .

وأمّا تُمَىّ، فبضم التاء المثناة فوقُ وفتح الميم وياء مثناة تحتُ فى آخرها، وهى مدينة خرابٌ بعـمل المُرْتَاحِيَّــةِ ، بها آثارٌ عِظَامٌ ، رأيت فيها أبوابا من حجر صوّان قطعة واحدة، ٱرتفاعها نحو عشرة أذرع قائمة علىٰ قاعدة من صوّان أيضا .

الرابعة ـ (كُورَةُ بَسْطَة) وبَسْطَةُ بفتح الباء الموحدة وسكون السين وفتح الطاء المهملتين وهاء فى الآخر، وهي مدينة خرابٌ تعرف الآن بتَلّ بَسْطَة من عمل الشرقية .

الخامسة ـ (كورة طَرَابِيَة) وهى من الأسماء التى دَرَست ولم تعرف .

السادسة ـ (كورة قُرْبَيْط) وهى من المجهول أيضا .

السابعـة ـ (كورة صَان وإبْلِيل) وهى من المجهول .

الثـامنة ـ (كورة الفَرَمَا والعَرِيش) . أمّا الفَرَما، فقال فى "تقويم البُلْدان": هى بفـاء وراء مهـملة وميم مفتوحات ثم ألف، وهى بلدة خرابٌ علىٰ شاطئ بحر الروم، علىٰ بُعْدِ يومٍ من قَطْيَةَ . قال ٱبن حَوْقَلَ : وبها قَبْرُ جالينوس الحكيم .

وأمّا العَرِيشُ ، فبفتح العين المهملة وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحتُ وشين معجمة فى الآخر، قال فى "الروض المعطار" : كانت مدينة ذات جامعين مفترقى البناء، وثمـار وفواكه .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى الآن مَنْزِلة علىٰ شَطِّ بحر الرُّوم ، وبها آثار قديمة من الرُّخام وغيره .

قال فى "الروض المعطار" : وكان بينها وبين قَدَس طريق مسلوكة فى البر .

النـاحية الثـانية

(بطن الريف)

وأصل الرِّيف فى لغة العرب موضع الزَّرْع والشجر، إلا أنه غلب بالدُّيار المصرية علىٰ أسفل الأرض منها، وفيها سَبْعُ كُوَر .

الأولىٰ ـ (كُورَةُ بَنَا وبُوصِيرَ) . أمّا بَنَا، فبفتح الباء الموحدة والنون وألف فى الآخر، وبُوصِيرُ تقدّم ضبطها فى الكلام علىٰ بوصير المعروفة بمصر يوسف بالجيزيَّة عند ذكر قواعد مصر القديمة ، وبنا وبُوصِـيرُ هذه كلاهمـا من عمل الغربيـة الآتى ذكره فى الأعمال المستقرّة .

الثـانية – (كُورَة سَمَنُّودَ)، وسَمَنُّودُ بفتح السين المهملة والميم وضم النون المشدّدة والواو ودال مهملة فى الآخر، وهى مدينة صغيرة من الأعمال الغربية، كان لها عمل مستقرّ فى أوّل الأمر ثم أضيفت إلىٰ عمل الغربية .

الثالثة – (كُورَة نَوَسَا)، ونَوَسَا بفتح النون والواو والسين المهملة فى الآخر(١)، وهى الآن قرية من قُرىٰ المُرْتاحية .

الرابعة – (كورة الأَوْسِيَّة)، وهى من الأسماء التى دَرَست وجُهِلت .

الخامسة – (كورة البُجُوم)، بالباء الموحدة والجيم، وهى من الأسمـاء المندرسة أيضا، ولا يُعرف مكان بالديار المصرية آسمه البُجُوم إلا أرض بأسفل عمل البحيرة علىٰ القرب من الإسكندرية، صارت مستنقعا للمياه المتصرفة عن البحيرة .

السادسة – (كُورَةُ دَقَهْلَةَ)، ودَقَهْلَةُ بفتح الدال المهملة والقاف وسكون الهاء وفتح اللام وهاء فى الآخر، وهى مدينة قديمة بالجزيرة بين فِرْقَةِ النيل المارّة إلىٰ دمياط والفرقة التى تصب ببحيرة تِنِّيس، وإليها ينسب عمل الدقهلية، وهى الآن قرية من عمل أَشْموم الآتى ذكرها فى الأعمال المستقرة، وإن كان العمل فى الأصل منسوبا إليها .

السابعة – (كورة تِنِّيسَ ودِمْيَاطَ)، أمّا تنيس، فقال فى اللُّبَاب : هى بكسر المثناة فوقُ والنون المشدّدة وسكون الياء المثناة تحتُ وسين مهملة فى الآخر، والجارى علىٰ الألسنة فتح التاء، كانت مدينة عظيمة فطمىٰ عليها الماء قبل الفتح الإسلامى بمـائة سنة، فأغرق ما حولهـا وصارت بُحَيْرَةً، وسـيأتى الكلام عليهـا فى الكلام علىٰ بُحَيرتها، وهى الآن قرية صغيرة بوسط البُحَيرة والمـاء محيط بها .

قال فى "الروض المعطار" : وكانت تُرْبتها من أطيب التُّرَب، وبها تُحاك الثيابُ النفيسة التى ليس لهـا نظير فى الدنيا، وقد قيل : إن الجنتين اللتين أخبر الله تعالىٰ

(١) لعله وألف فى الآخر كما هو ظاهر

عنهما فى سورة الكهف بقوله : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ الآية ، كانتا بِتِنِّيس .

وأمّا دِمْياطُ ، فسيأتى ذكرها فى الكلام على الأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالى .

النـاحية الثالثـــــة

(الجزيرة بين فِرْقَى النيل الشرقية والغربية ، وفيها خمس كور)

الأولى — (كُورَةُ دَمْسِيسَ ومَنُوفَ) . أمّا دَمْسِيسُ ، فبفتح الدال المهملة وسكون الميم وكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحتُ وسين مهملة فى الآخر ، وهى الآن بلدة من عمل الغربية .

وأمّا مَنُوف فمن الأسماء التى نُسِيت وجهلت .

الثانية — (كورةُ طُوَّة مَنُوفَ) ، وهى من الأسماء التى جهلت ولا يعلم بالديار المصرية الآن بلدة ٱسمها طُوَّة غير بلدين بالوجه القبلىّ إحداهما بالأُشْمُونِين ، والثانية بالبهنساوية .

الثالثة — (كورة سَخَا وتَيْدَةَ والفَرَّاجُونِ) . أمّا سَخَا ، فبفتح السين المهملة والخاء المعجمة وألف فى آخرها ، وهى بلدة حسنة كانت ذات عمل ، ثم ٱستقرّت من عمل الغربية الآن .

وأمّا تَيْدَةُ ، فبفتح التاء المثناة فوقُ وسكون الياء المثناة تحتُ وفتح الدال المهملة وهاء فى آخرها ، وهى الآن قرية من قرى الغربية .

وأمّا الفَرَّاجُونُ ، فبالألف واللام فى أوّلها ، ثم فاء مفتوحة وراء مهملة مشدّدة بعدها ألف وجيم مضمومة وواو ساكنة ونون فى الآخر ، وهى بلدة مضافة إلى تَيْدَةَ ، فيقال : تَيْدَةُ والفَرَّاجُون .

الرابعة ـ (كورة بقيرة وديصا)، وهما من الأسماء التى نُسِيت وجهلت .

الخامسة ـ (كُورة البَشَرُود)، وهى من الأسماء التى جهلت .

النـاحية الرابعـــة

(الحَوْف الغربىّ، وفيها إحدىٰ عشرة كورة)

الأُولىٰ ـ (كورة صَا)، وصَا بصاد مهملة مفتوحة وألف فى الآخر، وهى مدينة خرابٌ شرقىّ الفرقة الغربية من النيل، بناها صا بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام آبن نوح عليه السلام، أحد ملوك مصر بعد الطوفان، وبها الآن آثار عظيمة، وقد عمرت بالقرب منها قرية وسميت بآسمها، وكأن عملها كان من البرّ الغربىّ .

الثـانية ـ (كُورَة شَبَاس) وشَبَاسُ بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة وألف ثم سين مهـملة آسم لثلاث بلاد من عمل الغربية الآن، وهى شَبَاسُ المِلْح، وشَبَاسُ أنبارة، وشَبَاسُ سنقر، وتعرف بشَبَاس الشهداء، وكأنّ المراد الثالثة فإنها أعظمها .

الثالثة ـ (كُورةُ البَذَقُون)، وهى من الأسماء التى درست وجهلت .

الرابعة ـ (كورة الخَيْس والشِّرَاكِ) . أما الخيس فلا تعرف بالبحيرة الآن بلدة تسمّى الخيس، وإنمـا الخَيْسُ بفتح الخـاء المعجمة وسكون الياء وسين مهملة فى الآخر، بلدة من عمل الشرقية .

وأما الشِّرَاكُ، فبكسر الشين المعجمة المشدّدة وفتح الراء المهملة وألف ثم كاف، وهى بلدة من عمل البحيرة .

الخامسة ـ (كورة خِرْبِتَا)، بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة وفتح التاء المثناة فوق، وهى قرية معروفة من عمل البحيرة، ومنها سار من سار من المصريين لقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

السادسة ـ (كورة قَرْطَسَا ومَصِيل) . أما قَرْطَسَا فبفتح القاف وسكون الراء المهـملة وفتح الطاء والسين المهـملتين وألف فى الآخر؛ وهى قرية من عمل البحيرة الآن .

وأما مَصِيل، فمن الأسماء التى جهلت .

السابعة ـ (كورة المليدس) وهى من الأسماء التى جهلت .

الثامنة ـ (كورة إخنا ورَشِيدَ والبُحَيْرَة) . أما إخنا، فمن الأسماء التى جهلت ولا يعرف بالبُحَيْرَة بلد ٱسمها إخنا ، وإنما أخنويه من عمل الغربية ، والعامة تقول إخنا .

وأما رَشِيدُ ، بفتح الراء المهملة وكسر الشـين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر، فبلدة عند مَصَبِّ الفرقة الغربية التى يقع الٱعتناء بحفظها . وفى ذلك نظر لٱعتباره الغربيةَ ورشيد من سواحل البحيرة، وبينهما بُعْدٌ يبعد معه أن يجتمعا فى كورة واحدة .

وأما البُحَيْرَةُ، فالظاهر أنه يريد بحيرة بُوقير المتقدّم ذكرها فى الكلام على القواعد القديمة، ويأتى بقية الكلام عليها فى الأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالىٰ .

العاشرة[(١)] ـ (كورة مَرْيُوطَ) . ومَرْيُوطُ بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الياء المثناة تحت وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر، وهى ناحية غربىّ الإسكندرية داخلة الآن فى عملها، بها الأشجار والبساتين، وفواكهها تحمل للإسكندرية .

الحـادية عشرةَ ـ (كورة لُوبِيَـةُ ومَرَاقِيَةَ) . أما لوبيـة ، فبلام وواو وباء موحدة ثم ياء مثناة تحت وهاء فى الآخر . قال فى "الروض المعطار" : وهى كورة

(١) سقطت التاسعة من قلم الناسخ وهى "كورة البتنون" وقد ذكرها ٱبن دقاق فى كتابه "الٱنتصار" .

من كُوَر مصر الغربيـة ، متصـلة بالإسكندرية . قال : وقد قيل إن الإسْكَنْدَرَ كان منها .

وأما مَرَاقِيَةُ ، فبميم وراء مهملة وألف وقاف وياء مثناة تحت وهاء فى الآخر .

وقد ذكر القضاعىّ فى تحديد الديار المصرية مايقتضى أنهما بجوار بَرْقَة ، فقال : إن الذى يقع عليـه آسم مصر من العريش إلىٰ لُوبِيةَ ومَرَاقِيَةَ ، ثم قال : وفى آخر أرض مراقية تلقىٰ أرض أنطابُلُس ، وهى بَرْقة ، والظاهر أن لوبية غربىٌّ مريوط ، ومراقية غربىّ لوبية وهى آخر أرض الديار المصرية من جهة الغرب .

الحيز الثالث

(كُوَر القِبْلة ، وفيها خمس كور)

الأولىٰ – (كورة الطُّور وفاران) . أما الطُّور فضبطه معروف . قال فى المشترك : والطور فى اللغة العبرانية آسم لكل جَبَـل ، ثم صار عَلَمًـا لجبال بعينها ، منها جبل طُورِزَيْتَا بلفظ الزيت ، وهو آسم لجبل برأس عين من بلاد الجزيرة وجبل بالقُدْسِ وجبل مُطِلّ علىٰ طَبَرِيَّة ، وطُور هٰرون بالقُدْس ، وطُورسينا ، وهو المراد هنا ، وهو جبل داخلٌ فى بحر القُلْزُم علىٰ رأسه دَيْرٌ عظيم ، وفى واديه بساتينُ وأشجار ، وهو علىٰ مَرْحلة من فُرْضَةِ الطور المتقـدّمة الذكر فى تحديد بحر القُلْزُم ، وكأنها سميت بآسمه لقربها منه . قال آبن الأنبارىّ فى "كتابه الزاهر" : وسمى الطُّور بطُور بن إسماعيل آبن إبراهيم عليهما السلام .

وأما فارانُ ، فبفاء مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة بعدها ألف ثانية ثم نون ، قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينة صغيرة من برالحجاز علىٰ جون علىٰ البحر . قال : ولجبال فارانَ ذكرٌ فى التوراة .

الثانية ـ (كورة رَايَة والقُلْزم). أما راية فمن الأسمـاء التى جهلت، وقد ذكرها آبن سعيد مقرونة بالقلزم فقال : ورايَةُ والقُلْزم من كور مصر .

وأما القُلْزُمُ، فقال فى المشترك : هو بضم القاف وسكون اللام وضم الزاى المعجمة ثم ميم فى الآخر، وهى مدينة قديمة علىٰ ساحل بحر القُلْزُمِ وإليها ينسب البحر المذكور.

قال فى "القانون" : وطولهـا ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها ثمـانٌ وعشرون درجة وعشرون دقيقة، وعلىٰ القرب منها غَرِقَ فِرْعَوْنُ .

الثالثة ـ (كورة أَيْلَةَ وحَيِّزِها، ومَدْيَنَ وحَيِّزِها، والعَوْنيدوحَيِّزِها، والحَوْرَاءِ وحَيِّزِها).

أما أَيْلَةُ فقال فى "تقويم البُلْدان" : هى بفتح الهمزة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر. قال: وهى كانت مدينة صغيرة خرابا علىٰ ساحل بحر القُلْزُمِ.

قال فى "القانون" : طولهـا ست وخمسون درجة وأربعون دقيقة .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها زرع يسير، وهى مدينة اليهود الذين جعل منهم القِرَدَةُ والخنازير، وعليها طريق حُجَّاج مصر . قال : وهى فى زماننا برج وبه وَالٍ من مصر وليس بها مزدرع، وكان بها قلعة فى البحر فبطلت ونُقِل الوالى إلىٰ البرج .

وأما مَدْيَنُ فضـبطها معروف ؛ وهى فى الأصل آسم لقبيلة شُعَيْبٍ عليه السلام وكانوا مقيمين بها فسميت البلد بهم، وهى مدينة خَرابٌ علىٰ بحر القُلْزُمِ محاذِيَةٌ لتَبُوكَ من بلاد الشأم علىٰ نحو ست مراحل منها، وعدّها فى "الروض المعطار" من بلاد الشأم، وبها البئر التى آستقىٰ منها موسىٰ عليه السلام لبنات شُعَيْبٍ وسقىٰ غنمهنّ .

قال آبن سعيد : وسعة البحر عندها نحو مجرى .

وأما العَوْنِيد؟ فبعين مهملة وواو وياء مثناة تحت ونون ودال . قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينة قريبة من نصف الطريق بين جُدَّةَ والقُلْزُمِ . قال : وعلىٰ

القرب منها مرسى صنا، ينحدر المـاء بها عن أثرقدم من أوسط الأقدام بينة الكعب والأَخْمَص والأصابع لم يُعْفها الزمان، ولا تمحى بمرور المـاء عليها .

وأما الحَوْرَاءُ ، فبحاء مهملة مفتوحة بعـدها واو ساكنة وراء مهـملة مفتوحة ثم ألف فى الآخر . قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينـة علىٰ ساحل وادى القُرىٰ بها مسجد جامع ، وبها ثمـانية آبار عَذْبَةٍ ، وبها ثِمَـار ونخل وأهلها عرب من جُهَيْنَةَ وبَلِيٍّ . قلت : والمعروف فى زماننا أن الحَوْرَاءَ منزلة بطريق حُجّاج مصر، ولعلها علىٰ القرب منها .

الرابعة ـ كورة بَدَا يعقوب وشُعَيبٍ، ولم أعلم حقيقة مكانهما .

قلت : ذكر القضاعىّ أَيْلَةَ ومَدْيَنَ وما والاهما ممـا علىٰ ساحل بحر القُلْزُمِ من بر الحجاز فى أعمـال مصر جريا علىٰ ما قدّمه من إدخال ذلك فى تحديد الديار المصرية ، علىٰ أنه قد أهمل من جملة الديار المصرية حَيِّزَيْنِ آخرين .

الحـــيز الأوّل
(بلاد ألواح)

إذ هى داخلة فى حدود الديار المصرية علىٰ ما حدّده هو وغيره .

قال فى "اللُّبَابِ" : وهى بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الواو وفى آخره حاء مهملة، وقال فى "المشترك" : واح بغير ألف ولام ويجمع علىٰ واحات،وهى ناحية غربىّ بلاد الصعيد منقطعة عنه خلف الجبل الغربىّ من جبلى مصر المتقدّم ذكرهما.

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى بين مصر والإسكندرية والصـعيد والنُّوبة والحبشة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والبَرَارى محيطة بها من جميع جهاتها ، وهى بينها كالجزيرة، بين رمال ومَفاوزَ .

قال البكرىّ : وهو إقليم مستقلٌّ غير مفتقر إلىٰ سواه . قال فى "الروض المعطار" : وهى آخر بلاد الإسلام، و بينها و بين بلاد النُّو بة ستُّ مراحل . قال : وفى هذه الأرض شَبِّية وزاجِيَّة وعيون حامضة الطعوم ولكل نوع منها منفعة وخاصة ، وبها العيون الجارية، والبساتين، والثمار، والتمر الكثير؛ وبها مدن كثيرة مسوَّرة وغير مسوّرة .

قال فى " المشترك " : وهى ثلاث كور : واح الأولىٰ ، وواح الوسطىٰ ، وواح القُصْوىٰ .

قلت : والأولىٰ منها ـ مقابل الأعمال البهنساوية، وهى أعمرها وأكثرها ثمرة، ومنها يجلب التمر والزبيب الكثير،وتعرف بواح البهنسىٰ و بالواح الخاصّ .

والثانية ـ مقابل شمالىّ الأعمال الأُسْيوطية، وتعرف بالواح الداخلة ، وهى تلو الواح الأولىٰ فى العمارة ؛ بها مُدُن مشهورة ، منها السلمون والهنداو والقَلَمُون والقصير وغيرها .

والثالثة ـ مقابل جنوبىّ الْوَاح الثانيـة ،وتعرف بالْوَاح الخارجة ؛ وبين ريف الصعيد و بين جميعها عرض جبل مصر الغربىّ، ومسيرته ثلاث مراحل فما دونها بحسب ٱختلاف الأماكن والطرق .

قال فى " التعريف" : وهى جارية فى اقطاع أمراء مصر، وهم يولُّون عليها من قِبَلِهم . قال : ومَغَلُّها كأنه مصالحة لعدم التمكن من ٱستغلاله أُسْوَةَ بقية ديار مصر، لوقوعه منقطعا فى البلاد النائية والقِفَار النازحة .

قال فى " مسالك الأبصار" : ولا تعـدّ فى الولايات ولا الأعمـال ، ولا يحكم عليها من قِبَل السلطان .

الحـــيز الثـانى

(بَرْقـــةُ)

بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح القاف وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من الإقليم الثـالث . قال فى "كتاب الأطوال" : وطولهـا ٱثنتان وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعَرْضها ٱثنتـان وثلاثون درجة . وهى أرض مُتَّسِـعَةُ الأرجاء ، مديدة الفضاء ، وهى من أزكىٰ الأراضى دوابَّ، وأمراها مرعًى .

قال فى "مسالك الأبصار" : أخبرنى بعض مَنْ رءاها أنها شبيهة بأطراف الشأم وجبال نابُلُس فى مَنَابت أشجارها وكيفية أرضها وما هى عليه،وأنها لو عمرت بالسكان وتأهلت بالزُّرّاع، كانت إقليما كبيرا يقارب نصف الشأم،قال : وبها الماشية والسائمة الكثيرة : من الإبل والغنم والخيل ،وخيلُها من أقوىٰ الخيل وأصلَبها حوافر،وصُوَرُها بين العِرَابِ والبراذين ، وقد جمعت بين حسن العِرَابِ وكمال تخاطيطها، وصلابة البراذين وثباتها علىٰ الوُعُور،وهى إلىٰ محاسن العِرَابِ أقرب،ولكنها لاتبلغ شأْوَ خيل البحرينِ والحجـاز، وفحولهـا أنجبُ من إناثها . قال : وكذلك بها المدن المبنيه ، والقصور العليه، والآثار الدالة علىٰ ماكانت عليه من الجلالة .

قال ٱبن سعيد : وهى سلطنة طويلة،وإن لم يكن لها ٱستقلال لٱستيلاء العرب عليها،وهى إلىٰ إفْرِيقِيَّةَ أقرب منها إلىٰ مصر . قال : وكان سريرها فى القديم بمدينة (طَبَرْقَةَ) . وذكر صاحب "الروض المعطار" : أنقاعدتها كانتمدينة (أنطابُلُس)، وقد تقدّم من كلام القضاعىّ فىتحديد الديار المصرية فى آخر الحدّ الشمالىّ مايوافقه .

قال فى "مسالك الأبصار" : ومن مدنهـا طُلْمَيْثَا . قلت : والتحقيق أن بَرْقَةَ قسمان: قسم محسوب من الديار المصرية، وهو مادون العَقَبة الكبرىٰ إلىٰ الشرق .

وقسم محسوب من إفْرِيقِيَّةَ، وهو مافوق العقبة المذكورة إلىٰ الغَرْب، وهـذه المُدُن الثلاث ممـا يلي جهة المغرب، والقسمان كلاهما اليوم بيد العرب أصحابِ المـاشية، قال فى "مسالك الأبصار" : وربما زرع بعضهم فى بعض أرضها فأنجب، ولكنهم أهـل بادية لا عناية لهم بعمارة ولا زرع . قال : وأمرها إلىٰ صاحب مصر يُقْطِعها بالمناشير تارة لبعض الأمراء وتارة للعرب يأخذون عدادها ، وكأنه يريد القسم الذى هو من مصر .

الضرب الثـانى
(من كور الديار المصرية نواحيها وأعمالها المستقرّة، ولها وجهان)

الوجـــــه الأوّل
(القبــلىّ)

وهو المعبر عنه بالصعيد ، وقد تقـدّم بيانه فى الكلام علىٰ الكُوَر القديمة ، وبه تسعة أعمـال :

العمل الأوّل ــ الجيزيَّة . وهو أقربها إلىٰ الفُسْطَاط والقاهرة ، ومقرّ ولايته مدينة الجِيزَةِ (بكسر الجيم وإسكان الياء المثناة تحت وفتح الزاى المعجمة وبعـدها هاء) وموقعها فى الإقليم موقع الفُسْطَاط ، وطولها وعرضهما واحد ، وإليها ينسب الربيع الجِيزِىّ راوى الأمِّ عن الشافعىّ رضى الله عنه .

قال فى "الروض المعطار" : ويقال إن بها قبر كَعْبِ الأحْبَار، وهى مدينة لطيفة علىٰ ضَفَّة النيل الغربية مقابل جزيرة المِقْياس المتقدّمة الذكر والنيل بينهما، وبعض هذا العمل يأخذ فى جهة الشَّمال إلىٰ الوجه البحرىّ الآتى ذكره .

قال فى "الروض المعطار" : والجِيزَةُ اختطها عمرو بن العاص رضى الله عنه .

العمل الثانى ـ الإِطْفِيحِيَّة . وهو شرقىّ النيل فى جنوب الفُسْطَاط، مُصاقِبٌ بركة الحبش وبساتين الوزير. ومقرّ ولايته مدينة "إِطْفِيح" (بكسر الهمزة وإسكان الطاء المهملة وبالفاء والياء والحاء المهملة) وربما قلبت الطاء تاءً مثناةً فوقُ، وهى مدينة لطيفة فى البر الشرقىّ، وموقعها فى الإقليم الثالث، ولم يتحرر لى طولها وعَرْضها، وعملها ما بين المقطم والنيل آخذا عنها جنوبا وشَمَالا، وليس لعملها كبير ذكر .

العمل الثالث ـ البَهْنَساوِيَّة . وهو مما يلى عمل الجِيزَة من الجهة الجنوبية ، ومقرّ ولايته مدينة البَهْنسٰى . قال فى "المشترك" : (بفتح الباء وسكون الهاء وفتح النون وسين مهملة مفتوحة وألف مقصورة) وهى مدينة لطيفة قديمة بالصعيد الأدنىٰ بالبر الغربىّ من النيل تحت الجبل بطوق المزدَرَع، مركبة علىٰ ضَفَّة بحر الفيُّوم . وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : طولها إحدىٰ وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها ثمان وعشرون درجة .

العمل الرابع ـ الفَيُّومِيَّةُ . وهو مُصَاقِبٌ لعمل البَهْنسٰى من غربيه ، وبينهما منقَطَع رمل . وهو من أعظم الأعمال وأحسنها عمارة ، كثيرُ البساتين ، غزيرُ الفواكه ، دارُّ الأرزاق . يقال إنه كان مصل(١) مياه الديار المصرية فاستخرجه يوسف عليه السلام وجعله ثلثمائة وستين قرية لِتَمير كلُّ قرية منها بلدَ مصرَ يوما من أيام السنة .

قلت : وأما الآن فقد نقصت عدّة قراه بسبب ما عراها من ركوب ماء البركة التى هى مصل(١) مياهه، المتقدّم ذكرها فى جملة بحيرات الديار المصرية وركوب مائها علىٰ أكثر القرىٰ المجاورة لها، ولولا ماهو شامل له من بركة الصدّيق عليه السلام،

(١) كذا فى الأصل بدون نقط ولعله مصحف عن مَمْصَل أى مكان المصل والرشح وفى خطط المقريزى وقد كان مغيض ماء النيل . وفى تقويم البلدان كان فى وهدة وقد سيق إليه نهر من رشح ماء النيل . وفى المسعودى وكان مضفاة .

لكانت قد غَطَّتْ جميع بلاده . إذ المياه تنصبُّ إليها شتاءً وصيفا على ممرّ الدهور وتعاقب الأيام، وليس لها مَصْرِف تتصرف منه ضرورةَ إحاطة الجبال بها من الجهات التى هى بصَدَدِ أن تُصْرف منها ، ولقد آجتهد بعض حُكَّام الزمان على أن يتحيل فى عمل مَصْرِف يُقْطَع فى الجبل لتتصرف منه مياهها فلم يجد إلى ذلك سبيلا . ولو كان ذلك فى حيز الإمكان، لفعله يوسف عليه السلام .

قال آبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ويقال إنه على جميع الفَيُّوم سورٌ دائر، ومقرّ ولايته (مدينة الفَيُّوم) وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال فى "القانون" : وطُولها أربع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعَرْضها ثمان وعشرون درجة وعشرون دقيقة .

وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ثلاث وخمسون درجة، وعرضها تسعٌ وعشرون درجة، وهى مدينة حسنة على ضَفَّة البحر الْمَنْهى حسنة الأبنية ، زاهية المعالم . وبها الجوامع والرُّبُط والمدارس ، وهى راكبة على الخليج المنهى من جانبيه، وهو مخترق وسطها . قال فى "العزيزى" : وبين الفَيُّومِ والفُسْطَاطِ ثمانية وأربعون مِيلًا .

العمل الخامس ـ عمل الأُشْمُونِيْنِ والطَّحَاوِيَّة . وهو مصاقب لعمل البهنسى من جنوبيه، وهو عمل واسع كثير الزرع ، واسع الفضاء، متقارب القُرى . ومقرّ الولاية به (مدينة الأُشْمُونيْنِ) بضم الألف وسكون الشين المعجمة وضم الميم وسكون الواو وفى الآخر نون . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة على ما ذكره فى "تقويم البُلْدان" والإقليم الثانى على ما يقتضيه كلام المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" حيث جعل آخر الإقليم الثانى دَهْروط من البهنساوية .

قال فى "القانون" : طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ست وعشرون درجة؛ وهى مدينة لطيفة بالبر الغربىّ من النيل، كانت فى الأصل مدينة قديمة بناها أُشْمون بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، ثم خربت ودَثَرت، وبنيت هذه المدينة على القرب منها . وكان هذا العملُ فيما تقدّم عملين : أحدهما عمل الأُشْمُونَيْنِ هذا، والثانى عمل طَحَا المدينة (بفتح الطاء والحاء المهملتين وألف فى الآخر) وقد تقدّم ذكرها فى الأعمال القديمة، ثم أضيفا وجعلا عملًا واحدا .

العمل السادس — المَنْفَلُوطِيَّة . وهو مُصاقِبٌ لعمل الأُشْمُونَيْنِ من جنوبيه، وهو من أخصّ خاصّ السلطان الجارى فى ديوان وزارته، ومنه يحمل أكثر الغلال إلى الأهراء السلطانية بالفُسْطَاطِ . ومقرّ ولايته (مدينة مَنْفَلُوطَ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : (بفتح الميم وسكون النون وفتح الفاء وضم اللام ثم واو وطاء مهملة فى الآخر). وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة فيما ذكره فى "تقويم البُلْدان": ومن أواخر الإقليم الثانى على ما يقتضيه كلام "مسالك الأبصار" .

قال فى "كتاب الأطوال" : وطولها اثنتان وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها سبع وعشرون درجة وأربعون دقيقة؛ وهى مدينة لطيفة بالبرّ الغربىّ من النيل بالقُرب من شَطِّه .

العمل السابع — الأُسْيوطِيَّة . وهو مصاقب لعمل مَنْفَلُوطَ من جَنُوبيّه، وهو عمل جليل، ومقرّ الولاية به (مدينة أُسْيُوطَ)(1) بضم الألف وسكون السين وضم المثناة تحت وفى آخرها طاء مهملة . هكذا ضبطه السمعانىّ فى "كتاب الأنساب" :

(1) ضبطها فى القاموس كذلك وضبطها ياقوت بالفتح .

وذكرها فى "الروض المعطار" فى حرف الهمزة ، ووقعت فى شعر آبن الساعاتى بغير ألف فى قوله :

لِلّهِ يومٌ فى سُيُوطَ وليْلَةٌ * عُمْرُ الزَّمَانِ بِمِثْلِهَا لا يَغْلَطُ
بِتْنَا بها، والبَدْرُ فى غُلَوَائِه * وله بِجُنْحِ الليل فَرْعٌ أَشْمَطُ
والطَّيْرُ تَقْرَأُ، والغَدِيرُ صَحِيفَةٌ، * والرِّيحُ تَكْتُبُ، والغَمَامُ يُنَقِّطُ

وإثبات الألف فيها هو الجارى على ألسنة العامّة بالديار المصرية، والثابت فى الدواوين حذفها . وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : وطولها إحدى وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها آثنتان وعشرون درجة وعشر دقائق . وهى مدينة حسنة فى البر الغربىّ من النيل على مرحلة من مَنْفَلُوطَ ،وبها مساجدُ ومدارسُ وأسواقٌ وقياسِرُ وحَمَّامات .

العمل الثامن — (الإخْمِيمِيَّة) . وهو مُصَاقِبٌ لعمل أُسْيُوطَ من جنوبيّه، وهو عمل ليس بالكبير ، وبلاده أكثرها بالبر الغربىّ عن النيل، وحاضرته (مدينة إخْمِيمَ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : (بكسر الألف وسكون الخاء المعجمة والمثناة تحت بين الميمين ، والأولى منهما مكسورة) وموقعها فى أواخر الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : وطولها إحدى وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها ست وعشرون درجة . وهى مدينة لطيفة بالبر الشرقىّ عن النيل على مَرْحلتين من أُسْيُوطَ ، وبها كانت البرابى العظامُ المتقدّمة الذكر ، ويقال إن ذَا النُّونِ المصرىَّ العابدَ الزاهد منها، وولايتها مضافة إلى قُوص .

العمل التاسع — القُوصِيَّة . وهو مُصَاقِبٌ لعمل أُسْيُوطَ من جَنُوبه، وهو عمل متسع الفضاء بعيدُ ما بين القرى، ينتهى آخره إلى أُسْوَان : آخر الديار المصرية

فى البر الشرقىّ والغربىّ، وهى بلاد التّمر، ومنها يجلب إلىٰ سائر البلاد المصرية، ومقرّ ولايته (مدينة قُوص) . قال فى "المشترك" ـ بضم القاف وسكون الواو، وفى الآخر صاد مهملة ـ وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال ٱبن سعيد : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها ست وعشرون درجة؛ وهى مدينة جليلة فى البر الشرقىّ عن النيل، ذاتُ ديار فائقة، ورباع أنيقة، ومدارسَ ورُبُطٍ وحَمَّامات، يسكنها العلماء والتُّجَّار وذوو الأموال، وبها البساتين والحدائقُ المستحسَنَة إلا أنها شديدة الحرّ، كثيرة العقارب، حتّى إنه يُقَيَّض لها مَنْ يدور فى الليل فى شوارعها بالمَسَارج لقتلها، ويقاربها فى الكثرة أيضا سَامُّ أَبْرَص .

قال المقر الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" : أخبرنى عز الدين حسن بن أبى المجد الصَّفَدِىّ أنه عدّ فى يوم صائف علىٰ حائط الجامع بها سبعين سَامَّ أَبْرَص علىٰ صفٍّ واحد . ومما يدخل فى عملها مما له ولاية مستقلة مدينة أُسْوَانَ . قال السمعانىّ : ـ بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الواو وبعدها ألف ونون ـ وخالف ٱبن خِلّكَانَ فى "تاريخه" فضبطه بضم الهمزة، وغلَّطَ السمعانىَّ فى فتحها . وهى مدينة فى أوائل الحدّ الجنوبىّ من الديار المصرية؛ وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : طولها ٱثنتان وخمسون درجة، وعرضها ٱثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة .

قال فى "القانون" : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها ٱثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة . وهى فى البر الشرقىّ من النيل، ذاتُ نخيل وحدائقَ، وهى من قُوص علىٰ نحو خمس مراحل .

قال فى "التعريف" : وواليها وإن كان من قِبَل السلطان فإنه نائب لوالى قُوص .

قلت : أما الآن ، فقد صار لها والٍ مستقلٌّ بنفسه لا حكم لوالى قُوص عليه ، وسيأتى الكلام عليهـا فى مراكز البريد، ويأتى الكلام علىٰ ولايتها فى جملة الولايات بالديار المصرية إن شاء الله تعالىٰ .

الوجـــه الثـانى

(البحـــرى)

وهو كل ما سَـفَل عن القاهرة إلىٰ البحر الرومىّ حيث مَصَبُّ النيل . وإنما سمى بَحْرِياً لأن منتهاه البحرُ الرومىّ، ولا يلزم من ذلك تسـمية الجانب الشرقىّ من الديار المصرية بَحْرِياً لأن نهايته إلىٰ بحر القُلْزُم ، لأن انتهاءه إليـه ليس حقيقيا لانقطاع بحر القُلْزُم عن بلاد الديار المصرية بالجبـال والبرارى المُقْفِرَة، بخلاف بحر الروم فإنه متصل بالبلاد مجاور لهـا فناسب النسبة إليه .

قلت : وقد وقع للمقر الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" فى بلاده وأعماله من الوَهْم مالا يليق بمصرىّ علىٰ ما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

وهذا الوجه هو أرْطَبُ الوجهين وأقلُّهما حرا،وأكثرهما فاكهة،وأحسنهما مُدُنًا . ويشتمل علىٰ ثلاث شُعَب تحوى سبعة أعمال .

الشعبة الأُولىٰ

(شرقىّ الفرقة الشرقية من النيل)

وفيها أربعة أعمـال .

العمل الأوّل ــ الضواحى : جمع ضاحية، وهى فى أصل اللغة البارزة للشمس، وكأنهـا سميت بذلك لبروز قُرَاهَا للشمس ، بخلاف المدينة لغَلَبـة الكِنّ بها ؛ وهو ما يجاور القاهرة من جهـة الشَّمال من القرىٰ، وولايتها مضافة إلىٰ ولاية القاهرة وداخلة فى حكمها، وليست منفردة بمقرّ ولاية غيرها .

العمل الثانى ـ القَلْيوبِيَّة . وهو مُصَاقِبٌ للضواحى من شماليها مما يلى جهة النيل ، وهو عمل جليل ، حسن القُرىٰ ، كثير البساتين ، غزير الفواكه . ومقرّ الولاية به (مدينة قَلْيُوبَ) ـ بفتح القاف وإسكان اللام وضم المثناة تحت وسكون الواو وباء موحدة فى آخرها . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة ، ولم يتحرر لى طُولها وعَرْضها ، غير أنها من القاهرة فى جهة الشَّمال علىٰ نحو فرسخ ونصف من القاهرة .

قلت : ومن بلادها بَلْدتنا (قَلْقَشَنْدَةُ) وهى بلدة حسنة المَنْظَر ، غزيرة الفواكه ، وإليها ينسب الليثُ بنُ سعد الإمام الكبير ، وقد ذكر ٱبن يونس فى "تاريخه" : أنه وُلِد بها . قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس ، وليس لما يقولونه ثَبَات عندنا .

قال ٱبن خِلّكَان : ـ بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة ـ ، وهكذا هى مكتوبة فى دواوين الديار المصرية ، وأبدل ياقوتٌ فى "مُعْجَم البُلْدان" اللامَ راءً ، وهو الجارى علىٰ ألسنة العامّة ، وعليه جرىٰ القُضَاعىّ فيما رأيته مكتوبا فى "خِطَطه" : قال ٱبن خِلّكَانَ : وهى علىٰ ثلاثة فراسخ من القاهرة ۞ وهى بلدة حسنة المَنْظَر ، كثيرة البساتين ، غزيرة الفواكه وإليها ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير . قال ٱبن يونس فى "تاريخه" : ولد بها ، ثم قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس وليس لما يقولونه ثبات عندنا ۞(١) وذكر .

وقال القضاعىّ فى "خططه" : فى الكلام علىٰ دار الليث بالفُسْطاط : وكان له دار بقَرْقَشَنْدَة بالرِّيف ، بناها فهدمها ٱبن رفاعة أميرُ مصر عنادا له ، وكان ٱبنَ عمه ،

(١) ما بين النجمتين تقدم بلفظه قريبا فهو مكرر .

فبناها الليثُ ثانيا فهدمها ، فلما كانت الثالثة ، أتاه آتٍ فى منامه فقال له ياليثُ : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ فأصبح وقد أُفلِجَ ٱبنُ رِفَاعة فأوصى إليه ومات بعد ثلاث . وبقى اللَّيْثُ حتّى توفى فى منتصف شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ، وصلّى عليه موسى بن عيسى الهاشمىّ أميرُ مصر للرشيد .

وترجم له ٱبن خلكان بالأصبهانىّ ، ثم قال فى آخر ترجمته : ويقال إنه من قَلْقَشَنْدَةَ .

قلت : وما قاله ٱبن يونس أثبت ، ويجب الرجوع إليه لأمرين : أحدهما أنه مصرىّ وأهل البلد أخبر بحال أهل بلدهم من غيرهم ، الثانى أنه قريب من زمن الليث فهو به أدرى ، إذ يجوز أن يكون أصله من أصبهان ، ثم نزل آباؤه قَلْقَشَنْدَةَ المذكورة وولد بها وسكنها ، فنسب إليها كما وقع فى كثير من النِّسَبِ ، وإعادة داره بها بعد هدمها ثلاث مرات على ما تقدّم ذكره فى كلام القضاعىّ دليل ٱعتنائه بشأنها وميله إليها ، وحينئذ فلا منافاة بين النسبتين .

وذكر فى "الروض المعطار" أنه كان له ضَيْعة على القرب من رشيد من بلاد الديار المصرية ، يدخل عليه منها فى كل سنة خمسون ألف دينار لم تجب عليه فيها زكاة .

العمل الثالث ــ الشرقية . وهو مصاقب للضواحى من شَمَاليها مما يلى جهة المُقَطَّم ، والقليوبية من جهة الشمال أيضا ، وهو من أعظم الأعمال وأوسعها . إلا أن البساتين فيه قليلة بل تكاد أن تكون معدومة : لٱتصاله بالسِّباخ وبَدَاوة غالب أهله ، وآخر العمران فيها من جهة الشَّمال الصَّالِحِيَّةُ ، وماوراء ذلك منقَطَع رمال على ما تقدّم ذكره فى المنقطع عنها من جهة الشرق ، ومَقَرُّ ولايته مدينة بِلْبِيس (١) . قال فى "تقويم البُلْدان" : ــ بكسر الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الباء الموحدة

(١) قال فى القاموس "بلبيس كغرنيق وقد يفتح أوّله بلد بمصر" وضبطه ياقوت بكسر الباءين وسكون اللام .

وسكون المثناة تحت ثم سـين مهملة . كذا ذكره ، والجارى علىٰ الألسنة ضم الباء فى أولهـا ، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال فى "تقويم البُلْدان" : والقيـاس أن يكون طولهـا أربعا وخمسـين درجة وثلاثين دقيقـة ، وعَرْضها ثلاثين درجةً وعشر دقائق . وهى مدينة متوسـطة بها المساجد والمدارس والأسواق ، وهى مَحطُّ رحال الدرب الشامىّ . وفى الركن الشمالىّ الجنوبىّ من هـذا العمل (بِنْهـا) . قال النووىّ فى شرح مسلم : بكسر البـاء والمعروف فتحها ، وهى البلدة التى أهدىٰ المُقَوْقِسُ إلىٰ النبىّ صـلّى الله عليه وسـلم من عَسَلِهَا ؛ وفى آخره من جهة الشرق (قَطْيَا) بفتح القاف وسكون الطاء المهـملة وفتح اليـاء المثناة تحت وألف فى الآخر . كذا وقع فى "التعريف" و"مسالك الأبصار" : وفى "تقويم البُلْدان" : إبدال الألف فى آخره بهاء ، وهى قرية بالرمل المعروف بالجفَار علىٰ طريق الشأم علىٰ القُرب من ساحل البحر الرومىّ .

قال فى "التعريف" : وقد جعلت لأخذ المُوجَبات ، وحفظ الطُّرُقات ، وأمرها مهمّ ، ومنها يطالع بكل صادر ووارد .

العمل الرابع ـ (الدَّقَهْلِيَّةُ والمُرْتاحية) . وهو مُصَاقِبٌ لعمل الشرقية من جهة الشَّمال ، وأواخره تنتهى إلىٰ السِّـباخ وإلىٰ بحيرة تِنِّيس المتصـلة بالطينة من طريق الشأم ، ومقرّ الولاية به (مدينة أُشْمُومَ) بضم الهمزة وإسكان الشين المعجمة وبعدها ميم ثم واو وميم ثانية ـ كما ضبطه فى "تقويم البُلْدان" ونقله عن خط ياقوت فى "المشترك" والذى فى "اللُّبَابِ" إبدال الميم فى آخرها بنون ، وعزاه فى "تقويم البلدان" للعامّة .

قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولها أربع وخمسون درجة ، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة وأربع وخمسون دقيقة . وهى مدينة صغيرة علىٰ ضَفَّةِ الفرقة

التى تذهب إلىٰ بُحَيرة تِنّيس من فرقة النيل الشرقيــة من الجهة (١) ؛ و بآخر هذا العمل (مدينة دِمْياط) بكسر الدال المهملة وسكون الميم و ياء مثناة من تحت وألف وطاء — قال فى " الأطوال " : طولها ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة .

وقال آبن سعيد : طولها أربع وخمسون درجة، وعَرْضها إحدىٰ وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . وهى واقعة فى الإقليم الثالث ، وهى مدينة حَسَنة عند مَصبّ الفرقة الشرقية من النيل فى بحر الروم ، ذات أسواق وحَمَّامات ، وكان عليها أسوار من عمارة المتوكل : أحد خلفاء بنى العبّاس ، فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرّة بعد مرّة ، خَرَّبت المسلمون أسوارَها فى سنة ثمـان وأربعين وستمائة خوفا من آستيلائهم عليها ، وهى علىٰ ذلك إلىٰ الآن ، ولهـا ولاية خاصَّة بها .

الشُّـــعبة الثـانية

(غربىّ فرقة النيل الغربية ؛ وفيها عملان)

العمل الأوّل — عمل البُحَيرة . وهو ممـا يلى عمل الجيزة المقدّم ذكره من الجهة البحرية ، وهو عمل واسع ، كثير القرىٰ ، فسيح الأَرَضين . ومقرّ ولايته (مدينة دَمَنْهُور) — بفتح الدال المهملة والمـيم وسكون النون وضم الهـاء وسكون الواو وفى آخرها راء مهملة — وتعرف بدَمَنْهُور الوَحْش . وهى مدينة متوسطة ذات مساجدَ ومدارسَ وأسواق وحمامات . وموقعها فى الإقليم الثالث ؛ ولم يتحرّر لى طُولها وعَرضها ، غير أنها علىٰ نحو مرحلة من الإسكندرية بين الشرق والجنوب فليعتبر طولهـا وعرضها منها بالتقريب .

قلت : ويدخل فى هذا العمل حَوْف رمسيس والكُفُور الشاسعة .

(١) لعله من الجهة الشرقية .

العمل الثانى ـ عمل المزاحمتين . وهو ماجاور خليج الإسْكَنْدَرِيَّةِ من جهة الشمال إلى البحر الرومىّ ، وبعضه بالبر الشرقىّ من النيل ، وحاضرته (مدينة فُوَّة) . قال فى "تقويم البُلْدان": بضم الفاء وتشديد الواو، وهى مدينة متوسطة بالبر الشرقىّ من فرقة النيل الغربية يقابلها جزيرة لها تعرف بجزيرة الذهب ذاتُ بساتين وأشجار ومَنْظَرٍ رائق ، وليس بها ولاية . وإنما يكون بها شَادٌّ للخاص ، يتحدّث فى كثير من أمور الولاية ، وهى فى الحقيقة كإخميم مع قُوص .

ويلى هذين العملين غربا بشَمال (مدينةُ الإسْكَنْدَرِيَّة) ـ بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الكاف وسكون النون وفتح الدال وكسر الراء المهملتين وتشديد الياء المثناة تحت المفتوحة وهاء فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الثالث .

قال فى كتاب "الأطوال" : طولها إحدى وخمسون درجة وأربع وخمسون دقيقة ، وعرضها ثلاثون درجة وثمانٌ وخمسون دقيقة ، وقد تقدّم القول على أصل عِمارتها فى الكلام على قواعد الديار المصرية قبل الإسلام .

وهى الآن بالنسبة إلى ماتشهد به التواريخ من بنائها القديم جزءٌ من كلٍّ ، وهى مع ذلك مدينة رائقة المَنْظَرِ ، حسنة الترصيف ، مبنية بالحجر والكِلْسِ ، مُبَيَّضَةُ البيوت ظاهرا وباطنا كأنها حَمَامةٌ بيضاء ، ذات شوارع مُشْرعة ، كلُّ خط قائم بذاته كأنها رُقعة الشِّطْرَنْجِ ، يستدير بها سُورانِ منيعان ، يدور عليهما من خارجهما خَنْدَقٌ فى جوانب البلد المتصلة بالبر ، ويتصل البحر بظاهرها من الجانب الغربىّ مما يلى الشَّمال إلى المشرق حيث دارُ النيابة ؛ وبهما أبراج حصينة عليها الستائر المسترة والمجانيق المنصوبة .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ويقال إن مَنارها كان فى وسط البلد وإن المدينة كانت سبع مَحَجَّات ، وإنما أكلَهَا البحرُ ، ولم يبق إلا مَحَجَّة واحدة ،

وهى المدينة الباقية الآن وصار مكانُ المنار منها علىٰ مسـيرة ميل . قال : ويقال إن مساجدها أُحصيتْ فى وقت من الأوقات فكانت عشرين ألف مسـجد ؛ وبها الجوامع والمساجد، والمدارس ، والخَوَانق، والرُّبُط، والزوايا، والحَمَّامات، والدِّيار الجليلة، والأسواق الممتدّة . وفيها يُنْسَج القماش الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا، وإليها تهوِى ركائب التجار فى البر والبحر، وتَمير من قُمَـاشِهَا جميع أقطار الأرض، وهى فُرْضَـةُ بلاد المغرب ، والأَنْدَلُس ، وجزائر الفرنج ، وبلاد الروم ، والشأم . وشُرْب أهلها من ماء النيل: من صهاريج تملأ من الخليج الواصل إلىٰ داخل دُورها ، وآسـتعمال المـاء لعامّة الأمر من آبارها، ويجَنَبَات تلك الآبار والصهاريج بالُوعاتٌ تصرف منها مياه الأمطار ونحوها ؛ وبها البساتين الأنيقة ، والمسـتنْزَهات الفائقة ، ولهم بها القصور والجَواسِق الدقيقة البناء، المحكمة الجُدُرِ والأبواب؛ وبها من الفواكه والثِّمـار مايفوق فواكه غيرها من الديار المصرية حُسنا مع رِخَص الثمن؛ وليس بها مزارعُ ولا لهـا عملٌ واسع ، وإن كان متحصِّلها يعدل أعمالا : من واصل البحر وغيره ؛ وهى أجلُّ ثغور الديار المصرية، لايزال أهلها علىٰ يقظة من أمور البحر والآحتراز من العدوّ الطارق؛ وبها عسكر مستخدم لحفظها .

قال فى "مسالك الأبصار" : وليس بالديار المصرية مدينة حاكمها موسوم بنيابة السلطنة سواها .

قلت : وهـذا فيما تقدّم حين كانت النيابة بها صـغيرة فى معنىٰ ولاية . أما مِن حين طرقها العدوّ المخذول من الفرنج فى سـنة سبع وستين وسبعمائة وآجتاحَ أهلها وقتل وسبىٰ، فإنها آسـتقرّت من حينئذ نيابةً كبرىٰ تضاهى نيابة طرابُلُس وحَمَـاة وما فى معناهما، وهى علىٰ ذلك إلىٰ الآن؛ وسيأتى الكلام علىٰ نيابتها فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

الشُّـــعْبة الثـالثة

(مابين فِرقتى النيل الشرقية والغربية، وهو جزيرتان)

الجزيرة الأولىٰ ـ جانبها الشرقىّ يمتدّ فى طول فرقة النيل الشرقيـة إلىٰ مَصَبِّه فى البحر المِلْح حيث دِمْياط بالقرب منها، وجانبها الغربىّ يمتدّ فى طول فرقة النيل الغربيـة إلىٰ تُجاه أبى نُشَّابة من عمل الجيزة فينشأ بحرُ أبيـار المتقـدّمُ ذكره ويمتدّ فى طولهـا إلىٰ قرية الفَرسْـتَق خارجَ الجزيرة من الغرب فيتصلُ بفرقة النيل التى تفترع منها علىٰ ماتقدّم، ويمتدّ فى طولها إلىٰ مصبه فى البحر الملح حيث رشيد .

وتشتمل هذه الجزيرة علىٰ عملين :

العمل الأوّل ـ المُنُوفيـة . وأوّله من الجنوب من القرية المعروفة بشَطَّنَوْف علىٰ أوّل الفرقة الغربية من النيل، ومقرّ ولايته (مدينة مُنُوفَ)(١) ـ بضم الميم والنون وسكون الواو وفاء فى الآخر)، وهى مدينة إسلامية بنيت بدلا من مدينة قديمة كانت هناك قد خربت الآن وبقيت آثارها كيانا؛ وولايتها من أنفس الولايات، وقد اضيف إليها عمل أبيار، وهو جزيرة بنى نصر الآتى ذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ، وهى مدينة حسنة ذات أسواق، ومساجد، ومسجد جليل للخطبة، وحَمَّام، وخانات .

قلت : وربما غلط فيها بعض الناس فظنّ أنها مَنْف المتقدّمة الذكر فى الكلام علىٰ قواعد مصر القديمة، وبينهما بُعْد كثير إذ مَنْفُ المتقدّمة الذكر جنوبىّ الفُسْطَاط علىٰ اثنى عشر ميلا منه كما تقدّم ذكره، وهذه شَمَالِىّ الفُسْطَاط والقاهرة فى أسفل الأرض.

العمل الثـانى ـ الغَرْبيّة . وهو مُصَاقِبٌ للمنوفية من جهة الشمال، ويمتدّ إلىٰ البحر المِلْح بين مصبّى النيل إلا ماهو من عمل المزاحمتين علىٰ فرقة النيل الغربية من

(١) ضبطها ياقوت والقاموس بالفتح وتبعناهما فى كثير من المواضع .

الشرق؛ وهو عمل جليل القدر، عظيم الخَطَر، به البلاد الحسنة ، والقرىٰ الزاهية، والبساتين المتراكبة وغير ذلك؛ وفى آخره مما يلى بحر الروم موقع ثَغْر البَرَلُّس .

ويندرج فيه ثلاثة أعمـال أخر كانت قديمة ، وهى القُوَيْسِنِيَّة ، والسَّمَنُّودية ، والدِّنجاوية ،ومقرّ ولايته (مدينة المَحَلَّة) . قال فى "المشترك" : ـ بفتح الميم والحاء المهملة وتشديد اللام ثم هاء فى الآخر ـ وتعرف بالمَحَلَّة الكُبْرىٰ، وقد غلب عليها آسم المحلة حتّى صار لا يفهم عند الإطلاق إلا هى .

قلت : ووقع فى "التعريف" : التعبـير عنها بمَحَلَّة المرحوم وهو وَهَمٌ ، وإنمـا هى قرية من قراها .

قال فى "المشترك" : ويقال لها محلة الدَّقَلا (بفتح الدّال المهملة والقاف) وهى مدينة عظيمة الشأن ، جليلة المقدار، رائقة المَنْظَر، حسنة البناء، كثيرة الساكن ، ذات جوامع ،ومدارس، وأسواق، وحَمَّامات؛ وهى تعادل قُوص من الوجه القبلىّ فى جلالة قدرهـا، ورياسـة أهلها، ويفرق بينهما بمـا يفرق به بين الوجه القبلى والوجه البحرى من الرطوبة واليبوسة .

الجزيرة الثانية ـ مابين بحر أَبْيَارَ المتقدّم ذكره وبين الفرقة الغربية من النيل، وتعرف بجزيرة بنى نَصْر، وهى عمل واحد، وحاضرته (مدينة أَبْيَارَ) ـ بفتح الهمزة كما قاله فى "الروض المعطار" وإسكان الباء الموحدة وفتح المثناة تحت وبعدها ألف ثم راء مهملة ـ وهى مدينة لطيفة حسـنة المَنْظَرِ يُعمل فيها القُماش الفائق من المحرّرات وغيرها، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة، ولم يتحرّر لى طولها ولا عرضها، وهى مضافة إلىٰ ولاية مُنُوف، وليس بها الآن ولاية مستقلة .

الفصـــــل الثالث

(فيمن ملك الديار المصرية ، جاهليةً وإسلاما)

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" : وكانت أهل مصر أهلَ مُلْك عظيم فى الدهور الخالية والأزمان السالفة ، ما بين قبطىّ ويونانىّ وعمليقىّ ، وأكثرهم القِبْط . قال : وأكثر من تملك مصر الغُرَباء .

وهم على ثلاث مراتب :

المرتبـــة الأُولى

(من ملكها قبل الطُّوفان ، وقلَّ من تعرّض له من المؤرّخين)

قد تقدّم فى الكلام على ٱبتداء عمارة مصر أن أوّل من عَمَرها قبل الطوفان نقراووس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام ، ومعنى نقراووس بالسريانية مَلِكُ قومه ، وهو الذى عَمَر مدينة أمسوس أوّل قواعد مصر المتقدّم ذكرها ؛ ثم ملكها بعده ٱبنه نقراووس الثانى مائة وسبع سنين ؛ ثم ملكها بعده أخوه مصرام بن نقراووس الأوّل ؛ ثم ملكها بعده عنقام الكاهن ولم تطل مدّة ملكه ؛ ويقال إن إدريس عليه السلام رُفِع فى زمانه ؛ ثم ملكها بعده ٱبنه غرناق ؛ ثم ملك بعده رجل من بنى نقراووس ٱسمه لوجيم ؛ ثم ملك بعده رجل ٱسمه خصليم ، وهو أوّل من عمل المِقْياس للنيل على ما تقدّم ذكره ؛ ثم ملك بعده ٱبنه هرصال ، ومعناه بالسريانية خادم الزُّهَرَةِ ، وهى مدينة شرق النيل ، وعمل سَرَبًا تحت النيل إليها ، وهو أوّل من عمل ذلك وأقام فى الملك مائة وأربعا وثلاثين سنة ، ويقال إن نوحا عليه السلام ولد فى زمانه ؛ ثم ملك بعده ٱبنه بُدْرسَان ؛ ثم ملك بعده أخوه شمرود ، وكان طوله فيما يقال عشرين ذراعا ؛ ثم ملك بعده فرسيدون بن بُدْرسان المتقدّم ذكره مائة وستين سنة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه شرناق مائة وثلاث سنين ؛

ثم ملك بعده ٱبنه سهلوق مائة وتسع سنين ؛ ثم ملك بعده ٱبنه سُوريدين ،وهو الذى بنىٰ الأهرام العظام بمصر علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ عجائب مصر وخواصّها ؛ ثم ملك بعـده ٱبنه هرجيب نَيّفًا وسبعين سـنة ، وهو الذى بنىٰ الهرم الأوّل من أهرام دهشور ؛ ثم ملك بعده ٱبنه مناوش ثلاثا وسبعين سـنة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه أقروس أربعا وستين سـنة ؛ وفى أيامه حصل القحط العظيم ، وسلطت الوحوش والتماسيح علىٰ الناس ، وأَعْقَمَتِ الأرحام حتّى يقـال إن الملك تزوّج ثلثمائة ٱمرأة يبغى الولد فلم يُولد له ، وذلك مقدّمة الطوفان ؛ ثم ملك بعده رجل من أهل بيت الملك ٱسمه أرمالينوس ؛ ثم ملك بعده ٱبن عمه فرعان ، وهو أوّل من لقب بلقب الفراعنة ،وكان قد كتب إلىٰ ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام ،وفى زمنه كان الطوفان وهلك فيمن هلك .

المرتبـــة الثـانية

(من ملكها بعد الطوفان إلىٰ حين الفتح الإسلامىّ)

وللمؤرّخين فى ذلك خُلْف كثير ، وقد جمعت بين كلام التواريخ التى وقفتُ عليها فى ذلك ، وهم علىٰ طبقات .

الطبقة الأولىٰ

(ملوكها من القبْط)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ٱبتداء عمارتها أن أوّل من عمرها بعد الطوفان بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، وكان بيصر قد كَبِر سنه وضعُف ، فأقام يسيرا ثم مات ، فدفن فى موضع دير ابى هرميس غربىّ الأهرام . قال القضاعىّ ، ويقال إنها أوّل مقْبُرة دفن فيها بأرض مصر ؛ وملك بعـده ٱبنه مصر فعمر وطالت مدّة ملكه ،

وعَمَرت البلاد فى أيامه وكَثُر خيرها، ثم مات؛ وملك بعده آبنه (قِبْطِيم)، وإليه يُنْسب القِبْطُ، ويقال إنه أدرك بَلْبَلَة الألسُن التى كانت بعد نوح عليه السلام، وهى ريح خرجت عليهم ففرّقت بينهم وصار كل منهم يتكلم بلغة غير لغة الآخر، وخرج منها باللغة القِبْطِيَّة؛ ثم ملك بعده آبنه (قِفْط)، وهو الذى بنى مدينة قِفْط بالصعيد الأعلى وسماها بآسمه، وآثارها باقية إلى الآن؛ ثم ملك بعده أخوه (أُشْمُن)، وهو الذى بنى مدينة الأُشْمُونَيْن المتقدّم ذكرها بالوجه القبلىّ، وطالت مدّته حتّى نُقِل أنه بقى ثمانمائة سنة، وقيل ثمانمائة وثلاثين؛ ثم ملك بعده أخوه (أَتْرِيبُ)، وهو الذى بنى مدينة أَتْرِيبَ المتقدّمة الذكر بالوجه البحرىّ من الديار المصرية؛ ثم ملك بعده أخوه (صا)، وهو الذى بنى مدينة صَا المتقدّم ذكرها بالوجه البحرىّ أيضا؛ ثم ملك بعده (قفطريم) بن قِفْط، ويقال إنه الذى وضع أساس الأهرام الدهشورية غير الهرم الأوّل الذى بناه هرجيب المتقدّم ذكره قبل الطُّوفان، وهو الذى بنى مدينة دَنْدَرى بالصعيد الأعلى، وآثارها باقية إلى الآن؛ ثم ملك بعده آبنه (بودشير)، وهو الذى أصلح جَنَبتى النيل بهندسته؛ ثم ملك بعده آبنه (عديم)؛ ثم ملك بعده آبنه (شدات)، وهو الذى تمم الأهرام الدهشورية التى وضع أساسها قفطريم المتقدّم ذكره . ويقال : إن مدينة شُطْب التى بالقرب من مدينة أُسْيُوطَ بنيت فى أيامه، وآثارها باقية إلى الآن، وهو أوّل من ولع بالصيد وآتخذ الجوارح والكلاب السلُوقيه، وعمل البيطرة من ملوك مصر، ومات عن أربعمائة وأربعين سنة؛ ثم ملك بعده آبنه (منقاوش)، ويقال إنه أوّل من عُمِل له الحَمَّام بمصر؛ ثم ملك بعده آبنه (مناوش) وطالت مدّته فى الملك حتّى بقى فيما يقال ثمانمائة سنة، وقيل ثمانمائة وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده (منقاوش) بن أُشْمن نيفا وأربعين سنة، وقيل ستين سنة، وهو أوّل من عمل له المَيْدَانُ بمصر، وأوّل من بنى البيمارستان لعلاج المرضى، وفى أيامه بنيت مدينة سنتريه

بالْوَاحَاتِ ، ثم ملك بعده آبنه (مرقوره) نيّفا وثلاثين سنة ، وفى كتب القِبْط أنه أوّل من ذلل السباع وركبها ؛ ثم ملك بعده (بلاطس) خمسا وعشرين سنة ؛ ثم ملكت بعده بنت من بنات أَتْرِيبَ خمسا وثلاثين سـنة ، وهى أوّل من ملك مصر من النساء ؛ ثم ملك بعدها أخوها (قليمون) تسعين سنة ، وفى أيامه بنيت مدينةُ دِمْيَاطَ علىٰ آسم غلام له كانت أمه ساحرة له ، وفى أيامه بنيت أيضا مدينة تِنِّيسَ ؛ ثم ملك بعده آبنه (فرسون) مائتين وستين سنة ؛ ثم ملك بعده ثلاثة ملوك أو أربعةٌ لم يعين آسمهم ؛ ثم ملك بعدهم (مرقونس) الكاهن ثلاثا وسبعين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه (ايساد) خمسا وسبعين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه (صا) وأكثر القبط تزعم أنه أخوه ، نيفا وثلاثين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه (تدراس) ، وهو الذى حفر خليج سخا المتقدّم ذكره فى خُلْجَانِ مصر القـديمة ؛ ثم ملك بعده آبنه (ماليق) ، ويقال إنه خالف دينَ آبائه فى عبادة الأصـنام ، ودان بدين التوحيد . ولمـا أحس بالموت ، صنعَ له ناوُوسا وكنز معه كنوزا عظيمة ، وكتب عليها أنه لا يستخرجها إلا أمة النبيّ الذى يبعث فى آخر الزمان ؛ ثم ملك بعده آبنه (حريا) ، وفى بعض التواريخ حرايا خمسا وسبعين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه (كلكن) ، وفى بعض التواريخ كلكى نحوا من مائة سنة ، وهو أوّل من أظهر عِلْمَ الكيمياء بمصر ، وكان قبل ذلك مكتوما ، وفى زمنه كان النُّمْرُوذُ بأرض بابل من العراق ؛ ثم ملك بعده أخوه (ماليا) ؛ ثم ملك بعده (حربيا) بن ماليق ؛ ثم ملك بعده (طوطيس) بن ماليا ، وفى بعض التواريخ طوليس سبعين سنة ، وفى بعض التواريخ أنه ملك بعد أبيه ماليا ، والقبط تزعم أن الفراعنة سبعة هو أوّلهم ، وهو الذى أهدىٰ هَاجَرَ لإبراهيم عليه السلام ؛ ثم ملكت بعده أخته (حوريا) ، وهى التى بنىٰ لهـا جيرون المؤتفكىّ صاحبُ الشام مدينــة الإسْكَنْدرِيَّةِ حين خطبها علىٰ أحد الأقوال فى عمارتها ليجعلها مهرا لها ، ثم آحتالت عليه فسمّته هو وجميع عسكره

فى خلع فماتوا؛ ثم ملكت بعدها بنت عمها (زلفى) ويقال دلفه بنت مأموم؛ ثم ملك بعدها(أيمين)الأَتْرِيىُّ، وهو آخر ملوك القِبطِ من هذه الطبقة . والذى ذكره القضاعىّ وغيره أنه ملكها بعد وفاة بيصر ٱبنهُ مصر، ثم قِفْط بن مصر ، ثم أخوه أُشْمن، ثم أخوه أَتْرِيبُ، ثم أخوه صا ، ثم ٱبنه تدراس ، ثم ٱبنه ماليق ، ثم ٱبنه حريا ، ثم ٱبنه كلكن ، ثم أخوه ماليا، ثم حربيا، ثم طوطيس بن ماليا، ثم ٱبنته حوريا، وهى أوّل من ملكها من النساء ، ثم ٱبنة عمها زلفى ، ومنها ٱنتزعتها العمالقة الآتى ذكرهم .

الطبقة الثانية

(ملوكها من العماليق ملوك الشام)

أوّل من ملكها منهم (الوليد) بن دومع العِمْليق ، وقال السهيلىّ : الوليد بن عمرو ابن أراشة . اقتلعها من أيمين : آخرِ ملوك القِبْط المتقدّم ذكره، وهو الفرعون الثانى عند القِبْطِ ، وقيل هو أوّل من سمى بفرعون ، وقام فى الملك مائة وعشرين سنة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (الرَّيَّان) مائة وعشرين سنة ،والقِبْطُ تسميه نهراوس ،وهو الفرعون الثالث عند القِبْط، ونزل مدينة عَيْنِ شَمْسٍ ،وكانت الملوك قبله تنزل مدينة مَنْفٍ، وفى أيامه وصل يوسف عليه السلام إلىٰ مصر، وكان من أمره ما قصه الله تعالىٰ فى كتابه . ويقال : إنه آمن بيوسفَ عليه السلام؛ ثم ملك بعده ٱبنه (دارم) ويقال دريوس ، وهو الفرعون الرابع عند القِبْطِ ، وفى أيامه توفِّىَ يوسفُ عليه السلام، وفى أيامه ظهر بمصر معْدِن فضة علىٰ ثلاثة أيام فى النيل ؛ثم ملك بعده ٱبنه (معدان) ويقال معاديوس ،وهو الفرعون الخامس عند القِبْطِ ، إحدىٰ وثلاثين سنة ؛ثم ملك بعده ٱبنه (أقسامس) وهو الفرعون السادس عند القِبْط ،وبعضهم يزعم أن منارة الإسْكَنْدرِيّةِ بنيت فى زمنه ، وأهل الأثر يسمونه كاسم ، وربما قالوا كامس ؛

ثم ملك بعده ٱبنه (لاطس) ؛ ثم ملك بعده رجل ٱسمه (ظلما) كان من عُمَّاله فخرج عليه فقتله وملك مكانه، وهو الفرعون السابع عند القِبْط، وهو فرعون موسىٰ .

قال المسـعودىّ : وهو الوليد بن مصعب الموجود فى كتب الأثر، والوليـد بن مصعب هو فرعون موسىٰ وهو الوليد بن مصعب بن عمرو بن معاوية بن أراشـة، يجتمع مع الوليد بن دومع فى أراشة، وهو آخر مَنْ ملك مصر من العمالقة، وبعضهم يقول ظلما بن قومس من ولد أُشمون أحد ملوك القِبْط المتقدّم ذكرهم ؛ وعلىٰ هذا فيكون فرعون موسىٰ من القِبِط، وهو أحد الأقوال فيه ، وهو الذى يعوّل عليه القِبْط، ويوردونه فى كتبهم، وآخَرُون يجعلونه من لَخْم من الشأم، والظاهر الأوّل، وهو أوّل من عَرَّف العرفاء علىٰ الناس، وفى زمنه حفر خليج سَرْدوس المتقدّم ذكره فى خُلْجان النيل، ويقال : إنه عاش دهرا طويلا لم يمرض ولم يشكُ وجعا إلىٰ أن أهلكه الله تعالىٰ بالغَرَق . (١)

الطبقة الثـالثة

(ملوكها من القِبْط بعد العمالقة)

أوّل من ملكها منهم بعد فرعون دَلُوكة، وطالت مدّتها فى الملك حتّٰى عرفت بالعَجُوز، وإليها ينسب حائط العجوز المبنىّ بالطوب اللَّبِنِ المستدير علىٰ بلاد مصر فى لِحف الجبلين : الشرقىّ والغربىّ ؛ وأثره باق بالوجه القبلىّ إلىٰ الآن، ويقال إنها التى بنت البرابِىَ بمصر ؛ ثم ملك بعدها رجل من أبنـاء أكابر القِبِط ٱسمه (دركون) بن بطلوس، ويقال دركوس بن ملوطس ؛ ثم ملك بعده رجل ٱسمه (تودس) ثم ملك بعده ٱبنه (لقاش) نحوا من خمسين سنة ؛ ثم ملك بعده (مرينا) بن لقاش نحوا من عشرين سنة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (بلطوس) ويقال بلوطس بن ميا كيل أربعين سنة ؛ ثم ملك

---

(١) تنبيه وقع اختلاف فيما بأيدينا من الكتب فى أسماء الملوك وترتيبهم فى هذا والذى بعده فعوّلنا علىٰ الاصل

بعده (مالوس) ويقال فالوس بن توطيس عشر سنين ؛ ثم ملك بعده ميا كيل .
قال المسعودىّ : وهو فرعون الأعرج الذى غزا بنى إسرائيل وخرّب بيت المقدس ، ثم ملك بعده (نوله) وهو الذى غزا رُحبعُم بن سليمان عليه السلام بالشام ، وقيل إن الذى غزا رحبعم كان آسمه شيشاق . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وهو الأصح . قال : ثم لم يشتهر بعد شيشاق المذكور غير فرعون الأعرج ، وهو الذى غزاه بُخْتَنَصَّر وصلبه ، والذى ذكره المسعودىّ أنه ملك بعد ميا كيل المتقدّم ذكره (مرنيوس) ؛ ثم ملك بعده آبنه (بغاش) ثمانين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه (قومس) عشرين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه كاييل .

قال المسعودىّ : وهو الذى غزاه بختنصر وصلبه وخرب مصر ، وبقيت مصر أربعين سنة خرابا .

الطبقة الرابعة

(ملوكها من الفُرْس)

أوّل من ملكها فى جملة مملكة الفرس (بهراسف) بواسطة أن بُخْتَنَصَّر كان نائبا له ومن حين آستولى عليها بُخْتَنَصَّر ، توالت عليها الولاة من جهته ، وهو ببابل سبعا وخمسين سنة وشهرا كما ذكر صاحب حماة إلى أن مات ، فولى بعده آبنه (أولات) سنةً واحدةً ؛ ثم أوليها بعده خوه (بلطشاش) بن بُخْتَنَصَّر ، ثم آستقرّت مصر والشام بأيدى نوّاب الفُرْسِ عن ملوكهم .

فلما مات بهراسف ، ملك بعده كيبستاسف ؛ ثم ملك بعده آبنه أرْدَشِير بَهْمَن آبن آسفيديار بن كيبستاسف ، وآنبسطت يده حتّى ملك الأقاليم السبعة ؛ ثم ملك بعده آبنه (دارا) ، وفى زمنه ملك الإسْكَنْدَرُ بن فيلبس على اليونان فقصده ، فلما قرب

منه قتله جماعة من قومه، ولحقوا بالإسْكَنْدَرِ، وهو آخر مَنْ ملك مصر من الفُرْسِ، ولم أقف علىٰ تفصيل نوّاب الفُرْسِ بمصر إلا أنه كان منهم كسرجوس الفارسيّ، وهو الذى بنىٰ قصر الشَّمَع بالفُسْطَاطِ علىٰ ماتقدّم ذكره، وبعده (طحارست) الطويل، وفى أيامه كان بقراط الحكيم .

الطبقة الخـامسة

(ملوكـها من اليونـان)

أوّل من ملكها منهم (الإسْكَنْدَرُ بن فيلبس) حين غلب دارا مَلِكَ الفُرْسِ علىٰ مُلْكِه وآستولىٰ علىٰ ما كان بيده، وكان مقرّ ملكه مَقْدُونِيَةَ من بلاد الروم القديمة، وآنحاز له ملك العراق، والشـام، ومصر، وبلاد العرب . فلمـا مات تفرّقت ممـالكه بين الملوك، فَمَلَكَ مصرَ ونواحىَ الغرب البَطَالِسَةُ من ملوك اليونان، كان كُلٌّ منهم يلقب بَطْلَيْمُوسُ .

فأوّل من ملكها منهم (بَطْلَيْمُوسُ المنطيق) عشرين سنة، ويقال : إنه أوّل من لعب بالبُزَاة وضَرَّاها، ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ مُحِبُّ أخيه) أربعين سنة، وقيل ثمـانا وثلاثين سنة، وهو الذى نقل التَّوْرَاةَ من العبْرَانِيَّة إلىٰ اليونانية؛ وفى أيامه ظهرت عبادة التمـاثيل والأصنام؛ ثم ملك بعـده (بَطْلَيْمُوسُ الصَّائغ) خمسا، وقيـل ستا وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ مُحِبُّ أبيه) سبع عشرة سنة؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ صاحب علم الفلك) أربعا وعشرين سنة، وهو الذى ألَّف كتاب المجسطى؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ مُحِبُّ أمه) سبعا وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ الصائغ الثانى) ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ المُخْلِصُ) ست عشرة سنة، وقيل سبع عشرة؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ الإسْكَنْدَرانِىّ) تسع سنيـن، وقيل آثنتى عشرة سـنة؛

ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ اسكندروس) ثلاث سنين؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ مُحِبُّ أخيه) الثانى ثمان سنين؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ دوتيسوس)؛ ثم ملكت بعده ٱبنته قلوبطرا ٱثنتين وعشرين سنة، و بزوالهـا ٱنقرض ملك اليونان عن مصر وزال .

الطبقة السادسة

(ملوكها من الروم)

أول من ملكها منهم (أغشطش) . يقـال بشينين معجمتين ومهملتين ولَقَبُهُ قَيْصَرُ، وهو أول من تلقب به، ثم صار عَلَمـا علىٰ ملوك الروم .

قصد قلوبطرا المتقـدّم ذكرها ، فلمـا أَحَسَّتْ بقربه منها ، عمدت إلىٰ مجلسها فجعلت فيه الرياحين والمشموم، وأعملت الفكر فى تحصيل حية إذا نهشت الإنسان مات لحينه ولم يتغير حاله ، فقربت يدها منهـا حتّٰى ألقت سمها فى يدها ، وٱنسابت الحيـة فى الرياحين ، وجاء أغشطش فوضع يده فى الرياحين فنهشـته الحية ، فبقى يوما ومات بعـد أن ملك الروم ثلاثا وأربعين سـنة . وفى أيامه ولد المسيح عليه السلام ؛ ثم ملك بعده الرومَ ومصر طيباريوس، ويقال طبريوس، ويقال طبريس ٱثنتين وعشرين سـنة . قال المسعودىّ : وفى زمنه رفع المسيح عليه السـلام . قال : ولمـا مات أغشطش ، ٱختلف الروم وتحزبوا وتنازعوا فى الملك مائتيـن وثمانيـا وتسـعين سـنة ، لانظام لهم ، ولا ملك يجمعهم ؛ ثم ملكهم عانيوس . قال صاحب حماة : وكان رفع المسـيح فى زمنه ، وهو مخالِفٌ لمـا تقدّم من كلام المسعودىّ؛ ثم ملك بعـده قلديوس[(١)] أربع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده نارون ثلاث عشرة سنة،وهو الذى قتل بطرس و بولص الحواريَّيْن برومية وصلبهما؛ثم ملك بعده

(١) فى المسعودىّ قلوريوس . و بالجملة فبين مابأيدينا من الكتب ٱختلاف فى هذه الأسماء فعوّلنا علىٰ المخطوط والله أعلم .

ساسانوس عشر سنين ؛ ثم ملك بعـده طيطوس سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده دومطيتوش، ويقال اديطانش خمس عشرة سنة ، وكان على عبادة الأصـنام فتتبع اليهود والنصارى وقتلهم؛ ثم ملك بعده ادريانوس سـتا وثلاثين سنة فأصابته علة الجذام فسار إلى مصر يطلب طِبًّا لذلك فلم يظفر به ومات بِعِلَّتِهِ ؛ ثم ملك بعـده ايطيثوس ، ويقال ابطاوليس ثلاثا وعشرين سـنة ، وهو الذى بنى بيت المَقْدِس بعد تخريبه الثانيةَ وسماه إيليا ، ومعناه بيت الرب ، وهو أوّل من سماه بذلك ؛ ثم ملك بعده مرقوس، ويقال قومودوس سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده قومودوس ثلاث عشرة سنة ،وكان دين النصارى قد ظهر فى أيامه ؛وفى زمنه كان جالينوس الحكيم ؛ ثم ملك بعـده قوطنجوس ستة أشهر؛ ثم ملك بعده سيوارس ثمـانى عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده ايطيثيوس الثانى أربع سنين ؛ثم ملك بعده اسكندروس ثلاث عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده بكسمينوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعـده خورديانوس ست سنين ؛ ثم ملك بعده دقيانوس، وقيل دقيوس سنة واحدة ، فقتل النصارى وأعاد عبادة الأصنام ، ومنه هرب الفِتْيَةُ أصحابُ الكَهْفِ ، وكان من أمرهم ماقص الله تعالى فى كتابه العزيز؛ ثم ملك بعده غاليوس ثلاث سـنين؛ ثم ملك بعده علينوس وولديانوس آشتركا فى الملك ،وقيل إن ولديانوس آنفرد بالملك بعد ذلك ، وأقام فيه خمس عشرة سـنة ؛ ثم ملك بعده قلوديوس سنة واحدة؛ ثم ملك بعده ارديباس ، ويقال اردليانوس ست سنين ؛ ثم ملك بعـده قروقوس سبع سنين؛ ثم ملك بعده ياروس وشركته سنتين ؛ ثم ملك بعده دقلطيانوس إحدى وعشرين سنة ، وهو آخر عَبَدَة الأصـنام من ملوك الروم، و بمهلكه تؤرّخ النصارى إلى اليوم ، وعصى عليه أهل مصر، فسار إليهم من روميـة ، وقتل منهم خلقا عظيما ، وهم الذين يعبر عنهم النصارى الآن بالشهداء .

ثم ملك بعده قسطنطين المظفر إحدى وثلاثين سنة فسار من رُومِيَةَ إلىٰ قُسْطَنْطِينِيَّةَ وبنىٰ سورها وآستقرّت دار ملكهم ، وأظهر دين النصرانية وحمل الناس عليه ؛ ثم ملك بعده آبنُــه قُسْطَنْطِينُ فشيَّد دينَ النصرانية و بنىٰ الكنائس الكثيرة ؛ ثم ملك بعده إليانوس ، و يقال إليانس سنة واحدة ، وهو آبن أخى قُسْطَنْطِينَ المتقدّم ذكره ، فرفض دين النصرانيــة ورجع إلىٰ عبادة الأصــنام ، و بموته خرج المُلْك عن بنى قُسْطَنْطِينَ ؛ ثم ملك بعــده بِطْرِيق من بَطَارقة الروم آسمه بوثيانوس ، ويقــال سيوتيانوس ســنة واحدة فأعاد دين النصرانية ، ومنع عبادة الأصنام ؛ ثم ملك بعده قالنطيانوس أربع عشرة ســنة ؛ ثم ملك بعــده خرطيانوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعده باردوسيوس الكبير تسعا وأربعين ســنة ؛ ثم ملك بعده ادقاديوس بقُسْطَنْطِينِيَّةَ وشريكه أو يوزيوس برُومِيَةَ ثلاث عشرة سنة ؛ ثم ملك بعدهمــا مرقيانوس سبع سنين ، وهو الذى بنىٰ دير مارون بِحِمْصَ ؛ ثم ملك بعده واليطيس ســنة واحدة ؛ ثم ملك بعده لاون الكبير سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده زيتون ثمــان عشرة سنة ؛ ثم ملك بعــده اسطيسوس سبعا وعشرين سنة ، وهو الذى عَمَر أسوار مدينة حَمَاة ؛ ثم ملك بعــده بوسيطيتنوس تسع ســنين ؛ ثم ملك بعده بوسيطيتنوس الثانى ثمــانيا وثلاثين سنة ؛ ثم ملك بعده طبريوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعده طبريوس الثانى أربع سنين ؛ ثم ملك بعده ماريقوس ثمان سنين ؛ ثم ملك بعده ماريقوس الثانى ، ويقال مرقوس آثنتى عشرة ســنة ؛ ثم ملك بعــده قوقاس ثمــان سنين ؛ ثم ملك بعده هرقل وآسمه بالرومية أوقليس ، وهو الذى كتب إليه النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، يدعوه إلىٰ الإسلام ، وكانت الهجرة النبوية فى السنة الثانية عشرة من ملكه .

قال المسعودىّ : وفى تواريخ أصحاب السير أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، هاجر وملك الروم قيصر بن قوق(١) ؛ (ثم ملك الرومَ بعده) قَيْصَرُ بن قَيْصَرَ ،

(١) و إليه تنسب الدنانير القوقية (قاموس مادة ق و ق) .

وذلك فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، وهو الذى حار به أمراء الإسلام بالشام واقتلعوا الشام منه .

والذى ذكره فى "التعريف" فى مكاتبة الاذفونش صاحب طُلَيْطِلَةَ من ملوك الفرنج بالأَنْدَلُس أن هِرَقْلَ الذى هاجر النبىَّ صلّى الله عليه وسلم فى زمنه وكتب إليه لم يكن الملكَ نفسَه ، و إنما كان متسلم الشام لقيصر ، وقَيْصَرُ بالقُسْطَنْطِينِيَّةِ لم يَرِمْ ، وأن النبىَّ صلّى الله عليه وسلم إنما كتب لِهرَقْلَ لأنه كان مجاورا لجزيرة العرب من الشام . وعظيمُ بُصْرىٰ كان عاملا له ، و يظهر أن قَيْصَرَ الأخيرَ الذى ذكره هو الذى كان المُقَوْقِسُ عاملا له علىٰ مصر . ويقال : إن المُقَوْقِسَ تَقَبَّلَ مصر من هِرَقْلَ بتسعة عشر ألف ألف دينار .

واعلم أنه كان الحال يقتضى أن نذكر نوّاب من تقدّم من ملوك الروم واليونان والفُرْسِ علىٰ مصر ، ولكن أصحاب التواريخ لم تعتَنِ بأمر ذلك ، فتعذر العلم به . و إذا ذكر الأصل ، استُغْنِى به عن الفرع .

وذكر القضاعىّ : أنه بعد عمارة مصر من خراب بُخْتَنَصَّر ظهرت الروم وفارس علىٰ سائر الملوك التى وسط الأرض فقاتلت الرومُ أهلَ مصر ثلاث سنين إلىٰ أن صالحوهم علىٰ شىء فى كل عام ، علىٰ أن يكونوا فى ذمتهم و يمنعوهم من ملوك فارس ، ثم ظهرت فارس علىٰ الروم وغلبوهم علىٰ الشأم وألَحُّوا علىٰ مصر بالقتال ، ثم استقرّ الحال علىٰ خراج مصر أن يكون بين فارس والروم فى كل عام ، وأقاموا علىٰ ذلك تسع سنين ، ثم غلبت الرومُ فارسَ وأخرجوهم من الشأم وصار ماصولحت عليه أهل مصر كله خالصا للروم ، وجاء الإسلام والأمر علىٰ ذلك .

المرتبـــة الثـالثة

(من وليها فى الإسلام : من بداية الأمر إلىٰ زماننا، وهم علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(فيمن وليها نيابةً، وهو الصدر الأوّل، وهم علىٰ ثلاث طبقات)

الطبقـــة الأُولىٰ

(عُمّال الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم)

قد تقدّم أنها لم تزل بيد الروم والمُقَوْقِسُ عامل عليهـا إلىٰ خلافة عمر رضى الله عنه، ولم تزل كذلك إلىٰ أن فتحها عمرو بنُ العاص وعبدُ الله بن الزُّبَيْر[(١)] فى سنة عشرين من الهجرة، وقيـل سنة تسع عشرة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه؛ ووليها (عمرو بن العاص) من قِبَل عمر، وهو أوّل من وَلِيَها فى الإسلام، وبقى عليها إلىٰ سنة خمس وعشرين، وبنىٰ الجامعَ العتيقَ بالفُسْطَاطِ؛ ثم وليها عن عثمان آبنِ عفان رضى الله عنه (أبو يحيىٰ العامرىّ) فمكث فيها إحدىٰ عشرةَ سنة، وتوفى سنة ست وثلاثين؛ ثم وليها عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه (قَيْسُ بن سعد) الخزرجىّ فى أوّل سنة سبع وثلاثين؛ ثم وليها عنه (مالك بن الحٰرث النخعىّ) المعروف بالأشتر فى وسط سنة سبع وثلاثين، وكتب له عنه عهدا يأتى ذكره فى الكلام علىٰ العهود إن شاء الله تعالىٰ، فسُمَّ ومات قبل دخوله إلىٰ مصر؛ ثم وليها عنه (محمد بن أبى بكر الصدّيق) رضى الله عنه فى آخر سنة سبع وثلاثين فمكث دون السنة؛ ثم وليها عن معاويةَ بن أبى سُفْيَانَ رضى الله عنه (عمرُو بن العاص ثانيا) سنة ثمان وثلاثين خمس سنين، وتوفى بها سنة ثلاث وأربعين؛ ثم وليها عنه (عقبةُ بن عامر الجُهَنىّ) فى سنة أربع وأربعين فمكث فيها ثلاث سنين وكَسْرًا؛ ثم وليها عنه (مَسْلَمَةُ بن مُخَلَّدٍ) الخزرجىّ سنة سبع وأربعين فمكث فيها خمسَ عشرةَ سنة .

---

(١) لعل الصواب والزبير بن العوّام كما فى تاريخ أبى الفداء.

الطبقـــــة الثـانية

(عُمَّـال خلفاء بنى أُمَيَّـــةَ بالشام)

لما أفضت الخلافة بعد معاوية إلىٰ ٱبنه يَزِيدَ، وليها عنه (سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدىّ) فى سنة ٱثنتين وستين، فمكث فيها سنتين وكسرًا؛ ثم وليها عنه (عبد الرحمن الفِهْرىّ) فى سنة أربع وستين، وأقره علىٰ الولاية بعد يزيد ٱبنُهُ معاويةُ، ثم مَرْوَانُ ٱبنُ الحَكَم، فمكث فيها ٱثنتين وعشرين سنة؛ ثم وليها عن عبد الملك بن مَرْوَانَ (عبدُ الله بن عبد الملك بن مروان) فى أوّل سنة ست وثمانين، فمكث فيها خمس سنين؛ ثم وليها عنه (قُرَّةُ بن شَرِيك) فى سنة تسعين، وأقره عليها الوليدُ بن عبد المَلِك بعده، فمكث فيها سبع سنين؛ ثم وليها عن سليمان بن عبد الملك (عبدُ الملك بنُ رِفاعة) فى سنة سبع وتسعين، فمكث فيها ثلاث سنين وكسرا؛ ثم وليها عن عمر بن عبد العزيز (أيوبُ بن شُرَحْبِيلَ الأَصْبَحِىّ) آخرَ سنة تسع وتسعين، فمكث فيها سنتين وستة أشهر؛ ثم كانت خلافة يَزِيدَ بن عبد المَلِك، فوليها عنه (صفوان الكَلْبىّ)(1) سنة إحدىٰ ومائة، فمكث فيها سنتين وستة أشهر أيضا؛ ثم وليها عن هشام بن عبد الملك (محمد بن عبد الملك) أخو هشام فى سنة خمس ومائة، فمكث فيها أشهرا؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن يوسف الثقفىّ) فى ذى الحجة سنة خمس ومائة، فمكث فيها أربع سنين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (عبد الملك)(2) فى سنة تسع ومائة وعزل فيها؛ ثم وليها عنه (الوليد) أخو عبد المَلك(2) فى سنة تسع المذكورة، فمكث فيها عشر سنين وكسرا، وتُوفِّى سنة تسع عشرة ومائة؛ ثم وليها عنه (عبد الرحمن الفِهْرىّ) ثانيا فى آخر سنة تسع عشرة ومائة، فأقام بها سبعة أشهر؛ ثم وليها عنه (حنظلة) بن صفوان

(١) الذى فى المقريزىّ بشر بن صفوان الكلبىّ .

(٢) أى ٱبن رفاعة ثانيا كما فى المقريزىّ .

ثانيا(١) فى سنة عشرين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين وكسرا وعزل؛ ثم وليها عن مَرْوَانَ بن محمد الجعدىّ؛ فوليها عنه (عتابة التجيبى(٢)) سنة سبع وعشرين ومائة، فمكث فيها خمس سنين أو دونها؛ ثم وليها عنه (حفص بن الوليد) سنة ثمان وعشرين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (الفزارىّ) سنة إحدى وثلاثين ومائة، فمكث فيها سنة واحدة؛ ثم وليها عنه (عبد الملك بن مَرْوَانَ) مولى لَخْمٍ سنة إحدى وثلاثين ومائة، وهو آخر مَنْ وليها عن بنى أمية .

الطبقة الثالثة
(عُمَّال خلفاء بنى العَبَّاس بالعراق)

أوّل من وليها فى الدولة العباسية عن أبى العَبَّاس السفَّاح : أوّلِ خلفائهم، (صالحُ ٱبنُ علىّ) بن عبدالله بن عباس سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فمكث فيها أشهرا قلائل؛ ثم وليها عنه (عبد الملك) مولى بنى أسد آخَر سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين؛ ثم وليها عنه (صالح بن علىّ) ثانيا فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة. ثم وليها عن أبى جعفر المنصور (عبدُ الملك) سنة تسع وثلاثين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين؛ ثم وليها عنه (النَّقِيب التميمىّ) سنة إحدى وأربعين ومائة، فمكث فيها سنتين؛ ثم وليها عنه (حُمَيد الطائىّ) سنة ثلاث وأربعين ومائة، فمكث فيها سنة واحدة؛ ثم وليها عنه (يزيد المهلَّبىُّ) سنة أربع وأربعين ومائة، فمكث فيها تسعَ سنين؛ ثم وليها عنه (عبدُالله بن عبدالرحمن بن معاوية) سنة ٱثنتين وخمسين ومائة، فمكث فيها سنتين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (محمد بن عبدالرحمن بن معاوية) سنة أربع وخمسين

(١) لم يذكر أن حنظلة كان أميرا على مصر فيما سبق [ولكن فى المقريزىّ أن بشر بن صفوان ٱستخلف أخاه حنظلة على مصر حينما ولاه يزيد على أفريقية فى سنة ٱثنتين ومائة فتكون ولايته هذه المرة ثانية].

(٢) صوابه : ثم وليها عنه [أى عن مروان] حسان بن عتاهية التجيبى كما ذكره المقريزىّ والمقام فيه أوضح.

ومائة ، فمكث فيها سنة واحدة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن علىّ اللخمىّ) فى سنة خمس وخمسين ومائة ، فمكث فيها سنتين وستة أشهر .

ثم وليها عن المهدىّ (عيسى اللخمىّ)(١) سنة إحدى وستين ومائة ، فمكث فيها سنة واحدة ؛ ثم وليها عنه (أصبح)(٢) مولى المنصور فى سنة آثنتين وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (زيد بنُ منصور) الحميرىّ فى وسط سنة آثنتين وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (يحيى أبو صالح) فى ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (سالم بن سوادة التميمىّ) سنة أربع وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (إبراهيم العباسىّ) فى سنة خمس وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (مُعين الدين ختهم) فى سنة ست وستين ومائة .

ثم وليها عن الهادى (أسامةُ بن عمرو العامرىّ) فى سنة ثمان وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (الفضل بن صالح العباسىّ) فى سنة تسع وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (علىّ بن سليمان العباسىّ) آخرَ السنة المذكورة .

ثم وليها عن الرشيد (موسى العباسىّ) فى سنة آثنتين وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (محمد بن زهير) الأزدىّ سنة ثلاث وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه داودُ بن يزيد المهلبىّ سنة أربع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن عيسى العباسىّ) سنة خمس وسبعين ومائة ومات بها ؛ ثم وليها عنه (عبدالله بن المسيب الضبىّ) فى أوّل سنة سبع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (هَرْثَمة بن أعين) سنة ثمان وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (عبدالمَلِك العباسىّ) فى سلخ ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (عبيد الله بن المهدىّ العباسىّ) فى سنة تسع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن عيسى) التَّنُوخىّ فى آخر سنة ثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (عبيد الله بن المهدىّ) ثانيا سنة إحدى وثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (إسماعيل بن صالح) فى آخر السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (سُمَيَّة(٣) بن عيسى آبن إسماعيل) سنة آثنتين وثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (الليثُ البِيوَرْدِىّ) فى آخر السنة

(١) فى المقريزىّ الجمحىّ . (٢) فى المقريزىّ واضح . (٣) فى المقريزى "اسماعيل"

المذكورة؛ ثم وليها عنه (أحمد بن إسماعيل) فى آخر سنة تسع وثمانين ومائة؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن محمد العباسىّ) المعروف بابن زينب فى سنة تسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (مالك بن دَلْهَم الكلبىّ) سنة آثنتين وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه أو عن الأمين (الحسينُ بنُ الجحاج) سنة ثلاث وتسعين ومائة .

ثم وليها عن الأمين (حاتم بن هَرْثمة بن أعْيَن) سنة خمس وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (عباد أبو نصر) مولى كِنْدَة سنة ست وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه أو عن المأمون (المطَّلِبُ بنُ عبد الله الخزاعىّ) سنة ثمان وتسعين ومائة .

ثم وليها عن المأمون (العباسُ بنُ موسى) سنة ثمان وتسعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (المطلب بن عبدالله) ثانيا فى سنة تسع وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (السرىّ بن الحكَم) فى سنة مائتين؛ ثم وليها عنه (سليمان بن غالب) فى سنة إحدى ومائتين؛ ثم وليها عنه (أبو نصر محمد بن السرىّ) فى سنة خمس ومائتين؛ ثم وليها عنه (عبيد الله) فى سنة ست ومائتين؛ ثم وليها عنه (عبدالله بن طاهر) مولى خُزَاعة فى سنة عشر ومائتين (وهو أوّل من جَلَب البِطِّيخ الخُراسانِىَّ المعروفَ بالعَبْدَلِىِّ من خُرَاسان إلى مصر فنُسِب إليه)؛ ثم وليها عنه (عيسى الجَلُّودىّ) فى سنة ثلاثَ عشرَةَ ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عمرو بن الوليد التيمىّ) فى سنة أربعَ عشرةَ ومائتين؛ ثم وليها عنه (عيسى الجَلُّودىّ) ثانيا فى آخر السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (عبدويه بن جبَلَةَ) فى سنة خمسَ عشرةَ ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عيسى بن منصور) مولى بنى نصر فى سنة ستَّ عشرةَ ومائتين .

(وفى هذه السنة دخل المأمون مصرَ وفتح الهَرَم) .

ثم وليها عن المعتصم بالله (١) المسعودىّ فى أوّل سنة تسعَ عشرةَ ومائتين ؛

(١) بياض فى الأصل ، والذى فى المسعودىّ أن خلافة المعتصم كانت فى سنة تسع عشرة ومائتين ، وفى المقريزىّ أنه ولى على مصر فى هذا التاريخ (كيدر) ومات كيدر فى ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فولى آبنه (المظفر) بآستخلاف أبيه .

ثم وليها عنه (المظَفَّر بن كيدر) فى وسط السنة المذكورة أشهرا قلائل ؛ ثم وليها عنه (أبو العباس الحمق) فى آخر الســـنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (مبارَكُ بن كيدر) فى سنة أربع وعشرين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (علىّ بن يحيىٰ) فى سنة ست وعشرين ومائتين .

ثم وليهـا عن الواثق بالله (عيسىٰ بن منصور الجَلُّودى) ثالث مرة فى ســنة تسع وعشرين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (علىُّ بن يحيىٰ)(١) ثانيا فى سنة أربع وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (إسحاق الجبلى) فى سنة خمس وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (خُزَاعة) فى سنة ست وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عقبة الضَّبىّ) فى سنة ثمـان وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (يزيد بن عبد الله) فى سنة آثنتين وأربعين ومائتين ، وأقرّه عليها بعده المنتصر بالله ، ثم المستعين بالله .

ثم وليها عن المستعين بالله (مُزاحِم بن خاقان) فى ســنة ثلاث وخمسين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (أحمد بن مُزاحِم) فى سنة أربع وخمسين ومائتين وأقره عليها المهتدِى بالله .

الضرب الثـانى

(من وليها مُلْـكا ، وهم علىٰ أربع طبقات)

الطبقـــة الأُولىٰ

(من وليها عن بنى العَبَّاس قَبْل دولة الفاطميين)

وأوّلهم (أحمدُ بن طولون) وليها عن المعتمد فى سنة ست وستين ومائتين وعَمَر بها جامعَه المتقدّم ذكرُه فى خِطَط الفُسْطاط ، وفى أيامه عَظُمت نيابةُ مصرَ وشَمَختْ إلىٰ المُلْك (وهو أوّل من جَلَب المماليك الترك إلىٰ الديار المصرية وآستخدمهم فى عسكرها) .

---

(١) مقتضاه أن المذكور ولى عن الواثق فى هذا التاريخ مع أن خلافة الواثق كانت سنة سبع وعشرين ومائتين وفاته كانت فى سنة آثنتين وثلاثين ومائتين ، فالمذكور كان عن المتوكل فلعل الصواب ثم وليها عن المتوكل فتأمل .

وأقره المعتضد بالله بعد المعتمد، وبقى بها حتى مات فوليها عن المعتضد (خُمارَوَيْه بن أحمد بن طولون) فى أوّل سنة آثنتين وثمانين ومائتين، وقتله جُنْدُه فى السنة المذكورة؛ ثم وليها عنه (جَيْش بن خُمَارويه) فى سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقتله جندُه فى السنة المذكورة؛ ثم وليها عنه (هرون بن خمارويه) فى آخر سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقتل فى سنة آثنتين وتسعين .

ثم وليها عن المكتفى بالله (شَيْبانُ بن أحمد بن طولون) فى سنة آثنتين وتسعين ومائتين فبقِىَ آثنَىْ عشر يوما وعُزِل؛ ثم وليها عنه (محمد بن سليمان الواثقىّ) فى آخر سنة آثنتين وتسعين ومائتين؛ ثم وليها عنه أو عن المقتدر بالله (عيسىٰ النوشرى) فى سنة خمس وتسعين ومائتين .

ثم وليها عن المقتدر بالله (أبو منصور تِكين) فى سنة سبع وتسعين ومائتين وعُزِل؛ ثم وليها عنه (أبو الحسن) فى سنة ثلاث وثلثمائة وعزل؛ ثم وليها عنه (أبو منصور تكين) ثانيا سنة سبع وثلثمائة وعزل؛ ثم وليها عنه (هلالٌ) سنة تسع وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أحمدُ بن كِيغَلْغ) فى سنة إحدىٰ عشرة وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أبو منصور تكين) ثالث مرة فى السنة المذكورة.

ثم وليها عن القاهر بالله (محمدُ بنُ طُغج) فى سنة إحدىٰ وعشرين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أحمد بن كِيغَلْغ) ثانيا فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة . وأقره عليها المكتفِى ثم المستكفى بالله بعده .

ثم وليها عن المُطِيع لله (أبو القاسم الاخشيد) فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (علىّ بن الأخشيد) سنة تسع وثلاثين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (كافور الأخشيدى) الخادم فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة، وكان يحب العلماء والفقهاء، ويكرمهم، ويتعاهدهم بالنَّفَقات، ويكثر الصدَقات حتى آستغنىٰ الناس فى أيامه، ولم يَجِد أربابُ

الأموال من يقبــل منهم الزكاةَ فرفعوا أمر ذلك إليه فأمرهم أن يبْتَنُوا بها المساجدَ و يتخذوا لهــا الأوقافَ ففعلوا ؛ ثم وليها عنه (أحمدُ بن علىّ الأخشيد) فى سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، وهو آخر من وليها من العُمَّال عن خلفاء بنى العباس بالعراق .

الطبقة الثـانيــــة
(من وليها من الخلفاء الفاطميين المعروفين بالعُبَيديِّين)

أوّل من وليها منهم (المُعِزُّ لدين الله أبو تميم مَعَدُّ بن تميم بنِ إسمــاعيل بن محمد بن عبيدالله المهدىّ) وإليه ينسبون ، جهز إليها قائدَه : جَوْهَرا من بلاد المغرب إلىٰ الديار المصرية ففتحها فى شـعبان سنة ثمـان وخمسين وثلثمائة علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ قواعد الديار المصرية وآنقطعت الخُطْبة العباسية منها ؛ ورحل المعزُّ من المغرب إلىٰ مصر فوصل إليها ودخل قصرَه بالقاهرة فى سابع رمضان سنة آثنتين وستين وثلثمائة وصارت مصر والمغرب مملكةً واحدة و بلاد المغرب نيـابة من مصر ، وتُوفِّى ثالثَ ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة .

ثم ولى بعده آبنُه (العزيزُ بالله أبو المنصور) يوم وفاة أبيه ، وإليه ينسب الجامع العزيزىّ بمدينة بِلْبِيس ، وتُوفِّى بالحَمَّام فى بِلْبِيس ثامنَ رمضان المعظَّم قدرُه سنة ست وثمـانين وثلثمائة .

ثم ولى بعده آبنه (الحاكمُ بأمر الله أبو علىّ المنصور) ليلةَ وفاة أبيه ، وبنىٰ الجامع الحاكمىَّ فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، وهو يومئذ خارجَ سورِ القاهرة ، وفارق مصر وخرج إلىٰ الجبــل المقطم فوُجدتْ ثيابُه مُزَرَّرة الأطواق وفيها آثار السكاكين ولا جُثَّة فيها ، وذلك فى سلخ شوّال سنة إحدىٰ عشرة وأربعمائة ولم يُشَكَّ فى قتله .
والدُّرْزيَّة من المبتدعة يعتقدون أنه حىّ وأنه سيرجع ويعود علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ أيمـانِهم وتحليفهم إن شاء الله تعالىٰ .

ثم ولى بعده ابنه (الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علىّ) وبقى حتى توفى فى شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة .

ثم ولى بعده ابنه (المستنصر بالله أبو تميم معَدّ) بعد وفاة أبيه . وفى أيامه جُدِّد سُور القاهرة الكبير فى سنة ثمانين وأربعمائة . وتوفى فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة . وفى أيامه كان الغلاء الذى لم يعهد مثله ، مكث سبع سنين حتى خَرِبَتْ مصرُ، ولم يبق بها إلا صُبابة من الناس على ماتقدّم فى سياقة الكلام على زيادة النيل .

ثم ولى بعده ابنه (المستعلى بالله) أبو القاسم أحمدُ يوم وفاة أبيه . وتوفِّى لسبعَ عشرةَ ليلةً خلت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة .

ثم ولى بعده (الآمر بأحكام الله أبو علىّ المنصور) فى يوم وفاة المستعلى ، وقتل بجزيرة مصر فى الثالث من ذى القَعدة سنةَ خمس وعشرين وخمسمائة .

ثم ولى بعده ابنُ عمه (الحافظُ لدين الله أبو الميمونِ عبدُالحميد بنُ الآمر أبى القاسم محمدٍ) يوم وفاة الآمر . وتوفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

ثم ولى بعده (الظافر بأمر الله إسماعيل) رابعَ جمادى الآخرة سنةَ أربعين وخمسمائة .

ثم ولى بعده ابنه (الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى) صبيحةَ وفاة أبيه . وتوفى فى سابع عشر شهر رجب الفرد سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

ثم ولى بعده (ابنه العاضدُ لدين الله أبو محمد عبدُ الله بن يوسف) يوم وفاة الفائز . وتوفِّىَ يومَ عاشوراء سنة أربع وستين وخمسمائة بعد أن قطع السلطانُ صلاح الدين خُطْبته بالديار المصرية وخطب للخلفاء العبّاسيين ببغداد قبل موته ، وهو آخر من ولى منهم .

الطبقـــــة الثـالثة
(ملوك بنى أيُّوبَ)

وهم وإن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بنى العبَّاس فهم ملوكٌ مستقلُّون، وفى دولتهم زاد آرتفاع قدرِ مصرَ ومُلْكِها .

أوّل من ملك مصر منهم الملك الناصرُ (صلاحُ الدين يوسفُ بنُ أيوبَ) كان الملك العـادلُ نورُ الدين محمودُ بن زنكى صاحبُ الشام رحمه الله قد جهَّزه صحبـةَ عمه : أسدِ الدين شيركوه إلىٰ الديار المصرية حين آستغاث به أهـلُ مصر فى زمن العاضد الفاطمىّ المتقدّم ذكره لغلبة الفرنج عليهم ثلاثَ مَرَّات آنتهىٰ الحـالُ فى آخرها إلىٰ أنّ السلطان صـلاح الدين وثب علىٰ شاور وزير العاضد المذكور فقتـله وتقلد عمُّه أسدُ الدين شيركوه الوزارة مكانَهُ عن العاضد،وكُتبَ له بذلك عهدٌ من إنشاء القاضى الفاضل،فأقام فيها مدَّة قريبة ومات،ففوّض العاضد الوزارة مكانَهُ للسلطان صلاح الدين،وكتب له عهدٌ من إنشاء القاضى الفاضل أيضا،وبقى فى الوزارة حتّى ضعُف العاضد وطال ضعفُه فقطع السلطان صلاح الدين الخطبةَ للعاضد، وخطب للخليفة العباسىّ ببغداد بأمر الملك العادل صاحب الشام . ثم مات العاضد عن قريب فاستقلَّ السـلطان صلاح الدين بالسلطنة بمصر وقَوِى جأشُـه ، وثبتت فى الدولة قدمه . وتوفى بِدمَشْقَ فى سـنة تسع وثمـانين وخمسمائة ؛ وكانَت مدّة ملكه بالديار المصرية أربعا وعشرين سنة وملكه الشام تسعَ عشرةَ سنة؛ ثم ملك بعده مصر آبنُه (الملكُ العزيز) وملك معها دمشقَ وسلَّمها إلى عمه العادل أبى بكر فى سنة آثنتين وتسعين وخمسمائة، وتفرّقت بقية الممالك الشامية بيد بنى عمه من بنى أيوب .

ملكَ مصرَ والشامَ جميعا فى ربيع الأوّل سنة ست وتسـعين وخمسمائة ؛ وتوفى بدمشق سنة خمس عشرة وستمائة .

ثم ملك بعده آبنُه (الملكُ الكامل) عقيبَ وفاة أبيه المذكور، وهو أوّل من سكن قَلْعَةَ الجبل بعد قصر الفاطميين بالقاهرة على ماتقدّم ذكره فى الكلام على القلعة، وآستمرّ فى ذلك عشرين سنة، وفتح حَرَّان وديارَ بكرٍ، وكان الفرنج قد آستعادوا بعض ما فتحه السلطان صلاحُ الدين من ساحل الشام، وكتب الهُدْنَةَ بينه وبين الفرنج فى سنة ست وعشرين وستمائة على أن يكون بأيدى الفِرنج القلاعُ والنواحى التى ملكوها بعد فتح السلطان صلاح الدين، وهى جبلة، وبيروت، وصيدا، وقلعة الشقيف، وقلعة تِبنين، وقلعة هونين، وإسكندرونة، وقلعة صَفَد، وقلعة الطور واللجون، وقلعة كَوْكب، ومجدل يافا (١) ولُدّ، والرملة، وعسقلان، وبيت جِبْريل، والقُدْس وأعمال ذلك ومضافاته. وبنى مدرسته الكاملية بين القصرين المعروفة بدار الحديث، وتوفى بدمشق سنة خمس وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده آبنه (الملك العادل أبو بكر) وقبض عليه فى العشر الأوسط من ذى القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده أخوه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن الكامل فى أوائل سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده آبنُه الملكُ المعظم (تُوران شاه) وهو الذى كسر الفرنج على المنصورة فى المحرّم سنة ثمان وأربعين وستمائة، وقتل فى الثامن والعشرين من المحرّم المذكور.

ثم ملك بعده أمُّ خليل (شجرةُ الدُّرّ) فى صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة، فأقامت ثمانية أشهر، ولم يملك مصر فى الإسلام آمرأةٌ غيرها.

ثم ملك بعدها الملكُ الأشرف (موسى بن الناصر يوسف بن المسعود بن الكامل آبن العادل أبى بكر بن أيوب) فى شوّال سنة ثمان وأربعين وستمائة وخلع نفسه وهو آخر الملوك الأيوبية بالديار المصرية.

(١) سيأتى له فى الجزء الرابع هكذا "مجداليا با"

الطبقة الرابعـــــة

(ملوك التُّرْك خَلَّد الله تعالىٰ دولتهم)

أوّل من ملكها منهم (الملكُ المُعِزُّ أيبك التركمانى) بعد خلع الأشرف موسىٰ : آخر ملوك الأيوبية فى شوّال سنة ثمان وأربعين وستمائة؛ وجُمع له بين مصر والشام، وآستمر الجمع بينهما إلىٰ الآن، وبنىٰ المدرسة المُعِزِّية برحبة الخرّوب بالفُسْطاط، وتزوج بأم خليل المقدّم ذكرها، وقتل بحمّام القلعة فى سنة أربع وخمسين وستمائة .

ثم ملك بعده آبنُه (الملك المنصورعلىّ) عقيبَ وفاة والده المذكور. وقُتِلتْ أمّ خليل المذكورة، ورميت من سُور القلعة، وقُبض علىٰ المظَفَّر(١) سنة سبع وخمسين وستمائة .

ثم ملك بعده الملك (المظفر قُطُز) وكان المَصَافُّ بينه وبين التتار علىٰ عَيْن جالوتَ بعد أن آستوْلَوْا علىٰ جميع الشام فى رمضان سـنة ثمـان وخمسين وستمائة، وكسرهم أشدّ كسرة وآستقلع الشام منهم، وبقى حتّى قتل فى مُنصَرَفه بطريق الشام وهو عائد منه بالقرب من قصير الصالحية علىٰ أثر ذلك فى السنة المذكورة .

ثم ملك بعده الملك (الظاهر بيبرس) البُنْدقدارىّ فى ذى القعدة سنة ثمـان وخمسين وستمائة ، وأخذ فى جهاد الفرنج وآسـتعادة ما آرتجعوه من فتوح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وغير ذلك ففتح البِيرةَ فى سنة تسع وخمسين وستمائة والكَرَك فى سنة إحدىٰ وستين، وحِمْص فى آخر سنة آثنتين وستين وستمائة، وقَيْسارِيَّةَ وأَرْسُوف فى سنة ثلاث وستين، وصَـفَد فى سنة أربع وستين، ويافا والشَّقِيف، وأنْطاكِيَةَ فىسنة ست وستين، وحِصْن الأكراد وعَكَّا وصافِيتَا فىسنة تسع وستين، وكَسر التتارَ علىٰ البِيرة بعد أن عدّى الفُرات خوضا بعساكره فىسنة إحدىٰ وسبعين؛ وفتح قلاعا من بلاد سيس فى سنة ثلاث وسبعين، ودخل بلاد الروم، وجاس علىٰ

(١) لعل مراده الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر شريك المعز فى السلطنة . وآنظر المقام فى خطط المقريزى (ج ٢ ص ٢٣٧) .

كرسى بنى سَلْجُوق بقَيْسارِيَّة الروم، ورجع إلى دمشق فى آخر سنة خمس وسبعين. وتُوفِّى بدمشق فى المحرّم سنة ست وسبعين وستمائة، وبنى مدرسته الظاهرية بين القَصْرين.

وملك بعده آبنُه (الملك السعيد بَرَكَةُ) فى صفر سنة ست وسبعين وستمائة، وخُلِع وسُيِّر إلى الكرك.

وملك بعده أخوه (الملك العادل سلامش) فى ربيع الأوّل سنة ثمان وسبعين وستمائة، وبقى أربعة أشهر ثم خلع.

وملك بعده (الملك المنصور قلاوون الصالحىّ) الشهير بالألفىّ فى رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة، وسمى الألفىّ لأن آقْسُنْقر الكاملىّ كان قد آشتراه بألف دينار، وفتح حصن المَرْقَب بالشأم فى تاسع عشر ربيع الأوّل سنة أربع وثمانين وستمائة، وفتح طَرَابُلُس فى ربيع الأوّل سنة ثمان وثمانين وستمائة، وهو الذى بنى البيمارستان المنصورىَّ والمدرسةَ المنصوريةَ والقبةَ اللتين داخل البيمارستان بين القَصْرَيْن. وتُوفِّى بظاهر القاهرة المحروسة، وهو قاصد الغزو فى ذى القَعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ودفن بتربته بالقبة المنصورية داخل البيمارستان المتقدّم ذكره.

وملك بعده آبنُه (الملك الأشرفُ خايلٌ) صبيحةَ وفاة أبيه وأخذ فى الغزو ففتح عَكَّا وصُور، وصَيْدا، وبَيْروت، وعَثْليث، والساحل جميعه، وآقتلعه من الفرنج فى رجب سنة تسعين وستمائة. وقتل فى متصيَّده بالبحيرة فى العشر الأوسط من المحرّم سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وهو الذى عَمَر المدرسة الأشرفية بالقرب من المشهد النفيسىّ.

ثم ملك بعده (الملك المعظم بيدرا) وخلع من يومه.

وملك بعده (الملك الناصر محمدُ بن قلاوون) فى صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وهى سلطنته الأولى. وخُلع بعد ذلك وبعث به إلى الكرك فحُبِس بها.

وملك بعده (الملك العادل كتبغا) عقب خلعه، ووقع فى أيامه غلاء شديد وفناء عظيم؛ ثم خلع فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة، وتولّى بعد ذلك نيابة صَرْخَد ثم حَمَاة، وبقى حتّى توفى بعد ذلك؛ وهو الذى ٱبتدأ عمارة المدرسة المعروفة بالناصرية بين القصرين وأكمل بناءها الناصرُ محمد بن قلاوون فنسبت إليه .

وملك بعده (الملك المنصور حسام الدين لاچين) فى الخامس والعشرين من صفر المذكور(١) فجدّد الجامع الطُّولونىّ وعمل الروك الحُسَامىّ فى رجب الفرد سنة سبع وتسعين وستمائة، وقتل فى الحادى عشر من شوّال(٢) من السنة المذكورة، وبقى الأمر شُورىٰ مدّة يسيرة، ثم حضر الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك وأعيد إلىٰ السلطنة فى حادى عشر شوّال من السنة المذكورة .

وملك بعده (الملك المظفر بِيبَرْسُ الجاشنكير) فى الثالث والعشرين من شوّال المذكور وخلع فى التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة، وهو الذى عمر الخانقاه الرُّكْنيَّة بيبرس داخل باب النصر مكان دار الوزارة بالدولة الفاطمية، وجدّد الجامع الحاكمى .

وملك بعده (الملك الناصر محمدُ بن قلاوون) فى مستهل شوّال من السنة المذكورة، وهى سلطنته الثالثة . وفيها طالت مدّته وقوى ملكه، وعمل الروك الناصرىّ فى سنة ست عشرة وسبعمائة، وبنىٰ مدرسته الناصرية بين القصرين، وبقى حتّى توفى فى العشرين من ذى الحجة سنة إحدىٰ وأربعين وسبعمائة، ودفن بتربة والده .

ثم ملك بعده ٱبنه الملك المنصورُ أبو بكر عقب وفاة والده، وخلع تاسع عشر صفر سنة ٱثنتين وأربعين وسبعمائة .

---

(١) أى سنة ست وتسعين وستمائة .

(٢) فى المقريزى "من ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة" وان تولية ٱبن قلاوون المرة الثانية فى السادس من جمادىٰ الأولىٰ من السنة المذكورة وبقى إلىٰ الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ثمان وسبعمائة ثم ولى المظفر فى التاريخ المذكور . [وبملاحظة ذلك يستقيم الكلام ويعلم ما فى الأصل] .

ثم ملك بعده أخوه (الملكُ الأشرفُ كجك) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ أخيه المنصور المذكور، وخلع فى التاسع والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة .

ثم ملك بعده أخوه (الملكُ الناصرُ أحمدُ) بن الناصر محمد بن قلاوون بعد أن أُحْضِر من الكرك، وٱستمرّ فى السلطنة حتّى خلع نفسَه فى أوائل المحرّم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الصالحُ إسماعيلُ) بن الناصر محمد بن قلاوون فى العشرين من المحرّم المذكور، وبقى حتّى توفى فى رابع ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة .

وملك بعده(١) أخوه (الملكُ المُظَفَّرُ حاجّى) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ أخيه الكامل شعبان ، وبقى حتّى خلع فى ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وقتل من يومه .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر حَسَنُ) بن الناصر محمد بن قلاوون فى رابع عشر شهر رمضان المذكور، وخلع فى التاسع والعشرين من جمادىٰ الآخرة سنة ٱثنتين وخمسين وسبعمائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الصالحُ صالحُ) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ أخيه الناصر حسن، وبقى حتّى خلع فى ثانى شوّال سنة خمس وخمسين وسبعمائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر حسن) المتقدّم ذكره مرة ثانية يوم خلع أخيه الصالح صالح ، وبقى حتّى خلع وقُتِل فى عاشر جمادىٰ الأولىٰ سنة ٱثنتين وستين وسبعمائة؛ وبنىٰ مدرستَه المعظمةَ تحت القلعة التى ليس لها نظير فى الدنيا، وفى أيامه ضربت الفلوس الجُدُد علىٰ ماسيأتى ذكره، وهو آخر من ملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون لصُلْبه .

---

(١) سقط من قلم الناسخ الكامل شعبان فانه تولّى بعد أخيه الصالح إسماعيل ومكث سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما ثم خلع كما تشير اليه بقية العبارة .

وملك بعده آبن أخيه (الملكُ المنصورُ محمدُ) بن المظفر حاجّى بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ عمه النـاصر حسن،وبقى حتّى خلع فى خامس عشر شـعبان سنة أربع وستين وسبعمائة .

وملك بعده آبن عمه (الملك الأشرف شعبان) بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ المنصور المتقدّم ذكره وهو طفل،وبقى حتّى كمل سلطانه وبنىٰ مدرسته بأعلىٰ الصوّة تحت القلعة ولم يتمها، وحج فخرج عليه مماليكه فى عَقَبة أَيْلَةَ ففرّ منهم وعاد إلىٰ القاهرة فقُبِض عليه وقتل فى ثالث ذى القعدة الحرام سنة ثمـان وسبعين وسبعمائة، وفى أيامه فتحت مدينة سِيس وآقتلُعت من الأرمن علىٰ ما سـيأتى ذكره فى الكلام علىٰ أعمال حَلَب .

وملك بعده آبنه (الملك المنصور علىّ) يوم خلع أبيه وهو طفل ، فبقى حتّى توفى فى الثالث والعشرين من صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة .

وملك بعده أخوه (الملك الصالح حاجّى) بن شعبان بن حسين يوم وفاة أخيه،وبقى حتّى خُلِـعَ فى العشر الأوسط من رمضان سنة أربع وثمـانين وسبعمائة .

وملك بعده (الملك الظاهر برقوق) فعظُم أمره،وآرتفع صِيتُه،وشاع ذكره فى الممالك وهابَتْه الملوك وهادَتْه، وساس المُلْكَ أحسن سياسة، وبقى حتّى خلع وبُعِثَ به إلىٰ السجن بالكرك فى شهر رجب أو جمادىٰ الآخرة سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة .

وملك بعده (الملك المنصور حاجّى) بن شعبان ، وهو الملقب أوّلا بالصالح حاجّى وهى سـلطنته الثانية ، وبقى حتّى عاد الملك الظاهر برقوق المتقدّم ذكره فى سـنة [آثنتين][(1)] وتسـعين وسبعمائة، فزاد فى التيه وضخامة الملك ، وبلغ شأْوا لم يبلغه غيره من غالب متقدّمى الملوك ، وبقى حتّى توفى فى منتصف شوّال المبارك سـنة إحدىٰ وثمـانمـائة .

(1) الزيادة عن المقريزى .

وملك بعده ٱبنه (الناصر فرج) وسِنُّهُ إحدىٰ عشرة سنة بعَهْدٍ من أبيه، وقام بتدبير أمره أمراءُ دولته، فبقى حتّٰى تغير عليه بعضُ مماليكه و بعضُ أمرائه، وحضر المماليك بالقلعة، فنزل منها مختفيا علىٰ حين غفلة فى السادس والعشرين من ربيع الأوّل سنة ثمان وثمانمائة، ولم يعلم لٱبتداء أمره أين توجه .

ثم ملك بعده أخوه (الملك المنصور عبد العزيز) فى التاريخ المذكور .

ثم ظهر أن السلطان الملك الناصر فرجا كان مختفيا فى بعض أماكن القاهرة، فركب فى ليلة السادس من شهر جمادىٰ الآخرة سنة ثمان وثمانمائة، ومعه جماعة من الأمراء ومماليكه ، وخرج الأمراء للقيام بنُصْرة أخيه عبد العزيز فطلع عليهم السلطان فرجٌ، ومَنْ معه فولَّوْا هاربين، وطلع السلطان الملك الناصر القلعةَ فى صبيحة النهار المذكور وٱستقرّ علىٰ عادته، وبقى فى السلطنة حتّٰى توجه إلىٰ الشأم لقتال الأمير شيخ والأمير نوروز نائبى دِمَشْقَ وحَلَبَ، ومعه الإمام (المستعينُ بالله أبو الفضل العباسُ) بنُ المتوكل محمد خليفة العصر، ودخل دِمَشْقَ وحُصِرَ بقلعتها حتّٰى قبض عليه فى ثانى عشر ربيع الأوّل سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وٱستبدّ الإمام المستعينُ بالله بالأمر من غير سلطان، ورجع إليه ما كان يتعاطاه السلطان من العَلَامة علىٰ المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمناشير وغيرها، وأفرد ٱسمه فى السكة علىٰ الدنانير والدراهم، وأفرد بالدعاء فى الخطبة علىٰ المنابر، ثم عاد إلىٰ الديار المصرية فى أوائل ربيع الآخر من السنة المذكورة ، وسكن الآدُرَ السلطانيةَ بالقلعة، وقام بتدبير دولته الأميرُ شيخ المقدّم ذكره وسكن الإصطبلات السلطانية بالقلعة وفوّض إليه الإمام المستعين بالله ماوراء سرير الخلافة، وكتب له تفويض بذلك فى قِطْع كبير، عرضُه ذراع ونصف بزيادة نصف ذراع عما يُكْتب به للسلاطين . إلا أنه لم يصرح له فيه بسلطنة ولا إمارة، بل كتب له بدل الأميرى الآمرى بإسقاط الياء علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ عهود الملوك إن شاء الله تعالىٰ .

الفصل الرابع

من الباب الثالث من المقالة الثانية

(فى ذكر ترتيب أحوال الديار المصرية، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأوّل

(فى ذكر معاملاتها ، وفيه ثلاثة أركان)

الركن الأوّل

(الأثمـان، وهى علىٰ ثلاثة أنواع)

النوع الأوّل

(الدنانير المسكوكة ممـا يضرب بالديار المصرية، أو يأتى إليها من المسكوك فى غيرها من الممـالك ، وهى ضربان)

الضرب الأوّل

(مايتعامل به وزنا كالذهب المصرىّ ومافى معناه)

والعبرة فى وزنها بالمثاقيل ، وضابطها أن كلَّ سبعة مثاقيلَ زنتُها عشرة دراهمَ من الدراهم الآتى ذكرها، والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطا، وقدّر بِثْنتين وسبعين حبةَ شعير من الشعير الوَسَط بٱتفاق العلماء، خلافا لٱبن حزم فإنه قدّره بأربع وثمانين حبةً، علىٰ أن المثقال لم يتغير وزنه فى جاهلية ولا إسلام .

قلت : وقد كان الأمير صــلاح الدين بن عرام فى الدولة الأشرفيــة شعبان بن حسين بعد السبعين والسبعمائة ضرب بالإسْكَنْدَرِيَّةِ، وهو نائب السلطنة بها يومئذ، دنانيرَ زِنَةُ كل دينار منها مثقالٌ، علىٰ أحد الوجهين منه "محمد رسول الله" وعلىٰ الوجه الآخر "ضرب بالإسْكَنْدَرِيَّةِ فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عز نَصْرُه"، ثم أمسك

عن ذلك فلم تكثر هـذه الدنانير ولم تشتهر؛ ثم ضرب الأمير يلبغا السالمىّ أستادار العالية فى الدولة الناصرية فرج بن برقوق دنانيرَ زنة كل واحد منها مثقال، فى وسط سكته دائرةٌ فيها مكتوب "فرج" وربما كان منها مازنته مثقال ونصف أو مثقالان، وربما كان نصف مثقال أو ربع مثقال . إلا أن الغالب فيها نقص أوزانها، وكأنهم جعلوا نقصها فى نظير كُلْفة ضَرْبها .

الضرب الثـانى
(ما يتعامـــل به مُعَـادَّة)

وهى دنانير يؤتىٰ بها من بلاد الإفرنجة والروم ، معلومةُ الأوزان، كلُّ دينار منها معتبر بتسـعةَ عشرَ قيراطا ونصفِ قيراط من المصرىّ، وآعتباره بِصَنج الفِضَّة المصرية كل دينار زنة درهم وحبتى خَرُّوبٍ يَرْجَحُ قليلا،وهذه الدنانير مُشَخَّصة علىٰ أحد وجهيها صورةُ الملك الذى تُضْرَب فى زمنه، وعلىٰ الوجه الآخر صورتا بطرُس وبولس الحوارِيَّين اللذين بعث بهما المسيح عليـه السلام إلىٰ رُومِيَةَ ، ويعبر عنها بالإفْرنْتِيَّة جمع إفْرنْتِىٍّ ، وأصـله إفرِنسىّ بسين مهملة بدل التاء المثناة فوق نسبة إلىٰ إفرنسة : مدينة من مُدُنهم ، وربمـا قيل فيها إفرنجة ، وإليها تنسب طائفة الفِرِنْج ، وهى مقرّة الفرنسيس مَلِكهم، ويعبر عنه (١) أيضا بالدوكات . وهذا الآسم فى الحقيقة لايطلق عليه إلا إذا كان ضرب البُنْدُقِيَّة من الفرنجة، وذلك أن الملك آسمه عندهم دوك، وكأن الألفَ والتاء فى الآخر قائمـان مقام ياء النسب .

قلت : ثم ضرب النـاصر فرج بن بَرْقوق دنانيرَ علىٰ زنة الدنانير الإفرنتيـة المتقدّمة الذكر ، فى أحد الوجهين "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وفى الآخر آسم السلطان، وفى وسطه سَفَطٌ مستطيل بين خطين ،وعرفت بالناصرية وكثر وُجْدَانُها،

(١) أى عن الدينـار من تلك الدنانير .

وصار بها أكثر المعاملات . إلا أنهم يَنْقُصـونها فى الأثمـان عن الدنانير الإفرنتيـة عشرةَ دراهم .

ثم ضَرَب علىٰ نظيرها " الإمام المستعينُ بالله أبو الفضـل العباس (١) " حين آستبدّ بالأمر بعد الناصر فرج، ولم يتغير فيها غير السّكةِ، باعتبار آنتقالها من آسم السلطان إلىٰ آسم أمير المؤمنين .

ثم صَرْفُ الذهب بالديار المِصْرية لا يثبت علىٰ حالة بل يعلو تارة ويَهْبِط أخرىٰ بحسب ماتقتضيه الحال، وغالب ما كان عليه صرف الدينـار المصرىّ فيما أدركناه فى التسعين والسبعمائة وماحولها عشرون درهما، والإفرنتىّ سبعةَ عشرَ درهما وماقارب ذلك أما الآن فقد زاد وخرج عن الحدّ خصوصا فى سنة ثلاث عشرة وثمانمـائة، وإن كان فى الدولة الظاهرية بيبرس قد بلغ المصرىُّ ثمـانية وعشرين درهما ونصفا فيما رأيته فى بعض التواريخ .

أما الدينار الجَيْشىّ، فمسمًّى لاحقيقة، وإنمـا يستعمله أهل ديوان الجَيْش فى عبرة الإقطاعات بأن يجعلوا لكل إقطاع عبرةَ دنانير معينة من قليل أوكثير، وربما أخليت بعض الإقطاعات من العِـبْرة . علىٰ أنه لا طائل تحتها ولا فائدة فى تعيينها، فربمـا كان متحَصِّـل مائة دينار فى إقطاع أكثرَ من متحصِّـل مائتى دينار فأكثر فى إقطاع آخر . علىٰ أن صاحب " قوانين الدواوين " قد ذكر الدينـار الجيشىّ فى الإقطاعات علىٰ طبقات مختلفة فى عبرة الإقطاعات، فالأجناد من التُّرك والأكراد والتركمان دينارهم دينارٌ كامل، والكنانية والعَسَاقلة ومن يجرى مجراهم دينارُهم نصف دينار، والعُرْبان فى الغالب دينارهم ثُمُنُ دينار، وفى عُرْف الناس ثلاثة عشر درهما وثلث، وكأنه علىٰ ما كان عليه الحال من قيمة الذهب عند ترتيب الجيش فى الزمن

(١) كذا فى "حياة الحيوان" أيضا وفى "مروج الذهب" أبوالعباس كماسبق للؤلف فى الخلفاء العباسيين.

القديم ،فإن صرفَ الذهب فى الزمن الأول كان قريبا من هذا المعنىٰ، ولذلك جعلت الدية عند مَنْ قدّرها بالنَّقْد من الفقهاء ألفَ دينار وآثنى عشر ألف درهم ، فيكون عن كل دينار آثنا عشر درهما، وهو صرفه يومئذ .

النوع الثانى
(الدراهم النُّقْرة)

وأصل موضوعها أن يكون ثُلُثاها من فضة وثلثها من نحاس ،وتُطْبع بدور الضرب بالسَكة السلطانية علىٰ نحو ما تقدّم فى الدنانير، ويكون منها دراهمُ صحاحٌ وقُراضات مكسرة علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ دار الضرب فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

والعبرة فى وزنها بالدرهم، وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطا، وقُدِّر بستَّ عشرةَ حبةً من حب الخرّوب ،فتكون كل خَرُّوبتَيْنِ ثُمُنَ درهم ،وهى أربع حبات من حب البُرّ المعتدل ،والدرهم من الدينار نصفه وخمسه ،وإن شئت قلت سبعة أعشاره فيكون كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم .

أما الدراهم السَّوْداء، فأسماءٌ علىٰ غير مسمَّيات كالدنانير الجَيْشية، وكل درهم منها معتبر فى العرف بثلث درهم نُقْرة ، وبالإسكندرية دراهم سوداء يأتى الكلام عليها فى معاملة الإسْكَنْدَريَّة إن شاء الله تعالىٰ .

النوع الثالث
(الفُلُوس، وهى صنفان : مطبوع بالسكة، وغير مطبوع)

فأما المطبوع فكان فى الزمن الأوّل إلىٰ أواخر الدولة الناصرية حسن بن محمد آبن قلاوون فلوس لِطَاف، يعتبر كل ثمانية وأربعين فَلْسًا منها بدرهم من النُّقْرة علىٰ آختلاف السكة فيها ،ثم أُحْدِث فى سنة تسع وخمسين وسبعمائة فى سلطنة حسن أيضا

فلوس شهرت بالجُدُد جمع جَدِيد، زِنَةُ كل فَلْسٍ منها مثقالٌ، وكل فلس منها قيراطٌ من الدرهم ، مطبوعةٌ بالسكة السلطانية علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ دار الضرب إن شاء الله تعالىٰ، فجاءت فى نهاية الحُسْن ، وبطل ما عداها من الفُلُوس ، وهى أكثر ما يتَعامل به أهـلُ زماننا . إلا أنها فسد قانونها فى تنقيصها فى الوزن عن المثقال حتّى صار فيها ما هو دون الدرهم ، وصار تكوينها غير مستدير ، وكانت توزن بالقَبَّان كلُّ مائة وثمانية عشر رطلا بالمصرىّ بمبلغ خَمْسِمائة درهم ، ثم أَخَذت فى التناقص لصغر الفلوس ونقص أوزانها حتّى صار كل مائة وأحد عشر رطلا بمبلغ خمسمائة . قلت : ثم آستقرّ الحال فيها(١) علىٰ أنه لو جعل كل أوقية فما دونها بدرهم ، لكان حسنا باعتبار غلوّ النُّحاس وقلة الواصل منه إلىٰ الديار المصرية ، وحَمْل التجار الفلوسَ المضروبةَ من الديار المصرية إلىٰ الحجاز واليمن وغيرهما من الأقاليم متجرا ، ويوشك إن دام هذا أن تَنْفَد الفلوسُ من الديار المصرية ، ولا يوجد ما يتعامل به الناس .

وأما غير المطبوعة فنُحَاسٌ مكسر من الأحمر والأصفر، ويعبر عنها بالعتق؛ وكانت فى الزمن الأوّل كل زِنَة رطل منها بالمصرىّ بدرهمين من النُّقْرة، فلما عُمِلت الفلوس الجُدُد المتقدّمة الذكر، آستقرّ كل رِطل منها بدرهم ونصف، وهى علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

قلت : ثم نَفِدت هذه الفلوس من الديار المصرية لغلوّ النحاس ، وصار مهما وجد من النحاس المكسور خلط بالفلوس الجُدُد وراج معها علىٰ مثل وزنها .

---

(١) لعل الأوضح ثم آستقر الحال فيها علىٰ ذلك علىٰ أنه الخ تأمل .

الركن الثانى

(فى المُثْمَنات ، وهى علىٰ ثلاثة أنواع)

النــــوع الأوّل

(المــــوزونات)

ورطلها الذى يعتبر بوزنه فى حاضرتها من القاهرة والفُسْطاط وما قاربهما الرطلُ المصرىّ، وهو مائة وأربعة وأربعون درهما، وأُوقيته آثنا عشر درهما، وعنه يتفرّع القِنْطَارُ المصرىّ ، وهو مائة رطل ؛ وتعتبر أوزان الطيب بها بالمنّ ، وهو مائتان وستون درهما، وأواقيُّه ست وعشرون أوقيَّة، فتكون أوقيته عشرةَ دراهم .

النــــوع الثانى

(المَكِيلات من الحبوب ونحوها)

وآعلم أن بمصر أقداحا مختلفةَ المقادير أيضا كالأرطال بحسبه (١) ، ولكل ناحية منها قَدَحٌ مخصوص بحسب إرْدَبِّها،والمستعمل منها بالحاضرة القَدَحُ المصرىُّ،وهو قَدَحٌ صغير تقديره بالوزن من الحَبِّ المعتدل مائتان وآثنان وثلاثون درهما، وقدّره الشيخ تقىّ الدين بن رزين فى الكلام علىٰ صاع الفِطْرَة باثنين وثلاثين ألفَ حبة وسبعمائة وآثنتين وستين حبة ، وكل ستةَ عشرَ قدحا تسمّٰى وَيْبة ، وكل ستة وتسعين قدحا تسمّٰى إردبّاً،وبنواحيها بالوجهين القبلىّ والبحرىّ أرادبُّ متفاوتة يبلغ مقدار الإردبِّ فى بعضها إحدىٰ عشرةَ ويبة بالمِصرىِّ فأكثر.

---

(١) لعله بحسب اردبّها . أو هى زائدة من قلم الناسخ .

النـــوع الثـالث

(المَقِيسات، وهى الأراضى والأقمشة)

فأما الأراضى فصنفان :

الصــنف الأوّل

(أرض الزراعة)

وقد اصطلح أهلُها علىٰ قياسها بقَصَبة تعرف بالحاكمية، كأنها حُرِّرت فى زمن الحاكم بأمر الله الفاطمىّ فنسبتْ إليه، وطولها ستة أذرع بالهاشمىّ كما ذكره أبو القاسم الزجاجىّ فى "شرح مقدّمة أدب الكاتب" وخمسة أذرع بالنجارى كما ذكره ابن مماتى فى "قوانين الدواوين" وثمانية أذرع بذراع اليد كما ذكره غيرهما؛ وذراع اليد ست قَبَضات بقبضة إنسان معتدل، كلُّ قبضة أربعة أصابع بالخِنصِر والبِنْصِر والوُسطىٰ والسَّبَّابة، كل إصبع ست شعيرات معترضات ظهراً لبطن علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ الأميال . وقد تقدّر القصبة بباعين من رجل معتدل؛ وربما وقع القياس فى بعض بلاد الوجه البحرىّ منها بقصبة تعرف بالسَّنْدَفَاويّة أطول من الحاكمية بقليل، نسبة إلىٰ بلد تسمّى سَنْدَفَا بالقرب من مدينة المَحَلة، ثم كل أربعمائة قصبة فى التكسير يعبر عنها بفَدَّان، وهو أربعة وعشرون قيراطا كل قيراط ستَّ عشرةَ قصبة فى التكسير .

الصــنف الثـانى

(أرض البُنْيان من الدُّور وغيرها)

وقد اصطلحوا علىٰ قياسها بذراع يعرف بذراع العمل طوله ثلاثةُ أشبار بشبر رجل معتدل، ولعله الذراع الذى كان يقاس به أرض السَّواد بالعراق، فقد ذكر الزجاجىّ

أنه ذراع وثلث بذراع اليد، وكان ٱبتداء وضع الذراع لقياس الأرَضين أن زياد ٱبن أبيه حين ولّاه معاويةُ العراقَ وأراد قياس السَّواد، جمع ثلاثة رجال: رَجُلا من طوال القوم ورجلا من قصارهم ورجلا متوسطا بين ذلك، وأخذ طُول ذراع كل منهم، فجمع ذلك وأخذ ثلثه، فجعله ذراعا لقياس الأرضين، وهو المعروف بالذراع الزِّيَادىّ لوقوع تقديره بأمر زِيَاد، ولم يزل ذلك حتّى صارت الخلافة لبنى العباس فٱتخذوا ذراعا مخالفا لذلك كأنه أطول منه، فسمِّى بالهاشمىّ لوقوعه فى خلافة بنى العباس، ضرورةَ كونهم من بنى هاشم.

وأما الأقمشة، فإنها تقاس بالقاهرة بذراع طوله ذراع بذراع اليد وأربع أصابع مطبوقة، ويزيد عليه ذراع القماش بالفُسْطَاطِ بعضَ الشىء، وربما زاد فى بعض نواحى الديار المصرية أيضا نحو ذلك. ولغير القماش من الأصناف أيضا كالحصر وغيرها ذراع يخصه.

الركن الثالث

(فى الأسعار)

وقد ذكر المَقَرُّ الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" جملة من الأسعار فى زمانه فقال: وأوسط أسعارها فى غالب الأوقات أن يكون الإردبُّ القمح بخمسة عشر درهما، والشعير بسعره(١)، وبقية الحبوب علىٰ هذا الأنموذج؛ والأرز يبلغ فوق ذلك؛ واللحم أقل سعره الرِّطْلُ بنصف درهم، وفى الغالب أكثر من ذلك؛ والدَّجَاج يختلف سعره بحسب حاله، فجيِّدُه الطائر منه بدرهمين إلىٰ ثلاثة، والدُّونُ منه بدرهم واحد؛ والسُّكَّر الرطل بدرهم ونصف، وربما زاد، والمكَرَّر منه بدرهمين ونصف.

---

(١) لعله بعشرة.

قلت : وهذه الأسعار التى ذكرها قد أدركنا غالبها، و بقيت إلىٰ ما بعد الثمانين والسبعمائة فغلت الأسعار وتزايدت فى كل صنف من ذلك وغيره، وصار المثل إلىٰ ثلاثة أمثاله وأربعة أمثاله ، فلا حول ولا قوّة إلا بالله ذى المنن الجسيمة القادر علىٰ إعادة ذلك علىٰ ما كان عليه أو دونه ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنطُوا ﴾ .

الطرف الثانى

(فى ذكر جسورها الحابسة لمياه النيــل علىٰ أرض بلادهــا إلىٰ حين آستحقاق الزِّراعة، وأصناف أرضها، وما يختص بكل صنف من أرضها من الأسمــاء الدائرة بين كُتّابها، ومزارعها، و بيان أصناف مزدرعاتها وأحوال زَرْعها)

فأما جسورها، فعلىٰ صنفين :

الصنف الأوّل

(الجســـور الســـلطانية)

وهى الجسور العامّة الجــامعة للبلاد الكثيرة التى تُعْمَر فى كل ســنة من الديوان السلطانى بالوجهين : القبلىّ والبحرىّ، ولهــا جراريف ومحاريثُ وأبقار مرتَّبة علىٰ غالب البُلْدان بكل عمل من أعمالهــا . وقد جرت العادة أن يجهَّز لكل عمل فى كل سنة أمير بسبب عمــارة جسوره ، ويعبر عنــه بكاشف الجسور بالعمل الفلانىّ، ويعرّف بذلك فى تعريف مكاتبته عن الأبواب الشريفة، وربمــا أضيف كَشْفُ جسور عَمَلٍ من الأعمال إلىٰ مُتَوَلّى حربه، ويقال فى تعريفه : وَالِى فلانة وكاشف الجسور بها، إذا كانت المكاتبة بسبب شىء يتعلق بالجسور ؛ ولهذه الجسور كاتبٌ منفرد بها مقرر فى ديوانه ما علىٰ كل بلد من الجراريف والأبقار ، وتكتب التذاكير

السلطانية لكاشف كل عمل فى الورق الشامىّ المربَّع ، ويشملها العلامة الشريفة السلطانية بالاسم الشريف ، وللجسور خَوَلَةٌ ومهندسون لكل عمل يقومون فى خدمة الكاشف فى عمارة الجسور إلى أن تنتهىَ عمارتُها .

الصنف الثانى
(الجسور البلدية)

وهى الخاصة ببلد دون بلد ، ويتولّى عمارتها المُقْطَعون بالبلاد : من الأمراء والأجناد وغيرهم، من أموال البلاد الجارية فى إقطاعهم؛ ولها ضرائب مقرّرة فى كل سنة .

قال ابن مماتى فى "قوانين الدواوين" : والفرق بين السلطانية والبلدية أن السلطانية جارية مجرى سُور المدينة الذى يجب على السلطان الاهتمامُ بعمارته والنظرُ فى مصلحته وكفايةُ العامة أمر الفكرة فيه ، والبلدية جارية مجرى الآدُرِ والمَساكن التى داخلَ السور، كلُّ صاحب دار منها ينظر فى مصلحتها ويلتزم تدبير أمره فيها . قال : وقد جرتْ عادة الديوان أن المُقْطَع المنفصل إذا أنفق شيئا من إقطاعه فى إقامة جسر لعمارة السنة التى انتقل الخير عنه لها ، استعيد له نظيرُ مُنْفَقه من المُقْطَع الثانى؛ وكذلك كل ما أنفقه من مال سنته فى عمارة سنة غيره كان له استعادة نظيره .

قلت : وقد أهمل الاهتمام بأمر الجسور فى زماننا ، وتُرِك عمارة أكثر الجسور البلدية ، واقتصر فى عمارة الجسور السلطانية على الشىء اليسير الذى لا يحصل به كبير نفع ، ولولا ما منّ الله تعالى به على العباد من كثير الزيادة فى النيل من حيث إنه صار يجاوز تسعة عشر ذراعا فما فوقها إلى ما جاوز العشرين ، لفات رىّ أكثر

البلاد وتعطلت زراعتهـا ﴿ فَضْلًا مِنَ اللهِ ونِعْمَةً ﴾ وإلا فقد كان النيل فى الغالب يقف على سبع عشرة ذراعا فما حولها، بل قد تقدّم من كلام المسعودى أنه إذا جاء النيل ثمانى عشرة ذراعا، آستبحر من أراضيها الثلثُ .

❖

وأما أنواع أرضها وما يختص بكل نوع من الأسمـاء، فإنها تختلف بآختـلاف الزراعة وعدمها، وبسبب ذلك تتفاوت الرَّغْبة فيها وتختلف قيمتها بآختلاف قيمة ما يُزْرَع فيها، وقد عدّ منها آبن ممـاتى ثلاثة عشر نوعا :

النوع الأوّل ــ البـاق : قال آبن مماتى : وهو أثر القُرْط والقَطَانِى والمقاثئ . قال : وهو خير الأرَضين وأغلاها قيمة وأوفاها سعرا وقطيعة، لأنهـا تصلح لزراعة القمح والكَتَّانِ .

قلت : والمعروف فى زماننا أن الباق أثر القُرْط والفُول خاصة . أما المقاثئ فإن أثرها يسمّى البَرْش، وسيأتى ذكره فيما بعد .

النوع الثانى ــ رىّ الشَّراقى : قال آبن ممـاتى : وهو يتبع الباقَ فى الجَوْدَةِ، ويُلْحَقُ به فى القطيعة : لأن الأرض قد ظَمِئت فى السنة الماضية وآشتدّت حاجتها إلى المـاء . فلمـا رَوِيت حصل لهـا من الرىّ بمقدار ما حصل لهـا من الظمإ، وكانت أيضا مستريحة فزرعها يُنْجِبُ .

النوع الثالث ــ البروبيـة، وأهل زماننا يقولون البرايب : قال آبن ممـاتى : وهو أثر القمح والشعير، قال : وهو دون الباق لأن الأرض تضعُف بزراعة هذين الصِّنْفين . فمتى زرع أحدهمـا على الآخر لم تنجب كنجابة الباقِ وسعرُها دون سعره، ويجب أن تزرع قُرْطًا وقَطَانِىَ ومقاثئَ لتستريح الأرض وتصير باقا فى السنة الآتية .

النوع الرابع ـ البُقْماهة ، بضم الباء الموحدة وسكون القاف ـ وهو أثر الكَتّان . قال ٱبن مماتى : ومتىٰ زُرِع فيـه القمح لم يُنْجِبْ ، وجاء رقيق الحب أسود اللون .

النوع الخامس ـ الشتونية ، وأهل زماننا يقولون الشـتانى : وهو أثر ما رَوِى وبار فى السنة المـاضية . قال ٱبن ممـاتى : وقطيعته دون قطيعة الشراقىّ .

النوع السادس ـ شـق شمس ، قال ٱبن ممـاتى : وهو عبارة عما رَوى وبار فحُرِث وعُطِّـل ، وهو يجرى مجرىٰ الباق ورىّ الشراقى ، ويجىء ناجب الزرع .

النوع السـابع ـ البرش النقاء ؛ قال : وهو عبارة عن كل أرض خلَتْ من أثر ما زرع فيها للسنة الماضية ، لا شاغل لها عن قبول ما نوعُه من أصناف المزدرعات .

النوع الثـامن ـ الوسخ المزدرع ؛ قال : وهو عبارة عن كل أرض لم يستحكم وسخها ، ولم يَقْدِرِ المزارعون علىٰ ٱسـتكمال إزالته منها فحرثوها وزرعوها وطلع زرعها مختلطا بوَسَخها .

النوع التاسع ـ الوسخ الغالب : وهو عبارة عن كل أرض حصل فيها من النبات الذى شَغَلها عن قبول الزراعة ما غلب المزارعين عليها ، ومنعهم بكثرته عن الزراعة فيها ، وهى تباع مراعِىَ للبهائم .

النوع العاشر ـ الخرس : وهو عبارة عن فساد الأرض بمـا ٱستحكم فيها من موانع قبول الزرع ، وهو أشدّ من الوسخ الغالب فى التنقية والإصلاح ، وهى مرعىٰ الدوابّ .

النوع الحادى عشر ـ الشراقى : وهو عبارة عمـا لم يصل إليه المـاء لقُصُور النيل وعلوّ الأرض ، أو سدّ طريق المـاء عنه .

النوع الثانى عشر ـ المستبْحِر : وهو عبارة عن أرض واطئة إذا حصل المـاء فيها لا يجد مصرفا له عنها فيمضى زمن المزارعة قبـل زواله بالنُّضُوب . قال آبن ممـاتى : وربمـا آنتفع به من آزدرع الأرض بالآسـتقاء منه بالسواقى لمـا زرعه فى العُلُوّ .

النوع الثـالث عشر ـ السـباخ : وهو أرض غلب عليها المِلْح فَمَلَحَت حتّى لم يُنْتَفع بها فى زراعة الحبوب ، وهى أردْئ الأرضِين . قال آبن ممـاتى : وربمـا زرع فيها لم يستحكم منها الهِلْيَوْنُ والباذِنْجَانُ ، وربمـا قطع منها ما يسبخ به الكَتَّانُ ، ويزرع فيها القصب الفارسىّ فَيَنْجِبُ .

الطرف الثـالث

(فى وجوه أموالها الدِّيوانية ، وهى على ضربين : شرعىّ وغير شرعىّ)

الضرب الأوّل الشرعىّ

(وهو على سبعة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(المال الخَرَاجىّ : وهو مايؤخذ عن أجرة الأرضين ؛ وله حالان)

الحال الأوّل ـ ما كان عليـه الأمر فى الزمن المتقدّم ، وقد أورد آبن ممـاتى فى "قوانين الدواوين" ما يقتضى أنه كان على كلّ صِنْفٍ من أصناف المزدرعات قطيعة مقرّرة فى الديوان السلطانىّ لا يختلف أمرها : فذكر أن قطيعة القمح كانت إلى آخر سنة سبع وستين وخمسمائة عن كل فَدَّانٍ ثلاثةُ أرادبَّ ، ثم إنه تقرّر عند المساحة فى سـنة آثنتين وسبعين وخمسمائة إردبان ونصف إردب . ثم قال : ومن

ذلك ما يباع بعين، ومنه ما يُزْرَع مُشاطرة. قال: وقطيعة الشَّعير كذلك، وقطيعة الفُول عن كل فدّان من ثلاثة أرادبَّ إلىٰ إردبين ونصف، وقطيعة الجُلْبَان والحِمَّص والعَدَس عن كل فدّان إردبان ونصف، وقطيعة الكَتَّان تختلف باختلاف البلاد. ثم قال: وهى علىٰ آخر ما تقرّر فى الديوان عن كل فدّان ثلاثةُ دنانير إلىٰ مادونها؛ وقطيعة القُرْط بالديوان عن كل فدّان دينار واحد، وفيما بين الناس مختلف؛ وقطيعة الثُّوم والبَصَل عن كل فدّان ديناران؛ وقطيعة التُّرْمُس عن كل فدّان دينار واحد وربع؛ وقطيعة الكَمُّون والكراويا والسَّلْجَم الصيفىّ عن كل فدّان دينارٌ واحد. قال: وكان قبل ذلك دينارين؛ وقطيعة البِطِّيخ الأخضر والأصفر، واللُّوبِيَاء عن كل فدّان ثلاثة دنانير؛ وقطيعة السِّمْسِم عن كل فدّان دينار واحد؛ وقطيعة القُطْن كذلك؛ وقطيعة قَصَبِ السُّكَّر عن كل فدّان إن كان رأسا خمسةُ دنانير، وإن كان خِلْفَةً ديناران وخمسة قراريطَ؛ وقطيعة القُلْقَاس عن كل فدّان ثلاثة دنانير؛ وقطيعة النِّيلة عن كل فدّان ثلاثة دنانير؛ وقطيعة الفُجْل عن كل فدّان دينار واحد؛ وقطيعة اللِّفْت كذلك؛ وقطيعة الخَسّ عن كل فدّان ديناران؛ وقطيعة الكُرُنْب كذلك. قال: والقطيعة المستقرّة عن خراج الشَّجَر والكَرْم تختلف باختلاف سنينه. ثم قال: وهو يدرك فى السنة الرابعة ويترتب علىٰ كل فدّان ثلاثة دنانير؛ وقطيعة القَصَبِ الفارسىّ عن كل فدّان ثلاثة دنانير.

الحال الثانى — ما الأمر عليه فى زماننا، والحال فيه مختلف باختلاف البلاد.

فالوجه القبلىّ الذى هو الصعيد أكثر خراجه غلالٌ من قمح وشعير وحِمَّص وفول وعَدَسٍ وبسلة وجُلْبَانٍ، ويعبَّر فى عرف الدواوين عما عدا القمح والشعير والحِمَّص بالحبوب، ثم الغالب أن يؤخذ عن خراج كل فدّان من الأصناف المذكورة ما بين إردبين إلىٰ ثلاثة بكيل تلك الناحية، وربما زاد أو نقص عن ذلك، وفى الغالب

يؤخذ مع كل إردب درهم أو درهمـان أو ثلاثة، ونحو ذلك بحسب قطائع البـلاد وضرائبها فى الزيادة والنقص فى الأرادب والدراهم ؛ وربمـا كان الخَرَاج فى بعض هـذه البلاد دراهم؛ وما بار من أرض كل بلد يباع ما نبت فيه من المرعىٰ مناجزة، وربمـا أخذ فيه العِدَادُ(١) علىٰ حسب عرف البلاد .

والوجه البحرىّ غالب خراج بلاده دراهمُ، وليس فيه ماخراج بلاده غلّةٌ إلا القليل علىٰ العكس من الوجه القبلىّ .

ثم الذى كان عليه الحال إلىٰ نحو التسعين والسـبعمائة فى غالب البـلاد أن يؤجر أثر الباقِ كلُّ فدّان بأربعين درهما فمـا حولهـا، والبَرَايب كلُّ فدّان بثـلاثين درهما فمـا حولهـا، ثم غلا السعرُ بعـد ذلك حتّٰى جاوز الباقُ المـائةَ والبرايبُ الثمـانين، وبلغ البَرْشُ نحو المائتين، وذلك عند غلوّ الغلال وآرتفاع سعرها .

قلت : ثم تزايد الحال فى ذلك بعـد الثمانمـائة إلىٰ ما بعـد العشر والثمانمائة حتّٰى صار يؤخَذُ فى الباق عن كل فدّان نحو الأربعمائة درهم، وربمـا زادت الأرض الطيبة حتّٰى بلغت ستمائة درهم(٢)، وفى البرايب ونحوه دون ذلك بالنسبة؛ ثم إنه إذا كان المقرّر فى خراج بلد من بلاد الديار المصرية غلالا وأعوز صـنفٌ من الأصناف أن يؤخذ البدل عنها من صنف آخر من الغَلّة .

وقد ذكر فى" قوانين الدواوين " أن قاعدة البدل أن يؤخذ عن القمح بدل كل إردب، من الشعير إردبان، ومن الفول إردب واحد ونصف، ومن الحِمِّص إردب، ومن الجُلُبَّان إردبٌّ ونصف، والشعير يؤخذ عن كل إردب منه نصف إردب من

(١) مراده بالعداد المواشى الراعية : من الابل والبقر والغنم .

(٢) فى التركيب ركاكة والمعنىٰ مفهوم .

القمح أو ثلثا إردب من الفول أو نصف إردب من الحِمَّص أو ثلثا إردب من الجُلُبَّان (١) ، وفى الفول يؤخذ عن كل إردب منه ثلث إردب من القمح أو نصف إردب من الشعير أو ثلث إردب من الحِمَّص أو إردب من الجُلْبَان ، وفى الحِمَّص يؤخذ عن كل إردب منه إردب من القمح أو إردبان من الشعير أو إردب ونصف من الفول أو إردب ونصف من الجُلْبَان ، وفى الجُلْبَان يؤخذ عن كل إردب منه ثلث إردب من القمح أو إردب ونصف من الشعير أو إردب من الفول أو ثلث إردب من الحِمَّص . ثم قال : والسِّمْسِمُ والسَّلْجَمُ والكَتَّانُ ما رأيت لها بدلا ، والاحتياط فى جميع ذلك الرجوع إلى سعره الحاضر، فإنه أسلم طريقةً وأحسن عاقبةً .

وٱعلم أن بلاد الديار المصرية بالوجهين : القبلىّ والبحرىّ بجملتها جارية فى الدواوين السلطانية وإقطاعات الأمراء وغيرهم من سائر الجند إلا النزرَ اليسيرَ مما يجرى فى وقف مَنْ سلف من ملوك الديار المصرية ونحوهم على الجوامع والمدارس والخوانق ونحوها مما لا يُعتدّ به لقلته .

والجارى فى الدواوين على ضربين .

الضرب الأوّل

(ما هو داخل فى الدواوين السلطانية، وهو الآن على أربعة أصناف)

الصنف الأوّل

(ما هو جار فى ديوان الوزارة ؛ وأعظمُه خَطَرا وأرفعُه قدرا جهتان)

إحداهما ــ عمل الجيزية المتقدّمُ ذكره فى أعمال الديار المصرية، ولها مباشرون بمفردها من ديوان الوزارة ما بين ناظر ومُسْتَوْفٍ وشهود وصَيْرَفِىّ وغيرهم ، وغالبُ

(١) صوابه أو إردب ونصف .

خراجه مبلغ دراهم تحمل إلىٰ بيت المال فتثبت فيه وتصرف منه فى جملة مصارف بيت المـال ، وربمـا حمل من بعضها الغَلَّة اليسيرة من القمح وغيره للأمراء السلطانية بالفُسْطَاطِ ، ومن أرضها تفرد الإطلاقات ؛ ويبـذر فيها البرسيم لربيع الخيول بالإصطبلات السلطانية والأمراء والمماليك السلطانية .

الثـانية – عمل مَنْفَلُوطَ ، وله مباشرون كما تقدّم فى الجيزيَّة بل هى أرفع قدرا وأكثر متحصِّلا ، وغالب خراجه غلال : من قمح وفُول وشعير ، وغلالهـا تحمل إلىٰ الأمراء السلطانية بالفُسْطاط ، ويصرف منها فى جملة مصارف الأمراء علىٰ الطواحين السلطانية والمُنَاخات وغير ذلك ، وربمـا حمل منها المبلغ اليسـير إلىٰ بيت المـال فيثبت فيه ويصرف منه علىٰ ما تقدّم فى الأعمـال الجيزية ، وما عدا هاتين الجهتين من البلاد الجارية فى ديوان الوزارة مفرّقة فى الأعمـال بالوجهين القبلىّ والبحرىّ ، وهى فى الوجه القبـلىّ أكثر ، ولكنها قد تناقصت فى هـذا الزمن حتّىٰ لم يَبْقَ فيها إلا بعضُ بلاد بالوجه القبلىّ .

الصنف الثـانى

(ما هو جار فى ديوان الخاص)

وهو الديوان الذى أحدثه السلطان "الملك الناصر محمد بن قلاوون" حين أبطل الوزارة علىٰ ما سـيأتى ذكره ؛ وأعظم بلاده وأرفعها قدرا مدينة الإسْكَنْدَرِيَّةِ فإنها فى الغالب مضافة إليـه ؛ وبها مباشرون من ناظر ومستوف وشادّين وغيرهم . وربما أُخِّرت عنه فى جهات أخرىٰ جارية فيه ، ويليها تَرُوجَةُ وفُوَّة ونَسْتَرُوه ، ومالُ جميعها يحمل إلىٰ خزانة الخاص الآتى ذكرها تحت نظر ناظر الخاصِّ الآتى ذكره .

الصنف الثالث

(ما هو جار فى الديوان المُفْرَد)

وهو ديوان أحدثه "الظاهر برقوق" فى سلطنته ، وأفرد له بلادا ، وأقام له مباشرين وجعل الحديث فيه لأستاذ داره الكبير ، ورتَّب عليه نفقة مماليكه من جامكيات وعليق وكُسْوَةٍ وغير ذلك .

قلت : وليس هو المخترعَ لهذا الاسم بل رأيت فى ولايات الدولة الفاطمية بالديار المصرية ما يدل علىٰ أنه كان للخليفة ديوان يسمى الديوان المفرد .

الصنف الرابع

(ما هو جار فى ديوان الأملاك)

وهو ديوان أحدثه "الظاهر برقوق" المتقدّم ذكره ، وأفرد له بلادا سماها أملاكا ، وأقام لها أستاذ دار ومباشرين بمفردها ، وهذا الديوان خاص بالسلطان ليس عليه مرتب نفقة ولا كُلْفة .

الضرب الثانى

(ما هو جار فى الإقطاعات)

وهو جُلُّ البلاد بالوجهين القبلىّ والبحرىّ ؛ والبلاد النفيسة الكثيرة المُتَحَصَّل فى الغالب تقطع للأمراء علىٰ قدر درجاتهم ، فمنهم من يجتمع له نحو العشر بلاد إلىٰ البلد الواحدة ، وما دون ذلك من البُلْدان يقطعُ للماليك السلطانية ، يشترك الاثنان فما فوقهما فى البلدة الواحدة فى الغالب ، وربما انفرد الواحد منهم بالبلد الواحد .

وما دون ذلك يكون لأجناد الحَلْقة تجتمع الجماعة منهم فى البلد الواحد بحسب مقـداره وحال مُقْطَعِيه ، وفى معنىٰ أجناد الحَلْقـة المُقْطَعون من العُرْبان بالبحيرة والشرقية من أرباب الأدراك وملتزمى خيل البريد وغيرهم .

ثم آعلم أن لبلاد الديار المصرية حالين .

الحال الأوّل ــ أن تحجَّز إجارةُ طين البلد بقدر معين لا يزيد ولا ينقص، وطلبُ الخراج علىٰ حكمها .

الحال الثـانى ــ أن تكون البلاد ممـا جرت العادة بمساحة أرضها لسَـعَةِ طينها وآختلاف الرىّ فيه بالكثرة والقِلة فى السنين؛ وقد جرت العادة فى ذلك أنّ كاتب خراج الناحية يطلب خَوَلَة القانون بذلك البلد وتوريخ الأحواض علىٰ المزارعين بفدن مقدّرة، وتُكتَب بها أوراق تسمّى أوراق المسجل، وتحمل نسختها إلىٰ ديوان صاحب الإقطاع فتخلد فيه؛ فإذا طلع الزرع خرج من باب صاحب الإقطـاع مباشرون ، فيمســحون أرض تلك البلد فى كل قبالة بأسمـاء المزارعين ، ويكتب أصل ذلك فى أوراق تسمّى الفُنْداق، ثم تجمع القبائل بأوراق تسمّى تاريخ القبائل، ثم تجمع أسماء المزارعين بأوراق تسمّى تاريخ الأسمـاء، ويقابل بين ما آشتملت عليه أوراق المسجل وما آشتملت عليه مساحته ، وفى الغالب يزيد عن أوراق المسجل، ويُجْمَعُ ذلك وتنظم به أوراق تسمّى المكلفة، ويكتب عليها الشهود وحاكم العمل، وتحمل لديوان المُقْطَع نسخا .

النـــوع الثـانى

(ما يَتحصّل ممـا يُستخرَج من المعادن)

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ خواص الديار المصرية أن الموجود الآن بهـا ثلاثة معادن .

الأوّل ــ معدن الزُّمُرُّدِ علىٰ القرب من مدينة قُوص، ولم يزل مستمرّ الآستخراج إلىٰ أواخر الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون"، ثم أُهمِلَ لقلّة ما يَتحصّل منه مع كثرة الكُلَف وبقى مهملا إلىٰ الآن . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أنه كان له مباشرون وأُمَناءُ من جهة السلطان يتولّوْن آستخراجه وتحصيله ، ولهم جوامكُ علىٰ ذلك . ومهما تحصل منه حُمِل إلىٰ الخزائن السلطانية فيباع مايباع ، ويبقّى مايصلح للخزائن الملوكية .

الثانى ــ معدن الشَّبِّ (بالباء الموحدة فى آخره) . قال فى "قوانين الدواوين" : ويُحتاج إليه فى أشـياء كَثيرة ، أهمُّها صَبْغ الأحمر ، وللرُّوم فيه من الرغبة بمقـدار مايجدون من الفائدة، وهو عندهم ممـا لابُدَّ منه ولا مندوحة عنه؛ ومعادنه بأماكنَ من بلاد الصعيد والواحات علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ خواصِّ الديار المِصْرية .

قال : وعادة الديوان أن يُنْفِقَ فى تحصيل كل قِنْطَارٍ منه باللَّيْثى ثلاثين درهما، وربما كان دون ذلك. وتَهْبِط به العرب إلىٰ ساحل قُوصَ، وساحل إخميم، وساحل أَسْيوط ، وإلىٰ البَهْنَسىٰ إن كان الإتيان به من الواحات، ثم يحمل من هذه السواحل إلىٰ الإسْكَنْدَرِيَّةِ ، ولا يعتدّ للباشرين فيه إلا بما يصح فيها عند الآعتبار . قال آبن ممـاتى : وأكثر مايباع منه فى المَتْجَر بالإسكندرية خمسة آلاف قِنْطَارٍ بالجَروى"، وبيع منه فى بعض السنين ثلاثةَ عشرَ ألف قنطار، وسعره من خمسة دنانير إلىٰ خمسة

دنانير وربع وسدس كلِّ قنطار . قال : أما القاهرة، فأكثر ما يباع فيها منه فى كل سنة ثمانون قنطارا كل قنطار بسبعة دنانير ونصف؛ثم قال : وليس لأحد أن يبيعه، ولا يشتريه سوىٰ الديوان السلطانى، ومتىٰ وجد مع أحد شىء من صنفه ٱستهلِك .
قلت : وقد تغير غالب حكم ذلك .

الثالث ــ معدن النَّطْرُونِ ، وقد تقــدّم فى الكلام علىٰ خواص الديار المصرية أن النَّطْرون يوجد فى معدنين : أحدهمـا بعمل البحيرة مقابلَ بلدة تسمّٰى الطرّانة علىٰ مسيرة يوم منها، وتقدّم فى كلام صاحب "التعريف" أنه لا يعلم فى الدنيا بقعة صغيرة يستغلُّ منها أكثر ممايستغلُّ منها، فإنها نحو مائة فدّان تُغِل نحو مائة ألف دينار فى كل سنة . والمعدن الثانى بالفاقوسِية علىٰ القرب من الخطارة، ويعرف بالخطارىّ، وهو غير لاحق فى الجَوْدةِ بالأوّل :

قال فى "نهاية الأرب" : وأوّل من ٱحتجر النَّطْرون أحمدُ بن محمد بن مدبر نائب مصر قبل أحمد بن طولون، وكان قبل ذلك مباحا . قال فى "قوانين الدواوين" : وهو فى طور محدود لا يتصرف فيه غير المستخدمين من جهة الديوان، والنفقة علىٰ كل قنطار منه درهمان، وثمن كل قنطار منه بمصر والإسكندرية لضيق الحاجة إليه سبعون درهمـا . قال : والعادة المستقرّة أنه متىٰ أُنْفق من الديوان فى العربان عن أجرة حمولة عشرة آلاف قِنْطار، ألزموا بحمل خمسة عشر ألف قنطار، حسابا عن كل قنطارٍ قنطارٌ ونصفٌ، ثم قال : وأكثره مصروف فى نفقة الغُزاة .

قلت : أما فى زماننا فقد تضاعفت قيمة النَّطْرون وغلا سعره لٱحتجار السلطان له، وأفرط حتّٰى خرج عن الحدّ، حتّٰى إنه ربما بلغ القِنْطار منه مبلغَ ثلثمائة درهم أو نحوها . وقد كان علىٰ النَّطرون مرتَّبُون من كُتَّاب دَست وكُتَّاب دَرْج وأطباءَ وكَحَّالين وغيرهم وجماعةٌ من أرباب الصدقات يستأْدون ذلك، وينفقون علىٰ حمولته إلىٰ ساحل النيل

بالبلدة المعروفة بالطَّرّانة المتقدّمة الذكر، ويبيعونه علىٰ مَنْ يرغب فيه ليتوجه به فى المراكب إلىٰ الوجه القبلىّ، ولم يكن لأحد أن يبيع شيئا بالوجه البحرىّ جملةً، ثم بطل ذلك فى أواخر الدولة الظاهرية برقوق، وصار النطرون بجملته خالصا للسلطان جاريا فى الديوان المفرد تحت نظر أستاذ دار، يحمل إلىٰ الإسكندرية والقاهرة فيُخْزَن فى شُوَن ثم يباع منها، وعليه مباشرون يحضُرون الواصل والمبيع، ويعملون الحسبانات بذلك، وتَمَيَّز بذلك متحصِّله للغاية القصوىٰ .

النــــوع الثـالث
(الزكـاة)

قد تقرّر فى كتب الفقه أن مَنْ وجبت عليـه زكاة كان مخيرا بين ان يدفعها إلىٰ الإمام أو نائبه، وبين أن يفرّقها بنفسه . والذى عليه العمل فى زماننا بالديار المصرية أن أرباب الزكوات المؤدّين لها يفرّقونها بأنفسهم، ولم يبق بها ما يُؤخَذ علىٰ صورة الزكاة إلا شيئين :

أحدهما ما يؤخذ من التجار وغيرهم علىٰ ما يدخلون به إلىٰ البلد من ذهب أو فضة، فإنهم يأخذون علىٰ كل مائتى درهم خمسـةَ دراهم، ثم إذا آشترىٰ بها شيئا وخرج به وعاد بنظير المبلغ الأوّل لا يؤخذ منه شىء عليه حتّى يجاوز سنة . إلا أنهم آنتقصوا سـنة ذلك فجعلوها عشرة أشهر، وخَصُّوه بمـا إذا لم يزد فى المدّة المذكورة علىٰ أربع مرار . فإن زاد عليهـا آسـتأنفوا له المدّة، ثم إنه إذا كان بالبلد مَتْجَر لأحد من تجار الكارم من بَهَار ونحوه وحال عليـه الحول بالبلد، أخذوا عليه الزكاة أيضا . ومجرىٰ ذلك جميعه مجرىٰ سائر متحصِّل الإسكندرية فى المباشرة وغيرها .

الثانى ما يؤخذ من العِدَاد من مواشى أهل بَرْقَةَ من الغنم والإبل عند وصولهم إلىٰ عمل البحيرة بسبب المرعىٰ ، وفى الغالب يُقْطَع لبعض الأمراء ، ويخرج قُصَّادُهم لأخذه .

النـــــوع الرابع

(الجَـــوَالى)

وهى مايؤخذ من أهل الذِّمَّة عن الجزية المقَرَّرة علىٰ رقابهم فى كل سـنة ، وهى علىٰ قسمين : ما فى حاضرة الديار المصرية من الفُسْطَاطِ والقاهرة ، وما هو خارج عن ذلك . فأما ما بحاضرة الديار المصرية ، فإن لهذه الجهة بها ناظرا يولّٰى من جهة السـلطان بتوقيع شريف ، ويتبعه مباشرون من شادّ وعامل وشُهُود ، وتحت يده حاشِرٌ لليهود وحاشر للنصارىٰ يعرف أربابَ الأسمـاء الواردةِ فى الديوان ومن ينضم إليهم ممن يبلغ فى كل عام من الصِّبيان ، ويعبَّر عنهم بالنَّشْو ، ومن يَقْدَم إلىٰ الحاضرة من البلاد الخارجة عنها ، ويعبر عنهم بالطارئ ، ومن يهتدى أو يموت ممن آسمه وارد الديوان . ويُمْلِى علىٰ كُتَّاب الديوان ما يتجدّد من ذلك .

قال فى "قوانين الدواوين" : إن الجزية كانت فى زمانه علىٰ ثلاث طبقات : عُلْيَا ، وهى أربعة دنانير وسدسٌ عن كل رأس فى كل سنة ، ووُسْطىٰ وهى ديناران وقيراطان ، وسُـفْلىٰ وهى دينار واحد وثلث وربع دينار وحبتان من دينـار ، وإنه أضيف إلىٰ جزية كل شخص درهمان وربع عن رسم الشادّ والمباشرين . ثم قال : وقد كانت العادة جارية بآستخراجها فى أوّل المحرّم من كل سنة ، ثم صارت تُسْتَخْرَج فى أيام من ذى الحجة . قلت : أما الآن ، فقد نقصت حتّٰى صار أعلاها خمسـةً وعشرين درهمـا ، وأدناها عشرة دراهم ، ولكنها صارت تُستأدىٰ معجَّلة فى شهر رمضان ، ثم ما يَتحصَّل منها يحمل منه قدر معين فى كل سنة لبيت المال ، وباقى ذلك عليه مرتبون من القُضاة وأهل العلم والديانة يوزَّع عليهم علىٰ قدر المتحصِّل .

وأما ماهو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بُلدانها فإن جزية أهل الذمة فى كل بلد تكون لمُقْطَع تلك البلد من أمير أو غيره تجرى مجرىٰ مال ذلك الإقطاع ، وإن كانت تلك البلد جارية فى بعض الدواوين السلطانية ، كان مايَتحصَّل من الجزية من أهل الذمة بها جاريا فى ذلك الديوان .

النـــــوع الخـامس

(ما يؤخذ من تُجّار الكفّار الواصلين فى البحر إلىٰ الديار المصرية)

وٱعلم أن المقرّر فى الشرع أخذ العشر من بضائعهم التى يَقْدَمون بهـا من دار الحرب إلىٰ بلاد الإسـلام إذا شُرِط ذلك عليهـم . والمُفْتَىٰ به فى مذهب الشافعىّ رضى الله عنه أن للإمام أن يزيد فى المأخوذ عن العشر وأن ينقُص عنه إلىٰ نصف العشر للحاجة إلىٰ الآزدياد من جلب البضاعة إلىٰ بلاد المسلمين ، وأن يرفع ذلك عنهم رأسا إذا رأىٰ فيه المصلحةَ . وكيفما كان الأخذ فلا يزيد فيه علىٰ مَرَّة من كل قادم بالتجارة فى كل سنة ، حتّى لو رجع إلىٰ بلاد الكفر ثم عاد بالتجارة فى سنته لا يؤخذ منه شيء إلا أن يقع التراضى علىٰ ذلك ، ثم الذى ترد إليه تُجَّار الكفار من بلاد الديار المصرية ثَغْرُ الإسكندرية ، وثغر دِمْيَاطَ المحروستين ، تأتى إليهمـا مراكب الفرنج والرُّوم بالبضائع فتبيع فيهما أو تمتار منهما ما تحتاج إليه من البضائع ، وقد تقرّر الحال علىٰ أن يُؤخَذ منهم الخمس وهو ضِعْف العُشْر عن كل مايصل لهم فى كل مرة ، وربما زاد مايُؤْخَذ منهم علىٰ الخمس أيضا .

قال آبن مماتى فى "قوانين الدواوين" : وربمـا بلغ قيمة ما يُستخْرَج عما قيمته مائة دينار مايناهز خمسة وثلاثين دينارا ، وربما آنحط عن العشرين دينارا . قال : ويطلق علىٰ كليهما خُمس ، قال : ومن الروم مَنْ يُستَأْدىٰ منـه العشر ، إلا أنه لمـا

كان الخمس أكثر، كانت النسبة إليه أشهر . ولذلك ضرائب مستقرّة فى الدواوين وأوضاع معروفة .

النـــــوع الســـادس
(المواريث الحشرية)

وهى مال من يموت وليس له وارث خاص : بقرابة أو نكاح أو وَلَاء، أو الباقى بعــد الفرض من مال مَـــنْ يموتُ وله وارثٌ ذو فرض لا يستغرق جميع المـــال ولا عاصِبَ له .

وهذه الجهة أيضا علىٰ قسمين : مافى حاضرة الديار المصرية، وماهو خارج عنها . فأمّا ما بحاضرة الديار المصرية ، فإن لهذه الجهــة ناظرا يولّى من قِبَــل السلطان بتوقيع شريف ومعه مباشرون من شادّ وكاتب ومُشَارِف وشُهُود، وهى مضافة إلىٰ ماتحت نظر الوزارة من سائر المباشرات، ومُتَحَصِّلُها يحمل إلىٰ بيت المـــال، وربمـــا كان عليها مرتّبون من أرباب جوامك وغيرهم . وقد جرت عادة هــذا الديوان أنّ كاتبــه فى كل يوم يكتب تعريفــا بمَنْ يموت بمصر والقاهرة من حَشْرىّ أو أهــلىّ وتفصيله من رجال ونساء وصغار ويهود ونصارىٰ، وتكتب منه نسخ لديوان الوزارة، ولنظر الدواوين ومستوفِى الدولة، ويُسَدّ من وقت العصر . فمن أطلق بعد العصر، أضيف إلىٰ النهار القابل .

وأمّا ماهو خارج عن حاضرة الديار المصرية ، فلها مباشرون يُحَصِّــلونها ويحملون مايتحصّل منها إلىٰ الديوان السلطانىّ .

النـــوع السابع
(ما يتحصَّل من دار الضرب بالقاهرة)

والذى يضرب فيها ثلاثة أصناف .

الصنف الأوّل
(الذهب)

وأصله مما يُجْلَب إلىٰ الديار المصرية من التِّبْر من بلاد التَّكْرُور وغيرها مع مايجتمع إليه من الذهب. قال فى "قوانين الدواوين": وطريق العمل فيها أن يُسْبَك ما يجتمع من أصـناف الذهب المختلفة حتّى يصـير ماء واحدا ، ثم يقلب قُضْبانا و يقطع من أطرافها قطع بمباشرة النائب فى الحكم ، ويحرر بالوزن ويسـبك سبيكة واحدة ، ثم يؤخذ من بعضها أربعة مثاقيـل ويضاف إليها من الذهب الحائف المسبوك بدار الضرب أربعة مثاقيل، ويعمل كل منها أربع ورقات وتجمع الثمان ورقات فى قدح فخار بعد تحريروزنها ، ويوقد عليها فى الأَتُّون ليلة، ثم تخرج الورقات وتمسح ويعبر القدح علىٰ الأصل (؟) فإن تساوىٰ الوزن وأجازه النائب فى الحكم، ضُرِب دنانير . وإن نقص أعيد إلىٰ أن يتساوىٰ ويصح التعليق فيضرب حينئذ دنانير.

قال ابن الطوير فى الكلام علىٰ ترتيب الدولة الفاطمية بالديار المصرية فى سـياقة الكلام علىٰ وظيفـة قضاء القضاة : وسبب خلوص الذهب بالديار المصرية ماحكى أن أحمد بن طولون صاحب مصر كان له إلمام بمدينة عين شمس الخراب علىٰ القرب من المَطَريَّة من ضواحى القاهرة ، حيث ينبُت البَلَسانُ ، وأن يد فرسه ساخت بها يوما فى أرض صَلْدة ، فأمر بحفر ذلك المكان فوجد فيه خمسـةَ نَواوِيس فكشفها فوجد فى الأوسط منها ميتا مُصَبَّرا فى عسل ،وعلىٰ صدره لوحٌ لطيف من ذهب فيه كتابة لاتعرف ، والنواويس الأربعـة مملوءة بسبائك الذهب ، فنقل ذلك الذهب

ولم يجد من يقرأ ما فى اللوح ، فدُلَّ علىٰ راهب شيخ بدير العَرَبة بالصـعيد له معرفة بخط الأوّلين ، فأمر بإحضاره فأُخْبِر بضعفه عن الحركة ، فوجَّه باللوح إليـه ، فلمـا وقف عليه قال : إن هذا يقول : أنا أكبر الملوك ، وذَهَبِى أخلصُ الذهب . فلمـا بلغ ذلك أحمد بن طولون ، قال : قبح الله من يكون هـذا الكافر أكبَرَ منه أو ذهبه أخلَصَ من ذهبــه ، فشدّد فى العيار فى دُور الضرب ، وكان يحضُر مايعلَّق من الذهب ويختم بنفســه فبقى الأمر علىٰ ما قرّره فى ذلك من التشديد فى العيـار . وكانت دار الضرب فى الدولة الفاطميــة لايتولاها إلا قاضى القضاة تعظيما لشأنها ، وتُكتَب فى عهده فى جملة ما يضاف إلىٰ وظيفة القضاء ، ويقيم لمباشرة ذلك مَنْ يختاره من نوّاب الحُكْم ، وبقى الأمر علىٰ ذلك زمنا بعـد الدولة الفاطمية أيضا . أما فى زماننا ، فنظرها موكول لناظر الخاصّ الذى آستحدثه "الملك الناصر محمد بن قلاوون" عند تعطيله الوزارة علىٰ ماسيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

والسِّكَّة السلطانية بالديار المصرية فيما هو مشاهد من الدنانير أن يكتب علىٰ أحد الوجهين ـ لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١) ـ وعلىٰ الوجه الآخر آسم السلطان الذى ضرب فى زمنه وتاريخ سنة ضربه .

الصـــــنف الثانى
(الفِضَّة النُّقْرة)

وقد ذكر آبن ممـاتى فى "قوانين الدواوين" فى عيـارها أنه يؤخذ ثلثمائة درهم فضة فتضاف إلىٰ سبعمائة درهم من النحاس الأحمر ، ويسبك ذلك حتّى يصـير ماء واحدا فيقلب قُضْبانا ويقطع من أطرافها خمسة عشر درهما ، ثم تسبك ، فإن خلص

(١) ليس نظم آية كما قد يتوهم .

منها أربعة دراهم فضة ونصف حسابا عن كل عشرة دراهم ثلاثة دراهم ، وإلا أعيدت إلى أن تصح . وكأن هذا ما كان الأمر عليه فى زمانه ؛ والذى ذكره المقر الشهابى ابن فضل الله فى "مسالك الأبصار" : أن عيارها الثلثان من فضة والثلث من نحاس ، وهذا هو الذى عليه قاعدة العيار الصحيح كما كان فى أيام الظاهر بيبرس وما والاها ، وربما زاد عيار النحاس فى زماننا على الثلث شيئا يسيرا بحيث يظهره النقد ، ولكنه يروج فى جملة الفضة ، وربما حصل التوقف فيه إذا كان بمفرده .

قلت : أما بعد الثمانمائة فقد قلت الفضة ، وبطل ضربُ الدراهم بالديار المصرية إلا فى القليل النادر لاستهلاكها فى السروج والآنية ونحوها ، وانقطاع واصلها إلى الديار المصرية من بلاد الفرنج وغيرها . ومن ثم عز وجود الدراهم فى المعاملة بل لم تكد توجد . ثم حدث بالشأم ضربُ دراهم رديئةٍ فيها الثلث فما دونه فضة والباقى نحاس أحمر ، وطريقة ضربها أن تقطع القضبان قطعا صغارا كما تقدم فى الدنانير ، ثم تُرْصَع إلا أن الدنانير لا تكون إلا صحاحا مستديرة ، والفضة ربما كان فيها القراضات الصغار المتفاوتة المقادير فيما دون الدرهم إلى ربع درهم وما حوله ؛ وصورةُ السكة على الفضة كما فى الذهب من غير فرق .

الصنف الثالث

(الفلوس المتخذة من النحاس الاحمر)

وقد تقدم أنه كان فى الزمن الأول فلوس صغار كل ثمانية وأربعين فَلْسًا منها معتبرة بدرهم من النُّقْرة إلى سنة تسع وخمسين وسبعمائة فى سلطنة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الثانية ، فأُحْدثت فلوسٌ عبر عنها بالجُدُد زِنَةُ كل فَلْسٍ منها مثقال ، وهو قيراط من أربعة وعشرين قيراطا من الدرهم ، ثم تناقص مقدارها حتى كادت

تفسد وهى علىٰ ذلك . وطريق عملها : أن يُسبك النُّحاسُ الأحمر حتّٰى يصير كالماء، ثم يخرج فيضرب قضبانا، ثم يُقَطَّع قطعا صغارا، ثم تُرْصَع وتسك بالسكة السلطانية وسكتها أن يكتب علىٰ أحد الوجهين آسم السلطان ولقبه ونسبه ، وعلىٰ الآخر آسم بلد ضربِه وتاريخ السنة التى ضرب فيها .

الضرب الثـانى

(من الأموال الديوانية بالديار المصرية غير الشرعى ،
وهو المكوس، وهى علىٰ نوعين)

النـــوع الأوّل

(مايختص بالديوان السلطانىّ وهو صنفان)

الصـــنف الأوّل

(مايؤخذ علىٰ الواصل المجلوب، وأكثره مُتَحَصَّلًا جهتان)

الجهـــة الأولىٰ

(مايؤخذ علىٰ واصل التجار الكارمية من البضائع فى بحر القُلْزُمِ
من جهة الحجاز واليَمَن وماوالاهما، وذلك بأربعة
سواحل بالبحر المذكور) .

الساحل الأول ـ عَيْـذَابُ . وقد كان أكثرَ السواحل واصلا لرغبـة رؤساء المراكب فى التعدية من جُدَّةَ إليـه ، وإن كانت باحتهُ متسعةً لغزارة المـاء وأَمْنِ اللَّحَاقِ بالشعب الذى ينبت فى قعر هذا البحر، ومن هذا الساحل يتوصل إلىٰ قُوصَ بالبضائع ومن قُوصَ إلىٰ فُنْدُقِ الكارم بالفُسْطَاطِ فى بحر النيل .

الساحل الثانى ـ القُصَيْرُ . وهو فى جهة الشمال عن عَيْذابَ ، وكان يصل إليه بعضُ المراكب لقربه من قُوص وبُعْدِ عَيْذابَ منها ، وتحمل البضائع منه إلىٰ قُوص ، ثم من قُوص إلىٰ فُنْدقِ الكارم بالفُسْطَاط علىٰ ماتقدّم ، وإن لم يبلغ فى كثرة الواصل حدّ عَيْذابَ .

الساحل الثالث ـ الطُّورُ . وهو ساحل فى جانب الرأس الداخل فى بحر القُلْزُمِ بين عَقَبة أَيْلَةَ وبين بر الديار المصرية ، وقد كان هذا الساحل كثير الواصل فى الزمن المتقدّم : لرغبة بعض رؤساء المراكب فى السير إليه ، لقرب المراكب فيه من برّ الحجاز حتّى لايغيب البر عن المسافر فيه وكثرة المراسى فى برّه ، متىٰ تغير البحر علىٰ صاحب المركب وجد مَرْساة يدخل إليها ، ثم تُرِكَ قَصْدُ هذا الساحل والسفرُ منه بعد ٱنقراض بنى بدير العباسية التجار ، ورغب المسافرون عن السفر فيه لما فيه من الشعب الذى يُخْشىٰ علىٰ المراكب بسببه ، ولذلك لا يُسافَر فيه إلا نهارا ، وبقى علىٰ ذلك إلىٰ حدود سنة ثمانين وسبعمائة ، فعَمَر فيه الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله ، وهو يومئذ حاجب الحُجّاب بالديار المصرية مَرْكبا وسَفَّرها ، ثم أتبعها بمركب آخر فجَسَر الناس علىٰ السفر فيه وعَمَروا المراكب فيه ، ووصلت إليه مراكبُ اليَمَن بالبضائع ، ورُفِضت عَيْذابُ والقُصَيْرُ ، وحصل بواسطة ذلك حمل الغلال إلىٰ الحجاز ، وغَزُرت فوائد التجار فى حمل الحنطة إليه .

الساحل الرابع ـ السُّوَيْسُ علىٰ القرب من مدينة القُلْزُمِ الخراب بساحل الديار المصرية . وهو أقرب السواحل إلىٰ القاهرة والفُسْطَاطِ إلا أن الدخول إليه نادر ، والعمدة علىٰ ساحل الطُّور كما تقدّم .

قلت : وهذه السواحل علىٰ حدّ واحد فى أخذ المرتب السلطانىّ ، وقد ذكر فى "قوانين الدواوين" : أن واصل عَيْذابَ كان ٱستقرّ فيه الزكاة . أما الذى عليه

الحال فى زماننا، فإنه يؤخذ من بضائع التجار العُشْر مع لواحِقَ أخرىٰ تكاد أن تكون نحو المرتب السلطانى" أيضا .

وآعلم أنه قد تَصِـلُ البضائع للتجار المسلمين إلىٰ ساحل الإسكندرية ودميـاط المتقدّم ذكرهما، فيؤخذ منها المرتَّب السلطانى" علىٰ ماتوجبه الضرائب .

الجهــــة الثـانية

(مايؤخذ علىٰ واصل التجار بقَطْيا فى طريق الشأم إلىٰ الديار المصرية)

وعليها يردُ سائرُ التجار الواصـلين فى البر من الشأم والعراق وما والاهمـا، وهى أكثر الجهات متحصِّلا وأشدّها علىٰ التجار تضييقا وعندهم ضرائب مقرّرة لكل نوع يؤخذ عن نظيرها .

الصـــــنف الثـانى

(مايؤخذ بحاضرة الديار المصرية : بالفُسْطَاط والقاهرة)

وهو جهات كثيرة، يقال إنها تبلغ آثنتين وسبعين جهة؛ منها مايكثُر متحصِّله ومنها مايقلُّ، ثم بعضها بحسب ما يتحصَّل من قليل وكثير، وبعضها له ضَمَان(١) بمقدار معين لكل جهة، يطلب بذلك المقدار إن زادت الجهة فله وإن نقصت فعليه .

قلت : وقد عمت البلوىٰ بهـذه المُكُوس، وخرجت فى التزيُّد عن الحدّ، ودخلت الشـبهة فى أموال الكثير من النـاس بسببها . وقد كان السـلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمـه الله فى سلطنته قد رفع هذه المكوس ومَحَا آثارها، وعوّضه الله عنها بما حازه من الغنائم وفتحه من البلاد والأقاليم، وربمـا وقع الإلهـام من الله تعالىٰ لبعض ملوك المملكة برفع المظلمة الحاصلة منها. ومن أعظم ذلك خَطَرا

(١) لعله ضامن .

وأرفعِه أجْرًا ما فعله السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" بن الملك الناصر محمد بن قلاوون تغمده الله تعالىٰ برحمته من بُطْلان مكوس المَلَاهى والقراريط علىٰ الأملاك المبيعة .

النـــوع الثـانى

(ما لا ٱختصاص له بالديوان السلطانىّ)

وهى المُكُوس المتفرّقة ببلاد الديار المصرية فتكون تابعة للإقطاع إن كانت تلك البلد جارية فى ديوان من الدواوين السلطانية فمتحصِّلها لذلك الديوان، أو جارية فى إقطاع بعض الأمراء ونحوهم فمتحصِّلها لصاحب الإقطاع ، ويعبر عنها فى الدواوين بالهلالىّ كما يعبر عما يؤخذ من أجرة الأرضين بالخراجىّ .

المقصـــد الثـالث (١)

(فى ترتيب المملكة ، ولها ثلاث حالات)

الحـالة الأولىٰ ــ ما كانت عليه فى زمن عُمَّال الخلفاء من حين الفتح إلىٰ آخر الدولة الأخشيدية ــ ولم يتحرر لى ترتيبها ، والظاهر أنه لم يزل نوابها وأمراؤها حينئذ علىٰ هيئة العرب إلىٰ أن وليها أحمد بن طولون وبَنُوه وأحدثوا فيها ترتيب الملك . علىٰ أنه كان أكثر عسكره من السودان، حتّى يقال إنه كان فى عسكره ٱثنا عشر ألف أسود ، وتبعتهم الدولة الأخشيدية علىٰ ذلك إلىٰ آخر دولتهم .

(١) لم يسبق له التعبير بالمقصد الأول والثانى ولم يجمل كعادته فلعل هذا من بعض النساخ . وقد وقع فى هذا الجزء شىء من هذا القبيل فٱقتضىٰ التنبيه .

الحالة الثـانية ـ من أحوال الديار المصرية ما كانت عليه فى زمن الخلفاء الفاطميين؛ وينحصر المقصود من ترتيب مملكتهم فى ثلاث[1] جمل

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العِظَام)

وهى علىٰ أصناف متعدّدة :

منها (التاج) . وكان يُنْعَت عندهم بالتاج الشريف، ويعرف بشدّة الوَقَار . وهو تاج يركب به الخليفة فى المواكب العِظَام، وفيه جوهرة عظيمة تُعْرف باليتيمة زنتها سبعة دراهم ولا يقوّم عليها لنَفَاستها ؛ وحولها جواهر أخرىٰ دونها ؛ يلبس الخليفة هذا التاج فى المواكب العظام مكان العمامة .

ومنها (قضيب الملك) . وهو عُود طول شبر ونصف، ملَبَّس بالذهب المرصَّع بالدُّرّ والجوهر، يكون بيد الخليفة فى المواكب العظام .

ومنها (السيف الخاص) الذى يحمل مع الخليفة فى المواكب . يقال إنه كان من صاعقةٍ وقعت وحصل الظَّفَر بها فعمل منها هذا السيف، وحليته من ذهب مرصعة بالجواهر، وهو فى خريطة مرقومة بالذهب لا يظهر إلا رأسه ، وله أمير من أعظم الأمراء يحمله عند ركوب الخليفة فى الموكب .

ومنها (الدواة) . وهى دواة متخذة من الذهب وحليتها مصنوعة من المَرْجَانِ علىٰ صلابته ومناعته، تلف فى منديل شرب[2] أبيض، ويحملها شخص من الأستاذين فى الموكب أمام الخليفة تكون بينه وبين السرج، ثم جعل حَمْلُها لعَدْلٍ من العدول المعتبرين .

---

(١) وصلت فى العدّالى سبع جمل . (٢) كذا فى الأصل وسيأتى ولعله نوع مخصوص من الحرير.

ومنها (الرمح) . وهو رمح لطيف فى غلاف منظوم باللؤلؤ، وله سِنَان مختصر بحلية الذهب، وله شخص مختص بحمله .

ومنها (الدَّرَقَةُ) . وهى دَرَقَةٌ كبيرة بكوابج من ذهب، يقولون إنها دَرَقَةُ حمزة عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم، وعليها غِشَاء من حرير، ويحملها فى الموكب أمير من أكابر الأمراء، له عندهم جلالة .

ومنها (الحافر) . وهى قطعة ياقوت أحمر فى شَكْل الهِلَال، زنتها أحد عشر مثقالا، ليس لها نظير فى الدنيا، تخاط خياطة حسنة علىٰ خرقة من حرير، وبدائرها قضب زمرد ذبابىّ عظيم الشأن، تجعل فى وجه فرس الخليفة عند ركوبه فى المواكب .

ومنها (المِظَلَّة) التى تحمل علىٰ رأس الخليفة عند ركوبه . وهى قُبَّةٌ علىٰ هيئة خيمة علىٰ رأس عمود كالمِظَلَّة التى يركب بها السلطان الآن، وكانت اثنى عشر شوزكا عرض سُفْل كل شوزك شبر، وطوله ثلاثة أذرع وثلث، وآخره من أعلاه دقيق للغاية بحيث يجتمع الاثنا عشر شوزكا فى رأس عمود بدائرة، وعمودُها قنطارية من الزَّانِ مَلَبَّسة بأنابيب الذهب، وفى آخر أنبوبة ثلثى رأس العمود ملكة (1) بارزة مقدار عرض إبهام تشدّ آخر الشوازك فى حَلْقَةٍ من ذهب، وتنزل فى رأس الرمح . ولها عندهم مكانة جليلة لعلوّها رأس الخليفة، وحاملها من أكبر الأمراء .

قال ابن الطوير : وكان من شرطها عندهم أن تكون علىٰ لون الثياب التى يلبسها الخليفة فى ذلك الموكب، لا تخالف ذلك .

ومنها (الأعلام) . وأعلاها اللواءان المعروفان بلواءَىِ الحمد، وهما رمحان طويلان مَلَبَّسان بأنابيبَ من ذهب إلىٰ حدّ أسنّتهما، وبأعلاهما رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب، ملفوفتان علىٰ الرمحين غير منشورتين، يُخْرَجان لخروج المِظَلة إلىٰ أميرين معدّين لحملهما، ودونهما رمحان برءوسهما أَهِلَّةٌ من ذهب صامت، فى كل واحد

(1) لعله فلكة بالفاء .

منهما سبع من ديباج أحمر وأصفر، وفى فمه طارة مستديرة يدخل فيها الرح فيفتحان فيظهر شكلهما، يحملهما فارسان من صبيان الخاصّ، ووراءهما رايات لِطَاف ملوّنة من الحرير المرقوم ومكتوب عليهـا ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ طولُ كلّ راية منهـا ذراعان فى عرض ذراع ونصـف، فى كل واحدة ثلاثة طرازات علىٰ رماح من القَنَا، عدّتها أبدا إحدىٰ وعشرون راية، يحملها أحد وعشرون فارسا من صبيان الخليفة، وحاملها أبدا راكب بغلة .

ومنها (المِذَبَّتَانِ) وهمـا مِذَبَّتَانِ عظيمتان كالنخلتين ملويتان محمولتان عنـد رأس فرس الخليفة فى الركوب .

ومنها (السلاح) الذى يحمله الركابية حول الخليفة . وهو صَمَاصِمُ مصقولة، ودبابيسُ مَلَبَّسـة بالكَيمُخْتِ الأحمر والأسـود، ورءُوسـها مدوّرة، ولُتُوت حديد كذلك ورءُوسها مسـتطيلة، وهى عمد حديد طول ذراعين، مربعات الأشكال بمقابض مدوّرة بعدّة معلومة من كل صـنف، وستُّمائة حربة بأسنّة مصقولة، تحتها جُلَب الفضة، وثلثمائة دَرَقَةٍ بكوابج فضة، يحمل ذلك فى الموكب ثلثمائة عبد أسود كل عبد حربتان ودَرَقَةٌ واحدة، وستون رمحا طول كل واحد منها سبع أذرع، برأسها طلعة وعقبها من حديد، يحملها قوم يقال لهم السريرية يفتلونها بأيديهم اليمنىٰ فَتْلًا متدارك الدوران، ومائة درقة لطيفة، ومائة سيف بيد مائة رجل، كل رجل دَرَقَةٌ وسيف يسيرون رَجَّالة فى الموكب، وعشرة سيوف فى خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب يقال لها سيوف الدم، تكون فى أعقاب الموكب برسم ضرب الأعناق إذا أراد الخليفة قتـلَ أحد . وذلك كله خارج عمـا يخرج من خزانة التجمل برسم الوزير وأكابر الأمراء وأرباب الرتب وأزِمَّةِ العساكر لتجملهم فى الموكب، وهى نحو أربعمائة راية مرقومة الأطراف، وبأعلاها رَمَامِينُ الفضة المذهبة، وعدّة من العماريات : وهى

شبه الكنجاوات ملبَّسة بالحرير الأحمر والأصفر والقرمزىّ وغير ذلك ، وعليها كوابج الفضة المذهبة ، لكل أمير من أصحاب القضب منها عمارية ، ويختص لواءان علىٰ رمحين منقوشين بالذهب غير منشورين يكونان أمامه فى الموكب إلىٰ غير ذلك من الآلات التى يطول ذكرها ، ويعسر ٱستيعابها .

ومنها (النَّقَّارات) . وكانت علىٰ عشرين بغلا علىٰ كل بغل ثلاث مثل نقارات الكوسات بغير كوسات ، تسير فى الموكب ٱثنتين ٱثنتين ولها حِسٌّ حسن .

ومنها (الخيام والفساطيط) وكان من أعظم خيمهم خَيْمَةٌ تعرف بالقاتول ، طول عمودها سبعون ذراعا ، بأعلاه سفرة فضة تسع راوية ماء ، وسعتها مايزيد علىٰ فدانين فى التدوير . وسميت بالقاتول لأن فرَّاشًا سقط من أعلاها فمات .

قلت : ولعمرى إن هذه لأثرة عظيمة تدل علىٰ عظيم مملكة وقوّة قدرة ، وأنَّىٰ يتأتى مثل هذه الخيمة لملك من الملوك وإن جلَّ قدره وعظم شأنه .

الجملة الثانية

(فى حواصل الخليفة ، وهى علىٰ خمسة أنواع)

النوع الأوّل

(الخزائن ، وهى ثمان خزائن)

الأولىٰ ــ (خِزانة الكتب) . وكانت من أجل الخزائن وأعظمها شأنا عندهم ، وكان فيها من المصاحف الشريفة المكتوبةِ بالخطوط المنسوبة الفائقة عدّةٌ كثيرة ، ومن الكتب النفيسة ما يزيد علىٰ مائة ألف مجلد ، مشتملة علىٰ أنواع العلوم مما يُدْهِشُ الناظر ويحيره ، وربما ٱجتمع من المصَنَّفِ الواحد فيها عشرُ نسخ

فما دونها[1]، وكان فيها من الدُّرُوج المكتتبة بالخطوط المنسوبة بخط ٱبن مقلة وٱبن البوّاب، ومن جرىٰ مجراهما[1] .

الثانية ــ (خِزَانة الكُسْوة) وهى فى الحقيقة خزانتان . إحداهمـا ــ الخزانة الظاهرة، وهى المعبر عنها فى زماننا بالخزانة الكبرىٰ علىٰ ما كانت عليه أوّلا،والمعبر عنها بخزانة الخاصّ علىٰ ما ٱسـتقرّ عليه الحال آخِرا ، وكان فيها من الحواصـل من الديباج الملوّن علىٰ ٱختلاف ضروبها، والشرب الخاص الدبيقى والسقلاطون، وغير ذلك من أنواع القماش الفاخرة مايدل علىٰ عِظَم المملكة ، وإليها يحمل ما يُعْـمَل بدار الطِّراز بتِنِّيس ودِمْيَاط والإسْكَنْدَرِيَّةِ من مسـتعملات الخاص ، وفيها يفصَّل مايؤمر به من لباس الخليفة، وما يحتـاج إليه من الخِلَع والتشاريف وغير ذلك . الثانية ــ معـدّة للباس الخليفة خاصة ، وهى المعبر عنها فى زماننا بالطشت خاناه، وإليها ينقل القماش المفصَّل بالخزانة الأولىٰ من قمـاش الخليفة وغيره .

الثالثة ــ (خزانة الشراب).وهى المعبر عنها فى زماننا بالشراب خاناه،وكان فيها من أنواع الأشربة والمَعَاجين النفيسة والمربَّيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعِطْريَّات الفائقة التى لا توجد إلا فيها،وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصِّينِىّ من الزبادى والصُّحُون والبَرَانِىّ والأزيار ما لا يقدر عليه غير الملوك .

الرابعة ــ خزانة الطُّعْم . وهى المعبر عنها فى زماننا بالحوائج خاناه،وكانت تحتوى علىٰ عدّة أصـناف من جميع أصـناف القَلَوِيَّات من الفسـتق وغيره والسُّكَّر والقَنْدِ والأعسال علىٰ أصنافها والزيت والشَّمَع وغير ذلك، ومنها يخرج راتب المطابخ خاصًّا وعامًّا،وينفق لأرباب الخدم وأصحاب التوقيعات فى كل شهر، ولا يحتاج إلىٰ غيرها إلا فى اللحم والخضر .

(١) لعل الأنسب فما فوقها (٢) لعل تمـامه [مايدل علىٰ عظم المملكة] كما سيأتى فى نظيره .

الخامسة - (خِزانة السُّروج) . وهى المعبَّر عنها فى زماننا بالرِّكاب خاناه، وكانت قاعة كبيرة بالقصر، بها السروج واللُّجُم من الذهب والفِضّة، وسائر آلات الخيل مما يختص بالخليفة؛ ثم منها ما هو قريب من الخاص، ومنها ما هو وسط برسم مَنْ هو من أرباب الرُّتَب العالية، ومنها ما هو دُونٌ برسم من هو برسم العوارى أيام المواكب لأرباب الخدم .

السادسة - (خزانة الفَرْش) . وهى المعبر عنها فى زماننا بالفَرّاش خاناه، وكان موضعها بالقصر بالقرب من دار الملك، وكان الخليفة يحضُر إليها من غير جلوس ويطوف فيها، ويسأل عن أحوالها، ويأمر بإدامة عمل الاحتياجات وحملها إليها.

السابعة - (خزانة السلاح) . وهى المعبر عنها فى زماننا بالسلاح خاناه، فيها من أنواع السلاح المختلفة مالا نظير له : من الزَّرَديَّاتِ المُغَشّاة بالديباج المحكمة الصَّنْعة المحلّاة بالفضة، والجواشن المُذْهبة، والخُوَذ المحلّاة بالذهب والفضة، والسيوف العربيات والقلجوريَّة، والرِّماح القنا والقنطاريات المدهونة والمذهبة، والأَسِنَّة العظيمة والقِسِيّ المخبورة المنسوبة إلى أفاضل الصُّنّاع، وقسىّ الرجل والركاب، وقِسِىّ اللولب التى تبلغ زِنَةُ نصله خمسة أرطال بالمصرى، والنَّبْل الذى يرمى به عن القسىّ العربية فى المجارى المصنوعة لذلك .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : كان يصرف فيها فى كل سنة سبعون ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار .

الثامنة - (خزانة التجمُّل) . وهى خزانة فيها أنواع من السلاح يُخْرَج منها للوزير والأمراء فى المواكب الألويةُ والقُضُب الفضة والعماريات وغيرها . قال ابن الطوير : هى من حقوق خزائن السلاح .

وأمّا (خزائن المـال) فكان فيها من الأموال والجواهر النفيسة، والذخائر العظيمة، والأقمشة الفاخرة مالا تحصره الأقلام .

وناهيك أن المستنصر لما وقع الغلاء العظيم بمصر، أخرج من خِزانته فى سنة آثنتين وستين وأربعمائة ذخائرَ تَسَعُها للإعانة علىٰ قيام أمر المملكة والجند، فكان مما أخرجه ثمانون ألف قطعة بِلَّوْرٍ كِبار، وسبعون ألف قطعة من الدِّيباج، وعشرون ألف سيف مُحَلًّى . ولما آستولىٰ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوبَ علىٰ القصر بعد وفاة العاضد: آخر خلفائهم، وجد فيه من الأعلاق الثمينة والتُّحفِ ما يخرج عن حدّ الإحصاء، من جملته الحافر الياقوت المقدّم ذكره . ويقال إنه وجد فيه قضيب زُمُرُّدٍ يزيد علىٰ قامة الرجل علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ الأحجار الملوكية فى أثناء المقالة الأولىٰ، ووجد فيه أيضا الهَرَم العَنْبَرَ الذى عمله الأمين زِنَتُه ألف رطل بالمصرىّ .

النـــوع الثـانى

(حواصل المواشى المعبر عنها عند كُتّاب زماننا بالكُرَاع ؛ وهى حاصلان)

الأوّل ــ الإصطبلات . وهى حواصل الخيول والبِغَال وما فى معناها، قال آبن الطوير: وكان لهم إصطبلان . قال: وكان للخليفة برسم (١) الخاصّ (١) فى كل إصطبل مايقْرُب من الألف رأس، النصف من ذلك برسم الخاصّ، والنصف برسم العوارىٰ فى المواكب لأرباب الرُّتَب والمستخدمين، وكان لكل ثلاثة أرؤُس منها سائس واحد، لكل واحد منها شدّاد برسم تسييرها، وبكل من الإصطبلين رائض كأميراخور . ومن غريب ما يحكىٰ أن أحدا من خلفاء الفاطميين لم يركب حِصَانًا أدهمَ قطُّ، ولا يَرَوْنَ إضافته إلىٰ دوابّهم بالإصطبلات .

(١) لعلهما زائدتان من قلم الناسخ .

الثانى ـ المُنَاخات . وهى حواصل الجمال ، وكان لهم من الجمال الكثيرة بالمُنَاخات وعُدَدها الفائقة ما يقصر عنه الحدّ .

النوع الثالث
(حواصل الغلال وشُوَنُ الأَتْبان)

أمّا الغلال ، فكانت لهم الأهراءُ فى عدّة أماكنَ : بالقاهرة و بالفُسْطَاط ، والمَقْسِم ، ومنها تصرف الإطلاقات لأرباب الرواتب والخدم والصدقات وأرباب الجوامع والمساجد والجرايات والطواحين السلطانية ، وجرايات رجال الأسطول وغير ذلك ، وربما طال زمن الغلال فيها حتّى تقطع بالمساحى .

وأمّا شون الأتبان ، فكان بطريق الفُسْطَاط شونتان عظيمتان مملوءتان بالتبن معبأتان تعبئة المراكب كالجبلين الشاهقين ، وينفق منها للإصطبلات والمواشى الديوانية وعَوَامل بساتين الملك ، وكانت ضريبة كل شليف عندهم ثلثمائة وستين رطلا .

النوع الرابع
(حواصل البِضَاعة)

قال ابن الطوير : وكان فيها ما لا يحصره إلا القلم من الأخشاب والحديد والطواحين النجدية والغشيمة ، وآلات الأساطيل من القِنَّب والكَتَّان ، والمنجنيقات والصُّنَّاع الكثيرة من الفرنج وغيرهم من أهل كل صنعة ، وكانت الصناعة أوّلا بالجزيرة المعروفة الآن بالرَّوْضَة ، ولذلك كانت تعرف بينهم بجزيرة الصِّناعة قاله القضاعىّ .

النوع الخـامس

(مافى معنىٰ الحواصل : لوقوع الصرف والتفرقة منه،
وهو الطواحين والمَطْبَخ ودار الفطرة)

فأمّا الطواحين، فإنها كانت معلقة، مداراتها أسفلُ وطواحينها فوقُ كما فى السواقى حتّى لا يقارب الدقيقَ زِبْلُ الدوابِّ الدائرة لآختصاصـه بالخليفة . وأمّا المَطْبَخ، فقد تقــدّم فى الكلام علىٰ خطط القاهرة، وكان يدخل بالطعام منــه إلىٰ القصر من باب الزُّهومة مكانَ قاعة الحنـابلة من المدرسة الصالحيــة الآن علىٰ ما تقــدّم فى خِطَط القاهرة . قال آبن الطوير : ولم يكن لهم أسمطة عامّة فى سوىٰ العيدين وشهر رمضان .

الجمـــــــلة الثـالثة

(فى ذكر جيوش الدولة الفاطمية، وبيان مراتب أرباب السيوف)

وهم علىٰ ثلاثة أصناف :

الصـــــنف الأوّل الأُمراء،

(وهم علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ ــ مرتبة الأمراء المطوَّقين. وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب فى أعناقهم، وكأنهم بمثابة الأمراء مقدّمى الأُلُوف فى زماننا .

المرتبة الثانية ــ مرتبة أرباب القُضُب، وهم الذين يركبون فى المواكب بالقُضُب الفِضّة التى يخرجها لهم الخليفة من خِزانة التجمُّل تكون بأيديهم، وهم بمثابة الطبلخاناه فى زمانـنا .

المرتبة الثالثة ــ أدوان الأمراء ممن لم يؤهَّل لحمل القُضُب . وهم بمثابة أمراء العشرات والخمسات فى زماننا .

الصـــــنف الثـانى

(خواص الخليفة ، وهم علىٰ ثلاثة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(الأســـتاذون)

وهم المعروفون الآن بالخدّام و بالطواشـيَّة، وكان لهم فى دولتهم المكانة الجليلة، ومنهم كان أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة ،وأجلهم المُحَنَّكُونَ،وهم الذين يُدوِّرون عمائمهم علىٰ أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة الآن،وهم أقربهم إليه وأخصهم به، وكانت عدّتهم تزيد علىٰ ألف . قال ٱبن الطوير : وكان من طريقتهم أنه متىٰ ترشح أســتاذ منهم للحنك وحنك، حَمَلَ إليه كل أســتاذ من المحنكين بَدْلَةً كاملة من ثيابه وسيفا وفرسا فيصبح لاحقا بهم ، وفى يده مثل ما فى أيديهم .

النـــــوع الثـانى

(صِبْيان الخاص)

وهم جماعة من أخصاء الخليفة نحو خمسمائة نفر منهم أمراء وغيرهم،ومقامهم مقام المعروفين بالخاصكية فى زماننا .

النـــــوع الثـالث

(صِبْيان الْحُجَر)

وهم جماعة من الشَّبَاب يناهزون خمسة آلاف نفر مقيمون فى حُجَر منفردة لكل حُجْرة منها ٱسم يخصها ، يضاهون مماليك الطباق السلطانية الآن المعبر عنهم بالكتانية إلا أن عدّتهم كاملة وعللهم مزاحة ،ومتىٰ طُلِبوا لِمُهِمٍّ لم يجدوا عائقا ،وللصِّبيان منهم حجرة منفردة يتسلمها بعض الأســتاذين ؛ وكانت حُجْرتهم بمعزل عن القصر داخل باب النصر مكان الخانقاه الركنية بيبرس الآن .

الصـــــنف الثـالث

(طوائف الأجناد)

وكانوا عدّة كثيرة، تنسب كلُّ طائفة منهم إلىٰ مَنْ بقى من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم ، كالحافظية والآمرية من بقايا الحافظ والآمر ، أو إلىٰ مَنْ بقى من بقايا وزير من الوزراء الماضين كالجُيُوشية والأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمالىّ وولده الأفضل ، أو إلىٰ مَنْ هى منتسبةٌ إليه فى الوقت الحاضر كالوزيرية أو غير ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والأكراد والغز والدَّيْلم والمَصَامدة ، أو من المستصنعين كالروم والفرنج والصَّقالبة ، أو من السُّودان من عبيد الشراء ، أو العُتَقَاء وغيرهم من الطوائف ، ولكل طائفة منهم قُوّاد ومقدّمون يحكمون عليهم .

الجمـــــــلة الرابعة

(فى ذكر أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ، وهم علىٰ قسمين)

القسم الأوّل

(ما بحضرة الخليفة ، وهم أربعة أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(أرباب الوظائف من أرباب السيوف ، وهم نوعان)

النـــــوع الأوّل

(وظائف عامّة الجند ، وهى تسع وظائف)

الوظيفة الأولىٰ ــ (الوزارة) وهى أرفع وظائفهم وأعلاها رتبةً . وآعلم أن الوزارة فى الدولة الفاطمية كانت تارة تكون فى أرباب السُّيوف ، وتارة فى أرباب الأقلام ، وفى كلا الجانبين تارة تعلو فتكون وزارةَ تَفْويضٍ تضاهى السلطنة الآن

أو قريبا منها، ويعبر عنها حينئذ بالوزارة؛ وتارة تنحطّ فتكون دون ذلك، ويعبر عنها حينئذ بالوَساطة .

قال فى "نهاية الأرب" : وأوّل مَنْ خُوطِب منهم بالوزارة يعقوبُ بن كلس وزير العزيز، وأوّل وزارتهم من عظماء أرباب السيوف بدر الجمالىّ وزير المستنصر، وآخرهم صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومنها آستقل بالسلطنة علىٰ ما تقدّم .

الوظيفة الثانية — (وظيفة صاحب الباب) وهى ثانى رتبة الوزارة . قال آبن الطوير : وكان يقال لها الوزارة الصغرىٰ، وصاحبها فى المعنىٰ يقرب من النائب الكافل فى زماننا، وهو الذى ينظر فى المظالم إذا لم يكن وزيرٌ صاحبُ سيف ، فإن كان ثَمّ وزيرٌ صاحب سيف، كان هو الذى يجلس للظالم بنفسه، وصاحبُ الباب من جملة مَنْ يقف فى خِدْمته .

الوظيفة الثالثة — (الاسفهلارية) . قال آبن الطوير : وصاحبها زِمَام كلّ زِمَام، وإليه أمر الأجناد والتحدّث فيهم، وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحُجَّاب علىٰ آختلاف طبقاتهم .

الوظيفة الرابعة — (حمل المِظَلَّة) فى المواسم العِظام : كركوب رأس العام ونحوه . وهى من الوظائف العِظام، وصاحبها يسمّى حاملَ المظلة، وهو أمير جليل، وله عندهم التقدّم والرفعة : لحمل مايعلو رأس الخليفة .

الوظيفة الخامسة — (حمل سيف الخليفة) فى المواكب التى تحمل فيها المظلة، ويعبر عن صاحبها بحامل السيف .

الوظيفة السادسة — (حمل رُمْح الخليفة) فى المواكب التى تحمل فيها المظلة . وهو رمح صغير يحمل مع الخليفة فى المواكب، وصاحبها يعبر عنه بحامل الرمح .

الوظيفة السابعة ـ (حمل السِّلاح) حول الخليفة فى المواكب . وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم لزيهم بالركابية وبِصبْيان الركاب الخاص أيضا، وهم الذين يعبر عنهم فى زماننا بالسِّلاحدارية والطَّبرْدارية، وكانت عدّتهم تزيد علىٰ ألفَىْ رجل، ولهم اثنا عَشَر مقدَّما، وهم أصحاب ركاب الخليفـة، ولهم نُقَبَاءُ موكَّلون بمعرفتهـم، والأكابر من هؤلاء الرّكابِيَّة تندب فى الأشـغال السلطانية، وإذا دخلوا عملا كان لهم فيه الصِّيتُ المرتفع .

الوظيفة الثامنة ـ (وِلَاية القاهرة). وكان لصاحبها عندهم الرتبة الجليلة والحُرْمة الوافرة، وله مكان فى الموكب يسير فيه .

الوظيفة التاسـعة ـ (ولاية مصر) . وهى دون ولاية القاهرة فى الرتبة كما هى الآن، إلا أن مصر كانت إذ ذاك عامرةً آهلةً، فكان مقـدارها أرفع ممـا هى عليه فى زمانـنـا .

النـــوع الثـانى

(وظائف خواصِّ الخليفة من الأستاذين؛ وهى عدّة وظائف؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يختص بالأستاذين المحنِّكين؛ وهى تسع وظائف)

الأولىٰ ـ (شـدّ التاج) . وموضوعها أن صاحبَها يتولّى شدّ تاج الخليفة الذى يلْبَسه فى المواكب العظيمة بمثابة اللَّفَّاف فى زماننا، وله مِيزَةٌ علىٰ غيره بلمسه التاجَ الذى يعلو رأس الخليفة، وكان لشدّه عندهم ترتيب خاص لايعرفه كل أحد، يأتى به فى هيئة مستطيلة، ويكون شدّه بمنديل من لون لِبْس الخليفة، ويعبر عن هذه الشدّة بشدّة الوَقَارِ كما تقدّم .

الثانية - وظيفة (صاحب المجلس). وهو الذى يتولّى أمر المجلس الذى يجلس فيه الخليفة الجلوسَ العامَّ فى المواكب، ويخرج إلىٰ الوزير والأمراء بعد جلوس الخليفة علىٰ سرير الملك يُعْلمهم بذلك، وينعت (بأمين الملك)، وهو بمثابة أمير خازندار فى زماننا.

الثالثة - وظيفة (صاحب) الرسالة. وهو الذى يخرج برسالة الخليفة إلىٰ الوزير وغيره.

الرابعة - وظيفة (زِمَام القُصُور). وهو بمثابة زِمَام الدُّور فى زماننا.

الخامسة - وظيفة (صاحب بيت المال). وهو بمثابة الخازندار فى زماننا.

السادسة - وظيفة (صاحب الدفتر) المعروف بدفتر المجلس. وهو المتحدّث علىٰ الدواوين الجامعة لأمور الخلافة.

السابعة - وظيفة (حامل الدواة). وهى دواة الخليفة المتقدّم ذكرها، وصاحب هذه الوظيفة يحمل الدواة المذكورة قدّامه علىٰ السَّرْج ويسير بها فى المواكب.

الثامنة - وظيفة (زمّ الأقارب). وصاحبها يحكم علىٰ طائفة الأشراف الذين هم أقارب الخليفة وكلمته نافذة فيهم.

التاسعة - (زمّ الرجال). وهو الذى يتولّى أمر طعام الخليفة كأستادار الصحبة.

الضرب الثانى

(ما يكون من غير المحنَّكين، ومن مشهوره وظيفتان)

الأولىٰ - نِقَابة الطالبيِّين. وهى بمثابة نِقَابة الأشراف الآن، ولا يكون إلا من شيوخ هذه الطائفة وأَجَلِّهم قَدْرًا؛ وله النظر فى أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من

الأدعياء، وإذا آرتاب بأحد أخذه بإثبات نَسَبه . وعليه أن يعود مَرْضاهم، ويمشى فى جنائزهم، ويسعىٰ فى حوائجهم، ويأخذ علىٰ يد المتعدّى منهم، ويمنعه من الآعتداء، ولا يَقْطَع أمرا من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك .

الوظيفة الثانية — (زم الرجال) . وصاحبها يتحدّث علىٰ طوائف الرجال والأجناد كزم صِبْيان الحُجَر، وزم الطائفة الآمرية والطائفة الحافظية، وزم السُّودان وغير ذلك؛ وهو بمثابة مقدّم المماليك فى زماننا .

الصـــنف الثـانى

(من أرباب الوظائف بحضرة الخليفة أربابُ الأقلام، وهم علىٰ ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل

(أرباب الوظائف الدينية، والمشهور منهم ستة)

الأوّل — (قاضى القُضَاة) . وهو عندهم من أجلّ أرباب الوظائف وأعلاهم شأْنا وأرفعِهم قدرا . قال آبن الطوير : ولا يتقدّم عليه أحد أو يحتمى عليه، وله النظر فى الأحكام الشرعية ودُور الضَّرْبِ وضبطِ عيارها، وربما جُمِعَ قضاءُ الديار المصرية وأجنادُ الشأم وبلاد المغرب لقاض واحد وكتب له به عهدٌ واحد كما سيأتى فى الكلام علىٰ الولايات إن شاء الله تعالىٰ .

ثم إن كان الوزير صاحبَ سيفٍ، كان تقليدُه من قِبَلِه نيابة عنه، وإن لم يكن، كان تقليده من الخليفة،

ويقدّم له من إصطبلات الخليفة بغلةٌ شهباء يركبها دائما، وهو مختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة، ويخرج له من خِزَانة السروج مركب ثقيل وسرج برادفتين من الفضة، وفى المواسم الأطواقُ، وتُخلَع عليه الخلع المُذْهَبَةُ؛ وكان من

مصطلحهم أنه لا يعدّل شاهدا إلا بأمر الخليفة، ولا يحضُر إملاكا ولا جنازةً إلا بإذن، وإذا كان ثَمَّ وزيرٌ لا يخاطب بقاضى القضاة لأن ذلك من نعوت الوزير؛ ويجلس يوم الآثنين والخميس بالقصر أوّل النهار للسلام على الخليفة، ويوم السبت والثلاثاء يجلس بزيادة الجامع العتيق بمصر، وله طَرْحة ومسند للجلوس وكُرسىّ توضع عليه دواتُه . وإذا جلس بالمجلس، جلس الشهود حواليْه يَمْنَةً ويَسْرَةً على مراتبهم فى تقدّم تعديلهم . قال ابن الطوير : حتّى يجلس الشابُّ المتقدّمُ التعديلِ أعلى من الشيخ المتأخرِ التعديلِ، وبين يديه أربعة موقعون: آثنان مقابل آثنين، وببابه خمسة حُجَّاب : آثنان بين يديه وآثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصوم . ولا يقوم لأحد وهو فى مجلس الحكم البتةَ .

الثانى - (داعى الدُّعاة) . وكان عندهم يلى قاضىَ القضاة فى الرتبة ويتزيَّا بزيه فى اللباس وغيره . وموضوعه عندهم أنه يقرأ عليه مذاهب أهل البيت بدار تعرف بدار العلم، ويأخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبهم .

الثالث - (المحتسب) . وكان عندهم من وجوه العُدُول وأعيانهم، وكان من شأنه أنه إذا خلع عليه قرئ سجلُّه بمصر والقاهرة على المنبر؛ ويده مُطْلَقَةٌ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على قاعدة الحِسْبة؛ ولا يُحَال بينه وبين مصلحة أرادها؛ ويتقدّم إلى الوُلاة بالشدّ منه، ويقيم النُّوَاب عنه بالقاهرة ومصر وجميع الأعمال كنوّاب الحُكْم؛ ويجلس بجامعى القاهرة ومصر يوما بيوم، وباقى أمره على ما الحال عليه الآن .

قلت : ورأيت فى بعض سجلّاتهم إضافة الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحبي الشُّرْطة بهما أحيانا .

الرابع - (وكالة بيت المال) . وكانت هذه الوكالة لا تُسنَد إلا لذوى الهيبة من شيوخ العدول، ويفوّض إليه عن الخليفة بيعُ ما يرى بيعه من كل صنف يملك

ويجوز التصرف فيه شرعا، وعتقُ المماليك، وتزويجُ الإماء، وتضمين مايقتضى الضمان، وٱبتياعُ ما يرىٰ ٱبتياعه، وإنشاء ما يرىٰ إنشاءه من البناء والمراكب وغير ذلك ممـا يحتاج إليه فى التصرف عن الخليفة .

الخامس ـ (النائب). والمراد نائب صاحب الباب المتقدّم ذكره المعبَّر عنه فى زماننا بالمهمندار . قال ٱبن الطوير : ويعـبَّر عن هذه النيابة بالنيابة الشريفـة . قال : وهى رتبة جليلة، يتولاها أعيان العـدول وأرباب الأقلام ؛ وصاحبها ينوب عن صاحب البـاب فى تَلَقِّى الرُّسُل الواردين علىٰ الخليفة علىٰ مسافة وقفة نُوّاب الباب فى خدمته ، ويُنْزِل كلًّا منهـم فى المكان اللائق به ، ويرتِّب لهم ما يحتاجون إليه ، ولا يمكِّن أحدا من الاجتماع بهم ، ويتولّىٰ ٱفتقادهم ، ويُذَكِّر صاحب الباب بهم ، ويسعىٰ فى نَجَـاز أمرهم ، وهو الذى يسـلِّم بهم علىٰ الخليفــة أو الوزير ويتقدّمهم ويستأذن عليهم ، ويدخل الرسول وصاحبُ الباب قابضٌ علىٰ يده اليمنىٰ ، والنائبُ قابض علىٰ يده اليسرىٰ فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم ، ويجتهـد فى ٱنفصالهم علىٰ أحسن الوجوه ، وإذا غاب أقام عنه نائبا إلىٰ أن يعود . ومن شريطته أنه لا يتناول من أحد من الرسل تقدمةً ولا طُرْفة إلا بإذن .

قال ٱبن الطوير : وهو المسمّٰى الآن بالمهمندار ، وسيأتى فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة المستقرّ أن المِهْمِنْدَارَ الآن من أصحاب السيوف ، وكأنَّ ذلك لموافقة الدولة فى اللسان والهيئة .

السادس ـ (القُرّاء) . وكان لهم قرّاء يقرءون بحضرة الخليفة فى مجالسه وركوبه فى المواكب وغير ذلك ، وكان يقال لهم "قرّاء الحضرة" يزيدون فى العدّة علىٰ عشرة نَفَرٍ، وكانوا يأتون فى قراءتهم فى المجـالس ومواكب الركوب بآيات مناسـبة للحال بأدنىٰ ملابسة ، قد أَلِفُوا ذلك وصار سهلَ الاستحضار عليهم ، وكان ذلك يقع منهم موقعَ

الاستحسان عند الخليفة والحاضرين، حتى إنه يحكى أن بعض الخلفاء غضب على أمير فأمر باعتقاله، فقرأ قارئ الحضرة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فاستحسن ذلك وأطلقه إلا أنهم كانوا ربما أتوا بآيات إذا روعى قصدُهم فيها، أخرجت القرءان عن معناه: كما يحكى أنه لما استوزر المستنصرُ بدر الجمالىّ قرأ قارئهم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ولما استوزر الحافظ رضوان قرأ قارئهم: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ إلى غير ذلك من الوقائع.

النـــوع الثانى

(من أرباب الأقلام أصحاب الوظائف الديوانية، وهى على ثلاثة[1] أضرب)

الضرب الأول

(الوزارة إذا كان الوزير صاحبَ قلم)

اعلم أن أكثر وزرائهم فى ابتداء دولتهم إلى أثناء خلافة المستنصر كانوا من أرباب الأقلام: تارةً وزارة تامة وتارة وَساطة، وهى رتبة دون الوِزارة؛ وممن اشتهر من وزرائهم أربابِ الأقلام فيما ذكره ابن الطوير يعقوبُ بن كلس وزير العزيز، والحسنُ بن عبد الله اليازُورىّ وزير المستنصر، وأبو سعيد التُّسترىّ، والجرجانى، وابن أبى كدينة، وأبو الطاهر أحمد بن بابْشاذ صاحب المقدّمة فى النحو، ووزير الوزراء علىّ بن فلاح، والمَغْربىّ وزير المستنصر، وهو آخر من وُزِّرَ لهم من أصحاب الأقلام، وعليه قدّم أمير الجيوش بدرٌ الجمالىّ فوُزِّر للمستنصر على ما تقدّم ذكره؛ وربما تخلل تلك المدّة الأولى فى الوَساطة أربابُ السيوف، كبَرْجَوان الخادم، وقائد القوّاد الحسين بن جوهر، وثِقَةُ ثقات السيف والقلم علىٌّ بن صالح

---

(١) المعدود أربعة كما يعلم مما سيأتى.

كلهم فى أيام الحاكم . وربما وَلِيَ الوساطةَ بعضُ النصارىٰ، كعيسىٰ بن نسطورس فى أيام العزيز، ومنصور بن عَبْدُون الملقب بالكافى، وزرعة بن نسطورس الملقب بالشافى كلاهما فى أيام الحاكم . وربما كان الأمر شُورىٰ فى أهل المروادنى[1]؛ وكان من زِيِّ وزرائهم أصحابِ الأقلام أنهم يَلْبَسون المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلوقهم كالعُدُول، وينفردون بلُبْس الدراريع مشقوقةً من النحر إلىٰ أسفل الصدر بأزرار وعُرًى؛ وهذه علامة الوزارة؛ ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك،ومنهم من تكون أزراره من لؤلؤ؛ وعادته أن تحمل له الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفة ويقف بين يديه الحُجّاب، وأمره نافذ فى أرباب السيوف من الأجناد،وفى أرباب الأقلام .

الضرب الثانى

(ديوان الإنشاء ، وكان يتعلق به عندهم ثلاث وظائف)

الأولىٰ ـ صَحَابة ديوان الإنشاء والمكاتَبات، وكان لا يتولّاه إلا أجلُّ كُتَّاب البلاغة ، ويخاطب بالأجلّ؛ وكان يقال له عندهم كاتب الدَّسْت الشريف، وإليه تسلَّم المكاتبات الواردة مختومةً فيَعْرِضها علىٰ الخليفة من يده،وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها ؛ ويستشيره الخليفة فى أكثر أموره ؛ ولا يُحْجب عنه متىٰ قصد المثولَ بين يديه، وربما بات عنده الليالىَ ، ولا سبيل إلىٰ أن يدخل إلىٰ ديوانه ولا يجتمع بكُتَّابه أحدٌ إلا خواصّ الخليفة . وله حاجب من الأمراء الشُّيوخ ، وله مرتبة عظيمة للجلوس عليها بالمَخَادّ والمسند، ودواته من أخصّ الدُّوِىّ وأحسنها إلا أنه ليس لها كرسىّ توضع عليه كدواة قاضى القُضاة ، ويحملها له أستاذ من الأستاذين المختصين بالخليفة إذا أتىٰ إلىٰ حضرته .

---

(١) كذا فى الأصل مضببا عليه إشارة للتوقف ولعله المروءات .

الثانية – (التوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم) وهى رُتْبة جليلة تلى رتبةَ صاحب ديوان الإنشاء والمكاتَبات، يكون صاحبها جليسا للخليفة فى أكثر أيام الأُسْبوع فى خلوته، يذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله تعالىٰ أو أخبار الأنبياء والخلفاء الماضين، ويقرأ عليه مُلَحَ السِّيَرِ، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق، ويقوّى يده فى تجويد الخط وغير ذلك. وصحبتَه للجلوس دواة مُحَلَّاة، فإذا فرغ من المجالسة ألقىٰ فى الدواة كاغَدَة فيها عشرة دنانير، وقِرْطاسٌ فيه ثلاثة مثاقيل ندّ مثلّث خاصّ ليتبخر به عند دخوله علىٰ الخليفة ثانى دَفْعة. وإذا جلس الوزير صاحب السيف للظالم، كان إلىٰ جانبه يوقِّع بما يأمر به فى المظالم. وله موضعٌ من حقوق ديوان المكاتَبات لا يدخل إليه أحد إلا بإذن، وفرّاش لتقديم القصص، ويرفع إليه هناك قصص المظالم فيوقِّع عليها بما يقتضيه الحال كما يفعل كاتب السر الآن.

الثالثة – (التوقيع بالقلم الجليل). وكان يسمّٰى عندهم الخدمةَ الصغيرة لجلالتها، ولصاحبها الطَّرّاحة والمسند فى مجلسه بغير حاجب. وموضوعها الكتابة بتنفيذ ما يوقِّع به صاحب القلم الدقيق، وبسطه. وصاحب القلم الدقيق فى المعنىٰ ككاتب السر أو كاتب الدَّسْت فى زماننا، وصاحب القلم الجليل ككاتب الدَّرْج. فإذا رفعت قِصَص المظالم، حملت إلىٰ صاحب القلم الدقيق فيوقِّع عليها بما يقتضيه الحال بأمر الخليفة أو أمر الوزير أو من نفسه، ثم تحمل إلىٰ الموقِّع بالقلم الجليل لبسط ما أشار إليه صاحب القلم الدقيق، ثم تحمل فى خريطة إلىٰ الخليفة فيوقِّع عليها، ثم تُخْرَج فى خريطتها إلىٰ الحاجب فيقف علىٰ باب القصر، ويسلِّم كلَّ توقيع لصاحبه.

أمّا توقيع الخليفة بيده علىٰ القِصَص، فإنه إن كان ثَمَّ وزيرٌ صاحبُ سيف وَقَّع الخليفة علىٰ القصة بخطه: "وزيرنا السيد الأجل (ونعته بالمعروف به) أمتعنا الله تعالىٰ ببقائه يتقدّم بكذا وكذا إن شاء الله تعالىٰ" ويحمل إلىٰ الوزير فإن كان يحسن الكتابة،

كتب تحت خط الخليفة : "أمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليـه" وإن كان لايحسن الكتابة، كتب أمتثل نقط؛ وإن لم يكن وزيرٌ صاحبُ سيف : فإن أراد الخليفة نجاز الأمر لوقته، وقَّع فى الجانب الأيمن من القصة "يوقَّع بذلك" فتخرج إلىٰ صاحب ديوان المجلس فيوقِّع عليها بالقلم الجليل ويخلى موضع العلامة، ثم تعاد إلىٰ الخليفة فيكتب فى موضع العلامة (يُعْتَمد) وتُثبِّت فى الدواوين بعد ذلك. وإن كان يوقع فى مساحة أو تسويغ أو تحبيس، كتب لرافعها بذلك "وقد أمضينا ذلك" وإن أراد علم حقيقة القصـة ، وقَّع علىٰ جانب القصـة "ليخرج الحـال فى ذلك" وتحمل إلىٰ الكاتب فيكتب الحـال وتعاد إلىٰ الخليفة فيفعل فيها ما أراد من توقيع ومنع، والله أعلم .

الضرب الثـالث

(ديوان الجيش والرواتب، وهو علىٰ ثلاثة أقسام)

الاول ـ (ديوان الجيش) . ولا يكون صاحبه إلا مُسْلِمـا، وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة؛ وبين يديه حاجبٌ، وإليه عرض الأجناد وخيولهم، وذكر حِلَاهم وشِيَات خيولهم .وكان من شرط هذا الديوان عندهم أن لايثبت لأحد من الأجناد إلا الفرس الجيد من ذكور الخيل وإناثها دون البغال والبراذين، وليس له تغيير أحد من الأجناد ولا شيء من اقطاعهم إلا بمرسوم . وبين يدى صاحب هذا الديوان نُقَباء الأمراء ، يُعَرِّفونه أحوال الأجناد من الحيـاة والموت والغَيْبة والحضور وغير ذلك، علىٰ ماالحال عليه الآن . وكان قد فسح للأجناد فى المقايضة بالإقطاعات لما لهم فى ذلك من المصالح كما هو اليوم، بتوقيعات من صاحب ديوان المجلس من غير علامة؛ ولم يكن لأمير من أمرائهم بلد كاملة، وإن علا قدرُه إلا فى النادر . ومن هذا الديوان كان يعمل أوراق أرباب الجرايات، وله خازنان برسم رفع الشواهد .

الثانى — (ديوان الرواتب) . وكان يشتمل علىٰ آسم كل مرتزق فى الدولة وجار وجراية ؛ وفيه كاتب أصيل بطرّاحة ونحو عشرة مُعِينين ، والتعريفات واردة عليه من كل عملٍ بآستمرار مَنْ هو مستمرّ ومباشرة مَن آستجدّ وموت مَنْ مات ، وفيه عدّة عروض يأتى ذكرها فى الكلام علىٰ إجراء الأرزاق والعطاء .

الثالث — (ديوان الإقطاع) . وكان مختصا عندهم بما هو مُقْطَع للأجناد ، وليس للباشرين فيه تنزيل حلْية جُنْدِىّ ولا شِيَة دابته ، وكان يقال لإقطاعات العُرْبان فى أطراف البلاد وغيرها الآعتداد ، وهى دون عبرة الأجناد .

الضرب الرابع
(نظر الدواوين)

وصاحب هذه الوظيفة هو رأس الكل ، وله الولاية والعزل ، وإليه عرض الأرزاق فى أوقات معروفة علىٰ الخليفة والوزير ، وله الجلوس بالمرتبة والمسند ، وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ؛ وتُخْرج له الدواة من خزانة الخليفة بغير كرسىّ ، وإليه طلب الأموال وآستخراجُها والمحاسبةُ عليها ، ولا يعترض فيما يقصده من أحد من الدولة . قال آبن الطوير : ولم يُرقَ هذه الوظيفة نصرانىّ إلا الأخرم .

الثانية(١) — ديوان التحقيق . وموضوعه المقابلة علىٰ الدواوين ، وكان لايتولاه إلا كاتب خبير ، وله الخِلَعُ ومَرْتبة يجلس عليها وحاجب بين يديه ، ويُفْتَقر إليه فى كثير من الأوقات ، ويُلْحَق برأس الدواوين المتقدّم ذكره .

الثالثة — ديوان المَجْلِس . قال آبن الطوير : وهو أصل الدواوين قديما ، وفيه معالم الدولة بأجمعها ، وفيه عِدّة كُتَّاب ، وعنده مُعِين أو معينان ، وصاحب هذا الديوان

(١) لم يتقدم له تقسيم ولم يذكر أولىٰ لتكون هذه ثانيتها والذى يفهم من المقام أنها وظائف وأن وظيفة نظر الدواوين أولىٰ ونظر ديوان التحقيق ثانية وهكذا تأمل .

هو المتحدّث فى الإقطاعات ،ويُخْلَع عليه و ينشأ له سجلٌّ بذلك لاحق بديوان النظر، وله دواة تُخْرَج له من خِزانة الخليفة وحاجب يقف بين يديه، وكان يتولاه عندهم أحد كُتَّاب الدولة ممن يكون مترشحا لأن يكون رأس الدواوين ، ويسمى آستيمارُه دفتر المجلس ، وهو متضمن للعطاء والظاهر من الرسوم التى تقرّر فى غُرَّةِ السنة والضحايا ،وما ينفق فى دار الفِطْرَة فى عيد الفطر،وفى فتح الخليج والأسمطة المستعملة فى رمضان وغيره،وسائر المآكل والمشارب والتشريفات،وما يطلَقُ من الأهراء من الغَلَّات، وما لأولاد الخليفــة وأقاربه وأرباب الرواتب علىٰ آختلاف الطبقات من المُرتَّب ،وما يَرِد من الملوك من الهدايا والتحف ،وما يُبْعَثُ به إليهم من الملاطفات، ومقاديرُ صِلات الرسل الواردين بالمكاتبات، وما يخرج من الأكفان لمن يموت من الحريم ،وضبط ما يُنْفَق فى الدولة من المهمَّات ليُعْلَم ما بين السنة والأخرىٰ من التفاوت وغير ذلك من الأمور المهمة . وهــذا الديوان فى زماننا قد تفرّق إلىٰ عدّة دواوين كالوزارة ونظر الخاص والجيش وغيرها .

الرابعة ــ (ديوان خزائن الكُسْوة) .وكان لها عندهم رتبة عظيمة فى المباشرات، وقد تقدّم ذكر حواصلها فى جملة الخزائن فيما سبق .

الخامسة ــ (الطِّراز) . وكان يتولاه الأعيان من المستخدمين من أرباب الأقلام، وله آختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين، ومُقامه بِدِمْيَـاطَ وتِنِّيسَ وغيرهمـا من مواضع الآستعمالات، ومن عنده تحمل المستعملات إلىٰ خِزَانة الكسوة المقدّمة الذكر .

السادسة ــ (الخدمة فى ديوان الأحباس) . قال آبن الطوير: وهى أوكد الدواوين مباشرة ولا يخدُم فيها إلا أعيان كُتَّاب المسلمين من الشهود المعدّلين،وفيها عدّة مُدراء (١)

(١) تقدم له مثل هذا الجمع فى الجزء الأوّل ونبهنا عليه .

بسبب أرباب الرواتب ، وكان فيه كاتبان ومُعِينان لنظم الآستيمارات ، ويُورِد فى آستيمارِه كل ما فى الرقاع والرواتب، وما يُجْبىٰ له من جهات كل من الوجهين القبلىّ والبحرىّ .

السابعة ـ (الخدمة بديوان الرواتب). وفيه مرتَّبات الوزير فمن دُونَه إلىٰ الضوّى . قال آبن الطوير : بلغ فى بعض السنين مايزيد علىٰ مائة ألف دينار ونحوا من مائتى ألف، ومن القمح والشعير عشرة آلاف إردب ، وكان آستيمار الرواتب يعرض فى كل سنة علىٰ الخليفة فيزيد من يزيد، وينقص مَنْ ينقص، وإنه عُرِض سنةً علىٰ المستنصر بالله فلم يعترض أحدا من المرتَّبين بنقص، ووقَّع علىٰ ظاهر الآستيمار بخطه "الفقر مُرُّ المَذَاق، والحَاجَةُ تُذِلُّ الأعْنَاق، وحِرَاسَةُ النِّعَم بإدْرَارِ الأرزاق، فلْيُجْرَوْا علىٰ رسومهم فى الإطلاق، مَاعِنْـدَكُمْ يَنْفَدُ، وَمَا عِنْـدَ اللهِ بَاقٍ" وأمر ولىّ الدولة آبن خيران كاتب الإنشاء بإمضاء ذلك .

الثامنة ـ (الخدمة فى ديوان الصعيد) من الصعيد الأعلىٰ والصعيد الأدنىٰ. وكان فيه عدّة كُتَّاب فروع ، والآستيفاء مقسومٌ بينهم، وعليهم عمل التذاكر بطلب ماتأخر من الحساب . وصاحب هذا الديوان يترجمها بخطه، ويحملها إلىٰ صاحب الديوان الكبير فيوقِّع عليها بالآسترفاع، ويَنْدُب لها من الْحُجّاب أو غيرهم من يراه، وله مياومة يأخذها من المستخدمين مدّة بقائه عندهم ويُحْضِرُها نُسَخًا للدّواوين الأصول .

التاسعة ـ (الخدمة فى ديوان أسفل الأرض). وهو الوجه البحرىّ خلا الثُّغُورَ، وحكمه فيما تقدّم من الكُتَّاب وما يلزم كلا منهم حكم ديوان الصعيد المتقدّم الذكر من غير فرق .

العاشرة ـ (الخدمة فى ديوان الثُّغُور). وهى الإسكندرية ودِمْياط ونَسْتَرُوه والبَرَلُّس والفَرَما، وحكمه حكم ماتقدّم من ديوان الصعيد وأسفل الأرض .

الحادية عشرة — (الخدمة فى الحوالى والمواريث الحشرية). قال ابن الطوير: كان لا يتولاه إلا عدل، وفيه جماعة من الكُتَّاب على ما تقدّم فى غيره من الدواوين أيضا .

الثانية عشرة — (الخدمة فى ديوانى الخراجىّ والهلالىّ) وتجرى فيه الرباع والمكوس وعليه حوالات أكثر المرتزقين .

الثالثة عشرة — (الخدمة فى ديوان الكُرَاع). وفيه معاملة الإصطبلات، وما فيها من الدوابّ الخاص وغيرها والبغال والجمال ودوابّ المَرَمَّة المُرصَدة للعمائر ورباع الديوان، وعُدَد ذلك وآلاته، وعلوفات ذلك مع ما ينضم إليه من علوفة الفِيَلَة(١) والزَّراريف والوحوش ورواتب مَنْ يخدمها. وكان فى هذا الديوان كاتبا أصل ومستوفى ومُعِينان .

الرابعة عشرة — (الخدمة فى ديوان الجِهَاد). ويقال له ديوان العمائر، وكان محله بالصِّناعة بمصر، وفيه إنشاء المراكب للأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها، ومنه يُنْفَق على رؤساء المراكب ورجالها، وإذا لم يف ارتفاقه بما يحتاج إليه استُدْعِى له من بيت المال بما يكفيه .

الصنف الثالث من أرباب الوظائف

(أصحاب الوظائف الصناعية)

وأعظمها وظائف الأطباء، وكان للخليفة طبيب يُعْرَف بطبيب الخاصّ يجلس على باب دار الخليفة كلَّ يوم، ويجلس على الدكك التى بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر دونَهُ أربعةُ أطباء أو ثلاثة فيخرج الأستاذون فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص فيكتُب لهم رقاعا على خزانة الشراب فيأخذون ما فيها، وتبقى الرقاع عند مباشريها شاهدا لهم . ولكل منهم الجارى والراتب على قدره .

---

(١) لم نعثر على هذا الجمع فى كتب اللغة ولعله جارى العامة فى تعبيراتهم .

الصـــنف الرابع

(الشـــعراء)

وكانوا جماعة كثيرة من أهل ديوان الإنشاء وغيره، وكان منهم أهل سُنَّة لا يَغْلُون في المديح، وشِيعَةٌ يَغْلُون فيه. فمِنْ أحْسَنِ مدحٍ فيهم لِسُنِّيٍّ قول عمارة التميمي رحمه الله:

أَفَاعِيلُهُمْ فى الجُودِ أَفْعَالُ سُـنَّةٍ * وإن خَالَفُونِى فى ٱعْتِقَادِ التَّشَيُّعِ

ومن الذى وقعت فيه المغالاة قول بعضهم :

هَـذَا أميرُ المؤمنين بمجلس * أبْصَرْتُ فيـه الوَحْىَ والتَّنْزِيلَا
وإذا تَمَثَّلَ رَاكِبًا فى مَوْكِبٍ، * عَايَنْتَ تَحْتَ رِكَابِهِ جِـبْرِيلَا

قلت : وهـذه المغالاة من المغالاة الفاحشـة التى لا يجوز الإقدام عليهـا لسنىّ ولا متشيع، وإنمـا هى من ٱقتحام الشعراء البوائق .

القســـم الثانى

(من أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ما هو خارج
عن حضرة الخلافة، وهو صنفان)

الصـــنف الأوّل

(النُّوّاب والوُلاة)

وٱعلم أن مملكتهم كانت قد (١) فى ثلاث ممـالك فيها نوابهم ووُلَاتهم .

المملكة الأولى الديار المصرية، وهى التى كانت قد ٱستقرّت قاعدةَ ملكهم، ومحطَّ رحالهم، وكان بها أربع ولايات .

الأولى ــ ولاية قُوص . وكانت هى أعظم ولايات الديار المصرية، وواليهـا يحكم على جميع بلاد الصعيد، وربمـا وُلِّىَ بالأُشْمُونِينِ ونحوها من يكون دونه .

---

(١) بياض بالأصل ولعله "ٱنحصرت" كما يفهم من سياق كلامه .

الثانية ـ ولاية الشَّرْقية . وكانت دون ولاية قُوص فى الرتبة، وكان متوليها يحكم علىٰ عمل بُلْبَيْس وعمل قَلْيُوب وعمل أُشْمُوم .

الثالثة ـ ولاية الغربية . وكانت دون ولاية الشرقية فى المرتبة ، وكان متوليها يحكم علىٰ عمل المَحَلَّة ، وعمل مَنُوف ، وعمل أبيار .

الرابعة ـ ولاية الإِسْكَنْدَرِيَّة . وهى دون الغربية فى الرتبة، وكان متوليها يحكم علىٰ أعمال البحيرة بأجمعها .

قال ٱبن الطوير : وهؤلاء الأربعة كان يُخْلَع عليهم من خزانة الكُسْوَة بالبدنة، وهو النوع الذى يلبسه الخليفة فى يوم فتح الخليج .

قلت : لعـل هـذه الولايات الأربع ولايات الوُلاة التى تدخل تحت حكمها الولايات الصِّـغار، أو تكون هى التى ٱستقرّ عليه الحال فى آخر دولتهم ، وإلا فقد رأيت فى تذكرة أبى الفضل الصورىّ : أحدِ كُتَّاب الإنشاء فى أيام القاضى الفاضل سجلاتٍ كثيرةً لولاة الوجهين القبلىّ والبحرىّ (1) .

الجمـــلة الخـامسة

(من ترتيب مملكتهم، فى هيئة الخليفة فى مواكبه وقصوره، وهى علىٰ ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل

(جلوسه فى المواكب ، وله ثلاثة جلوسات)

الجلوس الأوّل

(جلوسه فى المجلس العامّ أيام المواكب)

وٱعلم أن جلوس الخليفـة أوّلا كان بالإيوان الكبير الذى كان بالقصر علىٰ سرير المُلْك الذى كان بصدره إلىٰ آخر أيام المستعلى . فلما ولى ٱبنه الآمر الخلافةَ بعده ،

(1) لم يذكر بقية الممالك الثلاث ٱقتصارا علىٰ المقصود وسيأتى ذكر البقية فى الجزء الرابع .

نقل الجُلوسَ من الإيوان الكبير إلىٰ القاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر أيضا ، وصار يجلس من مجالسها علىٰ سرير المُلْك به ، وجعل الإيوان الكبير خِزَانَةً للسلاح ، ولم يتعرّض لإزالة سرير المُلْك منه حتّىٰ جاءت الدولة الأيوبية ، وهو باق ، وكان جلوس الخليفة فى هذه الحالة لا يتعدّىٰ يومى الاثنين والخميس ، وليس ذلك علىٰ الدوام بل علىٰ التقرير بحسب ما تقتضيه الحال . فإذا أراد الجلوس فإن كان فى الشتاء عُلِّق المجلس الذى يجلس فيه بستور الديباج ، وفرش بالبُسُط الحرير ، وإن كان فى الصيف ، علق بالستور الدبيقية وفرش بطبرى" طَبَرِسْتَانَ المُذْهَبِ الفائق ، وهيئت المرتبة المعدّة لجلوسه علىٰ سرير الملك بصدر المجلس ، وغُشِّى السرير بالقُرْقُوبِى" ، ثم يستدعىٰ الوزير من داره بصاحب الرسالة علىٰ حصان رهوان فى أسرع حركة علىٰ خلاف الحركة المعتادة ، فيركب الوزير فى هيئته وجماعته وبين يديه الأمراء ، فإذا وصل إلىٰ باب القصر ترجّل الأمراء ، وهو راكب إلىٰ أوّل باب من الدّهاليز الطِّوال عند دِهْليز يعرف بدِهْليز العمود ، ويمشى وبين يديه أكابر الأمراء إلىٰ مَقْطَع الوزارة بقاعة الذهب ، فإذا تهيأ جلوس الخليفة ، آستدعى الوزير من مَقْطَع الوزارة إلىٰ باب المجلس الذى فيه الخليفة وهو مُغْلَق ، وعلىٰ بابه سِتْرٌ مُعَلَّق ، فيقف زِمَام القصر عن يمين باب المجلس وزِمَام بيت المال عن يساره ، والوزير واقف أمام باب المجلس وحواليه الأمراء المطوّقون وأرباب الخِدَم الجليلة ، وفى خلال القوم قُرَّاءُ الحضرة ، ويضع صاحبُ المجلس الدواة مكانها من المرتبة أمام الخليفة ، ثم يخرج كم من أكمامه يعرف بفرد الكم ويشير إلىٰ زِمَام القصر وزِمَام بيت المال الواقفَيْن بباب المجلس ، فيرفع كل منهما جانب الستر فيظهر الخليفة جالسا علىٰ سرير الملك مستقبل القوم بوجهه ، ويستفتح القرّاء بالقرءان ، ويدخل الوزير المجلس ويسلم بعد دخوله ، ثم يُقَبِّل يدى الخليفة ورجليه ، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع ويقف ساعة زمانية ،

ثم تُخْرَج له مِخَدّة عن الجانب الأيمن من الخليفـة ويؤمر بالجلوس إليهـا ، ويقف الأمراء فى أماكنهم المقرّرة لهم فصاحب البـاب وٱسفهسلار من جانبى الباب يمينا ويسارا ،ويليهم من خارجه ملاصقا للعتبة زِمَام الآمرية والحافظية وباقى الأمراء علىٰ مراتبهم إلىٰ آخر الرواق، وهو إفريزٌ عالٍ عن أرض القاعة، ثم أرباب القصب والعماريات يَمْنَةً ويَسْرَةً كذلك، ثم الأماثل والأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة، ويقف مستندا بالقدر الذى يقابل باب المجلس نوّابُ الباب والحجـابُ، فإذا ٱنتظم الأمر علىٰ ذلك، فأوّل ماثل للخـدمة بالسلام قاضى القُضاة والشهودُ المعروفون بالٱستخدام فيجيز صاحبُ البـاب القاضىَ دون من معـه فيسلم علىٰ الخليفة بأدب الخلافة، بأن يرفع يده اليمنىٰ ويشير بالمسبحة،ويقول بصوت مسموع : "السلام علىٰ أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته" يتخصص بهـذا الكلام دون غيره من أهـل السلام، ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمامُهُمْ، وبالأشراف الطالبيين نقيبهم ،فتمضى عليهم كذلك ساعتان زمانيتان أو ثلاثٌ،ثم يسلم عليه من خُلِعَ عليه بقُوصَ أو الشرقية أو الغربيـة أو الإسكندرية، ويشرّفون بتقبيل العتبة ، وإذا دعت حاجة الوزير إلىٰ مخاطبة الخليفة فى أمر ، قام من مكانه وقرّب منه مُنْحَنِياً علىٰ سيفه، ويخاطبه مرة أو مرتين أو ثلاثا، ثم يؤمر الحاضرون بالٱنصراف فينصرفون، ويكون آخرهم خروجا الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله . فإذا خرج إلىٰ الدهليز الذى ترجل فيه، ركب منه إلىٰ داره ، وفى خدمته من حضر فى خدمته إلىٰ القصر، ويدخل الخليفةُ إلىٰ سَكَنه مع خواصّ الأستاذين، ثم يُغْلَق باب المجلس ويرخىٰ الستر إلىٰ أن يحتاج إلىٰ حضور موكب آخر فيكون الأمر كذلك .

الجلوس الثانى

(جلوسه للقاضى والشهود فى ليالى الوقود الأربع من كل سنة)

وهى : ليلة أوّل رجب، وليلة نصفه ، وليلة أوّل شعبان، وليلة نصفه .

إذا مضى النصف من جمادى الآخرة حمل إلى القاضى من حواصل الخليفة ستون شمعة ، زنةُ كل شمعة منها سُدْس قِنْطَار بالمصرى ليركب بها فى أول ليلة من شهر رجب ؛ فإذا كان أوّلُ ليلة منه جلس الخليفة فى مَنْظَرة عالية كانت عند باب الزُّمُرُّدِ من أبواب القصر المتقدّم ذكره ، وبين يديه شَمع يوقد فى العلوّ يَتَبيَّن شخصُه على ٱرتفاعه . ويركب القاضى من داره بعد صلاة المغرب وبين يديه الشَمَعُ المحمول إليه من خِزَانة الخليفة موقودا، من كل جانب ثلاثون شمعة، وبين الصَّفَّين مؤذنو الجوامع ، يعلنون بذكر الله تعالى، ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقرّر محفوظ، ويحُجبه ثلاثة من نوّاب الباب، وعشرة من حُجّاب الخليفة، خارجا عن حُجّاب الحكم المستقرّين وهم خمسة فى زىّ الأمراء ؛ وفى ركابه القُرّاء يقرءُون القرءان، والشهودُ وراءه على ترتيب جلوسهم بمجلس الحكم الأقدمُ فالأقدمُ ؛ وحول كل منهم ثلاث شَمَعات أو شمعتان أو شمعة واحدة إلى بين القصرين فى جمع عظيم حتى يأتىَ باب الزُّمُرُّد من أبواب القصر، فيجلسون فى رَحَبة تحت المَنْظَرة التى فيها الخليفة ، ويحضر بين يديه بسَمْتٍ ووقار وتشوّف لٱنتظار ظهور الخليفة ، فيفتح الخليفة إحدى طاقات المنظرة فيظهر منها رأسه ووجهه، وعلى رأسه عِدّة من خواصّ الأستاذين من المحنَّكين وغيرهم، فيفتح بعض الأستاذين طاقةً أخرى فيُخْرِجُ منها رأسه ويدَه اليمنى، ويشير بكمه قائلا : "أمير المؤمنين يردّ عليكم السلام" فيسلم بقاضى القضاة أوّلا بنعوته، وبصاحب الباب بعده كذلك، وبالجماعة الباقية جملة من غير تعيين أحد؛ ويستفتح قرّاء الحضرة بالقراءة وهم قيام فى الصَّدْر، ظهورهم

إلىٰ حائط المَنْظَرَة ووجوههم للحاضرين. ثم يتقدّم خطيب الجامع الأنور (وهو الذى بباب البحر) فيخطُب كما يخطب فوق المِنْبَرِ، وينبه علىٰ فضيلة ذلك الشهر، وأن ذلك الركوبَ علامتُـه ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة؛ ثم يتقـدّم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك، ثم يتقدّم خطيب جامع الحاكم فيخطب كذلك، والقرّاء فى خلال تلك الخطب يقرءون، فإذا ٱنتهت خَطَابة الخطباء، أخرج الأسـتاذ الأوّل يده من تلك الطاقة فيردّ علىٰ الجماعة السلام؛ ثم تغلق الطاقتان وينفضّ الناس، ثم يركب القاضى والشهود إلىٰ دار الوزير فيجلس لهم ليسلموا عليـه، ويخطب الخطباء الثلاثة عنده بأخفَّ من مقام الخليفة ويدعون له، ثم ينصرفون ويذهب القاضى والشهود صحبتُه إلىٰ مصر، ووالى القاهرة فى خدمته، ويمرّ بجـامع ٱبن طولون فيصلِّى فيـه ويخرج منه فيجد والىَ مصر فى تَلَقِّيه فيمضى فى خِدْمته، ويمرّ علىٰ المَشَاهد فيتبرك بها، ويمضى إلىٰ الجـامع العتيق ويدخل من باب الزيادة التى يحكم فيها فيصلى فى الجامع ركعتين، ويُوقَد له التنور الفضـة الذى بالجامع، وهو تَنُّور عظيم حَسَن التكوين فيه نحو ألف وخمسمائة برّاقة، وبسفله نحو مائة قنديل؛ ثم يخرج من الجامع فإن كان ساكنا بمصر ٱستقرّ بها، وإن كان ساكنا بالقاهرة ٱنتظره والى القاهرة فى مكانه حتّى يعودَ من مصر فيذهب فى خدمته إلىٰ داره .

وكذلك يركب فى ليلة الخامس عشر من رجب إلا أنه بعد صلاته فى جامع مصر يتوجه إلىٰ القـرافة فيصـلِّى فى جامعها؛ ثم يركب فى أوّل شـعبان كذلك؛ ثم فى نصفه كذلك .

الجـــلوس الثـالث

(جلوسه فى مولد النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى الثانى عشر من شهر ربيع الأوّل)

وكان عادتهم فيه أن يعمل فى دار الفِطْرة عشرون قنطارا من السُّكَّر الفائق حَلْوىٰ من طرائف الأصناف، وتُعبَّى فى ثلثمائة صينية نُحَاس . فإذا كان ليلةُ ذلك المولد،

تفرّق فى أرباب الرسوم : كقاضى القضاة، وداعى الدعاة، وقرّاء الحضرة، والخطباء، والمتصدّرين بالجوامع بالقاهرة ومصر، وقَوَمَةِ المشاهد وغيرهم ممن له آسم ثابت بالديوان، ويجلس الخليفة فى مَنْظرة قريبة من الأرض مقابلَ الدار القُطْبِيَّة المتقدّمة الذكر (وهى البيمارستان المنصورىّ الآن) ثم يركب القاضى بعد العصر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر ومعهم أرباب تفرقة الصوانى المتقدّمة الذكر، فيجلسون فى الجامع مقدارَ قراءة الختمة الكريمة، وتُسدّ الطريق تحت القصر من جهة السُّيُوفيين وسُوَيقة أمير الجيوش، ويكنس ما بين ذلك ويُرَشّ بالماء رَشًّا، ويرشّ تحت المَنْظَرة بالرمل الأصفر، ويقف صاحب الباب ووالى القاهرةِ على رأس الطُّرُق لمنع المارّة، ثم يستدعى القاضى ومَنْ معه فيحضرون ويترجَّلُون على القرب من المنظرة ويجتمعون تحتها وهم متشوّفون لآنتظار ظهور الخليفة، فيفتح إحدى طاقات المنظرة فيظهر منها وجهُه، ثم يُخْرِجُ إحدى الأستاذين المحنَّكين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يردّ عليكم السلام، ويقرأ القرّاء ويخطب الخطباء كما تقدّم فى ليالى الوُقُود فإذا آنتهت خَطَابة الخطباء، أخرج الأستاذ يده مشيرا بردّ السلام كما تقدّم، ثم تغلق الطاقتان وينصرف الناس إلى بيوتهم؛ وكذلك شأنهم فى مولد علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه الخاص فى أوقات معلومة عندهم من السنة .

الضرب الثانى
(ركوبه فى المواكب، وهو على نوعين)

النوع الأوّل
(ركوبه فى المواكب العظام، وهى ستة مواكب)

الموكب الاوّل
(ركوب أوّل العام)

وكان من شأنهم فيه أنه إذا كان العشر الآخر من ذى الحجة من السنة ، وقع

الاهتمام باخراج مايُحتاج إليه فى المواكب من حواصل الخليفة : فيُخْرَج من خزائن السلاح ما يحمله الرِّكابيــة وغيرهم حولَ الخليفة كالصَّماصم، والدَّبَابيس، واللُّتوت، وعمد الحديد، والسيوف، والدَّرَق، والرماح، والألوية، والأعلام . ومن خزانة التجمل برسم الوزير والأمراء وأرباب الخِـدَمِ الألويةُ والقُضُبُ، والعماريات، وغير ذلك مما تقدّم ذكره . ومن الإصطبلات مائةُ فرس مسوَّمة برسم ركوب الخليفة وما بجنبه . ويُخْرَج من خزانة السروج مائةُ سرج بالذهب والفضة مرصَّع بعضها بالجواهر بمراكب من ذهب، وفى أعناق الخيــل أطواق الذهب وقلائد العَنْبَرِ، وفى أرجل أكثرها خلاخل الذهب والفضة مسطحة، قيمة كل فرس وما عليها من العدّة ألف دينار، يُدْفَع للوزير منها عشرة بعدّتهـا برسم ركوبه وركوب أخصّائه، وتسلَّم إلىٰ المُنَاخات أغشية العماريات لتحمل علىٰ الجمال، إلىٰ غير ذلك من الآلات المستعملة فى المواكب ممـا تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ الخزائن، ويُبْعَث إلىٰ أرباب الخِدَم من الإصطبلات بخيول عادية ليركبوها فى الموكب . فإذا كان يوم التـاسع والعشرين من ذى الحجة، آستـدعىٰ الخليفة الوزير من داره علىٰ الرسم المعتـاد فى الإسراع، فإذا عاد صاحبُ الرسالة من آستدعاء الوزير، خرج الخليفة من مكانه راكبا فى القصر، فينزل فى السدِلّى، بدهليز باب الملك الذى فيه الشباك، وعليه ستر من ظاهره، فيقف من جانبه الأيمن زِمَامُ القصر، ومن جانبــه الأيسر صاحبُ بيت المـال ؛ ويركب الوزير من داره وبين يديه الأمراءُ، فإذا وصــل إلىٰ باب القصر تَرجَّلَ الأمراء وهو راكب، ويدخل من باب العيد، ولا يزال راكبا إلىٰ أوّل باب من الدهاليز الطِّوال، فينزل ويمشى فيها وحواليه حاشيتُــه ومَنْ يُرابُّه من أولاده وأقاربه . فإذا وصل إلىٰ الشُّبَّاك، وجد تحته كرسـيا كبيرا من حديد فيجلس عليــه ورجلاه تطأ الأرض، فإذا جلس، رفع كلٌّ من زمامِ القصر وصاحب بيت المـال

الستر من جانبه فيرى الخليفة جالسا على مرتبة عظيمة، فيقف ويسلم ويخدم بيده فى الأرض ثلاث مرّات، ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه فيجلس. ويستفتح القُرّاء بقراءة آيات لائقة بذلك المكان مقدارَ نصف ساعة؛ ثم يسلم الأمراء، ويُشْرَع فى عرض خيول الخاص المقدّم ذكرها واحدةً واحدةً إلى آخرها. فإذا تكمل عرضها، قرأ القرّاء مايناسب ختم ذلك المجلس. فإذا فرغوا أُرْخِى الستر وقام الوزير فدخل عليه فقبل يديه ورجليه، ثم ينصرف عنه فيركب من مكان نزوله ويخرج الأمراء معه إلى خارج فيَمْضُون معه إلى داره رُكْبانا ومُشاة على حسب مراتبهم.

فإذا صلّى الخليفة الظهر، جلس لعرض خزانة الكسوة الخاص وتعيين ما يُلْبَس فى ذلك الموكب ولباسِه فيه، فيعين مِنْديلًا لشدّ التاج، وبَدْلَةً من هذا النوع، والجوهرةَ الثمينةَ ومامعها من الجواهر المتقدّمة الذكر لشدّ التاج وتشدّ مِظَلّة تشبه تلك البدلة، وتلف فى مِنْديل دَبِيقِيّ فلا يكشفها إلا حاملُها عند ركوب الخليفة، ثم يشدّ لواءى الحمد المتقدّمى الذكر. فإذا كان أوّلُ يوم من العام، بكّر أربابُ الرُّتَبِ من ذوى السيوف والأقلام فلا يُصْبِح الصبح إلا وهم بين القصرين منتظرين ركوب الخليفة (وهو يومئذ فضاء واسع خال من البناء) ويبكر الأمراء إلى دار الوزير ليركبوا معه، فيخرج من داره ويركب إلى القصر من غير ٱستدعاء وأمامه ماشرّفه به الخليفة من الألوية والأعلام، والأمراء بين يديه ركبانا ومشاة، وأولاده وإخوته قدّامه، وكل منهم مرخى الذؤابة بلا حنك، وهو فى هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل والحَنَك متقلدا بالسيف الذهب. فإذا وصل إلى باب القصر، ترجّل الأمراء ودخل هو راكبا إلى محل نزوله بِدِهْليز القصر المعروف بدهليز العمود فيترجّل هناك ويمشى فى بقية الدهاليز حتّى يصِلَ إلى مَقْطَع الوزارة بقاعة الذهب هو وأولاده وإخوته وخواصُّ حاشيته، ويجلس الأمراء بالقاعة على دِكَك معدّة لهم،

ويُدْخَل فرسُ الخليفة إلىٰ باب المجلس الذى هو فيه ،وعلىٰ باب المجلس كرسىٌّ يركب من عليه . فإذا آستوت الدابة إلىٰ ذلك الكرسىّ ،أُخرجت المظلة إلىٰ حاملها فيكشفها ممـا هى ملفوفة فيه ويتسلمها بإعانة أربعة معدّين لخدمتها فيركزُها فى آلة من حديد تشبه القرن المصطحب مشـدودة فى ركاب حاملها الأيمن بقوّة، ويمسـك العمود بحـاجز فوق يده؛ ثم يخرج السـيف فيتسلمه حامله . فإذا تسـلمه أرخى ذُؤَابَتَـهُ فلا تزال مرخاة ما دام حاملا له ، ثم تُخْرَج الدواة فيتسلمها حاملهـا ويجعلها قدّامه بينه وبين السرج ، ثم يخرج الوزير عن المَقْطَع وينضم إليـه الأمراء ويقفون إلىٰ جانب فرس الخليفة ، ويرفع صاحب المجلس السترَ فيخرج مَنْ كان عنـد الخليفة للخدمة من الأستاذين ،ويخرج الخليفة فى أثرهم فى ثيابه المختصة بذلك اليوم وعلىٰ رأسه التاج الشريف والدرّة اليتيمة علىٰ جبهته ، وهو مُحَنَّكٌ مرخىّ الذؤابة ممـا يلى جانبه الأيسر متقلد بالسيف العربىّ وقضيبُ المُلْك بيده ، ويسلم علىٰ الوزير قوم مرتَّبون لذلك ،ثم علىٰ القاضى وعلىٰ الأمراء بعدهما ،ثم يخرج الأمراء وبعدهم الوزير فيركب ويقف قُبَالة باب القصر ، ويخرج الخليفة راكبا وفرسـه ماشيةٌ علىٰ بُسُط خَشْـيَةَ أن تَزْلَق علىٰ الرخام والأسـتاذون حوله . فإذا قارب الباب وظهر وجهُـهُ ، ضرب رجلٌ ببُوقٍ لطيف مُعْوَجّ الرأس متَّخَذٍ من الذهب يقال له الغريبة مخالف لصوت الأبواق ، فتضرب البوقات فى الموكب ، وتُنْشَر المظلة ، ويخرج الخليفة مـن باب القصر فيقف وقفةً يسـيرة بمقـدار ركوب الأسـتاذين المحنكين وغيرهم من أرباب الرتب الذين كانوا فى الخدمة بالقاعة ، ثم يسـير الخليفة فى الموكب وصاحبُ المظلة علىٰ يساره ، وهو يحْرِص أن لا يزول ظلها عن الخليفة ، ثم يكتنف الخليفةَ مقدّمو صِبْيان الركاب ، آثنـان منهم فى شكيمتى لجام فرسـه ، وآثنان فى عنق الفرس من الجانبين ، وآثنان فى ركابه من الجانبين أيضا ، والأيمن منهـما هو صاحب المِقْرَعة

الذى يناولها للخليفة و يتناولها منه، وهو الذى يؤدّى عن الخليفة مدّة ركوبه الأوامرَ والنواهىَ، واللواءان المعروفان بلواءى الحمد عن جانبيه، والمِذَبَّتَانِ عند رأس فرس الخليفة، والركابية يمينه وشماله نحو ألف رجل مقلدو السيوف مشدودو الأوساط بالمناديل والسلاح، وهم من جانبى الخليفة كالجناحين المادّين، بينهما فرجة لوجه الفرس ليس فيها أحد، وبالقرب من رأسها الصقلبيان الحاملان لِلمذَبتين، وهما مرفوعتان كالنخلتين. (ويترتب الموكب): أجناد الأمراء وأولادهم وأخلاط العسكر أمام الموكب وأدوان الأمراء يلونهم، وبعدهم أرباب القُضُبِ الفضة من الأمراء، ثم أرباب الأطواق منهم، ثم الأستاذون المحنكون، ثم أهل الوزير المتقدّم ذكرهم، ثم الحاملان للواءى الحمد من الجانبين، ثم حامل الدواة وحامل السيف بعده، وهما من الجانب الأيسر، وكل واحد ممن تقدّم ذكره بين عشرة إلىٰ عشرين من أصحابه، ثم الخليفة بين الركابية، وهو سائر علىٰ تُؤَدَةٍ ورِفْقٍ، وفى أوائل العسكر ومتقدّميه والِى القاهرة ذاهبا وعائدا لفسح الطرقات وتسيير مَنْ يقف، وفى وسط العسكر آسفهسلار يَحُث الأجناد علىٰ الحركة ويزجُر المتراحمين والمعترضين فى العسكر ذاهبا وعائدا، وفى زمرة الخليفة صاحب الباب لترتيب العسكر وحراسة طرقات الخليفة ذاهبا وعائدا، يلقى صاحبُ الباب آسفهسلارُ، واسفهسلارُ يلقىٰ والى القاهرة، وفى يد كل منهم دبُّوس، وخلف الخليفة جماعةٌ من الركابية لحفظ أعقابه، ثم عشرة يحملون عشرةَ سيوفٍ فى خرائط ديباج أحمرَ وأصفرَ يقال لها سيوف الدم برسم ضرب الأعناق، وبعدهم الحاملون للسلاح الصغير المتقدّم الذكر؛ ووراءه الوزير فى هيئة عظيمة، وفى ركابه نحو خمسمائة رجل ممن يختاره لنفسه من أصحابه، وقوم يقال لهم صبيان الزَّرَدِ من أقوياء الأجناد من جانبيه بفُرْجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة مجتهدا أن لا يغيب الخليفة عن نظره، وخلفه الطُّبول والصُّنوج والصفافير فى عدّة

كثيرة تَدْوِى من أصواتها الدنيا، ووراءَ ذلك حاملُ الرمح المقدّم ذكره والدرَقَةِ المنسوبة إلىٰ حمزة، ثم رجال الأساطيـل مشاةً ومعهم القِسِيّ العربية، وتسمّى قسىّ الرِّجْلِ والركاب، ما يزيد علىٰ خمسمائة رجل؛ ثم طوائف الرجال من المصامدة، ثم الريحانية والجُيُوشية، ثم الفرنجية، ثم الوزيرية: زُمْرةً بعد زُمْرةٍ فى عِدّة وافرة تزيد علىٰ أربعة آلاف؛ ثم أصحاب الرايات والسبعين، ثم طوائف العساكر: من الآمرية والحافظية والحجرية الكبار والحجرية الصِّغار والأفضلية والجيوشـية، ثم الأتراك المصطنعون، ثم الديلم، ثم الأكراد، ثم الغُزُّ المصطنعة وغيرهم ما يزيد علىٰ ثلاثة آلاف فارس .

قال آبن الطوير : وهذا كله بعضٌ مِنْ كلٍّ . وإذا ترتب الموكب علىٰ ذلك، سار من باب القصر الذى خرج منـه بين القصرين، يسـير بموكبه حتّى يخرج من باب النصر ويصـلَ إلىٰ حوض كان هناك يعرف بعز الملك علىٰ القرب من باب النصر، ثم ينعطف علىٰ يساره طالبا بابَ الفتوح، وربما عطف عند خروجه من باب النصر علىٰ يساره، وسار بجانب السُّور حتّى يأتى بابَ الفتوح فيدخل منـه . وكيفما كان فإنه يدخل منه، ويسـير الموكب حتّى ينتهىَ بين القصرين فيقف العسكرُ هناك علىٰ ما كان عليه عند الركوب ويترجّل الأمراء . فإذا آنتهىٰ الخليفةُ إلىٰ الجامع الأقمر، وقف هناك فى جماعته وينفرج الموكب للوزير فيتحرّك مسرعا ليصير أمام الخليفة . فإذا مرّ بالخليفة، سَكَع له سَكْعة ظاهرة، فيشير الخليفة بالسلام عليه إشارة خفيفة، وهذه أعظم كرامة تصـدُر من الخليفة، ولا تكون إلا للوزير صاحبِ السـيف . فإذا جاوز الوزيرُ الخليفةَ، سـبقه إلىٰ باب القصر ودخل راكبا علىٰ عادته والأمراءُ أمامه مشاةً إلىٰ الموضع الذى ركب منه بدهليز العمود المقدّم ذكره، فيترجل هناك ويقف هو والأمراءُ لآنتظار الخليفة . فإذا آنتهىٰ الخليفةُ إلىٰ باب القصر، ترجل الأستاذون المحنَّكون ودخل الخليفة القصر وهو راكب والأسـتاذون مُحْدِقون به .

فإذا انتهى إلى الوزير، مشى الوزير أمام وجه فرسه إلى الكرسي الذى ركب من عليه فيخدمه الوزيرُ والأمراء، وينصرفون ويدخل الخليفة إلى دُوره . فإذا خرج الوزير إلى مكانِ تَرَجُّلِه ركب، والأمراء بين يديه، وأقاربه حواليه إلى خارج باب القصر، فيركب منهم مَنْ يستحق الركوب، ويمشى من يستحق المشى، ويسيرون فى خدمته إلى داره، فيدخل راكبا وينزل على كرسى فيخدمه الجماعة وينصرفون، وقد رأى الناس من حسن الموكب ما أبهجهم وراق خواطِرَهم، ويتفرّق الناسُ إلى أماكنهم فيجدون الخليفة قد أرسل إليهم الغرّة : وهى دنانير رُبَاعية ودراهم خِفَاف مدوّرة، ويكون الخليفة قد أمر بضربها فى العشر الأخير من ذى الحجة برسم التفرقة فى هذا اليوم، لكل واحد من الوزير والأمراء وأرباب المراتب من حملة السيوف والأقلام قدرٌ مخصوص من ذلك، فيقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة، ويكتب إلى البلاد والأعمال مخلّقات بالبشائر بركوب أول العام كما يكتب بوفاء النيل وركوب المَيْدان الآن .

الموكب الثانى

(ركوب أوّل شهر رمضان)

وهو قائم عند الشيعة مَقَام رؤية الهلال ، والأمر فى العَرْض واللباس والآلات والركوب والموكب وترتيبه والطرق المسلوكة على ماتقدّم فى أول العام من غير فرق، ويكتب فيه المخَلَّقات بالبشائر كما يكتب فى أول العام .

الموكب الثالث

(ركوبه فى أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان)

وهى الجمعة الثانية [والثالثة(1)] والرابعة ، وذلك أنه إذا ركب إلى الجامع الأنور بباب البحر، بكَّر صاحب بيت المال إلى الجامع بالفَرْش المختص بالخليفة محمولا

(١) الزيادة ليست بالأصل ، ولكن سياق كلامه يدل عليها .

علىٰ أيدى أكابر الفرّاشـين ملفوفا فى العَرَاضى الدبيقية ، فيُفْرَشُ فى المحراب ثلاث طرّاحات إمّا شاميات ، وإمّا دَبيقى أبيض، منقوشة بالحمرة ، وتُفْرَش واحدة فوق واحدة، ويعلَّق ستران يَمْنَةً ويَسْرَةً ، فى الستر الأيمن مكتوب برقم حرير أحمر سُورةُ الفاتحة وسُورةُ الجمعة ، وفى الستر الأيسر سورةُ الفاتحة وسورةُ المنافقين كتابةً واضحة مضبوطة، ويصـعد قاضى القضاة المنبَر، وفى يده مِدْخنة لطيفة خَيْزُرَان يُحْضرها إليه صاحبُ بيت المـال وفيها نَدٌّ مثلَّث لايشم مثله إلاهناك، فيبخر ذِروة المِنْبر التى عليها القَنَا كالقبـة لجلوس الخليفة للخطابة ثلاث دَفَعات، ويركب الخليفـة فى هيئة ما تقدّم فى أوّل العام وأوّل رمضان : من المِظَلَّة والآلات ، ولباسُـه فيه الثياب البياض غير المُذْهَبة توقيرا للصلاة،والمِنْديل والطيلسان المقور . وحولَ ركابه خارج الركابية قرّاء الحضرة من الجانبين يرفعون أصواتهم بالقراءة نَوْبةً بعد نَوْبةٍ من حين ركوبه من القصر إلىٰ حين دخوله قاعة الخَطَابة ، فيدخل من باب الخطابة فيجلس فيهـا ، وإن آحتاج إلىٰ تجديد وضوء فعل، وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب وآسفهسلار وصِبيان الخاصّ، وغيرهم ممن يجرى مجراهم من أوّلها إلىٰ آخرها، وكذلك من داخلها من باب خروجه إلىٰ المنبر . فإذا أُذِّنَ للجمعة دخل إليه قاضى القضاة، فقال : "السلام علىٰ أمير المؤمنين الشريف القـاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته، الصلاةَ يرحمك الله" فيخرج ماشيا وحواليه الأستاذون المحنَّكُون والوزير وراءه، ومن يليهم من الأمراء من صِبْيان الخاص ، وبأيديهم الأسلحة حتّىٰ ينتهى إلىٰ المِنْبَر فيصعد حتّىٰ يصلَ إلىٰ الذّروة تحت القبة المُبخَّرة،والوزير علىٰ باب المنبر ووجهه إليه . فإذا آستوىٰ جالسا أشار إلىٰ الوزير بالصـعود فيصعد إلىٰ أن يصلَ إليه، فيُقَبِّلُ يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزرّ عليه تلك القبة وتصـير كالهودج، ثم ينزل مسـتقبلا للخليفة ويقف ضابطا للمنْبر . فإن لم يكن وزيرٌ صاحب

سيف، كان الذى يَزُرُّ عليه قاضى القضاة، ويقف صاحب الباب ضابطا للمنبر، فيخطب خطبة قصيرة من سَفَط يأتى إليه من ديوان الإنشاء، ويقرأ فيها آيةً من القرآن الكريم، ثم يصلى فيها علىٰ أبيه وجدّه يعنى النبىّ صلى الله عليه وسلم، وعلىّ ٱبن أبى طالب كرم الله وجهه، ويَعِظُ الناسَ وَعْظًا بليغا قليلَ اللفظ، ويذكر مَنْ سلف من آبائه حتّى يصل إلىٰ نفسه فيقول: "اللهم وأنا عبدك وٱبن عبديك لا أملِك لنفسى ضَرًّا ولا نفعا" ويتوسل بدعوات فخمة تليق به، ويدعو للوزير إن كان ثَمَّ وزيرٌ وللجيوش بالنصر والتآلف، وللعساكر بالظَّفَر، وعلىٰ الكافرين والمخالفين بالهلاك والقَهْر، ثم يختم بقوله ﴿ٱذْكُرُوا اللهَ يَذْكُرْكُمْ﴾ فيطلع إليه من زرّ عليه فيفُكُّ ذلك التزرير عنه، وينزل القَهْقَرىٰ، فيدخل[(1)] المحراب ويقف علىٰ تلك الطراحات إماما والوزير وقاضى القضاةِ صَفًّا، ومن ورائهما الأستاذون المحنكون والأمراء المطوّقون وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام، والمؤذّنون وقوفٌ وظهورهم لحائط المقصورةِ، والجامع مشحون بالعالَم للصلاة وراءه فيقرأ فى الركعة الأولىٰ ما هو مكتوب فى الستر الأيمن، وفى الثانية ما فى الستر الأيسر. فإذا سَمَّعَ الخليفةُ، سَمَّعَ القاضى المؤذنين، فيسمِّع المؤذنون الناسَ. فإذا فرغ خرج[(2)] الناس وركبوا أوّلا فأوّلا وعاد إلىٰ القصر والوزيرُ وراءه حتّى يأتى إلىٰ القصر، والطبول والبُوقات تضرب ذَهَابا وإيابا.

فإذا كانت الجمعة الثالثة من الشهر، ركب إلىٰ الجامع الأزهر كذلك وفعل كما فعل فى الجمعة الأولىٰ، لا يختلف فى ذلك غيرُ الجامع.

فإذا كانت الجمعة الرابعة منه، ركب إلىٰ الجامع العتيق بمصر ويزيّن له أهل القاهرة من باب القصر إلىٰ الجامع الطُّولونى، ويزيّن له أهل مِصْرَ من الجامع الطولونىّ إلىٰ

---

(١) لعله فينزل (أى الخليفة) فيدخل الخ. (٢) لعله خرج وخرج الناس الخ.

الجامع العتيق ، وقد نَدَب الواليان بالبلدين مَنْ يحفظ الناس والزينة . ويركب من باب القصر ويسير فى الشارع الأعظم بمصر، يمشى فى شارع واحد بين العمارة إلىٰ الجامع العتيق بمصر فيفعل كما فعل فى الجامعين الأوّلين من غير مخالفة . فإذا قضى الصلاة، عاد إلىٰ القاهرة من طريقه تلك إلىٰ أن يصل إلىٰ قصره، وفى خلال ذلك كلّه لا يمرّ بمسجد إلا أعطىٰ أهله دينارا علىٰ كَثْرة المساجد فى طريقه .

الموكب الرابع

(ركوبه لصلاة عيدى الفطر والأضحىٰ)

أما عيد الفطر فيقع الآهتمام بركوبه فى العشر الأخير من رمضان ، وتعبّى أهبة المواكب علىٰ ما تقدّم فى أوّل العام وغيره، وكان خارج باب النصر مصلًّى علىٰ رَبْوَةٍ وجميعها مبنىٌّ بالحجر ، ولها سور دائر عليها وقلعة علىٰ بابها ، وفى صدرها قبّةٌ كبيرة فى صدرها مِحْراب، والمنبر إلىٰ جانب القبة وسط المصلّى مكشوفا تحت السماء، آرتفاعه ثلاثون درجة وعَرْضه ثلاثة أذرع ، وفى أعلاه مصطبةٌ . فإذا كمل رمضان ، وهو عندهم ثلاثون يوما من غير نقص . فإذا كان اليوم الأوّل من شوّال ، سار صاحب بيت المال إلىٰ المصلّى خارج باب النصر، وفرش الطرّاحات بمحراب المصلّى ، كما تقدّم فى الجوامع فى أيام الجمع ، ويعلق سترين يَمْنَةً ويَسْرَةً ، فى الأيمن الفاتحةُ وسَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ الأَعْلىٰ ، وفى الأيسر الفاتحةُ ، وهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ ، ويركز فى جانبى المصلّى لواءين مشدودين علىٰ رمحين ملبسين بأنابيب الفِضة ، وهما منشوران مرخيان ، ويوضع علىٰ ذِرْوة المنبر طرّاحة من شاميات أو دبيق ، ويفرش باقيه بستر من بياض ، علىٰ مقداره فى تقاطيع درجه مضبوطة لا تتغير بالمشى وغيره ، ويجعل فى أعلاه لواءان مرقومان بالذهب يَمْنَةً ويَسْرَةً ، ثم سار الوزير من داره إلىٰ

قصر الخليفة علىٰ عادته المتقدّمة الذكر، ويركب الخليفة بهيئةِ المواكب العظيمة علىٰ ما تقــدّم فى أوّل العام : من المِظَلَّة والتاج وغير ذلك من الآلات ، ويكون لباســه فى هــذا اليوم الثيابَ البيض الموشَّحة المجومة ، وهى أجلُّ لباســه ومظالته كذلك ، ويخرج من باب العيد علىٰ عادته فى ركوب المواكب إلا أن العساكر فى هــذا اليوم من الأمراء والأجناد والركبان والمشاة تكون أكثر من غيره، وينتظم القوم له صَفَّيْنِ من باب القصر إلىٰ المصــلّىٰ ، ويركب الخليفــة إلىٰ المصلّىٰ فيدخل من شرقيّها إلىٰ مكان يستريح فيه دقيقةً، ثم يخرج محفوظا بحاشيته كما فى صلاة الجمع المتقدّمة الذكر فيصير إلىٰ المحراب، والوزير والقاضى وراءه كما تقدّم، فيصلى صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة، ويقرأ فى الركعة الأولىٰ مافى الستر الذى علىٰ يمينه، وفى الثانية مافى الستر الذى علىٰ يساره . فإذا فرغ وسلم، صعد المنبر لخَطَابة العيد . فإذا ٱنتهىٰ إلىٰ ذِرْوة المنبر، جلس علىٰ تلك الطرّاحة بحيث يراه الناس ، ويقف أســفل المنبر الوزيرُ، وقاضى القضاة ، وصاحب البــاب وٱسفهسلار ، وصاحب الســيف ، وصاحب الرسالة، وزِمَامُ القصر، وصاحب دفتر المجاس، وصاحب المِظَلَّة، وزِمَامُ الأشراف الأقارب ، وصاحب بيت المــال ، وحامل الرمح ، ونقيب الأشراف الطالبيــين . (١) ووجه الوزير إليه فيقبلهــما بحيث يراه النــاس، ثم يقوم فيقف علىٰ يَمْنَة الخليفة . فإذا وقف أشار إلىٰ قاضى القضاة بالصعود فيصــعد إلىٰ سابع درجة، ثم يتطلع إليه منتظرا مايقول، فيشير إليه فيُخْرِجُ من كُمِّهِ دَرْجا قد أُحْضِر إليه فى أمسه من ديوان الإنشاء بعد عرضــه علىٰ الخليفة والوزير، فيعلن بقراءة مضــمونه [ويقول] بعد البسملة : شُرِّف بصعود المنبر الشريف فى يوم كذا ، وهو عيد الفطر من سنة

(١) فيه سقط وفى المقريزى بعد هذا [فيشير إليه فيصعد و يقرب وقوفه منه و يكون وجهه موازيا رجليه فيقبلهما الخ].

كذا من عند أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بعد صعود السيد الأجل (يذكر نعوت الوزير المقررة والدعاء له) ثم ذكر من يُشَرِّفُه الخليفة بصعود المنبر من أولاد الوزير، ثم ذكر القاضى ولكنه يكون هو القارئ للثَّبَت فلا يسعه ذكر نعوته فيقول : المملوك فلان بن فلان ونحو ذلك ، ثم الواقفين علىٰ باب المنبر ممن تقدّم ذكره بنعوتهم واحدا واحدا، وكلما ذكر واحدا آستدعاه وطلع المنبر، كل منهم يعرف مقامه فى المنبر يَمْنَةً ويَسْرَةً . فإذا لم يبق أحد ممن أُطلع إلىٰ المنبر، أشار الوزير إليهم فأخذ كل مَنْ هو فى جانب بيده نصيبا من اللواء الذى بجانبه فيستتر الخليفة ويستترون، وينادىٰ فى الناس بالإنصات، فيخطب الخليفةُ خطبةً بليغةً مناسبة لذلك المقام ، يقرؤها من السَّفَط الذى يُحْضَر إليه مسطَّرا من ديوان الإنشاء كما فى جُمَع رمضان المتقدمة الذكر . فإذا فرغ من الخطبة ، ألقىٰ كلُّ مَنْ فى يده شىءٌ من اللواء خارج المنبر، فينكشفون وينزلون القهقرىٰ أوّلا بأول الأقرب فالأقرب . فإذا خلا المنبر للخليفة ، هبط ودخل المكانَ الذى خرج منه ، فيلبث قليلا ثم يركب فى هيئته التى أتىٰ فيها إلىٰ المصلّى، ويعود فى طريقه التى أتىٰ منها . فإذا قرب من القصر، تقدّمه الوزير علىٰ العادة، ثم يدخل من باب العيد الذى خرج منه، فيجلس فى الشُّبَّاك الذى فى الإيوان الكبير، وقد مدّ منه إلىٰ فسقية فى وسط الإيوان مقدار عشرين قصبة سِمَاطٌ فيه من الخُشْكان والبسندود، وغير ذلك مما يعمل فى العيد مثلُ الجبل الشاهق ، كل قطعة ما بين ربع قنطار إلىٰ رطل واحد ، فيأكل مَنْ يأكل وينقلُ مَنْ ينقلُ لا حَجْر عليه ولا مانع دونه ، ثم يقوم من الإيوان فيركب إلىٰ قاعة الذهب فيجد سرير الملك قد نُصِب ، ووضع له مائدة من فضة ، ومدّ السماط تحت السرير فيترجل عن السرير، ويجلس علىٰ المائدة، ويستدعى الوزيرَ فيجلس معه، ويجلس الأمراء علىٰ السِّماط ولا يزال كذلك حتّى

يستهدم السماط قريبَ صلاة الظهر؛ ثم يقوم وينصرف الوزير إلىٰ داره والأمراء فى خدمته فيمدّ لهم سماطا يأكلون منه وينصرفون .

وأما عيد الأضحىٰ، فإنه إذا دخل ذو الحجة وقع الاهتمام بركوبه. فإذا كان يوم العيد، ركب الخليفة علىٰ ما تقدّم فى عيد الفِطْر من الزّىّ والترتيب والركوب إلىٰ المصلّىٰ، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمرَ الموشّحَ، ومِظَلَّته كذلك، ويخرج إلىٰ المصلّىٰ خارج باب النصر ويخطب، ثم يعود إلىٰ القصر كما فى عيد الفطر من غير زيادة ولا نقص؛ ثم بعد دخوله إلىٰ القصر يخرج من باب الفَرَج، وهو باب القصر الذى كان مسامتا لدار سعيد السُّعَداء التى هى الخانقاه الآن، فيجد الوزيرَ راكبا علىٰ الباب المذكور، فيترجل الوزيرُ، ويمشى فى خدمته إلىٰ المَنْحَر، وهو خارج الباب المذكور. وكان إذ ذاك فضاء واسعا لا بِناءَ فيه، وهناك مصطبة مفروشة فيطلُع عليها الخليفةُ والوزيرُ وقاضى القضاة والأستاذون المحنَّكون وأكابر الدولة، ويكون قد سبق إلىٰ المنحر أحدٌ وثلاثون فصيلا وناقةٌ للأضحية، وبيده حربة، وقاضى القضاة ممسك بأصل سِنَانها، وتُقَدَّم إليه الأضحية رأسا رأسا فيجعل القاضى السنانَ فى نحر النحيرة ويطعن به الخليفة فى لَبَّتِها، فتخرّ بين يديه حتّىٰ يأتى علىٰ الجميع، ثم يُسَيِّرُ رسومَ الأضحية إلىٰ أرباب الرسوم المقرّرة، وفى اليوم الثانى يساق إلىٰ المنحر سبعةٌ وعشرون رأسا، ويركب الخليفة فيفعل بها كذلك، وفى اليوم الثالث يساق إليه ثلاثٌ وعشرون رأسا فيفعل بها كذلك. فإذا انقضىٰ ذلك فى اليوم الثالث وعاد الخليفة إلىٰ القصر، خلع علىٰ الوزير ثيابه الحمرَ التى كانت عليه يوم العيد، ومنديلا بغير اليتيمة والعقد المنظوم بالجوهر، ويركب الوزيرُ بالخِلْعة من القصر، ويشق القاهرةَ بالشارع سالكا إلىٰ الخليج فيسير عليه حتّىٰ يدخل من باب القنطرة إلىٰ دار الوزارة، وبذلك انفصال العيد. ثم أوّل نحيرة تنحر تقدّد وتُسَيَّرُ إلىٰ داعى اليَمَنِ فيفرّقها علىٰ المعتَقدين من وزن نصف درهم

إلىٰ وزن ربع درهم، وباقى ذلك يفرّق علىٰ أرباب الرسوم فى أطباق للبَرَكة، وأكثره يُفرِّقُه قاضى القضاة وداعى الدُّعاة علىٰ الطلبة بدارالعدل والمتصدّرين بجوامع القاهرة، وفى اليوم الأوّل يمدّ السماط بقاعة الذهب علىٰ ماتقدّم فى عيد الفطر من غير فرق .

الموكب الخـامس

(ركوبه لتخليق المقياس عند وفاء النيل)

قد تقدّم عند ذكر النيل فى الكلام علىٰ الديار المصرية ٱبتداءُ زيادة النيل ووفاؤه وٱنتهاؤه ، وذكرُ المناداة عليــه علىٰ ما الأمر مستقرّ عليــه . إلا أنه فى زمن هؤلاء الخلفاء لم يكن ينادىٰ عليه قبــل الوفاء، وإنمـا يؤخذ قاعُه وتكتب به رُقْعَةٌ للخليفة والوزير، ثم ينزل بديوان الرسائل فى مسير معدّ له فى الديوان ، ويستمرّ الحال علىٰ ذلك فى كل يوم ترفع رُقْعة إلىٰ ديوان الإنشاء بالزيادة لايطّلِـع عليها غير الخليفة والوزير، وأمره مكتوم إلىٰ أن يبقىٰ من ذراع الوفاء (وهو السـادس عشر) أصبعٌ أو أصبعان، فيؤمر بأن يبيت فى جامع المِقياس تلك الليلة قُرَّاءُ الحضرة والمتصدّرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم لختم القرءان الكريم فى تلك الليلة هناك، ويمدّ لهم السماط بالأطعمة الفاخرة، وتوقد عليهم الشموع إلىٰ الصبح . فإذا أصبح الصبح وأذن الله تعالىٰ بوفاء النيل فى تلك الليــلة ، طلعت رُقْعة ٱبن أبى الرّداد إلىٰ الخليفة ، فتُحضَرْ إليه بالقصر، فيركب الخليفةُ فى هيئة عظيمة من الثياب الفـاخرة والموكب العظيم، إلا أنه يلبس التاج الذى فيه اليتيمة، ولا يُخَلَّى المظلة علىٰ رأســه فى ذلك اليوم ، ويركب الوزيرُ وراءه فى الجمع العظيم علىٰ ترتيب الموكب، ويخرج من القصر شاقا القـاهرةَ إلىٰ باب زويلة فيخرج منه، ويسلك الشارع إلىٰ أن يجاوز البستان المعروف بعباس عنــد رأس الصَّلِيبة بالقرب من الخانقاه الشيخونية

الآن، فيعطف سالكا على الجامع الطولونى والجسر الأعظم حتى يأتى مصر، ويدخل من الصناعة — وهى يومئذ فى غاية العمارة، وبها دِهْلِيزٌ ممتد بمصاطب مفروشة بالحصر العبدانى مؤزّر بها — ويخرج من بابها شاقًّا مصر حتى يأتى المنظرة المعروفة برواق الملك على القرب من باب القنطرة، فيدخلها من الباب المواجه له والوزيرُ معه ماشيا إلى المكان المعدّ له، ويكون العشارى الخاص المعبّر عنه الآن بالحرّاقة واقفا هناك بشاطئ النيل، وقد حُمِل إليه من القصر بيتٌ مثمن من العاج والآبِنُوس كل جانب منه ثلاثة أذرع، وطوله قامةُ رجل تامّ، فيركب فى العشارى المذكور وعليه قبة من خشب محكم الصنعة، وهو وقُبّته ملبَّس صفائح الفضة المُذْهَبة، ثم يخرج الخليفة من دار الملك المذكورة ومعه من الأستاذين المحنّكين من يختاره من ثلاثة إلى أربعة، ثم يطلُع خوّاص الخليفة إلى العشارى والوزيرُ ومعه من خواصّه آثنان أو ثلاثة لاغير، فيجلس الوزير فى رُواقٍ بظاهر البيت المذكور، بفوانيس من خشب مخروط مدهونة مُذْهَبة، بستور مسدَلة عليه، ويسير العشارى من باب المنظرة إلى باب المِقْياس العالى على الدَّرَج، فيطلع من العشارى، ويدخل إلى الفسقية التى فيها المقياس، والوزير والأستاذون المحنكون بين يديه، فيصلّى هو والوزير كلٌّ منهما ركعتين بمفرده، ثم يؤتى بالزّعفران والمسك فيَديفه فى إناء بيده بآلة معه، ويتناوله صاحب بيت المال فيناوله لآبن أبى الرّدّاد، فيُلْقِى نفسه فى الفسقية بثيابه فيتعلق فى العمود برجليه ويده اليسرى ويُخَلِّقه بيده اليمنى، وقرّاء الحضرة من الجانب الآخر يقرءُون القرءان، ثم يخرج على فوره راكبا فى العشارى المذكور، ثم يعود إلى دار الملك، ويركب منها عائدا إلى القاهرة، وتارة ينحدر فى العشارى إلى المَقْس، ويتبعه الموكب فيسير من هناك إلى القاهرة. ويكون فى البحر ذلك اليوم نحوُ ألف مركب مشحونة بالناس للتفرّج وإظهار الفرح. فإذا كان اليوم الثانى من التخليق أتى آبن أبى الرّدّاد

إلىٰ الإيوان الكبير الذى فيـه الشُّبَّاك بالقصر فيجد خِلْعة مُذْهَبـةً بطَيْلَسان مقوّر ، ويُدْفَعُ إليه خمسـة أكياس فى كل كيس خمسمائة درهم مهيأة له ، فيلبس الخِلْعـة ، ويخرج من باب العيد المتقدّم ذكره فى أبواب القصر، وقد هيئ له خمس بغال علىٰ ظهورها الأحمال المزَيَّنَةُ بالحلىّ ، علىٰ ظهر كل منهـا راكب وبيده أحد الأكياس الخمسة المتقدّمة الذكر ظاهرٌ فى يده ، وأقاربه وبنوعمه يحجبونه وأصدقاؤه حوله ، وأمامه حِمْلان من النَّقَّارات السلطانية ، والأبواقُ تضرب أمامه ، والطبل وراءه مثل الأمراء ، فيشق بين القصرين ، وكلمـا مر علىٰ باب من أبواب القصر يدخل منـه الخليفة أو يخرج ، نزل فقَبَّلَه ، ويخرج من باب زويلة فى الشارع الأعظم حتّى يأتى مِصْرَ فيشقُّ وسَطَها و يمرّ بالجامع العتيق ، ويجاوزه إلىٰ شاطئ النيل فيعدّى إلىٰ المقياس بخِلْعته ومامعه من الأكياس ، فيأخذ من الأكياس قدرا مقرّرا له ، ويفرّق باقى ذلك علىٰ أرباب الرسوم الجارية من قديم الزمان من بنى عمه وغيرهم .

الموكب السادس

(ركوبه لفتح الخليج)

وهو فى اليوم الثالث أو الرابع من يوم التخليق المتقدّم ذكره ، وليس كما فى زماننا من فتحه فى يوم التخليق ؛ وكان يقع الاهتمام عنـدهم بركوب هـذا اليوم من حين يأخذ النيل فى الزيادة ، وتعـمل فى بيت المـال موائدُ من التمـاثيل المختلفـة : من الغِزْلان ، والسباع ، والفِيَـلةِ ، والزَّرَارِيف عدّة وافرة ، منها ما هو ملبَّس بالعنبر ، وما هو مُلَبَّسٌ بالصندل ، مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب ، وكذلك يُعْمَلُ أشكالُ التُّفَّاحِ والأُتْرُجِّ وغير ذلك ، وتخرج الخَيْمَةُ العظيمة المعروفة بالقاتول المتقدّمة الذكر فتنصب للخليفـة فى بَرِّ الخليج الغربىّ علىٰ حافته عنـد مَنْظَرة يقال لهـا السكَّرة علىٰ

القرب من فم الخليج، ويُلَفُّ عمودُ الخيمة بديبـاج أحمرَ أو أبيض أو أصـفر من أعلاه إلىٰ أسفله، وينصب فيها سرير الملك مستندا إليه ويغشّى بقُرْقوبىّ، وعرانيسه ذهبٌ ظاهرة، ويوضع عليه مَرْتبة عظيمة من الفرش للخليفة؛ ويضرب لأرباب الرُّتَبِ من الأمراء بَحْرِىّ هذه الخيمة خِيَمٌ كثيرة علىٰ قدر مراتبهم فى المقدار والقرب من خيمة الخليفة؛ ثم يركب الخليفة علىٰ عادته فى المواكب العظيمة بالمِظَلَّة وتوابعها من السيف والرمح والألوية والدواة وسائر الآلات، ويزاد فيه أربعون بُوقا: عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة، يكون المنفِّرون بها ركبانا، والمنفِّرون بالأبواق النُّحَاس مشـاةً، ومن الطبول العظام عشرة طبول. فإذا كان يومُ الركوب، حضر الوزير من دار الوزارة راكبا فى هيئة عظيمة، ويركب حينئذ إلىٰ باب القصر الذى يخرج منه الخليفة، ويخرج الخليفة من باب القصر راكبا والأستاذون المحنَّكُون مشاةٌ حوله، وعليـه ثوب يسـمّى البدنة حريرٌ مرقومٌ بذهب، لايلبسه غير ذلك اليوم، والمظلة بنسبته؛ فيركب الأسـتاذون المحنَّكُون ويسير الموكب علىٰ الترتيب المتقدّم فى ركوب أوّل العـام سائرا فى الطريق التى ذهب فيها للتخليق حتّى يأتىَ الجـامع الطولونىّ؛ ويكون قاضى القضاة وأعيانُ الشهود جلوسا ببابه من هذه الجهة، فيقف لهم الخليفة وقفةً لطيفةً، ويسلم علىٰ القاضى، فيتقدّم القاضى ويُقَبِّلُ رجله التى من جانبه، ويأتى الشهود أمام وجه فرس الخليفة، ويقفون بمقـدار أربعة أذرع عن الخليفة فيسـلم عليهم، ثم يركبون ويسير الموكب حتّى يأتى ساحل الخليج، فيسير حتّى يقارب الخليفةُ الخيمةَ، فيتقدّمه الوزير علىٰ العادة، فيترجل علىٰ باب الخيمة، ويجلس علىٰ المرتبة الموضوعة له فوقه(١)، ويحيط به الأستاذون المحنكون والأمراء المطوّقون بعدهم؛ ويوضع للوزير كرسيهُّ الجارى به العادة علىٰ ما تقدّم فى جلوسـه فى القصر، فيجلس

(١) أى فوق السرير المتقدم وصفه قريبا.

ورجلاه يحُكّان الأرض، ويقف أرباب الرُّتَبِ صـفين من سرير المُلْك إلىٰ باب الخيمة، وقرّاء الحضرة يقرءُون القرءان سـاعة زمانيــة . فإذا فرغوا من القراءة، ٱستأذن صاحبُ الباب علىٰ حضور الشعراء للخدمة، فيؤذن لهم فيتقدّمون واحدا بعد واحد علىٰ مقدار منازلهم المقرّرة لهم ، ويُنْشِدُ كلٌّ منهم ما وقع له نظمه ممـا يناسب الحـال . فإذا فرغ أتىٰ غيره وأنشــد ما نظمه إلىٰ أن يفرغ إنشادهم ، والحاضرون ينتقدون علىٰ كل شاعر ما يقوله ، ويُحَسِّنُون منه ما حَسُنَ ويُوهُّون منه ما وهىٰ . فإذا ٱنقضىٰ هذا المجلس، قام الخليفة عن السرير فركب إلىٰ المنظرة المعروفة بالسكّرة بقرب الخيمة والوزير بين يديه ، وقد فُرِشت بالفُرُش المعدّة لهـا، فيجلس الخليفة بمكان معــدّ له منها ، ويجلس الوزيرُ بمكان منها بمفرده ، ويجلس القاضى والشهودُ فى الخيمة البيضاء الدبيقية، فيُطِلُّ منها أستاذ من الأستاذين المحنكين فيشير بفتح السدّ فيفتح بالمَعَاول، وتضرب الطبول والأبواق من البرّيـن ، وفى أثناء ذلك يصــل السِّماط من القصر صحبةَ صاحب المائدة القائم مقام أستاذ دار الصحبة الآن، وعدّتها مائة شدّة فى الطيافير الواسعة فى القوارير الحرير، وفوقها الطرّاحات النفيسة، وريح المسك والأفاويه تفوح منها، فتوضع فى خيمة وسـيعة معــدّة لذلك، ويحمل منهـا للوزير وأولاده ما جرت به عادتهم، ثم لقاضى القضاة والشهود، ثم إلىٰ الأمراء علىٰ قدر مراتبهم : علىٰ أنواع الموائد من التمـاثيل المقدمة الذكر خلا القاضى والشهود، فإنه لايكون فى موائدهم تمـاثيل . فإذا ٱعتدل المـاء فى الخليج دخلت فيه العشاريات اللطاف ووراءها العشـاريات الكبار، وهى سـبعة : الذهبىّ المختص بالخليفــة ، وهو الذى يركب فيه يوم التخليق ، والفِضّىُّ ، والأحمر ، والأصـفر ، والأخضر، واللّازَوَرْدِىُّ ، والصـقلىّ ، وهو عشارى أنشأه نجّارٌ من صقلية علىٰ الإنشاء المعتاد فنسب إليه، وعليها الستور الدبيق الملوّنة ، وفى أعناقها الأهلة وقلائد العنبر والخرز

الأزرق، وتسير حتى ترسُوَ على بر المنظرة التى فيها الخليفة . فإذا صلى الخليفةُ العصر، ركب لابسا غير الثياب التى كانت عليه فى أوّل النهار، ومِظلّته مناسبة لثيابه التى لبسها، وباقى الموكب على حاله ، ويسير فى البر الغربىّ من الخليج شَاقًّا للبساتين حتى يصلَ إلى باب القنطرة فيعطف على يمينه ويسير إلى القصر، والوزير تابعه على الرسم المعتاد، فيدخل الخليفة قصره، ويمرّ الوزير إلى داره على عادته فى مثل ذلك اليوم .

وذكر القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : أنه إذا ركب من المنظرة المعروفة بالسكرة، سار فى بر الخليج الغربىّ على ما تقدّم ذكره حتى يأتىَ بستان الدكة، وقد عُلِّقت دهاليزه بالزينة فيدخله وحده ويسقى منه فرسه ، ثم يخرج حتى يقف على الرعنة المعروفة بخليج الدار، ويدخل من باب القنطرة ويسير إلى قصره .

النوع الثانى
(من مواكبهم المواكب المختصرة فى أثناء السنة)

وهى أربعة أيام أو خمسة فيما بين أوّل العام ورمضان ولا يتعدّى ذلك يومى السبت والثلاثاء . فإذا عزم على الركوب فى يوم من هذه الأيام، قدّم تفرقة السلاح على الركابية على ما تقدّم ذكره فى أوّل العام ، وأكثرُ ما يكون ركوبه إلى مصر، فيركب والوزير وراءه على أخصرَ من النظام المتقدّم له فى المواكب العظام وأقلَّ جمعا، ولبسه فى هذه الأيام الثياب المُذْهَبَةُ من البياض والملوّن ومنديلٌ من نسبة ذلك مشدودة بشدة عسر (١) شدات غيره ، وذوائبه مرخاة تقرب من جانبه الأيسر، وهو مقلد بالسيف العربىّ المجوهر بغير حنك ولا مظلة، ويخرج شاقا القاهرة فى الشارع الأعظم حتى يجاوز الجامع الطولونىّ على المشاهد إلى الجامع العتيق . فإذا وصل إلى بابه، وجد الخطيب قد وقف على مصطبة بجانبه فيها محراب، مفروشةٍ

---

(١) كذا فى الأصل ولعله غير شدات .

بحصير وعليها سجادة معلقة، وفى يده المصحف الكريم المنسوب خطه إلىٰ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه فيناوله المصحف من يده فيقبله و يتبرك به و يأمر له بعطاء يفرّق علىٰ أهل الجامع .

الضرب الثـالث

(من هيئة الخليفة هيئته فى قُصُوره)

قال ٱبن الطوير : كان له ثياب يلبَسُها فى الدور أكمامها علىٰ النصف من أكمام ثيـابه التى يلبسها فى المواكب، وكان من شأنه أنه لاينصرف من مكان إلىٰ مكان فى القصر فى ليل أو نهار إلا وهو راكب، ولا يقتصر فى القصر علىٰ ركوب الخيـل بل يركب البغال والحمير الإناث لمـا تدعوه الضرورة إليــه من الجواز فى السراديب القصيرة والطلوع علىٰ الزلاقات إلىٰ أعلىٰ المناظر والمساكن ، وله فى الليل نسوة برسم شدّ مايحتاج إلىٰ ركوبه من البغال والحمير، وفى كل محلة من محلات القصر فَسْـقِيَّةٌ مملوءة بالمـاء خِيفَةً من حدوث حريق فى الليل ، ويبيت خارج القصر فى كل ليلة خمسون فارسا للحِراسة . فإذا أُذِّن بالعشاء الآخرة داخلَ قاعة الذهب وصلّىٰ الإمامُ الراتبُ فيها بالمقيمين من الأستاذين وغيرهم، وقف علىٰ باب القصر أميرٌ يقال له سِنَان الدولة ـ مقام أمير جاندار الآن ـ فإذا علم بفراغ الصلاة تضرب البوقيةُ من الطبول والبوقات وتوابعها علىٰ طريق مستحسنة ساعةً زمانية، ثم يخرج أسـتاذ برسم هذه الخدمة فيقول : "أمير المؤمنين يردّ علىٰ سـنان الدولة السلام" فيغرِز سنان الدولة حربةً علىٰ الباب ثم يرفعها بيــده ، فإذا رفعها أغلق الباب، ودار حول القصر سبعَ دَوْرات . فإذا ٱنتهىٰ ذلك جعـل علىٰ الباب البوّابين والفرّاشـين وأوىٰ المؤذّنون إلىٰ خزائنَ لهم هناك، وتُرْمىٰ السلسلة عند المضيق :آخر بين القصرين عند السيوفيين

فينقطع المارّ من ذلك المكان إلىٰ أن تضرب البوقية سَحَرا قربَ الفجر فتُرفَع السلسلة ويجوز الناس من هناك .

الجمـــــــلة السادسة

(فى آهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور وآعتنائهم بأمر الجهاد، وسيرهم فى رعاياهم، وآستمالة قلوب مخالفيهم)

أمّا آهتمامهم بالأسـاطيل وحفظ الثغور وآعتناؤهم بأمر الجهاد، فكان ذلك من أهمّ أمورهم، وأَجَلِّ ما وقع الآعتناءُ به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبـة بجميع بلادهم الساحلية كالإسْكَنْدَرِيَّة ودِمْياطَ من الديار المصرية،وعَسْقَلان وعَكَّا وصُور وغيرها من سواحل الشام،حين كانت بأيديهم،قبل أن يغلبهم عليها الفرنج؛ وكانت جريدة قوّادهم تزيد علىٰ خمســة آلاف مقاتل مدوّنة ، وجوامكهم فى كل شهر من عشرين دينـارا إلىٰ خمســة عشر دينارا إلىٰ عشرة إلىٰ ثمـانية إلىٰ دينارين ، وعلىٰ الأسطول أمير كبيرٌ من أعيان الأمراء وأقواهم جاشا؛وكان أسطولهم يومئذ يزيد علىٰ خمسة وسبعين شينيا وعشر مسطحات وعشر حمالات ، وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع . فإذا أراد الخليفــة تجهيزها للغزو ، جلس للنفقة بنفســه حتىٰ يكملهـا ، ثم يخرج مع الوزير إلىٰ ساحل النيــل بالمَقْسِم ، فيجلس فى مَنْظَرَةٍ كانت بجامع باب البحر والوزير معه للوادعة(١)، ويأتى القُوّادُ بالمراكب إلىٰ تحت المنظرة ، وهى مزينة بالأسلحة والمَنْجَنيقات واللعب منصوبة فى بعضها ، فتســيِّر بالمجاديف ذَهَاباً وعَوْدًا كما يُفْعَلُ حالة القتال ، ثم يحضر إلىٰ بين يدى الخليفة المُقَــدَّمُ والريِّسُ فيوصيهما ويدعو لهم بالسلامة،وتنحدر المراكب إلىٰ دِمْيَاطَ وتخرج إلىٰ البحر المِلْح، فيكون لهـا فى بلاد العــدوّ الصِّيتُ والسُّمْعة . فإذا غنموا مَرْكَبًا آصطفىٰ الخليفــة

(١) أى التوديع . وقد جرىٰ فيه وفى كثير غيره علىٰ آصطلاحات العامة .

لنفسه السبْىَ الذى فيه من رجال أو نساء أو أطفال، وكذلك السلاح، وما عدا ذلك يكون للغانمين لا يُساهَمُون فيــه . وكان لهم أيضا أسطول بعَيْذَاب يتلقّى به الكارم فيما بين عَيْــذَابَ وسواكن ، وما حولهــا خوفا علىٰ مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب، فيحميهم الأسطول منهم، وكان عدّة هذا الأسطول خمسة مراكب، ثم صارت إلىٰ ثلاث، وكان والِى قُوص هو المتولِّى لأمر هذا الأسطول، وربما تولاه أمير من الباب، ويحمل إليه من خزائن السلاح مايكفيه .

وأمّا سَيْرُهم فى رعيتهم وٱستمــالة قلوب مخالفيهم ، فكان لهم الإقبال علىٰ من يَفِدُ عليهم من أهل الأقاليم جلَّ أو دَقَّ ، ويقابلون كل أحد بمـا يليق به من الإكرام ، ويعوّضون أرباب الهدايا بأضعافها . وكانوا يتألَّفُون أهل السُّنَّة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شــعائرهم علىٰ ٱختلاف مذاهبهم، ولا يمنعون من إقامة صــلاة التراويح فى الجوامع والمساجد علىٰ مخالفــة معتَقَدهم فى ذلك (١) بذكر الصحابة رضوان الله عليهم، ومذاهب مالك والشــافعىّ وأحمد ظاهرة الشِّعار فى مملكتهم ، بخلاف مذهب أبى حنيفة، ويُراعُون مذهب مالك، ومَنْ سألهم الحكم به أجابوه، وكان من شأن الخليفة أنه لايكتب فى علامته إلا "الحمد لله رب العالمين" ولا يخاطب أحدا فى مكاتبته إلا بالكاف حتّٰى الوزير صاحب السيف ، وإنمـا المكاتبات عن الوزير هى التى تتفاوت مراتبها، ولا يخاطب عنهــم أحدٌ إلا بنعت مقرّر له ودعاء معروف به، ويراعون من يموت فى خدمتهم فى عقبــه ، وإن كان له مرتب نقلوه إلىٰ ذرّيته من رجال أو نساء .

---

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

الجمـــــلة السـابعة

(فى إجراء الأرزاق والعطاء لأرباب الخدم بدولتهم،
وما يتصل بذلك من الطعمة)

أمّا إجراء الأرزاق والعطاء، فقد تقدّم أن ديوان الجيوش كان عندهم علىٰ ثلاثة أقسام : قسم يختص بالعرض وتحلية الأجناد وشِيَات دوابّهم، وقسم يختص بضبط إقطاعات الأجناد ، وقسم يختص بمعرفة ما لكل مرتزق فى الدولة من راتب وجار وجراية، ولكل من الثلاثة كُتَّابٌ يختصون بخدمته . والقسم الثالث هو المقصــود هنا، وكان راتبهم فيه بالدنانير الجَيْشية، وكان يشتمل علىٰ ثمانية أقسام .

الأوّل ــ فيه راتب الوزير وأولاده وحاشيته .

فراتب الوزير فى كل شهر خمسة آلاف دينار، ومَنْ يليه من ولد أو أخ من ثلثمائة دينـار إلىٰ مائتى دينار، ولم يقرّر لولد وزير خمسُمائة دينار سوىٰ الكامل بن شاور، ثم حواشيه من خمسمائة دينار، إلىٰ أربعمائة دينار، إلىٰ ثلثمائة دينار خارجا عن الإقطاعات

الثانى ــ فيه حواشى الخليفة .

فأوّلهم الأستاذُون المحنكون علىٰ رُتَبِهِمْ . فزِمَامُ القصر، وصاحبُ بيت المـال ، وحامل الرسالة، وصاحب الدفتر، وشادُّ التاج ، و زِمَامُ الأشراف الأقارب، وصاحب المجلس ، لكل واحد منهم فى الشهر مائة دينار ، ثُمَّ مَنْ دونهم من تسعين دينارا إلىٰ عشرة دنانير علىٰ تفـاوُت الرُّتَب . و فى هــذا طبيبا الخاص، ولكل واحد منهـما فى الشهر خمسون دينارا، ولمن دونهما من الأطباء المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير .

الثالث ــ فيه أرباب الرُّتَب بحضرة الخليفة .

فأوّل مسطور فيه كاتبُ الدَّسْت ــ وهو المعبَّر عنه الآن بكاتب السرّ ــ وله فى الشهر مائة وخمسون دينارا، ولكل واحد من كُتَّابه ثلاثون دينارا ــ ثم الموقِّع بالقلم الدقيق، وله مائة دينار ــ ثم صاحب الباب، وله مائة وعشرون دينارا ــ ثم حامل السيف وحامل الرمح، ولكل منهما سبعون دينارا؛ وبقيَّة الأزِمَّة على العساكر والسودان من خمسين دينارا، إلى أربعين دينارا، إلى ثلاثين .

الرابع ــ فيه قاضى القضاة، وله فى الشهر مائة دينار ــ وداعى الدُّعاة وله مثله؛ وقُرَّاء الحضرة، ولكل منهم عشرون دينارا، إلى خمسة عشر دينارا، إلى عشرة .

الخامس ــ فيه أرباب الدواوين ومن يجرى مَجْراهم .

فأوّلهم مُتَوَلِّى ديوان النظر، وله فى الشهر سبعون دينارا ــ ثم متولى ديوان التحقيق، وله خمسون دينارا ــ ثم متولى ديوان المجلس، وله أربعون دينارا ــ ثم متولى ديوان الجيوش، وله أربعون دينارا؛ ثم صاحب دفتر المجلس، وله خمسة وثلاثون دينارا؛ ثم الموَقِّع بالقلم الجليل القائم مقام كاتب الدَّرْج الآن، وله ثلاثون دينارا . ولكل مُعِين عشرة دنانير، إلى سبعة، إلى خمسة .

السادس ــ فيه المستخدمون بالقاهرة ومصر فى خدمة واليهما، ولكل واحد منهما خمسون دينارا ــ وللحُمَاة بالأهراء والمُنَاخات والحوالى والبساتين والأملاك وغيرها لكل منهم مايقوم به من عشرين دينارا، إلى خمسة عشر، إلى عشرة، إلى خمسة .

السابع ــ فيه عدة الفرّاشين برسم خِدْمَةِ الخليفة والقصور وتنظيفها خارجا وداخلا ونصب الستائر المحتاج إليها والمناظر الخارجة عن القصر، ولكل منهم فى الشهر ثلاثون دينارا فما حولها ــ ثم مَنْ يليهم من الرشّاشين داخل القصر وخارجه وهم نحو ثلثمائة رجل، ولكل منهم من عشرة دنانير إلى خمسة .

الثامن – فيه الركابية ومقدّموهم ، ولكل من مقدّميهم فى الشهر خمسون دينارا وللركابية من خمسة عشر دينارا إلىٰ عشرة إلىٰ خمسة .

وأمّا الطعمة فعلى ضربين .

الضرب الأوّل

(الأسمطة التى تمدّ فى شهر رمضان والعيدين)

أمّا شهر رمضان فإن الخليفة كان يرتِّب بقاعة الذهب بالقصر سِمَاطا فى كل ليلة من آستقبال الرابع منه ، وإلىٰ آخر السادس والعشرين منه ، ويستدْعِى الأمراء لحضوره فى كل ليلة بالنَّوْبة ، يحضُر منهم فى كل ليلة قومٌ كىْ لا يحرِمَهم الإفطارَ فى بيوتهم طول الشهر ، ولا يكلَّف قاضى القضاة الحضورَ سوىٰ ليالى الجُمَع توقيرا له ، ولا يحضُر الخليفةُ هذا السِّماط ، ويحضر الوزيرُ فيجلس علىٰ رأس السماط . فإن غاب قام ولده أو أخوه مَقَامه . فإن لم يحضر أحدٌ منهم ، كان صاحبُ الباب عِوَضَه . وكان هذا السِّماط من أعظم الأسمطة وأحسنها ، يُمَدّ من صدر القاعة إلىٰ مقدار ثلثيها بأصناف المأكولات والأطعمة الفاخرة ؛ ويخرجون من هنالك بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين ، ويفرّق فضلُ السماط كلَّ ليلة ، ويتهاداه أرباب الرسوم حتّى يصل إلىٰ أكثر الناس . وإذا حضر الوزير بعث الخليفة إليه من طعامه الذى يأكل منه تشريفا له ، وربما خصه بشىء من سَحُوره .

وأمّا سِمَاط العيدين فإنه يمدّ فى عيد الفطر وعيد الأضحىٰ تحت سرير الملك بقاعة الذهب المذكورة أمام المجلس الذى يجلس فيه الخليفة الجلوسَ العامَّ أيام المواكب ، وتنصب علىٰ الكرسىّ مائدةٌ من فضة تعرف بالمدوّرة ، وعليها من الأوانى الذهبيات والصينىّ الحاوية للأطعمة الفاخرة ما لا يليق إلا بالملوك ؛ وينصب السِّماط العامّ تحت السرير من خشب مدهون فى طول القاعة فى عرض عشرة أذرع ، وتفرش

فوقه الأزهارُ المشمومة ، ويُرَصُّ الخبز على جوانبه كل شابورة ثلاثة أرطال من نَقِيّ الدقيق؛ ويعمر داخل السماط على طوله بأحد وعشرين طبقا عظاما ، فى كل طبق أحد وعشرون خروفا من الشِّوِىّ ، وفى كل واحد منهـا ثلثمائة وخمسون طيرا من الدَّجاج والفراريج وأفراخ الحمام ، ويعبّى مستطيلا فى العلو حتّى يكون كقامة الرجل الطويل ، ويسوّر بتشاريح الحلواء اليابسة على ٱختلاف ألوانها ، ويسُـدّ خلل تلك الأطباق على السماط نحوٌ من خمسمائة صحن من الصحون الخَزَفيـة (١) المترعة بالألوان الفائقة ، وفى كل منها سبع دجاجات من الحلواء المـائعة والأطعمة الفاخرة؛ ويعمل بدار الفطرة الآتى ذكرها قصران من حلوى زنة كل منهما سبعة عشر قنطارا فى أحسن شكل ، عليها صُوَر الحيوان المختلفة ، ويحملان إلى القاعة فيوضعان فى طرفى السماط . ويأتى الخليفة راكبا فيترجّلُ على السرير الذى قد نصبت عليه المائدة الفضة ويجلس على المـائدة وعلى رأسه أربعـةٌ من كبار الأسـتاذين المحنكين ، ثم يستدعِى الوزيرَ وحده فيطلُع ويجلس على يمينه بالقرب من باب السرير ، ويشير إلى الأمراء المطوّقين فمن دونهم من الأمراء ، فيجلسون على السِّماط على قدر مراتبهـم فيأكلون وقرّاءُ الحضرة فى خلال ذلك يقرءون القرءان ، ويبقى السماط ممدودا إلى قريب من صلاة الظهر حتّى يستهلك جميعُ ما عليه أكلا وحملا ، وتفرقةً على أرباب الرسوم .

الضرب الثـانى

(فيما كان يعمل بدار الفطرة فى عيد الفطر)

وكان لهم بها الاهتمام العظيم . وقد ذكر ٱبن عبد الظاهر أصنافها فقال : كانت ألف حملة دقيق ، وأربعمائة قنطار سُكَّرٍ ، وستة قناطير فُسْـتُق ، وأربعمائة وثلاثين

(١) عبارة المقريزى " من الصحون الخزفية " التى فى كل منها سبع دجاجات وهى مترعة الخ .

إردب زبيب، وخمسة عشر قنطار عسـل نحل، وثلاثة قناطير خل وإردبين سمسم وإردبين أنيسون وخمسين رطلا ماء ورد، وخمس نوافج مسك، وكافور قديم عشرة مثاقيـل، وزعفران مطحون مائة وخمسون درهمـا، وزيت برسم الوقود ثلاثون قنطارا . فى أصـناف أخرىٰ يطول ذكرها . قال آبن الطوير : ويندب لهـا مائة صانع من الحلاويين، ومائة فرّاش برسم تفرقة الطوافير علىٰ أصحـاب الرسوم خارجا عمن هو مرتّب فيها؛ ويحضرها الخليفة والوزير معه فيجلس الخليفة علىٰ سريره فيها، ويجلس الوزير علىٰ كرسىّ له، فى النصف الأخير من رمضان، وقد صار مالهـا من المستعملات كالجبال الرواسى، فتفرّق الحلوىٰ من رُبْع قنطار إلىٰ عشرة أرطال إلىٰ رطل واحد، والخشكنان من مائة حبة إلىٰ خمس وسبعين حبة، إلىٰ ثلاث وثلاثين، إلىٰ خمس وعشرين، إلىٰ عشرين؛ ويفرّق علىٰ السودان علىٰ يد مقدّمهم بالأفراد من تسعة أفراد إلىٰ سبعة، إلىٰ خمسة، إلىٰ ثلاثة كل طائفة علىٰ مقدارها (١) بسماط يوم الفطر ما يمدّ فى الإيوان الكبير قبل مدّ سمـاط الطعام بقاعة الذهب .

وقد وقع فى كلام آبن الطوير خُلْفٌ فى وقته، فذكر فى موضع من كتابه أن ذلك يكون قبل ركوب الخليفة لصـلاة العيد، وذكر فى موضع آخر أن ذلك يكون بعد حضوره من الصلاة .

الطـــــرف الثـامن (٢)

(فى جلوس الوزير للمظالم إذا كان صاحب سيف، وترتيب جلوسه)

يجلس الوزير فى صَدْر المكان، وقاضى القضاة مقابِلَه، وعن جانبيه شاهدان من المعتبرين، وكاتب الوزير بالقلم الدقيق، ويليه صاحب ديوان المـال، وبين يديه

---

(١) بياض بالأصل . ولعله وقد كان سماط يوم الفطر يمد الخ .

(٢) لم يتقدم فى هذا الفصل تقسم بالأطراف .

صاحب الباب وآسفهسلارُ، و بين أيديهما النوّاب والحُجَّاب علىٰ طبقاتهم . وذلك يومان فى الأسبوع .

وقد رثاهم عمارة اليمنيّ بعد آنقراضهم وآستيلاء السلطان صلاح الدين بن أيوب علىٰ المملكة بقصيدة وصف فيها مملكتهم، وعدّ مواكبهم، وحكىٰ مكارمهم، وجلّى محاسنهم، وهى :

رَمَيْتَ يادَهْرُ كَفَّ المَجْدِ بالشَّلَلِ * وجِيدَهُ بعـد حُسْنِ الحَلْى بالعَطَلِ

سَعَيْتَ فى مَنْهَجِ الرَّأْيِ العَثُورِ فإن * قَدَرْتَ من عَثَراتِ الدَّهْرِ فاسْتَقِلِ

جَدَعْتَ مَارِنَكَ الأَقْنىٰ فأَنْفُكَ لا * يَنْفَكُّ ما بين أَمْرِ الشَّيْنِ(١) والخَجَلِ

هَدَمْتَ قَاعِدَةَ المَعْرُوفِ عَن عَجَل * شَقِيتَ، مَهْلًا أَمَا تَمْشِى علىٰ مَهَل

لَهْفِى ولَهْفَ بَنِى الآمَالِ قَاطِبَـةً * علىٰ فَجِيعَتِهَـا فى أكـرم الدُّوَلِ

قَدِمْتُ مصــرَ فأَوْلَتْنِى خَلَائِفُهَا * من المَكَارِمِ ما أَرْبىٰ علىٰ أَمَلِى

قَوْمٌ عرفتُ لهم كَسْبَ الأُلُوفِ، ومِنْ * كَمَالِهَـا أنهـا جاءتْ ولم أَسَـلِ

وكُنتُ من وُزَرَاءِ الدَّسْتِ حَيْثُ سَمَا * رَأْسُ الحِصَانِ بِهَادِيهِ علىٰ الكَفَلِ

ونِلْتُ من عُظَماءِ الجَيْشِ تَكْرِمَةً * وخُلَّةً حُرِسَتْ من عَارِضِ الخَلَلِ

ياعاذلى فى هوىٰ أَبْنَـاءِ فَاطِمَــةٍ * لَكَ المَلَامَــةُ إن قَصَّرتَ فى عَذَلِى

بالله! زُرْ سَاحَةَ القَصْرَيْنِ وَابْكِ معى * عَلَيْهِما لا علىٰ صِفِّينَ والجَمَلِ!

وقُلْ لأهْلِيهِمَا : واللهِ مَا ٱلْتَحَمَتْ * فيكم جُرُوحِى ولا قَرْحِى بمُنْـدَمِلِ!

ماذَا ترىٰ كَانَتِ الإفْرِنْجُ فَاعِلَةً * فى نَسْـلِ آلِ أميرِ المؤمنين عَلِى

[هَلْ كَانَ فى الأَمْرِ شَىْءٌ غيرُ قِسْمَةِ ما * مَلَكْتُمُو بَيْنَ حُكْمِ السَّبْيِ والنَّفَلِ؟](٢)

(١) فى الخطط للقريزىّ "قرع السن". (٢) الزيادة عن المقريزىّ .

وقَدْ حَصَلْتُمْ عليهـا، وٱسمُ جَدِّكُمُ * محمَّدٌ وأبُوكُمْ خَيْرُ مُنْتَعِـلِ
مررتُ بالقَصْرِ والأَرْكانُ خاليَـةٌ * من الوُفُودِ، وكانتْ قِبْـلَةَ القُبَلِ
فَمِلْتُ عَنْهـا بِوَجْهٍ خوفَ مُنْتَقِـدٍ * من الأعادِى، وَوَجْهُ الوُدِّ لم يَمِـلِ
أَسْبَلْتُ من أَسَفى دَمْعِى غَداةَ خلَتْ * رِحابُكُمْ وغَدَتْ مَهْجُورَةَ السُّـبُلِ
أَبْكِى علىٰ مَأْثُراتٍ من مَكَارِمِكُمْ * حَالَ الزَّمَانُ عليها وهْىَ لَمْ تَحُلِ
(دارُ الضِّيافَةِ) كانتْ أُنْسَ وَافِدِكُمْ * واليَوْمَ أَوْحَشُ من رَسْمٍ ومن طَلَلِ
و(فِطْرَةُ الصَّومِ) إذ أضْحَتْ مَكارِمُكُمْ، * تَشْكُو من الدَّهْرِ حَيْفًا غيرَ مُحْتَمَلِ
و(كُسْوَةُ الناسِ) فى الفَصْلَيْنِ قد دَرَسَتْ * ورَثَّ منهـا جَدِيدٌ عنـدهم وَبَلِى
ومَوْسِمٌ كان فى (يوم الخليجِ) لَكُمْ * يَأْتِى تَجَمُّلُكُم فيـه علىٰ الجَمَـلِ
و(أَوَّلُ العام) و(العيدين) كَمْ لَـكُمُ * فِيهِنَّ من وَبْلِ جُودٍ ليس بالوَشَلِ
والأرضُ تَهْتَزُّ فى (يوم الغَـدِيرِ) كما * يَهْتَزُّ ما بين قَصْرَيْكُمْ من الأَسَـلِ
والخَيْلُ تُعْرَضُ فى وَشْىٍ وفى شِيَةٍ * مثـلَ العَرائِسِ فى حَلْىٍ وفى حُلَلِ
وما حَمَلْتُمْ قِرىٰ الأَضْيافِ من سَعَةِ الأَطْبَـاقِ إلا علىٰ الأَكْتافِ والعَجَلِ
وما خَصَصْتُمْ بِبِرٍّ أَهْـلَ مَمْلَكَةٍ * حتَّى عَمَمْتُمْ به الأَقْصَىٰ من المِلَلِ
كانتْ رَوَاتِبُكُمْ للوافدين وللضَّـ * ـيْفِ المُقِيمِ وللطَّارِى من الرُّسُـلِ
ثم (الطِّرَازُ) بتِنِّيسَ الذى عَظُمَتْ * منه الصِّلاتُ لأهلِ الأرضِ والدُّوَلِ
وللجَوامِعِ من أَحْمَاسِكُمْ (١) نِعَـمٌ * لمن تَصَدَّرَ فى عِلْمٍ وفى عَمَـلِ
ورُبَّمَـا عادتِ الدُّنْيـا فَمَعْقِلُهـا * منكم وأضْحَتْ بكم محلُولَةَ العُقَلِ

(١) فى المقريزى "من احسانكم" وهى أوضح.

واللهِ ! لا فَازَ يومَ الحَشْرِ مُبْغِضُكُمْ * ولا نَجَا من عذاب النَّارِ غيرُ وَلِي
ولا سُقِي المـاءَ من حَرٍّ ومن ظَمَإٍ * من كَفِّ خير البَرَايَا خاتمِ الرُّسُـلِ
[ولَا رأى جَنَّـةَ اللهِ التى خُلِقَتْ * مَنْ خان عَهْدَ الإمَامِ العَاضِدِ بنِ عَلِي] (١)
أَئِمَّــتِي وهُدَاتِي والذخــيرَةُ لِي * إذا ٱرْتَهَنْتُ بمـا قَدَّمْتُ من عَمَلِ
واللهِ لم نُوفِهِمْ فى المَـدْحِ حَقَّهُمُ! * لأنَّ فَضْلَهُمُ كالوَابِلِ الهَطِـلِ
ولو تَضَاعَفَتِ الأقوالُ وٱسْتَبَقَتْ * ما كُنْتُ فيهم بحمـد الله بالخَجِــلِ
بابُ النَّجَاةِ، هُــمُ دُنْيـا وآخِرَةً * وحُبُّهُمْ فَهْوَ أَصْـلُ الدِّين والعَمَلِ
نُورُ الدُّجىٰ ومَصَابِيحُ الهُـدىٰ وهُمُ * من نُورِ خالِصِ نُورِ اللهِ لم يَغِلِ
واللهِ لا زُلْتُ عن حُبِّي لهم أبداً * ما أَخَّرَ اللهُ لِي فى مُدَّةِ الأَجَــلِ!

قلت : وعمارة هذا لم يكن علىٰ مُعْتَقَدِ الشِّيعَةِ بل فقيها شافعيّا، قَدِمَ مِصْرَ برسالة عن القاسم بن هاشم بن أبى فليتة أمير مكة إلىٰ الفائز أحد خلفائهم فى سنة خمسين وخمسمائة فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك ، فأحسـنوا له وبالغوا فى برّه ، فأقام عنـدهم وتألف بهم، وأتىٰ فيهم من المدح بمـا بَهَرَ العقول ، ولم يزل مواليـا لهم حتّى زالت دولتهم وٱستولىٰ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فرثاهم بهـذه القصيدة، فكانت آخر أسباب حتفه، فصلب فيمن صُلِبَ بين القصرين من أتباع الدولة الفاطمية .

﴿ تم الجـــزء الثـالث ﴾
ويليه الجزء الرابع ، وأوّله "الحـالة الثالثـة من أحوال المملكة ، ماعليه ترتيب المملكة من ٱبتداء الدولة الأيوبية وإلىٰ زماننا"

---

(١) الزيادة عن المقريزىّ فى الخطط .

(م م/٦٦٤١/١٩١٣/٣٠٠٠)

فهـــــرست

الجزء الثـالث

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

صفحة

المقالة الثانيــــة

صفحة

صفحة

صفحة

(تم فهرست الجزء الثالث من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الرابع

وأوّله "الحالة الثالثة من أحوال المملكة

ما عليه ترتيب المملكة: من ٱبتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا"

صبح الأعشى

الجزء الرابع

دار الكتب الخديوية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجزء الرابع

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٢ هـ
١٩١٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

الحالة الثالثة

من أحوال المملكة ، ما عليه ترتيب المملكة

(من ٱبتداء الدولة الأيوبية وإلىٰ زماننا)

وٱعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت علىٰ الدولة الفاطمية وخَلَفتها فى الديار المصرية ، خالفتها فى كثير من ترتيب المملكة ، وغيَّرتْ غالب مَعَالمها ، وجرت علىٰ ما كانت عليه الدولة الأتابكية عماد الدين زنكى بالموصل ، ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام وما معه ؛ وكان من شأنهم أنهم يلبسون الكلوتات الصُّفْر علىٰ رءُوسهم مكشوفةً بغير عمائم ، وذوائبُ شعورهم مُرْخاةٌ تحتها سواء فى ذلك المماليك والأمراء وغيرهم . حتّٰى يحكىٰ عن الملك المعظم عيسىٰ بن العادل أبى بكر صاحب دِمَشْقَ فى ٱطِّراح التكلف : أنه كان يلبس الكلوتة الصفراء بلا شاش ، ويخترق الأسواقَ من غير أن يُطَرَّقَ بين يديه كغيره من الملوك ، وكان سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى حين ملك المَوْصِل بعد أبيه أحدث حمل السَّنْجَق علىٰ رأسه ، فتبعه الملوك علىٰ ذلك ؛ وألزم الأجناد أن يشدّوا السيوف فى أوساطهم ، ويجعلوا الدَّبابيس تحت رُكَبِهم عند الركوب كما حكاه السلطان عماد الدين صاحب حَمَاة فى تاريخه .

فلما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمـه الله الديار المصرية، جرىٰ علىٰ هـذا المنهج أو ماقاربَهُ، وجاءت الدولة التركيـة ، وقد تنقحت المملكة وتَرَتَّبَتْ ، فأخذت فى الزيادة فى تحسين الترتيب وتنضـيد الملك وقيام أُبَّهَتِهِ، ونقلت عن كل مملكة أحْسَنَ ما فيهـا، فسلكت سبيلَه ونَسَجَتْ علىٰ منواله حتّىٰ تهذَّبَتْ وترتبت أحسنَ ترتيب، وفاقت سائرَ الممالك، وفَخَر مَلِكُها علىٰ سائر المُلوك .

ولم يزل السلطان والجُنْد يلبسون الكلوتة الصفراءَ بغير عمامة إلىٰ أن وَلِيَ السلطانُ "الملك الأشرف خليل" بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنةَ، فأحدث الشاشَ عليها فجاءت فى نهاية من الحسن، وصاروا يلبسونها فوق الذَّوائب الشـعر المُرْخاةِ علىٰ ما كان عليه الأمر أوّلا إلىٰ أن حَجَّ السلطانُ الملك النـاصر محمد آبن قلاوون فى سلطنته الثالثة، فحلق رأسـه وحلق الناسُ رءُوسَهم، وآسـتداموا حلق رءُوسهم وتركت ذوائب الشعر إلىٰ الآن .

ويتعلق القول من ذلك بعشرة مقاصد .

المقصـــد الأوّل

(فى ذكر رسوم الملك وآلاته، وهو أنواع كثيرة، بعضها عامّ فى الملوك أو أكثرهم، وبعضها خاصّ بهذه المملكة)

منها — (سرير الملك) ويقال له تخت الملك . وهو من الأمور العـامة للملوك، وقد تقدّم أن أوّل من آتخذ مرتبة للجلوس عليها فى الإسـلام معاويةُ رضى الله عنه حين بَدَّنَ، ثم تنافس الخلفاء والملوك بعده فى الإسلام فى ذلك حتّىٰ آتخذوا الأَسِرَّةَ، وكانت أسِرَّةُ خلفاء بنى العبَّـاس ببغداد يبلغ علوّها نحوَ سـبعة أذرع . وهو فى هذه المملكة مِنْبر من رُخَام بصَـدْر إيوان السلطان الذى يجلس فيه، وهو علىٰ هيئة منابر

الجوامع إلا أنه مستند إلىٰ الحائط ، وهذا المِنْبَرُ يجلس عليه السلطان فى يوم مُهِمٍّ كقدوم رُسُل عليه ونحو ذلك، وفى سائر الأيام يجلس علىٰ كرسىّ من خشب مغشّى بالحرير، إذا أرخىٰ رجليه كادتا أن تَلْحقا الأرض، وفى داخل قصوره يجلس علىٰ كرسِىّ صغير من حديد يحمل معه إلىٰ حيث يجلس .

ومنها ـ (المقصورة) للصلاة فى الجامع . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الخلافة أن أوّل مَنِ ٱتخذها فى الإسلام معاويةُ ، وقد صارت سُنَّةً لملوك الإسلام بعد ذلك تميزا للسلطان عن غيره من الرعية ، وهى فى هذه المملكة مقْصُورةٌ بجامع قلعة الجبل علىٰ القرب من المِنْبَرِ متَّخذةٌ من شِبَاك حديد محكمةِ الصنعة، يصلِّى فيها السلطان ومَنْ معه من أخصاء خاصكيته يوم الجمعة .

ومنها ـ (نَقْش ٱسم السلطان) علىٰ ماينُسَج ويُرْقَمُ من الكُسْوة والطُّرُز المتخذة من الحرير أو الذهب بلون مخالف للون القماش أو الطرز لتصير الثياب والطُّرُز السلطانية مميَّزة عن غيرها، تنويها بقدر لابسها : من السلطان أو مَنْ يُشَرِّفُه بلبسها عند ولاية وظيفة أو إنعام أو غير ذلك . ولذلك دارٌ مفردة بعمله بالإسْكَنْدَرِيَّةِ تعرفُ بدار الطِّراز، وعلىٰ ذلك كانت خلفاء الدولتين : بنى أُمَيَّةَ وبنى العبَّاس حين كانت الخلافة قائمة .

ومنها ـ (الغاشِيَة) . وهى غاشية سرج من أديم مخروزةٌ بالذهب، يَخَالها الناظر جميعَها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه عند الركوب فى المواكب الحَفلة كالميادين والأعياد ونحوها، يحملها الرِّكَابدارِيَّة، رافعا لها علىٰ يديه يلفتها يمينا وشمالا، وهى من خواص هذه المملكة .

ومنها ـ (المِظَلَّة) . ويعبر عنها بالجِتْر (بجيم مكسورة، قدتبدل شينا معجمة، وتاء مثناة فوق)، وهى قُبَّةٌ من حرير أصفر مزركش بالذهب، علىٰ أعلاها طائرٌ من فِضَّةٍ

مَطْلِيَّةٍ بالذهب، تحمل علىٰ رأسه فى العيدين . وهى من بَقايَا الدولة الفاطمية، وقد تقدّم الكلام عليها مبسوطا فى الكلام علىٰ ترتيب مملكتهم .

ومنها — (الرَّقَبة) . وهى رقبة من أطلس أصفر مزركشةٌ بالذهب بحيث لا يرىٰ الأطلسُ لتراكم الذهب عليها، تجعل علىٰ رقبة الفرس فى العيدين والميادين من تحت أذنى الفرس إلىٰ نهاية عُرْفِهِ، وهى من خواصّ هذه المملكة .

ومنها — (الجفتة) . وهما آثنان من أوشاقية إصطبله قريبان فى السنّ، عليهما قبَاءان أصــفران من حرير بِطراز من زَرْكش، وعلىٰ رأسيهما قُبَّعَتَان من زركش، وتحتهما فرسان أشهبان برقبتين وعُدّة، نظير ما السلطان راكب به كأنهما معدّان لأن يركبهما، يركبان أمامه فى أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكُرة فى الميدان الكبير ونحو ذلك، وهما من خواصّ هذه المملكة .

ومنها — (الأعلام) . وهى عدّة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرّزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان وآسمه، وتسمّى العِصَابة؛ وراية عظيمة فى رأسها خُصْلة من الشعر تسمّى الجاليش؛ ورايات صُفْر صغار تسمّى السَّناجق .

قال السلطان عماد الدين صاحب حَماةَ فى تاريخه : وأوّل من حُمِلَ السنجق علىٰ راســه من الملوك فى ركوبه غازى بن زنكى، وهو أخو السلطان نور الدين محمود آبن زنكى صاحب الشأم .

ومنها — (الطبلخاناه) . وهى طبول متعدّدة معها أبواق وزمر(1) تختلف أصواتها علىٰ إيقاع مخصوص، تُدَقُّ فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، وتكون صحبة الطلب فى الأسفار والحروب، وهى من الآلات العامّة لجميع الملوك . ويقال إن الإسْكَنْدَر

(1) لعله وزَمَّارات .

كان معه أربعون حِمْلا طبلخاناه ، وقد كتب أرسطو فى "كتاب السياسة" الذى كتبه للإِسْكَنْدَرِ أن السرّ فى ذلك إرهابُ العدوّ فى الحرب . والذى ذهب إليه بعض المحققين أن السرّ فى ذلك أن فى أصواتها تهييجا للنفس عند الحرب وتقويةَ الجأش كما تنفعل الإبل بالحُدَاء ونحو ذلك .

ومنها — (الكوسات) . وهى صُنُوجات من نُحاس شبه التُّرس الصغير ، يُدَقُّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، ومع ذلك طبولٌ وشَبَّابة ، يدق بها مرتين فى القلعة فى كل ليلة ، ويُدَارُ بها فى جوانبها مرةً بعد العشاء الآخرة ، ومرةً قبل التسبيح على الموادْن(١) ، وتسمّى الدَّوْرة بذلك فى القلعة ، وكذلك إذا كان السلطان فى السفر تدور حول خيامه .

ومنها — (الخيام والقَسَاطيط) فى الأسفار . ولهذا السلطان من ذلك المَدَد الكبير ، تتخذ له الخيام العظيمةُ الشأْنِ المختلفةُ المقاديرِ والصنعة من القطن الشامىّ الملوّن بالأبيض والأحمر والأزرق وغيرها ، وكذلك من الجوخ المختلف الألوان مما يُدْهِشُ بحسنه العقولَ : لينوب مَنَاب قصورهم فى الإقامة ، وسيأتى ذكر أمور أخرى من آلات الملك سوى ما تقدّم منفردة فى أماكنها إن شاء الله تعالى .

المقصـــد الثـانى

(فى حواصل السلطان ، وهى على أربعة أنواع(٢))

النـــوع الأوّل

(الحواصـــل المعبّر عنها بالبيوت)

وذلك أنهم يضيفون كل واحد منها إلى لفظ خاناه كالطشت خاناه ، والشراب خاناه

---

(١) صوابه المآذن وكثيرا ما يجارى لغة العامة .

(٢) يظهر أن هـذا التنويع من الناسخ فإنه فى الضوء لم يذكر التنويع وإنما قسم الحواصل الى البيوت الثمانية فقط ثم أتبعها بالمقصد الثالث .

ونحوهما، وخاناه لفظ فارسىّ معناه البيت، والمعنىٰ بيت كذا إلا أنهم يؤخرون المضاف عن المضاف إليه علىٰ عادة العجم فى ذلك، وهى ثمـانية بيوت .

الأوّل ـ (الشَّرَاب‌خاناه) . ومعناها بيت‌الشراب، وتشتمل علىٰ أنواع‌الأشْرِبة المُرْصَدَةِ لخاصّ السلطان، والمشروبِ الخاص من السكر والأَقْسِما وغير ذلك، وفيها يكون السكر المخصوص بالمشروب، وبها الأوانى النفيسـةُ من الصِّينىّ الفـاخر من اللَّازَوَرْدِىّ وغيره مما تساوِى السُّكُرُّجة الواحدة اللطيفة منه ألفَ درهم فما حوله . ووظيفة الشادّ بها تكون لأمير من أكابر أمراء المِئين الخاصكية المؤتمنين، ولها مِهْتار يعرف بمهتار الشراب‌خاناه متسلمٌ لحواصلها، له مكانة علية، وتحت يده غِلْمَانٌ عنده برسم الخِدْمة، يُطْلَق علىٰ كل منهم شَراب دار، وسيأتى فى الكلام علىٰ الألقاب فى المقالة الثالثة معنىٰ الإضافة إلىٰ الدار فى ذلك ونحوه .

الثـانى ـ (الطِّشْتَ‌خَانَاهْ) . ومعناه بيت‌الطشت، سميت بذلك لأنّ فيها يكون الطِّشْت الذى تغسل فيـه الأيدى والطِّشْت الذى يُغسَل فيـه القماش، وقد غلبَ عليهم ٱستعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء، وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء، وأصله طَسٌّ بسين مشدّدة فأبدلت من إحدىٰ السينين تاء للآستثقال . فإذا جُمِـع أو صُغِّرَ، ردّت السين إلىٰ أصلها، فيقال فى الجمع طِسَاس وطُسُوس، وفى التصغير طُسَيس . قال الجوهرىّ : ويقال فيه أيضا طَسَّة، ويجمع علىٰ طَسَّات، والناس الآن يقولون طاسة ويجمعونه علىٰ طاسات، ويجعلون الطَّسْتَ ٱسمـا لنوع خاص، والطاسةَ ٱسمـا لنوع خاص .

وفى الطِّشْتَ‌خاناه يكون ما يلبسه السلطان من الكلوتة والأقبية وسائر الثياب والسيف والخُفّ والسُّرموزة وغير ذلك .

وفيها يكون مايجلس عليه السلطان من المَقَاعد والمَخَادّ والسَّجّادات التى يصلِّى عليها وما شاكل ذلك، ولها أيضا مِهْتارٌ من كبار المهتارية، يعرف بمهتار الطِّشْتَخاناه، وتحت يديه عدّة غِلْمَانٍ بعضهم يعرفون بالطشتدارية ، وبعضهم يعرف بالرختوانية . وله التحدث فى تفرقة اللحم على المماليك السلطانية من الحوائجخاناه وإقامة قُبَّاض اللحم ، ويطلق على كلٍّ من غلمان الطشتخاناه وقباض اللحم بَابَا ، وهى لفظة رومية بمعنى الأب، أطلقوها على مهتار الطِّشْتَخاناه تعظيما له، ثم غلبت على من عداه ، ولغلمانها دُرْبَةٌ بترتيب الأحمال التى تحمل على ظهور البغال للزينة فى المواكب العظيمة ونحوها، يأتُون فيها من بديع الصَّنْعة والتعاليق الغريبة بكل عجيب، وهم يتباهَوْن بذلك، ويسامِى بعضهم بعضا فيه .

الثالث — (الفِرَاشخاناه) . ومعناها بيت الفِرَاش، وتشتمل على أنواع الفَرْش من البُسُط والخيام، ولها مِهْتار يعرف بمهتار الفراشخاناه ، وتحت يده جماعة من الغِلْمان مستكثَرة مرصَدُون للخدمة فيها فى السفر والحَضَر يعبر عنهم بالفرّاشين ، وهم من أمْهَرِ الغلمان وأنْهَضِهِمْ، ولهم دُرْبَةٌ عظيمة فى نَصْب الخيام حتّى إن الواحد منهم ربما أقام الخَيْمة العظيمة ونصبها وحده بغير معاون له فى ذلك ، ولهم معرفة تامّة بشدّ الأحمال التى تحمل فى المواكب على ظهور البغال،يبلغ الحمل منها نحوَ خمسة عشرة ذراعا .

الرابع — (السِّلاحخاناه) . ومعناها بيت السلاح،وربما قيل الزَّرَدْخاناه ومعناها بيت الزَّرَد لما فيها من الدروع الزَّرَد، وتشتمل على أنواع السلاح: من السيوف، والقِسِىّ العربية ، والنُّشّاب، والرماح ، والدروع المتخذة من الزرد المانع ، والقرقلات المتخذة من صفائح الحديد المُغَشَّاة بالديباج الأحمر والأصفر، وغير ذلك

من الأطبـار وسائر أنواع السـلاح ، ويقلُّ بها قسيّ الرِّجْل والرِّكاب لعدم معاناتها بالديار المصرية ، وإنما تكثر بالثغور كالإسْكَنْدَرِيَّةِ وغيرها، وفى كل سنة يحمل إليها مايعمل بخزائن السلاح من الأسلحة ، يجعل علىٰ رءُوس الحمَّـالين ويُزَفُّ إلىٰ القلعة ويكون يوما مشهودا ، وفى هـذه السلاح‌خاناه من الصُّـنَّاعِ المقيمين بها لإصلاح العُدَد وتجديد المستعملات جمـاعة كثيرة ، ويسمَّى صـانع ذلك الزردكاش ، وهى لفظة عجمية وكأن معناها صانع الزرد ، ولهـا غِلْمان أخرىٰ وفرّاشون بسبب خدمة القُمَاش وٱفتقاده .

الخامس ـ (الرِّكَاب‌خاناه) . ومعناها بيت الركاب، وتشـتمل علىٰ عُدَد الخيل من السروج ، واللجم ، والكَنَابيش ، وعى المراكيب ، والعبي الإصطبليات ، والأجلال، والمَخَالى وغير ذلك من الأصناف التى يطول ذكرها ؛ وفيها من السُّروج المَغَشَّاة بالذهب والفضة المطلية والساذجَة والكَنَابيش المتخَذة من الذهب المزركش المَزَهَّرة بالريش ،وغير المزهرة،والعبي المُتَّخذة من الحرير وصوف السهك(١)، وغير ذلك من نفائس العُدَد والمراكيب مايحير العقول ويُدْهِش البصر، ممـا لا يقدر علىٰ مثله إلا عظماء الملوك . ولهـا مهتار متسلم لحواصلها يعبر عنه بمهتار الركاب‌خاناه، وتحت يده رجال لمعاضَدته علىٰ ذلك .

السـادس ـ (الحوائج‌خاناه) . ومعنـاها بيت الحوائج ، وليست علىٰ هيئـة البيوت المتقدّمة مشتملةً علىٰ حاصل معيَّن ، وإنمـا لهـا جهة تحت يد الوزير منها يصرف اللَّحم الراتب للطبخ السلطانىّ والدور السلطانية ورواتب الأمراء والممـاليك السـلطانية وسائر الجنـد والمتعمِّمين ، وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ

(١) لم نعثر علىٰ حيوان بهذا الاسم ولعله مصحف عن السمند .

أسماؤهم الدفاتر، وكذلك تَوَابِلُ الطعام للطبخ السلطانى والدور السلطانية ، ومن له تَوابِلُ مرتَّبة من الأمراء وغيرهم ، والزيت للوقود ، والحبوب ، وغير ذلك من الأصناف المتعدّدة ؛ ولها مباشرون منفردون بها يضْبِطون أسماء أرباب المستحَقّات ومقاديرَ ٱستحقاقهم ، وهى من أوسع جهات الصرف حتّى إن ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين ألف درهم فى كل يوم خارجا عما عداه من الأصناف،وربما زاد علىٰ ذلك .

السابع ـ (المَطْبَخ).وهو الذى يُطْبَخ فيه طعام السلطان الراتب فى الغَدَاء والعَشَاء والطارئ فى الليل والنهار والأسمطة التى تمدّ بالإيوان الكبير بدار العدل فى أيام المواكب ، ويحمل إليه اللّحم والتوابل وسائر الأصناف من الحوائجخاناه المتقدّمة الذكر بقدر معلوم مرتب؛ يُستهلَك فيه فى كل يوم قناطير مقنطرة من اللحم والدَّجاج والإوَزّ والأطعمة الفاخرة ؛ وله أمير من الأمراء يحكم عليه يسمّى أستادار الصحبة وتحت يده آخر يعبر عنه بالمُشْرِف ؛ وله طَبَّاخ كبير معتبر يعبر عنه باسباسلار .

الثامن ـ (الطبلخاناه) . ومعناه بيت الطبل، ويشتمل علىٰ الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات ؛ ويحكم علىٰ ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير عَلَم ، يقف عليها عند ضربها فى كل ليلة، ويتولّى أمرها فى السَّفَر؛ ولها مهتار متسلم لحواصلها يعرف بمهتار الطبلخاناه؛ وله رجال تحت يده ما بين دبندار : وهو الذى يضرب علىٰ الطبل، ومُنَفِّر وهو الذى يضرب بالبوق، وكُوسِيّ ، وهو الذى يضرب بالصنوج النحاس بعضها علىٰ بعض وغير أولئك من الصُّنَّاع .

المَقْصِـــــد الثـالث

(فى ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب الذين بهم ٱنتظام المملكة وقيام المُلْك ؛ وهم علىٰ أربعة أضرب)

الضـــــرب الأوّل

(أرباب السيوف ؛ والنظر فيهم من وجهين)

الوجـــــه الأوّل

(مراتبهم علىٰ سبيل الإجمال ؛ وهى علىٰ نوعين)

النـــــوع الأوّل

(الأمراء ؛ وهم علىٰ أربع طبقات)

الطبقة الأولىٰ ـ أمراء المِئِين مقدّمو الألوف ، وعدّة كل منهم مائة فارس .

قال فى "مسالك الأبصـار" : وربمـا زاد الواحد منهم العشرة والعشرين ؛ وله التَّقْدِمَةُ علىٰ ألف فارس ممن دونه من الأمراء ، وهذه الطبقة هى أعلىٰ مراتب الأمراء علىٰ تقارب درجاتهم ، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنوّاب . ثم الذى كان ٱستقرّ عليه قاعدة المملكة فى الروك النـاصرى محمد بن قلاوون ، وما بعده إلىٰ آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين ، أن يكون بالديار المصرية أربعة وعشرون مقدّما ، ولمـا ٱستجدّ فى الدولة الظاهرية الديوانُ المُفْرَد لخاص السـلطان وأفرد له عدّة كثيرة من المماليك السلطانية والمستخدمين ، نقصت عِدّة المقدّمين عما كانت عليه ، وصارت دائرةً بين الثمانية عشر والعشرين مقدّما بمـا فى ذلك من نائب الإسْكَنْدَرِيَّةِ ونائبى الوجهين : القبلىّ والبحرىّ .

الطبقة الثانية — أمراء الطبلخاناه ، وعدّة كل منهم فى الغالب أربعون فارسا .

قال فى "مسالك الأبصار" : وقد يزيد بعضهم علىٰ ذلك إلىٰ سبعين فارسا، بل ذكر فى "التعريف" فى أواخر المكاتبات أنه يكون للواحد منهم ثمانون فارسا . قال فى "مسالك الأبصار" : ولاتكون الطبلخاناه لأقل من أربعين ، وهذه الطبقة لاضابط لعدّة أمرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص لأنه مهما فرقت إمرة الطبلخاناه فجعلت إمرتى عشرين أو أربع عشرات، أوضم بعض العشرات ونحوها إلىٰ بعض وجعلت (1) طبلخاناه، ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكُشّاف بالأعمال، وأكابر الولاة .

الطبقة الثالثة — أمراء العشرات،وعدّة كل منهم عشرة فوارس. قال فى"مسالك الأبصار" : وربما كان فيهم من له عشرون فارسا ولا يعدّ إلا فى أمراء العشرات، وهذهالطبقة أيضا لاضابط لعدد أمرائها بل تزيد وتنقص كما تقدّم فىالكلام علىٰأمراء الطبلخاناه، ومن هٰذه الطبقة يكون صغار الوُلَاة ونحوهم من أرباب الوظائف .

الطبقة الرابعة — أمراء الخَمْسات . وهم أقل من القليل خصوصا بالديار المصرية، وأكثر مايقع ذلك فى أولاد الأمراء المندرجين بالوفاة رعايةً لسَلَفِهم،وهم فى الحقيقة كأكابر الأجناد .

النوع الثانى

(الأجناد، وهم علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ — المماليك السلطانية . وهم أعظم الأجناد شأنا، وأرفعُهم قدرا، وأشدّهم إلىٰ السلطان قُرْبا، وأوفرُهم إقطاعا ، ومنهم تؤمَّر الأمراء رتبة بعد رتبة ،

(1) لعل الواو زائدة .

وهم فى العِدَّة بحسب ما يُؤْثِره السلطان من الكثرة والقلَّة ، وقد كان لهم فى زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم فى أيام السلطان الملك الظاهر برقوق العَدَد الجَمُّ والمَدَدُ الوافر لطول مُدَّة ملكهما وٱعتنائهما بجلب المماليك ومشتراها .

الطبقة الثانية ــ أجناد الحَلْقة . وهم عدد جَمٌّ وخلق كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعمِّمين وغيرهم، بواسطة النزول عن الإقطاعات، وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع علىٰ الجند كى لا يُحاط بعدّته ويطلع إليه . قال فى "مسالك الأبصار" : ولكل أربعين نفسا منهم مقدّم منهم، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه، وترتيبهم فى موقفهم إليه . ومن الأجناد طائفة ثالثة يقال لهم البحرية يبيتون بالقلعة وحولَ دهاليز السلطان فى السفر كالحَرَس، وأوّل من رتبهم وسماهم بهذا الٱسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب .

الوجـــه الثانى

(فى ذكر أرباب الوظائف من أرباب السيوف المتقدّم ذكرهم، وهم علىٰ نوعين)

النـــوع الأوّل

(من هو بحضرة السلطان ، وهى خمسة وعشرون وظيفة)

الأولىٰ ــ النِّيابة . ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل، وكافل الممالك الإسلامية . قال فى "التعريف" : وهو يحكُم فى كل ما يحكم فيه السلطان ويُعلِّمُ فى التقاليد والتواقيع والمناشير، وغير ذلك مما هو من هذا النوع علىٰ كل ما يُعلِّمُ عليه السلطان، وسائر النوّاب لا يُعَلِّمُ الرجل منهم إلا علىٰ ما يتعلَّق بخاصة نيابته . قال : وهذه رتبة

لا يخفى ما فيها من التميز . قال فى "مسالك الأبصار" : وجميع نواب الممالك تكاتبه فيما تُكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يُراجع السلطان، ويستخدم الجُنْدَ من غير مشاورة السلطان ، ويعيِّن أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر، وقل أن لا يجاب فيمن يُعيِّنه؛ وهو سلطانٌ مختصر بل هو السلطان الثانى. وعادته أن يركب بالعسكر فى أيام المواكب وينزل الجميعُ فى خدمته . فإذا مثل فى حضرة السلطان، وقف فى ركن الإيوان . فإذا ٱنقضت الخدمة، خرج إلى دار النيابة بالقلعة والأمراءُ معه ويجلس جلوسا عاما للناس، ويحضُره أرباب الوظائف، ويقف قدّامه الحُجّاب، وتقرأ عليه القِصَصُ، ثم يَمُدُّ السماطَ للأمراء كما يمدّ لهم السلطان فيأكاون وينصرفون . وإذا كانت النيابة قائمة على هذه الصورة، لم يكن السلطان يتصدّى لقراءة القِصَص، وسماع الشَّكاوى بنفسه، ويأمر فى ذلك بما يرى من كتابة مثال ونحوه، ولكنه لايستبدّ بما يكتب من الأبواب السلطانية بنفسه بل يكتب بإشارته وينبه على ذلك، وتشمله العلامة الشريفة بعد ذلك .

أمّا ديوان الجيش فإنه لا يكون له خدمةٌ إلا عنده ولا ٱجتماعُ إلا به ، ولا ٱجتماع لهم بالسلطان فى أمر من الأمور ، وما كان من الأمور المُعْضِلةِ التى لابدّ من إحاطة علم السلطان بها فإنه يُعْلمه بها تارة بنفسه وتارة بمن يرسله إليه . هذا آخر كلامه فى "المسالك" غير أن هذا النائب تارة يُنَصَّب وتارة يُعَطَّلُ جِيدُ المملكة منه؛ وعلى هذا كان الحال فى الأيام الناصرية ٱبن قلاوون تارة وتارة وكذا الحال فى زماننا . وإذا كان منتصبا، ٱختُصّ بإخراج بعض الإقطاعات دون بعض، ويكون صاحب ديوان الجيش هو الملازم له وناظر الجيش ملازم السلطان .

قال فى "التعريف" : أمّا نائب الغَيْبة : وهو الذى يترك (١) إذا غاب السلطان

(١) كذا فى الضوء أيضا ومراده يترك وشأنه فى الحكم .

والنائب الكافل،وليس إلا لإخماد الثوائر وخلاص الحقوق، فحكمه فى رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء .

الثانية ــ الأَتَابكيَّة . ويعبر عن صاحبها بأَتَابك العساكر . قال السلطان عماد الدين فى "تاريخه" : وأصله أطابك ومعناه الولد الأمير، وأوّل من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السَّلْجوقىّ حين فوّض إليه ملكشاه تدبيرَ المملكة سنة خمس وستين وأربعمائة، ولقبه بألقاب منها هذا؛ وقيل أطابك معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدّمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلىٰ حكم وأمر ونهى، وغايته رِفْعَةُ المَحَلِّ وعلو المقام .

الثالثة ــ وظيفة رأس نَوْبة . وموضوعها الحكم علىٰ المماليك السلطانية والأخذُ علىٰ أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء : واحدٌ مقدّم ألف وثلاثةٌ طبلخاناه .

الرابعة ــ إمرة مجلس . وموضوعها (١) وهو يتحدّث علىٰ الأطباء والكَحَّالين، ومَنْ شاكلهم، ولا يكون إلا واحدا .

الخامسة ــ إمرة سلاح . وأصل موضوعها حمل السلاح للسلطان فى المجامع الجامعة، وصاحبها هو المقدّم علىٰ السِّلاحدارية من المماليك السلطانية والمتحدّث فى السلاحخاناه السلطانية ، وما يُستعمل لها ويقدّم إليها ، ولا يكون إلا واحدا من الأمراء المقدّمين .

السادسة ــ إمرة أخورية . وموضوعها التحدّث علىٰ إصطبل السلطان وخيوله، وعادتها مقدّم ألف يكون متحدّثا فيها حديثا عاما، وهو الذى يكون ساكنا

---

(١) بياض بالأصل ولعله وموضوعها تولِّى أمور مجالس السلطان .

بإصطبل السلطان، ودونه ثلاثة من أمراء الطبلخاناه . أما أمراء العشرات والجند، فغير محصورين .

السابعة ــ الدَّوَادارِيَّة . قال فى "مسالك الأبصار" : وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان و إبلاغ عامّة الأمور، وتقديم القِصص إليه، والمشاورة علىٰ من يحضر إلىٰ الباب الشريف وتقديمُ البريد، هو وأمير جاندار وكاتب السر، و يأخذ الخط علىٰ عامّة المناشير والتواقيع والكُتُب . و إذا خرج عن السلطان بكتابة شيء بمرسوم، حمل رسالته وعينت فيما يكتب ، وسيأتى بيان ذلك فيما يكتب بالرسائل فى الكلام علىٰ قوانين ديوان الإنشاء إن شاء الله تعالىٰ .

وفى هــذه الوظيفة عدّةٌ من الأمراء والجُنْد ، وقد كانت فى أيام الناصر محمد بن قلاوون وما تلاها ليس فيها أميرٌ مقدّم ألف ، ثم آل الأمر إلىٰ أن صار الأعلىٰ منهم مقدّمَ ألف، ونائبه طبلخاناه . وأوّل من آســتقرّ فى وظيفة الدَّوادارية من الأمراء الألوف طغيتمر النجميّ فى الدولة الناصرية حسن، ثم صار غالب من يليها ألوف، وربمــا كان طبلخاناه أحيانا .

الثامنة ــ الحُجُوبيــة . قال فى " مسالك الأبصار" : وموضوعها أن صاحبها يُنصفُ بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم مَنْ يعرض ومَنْ يرد، وعَرْضُ الجند وما ناسب ذلك، والذى جرت به العادة خمسة حُجَّابٍ ، آثنان من مقدّمى الألوف : وهما حاجب الحُجَّاب (١) هو المشار إليه من الباب الشريف ، والقائم مقام النائب فى كثير من الأمور . وآعلم أن هذا الآسم أوّل ما حدث فى الدولة الأُمَوِيَّةِ فى خلافة عبد الملك بن مَرْوَانَ، وكان موضوعها إذ ذاك حَجْبَ السلطان عن العامّة، ويُغْلِق بابه دونهم أو يفتحه لهم علىٰ قدره فى مواقيته،

(١) فى الكلام سقط ظاهر ولعل الأصل "حاجب الحجاب ونائبه وحاجب الحجاب هو الخ" تأمل .

ثم تبعهم بنو العبَّاس على ذلك . وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة : أنه كان للمقتدر سبعمائة حاجب . هذا وكانت الخلافة قد أخذت فى الضعف ، وهو خلاف موضوعها الآن ، وفيها بممالك المغرب معانٍ أخرى يأتى ذكرها عند الكلام على ممالكها إن شاء الله تعالى .

التاسعة — إمرة جاندار . وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان . قال فى "مسالك الأبصار" : ويقدّم البريدَ مع الدَّوادار وكاتب السر . قال : وصاحبها كالمتسلم للباب ، وله به البردداريّة وطوائف الركابية والخازنداريّة . وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ، وهو المتسلم للزَّرَدْخاناه التى هى أرفع قدرا فى الاعتقالات ، ولا تطول مدّة المعتقَل بها ، بل إمّا يعجل بتخلية سبيله أو إتلاف نفسه ؛ وصاحب هذه الوظيفة هو الذى يطوف بالزَّفَّة حول السلطان فى سفره ، وقد جرت العادة أن يكون فيها أميران : مقدّم ألف ، وطبلخاناه ، والمشار إليه هو المقدّم .

العاشرة — الاستاداريَّة . قال فى "مسالك الأبصار" : وموضوعها التحدّث فى أمر بيوت السلطان كلها من المَطابخ والشَّرابخاناه والحاشية والغِلْمان ، وهو الذى يمشى بطلب السلطان ، ويحكم فى غِلمانه وباب داره ، وإليه أمر الجاشِنْكيرية ، وإن كان كبيرُهم نظيرَه فى الإمرة من ذوى المِئِين ، وله حديثٌ مطلق وتصرف تامٌّ فى آستدعاء ما يحتاجه كلُّ مَنْ فى بيت السلطان من النفقات والكساوى (١) وما يجرِى مجرى ذلك للماليك وغيرهم . وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة : واحد مقدّم ألف وثلاثة طبلخاناه ، وربما نقصُوا عن ذلك .

---

(١) جمع الكسوة كُسًا وكِسَاءٌ . فما فى الاصل جار على اصطلاح العامة .

الحـاديةَ عشرةَ ـ الجاشنكيريَّة . وموضـوعها التحدّثُ فى أمر السِّماط مع الاستادار علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليه ، ويقف علىٰ السِّماط مع أستادار الصحبة ، وأكبرهم يكون من الأمراء المقدّمين .

الثانيةَ عشرةَ ـ الخازندارية . وموضوعها التحدّث فى خزائن الأموال السلطانية من نَقْد وقُمَـاش وغير ذلك ، وكانت عادتها طبلخاناه ، ثم ٱستقرّت تقدمة ألف ، ويطالبه فى حساب ذلك ناظرُ الخاصّ الآتى ذكره .

الثالثة عشرة ـ شَدّ الشراب‌خاناه . وموضوعها التحدّث فى أمر الشراب‌خاناه السلطانيــة وما عمل إليهـا من السُّكَّر والمشروب والفواكه وغير ذلك ، وتارة يكون مقدّما ، وتارة يكون طبلخاناه .

الرابعةَ عشرةَ ـ أستادارية الصحبة . وموضوعها التحدّث علىٰ المَطْبَخ السلطانىّ والإشراف علىٰ الطعام والمشى أمامه والوقوف علىٰ السِّماط ، والعادة أن يكون صاحبها أمير عشرة .

الخامسةَ عشرةَ ـ تقدمة المماليك . وموضوعها التحدّث علىٰ المماليك السلطانية والحكم فيهم ، ولا يكون صاحبها إلا من الخدّام ، والعادة أن تكون إمرة طبلخاناه ، وله نائب أمير عشرة .

السادسةَ عشرةَ ـ زِمَامية الدور السلطانية . وصاحبها من أكبر الخدّام ، وهو المعبر عنه بالزِّمَام ، وعادته أن يكون أمير طبلخاناه .

السابعة عشرة ـ نِقَابة الجيوش . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى موضوعة لتحلية الجند فى عَرْضهم ، ومعه يمشى النُّقَباء . وإذا طلب السلطان أو النائب

أو الحاجب أميرا أو غيره، أحضره . قال : وهو كأحد الحُجَّاب الصغار، وله التطلب بالحراسة فى الموكب والسفر .

الثامنةَ عشرةَ ــ المهمندارية . وموضوعها تَلَقِّى الرسل الواردين وأمراء العُرْبان وغيرهم ممن يردُ من أهل المملكة وغيرها .

التاسعة عشرة ــ شَــدّ الدواوين . وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدّثا فى ٱستخلاص الأموال، وما فى معنىٰ ذلك؛ وعادتها إمرة عشرة .

العشرون ــ إمرة طَبَر . وموضوعها أن يكون صاحبها حاملا الطَّبَر فى المواكب، ويحكم علىٰ مَنْ دونه من الطَّبَردارية؛ وعادتها إمرة عشرة أيضا .

الحــادية والعشرون ــ إمرة عَلَم . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثا علىٰ الطبلخاناه السلطانية وأهلها، متصرفا فى أمرها؛ وعادتها إمرة عشرة .

الثــانية والعشرون ــ إمرة شكار . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثا فى الجوارح السلطانية من الطُّيور وغيرها والصُّيود السلطانية وأحواش الطيور وغيرها؛ وهى إمرة عشرة .

الثالثة والعشرون ــ حِرَاســة الطير . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثا علىٰ حراسة الطيور من الكَرَاكِىّ التى هى بصدد أن يصيدها السلطان فى الأماكن التى تنزل بها الطيور من المزارع وغيرها؛ وهى إمرة عشرة .

الرابعة والعشرون ــ شدّ العمائر . وموضوعها أن يكون صاحبها متكلما فى العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثَه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار؛ وهى إمرة عشرة .

الخامسة والعشرون ــ الولاية . والوُلَاة بالحاضرة علىٰ صنفين .

الصنف الأوّل

(وُلَاة الشُّرْطة، المعروفون فى الديار المصرية بوُلاة الحرب؛ وهم ثلاثة،
بالقاهرة، والفُسْطَاط المعروف بمصر، والقَرَافة)

فأما والِى القاهرة، فيحكم فى القاهرة وضواحيها، وهو أكبر الثلاثة وأعلاهم رتبةً؛ وعادته إمرة طبلخاناه.

وأما والِى الفسطاط، فيحكم فى خاصّة مصر على نظير ما يحكم والِى القاهرة فى بلده؛ وعادته إمرة عشرة.

وأما والِى القرافة، فيحكم فى القرافة التى هى تُرْبة هاتين المدينتين بمراجعة والِى مصر؛ وعادته إمرة عشرة. وقد أضيفت الآن القرافة إلى مصر، وصارت ولاية واحدة وجعلت إمرة طبلخاناه ولكنها لاتبلغ شأوَ القاهرة.

الصنف الثانى

(وُلَاة القَلْعة، وهم آثنان)

أحدهما ـ والِى القلعة، وهو أمير طبلخاناه، وله التحدّث على باب القلعة الكبير الذى منه طلوع عامّة العسكر ونزولهم فى الفتح والغلق ونحو ذلك.

الثانى ـ والِى باب القلة، وهو أمير عشرة، وله التحدّث على الباب المذكور وأهله كما لوالى القلعة التحدّث على الباب الكبير المتقدّم ذكره.

النـــوع الثـانى

(ماهو خارج عن الحضرة السلطانية، وهم علىٰ ثلاث طبقات)

الطبقة الأولىٰ

(نُوّاب الســلطنة)

والذى بمصر الآن ثلاثُ نيابات ، جميعها مستحدثة عن قُرْب .

الأولىٰ ــ نيابةُ الإسكندرية . وهى نيابة جليـلة تُضاهى نيابةَ طَرَابُلُس وحماةَ وصَـفَدَ من المملكة الشامية الآتى ذكرها ، وبها كرسىّ سلطنةٍ ونمجاه سلطانية توضع علىٰ الكرسىّ ، ونائبها من الأمراء المقدّمين يركَبُ فى المواكب بالشبَّابة السلطانية ، ومعه أجناد الحَلْقَةِ المرتَّبون بها ، ويخرج فى موكبه إلىٰ ظاهر الإسْكَنْدَرِيَّةِ خارجَ باب البحر، ويجتمع إليه الأمراء المسيَّرون بها هناك، ثم يعود وهم معه إلىٰ دار النيابة، ويُمدّ السماط السلطانىّ، ويأكل عليه الأمراء والأجناد، ويحضره القضاة ، وتقرأ القِصَص علىٰ عادة النيابات ثم ينصرفون .

وكان ٱبتــداء ترتيب هذه النيابة فى سنة سبع وستين وسبعمائة فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طَرقَ العــدوُّ المخذول من الفرنج الإسكندريةَ وفتكوا بأهلها وقتلوا منهم الخلقَ العظيم ونهبوا الأموال الجمَّة، وكانت قبل ذلك ولاية تُعدّ فى جملة الولايات، وكان لواليها الرتبة الجليلة والمكانة العلية من أكابر أمراء الطبلخاناه .

الثانية ــ نِيَابة الوجه القبلىّ . وهى ممـا ٱسْتُحْدِث فى الدولة الظاهرية برقوق، وهو فى رتبة نيابة الوجه البحرىّ بل أعظم خَطَرا منــه، ومقرُّ نيابته مدينة أُسْيوط المتقدّم ذكرها ، وحكمه علىٰ جميع بلاد الوجه القبلىّ بأسرها ، وهى فى الترتيب علىٰ

ماتقدّم من نيابة الوجه البحرىّ ، وكانت قبــل ذلك كاشفا يطلق عليه والِى الوُلاة كما كان فى الوجه البحرىّ .

الثالثة ـ نيابة الوجه البحرىّ . وهى مما ٱستحدث فى الدولة الظاهرية أيضا ، ونائبها من الأمراء المقــدّمين ، وهو فى رتبة مقدّم العسكر بغزّة الآتى ذكرها ، ومقرّ نائبهــا دمنهور مدينة البحيرة المتقــدّم ذكرها ، وليست علىٰ قاعدة النيــابات بل هى فى الحقيقة وِلَاية حرب كبيرة ، وقد كان القائم بها قبل ذلك كاشفا يطلق عليه والى الولاة ولم يكن له مَقَرّة خاصة .

الطبقة الثــانيـــــة

(الكُشَّافُ)

قد تقدّم أنه قبل النيابة بالوجهين القبلىّ والبحرىّ كان بهما كاشفان ، ولمــا اســتقرّت النيابة بهما جعل للوجه البحرىّ كاشف من أمراء الطبلخاناه علىٰ العادة المتقدّمة ، يتحدّث فى بلاده ماعدا عَمَل البحيرة لقربه من نائب الوجه البحرىّ ، وجعل كاشف آخر من رتبته لعمل الفَيُّوم وعطِّل من الوالى ، وأضيف إليه عمل البهنسىٰ أيضا ، وسائر الوجه القبلىّ أمره راجع إلىٰ نائبه المتقدّم ذكره .

الطبقة الثـالثــــة

(الوُلَاة بالوجهين : القبلىّ والبحرىّ)

وقد تقدّم ذكر أعمـالها . ومراتب الوُلاة بهما لا تخرج عن مرتبتين .

المرتبــــة الأولى

(أمراء الطبلخاناه، وهى سبع(١) ولايات بالوجهين : القبلىّ والبحرىّ)

فأما الوجه القبلىّ ففيه أربع وُلَاة من هذه الرتبة .

الأوّل — والى البهنسىٰ، وهى أقرب ولاة الطبلخاناه بهذا الوجه الآن إلىٰ القاهرة .

الثانى — والى الأُشْمُونين .

الثالث — والى قُوص وإخميم، وهو أعظم ولاة الوجه القبـلىّ حتّى إنه يركب فى المواكب بالشَّبَّابة السلطانية أسوة النوّاب بالممالك .

الرابع — والى أُسْوان، وهو محدَث فى الدولة الظاهرية برقوق، وكانت قبـل ذلك مضافة إلىٰ والى قُوصَ ، وكانت ولاية الفَيُّوم طبلخاناه آستقرت كشفا علىٰ ما تقدّم .

أما أُسْيوط ، فلم يكن بها ولاية لكونها كانت مستقرّ والى الولاة بالوجه القبلىّ، ثم صارت مستقرّ النائب به ، وسيأتى بيان ما كان ولايةَ طبلخاناه ، ثم نقل إلىٰ العَشَرات .

وأما الوجه البحرىّ ففيه أربعة ولاة من هذه الرتبة .

---

(١) لعله ثمـان ولايات كما يظهر من عد الولاة بالوجهين .

الأوّل ـ والى الشرقية وهو والى بُلْبَيْس .

الثانى ـ والى مَنُوف .

الثالث ـ والى الغربيـة ، وهو والى المحلة ، ورتبته فى الوجه البحرىّ فى رِفعة القدر تضاهى رتبة والى قُوص فى الوجه القبلىّ .

الرابع ـ والى البحيرة ، وهو والى دَمَنْهُور .

وقد تقـدّم أن الإسكندرية قبل أن تسـتقرّ نيابةً كان بها والٍ من أمراء الطبلخاناه .

المرتبة الثـانيـــة

(من الوُلَاة أمراء العشرات، وهى سبعة وُلَاة بالوجهين)

فأما الوجه القبلىّ ففيه ثلاثة ولاة .

الأوّل ـ والى الجيزة ، وقد كان قبل ذلك طبلخاناه، ثم نقل إلى العشرات .

الثانى ـ والى إطفيح ، ولم يزل عشرة .

الثالث ـ والى منفلوط ، وهو وإن كان الآن أمير عشرين فقد تقدّم أن مَنْ دون الأربعين معـدود فى العشرات . على أنها كانت قبل ذلك ولايةَ طبلخاناه وحُطَّت عن ذلك .

وقد كان بعَيْذابَ فى الايام الناصرية والٍ أميرُ عشرة يولّى من قِبَل السـلطان ويراجع والى قُوص فى الأمور المهمة .

وأما الوجه البحرىّ، ففيه أربعة وُلَاة من هذه الرتبة .

الأول ـ والى قَلْيُوبَ، ولم تزل ولايتها إمرة عشرة .

الثانى ـ والى أُشْمُومَ، ولم تزل عشرة أيضا .

الثالث ـ والى دِمْيَاطَ .

الرابع ـ والى قَطْيا، وكان قبل ذلك طبلخاناه .

الضرب الثانى

(من أعيان المملكة وأرباب المناصب حَمَلَةُ الأقلام، وهم على نوعين)

النـــوع الأول

(أرباب الوظائف الدِّيوانية، وهى كثيرة للغاية لايسع ٱستيفاؤها والمعتبر منها مما يجب الاقتصارُ عليه تسعُ وظائف)(1)

الأولى ـ الوِزَارة . وهى أجلُّ الوظائف وأرفعها رتبةً فى الحقيقة لو لم تخرج عن موضوعها ويُعْدَل بها عن قاعدتها . قال فى "مسالك الأبصار" : وربها ثانى السلطان لو أُنْصِفَ وعُرِفَ حقُّه، لكنها لما حدَثت عليها النيابة تأخرت وقَعَدَ بها مكانُها حتّى صار المتحدّث فيها كناظر المال لا يتعدّى الحديث فيه، ولا يتسع له فى التصرف مجال، ولا تمتدّ يده فى الولاية والعزل لِتَطَلُّعِ السلطان إلى الإحاطة بجزئيَّات الأحوال . قال : وقد صار يليها أُناسٌ من أرباب السيوف والأقلام بأرزاق على قدر الإنفاق، وقطيعتها أشهر من أن تذكر .

قال : وكان هذا السلطان (يعنى الناصرَ محمد بن قلاوون رحمه الله) قد أبطلها، وصار ما كان يتحدّث فيه الوزير منقسما إلى ثلاثة : ناظرِ المال، ومعه شادّ الدواوين

---

(1) أوصلها فى العد الى ست وعشرين ومراده أن المهم منها تسع وان كان قد ذكر أكثر .

لتحصيل المال وصرف النفقات، وناظر الخاص لتدبير الأمور العامّة وتعيين المباشرين، وكاتب السر للتوقيع فى دار العدل مما كان يوقِّع فيه الوزير مشاورةً وآستقلالا .

قلت : ولما عادت الوزارة بعد ذلك، صارت إلىٰ ما كانت عليه من الآقتصار علىٰ التحدّث فى المال ، و بقيت كتابة السر علىٰ ماصارت إليه من التوقيع علىٰ القصص بدار العدل وغيرها . ثم إن كان الوزير صاحب قلم، فهو المستقلُّ بمباشرة الوظيفة نظرا وتنفيذا ومحاسبةً علىٰ الأموال، و إن كان صاحبَ سيفٍ، كان مقتصرا علىٰ النظر والتنفيذ، وكان أمر الحساب فى الأموال راجعا إلىٰ ناظر الدولة معه .

ثم لوظيفة الوزارة أتباع كثيرة أجلها نظر الدولة وآستيفاء الصُّحْبة وآستيفاء الدولة .

فأما نظر الدولة : وهو المعبر عنه فى مصطلح الدواوين المعمورة بالصُّحْبة الشريفة فموضوعها أن صاحبها يتحدّث مع الوزير فى كل ما يتحدّث فيه ويشاركُه فى الكتابة فى كل ما يكتُب فيه ، ويوقع فى كل ما يوقِّع فيه الوزير تبعا له . وإن كان الوزير صاحب سيف، كان ناظر الدولة هو المتحدّثَ فى أمر الحسبانات ، وما يتعلق بها والوزير مقتصر علىٰ النظر والتنفيذ .

وأما آستيفاء الصحبة — فهى وظيفة جليلة رفيعة القدر . قال فى "مسالك الأبصار" : وصاحبها يتحدّث فى جميع المملكة مصرا وشاما ، ويكتب مراسيمَ يُعَلِّمُ عليها السلطان، تارة تكون بما يُعْمَل فى البلاد، وتارة بإطلاقات، وتارة بآستخدامات كبار فى صغار الأعمال، وما يجرى مجراه .

قال : وهذا الديوان هو أرفع دواوين الأموال ، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية ، وكلٌّ من دواوين الأموال فهو فرعُ هذا الديوان وإليه يرجع حسابه وتتناهىٰ أسبابه .

وأما آستيفاء الدولة ـ فهى وظيفة رئيسية، وعلى متوليها مدار أمور الدولة فى الضبط والتحرير ومعرفة أصول الأموال ووجوه مصارفها، ويكون فيها مستوفيان فأكثر .

الوظيفة الثانية ـ كتابةُ السر . قال فى "مسالك الأبصار" : وموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذُ خَطِّ السلطان عليها وتسفيرها، وتصريف المراسيم ورودا وصَدَرا ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها . وقد تقدّم فى الكلام على الوزارة أنه صار يوقِّع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة مع مراجعة السلطان فيما يحتاج إلى المراجعة فيه، فى أمور أخرى من التحدّث فى أمر البريد وتصريف البريدية والقُصَّاد، ومشاركة الدَّوادار فى أكثر الأمور السلطانية مما تقدّم ذكره مفصلا . وبديوانه كُتَّاب الدَّسْت : وهم الذين يجلسون معه فى دار العدل ويقرءُون القصص على السلطان ويوقِّعون عليها بأمر السلطان ، وكُتَّاب الدَّرْج : وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب عن الأبواب الشريفة، وربما شاركهم كُتَّاب الدست فى ذلك .

الوظيفة الثالثة ـ نظر الخاصّ . وهى وظيفة محدَثة، أحدثها السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" رحمه الله حين أبطل الوزارة على ما تقدّم ذكره ، وأصل موضوعها التحدّث فيما هو خاصٌّ بمال السلطان . قال فى "مسالك الأبصار" : وقد صار كالوزير لقربه من السلطان وتصرُّفه، وصار إليه تدبير جملة الأمور وتعيين المباشرين يعنى فى زمن تعطيل الوزارة . قال : وصاحب هذه الوظيفة لايقدر على الآستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان . ولناظر الخاصّ أتباع من كُتَّاب ديوان الخاصّ كمستوفى الخاص، وناظر خِزَانة الخاص ونحو ذلك مما لا يسع آستيعابُه .

الوظيفة الرابعة ـ نَظَر الجيش . وموضوعُها التحدّث فى أمر الإقطاعات بمصر والشأم والكتابةُ بالكشف عنها ومشاورةُ السلطان عليها وأخذُ خَطِّه ، وهى وظيفة

جليلة رفيعة المقدار، وديوانها أوّل ديوان وُضِع فى الإسلام بعد النبىّ صلى الله عليه وسلم فى خلافة عمرَ. قال الزُّهْرِىّ: قال سعيد بن المسيب: وذلك فى سنة عشرين من الهجرة، وسيأتى الكلام على مايتعلق بها فى الكلام على كتابة المناشير فى المقالة السادسة إن شاء الله تعالى. ولناظر الجيش أتباع بديوانه يُوَلَّوْن عن السلطان، كصاحب ديوان الجيش وكُتَّابِه وشهوده، وكذلك صاحب ديوان المماليك، وكاتب المماليك وشهود المماليك. فإن المماليك السلطانية فرع من الجيش ونظرهم راجع إلى ناظر الجيش.

الوظيفة الخامسة ـ نظر الدواوين المعمورة والصحبة الشريفة. وهو المعبر عنه بناظر الدولة، وموضوعها التحدّث فى كل ما يتحدّث فيه الوزير، وكلُّ ما كَتَبَ فيه الوزير كَتَب فيه هو، يكتب فيه بمثل مارسم به.

الوظيفة السادسة ـ نظر الخِزَانة. قال فى "مسالك الأبصار": وكانت أوّلا كبيرة الوضع لأنها مستودَع أموال المملكة، فلما آستُحدِثت وظيفة الخاص، صَغُر أمر الخِزانة، وسميت بالخزانة الكبرى، وهو آسم فوق مسماه. قال: ولم يكن بها الآن إلا خِلَعٌ تخلع منها أو مايحضر إليها ويصرف أوّلا فأوّلا، وفى الغالب يكون ناظرها من القُضاة أو من يلتحق بهم، ولناظر الخزانة أتباع يُوَلَّوْن عن السلطان كصاحب ديوان الخزانة.

الوظيفة السابعة ـ نظر البيوت والحاشية. وهو نظر جليل، وكلُّ ما يتحدّث فيه الأستادار له فيه مشاركة فى التحدّث فيه، وقد تقدّم تفصيل حال وظيفة الأستادارية.

الوظيفة الثامنة ـ نظر بيت المال. وموضوعها حملُ حمول المملكة إلى بيت المال والتصرف فيه تارة قبضا وصرفا وتارة بالتسويغ محضرا وصرفا. قال فى "مسالك الأبصار": ولا يليها إلا ذو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة.

الوظيفة التاسعة ـ نظر الإصطبلات السلطانية . وموضوعها مباشرة إصطبلات السلطان والتحدّث فى أنواع الخيول والبغال والدواب والجمـال السلطانية ، وعليقها وعُدّتها ، وما لهـا من الآستعمالات والإطلاقات ، وكل ما يبتاع لهـا أو يباع منها ، وأرزاق المستخدمين بها ونحو ذلك .

الوظيفة العاشرة ـ نظر دار الضيافة والأسواق . وموضوعها التحدّث فى أمر ما يَتَحصَّـل من سوق الخيـل والرقيق ونحوهمـا ، وصرف ذلك فى كلفة من يرد إلىٰ الأبواب السلطانية من رُسُـل الملوك ونحوهم ، وصرف مرتبات مقررة لأناس فى كل شهر ؛ والتحدّثُ فيهـا ولايةً وعزلا وتنفيـذا راجعٌ إلىٰ الدَّوادار ؛ وللوزير المشاركة معه فى المتحصِّل فى شيء مخصوص .

الوظيفة الحادية عشرةَ ـ نظر خزائن السـلاح . وموضوعها التحدّث علىٰ كل ما يستعمل من السلاح السـلطانىّ ، وعادته أن يجمع ما يَتَحصَّل من عمل كل سـنة ويجهَّز فى يوم معين ، ويحمل علىٰ رءُوس الحمَّالين إلىٰ خزائن السلاح بالقلعة المحروسة ، ويخلع عليه وعلىٰ رُفْقَتِه من المباشرين .

الوظيفة الثانية عشرة ـ نظر الأملاك السـلطانية . وموضوعها التحدّثُ علىٰ الأملاك الخاصَّة بالسلطان من ضِيَاع ورِبَاع وغير ذلك .

الوظيفة الثالثةَ عشرةَ ـ نظر البَهار والكارمىّ (١) . وموضوعها التحدّث علىٰ واصل التجار الكارِميَّة من اليمن من أصناف البَهَار وأنواع المتجر ، وهى وظيفة جليلة تارة تضاف إلىٰ الوزارة وتجعل تبعا لهـا ، وتارة تضاف إلىٰ الخاص وتجعل تبعا لهـا ، وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان .

---

(١) ر جح فى الضوء الكانمى بالنون وقال انه نسبة الى الكانم فرقة من السودان كان منهم طائفة مقيمة بمصر يتجرون فى البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن فعرف ذلك بهم الى آخر ما قال فراجعه .

الوظيفة الرابعة عشرة ـ نظر الأهراء بمصر بالصناعة . وهى شُونة الغلال السلطانية التى يتكلم عليها الوزير، وموضوعها التحدّث فيما يصل إليها من النواحى من الغلال وغيرها ، وما يُصرف منها علىٰ الإصطبلات الشريفة والمُنَاخات السلطانية وغير ذلك .

الوظيفة الخامسةَ عشرةَ ـ نظر المواريث الحَشْريَّة . وموضوعها التحدّث علىٰ ديوان المواريث الحشرية ممن يموت ولا وارث له ، أو وله وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التحدّث فى إطلاق جميع الموتىٰ من المسلمين وغيرهم .

الوظيفة السادسةَ عشرةَ ـ نظر الطواحين السلطانية بمصر بالصناعة أيضا . وهو مغلق عظيم فيه عشرة حجارة يخرج منها فى كل يوم نحو خمسين تليسا .

الوظيفة السابعة عشرة ـ نظر الحاصلات . وهو المعبَّر عنه بنظر الجهات ؛ وموضوعه التحدّث فى أموال جهات الوزارة من متحصِّل ومصروف أو حمل لبيت المال وغيره .

الوظيفة الثامنة عشرة ـ نظر المرتَجَعات . وموضوعها التحدّث علىٰ ما يُرتَجَع ممن يموت من الأمراء ونحو ذلك، وقد رُفِضت هذه الوظيفة وتعطَّلت ولايتها فى الغالب وصار أمر المرتَجَع موقوفا علىٰ مستوفِى المرتجع ، وهو الذى يحكم فى القضايا الديوانية ويفصلها علىٰ مصطَلَح الديوان، وهو المعبر عنه بديوان السلطان .

الوظيفة التاسعة عشرة ـ نظر الجيزة . وموضوعها التحدّث علىٰ ما يَتحصَّل من عمل الجيزيَّة التى هى خاص السلطان، وهى فرع من فروع الدواوين .

الوظيفة العشرون ـ نظر الوجه القبلىّ . وموضوعها التحدّث علىٰ بلاد الصعيد بأسرها ممـا يَتحصَّل فيها من ميراث وغيره .

الوظيفة الحادية والعشرون — نظر الوجه البحرىّ . وموضوعها كموضوع نظر الوجه القبلىّ المتقدّم ذكره .

الوظيفة الثانية والعشرون — صَحَابة ديوان الجيش . وموضوعها التحدّث فى كل ما يتحدّث فيه ناظر الجيش من أمر الإقطاعات .

الوظيفة الثالثة والعشرون — صَحَابة ديوان البيمارستان . وموضوعها التحدّث فى كل مايتحدّث فيه ناظر البيمارستان .

الوظيفة الرابعة والعشرون — صَحَابة ديوان الأحباس . وصاحبها يكتب فى كل مايكتب فيه ناظر الأحباس إلا أنها بطَلتْ .

الوظيفة الخامسة والعشرون — آستيفاء الصحبة .

آستيفاء الدولة (١)

النـــوع الثـانى

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم صنفان)

الصـــنف الأوّل

(من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف ،
وهو منحصر فى خمس وظائف)

الوظيفة الأولىٰ — قضاء القضاة . وموضوعها التحدّثُ فى الأحكام الشرعيـة وتنفيذ قضاياها ، والقيامُ بالأوامر الشرعية ، والفصل بين الخصوم ، ونصب النوّاب

(١) تقدم الكلام عليهما فى الكلام علىٰ توابع الوظيفة الأولىٰ من هذا النوع وهى الوزارة فرأىٰ أنه لا داعى الىٰ الإعادة فلا سقط كما قد يتوهم .

للتحدّث فيما عَسُر عليه مباشرته بنفسه ؛ وهى أرفع الوظائف الدينية واعلاها قدرا وأجلُّها رتبة .

وآعلم أن الأمر فى الزمن الأوّل كان قاصرا علىٰ قاضٍ واحد بالديار المصرية من أىّ مذهب كان، بل كان فى الدولة الفاطمية قاضٍ واحدٌ بالديار المصرية، وأجنادِ الشام، وبلادالمغرب ، مضافٌ إليه التحدّث فى أمر الصلاة ودُور الضرب وغير ذلك علىٰ ماستقف عليه فى تقاليد بعض قضاتهم فى الكلام علىٰ تقاليد القضاة إن شاء الله تعالىٰ، ثم آستقرّ الحال فى الأيَّام الظاهرية بيبرس فى سنة ثلاث وستين وستمائة علىٰ أربعة قضاة من مذاهب الأئمة الأربعة : الشافعىّ ومالك وأبى حنيفة وأحمدبن حَنْبَل رضى الله عنهم، وكان السبب فى ذلك فيما ذكره صاحب "نهاية الأرب" أن قضاء القضاة بالديار المصرية كان يومئذٍ بيد القاضى تاج الدين عبد الوهاب آبن بنت الأعز بمفرده ؛ وكان الأمير جمال الدين ايدغدى أحد أمراء السلطان الملك الظاهر المتقدّم ذكره يعانده فى أموره، ويغُضُّ منه عند السلطان، لتثبُّته فى الأمور وتوقفه فى الأحكام . فبينما السلطان ذاتَ يوم جالس بدار العدل إذ رُفِعت إليه قصة بسبب مكانٍ باعه القاضى بدر الدين السنجارىّ ، ثم آدّعى ذرّيته بعد وفاته أنه موقوف، فأخذ الأمير ايدغدى يَغُضُّ من القُضاة بحضرة السلطان،فسكت السلطان لذلك ، ثم قال للقاضى تاج الدين : ما الحكم فى ذلك ؟ قال : إذا ثبتت الوقفية يستعادُ الثمن من تركة البائع ، قال : فإن عجزت التركة عن ذلك، قال : يوقف علىٰ حاله ، فآمتعض لها السلطان وسكت ، ثم جرىٰ فى المجلس ذكرُ أمور أخرىٰ توقف القاضى فى تمشيتها ، وكان آخرُالأمر أن الأمير ايدغدى حَسَّنَ للسلطان نصبَ أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ففعل ، وأقرّ القاضى تاجَ الدين آبن بنت الأعز فى قضاء الشافعية، وولَّىَ الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح

السبكيّ قضاءَ المـالكية ، والقاضى بدر الدين بن سلمـان قضاءَ الحنفية ، والقاضى شمسُ الدين محمد ٱبن الشيخ عماد الدين إبراهيم القدسىّ قضاءَ الحنابلة ، وجعل لهم الأربعـة أن يولُّوا النوّاب بأعمـال الديار المصرية ، وأفرد القاضىَ تاج الدين بالنظر فى مال الأيتام والأوقاف ، وكُتِبَ له بذلك تقليـدٌ من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر أوّله "الحمد لله مجرِّد سيف الحق علىٰ مَنْ ٱعتدىٰ". ثم كل من الأربعة له التحدّث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفُسْـطَاطِ ، ونصب النوّاب ، وإجلاس الشهود ، ويستـقلُّ الشافعىّ منهم بتولية النوّاب بنواحى الوجهين القبلىّ والبحرىّ لا يشاركه فيه غيره .

الوظيفة الثانية ـــ قضاء العسكر . وهى وظيفة جليلة قديمة كانت فى زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان قاضى عسكره بهاء الدين بن (١) وموضوعها أنّ صاحبها يحضُر بدار العدل مع القُضاة المتقدّم ذكرهم ، ويسافر مع السلطان إذا سافر ، وهم ثلاثة نفر : شافعىّ ، وحنفىّ ، ومالكىّ ، وليس للحنابلة منهم حظ ، وجلوسهم فى دار العدل دون القُضاة الأربعة المتقدّمى الذكر علىٰ ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثالثة ـــ إفتـاء دار العـدل . وموضوعها علىٰ نحو ما تقـدّم فى قضاء العسكر ، وبها أربعة نفر ، من كل مذهب واحد ، وجلوسهم دون قُضاة العسكر علىٰ ما يأتى ذكره .

الوظيفة الرابعة ـــ وَكَالة بيت المال . وهى وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر ، وموضوعها التحدُّث فيما يتعلق بمبيعات بيت المـال ومشـتَرَياته من أراض وآدُر وغير ذلك ، والمعاقدة علىٰ ذلك وما يجرى هذا المجرىٰ . قال فى "مسالك الأبصار":

(١) بياض بالأصل .

ولا يليها إلا أهل العلم والديانة ، ومجلسه بدار العدل : تارة يكون دون المحتَسِب ، وتارة فوقه بحسب رفعة قدر كل منهما فى نفسه .

الوظيفة الخامسة ـ الحِسْبة . وهى وظيفة جليلة رفيعة الشأن ، وموضوعها التحدّث فى الأمر والنهى ، والتحدّث علىٰ المعايش والصنائع ، والأخذُ علىٰ يد الخارج عن طريق الصلاح فى معيشته وصناعته . وبالحضرة السلطانية محتسبان : أحدهما بالقاهرة ، وهو أعظمهما قدرا وأرفعهما شأنا ؛ وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحرى بكماله خلا الإسْكَنْدَرِيَّة ، فإن لها محتسبا يخُصها ، والثانى بالفُسْطَاط ومرتبته منحطة عن الأوّل ؛ وله التحدّث والتولية بالوجه القبلىّ بكماله ، والذى يجلس منهما بدار العدل فى أيام المواكب محتسب القاهرة فقط دون محتسب مصر ؛ ومحلُّ جلوسه دون وكيل بيت المال ، وربما جلس أعلىٰ منه إذا كان أرفع منه بعلم أو نحوه .

الصنف الثانى

(من أرباب الوظائف الدينية من لامَجلِسَ له بالحضرة السلطانية)

وهذه الوظائف لاحصْرَ لعددها علىٰ التفصيل ، ولا سبيلَ إلىٰ ٱستيفاء ذكرها علىٰ تفاوُت المراتب فوجب الاقتصار علىٰ ذكر المُهِمِّ منها .

ثم هذه الوظائف منها ماهو مختصٌّ بشخص واحد ، ومنها ماهو عامٌّ فى أشخاص .

فأما التى هى مختصة بشخص واحد .

فمنها (نِقَابة الأشراف) وهى وظيفة شريفة ، ومرتبة نفيسة ؛ موضوعها التحدّث علىٰ ولد علىّ بن أبى طالب كرم الله تعالىٰ وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهم المراد بالأشراف ، فى الفحص عن أنسابهم والتحدّث فى أقاربهم

والأخذ علىٰ يد المتعدّى منهم ونحو ذلك ، وكان يعبَّر عنها فى زمن الخلفاء المتقدّمين بنقابة الطالبيِّين .

ومنها (مشيخة الشيوخ) والمراد بها مشيخة الخانقاه التى أنشأها الملك الناصر محمد آبن قلاوون بسرياقوس من ضواحى القاهرة .

أمّا مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقاهرة المعروفة بسعيد السعداء، فإنها وإن قَدُم زمنها وعَظُم قدرها دونَ تلك فى المشيخة .

ومنها (نَظَر الأحبـاس المبرورة) وهى وظيفة عاليــة المقـدار ؛ وموضوعها أنّ صاحبها يتحدّث فى رِزق الجوامع والمساجد والرُّبُط والزوايا والمدارس من الأرضين المفردة لذلك من نواحى الديار المصرية خاصةً ، وما هو من ذلك علىٰ سبيل البِرّ والصدقة لأناس معيَّنين ، وأصل هذه الوظيفة أن اللَّيْثَ بن سعد رحمه الله آشترىٰ أراضىَ من بيت المـال فى نواحٍ من البُلْدان وحبَّسها علىٰ وجوه البِرّ ، وهى المسماة بديوان الأحبـاس بوجوه العين ، ثم أضـيف إلىٰ ذلك الرِّبَاعُ والدور المعروفة بالفُسْطَاطِ وغيره ، ثم أضيف إليها رِزَق الخطابات ، ثم كثرت الرِّزَق من الأرضين فى الدولة الظاهرية بيبرس بواسطة الصاحب بهاء الدين بن حنا وأخذت فى الزيادة إلىٰ زماننا؛ وهى تارة يتحدّث فيها السلطان بنفسه، وتارة النائب، وفى غالب الوقت يتحدّث فيها الدَّوادار الكبير علىٰ ما آستقرّ عليه الحال آخرا .

ومنها (نظر البيمارستان) والمراد البيمارستان المنصورىّ الذى أنشأه المنصور قلاوون بين القصرين ، وكان دارًا لِستِّ الملك أخت الحاكم الفاطمىّ فغـيَّر معالمه وزاد فيـه ، وليس له نظير فى الدنيـا فى بِرِّه ومعروفه ؛ وهى من أجلِّ الوظـائف وأعلاها؛ وعادةُ النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية .

وأمّا التى هى عامّة فى أشخاص .

فمنها (الخَطَابة) وهى فى الحقيقة أجلُّ الوظائف وأعلاها رتبة، إذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعلها بنفسه، ثم فعلها الخلفاء الراشدون فمَنْ بعدهم، وهى علىٰ كثرة الجوامع بالديار المصرية بحيث إنها لاتحصىٰ كَثْرَةً ـ لا يتعلق منها بولاية السلطان إلا القليل النادر: كجامع القلعة إلا إذا كان مفردا عن القضاء ونحو ذلك مما لا ناظر له خاصٌّ .

ومنها (التداريس) وهى علىٰ ٱختلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك لا يولِّى السلطان فيها إلا فيما يَعْظُمُ خَطَره ويرتفع شأنه مما لا ناظر له خاصٌّ كالمدرسة الصلاحية بجوار تربة الإمام الشافعىّ رضى الله عنه، والزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالفُسْطَاطِ، وهى المعروفة بالخشابية، والمدرسة المنصورية بالبيمارستان المنصورىّ المتقدّم ذكره بين القصرين، ودرس الجامع الطولونى ونحو ذلك .

المقصد الرابع

(فى زِىّ أعيان المملكة من أرباب المناصب السلطانية بالديار المصرية فى لبسهم وركوبهم، وهم أربع طوائف)

الطائفة الأولىٰ

(أرباب السُّيوف، وزِيُّهُمْ راجع إلىٰ أمرين)

الأمر الأوّل (لُبْسهم). ويختلف الحال فيه بٱعتبار مواضع اللُّبس من البدن .

فأما مابه تَغْطِيَةُ رءُوسهم، فقد تقدّم أنهم كانوا فى الدولة الأيوبية يلبسون كَلُّوتات صُفْر بغير عمائم، وكانت لهم ذوائبُ شعر يرسلونها خلفهم . فلما كانت الدولة

الأشرفية "خليل بن قلاوون" رحمه الله، غير لونها من الصُّفْرَةِ إلىٰ الحُمْرة وأمر بالعمائم من فوقها، و بقيت كذلك حتّى حَجّ الملكُ الناصر "محمد بن قلاوون" رحمه الله فى أواخر دولتــه فحلق رأســه فحلق الجميع رءوسهم، وآستمرّوا علىٰ الحلق إلىٰ الآن ، وكانت عمــامتهم صغيرة فزيد فى قدرها فى الدولة الأشرفية "شعبان بن حسين" فحَسُنَت هيئتها وجادت ، وهى علىٰ ذلك إلىٰ زماننا .

وأما ثياب أبدانهم فيلْبَسون الأقبية التَّتَرِيَّةَ والتكلاوات فوقها ثم القَبَاء الإسلامىّ فوق ذلك، يشدّ عليه السيف من جهة اليسار والصولق والكزلك من جهة اليمين .

قال السـلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" : وأوّل من أمر بذلك غازى بن زنكى أخو العادل نور الدين الشهيد حين ملك المَوْصِلَ بعــد أبيه ، ثم الأمراء والمقدَّمون وأعيان الجند تلبس فوقه أقبيةً قصيرةَ الأكمام أقصرَ من القَبَاء التحتانىّ بلا تفاوت كبير فى قِصَر الكُمّ وطولِه ، مع سَعَة الكم القصير وضيق الأكمام الطويلة .

ثم إن كان زمنُ الصيف كان جميع القماش من الفوقانىّ وغيره أبيضَ من النصافى ونحوه، وتشــدّ فوق القَبَاء الإســلامىّ المِنْطَقَةُ، وهى الحيــاصة، ومعظم مناطقهم من الفضة المطلية بالذهب، و ربمــا جُعِلت من الذهب ، وقد تُرصَّع باليشم . قال فى "مسالك الأبصار" : ولا تُرصَّع بالجواهر إلا فى خلع الســلطان لأكابر أمراء المِئِيــن .

و إن كان زمنُ الشتاء كانت فوْقانياتهم ملوّنة من الصوف النفيس والحرير الفائق، تحتها فِرَاءُ السِّنجاب الغض . و يلبس أكابر الأمراء السَّــمُّورَ ، والوشق ، والقاقم والفنك ، و يجعل فى المِنْطَقَةِ منديلا لطيفا مُسْــدَلا علىٰ الصولق ، ومعظمهم يلبس

المطرّز علىٰ الكُمَّيْنِ من الزركش أو الحرير الأسود المرقوم. قال فى "المسالك" : ولا يَلْبَسُ المُطَرَّزَ إلا مَنْ له إقطاع فى الحَلْقَةِ، أما مَنْ هو بعدُ بالجامكية، فلا يتعاطىٰ ذلك.

وأما ما يجعل فى أرجلهم، فإن كان فى الصيف لَبِسوا الخفاف البيض العَلَوية، وإن كان فى الشتاء لبسوا الخِفَاف الصفر من الأديم الطائفىّ، ويشدّون المهاميز المسَقَّطة بالفضة فى القدم علىٰ الخف. قال فى "مسالك الأبصار" : ولا يُكَفِّت مِهْمازَه بالذهب إلا مَنْ له إقطاع فى الحَلْقة علىٰ ما تقدّم فى لبس المطرّز.

الأمر الثانى (ركوبهم). أما ما يركبون، فالخيل المُسَوَّمَةُ النفيسة الأثمان خصوصا الأمراء ومن يُلْحق بشأوِهم، ولا يركبون البغال بحال بل تركبها غلمانهم خلفهم بالقُماش النفيس والهيئة الحسنة والقوالب المحلّاة بالفضة، وربما غُشِّى جميعها بالفضة بل ربما غُشِّى جميعها بالذهب للسلطان وأعيان الأمراء، ومعها العِبْى السابلة الملوّنة من الصوف الفائق، وربما جعلت من الحرير لأعيانهم، وقد يتخذ بدلها الكنابيش بالحواشى المَخَايش، وربما كانت زركشا للسلطان والأمراء، وتحلّى لُجُمُهُم وتُسَقَّط بالفضة بحسب آختيار صاحبها، ويجعل الدَّبُّوس فى حَلْقة متصلة بالسرج تحت ركبته اليمنىٰ. قال صاحب حماة : وأوّل من أمرهم بذلك غازى بن زنكى حين أمرهم بشدّ السيوف فى أوساطهم علىٰ ما تقدّم ذكره. قال فى "مسالك الأبصار" : وعلىٰ الجملة فزِيُّهم ظريف وعُدَدُهم فائقة نفيسة.

الطائفة الثانية

(أرباب الوظائف الدينية من القُضاة وسائر العلماء، وزِيُّهم راجع أيضا إلىٰ أمرين)

الأمر الأوّل (ملبوسهم). ويختلف ذلك بآختلاف مراتبهم، فالقضاة والعلماء

منهم يلْبَسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذُؤابة تلحق قَرَبُوس سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عِوَض الذُّؤابة الطيلسانَ الفائق ، ويَلْبَس فوق ثيابه دلقا متسعَ الأكمام طويلَها مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج ، سابلا على قدميه . ويتميز قُضاة القضاة الشافعىّ والحنفىّ بلُبْس طرحة تستُر عمامته وتنسدل على ظهره ، وكان قبل ذلك مختصا بالشافعىّ ؛ ومَنْ دون هذه منهم تكون عمامته ألطف ، ويلبس بدل الدلق فَرَجيَّة مفرجة من قدّامه من أعلاها إلى أسفلها مزرّرة بالأزرار ، وليس فيهم من يلْبَس الحرير ، ولا ما غلب فيه الحرير ؛ وإن كان شتاء كان الفَوْقانى من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطىّ ، ولا يلبسون الملوّن إلا فى بيوتهم ، وربما لبسه بعضهم من الصوف فى الطرقات ، ويلبسون الخِفَاف من الأديم الطائفىّ بغير مَهامِيز .

الأمر الثانى (مركوبهم) . أما أعيان هذه الطائفة من القُضاة ونحوهم فيركبون البِغَال النفيسة المساوية فى الأثمان لمُسَوَّمَاتِ الخيول ، بلُجُم ثِقَال وسروج مدهونة غير مُحلَّاة بشىء من الفضة ، ويجعلون حول السرج قرقشينا من جوخ . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو شبيه بثوب السرج مختصر منه ، ويجعلون بدل العبى الكنابيش من الصوف المرقوم محاذية لكفل البغلة ، ويمتاز قضاة القضاة بأن يجعل بدل ذلك الزنارىّ من الجوخ ، وهو شبيه بالعباءة مستدير من وراء الكَفَل ولا يعلوه بردنب ولا قوش ، وربما رَكبوا بالكنابيش . وأما من دون هؤلاء من هذه الطائفة فربما ركبوا الخيول بالكنابيش والعبى .

الطائفة الثالثة

(مشايخ الصوفية)

وهم مُضاهُون لطائفة العلماء فى لبس الدلق إلا أنه يكون غير سابل، ولا طويل الكُمِّ، ويُرْخون ذؤابة لطيفة على الأذن اليسرى لا تكاد تلحق الكتف، ويركبون البغال بالكابيش على نحو ما تقدّم .

الطائفة الرابعة

(أرباب الوظائف الديوانية)

أما أعيانهم كالوزراء ومَنْ ضاهاهم، فيلبسون الفراجى المضاهية لفراجى العلماء المتقدّمة الذكر، وربما لَبِسوا الجِبَاب المفرجة من ورائها . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن أكابرهم كانوا يجعلون فى أكمامهم بادهنجات مفتوحة، وقد صار ذلك الآن قاصرا على ما يلبسونه من التشاريف . ومَنْ دون هؤلاء يلبسون الفرجيات المفرجة من ورائها على ما تقدّم .

وأما ركوبهم فيضاهى ركوب الجند أو يقاربه . قال فى "مسالك الأبصار" : وتجمُّل هذه الطائفة بمصر أكمل مما هم بالشام فى زِيِّهم وملبوسهم، إلا مايحكى عن قِبْط مصر فى بيوتهم من اتساع الأحوال والنفقات، حتّى إن الواحد منهم يكون فى ديوانه بأدنى اللباس ويأكل أدنى المآكل، ويركب الحمار، حتّى إذا صار فى بيته انتقل من حال إلى حال وخرج من عدم إلى وجود . قال : ولقد تبالغ الناس فيما تحكى من ذلك عنهم .

المقصـــــد الخـامس
(فى هيئة السلطان فى ترتيب الملك ، وله ثلاث[1] هيئات)

الهيئـــــة الأولىٰ
(هيئته فى جلوسه بدار العدل لخَلَاص المَظَالم)

عادةُ هذا السلطان إذا كان بالقلعة فى غير شهر رمضان أن يجلس بُكْرَةَ يوم الآثنين بإيوانه الكبير المسمّى بدار العدل المتقدّم ذكره مع ذكر القلعة فى الكلام علىٰ حاضرة الديار المصرية؛ ويكون جلوسه علىٰ الكرسىّ الذى هو موضوع تحت سرير المُلْك . قال فى "مسالك الأبصار" : ويجلس علىٰ يمينه قُضاة القُضاة من المذاهب الأربعة، ثم وكيل بيت المـال، ثم الناظر فى الحسبة . ويجلس علىٰ يساره كاتب السِّر، وقدّامه ناظر الجيش وجماعةُ الموقِّعين تكملة حَلْقَةٍ دائرة . قال : وإن كان الوزير من أرباب الأقلام ، كان بينه وبين كاتب السر ، وإن كان من أرباب السـيوف، كان واقفا علىٰ بُعْـدٍ مع بقيـة أرباب الوظائف . وكذلك إن كان ثَمَّ نائب وقف مع أرباب الوظائف . ويقف من وراء السلطان مماليكُ صِغار عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية؛ ويجلس علىٰ بُعْـد بقدر خمسةَ عشرَ ذراعا من يَمْنته ويَسْرته ذوو السنّ من أكابر أمراء المِئِين ، وهم أمراء المَشُورَةِ؛ ويليهم مِن أسـفلَ منهـم أكابرُ الأمراء ، وأربابُ الوظائف وقوفٌ ، وباقى الأمراء وقوف من وراء المَشُورَةِ؛ ويقف خلْفَ هذه الحَلْقَةِ المحيطة بالسلطان الحُجَّابُ والدَّوادارية لإحضار قِصَص أرباب الضرورات وإحضار المساكين ، وتقرأ عليه القصص فمـا آحتاج فيه إلىٰ مراجعة القضاة راجعهم فيه، وما كان متعلقا بالعسكر تحدّث فيه مع الحاجب وناظر الجيش، ويأمر فى البقية بمـا يراه .

(١) الصواب سبع كما عبر به فى الضوء وهى فى العدد أيضا سبع كما ستراه .

قلت : وقد آستقرّ الحال علىٰ أن يكون عن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة : وهما الشافعىّ والمالكىّ ، وعن يساره قاضيان وهما الحنفىّ ثم الحنبلىّ ؛ ويلى القاضى المالكىّ من الجانب الأيمن قُضاةُ العسكر الثلاثةُ المتقدّم ذكرهم الشافعىّ ثم الحنفىّ ثم المالكى ؛ ويليهم مُفْتُو دار العدل علىٰ هـذا الترتيب ؛ ويليهم وكِيلُ بيت المال ثم الناظر فى الحِسْبة بالقاهرة ، وربما جلس المحتسب فوق وكيل بيت المال إذا علا قَدْرُه عليه بعِلْم أو رياسة . كل هؤلاء صفٌّ واحدٌ عن يمين السلطان مستدبرين جِدارَ صدر الإيوان مستقبلين بابه ، والقاضيان الحنفىّ والحنبلىّ كذلك من الجانب الأيسر ، والوزير إن كان من أرباب الأقلام إلىٰ جانب الكرسىّ من الجانب الأيسر بانحراف ، وكاتب السرّ يليه ، وتستدير الحَلْقَةُ حتّٰى يصير الجالس بها مستدبرا باب الإيوان علىٰ ماتقدّمت الإشارة إليه فى كلام "مسالك الأبصار" .

الهيئة الثانيـــــة

(هيئتـــه فى بقيّـــة الأيام)

عادته فيما عدا الآثنين والخميس من الأيام أن يخرج من قُصُوره الجَوّانيـة المتقدّم ذكرها إلىٰ قصره الكبير المُشْرِف علىٰ إصطبلاته ، ثم تارة يجلس علىٰ تخت الملك الذى بصَدْره ، وتارة يجلس علىٰ الأرض ، ويقف الأمراء حوله علىٰ ما تقدّم فى الجلوس فى الإيوان ، خلا أمراء المَشُـورَةِ والغرباء منه فليس لهم عادة بحضور هـذا المجلس إلّا مَنْ دعت الحاجة إلىٰ حضوره ، ثم يقوم فى الثالثة من النهار فيدخل إلىٰ قصوره الجوّانية لمصالح ملكه ، ويعبر عليه خاصته من أرباب الوظائف كالوزير ، وكاتب السر ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش فى الأشغال المتعلقة به علىٰ ماتدعو الحاجة إليه .

الهيئة الثالثـــــة

(هيئته فى صلاة الجمعة والعيدين)

أما صـــلاة الجمعة فإن عادته أن يخرج إلىٰ الجامع المجاور لقصره المتقـدّم ذكره من القصر، ومعه خاصة امرائه، فيدخل من أقرب أبواب الجامع للقصر، ويصلّى فى مقصورة فى الجامع عن يمين المِحْراب خاصـة، ويصلِّى عنده فيها أكابر خاصته، ويجيء بقية الأمراء: خاصّتُهم وعامّتهم فيصلون خارج المقصورة عن يمينها ويسارها علىٰ مراتبهم، فإذا فرغ من الصلاة دخل إلىٰ دُور حريمه وذهب الأمراء كلٌّ أحد إلىٰ مكانه.

وأما صلاة العيدين، فعادته أن يركب من باب قصره وينزل من مَنْفَذة من الإصطبل إلىٰ الميدان الملاصـق له، وقد ضُرِب له فيـه دِهْليز علىٰ أكمل ما يكون من الهيئة، ويَحْضُر خطيب جامع القلعة إلىٰ الميدان فيصلى به العيد ويخطب؛ فإذا فرغ من سمـاع الخطبة ركب وخرج من باب الميـدان والأمراء والممـاليك يمشون حوله، وعلىٰ رأسه العصائب السلطانية، والغاشية محمولة أمامه، والجتر وهو المظلة محمول علىٰ رأســه مع أحد أكابر الأمراء المقدّمين وهو راكب فرسا إلىٰ جانبــه، والأوشاقِيّان الجفتة المتقدّم ذكرهمـا راكبان أمامه، وخلفه الجنائب، وعلىٰ رأســه العصائب السُّلْطانية، وأرباب الوظائف من السلاحدارية كلُّهم خلفه، والطَّبَرْدارية أمامه مشاة بأيديهم الأطبـار، ويطلُع من باب الإصطبل ويطلُع إلىٰ الإيوان الكبير المقدّم ذكره، ويمدّ السماط ويَخْلَع علىٰ حامل الجتر، وأمير سلاح، والأسـتادار، والجاشنكير، وجماعة من أرباب الوظائف ممن لهم خدمة فى مُهِمِّ العيـد كنوّاب أستادار، وصغار الجاشنكيرية، وناظر البيوت ونحوهم.[1]

(١) لم يذكر هذه الجملة فى الضوء وعدم ذكرها أولىٰ لانها سبقت.

الهيئة الرابعـــة

(هيئته لِلَعب الكُرَة بالميدان الأكبر)

عادته أن يركب لذلك بعـد وفاء النيل ثلاثة مواكب متوالية فى كل سبت ينزل من قصره أوّل النهار من باب الإصطبل، وهو راكب علىٰ الهيئة المذكورة فى العيد ماعدا الجتر فإنه لايحمل علىٰ رأسه، وتحمل الغاشية أمامه فى أوّل الطريق وآخره، ويصير إلىٰ الميدان فينزل فى قصوره، وينزل الأمراء منازلهم علىٰ قدر طَبَقاتهم، ثم يركب للعب الكُرَة بعد صلاة الظهر والأمراء معه، ثم ينزل فيستريح، ويستمرّ الأمراء فى لعب الكرة إلىٰ أذان العصر، فيصلى العصرَ ويركب علىٰ الهيئة التى كان عليها فى أوّل النهار ويطلُع إلىٰ قصره .

الهيئة الخامســـة

(هيئته فى الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل)

واعلم أن السلطان قد يركب لكسر الخليج ، ولم تجر العـادة بركوبه فيه بمظلة ولا رقبةِ فرس ، ولا غاشـية، ولا ما فى معنىٰ ذلك ممـا تقدّم ذكره فى ركوب الميدان والعيدين ، بل يقتصر علىٰ السناجق، والطَّبَرْدارية، والجاويشية ونحو ذلك، ويركب من القلعة عند طلوع صاحب المِقْياس بالوفاء فى أىّ وقت كان، ويتوجه إلىٰ المِقْياس فيدخله من بابه ويَمُدّ هناك سِمَاطا يأكل منه مَنْ معه من الأمراء والمماليك، ثم يُذَاب زعفران فى إناء ويتناوله صاحب المقيـاس ويَسْبَحُ فى فَسْقِيَّة المقيـاس حتّٰى يأتىَ العمود والإناءُ الزعفرانـ بيده فيخَلِّق العمود ، ثم يعود ويخَلِّق جوانب الفسقية وتكون حرّاقة السلطان قد زُيِّنت بأنواع الزينة، وكذلك حراريق الأمراء، وقد فتح شُبَّاك المقياس المطلُّ علىٰ النيل من جهة الفُسْطَاطِ وعُلِّق عليـه ستر ، فيؤتىٰ بحرّاقة

السلطان إلىٰ ذلك الشباك فينزل منه ويَسْبَحُ وحراريق الأمراء حوله وقد شحن البحر بمراكب المتفرجين ، يسيرون خلف الحراريق حتّٰى يدخل إلىٰ فم الخليج ، وحراقة السلطان العظمىٰ المعروفة بالذَّهبيَّة وحراريقُ الأمراء يلعب بها فى وسط آمتدادها ، ويرمى بمدافع النِّفْطِ علىٰ مقدامها ، ويسير السلطان فى حراقته الصغيرة حتّٰى يأتىَ السدّ فيُقْطَعَ بحضوره ، ويركب وينصرف إلىٰ القلعة .

الهيئة السادسة

(هيئتـــه فى أســـفاره)

ولم تجر العادة فيها باظهار ماتقدّم من الزينة فى موكب العيد والميدان ، بل يركب فى عِدّة كبيرة من الأمراء : الأكابر والأصاغر ، والخواصّ ، والغرباء ، وخواصّ مماليكه . ولا يركب فى السَّيْر برقبة ولا عصائب ، ولا تتبعه جنائب ، ويقصد فى الغالب تأخير النزول إلىٰ الليل . فإذا دخل الليـــل حُمِلت أمامه فوانيسُ كثيرةٌ ومَشَاعلُ ، فإذا قارب مُخَيَّمه ، تُلُقِّىَ بالشـــموع المركبـــة فى الشـــمعدانات المكَفَّتة ، وصاحت الجاويشية بين يديه ، وترجل الناس كافة إلا حَمَلَة السلاح والأوشاقيةُ وراءه ، ومشت الطبردارية حوله حتّٰى يدخل الدهليز الأول من مُخَيَّمه فينزل ويدخل إلىٰ الشـــقة ، وهى خيمة مستديرة متســـعة ، ثم منها إلىٰ شقة مختصرة ، ثم إلىٰ لاجوق . وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخلها سور خركاه من خشب ، وفى صدر اللَّاجُوق قصرٌ صغير من خشب ينصب للمبيت فيه ، وينصب بإزاء الشقة حَمَّـــامٌ بقدور من رَصَاص وحوض علىٰ هيئـــة الحمـــامات بالمدن إلا أنه مختصر . فإذا نام طافت به الممـــاليك دائرةً وطاف بالجميع الحَرَس ، وتدور الزَّفَّة حول الدهليز فى كل ليلة مرتين : عند نومه وعند آستيقاظه من النوم ، ويطوف مع الزَّفَّة أميرٌ من أكابر الأمراء وحوله

الفوانيس والمشاعل ، ويبيت علىٰ باب الدهليز أرباب الوظائف من النقباء وغيرهم . فإذا دخل إلىٰ المدينة ، ركب علىٰ هيئة ركوبه لصلاة العيد بالمِظَلة وغيرها ، هذا ما يتعلق بخاصته .

أما موكبه الذى يسير فيه جمهور مماليكه ، فشعاره أن يكون معهم مقدّم المماليك والأستادار ، وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن ، ويكون بصحبته فى السفر من كل ما تدعو الحاجة إليه من الأطباء والكَحّالين والجرائحية وأنواع الأدوية والأشربة والعقاقير وما يجرى مجرىٰ ذلك ، يُصْرَف ذلك لمن يعرض له مرض بالطريق .

الهيئة السابعة

(النوم)

وقد جرت العادة أنه يبيت عنده خواصّ مماليكه من الأمراء وأرباب الوظائف من الجمدارية وغيرهم ، يَسْهَرون بالنَّوْبَةِ بقسمة بينهم علىٰ بناكيم الرمل ، كلما انقضت نَوْبَةُ قوم أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم ، ويتعاطىٰ كل منهم ما يشاغله عن النوم فقوم يقرءون فى المصاحف ، وقوم يلعبون بالشِّطْرَنْج والأكل (١) وغير ذلك .

---

(١) أى وقوم يتشاغلون بالأكل الخ .

المقصـــــد السادس

(فى عادته فى إجراء الأرزاق؛ وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الجارى المستمرّ؛ وهو علىٰ نوعين)

النـــوع الأوّل

(الإقطاعات)

والإقطاعات فى هـذه المملكة تجرى علىٰ الأمراء والجُنْد ، وعامّة إقطاعاتهم بلاد وأراضٍ يَسْتَغِلُّها مُقْطَعُها ويتصرف فيها كيف شاء، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات وهو القليل، وتختلف بآختلاف حال أربابها .

فأما الأمراء بالديار المصرية فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أنَّ أكابر الأمراء يبلغ إقطاعُ الواحد منهم مائتى ألف دينار جيشية ، وربما زاد علىٰ ذلك . ويتناقص بآعتبار آنحطاط الرتبة إلىٰ ثمانين ألفَ دينار وما حولها ، ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء الطبلخاناه ثلاثين ألفَ دينار فأكثر، وينقص إلىٰ ثلاثة وعشرين ألف دينار، ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء العشرات تسعة آلاف دينار إلىٰ مادون ذلك، ويبلغ إقطاع الواحد من مقدّمى الحَلْقة إلىٰ ألف وخمسمائة دينار ، وكذلك أعيان جند الحَلْقة إلىٰ مائتين وخمسين دينارا .

وأما إقطاعات الشام فلا تُقارب هـذا المقدارَ بل تكون بقدر الثلثين فى جميع ماتقدّم، خلا أكابر الأمراء المقدّمين بالديار المصرية، فليس بالشام من يبلغ شأوهم إلا نائب الشام فإنه يقاربهم فى ذلك . قال فى "مسالك الأبصار" : وليس للنوّاب فى الممالك مَدْخَل فى تأمير أمير عِوَضَ أمير بل إذا مات أميرٌ صغير أو كبير طولع به

السلطان فأَمَّرَ مكانه مَنْ أراد ممن فى خدمته، ويخرجه إلىٰ مكان الخدمة، وأما مَنْ كان فى مكان الخدمة أو ينقل إليه من بلد آخر فعلىٰ ما يراه فى ذلك .

أما جُنْـد الحَلْقة، فمن مات منهم آستخدم النائب عِوَضَـه، وكتب بذلك رُقْعة فى ديوان جيش تلك المملكة، ويُجَهَّزُ مع بريدىّ إلىٰ الأبواب السلطانية فيُقَابَلُ عليها من ديوان الجيش بالحضرة، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها (يكتب) ويكتب بها مربعة من ديوان الجيش، ويكتب عليها منشور .

ولجميع الأمراء بحضرة السلطان الرواتبُ الجاريةُ فى كل يوم: من اللحم، والتَّوابل، والخبز، والعليق، والزيت، ولأعيانهم الكسوة والشَّمعُ، وكذلك المماليك السلطانية وذوُو الوظائف من الجنـد مع تفاوُت مقادير ذلك بحَسَب مراتبهم وخُصوصيّتهم عند السلطان وقربهم إليه . قال فى "مسالك الأبصار" : وإذا نشأ لأحد الأمراء ولد، أطلق له دنانيرُ وخبزٌ ولحم وعليق إلىٰ أن يتأهل للإقطاع فى جملة الحَلْقة، ثم منهم من ينقل إلىٰ العشرة أو الطبلخاناه علىٰ حسب الحظوظ والأرزاق .

النوع الثـانى

(رزق أرباب الأقـلام)

وهو مبلغٌ يصرف إليهـم مُشاهَرة . قال فى "مسالك الأبصـار" : وأكبرهم كالوزير له فى الشهر مائتان وخمسون دينارا جيشية، ومن الرواتب والغَلَّة ما إذا بسط وثمن كان نظير ذلك، ثم دونَ ذلك ودونَ دونِه، ولأعيانهم الرواتب الجارية: من اللحم، والخبز، والعليق، والشَّمع، والسُّكَّر، والكسوة ونحو ذلك، إلىٰ غير ذلك مما هو جار علىٰ العلماء وأهل الصلاح من الرواتب والأراضى المؤبدة، وما يجرى مجراها مما يتوارثه الخلف عن السلف مما لا يوجد بمملكة من الممالك، ولا مصر من الأمصار .

الضـــرب الثـانى

(الإنعام وما يجرى مجراه : مما يقع فى وقتٍ دون وقت، وهو علىٰ خمسة أنواع)

النوع الأوّل

(الخِلَع والتَّشَـاريف)

قال فى "المسالك": ولصاحب مصر فى ذلك اليدُ الطُّولىٰ حتّٰى بَقِى بابه سُوقًا يَنْفُقُ فيه كل مجلوب، ويحضُر الناس إليه من كل قُطْرٍ حتّٰى كاد ذلك يَنْهَك المملكة ويودى بمُتَحَصِّلَاتها عن آخرها . قال : وغالب هذا مما قرّره هذا السلطان ، ولقدْ أتعب مَنْ يجيء بعده من كثرة الإحسان،

وهى علىٰ ثلاثة أصناف .

الصنف الأوّل

(تشاريف أرباب السيوف)

وهى علىٰ طبقات، أعلاها ماهو مختص بالأمراء المقدّمين من النوّاب وغيرهم فوقانى أطلس أحمر بطرز زركش، مُفَرَّى بسنجاب، بدائره سجف من ظاهره مع غشاء قندس، وتحته قَبَـاءٌ أطلس أصفر، وكلوتة زركش بكلاليب ذهب، وشاش رفيع موصول به طرفان من حرير أبيض، مرقومان بألقاب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملوّن، ومِنْطَقَة ذهب مركّبة علىٰ حاشية حرير تشدّ فى وسطه؛ ويختلف حال المِنْطَقَة بحسب المراتب . فأعلاها أن يعمل من عمدها [بواكير](1) وسَطًا ومحبسين، مرصّعة بالبَلَخْشِ والزُّمُرُّدِ واللُّؤْلُؤ، ثم مَا كَانَ ببيكارية واحدة مرصعة، ثم مَا كَانَ ببيكارية واحدة من غير ترصيع ، فإن كان التشريف لتقليد ولاية مُفَخَّمةٍ ، زيد سيفًا محلًّى بذهب وفرسا مُسْرَجا ملجما بكنبوش زركش؛ وربما زيد أكابر النوّاب كنائب الشام

(١) الزيادة عن ضوء الصبح .

تركيبة زَركَش على الفوقانى ، وشاش حرير سكندرىّ مموّج بالذهب ، ويعرف ذلك بالمتمر . وعلى ذلك كان شاش صاحب حماة ، ويكون عوض كنبوشه زنارىّ أطلس أحمر ، ودون ذلك من التشاريف أقبيــة طردوحش من عمل الإسكندرية ومصر والشام ، مجوّخ : جاخاتٌ مكتوبة بألقاب السلطان ، وجاخاتٌ صُوَرُ وحوش أو طيور صِغَار ، وجاخات ملوّنة مموّجة بقصب مذهب ، يفصل بين جاخاته نقوشٌ ، يركب على القَبَاء طراز زركش ، وعليه السنجاب والقندس كما تقــدّم ، وتحته قبــاء من الطرح السكندرىّ المفرج ، وكلوتة زركش بكلاليبَ وشاش كما تقدّم ، وحياصة ذهب تارة تكون ببيكارية وتارة لاتكون ، وهــذه لأصاغر أمراء المِئِين ومَنْ يُلْحق بهم ، وكذلك أصحاب الوظائف المختصة بذلك كالجوكندار والولاة ومن يجرى مجراهم(١) .

ثم للتشاريف أماكن .

منها إذا ولى أمير أو صاحب مَنْصِب وظيفة فإنه يلبس تشريفا يناسب ولايته التى وَلِيها على حسب ما تقتضيه الرتبة علوّا وهبوطا .

ومنهــا عيد الفطر ، يخلع فيه على جميع أرباب الوظائف : من الأمراء وأرباب الأقلام كالأستادار والدّوادار وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ونحوهم ، كلٌّ منهم بمــا يناسبه .

قال فى "مسالك الأبصار" : ومن عادة الســلطان أن يُعِدَّ لكل عيد خِلْعة على أنها الملبوســه من نسبة خِلَع أكابر المئين فلم يلبسها ، ولكن يختص بهــا بعضَ أكابر المئين يخلعها عليه .

ومنها الميادين ، يخلع فيها على أكابر الأمراء كل ميدان يختص بأمير أو أكثر يلبس فيه خلعة من المفرّج المُذْهَب .

(١) لم يذكر فى الأصل الصنف الثانى والثالث وهما تشاريف الوزراء والكتّاب وتشاريف القضاة والعلماء ، وقد تكلم عليهما فى الضوء ، فأنظره .

ومنها دَوَران المحمل فى شوّال ، يخلع فيه علىٰ أرباب الوظائف بالمحمل كالقاضى والنـاظر والمحتسب والشاهد والمقدّمين والأدلة وناظر الكسوة ومباشريها ومَنْ فى معناهم .

النـــوع الثـانى
(الخيـــول)

قد جرت عادة صاحب مصر أن ينعم علىٰ أمرائه بالخيول مرتين فى كل سنة : المرة الأولىٰ عند خروجه إلىٰ مرابط خيوله علىٰ القُرْط فى أواخر ربيعها ، فينعم علىٰ الأخِصَّاء من أمرائه بما يختاره من الخيول علىٰ قدر مراتبهم ، وتكون خيول المقدّمين منهم مُسْرَجة ملجَمة بكابيش من زركش ، وخيولُ أمراء الطبلخانات عُرْياً من غير قُمَـاش . المرة الثانية عند لَعِبِه الكُرَةَ بالميدان ، وتكون خيول المقدّمين والطبلخانات مُسْرَجَةً مُلْجَمَةً بفضة يسيرة بلا كابيش ؛ وكذلك يرسل إلىٰ نوّاب الممـالك الشاميـة كل أحد بحسـبه ، وليس لأمراء العشرات فى ذلك حظ إلا ما يتفـقدهم به علىٰ سبيل الإنعام .

قال المقرّ الشهابىّ بن فضل الله : وللخـاصة المقرّبين من الأمراء المقدّمين والطبلخانات زيادات كثيرة فى ذلك بحيث يصل بعضهم إلىٰ مائة فرس فى كل سنة ؛ وله أوقاتٌ أخرىٰ يفرّق فيها الخيلَ علىٰ مماليكه وربمـا أعطىٰ بعض مقدّمى الحَلْقة ؛ وكلُّ مَنْ مات له فرس من مماليكه دفع إليه عوضه ، وربمـا أنعم بالخيول علىٰ ذوى السِّنّ من أكابر الأمراء عند الخروج إلىٰ الصيد ونحوه .

وللخيول الأمراء فى كل سـنة إطلاقات أراض بالأعمـال الجيزية لزرع القُرْط لخيولهم من غير خَرَاج ؛ وللماليك السلطانية البِرْسِيم المزدَرَع علىٰ قدر مراتبهم ، وما يدفع

إليهم من القرط يكون بدلا من عليق الشعير المرتَّب لهم فى غير زمن الربيع عوضا عن كل عليقة نصف فدّان من القرط القائم علىٰ أصله فى مدّة ثلاثة أشهر .

النوع الثالث
(الكُسْوة والحوائص)

قد جرت عادة السلطان أنه ينعم علىٰ مماليكه وخواصّ أهل المناصب من حَمَلة الأقلام فى كل سنة بكسوة فى الشتاء وكسوة فى الصيف علىٰ قدر مراتبهم ، ومن عاداته أنه إذا ركب للَعِب الكرة بالميدان فَرّق حوائصَ من ذهب علىٰ بعض الأمراء المقدّمين ، يفرّق فى كل موكب ميدان علىٰ أميرين بالنَّوْبة حتّى يأتى علىٰ آخرهم فى ثلاث سنين أو أربع بحسب ما تقع نَوْبته فى ذلك . قال فى "المسالك" : أما أمراء الشأم فلا حظَّ لهم من الإنعام فى أكثرَ من قَبَاء واحد يلبس فى وقت الشتاء إلا من تعرّض لقصد السلطان فإنه ينعم عليه بما يقتضيه حاله .

النـــوع الرابع
(الإنعـام والأوقاف[1])

وأكثر الأوقات لا ضابط لعطائه إنما يكون بحسب مزية المنعَم عليه عند السلطان وقربه منه . قال فى "مسالك الأبصار" : ولخاصة الأمراء المقدّمين أنواع من الإنعامات كالعَقَار والأبنية الضَّخْمة التى ربما أُنْفق علىٰ بعضها فوق مائة ألف دينار ، وكساوى القماش المنوّع ، وفى أسفارهم فى وقت خروجهم إلىٰ الصيد وغيره العلوفات والأموال .

---

(١) فى الضوء "والإدرار" .

النوع الخامس

(المأكول والمشروب)

أعظم أسمطة هــذا السلطان تكون بالإيوان الكبير أيامَ المواكب . إذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقلام من الخَدَمة ، مُدّ السماطُ بالإيوان الكبير من أوّله إلى آخره بأنواع الأطعمة المنوّعة الفاخرة ، ويَجْلِسُ السلطانُ على رأس الخِوَان والأمراءُ يَمْنَةً ويَسْرَةً على قدر مراتبهــم فى القرب من السلطان ، فيأكلون أكلا خفيفا ثم يقومون ، ويجلس مَنْ دونهم طائفة بعد طائفة ، ثم يُرفَع الخِوَانُ . وأما فى بقيــة الأيام فيمدّ الخِوَانُ فى طَرَفى النهار لعامّة الأمراء خلا البرّانيين فإنه لا يحضُره منهم إلا القليل النادر .

ففى أوّل النهار يمدّ سماطٌ أوّلُ لا يأكل منه السلطان شيئا ، ثم سِمــاط ثانٍ بعده قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ، ثم سماط ثالث بعــده يسمى الطارئ ، ومنه مأكول السلطان .

وفى أُخْرَيَاتِ النهار يمدّ سماطان الأوّل والثانى المسمى بالخاص ، ثم إن ٱستُدْعى بطارئ حضر ، وإلا فبحسب ما يؤمر به ، وفى كل هــذه الأسمطة يسقى بعــدها المشروب من الأقسما السكّرية عقب الأكل . وأما فى الليل فيبيت بالقرب من مبيته أطباقٌ من أنواع المآكل المختلفة والمشروب الفائق ليتشاغل أصحاب النُّوَب بالمأكول والمشروب عن النوم . قال فى "مسالك الأبصار" : ولكل ذى إمرة بمصر من خواص السلطان عليه السكر والحلوى فى شهر رمضان ، والضَّحية على مقادير رُتَبهم .

المقصـــــــد السابع

(فى آختصاص صاحب هذه المملكة بأماكنَ داخلة فى نطاق مملكته، يمتاز بها علىٰ ملوك الأرض من المسلمين وغيرهم)

منها **الـكعبة المعظمة** داخلة فى نطاق هذه المملكة، وآختصاصه بكسوتها ودَوَران المحمل فى كل سنة .

أما كسوة الكعبة، فإنها كانت فى الزمن الأوّل مختصَّةً بالخلفاء، وكانت خلفاء بنى العبّاس يجهزونها من بغدادَ فى كل سنة، ثم صارت إلىٰ ملوك الديار المصرية يجهزونها فى كل سنة، وآستقرّت علىٰ ذلك إلىٰ الآن . ولا عِبْرة بما وقع من آستبداد بعض ملوك اليمن فى بعض الأعصار بذلك فى بعض السنين، وهذه الكسوة تُنْسَج بالقاهرة المحروسة بمشهد الحُسَين من الحرير الأسود مطرّزةً بكتابة بيضاء فى نفس النسج، فيها : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ الآية . ثم فى آخر الدولة الظاهرية برقوق آستقرّت الكتابة صفراء مشعَّرة بالذهب . ولهذه الكسوة ناظر مستقلٌّ بها، ولها وقف أرض بيسوس من ضواحى القاهرة يُصْرف منها علىٰ آستعمالها .

وأما دَوَران المَحْمِل، فقد جرت العادة أنه يدور فى السنة مرتين : المرّة الأولىٰ فى شهر رجب بعد النصف منه، يحمل وينادىٰ لأصحاب الحوانيت التى فى طريق دَوَرانه بتزيين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام، ويكون دَوَرانه فى يوم الآثنين أو الخميس لا يتعدّاهما، ويحمل المَحْمِلُ علىٰ جمل وهو فى هيئة لطيفة من خركاه وعليه غِشاءٌ من حرير أطلس أصفر، وبأعلاه قُبَّة من فضة مطلية ويبيت فى ليلة دَوَرانه داخلَ باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم، ويحمل بعد الصبح علىٰ الجمل المذكور

و يسـير إلىٰ تحت القلعة، فيركب أمامَه الوزيرُ والقضاةُ الأربعة والمحتسبُ والشهودُ وناظر الكسوة وغيرهم، ويركب جماعة من المماليك السلطانية الرمَّاحة ملبسين المصفَّات الحديد المُغَشَّاة بالحرير الملوّن ، وخيولهم ملبســة البركستوانات والوجوه الفولاذ كما فى القتال، وبأيديهم الرماح، عليها الشطفات السلطانية فيلعبون تحت القلعة كما فى حالة الحرب، ومنهم جماعة صغار بيد كل منهم رمحان يديرهما فى يده وهو واقف علىٰ ظهر الفرس، وربما كان وقوفه فى نَعْل من خشب علىٰ ذُبَاب سيفين من كل جهة، وهو يفعل كذلك ويهيئوا من أزيار النفط وغيرها جملة مستكثرة، و يطالق تحت القلعة فى خلال ذلك ، ثم يذهب إلىٰ الفُسْطَاط فيمرّ فى وسطه، ثم يعود إلىٰ تحت القلعة ويفعل كما فى الأوّل إلا أنه أقل من ذلك ؛ ثم يحمل مِنْ[1] جامع الحاكم و يوضع فى مكان هناك إلىٰ شوّال؛ وفى خلال ذلك كله الطبلخانات والكوسات السلطانية تضرب خلفه ، ويخلَع فيه علىٰ جماعة مستكثرة ؛ وكذلك يفعل فى نصف شوّال إلا أنه يرجع من تحت القلعة إلىٰ باب النصر ويخرج إلىٰ الرَّيْدانِيَّة للسفر ولا يتوجه إلىٰ الفُسْطَاط .

المقصـــد الثامن

(فى آنتهاء الأخبار إليه، وهو علىٰ ثلاثة أنواع)

النــــوع الأوّل

(أخبار الملوك الواردة عليه مكاتبات منهم)

وقد جرت العادة أنه إذا وصل رسولٌ من ملِك من الملوك إلىٰ أطراف مملكته كَاتَبَ نائبُ تلك الجهة السلطانَ عرّفه بوُفُوده ، وآستأذنه فى إشخاصه إليه، فتبرُزُ المراسيمُ السلطانية بحضوره فيحضُر . فإذا وقع الشُّعور بحضوره فإن كان مرسله

(١) لعله إلىٰ جامع الخ .

ذا مَكانة عظيمة من الملوك : كأحد القانات من ملوك الشرق، خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحُجّاب ونحوهما للقائه ، وأُنْزل بقصور السلطان بالميدان الذى يلعب فيه بالكُرَة ، وهو أعلىٰ منازل الرسل . وإن كان دون ذلك تلقاه المهمندار وآستأذن عليه الدَّوادار وأنزله دارَ الضيافة أو ببعض الأماكن علىٰ قدر رتبته ، ثم يرتقب يومَ موكبٍ فيجلس السلطان بإيوانه ، وتحضر أعيان المملكة الذين شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام ، ويحضُر ذلك الرسول وصحبته الكتاب الوارد معه ، فيُقَبِّلُ الأرض ويتناول الدوادار الكتابَ منه فيمسحه بوجه الرسول ، ثم يدفعه إلىٰ السلطان فيفُضُّه ويدفعه إلىٰ كاتب السر فيقرؤه علىٰ السلطان ويأمر فيه أمرَه .

النــــوع الثـانى

(الأخبار التى تَرِدُ عليه من جهة نوابه)

عادة هذا السلطان أن يطالعه نُوَّابُه فى مملكته بكل ما يتجدّد عندهم من مهمَّات الأمور أو ما قاربها، وتؤخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم من ديوان الإنشاء بما يراه فى ذلك ، أو يبتدئهم هو بما يقتضيه رأيه ، وينفَّذ علىٰ البُرُد أو أجنحة الحَمَام الرسائلىّ علىٰ ما يأتى ذكره فى المقالة الثالثة من الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

وقد جرت العادة أنه إذا ورد بَرِيدٌ من بلد من بلاد المملكة أو عاد المجهَّز من الأبواب الشريفة بجواب، أحضره أمير جاندار والدوادار وكاتب السر بين يدى السلطان فيُقَبِّلُ الأرض ، ثم يأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدىّ ، ثم يناوله للسلطان فيفُضُّه ويجلس كاتب السرّ فيقرؤه عليه ويأمر فيه بأمره .

وأما بطائق الحمـام ، فإنه إذا وقع طائر من الحمام الرسائلى ببطَاقة أخذها البرّاج وأتىٰ بها الدَّوادار، فيقطع الدوادار البِطاقة عن الحمـام بيده، ثم يحملها إلىٰ السلطان ويحضر كاتب السرّ فيقرؤها كما تقدّم .

النـــوع الثـالث
(أخبار حاضرته)

جرت العادة أن والىَ الشُّرْطَةِ يستعلم متجدّدات ولاياته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك فى كل يوم من نوّابه ، ثم تكتب مطالعة جامعـةٌ بذلك وتحمل إلىٰ السلطان صبيحةَ كل يوم فيقف عليها. قال فى "مسالك الأبصار": وأما مايقع للناس فى أحوال أنفسهم فلا .

المقصـــد التاسع
(فى هيئة الأمراء بالديار المصرية وترتيب إمرتهم)

وآعلم أن كل أمير من أمراء المِئِين أو الطبلخانات سلطان مختصَر فى غالب أحواله ، ولكل منهم بيوت خَدَمة كبيوت خَدَمة السلطان من الطِّشْت خاناه، والفِرَاش خاناه، والرِّكاب خاناه ، والزَّرَدْخاناه، والمطبخ ، والطبلخاناه، خلا الحوائج خاناه فإنها مختصة بالسلطان ، ولكل واحد من هـذه البيوت مِهْتار متسلم حاصلَه ،وتحت يده رجال وغِلْمـان لكل منهم وظيفة تخصه، وكذلك لكل منهم الحواصل من إصطبلات الخيول ومُنَاخات الجمـال وشُوَن الغلال، وله من أجناده أستادار، ورأس نَوْبة، ودَوَادار، وأمير مجلس ،وجمدارية، وأميراخور، وأستادار صحبة، ومشرف. وتوصف البيوت فى دواوين الأمراء بالكريمة ،فيقال البيوت الكريمة كما يقال فى بيوت السلطان البيوت الشريفة، وكذلك كل فرد منها فيقال : الطِّشْت خاناه الكريمة والفراش خاناه

الكريمة ، وكذا فى الباقى ؛ ويوصف الإصطبل بالسعيد فيقال : الإصطبل السعيد ، وكذلك المُنَاخ ؛ وتوصَف الشُّوَن بالمعمورة فيقال : للشُّونة المعمورة . قال فى " مسالك الأبصار " : ومن رسم الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث ركب وخلفه جنيب مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ ، وربما ركب الأمير من أكابرهم بجنيبين سواء فى ذلك الحاضرة والبرّ . قال : ويكون لكل منهم طلب مشتمل علىٰ أكثر مماليكه ، وقدّامهم خِزَانة محمولة للطبلخاناه علىٰ جمل واحد ، يجرّه راكب علىٰ جمل آخر ، والألف علىٰ جملين وربما زاد بعضهم علىٰ ذلك . وأمامَ الخزانة عِدّة جنائب تُجَرّ علىٰ أيدى مماليكَ رُكَّابِ خيل وهِجْن ، وركَّابة من العرب علىٰ هجن ، وأمامهم الهِجْن بأكوارها مجنوبة ، للطبلخاناه قطار واحد وهو أربعة ، ومركوب الهَجّان والألف قطاران وربما زاد بعضهم . قال : وعدد الجنائب فى كثرتها وقلتها إلىٰ رأى الأمير وسَعَة نفسه ، والجنائب المذكورة منها ماهو مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ ، ومنها ماهو بعباءة لاغير . انتهىٰ كلامه .

ومن عادتهم أيضا أن الأمير إذا ركب يكون أكابر أجناده من أرباب الوظائف : كرأس نَوْبة والدّوادار ، وأمير مجلس ، ومشاة الخدمة أمامَه ؛ وكلٌّ من كان منهم أكبر كان إليه أقرب ؛ وتكون الجمدارية من مماليكه الصِّغار خلفَه وأميراخوره خلف الجميع ، ومعه الجنائب والأوشاقية علىٰ قاعدة السلطان فى ذلك .

ومن عادة أكابر(١) مجالس بيوتهم أنه ينصب للأمير بشتميخ خلف ظهره من الجوخ الأحمر المزهر بالجوخ الملوّن ، برنك ذلك الأمير وطراز نيه ألقابه ، ويجلس علىٰ مقعد مُسْنِدا ظهره إلىٰ البشتميخ ، وربما جلس أكابرهم علىٰ مدوّرة من جلد ورجلاه علىٰ الأرض ، وتكون الناس فى مجلسه فى القرب إليه علىٰ حسب مراتبهم .

ومن عادة كل أمير من كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه مابين هناب أو دواة أو بقجة أو فرنسيسية ونحو ذلك ، بشطفة واحدة أو شطفتين ، بألوان مختلفة ، كل

(١) لعله " ومن عادة الاكابر فى مجالس الخ "

أمير بحسب ما يختاره و يؤثره من ذلك ، ويجعـل ذلك دهانا علىٰ أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كمطابخ السُّكَّر، وشون الغـلال، والأملاك والمراكب وغير ذلك ،وعلىٰ قُمَـاش خيولهم من جوخ ملوّن مقصوص ،ثم علىٰ قماش جمالهم من خيوط صوف ملوّنة تنقش علىٰ العبي والبلاسـات ونحوها ، وربمـا جعلت علىٰ السـيوف والأقواس والبركصطوانات للخيل وغيرها .

ومن عوائد أمراء العسكر بالحضرة السلطانية أنهم يركبون فى يومى الآثنين والخميس فى الموكب منضمين علىٰ نائب السلطنة الكافل إن كان، و إلا فعلىٰ حاجب الحُجَّاب ، ويسيرون تحت القلعة مَرَّاتٍ ،ثم يقفون بسوق الخيل وتُعْرَض عليهم خيول المناداة ، وربمـا نُودِى علىٰ كثير من آلات الخيل والخِيَم والحركاوات والأسـلحة . قال فى "مسالك الأبصار" : وقد ينادىٰ علىٰ كثير من العَقَارات، ثم يطلُعُون إلىٰ الخِدْمة السلطانية علىٰ ماتقدّم .

ومن قاعدة هذه المملكة أن أجناد الأمراء كافة تُعْرَض بديوان الجيوش السلطانية وتثبت أسماؤهم مفصّلة فيه، وكانوا فيما تمدّم يحلون بالديوان . أما الآن، فقد ترك ما هنالك وآكتُفِى بأوراق تكتب من دواوين الأمراء بأسماء أجناده وتخلَّد بديوان الجيوش ، ثم كلمـا مات واحد منهم أو فُصِل من الخدمة، عُرِض بديوان الجيش واحد مكانه يعبر فيه عرض من ديوان ذلك الأمير .

ومن عادتهم أن من مات من الأمراء والجند قبل آستكمال سنة خدمته حوسب فى مستحِق إقطاعه علىٰ مقدار مدّته، وكتب له بذلك محاسبة من ديوان الجيوش، ويكون ما يَتحصَّل من المغل شركة بين المستقِرّ وبين الميت أو المنفصل علىٰ حسب آستحقاق القراريط ، كل شهر من السنة بقيراطين .

ومن عادة الأمراء أنه إذا مر السلطان فى متصيّداته بإقطاع أمير كبير، قدّم له من الإوزّ والدَّجاج وقصب السكر والشعير ما تسمو اليه همة مثله فيقبله منه ، ثم ينعم عليه بخِلْعة كاملة يلبسها، وربما أمر لبعضهم بشيء من المال فيقبضه .

المقصد العاشر

(فى وُلاة الأمور من أرباب السيوف بأعمال الديار المصرية، وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى

(النُّواب، والمستقِر بها ثلاث نيابات)

الأُولى — نيابة الإسْكَنْدَرِيَّة : وهى نيابة جايلة، نائبها من الأمراء المقدّمين يُضاهِى فى الرتبة نيابة طَرَابُلُس ومافى معناها أو يقاربها ، وبها حاجبٌ أميرُ عشرة ، وحاجب جندىّ ، ووال للمدينة، وأجناد حَلْقَةٍ عدّتهم مائتا نفر، يعبر عنهم بأجناد المائتين، وبها قاضى قضاة مالكىّ، وقاض حنفىّ مستحدَث، وربما كان بها قاض شافعىّ، والمالكىّ أكبر الكل بها، وهو المتحدّث فى أموال الأيتام والأوقاف. على أنه ربما وَلِىَ قضاءَ قضاتِها فى الزمن الماضى شافعىٌّ ، وبها مُوقِّع يعبر عنه فى البلد بكاتب السر، وناظر متحدّث فى الأموال الديوانية، ومعه مستوف، وتحت يده كُتَّابٌ وشهود ؛ وبها محتسب ؛ وليس بها قُضاة عسكر ولا مُفْتُو دار عدل ؛ ووكيل بيت المال بها نائب عن نائب بيت المال بالقاهرة ، وتُركَّز بها أمراء المقدّمين والطبلخانات فى غير الزمن الذى يمتنع سير المراكب الحربية فى البحر بشدّة الريح منها، ووال للتركيز يسمّى الحاجب . وقد مرّ القول على معاملتها، وذكر أحوالها فى الكلام على قواعد الديار المصرية المستقرّة فأغنى عن إعادته هنا .

وهذه النيابة مع جلالة قَدْرها ورِفْعَةِ محلّها ليس لها عَمَل يحكم فيه نائبها ولا قاضيها ومتسبها، بل حكمهم قاصر على المدينة وظواهرها لا يتعدّى ذلك، بخلاف غيرها من سائر نيابات المملكة؛ وبها كرسىّ سلطنة بدار النيـابة؛ وعادة الخِدْمة السلطانية بها فى أيام المواكب أن يركب نائب السلطنة من دار النيابة وفى خدمته مماليكه وأجناد المـائتين المتقدّم ذكرهم، ويخرج من دار النيابة عند طلوع الشمس، ويسـير فى موكبه والشَّبّابة السـلطانية بين يديه حتّى يخرج من باب البحر، ويخرج الأمراء المرَكَّزُون على حِدتِهم أيضـا، ويجتمـعون فى الموكب ويسـيرون خارج باب البحر ساعة ثم يعودون، ويتوجه النائب إلى دار النيابة فى مماليكه وأجناد المـائتين، وقد فارقه الأمراء المركَّزون وتوجه كلٌّ منهم إلى منزله . فإذا صـار إلى دار النيابة : فإن كان فى ذلك الموكب سِمَاطٌ، وضع الكرسىُّ فى صدر الإيوان مغشّى بالأطلس الأصفر ووضع عليه سيف نمجاة سلطانية ومُدّ السماط تحته وأكل ممـاليك النائب وأجناد المـائتين وجلس النـائب بجنبة من الإيوان والشباكُ مُطِلٌّ على مينا البلد، ويجلس القاضى المـالكىّ عن يمينه، والقاضى الحنفىّ عن يساره، والناظر تحته، والموقِّع بين يديه، ورءُوس البـلد على قدر منـازلهم، وترفع القصص فيقرؤها الموقِّع على النائب فيفصلها بحضرة القضاة ثم ينصرف الموكب .

قلت : وهذه النيابة مستحدَثة، وكان آبتداء ترتيبها فى سنة سبع وستين وسبعمائة فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طرقها الفرنج وفتكوا بأهلها وقتلوا ونهبوا وأسروا، وكانت قبل ذلك ولايةٌ تعـدّ فى جملة الولايات الطبلخاناه، وكان لواليهـا الرتبةُ الجليلة والمكانةُ العلية .

الثانية ــ نيابة الوجه البحرىّ . وهى مما آستُحْدِث فى الدولة الظاهرية برقوق، ونائبها من الأمراء المقدّمين، وهو فى رتبة مقدّم العسكر بغَزّة الآتى ذكره فى الممـالك

الشامية، ومقرّ نيابتها مدينة دَمَنْهُورَ بالبحيرة، وحكمه على جميع بلاد الوجه البحرىّ المتقدّم ذكرها فى الكلام على أعمال الديار المصرية المستقرّة خلا الإسْكَنْدَرِيَّة، وليست على قاعدة النيابات فى ركوب المواكب وما فى معناها؛ بل نائبها فى الحقيقة كَاشِفٌ كبير، وليس فيها من رسوم النيابة سوى لبس التشريف وكتابة التقليد والمكاتبة بما يكاتب به مثل نائبها من النوّاب، وقد كان القائم بها فى الزمن الأوّل قبل آستقرارها نيابةً يعبر عنه بوالى الوُلَاةِ .

الثالثة — نيابة الوجه القبلىّ . وهى مما آستُحِدث فى الدولة الظاهرية برقوق أيضا، وكان مقرّ نائبها مدينةَ أُسْيوط، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلىّ، وهى فى الترتيب والرتبة على ماتقدّم من نيابة الوجه البحرىّ، غير أنها أعظم خَطَرا فى النفوس وكان القائم بها قبل ذلك يسمّى والى الولاة كما تقدّم فى الوجه البحرىّ .

الطبقة الثانيــــة

(الكُشَّافُ)

قد تقدّم أنه قبل آستحداث النيابة بالوجهين القبلىّ والبحرىّ كان بهما كاشفان يعبَّر عن كل منهما بوالى الولاة ، ولما آستقرّا نيابتين جعل للوجه البحرىّ كاشفٌ من أمراء الطبلخاناه على العادة المتقدّمة، وهو فى الحقيقة تحت أمر نائب الوجه البحرىّ، ومقرّته مُنْية غَمْر من الشرقية ، وجعل كاشف آخر للبهنساوية والفَيّوم، وعُطِّل الفَيُّومُ من الوالى، وباقى الوجه القبلىّ أمرُه راجعٌ إلى نائبه؛ وللجيزية كاشفٌ يتحدّث فى جسورها وسائر متعلّقاتها، ولا يتعدّى أمره إلى غيرها من النواحى .

الطبقة الثالثـــــة

(الوُلاة بالوجهين القبلىّ والبحرىّ)

وقد تقدّم ذكر أعمالها، ومراتب الولاة بهما لاتخرج عن مرتبتين :

المرتبة الأولىٰ ـ الولاة من أمراء الطبلخاناه . وهى سبع[1] ولايات بالوجهين القبلىّ والبحرىّ علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحال .

فأما الوجه القبلىّ ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة : وهى ولاية البهنسىٰ ، وولاية الأُشْمُونينِ ، وولاية قُوصَ ، وهى أعظمها حتّى إن واليها كان يركب بالشـبَّابة أسوة النوّاب بالممالك ، وولاية أسوان : وهى مستحدثة فى الدولة الظاهرية برقوق ، وكانت قبل ذلك مضافة إلىٰ والى قُوصَ يجعل فيها نائبا من تحت يده ، وكانت ولاية الفَيُّومِ طبلخاناه ، ثم ٱستقرّت كشفا علىٰ ماتقدّم .

أما أُسْيوط ، فلم يكن بها والٍ لكونهـا مقرّ نائب الوجه القبلىّ ومقرّ والى الولاة من قبله ، وسيأتى ما كان ولاية طبلخاناه من الوجه القبلىّ ثم نقل .

وأما الوجه البحرىّ ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة ، وهى ولاية الشرقية ، ومقرّ واليها بُلْبَيْسُ ، وولاية المنوفيــة ومقرّ واليهـا مدينة مَنُوف ، وولاية الغربية ، ومقرّ واليها المحلة الكبرىٰ ، وهى تضاهى ولاية قُوصَ من الوجه القبلىّ إلا أن واليها لم يركب بالشبابة قط ، وولاية البحيرة ، ومقرّ واليها مدينة دَمَنْهورَ ، وربما عطلت ولايتها لكونها مقرّة النائب ، وقد تقدّم أن ولاية النائب قبل أن تستقرّ نيابة كانت ولاية طبلخاناه .

المرتبة الثانية ـ من الولاة أمراء العشرات . وهى سبع ولايات بالوجهين :

فأما القبلىّ ففيه من هذه الرتبة ثلاث ولايات : ولاية الجيزة ، وكانت قبل ذلك طبلخاناه ، وولاية إطفيح ولم تزل عشرة ، وولاية منفلوط وولايتها عشرون ، وكانت

---

(١) قد عد ثمان ولايات .

قبل ذلك ولاية طبلخاناه، وقد كان بعَيْذَابَ فى الأيام الناصرية ٱبن قلاوون وما بعدها والٍ أمير عشرة يولّٰى من قِبَل السلطان ويراجع والِىَ قُوص فى الأمور المهمة .

وأما الوجه البحرىّ ، ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة، ولاية مَنُوف، وولاية أُشْمُومَ، وولاية دِمْيَاطَ، وولاية قَطْيا، وكانت قبل ذلك طبلخاناه .

الطبقة الرابعـــــــة

(أمراء العُرْبان بنواحى الديار المصرية)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ مايحتاج إليه الكاتب فى المقالة الأُولىٰ ذكر أصول أنساب العرب، وٱنقسامُهم إلىٰ قَحْطَانيَّةٍ وهم العارِبَة، وإلىٰ عَدْنَانِيَّةٍ وهم المستعْرِبة، وبيانُ رجوع كلّ بطن من بطون العرب الموجودين الآن بالديار المصرية وغيرها إلىٰ قبيلتهم التى إليها ينتسبون، وبيانُ من بوجهَى الديار المصرية القبلىّ والبحرىّ من القبائل، وأنخاذ كل قبيـلة المتشعِّبةُ منها . والمقصودُ هنا بيانُ أمراء العُرْبان بالوجهين المذكورين فى القديم والحديث .

فأما الوجه القبلىّ، فقد ذكر الحَمْدانىّ أن الإمرة كانت بالوجه القبلىّ فى ثلاثة أعمال :

العمل الأوّل ــ عمل قُوص، وكانت الإمرة به فى بيتين من بَلِىّ من قُضَاعَةَ بن حِمْيَرَ بن سَبَإٍ من القَحْطَانيّة .

الأوّل ــ بنو شادٍ المعروفون ببنى شادى . وكانت منازلهم بالقصر الخَرَاب المعروف بقصر بنى شادى بالأعمـال القُوصِيَّة ، وتقدّم هناك أنه قيل إنهم من بنى أُمَيَّـةَ بن عبد شمس من قُرَيْش .

الثانى ــ العَجالة . وهم بنو العُجَيْل بن الذئب منهم أيضا، وكانوا معهم هناك .

العمل الثانى ــ عمل الأُشْمُونَيْنِ. وكانت الإمرة به فى بنى ثَعْلب من السَّلاطنة، وهم أولاد أبى جُحَيش من الحَيادرة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، من عَقِب الحُسَيْنِ السِّبْطِ ابن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وكانت منازلهم بدَرْوَتِ سَرَبَام، وغلب عليها الشريف حِصْنُ الدين بن ثعلب فعرفت بدَرْوَتِ الشَّريف من يومئذ، وآستولىٰ عليها وعلىٰ بلاد الصعيد . وقد تقدم أنه كان فى آخر الدولة الأيوبية . فلما ولِىَ المُعِزّ أيْبَكُ التُّرْكُمانى: أوّل ملوك الترك بالديار المصرية السلطنةَ، أَنِفَ من سلطنته وسمَتْ نفسُــه إلىٰ السلطنة فجهَّز إليه المعز جيوشا، فجرت بينهم حروبٌ لم يظفَروا به فيهــا، وبقى علىٰ ذلك إلىٰ أن كانت دولة الظاهر بيــبرس، فنصب له حبائل الحِيَل وصاده بها وشنقه بالإِسْكَنْدَرِيَّة .

العمل الثالث ــ البهنسىٰ، وكانت الإمرة فيه فى بيتين .

الأول ــ أولاد زُعازِع . (بضم الزاى)(١) من بنى جديدى من بنى بلار من لواثة(٢) من البربر أو من قيس عَيْلَانَ علىٰ الخلاف السابق عند ذكر نسبهم فى المقالة الأولىٰ . قال الحمدانىّ : وهم أشهر مَنْ فى الصعيد .

الثانى ــ أولاد قُرَيْشٍ . قال الحمدانىّ : وهم أمراء بنى زيد، ومساكنهــم نُوَيْرَة دَلَاص .

قال : وكان قُرَيْشٌ هذا عبدا صالحا كثير الصدقة، ومن أولاده ســعد الملك المشهور بنوه هناك .

وذكر المقرّ الشهابىّ بن فضــل الله فى "التعريف" : أن الإمرة بالوجه القبلىّ فى زمانه (وهو سلطنة الناصر محمد بن قلاوون وما وليها) كانت لناصر الدين عمر بن فضــل، ولم يذكر مقرّته ولا من أىّ العرب هو، وذكر أيضــا أن الإمرة فى ا فوق

(١) تقدم لنا فى الجزء الأول (ص ٣٦٥) ضبطها بالفتح والصواب ماهنا .
(٢) ضبطها المؤلف فيما تقدم بالثاء المثلثة ولكن المجد ذكرها فى باب التاء المثناة .

أسْوان كانت فى عرب يقال لهم الحَدَارية فى سميرة بن مالك . قال : وهو ذو عَدَد جَمٍّ وشوكة مُنْكِيَة ، يغزو الحبشــة وأُمَمَ السودان ويأتى بالنهاب والسـبايا ، وله أثر محمودٌ وفَضْلٌ مأثور ، وفد على السلطان فأكرم مثواه ، وعقد له لواء وشُرِّف بالتَّشريف ، وقُلِّدَ ، وكُتِبَ إلىٰ ولاة الوجه القبلىّ عن آخرهم وسـائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب للغَزْوِ معه متىٰ أراد ، وكتب له منشور بما يفتحه من البلاد ، وتقليدٌ بإمرة عربان القبلة ممـا يلى قُوص إلىٰ حيث تصلُ غايتُه ، وتُرْكَزُ رايتُه .

قلت : أما فى زماننـا فقد وجَّهتْ عربُ هَوّارة وجوهَها من عمــل البحيرة إلىٰ الوجه القبلىّ ونزلت به آنتشرت فى أرجائه آنتشار الجراد ، وبسطت يَدَها من الأعمال البهنساوية إلىٰ منتهاه حيث أســوان وما والاها ، وأذعنت لهم سائر العُرْبان بالوجه القبلىّ قاطبةً ، وآنحازوا إليهم وصاروا طَوْعَ قيادهم .

والإمرة الآن فيهم فى بيتين .

الأول ــ بنو عمر : محمد وإخوته . ومنازلهم بجَرْجا ومُنْشأة إخميم ؛ وأمرهم نافذ إلىٰ أُسْوانَ من القبلة وإلىٰ آخر بلاد الأُشْمُونينِ من بحرى .

الثانى ــ أولاد غَرِيب . وبيدهم بلاد البهنسىٰ ، ومنازلهم دَهْروط وما حولها .

⁂

وأما الوجه البحرىّ ، فقد ذكر الحمدانىّ أن الإمرة فيهم فى خمسة أعمال .

العمل الأوّل ــ الشرقيَّة . قال : والإمرة فيها فى قبيلتين .

الأولىٰ ــ ثعلبَةُ ، وذكر أن الإمرة كانت فيهم فى شُقَير بن جرجى من المَصَاحِفة من بنى زُرَيْقٍ ، وفى عمر بن نفيلة من العُلَيْميين .

الثانية ــ جُذَام : وقد ذَكَر أن الإمرة كانت فيهم فى خمسة بيوت .

الأوّل ــ بيت أبى رُشْد بن حبشى ، بن نَجْم ، بن إبراهيم من العُقَيْلِيِّينَ : بنى عُقَيْل

ابن قُرّة، بن مَوْهوب، بن عُبَيْـد، بن مالك، بن سُوَيد، من بنى زيد بن حَرَام، ابن جُذَام؛ أُمِّر بالبوق والعَلَم .

الثـانى ــ طَرِيف بن مَكْنُون(١)، من بنى الوليد، بن سُوَيد المقدّم ذكره؛ وإلىٰ طَرِيف هـذا يُنْسَب بنو طريف من بلاد الشرقيـة . قال الحمدانىّ : وكان من أكرم العرب، كان فى مَضْيَفته أيامَ الغلاء ٱثنـا عشر ألفا تأكل عنده، وكان يَهْشِم الثريد فى المراكب . قال : ومن بنيه فَضْل بن سَمْح بن كَمُّونة، وإبراهيم بن عالى؛ أُمِّر كل منهما بالبُوق والعَلَم .

الثالث ــ بيت أولاد منازل من ولد الوليدالمذكور،كان منهم مَعْبَد بن مُبارَك، أُمِّر بالبوق والعَلَم .

الرابع ــ بيت نمىّ بن خَثْعم من بنى مالك، بن هَلْبا بن مالك بن سويد، أُقْطِعَ خثعم ابن نمىّ المذكور وأُمِّرَ، وٱقتنىٰ عددا من المماليك الأتراك والروم وغيرهم، وبلغ من الملك الصالح أيوبَ منزلةً، ثم حصَل عند الملك المعز أيبك التُّرْكُمانى علىٰ الدرجة الرفيعة، وقدّمه علىٰ عرب الديار المصرية، ولم يزل علىٰ ذلك حتّٰى قتله غِلْمانُه، فجعل المعزُّ ٱبنيه: سلمى ودغش عوضه، فكانا له نِعْمَ الخَلَفُ، ثم قدم دغش دِمَشْقَ فأمَّره الملك النـاصر صاحب دمشق يومئذ من بنى أيوب ببُوق وعَلَم، وأمَّرَ الملكُ أيبكُ أخاه سلمى كذلك .

الخامس ــ بيت مُفَرِّج بن سالم بن راضى من هَلْبَا بَعْجَة، ابن زيد، بن سُوَيد، ابن بَعْجة، من بنى زيد بن حَرام بن جُذَام؛ أمره المعزّ أيبك التركمانى بالبوق والعَلَم . وذلك أنه حين أراد المعزّ تأمير سـلمى بن خثعم المقدّم ذكره ٱمتنـع أن يؤمَّر حتّٰى يُؤَمَّر مُفرّج بن غانم(٢) فأُمِّر .

(١) تقدم فى الجزء الأول (ص ٣٣٢) ٱبن بكتوت . (٢) لعله سالم .

العمل الثانى — المَنُوفية . والإمرة فيها لأولاد نَصِير الدين من لواتةَ ، ولكن إمرتهم فى معنىٰ مَشْيخة العرب .

العمل الثالث — الغربية . والإمرة فيه فى أولاد يُوسُفَ من الخَزَاعلة من سِنْبِس من طيِّئ من كَهْلان من القَحْطانية ، ومقرّتهم مدينة سَخَا من الغربية .

العمل الرابع — البُحَيرة . وقد ذكر فى "التعريف" : أن الإمرة فى الدولة الناصرية آبن قلاوون كانت لخالد بن أبى سليمان وفائد بن مقدم . قال فى "مسالك الأبصار" : وكانا أميرين سيدين جليلين ذَوَىْ كرم وإفضال وشجاعة وثَبَات رأى وإقدام .

العمل الخامس — بَرْقة . قال فى "التعريف" : ولم يبق من أمراء العرب ببَرْقة يعنى فى زمانه إلا جعفرُ بن عمر ، وكان لايزال بين طاعة وعصيان ، ومخاشنة ولِيَان ، والجيوش فى كل وقت تمدّ إليه ، وقلَّ أن تَظْفَرَ منه بطائل أو رجعت منه بمَغْنَم ، وإن أصابته نوبةٌ من الدهر (١) . قال : وآخر أمره أن رَكِب طريق الواح حتّى خرج من الفَيُّوم وطرق باب السلطان لائذا بالعفو ، ووصل ولم يسبِق به خبرٌ ، ولم يعلم السلطانُ به حتّى آستأذن المستأذِن له عليه وهو فى جملة الوُقُوف بالباب ، فأُكْرِمَ أَتَمَّ الكرامة وشُرِّفَ بأجلِّ التشاريف ، وأقام مدّة فى قِرىٰ الإحسان وإحسان القِرىٰ وأهله لايعلمون ماجرىٰ ، ولا يعلمون أين يَمَّم ولا أىّ جهة نَحَا ، حتّى أتتهم وافداتُ البشائر وجاءت منه . فقال له السلطان : لِمَ لا أعلمتَ أهلك بقصدك إلينا ؟ قال : خِفت أن يقولوا : يفتِك بك السلطان فأتثبّط ، فآستحسن قَوْلَه ، وأفاض عليه طَوْلَه ، ثم أعيد إلىٰ أهله ، فَٱنْقَلَبَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لم يمسسه سوءٌ ولا رثىٰ له صاحبٌ ولا شَمِت به عدوٌّ .

---

(١) لم يذكر هذه الجملة فى الضوء .

قلت : والإمرة اليوم فى بَرْقة فى عمر بن عريف ؛ وهو رجل دَيِّنٌ وكان أبوه [عريف ذا دين متين رأيته] (١) فى الإسْكَنْدَرية بعد الثمانين والسبعمائة ، واجتمعتُ به فوجدت آثار الخير ظاهرةً عليه .

الفصـــل الثـانى

من المقـالة الثـانية

(فى المملكة الشامية ، وما يتصل بها : من بلاد الأرمن والروم وبلاد الجزيرة بين الفُرَاتِ والدَّجْلَةِ مما هو مضاف إلىٰ هذه المملكة ؛ وفيه أربعة أطراف)

الطرف الأوّل

(فى فضل الشام وخواصّه وعجائبه ؛ وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى فضل الشام)

أعظم شاهد لذلك ما أخرجه الترمذىّ من حديث زَيْد بن ثَابِتٍ رضى الله عنه أنه قال : "كُنَّا يومًا عِنْدَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم نُؤَلِّف القُرْءانَ من الرِّقَاعِ . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : طُوبىٰ لأَهْلِ الشامِ . فقلتُ : لِمَ ذاكَ يارسولَ اللهِ ؟ قال : لأن الملائكةَ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عليه". هذا وقد بُعِثَ به الكثير من الأنبياء عليهم السلام ، وفيه ضَرَائِحُهُم الشريفة ، والمسجدُ الأقصىٰ الذى هو أحد المساجد الثلاثة التى تُشَدّ إليها الرِّحال ، وهو أوّل القبلتين ، وبه ينْزِل المسيح عليه السلام بمنارة جامع دِمَشْقَ ؛ وبه يقتل الدجّال بمدينة لُدٍّ . وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن اللهَ بَارِكَ فيما بَيْنَ العَرِيش إلىٰ الفُرَاتِ وخَصَّ فِلَسْطِينَ بالتقْدِيس" .

---

(١) ترك له فى الأصل بياضا وأخذناه عن الضوء للؤلف .

المقصـــــد الثـانى
(فى خواصّه وعجائبه)

أما خواصّـه فإنَّ به الأماكنَ التى تعظِّمها الأمُمُ علىٰ ٱختلاف عقائدهم كالصَّخْرة التى هى قِبْلَةُ اليهود، والقُمَامة التى يَحُجُّها النصارىٰ من سائر أقطار الأرض، وطُورِنابُلُس الذى تَحُجُّه السامرةُ؛ و بمدينة صُور كنيسةٌ تعتقد طائفةٌ من النصارىٰ أنه لايصح تمليك ملوكهم إلا منها، علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ أعمال صَفَد إن شاء الله تعالىٰ، وغيرذلك ممـا تنقاد به الأمم إلىٰ صاحب هذه المملكة وتُذْعِنُ لمُسالمته .

وأما عجائبه فكثيرة .

منها ـ (حَمَّةُ طَبَرِيَّةَ) المشهورةُ : وهى عين تَنْبُـعُ ماءً شديد الحرارة يكاد يَسْلُقُ البَيْضَةَ، يقصِدها المتردّدون للاْستشفاء بالاْغتسال فيها . قال ٱبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وليس فيها حَمَّام يوقد فيه النار إلا الحَمَّام الصغير .

ومنها ـ (قُبَّةُ العَقَارب) بمدينة حِمْصَ . وهى قُبَّة بالقرب من مسجدها الجامع، إذا اخذ شيء من تُراب حِمْصَ وجبل بالماء وأُلصق بداخل تلك القُبَّةِ وتُرِك حتّٰى يجفَّ ويسقُط بنفسه من غير أن يلقيها[1] أحد ثم أُخِذت و وضع منها شيءٌ فى بيت لم يدخله عَقْرَبٌ، أو فى قُمَاش لم يقربه، و إن ذُرّ علىٰ عقرب منه شيء أخذها مثلُ السُّكْرِ فربما زاد عليها فقتلها، بل قيل إن ذلك لا يختصُّ بالقبة بل عامّة أرض البلد كذلك حتّٰى لايدخلها عقرب إلا مات، بل لا يقْرَب ثيابا ولا أمتعة عليها غُبَارُها، و إلىٰ ذلك أشار القاضى الفاضلُ فى البُشرىٰ بفتوحها بقوله : " ودَبَّتْ إليها عقاربُ المَجَانيق فخالفت عادةَ حِمْصَ فى العَقَارب، ورُمِيَتْ الحجارة بالحجـارة فوقَعتِ العداوة المعروفة بين الأقارب" .

(١) الصواب التذكير نظرا للتذكير السابق .

ومنها — (عَيْنٌ فَوَّارَةٌ) داخلَ البحر المِلْح علىٰ القُرْب من ساحل مدينة طَرَابُلُس علىٰ قدر رَمْية حجر عن البَرّ، تَنْبُع ماءً عذبا يطفُو علىٰ وجه المـاء قدرَ ذراع أو أكثر يتبين عند سكون الريح .

ومنها — (وادى الفَوّار) وهو وادٍ بالقرب من حِصْنِ الأكراد من عمل طَرَابُلُس غربا عنه بشَمَال علىٰ الطريق السالكة. قال فى "مسالك الأبصار" : وهى صِفَة بئر قائمة فى الأرض، وفى سُفْل الأرض سِرْدَابٌ ممتدّ إلىٰ الشَّمال يَفُور فى كل أسـبوع يوما واحدا لاغير، فتسـقىٰ به أرضٌ ومُزْدرعاتٌ ، وينزل عليه التُّرْكُمان ويَرِدُونَه؛ ويُسْـمَع له قبل فَوَرَانِه دَوِىٌّ كالرعد، وهو فى بقية الأيام يابسٌ لا ماء فيه . قال : وذَكَر لى مَنْ دخل السِّرداب أن فى نهايته نهـرا كبيرا آخذا من الغرب إلىٰ الشرق تحت الأرض، له جَرَيان قَوِىٌّ، وبه موج وريح عاصف، لايُعْرَف إلىٰ أين يجرى ولا من أىّ جهة يأتى .

ومنها — (حَمَّامُ القُدْمُوسِ) من قِلَاع الدعوة من عمل طرابلُس يخرج منها(١) أنواع كثيرةٌ من الحيات تظهر من أنابيب مائها وتدخل فى ثياب داخلها ، ولم يشتهر أنهـا أضَرَّتْ أحدا قَطُّ علىٰ مَمَرّ الدُّهور وتطاوُل الأزمنة، حكاه فى "مسالك الأبصار".

ومنها — (صَدْعٌ) فى سور الخَوَابِى من قلاع الدعوة من عمل طرابلس أيضا. إذا لُدِغ أحد بحَيَّةٍ فأتىٰ إلىٰ ذلك الموضع فشاهده بعينه أو أرسل رسوله فشاهده، سلم من تلك اللَّدْغة، ولم يضره السُّمُّ . إلىٰ غير ذلك من العجائب الظاهرة والمندرسـة بمرور الزمان عليها .

قال ٱبن الأثير: وبقُرىٰ حَلَبَ قريةٌ تسمّٰى بُرَاق، يقال إن بها مَعْبَدا يقصده أصحاب الأمراض ويَبِيتون به. فإما أن يرىٰ المريضُ فى منامه مَنْ يقول له ٱستعمل كذا وكذا

(١) أنث بٱعتبار القلعة.

فيبرأ، أو يمسح عليه بيده فيبرأ . قال فى تاريخه : وبقرية مبرون من قرىٰ صَفَد مَغَارة يظهر فيها الماء فى يوم من السنة تجتمع إليه اليهود فى ذلك اليوم، ويحلُبُون منه الماء إلىٰ البلاد البعيدة؛ وبوادى دلسه من عملها عينٌ تعرف بعين الجن تفور لحظة كالنهر ثم تغور حتّٰى لايبقىٰ فيها ماء، ثم تفور كذلك ليلا ونهارا؛ وبقرية بكوزا من قرىٰ صَفَد عِنَبٌ داخل العِنَبة عنبةٌ أخرىٰ؛ وبقرية عد شيب من قراها بَلُّوطٌ يؤخذ الواحد منه من الشجرة فيوجد حضنها حجر؛ وبقرية عياض تراب الحير إذا عمل منه كوزٌ وسُقِى فيه الكسير من آدمىّ أو غيره، جُبِرَ عظمه؛ وبالناصرة من أعمالها كنيسة بها عمود إذا ٱجتمع عنده جماعة وعملوا سماعا عَرِق العمود حتّٰى يظهر عَرَقُه .

الطَّرَف الثانى

(فى حدودِه، وٱبتداءِ عمارته، وتسميته شَامًا، وفيه مقصدان)

المقصد الأوّل

(فى حدوده)

وقد ٱختلف فى تحديده، فذكر فى "التعريف" أن حدّه من القبلة إلىٰ البرّ المقفر: تيهِ بنى إسْرَائيلَ وبَرِّ الحجاز والسَّمَاوةِ إلىٰ مَرْمىٰ الفرات بالعراق . قال : وهذه المُحَاذَاتُ كلُّها من جزيرة العرب .

وحدّه من الشرق طَرَف السَّمَاوة والفُرَات .

وحدّه من الشَّمال البحر الرومىّ .

وحدّه من الغرب حدّ مصر المتقدّم ذكره، وذكر فى " تقويم البُلْدان " : أن حدّه من الجنوب من أوّل رَفَح التى فى أوّل الجِفَار بين مِصْرَ والشام إلىٰ حدود تِيهِ بنى إسرائيل إلىٰ ما بين الشَّوْبَك وأَيْلَةَ من البلقاء، وحدّه من الشرق من البَلْقاء

إلىٰ مشاريق صَرْخَدَ، آخذا علىٰ أطراف الغُوطة، إلىٰ سَلَمْيَة، إلىٰ مشاريق حلب، إلىٰ بَالِس؛ وحدّه من الشمال من بالس مع الفرات إلىٰ قلعة نجم، إلىٰ الْبِيرَةِ، إلىٰ سُمَيْسَاط إلىٰ حصْنِ منصور، إلىٰ بَهَسْنىٰ، إلىٰ مَرْعَش، إلىٰ بلاد سيس، إلىٰ طَرَسُوسَ، إلىٰ بحر الروم؛ وحدّه من الغرب من طَرَسُوسَ المذكورة آخذا علىٰ ساحل البحر الروميّ إلىٰ رَفَح المتقدّمة الذكر حيث وقع الابتداء .

قلت : والخُلْفُ بينهما فى شيئين .

أحدهما ــ أنه فى " التعريف " جعل حدّه الشّمالىّ إلىٰ البحر الروميّ، وحدّه الغربىَّ حدَّ مصر المتقدّم ذكره، وفى " تقويم البلدان " جعل حدّه الشمالىّ البلاد التى بين الفُرَات والبحر الروميّ، وحدّه الغربىّ البحرَ الروميّ من طَرَسُوسَ إلىٰ رَفَحَ فيدخل حدّ مصر الذى حدّ به الجانبَ الغربىَّ فى "التعريف" فى هذا الحدّ، وكأن المُوقِـع لهما فى ذلك أن البحر الروميّ عن الشام غربا بشمال، فَجَنَحَ كل منهما إلىٰ جهة .

الثـانى ــ أنه فى "تقويم البُلْدان" أدخل بلاد الأَرْمَنِ المتصلةَ بآخر بلاد حَلَب من الشمال فى حدود الشام، وفى " التعريف " أخرجها وهو التحقيق . وقد صرّح بذلك فى " التعريف" فيما بعـدُ فقال بعد أن أفرد الفتوحات الجاهانيَّة التى هى أوّل بلاد الأَرْمَنِ من جهة حَلَب بالذكر : وأتيتُ بها هٰهنا إذ لم يكن لها تَعَلُّقٌ بمملكة تُذكر فيها، وليست من الشامات فى شىء وإنمـا هى من بلاد الأرمن المسماة قديمًا ببلاد العواصم والثُّغُور، وسيأتى الكلامُ علىٰ بلاد الأَرْمَنِ بمفردها فى جمـلة أعمـال حلب فى الكلام علىٰ قواعد المملكة الشامية إن شاء الله تعالىٰ .

علىٰ أن ما ذكره من التحديد فى " التعريف " و" تقويم البُلْدان " لا يخلو عن تساهل . فقد قال فى "التعريف" : بعد ذكر الحدودِ التى أوردها : وهذه الحدود هى الجامعـةُ علىٰ ما يُحْتاج إليه، وإذا فُصِّلت تحتـاج إلىٰ زيادة إيضـاح . وقال

فى "تقويم البُلْدان" : بعد ذكر الحدود التى أوردها أيضا : و بعض هذه الحدود قد تقع شرقيّةً عن بعض الشام وهى بعينها جنوبيّة عن بعض آخر، مثل البَلْقاءِ فإنها جنوبيةٌ عن حَلَب وما علىٰ سمتها، وشرقيّةٌ عن مثل غَزَّة وما علىٰ سمتها فليُعْلَم العذرُ فى ذلك.

قال ٱبن حوقل : وطول الشام من مَلَطْيَةَ إلىٰ رَفَح خمس وعشرون مرحلة . فمن مَلَطْيَـةَ إلىٰ مَنْبِج أربع مراحلَ ، ومن مَنْبِج إلىٰ حَلَب مرحلتان، ومن حَلَب إلىٰ حِمْص خمسُ مراحلَ، ومن حِمْص إلىٰ دِمَشْـق خمسُ مراحلَ، ومن دِمَشْـق إلىٰ طَبَرِيَّة أربعُ مراحلَ، ومن طَبَرِيَّة إلىٰ الرملة ثلاثُ مراحلَ، ومن الرملة إلىٰ رَفَح مرحلتان .

قال التيفاشىّ فى "سرور النفس" : وطوله أكثر من شهر . قال ٱبن حَوْقَل : وأعرضُ ما فيه طَرَفاه . فأحد طرفيه من الفرات من جسر منبج علىٰ منبج علىٰ قُورُس فى حدّ قِنَّسْرِينَ، ثم علىٰ العواصم فى حدّ إنطَاكِيَة، ثم يقع علىٰ جبل اللُّكَام، ثم علىٰ المَصِّيصة، ثم علىٰ أذَنَة، ثم علىٰ طَرَسُوسَ، وذلك نحو عشر مراحل وهذا هو السَّمْتُ المستقيم . والطرف الآخر يأخذ فى البحر من حدّ يَافَا من جُنْد فِلَسْطِينَ حتّىٰ ينتهىَ إلىٰ الرملة إلىٰ بيت المَقْدِس، ثم إلىٰ أرِيحا، ثم إلىٰ زُغَرَ، ثم إلىٰ جبل الشَّراة إلىٰ أن يأتىَ إلىٰ مَعَانَ، وتقدير ذلك ستُّ مراحل . ثم قال : أما ما بين هذين الطرفين من الشام فلا يكاد بين الأُرْدُنِّ ودِمَشْق وحِمْص يزيد علىٰ أكثر من ثلاثة أيام ، لأن من دِمَشْق إلىٰ طَرَابُلُس علىٰ بحر الروم غرباً يوما وإلىٰ أقصىٰ الغُوطة شرقا حتّىٰ يتصلَ بالبادية يوما ، ومن حِمْص إلىٰ أَنْطَرْطُوسَ علىٰ بحر الروم غربا يومين ، ومن حِمص إلىٰ سلَمْيَة علىٰ البادية شرقا يوما ، ومن طَبَرِيَّةَ من جُنْـد الأُرْدُنِّ إلىٰ صُورَ علىٰ البحر الرومىّ غربا يوما، ومنها إلىٰ أريحا علىٰ حدود بنى فَزَارَةَ شرقا يوما .

المقصـــــد الثـانى
(فى ٱبتداء عمارته وتسميته شاما ومايلتحق بذلك)

أما ٱبتداء عمارته، فقد روى الحافظ بن عساكر فى تاريخ الشام عن هشام بن محمد عن أبيه : أن نوحا عليه السلام لما قسم الأرض بين بنيه لحق قوم من بنى كَنْعَانَ ٱبن حام (١) بن نوح عليه السلام بالشام فسميت الشامَ، حين تَشَاءمُوا إليها، يعنى من أرض بابل كما جاء فى الرواية الأخرى. قال : فكانت الشأم يقال لها لذلك أرض كنعان، وجاء بنو إسرائيلَ فأجلَوْهم عنها، وبقيت الشام لبنى إسرائيلَ إلى أن غلب عليه الروم وٱنتزعوه منهم فأجلَوْهم إلى العراق إلا قليـــلا منهم، ثم جاء العربُ فغلبوا على الشـــام (يعنى فى الفتح الإسلامى) ثم الشأم مهموز مقصور. قال النَّوِوىُّ فى "تهذيب الأسماء واللغات" وغيره : ويجوز فيه فتح الشين والمدّ. قال : وهى ضعيفة وإن كانت مشهورة قال الجوهرى : ويجوز فيه التذكير والتأنيث. قال النووى : والمشهور التذكير. وقد ٱختلف فى سبب تسميته شاما فقيل لتشاؤم بنى كنعان إليـــه كما تقدّم فى كلام ٱبن عساكر، وقيل سمى بسام بن نوح لأنه نزل به، وٱسمه بالسريانية شام بشين معجمة، والعربُ تنقلها إلى السين المهملة. وقيل لأن أرضه مختلفة الألوان بالحمرة والسَّواد والبياض فسمِّى شامًا لذلك كما يسمَّى الخال فى بدن الإنسان شامة. وقيـــل سميت شاما لأنها عن شَمَال الكعبة، والشام لغة فى الشمال. قال أبو بكر بن محمد : ويجوز فيه وجهان. أحدهمـــا أن يكون من اليد الشؤمى وهى اليسرى. والثـــانى أن يكون فَعْلا من الشُّؤم.

---

(١) كذا فى معجم البلدان أيضا وفى القاموس فى مادة (ك ن ع) كنعان بن سام.

الطَّـــــرَف الثالث

(فى أنهاره وبحيراته وجباله المشهورة وزروعه وفواكهه ورَياحينه ومواشيه، ووحُوشه وطيوره؛ وفيه ستة مقاصد)

المقصـــــد الأول

(فى ذكر الأنهار العظَام بالشام وماهو مضاف إليه ممـا يتكرر ذكره بذكر البُلْدان، وهى أربعة(١) أنهار)

الأول - نَهْر الفُرَات وهو أعظمها، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ النيل أنه شقيقه فى الخروج من الجَنَّـة . وقد ثبت فى صحيح مسلم أن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) ! قال : "لا تَقُومُ الساعةُ حتّٰى يَحْسِرَ الفُرَاتُ عن جَبَل من ذَهَبٍ فيَقْتَتِل الناسُ عليه فيُقْتَل من كل مائة تِسعةٌ وتِسعُون، ويقولُ كلُّ رجل منهم لَعَلِّى أنا الذى أنْجُو بِه" وأوّل آبتدائه من شمالىّ مدينة (أَرْزَنِ الرُّوم) وشرقيِّها، وهى آخر بلاد الروم من جهة الشرق حيث الطولُ أربعٌ وستون درجة والعرض آثنتان وأربعون درجة ونصفٌ، ثم يأخذ إلىٰ قُرْبِ (مَلَطْيَةَ) ثم يأخذ إلىٰ (سُمَيْساطَ) ثم يأخذ مشرقا ويتجاوز (قلعة الروم) من شماليِّها وشرقيها، ثم يسير إلىٰ (الْبِيرَةِ) من جنوبيها، ثم يمرّ مشرقا حتّٰى يجاوز بَالِسَ، ثم قَلْعَة جَعْبَر ويتجاوزها إلىٰ الرَّقَّةِ، ثم يسير مُشَرِّقا ويتجاوز الرَّحْبة من شَماليّها ويسير إلىٰ عُنَّةَ، ثم يمتدّ إلىٰ هِيتَ، ويمتدّ حتّٰى يجاوز مَخْرَج (نهر كُوثىٰ) الآتى ذكره، فينقسم قسمين ويمرّ أحدهما : وهو الجنوبىُّ إلىٰ (الكوفة) ويتجاوزها، ويصبُّ فى بطائح العراق، ويمرّ الآخَرُ : وهو أعظمها بإزاء (قصر آبن هُبَيْرَةَ) ويعرف هذا القسم بنهر سُورَا (بضم السين المهملة وآخره ألف يمدّ ويقصر) وهى قرية علىٰ النهر نُسب إليها،

---

(١) الصواب ستة أنهار كما يتضح مما سيأتى .

ويتجاوز قصر ابن هُبَيْرَة ويسير جنوبا إلى (مدينة بابل القديمة)، ويتفرع منه بعد أن يجاوز بابل عدّةُ أنهر، ويمرّ عموده إلى (مدينة النيل) ويجاوزها حتّى يصب فى دِجْلَة ويسمّى من بعد مجاوزة النيل (نهر الصَّراة) . وعلى الفرات أنهار تصبّ فيه وأنهار تخرج منه ليس بنا حاجة إلى تفصيلها .

الثانى — نهر حَمَاة . ويسمّى العاصِىَ لأن غالب الأنهر تسقى الأرض بغير دواليبَ ولا نواعيرَ بل تَرْكَبُ البلادَ بأنفسها، ونهر حماة لا يسقى إلا بنواعير تنزع الماء منه، ويسمّى أيضا النهر المقلوبَ : لجريه من الجنوب إلى الشمال، وغالب الأنهر إنما تجرى من الشمال إلى الجنوب، واسمه القديم نهر الأُرُنْط[(١)]، وأوّله نهر صغير من ضيعة قريبة من بَعْلَبَكَّ فى الشَّمال عنها على نحو مَرْحلة، تسمّى الرأس، ويمتدّ من الرأس شَمالا حتّى يصلَ إلى مكان يسمّى قائم الهرمل بين قرية جُوسِيَة والرأس، ويمرّ فى واد هناك ويَنْبُعُ من هناك أكثرُ ماء النهر من موضع يسمّى مَغارة الراهب، ويمتدّ شَمالا حتّى يتجاوزَ (جُوسِيَة) ويمتدّ حتّى يصب فى (بحيرة قَدَس) غربىَّ حِمْص، ويخرُج من البحيرة ويتجاوز حمص إلى الرَّسْتَن، ويمتدّ إلى حماة، ثم إلى شَيْزَر، ثم إلى بحيرة أفامِيَة، ثم يخرج من بحيرة أفامِيَة، ويمرّ على دَرْكُوش، ويمتدّ إلى جسر الحديد، وذلك جميعه شرقىَّ جبل اللُّكَام . فإذا وصل إلى جسر الحديد انقطع الجبل المذكور هناك، ويستدير النهر المذكور ويرجع ويسير جنوبا بغرب ويمرّ على سُور أَنْطاكِيَة، ويسير كذلك مغرِّبا بجنوب حتّى يصب فى بحر الروم عند السُّوَيْدِيَّة

ويصب فى العاصى عدّة أنهر :

منها — نهرٌ مَنْبَعُه من تحت أَفَامِيَة يسير مغرّبا حتّى يصل إلى بحيرة أَفَامِيَة ويختلط بالعاصى .

(١) أورده ياقوت فى معجم البلدان بالدال المهملة .

ومنها — نهر فى شَمَال أفامِيَةَ على نحو مِيلَيْنِ يُعْرَف بالنهر الكبير يسير مَدًى قريبا ويصب فى بحيرة أفامِيَةَ، ويخرج منها مع العاصى .

ومنها — النهر الأسود، يجرى من الشمال و يمرّ تحت دَرْبَسَاكَ و يمتدّ حتّى يصبّ فى بُحَيْرَة أَنْطَاكِيَةَ و يخرج منها و يصب فى العاصى .

ومنها — نهر يَغْرَا — بفتح الياء المثناة تحت وسكون الغين المعجمة وفتح الراء المهملة ثم ألف مقصورة — بلدة هناك يمرّ عليها ويصب فى النهر الأسود المذكور .

ومنها — عِفْرِينُ — بكسر العين المهملة وسكون الفاء وكسر الراء المهملة ثم ياء مثناة تحت ونون فى الآخر — وهو نهر يأتى من بلاد الروم ويمرّ على الرَّاوَنْدَان إلى الجُومَة ويمرّ فى الجُومة إلى العَمْق و يختلط بالنهر الأسود .

الثالث — نهر الأُرْدُنّ . والأُرْدُنُّ بضم الهمزة وسكون الراء المهملة وضم الدال المهملة أيضا وتشديد النون . كذا ضبطه السمعانىّ فى "اللُّبَابِ" قال : وهى بلدة من بلاد الغَوْر من الشام نسب إليها النهر ويسمى الشريعةَ أيضا ، وأصله من أنهار تصب من جبل الثلج إلى بحيرة بانِيَاس ، ثم يخرج من البحيرة المذكورة ويصب فى بحيرة طَبَرِيَّةَ ، ويمتدّ جنوبا ، وهناك يصب فى نهر اليَرْمُوك بين بحيرة طبريَّة المذكورة وبين القُصَيْر ، ويمتدّ فى وسط الغَوْر جنوبا حتّى يجاوز بَيْسَانَ ، ويمتدّ فى الجنوب كذلك إلى أرِيحَا ، ولا يزال يمتدّ فى الجنوب حتّى يصب فى بحيرة زُغَر وهى البحيرة المُنْتِنَةُ المعروفة ببحيرة لُوط .

الرابع — نهر العَوْجَاء — بفتح العين المهملة وسكون الواو وفتح الجيم وبعدها ألف — ويسمّى نهر أبى فُطْرس (بضم الفاء وبالطاء والراء والسين المهملات) وهو نهر شمالىّ مدينة الرملة من فِلَسْطِينَ باثنى عشر مِيلاً ، ومَنْبَعُه من تحت جبل الخليل

عليه السلام مقابِلَ قلعةٍ خراب هناك تسمّى مجد اليابا(١)، ويجرى هذا النهر من الشرق إلىٰ الغرب ، ويصب فى بحر الروم جنوبىّ غابة أَرْسُوفَ، ومن مَنْبَعه إلىٰ مصبه دون مسافة يوم. قال فى "العزيزى": وماالتقىٰ عليه جيشان إلا غَلَبَ الغربىّ وآنهزم الشرقىّ؛وسيأتى الكلام علىٰ أنهار دِمَشْقَ فى الكلام علىٰ حاضرتها إن شاء الله تعالىٰ إذ لا يتعدّاها إلىٰ غيرها من البلاد .

الخامس — نهر جَيْحَانَ . بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحتُ وفتح الحاء المهملة وبعد الألف نون — وتُسمّيه العامّة جَهَانَ — بجيم وهاء مفتوحتين وألف ثم نون، وربما زادوا ألفا بعد الجيم فقالوا جَاهَانَ ، وإليه تنسب الفتوحات الجاهانية الآتى ذكرها . قال : فى "رسم المعمور" : وأوّله عند طول ستين درجةً وعَرْض أربعين درجةً، وهو نهرٌ يقارب الفُرَاتَ فى الكِبَر، ويمرّ بسِيسَ، ويسير من الشَّمال إلىٰ الجنوب بين جبال فى حدود الروم حتّى يبلغ المَصِّيصة من شَماليِّها حيث الطول تسع وخمسون وكسر والعرضُ ست وثلاثون درجةً، وعرض خمس عشرة(٢)؛وجَرَيَانه عندها من المشرق إلىٰ المغرب،ويتجاوز المَصِّيصة ويصبّ بالقرب منها فى بحر الروم .

السادس — نهر سَيْحَانَ . بفتح السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الحاء المهملة وبعدها ألف ثم نون . قال فى "رسم المعمور" : وأوّله عند طول ثمان وخمسين، وعرض أربع وأربعين؛ ويمرّ ببلاد الروم إلىٰ الجنوب عند مجرىٰ جَيْحَانَ المتقدّم ذكره، ويسير حتّى يمرّ ببلاد الأَرْمَنِ،ويمرّ علىٰ سُور أَذَنَةَ من شرقيها حيث الطولُ تسع وخمسون بغير كسر،والعرض ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقةً،

(١) أوردها فى المعجم هكذا "مَجْدَلْيَابَة" .

(٢) فى تقويم أبى الفداء "وخمس عشرة دقيقة" .

ويتجاوز أَذَنَةَ ويلتقى مع جيحان المتقدّم ذكره ويصيران نهرا واحدا ، ويصُبَّان فى بحر الروم بين آيَاسَ وطَرَسوس علىٰ ما تقدّم ذكره .

المقصـــد الثـانى

(فى ذكر بحيراته، وهى ثمـانُ بحيرات)

الأولىٰ – بحيرة طَبَرِيَّةَ . قال الزجاجىّ : سميت طَبَرِيَّةَ بطبارى ملك من ملوك الروم، وهى فى أوّل الغَوْرِ، يدخل إليها نهرُ الشريعة المنصبُّ من بحيرة بَانِيَاسَ الآتى ذكرها، ودَوْرها نحو مسيرة يومين، ووسطها حيث الطول ثمان وخمسون درجةً ، والعرض اثنتان وثلاثون، وهى قرعاء. ليس بها قَصَب نابت. وطَبَرِيَّةُ مدينةٌ خرابٌ علىٰ شـاطئ البحيرة المذكورة من جانبها الغربىّ الجنوبىّ ، قال العثمانىّ فى "تاريخ صفد" : ويقال إن قبر سليمان بن داود عليهما السلام بهذه البحيرة .

الثانية – بحيرة زُغَر وتعرف ببحيرة سَدُوم وبحيرة لوط . وهى بحيرة منتنة ليس بهـا سمك ولا يأوِى إليها طير ، وفيهـا مَصب نهـر الأُرْدُنِّ المسمّى بالشريعة عند نهايته، ويَغِيض المـاء فيها ولا يخرج منها شيء من الأنهار، وهى فى آخر الغَوْرِ من جهة الجنوب ، ودَوْرها فوق مسيرة يومين ، ووسطها حيث الطول تسع وخمسون درجة والعرض إحدىٰ وثلاثون .

الثالثـة – بحيرة بانِياسَ . وهى بحيرة بالقرب من بانِيَاسَ من مقابلة دِمَشْقَ يصبُّ فيها عدّة أنهار من جبلٍ هناك، ويخرج منها نهر الشريعة ويصبُّ فى بحـيرة طَبَرِيَّةَ المتقدّم ذكرها، وبها غابة قَصَب .

الرابعة – بُحيرة البِقَاع . وهى مستنقع ماء فى جهة الغرب عن بَعْلَبَكَّ علىٰ مسيرة يوم منها، بها هيش وغاباتُ قَصَب .

الخامسة ــ بحيرة دِمَشْـقَ . وهى بحـيرة فى شرقىّ غُوطَةِ دِمَشْقَ بمَيْلَة يسـيرة إلىٰ الشمال يصب إليها فضلة نهر بَرَدَى وغيره، وتتسع فى أيام الشتاء وتضيق فى أيام الصيف، وبها غابات قَصَب، وفيها أماكن تَحْمِى من العدوّ .

السادسة ــ بحيرة قَدَس . بفتح القاف والدال وفى آخرها سين مهملة .

وهى بحيرة فى أرضٍ مستوية، عن حِمْصَ فى جهة الغرب علىٰ بعض يوم منهـا، وطولها من الشمال إلىٰ الجنوب نحو ثلث مرحلة وفى طرفها الشمالى سدّ ممتدّ فى طولها مبنىّ بالحجر من بنـاء الأوائل ينسب بنـاؤه إلىٰ الإِسْكَنْدَرِ طوله شرقا وغربا ألف ومائتان وسبعة وثمـانون ذراعا، وعرضه ثمـانية عشر ذراعا ونصف ذراع، وعلىٰ وسط السدّ بُرْجَانِ من حجر أسود .

السابعة ــ بحيرة أفامِيَةَ . وهى عدّة بطائح فى الغرب بمَيْلَة إلىٰ الشمال عن أفامِيَةَ بين غابات من القَصَب، يصب فيها النهر العاصى من جهة الجَنُوبْ . وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيهما السمك، فالجنوبية منهما بُحَيْرَةُ أفَامِيَةَ المذكورة، وسَعَتها بالتقريب نحو نصف فرسخ، وقَعْرها قريب قامة، وأرضها مَوْحَلَة لا يقدر الإنسان علىٰ الوقوف فيها، وبوسطها جُمَم قصَب و بَرْدِىّ وحولها القصب والصَّفْصاف، وبها من أنواع الطير ما لا يحصىٰ كثرةً، وينبت بهـا فى زمن الربيع اللَّيْنُوفَرُ الأصفر حتّىٰ يستر المـاء عن آخره بوَرَقِه وزَهْرِهِ . والبحيرة الشمالية من عمل حصن بَرْزُوَيَةَ بقدر بحيرة أفامية أربعَ مرات، ووسطها مكشوف، وينبت اللَّيْنُوفَرُ بجانبيها الجنوبىّ والشَّمالىّ وبينها وبين بحيرة أفَامِيَةَ المذكورة زُقَاق تسـير فيه المراكب من إحداهمـا إلىٰ الأخرىٰ . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويعتبر طول هذه البطائح وعَرْضها بأفامِية .

الثـامنة ــ بحيرة أَنْطَاكِيَةَ . وهى بحيرة بين أَنْطَاكِيَةَ وبَغْرَاسَ وحارِم فى أرض تعرف بالعَمْقِ (بفتح العين المهملة وسكون الميم) من معاملة حَلَب شمالىّ أَنْطَاكِيَة علىٰ

مَسيرة يومين من حَلَب فى جهة الغرب عنها . وفيها مَصَبُّ نهر عِفْرِينَ والنهر الأسود ونهر يَغْرَا المتقدّم ذكرها ، ودَوْرُها نحو مسـيرة يوم ، وآجَامُ القصب محيطةٌ بها وفيها من الطير والسـمك نحو ماتقدّم ذكره فى بحيرة أفَامِيَةَ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وطولها طول أَنْطَاكِيَةَ تقريبا ، وعَرْضها أكثر من عرضها بدقائق .

المقصـــــد الثـالث

(فى ذكر جباله المشهورة التى يتعلق بها كثير من المقاصد ، وهى عدّة أَجْبُل)

منها — (جبل الثَّلْج) بالثاء المثلثة والجيم ، وما يتصل به . قال فى "تقويم البلدان" : والطرف الجنوبىّ لهذا الجبل بالقرب من صَفَدَ . قال فى " رسم المعمور " حيث الطولُ تسـع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقـــة ، والعرضُ آثنتان وثلاثون درجة . قال : فى "تقويم البُلْدان" : ثم يمتدّ إلىٰ الشَّمال و يتجاوز دِمَشْقَ . فإذا صار فى شَمَاليّها ، سمِّى جبل (سَنِير) ويسمَّى جانبه المطلُّ علىٰ دِمَشْق جبل (قَاسِيُون) ويتجاوز دِمَشْقَ و يمرّ غربىَّ بَعْلَبَكَّ ، ويسمَّى الجبل المقابل لبَعْلَبَكَّ جبل (لُبْنَانَ)(١) بلام مكسورة و باء موحدة ساكنة ونون مفتوحة بعدها ألف ونون ثانية — و إذا تجاوز بَعْلَبَكَّ وصار شرقىّ طَرَابُلُس سمى جبل (عَكَّارٍ) بعَيْنٍ مهملة مفتوحة وكاف مشدّدة وراء مهملة فى الآخر — إضافة إلىٰ حصْنٍ بأعلاه يسمَّى عَكَّارًا ، ثم يمرّ شمـالا و يتجاوز طَرَابُلُس إلىٰ حِصْنِ الأكراد من عمل طَرَابُلُسَ ، ويسامت حِمْصَ من غربيِّها علىٰ مسيرة يوم ويمتدّ حتّى يجاوز سَمْتَ حماة ، ثم سَمْتَ شيْزَر ، ثم سمت أفَامِيَةَ ، ويسمَّى قبالة هذه البلاد جبل (اللُّكَام) بضم اللام . قال فى "رسم المعمور" : وجبل اللُّكَامِ يمتدّ إلىٰ أن يصـير بينه و بين جبل شَحْشَبُو ، آتساعه نصف يوم حتّى يتجاوز صَهْيُون والشُّـغْر وبكَاسَ والقُصَيْر ، وينتهى إلىٰ أنطاكِيَةَ فينقطع هناك و يصير قُبَالةَ جبال الأَرْمَن .

(١) ضبطه ياقوت والمجد بضم اللام .

قال فى "تقويم البُلْدان" : ويقابل جبلَ اللُّكام المذكور عنـد مسامتته لأَفَامِيَةَ المتقدّمةِ الذكر جبلٌ آخر من شرقيّه ، يسمّى جبل (شَحْشَبُو) بشين معجمة مفتوحة وحاء مهملة ساكنة وشين ثانية مفتوحة بعدها باء موحدة مضمومة ثم واو ـ إضافة إلىٰ قرية هناك تسمّى بذلك ، ويمرّ من الجنوب إلىٰ الشّمال علىٰ غربىّ المَعَرَّةِ وسَرْمِينَ وحَلَب ، ثم يأخذ غربا ويتصل بجبال الروم .

ومنها ـ (جبل عامِلَةَ) وهو جبل ممتدّ فى شرقىّ ساحل بحر الروم وجنوبيّه ، حتّى يقرب من مدينة صُور ، وعليـه شَقِيفُ أَرْنونَ ، نزله بنو عاملة بن سـبإٍ من عرب اليمن عند تفرّقهم بسَيْلِ العَرِمِ فعُرِف بهم .

ومنها ـ (جبل عَوْف) وهو جبل بالقرب من عَجْلُونَ ، كان ينزله قوم من بنى عوف من جَرْم قُضَاعَةَ فعُرِف بهم ، وكانوا عُصاةً لا يدخلون تحت طاعة حتّى بنىٰ عليهم أُسَامَةُ أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلعة عَجْلُونَ فدخلوا تحت الطاعة علىٰ ماسيأتى ذكره .

ومنها ـ (جبل الصَّلْت) إضافة إلىٰ مدينة الصَّلْت الآتى ذكرها فى أعمال دِمَشْقَ ، وهو جبل فى شرقىّ جبل عَوْف وشماليّه ، كان أهله عصاةً حتّى بنىٰ عليهم المُعَظَّمُ عيسىٰ ابن العادل حصنَ الصَّلْت فدخلوا فى الطاعة .

المقصـــــد الرابع
(فى ذكر زروعه وفواكهه ورَيَاحينه)

أما زروعه فغالبها علىٰ المطر . قال فى "مسالك الأبصار" : ومنها ماهو علىٰ سَقْىِ الأنهار وهو قليل ، وفيه من الحبوب من كل مايوجد فى مصر من البُرّ والشعير والذُّرَةِ والأُرُزّ والبَاقِلَّا والبِسِلَّة والجُلْبَان ، واللُّوبِيَاء والحُلْبَة ، والسِّمْسِم والقُرْطُم ، ولا يوجد فيه

الكَتَّانُ والبَرْسِيمُ ،وبه من أنواع البِطِّيخ والقِثَّاءِ مايُستطاب ويستحْسَن ، وكذلك غيرها من المزدرعات كالقُلْقَاسِ والمُلُوخيَّا والبَاذنْجَـانِ واللِّفْتِ والجزَرِ والهِلْيَوْنِ والقُنَّبِيط والرِّجْلَةِ والبَقْلة اليمانيَة ، وغير ذلك من أنواع الخضراوات المأكولة ؛ وقصبُ السُّكَّر فى أغواره إلا أنه لم يبلغ فى الكثرة حدّ مصر .

وأما فواكهه ، ففيه من كل ما يوجد فى مصر كالتِّين والعِنَب والرُّمَّانِ والقَرَاصِـيَا والبَرْقُوق والمِشْمِش والخَوْخ ـ وهو المسمّى بالدُّرَاقِن ـ والتُّوت والفِرصَاد ؛ ويكثر بها (١) التُّفَّاحُ والكُمَّثْرى والسَّفَرْجَلُ مع كونها أكثر أنواعا وأبْهَجَ مَنْظَرًا ، ويزيد عليه فواكه أُخَر لا توجد بمصر ، وربما وجد بعضها فى مصر على الندور الذى لا يعتدّ به كالجَوْزِ والبُنْدُقِ والإجَّاصِ والعُنَّابِ والزُّعْرُورِ ، والزَّيْتُونُ فيه الغاية فى الكثرة ، ومنه يعتصر الزيتُ وينقل إلى أكثر البُلْدان وغير ذلك ، وبأغوارها أنواع المُحَمَّضَـات كالأُتْرُجّ واللَّيمون والكَبَّاد والنَّارَنْج ولكنه لا يبلغ فى ذلك حدّ مصر ، وكذلك المَوْزُ ولا يوجد البَلَحُ والرُّطَبُ فيه أصلا . قال فى "مسالك الأبصار": وفيه فواكه تأتى فى الخريف وتبقى إلى الربيع كالسَّفَرْجَلِ والتُّفَّاحِ والعِنَبِ .

وأما رَيَاحِينُه ، ففيه كلُّ مافى مِصْرَ من الآسِ والوَرْدِ والنَّرْجِس والبَنَفْسَجِ والياسمين والنِّسْرِينِ ، ويزيد على مصر فى ذلك خصوصا الوَرْد حتّى إنه يستقطر منه ماء الورد وينقل منه إلى سائر البُلْدان . قال فى " مسالك الأبصار " : وقد نُسِيَ به ما كان يذكر من ماء ورد جُورَ ونَصِيبِينَ .

---

(١) أى بالشام وأنث باعتبار البقعة أو البلاد وقوله ويزيد عليه أى على مصر .

المقصد الخامس

(فى ذكر مواشيه ووحوشه وطيوره)

أما مواشيه ففيه جميع ما تقدّم من مواشى مِصْرَ من الإبل والبَقَر والغَنَم والخَيْل والبِغَال والحَمِير، إلا أن أبقاره لاتبلغ فى العِظَم مبلَغَ أبقار مصر، وأغنامه لاتبلغ فى طيبة اللحم مبلَغَ أغنامها، وحميرُه لم تبلغ فى الفَرَاهة مبلغ حميرها .

وأما وحوشــه ، ففيه الغِزْلَانُ والأرانب والأُسُودُ وكثير من أنواع الوُحُوش المختلفة ممـا لايوجد مثله فى مِصْرَ .

وأما طيوره، ففيه الإوَزُّ والدَّجَاج والحَمَام وأنواع طيور المـاء المختلفة الأنواع . قال فى "مسالك الأبصار" : ولا تكون الفراريج فيها إلا بحَضَانة ولاتنجعُ فيها المَعَامل التى تُعْمَلُ لإخراج الفراريج فى مصر . قال : ويذكر أن رجلا من أهل مصر عمل فيها مَعْمَلا فى حاضرة العقيبة فصعد له العمل فيه فى الصيف دون الخريف .

المقصد السادس

(فى ذكر النفيس من مطعوماتها)

فيها العَسَلُ بقدر متوســط ، ويعمل فيهـا السُّـكَّر الوسط والمكرر ، والشراب موجود فيها دون مصر، وأكثر حَلْوَاهَا من العَسَل والمَنِّ .

الطَّـــرَف الرابع

(فى ذكر جهاته وكُوَره القديمة وقواعده المستقرّة وأعمالها، وفيه مقصدان)

المقصَد الأوّل

(فى ذكر جهاته وكُوره القديمة)

قد قَسَّم المتقدّمون الشأم إلىٰ خمسة أجناد ـ جمع جُنْد بضم الجيم وإسكان النون ودال مهملة فى الآخر كما ضبطه الجوهرىّ وغيره .

الأوّل — (جُنْدُ فِلَسْطِينَ) وفِلَسْطِينُ بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر . قال الزجاجىّ : سميت بفِلَسْطِين بن كُلْثوم من وِلد فلان بن نوح، بلدة كانت قديما نسبت الكورة إليها . قال ابن حوقل : وهو أوّل الأجناد الخمسة من جهة الغرب من رَفَح إلى حدّ اللَّجُّون، وعَرْضه من يافا إلى أَرِيحَا نحو يومين . قال ابن الأثير : هى كُورَةٌ كبيرة تشتمل على بلاد المَقْدِس وغَزَّةَ وعَسْقَلَان . قال ابن حوقل : وهى أرخى بلاد الشام .

الثانى — (جُنْدُ الأُرْدُنِّ) والأُرْدُنُّ بلدة قديمة من بلاد الغَوْرِ نسبت الكُورةُ إليها، وقد مرّ ضبطها فى الكلام على نهر الأُرْدُنِّ عند ذكر الأنهار، وقد نسبت الكُورةُ إليها كما نسب إليها النهر المتقدّم ذكره . قال ابن حوقل : وديار قوم لُوطٍ والبحيرةُ المُنْتِنَةُ وزُغَرُ إلى بَيْسَانَ وإلى طَبَرِيَّةَ تسمّى الغَوْرَ : لأنه بين جبلين، وسائر بلاد الشام مرتفعةٌ عليه . قال : وبعضها من الأُرْدُنِّ وبعضها من فِلَسْطِينَ .

الثالث — (جُنْد دِمَشْقَ) وسيأتى الكلام عليها فى قواعد الشام المستقرّة .

الرابع — (جند حِمْصَ) وسيأتى الكلام عليها فى الصفقة الشرقية من صَفَقات دَمَشْقَ .

الخامس — (جُنْد قِنَّسْرِينَ) . قال فى "اللُّبَاب" : بكسر القاف وفتح النون المشدّدة وسكون السين وكسر الراء المهملتين ثم ياء مثناة من تحتُ ساكنة ونون فى الآخر . قال الزجاجىّ : وقد روى أنها سميت برجل من قَيْسٍ(١) يقال له ميسرة، نزلها فمرّ به رجل فقال له : ما أشبه هذا الموضعَ بِقِنّ سيرين! فبنى منه اسم للمكان فقيل : قِنَّسْرِينُ . وقيل : دعا أبو عُبَيْدَةَ مَيْسَرَةَ بن مسروق القيسىّ(٢) فوجهه فى ألف فارس

(١) فى معجم البلدان لياقوت : برجل من عبس .
(٢) « « « : العبسىّ .

فى أثر العدو فمرّ علىٰ قِنَّسْرِينَ فجعل ينظر إليها فقال : ماهذه؟ فسُمِّيت له بالرومية. فقال : واللهِ كأنها قِنَّسْرِينُ . قال : وهذا يدل علىٰ أن قِنَّسْرِينَ آسم مكان آخر عَرَفَه ميسرةُ فشَبَّه به هذا فسميت به .

قال آبن الأنبارىّ : وفى إعرابها قولان .

أحدهما ــ أنها تجرى مجرىٰ قولك الزيدون فتجعلها فى الرفع بالواو فتقول هذه قِنَّسْرُونَ وفى الخفض والنصب بالياء فتقول مررت بِقِنَّسْرِينَ ودخلت قِنَّسْرِينَ .

القول الثانى ــ أن تجعلها بالياء علىٰ كل حال وتجعلَ الإعراب فى النون ولا تصرفها.

وهى قاعدة من قواعد الشأم القديمة علىٰ القرب من حَلَب ؛ كان الجُنْد ينزلهـا فى آبتداء الإســلام ، ثم ضَعُفت بحلب وخَرِبت وصارت قرية علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ حلب إن شاء الله تعالىٰ .

قال آبن الأثير : وكل جُنْدٍ منها عَرْضُــه من ناحية الفُرَاتِ إلىٰ ناحية فِلَسْطِينَ، وطوله من الشرق إلىٰ البحر ، وحكاه فى "التعريف" علىٰ وجه آخر فقال : للناس فى الشأم أقوالٌ ، فمنهم من لا يجعله إلا شاما واحدا [ومنهم من يجعله شامات ، فيجعلون بلاد فِلَسْطِينَ والأرض المقــدّسة إلىٰ الأُرْدُنِّ شاماً] [(١)] ويقولون الشام الأعلىٰ ؛ ويجعلون دِمَشْقَ وبلادها من الأُرْدُنِّ إلىٰ الجبال المعروفة بالطِّوال شاما ، ويقع علىٰ قرية النَّبْك وما هو علىٰ خطها ؛ ويجعلون سُورِيًّا : وهى حِمْص وبلادها إلىٰ رَحْبة مالك بن طَوْق شاما ، ويجعلون حماة وشَيْزَر من مضافاتها . وثَمَّ من يجعل منها حماة دون شَيْزَر ، ويجعلون قِنَّسْرِينَ وبلادَها وحَلَبَ ممــا يدخل فى هــذا إلىٰ جبال الروم وبلاد العواصم والثُّغُور : وهى بلاد سِيس شامًا . ثم قال : أما عَكَّا وطَرَابُلُسُ وكل

(١) الزيادة عن ضوء الصبح للؤلف ليستقيم الكلام .

ما هو على ساحل البحر فكلُّ ما قابَلَ منه شيئا من الشامات حُسِب منه . قال : ونبهنا على ذلك كله ليعرف . ثم قال : أما ماهو فى زماننا وعليه قانون ديواننا فإنه إذا قال سلطاننا بلاد الشام ونائب الشام لا يريد به إلا دِمَشْقَ ونائبها . وسيأتى الكلام على حدود ولايته فى الكلام على نيابة دِمَشْقَ إن شاء الله تعالى .

المقصد الثانى

(فى ذكر قواعده المستقرّة وأعمالها، وهى ستُّ قواعدَ، كُلُّ قاعدة منها تعدّ مملكة بل كانت كلُّ قاعدة منها مملكةً مستقلة بسلطان فى زمن بنى أيوب)

القاعدة الأولى

(دِمَشْقُ ؛ وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(فى حاضرتها)

وهى بكسر الدال المهملة وفتح الميم وسكون الشين المعجمة وقاف فى الآخر. وتسمى أيضا جِلَّقَ ـ بجيم مكسورة ولام مشدّدة مفتوحة وقاف فى الآخر . وبذلك ذكرها حَسَّانُ بن ثَابِتٍ رضى الله عنه فى مدحه لبنى غَسَّانَ : ملوكِ العرب بالشأم بقوله :

لِلّٰهِ دَرُّ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهُمْ * يَوْمًا بِجِلَّقَ فى الزَّمَانِ الأَوَّلِ

وحكى فى "الروض المعطار" تسميتها جَيْرُونَ ـ بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحت وضم الراء المهملة وسكون الواو ونون فى الآخر ـ وسماها فى موضع آخر العَذْرَاء ـ بفتح العين المهملة وسكون الذال المعجمة وفتح الراء المهملة وألف بعدها ـ وموقعها فى أواخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون": وطولها ستون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقد آختلف فى بانيها : فقيل بناها

نُوحٌ عليه السلام، وذلك أنه لما نزل من السفينة أشرف فرأى تلّ حراف[(١)] بين نهرى حراف وديصاف، فأتاه فبنى حراف[(١)]، ثم سار فبنى دِمَشْقَ، ثم رجع إلى بابِلَ فبناها . وقيل بناها جَيْرُونُ بن سعد بن عاد، وبه سميت جَيْرُون . ويقال إن جَيْرُون وبَرِيدا كانا أخَوَيْنِ وهما ٱبنا سعد بن لقمان بن عاد، وبهما يعرف باب جيرون وباب البريد من أبوابها . وقيل بناها العازر : غلام إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان حَبَشِيًّا وهبه له نُمْرُوذ بن كَنْعان حين خرج إبراهيم من النار، وكان ٱسمه دِمَشْقَ فسماها بٱسمه .

وفى "كتاب فضائل الفُرْس" لأبى عُبَيْد أن بيوراسب ملك الفُرْس بناها . وقيل إن الذى بناها ذو القَرْنين عند فراغه من السدّ ووَكَّلَ بعمارتها غلاما له ٱسمه دمشقش وسكنها دمشقش ومات فيها فسميت به . وهى مدينة عظيمة البناء ذات سور شاهقٍ ولها سبعة أبواب : باب كَيْسانَ، وبابُ شرقىّ، وباب تُوما، وباب الصغير، وباب الجابية، وباب الفَراديس، والباب المسدود .

وروى الحافظ بن عساكر عن أبى القاسم تَمَّام بن محمد : أن بانيها جعل كل باب من هذه لِكَوْكَبٍ من الكواكب السبعة، وصوّر عليه صُورتَه، فجعل باب كَيْسَانَ لِزُحَلَ، وباب شَرْقِىّ للشمس، وباب تُوما للزُّهَرَةِ، وباب الصغير لِلْمُشْتَرِى، وباب الجابية لِلمِرِّيخ، وباب الفراديس لِعُطَارِدَ، والباب المسدود للقمر. وعلى كل حال فهى مدينة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية، ذات حواجز بنيت من جهاتها الأربع، وغُوطتها أحد مستَنْزَهات الدنيا العجيبة المفضلة على سائر مستنزهات الأرض، وكذلك الرَّبْوَةُ وهى كَهْفٌ فى فم واديها الغربىّ، عنده تنقسم مياهها ؛ يقال إن به مَهْدَ عيسى عليه السلام . وبها الجوامع والمدارس، والخَوانق والرُّبُط، والزوايا والأسواق المرتبة

(١) كذا فى الضوء أيضا ولم نعثر على هذين الاسمين .

والديار الجليلة المُذْهبة السُّقُف المفروشة بالرخام المنوّع ، ذاتُ البِرَك والمـاء الجارى . وربما جرىٰ المـاء فى الدار الواحدة فى أماكِنَ منها والماء مُحَكَّم عليها من جميع نواحيها باتقان محكم ؛ وهى فى وَطَاءة مستوية من الأرض بارزةٌ عن الوادى المنحطّ عن منتهىٰ ذيل الجبل ، مكشوفةُ الجوانب لمرّ الهواء إلا من الشَّمال فإنه محجوب بجبل قاسِيُونَ ، وبذلك تُعاب وتنسب إلىٰ الوَخَامة . قال فى " مسالك الأبصـار " : ولولا جبلها الغربىُّ المَلبَّس بالثلوج صيفا وشتاء ، لكان أمرها فى ذلك أشدَّ ، وحال سُكَّانها أشقّ ؛ ولكنه دِرْياق ذلك السم ، ودواء ذلك الداء . وهى مستديرة به من جميع نواحيه . قال فى " مسالك الأبصار " : وغالب بنائها بالحجر ودُورُها أصـغر مقاديرَ من دُورِ مصر لكنها أكثر زَخْرَفَةً منها وإن كان الرخام بها أقل ، وإنمـا هو أحسن أنواعا . قال : وعناية أهلها بالمَبـانى كثـيرةٌ ، ولهم فى بساتينهـم منهـا ماتفوق به وتحسن بأوضاعه ؛ وإن كانت حَلَبُ أجلَّ بناءً لعنايتهم بالحجر ، فدِمَشْقُ أَزْيَنُ وأكثر رونقًا لتحكم الماء علىٰ مدينتها وتسليطه علىٰ جميع نواحيها ، ويسـتعمل فى عماراتها خَشَبُ الحُور ــ بالحاء والراء المهملتين ــ بدلا من خشب النخل إلا أنه لا يُغشَّى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره . وأشرفُ دُورِها ماقَرُب ، وأجلُّ حاضرتها ماهو فى جانبيها : الغربىّ والشَّمالىّ .

فأما جانبها الغربىُّ ففيه قلعتها ؛ وهى قلعة حسنة مرجلة علىٰ الأرض ، تحيط بها وبالمدينة جميعها أسوارٌ عالية ، يحيط بها خَنْدَقٌ يطوف الماء منه بالقلعة . وإذا دعت الحاجة إليه أطلق علىٰ جميع الخندق المحيط بالمدينـة فيعمها ؛ وتحت القلعة ساحةٌ فسيحةٌ بها سُوق الخيل ، علىٰ جانب وادٍ ينتهى فيه مما يلى القلعة إلىٰ شرفين محيطين به فى جهتى القبلة والشَّمال ، فى ذيل كل منهما مَيْدَان مُمَرّج بالنجيل الأخضر ، والوادى يشق بينهما . وفى الميدان القبلىّ منهما القصرُ الأبلَقُ ــ وهو قصرٌ عظيم مبنىّ من أسفله

إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر بتأليف غريب، وإحكام عجيب؛ بناه الظاهر بيبرس البُنْدُقْدارىّ فى سلطنته، وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر، وأمامَ هـذا القصر دركاه يُدخَلُ منها إلى دِهْليز القصر، وهو دِهْليز فسيحٌ يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرُّخام الملوّن البديع الحُسْنِ، مؤزَّر بالرخام المفصل بالصَّدَف والفَصِّ المُذْهَبِ إلى سُجُف السقوف، وبالدار الكبرى به إيوانان متقابلان تُطل شبابيك شرقيهما على الميدان الأخضر، وغربيهما على شاطئ وادٍ أخضر يجرى فيه نهر، وله رَفارِفُ عالية تناغى السُّحُبَ، تُشْرِف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغُوطة .

والوادى كامل المنافع بالبيوت الملوكية والإصطبلات السلطانية والحَمَّام وغير ذلك من سائر ما يُحتاج إليه؛ وبالدكاره التى أمام القصر المتقدِّمِ ذكرها جَسْرٌ معقود على جانب الوادى يُتَوصَّل منه إلى إيوان برانىّ يُطَلُّ منه على الميدان القبلىّ، آستجدّه أقوش الأفرم فى نيابته فى الأيام الناصرية آبن قلاوون، وتُجاهَ باب القصر بابٌ يُتوصَّل من رحبته إلى الميدان الشمالىّ؛ وعلى الشرفين المتقدّم ذكرهما أبنيةٌ جليلةٌ من بيوت ومناظرَ ومساجدَ ومدارسَ ورُبُطٍ وخَوَانِقَ وزَوايَا وحمّامات ممتدّة على جانبين ممتدّين طول الوادى .

ولهذه القلعة نائبٌ بمفردها غير نائب دمَشْقَ يحفظها للسلطان ولا يُمَكَّنُ أحدا من طلوعها من النائب أو غيره . وإذا دخل السلطان دِمَشْقَ نزل بها . وبها تَخْتُ مُلْك كغيرها من ديار الملك .

وأما جانبها الشَّمالىّ ويسمَّى العُقَيبة، فهو مدينة مستقلة بذاتها ذاتُ أبنيةٍ جليلة وعمائر ضَخْمة، يسكنها كثير من الأمراء والجند، وبإزاء المدينة فى سفح جبل قاسِيُونَ (مدينة الصالحية): وهى مدينة ممتدّة فى سَفْح الجبل بازاء المدينة فى طول مدًى يُشْرِف

علىٰ دِمَشْقَ وغُوطتِها، ذاتُ بيوت(١) ومدارسَ وربط وأسواق وبيوت جليلة، وبأعاليها مع ذيل الجبل مقابر دِمَشْقَ العامَّةُ، ولكل من دِمَشْقَ والصالحية البساتينُ الأَنيقة يتَسَلْسُلِ جداولها وتَغَنِّى دوحاتها، وبتمايل أغصانها وتغرُّد أطيارها، وفى بساتين النُّزهة بها العمائرُ الضَّخْمة، والجَوَاسِقُ العليّة، والبرك العميقة، والبحيرات الممتدّة، تتقابل بها الأواوين والمجالس، وتَحُفُّ بها الغِرَاس والنصوب المطرّزة بالسَّرْو المُلْتَفّ، والحُور المشوق القَدّ والرياحين المتأرّجة الطيب، والفواكه الجَنِيَّة، والثمرات الشَّهِيَّة، والأشياء البديعة، التى تُغْنى شهرتها عن الوصف، ويقوم الإيجاز فيها مقام الإطناب.

ومَسْقىٰ دِمَشْقَ وبساتينها من نهر يسمّى بَرَدىٰ - بفتح الباء الموحدة والراء والدال المهملتين وبآخره ألف. أصل مخرجه من عينين: البعيدةُ منهما دون قرية تسمّى الزَّبَدانِىّ، ودونها عَيْنٌ بقرية تسمّى الفِيجة، بذيل جبل يخرج الماء من صدع فى نهاية سفله قد عقد علىٰ مخرج الماء منه عَقْدٌ رومىُّ البناء، ثم تَرْفِده منابعُ فى مجرىٰ النهر، ثم يقسم النهر علىٰ سبعة أنهر: أربعة غربية: وهى نهر دَارَيَّا، ونهر المِزَّة، ونهر القنوات، ونهر بَانَاسَ. واثنان شرقية وهما نهر يَزِيدَ، ونهر ثَوْرَا، ونهر بَرَدىٰ ممتدّ بينهما.

فأما نهر بَانَاسَ ونهر القَنَوات، فهما نهرا المدينة حاكمان عليها ومُسَلَّطَانِ علىٰ ديارها، يدخل نهرُ باناس القلعةَ، ثم ينقسم قسمين: قسم للجامع وقسم للقلعة، ثم ينقسم كلُّ قسم منهما علىٰ أقسام كثيرة ويتفرّق فى المدينة بأصابع مقدّرة معلومة، وكذلك ينقسم نهر القنوات فى المدينة، ولا مدخل له فى القلعة ولا الجامع، ويجرى فى قُنِيٍّ مدفونة فى الأرض إلىٰ أن يصل إلىٰ مستحقاتها بالدور والأماكن علىٰ حسب

---

(١) لعله ذات مساجد.

التقسيم ، ثم تنصبُّ فضلات المـاء والبِرَك ومجـارِى المِيضآت إلىٰ قُنِيٍّ معقودة تحت الأرض ، ثم تجتمع و تتنهَّر و تخرج إلىٰ ظاهر المدينة لسقى البساتين .

وأما نهر يَزِيدَ ، فإنه يجرى فى ذيل الصالحية المتقدّم ذكرها و يشقُّ فى بعض عمارتها .

وأما بقيـة الأنهار ، فإنها تتصرف إلىٰ البساتين والغيطان لسقيها ، وعليها القصورُ والبنيان خصوصا ثَوْرًا فإنه نيل دِمَشْقَ ، عليه جلُّ مبانيها و به أكثر تنزهات أهلها ، مَنْ يخاله يراه زُمُرُّدَةً خضراء ، لالتفاف الأشجار عليه من الجانبين .

وبها (جامع بنى أُمَيَّةَ) وهو جامع عظيم ، بناه الوليدبن عبد الملك بن مَرْوانَ فى سنة ثمـان وثمـانين من الهجرة ، وأنفق فيه أموالا جَمَّةً حتّى يقال إنه أنفق فيه أربعمائة صُنْدوق فى كل صُـنْدوق ثمـانية وعشرون ألف دينـار ، و إنه آجتمع فى ترخيمه آثنا عشر ألف مُرَخِّم . قال فى "الروض المعطار" : وذَرْعه فى الطول من المشرق إلىٰ المغرب مائتا خُطْوة وهى ثلثمائة ذراع ؛ وعرضه من القبـلة إلىٰ الشمال مائة خطوة وخمس وثلاثون خُطْوة وهى مائتا ذراع ، وقد زُخْرِفَ بأنواع الزَّخْرَفَةِ من الفُصُوص المُذْهَبَة والمَرْمَرِ المصقول ، وتحت نَسْرِه عمودان مجزَّعان بالحمرة لم يُرَ مثلهما ، يقال إن الوليد آشتراهما بألف وخمسمائة دينار ، وفى المحراب عمودان صغيران يقال إنهما كانا فى عرش بِلْقِيسَ ، وعند مَنَارته الشرقية حجرٌ يقال إنه قطعةٌ من الحجر الذى ضربه موسىٰ عليه السلام فانفجرت منه آثنتا عشْرةَ عينا .

وقد ورد أن المسيح عليه السلام ينزل علىٰ المنارة الشرقية منه ، ويقال إن القُبَّة التى فيها المحراب لم تزل مَعْبَدًا لابتداء عمارتها وإلىٰ آخر وقت . بناها الصابئة متعبَّدا لهم ، ثم صارت إلىٰ اليونانيين فكانوا يُعظِّمون فيها دينهم ، ثم آنتقل إلىٰ اليهود فقُتِل يحيىٰ بن زكريا عليه السـلام ، ونصب رأسـه علىٰ باب جَيْرُونَ من أبوابه فأصابته بركتُه ، ثم صار إلىٰ النصارىٰ فجعلتها كنيســة ، ثم آفتتح المسلمون دِمَشْقَ فاتخذوه

جامعها، وعلق رأسُ الحُسَيْنِ عليه السلام عند قتله فى المكان الذى علق عليه رأس يحيىٰ بن زكريا إلىٰ أن جدّده الوليد، ويقال إن رأس يحيىٰ عليه السلام، مدفون به، وبه مُصحف عثمانَ الذى وَجَّهَ به إلىٰ الشام .

قال فى "الروض المعطار" : ويقال إن أوّل من وضع جداره الأوّل هُودٌ عليه السلام . وقد ورد فى أثرٍ أنه يُعْبَد الله تعالىٰ فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

الجملة الثانية

(فى نواحيها وأعمالها وما يدخل تحت حكم الولايات)

وقد ذكر فى "التعريف" أن ولايتها من لَدُن العريش: حدّ مصر إلىٰ آخر سَلَمْيَة مما هو شرق بشمال وإلىٰ الرَّحْبة مما هو شرق بجنوب . قال : وقد أضيف إليها فى زمن سلطاننا بلاد جَعْبَرٍ، وكان من حقها أن تكون مع حَلَب . وحينئذ فتكون ولايتُها مشتملةً علىٰ الشام الأعلىٰ المتقدّم ذكره وما يليه وما يلى ما يليه، وبعض الشام الأدنىٰ ، وليس يخرج عنه من ذلك إلا حماة وما خرج مع صَفَدَ وطَرَابُلُسَ والكَرَك . قال : ويكون فى نيابة نائبها نيابةُ غَزَّة ونيابةُ حِمْصَ وبعض شىء مما يقتضى الحقُّ أن يكون مع حلب .

وتشتمل علىٰ بَرٍّ وأربع صَفَقات .

فأما البَرُّ فالمراد به ضواحيها . قال فى "التعريف" : وحدّها من القبلة قرية الحِيَارَة المجاورة للكُسْوَة وما هو علىٰ سمتها طولا، ومن الشرق الجبال الطِّوال إلىٰ النَّبْك وما علىٰ سمتها من القرىٰ آخذا علىٰ عَسَّانَ(١) وما حولها من القُرىٰ إلىٰ الزَّبَدانى، ومن الغرب ما هو من الزَّبَدانى إلىٰ قرىٰ القران المسامتة للحِيَارَة المقدّم ذكرها . قال : ويدخل فى ذلك مرج دِمشق وغُوطتها .

---

(١) فى الأصل والضوء باللام [والتصحيح عن ياقوت] .

وأما صَفَقاتها، فأربع صَفَقات .

الصفقة الأولىٰ

(الساحليـــة والجبليـــة)

وهى الصَّفْقَةُ الغربية عن دمشق . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى عبارة عن بلاد غَزَّةَ وما جاورها سَهْلا ووعرا .

قال فى "التعريف": وهذه الصفقة هى الشام الأعلىٰ، ينتقص منه ماهو من نهر الأُرْدُنّ إلىٰ حدّ قاقُونَ . ثم هذه الصفقة لها جهتان .

الجهـــة الأولى

(الساحلية، وهى التى بساحل بحر الروم المتقدّم ذكره ، وتشتمل علىٰ أربعة أعمال)

الأوّل ـ (عمل غَزَّة)ـ بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاى المعجمة أيضا وفى آخرها هاء ـ وهى مدينة من جُنْد فِلَسْطِينَ، فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : طولها ست وخمسون درجة وعشر دقائق ، وعَرْضها آثنتان وثلاثون درجة . وقال آبن سعيد : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة، وهى علىٰ طَرَف الرمل بين مصر والشأم، آخذةٌ بين البر والبحر بجانبيها ؛ مبنيةٌ علىٰ نَشَز عالٍ علىٰ نحو ميل من البحر الرومىّ، متوسطة فى العِظَم، ذات جوامعَ، ومدارسَ، وزوايا، وبيمارستان، وأسواق؛ صحيحةُ الهواء؛ وشرب أهلها من الآبار؛ وبها أمكنة يجتمع بها المطر إلا أنه يُسْتثقَل فى الشرب فيعدل منه إلىٰ الآبار لخفّة مائها ؛ وبساحلها البساتين الكثيرة . وأجلُّ فاكهتها العِنَبُ والتِّينُ؛ وبها بعض النخيل ، وبَرُّها ممتدّ إلىٰ تِيه بنى إسرائيل من قبليها ، وهو موضع زَرْع

وماشية إلا أن أهل برها عُشْرَان(١) بعضهم أعداء بعض . ولولا خوف سطوة السلطنة لما أُغْمِدَ سيفُ الفتنة بينهم ولاَجتاحوا المدينة ومَنْ فيها .

قلت : والحال فيها مختلف : فأكثر الأحيان هي تقدمة عسكر مضافة إلى دِمَشْقَ ، يأتمر مقدّم العسكر فيها بأمر نائب السلطنة القائم بِدمَشْقَ ، ولا يُمْضِى أمرا دون مراجعته وإن كانت ولايته من الأبواب السلطانية ، وتارة تكون نيابةً مستقلّة وتضاف إليها الصفقة الساحلية بكمالها فيكون لها حكم النيابات .

الثاني – (عمل الرَّمْلَة) . بفتح الراء المهملة وسكون الميم وفتح اللام وفي آخرها هاء – وهي مدينة من جند الأُرْدُنِّ ، موقعها في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" : طولها ست وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة وعشر دقائق . وقال في "القانون" : طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . وقال في "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ست وخمسون درجة وست وعشرون دقيقة ، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة وثلاث وعشرون دقيقة .

وهي مدينة إسلامية بناها سليمان بنُ عبد الملك في خلافة أبيه عبد الملك . قال في "الروض المعطار" : وسميت الرَّمْلَةَ لغلبة الرمل عليها . وقال في "مسالك الأبصار" : سميت بآمرأة آسمها رَمْلَةُ ، وجدها سليمانُ بن عبد الملك هناك في بيتِ شَعَر حين نزل مكانها يرتاد بناءها ، فأكرمته وأحسنت نُزُلَه ، فسألها عن آسمها فقالت رَمْلَةُ ، فبنى البلد وسماها بآسمها . قال في "العزيزى" : وهي قَصَبَة فِلَسْطِينَ ، وهي في سهل من الأرض ، وبينها وبين القُدْسِ مسيرة يوم . قال في "الروض المعطار" : وبينها وبين نَابُلُسَ يوم ، وبينها وبين قَيْسَارِيَّةَ مرحلة ، وكان عبدُ المَلك قد أجرى إليها قناة

(١) كذا في الأصل مضبوطا .

ضعيفة للشرب منهـا ، وأكثر شربهم الآن من الآبار ومن صهاريجَ يجتمع فيها ماء المطر، وهى مَقَرَّةُ الكاشف بتلك الناحية .

ومِينَاها مدينة يَافَا ــ بفتح المثناة من تحت وألف وفاء ثم ألف فى الآخر ــ وهى مدينة صغيرة بالساحل، وهى فى الغرب عن الرملة و بينهما ستة أميال .

الثالث ــ (عمل لُدّ) ــ بضم اللام وتشديد الدال المهملة ــ وهى بلدة من جُنْدِ فِلَسْطِينَ واقعةٌ فى الإقليم الثالث شرقا بشمال عن الرملة ، و بينهما ثلاثة فراسخ ، ولم يتحرّر لى طولها وعَرْضها ، غير أنها نحو الرَّمْلَةِ فى ذلك : لقربها منها أو أطولُ وأعرضُ بقليل . وهى مدينة قديمةٌ كانت هى قصبةَ فِلَسْطِينَ فى الزمن الأوّل إلىٰ أن بنيت الرَّمْلَةُ فتحوّل النـاس إليها وتركوا لُدًّا ، وقد ثبت فى الصحيح أن المسيح عليه السلام يقتل الدَّجّال ببابها .

الرابع ــ (عمل قَاقُونَ) ــ بفتح القاف و بعدها ألف ثم قاف ثانية مضمومة ــ وهى مدينة لطيفة غيرُ مُسَوَّرةٍ ، بها جامعٌ وحَمّام وقلعة لطيفة ، وشربها من ماء الآبار ، ولم يتحرّر لى طولها وعرضها ، إلا أن بينها و بين لُدّ مسيرة يوم فلتعتبر بها بالتقريب .

الجهة الثـانية
(الجَبَلِيَّة ، وبها ثلاثة أعمـال)

الأوّل ــ (عمل القُدُس) . والقُدُس بضم القاف والدال لفظ غالب علىٰ مدينة بيت المَقْدِس ــ بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة ــ وهو المسجد الأقصىٰ ، وأصل التقديس التطهير، والمراد المُطَهَّر من الأدناس . وهى مدينة من جُنْدِ فِلَسْطِينَ واقعةٌ فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال": طولها ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان": والقياس أن طولها سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضَها ثلاثون درجة .

وهى مبنية علىٰ جبل مستدير، وعرةُ المسلك، وبناؤها بالحجر والكِلْس، وغالب حجرها أسود، وشُرْبُ أهلها من ماء المطر المجتمع بصهاريج المسجد الأقصىٰ وعينٍ تجرى إليها عن بُعْد، وكذلك عين سُلْوان وليس ماؤها بالكثير، وكان بها آثار قلعة قديمة خَرِبتْ فجدّدها الناصر "محمد بن قلاوون" فى سنة ستَّ عشرةَ وسبعمائة، وليس بها حَصَانَةٌ، وكانت المدينة كلُّها قد غلب عليها الخراب من حين آستيلاء الفرنج عليها، ثم تراجع أمرها للعمارة، وصارت فى نهاية الحُسْن، بها المدارس والرُّبُطُ والحمَّامات والأسواق وغيرها. والمسجد الأقصىٰ هو أحد المساجد الثلاثة التى تشدّ إليها الرحال، وهو القبلة الأولىٰ.

قال فى "الروض المعطار": وأول من بنىٰ بيتَ المقدس وأَرِىَ موضعَه يعقوبُ عليه السلام، وقيل داودُ. والذى ذكره فى "تقويم البُلْدان" أن الذى بناه سليمان آبن داود عليهما السلام وبقى حتّٰى خَرَّبه بُخْتَنَصَّر، فبناه بعض ملوك الفُرْس وبقى حتّٰى خَرَّبه طيطوس ملك الروم، ثم بقى ورُمِّمَ، وبقى حتّٰى تنصر قُسْطَنْطِينُ ملك الروم وأُمُّهُ هيلانة وبنَتْ أُمُّه قُمَامة علىٰ القبر الذى يزعمُ النصارىٰ أن المسيح عليه السلام دُفن فيه، وخَرَّبت البناء الذى كان علىٰ الصخرة وجعلتها مطرحا لقُمَامات البلد عِنادا لليهود، وبقى الأمر علىٰ ذلك حتّٰى فتح أميرُالمؤمنين: عمرُ بنُ الخَطَّاب رضى الله عنه القُدُسَ فدُلَّ علىٰ الصخرة فنظَّف مكانها وبنىٰ عليها مسجدا، وبقى حتّٰى ولِىَ الوليد آبن عبدالملك الخلافةَ فبناه علىٰ ماهو عليه الآن. علىٰ أن المسجد الأقصىٰ علىٰ الحقيقة جميع ماهو داخل السور، وعلىٰ القرب من المسجد الصخرةُ التى ربط النبىّ صلى الله عليه وسلم بها البُراق ليلة الإسراء، وهى حجر مرتفع مثل الدكة آرتفاعها من الأرض نحو قامة، وتحتها بيت طوله بَسْطة فى مثلها، ينزل إليها بُسُلَّم وعليها قبة عالية، بناها الوليد بن عبد الملك حين بنىٰ المسجد الأقصىٰ.

قال المهلّبي في كتابه "العزيزي" : ولما بناها الوليد بنىٰ هناك عِدّة قِباب وسمّى كل واحدة منها بآسم : وهي قُبَّة المعراج، وقبة الميزان، وقُبَّة السِّلْسلة، وقبة المَحْشَر.

قال في "مسالك الأبصار" : وإلىٰ الصخرة المتقدّمة الذكر قِبْلَةُ اليهود الآن، وإليها حَجُّهم. وبه القُمَامة التي تحجها النصارىٰ من أقطار الأرض، وبيتُ لَحْم الذي هو من أجلّ أماكن الزيارة عندهم، وكان به كنيسة للروم يقال إن بها قبر حَنَّةَ أمّ مريم بنت عمران عليها السلام ثم صارت في الإسلام دَارَ علم . فلما ملك الفرنْجُ القُدُس في سنة آثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة، فلما فتح السلطان صلاحُ الدين القُدُسَ بنىٰ بها مدرسة . وكان آسمها في الزمن الأوّل إيليا . والأرض المقدّسة مشتملة علىٰ بيت المَقْدِس وما حوله، إلىٰ نهر الأُرْدُنِّ المسمّى بالشريعة، إلىٰ مدينة الرَّمْلَةِ طولا، ومن البحر الشاميّ إلىٰ مدائن لُوطٍ عليه السلام، وغالبها جبال وأودية إلا ماهو في جَنَباتها .

الثاني ـ (عمل بلد الخليل عليه السلام) . وآسمها بيت حَبْرُونَ بإضافة بيتٍ واحد البيوت إلىٰ حَبْرُونَ (بحاء مفتوحة وباء موحدة ساكنة وراء مهملة مضمومة بعدها واو ساكنة ونون) كذا ضبطه في "تقويم البلدان" : وفي كلام صاحب "الروض المعطار" : ما يدل علىٰ إبدال الحاء بجيم والباء الموحدة بمثناة تحتُ، فإنه ذكرها في حرف الجيم في سياقة الكلام علىٰ تسمية دِمَشْقَ جَيْرُونَ . وهي بلدة من جُنْدِ فِلَسْطِينَ في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة، طولها في بعض الأزياج ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة (١)، وبها قبر إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ عليهم السلام ونسائهم، وهي إحدىٰ القرىٰ التي أقطعها النبيّ صلّى الله عليه وسلم ! لتميم الداريّ كما سيأتي ذكره في الكلام علىٰ المناشير إن شاء الله تعالىٰ .

(١) لم يذكر عرضها كما هي عادته .

الثالث — (عمل نَابُلُس) — بفتح النون وألف وضم الباء الموحدة واللام وسين مهملة في آخرها — مدينة من جُنْدِ الأُرْدُنِّ من الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" : طُولها سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثلاثون درجة . وقال في "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ست وخمسون درجة وأربع وعشرون دقيقة ، وعرضها على ما تقدّم . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة يُحْتاج إليها ولا تحتاج إلى غيرها . قال ابن حوقل : وليس بِفِلَسْطِينَ بلدةٌ فيها ماءٌ جارٍ سواها ، وباقي ذلك شرب أهله من المطر وزرعهم عليه ، وبها البئر التي حفرها يعقوبُ عليه السلام ؛ وهي مدينة السامرة ، وكانت السامرةُ في الزمن المتقدّم لا توجد إلا بها ؛ وبها الجبل الذي يحج إليه السامرة ، وسيأتي الكلام على الموجِبِ لتعظيمه عندهم عند الكلام على تحليفهم في باب الأيمان إن شاء الله تعالى .

الصفقة الثانية

(القبلية)

سميت بذلك لأنها قِبْلِيّ دِمَشْقَ . قال في "مسالك الأبصار" : وتشتمل على بلاد حَوْرَانَ والغَوْرِ وما مع ذلك . قال في "التعريف" : وحدّها من القبلة جبال الغَوْرِ القبلية المجاورة لمَرْج بني عامر ، ومن الشرق البَرِّيَّةُ ؛ ومن الشَّمال حدود ولاية بَرّ دِمَشْقَ القِبْلِيّ ؛ ومن الغرب الأغوار إلى بلاد الشَّقِيف . قال : والأغوار كلُّها داخلة في هذه الصفقة خلا ما يختص بالكَرَكِ .

وتشتمل هذه الصفقة على عشرة أعمال .

الأول — (عمل بَيْسَان) — بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح السين المهملة وألف ونون — مدينة من جُنْدِ الأُرْدُنِّ من الإقليم الثالث . قال

فى "الأطوال" : طولهـا ثمـان وخمسون درجة، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولهـا سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضَها آثنتـان وثلاثون درجة وسبعٌ وعشرون دقيقة . وهى مدينــة صــغيرة بلا سُور، ذاتُ بساتينَ وأشجار وأنهار وأعين، كثيرةُ الخِصْبِ واسعة الرزق، ولهـا عين تَشقُّ المدينة، وهى علىٰ الجانب الغربىّ من الغَوْرِ .

قال فى "التعريف" : وهى مدينة الغَورِ وبها مقرّ الولاية . قال فى "مسالك الأبصار" : ولهـا قُلَيْعَةٌ من بناء الفِرنْج . قال فى "الروض المعطار" : ويقال إن طَالُوتَ قتل جَالُوتَ هنالك .

الثانى – (عمل بانِيَاس) – بباء موحدة وألف ونون وياء مثناة تحت وألف ثم سين مهملة – مدينة من جُنْدِ دِمَشْقَ واقعةٌ فى الإقليم الثالث . قال فى "تقويم البُلْدان": طولهـا ثمـان وخمسون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة . قال : وهى علىٰ مرحلة ونصف من دِمَشْقَ من جهة الغرب بمَيْلة إلىٰ الجنوب . قال فى "العزيزىّ": وهى فى لِحْف جبل الثلج ، وهو مطلٌّ عليها والثلج علىٰ رأســه كالعمامة لا يُعْدَمُ منه شتاءً ولا صــيفًا . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة الجَوْلان، وبها قلعة الصُّبَيْبَةِ (بضم الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الباء الموحدة وهاء فى الآخر) . قال فى "التعريف" : وهى من أجَلِّ القلاع وأمنعها .

الثالث – (عمل الشَّعْرَا) – بفتح الشين المعجمة وسكون العين المهملة وفتح الراء المهملة وبعــدها ألف – وهى عن بَانِيــاسَ المتقدّمة الذكر شرق بجنوب ، وطوله مابين بَانِيَاسَ إلىٰ جبل الثلج . قال فى "التعريف" : والولاية بها تكون تارة بقرية حان (بالحــاء المهملة) وتارة بقرية القُنَيْطِرَةِ تصــغير قنطرة ، ولم يتحرر لى طولها ، وعرضهما فلتعتبرا بمـا قاربهما من الأعمال .

الرابع — (عمل نَوىٰ) — بفتح النون والواو وألف في الآخر — وهي بلدة صغيرة، عن دِمَشْقَ في جهة الغرب إلىٰ الجنوب علىٰ نحو مرحلة ، وهي مدينةٌ قديمةٌ من أعمال دِمَشْقَ، بها قبر أيوبَ النبيِّ عليه السلام ، وإليها ينسب الشيخ مُحيي الدين النوويّ الشافعيّ رحمه الله، ولم يتحرّر لي طولها وعرضها فلتعتبر بما قاربها أيضا، وهي عن يمين الشَّعْرَا المتقدّم ذكرها شرق بجنوب أيضا .

الخامس — (عمل أَذْرَعَاتَ)(١) — بفتح الهمزة وسكون الذال المعجمة وفتح الراء والعين المهملتين وألف ثم تاء مثناة من فوق في الآخر — قال في "الروض المعطار": ويجوز فيها الصرف وعدمه . قال : والتاء في الحالين مكسورة . وقال الخليل بن أحمد : مَنْ كَسَرَ الألفَ لم يصرفْ، وهذا صريح في حكاية كسر الألف في أوّلها . ويقال لها يَذْرَعَاتُ بياء مثناة تحتُ بدل الألف — وهي مدينة من أعمال دِمَشْقَ من الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" : طولها ستون درجة ، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة — وهي مدينة البَثَنِيَّة ، وبينها وبين الصَّنَمين ثمانيةَ عشرَ ميلا . قال في "التعريف" : وبها ولاية الحاكم علىٰ مجموع الصَّفقة، وقد كان قديما بغيرها .

السادس — (عمل عَجْلُونَ) — بفتح العين وسكون الجيم وضم اللام وسكون الواو ونون في آخره — قلعة من جُنْد الأُرْدُنِّ في الإقليم الثالث، طولها ثمان وخمسون درجة وعشر دقائق ، وعرضها ثلاثون درجة وعشر دقائق . مبنيةٌ علىٰ جبل يعرف بجبل عَوْف المتقدّم ذكره في جبال الشام المشهورة تُشْرِف علىٰ الغَوْرِ . وهي محدثة البناء بناها عزُّ الدين أُسَامة بن منقذ : أحد أكابر أمراء السلطان صلاح الدين يوسفَ ابن أيوبَ في سنة ثمانين وخمسمائة . قال في "مسالك الأبصار": وكان مكانها [دير به]

(١) كذا في التقويم أيضا وفي المعجم [وكسر الراء] وفي القاموس [بكسر الراء وتفتح] .

راهب ٱسمه عَجْلُونُ فسميت به . قال فى "التعريف": وهو حِصْن جليل علىٰ صِغَرِه، وله حَصَانَةٌ ومَنَعَةٌ منيعة . ومدينة هذه القلعة البَاعُونة (بفتح الباء الموحدة وألف بعدها ثم عين مضمومة وواو ساكنة ونون مفتوحة وفى آخرها هاء) وهى علىٰ شوط فرس من عَجْلُونَ . قال فى "المسالك" : وكان مكانها دَيْرٌ أيضا به راهب ٱسمه بَاعُونَة فسميت المدينة به، وهما شرقىّ بَيْسَانَ المتقدّم ذكرها

السابع ـ (عمل البَلْقَاء). قال فى "الروض المعطار" : سميت بالبَلْقَاء بن سورية من بنى عَمَّان(١) بن لوط، وهو الذى بناها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى إحدىٰ كُوَرِ الشَّرَاة، وهى عن أَرِيحا فى جهة الشرق علىٰ مرحلة، ومدينة هذا العمل حُسْبَانُ (بضم الحاء وإسكان السين المهملتين وفتح الباء وبعدها ألف ونون) وهى بلدة صغيرة ولها واد وأشجارٌ وأرحيةٌ وبساتين وزروع .

قال فى "مسالك الأبصار" : ومن هذا العمل (الصَّلْتُ) ـ وهى بألف ولام لازمين فى أوّله وفتح الصاد المهملة المشدّدة وسكون اللام وبعدها تاء مثناة ـ بلدة لطيفة من جُنْدِ الأُرْدُنِّ فى جبل الغَوْرِ الشرقىّ فى جنوب عَجْلُونَ علىٰ مرحلة منها ، وبها قلعة بناها المعظم عيسىٰ بنُ العادل أبى بكر بن أيوب، وتحت القلعة عَيْنٌ واسعة يجرى ماؤها حتّى يدخل البلد، وهى بلدة عامرة آهلة ذات بساتين وفواكه . قلت : وكلامه فى "التعريف" قد يخالف كلامه فى "مسالك الأبصار" فى جعل الصَّلْت من عمل حُسْبَانَ، فإنه قال : وأوّلها من جهة القبلة البلقاء ومدينتها حُسْبَانُ، ثم الصَّلْتُ، ثم عَجْلُونُ، وعَجْلُونُ عمل مستقلٌّ كما تقدّم، ومقتضاه أن يكون الصَّلْتُ أيضا عملا مستقلا . وكذا رأيته فى "التذكرة الآمدية" نقلا عن شهاب الدين ٱبن الفارقىّ أحدِ كُتَّاب الإنشاء بِدمشقَ فى الدولة الناصرية ابن قلاوون، وأخبرنى بعضُ

(١) فى الأصل "عبيد" والتصحيح والضبط عن ياقوت فى معجم البلدان .

كُتَّاب الإنشاء أن المستقَرّ الصَّلْت فقط والبَلْقَاء مضافة إليها، وعليه يدل كلام القاضى تقىّ الدين بن ناظر الجيش فى " التثقيف " فإنه قال : وممن كُتِبَ إليه من الوُلاة بالممالك الشامية فى قديم الزمان ـ ولعله فى الأيام الشهيدية ـ والِى الصَّلْتِ والبَلْقَاء فيما نقل عن خط المرحوم نصر الدين بن النشائى كاتب الدست الشريف .

الثامن ـ (عمل صَرْخَد) ـ بفتح الصاد و إسكان الراء المهملتين وفتح الخاء المعجمة ودال مهملة فى آخره ـ بلدة صغيرة ذات بساتينَ وكُرُومٍ وليس بها ماء سوى مايجتمع من ماء المطر فى الصهاريج والبِرَك . قال ابن سعيد : وليس وراءَ عملِها من جهة الجنوب وإلى الشرق إلا البَرِّيَّةُ، ومنها تسلك طريق تُعْرَف بالرصيف إلى العراق يصل المسافرون منها إلى بغداد فى نحو عشرة أيام . قال فى " التعريف " : وبها قلعة وكان بها ملك من المماليك المعظمية . قال فى " مسالك الأبصار " : وهى محدَثة البناء بُدِئَتْ قبل نور الدين الشهيد بقليل، ولما وصلت عساكر هُولَاكُو ملِكُ التتار إلى الشأم هدموا شُرُفاتِها وبعض جُدْرانها فجدّدها الظاهر بيبرس، وهى على ذلك إلى الآن .

التاسع ـ (عمل بُصْرَى) ـ بضم الباء الموحدة وسكون الصاد المهملة وألف فى الآخر ـ هكذا هو مقيد بالشكل فى كتب اللغة والحديث والمسالك والممالك وجارٍ على الألسنة، ووقع فى " تقويم البُلْدان " (١) ضبطه بفتح أوّله فلا أدرى أهو سَبْقُ قلم أو غلط من النسخة أو أخذه من كلام غيره، وهى مدينة بحَوْرَان من أعمال دِمَشْقَ واقعةٌ فى الإقليم الثالث . قال فى " كتاب الأطوال " و" القانون " : طولها تسع وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة .

(١) الذى فى " تقويم البلدان " طبع باريس سنة ١٨٤٠ م ضبطه بضم الباء الموحدة كما هو المشهور، فلعل نسخة التقويم كانت كذلك فأصلحها المصحح ولم ينبه .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة حَوْرَانَ السفلىٰ، بل حَوْرَانُ كلهـا، بل الصفقة جميعها ؛ وكلامه فى "التعريف" يوافقه ، وهى مدينة أَزَلِيَّة مبنية بالحجارة السود، ولها قلعة ذات بناء مَتِين شبيهٍ ببناء قلعة دِمَشْقَ . قال فى "التعريف" : وكانت دار مُلك لبنى أيوب،وقد ثبت فى الصحيح من حديث الخَنْدق أنه (صلى الله عليه وسلم) . قال "ثم ضربتُ الضربةَ الثالثةَ فلاحَتْ لى مِنْها قُصُور بُصْرىٰ كأنها أَنْيابُ الكِلَابِ" وهى التى وجد النبي صلى الله عليه وسلم بها بَحِيرا الراهب وآمن به حين قدم تاجرا لخديجة بنت خُوَيْلِد قبل البِعْثة ، وقبر بَحِيرَا هناك مشهور يزار، وقد تقدم الكلام عليها فأغنىٰ عن إعادته هنا .

العـاشر ـ (عمل زُرَع) ـ بضم الزاى المعجمة وفتح الراء المهملة وعين مهملة فى الآخر ـ وهى بلدة من بلاد حَوْرَانَ لهـا عمـلٌ مسـتقلٌّ، ولم يتحرّر لى طولهـا وعرضها . قال فى "التعريف" : وقد يتصل عمل بُصْرىٰ بأذرعَاتٍ لوقوع زُرَع متشـاملة .

الصفقة الثـالثة

(الشمالية)

سميت بذلك لأنها عن شَمَال دِمَشْقَ . قال فى "مسالك الأبصـار" : وهى سـاحليَّة وجبليَّـة . قال فى "التعريف" : وحدّها من القبـلة حدّ ولاية دِمَشْقَ الشمالىّ وبعضُ الغربىّ ؛ وحدّها من الشرق قرية جُوسِـيَةَ التى بين القرية المعروفة بالقَصَب من عمل حمص وبين القرية المعروفة بالفِيجة من عمـل بَعْلَبَكَّ ؛ وحدّها من الشمال مرج الأَسَل المستقل عن قائم الهرمل حيث يمدّ العاصى بطَرَابُلُسَ، وكلما تشامل عن جبل لُبْنَانَ إلىٰ البحر؛ وحدّها من المغرب ما هو علىٰ سمت البحر منحدرا عن صور إلىٰ حدّ ولاية بَرِّدِمَشْقَ القبلىّ والغربىّ .

وتشتمل هذه الصفقة علىٰ خمسة أعمال .

الأوّل - (عمل بَعْلَبَكَّ) - بفتح الباء الموحدة وسكون العين المهملة وفتح اللام والبـاء الموحدة الثانية وفى آخرها كاف - هكذا ضـبطه فى " تقويم البُـلْدان " والجارى علىٰ ألسنة الناس فتح العين وإسكان اللام . قال فى " الروض المعطار " : وكان لأهلها صَنَمٌ يدعىٰ بَعْلًا ، فالبعل آسم للصنم ، وبَكّ آسم الموضع فسميت بعلبك لذلك . قال : وإليهم بُعِث النبىّ إلْيَاسُ عليه السلام ، وكأنه يشير بذلك إلىٰ ماقصه الله تعالىٰ فى سورة الصافّات بقوله : ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وكان فتحها فى سنة أربعَ عشرةَ من الهجرة ، وهى مدينة من أعمال دِمَشْقَ واقعةٌ فى الإقليم الرابع طولهـا ستون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهى مدينة شمالىّ دِمَشْقَ ، جليلة البناء ، نبيهة الشان ، قديمة البنيان ، يقال إنها من بناء سليمان عليه السلام . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مختصَرَة من دِمَشْقَ فى كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها ؛ بها المساجد والمدارس والرُّبُط والخوانق والزوايا والبيمارستان والأسواق الحسنة ، والمـاء جار فى ديارها وأسواقها ، وفيها يُعمل الدهان الفائق من الماعون وغيره ويحمل منها إلىٰ غالب البُلْدان مع كونها واسعةَ الرزق رخيصة السِّعْر ، وكانت دار مُلْك قديم ، ومن عُشِّها درج "نجم الدين أيوبُ" والد الملوك الأيوبية رحمه الله ، وبها قلعةٌ حصينةٌ جليلة المقدار من أجلِّ البنيان وأعظمه ، وهى مرجلة علىٰ وجه الأرض كقلعة دِمَشْقَ . قال فى " التعريف " : بل إنمـا بنيت قلعة دمَشْقَ علىٰ مثالهـا ، وهَيْهاتَ لا تعدّ من أمثالهـا ! وأين قلعـة دِمَشْقَ منها وحجارتُها تلك الجبال الثوابت ، وعمدها تلك الصخور النوابت .

قَدْ يَبْعُدُ الشَّيْءُ مِنْ شَيْءٍ يشابِهُهُ * إنَّ السَّماءَ نَظِيرُ المَـاءِ فى الزَّرَقِ

وبهذه القلعة من عمـارة مَنْ نزل بهـا من الملوك الأيوبية آثارٌ ملوكية جليلة ، ويستدير بالمدينة والقلعة جميعا سُورٌ عظيم البناء مبنيٌّ بالحجارة العظيمة المقدار الشديدة الصَّلابة ، ويَحُف بذلك غُوطة عظيمة أنِيقَةٌ ذات بساتين مشتبكةِ الأشجار بها الثمار الفائقة ، والفواكه المختلفة . وبظاهرها عين ماء متسعة الدائر ماؤها فى غاية الصفاء بين مروج وبساتين ، يمتدّ منها نهر يتكسَّر على الحصباء فى خلال تلك المروج إلى أن يدخل المدينة ، وينقسِمَ فى بيوتها وجهاتها . وعلى البعد منها عَيْنٌ أخرى تُعرَف بعين اللحوج (؟) فى طَرَف بساتينها ، منها فرع إلى الجانب الشمالىّ من المدينة ، ويصب فى قناة هناك ويدخل منه إلى القلعة ، وبخارجها جبل لُبْنَانَ المعروف بعُشِّ الأولياء .

الثـانى — (عَمَلُ البِقَاعِ البَعْلَبَكِّىّ) — بوصف البِقَاع — بكسر البـاء الموحدة وفتح القاف وبعدها ألف ثم عين مهملة — بالبعلبكىّ ، نسبة إلى بعلبك لقربه منها . قال فى " التعريف " : وليس له مقر ولاية .

الثـالث — (عمل البِقاعِ العزيزىّ) — بوصف البقاع بالعزيزىّ نسبة إلى العزيز عكس الذليل ، وكأنه نسـبة إلى الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله . قال فى " التعريف " : ومَقَرُّ الولاية به كَرَكُ نوح عليه السلام . قال : وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بَعْلَبَـكَّ ، وهمـا مجموعتان لوالٍ جليل مفرد بذاته .

الرابع — (عمل بَيْرُوتَ) — بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وضم الراء المهملة وواو وتاء مثناة من فوق فى آخرها — وهى مدينة من الإقليم الثالث بساحل دِمَشْقَ . قال فى " كتاب الأطوال " : طولها ثمان وخمسون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وعَرْضها ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . وهى مدينة جليـلة على ضَفَّةِ البحر الرومىّ ، عليها سُوران من حجـارة ، وفيه كان ينزل الأوزاعىّ الفقيه

المشهور، وبها جبل فيه مَعْدِن حديد، ولها غيضة من أشجار الصَّنَوْبر سعتها آثنا عشر مِيلاً فى التكسير، تتصل إلىٰ تحت لُبْنَانَ المقدّم ذكره . قال فى "تقويم البُلْدان" : وشرب أهلها من قناة تجرى إليها . وقال فى "مسالك الأبصار" : شرب أهلها من الآبار . قال آبن سعيد : وهى فُرْضة دِمَشْق ولها مينا جليلة ، وفى شماليها علىٰ الساحل مدينة جُبَيْلٍ تصغير جبل . قال فى "الروض المعطار" : بينهما ثمانية عشر ميلا . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين بَعْلَبَكَّ علىٰ عَقَبة المُغيثة ستة وثلاثون ميلا .

الخامس – (عمل صَيْدَا) – بفتح الصاد المهملة وسكون المثناة تحت وفتح الدال المهملة وألف مقصورة فى الآخر – وهى مدينة بساحل البحر الرومى، واقعة فى الإقليم الثالث، ذاتُ حِصْنٍ حصين. قال آبن القَطَامى سميت بصَيْدُون بن صدقا بن كَنْعان آبن حام بن نوح عليه السلام، وهو أوّل من عَمَرها وسكنها . وقال فى "الروض المعطار" : سميت بآمرأة . وشُرْب أهلها من ماء يجرى إليهم من قناة . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين دِمَشْق ستة وثلاثون مِيلًا . قال فى "مسالك الأبصار" : وكُورَتُها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار . قال فى "الروض المعطار" : وبها سَمَك صغار له أَيْدٍ وأرجل صغار إذا جُفِّفَ وسُحِق وشرب بالماء، أنعظ إنعاظا شديدا . قال فى "المسالك" : وهى ولاية جليلة واسعة العمل ممتدّة القُرىٰ، تشتمل علىٰ نيف وستمائة ضيعة .

الصفقة الرابعـــــة

(الشرقية؛ وهى على ضربيـــن)

الضرب الأوّل

(ماهو داخل فى حدود الشام، وهو غربىّ الفُرات)

قال فى "التعريف" : وحدّها من القبلة قرية القَصَب المجاورة لقرية جُوسِـيَةَ المقدّم ذكرها، آخذا على النَّبْك إلى القَرْيتين ؛ وحدّها من الشرق السَّماوة إلى الفُرات وينتهى إلى مدينة سَلَمْيَة إلى الرَّسْتَنِ ؛ وحدّها من الغرب نهر الأُرُنْط وهو العاصى، وتشتمل على خمسة أعمال أيضا .

الأوّل — (عمل حِمْص) — بكسر الحاء المهملة وسكون الميم وصاد مهملة فى الآخر. قال فى "الروض المعطار" : ولا يجوز فيها الصرف كما يجوز فى هِنْدٍ لأن هـذا آسم أعجمىّ . قال : وسميت برجل من العماليق آسمه حِمْص هو أوّل من بنـاها . قال الزجاجىّ : هو حمص بن المَهْر بن حاف(١) بن مكنف، وقيل برجل من عاملةَ هو أوّل مَنْ نزلهـا، وآسمها القديم سُورِيَا (بسين مهملة مضمومة وواو ساكنة وراء مهملة مكسورة وياء مثنـاة تحت مفتوحة وألف فى الآخر) . وبه كانت تسـميها الروم، وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولها إحدى وستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة ، وهى مدينة جليلة، وقاعدة من قواعد الشام العظام . قال فى "التعريف" : وكانت دارَ مُلْك للبيت الأسَدِىّ يعنى أسدَ الدين شيركوه عمّ السلطان صلاح الدين يوسف آبن أيوبَ . قال : ولم يزل لِمَلِكها فى الدولة الأيوبية سطوةٌ تُخَاف وبأس يخشى، وهى فى وَطَاءة من الأرض ممتدّة على القرب من النهر العاصى، ومنه شرب أهلها، ولها منه

(١) كذا فى الضوء أيضا وفى "معجم البلدان" آبن جان .

ماء مرفوعٌ يجرى إلىٰ دار النيابة بها وبعض مواضع بها. قال فى "مسالك الأبصار": وبها القلعة المصفحة وليست بالمنيعة، ويحيط بها وبالبلد سُورٌ حصين هو أمنع من القلعة. قال فى "العزيزى": وهى من أصحّ بلاد الشام هواءً، وبوسطها بُحَيرةٌ صافية الماء، ينقل السمك إليها من الفرات حتّى يتولد فيها، والطير مبثوث فى نواحيها. قال ٱبن حَوْقَل: وليس بها عقارب ولا حيّات. وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خواصّ الشام وعجائبها أن بها قبّةً بالقرب من جامعها إذا ألصق بها طين من طينها وترك حتّى يسقط بنفسه ووضع فى بيت أو ثياب لم يقربها عقربٌ. وإن ذُرّ منه علىٰ العقرب شىء أخذه مثل السُّكْر وربما قتله؛ ولها من برّ بعلبكّ أنواع الفواكه وغيرها؛ وقُمَاشها يقارب قماش الإسْكَنْدَرِيَّة فى الجَوْدَة والحُسْن، وإن لم يبلغ شأوه فى ذلك. قال فى "الروض المعطار": ويقال إن بقراط الحكيم منها. وإن أهلها أوّل من ٱبتدع الحساب؛ وبها قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه، ومقامه مشهور بها يزار.

الثانى — (عمل مِصْيَاف) بكسر الميم وسكون الصاد — وهى بلدة جليلة، ولها قلعة حصينة فى لِحْف جبل اللُّكَامِ الشرقىّ عن حماةَ وطَرَابُلُس، فى جهة الشّمال عن بَارِينَ علىٰ مسافة فرسخ، وفى جهة الغرب عن حماةَ علىٰ مسيرة يوم، وبها أنهر صغار من أعينُ، وبها البساتين والأشجار. وهى قاعدة قلاع الدعوة الآتى ذكرها فى أعمال طرابُلُس ودارُ ملكها، وكانت أوّلا مضافةً إلىٰ طَرَابُلُس ثم أُفْرِدت عنها وأضيفت إلىٰ دِمَشْق.

الثالث — (عَمَلُ قَارَا) — بقاف مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة وألف ثانية. هكذا هو مكتوب فى "التعريف" وغيره وهو الجارى علىٰ الألسنة. ورأيتها مكتوبة فى "تقويم البُلْدان" بهاء فى الآخر بدل الألف الأخيرة. وهى قرية كبيرة قبلىَّ حِمْص، بينها وبين دِمَشْق علىٰ نحو منتَصَف الطريق، تنزلها قوافل السفارة، وبينها وبين حِمْص مرحلةٌ ونصف، وبينها وبين دِمَشْق مرحلتان، وغالب أهلها نصارىٰ.

الرابع – (عمل سَلَمِيَّة) – بفتح السين المهملة واللام وكسر الميم (١) وياء مثناة تحت مشدّدة مفتوحة وهاء فى الآخر – وهى بلدة من عمل حمص من الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" : طولها إحدى وستون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن يكون العرض أربعا وثلاثين ونصفا . قال أحمد الكاتب : بناها عبد الله بن صالح بن علىّ بن عبد الله ابن عبّاس بن عبد المطّلب وأسكن بها ولده . وهى بلدة على طرف البادية نَزِهَةٌ خِصْبة كثيرة المياه والشجر، ومياهها من قُنِيّ . قال فى "الروض المعطار" : وبينها وبين حِمْص مرحلةٌ .

الخامس – (عمل تَدْمُر) – بفتح التاء المثناة فوق وسكون الدال المهملة وضم الميم وراء مهملة فى الآخر – كذا ضبطه السمعانىّ فى "الأنساب" : والجارى على ألسنة الناس ضم أوّلها . قال فى "التعريف" : وهى بين القَرْيَتَيْنِ والرَّحْبة، وهى معدودة من جزيرة العرب واقعةٌ فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : طُولها آثنتان وستون درجة ، وعَرْضها أربع وثلاثون درجة . قال صاحب حماة : وهى من أعمال حِمْص من شرقيها ، وغالب أرضها سِبَاخ؛ وبها نخيل وزيتون؛ وبها آثار عظيمة أزَلِيَّة من الأعمدة والصخور، ولها سورٌ وقلعة .

قال فى "الروض المعطار" : وهى فى الأصل مدينة قديمة بنتها الجنّ لسليمان عليه السلام، ولها حصون لاتُرام . قال : وسميت تَدْمُر بتدمُرَ بنت حَسَّان ابن أُذَينة، وفيها قبرها . وإنما سكنها سليمان عليه السلام بعدها . قال فى "العزيزىّ" : وبينها وبين دِمَشْق تسعة وخمسون ميلا ، وبينها وبين الرَّحْبة مائة مِيلٍ ومِيلان . قال صاحب حماة : وهى عن حِمْص على ثلاث مراحل .

(١) فى القاموس وياقوت "وسكون الميم" أى وتخفيف الياء

الضرب الثانى

(من هذه الصفقة ماهو من بلاد الجزيرة، بين الفُرات والدجلة على القرب من الفرات)

وهو مدينة الرَّحَبَةِ . قال فى "اللُّبابِ" : بفتح الراء والحاء[1] المهملتين والباء الموحدة وهاء فى الآخر ــ وهى مدينة على الفُرَاتِ بين الرَّقّةِ وعَانَةَ، واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولها أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعَرْضها ستٌّ وثلاثون درجة، وتعرف برَحْبة مالك بن طَوْق ، وهو قائدٌ من قوّاد هارون الرشيد، قيل إنه أوّل من عَمَرها فنسبت إليه . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وقد خَرِبت الرَّحْبة المذكورة وصارت قرية، وبها آثار المدينة من المآذن الشواهق وغيرها، وآستحدث شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادى صاحب حِمْص من جنوبيها الرحبةَ الجديدَة على نحو فَرْسخ من الفُرَاتِ ، وهى بلدة صغيرة ولها قلعة على تلٍّ تراب، وشرب أهلِها من قناة من نهر سعيدٍ، الخارج من الفرات . قال : وهى اليوم محطُّ القوافل من الفُرَاتِ والشام، وهى أحد الثغور الإسلامية فى زماننا .

قال فى "التعريف" : وبها قلعة نيابةٍ، وفيها بحرية وخَيَّالة وكَشَّافة وطوائفُ من المستخدمين ، ولم تزل إمرتها طبلخاناه، بمرسومٍ شريف من الأبواب الشريفة من الأيام الناصرية آبن قلاوون إلى الآن .

تنبيه ــ قال فى "التعريف" : ومما أُضيف إلى دِمَشْقَ فى زمن سلطاننا يعنى النـاصرَ بن قلاوون بلادُ جَعْبَرَ . قال : وحقها أن تكون مع حَلَبَ ، وهى مستمرّة على ذلك إلى زماننا ، وسيأتى الكلام عليها فى الأعمـال الحلبية إن شاء الله تعالى .

---

(١) كذا فى التقويم أيضا وضبطها فى المعجم بإسكان الحاء وهو مقتضى اطلاق القاموس .

وقد ذكر القاضى تقىّ الدين بن ناظر الجيش فى كتابه "التثقيف" : أنه كان قد آستقرّ بتَدْمُرَ وسَلَمِيّة والسُّخْنَة والقَرْيتَيْنِ نوّابٌ، وآستقرّ الحال على أن مكاتبة كل منهم إن كان مقدّما نظيرُ النائب بالرَّحْبَة، يعنى "صدرت" و"العالى" وإن كان طبلخاناه فالآسم "والسامى" بالياء .

القاعدة الثـانيـــة

(من قواعد البلاد الشامية حَلَبُ، وفيها جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى حاضرتهـا)

قال فى "اللُّبَـابِ" : هى بفتح الحاء المهـملة واللام وباء موحدة فى الآخر — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : وطولهـا آثنتان وستون درجة وعشرُ دقائق، وعَرْضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

وآختلف فى سبب تسميتها حَلَبَ على قولين حكاهما صاحب "الروض المعطار" : أحدهما أنه كان مكان قلعتها رَبْوة، وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يأوِى إليها ويَحْلُب غَنَمَه ويتصدّق بلبنها فسميت حَلَبَ بذلك . الثـانى أنها سميت برجل من العماليق آسمه حَلَب . قال الزجاجىّ : حَلَبُ بن المَهْر من ولد جان[1] بن مكنّف .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة عظيمة من قواعد الشام القديمة ؛ وهى فى وطاءة حمراء ممتدّة، مبنيةٌ بالحجر الأصفر الذى ليس له نظير فى الآفاق ؛ وبها المساكن الفائقة، والمنازل الأنيقة، والأسواق الواسعة، والقَيَاسر الحَسَنة، والحمامات البهجة . ذات جوامعَ ومساجدَ ومدارسَ وخوانقَ وزوَايَا وغير ذلك من سـائر وجوه البر،

(١) فى الأصل "خان" وفى الضوء "حاف" والتصحيح من ياقوت .

وبها بيمارستان حَسَنٌ لعلاج المرضى . قال فى "مسالك الأبصار" : ولها نهران : أحدهما يعرف بنهر قُوَيْق ، وهو نهرها القديم . والثانى يعرف بنهر الساجُور ، وهو نهر مستحدَث ، ساقه إليها السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" فى سلطنته وحكمه عليها .

وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة : أن الملك الظاهر غازى بن العادل "أبى بكر بن أيوب" ساق إليها نهرا فى سنة خمس وستمائة ، ولعله نهر قُوَيق المذكور. قال فى "مسالك الأبصار" : ويجرى إلى داخلها فرع ماء يتشعَّب فى دُورِها ومساكنها ولكنه لا يَبُلُّ صَدَاها ولا يَشْفى غُلَّتها ، وبها الصهاريج المملوءة من ماء المطر ، ومنها شُرْبُ أهلها ، ويدخل إليها الثلج من بلادها ، وليس لأهلها إليه كثير ٱلتفات لبرد هوائهم وقربِ ٱعتدال صيفهم وشتائهم ؛ وبها الفواكه الكثيرة وأكثرها مجلوب إليها من نواحيها لقِلَّة البساتين بها ؛ وبظاهرها المُرُوج الفِيحُ والبَرّ الممتدّ حاضرة وبادية ؛ وبها عسكر كثيف وأمم من طوائف العرب والأكراد والتُّرْكُمان .

قال فى "اللبـاب" : وكان الجُنْدُ فى ٱبتداء الإسلام ينزلون قِنَّسرِينَ ، وهى المدينة التى تُنْسَب الكورة إليها على ماتقدّم ذكره ولم يكن لحَلَب معها ذكر .

قال ٱبن سعيد : ثم ضَعُفَت بقوّة حلب عليها ، وهى الآن قرية صغيرة .

قال فى "مسالك الأبصار" : وكانت حَلَبُ قد عظُمت فى أيام بنى حَمْدَان ، وتاهت بهم شرفًا على كِيوان . جاءت الدولة الأتابكية فزادت فَخَارا ، وٱتخذت لها من بروج السماء منْطَقَةً وأُسوارا ؛ ولم تزل على هذا يُشَارُ إليها بالتعظيم ، ويأبى أهلها فى الفضل عليها لدِمَشْقَ التسليم ؛ حتّى نزل هُولاكُو بحوافرخيله فهُدِمت أسوارها وخربت حواضرها ، ولم تزل خالية من الأسوار ، عَرِيَّةً من الأبواب ، إلى أن كانت فتنة مِنْطاش فى سلطنة الظاهر بَرْقوق والنائب بها من قِبَلِه الأمير كمشبغا ، فجدّد أسوارها ، ورتب أبوابها ، وهى

سبعة أبواب: باب قِنَّسْرِينَ من القبلة، وباب المقام من القِبْلة أيضا، وباب النَّيْرَب من الشرق، وباب الأربعين من الشرق أيضا، وباب النصر من بحريِّهـا، وباب الجِنَان من غربيها، وباب أنْطَاكِيَة من غربيها أيضا؛ وهى الآن فى غاية ما يكون من العمارة وحُسْن الرونق والبهجة؛ ولعلها قد فاقت أيام بنى حَمْـدان؛ ولم يزل نائبها من أكابر الأمراء المقدّمين من الدولة الناصرية فما قبلها إلىٰ الآن، وقد زادت رتبتُه عما كان عليه فى الأيام الناصرية؛ وهى ثانية دِمَشْقَ فى الرتبة؛ ومعاملاتُها علىٰ ماتقدّم فى دِمَشْقَ من الدراهم والدنانير والفُلُوس وصنجة الذهب والفضة . غير أن الفلوس الجُدُد لم تَرُجْ بها بعدُ، ورِطْلُها سبعمائة وعشرون درهما بالصَّنْجة الشامية،(١) كلُّ أوقية ستون درهمـا، ومعاملاتها معتـبرة بالمَكُّوك، ولا تعرف فيها الغِرارة، ولا فى شىء من أعمالهـا؛ وتختلف بلادها فى المَكُّوك آختلافا متباينا فى الزيادة والنقص . قال فى "مسالك الأبصار": والمعدَّل فيها أن يكون كل مكُّوكين ونصف غرارة ومابين ذلك وكل ذلك تقريبا .

قلت: وأخبرنى بعض أهلها أن المكُّوك بنفس مدينة حَلَبَ معتبر بسبع وَيْبات بالكيل المصرى، والذراع القماش ذراعٌ وسدسٌ بذراع القماش القاهرى، ويزيد علىٰ ذراع دمشق بقيراطين، وقياس دُورِ أرضها بذراع العَمَل المعروف بالديار المصرية .

الجملة الثـانية
(فى نواحيهـا وأعمالهـا)

قال فى "مسالك الأبصار": هى أوسع الشام بلادا، متصلةٌ ببلاد سِيسَ والرُّومِ وديار بكر وبَرِّيَّة العِراق . قال فى "التعريف": ويحدّها من القبلة المَعَرّة وما وقع

(١) وأواقيه آثنتا عشرة أوقية [كما سيأتى له فى حلب فى موضع آخر] .

علىٰ سَمْتها إلىٰ الدِّمْنة الخراب والسلسلة الرومية ومجرىٰ القناة القديمة الواقع ذلك بين الحِيَارِ (يعنى بكسر الحاء المهملة والياء المثناة تحت وألف وراء مهملة) والقرية المعروفة بقُبَّةِ ملاعب ، ويحدّها من الشرق [البر] حيث يحدّ بَرَدىٰ آخذا علىٰ جبل الثلج ، ثم الجَلَّاب علىٰ أطراف بَالِس إلىٰ الفُرَاتِ دائرة بحدّها . قال : وبهذا التقسيم تكون بلاد جَعْبَر داخلة فى حدودها ، ويحدّها من الشَّمال بلاد الروم مما وراء بَهَسْنىٰ وبلاد الأرمن علىٰ البحر الشامىّ :

ثم أعمالها علىٰ ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل

(ما هو داخل فى حدود بلاد الممالك الشامية ، ولها بَرٌّ وأعمال)

فأما بَرُّها فهو ضواحيها علىٰ ما تقدّم فى دِمَشْقَ ، وهو كالعمل المنفرد بنفسه .

وأما أعمالها ، فقد ذكر المَقَرُّ الشهابىّ بن فضل الله فى كتابيه "التعريف" و"مسالك الأبصار" بها ستَّةَ(١) عشر عملا علىٰ أكثرها(٢) ، وربما آنفرد أحد الكتابين عن الآخر بالبعض دون البعض .

الأوّل — (عمل قلعة المسلمين) — المسماة فى القديم بقلعة الروم وهى قلعةٌ من جُنْدِ قِنَّسْرِينَ فى البرِّ الغربىّ الجنوبىّ من الفُرَاتِ ، فى جهة الغرب الشمالىّ عن حَلَبَ علىٰ نحو خمس مراحل منها ، وفى الغرب عن البِيرَةِ علىٰ نحو مرحلة ، والفراتُ بذيلها . وموقعها فى الإقليم الرابع . قال بعض أصحاب الأزياج : وطولها آثنتان وستون درجة وعشرون دقيقة ، وعَرْضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى من القِلاع الحصينة التى لا تُرَام ولا تُدْرَك ، ولها رَبَض وبساتين ، ويمرُّ بها نهر يعرف بمَرْزُبانَ يصب فى الفُرَاتِ . قال فى "التعريف" : وكان بها خليفة الأَرْمَنِ

(١) المعدود ستة وعشرون وفى الضوء "سبعة وعشرون" . (٢) لعله آتفقا علىٰ أكثرها .

ولا يزال بها طاغوت الكُفْر، فقصدها الملك الأشرف خليـل بن المنصور قلاوون فنزل عليها، ولم يزل بها حتّى فتحها، وسمـاها قلعـةَ المسلمين . قال : وهى من جلائل القِلَاع .

الثانى ــ (عمل الكَخْتَا) ــ بفتح الكاف وسكون الخاء المعجمة وفتح التاء المثناة فوق ثم ألف فى الآخر، والألف واللام فيه غير لازمتين ــ وهى قلعة فى أقاصى الشأم من جهة الشَّمال بشرق من حَلَبَ، على نحو خمس مراحل منها؛ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال بعض أصحاب الأزياج : طولها إحدى وستون درجة وعشر دقائق ، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى قلعة عالية البناء لا تُرام حصانةً، ولها بساتين ونهر، ومَلَطْيَـةُ عنها فى جهة الغرب على مسيرة يومين ؛ وكَرْكَر منها فى جهة الشرق، وكانت أحدَ ثغور الإسلام فى وجوه التتار عند قيامهم . قال فى "التعريف": وهى ذات عمل متسع، وعسكر تطوّع مجتمع .

الثالث ــ (عمل كَرْكَر) بفتح الكاف وسكون الراء المهملة ثم كاف مفتوحة ثانية بعدها راء مهملة ثانية أيضا ــ وهى قلعة من أقاصى الشأم فى الشَّمال عن حَلَبَ على نحو خمس مراحل أيضـا، وفى الغرب من الكَخْتَا المتقدّمة الذكر على نحو يوم منها ؛ وموقِعُها فى الإقليم الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولهـا إحدى وستون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قلعـة حصينة شاهقـة فى الهواء يُرَى الفرات منها كالجدول الصغير، وهو منها فى جهة الشرق ؛ وكانت من أعظم الثغور فى زمان التَّتَار .

الرابع ــ (عمل بَهَسْنَى) ــ بفتح الباء الموحدة والهاء وسكون السين المهملة ثم نون وألف ــ وهى قلعة فى شمالىّ حَلَبَ على نحو أربع مراحلَ منها ، وموقعها فى الإقليم

الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولها إحدى وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعَرْضها ثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قلعة حصينة مرتفعة لا تُرام حصانةً ، بها بساتينُ ونهر صغير وأسواق ورُسْتاق متسع ، وبها مسجد جامع . ثم قال : وهى بلدة واسعة ، كثيرة الخير والخِصْب ، وهى فى الغرب والشَّمال عن عَيْنَتاب ، وبينهما نحو مسيرة يومين ، وبينها وبين سِيسَ نحو ستة أيام . قال فى "التعريف" : وهى الثغر المُتاخِم لبلاد الدُّرُوب ، والمشتعل فى جمرة الحروب ؛ وبها عسكر من التُّرْكُمَانِ والأكراد . ولا يزال لهم آثار فى الجهاد . قال : ولنائبها مكانة جليلة ، وإن كان لا يلتحق بنائب الْبِيرَةِ .

الخامس ـ (عمل عَيْنَتابَ) ـ بفتح العين وسكون الياء المثناة تحت والنون وفتح التاء المثناة فوق ثم ألف وباء موحدة ـ وهى مدينة من جُنْد قِنَّسرِينَ شمالىَّ حَلَبَ علىٰ نحو مرحلتين منها ؛ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولها آثنتان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعَرْضها ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى مدينة حسنة ، واسعة الأرجاء ، كثيرة المياه والبساتين ، ذات أسواق جليلة مقصودة للتجار والمسافرين ؛ وبها قلعة حصينة منقوبة فى الصخر . وهى عن حَلَبَ فى الشَّمال علىٰ نحو ثلاث مراحل منها ، وعن قلعة الرُّوم فى الجَنُوب علىٰ نحو ثلاث مراحل أيضا ، وعن بَهَسْنىٰ فى جهة الشرق والجنوب علىٰ نحو ثلاث مراحل .

السادس ـ (عمل الرَّاوَنْدَانِ) ـ بألف ولام لازمتين وراء مهملة بعدها ألف ثم واومفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة ثم ألف ونون ـ وهى قلعة من جُنْد قِنَّسرِينَ واقعة فى الإقليم الرابع طولها آثنتان وستون درجة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . وهى قلعة حصينة علىٰ جبل مرتفع أبيض ، ذاتُ أعينٍ وبساتين وفواكه ، وواد

حسن ؛ ونهرها من تحتها نهر عِفْرِين المتقــدّم ذكره آخذا من الشّمال إلىٰ الجنوب، وهى فى الغرب والشّمال عن حلب، وبينهما نحو مرحلتين، وفى الشمال عن حارِم .

السابع — (عمل الدَّرْبَسَاكِ) — بفتح الدال المهملة وسكون الراء المهملة وفتح الباء الموحدة والسين المهملة ثم ألف وكاف، والألف واللام فيه غير لازمتين — وهى قلعة من جُنْد قِنَّسْرِينَ واقعةٌ فى الإقليم الرابع شمالىّ حلبَ علىٰ نحو ثلاث مراحل أو أربع منها . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن يكون طولها إحدىٰ وستين درجة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . وهى قلعة حصينة ذات أعين وبساتين، وبها مسجد جامع ، ولهــا من شرقيِّها مُرُوج متسعة، حسنة المَنْظَر، كثيرة العُشْب، يمرّ بها النهر الأسود المتقدّم ذكره .

الثامن — (عمل بَغْرَاسَ) — بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وراء مهملة وألف ثم سين مهملة — كذا ضبطه السمعانىّ فى "الأنساب" ووقع فى "التعريف" و"مســالك الأبصار" بالصاد المهــملة بدل الســين . والجارى علىٰ أَلْسِنَة الناس ضم أوّله ؛ وهى قلعةٌ من جُنْد قِنَّسْرِينَ، واقعةٌ فى الإقليم الرابع شمالىّ حَلَبَ علىٰ نحو أربع مراحل منها . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولهــا ستون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وثلاث وخمسون دقيقة ، وهى فى الجبل المطلّ علىٰ عَمْقِ حارِم . قال ابــن حوقل : وكان بها دار ضيافة لزُبَيْــدَةَ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى ذات أعيُن وبساتين وأشجار، وبينهــا وبين الدَّرْبَسَاكِ نحو بعض مرحلة ، وهى فى جهــة الجنوب عن الدَّرْبَسَاكِ . قال فى "العزيزىّ" : وبينها وبين أنطَاكِيَةَ اثنا عشر ميلا ، وبينها وبين إِسْكَنْدَرُونَةَ كذلك، وبينها وبيــن حارِمٍ نحو مرحلتين . وبَغْرَاسُ فى الجنوب عن دَرْبَسَاكَ وبينهما بعض مرحلة، وحارمٌ فى جهة الشرق عنها . قال فى "التعريف" : وكانت

هى الثَّغْرَ فى بحر الأَرْمَنِ حتّى ٱستضيفت الفتوحات الجاهانية . قال : وبها رُصَصُ وهى عضو من أعضائها وجزء من أجزائها . ورُصَصُ المذكورة براء مهملة مضمومة وصادين مهملتين الصاد الأولىٰ مفتوحة ، وهى بلدة علىٰ الساحل ، وقد مر ذكرها فى الكلام علىٰ بحر الروم علىٰ سواحل الأرمن .

التاسع — (عمل القُصَيْرِ) تصغير قصر . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى قلعة غربىّ حَلَبَ علىٰ نحو أربع مراحل منها . قال فى "التعريف" : وهى لأنْطَاكِيَةَ ولم يتحرّر لى طُولها وعَرْضها .

العاشر — (عمل الشُّغْرِ وبَكَاسَ) — ٱسمان لقلعتين بينهما رَمْيَةُ سَهْم .

فالشُّغْرُ — بضم الشين وسكون الغين المعجمتين ثم راء مهملة .

وبَكَاسُ — بفتح الباء الموحدة والكاف ثم ألف وسين مهملة فى الآخر . وهما من جُنْد قِنَّسْرِينَ ، وموقعهما فى الإقليم الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولهما إحدىٰ وستون درجة ، وعرضهما خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وهما مبنيان علىٰ جبلٍ مستطيل ، وتحتهما نهر يجرى ، وبهما بساتين وأشجار وفواكه كثيرة ، ولهما رُسْتاق ومسجد جامع . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهما فى الجنوب عن أَنْطَاكِيَةَ وبينهما الجبال .

الحادى عشر — (عمل شَيْزَر) — بفتح الشين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الزاى المعجمة وفى آخرها راء مهملة . وهى مدينة من جُنْد حِمْصَ غربىّ حَلَبَ علىٰ نحو ثلاث مراحل منها ، واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها إحدىٰ وستون درجةً وعشر دقائق ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى مدينة ذات أشجار وبساتينَ وفواكهَ كثيرة وأكثرها الرّمّان ، ولها ذكر فى شعر ٱمرئ القيس مع حَماةَ . قال "فى العزيزى" : وبينها وبين حماة

تسعة أميال ، و بينها وبين حِمْص ثلاثة وثلاثون ميلا ، و بينها و بين أَنْطاكِيَةَ ستة وثلاثون ميلا .

الثانى عشر ـ (عمل حَجَرِ شُغْلَانَ) بلفظ حَجَر واحد الحجارة و إضافته إلىٰ شُغْلَانَ (بضم الشين وسكون الغين المعجمتين ثم لام ألف ونون). وهى قلعة شمالىَّ حَلَبَ علىٰ نحو ثلاث مراحل منها. قال فى "مسالك الأبصار": وهى بالقُرْب من بَغْرَاسَ فى جهة الشَّمال علىٰ مسافة قريبة جدّا ، ولم يتحرّر لى طُولها وعَرْضها ولكنها تعتبر ببَغْرَاسَ المتقدّمة الذكر لقربها منها ـ وهى الآن خراب .

الثالث عشر ـ (عمل قلعة أَبِى قُبَيْسٍ) ـ بهمزة مفتوحة و باء موحدة مكسورة بعدهما ياء ساكنة ثم قاف مضمومة و باء موحدة مفتوحة و ياء مثناة تحتُ ساكنة ثم سين مهملة فى الآخر ـ وهى قلعة حصينة غربىّ حَلَبَ مما يلى الساحل ، علىٰ نحو ثلاث مراحل قصيرة من حَلَبَ ، كذا أخبرنى به بعض أهل البلاد ، ولم يتحرّر لى طولها وعرضها ، وسيأتى فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة أنها آستقرّت ولايةً ، وربما أُضِيفت إلىٰ غيرها .

الرابع عشر ـ (عمل قلعة حَارِم) ـ بحاء مهملة مفتوحة وألف ثم راء مهملة مكسورة وميم فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان": والقياس أن طولها ستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى قلعة حصينة فى جهة الغَرْب من حَلَبَ علىٰ نحو مرحلتين منها ، ذاتُ بساتين وأشجار ، وبها نهر صغير وبينها وبين أَنْطَاكِيَةَ مرحلة ، ورَبَضها بلد صغير . قال آبن سعيد : وقد خُصَّتْ بالرُّمّان الذى يُرىٰ باطنه من ظاهره مع عدم العَجَم وكثرة الماء .

الخامس عشر ـ (عمل كَفْرِطَابَ) ـ بفتح الكاف وسكون الفاء وراء مهملة ثم طاء مهملة بعدها ألف و باء موحدة ـ علىٰ إضافة كَفْرٍ إلىٰ طَابَ . هذا هو الجارى علىٰ

الألسـنة وهو الصواب ، وأصـله من الكَفْر بمعنىٰ التغطية ، والمراد مكان الزرع والحَرْث لتغطية الحَبّ بالزراعة كما فى قوله تعالىٰ: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ يريد الزُّرّاع ، ووقع فى كلام صاحب حماة بفتح الفـاء(١) وهو وَهَمٌ .

وظاهر كلام صاحب "الروض المعطار" أن طَابَ فى معنىٰ الصـفة لكَفْرٍ فإنه قال : وسمى بذلك لأن حوله أرض كريمة. قال : وأرضه صحيحة الهواء ومَنْ سَكَنَهَا لايكاد يَمْرَضُ، وقيـل إنه منسوب إلىٰ رجل ٱسمه طـاب ــ وهى بلدة صغيرة من جُنْد حِمْص غربىّ حَلَب ، علىٰ نحو ثلاث مراحل منها، واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "كتاب الأطوال" : طولها إحدىٰ وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولهـا إحدىٰ وسـتون درجة وخمسَ عشرةَ دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة ــ وهى علىٰ الطريق بين المَعَرَّة وشَـيْزَرَ . قال فى "العزيزى" : و بينها و بين المَعَرَّة وشَيْزَرَ ٱثنا عشر ميلا .

السادس عشر ــ (عمل فامِيَة) ــ بفتح الفاء وألف بعدها ثم ميم مكسورة و ياء مثناة تحتُ وهاء فى الآخر . قال فى "المشترك" : ويقال لهـا أَفَامِيَة بهمزة فى أوّلها يعنى مفتوحة . وهى مدينة من أعمال شَيْزَرَ، غربىّ حَلَب ، علىٰ نحو أربع مراحل منها واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقيـاس أن طولهـا إحدىٰ وستون درجة وثلاث دقائق ،وعرضها خمس وثلاثون درجة . قال فى "العزيزى" : وكُورَةُ فَامِيَةَ لها مدينة كانت عظيمة قديمة، علىٰ نشز من الأرض، ولهـا بُحَيرة حلوة يشقُّها النهر المقلوب .

(١) وكذا فى "معجم البلدان" بضبط القلم .

السابع عشر — (عمل سَرْمِينَ) — بفتح السين وسكون الراء المهملتين وكسر الميم ثم ياء مثناة تحتُ ساكنة ونون بعدها . وهى مدينة فى الغرب من حَلَبَ على نحو مرحلتين صغيرتين منها، واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "كتاب الأطوال" : طولها إحدى وستون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . وهى مدينة غير مسوّرة؛ وبها أسواق ومسجد جامع؛ وشرب أهلها من الماء المجتمع فى الصهاريج من الأمطار، وهى كثيرة الخِصْبِ، وبها الكثير من شجر التين والزيتون، وهى فى جهة الجنوب عن حَلَبَ على مسيرة يوم منها وعملها متسع .

ومن مضافاتها مدينة الفُوعَةِ (بضم الفاء وفتح العين المهملة) . وهى مدينة على القرب من سَرْمِينَ فى الغرب منها، وتسمّى هذه الولاية الغَرْبِيَّات (بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة وفتح الياء المثناة تحت المشدّدة وألف ثم تاء مثناة فوق فى الآخر) . قال فى "التعريف" : وهى أجلُّ ولايات حَلَبَ .

الثامن عشر — (عمل الجَبُّولِ) — بفتح الجيم وضم الباء الموحدة المشدّدة ثم واو ساكنة ولام فى الآخر — وهى بلدة شرقىّ حَلَبَ على نحو مرحلة كبيرة منها، وهى بالقرب من الفُرَات، ولم يتحرّر لى طولها وعرضها . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومنها ينقل المِلْحُ إلى سائر أعمال حَلَبَ؛ وقد أخبرنى بعض أهلها أن أصل هذا المِلْح نهرٌ يصل إليها يعرف بنهر الذَّهَب فيبقى ماء فيما يمرّ عليه من البُلْدان حتّى ينتهى إليها فينعقد ملحا لوقته .

التاسع عشر — عمل (جَبَلِ سِمْعَانَ) — وضبطه معروف . وهى فى جهة الشَّمال من حَلَبَ على [يوم] (١) منها، ولم يتحرّر لى طولها وعرضها .

(١) فى الأصل ساعة وأبدل فى الهامش بلفظ "يوم" .

العشرون ــ (عمل عَزَاز) ــ بفتح العين المهملة والزاى المعجمة وألف ثم زاى ثانية مكسورة ــ كذا ضبطه فى "اللباب" والجارى على الألسنة أَعْزَازْ بهمزة مفتوحة فى أولها وسكون العين والزاى الأخيرة فى الوقف؛ وهى بلدة شمالىّ حلب بشرق على نحو مرحلة منها. قال فى "كتاب الأطوال": وطولها إحدى وستون درجة وخمس وخمسون دقيقة، وعرضها ست وثلاثون درجة. وهى فى شمالىّ حلب بمَيْلة إلى الغرب. قال ابن سعيد: ولأعزاز جهات فى نهاية الحسن والطِّيبة والخِصْب، وهى من أنزه الأماكن.

الحادى والعشرون ــ (عمل تَلّ باشِر) ــ بفتح التاء المثناة فوق وتشديد اللام ثم فتح الباء الموحدة وألف بعدها شين معجمة مكسورة وراء مهملة فى الآخر ــ وهى حصن شمالىّ حَلَبَ على مرحلتين منها بالقُرْب من عَيْنْتَاب المتقدّم ذكرها. قال ابن سعيد: وهى ذات مياه وبساتين.

الثانى والعشرون ــ (عمل مَنْبَج)(١) ــ بفتح الميم وسكون النون وفتح الباء الموحدة وفى آخرها جيم ــ كذا ضبطه ابن الأثير فى "اللباب": وهى بلدة من جُنْد قِنَّسْرِينَ شرقىّ حَلَبَ على نحو مرحلتين منها واقعةٌ فى الإقليم الرابع. قال فى "تقويم البلدان": والقياس أن طولها اثنتان وستون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. قال ابن سعيد: بناها بعض الأكاسرة الذين غلبوا على الشأم وسَمَّاها مَنْبِه فعربت مَنْبَجَ، وكان بها بيت نارٍ للفُرْس، وهى كثيرة القُنِىّ السارحة والبساتين، وغالب شجرها التوت، وأكثرها خراب.

---

(١) ضبطه فى القاموس كمجلس [أى بكسر اللام] وكذلك ضبطه صاحب "تقويم البلدان" عن اللباب فلعل ماهنا سبق قلم.

الثالث والعشرون — (عمل تِيزِينَ) — بكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وكسر الزاى المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر — وهى بليـدة صغيرة من أعمال حلب فى جهة الغرب علىٰ نحو مرحلة منها .

الرابع والعشرون — (عمل البَابِ وبُزَاعَا) . وضبط الباب معروف، و بزاعا بضم البـاء الموحدة وفتح الزاى المعجمة وألف بعـدها عين مهملة وألف مقصورة فى الآخر . كذا ضبطه فى " تقويم البُلْدان " : والجارى علىٰ الألسنة إبدال الألف فى آخره بهاء . وهما بلدتان متقاربتان ، من جُنْـدِ قِنَّسْرِينَ علىٰ مرحلة من حَلَبَ فى الجهـة الشمالية الشرقية فى الإقليم الرابع . قال فى " تقويم البُلْدان " : والقياس أن طولهـا آثنتان وستون درجة وعشر دقائق ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

أما الباب : فبُلَيْدة صغيرة . قال فى " تقويم البُلْدان " : بها مشهد به قبر عَقِيل آبن أبى طالب رضى الله عنه ، وبها أسواق وحمـام ومسجد جامع ، وبها البساتين الكثيرة والنزه .

وأما بُزَاعَا — فضيعة من أعمال الباب .

الخامس والعشرون — (عمل دَرْكُوشَ) — بفتح الدال وسكون الراء المهملتين وضم الكاف وسكون الواو وشين معجمة فى الآخر — وهى بلدة علىٰ النهر العاصى غربىّ حَلَبَ علىٰ نحو ثلاث مراحل منهـا ، وأكثر زرع أرضها العنب . أخبرنى بعض أهل تلك البـلاد أن حَبَّةَ العِنَب بها ربمـا بلغت فى الوزن عشرةَ دراهم ، وبها قلعة عاصية آستولىٰ هُولَاكو علىٰ قلاع الشام ماعداها فإنه لم يصل إليها .

السادس والعشرون — (عمل أَنْطَاكِيَةَ) . قال فى " اللبـاب " : بفتح الهـمزة وسكون النون وفتح الطاء المهـملة . قال فى " تقويم البُلْدان " : ثم ألف وكاف

مكسورة ثم ياء مثناة تحت وهـاء فى الآخر . قال ٱبن الجواليقىّ فى "المُعَرّب" : ويأؤها مشـدّدة . وخالف فى "الروض المعطار" : فذكر أنها مخففة الياء — وهى مدينة عظيمة غربىّ حاب بشمال يسـيرٍ علىٰ نحو مرحلتين منها . قال فى "تقويم البـلدان" : وهى قاعدة بلاد العواصم . قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها ستون درجة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى مدينة عظيمة قديمة، علىٰ ساحل بحر الروم، بناها بَطْلَيْمُوس الثانى من ملوك اليونان؛ وقيل بناها مَلِكٌ يقـال له أنطاكين فعرفت به ، ولهـا سُورٌ عظيم من صَخْر ليس له نظير فى الدنيا . قال فى "العزيزىّ" : مساحة دَوْرِه ٱثنا عشر ميلًا . قال فى "الروض المعطار" : عدد شُرُفاته أربع وعشرون ألفا، وعدد أبراجه مائة وستة وثلاثون بُرْجا . قال ٱبن حوقل : وهى أنزهُ بلاد الشام بعـد دِمَشْقَ ، ويمرّ بظاهرها العاصى والنهر الأسودُ مجوعين ، وتجرى مياههما فى دُورِها ومساكنها ومسجدها الجامع، وماؤها يستحجر فى مجاريه حتّى لايؤثر فيه الحديد، وشربه يحدث رياح القُولَنْج، والسلاحُ بها يُسْرِع إليه الصَّدَأ ويذهب ريحُ الطِّيب بالمكث فيها، وهى أحد كراسىِّ بَطَارِكة النصارىٰ، ولهـا عندهم قدر عظيم . وقد قيل فى قوله تعـالىٰ : ﴿وَجَاءَ مِن أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ إنها أنطاكيةُ وان ذلك الرجل "حبيب النَّجَّار" وقبره بها مشهور يزار . قلت : وحينئذ فتصـير ولايتها(١) المذكورة فى "التعريف" و"مسالك الأبصار" : ٱثنتى عشرة ولاية .

ومِينَا أنطاكِيَة المذكورة (السُّوَيْدِيَّةُ) بضم السين المشدّدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وكسر الدال المهملة وفتح اليـاء المثناة تحت المشدّدة وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وموضعُها حيث الطولُ سـتون درجة وخمس وأربعون

(١) لعله ولاياتها . علىٰ أن هذه الفذلكة تحتاج إلىٰ تأمل .

دقيقـة . وعندها مصبّ النهر العاصى، وهناك ينعطف البحر الرومىّ ويأخذ غربا بشمال علىٰ سواحل بلاد الأرمَنِ .

القسم الثـانى

(من الأعمال الحَلَبيـة البلاد المتصلة بذيل البلاد المتقـدّم ذكرها فى الأعمال الحلبية من الشّمال، وهى المعروفة ببلاد الأرمَنِ)

قال فى "التعريف" فى مكاتبة متملك سِيسَ : وهـذه البلاد منها بلادٌ تسمّى العواصمَ، ومنها بلادٌ كانت تسمّى قديما بالثُّغُورِ، سميت بذلك لمثاغرتها الروم، وإلىٰ مثل ذلك أشار فى "تقويم البُلْدان" أيضا .

فالعَوَاصِمُ (بفتح العين المهملة والواو وكسر الصاد المهملة وميم فى الآخر). قال ٱبن حوقل : وهى ٱسم للناحية وليست موضعا بعينه يسمّى العواصم . قال : وقصبتها أَنْطَاكِيَـةُ . قال : وعدّ ٱبن خرداذبه العواصم فكثّرها وجعل منها كورة مَنْبِجَ، وكورة تِيزِينَ وبالس ورُصَافة هشام، وكُورَة جُومَةَ وكذا شَيْزَر وأَفَامِية، وإقليم مَعَرّة النُّعمان، وإقليم صُوران، وإقليم تلِّ باشر وكَفْر طابَ، وإقليم سَلَمِيَّةَ، وإقليم جُوسِيَةَ، وإقليم لُبْنَانَ إلىٰ أن بلغ إقليم قَسْطَل بين حِمْصَ ودِمَشْقَ .

قلت : وأوّل من سماها بذلك الرشيد هارون حين بنىٰ بها مدينة طَرَسُوسَ الآتى ذكرها فى سـنة سبعين ومائة ، والذى يظهر أنها سميت بذلك لعصمتها مادُونَها من بلاد الإسلام من العدوّ، إذ كانت متاخمة لبلاد الكفر، واقعةً فى نَحْرِ العدوّ، وعساكرُ المسلمين حافظة لها .

والثُّغُور جمع ثَغْرٍ (بفتح الثاء المثلثة وسكون الغين المعجمة وفى آخره راء مهملة). قال فى "المشترك" وهو ٱسم لكل موضع يكون فى وجه العدوّ، قال : وثغور الشام كانت أَذَنَةَ وطَرَسُوسَ وما معهما فٱستولىٰ عليها الأرمن .

وذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة فى تاريخه : أن الرشيد فى سنة سبعين ومائة عزل الثغور كلّها من الجزيرة وقِنَّسْرِينَ وجعلها حَيِّزاً واحدا وسماها العواصم .

قلت : ومقتضىٰ ذلك أن تكون الثغور والعواصم آسما علىٰ مسمًّى واحد ، وعليه ينطبق كلام المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف". وقد حدّد فى "التعريف" هذه البلاد بجملتها فقال : وحدُّها من القبلة وآنحراف للجنوب بلاد بَغْرَاس وما يليها؛ وحدّها من الشرق جبال الدَّرَ بَنْدات ؛ وحدّها من الشمال بلاد آبن قرمان ؛ وحدّها من الغرب سواحل الروم المفضيةُ إلىٰ العَلَايا وأنْطاليَا . وسيأتى الكلام علىٰ أصل آستيلاء الأرمن علىٰ هـذه البلاد وآنتزاعها منهم وعودها إلىٰ الإسلام فى الكلام علىٰ مكاتبة متملك سِيسَ ، علىٰ ما كان عليه الأمر قبل عودتها إلىٰ الإسلام فى مكاتبات ملوك الكفر إن شاء الله تعالىٰ .

ويشتمل علىٰ عدّة نيـابات ، بعضها ذكره فى " التعريف " وبعضها آستجدّ بعد ذلك ، وهى علىٰ ضربين أيضا .

الضرب الأوّل

(الأعمال الكِبَار، وهى صفقتان : ساحلية وجَبَلية)

فأما الجبلية ، فثلاثة أعمال .

الأوّل ـ (عمل مَلَطِيَّةَ) ـ بفتح(١) الميم واللام وكسر الطاء المهملة وبعدها ياء مثناة تحت مشدّدة مفتوحة وهاء فى الآخر . وهى مدينة شمالىّ حلب بمَيْلة إلىٰ الشرق علىٰ نحو سبع مراحل منها . قال آبن سعيد : وهى قاعدة بلاد الثُّغور، وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : وطولها إحدىٰ وستون درجة ،

(١) ضبطها ياقوت والمجد بفتحتين ثم سكون وقال ياقوت : كسر الطاء وتشديد الياء من قول العامة .

وعرضها سبع وثلاثون درجة ، ووافقه فى "القانون" على الطول وجعل العَرْض ثمانيا وثلاثين درجة ، وقد عدّها ابن حوقل من جملة بلاد الشام وقال إنها من قرى بلاد الروم على مرحلة . قال صاحب حماة : والأليق عدّها من بلاد الروم . ثم قال : وعدّها بعضهم من الثُّغور الجزرية . قال فى "الروض المعطار" : وكانت قديمة فخربتها الروم ، فبناها أبو جعفر المنصور يعنى ثانىَ خلفاء بنى العبَّاس فى سنة تسع وثمانين[(١)] ومائة ، وجعل عليها سورا محكما ـ وهى بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار ، وهى مسوّرة ، فى بسيط من الأرض والجبالُ محتفة بها من بُعْدٍ ، ولها نهر صغير يمرّ بسورها ، ولها قُنِىّ تدخلها وتجرى فى دُورها إلا أنها شديدة البرد ـ وهى فى شمالىّ الجبل الدائر الذى بسِيسَ فى غربيّه ، فى الجنوب عن سِيوَاس ، وبينهما نحو ثلاث مراحل ، وفى الغرب عن نَكْتَا وبينهما نحو مرحلتين . وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" : أنها فتحت فى سنة خمس عشرة وسبعمائة .

الثـانى ـ (عمل دَرَنْدَة) ـ بفتح الدال والراء المهملتين وسكون النون وفتح الدال الثانية وهاء فى الآخر ـ وهى مدينة فى جهة الغرب عن مَلَطْيَّة على نحو مرحلة ، ذاتُ بساتين وأنهار وعيون ماء تجرى ، وبينها وبين حَلَبَ نحو عشرة ايام .

الثالث ـ (عمل دَبْرِكِى) ـ بفتح الدال المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح الراء المهملة وكسر الكاف وياء مثناة تحت فى الآخر . وقد يقال دَوْرَكِى بإبدال الباء واوا . وهى مدينة فى جهة الشمال والغرب من حَلَبَ ، على نحو عشر مراحل منها ، بها بساتينُ وأشجار ، وبينها وبين حَلَبَ نحو اثنى عشر يوما .

---

(١) لعله مصحف عن ثلاثين فان المنصور تولى الخلافة سنة ست وثلاثين ومائة وتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة ، ونقل ياقوت أنه أرسل من يبنى ملطية سنة أربعين ومائة .

وأما الساحلية، فإن بها خمسة أعمال .

الأوّل — (آياس)— بفتح الهمزة الممدودة والياء المثناة تحتُ ثم ألف وسين مهملة فى الآخر . وهى مدينة من بلاد الأرمن علىٰ ساحل البحر، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "الزيج" : طولها تسع وخمسون درجة ، وعَرْضها ست وثلاثون درجة ، وهى فُرْضة تلك البلاد، و بينها و بين بَغْرَاس المتقدّم ذكرها مرحلتان . قال فى "التعريف" : وقد جعلت نيابةً جليلة نحوحِمْص،وجُعِل أمرها إلىٰ نائب الشام، ثم جعلت إلىٰ نائب حَلَب،وهى المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية إضافة إلىٰ نهر جاهان المجاور لها،وهو جيحان المتقدّم ذكره؛وكانت آستعادتُها من الأرمن فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، ولذلك قال فى "التعريف" : والعهد بفتحها قريب .

الثانى — (عمل طَرَسُوس)— بفتح الطاء والراء المهملتين جميعا وضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية— هكذا ضبطه فى "اللباب" والجارى علىٰ الألسنة سكون رائها ، وهى مدينة من بلاد الأرمن علىٰ ساحل بحر الروم شَمالا بغرب عن حَلَب، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ثمان وخمسون درجة وأربعون دقيقة، وعرضها ستٌّ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينة مسوّرة، بناها الرشيدُ فى سنة سبعين ومائة وأكملها فى سنة آثنتين وسبعين؛ولها خمسة أبواب: باب الجهاد، وباب الصَّفْصاف، و باب الشام، و باب البحر، والباب المسدود . والنهر يشق فى وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد . قال آبن حوقل : وهى فى غاية الخِصْب،و بينها و بين حدّ الروم جبال هى الحاجز بين الروم والمسلمين ، وبها دُفِن المأمون بن الرشيد ، وكانت آستعادتها من الأرمن فى الدولة الناصرية حسن بن محمد بن قلاوون .

الثالث ـ (عمل أدنة)[(١)] ـ بهمزة ودال مهملة ونون مفتوحات وهاء فى الآخر . وهى مدينة من بلاد الأرمن واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولها تسع وخمسون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وأربعون دقيقــة . قال أحمد آبن يعقوب الكاتب فى كتابه "المسالك والممــالك" : وهى من بناء الرشــيد . قال آبن حوقل : وهى مدينة حصينة عامرة، وبينها وبين طَرَسُوسَ ثمانية عشر ميلا .

الرابع ـ (عمل سِرْفَنْدَكَارَ) ـ بكسر السين وسكون الراء المهملتين وفتح الفاء وسكون النون وفتح الدال المهملة والكاف ثم ألف وراء مهملة ـ هكذا ضــبطه صاحب حمــاة ، ثم قال : وقد يجعل موضع الفاء واوا فيقــال سِرْوَنْدَكَارَ والموجود فى الدســاتير إِسْفَنْدَكَارُ بهــمزة فى الأوّل وســقوط الراء الأوّلة؛ وهى قلعة من بلاد الأرمن واقعة فى الإقليم الرابع . قال فى "الزيج" : طولها ستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى قلعة حصينة فى واد علىٰ صخر، وبعض جوانبها ليس له سور للاستغناء عنه بالصخر، وهى علىٰ القرب من نهر جَيْحان من البر الجنوبىّ، فى الشرق عن تل حَمْدون علىٰ نحو أربعة أميال .

الخامس ـ (عمل سِيسَ) ـ بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت ثم سين مهملة ثانية ـ هذا هو المعروف فى زماننا، ووقع فى كلام الصاحب كمال الدين آبن العديم أن آسمها سِيسَة باثبات هاء فى آخرها، وكلامه فى "العزيزىّ" يوافقه . وهى قاعدة بلاد الأرمن ومَوْقِعها فى الإقليم الرابع . قال فى "الزيج" : طولها ستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة . وهى بلدة كبيرة ذات بساتين وأشجار، ولها قلعة حصينة عليها ثلاثة أسوار علىٰ جبل مستطيل، بناها بعض خدّام الرشيد وهو الذى سماها . قال آبن سعيد : وكانت قاعدة الثغور الشّمالية . قال فى "العزيزىّ" : وبينها

(١) الذى فى "تقويم البلدان" و"معجم البلدان" و"القاموس" أنها بالذال المعجمة .

وبين المَصِّيصة أربعة وعشرون ميلا، وكانت آستعادتها من الأرمن فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين. قلت : وقد كانت سِيسُ فى أعقاب الفتح نيابة مستقلة، ثم صارت تقدمةَ عسكر مضافة إلىٰ حَلَب كما يقع فى غَزّة فى كونها تارة تكون نيابة مستقلة، وتارة تقدمةَ عسكر مضافة إلىٰ دمشق علىٰ ما تقدّم ذكره .

الضرب الثانى

(من(١) الأعمال الصِّغار بلاد الأَرْمَن)

وهى ثلاثة عشر عملا لثلاث عشرة قلعة، لم تجر العادة بمكاتبة أحد من نوابها عن الأبواب السلطانية، ذكر بعضها فى "التعريف" وبعضها فى "التثقيف" وبعضها فى غيرهما من الدساتير .

الأوّل — (عمل قلعة بَارِى كَرُوكَ) بفتح الباء الموحدة وألف بعدها راء مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة ثم كاف مفتوحة وراء مهملة وواو ساكنة ثم كاف فى الآخر. وهى قلعة علىٰ رأس جبل بالقرب من طَرَسُوسَ فى الشَّمال، علىٰ نحو نصف مرحلة قال فى "التثقيف" : آستجدّت فى سنة ستين وسبعمائة . قلت : آفتتحها بيدمر الخوارزمىّ نائب سِيسَ فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون .

الثانى — (عمل كَاوَرَّا) بفتح الكاف وبعدها ألف وواو وراء مفتوحة مشدّدة وألف فى الآخر . وهى قلعة فى الشمال عن آياس علىٰ جبل مطلّ علىٰ البحر الرومىّ علىٰ نحو ساعة . قال فى "التثقيف" : آستجدّت سنة تسع وستين وسبعمائة .

الثالث — (عمل كَوْلَاكَ) بفتح الكاف وسكون الواو ولام ألف بعدها كاف ثانية . وهى قلعة مدوّرة علىٰ رأس جبل فى الشمال عن طَرَسُوسَ علىٰ نحو مرحلة، يسكنها طائفة من التُّرْكُمان .

---

(١) لعله الأعمال الصغار من بلاد الخ .

الرابع — (عمل كِرْزَالَ) بكاف مكسورة وراء مهملة ساكنة وزاى معجمة مفتوحة وبعدها ألف ثم لام . وهى قلعة صغيرة علىٰ رأس جبل بالقرب من كَوْلَاكَ المتقدّم ذكرها علىٰ نحو مرحلة . قال فى "التثقيف" : آستجدّت فى سنة نَيِّف وسبعين وسبعمائة .

الخامس — (عمل كُومِى) بضم الكاف وسكون الواو وكسر الميم وياء مثناة تحتُ فى الآخر .

السادس — (عمل تَلِّ حَمْدُونَ) بفتح التاء المثناة فوق وتشديد اللام وفتح الحاء المهملة وإسكان الميم وضم الدال المهملة وسكون الواو ونون فى الآخر . وهى قلعة ببلاد الأرمن ، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال آبن سعيد : طولها تسع وخمسون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . قال صاحب حماة : كانت قبل أن يخرّبها المسلمون قلعةً حصينة حسنة البناء علىٰ تَلٍّ عال ، ولها سور مانع ورَبَض وبساتين ونهر يجرى ، وعلىٰ القرب من جَيْحان فى جهة الجنوب علىٰ نصف مرحلة ، وبينها وبين آياس نحو مرحلة ، وبينها وبين سِيس نحو مرحلتين .

السابع — (عمل الهَارُونِيَّتَيْنِ) — بفتح الهاء وألف بعدها ثم راء مهملة مضمومة ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت مشدّدة مفتوحة ثم تاء مثناة فوق بعدها ألف[1] ونون . قال فى "التعريف" : وهما حِصْنان بناهما هارون الرشيد . وقال فى "المشترك" : الهارونِيَّة مدينة صغيرة آختطها هارون الرشيد بالثُّغور فى طَرَف جبل اللُّكَام . وقال فى "العزيزى" : الهارونية آخر حدود الثغور الشامية مما يتصل بالحدود الجزرية ، وبينها وبين الكنيسة السَّوْداء آثنا عشر مِيلًا .

(١) أى أو ياء ونون تبعا لعوامل الاعراب .

قال فى "كتاب الأطوال" : وطولها ستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة .

الثامن ـ (عمل قلعة نَجْمَةَ) بفتح النون وسكون الجيم وفتح الميم وهاء(١) فى الآخر. وهى قلعة علىٰ القرب من الفُراتِ بينها وبين جَسْرِ مَنْبِج خمسة وعشرون ميلا. قال فى "تقويم البُلْدان" : وهذه القلعة فى السحاب . قال : وكان يقال لذلك المكان حصن مَنْبِج فصارت تعرف بقلعة نَجْمَة . ثم قال : وهى من بناء السلطان محمود بن زنكى . قلت : وفى "التعريف" ما يقتضى أنها من جملة بناء المأمون .

التاسع ـ (عمل قلعة حيمص). وهى قلعة خراب صغيرة بالقُرْب من نهر جَيْحان.

العاشر ـ (عمل قلعة لُؤْلُؤَة) ـ وهى قلعة شمالىّ كَوْلَاكَ آستعادها آبن عثمان .

الحادى عشر ـ (عمل قلعة تامرون) شمالىّ طَرَسُوس، بيد عيسىٰ بن ألاس البرسقى التركمانى .

الثانى عشر ـ (عمل سنياط كلا) شمالىّ طَرَسُوس. كانت داخل المملكة آستولىٰ عليها آبن قرمان فى أيام المنصور بن الأشرف شعبان .

الثالث عشر ـ (عمل بلسلوص) غربىّ طَرَسُوس علىٰ ساحل البحر، بيد حسن ابن قوسى البرسق التركمانى .

القسم الثالث

(من الأعمال الحلبية البلاد المجاورة للفُرَات من شرقيّه من بلاد الجزيرة الواقعة بين الفرات ودَجْلة؛ وهى ثلاثة أعمال)

الأوّل ـ (عمل الْبِيرَة) بكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الراء المهملة وألف(٢) فى الآخر . وهى قلعة فى البر الشرقىّ فى الشَّمال عن الفُرَاتِ، فى الشرق

---

(١) فى المعجم بدون هاء وقال "بلفظ النجم من الكواكب" (٢) لعله وهاء فى الآخر، وهى غير إلبيرة التى ببلاد الأندلس فان تلك الهمزة فيها أصلية علىٰ وزن إخريطة وكبريتة فليتنبه .

عن قلعــة الروم المتقــدّم ذكرها على نحو مرحلة والفُرَاتُ بينهما . وقد عدّها في "تقويم البُلْدان": من جُنْد قِنَّسْرِينَ من أعمال الشام، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في بعض الأزياج : طولها آثنتان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهي قلعــة ذات آرتفاع وحصينةٌ لاتُرام . قال في "تقويم البُلْدان" : ولها سوق وعمل . قال آبن سعيد : وقلعتها على صخرة . قال في "التعريف" : ولها مَنَعة وعسكر .

الثاني ــ (عمل قلعة جَعْبَرٍ) ــ بفتح الجيم وسكون العين المهــملة وفتح الباء الموحدة وراء مهــملة في الآخر . وهي قلعة من ديار بَكْر في البر الشرقيّ الشماليّ من الفُرات أيضا ، وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : طولها آثنتان وستون درجة ، وعَرْضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال القاضي جمال الدين آبن واصل : وكانت هذه القلعة تعرف قديما بالدَّوْسَرِيَّة نسبة إلى دَوْسَر : عبدالنعمان آبن المنذر، وهوالذي بناها أوّلا لما جعله النعمان على أفواه الشأم، ثم تملّكها سابقُ الدين جعبر القشيريّ في أيام الملوك السَّلْجُوقية فعرفت به، ثم آنتزعها منه السلطان ملكشاه السلجوقيّ . قال صاحب حماة : وهي في زماننا خراب ليس بها ديار . قلت : وذلك في أثناء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، ثم عمرت بعد ذلك في آخر الدولة الناصرية أو بعدها بقليل ، وقد أشار إلى ذلك في "التعريف" : حين تعرّض لذكرها في آخر مضافات الشأم قبــل ذكر حَلَبَ بقوله : وهي مجدّدة البنيان، مستجدّة الآن، لأنها جُدّدت مندسنوات، بعد أن طال عليها الأمَد ، وأخْنى عليها الذي أخْنى على لُبَد . وكانـــ قد ذكر قبل ذلك في الكلام على تقاسيم الشأم أنها مضافة إلى دِمَشْــق . ثم قال : وحقُّها أن تكون مع حَلَب، وقد صارت الآن من مضافات حَلَب .

الثالث ــ (عمل الرُّهَا) ــ بضم الراء المهملة وفتح الهاء وألف في الآخر. وهي مدينة من ديار مُضَر في البر الشرقيّ الشماليّ عن الفُرَاتِ، وموقعها في الإقليم الرابع بالقرب

من قلعة الروم . قال فى "الأطوال" : طولها آثنتان وستون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة عظيمة رومية، فيها آثار عجيبة . قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينة ذات عيون كثيرة تجرى منها الأنهار، وبها البساتين والأشجار الكثيرة، وعليها سُور من حجارة، ولها أربعة أبواب باب حَرَّان، والباب الكبير، وباب سبع، وباب الماء . قال : وليس فى بلاد الجزيرة أحسنُ منتزهات منها ولا أكثر فواكه ؛ والفُرَاتُ منها فى ناحية الغرب علىٰ مسيرة يومين، وفى ناحية الشَّمال علىٰ مسيرة يوم . قال فى "تقويم البُلْدان" : وكان بها كنيسة عظيمة، وفيها أكثر من ثلثمائة دَيْر للنصارىٰ . قال : وهى اليوم خراب يعنى فى أثناء الدولة الناصرية، ثم عمرت بعد ذلك . قلت : وهى اليوم عامرة آهلة، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

القاعدة الثالثة

(من قواعد المملكة الشامية حماةُ)

وقد ذكرها فى "مسالك الأبصار" بعد دِمَشْقَ ؛ وهو أليق لقربها منها، ولكنه قد ذكرها فى "التعريف" بعد حَلَبَ فتبعته علىٰ ذلك ؛ وفيها جملتان :

الجملة الأولىٰ

(فى حاضرتها)

وهى بفتح الحاء المهملة والميم وألف ثم هاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الرابع بين حِمْص وقِنَّسْرِينَ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وطولها إحدىٰ وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة ؛ وهى مدينة قديمة أَزَلِيَّة . قال فى "تقويم البُلْدان" : ولها ذكر فى التوراة، وهى علىٰ ضَفَّة

العاصى مَكِينة البناء، ولهـا سُورٌ جليـل ، وبيوت ملوكها وشُرُفاتها مطلة على النهر العاصى ؛ وبها القصور الملوكية، والدور الأنيقة والجوامع والمساجد والمدارس والرُّبُط والزوايا والأسواقُ التى لا تَعْدَم نوعا من الأنواع ؛ وبها قلعة مبنية بالحجـارة الملوّنة ؛ وغالبُ مبانيها العلية ، وآثار الخير والبِرّ الباقية فيها من فواضل نِعَم الدولة الأيوبية ؛ وبها نواعيرُ مركَّبة على العاصى، تدور بجريان المـاء، وترفع الماء إلى الدُّور السلطانية ودُور الأمراء والأكابر والبساتين ؛ وفى بساتينها الغِرَاسُ الفائق والثمـار الغريبة ؛ ولم يكن لها فى القديم نَبَاهة ذِكْر، وكان الصِّيتُ لحمص دُونَها، ثم تنبه ذكرها فى الدولة الأتابكية زنكى ؛ فلما آلت إلى ملوك بنى أيوب مَصَّرُوها بالأبنية العظيمة، والقصور الفائقة، والمساكن الفاخرة، وتأميرِ الأمراء، وتجنيدِ الأجناد فيها ؛ وعَظَّموا أسواقها وزادوا فى غِرَاسها، وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كلَّ من فاق فى فَنّه إلى أن كملت محاسنها، وصارت معدودةً من أمهات البلاد وأحاسن الممالك ؛ وهى فى غاية رَفَاهة العيش إلا أنها شديدة الحرّ محجوبةُ الهواء ، ويَعْرِضُ لهـا فى الخريف تغير تنسَب به إلى الوَخَامة، ولا يبقى بها الثلج إلى الصيف كما يبقى فى بقيــة الشام، وإنمـا يجلَب إليها ممـا يجاورها ؛ وحولها مروج فِيحٌ ممتــدّة يكثر فيها مصايد الطير والوحش ؛ وليس بالممـالك الشامية بعد دِمَشْقَ لها نظير، ولا يدانيها فى لُطْف ذاتها من مجاورتها قريب ولا بعيد . قال فى "الروض المِعْطار" : وبينها وبين حِمْص أربعون ميلا، ولم تزل بأيدى بقَايَا الملوك الأيوبية من جهة صاحب مصر، يقيم ملوكهم فيها مَلِكا بعد ملك إلى أن كان بها منهم آخر الأيام الناصرية محمد بن قلاوون المتقدّم ذكره، وٱستقرّ فيها بالأمير[(١)] طغيتمر الحموىّ : أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية نائبا ؛ وٱستمرّت بأيدى النوّاب يليها مقدّم ألف بعد مقدّم ألف إلى الآن .

---

(١) لعل الباء من زيادة الناسخ أى كان بها منهم فى تلك الأيام وٱستقر فيها الأمير الخ .

الجملـــــة الثانية

(فى نواحيهـا وأعمالهـا)

قال فى "التعريف" : وحدُّها من القبلة مدينة الرَّسْتَن وماسامتها آخذا بين سَلَمْية وقبة ملاعب، إلىٰ حيث مَجَرُّ النهر والآثار القديمة، وحدّها من الشرق البَرُّ آخذا علىٰ سَلَمية إلىٰ ما آستفل عن قُبَّة ملاعب، وحدّها من الشمال آخر حدّ المعرّة من العرا با (١)، وحدّها من الغرب مُضَافات مِصْياف وقلاع الدعوة ؛ وليس بها نواب قلاع البتةَ، ولهـا ثلاثة أعمال .

الأول ـ (عمل بَرِّها) ـ وهو ظاهرها وما حولها كما تقدّم فى دمشق وحلب .

الثـانى ـ (عمل بَارِينَ) ـ بفتح الباء الموحدة وألف بعدها وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر ـ وهى بلدة علىٰ مرحلة من حماةَ فى الغرب عنها بمَيْلة يسيرة إلىٰ الجنوب، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولهـا إحدىٰ وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة (٢) .

الثالث ـ (عمل المَعَرَّة) ـ بفتح الميم والعين المهملة ثم راء مهملة مشدّدة مفتوحة وهاء فى الآخر ـ وهى مدينة من جُنْد حِمْص واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "كتاب الأطوال" : طولهـا إحدىٰ وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضُها خمس وثلاثون درجة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولهـا إحدىٰ وستون درجة وأربعون دقيقــة ، وعرضَها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وتعرف بمَعَرَّة النُّعْمَانِ . قال : البلاذرىّ إضافة إلىٰ النُّعمان بن بَشير الأنصارىّ رضى

---

(١) كذا فى الأصل بإهمال النقط وفى الضوء "من الغرب" .

(٢) لم يتكلم علىٰ العرض كعادته ولعله سقط من قلم الناسخ . ويستفاد من "التقويم" أن عرضها أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة .

الله عنه . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة جليلة عامرة كثيرة الفواكه والثّمار والخِصْبِ، وشربُ أهلها من الآبار . قال فى "الروض المعطار" : ولها سبعة أبواب : باب حَلَبَ ،والباب الكبير،وباب شيث،وباب الجنان ، وباب حمص، وباب كذا (١) . قال : ويُذْكَر أن قبر شيثِ بن آدم عليه السلام عند الباب المنسوب إليه فيها، وداخلها قبر يُوشَعَ بن نون عليه السلام، وعلىٰ مِيلٍ منها دَيْرُسِمْعان الذى به قبر عمر بن عبدالعزيز. قال السمعانىّ : والنسبة إليها مَعَرْنِىٌّ . قال : وبالشام بلدة أخرىٰ تسمّى مَعَرَّة نَسْرِين بالنون والسين المهملة ، والنسبة إليها مَعَرْنَسِىّ . قال صاحب حماة : والمشهور فى الثانية أنها مَعَرَّةُ مَصْرِين بميم وصاد مهملة .

القاعدة الرابعة
(من قواعد المملكة الشامية أَطْرَابُلُس،وفيها جملتان)

الجملة الأولىٰ
(فى حاضرتها)

وهى بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح الراء المهملتين ثم ألف وباء موحدة ولام مضمومتين وسين مهملة فى الآخر . قال السمعانىّ : وقد تسقط الألف منها فرقا بينها وبين أطْرَابُلُسَ التى فى الغرب،وأنكر يَاقُوتُ فى "المشترك": سقوطَها وعاب علىٰ المتنبى حذفَها منها فى بعض شِعْره.قال فى "الروض المعطار": ومعنىٰ أَطْرَابُلُسَ فيما قيل ثلاث مدن ، وقيل مدينة الناس . وهى مدينة من سواحل حِمْصَ واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "كتاب الأطوال" : طولها تسع وخمسون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة ، وكانت فى الأصل من بناء الروم فلما فتحها المسلمون فى سنة ثمان وثمانين وستمائة فى الأيام الأشرفية "خليل بن قلاوون" رحمه

(١) هذا هو السادس وكنى عنه ولم يحله ولم يذكر السابع فليعلم .

الله، خَرَّبوها وعَمَروا مدينة علىٰ نحو ميل منها وسَمَّوْها باسمها ، وهى الموجودة الآن ؛ ولما بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة ، ذميمة السكن . فلما طالت مدّةسَكَنِها وكثُر بها الناس والدوابُّ وصُرِّفت المياه الآسنة التى كانت حولها وعملت بساتين، ونُصبت بها النصوب والغُرُوس، خفَّ ثِقَلُها وقل وَخَمُها .

قال فى " مسالك الأبصار " : ولما وَلِىَ نيابتها أستدمر الكرجىّ كان لاينفك عن كونه وخما فشكا ذلك إلىٰ سليمان بن داود المتطبب، فأشار عليه أن يستكثر فيها من الإبل وسائر الدوابِّ ففعل فخفَّ وَخَمُها . قال : وقد سألت عن علة ذلك الكثيرَ من الأطباء فلم يجيبوا فيه بشىء .

قلت : لا خفاء أن المعنىٰ فى الإبل ما أشار به النبىّ صلى الله عليه وسلم فى أمر العُرَنِيِّينَ حين آستَوْخَمُوا المدينة " أنهم يُقيمون فى إبل الصَّدَقة ويشربُون من ألبانها وأبوالها ففعلوا ذلك فَصَحُّوا" فكأنّ ذلك من خاصة الإبل . ولعل التأثير فى ذلك للإبل خاصةً دون سائر الدواب . وهى الآن مدينة متمدّنة كثيرة الزحام ؛ وبها مساجد، ومدارس ، وزوايا ، وبيمارستان، وأسواق جليلة، وحمامات حِسَان ؛ وجميع بنائها بالحجر والكِلْس مبيضا ظاهرا وباطنا ، وغُوطَتها محيطة بها، وتحيط بغُوطتها مزدرعاتها ؛ وهى بديعة المشتَرَف؛ ولها نهر يحكم علىٰ ديارها وطباقها يتخرق الماءُ فى مواضع من أعالى بيوتها التى لا يُرقىٰ إليها إلا بالدرج العلية؛ وحولها جبال شاهقة ، صحيحة الهواء ، خفيفة الماء ، ذاتُ أشجار وكروم ومروج ومواش ، ومِيناها مِينا جليلة ، تهوِى إليها وُفُود البحر الرومىّ وترسُو بها مراكبهم ، وتُبَاع بها بضائعهم . وهى بلدة مَتْجر وزرع، كثيرةُ الفائدة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ عجائب الشام أن داخل البحر بالقرب منها علىٰ نحو رَمْية حجر عن البر عيناً فوارة عَذْبة الماء تَطفُو علىٰ وجه الماء قدرَ ذراع أو أكثر، يتبين ذلك عند سكون الريح .

الجمــــلة الثانية

(فى نواحيها وأعمالها)

قال فى "التعريف" : وحدّها من القبلة جبل لُبْنَانَ ممتدّا علىٰ مايليه من مَرْج الأسد، حيث يمتدّ النهر العاصى؛ وحدّها من الشَّمال قِلَاع الدَّعْوة؛ وحدّها من الغرب البحر الرومىّ . وأعمالها علىٰ قسمين :

القســـم الأوّل

(الأعمال الكِبَار التى يكاتَبُ نوابها عن الأبواب السلطانية؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مضافاتها نفسها ، وهى ست نيابات)

الأوّل — (عمل حِصْن الأكْرَاد) — بإضافة حِصْن واحد الحُصُون إلىٰ الأكراد الطائفة المشهورة؛ وهى قلعة من جُنْدِ حِمْص ، موقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولها ستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها أربع وثلاثون درجة . قال فى "المشترك" : وهى قلعة حصينة مقابلَ حمص من غربيها، علىٰ الجبل المتصل بجبل لُبْنَانَ نحو مرحلة من حمص . قال فى "التعريف" : وهى حصن جليل وقلعة شَمَّاءُ، لاتبعد منها السماء . قال : وكانت محل النيابة ومقرّ العسكر قبل فتح طَرَا بُلُس .

الثانى — (عمل حِصْنِ عَكَّار) — بإضافة حصن إلىٰ عَكَّارٍ — بفتح العين المهملة وتشديد الكاف المفتوحة وبعدها ألف ثم راء مهملة — وهى قلعة علىٰ مرحلة من طَرَا بُلُس فى جهة الشرق بوسط جبل لُبْنَانَ فى وادٍ والجبل محيط بها، وشرب أهلها من عين تجرى إليها من ذيل لُبْنَانَ المذكور، ولها رَبَض ليس بالكبير .

الثالث – (عمـل بَلَاطُنُس) – بفتح الباء الموحدة وبعـدها لام ألف ثم طاء مهملة ونون مضمومتان وسين مهملة فى الآخر – وهى قلعة بالقرب من مدينة مِصياف فى جهة الغرب منها على نصف مرحلة، وفى جهـة الشمال من طَرَابُلُس على نحو مرحلتين .

الرابع – (عمل صَهْيُونَ)(١) – بفتح الصاد المهملة وسكون الهاء وضم الياء المثناة تحتُ وسكون الواو ثم نون فى الآخر – وهى قلعـة من جُنْد قِنَّسْرِينَ فى الإقليم الرابع . قال فى "الزيج" : طولهـا سـتون درجة وعشر دقائق، وعرضها خمس وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهى من القلاع المشهورة، ذاتُ حَصَانة ومَنَعة، مبنيةٌ على صخر أصمَّ، فى ذيل جبل يظهر من اللاذقية وبينهـما نحو مرحلة، وهى فى الشرق عن اللاذقية بمَيْلة إلى الجنوب، وبها المياه الكثيرة حاصلةً من الأمطار .

الخامس – (عَمَـلُ اللَّاذِقِيَّة) – بألف ولام لازمتين وذال معجمة وقاف مكسورتين وياء مثناة تحت مشدّدة مفتوحة وهاء فى آخرها . وهى مدينة من سواحل الشأم واقعة فى الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" : طولها سـتون درجة وأربعون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وعدّها فى "العزيزى" من أعمـال حِمْص ثم قال : وهى مدينة جليلة بل هى أجلُّ مدينة بالساحل مَنَعـةً وعِمارةً، ولها مِينا حسـنة، ومنها إلى أَنْطَاكِيَةَ ثمـانية وأربعون ميلا، وقد عدّها فى "التعريف" : فى جملة ولايات طَرَابُلُس على ما كانت عليه إذ ذاك، ثم آستقرّت بعد ذلك نيابة، وهى الآن أعظم نيابات طَرَابُلُس .

السادس – (عمل المَرْقَبِ) – بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح القاف وباء موحدة فى الآخر . وهى قلعة بالقرب من ساحل البحر الرومىّ، وموقعها فى الإقليم

(١) ضبطها ياقوت والمجد بكسر الصاد وفتح الياء المثناة من تحت .

الرابع . قال فى "الزيج" : طولها ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وهى قلعة حصينة حسنة البناء مشرفة على البحر وعلى نحو فرسخ منها مدينة (بِلِنْيَاسَ) بكسر الباء (١) الموحدة واللام وسكون النون وياء مثناة تحت وألف وسين مهملة ــ وفى الغالب تضاف إليها فيقال المَرْقَبُ وبِلِنْيَاسُ ، وهى مدينة حسنة على الساحل ، ذاتُ مياه وأعين تجرى وفواكه كثيرة . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين أَنْطَرْطُوسَ اثنا عَشَر ميلا ؛ ولم يتعرض لذكر المَرْقَب فى "التعريف" : ولا فى "مسالك الأبصار" .

الضرب الثانى

(قِلاع الدَّعوة ، بفتح الدال)

سميت بذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية من الشِّيعة المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادِيَّة ؛ وهؤلاء هم المعروفون فى ديوان الإنشاء بالقُصَّاد ، وبين العامّة بالفداوية ؛ وسيأتى الكلام على معتقدهم فى الكلام على القُصَّاد ، ثم فى الكلام على تحليف أهل البِدَع فى باب الأيمان إن شاء الله تعالى ــ وهى سبع قلاع ، عظيمةُ الشأن ، رفيعة المقدار ، لاتُسَامَى مَنَعَةً ولا تُرام حصانةً ، وكانت أوّلا كلها مضافة إلى طَرَابُلُسَ ثم نقلت مِصْيافُ منها إلى دِمَشْقَ على ما تقدّم ذكره ، والبقية على ما كانت عليه من إضافتها إلى طرابُلُس .

وهى ستة أعمال .

الأوّل ــ (عمل الرُصَافَةِ) ــ بألف ولام لازمتين فى أوّلها وراء مهملة مضمومة وصاد مفتوحة بعدها ألف ثم فاء وهاء ــ وهى قلعة بالقرب من مِصْياف ؛ وبالشأم

(١) فى المعجم بضم الباء واللام .

بلدة أخرىٰ يقال لهـا الرُّصَافَةُ أيضا وتعرف بِرُصَافَةِ هشام، علىٰ أقلّ من مسافة يوم من الجانب الغربىّ من الفُرَاتِ .

الثـانى ـ عمل (الخَوَابِى) ـ بفتح الخاء المعجمة والواو ثم ألف وباء موحدة مكسورة وياء فى الآخر ـ وهى قلعة فى جهة الشَّمال من طَرَابُلُس علىٰ نحو مرحلتين، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خواصّ الشأم أن بسُورها مكانا لاينظُره ملسوع أو رسوله إلا بَرَأ ذلك الملسوع ولم يضره السم .

الثالث ـ (عمل القَدَمُوسِ) ـ بفتح القاف والدال المهملة وضم الميم وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر ـ وهى قلعة بالقرب من الخَوَابِى المقدّمة الذكر، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خواصّ الشأم أن بها حَمَّامًا يظهر منـه أنواع من الحَيَّات وتمشى بين الناس ولا تضر أحدا البتة .

الرابع ـ (عمل الكَهْف) ـ بفتح الكاف وسكون الهاء وفاء فى الآخر . وهى قلعة بالقرب من القَدَمُوسِ علىٰ نحو ساعة علىٰ نَشَز جبل مرتفع عال يُرىٰ علىٰ بعد .

الخـامس ـ (عمل المَيْنَقَةِ) ـ بفتح الميم وسكون الياء المثناة تحت وفتح النون والقاف وهاء فى الآخر ـ وهى قلعة بالقرب من الكَهْف علىٰ نحو ساعة علىٰ جبـل مرتفع أيضا .

السادس ـ (عمل العُلَّيْقَةِ) ـ بضم العين المهملة وفتح اللام المشدّدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح القاف وهاء فى الآخر ـ وهى قلعـة علىٰ الجبـل المذكور علىٰ نحو ساعة من المَيْنَقَةِ .

القسم الثـانى

(من أعمال طَرَابُلُسَ الأعمال الصغار، وهى ستة أعمال)

قال فى "التعريف" : سوىٰ ما نقل فى تلك القلاع ممـا له ولاية .

الأوّل ـ (عمل أَنْطَرْطُوسَ) . قال فى "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء وسكون الراء المهملتين وضم الطاء المهملة وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر . قال فى "كتاب الأطوال" : وموضعها حيث الطول ستون درجة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهى بلدة بالساحل . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى ثَغْرٌ لأهل حِمص فتحها المسلمون وخَرَّبوا أسوارها ، وهى الآن آهلة . قال : وكان بها مُصْحَفُ عثمان بن عَفَّان رضى الله عنه .

الثانى ـ عمل جُبَّةِ المُنَيْظِرَةِ بإضافة جُبَّةٍ (بضم الجيم وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وتاء التأنيث) إلى المُنَيْظَرَةِ (بضم الميم وفتح النون وسكون الياء المثناة تحت وفتح الظاء[١] المعجمة والراء المهملة وهاء فى الآخر) .

الثالث ـ (عمل الظَّنِّيينَ) ـ بألف ولام لازمتين وظاء معجمة مفتوحة مشدّدة ونون مشدّدة مكسورة وياء مثناة تحت مكسورة بعدها ياء ثانية ساكنة ثم نون ـ وهى كُورة بين مصياف وفَامِيَةَ ، وليس بها مقرّ ولاية .

الرابع ـ (عمل بُشَرَّيْه) ـ بضم الباء الموحدة وفتح الشين المعجمة وفتح الراء المهملة المشدّدة وسكون الياء المثناة تحت وهاء فى الآخر ـ هكذا مكتوب فى "التعريف" : والجارى على الألسنة بشراى بابدال الهاء ياء مثناة تحت .

الخامس ـ (عمل جَبَلَةَ) ـ بفتح الجيم والباء الموحدة واللام ثم هاء فى الآخر ـ وهى بلدة صغيرة بساحل البحر الرومىّ من الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" : طولها ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "العزيزىّ" : ولها أعمال واسعة ،

(١) أوردها فى "معجم البلدان" ونص على اهمال الظاء وأنها بصيغة التصغير .

و بينها و بين اللاذِقيَّة آثنا عشر ميلا ، و بينها و بين أنْطَاكِيَةَ ثمـانية وأربعون ميلا ، وبها مقام إبراهيم بن أدهم رحمه الله .

السادس ـ (عمل أَنَفَة) ـ بفتح الهمزة المقصورة والنون والفاء وبهاء فى الآخر ـ وهى بلدة على البحر الرومىّ تردها المراكب بقِلّة .

القـاعدة الخامسـة

(من قواعد المملكة الشامية صَفَدُ، وفيها جملتان)

الجمـلة الأولى

(فى حاضرتهـا)

وهى بفتح الصـاد المهـملة والفـاء وتاء مثناة فوقُ فى آخرها . هكذا ضـبطه فى "تقويم البُلْدان" . ثم قال : والمشهور على ألسـنة الناس أن مكان التـاء دالا مهملة ؛ وهى مدينة من جُنْد الأُرْدُنِّ، واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الزيج" . طولهـا سبع وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة، وعرضها آثنان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة متوسطة بين الكِبَر والصِّـغَر، وذكر العثمانىّ فى "تاريخ صفد" : أنه كان مكانها أوّلا قرية وأصل الصَّفَت فى لغتهم العطية، سميت بذلك لأن الفرنج أعطتْها للطائفة الدموية منهم لا يشاركهم فيها أحد . قال : وقد تكون سميت بذلك أخذا من الصَّفَد، وهو الغُل لأن صاحب الغل يمتنع من الحركة ويلزم موضعه ، وكذلك هذا البلد لأنها فى جبل عال لا يتمكن ساكنه من الحركة فى كل وقت، إن ركب تعب وإن مشى على قدمه آختلط لحمه بدمه لصـعود الربوة وهبوط الوهدة، فيستقرّ فى مكانها ويقنع بالنظر، ورَبَضُها منتشر العمارة على ثلاثة أجبل، وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادى لقلة

الماء بها وسوء بناء حَمّاماتها، وبساتينها تحتها فى الوادى إلىٰ جهة بحيرة طَبَرِيَّةَ، وكل مايوجد فى دِمَشْقَ يوجد فيها: إما من بلادها، وإما مجلوب إليها من دِمَشْقَ؛ ونيابتها نيابة جليـلة ونائبها من أكبر الأمراء المقدّمين؛ ولها قلعة حصينة ذات بساتين تُشْرِف علىٰ بحيرة طَبَرِيَّةَ، يَحُفُّ بها جبال وأودية. قال ٱبن الواسطى: بنتها الفرنج سنة خمس وتسعين وأربعمائة. ولمـا فتحها الظاهر بيبرس رحمه الله عظم شأنها ورفع مقدارها. قال فى "مسالك الأبصـار": وهى جديرة بالتعظيم فقلَّ أن يُوجَد لهـا شبيه، ولا يعلم لهـا نظير. ولهذه القلعة نائب مستقلٌّ من قِبَـلِ السلطان يولَّى من الأبواب الشريفة بمرسوم شريف؛ وعادته أن يكون من أمراء الطبلخاناه، ولا حكم لنائب السلطنة بالبلد عليه بل هو مستقل بنفسه كما فى نائب قلعتى دمَشْقَ وحَلَبَ.

الجملة الثـانية

(فى نواحيهـا وأعمالهـا)

قال فى "التعريف": وحدّها من القبلة الغَوْرُ حيث جَسْر الصِّنَّبْرَةِ من وراء طَبَرِيَّةَ؛ وحدّها من المشرق المَلَّاحة الفاصلة بين بلاد الشقيف وبين حُولَةَ بانياس؛ وحدّها من الشمال نهـر ليطا، وحدّها من الغرب البحر. وليس فى أعمالهـا نيابة أصلا. وقد ذكر لهـا فى "مسالك الأبصار": أحد عشر عملا.

الأوّل ــ (عمل برّها) ــ كما فى دِمَشْقَ وحَلَبَ وغيرهما من القواعد المتقدّمة.

الثـانى ــ (عمل النَّاصِرَةِ) ــ بالألف واللام اللازمتين ونون مفتوحة بعدها ألف ثم صاد مهملة مكسورة وراء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر ــ وهى بليدة صـغيرة قال فى "الروض المعطار": علىٰ ثلاثة عشر ميـلا من طَبَرِيَّةَ. قال: ويقال: إن المسيح عليه السـلام ولد بها، وأهل القُدُسِ ينكرون ذلك ويذكرون أنها ولدته

بالقُدُس ، والمعروف أن أمه حين عادت به من مصر إلىٰ الشام وعمره يومئذ ٱثنتا عشرة سنة نزلت به القرية المذكورة ،وهى اليوم منبع الطائفة النصيرية . والذى ذكره العثمانىّ فى "تاريخ صَفَد" : أن أهل هذه البلاد منسوبون إلىٰ الدين .

الثالث — (عمل طَبَرِيَّةَ) — بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وكسر الراء المهملة وفتح الياء المثناة تحت وتشديدها وهاء فى الآخر — وهى مدينة من جُنْد الأُرْدُنّ بناها طبريون(١) أحد ملوك اليونان البطالسة فعُرِفت به ثم عربت طبرية ، والنسبة إليها طبرانىّ للفرق بينها و بين طَبَرِسْتَانَ من نواحى بلاد الشرق حيث ينسب إليها طَبَرِىٌّ ؛ وموقعها فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" : وطولها ثمان وخمسون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وعَرْضها ٱثنتان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وقال فى "رسم المعمور" : طولها سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعرضها ٱثنتان وثلاثون درجة ، وتبعه ٱبن سعيد علىٰ ذلك . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وعرضها ٱثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وهى فى الغَوْرِ فى سفح جبل علىٰ بحيرتها المتقدّمة الذكر فى بُحَيرات الشام . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن عملها قَدَسُ . قال : وكان معها قديما السَّوادُ و بَيْسانُ ثم خرجا عنها . قال العثمانىّ فى "تاريخ صفد" : ومن ولايتها البَطِيحة وكَفْر عاقب .

الرابع — (عمل تِبْنِينَ وهُونِينَ) — بعطف الثانى علىٰ الأوّل .

فأما تِبْنِينُ ، فبتاء مثناة فوقُ مكسورة و باء موحدة ساكنة ونون مكسورة و ياء مثناة تحتُ ساكنة ونون فى الآخر .

---

(١) فى معجم البلدان "طبارا" .

وأما هُونِينُ ، فبهاء مضمومة وواو ساكنة ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحتُ ساكنة ونون فى الآخر . قال فى "مسالك الأبصار" : وهما حصنان بُنِيَا بعد الخمسمائة بين صُورَ وبانِياسَ بجبل عاملةَ المتقدّم ذكره فى جبال الشام المشهورة، وجعل العثمانىّ فى "تاريخ صَفَد" قلعة هُونِينَ من عمل الشَّقِيف، وأهل هذا العمل شِيعةٌ رافضة .

الخامس — (عمل عَثْلِيث) — بفتح العين المهملة وإسكان الثاء المثلثة وكسر اللام وسكون الياء المثناة تحت وثاء مثلثة فى الآخر — وهى كورة بين قاقُونَ وعَكَّا، فيها قُرًى متسعة وليس بها مقرّ ولاية معلوم . قال العثمانىّ فى "تاريخ صَفَد" : وفى آخر هذا العمل بلاد قاقُونَ وهو آخر الأعمال الصفَدِيَّة .

السادس — (عمل عَكَّا) — بفتح العين المهملة وتشديد الكاف المفتوحة وألف فى الآخر — وهى مدينة من سواحل الشام . قال العثمانىّ فى "تاريخ صَفَد" : بَنَاها عبد الملك بن مَرْوان ، ثم غلبت عليها الفرنج، ثم ٱنتزعها منهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم غلبوا عليها ثانيا، ثم ٱستُرْجِعت . وهى واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة وخمس وعشرون دقيقة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وقيل غير ذلك ؛ وقد خَرِبت بعد أن ٱسترجعها المسلمون من الفرنج فى سنة تسعين وستمائة فى الدولة الأشرفية "خليل بن قلاوون" ؛ وبها مسجد ينسب لصالح عليه السلام ، وبينها وبين طَبَرِيَّةَ أربعة وعشرون ميلا ؛ وكانت هى قاعدةَ هذا الساحل قبل صَفَدَ . فلما خربت أقيمت صَفَدُ مقامها وصارت هى ولاية .

السابع ـ (عمل صُورَ) ـ بضم الصاد المهملة وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر ـ وهى مدينة قديمة بساحل دِمَشْقَ، واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة وثنتان وثلاثون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وخمس دقائق . وبناؤها من أعظم أبنية الدنيا ؛ وكانت من أحصن الحصون التى على ساحل البحر ؛ فلما فتحها المسلمون فى سنة تسعين وستمائة مع عكّا خَرَّبُوها خوفا أن يتحصن بها العدوّ، وهى خراب إلى الآن . ويقال إنها أقدم بلد بالساحل ، وإن عامة حكماء اليونان منها. قال الشريف الإدريسىّ : وكان بها مَرْسًى، يدخل إليه من تحت قنطرة عليها سِلْسِلة تمنع المراكب من الدخول . قال فى "التعريف" : وبصُورَ كنيسةٌ يقْصِدها ملوك من البحر عند تمليكهم فيُمَلَّكون ملوكَهم بها ، إذ لا يصح تمليكهم إلا منها . قال : وشرطهم أن يدخلوها عنوة ، ولذلك لا يزال عليها الرَّقْبَةُ، ومع ذلك يأتونها مباغتة فيقضون أرَبَهم منها ثم ينصرفون ؛ وسُكَّان هذا العمل رافضة لا يشهدون جمعةً ولا جماعة .

الثامن ـ (عمل الشَّاغُورِ) ـ بألف ولام لازمتين وشين معجمة مشدّدة مفتوحة بعدها ألف ثم غين معجمة مضمومة بعدها واو ساكنة وراء مهملة فى الآخر ـ وهى كُورَةٌ بين عكَّا وصَفَد والناصرة؛ بها قرى متسعة، وليس بها مقرّ ولاية معروف، وعدّها العثمانىّ فى "تاريخ صَفَد" شاغورين (١) .

أحدهما ـ شاغور البعنة (٢) . وهو جبل به قُرًى عامرة . قال : وبالبعنة (٢) دير به مصطبة إذا بات عليها مَنْ به جنون شُفِى بإذن الله .

(١) فى الضوء "وجعلها" وهى أوضح .
(٢) كذا فى الأصل باهمال حروفها ـ و فى الضوء "النعبة" ولم نجدها بعد البحث .

والثانى – شاغور غرابة، وفيه عدّة قرى، وبه مقام أولاد يعقوب عليه السلام، وهو من المَزارات المشهورة .

التاسع – (عمل الإقْليم) – بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام وسكون الياء المثناة تحت وميم فى الآخر – وهى كورة بين دِمَشْق والشَّعْر والخُرْبة، بها قرى متسعة وليس بها مقرّ ولاية .

العاشر – (عمل الشَّقِيف) – بفتح الشين المعجمة وكسر القاف وسكون الياء المثناة تحت ثم فاء – ويُعرف بشَقِيف أَرْنُونَ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو ثم نون فى الآخر) . قال فى "المشترك" : وهو آسم رجل أضيف الشقِيفُ إليـه ، ويُعرف أيضا بالشَّقِيف الكبير . وهو حصن بين دِمَشْق والساحل، بعضه مَغَارة منحوتة فى الصخر، وبعضه له سُور . وهو فى غاية الحَصَانة وعلى القرب منه شَقِيف آخَر يعرف بشقيف تِيرُونَ (بكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحتُ وضم الراء المهملة وسكون الواو ونون فى الآخر) وهى قلعة حصينة من جُنْد الأُرْدُنّ على مَسيرة يوم من صَفَد فى سَمْت الشمال . قال فى "مسالك الأبصار": وليست من بلاد صَفَد، وأهل هذا العمل رافضة .

الحادى عشر – (عمل جِينِينَ) – بجيم مكسورة وياء مثناة تحتُ ساكنةٍ ونون مكسورة ومثناة تحتُ ثانية ساكنة ونون فى الآخر – وهى بلدة قديمة متسعة، وهى مُرَكَّبة على كتف واد لطيف به نهر ماء يجرى؛ وهى فى الشمال عن قاقُونَ على نحو مرحلة، فى رأس مَرْج بنى عامر، وبها مقام دِحْيَةَ الكلبىّ: صاحبِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم !

ومن أعمالها (اللَّجُونُ) . قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح اللام المشدّدة وضم الجيم المشدّدة . وهى قرية قديمة فى جهة الغرب عن بَيْسَانَ، على نصف مرحلة منها .

قال فى "كتاب الأطوال" : موضعها حيث الطول سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرضُ آثنتان وثلاثون درجة، وبالجُون مقام الخليل عليه السلام، وبها ينزل الملوك على مصطبة هناك معدّة لذلك . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن عملها (قَدَس)، وكان معها قديما (السَّواد وبَيْسانُ) وخرجا عنها، ثم قال : ومما يذكر فيها (حَيْفَا). وهى خراب على الساحل، و (قلعة كَوْكب). وهى التى يقول فيها العماد الأصفهانى : راسية راسخة، شمّاء شامخة . وقلعة (الطور) وهى مفردة على جبل الطُّور، بناها العادل أبو بكر بن أيوب ثم غلبه عليها الفرنج فهدمها .

قلت : وآقتصر فى "التعريف" : على ولاية بَرّصَفَد وولاية الشَّقِيف، وولاية جِينِين، وولاية عَكّا، وولاية النَّاصِرَة، وولاية صُور، من غير زيادة على ذلك .

القاعدة السادسة

(من قواعد المملكة الشامية الكَرَكُ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(فى حاضرتها)

وهى بفتح الكاف والراء المهملة ثم كاف ثانية، والألف واللام فى أوّلها غير لازمتين . وتعرف بكَرَك الشَّوْبَكِ لمقاربتها لها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من البَلْقاء وَهْما، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال آبن سعيد : وطُولها سبع وخمسون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة وخمسون دقيقة، وعرضَها إحدى وثلاثون درجة وخمس دقائق . وهى مدينة محدَثَة البناء كانت دَيْرا يتَدَيّره رُهْبان، ثم كَثُروا فكَبّروا بناءه وأوى إليهم من يجاورهم من النصارى، فقامت

لهم به أسواق ودرّت لهم فيـه معايِشُ، وأوَتْ إليه الفِرنج فأداروا أسواره فصارت مدينة عظيمة، ثم بنَوْا به قلعة حصينة من أجلّ المعاقل وأحصنها، وبقى الفرنج مستولين عليه حتّى فتحه السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" رحمه الله على يد أخيه العادل أبى بكر .

قال فى "التعريف" : وكانوا قد عملوا فيـه مراكب ونقلوها إلى بحر القُلْزُم لقصد الحجـاز الشريف لأمور سـوّلتها لهم أنفسهم ، فأوقع الله تعـالى بهـم العزائم الصلاحية، والهمم العادلية، فأُخِذُوا، وأَمَر بهم السلطانُ صلاح الدين فحملوا إلى منًى ونُحِروا بها على جَمْرة العقبة حيث تُنْحَر البُدْنُ بها، واستمرّت بأيدى المسلمين من يومئذ واتخذها ملوك الإسلام حِرْزا، ولأموالهم كَنْزا، ولم يزل الملوك يستخلفون بها أولادهم ويُعِدّونها لمخاوفهم، وهو بلد خِصْب، بِوَاديه حَمَّام وبساتين كثيرة وفواكه مفضّلة.
قال البلاذرىّ فى "فتوح البُلْدان" : وكانت مدينة هذه الكُورة فى القديم الغُرُنْدُلَ .

الجملة الثانيـــــة
(فى نواحيهـا وأعمالهـا)

قال فى "التعريف" : وحدّها من القِبْلة عَقَبة الصَّوّان، وحدّها من الشرق بلاد البلقاء، وحدّها من الشَّمال بحيرة سَدُوم المتقدّم ذكرها ، وحدّها من الغرب تِيهُ بنى إسرائيل . ولها أربعة أعمال .

الأوّل ـ (عمل بَرّها) المختص ببلادها كما فى غيرها من القواعد المتقدّمة .

الثانى ـ (عمل الشَّوْبَكِ) ـ بألف ولام لازمتين وفتح الشين المعجمة المشدّدة وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وكاف فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من جبل الشَّراة، وموقعها فى الإقليم الثالث . قال ابن سعيد : طولها ست وخمسون

درجة، وعَرْضُها إحدىٰ وثلاثون درجة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ثمانٌ وخمسون درجة ، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة . وهى بلدة صغيرة أكثر دخولا فى البر من الكَرَك، ذاتُ عيون وجداولَ تجرى ، وبساتينَ وأشجار ، وفواكه مختلفة . قال فى "العزيزى" : ولها قلعة مبنية بالحجر الأبيض علىٰ تَلٍّ مرتفع أبيض مطلٍّ علىٰ الغَوْرِ من شرقيه . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويَنْبُعُ من تحت قلعتها عينان : إحداهما عن يمينها والأخرىٰ عن يسارها كالعينين للوجه يجريان للبلد ، ومنهما شرب أهلها وبساتينها . قال : وكانت بأيدى الفرنج مع الكَرَك وفتحت بفتحها ، وأقطعها السلطان صلاح الدين مع الكَرَك لأخيه العادل فأعطاهما لآبنه المعظَّم عيسىٰ ، فآعتنىٰ بأمرهما وجلب إلىٰ الشَّوْبَكِ غرائبَ الأشجار حتّٰى تركها تُضاهِي دِمَشْقَ فى بساتينها وتَدَفُّقِ أنهارها وتزيد بطيب مائها .

قلت : وذكر فى " مسالك الأبصار " : لها عملين آخرين .

الثالث — (عمل زُغَرَ) — بضم الزاى وفتح الغين المعجمتين وفى آخرها راء مهملة — وهى مدينة قديمة متصلة بالبادية سميت بِزُغَرَ بنت لوط عليه السلام . قال فى " تقويم البلدان " : وهى حيث الطول سبع وخمسون درجة وعشر دقائق ، والعرض ثلاثون درجة وكسر .

الرابع — (عمل مُعَانَ)(١) بضم الميم وفتح العين المهملة وألف ثم نون . قال آبن حوقل : وهى مدينة صغيرة كان يسكنها بنو أُمَيَّةَ ومواليهم . قال فى " مسالك الأبصار " : وقد خربت هى وعملها ولم يبق بها أحد ، وتعرف بمُعَانِ بن لوط عليه السلام . قال فى "كتاب الأطوال" : وهى حيث الطول سبع وخمسون درجة والعرض ثلاثون درجة . قال فى " تقويم البُلْدان" : وبينها وبين الشَّوْبَك مرحلة .

---

(١) ضبطها ياقوت بالفتح ثم قال "والمحدثون يروونه بالضم" .

الطَّـــــرَف الثـانى

(من الفصل الثانى، من الباب الثالث، من المقالة الثانية، فيمن مَلَكَ البلاد الشامية ؛ وملوكُها علىٰ قسمين)

القســـــــم الأوّل

(ملوكها قبل الإسلام)

ولم يزل مجموعا قبل الإسلام لملك واحد : إما بمفرده وإما مع غيره .

وملوكه فى الجاهلية علىٰ أربع طَبَقات (١) .

الطبقـــة الأولى

(ملوكها من الكَنْعَانِيِّينَ)

وهم بنو كَنْعَان بن مازيع بن حام بن نوح عليه السلام ، وقيل هم من ولد سام ابن نوح . وكان كَنْعَانُ قد نزل الشأم بجهة فِلَسْطِينَ عند تبلبل الألسنة بعد الطُّوفان ، وتوارثها بَنُوه بعد ذلك ، وكان كل مَنْ ملك منهم يلقب بجالُوتَ إلىٰ أن آنتهىٰ المُلْكُ إلىٰ رجل منهم آسمه كلياذ ، وهو جالوتُ الذى قتله داود عليه السلام ، وبقتله تفرّق بنو كَنْعانَ وبادَ مُلْكُهم وزال . وكان فى خلال ذلك بتَيْمَاءَ من أطراف الشأم ملوك من العَمَالقة ، وهم بنو عِمْليق بن لاوَذ (٢) بن سام بن نوح عليه السلام ، آنتقلوا إليه من الحجاز ، وهم الذين قاتلهم موسىٰ عليه السلام ؛ وكان آخِرَ من ملك منهم الشأمَ والحجازَ الأرقمُ بن الأرقم الذى قتله بنو إسرائيل حين وجَّهَهم موسىٰ عليه السلام فى آخر عمره إلىٰ الحِجاز علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك المدينة إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) المعدود خمس .

(٢) فى القاموس "لاوذ بن إرم بن سام" .

الطبقة الثانيـــة

(ملوكها من بنى إسرائيـــل)

وأوّلهم (طالوتُ) الذى ذكره الله تعالىٰ فى القرءان بقوله : ﴿إِنَّ اللّٰهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وآسمه شاول[(١)] بن قيس، ولم يكن لهم قبل ذلك مَلِك بل حُكَّام وقُضاة يحكمون؛ وبقِىَ حتّٰى قتل فى قتال الفِلَسْطِينِيِّينَ .

وملك بعده (داودُ عليه السلام) وكانت دارُ ملكه بالقُدْس؛ وفتح فتوحات كثيرة من أرض فِلَسْطِينَ وعُمَـانَ ومآرِب وحَلَبَ ونَصِيبِينَ وغير ذلك، فأقام فى الملك أربعين سنة .

وتولّٰى ذلك بعده آبنه (سُلَيْمَانُ عليه السلام) وعمره آثنتا عشرة ســنة، وعَمَر بيت المَقْدِس وفَرَغ منه فى سبع سنين، وتُوُفِّى لأربعين سنة من ملكه .

وملك بعده آبنه (رُحُبْعُم) علىٰ سِبْطَيْنِ من بنى إسرائيل خاصَّةً، وخرج عنه عشرة أسباط فملَّكوا عليهم غيره، وبقى فى الملك سبعَ عشرةَ سنة .

[وملك بعده آبنه (أَبِيا) وهلك لثلاث سنين][(٢)] .

وملك بعده آبنه (أَسَا) إحدىٰ وأربعين سنة وتوفى .

فملك بعده آبنه (يَهُوشافاط) خمسا وعشرين سنة وتوفى .

فملك بعده آبنه (يَهُورام) ثمـان سنين وتوفى .

فملك بعده آبنه (أَحُزْيَاهُو) ستين سنة، وتُوُفِّى فبقى المُلْك شاغِرًا فحكَمَتْ فيه آمرأة ساحرة آسمها غثليا[(٣)] فقامت فى الملك سبع سنين .

---

(١) كذا فى حاشية الجمل أيضا وفى "مروج الذهب" "ساود بن بشر" وهو تصحيف .
(٢) الزيادة عن آبن خلدون فى العبر (ج ٢ ص ١٠١) .
(٣) أفاد فى العبر أنها أم أحزياهو .

ثم ملك بعدها (يُوَاشُ) فأقام فى الملك أربعين سنة ومات .

فملك بعده آبنه (أَمَصْياهُو) تسعا وعشرين سنة وتوفى .

فملك بعده (عُزِّيَاهُو) آثنتين وخمسين سنة وتوفى .

فملك بعده آبنه (يؤثم)(١) ستَّ عشرةَ سنة ،ويقال إن يونس عليه السلام كان فى زمنه .

ثم ملك بعده آبنه (آحَاز) ستَّ عشرةَ سنة أيضا ، وكانت الحرب بينه و بين ملك دِمَشْقَ ، وفى زمنه كان شُعَيْبٌ عليه السلام ، وتوفى .

فملك بعده آبنه (هُوحِزْقِيَّا) وآنقاد له بقيةُ الأسباط فملك جميعَهُم ، وأقام فى الملك تسعا وعشرين سنة ثم توفى .

فملك بعده آبنه (مَنَشَّا) خمسا وخمسين سنة ثم توفى .

فملك بعده آبنه (أَمُون) سنتين [وقيل ثنتى عشرة](٢) سنة وتوفى .

فملك بعده آبنه (يُوشِيَا) إحدىٰ وثلاثين سنة ، وجدّد عمارة بيت المقدس ، ثم توفى .

فملك بعده آبنه (يهوياجور) ثلاثة أشهر ، وغزاه فرعون مصر فأخذه أسيرا .

وملك بعـــده أخوه (يهوياقِيم) إحدىٰ عشرة سنة ودخل تحت طاعة بُخْتَنَصَّرَ ، ثم آستخلف بُخْتَنَصَّر مكانه آبنَه (يُخْنِيُو) بن يهوياقيم فأقام مائة يوم .

ثم آستخلف مكانه عَمَّه (صِدْقِيا) إحدىٰ عشرة ســنة ، فأقام علىٰ طاعة بخْتَنَصَّر تسع سنين ، ثم عصىٰ عليه فجهز إليه جيشا ففتح المَقْدِسَ بالسيف وحَرَّقه وهدَمَ بيت المَقْدِس الذى بناه سليمان عليــه السلام وأخذ صدقيا المذكورَ أسيرا ، وهو آخر من ملك منهم . وإلىٰ ذلك الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَـا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ الآية .

---

(١) فى العبر ''يؤاب'' . (٢) الزيادة عن آبن خلدون فى ''العبر'' .

الطبقة الثالثـــــــة

(ملوكها من الفُرْس)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ملوك مصر أن بُخْتَ نَصَّر كان نائبا لبهراسف ملك الفُرْس إلىٰ حين غلبته علىٰ الشام فآستقرّ الشأم فى مملكة الفُرْس مع مصر من لدن بهراسف المذكور إلىٰ غلبة الإسْكَنْدَر علىٰ دَارَا ملكِ الفُرْس علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ ملوك مصر، وفى خلال ذلك عُمِر بيت المَقْدِس بعد أن بقى سبعين سنةً خرابا من تخريب بُخْتَ نَصَّر . وآختلف فيمن عَمَره، فقيل أردشير، وقيل آبنه دارا ؛ واليهود تسمّى الذى عَمَره من الفُرْس كِيرش ويقال كُورش .

الطبقة الرابعـــــــة

(ملوكها من اليونان)

وأوّل من ملك الشَّأْمَ منهـم الإسْكَنْدَرُ بن فيلبس حين ظهر علىٰ ملوك الفُرْس مضافا إلىٰ مصر، وبقى علىٰ ذلك حتّى مات، فملك بعضَ الشام مع العراق انطياخس، وملك بعضَــه مع مصر البَطَالســةُ من ملوك اليونان من ولد بطليموس المنطيق إلىٰ حين آنقراضهم بقتــل أغشطش ملك الروم قُلُوبطرا آخر ملوكهم بمصر علىٰ ما تقــدّم ذكره فى الكلام علىٰ ملوك الديار المصرية .

الطبقة الخامســـــة

(ملوكها من الروم)

وأوّل مــن ملكها منهم أغشطش المقدّم ذكره حين غلب علىٰ قلوبطرا آخر ملوكهم، وبقى بأيدى الرُّوم إلىٰ حين الفتح الإسلامىّ، يتداولونه مع مصر مَلِكا بعد ملك علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ ملوك الديار المصرية .

القســـم الثـانى

(من ملوك الشام ملوكُه[1] فى الإسلام؛ وهم علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(عُمَّال الصحابة رضوان الله عليهم فمَنْ بعدهم من نُوَّاب الخلفاء
إلىٰ حين آستيلاء الملوك عليه)

وأوّل من وليه فى الإسلام (أبو عُبَيْدَةَ بنُ الجرّاح) رضى الله عنه، عند فتحه فى خلافة أمير المؤمنين: عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه، ثم صُرِف عنه ووليه (مُعاويةُ بن أبى سفيان) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا، فبقىَ إلىٰ أن سلَّم الحسنُ إليه الأمرَ ونزل له عن الخلافة فى سنة إحدىٰ وأربعين من الهجرة، وتوالَتْ عليه خلفاء بنى أُمَيَّةَ، وآختاروه دارا لخلافتهم من لدن معاوية وإلىٰ آنقراض دولتهم بقتل (مَرْوَانَ بن محمد) آخر خلفائهم علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ مَنْ ولى الخلافة .

ثم كانت دولة بنى العباس فولِيَها فى خلافة السَّفَّاح عَمُّه (عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن عباس) فى سنة آثنتين وثلاثين ومائة، فبقىَ أيامَ السفَّاح وبعضَ أيام المنصور بعده، ثم صرفه المنصور بولاية (أبى مسلم الخراسانى) الشامَ ومصر فى سنة سبع وثلاثين ومائة، ثم قتله المنصور بعد ذلك فى السنة المذكورة . وتوالى عليه بعد ذلك عُمَّال خلفاء بنى العباس إلىٰ أن وليها (عبد الصمد) بن علىّ، ثم عزله الرشيد وولّى مكانه (إبراهيمَ بن صالح بن علىّ) ثم توالت عليه العُمَّال إلىٰ أن غلب عليه (أحمد بن طولون) مع مصر علىٰ ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

---

١) سلك فى التعبير عن الشأم سبيلى التأنيث والتذكير، والأمر واضح .

الضرب الثانى
(مَنْ وليها مُلْكا)

قد تقدّم أن القواعد العِظام بالشأم ستٌّ قواعد : وهى دِمَشْق ، وحَلَب ، وحَمَاة ، وأَطْرَابُلُس ، وصَفَد ، والكَرَك . وكل قاعدة من القواعد الست تشتمل على مملكة .

فأما (دِمَشْق) فأوّل ملوكها (أحمد بن طُولُون) صاحب مصر بعد موت مُقْطَعها أماجور فى سنة أربع وستين ومائتين ؛ وذلك أوّل آجتماع مصر والشأم لملك واحد فى الإسلام ؛ ثم ملكها بعده مع مصر آبنه (خُمَارَوَيْه)؛ ثم (هارون بن خماروِيه)(١) ، وكان طغج بن جف نائبا عنهما بها ، وفى أيام هارون تغلبت القرامطةُ على دِمَشْق ؛ ثم آنتزعها منهم (المكتفِى بالله) خليفةُ بَغْدادَ فى سنة إحدى وتسعين ومائتين ، وأقام عليها (أحمد بن كيغلغ) أميرا ، فبقى بها بقية أيام المكتفى ، ثم أيام المقتدر ، ثم أيام الظاهر . فلما وَلِىَ الراضى الخلافةَ ، عزله عنها فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة ، وولّى عليها (الأخشيد) وهو محمد بن طغج بن جف ، وذلك قبل أن يلِىَ مصر فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة فآستناب على دِمَشْق بدرا الأخشيدىّ ، فانتزعها منه (محمد بن رائق) فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة ، وآستخلف عليها (أبا الحسين أحمد بن علىّ بن مقاتل) فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، ثم آنتزعها منه (الأخشيد) المقدّم ذكره بعد ذلك وبقيت معه حتّى مات فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، فوليها بعده آبنه (أُنُوجُور) وهو صغير ، وقام بتدبير دولته كافور الأخشيدىّ الخادم ، ثم آنتزعها منه (سيف الدولة بن حَمْدَان) صاحبُ حَلَبَ الآتى ذكره ، ثم آنتزعها منه (كافور الأخشيدىّ) المقدّم ذكره وولّى عليها بدرا الأخشيدىّ الذى كان بها أوّلا ، فأقام بها سنة ؛ ثم وليها (أبو المظفّر

(١) لعله سقط قبله "جيش بن خمارويه" فان ابن طغج كان نائبا عن جيش وهارون كما يؤخذ مما سيأتى له فى الكلام على حلب .

ٱبن طغج)؛ ثم لـما مات أنوجور بن طغج، ملكها مع مصر أخوه (علىّ بن طغج) ثم (كافور) بعده، ثم (أحمد بن علىّ بن الأخشيد) بعده، وهو آخر مَنْ ملك منهم علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ ملوك مصر .

* * *

ثم كانت الدولة الفاطمية بمصر: فملكها (جوهرٌ) قائد المُعِزّ الفاطمىّ وخطب بها لمولاه المُعِز وأذَّنَ بحىَّ علىٰ خير العمل فى سـنة تسع وخمسين وثلثمائة ، وقطعت الخطبة العبّاسية منها، وأقام بها جعفر بن فلاح نائبا، ثم تغلبت القرامطةُ عليها فى سنة ستين وثلثمائة، ثم ٱقتلعها منهم (المُعِزّ) وولّى عليها رَيَّان الخادم؛ ثم غلب عليها (افتكين) مولىٰ معز الدولة بن بويه الدّيلمىّ ، وقطع الخطبة منهـا للمُعِزّ الفاطمىّ ، وخطب لخليفة بغداد فى سـنة أربع وستين وثلثمائة؛ ثم ٱنتزعها (المعز الفاطمىّ) بعد ذلك وقبض عليـه وأحضره معه إلىٰ مصر؛ ثم بعد موت المعز وولاية ٱبنه العزيز تغلب عليها شخص ٱسمه (قسام) إلا أنه كان يخطب فيها للعزيز؛ ثم ٱنتزعها منه (العزيز) وقرر فيها (بكتكين) فى سنة ٱثنتين وسبعين وثلثمائة؛ ثم ٱنتزعها منه (بكجور) مولىٰ قَرْعويه صاحبُ حَلَبَ بأمر العزيز الفاطمىّ صاحب مصر فى سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة؛ ثم انتزعها منه وقرر فيها (منيرا الخادم) فى سنة سبع وسبعين وثلثمائة؛ ثم ٱستعمل الحـاكم بن العزيز الفاطمىّ عليها (أبا محمد الأسود) فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة، ثم ٱنتزعها منه (أنوش تكين) الدِّزْبِرىّ(١) بأمر المستنصر الفاطمىّ فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة، ثم أمرَ(٢) بالخروج عن طاعته فى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، فخرج عنها وفسد أمرها بذلك؛ ثم تغلب عليها (أتسز بن أرتق) الخوارزمىّ أحد أمراء السلطان

(١) الضبط عن أبى الفداء، ونسبه الىٰ دِزْبِر بن رويتم الديلمى .

(٢) أى أمرَ المستنصر أهل دمشق بالخروج عن طاعة الدزبرى .

ملكشاه السَّلْجُوقىّ فى سنة ثمان وستين وأربعمائة، وقطع الخطبةَ بها للمستنصر الفاطمىّ وخطب للمقتدى العباسىّ، ومنع من الأذان بحىّ علىٰ خير العمل، ولم يخطب بعد ذلك بالشام لأحد من الفاطميين، ثم غلب عليها (تُتُش بن ألب أرسلان) بن داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق، وملكها فى سنة إحدىٰ وتسعين وأربعمائة وتوفى؛ فملكها بعده ٱبنه (دقاق) وأشرك معه فى الخطبة أخاه رضوان صاحب حَلَب مقدّما لرضوان فى الذكر فى الخطبة بعد حربٍ جرت بينهما، وتوفى دقاق سنة تسع وتسعين وأربعمائة، فخطب طغتكين أتابك دولتـه لٱبن دقاق، وهو طفل عمره سنة واحدة، ثم قطع الخطبة له وخطب لعمه بلتـاش بن تُتُش، ثم قطع الخطبـة لبلتاش وأعاد الخطبة للطفل، وهو آخر من خطب له بِدِمَشْقَ من بنى سلجوق؛ ثم ٱستقر (طغتكين) المقدّم ذكره فى ملك دِمَشْقَ بنفسـه، وبقى حتّٰى توفى فى سنة ٱثنتين وعشرين وخمسمائة؛ وملك بعـده ٱبنه (تاج الملوك تورى) بعهد من أبيه، وتوفى سـنة ست وعشرين وخمسمائة؛ وملك بعده ٱبنه (شمس الملوك إسماعيل) بعهد من أبيه.

ثم ملك بعـده أخوه (شهاب الدين محمود بن تورى) فبقى حتّٰى قتل فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وملك بعـده ٱبنه (مجير الدين أرتق) وفى أيامه تغلبت الفرنج علىٰ ناحية دِمَشْقَ.

ثم ٱنتزعها منهم الملك العادل (نورالدين محمود بن زنكى) المعروف بنورالدين الشهيد وملكها فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وٱجتمع له ملكُ سائر الشام معها، وهو الذى بنىٰ أسوار مدن الشام حين وقعت بالزلازل كدِمَشْقَ وحَمَاة وحِمْص وحَلَب وشَـيْزَر وبَعْلَبَكّ وغيرها؛ وتوفى فملك بعده ٱبنه (الملك الصالح إسماعيل) وعمره إحدىٰ عشرة سنة، وبقى بها حتّٰى ٱنتزعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) صاحبُ مصر فى سنة سبعين وخمسمائة، وقرر فيها أخاه سيفَ الإسلام طغتكين بن أيوب؛

ثم آستخلف عليها السلطان صلاح الدين بعد ذلك آبن أخيه عزّ الدين (فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب) فى سـنة ست وسبعين وخمسمائة ؛ ثم صرفه عنها وقرّر فيها آبنه الملك الأفضـل (نورَ الدين عليا) ؛ وهو الذى وُزِّر له الوزير ضـياء الدين بن الأثير صاحب "المثل السائر" .

ثم آنتزعها منه أخوه الملك العزيز (عثمان آبن السلطان صلاح الدين) صاحب مصر بعد وفاة أبيه بمعاضدة عمه العادل أبى بكر فى سنة آثنتين وتسعين وخمسمائة، والخليفةُ يومئذ ببغداد الناصرُ لدين الله . وكان يميل إلىٰ التشيُّع ، فكتب إليه الأفضل علىّ يستجيشه علىٰ أخيه العزيز عثمانَ وعمه العادل أبى بكر، من شعره :

مَوْلاَىَ ! إنّ أبا بَكْرٍ وصَاحِبَه * عُثْمَانَ قد غَصَبَا بالسَّيْفِ حَقَّ عَلِى !
فانْظُرْ إلىٰ حَظِّ هذا الاسْمِ كَيْفَ لَقِى * من الأوَاخِرِ ما لاَقىٰ منَ الأُوَل !

فكتب إليه الناصر لدين الله فى جوابه :

غَصَبُوا عَلِيًّا حَقَّهُ إذْ لَمْ يَكُنْ * بَعْدَ النبِىِّ له بيَـثْرِبَ نَاصِرُ
فاصْبِرْ فإنَّ غَدًا عَلَيكَ حِسَابُهُمْ * وآبْشِرْ فَنَاصِرُكَ الإمَامُ النَّاصِرُ !

ولكنه لم يجاوز القولَ إلىٰ الفعل ؛ ثم سلمها العزيز بعد ذلك لعمه (العادل أبى بكر) فقرّر فيها آبنه الملك المعظم عيسىٰ مضافة إلىٰ ما بيده من الكَرَكِ والشَّوْبَك ، وكان يخطب فيهـا لأبيه العادل ، ثم لأخيه الكامل محمد صاحبِ مِصْرَ ، وبقى حتّٰى توفى فى سنة أربع وعشرين وستمائة ؛ وملك بعده آبنه (الملك الناصر صلاح الدين داود)، وهو صغير .

ثم آنتزعها منه الملك الناصر (محمد بن العادل أبى بكر) صاحب مصر وآستخلف فيها أخاه الملك الأشرف مظفر الدين موسىٰ بن العادل أبى بكر ، فبقى حتّٰى توفى فى سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وملكها بعده أخوه (الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبى بكر) بعهد منه [فانتزعها منه الملك الكامل بن العادل أبى بكر] (١) فى جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة وتوفى (٢) فى السنة المذكورة .

فملك بعده الملك الجواد (يونس بن (٣) مودود) بن العادل أبى بكر .

ثم انتزعها منه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن العادل أبى بكر فى سنة ست وثلاثين وستمائة، ثم أقام فيها الملكَ المغيثَ فتحَ الدين عمر نائبا عنه .

ثم انتزعها منه (الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبى بكر) صاحب بَعْلَبَكَّ فى سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ثم انتزعها منه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن الكامل محمد صاحب مصر وتسلمها له (معين الدين بن الشيخ) فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة وتوفى قبل أن يتسلمها فتسلَّمها له حسامُ الدين بن أبى علىّ فى السنة المذكورة، ولم تزل بيد نوّاب الصالح أيوب حتّى مات فى سنة سبع وأربعين وستمائة .

ثم ملكها بعد وفاته (الملك الناصر يوسف) بن العزيز محمد صاحب حَلَبَ فى سنة ثمان وأربعين وستمائة، فبقى بها إلى أن غلب عليها هُولاكُو فى سنة ثمان وخمسين وستمائة ؛ وكان آخر أمر الناصر المذكور أنه لحق بهُولاكو المذكور فأقام عنده مدّة ثم قتله .

* * *

ثم كانت الدولة التركية فملكها منهم (الملك المظفَّر قُطُز) صاحب مصر حين غلبته التتار على عين جالوت، ثم توالى عليها نُوَّاب ملوك الترك من لدن المظفر قُطُز وإلى

(١) الزيادة عن أبى الفداء ليستقيم الكلام .

(٢) أى الملك الكامل .

(٣) أى نائبا عن العادل بن الكامل .

سلطنة (النـاصر فرج) بن الظاهر برقوق فى زماننا على ما تقدّم ذكره فى الكلام على ملوك الديار المصرية ؛ ولم أقف على أسمـاء نُوّابها لطول المدّة وقلة ٱعتناء المؤرّخين بذكر أسمائهم .

***

وأما حَلَبُ فقد تقدّم أن منزلَ الجند فى ٱبتداء الإسلام كان بقِنَّسْرينَ ، ثم طرأت عليها حلب بعد ذلك وأضعفتها . ولعل ٱبتداء أمرها كان فى ٱبتداء الدولة الطُّولونية ، وقد كان أحمد بن طولون ٱستولى عليها حين ٱستيلائه على دِمَشْقَ وصارت فى ملكه تَبَعا للديار المصرية كدِمَشْقَ . وكان بها نوابه ثم نوّاب ٱبنه خُمَارَوَيْه ، ثم نوّاب جيش ٱبن خمـارويه ، ثم هارون بن خمارويه فى نيـابة طغج بن جفّ عن هارون وجيش المذكورين ؛ ثم كانت مع دِمَشْقَ فى نيابة أحمد بن كيغلغ ، ثم فى نيابة الأخشيد محمد ٱبن طغج بن جف قبـل أن يلىَ مصر ، ثم فى نيابة بدر الأخشيدى على ما تقـدّم فى الكلام على مملكة دِمَشْقَ .

ثم ٱنتزعها من بدر الأخشيدى (سيفُ الدولة بن حمدون) التغلبىّ الربعىّ ؛ وملكها فى سنة ثلاث وثلثمائة ، وبقى بها حتّى توفى فى سنة ست وخمسين وثلثمائة ؛ وملكها بعده ٱبنه (سعد الدولة أبو المعالى شريف) .

ثم ٱنتزعها منه (قرعويه) غلام أبيه فى سنة ثمـان وخمسين وثلثمائة ، ثم غلب عليها (بكجور) غلام قرعويه المذكور بعد ذلك وٱقتلعها منه .

ثم ٱنتزعها منه (سعد الدولة) المقدّم ذكره ، ثم تقلد بها أبو علىّ بن مروان من الخليفة الفاطمىّ يومئذ بمصر فى سنة ثمـانين وثلثمائة ولم يدخلها ، وبقيت بيد سعد الدولة المذكور حتّى توفى بالفالج فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة .

ثم ملك بعده ٱبنه (أبو الفضل) مكانه .

ثم ٱنتزعها منه (أبو نصر بن لؤلؤ) وخطب بها للحاكم الفاطمىّ، ثم أمره الحاكم بتسليمها إلىٰ نوّابه بها فتسلموها منه وٱستقرّت بأيديهم حتّٰى ٱنتهت إلىٰ نائب من نوّابه ٱسمه (عزيز الملك) فبقِىَ بها بقية أيام الحاكم وبعض أيام ٱبنه الظاهر، ثم وليها عن الظاهر رجل يقال له (ٱبن شعبان) ثم تغلب عليها (صالح بن مرداس) أمير بنى كلاب فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة؛ ثم قتل فى أيام الظاهر الفاطمىّ فملكها بعده (شبل الدولة نصر بن صالح).

ثم ٱنتزعها منه (أنوش تكين الدِّزْبِرِىّ) بأمر المستنصر العَلَوىّ فى شعبان سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وبقى حتّٰى توفى فى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة؛ وملكها بعده (معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس) ثم ملك قلعتها بعد ذلك فى سنة أربع وثلاثين وأربعمائة؛ ثم تسلمها منه مكين الدولة (الحسن بن علىّ بن ملهم) فى سنة تسع وأربعين وأربعمائة بصلح وقع بينه وبين الفاطميين علىٰ ذلك.

ثم ٱنتزعها منه (محمود بن شبل الدولة) بن صالح المقدّم ذكره، وملك قلعتها فى سنة ٱثنتين وخمسين وأربعمائة.

ثم ٱنتزعها منه (معز الدولة ثمال بن صالح) فى ربيع الأوّل سنة ٱثنتين وخمسين وأربعمائة، وبقى بها حتّٰى توفى فى ذى القَعْدة سنة أربع وخمسين وأربعمائة.

وملكها بعده أخوه (عطية بن صالح) فى السنة المذكورة.

ثم ٱنتزعها منه ٱبن أخيه (محمود بن شبل الدولة) المقدّم ذكره فى رمضان سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وبقى بها حتّٰى توفى فى ذى الحِجّة سنة ثمان وستين وأربعمائة.

وملكها بعده ٱبنه (نصر بن محمود) ثم قتله التُّرْكُمان.

وملكها بعده أخوه (سابق بن محمود).

ثم آنتزعها منه شرف الدولة (مسلم بن قريش) صاحب المَوْصِلِ، وقتل فى صفر سنة سبع وسبعين وأربعمائة .

وملكها بعده أخوه (إبراهيم بن قريش) .

ثم آنتزعها منه (تُتُش بن ألْب أرسلان) السَّلْجُوقىّ صاحب دِمَشْقَ فى السنة المذكورة .

ثم آنتزعها منه (السلطان ملكشاه السلجوقىّ) وسلمها إلىٰ قسيم الدولة آقسنقر؛ ثم آستعادها (تُتُش بن أَلْب أرسلان) المقدّم ذكره بعد موت ملكشاه وآستضافها إلىٰ دِمَشْقَ، وآنبسط ملكُه حتّىٰ ملك بعدُ ذلك أذْرَبِيجان، وبقى حتّىٰ قتل فى صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وملكها بعده آبنه (رِضْوان) فى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وبقى حتّىٰ توفى فى سنة سبع وخمسمائة .

وملكها بعده آبنه (سلطان شاه بن رِضْوان) .

ثم آنتزعها منه (ايلغازى بن أُرْتُق) صاحب مارِدِينَ وسلمها إلىٰ ولده حسام الدين تمرتاش، ثم غلب عليها (سليمان بن أرتق) وعصىٰ بها علىٰ أبيه فآنتزعها أبوه منه وسلّمها إلىٰ آبن أخيه (سليمان بن عبدالجَبَّار بن أرتق) فى رمضان سنة ست عشرة وخمسمائة .

ثم آنتزعها منه عمه (بلك بن بهرام بن أُرْتُق)، وبقى بها حتّىٰ قتل فى سنة سبع عشرة وخمسمائة، وملكها بعده آبن عمه (تِمرتاش بن ايلغازى) فى ربيع الأوّل من السنة المذكورة؛ ثم حاصرها الفرنج، وهى فى يده فخلصها منهم آقْسُنقر البُرْسُقىّ صاحب الموصل، وملَكَها مع مارِدينَ فى السنة المذكورة، وبقى حتّىٰ قتلته الباطنية فى سنة عشرين وخمسمائة .

وملكها بعده ٱبنه (عزالدين مسعود) وٱستخلف بها أميرا من أمرائه ٱسمه قايماز، ثم ٱستخلف عليها بعده رجلا ٱسمه كيغلغ .

ثم ٱنتزعها منه (سليمان بن عبد الجبار) بن أُرْتُق المقدّم ذكره .

ثم ٱنتزعها منه (عمادالدين زنكى): صاحب المَوْصِلِ فى المحرّم سنة ٱثنتين وعشرين وخمسمائة ، وملك معها حماةَ وحِمْصَ وبَعْلَبَكَّ، وبقى حتّى قتله غلمانُه فى ربيع الأول سنة إحدىٰ وأربعين وخمسمائة .

ثم ملك بعده ٱبنه الملك العادل (نور الدين محمود) وبقى إلىٰ أن توفِّى .

وملك بعده ٱبنه (الصالح إسماعيل) فبقى بها بعد ملك السلطان صلاح الدين يوسف ٱبن أيوب دِمَشْقَ حتّى توفِّى بها فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

وملكها بعده بوصية منه ٱبن عمه (عز الدين مسعود) بن مَوْدُود بن زنكى بن مودود فى السنة المذكورة .

ثم ٱنتزعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وقرّر فيها ٱبنه الظاهر غياثَ الدين غازى .

ثم ٱنتزعها منه وسلمها لأخيه (العادل أبى بكر بن أيوب) فى السنة المذكورة، ثم أعاد إليها ٱبنه الظاهر غازى المقدّم ذكره فى سنة ٱثنتين وثمانين وخمسمائة، فبقى بها حتّى توفِّى فى جمادىٰ الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة .

وملكها بعده ٱبنه (الملك العزيز محمد) فبقى بها حتّى توفِّى فى ربيع الأوّل سنة أربع وثلاثين وستمائة .

ثم ملكها بعده ٱبنه الملك (الناصر يوسف) وعمره سبع سنين ولم تزل بيده حتّى ٱستولت عليها التتار فى سنة ثمان وخمسين وستمائة .

* * *

ثم كانت الدولة التركية . فكان أوّل من ملكها من ملوك الترك (المظفَّر قُطُز) حين كسر التتار على عين جالوت على ما تقدّم ذكره فى الكلام على مملكة دِمَشْق ؛ ثم توالى عليها نوّاب ملوك الترك من لدن المظفر قطز وإلى زماننا فى سلطنة النـاصر فرج بن الظاهر برقوق على ماتقدّم ذكره فى الكلام على مملكة الديار المصرية .

* * *

وأما حماة . فقد تقدّم فى الكلام على قواعد الشام أن الذكر فى القديم إنمـا كان لِحِمْص، وإنما تنبّهت حماة فى الذكر فى الدولة الأتابكية : عمادالدين زنكى. وذلك أن حماة كانت تَبَعا لغيرها من المـالك ، تارة تضاف إلى دِمَشْـق، وتارة إلى حَلَب .

فكانت مع دِمَشْق بيد (طُغْتِكين) أتابك دولة رضوان بن تُتُش السلجوقىّ فى سنة تسع وخمسمائة .

ثم ٱنتزعها منه السلطان (محمد بن ملكشاه السلجوقىّ) فى السنة المذكورة، وسلمها للأمير (قيرخان بن قراجا) .

ثم ملكها (تورى بن طُغْتِكين) وقرر بها ٱبنه سونج فبقيت بيده حتّى ٱنتزعها منه عماد الدين زنكى فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة .

ثم ٱنتزعها منه بعد ذلك (تاج الملوك إسماعيل بن تورى) بن طُغْتِكين السلجوقىّ فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة .

ثم ملكها (العادل نور الدين محمود بن زنكى) مع دِمَشْق وحَلَب وغيرهما فى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة؛ ثم صـارت بعده مع غيرها من البلاد الشـامية إلى ٱبنه (الصالح إسمـاعيل) فبقيت بيده حتى ٱنتزعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف

آبن أيوب) فى سنة سبعين وخمسمائة، وقرّر فيها خاله شهاب الدين الحارمى، ثم قرّر فيها أخاه تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة، فبقيت بيده حتّى توفّى فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

فوليها بعده آبنه الملك المنصور (ناصر الدين محمد) فبقى بها حتّى آنتزعها منه أخوه (الملك المظفر محمود) فى سنة ست وعشرين وستمائة، فبقى بها حتّى توفى فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

ووليها بعده آبنه (الملك المنصور محمد) فبقى حتّى غلب عليها هُولاكُو ملك التتار مع دِمَشْقَ وحَلَبَ وغيرهما، فقرّر(١) بها المظفر قطز صاحب مصر بعد هزيمة التتار، فبقى بها حتّى توفى فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

فوليها بعده آبنه (المظفر شادى) عن المنصور قلاوون صاحب مصر بعهد منه، وبقى بها حتّى توفى فى سنة ثمان وتسعين وستمائة فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية .

فولّى الملك الناصر مكانه (قراسنقر) أحد أمرائه نائبا عليها، وكان العادل كتبغا بعد خلعه من السلطنة قد آستقرّ نائبا بصَرْخَدَ فنقله الملك الناصر محمد بن قلاوون إليها بعد هزيمة غازان ملك التتار، وجعله نائبا بها فى سنة آثنتين وسبعمائة، ومات بعد ذلك .

فولّى الملك الناصر مكانه فى نيابتها (قبجق) أحد أمرائه ثم صرفه عنها .

وولّى مكانه (أستدمر الكرجى) ثم صرفه عنها بعد عوده من الكَرَكَ .

وولّى فيها الملك المؤيد (عماد الدين إسماعيل) بن الأفضل علىّ بن المظفر عمر سلطنةً علىٰ عادة من تقدّمه فيها من الملوك الأيوبية، وكتب له بذلك عهدا عنه، فبقى بها إلىٰ أن توفّى فى سنة آثنتين وثلاثين وسبعمائة .

(١) الاولى "ثم قرره بها المظفر الخ" .

فولى السلطان الملك النـاصر مكانه ٱبنه (الملك الأفضل محمد) وكتب له بذلك عهدا أيضا، فبقى بها حتّى أزاله قُوصُون أتابك العساكر فى سلطنة المنصور أبى بكر ٱبن الناصر محمد بن قلاوون فى سنة إحدىٰ وأربعين وسبعمائة .

وولّى مكانه الأمير (طقزدمر) نائبا بها، وٱستقرّت نيابةً إلىٰ الآن، يتوالىٰ عليها نوّاب ملوك مصر نائبا بعد نائب إلىٰ زماننا كغيرها من الممـالك الشامية، وٱنقطعت مملكة بنى أيوبَ من الشام بذلك .

* * *

وأما أطْرَابُلُس، فكان قد تغلب عليها قاضيها أبو علىّ بن عَمَّـار وملكها وطالت مدّته فيهـا .

ثم ٱنتزعها منه (المستنصر الفاطمىّ) خليفة مصر مع غيرها من السواحل الشامية، فبقيت بيده حتّى غلب عليهـا القُومص فملكها فى سـنة ثلاث وخمسمائة ، فبقيت فى أيدى الفرنج من حينئذ إلىٰ أن فتحها "الملك المنصور قلاوون" أحد ملوك الديار المصرية فى سنة ثمان وثمـانين وستمائة بعد أن مضىٰ عليها فى يد الفرنج مائة وخمس وثمانون سنة وأعجز فَتْحُها مَنْ مضىٰ من ملوك بنى أيوب فَمَنْ بعدهم. ومن حين فتحها جعلت نيابة، وتوالىٰ عليها نوّاب ملوك مصر من لدنه إلىٰ زماننا .

* * *

وأما صَفَد، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ قواعد الممـالك الشامية أنها كانت فى القديم قريةً وأن الفرنج الدَّمَوية بنتها وٱستحدثت حِصْنها فى سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

ثم فتحها (الظاهر بيبرس) بعد ذلك فى رابع عشر شوال سنة أربع وستين وستمائة، وقرّر بها الأمير كيغلدى العلائىّ نائبا، وتوالىٰ عليها بعـد ذلك نوّاب ملوك مصر من لدن الظاهر بيبرس وإلىٰ زماننا فى سلطنة الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق .

وأما الكَرَك، فقد تقدّم أن قلعتها كانت ديرًا لرهبان، وكانت بيد الفرنج، وأن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة فتحها، وقرّر فيها أخاه (الملكَ العادلَ أبا بكر بن أيوب) فبقيت بيده إلىٰ أن مات السلطان صلاح الدين، فقرّر فيها ٱبنه (الملك المعظم عيسىٰ) فبقيت فى يده إلىٰ أن ٱستضاف إليها دِمَشْقَ، وتوفِّى فى سنة أربع وعشرين وستمائة .

وملكها بعده ٱبنه (الملك الناصر صلاح الدين داود) فى سنة ست وعشرين وستمائة، وبقى إلىٰ سنة سبع وأربعين وستمائة، فٱستخلف عليها ٱبنه (الملك المعظم عيسىٰ) بعد أن أخذ منه غالب بلاده وفرّ بنفسه .

ثم ٱنتزع (الصالح نجم الدين أيوب) الكَرَك من المعظم عيسىٰ بن الناصر داود فى السنة المذكورة، وأقام بها بدر الدين الصوابى نائبا عنه، وبقى الناصر داود بعد ذلك مُشَرَّدا فى البلاد إلىٰ أن مات فى سنة خمس وخمسين وستمائة، وكان من أهل العلم والورع، وله شعر رائق، منه :

أَلا لَيْتَ أُمِّى أَيِّمٌ طُولَ دهْرِهَا * ولم يَقْضِهَا رَبِّى لِمَوْلًى وَلَا بَعْلِ!
وَيَا لَيْتَهَا لمّا قَضَاهَا لسَيِّدٍ * لَبِيبٍ أَرِيبٍ طَيِّبِ الفَرْعِ والأَصْلِ،
قَضَاهَا من اللّاتِى خُلِقْنَ عَوَاقِرًا * ولا بُشِّرَتْ يَوْمًا بأُنْثىٰ ولَا فَحْلِ
ويا لَيْتَهَا لَمَّا غَدَتْ بِىَ حَامِلًا * أُصِيبَتْ مِنَ ٱحْتَفَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الحَمْلِ
ويا ليتنى لَمَّا وُلِدْتُ وأصْبَحَتْ * تُشَدُّ إلىَّ الشَّذْقَمِيَّاتُ بالرَّحْلِ،
لَحِقْتُ بِأَسْلَافى فَكُنْتُ ضَجِيعَهُمْ * ولَمْ أَرَ فى الإِسْلَامِ مَا فيه مِنْ ثُكْلِ

وكان الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب معتقلا بالشَّوْبَك ، فأخرجه الصوابى نائب الملك الصالح وملّكه الكَرَك فبقى بها حتّٰى قبض عليه الملك الظاهر بيبرس وقتله فى سنة إحدىٰ وسبعين وستمائة ، وهو آخر مَنْ ملكها من بنى أيوبَ .

قلت : وأما غير هــذه الممالك كِحمْص وبَعْلَبَكَّ فإنما كانت فى الغالب تبعا لغيرها حتّٰى إن حِمْص وبَعْلَبَكَّ حين ٱستولت التتار علىٰ الشام فى آخر الدولة الأيوبية كانتا مضافتين إلىٰ دِمَشْقَ .

وٱعلم أن غالب أطراف البلاد الشامية ومضافاتِها كانت بأيدى ملوك متفرّقة من قديم الزمان وبعضها حدَثَ ٱنفراده ، ثم تنقلت بهـا الأحوال حتّٰى ٱستولىٰ علىٰ كثير منها أهلُ الكُفْر ، وصارت بأيديهم إلىٰ أن قَيَّضَ الله تعالىٰ لها مَنْ فتحها ؛ ثم ٱستعاد أهلُ الكفر منها ما ٱستعادوا ، ثم فُتِح ثانيا علىٰ ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

فمن ذلك القُدُسُ ـ كانت بيد تُتُش بن ألب أرسلان السَّلْجُوقىّ صاحب دِمَشْقَ المتقدّم ذكره . كان قد أقطعها للأمير أُرْتُقَ جدّ ملوك مارِدِينَ الآن . فلما تُوفِّى أرتق المذكور صار القُدُسُ لولديه ايلغازى وسُقْمان ، وبقى بيديهما إلىٰ أن ٱنتزعه منهما (المستنصر الفاطمىّ) فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، وبقى بيده إلىٰ أن ملكه الفرنج منه فى سنة ٱثنتين وتسعين وأربعمائة ، بعد أن بذَلُوا السيف فى المسلمين نحوَ سبعة أيام وقتلوا فى المسجد الأقصىٰ ما يزيد علىٰ تسعين ألفَ نفس ، وبقى بيديهم حتّٰى فتحه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، ثم ٱستعاده الفرنج من الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بمهادَنة جرتْ بينهم فى سنة ست وعشرين وستمائة .

ثم ٱنتزعه منهم (الملك الناصر داود) صاحب الكَرَك فى سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ثم سلمه (الصالح إسماعيل) صاحب دِمَشْقَ (والناصرداود) صاحب الكَرَك المتقدّم ذكره للفرنج بعد ذلك ليكونوا عونا لهما على الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر فى سنة إحدى وأربعين وستمائة .

ثم فتحه الصالح (نجم الدين أيوبُ) صاحب مصر وآقتلعه من أيديهم فى سنة آثنتين وأربعين وستمائة، فآستمر بأيدى المسلمين إلى الآن .

ومن ذلك بلاد السواحل الشامية كانت بأيدى أُناس متفرّقة .

فأما أَطْرَابُلُس وصَفَدُ، فقد تقدّم الكلام عليهما فى الكلام على ملوك الممالك الشامية. وأما غيرهما من بلاد السواحل وما والاها، فإن غالبها كان بيد الفاطميين خلفاءِ مصر إلى أن ضَعُفَت دولتهم فى أيام المستنصر أحدِ خلفائهم، فقصدت الفرنج هذه السواحلَ من كل جهة وآستولَوْا على بلادها شيئا فشيئا .

فآستولوا على عَكّا وجُبَيْل فى سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وعلى صَيْدا فى سنة أربع وخمسمائة،وآستشرى فسادُهم حتّى ملكوا بَيْرُوتَ وعَسْقَلانَ وصُورَ وأَنْطَرْسُوسَ والمَرْقَبَ وأَرْسُوفَ واللّاذِقِيّةَ ولُدًّا والرمـلةَ ويَافَا ونَابُلُسَ وغَزَّةَ وبَيْتَ لَحْم وبَيْتَ جبريلَ ، وغيرَ ذلك من بلاد السواحل وما جاورها ، فبقيت فى أيديهم حتّى فتحها السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" فيما بين الثلاث والثمانين والخمسمائة إلى الثمان والثمانين والخمسمائة .

ثم عقد الهُدْنة بينه وبين الفرنج فى سنة ثمان وثمانين على أن تكون يافا وأَرْسُوف وعَكّا وقَيْسَارِيّة وأعمالها بيد الفرنج،وأن تكون لُدٌّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين .

ثم آستولَوْا على بَيْرُوتَ فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ؛ ثم وقعت الهدنة بعد ذلك بين الفرنج وبين العادل أبى بكر بن أيوب فى سلطنته فى سنة إحدى وستمائة على أن تستقرّ بيد الفرنج يَافَا وتترك لهم مناصفةً لُدٌّ والرملة .

ثم آستعاد الفرنج عَكَّا فى سنة أربع عشرة وستمائة فى أيام العادل أبى بكر المذكور .

ثم آستولَوْا علىٰ صَـيْدَا وما معها فى أيام آبنه الكامل محمد فى سنة ست وعشرين وستمائة قبل تسليمه القدس لهم .

ثم سلمهم الصالح إسماعيل صاحبُ دمَشْق صَـفَد والشَّقِيف علىٰ أن يعاونوه علىٰ الصالح أيوب صاحب مصر فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

ثم سلمهم الصالح إسماعيل المذكور والناصر داود صاحب الكَرَك عَسْقَلاَن وطَبَرِ يَّة حين سلماهم القدسَ فى سنة إحدىٰ وأربعين وستمائة .

ثم فتح "الصالح أيوب" صاحبُ مصر غَزَّة وآستولىٰ عليها فى سنة آثنتين وأربعين وستمـائة .

ثم فتح (الظاهر بيبرس) فى سنة آثنتين وستين وستمائة قَيْسَارِيَّة وأُرْسُوفَ، وصَفَد ويافَا فى سنة أربع وستين وستمائة . وفتح صَهْيُونَ فى سـنة ست وستين وستمائة ، وأطْرَابُلُسَ فى سنة ثمان وثمانين .

ثم فتح آبنُه (الأشرفُ خليلٌ) عَكَّا فى سنة تسعين وستمائة، وتتابعت فتوحه ففتح صَـيْدَا وبَيْروتَ وعَثْلِيثَ فى الســنة المذكورة . وبفتوحه تكاملت بلاد السواحل بأجمعها . ولـما فُتِحتْ هُدِمت جميعُها خوفا أن يملكها الفرنج ثانيـا وبقيت بأيدى المسلمين إلىٰ الآن .

ومن ذلك أنْطَاكِيَةُ ــ التى هى قاعدة العواصم . فإنها كانت بيد باغى سيان بن محمد آبن ألب أرسلان السلجوقى إلىٰ أن غلب عليهـا الفرنج فى سنة إحدىٰ وتسعين وأربعمائة، وقتلوا باغى سيان المذكور، وقتــل فيها ما يزيد علىٰ مائة ألف نفس بعد حصار تسعة أشهر ، وملكوا معها كَفْر طَابَ ، وصَهْيُونَ ، والشُّغْر و بَكَاس ، وسَرْمِينَ

والدَّرْبَسَاكَ وغيرها من بلاد حَلَبَ ، وبالغوا حتّىٰ جاوزوا الفرات إلىٰ بلاد الجزيرة ، وملكوا الرُّهَا وسَرُوج وغيرهما من بلادها حتّىٰ فتح السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب الشُّغْر وبَكَاس وسَرْمِينَ وغيرها فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

ثم ٱستعادتها الفرنج بعد فتحه ؛ ثم فتح أَنْطَاكِيَةَ "الظاهرُ بيبرس" فى سنة ست وستين وستمائة، فبقيت فى أيدى المسلمين إلىٰ الآن .

ومن ذلك ــ باقى بلاد الثُّغُور والعواصم كآياس وأَذَنَة والمَصِّيصة وطَرَسوس وبَغْراس وبَهَسْنىٰ والدَّرْبَسَاك وسِيسَ وغيرها من بلاد الثغور . فإن الأرمنَ وثَبُوا عليها قبل الأربعمائة وٱستولَوْا علىٰ نواحيها ومنعوا ما كانوا يؤدّونه من الإتاوة للمسلمين ، واستضافوا إلىٰ ذلك قلعةَ الروم وما قاربها ، فبقيت فى أيديهم حتّىٰ فتح الظاهر بيبرس بَغْرَاس وبَهَسْنىٰ والدَّرْبَسَاك وغيرها ، وٱنتزعها من الأرمن فى سنة ثمان وستين وستمائة .

وفتح الأشرف "خليل بن المنصور قلاوون" قلعةَ الرُّوم، وٱنتزعها من يد خليفتهم فى سنة إحدىٰ وتسعين وستمائة، وسمَّاها قلعة المسلمين علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ الأعمال الحلبية .

وفتح "الناصر محمد بن قلاوون" فى سلطنته الثالثة آياسَ(١)، وما والاها فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة .

وفتح "الأشرف شعبان بن حسين" بن الناصر محمد بن قلاوون سِيسَ وسائر بلاد الأرمن علىٰ يد قشتمر المنصورى نائب حَلَبَ .

ومن ذلك ــ قِلَاع الدعوة، التى هى الآن من أعمال طَرَابُلُس : وهى مِصْياف والعُلَّيقة والمنيقة والكهف والقُدْمُوس والخَوَابِى . فإنها كانت بأيدى الإسماعيلية

(١) ضبطها صاحب "القاموس" كسحاب ونص على مد الهمزة صاحب "التقويم" .

المعروفين الآن بالفِداوية، قبل دخولهم فى طاعة ملوك الديار المصرية، فبقيت بأيديهم حتى ٱنتزعها منهم الملك "الظاهر بيبرس" فى سنة ثمان وستين وستمائة، وٱنتزع منهم العُلَّيقة فى سنة تسع وستين .

ثم ٱنتُزِعت منهم باقى القلاع فى سنة إحدىٰ وسبعين ودخلوا تحت طاعة ملوك مصر من حينئذ، وصاروا شِيعةً لهم .

وهذا آخر مايحتمله الكِتَاب مما يحتاج إلىٰ معرفته .

الطَّــرَف الثالث

(من الفصل الثانى، من الباب الثالث، من المقالة الثانية فى ذكر أحوال المملكة الشامية ؛ وفيه مقصدان)

المقْصِد الأوّل

(فى ترتيب نياباتها علىٰ ماهى مستقرّة عليه)

قد تقدّم أن الممالك المعتبرةَ بالبلاد الشامية ستُّ ممالك فى ست قواعد، وكلُّ مملكة منها قد صارت نيابةَ سلطنة مضاهيةً للملكة المستقلة .

النيابة الأولىٰ

(نيابة دِمَشْقَ[1]؛ وفيها جملتان)

الجملة الأُولىٰ

(فى ذكر أحوالها فى المعاملات ونحوها)

أما الأثمان المتعامل بها فيها، فعلىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ معاملات الديار المصرية من المعاملة بالدنانير المصرية ونحوها وَزْنًا، والدنانير الافرنتية عَدًّا، والدراهم النُّقْرَة وزنا

---

(١) قد عدّ ثلاث جمل فتنبه .

لاتختلف النقود فى ذلك، إلا أنّ الصَّنْجةَ فى أوزان الذهب بالديار المصرية تخالف الصنجة الشامية فى ذلك، فتنقُص الصنجة الشاميةُ عن المصرية كل مائة مثقالٍ مثقالُ وربع مثقال؛ وتنقص صنجة الدراهم الشامية عن الصَّنجة المصرية كل مائة درهم درهمٌ؛ والمعاملة فيها بفلوس صِغار، وكان يُتَعامل بها فى الديار المصرية فى الزمن الأوّل قبل ضرب الفلوس الجُدُد، حسابا عن كل درهم أربعة وستون فَلْسًا، وكل أربعة فلوس منها يُعبَّر عنها عندهم بحبة ، ثم راجت الفلوس الجُدُد عندهم بعد سنة ثنتين وثمانمائة . إلا أن كلّ [1] بدرهم بخلاف ما تقدّم فى الديار المصرية من أن كل أربعة وعشرين فَلْسا منها بدرهم .

وأما رِطْلها الذى يعتبر به موزوناتها فستمائة درهم بدرهمهم المتقدّم تقديره، وأواقيُّه آثنتا عشرة أوقية ، كلُّ أوقية خمسون درهما .

وأما كيلها الذى يعتبر به مَكيلاتها فبالغِرَارة، وهى آثنا عشر كيلا، كلُّ كيل ستة أمداد، ينقص قليلا عن رُبُع الوَيْبة المصرىّ ، ونسبة الإردب من الغِرارة أن كل غِرَارة ومدّ ونصف ثلاثةُ أرادب بالكيل المصرىّ تحريرا على الدمَشْقىّ . ثم قال[2] : لكن كيل دِمَشْقَ ورطلها هو المعتبر وإليه المَرْجِع .

وأما قياس قُماشها فبذراع يزيد على ذراع القماش بالقاهرة بنصف سدس ذراع وهو قيراطان .

وأما قياس أرض الدُّور بها وما فى معناها، فإنه يعتبر بذراع العمل المتقدّم الذكر فى الديار المصرية .

---

(١) بياض فى الأصل بقدر كلمة .

(٢) لم يقدم لنا ما يعود عليه الضمير ولعله صاحب "المسالك" .

وأما سعْرها فقال فى "مسالك الأبصار" : سعر اللحم بها أرخص من مصر والدَّجاج والإوَزّ أغلىٰ من مصر، وكذلك السُّكَّر، ولم يتعرّض لغير ذلك . ولا خفاء فى أن الفاكهة فيها أرخصُ من مصر بالقدر الكبير، والقمح والشعير والباقلاء نحو من سعر مصر، وذلك كله عند اعتدال الأسعار . أما حالة الغلاء فيختلف الحال بحسبه .

الجملة الثانية

(فى ترتيب مملكتها، وهو ضربان)

الضرب الأوّل

(فى ترتيب حاضرتها)

أما جُيُوشها ، فعلىٰ ما تقدّم فى الديار المصرية فى اجتماعها من الترك والجركس والروم والروس والآص ، وغير ذلك من الأجناس المضاهية للترك فى الزِّىّ ، ويزيد بها التُّرْكُمان المتميزون عن صفة الترك وزِيِّهم، وجندها ينقسمون إلىٰ ما تقدّم فى الديار المصرية : من الأمراء المقدّمين والطبلخانات والعشرات، ومَنْ بين المقدّمين والطبلخانات: كأمراء السبعين والخمسين، ومابين العشرات والطبلخانات كالعِشْرينات ونحوهم ؛ وكذلك مقدّمو الحَلْقة وجندُها ، ولا وجود فيها للمماليك السلطانية لأنهم لا يكونون إلا بحضرة السلطان . وقد أخبرنى من له خِبْرة بحال مملكتها أن الأمراء المقدّمين بها كانوا فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون عشرةً غير النائب بها ، وربما نقصوا الآن عن ذلك، وأن أمراء الطبلخانات بها كانوا إذ ذاك أربعين وأنهم الآن نَيِّف وخمسون ، وأن أمراء العشرات كانوا بها ألفين ومائة وخمسين بما فيهم من البحرية .

وأما إقطاعاتها ـ فقال فى "مسالك الأبصار" : إن إقطاعاتها لاتقارب إقطاعات مصر، بل تكون على الثلثين منها ، إلا فى أكابر الأمراء المقربين بحضرة السلطان، فإن إقطاعاتهم خارجةٌ عن العادة فلا يُعتَدّ بها . قال : ولا أعرف بالشأم ما يقارب ذلك إلا ماهو لنائب دِمَشْقَ .

وأما بيوتاتها السلطانية ـ فقال فى "مسالك الأبصار" : بها خِزانة تخرج منها الإنعامات والخِلع، وخزائن سلاح، وزَرَدْخاناه، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختَصَرة، حتّى لو جهز السلطان إليها جريدةً (١) وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته. قال : وكل أمير أُمِّر فيها أو فى غيرها من الشام أو رَبّ وظيفة وُلِّى وظيفةً من عادة متوليها لُبْس خِلْعة أو خدم أحدٌ خدمة فى مهم من المهمات أو أمر من الأمور يستوجب خِلْعة أو إنعاما ولم يُخْلَع عليه من مصر كان من دِمَشْقَ خِلْعتُه وإنعامه ، ومنها تخرج أعلام الإمرة وطلائعهن وشعار الطبلخاناه . وفى خزائن السلاح بها تُعْمَل المجانيق والسلاح، ويحمل إلى جميع الشام وتعمر به البلاد والقلاع ، ومن قلعتها تجرّد الرجال وأرباب الصنائع إلى جميع قلاع الشام، وتندب فى التجاريد والمهمات .

قلت : أما باقى البيوت كالفِرَاش‌خاناه والإصطبلات السلطانية وما شاكلها ، فلا وجود لها فيها مما ينسب إلى السلطان، بل يكون ذلك للنائب قائما مقام السلطان لأنه فى الحقيقة السلطان الحاضر، وكان بها مطابخُ السكّر السلطانية فأضيفت إلى من يتحدّث فى الأغوار من النائب أو غيره من الأمراء الأكابر .

---

(١) لعله منها تجريدة

الضرب الثانى

(فى بيان أرباب الوظائف بِدِمَشْقَ على تبايُنِ مراتبهم؛ ووظائفُها المعتبرةُ على خمسة أصناف)

الصنف الأوّل

(وظائف أرباب السيوف)

وهى مضاهيــة لوظائف أرباب السُّيُوف بالحضرة الســلطانية فى كثير منهــا؛ وهى عدّة وظائف .

(منها) نيابة السلطنة بها — وهى أجلُّ نيابات المملكة الشامية وأرفعها فى الرتبة، ونائبها يضاهى النائب الكافلَ بالحضرة السلطانية فى الرتبة والألقاب والمكاتَبة، ويعبَّر عنه فى المكاتبات السلطانية وغيرها "بكافل السلطنة الشريفــة بالشــام المحروس" ويكتب له من الأبواب الســلطانية تقليدٌ شريفٌ من ديوان الإنشاء الشريف؛ وهو قائم بدمشق مَقامَ الســلطان فى أكثر الأمور المتعلقة بنيابته، ويُكتب عنــه التواقيع الكريمة، ويُكتب عنه المربَّعات بتعيين إقطاعات الجُنْد، وتجهَّز إلى الأبواب الشريفة فيشملها الخطُّ الشريف السلطانىّ، ويترتب حكمُ المربعات المصرية والمناشير على حكمها كما سيأتى فى الكلام على المناشير فى موضعها إن شاء الله تعالى؛ وهو يكتب على كل مايتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد؛ ومعه يكون نظر البيمارســتان النُّورى بِدِمَشْقَ كما يكون نظر البيمارســتان المنصورى بالقاهرة مع أتابك العساكر؛ وكذلك يكون معه نظر الجامع الأُمَوِىّ بها .

(ومنها) نيابة القلعة بها — وهى نيابة منفردة عن نيابة السلطنة، ليس لنائب السلطنة عليها حديث، وولايتها من الأبواب الســلطانية بمرسوم شريفٍ يكتب من ديوان

الإنشاء الشريف . قال فى "التثقيف" : وكان عادة نائبها فى الأيام المتقدّمة مقدمَ ألف ، ثم آستقرّت بعد ذلك طبلخاناه، وهى علىٰ ذلك إلىٰ الآن . ومن شأنه حفظ القلعة وصونُها،ولا يسلِّم مفتاحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانَه أولمن يأمره السلطان بتسليمه له . ولنائبها أجناد بحريَّة مقيمون فى القلعة لخدمته،ولا يحضر هو ولا أحدٌ منهم دارَ النيابة بالمدينة، ولا يركبون فى الغالب . وقد أخبرنى بعض أهل المملكة أن بالقلعة طبلا مرتَّبا لآستعلام أوقات الليـل إذا أُذِّن للعشاء الآخرة ضرب عليه عند مضىّ كل أربع درج ضربة واحدة إلىٰ أن ينقضى ثلثُ الليـل الأوّل . فإذا دخل الثلث الثـانى ضُرب عليه عنـد مضىّ كل أربع درج ضربتين إلىٰ آنقضاء الثلث الثـانى . فإذا دخل الثلث الثالث ضرب عليه عنـد مضىّ كل أربع درج ثلاث ضربات إلىٰ أن يؤذَّن للصبح . قال : وهكذا شأن سائر القلاع بالممالك الشامية .

(ومنها) الحجوبيـة ـــ وكان بهـا فى الأيام الناصريّة آبن قلاوون فيما يقال ثلاثةُ حُجّابٍ، أحدهم حاجب الحُجّاب ، ويعبر عنه فى ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بأمير حاجب، وعادته أن يكون مقدّمَ ألف من الزمن القديم وهلُمَّ جَرًّا ، وهو الرتبة الثانية من النائب، ومن شأنه الجلوسُ بدار العدل ، ولا يقف كما يقف حاجبُ الحُجّـاب بين يدى السلطان بالديار المصرية ، وإذا خَرَج النائب عن دِمَشْقَ فى مُهِمٍّ أو غيره، كان هو نائب الغَيْبة عنه . وإذا برز مرسومُ السـلطان بالقبض علىٰ نائب السلطنة بها ، كان هو الذى يقبِض عليه ويفعـل فيه مايؤمَرُ به من سجن أو غيره، ويقوم بأمر البلد إلىٰ أن يُقام نائب آخر . والحاجبان الآخران طبلخانتان أو طبلخاناه وعشرة ، وربما كانوا أربعة : حاجبُ الحُجَّاب وثلاث طبلخانات أو طبلخانتان وعشرون أو عشرة أوغير ذلك، ورُتَبهم فى المواكب أن يكون حاجب الحُجَّاب والذى يليه فى الرتبة ميمنةً والثانى ميسرة.ثم صاروا فى الأيام الظاهرية برقوق خمسة أوستة .

ولم تجر العادة بأن يُكْتب لأحد منهم مرسومٌ شريف من الأبواب الشريفة عنــد ولايته، ولا مَدْخَلَ للنائب بها فى كتابة مايوقع لأحد منهم .

(ومنهــا) شدّ المُهمَّات ـــ وهى رتبــة جليــلة ، وموضوعها التحدّث فى أمور الآحتياجات السلطانية، وتارة لنائب السلطنة بدمشق،وتارة لحاجب الحجاب، وتارة لبعض الأمراء من المقدّمين والطبلخانات بحسب مايقتضيه رأى السلطان .

(ومنها) نِقَابة القلعة بهــا ـــ وهى إمرة عشرة بمرسومٍ شريف ، يكتب له من الأبواب الشريفة .

(ومنها) نِقَابة النُّقَباء ـــ وهما نقيبان : نقيبٌ للميمنة ونقيبٌ للميسرة .

(ومنها) الخِزِنْدارِيَّة ـــ وموضوعها التحدّث على الخِلَع والتشاريف الســلطانية بالقلعة وعادتها أربعة طواشيَّة خِصْيَانٌ بعضهم أعلى رتبةً من بعض ، أحدهم فى رتبة أمير طبلخاناه أو أمير عشرين، والثــانى دونَه، والثالث دونَه، والرابع دونَه ، وكل منهم له توقيع كريم من نائب السلطنة بِدمَشْقَ على قدر رتبته .

(ومنها) نِقَابة الجيش ـــ وفيها ثلاثةُ نَفَر، أكبرهم يعبر عنه بنقيب النقباء ، تارة يكون أمير طبلخاناه، وفى غالب الأوقات أمير عشرة، ودونَه آثنان من جند الحَلْقة . و يكتب لكل منهم توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته .

(ومنها) شدّ الدواوين ـــ وموضوعُها التحدّث فى آستخراج الأموال السلطانية رفيقــا للوزير كما فى الديار المصرية ، وكانت فى الأيام المتقــدّمة إمرةَ طبلخاناه ، ثم آستقرّت إمرة عشرة . وهى الآن جندىّ من أجنــاد الحَلْقة ، ويُكْتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدّ الأوقاف ـــ وموضوعُها التحدّث على أوقاف المســلمين بِدمَشْقَ، وعادتها إمرة عشرة، وربما كانت طبلخاناه،ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب.

(ومنها) شدّ الخاصّ — وعادته طبلخاناه أو عشرة أيضا .

(ومنها) شَدّ الزكاة — وموضوعها التحدّث على مَتْجَر الكارم ونحوه ، وكانت فى الزمن المتقدّم إمرةَ عشرة ، وهى الآن جندىّ ، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدّ العُشْر — وموضوعها التحدّث فى واصل الفرنج ، وكانت إمرة عشرة ، وهى الآن جندىّ ، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدّ دار الطُّعْم — وهى بمثابة الوَكالة بالديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ، وعادتها إمرة عشرة أو مقدّم حَلْقة أو جندىّ ، ويكتب بها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) وِلَاية المدينة — وموضوعها التحدّث فى أمر الشُّرْطة كما فى سائر الولايات ، وعادتها إمرة عشرة ، وربما وليها جندىّ ، ويكتب بها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) المِهْمِنداريّة — وموضوعها تلقى الرُّسُل الواردين ، فى أمور أخرى كما فى الديار المصرية . وقد أخبرنى بعض أهل المملكة أنه كان بها فى الأيام الناصرية آبن قلاوون فى نيابة الأمير تنكز مهمندارٌ واحدٌ مقدّمُ ألف ، ثم آستقرّت فى الدولة الأشرفية "شعبان بن حسين" نفرين ، وهى على ذلك إلى زماننا ، وهما الآن أمير عشرة ، وجندىّ ، ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته .

(ومنها) أميراخورية البريد — وموضوعها التحدّث على خيول البريد بِدِمَشْق ونواحيها . وأخبرنى بعض أهل هذه المملكة أنه لم يزل بها أمير عشرة من الأيام الناصرية آبن قلاوون وإلى الآن .

(ومنها) تَقْدِمة البريد — وموضوعها التحدّث على جماعة البريدية بِدِمَشْق . وأخبرنى بعض أهل المملكة أنها كانت فى الأيام الناصرية آبن قلاوون منحصرةً

فى واحد من جملة البريدية، ثم آستقر فيها الآن آثنان إما إمرة عشرة و إمرة خمسة، أو إمرة خمسة وجندى، أو نحو ذلك، و يكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر مرتبته .

(ومنها) شُدُود صغار متعدّدة، يولّى بها أجناد بتواقيعَ لهم عن النائب : كشدّ دار البِطّيخ والفاكهة ، وشـدّ المَسابك من الحديد والنُّحاس والزُّجاج وغير ذلك ، وشدّ المواريث الحَشْرية ونحو ذلك . وكان لمطابخ السُّكَّرِ شدٌّ مفرد يولّى بتوقيع كريم عن النائب، ثم آستقر ذلك مضافا لمن يتحدّث على الأغوار من النائب أو غيره .

قلت : أما سائر أرباب الوظائف من الأمراء المستقر مثلهم بالحضرة السلطانية : كرأس نوبة، وأمير مجلس ، وأمير سـلاح ، وأميراخور ، وأمير جاندار ، وأستادار المباشرة، وأسـتادار الصحبة ، وشادّ الشرابخاناه، والجاشنكير ، ومقدّم المماليـك ونحوهم، فلا وجود لهم هناك . وإنمـا يكون للنائب مثلهم من أجناده كغيره من سائر الأمراء .

الصـــــنف الثـانى

(الوظائف الدِّيوانية، وهى عشر وظائف)

(منها) الوِزَارة ـ وهى تارة تعلو رتبةُ صاحبها بأن يكون جليلَ القدر، كما إذا كان قد تقدّمت له ولايةٌ وزارة بالديار المصرية أو نحو ذلك فيصرَّح له بالوزارة ، وتارة تقصُر رتبته عن ذلك فيطلق عليـه ناظر المملكة الشامية ، ولا يُسْمح له من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية باسم الوزارة ، و إن كان الجارى على ألسنة العامة إطلاقَ لفظ الوزير عليه . وكيفما كان فإنمـا يوليه السلطان من الأبواب الشريفة . إن كان وزيرا كتب له تقليـد، و إن كان ناظرَ المملكة كتب له مرسوم . قلت : وقَلَّ أن

يليها أرباب السيوف، فإن وقع ذلك ٱحتاج معه إلىٰ ناظر مملكة كما يكون ناظرُ الدولة مع الوزير رَبِّ السيف بالديار المصرية .

(ومنها) كتابة السِّرِّ — ويعبر عن متوليها فى ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بصاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروس، ولا يقال فيه : صاحب دواوين الإنشاء كما فى الديار المصرية . علىٰ أنها تضاهى كتابة السر بالديار المصرية فى الرياسة ورفْعة القدر . وموضوعها علىٰ نحو ماتقدّم فى الديار المصرية . وكيفما كان فإنما يولّىٰ من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، ويحترز السلطان فيها علىٰ أن يكون كاتب السر من خاصته الموثوق بهم ليطالعه بخفيات أمور المملكة وما يحدث بها مما لعل النائب قد يُخْفيه عن السلطان . وبديوانه كُتَّاب الدَّسْت وكُتَّاب الدَّرْج كما بالديار المصرية، ويقال إنه كان عِدّةُ كُتَّاب الدست فى الأيام الناصرية ٱبن قلاوون نفرين وكُتَّاب الدَّرْج جماعة يسيرة ، ثم زاد الأمر كما فى الديار المصرية . وولاياتُ كُتَّاب الدَّست وكُتَّاب الدَّرج بتواقيع كريمة عن النائب دون الأبواب الشريفة .

وأخبرنى بعض أهل دِمَشْقَ العارفين بأحوال المملكة أن كاتب السرّ فى الزمن المتقدّم لم يكن يحضُر دار العدل مع النائب، وإنما كان يحضر كُتَّابُ الدست فقط فيوَقِّعون بما يحتاج إليه فى المجلس وينصرفون إلىٰ كاتب السرّ فيخبرونه بما ٱتفق، وكاتب السرّ يجتمع بالنائب فى أوقات مخصوصة فيما يتعلق بالأمور السلطانية فقط ، وكان كاتب السرّ ربما داجىٰ عليه الموقّعون فيما يقع بدار العدل فيلحقه بعض الخَلَل . فلما وَلِىَ كتابة السرّ القاضى ... ... (١) سعىٰ السعى العظيمَ حتّىٰ أُذِن له فى الحضور بدار العدل والتوقيع فيه، وٱستمرّ ذلك إلىٰ الآن .

---

(١) بياض فى الأصل .

(ومنها) نظر الجيش ـ وموضوعه التحدّثُ فى الإقطاعات : إما فى كتابة مربّعات تُكْتَب بما يعينه النائب من الإقطاعات المتوفِّرة عن أربابها بالموت ونحوها وتكميلها بخطوط ديوانه، ويجهزها النائب إلى الأبواب الشريفة ليشملها الخطُّ الشريفُ السلطانىّ ، وتحمل إلى ديوان الجيوش بالديار المصرية فتجعل شاهدا مخلّدا فيه ، وتكتبُ منه مربّعة، بمقتضاها يخرج المنشور على نظيرها كما تقدّمت الإشارة إليه . وإما فى إثبات المناشير الشريفة التى تصدر إليه من الأبواب السلطانية بديوانه حفظا لحسبانات المقطَعين . وليس بالشام كتابة مناشير أصلا ، بل ذلك مختص بالأبواب السلطانية ، فإن كان فيه كتابة الدست وقّع بدار العدل فى جملة الموقعين وإلا فلا . وإذا كان موقعا جلس مجْلِسَ ناظر الجيش وإن كان متأخرا فى القُدْمَةِ عن غيره من الموقِّعين ؛ وولاية هذا الناظر من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف . وبديوانه عدّة مباشِرين من صاحب ديوان وكُتَّاب وشهود، ولا يتهم عن النائب بتواقيع كريمة . وناظر الجيش هو الذى يحكم فى المحاكمات الديوانية كما يحكم فيها مستوفِى المرتَجَع بالديار المصرية .

(ومنها) نظر المهمّات الشريفة ـ وهى وظيفة جليلة يكون متوليها من أرباب الأقلام رفيقا لشادّ المهمات المتقدّم ذكره من أرباب السيوف : من النائب أو حاجب الحُجّاب أو غيرهما . وهى تارة تضاف إلى الوزارة ، وتارة تفْرَد عنها بحسب مايراه السلطان . وولايتها من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف . وبهذا الديوان عدّة مباشرين من كُتَّاب وشهود؛ فوليهم النائب بتواقيع كريمة .

(ومنها) نظر الخاص ـ وموضوعه هناك التحدّثُ فيما يتعلق بالمستأجَرات السلطانية وغيرها من الأغوار وما يجرى مجراها ، وربما أضيف نظرُها للوزير .

(ومنها) نظر الخِزانة، ويعبر عنها بالخِزانة العالية . ومتوليها يكون رفيقا للخازندارية من الطواشيَّة المتقدّم ذكرهم . فيكون متحدّثا فى أمر التشاريف والخِلَع وما معها، وهى وظيفةٌ جليلةٌ يوليها النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيمارستان النُّورىّ — وقد صار النظر عليه مَعْدُوقاً بالنائب، يُفَوِّض التحدّثَ فيه إلىٰ من يختاره من أرباب الأقلام .

(ومنها) نظر الجامع الأُمَوِىّ — وفى الغالب يكون مع قاضى القضاة الشافعىّ .

(ومنها) نظر خزائن السِّلاح — وموضوعها كما فى الديار المصرية، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيوت — وموضوعها علىٰ ما تقـدّم فى الديار المصرية، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . وأخبرنى بعض الدِّمَشْقِيِّين أن هذه الوظيفة آسم علىٰ غير مسمّى لا حقيقة لهـا ولا مباشرة، لعدم البيوت السلطانية هناك .

(ومنها) نظر بيت المـال — وحكمها كما فى الديار المصرية .

(ومنها) نظر ديوان الأَسْرىٰ — وهو التحدّث فى الأوقاف التى تُفدىٰ بها الأسرىٰ .

(ومنها) نظر الأسواق — وموضوعها كما تقـدّم فى الديار المصرية من التحدّث علىٰ سوق الرقيق والخيل ونحوها، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر مراكز البَرِيد — ومتوليهـا يكون رفيقا لأميراخور البريد المتقـدّم ذكره، وولايته عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الحوطات — وهو علىٰ نحو من آستيفاء المرتَجَع بالديار المصرية فى تحصيل الأموال السلطانية .

أما الحكم فى المحاكمات الديوانية، فيختص بناظر الجيش كما تقدّم ذكره .

(ومنها) نظر المَسَابك ــ ومتوليه يكون رفيقا لشادّ المسابك المتقـدّم ذكره في أرباب السيوف، وولايته عن النائب بتوقيع كريم . قلت : ويضم إلىٰ كل نظر من هذه الأنظار مباشِرُون : من شهود وغيرهم، يكتب لذوى الصوب منهم تواقيع كريمة عن النائب بوظائفهم ، في أنظار أخرىٰ لا يسع آستيفاؤها : كنظر المواريث الحَشْرية وغيرها . ومما أهمل من الأنظار بها نظر مطابخ السُّكَّر كما أهمل شدّها لإضافتها إلىٰ المتحدّث في الأغوار علىٰ ماتقدّم ذكره في الكلام علىٰ وظائف أرباب السيوف .

الصـــــــنف الثـالث

(من الوظائف بدِمَشْقَ الوظائف الدينية، وهى عدّة وظائف أيضا)

(منها) قضاء القضاة ــ وبها أربع قُضاة من المذاهب الأربعة علىٰ الترتيب المتقدّم في الديار المصرية . فأعلاهم الشافعيّ وهو المتحدّث علىٰ الموازع الحكمية والأوقاف وأكثر الوظائف، ويختص بتولية النوّاب في النواحى والأعمال بجميع أعمال دِمَشْقَ حتّى في غَزَّة، ويليه في الرتبة الحنفيّ، ثم المالكيّ، ثم الحنبليّ. وكان آستقرار القضاة الأربعة بها بعد حدوث ذلك بالديار المصرية، لكن لم تستقرّ الأربعة دَفْعة واحدة كما وقع في الديار المصرية في الدولة الظاهرية بيبرس، بل علىٰ التدريج . وأقدمهم فيها الشافعيّ، وولاية الأربعة من الأبواب الشريفة بتواقيع شريفة .

(ومنها) قضاء العسكر ــ وموضوعه كما تقدّم في الديار المصرية ، وبها قاضيَا عسكر شافعيّ ، وحنفيّ ، وليس بها مالكيّ، ولا حنبليّ ، وولايتهما من الأبواب الشريفة السلطانية بتواقيع شريفة .

(ومنها) إفتاء دار العدل ــ وهى علىٰ ماتقدّم في الديار المصرية أيضا، وبها مفتيان شافعيّ وحنفيّ، كما في قضاء العسكر، وولايتهما عن النائب بتواقيع كريمة .

(ومنها) وَكَالة بيت المال — وموضوعها ماتقدّم فى الديار المصرية ، وولايتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف ووكالته مثبوتة (١) على الحكام مُنَفَّذَة . ولكن لاجلوس له بدار العدل كما يجلس وكيل بيت المال بالديار المصرية، إلا أن يكون كاتبَ دست فيجلس بواسطتها فى جملة الموقّعين لا بالوكالة .

(ومنها) نِقَابة الأشراف — والأمر فيها كما فى الديار المصرية، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . وقد تقدّم فى الكلام عليها فى الديار المصرية أنه كان من حقها أن تُورَد فى جملة وظائف أرباب السيوف إذ يكتب فى توقيع متوليها "الأميرى" وإن كان متعمما، وإنما التغليب العرفىّ اقتضى ذكرها فى جملة وظائف أرباب الأقلام .

(ومنها) مَشْيَخة الشيوخ — وموضوعها كما فى الديار المصرية : من التحدّث على جميع الخوانق والفقراء بدِمَشْق وأعمالها ، والعادة أن يكون متوليها شيخَ الخانقاه الشُّمَيْصاتية بدِمَشْق، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) الحِسْبة — وهى كما تقدّم فى الديار المصرية من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . ولا مجلسَ لمتوليها بدار العدل كما يجلس محتسب القاهرة بدار العدل فى الديار المصرية ، وإليه ولاية نوّاب الحِسْبة بجميع أعمال دِمَشْقَ .

(ومنها) الخَطَابات المعدوقة بنظر النائب — فيولى فيها بتواقيع كريمة حتّى إنه ربما كتب عنه التواقيع بخطابة الجامع الأموىّ، وإن كان الغالب أنها لاتولّى إلا من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف، وقد صارت مضافة لقاضى القضاة الشافعىّ .

(ومنها) التداريس — وتختلف باختلاف حال من يتولاها فى الرِّفْعة وغيرها ، وولاياتها عن النائب بتواقيع كريمة غالبا والله أعلم .

---

(١) الأولى ثابتة، وقد جارى فى التعبير العرف العامىّ .

الصـــنف الرابع

(من الوظائف بِدِمَشْقَ وظائف أرباب الصِّناعات)

(فمنها) رياسة الطِّبِّ، ورياسة الكَحَّالين، ورياسة الجرائحية — وكلُّها علىٰ نحو ما تقــدم فى الديار المصرية، وولاية كل منها بتوقيع كريم عن النائب . أما مهتارية البيوت وما فى معناها، فهناك تختص بالنائب لقيامه مقـام السـلطان وٱختصاص البيوت به .

الصـــنف الخامس

(وظائف زعمـاء أهل الذمة بهـا)

وفيهـا بطرك النصارىٰ اليَعَاقِبــة، وبَطْرَكُ النصارىٰ المَلْكانية، ورئيس اليهود القَرَّايين والربَّانيـين، ورئيس السامرة، ولكنه مقيم بمدينة نَابُلُسَ التى هى مدينتهم المعظمة عندهم، وإلىٰ طُورها حَجُّهم، وله نائب مقيم بِدِمَشْقَ . قلت : وربما كتب عن السلطان من الأبواب الشريفة بتواقيع ومراسيم بالحَلِّ(١) علىٰ ما تصدُر ولايته عن النائب، وربمـا كتب به عنه ٱبتداء .

الجملة الثـالثة

(فى ترتيب النيابة بهـا)

وتوافق ترتيب السلطنة فى الديار المصرية فى بعض الأمور، وتخالفها فى بعض . وكان عادة النائب بها فى المواكب أن يركب فى العسكر من الأمراء ومقــدّمى الحَلْقة وأجنادها فى كل يوم ٱثنين وخميس، ويخرجون إلىٰ سُوق الخيل تحت القلعة فيسَيِّرون

(١) المراد بتثبيت ما يصدر عن النائب كما تفيده البقية .

خيولهم ، وتُعرض عليهم خيول المناداة وغيرها من آلات السلاح ونحوها ، وينادى بينهم على العَقَار من الدور والضِّياع وغيرِها ، ولا يتعدّون سوقَ الخيل إلى غيره .

أما الآن فإنهم قد رفضوا التسيير بسوق الخيل ، وصار النائب يخرج بالعسكر إما إلى ميدان ابن أتابك ، وإما إلى قبة يلبغا : قبليّ دِمَشْقَ ، وإما إلى المِزَّة غربيَّ دِمَشْقَ ، وإما إلى القابُون شماليّ دِمَشْقَ على حسب ما يختاره ، فيسيِّرون هناك بدلا من تسييرهم بسوق الخيل ، ولا يسيِّرون بسوق الخيل إلا في يوم مُهِمٍّ من حضور رُسُل من بعض الملوك الغرباء ونحو ذلك . فإذا فرغوا من التسيير عند ارتفاع النهار، عاد النائب في مَوْكبه حتّى يأتي باب الحديد من أبواب القلعة ، ويقف الأمراء على ترتيب منازلهم ، وينادى بينهم على العقار والدُّور وغيرها ، وكذلك الخيول والسلاح .

ثم يسير النائب إلى دار النيابة ، فإن كان في الموكب سِمَاط تقدم الأمراء في خدمته ، ويترجل مماليكه من سوق الخيل ، ثم الأمراء على القرب من دار النيابة على ترتيب منازلهم حتّى يكون ترجل المقدّمين على باب دار النيابة ، ويبقى النائب راكبا وحده حتّى ينتهى إلى قاعة عظيمة معدّة للجلوس في المواكب بمثابة الإيوان الذي يجلس فيه السلطان بقلعة الجبل بالديار المصرية ، ويُصَدّر بها كرسيٌّ من خشب مغشًّى بغشاء من الحرير الأطلس الأصفر ، وعليه سيف نمجاه ، مسند إلى صدره ، فيجلس النائب بصدر القاعة على مَقْعَد مختصّ به ، لا يشاركه أحد في الجلوس عليه ، وخلفه بشتميخ منصوب وراء ظهره كعادة الأمراء ، ويكون الكرسيّ المذكور على شماله على نحو ثلاثة أذرع منه ؛ ويجلس قاضى القضاة الشافعيّ عن يمين النائب على نحو ثلاثة أذرع منه ، مسنِدا ظهره إلى جدار صدر القاعة ؛ ويجلس قاضى القضاة الحنفيّ عن يمينه ، وقاضى القضاة المالكيّ عن يمين الحنفيّ ، وقاضى القضاة الحنبليّ عن يمين المالكيّ ؛ وقاضى العسكر الشافعيّ عن يمين قاضى القضاة الحنبليّ ، وقاضى العسكر

الحنفىّ عن يمين قاضى العسكر الشافعىّ، صَفًّا مساويا للنائب فى صدر القاعة؛ ويجلس كاتب السر من جهة يسار النائب ملاصقا لمقْعَده الذى هو جالس عليه، جاعلا يمينه إلىٰ جدار صدر القاعة وظهره إلىٰ جهة الكرسىّ بانحراف قليل لمواجهة النائب؛ وكُتَّاب الدست بالميسرة تحته بالتدريج علىٰ حسب القُدْمَةِ صفًّا ممتدّا من كاتب السر إلىٰ جهة باب القاعة؛ ويجلس الوزير مقابل كاتب السر من الجانب الآخر علىٰ سمت يمين قاضى القضاة الحنبلىّ؛ ويجلس ناظر الجيش تحته، وكُتَّابُ الدست بالميمنة تحت ناظر الجيش علىٰ الترتيب بالقُدْمَةِ أيضا، آخذا من الوزير إلىٰ جهة باب القاعة، فيصير كاتب السر والوزير ومَنْ يسامتهما صفين متقابلين؛ ويجلس أتابكُ العساكر من الأمراء فى رأس الميمنة خلف الوزير علىٰ بُعْد، وبقية الأمراء المقدّمين تحته علىٰ الترتيب بحسب القُدْمَةِ، وأمراء الطبلخاناه بالميمنة تحتهم كذلك حتّى يصيروا صفًّا آخر كصف الوزير ومَنْ معه؛ ويجلس المقدّمون من أمراء الميسرة خلف كاتب السر ومَنْ معه وتحتهم الطبلخاناه علىٰ الترتيب المتقدّم صفًّا آخر مقابلا لصف الميمنة، بحيث يكون أوّله خارجا عن يسار الكرسىّ. ويكون بين النائب ورأس الميمنة نحو خمسة أذرع، وبينه وبين رأس الميسرة نحو عشرة أذرع، وتقف طائفةٌ من أمراء العشرات والخمسات ومقدّمى الحلقة بالميمنة صَفًّا مستقيما خلف الأتابك والأمراء الجلوس فى صفّه علىٰ ترتيب منازلهم، ويقف مماليك النائب عن يسار الكرسىّ صفا آخذا من خلف أوّل مقدّمى الميسرة بانحراف فيه إلىٰ خلف، وطائفةٌ من مقدّمى الحَلْقة خلف الأمراء الجالسين فى الفرجة الواقعة بينهم وبين مماليك النائب؛ ويجلس حاجب الحُجّاب أمام النائب فى آخر صفى الموقعين الممتدّين من كاتب السر والوزير بميلة إلىٰ صف الميمنة؛ ويقف بقية الحجاب خلفه، ونُقَباء الجيش خلفهم. وترفع القِصَص فيتناولها نقباء الجيش ويوصلونها إلىٰ

حاجب الحُجَّاب فيتناولها ويقوم فيوَصِّلها إلىٰ كاتب السر فيفرّقها علىٰ الموقِّعين ، ويبتدئ هو بالقراءة فيقرأ ما بيده من القصص ويوقِّع عليها بما يرسُمُ به النائب ، ثم يقرأ الذى يليه ، ثم الذى يليه إلىٰ آخر صفه . فإذا فرغ ذلك الصف منَ القراءة ، قرأ مَنْ هو أوّل الصف الذى فى جانب الوزير ، ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه إلىٰ آخر الصف . فإذا آنتهت القراءة ، قام القضاة ومَنْ فى صفهم وكاتبُ السر والوزيرُ وناظرُ الجيش وسائرُ أرباب الأقلام فينصرفون . فإذا آنقضىٰ المجلسُ وآنصرف القضاةُ ومَنْ معهم ، مُدّ السِّماط ، ويجلس النائب علىٰ رأس السماط والأمراء ومقدّمو الحلقة علىٰ ترتيب منازلهم فيأكلون ، ثم يرفع السماط ويتحوّل النائب إلىٰ طَرَف الإيوان فيجلس فيه ، ويجلس قدّامه كاتبُ السر وناظرُ الجيش وتأتى المحاكمات فيفصلها ، ويقرأ عليه كاتب السر ما يُرْفَع فى ذلك المجلس من القصص ، ويتكلم مع ناظر الجيش فيما يتعلق بأمر الجيش والإقطاعات ، ثم يقوم من مجلسه ذلك وينصرف كاتبُ السر وناظر الجيش .

قال فى "مسالك الأبصار" : وتزيد عساكر الشام علىٰ غيرها ركوب يوم السبت .

قلت : وهو ركوبٌ مجرّدٌ ليس فيه دار عدل ولا سِماط . علىٰ أنه ربما أهمل حضور دار العدل ومدُّ السماط فى يومى الآثنين والخميس أيضا كما فى الديار المصرية .

المقصد الثانى

(فى ترتيب ماهو خارج عن حاضرة دِمَشْقَ ، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ماهو خارج عن حاضرتها من النِّيابات والولايات)

قد تقدّم أن لدِمَشْقَ أربعَ صفَقات : غربية (وهى الساحلية) . وقبلية . وشمالية . وشرقية . ففى الصفقة الأولىٰ وهى الغربية نيابتان وخمس ولايات .

فأما النيابتان :

فالأولىٰ ـ (نيابة غَزَّة) أو تقدمة العسكر بها علىٰ ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

ومعاملاتها بالدنانير و بالدراهم النُّقْرة، وصَنْجتها فى الذهب والفضة كصَنْجة الديار المصرية . وكان بها فلوس كل ثمانين منها بدرهم، ويعبَّر عن كل أربعة منها بحَبَّة، ثم راجت بها الفلوس الجُدُد فى أوائل الدولة الناصرية "فرج بن برقوق" ولكن كل ستة وثلاثين فَلْسا منها بدرهم ، ورِطْلها سبعمائة وعشرون درهما بالدرهم المصرىّ، وأواقيه آثنتا عشرة أوقية، كل أوقيةستون درهما . ومَكِيلاتها معتبرة بالغِرارة . وكل غِرارة من غرائرها ثلاثة أرادبّ بالمصرىّ؛ وقياس قُماشها بالذراع المصرىّ؛ وأرضها معتبرة بالفدّان الإسلامىّ والفدّان الرومىّ علىٰ ما تقدّم فى دِمَشْقَ ؛ وجيوشها مجتمعة من الترك ومَنْ فى معنـاهم ومن العرب والتُّرْكُمان؛ وبها من الوظائف النيابة؛ ثم تارة يصرح لنائبها بنيابة السلطنة . و بكل حال فنائبهـا أو مقدّم العسكر بها لا يكون إلا مقدّم ألف ؛ وبها أمراء الطبلخاناه والعشرات والخمسات ومَنْ فى معناهم؛ وفيها من وظائف أرباب السيوف الحجوبيـة، وحاجبها أمير طبلخاناه ، وولاية المدينـة وولَاية البر، وشدّ الدواوين، والمِهمندارية، ونِقابة النقباء وغير ذلك .

وبها من الوظائف الديوانية كاتب دَرْج، وناظر جيش، وناظر مال، وولايتهم من الأبواب السلطانية؛

ومن الوظائف الدينية قاض شـافعىّ ، وولايته من قِبَـلِ قاضى دِمَشْقَ إذا كانت غزة تَقْـدمة عسكر و إلا فهى من الأبواب السـلطانية ، وقاض حنفىّ قد آستُحْدث، وولايته من الأبواب السلطانية؛وبها المحتسب،ووكيل بيت المـال وَمَنْ فى معناهم،وكلهم نوّاب لأرباب هذه الوظائف بدِمَشْقَ كما فى القاضى الشافعىّ ، وليس بها قضاء عسكر ولا إفتاء دار عدل .

الثـانية ـ (نيابة القُدُس) ـ وقد تقدّم أنها كانت فى الزمن المتقدّم ولايةً صغيرة وأن النيابة ٱستُحدِثت فيها فى سـنة سبع وسبعين وسبعمائة، ونيابتها إمرة طبلخاناه، وقد جرت العادة أن يضاف إليها نظر القدس ومقام الخليل عليه السـلام؛ ومعاملتها بالذهب والفضة والفلوس على ماتقـدّم فى معاملة دِمَشْقَ؛ ورطلها (١) وكيلها معتبر بالغرارة، وغِرارتها (١) وقياس قماشها بذراع (١) ؛وبها من الوظائف غير النيابة ولايةُ قلعة القُدُس، وواليها جندىّ،وكذلك ولاية المدينة، وكانت توليتها أوّلا من جهة نائب السلطنة بِدِمَشْقَ، ثم أخبرنى بعض أهل المملكة الشامية أن ولاية والى القلعة وولاية البلد صارتا إلى نائب القُدُس من حين ٱستقرّ نيابة، وكذلك ولاية بلد الخليل عليه السلام. وبها قاض شافعىّ ومحتسب نائبان عن قاضى دِمَشْقَ ومحتسبها، وكذلك جميع الوظائف بها نيابات عن أرباب الوظائف بِدِمَشْقَ .

وأما الولايات :

فالأولى ـ (ولاية الرَّمْلة) ـ وكانت فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون من الولايات الصِّغار بها جندىّ ، ثم ٱستقرّ بهـا فى دولة الظاهر برقوق كاشفٌ أمير طبلخاناه ، ثم حدثت مكاتبته عن الأبواب السلطانية بعد ذلك .

الثانية ـ (ولاية لُدّ) ـ وقد كانت فى الأيام الناصرية ٱبن قلاوون ولايةً صغيرة بها جُنْدِىّ، ثم أضيفت إلى الرملة حين ٱستقرّ بها الكاشف المقدّم ذكره .

الثالثة ـ (ولاية قَاقُونَ) ـ وكان بها فى الأيام الناصرية جُنْدىّ،ثم أضيفت إلى كاشف الرملة عند ٱستقراره .

الرابعة ـ (ولاية بلد الخليل عليه السلام) ـ وكان فى الأيام الناصرية بها جندىّ، ثم أضيفت إلى القُدُس حين ٱستقرّ النائب به .

---

(١) بياض بالأصل فى هذه المواضع ولعلها مثل الذى تقدّم فى غزة لتقارب الأمكنة .

الخامسة ـ (ولاية نابُلُس) ـ وهى باقية علىٰ حالها فى الآنفراد بالولاية ، وواليها تارة يكون أمير طبلخاناه، وتارة أمير عشرين، وتارة أمير عشرة .

وأما الصفقة الثانية وهى القبلية ، فبها نيابتان وثمــانُ(١) ولايات .

فأما النيابتان :

فالأولىٰ منهــما (نيابة قلعة صَرْخَد) ـ قال فى "التعريف" : قد يجعل فيها من يَحَطُّ عن رتبة السلطنة أو تكون نيابة معظمة ، وذكر نحوه فى "مسالك الأبصار" وكأنه يشــير إلىٰ ما كانت عليه فى زمانه ، فإنه من جملة مَنْ كان نائبا بها العادل كتبغا بعد خلعه من الســلطنة ، ثم آنتقل منها إلىٰ نيابة حماة . وآعلم أن بِصَرْخَدَ المذكورة قلعةً لهــا وَالٍ خاصٌّ . قال فى "التثقيف" : وهى من القلاع التى يســتقل نائب الشأم بالتولية فيها .

الثــانية ـ (نيابة عَجْلُونَ) ـ وقد أشــار فى "التثقيف" إلىٰ أنهــا نيابة حيث قال : وعَجْلُونُ إن كانت نيابة فإن نائب الشأم يستقل بالتولية فيها ، ولم تجر له عادة بمكاتبة من الأبواب الشريفة .

وأما الولايات :

فالأولىٰ ـ (ولاية بَيْسَانَ) ـ وواليها جُنْدِىّ .

الثــانية ـ (ولاية بَانِيَاسَ) ـ وواليها جُنْدِىّ تارة ، وتارة إمرة عشرة .

الثــالثة ـ (ولاية قلعة الصُّبَيْبَة) ـ وكانت ولاية صغيرة وبها جندىّ ثم أضيفت إلىٰ بَانِيَاسَ .

الرابعة ـ (ولاية الشَّعْرا) ـ وكانت فى الأيام الناصرية مضافة إلىٰ بانِياسَ ،وهى الآن ولاية مفردة ، وواليها جُنْدِىّ .

---

(١) أى ان جعلت الصلت ولاية منفردة و إلا فسبعة .

الخامسة — (ولاية أَذْرِعَاتَ) — قال فى "التعريف" : وبها مقرّ ولاية الحاكم على جميع الصفقة، ثم الحاكم على جميع الصفقة تارة يكون طبلخاناه وتكون ولايتـه عن نائب الشأم، وتارة يكون مقدّم ألف فتكون ولايتـه من الأبواب السلطانية . أخبرنى بعض كُتَّاب دَسْت دِمَشْقَ أنه إن كان مقدّم ألف، سُمِّىَ كاشف الكُشَّاف وإن كان طبلخاناه سُمِّىَ والى الولاة وهو الغالب .

السادسة — (ولاية حُسْبانَ والصَّلْتِ) — من البلقاء. أخبرنى القاضى ناصر الدين ابن أبى الطيب كاتبُ السر بدِمَشْقَ أنهما إن جمعا لوال واحد كان أمير طبلخاناه أو أمير عشرة، وإن أفرد كل منهما لوالٍ كان جُنْديا .

السابعة — (ولاية بُصْرىٰ) — وواليها جُنْدىّ أيضا .

الصفقة الثالثة الشمالية . وفيها نيابة واحدة وثلاث ولايات .

فأما النيابة (فنيابة بَعْلَبَكَّ) — وقد كانت فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون إمرة عشرة، ثم صارت الآن إمرة طبلخاناه، وبكل حال فنائب الشأم هو الذى يستقل بولايتها، وربمـا وليت من الأبواب السلطانية . قال فى "التعريف" : ولها ولاية خاصة يعنى غير ولاية المدينـة، وقد كانت فى الدولة الأيوبية مفردة فى الغالب بملك بمفردها .

وأما الولايات :

فالأولىٰ — منها (ولاية البِقَاع البَعْلَبَكّى)(١) — قال فى "التعريف": وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بَعْلَبَكَّ، وهمـا مجموعتان لوال واحد جليل مفرد بذاته، وهما على ما ذكره من جمعهما لوال واحد إلىٰ الآن، إلا أنه تارة يليهما مقدّم حَلْقة وتارة جندىّ .

(١) أى ولاية "البقاع البعلبكى" و "البقاع العزيزى" فكان المناسب أن يذكر البقاع العزيزى أيضا كما سبق له ذكرهما فى الأعمال وعقبهما بعبارة التعريف هذه فتنبه .

الثـانية ـ (ولاية بَيْرُوتَ) ـ وولايتها الآن إمرة طبلخاناه .

الثـالثة ـ (ولاية صَيْدَا) ـ قال فى "مسالك الأبصار" : وهى ولاية جليلة ؛ وهى علىٰ ماذكره إلىٰ زماننا، تارة يليها أمير طبلخاناه، وتارة أمير عشرة .

الصفقة الرابعة الشرقية . وبها ثلاث نيابات وأربع ولايات .

فأما النيابات :

فالأولىٰ ـ (نيابة حِمْص) ـ وهى نيابة جليلة ،وقد كانت فى الأيام الناصرية فما بعدها تقدمةَ ألف . قال فى "التثقيف" : ثم ٱستقرّت طبلخاناه بعد ذلك . قال : ونائب قلعتها من المماليك السلطانية . وقد تقدّم أن الذِّكْر فى الزمن القديم كان لها دون حَماةَ، وقد كانت فى الدولة الأيوبية مملكة منفردة تارة،وتضاف إلىٰ غيرها أخرىٰ.

الثـانية ـ (نيابة مِصْياف) ـ وقد تقدّم أنها كانت أوّلا من مضافات أَطْرَابُلُسَ فى جمـلة قِلَاع الدعوة ، ثم أضيفت بعد ذلك إلىٰ دِمَشْقَ، وٱستمرّت علىٰ ذلك إلىٰ الآن . ونيابتهـا تارة تكون إمرة طبلخاناه، وتارة تكون إمرة عشرة ، وبكل حال فتوليتها من الأبواب السلطانيـة . ونائبها لايكتتب له إلا فى المهمّات دون خلاص الحقوق أيضا .

الثالثة ـ (ولاية[1] صَيْدا) ـ والغـالب فى نيابتها أن تكون تقدمة ألف، وأشار فى "التثقيف" إلىٰ أنهـا قد تكون طبلخاناه . قال فى "التعريف" : وبقلعتها بحرية وخَيَّالة وكَشَّافة وطوائف من المستخدمين .

(١) تقدمت فى "الصفقة الثالثة الشمالية" . على أنه لم يتكلم على الولايات الأربع التى ذكرها فى ترجمة هذه الصفقة ، وقد ذكر فى التعريف الجملة التى نقلها عنه فى الكلام على الرحبة التى عدها من الصفقة الرابعة وجعل ولاياتها أربعا ولاية حمص ، وولاية سلمية ، وولاية قارا ، وولاية تدمر . وبالجملة فهذا الموضع يحتاج إلى تحرير .

الضرب الثـانى
(من الخارج عن حاضرة دمشق العُرْبانُ، والإمرة بها فى بطون من العرب)

البطن الأولىٰ
(آل ربيعةَ من طَيِّئ من كَهْلانَ من القَحْطانية)

وهم بنو ربيعة بن حازم، بن علىّ، بن مفرج، بن دَغْفَل، بن جراح، وقد تقدّم نسبه مستوفًى مع ذكر الآختلاف فيه فى الكلام علىٰ ما يحتاج إليه الكاتبُ فى المقالة الأولىٰ. قال فى "العبر": وكانت الرياسة عليهم فى زمن الفاطميين: خلفاءِ مصر لبنى جراح، وكان كبيرهم مفرج بن دَغْفَل بن جراح، وكان من إقطاعه الرملةُ. ومن ولده حَسَّان وعلىّ ومحمود وحرار، وولى حَسَّان بعده فعظم أمره وعلا صِيتُه، وهو الذى مدحه الرِّيَاشِىّ الشاعر فى شعره. قال الحمدانىّ: وكان مبدأ ربيعة أنه نشأ فى أيام الأتابك زنكى صاحب المَوْصِل، وكان أميرَ عرب الشام أيام طُغْتكين السَّلْجوقىّ صاحب دِمَشْق ووفد علىٰ السلطان نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشأم فأكرمه وشادَ بذكره. قال: وكان له أربعة أولاد، وهم فَضْل، ومرا، وثابت، ودَغْفَلٌ. ووقع فى كلام المسبحىّ أنه كان له ولد آسمه بدر. قال الحمدانىّ: وفى آل ربيعة جماعة كثيرة أعيانٌ لهم مكانة وأُبَّهَةٌ، أوّل من رأيتُ منهم ماتع بن حديثة وغنام بن الطاهر، علىٰ أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب. قال: ثم حضر بعد ذلك منهم إلىٰ الأبواب السلطانية فى دولة المعز أيبك وإلىٰ أيام المنصور قلاوون زامل آبن علىّ بن حديثة، وأخوه أبو بكر بن علىّ، وأحمد بن حجى وأولاده وإخوته، وعيسىٰ آبن مُهَنَّا وأولاده وأخوه؛ وكلهم رؤساءُ أكابر وسادات العرب ووجوهُها، ولهم عند السلاطين حُرْمة كبيرة وصِيتٌ عظيم، إلىٰ رونق فى بيوتهم ومنازلهم.

مَنْ تلقَ منهم تقُلْ: لاقَيْتُ سَيِّدَهُم * مثلُ النُّجوم التى يَسْرِى بها السَّارِى

ثم قال: إلا أنهم مع بُعْدِ صِيتِهم قليلٌ عددُهم. قال فى "مسالك الأبصار": لكنهم كما قيل:

تُعَـيِّرُنَا أنَّا قَلِيـلٌ عَدِيدُنَا * فقلتُ لها: إنّ الكرام قَلِيلُ

وماضَرَّنَا أنَّا قَلِيـلٌ وجارُنَا * عَزِيزٌ وجارُ الأكْثَرِينَ ذَلِيلُ

ولم يزل لهم عند الملوك المَكَانةُ العليـة والدرجة الرفيعة، يُحِلُّونَهُمْ فوق كِيوَانَ، ويُنَوِّعون لهم أجناس الإحسان. قال الحمدانى: وَفَدَ فرج بن حيَّة علىٰ المعز أيبك فأنزله بدار الضيافة وأقام أياما، فكان مقدارُ ماوصل إليه من عَيْنٍ وقماش وإقامة ـ له ولمن معه ـ ستةً وثلاثين ألف دينار. قال: وٱجتمع أيام "الظاهر بيبرس" جماعةٌ من آل ربيعةَ وغيرهم فحصل لهم من الضيافة خاصةً فى المدّة اليسيرة أكثرُ من هذا المقـدار، وما يَعْلَمُ ما صُرِف علىٰ يدىّ من بيوت الأموال والخزائن والغِلَال للعرب خاصَّةً إلا الله تعالىٰ.

وٱعلم أن آل ربيعة قد ٱنقسموا إلىٰ ثلاثة أفخاذ، هم المشهورون منهم ومَنْ عداهم أتباعٌ لهم وداخلون فى عَدَدهم، ولكل من الثلاثة أمير مختص به.

الفخذ الأوّل ـ (آلُ فَضْل) ـ وهو فضل بن ربيعة المقدّم ذكره؛ وهم رأس الكل وأعلاهم درجةً وأرفعهم مكانةً. قال فى "مسالك الأبصار": وديارُهم من حِمْصَ إلىٰ قلعة جَعْبَرٍ، إلىٰ الرَّحْبة، آخذين علىٰ شِقَّى الفرات وأطراف العراق حتّىٰ ينتهىَ حدّهم قِبْـلةً بشرق إلىٰ الوَشْم، آخذين يسارا إلىٰ البَصْرَةِ؛ ولهم ميـاه كثيرة ومناهلُ موردة:

ولَهَـا مَنْهَلٌ علىٰ كلِّ ماءٍ * وعلىٰ كُلِّ دِمْنَـةٍ آثارُ

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : نقلا عن محمود بن عرام، من بنى ثابت بن ربيعة : أن آل فَضْل تشعَّبوا شُعَبا كثيرة، منهم آل عيسىٰ، وآل فرج، وآل سميط، وآل مسلم، وآل علىّ . قال : وأما مَنْ ينضاف إليهم ويدخل فيهم، فرعب، والحريث، وبنو كلب، وبعض بنى كِلَاب، وآل بَشّار، وخالد حمص، وطائفة من سِنْبِس وسعيدة، وطائفة من بربر وخالد الحجاز، وبنو عقيل من كدر، وبنو رميم، وبنو حىّ، وقران، والسراجون . ويأتيهم من البرية من عربه غالب، وآل أجود، والبطنين، وساعدة، ومن بنى خالد آل جناح، والصبيات من مياس، والحبور، والدغم، والقرسة، وآل منيحة، وآل بيوت، والعامرة، والعلجات من خالد، وآل يزيد من عابد، والدوامر، إلىٰ غير هؤلاء ممن يخالفهم فى بعض الأحيان . قال المقرّ الشهابىّ بن فضل الله : علىٰ أنى لا أعلم فى وقتنا من لا يُؤْثِرُ صحبتَهم ويُظْهِر محبَّتَهم . وسيأتى ذكر قبائلِ أكثرِ هذه العُرْبان التى تنضاف إليهم فى مواضعها إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى "مسالك الأبصار": وأسعدُ بيت فى وقتنا آل عيسىٰ، وقد صاروا بيوتا: بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ، وبيت فَضْل بن عيسىٰ، وبيت حارث بن عيسىٰ، وأولاد محمد ابن عيسىٰ، وأولاد حديثة بن عيسىٰ، وآل هبة بن عيسىٰ . قال : وهؤلاء آل عيسىٰ فى وقتنا هم ملوك البر فيما بَعُدَ واقترب، وساداتُ الناس ولا تصلُح إلا عليهم العرب.

وأما الإمرة عليهم فقد جرت العادة أن يكون لهم أمير كبير منهم يولَّى من الأبواب السلطانية، ويُكتَب له تقليدٌ شريف بذلك، ويلبس تشريفا أطلسَ أُسْوة النوّاب إن كان حاضرا، أو يُجَهَّزُ إليه إن كان غائبا، ويكون لكل طائفة منهم كبيرٌ قائم مقام أمير عليهم، وتصدر إليه المكاتَبات من الأبواب الشريفة إلا أنه لا يكتب له تقليدٌ ولا مرسوم. قال فى "مسالك الأبصار" : ولم يصرَّح لأحد منهم بإمرة علىٰ العرب

بتقليد من السلطان إلا من أيام العادل أبى بكر : أخى السلطان صلاح الدين يوسف ٱبن أيوب ، أمَّر منهم حديثة يعنى ٱبن عُقْبَة(١) بن فضــل بن ربيعة ، والذى ذكره قاضى القضــاة ولىّ الدين بن خلدون فى تاريخه أن الإمرة عليهم فى أيام العادل أبى بكر بن أيوب كانت لعيسىٰ بن محمد بن ربيعة ، ثم كان بعده ماتعُ بن حَدِيثة ٱبن عقبة(١) بن فضل ، وتوفى سنة ثلاثين وستمائة ، ووُلِّى عليهم بعده ٱبنُه مهنا ، وحضر مع المظفر قطز قتــال هُولاكُو ملك التتار وٱنتزع سَلَمِيَّةَ من المنصور بن المظفر صاحبِ حماة وأقطعها له ؛ ثم ولّى الظاهرُ بيبرسُ عنــد مسيره إلىٰ دِمَشْقَ لتشييع الخليفة المستعصم إلىٰ بغــداد عيسىٰ بن مهنا بن ماتع ووفَّر له الإقطاعات علىٰ حفظ السابلة وبقى حتّٰى توفِّى سنة أربع وثمانين وستمائة ؛ فولّى المنصورُ قلاوونُ مكانه ٱبنَه مهنا بن عيسىٰ ، ثم سافر الأشرف "خليل بن قلاوون" إلىٰ الشــام فوفد عليه مهنا ٱبن عيسىٰ فى جماعة من قومه فقبض عليهم ، وبعث بهم إلىٰ قلعة الجبل بمصر فٱعتُقِلوا بهــا وبقوا فى السجن حتّٰى أفرج عنهم العادل كتبغا عنــد جلوسه علىٰ التخت سنة أربع وتسعين وستمائة ورجع إلىٰ إمارته ؛ ثم كان له فى أيام الناصر بن قلاوون نُصْرَةٌ وٱستقامة تارة وتارة ، وميلٌ إلىٰ التتر بالعراق ، ولم يحضر شيئا من وقائع غازان ؛ ووفد أخوه فَضْــلُ بن عيسىٰ علىٰ السلطان الملك الناصر ســنة ٱثنتى عشرة وسبعمائة فولاه مكانه وبقى مهنا مشرَّدا ، ثم لحق سنة ست عشرة بخدابندا ملك التتار بالعراق فأكرمه وأقطعه بالعراق وهلك خدابندا فى تلك الســنة فرجع مهنا إلىٰ الشأم ، وبعث ٱبنيه محمدا وموسىٰ وأخاه محمد بن عيسىٰ إلىٰ الملك الناصر ، فأكرمهم وأحسن إليهم ، وردّ مهنا إلىٰ إمارته وإقطاعه ؛ ثم رجع إلىٰ موالاة التتر فطرد السلطانُ الملكُ الناصر آلَ فَضْلٍ بأجمعهم من الشأم وجعل مكانهم آلَ علىّ ، وولّى منهم علىٰ أحياء العرب محمدَ

(١) فى الأصل هنا غضبة ، والذى فى الجزء الأول (ص ٣٢٥) عقبة ، فليتنبه .

آبن أبى بكر بن علىّ ، وصرف إقطاع مهنا وأولاده إليه و إلىٰ أولاده ، وأقام الحاسب علىٰ ذلك مدّة . ثم وفد مهنا علىٰ السلطان الملك النـاصر صحبةَ الأفضـل بن المؤيد صاحب حماة فرضى عنه السـلطان وأعاد إمرته إليه ورجع إلىٰ أهله ، فتوفى سـنة أربع وثلاثين وسبعمائة ؛ وَوَلِىَ مكانه أخوه (١) سليمان فبقى حتّى توفّى سنة أربع وأربعين وسبعمائة عقب موت الملك الناصر؛ ووَلِىَ مكانه أخوه سَيْفُ بن فضـل فبقى حتّى عزله السلطان الملك الكامل "شعبان بن قلاوون" سنة ست وأربعين ، وولّى مكانه أحمد بن مهنا بن عيسىٰ فبقى حتّى توفّى فى سنة سبع وأربعين وسبعمائة فى سلطنة الناصر "حسن بن محمد بن قلاوون" المرة الأولىٰ؛ ووَلِىَ مكانه أخوه فَيَّاض فبقى حتّى مات سنة ستين وسبعمائة ، وولى مكانه أخوه جبار من جهة الناصر حسن فى سلطنته الثانية ، ثم حصلت منه نفرة فى سنة خمس وستين وسبعمائة وأقام علىٰ ذلك سنتين إلىٰ أن تكلم بسببه مع السلطان نائبُ حماةَ يومئذ فأعيد إلىٰ إمارته ؛ ثم حصل منه نُفْرة ثانية سنة سبعين فى الدولة الأشرفية "شعبان بن حسين" فولّى مكانه آبن عمه زامل آبن موسىٰ بن عيسىٰ فكانت بينهم حروبٌ ، قتل فى بعضها قشتمر المنصورىّ نائب حلب فصرفه الأشرف وولّى مكانه آبن عمه مُعَيقلَ بن فضـل بن عيسىٰ ، ثم بعث معيقلٌ فى سـنة إحدىٰ وسبعين يستأمن لجبار المتقدّم ذكره من السلطان الملك الأشرف فأمّنه ، ووفَد جبار علىٰ السلطان فى سـنة خمس وسبعين فرضِىَ عنه وأعاده إلىٰ إمرته فبقى حتّى توفّى سنة سبع وسبعين ، فولّى مكانه أخوه قنارة، وبقى حتّى مات سنة إحدىٰ وثمانين ، فولّى مكانه معيقلُ بن فضل بن عيسىٰ وزامل بن موسىٰ آبن عيسىٰ المتقدّم ذكرهما شريكين فى الإمارة ؛ ثم عُزِلا فى سنتهما وولّى مكانهما

(١) ذكر فى العبر بين هذا والذى قبـله مظفر الدين موسى ووفاته فى ٤٢ وذكر أن سليمان توفى فى ٤٣ وبعده شرف الدين عيسى بن فضل ووفاته فى ٤٤ .

محمد بن جبـار بن مُهَنًّا وهو نُعَير، ثم وقعت منه نُفْرة فى الدولة الظاهرية برقوق، فولى مكانه بعض آل زامل، ثم أعيد نعير المذكور إلىٰ إمرته وهو باق علىٰ ذلك إلىٰ الآن(١)، وهو محمد بن جبار بن مهنا بن عيسىٰ بن مهنا بن ماتع بن حديثة بن عقبة آبن فضل بن ربيعة .

وقد ذكر المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" : أمراء آل فضل فى زمانه، فذكر أن أميرَ آل عيسىٰ وسائر آل فَضْلٍ أحمدُ بن مهنا؛ وأميرَ بيت فضل آبن عيسىٰ سيفُ بن فضل؛ وأمير بيت حارث بن عيسىٰ قناة بن حارث. ثم قال: أما أولاد محمد بن عيسىٰ، وأولاد حديثة بن عيسىٰ، وآل هبة بن عيسىٰ فأتباعٌ .

وذكر القاضى تقىّ الدين بن ناظر الجيش فى "التثقيف" : أنهم صاروا بيتين : وهما بيت مهنا بن عيسىٰ وفضـل بن عيسى . وذكر من أكابرهم عَسَّاف بن مهنا وأخاه عنقا، وزامل بن موسىٰ بن مهنا، ومحمد بن جبار وهو نُعَير قبل الإمرة، وعوّاد آبن سليمان بن مهنا، وعلىّ بن سليمان بن مهنا؛ وأما بنو فضـل بن عيسىٰ فذكر منهم فضل بن عيسىٰ، ومُعَيْقَلَ بن فضل، وقال : كان قبلهما سيف وأبو بكر. ثم قال: وممن لم يكاتَبْ أولاد فَيَّاض وبقية أولاد جبار ورقيبة بن عمر بن موسىٰ ونحوهم .

الفخذ الثانى - (من آل ربيعة آلُ مرا) - نسبة إلىٰ مرا بن ربيعة، وهو أخو فضل المتقدّم ذكره . قال فى "التعريف" : ومنازلهم حَوْرَانُ . وقال فى "مسالك الأبصار" : ديارهم من بلاد الجَيْدُور والجَوْلان إلىٰ الزرقاء والضليل إلىٰ بُصْرىٰ، ومُشرِّقًا إلىٰ الحَرّة المعروفة بحَرَّة كشت قريبـا من مكّةَ المعظمة إلىٰ شَعْباء إلىٰ نيران مَزْيَد إلىٰ الهَضْب المعروف بهضب الراقى، وربمـا طاب لهم البر وآمتدّ بهم المَرْعىٰ أوانَ خِصْبِ الشتاء فتوسعوا فى الأرض وأطالوا عدد الأيام والليالى حتّى تعودَ مكةُ

---

(١) فى العبر عصية .

المعظمة وراءَ ظهورهم، ويكاد سهيلٌ يصير شآمَهم، ويصيرون مستقبلين بوجوههم الشام . وقد تشعب آل مرا أيضا شُعَبا كثيرة، وهم آل أحمد بن حجى وفيهم الإمرة، وآل مسخر، وآل نميّ، وآل بقرة، وآل شمّاء .

وممن ينضاف إليهم ويدخل فى إمرة أمرائهم حارثةُ، والخاص، ولامٌ، وسعيدة، ومُدْلِجٌ، وقرير، وبنو صخر، وزبيد حَوْرَانَ: وهم زبيد صَرْخَدَ، وبنو غَنِيّ، وبنو عر قال، ويأتيهم من عرب البرية آل ظفير، والمَفَارجة، وآل سلطان، وآل غزىّ، وآل برجس، والحرسان، وآل المغيرة، وآل أبى فضيل، والزرّاق، وبنو حسين الشرفاء، ومطين، وخثعم، وعدوان، وعنزة . قال: وآل مرا أبطال مَنَاجيد، ورجال صناديد، وأقيال قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أو حَدِيدًا، لايعدّ منهم عَنْترةُ العَبْسِىّ، ولا عَرَابَةُ الأَوْسِىّ، إلا أن الحظ يحظ بنى عمهم [بأكثر] مما يحظهم، ولم تزل بينهم نُوَب الحَرب، ولهم فى أكثرها الغَلَب. قال الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبىّ رحمه الله: كنت فى نوبة حِمْص فى واقعة التتار جالسا على سَطْح باب الإصطبل السلطانىّ بدمشقَ إذ أقبل آل مرا زُهاءَ أربعة آلاف فارس شاكين فى السلاح على الخيل المسومة، والجياد المطهمة، وعليهم الكزغندات الحمر الأطلس المعدنىّ، والديباج الرومىّ، وعلى رءوسهم البَيْضُ، مقلَّدين بالسيوف، وبأيديهم الرماح كأنهم صُقُور على صُقُور، وأمامهم العبيد تميل على الركائب، ويرقصون بتراقص المهارى، وبأيديهم الجنائب، التى إليها عيون الملوك صُوْرا؛ ووراءهم الظعائن والحمول، ومعهم مغنِّية لهم تعرف بالحضرمية طائرة السُّمعة، سافرة من الهودج وهى تغنى:

وكُنَّا حَسِبْنَا كلَّ بيضاءَ شَحْمَةً * لَيَالِيَ لاقينا جُذَامًا وحِمْيرَا
ولَمَّا لَقِينَا عُصْبَةً تَغْلِبِيَّةً * يقودون جُرْدًا للَمنِيَّة ضُمَّرَا
فلما قَرَعْنا النَّبعَ بالنَّبعِ بَعْضَهُ * ببعض أَبَتْ عِيدَانُه أن تَكَسَّرَا
سَقَيْنَاهُمُ كَأْسًا سَقَوْنَا بمِثْلِهِ * ولَكِنَّهم كانُوا على الموت أَصْبَرَا

وكان الأمر كذلك، فإن الكسرة أوّلا كانت على المسلمين ثم كانت لهم الكَرَّة على التتار، فسبحان منطق الألسنة ومُصَرِّف الأقدار.

الفخذ الثالث — من آل ربيعة (آلُ علىّ) — وهم فِرْقة من آل فضل المقدّم ذكرهم ينتسبون إلى علىّ بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة. قال فى "مسالك الأبصار": وديارهم مرج دِمَشْق وغُوطتُها، بين إخوتهم آل فضل وبنى عمهم آل مرا، ومنتهاهم إلى الحوف والجَبَابنة، إلى السكة، إلى البرادع. قال فى "التعريف": وإنما نزلوا غُوطةَ دِمَشْقَ حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مُهَنَّا وبقى جار الفرات فى تلابيب التتار. قال فى "مسالك الأبصار": وهم أهل بيت عظيم الشأن مشهور السادات، إلى أموال جمة ونعم ضخمة ومكانة فى الدول علية. وأما الإمرة عليهم فقد ذكر فى "مسالك الأبصار": أنه كان أميرهم فى زمانه رَمْلَةَ بن جماز بن محمد بن أبى بكر بن علىّ بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة. ثم قال: وقد كان جدّه أميرا ثم أبوه. قلد الملكُ الأشرفُ "خليل بن قلاوون" جدّه محمد بن أبى بكر إمرة آل فضل، حين أمسك مهنا بن عيسى. ثم تقلدها من الملك الناصر أخيه أيضا حين طرد مهنا وسائر إخوته وأهله. قال: ولما أُمِّر رملةُ كان حَدَثَ السنّ فحسده أعمامه بنو محمد بن أبى بكر، وقَدِموا على السلطان بتقادِمهم وترامَوْا على الأمراء، وخواصِّ السلطان، وذوى الوظائف فلم يُحضِرهم السلطان إلى عنده ولا أدْنى أحدا منهم، فرجعوا بعد معاينة الحَيْن، بخُفَّىْ حُنَيْن؛ ثم لم يزالوا يتربصون به الدوائر وينصِبُون له الحبائل والله تعالى يقيه سيئات ما مكروا حتّى صار سيدَ قومه؛ وفَرْقَدَ دهره، والمُسَوَّدَ فى عشيرته، المُبَيِّض لوجوه الأيام بسيرته. وله إخوة مَيَامِينُ كبرا، هم أمراء آل فضل وآل مرا. وقد ذكر القاضى تقىّ الدين بن ناظر الجيش فى "التثقيف": أن الأمير عليهم فى زمانه فى الدولة الظاهرية برقوق كان عيسى بن زيد بن جماز.

البطن الثانيـــــة

جَرْم (بفتح الجيم وسكون الراء المهملة) . قال الحمدانىّ : وآسمه ثعلبة وجرمُ آسم أمه ، وقد تقدّم ذكر نسبه فى الكلام علىٰ ما يحتاج إليه الكاتب فى المقالة الأولىٰ .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهم ببلاد غَزَّةَ والدَّارُوم ممـا يلى الساحل إلىٰ الجبل وبلد الخليل عليـه السلام . قال الحمـدانىّ : وجَرْمٌ المذكورة شَمَجان ، وقمران ، وجَيَّان . قال : والمشهور منهم الآن جذيمةُ ، ويقال إن لهم نسبا فى قريش ، وزعم بعضهم أنهـا ترجع إلىٰ مخزوم . وقال آخرون : بل من جَذِيمة بن مالك بن حنبل ابن عامر بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهْر . ثم قال : وجذيمة هذه هم آل عَوْسَجَةَ ، وآل أحمد ، وآل محمود ، وكلهم فى إمارة شاور بن سنان ثم فى بنيه ، وكان لسنان المذكور أخوان فيهما سُودَدٌ : وهما غانم وخضر . ومن جذيمة جابع (؟) الرايديين وبنو أَسْلَمَ ، ويقال إن أَسْلَمَ من جُذَام لا من جذيمة ولكنها آختلطت بها ؛ ومن جذيمة أيضا شبل ، ورضيعة جَرْم ونيفور ، والقذرة ، والأحامدة ، والرفئة وكور جرم ، وموقع . وكان كبيرهم مالك الموقعىّ ؛ وكان مقدّما عنـد السلطان صـلاح الدين بن أيوب وأخيه العادل ؛ ومنهم بنو غَوْر ، ويقـال إنهم من جرم بن جرمز من سنبس ؛ ومن هؤلاء العاجلة ، والصمان ، والعبادلة ، وبنو تمام ، وبنو جميل ؛ ومن بنى جميل بنو مقدام ؛ ومن بنى غور آل نادر ؛ ومن بنى غوث بنو بها ، وبنو خَوْلة ، وبنو هِرْماس ، وبنو عيسىٰ ، وبنو سُهَيل . وأرضهم الدَّارُوم ، وكانوا سفراء بين الملوك ، وجاورهم قوم من زبيد يعرفون ببنى فهيد ثم آختلطوا بهـم . قال الحمدانىّ : فهـذه جرم الشام وحلفاؤهم ، ومن جاورهم ولاذَ بِهم .

وأما الإمرة عليهم . فقـد ذكر فى "التعريف" : أن الإمرة علىٰ عرب غَزَّة فى زمانه كانت لفضل بن حجى ، وعرب غزة هم جَرْمٌ المذكورون ، والمعروف أن

جَرْمًا يكون لهم مقـدّم لا أمـير . وعليه جرىٰ القـاضى تقىّ الدين بن ناظر الجيش فى "التثقيف" وذكر أن مقدّمهم فى زمانه فى الدولة الظاهرية برقوق كان علىّ آبن فضل .

البطن الثالثـــــة

ثَعْلَبَة من طيئ أيضا . قال فى "مسالك الأبصار" : وديارهم ممـا يلى مصر إلىٰ الخَرُّوبة . وقد تقدّم فى سياقة الكلام علىٰ جَرْم أن ثعلبة هذه من بقايا ثَعْلبَةَ المنتقلين إلىٰ مصر، وتقدّم فى الكلام علىٰ عرب الديار المصرية أن ثعلبة الذى يُنْسَبون إليه ثَعْلبةُ آبن سَلَامان ، وأن سَـلَامان بطن من بطون طيِّئ ، وأن ثعلبة المذكورين بطنان : وهما دَرْمَا وزُرَيْقٌ آبنا عوف بن ثعلبة وقيل آبنا ثعلبة لصُلْبه ، وأن آسم دَرْمَا عَمْرو، ودَرْمَا آسم أمه فغلب عليه ، وأن مِن دَرْمَا الجَوَاهِرة والحَنَابلة والصُّبَيْحيين . قال الحمدانىّ : وثعلبة الشام من دَرْمَا آل غياث الجواهرة ومن الحنابلة ومن بنى وَهْم من الصُّبَيْحِيين ، ومن أحْلافهم فرقةٌ من النعيميين ومن العار والجمـان ؛ وتقـدّم فى الكلام علىٰ ثعلبة مصر أيضا أن بكل من ثعلبة مصر والشام قوما من خِنْدِف وقيس ومُراد ويمن .

قلت : ولم يكن فى "التعريف" ولا "التثقيف" لثعلبة المذكورين ذِكْر لعدم مَنْ يكاتَب منهم إذ لم يكونوا فى معنىٰ من تقدّم .

البطن الرابعـــــة

بنو مَهدِىّ (بفتح الميم وسكون الهاء والدال المهملة) قد تقـدّم فى الكلام علىٰ عرب الديار المصرية أنهم أخو لخم وهو جُذَام بن عدىّ بن عمرو بن سبإٍ من العرب العاربة ، إما من عمرو بن سبإٍ من القَحْطانية كما يقتضيه كلام "مسالك الأبصار"

وإما من عُذْرَةَ من قُضَاعَة من حِمْيَر بن سبإ من القحطانية أيضا كما صرح به في "التعريف". قال في "التعريف": ومنازلهم البَلْقاء. وقال في "مسالك الأبصار": منازلهم البَلْقاء إلى ناس(١) إلى الصوان، إلى عَلَم أعفر. قال الحمداني: ومن بني مَهْدِيّ المَشَابطة الذين منهم أولاد عسكر، والعناترة، والنترات، واليَعَاقِبة، والمطارنة، والعفير، والرُّويم، والقَطَاربة، وأولاد الطائية وبنو دوس، وآل يسار، والمحابرة، والسماعة، والعَجَارمة من بني طريف، وبنو خالد والسلمان والقرانسية والدرالات والحمالات والمساهرة والمعاورة، وبنوعطا، وبنو ميّاد وآل شبل، وآل رويم، وهم غير الرويم المتقدّم ذكرهم، والمحارقة وبنو عِيَاض؛ ومنهم طائفة حول الكَرَك يأتي ذكرهم في الكلام على عرب الكَرَك. قال الحمداني: ويجاورهم بالبلقاء طائفة من حارثةَ ولهم نسب بقُرى بني عُقْبة.

وأما الإمرة عليهم فقد ذكر في "التعريف" أن إمرتهم مقسومة في أربعة منهم، لكل واحد منهم الربع، ولم يسم أمراء زمانه منهم. وذكر في "التثقيف" مثل ذلك، وسمّى أمراءهم في زمانه. فقال: وهم بدرو بن ذئب بن محفوظ العَنْبسي، وسعيدُ بن بحري بن حسن العنبسي، وزامل بن عبيد بن محفوظ العنبسي، ومحمد بن عباس بن قاسم بن راشد العسري.

البطن الخامسة

زُبَيْدٌ (بضم الزاي). قال في "مسالك الأبصار": وهم فرقٌ شتّى. وذكر مَنْ بالشام وغيره ولم يتعرض لنسبهم في أيّ أحياء العرب. وذكر الجوهريُّ أن زُبَيْدًا اسم قبيلة، ولم يزد على ذلك. قلت: والموجود في كتب التاريخ عدّ زُبَيْدٍ من

(١) كذا في الاصل بالإهمال.

بطون سـعد العَشِيرة من مَذْحِجِ بن كَهْلان بن سبإٍ من العرب العاربة، وهم عرب اليمن علىٰ ما تقدّم ذكره . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن بالشام منهم فِرْقَةً بَصَرْخَدَ، وفرقةً بغُوطة دِمَشْقَ . وذكر فى "التعريف" : منهم زُبَيْد المَرْج وزُبَيْـد حَوْرَانَ وزُبَيْـدَ الأحلاف . وذكر مثـله فى " التثقيف " : ومقتضىٰ الجمع بين كلامه فى "المسالك" و"التعريف" : أن تكون زُبَيْدٌ خمسَ فِرَق : زُبيد المرج ، وزُبيد الغوطة ، وزُبيـد صَرْخَد ، وزُبيـد حَوْرانَ ، وزُبيد الأحلاف وليس كذلك ، بل زُبيـد الغوطة وزُبيد المرج واحدة ، فإن المراد غوطةُ دِمَشْقَ ومَرْجُها ، وهما متصلان والنازلون فيهـما كالفرقة الواحدة ، وزُبيـد صَرْخَدَ هى زُبَيْدُ حَوْرَانَ كما صرح به فى موضع آخر من "مسالك الأبصـار" : إذ صَرْخَدُ من جملة بلاد حَوْرَانَ . أما زُبَيد الأحلاف فديارهم بالقرب من الرَّحْبة بجوار آل فَضْل . قال الحمدانىّ : والذين بصَرْخَدَ منهم آل مَيَّاس، وآل صيفى، وآل برة ، وآل محسن، وآل جحش، وآل رجاء . والذيـن بالمَرْج والغوطة آل رجاء، وآل بدال، والدوس، والحريث ، وهم فى عداد آل ربيعة المتقـدّم ذكرهم وذكر معهم المشارقة جيرانهـم . ثم قال : وإمرة زُبَيْد هؤلاء فى نَوْفَل، وليس للمشارقة إمرة، ولكن لهم شيوخ منهم؛ وأمر الفريقين إلىٰ نوّاب الشأم ليس لأحد من أمراء العرب عليهم إمرة ؛ وديارهم متصـلة من المرج والغوطة إلىٰ أُمِّ أوْعال إلىٰ الدريشدان ؛ وعليهم الدَّرك وحفظ الأطراف .

⁂

وأما العرب المستعربة، (وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ! علىٰ ما تقدّم بيانه فى الكلام علىٰ عرب الديار المصرية) ، فالمشهور بأعمـال دِمَشْقَ منهـم قبيلة واحدة، وهم بنو خالد عَرَبُ حِمْصَ . قال الحمدانىّ : وهم يَدَّعون النسب إلىٰ خالد

ٱبن الوليد رضى الله عنــه، وقد أجمع أهل العلم بالنسب علىٰ ٱنقراض عَقِبِه . قال فى "مسالك الأبصار" : ولعلهم من ذوى قَرَابته من مخزوم، وكفاهم ذلك فَخَارا أن يكونوا من قريش . وقد تقدّم ذكر نسب مخزوم فى قريش فى الكلام علىٰ بنى خالد فى جملة عرب الديار المصرية فأغنىٰ عن إعادته هنا .

قلت : ومن جملة من عدّه فى "التعريف" من عرب الشام غَزِيَّة، ولم يتحرّر لى هل هى من العرب العاربة أو العرب المستعربة فلذلك ذكرتها بمفردها . وقد ذكر الحمدانىّ أنهم متفرّقون فى الشأم والحجاز وبغداد، وفيما بين العِراق والحِجاز، ولم يذكر واحد منهما منــازلَهم من الشأم، بل ذكر الحمدانىّ منازلهم بالبَرِّية والعراق خاصةً . وقال : هم بطون وأفخاذ، ولهم مشايخُ منهم مَنْ وَفَدَ علىٰ السلاطين فى زماننا، وأشار فى "التعريف" إلىٰ أنــ الغالب عليهم عدمُ الطاعة ، ومنهم أحْلاف لآل فضل قد تقدّم ذكرهم وهم غالبٌ وآل أجود والبطنين ، وسأذكرها ببطونها ومنازلهــا ومياهها من البَرِّية فى جملة عرب الحجاز .

النِّيَــابة الثــانية

(من نيابات السلطنة بالممــالك الشامية، نيابةُ حلب؛ وفيها جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى ذكر أحوالها فى المعاملات ونحوها)

أما الأثمان المتعاملَ بهــا من الدنانير والدراهم والصَّنْجة، فعلىٰ ماتقدّم فى دِمَشْق من غير فرق ، ولم تَرُجِ الفلوس الجُــدُد فيها إلىٰ الآن وإنمــا يُتعامل فيها بالفلوس القديمة، ورِطْلها ســبعمائة وعشرون درهمــا، وأواقيه ٱثنتا عشرة أوقيّة، كل أوقية ستون درهما ، وفى أعمالهــا ربمــا زاد الرطل علىٰ ذلك؛ وتعتبر مَكِيلاتها بالمَكُّوك

فى حاضرتها وسائر أعمالها ، والمكُّوك المعتبر فى حاضرتها سبع ويبات بالكيل المصرى ، وأما فى نواحيهـا و بلادها ، فيختلف آختـلافا متباينـا فى الزيادة والنقص . قال فى "مسالك الأبصار" : والمعتـدل منها أن يكون كل مكُّوكين ونصـف غرارةً(١) ، وما بين ذلك كل ذلك تقريبا ، ويقاس القماش بها بذراعٍ يزيد على ذراع القماش المصرى سُـدُسَ ذراع ، وهو أربعة قراريط ، وتعتبر أرض دورها بذراع العمل كما فى الديار المصرية وأرض زراعتها بالفدّان الإسلامىّ والفدّان الرومىّ كما فى دِمَشْقَ ، وخراج أرض الزراعة بها كما فى دِمَشْقَ ، وأسعارها على نحو سعر دِمَشْقَ إلا فى الفواكه فإنها فى دِمَشْقَ أرخصُ لكثرتها بها .

الجمـــلة الثـانية

(فى ترتيب مملكتها ، وهى على ضربين)

الضرب الاول

(ترتيب حاضرتهـا)

أما جيوشها فعلى ما تقـدّم فى دِمَشْقَ من آشتمـال عسكرها على التُّرْك والجركس والروم والروس وغير ذلك من الأجناس المشابهة للترك ، وآنقسامها إلى الأمراء المقدّمين والطبلخانات والعشرات ومَنْ فى معناهم من العشرينات والخمسات ، وكذلك أجناد الحَلْقة ومقدّموها ، و إقطاعاتها على نحو ما تقدّم فى دِمَشْقَ فى المقدار ، وربمـا زاد إقطاع الحَلْقة بها على إقطاع الحلقـة بالديار المصرية بخلاف إقطاعات الأمراء بها فإنها لا تساوى إقطاعات الأمراء بالديار المصرية .

وأما وظائفها فعلى أربعة أصناف .

(١) تقدم ذلك فى (ص ١١٨) من هذا الجزء فانظره .

الصـــنف الأوّل

(وظائف أرباب السيوف؛ وهى عدّة وظائف)

(منها) نيابة السلطنة ـ وهى نيابة جليلة فى الرتبـة الثانية من نيـابة دِمَشْق ، ويعبَّر عنها فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بنائب السلطنة الشريفة ، ولا يقال فيه كافل السلطنة كما يقال لنائب دمَشْق ، ويُكْتَب عن نائبها التواقيع الكريمة بأكثر وظائف حَلَب وأعمالها ، وكذلك يُكْتَب عنه المرَبَّعات الجيشية بالديار المصرية ، والمناشير الإقطاعية علىٰ حكمها كما تقدّم فى دمشق ، وكذلك يكتب علىٰ كل مايتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد ، ويزيد علىٰ نائب دِمَشْق بسَرْحتيْن يسرحهما للصيد ، الأولىٰ منهما يسْرَحها فى بلاد حَلَب من جانب الفُرات الغربىّ يتصيد فيها الغِزلان ، يقيم فيها نحو عشرة أيام ؛ والثانية وهى العظمىٰ يَعبُرُفيها الفُرَاتَ إلىٰ بر الجزيرة شرقىّ الفرات ، ويتنقّل فى نواحيها ممـا هو داخل فى مملكة الديار المصرية وما حولها ، يتصيد فيها الغِزْلان وغيرها من سائر الوحوش ، ويقيم فيها نحو شهر .

(ومنهـا) نيابة القلعة بحلَب ـ وهى نيابة منفردة عن نيابة السلطنة بها ، وليس لنائب السلطنة علىٰ القلعـة ولا علىٰ نائبها حكم كما تقدّم فى قلعة دِمَشْق ، وعادة نائبها أن يكون أمير طبلخاناه ، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف ، وفيها من الأجناد البحرية المُعَدّين لحراستها نحوُ أربعين نفسا ، مقيمون بها لايظعَنُون عنها بسفر ولا غيره ، يجلس منهم فى كل نوبة عِدّة فى الباب الثانى منها من حين فتح الباب فى أول النهار وإلىٰ حين قفله فى آخر النهار ، وبهـا الحَرَس فى الليل ، وضرب الطَّبْلة علىٰ مضىّ كل أربع دَرَج كما تقدّم فى قلعة دمشق .

(ومنها) الحُجُوبية ـ والعادة أن يكون بها أربعة حُجَّاب. أحدهم مقدّم ألف: وهو حاجب الحُجّاب، ويعبر عنه فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة فى المكاتبات وغيرها بأمير حاجب بحلب كحاجب الحُجّاب بدمَشْق، وهو ثانى نائب السلطنة فى الرتبة ولا يدخل أحد دارَ النيابة راكبا غير النائب وغيْره، وهو نائب الغَيْبة إذا خرج نائب السلطنة فى مهمٍّ أو متصيَّد أو غير ذلك؛ وإليه تَرِدُ المراسيم السلطانية بقبض نائب السلطنة إذا أراد السلطان القبضَ عليه، ويكون هو المتصدّىَ لحال البلد إلىٰ أن يُقام لها نائبٌ؛ والثلاثة الباقون إما ثلاث طبلخانات، أو طبلخانتان وعشرة، أو ما فى معنىٰ ذلك، وولاية حاجب الحُجّاب والحاجب الثانى من الأبواب الشريفة السلطانية بغير تقليد ولا مرسوم، ومَنْ عداهما ولايته عن نائب حلب، وفيها آثنان واحد بالمَيْمنة وواحد بالمَيْسرة، فالذى فى الميمنة فى الغالب يكون أمير عشرة وربما كان أمير خمسة، والذى بالميسرة جندىّ من أجناد الحَلْقة، وولايتهما عن النائب كل منهما بتوقيع كريم.

(ومنها) شدّ الأوقاف ـ وهى بها رتبةٌ جليلة أعلىٰ من شدّ الأوقاف بِدمَشْقَ، وعادتها تقدمة ألف أو طبلخاناه، تُوَلَّى من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف. كذا أخبرنى بعض أهلها؛ ومتوليها يتحدّث علىٰ سائر أوقاف المملكة الحلبية.

(ومنها) المِهْمنْدَارِيَّة ـ وموضوعها على ما تقدّم فى الديار المصرية ودِمَشْق، وبها آثنان: فأحدهما تارة يكون أمير طبلخاناه وتارة يكون أمير عشرة، والآخر جندىّ حَلْقة، وولاية كل منهما بكل حال عن النائب بتوقيع كريم.

(ومنها) شَدّ الدَّوَاوين ـ وموضوعها كما تقدّم فى الديار المصرية ودِمَشْقَ، وعادته إمرة عشرة، وربما وليها جُنْدىّ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

(ومنها) شدّ مراكز البريد ـ وموضوعها كما تقدّم فى دِمَشْق، وعادتها إمرة عشرة، وربما كان مقدّمَ حَلْقة أو جنديا، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) ولاية المدينة ـ وموضوعها التحدّث فى الشُّرْطَةِ كما تقدّم فى الديار المصرية ودِمَشْق، وعادتها إمرة عشرة، وربما وليها مقدّم حَلْقة، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) شدّ الأقواد ـ وموضوعها التحدّث على الأموال التى تُسَاق قَوَدًا من المملكة فى كل سنة، وعادتها إمرة عشرة، وربما وليها مقدّم حَلْقة، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

قلت : وسائر وظائف الأمراء أربابِ السيوف المستقرّ مثلُهم بالحضرة السلطانية كرأس نَوْبة وأمير مجلس ومَنْ فى معناهما ممن يجرى هذا المَجْرىٰ المختص بالنائب يكون له مثلُها من أجناده لقيامه مقام السلطان هناك كما تقدّم فى دِمشق .

وأما الوظائف الديوانية بها لأرباب الأقلام .

(فمنها) الوِزَارة ـ ويعبَّر عنها فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بنظر المملكة ليس إلا، ولا يصرّح له بٱسم الوزارة بحال، وإن كان الجارى علىٰ ألسنة العامة تلقيبَ متوليها بالوزير، ولم تجر العادة بأن يتولاها إلا أرباب الأقلام، وولايتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف، ولديوان هذا النظر عدّة مباشرين أتباعٌ لناظرها كصاحب الديوان والمستوفِى والكُتّاب والشهود وسائر فروع الوزارة، والنائب يولّى كلًّا من هؤلاء المباشرين بتواقيع كريمة .

(ومنها) كتابة السرّ ـ ويعبَّر عن متوليها فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بصاحب ديوان المكاتبات بحلب، ولا يُسْمَح له بصاحب ديوان الإنشاء بحلب

كما فى دِمَشْقَ؛ وولايتــه من الأبواب الشريفــة بتوقيع شريف ؛ وبديوانه كُتَّاب الَّدست وكُتَّاب الدَّرْج كما فى دِمَشْقَ والديار المصرية .

(ومنها) نظر الجيش ــ والحكم فيه كما تقدّم فى دِمَشْقَ من كتابة المرَبَّعات بمـا يُعيِّنــه النائب من الإقطاعات وتجهيزها للأبواب الشريفة لتُشْمَل بالخط الشريف وتخلَّد شاهـدا بديوان الجيوش بالديار المصرية ، وكذلك إثبات مايصــدر إليه من المناشير من الأبواب الشريفة؛ وولايته من الأبواب الشريفة .

(ومنها) نظر المال ــ وهو بمعنىٰ الوزارة كما فى دِمَشْقَ إلا أنه لايطلق علىٰ متوليه وزير البتة ، وولايته من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف . ولديوانه كُتَّاب أتباعٌ له : كصاحب الديوان والكُتَّاب والشهود وغيرهم؛وولاية كل منهم عن النائب بتواقيع لهم كما فى دِمَشْقَ .

(ومنها) نظر الأوقاف ــ وحكمها التحدّث علىٰ الأوقاف بمدينة حَلَبَ وأعمالها كما فى دمَشْق؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الجامع الكبير ــ ومتوليها يكون رفيقا للنائب فى التحدّث فيه؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيمارستان ــ وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مدينة حَلَبَ أن بها بيمارستانين أحدهما يعرف بالعتيق والآخر بالجديد، ولكل منهما ناظر يخُصُّه؛ وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الأقواد ــ ومتوليها يكون رفيقا لشادّ الأقواد المتقدّم ذكره فى أرباب السيوف؛ وولايته عن النائب بتوقيع كريم .

الصنف الثانى

(الوظائف الدينيــــة)

(فمنها) القضاء ــ وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة كما فى دِمَشق ، إلا أن ٱستقرار الأربعة بها كان بعد ٱستقرارها بِدمَشْق ، وولاية كل منهم من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف . ويختص الشافعىّ منهم بعموم تولية النوّاب بالمدينة وجميع أعمالها ، ويقتصر مَنْ عداه علىٰ التولية فى المدينة خاصة كما تقدّم فى دِمَشق والديار المصرية .

(ومنها) قضاء العسكر ــ وبها قاضيا عسكر: شافعىّ وحنفىّ كما فى دِمَشْق ؛ وولايتهما من الأبواب الشريفة ، ويُكْتب لكل منهما توقيع شريف .

(ومنها) إفتاء دار العدل ــ وبها ٱثنان أيضا : شافعىّ وحنفىّ كما فى دِمَشْق ؛ وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) وَكالة بيت المال ــ وولايتها من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف ، ووكالته عن السلطان بمصر مثبوتة (١) فتنفُذ بالمملكة كما تقدّم فى دمشق .

(ومنها) نِقابَة الأشراف ــ والأمر فيها علىٰ ما تقدّم فى دِمَشْق والديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) مَشْيخة الشُّيوخ ــ والحكم فيها كما فى دِمَشْق ؛ وعادتها أن يكون متوليها هو شيخ الخانقاه المعروفة بالقديم ؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ، وربما كانت من الباب الشريف .

(ومنها) الحِسْبة ــ وهى علىٰ ما تقدّم فى دِمَشْق والديار المصرية ؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ؛ ومتوليها يولّى نوّاب الحِسْبة بسائر الأعمال الحلبية .

(١) لعله "مثبتة" .

(ومنها) الخَطَابة بالجامع الكبير ـ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) التداريس والتَّصادِير المعدوقة بنظر النائب ـ وولايتها عنه بتواقيع كريمة على قدر مراتب أصحابها .

الصنف الثـالث

(وظائف أرباب الصـــناعات)

(فمنها) رِيَاسـة الطب ، ورياسة الكَحَّالين ، ورياسـة الجرائحية كما فى دِمَشْقَ والديار المصرية ؛ وولاية كل منهـم بتوقيع كريم عن النائب . أما مِهْتاريَّة البيوت ومَنْ فى معناهم فمفقودون هنـاك لفقد البيوت السـلطانية ، وإنمـا مِهْتاريَّة البيوت بها للنائب خاصةً لقيامه مقام السلطان بها كما فى دِمَشْقَ .

وأما ترتيب النيابة بها فعلىٰ نحو ما تقـدّم فى دِمَشْقَ ؛ وعادة النائب بها أن يركب فى المواكب فى يومى الاثنين والخميس من دار النيابة ، ويخرج من بابٍ يقال له باب القَوْس ، فى وسط البلد على القرب من القلعة ، ويمرّ منه إلىٰ سوق الخيل ، ويخرج من سور البلد من باب النَّيْرَب ، ويتوجه إلىٰ مكان يعرف بالمَيْدان ويعرف بالقُبَّة أيضا على القرب من المدينة بطريق القرية المعروفة بِجِبْرِيل ، فى جهة الجنوب عن المدينة ، ثم يعود من حيثُ ذهب ، وقد وقف الأمراء فى انتظاره بسُوق الخيل ، وآخر خيولهم إلى القلعة ورءوس خيولهم إلى الجهة التى يعود منها أمراء الخمسات ، ثم أمراء العشرات ومَن فى معناهم علىٰ ترتيب منـازلهم ، ثم أمراء الطبلخانات ، ثم الأمراء المقدّمون . فإذا حاذىٰ النائب فى عوده أمراءَ الخمسات والعشرات فى طريقه ، سلم وهو سائر فيسلِّمون عليه ، وهم وقوف فى أمكنتهم لا يتحرّكون ولا يبْرَحون عنها . فإذا حاذىٰ أمراءَ الطبلخانات ، سلم عليهم فيتقدّمون بخيولهم إليه نحو قصبتى قياس فيسلمون

عليه ثم يعودون إلىٰ أمكنتهم فيقفون فيها . فإذا حاذىٰ الأمراء المقدّمين سلم عليهم فيفعلون كما فعل أمراء الطبلخانات من التقدّم اليه والسلام عليه ثم يعودون إلىٰ أمكنتهم، ويمرّ النائب حتّىٰ ينتهى إلىٰ آخر سوق الخيل فيعطف رأس فرسه ويقف مستقبلا للجهة التى عاد منها فى الجَنُوب والعسكر، واقفون علىٰ حالهم، ويناديٰ بينهم علىٰ العقارات من الأملاك والضياع وكذلك الخيول والسلاح قدر خمس درج، ثم يمرّ إلىٰ دار النيابة : فإن كان ذلك الموكب فيه سِمَاط، سار فى خدمته إلىٰ دار النيابة من كان معه فى رُكُوب المَوْكِب من الأمراء الأكابر والأصاغر من الحُجّاب وغيرهم؛ ويمرّ بباب القلعة وقد نزل نائب القلعة إلىٰ بابها فوقف فيه مماليكُ فى خدمته من الأجناد البحرية المقيمين بالقلعة، فاذا مرّ بهم النائب، سلّم علىٰ نائب القلعة فيسلم عليه، ويطلُع نائب القلعة إلىٰ قلعته، ويمرّ النائب فى طريقه إلىٰ دار النيابة، ويكون مماليك النائب قد ترجلوا عن خيولهم، ويترجل أمراءُ الخمسات والعشرات بعدهم، ثم يترجل الطبلخانات علىٰ القرب من دار النيابة، ثم الأمراء المقدّمون علىٰ باب دار النيابة، كلٌّ منهم علىٰ قدر منزلته؛ ويستمرّ النائب راكبا حتّىٰ يأتىَ المَقْعَد المذكور(١)، وهو مَقْعد مربَّع مرتفع عن الأرض عليه قبة مرتفعة ودرابزينُ من خَشَب دائر، وفيه دكة من خشب صغيرةٌ فى جانبه مرتفعةٌ عن المقعد قدر ذراع، تَسَعُ جالسا فقط معدّةٌ لجلوس النائب؛ فينزل النائب علىٰ باب من أبواب المقعد الثلاثة مخصوصٍ به، ويجلس حاجب الحُجّاب علىٰ مصطبةٍ لطيفة أعلىٰ السُّلَّم خارجَ الدرابزين معدّةٍ لجلوسه عن يمين النائب، ويكون القضاة الأربعة وقاضيا العسكر ومفتيا دار العدل وكاتبُ السر وكُتّاب الدَّسْت وناظر الجيش قد حضروا قبل حضور النائب وحاجبِ الحُجّاب وطلعوا من سُلَّم مخصوص بهم وأخذوا مجالسهم وجلسوا فى انتظار النائب، فإذا حضر قاموا

(١) أى فى غير هذه النيابة .

وجلسوا بجلوســه ، ويكون جلوسهم بترتيب خاصّ يوافق دِمَشْقَ فى بعض الأمور ويخالف فى بعضها : فيجلس عن يسار النائب قاضى القضاة الشافعىّ ، ويليه قاضى القضاة الحنفىّ ، ويليه قاضى القضاة المالكىّ ، ويليه قاضى القضاة الحنبلىّ ، ويليه قاضى العسكر الشافعىّ ، ويليه قاضى العسكر الحنفىّ ، ويليه مفتِى دار العدل الشافعىّ ، ويليه مفتِى دار العدل الحنفىّ ، ويليه الوزير، صفًّا مستقيما ؛ ويجلس كاتب السر أمام النـائب علىٰ القرب منـه ، ويليه عن يمينه ناظر الجيش ، ويليه كُتّاب الدَّسْت علىٰ ترتيب منازلهم حتّٰى يساوُوا فى المقابلة الصفَّ الذى فيـه قُضاة القضاة ومَنْ معهم ، ويجلس باقى الموقِّعين بين الصـفين مقابلَ حاجب الحُجّاب حتّٰى يصلوهما فيصيرون كالحَلْقَةِ المستديرة ، ويقف الحُجّاب الصغار أسفل السُّلَّم الذى يَصْعَدُ منه ، وحاجب الحجـاب ونُقَباء الجيش خلفهم ، والولاةُ خلف نقبـاء الجيش . فإن كان الأمراء قد حضروا لأجل السِّماط ، جلس المقـدّمون والطبلخاناه علىٰ مصاطبَ معـدّة لهم علىٰ القرب من المقعد الذى يجلس فيه النائب ومَنْ معه من أرباب الأقلام المتقدّم ذكرهم ، وتُرْفَع القِصَصُ فيتناولها نقباءُ الجيش ويناولونها الحُجّابَ فيناولونها لحاجِبِ الحجاب فيُنَاولهـا لكاتب السر فيفرِّقها علىٰ الموقِّعين ويُبقِى بعضها معه ، فيقرأ ما معه ثم يقرأ مَنْ بعـده علىٰ الترتيب إلىٰ آخر الموقعين . فإذا ٱنقضت قراءة القصص قام من المجلس القضاة ومَنْ فى معناهم وكُتَّاب الدست فانصرفوا . فإذا ٱنقضىٰ المجلس ، فإن كان فى الموكب سماط قام النائب والأمراء من أماكن جلوسهم فدخلوا إلىٰ قاعة عظيمة قد وضع بصدرها كرسىُّ سلطنةٍ مغشًّى بالحرير الأطلس الأصفر وعليه نمجاه مسندة إلىٰ صدره كما تقدّم فى دِمَشْقَ ، وقد مدّ السماط السلطانىّ فيجلس النـائب علىٰ رأس السماط والأمراء علىٰ ترتيب منازلهم فى الإمرة والقُـدْمَةِ ويأكلون ويرفع السماط ؛ ثم يقوم الأمراء فينصرفون ؛ ويقوم النائب ومعه كاتب السر وناظر الجيش

فيدخل إلىٰ قاعة صغيرة فيها شُبَّاك مطلٌّ علىٰ دوار بإصطبل النائب، فيجلس فى ذلك الشباك، ويجلس كاتب السر وناظر الجيش فينصرفان[١] .

قلت : ويخالف دمشق فى أمور :

أحدها ـ أن كرسىّ السلطنة ليس بدار العدل حيث يجلس النائب والمتعمّمون كما فى دِمَشْقَ بل فى مكان آخر .

الثانى ـ أن الأمراء لا يجلسون مع النائب بدار العدل كما فى دِمَشْقَ بل فى مكان منفرد .

الثالث ـ أن النائب يجلس علىٰ دكة مرتفعة عن جلسائه بخلاف دِمَشْقَ، فإنه يجلس مساويا لهم، وكأن المعنىٰ فيه عدم جلوس الأمراء فى مجلس النائب بحلب بخلاف دِمَشْقَ .

الرابع ـ أن الوزير بحلب يجلس فى آخر صف القضاة ومَنْ فى معناهم تحت مفتيَىْ دار العدل، وبدِمَشْقَ يجلس فى رأس صف يقابل كاتب السر، وكأنّ المعنىٰ فيه أن كاتب السر بحَلَبَ يجلس أمام النائب فلو جلس الوزير فوقه لخالف قاعدة جلوس كاتب السر، أو جلس تحته لكان نقصا فى رتبته . ولا شك أنه يجلس فوقه القضاة ومن فى معناهم لرفعة رتبة الشرع .

الخامس ـ أن السماط بحَلَبَ لا يمدّ بدار العدل كما فى دِمَشْقَ بل فى مكان آخر مخصوص .

السادس ـ أن النائب بحَلَبَ له موضع مخصوص يجلس فيه للمحاكمات ومدّ السماط، وفى دمشق يجلس علىٰ طرف الإيوان بدار العدل بعد رفع السماط منه .

(١) لعله ثم ينصرفان .

الجمـــلة الثانية

(فى ترتيب ما هو خارج عن حاضرة حلب؛ وهو ثلاثة أنواع[(١)])

النـــوع الأوّل

(ولاة الأمور من أرباب السيوف؛ وهو ثلاثة أصناف)

الصـــنف الأوّل

(النــوّاب؛ وهم على ضربين)

الضرب الأوّل

(ما هو داخل فى حدود البلاد الشامية، وهى إحدى عشرة نيابة)

الأولى — (نيابة قلعة المسلمين المسمّاة فى القديم بقلعة الروم) — وعادة نائبها أن يكون مقدّم ألف يولّى من الأبواب السلطانية بمرسومٍ شريف .

الثانيـة — (نيابة الكَخْتا) — ونيابتها تارة تكون طبلخاناه وتارة عشرة؛ وتوليتها من نائب حلب .

الثالثـة — (نيـابة كَرْكَر) — ونيابتها تارة طبلخاناه وتارة عشرة ؛ وتوليتها من نائب حلب .

الرابعـة — (نيابة بَهَسْنى) — وقد ذكر فى "التثقيف" ما يقتضى أن نيابتها طبلخاناه، لكن أخبرنى بعض كُتّاب السر بحَلَب أنها ربما كانت تقدمة ألف. وقد ذكر فى "التعريف" ما يقتضى ذلك فقال : ولنائبها مكانة جليلةٌ، وإن كان لا يلتحق بنائب الْبِيرَة؛ وبكل حال فتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسومٍ شريف .

الخامسة — (نيابة عَيْنتَاب) — وقد أوردها فى "التثقيف" فى جملة أمراء العشرات وذكر أنه رأى بخط ابن النشائى مايقتضى أنها كانت طبلخاناه . وقد أخبرنى

(١) لم يذكر الا نوعين فتنبه .

بعض كُتَّاب سر حلب أنها آستقرّت تقدمة ألف فى أواخر الدولة الظاهرية برقوق، وآستقرّت توليتها من الأبواب السلطانية .

السادسة ـ (نيابة الرَّاوَنْدانِ) ـ وقد أوردها فى " التثقيف " فى جملة نيابات العشرات . وقد أخبرنى بعض كُتَّاب السر بحَلَبَ أنها آستقرّ بها آخرا جندىّ؛ وتوليتها من نائب حلب .

السابعة ـ (نيابة الدَّرْبَسَاك) ـ وقد أوردها فى "التثقيف" فى جملة العشرات . وأخبرنى بعض كُتَّاب سر حَلَبَ أنها ربما أضيفت لنائب بَغْراس الآتى ذكرها وأنها الآن بيد آبن صاحب البازِ التُّركمانى؛ وتوليتها من نائب حلب .

الثامنة ـ (نيابة بَغْرَاس) ـ وقد أوردها فى " التثقيف " فى جملة العشرات؛ وولايتها من نائب حلب . وهى بيد أولاد داود الشيبانى التركمانى من تقادُمِ السنين؛ وولايتها من نائب حَلَبَ .

التاسعة ـ (نيابة القُصَيْر) ـ وقد أوردها فى " التثقيف " فى جملة العشرات . وأخبرنى بعض كُتَّاب سر حلب أن بها الآن جندياً .

العاشرة ـ (نيابة الشُّغْر وبَكَاس) ـ وقد أوردها فى " التثقيف " فى جملة العشرات، وقد أخبرت أنها آستقرّ بها آخرا جندىّ، وتوليتها من نائب حلب .

الحادية عشرة ـ (نيابة شَيْزَر) ـ كانت فى الزمن المتقدّم إمرةَ عشرة يستقل نائب حَلَبَ بتوليتها فلما تسلطت عليها العُرْبان بعد وقعة مِنْطاش والناصرى آستقرّت تقدمةً بولاية من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الضرب الثـانى

(النيابات الخارجة عن حدود البلاد الشامية، وهى قسمان)

القســـم الأوّل

(بلاد الثغور والعواصم وما والاها، والمعتبر فيها ثمـان نيابات)

الأولى - (نيابة مَلَطِيَّة) - ونيابتها طبلخاناه، وتوليتها من الأبواب السلطانية .

الثانيـة - (نيابة دَبْرِكى) - وقد ذكر فى "التثقيف" أنها تارة تكون طبلخاناه وتارة تكون عشرة، وبكل حال فولايتها من نائب حلب .

الثالثـة - (دَرَنْدة) - ونيابتها فى الغالب إمرة عشرة، وربمـا كانت طبلخاناه، وولايتها فى الحالتين من نائب حلب .

الرابعـة - (نيابة الأَبُلُسْتَيْن) - ونيابتها تقدمةُ ألف من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الخامسة - (نيابة آياسَ) - وهى المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية - ونيابتها تقدمةُ ألف، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

السادسة - (نيابة طَرَسُوسَ) - ونيابتها تقدمة ألف، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

السابعة - (نيابة أَذَنَةَ) - ونيابتها تقدمة ألف ، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الثامنة - (نيابة سِرْفَنْدَكار) - ونيابتها إمرة عشرة، ووقع فى "التثقيف" نقلا عن ابن النشائى ما يقتضى أنهـا كانت أوّلا طبلخاناه، وبكل حال فولايتها من نائب حَلَبَ .

التاسعة ـ (نيابة سِيسَ)[1] ـ وقد تقدّم أن فتحها قريب فى الدولة الأشرفية "شعبان آبن حسين" ولم تزل نيابتها منذ فتحت تقدمةَ ألف ، وكانت قد جعلت نيابةً مستقلةً عند الفتح ثم جعلت بعد ذلك تقدمة عسكر كغَزَّةَ إلا أن مقدّم العسكر بها لايُكَاتَب فى خلاص الحقوق بخلاف مقدّم العسكر بغَزَّةَ .

قلت : وبعد ذلك نيابات صغار يولّى بها نائب حَلَبَ أجنادا ، ولا مكاتبةَ لها من الأبواب السلطانية : وهى نيابة قلعة بَارِى كَرُوكَ ، ونيابة كَاوَرًّا ، ونيابة كَوْلَاكَ ، ونيابة كِرْزال ، ونيابة كُومِى ، ونيابة تَلّ حَمْدُونَ ، ونيابة الهارونِيَّتين ، ونيابة قلعة نَجْمة ، ونيابة حيمص ، ونيابة قلعة لُؤْلُؤَةَ .

القســـم الثـانى

(ماهو فى حدود بلاد الجزيرة شرقىّ الفُرَات ، والمعتبر فيها ثلاث نيابات)

الأولى ـ (نيابة البِيرَة) ـ ونيابتها تقدمة ألف ، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الثانية ـ (نيابة قلعة جَعْبَر) ـ ونيابتها طبلخاناه ، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الثالثة ـ (نيابة الرُّهَا) ـ قال فى "التثقيف" : وقد جرت العادة أن تكون نيابتها طبلخاناه ، ثم آستقرّ بها فى الدولة المنصورية فى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة مقدّم ألف .

---

(١) زادها على المعتبر فتنبه .

الصـــــنف الثـانى

(من أرباب السيوف بخارج حَلَب الوُلَاة، وولاية جميعها من نائب حلب بتواقيع كريمة ، والمشهور منها آثنتا عشرة ولاية)

الأولىٰ ـ (ولاية بَرِّ حَلَبَ كما فى دِمَشْقَ) ـ إلا أن والى بر حلب هو والى الوُلَاة.

الثـانية ـ (ولاية كَفْرِ طَابَ) ـ وواليها جندىّ .

الثـالثة ـ (ولاية سَرْمِينَ) ـ وواليها فى الغالب جُنْدىٌّ، وربما كان أمير عشرة.

الرابعـة ـ (ولاية الجَبُّول) ـ وواليها جندىّ .

الخامسة ـ (ولاية جَبَل سِمْعان) ـ وواليها جندىٌّ، وهومقيم بمدينة حلب، يحضر المواكب مع والى المدينة ووالى البرِّ : لقربه منها .

السادسة ـ (ولاية عَزَاز) ـ وواليها جندىٌّ، وربمـا كان أمير عشرة .

السابعة ـ (ولاية تَلِّ باشِر) ـ وكان لها والٍ بمفردها جندىّ، ثم أضيفت آخرا لَعْيَنْتَـابَ .

الثامنـة ـ (ولاية مَنْبِج) ـ وواليها جندىٌّ .

التاسعة ـ (ولاية تِيزِين) ـ وهى تارة تفرد بوال يكون جُنْدِيا ، وتارة تضاف إلىٰ حارِمٍ، ويقال والى حارم وتِيزِينَ .

العاشرة ـ (ولاية البابِ وبُزَاعَا) ـ وواليها جندىٌّ .

الحادية عشرةَ ـ (ولاية دَرْكُوش) ـ وواليها جندىٌّ .

الثانيــة عشرةَ ـ (ولاية أَنْطاكِيَة) ـ وواليها تارة يكون جنديا وتارة أميرَعشرة، وأخبرنى بعض كُتَّاب السر بحَلَبَ أنها ربمـا أضيفت إلىٰ نائب القُصَيْر .

قلت : ووراء ذلك ولايات أُخَر ببلاد الأرمن ونحوها لم يتحرر لى حالُها، والظاهر أن ولاية جميعها أجناد .

النـــــوع الثـانى

(ممـا هو خارج عن حاضرة حلب العُرْبان)

واعلم أنه قد تقدّم فى الكلام علىٰ آل فَضْل من عُرْبان دِمَشْقَ أن منازلهم ممتدّة بأراضى الشام إلىٰ الرَّحْبـة وجَعْبَر فى جانب الفُرَات ، وتقدّم فى الكلام علىٰ قواعد الشام المستقرة نقلا عن المقرّ الشهابىّ آبن فضل الله فى "التعريف" أن جَعْبر كانت فى زمانه من مضافات دِمَشْقَ ، وأن الواجب أن تكون من مضافات حَلَبَ ، فإنها أضيفت بعـده إلىٰ حَلَبَ، وحينئذ فيكون فى بلاد حلب بعضُ عرب آل فضـل المتقدّم ذكرهم هناك .

والمختصُّ بأعمال حلب من العرب المشهورين قبيلتان .

القبيلة الأولىٰ ــ (بَنُو كِلَاب) . قال فى "مسالك الأبصار": وهم عربُ أطراف حَلَبَ والرومِ، ولهم غَزَوات عظيمة معلومة وغاراتٌ لاتعدّ ، ولا تزال تُبـاع بناتُ الروم وأبناؤهم من سباياهم ؛ ويتكلمون بالتركيـة ويركبون الأَكَادِيش، وهم عرب غَزْو، ورجالُ حروب، وأبطال جيوش، وهم من أشدّ العرب باسا، وأكثرهم ناسا. قال : ولإفراط نِكَايتهم فى الرُّوم صُنِّفت السيرة المعروفة "بدلهمة والبَطَّال"(١) منسوبة اليهم بمـا فيها من مُلَح الحديث ولُمَح الأباطيل ؛ ولكنهم لا يدينون لأمير منهم يجمع كلمتهم، ولو آنقادوا لأمير واحد لم يبق لأحد من العرب بهم طاقةٌ .

---

(١) هى السـيرة المشهورة الآن " بذات الهمة " وقد طبعت أخيرا بالمطبعة " الحسـينية " وآنتشرت فى أيدى العامة وهى فى بابها لابأس بها .

قال الحمدانىّ : وكان بنو كلاب قد ظهروا علىٰ آل ربيعـة ، وذلك أن الملك الكامل كان طلب من ماتِـع بن حَدِيثـة وغَنَّام بن الطاهر جِمَالًا يحمل عليها غِلالًا إلىٰ خِلَاط يقوتُها بها ، فآحتج بغَيْبة جِمَاله فى البرية ، وكان بعض بنى كلاب حاضرا فتكفَّل له بحاجتـه من الجمال ووفىٰ له بذلك ، فحقَد بهـا الملك الكامل علىٰ ماتع بن حديثة وغنام بنِ الطاهر وآستوحَشَا منه ثم أتياه عنـد أخذه آمِدَ ، فوبَّخهما فخرجا خائفين منه إلىٰ أن فتح دِمَشْقَ فأتياه بأنواع التَّقادم وتقرَّبَا إليـه بالخدمة . قال : وكانت بنو كلاب تخدُم الملك الأشرف موسىٰ وتصحبه لمتاخمة بلاد الروم .

قال فى "مسالك الأبصار" : وكان سلطاننا يعنى الناصرَ محمدَ بنَ قلاوون لا يزال ملتفتا إلىٰ تألُّف بنى كلاب هؤلاء ، وكان أحمد بن نصـير المعروف بالتَّترىّ قد عاث فى البلاد والأطراف وآشـتدّ فى قطع الطريق ، فأمَّنه وخلع عليه وأقطعه فآنقادت بنو كلاب للطاعة ، وكان الملك النـاصر قد أمّر عليهم سليمان بن مُهَنَّا وجعل عليـه حفظ جَعْبَرَ وما جاورها .

القبيلة الثانيـة ـ (آل بَشَّار) ـ قال فى "مسالك الأبصار": وديارهم الجزيرة والْأَحَصُّ[(١)] ببلاد حلب . قال : والأحلافُ منهم حالهم فى عدم الآنقياد لأمير واحد حالُ بنى كِلَاب . ولو آجتمعوا لمـا أَمِن بأسهم نَقِيمٌ علىٰ تفرق كلمتهم ، وبسبب جماعتهم لا يزال آل فضـل منهم علىٰ وَجَل ، وطالمـا باتُوا وقلوبهم منهـم ملأىٰ من الحَذَر ، وعيونهم وَسْنىٰ من السهر ، وبينهم دماء ، وهم وبنو ربيعة وبنو عِجْل جِيران ، وديارهم من سِنْجار وما يُدانِيها إلىٰ البـارَةِ أو قريب الجزيرة العُمَرية إلىٰ أطراف بغداد .

---

(١) هو بهذا الضبط موضع . أُنظر معجم البلدان (ج ١ ص ١٤٩ ــ ١٥٣) .

النيابة الثالثة
(نيابة أطْرَابُلُس ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى
(فى ذكر أحوالها ومعاملاتها)

أما معاملاتها فبالدنانير والدراهم النُّقْرة على ما مر فى الديار المصرية ودِمَشْق وحَلَب ؛ وصَنْجتها كصَنْجة دِمَشْق فى الذهب والفضة ؛ وبها الفلوس العُتْق (١) فلسا بدرهم ؛ ورِطْلها بستمائة درهم كما فى دِمَشْق ، وأواقيه آثنتا عشرة أوقية كل أوقية خمسون درهما . وتعتبر مَكِيلاتها بالمَكُّوك كما فى حَلَب ؛ ويقاس القُماش بها بذراع كلُّ عشرة أذرع منه إحدى عشرة ذراعا بالمصرىّ ؛ وتقاس أرض دورها بذراع العمل كما فى الديار المصرية وغيرها من البلاد الشامية ؛ وتعتبر أرض زراعتها بالفدّان الإسلامىّ والفَدّان الرومىّ كما فى دمشق وغيرها من البلاد الشامية ؛ وخراجها على ما تقدّم فى دِمَشْق وغيرها من بلاد الشام .

وأما جيوشها فمن الترك ومَنْ فى معناهم على ما تقدّم فى غيرها من الممالك الشامية ، وبها أمير واحد مقدّمُ ألف غير النائب ، وباقى أمرائها طبلخاناه وعشرات وخمسات ومَنْ فى معناهم من العشرينات وغيرها ؛ وبها من وظائف أرباب السيوف نيابة السلطنة : وهى نيابة جليلة ، نائبها من أكبر مقدّمى الألوف ، وهو فى الرتبة الثانية من حَلَب كما فى حماة ؛ وليس بها قلعة يكون لها نائب بل نائب السلطنة هو المتسلم لجميعها والمتصرف فيما لديها من أمر العسكر وغيره .

ومنها الحجوبية ، وبها ثلاثة حُجّاب أكبرهم طبلخاناه وهو حاجب الحُجّاب ، والحاجبان الآخران كل منهما أمير عشرة .

(١) بياض فى الأصل .

ومنهـا المِهْمِنْدارية، وشدّ الدواوين، وشدّ الخاص، وشدّ مراكز البريد، وشدّ المينا، ونقابة النقباء، وأميراخورِيَّة، وشدّ الأوقاف، وتقدِمة البريدية، وأميراخورية البريد، ووِلَاية المدينة، وتقدمة التُّرْكمان وغير ذلك، وكلها يوليها النائب بها .

وبهـا من أرباب الوظائف الديوانيـة ناظر المملكة، وناظر الجيش، وصاحب ديوان المكاتَبَات؛ وولاية الثلاثة من الأبواب السلطانية بتواقيعَ شريفة، وكُتَّاب دَسْت، وكُتَّاب دَرْج، ولايتهم من نائبها .

وبها من الوظائف الدينية قضاء القُضاة من المذاهب الأربعة، وقاضيًا عسكرٍ شافعيّ وحنفيّ، ومفتيًا دار عدل كذلك، ومحتسبٌ، ووكيل بيت المـال . إلىٰ غير أولئك من أرباب الوظائف .

وأما ترتيب النيابة بها فإن النـائب يركب فى يومى الاثنين والخميس من دار النيابة، ويخرج فى مَوْكِبِه من الأمراء والأجناد حتّى يأتىَ ساحل البحر، ثم يعود إلىٰ دار النيابة ومعه جميع الأمراء والأجناد، خلا الأمير المقدّم فإنه لايحضُر معه إلىٰ دار النيابة . وإذا حضر النـائب إلىٰ دار النيابة جلس فى دار العدل بصدر الإيوان وليس بها كرسىٌّ سلطنةٍ، ويجلس قاضيان: شافعىّ وحنفىّ عن يمينه، ومالكىّ وحنبلىّ عن يساره، ووكيلُ بيت المـال تحت القاضى المـالكىّ، ويجلس كاتب السر أمامه علىٰ القرب من يساره وكُتَّاب الدَّسْت خلْفَه، وحاجب الحُجَّاب جالس أمام النائب علىٰ القُرْب منـه، ويأخذ الحُجَّاب الصِّغار القِصَص ويناولونهـا إلىٰ حاجب الحُجَّاب فيدفعها لكاتب السر، ويفصل المحاكمات، ثم ينفض المجلس ويمدّ السِّماطُ فيأكلون وينصرفون كما فى غيرها .

الجمـــلة الثـانية

(فيما هو خارج عن حاضرتها، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(النوّاب ، وهم علىٰ قسمين)

القســم الأوّل

النيابات بمضافات نفس أَطْرَابُلُسَ، وبها خمس نيـابات كلُّهم يكاتَبُون عن الأبواب السلطانية فى المهمات ونحوها، دون خَلَاص الحقوق . فإنه يختص بنائب السلطنة بها .

الأولىٰ ـ (نيابة حِصْن الأكراد) ـ ونيابته إمرة عشرة .

الثـانية ـ (نيابة حِصْن عَكَّار) ـ ونيابته إمرة عشرة .

الثـالثة ـ (نيابة بَلَاطُنُس) ـ ونيابتها إمرة عشرة .

الرابعـة ـ (نيابة صَهْيُون) ـ ونيابتها إمرة عشرة .

الخامسة ـ (نيابة اللَّاذِقِيَّة) ـ ونيابتها إمرة عشرة .

القســم الثـانى

(نيابات قِلَاع الدعوة، وهى ستُّ نيابات خارجا عن مِصْياف حيث أضيفت إلىٰ دمَشْقَ)

الأولىٰ ـ (نيابة الرُّصَافَة) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

الثـانية ـ (نيابة الخَوَابِي) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

الثـالثة ـ (نيابة القُدْمُوس) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

الرابعـة ـ (نيابة الكَهْف) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

الخامسة ـ (نيـابة المَنِيقة) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

السادسة ـ (نيـابة القَلْعة) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

قلت : وقد أخبرنى بعض كُتَّاب المملكة أن هذه النيابات كلَّها آستقر فيها أجناد؛ وبالجملة فإنمـا يولِّى فيها نائب طَرَابُلُس بكل حال .

الضرب الثـانى
(الوُلاة)

وبها ولاياتٌ ست ، ووُلاة جميعها أجناد، عن نائب طَرَابُلُس .

الأولىٰ ـ ولاية أنْطَرْطُوس .

الثـانية ـ ولاية جُبَّة المُنَيْطَرَة .

الثـالثة ـ ولاية الظَّنِّيِّين .

الرابعـة ـ ولاية بُشَرِّيه .

الخامسة ـ ولاية جَبَلَة .

السادسة ـ ولاية أَنَفَة .

النيـابة الرابعـــة
(نيابة حماة، وفيهـا جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ
(فى ذكر أحوالهـا ومعاملاتها)

أما معاملاتها فعلىٰ ما تقدّم فى غيرها من المـالك الشامية من المعاملة بالدنانير والدراهم،وصَنْجتها كصَنْجة دمَشْق وحَلَب وطَرَابُلُس،تنقص عن الصَّنْجة المصرية

كل مائة مثقال مثقالٌ وربع ، وكل مائة درهم درهم وربع ،ورِطْلُها سبعمائة وعشرون درهمـا بصَنْجتها، ومكِيلاتها معتبرة بالمَكُّوك كما فى حَلَب و بلادها ، ومكُّوكها مقدّر كل مكوكين وربع مكوك غِرارة بالدِّمَشْقِىّ ؛ وقياس قماشها بذراع (١)
وقياس أرضها بذراع العمل المعروف .

الجمـــــلة الثـانية

(فى ترتيب نيابتها، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما بحاضرتها)

اما جيوشها فمن التُّرْك ومَنْ فى معناهم،وبها عدّة من أمراء الطبلخاناه والعشرات والخمسات ومقدّمى الحَلْقة وأجنادها، وليس بها مقدّمُ ألف . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ قواعد الشأم المستقرّة أنها كانت بيد بقَـايَا الملوك الأيوبيـة إلىٰ آخر الدولة الناصرية " محمد بن قلاوون " فى سلطنته الأخيرة . قال فى " مسالك الأبصار " : إن صاحبها كان يستقل فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات وتوليـة القضاة والوزراء وكُتّاب السر وسائر الوظائف بها،وتُكْتب المناشيرُ والتواقيعُ من جهته ولكنه لايُمْضِى أمرا كبيرا فى مثـل إعطاء إمرة أو وظيفة كبيرة حتّى يشـاور صاحب مصر، وهو لا يجيبه إلا بأن الرأى ما تراه ومن هـذا ومثله ، وربمـا كتب له مرسومٌ شريفٌ بالتصرف فى مملكته . قال فى " مسالك الأبصـار " : ومع ذلك فصاحب مصر متصرف فى ولاية صاحبها وعزله،مَن شاء وَلّاه ومن شاء عزله، ولم يزل الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أن خُلِـع الأفضلُ محمد بن المؤيد المتقدّم ذكره من سلطنتها(٢)،بعد موت

---

(١) بياض فى الأصل .

(٢) أى وأسندت نيابتها فى ذلك الحين إلىٰ مملوك أبيه "سيف الدين طقزتمر" كذا فى تاريخ أبى الفداء .

السلطان الملك النـاصر وملك آبنه أبي بكر؛ ونائبها من أكابر الأمراء المقـدّمين، ولكنه فى الرتبة دون نائب طَرَابُلُس وإن كان مساويا له فى المكاتبة من الأبواب السلطانية، ويظهر ذلك فى كتابة المطلقات الكبار حيث يذكر نائب طَرَابُلُس قبله .

وبها من وظائف أرباب السيوف الجوبيةُ، وبها حاجبان : الكبير منهما طبلخاناه والثانى عشرة؛ والمِهْمِندارية ، وبها آثنان وهما جنديّان ؛ وشدّ مراكز البريد، وبه جندىّ؛ وأميراخورية البريد ، ومتوليها جندىّ؛ وولايةُ المدينة، وواليها جندىّ؛ ونِقابةُ العساكر، وبها آثنان وهما جنديان أحدهما أكبر من الآخر . وجميع أرباب الوظائف يوليهم النائب بها بتواقيع كريمة، وليس بها قلعةٌ لهـا نائب .

وبهـا من الوظائف الدينيـة من أرباب الأقلام أربعـةُ قضـاة من المذاهب الأربعة، وولايتُهم من الأبواب السلطانية بتواقيعَ شريفة، وقاضى عسكر حنفىّ ، وليس بها قضاة عسكر من المذاهب الثـلاثة الأُخَر ولا مفتُو دار عدل؛ وبها وكيل بيت المـال ، وولايتـه من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ووَكالة شرعيـة ؛ ومحتسب بولايةٍ عن النائب بتوقيع كريم .

وبها من الوظائف الديوانية من أرباب الأقلام كاتبُ سر، ويعبَّر عنه فى ديوان الإنشاء بصاحب ديوان المكاتبات بحماةَ المحروسة ، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وله أتبـاع من كُتَّاب الدست وكُتَّاب الدَّرْج وولايتهم عن النائب بتواقيع كريمة؛ وبها ناظر المملكة القائم مقام الوزير، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وله أتباع من كُتَّاب وشهود، وولايتُهم عن النائب بتواقيع كريمة . إلى غير ذلك من وظائفَ صغارٍ يوليها النائب بتواقيع كريمة .

وترتيب المَوْكب بها أن النائب بها يركب من دار النيابة فى يومى الخميس والآثنين وصحبته العسكر من الأمراء وأجناد الحَلْقة، ويخرج إلى خارج المدينة من قبليها

ويسير فى المَوْكب إلىٰ ضيعة تسمّى بقَرين علىٰ القرب من حماة ، ثم يعود فى مَوْكبِه حتّىٰ يقف بسُوق الخيل بمكان خارجَ المدينـة يعرف بالمَوْقِف ، وينادىٰ بينهم علىٰ الخيول ، وربمـا نودِىَ علىٰ بعض العقارات ، ثم تصيح الجاويشية ، وينصرف عن ذلك المكان ويدخل المدينة ، ويأتى دارَ النيابة ويدخل أوّلُ العسكر من داخل باب يعرف بباب العُشْرة(١) ، ثم يترجل الناس علىٰ الترتيب علىٰ قدر منازلهم حتّىٰ لا يبقىٰ راكب سوىٰ النائب بمفرده ، ولا يزال راكبا حتّىٰ يترجل بشُبَّاك بدار النيابة معدّ للحكم فيجلس فيه ويجلس عنـده داخل الشُّبَّاك القضاةُ الأربعةُ : الشافعىّ والحنفىّ عن يمينه ، والمـالكىّ عن يساره والحنبلىّ يليه ، ويجلس الأمراء علىٰ قدر منازلهم ، وكاتبُ السر وناظر الجيش أمام النائب خارج الشُّـبَّاك ، ويقف هناك الحاجبان والمهمندار ونقيب النقباء ، وتُرفَع القصص فيقرؤها كاتب السر عليه ويرسُم فيها بما يراه ، ثم يقوم من مجلسه ذلك وينصرف القضاة ويدخل إلىٰ قُبَّة معـدّة لجلوسه ومعه كاتب السر وناظر الجيش والأمراءُ فيفصل بقية أموره ممـا يتعلق بالجيش وغيره ، ثم يمد السِّماطُ بعد ذلك فيأكلون وينصرفون .

الضرب الثـانى

(ماهو خارج عن حاضرتها)

وليس بخارجها نيابات ، بل يقتصر فيه علىٰ ثلاث ولايات ، ولاتُها أجناد يوليهم النائب بها .

الأولىٰ ــ ولاية بَرِّها كما فى دِمَشْق وحَلَب .

الثـانية ــ ولاية بارِينَ .

الثـالثة ــ ولاية المَعَرَّة . وليس بها عرب ولا تُرْكُمان تنسب إليها .

---

(١) فى الضوء "بباب العزة" .

النيابة الخـامسة
(نيابة صَفَد، وفيها جملتان)

الجمـــــــلة الأولىٰ
(فيما هو بحاضرتها)

أما معاملاتها فكما فى دِمَشْق وغيرها من البلاد الشاميـة؛ وصنجتها كصنجتها ورطلها ... ...[1] وأواقيه آثنتا عشرة أوقية كل أوقية ... ...[1] وتعتبر مكيلاتها ... ...[1] وتقـاس أرض دورها بذراع العمل كما فى غيرها، وتعتـبر أرض زراعتها بالفـدّان الإسلامىّ والفدّان الرومىّ كما فى غيرها من البلاد الشامية .

وأما جيوشها ووظائفها الديوانية ووظائفها الدينية، فكما فى طَرَابُلُس . وأما ترتيب النيابة بها ... ...[1]

الجمـــــلة الثـانية
(فيما هو خارج عن حاضرتها)

وليس بأعمالها نيابة بل كلها ولايات، يليها أجناد من قبل نائب صَفَد؛ وهى إحدىٰ عشرة ولاية .

الأولىٰ ــ ولاية بَرِّها كما فى غيرها من الممالك المتقدّمة .

الثـانية ــ ولاية النَاصِرة .

الثـالثة ــ ولاية طَبَرِيَّة .

الرابعـة ــ ولاية تِبْنِين وَهُونِين .

الخامسة ــ ولاية عَثْلِيث .

---

(١) بياض فى الأصل فى المواضع الأربعة .

السادسة ـ ولاية عَكَّا .

السابعة ـ ولاية صُور .

الثامنة ـ ولاية الشاغُور .

التاسعة ـ ولاية الإقليم .

العاشرة ـ ولاية الشَّقِيف .

الحاديةَ عشرةَ ـ ولاية جِينِينَ .

النيابة السادسة

(نيابة الكَرَك ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(فيما هو بحاضرتها)

أما معاملاتها فكما فى غيرها : من المعاملة بالدنانير والدراهم ، وصنجتها (١) ورطلها (١) وأواقيه آثنتا عشرة أوقية كل أوقية (١) ويقاس قماشها بذراع (١) وتقاس أرض دورها بذراع العمل كما فى غيرها ، وتعتبر أرض زراعتها بالفدّان الإسلامىّ والفدّان الرومىّ كما فى غيرها من بلاد الشام ، وكذلك خراج أرضها .

وأما جيوشها فعلى ما تقدّم فى غيرها من الممالك من آجتماعها من الترك ومَنْ فى معناهم ؛ وبها من الأمراء الطبلخانات والعشرات والخمسات ومَنْ فى معناهم ، وليس بها مقدّم ألف غير النائب كما تقدّم والجوبية والمهمندارية وتقدمة البريد ، وولاية القلعة ؛ وبها من الوظائف الديوانية ناظر المال وناظر الجيش وكاتب دَرْج ؛ وولاية هؤلاء الثلاثة من الأبواب السلطانية .

---

(١) بياض فى الأصل .

وأما ترتيب المَوْكب بها[1] .

الجمـــــلة الثـانية

(فيما هو خارج عن حاضرتها، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(الولايات، وفيها أربع ولايات)

الأولى ـ ولاية بَرّها كما فى غيرها .

الثـانية ـ ولاية الشَّوْبَك .

الثـالثة ـ ولاية زُغَر .

الرابعة ـ ولاية مُعَانَ .

الضرب الثـانى

(العـــرب)

وعرب الكَرَك فيما ذكره فى "مسالك الأبصار" : بنو عُقْبة، وعُقْبة من جُذَام .
قال فى "مسالك الأبصار" : وكان آخر أمرائهم شطى بن عتبة (؟) وكان سلطاننا

(١) بياض بالأصل بقدر ستة أسطر .

الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أقبل عليه إقبالا أحلَّه فوق السِّما كَيْن وألحقه بأمراء آل فضل وأمراء آل مرا ، وأقطعه الإقطاعات الجليلة ، وألبسه التشريف الكبير، وأجزل له الحِبَاء، وعمّر له ولأهله البيت والخباء. وكذلك ممن ينسب إلى عرب الكَرَك بنو زُهَير عربُ الشَّوْبك، وآل عجبون، والعطويون، والصونيون وغيرهم .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من المقالة الثانية
(فى المملكة الحجازية ، وفيه سبعة أطراف)

الطَّرَف الأوّل
(فى فضل الحجاز وخواصِّه وعجائبه)

أما فضله ففى "صحيح مسلم" من حديث جابر بن عبدالله الأنصارىّ رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم! قال : " غِلَظُ القلوبِ والجَفَاءُ فى المَشْرِق، والإيمانُ فى أهْلِ الحِجَاز " .

قلت : وفى ذلك دليل صريح لفضل الحجاز نفسه، وذلك أن هواء كل بلد يؤثِّر فى أهله بحسب ما يقتضيه الهواء ، ولذلك تجد لأهل كل بلد صفاتٍ وأحوالا تخصهم ، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن أهل الحجاز بالرقّة كما أخبر عن أهل المشرق بالغِلْظة والجَفَاء ؛ وناهيك بفضل الحجاز وشرفه أن به مَهْبَطَ الوحى ومَنْبَع الرسالة ، وبه مكةَ والمدينةَ اللتين هما أشرف بلاد الله تعالى وأجلُّ بقاع الأرض ، ولكل منهما فضل يخصه يأتى الكلام عليه عند ذكره فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

وأما خواصه فيختص من جهة الشرع بأمرين :

أحدهمـــا ـ أنه لا يستوطنه مشرك من ذمىّ ولا معاهَد، وإن دخله لم يمكّن من الإقامة فى موضع منه أكثَرَ من ثلاثة أيام ثم يُصْرَف إلىٰ غيره ، فإن أقام بموضع أكثر من ثلاثة أيام ، عُزِّر إن لم يكن له عُذْر . قال أصحابنا الشافعية : ولو عقــد الإمام عقدًا لكافر علىٰ الإقامة بالحجاز علىٰ مسمًّى بطل العقد ووجب المسمّى .

الثانى ـ أنه لاتُدْفَن فيه موتاهم وإن دفن أحد منهم فيه نقل إلىٰ غيره .

وأما عجائبه فمنها مَقام إبراهيم عليه الســلام، وهو الحَجَر الذى كان يقوم عليه لبناء البيت فأثّرتْ فيه قدماه وصار أثرهما فيه ظاهرا كما أخبر الله تعالىٰ عن ذلك بقوله : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهو باق علىٰ ذلك أمام البيت من جهــة الباب إلىٰ الآن .

(ومنها) ماذكره فى "الروض المعطار" من أنّ أثر قدم إسمـاعيل عليه الســلام بمسجدٍ بمنىٰ فى حَجَر فيه أثر عَقِبه حين رَفَس إبليسَ برجله عند آعتراضه له فى ذَهَابه مع أبيه للذَّبْح .

(ومنها) حَصىٰ الجِمَار، وهو أنه فى كل سنة يَرمِى الحُجّاج عند الجَمَرات الثلاث فى أيام مِنىٰ ما تحصَّل منه التلالُ العظيمة علىٰ طول المَدىٰ، ومع ذلك لم يكن موجودا بمنىٰ منها إلا الشىء القليل علىٰ تطاوُل السنين، يقال إن مهما تُقُبِّل منها رفع والباقى منها مالم يتقبل .

الطـــــرف الثـانى

(فى ذكر حدوده، وآبتداء عِمارته، وتسميته حجازا)

أما حدوده فآعلم أن الحجاز عبارة عن مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها علىٰ خلاف فى بعض ذلك، يأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ ، وهو بجملته قطعةٌ من جزيرة العرب، وهى ما بين بحر القُلْزُم و بحر الهند و بحر فارس والفُرَات و بعض بادية الشام .

قال المدائنى: جزيرة العرب خمسة أقسام : تِهَامَةُ، ونَجْدٌ، والحِجازُ، والعَرُوضُ، واليَمَنُ . وزاد ٱبن حوقل فى أقسامها باديةَ العراق وباديةَ الجزيرة فيما بين دِجْلَةَ والفُراتِ وباديةَ الشام، وفيها خلاف يطول ذكره .

قال النووىّ فى " تهذيب الأسماء واللُّغات " : وسميت جزيرة العرب جزيرةً لٱنجزار الماء عنها حيث لم يمدّ عليها وإن كان مُطيفا بها . والحجاز عندهم عبارة عن جبل السَّراة ــ بالسين والراء المهملتين ــ علىٰ ما أورده فى "الروض المعطار"، وضُبِط فى " تقويم البُلْدان " فى الكلام علىٰ البَلْقاء من الشام بالشين المعجمة، وهو جبل يُقْبِل من اليمن حتّى يتصل ببادية الشأم، وهو أعظم جبال العرب . وحدّه من الجنوب تِهَامَةُ : وهى ما بينه وبين بحر الهند فى غربىّ بلاد اليمن؛ وحدّه من الشرق بلاد اليَمَنِ وهى بينه وبين فارس؛ وحدّه من الشَّمال نَجْدٌ، وهو ما بينه وبين العراق؛ وحدّه من الغرب بحر القُلْزُم وما فى جنوبيه من بادية الشام .

الطرف الثالث

(فى ٱبتداء عمارته وتسميته حجازا)

أما ٱبتداء عمارته فإنه لما ٱنبثَّ أولاد سام بن نوح عليه السلام وهم العَرَب فى أقطار هذه الجزيرة حين قَسَم نوح الأرض بين بنيه ، نزل الحجازَ منهم من العرب البادية طَسْمٌ وجَدِيسُ [ومنزلهم] اليَمامة ومنزلة جرهم علىٰ القرب من مكة فكان ذلك أوّل عمارة الحجاز بعد الطُّوفان؛ ثم بادت هذه العرب وهلكوا عن آخرهم، ودَرَست أخبارهم وٱنقطعت آثارهم . وعمر الحجازَ بعدهم جُرْهُمُ الثانيــة، وهم بنو جُرْهُم بن قَحْطان بن عَابَر بن شالَخ بن أَرْفَخْشَذَ بن سام بن نوح عليه السلام . ولما أسكن إبراهيم الخليل عليه السلام ولده إسماعيل بمكة كما أخبر تعالىٰ عنه بقوله : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى

أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ كانت جرهُـمُ الثانيــة نازلين بالقرب من مكة فاتصلوا بإسمـاعيل عليه السلام، وتزوّج منهم وكثُر ولده وتناسلوا فعَمَروا الحجاز إلىٰ الآن .

وأما تسميته حجازا، فقال الأصمعىّ : سمى بذلك لأنه حجز بين نَجْدٍ وتِهَـامَةَ ولآمتداده بينهـما علىٰ ما تقـدّم . وقال آبن الكلبىّ : سمِّى بذلك لمـا آحتجز به من الجبـال . قلت : ووَهِم فى "الروض المعطار" فقـال : سمى حِجَـازا لأنه حجز بين الغَوْرِ والشام، وقيـل لأنه حجز بين نَجْدٍ والسَّراة ، وما أعلم ما الذى أوقعه فى ذلك .

الطَّرَف الرابع

(فى ذكر مياهه وعيونه وجباله المشهورة)

أما مياهه وعيونه، فقال المتكلمون فى المسالك والممـالك: ليس بالحجاز بل بجزيرة العرب جملةً نهرٌ يجرى فيه مَرْكَب، وإنمـا فيه العيون الكثيرة المتفجرةُ من الجبال المعتَضِدةُ بالسيول والأمطار، الممتدّة من وَادٍ إلىٰ وادٍ، وعليها قُرَاهم وحدائقهم وبساتينهم مما لا يحصىٰ ذلك كثرةً، كما فى الطائف وبطن مَرٍّ، وبطن نَخْلٍ، وعُسْفان وبَدْرٍ وغير ذلك .

وأما جباله المشهورة، فآعلم أن جميع أرض الحجاز جبال وأوديةٌ ليس فيها بسـيط من الأرض، وجباله أكثر من أن تدخل تحتَ العـدّ أو يأخذها الحصر، وقد ذكر الأزرقىّ فى "تاريخ مكة" أن لمكة(١) آثنى عشر ألف جبل لكل جبل منها آسم يخصه ولكن قد شهرت جبال مكة والمدينة واليَنْبُع .

---

(١) لعله للحجاز .

فمن جبال مكة المشهورة (جبل أبى قُبَيس) وهو الجبل الذى فى جنوبىّ مكة ممتدّا على شرقيها . قال الأزرقىّ : وهو أوّل جبل وُضِع بالأرض ولذلك كان أقرب الجبال إلى البيت .

(ومنها) جبل قَيْنُقَاع[(١)] ـ بقاف مفتوحة وياء مثناة تحتُ ساكنة ونون مضمومة وقاف ثانية مفتوحة بعدها ألف وعين مهملة ـ وهو الجبل الذى غربىّ مكة، سمى بذلك لمكان سلاح تُبَّعٍ منه ، والقعقعة صوت السلاح ، كما سمى جِيَاد جيادا لمكان خيله منها .

(ومنها) جبل حِرَاءٍ ـ بحاء مهملة مكسورة وراء مهملة مفتوحة بعدها ألف ـ وهو جبل يُشْرِف على مكة من شرقيها يرى البيت من أعلاه ، وفيه الغار الذى كان يتعبَّد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وفيه جاءه جبريل عليه السلام فى أوّل النبوّة .

(ومنها) جبل ثَوْرٍ ـ بفتح الثاء المثلثة وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر ـ وهو جبل مشرف على مكة من جنوبيها ، وفيه الغار الذى آختفى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين ومعه أبو بكر الصدّيقُ رضى الله عنه .

(ومنها) جبل تَبِيرٍ[(٢)] ـ بفتح التاء المثناة فوق وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وراء مهملة فى الآخر ـ وهو جبل مشرف يرى من منى والمزدلفة .

الطَّـــرَف الخامس

(فى زُرُوعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وطيوره)

أما زروعه ففيه من الحبوب المزدرعة البُرّ والشعيرُ والذُّرَةُ والسُّلْت ، وجميعها تُزْرَع على المطر ، وربما زُرِع بعضها على ماء العيون ، والشعير والذرة أكثر الحبوب

---

(١) صوابه قُعَيْقِعَان . أُنظر معجم البلدان ومعجم ياقوت . (٢) صوابه ثبير بالثاء المثلثة .

وجودا، ويُزْرَع فيه على العيون البِطِّيخُ : الأخضر والأصفر، والقِثَّاء، والبَاذِنْجَان، والدُّبَّاءُ، والملوخيا، والهِنْدِبَا، والفُجْل، والكُرَّاث، والبَصَل، والثُّومُ .

وأما فواكهه ففيــه الرُّطَبُ، والعِنَبُ، والمَوْزُ، والتُّفَّاحُ، والسَّفَرْجَلُ، واللَّيْمُونُ وغير ذلك .

وأما رياحينه ففيه التامرحِنَّاء، ويسمّى عندهم الفَاغِيَة : بالفاء وغين معجمة وياء مثناة تحتُ وهاء فى الآخر .

وأما مواشيه ففيه الإبِلُ، والضَّأْنُ ، والمَعَزُ بكثرة ، والبقر بقِلَّة . وبه من الخيل ما يفوق الوصف حسْنُه، ويُعجز البرقَ إدراكُه .

وأما وحوشه ففيــه الغِزْلَانُ، وحُمُر الوحش، والذِّئاب، والضِّباع، والثعالب، والأرانب وغيرها .

وأما طيوره ففيه الحمام، والدجاج، والحِدَأَةُ، والرَّخَم .

الطرف السادس

(فى قواعده وأعمـاله ، وفيه ثلاث قواعِد)

القـاعدة الأولىٰ

(مكة المشرفة ، وفيها جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى حاضرتها)

وقد ذكر العلماء رحمهم الله لها ستة عشر اسما . " مَكَّة " بفتح الميم وتشديد الكاف المفتوحة وهاء فى الآخر. كما نطق به القرءان الكريم فى قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ ، سميت بذلك لقلة مائها أخذا من

قولهم آمتك الفصيل ضرع أمه إذا آمتصه ، وقيل لأنها تمك الذنوب بمعنى أنها تذهب بها، ويقال لها أيضا (بكة) بإبدال الميم باء موحدة . وبه نطق القرءان أيضا في قوله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة ﴾ قال الليث : سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة أي تدقها والبك الدق؛ وقيل بالميم الحرم كله وبكة المسجد خاصة ، حكاه الماوردي عن الزهري وزيد بن أسلم؛ وقيل بالباء آسم لموضع الطواف،سمي بذلك لآزدحام الناس فيه والبك الآزدحام . ومن أسمائها أيضا (أم القرى) و (البلد الأمين) و (أم رحم) بضم الراء وإسكان الحاء المهملتين لأن الناس يتراحمون فيها ويتوادعون؛ و (صلاح) مبني على الكسر كقطام ونحوه؛ و (الباسة) لأنها تبس الظالم أي تحطمه؛ و (الناسة) بالنون لأنها تنس الملحد فيها أي تطرده؛ و (النساسة) لذلك أيضا؛ و (الحاطمة) لأنها تحطم الظالم كما تقدم؛ و (الرأس) و (كوثى) بضم الكاف وفتح المثلثة؛ و (القدس) و (القادس) و (المقدسة) . قال النووي : وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى،ولذلك كثرت أسماء الله تعالى وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم !

وقد تقدم انها من جملة الحجاز . وحكى آبن حوقل عن بعض العلماء أنها من تهامة ورجحه في "تقويم البلدان" . وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة . قال في "كتاب الأطوال" : طولها سبع وستون درجة وثلاث عشرة دقيقة، وعرضها إحدى وعشرون درجة وأربعون دقيقة . وقال في "القانون" : طولها سبع وستون درجة فقط، وعرضها إحدى وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وقال في "رسم المعمور" : طولها سبع وستون درجة ، وعرضها إحدى وعشرون . وقال كوشيا وطولها سبع وستون درجة وعشر دقائق ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وأربعون دقيقة . وقال آبن سعيد : طولها سبع وستون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، وعرضها إحدى وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وهي مدينة في بطن وادٍ والجبال

محتَفَّة بهـا ، فأبو قُبَيْس مشرف عليها من شرقِيّها وأَجْيَادٌ بفتح الهمزة مشرفٌ عليهـا من غربيها . قال الجوهرىّ : سمى بذلك لموضع خيل تُبَّع منه . قال فى "الروض المعطار" : وسَعَتها من الشمال إلىٰ الجنوب نحو ميلين ، ومن أسـفل أَجْيَادٍ إلىٰ ظهر جبل قُعَيْقِعَانَ مثـل ذلك . قال الكلبىّ : ولم يكن بها منازل مبنية فى بدء الأمر ؛ وكانت جُرْهُم والعَمَالقة حين وِلَايتهم علىٰ الحرم ينتجِعُون جبالها وأوديتها ينزلون بهـا ؛ ثم جاءت قريش بعدهم فمشوا علىٰ ذلك إلىٰ أن صارت الرياسة فى قريش لقُصَىّ بن كلاب فبنىٰ بها دار النَّدْوَة ، يحكم فيها بين قريش ؛ ثم صارت لمشاورَتهم وعقد الألوية فى حروبهم ؛ ثم تتابع الناس فى البناء : فبنَوْا دُورا وسكنوها ، وتزايد البنـاء فيها حتّىٰ صارت إلىٰ ماصارت . وبنـاؤها بالحجر وعليها سُورٌ قديم قد هُـدِم أكثره وبقى أثره والمسـجد فى وسْطَهَا . وقد ذكر الأزرقىّ فى "تاريخ مكة" أن الكعبة كانت قبل أن تُدْحىٰ الأرض رابيـةً حمراء مشرفة علىٰ وجه المـاء ، ولمـا أهبط الله آدم عليـه السلام وجاء إلىٰ مكة ، آستوحش فأنزل الله تعالىٰ إليه قُبَّـةً من الجنة من دُرَّة بيضاء لهـا بابان فوُضِعت مكان البيت فكان يتأنَّس بها ، وجعل حولها ملائكة يحفَظُونها من أن يقع بصر الشياطين عليها . قال فى " الروض المعطار" : وكان الحجر الأسود كرسيًّا يجلس عليه . قال : وطوله ذراع . والذى ذكره المَـاوَرْدِىُّ وغيره أنّ الملائكة لمـا قالوا : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ لاذُوا بالعرش خوفا من غضب الله تعالىٰ فطافوا حوله سـبعا فرَضِىَ عنهم وقال : آبنُوا فى الأرض بيتا يعُوذ به من تَخِطْت عليه من بنى آدم فبنَوْا هذا البيت ، وهو أوّل بنائه ؛ ثم بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبر الله تعالىٰ بقوله : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ قال فى " الروض المعطار" : ولم يجعل لهـا سَقْفا . قال : ثم آنهدمت الكعبة فبنتها العَمَالقة ، ثم آنهدمت فبنتها جُرْهُم ، ثم آنهدمت فبناها قُصَىّ بن كلاب وسَقَفَها بخشب

الدَّوْمِ وجريد النخل، وجعل ٱرتفاعها خمسا وعشرين ذراعا، ثم ٱستَهْدمت وكانت فوق القامة فأرادت قُرَيْشٌ تعليتها فهدمَتْها وبنتها، والنبىّ صلى الله عليه وسلم عمره خمس وعشرون سنة، وشهد بناءها معهم، وكان بابُها بالأرض فقال أبو حذيفة ٱبن المغيرة : ياقوم ٱرفعُوا بابَ الكعبة حتى لايدخل إلا مسلم (١) ففعلوا ذلك وسَقَفُوها بخشب سفينة ألقاها البحر إلىٰ جُدَّةَ .

قال فى "الروض المعطار" : وكان طولها ثمانى عشرة ذراعا ، ثم ٱحترق البيت حين حُوصِر ٱبن الزُّبَيْرِ بمكة وتأثَّرت حجارته بالنار، فهدمه ٱبن الزبير وأدخل فيه ستة أذرع من الحِجْرِ، وقيل سبعة، وجعل له بابين ملصقين بالأرض: شرقيا وغربيا يُدْخَلُ من أحدهما ويُخْرَجُ من الآخر، وجعل علىٰ بابها صفائحَ الذهب، وجعل مفاتيحه من ذهب . قال فى "الروض المعطار" : وبلغ بها فى العلو سبعا وعشرين ذراعا . فلما قتل ٱبن الزبير كتب عبد الملك بن مَرْوَانَ إلىٰ الحَجَّاج يأمره بإعادته علىٰ ما كان عليه فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم من بناء قريش فهدم جانب الحِجْر وأعاده إلىٰ ذلك ، وسدّ الباب الغربىّ ورفع الشرقىّ عن الأرض إلىٰ حدّه الذى هو عليه الآن، وكان عبد الملك بن مروان بعد ذلك يقول : "وَدِدت أنى كنْتُ حَمَّلت ٱبن الزبير من بناء الكعبة ماتحمَّل" .

ثم جدّد المتوكل رُخَام الكعبة فأزَّرها بفضة وألبس سائرحيطانها وسقْفِها الذهب، وهو علىٰ ذلك إلىٰ الآن . وهو مبنىّ بالحجر الأسود مستطيل البناء علىٰ التربيع، فى ٱرتفاع خمسة وعشرين ذراعا .

وله أربعة أركان .

الأوّل – ركن الحَجَر الأسودِ . وهومابين الشرق والجنوب، ومنه يبتدأ الطواف .

(١) عبارة ياقوت "ورفعوا بابها مخافة السيل وأن لايدخل فيها إلا من أحبوا" .

الثـانى ــ الشامىّ . وهو مابين الشرق والشمال، سمى بذلك لمسامتته بعض بلاد الشام، وداخله باب المَطْلَع إلىٰ سطح الكعبة .

الثالث ــ الغربىّ . وهو ما بين الشَّمال والغرب ، سمى بذلك لمسامتته بلاد المغرب، ولو سمى بالمصرىّ لكان جديرا به لمسامتته بلاد مصر .

الرابع ــ اليمانِىُ . وهو ما بين الغرب والجنوب، سمى بذلك لمسامتته بلاد اليمن ولذلك خففت الياء فى آخره نسبة إلىٰ اليمن . وقال ٱبن قتيبة : سمى بذلك لأنه بناه رجل من اليمن يقال له ٱبن أبى سالم، وقد يُطْلَق عليه وعلىٰ ركن الحجر الأسـود اليمـانِيَان، وعلىٰ الشامىّ والغربىّ الشامِيَّان تغليبا .

ثم بين ركن الحجر الأسود وبين الركن الشامىّ أربعة وعشرون ذراعا ، وبالقرب من الركن الأسود فى هـذا الجدَار باب الكعبة علىٰ أربعة أذرع وشىء من الأرض يُرقىٰ إليـه بدَرَج من خشب توضع عنـد فتح الباب ؛ والمُلْـتَزَمُ بين الركن الأسود والباب الشرقىّ؛ وبالقرب من الركن الشامىّ منه مصلّىٰ آدم عليه السلام .

وهذا الجدار مقسوم ثلاث جهات .

الأولىٰ ــ من الركن الأسـود إلىٰ باب الكعبة . وهى فى جهة القبلة لأهـل البَصْرَةِ، والأهواز ، وفارس، وأصبهَانَ ، وكِرْمَانَ ، وسِجِسْتانَ، وشِمالِ بلاد الصِّينِ وما علىٰ سمت ذلك .

الثانية ــ من الباب إلىٰ مصلّىٰ آدم عليه السلام .وهى جهة القبلة لأهل الكوفة، وبغداد، وحُلْوَانَ، والقادسِـيَّة، وهَمَذَان ، والرَّىّ، ونَيْسَابُورَ، ومَرْو، وخُوَارَزْمَ، وبُخَارا، ونَسَا، وفرْغَانة، والشاش، وخُرَاسَان، وما علىٰ سمت ذلك .

الثالثة ــ من مصلّىٰ آدم عليه السـلام إلىٰ الركن الشامىّ . وهى جهة القبـلة لأهل الرُّهَا، والمَوْصِلِ، ومَلَطِيَّةَ، وشِمْشاط ، والحِيرَةِ، وسِنْجَار، وديارِبكْرٍ ،وأَرْمِينِيَةَ إلىٰ باب الأبواب، وما علىٰ سمت ذلك .

وبين الركن الشامىّ والركن الغربىّ أحدٌ وعشرون ذراعا ، وبأعلى هـذا الجدار المِيزَابُ فى الوسط منه وخارجه الحِجْرُ (بكسر الحاء المهملة وسكون الجيم) مستديرا به على سمت الركنين، يفصل بينه وبين البيت فُرْجتان .

وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات أيضا .

الأولى ـ من الركن الشامىّ إلى دون المِيزاب . وهى جهة القبلة لدِمَشْقَ، وحَمَاةَ، وسَلَمِيَّةَ، وحَلَبَ، ومَنْبِج، ومَيَّافَارِقِينَ، وماسامت ذلك .

الثانية ـ وسط الجدار من الميزاب وما إلى جانبه . وهى جهة القبلة للمدينة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) وجانب الشام الغربىّ، وغَزَّة، والرَّمْلَة، وبَيْت المَقْدِس، وَفِلَسْطِين، وعَكَّا، وصَيْدَا .

الثالثة ـ ما يلى هذه الجهة إلى الركن الغربىّ . وهى جهة القبلة لِمصْرَ بأسرها من أُسْوَان إلى دِمْيَاطَ، والإسْكَنْدَرِيَّة، وبَرْقَة، وكذلك طَرَابُلُس الغرب، وصِقِلِّيَة، وسواحل الغرب، والأَنْدَلُس وما على سمت ذلك . وبين الركن الغربىّ والركن اليمانى فى هذا الجدار الباب المسدود تُجاه الباب المفتوح .

وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات أيضا.

الأولى ـ من الركن الغربىّ إلى ثلث الجدار . وهى جهة القبلة لأهل الشَّمال من بلاد البُجَاوة ، والنُّوبَة ، وأوسط الغرب من جَنُوب الواحات إلى بلاد الجريد إلى البحر المحيط وما على سمت : ذلك من عَيْذاب ، وسواكن ، وجنوب أُسْوان ، وجُدَّة، ونحو ذلك .

الثانية ـ من ثلث الجدار إلى دون الباب المسدود . وهى جهة القبلة لأهل الجنوب من بلاد البُجَاوة ودَهْلَك وسَواكن والنُّوبة والتَّكْرور، وما وراء ذلك وعلى سمته .

الثـالثة ـ من دون الباب المسدود إلىٰ الركن اليمانى . وهى جهة القبلة لأهل الحَبَشَـةِ ، والزِّنْج ، والزَّيْلَع ، وأكثر بلاد السودان وما والاها من البلاد أو كان علىٰ سمتها .

وبين الركن اليمانى وركن الحجر الأسود عشرون ذراعا ، أنقص من مقابله بذراع ، وبالقرب من ركن الحجر الأسود من هـذا الجدار مصلَّى النبىّ صلى الله عليه وسلم ! قبل الهِجْرة .

وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات .

الأولىٰ ـ الركن اليمانى إلىٰ سبعة أذرع من الجدار . وهى جهة القبلة لتَدْمُرَ ، وحَضْرَمَوْتَ ، وعَدَنَ ، وصَنْعَاءَ ، وعُمَـانَ ، وصَعْدَة ، والشِّحْرِ ، وسَـبَإ ، وزَبِيدَ وما والاها أو كان علىٰ سمتها .

الثـانية ـ من حدّ الجهة المتقدّمة إلىٰ دونِ مصلَّى النبىّ صلى الله عليه وسـلم ! قبل الهجرة . وهى جهة القبلة لجنوب بلاد الصِّينِ ، والسِّنْد ، والتَّهائم ، والبحرين ، وما سامت ذلك .

الثالثة ـ من مصلَّى النبىّ صلى الله عليه وسلم ! قبل الهجرة إلىٰ ركن الحجر الأسود . وهى جهة القبلة لأهل واسِطَ ، وبلاد الصِّينِ ، والهِنْد ، والْمَرجَانِ ، وكَابُل ، والقُنْدُهَار ، والمَعْبَر ، وما والاها من البلاد أو كان علىٰ سمتها .

ويقابل الجدار الشرقىّ من البيت مما يلى ركن الحجر الأسود زَمْزَمُ وسِقَايَةُ العبَّاس ، ويقابله ممـا يلى الركن الشامىّ مَقَـامُ إبراهيم عليه السلام . وقد تقدّم الكلام عليه فى عجائب الحجاز فيما مرّ ، ويسمَّى ما بين الكعبة وزَمْزَمَ والمقام الحَطِيمَ (بالحاء والطاء المهملتين) . قال فى "الروض المعطار" : سمى بذلك لأنه كان من لم يجد من الأعراب

ثوبا من ثياب أهل مكة يطوف فيه رمى ثيابه هناك وطاف عريانا. وخارج المسجد الصَّفَا والمَرْوة اللذان يقع السعى بينهما.

الجملة الثانية

(فى نواحيها وأعمالها ، وهى على ضربين)

الضرب الأوّل

(الحَرَم ومَشَاعر الحج الخارجةُ عن مكة)

أما الحرم فهو ما يُطِيف بمكة مما يَحْرُم صيده وقَطْع شجره وحشيشه ونحو ذلك ، وقد تقدّم أن الله تعالى جعل ملائكة يَحْرُسون القُبَّة التى أنزلها الله تعالى إلى آدم من الجنة ووُضِعت له مكانَ الكعبة وجعلت الملائكة حَرَسا لها كى لايقع عليها بصر الشياطين ، فكانت مواقف الملائكة هى حُدود الحرم . قال ابن حوقل : وليس بمكة والحرم شجر يُثْمِر إلا شجر البادية ، أمّا خارج الحرم ففيه عيون وثِمار .

واعلم أن مقادير جهات الحرم تتفاوت فى القُرْب والبُعْد عن مكة ، وعلى حدوده أعلام منصوبة فى كل جهة تَدُلُّ عليه . قال فى "الروض المعطار" : قال الزبير : وأول من وضع علامات الحرم ونَصَبَ العُمُدَ عليه عَدْنَانُ بن أُدٍّ ، خوفا من أن تندرس معالِمُ الحرم أو تتغير . قال : وحدُّه من التنعيم على طريق سَرِفٍ إلى مَرّ الظَّهْرَانِ خمسة أميال ، وذكر فى موضع آخر أنها ستة أميال ؛ وحدّه من طريق جُدَّة عشرة أميال ؛ ومن طريق اليَمَن ستة أميال ، ودَوْرُه سبعمائة وثلاثة وثلاثون ميلا .

ثم بحدود هذا الحرم أماكِنُ مشهورة ، يَخْرُج إليها من مكة مَنْ أراد أن يُهِلَّ بعمرة فيُحْرِم منها .

أحدها ـ (التَّنْعِيمُ)ـ بألف ولام لازمتين وفتح التاء المثناة فوق وسكون النون وكسر العين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وميم فى الآخر ـ وهو موضع على حدّ الحرم على طريق السالك من بَطْن مَرٍّ وإلى مكة . قال فى "الروض المعطار": وسمّى التنعيم لأن الجبل الذى عن يمينه آسمه نُعَيم والذى عن يساره آسمه ناعِمٌ والوادى الذى هو فيه آسمه نَعْمان، ومنه آعتمرت عائشةُ رضى الله عنها مع عبد الرحمن بن أبى بكر، وهناك مسجدٌ يعرف بمسجد عائشة إلى الآن .

الثانى ـ (الحُدَيْبِيَّةُ)ـ بضم الحاء وفتح الدال المهملتين وسكون الياء المثناة تحت وكسر الباء الموحدة وفتح الياء المشدّدة وفى آخرها تاء ـ ونقل فى "الروض المعطار" عن الأصمعىّ تخفيفَ الياء الثانيــة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهو موضع بعضه فى الحِلّ وبعضه فى الحَرَم ، وفيه صَــدَّ المشركون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن البيت؛ وهى أبعد أطراف الحرم عن البيت؛ وهى على مســيرة يوم؛ وهى فى مثل زاوية للحرم . وذكر فى "الروض المعطار" أن الحديبيــة آسم لبئر فى ذلك المكان، ومذهبُ الشافعىّ أن العمرة منه أفضل من التنعيم .

الثالث ـ (الجِعِرَّانَة) ـ بكسر الجيم والعين المهملة وفتح الراء المهملة المشــدّدة بعــدها ألف ونون مفتوحة وهاء فى الآخر ـ ونقل فى "الروض المعطار" عن الأصمعىّ سكون العين وتخفيف الراء . قال : وهو مكان بين مكة والطائف ولكنه إلى مكة أقربُ ، ومنه أحرم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة فى وجهته تلك(1)، ومذهب الشافعىّ أن العمرة منه أفضل من الحُدَيْبِيَة .

وأما مَشَاعِر الحج الخارجةُ عن مكة فثلاثة .

---

(1) أى مرجعه من غزاة حنين وقسم فيها غنائم هوازن . أُنظر "معجم البلدان" .

أحدها — مِنًى بكسر الميم وفتح النون وألف مقصورة — سميت بذلك لما يُمْنىٰ فيها من الدماء أى يراق . قال فى "المشترك" : وبينها وبين مكة ثلاثة أميال — وهى تشبه القَرْية مبنيةٌ علىٰ ضفتى الوادى . وبها مسجد الخَيْف — بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفى آخره فاء — وهو مسجد عظيم متَّسِع الأرجاء بغير سقف .

الثانى — (المُزْدَلِفَةُ) — بضم الميم وسكون الزاى المعجمة وفتح الدال المهملة وكسر اللام وفتح الفاء وآخرها هاء — وهى موضع علىٰ يَسْرة الذاهب من منًى إلىٰ عرفة . قال النووىّ : سميت بذلك من التزلف والآزدلاف وهو التقرّب ، لأن الحجاج إذا أفاضوا من عَرَفَاتٍ آزدَلَفُوا إليها أى تقربوا ومضَوْا إليها ، وتسمى جَمْعًا أيضا بفتح الجيم وسكون الميم وعين مهملة — لأنه يجمع بها بين المغرب والعشاء ، وبها مسجد متسع . قال فى "الروض المعطار" : طوله ثلاثة وستون ذراعا ، وعرضه خمسون ذراعا ، وآرتفاع جداره عشرة أذرع .

الثالث — (عَرَفَةُ) — بفتح العين والراء المهملتين والفاء وهاء فى الآخر — ويقال فيه أيضا عَرَفَاتٌ علىٰ الجمع ، وبه جاء القرءان فى قوله تعالىٰ : ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ وهو موقف الحج ، وسمى عرفات لتعارف آدم عليه السلام وحَوَّاءَ به . قال كعب الأحبار : أُهبط آدم عليه السلام بالهند ، وحواءُ بِعرَفَةَ ، وإبليسُ بجُدَّةَ ، والحَيَّة بأَصْبَهَانَ ، وأمر الله تعالىٰ آدم بحج البيت فحج ، فكان حيث وضع قدمه تتفجر الأنهار وتبنىٰ المساجد . فلما وصل إلىٰ عرفة ، وجد بها حواءَ فتعارفا بها .

الضرب الثانى
(قُراها ومَخَاليفها)

وآعلم أن أكثر جبال مكة وأوديتها مسكونة معمورة إلا أنه ليس بها قرية مُقَرّاة إلا حيث المياه والعيون الجارية والحدائق المحدَّقة ، والمشهور من ذلك عشرة أماكن .

الأول ـ (جُدَّةُ) ـ بضم الجيم وتشديد الدال المهملة ثم هاء ـ وهى فُرْضَةُ مكة علىٰ ساحل بحر القُلْزُمِ ، وموقعها فى أوّل الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة ، وهى فى الغَرْب عن مكة بميـلة إلىٰ الشمال . قال فى "الأطوال" : طولها ست وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدىٰ وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . ووافقه علىٰ ذلك فى "القانون". وقال فى "رسم المعمور": طولها خمس وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها علىٰ ماتقدّم . وهى مِينا عظيمة محلُّ حَطٍّ وإقلاع، إليها تنتهى المراكب من مصر واليمن وغيرهما، وعنها تصـدر من مكة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من مكة علىٰ مرحلتين . وقال الإدريسى : بينهما أربعون مِيلاً، وهى ميقات من قطع البحر من جهة عيْذَابَ إليها .

الثـانى ـ (بَطْنُ نَخْلٍ) ـ وضبطه معروف ، ويقال فيه أيضا وادى نَخْلَةَ علىٰ التوحيد ونخلة بإسقاط لفظ وادى . قال الجوهرىّ : وبه كانت العُزّى التى هى أحد طواغيت قُرَيْشٍ، وبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم إليها خالد بن الوليد فهدمها، وهى الآن بيد هُذَيْلٍ ، وهى قُرًى مجتمعة ذات عيون وحدائق ومزدَرَع . أخبرنى بعض أهل الحجاز أن بها نحو أربعة عشر نهرا علىٰ كل نهر قرية، وغالب فواكه مكة وقَطَانِيِّها وبُقُولها منها، ومنها يصب الماء إلىٰ بطن مَرّ الآتى ذكره .

الثـالث ـ (الطّائِفُ) ـ بألف ولام لازمتين فطاء مهملة مشدّدة مفتوحة بعدها ألف وياء مثناة تحت مكسورة ثم فاء ـ وهو بلد شرقىّ بطن نخل المتقدّم ذكرها ، وبطن نخل بينه وبين مكة . قيل سميت الطائف لأنهـا فى طُوفان نوح ٱنقطعت من الشام وحملها المـاء وطافت بالأرض حتّى أرسَتْ فى هـذا الموضع . وقال فى "الروض المعطار" : ٱسمها القديم وَجٌّ يعنى بواو مفتوحة وجيم مشدّدة ـ سميت برجل من العمالقة ، ثم سكنها ثقِيف فبنوا عليها حائطا مُطِيفا بها فسميت الطائف .

قال : وهى إحدىٰ القريتين المذكورتين فى قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من الحجاز تقريبا ، وموقعها فى أوائل الإقليم الثانى . وقال ٱبن سعيد : طولها ثمان وستون درجة وإحدىٰ وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدىٰ وعشرون درجة وأربعون دقيقة ، وهو بلد خَصِيب كثير الفواكه المختلفة مما يشابه فواكه الشام وغيرها ، وهى طَيِّبة الهواء إلا أنها شديدة البرد حتّى إنه ربما جَمَد الماء بها لشدّة بردها .

الرابع — (بَطْنُ مَرٍّ) — بفتح الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة ونون بعدها ثم ميم مفتوحة وراء مهملة مشدّدة — وهو واد من أودية الحجاز فى الشَّمال عن مكة علىٰ مرحلة منها علىٰ طريق حُجَّاج مصر والشام . قال فى "الأطوال" : طولها سبع وستون درجة وعرضها إحدىٰ وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بُقْعة بها عدّة عيون ومياه تجرى ونخيل كثير ، والنخل والمزدَرَع متصل من وادى نخلة إليها . وذكر غيره أن بها نحوَ أربعة وعشرين نهرا علىٰ كل نهر قرية ، ومنها تُحْمَل الفواكه والبُقُولات إلىٰ مكة كما تحمل من نخلةَ والطائف ، وهى بيد بنى حَسَن أمراء مكة .

الخامس — (الْهَدَهْ) — بألف ولام ثم هاء ودال مهملة مفتوحتين وهاء ساكنة فى الآخر — وهو واد علىٰ القرب من بطن مَرّ ، علىٰ مرحلة ونصف من مكة ، به أربعة عشر نهرا علىٰ كل نهر قرية ، وهى بيد بنى جابر .

السادس — (عُسْفَانُ) — بضم العين وسكون السين المهملتين وفتح الفاء ثم ألف ونون — وهو وادٍ معروف علىٰ طريق حُجّاج مصر ، علىٰ ثلاث مراحل من مكة ، كان بها حدائق ومياه تنصب إليها من الهَدَه المذكورة ، وهى الآن خراب ليس بها عمارة .

السابع ـ (الْبرْزَةُ) ـ بألف ولام ثم باء موحدة مفتوحة وراء مهـملة ساكنة وزاى معجمة مفتوحة وهاء فى الآخر ـ وهى واد بالقرب من عُسْفَانَ علىٰ مرحلتين من مكة؛ به أربعة عشر نهرا علىٰ كل نهر قرية؛ وهى الآن بيد بنى سَلُولَ وبنى مُعَبِّدٍ بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة المفتوحة .

الثـامن ـ (خُلَيْصٌ) ـ بضم الخاء المعجمة وفتح اللام وإسكان اليـاء المثناة تحت والصاد المهـملة ـ وهو واد علىٰ طريق حُجَّـاج مصر علىٰ أربع مراحل من مكة؛ به نحو تسعة أنهر علىٰ كل نهر قرية .

التاسع ـ (وادى كُلَيَّة) ـ بضم الكاف وفتح اللام وتشديد اليـاء المثناة تحت المفتوحة وهاء فى الآخر ـ وهو واد بالقرب من خُلَيْصٍ به نحو سبعة أنهر علىٰ كل نهر قرية، وكان بيد سُلَيم، وقد خرب من مدّة قريبة بعد الثمانين والسبعمائة .

العاشر ـ (مَرُّ الظَّهْرَان) ـ بفتح الميم وتشديد الراء المهملة ثم ألف ولام وظاء معجمة مفتوحة وهاء ساكنة وراء مهملة مفتوحة بعدها ألف ونون ـ وهو موضع بينه وبين مكة نحو ستةَ عشرَ ميلا ، وهو الذى نزل به رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ! عند صُلْحه مع قريش، كان به ضِيَاع كثيرة وهو الآن خراب . قال فى " الروض المعطار " : وبه حصن كبير؛ كان يسكنه شُكْر بن الحسن بن علىّ بن جعفر الحسنى يعنى أميرَ مكة الآتى ذكره فى جملة أمرائها .

الطرف السابع
(فى ذكر ملوك مكة ، وهم على ضربين)

الضرب الأوّل
(ملوكها قبل الإسلام)

اعلم أن مكة بعد الطُّوفان كان مُلْكها فى عاد، وكان بها منهم معاويةُ بن بكر بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكان مع معاوية بنِ بكر (وهو عادٌ الآخرة فيما يقال) يَعْرُب ثم غلبهم العمالقة عليها. فلما غلب ٱبن قَحْطان بن عابَر بن شالَخ ٱبن أرفَخْشَذَ بن سام بن نوح عادا على اليمن وفرّق مُلْك اليمن فى إخوته، ٱستولى على الحجاز وأخرج العمالقة منه وولّى أخاه جُرْهُمَ بن قحطان على الحجاز، فبقِىَ به حتّى مات. فملك بعده ٱبنه عبدُ ياليلَ . ثم ملك من بعده ٱبنه جُرْهُم؛ ثم ملك بعده ٱبنه عبد المَدَانِ؛ ثم ملك بعده ٱبنه بُقَيْلَةُ؛ ثم ملك بعده ٱبنه عبدُ المسيح؛ ثم ملك بعده ٱبنه مُضَاضٌ؛ ثم ملك بعده ٱبنه الحرث؛ ثم ملك بعده ٱبنه عمرو؛ ثم ملك بعده أخوه بِشْر بن الحرث، ثم ملك بعده مُضَاضُ بن عمرو بن مُضَاضٍ .

قال ٱبن سعيد : وجُرْهُمُ هذه هم الذين بُعِث إليهم إسماعيل عليه السلام وتزوّج فيهم، وكانت قبلهم جُرْهُمُ أخرى مع عَادٍ . قال فى "الروض المعطار" : وفى ذلك يقول عمرو بن الحرث بن مُضَاضٍ، وهو التاسع من ملوك جُرْهُمَ المتقدّمِ ذكرهم :

وصَاهَرَنَا مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ وَالِدًا * فَأَبْنَاؤُهُ مِنَّا ونَحْنُ الأَصَاهِرُ!

قال صاحب حماةَ فى "تاريخه" : وقد ٱختلف المؤرّخون فى أمر المُلْك على الحجاز بين جُرْهُمَ وبين إسماعيل، فبعضهم يقول: كان المُلْك فى جرهم، ومفاتيح الكعبة وسِدَانتها فى يد ولد إسماعيل، وبعضهم يقول : إن قَيْدار بن إسماعيل توجته أخواله من جُرْهُمَ وعقدوا له المُلْك عليهم بالحجاز .

وأما سِدَانَةُ البيت ومفاتيحه فكانت مع بنى إسماعيل بلا خلاف حتّى آنتهىٰ ذلك إلىٰ نَابِتٍ من ولد إسمـاعيل، فصارت السِّـدَانَةُ بعده لجُرْهُمَ؛ ويدل علىٰ ذلك قول عمرو بن الحرث :

وَكُنَّا وُلَاةَ البَيْتِ مِنْ بَعْدِ نَابِتٍ * نَطُوفُ بِذَاكَ البَيْتِ وَالأَمْرُ ظَاهِرُ!

وذكر فى "الروض المعطار" : أنه كان مع جُرْهُمَ بمكة قَطُورا (١) ، وجُرْهُم وقَطُورا أخوان، وكان منزل جرهم أعلىٰ مكة بقُعَيْقِعَانَ فما حاز، ومنزل قَطُورا أسفلَ مكة بأجياد فما حاز، وآنتهت رياسة قَطُورًا فى زمن مُضَاض بن عبد المسيح المتقدّم ذكره إلىٰ السَّمَيْدَع، وكان مُضَاض يُعَشِّر مَنْ دخل مكة من أعلاها ، والسَّـمَيْدَعُ يعشر من دخلها من أسـفلها، ثم بغىٰ بعضهم علىٰ بعض وتنـافسوا المُلكَ وآقتتلوا فقُتِـل السميدع ، وآسـتقلَّ مضاضٌ بالأمر، وبقيت جُرْهُمُ ولاةَ البيت نحو ثلثمائة سـنة فأكلوا مال الكعبة الذى يهدىٰ إليها وآستحلُّوا حرمها، وبلغ من أمرهم أن الرجل إذا لم يجد مكانا يزنى فيه (٢) الكعبة فزنىٰ فيها ، ولم يتناهَوْا حتّى يقال إن إسافَ آبن سهيل زنىٰ بنائلة بنت عمرو بن ذؤيب فى جوف الكعبة فمسخا حجرين، ونضب ماءُ زمزم لكثرة البَغْيِ ودَرَست معالمها ؛ ثم جاء عمرو بن لُحَيٍّ فغيَّر دين إبراهيم عليه السـلام وبدَّله وبعث العربَ علىٰ عبادة التمـاثيل ، وعُمِّر ثلثمائة سـنة وخمسا وأربعين سنة، وبلغ من الولد وولد الولد ألفين .

ثم صارت سِدَانة البيت ومفاتيحُه إلىٰ خُزَاعةَ بن الأزْد من بنى كَهْلَانَ بن سَبَإٍ من العرب العاربة ؛ وكانت منازلهم من حين تفرّق عربُ اليمن بسبب سَيْل العَرِمِ ببطن مَرٍّ علىٰ القرب من مكة ؛ وصارت لهم الرياسة بسِدَانة البيت، وبقيت السِّدانة بيدهم

(١) فى "السبائك" و "العبر" بدون ألف .

(٢) بياض بالأصل ، ولعل أصله "دخل" كما هو ظاهر .

إلىٰ أن ٱنتهت إلىٰ أبى غَبْشَان : سليمان بن عمرو الخُزَاعىّ فى زمن بَهْرام جور بن يَزْدجَرْد من ملوك الفُرْس ، ورئيس قريش يومئذ قُصَىٌّ بن كِلَاب ، فٱجتمع قُصَىٌّ مع أبى غَبْشَان علىٰ شرابٍ بالطائف ، فلما سكر أبو غَبْشَان ٱشترىٰ قُصَىٌّ سِدَانَةَ البيت منه بزِقِّ خمر وتسلم مفاتيحه وأشهد عليه بذلك ، وأرسل ٱبنَه عبدَ الدار بها إلىٰ البيت فرفع صوته وقال : يامعشَرَ قريش ! هذه المفاتيح : مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل ، قد ردّها الله عليكم من غير عارٍ ولا ظُلْم (١) . فلما صحَا أبو غَبْشَان ندم حيثُ لاينفعه النَّدَمُ . ويقال "أخسَرُ من صَفْقة أبى غَبْشَان" وأكثر الشعراءُ القولَ فى ذلك حتّىٰ قال بعضهم :

بَاعَتْ خُزَاعَةُ بَيْتَ اللهِ إذْ سَكِرَتْ * بزِقِّ خَمْرٍ ، فَبِئْسَتْ صَفْقَةُ البَادِى

بَاعَتْ سِدَانَتَهَا بالنَّزْرِ وٱنْصَرَفَتْ * عَنِ المَقَامِ وظِلِّ البَيْتِ وَالنَّادِى

ولما وقع ذلك عَدَتْ خزاعة علىٰ قصىّ فظهر عليهم وأجلاهم عن مكة ، وكان بمكة عرب يجيزون الحجيجَ إلىٰ الموقف ، وكان لهم بذلك رياسة فأجلاهم قُصَىٌّ عن مَكَّةَ أيضا وٱنفرد بالرياسة . قال العسكرىّ فى "الأوائل" : وكان أوّل من نال المُلْك من ولد النَّضْرِ بن كِنَانَةَ .

ولما تم لقُصَىٍّ ذلك بنىٰ دارَ النَّدْوة بمكة ، فكانت قريش تقضى فيها أمورَها فلا تُنْكح ولا تشاور فى أمر حرب ولا غيره إلا فيها ؛ ولم تزل الرياسة فيه وفى بنيه بعد ذلك . فوُلِد له من الولد عبْدُ مَنَافٍ وعبدُ الدَّارِ وعبدُ العُزّىٰ .

ثم ٱنتقلت الرياسة العظمىٰ بعد ذلك لبنى عبد مَنَافٍ ، وكان له من الولد هاشمٌ وعبدُ شَمْسٍ والمُطَّلِبُ ونَوْفَلٌ ؛ وكان هاشم أرفعَهم قدرا وأعظمهم شأنا ، وإليه ٱنتهت سيادةُ قومه ؛ وكانت إليه الرِّفَادة وسِقَاية الحجيج بمكة ؛ وكانت قريش تُجَّارا ، وكانت تجارتهم لا تعدُو مكة وما حولها فخرج هاشم إلىٰ الشأم حتّىٰ نزل بقَيْصَر

(١) لعله غارة أو غدر .

مِلك الروم فسأله كتابةَ أمانٍ لتُجّار قريش، فكتب له كتابا لكل مَنْ مَرَّ عليه، فخرج هاشم فكلَّما مَرَّ بحيّ من العرب أخذ من أشرافهم أمانا لقومه حتّى قَدِم مكة، فأتاهم بأعظم شيء أُتُوا به قَطُّ بركةً، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج معهم حتّى أوردهم الشام، وخرج أخوه المطلب إلى اليَمَن فأخذ لهم أمانا من مَلِكه، وخرج أخوهما عبد شمس إلى مَلِك الحبشة فأخذ لهم أمانا كذلك، وخرج أخوهم نَوْفَلٌ إلى كِسْرى ملِك الفرس فأخذ لهم منه أمانا. وكانت قريش يرحلون فى الشتاء للشام وفى الصيف لليمن، وآتسعت معايشهم بسبب ذلك، وكثرت أموالهم حتّى آمتن الله عليهم بذلك بقوله: ﴿ لِئِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ والإيلاف الأمان.

ثم وُلِد لهاشم عبد المطلب وبقيت الرياسة فيه، وكانت بئر زمزم قد آنطمَّت ونَضَب ماؤها فحفرها عبد المطلب، حتّى أكمل الله تعالى بنبوّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم!.

وأما سِدَانة البيت ومفاتيحه، فبقيت بيد بنى عبد الدار بن قُصَيّ المتقدّم ذكره من حين تسلَّمها عبدُ الدار عند أخذها من أبى غَبْشَان الخزاعيّ حتى صارت لبنى شَيْبَةَ من بنى عبد الدار، وآنتهت فى زمن النبيّ صلّى الله عليه وسلم إلى عثمانَ بن طلحةَ بنِ عبد الدار. فلما دخل النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، أغلق عثمانُ بابَ الكعبة وصَعِد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه، وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى عليّ بن أبى طالب يَدَه وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله صلّى الله عليه وسلم الكعبةَ فصلّى ركعتين، فلما خرج سأله العبّاس أن يعطيَه المفتاحَ ويجمع له السِّقاية والسِّدانة فنزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم عليا أن يردّ المِفتاح إلى

عثمان ويعتذرَ إليه، فقال عثمان : أ كْرَهْتَ وآذيت ثم جئت تَرْفُقُ ؟ فقال له علىّ : لقد أنزل الله تعالىٰ فى شأنك قرءانا وقرأ عليه الآية ، فقال عثمان : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فهبَطَ جبريل عليه السلام علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فأخبره أن السِّدانة فى أولاد عثمان أبدًا، فهى باقية فيهم إلىٰ الآن .

الضرب الثانى

(ملوكها فى الإسلام ، وهم علىٰ طبقات)

الطبقة الثالثة (١)

(عمال النبىّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين)

هاجر منها النبىّ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المدينة قبل وفاته،وحجّ حجة الوداع فى السنة العاشرة من الهجرة، وتوفِّى سنة إحدىٰ عشرة من الهجرة وعلىٰ مكة عتّابُ بن أُسَيد، وتوالت عليها عُمَّال الخلفاء بعده إلىٰ آخر أيام الحسن بن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه .

الطبقة الرابعة

(عمال بنى أُمَيَّةَ من لدن معاوية رضى الله عنه إلىٰ انقراضهم)

ثم ولّى عليها معاويةُ بن أبى سُفْيَانَ فى خلافته فى سنة ٱثنتين وأربعين من الهجرة (خالدَ بن العاص بن هشام) ثم أضيفت إلىٰ عُمَّال المدينة إلىٰ أيام الوليد بن عبد الملك فكان من وليها منهم (الوليدُ بن عتبة) ثم (عمرو بن سعيد الأشْدَق) ثم (الوليد بن عتبة)

---

(١) هكذا فى الأصل بهذا العنوان وصوابه الأولىٰ والذى يظهر أن هـذا من الناسخ فان المقام لا يحتمل السقط . ومن جهة أخرىٰ لم يترك فى الأصل بياض حتى كان يخيل أن المؤلف ترك الكلام عليه للعود إليه فحق ماهنا "الطبقة الأولىٰ" وما بعدها "الطبقة الثانية" وهكذا حتى تتسلسل الطبقات .

ثانيا، ثم (مُصْعَب بن الزبير) من جهة أخيه عبد الله بن الزبير لما بويع له بالخلافة، ثم (جابرُ بنُ الأسود) ثم (طلحة بن عبد الله بن عوف) ثم (طارق بن عمرو بن عثمان) ثم (الحَجَّاج بن يوسف الثقفىّ) ثم (أَبانُ بن عثمان) ثم (هشام بن إسماعيل المخزومىّ) ثم (عُمرُ(١) بن عبد العزيز) .

ثم أفردها الوليد بن عبد الملك عن المدينة وولّى عليها (خالدَ بن عبد الله القَسْرى) بعد عمر(١) بن عبد العزيز، ثم وليها (عبد العزيز بن خالد بن أَسَيْد) أيام سليمان آبن عبد الملك، ثم عزله يزيدُ سنة ثلاث ومائة وأضافها مع المدينة إلىٰ (عبد الرحمن آبن الضحّاك)، ثم عزله عن مكة والمدينة لثلاث سنين من ولايته وولّى مكانَهُ (عبدَ الواحد النضرىّ)، ثم عزله هشام بن عبد الملك فى خلافته وولّى مكانه علىٰ مكة والمدينة (إبراهيم بن هشام بن إسماعيل) ثم عزله هشام سنة أربع عشرة ومائة وولّى مكانه علىٰ مكة والطائف دون المدينة (محمدَ بن هشام المخزومىّ)، ثم ولّى الوليدُ بنُ يزيد فى خلافته خالَهُ (يوسفَ بن محمد الثقفىّ) علىٰ مكة مع سائر أعمال الحجاز، ثم ولّى مروانُ علىٰ مكة وبَرِّ الحجاز (عبدَ العزيز بن عمر، بن عبد العزيز) ثم عزله فى سنة تسع وعشرين ومائة وولّى مكانه علىٰ مكة والحجاز (عبدَ الواحد) ثم توالت عليها عُمَّال بنى أمية إلىٰ أن آنقرضت دولتهم .

الطبقة الخامسة
(عُمّال بنى العبّاس)

وأولهم أبو العباس السَّفّاح، فولّى عليها وعلىٰ المدينة وسائر الحجاز عمَّه (داود) ثم توفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فولّى مكانه فى جميع ذلك (زيادَ بن عبد الله بن عبد الدار الحارثىّ) .

---

(١) فى الأصل عمرو .

ثم ولّى السَّفَّاحُ علىٰ ذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة (السَّرِىَّ بن عبد الله ٱبن الحارث بن العبّاس) .

ثم عزله أبوجعفر المنصور سنة ست وأربعين ومائة وولّى مكانه عمه (عبدالصمد ٱبن علىّ) ثم عزله عنها سنة تسع وأربعين ومائة وولّى مكانه (محمد بن إبراهيم الإمام) ثم عزله وولّى مكانه (إبراهيم ٱبن أخيه) ثم ولّى علىٰ مكة وسائر الحجاز واليمامة (جعفرَ بن سليمان) ؛ ثم توالت عليها العمال إلىٰ أن ولّى الرشيدُ فى خلافته علىٰ مكة واليمن (حمادا اليزيدىّ (١)) سنة أربع وثمانين ومائة .

ثم وليها فى زمان الأمين (داودُ بن عيسىٰ) .

ثم وليها (محمد بن عيسىٰ) ثم عزله المتوكل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وولى مكانه ٱبنه (المنتصِر) بن المتوكل .

ثم وليها (علىّ بن عيسىٰ بن جعفر بن المنصور) ثم عزله المتوكل سنة سبع وثلاثين ومائتين وولّى مكانه (عبد الله بن محمد بن داود بن عيسىٰ بن موسىٰ) ثم عزله المتوكل سنة ثنتين وأربعين ومائتين وولّى مكانه (عبدَ الصمد بن موسىٰ بن محمد بن إبراهيم الإمام) ثم توالت عليها العمال من قِبَل خلفاء بنى العبّاس إلىٰ أن غلب عليها السُّلَيْمانِيُّونَ الآتى ذكرهم آنفا .

الطبقة السادسة

(السليمانيون من بنى الحَسَن)

نسبة إلىٰ سليمان بن داود بن الحسن المثنّى بن الحسن السِّبْط .

وكان سليمان هذا فى أيام المأمون بالمدينة وحدثَتِ الرياسة فيها لبنيه بعد أيام، وكان كبيرهم آخِرَ المائة الثالثة محمد بن سليمان الربذىّ .

---

(١) فى الكامل لٱبن الأثير "البربرى" .

قال البيهقىّ : خلع طاعة العَبّاسيين وخطب لنفسه بالإمامة فى سنة إحدىٰ وثلثمائة فى خلافة المقتدر، ثم آعترضه أبوطاهر القرمطىّ فى سنة ثنتى عشرة وثلثمائة، فآنقطع حجيج العِراق بسبب ذلك .

ثم أنفذ المقتــدر الحجيج من العراق فى ســنة سبع عشرة وثلثمائة فوافاهم القرمطىّ بمكة فنهبهم، وخطب لعبيد الله المهـدىّ صاحب إفريقية وقلع الحجرَ الأسودَ وبابَ الكعبة وحملهما إلىٰ الأحْسَاءِ، وتعطل الحج من العراق إلىٰ أن ولى الخـلافةَ القاهرُ فى سنة عشرين وثلثمائة فحجّ بالناس أميرُه فى تلك السنة .

ثم آنقطع الحج من العراق بعدها إلىٰ أن صُولِحت القرامطة علىٰ مال يؤدّيه الحجيج إليهم، فحجوا فى سنة سبع وعشرين وثلثمائة، وخُطِب بمكة للراضى بن المقتدر، وفى سنة تسع وعشرين لأخيه المُتَّقِى من بعده .

ثم آنقطع الحج من العراق بسبب القرامطة إلىٰ سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة، فخرج ركب العراق بمهـادنَة القرامطة فى خلافة المستكفى ؛ ثم خُطِب بمكة لمعز الدولة آبن بُوَيه مع المقتدر فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة؛ ثم تعطل الحج بسبب القرامطة؛ ثم برز أمر المنصور الفاطمىّ صاحب إفْرِيقِيَّةَ لأحمد بن أبى سعيد أمير القرامطة بعد موت أبى طاهر بإعادة الحجر الأسود إلىٰ مكانِه فأعاده فى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة .

وفى ســنة ثنتين وأربعين وثلثمائة حاول أمير الرَّكْب المصرىّ الخطبــةَ لآبن الأخشيد صاحبِ مصر فلم يتأتَّ له ذلك وخُطِب لآبن بُوَيه، وآتصلت وفود الحج من يومئذ .

وفى سنة ثلاث وخمسين خطب للقرمطىّ بمكة مع المُطِيع .

وفى سنة ست وخمسين وثلثمائة خطب بمكة لبختيار بن مُعِزِّ الدولة بعد موت أبيه .

ثم فى سنة ستين وثلثمائة جهز المُعِزُّ الفاطمىّ عسكرا من إفْرِيقِيَّةَ لإقامة الخطبة له بمكة وعاضدهم بنو الحُسَين أهـلُ المدينة فمنعهم بنو الحسن أهل مكة من ذلك وآستولَوْا علىٰ مكة .

فلما ملك مصرَ المُعِزُّ كان الحسن بن جعفر بن الحسن بن سليمان بالمدينة فبادر فملك مكة ودعا لِلْمُعِزّ وكتب له المُعِزُّ بالولاية؛ ثم مات الحسن فولِّى مكانه أخوه عيسىٰ .

ثم وُلِّى بعده أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن أبى هاشم؛ ثم الحسن بن محمد بن سليمان بن داود سنة أربع وثمانين وثلثمائة؛ ثم جاءت عساكر عضد الدولة بن بويه ففرّ الحسن وترك مكة . ولما مات المعز ووَلِى آبنه العزيز، بعث إلىٰ مكة أميرا عَلَوِياً فخطب له بالحرمين وآستمرّت الخطبة بمكة للعلويين إلىٰ سنة سبع وستين وثلثمائة .

وفى سنة ثمان وستين خُطِب لعضد الدولة بن بُوَيه؛ ثم عادت الخطبة بمكة إلىٰ الخلفاء الفاطميين بمصر؛ ثم كتب الحاكم سنة ثنتين وأربعين وأربعمائة إلىٰ عُمَّاله بالبراءة من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فأنكر ذلك أبو الفتوح أمير مكة وحمله ذلك علىٰ أن آستبدّ بالأمر فى مكة وخطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله، وقطع الحاكم المِيرة عن الحرمين فرجع أبو الفتوح إلىٰ طاعته فأعاده إلىٰ إمارته بمكة .

وفى سنة ثنتى عشرة وأربعمائة خطب بمكة للظاهر بن الحاكم؛ ثم خطب بمكة سنة سبع وعشرين وأربعمائة للمستنصر بن الظاهر؛ ثم توفى أبو الفتوح أمير مكة المتقدّم ذكره سنة ثلاثين وأربعمائة لِستٍّ وأربعين سنة من إمارته .

وولى بعده إمارة مكة آبنه شُكْر وملك معها المدينة وآستضافها لمكة، وجمع بين الحرمين كله[1] ثلاثا وعشرين سنة ومات سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة . قال آبن حزم : وكانت وفاته عن غير ولد وآنقرضت بموته دولة بنى سليمان بمكة .

(١) لعله كليهما .

الطبقـــة السابعة

(الهَوَاشِـــم)

نسـبة إلىٰ أبى هاشم : محمد بن الحسن بن محمد بن موسىٰ بن عبد الله أبى الكرام آبن موسىٰ الجَوْنِ بن عبد الله بن حسن بن الحسن السِّبْط .

كان رئيسُ الهواشم لما مات شكر آخرُأمراء السليمانيين (محمدَ بن جعفر) بن أبى هاشم المذكور فآستولىٰ علىٰ إمارة مكة فى سـنة أربع وخمسين وأربعمائة بعـد موت شكر، وخطب للستنصر الفاطمىّ صاحبِ مِصْرَ، ثم خطب لبنى العبّاس فى سـنة ثمـان وخمسين وأربعمائة فقُطِعت مِيرة مصرعن مكة فعَذَله أهلُه علىٰ ذلك فأعاد الخطبة للستنصر الفاطمىّ ، ثم آستمـاله القائم العباسىّ وبذل له الأموالَ فخطب له سـنة ثنتين وستين بالموسم فقط ، وكتب للستنصر بمصر يعتذر إليه ، ثم بعث إليه السلطان ألْبأرسلان السَّلْجُوقىّ بأموال كثيرة فى سنة ثلاث وستين فخطب له بنفسه .

ثم جمع محمدُ بن جعفر المتقدّم ذكره وزحف إلىٰ المدينة فأخرج منها بنى الحسين وملكها وجمع بين الحرمين .

ثم مات القائم وآنقطع ما كان يصل إلىٰ أمير مكة منه فقطع الخطبةَ للعباسيين .

ثم أرسـل المقتدى بالله العباسىّ بمـال فأعاد الخطبة للعباسيين فاستمرت الخطبة لهم إلىٰ أن مات السلطان ملكشاه السلجوقىّ سـنة ست[1] وثمانين وأربعمائة فآنقطعت الخطبة بمكة للعباسيين وبطل الحـاجُّ من العراق ، ومات المقتدى وبويع آبنه المستظهر، ومات المستنصر العُبَيْدِىّ بمصر وبويع آبنه المستعلى فخطب له بمكة .

(١) لعله خمس كما يؤخذ من تاريخ أبى الفدا .

ثم مات محمد بن جعفر أمير مكة المتقدّم ذكره سنة سبع وثمانين وأربعمائة لثلاث وثلاثين سنة من إمارته؛ وولى بعده آبنه (قاسم) فكثر آضطرابه؛ ثم توفى سنة ثمان عشرة وخمسمائة لثلاثين سنة من إمارته .

وولى بعده آبنه أبو فُلَيتة فآفتتح بالخطبة العباسية وحَسُن الثناء عليه؛ ثم مات سنة سبع وعشرين وخمسمائة لعشر سنين من إمارته وولى بعده آبنه قاسم والخطبة مستمرّة للعباسيين .

ثم صنع المقتفى بابا للكعبة وأرسله إليها فى سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة وحمل الباب العتيق إليه فآتخذه تابوتا يدفن فيه ، وآتصلت الخطبة لبنى العبّاس إلى سنة خمس وخمسين، وبويع المستنجد فخُطِب له كما كان يُخْطَب لأبيه المقتفى .

ثم قتل قاسم بن أبى فليتة سنة ست وخمسين وخمسمائة، وولى بعده آبنه (عيسى) فى أيام العاضد : آخر خلفاء الفاطميين بمصر، وتوفى المستنجد وبعث المستضىء بالركب العراقىّ وآنقضت دولة الفاطميين بمصر، ووليها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فخُطِب له بالحرمين الشريفين .

والذى ذكره السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" أن عيسى عَمّ قاسم سيَّر الحاجَّ فى سنة ست وخمسين وخمسمائة وقام مكان آبن أخيه قاسم المذكور، ثم عاد قاسم فملك مكة ، ثم هرب وعاد عمه عيسى فملكها وهرب قاسم إلى جبل أبى قُبَيْسٍ فوقع عن فرسه فأمسكه عيسى وقتله .

ثم مات المستضىء وبويع آبنه الناصر وخُطِب له بالحرمين، وحجت أمه وعادت فأنهت إليه من أحوال عيسى بن قاسم أمير مكة ما عزله به؛ وولّى مكانه أخاه (مكثر بن قاسم) وكان جليل القدر، وهو الذى بنى القلعة على جبل أبى قُبَيْسٍ، ومات سنة تسع وثمانين وخمسمائة، و بموته آنقرضت دولة الهواشم بمكة .

وذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" أن أمير حاج العراق فى سنة إحدىٰ وسبعين وخمسمائة توجه من عنــد الخليفة بعزله ، فجرىٰ بينهما حرب آنتهىٰ الأمر فيها إلىٰ آنهزام مُكْثِر المذكور ، وأقيم أخوه داود مكانه . وما زالت الإمرة فيه تارة ، وفى أخيه مكثر تارة حتّى مات داود فى ســنة تسع وثمــانين وخمسمائة . وقال : إنه داود بن عيسىٰ بن محمد بن أبى هاشم .

الطبقـــــة الثـامنة

(بنـــو قَتَادَة)

نســبة إلىٰ قتادة بن إدريس بن مُطَاعن بن عبــد الكريم بن موسىٰ بن عيسىٰ بن عبد الله أبى الكرام بن موسىٰ الجَوْن بن عبــد الله بن حسن بن الحسن السِّــبْطِ بن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وكان السبب فى ولايتــه مكة أنها لمــا كانت مع الهواشم كان بنو حسن مقيمين بنهر العلقمية من وادى يَنْبُعَ ، فجمع قتــادة قومه بنى مُطَــاعن وأسالفَ بنى أحمد و بنى إبراهيم وتأمر عليهم وملك يَنْبُعَ ، ثم ملك الصفراء ، وسار إلىٰ مكة فآنتزعها من الهواشم المتقدّم ذكرهم وملكها ، وخطب للناصر لدين الله العباسىّ : خليفة بَغْدَادَ ، وتعاظم أمره حتّى ملك مع مكة واليَنْبُعِ أطرافَ اليمن و بعضَ أعمال المدينــة و بلادَ نجد ، ولم يَفِدْ علىٰ أحد من الخلفاء ولا من الملوك ، وتوفى سنة سبع عشرة وستمائة ؛ ووَلِّى مكانه آبنه الحسن فآمتعض لذلك أخوه راجح بن قتادة ؛ ثم قدم الملك المسعود أقسز بن الكامل صاحب اليمن ســنة عشرين وستمائة من اليمن إلىٰ مكة وملك مكة وقتل جماعة من الأشراف ونصب رايتــه وأزال راية أمير الركب الذى من جهــة الخليفة ، فكتب الخليفة من بغداد إلىٰ أبيه الكامل يعاتبه فى ذلك ، فكتب الكامل

إلى ٱبنـه أقسز برئتُ ياأقسز من ظهر العادل إن لم أقطع يمينَك ! فقد نبذتَ وراء ظهرِك دنيـاك ودينك ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ! ؛ وذهب حسن ٱبن قتادة إلى بغداد صريخا فمات بها سنة ثنتين وعشرين وستمائة، ومات أقسز بمكة سنة ست وعشرين ودفن بالمَعْلىٰ، وبقى على مكة قائده فخر الدين بن الشيخ؛ وقصد راجح بن قتـادة مكة مع عساكر عمر بن رسول فملكها من يد فخر الدين بن الشـيخ سنة تسع وعشرين وستمائة .

ثم جاءت عساكر مصر سنة ثنتين وثلاثين مع الأمير جبريل فملكوا مكةَ وهرب راجح إلى اليمن؛ ثم عاد ومعـه عمر بن رسول صاحب اليمن بنفســه فهربت عساكر مصر، وملك راجح مكة وخطب لعمر بن رسول بعد الخليفة المستنصر .

ثم غلب على مكة سنة سبع وأربعين وستمائة أبو سعد الحســنُ بن علىّ بن قتادة ولَحِق راجحٌ باليمن؛ وسار جَمَّاز بن حسن بن قتادة سنة إحدى وخمسين وستمائة إلى النـاصر بن العزيز بن الظاهر بن أيوب بدِمَشْقَ مستجيشا على أبى سـعد أن يقطع ذكر صاحب اليمن، فجهز له عسكرا وسـار إلى مكة فقتل أبا سـعد فى الحرم وملك مكة ، ثم وصـل راجح من اليمن إلى مكة وهو شيخ كبير السن وأخرج منها جمازَ بن حسن فلحق باليَنْبُع .

ثم دار أمر مكة بين أبى نمى محمد بن أبى سعد علىّ بن قتادة وبين غالب بن راجح ٱبن قتادة ، ثم ٱستبدّ أبو نمى بإمرة مكة ونفى قبيلة أبيه أبى سعد إلى اليَنْبُع؛

ولما هلك أبو نمى قام بأمر مكة من بعده ٱبناه رميثة وحميضة ونازعهما أخواهما عُطَيفة وأبو الغيث فٱعتقلاهما، ووافق ذلك وصول بيبرس الجاشنكير كافل المملكة المصرية فى الأيام الناصرية فأطلق عُطَيفـة وأبا الغيث وولاهما ، وأمسـك رميثة وحميضة وبعث بهما إلى مصر ؛ ثم ردّ الســلطان رميثة وحميضة إلى إمارتهما بمكة

مع عسكره وبعثا إليــه بعطيفة وأبى الغيث، وبقى التنازع بينهم، وهم يتعاقبون فى إمرة مكة مرة بعد أخرىٰ وهلك أبو الغيث فى بعض حروبهم ببطن مَرّ .

ثم تنازع حميضة ورميثة وسار رميثــة إلىٰ الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر سنة خمس عشرة وسبعمائة فأمدّه بعساكر وَجَّه بها إلىٰ مكة وآصطلحوا .

ثم خالفهم عطيفة سنة ثمان عشرة وسبعمائة ووصل إلىٰ السلطان فأمدّه بالعساكر فملك مكة وقبض علىٰ رميثة فسجن ثم أطلق سنة عشرين وأقام بمصر، وبقِىَ حميضة مشرَّدا إلىٰ أن آســتأمن السلطانَ فأمنه ، ثم وثب بحميضة مماليكُ كانوا معه وقتلوه ، وأطلق رميثة من السجن وآستقر شريكا لأخيه عطيفة فى إمارتها .

ثم مات عُطَيفة وأقام أخوه رميثة بعده مستقلا بإمارة مكة إلىٰ أن كَبِر وهَرِم . وإلىٰ ذلك أشار فى "التعريف" بقوله : وأوّل[(١)] إمرة فى رميثة وهو آخر من بقى من بيته ،وعليه كان النص من أبيه دون البقية مع تداولهم لها ،وكان آبناه بقية وعجلان قد آقتسما معه إمارة مكة برضاه ،ثم أراد الرجوع فلم يوافقاه عليه وآستمرا معه فى الولاية .

ولمــا مات رميثة تنازع ولداه : بقية وعجلان، وخرج بقية وبقِىَ عجلان بمكة، ثم غلبه عليها بقيَّــة ؛ ثم آجتمعا بمصر ســنة ست وخمسين وســبعمائة فولّى السلطان عجلان ،وفرّ بقية إلىٰ الحجــاز فأقام هناك منازعا لعجلان من غير ولاية . وعجلان هو المستبدّ بهــا مع سلوك ســيرة العدل والإنصاف والتجافى عن أموال الرعية والتعرّض للجاورين إلىٰ أن توفى سنة سبع وسبعين وسبعمائة .

ووُلِّى بعده آبنه أحمد، وكانـــ قد فوض إليه الأمر فى حياته وقاسمه فى أمره، فقام أحمد بأمر مكة جاريا علىٰ سَنَن أبيه فى العدل وحسن السيرة، ومات فى رمضان سنة ثمــان وثمانين وسبعمائة فى الدولة الظاهرية برقوق .

(١) عبارة التعريف "وهى الآن فى رميثة وهو الخ ."

فوُلِّى مكانه ٱبنُه محمد، وكان صغيرا فى كَفَالة عمه كبيش بن عجلان فبقى حتّى وثب عليه فداوىّ عنـد ملاقاة المحمل فقتله ؛ ودخل أمير الركب إلىٰ مكة فولّى عنان ٱبن مُغامس بن رميثة مكانه .

ثم لحق علىّ بن عجلان بالأبواب السلطانية بمصر فولاه الظاهر برقوق سنة تسع وثمـانين وسبعمائة شريكا لعِنَان، وسار مع أمير الركب إلىٰ مكة فهرب عِنانٌ ودخل علىّ بن عجلان مكة فٱستقل بإمارتها ؛ ثم وفد علىّ بن عجلان علىٰ السلطان بمصر سنة أربع وتسعين فأفرده بالإمارة وأنزل عِنَان بن مغامس عنده وأحسن إليه، ثم ٱعتقله بعد ذلك وبقِىَ علىّ بن عجلان فى إمارة مكة حتّى قتل ببطن مَرٍّ فى سنة سبع وتسعين وسبعمائة .

فولّى السلطان ٱبن أخيه حسنَ بن أحمد مكانه وٱستبدّ بإمرة مكة وهو بها إلىٰ هذا العهد . وهو حسن، بن أحمد، بن عجلان، بن رميثة، بن أبى نمىّ محمد، بن أبى سعد علىّ، بن أبى عزيز قتادة، بن إدريس، بن مطاعن، بن عبد الكريم، بن موسىٰ، ٱبن عيسىٰ، بن سليمان، بن عبد الله، بن أبى الكرام، بن موسىٰ الجَوْن، بن عبد الله، ٱبن حسن، بن الحسن السِّبْط، بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

الطـــرف السابع
(فى ترتيب مكة المشرفة؛ وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ
(فيما هو بحاضرتها)

أما معاملاتها فعلىٰ ما تقدّم فى الديار المصرية والبلاد الشامية من المعاملة بالدنانير والدراهم النُّقْرَة ؛ وصَنْجتها فى ذلك كصَنْجة الديار المصرية ، ويعبّر عن الدرهم النُّقْرة فيها بالكاملىّ، نسبةً إلىٰ الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب صاحب مصر،

وعندهم درهم آخر من فضة خالصة، مربعُ الشكل، زنته نحو نصف، ثم نقص حتّى صار نحو سدس، يعبرون عنه بالمسعودىّ نسبة إلىٰ الملك المسعود صاحب اليَمَن، وهو فى المعاملة بثلثى درهم كاملىّ،

ولم يكن بها فى الزمن المتقدّم فلوس يُتعامل بها ثم راجت الفلوس الجُدُد بها فى أيام الموسم فيما قبل الدولة الظاهرية برقوق، ثم راجت فى سائر الأوقات آخرا، إلا أن كل درهم بها ثمانية وأربعون فَلْسًا علىٰ الضِّعف من الديار المصرية، حيث كلُّ درهم فيها أربعة وعشرون فلسا؛ ويعبر عن كل خمسة قراريط من الدرهم الكاملىّ فيها بجائز، وعن الربع والسدس منه بجائزين، وتعتبر أوزانها بالمن : وهو مائتان وستون درهما، وأواقيه عشرة، كل أوقية عشرة دراهم؛ وكيلها بالغِرارة، وكل غِرارة من غرائرها (١) وقياس قماشها بالذراع المصرىّ؛ وأسعارها فى الغالب مرتفعة عن سعر مصر والشام.

وأما إمرتها فإنها إمرة أعرابيــة يمشى أميرها فى إمرته علىٰ قاعدة أمراء العرب دون عادة الملوك فى المواكب وغيرها، وأتباعه عَرَب، وأكثرهم من بنى الحسن أشراف مكة، ويعبَّر عن أكابرهم بالقُوّاد، وهم بمثابة الأمراء للملوك، وربما آستخدم المماليك الترك ومَنْ فى معناهم.

وأكثر متحصِّله مما يؤخذ من التجار الواردين إلىٰ مكة من الهند واليمن وغيرهما.

وأما تجهيز ركب الحجيج إليها ففى كل سنة يجهز إليها المَحْمِلُ من الديار المصرية بكُسْوة البيت مع أمير الركب ويكسىٰ البيتُ بالكُسْوَةِ المجهزة مع المَحْمِلِ، ويأخذ سَدَنةُ البيت الكسوةَ التى كانت علىٰ البيت، فيُهادُون بها الملوك وأشرافَ الناس، وداخل البيت كسوة أخرىٰ من حرير منقوش لا تحتـاج إلىٰ التغيير إلا فى السـنين المتطاولة لعدم وصول الشمس ولمس الأيدى إليها.

(١) بياض فى الأصل.

ومن عادة أمير مكة أنه إذا وصل المَحْمِلُ إلىٰ ظاهر مكة خرج لملاقاته، فإذا وافاه ترجل عن فرسه وأتىٰ الجمل الحامل للمَحْمِلِ فقلب خُفَّ يده اليمنىٰ وقَبَّله خدمةً لصاحب مصر . وقد روىٰ آبن النجار فى تاريخ المدينة النبوية من طريق الحافظ أبى نعيم إلىٰ حسين بن مُصْعَب أنه أدرك كسوة الكعبة يؤتىٰ بها المدينة قبل أن تصل إلىٰ مكة فتنشَر علىٰ الرَّضْراض فى مؤخَّر المسجد، ثم يُخْرَجُ بها إلىٰ مكة . وذلك فى سنة إحدىٰ وثلاثين أو آثنتين وثلاثين ومائة .

وآعلم أن كسوة الكعبة لها حالان :

الحال الأولىٰ — ما كان الأمر عليه فى الجاهلية . قد روىٰ الأزرقىّ فى "أخبار مكة" : بسنده إلىٰ أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ! "نهىٰ عن سَبِّ أَسْعَدَ الحِمْيَرِىّ وهو تُبَّعٌ" وكان أوّل من كَسَا الكعبة . وذكر آبن إسحاق عن غير واحد من أهل العلم أن أوّل من كسا الكعبة كُسْوَةً كاملة تُبَّعٌ وهو أسعدُ أُرِىَ فى منامه أن يكسوها فكساها الأنطاع ، ثم أرى أن آكْسُها فكساها الوصائل ثيابُ حِبَرَة من عَصْبِ اليمن؛ وعن آبن جريج نحوه .

وعن آبن أبى مليكة أنه قال : بلغنى أن الكعبة كانت تكسىٰ فى الجاهلية كُسًى شتّٰى . كانت البُدْن تُجَلَّل الحِبَرَ والبرود والأكسية وغير ذلك من عَصْب اليمن، وكان يُهْدىٰ للكعبة هدايا من كُسًى شتّٰى سوىٰ جِلَال البُدْنِ : حِبَر وخَزّ وأنماط فتكسىٰ منه الكعبة، ويجعل ما بقى فى خزانة الكعبة . فإذا بَلِىَ منها شىء أخلف عليها مكانَهُ ثوب آخر، ولا يُنْزَع مما عليها شىء .

وعن عبد الجبار بن الورد قال : سمعت آبن أبى مليكة يقول : كانت قريش فى الجاهلية تَرَافَدُ فى كسوة الكعبة، فيضربون ذلك علىٰ القبائل بقدر آحتمالها، من عهد قُصَىّ بن كلاب حتّٰى نشأ أبو ربيعةَ بنُ المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكان

يختلف إلىٰ اليمن يتَّجر فيها فأثرىٰ فى المال، فقال لقريش : أنا أكسُو الكعبةَ وحدى سنةً وجميع قُريش سنة، فكان يفعل ذلك حتّٰى مات : يأتى بالحِبَرِ الجَنَدية من الجَنَد فيكسو الكعبة ، فسـمته قريش العِدْلَ لأنه عدل فعله بفعل قريش .

و روىٰ الواقدىّ عن النَّوَارِ بنت مالك أم زيد بن ثابت رضى الله عنه أنها قالت : رأيت قبل أن ألِدَ زيدَ بن ثابت علىٰ الكعبة مَطَارِفَ خَزٍّ أخضر وأصفر، وكِرَارَ وأكسيةَ الأعراب وشِقَاق شعر .

وعن ٱبن جريج أن الكعبة فيما مضىٰ إنمـا كانت تكسىٰ يوم عاشـوراء إذا ذهب آخِرُ الحاج، حتّٰى كان بنو هاشم فكانوا يعلِّقون القميص يومَ التروية من الديباج لأن يرىٰ الناس ذلك عليها بهاء وجمالا، فإذا كان يوم عاشوراء علَّقوا عليها الإزار .

وعن عطاء بن يسار عن عُمَر بن الحكم قال : نذرت أُمِّى بَدَنَةً تنحرها عند البيت وجللتها شُقَّتين من شعر ووبر فنحرت البدنة وسيَّرتْ للكعبة بالشُّقَّتين، والنبىّ صلى الله عليه وسـلم يومئـذ بمكة لم يهاجر، فنظرتُ إلىٰ البيت يومئـذ وعليه كُسًى شتّٰى من وصائل وأنطاع وكِرَارٍ وخَزٍّ ونَمَـارِقَ عراقية، كل هذا قد رأيته عليه .

قلت : حاصـل الأمر أن الذى كُسِيَتْه الكعبة الأنطاعُ وحِبَرَاتُ اليمن والبرودُ والكِرارُ والأنماط والنمارق ومَطَارِفُ الخَزِّ الأخضر والأصفر والأكسية وشِقَاق الشعر والوبر وغير ذلك .

الحال الثانية ــ ما كان الأمر عليه فى صدر الإسلام وهلم جرا إلىٰ زماننا .

أما فى صدر الإسلام فقد روىٰ الواقدىّ عن إبراهيم بن أبى حبيبة عن أبيه أن البيت كان فى الجاهلية يُكسىٰ الأنطاع فكساه النبىّ صـلى الله عليه وسـلم الثيابَ اليمانِيَةَ، ثم كساه عمرُ وعثمان رضى الله عنهما القَبَاطِىّ . وعن ٱبن أبى نجيح أن عمر

آبن الخطاب رضى الله عنه كسا الكعبة القَبَاطىّ من بيت المال، كان يكتب فيها إلىٰ مصر، ثم عثمانُ من بعده . فلما كان معاوية بن أبى سُفْيَانَ كساها كسوتين : كسوة عُمَرَ القَبَاطىّ وكسوةَ دِيبَاج ، وكانت تكسىٰ الدِّيباج يوم عاشوراء ، وتكسىٰ القباطىّ فى آخر شهر رمضان .

وروىٰ الأزرقىّ عن نافع قال : كان آبن عمر يكسو بُدْنَه إذا أراد أن يحرم القَبَاطِىّ والحِبَرَ ، وفى رواية الأنماط ، فإذا كان يومُ عرفة ألبسها إياها وإذا كان يومُ النحر نزعها عنها ثم أرسل بها إلىٰ شيبةَ بن عثمان الحَجَبِىّ فناطها علىٰ الكعبة .

وروىٰ الواقدىّ عن إسحاق بن عبد الله أن الناس كانوا ينذُرُون كُسْوة الكعبة ويُهْدون إليها البُدْنَ عليها الحِبَرَاتُ، فيبعَثُ بالحِبَرَات إلىٰ البيت كسوة . فلما كان يزيد بن معاوية كساها الديباج الخُسْرُوانىّ ، فلما كان آبن الزبير آتبعه علىٰ ذلك ، فكان يبعث إلىٰ أخيه مُصْعبِ بن الزبير يبعث بالكسوة كل سنة وكانت تكسىٰ يوم عاشوراء .

قال الأزرقىّ : وقد قيل إن ابن الزبير أوّل مَنْ كساه الديباج . قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : وهو الصحيح .

وذكر الواقدىّ عن أشياخه أن عبد الملك بن مَرْوان كان يبعث فى كل سنة بالدِّيباج من الشام فيُمَرّ به علىٰ المدينة فيُنْشَر يوما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ الأساطين هاهنا وهاهنا، ثم يطوىٰ ويبعث به إلىٰ مكة . وقد قيل إن عبد الملك أوّل من كسا الكعبة الديباجَ . قال الماوردىّ : وكساه بنو أمية فى بعض أيامهم الحُلَل التى كانت علىٰ أهل نجران فى جزيتهم، والديباج من فوقها .

قال الأزرقىّ : ولما حج المهدىّ فى سنة ستين ومائتين (١)، رُفع إليه أن ثياب الكعبة قد أثقلتها ويخاف علىٰ جُدْرانها من ثِقَل الكسوة، فجرّدها حتّى لم يبق عليها شىء من

(١) صوابه ومائة .

الكسوة، ثم أفرغ عليها ثلاث كُسًى : قباطىّ وخز وديبـاج . ولمـا غلب حسـينُ آبن حسن الطالبىّ علىٰ مكة فى سنة مائتين، وجد ثيابها قد ثقُلت عليها أيضا فجرّدها فى أوّل يوم من المحرّم وكساها كسوتين من قَزٍّ رقيق إحداهما صفراء والأخرىٰ بيضاء مكتوب بينهما .

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله علىٰ محمد وعلىٰ أهل بيته الطيبين الأخيار."
"أمر أبو السَّرايا الأصغر بن الأصغر راعيةُ آل محمد صلوات الله عليه وسلامه بعمل"
"هذه الكسوة لبيت الله الحرام" .

وذكر الأزرقىّ عن جدّه أن الكعبة كانت تكسىٰ فى كل سـنة كسوة ديباج يعنى أحمر وكسوة قَبَـاطىّ . فأما الديباج فتكساه يوم التروية، فيعلّق القميص ويدلّى ولا يخاط، وإذا صدر الناس من منىٰ خيط القميصُ وترك الإزار حتّى يذهب الحاج لئلا يخرّقوه . فإذا كان يوم عاشوراء علق عليها الإزارُ يوصل بالقميص؛ وكأن المراد بالإزار ما تدركه الأيدى فى الطواف وبالقميص ما فوق ذلك إلىٰ أعلىٰ الكعبـة ، فلا تزال هـذه الكسوة الديباجُ عليها حتّى يومِ سبع وعشرين من شهر رمضان فتكسىٰ القباطىّ القطن .

فلمـا كانت خلافة المأمون رفع إليه أن الديباج يَبْلىٰ ويتخرّق قبل أن يبلغ الفطر، فسأل المأمونُ صاحبَ بريد مكة فى أىِّ الكسوة الكعبةُ أحسنُ ؟ فقـال له : فى البياض، فأمر بكسوة من ديباجَ أبيض، عملت سنة ست ومائتين وبُعِث بها إلىٰ الكعبة، فصارت الكعبة تكسىٰ ثلاث كسى : تكسىٰ الديباجَ الأحمر يوم التَّرْوِيَةِ، وتكسىٰ القباطىّ يوم هلال رجب، وتكسىٰ الديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من شهر رمضان للفطر .

ثم رفع إلى المأمون أيضا أن إزار الديباج الأبيض يتخرّق ويَبْلىٰ فى أيام الحج من مسّ الحاج قبل أن يُخَاط عليها إزار الديباج الأحمر فى عاشوراء، فزادها إزارَ ديباجٍ أبيضَ تُكْسَاه يوم التَّرْوِيَةِ، فيستر به ما تخرّق من الإزار الذى كسيته .

ثم رفع إلى المتوكل فى سنة أربعين ومائتين أن إزار الديباج الأحمر يَبْلىٰ قبل هلال رجب من مسّ الناس ومسحهم بالكعبة، فزادها إزارين مع الإزار الأوّل، فأذال قميصَها الديباجَ الأحمرَ وأسبله حتّى بلغ الأرض، ثم جعل الإزار فوقه، فى كل شهرين إزار، ثم نظر الحَجَبَةُ فإذا الإزار الثانى لايُحتاج إليه، فوضع فى تابوت الكعبة وكتبوا إلى المتوكل أنْ إزارا واحدا مع ماأذيل من قميصها، فصار يبعث بإزار واحد فتكسىٰ بعد ثلاثة أشهر، فيكون الذيل ثلاثة أشهر .

ثم فى سنة ثلاث وأربعين ومائتين أمر المتوكل بإذالة القميص القَبَاطىّ حتّى بلغ الشاذَرْوان الذى تحت الكسوة . قال الماوردىّ : ثم كسا المتوكل أساطينه الديباجَ .

وقد حكىٰ المؤيد صاحب حماة فى "تاريخه" أن الفاطميين خلفاء مصر فى إمارة أبى الحسن جعفر من السليمانيين علىٰ مكة فى سنة إحدىٰ وثمانين وثلثمائة كَسَوُا الكعبة البياض .

قلت : ثم رفع الأمر(١) فى خلفاء بنى العبّاس ببغداد إلىٰ شعارهم من السواد، فألبسوا الكعبة الدِّيباج الأسود، ثم جرىٰ ملوك مصر عند آستيلائهم علىٰ الحجاز علىٰ إلباسها السواد .

والذى جرىٰ عليه الحال فى زماننا إلىٰ آخر الدولة الظاهرية برقوق وأوائل الدولة الناصرية ولده أن الكعبة تُكْسىٰ الديباجَ الأسودَ كسوة مسبلة من أعلىٰ

(١) لعله ثم رجع الأمر .

الكعبة إلىٰ أسـفلها مرقوما بأعاليها طراز رقم بالبياض من أصـل النسج مكتوب فيه ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ الآيات، وعلىٰ البـاب بُرْقُعٌ من نسبة ذلك مرقوم فيه بالبياض ... ...[1] ثم فى سنة ... ...[1] وثمانمائة فى الدولة الناصرية فرج بن برقوق غير الطِّراز من لون البياض إلىٰ لون الصُّـفْرة، فصار الرقم فى السواد بحرير أصفر مُقَصَّب بالذهب ، ولا يخفىٰ أنه أنفسُ من الأول والثـانى[2] أبهج منه لشـدّة مضادّة مابين البياض والسواد ، ثم جعـل بعض جوانب الكسوة ديبـاجا أسودَ علىٰ العادة ، وبعضها كمخا أسود بجامات مرقوم فيها بالبياض " لا إله إلا الله محمد رسول الله " . ثم جعـل بعـد ذلك برقعَ البيت من حرير أسود منشورا عليه المخايش الفضة الملبسة بالذهب فزاد نفاسة وعلا قيمة . ثم فى سنة أربع عشرة وثمـانمائة جعل واجهة الباب من الكسوة كمخا أزرق بجامات مكتوب فيها ... ...[3] والله العـالم ما كان وما يكون .

قلت : وحاصل ماتقدّم أن الذى آشتملت عليه أصناف الكسوة فى الإسلام الثياب اليمانِيَة ، والقباطىّ المصرية ، والحِبَرُ والأنماط والحُلَلُ النَّجْرَانية ، والديباج الأبيض ، والديباج الأحمر ، والديباج الأخضر ، والديباج الأصفر ، والديباج الأسود ، والديباج الأزرق .

وأما تجريد الكعبة من ثيابها ، فقد ذكر الأزرقىّ أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينزِع كسوة البيت فى كل سـنة فيقسمها علىٰ الحاج . وعن آبن أبى مليكة أنه قال : كانت علىٰ الكعبة كُسًى كثيرةٌ من كسوة أهل الجـاهلية : من الأنطاع والأكسـية والكِرار والأنمـاط ، فكانت رُكَاماً بعضُها فوق بعض .

(١) فى الأصل بياض بهذا المقدار .
(٢) لعله وان كان أبهج منه لشدّة الخ تأمل .
(٣) فى الأصل بياض بهذا المقدار .

فلما كسيت فى الإسلام من بيت المال، كان يخفف عنها الشيء بعد الشيء إلىٰ أن كانت أيامُ معاوية فكتب إليه شيبةُ بن عثمان الحجبيّ يرغب إليه فى تخفيفها من كسٰى الجاهليــة حتّٰى لايكون عليها شيء مما مسته أيديهم لنجاستهم، فكتب إليه معاوية أَنْ جَرِّدْهَا، وبعث إليه بكسوة من ديباج وقباطىّ وحِبَرَة، فجرّدها شيبةُ حتّٰى لم يبق عليها شيءٌ، وكساها الكسوة التى بعث بها معاوية، وقسم الثياب التى كانت عليها بين أهل مكة؛ وكان ٱبن عباس حاضرا فى المسجد وهم يجرّدونها فلم ينكر ذلك ولا كرهه .

وروى أن عائشة رضى الله عنها أنكرت علىٰ شيبة ذلك ، وقالت له بِعْها وٱجعل ثمنها فى سبيل الله، وكذلك ٱبن عبّاس .

وروىٰ الواقدىّ عن أم سَلَمَةَ رضى الله عنها أنها قالت : إذا نزعت عن الكعبة ثيابُها فلا يضرها من لبسها من الناس من حائض أو جنب. وقد تقدّم أن المهدىّ جردها حين حج فى سنة ستين ومائتين(١)، وحُسَيْنٌ الطالبىّ جرّدها فى سنة مائتين.

قلت : والذى ٱستقر عليه الحال فى زماننا أنها لاتُلْبَس فى كل سنة غير كسوة واحدة علىٰ ماتقدّم بيانه، وذلك أن الكسوة تعمل بمصر علىٰ النَّمط المتقدّم، ثم تُحْمَلُ صحبة الرَّكْبِ إلىٰ مكة فيُقْطَع ذيل الكسوة القديمة علىٰ قدر قامة من جدار الكعبة ويظهر من الجدار ما كان تحته، ويبقىٰ أعلاها معلقا حتّٰى يكون يوم ... ...(٢) فتخلع الكسوة العتيقة وتعلّق الجديدة مكانها ، ويُكسىٰ المَقَـام من نسـبة كسوة الكعبة، ويأخذ بنو شيبة الحَجَبَةُ الكسوةَ العتيقة فيُهْـدونها للحُجّاج ولأهل الآفاق . وقد زاد رِفْدهم فيهـا من حين حصلت المغالاة فى كسوة الكعبة وبرقعها علىٰ ماتقـدّم .

"اللّهمَّ زِدْ هذا البيتَ تشريفا وتعظيما، وتكريمـا ومهابة" .

---

(١) صوابه ومائة . أنظر تاريخ خلافة المهدى .

(٢) بيـاض فى الأصل .

وآعلم أن جدَار الكعبة كان عزيز الرؤية حين كانت الكسوة تتراكم عليها ولا يجرّد عنها شيءٌ، حتّى إن الأزرقىّ حكىٰ عن جدّه أنه تبجح برؤية جِدَارها حين جُرِّدت فى سنة ثلاث وستين ومائتين ، وأنه رأىٰ جدار الباب المسدود الذى كان عمله آبن الزُّبَيْر فى ظهرها وسدّه الحَجَّاجُ، وشَبَّه لون جدارها بالعنبر الأشهب .

الجمــــلة الثانية
(فيما هو خارج عن حاضرتها)

أكثَرُ مَنْ هو ببادِيتها وأوديتها القريبة منها بنو الحسن الأشراف . وقد ذكر فى "التعريف" من عرب الحجاز لامٌ، وخالد، والمنتفق، والعايد، وزاد فى "مسالك الأبصار": ذكر زُبَيد، وبنوعمرو، والمَضَارجة، والمساعيد، والزراق، وآل عيسىٰ، وآل دعم، وآل جناح، والحبور. ثم قال : وديارهم يتلو بعضها بعضا . قال الحمدانى: وشرقىّ مكة حليجة، وبنو هزرومنازلهم بِيشةُ .

ومنهم من خثعم بنو مُنَبه، وبنو فصيلة، ومعاوية، وآل مهدىّ، وبنو نصر، وبنوحاتم، والموركة، وآل زياد، وآل الصعافير، والشماوبلوس . ثم قال: ومنازلهم غير متباعدة .

أما العُرْبان بالدرب المصرىّ إلىٰ مكة ، فمن بِرْكة الحُجّاج إلىٰ عَقَبة أَيْلَة للعائد من عرب الشرقية ، ومن العَقَبة إلى الدأماء دون عُيُون القَصَب لبنى عُقْبَة ، ومن الدأماء إلىٰ أكدىٰ لِبَلِيٍّ، ومن أكدىٰ إلىٰ آخر الوعرات لِجُهَيْنَة، ومن آخر الوعرات إلىٰ نهاية بدر وإلىٰ نهاية الصفراء، وَنَقْبِ علىّ لبنى حَسَنٍ أصحاب اليَنْبُع (١)؛ ويليهم من أقاربهم من بنى حسن أصحاب بدر إلىٰ رملة عالج فى طَرَف قاع البزوة ، ومن

(١) لعلها البَزْواء .

الصفراء إلى الجحفة و رابغ لزُبَيْد، ومن الجحفة على قُدَيد وما حولها إلى الثَّنِيَّة المعروفة بعقبة السَّوِيق لِسُلَيْم، ومن الثَّنِيَّة على خُلَيص إلى الثَّنِيَّة المشرفة على عُسْفان إلى الفجّ المسمّى بالمحاطب لبنى جابر؛ وهم فى طاعة صاحب مكة، ومن المحاطب إلى مكة المعظمة لصاحب مكة و بنى الحسن .

القاعدة الثانية

(المدينة الشريفة النبوية، على ساكنها أشرف الخلق محمد أفضلُ الصلاة والسلام والتحية والإكرام؛ وفيها ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(فى حاضرتها)

المدينة ضبطُها معروف، وهو آسم غلب عليها، و به نطق القرءان الكريم فى قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ . وقوله : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ . وآسمها القديم يَثْرِبُ و به نطق القرءان فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ .

قال الزجاجىّ : وهو يثربُ، بن قانيةَ، بن مهلائيل، بن إرَمَ، بن عَبِيل، بن عَوْص، آبن إرم، بن سام، بن نوح؛ هو الذى بناها، وورد ذكره فى الحديث أيضا . قال الشيخ عماد الدين بن كثير فى "تفسيره" وحديث النهى عن تسميتها بذلك ضعيف؛ وسمَّاها الله تعالى الدار بقوله : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِم﴾. وسماها النبىّ صلى الله عليه وسلم طَيْبَةَ (بفتح الطاء المهملة وسكون الياء وفتح الباء الموحدة بعدها هاء) وطَابَةَ بإبدال الياء بعد الطاء بألف . قال النووىّ : وهما من الطيِب وهو الرائحة الحسنة، وقيل من الطيبِ خلاف الردىء، وقيل من الطيبِ بمعنى

الطاهر ، وقيل من طِيبِ العَيْش . وزاد السهيلىّ فى أسمـائها الجَابِرَة بالجيم والبـاء الموحدة ، والمُحَبَّة ، والمَحْبُوبة ، والقاصمةَ ، والمَجْبورة ، والعَـذْراء ، والمَرْحُومة ؛ وكانت تدعىٰ فى الجاهلية غُلُبَة لأن اليهود غَلَبوا عليها العماليق ، والأوسَ والخزرجَ غلبوا عليها اليهود . قال صاحب حماة : وهى من الحجاز ، وقيـل من نَجْدٍ ، وموقعها قريب من وسط الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال فى كتاب "الأطوال" : وطولها خمس وستون درجة وثلث ، وعرضها إحدىٰ وعشرون درجة . وقال فى "القانون" : طولها سبع وستون درجة ونصف ، وعرضها إحدىٰ وعشرون درجة وثلث . وقال آبن سـعيد : طولهـا خمس وستون درجة وثلث ، وعرضها خمس وعشرون درجة و إحدىٰ وثلاثون دقيقة . وقال فى "رسم المعمور" : طولهـا خمس وستون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها خمس وعشرون درجة .

وقد ذكر صاحب "الهَنَاء الدائم ، بمولد أبى القاسم" أن أوّل من بنـاها تُبَّعٌ الأوّل ، وذكر أنه مرّ بمكانها وهى يومئذ منزلة بها آعين ماء ، فأخبره أربعمائة عالم من علماء أهل الكتاب لهم عالم يرجعون إليه أن هـذا موضع مُهَاجَرِ نبىٍّ يخرج فى آخر الزمان من مكة آسمه محمد ! وهو إمامُ الحق ؛ فآمن بالنبىّ صلّى الله عليه وسـلم ! وبنىٰ المدينة ، وأنزلهم بها وأعطىٰ كلا منهم مالًا يكفيه وكتب كتابا فيه :

"أما بعـــد يا محمدُ فإنّى آمنتُ بك وبِرَبِّك ، وبكل ماجاء من ربك "
"من شرائع الإسلام والإيمـان ، وإنى قلتُ ذلك فإن أدركتُك فبها"
"ونِعْمَتْ ، وإن لم أُدْرِكْك فآشفعْ لى يوم القيامة ، ولا تَنْسَنِى فإنى من"
"أمتك الأوّلين ، وتابعتُك قبل مجيئك ، وقبل أن يرسلَك اللهُ ، وأنا على"
"ملة أبيك إبراهيم ! "

وختم الكتاب ونقش عليه : ﴿ لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللّٰهِ ﴾ .

وكتب عنوانه .

"إلىٰ محمد بن عبدالله خَاتَمِ المرسلين ، ورسول رب العالمين ، صلّى الله"
"عليه وسلم ! من تُبَّع الأوّل حِمْيَر ، أمانةُ الله فى يد من وقع إليه أن يدفعه"
"إلىٰ صاحبه"

ودفع الكتاب إلىٰ رئيس العلمـاء المذكورين ، وتداوله بَنُوه بعـده إلىٰ أن هاجر النبىّ صلى الله عليه وسلم ! إلىٰ المدينة فتلقاه به بعض أولاد ذلك العالم بين مكَّةَ والمدينة ، وتاريخ الكتاب يومئذ ألف سنة بغير زيادة ولا نقص . وقيل فى بنائها غير ذلك ، وهى مدينـة متوسطة فى مستو من الأرض ، والغالب علىٰ أرضها السباخ ، وفى شمـاليِّها جبل أُحُدٍ ، وفى جنوبها جبل عَيْر ، وكان عليها سور قديم وبخارجها خَنْدَقٌ محفور ، وهو الذى حفره النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب .

وفى سـنة ست وثلاثين ومائتين بنىٰ عليها إسحاق بن محمد الجَعْدىّ سورا منيعا ، وجدّده عضدُ الدولة بن بُوَيه الديلمىّ فى سنة آثنتين وسبعين وثلثمائة ، وهو باق عليها إلىٰ الآن ، ولها أربعة أبواب : بابٌ فى الشرق يُخْرَج منه إلىٰ البَقِيع ، وباب فى الغَرْب يُخْرَج منه إلىٰ العَقِيق وقُبَاءٍ ، وبين يدىْ هذا الباب جداولُ ماء جارية ، وبوسطها مسجدُ النبىّ صلى الله عليه وسلم ! وهو مسجد متسع إلا أنه لم يبلغ فى القَـدْر مبلغَ مسجد مكة .

قال آبن قتيبة فى "كتاب المعارف" : وكان علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ! مبنيا باللَّبِن وسقفُه الجريد وعَمَدُهُ النخل ، ولم يزد فيه أبو بكر شيئا ، و زاد فيه عُمَر ،

ثم غَيَّره عثمان و زاد فيه عثمان زيادة كبيرة، و بنىٰ جدارَه بالحجارة المنقوشة و بالقَصَّة، وجعل عَمَدَهُ من حجارة منقوشة؛ ووسعه المهدى سنة ستين ومائة؛ و زاد فيه المأمون زيادة كبيرة فى سنة آثنتين ومائتين؛ ولم تزل الملوك تتداوله بالعِمَارة إلىٰ زماننا .

وبه الحُجْرة الشريفة التى بها قَبْر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما . بحجرته الشريفة دائرٌ عليه مقصورةٌ مرتفعة إلىٰ نحو السقف، عليه ستر من حرير أسود؛ وخارجَ المقصورة بين القبر والمنبر الروضةُ التى أخبر صلى الله عليه وسلم ! أنها روضةٌ من رِيَاض الجنة .

وقد ذكر أهل الأثر : أن المِنْبر كان فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم ! ثلاثَ درجات بالمَقْعَد، وآرتفاعه ذراعان وثلاث أصابع، وعرضُه ذراع راجح، وآرتفاع صدره وهو الذى يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ذراع، وآرتفاع رُمّانتيه اللتين كان يمسكهما صلى الله عليه وسلم ! بيديه الكريمتين إذا جلس شبرٌ وأصبعان، وفيه خمســة أعواد من جوانبه الثلاثة؛ وبقىَ علىٰ ذلك إلىٰ أيام معاوية فكتب إلىٰ مَرْوَانَ : عامِله علىٰ المدينة أن آرفَعْه عن الأرض فزاد من أسفله ست درجات ورفعه عليها فصار له تسعُ درجات بالمجلِس . قيل : وصار طوله أربعة أذرع وشبرا .

ولمــا حج المهدىّ بن المنصور العباسىّ سنة إحدىٰ وستين ومائة، أراد أن يعيده إلىٰ ما كان عليه فأشار عليه الإمام مالك بتركه خشــيةَ التهافُتِ فتركه؛ ويقال : إن المنبر الذى صنعه معاويةُ ورَفَع منبر النبىّ صلى الله عليه وسلم عليه، تهافت علىٰ طول الزمان، وجدّده بعض خلفاء بنى العباس وآتخــذ من بقايا أعواد منبر النبىّ صلى الله عليه وسلم أمشاطا للتبرك، ثم آحترق هذا المنبر لما آحترق المسجد فى مستَهَلّ رمضان ســنة أربع وخمسين وستمائة أيام المستعصم بالله، وشُغل المستعصم عن عمارته بقتال

التتار، فعمل المُظَفَّرُ صاحب اليمن المِنْبَر، وبعث به إلى المدينة سنة ست وخمسين وستمائة، فنصب فى موضع مِنْبَر النبيّ صلى الله عليه وسلم! فبقى إلى سنة ست وستين وستمائة، فأرسل الملك الظاهر بيبرس صاحبُ مصر المنبرَ الموجود الآن فأُزيل ذاك ووضع هذا وطوله أربعة أذرع، ومن رأسه إلى عتبته سبعةُ أذرع تزيد قليلا، ودرجاته سبع بالمقعد والأمر على ذلك إلى الآن.

الجملة الثانية

(فى نواحيها وأعمالها، وهى على ضربين)

الضرب الأوّل

(حِمَاهَا ومرافقُها)

واعلم أن للمدينة الشريفة حِمًى، حماه النبيّ صلى الله عليه وسلم وحرّمه كما حرّم إبراهيم عليه السلام مكةَ. قال فى "الروض المعطار": حِمَاها اثنا عشر ميلا؛ وخارجَ بابها الشرقىّ البَقِيعُ المتقدّم ذكره، وهو مَدْفَن أكثر أمواتها، وهو بالباء الموحدة فى أوّله، ويسمى بَقِيعَ الغَرْقَدِ ــ بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح القاف ودال مهملة فى الآخر. قال "الأصمعى": سمى بذلك لأنه قُطِع ما به من شجر الغَرْقَد يوم مات عثمان رضى الله عنه. وبه قبر إبراهيم بن النبيّ صلى الله عليه وسلم! من مارية القِبْطية، وقبر الحسن بن علىّ بن أبى طالب؛ وإلى جانبه قبر العبّاس: عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقبر عثمان بن عَفّان رضى الله عنه فى قبة دونهما، وقبر مالك بن أنس إمام المذهب المعروف؛ وحول المدينة حدائق النخل الأنيقةُ؛ وثمرها من أطيب الثمر وأحسنه، وغالب قوت أهلها منه.

الضرب الثـانى

(فى مخاليفها وقُرَاها ، والمشهور منها ثمـانية أماكِنَ)

الأوّل - (قُبَاءُ) - بضم القاف وفتح الباء الموحدة وألف فىالآخر- ويروىٰ بالمدّ والقصر والمدّ أشهر . قال فى "الروض المعطار" : ومن العرب من يذكّره فيصرفه، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه . قال : وسميت قُبَـاءَ ببئر كانت بدار توبة بن الحسن ابن السائب بن أبى لبابة يقال لها قُبَاء، وهى قرية غربىّ المدينة علىٰ مِيلَيْن منها، وبها مسجد التَّقْوىٰ الذى أخبر الله تعالىٰ عنه بقوله : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَىٰ التَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾. وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان يأتى قُبَاء كل يوم سبت راكبا وماشيا، ومُصَلَّاه بها مشهور .

الثـانى - (خيبر) - بفتح الخاء المعجمة وسكون اليـاء المثناة تحت وفتح الباء الموحدة وراء مهملة فى الآخر- قال الزجاجىّ : سميت بِخَيْبَر بن قانية وهو أوّل من نزلها، وهى بلدة بالقرب من المدينة الشريفة . قال ابن سعيد: طولها أربع وستون درجة وست وخمسون دقيقة ، وعرضها سـبع وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وهى بلدة عامرة آهلة ذاتُ نخيل وحدائقَ ومياهٍ تجرى . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى بلدة بنى عنزة من اليهود ، والخَيْبَرُ فى لغـة اليهود الحِصْن ، وهى فى جهة الشَّمال والشرق عن المدينة علىٰ نحو ست مراحل وقيل أربع مراحل . قال الإدريسىّ : وهى ذات نخيـل وزرع ، وكانت فى صـدر الإسلام دارا لبنى قُرَيْظَةَ والنَّضِـيرِ ، وبها كان السَّمَوْءَل بن عادِيَا الشاعر المشهور .

الثالث - (فَدَك) - بفتح الفاء والدال المهملة وكاف فى الآخر- قال الزجاجىّ : سميت بِفَدَك بن حام ، وقيل : سميت بفُيْد بن حام، وهو أوّل من نزلها . قال

فى "الروض المعطار" : و بينها و بين المدينة يومان، وحِصْنها يقال له الشمروخ على القرب من خيبر، وكان أهلها قد صالحوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ! على النصف من ثمارها فى سنة أربع من الهجرة، ولم يُوجِف عليها المسلمون بخيل ولا رِكَاب فكانت له صلى الله عليه وسلم خالصةً، وكان معاوية بن أبى سفيان قد وهبها لمَرْوان بن الحكم، ثم آرتجعها منه لَمْوِجدة وجدها عليه . فلما ولى عمرُ بن عبد العزيز الخلافة، ردّها إلى ما كانت عليه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تُغِلُّ فى أيام إمرته عشرةَ آلاف دينار، يتجافى عنها .

الرابع ـ (الصَّفْراء) ـ مؤنث أصفر ـ وهو واد على ستّ مراحل من المدينة كثيرُ المزارع والمياه والحدائق . أخبرنى بعض أهل الحجاز أن به أربعة وعشرين نهرا على كل نهر قرية، وعيونُه تصب فضلها إلى يَنْبُعَ، وهو بيد بنى حَسن الشرفاء .

الخامس ـ (وَدَّانُ) ـ بفتح الواو وتشديد الدال المفتوحة وألف ثم نون ـ وهو واد به قرًى خراب لا تحصى كثرة .

السادس ـ (الفُرْعُ) ـ بضم الفاء وسكون الراء المهملة وبالعين المهملة ـ وهو واد فى جنوبىّ المدينة على أربعة أيام منها يشتمل على عدّة قُرًى آهلة، أخبرنى بعض أهل الحجاز أن به أربعة عشر نهرا على كل نهر قرية، وماؤها يصب فى رابغ حيث يُحْرِم حُجَّاج مصر، وعليها طريق المُشَاة من مكة إلى المدينة . قال فى "الروض المعطار" : ويقال إنها أوّل قرية مارَتْ إسماعيل عليه السلام التمر بمكة، وهى الآن بيد بنى حَرْب .

السابع ـ (الجارُ) ـ قال فى "اللباب" : بفتح الجيم وألف وراء مهملة ـ وهى فُرْضة المدينة الشريفة على ثلاث مراحل منها . قال آبن حوقل : وبينها وبين ساحل الجُحْفَةِ نحو ثلاث مراحل، منه عن أَيْلَةَ على نحو عشرين مرحلة .

الثامن ـ (وَادِى القُرىٰ) ـ بضم القاف وفتح الراء المهملة وألف فى الآخر جمع قرية . قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينة كثيرة النخيل والبساتين والعيون، وبها ناس من وَلَد جَعْفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهم الغالبون عليها ، وتُعْرف بالوَادِيَيْنِ، والذى أخبرنى به بعض أهـل الحجاز أنه كان بهـا عيون كثيرة عليها عدّة قُرًى فخربت لاختلاف العرب ، وهى الآن خراب لا عامر بهـا ولو عمرت أغنت أهلَ الحجاز عن الميرة من غيرها .

قلت : و بالغ الإدريسىّ فى "نزهة المشتاق" فعدّ من مخاليفها تَيْمَاءَ ودُومَةَ الجندل، ومَدْيَنَ، والتحقيق خلاف ذلك .

فأمّا تَيْمَـاء ـ بفتح التاء المثناة من فوق وسكون الياء المثناة من تحت وميم ثم ألف فى الآخر ـ فقد عدها فى "تقويم البُلْدان" : من بادية الشأم تقريبا . قال فى "العزيزى" : وهى حاضرة طيئ وبها الحصن المعروف بالأبلق المنسوبُ إلىٰ السَّمَوْءل بن عَادِيَا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى الآن أعمر من تَبُوكَ، وبها نخيل قائمة .

وأما دُومة الجندل فقال فى "تقويم البُلْدان" : هو موضع فاصل بين الشأم والعراق علىٰ سبع مراحل من دِمَشْقَ، و بينه و بين المدينة الشريفة ثلاث عشرة مرحلة .

وأما مَدْيَنُ فقد تقـدّم ذكرها فى الكلام علىٰ كُوَرِ مصر القديمة ، ووقع الكلام عليها هناك وإن كان الحق أنها من ساحل الحجاز .

الجملة الثالثة

(فى ذكر ملوك المدينة وأمرائها، وهم على ضربين)

الضرب الأوّل

(مَنْ قبل الإسلام؛ وهم ثلاث طَبَقات)

الطبقة الأولى

(التَّبابِعة)

قد تقدّم فى الكلام على بنائها نقلا عن صاحب "الهَنَاء الدائم" : أن تُبَّعا الأوّل هو الذى بناها وأسكنها جماعةً من علماء أهل الكتاب، وكتب كتابا وأودعه عندهم ليوصِّله مَنْ أدركه من أبنائهم إليه[1]، وبقِىَ الكتاب عندهم يتوارثونه حتّى هاجر النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فتلقاه من صار إليه الكتابُ منهم وأوصل الكتابَ إليه . وحينئذ فيكون أوّل من ملكها التبابعة .

الطبقة الثانية

(العمالقة من ملوك الشام)

قال السهيلىّ : وأوّل من نزلها منهم يَثْرِب، بن عَبِيل، بن مهلائيل، بن عَوْص، آبن عِمْلاق، بن لاوَذ، بن إرَمَ، بن سام، بن نوح عليه السلام فسميت به . قال فى "الروض المعطار" : وكانت هذه الأمة من العماليق يقال لها جاسِم، وكانوا قد آستولَوْا على مكة وسائر الحجاز، وكانت قاعدة ملكهم تَيْماء، وكان آخرُ ملوكهم الأرقَمَ بن أبى الأرقم .

---

(١) أى الى النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدّم قريبا .

الطبقة الثـالثة

(ملوكها من بنى إسرائيل ومَنْ آنضم إليهم من الأوْسِ والخَزْرَجِ)

قال فى "الروض المعطار": لمـا ظهر موسىٰ عليه السلام علىٰ فِرْعون، بعث بَعْثًا من بنى إسرائيل إلىٰ الحجاز وأمرهم أن لايستَبْقُوا منها[(١)] أحدا بلغ الحُلُم، فقتلوهم حتّىٰ آنتهَوْا إلىٰ ملكهم الأرقم بتَيْماءَ فقتلوه وأبقَوْا له آبنا[(٢)] صغيرا ليرىٰ موسىٰ عليـه السلام فيه رأيه . فلما رجعوا به إلىٰ الشأم وجدوا موسىٰ عليه السلام قد تُوُفِّيَ ، فقال لهم الناس : عصَيْتم وخالفتم أمر نبيكم، وحالُوا بينهم وبين الشام، فقال بعضهم لبعض : خَيْرٌ من بلدكم البلَدُ الذى خرجتم منه، فعادوا إلىٰ الحجاز فنزلوه، فكان ذلك أول سُكْنىٰ اليهود الحجاز ، فنزل جمهورهم بمكان يقـال له يَثْرِبُ بمجتمع السيول وآتخذوا الآطام والمنازل، ونزل معهم جماعةٌ من أحياء العرب من بَلِىّ وجُهَيْنة .

وكانت يثرب أمَّ قرىٰ المدينة وهى ما بين طرف قُبَاءَ إلىٰ الجُرْف؛ ثم لمـا كان من سـيل العَرِم باليمن ما كان ، تفرّق أهل مأرِبَ ، فأتىٰ الأوسُ والخزرجُ يثرب لليهود فحـاربوهم ، وكان آخر الأمر أن عقدوا بينهم وبينهم جِوَارا وآشـتركوا وتحالفوا ، فلم يزالوا علىٰ ذلك زمانا طويلا، فصارت للأوس والخزرج ثروةٌ ومال وعز جانبهم فخافهم اليهود، فقطعوا الحِلف، وخافهم الأوس والخزرج فبعثوا إلىٰ مَنْ لهم بالشام فأعانوهم حتّىٰ أذلوا اليهودَ وغلبوهم عليهـا، وبقيت بأيديهم حتّىٰ جاء الإسلام وهاجر النبىّ صلّى الله عليه وسلم إليها وهم رؤساؤها وحُكَّامها .

---

(١) أى من العماليق والأوضح منهم .

(٢) فى المعجم "آبنا شابا جميلا" وهو الأنسب .

الضرب الثانى
(من فى زمن الإسلام، وهم أربع طبقات)

الطبقة الأولىٰ
(من كان بها فى صدر الإسلام)

كان بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ أن توفِّى فى سنة إحدىٰ عشرة من الهجرة. ثم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه إلىٰ أن توفِّى سنة ٱثنتى عشرة من الهجرة. ثم عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلىٰ أن قتل فى سنة ثلاث وعشرين. ثم عثمان بن عَفّانَ رضى الله عنه إلىٰ أن قتل فى سنة خمس وثلاثين . ثم علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه إلىٰ أن قتل سنة أربعين . ثم الحسن بن علىّ بن أبى طالب إلىٰ أن سلَّم الأمر لمعاوية سنة إحدىٰ وأربعين من الهجرة النبوية .

الطبقة الثانية
(عُمَّال الخلفاء من بنى أُمَيَّةَ)

ولّى عليها معاوية سنة ٱثنتين وأربعين من الهجرة (مروانَ بن الحكم) . ثم عزله سنة تسع وأربعين وولّى مكانه (سعيدَ بن العاص) . ثم عزله سنة أربع وخمسين وردَّ إليها (مروان بن الحكم). ثم عزله سنة تسع وخمسين وولّى مكانه (الوليدَ بن عُتْبَةَ ٱبن أبى سفيان) .

ثم عزله يزيد بن معاوية عن المدينة والحجاز وولّى مكانه (عمرَو بن سعيد الأشدق) ثم عزله سنة إحدىٰ وستين وأعاد (الوليدَ بن عتبة) .

ثم ٱستعمل ٱبن الزبير عند غَلَبته على المدينة أخاه (مُصْعَبًا) سنة خمس وستين؛ ثم نقله إلى البصرة وولّى مكانه (جابرَ بن الأسود) بن عوف الزهرى؛ ثم ولّى مكانه (طلحةَ بن عبد الله) بن عوف .

ثم غَلَب عبـد الملك بنُ مروان على الخلافة فبعث على المدينة (طارقَ بن عَمْرو) فغلب عليها طلحةَ بن عبد الله وٱنتزعها منه . ثم ٱنفرد عبد الملك بالخلافة وولّى على المدينة والحجاز واليَمَن واليمامة (الحَجَّاجَ بن يوسف) وعزل طارقا عن المدينة وجعله من جُنْده . ثم ولّى عليها سنة سبع وسبعين (أَبَانَ بن عثمانَ) . ثم عزله فى سنة ٱثنتين وثمانين وولّى مكانه (هشامَ بن إسماعيل المخزومىّ) .

ثم كانت خلافة الوليد بن عبد الملك فعزل هشام بن إسماعيل وولّى مكانه (عثمان ٱبن حَيَّانَ) .

ثم تولّى عليها (أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم) أيام سليمان بن عبد الملك .

ثم ٱستعمل عليها عمرُ بن عبد العزيز فى خلافته (عبدَ العزيز بنَ أرطاة) . ثم عزله يزيدُ بن عبـد الملك سـنة ثلاث ومائة وولّى مكانه (عبدَ الرحمن بنَ الضحَّاك) وأضاف إليه مكة؛ ثم عزله لثلاث سنين من ولايته وولّى مكانه على مكة والمدينة (عبدَ الواحد النَّضْرىّ) .

ثم عزله هشامُ بن عبد الملك وولّى عليها وعلى مكة (إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومىّ) . ثم عزله هشام سنة أربعَ عشرةَ ومائة وولّى مكانه بالمدينة خاصةً (خالدَ ٱبن عبد الملك بن الحرث بن الحكم) . ثم عزله سنة ثمـان عشرة ومائة وولّى مكانه (محمد بن هشام بن إسماعيل) .

ثم ولّى الوليدُ بن يزيدَ فى خلافتـه خالَه (يوسفَ بن محمد بن يوسف الثقفىّ) على المدينة وسائر الحجاز فى سنة أربع وعشرين ومائة . ثم عزله يزيدُ فى خلافته فى سنة

ست وعشرين ومائة وولّى مكانه (عبـد العزيز بن عمرو بن عثمان). ثم ولّى مروانُ[(1)] على المدينة وسائر الحجاز. ثم عزله فى سنة سبع وعشرين ومائة وولّى مكانه (عبدَ العزيز آبن عمر بن عبد العزيز) . ثم عزله فى سـنة تسع وعشرين ومائة وولّى مكانه على المدينة وسائر الحجاز (عبدَ الواحد) .

الطبقة الثـالثة

(عُمَّالها فى زمن خلفاء بنى العبّاس)

لمـا وَلِىَ السفّاح الخلافةَ ولّى على المدينة والحجاز واليمن واليمَـامة عمَّه (داودَ) . ثم توفِّى داود سنة ثلاث وثلاثين ومائة فولّى مكانَه فى جميع ذلك (زيادَ بن عبد الله آبن عبد المَدَان الحارثىّ) . ثم ولّى سنة ثلاث وأربعين ومائة على المدينة (محمدَ بنَ خالد آبن عبد الله القَسْرِىّ) . ثم آتهمه فى أمر فعزله وولّى مكانه (رِيَاح بن عثمان المرّىّ) فقتله أصحاب محمد المهدىّ؛ فولى مكانه (عبيدَ الله بن الربيع الحارثىّ) .

ثم عزله المنصور سنة ست وأربعين ومائة وولّى مكانه على المدينة (جعفرَ بن سليمان). ثم عزله فى سنة خمسين ومائة وولّى مكانه (الحسنَ بن زيد بن الحسن) . ثم عزله المنصور فى سنة خمس وخمسين ومائة وولّى مكانه عمَّه (عبدالصمد بن علىّ) .

ثم عزله المهدى فى خلافته سنة تسع وخمسين ومائة وولّى مكانه (محمدَ بن عبدالله الكثيرىّ) . ثم عزله وولّى مكانه (عبد الله بن محمد[(2)] بن عبد الرحمن بن صفوان) . ثم عزله وولّى مكانه (زفر بن عاصم) . ثم تولّى على المدينة والحجـاز (جعفرُ آبن سليمان) . ثم كان بها (محمد بن عيسى) بعد مدّة ،

(١) لم يذكر من ولاه ولعل الصواب ثم ولاه مروان [أى أقره] على المدينة الخ وآنظر الكلام على مكة فيما سبق . (٢) فى الكامل " محمد بن عبيد الله الخ " .

وعزله المتوكل وولّى مكانه (المستنصر بن المتوكل) . وتوالى عليها عُمَّال بنى العباس إلىٰ عشر الستين والمـائة .

الطبقة الرابعـــة
(أُمراء الأشراف من بنى حُسَين الذين منهم الأمراء المستقرّون فى إمارتها إلىٰ الآن)

كانت الرياسة بالمدينة آخرا لبنى الحسن بن علىّ .

وكان منهم أبو جعفر عبد الله، بن الحسين الأصغر، بن علىّ زين العابدين، ٱبن الحسين السِّبْط، بن علىّ، بن أبى طالب رضى الله عنه .

وكان من جملة ولده جعفرٌ حجة الله، ومن ولده الحسن، ومن ولد الحسن يحيىٰ الفقيــه النَّسَّابة، كانت له وَجَاهة عظيمة وفخر ظاهر، وتوفى سنة ست وسـبعين ومائتين؛ ومن ولده أبو القاسم طاهر بن يحيىٰ، ساد أهلَ عصره وبنىٰ دارا بالعقيق ونزلها، وتوفِّى سنة ثلاث عشرة وثلثمائة .

وكان من ولده الحسن بن طاهر رحل إلىٰ الأخشيد بمصر، وهو يومئذ مَلِكُها، فأقام عنده وأقطعه الأخشيد ما يُغِلُّ فى كل سنة مائة ألف دينار وٱستقرّ بمصر؛ وكان له من الولد طاهر بن الحسن، وتوفى سنة تسع وعشرين وثلثمائة، وخلف ٱبنه محمدا الملقب بمسلم، وكان صديقا لكافور الأخشيدى صاحب مصر، ولم يكن فى زمنه بمصر أوجهُ منه . ولما ٱختل أمر الأخشيدية دعا مسلم هذا للمعز صاحب إفريقية يومئذ . ولمـا قدم المعز إلىٰ الديار المصرية بعد فتح جوهر القائد لهـا، تلقاه مسـلم بالجمال بأطراف بَرْقَةَ من جهة الديار المصرية، فأكرمه وأركبه معدلا له وٱختص به؛ ثم توفى سنة ست وستين وثلثمائة فصلى عليه المعز، وكانت له جنازة عظيمة .

وكان من ولد مسلم هـذا طاهر أبو الحسين فلحق طاهرٌ بالمدينة الشريفة فقدّمه بنو الحسين على أنفسهم وآستقلّ بإمارتها سنين، وكان يلقب بالمَلِيح ، وتوفى سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ، وولى بعده آبنه (الحسين بن طاهر) وكنيته أبو محمد . قال العُتْبيّ : وكان موجودا فى سنة سبع وتسعين وثلثمائة وغلبه على إمارتها بنوعم أبيه أبى أحمد القاسم بن عبيدالله بن طاهر بن يحيىٰ بن الحسن بن جعفر حجة الله وآستقلوا بها .

وكان لأبى أحمد القاسم من الولد داودُ ويكنىٰ أبا هاشم . وقال العتبى : الذى وَلِى بعد طاهر بن مسلم صهرُه وآبن عمه داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر، وكناه أبا علىّ .

وقال آبن سعيد : ملك أبو الفتوح الحسنُ بن جعفر من بنى سليمان إمرة مكة والمدينة سنة تسعين وثلثمائة بأمر الحاكم العبيدى وأزال إمرة بنى الحسين منها ، وحاول الحاكمُ نقل الجسد الشريف النبوىّ إلى مصر ليلا فهاجت بهم ريحٌ عظيمة أظلم منها الجوّ، وكادت تقتلع المبانىَ من أصلها ، فردّهم أبو الفتوح عن ذلك وعاد إلى مكة ورجع أمراء المدينة إليها .

وكان لداود بن القاسم من الولد مُهَنًّا وهانئ والحسن . قال العتبىّ : ولى هانئ ومهنا وكان الحسن زاهدا .

وذكر الشريف الحرّانىّ النسابة هنا أميرا آخر منهم وهو أبو عمارة مدّةَ كان بالمدينة سنة ثمان وأربعمائة . قال : وخلّف الحسن بن داود آبنه هاشما وولى المدينة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة من قِبَل المستنصر .

قال : وخلف مهنا بن داود عبيد الله والحسين وعمارة فولى بعده آبنه عبيد الله وكان بالمدينة سنة ثمان وأربعمائة وقتله موالى الهاشميين بالبصرة، ثم ولى الحسين وبعده آبنه مهنا بن الحسين .

قال الشريف الحرّانىّ : وكان لمهنا بن الحسين من الولد الحسين وعبد الله وقاسم فولى الحسين المدينة وقتل عبد الله فى وقعة نخلة . وذكر صاحب حماة من أمرائها منصور بن عمارة الحسينىّ وأنه مات فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة وقام ولده مقامه ولم يسمه ؛ ثم قال وهم من ولد مهنا . [وذكر منهم أيضا القاسم بن مهنا][1] حضر مع صلاح الدين بن أيوب فتح أَنْطَاكِيَةَ سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

وذكر آبن سعيد عن بعض مؤرّخى الحجاز أنه عدّ من جملة ملوكها قاسم بن مهنا وأنه ولاه المستضىء فأقام خمسا وعشرين سنة ومات سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وولى آبنه سالم بن قاسم .

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" : وكان[2] مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى فتوحاته يتبرك به ويتيمن بصحبته ويرجع إلى قوله . وبقى[3] إلى أن حضر إلى مصر للشكوى من قتادة فمات فى الطريق قبل وصوله إلى المدينة . وولى بعده آبنه شيحة وقتل سنة سبع وأربعين وستمائة، وولى آبنه عيسى مكانه . ثم قبض عليه أخوه جَمَّاز سنة تسع وأربعين وستمائة وملك مكانه، وهو الذى ذكر المقر الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف": أن الإمرة فى بيته إلى زمانه .

قال آبن سعيد : وفى سنة إحدى وخمسين وستمائة، كان بالمدينة أبو الحسين بن شيحة بن سالم . وقال : غيره كان بالمدينة سنة ثلاث وخمسين وستمائة .

وولى أخوه جَمَّاز فطال عمره وعمى ومات سنة أربع أوخمس بعد السبعمائة .

وولى بعده آبنه منصور بن جَمَّاز، ثم وفد أخوه مقبل بن جماز على الظاهر بيبرس بمصر، فأشرك بينهما فى الإمرة والإقطاع، ثم غاب منصور عن المدينة وآستخلف آبنه

(١) أى المكنى بابى فليتة ، والزيادة عن آبن خلدون ليستقيم الكلام . (٢) أى قاسم المكنى أبا فايتة .
(٣) أى سالم بن قاسم .

كبيشة فهجم عليه مقبل وملكها من يده ولحق كُبَيْشَةُ بأحياء العرب فاستجاشهم وهجم المدينة على عمه مقبل فقتله سنة تسع وسبعمائة، ورجع منصور إلى إمارته، وبقى ماجدُ ابن مقبل يستجيشُ العرب على عمه منصور بالمدينة ويخالفه إلى المدينة كلما خرج منها، ثم زحف ماجدٌ سنة سبع عشرة وسبعمائة، وملكها من يد عمه منصور، فاستصرخ منصور بالملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، فأنجده بالعساكر وحاصروا ماجدا بالمدينة ففرّ عنها وملكها منصور، ثم سخط عليه السلطان الملك الناصر فعزله، وولّى أخاه ودِىّ بن جَمَّاز أياما ، ثم أعاد منصورا إلى ولايته ، ثم هلك منصور سنة خمس وعشرين وسبعمائة، فولّى ابنه كبيشة مكانه فقتله عسكر ابن عمه وَدِىّ وعاد ودىّ إلى الإمرة، ثم توفى ودىّ ، فولّى طُفَيل بن منصور بن جماز وانفرد بإمرتها ، وهو الذى ذكر المقر الشهابىّ فى "التعريف" : أنه كان أميرها فى زمانه، وبقى إلى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة فوقع النهب فى الركب ، فقبض عليه الأمير طاز أمير الركب، وولّى مكانه سيفا من عقب جَمَّاز، ثم وَلِىَ بعده فضل من عقب جماز أيضا ، ثم ولى بعد فضل مانع من عقب جماز، ثم ولى جماز بن منصور ، ثم قتل بيد الفداوية أيام الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، واتفق أمراء الركب على تولية ابنه هِبة إلى حين يرد عليهم من السلطان مايعتمدونه، ثم ورد أمر السلطان بتولية هِبَة من عقب ودىّ فعزل ودِى(١) وولى مكانه، ثم ولى بعده عطية بن منصور بن جماز، فأقام سنين، ثم عزل وولى هبة بن جماز، ثم عزل وأعيد عطية، ثم توفى عطية وهبة وولى جماز بن هبة بن جماز ؛ ثم عزل وولى نُعَيْر بن منصور بن جماز، ثم قتل، فوثب جماز بن هبة على إمارة المدينة واستولى عليها، فعزله السلطان، وولّى ثابت بن نُعَير، وهو بها إلى الآن فى سنة تسع وتسعين وسبعمائة . وهو ثابت،

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

ابن جماز، بن هبة، بن جماز، بن منصور، بن جماز، بن شيحة، بن سالم، بن قاسم، ابن جمــاز، بن قاسم، بن مهنا، بن الحسين، بن مهنا، بن داود، بن القاسم، ابن عبيد الله، بن طاهر، بن يحيىٰ، بن الحسن، بن جعفر حجة الله، بن عبد الله، ابن الحسين الأصغر، بن علىّ زين العابدين، بن الحسين السِّـبْط، بن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وإمرتها الآن متداولة بين بنى عطيــة وبين بنى جَمَّــاز، وهم جميعا علىٰ مذهب الإمامية الرافضة يقولون بإمامة الاثنى عشر إماما وغير ذلك من معتقدات الإمامية، وأمراء مكة الزيدية أخف فى هذا الباب شأنا منهم .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى ترتيب المـــدينة النبوية)

أما معاملاتها فعلىٰ ماتقدّم فى الديار المصرية من المعاملة بالدنانير والدراهم، والأمر فى الفلوس علىٰ ماتقدّم فى مكة؛ ويعتبر وزنها فى المبيعات بالمَنِّ وهو مائتان وستون درهما علىٰ ماتقدّم فى مكة؛ ويعتبر كيلها بالمدّ، وقياس قماشها بالذراع الشامىّ؛ وأسعارها نحو أسعار مكة، بل ربما كانت مكة أرخىٰ سعرا منها لقربها من ساحل البحر بجُدَّةَ .

وأما إمارتها فإمارة أعرابية كما فى مكة من غير فرق .

وأما وفود الحجيج عليها، فقد جرت العـادة أن كل من قصد السـبق فى العَوْد إلىٰ الديار المصرية من الجند وغيرهم يزور النبىّ صلى الله عليه وسلم! عند ذَهاب الركب إلىٰ مكة ثم يعود بعد الحج إلىٰ مصر من غير تعريج علىٰ المدينة ، وباقى الحجيج وأميرُ الركب لايأتونها للزيارة إلا بعد انقضاء الحج .

وآعلم أن كسوة الحُجْرة الشريفة ليست مما يجدّد فى كل سنة كما فى كسوة الكعبة، بل كلَّما بَلِيتْ كسوة جدّدت أخرىٰ، ويقع ذلك فى كل نحو سبع سنين أو ماقاربها، وذلك أنها مَصُونة عن الشمس، بخلاف كسوة الكعبة فإنها بارزة للشمس فيسرع بَلَاؤها .

وقد حكىٰ آبن النجار فى "تاريخ المدينة" أن أوّل من كسا الحُجْرة الشريفة الثيابَ الحسينُ بنُ أبى الهيجاء صهر الصالح طلائع بن رزيك وزير العاضد، والعاضدُ آخر الخلفاء الفاطميين، عمل لها ستارة من الدبيقىّ الأبيض عليها الطرز والجامات المرقومة بالإبريسم الأصفر والأحمر، مكتوب عليها سورة يٓس بأسرها، والخليفة العباسىّ يومئذ المستضىء بأمر الله .

ولما جهزها إلىٰ المدينة، آمتنع قاسم بن مهنا أمير المدينة يومئذ من تعليقها حتّى يأذن فيه المستضىءُ فنفَّذ الحسينُ بنُ أبى الهيجاء قاصدا إلىٰ بغداد فى آستئذانه فى ذلك فأذن فيه، فعلقت الستارة علىٰ الحُجْرة الشريفة نحو سنتين. ثم بعث المستضىء ستارةً من الإبريسَم البَنَفْسَجىّ عليها الطرز والجامات البيضُ المرقومة، وعلىٰ دَوْر جاماتها مرقومٌ "أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ" وعلىٰ طرازها آسم الإمام المستضىء بالله، فقلعت الأولىٰ ونفذت إلىٰ مشهد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه بالكُوفة، وعلقت ستارة المستضىء مكانَهَا . ثم عَمِل الناصرُ لدين الله فى خلافته ستارةً أخرىٰ من الإبريسم الأسود فعُلِّقت فوق تلك. ثم عملت أمّ الخليفة الناصر بعد حجها ستارةً علىٰ شكل ستارةِ آبنها المتقدّمة الذكر فعلقت فوق الستارتين السابق ذكرهما .

قال آبن النجار : ولم يزل الخلفاء فى كل سنة يُرْسِلون ثوبا من الحرير الأسود عليه عَلَم ذهب يكسىٰ به المِنْبر . قال : ولما كثرت الكسوة عندهم أخذوها فجعلوها ستورا

علىٰ أبواب الحَرَم ، ولم يزل الأمر علىٰ ذلك إلىٰ حين ٱنقراض الخلافة من بغداد، فتولى ملوكُ الديار المصرية ذلك كما تولَّوْا كسوةَ الكعبة علىٰ ما تقدّم ذكره .

قلت : والستارة الآن من حرير أسود عليها طرز مرقوم بحرير أبيض، وآخِرُ مَنْ عملها فى العشر الأوّل من الثمانمائة السلطانُ الملك الظاهر برقوق .

وقد ذكر ٱبن النجار فى "تاريخ المدينة" أيضا أن الناصر لدين الله العباسىّ كان يُرْسِل فى كل سنة أربعة آلاف دينار للصدقة وألفا وخمسمائة ذراع قطن لتكفين من يموت من الفقراء،خارجا عما يجهزه للعمارة، وما يُعِدّه من القناديل والشيرج والشَّمَع والندّ والغالية المركَّبة والعود : لأجل تبخير المسجد .

وذكر عن يوسف بن مسلم أن زيت قناديل مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يُحمل من الشام حتّى ٱنقطع فى ولاية جعفر بن سليمان الأخيرة علىٰ المدينة فجعله علىٰ سوق المدينة . ثم لما ولى داود بن عيسىٰ فى سنة ثمان وسبعين ومائة، أخرجه من بيت المال، ثم ذكر أنه كان فى زمانه فى خلافة الناصر لدين الله يصل الزيت من مصر من أوقافٍ بها سبعة وعشرين قنطارا ، كل قنطار مائة وثلاثون رِطْلا بالمصرىّ ، ومائة وستون شمعة ما بين كبيرة وصغيرة ، وعُلْبَةٌ فيها مائة مثقال ندّ .

الباب الرابع

من المقالة الثانية

(فى الممالك والبُلْدان المحيطة بمملكة الديار المصرية ؛ وفيه أربعة فصول)

الفصل الأوّل

(فى الممالك والبُلْدان الشرقية عنها ، وما ينخرط فى سلكها من شمال أو جنوب ؛ وفيه أربعة مقاصد)

المقصد الأوّل

(فى الممالك الصائرة إلىٰ بيت جنكزخان ؛ وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى التعريف باسم جنكزخان ومصير الملك إليه ، وما كان له من الأولاد ، وتقسيمه الملك فيهم)

أما ٱسمه فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : عن الشيخ شمس الدين الأصفهانىّ أن ٱسمه فى الأصل تمرجين ، وأنه لما عظم شأنه سمى جنكزخان . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن بعضهم : أن الصواب فى النطق به جنكصخان بالصاد بدل الزاى .

وأما نسبه فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أيضا أنه جنكزخان ، بن بيسوكى ، بن بهادر ، بن تومان ، بن برتيل‌خان ، بن تومنيه ، بن بادسنقر ، بن تيدوان‌ديوم ، بن بغا ، ٱبن بودنجه ، بن ألانقوا ، وألانقوا هذه ٱمرأة من قبيلة من التتر تسمّى قبات من أعظم قبائلهم شهرة ، كانت متزوجة بزوج أولدها ولدين ٱسم أحدهما بكتوت ، والآخر

بلكتوت ؛ ومن عقبهما الطائفة المعروفة فى قبائل التتر بالدلوكة إلىٰ الآن ؛ ثم مات زوج ألانقوا أبو هـذين الآثنين و بقيت ألانقوا أيِّمًا فحملت فأُنْكِر عليها الحمل ، وحُمِلَتْ إلىٰ ولىّ أمرهم حينئذ فسألها ممن حملت؟ فقالت : إنى كنت جالسة وفرجى مكشوف ، فنزل نور ودخل فى فرجى ثلاث مرات فحملت منه هـذا الحمل ، وأنا حامل بثلاثة ذكور ، كل مرة من دخول ذلك النور بذَكَر ، فأَمْهِلونى حتّى أضع . فإن وضعت ثلاثة ذكور فآعلموا صـدقى ، و إلا فدونكم وما تَرَوْنَ ؛ فأَمْهَلُوها حتّى ولدت فأتت بثلاثة ذكور ، فسمَّتْ أحدَهم يوقن قوتاغى(١) ، والثـانى بوسن ساغى ، والثالث بودنجر ، وهو جدّ جنكزخان . وأولاد هذه الثلاثة يعرفون بين التتر بالنورانيين نسبة إلىٰ النور الذى زعمت أنه دخل فرجها فحملت منه . قال فى "مسالك الأبصار" : "وهذه أكذو بة قبيحة ، وأحدوثة غير صحيحة ؛ و إن صحت عن المرأة فلعلها كانت قد سمعت بقصة مريم البتول عليها السلام ، فآحتالت لسلامة نفسها بالتشبه بشأنها" .

وأما مصير الملك إليه فقد آختلف فيه علىٰ مذهبين .

أحدهما — ماحكاه فى "مسالك الأبصار" عن الصاحب علاء الدين بن عطاء ملك الجوينى : أنه كان يملك الترك ملِك من عظماء الملوك يدعىٰ أزبك خان ، فتردّد إليـه جنكزخان فى حال صغره وخَدَمَه ، فتوسم فيه النجابة فقرّبه وأدناه وزاده فى الآرتقاء علىٰ أقاربه ، فحسدوه فوشَوْا به إلىٰ الملك حتّى غيروه عليـه فأضمر له المكايد ؛ وكان بالقرب من أزبك خان ملكهم صغيران يخدُمانه فآطلعا علىٰ ما أضمره الملك لجنكزخان وعَرَّفاه ما أضمره الملك له وحَذَّراه ؛ وكان جنكزخان قد لَفَّ لفيفا عظيما فجمع لفيفه من قبائل التتر وقصد ذلك الملك فى جيوشه ، وكان من أعظم القبائل المجيبة لدعوته قبيلتان : إحداهما تدعىٰ إديرات والأخرىٰ فيقورات مع قبيلته قبات المقدّم ذكرها ،

(١) وجد فى العبر (ج ٥ ص ٥٢٥) فرق فى الأسماء ولم نعلم الصواب لعجمتها فليتنبه .

فجرّد العساكر لأزبك‌خان وجرت الحرب بينهما فقتل أزبك‌خان وملك جنكزخان وقرب كلًّا من الصغيرين وجعل كلًّا منهما ترخانا، وكتب لهما بفراغهما من جميع المُؤَن والكُلَف إلىٰ سبعة أبطن من أولادهما .

والثانى ـ ماحكاه السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" : عن محمد بن أحمد بن علىٰ المنشئى : كاتب إنشاء السلطان جلال الدين محمد بن خوارزم شاه : أن مملكة الصِّينِ كانت منقسمةً من قديم الزمان إلىٰ ستة أجزاء كل جزء منها مسيرةُ شهر، يتولّىٰ أمر كل جزء منها خان نيابةً عن خانهم الأعظم بطمغاج (١) قاعدة الصين . إلىٰ أن كان خانُهم الأكبرُ فى زمان السلطان خوارزم شاه يسمّٰى الطرخان، وكان من جملة الخانات الستة الذين ينوبون عنه شخصٌ يسمّٰى دوشى‌خان ، وكان متزوّجا بعمة جنكزخان فمات دوشى‌خان زوج عمة جنكزخان ، فحضر جنكزخان إلىٰ عمته مُعَزِّياً ، وكان يجاور دوشى‌خان خانٌ من الخانات الستة يسمّٰى أحدهما كشلوخان والآخر قلان ، فأرسلت زوجة دوشى‌خان إليهما بنعى زوجها إليهما وتلاطفانهما فى آستقرار جنكزخان آبن أخيها مكانه فى الخانية علىٰ أن يكونا معاضدين له ، فأجاباها إلىٰ ذلك . فآستقرّ جنكزخان فى الخانية مكان دوشى خان زوج عمته ، فبلغ ذلك الخانَ الأعظم الطرخان فأنكر ذلك علىٰ كشلوخان وقلان المذكورين ، فاتصل ذلك بهما فآجتمعا هما وجنكزخان وخلعوا طاعة الطرخان ، ثم مات أحد الخانين وخلف آبنا آسمه كشلوخان فغلب جنكزخان علىٰ ملكه ، ثم مات الخان الآخر وآستقل جنكزخان بالملك، ثم غلب علىٰ خوارزم شاه، ثم علىٰ آبنه جلال الدين وآستقل بما وراء النهر .

---

(١) فى تاريخ أبى الفدا "بطوغاغ وهى واسطة الصين" .

وأما أولاد جنكزخان فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : عن الصاحب علاء الدين الجُوَيْنى المقدّم ذكره أنه كان له عدّة أولاد ذكور وإناث من الخواتين والسرارى ، وكان أعظم نسائه أو بولى، من تيكى، ومن رسم المغل تعظيم الولد بنسب والدته، وكان له من هذه أربعة أولاد معدّين للأولاد(١) الخطيرة، هم لتخت ملكه بمنزلة أربع قوائم؛ وهم توشى وجفطاى، وهو أصغرهم، وأوكداى، وأوتكين نويان، وأنه جعل موضعه نقطةَ دائرة ملكه وبنيه حوله كمحيط الدائرة، فجعل آبنه أوكداى ولىّ عهده ورَتَّبَهُ لما يتعلق بالعقل والرأى والتدبير والولاية والعزل وآختيار الرجال والأعمال وعرض الجيوش وتجهيزها ، وكان موضعه فى حياة أبيه حدود ايمك وقراباق . فلما جلس بعد أبيه على تخت الملك ، آنتقل إلى الموضع الأصلى بين الخطا وبلاد الايغور، وأعطى ذلك الموضع لولده كيوك. وجعل لآبنه أوتكين حدود بلاد الخطا؛ وعين لآبنه الكبير توشى حدود قيالق (؟) إلى أقصى سفسفين (؟) وبلغار، ورتبه على الصيد والقنص؛ وجعل لآبنه جفطاى حدود بلاد الأيغور إلى سَمَرْقَنْد وبُخَارَا، ورتبه لتنفيذ النائبات والأمور والمقابلات وما أشبه ذلك . قال آبن عطاء ملك : وكانت أولاده وأحفاده تزيد على عشرة آلاف .

وذُكِر عن الشيخ شمس الدين الأصفهانى أن جنكزخان أولد أربعة أولاد، وهم جوجى: وهو أكبرهم، وكداى، وطولى، وأوكداى، فقتل جوجى فى حياة أبيه وخلف أولادا. قال آبن الحكيم الطيارى: وهم باتو ويقال : باطو، وأورده، وبركه، وتولى، وجمتى. قال الشيخ شمس الدين المذكور: والمشهور باتو وبركه، وأوصى بأن يكون تختُه لولده الصغير أوكداى وأن تكون مملكة ما وراء النهر وما معه لولده الآخر كداى ؛ وجعل لآبنه جوجى دشت القبجاق وما معه وأضاف إليه إيران وتبريز وهَمَذان

(١) لعله معدّون للأحوال .

ومراغة، ولم يحصل لطولى شيء . فلما مات جنكزخان آستقل أوكداى بتخت أبيه، وآستقل جوجى بدشت القبجاق وما معه ، وآستقل باتو بن جوجى فيما جعله جدّه جنكزخان لأبيه جوجى من إيران وتبريز وما مع ذلك ، ولم يتمكن كداى من مملكة ماوراء النهر، ثم مات أوكداى مالك التخت وملك بعده ولده كيوك، وكان جبارا قوىّ النفس فحكم علىٰ بنى أبيه فقهرهم وآنتزع ما بيد باتو بن جوجى من إيران وسائر ما معها، وأقام بها أميرا آسمه الجكراى . ثم جرىٰ بينهم آختلاف كان آخر الأمر فيه أن أُمْسك الجكراى وقتل وحمل إلىٰ باتو بن جوجى وطبخه وأكله، فبلغ ذلك كيوك صاحب التخت فشق عليه وجمع ستمائة ألف فارس، وجمع باتو للقائه وسار كل منهما لمحاربة الآخر حتّىٰ كان بينهما عشرة أيام مات كيوك فكتب خواتينه إلىٰ باتو يعلمونه بموته ويسألونه فى أن يكون عوضه علىٰ تخت جنكزخان، فلم يرض ذلك وميز له منكوتان بن تولى بن جوجى بن جنكزخان، وجهز معه إخوته قبلاى خان وهولاكو : ولدا تولى، ووجَّه معهم باتو أخاه بركة بن جوجى فى مائة ألف فارس للجلسة علىٰ التخت ثم يعود ، فتوجه بركة بمنكوتان فأجلسه علىٰ التخت ، ثم عاد فمرّ فى طريقه ببخارا ، فآجتمع فيها بالشيخ شمس الدين الباخرزىّ من أصحاب شيخ الطريقة نجم الدين كبرى وحادثه فحسُن موقع كلامه منه فأسلم علىٰ يده ، وهو أوّل من أسلم من بيت جنكزخان؛ وأشار الباخرزى علىٰ بركة بموالاة المستعصم خليفة بنى العباس ببغداد يومئذ، فكاتبه وهاداه وتردّدت الرسل والمكاتبات بينهما. ثم إن منكوتان بعد آستقلاله بتخت جدّه جنكزخان ملَّك أولاد جغطاى مملكة ماوراء النهر تنفيذا لما كان جنكزخان أوصىٰ به لأبيهم جغطاى كما تقدّم ومات دونه، وعلت كلمة منكوتان صاحب التخت ووصلت إليه كتب أهل قَزْوين و بلاد الجبال يشكون من سوء مجاورة الملاحدة : وهم الإسماعيلية فجهز إليهم منكوتان أخاه مكوقان(١) لقتال

(١) لعله هولاكو كما يؤخذ من بقية الكلام .

الملاحدة وأخذ قلاعهم ، وأن يضم إلىٰ ذلك بلاد الخليفة المستعصم فبلغ ذلك بركة ٱبن جوجى فشق عليـه لصداقته مع الخليفة ، وكلم أخاه باتو فى ذلك فكتب باتو إلىٰ هُولاكُو يمنعـه من التعرّض لممالك الخليفة ، فوافاه الكتاب قبـل أن يعبُر نهر جيحون ، فأقام هناك سنتين حتّى مات باتو وتسلطن أخوه بركة بعده فكتب هولاكو إلىٰ أخيـه منكوتان يستأذنه فى إنفاذ ما كان عزم عليـه من أخذ ممـالك الخليفة وحَسَّنَ له ذلك فلم يأذن له فيه فأصرّ هولاكو علىٰ عزمه فأوقع بالمَلَاحدة وقتل جماعة ٱتهمهم بممالأة بركة ، وٱشتدّ فى البلاد وقصـد دشت القبجاق بلاد بركة فدهمه بركة بعساكره فكانت الدائرة علىٰ هولاكو فكر راجعا ودخل بلاد الخليفـة وقبض عليـه وقتله وملك بلاده . وكان أمر الله قدرا مقدورا !

الجمـــلة الثانية

(فى عقيدة جنكزخان وأتباعه فى الديانة إلىٰ أن أسلم مَن أسلم منهم وما جرت عليه عادتهم فى الآداب وحالهم فى طاعة ملوكهم)

أما عقيدتهم فقد قال الصاحب علاء الدين بن عطاء ملك الجُوَيْنى : إن الظاهر من عموم مذاهبهـم الإدانة بوحدانية الله تعالىٰ ، وأنه خلق السموات والأرض ، وأنه يُحْيِي ويُمِيت ، ويغنى ويفقر ، ويعطِى ويمنع ، وأنه علىٰ كل شىء قدير ، وأن منهم من دان باليهودية ، ومنهم من دان بالنصرانية ، ومنهم من ٱطَّرح الجميع ، ومنهم من تقرّب بالأصنام . قال : ومن عادة بنى جنكزخان أن كل من ٱنتحل منهم مذهبا لم ينكره الآخَرُ عليه ، ثم الذى كان عليه جنكزخان فى التديّن وجرىٰ عليه أعقابه بعده الجرىُ علىٰ منهاج ياسة التى قررها ، وهى قوانين خمنها من عقله وقرّرها من ذهنه ، رتب فيها أحكاما وحدّد فيها حدودا ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية ، وأكثرها مخالف

لذلك سماها الياسة الكبرىٰ، وقد آكتتبها وأمر أن تجعل فى خزانته تُتَوارث عنه فى أعقابه وأن يتعلمها صغارُ أهل بيته .

منها أن من زنىٰ قتل ، ومن أعان أحد خصمين علىٰ الآخر قتل ، ومن بال فى الماء قتل، ومن أُعْطِى بضاعة فخسر ثم أعطى ثانيا فخسر ثم أعطى ثالثا فخسر قتل، ومن وقع حملُه أوقوسه فمرّ عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قُتِل، ومن وجد أسيرا أوهاربا أوعبدا ولم يردّه قُتِل، ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير إذنهم قتل، إلىٰ غير ذلك من الأمور التى رتبها مماهم دائنون به إلىٰ الآن، وربما دان به من تحلّٰى بحلية الإسلام من ملوكهم . ومن معتقدهم فى ذبح الحيوان أن تُكَتَّف قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم يده إلىٰ قلبه فيمرسه بيده حتّٰى يموت أو يخرج قلبه . ومن ذبح ذِبحة المسلمين ذبح .

وأما عاداتهم فى الأدب فكان من طريق جنكزخان أن يعظم رؤساء كلّ ملة ويتخذ تعظيمهم وسيلة إلىٰ الله تعالىٰ؛ ومن حال التتر فى الجملة إسقاط المؤن والكُلَف عن العَلَويين وعن الفقهاء والفقراء والزهاد والمؤذنين والأطباء وأرباب العلوم علىٰ آختلافهم ومن جرىٰ هذا المجرىٰ .

ومن آدابهم المستعملة أن لا يأكل أحد من يد أحد طعاما حتّٰى يأكل المُطْعِمُ منه ولو كان المُطْعِمُ أميرا والآكل أسيرا، ولا يختص أحد بالأكل وحده بل يطعم كل من وقع بصره عليه، ولا يمتاز أمير بالشِّبَع من الزاد دون أصحابه بل يقسمونه بالسوية، ولا يخطو أحدٌ مَوْقِدَ نار ولا طبقا (1) رآه، ومن آجتاز بقوم يأكلون فله أن يجلس إليهم ويأكل معهم من غير إذن، وأن لا يُدْخِل أحدٌ يده فى الماء بل يأخذ منه ملء فيه

(1) فى الخطط للقريزى (ص ٢٢٠ ج ٢) ما نصه "ولا يتخطى أحد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذى يؤكل عليه" .

ويغسل يديه ووجهه، ولايبول أحدٌ علىٰ الرَّمَادِ (١) . ويقـال إنهم كانوا لايرون غسل ثيابهم البتة، ولا يميزون بين طاهر ونجس .

ومن طرائقهم أنهم لايتعصبون لمذهب ، وأن لايتعرّضوا لمـالِ ميت أصـلا، ولو ترك مِلْءَ الأرض، ولا يدخلونه خِزَانة السلطان .

ومن عاداتهم أنهم لايُفَخِّمون الألفاظ، ولا يعظِّمون فى الألقاب حتّٰى يقال فى مراسيم السلطان "القان بكذا" من غير مزيد ألقاب .

وأما حالهم فى طاعة ملكهم فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم، لالمـال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم حتّٰى إنه إذا كان أمير فى غاية من القوّة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى أذنب ذنبا يوجب عقوبة وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه مَنْ يأخذه بمـا يجب عليه ألقىٰ نفسه بين يدى الرسول ذليلا ليأخذه بموجب ذنبه، ولو كان فيه القتل .

ومن طريق أمرائهم أنه لا يتردّد أمير إلىٰ باب أمير آخر، ولا يتغير عن موضعه المعين له . فإن فعل ذلك عوقب أو قتل، وإذا عرضوا آلات الحرب علىٰ أمرائهم وَفَّوْا فى العرض حتّٰى بالخيط والإبرة، ورعاياهم قائمون بمـا يُلْزَمون به من جهة السلطان طَيِّبَةً به نفوسهم، وإن غاب أحد من الرجال قام النساء بمـا عليهم .

---

(١) عبارة الخطط "وألزمهم أن لايدخل أحدمنهم يده فى المـاء ولكنه يتناول المـاء بشىء يغترفه به".

المهيع الثاني [1]

(في ذكر ممالك بني جنكزخان علىٰ التفصيل، وهي مملكتان)

المملكة الأولىٰ

(مملكة أيران)

بفتح الهمزة [2] وسكون الياء المثناة تحت والراء المهملة وألف ثم نون . وهي مملكة الفرس، وتعرف بأيران بن أشور بن سام بن نوح عليه السلام، وهو أوّل من ملكها وأضيفت إليــه وعرفت به . قال في "التعريف" : وهي مملكة الأكاسرة . ثم قال : وهي من الفرات إلىٰ نهر جيحون حيث بَلْخ، ومن البحر الفارسيّ وما صاقَبه من البحر الهنديّ إلىٰ البحر المسمّىٰ بالقُلْزُم بحر طَبَرِسْتَان، وهي المملكة الصائرة إلىٰ بيت هُولاكُو . قال : وقد دخل فيها مملكة الهَيَاطلة، وهي مملكة مازَنْدَران وما يليها إلىٰ آخر كِيلان، وطَبَرِسْــتَانُ واقعة بين مازَنْدَران وكِيلان، ومازَنْدَرَان الآخذة شرقا، وكِيلان الآخذة غربا .

وقال في "مسالك الأبصار" : هــذه المملكة طولا من نهر جَيْحُون المحيط بآخر خُرَاسَانَ إلىٰ الفُرَاتِ القاطع بينها وبين الشام، وعرضهــا من كَرْمَانَ المتصل بالبحر الفارسيّ المنقسم من البحر الهنديّ، إلىٰ نهاية ما كان بيدبقَايَاَ الملوك السَّلْجُوقية بالروم علىٰ نهاية حدود العَلَايا وأنطاليا من البحر الروميّ . قال : ويَفْصِلُ في الجانب الشَّماليّ بين هذه المملكة وبين بلاد القَبْجَاقِ النهرُ المجاور لبــاب الحديد المسمّىٰ باللغة التركية دقرقبو، وبحر طَبَرِسْــتَانَ المسمّىٰ بحر الخَزَر . ثم قال : وأخبرني الفاضل نظام الدين أبوالفضل يحيىٰ بن الحكيم الطياريّ أنــ هذه المملكة تكاد تكون مُرَبَّعة، فيكون

(١) لعله المقصد الثاني فإن التقسيم كان بالمقاصد .

(٢) ضبطه ياقوت بالكسر .

طولهـا بالسير المعتاد أربعة أشهر ، وعرضها أربعة أشهر . وهى من أجلّ ممـالك الأرض ،وأوسطها فى الطول والعرض ،متوسطة فى الطول والعرض .و إذا أُنْصِفت كانت هى قلب الدنيـا علىٰ الحقيقة ، ذاتُ أقاليم كثيرة ومدن كبيرة ، مشتملة علىٰ رساتيقَ وأعمال وخِطَط وجهات، وهى ممتدّة من بلاد الشأم وماعلىٰ سمتها إلىٰ بلاد السِّنْدِ والهِنْدِ وما والاهما .

ولهـا جانبان : جنوبىّ وشمـالىّ .

الجانب الأوّل
(الجنوبىّ)

ويشـــتمل علىٰ ســـتة أقاليم :

الإقليم الأوّل
(الجـزيرة الفراتيـــة)

وهى أقرب أقطار هذه المملكة لمملكة الديار المصرية والشامية لمجاورتها بلاد الشام .

قال فى "تقويم البُلْدان" : ويحيط بهـا الفُرَات من حدود بلاد الروم، وهو طَرَف الحدّ الغربىّ الجنوبىّ للجزيرة . فيمتدّ الحدّ الجنوبىّ الغربىّ مع الفرات إلىٰ مَلَطْيَةَ ، إلىٰ شِمشَاط ، إلىٰ قلعة الروم ، إلىٰ البِيرَةِ ، إلىٰ قُبَالة مَنْبِج ، إلىٰ السِّنّ ، إلىٰ الرَّقَّة ، إلىٰ قَرْقِيسْيَا ، إلىٰ الرَّحْبة ، إلىٰ هِيتَ ، إلىٰ الأنبار . ثم يخرج الفرات عن تحديد الجزيرة و يعطف الحدّ من الأنبار إلىٰ تَكْرِيت ، وهى علىٰ نهر دِجْلَةَ ، إلىٰ بَالِس ، إلىٰ الحَدِيثَةِ علىٰ دجلة إلىٰ المَوْصِلِ . ثم يعطف من الموصل إلىٰ جزيرة ٱبن عُمَر ، إلىٰ آمِد . ثم يصير الحدّ غربيا ممتدّا بعد أن يتجاوز آمدَ علىٰ حدود إرْمِينِيَة ، إلىٰ حدود بلاد الروم ، إلىٰ الفُرَاتِ عند مَلَطْيَةَ من حيث وقع الآبتداء . قال : فعلىٰ هـذا يكون بعض إرْمِينِيَة و بعض الروم غربىّ الجزيرة ، و بعض الشام و بعض البادية جنوبِيَّها ، والعراق شرقيَّها ، و بعض

إرْمِينِيَةَ شماليها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وتشتمل الجزيرة علىٰ ديار ربيعة وديار مُضَر (يعنى بالضاد المعجمة) وبعض ديار بكر ، وهم القبائل الذين كانوا ينزلونها فى القديم علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ أحوال العرب فى المقالة الأولىٰ .

قال فى "مسالك الأبصار" : وقد كانت هذه الجزيرة مجموعها مملكة جليلة باقية بذاتها فى الدولة الأتابكية يعنى دولة الأتابك زنكى صاحب المَوْصِلِ والد نُور الدين الشهيد صاحب دِمَشْقَ ، وقاعدتها (المَوْصِلُ) . قال فى "اللباب" : بفتح الميم وسكون الواو وكسر الصاد المهملة ولام فى الآخر ـ وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيث الطول سبعٌ وثلاثون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى علىٰ دِجْلَةَ من الجانب الغربىّ ، ويقابلها من الجانب الشرقىّ مدينة نِيْنَوىٰ التى بُعث يونس عليه السلام إلىٰ أهلها . وهى الآنَ خراب . وفى جنوبىّ الموصل مَصَبُّ الزَّابِ الأصغر فى دِجْلَةَ ، وهى فى مستوٍ من الأرض ، ولها سوران قد خرب بعضهما ، وسورها أكبر من سور دِمَشْقَ . قال المؤيد صاحب حماة : والعامر منها فى زماننا نحو ثلثيها ، ولها قلعة قد صارت فى جملة الخراب . قال قاضى القضاة ولىّ الدين بن خلدون : وهى قاعدة ملك قديم يُعْرف قديما بمملكة الجَرامقة ، وكانت قد صارت إلىٰ عماد الدين زنكى : والد نور الدين الشهيد ، ثم ٱتفق بها الحال إلىٰ أن دخلت فى مملكة التتر من بنى هُولاكُو . قال ٱبن خرداذبه فى كتابه فى المسالك والممالك : ومن أقام بها سنة ثم ... ...(١) عقله وجده قد نقص ، وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وذكرها فى "التثقيف" وذكر أنه كان بها الأمير أردبغا قبل أن يحصل عليها من بيرم خواجا ثم أبو القان أويس .

(١) بياض فى الأصل . وٱنظر معجم البلدان فانه يؤخذ منه أن من أقام بها سنة تبين فى بدنه فضل قوة .

ثم بها عدّة مُدُن وقلاع مشهورة .

(منها) مَارِدِين . قال في "اللباب": بفتح الميم وسكون الألف وكسر الراء والدال المهملتين ثم ياء مثناة من تحتها ونون — وهي قلعة بديار ربيعة من هذه الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : حيث الطول أربع وستون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البُلْدان" : وهي على جبل عال ، من الأرض إلى ذِرْوَتِه نحو فرسخين . قال ابن حوقل : وهي قلعة منيعة لايستطاع فتحها عنوة ، وبجبلها جواهر الزجاج ، وبه حَيَّات تفوق غيرها بسرعة القتل .

واعلم أن ماردين هذه بيد ملوكها من بني أُرْتُق ، لها بيدهم الأمَدُ الطويل ، لم تَزُل أيديهم عنها مذ ملكوها . قال القاضي ولىّ الدين بن خلدون في "تاريخه" : وأوّل من ملكها منهم ياقوتى بن أُرْتُق بعد السبع والأربعمائة ؛ تملكها من يد مَغَنّي كان ملكشاه ابن ألب أرسلان السلجوقى أقطعها له ، ثم ملكها بعد ياقوتى المذكور أخوه علىّ ، ثم عمه سُقْمان ، ثم أخوه إيلغازى ، ثم ابنه حُسَام الدين تمرتاش ، ثم ابنه قطب الدين ألبي ، ثم ابنه نظام الدين إيلغازى ، ثم ابنه حسام الدين بولق أرسلان ، ثم أخوه ناصر الدين أُرْتُق أرسلان بن إيلغازى ، ثم ابنه نجم الدين غازى ، ثم أخوه قرا أرسلان ، ثم ابنه شمس الدين داود ، ثم أخوه نجم الدين غازى ، وتلقب بالمنصور . وهو أوّل من تلقب بألقاب السلطنة منهم ، ثم ابنه شمس الدين صالح وتلقب بالصالح ، ثم ابنه أحمد وتلقب بالمنصور ، ثم ابنه محمود وتلقب بالصالح ، ثم ابنه فخر الدين داود ، وتلقب بالمظفر ، ثم ابنه نور الدين عيسى ، وتلقب بالظاهر ، وهو القائم بملكها إلى الآن ، وهو الظاهر عيسى ، بن المظفَّر داود ، بن الصالح [محمود ، بن المنصور أحمد ، بن الصالح](1) صالح ، بن المنصور غازى ، بن المظفر قرا أرسلان ، بن المنصور أرتق أرسلان [ابن بولق أرسلان](1) بن إيلغازى ، بن ألبي ، بن تمرتاش ، بن إيلغازى ، بن أرتق .

(1) الزيادة عن تاريخ ابن خلدون (ص ٢٢٠ ج ٥) .

ولما ملك هولاكو بغداد وأعمالها كان القائم بملك ماردين يومئذ المُظَفَّر قرا أرسلان فأعطاه الطاعة وخطب له فى جميع أعماله ، وتبعه علىٰ ذلك مَنْ بعده من ملوكها إلىٰ حين موت القان أبى سعيد من بقايا الملوك الهولاكوية ، فقطع الخطبة لصاحب بغداد وما معها وخطب لنفسه ، والأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن ، وملوكها مُوَادّون لملوك الديار المصرية والمكاتبات بينهم متواصلة .

(ومنها) حِصْنُ كَيْفا . قال فى "تقويم البُلْدان" : بحاء وصاد مهملتين ثم نون ثم كاف وياء مثناة من تحت وفاء وألف — وهى مدينة من الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" : حيث الطولُ أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعَرْض سبع وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى من ديار بكر . قال فى "المشترك" : وهى علىٰ دجلة بين جزيرة ابن عمر وبين مَيَّا فَارِقِينَ . قال فى "اللباب" : والنسبة إليها حَصْكَفِيٌّ — بفتح الحاء وسكون الصاد وفتح الكاف وفاء ثم ياء النسب . قال فى "التعريف" : وملكها من بقايا الملوك الأيوبية وممن يَنْظُر إليه ملوك مصر بعين الإجلال ، لمكان ولائهم القديم لهم ، واستمرار الوداد الآن . قال فى "التثقيف" : وأخبرنى المقرّ السيفى منجك كافل الممالك الشريفة أن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان يعظم سَلَفَه فإنه كان أستاذ قلاوون والده . قال فى "التعريف" : وكان آخر وقت منهم الملك الصالح قصد الأبواب السلطانية . فلما أتىٰ دِمَشْقَ عقبته الأخبارُ بأن أخاه قد ساوَرَ سريرَه ، وقصد بسلطته سلطانه . فكر راجعا ولم يُعَقِّبْ ، فما لبثت الأخبار أن جاءت بأنه حين صعد قلعته ، وكَرّ نحوَ سريره رَجْعَتَه ، وثب عليه أخوه المتوثب فقتله وسفكَ دَمَه ، ثم أظهر عليه ندمه . وكتب إلىٰ السلطان فأجيب بأجوبة دالة علىٰ عدم القبول لأعذاره والسرائر مُكَدَّرَه ، والخواطر بعضها من بعض منَفَّره . وذكر فى "التثقيف" أن الذى اتَّضح له

آخرا فى رمضان سـنة ست وسبعين وسبعمائة أن صاحبها الملكُ الصالح سيف الدين أبو بكر، آبن الملك العادل شهاب الدين غازى، آبن الملك العادل مجد الدين محمد، آبن الملك الكامل سيف الدين أبى بكر، آبن الملك الموحد تقىّ الدين عبد الله، آبن الملك المعظم سيف الدين توران شاه، آبن الملك الصالح نجم الدين أيوب، آبن الملك الكامل ناصر الدين محمد، بن العادل أبى بكر بن أيوب . ثم قال : وما يبعد أن الصالح المذكور هو آبن عم العادل مجد الدين محمد، وأن العادل غازى لاحقيقة له . ثم قال : وهو غلط لأن المستقرّ إلى آخر سـنة ثنتين وستين وسـبعمائة وما بعدها بمدّة هو العـادل مجد الدين، وكتبتُ إليه فى هذه المدّة بهذا الآسم واللقب، ولم يبلغنا أنه آستقرّ بعده سوى ولده، ثم نقل أنه الصالح ونقل الناقل أنه آبن العادل وهو صحيح لكنه قال : إن آسمه شهاب الدين غازى بن العادل مجد الدين وفيه بُعْدٌ: كون الولد يلقب بلقب والده الملوكى . آنتهى كلامه .

قلت : والذى أخبرنى به بعض قُصَّاد صاحبها فى سـنة تسع وتسعين وسـبعمائة أن الملك القائمَ بها يومئذ آسمه سليمان بن داود، وذكر لى لقبه الملوكىّ فنسيته، وذكر أنه يقول الشعر، وأحضر معه بيتا مفردا من نظمه وهو :

وجَارِيَةٍ تُعِـيرُ البَدْرَ نُوراً * وَلَوْلَا نُورُهَا عَادَ الظَّلَامُ !

فنظمت له أبياتا و بعثت بها إليه صحبة قاصده أوّلها :

سُـلَيْمَانُ الزَّمَانِ بِحِصْنِ كَيْفا * لَهُ فى المُلْكِ آثَارٌ كِـرَامُ
زَكا أَصْلًا فَطَابَ الفَرْعُ مِنْهُ * وطَابَ الغُصْنُ إذ طَابَ الكِمَامُ
بَنُو أيُّوبَ أَبْقَوْا منــه ذُخْرًا * ونِعْمَ الذُّخْرُ والقَيْــلُ الهُمَامُ

وأثبت البيت الذى قاله فى آخر هذه .

(ومنها) حَرّانُ . قال فى "المشترك" : بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين وفى آخرها نون بعد الألف ـ وهى مدينة من ديار مُضَرَ من الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال فى " تقويم البُلْدان " : والقياس أنها حيث الطول ثلاث وستون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وكانت حَرّانُ مدينةً عظيمة أما اليوم فخراب . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة الصابئين ، وبها سَدَنتهم السبعة عشر ، وبها تَلٌّ عليه مصلًّى للصابئين يعظّمونه وينسبونه إلىٰ إبراهيم عليه السلام ، وهى قليلة الماء والشجر . قال فى "العزيزى" : والجبل منها فى سَمْت الجنوب والشرق علىٰ فرسخين ، وتربتها حمراء ، وشرب أهلها من قناة تجرى من العيون خارجَ المدينة ومن الآبار ، وحاكمها يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية علىٰ ما سيأتى فى المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ .

(ومنها) شِمْشَاط . قال فى " اللباب " : بكسر الشين المعجمة وسكون الميم وفتح الشين الثانية ثم ألف فطاء مهملة ـ وهى بلدة من ديار مُضَرَ ، وقيل من ديار بكر من بلاد الجزيرة من الإقليم الرابع . قال فى " رسم المعمور " حيث الطول ٱثنتان وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى بلدة الثُّغور الجزيرية بين آمد وبين خَرْتَ بِرْتَ . وقال ٱبن حوقل : هى بَحْر[1] الجزيرة ، وبها حاكمٌ يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) حِيزَانُ . قال فى " اللباب " : بكسر الحاء المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الزاى المعجمة وألف ونون ـ وهى مدينة من ديار بكر من الجزيرة من الإقليم الرابع . قال فى " تقويم البُلْدان " : والقياس أن طولها خمس وستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى كثيرة

(١) فى التقويم . هى ثغر .

الأشجار خصوصا شجر البُنْدُقِ . قال : وهى بين جبال، ولها مياه سارحة، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وذكر فى "التثقيف" أنه كان آسمه فى زمانه عز الدين، ثم آستقر بعده آبنه أسد الدين .

(ومنها) رَأْسُ عَيْن . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الراء المهملة ثم سين وعين مفتوحة مهملتان ومثناة تحت ونون فى الآخر - وتسمّى عين وَرْدة أيضا ، وهى مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة فى مستوٍ من الأرض . قال آبن حوقل : يخرج منها فوق ثلثمائة عين كلُّها صافية ، ويصير من هذه الأعين نهرُ الخابُور ، ووَهِم السمعانىّ فجعلها منبع دجلة . قال فى "العزيزىّ" : وهى أوّل مُدُن ديار ربيعة من جهة ديار مُضَر ، وذكر السمعانىّ أنها من ديار بكر، وأنكره آبن الأثير وقال : ليست من ديار بكر [بل هى] من الجزيرة . قال فى "اللباب" : وهى علىٰ يومين من حَرَّان والنسبة إليها رَسْعَنِىٌّ ، وإليها ينسب الرَّسْعَنِىُّ المُفَسِّر .

(ومنها) مَيَّافَارِقِينَ . قال فى "اللبـاب" : بفتح الميم وتشديد المثناة من تحتها وسكون الألفين بينهما فاء مفتوحة وبعدهما راء مهملة ثم قاف وياء آخر الحروف ونون . وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "رسم المعمور" : حيث الطول خمس وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال آبن سعيد : وهى قاعدة ديار بكر . وقال آبن حوقل : هى بين الجزيرة وبين إرْمِينِيَـةَ . قال فى "اللبـاب" : وعليها سورُ حَجَرٍ دائرٌ ، وهى دون حماةَ فى القدر ، وهى فى ذيل جبل ، فى شمـالّيها وهى فى ذيله . قال فى "اللباب" : والمياه والبساتين محدقة بها ، ولها نهر صغير علىٰ شوط فرس منها ، من عين تسمّى عين حَنْبُوص بين الغرب والشمال ، تخترق دُورَها

وتسق بساتينها ، وبينها وبين المَوْصِلِ علىٰ حِصْن كَيْفا نحو ستة أيام وعلىٰ ماردِينَ نحو ثمانية أيام، والنسبة إليها فَارِقِيٌّ . قال فى "اللباب" : أسقطوا بعضها لكثرة حروفها، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قَرْقِيسْيَا . قال فى "تقويم البُلْدان" : المشهور بفتح القاف الأولىٰ وكسر الثانية وبينهما راء مهملة ساكنة ثم ياء آخر الحروف ساكنة ثم سين مهملة ثم ياء ثانية وألف ــ وهى مدينة من ديار مُضَرَمن الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول أربع وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة . قال فى "اللباب" : وهى علىٰ الفُرَات والخابور،علىٰ القرب من الرَّقَّة . قال فى "العزيزى" : وهى شرقىّ الفرات والخابورُ الخارجُ من رأس عين فيصب فى الفرات علىٰ القرب منها . قال : وهى مدينة الزَّبَّاء صاحبة جَذِيمَةَ الأبرش ،يعنى التى قتلته. قال فى "اللباب" : وبها مات جَرِيرُبن عبد الله البَجَلِىّ الصحابىّ رضى الله عنه . قال : والنسبة إليها قَرْقِيسْيَانِىّ وقد تحذف النون وتجعل الياء عوضها .

(ومنها) مَا كِسِينُ . قال فى "اللباب" : بفتح الميم وسكون الألف وكسر الكاف والسين المهملة وسكون المثناة من تحت ونون فى الآخر ــ وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "اللباب" : وهى علىٰ الخابور . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين قَرْقِيسْيَا سبعةُ فراسخ ، وبينها وبين سِنْجار آثنان وعشرون فرسخا .

(ومنها) نَصِيبِينُ . قال فى "اللباب" : بفتح النون وكسر الصاد المهملة وسكون المثناة من تحتها ثم باء موحدة وياء ثانية ونون ــ وهى مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة من الإقليم الرابع . قال آبن سعيد : وهى قاعدة ديار ربيعة . قال :

وهى مخصوصة بالوَرْد الأبيض لايوجَد فيها وردةٌ حمراء ، وفى شمـاليها جبل عظيم يقال إنه الجُودِىّ الذى ٱستقرّت عليه سفينةُ نوح عليه السلام، منه ينزل نَهْرُها حتّى يمرّ علىٰ سُورها وعليه بساتينها، ونهرها يسمّى الهِرْماس، وبها عقاربُ قتّالة .

(ومنها) جزيرة ٱبن عُمَر ــ وضبطها معروف ــ وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطولُ ست وستون درجة وعشر دقائق ، والعرضُ سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقـة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة صـغيرة علىٰ دجلة من غربيها ذاتُ بساتين كثيرة . وقال فى "المشترك" : هى فى شمالىّ الموصل ودجلة محيطة بها مثل الهلال ، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) سِنْجَارُ . قال فى "اللبـاب" : بكسر السين المهـملة وسكون النون وفتح الجيم وألف وراء مهملة ــ وهى مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيث الطول ست وستون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ٱبن سـعيد : وهى فى جَنُوبىّ نَصِيبِينَ ــ وهى من أحسن المُدُن وجَبَلُهـا من أخصب الجبـال . قال ٱبن حوقل : وهى فى وسط بَرِّيَّة ديار ربيعـةَ بالقرب من الجبـل والجبلُ فى عاليها، وليس بالجزيرة بلد فيـه نخيل سواها . وهى فى جهة الغرب عن المَوْصِـلِ علىٰ ثلاث مراحل عنها ؛ وهى علىٰ قدر المَعَرَّة من البلاد الشامية ؛ ولهـا قلعة وبساتين كثيرة، وشربها من القُنِىّ ؛ وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) تَلُّ أَعْفَر ــ وضبط التل معروف، وأَعْفَرُ بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وفتح الفاء وراء مهـملة فى الآخر ــ وهى من الجزيرة من الإقليم الرابع من

الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وستون درجة، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "المشترك": وتَلُّ أَعْفَرَ قلعةٌ بين سِنْجَار وبين المَوْصِل . وذكر فى "تقويم البُلْدان" عن بعض أهلها أنها غربىّ المَوْصِل فيما بينها وبين سِنْجار، وربما تكون إلى سِنْجَارَ أقربَ . وذكر فى "العزيزى" أن بينها وبين سِنْجَارَ خمسةَ فراسخ ، ولها أشجار كثيرة ؛ وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) الحَدِيثَةُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الحاء وكسر الدال المهملتين ثم مثناة من تحت وثاء مثلثة وهاء فى الآخر وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وستون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى فى وَسَط الفُرَاتِ والماء محيطٌ بها ، وتعرف بحديثة النُّورة . وهى غير حديثة المَوْصِل : بليدة صغيرة إلا أن لها ذكرا فى القديم . قال فى "المشترك" : وهى على فراسخَ من الأنبار ، وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) عَانَة . قال فى "اللباب" : بفتح العين المهملة وألف ونون وهاء فى الآخر — وهى بلدة من بلاد الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعَرْض أربع وثلاثون درجة . وهى بلدة صغيرة على جزيرة فى وَسَط الفرات . قال فى "اللباب" : وهى تقارب الحَدِيثَةَ . وقال ابن حوقل : يطوف بها خليج من الفرات . قال ابن سعيد : وخَمْرها مذكور فى الأشعار، واستشهد بقول بعض الشعراء :

* وَمِنْ عَانَةٍ أَمْ مِنْ مَرَاشِفِكِ الْخَمْرُ؟ *

وكثيرا ما تُقْرن فى الذكر مع الحديثـة لقربها فيقـال عانةُ والحَدِيثة ، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) آمِدُ . قال فى " اللبـاب " : بمدّ الألف وكسر المـيم وفى آخرها دال مهملة . وهى مدينة من ديار بكر، من الجزيرة، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطولُ سبع وسـتون درجة وعشرون دقيقة ، والعرضُ سبع وثلاثون درجة . قال فى " تقويم البُلْدان " : وهى مدينة أزَلِيَّة علىٰ الدجلة . قال آبن حوقل : وعليها سُورٌ فى غاية الحَصَانة . قال فى " العزيزىّ " : وسُورها من الحجـارة السُّود التى لا يَعْمل فيها الحديد، ولا تضرُّبها النار، وهو مشتمل عليها وعلىٰ عيون ماء، ولها بساتين ومزارع كثيرة . قال آبن حوقل : وهى كثيرة الخِصْبِ .

(ومنها) سِعِرْتُ . قال فى " تقويم البُلْدان " نقلا عن صالح : بكسر السين والعين وسكون الراء المهـملات وفى آخرهـا مثناة من فوقُ ، وقيـل إسْعِرْد بكسر الهمزة وسكون السين وكسر العين وسكون الراء المهملات ودال مهملة فى الآخر ـ وهى مدينة من ديار ربيعة، من الجزيرة، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مبنية علىٰ جبل تحيط بها الوَطَاة، علىٰ القرب من شَطِّ دجلة من جهة الشَّمال والشرق ، وهى فى المقـدار أكبر من المَعَرّة ، وبها الأشجار الكثيرة من التين والرمّان والكروم، جميع ذلك عِذْىٌ لا يُسقىٰ، وشرب أهلها من بئار قريبةٍ من وجه الأرض ؛ وهى عن مَيَّافَارِقِيـنَ علىٰ مسـيرة يوم ونصف فى جهة الجنوب ، وعن آمِدَ علىٰ مسيرة أربعة أيام فى جهة الشَّمال منها، وعن المَوْصِل علىٰ خمسة أيام فى جهة الشرق والشمال عنها .

(ومنها) تِكْرِيتُ . قال فى " اللبـاب" : بكسر[1] المثناة من فوق وسكون الكاف وكسر الراء المهـملة ثم ياء مثناة من تحت فى آخرها تاء مثناة من فوقُ ـ وهى مدينة

(١) ضبطها المجد بالفتح وكذا ياقوت وقال : وكسرها العـامة .

من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطول تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وآثنتا عشرة دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى آخر مُدُن الجزيرة مما يلى العراق علىٰ غربىّ دِجْلَةَ فى بّر المَوْصِلِ . قال فى "اللباب" : وسميت تِكْرِيتُ بِتكْرِيتَ بنت وائل أخت بكر بن وائل .

أما قلعتها فبناها سابور بن أردشير بن بَابَك ،وهى الآن خراب . قال آبن سعيد : وفى جنوبيها وشرقيها النهر الإسحاقىّ ، حفره إسحاق بن إبراهيم صاحب شُرْطَةِ المتوكل ، وهو أوّل حدود سَوَاد العراق ، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) بَرْقَعِيدُ ــ بفتح الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح القاف وكسر العين المهملة وسكون المثناة من تحتها ودال مهملة فى الآخر . قال فى "العزيزىّ" : وهى [مدينة] لها سور وأسواق كثيرة .

(ومنها) العِمَادِيَّة ــ بكسر العين المهملة وفتح الميم وبعدها ألف ثم دال مهملة مكسورة وياء مثناة تحت مشدّدة مفتوحة وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قلعة عامرة علىٰ ثلاث مراحل من المَوْصِلِ فى الشرق والشمال ، وهى علىٰ جبل من الصخر ، وتحتها مياه جارية وبساتينُ ، وهى فى جهة الشَّمال عن إرْبِل ، بناها عماد الدين زنكى صاحب المَوْصِلِ فنسبت إليه ، وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قلعة كُشَاف . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الكاف وبالشين المعجمة ثم ألف وفاء فى الآخر ــ وهى قلعة عامرة بين الزَّابِ والشَّطِّ ، قريبة من مصبه فى الشط [وهى فى الشرق] والجنوب عن الموصل . قلت : وقد ذكرها فى "تقويم البلدان" أوّلا

فى جملة بلاد الجزيرة ووصفها بهذا الوصف ولم يضبطها ، ثم ذكرها فى بلاد الجبل المعروفة بِعراق العجم بهذا الوصـف أيضا وضَبَطها علىٰ ما تقدّم ، والظاهر أنها من بلاد الجزيرة، وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قلعة فَنَك . قال فى "تقويم البُلْدان" : نقلا عن أبى المجد فى "كتاب التمييز" : بفتح الفاء والنون ــ وهى قلعة حصينة فُوَيق جزيرة آبن عمر .

(ومنها) الشُّوشُ . قال فى "المشـترك" : بضم الشـين المعجمة وسكون الواو ثم شين ثانية . قال : وهى قلعة مشهورة من أعمـال المَوْصِلِ فى الجبال شرقىّ دجلة ، وإليها ينسب حب الرمّان الشُّوشِىّ .

(ومنها) عَقْرُ الحُمَيْدية . قال فى "المشـترك" : بفتح العين المهملة وسكون القاف ثم راء مهملة ــ وهى قلعـة حصينة مشهورة ، والحُمَيْديّة قبيـلة من الأكراد بتلك البلاد .

(ومنها) الهَتَّاخُ . قال فى "مُزِيل الآرتياب" : بفتح الهـاء وتشديد التاء المثناة من فوقهـا وفتحها وبعـد الألف خاء معجمة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قلعة حصينة .

(ومنها) حَانِى . قال فى "اللباب" : علىٰ وزن داعى، يعنى بفتح الحاء المهملة وبعـدها ألف ثم نون مكسورة وياء مثناة تحت فى الآخر. قال : هذا ما تُعْرَف به الآن، ولكن السـمعانىّ قد قال فيها حَنَا، بفتح الحاء المهملة والنون؛ وهى مدينة من ديار بكر من الجزيرة [من الإقليم الرابع] من الأقاليم السبعة، وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية معدود فى الأكراد .

وآعلم أن هـذه الجزيرة مجاورة لمملكة الديار المصرية من حيث آتصالهـا بالبلاد الشاميـة من الجهة الشرقية، وقد تقـدّم أن بعض بلادها داخلة فى أعمـال حَلَبَ

من ممالك الديار المصرية كالرُّهَا وقلعة جَعْبَر وما والاهما، والمسافة ما بين حلب والرُّهَا معلومة ؛ ومن الرُّهَا إلىٰ حَرّان يوم واحد؛ ومن حرّان إلىٰ رأس عين ثلاثة أيام ، ومن رأس عين إلىٰ نَصيبين ثلاث مراحل؛ ومن نَصيبِينَ إلىٰ المَوْصِلِ أربع مراحل . وقد تقدّم أن المَوْصِلَ هى قاعدة الجزيرة فى القديم، ومن الموصل إلىٰ تِكْرِيتَ سبعة أيام، وقد تقدّم أن تكريت هى آخر مُدُن الجزيرة مما يلى العراق ، ومن الموصل أيضا إلىٰ آمِدَ أربعة أيام؛ ومن آمِدَ إلىٰ شِمْشَاط ثلاثة أيام .

الإقليم الثانى
(العِرَاقُ)

قال فى "اللباب" : بكسر العين وفتح الراء المهملتين ثم ألف وقاف . قال الجوهرىّ : وهو يذكَّر ويؤنَّث . قال أبو المجد إسماعيل الموصلىّ فى كتابه المسمّى "بالتمييز والفصل" : وإنما سمى عراقا لأنه سَفَل عن نَجْدٍ ودَنَا من البحر، أخْذا من عِراق القرْبة، وهو الخَرْزُ الذى فى أسفلها؛ ويعرف بعراق العرب لأن العرب كانت تنزله لقربه من بلادهم . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويحيط به من جهة الغرب الجزيرة والبادية؛ ومن الجنوب البادية وبحر فارس وحدود خُوزِستان؛ ومن الشرق حدود بلاد الجبال إلىٰ حُلْوان؛ ومن الشَّمال من حلوان إلىٰ الجزيرة من حيث وقع الابتداء .

قال : والعراق علىٰ ضَفَّتى دجلة مثل مابلاد مصر علىٰ ضَفَّتى النيل، ويجرى دجلة من الشمال بميلة إلىٰ الغرب، إلىٰ الجنوب بميلة إلىٰ الشرق، وآمتداد العراق طولا وشمالا وجنوبا من الحَدِيثَةِ علىٰ دجلة إلىٰ عَبَّادَانَ علىٰ مصبّ دجلة فى بحر فارس، وآمتداده غربا وشرقا من القادِسِيَّة إلىٰ حُلْوان . فالحَديثة فى وسط الحدّ الشمالىّ

بميـلة إلىٰ الغَرْب ، والقادسِـيَّة فى وسط الحدّ الغربىّ بمَيْلة إلىٰ الجنوب ، وعَبَّادَانُ فى وسط الحدّ الجنوبىّ بميـلة إلىٰ الشرق ، وحُلْوانُ فى وسط الحدّ الشرقىّ بميلة إلىٰ الشَّمال ، ووســط العراق الذى من القادسية إلىٰ حلوان هو أعرض ما فى العراق .

وأمّا رأس العراق الذى عنـد عَبَّادَانَ ، فيَدِق عن ذلك . ثم قال : والذى يســتدير علىٰ العراق — يعنى والعراق علىٰ شمـاله — إذا ٱبتدأ من تَكْريت من بلاد الجزيرة المتقدّمة ، يمر منها إلىٰ حدود شَهْرزُورَ ، وهى بين الشرق والشمال عن العراق ، ثم إلىٰ السِّــيْرَوَان ، وهى فى الشرق ، إلىٰ حدود جُبًّا ، وهى فى الشرق والجنوب ، ثم إلىٰ البحر يعنى بحر فارس ، وهو فى الجنوب عن العراق . وفى هـذا الحدّ من تكريت إلىٰ البحر تقويسٌ ، ثم من البحر إلىٰ البَصْرَة ، وهى فى الجنوب عن العراق ، ثم من البصرة إلىٰ البـادية علىٰ سَوَاد البصرة ، ثم إلىٰ بَطَائح البصرة ، ثم إلىٰ واسط ، ثم إلىٰ سَوَاد الكُوفة وبطائحها ، ثم علىٰ ظهر الفرات إلىٰ الأنبار ، ثم من الأنبار إلىٰ تِكْرِيتَ حيث وقع الٱبتداء .

ثم للمدن (١) قواعد ومدن .

القـاعدة الأولىٰ

(بابِـــل)

بفتح الباء الموحدة ثم ألف وباء موحدة ثانيــة مكسورة ولام فى الآخر — وهى مدينة واقعــة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبعون درجة ، والعرض ٱثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى أقدم أبنية العِراق ، وإليها ينسب إقليم بابل لقِدَمها ، وكانت ملوك الكَنْعَانِيِّينَ

(١) لعل الصواب "ثم للعراق قواعد ومدن" .

وغيرهم يقيمون بها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها آثار أبنية أحْسَبها أن تكون فى قديم الأيام مصرا عظيما، ويقال إنها من بناء الضحّاك : أحد ملوك الفرس الذى ملك الأقاليم السبعة . قال : وفيها أُلْقِى إبراهيم الخليل عليه السلام فى النار، وقد أخبر الله تعالىٰ فى كتابه العزيز أن بها هَارُوتَ ومَارُوتَ المَلَكَيْن اللذين يعلمان الناسَ السِّحر، ويقال إنهما بها فى بِئْرٍ وإن البئر ظاهرة بها إلىٰ الآن . قال صاحب حماة : وهى اليوم مدينة خراب، وقد صار فى موضعها قرية صغيرة .

القاعدة الثانية

(المَدَائن)

جمع مدينة وضبطُها معروف . قال فى "تقويم البُلْدان" : وآسمها بالفارسية طَيْسَفُونُ ـ بفتح الطاء المهملة وسكون المثناة التحتية وفتح السين المهملة وضم الفاء وبعدها واو ونون ـ ثم قال : وكل ذلك سماعا وقد تبدل الفاء باء . وهى واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبعون درجة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى علىٰ دجلة من شرقيها تحت بغداد علىٰ مرحلة منها . قال فى "العزيزى" : والمدائن فى جنوبىّ بغداد، وكان بالمدينة الكبرىٰ منها إيوانُ كِسْرىٰ فى شرقىّ دجلة آرتفاعه ثمانون ذراعا . ونقل فى "تقويم البُلْدان" عن بعض الثقات فى سَعَته من ركنه إلىٰ ركنه خمسة وتسعون ذراعا . وكانت هى قاعدة ملوك الفرس، فلما وُلِد النبىّ صلى الله عليه وسلم، آنشق هذا الإيوان ثم خرب هو وسائر المدائن فى الإسلام .

القـاعدة الثـالثة
(بَغْــدَاذ)

قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وفتح الدال المهملة وفى آخرها ذال معجمة . وموقعها فى آخر الإقليم الثـالث . قال فى " القانون" : حيث الطول سبعون درجة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال فى " تقويم البُلْدان" : وسميت بغداذ بهـذا الآسم لأن كسرىٰ أُهْدِى إليـه خَصِى من المشرق فأقطعه بغداذ ، وكان له صنم يعبده بالمشرق يقال له البَغْ فقال ذلك الخصى بغ داذ يعنى أعطانى الصنمُ ، وكان عبد الله بن المبـارك يكره أن يقال لهـا بغداذ بالذال المعجمة فى آخرها ، فإن بغ شيطان وداذ عطية فمعناه عطية الشيطان وهو شرك . قال : وإنما يقال بغداد بالدالين المهملتين . وقد قال بعضهم : إن بغ بالفارسية البُستان وداذ بإهمال الأولىٰ و إعجام الثانية آسم رجل ومعناه بستان داذ، و يقال فيها أيضا بَغْدان بإبدال الدال الأخيرة نونا، ومَغْدان بابدال الباء الأولىٰ ميا . وكان المنصور يسميها مدينة السلام لأن دجلة كان يقال لها وادى السَّلام . و بغداذ علىٰ جانبى دجلة من الشرق والغرب، والجانب الغربىّ منها يسمّى الكَرْخَ، و به كان سكنىٰ أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العبـاس، والجانب الشرقىّ منها بناه المهدىّ بن المنصور المقدّم ذكره وسكنه بعسكره فسمى عَسْكر المهدى ، ثم بنىٰ فيه الرشيدُ بن المهدى قصرا سماه الرُّصَافَةَ فأطلق علىٰ الجانب كله الرُّصَافَةَ ، ويسمّى جانب الطاق أيضا نسـبة إلىٰ رأس الطاق ، وهو موضـع السوق الأعظم منهـا . وبهـذا الجانب مَحَلَّةٌ تسمّى (الحَرِيَم) يعنى حريم دار الخلافة . قال فى "المشترك" : بفتح الحـاء وكسر الراء المهملتين ثم مثناة من تحتها ساكنة وفى آخره ميم . قال : وهى قريب من ثلث الجانب الشرقىّ ،وعليه سور آبتداؤه من دجلة وآنتهاؤه إليها أيضا

كهيئة الهلال أو كنصف دائرة، وله أبواب أولها باب الغَرَبة، وهو علىٰ دجلة، ثم يليه باب سوق التمر، وهو باب شاهق ولكنه أُغْلِق فى خلافة الناصر لدين الله، ثم آستمر غَلْقه، ثم باب البَدْرِيَّة، ثم باب النُّوبى . وفيه العَتَبة التى كانت تقبلها الملوك والرُّسُل، ثم باب العامّة، ويقال له أيضا باب عَمُّورِيَّة . ثم يمتد السور نحو ميل لا باب فيه إلا باب بستان تحت المنظرة التى تنحر تحتها الضحايا، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة نحو رميتَىْ سهم .

وبهذا الحريم محالّ وأسواق ودُور كثيرة للرعيَّة وهو كأكبر مدينة تكون. قال : وبين دُور الرعيَّة التى داخلَ هذا السُّور وبين دجلة سورٌ آخر، وداخل السور الثانى دُورُ الخلافة لا يدخلها شىء من دور العامّة . قال فى "مسالك الأبصار" : وبين الجانبين جَسْران منصوبان علىٰ دجلة شرقا بغرب علىٰ سُفُن وزوارقَ أوقفت فى الماء ومدّت بينها السلاسل الحديد المكعبة بالمكعبات الثقال، وفوقها الخشب الممدود، وعليها التراب يمُرّ عليها أهل كل جانب إلىٰ الآخر بالحمر والجمال والحمول؛ وعلىٰ ضَفَّتَىْ دجلة قُصُور الخلافة والمدارسُ والأبنيةُ العلية بالشبابيك والطاقات المطلة علىٰ دجلة، وبناؤها بالآجُرّ .

ومن بيوتها ما هو مفروش بالآجُرّ أيضا ملصق بالقِير وهو الزِّفْتُ، ولهم الصنائع العجيبة فى التزويق بالآجُرّ، وبها وجوه الخير من الجوامع والمساجد والمدارس والخَوَانق والرُّبُط والبيمارستانات والصدقاتِ الجارية ووجوه المَعُونة، وناهيك أنها كانت دار الخلافة ومقرّ ملوك الأرض . ومنها قلائد الأعناق، وترابها لمَىٰ القُبَل وإثمدُ الأحداق .

قال فى "مسالك الأبصار" : قال الحكيم نظام الدين بن الطيارى : وأوقافها جارية فى مجاريها، لم تعترضها أيدى العُدْوان فى دولة هُولاكُو ولا فيما بعدها، بل

كل وقف مستمرٌّ بيد متوليه، ومَن له الولاية عليه، وإنما نقصت الأوقاف من سوء وُلاة أمورها لا من سواها . وبها البساتين المونَّقه، والحدائق المحدّقه؛ وبها ثَمَر النخل المفضلة علىٰ ما سواها من الرطب والتَّمر، وبها أنواع الرّياحين والخَضْراوات والغِلال؛ وسعرها متوسط فى الغالب لا يكاد يَرْخُص . قال المقرّ الشهابىّ بن فضل الله : سألت الصدر مجدَ الدين بن الدورىّ عن السبب فى قلة الغِلال ببلاد العراق مع امتداد سَوَادها، فقال : قلة الزرع مع ما استهلكه القتـل زمن هولاكو وحيزه(١) للعراق وما جاوره من البلاد .

قلت : وبغداد وإن كانت أمّ الممالك ودار الخلافة، فقد أغفل ملوك التتر الالتفات إليها، وصرفوا عنايتهم إلىٰ تِبْرِيز والسُّلْطانية وصيروهمـا قاعدتين لهذه المملكة علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ إقليم أَذْرَبِيجَانَ فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ

القـاعدة الرابعـــة

(سُرَّ مَنْ رأىٰ)

من السرور والرؤية، ثم خففها الناس فقالوا سَامَرًّا . قال فى "اللباب" : بفتح السين المهـملة وسكون الألف وفتح الميم وفى آخرها راء مهـملة مشدّدة – وهى مدينة واقعة فى الإقليم الرابع . قال فى "القانون" حيث الطول ثمان وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرض أربع وثلاثون درجة . قال فى "العزيزىّ" : وهى علىٰ شاطئ الدجلة من الشرق . قال ابن سعيد : بناها المُعْتَصِمُ، وأضاف إليها الواثقُ المدينةَ الهارونِيَّة، والمتوكلُ المدينة الجعفريَّة فعظم قدرها . قال فى "اللباب" : ثم خربت عن قريب من عمارتها . قال فى "العزيزىّ" : ولم يبق فيها عامر سوىٰ مقدار يسير كالقَرْية .

(١) بمعنى حوزه وامتلاكه، لغة نقلها الفيومى فى مصباحه .

وأما المُدُن التى بالعراق :

(فمنها) هِيتُ . قال فى "المشترك" : بكسر الهاء وسكون المثناة تحتُ وتاء مثناة من فوق فى الآخر – وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وستون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "العزيزى" : وهى من حدود العِراق . قال ابن سعيد : وإليها ينتهى حدّ الجزيرة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى علىٰ شمالىّ الفرات ، ووَهِم فى "العزيزىّ" فجعلها غربىّ الفرات . قال فى "المشترك" : وهى من أعمال بغداذ . قال فى "اللباب" : وهى فوق الأنبار. قال صاحب "التهذيب" : وسُمِّيت هيت لكونها فى هُوَة من الأرض . قال فى "اللبـاب" : وبها قبر عبد الله بن المبارك رحمه الله ؛ وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) حِيرَةُ . قال فى "اللباب" : بكسر الحاء المهملة وسكون المثناة من تحت وراء مهملة وهاء فى الآخر – وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطول ثمان وستون درجة وخمس وعشرون دقيقة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . [والحِيرة مدينة جاهلية كثيرة الأنهار، وهى عن الكُوفة علىٰ نحو فرسخ . وقال فى "العزيزى" : مدينة قديمة علىٰ ثلاثة أميال من الكوفة ؛ وكانت منازلَ آل النُّعمان بن المنذر، وبها تنصر المنذر بن امرئ القيس وبنىٰ بها الكنائس العظيمة . والحِيرة علىٰ موضع يقال له النَّجَف ، زعم الأوائل أن بحر فارس كان يتصلُ به ؛ وبينهما اليوم مسافة بعيدة . قال فى "اللباب" : والحيرة مدينة قديمة عند الكوفة، وبها الخَوَرْنَق . قال فى "الترتيب" : إن تُبَّعا لما سار من اليمن إلىٰ خُرَاسان وانتهىٰ إلىٰ موضعها ليلا فتحير ونزل وأمر ببنائها فسميت الحيرة .

(ومنها) الأنبـار . قال فى "المشـترك" : بفتح الهـمزة وسكون النون ثم باء موحدة مفتوحة وراء مهملة بعد الألف — وهى من آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة . طولها تسع وسـتون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثمـان وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة . قال فى "المشـترك" : والأنبار عن بغداد] على عشر فراسخ منها . قال فى "المشـترك" : وهى من نواحى بغداذ على شاطئ الفُرات . قال آبن حوقل : وهى أوّل بلاد العـراق ، وبها كان مُقَام السَّفَّاح : أوّل خلفاء بنى العباس حتّى مات، ويقال إن أوّل ما نقلت الكتابة العربية إلى مكة من الأنبار على ما تقدّم فى المقالة الأولى فى الكلام على الخط .[1]

(ومنها) الكُوفَةُ . قال فى "اللباب" : بضم الكاف وسكون الواو ثم فاء وهاء — وهى مدينة إسـلامية بُنِيت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واقعةٌ فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة . قال فى "رسم المعمور" حيث الطول ثمان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهى على ذِرَاع[2] من الفرات خارج منه جهة الجنوب والمغرب . قال فى "الترتيب" : وسميت كُوفة لآستدارتها ، أخذا من قول العرب رأيت كُوفانا إذا رأوا رملة مستديرة ، وقيـل لآجتماع الناس ، أخذا من قولهم تَكَوّف الرملُ إذا ركب بعضـه بعضا . وهى واقعـة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "رسم المعمور" حيث الطول ثمان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "العزيزى" : وهى قدرُ نصـف بَغْدَاذ ، وعلى القرب منها مشهد أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه حيث دُفِن ، يقصده الناس من أقطار الأرض .

---

(١) وقع فى الأصل سقط من الناسخ فى آثناء الكلام على الحيرة والأنبـار . وقد آستوفيناه من كتاب تقويم البلدان ، وأثبتناه بين دائرتين مربعتين هكذا [ ] .

(٢) فى معجم البلدان "شعبة" وهى المراد بالذراع .

(ومنها) البَصْرَةُ . قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد وفتح الراء المهملتين ــ وهى مدينة إسلامية بنيت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا ، واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطول أربع وستون درجة(١)، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة، وسميت بالبَصْرَةِ أخذا من البَصْرَة، وهى الحجارة السود، وفى جنوبيّها وغربيّها البَرِّيَّةُ، وليس فى بَرِّيّتها ماء، يزرع علىٰ المطر. قال فى "المشترك" : وبالبصرة مَحَلَّةٌ يقال لها المِرْبَدُ ــ بكسر الميم وسكون الراء المهملة وفتح البـاء الموحدة ثم دال مهملة ــ وهى محلة عظيمة من جهة البريّة كانت العرب تجتمع فيها من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون .

(ومنها) وَاسِطُ . قال السمعانىّ فى "الأنساب" : بفتح الواو وسكون الألف وكسر السين المهملة وطاء فى الآخر ــ وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول إحدىٰ وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض آثنتان وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : سميت واسط لتوسطها بين مُدُن العراق إذ منها إلىٰ البَصْرَةِ خمسون فرسخا، ومنها إلىٰ الكُوفة خمسون فرسخا ، ومنها إلىٰ الأهواز خمسون فرسخا ، ومنها إلىٰ بغداذ خمسون فرسخا . وهى نصفان علىٰ جانبى دجلة بينهما جَسْرٌ من السُّفُن كما تقدّم فى بغداذ . قال فى "المشترك" : وهى من بناء الحَجَّاج آختطها بين الكوفة والبصرة فى سنة أربع وسبعين من الهجرة، وفرغ منها فى سنة ست وسبعين .

(ومنها) حُلْوانَ . قال فى "المشترك" : بضم الحاء المهملة وسكون اللام . قال فى "اللبـاب" ثم ألف وواو ونون ــ وهى مدينـة من أوّل الإقليم الرابع . قال فى "القانون" حيث الطول إحدىٰ وسبعون درجة ، والعرض أربع وثلاثون

(١) فى تقويم البلدان ومعجم البلدان : أربع وسبعون .

درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى آخر مُدُن العراق، ومنها يُصْعَد إلى الجبال، وقيل هى من الجبـال، وليس بالعراق مدينة بالقرب من الجبـل غيرها . قال ابن حوقل : وبها شجر النخل والتين الموصوف، وأكثر ثمارها التين، والثلج يسقط على جبلها دائمـا، وهو منها على مرحلة، وبينها وبين بغداذ خمس مراحل .

(ومنها) الحِلَّة . قال فى "المشترك" : بكسر الحاء المهملة وتشديد اللام ـ وهى واقعة فى الإقليم الثـالث . قال فى "تقويم البُلْدان" حيث الطول ثمـان وستون درجة، والعرض آثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ياقوت الحموىّ : وتعرف بحلَّة بنى مَزْيَد . وأوّل من آختط بها المنازل وعَمَرها سيفُ الدولة صدقةُ بن دُبَيْس بن علىّ بن مَزْيَد الأسدىّ فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وكان موضعها قبل ذلك يسمّى بالجامعين .

(ومنها) النَّهْرُوَانُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح النون وسكون الهـاء وضم الراء المهملة وفتح الواو وبعد الألف نون . وهى مدينة فى آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة على ضفَّتَىْ نهر . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال آبن حوقل : النَّهْروان آسم للمدينة والنهرِ الذى يشقها ،وهى مدينة صغيرة على أربعة فراسخ من بغداذ. قال فى "اللبـاب" : ولهـا عدّة [نوَاحٍ] خرب أكثرها . وقال السمعانىّ فى "الأنساب" : هى على أربعة فراسخ من دجلة، والنَّهْرُوان هـذه هى التى آنحاز إليها الخوارج عند فراقهم لعلىّ بعـد وقعة صِفِّينَ على ما تقدّم ذكره فى الكلام على النِّحَلِ والمِلَلِ فى المقالة الأولى .

(ومنها) الأُبُلة . قال فى "تقويم البُلْدان": بضم الهمزة والبـاء الموحدة وتشديد اللام وهاء فى الآخر ـ وهى مدينة فى فُوَّهتها نهر طوله اربعة فراسخ بينها وبين البصرة

علىٰ جانبيه قصور و بساتين ومُدُن علىٰ خط واحد كأنها بُستان واحد ، وهو أحد متنزّهات الدنيا .

(ومنها) القادِسيَّة — بفتح القاف ثم ألف ودال مهملة مكسورة و ياء مثناة من تحت ثم هاء . وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمانٌ وستون درجة وخمس وعشرون دقيقة ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وهى مدينة صغيرة ذات نخيل ومياه ، وهى علىٰ حَافَةِ البادية وحَافَةِ سَوَاد العراق ، البادية من جهة الغرب والسواد من جهة الشرق . قال فى "المشترك" : و بينها و بين الكُوفة خمسة عشر فرسخا فى طريق الحاج . قال فى "تقويم البُلْدان" : وسميت القادسية لنزول أهل قادس بها ، وقادِسُ قرية بمَرْو الرُّوذ ، وعليها كانت الوقعة المعروفة بوقعة القادِسيَّة .

(ومنها) عَبَّادَانُ — بفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة ثم دال مهملة بين ألفين وفى آخرها نون — وهى بلدة من آخر العراق من الإقليم الثالث . قال فى "الزيج" : حيث الطولُ خمس وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة . قال ابن سعيد : وعَبَّادَانُ علىٰ بحر فارس ، وهو محيط بها لا يبقىٰ منها فى البر إلا القليل ، وعندها مَصَبُّ دِجْلَةَ فى جنوبىّ عَبَّادَانَ وشرقيها ، وهى عن البصرة علىٰ مرحلة ونصف ، وفى جنوبيها وشرقيها علاماتٌ للمراكب ببحر فارس لا تتجاوزها المراكب ، وهى خُشُبٌ منصوبة حيث يكون البَحْر عند الجَزْر فى بعض البحر . قال فى "العزيزىّ" : فى طريق العراق من الغرب القادسيةُ وهِيتُ ، ومن الشرق حُلْوَانُ ، ومن الشَّمال سُرَّ مَنْ رَأىٰ ، ومن الجنوب الأُبُلَّة .

الإقليم الثـالث
(خُوزُسْتَانُ والأهْوَاز)

بضم الخاء وسكون الواو وضم الزاى المعجمة وسكون الســين المهملة وفتح التاء المثناة فوقُ وألف ثم نون . قال فى " المشترك " : ويقال لها أيضا الخُوزُ بضم الخاء المعجمة ثم واو وزاى معجمة . قال : وخُوزُســتانُ إقليم واسع بين البصرة وفارس يشــتمل علىٰ مُدُن كثيرة . قال فى " تقويم البُلْدان " : والذى يُحِيط به من الغرب رُسْــتاقُ واسطَ ودُور الراســبِىّ ، ومن جهة الجَنُوب من عَبَّادان علىٰ البحر إلىٰ مَهْرُوبانَ ، إلىٰ الدَّوْرَق ، إلىٰ حدود فارس ؛ ومن الجهة الشرقية التى إلىٰ جهة الجنوب حدودُ فارس ؛ ومن الجهة الشرقيــة التى إلىٰ جهة الشَّمال حدود أصــفَهان و بلاد الجبل ؛ ومن جهة الشَّمال حدودُ الصَّيْمَر ، والكرجة ، وجبال اللُّور ، و بلاد الجَبَل إلىٰ أصفَهان . قال : وخُوزُســتان فى مستوٍ من الأرض ليس بها جبال ، وهى كثيرة المياه الجارية ، وتجتمع مياهه وتعْرُض وتتصل ببحر فارس عند حصن مَهْدِىٍّ .

وقاعدتها علىٰ ماذكره صاحب حماةَ فى " تاريخه " (تُسْتَرُ) . قال فى " اللباب " : بضم المثناة من فوق وسكون السين المهملة وفتح التاء الثانية وفى آخرها راء مهملة ، والعامة تسميها شُسْتر بإبدال التاء الأولىٰ شينا — وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى " القانون " حيث الطولُ خمس وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعَرْض إحدىٰ وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وجعلها فى " تقويم البُلْدان " من الأهواز ، ولها نهر معروف بها ، بنىٰ فيه سابور: أحد ملوك الفرس بناء عظيما حتّٰى ٱرتفع المـاء إلىٰ المدينة ، علىٰ مرتفع من الأرض ؛ ويقال إنه ليس علىٰ وجه الأرض مدينة أقدمُ منها . قال فى " اللباب " : وبها قبر البَرَاءِ بن مالك الصحابىّ رضى الله عنه .

وقد ذكر فى " تقويم البُلْدان " : بخوزستان عدّة مُدُن .

(منها) السُّوسُ . قال فى "المشترك" : بضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية . قال أبو الرَّيحان : وهى بالفارسية معجمة . وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ ثلاث وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرض آثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى بلدة قديمة، قال : وبها قبر دانيَالَ النبيّ عليه السلام . قال فى "تقويم البُلْدان" : ولها بساتين وفيها تُرُنْجٌ كالأصابع .

(ومنها) الطِّيبُ . قال فى "المشترك" : بكسر الطاء المهملة وسكون المثناة من تحتها وفى آخرها باء موحدة، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى بلدة بين واسِطَ وبين الأَهْواز . ثم قال : وفيها عجائبُ ولم يذكر ما هى ؛ وإلى الطِّيبِ هذه ينسبُ الطِّيبيُّ صاحبُ الحواشى على "كَشَّاف الزمخشرىّ" .

(ومنها) جُبِّىٌّ(١) . قال فى "المشترك" : بضم الجيم وتشديد الباء الموحدة وياء آخر الحروف فى الآخر — وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم العُرْفية . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى كثيرة النخل . قال : وإليها ينسب أبو علىّ الجُبَّائى(٢) المعتزلىّ .

(ومنها) مَهْرُوبَانُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون الهاء وضم الراء المهملة وسكون الواو ثم باء موحدة وألف ونون . وعدّها آبن حوقل وآبن

(١) فى معجم البلدان "بالضم ثم التشديد والقصر" .

(٢) أى على غير قياس والقياس جُبّوىّ .

سعيد من فارس؛ وهى مدينة من فَارِسَ صـغيرة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة . قال فى " القانون " حيث الطول ست وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة . وهى فرضة أرْجَانَ وما والاها . قال فى " العزيزى " : وهى علىٰ البحر .

(ومنهـا) أرْجانُ . قال فى " اللباب " : بفتح الألف وسكون الراء المهملة وفتح الجيم وفى آخرها نون بعد الألف . وقال آبن الجواليقىّ فى المُعَرَّبِ من العجمية للعربيـة : إنها بتشديد الراء . وقال آبن حوقل : هى من آخر فارس من جهة خُوزُستان . وقال فى "العزيزى" : هى أوّل مُدُن فارس ـ وهى مدينة كبيرة كثيرة الخير، وبها النخل والزيتون بكثرة، بَرِّيَّةٌ بحرية، سُهْلِيَّة جَبلِيَّة، علىٰ مرحلة من البحر. قال فى " العزيزىّ " : وهى مدينة جليلة لهـا كورة وأعمال نفيسة؛ وإليها ينسب القاضى الأَرَّجَانِىّ الأديب الشاعر .

***

وأما الأهواز . فقال فى " اللباب " : هى بفتح الألف وسكون الهاء وفى آخرها زاى معجمة . وهى كورة من كُوَر خُوزُستان المقـدّم ذكرها كما ذكره فى " تقويم البُلْدان" وإن كان قد ذكر فى أوّل الكلام علىٰ إقليم فارس أن خُوزُستان هى الأهواز إلا أنها غلب ذكرها فصارت كالإقليم المنفرد بذاته .

ولها عدّة مُدُن تعرف بها .

(منها) سُوق الأهواز ـ وهى مدينتها، فقد قال فى "المشترك" : وسوق الأهواز هى مدينة الأهواز، وذكر مثله فى "العزيزى" . قال فى " المشترك " : وقد خَرِب أكثرها . قال فى " العزيزى " : ومنها إلىٰ أصفَهَان ثمـانون فرسخا .

(ومنها) قُرْقُوبُ . قال فى " اللباب " : بضم القافين و بينهما راء مهملة ثم واو وفى الآخر باء ـ وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث ، قال فى " القانون " حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعَرْض ثلاث وثلاثون درجة . وهى مدينة مشهورة . قال فى " اللبـاب " قريبة من الطِّيبِ قال فى " العزيزىّ " و بينهما سبعة فراسخ ومنها إلىٰ مدينة السُّوس عشرة فراسخ .

(ومنهـا) جُنْدَىْ سَابُورَ . قال فى "اللبـاب" : بضم الجيم وسكون النون وفتح الدال المهملة بعـدها مثناة من تحتها وفتح السـين المهملة وألف و باء موحدة وواو وراء مهملة . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس دقائق ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى " تقويم البُلْدان " : وهى مدينة خِصْـبَةٌ كثيرة الخير . قال ابن حوقل : وبها نخيل وزروع كثيرة ومياه . قال فى " العزيزىّ " : منها إلىٰ تُسْتَر ثمـانية فراسخ، ومنها إلى السُّوس ستة فراسخ .

(ومنهـا) عَسْكَرُ مُكْرَمٍ . قال فى "اللباب" : بفتح العين وسكون السين المهملتين وفتح الكاف وفى آخرها راء مهـملة . قال فى " تقويم البلدان " : عن الثقات أن مكرم بضم الميم وسكون الكاف وفتح الراء المهملة ثم ميم ـ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة . قال فى " القـانون " حيث الطول ست وسبعون درجة وثمـان دقائق ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقـة . قال فى " العزيزى " : وهى مدينة مُحْدَثة، وكانت قرية ينزلهـا مكرم بن الفُزر أحد بنى جَعْونَةَ بعسكر كان قد أنفذه به الحجاج لمحاربة خُرْداذ بن بارس، فأقام بها مدّة وابتنىٰ بها البنايات فسـميت عَسْكَرَ مُكْرَمٍ . قال : وليس بالأهواز مدينة محدَثة سواها ، وبها عقارب صغار مشهورة بالقتل .

(ومنهـا) رَامَهُرْمُز . قال فى "اللباب" : بفتح الراء المهملة والميم وضم الهـاء وسكون الراء المهملة وضم الميم الثانية وفى آخرها زاى معجمة — وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وسـبعون درجة والعرض ثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى كُورة من كُوَر الأهواز . قال ويقال إن سَلْمان الفارسىّ رضى الله عنه منهـا . قال المهلَّبىّ : وبينها وبين سُوق الأهواز تسعة عشر فرسخا .

(ومنهـا) الدَّوْرَقُ . قال فى "المشترك" : بفتح الدال المهملة وسكون الواو وفتح الراء المهملة وفى آخرها قاف — وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطولُ خمس وسـبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة، والعرض آثنتان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة. قال آبن حوقل : وهى مدينة كبيرة . قال فى "العزيزىّ" : ومنها إلى أَرَّجَانَ ثمـانيةَ عشرَ فرسخا .

(ومنهـا) حِصْنُ مَهْدِىٍّ . وضبطه معروف ، وموقعه فى الإقليم الثـالث . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقـة، والعرض ثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة. وهو حِصْن تجتمع فيه مياه خُوزُستان ثم تصير نهرا وتصب فى بحر فارس، وبينه وبين البصرة خمسةَ عشرَ فرسخا .

(ومنها) جُرْخَانُ. قال فى"اللباب" : بضم الجيم وسكون الراء المهملة وخاء معجمة ثم ألف ونون . قال : وهى بلدة بقرب السُّوس .

(ومنها) جِبَال اللُّوْر . قال فى "اللبـاب" : بضم اللام وسكون الواو وفى آخرها راء مهملة . قال : وبها جبال يقال لهـا لُورُستان من بلاد خُوزُستان . وقال آبن حوقل : غالبُ بلاد اللُّور جبال وكانت قديمـا من خُوزُسـتان . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلاد خِصْبَةٌ والغالب عليها الجبال ، وهى متصلة بخوزستان ولكن

أُفْردت عنها . قال فى "الأطوال" : وهى بين تُسْتَر وأَصْبَهَان، وآمتدادها طولا نحو ستة أيام، وفيها خَلْق عظيم من الأكراد . قال : وهى حيث الطول أربع وسبعون درجة، والعرض آثنتان وثلاثون درجة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم طائفة كثيرة العدد ومنهم فِرَق مفرَّقة فى البلاد، وفيهم مُلْك وإمارة، ولهم خِفَّة فى الحركات يقف الرجل منهم إلىٰ جانب البناء المرتفع ويُلْصِق بطنه باحدىٰ زواياه القائمة ثم يصعد فيه إلىٰ أن يرتقى صَهْوته العُلْيا .

ومما يحكىٰ أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حضره رجل منهم وصَعِد فى جدار كذلك، فأنعم عليه الإنعامَ الجزيلَ وأمره أن يُحْضِر كل من قدر عليه من أصحابه فأحضر منهم جماعة، وهو يُحْسِن إليهم إلىٰ أن لم يبقَ منهم أحدٌ فقتلهم عن آخرهم خشيةً مما لهم من قوّة التسوّر؛ ومن هؤلاء طوائف بمصر والشأم يُعْرَفون بالنَّوَرة، يجالس أحدهم الرجل فيَسْرِق ماله وهو لا يدرى، ويمشون علىٰ الحبال المرتفعة ولنسائهم فى ركوب الخيل الفُرُوسيةُ العظيمة .

الإقليم الرابع

(فارس)

بفاء مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة مكسورة وسين مهملة فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان": ويحيط ببلاد فارس من جهة الغرب حدودُ خُوزُسْتَانَ، وتمام الحدّ الغربى إلىٰ جهة الشَّمال حدودُ أصْفَهَان والجبال؛ ويحيط بها من جهة الجنوب بحر فارس، ومن جهة الشرق حدود كَرْمَانَ، ومن جهة الشَّمال المَفَازة التى بين فارس وخُرَاسان، وتمام الحدّ الشَّمالىّ حدود أصْفَهَان وبلاد الجبال؛ قال فى "العزيزىّ": وعلىٰ نهاية فارس الشرقية ناحية يَزْد، وعلىٰ نهايتها من الجنوب سِيرَافُ والبحر، وحدُّها

من الشمال الرَّىّ . قال آبن حوقل : وقاعدتُها فيما ذكره صاحب حماة فى تاريخه :

(شيراز) . قال فى "اللباب" : بكسر الشين المعجمة وسكون المثناة من تحت وفتح الراء المهملة وفى آخرها زاى معجمــة بعــد الألف ـ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وسبعون درجة، والعَرْض ثمان وعشرون درجة وست وثلاثون دقيقة . قال آبن حوقل : وهى مدينةٌ إسلامية مُحْدَثة، بناها محمد بن القاسم بن أبى عقيل (١) الثَّقَفىّ، وهو آبن عم الحجاج بن يوسف . قال : وسميت بشِيراز تشبيها بجوف الأسد لأن عامَّة المِيرة بتلك النواحى تُحْمَل إلىٰ شِيراز ولا يحمل منهـا شىء إلىٰ غيرها . قال المهلَّبى : وهى مدينة واســعة سرية كثيرة المياه، وشربهم من عيون تخترق البلد وتجرى فى دُورهم، وليس تكاد تخلو دار بها من بُستان حسن ومياه تجرى، وأسواقها عامرة جليلة؛ وإليها ينسب الشيخ أبو إسحاق الشــيرازىّ صاحب "التنبيه" رحمه الله؛ وبهـا قبر سيبويه النحوىّ، وبينها وبين أصبهان آثنان وسبعون فرسخا؛ وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنهـا) جُورُ . قال فى "اللباب" : بضم الجيم ثم واو وراء مهملة ـ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال آبن سعيد حيث الطول ثمـان وسبعون درجة، والعَرْض إحدىٰ وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى من قواعد فارس . قال آبن حوقل : وعليها سور من طين وخنـدقٌ؛ ولهـا أربعة أبواب وفيها المياه جارية ـ وهى مدينة نَزِهَةٌ كثيرة البساتين جدّا ويرتفع منها ماء ورد يعُمُّ البلاد، وهى فى ذلك كدِمَشْقَ . قال "العزيزىّ" : ومنهـا إلىٰ شيرازَ أربعة وعشرون فرسخا، وقال فى موضع آخر عشرون فرسخا .

---

(١) كذا فى التقويم أيضا وفى معجم البلدان آبن عقيل .

(ومنها) كَازَرُونُ . قال فى "اللباب" : بفتح الكاف وسكون الألف وفتح الزاى المعجمة وضم الراء المهملة وواو ساكنة وفى آخرها نون — وهى مدينة من كُورة سابورَ واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطول سبع وسبعون درجة، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى أعظم مدينة فى كُورة سابورَ . وقال المهلّبىّ : هى مدينة لطيفة صالحة العمارة . قال ابن حوقل : وهى صحيحة التُّربة والهواء وماؤها من الآبار. قال فى "اللباب" : وخرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) فَيْرُوزَاباذ . قال فى "المشترك" : بفتح الفاء وكسرها وسكون المثناة من تحت وضم الراء المهملة ثم واو ساكنة وزاى معجمة ثم ألف وباء موحدة وألف ثانية وذال(١) — وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وعشر دقائق . قال فى "المشترك" : وكانت تسمّى فى القديم جُور ثم غُيِّرَ اسمها، وهى بلدة مشهورة على القرب من شيرازَ، وهى أصل بلد الشيخ أبى إسحاق الشيرازىّ المقدّم ذكره فى شيراز .

(ومنها) سِيرَافُ . قال فى "اللباب" : بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحت وفتح الراء المهملة وفاء فى الآخر — وهى بلدة على البحر واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وسبعون درجة ، والعرض ست وعشرون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى أعظم فُرْضَةٍ لفارس، وليس لها زرع ولاضرع بل هى مدينة حَطٍّ وإقلاع للمراكب؛ وهى مدينة آهلة، ولهم عناية بالبُنْيان حتّى إن الرجل من التجار ينفق فى عمارة داره ثلاثين ألف

(١) أى معجمة كما فى التقويم والمعجم .

دينار، وليس حولها بساتينُ ولا أشجـار، وبناؤهم بالساج والخشب، يحمل اليهم من بلاد الزِّنْج، وهى شديدة الحرّ .

(ومنهـا) البَيْضَاء ـ بفتح الموحدة وسكون اليـاء المثناة من تحت وفتح الضاد المعجمة وألف فى الآخر . وهى مدينـة من عمل إِصْطَخْرَ واقعـةٌ فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطول ثمـان وسبعون درجة وأربعون دقيقـة، والعرض ثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى من أكبر مُدُن كورة إِصْطَخْرَ . قال : وسميت البيضاء لأن لهـا قلعة بيضاء ترىٰ من بُعْد، واسمها بالفارسية نشانك، ويقال إن الحسين الحَلّاج منها، وإليها ينسب القاضى ناصر الدين البيضاوىّ صاحب "المنهـاج" فى أصول الفقه، و"الطوالع" فى علم الكلام وغير ذلك . قال المهلبىّ : وبينها وبين شِيرَازَ ثمـانية فراسخ .

(ومنهـا) إِصْطَخْرُ . قال فى "اللباب" : بكسر الألف وسكون الصـاد وفتح الطاء المهـملتين وفى آخرها راء مهملة قبلها خاء معجمة ـ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة . قال ابن سـعيد حيث الطول تسع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة واثنتان وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى من أقدم مُدُن فارس، وبها كان سرير المُلْك فى القديم؛ وبها آثار عظيمة من الأبنِيَة حتّى يقال إنها من عمل الجنّ كما يقال عن تَدْمُرَ وبَعْلَبَكَّ من بلاد الشام . قال فى "العزيزىّ" : وبينها وبين شيرازَ اثنـا عشر فرسخا . قال [وينسب اليها](١) أبو سعيد الإصطخرىّ أحد أصحابنا الشافعية .

(ومنهـا) بَسَا . قال فى "اللباب": بفتح الباء الموحدة والسين المهملة ثم ألف ـ وهى مدينة من كورة دَارَا بجِرْد واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال

(١) الزائد مأخوذ بالمعنىٰ من "معجم البلدان" .

فى " الأطوال " حيث الطول ثمان وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض تسع وعشرون درجة . قال ابن حوقل : وهى تقارب شيراز فى الكِبَر وأكثر خشب أبنيتها السَّرْوُ، ويجتمع فيها الثَّلْجُ (؟) والرُّطَبُ والجوز والأُتْرُجُّ، وإليها ينسب البَسَاسيرىّ الذى خطب لخلفاء مصر فى بغداد .

(ومنها) يَزْد . قال السمعانىّ فى "الأنساب" : بفتح المثناة التحتية وسكون الزاى المعجمة وفى آخرها دال مهملة ـ وهى مدينة من كورة إصْطَخْرَ . قال فى " الأطوال " حيث الطول ثمان وسبعون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . خرج منها جماعة من العلماء وإليها ينسب القُمَاش اليَزْدِىّ .

ومنها ـ (دَارَا بجِرْد) . قال فى "اللباب" : بفتح الدال المهملة وسكون الألفين بينهما راء ثم باء موحدة وجيم مكسورة وراء مهملة ساكنة وفى آخرها دال مهملة ـ وهى مدينة من فارس واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى " القانون " حيث الطول ثمان وسبعون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : ومعنى دارابجرد عَمَل دارا، وهى مدينة لها سور وخَنْدَقٌ تتولد المياه فيه، وفيه حشيش يلتف على السابح فيه حتّى لا يكاد يسلم من الغَرَق، وفى وسط المدينة جبلٌ كالقُبَّة ليس له اتصال بشىء من الجبال، وبنواحيها جبال من المِلْح الأبيض والأسود والأصفر والأحمر والأخضر، ينحت منه ويحمل منها إلى البلاد . قال فى "المشترك" : وعملها من أجَلِّ كُوَر فارس . قال فى " العزيزىّ " : وبأعمالها معدن مُومِيَا ومعدن زئبق .

الإقلـــيم الخـامس

(كَرْمان)

كما قاله فى "مسالك الأبصـار" : قال فى "المشترك" : بفتح الكاف، ومنهم من يكسرها . قال : وهو صُقْع كبير بين فارس وسِجِسْتَانَ ومُكْرَانَ من بلاد الهند . ويحيط به من جهة الغرب حدود فارس، ومن جهة الجنوب بحر فارس، ومن جهة الشرق أرض مُكْرَان من وراء البَلُوص إلىٰ البحر، ومن الشمال المَفَازة التى هى فيما بين فارس وكَرْمانَ و بين خُرَاسان . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وأرض كَرْمانَ داخلة فى البحر، وللبحر ساعدان قد آعتنقا أرض كرمان ، فالبحر علىٰ ساحل كَرْمَانَ قطعة قوس من دائرة . وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة فى "تاريخه" السِّيرَجان . قال فى "اللبـاب" : بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحتها والراء المهـملة وفتح الجيم و بعـد الألف نون ـ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة . قال فى "رسم المعمور" حيث الطول ثلاث وثمانون درجة، والعَرْض آثنتان وثلاثون درجة . قال آبن حوقل : وهى أكبر مدينة بكَرْمَانَ، وأبنيتها أقباءٌ لقلة الخشب بها وداخلها قُنِيّ الماء . قال فى "اللباب" : وهى ممـا يلى فارس .

وتشتمل كرمان علىٰ عدّة مُدُن .

(منهـا) جِيْرُفْتُ[1] . قال فى "اللباب" : بكسر الجيم وسكون المثناة تحتُ وضم الراء المهملة وسكون الفاء وفى آخرها تاء مثناة من فوق ـ وموقعها فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" : حيث الطول ثلاث وثمانون درجة، والعرض آثنتان وثلاثون درجة . قال آبن حوقل : وهى مدينة مجمع للتجار الواصلين من خُرَاسَانَ وسِجِسْتَانَ،

(١) ضبطها ياقوت بفتح الراء .

وهي حَصِينة للغاية . قال المهلبيّ : وهي من أعظم مدينة بكَرْمان كثيرةُ النخل والأُتْرُجّ وبينها وبين السِّيرجان مرحلتان .

(ومنها) زَرَنْدُ . قال في "المشترك" : بفتح الزاى المعجمة والراء المهملة وسكون النون وفي آخرها دال مهملة — وموقعها في الإقليم الثالث . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وثمانون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . قال في "المشترك" : وهي مدينة مشهورة . قال "المهلّبيّ" : وبينها وبين مدينة السِّيرجان تسعة وعشرون فرسخا .

(ومنها) بَمُّ . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وتشديد الميم — وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "العزيزيّ" : وهي من كبار مُدُن كَرْمَانَ ، وهي مصر من الأمصار . قال ابن حوقل : وهي أكبر من جيرُفْتَ ، وبها ثلاثة جوامع .

(ومنها) هُرْمُزُ . قال في "المشترك" : بضم الهاء وسكون الراء المهملة وضم الميم وفي آخرها زاى معجمة — وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول خمس وثمانون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي فُرضة كَرْمَانَ . قال في "المشترك" : تدخل إليها المراكب من بحر الهند في خليج . قال صاحب حماة : وهي مدينة كثيرة النخل شديدة الحرّ . ثم قال : أخبرني من رءاها في زماننا يعني في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون أن هُرْمُزَ العتيقة خربت من غارات التَّتَر وأن أهلها انتقلوا عنها إلى جزيرة في البحر تسمّى زَرُونَ — بفتح الزاى المعجمة وضم الراء المهملة ثم واو وفي الآخر نون — وهي جزيرة قريبة من البر غربيَّ هُرْمُزَ العتيقة ،

ولم يبق بهرمز العتيقة إلا قليـل من أطراف الناس ؛ ومنها إلىٰ أول حدود فارس نحو سبع مراحل .

قلت : وفى سنة ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة كُتِب إلىٰ صاحبها عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية فى الدولة الناصرية أبى السعادات فرج بن السلطان الشهيد الظاهر برقوق، وسـيأتى الكلام علىٰ صورة المكاتبة إليه فى المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

الإقلـــــيم السادس
(سجِسْتان والرُّخَّج)

أما سِجِسْتَانُ فقال فى " المشـترك " : بكسر السين المهملة وكسر الجيم وسكون السين الثانية ثم مثناة من فوقها وألف ونون . قال : وسِجِسْتَانُ إقليم عظيم بين خُرَاسَانَ وبين مُكْرَانَ والسند وبين كَرْمَانَ . قال ٱبن حوقل : ويحيط بسِجِسْتَانَ من جهة الغرب خُراسَان، ومن جهة الجنوب المفازة التى بين سجستان وفارس وكَرْمَانَ، ومن جهة الشرق مَفَازة بين سجستان وبين مُكْران، وهى المفازة الواصـلة بين مُكْران والهند(١)، وتمام الحدّ الشرقىّ فى شىء من عمل المُلْتان من الهند، ومن جهـة الشَّمال أرض الهند، وفيما يلى خراسـان والغُور والهند تقويس . وقال فى " العزيزىّ " : سجســتان شرقىّ كَرْمَانَ إلىٰ الشمال . قال ٱبن حوقل : وأراضى سِجِسـتان بها الرمال والنخيل، وهى أرض سَهْلة لا يُرىٰ فيها جبل، وتشتدّ بها الريح وتدوم، وبها أرحية تطحن بالريح ، والرياحُ تنقل رمالهم من مكان إلىٰ مكان ، وإذا أرادوا نقل الرمل عن مكانٍ، عملوا هنـاك حائطا من خشب أو غيره وجعلوا فى أسـفله طوقا وأبوابا

---

(١) فى "تقويم البلدان" والسند وهو الصواب بدليل ماسيأتى .

فتدخل فيها الريح من تلك الأبواب وتطيِّر الرمل وترميه بعيدا ، وسجستان خِصْبَةٌ كثيرة الطعام والتمر والأعناب وأهلها ظاهرو اليسار . وقال فى "اللباب" : والنسبة إلىٰ سجستان سِجْزِىٌّ بكسر السين المهملة وسكون الجيم ثم زاى معجمة علىٰ غير قياس . قال : وينسب إليها سِجِسْتَانِىّ أيضا يعنى علىٰ الأصل .

وقاعدتها (زَرَنْجُ) . قال فى "اللباب" : بفتح الزاى المعجمة والراء المهملة وسكون النون وجيم فى الآخر ـ وهى مدينة كبيرة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وثمانون درجة ، والعرض آثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال آبن حوقل : وقد يطلق علىٰ زَرَنْجَ نفسها سِجِسْتَانُ . قال فى "المشترك" : بل أُنْسِى آسم زرنج وأطلق آسم الإقليم وهو سجستان علىٰ المدينة . وجعل فى "اللباب" : زَرَنْج ناحية بسجستان . قال آبن حوقل : ولها سُورٌ وخَنْدَقٌ يَنْبُعُ فيه الماء ، وأبنيتها عقود لأن الخشب فيها يسَوِّس ولا يثْبُت . وفيها مياه تجرى فى البيوت والأزِقَّة وأرضها سبخة . قال فى "اللباب" : وخرج منها جماعة من العلماء منهم محمد بن كَرَّام الزَّرَنْجِىّ صاحب المذهب المشهور .

ولها مُدُن .

(منها) حِصْن الطاق ـ وضبطه معروف . قال آبن سعيد : وهو حصن واقع فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثمان وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة ، علىٰ جبل عند آلتواء النهر فى غاية المَنَعَةِ لا يرام بحِصار . قال وبه يعتصم ملوك هذه البلاد ويجعلون فيه خزائنهم . أما الطاقُ المضاف إليها فمدينة صغيرة لها رُسْتاق ، وبها أعناب كثيرة يتسع بها أهل سِجِستان .

(ومنها) سَرْوَانُ . قال فى " تقويم البُلْدان" : قال بعض الثِّقَاتِ ــ بفتح السين وسكون الراء المهملتين وفتح الواو ثم ألف ونون ــ وهى مدينة من آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول تسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة صغيرة بها فواكه كثيرة ونخيل وأعناب .

(ومنها) بُسْتُ . قال فى " اللباب " : بضم الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفى آخرها تاء مثناة من فوقها ــ وهى مدينة علىٰ شط نهر الهِنْدَمَنْد . قال فى "القانون" حيث الطول إحدىٰ وتسعون درجة وثمان وثلاثون دقيقة ، والعرضُ اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة كبيرة خِصْبَةٌ كثيرة النخل والأعناب . وقال فى " اللباب " : هى مدينة حَسَنة كثيرة المياه والخُضْرة . وقال فى " العزيزىّ " : مدينة جليلة بها عدّة منابر ورِبَاطات كثيرة عظيمة . وذكر فى " اللباب " : أنها من بلاد كابُل بين هراةَ وغَزْنة . قال ابن حوقل : وبينها وبين غَزْنة نحو أربعَ عشرةَ مرحلة .

وأما (الرُّخَّج) فقال فى "اللباب" : بضم الراء المهملة وفتح الخاء المعجمة المشدّدة وفى آخرها جيم . قال ابن حوقل : وهو إقليم عظيم متصل بسِجِسْتان فيه عدّة مُدُن وهى علىٰ غاية الخِصْبِ والسَّعَة . قال : ومن مدنها بنجوان (؟) ولم يزد علىٰ ذلك .

الجانب الثانى
(من مملكة إيران الشَّمالىّ)

ويشتمل علىٰ عدّة أقاليم من الأقاليم العرفية .

الإقلـــيم الأوّل

(إِرْمِينِيَــةُ)

قال ياقوت : بكسر الهـمزة وسكون الراء المهملة وكسر الميم وسكون اليـاء آخر الحروف وكسر النون ثم ياء ثانية مخففة وقد تشدّد ـ وضـبطها فى " اللبـاب " : بفتح الهمزة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وقد جمع أرباب المسالك والممالك إرمينية وأرّان وأَذْرَبِيجَـانَ لِعُسْر إفراد إحداها عن الأخرىٰ . قال : ويحيط بهـا علىٰ سبيل الإجمال من الغرب حدودُ بلاد الروم وشيء من حدود الجزيرة، ومن جهة الجَنُوب بعض حدود الجزيرة وحدود العِراق، ومن جهة الشرق بلاد الجِيل والدَّيلم، إلىٰ بحر الخَزَر، ومن جهة الشمال بلاد القَيْتَق، ثم أفرد أذْرَبِيجان بحدود تخصها فقال : يحدّها من جهة الشرق بلاد الجيل وتمام الحدّ الشرقىّ بلاد الدَّيْلَم، ويحدّها من جهة الجنوب العراقُ عند ظهر حُلْوان وشيء من حدود الجزيرة . وذكر فى " مسـالك الأبصار " نحوه إلا أنه ذكر أن حدّها الغربىّ إلىٰ بلاد الأرمن . قال ٱبن حوقل : والغـالب علىٰ إرمينية الجبال .

وقاعدتها (الدَّبِيل) فيما ذكره ٱبن حوقل والمهلَّبى . قال فى " المشترك " : وهى بفتح الدال المهـملة وكسر الباء الموحدة ثم مثناة من تحتها ساكنة وفى آخرها لام ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " القانون " حيث الطول ٱثنتان وسبعون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينـة كبيرة والنصارىٰ فيها كثيرة، وبهـا جامع للسلمين إلىٰ جانب كنيسـة النصارىٰ . قال فى "العزيزى" : وهى من أجَلّ البلاد وأنفَسِها وهى مستقَرّ سلطانها .

وبها عدّة مدن .

(منها) أَرْزَنْجَانُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الزاى المعجمة وسكون النون وفتح الجيم ثم ألف ونون، ويقال بالكاف أيضا عوضا عن الجيم ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة. قال فى "الأطوال" حيث الطول ثلاث وستون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. قال ابن سعيد : وهى بين سِيواسَ وبين أَرْزَنِ الروم؛ وبينها وبين كل واحدة منهما أربعون فرسخا ، وما بينها وبين أرْزَن كلُّه مروج ومرعًى، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) أَرْزَنُ . قال فى "المشترك" : بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الزاى المعجمة ثم نون فى الآخر . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وهى من أطراف إرمينية ــ وموقعها فى الإقليم الخـامس(١) من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وهى غير أَرْزَنِ الروم، وهى عن خِلَاطَ علىٰ ثلاثة أيام . قال : ووَهِم فى "اللباب" فجعلها من ديار بكر من الجزيرة ، والصحيح ما تقدّم . وصـاحبها يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتَبات فى المقالة الثانية فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

(ومنها) بِدْلِيسُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الباء الموحدة ثم دال مهملة ساكنة ولام وياء مثناة من تحت ساكنة وسين مهملة . قال : وعن بعضهم أنها بفتح الباء الموحدة ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وستون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثمـان وثلاثون درجة

(١) الذى فى "تقويم البلدان" أنها من آخر الرابع .

وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وعن بعض أهل تلك البلاد أنها بين ميَّا فَارِقِينَ وبين خِلَاطَ . قال : وهى مدينـة مسوّرة ، وقد خرب نصف سورها ، والمياه تخترق المدينة من عيون فى ظاهرها ، ولهـا بساتين فى وادٍ وهى بين جبال تَحُفُّ بها . قال وهى دون حمـاة فى القدر . وقال ابن حوقل : بلد صـغير عامر خِصْبٌ كثير الخير ، وهى شـديدة البرد كثيرة الثُّلوج ، وصاحبها يكاتَبُ عن الأبواب السلطانيـة بالديار المصرية علىٰ ما سـيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

(ومنها) أَخْلَاطُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون الخاء المعجمة وفتح اللام ثم ألف وطاء مهـملة ، ويقال فيها خَلَاطُ (١) بفتح الخـاء من غير همـز ـ وموقعها فى الإقليم الخـامس . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وسـتون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض تسع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : عن بعض أهلها إنها فى مستو من الأرض ، ولها بساتين كثيرة ، وبها عِدّة أنهـار علىٰ شِبْه أنهار دِمَشْقَ ، وليس يدخل المدينة منها إلا الشىء اليسير ، ولها سور خراب ، وهى قدرُ دِمَشْقَ ، والجبال عنها علىٰ أكثر من مسيرة يوم ، وبردها شديد . قال ابن سعيد : وهى أجل مدينة بإرمينية ، وذكرها جليل الشهرة . وقال ابن حوقل : وهى بلدة صغيرة عامرة كثيرة الخير . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين بَدْلِيس سبعة فراسخ .

(ومنها) خِرْت بِرْت ـ بكسر الخـاء المعجمة وسكون الراء وتاء مثناة فوق ثم باء موحدة مكسـورة بعدها راء مهملة ساكنة وتاء مثنـاة فوق فى الآخر ، وتعرف

---

(١) ضبطها ياقوت بالكسر .

بحِصْن زِيَاد . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة بإرمينية على القرب من خِلَاط، وحاكمها يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الإقلــــيم الثـانى
(أَذربيجان)

قال ابن الجواليقى فى "المعرّب من العُجْمة إلى العربية" بقصر الألف وإسكان الذال المعجمة . قال ابن حوقل : الغالب عليهـا الجبال أيضا . قال فى "مسالك الأبصـار" : وهى أجلّ الأقاليم الثـلاثة ، وهى كانت قَرارَ ملوك بنى جنكزخان .

وبها ثلاث قواعد .

القـاعدة الأولى
(أَرْدُبِيــل)

قال فى "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون الراء وضم[1] الدال المهملتين وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحت ولام فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وخمسون دقيقة، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال فى "اللباب" : لعله بناها أردبيل بن أردمينى بن لمطى بن يونان فنسبت إليه . قال فى "العزيزى" : وهى فى الجهـة الشمالية من أذْرَبيجان . قال : وهى مدينة كثيرة الخِصْبِ، وعلى فرسخين منها جبل عظيم الارتفاع لايفارقه الثلج . قال المهلّبى : وأهلها غليظو الطبع شَرِسُو الأخلاق . قال : وبينها وبين تبريز خمسـة وعشرون فرسخا . قال فى "مسالك الأبصار" : وأعمالها تكون ثلاثين فرسخا . قال : وبها كانت دار الإمارة فى صدر الإسلام .

(١) كذا فى التقويم أيضا وضبطه ياقوت بفتح الدال وهو المشهور .

القاعدة الثانيـــة
(تِـبْرِيزُ)

قال فى "اللباب": بكسر المثناة من فوقُ وسكون الباء الموحدة وكسر الراء المهملة ثم مثناة من تحتُ وفى آخرها زاى معجمة ، والجارى على ألسنة العامة توريز بالواو بدل الموحدة ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال ابن سـعيد : وهى قاعدة أذربيجان فى عصرنا . قال فى "اللباب" : وهى أشهر بلدة بأَذْربيجانَ ؛ وبهـا كان كرسىّ بيت هُولَاكو من التتر، ثم انتقـل بعـد ذلك إلى السُّـلْطانية الآتى ذكرها . ومبـانيها بالقاشانىّ والجِصّ والكِلْس ، وبها مدارس حسنة ولهـا غُوطة رائقة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة أعْرقت فى السعادة أنسابُها، وثبتت فى النِّعْمة قواعدها . قال : وهى مدينة غير كبيرة المقدار، والماء منساق إليها ؛ وبها أنواع الفواكه لكن ليست بغاية الكثرة، وأهلها من أكبر النـاس حِشْمه، وأكثرهم تظاهرا بنِعْمه؛ ولهم الأموال المَدِيدة ، والنعم الوافرة، والنفوس الأبِيَّة ؛ ولهم التجمل فى زِيِّهم : من المأكول والمشروب، والملبوس والمركوب؛ وما منهم إلا من يأنَفُ أن يذكُر الدرهمَ فى معاملته ، بل لا معاملة بينهم إلا بالدينار . وسيأتى ذكر مقدار دينارهم فى الكلام على معاملة هذه المملكة فيما بعد إن شاء الله تعـالى ـ وهى اليوم أمّ إيران جميعا لتوجُّه المقاصـد من كل جهة إليها، وبها مَحَطُّ رحال التُّجّار والسُّفّار؛ وبها دور أكثر الأمراء الكبراء المصاحبين لسلطانها لقربها من أرّجان محلّ مَشْتاهم . قال : ويشتدّ البرد بتوريز كثيرا ، وتتوالى الثلوج بها حتّى إن سَرَوَات أهلها يحـدّون فى آدُرِهم ، ليس فيها فرجة ولا يدخلها ضوء إلا ما يَرَوْنه من طاقات حيطانها من وراء الزجاج المركب عليها .

القاعدة الثالثـــة
(السُّــلْطانِيَّة)

نسبة إلىٰ السلطان ، وٱسمها قُنْغُرْلان . قال فى " تقويم البُلْدان " : بضم القاف وسكون النون وضم الغين المعجمة وسكون الراء المهملة ولام ألف ونون ــ وموقعها فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السـبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيث الطولُ ست وسـبعون درجة ، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال : وهى عن توريز فى سمت المشرق بمَيْـلة يسيرة إلىٰ الجنوب علىٰ مسيرة ثمـانية أيام منها ــ وهى مدينة مُحْدَثة ، بناها خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، علىٰ القرب من جبال كِيلان ، علىٰ مسيرة يوم منها ، وجعلها كرسىّ مملكته ، وهى فى مستو من الأرض ، ومياهها قُنِىّ ، قليلة البساتين والفواكه ، وإنمـا تجلب إليها الفواكه من البلاد المُصاقِبة لها . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة قد رُفِـع بناؤها ، وٱتسع فِنَاؤها ، وأُتْقِنت قسـمتها فى الخطط والأسواق ، وجَلَبَ إليهـا بانيها الناسَ من أقطار مملكته ، وٱستجلبهم إليها بمـا بسط لسُكَّانها من العدل والإحسان . قال : وهى الآن عامرة آهلة كأنما مر عليها مئون سنين لكثرة من ٱستوطنها وتأهَّل بها وأولد من الولد فيها ، وقد مضتْ عليها مدّة بنوها مَبَالغ(١) الرجال ، وفيهم من جاز إلىٰ الاكتهال .

وبها عدّةُ مدُن غير هذه القواعد .

(منها) سَلَمَاسُ . قال فى "اللباب" : بفتح السين المهملة واللام والميم وفى آخرها سين مهملة ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " القانون " حيث الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال المهلَّبىّ : وهى علىٰ آخر حدود أذربيجـان من الغرب ، وهى مصرٌ من الأمصار جليل والمتاجر بها وإليها متصلة .

---

(١) لعله "حتى بلغ بنوها" أو نحو ذلك .

(ومنها) خُوَىّ . قال فى "اللباب" : بضم الخاء وفتح الواو وتشديد المثناة من تحت — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى آخر مُدُن أذْرَبيجان، و بينها و بين سَلَمَاس أحد وعشرون ميلا .

(ومنها) أُرْمِيَة . قال فى "اللبـاب" : بضم الألف وسكون الراء المهملة والميم فى آخرها هاء بعد ياء مثناة من تحتهـا . قال ابن الجواليقىّ فى "المعرّب" : ويجوز فى قياس العربية تخفيف الياء منها وتشديدها — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال المهلَّبىّ : وهى آخر حدود أذربيجان، وهى مدينة جليلة . قال : ويقال إن زَرَادشت نبىّ المجوس منها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وعن بعض أهلها أنها مدينة وُسْطىٰ عامرة، وهى فى أول الجبال وآخر الوطاة (١)، فى الغرب عن سَلَمَاس علىٰ ستة عشر فرسخا منها، و بينها و بين الموصل قاعدةِ الجزيرة أربعون فرسخا، والموصل فى سمت الغَرْب عنها؛ ولأُرْمِيَة قلعة علىٰ جبل تسمّى قلعة تلا فى غاية الحَصَانة، كان هولاكو قد جعل أمواله فيها لحصانتها والنسبة إلىٰ أُرْمِيَة أُرْمَوِىّ .

(ومنها) مَرَاغَة . قال فى "المشترك" : بفتح الميم والراء المهملة وألف وغين معجمة وهاء — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشر دقائق ، والعرض سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال المهلَّبىّ : وهى مدينة مُحْدَثة كانت قرية، فنزل بها مَرْوَان بن محمد وكان

---

(١) الذى فى "تقويم البلدان" وهى فى آخر الجبال وأوّل الوطاة التى خلف جبال العجم .

هناك سِرْجِينٌ فمرّغ الناسُ فيه دوابهم فبناها مدينة فسميت مراغة. قال آبن حوقل: وهى من قواعد أذربيجان، وهى حصينة، (١) نزهة كثيرة البساتين والرساتيق .

(ومنها) مَيَانِجُ . قال فى "المشترك": بفتح الميم والمثناة من تحتها وسكون الألف وكسر النون وفى آخرها جيم — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطولُ ثلاث وسبعون درجة، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال فى "المشترك" : وهى مدينة كبيرة علىٰ مسيرة يومين من مَرَاغةَ . وسماها فى "اللباب" : مَيَانه بفتح الميم والمثناة من تحتها وألف ونون وهاء . وقال : خرج منها جماعةٌ من العلماء .

(ومنها) مَرَنْدُ. قال فى "اللباب": بفتح الميم والراء المهملة وسكون النون وفى آخرها دال مهملة — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال فى "اللباب" : وهى قرية من تِبرِيزَ فى جهة الشرق عنها بميلة يسيرة إلىٰ الشّمال . وقال المهلبىّ : هى عن تَدْمر علىٰ أربعة عشر فرسخا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وذكر مَنْ رءاها أنها بلدة صغيرة ذاتُ أنهار وأشجار .

الإقليم الثالث

(أرّان)

قال فى "المشترك" : بفتح الهمزة وتشديد الراء المهملة ثم ألف ونون . ولها قاعدتان .

---

(١) فى "تقويم البلدان" عن آبن حوقل "خصبة" .

القاعدة الأولى

(بَرْدَعَةُ)

قال فى " اللباب " : بفتح البـاء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهملتين ثم عين مهملة وهاء فى الآخر ــ وموقِعها فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة . قال فى " القانون " حيث الطول ثلاث وسـبعون درجة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال فى " تقويم البُلْدان " : وهى قاعدة مَمْلَكة أرّان . وقال فى "اللباب": هى من أقاصِى أذْرَبيجان . قال آبن حوقل : وهى مدينة كبيرة كثيرة الخِصْب نَزِهة . قال : وعلى أقل من فرسخ منها موضع [يسمّى الأندراب يكون](١) مسيرة يوم فى يوم بساتينُ مشتبكة كلها فواكه . قال المؤيد صاحب حماة : هذا ما كانت عليه فى زمان آبن حوقل، أما فى زماننا فأخبرنى من رءاها أنها خَرِبت ولم يبق منها معمور إلا دون المَعَرَّةِ فى القدر، وهى فى مستوٍ من الأرض، ذاتُ بساتين ومياه، وهى على القرب من نهر الكُرِّ .

القـاعدة الثانيـــة

(تَفْلِيسُ)

قال فى " اللبـاب " : بفتح المثناة فوق وسكون الفاء وكسر اللام وسكون المثناة التحتية وفى آخرها سين مهملة ــ وموقعها فى آخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى " القانون " : وهى قَصَبة كرجستان . وقال فى " اللباب " : هى آخر بلدة من أذْرَبيجـان . قال آبن حوقل : وهى مدينـة مسوّرة عليها سُورَانِ، ولهـا ثلاثة أبواب، وبها حَمّـامات مثـل حَمّامات طَبَرِيّة ماؤها ينبعُ سخنا بغير نار، وهى كثيرة

---

(١) الزيادة عن " تقويم البلدان " .

الخِصْبِ . قال ٱبن سعيد : وكان المسلمون قد فتحوها وسكنوها مدّة طويلة، وخرج منها جماعة من العلماء، ثم ٱسترجعها الكُرْج وهم نصارىٰ، وهى بأيدى الكُرْج إلىٰ الآن؛ وملك الكُرْج صاحبها يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ.

وبها عِدّة مدن .

(منها) نَشَوىٰ . قال السمعانىّ فى "الأنساب" : بفتح النون والشين المعجمة وفى آخرها واو ثم ياء(١) آخر الحروف . وسماها ٱبن سعيد نَقْجَوَان ـ بفتح النون وسكون القاف وفتح الجيم والواو وبعد الألف نون ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ إحدىٰ وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال ٱبن سعيد : وهى من المدن المذكورة فى شرقىّ أرّان . "قال السمعانىّ" : وهى بلدة متصلة بإرمينية وأذْرَبيجان . قال ٱبن سعيد : وهى فى شمالىّ نهر الكُرِّ . قال فى "الأنساب" : وبينها وبين تِبْريزستة فراسخ . قال ٱبن سعيد : وقد خَرَّبها التتروقتلوا جميع أهلها .

(ومنها) مُوقَان . قال فى "اللباب" : بضم الميم وسكون الواو وفتح القاف وسكون الألف وفى آخرها نون، والعامّة تُبْدِل القاف غينا معجمة فيقولون مُوغان . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال السمعانىّ : وهى بدَرْبَنْد فيما أظن ، وقال المهلّبىّ : هى من عمل أَرْدُبيل . وقال المهلبىّ : مُوقَانُ فى نهاية بلاد كِيلَانَ فى جهة الغرب . قال ٱبن حوقل : وبينها وبين باب الأبواب يومان . قال فى "تقويم البُلْدان" : لم يبق لمدينة مُوقَان فى هذا الزمان شهرة بل المشهور أراضى مُوقَان ، وهى أراضٍ كثيرةُ المياه والأقصاب والمَرَاعى

(١) أى فى الرسم وإلا فهى مقصورة .

فى ساحل بحر طَبَرِسْتَانَ على القرب من البحر، وهى فى سَمْت الشَّمال والغرب، عن تِبْرِيز على نحو عشر مراحل منها، وبها يشتى أُرْدو التتر فى غالب السنين .

(ومنها) شَمْكُورُ . قال فى "اللباب" : بفتح الشين المعجمة وسكون الميم وضم الكاف وسكون الواو وفى آخرها راء مهملة ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطولُ ثلاث وسبعون درجة، والعرض إحدى وأربعون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهو حصن من أعمال أرّان . قال فى " تقويم البُلْدان " : وشَمْكُورُ بقُرْب بَرْذَعة، وبها منارة فى غاية الآرتفاع والشُّهوق .

(ومنها) البَيْلَقَان . قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون المثناة من تحت وفتح اللام والقاف ثم ألف ونون . قال فى " القانون " حيث الطول أربع وستون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى عند شَرْوان . قال : ولعلها بناها بَيْلَقَان بن أرمينى بن لمطى بن يونان فنسبت إليه . قال فى "اللباب" : وهى مدينة من دَرْبَنْدِ خَزْران . قال فى " المشترك " : وهى من مشاهير البُلْدان . قال آبن حوقل : وهى كثيرة الخَيْر .

(ومنها) كَنْجَة . قال فى " تقويم البُلْدان" : بفتح الكاف وسكون النون وفتح الجيم ثم هاء ساكنة ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطولُ أربع وسبعون درجة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وعشر دقائق . قال فى" المشترك " : وهى من مشاهير بلاد أرّان . قال المؤيد صاحب حماة : وأخبرنى مَنْ أقام هناك أنها على مرحلتين من بَرْذَعَةَ، وبردعة عنها فى جهة الغرب بمَيْلة يسيرة إلى الشمال، وهى قصبة تلك الناحية، وهى فى مستو من الأرض وفيها بساتين كثيرة، وبها التين الكثير. وقد شهر أن من أكل من ذلك التين حُمّ .

(ومنهـا) شَرْوان . قال فى "اللبـاب" : بفتح الشـين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح الواو ثم ألف ونون فى الآخر ــ وهى واقعـة فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة . قال ابن سـعيد حيث الطول ثمان وستون درجة وست وخمسون دقيقـة، والعرض إحدىٰ وأربعون درجة وثلاث وأربعون دقيقة . قال فى "اللبـاب" : بناها أَنُو شَرْوان فأسـقطوا أنو للتخفيف وبقى شَرْوان . قال ابن سعيد : وهى من أرّان، وكانت قاعدةً لبلادها، ثم صارت مملكتها مضافة إلىٰ أَذْرَبيجان . قال : وبِشَرْوانَ الدَّرْبَنْد المشهور. قال السلطان عمـاد الدين صاحب حماة : وهو المعروف فى زماننا بدَرْبَنْدْ باب الحديد . قال ابن الأثير: وقد خرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) باب الأبواب . قال فى "تقويم البُلْدان" : بإضافة الباب المفرد الذى يُدْخَل منه إلىٰ جمعه . قال فى "القانون": ويعرف باب الأبواب بدَرْبَنْد خَزْران . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويعرف هذا المكان فى زماننا بباب الحديد بإضافة الذى يغلق إلىٰ الذى يتطرّق. قال ابن حوقل : وهى علىٰ بحر طَبَرِسْتَانَ، وتكون فى القدر أصغر من أرْدُبيل . قال : ولهم الزرع الكثير وثمـار قليلة تحمل إليهم من النواحى . قال : وهى فُرْضَـة الخَزَر والسَّرير وسائر بلاد الكفر، وهى أيضـا فُرْضَـة جُرْجان والدَّيْلَم وطَبَرِسْتَانَ، ويجلب إليهـا الرقيق من سائر الأجناس . قال فى "تقويم البلدان": وهذه الصفات التى ذكرها ابن حوقل علىٰ ما كانت فى زمانه ؛ أمّا اليوم فعن بعض المسافرين أن باب الحديد بُلَيدة هى بالقُرىٰ أشـبه ، علىٰ بحر الخَزَر وهى كالحدّ بين التتر الشماليين المعروفين ببيت برَكَة وبين التتر الجنوبيين المعروفين ببيت هُولاكُو، وبهـا حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

الإقليم الرابع
(بلاد الجَبَل)

بفتح الجيم والباء الموحدة ولام فى الآخر، وصاحب "مسالك الأبصار" يسميها بلاد الجبال علىٰ الجمع، والعامة تسميها عِراق العجم . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويحيط بها من جهة الغرب أذْرَبيجان، ومن جهة الجنوب شيء من بلاد العراق وخُوزُسْتان، ومن جهة الشرق مفازة خُرَاسان وفارس، ومن جهة الشَّمال بلاد الدَّيْلَم وقَزْوين والرَّىّ عند مَن يخرجهما عن بلاد الجبل و يضمهما إلىٰ الدَّيْلَم من حيث إن جبال الديلم تَحُفُّ بهما .

وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة فى "تاريخه" (أصْبَهَان) . قال فى "اللباب": بكسر الألف وفتحها وسكون الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة والهاء وألف ثم نون فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وقد تبدل الباء فاء . قال السمعانىّ : وسمعتُ من بعضهم أنها تسمّى بالعجمية سباهان . قال وسبا العسكر، وهان الجمع . وذلك أن عساكر الأكاسرة كانوا إذا وقع لهم بيكار يجتمعون بها فعربت فقيل أصفَهَان ــ وموقعها فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطولُ سبع وسبعون درجة وخمسون دقيقة . والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى فى نهاية الجبال من جهة الجنوب . قال : وهى مدينتان وإحداهما تعرف باليهودِيَّة، وهى من أخصب البلاد وأوسعها خِطَّة، وبها معدن الكُحْل الذى لايسامىٰ، مصاقبا لفارس، وإلىٰ أصْبَهَان ينسب الليث بن سعد الإمامُ الكبير .

قلت : وقد تقدّم فى الكلام علىٰ أعمال الديار المصرية من أوّل هذه المقالة عند ذكر الأعمال القليوبية أنه ينسب إلىٰ بلدتنا قَلْقَشَنْدَة أيضا وأنه كان له دار بها،

فيحتمل أنه كان أوّلا بأصبَهَان، ثم لمـا رحل عنها إلىٰ مصر نزل قَلْقَشَنْدَة فنسب إليها علىٰ عادة من ينتقل من بلد إلىٰ آخر.

ولها عدّة مدن.

(منها) إِرْبِل. قال فى "المشـترك": بكسر الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة ولام فى الآخر. قال فى "تقويم البلدان": وهى قاعدة بلاد شَهْرَزُور، وموقعهـا فى الإقليم الرابع. قال ابن سـعيد حيث الطولُ سـبعون درجةً وعشرون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة. قال: وهى مدينة مُحْدَثة. قال فى "المشترك": بين الزَّابَيْن، فيما بين المشرق والجنوب عن المَوْصِل، علىٰ مسيرة يومين خفيفين. قال فى "تقويم البُلْدان": وعن بعض أهلها أنها مدينة كبيرة قد خَرِب غالبُها، ولها قلعة علىٰ تلٍّ عالٍ داخل السور مع جانب المدينة فى مستوٍ من الأرض، والجبال منها علىٰ أكثر من مسيرة يوم، ولها قُنِيٌّ تدخل منها اثنتان إلىٰ المدينة للجامع ودار السلطان؛ وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية.

(ومنهـا) شَهْرُزُور. قال فى "اللباب": بفتح الشين المعجمة وسكون الهـاء وضم الراء المهـملة (١) والزاى المعجمة وسكون الواو وفى الآخر راء مهملة — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال فى "رسم المعمور" حيث الطول سبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقـة. قال فى "اللباب": وهى بلدة بين المَوْصِل وبين هَمَـذَانَ بنـاها زُورُ بن الضَّحَّاك فقيـل شهر زور، يعنى مدينة شهر (٢). قال ابن حوقل: وهى مدينة صـغيرة. قال فى "العزيزى": وهى خِصْبة كثيرة المتاجر فى عُزْلَةٍ إلا أن فى أهلها غِلْظَةً وجفاء. قال: وبينها وبين المَرَاغة ست مراحل.

(١) ضبطها ياقوت بفتح الراء وهو المشهور. (٢) فى تقويم البلدان "مدينة زور" وهو الصواب.

(ومنها) الدَّيْنَوَرُ . قال فى "اللباب" : بفتح الدال المهملة وسكون المثناة من تحت وفتح النون والواو ثم راء مهملة فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطولُ ست وسبعون درجة، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى غربىّ هَمَذان بميلة إلى الشَّمال، وهى مدينة كثيرة المياهِ والمنازهِ كثيرةُ الثمار خِصْبة . قال فى "العزيزى" : و بينها و بين المَوْصِل أربعون فرسخا، و بينها و بين مراغة كذلك .

(ومنها) مَاسَبَذَانُ - بفتح الميم و بعد الألف سين مهملة و باء موحدة وذال معجمة بفتح الجميع و بعد الألف نون . وهى مدينة من سِيرَوَانَ - بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الراء المهملة وواو وألف ونون . كورة من كُوَرِ عراق العجم . قال أحمد بن يعقوب الكاتب : وهى مدينة قديمة بين جبال وشِعَاب . قال : وهى فى ذلك تشبه مكة شرفها الله تعالى وعَظَّمَها ، وفيها عيون ماء تجرى فى وسطها . قال ابن خِلّكَانَ : وكان المهدىّ العباسىّ يسكنها وبها مات ودفن .

(ومنها) قصر شِيرِين - بإضافة قصر إلى شِيرِين - بكسر الشين المعجمة ثم ياء آخر الحروف وراء مهملة ثم ياء ثانية بعدها ونون فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول إحدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهو قصر شِيرِينَ حَظِيَّة كسرى أَبْرَويز . وقال الإدريسىّ : شِيرين امرأة كسرى . قال : وبهذا الموضع آثارٌ لملوك الفُرْس عجيبة، ومنه إلى شَهْرُزور عشرون فرسخا، ومنه إلى حُلْوان من بلاد العراق خمسة فراسخ .

(ومنها) الصَّيْمَرَةُ . قال فى "المشترك" : بفتح الصاد المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الميم والراء المهملة وهاء فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "القانون" :

حيث الطول إحدى وسبعون درجة وخمسون دقيقة، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة صغيرة نَزِهة ذات زروع وأشجار، والمياه تجرى فى دُورها ومحالّها . قال أحمد بن يعقوب : وهى فى مَرْجٍ أفْيَحَ، فيه عيون وأنهار .

(ومنها) قِرْمِيسِينُ . قال فى "اللباب" : بكسر القاف وسكون الراء المهملة وكسر الميم وسكون المثناة من تحتها وكسر السين المهملة ومثناة تحتية ثانية ونون فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : ووجدناها فى كثير من الكتب بإبدال الياء الأولى ألفا . قال فى "اللباب": وهى مدينة بجبال العراق ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض أربع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "اللباب" : ويقال لها كِرْمانشاه . قال فى "العزيزى" : وهى من أجلّ مُدُن الجبل وأعظمها خطرا، وهى عامرة غاصّة بالناس . قال : وينبت بها الزعفران .

(ومنها) سُهْرَوَرْدُ . قال فى "اللباب" : بضم السين المهملة وسكون الهاء وفتح الواو وسكون الراء الثانية وفى آخرها دال مهملة . قال فى "تقويم البُلْدان" : كذا ضبطها ولم يذكر الراء الأولى ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى مدينة صغيرة، والغالب عليها الأكراد .

(ومنها) زَنْجَانُ . قال فى "اللباب" : بفتح الزاى المعجمة وسكون النون وفتح الجيم وألف ونون ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى أقصى مُدُن الجبال

فى الشمال . قال فى " اللبـاب " : وهى علىٰ حدّ أذْرَبيجان من بلاد الجبل ، ينسب إليها جماعةٌ من أهل العلم .

(ومنها) نُهَاوَنْدُ . قال فى " اللباب " : بضم(١) النون وفتح الهـاء وسكون الألف وفتح الواو وسكون النون وبعدها دال مهـملة — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطولُ ثلاث وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرضُ أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة علىٰ جبل ، ولهـا أنهار وبساتينُ ، وهى كثيرة الفواكه ، وفواكهها تحمل إلىٰ العراق لجودتها . قال فى " اللباب " : ويقال إنها من بناء نوح عليه السـلام ، وإنه كان ٱسمها نوح أو ند ، فأبدلوا الحاء هاء .

(ومنها) هَمَذَانُ . قال فى " الأنساب " : بفتح الهاء والميم والذال المعجمة وبعد الألف نون — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى وسط بلاد الجبال ، ومنها إلىٰ حُلْوَانَ : أوّلِ بلاد العراق سبعةٌ وستون فرسخا . قال : وهى مدينة كبيرة ، ولهـا أربعة أبواب ، ولهـا مياه وبساتين وزروع كثيرة . قال فى " الأنساب " : وهى علىٰ طريق الحاجّ والقوافل .

(ومنها) أَبْهَرُ . قال فى " المشترك " : بفتح الهـمزة وسكون الباء الموحدة وفتح الهاء ثم راء مهملة — وموقِعُها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول أربع وسـبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى " المشترك " : وهى مدينة بين قَزْوين وزَنْجان . قال ٱبن خرداذبه : ومنها إلىٰ زَنْجان خمسة عشر فرسخا .

(١) قال ياقوت : "بفتح النون الأولىٰ وتكسر" .

(ومنها) سَاوَة . قال فى "اللباب" : بفتح السين المهملة وبعـدها ألف ثم واو وهاء ـ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وسبعون درجة، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال "المهلّبي" : وهى مدينة جليلة علىٰ جادّة حُجَّاج خُرَاسَانَ؛ وبها الأسواق الحسنة، وبها المنازل الحسنة .

(ومنها) قَزْوِينُ . قال فى "اللباب" : بفتح القاف وسكون الزاى المعجمة وكسر الواو وسكون المثناة من تحت وفى آخرهـا نون ـ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "القـانون" و "رسم المعـمور" حيث الطول خمس وسـبعون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة لهـا حِصْن وماؤها من السماء والآبار، ولهـا قنَاة صغيرة للشرب فقط . وهى مدينة حصينة، وبها أشجار وكروم كلُّها عِذْيٌ لاتسقىٰ، وليس بها ماء جار سوىٰ مايشرب ويجرى إلىٰ المسجد . قال ٱبن حوقل : وماء قناتها وَبِيء .

(ومنها) آبة . قال فى "المشترك" : بفتح الهمزة وسكون الألف ثم باء موحدة وهاء ـ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال : والعامّة تسميها آوة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وسـبعون درجة وعشر دقائق، والعرض أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال المهلّبيّ : وهى مدينة فى الشرق بٱنحراف إلىٰ الشَّمال عن هَمَذَان، وبينهما سبعة وعشرون فرسخا . قال فى "المشترك" : وبينها وبين ساوةَ خمسة أميـال .

(ومنها) قُمٌّ . قال فى "اللباب" : بضم القاف وتشديد الميم ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "رسم المعـمور" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس عشرة دقيقـة، والعرض خمس وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "اللباب" : وكان بناؤها فى سنة ثلاث وثمانين للهجرة، بناها عبد الله بن سعد

والأحوص وإسحاق ونعيم وعبد الرحمن بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعرىّ من أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عند آنهزامهم من الحجّاج، وكان مكانها سبع قرى فأهلكوا أهلها وبنوها مدينة، كل قرية محلة من محلات المدينة . قال آبن حوقل : وهى مدينة غير مسوّرة حصينة البناء، وماؤها من الآبار، وبها البساتين على السوانى، وبها شجر الفستق والبندق، وأهلها شيعة . قال المهلّبىّ : وهى فى مرج تقدير سَعَتِه عشرة فراسخ فى مثلها ثم تفضى إلى جبالها؛ وبها من الفستق ماليس بغيرها .

(ومنها) الطَّالَقَان . قال فى "المشترك" : بفتح الطاء المهملة واللام والقاف ثم ألف ونون . وقال فى "اللباب" : بتسكين اللام ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "المشترك" : وهو مدينة وكُورة بين توريز(١) وأبهر . قال آبن حوقل : وهى أقرب إلى الدَّيْلَم من قَزْوين . وقد أوردها فى "كتاب الأطوال" المنسوب للفرس مع بلاد الدَّيْلَم . قال أحمد الكاتب : وهى بين جبلين عظيمين، وهى تمس(٢) الطالقان بلاد خُرَاسان .

(ومنها) قَاشَانُ . قال فى "اللباب" : بفتح القاف وسكون الألف وبالشين المعجمة وبعد الألف نون . قال : ويقال بالسين المهملة أيضا ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وسبعون درجة، والعرض أربع وثلاثون درجة . قال المهلبىّ : وهى مدينة لطيفة . قال آبن حوقل : هى أصغر من قُمّ وغالب بنائها بالطين، وهى خِصْبَةٌ، وقد خرج منها جماعة من العلماء . قال فى "اللباب" : وأهلها شِيعَةٌ .

(١) فى تقويم البلدان، بين قزوين وأبهر .
(٢) كذا فى الأصل بالاهمال، ولعله وهى غير الطالقان بلاد الخ .

(ومنها) الرَّىّ . قال فى "اللباب" : بفتح الراء وتشديد اليـاء آخر الحروف . قال فى "القانون" حيث الطول ثمـانٍ وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقـة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة كبيرة، قدرُ عمارتها فرسخ ونصف فى مثـله، وفيها نهران يجريان، وبهـا قُنِىّ تجرى غير ذلك . وعدّها فى "اللباب" من الدَّيْلَم، ويخرج منها قُطْنٌ كثير للعراق ، وبها قبر محمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة،والكسائىّ أحد القرّاء السبعة،والنسبة إليها رازِىّ علىٰ غير قياس، وإليها ينسب الإمام فخر الدين الرازىّ الإمام المشهور .

(ومنها) الكَرَجُ . قال فى "المشترك" : بفتح الكاف والراء المهملة وفى آخرها جيم ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ست وسـبعون درجة وأربعون دقيقـة، والعرض أربع وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة متفرّقة البناء ليس لهـا ٱجتماع المُدُن ، وتعرف بكَرَجِ أبى دُلَف . قال فى "المشترك": لأن أوّل من مَصَّرَهَا أبودُلَف القاسمُ بن عيسىٰ العِجْلىّ وقصـده الشعراء . قال ٱبن حوقل : ولها زروع ومواشٍ ، ولكن ليس لها بساتين ولا متنَزَّهات، والفواكه تجلب إليها .

(ومنها) خُوَارُ . قال فى "المشترك": بضم الخاء المعجمة وتخفيف الواو وسكون الألف وراء مهـملة فى الآخر ــ وموقعها فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثمـانٍ وسبعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى مدينة مـن نواحى الرَّىّ تخترقها القوافل . قال فى "القانون" : وقَلّما يذكر إلا منسوبا إلىٰ الرىّ فيقال خُوارُ الرَّىّ .

(ومنها) جبال الأكراد . قال فى "مسالك الأبصار" : والمراد بهذه الجبال الجبالُ الحاجزة بين ديار العرب وديار العجم، دون أماكن مَنْ توغل من الأكراد فى بلاد العجم . قال : وٱبتداؤها جبال هَمَذان وشَهْرُزُور، وٱنتهاؤها صَيَاصِى الكَفَرة من بلاد التكفور، وهى مملكة سِيس وما هو مضاف إليها مما بأيدى بيت لاون، ثم ذكر منها عشرين مكانا فى كل مكان منها طائفةٌ من الأكراد .

الأوّل — (دياوشت) . من جبال هَمَذَان وشَهْرُزُور، وهو مُقَامُ طائفة من الأكراد ولهم أمير يخصهم .

الثانى — (درانتك) . وهو مُقَام طائفة ثانية من الكورانية أيضا، ولهم أمير يخصُّهم . قال فى "مسالك الأبصار" : والطائفتان جميعا لا تزيد عدّتهم على خمسة آلاف رجل .

الثالث — دانترك ونهاوند إلى قرب شَهْرُزُور . وهى مُقَام طائفة منهم تعرف بالكلالية، يعرفون بجماعة سيف، عدّتهم ألف رجل مقاتلة، ولهم أمير يخصهم، وهو يحكم على مَنْ جاورهم من الأكراد .

الرابع — مكان بجوار ديار الكلالية المقدّم ذكرهم بجبال هَمَذَان . وهو مُقَام طائفة من الأكراد يقال لهم زنكلية، وعدّتهم نحو ألفين ذوو شجاعة وحيلة، ولهم أمير يخصهم، يحكم على بلاد كيكور وما جاورها من البقاع والكُوَر .

الخامس — نواحى شَهْرزور . قال فى "مسالك الأبصار" : كان يسكنها طوائفُ(١) من الأكراد طائفتان إحداهما يقال لها اللوسة والأخرى يقال لها الباسرية، رجالُ حَرْب، وأقيالُ طعنٍ وضرب؛ نزحوا عنها بعد واقعة بغداد، ووفدوا إلى مصر والشام، وسكن فى أماكنهم قومٌ يقال لهم الحوسة ليسوا من صميم الأكراد .

(١) لعل هذا اللفظ زائد من الناسخ .

السادس ـ مكان بين شهرزور وبين أُشْنُه من أذْرَبيجان؛ به طائفة من الأكراد يقال لهم السولية، يبلغ عددهم نحو ألفى رجل؛ وهم ذوو شجاعة وَحَمِيَّةٍ، وهم طائفتان لكل طائفة منهم أمير يخصّهم .

السابع ـ بلاد بسقاد ـ وهى مُقَام طائفة من الأكراد يقال لهم القرياوية .وبيدهم من بلاد أزبك أماكنُ أخر، قال : وعددهم يزيد علىٰ أربعة آلاف، ولهم أمير يخصّهم .

الثامن ـ بلاد الكركار ـ وهى مُقَام طائفة منهم يقال لها الحسنانية، وهم علىٰ ثلاثة أبطن : أحدها طائفة عيسىٰ بن شهاب الدين، ولهم خفر قلعة برى والحامى، وثانيها طائفة تعرف بالتلية، وثالثها طائفة تعرف بالحاكية . وجميعهم نحو الألف رجل، ولكل طائفة منهم أمير يخصّهم .

التاسع ـ دَرْبَنْد قراير ـ وهو مُقَام الطائفة القرياوية ، ولهم خفارة الدَّرْبَنْد المذكور، وصاحبه يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وقد ذكر فى "التثقيف" أن صاحبه كان سيف الدين بن سير الحسنانى .

العاشر ـ بلاد الكرحين ودقوق الناقة ـ وبه طائفة منهم عدّتهم تزيد علىٰ سبعمائة ولهم أمير يخصهم .

الحادى عشر ـ بين الجبلين، من أعمال إربل . قال فى "مسالك الأبصار": وبها قوم كانوا يُدارُون التتر وملوكَ الديار المصرية . ففى الشتاء يعاملون التتر بالمجاملة، وفى الصيف يعينون سرايا الشام فى المجاملة . قال : وعددهم كعدد الكلالية، ولهم أمير يخصّهم . وذكر أنه كان لهم فى الدولة المنصورية قلاوون أميرٌ يسمّى الخضر ابن سليمان ، كاتب شجاع ، وأنه وفد إلىٰ الديار المصرية فاخترمته المنية قبل عوده، وكان معه أربعة أولاد فعادوا بعد موته فى الدولة الزينية كتبغا .

الثانى عشر ـ مازنجان، و بيروه، وسحمة، والبلاد البرانية ـ وهى مُقام طائفة منهم يقال لها المازنجانية لا تزيد عدّتهم علىٰ خمسمائة، وهم طائفة ينتسبون إلىٰ المحمدية، والمازنجانية هم طائفة المبارِزكَكْ الموجود آسمه ورسم المكاتبة إليه فى دساتير المكاتبات القديمة . وقد أضيف إليهم الحُمَيدية، وهم طائفة من الأكراد لا تنقُص عدّتهم عن ألف مقاتل، لأن أميرهم مبارز الدين كك، كان من أمراء الخلافة فى الدولة العباسية، ومن ديوان الخلافة لُقِّبَ بمبارز الدين، وكك آسمه . قال : وكان يَدَّعى الصلاحَ وتنذر له النذور، فإذا حملت إليه قبلها وأضاف إليها مثلَها من عنده وتصدّق بهما معا . وذكر نحوه فى "التعريف". ثم كان له فى الدولة الهُولاكُويَّة المكانةُ العلية، وآستنابوه فى إربل وأعمالها، وأقطعوه عقرشوش بكمالها وأضافوا إليه هراة وتل حفتون وقدّموه علىٰ خمسمائة فارس، وتولّى الإمرة وقوانين(؟) نحو عشرين سنة، وبقى حتّى جاوز التسعين وهمته همة الشُّبَّان، ثم مات وخَلَفه ولده عز الدين، فكان من أبيه نِعْمَ الخلفُ، وجرىٰ علىٰ نَهْج أبيه فى ترتيب المملكة وعلت رتبتُه عند ملوك التتر وملوك الديار المصرية، ثم خلفه أخوه نجم الدين خضر فجرىٰ علىٰ سمت أبيه وأخيه . ثم قال : وكانت تردُ علىٰ الأبواب السلطانية بمصر ونوّاب الشام كتب تتهلّل بماء الفَصَاحة كالسُّحُب، وتسرح من أجنابها الأبكار العُرُب . ثم خلفه ولده فجرىٰ علىٰ سَنَنِه وبقيت الإمارة فى بنيه . والأمير القائم منهم هو المعبر عنه فى الدساتير بصاحب عقرشوش، وله مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الثالث عشر ـ بلاد شعلاباد إلىٰ خُفْتيان، وما بين ذلك من الدشت والدَّرْبند الكبير ـ وهو مُقَام طائفة منهم تعرف بالشهرية معروفون باللصوصية، وهم قوم لا يبلغ عددهم ألفا وجبالهم عاصية، ودَرْبندهم بين جبلين شاهقين يسقيهما الزاب

الكبير . قال فى " مسالك الأبصار " : وعليه ثلاث قناطر : آثنتان منها بالحجر والطين ، والوسطىٰ مضفورة من الخشب كالحصير ، علوها عن وجه الماء مائة ذراع فى الهواء ، وطولها بين الجبلين خمسون ذراعا فى عرض ذراعين ، تمرّ عليها الدوابُّ بأحمالها ، والخيل برجالها . وهى ترتفع وتنخفض ، يخاطر المجتاز عليها بنَفْسه ، وهم يأخذون الخِفَارة عندها ، وهم أهل غَدْر وخديعة لا يستطيع المسافر مدافعتهم ، ولهم أمير يخصّهم ، ولصاحبها مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الرابع عشر — ماذكرد والرستاق ، ومرت ، وجبل جنجرين المشرق علىٰ أُشْنُه من ذات اليمين — وهو مُقَام طائفة منهم يقال لهم الزرزارية ، ويقال إنهم ممن تكرَّد من العجم ، ولهم عدد جَمٌّ ، يكاد يبلغ خمسة آلاف مابين أمراءَ وأغنياء وفقراء وأكَّارين وغيرهم ، وجبلهم فى غاية العلو والشُّهُوق فى الهواء ، شديد البرد ، بأعلاه ثلاثة أحجار طول كل حجر منها عشرةُ أشبار فى عرض دون الثلاثة ، متخذة من الحجر الأخضر الماتع ، وعلىٰ كل منها كتابة قد آضمحلت لطول السنين ، يقال إنها نُصبت لمعنىٰ الإنذار والإخبار عمن أهلكه الثلج والبَرْدُ هناك فى الصيف ، وهم يأخذون الخِفَارة تحته . قال فى " مسالك الأبصار " : وكان لهم أمير جامع لكلمتهم آسمه نجم الدين باشاك ، ثم تولاهم من بعده آبنُه جيدة ، ثم آبنه عبد الله . قال : وكان لهم أمراءُ آخرون منهم الحُسَام شير الصغير ، وآبنه باشاك وغيرهم . قال : وينضم إلىٰ الزرزارية شرذمة قليلة تسمّٰى باسم قريتها بالكان نحو ثلثمائة رجل منفردين بمكان مشرف علىٰ عقبة الخان يأخذون عليها الخِفَارة ، ولصاحب ما ذكرد مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . ثم قال فى " التثقيف " : وهو حنش بن إسماعيل .

الخامس عشر — جولمرك — وهو مُقَام طائفة تسمّٰى الجولمركية ، وهم قوم نسبوا إلىٰ مكانهم ذلك فعرفوا به ، ويقال : إنهم طائفة من العرب من بنى اميَّةَ آعتصموا

بهذه الجبال عند غَلَبة بنى العَبَّاس عليهم، وأقاموا بها بين الأكراد فآنخرطوا فى سِلْكِهم . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم الآن فى عَدَد كثير، يزيدون علىٰ ثلاثة آلاف، كان ملكهم فى أوائل دولة التتر أسد بن مكلان، ثم خلفه آبنه عماد الدين، ثم آبنه أسد الدين . و ببلاده معدن الزِّرْنيخين : الأحمر والأصفر، ومنها ينقل إلىٰ سائر الأقطار . قال : وكان قد ظهر عنده معدن لازَوَرْد فأخفاه لئلا يسمع به ملوك التتر فيطلبونه، ومَعْقِله من أمنع المعاقل، علىٰ جبل مقطوع بذاته، والزابُ الكبير مُحْدِق به، لا مَحَطَّ للجيش عليه، ولا وصول للسهام إليه، وسطحه متسع للزراعة، وفى كل ضِلَع من أضلاعه كَهْفٌ مرتفع يأوِى إليه مَنْ أراد الآمتناع، وأعلاه مغمور بالثَّلج، والصعودُ إليه فى بعض الطريق يستدعى العبورَ علىٰ أوتاد مضروبة . ومَن لا يستطيع التسلقَ جُرَّ بالحبال، وكذلك بغال الطواحين . وملكهم معتَمَد عند الأكراد، وهو يأخذ الخِفَارة من جميع الطرقات من تبريز إلىٰ خُوَىّ ونَقْجوان، وهذا هو المعبر عنه فى "التعريف" وغيره من الدساتير فى المكاتبات بصاحب جولمرك، وهو يكاتَبُ من الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

السادس عشر — بلاد مركوان . علىٰ القرب من الجولمركية، كثيرة الثلوج والأمطار، بلاد زرع وضرع — وهى متاخمة لأُرْمِيَة من بلاد أذْرَبيجان، وبها طائفة من الأكراد تبلغ عدّتهم ثلاثة آلاف، وهم أحلاف للجولمركية .

السابع عشر — بلاد كواردات — وهى بلاد مجاورة لبلاد الجولمركية من جهة بلاد الروم، وهى بلاد خِصْبة، وبها طائفة من الأكراد ينتسبون إليها لا إلىٰ قبيلة، وعدّتهم نحو ثلاثة آلاف، ولهم أمير يخصهم .

الثامن عشر — بلاد الدِّينار — وهى بلاد تلى بلاد الجولمركية، وبها طائفة من الأكراد يقال لهم الدينارية نسبة إلىٰ بلدتهم، وعددهم نحو خمسمائة، ولهم سوق و بلد،

وكان لهم أميران ، أحدهما الأمير إبراهيم بن الأمير محمد ، كان له وجه عند الخلفاء ، والثانى الشهاب بن بدر الدين ، توفى أبوه وخلّفه كبيرا نخلفه فى إمرته ، وكان بينهم وبين المـازنجانية حروب .

التاسع عشر ـ بلاد العِمَادية وقلعة هارون . وهى بالقرب من بلاد الجولمركية ، وبهـا طائفة منهم يقال لهم الهَكَّارية يزيد عددهم علىٰ أربعـة آلاف مقاتل ، ولهم إمارة تخصهم . قال فى " مسالك الأبصار " : وهم يأخذون الخِفَارة فى أماكنَ كثيرة من بخارا إلىٰ بلد الجزيرة . وصـاحب هارون يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

العشرون ـ القمرانية وكهف داود ـ وبهـا طائفة منهم يقـال لهم التنبكية . قال فى " مسالك الأبصار " : وقليلٌ ما هم لكنهم حُمَاةٌ رُمَاةٌ وطعامهم مبذول علىٰ خَصَاصة .

وآعلم أنه بعد أن ذكر فى " مسالك الأبصار " ما تقدّم ذكره عَقَّبَ ذلك بذكر جمـاعة من الأكراد تفرّقوا فى الأقطار بعـد آجتماع ، منهم التحتية ، وهم قوم كانوا يضاهون الحُمَيْدية كان لهم أعيان وأمراء وأكابر ، فهلك أمراؤهم ونسيت كبراؤهم ، ولم يبق منهم إلا شرذمة قليلة تفرّقت بين القبائل والشعوب . ثم قال : وشُـعَبهم كثيرة : منهم السندية وهم أكثر شُعَبهم عددا ، وأوفَرُهم مَدَدا ، كانوا يبلغون ثلاثين ألف مقاتل . ومنهم المحمدية ، وكان لهم أمير لا يزيد جمعه علىٰ ستمائة رجل . ومنهم الراسنية ، كانوا أوفىٰ عدد وعُدَد ، وجَمْع ومَدَد ، ثم تشتت شملهم ، وتفرّق جمعهم ، وعادت عدّتهم فى بلد الموصل لا تزيد علىٰ ألف رجل ، وكان لهم أمير يقال له علاء الدين كورك بن إبراهيم فى بلد العَقْر ، ولا ينقص عن خمسمائة ، ومنهم الدنيكية ، وهم متفرّقون فى البلاد لا يزيد عددهم علىٰ ألف رجل .

قلت : وقد ذكر في " التثقيف " عدّة أماكن من بلاد وقلاع يكاتَبُ أصحابها من الأكراد سوى من تقدّم ذكره، وهي خمسة وعشرون موضعا .

إحداها ــ برجو . الثانية ــ البلهيثة . الثالثة ــ كرم ليس . الرابعة ــ اندشت . الخامسة ــ حردقيل . السادسة ــ سكراك . السابعة ــ قبليس . الثامنة ــ جرموك . التاسعة ــ شنكوس . العاشرة ــ بهرمان . الحادية عشرة ــ حصن أرَّان وهو حصن الملك . الثانية عشرة ــ ...... (١) الثالثة عشرة ــ سُونج . الرابعة عشرة ــ اكريسا . الخامسة عشرة ــ يزاركرد . السادسة عشرة ــ الزَّاب . السابعة عشرة ــ الزينية . الثامنة عشرة ــ الدَّرْبَنْدات العرابلية . التاسعة عشرة ــ قلعة الجبلين . العشرون ــ سيدكان . الحادية والعشرون ــ صاحب رماذان . الثانية والعشرون ــ الشَّعْبانية . الثالثة والعشرون ــ نمرية . الرابعة والعشرون ــ المحمدية . الخامسة والعشرون ــ كزليك .

الإقليم الخامس

(بلاد الدَّيْلَم)

بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وميم في الآخر . وهم جِيلٌ من الأعاجم سكَنُوا هذه البلادَ فعُرِفت بهم، وبعض الناس يزعم أنهم من العرب من بنى ضَبَّةَ ، ومنهم كان بنو بُوَيْهِ القائمون على خُلَفَاءِ بنى العَبَّاسِ ببغداد . قال ابن حوقل : وهي جبال متسعة إلى الغاية، وبها غِيَاض ومياه مشتبِكة في الوجه الذى يقابل طَبَرِسْتَانَ والبحر، وبين ذيل الجبل وبين البحر مسيرة يوم، وربما نقص عن ذلك، وربما زاد حتّى بلغ يومين .

---

(١) بياض بالأصل .

وقاعدتها (رُوذَبَار) . قال فى "المشترك" : بضم الراء المهملة وسكون الواو وفتح الذال المعجمة والبـاء الموحدة ثم ألف وراء مهملة فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وسـبعون درجة وسبع وثلاثون دقيقة، والعرض ستٌّ وثلاثون درجة وإحدى وعشرون دقيقة. قال ابن حوقل : وبه مُقَام ملوكهم .

ومن بلادها (كَلَار) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكاف ولام وألف وفى الآخر راء ـ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "القـانون" حيث الطولُ سبع وسبعون درجة، والعرضُ ست وثلاثون درجة . قال المهلَّبىّ : وهى مدينة الديلم، وهى فى جهة الشرق والجنوب عن لَاهِجَان من بلاد كِيلَان .

الإقليم السـادس
(الجِيـــلُ)

قال فى "المشـترك" : بكسر الجيم وسكون المثناة من تحت ثم لام ـ وهو آسم لصُـقْعٍ واسع مجاورٍ لبلاد الدَّيْلَم، ليس فيه قرى كثيرة، وليس فيه مدينة عظيمة . وقال فى "اللباب" : الجِيلُ آسم لبلاد متفرّقة وراء طَبَرِسْتَانَ . قال : ويقال لهـا أيضا كِيلَان وكِيل، فلما عُرِّبت قيل جِيلَان وجِيل، ومنها كُوشِيار الحكيم الجيلىّ فيما ذكره ياقوت، وإليها ينسب الشيخ عبد القادر الكِيلَانِى، وبالجملة فهما صُقْعان متلاصقان يعسر تمييز أحدهما عن الآخر. قال فى "مسالك الأبصار" عن الشريف محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الواحد الجيلىّ : إن بلاد كِيلَان فى وطاة من الأرض، وإنه يحيط بها أربعة حدود ؛ من الشرق إقليم مَازَنْدَرَان، ومن الغرب مُوقَانُ، ومن الجنوب عِراق العجم، يفصل بينهما جبل يعرف باشـناده، ومن الشَّمال بحر

القُلْزُم يعنى بحر طَبَرِسْتَانَ . قال : وطول مجموع كيلان مما بأيدى ملوكها، وهو شرق بغرب نحو عشرة أيام، وعرضها وهو جنوب بشمال نحو ثلاثة أيام تزيد وتنقص، وهى شديدة الأمطار، كثيرة الأنهار، كثيرة الفواكه خلا النخلَ والمَوْز وقصب السُّكَّر والمشمش، ويجلب إليها المحمضات من مازَنْدَران. قال : ومُدُن كِيلان غير مسوَّرة، ولملوكهم قصور علية، وجميع مبانيها بالآجُرّ مفروشة به أيضا كما فى بغداد، مسقَّفة بالخشب، وبعضها معقودة أقباءً وعليها قَشٌّ مضفور، وفى غالب ديارها آبار قريبة المستقىٰ نحو ذراعين أو ثلاثة أو أقل، والأنهار حاكمة علىٰ مُدُنها؛ وبها حَمَّامَاتٌ يجرى إليها الماء من الأنهار؛ وبها المساجد والمدارس وتسمَّى بها الخوانق، وغالب أقواتهم الأَرُزّ يعمل منه الخبز والرُّقَاق مع تيسر القمح والشعير عندهم، والبقر والغنم عندهم بكثرة؛ وأسعارُهم متوسطة إلىٰ الرِّخَص؛ وبها الحرير الكثير؛ ولها حصون فى نواحى مازَنْدرانَ وجزائرُ فى بحر طَبَرِسْتان، بها الرمان والبلوط والفواكه؛ وفيها تَحَصُّنُهم عند مغالبة العدوّ لهم؛ ولباسهم الأقبية الإسلامية الضَّيِّقَةُ الأكمام وتخافيف صغار علىٰ رءُوسهم، ويشدّون المَنَاطق والبُنُود؛ وخيلهم براذِين؛ وفى سروجهم المحلَّى بالفضة وغيرُه؛ ولملوكهم زِىّ جميل علىٰ ضيق بلادهم وقلة متحصِّلها، ويركب الملك بالرَّقَبة السلطانية والجُنَّاب والسِّلاحدارية والجمدارية والجنائب المجرورة، ويُتَّخَذ بظواهر قصور ملوكهم ميادينُ خُضْرٌ، فى أوساطها قصورٌ صغار من الخشب فيها جلوسهم للخِدَم والمظالم . ولايزال بين ملوكهم الخُلْف، فإذا قصدهم عدوّ خارجىٌّ عنهم تألفوا واجتمعوا عليه، حتّى إن هُولاكُو جهز إليهم جيشا عِدّته سبعون ألفا صحبة نائبه قَطْلوشاه فلم ينل منهم قصدا ، وكان آخرَ الأمر أن قُتِل قطلوشاه وهلك جُلُّ مَنْ معه . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بها ثمانَ قواعد بكل قاعدة منها مَلِكٌ، بعضهم أكبر من بعض ، وموقع جميعها فى الإقليم الرابع .

فأما الكبار فأربع[(١)] قواعد .

القـاعدة الأولى

(يُومِن)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الباء الموحدة التى بين الفاء والباء الموحدة وسكون الواو وكسر الميم ثم نون فى الآخر . قال : وهى قريبة من البحر، وبها فيما يحاذيها مَعْدِن حديد، وبهـا من معمولات القماش . قال فى "مسالك الأبصار" : وصاحبها شافعىّ المذهب دون غيره من ملوك الجيل، مذهب نشأ عليه ملوكها . قال : وعسكره يزيد على ألف فارس، وبلاده قليلة ولكن غالب دخله من التُّجَّار، والحرير بها كثير . قال : وصاحبها يَدَّعِى النسـبةَ إلى بيت الشرف، وله آعتناء بأهل العـلم والفضل؛ ولباس الملك والجند بها نوع من لباس التَّتَر؛ ولباس غِلْمـانها قريب من زىّ التجار، ولهم عَذَبات كالصوفية قدّامهم؛ وعامة أهلها كغيرهم ممن جاورهم .

القـاعدة الثـانية

(تُولِمُ)

قال فى " تقويم البُـلْدان " : بضم المثناة الفوقية وواو ولام وميم، وصـاحب " مسالك الأبصار " يثبت فيها ياء مثناة تحتيـة بين اللام والميم — وهى قريبة من البحر أيضا . قال فى "مسالك الأبصار": وأمر صاحبها قريب من صاحب يُومِنَ ولكن لاحرير فى بلاده؛ وهو حَنْبَلِىّ المذهب، وعدّة عسـكره نحو ألف فارس وهم أفرس إخوانهم، ولهم على ملوك الجيل آستظهار لما ظهر من نِكايتهم فى عسكر التتر. قال : وزِيُّها كزِىّ يُومِن .

---

(١) لم يذكر إلا ثلاثا . ولعل الرابعة دولاب .

القاعدة الثالثة

(كسكر)

قال في "تقويم البلدان": بفتح الكافين وسكون السين المهملة بينهما وراء مهملة في الآخر. وقد ذكر أنها دولاب ـ بضم الدال المهملة وسكون الواو ولام ألف وباء موحدة في الآخر. قال: وعن السمعاني فتح الدال وأنه أفصح وأنها من حدود الديلم. وذكر في "اللباب" أنها قرية من أعمال الري. قال في "مسالك الأبصار": وصاحبها له صولة في ملوك تولم، وجيشه أكثر عددا من غيره من ملوك الجيل، وبلاده أوسع، وأرضه أخصب وأكثر حبا وفاكهة وأغناما وأبقارا مما حولها، وهي كثيرة السمك والطير. ومنها الشيخ العارف السيد عبد القادر الكيلاني قدس الله روحه.

وأما الصغار فأربع أيضا.

القاعدة الأولى

(لاهجان)

قال في "تقويم البلدان": بفتح اللام وبعدها ألف وهاء وجيم مفتوحتان ثم ألف بعدها نون، ثم قال: وهي من الديلم أو كيلان. قال في "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة قال في "تقويم البلدان": ومنها يجلب الحرير المشهور إلى البلاد. قال في "مسالك الأبصار": وهي في حال الحرير كما في يومن بخلاف غيرهما من سائر بلاد الجيل.

القاعدة الثانية ـ (سخام).

القاعدة الثالثة ـ (مرست).

القاعدة الرابعة ـ (تنفس).

ولهـا عدة مُدُن غير القواعد .

(منها) كُوتُم . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الكاف(١) وواو ساكنة ثم تاء مثناة فوقية مضمومة ثم ميم فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " القـانون " حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : قال من رآها إنهـا مدينة لها بساتين، وهى ناقلة عن البحر مسيرة يوم . قال المهلبى : وهى مدينة كبيرة للجيل .

(ومنهـا) سالُوسُ . قال فى " تقويم البُلْدان" : المشهور بالسين المهملة وألف ولام مضمومة وواو ساكنة ثم سين ثانية ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال آبن حوقل : وهى على البحر ولها مَنَعَةٌ وهى صعبة المسلك . قال المهلبى : وهى آخر حدّ طَبَرِسْتَانَ من جهة الغرب .

الإقليم السـابع

(طَبَرَسْتَانُ)

بفتح الطاء المهملة والبـاء الموحدة والراء المهملة(٢) وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة فوق وألف ثم نون . قال فى " تقويم البُـلْدان" : وهى فى جهة الشرق عن بلاد الديلم وكيلان . قال : وإنمـا سميت طَبَرَسْتَانَ لأن طَبَرَ بالفارسية الفَأْسُ، وهى من كثرة آشتباك أشجارها لا يسلك فيها الجَيْشُ إلا بعد أن تقطع الأشجـارُ بالطَّبَرِ من بين أيديهم، وآسـتان بالفارسـية الناحية، فسميت طَبَرَسْتَان أى ناحية

(١) ضبطها ياقوت بفتح الكاف والتاء .

(٢) ضبطه ياقوت بكسر الراء، وقد تابعناه فى ضبط ما تقدم .

الطَّابَرِ . قال فى "العزيزى" : وهى فى غاية المَنَعَةِ والحصانة بالجبال المنيعة المحيطة بها من كل جانب، وفى وسط الجبال الأراضى السهلةُ، وفيها من كثرة المياه والغياض ما لا يساويها فيه بلد آخر، وهى عن قَزْوِينَ فى الشرق بانحراف إلى الشَّمال . قال ابن حوقل : وهى بلاد كثيرة المياه والأشجار والغالبُ عليها الغِيَاض، وأبنيتها بالخشب والقَصَب، وهى بلاد كثيرة الأمطار . ويرتفع منها حرير يعُمُّ الآفاق، وغالب خُبْزهم الأَرُزُّ . قال : وليس بجميع طَبَرَستان نهرٌ تجرى فيه السفن، إلا أن البحر قريب منهم على أقلَّ من يوم . قال ابن خلِّكَانَ : والنسبة إليها طَبَرِىٌّ .

وقاعدتها (آمُلُ) . قال فى "المشترك" : بهمزة مفتوحة بعدها ألف ثم ميم مضمومة ولام فى الآخر ـ وهى مدينة من طَبَرَسْتَانَ واقعةٌ فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال فى "القانون" : وهى قَصَبة طَبَرَسْتَانَ، وهى أكبر من قَزْوِينَ، مشتبكةٌ بالعمارة لا يعلم على قدرها أعمر منها فى تلك النواحى . قال أحمد الكاتب : وهى على بحر الدَّيْلَم . وقال فى "المشترك" : هى أكبر مدينة بطَبَرَسْتَانَ . ومنها أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبَرِىّ الإمام الكبير المشهور .

ولها عدّة مدن .

(منها) رُويَانُ . قال فى "المشترك" : بضم الراء المهملة وسكون الواو ثم ياء مثناة من تحت وألف ونون ـ وهى مدينة من طَبَرَسْتَانَ واقعة فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "رسم المعمور" حيث الطول ست وسبعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى مدينة كبيرة فى جبال طَبَرَسْتَانَ، ولها كورة عظيمة وعمل . قال فى "اللباب" : وخرج منها جماعة كثيرة من العلماء .

(ومنها) مَامَطِيرُ . قال فى "اللباب" : بفتح الميمين وكسر الطاء المهملة وسكون المثناة من تحت وراء مهملة فى الآخر . قال فى "اللباب"(١) : وهى بلدة من عمل آمُلَ ، خرج منها جماعةٌ من العلماء .

(ومنها) دِهِسْتَانُ . قال فى "اللباب" : بكسر الدال المهملة والهاء وسكون السين المهملة وفتح المثناة من فوق ثم ألف ونون . قال ابن حوقل : وهى مدينة من طَبَرَسْتَانَ ، وقيل هى من خُرَاسَانَ ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول إحدىٰ وثمانون درجة وعشر دقائق ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة مشهورة عند مَازَنْدَرَانَ ، بناها عبد الله بن طاهر ، ومعناها بالفارسية موضع القُرىٰ ، وهى آخر حدّ طَبَرِسْتَانَ بين جُرْجَانَ وخُوَارَزْمَ .

الإقليم الثامن

(مَازَنْدَرَانُ)

بفتح الميم وبعدها ألف وفتح الزاى المعجمة وسكون النون وفتح الدال والراء المهملتين وألف ثم نون ، وهو إقليم علىٰ القرب من طَبَرَسْتَانَ وقاعدتها (جُرْجَانُ) . قال فى "اللباب" : بضم الجيم وسكون الراء المهملة وجيم ثانية وألف وفى آخرها نون . قال فى "المشترك" : والعجم تسميها كُرْكَانَ بضم الكاف وسكون الراء المهملة . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال "المهلّبى" : وهى

---

(١) المقام للاضمار .

مدينة جليلة بين خُرَاسَانَ و بين طَبَرِسْتَانَ . فَخُوَارَزْمُ منها فى جهة الشرق وطَبَرِسْتَانُ منها فى جهة الغرب . قال : وهى بلدة كثيرة الأمطار، متصلة الشتاء، وفى وسطها نهر يجرى ، وهى قريبة من بحر الخزر، والجبالُ مُحْتَفَّةٌ بها فهى سُهْلِيَّة جَبَلِيَة، يجتمع فيها فوا كه الغَوْر والنَّجْد . قال : وبها من خشب الخَلَنْج ماليس فى بلد آخر مثله . ولهـا مُدُن أخرىٰ .

(منها) سَارِيَةُ . قال فى " اللباب " : بفتح السـين المهملة وألف وراء مهملة ومثناة من تحتها وهاء . قال فى " اللباب " : وهى مدينة من مَازَنْدَرَانَ . وقال آبن سعيد : من طَبَرَسْتَانَ ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . وفى شرقيها خُوَار الرَّىّ و بينهما نحو ثمـانين ميلاً .

(ومنها) أَسْتَرَابَاذ . قال فى "المشـترك" : بفتح الهمزة . وقال فى "اللباب" : بفتح الهمزة(١) وسكون السـين المهملة وكسر(٢) المثناة من فوق وفتح الراء المهملة و بالباء الموحدة بين ألفين وفى آخرها ذال معجمة . قال فى " اللبـاب " : وقد يُلْحِقون فيها ألفا أخرىٰ بين التاء والراء . قال فى " المشـترك " : أستر آسم رجل واباذ آسم عمارة ، فكأنه قال عمارة أسـتر . وهى مدينة من مَازَنْدَرَانَ . وقيل من خُرَاسَانَ . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السـبعة . قال فى " القانون " حيث الطول تسع وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس دقائق . قال فى " العزيزى " : وهى علىٰ حدّ طَبَرَسْتَانَ، و بينها و بين آمُلَ : قصبةِ طَبَرَسْتَانَ تسعة وثلاثون فرسخا .

(١) الذى فى تقويم البلدان عن اللباب بكسر الألف .

(٢) ضبطها ياقوت بالفتح .

(ومنها) آبُسْكُونُ[(١)] . قال فى "اللباب" : بفتح الألف الممدودة وضم الباء الموحدة وسكون الســين المهملة وضم الكاف وفى آخرها نون ـــ وهى بلدة على ساحل بحر الخَزَرِ واقعةٌ فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وســبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق . قال فى "القانون" : وهى فُرْضة جُرْجَانَ . قال آبن حوقل : وإليها ينسب بحر آبُسْكُون ، ومنها يركب إلى الخَزَر وإلى باب الأبواب والجيل والدَّيْلم وغير ذلك .

الإقليم التــاسع
(قُومَسُ)

قال فى "اللبــاب" : بضم القاف وسكون الواو وفتح الميم[(٢)] وفى آخرها سين مهملة . قال : ويقال لهــا بالفارسية كُومَس بإبدال القاف كافا . قال : وهى من بَسْطَامَ إلى سِمْنَان ، وهما من قُومَسَ بين خُرَاسَانَ و بين الجبال ، أوّلها من ناحية الغرب سِمْنان . قال أحمد الكاتب : وقُومَسُ بلدٌ واسع جليل القدر . وقال فى "المشترك" : قُومَسُ موضع كبير فيه بلاد كثيرة وقُرًى ـــ وقاعدتها (سِمْنَانُ) . قال فى "المشترك" : بكسر السين المهملة وسكون الميم ونونين بينهما ألف . قال فى " القــانون " حيث الطول تسع وسبعون درجة وخمس عشرة دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة . قال فى "المشترك" : وهو بلد مشهور بين الرَّيِّ والدَّامَغَانِ .

وبها مُدُن أيضا .

(منهــا) الدَّامَغَانُ . قال فى " اللبــاب" : بفتح الدال المهملة وألف وفتح الميم والغين المعجمة وألف ثانية ثم نون ـــ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى " القانون "

---

(١) ضبطها ياقوت بفتح الباء . (٢) ضبطها ياقوت بكسر الميم .

حيث الطولُ تسع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة .

(ومنها) بَسْطَامُ . قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون السين وفتح الطاء المهملتين وفى الآخر ميم ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "اللباب" : وهى بلدة مشهورة . قال ابن حوقل : ولها البساتين الكثيرة ، وهى كثيرة الفواكه، وإليها ينسب أبو يَزِيدَ البَسْطَامىّ الزاهد .

الإقليم العاشر
(خُرَاسَانُ)

قال فى "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة وألف ثم سين مهملة وألف ونون ــ وهى بلاد كثيرة . قال : وأهل العراق يقولون إنها من الرَّىِّ إلىٰ مَطْلَعِ الشمس، وبعضهم يقول من حُلْوَانَ إلىٰ مَطْلَعِ الشمس، ومعنىٰ خرآسم للشمس، واسان موضعُ الشىء ومكانُه، وقيل معنىٰ خُرَاسَان كُلْ بالرَّفَاهِيَةِ . قال فى "تقويم البُلْدان": ويحيط بها من جهة الغرب المَفَازة التى بينها وبين بلاد الجِيل وجُرْجَانَ، ومن جهة الجنوب مفازة فاصلة بينها وبين فَارِسَ وقُومَسَ، ومن الشرق نواحى سِجِسْتَانَ وبلاد الهند، ومن جهة الشَّمال بلاد ماوراء النهر وشىءٌ من تُرْكُسْتَانَ . قال : وخُرَاسَانُ تشتمل علىٰ عدّة كُوَر كل كُورَةٍ منها نحو إقليم .

ومن كورها المشهورة (جُوَيْنُ) بضم الجيم وفتح الواو وسكون المثناة من تحت ونون فى الآخر . (وقُوهَسْتان) بضم القاف وسكون الواو وفتح الهاء(١) وسكون السين المهملة وفتح المثناة فوق وألف ثم نون . و(بَغْشُورُ) بفتح الباء الموحدة والغين المعجمة

(١) ضبطها ياقوت بكسر الهاء .

الساكنة ثم شين معجمة وواو وراء مهملة فى الآخر. و(مَرْوُ) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وواو فى الآخر. و(طُوسُ) بضم الطاء المهملة وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر. و(بَيْهَقُ) بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح الهاء وقاف فى الآخر. و (بَاخَرْزُ) بفتح الباء الموحدة ثم ألف وخاء معجمة وراء مهملة ساكنة وزاى معجمة؛ وإليها ينسب الباخَرْزىّ الذى أسلم على يديه بَرَكَةُ .

وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة فى تاريخه (نَيْسَابُورُ) . قال فى "اللباب": بفتح النون وسكون المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وسكون الألف وضم الباء الموحدة وبعدها واو وراء مهملة . قال فى "اللباب" : وسميت نَيْسَابُورَ لأن سابور الملك لما رءاها ، قال : يصلح أن يكون هاهنا مدينــةٌ، وكانت قَصَبا فأمر بقطع القَصَب وأن تبنى مدينة ، فقيــل نيسابور والنَّىْ هو القَصَبُ . قال ابن سـعيد : والعجم تسميها نَشَاور . قال فى "تقويم البُلْدان" : واسمها الآن نَشَاوَرُ، يعنى بفتح النون والشين المعجمة وألف وفتح الواو وراء مهملة فى الآخر، وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة مشهورة فى أرض سَهْلة ، وهى مفترشــة البناء مقدار فرسخ فى فرسخ، وبها قُنِىّ ماء، وهى صحيحة الهواء . قال فى "اللبـاب" : وهى أحسن مُدُن خُرَاسان وأجمعها للخير. قال أحمد بن يعقوبَ الكاتب : وبينهـا وبين كلٍّ من مَرْوَ ومن هَرَاةَ ومن جُرْجَانَ ومن الدَّامَغَانِ عشر مراحل .

وبها مدن عديدة .

(منها) الطَّابَرَانُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة والراء المهملة وبعـد الألف نون . قال فى "القانون" : وهى قصبة طُوسَ من كُوَرِ

خُرَاسَانَ ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وعشرون دقيقة. قال فى "العزيزى" : وهى من أجَلّ مدن خُرَاسَانَ .

(ومنها) نَوْقَانُ . قال فى "اللباب" : بفتح النون (١) وسكون الواو وفتح القاف وبعد الألف نون ـ وهى مدينة من أعمال طُوسَ من خُرَاسَانَ، موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول آثنتان وثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال المهلَّبى : وهى من أجَلّ مدن خُرَاسَانَ وأعمرها ، و بظاهرها قبر الإمام علىّ بن موسٰى بن جعفر الصادق، وقبر هارون الرشيد الخليفة العباسىّ؛ و بها معدن الفَيْرُوزَج والدَّهْنَج .

(ومنها) إسْفَرَايِنُ . قال فى "اللباب" : بكسر الألف (٢) وسكون السين المهملة وفتح الفاء والراء المهملة وكسر المثناة التحتية ونون فى الآخر ـ وهى بلدة بنواحى نَيْسَابُور من خُرَاسَانَ ـ موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول إحدىٰ وسبعون درجة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وتسمىٰ المِهْرَجَانَ أيضا بكسر الميم وسكون الهاء وفتح الراء المهملة والجيم وألف ونون فى الآخر. يقال إن كسرىٰ سماها بذلك تشبيها بالمِهْرَجَانِ أحد أعياد الفُرْس : لأن المِهْرَجَانَ أطيب أوقات الفصول، شبهها بذلك لخُضْرتها ونَضَارتها، و إليها ينسب الأستاذ أبو إسحاق الإسْفَرَايِنِىّ الإمام الكبير المشهور .

(ومنها) خُسْرَوْجِرْدُ . قال فى "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وسكون السين وفتح الراء المهملتين وسكون الواو وكسر الجيم ثم راء ودال مهملتان ـ وموقعها

(١) ضبطها ياقوت بالضم .
(٢) ضبطها ياقوت بالفتح ، ثم قال و ياء مكسورة و ياء أخرى ساكنة .

فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول إحدى وثمانون درجة وخمس دقائق، والعرض ست وثلاثون درجة . قال فى "المشترك": وهى قَصَبة ناحية بَيْهَق من خُرَاسَانَ . وقال فى "اللباب" : كانت قصبتَها ثم صارت القصبة سبزوار .

(ومنها) نَسَا . قال فى "المشترك" : بفتح النون والسين المهملة وألف مقصورة ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطولُ اثنتان وثمانون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال فى "المشترك" : وهى مدينة من خُرَاسَانَ بين أَبِيوَرْدَ وسَرَخْسَ . قال ابن حوقل : وهى مدينة خِصْبة، ومنها الإمام أحمد النسائىّ صاحب السُّنَنِ .

(ومنها) أَزَاذَوَار . قال فى "تقويم البُلْدان" : بالهمزة والزاى المعجمة ثم ألف وذال معجمة وواو مفتوحتين وألف وراء مهملة فى الآخر . وهى قَصَبة جُوَيْنَ من خُرَاسَانَ . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة، ومنها إمام الحرمين الإمام الشافعىّ المشهور .

(ومنها) قَايِنُ . قال فى "اللباب" : بفتح القاف وبعد الألف ياء مثناة تحتية مكسورة ثم نون . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول أربع وثمانون درجة وخمس وثلاثون دقيقة [والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة] (1) . قال ابن حوقل : وهى قَصَبة قُوهَسْتَانَ، من خُرَاسَانَ على مفازة . قال : وهى مثل سَرَخْسَ فى الكِبَر، وماؤها من القُنِىّ، وبساتينها قليلة، وقراها متفرّقة . قال فى "اللباب" : وإليها ينسب جماعة من العلماء .

(1) الزيادة عن تقويم البلدان نقلا عن القانون .

(ومنها) سَرَخْس . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح السين والراء المهملتين ثم خاء معجمة ساكنة وسين مهملة ساكنة ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول خمس وثمانون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة بين نَيْسَابُورَ وبين مَرْوَ فى أرض سهلة ، وليس لها ماء جار إلا نهر يجرى فى بعض السنة ، وهو فضلة مياه هَرَاةَ ؛ والغالب على نواحيها المراعى ؛ ومعظم مال أهلها الجِمَال ، وماؤهم من الآبار ، وأرحيتهم على الدوابّ . قال المهلبىّ : والرمال مُحْتَفَّةٌ بها .

(ومنها) بُوشَنْجُ . قال فى "اللباب" : بضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الشين المعجمة وسكون النون وجيم فى الآخر . قال فى "اللباب" : ويقال لها أيضا فُوشَنْج بالفاء بدل الباء . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويقال لها أيضا بُوشَنْكُ بالكاف بدل الجيم . قال ابن حوقل : وهى مدينة على نحو النصف من هَرَاة فى مستوٍ من الأرض ، ولها مياه وأشجار كثيرة ، وماؤها من نهر بِهَرَاةَ ، وهو يجرى من هراة إلى بُوشَنْجَ إلى سَرَخْسَ .

(ومنها) هَرَاةُ . قال فى "اللباب" : بفتح الهاء والراء المهملة ثم ألف وهاء فى الآخر . قال فى "التعريف" : ولا يسمع عجمىّ يقول إلا هرىٰ ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى من خُرَاسَانَ ، ولها أعمال ، وداخلها مياه جارية ، والجبل منها على نحو فرسخين ، ومنه تعمل حجارة الأرحية وغيرها ، وليس به محتطَب ولا مَرْعًى ، وعلى رأسه بيت نار كان للفُرْس ، وخارج هَرَاةَ المياهُ والبساتين . قال فى "المشترك" : وكانت مدينة عظيمة نخرّبها التَّتَرُ . قال فى "اللباب" : وكان فَتْحُها فى خلافة أمير المؤمنين

عثمان رضى الله عنه. قال : والنسبة إليهـا هَرَوِىٌّ . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن الناس من يعُدّ هَرَاة مفردة بذاتها عن خُرَاسَانَ، وصاحبها يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنهـا) مَرْوُ الرُّوذِ . قال فى "المشـترك" : بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفى آخرها واو . وقال فى "اللبـاب" بفتح الواو وألف ولام وضم الراء الثانيـة وسكون الواو وذال معجمة ، والرُّوذُ بالعجمية النهر ، ومعناه مَرْوُ النهر . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول سبع وثمانون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى أكبر من بُوشَنْجَ، ولها نهر كبير وعليه البساتين، وهى طيِّبة التربة والهواء، والجبل عنها فى جهة الغرب علىٰ ثلاثة فراسخ . قال فى "اللباب" : وهى من أشهر مُدُن خُرَاسَانَ، والنسبة إليها مَرْوَرُّوذِىٌّ ومَرُّوذِىٌّ أيضا .

(ومنهـا) مَرْوُ الشَّاهِجَان . قال فى "المشترك" : بفتح الميم وسكون الراء المهملة وواو فى الآخر، وهو مضاف إلىٰ الشَّاهجان بفتح الشين وألف بعدها هاء ثم جيم وألف ونون ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال فى "المشـترك" : ومَرْوُ الشَّاهِجَان معناه رُوح الملك . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وثمانون درجة، والعرض سبع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة قديمة يقال إنها من بناء طهمورث: أحد ملوك الفُرْس. قال فى "مسالك الأبصار" : ويقال إنها من بناء ذى القَرْنين . قال : وهى فى أرض مستويةٍ بعيدة عن الجبال لايُرىٰ منها الجبل، وأرضها كثيرة الرمل وفيها سُبُوخة ، ويجرى علىٰ بابها نهرٌ يدخل منه المـاء إلىٰ حياض المدينة، ومنه شرب أهلها؛ ولها ثلاثة أنهار أُخَر؛ وبها الفواكه الحسنة تقدّد وتحمل إلىٰ البلاد؛ وبها الزبيب الذى لانظير له؛ ولها من

النظافة وحسن الترتيب وتقسيم الأبنية والغُرُوس علىٰ الأنهار، وتمييز كل سُوقٍ عن غيره ماليس لغيرها من البلاد . قال في "المشترك" : والنسبة إليها مَرْوَزِيٌّ . قال في "تقويم البلدان" : وبها كان مُقَام المأمون لما كان بخُرَاسَانَ، وبها قُتِل يَزْدَجِرْدُ آخرُ ملوك الفُرْس، ومنها ظهرت دولة بنى العباس، وبها صُبِغ أوّل سواد لبسته المسوِّدة، ومنها يرتفع الحرير الكثير والقطنُ. قال في "المشترك" : وبينها وبين كلٍّ من نَيْسَابُورَ وهَرَاةَ وبَلْخَ وبُخَارا مسيرة آثنى عشر يوما .

(ومنها) الطَّالَقَانُ . قال في "المشترك" : بفتح الطاء المهملة واللام والقاف ثم ألف ونون . وقال في "اللباب" : بتسكين اللام — وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمان وثمانون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال آبن حوقل : وهى مدينة نحو مَرْو الرُّوذ في الكِبَر، ولها مياه جارية وبساتين قليلة، وهى في جبل، ولها رُسْتاق في الجبل، وهى غير الطَّالَقَانِ المقدّم ذكرها في عراق العجم .

(ومنها) بَلْخُ . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وفي آخرها خاء معجمة — وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" و"القانون" حيث الطول إحدىٰ وتسعون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وإحدىٰ وأربعون دقيقة . قال آبن حوقل : وهى مدينة في مستوٍ من الأرض، بينها وبين أقرب جبل إليها أربعة فراسخ، والمدينة نصف فرسخ في مثله، ولها نهر يسمّى الدهاش (١) يجرى في ربضها، وهو نهر يدير عَشْر أرحية، والبساتين تحتف بها من جميع جهاتها، وبها الأُتْرُجُّ وقَصَبُ السُّكَّرِ، وتقع في نواحيها الثلوج . قال في "اللباب" :

(١) وقع في التقويم بإهمال السين، ولم نعثر عليه في المعجم ولا في القاموس .

فتحها الأَحْنَفُ بن قَيْس التميمىّ فى خلافة عثمان رضى الله عنـه ؛ وخَرج منها مالا يحصٰى من الأئمة والعلمـاء والصلحاء .

(ومنها) شَهْرَسْتَانُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح الشين المعجمة وسكون الهـاء وفتح الراء وسكون الســين المهملتين وفتح التاء المثناة من فوقُ وبعد الألف نون ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم الســبعة قال فى "الأطوال" و"القـانون" حيث الطول إحدىٰ وتسعون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وإحدىٰ وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : شَهْر بلغة الفرس المدينة ، واستان الناحية ، فمعنىٰ آسمها مدينة الناحية. قال : وهى مدينة مشهورة بين نَيْسَابُورَ وخُوَارَزْمَ فى آخر حدود خُرَاسَانَ وأوّل حدود رمال خُوَارَزْمَ .

الإقليم الحـادى عشر
(زَابُلُسْتَانُ)

بفتح الزاى المعجمة ثم ألف بعـدها باء موحدة ولام مضمومتان وسـين مهملة ساكنة وتاء مثناة فوقُ مفتوحة ثم ألف ونون ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول آثنتان وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وخمسَ عشرةَ دقيقة . قال آبن حوقل : وهى مدينة لهـا بلاد وأعمال ، وهى عن بَلْخ علىٰ عشر مراحل ، وعندها نهر كبير يجرى ؛ وليس لها بساتين بل هى مدينة علىٰ جبل ، والفواكه تأتيها مجلوبة . قال فى "اللباب" : وبها قلعة حصينة .

ولها مدن غيرها .

(منهـا) غَزْنَةُ . قال فى "اللباب" : بفتح الغين وسكون الزاى المعجمتين وفتح

النون ــ وموقعها فى آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" و "القانون" حيث الطول أربع وتسعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ٱبن حوقل : هى من عمل البامِيَان؛ وقد تقدّم أن البَامِيان من زَابُلُسْتَانَ . وقال فى "اللبـاب" : هى من أوّل بلاد الهند . وقال فى "مزيل الارتيـاب" : هى فى طرف خُرَاسَانَ وأوّل بلاد الهنـد، وهى كالحدّ بينهما . قال ٱبن حوقل : وهى فُرْضة الهند وموطن التجار، ولها دَرْبَنْد مشهور .

(ومنها) بَنْجَهِيرُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح البـاء الموحدة وسكون النون وفتح الجيم وكسر الهاء وسكون المثناة تحتُ وراء مهملة فى الآخر ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول أربع وتسعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة من أعمال البامِيَان علىٰ جبل، والغالب علىٰ أهلها العَيْثُ والفَسَاد . قال فى "اللباب" : وبها جبل الفضة، والدراهم بها كثيرة، لايشترون ولو بَاقَةَ بَقْلٍ بأقلَّ من درهم، وقد جعلوا السُّوق كهيئة الغِرْبَالِ لكثرة الحُفَر . قال : وإنما يتبعون عروقا يجدونها تُفْضِى إلىٰ الفِضَّة، فإذا وجدوا عِرْقًا حفروا أبدا إلىٰ أن يصيروا إلىٰ الفضة، والرجل منهم يُنْفِق الأموال الكثيرة فى الحَفْر، وربمـا خرج له من الفضـة مايستغنِى به هو وعَقِبُه، وربمـا خاب عمله لقلة المـال وغير ذلك، وربمـا وقف رجل علىٰ العِرْق ووقف آخر عليه فى موضع آخر فيأخذان جميعا فى الحَفْر؛ والعادة عندهم أن من سبق فاعترض علىٰ صاحبه فقد ٱستحق .

الإقليم الثــانى عشر
(الغُـــورُ)

قال فى " اللباب " : بضم الغين المعجمة وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر. قال : وهى بلاد فى الجبال بخُرَاسَانَ قريبةٌ من هَرَاةَ، وهى مملكة كبيرة، وغالبها جبال عامرة ذات عيون وبساتينَ وأنهـار، وهى بلاد حصينة منيعة، وتحيط بها خُرَاسَانُ من ثلاث جهات ولذلك حُسِبت من خراسان، والحدّ الرابع لها قِبْلىّ سِجِسْتَانَ .

وقاعدتها فيا قاله فى " تقويم البُـلْدان " (بِيرُوزْكُوه) . قال فى " المشـترك ": بكسر البـاء الموحدة وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ثم زاى معجمة وضم الكاف وواو وهـاء ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى " المشترك " : معنىٰ بِيرُوزْكُوه الجبـل الأزرق ؛ وهى قلعة حصينة دار مملكة جبال الغُورِ . قال : وبها كان مستقرّا بنو سامحان (١) ملوك الغُورِ .

قلت : وبلاد الغُور وغَزْنَةُ وما والاها وإن عدّها فى " مسالك الأبصار " من مملكة التورانيين، فإنها ليست من أصـل مملكة تُورانَ، وإنمـا تغلب ملوكها عليها من مملكة إيران، فلذلك أثبتُّها فى مملكة إيران؛ وماغاب عليه بنو هُولاكُو من مملكة الروم، وهو قُونِيَـة وما معها ليس من مملكة إيران بل هو مملكة مسـتقلة بذاتها كما سيأتى، ولذلك لم أثبتها فى مملكة إيران والله أعلم .

---

(١) كذا فى الأصل علىٰ هذه الصورة، والذى فى التقويم "بها كان مستقر آل سام الخ" وفى معجم البلدان "بناها بنو سام ملوك الغورية" .

الجملة الثالثة

(فى الأنهار المشهورة)

واعلم أن بهذه المملكة عدّةَ أنهار، والمشهور منها ثلاثةَ عشرَ نهرا :

الأوّل ـ الفُرات وما يصب فيها (١) ويخرج منها (١) . فأما نهر الفرات فأوّله من شَمَالىّ مدينــة أَرْزَنِ الروم وشرقيها ، وأرْزَنُ هذه آخر حدّ بلاد الروم من جهة الشرق ، ثم يأخذ إلىٰ قرب مَلَطْيَةَ ثم إلىٰ شِمْشَاط ، ثم يأخذ مشرِّقا ويتجاوز قلعــة الرُّوم ويمرّ مع جانبها من شماليها وشرقيها ، ثم يسير إلىٰ الْبِيرَة ، ويمرّ من جنوبيها ، ثم يمرّ مشرِّقا حتّى يتجاوز بالِسَ وقلعة جَعْبَرَ ويتجاوزها إلىٰ الرَّقَّة ، ثم يمرّ مشرِّقا ويتجاوز الرَّحْبَةَ من شماليها ويسير إلىٰ عانةَ ثم إلىٰ هِيتَ ، ثم يسير إلىٰ الكُوفَةِ . فإذا جاوز نهر كُوثىٰ بستة فراسخ آنقسم نصفين ، ومرّ الجنوبىّ منهما إلىٰ الكوفة ويجاوزها ويصبُّ فى البطائح . ويمرّ القسم الآخر وهو أعظمهما ويعرف بنهر سُورا ، ويمرّ بإزاء قصر آبن هُبَيْرَة ، ويتجاوزه إلىٰ مدينة بابل القديمة ، ويتفرّع منه عدّة أنهر ويمرّ عمودُه إلىٰ النيل ويسـمّى من بعد النيل نهر الصَّرَاة ، ثم يتجاوز النيل ويصب فى دِجْلَةَ .

وأما الأنهار التى تصب فيه ، فمنها نهر شِمْشَاط ، ونهر البَلِيخ ، ونهر الخابُور ، ونهر الهِرْماس ، وغيرُها .

وأما الأنهار التى تخرج من الفرات ، فمنها نهر عيسىٰ ، ونهر صَرصر ، ونهر المَلِك ، ونهر كُوثىٰ وغيرُ ذلك .

الثانى ـ دِجْلَةُ ومايصب إليها ويخرج منها . فأما دِجْلة فقال فى "المشترك" : بكسر الدال المهملة وسكون الجيم . قال : وهى نهر عظيم مشهور مَخْرَجه من بلاد

(١) كذا فى التقويم أيضا بالتأنيث والأولى التذكير.

الرُّوم؛ ثم يمرّ علىٰ آمِدَ، وحِصْنِ كَيْفا، وجزيرة آبن عُمَر، والمَوْصِل، وتِكْرِيتَ، وبَغْدَادَ، ووَاسِطَ، والبَصْرَةِ؛ ثم يصبّ فى بحر فَارِسَ. وذكر فى "العزيزى": أن رأس دِجْلَةَ شمـالىّ مَيَّافَارِقِينَ من تحت حِصْنٍ يعرف بحِصْنِ ذى القَرْنين. ويجرى من الشمال والغرب إلىٰ جهة الجنوب والشرق؛ ثم يشرّق ويرجع إلىٰ جهة الشَّمال؛ ثم يغرّب بميـلة إلىٰ الجنوب إلىٰ مدينـة آمِدَ؛ ثم يأخذ جنوبا إلىٰ جزيرة آبن عُمَر؛ ثم يأخذ شرقا وجنوبا إلىٰ مدينـة بَلَد؛ ثم يشرق إلىٰ المَوْصِـل، ثم يسير مشرقا إلىٰ تِكْرِيتَ؛ ثم يأخذ مشرقا نصـبا إلىٰ سُرَّ مَنْ رَأىٰ؛ ثم يأخذ جنوبا علىٰ عُكْبَرىٰ؛ ثم يأخذ مشرقا إلىٰ البَرَدَانِ، ثم يأخذ جنوبا بميلة إلىٰ الشرق إلىٰ بَغْدَادَ؛ ثم يسـير جنوبا إلىٰ كَلْوَاذَا، ويأخذ إلىٰ المدائن ويتجاوز إلىٰ دير العَاقُولِ؛ ثم يسير مشرقا إلىٰ النُّعْمَانِيَّـة؛ ثم يسـير جنوبا ومشرقا إلىٰ فَمِ الصِّلْح؛ ثم يسير مغرّبا إلىٰ وَاسِطَ؛ ثم يشرّق إلىٰ بطائح وَاسِطَ؛ ثم يخرج من البطائح ويسـير بين الشرق والجنوب حتّى يتجاوز البَصْرَةَ، ويمرّ علىٰ فُوَّهة الأُبُلَّةِ، ثم يسير إلىٰ عَبَّادَانَ ويصبّ فى بحر فَارِسَ.

وأما الأنهـار التى تصب فى دِجْلَةَ: فمنها نهر أَرْزَنَ، ونهرُ الثَّرْثار، ونهرُ الفُرَاتِ الأعلىٰ وهو الأكبر، ونهر الزَّابِ الأصغر، وغيرها.

وأما الأنهار التى تخرج من دِجلةَ فعدّة أنهار؛ من أشهرها نهر الأُبُلَّةِ، ونهر مَعْقِل المقدّم ذكرهما فى الكلام علىٰ متنزهات هذه المملكة.

الثالث — دِجْلة الأهواز. وهو نهر ينبعث من الأهواز، ويمرّ فى جهة الغرب إلىٰ عَسْكَرِ مُكْرَمٍ، وهو قرب دِجْلة بغداد فى المقدار، وعليه مَزَارِعُ عظيمة من قصب السُّكَّر وغيره.

الرابع — نهر شِيرِينَ (١) . وهو نهر يخرج من جبل دينار من ناحية بازرع ويخترق بلاد فارس ويقع فى بحر فارس عند جَنَّابةَ ، من بلاد فارس .

الخامس — نهر المَسْرُقَان . وهو نهر عظيم فى بلاد خُوزُستان ، يجرى من ناحية تُسْتَرَ ، ويمرّ علىٰ عَسْكَرِ مُكْرَمٍ ، ويسقِى بجميع مائه النخل والزرع وقَصَب السكر ، ولا يضيع شىء من مائه .

السادس — نهر تُسْتَرَ . وهو نهر يخرج من وراء عسكر مُكْرَم ، ويمرّ علىٰ الأهواز ، ثم ينتهى إلىٰ نهر السِّدرة إلىٰ حصن مهدىّ ، ويصب فى بحر فارس .

السابع — نهر طَابَ . ومَخْرَجه من جبال أصفَهان من قرب المَرْج ، وينضم إليه نهر آخر ويسير حتّىٰ يمرّ علىٰ باب أَرَّجَانَ ، ويقع فى بحر فارس عند شينير .

الثامن — نهر سَكَّان . وهو نهر يخرج من رُسْتاق الرونجان (٢) من قرية تدعىٰ ساركَرى (٢) ، ويسقى شيئا كثيرا من كُوَرِ فارس ، ثم يصب فى بحر فارس ، وعليه من العمارة ما ليس علىٰ غيره .

التاسع — نهر زَنْدَوَرْذَ ، بفتح الزاى المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة والواو ثم راء مهملة ساكنة وذال معجمة فى الآخر . وهو نهر كبير علىٰ باب أَصْفَهان .

العاشر — نهر الهِنْدَمَنْد . قال ابن حوقل : وهو أعظم أنهار سِجِسْتَانَ ، ويخرج من ظهر الغُورِ ، ويمرّ علىٰ حدود الرُّخَّجِ ، ثم يعطِف ويمرّ علىٰ بُسْت ، حتّىٰ يصير علىٰ مرحلة من سِجِسْتَانَ ، ثم يصب فى بحيرة زَرَه ، وإذا تجاوز بُسْتَ يتشعب منه أنهار كثيرة ، وعلىٰ باب مدينة بُسْتَ علىٰ هذا النهر جَسْرٌ من السفن كما فى دِجْلَةَ .

---

(١) فى التقويم "نازرنج" ولم نعثر فى المعجم علىٰ كلا اللفظين .

(٢) فى التقويم "الرويحان ... ... ساذفرى" .

الحادى عشر — نهر الرَّسِّ . وهو نهر يخرج من جبال قاليقلا، ويمرّ إلىٰ وَرْثَانَ؛ ثم يلتقى مع نهر الكُرِّ الآتى ذكره بالقرب من بحر الخَزَرِ فيصيران نهرا واحدا ويصبَّان فى بحر الخَزَرِ المذكور . قال فى "تقويم البُلْدان" : وخلف نهر الرَّسِّ فيما يقال ثلثمائة وستون مدينة خراب ، يقال إنها المراد فى القرءان بقوله تعالىٰ ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ .

الثانى عشر — نهر الكُرّ . وهو نهر فاصل بين أرّانَ وأَذْرَبِيجَانَ كالحدّ بينهما ، وأوّله عند جبل بابِ الأبواب ، ويخترق بلاد أَرَّانَ ويصب فى بحر الخَزَرِ . وذكر ٱبن حوقل أن نهر الكُرِّ يمرّ علىٰ ثلاثة فراسخ من بَرْذَعَةَ . وبفَارِسَ أيضا نهر يقال له نهر الكُرِّ إلا أنه دون هذا فى القدر والشهرة .

الثالث عشر — نهر جُرْجَانَ . ومخرجه من جبل جرجان ، ويسير غربا بجنوب إلىٰ آبُسْكُونَ ثم يفترق من آبُسْكُونَ نهرين ويصب فى بحر الدَّيْلَمِ .

الجملة الرابعـــــة

(فى الطرق الموصلة إلىٰ قواعد هذه المملكة ، وذكر شىء من المسافات بين بلادها)

وٱعلم أن آخر المملكة المضافة إلىٰ الديار المصرية من جهة الشرق مملكة حَلَب، فتعين الاْبتداء منها . ونحن نورد ذلك علىٰ مايقتضيه كلام عبيد الله بن عبد الله ٱبن خرداذبة فى كتابه "المسالك والممـالك" مقتصرا علىٰ ذكر مشاهير البلاد .

(الطريق من حَلَبَ إلىٰ المَوْصِلِ) — من حَلَبَ إلىٰ مَنْبِجَ، ومن مَنْبِجَ إلىٰ الرَّسْتَنِ، ومن الرستن إلىٰ الرَّقَّةِ إلىٰ رأس عين سبعة عشر فرسخا، ومن رأس عين إلىٰ كَفَرْتُوثَا سبعة فراسخ ، ومن كَفَرْتُوثَا إلىٰ داراَ خمسة فراسخ، ومن دارا إلىٰ نَصِيبِينَ أربعة فراسخ، ثم إلىٰ بَلَد ثلاثون فرسخا، ثم إلىٰ الموصل سبعة فراسخ .

(الطريق من المَوْصِلِ إلىٰ بَغْدَادَ) ــ من الموصل إلىٰ الحَدِيثة أحد وعشرون فرسخا، ثم إلىٰ السِّنِّ خمسة فراسخ، ثم إلىٰ سُرَّ مَنْ رَأىٰ ثلاثة فراسخ، ثم إلىٰ القادِسيَّة تسعة فراسخ، ثم إلىٰ عُكْبَرىٰ ثمانية فراسخ، ثم إلىٰ البَرَدَانِ أربعة فراسخ، ثم إلىٰ بَغْدَاد [خمسة فراسخ](١) . وأخبرني بعض أهل تلك البلاد أن الطريق من حَلَبَ إلىٰ البِيرة يومان، ومن الْبِيرَةِ إلىٰ الرُّهَا يومان ، ومن الرُّهَا إلىٰ مارِدِينَ أربعة أيام، ثم من مَارِدِينَ إلىٰ جزيرة ٱبن عُمَرَ ثلاثة أيام، ثم من جزيرة ٱبن عُمَرَ إلىٰ المَوْصِلِ يومان، ومن الموصل إلى تِكْرِيتَ يومان، ومن تِكْرِيتَ إلىٰ خُوَىّ يومان، ومن خُوَىّ إلىٰ بَغْدَادَ يومان .

(الطريق إلىٰ نَيْسَابُورَ : قاعِدة خُرَاسَانَ) ــ من بغداد إلىٰ النَّهْرُوَانِ أربعة فراسخ ، ثم إلىٰ الدَّسْكَرَةِ ٱثنا عشرَ فرسخا ، ثم إلىٰ جَلُولاء سبعة فراسخ، ثم إلىٰ خَانِقِينَ سبعة فراسخ ، ثم إلىٰ قصرِ شِيرِينَ ستة فراسخ ، ثم إلىٰ حُلْوَانَ خمسة فراسخ ، ثم إلىٰ مَرْج القلعة عشرة فراسخ ، ثم إلىٰ قصر يَزِيدَ أربعة فراسخ ، ثم إلىٰ قصر عَمْرو ثلاثةَ عشرَ فرسخا ، ثم إلىٰ قصر اللُّصُوص سبعة عشر فرسخا، ثم إلىٰ قرية العَسَل ثلاثة فراسخ، ثم إلىٰ هَمَذَانَ خمسة فراسخ ، ثم إلىٰ الأَسَاوِرة ٱثنان وعشرون فرسخا، ثم إلىٰ سَاوَةَ خمسة عشر فرسخا، ثم إلىٰ الرَّىِّ أربعة وعشرون فرسخا ، ثم إلىٰ قصر المِلْح أحد وثلاثون فرسخا، ثم إلىٰ رأس الكَلْب سبعة فراسخ ، ثم إلىٰ سِمْنَانَ ثمانية فراسخ ، ثم إلىٰ يُومَنَ سبعة عشر فرسخا، ثم إلىٰ أَسَدَابَاذَ أربعون فرسخا، ثم إلىٰ خُسْرَوْجِرْدَ ٱثنا عشر فرسخا، ثم إلىٰ نَيْسَابُورَ خمسة عشر فرسخا .

(الطريق من نَيْسَابُورَ إلىٰ بَلْخ ثم إلىٰ نهر جَيْحُونَ) ــ من نَيْسَابُورَ إلىٰ طُوس ثلاثة عشر فرسخا، ثم إلىٰ مَرْو الرُّوذ أحد عشر فرسخا، ثم إلىٰ سَرَخْسَ، ثم إلىٰ قَصْر النجار ثلاثة فراسخ ، ثم إلىٰ مَرْو الشَّاهِجَان سبعة وعشرون فرسخا ، ثم إلىٰ القَرْيَتين خمسة

(١) الزيادة عن تقويم البلدان .

وعشرون فرسخا، ثم إلى أَسَدَابَاذَ على النهر سبعة فراسخ، ثم إلى قَصْر الأحْنف على النهر عشرة فراسخ، ثم إلى مَرْو الرُّوذ خمسة فراسخ، ثم إلى الطَّالَقَان ثلاثة وعشرون فرسخا، ثم إلى ارعين تسعة فراسخ، ثم إلى العاديات عشرة فراسخ، ثم إلى السِّدرة من عمل بَلْخ أربعة وعشرون فرسخا، ثم إلى الغُورِ تسعة فراسخ، ثم إلى بَلْخ ثلاثة فراسخ، ثم إلى شطِّ جَيْحُونَ آثنا عشر فرسخا. فذات اليمين كورة خُتَّل ونهر الضِّرْغام، وذات اليَسَار خُوَارَزْمُ، وسيأتى ذكرهما فى الكلام على مملكة تُوران فيما بعدُ إن شاء الله تعالى.

(الطريق إلى شِيرَازَ قاعدة فارس) — قد تقدّم الطريق من حَلَب من مضافات الديار المصرية إلى بغداد، ومن بغداد إلى واسطَ خمسة وعشرون سِكَّة، ومن واسط إلى الأهواز عشرون سكة، ثم إلى النُّوبَنْدَجان تسع عشرة سكة، ثم إلى شِيرَازَ آثنتا عشرة سكة.

(الطريق من شِيراز إلى السِّيرجَان: قاعدةِ كِرْمَانَ) — من شِيراز إلى إصْطَخْر خمسُ سِكَك، ثم من إصْطَخْرَ إلى البحيرة ثلاثة عشر فرسخا، ثم إلى شَاهَكَ الكبرى سبعة عشر فرسخا، ثم إلى قرية المِلْح تسعة فراسخ، ثم إلى مَرْزُبانه ثمانية فراسخ، ثم إلى اروان ثلاثة فراسخ، ثم إلى المرمان وهو آخر عمل فارس إلى السِّيرجَان ستة عشر فرسخا.

(الطريق إلى أصْبَهَانَ) — من يُومَن المقدّم ذكرها إلى الرِّباط ثلاثة عشر فرسخا، ثم إلى أصْبَهَانَ أربعة عشر فرسخا.

(الطريق إلى البصرة) — قد تقدّم الطريق من حَلَبَ إلى بَغْدَادَ، ثم إلى واسط، ثم إلى الفاروث، ثم إلى دير العمال، ثم إلى الحوانيت، ثم يسير فى البطائح، ثم إلى نهر أبى الأسد، ثم فى دِجْلة العورا، ثم فى نهر مَعْقِل، ثم يمضى إلى البصرة.

(الطريق إلىٰ تَبْرِيز[1]) ـ قد تقدّم الطريق من حَلَب إلىٰ مَارِدِينَ، ثم من ماردين إلىٰ حِصْن كَيْفَا يومان، ومن الحصن إلىٰ سِعِرْتَ يومان، ومن سِعِرْتَ إلىٰ وان يومان، ومن وان إلىٰ وَسْطَانَ ثلاثة أيام، ومن وَسْطَانَ إلىٰ سَلَمَاس يومان، ومن سَلَمَاس إلىٰ تَبْرِيز أربعة أيام؛ فيكون بين حَلَبَ وتَبْرِيزَ ثلاثةٌ وعشرون يوما .

(الطريق إلىٰ السُّلْطَانِيَّة) ـ من تَبْرِيزَ إليها سبعة أيام؛ فيكون من حَلَبَ إلىٰ السُّلْطَانِيَّة ثلاثون يوما .

الجملة الخامسة

(فى بعض مسافات بين بلاد هذه المملكة)

(بعض مسافات بلاد الجزيرة) ـ من الأَنْبَارِ إلىٰ تِكْرِيتَ مرحلتان، ومن تِكْرِيتَ إلىٰ المَوْصِلِ ستة أيام، ومن المَوْصِلِ إلىٰ آمِدَ أربعة أيام، ومن آمدَ إلىٰ سُمَيْسَاط ثلاثة أيام؛ ومن المَوْصِل إلىٰ نَصِيبِينَ أربع مراحل، ومن نَصِيبِينَ إلىٰ رأس عين ثلاثُ مراحل، ومن رأس عين إلىٰ الرَّقَّةِ أربعة أيام، ومن رأس عين إلىٰ حَرَّانَ ثلاثة أيام، ومن حَرَّانَ إلىٰ الرُّهَا يوم واحد .

(بعض مسافات خُوزُسْتَانَ) ـ من عَسْكَرِ مُكْرَمٍ إلىٰ الأَهْوَاز مرحلة، ومن الأهواز إلىٰ الدَّوْرَق أربع مراحل، [وكذلك من عسكر مكرم إلىٰ الدَّوْرَقِ[2]] ومن عَسْكَرِ مُكْرَمٍ إلىٰ سُوقِ الأربعاء مرحلة، ومن سوق الأربعاء إلىٰ حصن مهدىّ مرحلة، ومن السُّوس إلىٰ بَصِنَّى مرحلة خفيفة، ومن السُّوس إلىٰ مَتُّوث مرحلة .

(بعض مسافات فارس) ـ قال ٱبن حوقل : من شِيرَاز إلىٰ سِيرَاف نحو ستين فرسخا ، ومن شِيرَازَ إلىٰ إصْطَخْرَ نحو ٱثنَيْ عشر فرسخا ، ومن شِيرَازَ إلىٰ كَازَرُونَ

---

(١) فى القاموس "تبريز وقد تكسر ... ..." .

(٢) الزيادة عن "تقويم البلدان" ليتم البيان .

نحو عشرين فرسخا ، ومن كَازَرُونَ إلىٰ جَنَّابَةَ أربعــة وأربعون فرسخا ، ومن شِيرَازَ إلىٰ أَصْبَهَانَ آثنــان وســبعون فرسخا ، ومن شِيرَازَ مُغَرِّبا إلىٰ أوّل حدود خُوزُسْــتَانَ ستون فرسخا ، ومن شِيرَازَ إلىٰ بَسَا ســبعة وعشرون فرسخا ، ومن شِيرَازَ إلىٰ البَيْضَاء ثمــانية فراسخ ، ومن شيراز إلىٰ دارابجِرْدَ خمسون فرسخا ، ومن مَهْرُوبان إلىٰ حصن آبن عمارة نحو مائة وستين فرسخا .

(بعض مسافات كِرْمان) ـ من السِّيرجَان إلىٰ المفازة مرحلتان ، ومن السِّــيرجَان إلىٰ جِيرُفْتَ مرحلتان ، ومن السِّيرجَان إلىٰ مدينة الزَّرَنْدِ تسعة وعشرون فرسخا .

(بعض مسافات إرْمِينِيَةَ وأَرَّانَ وأذْرَبِيجَان) ـ قال آبن حوقل : من بَرْدَعَةَ إلىٰ شَمْكُورَ أربعة عشر فرسخا ، ومن بَرْدَعَةَ إلىٰ تَفْلِيسَ ثلاثة وأربعون فرسخــا ، ومن أرْدُبِيل إلىٰ المَرَاغَةِ أربعون فرسخــا ، ومن المَرَاغَة إلىٰ أُرْمِيــةَ أربعُ مراحل ، ومن أُرْمِيــةَ إلىٰ سَلَمَاسَ مرحلتان ، ومن سَلَمَاسَ إلىٰ خُوَىّ سبعة فراسخ ، ومن خُوَىّ إلىٰ بَرْكِرِى ثلاثون فرسخــا ، ومن بَرْكِرِى إلىٰ أرْجِيشَ يومان ، ومن أرجِيشَ إلىٰ خِلَاطَ ثلاثة أيام ، ومن خلَاط إلىٰ بِدْلِيسَ ثلاثة أيام ، ومن بِدْلِيسَ إلىٰ ميَّافَارِقِينَ أربعة أيام .

[ذكر الطريق من المراغة إلىٰ أردبيل ، من مَرَاغة إلىٰ أُرمية ثلاثون فرسخا](١) ، ومن أرْمية إلىٰ سَلَمَاسَ أربعــة عشر فرسخا ، ومن خُوَىّ إلىٰ نَشْوىٰ [ثلاثة أيام ، ومن نشوىٰ](١) إلىٰ دَبِيلَ أربعُ مراحل ، ومن المَرَاغَةِ إلىٰ الدَّيْنَوَرِ ستون فرسخا ، ومن خُونَجَ إلىٰ مراغة [ثلاثة عشر فرسخا](١) ، ومن بَرْدَعَةَ إلىٰ وَرْثان ســبعة فراسخ ، ومن وَرْثان إلىٰ بَيْلَقَانَ سبعة فراسخ ، ومن شَرْوَانَ إلىٰ باب الأبواب نحو سبعة أيام ، ومن بَرْدَعَةَ إلىٰ تَفْلِيسَ نحو آثنين وستين فرسخا .

---

(١) الزائد من تقويم البُلْدان عن آبن حوقل ليستقيم الكلام .

(بعض مسافات عِرَاق العجم) ـ من هَمَذَانَ إلىٰ الدَّيْنَوَر ما ينيف علىٰ عشرين فرسخا ، ومن هَمَذَانَ إلىٰ سَاوَةَ ثلاثون فرسخا ، ومن سَاوةَ إلىٰ الرَّيِّ ثلاثون فرسخا أيضا ، ومن هَمَذَان إلىٰ زَنْجَانَ علىٰ شَهْرُزُورَ ثلاثون فرسخا ، ومن هَمَذَانَ إلىٰ أَصْبَهَانَ ثمانون فرسخا ، ومن هَمَذَانَ إلىٰ أوّل خُرَاسَانَ نحو سبعين فرسخا ، ومن سَاوةَ إلىٰ قُمِّ نحو آثنى عشر فرسخا ، ومن قُمِّ إلىٰ قَاشَانَ نحو آثنى عشر فرسخا أيضا ، ومن الرَّيِّ إلىٰ قَزْوِينَ ثلاثون فرسخا ، ومن الدَّيْنَوَرِ إلىٰ شَهْرُزُورَ أربع مراحل ، ومن أَصْبَهَانَ إلىٰ قَاشَانَ ثلاث مراحل .

(بعض مسافات طَبَرَسْتَانَ ومَازَنْدَرَانَ وقُومَس) ـ قال آبن حوقل : بين آمُلَ وسَارِيَةَ مرحلتان ، ومن سارِيةَ إلىٰ إِسْتَرَابَاذ نحو أربع مراحل ، ومن إِسْتَرَابَاذَ إلىٰ جُرْجَانَ نحو مرحلتين ، ومن آمُلَ إلىٰ مَا مَطِيرَ مرحلة ، ومن مَا مَطِيرَ إلىٰ سَارِيَةَ مرحلة ، ومن جُرْجَانَ إلىٰ بَسْطَامَ مرحلتان .

(بعض مسافات خُرَاسَانَ) ـ قال فى "تقويم البُلْدان" : من أوّل أعمال نَيْسَابُورَ إلىٰ وادى جَيْحُونَ ثلاث وعشرون مرحلة ، ومن سَرَخْسَ إلىٰ نَسَا سبعة وعشرون فرسخا ، ومن هَرَاةَ إلىٰ نَيْسَابُورَ أحد عشر يوما ، ومن هَرَاةَ إلىٰ مَرْوَ كذلك ، ومن هَرَاةَ إلىٰ سِجِسْتَانَ كذلك ، ومن مَرْو الرُّوذ إلىٰ مَرْو الشَّاهِجَانِ أربعة أيام ، ومن بَلْخ إلىٰ فَرْغَانَةَ ثلاثون مرحلة مشرقا ، ومن بَلْخ إلىٰ الرَّيِّ ثلاثون مرحلة مغرِّبا ، ومن بلخ إلىٰ سِجِسْتَانَ ثلاثون مرحلة جنوبا ، ومن بَلْخ إلىٰ كَرْمَانَ ثلاثون مرحلة ، ومن بَلْخ إلىٰ خُوَارَزْم ثلاثون مَرْحلة .

الجمـــــلة السادسة

(فيما بهذه المملكة من النفائس العليَّة القدر، والعجائب الغريبة الذكر، والمنتزهات المرتفعة الصيت)

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : بها عدّةَ نفائسَ وعجائبَ .

أما النفائس فإن بها مَغَاص اللؤلؤ ببحر فارس بجزيرة كِيش وعُمَان، وهما من أحسن المغاصات وأشرفها وأعلاها قدرا في حسن اللؤلؤ على ماتقدّم ذكره في الكلام على الأحجار النفيسة فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته في المقالة الأولى .

وبالدّامَغَان في جبلها معدن ذهب . قال الشيخ شمس الدين الأصفَهانىّ : وهو قليل المتحصِّل لكثرة ما يحتاج إليه من الكُلَف حتّى يُستخْرَج وببذخشان (١) شرقىّ عراق العجم البازهر الحيوانىّ الذى لا يباريه شيء في دفع السُّمُوم يوجد في الأيابيل التى هناك ، وقد مرّ ذكره في الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى معرفته في المقالة الأولى .

وبها الإثمد الأصْفَهانىّ الذى لايُساوى رتبة، وقد مرّ ذكره في الكلام على مايحتاج الكاتب إلى معرفته في المقالة الأولى، ولكنه قد عَزَّ الآن حتّى لايكاد يوجد قال المقر الشهابىّ بن فضل الله : سألت الشيخ شمس الدين الأصْفَهانىّ عن سبب قلَّته، فقال : لانقطاع عِرْقه فما بقى يوجد منه إلا مالا يرى . قال في "مسالك الأبصار": وبهذه المملكة مستعملات القماش الفاخر من النخ ، والمخمل، والكمخا، والعتابى، والنصافى ، والصوف الأبيض المارديىّ؛ وتعمل بها البسط الفاخرة في عدّة مواضع مثل شِيرَازَ وأَقْصَرا وتورِيز إلى غير ذلك من الاشياء النفيسة التى لايضاهيها غيرها فيها .

---

(١) هذه الكلمة غير واضحة في الأصل .

*
* *

وأما العجائب، فقد ذكر الشيخ شمس الدين الأصْفَهانى أن بمدينة قِشْمِيرَ علىٰ ثلاثة أيام عن أَصْفَهَانَ عينَ ماء سارحة يسمّى ماؤها بماء الجراد، إذا حمل ماؤها فى إناء وعلق فى تلك الأرض علىٰ عال، أتاها طير يقال له سار فأكل ما فيها من الجراد حتّى لايدع منه شيئا بشرط أن لايوضع علىٰ الأرض حتّى يؤتىٰ به إلىٰ مكان الجراد فيعلّق. وحكىٰ محمد بن حيدر الشيرازى فى مصّنف له: أن بين الدَّامَغان وأَسْتِرَابَاذ من خُرَاسَانَ عينا ظاهرة إذا ألقيت فيها نجاسة فار ماؤها وأزبدت شيئا (١) تبعته دودة طول أنملة الإنسان حتّى لو حمل الماء تسعة وكان معهم عاشر لم يحمل الماء، تبع كلّ واحد ممن حمل الماء دودة، ولم يتبع الآخر منها شيء، فلو قتل واحدٌ منهم تلك الدودة آستحال الماء مرا لوقته، وكذلك ماء كلّ مَنْ هو وراءه، ولا يستحيل ماء من هو إلىٰ جانبه مُراًّ. قال آبن حوقل: وبكُورة سَابُورَ من بلاد فَارِسَ جَبَلٌ فيه صورة كل مَلِكٍ وكلّ مَرْزُبَان معروف للعجم وكل مذكور من سَدَنَةِ النِّيران. وفى كورة أَرْجان فى قرية يقال لها طبريان [بئرٌ] (٢) يذكر أهلُها أنهم آمتحنوا قعرها بالمثقلات فلم يلحقوا لها قعرا، ويفور منها ماء يقدر مايُدِير رَحًى تسق أرض تلك القرية. قال: وفى كورة رُسْتاق [بئر] (٢) تعرف بالهنديجان بين جبلين يخرج منها دخان لا يستطيع أحد أن يقربها، وإذا طار عليها طائر سقط فيها وآحترق. وبناحية داذين نهرُ ماءِ عَذْبٍ يعرف بنهر أَخْشِين، يشرب منه الناس وتسقىٰ به الأرض، وإذا غسلت به الثياب خرجت خُضْرًا.

(١) لعله ولو حمل واحد من مائها شيئا الخ.

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان ليستقيم الكلام.

* * *

وأما المنتزهات فيها نهر الأُبُلَّةِ وشِعْب بَوَّانَ – وهمـا نصف منتزهات الدنيا الأربعة : وهى نهر الأُبُلَّةِ وشِعْب بَوَّانَ المذكوران وصُغْد سَمَرْقَنْد وغُوطة دِمَشْق . وقد تقدّم أن نهر الأُبُلَّةِ نهرٌ شقَّه زيادٌ مقابَلَةَ نهر مَعْقِل، وبينهما البساتين والقصور العالية والمبانى البديعة، يتسلسل مجراه، وتتهلل بُكَرُه وعشاياه، ويُظله الشجر وتغنّى به زمر الطير . وفيه يقول القاضى التنوخىّ من أبيات :

وإذا نَظَرْتَ إلىٰ الأُبُلَّةِ خِلْتَهَـا * من جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ حِينَ تُخَيَّلُ !

كَمْ مَـنْزِلٍ فى نَهْرِها آلىٰ السُّرو * رُ بأنّهُ فى غَيْرِها لَا يَـنْزِلُ !

وكأنّمَـا تِلْكَ القُصُورُ عَرَائِسٌ * والرَّوْضُ حَلْىٌ وهى فيه تَرْفُلُ !

وشِعْب بَوَّانَ – وهو عدّة قُرًى مجتمعة ومياه متصلة، والأشجار قد غَطَّتْ تلك القرىٰ فلا يراها الإنسان حتّى يدخلها ، وهو بظاهر هَمَذَان يشرف عليها من جبل، وهو فى سفح الجبل والأنهار تنحطُّ عليه من أعلىٰ الجبل، وهو من أبدع بقاع الأرض مَنْظَرًا . قال المبرد : أشرفت علىٰ شِعب بَوَّانَ فنظرت فإذا بماء ينحدر كأنه سلاسلُ فضة، وتربةٍ كالكافور، وثَرِيَّة كالثوب الموشّى، وأشجار متهادلة، وأطيار متجاوبة . وفيه يقول أبو الطَّيِّب المتنبى حين مرَّ به :

مَغَانِى الشِّـعْبِ طِيبًا فى المَغَانِى * بمنزلة الرَّبِيعِ من الزَّمَانِ !

ولَٰكِنَّ الفـتىٰ العَرَبِيَّ فيهـا * غَرِيبُ الوَجْهِ واليَدِ واللِّسَانِ !

الجمـــــلة السابعة

(فى ذكر من ملك مملكة إيران جاهلية وإسلاما)

وهم علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(ملوكها قبل الإســـلام)

وآعلم أن هذه المملكة لم تزل بيد ملوك الفُرْس لآبتداء الأمر وإلىٰ حين آنقراض دولتهم بالإســـلام علىٰ ماسيأتى ذكره . قال المؤيد صاحب حماة : وهم أعظم ملوك الأرض من قديم الزمان ، ودولتهم وترتيبهم لا يمـاثلهم فى ذلك أحد .

وهم علىٰ أربع طبقات :

الطبقـــــة الأولىٰ

(الفيشداذية)

سُمُّوا بذلك لأنه كان يقال لكل من ملك منهم فيشداذ ومعناه سيرة العدل .

وأوّل من ملك منهم (أوشهنج) وهو أوّل من عُقِد علىٰ رأسه التـاج وجلس علىٰ السرير ورَتَّب الملك ونَظَّم الأعمال ووضع الخَرَاج . وكان ملكه بعد الطُّوفان بمـائة (١) سنة، وهو الذى بنىٰ مدينتى بَابِلَ والسُّوسِ، وكان محمودَ السيرة، حسن السياسة .

ثم ملك بعــده (طهمورث) وهو من عقب أوشهنج المقدّم ذكره ، وبينهما عدّة آباء، وسلك سِيرة جدّه، وهو أوّل من كتب بالفارسية .

ثم ملك بعده أخوه (جَمْشِيذ) ومعناه شُعَاع القمر، وسار سَـيْرة من تَقَدَّمه وزاد عليها، وملك الأقاليم السبعة، ورتب طبقاتِ الحُجَّابِ والكُتَّابِ ونحوهم؛ وهو الذى أحدث النَّيْرُوزَ وجعله عيدا؛ ثم حاد عن سيرة العدل فقتله الفُرْس .

---

(١) فى تاريخ أبى الفدا (بمـائتى) بالتثنية .

وملك بعده (بيوراسب) و يعرف بالدَّهَّاك(١)، ومعناه عشر آفات، والعامة تسميه الضحاك، ومَلَك جميع الأرض فسار بالجَوْر والعَسْف، وبسط يده بالقتل، وأحدث المُكُوس والعُشور، وآتخذ المغنِّين والمَلَاهى . وسيأتى خبر هلاكه مع كابى الخارج عليه فى الكلام علىٰ النِّحَل والملل، ويقال إنه هو ومن قبله كانوا قبل الطُّوفان .

ثم ملك بعده (إفريدون) و يقال إنه التاسع من ولد "جَمْشِيذ" المقدّم ذكره، وفى أوّل ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو ذو القرنَيْنِ المذكورُ فى القرءان علىٰ أحد الأقوال، وملك جميع الأرض أيضا وقسمها بين بَنِيه ومات .

فملك بعده آبنه (إيراج) بعهد من أبيه، ثم ملك بعده أخوه (شرم) و(طوج) ثم غلبهما علىٰ المُلْك (مَنُوجِهْر بن إيراج) وفى أيامه ظهر موسىٰ عليه السلام . و يقال إن فرعون موسىٰ كان عاملا له علىٰ مصر داخلا تحت أمره .

ثم تغلب علىٰ المملكة (فراسياب بن طوج) فأفسد وخرَّب، ثم غلبه عليها (زو بن طهماسب) من أولاد مَنُو جِهْر، فأحسن السيرة وعَمَر البلاد، وشقّ نهر الزَّابِ وبنىٰ مدينة علىٰ جانبه .

ثم ملك بعده (كرشاسف) من أولاد طوج بن إفريدون، وهو آخر ملوك هذه الطبقة .

الطبقـــة الثـانية

(الكِيَانيـــة)

سُمُّوا بذلك لأن فى أوّل آسم كل واحد منهم لفظة كى، ومعناه الرُّوحانى وقيل الجَبَّار .

وأوّل من ملك منهم بعد كرشاسف المقدّم ذكره (كيقباذ) بن زو، فسار سَيْرة أبيه فى العدل ومات ؛ فملك بعده (كيكاؤوس) بن كينيه بن كيقباذ ومات ؛ فملك

---

(١) كذا فى المختصر أيضا وفى العبر " الازدهاك بصاد بين السين والزاى وحاء قريبة من الهاء وكاف قريبة من القاف" وفى المسعودى "الده آك" .

بعده ٱبنه (كيخسرو بن سياووس بن كيكاؤوس) بولاية من جدّه، ثم أعرض عن الملك.

وملك بعده (كيهراسف بن أخى كيكاؤوس) وٱتخذ سريرا من ذهب مرصعا بالجوهر، كان يجلس عليه، وبنىٰ مدينة بَلْخ بأرض خُرَاسَانَ وسكنها لقتال الترك، وفى زمنه كان بُخْتَنَصَّر فجعله نائبا له ثم مات.

وملك بعده (كيبشتاسف) وبنىٰ مدينة نَسَا، وفى أيامه ظهر زَرَادُشْت صاحب "كتاب المجوس" الآتى ذكره فى الكلام علىٰ النِّحل والملل، وتبعه كيبشتاسف علىٰ دينه ثم فُقِد.

وملك بعده (أردشير بهمن) ومعنىٰ بهمن الحسن النية ٱبن إسفنديار بن كيبشتاسف، وٱسمه بالعبرانية كورش، وملك الأقاليم السبعة، وهو الذى أمر بعمارة البيت المقدّس بعد أن خربه بُخْتَنَصَّر.

ثم ملك بعده ٱبنه (دارا بن أردشير) وفى زمنه ملك (الإسْكَنْدَرُ بن فيلبس) وغلب دَارًا علىٰ مُلْكِ فَارِسَ، وٱستناب به عشرين رجلا، وهم المُسَمَّوْنَ بملوك الطوائف، فأقاموا علىٰ ذلك خمسمائة وٱثنتى عشرة سنة، ثم بطل حكم ذلك.

الطبقة الثالثة

(الإشغانية[1]، يقال لكل منهم اشغا)

وأوّل من ملك منهم بعد ملوك الطوائف (اشغا بن اشغان)[2]. ثم ملك بعده ٱبنه (سابور بن اشغان) عشر سنين. ثم ملك بعده (بسين بن اشغا) ستين سنة. ثم ملك بعده (جور بن اشغان) عشر سنين. ثم ملك بعده (بيرن الاشغانى) إحدىٰ وعشرين

(١) فى العبر "الاشكانية وكافها أقرب إلىٰ الغين" فتنبه.

(٢) هنا مخالفة لما فى كتابى مختصر أبى الفداء والعبر فراجعهما.

سنة ومات . فملك بعده (جوذرز الاشـغانى) تسع عشرة سنة ومات . فملك بعده (نرسى الاشـغانى) أربعين سنة ومات . فملك بعده (هرمز الاشغانى) تسع عشرة سنة ومات . فملك بعده (اردوان الاشغانى) آثنتى عشرة سـنة ومات . فملك بعده (خسرو الاشغانى) أربعين سنة ومات. فملك بعده (بلاش الاشغانى) أربعاوعشرين سنة ومات . فملك بعده (اردوان الأصغر) وهو آخر ملوكهم من هذه الطبقة .

الطبقـــة الرابعة

(الأكاسرة)

وأوّل من ملك منهم (أردشير بن بابك) من عقب ساسان بن "أردشير بهمن" قتل "اردوان" وآستولىٰ علىٰ ملكه، فأقام أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وكتب عهدا بالمُلْك فى عقبه ومات . فملك بعده آبنه (سابور) إحدىٰ وثلاثين سنة وستة أشهر، وفى أيامه ظهر "مانى الزنديق" وآدّعىٰ النبوّة، وآعتنىٰ بنقل كتب الفلسفة من اللغة اليونانية إلىٰ اللغة الفارسـية، ويقال إن العُودَ الذى يُتغنّى به حَدَث فى أيامه ومات . فملك بعده آبنه (هُرْمُز) سنة واحدة وستة أشهر ومات . فملك بعده آبنه (بَهْرام) ثلاث سنين وثلاثة أشهر ومات؛ فملك بعده آبنه (بهرام بن بهرام) سبع عشرة سنة ومات . فملك بعده آبنه (بهرام بن بهرام بن بهرام) أربع سنين ثم مات . فملك بعده أخوه (نرسى بن بهرام) تسع سنين ثم مات. وملك بعده آبنه (هُرْمُز) تسع سنين أيضا ومات. فملك بعـده آبنه (سابور) وهو الذى عمل الجَسْر الثانى لدِجْلة ليكون أحدُ الجَسْرين للذاهبين، والآخر للآتيين . وفى زمنه كان قُسْطَنْطِينُ (١) ملك الروم ومات . فملك بعده أخوه (٢) (أردشير) بوصية منه، ثم مات. فملك بعده آبنه (سابور

(١) قال فى العبر "ضبطه الدارقطنى بالراء المهملة" .
(٢) صوابه آبن أخيه .

ٱبن سابور) ثم ملك بعده أخوه (بهرام بن سابور) ثم ملك بعده ٱبنه (يزدجِرْد) المعروف بالأثيم؛ ثم ملك بعده (كِسْرىٰ) من ولد "أردشير" [ثم ملك بعده (بهرام جور بن يزدجرد الأثيم) وكانت مدة ملكه[1]] ثلاثا وعشرين سنة ومات . فملك بعده ٱبنه (يزدجرد) ثمانيا وعشرين سنة ومات . فملك بعده ٱبنه (هُرْمُز) ثم مات . فملك بعده أخوه (فيروز) سبعا وعشرين سنة ، وظهر فى أيامه غلاء شديد . ثم ملك بعده ٱبنه (بلاش) أربع سنين ومات . فملك بعده أخوه (قُبَاذ) ثلاثا وأربعين سنة "وفى أيامه ظهر مردك الزِّنْديق وادّعىٰ النبوّة" ثم خلع . وملك بعده أخوه (جاماسف) [ثم تغلب عليه قباذ واستمر فى الملك[2]] ثم مات . وملك بعده (أنوشِرْوان) ثمانيا وأربعين سنة، وقَتَل مردك الزِّنديق وأتباعه وجماعةً من المانَوِيَّة، وغلب علىٰ اليمن وٱنتزعها من الحبشة . وفى زمانه وُلِد عبدالله أبو النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم ! ثم وُلِد النبيّ صلى الله عليه وسلم ! فى آخر أيامه؛ ثم مات . وملك بعده ٱبنه (هرمز) نحو ثلاثَ عشرةَ سنة ونصف . ثم ملك (أبرويز بن هرمز) ؛ ثم غلبه علىٰ الملك (بَهْرام چوبين) من غير أهل بيت الملك؛ ثم عاد أبرويز إلىٰ الملك وملك ثمانيا وثلاثين سنة ، وتزوّج شِيرِينَ المغنيةَ وبنىٰ لها القصر المعروف بقصر شِيرِينَ . ثم ملك بعده ٱبنه (شيرويه) تغلُّبا علىٰ أبيه ثمانية أشهر . ثم ملك بعده ٱبنه (أردشير) سنة وستة أشهر . ثم ملك بعده (شهريران) من غير بيت الملك ثم قتل . وملك بعده (بُورانُ) بنت أبرويز سنة وأربعة أشهر . ثم ملك بعدها (خشنشده) من بنى عم أبرويز أقلَّ من شهر . ثم ملك بعده (أزرميدخت) بنت أبرويز أخت بُوران . ثم قتلت ؛ وملك بعدها (كسرىٰ بن مهر خشنش) ؛ ثم قتلوه بعد أيام ؛ ثم ملك بعده

(١) الزيادة من تاريخ أبي الفداء ليتم الكلام ويستقيم .

(٢) « « « بالمعنى لتتميم الكلام .

فرخ زادخسرو [من أولاد أنو شِرْوان وملك ستة أشهر وقتلوه(١)؛ ثم ملك] (يزدجرد) وهو آخرهم .

الضرب الثانى
(ملوكها بعد الإسلام، وهم علىٰ ثلاث طبقات)

الطبقـــــة الأولىٰ
(عُمَّال الخلفاء)

قد تقدّم أن فتحها كان فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فتوالت عليها عُمَّال الخلفاء فى بقية خلافة عمر، ثم فى خلافة أمير المؤمنين عثمان آبن عفان رضى الله عنه، ومُقَامهما يومئذ بالمدينة النبوية؛ ثم لما بويع أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بالخلافة بعد قتل عثمان، جعل إقامته بالعِراق؛ ثم كان بعده آبنه الحسن السِّبْط رضى الله عنه، فأقام بالعراق إلىٰ أن سَلَّم الأمر إلىٰ (مُعَاوِيَةَ بن أبى سُفْيَانَ) وصارت الخلافة إلىٰ بنى أُمَيَّـةَ، وجعلوا دار إقامتهم بالشأم وتوالت علىٰ هذه المملكة نوّابهم فى خلافة معاوية؛ ثم (آبنه يزيد)؛ ثم (آبنه معاوية بن يزيد)؛ ثم (مَرْوانَ بن الحكم)؛ ثم (عبد المَلِك بن مَرْوَانَ)؛ ثم (الوليد آبن عبد المَلِك)؛ ثم (سليمان بن عبد المَلِك)؛ ثم (عُمَرَ بن عبد العزيز)؛ ثم (يزيدَ آبن عبد المَلِك)؛ ثم (هشام بن عبد المَلِك)؛ ثم (الوليد بن يزيد بن عبد المَلِك)؛ ثم (يزيد بن الوليد بن عبد الملك)؛ ثم (إبراهيم بن الوليد)؛ ثم (مَرْوَانَ بن محمد آبن مروان بن الحكم) وهو آخرهم .

---

(١) أى آبن شهريار . وبقية نسبه فى تاريخ أبى الفداء والزيادة منه ليتم الكلام .

الطبقـــة الثـانية
(خلفاء بنى العبّاس)

وقد تقدّم فى أوّل هـذه [المقالة] أن دار مُقَامهم كانت بالعراق، وأن أوّل من وَلِيَ منهم الخلافة (أبو العبّاس السّفّاحُ)، فبنى المدينة الهاشمية ونزلها، ثم آنتقل منها إلى الأنبار فكانت دار مُقامه إلى أن مات؛ ثم كان بعده أخوه (أبو جعفر المنصورُ) فبنى بغداد وسكنها؛ ثم سكنها بعده آبنه (المهدىّ) بن المنصور؛ [ثم آبنه (الهادى)] (١)؛ ثم أخوه (هارون الرشيد) بن المهدىّ؛ ثم آبنه (الأمين)؛ ثم أخوه (المأمون)؛ ثم أخوه (المعتصم) بن الرشيد؛ ثم (الواثق) بن المعتصم؛ ثم أخوه (المتوكل)؛ ثم آبنه (المنتصر)؛ ثم (المستعين بن المعتصم)؛ ثم (المعتز بن المتوكل)؛ ثم (المهتدى) آبن الواثق؛ ثم (المعتمد بن المتوكل)؛ ثم (المعتضد بن الموفق طلحة) بن المتوكل؛ ثم آبنه (المكتفى) بن المعتضد؛ ثم أخوه (المقتدر)؛ ثم (المرتضى) بن المعتز؛ ثم أخوه (القاهر)؛ ثم (المقتدر) المقدّم ذكره؛ ثم أخوه (القاهر) المقدّم ذكره؛ ثم آبن أخيه (الراضى)؛ ثم أخوه (المتقى)؛ ثم آبن عمه (المستكفى)؛ ثم آبن عمه (المطيع)؛ ثم آبنه (الطائع)؛ ثم (القادر)؛ ثم آبنه (القائم)؛ ثم آبن آبنه (المقتدى)؛ ثم آبنه (المستظهر) ثم آبنه (المسترشد)؛ ثم آبنه (الراشد)؛ ثم (المقتفى) بن المستظهر؛ ثم آبنه (المستنجد)؛ ثم آبنه (المستضىء)؛ ثم آبنه (الناصر)؛ ثم آبنه (الظاهر)؛ ثم آبنه (المستنصر)؛ ثم آبنه (المستعصم) وقتله هُولَاكُو ملكُ التتار الآتى ذكره، فى العشرين من المحرّم سنة ست وخمسين وستمائة، وهو آخرهم ببغداد.

وآعلم أن أمر الخلافة كان قد وهى وضَعُف، وتناهَتْ فى الضعف أيامَ الراضى، وتغلب عُمّال الأطراف عليها، فاستولى محمد بنُ رائق من الفرات على البصرة،

(١) سقط من قلم الناسخ فأثبتناه ليتم الكلام و ينتظم.

والبريدىُّ على خُوزُسْتَانَ، وعمـادُ الدولة بن بُوَيه على فَارِسَ، ومحمد بن الياس على كَرْمَانَ، ورُكْنُ الدولة بن بُوَيه على الرَّىّ وأصْفَهَانَ، وبنو حَمْدَانَ على المَوْصِلِ وديارِ بَكْرٍ وديارِ مُضَرَ وديارِ رَبِيعَةَ، وغير أقطار هذه المملكة مع ملوك أخر. ولم يبق للخليفة غيرُ بَغْدَادَ وأعمالهـا؛ وٱستولى ٱبن رائق على جميع الأمور وخطب باسمه على المنابر، وأقام سنة وعشرة أشهر، ثم صار الأمر بعده إلى (يحكم) مملوك وزير (ما كان) بن كاكى الديلمىّ وٱستمرّ أيام الراضى فقتـل؛ وٱستقرّ (البريدىّ) بعـده فى أيام المتقى وأيام المستكفى، وضُرِبت ألقابه على الدنانير والدراهم، وخُطب بٱسمه على المنابر، وٱستمرّ ذلك لذويه من بعده؛ ثم ملك بعده (بختيار)؛ ثم ٱبن عمه[(١)] (عضد الدولة) بن ركن الدولة حسن بن بويه؛ ثم ٱبنه (صمصام الدولة) بن عضد الدولة، ثم أخوه (شرف الدولة شيرزيك) بن عضد الدولة؛ ثم أخوه (بهاء الدولة أبو نصر) بن عضد الدولة؛ ثم ٱبنه (سلطان الدولة أبو شجاع)؛ ثم ٱبنه (بهـاء الدولة)[(٢)]؛ ثم أخوه (مشرف الدولة ٱبن بهاء الدولة)؛ ثم أخوه (جلال الدولة) أبو الطاهر بن بهاء الدولة؛ ثم ٱبن أخيه (أبو كاليجار) بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة؛ ثم ٱبنه الملك الرحيم (خسرو فيروز) ٱبن كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة ٱبن بُوَيْه.

وبنو بويه هؤلاء ينسبون إلى يَزْدَجِرد ملك الفرس.

ثم كانت دولة السَّلْجوقية. وهى من أعظم الدول الإسلامية، ونسبتهم إلى سلجوق بن دقاق أحد مقـدّمى الأتراك، وبهم زالت دولة بنى بويه عن بغـداد وأعمـال الخلافة.

وأوّل من ملك منهم (طُغْرلبك) بن ميكائيل بن سَلْجوق فى سنة ٱثنتين وثلاثين وأربعمائة؛ ثم ملك بعده ٱبن أخيه (ألْب أرسلان) بن داود بن ميكائيل؛ ثم ٱبنه

(١) فى الأصل "ثم ٱبنه" وهو خلاف الواقع.
(٢) أجمعت التواريخ على إسقاط هذا من البين، وهو ما تقتضيه عبارة المؤلف.

(ملكشاه) بن ألب أرسلان ؛ ثم آبنه (محمود بن ملكشاه) ؛ ثم أخوه (بَرْكْيارُق) آبن ملكشاه ؛ ثم أخوه (محمد بن ملكشاه) ؛ ثم آبنه (محمود بن محمد) ؛ ثم آبنه (داود بن محمود) ؛ ثم عمه (طغرلبك) بن محمد ؛ ثم أخوه (مسعود) بن محمد ؛ ثم آبن أخيه (ملكشاه) بن محمود ؛ ثم أخوه (محمد بن محمود) . ثم قام منهم ثلاثة : وهم (ملكشاه بن محمود) أخو محمد المذكور ؛ و(سليمان شاه) بن محمد بن ملكشاه ، وهو عمّ محمد المذكور ؛ و(أرسلان شاه) بن طغرلبك بن محمد بن ملكشاه . ثم قبض علىٰ سليمان شاه ، ومات ملكشاه ، وآنفرد أرسلان شاه بن طغرلبك بالسلطنة . ثم ملك بعده آبنه (طغرلبك) بن أرسلان شاه وبقي حتّى قتله علاء الدين تُكُش صاحب خوارزم وبعض خُرَاسَان والرَّيِّ وغيرها ، في خلافة الناصر لدين الله في سنة تسعين وخمسمائة ، واشتغل (خوارزم شاه) عن فصل العراق فبقي بيد الخلفاء من لدن الناصر لدين الله ، ومَنْ بعده إلىٰ أن آنقرضوا بفَعْلة هُولَاكُو ملك التتر الآتي ذكره .

الطبقة الثالثة

(ملوكها من بَني جنكزخان)

واول من ملكها منهم (هُولاكُو) بن طولى بن جنكزخان المقدّم ذكره ، قصدها بأمر أخيه منكوقان بن طولى صاحب التخت في سنة خمسين وستمائة ، وقتل المُسْتَعْصِم آخر الخلفاء ببغداد ، وآستولىٰ علىٰ جميع المملكة . قال في "مسالك الأبصار" : قال شيخنا العلامة شمس الدين الأصفهانيّ : إلا أن هُولَاكُو لم يملك ملكا مستقلا بل كان نائبا عن أخيه منكوقان ، ولم يضرب بآسمه سكة درهم ولا دينار ، وإنما كانت تضرب باسم أخيه منكوقان . قال : وكان يكون لصاحب التخت أميرٌ لا يزال مقيما في مملكة إيران مع هُولَاكُو ، ومات في تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين

وستمائة، وملك بعـده (آبنه أبغا) . قال الشيخ شمس الدين الأصفهانىّ : ولما ملك أضاف آسمه فى السكة إلىٰ آسم صاحب التّخت ، وكان قد وجه أخاه منكوتمر إلىٰ الشام وآلتقىٰ مع الجيوش الإسلامية علىٰ حِمْص، وآنكسر عليها، ومات سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة ؛ وملك بعده أخوه (بوكدار بن هولاكو) وأسلم وحسن إسلامه وتلقب أحمد سلطان ، وحمل العسكرَ علىٰ الإسلام فقتلوه؛ وملك بعـده آبن أخيه (أرغون) بن أبغا بن هُولَاكُو فى جمادىٰ الأولىٰ سـنة ثلاث وثمانين وستمائة ، وتوفى فى ربيع الأوّل سـنة تسعين وستمائة؛ وملك بعـده أخوه (كيختو) فخرج عن الياسة وأفحش فى الفسق بنساء المغل وأبنائهم ، فوثب عليه بنو عمه فقتلوه فى ربيع الآخر سـنة أربع وتسعين وستمائة؛ وملك بعده (بيدو بن طرغاى) آبن هُولَاكُو ، وبقى حتّى قتل فى ذى الحجة من السـنة المذكورة ؛ وملك بعـده (محمود غازان) بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، ودخل إلىٰ الشـام ، وكان بينه وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون وَقَعات بحِمْص وغيرها آخرها علىٰ شَقْحَب ،كُسِر فيها كسرة فاحشة، هلك فيها معظم عسكره فى سنة آثنتين وسبعمائة ، وبقى حتّى توفى فى ثالث عشر شوّال سـنة ثلاث وسبعمائة ؛ وملك بعده أخوه (خدابندا) والعامة تقول خربنـدا بن أرغون بن أبغا بن هُولَاكُو فى الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وسبعمائة؛ ثم ملك بعده (أبو سعيد بن خدابندا) وهو آخر من ملك من بنى هُولَاكُو، وكان بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مكاتَبَات ومراسلات وتودّد بعد وَحْشـة ، وبموته تفرّقت المملكة بأيدى أقوام، وصارت شبيهة بملوك الطوائف من الفُرْس .

قال فى "مسالك الأبصار" بعد ذكر أبى سعيد : ثم هُمْ بعده فى دهماءَ مظلمه، وعمياءَ مُقْتِمه؛ لا يُفْضِى ليلهم إلىٰ صَبَاح ، ولا فرقتهم إلىٰ آجتماع ، ولا فسادُهم إلىٰ

صَلَاح؛ فى كل ناحية هاتف، يدعىٰ بآسمه، وخائف، أخذ جانبا إلىٰ قَسْمِه؛ وكل طائفة تتغلب وتقيم قائمـا تقول هو من أبناء القان، وتنسبه إلىٰ فلان؛ ثم يضمحلّ أمره عن قريب، ولا تلحق دعوته حتّى يدعىٰ فلا يجيب، وما ذلك من الدهر بعجيب . وذكر نحوه فى "التعريف" وزاد عليه فقال : "وكان العهد بهذه المملكة لرجل واحد وسلطان فرد مطاع، وعلىٰ هذا مضت الأيام إلىٰ حين وفاة أبى سعيد، فصاح فى جَنَبَاتِها كلُّ ناعق وقطع رداءها كل جاذب، وتفرَّد كل متغلب منها بجانب؛ فهى الآن نُهْبىٰ بأيديهم .

فأما عِرَاق العرب وهو بَغْدَادُ وبلادها وما يليها من ديار بَكْر، وربيعة ومُضَر، فبيد الشيخ حسن الكبير، وهو الحسن بن الحسين بن أقبغا من طائفة النُّورانيين، كان جدّه نوكرا لهُولَاكُو بن طولى بن جنكزخان، والنوكر هو الرفيق .

وأما بقيَّة ديار بكر، فبيد إبراهيم شاه بن بارنباى بن سوناى .

وأما مملكة أَذْرَبيجـان وهى قطب مملكة إيران، ومقرّ كرسىّ ملوكها من بنى جنكزخان؛ فهى الآن بيد أولاد جوبان، وبها القان القائم بها (سليمان شاه). قال: ولا أعرف صحة نسبه ولا سياقته بالدعوىٰ .

وأما خراسان، فبيد القان طغيتمريار . وهو صحيح النسب، غير أنى لم أعرف آسم آبائه .

وأما بلاد الروم، فقد أضـيفت إلىٰ إيران منهـا قطعةٌ صالحه، وبلاد نازحه؛ ثم قال: وهى الآن بيد أرتنا، وقد نبه علىٰ ذلك ليعرف .

قلت : ثم تغيرت الأحوال عن ذلك .

الجمـــلة الثامنة

(فى معاملاتهـا وأســعارها)

أما معاملاتها فالمعتبر فيها معاملة ثلاث قواعدَ .

الأولى ـ (بَغْدَاد) . قد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن ببغداد دينارين . أحدهما يسمّى العوال، عنه آثنا عشر درهما، الدرهم بقيراط وحبتين . وذلك أن الدينار عشرون قيراطا، كل قيراط ثلاث حبات، كل حبة أربعة فلوس من الدرهم النقرة، عن كل فَلْسٍ فَلْسان أحمران . والثـانى الدينار المرسل، عنه عشرة دراهم، وبه أكثر مبـايعاتهم ومعاملات تُجّارهم . وقد آختلف أصحابنـا الشافعية فى رِطْل بَغْـدَادَ، فذهب الرافعىّ إلىٰ أنه مائة وثلاثون درهما وهو الموجود فيها الآن، وعليه آقتصر فى "مسالك الأبصار". وذهب الشيخ محيي الديـن النووى إلىٰ أنه مائة وسبعة وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم؛ والمنُّ بها رطلان بالتورانى. ومكاييلها أكبرها الكُرّ، وهو ثلاثون كارة، كل كارة قفيزان، فيكون الكُرّ [ستين] قفيزا، والقفيز مكُّوكان كل مَكُّوك خمس عشراق (١) . وتختلف الكارَةُ فى الغلال، فالقمح كارته مائتان وأربعون رطلا، وكارة الأَرُزّ ثلثمائة رطل ، وكارة كلٍّ من الشـعير والحِمَّص والعَدَسِ والهُرْطُمَانِ مائة رطل ، وكارة الحَبَّة السَّوْداء، وهى الشُّونيز مائة رطل .

الثانية ـ (تَوْرِيز) قاعدة أَذْرَبِيجَان وسائرِ المملكة غير بغداد وخُرَاسان. فمعاملاتها بدينار يسمّى عندهم بالرائج، عنه ستة دراهم .

الثالثة ـ (نَيْسَابُور) قاعدة خُرَاسَانَ . فدينارها أربعة دراهم، وفى بعضها الدينار الرائج المقـدّم ذكره . قال فى "مسالك الأبصار" : ولا يبـاع بتَوْرِيزَ وبلادها

---

(١) كذا فى الأصل ، وقد تكلم علىٰ المَكُّوك صاحب القاموس وصاحب اللسان بأوضح ممـا هنا .

فى الغالب قمحٌ ولا شعير ونحوهُما إلا بالميزان، وليس لهم إلا المَنّ، وهو بتَوْريز رِطْلان بالبغدادىّ، فتكون زنته مائتين وستين درهما، و بالسلطانية المنّ ستمائة درهم .

وأما أسعارها فنقل فى "مسالك الأبصار" عن يحيىٰ بن الحكيم الطيارىّ فى السعر ببغـداد : أن كُرّ القمح بتسعة وثلاثين دينارا ونصف دينار، والشـعير بخمسة عشر دينارا، كلاهما من العوال . ثم قال: ولعل هذا هو السعر المتوسط، لا يكاد يميل فيه القانون عن معدّله . وذكر أن الأسعار بتبريز والسلطانية إذا لم ينزل عليها السلطان، فأسعارها رَخِيّة لا إلىٰ غاية، وكل بلد نزل عليه السلطان غلت أسعاره، ولعل هـذا قد تغير كل فى زماننا كما تغير غيره من الأحوال .

الجملة التاسعة

(فى ترتيب هذه المملكة علىٰ ما كانت عليه فى زمن بَنِي هُولَاكُو، آخر أيام أبى سعيد : من الأمراء والوزراء وأرباب الوظائف)

أما الأمراء . فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أنهم عندهم علىٰ أربع طبقـات أعلاها النوين ، وهو أمير عشرة آلاف، ويعبر عنه بأمير تومان، إذ التُّومان عندهم عبـارة عن عشرة آلاف ، ثم أمير ألف ، ثم أمير مائة ، ثم أمير عشرة . قال فى "التعريف": (وحكام دولة هذا السلطان أمراء الألوس، وهم أربعة، أكبرهم بكلارى بك : وهو أمير الأمراء، كما كان قطلوشاه عند غازان، وجوبان عند خدابندا، ثم عند أبى سعيد). قال : وهؤلاء الأمراء الأربعة لا يُفْصَـل جليل أمر إلا بهم، فمن غاب منهم كتب فى اليرالغ : وهى المراسيم كما يكتب لو كان حاضرا، ونائبه يقوم عنـه، وهم لا يُمْضُون أمرا إلا بالوزير، والوزير يمضى الأمور دونهم ويأمر نوابهم فتكتب أسمـاءهم، والوزير هو حقيقة السلطان، وهو المنفرد بالحديث فى المـال ،

والولاية، والعزل، حتّى فى جلائل الأمور كما كان بكلارى بك يتحدّث فى أمر العسكر بمفرده. فأما الاشتراك فى أمور الناس فبهم أجمعين، وليس للأمراء فى غالب ذلك من العلم إلا ماعلم نوابهم.

قال فى "مسالك الأبصار" نقلا عن نظام الدين بن الحكيم الطيارىّ : وأمر الجيوش والعساكر إلىٰ كبير أمراء الألوس المسمّى بكلارى بك، كما كان قطلوشاه مع السلطانين محمود غازان وأخيه محمد خدابندا، وجوبان مع خدابندا، ثم بعده مع ولده السلطان أبى سعيد بهادرخان، والشيخ حسن بن حسين بن أقبغا مع خانه السلطان محمد بن طشتمر بن اشتمر بن غبرجى، وإليه يقطع أمر كل ذى سيف. قال : وأمر متحصِّلات البلاد ودخلها وخرجها إلىٰ الوزير، وإليه يرجع أمر كل ذى قلم ومنصب شرعىّ، وله التصرف المطلق فى الولاية والعزل والعطاء والمنع، لايُشاوِر السلطان إلا فيما جَلَّ من المهمات وما قَلَّ من الأمور، وهو السلطان حقيقةً وصاحب البلاد معنى؛ وإليه ترجع الأمور كلها، وإليه عقدها وحلُّها. أما السلاطين بها فلا التفاتَ لهم لأمر ولا نهى ولا نظر فى متحصِّل ولا دخل ولا خرج. قال : وعدّة جيشهم المنزّلة فى دواوينهم لا تبلغ عشرين تومانا. أما إذا أرادوا فإنهم يركبون بثلاثين تومانا وما يزيد عليها، وعامةُ العسكر لا تزال أسماؤهم فى دواوينهم علىٰ الإفراد، وكلُّ طائفة منهم عليهم فى الديوان فارس معين، إذا رسم لهم بالركوب ركب العدّةُ المطلوبة. قال: وقد ذكر أنه كان فى هذه المملكة عدّة ملوك كصاحب هراة، وحلول الجبل هم كالعبيد لقانها الأكبر منقادون إليه وداخلون تحت طاعته.

وأما القضاة فعادة هذه المملكة أن يكون بها فى صحبة السلطان قاضى قضاة الممالك، وهو الذى يولّى القضاة فى جميع المملكة علىٰ تنائى أقطارها إلا العِراق، فإن لبغداد قاضى قضاة مستقلّ بها يولّى فيها وفى بلادها من جميع عراق العرب.

واما الكُتَّاب وأصحاب الدّواوين : من ديوان الإنشاء ودواوين الأموال ، فعلىٰ أَتَمِّ نظام وأعدلِ قاعدة .

الجمـــــلة العـاشرة

(فيما لأرباب المناصب والجُنْد من الرزق علىٰ السلطان)

قد نقل فى "مسالك الأبصـار" عن نظام الدين الطيارىّ : أن المقرَّر للأمراء فى القديم من زمن هُولَاكُو لكل نوين (أميرٍ) تومانٌ : وهو عشرة آلاف دينار رايج ، عنها ستون ألف درهم ، ثم تزايد الحـال بهم حتّىٰ لا يقنع النوين فيهم إلا بخمسين ألف(١) تومان ، وهى خمسمائة ألف دينـار رايج ، عنها ثلاثة آلاف ألف درهم ، ومن خمسين تومانا إلىٰ أربعين تومانا . وكان قد آستقر لجوبان ، وهو يومئذ بكلارى بك ثم لمن بعـده ثلثمائة تومان ، وهى ثلاثة آلاف ألف دينار رايج ، عنها ثمـانية عشر ألف ألف درهم مع ما يحصل لكل من أمراء الألوس الأربعة من الخدم الكثيرة فى البلاد جميعها عند تقريرات الضمان بها علىٰ ضُمَّـانها . قال : وأما أمير ألف ومَنْ دونه ، فلا يتجاوز أحد منهم تقريره القديم فى الديوان : وهو لأمير الألف ألف دينار رايج ، عنها ستة آلاف درهم . وأما أمير المائة وأمير العشرة وكل واحد من العسكرية إلىٰ الجند فمائة دينار رايج ، عنها ستمائة درهم لاتفاوت بينهم ، وإنمـا تبقى مزية أمير المائة أو العشرة أنه يأخذ لنفسه شيئا مما هو للعسكرية ، ولكل طائفة أرض لنزولهم ، توارثها الخَلَفُ عن السَّلَف منذ ملك هُولَاكُو البلاد ، فيها منازلهم ، ولهم بها مزدرع لأقواتهم ، لكنهم لا يعيشون بالحرث والزرع .

وأما الخواتين فإنه يبلغ ماللخاتون الواحدة فى السنة مائتى تومان ، وهو ألف(٢) ألف

(١) لعل لفظ ألف من زيادة الناسخ كما يستفاد من الفذلكة بعد فتأمل .

(٢) كذا فى الأصل ، ولعل الصواب ألفا ألف بالتثنية ليستقيم الحساب .

دينـار رائج، عنها آثنا عشر ألف ألف درهم، وما دون ذلك إلىٰ عشرين تومانا، وهو مائتا ألف دينار، عنها ألف ألف ومائتا ألف درهم .

وأما الوزير فله مائةوخمسون تومانا، وهو ألف ألف وخمسمائة ألف دينار رائج، عنها تسعة آلاف ألف درهم، ولا يقنع بعشرة أضعاف هذا فى تقادير البلاد .

وأما الخواجكية من أرباب الأقلام، فمنهم من يبلغ فى السنة ثلاثين تومانا، وهى ثلثمائة ألف دينار، عنها ألف آلف وثمانمائة ألف درهم . ثم قال : والذى للأمراء والعسكرية لايكتب به مرسوم، لأن كل طائفة وَرِثت مالها من ذلك عن آبائها، وهم علىٰ الجهات التى قررها لهم هُولَاكُو لم تتغير بزيادة ولا نقص، إلا أكابر الأمراء الذين حصلت لهم الزيادات فإنه فى ذلك الوقت كتب لهم بها بأمر القان أصدرها الوزراء عنه، ومن الخواتين من أخذ بمـاله أو ببعضـه بلادا فهى له . قال : وفى هــذه المملكة ما لا يحصىٰ من الإدرارات والرسومات حتّى إن بعض الرواتب يبلغ ألف دينـار .

وأما الإدرارات من المبلغ أو القرىٰ، فإنها تبقىٰ لصاحبها كالملك يتصرف فيه كيف شاء من بَيْعٍ وهِبَةٍ ووَقْفٍ لمن أراد .

الجمـــــلة الحادية عشرة

(فى ترتيب أمور السلطان بهذه المملكة علىٰ ما كان الأمر عليه)

حكىٰ فى "مسالك الأبصار" عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أن أهل هذه المملكة من التتر كانوا قد داخلوا العجم وزوّجوهم وتزوّجوا منهم، وخلطوهم بالنفوس فى الأمور، فتفخمت قواعدهم، وجرت علىٰ عوائد الخلفاء والملوك فى غالب الأمور قوانينُهم .

ثم للسلطان بهذه المملكة مَشْتًى ومَصِيف :

فأما مَشْتاه فبأوجان بظاهر تبريز، وهو مكان متسع ذو مُرُوج ومياه على ماتقدّم ذكره، وبه قُصُور لأكابر الأمراء والخَوَاتين . أما عامة الأمراء والخواتين، فإنهم يتخذون زُرُوبا من القصب كالحظائر يتزرّبون بها، وينْصِبون معها الخركاوات والخيام، فتصير مدينة متسعة الجوانب، فسيحة الأرجاء، حتّى إذا خرجوا لمَصِيفهم راحلين عنها، أحرقوا تلك الحظائر لكثرة ما يتولد فيما بقى منها من الأفاعى والحيات، ولا يبالون بما يُغْرم عليها من كثير الأموال .

وأما مَصِيفه فمكانٌ يعرف بقَرَاباغ ، ومعناه البستان الأسود ، وفيه قُرًى ممتدّة ، وهو صحيح الهواء، طيب الماء ، كثير المَرْعى . وإذا نزل به الأردوا ، وهو وطاق السلطان وأخذت الأمراء والخواتين منازلهم، نُصِب هناك مساجدُ جامعة، وأسواق منوّعة ، يوجد بها من كل ما فى أمهات المدن الكبار حتّى يكون بها أسواق لاينكر أحد على أحد، بل كل أحد وما آستحسن، إلا أن الأسعار تغلو حتّى يصير الشىء بقيمة مثليه أو أكثر لكلفة الحمل ومشقّة السفر. وذكر أنه كان من عادة سلطانهم أنه لايعمل موكبا، ولايجلس لخدمة ولا لقراءة قصص حكمية وإبلاغ مظالم إليه، بل له من أبناء الأمراء خاصةٌ له يقال لهم الإينافية، يكونون حوله لايكاد منهم من يفارقه .

فأما الأمراء فإنهم يركبون فى غالب الأيام على نحو عشرين غَلْوَة سهم منها إلى باب الكرباس، وتنصب لهم هناك كراسىّ صندلية، يجلس كل أمير منهم على كرسىّ منها بحسب مراتبهم : الأعلى ثم الأدنى ، ويدخل الوزير فى بكرة كل يوم على القان، ويبقى الأمراء على باب الكرباس، فإما أن يخرج لهم القان، وإما أن يأذن لهم فى الدّخول، أو لا هذا ولا هذا . فإذا حضر طعام القان بعث إلى كل أمير منهم شيئا للأكل بمفرده يأكله هو ومن آنضم معه، فيأكلون ثم يتفرّقون ويذهبون إلى حالهم، ومن تأخر منهم عن الحضور لم يطلب بحضور إلا أن تدعوَ الحاجة .

أما الظُّلَامات فإن كانت متعلّقة بالعسكرية، فإلىٰ أمير الألوس. وإن كانت متعلقة بالبلاد والأموال أو الرعايا، فإلىٰ الوزير. بل أكثر الظُّلَامات لا يفصلها إلا الوزير لملازمته باب القان، بخلاف أمير الألوس لقلة ملازمته. ثم قال: وليس فى هذه البلاد قاعدة محفوظة، بل كل مَنِ ٱنضوىٰ إلىٰ خاتون من الخواتين أو أمير من الأمراء أو كبير من الخواجكية، قام بأمره إما فى قضاء حاجة يطلبها، أو إزالة ظُلَامة يشكوها، حتّٰى إن من الخواتين والأمراء من يقتل ويُوسِّط بيده بغير أمر القان ولا أمير الألوس.

الجمـــــلة الثانية عشرة

(فيما يتعلق بترتيب ديوان الإنشاء بهذه المملكة)

أما اليرالغ: وهى المراسيم، فالمتعلق بالأموال تسمّٰى الطن طمغا ويكون صدورها عن رأى الوزير، وكذلك المتعلق بالبريد. والمتعلق بالعسكرية صادر عن أمير الألوس، وليس لأحد علىٰ الجميع خَطٌّ إلا الوزير، وإنما العادة أن يأمر الوزير بكتابة ما يرىٰ، ثم تُؤخذ خطوط المتحدّثين فيما يُكتَب، ثم تحرّر مسودّة وتعرض علىٰ الوزير فيأمر بتبييضها، فإذا بُيِّضت كتب عليها ٱسم السلطان، ثم تحتـه ٱسم الأمراء الأربعة، ويخلّٰى تحته مكان لخط الوزير، ثم يكمل اليرلغ ويختمه بالتاريخ شخص مُعَدٌّ لذلك غير من يكتب، ثم يكتُب الوزير فى المكان الخالى "فلان سورى" أى هـذا كلام فلان يسمى نفسه.

ثم إن كان متعلقا بالمـال أُثبِت بالديوان المتعلق به، وإلا فلا. وأما المتعلق بالعسكر، فمنشأ الأمر فيه عن أمير الألوس يأمرهم علىٰ بقية الترتيب، ولا خَطَّ لأمير الألوس بيده. وعادة أصحاب الدواوين عندهم كما هو بمصر والشام لا يعلِّم صاحبُ علامة حتّٰى يرىٰ خط نائبه عليه أوّلا ليَعْلَم أنه قد ثبت عنده.

قلت: وقد ٱختلفت الأحوال بعد ذلك وتغيرت عما كانت عليه فى جُل الأمور.

المملكة الثانيـــــــة
(مما بيد بَنِي جنكزخان مملكة تُورَانَ)

قال فى "المشـترك" : بضم المثناة من فوق وسكون الواو ثم راء مهملة وألف ونون . قال فى "التعريف" : وهى من نهر بَلْخ إلىٰ مطلع الشمس علىٰ سمت الوسط، فما أخذ عنها جنوبا كان بلاد السِّنْد ثم الهِنْـد ، وما أخذ عنها شمالا كان بلاد الخفجاخ، وهى طائفة القَبْجَاقِ، وبلاد الصقْلَب، والجَهَاركس، والروس، والماجار، وما جاورهم من طوائف الأمم المختلفة سُكَّان الشَّمال . قال : ويدخل فى تُورَانَ ممالكُ كثيرة، وبلاد واسعة، وأعمال شاسعة، وأمم مختلفة لاتكاد تحصىٰ، تشتمل علىٰ بلاد غَزْنَة، والبَامِيَانِ، والغُورِ، وماوراء النهر الذى هو نهر جَيْحُونَ، نحو بُخَارا وسَمَرْقَنْدَ والصُّـغْدِ ونُجَنْد وغير ذلك، وبلاد تُرْكُسْتَانَ وأشْرُوسَـنَةَ وفَرْغَانَةَ، وبلاد سَاغُونَ وأَطْرَار وصريوم، وبلاد الخِطَا نحو بشمالق والمالق إلىٰ قَرَاقُومَ، وهى قرية جنكزخان التى أخرجتْه، وعِرِّيسَتُه التى أدرجتْه . إلىٰ ماوراء ذلك من بلاد الصِّينِ وصِينِ الصِّينِ . ثم قال : وكل هذه ممالك جليله، وأعمال حفيله . أما فى "المشترك" : فإنه قد جعل تُورَانَ ٱسما لمجموع ما وراء النهر من مملكة الهَيَاطلة، وهى جزء مما تقدّم ذكره .

وقد قسم فى "التعريف" (١) : مملكة تُورَانَ إلىٰ ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل ــ منها غزنة وبُخَارا وسَمَرْقَنْدَ وعامة ما وراء النهر وتُرْكُسْتَانَ .

قال فى "مسالك الأبصار" : وما بعده ومامعه . قال : وهى من أجَلّ الممالك وأشهرها . ثم قال : وهى ممالك طائرة السُّمْعه، طائلة البُقْعه، أُسرَّةُ ملوك، وأُفُق عُلَمَاء، ودارة أكابر، ومَعْقِد أَلْوِيَةٍ وبُنُود، ومجرىٰ سوابق وجُنُود، كانت

(١) عبارة "التعريف" وأما مملكة توران فهى منقسمة ثلاثة أقسام ...... وبها سلطانان مسلمان وسلطان كافر . ثم تكلم علىٰ المكاتبة إلىٰ الجميع .

بها سلطنة الخانيــة وآل سامان و بنى سُبُكْتكين والغُورية ؛ومن أُفُقها بزغت شمس آل سَلْجُوق، وآمتدّت فى الإشراق والشُّروق؛ وغير هذه الدول ممـاطَمَّ سهولَ هذه الممـالك علىٰ قربها . كانت قبل آنتقالها إلىٰ الإسلام ، فى ملوك الترك لا ترامىٰ ولا ترام،ولا يشق لها سهام؛ حتّىٰ [إذا] خيم بها الإسلام وحاز ملكَها هذه الأمة، برقت بالإيمان أَسِرَّتُها، وتطرّزت بالجوامع والمساجد قراها؛ ثم بنيت بها المدارس والخوانق والرُّبط والزوايا، وأجريت الأوقاف عليها ، وكثر من العلماء أهلُها، وسارت لها التصانيفُ المشهورة فى الفقه والحـديث والأصول والخلاف ، وكان فيهم الرؤساء والأعلام، والكبراء أهل البحث والنظر . ثم قال : وهى فى أواسط المعمور وأوسع الأرض إذا قيل إنها أخصب بلاد الله تعالىٰ وأ كثرها ماء ومرعىٰ ، لم يُغَيِّر القائلُ الحقَّ فى أوصافها ؛ ذات الأنهار السارحة، والمروج الممتدّة؛ كأنما نشرت الحُلَلُ علىٰ آفاقها، ونثرت الحلىٰ علىٰ حصبائها .

و يرجع المقصود منها إلىٰ سبع جمل .

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى ذكر حدودها، وطُولها وعَرْضها، وموقعها من الأقاليم السبعة)

أما حدودها وطولها وعرضها، فقال فى "مسالك الأبصار" : وهى واقعة بشرق محضٍ آخذة إلىٰ الجنوب ؛ يحدّها السِّنْد من جنوبيها، والصِّينُ من شرقيها، وخُوَارَزْمُ وإيران من جنوبيها(١)،وطولها من ماء السـند إلىٰ ماء ايلا المسـمّىٰ قراخوجا، وهى تلى بر الخِطا، وعرضها من وَنَج وهو منبع نهر جَيْحُونَ إلىٰ حدود كُرْكَانْج قاعدة خُوَارَزْم؛ وحدّها من الجنوب جبال البُتَّم وماء السِّـنْد الفاصل بينها و بين السِّـنْد؛ ومن الشرق أوائل بلاد الخِطا؛ ومن الشَّمال مراعى باران وكَنـد و بعض خراسـان

(١) لعله من غربيها .

إلى بحيرة خُوَارَزْمَ، ومن الغرب بعض خُرَاسَانَ إلى خُوَارَزْم إلى مجرى النهر آخذا على الختّل . ثم حكى عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أن بلاد هذه المملكة متصلة بخُرَاسَانَ متداخلة بعضها ببعض، لا يفصل بينهما بحر ولا نهر ولا جبل ولا مَفَازة، بل بينها وبين خُرَاسان أنهار جارية ومزارع متصلة .

الجملة الثانية

(فيما يدخل فى هذه المملكة من الأقاليم العرفية، وهى سبعة أقاليم)

الإقليم الأول منها

(ما وراء النهر)

قال فى "تقويم البُلْدان" : والذى ظهر لنا فى تحديد ما وراء النهر أنه يحيط به من جهة الغرب حدود خُوَارَزْم، ومن الجنوب نهر جَيْحُونَ من لَدُن بَذَخْشَانَ إلى أن يتصل بحدود خُوَارَزْم، فإن جَيْحُونَ فى الجملة يجرى من الشرق إلى الغرب، وإن كان يعرِض فيه عَطَفات تجرى جنوبا مرة وشَمالا أخرى . ثم قال : أما حدوده من الشرق والشَّمال فلم تتضح لى . قال صاحب "كتاب أشكال الأرض" : وما وراء النهر من أخصب الأقاليم منزلة، وأنزهها وأكثرها خيرا ، وأهلها يرجعون إلى رغبة فى الخير، وآستجابة لمن دعاهم، مع قلة غائلة، وسلامة ناحية، وسماحة بما ملكت أيديهم، مع شدّة شوكة ومَنَعَةٍ وبَأْسٍ ونَجْدَةٍ وعِدّة وعُدَّة، وآلة وكُرَاع وبسالة وعلم وصلاح ، وليس من إقليم إلا ويُقْحَطُ أهله مرارا قبل أن يُقْحَطَ ما وراء النهر مرةً واحدة ، ثم إن أحَسُّوا(1) ببرد أو بجراد أو بآفة تأتى على زروعهم وغلاتهم ، ففى فضلِ ما يسلم فى عروض بلادهم ما يقوم بأَوَدِهم حتّى يستغنوا به عن شيء ينقل إليهم من غير بلدهم . قال : وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مُدُن

(1) لعله مصحف عن "أصيبوا" .

أو قرًى أو مراعٍ لسوائمهم؛ وليس من شيء لابدّ للناس منه إلا وعندهم منه مايقيم أَوَدَهم ويفْضُل عنهم لغـيرهم؛ ومياههم أعذب الميـاه وأبردها وأخَفُّها، وقد عمّت جبالَها وضواحِيَها ومُدُنَها إلىٰ التمكن[(١)] من الجِدّ فى جميع أقطارها ، والثلوج من جميع نواحيها؛ والغالب علىٰ أهل المـال والثروة بها صرف المـال فى عمل المدارس وبناء الرُّبُط وعمـارة الطرق ، والأوقاف علىٰ سُبُل الجهاد ووجوه الخير ، وعقد القناطر، إلا القليل من ذوى البطالة .

وفيهـا من الدّواب الخَيْلُ والبِغَالُ والحَميرُ والإبِلُ البُخْت والبَقَرُ، والغَنَمُ أكثرها فإنها كما يقال أعوزها للزرائب، وفيها من المباح مافيه كفايتهم، ولهم من نتـاج الغَنَمِ الكثيرُ والسائمة المفرطة . وذكر أنه يوجد عنـد آحاد العامة من عشرين دابةً إلىٰ خمسين دابة لا كُلْفة عليه فى اقتنائها لكثرة المـاء والمرعىٰ .

وفيها من الحبوب القَمْحُ والشَّعير والحِمَّص والأَرُزُّ والدُّخْنُ وسـائر الحبوب خلا الباقلا، وبها من الفواكه المنوعة الأجناس العِنَبُ، والتِّينُ ، والرُّمَّانُ، والتُّفَّاحُ، والكُمَّثْرىٰ، والسَّفَرْجَلُ، والخَوْخُ، والمِشْمِشُ، والتُّوتُ، والبِطِّيخُ الأصْفَر، والبِطِّيخُ الأخضر، والخِيارُ، والقِثّاءُ .

وفيها من البقول اللِّفْتُ والجَزَرُ والكُرُنْبُ والبَاذِنْجَانُ والقَرْعُ وسائرأنواع البقول .

وفيها من الرياحين الوَرْدُ والبَنَفْسَجُ والآسُ واللَّيْنُوفَرُ والحَبَقُ؛ولا يوجد بها الأُتْرُجُّ والنَّارَنْجُ واللَّيْمُونُ والليم، ولا الموز ولا قصب السُّـكَّرِ ، ولا القُلْقَاسُ، ولا الملوخيا، فإنها من ذلك عارية الحدائق، خالية المروج؛ إلا ماأُتِى به إليها من المحمضات مجلوبا .

وفيها أصناف الملبوس : من القَزِّ، والصُّوف، وطرائف البَزِّ .

وفيها من المعادن معدنُ زئبق لا يعادله معدن فى الغَزارة .

---

(١) لعله فكان ذلك داعية إلى التمكن الخ .

وقد ٱشتمل ما وراء النهر على عدّة كور .

(منها) السُّغْد . قال فى "اللباب" : بضم السين المهملة وسكون الغين المعجمة ودال مهملة فى الآخر، ويقال الصُّغْدُ بالصاد بدل السين، ويضاف إلى سَمَرْقَنْدَ، فيقال سُغْدُ سَمَرْقَنْدَ، وهو أحد منتزهات الدّنيا الأربعة التى هى غوطة دِمَشْقَ، ونهر الأُبُلَّةِ، وشِعْب بَوّانَ، وسُغْدُ سَمَرْقَنْدَ . قال ٱبن حوقل : وهو أنزه الأربعة لأنه ممتدّ نحو ثمانية أيام، مشتبكُ الخُضْرة والبساتين، لا ينقطع ذلك فى موضع منه، وقد حُفَّت تلك البساتين بالأنهار الدائم جَرْيُها، ومن وراء الخضرة من الجانبين مزارعُ، ومن وراء المزارع مَرَاعى السوائم . ثم قال : وهى أزكى بلاد الله وأحسنها أشجارا .

ومنها أُسْرُوشَنَةُ . قال فى "اللباب" : بضم الألف وسكون السين وضم الراء المهملتين وسكون الواو وفتح الشين المعجمة ثم نون . قال ٱبن حوقل : والغالب عليها الجبال، ويحيط بها من الشرق بعض فَرْغَانَةَ، ومن الغرب حدود سَمَرْقَنْدَ، ومن الشّمال بعض فَرْغَانَةَ أيضا، ومن الجنوب بعض حدود كَشّ والصَّغَانِيَان . قال أحمد الكاتب : ولها عدّة مُدُن، ويقال إن بها أربعمائة حصن .

(ومنها) فَرْغَانَةُ . قال فى "المشترك" : بفتح الفاء وسكون الراء المهملة وفتح الغين المعجمة وألف ونون . قال ٱبن حوقل : وفيها مُدُن وكُوَر، وإليها ينسب جماعة من العلماء، منهم أبو سعيد الفَرْغَانىّ شارح "تائية ٱبن الفارض" قال ٱبن حوقل : وبجبال فَرْغانة معادنُ الذهب والفِضة والفَيْرُوزَج والحديد .

وقاعدتها بُخَارَا . قال فى "اللباب" : بضم الباء الموحدة وفتح الخاء المعجمة ثم ألف وراء مهملة مفتوحة ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول سبع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعَرْض

تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينـة خارجها نَزِهٌ كثير البساتين . قال : وليس بتلك البُلْدان بلد أهلها أحسن قياما علىٰ عمارة قُرَاهم منهم، ويحيط بها و بقُرَاها ومزارعها سُورٌ واحد ٱثنا عشر فرسخا،ولهـا كورة عظيمة تصاقب جَيْحُونَ علىٰ مَعْبَر خُرَاسَانَ ، وبها يتصل سُغْدُ سَمَرْقَنْدَ . قال فى "مسالك الأبصار": وهى أم الأقاليم ويمّ التقاسيم،وقد كانت [مستقرًّا] للدولة السامانية ومركز أفلاكهم الدائرة،وكانت تلك الممالك كلها تبعا لها. قال صاحب "أشكال الأرض": ثم لم أرَ ولم أسمع بظاهر بلد أحسن من بخـارا ، لأنك إذا عَلَوْتَ لم يقع نظرُك من جميع النواحى إلا علىٰ خُضْرة تتصل خضرتهـا بلون السماء ، مكبة زرقاء علىٰ بساط أخضر، تلوح القصور فيما بين ذلك كالتِّراس التبنية ، أو الجَحَف اللَّمْطِيَّة ، أو الكواكب العلوية ، بين أراض وضياع مقسومة بالآستواء،ممهدة كوجه المِرْآة فى غاية الهندسة ، ولهـا سبعة أبواب حديد : وهى باب المدينة ، و باب يون ، وباب خضرة ، و باب الحديد ، و باب قهندر ، وباب بنى أسـد ، وباب بنى سـعد . وليس فيها ماء جار لآرتفاعها ، ومياههم من النهر الأعظم الجارى من سَمَرْقَنْدَ ، وإليها ينسب الإمام الحافظ (أبو عبد الله البخارىّ) صاحب الجامع الصحيح فى الحديث .

ولها عدّة مدن :

(منهـا) الطَّوَاوِيسُ . قال فى " اللبـاب " : بفتح الطاء المهملة والواو وبعد الألف واو ثانية مكسورة ومثناة تحت ساكنة وسين مهـملة فى الآخر ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السـبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول سبع وثمـانون درجة وأربعون دقيقة ، والعرضُ سـبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينـة من مضافات بُخَارا داخل الحائط الدائر علىٰ أعمـال بُخَارا ، كثيرةُ البساتين والماء الجارى . قال : وقد خَربت الآن . وقال فى "اللباب":

هى قرية من قرىٰ بخارا خرج منها جماعة من العلماء، وبينها وبين بخارا سبعة فراسخ، وإليها ينسب الطاووسىّ صاحب "المصباح علىٰ الحاوى الصغير" فى فقه الشافعية، ردّا لها فى النسب إلىٰ المفرد وهو الطاوس .

(ومنها) نَخْشَبُ . قال فى "اللباب" : بفتح النون وسكون الخاء وفتح الشين المعجمتين ثم باء موحدة. قال فى "تقويم البُلْدان": فلما عربت قيل نَسَف ـ يعنى بفتح النون والسين المهملة وفاء فى الآخر . قال ٱبن حوقل : وهى فى مستوٍ من الأرض، والجبال منها علىٰ نحو مرحلتين مما يلى كَشّ، وبينها وبين جَيْحون مفازة، ولها نهر يجرى فى المدينة وينقطع فى بعض السنة ، والغالب عليها الخِصْبُ . قال المهلبىّ : وهى وَبِيَّة .

(ومنها) كَشٌّ . قال فى "المشترك" : بفتح الكاف ثم شين معجمة مشدّدة ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة قدرها ثُلُثُ فرسخ فى مثله ، وهى خِصْبَةٌ وفواكهها تُدْرِك قبل فواكه غيرها من بلاد ما وراء النهر، وطول عملها أربعة أيام فى نحوها . قال المهلَّبىّ : ولها رستاق جليل، ولها نهران، وإليها ينسب جماعة من العلماء .

(ومنها) سَمَرْقَنْدُ . قال فى " تقويم البُلْدان " : بفتح السين المهملة والميم وسكون الراء المهملة وفتح القاف وسكون النون ثم دال مهملة ـ وموقعها فى الإقليم الخامس . قال فى " القانون " حيث الطول ثمان وثمانون درجة وعشرون دقيقة، والعرض أربعون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى قَصَبَةُ السُّغْدِ، وهى مبنية علىٰ ضَفَّة واديه، وهى مرتفعة عن الوادى، وحول سُورِها رسمُ خندق عظيم، ولها نهر يدخل إليها علىٰ حمالات فى الخندق معمول بالرَّصاصِ، وهو نهر جاهلىّ يشُقُّ السوق

بموضع يعرف برأس الطاق . قال آبن حوقل : ورأيت على باب من أبوابها يسمّى باب كَشّ صفحةً من حديد وعليها كُتَيّبة يزعم أهلها أنها بالحِمْيَرِيّة، وأن الباب من بناء تُبَّع ملك اليَمَن، وأن من صَنْعَاء إلى سَمَرْقَنْدَ ألف فرسخ، وأن ذلك مكتوب من أيام تُبَّع . قال : ثم وقعتْ فتنة بها فى أيام مُقَامى بها وأُحْرق البابُ وذهبت الكتابة ، ثم أعاد عمارةَ الباب محمدُ بن لُقْمان بن نصر السامانىّ ولم يُعِد الكتابة . قلت : والمراد تبع المسمّى بأسعد أبا كَرِبٍ ؛ وقد أشرت إلى قضية تُبَّع فى بناء سَمَرْقَنْدَ فى الكتاب الذى أنشأته لأن يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية إلى تمرلنك عند إرساله بالمفاوضة فى الصلح بعد واقعة دِمَشْق والقبض على آبن عثمان صاحب برسا من بلاد الروم بقولى بعد الدعاء : "ولا زال بالنصر تَقْضِى قواضبه ، وبالظَّفَرِ وحُسْنِ الأثر تَمْضِى مَقَانِبُه وتشاع مناقبه، وبلسان دولته القاهرة يُصاح بتُبَّعِ سَمَرْقَنْدَ لن تبلغ هذه الرتبة حتّى نَظَّم الجَزْعَ ثاقبُه" . على ما سيأتى ذكره فى الكلام على مكاتبة القان صاحبِ ماوراء النهر، فى الكلام على المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

قال فى "مسالك الأبصار" : وسَمَرْقَنْدُ مدينة مرتفعة يُشْرِفُ الناظر بها على شجر أخضر، وقُصُور تُزْهِر، وأنهار تَطَّرِد، وعمارة تتَّقد، لا يقع الطَّرْف بها على مكان إلا ملأه، ولا بستان إلا آستحسنه . قال صاحب "أشكال الأرض" : وقد نصصت أسحار السير[(١)]، وتشبهت بطوائف الحيوان : من الفِيَلَةِ والإبل والبقر والوحوش المقبل بعضها على بعض . قال : وبها حصن ولها أربعة أبواب : باب مما يلى المَشْرِق يعرف بباب الصِّين، مرتفع عن وجه الأرض ينزل إليه (؟) بدرج كثيرة، مطل على وادى السُّغد ؛ وباب مما يلى المغرب يعرف بباب النُّوبهار على نَشْز من

(١) كذا فى الأصل والمراد وصف المدينة بالتقدّم والآرتقاء .

الأرض، وباب مما يلى الشمال يعرف بباب بُخَارا، وباب مما يلى الجنوب يعرف بباب كَشّ. قال: وفيها مافى المدن العِظَام من الأسواق الحسان والحمامات والخانات والمساكن، وبناؤها من طين وخشب، والبلد كله: طُرُقه وسِكَكُه وأسواقه وأزِقَّته مفروشة بالحجارة .

(ومنها) بِنْكَث . قال فى "اللباب": بكسر الباء الموحدة وسكون النون وفتح الكاف وفى آخرها ثاء مثلثة ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسعون درجة، والعرض إحدى وأربعون درجة وعشرون دقيقة . ولها سُورٌ ورَبَضٌ وبساتين كثيرة .

(ومنها) نوبكت ــ بنون وواو وباء موحدة ثم كاف ومثناة من فوق . قال ابن حوقل : وهى قصبة[(1)] ناحية إيلاق، وعليها سُورٌ ولها عدّة أبواب، وفيها مياه وبساتين كثيرة .

(ومنها) خُجَنْدَة . قال فى "اللباب": بضم الخاء المعجمة وفتح الجيم وسكون النون ثم دال مهملة ــ وهى مدينة على طرف سَيْحُونَ مضمومة إلى فَرْغَانَةَ، واقعة فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول تسعون درجة، والعرض أربعون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "اللباب": وهى مدينة كبيرة، وهى فى مستوٍ من الأرض، ولها بساتينُ كثيرة . قال أحمد الكاتب : ومنها إلى سَمَرْقَنْدَ سبع مراحل، ومنها إلى الشاش كذلك .

(ومنها) تُنْكَتُ . قال فى "اللباب": بضم المثناة من فوق وسكون النون وفتح الكاف وفى آخرها تاء ثانية ــ وهى مدينة من مدن الساحل، وقيل هى قصبة إيلاق؛

(1) الذى فى "تقويم البلدان" عن ابن حوقل أن عاصمة إيلاق تسمى تونكت، وكذا فى "معجم البلدان" لياقوت، إلا أنه نص على أن آخرها ثاء مثلثة، وهى تنكت الآتية بعد فليتنبه .

وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول إحدىٰ وتسعون درجة، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال فى "اللباب" : ولها نهر ودار إمارة، وخرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) أَخْسِيكَثُ . قال فى " اللباب " : بفتح الألف وسكون الخاء المعجمة وكسر السين المهـملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الكاف وفى آخرها ثاء مثلثة . وهى مدينة من بلاد فَرْغَانَةَ ، واقعة فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السـبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول إحدىٰ وتسـعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض آثنتـان وأربعون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى علىٰ شَطِّ نهر الشاش فى أرض مستوية بينها وبين الجبال نحو فرسخ .

(ومنها) تِرْمِذ . قال فى " اللباب " : قيل بفتح التاء ثالثة الحروف وقيل بضمها وقيل بكسرها . قال : والمتـداول علىٰ لسان أهلها فتح التـاء وكسر الميم ، والمشهور فى القديم كسر التاء والميم جميعا؛ وقيل بضم التاء والميم وبينهما راء ساكنة وفى آخرها ذال معجمة ــ وهى مدينة علىٰ شَطِّ جَيْحُونَ ، واقعـة فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " القانون" حيث الطول إحدىٰ وتسعون درجة وخمس وخمسون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال آبن حوقل : ومعظم مساكنها وأسواقها مفروشـة بالآجُرّ، وهى قَصَـبة تلك النواحى ، وأقرب الجبال إليها علىٰ مرحلة ، وليس لقُراها شُرْب من جَيْحُونَ بل من نهر الصَّغَانِيَان . قال : ولها مُدُن كثيرة وكُوَرٌ مضافة إليها . قال فى "اللباب" : وهى مدينة قديمة .

(ومنها) الصَّغَانِيَانُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح الصاد المهملة والغين المعجمة وألف ونون ومثناة تحتية ونون فى الآخر، جميع ذلك بالتخفيف . قال : ويقال لها بالعجمية جَغَانِيَان ــ وهى مدينة موقعها فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة .

قال فى " الأطوال " حيث الطول تسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثلاثَ عشرةَ دقيقة . قال ابن حوقل : وهى أكبر من تَرِمذ إلا أن ترمذ أكثر أهلا . ثم قال : وهى كورة كبيرة كثيرة المـاء والشجر، والنسبة إليها صَغَانىّ وصَاغَانىّ .

الإقلـــيم الثـانى
(تُرْكُسْتَانُ)

بضم التاء المثناة من فوق وسكون الراء المهـملة وضم الكاف وسكون السين المهملة وألف بعدها نون، ومعناه ناحية الترك . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مملكة لو انفردت لكانت مُلْكا كبيرا وسلطنة جليلة (زهرةُ الدّنيا، وطراز الأرض بلاد التُّرْك) وحقيقةً من كِنَاسها رتعت غِزْلانُها، ومن غابها أَصْحَرَتْ لُيُوثهم . وهى إقليم فسيح المَدَى، قديم الذكر، منشأ حُماه، ومَنْسَبُ كُماه . قال : وهو المراد بقولهم بلاد الأتراك؛ ولم تزل الملوك تلحَظُها لاتقاء بوادرها، والتقاء ذواخرها، فأشدّ مانكَّرت الأيام معالمهـا، وغيرت الغِيَرُ أحوالهـا . قال : ولقد صادفت حدّةَ التتار، فى أوّل التَّيَّار، فجاءت قدّامهم فى سَوْرة غضبهم ، ونفحة نارهم، فأمالت السـيوفُ حصائدَ أحبـالهم ، ولم يبق إلا من قَلَّ عديده . ثم قال : حكىٰ لى من جال فى رساتيقها ، وجَازَ فى قُراها، أنه لم يبق من معالمها إلا رسومٌ داثرة ، وأطلال ناتئة، يَرىٰ علىٰ البُعْد القريةَ مُشيَّدةَ البناء، مُخْضَرّةَ الأكناف، فيأنس لعله يجد بها أنيسا ساكنا، فإذا جاءها وجدها عالية البنيان، خاليةً من الأهل والسُّكّان، إلا أهل العمل وأصحابَ السائمة . ليست بذات حرث ولا زرع، و إنمـا خضرتها مُرُوج أطلعها باريها بها من النباتات البَرِّيَّة ، لابَذَرها بَاذِرٌ، ولا زرعها زارع. و يوجد بها خَلَف من بقايا العلماء،ويجزئ التيمم فيها بالتراب بعد المـاء .

ومن نواحيها (فَارَابُ) . قال فى "المشترك" : بفتح الفاء والراء المهملة بين ألفين وفى آخرها باء موحدة . وقال فى " مسالك الأبصـار " : الصواب إبدال الفاء باء موحدة لأنه ليس فى اللغة التركية فاء . قال آبن حوقل : وهى ناحية لها غياض، ولهم مزارع، ومقدارها فى الطول والعرض أقلُّ من يوم . قال فى "تقويم البـلدان" : وتسمَّى أُطْرار .

وقاعدتها (قَاشْغَر) . قال فى "اللباب" : بفتح القاف وسكون الألف ثم سكون الشين المعجمة أيضـا وفتح الغين المعجمة وفى آخرها راء مهملة . قال فى " تقويم البُلْدان" : ويقال لها كَاشْغَر بإبدال القـاف كافا ـ وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول ست وتسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وأربعون درجة . قال المهلبىّ : وهى مدينـة عظيمة آهلة عليها سُورٌ وأهلها مسلمون . قال فى "القانون" : وتسمَّى أزدوكند .

قال فى "مسالك الأبصار" : أما الآن فقاعدتها (قرشى) بقاف وراء مهملة وشين معجمة ثم ياء مثناة من تحت فى الآخر . قال فى " مسالك الأبصار " : وهى علىٰ نهر قراخوجا فى نهاية الحدّ . قال : وهى وإن لم تكن شيئا مذكورا، ولا لهـا علىٰ آختلاف حالات الزمان شهرة تُذْكَر ، لكن قد شملها فى دولة ملوكها الآن(١) من نظر السـعادة لنسبتها إلىٰ أنها سَكَن لهم، وإن كانوا ليسوا بسُكَّانِ جِدَار، ولا متديِّرين فى ديار، ولكن لآسم وُسِمَتْ به . وبها عدّة مدن أيضا :

(منهـا) كدر . قال فى " الأطوال " : وهى قَصَبة فَارَابَ . قال فى " مسالك الأبصار" : وإليها ينسب فَيْلَسُوفُ الإسلام أبو نَصْر الفَارَابِىّ .

---

(١) لعله شىء من نظر الخ .

(ومنها) خُتَن . قال فى "اللباب": بضم الخاء المعجمة وفتح المثناة من فوق ونون فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وثمانون درجة، والعرض ثنتان وأربعون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى أقصى تُرْكُسْتَانَ . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة خِصْبَةٌ آهلة عامرة، بها أنهار كثيرة .

(ومنها) جَنْدٌ . قال فى "اللباب" : بفتح الجيم وسكون النون وفى آخرها دال مهملة - وهى بلدة واقعة فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرض سبع وأربعون درجة . قال فى "اللباب" : وهى فى حدود التُّرْك على طَرَف سَيْحُونَ، خرج منها جماعة من الفضلاء .

(ومنها) إسْفِيجَابُ . قال فى "اللباب" : بكسر الألف وسكون السين المهملة وكسر الفاء وسكون المثناة من تحت وفتح الجيم وفى آخرها باء موحدة بعد الألف - ووقع فى "مسالك الأبصار" إبدال الفاء باءً موحدة - وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وثمانون درجة وخمسون دقيقة، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال فى "اللباب" : وهى بَلْدة كبيرة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من ثغور الترك .

(ومنها) طَرَازُ . قال فى "اللباب" : بفتح الطاء والراء المهملتين وألف وزاى معجمة - وهى مدينة على حدّ بلاد التُّرْك واقعةٌ فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وثمانون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وحولها حصون منسوبة إليها .

(ومنها) نيلى . قال فى " مسالك الأبصار " : وهى أربعة مُدُن بين كل مدينة والأخرىٰ فرسخ واحد ، ولكل واحدة منها آسم يخصها : فالأولىٰ نيلى ، والثانية نيلى مالق ، والثالثة بَحك ، والرابعة تلان . قال : وبينها وبين سَمَرْقَنْد عشرون يوما .

(ومنها) أَلْمَالِقُ ـ بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الميم وألف بعـدها ثم لام مكسورة وقاف فى الآخر . قال فى "مسالك الأبصار" : وبينها وبين نيلى عشرون يوما . ونقل عن الشيخ محمد الخُجَندىّ الصوفىّ وغيره أن بها من الخيـل والأغنـام مالولا مُوتانٌ يقع فيها فى بعض السـنوات ، لما بيعت ولا وجد من يشتريها لكثرتها وبركات نتاجها .

الإقلـــيم الثـالث
(طُخَارُسْتَانُ)

قال فى " اللباب " : بضم الطاء[(1)] المهـملة وفتح الخـاء المعجمة وألف وضم الراء وسكون السين المهملتين وفتح المثناة من فوق وألف ونون . قال : وهى ناحية مشتملة علىٰ بُلْدان فى أعلىٰ نهر جَيْحُونَ . وقال آبن حوقل : هو إقليم له مُدُن كثيرة من مضافات بَلْخ . وقاعدتها فيما ذكره فى "القانون" ـ وَلْوَالِج . قال فى "تقويم البُلْدان" بواوين بينهما لام ساكنة ثم ألف ولام وجيم ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول آثنتان وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى " القانون " : وهى مقرّ مملكة الهَيَاطِلَةَ فى القديم . قال المهلبىّ : وهى فى مستوٍ من الأرض . ولهـا مُدُن .

---

(١) ضبطها ياقوت بالفتح .

(منها) إِسْكَلْكَنْدُ . قال فى " اللباب " : بكسر الألف وسكون السين المهملة وفتح الكافين ، بينهما لام ساكنة ثم نون كذلك ودال مهملة فى الآخر . قال : وقد تحذف الألف من أولها . وهى مدينة صغيرة موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " القانون " حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى " اللباب " : وهى مدينة صغيرة كثيرة الخير .

(ومنها) رَاوَنُ . قال فى " اللباب " : بفتح الراء المهملة والواو ونون فى الآخر — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال فى " اللباب " : وهى مدينة من طُخَارُسْتَانَ ولم يزد .

الإقليم الرابع

(بَذَخْشَانُ)

قال فى " اللباب " : بفتح الباء الموحدة والذال وسكون الخاء وفتح الشين المعجمات ونون فى الآخر . قال ابن حوقل : وهو اسم للمدينة والإقليم معًا . قال فى " اللباب " : وهى فى أعلى طُخَارُسْتَانَ متاخمةٌ لبلاد التُّرْك . وقال فى " مسالك الأبصار " : هى مع مملكة ما وراء النهر وليست حقيقة منها ولا من تُرْكُسْتَانَ ، بل هو إقليم قائم بذاته ، معدود المجاورة مع أخواته ، قد حوى كل بديع من حيوانه ومعدنه ونباته .

ثم حكى عن محمد الخُجَندىّ الصوفىّ وغيره أن بها معدنَ البَلَخْش ، ومعدن اللَّازَوَرْدِ ، وهما فى جبل بها ، يُحْفَرُ عليهما فى معادنهما ، فيوجد اللَّازَوَرْدُ بسهولة ، ولا يوجد البَلَخْش إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد لا يوجد بعد التعب الشديد

والإنفاق الكثير . ولذلك عَزَّ وجودُه، وعلت قيمته، وكثر طالبه ، وآلتفتت الأعناق إلىٰ التحَلِّى به . وقد تقدّم ذكره فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ ما يحتاج الكاتب إلىٰ معرفته لِيَصِفَهُ عند ذكر الأحجار النفيسة . وقد تقدّم هناك أن أنفس قطعة وصلت إلىٰ بلاد الشام منه قطعةٌ زِنَتُها خمسون درهما . وقد ذكر فى "اللباب" أن بها معدنَ البِلَّوْرِ أيضا، وقد تقدّم ذكره هناك فى الكلام علىٰ الأحجار النفيسة .

الجملة الثالثة

(فى الطرق الموصلة إليها، وبعض المسافات الواقعة بين بلادها)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ مملكة إيران الطريقُ إلىٰ آمُل الشطّ بشط جَيْحُونَ . قال آبن خرداذبه : ومن آمُلَ إلىٰ بُخَارا تسعة عشر فرسخا، ومن بُخَارا إلىٰ سَمَرْقَنْدَ سبعة وثلاثون فرسخا، ومن سَمَرْقَنْدَ إلىٰ الشَّاش آثنان وأربعون فرسخا، ثم إلىٰ باب الحديد مِيلَان، ثم إلىٰ كَار فرسخان، ثم إلىٰ إسْفِيجاب عشرة فراسخ، ومن إسْفِيجَابَ إلىٰ أُطرَارَ وهى فَارَابُ ستة وعشرون فرسخا . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومن سَمَرْقَنْدَ إلىٰ خُجَنْدَةَ سبع مراحل، ومن خُجَنْدَةَ إلىٰ الشّاش أربع مراحل .

الجملة الرابعة

(فى عِظَام الأنهار الواقعة فى هذا القسم من مملكة تُورَانَ، وهى نهران)

الأوّل ـ نهر جَيْحُونَ ـ بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحت وضم الحاء المهملة وسكون الواو ثم نون؛ ويسمّى نهرَ بَلْخ أيضا، إضافة إلىٰ مدينة بَلْخ من بلاد فَارِسَ المقدّم ذكرها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وقد آختلف النقل فيه، وأقربُه ما نقله آبن حَوْقَل أن عمود نهر جَيْحُونَ يخرج من حدود بَذَخْشَانَ، ثم تجتمع إليه أنهار

كثيرة، ويسير غربا وشمالا حتى يصل إلى حدود بَلْخ، ثم يسير إلى تِرْمِذَ، ثم غربا وجنوبا إلى زَمٍّ واسمها أَمُّويَه، ويجرى كذلك غربا وشمالا إلى خُوَارَزْمَ. قال فى "رسم المعمور": ويخرج جنوبا ويمرّ قرب خُجَنْدَةَ ويتجاوزها ويصب فى البحر الأخضر.

الثانى — نهر سَيْحُونَ. قال فى "تقويم البُلْدان": وقد اختلف النقل فيه أيضا. قال: والمختار ما ذكره ابن حوقل، لأنه يحكى ذلك عن مشاهدة. فقال: إن نهر الشاش بقدر الثلثين من نهر جَيْحُونَ، وهو يجرى من حدود بلاد التُّرْك ويمرّ علىٰ أَخْسيكَث، ثم يسير مغرّبا بميلة إلى الجنوب إلى خُجَندة، ثم يجرى إلى فَارَاب إلى ينْغِى كَنْت ثم يقع فى بحيرة خوارزم على مرحلتين من ينْغِى كَنْتَ.

الجملة الخامسة

(فى معاملاتها وأسعارها)

أما معاملاتها فبالدينار الرائج، وهو ستة دراهم كما فى مُعْظَم مملكة إيران، وفى بعضها بالدينار الخُرَاسَانِىّ وهو أربعة دراهم. قال فى "مسالك الأبصار": ودراهمهم نوعان، درهم بثمانية فلوس، ودرهم بأربعة فلوس. قال: ودراهمها فِضّةٌ خالصة غير مغشوشة، وهى وإن قلّ وزنها عن معاملة مصر والشام فإنها تجوز مثل جوازها.

وأما أسعارها فأسعارها جميعها رخيّة حتى إذا غلت الأسعار فيها أعلى الغلوّ، كانت مثل أرخص الأسعار بمصر والشام.

الجملة السادسة

(فى مَنْ ملك هذا القسم من مملكة تُورَانَ)

قد تقدّم فى الكلام على أصل مملكة تُورَانَ أنها كانت مملكة التُّرْك فى القديم،

وأنه كان بها افراسياب بن(١) شـبك بن رستم بن ترك بن كوبر بن يافث بن نوح عليه السلام على الخلاف السابق فيه ، وكانت تعرف بمملكة الخانية .

أما فى الإسلام فملوكها على طبقتين :

الطبقـــة الأولى

(ماهو عقيب الفتح، وهم على ضربين)

الضرب الأوّل

(ملوك ماوراء النهـــر)

وكانت بيد نواب الخلفاء بُرْهَةً من الزمان فى صدر الإسلام، ثم تغلب عليها الملوك بعد ذلك وحازوها، وتوالتْ عليها أيديهم إلى الان . وأوّل من تغلب عليها من الملوك السامانيةُ، وهم بنو سامان بن جثمان بن طمغان بن بوشرد بن بهرام چوبين المذكور فى أخبار كسرى أبرويز أحد ملوك الفُرْس .

وأوّل من ملكها منهم أولاد أسـد بن سامان فى خلافة المأمون فى سـنة أربع ومائتين . فتولى (أحمد بن أسد) فَرْغَانَةَ ، و(يحيى بن أسد) الشَّاش وأُسْرُوشَنَةَ و(نوح ابن أسد) سَمَرْقَنْدَ، ثم مات نوح بن أسد بسَمَرْقَنْدَ، ثم مات أحمد بفَرْغَانَةَ وآستخلف آبنه نصرا على أعمـاله ، وكان إسماعيل بن أحمد يَخْدُم أخاه نصرا فولاه نصرٌ بُخَـارا فى السنة المذكورة . وكان إسماعيل رجلا خيرا يحب أهل العلم ويكرمهم، فآستقرّت قدمه بِبُخَارا وملك جميع ماوراء النهر . وملك إسماعيـل المذكور خُرَاسَانَ مع ماوراء النهر فى سنة سبع وثمانين ومائتين .

---

(١) فى "الأخبار الطوال" للدينورى "آبن توذل بن الترك بن يافث" ، وفى أبى الفـداء "آبن طوج" وفى غيرهما غير ذلك . نبهنا على ذلك ليعلم أن بين المؤرخين آختلافا ، ولم يتقدم للؤلف فى توران شىء من هذا النسب ، فتنبه .

ثم ملك بعـده ماوراء النهر وخراسان (آبنه أحمد بن إسماعيل) حتّى قتل فى سنة إحدىٰ وثلثمائة؛ وولى بعده ماوراء النهر وخُرَاسَانَ آبنـه (أبو الحسن نصر بن أحمد) وتوفى سنة إحدىٰ وثلاثين وثلثمائة .

وولى بعـده ماوراء النهر وخُرَاسَانَ آبنه (نوح بن نصر) وتوفى فى سنة آثنتين وأربعين وثلثمائة .

وولى بعـده ما وراء النهر وخُرَاسَانَ آبنه (عبد الملك بن نوح) وبقى حتّى قبض عليه ايليك‌خان ملك الترك، وحبس هو وجميع أقاربه، ومات فى الحبس فى سـنة تسع وثمانين وثلثمائة، وآنقرضت بموته دولةُ بنى سامان، وكانت دولتهم من أحسن الدُّوَل وأعدلها، وكانت ولايتهم إمارةً لاملكا .

وملك بعـدهم ماوراء النهر (ايليك‌خان) المقـدّم ذكره، وتوالت بأيديهم حتّى ملكها منهم رجل آسمه (أحمد خان) فبقيت بيده حتّى ملكها منـه (ملكشاه السَّلْجُوقىّ) فى سنة آثنتين وثمـانين وأربعمائة، وأطاعه صاحب تُرُكُسْتَانَ نخطب له وضرب السِّكَّة بآسمه، ثم خرج عنها وعاد أحمد خان إليهـا، فبقى حتّى ثبتت زَنْدَقَتُه وضرب عنقه فى سنة ثمـان وثمـانين وأربعمائة .

وملك بعـده آبن عمه (مسعود)، ثم أقيمت الخطبة بمـا وراء النهر (لبَرْكِيَارُقْ)، ثم خطب بركيارق فيما بيده مما وراء النهر وغيره لأخيه محمد بن ملكشاه. ثم غلب عليها الخِطَا الكُفَّار فى سنة ست وثلاثين وخمسمائة وآنتزعوها من يد سنجر بن ملكشاه. ثم صارت بيد الغُزِّ: وهم طائفة من الترك مسلمون .

ثم آستولىٰ عليها بنو أنوشتكين ملوكُ خُوَارَزم الآتى ذكرهم، إلىٰ أن غلب عليها جنكزخان فى سنة ستَّ عشرةَ وستمائة .

وأما غَزْنةُ وما معها فكانت بيد بنى سامانَ ؛ ثم غلب عليها سُبُكْتكِين : وهو أحد ممـاليك أبى إسحاق بن ألبتكين صاحب جيش غزنة للسامانيـة المقدّم ذكره فى سنة ست وستين وثلثمائة بعد موت أبى إسحاق المذكور؛ ثم مات وقام بالأمر بها بعده آبنه إسماعيل؛ ثم غلبه عليها أخوه محمود بن سُبُكْتكين، وآستضاف إليها بعض خُرَاسَانَ فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة، وقطع الخطبة السامانية، وبقى حتّى توفى سنة إحدىٰ وعشرين وأربعمائة .

وملك بعده آبنه (محمد بن محمود) بعهد من أبيه ، ثم قدّم أهلُ المملكة عليه أخاه (مسعود بن محمود) وملّكوه عليهم، وبقى حتّى قتل فى سنة آثنتين وثلاثين وأربعمائة .

ثم ملك بعده أخوه محمد المقـدّم ذكره وقتل من عامه ؛ وملك بعـده آبن أخيه (مودود بن مسعود) وتوفى سنة إحدىٰ وأربعين وأربعمائة .

وملك بعده عمه (عبد الرشيد بن محمود) وقتل فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

وملك بعده أخوه[(١)] (فرخزادبن مسعود بن محمود)، وتوفى سنة إحدىٰ وخمسين وأربعمائة .

وملك بعده أخوه الملك المؤيد (إبراهيم بن مسعود)، وتوفى سنة إحدىٰ وثمانين وأربعمائة .

وملك بعده آبنه (مسعود بن إبراهيم)، وتوفى سنة ثمـان وخمسمائة .

وملك بعده (أرسلان شاه بن مسعود) .

ثم ملك بعده (بهرام شاه بن مسعود) ثم توفى .

وملك بعده آبنه (خسروشاه بن بهرام)، وتوفى سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده آبنه (ملكشاه بن خسرو شاه) بن بهرام بن مسعود بن محمد بن سُبُكْتكين، وهو آخرهم .

ثم آنتقل الملك إلىٰ الغُورية .

(١) الضمير راجع إلىٰ مودود والأولى أن يقال " ابن أخيه " ليعود الضمير الىٰ عبد الرشيد .

فأول من ملك منهم علاء الدين (الحسين بن الحسين)، ملك عند آنقراض الدولة السُّبُكْتُكِينِيَّة، وآستضافها إلى الغُور فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وتلقَّب بالملك المعظم، وتوفى سنة ست وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده غياث الدين (محمد بن سام بن الحسين) ؛ ثم آستولى عليها الغُزُّ نحو خمس عشرة سنة؛ ثم ملكها (شهاب الدين) أخو غياث الدين المقدّم ذكره سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وقتل سنة آثنتين وستمائة، وفى أيامه كان الإمام فخر الدين الرازى وكان يَغْشاه ويَعِظُه .

ثم ملك بعده علاء الدين (محمد بن سام بن محمد بن مسعود بن الحسين)؛ ثم غلبه عليها (يلدز) مملوك غياث الدين أخى شهاب الدين؛ ثم غلبه عليها علاء الدين المذكور؛ ثم غلب عليها يلدز أيضا؛ ثم غلب عليها علاء الدين (محمد بن تكش) بن خوارزم شاه فى سنة آثنتى عشرة وستمائة، وبقى حتّى غلبه عليها جنكزخان الآتى ذكره فى سنة سبع عشرة وستمائة .

الطبقة الثانية

(ملوكها من بنى جنكزخان)

قال فى "مسالك الأبصار" : كان جنكزخان قد أوصى بمملكة ماوراء النهر لولده جداى، ويقال له جغطاى فلم يتمكن من ذلك .

ثم ملك بعده آبنه قراهولاوو، ثم ولده مبارك شاه؛ ثم غلب عليه قيدو بن قاشى آبن يكبوك بن أوكداى بن جنكزخان؛ ثم غلب عليه براق بن بسنطو بن منكوقان ابن جغطاى بن جنكزخان .

ثم ملك بعده آبنه دوا بن براق، ثم أخوه كنجك، ثم أخوه اسبنغا، ثم أخوه كبوك، ثم أخوه الجكداى، ثم أخوه دراتمر، ثم أخوه ترما شيرين .

ثم ملك بعده رجل ليس من أولاد دوا آسمه توزون بن أويا كان . قال : وتخالل فى خلال ذلك مَنْ وثب علىٰ الملك ، ولم ينتظم له حال ولاصلت له أعلام دولة ، وبقى الملك بعد ترماشيرين غير منتظم حتّى قام جنفصو بن دراتمر بن حلو بن براق بن بسنطو آبن منكوقان بن جفطاى بن جنكزخان . إلىٰ هنا آنقضىٰ كلامه فى "مسالك الأبصار" .

وأوّل من أسلم من ملوك هذه المملكة "ترماشيرين" المقدّم ذكره سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، فأسلم وحَسُن إسلامه وأخلص فى إسلامه وأيَّد الإسلام ، وقام به حق القيام ، وأمر به أمراءه وعساكره ، فمنهم من كان سبق إسلامه ومنهم من أجاب دَاعِيَهُ فأسلم ، وفَشَا فيهم الإسلامُ ، وعَلَا لواؤه حتّى لم تمض عشرة أعوام ، حتّى آشتمل فيها بملاءته الخاص والعام ، وأعان علىٰ ذلك من فى تلك البلاد من الأئمة العلماء والمشايخ الصلحاء . وصارت التجار من مصر والشام متردّدة إلىٰ تلك الممالك ، وهو يكرمهم أتم الإكرام ، علىٰ أن رعايا هذه المملكة من قدماء الإسلام ، السابقين إليه كانوا مع كفر ملوكهم فى جانب الإعزاز والإكرام ، لا يتطرّق إليهم منهم أذية فى دين ولا حال ولا مآل .

الجمـــلة السابعة

(فى ترتيب هذه المملكة وحال عساكرها)

أما ترتيبها فقد أشار فى "مسالك الأبصار" إلىٰ أنها علىٰ نحو ماتقدّم فى مملكة إيران لآتفاق ملوك بنى جنكزخان فى الترتيب علىٰ طريقة واحدة .

وأمّا عساكرهم فذكر أن عساكرهم من أهل النَّجْدَةِ والبأس ، لايجحد ذلك من طوائف الترك جاحد ، ولا يُخَالف فيه مخالف ، حتّى حكى فى "مسالك الأبصار" عن مجد الدين إسماعيل السلامىّ أنه كان إذا قيل فى بيت هُولَاكُو : العساكر ،

تحرّكت من خُوَارَزْمَ والقَبْجَاقِ، لايحمل لذلك أحدٌ منهم هَمًّا . وإذا قيل : إن العساكر تحرّكت مما وراء النهر، تأثروا لذلك غاية التأثر، لأن هؤلاء أقوى ناصرا وإن كان أولئك أكثر عددا ، لأنه يقال : إن واحدا من هؤلاء بمائة من أولئك، ولذلك كانت خُرَاسَانُ عندهم ثَغْرًا لايُهْمَلُ سِدَاده، ولا يزال فيه من يَسْتحق ميراث التخت أو من يقوم مقامه، لما وَقَرَ فى صدورهم لهؤلاء من مهابة لا يُقْلَقَل طودُها، لأنهم طالما بَلَوْهم فى الحرب وآبْتَلوهُم فيها .

القســـم الثانى
(من مملكة تُوران خُوارَزْمُ والقَبْجَاقُ)

قال فى "مسالك الأبصار" : حدّثنى الشيخ نجم الدين بن الشَّحام الموصلىّ : أن هذه المملكة متسعةُ الجوانب طولا وعرضا، كبيرةُ الصحراء، قليلةُ المُدُن، وبها عَالَم كثيرٌ لايدخل تحت حدّ، إلا أنهم ليس لهم كثيرنفع لقلة السلاح ورداءة الخيل، وأرضهم سهلة قليلة الحجر، لا تُطيق خَيْلٌ رُبِّيت فيها الأوعارَ، فلذلك يقل غَنَاؤها فى الحروب . قال فى "التعريف" : وكانت هذه المملكة فى قديم الزمان زمانِ الخلفاء وما قبله تعرف بصاحب السرير . قال فى "الروض المعطار" : وذلك أنه كان بها سرير من ذهب يجلس عليه ملوكها نقله إليها ملوك الفُرْس . قال فى "التعريف" : وكان صاحبها فى الأيام الناصرية (يعنى آبن قلاوون) السلطان أزبك خان . قال : وقد خطب إليه السلطان فزوّجه بنتا تقرب إليه، ثم قال : وما زال بين ملوك هذه المملكة، وبين ملوكنا قديمُ آتحاد، وصِـدْق وداد، من أوّل الدولة الظاهرية بيبرس وإلى آخر وقت .

ويحصل الغرض من ذلك فى ثمـان جُمَل :

الجمـــلة الاولىٰ

(فى ذكر حدود هذه المملكة ومسافتها)

قد ذكر فى "مسالك الأبصـار" نقلا عن الشيخ علاء الدين بن النُّعمان الخُوَارَزْمِىّ أن طول هـذه المملكة من بحر آصطنبول إلىٰ نهر أريس سـتة أشهر، وعرضَها من بُلْغَارَ إلىٰ باب الحديد أربعة أشهر تقريبا . ثم ذكر عنه فى موضع آخر : أن مجموع هـذه المملكة من ورعات (١) خُوَارَزْمَ من الشرق إلىٰ بَاشْقَرْدَ، وعرضا من خُوَارَزْم إلىٰ أقصىٰ بلاد سير، وهى منتهىٰ العمارة فى الشَّمال . وذكر فى موضع آخر عن آبن النعمان أن مبدأ عرض هذه المملكة من ديرقو، وهى مدينة من بناء الإسْكَنْدر، كان عليها باب من حديد قديما، إلىٰ بلاد بوعره (؟)، وطولها من ماء أريس، وهو أعظم من نيل مصر بكثير من ناحية بلاد الخِطَا، إلىٰ آصطنبول يعنى القُسْطَنْطِينِيَّة . قال : ويتجاوز هذا الطول قليلا إلىٰ بلاد تسمّٰى كَنْخ مشتركة بين الرُّوسِ والفرِنْج . وذكر فى موضع آخر أن خُوَارَزْمَ إقليم منقطع عن خُرَاسَانَ وعن ما وراء النهر، والمَفَاوِزُ محيطةٌ به من كل جانب، وحدّه متصل بغَزْنَةَ مما يلى الشمال والغرب وجنوبيه وشرقيه، وهو علىٰ جانبى جَيْحُونَ . قال آبن حوقل : وبلاد خوارزم من أبرد البلاد، ومنهـا يبتدئ الجُمُودُ فى نهر جَيْحُونَ . قال فى "العزيزى" : وبلاد خُوَارَزْمَ فى جهة الجنوب والشرق عن بحيرة خُوَارَزْمَ، وبينهما نحو ست مراحل . قال فى "مسالك الأبصار" : وأوّل حدّ خُوَارَزْم بلدة تسمّٰى الظاهرية مما يلى آمُلَ، وتمتدّ العمارة فى جانبى جَيْحُونَ معا .

وحكى عن حسن الرومىّ التاجر السَّفَّار أن طولها من مدينة باكُو المعروفة بالباب الحديد إلىٰ حدود بلاد الخِطَا، فيكون بسير القوافل خمسةَ أشهر، وعرضها من نهر

(١) كذا فى الأصل، ولعلها درعان الآتية قريبا .

جَيْحُونَ إلىٰ نهر طُونا . وقال فى "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة واقعة فى الشمال آخذة إلىٰ الشرق، تحدّها أطراف الصِّين من شرقيها ، وبلاد الصَّقْلاب وما يليها من شَماليها ، وخُرَاسَانُ وما سامتها من جنوبيِّها، والخليج القاطع من بحر الروم من غربيِّها .

الجمـــلة الثـانية

(فيما آشتملت عليه من الأقاليم العُرْفية)

اِعلم أن هذه المملكة قد آشتملت علىٰ عدّة أقاليم :

الإقلـــيم الأوّل

(خُوَارَزْمُ)

بضم الخاء المعجمة وفتح الواو وألف بعدها راء مهملة ثم زاى معجمة ساكنة وميم فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهو إقليم منقطع عن خُرَاسَانَ وعن ماوراء النهر، والمَفَاوزُ محيطة به من كل جانب . قال : ويحيط به من الغرب بعض بلاد التُّرك، ومن جهة الجنوب خُرَاسَانُ، ومن الشرق بلادُ ماوراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضا . قال : وإقليم خُوَارَزْمَ فى آخر جَيْحُونَ، وليس بعده علىٰ النهر عمارة إلىٰ أن يقع جَيْحُونُ فى بحيرة خُوَارَزْمَ، وهو علىٰ جانبى جَيْحُونَ . قال ابن حوقل : (وبلاد[1] خُوَارَزْمَ من أبرد البلاد، ويبتدئ الجمود فى نهر جَيْحُونَ من جهة خُوَارَزْمَ) . وقال المهلبىّ : بلاد خُوَارزم فى جهة الجنوب والشرق عن بحيرة خُوَارَزْمَ إلىٰ آمُل نحو آثنَتَىْ عشرة مرحلة، ومن خُوَارَزْمَ إلىٰ بحيرة خُوَارَزْمَ نحو ست مراحل . قال فى "مسالك الأبصار" : وبخُوَارَزْمَ جَبَلٌ يقال له جبل الخير به عين تعرف به، يقصدها ذَوُو الأمراض المزمنة، ويقيمون عندها سبعة أيام، فى كل يوم

(١) تقدّمت هذه الجملة بتمامها فى الصفحة التى قبل هذه، فإعادتها غير مفيدة .

يغتسلون بها بُكْرة وعشية، ويشربون منها عقب كل آغتسال حتّى يتضلّعوا، فيحصل البُرْء . قال : وخُوَارَزْمُ على جَيْحُونَ بين شُعْبَتَيْنِ منه مثل السراويل . قال : ويلي خُوَارَزْمَ أرض مدوّرة تسمّى قسلاع، طولها خمسة أشهر، وعرضها كذلك كلها صحراء، يسكنها أمم كثيرة من البرجان، ويفصل بينها وبين نهر جَيْحُونَ جَبَلٌ آسمه أويلغان شمالىّ خُرَاسَانَ. ولها قاعدتان .

القاعدة الأولىٰ

(القديمة مدينة كَاثَ)

بكاف وألف وثاء مثلثة . قال آبن حوقل : وهو آسمها بالخُوَارَزْمِيّة، وهى مدينة واقعة فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول خمس وثمانون درجة، والعرض إحدىٰ وأربعون درجة وست عشرة دقيقة . قال فى "القانون" : وهى فى شرقىّ جَيْحُونَ . قال المهلبىّ : وبينها وبين القرية الحَدِيثة من بلاد الترك خمسون فرسخا . قال : وهى من أجَلِّ مُدُن خُوَارَزْمَ . قال آبن حوقل : وقد خربها التَّتَر وبنىٰ الناس لهم مدينة وراءها . قال : وكانت هذه المدينة فى الجانب الشمالىّ عن جيحون . قال فى "مسالك الأبصار" : وبها مائة بيت من اليهود، ومائة بيت من النصارىٰ، لايسمح لهم بأكثر من ذلك .

القاعدة الثانية

(كُرْكَانْج)

قال فى "المشترك" : بضم الكاف وسكون الراء المهملة ثم كاف ثانية وألف ونون ساكنة وفى آخرها جيم . قال : ويلتقى فيها ساكنان (يعنى الألف والنون) ولذلك يكتبونها كُرْكَنْج بغير ألف، وتعرف بكُرْكَنْج الكُبْرىٰ ، والعرب تسميها

الجرجانية — وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" و"القانون" حيث الطول أربع وثمانون درجة ودقيقة واحدة، والعرض آثنتان وأربعون درجة وسبع وخمسون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى على ضَفَّة جَيْحُونَ . قال فى "القانون" من غربيه . وبها عدّة مدن أيضا :

(منها) كُرْكَنْج الصغرىٰ . وتعرف بالجرجانية أيضا — وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة أيضا . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وثمانون درجة وخمس دقائق ، والعرض آثنتان وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى مدينة قريبة من كُرْكَنْجَ الكبرىٰ، بينهما عشرة أميال، وهى فى غربىّ جَيْحُونَ .

(ومنها) زَمَخْشَرُ . قال فى "اللباب" : بفتح الزاى المعجمة والميم وسكون الخاء وفتح الشين المعجمتين وراء مهملة فى الآخر — وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدىٰ وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وإليها ينسب الإمام أبو القاسم محمود الزَّمَخْشَرِىّ صاحب "الكَشّاف" فى التفسير وغيره من المصنفات الفائقة النافعة .

(ومنها) هَزَارَاسْبُ . قال فى "اللباب" : بفتح الهاء والزاى المعجمة وسكون الألف وفتح الراء وسكون السين المهملتين وباء موحدة فى الآخر — وهى قلعة بخُوَارَزْمَ موقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وثمانون درجة وعشرون دقيقة، والعرض إحدىٰ وأربعون درجة وعشرون دقيقة . قال السمعانىّ : ويقال لها بالفارسية هَزَارَسْفُ . قال : وهى قلعة حصينة . قال المهلبىّ غربىّ جَيْحُونَ، وبينها وبين مدينة كَاثَ ستة فراسخ .

(ومنها) دَرْعَان [1] ، بدال وراء وعين مهملات وألف ثم نون ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السـبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول ست وثمـانون درجة وأربع وعشرون دقيقة ، والعرض أربعون درجة وثلاثون دقيقـة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى آخر حدود خُوارَزْمَ إلىٰ جهة مَرْو . قال المهلبىّ : وبينها وبين هَزَارَاسْبَ أربعة وعشرون فرسخا .

(ومنهـا) فَرَبْرُ . قال فى " اللبـاب " : بفتح الفاء والراء المهملة وسكون الباء الموحدة . وقال فى "مزيل الآرتياب" : بفتح الفاء وكسرها ، كل منهما مسموع ـ وهى مدينة علىٰ طرف جَيْحُونَ مما يلى بُخَارا ـ موقعها فى آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول سبع وثمـانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى " القانون " : وهى المَعْبَر من بلاد ما وراء النهر إلىٰ خُراسَانَ . وجعلها آبن حَوْقَلَ من أعمـال بُخَارا . فتكون ممـا وراء النهر ، وهى خِصْبَةٌ ولها قرىً عامرة .

الإقليم الثـانى

(الدَّشْتُ)

بفتح الدال المهملة وسكون الشين المعجمة وتاء مثناة فوق فى الآخر ـ وهى صحارىٰ فى جهة الشَّمال ، وتضاف إلىٰ القَبْجَاقِ بفتح القاف وسكون البـاء الموحدة وفتح الجيم وألف بعدها ثم قاف ـ وهم جنس من التُّرْك يسكنون هذه الصحارىٰ ، اهـل حَلٍّ وتَرْحَالٍ علىٰ عادة البَدْوِ .

---

(١) ضبطها ياقوت بالغين المعجمة .

وقاعدة المملكة بها (صَرَاى) . قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح الصاد والراء المهملتين وألف وياء مثناة تحتية . ووقع فى "مسالك الأبصار" بالسين المهملة بدل الصاد — وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة عظيمة فى مستوٍ من الأرض علىٰ شَطِّ نهر [الأَثِل](١) من الجانب الشمالىّ [الشرقىّ](١) غربىّ بحر الخَزَر وشماليه علىٰ مسيرة نحو يومين، وبحر الخَزَر شرقيها بجنوبيها، ونهر الأَثِل عندها يجرى من الشَّمال والغرب إلىٰ الشرق والجنوب حتّٰى يصب فى بحر الخَزَر . وهى فُرْضَة عظيمة للتجار ورقيق التُّرْك . وذكر فى "مسالك الأبصار" عن عبد الرحمن الخُوَارَزْمىّ الترجمان : أنها بناء بَرَكَةَ بن طوجى بن جنكزخان، وأنها فى أرض سبخة بغير سُورٍ، ودار المَلِك بها قصرٌ عظيم علىٰ عليائه هِلَالٌ من ذهب زِنَتُه قنطاران بالمصرىّ، ويحيط بالقصر سُورٌ وأبراج فيها الأمراء، وبهذا القصر يكون مَشْتاهم ؛ والسراى مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ووجوه بِرٍّ، مقصودة بالإجلاب، وفى وسطها بِرْكَةٌ ماؤها من نهر الحل ماؤها للاستعمال(٢) . أما شربهم فمن النهر يسقىٰ لهم فى جِرَار فَخَّار، وتُصَفُّ علىٰ العَجَلَات وتجرّ إلىٰ المدينة وتباع بها . قال : وبُعْدها عن خُوَارَزْم نحو شهر ونصف . قال فى " تقويم البلدان" : وقد بنىٰ بها السلطان أزبك مدرسةً للعلم . قال فى " مسالك الأبصار " : وهم فى جَهْد من قَشَفِ العيش لأنهم ليسوا أهل حاضرة، وشدّةُ البرد تُهْلِكُ مواشيَهُم . قال : وهم لشدّة ما بهم من سوء الحال إذا وجد أحدهم لحما صلقه ولم يُنْضِجْه وشرب مَرَقَه، وترك اللحم ليأ كله مرة أخرىٰ، ثم يجمع العِظَام ويعاود صَلْقَهَا مرة أخرىٰ ويشرب مرقها، وقِسْ علىٰ هذا بقية عَيْشهم . ونقل عن جمال الدين عبد الله الحصنى التاجر: أنّ لبس كثير منهم الجلودُ : مُذَكَّاة كانت أو مَيْتَة، مدبوغة أو غير مدبوغة، من حيوان

(١) الزيادة عن تقويم البلدان . (٢) لعل هذا اللفظ زائد من الناسخ .

طاهر أو غيره، ولا يعرفون فى المآكل ما يُعَاف مما لا يُعَاف، ولا التحريم من التحليل؛ وأنهم يبيعون أولادهم فى بعض السنين لضيق العيش . قال : ومع ذلك فليس لهم تمسُّك بِدين ولا رزانة فى عقل؛ ثم عقب ذلك بأن قال : ومع ذلك فهم من خيار التُّرك أجناسا لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغَـدْر، مع تمام قاماتهم وحسن صُوَرِهم وظَرَافة شمائلهم . ثم قال : ومنهم معظم جيش الديار المصرية من ملوكها وأمرائها وجُنْدها؛ إذ لما رغب الملك الصالح (نجم الدين أيوب) فى مشترى المماليك منهـم ، ثم صار من مماليكه من ٱنتهىٰ إلىٰ الملك والسلطنة ، فمالت[1] الجنسية إلىٰ الجنسية، ووقعت الرغبة فى الاستكثار منهم حتّٰى أصبحت مصرُبهم آهلةَ المَعَالم ، مَحْمِيَّةَ الجوانب؛ منهم أقمـارُ مواكبها، وصدور مجالسها ، وزعماء جيوشها، وعظماء أرضها . وحمد الإسلام مواقفَهم فى حماية الدِّين، حتّٰى إنهم جاهدوا فى الله أهليهمْ . قال : وكفىٰ بالنصرة الأولىٰ يوم عَيْنِ جَالُوتَ فى كَسْر الملك المظفر قطز صاحبِ مصر إذ ذاك فى سنة ثمـان وخمسين وستمائة عساكرَ هُولَاكُو مَلِك التَّتَرِ بعد أن عجز عنهم عساكرُ الأقطار، وٱستأصلوا شأفة السلطان (جلال الدين محمد بن خُوَارَزْم شاهْ) وقتلوا عساكره؛ مع أن الجيشَ المصرىّ بالنسبة إلىٰ العساكر الجلالية كالنقطة من الدائرة، والنُّغْبَةِ من البحر، والله يؤيد بنصره مَن يشاء .

أمّا فى زماننا هذا فإنه منذ قام السلطان الملك الظاهر برقوق من جنس الجركس، رغب فى المماليك من جنسه وأكثَرَ من المماليك الجراكسة حتّٰى صار منهم أكثر الأمراء والجند، وقلَّت المماليك الترك من الديار المصرية حتّٰى لم يبقَ منهم إلا القليل من بقاياهم وأولادهم .

---

(١) لعل هذا هو الجواب والفاء زائدة من الناسخ .

الإقلــيم الثـالث

(بلاد الخَزَر)

بفتح الخاء والزاى المعجمتين وراء مهملة فى الآخر .

وقاعدته مدينة (بَلَنْجَر) . قال فى "اللبـاب" : بفتح الباء الموحدة واللام ونون ساكنة وجيم مفتوحة ثم راء مهملة ـ وهى مدينةٌ بدَرْبَنْد خزران، واقعة فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى"الأطوال" حيث الطول خمس وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض خمسون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "كتاب الأطوال" : وهى إتِل . قال فى "اللباب" : وهى داخل الباب والأبواب، قيل إنها نسبت إلىٰ بَلَنْجَر بن يافث .

الإقلــيم الرابــع

(القِــرِمْ)

قال فى " تقويم البُلْدان " : بكسر القاف والراء المهــملة وميم فى الآخر . قال : وهو آسم لإقليم يشتمل علىٰ نحو أربعين بلدا .

وقاعدتها (صُلْغَاتُ) . قال فى " تقويم البُلْدان " : بضم الصاد المهملة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف وتاء مثناة فوقية فى الآخر ـ وقد أطلق الناس آسم القِرِمِ عليها حتّى إذا قالوا القِرِم لايريدون إلا صُلْغَاتَ ـ وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطول سبع وخمسون درجة وعشر دقائق والعرض خمسون درجة . قال : وهى عن البحر علىٰ نصف يوم؛ وهى عن الأَزَق فى الغرب والشمال .

وبِصَرَاىَ بلادٌ مضافة إليها .

(منها) الأُكَكُ . قال فى "تقويم البُـلْدان" : بضم الهمزة وفتح الكاف الأولىٰ ثم كاف ثانية ــ وهى بليدة من بلاد الصَّراى ، موقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : القياس حيث الطول ثمـان وسبعون درجة ، والعرض تسع وأربعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وهى علىٰ جانب نهر إتِل من الجانب الغربى بين صَراىَ وبُلَار ، علىٰ قرب منتصف الطريق بينهما ؛ وهى عن كل واحدة منهما علىٰ نحو خمسَ عشرةَ مرحلة . وإلىٰ الأُكَكِ هذه ينتهى أردو القان صاحب هذه المملكة ؛ ولها مُدُن أخركما تقدّم . وهى عن الكَفَا شَمَالًا بغرب ، وعن صُودَاقَ شَمال بشرق ، وبين كل منهما مسيرة يوم ؛ وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالدّيار المصرية .

(ومنهـا) صُودَاقُ . قال فى "تقويم البلدان" : بضم الصاد المهملة وواو ، وفتح الدال المهملة وألف وقاف فى الآخر ، والعامة يقولون : سُرْداق ، فيبدلون الصّادَ سيناً مهملة والواوَ راءً مهملة ــ وموقعها فى آخر الإقليم السابع من الأقاليم السبعة أو فى الشمال عنه . قال ٱبن سعيد حيث الطول ست وخمسون درجة ، والعرض إحدىٰ وخمسون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى فى ذيل جبل علىٰ شَطِّ بحر القِرِم ، وأرضها محجر وهى مسوّرة ، وهى فُرْضة للتجار ؛ ويقابلها من البرِّ الآخر مدينـة سَامسُونَ ، من سواحل بلاد الروم الآتى ذكرها . قال : وأهلها مسلمون . وقال ٱبن سعيد : أهلها أخلاط من الأمم والأديان ، والأمر فيها راجع إلىٰ النصرانية . وإليها يُنسب الجلد السُّرْداقىّ المعروف .

(ومنها) كَفَا . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الكاف والفاء وألف مقصورة . وهى فُرْضة القِرِم ــ وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطول سبع وخمسون درجة ، والعرض خمسون درجة ، وهى فى وطاة

من الأرض؛ وهى علىٰ ساحل بحر القِرِم، ويقابلها من البر الآخر مدينة طَرَابْزُون من سواحل بلاد الروم، وهى شرقىّ صُودَاق، وعليها سُورٌ من لَبِنٍ، ومن شَمَاليها وشرقيها صحراء القَبْجَاقِ؛ وهى عن صُوداق فى سمت الشرق، والكَفَا وصُودَاقُ وصُلْغَاتُ كالأثافى .

الإقليم الخامس
(بلاد الأَزَق)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة والزاى المعجمة وقاف فى الآخر .

وقاعدته مدينة الأَزَقِ بالضبط المعروف ـ موقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيث الطولُ خمس وستون درجة، والعرض ثمان وأربعون درجة . قال : وإليها ينسب بحر الأَزَقِ المعروف فى الكتب القديمة ببحر مانيطش، وهى فُرْضة علىٰ بحر الأَزَقِ فى مستوٍ من الأرض عند مَصَبِّ نهر "تان" فى بحر الأَزَقِ، وبناؤها بالخشب، وبينها وبين القِرِمِ نحو خمسَ عشرةَ مرحلة، وهى فى الشرق والجنوب عن القِرم . ولها مدن أخر .

(منها) الكَرْشُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الكاف وسكون الراء المهملة وشين معجمة فى الآخر ـ وهى بلدة صغيرة علىٰ ساحل بحر الأَزَقِ، واقعة فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : القياس حيث الطول ستون درجة، والعرض سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقة . وهى بلدة صغيرة بين الكَفَا والأَزَقِ علىٰ فَمِ بحر الأَزَقِ، ويقابلها من البر الآخر الطامانُ من سواحل أرْمينِيَة وبلاد الروم، وأهلها قَبْجَاقٌ كُفَّار .

الإقلـــيم الســادس
(بلاد الجَرْكَس)

بفتح الجيم وسكون الراء وفتح الكاف وسين مهملة فى الآخر. قال المؤيد صاحب حماة فى "تاريخه" : وهو على بحر نيطش من شرقِيّه، وهم فى شَظَف من العيش . قال : وقد غلب عليهم دينُ النصرانية ، وقد صار فى زماننا منهم أكثرُ عسكر الديار المصرية من لدن مَلَك الظاهر برقوق فإنه أكثر الإجلابَ منهم .

الإقلـــيم الســابع
(بلاد البُلْغَارِ)

بضم البـاء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف ثم راء مهملة فى الآخر . وهم جنس معروف أيضا . قال صاحب حمـاة فى "تاريخه" : وهم منسوبون إلى بُلْدان يسكنونها .

وقاعدتها مدينة (بُلَارَ) بضم الباء الموحدة وفتح اللام وألف وراءمهملة فى الآخر. قال فى "تقويم البُلْدان" : ويقال لهـا بالعربىّ بُلْغَار ـ وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السـبعة ، أو فى الشَّمال عنـه . قال فى "الأطوال" وطولها ثمـانون درجة ، والعرض خمسون درجة وثلاثون دقيقة ؛ وهى بلدة فى نهـاية العمارة قريبـة من شَطّ نهر إتِل من البر الشمالىّ الشرقىّ ، وهى وصَرَاى فى برٍّ واحد ، و بينهما فوق عشرين مرحلة ، وهى فى وطاة والجبال عنها أقل من يوم ؛ وأهلها مسلمون حَنَفِيَّة ، وليس بهـا شىء من الفواكه ولا أشجار الفواكه لشدّة بردها ، والفُجْلُ الأسود فى غاية الكبر . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وقد حكى لى بعض أهلها أن فى أوّل الصيف لا يغيب الشَّفَق عنهـا و يكون ليلها فى غاية القِصَر . ثم قال .

وهذا الذى حكاه صحيح موافقٌ لما يظهر بالأعمال الفلكية، لأن من عرض ثمانية وأربعين ونصف يبتدئ عدم غَيْبُوبة الشَّـفَقِ فى أوّل فصل الصـيف، وعرضها أكثر من ذلك، فصح ماتقدّم علىٰ كل تقدير. قال فى "مسالك الأبصار": وحكىٰ لى الحسَن الإربلى أن أقصر ليلها أربعُ ساعات ونصف، وهو غاية نقصان الليل. قال حسن الرومىّ: وسألت مسعودا المؤقت بها عن هذا فقال: جربناه بالآلات الرَّصَدية فوجدناه كذلك تحريرا. قال فى "مسالك الأبصار": وقد ذكر المسعودىّ فى "مروج الذهب" أنه كان فى السّرب والبُلْغَارِ من قديمٍ دارُ إسلام ومستقرّ إيمان. فأمّا الآن فقد تبدّلت بإيمانها كُفْراً، وتداولها طائفة من عُبَّاد الصليب، ووصلت منهم رُسُلٌ إلىٰ حضرة مصر سـنةَ إحدىٰ وثلاثين وسـبعمائة من صـاحب السّرْبِ والبُلْغَارِ، يعرض نفسه علىٰ مَوَدّته، ويسأله سـيفا يتقلده وسنجقا يقهر أعداءه به، فأكرم رسُلَه، وأحسن نُزُله، وجهز له معه خِلْعة كاملة: طرد وحش بقصب بسـنجاب مقندس علىٰ مقرح سكندرىّ وكلوتة زركش بطرفين، ومنطقة ذهب، وكلاليب ذهب وسيف محلًّى، وسنجق سلطانىّ أصفر مُذْهَب. قال: وهم يدارون سلطان القبجاق لعظيم سلطانه عليهم، وأخذه بخناقهم لقربهم منه. وذكر فى "التعريف" قريبا منه؛ ولصاحب السّرْبِ مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، يأتى ذكرها فى المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ.

وبين السّرْبِ والبُلْغَارِ وبلاد الترك بلادٌ:

(منها) أَقْجَا كَرْمَانَ ـ بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الجيم وألف وفتح الكاف والراء المهملة والميم وألف والنون فى الآخر ـ وهى بليـدة علىٰ بحر نيطش المعروف ببحر القِرِم، واقعة فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة. قال فى "تقويم البُلْدان": والقياس أنها حيث الطولُ خمس وأربعون درجة، والعرض خمسون درجة، وهى

فى مستوٍ من الأرض، وأهلها أخلاط من مسلمين وكُفَّار، وعلى القرب منها يصب نهر طُرْلُو .

(ومنهـا) صَارِى كَرْمَانَ . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الصاد المهملة وألف وكسر الراء المهملة وياء مثناة تحتية ـ وكَرْمَانُ على ما تقدّم، منخرطة فى أَقْجَا كَرْمان، وهى بليدة أصغر من أقجا كرمان ـ وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُـلْدان" حيث الطول خمس وخمسون درجة، والعرض خمسون درجة قياسا ، ويقابلها من البر الآخر مدينة سَـنُوبَ من سواحل بلاد الروم، وهى شرقىّ أَقْجَا كَرْمَانَ المقدّم ذكرها، وبينهما نحو خمسة عشر يوما ، وبينها وبين صُلْغَاتَ نحو خمسة أيام .

الإقلـــيم الثامن
(بلاد الأُولَاقِ)

بضم الهمزة وسكون الواو ولام ألف بعـدها قاف، ويقال لهم البُرْغَالُ بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الغين المعجمة وألف ثم لام، وهم جنس معروف.

وقاعدتها مدينة (طِرْنَوْ). قال فى "تقويم البُلْدان": بالطاء المكسورة والراء الساكنة المهملتين والنون المفتوحة وواو فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الســابع من الأقاليم الســبعة . قال فى " تقويم البلدان " : والقياس أنها حيث الطولُ سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمسون درجة . قال : وهى غربىّ صَقْجِى على ثلاثة أيام منها، وأهلها كُفَّار من الجنس المذكور. ولهم بلاد أخرى :

(منها) صَقْجِى . قال فى "تقويم البلدان" : قال بعض الفقهاء (١) : بفتح الصاد المهملة وسكون القاف وكسر الجيم المشربة بالشين المعجمة وفى الآخر ياء مثناة تحتية ـ

---

(١) الذى فى تقويم البلدان "عن بعض أهلها" .

وهى من أُولَاقَ و بلاد القُسْطَنْطِينِيَّة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وأربعون درجة وسبع وثلاثون دقيقة، والعرض خمسون درجة، وهى متوسطة بين الصِّغَرِ والكِبَرِ فى مستوٍ من الأرض، عندمصب نهر طُنَا فى بحر نيطش المعروف ببحر القِرِم فى الجانب الجنوبىّ الغربىّ منه . وهى عن أَقْجَا كَرْمَانَ علىٰ مسيرة خمسة أيام، و بينها و بين القُسْطَنْطِينِيَّة فى البحر عشرون يوما، وغالب أهلها مسلمون .

الإقليم التاسع
(بلاد الآص)

بفتح الهمزة الممدودة وصاد مهملة ــ وهم جنس معروف .

وقاعدته (قِرْقِرْ) . قال فى "تقويم البلدان": بكسر القاف وسكون الراء المهملة وسكون القاف الثانية (؟) وكسر الراء المهملة فى الآخر. ومعنىٰ اسمها بالتركية أربعون رجلا، وموقعها فى آخر الإقليم السابع . قال فى "تقويم البلدان" : القياس أنها حيث الطول خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض خمسون درجة . قال : وهى قلعة عاصية علىٰ جبل لايقدر أحد علىٰ الطلوع إليه، ووسط ذلك الجبل وطاة تسع أهل البلاد، وهى بعيدة عن البحر فى شمالىّ صارِى كَرْمَانَ علىٰ نحو يوم، وعندها جَبَل عظيم شاهق فى الهواء يقال له (جَاطِوْطَاغ) بفتح الجيم وألف وطاء مكسورة وواو ساكنة وطاء مهملة وألف وغين معجمة، يظهر للراكب من بحر القِرِم .

الإقليم العاشر
(بلاد الرُّوس)

بضم الراء المهملة وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر . وهم جنس معروف . قال فى "تقويم البُلْدان" : فى شمالىّ مدينة بُلَار المذكورة . قال صاحب حماة

فى "تاريخه" : ولهم جزائرُ أيضا فى بحر نيطش وبُلَارُ فى شماليّه . قال : وقد غلب عليهم دين النصرانية . قال فى "مسالك الأبصار" : وإذا سافر المسافر علىٰ غربىّ جولمــان وصــل إلىٰ بلاد الرُّوسِ، ثم إلىٰ بلاد الفِرنج وسُكّان البحر الغربىّ . قال فى "تقويم البلدان" : وفى شمــالىّ الروس الذين يبايعون مغايبة . ونقل عن بعض من سافر إلىٰ تلك البلاد أنهم يتصلون بساحل البحر الشمالىّ ، فإذا وصلوا إلىٰ تخومهم، أقاموا حتّى يعلموا بهم، ثم يتقدّمون إلىٰ المكان المعروف بالبيع والشراء، ويَحُطُّ كلُّ تاجر بضاعته مُعَلَّمَةً ويرجعون إلىٰ منازلهم، فيحضُر أولئك القومُ ويضعون قُبالةَ تلك البضاعة السَّمُّورَ والثعلبَ والوُشَّقَ وما شاكل ذلك، ويَدَعُونَه ويَمْضُون، ثم يحضُر التُّجَّار فمن أعجبه ذلك أخذه، وإلا تركه حتّىٰ يتفاصلوا علىٰ الرضا .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصــار" عن الشيخ علاء الدين بن النعمان : أن البلاد التى يجلب منهــا السَّـــمُّورُ والسِّنْجَابُ هى بُلَارُ المقدّمة الذكر . قال ٱبن النعمان : وتُجَّار بلادنا لايتعدّون بلاد البُلْغَارِ، وتُجّار البُلْغَارِ يسافرون إلىٰ بلاى جقطاى، وتجار جولمــان يسافرون إلىٰ بلاد بوغزه، وهى فى أقصىٰ الشَّمال ليس بعدها عمارة سوىٰ بُرْجٍ عظيم من بنــاء الإسْكَنْدَرِ علىٰ هيئة المنارة العالية ، ليس وراءه مذهب لأحد إلا الظلمات، فسـئل عن الظلمات فقال : صَحَارٍ وجبالٌ لايفارقها الثَّلْجُ والبَرَدُ، ولا تطلُع عليها الشمس، ولا ينبت فيها نبات، ولا يعيش فيها حيوان، متصلة ببحر أسود لا يزال يمطُرُ، الغيمُ منعقدٌ عليه .

وٱعلم أن صاحب "تقويم البلدان" : قد ذكر عدّة أماكنَ من هذه المملكة سوىٰ ما تقدّم ولم ينسبها إلىٰ إقليم .

(منها) كُومَّاجر ــ بضم الكاف وسكون الواو والميم المشــدّدة وألف وجيم وراء مهملة ــ وهى مدينة قريبة من الوسط ما بين باب الحديد والأَزَقِ ، شرقىّ الأَزَقِ وغربىّ باب الحديد .

(ومنها) مدينة لَكْز - بفتح اللام وسكون الكاف وفي آخرها زاي معجمة - وهي مدينة يسكنها جنس من الترك يقال لهم اللكزى، وهم في الجبل الفاصل بين تتر مملكة بَرَكَةَ، وتتر مملكة هُولاكُو.

(ومنها) بلاد القَيْتَق - بفتح القاف وسكون المثناة تحت وفتح المثناة من فوق وفي آخرها قاف ثانية، وهم جنس من الترك يسكُنون الجبل المتصل باللَّكْز من شماليه. قال في "تقويم البُلْدان" وهم قُطَّاع طريق، وجبالهم متحكم على باب الحديد.

قلت: وهذه المملكة أوسعُ من أن يحاط ببلادها، وفيما ذكرناه مَقْنَع لمن تأمله.

الجملة الثالثة

(في ذكر الأنهار العِظام والبُحَيرات الواقعة في هذه المملكة)

أما الأنهار فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بهذه المملكة سَيْحُونَ وجَيْحُونَ المقدّم ذكرهما في مملكة ماوراء النهر، وذلك أنهما يمتدّان من هذه المملكة إلى تلك، فيصدُق وجودهما في المملكتين جميعا. وقد تقدّم ذكرهما هناك فأغنى عن إعادته هنا.

ثم المشهور مما يختص بهذه المملكة خمسة أنهار.

أحدها - نهر أَتِل[1] - بفتح الهمزة وكسر المثلثة ولام في الآخر - فعرف بأَتِل، وهي مدينة بَلَنْجَر المقدّم ذكرها، ويقال فيه نهر الأتل بالألف واللام أيضا، وهو من أعظم الأنهار بتلك البلاد وأشهرها. ذكر في "مسالك الأبصار" عن الفاضل شجاع الدين عبد الرحمن الخُوَارَزْمِيّ الترجمان أنه يكون قدر النيل ثلاث مرات أو أكثر. قال: وأصله من بلاد الصَّقْلَبِ. قال في "تقويم البُلْدان": وهو يأتي من أقصى الشَّمال والشرق من حيث لا عمارة، ويمرّ بالقرب من مدينة بُلَارَ، وهي

(١) كذا في "التقويم" ونص ياقوت على أنه بالمثناة الفوقية وأنه بوزن إبل.

بُلْغَارُ، ويستدير عليها من شماليها وغربيها، ويجرى منها إلىٰ بُلَيْدَةٍ علىٰ شَطِّه يقال [لها أوكك ثم يتجاوزها إلىٰ قرية يقال(١)] لهـا بلجمن، ويجرى جنوبا ثم يعطِف، ويجرى إلىٰ الشرق والجنوب، ويمرّ علىٰ مدينـة صَرَاى من جنوبيها وغربيها؛ فإذا تجاوز مدينة صَرَاى ٱفترق، ويصير علىٰ ماقيل ألفَ نهر ونهر، ويصب الجميعُ فى بحر الخَزَرِ. قال فى "مسالك الأبصار": وتجرى فيه السفن الكبار، ويسافر فيه المسافرون إلىٰ الرُّوسِ والصَّقْلَبِ .

الثـانى ـ نهر طُنَـا . قال فى " تقويم البلدان " : بضم الطاء المهملة وفتح النون وألف . قال فى "تقويم البلدان" : وهو نهر عظيم يكون أكبر من دِجْلَةَ والفُرَاتِ إذا ٱجتمعا بكثير . قال : ويجرى من أقصىٰ الشَّمال إلىٰ جهـة الجنوب، ويمرّ فى شرقىّ جبل يسمّى (قشغا طاغ) . ومعناه الجبل الصَّعْبُ ، وهو جبل فيه أجناس مختلفة من أمم الكُفْر مثل الأولاق والماجار والسّرْب وغيرهم، فيمرّ فى شرقيه، وكلما جرىٰ جنوبا قرب من بحر نِيطِش المعروف الآن ببحر القِرِم، ولا يزال يتقارب منه ويقرب ما بين الجبل والبحر المذكور حتّى يصبّ فيه فى شَمَالىِّ مدينة صَقْجِى فى شمالىّ القُسْطَنْطِينِيَّةِ بميلة إلىٰ الغرب .

الثالث ـ نهر أزو . قال فى " تقويم البلدان " : بالزاى المعجمة [المفخمة](٢) بعد الألف وواو فى الآخر . قال : وهو نهر عظيم يأتى من الشمال شرقىّ نهر طُنَا المقدّم ذكره، ويمرّ مغرّبا، ثم يعطف ويمـرّ مشرقا حتّى يصبّ فى خَوْر من بحر القِرِم بين صَارِى كَرْمَانَ وأَقْجَا كَرْمَانَ المقدّم ذكرهما .

الرابع ـ نهر تَان . قال فى " تقويم البلدان " : بتاء مثناة من فوق وألف [ممـالة](٢) ونون فى الآخر . قال : وهو نهر عظيم شرقىّ أزو المقدّم ذكره وغربىّ نهر

(١) الزيادة عن "التقويم" . (٢) الزيادة عن تقويم البلدان .

الأَثِل يجرى من الشّمال إلىٰ الجنوب، ويصب فى بحيرة ما نيطش المعروفة فى زماننا بحر الأَزَقِ عند مدينة الأَزَقِ من غربيها .

الخامس — نهر طُرْلُو . قال فى "تقويم البُلْدان" بضم الطاء وسكون الراء المهملتين ولام وواو . قال : وهو نحو عاصى حَمَاةَ، ويصب علىٰ القرب من أَقْجَا كَرْمَانَ فى بحر نيطش المعروف ببحر القِرِم .

*
* *

وأما البحيرات فالمشهورة بها بحيرة خُوَارَزْمَ : وهى بحيرة كبيرة ماؤها مِلْح . قال ابن حوقل : دَوْرها مائة فرسخ، وفيها يصب نهر جَيْحُونَ فى جانبها الجنوبىّ، وفيها يصب نهر الشّاش أيضا، وبينها وبين البحر عشرون مرحلة، وبينها وبين خُوَارَزْمَ ستُّ مراحل .

الجملة الرابعة

(فى الطرق الموصلة إلىٰ هذه المملكة)

ولها طريقان : طريق فى البر، وطريق فى البحر .

فأما طريق البر فقد تقدّم فى الكلام علىٰ مملكة إيران الطريق إلىٰ شَطِّ جَيْحُونَ . وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" أن بين آمُل الشطّ وبين خُوَارَزْمَ نحو آثنتى عشرة مرحلة . وذكر فى "مسالك الأبصار" أن بين خُوَارَزْمَ ومدينة صَرَاىَ نحو شهر ونصف، وأن بين خُوَارَزْمَ ومدينة صَرَاى مدينة وجق ومدينةَ قطلود .

وأما طريق البحر فهو أن يركب المسافر إليها فى بحر الرُّوم من مدينة الإِسْكَنْدَرِيَّة أو مدينة دِمْيَاطَ من شَمَالىّ الديار المصرية، ويسير إلىٰ خَلِيج القُسْطَنْطِينِيَّة المتصل ببحر الرُّوم من جهة الشّمال، ويركب فيه ويجاوزه إلىٰ بحر نيطش المعروف ببحر القِرِم، ثم إلىٰ بحر ما نيطش المعروف ببحر الأَزَقِ وينتهى إلىٰ آخره .

الجمـــــلة الخامسة

(فى الموجود بها)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن فيها من الحبوب القَمْحَ، والشَّعِيرَ، والدُّخْنَ، ويسمّى عندهم الأرزن، والمـاش، والجاوَرْس؛ وهو شبيه بحب البرسيم، على قلة فى القَمْح والشَّعير. أما الفُولُ فلا يكاد يوجد عندهم، وأكثر حبوبهم الدُّخْنُ ومنه أكلهـم؛ وبهـا من الفواكه جميعُ أنواع الفواكه إلا النَّخْلَ، والزَّيْتُونَ، وقَصَبَ السُّكَّر، والمَوْزَ، والأُتْرُجَّ، واللَّيْمُونَ، والنَّارَنْجَ .وذكر عن بلاد القَبْجَاقِ أنها كانت قبل آستيلاء التَّتَارِ عليها معمورة الجوانب، وأنها فى بقايا تلك العمارة والغِرَاس، وأن فيها من الفواكه العِنَبَ، والرُّمَّانَ، والسَّفَرْجَلَ، والتُّفَّاحَ، والكُمَّثْرَى، والمِشْمِشَ، والخَوْخَ، والجَوْزَ، وفاكهة تسمّى بلغة القَبْجَاقِ بانيك شبيهة بالتِّينِ، وأن الفواكه كثيرة الوجود فى جبالهم مع كثرة ما بَادَ منها. قال: وأما البِطِّيخُ فينجب عندهم نجابة خاصة الأصفر، وهو فى غاية صِدْقِ الحَلَاوة يُقَدّدونه ويُجَفِّفُونَه فيبقى عندهم من السنة إلى الســنة، وربمـا آستخرجوا ماءه وصنعوا منه الحَلْوَى؛ وعندهم من الخضراوات اللِّفتُ، والجَزَرُ، والكُرُنْبُ، وغير ذلك. ثم قال: وكذلك مدن الجَرْكَسِ والرُّوسِ والآصِ؛ وبها العَسَلُ الكثير الأبْيَضُ اللَّوْنِ اللذيذُ الطَّعْمِ الخالى من الحِدَّةِ.

الجمـــــلة السادســـــة

(فى المعاملات والأســـعار بها)

أما المعاملات فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن عبدالرحمن الخُوَارَزْمِىّ التَّرْجُمَانِ أن دينارهم رائج كما فى غالب مملكة إيران، وهو الذى عنه ستة دراهم، وأن الحبوب تباع كلها عندهم بالرِّطْل، وذكر أن رِطْل خُوَارَزْمَ زِنَتُه ثلثمائة وثلاثون درهما.

وأما الأسعار فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الصدر زين الدين عمر بن مسافر أن الأسعار فى جميع هذه المملكة رَخِيَّة إلىٰ الغاية إلا كُرْكَنْج أمّ إقليم خُوَارَزْم فإنها متماسكة فى أسعار الغلات قَلَّ أن تَرْخُص، بل إما أن تكون غلِيّةً أو متوسطة لايعرف [بها] الرُّخْصُ أبدا. ثم ذكر عن شجاع الدين عبد الرحمن الخُوارَزْمىّ التَّرْجُمَان: أن الأسعار فى خُوَارَزْمَ والسَّرَاى لا يكاد يتباين ما بينهما . قال : والسعر المتوسط عندهم القَمْح بدينارين ونصف، وكذلك الماش والشعير بدينارين، وكذلك الدخن والجَاوَرْس، وربما زاد، والغالب أن يكون سعره مماثلَ سعر القمح؛ واللحم الضأن علىٰ السعر المتوسط كل ثلاثة أرطال بدرهم. وذكر آبن مسافر أن اللحوم بها رخيصة، وأكثر ما يذبح بها الخيل .

وأما سُكَّان البر فإن اللحم لا يباع لديهم ولا يُشترىٰ لكثرته، وغالب أكلهم لحومُ الطير واللبنُ والسمنُ، وإن تَلِفَ لأحد منهم دابةٌ من فَرَسٍ أو بقرة أو شاة أو غير ذلك، ذبحها وأكل هو وأهلُه منها، وأهدىٰ لجيرانه. فإذا تلف عند مَنْ أهدىٰ إليه شىءٌ من ذلك، ذبحه أيضا وأهدىٰ لجيرانه، فلهذا لاتكاد بيوتهم تخلو من اللحم .

الجملة السابعة

(فى ذكر ملوك هذه المملكة)

قد تقدّم أنها قسم من مملكة تُورَانَ، ومملكة تُورانَ كانت فى القديم بيد افراسياب ملك التُّرْك، وتداولها ملوك الترك بعده إلىٰ الفتوح الإسلامية، وأسلم مَنْ أسلم من ملوكهم .

أما خُوَارَزْمُ فتوالت عليها الأيدى حتّى صارت إلىٰ (محمود بن سُبُكْتكين) المقدّم ذكره فى ملوك غَزْنَة من القسم الأوّل من هذه المملكة ؛ ثم صارت (لمسعود) آبنه،

واستناب فيهـا خُوَارَزْمَ شاه هارونَ بن الطّيطاش، ثم قتله غلمانُه عند خروجه إلىٰ الصيد، وآستولىٰ عليها رجل يقال له (عبد الجَبَّار)، ثم وثب غلمانُ هارونَ بعبد الجَبَّار فقتلوه، ووَلَّوا مكانه (إسماعيل بن الطيطاش) أخا هارون، ثم غلبه عليها (شاه ملك) ابن علىّ، ثم غلبه عليها (طغرلبك) بن ميكائيل بن سلجوق، وبقيت بيد السلجوقية المقدّم ذكرهم فى مملكة إيران، إلىٰ أن صارت منهم إلىٰ (بَرْكِيَارُق) بن ملكشاه بن أرسلان آبن داود بن ميكائيل بن سلجوق، فآستناب فيها علاء الدين محمد أنوشتكين فى أيام بركيارق بن ملكشاه بن ميكائيل بن سلجوق السلجوقى، ولُقّب خوارَزْم شاه فى سنة تسعين وأربعمائة .

ثم ولى بعده آبنه (أطسز) بن محمد، ثم غلبه علىٰ ذلك (سنجر) بن ملكشاه أخو علاء الدين محمد، وأقام بها من يحفظها فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، [ثم غلبه عليها أطسز بن محمد المقدّم ذكره](١)، وبقى بها حتّى توفى سنة إحدىٰ وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده آبنه (أرسلان بن أطسز) وتوفى سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وملك بعده آبنه (سلطان شاه محمود) صغيرا، وقامت أمه بتدبير دولته، ثم غلب علىٰ المُلْك أخوه (علاء الدين تكش) ثم غلبه أخوه (سلطان شاه) وطرده، ثم مات سلطان شاه وآنفرد (تكش بالملك) ثم مات فى سنة ست وتسعين وخمسمائة .

وولى بعده آبنه (محمد بن تكش) وكان لقبـه قُطْبَ الدين فتلقب علاءَ الدين، وبقى حتّى غلبه جنكزخان وهزمه فى سنة تسع عشرة وستمائة، ثم مات بعد ذلك . ولمـا ملك جنكزخان أوصىٰ بدَشْت القَبْجَاق، وما معـه لآبنه طوجى، ويقال له دوجى أيضا، فمات طوجى فى حياة أبيه جنكزخان . فلما مات جنكزخان آستقرّ فى مملكة ماوراء النهر، وما معه باتو بن طوجى بن جنكزخان، ثم مات باتو .

(١) الزيادة عن تاريخ أبى الفدا ليوافق الواقع .

وملك بعده أخوه (بركةُ بن طوجى) وهو الذى تنسب هذه المملكة إليه، فيقال فيها بيت بَرَكة ، بمعنىٰ هذه مملكة بيت بركة ، كما يقال فى مملكة إيران هى مملكة بيت هُولَاكُو . قال صاحب "الذّيل علىٰ الكامل" وكانت المكاتبة بينه وبين الظاهر بيبرس لاتنقطع، وبقى حتّى توفى سنة خمس وستين وستمائة عن غير ولد .

وملك بعده آبن أخيه (منكوتمر بن طغان) بن باطو بن دوجى خان، آبن جنكزخان، وتوفى سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة .

وملك بعده أخوه (تدان منكوتمر) بن طغان بن باطو بن دوجى خان، ابن جنكزخان وقيل سنة آثنتين وثمانين[1] وستمائة، وكان صاحب مصر قد جهز إلىٰ منكوتمر هَدِيَّة فلم تصل إليه حتّى مات، وآستقرّ (تدان منكو) فقدّمت إليه فابتهج بها، وعادت الرُّسُل بجوابه بذلك ، وبقى إلىٰ سنة ست وثمانين وستمائة فأظهر الولَه وتخلّى عن المملكة وآنتمىٰ إلىٰ المشايخ والفقراء .

وملك بعده (تلابغا) باشارته [آبن منكوتمر بن طغان بن باطو[2]] بن دوجى خان آبن جنكزخان، وبقى حتّى قتل فى سنة تسعين وستمائة .

وملك بعده (طقطغا) بن منكوتمر بن طغان بن باطوخان آبن جنكزخان .

والذى ذكره قاضى القضاة ولىّ الدين بن خَلْدُونَ فى "تاريخه" أنه ملك بعد باطوخان أخوه طرطو، ثم أخوه بَرَكة ، ثم منكوتمر بن طغان خان آبن باطوخان ابن دوشى خان، ثم آبنه تدان منكو، ثم أخوه تلابغا، ثم أخوه جفطاى، ثم آبن أخيه أزبك، وهو الذى كان فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية. قال فى "التعريف": وخطب إليه السلطان فزوّجه بنتا تقرب إليه، ثم آبنه جانى بك، ثم آبنه بردى بك ، ثم آبنه طقتمش، ثم نائبه ماماى ، ثم عبد الله بن أزبك،

(١) فى تاريخ أبى الفدا "سنة ثمانين" . (٢) الزيادة عن تاريخ أبى الفدا .

ثم قطلقتمر، ثم ماماى ثانيا، ثم حاجى جركس، ثم أيبك خان، ثم آبنه قانى بك خان، ثم أرص خان، ثم طقتمش خان آبن بردى بك خان. قال: ومنه آنتزعها تمرلنك وقتله.

قلت: المعروف أن تمرلنك لم يملك هذه المملكة أصلا ولا قتل طقتمش، وماذكره وَهِمَ فيه.

وأوّل من أسلم من ملوك هــذه المملكة من بنى جنكزخان بَرَكة بن طوجى آبن جنكزخان، وكان إسلامه قبــل تملّكه حين أرســله أخوه باطوخان لإجلاس منكوخان علىٰ كرسىّ جدّه جنكزخان، فأجلسه، وعاد فمرّ فى طريقه علىٰ الباخَرْزىّ شيخ الطريقة، فأسلم علىٰ يديه وحَسُنَ إسلامُه، ولم يملك بعــد أخيه باطوخان إلا وهو مسلم، وتلاه من تلاه من ملوكهم بهذه المملكة فى الإسلام حتّى كان أزبك خان منهم، فأخلص فى الإسلام غاية الإخلاص، وتظاهر بالدّيانة والتمسك بالشريعة، وحافظ علىٰ الصلاة وداوم علىٰ الصيام.

وقد حكىٰ فى "مسالك الأبصار" عن زين الدين عمر بن مسافر أن ملوك هــذه الطائفة مع ظهور الإســلام فيهم وإقرارهم بالشهادتين مخالفون لأحكامهــا فى كثير من الأمور، واقفون مع ياسة جنكزخان التى قرّرها لهم وقوفَ غيرهم من أتبــاعه، مع مؤاخذة بعضِهم بعضًا أشدّ المؤاخذة فى الكَذِبِ والزّنَا ونَبْذِ المواثيق والعهود. وقد جرت عادة ملوكهم أنهم إذا غَضِبوا علىٰ أحد من أتباعهم، أخذوا مَالَهُ وباعوا أولاده، وأن فى سلطان هذه المملكة طوائف الجَرْكَسِ والرُّوسِ والآصِ، وهم أهل مُدُن عامرة آهلة، وجبال مشــجرة مثمرة، ينبت عندهم الزرع، ويَدِرُّ لهم الضَّرْع، وتجرى الأنهار، وتُجنىٰ الثّمــار، وهم وإن كان لهم ملوك فهــم كالرعايا (١)، فإن داروه بالطاعة والتُّحَف كَفَّ عنهــم، وإلا شنّ عليهم الغارات، وضــايقهم، وحاصرهم،

(١) لعله فهم لملك مصر أو نحو ذلك كالرعايا لينتظم الكلام.

وقتل رجالهم، وسبى نساءهم، وذراريّهم، وجلب رقيقهم إلى أقطار الأرض.

ثم قال: والقسطنطينيّة مجاورة لأطراف مَلكِ القَبجَاقِ، وملك الروم معه فى كَلَبٍ دائم، وٱقتراحات متعدّدة فى كل وقت، وملك الروم على توقد جمرته، وكثرة حُمَاتِه وأنصاره، يخاف غارته وشرّه، ويتقرّب إليه، ويداريه، ويدافع معه الأيام من وقت إلى وقت منذ تديّر ملوكُ بنى جنكزخان هذه المملكة. وما تخلو بينهم مدّة عن تجديد عهود ومسالمة إلى مدّة تؤجل بينهم، وأشياء تحمل من جهة ملك الروم إلى ملكهم.

الجملة الثامنة

(فى مقدار عسكر هذه المملكة، وترتيبها، ومقادير الأرزاق الجارية عليهم، وزِيِّهم فى اللبس)

اما مقدار عسكرها، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ علاء الدين ابن النُّعمان أن عساكرها كثيرة تفوت الحصر، لا يُعْلم لها مقدار إلا أنه خرج مرة عليه وعلى القان الكبير اسنبغا سلطانِ ما وراء النهر خارجٌ، فجرّد إليه من كل عشرة واحدا فبلغ عدّة المجرّدين مائتين وخمسين ألفا ممن دخل تحت الإحصاء سوى من ٱنضم إليهم، وألزم كلَّ فارس منهم بغلامين وثلاثين رأسا من الغنم وخمسة أرؤس من الخيل وقِدْرين نحاس وعجلة.

وأما ترتيب مملكتهم فحكى عن الشيخ نجم الدين بن الشحام الموصلىّ أن ترتيب هذه المملكة فى أمر جيوشها وسلطانها كما فى ترتيب مملكة العراق والعجم فى عِدّة الأمراء والأحكام والخَدَم، ولكن ليس لأمير الألوس والوزير بها تصرفُ أمير الألوس والوزير بتلك المملكة، ولا لسلطان هذه المملكة نظيرُ ما لذلك السلطان من الدخل والمجابى وعدد المُدُن والقُرى، ولا مشى أهلُ هذه المملكة على قواعد الخلفاء مثل أولئك، ولخواتين هؤلاء مشاركةٌ فى الحكم معهم وإصدار الأمور عنهم مثل

أولئك وأكثر ، إلا ما كانت عليه بغداد بنت جوبان ٱمرأة أبى سـعيد بهادر بن خدابندا ، فإنه لم يُرَ من يحكم حكمها . قال المقرّ الشهابىّ بن فضل الله : وقد وقفتُ علىٰ كثير من الكتب الصادرة عن ملوك هذه البلاد من عهد بَرَكَةَ وما بعده ، وفيها " وٱتفقت آراء الخواتين والأمراء علىٰ كذا " أو ما يجرى هذا المَجْرىٰ .

وحكى عن الصدر زين الدين عمر بن مسافر عن أزبك خان سلطان هذه المملكة فى الأيام النـاصرية محمد بن قلاوون أنه لا ٱلتفات له مـن أمور مملكته إلا إلىٰ جُمْلِيّات الأمور دون تفصيل الأحوال ، يَقْنَعُ بمـا حُمِلَ إليه ، ولا يبحث عن وجوه القبض والصرف ، وأن لكل ٱمرأة من خواتينه جانبا من الحمل ، وأنه يركب كل يوم إلىٰ ٱمرأة منهنّ ، يقيم ذلك اليوم عنـدها ، يأكل من بيتها ويشرب ، وتلبسه بدلة قماش كاملة ، ويخلع التى كانت عليه من اللبس علىٰ مـن يتفق ممن حوله . ثم قال : وقماشه ليس بفائق الجنس ولا غالى الثمن ، مع قربه من الرعايا القاصـدين له ، إلا أن يده ليست مبسوطة بالعطاء ، ولو أراد هـذا لمـا وفىٰ به دخلُ بلاده ، فإن غالب رعاياه أصحابُ عَمَلٍ فى الصحراء ، أقواتُهم من مواشيهم . ونقل عن نظام الدين بن الحكيم الطيارىّ أن لسلطان هذه المملكة علىٰ جميعهم خراجًا يستأديه منهم ، وأنهم ربمـا طُولبوا بالخراج فى سنة مُمْحِلة لوقوع المُوتان بدوابهم ، أو سقوط الثلج ونحوه ، فباعوا أولادَهم لأداء ما عليهم من الخراج .

وأما مقادير أرزاق جُنْدهم ، فقد حكى عن شجـاع الدين عبد الرحمن أن كل من كان بيد آبائه شىء من الإقطاع فهو بيد أبنائه . ثم قال : والأمراء لهم بلاد ، منهم من تُغِلُّ بلاده فى السنة مائتى ألف دينار رائج وما دون ذلك إلىٰ مائة ألف دينار رائج .

أما الجند فليس لأحد منهم إلا نقود تؤخذ ، كلهم فيها علىٰ السواء ، لكل واحد منهم فى السنة مائتا دينار رائج .

وأما زِيُّهُم فى اللبس ، فحكى عن شجاع الدين الترجمان أيضا أنه كان زيهم زِىَّ عسكر مصر والشام فى الدولة الإسلامية ومايناسب ذلك ، ثم غلب على زيهم زِىّ التتر إلا أنهم بعمائم صغار مُدَوَّرة .

القســـم الثـالث

(من مملكة تُورَانَ مملكةُ القان الكبير)

قال فى "التعريف" : وهو أكبر الثلاثة ، (يعنى ملوك الأقسام الثلاثة المتقدمة الذكر) . وهو صاحب الصِّينِ والخِطا ووارث تخت جنكزخان . قال : وقد تواترت الأخبار بأنه أسلم ودان بدين الإسلام ، ورَقَم كلمة التوحيد على ذوائب الأعلام . قال : وإن صَحَّ وهو المؤمل ، فقد ملأت الأمةُ المحمديةُ الخافقين ، وعَمَرَت المشرقَ والمغربَ ، وآمتدّت بين صَفّتَى البحر المحيط . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو القائم مقام جنكزخان والجالسُ على تخته . قال : وهو كالخليفة على بنى عَمِّه من بقية ملوك تُوران : من مملكة إيران ، وصاحب القَبْجَاقِ ، وصاحب ما وراء النهر . فإذا تجدّد فى مملكة أحد منهم مُهِمٌّ كبير ، مثل لِقَاءِ عسكر ، أو قتل أمير كبير بذنب ، أو ما يناسب ذلك ، أرسل إليه وأعلمه به ، وإن كان لا آفتقار إلى آستئذانه ، ولكنها عادة مَرْعِيَّةٌ بينهم .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن نظام الدين بن الحكيم الطيارىّ أنه لم يزل يكتبُ إلى كلّ من القانات الثلاثة ، يأمرهم بالآتحاد والألفة ، وإذا كتب إليهم بدأ باسمه قبلهم ، وإذا كتبوا إليه بدؤا بآسمه قبلهم . قال : وكلهم مُذْعِنون له بالتقدّم عليهم . قال فى "مسالك الأبصار" : وأهل هذه المملكة هم أهل الأعمال اللطيفة ، والصنائع البديعة ، التى سلمت إليهم فيها الأمم . وقد تكتّبَ(١) الكتب من أحوالهم بما أغنى عن ذكره . قال : ومن عادة المجيدين فى الصنائع أنهم إذا عملوا عملا

(١) لعله "وقد تكفلت الكتب الخ" .

بديعا، حملوه إلىٰ باب الملك، وعُلِّق عليه ليراه الناس، ويبقىٰ سَنَةً، فإن سلم من عائب أسدىٰ إلىٰ صاحبه الإحسانَ، وإن عيبَ عليه وتوجّه العيبُ، وضع قدر الصانع ولم يوجه العيب [علىٰ] من عابه.

وقد حكىٰ المسعوديّ فى "مروج الذهب" أن صانعا منهم صوّر عُصْفورا علىٰ سُنْبُلَة فى نقش ثوب كمخا وعلقه، فآستحسنه كل من رءاه، حتّٰى مرّ به رجل فعابه باستقامة السنبلة، لأن العُصْفُورَ من شأنه أنه إذا وضع(1) علىٰ السنبلة أمالها.

وحكىٰ فى "مسالك الأبصار" عن بدر الدين حسن الإسعرديّ أن بعض صُنَّاعهم عَمِل ثيابا من الوَرَقِ وباعها علىٰ أنها من الكمخاوات الخطائية، لا يشُكُّ فيها شاكٌّ، ثم أظهرهم علىٰ ذلك فعجبوا منه.

وحكى عن الشريف حسن السَّمَرْقَنْدِىّ أنه كان بهذه البلاد، فشكا ضِرْسَهُ، فأراه لرجل من الخِطَا، فوضع يده عليه، فأخرج منه قطعة متأكلة، ووضع مكانها قطعة من ضِرْسِ أجنبىّ، ودهنه بدُهْن وأمره أن لا يشرب ماء يومه، فآلتصق حتّٰى صار كأنه من أصل الخلقة، إلا أن لون الأول يبين من اللون الثانى. وذكر المقر الشهابىّ أنه أراه له بحضرة الشيخ شمس الدين الأصفهانىّ وجماعة من أهل العلم. قال بدر الدين حسن الإسعردىّ: ولقد رأيت منهم من هذه الأعمال ما يَحَار فيه العقلُ.

ويحصل الغرض منه فى خمس جمل:

الجملة الأولىٰ

(فيما آشتملت عليه هذه المملكة من الأقاليم)

وآعلم أن هذه المملكة هى أوسع ممالك بنى جنكزخان وأفسحها جوانبَ، وأكثرها أقاليم، وأوفرها مُدُنا، غير أنها بعيدة المسافة، منقطعة الأخبار، فَجُهِلَت لذلك أسماءُ

(1) كذا بالأصل، ولعل الصواب "وقع".

أقاليمها، وتعذرت الإحاطة بأقطارها؛ ونحن نورد منها ماشاع ذكره فى سائر الآفاق وٱنتشر، ونَقْنَعُ من التفصيل بالجملة، ونكتفى من البحر بالنُّغبَة .

والقول الجملىُّ فى ذلك أنه يشتمل علىٰ إقليمين عظيمين :

الإقليم الأوّل

(الصِّينُ)

بكسر الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويحيط به من جهة الغرب المَفَاوِزُ التى بينه وبين الهِنْدِ، ويحيط به من جهة الجنوب البحر (يعنى بحرَ الهِنْد) ، ويحيط به من جهة الشرق البحر المحيط، ويحيط به من جهة الشَّمَال أرض يَأْجُوج ومَأْجُوج وغيرها من الأراضى المنقطعة الأخبار عنا . ثم قال : وقد ذكر أصحاب المسالك والممالك فى كتبهم بلادا كثيرة، ومواضع وأنهارا وغيرها فى إقليم الصِّينِ؛ ولم يقع لنا ضبط أسمائها، ولا تحقيق أحوالها، فصارت كالمجهولة لنا لعدم مَنْ يَصِل من تلك النواحى من المسافرين إلينا لنستعلم منه أخبارها فأضربنا عن ذكرها .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشريف تاج الدين حسن بن الجلال السَّمَرْقَنْدِىّ، وهو من السُّفَّار، وممن جال الآفاق، ودخل الصِّينَ وجَالَ بلادَه، وجابَ آفاقه، وجاسَ خِلَالَه، وجال فى أقطاره : أن بالصِّينِ ألفَ مدينة، وأنه دارَ الكثيرَ منها . قال : وبلاد الصِّينِ كلها عمارة متصلة من بلد إلىٰ بلد، ومن قرية إلىٰ قرية .

وقاعدة هذه المملكة (خَانْ بَالِق) . قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح الخاء المعجمة ثم ألف ونون ساكنة وباء موحدة مفتوحة ثم ألف ولام مكسورة وقاف فى الآخر . قال : وهى مدينة من أقاصى الشرق عند بلاد الخطا ، واقعة فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال ٱبن سعيد حيث الطول مائة وأربعَ عشرةَ درجة، والعرض

خمس وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . وهى قاعدة مشهورة على ألسنة التُّجَّار وأهلها من جنس الخطا ، وعندهم معادنُ الفضــة . قال ابن سعيد : ويُذْكر عن عِظم هذه المدينة مايستبعده العقلُ . قال فى "مسالك الأبصار" نقلا عن الشريف حسن بن الجلال السَّمَرْقَنْدِىّ : إن مدينة خَانْ بَالِق المذكورة مدينتـان ، قديمة وجديدة ، والجديدة منهـما آسمها ديدو ، بناها (ديدو) آخر ملوكها فسميت بآسمه ، والقان الكبير ينزل بوســطها فى قصر عظيم يســمّى كوك طاق ، ومعناه بلغة المغل القصر الأخضر ، لأن طاق معناه عنـدهم القصر ، وكوك معناه الأخضر ، ومنازل الأمراء حوله خارجَ القصر ، قال : وهى مدينة طَيِّبة ، واســعة الأقوات ، رخِيَّةُ الأسعار ، ويجمُد بها المـاء فى زمن الشتاء فيصير كالثلج ، فيُرفَعُ إلى أيام الصيف حتّى يُبَرَّد به المـاء كما يُبَرَّد بالثلج . ويشق مدينةَ ديدو المذكورة نهرٌ .

وبها أنواع الفواكه إلا العنبَ فإنه قليل بها ، وليس بها نَارَنْجٌ ولا لَيْمُونٌ ولا زَيْتُونٌ ، ثم يُعمل بها السكر . وبها من الزَّرْع والجِمَال والخَيْل والبَقَر والغَنَم مالا يدخل تحت الإحصاء .

وبالصِّينِ مُدُن مشهورة سواها .

(منهـا) قَرَاقُومُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح القاف والراء المهملة ثم ألف وقاف مضمومة وواو ســاكنة وميم . قال : وهى مدينــة فى أقاصى بلاد التُّرْك الشرقية ، ومعنى قراقوم باللغة التركية الرمل الأسود ، لأن قرا فى لغتهم بمعنى الأسود ، وقم بمعنى الرمل ، ويقع فى كثير من الكتب قَرَاقرم بإبدال الواو راء وهو خطأ ، وإنما كتبت الواو بها بعد القاف دليلا على الضمة على عادتهم فى ذلك — وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم الســبعة . قال ابن ســعيد حيث الطول مائة وست وخمسون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال : وهى كانت قاعدةَ التتر ، وفى جهاتها بلاد المغل : وهم خالصة التتر . ومنها خاناتهم . قال الشريف

حسن بن الجلال السَّمَرْقَنْدِىّ : وفيها غالب عساكر القان الكبير. وبها يُعْمل القماش الفاخر، والصنائع الفائقة، وغالب مايحتاج إليه القَان يُستدعىٰ منها لأنها دار آستعمال، وأهلها أهل صنائعَ فائقة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى قرية جنكزخان التى أخرجته، وعِرِّيسَتُه التى أدرجَتْه .

(ومنها) الخَنْساء . قال فى "تقويم البُلْدان" : بالخاء المعجمة والنون والسين المهملة وألف . وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" حيث الطول مائة وخمس وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثمان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة . قال : وعن بعض المسافرين من بلادنا أن الخنساء فى هذا الزمان أعظم فُرَض الصِّينِ ، وإليها ينتهى وصول التُّجَّار المسافرين من بلادنا . قال الشريف السَّمَرْقَنْدِىّ : وطول الخنساء يوم كامل، وعرضها نصف يوم، وفى وسطها سوق واحد ممتدٌّ من أولها إلىٰ آخرها، وأسواقها مبلَّطة بالبَلَاط، وبناؤها خمس طبقات بعضُها فوق بعض، وكلها مبنية بالأخشاب والمسامير، وشرب أهلها من الآبار، وأهلها فى قَشَفٍ عظيم، وغالب أكلهم لحم الجاموس والإوَزِّ والدّجاج. وفيها الأرُزُّ، والمَوْز، وقصب السُّكَّر، واللَّيْمُونُ، وقليل الرُّمَّان، وأسعارها متوسطة، وتجلب إليها الغنم والقمح علىٰ قلة، ولا يوجَدُ فيها من الخيل إلا ماقلّ عند أعيانها. وأما الجمال فلا توجد فيها البتة، فإن دخلها جَمَلٌ تعجبوا منه. ونقل فى "مسالك الأبصار" أن بينها وبين جالق بالق أربعين يوما. وحكىٰ عن الصدر صدر الدين عبد الوهاب بن الحدّاد البغدادىّ أنه وصل إلىٰ الخنساء ووصف عظمة بنائها ومَنَعَةَ رِفْعَةِ مدينتها مع تَشَحُّط الأقوات بها ووفور المكاسب فيها ورُخْص الدّقيق(١) الجيد فيها وفى جميع تلك البلاد . قال : وأهلها يتفاخرون بكثرة الجوارى السرارى، حتّىٰ إنه ليوجد لأحد التجار وآحاد الناس أربعون سرية فما زاد علىٰ ذلك .

(١) لعله الرقيق بالراء فتأمل .

(ومنها) الزَّيْتُونُ . قال في "تقويم البلدان" عن بعض المسافرين الثقات : هي بلفظ الزيتون الذي يُعْتَصَر منه الزيت، وهي فُرْضَةٌ من فُرَض الصِّين ــ موقعها في الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول مائة وأربعَ عشرةَ درجة، والعرض سبعَ عشرةَ درجة . قال : وهي مدينة مشهورة على ألسنة التجار المسافرين إلى تلك البلاد، وهي على خَوْر من البحر، والمراكب تدخل إليها من بحر الصِّين في الخَوْر المذكور، وقدره نحو خمسة عشر ميلًا، ولها نهر عند رأس الخور المذكور.

وذكر في "مسالك الأبصار" عن الشريف السَّمَرْقَنْدِيّ أن مدينـةَ الزَّيْتُونِ على البحر المحيط وهي آخر العمارة . قال : وبينها وبين جالق بالق شهر واحد .

(ومنها) السِّيلي . قال في "تقويم البلدان" : بالسين المهملة والياء المثناة التحتية ولام وياء ثانية . ثم قال : هكذا وجدناه في الكتب . قال : ويقال لها سِيلَا يعني باللام ألف ، ورأيت في بعض الكتب سِيلان بزيادة نون بعد اللام ألف . قال : وهي مدينة في أقصى الصِّين الشرقيّ، خارجة عن الإقليم الأوّل إلى الجنوب . قال في "القانون" حيث الطول مائة وسبعون درجة، والعرض خمس درج، وهي في أعالي الصِّين من الشرق كجزائر الخالدات في بحر الغرب، لكن هذه معـمورة في خِصْبٍ بخلاف تلك .

(ومنها) جمكوت . قال في "تقويم البلدان" : بالجيم والميم والكاف ثم واو وتاء مثناة فوقية في الآخر. قال : كذا وجدناها مكتوبة ، واسمها عند الفُرْس جما كرد . قال : وهي مدينـة في أقصى العمارة الشرقية، خارجة عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلى الجنوب . قال في "الأطوال" : وهي على خط الاستواء لا عرض لها . قال في "تقويم البُلْدان" : وهي على النهاية الشرقية مثل ما يحكى عن الجزائر الخالدات في النهاية الغربية . قال : وليس شرقيّ جمكوت عمارة أصلا .

(ومنها) مدن أخرىٰ مذكورة فى الكتب مجهولة الضبط .

إحداها مدينة (ينجو) — وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول مائة وخمس وعشرون، والعرض آثنتان وعشرون . وقد ذكر فى "القانون" أنها مستقرّ مَلِكهم الأكبر الملقب بطمغاج .

(ومنها) مدينة خانقو . بخاء معجمة وألف ونون وقاف ثم واو — وهى مدينة علىٰ النهر واقعة فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول مائة وستون درجة، والعرض أربعَ عشرةَ درجة . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى من أبواب الصِّين . قال آبن سعيد : وموقعها علىٰ شرقىّ نهر خمدان . قال آبن خرداذبه : وهى المرفأ الأكبر، وفيها الفواكه الكثيرة، والبقول، والحنطة، والشعير، والأُرُزّ، والعِنَبُ، والسكَّر .

(ومنها) مدينة خانجو — بإبدال القاف من المدينة السابقة جيما — وهى مدينة علىٰ النهر، واقعة فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول مائة وآثنتان وستون درجة، والعرض أربع عشرة درجة . قال فى "القانون" : وهى من أبواب الصِّين .

(ومنهـا) مدينة سوسة — بسينين مهملتين بينهما واو ساكنة وفى الآخر هاء . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة مشهورة كثيرة التُّجَّار متصلة العمارة، وبها يُصْنع الفَخَّار الصِّينىّ الذى لا يفوقه ولا يعدله شيء من أعمال الصِّين . قال : وهى علىٰ شرقىّ نهر خمدان .

الإقلـــيم الثـانى
(بلاد الخِطَا)

بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف فى الآخر، وهم جنس من التُّرْك بلادهم فى متاخمة بلاد الصِّين .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" مدينة (قمجوهى) بقاف وميم وجيم وواو ثم هاء وياء آخر الحروف . وقال : إنهـا أوّل بلاد الخِطَا، وان منها إلىٰ جالق بالق أربعين يوما، بل ذكر أن مدينة جالق بالق التى هى قاعدة هذه المملكة من بلاد الخِطَا .

الجمـــلة الثـانية

(فى معاملة هذه المملكة وأسعارها)

أما معاملتها فقال فى "مسالك الأبصار" : حدّثنى الفاضل نظام الدين آبن الحكيم أن معاملتهم بقشور من لحـاء شجر التُّوت مطبوعةٍ بآسم القان، فإذا عَتَقَ ذلك حمله صـاحبه إلىٰ نُوّاب هـذا القان وأخذ عِوَضـه مع خسارة لطيفة، كما يؤخذ فى دار الضرب مما يُحمل إليها من الذهب والفضة ليُضرب بها . وذكر عن الشريف حسن السَّمَرْقَنْدِىّ أن فيها كبارا وفيها صغارا، فمنها مايقوم فى المعاملة مقام الدرهم الواحد، ومنها مايقوم مقام درهمين، ومنها مايقوم مقام خمسة دراهم وأكثر إلىٰ ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ جالق بالق (١) والخَنْسَاء ذكرُ مابهما من الحيوان والحبوب والبقول وغير ذلك .

الجمـــلة الثـالثة

(فى الطريق الموصل إلىٰ هذه المملكة)

قد حكىٰ فى "مسالك الأبصار" عن الشريف تاج الدين السَّمَرْقَنْدِىّ : أن من سَمَرْقَنْدَ من بلاد ما وراء النهر إلىٰ سيلى عشرين يوما، ومن سيلى المذكورة إلىٰ ألمالق عشرين يوما ، ومن ألمالق إلىٰ قرا خوجا إلىٰ قمجوهى إلىٰ خان بالق أربعين يوما . ثم قال : ومن خان بالق إلىٰ الخَنْسَاءِ طريقان : طريق فى البر، وطريق فى البحر،

(١) كذا فى الأصل ، وسبق له مثله مرارا عن "المسالك" ولكن الذى ضبطه فيما تقدّم عن "التقويم" خان بالق بالخاء المعجمة والنون .

وفى كل من الطريقين من خان بالق إلى الخنساء أربعون يوما . وذكر فى الكلام على مملكة بيت بركة عن حسن الإربلى أن المسافر إذا سافر من جولمان على شرقيّها وصل إلى مدينة قراقوم .

الجملة الرابعة

(فى ذكر ملوكها)

قد ذكر المسعودىّ فى "مروج الذهب" عدّة ملوك من ملوك الصِّين قبل الإسلام وبعده، أسماؤهم أعجمية لاحاجة بذكرها، والمقصود معرفة حالها فى أيام بنى جنكزخان القائمين بها إلى الآن .

قد تقدّم فى الفصل الأول من هذا الباب الكلام على مبتدإ أمر جنكزخان وكيفية مصير الملك إليه فأغنى عن إعادته هنا .

ثم لما ملك جنكزخان أوصى بتخته المستولى فيه على هذا القسم من المملكة لولده الصغير أوكداى، ومات جنكزخان فآستقرّ ولده أوكداى، [ثم آستقرّ] فى هذه المملكة مكانه آبنه كيوك ثم مات .

فملك بعده (منكوقان) بن طولى بن جنكزخان، ومات سنة ثمان وخمسين وستمائة .

فملك بعده (أرى بكا)(١)، ثم قبلى خان، ثم دمرياق، ثم قرماى، ثم ترقاى كيزى، ثم قيان قان، ثم سند مرقان(٢) بن طولى بن جنكزخان، وهو الذى كان فى الأيام الناصرية محمد آبن قلاوون صاحب الديار المصرية، ثم آنقطع خبرهم فلم يُعلَم مَنْ ملك منهم . وملوك هذه المملكة من بنى جنكزخان كُفَّارٌ يدينون بتعظيم الشمس، واقفون فى الأحكام مع ياسة جدّهم جنكزخان المقدّم ذكرها فى الفصل الأوّل . قال فى "مسالك الأبصار":

(١) وجدنا فى "العبر" ج ٥ ص ٥٣٠ آختلافا فى الأسماء فاتبعنا الأصل وأجملنا فى التنبيه .
(٢) فى العبر "سند مرقان بن طرمالا بن جنكمر بن قبلاى بن طولى" .

ذكر لى الفاضل نظام الدين بن الحكيم الطيارىّ الكاتب البوسعيدىّ أنهم على ماهم عليه من الجاهلية على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكتهم ومن يرد إليها . قال الشريف السَّمَرْقَنْدِىّ : ومن عجائب ما رأيتُ فى مملكة هـذا القانِ أنه مع كُفْره فى رعاياه من المسلمين أمَمٌ كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ، ومتى قتل أحدٌ من الكفار مسلما ، قُتِلَ القاتلُ الكافر هو وأهلُ بيته ونُهِبتْ أموالُهم ، وإن قَتَل مسلمٌ كافرا لايُقْتل به ، بل يُطْلب بدِيَتِه ، ودِيَةُ الكافر عندهم حمار لايطلب بغيره .

الجمـــلة الخامسة

(فى عسكره)

قال بدر الدين حسن الإسْعِرْدِىّ التاجر : وهـذا القان ذو عسكر مديد . قال : والذى أعلم من حاله أن له آثنى عشر ألف بازدار يركبون الخيل ، وعساكره من المغل عشرون تومانا ، وهى مائتا ألف فارس ، أما من الخِطَا فما لا يحصى .

الجمـــلة السادســـة

(فى ترتيب هذه المملكة)

قال الشريف تاج الدين السَّمَرْقَنْدِىّ : وترتيب هذه المملكة أن لهـذا القان أميرين كبيرين هما الوزراء ، يسمّى كل من يكون فى هذه الرتبة جنكصان ، ودونهما أميران آخَران يسمّى كل منهما بنجار ، ودونهما أميران آخران يسمّى كل منهما زوجين ، ودونهما أميران آخَران يسمّى كل منهما بوجين . قال : وله كاتب هو رأس كُتَّابه يسمّى لنجون ، وهو بمنزلة كاتب السر فى بلادنا ؛ والقان يجلس فى كل يوم فى صدر دار فسيحة تسمّى شن ، بمثابة دار العدل عندنا ، ويقف الأمراء المذكورون حوله عن اليمين وعن الشمال على مقادير رُتَبهم ، وراس الكُتَّاب المسمّى لنجون ، فإذا

شكا أحدٌ شكوى أو سأل حاجة ، أعطى قصته رأس الكُتَّاب المذكور فيقف عليها ، ثم يوصلها إلى أحد الأميرين اللذين يليانه وهما أصغر الكل فيقف عليها هو ومن معه ، ثم يوصلانها إلى من يليهما فى الرتبة ، وهكذا إلى أن تصير إلى القان ، فيأمر فيها بما يراه . وذكر عن الشريف أبى الحسن الكربلاى وكان ممن اجتمع بالقان فى هذه البلاد أن لهذا القان أربعة وزراء يُصْدرون الأمر فى مملكته كلها ، ولا يُراجَع القان إلا فى القليل النادر . قال : وإذا أراد القانُ أن يركب ركب فى مِحَفَّة ولا يظهر للناس إلا فى يوم واحد ، وهو مثل يوم مولده فى كل سنة ، فإنه يركب فرسا ويخرج إلى الصحراء ويعمل بها من الأطعمة والسِّماطات ما يغمرُ الناس ، ويكون مثل يوم العيد عندهم .

تم الجزء الرابع . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس .

وأوّله المقصد الثانى

فى ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وآله وصحبه والتابعين وسلامه .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهـــــرست

الجـــزء الرابع

من كتاب صبح الأعشىٰ للقلقشندىّ

صفحة

(تم فهرست الجزء الرابع من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الخامس

وأوّله المقصد الثانى

فى ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية

صبح الأعشى

الجزء الخامس

دار الكتب الخديوية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الخامس

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقصد الثانى

(فى ممالك جزيرة العرب الخارجةِ عن مضافات الديار المصرية)

قد تقدّم فى الكلام على مملكة الديار المصرية ومُضَافاتها ذكْرُ جزيرة العرب، وأنه يحدّها: من جهة الغرب بحر القُلْزُم، ومن جهة الجَنُوب بحر الهند، ومن جهة الشرق بحر فارس، ومن جهة الشَّمال الفُراتُ . وأنها تحتوى الحجاز ونجدا وتهامة واليمن واليمامة والبحرين، وقطعةً من بادية الشام، وقطعةً من بادية العراق .

وتقدّم هناك الكلامُ على ماهو مضاف إلى مملكة الديار المصرية منها . منها مكة، والمدينة، على الحالِّ بها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام، واليَنْبُع، وما هو من بادية الشام كتَدْمُر ونحوها .

والمقصود هنا الكلام على باقى أقطارها التى لم تدخل فى مضافات الديار المصرية .

ويتوجه القصد منها إلى ثلاثة أقطار :

القُطْـــــــر الأوّل

(اليَمَـــن)

قال فى "اللباب" : بفتح المثناة التحتية والميم وفى آخرها نون . قال : و ينسب إليــه يَمَنِىٌّ و يمــانِىٌّ . وهو قطعة من جزيرة العرب : يَحُدّها من الغرب بحر القُلْزُم، ومن الجنوب بحر الهنــد ، ومن الشَّمال بحر فارس، ومن الشرق حدود مكةَ حيث الموضعُ المعروفُ بطَلْحة المَلِك، وما على سَمْت ذلك إلى بحر فارس .

وقد وردت السنَّة بتفضيله بقوله صلّى الله عليه وسلم: "الإيمــانُ يمــانٍ" .

وٱختُلِف فى سبب تسميته باليمن فقيل : سمى بيَمَنِ بن قحطان . وقيل: إن قحطان نفْسَه كان يسمّى بيَمَن . وقيل : سمى بيَمَنِ بن قَيْدار . وقيل : سمى بذلك لأنه عن يمين الكعبة . قال "ٱبن الكلبى" : سميت بذلك لتيامُنِهم إليها . قال "ٱبن عباس" (١) ٱستتب النــاس وهم العرب فتيامَنُوا إلى اليمن فسميت بذلك . وقيل: تيامنَتْ بنو يَقْطُن إليهــا فسمِّيت بذلك . وقيل: لمــا كثُر الناس بمكة وتفرّقوا عنها، التأمت بَنُو يَمَن إلى ايمن وهو أيْمَنُ الأرض .

وهو إقليم متسع له ذِكْر فى القديم، وبه كان قومُ سبإٍ المنصوصُ خبرُهم فى سورة "سبإ" وبِلْقِيسُ المذكورُ عرشُها فى سورة "النمل" .

وقد ذكر "البكرى" أن عَرْضه ستَّ عشرةَ مرحلة، وطولَه عشرون مرحلة .

قال فى "مسالك الأبصار" : وله ذكر قديم . قال : وهو كثير الأمطار، ولكن لا تَنْشأ منه السُّحُب، و يمطُر المطرُ فى الغالب من وقت الزوال إلى أُخْرَيات النهار .

---

(١) عبارة "ياقوت" عن ٱبن عباس تفرقت العرب فمن تيامن منهم سميت اليمن .

قال الحكيم "صلاح الدين محمد بن البرهان": وأكثر مطره فى أُخْريات الربيع إلى وَسَط الصيف . وهو إلى الحرّ أميلُ، وبه الأنهارُ الجاريةُ، والمُرُوج الفِيحُ، والأشجار المتكاثِفة فى بعض أماكنه، وله آرتفاعٌ صالح من الأموال، وغالب أمواله مُوجَبات التُّجّار الواصلين من الهند ومصر والحبشة، مع مالها من دَخْل البلاد .

وذكر عن الحكيم صلاح الدين المذكور، أن لأهل اليمن سِياداتٍ بينهم محفوظه، وسعاداتٍ عندهم ملحوظه، ولأكابرها حَظٌّ من رَفَاهِيَـة العيش والتنعم والتفنن فى المآكل : يُطْبَخ فى بيت الرجل منهم عِدّةُ ألوان، ويُعْمَلُ فيها السكّرُ والقلوب، وتُطيَّب أوانيها بالعِطر والبَخُور، ويكون لأحدهم الحاشيةُ والغاشيةُ، وفى بيته العَدَد الصالحُ من الإماء، وعلى بابه جملةٌ من الخَدَم والعبيد والخِصْيان من الهند والحُبُوش، ولهم الدّيارات الجليلةُ، والمبانى الأَنِيقة، إلا الرُّخام ودِهانَ الذهب واللازوَرْد، فإنه من خواصّ السلطان، لايشاركه فيه غيره من الرَّعايَا . وإنما تُفرَش دُورُ أعيانهم بالخافِقىّ ونحوه، على أن آبن البرهان قد غَضّ من اليمن فى أثناء كلامه فقال : وآسم اليمنِ أكبرُ منه، لا تُعدّ فى بلاد الخِصْب بلادُه .

وذكر فى "مسالك الأبصار" أنه ليس باليمن أسواق مرضية دائمة، إنما يُقَام لها سوق يوم الجمعة : تُجْلبُ فيه الأجلابُ، ويُخْرِج أربابُ الصنائع والبضائع بضائعَهم وصنائعَهم : فيبيع من يبيع، ويشترى من يشترى، من أَعْوزه شىء فى وسط الجمعة لايكاد يجده إلا المآكل .

ثم اليمن على قسمين :

القســـم الأوّل

(التّهائم)

وهى المنخفض من بلاده . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى باردة الهواء طيّبة المسْكَن . وفيه أربعُ جُمَلٍ :

الجمـــلة الأولىٰ

(فى ذكر ما آشتمل عليه من القواعد والمُدُن)

قال فى "مسالك الأبصار" : وهو يشتمل علىٰ عِدّة بلاد ، وقلاع ، وحصون حصينة ، ولكن يفصِل البَرُّ ما بين بعضها عن بعض . و به قاعدتان :

القــاعدة الأولىٰ

(تعــز)

وهى مَصيفُ صاحب اليمن . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر[1] المثناة من فوقُ والعينِ المهملةِ وزاى معجمة فى الآخر . وموقعُها فى الإقليم الأوّلِ من الأقاليم السبعة . قال : والقياس حيثُ الطولُ خمس وستون درجةً وثلاثون دقيقةً ، والعَرْض ثلاثَ عشرةَ درجة وأربعون دقيقــة . قال : وهى فى زماننا هــذا مَقَرُّ ملوك اليمن (يعنى من أولاد رسول الآتى ذكْرُهم فى الكلام علىٰ ملوكه) .

ثم قال : وهى حِصْن فى الجبال ، مُطلٌّ علىٰ التهائم وأراضى زَبِيدَ ، وفوقها متنزه يقــال له مهلة ، قد ساق له صاحبُ اليمن الميــاهَ من الجبال التى فوقها ، وبنىٰ فيها أبنيةً عظيمة فى غاية الحسن فى وسط بستانٍ هناك .

(١) ضبطها ياقوت فى معجم البلدان بفتح التاء وكسر العين وقال المجد كتَقِلٍّ .

قال في "الروض المِعْطار" : ولم تزل حصنا للملوك . قال : وهو بلد كثير الماء، بارد الهواء، كثير الفاكهة . قال : ولسلطانهم بستانٌ يعرف بالَيْنَعات ، فيه قُبَّة ملوكية، ومَقْعد سلطانيّ ، فُرُشهما وأُزُرهما من الرُّخام الملوّن؛ وبهما عَمَد قليلة المِثْل، يجرى فيهما الماء من نفثات تملأ العينَ حُسْنا ، والأذن طَرَبا ، بصفاء نميرها ، وطِيب خَريرها؛ وترمِى شبابيكُهما على أشجار قد نُقِلت إليه من كل مكان : تجمع بين فواكه الشام والهند؛ لا يقف ناظر على بستان أحسنَ منه جمعا ، ولا أجمع منه حُسْنا، ولا أتمّ صورة ولا معنى .

القاعدة الثانيــــة

(زَبِيــدُ)

وهى مَشْتى صاحب اليمن من بنى رسول . قال في "تقويم البُلْدان" : بفتح الزاى المعجمة وكسر الباء الموحدة وسكون المثناة من تحتُ ودال مهملة . وهى مدينة من تَهائم اليمن . قال في "العبر" : بناها محمد بن إبراهيم، بن عبيد الله، بن زياد ، ابن أبيه في خلافة المأمون . وموقعُها في أوائل الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطولُ أربعٌ وستون درجةً وعشرون دقيقة ، والعرضُ أربعَ عشْرَةَ درجة وعَشْرُ دقائقَ . قال في "العبر" : وهى مدينــة مسوّرة ، وبها كان مُقامُ بنى زيادٍ ملوكِ اليمن ، وهم الذين بنَوْها ، ثم غلب عليها بنُو الصُّلَيْحىّ ، ثم صارت قاعدةَ بنى رسول . وهى قَصَبة التهائِم؛ وهى مبنيَّة في مستوٍ من الأرض، عن البحر على أقلّ من يوم؛ وماؤها من الآبار؛ وبها نَخِيــل كثيرة، وعليها سور ، وفيها ثمانية أبواب .

قال البيرونى : وهى فُرْضة اليمن ، وبها مجتمَع التُّجّار من الحِجاز ومصر والحبشة ، ومنها تخرج بضائعُ الهند والصـين . قال المهلَّبىّ : ولهـا ساحل يعرف بغَلَافِقَة ، وبينهما خمسةَ عشرَ ميلا .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى شديدة الحرّ لا يَبْرُد ماؤها ولا هواؤها ، وهى أوسعُ رُقْعة وأكثر بناء ، ولهـا نهر جارٍ بظاهرها ، ومساكن السلطان فيها فى نِهاية العَظَمة من فَرْش الرخام والسُّقوف .

وباليمن عدّة مُدُن سوى القواعد المتقدّمة الذكر .

منها (عَدَنُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح العين والدال المهملتين ونون فى الآخر ، وهى من تهائم اليمن . قال : وهى خارجة إلى الجَنُوب عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ سبع وستون درجةً ، والعرضُ تسعَ عشْرَة درجةً . قال فى "الروض المِعْطار" : وأوّل من نزلها عَدَنُ ابن سبإٍ فعُرفت به . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويقال لها عَدَنُ أَبْيَنَ ــ بفتح الهمزة وسكون الباء الموحدة وفتح المثناة التحتية ثم نون ــ وقال فى "المشترك" : عن سيبويه بكسر الهمزة ، وهو رجل من حِمْير أُضيفت إليه عَدَن . قال فى "العبر" : وهو أَبْيَنُ ابن زُهَيْر، بن الغَوْث، بن أَيْمَن، بن الهَمَيْسَع ، بن حِمْير .

وذكر "الأزهرى" أن سبب تسميتها بذلك أن الحبشة [عبرت][(1)] فى سُفُنهم إليها ، وخرجوا منها فقالوا (عدونه) يريدون خرجنا ، فسميت عَدَن لذلك . وقيل مأخوذة من قولهـم عَدَن بالمكان إذا أقام به . وهى على ساحل البحر ذاتُ حَطٍّ وإقلاع . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى أعظم المَرَاسى باليَمَن ، وتكاد تكون ثالثـةَ تَعِزَّ

(١) الزيادة عن "معجم البلدان" لياقوت .

وزَبِيد في الذكر، وبها قلعة حصينة مبنية، وهي خزانة مال ملوك اليمن ، إلا انه ليس بها زرع ولا ضرع ، وهي فُرْضة اليمن ، ومحطّ رحال التجّار ، لم تزل بلد تجارة من زمن التبابعة وإلى زماننا ، عليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسِّنْد والهند والصين والحبشة ، ويمتار أهلُ كل إقليم منها ما يحتاج إليه إقليمهم من البضائع .
قال "صلاح الدين بن الحكيم" : ولا يخلو أسبوع من عدّة سُفُن وتجّار واردين عليها ، وبضائعَ شتّى ومتاجرَ منوعة ، والمقيم بها في مكاسبَ وافرة ، وتجائرَ مُرْبحة ، ولحطّ المراكب عليها وإقلاعها مواسمُ مشهورة ، فإذا أراد ناخوذة(١) السفر بمركب إلى جهة من الجهات ، أقام فيها علَما برنك خاصّ به ، فيعلمُ التجّار بسفره ، ويتسامعُ الناسُ فيبقى كذلك أيّاما ، ويقع الاهتمام بالرحيل ، وتُسارع التجار في نقل أمتعتهم ، وحولهم العبيد بالقماش السرىّ والأسلحة النافعة ، وتُنْصَب على شاطئ البحر الأسواقُ ، ويخرج أهل عدَنَ للتفرّج هناك .

قال في "العبر" : ويُحيط بها من جهة شماليها على بُعْد جبلٌ دائر إلى البحر ينْثقِب فيه من طرفيه ثقبان كالبابين ، بينهما على ظَهْر الجبل مَسيرةُ أربعة أيام ، وليس لأهلها دُخول ولا خُروج إلا على هذين الثقبين أو من البحر . وكان مُلْكُها لبني مَعْن ابن زائدةَ ، ثم لبني زِياد : أصحابِ زَبِيدَ ، ثم انتزعها منهم أحمدُ بنُ المكرَّم الصُّلَيْحىّ ، وصفا المُلْك فيها لبني الزُّرَيْع منهم ، وبقيت بأيديهم حتّى ملكها منهم (تورانْ شاه) ابن ايوب : أوّلُ ملوك اليمن من الأيوبيّة ، ومن الأيوبيّة انتقلت لبني رَسُول ملوك اليمن الآن .

وذكر في "مسالك الأبصار" عن الحكيم "صلاح الدين بن البرهان" أنه أقام بها مدّة ، وقال إن المقيم بها يحتاج إلى كُلْفة في النَّفقات : لارتفاع الأسعار بها في المآكل

(١) في مادة (ن خ ذ) من القاموس "النواخذة ملاك سفن البحر أو وكلاؤهم معرّبة الواحد ناخذاة" فانظره .

والمَشَارب ، ويحتـاج المقيمُ بها إلى ما يتبرَّدُ به فى اليوم مرّاتٍ فى زمن قوّة الحَرّ . قال : ولكنهم لا يُبالُون بكثرة الكُلَف ، ولا بسُوء المُقام لكثرة الأموال النامية .

ومنها (ظَفَارِ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الظاء المعجمة والفاء وألف وراء مهملة . قال : وهى من تَهائم اليمن ، من أوائل الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "القـانون" : حيثُ الطولُ سبع وسـتون درجةً ، والعَرْضُ ثلاثَ عشْرةَ درجة وثلاثون دقيقة .

قال السُّهَيلىّ : وهى مدينـة عظيمة ، بناها مالك بن أبْرهَةَ ذى المَنار . وذكر فى "العبر" أنها كانت دارَ مُلْك التَّبَابعة ، وخرَّبها أحمد الناخُوذةُ سـنة تسعَ عشرةَ وستمـائة لأنهـا لم يكن لهـا مَرْسًى ، وبنى على الساحل مدينـةَ ظفار بالضم (١) ، وسمّـاها الأحمديَّةَ .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينـةٌ على ساحل خَوْر قد خرج من البحر الجَنُوبىّ وطعن فى البر فى جهـة الشَّمال نحو مائة ميل ، ومدينة ظَفارِ على طَرَفه ، ولا تخرج المراكب من ظَفار فى هذا الخَوْر إلا بريح البَرّ ، ويُقْلَع منها فى الخَوْر المذكور إلى الهند . قال : وهى قاعدة بلاد الشِّحْر ، ويُوجَد فى أرضها كثير من نَبات الهند كالرَّانج والتَّنْبُل ، وشمالىّ ظَفارِ رمالُ الأحقاف التى كان بها قوم عاد ، وهى المذكورة فى القرءان ، وبينها وبين صنعاء أربعةٌ وعشرون فرسخا . قال : وعن بعضهم أن لها بساتينَ على السَّوَانِى .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى فى زماننا لأولاد الواثق ابن عم صاحب اليمن . قال : وهم وإن أُطْلِق عليهم اسمُ المَلِك نُوّابٌ له . وذكر أن البضائع منهـا تُنْقَـل

(١) عبارة "العبر" (ج ٤ ص ٢٢٦) مدينة ضفا بضم الضاد المعجمة اهـ .

فى زوارِقَ حتى تخرج من خَوْرها، ثم توسَق فى السفن . قال فى "العبر" : وكانت منزلةَ الملوك فى صدر الدولتين .

ومنها (حَلْيٌ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الحاء المهملة وسكون اللام ثم ياء مثناة من تحتُ . وهى بَلْدة من اليمن، واقعة فى الإقليم الأول . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ ستٌّ وستون درجة، والعرضُ ثلاثَ عشرةَ درجةً وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من أطراف اليمن من جهة الحجاز وتعرف بحَلْى آبن يعقوب .

ومنها (المَهْجَم) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون الهاء وجيم وميم . وهى مدينة من تِهَائم اليمن، واقعة فى الإقليم الأول . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ أربعٌ وستون درجة، والعرضُ ستَّ عشرةَ درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من أجلّ مدن اليمن، وهى عن زَبِيدَ ثلاثة أيام [وهى] فى الشرق والشمال عن زَبِيدَ، وعن صنعاءَ على ستّ مراحل . قال الإدريسى : ومن عَدَنَ على ست مراحلَ .

ومنها (حصن الدِّمْلوة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر(١) الدال المهملة وسكون الميم ثم لام وواو وهاء فى الآخر . وهو حصن من حصون اليمن، واقعٌ فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال ابو العقول : حيث الطولُ أربع وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرضُ أربعَ عشرةَ درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهو حصن فى شَمال عَدَنَ فى جبال اليمن . قال آبن سعيد : وهو على الجبل الممتدّ من الجنوب إلى الشمال، وهو خِزانة صاحب اليمن، ويُضْرب بامتناعه وحَصَانته المَثَل .

(١) ضبطها ياقوت فى معجمه فقال ــ بضم أوّله وسكون ثانيه وضم اللام وفتح الواو .

ومنها (الشَّرْجة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وجيم وهاء . وهى مِينا علىٰ ساحل البحر، واقعة فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرضُ سبعَ عَشْرَةَ درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى صغيرة وبيوتها أخصاص .

ومنها (جُبْلَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الجيم وسكون الباء الموحدة ولام مفتوحة وهاء . وهى مدينة بين عَدَنَ وصنعاءَ ، واقعة فى الإقليم الأوّل . قال : وقياس قول أبى العقول أنها حيثُ الطولُ خمس وستون درجة ، والعرضُ ثلاثَ عشرةَ درجة وعشر دقائقَ . قال : وهى علىٰ نهرين ولذلك يقال لها مدينة النَّهْرَيْن . قال بعض الثقات : وبينها وبين تَعِزَّ دونَ يوم ، وهى عن تَعِزَّ فى الشرق بمَيْلة يسيرةٍ إلىٰ الشَّمال .

ومنها (الجَنَد) . قال فى "اللباب" : بالجيم والنون المفتوحتين ودال مهملة فى الآخر . وهى مدينة شماليَّ تَعِزَّ ، علىٰ نحو نصف مرحلة منها ؛ واقعةٌ فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ خمس وستون درجة ، والعَرْض أربعَ عشرةَ درجة وثلاثون دقيقة . وهى عن صنعاء علىٰ ثمانية وأربعين فرسخا ، وعن ظَفارِ علىٰ أربعة وعشرين فرسخا .

وقال الشريف الإدريسىّ : هى بين ذَمارٍ وبين زَبِيدَ . وهو بلد جليل به مسجد جامعٌ يُنْسَب لمُعاذ بن جَبَل الصحابىّ رضى الله عنه ، وعلىٰ القرب من الجَنَد وادى سَحُولٍ ، ومنه يسير فى صحارىٰ إلىٰ جبل عَرْضُه أحد وعشرون فرسخا ، ثم يسير فى صحراءَ ورمال إلىٰ مدينة زَبِيد . والجَنَد بلد وَخْم فى غاية الوَخَامة ، وأهله شيعة .

ومنها (سِرَّيْن) . قال فى "اللباب" : بكسر السين المهملة وفتح الراء المهملة المشدّدة وسكون المثناة من تحت ونون فى الآخر . وهى بلدة علىٰ تسعة عشر فرسخا من حَلْيٍ، فى جهة الشمال منها، واقعةٌ فى آخر الإقليم الأوّل . قال فى "الأطوال": حيثُ الطولُ ستٌّ وستون درجة وأربعون دقيقة، والعَرْضُ عشرون درجة . وقال المهلبىّ : هى مدينــة علىٰ ساحل البحر علىٰ اربعة أيام من مكة . قال الإدريسى : وهى علىٰ القرب من قرية يَلَمْلَمَ : ميقاتِ أهل اليمن للإحرام .

ومنها (مِرْباطُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الميم وسكون الراء المهملة ثم باء موحدة وألف بعــدها طاءٌ مهملة . وهى بُلَيْدة علىٰ ساحل خَوْر ظَفَارِ المقــدّمِ ذكره . قال : وهى خارجة عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلىٰ الجنوب أو منه . قال "فى الأطوال" : حيث الطولُ آثنتان وســبعون درجةً، والعرضُ آثنتا عَشْرةَ درجة . قال آبن سعيد : وهى فى الشرق والجَنُوب عن ظَفارِ . قال الإدريسى : وقبر هودٍ عليه الســلام منها علىٰ خمســة أيّام . قال فى "نزهة المشتاق" : وبجبال مِرْباطَ ينبُتُ شجرُ اللُّبان، ومنها يجهَز إلىٰ البلاد .

ومنهــا (بلاد مَهْرةَ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم ثم هاء ساكنة وراء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر . والمراد بمَهْرةَ بنُو مَهْرةَ بنِ حَيْدانَ : قبيلة من قبائل اليمن؛ وقد بسطت القول علىٰ ذلك فى كتابى المسمّى "بنهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب" . وموقعها فى الإقليم الأوّل . قال "فى الأطوال" : وآخرها حيث الطولُ خمسٌ وسبعون درجة، والعرضُ ستَّ عشرةَ درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وليس بها نخيــل ولا زرع وإنمــا أموالُ أهلها الإبلُ . قال : وألسنتهم مستعجمة لا يكاد يُوقَف عليها؛ ويُنْسَب إليها البُخْتُ المفَضَّلة، ويحمل منها اللُّبان إلىٰ الآفاق .

ومنها (الشِّحْر) بكسر الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة وراء مهملة فى الآخر. قال ياقوت الحموى : وهى بُلَيْدة صغيرة، ولم يزد علىٰ ذلك . والذى يظهر أن لهـا إقليما ينسب إليها، وإليها يُنْسَب العَنْبَرُ الشِّحْرىُّ علىٰ ماتقدّم القولُ عليه فى الكلام علىٰ ما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه فى المقالة الأولىٰ .

الجمـــــلة الثانيـــــة

(فى ذكر حيوانه، وحبوبه، وفواكهه، ورياحينه ومعاملاته، وأسعاره)

وأنا أذكر جملة من ذلك علىٰ ما ذكره فى "مسالك الأبصار" عن أبى جعفر أحمد ابن محمد المقـدسىّ المعروف بابن غانم كاتب الإنشاء بهـا، وأبى محمد عبد الباقى بن عبد المجيد اليمنى الكاتب

أما حيوانه ــ فبه من الحيوان الخيلُ العربيـة الفائقةُ، والبِغال الجيِّدة للركوب والحمل، والحُمُر، والإبلُ، والبقر، والغنم؛ ومن الطير الدَّجاج، والإوَزّ، والحمام؛ وفيها من الوحوش الزرافة والأَسَد، والغِزْلانُ، والقِرَدة، وغيرُ ذلك .

وأما حُبوبه ــ فبه من الحُبوب الحِنْطة والشعير والذُّرَة والأَرُزّ والسِّمْسِم؛ وغالب قُوتِهم الذُّرة واقلُّه الحنطةُ والشعير .

وأما فواكهه فبه العنبُ، والرُّمّان، والسَّفَرْجَل، والتُّفّاح، والخَوْخ، والتُّوت، والمَوْز، واللَّيمون، والأُتْرُجّ، فى أنواع أخرىٰ من الفاكهة قليلةِ المقدار؛ وبه البِطِّيخ الأخضرُ والأصفر .

قال ابن البرهان : وغالب ما يوجَدُ بمصر من الفواكه يُوجَدُ باليمن ، إلا أنه بالَغَ فى وصف السَّفَرْجَل به .

وأما أسعاره فَرِخيَّة فى الغالب . وذكر ابن البرهان أن الحنطة فيه تغْلُو، واللحومَ فيه رخيصة .

الجملة الثالثة

(فى الطريق الموصِّلة إلى اليمن)

وله طريقان : طريقٌ فى البَرّ، وطريق فى البحر .

أما طريقه فى البر، فالطريق من مِصْرَ إلى مكة معروفةٌ . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومن مكةَ إلى عَدَن نحوُ شهر . قال : ولها طريقان : أحدهما على ساحل البحر، وهو الأبعدُ . والثانى على نَجْرانَ، وجُرَش، وصَعْدَة، وصَنْعاء، وهو الأقرب .

وأما فى البحر، فمن مِصْرَ إلى السُّوَيس ثلاثةُ أيام فى البَرّ، ثم يُركَب فى البحر إلى زَبِيدَ وعَدَن . وربما عدل المسافرون عن السُّوَيس إلى الطُّور فتطول الطريقُ فى البر، وتقصُر فى البحر، وربما وقع السفر إلى قُوص فى النيل أو فى البر، ثم من قُوص إلى عَيْذابَ أو إلى القُصَيْر، فيُركَب فى البحر إلى زَبِيدَ أو عَدَن .

الجملة الرابعة

(فى ذكر ملوكه : جاهليَّةً وإسلاما)

أما ملوكه فى الجاهلية فعلى عَشْر طبقات :

الطبقــــة الأولىٰ

(العــاديّة)

وهم بنو عادِ بن عَوْص ، بن إرَم ، بنِ سامِ ، بن نوحٍ عليه السلام .

وكانت منــازلهم بالأحقاف من اليمن ، وعُمَان من البحرين إلىٰ حَضْرموت والشِّــحْر .

وأوّل من ملكها منهم (عاد) المقدّم ذكره . ويقــال : إنه أوّلُ مَنْ ملك من العرب وطال عُمُــره وكثُر ولدُه ، حتّى يقــال إنه ولد أربعــةَ آلاف ولدٍ ذكرٍ لصُــلْبه ، وتزوّج ألف آمرأة ، وعاش ألف ســنة ومائتَيْ ســنة . وقال البيهقى : عاش ثلثمائة سنة .

ثم ملك بعده آبنه (شديد) بن عاد .

ثم ملك بعده آبنه الثانى (شَدَّاد) بن عاد وسار فى الممالك ، وآستولىٰ علىٰ كثير من بلاد الشام والعراق والهند ويقال إنه ملك مصر أيضا .

ثم ملك بعده آبنه (إرَم) بن عاد .

والذى ذكره المسعودىّ أنه ملك بعد عاد بن عوص ابنُه عاد بن عاد وأن جَيْرُون ابنَ سَعْد بن عاد كان من ملوكهم ، وأنه الذى آختَطّ مدينة دِمَشْق ومَصَّرها ، وإليه يُنْسب باب جيْرُونَ بها كما تقدّم فى الكلام عليها فى مضافات الديار المصرية .

وذكر آبن سعيد : أن شَدَّاد بن بَدَّاد ، بن هَدَّاد ، بن شَــدَّاد ، بن عاد غلب قفط بن قبط علىٰ أسافل الديار المصرية ، ثم هلك هناك ، ويقال ان مَلِكَهم علىٰ عهد

هود عليه السلام كان اسمه الخَلَجان بن عاد، بن رقيم، بن عاد الأكبر، ولقمان بن عاد ابن عاديا بن صداقا بن لقمان، وكَفَر الخلجان، وأهلك الله من كفر منهم بالريح العَقيم.

وانتقل ملك لقمان إلى ولده (لُقَيْم) واتصل ملك لقمان ورهطه ألف سنة أو أكثر إلى أن غلبهم عليه يَعْرُبُ بن قحطان الآتى ذكره.

الطبقـــة الثانيـــة
(القَحْطانيَّـــة)

وأوّل من ملك منهم (قَحْطانُ) بن عابر، بن أرفخشذ، بن سام، بن نوح عليه السلام. قال المؤيد صاحب حماة: وهو أوّل من ملك اليمن ولبس التاج.

ثم ملك بعده ابنـه (يَعْرُبُ) بن قحطانَ، وغلب عادا على اليمن، وعَظُمَ مُلْكه. وهو أوّل من حَيَّاه قومه بتحيـة المُلْك، وولَّى أخاه حَضْرَمَوْتَ بن قحطانَ على بلاد حَضْرموتَ فعرفت به، وولَّى أخاه عُمَان بن قحطان على بلاد عُمَان من البحرين فعُرِفت به.

ثم ملك بعده ابنه (يَشْجُب) بن يَعْرُب.

ثم ملك بعده ابنه (عَبْدُ شمس) وأكثر الغَزْو والسبْيَ، فسمى سَـبأ، وبنى قصر سبإ ومدينةَ مأْرِبَ باليمن. ويقال: إنه غزا مصر، وبنى بها مدينـةَ عَيْنِ شمس، التى أثَرُها بالقرب من المطرية الآنَ.

ثم ملك بعده ابنه (حِمْيَرُ) خمسين سنة، وهو أوّل مَنْ تتوّج بالذهب.

ثم ملك بعده ابنه (وائل). وقيل: بل ملك بعده أخوه (كَهْلان).

ثم ملك بعد وائل ٱبنه (السَّكْسَكُ) .

ثم ملك بعده ٱبنه (يَعْفُر) بن السَّكْسَك .

ثم غلب على المُلْك (عامر) بن بارانَ ، بن عوف، بن حِمْير ؛ ويعرف بذى رِيَاش .

ثم ملك بعده ٱبنه (المُعَافِر) وٱسمه النعمان بن يَعْفُر المقدّم ذكره .

ثم ملك بعده ابنه (أسمح[1]) بن النعمان ؛ فاضطرب أمرُ حِمْير، وصار ملكهم فى طوائف إلى أن ظهرتْ ملوكُ التّبابِعة .

ويقال : إنه ملك منهم (أَبْيَنُ) بن زُهَير، بن الغَوْث، بن أيْمُن، بن الهَمَيْسَع، وإليه تنسب عَدَنُ أَبْيَنَ على ماتقدّم ذكره .

وملك منهم أيضا (عبد شمس) بنِ وائل ، بن الغوث ، بن حَيْدان، بن قَطَن، ٱبن عُرَيْب، بن زُهَير، بن أيْمُن، بن الهَمَيْسَع، بن حمير .

وملك منهم أيضا (حَسَّانُ) بن عمرو ، بن قيس ، بن معاوية ، بن جُشَم ، ٱبن عبد شمس .

ثم ملك بعده أخوه (لُقْمان) . ثم أخوه (ذو شدد) : وهو ذو مَرَاثد . ثم ٱبنه (الصَّعْب) ويقال : إنه ذو القرنَيْنِ . ويقال : إن بَنِى كَهْلانَ بن سبإٍ داوَلُوا بنى حِمْير فى الملك .

وملك منهم (جَبَّار) بن غالب، بن زيد، بن كَهْلانَ؛ وانه ملك من شُعُوب قحطان أيضا (نَجْرانُ) بن زيد، بن يَعْرُب، بن قحطان؛ وبه عرفت نَجْرانُ المقدَّم ذكرها .

---

(١) فى "العبر" أسحم بتقديم الحاء على الميم .

الطبقـــــة الثالثـــــة

(التبابعـــة)

إمَّا بمعنىٰ أن النــاس يَتْبَعُونهم كما قاله السهيلىّ والزمخشرىّ ؛ وإما بمعنىٰ أنه يَتْبَع بعضهم بعضا كما قاله ٱبن سيده . قال فى "العبر" : وكانت منازلُهم ظَفَارِ .

وأوّل من ملك منهم (الحارث) بن ذى شــدد ، بن المِلْطاط ، بن عمرو ، بن ذى يقدم ، بن الصوار ، بن عبد شمس ، بن وائل ، بن الغوث ، بن حيدان ، بن قَطَن ، ٱبن عُرَيْب بن زُهَير ، بن الغوث بن أيْمَن بن الهَمَيْسع ، بن حمير ، بن سبإ . وسمى الرائِشَ لأنه لمــا ملك الناس راشهم بالعطاء . قال السهيلىّ وكان مؤمنا .

ثم ملك بعده ٱبنه (أبرهة ذو المَنَار) مائة وثمــانين سنة قاله المسعودىّ . وقال ٱبن هشام هو أبْرهةُ بن الصَّعْب ، بن ذى مرائد ، بن المِلْطاط المقدّم ذكره ، وسمِّى ذا المنار لأنه رفع منارا يُهتدىٰ به

ثم ملك بعده ابنه (إفْرِيقش) بن أبرهة مائة وستين سنة .

وقال هشام ٱبن الكلبى هو إفريقش ، بن قَيْس ، بن صَيْفِىّ أخى الحارث الرائش وسار إلىٰ بلاد المغرب وفتح أفريقية فعرفت به .

ثم ملك بعده أخوه (عَمْرو العبد) بن أبرهة المعروف بذى الأذعار خمسا وعشرين ســنة . قال المسعودىّ : وسُمِّى ذا الأذعار لكثرة ذُعْر الناس منه . قال وكان علىٰ عهد سليمان عليه السلام أو قبله بقليل .

وقال الطــبرىّ : عَمْرو بنُ أبرهة ذى المَنَار ، بنِ الحارث الرائش ، بن قيس ، ابن صَيْفىّ ، بن سبإ الأصغر .

ثم ملك بعـده (الهَدْهاد) بن شُرَحْبِيـل، بن عمرٍو ذى الأذعار ستّ سنين أو عشر سنين، وهو ذو الصَّرْح .

ثم ملك بعده ٱبنتُه (بِلْقِيس) بنت الهَدْهاد بن شُرَحْبِيل سبع سنين وهى صاحبة القصة مع سليمان عليه السلام .

وقال الطبرىّ : بِلْقِيس هى يَلْقَمة بنت لَيْشَرَح بن الحارث بن قيس .

ثم ملك بعدها (سليمان) عليه السلام . ثم أقاموا فى مُلْكه ومُلْك بنيه أربعا وعشرين سنة .

ثم ملك (ناشِر) بن عمرو ذى الأَذْعار، ويقال له ناشر ينعم، وربما قيل ناشر أنعم، سُمِّى بذلك لإنعامه عليهم . وقال السهيلىّ : ناشِرُ بن عمرو . ثم قال : ويقـال له ناشِر النِّعم . وقال المسـعودىّ ناشِر بن عَمْرو ذى الأذعار . وقيل ناشِر بن عمرو، ٱبن يعـفر، بن شُرَحْبِيلَ، بن عمرٍو ذى الأذعار، وسـار إلىٰ وادى الرمل بأقْصىٰ الغَرْب، فلم يجد وراءه مَذْهبا، فنصب صَنَمـا من نُحَاس، وزَبَر عليـه بالمُسْنَد "هذا الصنم لناشِر أنعم، ليس وراءه مَذْهَـب، فلا يتكلَّف أحد ذلك فيَعْطَب" .

ثم ملك بعده ٱبنه (شَمِر) مائة وستين سنة (١) . ويقال له شَمِر مَرْعَش، سمِّى بذلك لٱرتعاش كان به . وقال السهيلىّ : شَمِر بن مالك، ومالك هو الأُمْلُوك . ويقـال إنه وَطِئ أرض العراق وفارِس وخُرَاسان وٱفتتح مدائنَهـا، وخَرَّب مدينـة الصُّغْد وراءَ نهر جَيْحُون، فقالت العجم : شَمِر كَنْد أى شمر خَرَّب، وبنىٰ هناك مدينـة فسميت بذلك، ثم عُرِّبَتْ سَمَرْقَنْد . ويقال : إنه الذى بنىٰ الحِيرَةَ بالعراق . وملك بلاد الروم وٱستعمل عليها مَاهَانَ قَيْصَر .

---

(١) كذا فى "العبر" أيضا وفى "السبائك" ثلاثا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده (تُبَّعٌ الأَقْرن) ثلاثا وخمسين سنة ، وقيل ثلاثا وستين سنة وآسمه زيد ، قال المسعودىّ : وهو آبن شَمِر مَرْعَش ، وقال الطبرىّ : آبن عمرو ذى الأذعار . قال السهيلىّ : وسمى الأقرن لشامة كانت فى قَرْنه .

ثم ملك بعده آبنه (كُلَيْكَرِب) .

ثم ملك بعده (تبان) أسعد أبو كَرِب ، بن قيس ، بن زيد الأَقْرَن ، بن عمرو ذى الأذعار ، وهو تُبَّع الآخِر . ويقال له الرائد ، وكان على عهد يستاسف أحد ملوك الفُرْس الكَيَانية وحافده أردشير ، وملك اليمن والحجاز والعراق والشام ، وغزا بلاد الترك والتبَّت والصين ، ويقال : إنه ترك ببلاد التبت قوما من حمير ، هم بها إلى الآن ، وغزا القسطنطينية ومرَّ فى طريقه بالعراق فتحير قومه فبنى هناك مدينة سماها الحيرة ، وقد مرّ الكلام عليها مع العراق فى الكلام على مملكة إيران ، ويقال إنه أوّل من كسا الكعبة المُلَاء وجعل لبابها مفتاحا وأوصى وُلَاتها من جرهم بتطهيرها ودام ملكه ثلثمائة وعشرين سنة .

ثم ملك من بعده (رَبيعةُ) بن نصر ، بن الحارث ، بن نمارة ، بن لَخْم . ويقال ربيعة ، ابن نصر ، بن أبى حارثة ، بن عمرو ، بن عامر . وبعضهم يعكس فيقول نصر بن ربيعة ، ثم رأى رؤيا هالته فسار بأهله إلى العراق وأقام بالحيرة ، ومن عقبه كان النُّعْمان آبن المنذر ملك الحِيرة وهو النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدىّ بن ربيعة بن نصر .

ثم ملك بعده (حَسَّان ذو معاهر) بن تبان أسعد أبى كَرِب .

ثم ملك بعده أخوه (عمرو) بن تبان أسعد أبى كرب ويسمى الموثبان ثلاثا وستين سنة ، ومات عن أولاد صغار وأكبرهم قد آستهوته الجن ، فوثب على مُلْكِ التبابعة (عبد كلال) بن مثوب ، فملك أربعا وتسعين سنة وهو تُبَّع الأصغر ، وله مغاز وآثار بعيدة .

ثم ملك بعده اخوه لأمه (مَرْثَد) بن عبد كُلَال سبعا وثلاثين سنة .

[ثم ملك من بعده آبنه وَلِيعة بن مرثد] (١) .

ثم ملك بعده (أبرهةُ بن الصَّـباح) بن لَهِيعة ، بن شيبة ، بن مرثد ، بن نيف آبن مَنْدِى كرب ، بن عبد الله ، بن عمرو ، بن ذى أصبح الحارث ، بن مالك ، وقيل إنمـا ملك تِهَامَةَ فقط .

ثم ملك بعده (حَسَّان بن عمرو) بن تُبَّع ، بن كُلَيكَرِب سبعا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده (لُخَيْعَة) بن يَنُوف ذو شَنَاتِر سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده (ذو نُوَاس زُرْعَةُ) تُبَّع بن تبان أسـعد أبى كرب ثمـانين سـنة ، ويسمّى يُوسفَ ، وكان يَدِين باليهودية وحَمَل الناسَ عليه .

ثم ملك بعده (ذو جَدَن) وآسْمه عَلَس بن زيد ، بن الحارث ، بن زيد الجُمْهور . وقيل : عَلَس بن الحارث ، بن زيد ، بن الغوث ، بن سعد ، بن عَوْف ، بن عَدِىّ ، ابن مالك ، بن زيد الجُمْهور ، وهو آخِرُ ملوك اليمن من العَرَب . وقيل غيرُ ذلك من تقديم وتأخير وتبديل آسم بآسم .

وبالجملة فأخبار التَّبَابعة غيرُ مضبوطة ، وأمورهم غير محقَّقة . قال المسعودىّ : ولا يسـمّى أحدُ منهم تُبَّعًا حتى يملك اليمنَ والشِّحْر وحَضْرَموتَ ؛ على أن الطبرىّ قد ذكر أن المَلِك من ملوك اليمن لا يتجاوز مِخْلافَه ، وإن تجاوزه فبمسافة يسيرة .

---

(١) الزيادة من العبر .

الطبقة الرابعـــــة

(الحَبَشـــة)

وأوّل من ملك منهم (أرياط) بعثه صاحب الحبشة مقدّما على جيوشه حين تَهَوّدَ ذو نُوَاس وأحرق الإنْجِيلَ ؛ ففتح اليَمَن وٱستقرّ في ملكه .

ثم ملك بعده (أبرهةُ الأشرمُ) وهو صاحب الفِيل الذى جاء به لتخريب الكعبة .

ثم ملك بعده ٱبنه (يَكْسُومُ) .

ثم ملك بعده أخوه (مَسْروقٌ) وهو آخر ملوك اليمن من الحبشة .

الطبقة الخـامســـة

(الفُـــرْس)

وأوّلُ من ملك منهم (وَهْرَز) وذلك أن سَيْفَ بن ذى يَزَن، بن عابرَ، بن أَسْلُمُ، ٱبن زيد، بن غَوْث، بن سَعْد، بن عَوْف، بن عَدِىّ، بن مالك، بن زيد الجمهور الحِمْيرىّ ، ٱستجاش كِسْرىٰ أنُو شِرْوان : ملكَ الفُرْس علىٰ مسروق بن أبرهة آخر ملوك الحبشـــة باليمن فأسْعفه بجيش ، ففتح به اليمن وٱستنابه فيـه، فقتـله بعض من ٱستخلصه من الحَبَشة ، فولّى كسرىٰ(وَهْرَز)مكانَه وهلك، فأقام كسرىٰ مكانَهُ ٱبنه (المَرْزُبانَ) ثم هلك،فأقام مكانه (خذخُسْرَو) بن السيحان بن المَرْزُبان،ثم عزله وولى علىٰ اليمن (باذَانَ) فلم يزل به إلىٰ أن كانت البِعْثة فأسلم وفشا الإسلام باليمن ، وتتابعت الوفود منه علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

الطبقة السادســـة

(عُمَّـال النبيّ صلّى الله عليه وسلم والخُلفاء بعده)

لمـا أسلم (باذَانُ) نائبُ كسرىٰ، وَلَّاه النبيّ صلّى الله عليه وسلم علىٰ جميع مَخَاليف اليمن، وكان منزله بصنعاءَ : دارِ مملكة التبابعة، وبقي حتّى مات بعد حَجّة الوَدَاع، فولَّى النبيّ صلى الله عليه وسلم ٱبنه (شَهْر) بن باذانَ علىٰ صنعاء، وولّى علىٰ كل جهة واحدا من الصحابة رضوانُ الله عليهـم إلىٰ أن خرج (الأسودُ العَنْسِيُّ) فقتَـل شَهْرَ ٱبن باذانَ، وأخرج سائرَ عُمَّال النبيّ صلّى الله عليه وسلم من اليمن . فلما قُتِل العَنْسِيُّ رجع عُمَّال النبيّ صلّى الله عليـه وسلم إلىٰ أعمالهم، وٱستولىٰ (قيسُ بن عبدِ يَغُوثَ) المراديُّ علىٰ صنعاءَ، وتُوفِّيَ رسول الله صلّى الله عليه وسلم والأمرُ علىٰ ذلك .

ثم وَلّى أبو بكر الصدّيقُ رضي الله عنه (فيروزَ الدَّيْلَمِيَّ) .

ثم وَلّى بعده (المهاجِرَ) بن أبي أُمَيَّة ، و(عكرمةَ) بنَ أبي جهل، علىٰ قتال أهل الرِّدَّة، ثم ٱستقرّ اليمن في ولاية (يَعْلَى بن مُنَبِّه) .

ثم ولّى عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه في خلافته (عُبَيدَ الله) بن عباس، ثم أخاه (عبدَ الله) .

ثم ولّى معاويةُ علىٰ صنعاءَ (فَيْروزَ) الديلميَّ، ومات سنة ثلاث وخمسين من الهجرة .

ثم جعل عبدالملك بنُ مروان اليمنَ في ولاية الحَجّاج بن يوسف، حين بعثه لقتال ابن الزبير سنة ثنتين وسبعين .

ثم كان به (يوسف) بنُ عمرو سنة ثمان ومائة .

ثم لما جاءت دولة بنى العبّاس، ولّى السفّاحُ: أوّلُ خلفائهم على اليمن عَمَّه (داود) وتوفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فولّى مكانه (عمر) بن زيد، بن عبد الله، آبن عبد المَدَان، وتُوُفِّىَ سنة أربع وثلاثين ومائة، فولَّى السفاح مكانه (علىّ بن الربيع) آبن عبيد الله.

ثم فى سنة ثلاث وخمسين ومائة كان عليها (يزيد) بن منصور، ثم عزله المهدىّ فى خلافته، وولّى مكانه (رجاءَ بن رَوْح).

ثم ولّى بعده (علىَّ بن سليمان) ثم عزله سنة آثنتين وستين ومائة، وولى مكانه (عبد الله بن سليمان). ثم عزله سنة ثلاث وستين ومائة، وولى مكانه (منصور بن يزيد). ثم عزله فى سنة ست وستين ومائة، وولى مكانه (عبد الله بن سليمان الربعى). ثم ولى سليمان بن يزيد[1] ثانيا.

ثم ولّى الرشيد سنة أربع وثمانين ومائة حَمَّادا اليزيدى.

الطبقة السابعة

(ملوكُها من بنى زياد)

لم تزل نوابُ الخلفاء متواليةً على اليمن إلى أيام المأمون، فاضطرب أمرُ اليمن، فوجَّه المأمون إليه (محمدَ بنَ إبراهيم) بنِ عبيد الله، بن زِيادِ، بنِ أبيه، ففتح اليمن وملكه، وبنى مدينة زَبِيدَ فى سنة أربع ومائتين، وولّى مولاه جعفراً على الجبال، فعُرِفت بمخلاف جعفر إلى الآنَ.

ثم ملك اليمن بعده آبنه (إبراهيم) بن محمد [ثم آبنهُ[2] زياد بن إبراهيم].

---

(١) كذا فى الأصول ولم يسبق ذكر سليمان بن يزيد فى ولاتها فلعله من زيادة الناسخ وأن ثانيا راجع إلى عبد الله بن سليمان الخ كما يؤخذ من الكامل.

(٢) الزيادة عن "العبر وأبى الفداء" ليستقيم الكلام.

ثم ملك بعده أخوه (أبو الجَيْش) إسحاقُ بن إبراهيم وطالت مدّته، وتوفى سنة إحدىٰ وتسعين وثلثمائة، وخلَّف طفلا فتولت أخته هندٌ بنتُ أبى الجيش كَفَالته، وتولّى معها عبدٌ لأبى الجيش ٱسمه رشيد فبقى حتّى مات، فتولّى مكانه حسين بن سلامة (وسلامة ٱسم أمه) وصار وزيرًا لهند وأخيها حتى ماتا .

ثم مَلَّكوا عليهم طفلا ٱسمُه (إبراهيم) وقيل (عبد الله) بن زياد، وقام بأمره عَمّتُه وعبد من عبيد حُسَين بن سلامة ٱسمه (مَرْجانُ) ثم قبض (قيسٌ) عبد مَرْجانَ علىٰ الطفل وعمته فى سنة سبع وأربعمائة وٱستبدّ بالملك، ثم قُتِل قيس بزَبِيدَ .

وملك بعده (نَجاحُ) عبدُ مرجانَ أيضا وعظُم شأنه، وركب بالمِظَـلَّة وضُرِبت السكةُ باسمه، وبقى حتّى توفى سنة ٱثنتين وخمسين وأربعمائة .

وملك بعده ٱبنه (سَعِيد الأحول) بن نجاح .

ثم غلب علىٰ المُلْك الملكُ المكرَّم (أحمد بن علىّ الصُّلَيْحىّ) فى سنة إحدىٰ وثمانين وأربعمائة . وقيل سنة ثمـانين، وأقام بزبيد .

ثم ملكها (جيَّاش بن نَجَاح) فى بقايا سـنة إحدىٰ وثمـانين، ومات سنة ثمـان وتسعين وأربعمائة .

[ثم ملك بعده ٱبنه فاتك](١) ثم ملك بعده (منصور بنُ فاتِك) بن جَيَّاش بن نجاح .

ثم ملك بعده ٱبنه (فاتِك) بن منصور بن فاتك .

ثم ملك بعده ٱبنُ عمه (فاتِك بن محمد) بن فاتك، بن جَيَّاش، بن نَجَاحٍ فى سنة إحدىٰ وثلاثين وخَمْسِمائة، وقتل فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة . وهو آخر ملوك بَنِي نَجَـاحٍ .

---

(١) الزيادة من خطط المقريزى .

الطبقة الثامنة

(ملوكها من بنى مَهْدىّ)

لما قُتِل فاتك، ملك بعده (على بن مهدىّ) وآستقرّ فى دار المُلْك بزَبِيدَ فى رابع عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين وخَمْسِمائة ، ومات بعد شهرين وأحد وعشرين يوما ؛ وكان مذهبُه التكفيرَ بالمعاصى وقتلَ من خالف مذهبه .

ثم ملك بعده آبنه (مَهْدِى بن على) بن مهدىّ .

ثم ملك بعده آبنه (عبد النبي) بن مهدى .

ثم ملك بعده عمه(١) (عبد الله) بن مهدى .

ثم عاد (عبد النبي) ثانيا ، وهو آخرهم .

الطبقة التاسعة

(ملوكها من بنى أيوبَ ملوكِ مصر)

وأول من ملكها منهم (شمسُ الدولة تُورانْ شاه بن أيوب) سيَّره إليها أخوه السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" صاحب الديار المصرية فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، ففتح زَبِيدَ وأَسَرَ صاحبها (عبد النبي). ثم ملك عَدَن وأسر صاحبها (ياسر) وآستولى على اليمن لأخيه صلاح الدين، ثم آستناب تُوران شاه على زبيد حِطَّان بن كامل بن منقذ الكنانى ، ورجع إلى الشام فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، فأضاف إليه أخوه السلطان صلاح الدين الإسكندريةَ ، وبقيت نوّابه باليمن يحمِلون إليه الأموالَ من زَبِيدَ إلى أن تُوفِّىَ بالإسكندرية فى سنة ست وسبعين

(١) صوابه "أخوه" كما فى تاريخى أبى الفداء والقرمانى .

وخمسمائة ، فاضطرب أمرُ اليمن ، فوجّه السلطانُ صلاح الدين إليه أميرا ، فعزل عنه حطّانَ بن كامل وتولّىٰ مكانه ، ثم توفى الأمير فعاد حِطّانُ إلىٰ ولايته .

ثم بعث السـلطان صلاح الدين أخاه (سيف الإسلام طغتكين) بن أيوب إلىٰ اليمن فقبض علىٰ حطّان وآستقر فى مملكة اليمن ، و بقى به حتّى مات بزبيد فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

ثم ملك بعده آبنه (الملك العزيز إسماعيل) فأساء السيرة فقتله أمراؤه .

وملك بعده أخوه (الناصرُ) صغيرا ، فقام بتدبير مملكته سـنقر مملوكُ أبيه أربع سنين ثم مات ، فتزوّج أمَّ الناصر غازى بن جبريل : أحد أمراء دولتـه وقام بتدبيرها ، ثم مات الناصر و بقى (غازى) فى المملكة فقتـله جماعة من العرب ، فغلبتْ أم الناصر علىٰ زَبِيدَ .

وكان (سليمان بن شاهنشاه) بن المظفر تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب قد خرج فقيرا ، فاتفق أن وافى اليمنَ فتزوّج أمَّ الناصر وملك اليمن فأسـاء السـيرة ، فبعث إليه عمُّه الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ، آبنَه (الملك المسعود) أطسز المعروف بإقسيس ، فى جيش فملك اليمنَ من سليمان ، ثم كَرِه المُقامَ فيه فسار قاصدا الشام فتوفى بمكة ، وهو آخر ملوكها من بنى أيوب .

الطبقـــة العـاشرة

(دولة بنى رَسُول . وهم القائمون بها الان)

وأوّلُ من ملكها منهم علِىُّ بن رسول . وذلك أنه لما تُوُفِّىَ الملكُ المسعودُ أقْسيس ابن الملك الكامل محمد ، كان معه أميراخور لابيه اسمه رسول ، فلمـا خرج الملك

المسعود يريد الشام ، آستخلف على اليمن (علىّ بن رسول) المذكور ؛ فاستقر نائبا باليمن لبنى أيوب حتى مات سنة ثلاثين وستمائة ، ووقع فى "التعريف" : أن المستقر فى اليمن أوّلا هو رسولٌ والدُ علىّ المذكور، ولم أره فى تاريخ .

ثم آستقرّ بعد علىّ بن رسول المذكور فى النيابة ولدُه الملك المنصور (عُمَر آبن علىّ) . ثم تغلب على اليمن وخرج عن طاعة بنى أيُّوبَ ملوك مصر ، واستقلَّ بمُلْك اليمن ، وتلقب بالملك المنصور ؛ ثم قُتِل فى سنة ثمان وأربعين وستمائة .

وملك بعده آبنه الملك المظفَّر شمس الدين (يوسف بن عمر) بن على بن رسول ، وصَفَا له ملك اليمن وطالت مدّتُه ، وأرسل إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية حينئذ هديةً نفيسةً ، وسأل أن يكتُب له أمانا ، فقُبِلتْ هديته وكُتِب له بالأمان ، وقُرِّرتْ عليه إتاوةٌ لملوك مصر ، وأعيدت رُسُله فى سنة ثمانين وستمائة . ومات بقلعة تَعِزَّ سنة أربع وتسعين وستمائة .

وملك بعده آبنه الأشرفُ ممهِّد الدين (عمر بن المظفَّر يوسف) وبقِىَ حتَّى مات سنة ست وتسعين وستمائة .

ثم ملك بعده أخوه الملك المؤيد (هزبر الدين داود) وآستمرّ على مواصلة ملوك مصر بالهدايا والتُّحَف والضريبة المقرّرة عليه . وتَمَذْهب بمَذْهب الشافعى رضى الله عنه وآشتغل بالعلم وآعتنى بجمع الكتب ، حتّى آشتملت خزائنه على مائة ألف مجلَّد ، وبَرّ العلماءَ ، وكانت تُحَفُه تصل إلى الشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد رحمه الله فى كل وقت ؛ وتوفى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة .

وملك بعده آبنه الملك المجاهد (سيف الدين على) وكان فى الايام الناصرية

"محمد بن قلاوون" صاحبِ الديار المصرية ، فأساء السيرة ، فقُبِض عليه وخُلِع وحُبِس فى سنة ثنتين وعشرين وسبعمائة .

وملك بعده عمه الملك المنصور (أيوب بن المظفَّر يوسف) ثم قتله شِيعة المجاهد، وأعادوا الملكَ المجاهدَ . وكان الظاهر أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب بحصن الدُّمْلُوة المقدّم ذكره فعصىٰ عليـه ، وملك عَدَنَ وغيرها . وبعث الملك المجاهد للملك الناصر "محمدبنقلاوون" يستصرخه علىٰ الظاهر عبد الله . فجهز إليه العساكر فوصلت إليه ســنة خمس وعشرين وســبعمائة، فأوقعوا الصلح بينهما علىٰ أن تكون الدُّمْلوة للظاهر المذكور، وتَمهَّـد اليمنُ للمجاهد، وآستنزل الظاهرَ عن الدُّمْلُوة، ثم قبض عليه وقتـــله .

ثم حج المجـاهد سنة إحدىٰ وخمســين وسبعمائة فى أيام الملك "الناصر حسن" آبن محمد بن قلاوون صاحب مصر .

وكان الأمير طاز أحدُ أكابر أمراء الديار المصرية قد حج، وأُشِيعَ أن المجاهد يريد كسوة الكعبة فى تلك الســنة، فوقعت الفتنــة بين العسكر المصرىّ والمجاهد، فانهزم المجـاهد ونُهِبت عساكره وسائر أهل اليمن ، وأُسِر المجاهد صاحب اليمن وحُمِل إلىٰ مصر فاعتُقِل بها ، ثم أُطلِق سنة ثنتين وخمسين وسبعمائة فى دولة الصالح، ووُجِّه معه بالأمير قشتمر المنصورى ليوصله إلىٰ بلاده، فلما بلغ به اليَنْبُعَ ، آرتاب منه فى الهرب، فرجع به إلىٰ مصر ، فحُبِس فى الكَرَك[(1)] من بلاد الشام، ثم أُطْلِق وأُعيدَ إلىٰ مُلْكه، وأقام علىٰ مداراة صاحب مصر إلىٰ أن توفى سنة ست وستين وسبعمائة .

---

(١) عبارة "العبر" فرده وحبسه بالكرك .

وملك بعده ٱبنه الملك الأفضل (عباس) بن المجاهد علىّ، فاستقام له مُلْك اليمن وبقى حتى مات سنة ثمان وسبعين وسبعمائة .

وملك بعده ٱبنه الملك المنصور (محمد) ومات .

وملك أخوه الملك الأشرف (إسماعيل) بن الأفضل عباس، فاستقام أمره بها، ثم مات .

وولى بعده ٱبنه [1] وهو بن الأشرف إسماعيل، بن الأفضل عباس، ٱبن المجاهد على، بن المؤيد داود، بن المظفر يوسف، بن المنصور عمر، بن على، ٱبن رسول، وهو باق باليمن إلىٰ آخر سنة ٱثنتى عشرة وثمانمائة .

وله مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، يأتى ذكرها فى المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة السادسة

(فى ترتيب هذه المملكة علىٰ ماهى عليه فى زمن بنى رسول:
ملوكِها الآنَ : فى مقدار عساكرها، وزِىِّ جُنْدها، وبيان أرباب وظائفها، وحال سلطانها)

أما مقدار عساكرها . فقد قال فى "مسالك الأبصار" : أخبرنى أقضىٰ القُضَاة، أبو الربيع : سليمان بن محمد، بن الصدر سليمان (وكان قد توجه إلىٰ اليمن، وخدم فى ديوان الجيوش به) أن جميع جُنْد اليمن لا يبلغ ألفَىْ فارس . قال : وينضاف إليهم من العرب المدافعين فى طاعته مثلُهم، وأرانى جَرِيدةً للجيش تشهد بما قال .

---

(١) بياض فى الاصل .

وذكر أن غالب جُنْده من الغُرباء . ونَقَل عن الحكيم "صلاح الدين بن البرهان" أن الإمرة عنـدهم قد تُطْلَق علىٰ من ليس بأمير؛ وأما الإمرة الحقيقيـة التى ترفع بها الأعلام والكُـوسات ، فإنها لمَنْ قَلَّ؛ وربمـا أنه لا يتعدّى عدّةُ الأمراء بها عشرةَ نفر .

وأما زِىُّ السلطان والجُنْد بها ، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن لِبَاس السلطان وعامّةِ الجند باليمن أقْبِيةٌ إسلامية، ضَيِّقة الأكمام، مزَنَّدة علىٰ الأيدى ، وفى أوساطهم مَناطِقُ مشـدودةٌ، وعلىٰ رءوسهم تخـافيفُ لانس ، وفى أرجلهـم الدلاكسات، وهى أخفاف من القماش الحرير الأطلس والعَتَّابىّ وغير ذلك .

قال المقر الشهابىّ بن فضـل الله : وقد حضر علىّ بن عمر بن يوسف الشهابىّ : أحدُ أمراء الملك المجاهد باليمن إلىٰ الديار المصرية ، فى وحْشَـة حصلت بينه وبين سلطانه، وهو بهـذا الزّىّ خلا الدلاكس فإنه قلعـه ولبس الخُفّ المعتـاد بالديار المصرية؛ وكان يحضُر المَوْكب السلطانىّ بالديار المصرية، وهو علىٰ هذا الزّىّ .

وأما شـعار السلطنة ، فقد ذكر عن الحكيم بن البرهان أيضا أن شِـعَار سلطان اليمن وَرْدةٌ حمراء فى أرض بيضاء . قال المقر الشهابىّ بن فضـل الله : ورأيت انا السَّنْجق اليمنىّ ، وقد رُفع فى عَرَفات سـنة ثمـان وثلاثين وسبعمائة ، وهو أبيضُ فيه وردات حُمْر كثيرة .

وأما أرباب الوظائف ، فنقل عن ابن البرهان أن باليمن اربابَ وظائفَ : من النائب، والوزير، والحاجب ، وكاتب الجيش وديوانِ المـال . وبها وظائف الشادّ والولاية، وأنه يتشبه بالديار المصرية فى أكثر أحواله . قال : أما كُتّاب الإنشاء ثَمَّ ، فإنه لا يجمعهـم رئيس يرأس عليهم يقرأ ما يرد علىٰ السـلطان

ويُجاوب عنه ويتلقّى المراسيم وينفّذها، وإنما السلطان إذا دعتْ حاجته إلى كتابة كُتُب، بعث إلى كل منهم ما يكتبه . فإذا كتب السلطان ما رَسَم له به، بعثه على يد أحد الخِصْيان فقدّمه إليه، فيُعَلِّم فيه وينفّذه .

قال المقر الشهابيّ بن فضل الله : وعادةُ ما يُكْتَب عنه فى ديوان الإنشاء كعادة الديار المصرية فى المصطَلَح . قال : ورأيت علامة الملك المؤيَّد داودَ على توقيع مثالها "الشاكر لله على نعمائه" فى سطر، وتحته "داود" فى سطر آخر .

وأما ترتيب أحوال السلطان، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن صاحب اليمن قليلُ التصدّى لإقامة رسوم المَوَاكب والخدمة والاجتماع بولاة الأمور ببابه، فإذا احتاج أحد من أمرائه وجنده إلى مراجعته فى أمر، كتب إليه قصة يستأمره فيها، فيكتب عليها بخطه ما يراه؛ وكذلك إذا رُفِعت إليه قِصَص المظالم هو الذى يكتب عليها بخطه بما فيه إنصاف المظلوم .

ونقل عن ابن البرهان : أن ملوك اليمن أوقاتُهم مقصورةٌ على لَذّاتهم، والخلوة مع حَظَاياهم وخاصّتهم من النُّدَماء والمُطْرِبين، فلا يكاد السلطان يُرى، بل ولا يسمع أحد من أهل اليمن خبرا له على حقيقته، وأهلُ خاصّته المقرَّبون الخِصْيانُ؛ وله أرباب وظائفَ للوقوف بأموره؛ وهو ينحو فى أموره مَنْحَى صاحب مصر: يتسمَّع أخباره، ويحاول اقتفاء آثاره فى أحواله، وأوضاع دولته؛ غير أنه لا يصل إلى هذه الغايه، ولا تَخْفِق عليه تلك الرايه؛ لقصور مَدَد بلاده، وقلّة عَدَد أجناده؛ وللتُّجّار عندهم موضع جليل، لأن غالب متحصّلات اليمن منهم وبسببهم، وغالب دَخْله من التُّجّار والجَلّابة برًّا وبحرا . ولذلك كانت مملكة بنى رسول هذه أكثرَ مالا من مملكة الشُّرَفاء بصنعاء وما والاها المجاورة مملكة بنى رسول البحر .

وصاحب اليمن لاينزل فى أسفاره إلا فى قُصور مبنيَّةٍ له فى منازلَ معروفة من بلاده، فحيثُ أراد النزول بمنزلة وجد بها قصرا مبنيًّا ينزل به . قال : وإنما تجتمع لهم الأموال لقلة الكُلَف فى الخَرْج والمصاريف والتكاليف؛ ولأن الهند يُمِدُّهم بمراكبه، ويواصلهم ببضائعه .

قال فى "مسالك الأبصار" : ولا تزال ملوكُ اليمن تستجلب من مصر والشام طوائفَ من أرباب الصناعات والبضائع ببضائعهم على اختلافها . قال اقضى القضاة أبو الربيع سليمان بن الصدر سليمان : وصاحبُ هذه المملكة أبدا يَرْغَب فى الغُرَباء، ويُحْسِن تَلَقِّيَهم غاية الإحسان، ويستخدمهم بما يناسب كلًّا منهم، ويتفقَّدُهم فى كل وقت بما يأخُذُ به قلوبَهُم ويوطِّنُهم عنده .

وذكر فى "مسالك الأبصار" عن ملوك هذه المملكة : أنهم لم يزالوا مقصودين من آفاق الأرض، قَلَّ أن يبقى مُجِيدٌ فى صنعة من الصنائع إلا ويصنع لاحدهم شيئا على آسمه، ويُجيد فيه بحسب الطاقة، ثم يجهِّزه إليه ويقصده به فيقدّمه إليه، فيُقْبِل عليه ويَقْبَل منه، ويُحْسِن نُزُله، ويُسْنِي جائزته؛ ثم إن أقام فى بابه، أقام مُكْرَما محترَما، أو عاد محبُوّا محبورا؛ يجْزِلون من نِعَمهم العَطايا، ويُثْقِلون بكرمهم المَطَايا؛ ماقصدهم قاصد إلا وحصل له من البِرّ والإيناس وتنويع الكرامة مايُسْلِيهم عن الأوطان؛ ولكنهم لايسمَحون بعَوْدِ غريب، ولا يَصْفَحون فى زَلَلٍ عن بعيد ولا قريب؛ فإن أراد الآرتحالَ عن دارهم، مَكَّنُوه من العَوْد كما جاءهم؛ وخرج عنهم على أسوإ حال، مسلوبًا ما آستفاد عندهم من نعمة، عقابًا له على مفارقته لأبوابهم لابُخْلا بما جادُوا به . أما من قدّم إليهم القولَ بأنه أتاهم راحلًا

لامُقيما، وزائرا لامُستَديما، فإنهم لايُكَلِّفونه المُقامَ لديهم، ولا دواما فى النزول عليهم؛ بل يُجْزِلون إفادته، ويُجْمِلون إعادته .

ثم بعد أن ذكر مابين صاحب اليمن هذا وبين إمام الزَّيْدية باليمن من المشاجرة والمهادنة تارةً والمفاسخة أخرىٰ ، قال : وصاحبُ اليمن لاعدوَّ له ، لأنه محجوب ببحرٍ زاخر وبَرٍّ منقطِع من كل جهة ، وللمسالمة بينه وبينهم ، فهو لهذا قريرُ العين ، خالى البال، لايُهِمُّه إلا صيد، ولا يَهِيجه إلا بَلْبال . قال : وهم مع ذلك علىٰ شدّة ضبطٍ لبلادهم ومَنْ فيها ، وآحترازهم علىٰ طُرُقها بَرًّا وبحرا من كل جهة ، لا يخفىٰ عليهم داخل يدخل إليها، ولا خارج يخرُج منها؛ ومع ذلك فهو يُدارى صاحبَ مصر ويُهاديه، لمَكان إمكان تسلُّطه عليه من البر والبحر الحجازىّ؛ ولذلك آكتتب الملك "المؤيد داود" وصيةً أوصىٰ فيها الملك الناصرَ "محمد بن قلاوون" صاحب الديار المصرية علىٰ آبنه الملك المجاهد علىّ . فلما مات المؤيد نَجَم على آبنه المجاهد ناجِم ، فبعث بوصيةِ أبيه إلىٰ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فجهز معه عسكرا إلىٰ اليمن فمنعه من عدوّه الناجم عليه، ومكَّن له فى اليمن وبسط يَدَه فيه .

القسم الثانى
(من اليمن النُّجُود)

وهى ما آرتفع من الأرض؛ وبها مستَقَرّ أئمة الزيدية الآن .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى شديدة الحرّ، وقد آنطوىٰ فيها جُزْء من اليمن، وإن كان ما بيد أولاد رسول هو الجزء الوافرُ الأعظمُ .

وفيه أربع جمل :

الجمــــــــلة الأولىٰ

(فيما آشتملت عليه من النواحى، والمُدُن، والبلاد)

قال فى "مسالك الأبصار" حدّثنى الحكيم صـلاح الدين بن البرهان : أن اليمن منقسم إلىٰ قسـمين : سواحِلَ ، وجبالٍ ؛ وأن السواحل كلَّها لبنى رسول ، والجبـالَ كلَّها أو غالبهـا للأشراف . قال : وهى أقلُّ دَخْلا من السواحل : لمَدَد البحر لتلك وآتصالِ سبيلها عنـه ، وآنقطاع المَدَد عن هـذه البلاد لآنقطاع سبيلها من كل جهة .

قال : وحدّثنى أبو جعفر بنُ غانم : أن بلاد الشُّرَفاء هؤلاء متصلةٌ ببلاد السَّراة ، إلىٰ الطائف ، إلىٰ مكة المعظَّمة .

قال : وهى جبال شامخة ، ذاتُ عيون دافِقَة ومياهٍ جارية ، علىٰ قُرًى متصلة ، الواحدةُ إلىٰ جانب الأخرىٰ ؛ وليس لواحدة تعلق بالأخرىٰ بل لكل واحدة أهـلٌ يرجع أمرُهم إلىٰ كبيرهم ، لا يضمُّهم مُلْك ملِك ، ولا يجمعهم حُكْم سلطان ؛ ولا تخلو قرية منها من أشجار وعُرُوش ذوات فواكِهَ أكثرُها العنبُ واللوز ؛ ولهـا زروع أكثرها الشعير ، ولأهلها ماشية أعوزَتْها الزرائبُ ، وضاقت بها الحظائر .

قال : وأهلها أهلُ سـلامة وخير وتمسُّك بالشريعة ووقوفٍ معها ، يَعَضُّون علىٰ دينهم بالنَّواجِذ ، ويَقْرُون كلَّ مَنْ يمرّ بهم ، ويُضَيِّفُونه مدّةَ مقـامه حتّىٰ يفارقهم . وإذا ذَبَحوا لضـيفهم شاةً ، قدّموا له جميعَ لحمها ورأسَها وأكارعَها وكبدَها وقلْبَهـا وكَرِشَها ، فيأكل ويحمِلُ معه ما يحمِل . ولا يسافر أحد منهم من قرية إلىٰ أخرىٰ إلا برفيق يسترفِقُه منها فيخْفُره ، لوقوع العداوة بينهم .

ثم هى تشتمل علىٰ عدّة حصون وبلادٍ مُخْصِبة .

وقاعدتها مدينة (صَنْعاء) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الصاد المهملة وسكون النون وعين مهملة وألف ممدودة. وهى مدينة من نُجُود اليمن، واقعةٌ فى أوائل الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الاطوال" حيث الطولُ سبعٌ وستون درجة، والعرض أربعَ عشرةَ درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "الروض المعطار" : وآسمها الأوّل « أُوَال »(١) يعنى بضم الهمزة وفتح الواو من الأوّلية بلغتهم . فلما وافتْها الحبشة ونظروا إلى بنائها ، قالوا : هذه صنعة، ومعناه بلغتهم حصينة فسمِّيت صنعاءَ من يومئذ . قال : والنسبة إليها صَنْعانِىٌّ على غير قياس . ويقال : إنها أوّل مدينة بُنيتْ باليمن .

ثم اختلف : فقيل بناها سامُ بن نوح عليه السلام ؛ وذلك أنه طلب مكانا معتدلَ الحرارة والبُرودة فلم يجد ذلك إلا فى مكان صنعاءَ فبنى هذه المدينةَ هناك . وقيل بنَتْها عادٌ .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من اعظم مُدُن اليمن ؛ وبها اسواق ومتاجِرُ كثيرة؛ ولها شَبَه بدِمَشْق : لكثرة مياهها وأشجارها ؛ وهواؤها معتدل؛ وتتقارب فيها ساعات الشتاء والصيف؛ وفى أطول يوم فى السنة يكون الشاخصُ عند الآستواء لاظِلَّ له .

وقال فى موضع آخر : تُشْبِه بَعْلَبَكَّ فى الشام، لتَمامها الحَسَن وحُسْنِها التَّام؛ وكثرة الفواكه، تقع بها الأمطار والبَرَد . وهى كرسىُّ ملوك اليمن فى القديم ، ويقال إنها كانت دار ملك التَّبابعة . قال فى "الروض المعطار" : وهى على نهر صغير يأتى

(١) كذا فى "العبر" أيضا والذى فى معجم البلدان والقاموس فى مادة أزل أن آسم صنعاء "أزال" كسحاب أى بالزاى المعجمة فتأمل .

إليها من جبل فى شماليها، و يمرّ مُنْحَدِرا إلىٰ مدينة ذَمَار، ويصب فى البحر الهندىّ، وعِمارتُها متصلة؛ وليس فى بلاد اليمن أقدَمُ منها عمارةً، ولا أوسعُ منها قُطْرا .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وكانت فى القديم كرسىّ مملكة اليمن . قال : وبها تلٌّ عظيم يعـرف بغُمْدانَ، كان قصرا ينزِلُه ملوكُها . قال فى "الروض المِعْطار" : وهو أحد البيوت السبعة التى بُنِيت علىٰ آسم الكواكب السبعة، بناه الضَّحَّاك علىٰ آسم الزُّهَرة؛ وكانت الأمم تحُجُّه فهـدمه عثمانُ رضى الله عنـه فصار تلًّا عظيما . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى شرقِىَّ عدَنَ بشَمَال فى الجبال .

ولهـا عِدَّة بلاد وحصون مضافةٍ إليها، جاريةٍ فى أعمالها .

منهـا (كَحْلانُ) ـ بفتح الكاف وسكون الحـاء المهـملة ثم لام ألف ونون فى الآخر . وهى قلعة من عمل صنعاءَ علىٰ القرب منها . قال آبن سعيد : كان بها فى أوّل المـائة الرابعة بنو يَعْفُر من بقايا التبابعـة . قال : ولم يكن لهـا نَبَاهة فى المُلْك إلىٰ أن سكنها بنو الصُّلَيْحِىّ، وغلب عليهـا الزيديَّة، ثم السُّلَيْمانِيُّون بعد بنى الصُّلَيْحِىّ .

ومنها (نَجْرانُ) . قال فى "اللبـاب" : بفتح النون وسكون الجيم وراء مهملة وألف ونون فى الآخر . قال الأزهرى : وسميت بنَجْـرانَ بنِ زيد، بنِ سبإ، ابن يَشْجُب، بن يَعْرُب، بن قحطان . وهى بلدة من بلاد قبيـلة هَمْدانَ، واقعةٌ فى الإقليم الأوّل . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وستون درجة، والعرض تسعَ عشرةَ درجة .

قال فى "تقويم البُـلْدان" : وهى بُلَيْـدة فيها نخيل، بين عدَنَ وحَضْرموتَ، فى جبال بين قرًى ومدائنَ وعمـائرَ ومياهٍ؛ تشتمل علىٰ أحياءٍ من اليمن؛ وبها يُتَّخذ

الأَدَم ؛ وهى شرقىّ صنعاء بشَمال ؛ وبها أشجار، وبينها وبين صنعاء عشرُ مراحلَ، ومنهـا إلىٰ مكة عشرون يومًا فى طريق معتـدلٍ . وجعلها صاحب الكِمَام صُقْعا مفردا عن اليمن .

ومنها (صـعدةُ) . قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح الصـاد وسكون العين المهملتين ودال مهملة وهاء فى الآخر . قال فى "الروض المِعْطار" : والنسبة إليها صاعِدِىٌّ علىٰ غير قياس . قال فى "القانون" : وتسمى (غَيْلَ) أيضا . وهى بلدة علىٰ ستين فرسخا مـن صنعاء ؛ وموقعها فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ سبع وسـتون درجة وعشرون دقيقةً ، والعرضُ ستَّ عشرةَ درجة . قال فى "العزيزىّ" : وهى مدينة عامرة آهلة خِصْبة ، وبها مدابغ الأَدَمِ وجلودِ البقر، التى تُتَّخذ منها النِّعَال .

ومنها (خَيْوانُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الخـاء المعجمة وسـكون المثناة من تحت وفتح الواو، ثم ألف بعدها نون . وهى صُقْع معروف باليمن ، واقعٌ فى الإقليم الأوّل . قال فى "الأطوال" : حيث الطولُ سـبع وستونـ درجةً وإحدىٰ وعشرون دقيقة ، والعرض خمسَ عشرةَ درجة وعشرون دقيقـة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلاد تشتمل علىٰ قُرًى ومَزارعَ ومياه ، معمورةٌ بأهلها ، وبها أصـناف من قبائل اليمن . قال المهلبىّ : وهى طَرَف منازل بنى الضَّحَّاك من بنى يَعْفُر من بقايا التبابعـة ؛ وماؤها من السماء . قال الإدريسىّ : وبينهـا وبين صَعْدَةَ ستةَ عشرَ فرسخا . وقال المهلبىّ : بينهما أربعة وعشرون مِيلا .

ومنها (جُرَشُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الجيم وفتح الراء المهملة وشين [معجمة](١) فى الآخر . وهى بلدة باليمن ، موقعها فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة .

(١) الزيادة عن التقويم .

قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ سبع وستون درجةً وخمسون دقيقة ، والعرضُ سبعَ عشْرةَ درجة . وهى بلدة بها نَخيل ، مشـتملةٌ علىٰ أحياء من اليمن ، ويُتَّخذ بها الأَدَمُ الكثير . قال فى "العزيزى" : وهى بلدة صالحة ، وحولهـا من شجر القَرَظ مالا يُحْصىٰ ، وبها مَدَابغُ كثيرة . قال الإدريسىّ : وهى ومدينـة نَجْرانَ متقاربتانِ فى المقدار والعمارة ؛ ولهما مزارعُ وضياعٌ وبينهما ستُّ مراحل .

ومنها (مَأْرِبُ) . قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح الميم وهمزة ساكنة وراء مهملة مكسورة وفى آخرها باء موحدة . وذكر أنه رآها مكتوبةً فى الصحاح كذلك ؛ ثم قال : والمشهور فتح الهمزة ومدّها . وهى مدينة علىٰ ثلاثِ مراحلَ من صنعاءَ ، واقعةٌ فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ ثمـانٌ وستون درجة ، والعرضُ أربعَ عشْرةَ درجة . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وهى فى آخر جبَـال حَضْرَمَوْتَ ، ويقال لها مدينة سَبَإ ، تسميةً لهـا باسم بانيها ، وبها كان السَّدّ . قال : وكانت قاعدةَ التبابعة وهى اليومَ خرابٌ .

ومنها (حَضْرَموتَ) . قال فى "اللبـاب" : بفتح الحاء المهملة وسكون الضاد المعجمة وفتح الراء المهملة ، وبعـدها ميم مفتوحة وواو ساكنة وتاء مثناة من فوقها فى الآخر . وهى ناحية من نَوَاحى اليمن ؛ وأعمـالُها أعمـال عريضـةٌ ، ذاتُ شجر ونخل ومزارع .

قال الأزهرىّ : وسميت حَضْرَمَوْتَ بحاضر ، بن سـنان ، بن إبراهيم ، وكان أوّل مَنْ نزلهـا (١) .

(١) كذا فى تاريخ أبى الفدا أيضا . وفى معجم ياقوت "سميت بحاضرميت وهو أوّل من نزلها" .

قال صاحب "العبر" : وكانت بلادُ حضْرموْتَ لعادٍ مع البحريْنِ وعُمَانَ، ثم غلبهم عليها بنو يَعْرُب بنِ قحطانَ، حين ولّى أولادَه البلادَ أعطىٰ هذه ٱبنه حضرموتَ فعُرِفتْ به . والنسبة إليها حَضْرَمِىّ، وقصبتها مدينة "شِبَامَ" . قال فى "اللباب" : بكسر الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة وألف وميم، ووهم ٱبن الأثير فى "اللباب" (١) : فجعل شِبامَ قبيلةً لا بلدا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى خارجة عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلىٰ الجَنُوب . قال فى "الأطوال" : وهى حيثُ الطولُ إحدىٰ وسبعون درجةً، والعرضُ ٱثنتَا عشْرةَ درجة وثلاثون دقيقة، وهى قلعة فوق جبل منيع فيه قُرًى ومزارعُ كثيرةٌ . قال فى "العزيزى" : وفيه سُكّان كثيرة . قال : وفيه مَعْدن العَقِيق والجَزْع . وبينها وبين صنعاء أحدٌ وعشرون فرسخا، وقيل إحدىٰ عشرةَ مرحلةً، وبينها وبين ذَمارِ مرحلةٌ واحدة .

الجملة الثانية

(فى الطرق الموصلة إلىٰ هذه المملكة)

قد تقدّم أن الطريق من مصر إلىٰ مكة معروفة . قال ٱبن خرداذبه : ثم من مكة إلىٰ بئر ابن المرتفع؛ ثم إلىٰ قَرْن المَنَازل : قرية عظيمة، وهى ميقاتُ أهل اليمن للحَجّ منه يُحْرِمون؛ ثم إلىٰ الفُتُق : وهى قرية كبيرة؛ ثم إلىٰ صَقْر؛ ثم إلىٰ تُرَبةَ : وهى قرية كبيرة؛ ثم إلىٰ كُدَىّ، وفيها نخيل وعيون؛ ثم إلىٰ رَنْيةَ، وفيها نخيل وعيون أيضا؛ ثم إلىٰ تَبالةَ، وهى مدينة كبيرة فيها عيون جارية؛ ثم إلىٰ جَسَداءَ وفيها بئر ولا أهلَ فيها؛ ثم إلىٰ كشة، وهى قرية عظيمة فيها عيون وحَرْس؛ ثم إلىٰ

---

(١) عبارة "معجم البلدان" وغلط ٱبن الاثير فى تغليطه للسمعانى حيث قال شبام قبيلة وليست بمكان [فلعل لفظ فى اللباب من زيادة الناسخ] .

بِيشة يَقْطان ، وفيها ماءٌ ظاهر وكَرْم ، والحَرَس منها على ثلاثة أميال ؛ ثم إلى المَهْجَرة ، وهى قرية عظيمة فيها عيون وفيما بين سروم راح والمَهْجرة طَلْحة المَلِك : وهى شجرة عظيمة . وهناك حَدٌّ ما بين عَمَل مكة المشرّفة وعَمَل اليمن ؛ ثم منها إلى عَرِقة ، وماؤها قليل ولا أهْلَ فيها ؛ ثم إلى صَعْدَة ، وقد تقدّم ذكرها ؛ ثم إلى الأعْمَشيَّة ، وفيها عين صغيرة ولا أهْلَ فيها ؛ ثم إلى خَيْوانَ ، وقد تقدّم ذكرُها ؛ ثم إلى أثافت ، وهى مدينة فيها زرع وكَرْم وعيون ؛ ثم إلى مدينة صَنْعاءَ ، وهى قاعدة هذه المملكة على ماتقدّم .

الجمـــلة الثـالثة

(فيمَنْ ملك هذه المملكةَ إلى زماننا)

قد تقدّم فى الكلام على صنعاء أنها كانت قاعدةَ مُلْك التبابعة ، وقد مَرَّ القولُ عليهم فى الكلام على ملوك اليمن فى مملكة بنى رَسُول ، فى القسم الأوّل من اليمن .

أما حَضْرَمَوْتُ ، فقد قال علىّ بن عبد العزيز الجُرْجانى[1] : إنه كان لهم فى الجاهلية ملوكٌ يُقارِبون مُلوكَ التَّبابعة فى عُلُوّ الصِّيت ونَبَاهة الذِّكر . ثم قال : وقد ذكر جماعةٌ من العلماء أن أوّل من آنبسطت يَدُه منهم ، وآرتفع ذكره (عَمْرو بنُ الأَشنب) آبن رَبيعة ، بن يرام ، بن حَضْرمَوْتَ ؛ ثم خلفه آبنه (نَمِر الأَزَجّ) فملكهم مائة سنة ، وقاتل العمالقة .

ثم ملك بعده آبنه (كُرَيب ، ذو كراب) بن نمر الأزج مائة وثلاثا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده (مَرْثَد ذو مران) بن كُرَيْب مائة وأربعين سنة ؛ وكان يسكن مَأرِبَ ، ثم تحوّل إلى حَضْرمَوْتَ .

---

(١) نقل فى "العبر" ج ٢ ص ٣٠ هذه العبارة بزيادة فى الملوك وبعض تغيير فى أسمائهم فارجع اليه .

ثم ملك بعده ابنه (علقمة، ذوقيقان) بن مرثد ذى مرّان ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده ابنه (ذوعيل) بن ذى قيقان عشرين سنة . ثم تحوّل من حضرموت إلىٰ صنعاء واشتدّت وطأته . وهو أوّل من غزا الرُّوم من ملوك اليمن ، وأدخل الحرير والدِّيباجَ اليمن .

ثم ملك بعده ابنه (بدعيل بن ذى عيل) أربع سنين ، وبنىٰ بها حصونا وخَلَّف آثارا .

ثم ملك بعده ابنه (يدنو ذوحمار) بن بدعيل بحضرموت وبحر فارس، وكان فى أيام سابُورَ ذى الأكتاف من ملوك الفرس، ودام ملكه ثمانين سنة؛ وهو أوّل من اتخذ الحُجّابَ من ملوكهم .

ثم ملك بعده ابنه (ليَشْرَح) ذو المُلْك ، بن ودب، بن ذى حمار، بن عاد من بلاد حضرموت مِائةَ سنة، وهو أوّل من رتب المراتب، وأقام الحَرَس من ملوكهم .

ثم ملك بعده (ينعم) بن ذى الملك دثار بن جذيمة .

ثم ملك بعده (ساجى) بن نمر، وفى أيامه تغلبت الحبشةُ علىٰ اليمن، وقد مرّ القول علىٰ ملكهم ثم مُلْكِ الفُرْس بعدهم إلىٰ ظهور الإسلام فى الكلام علىٰ ملوك اليمن فى القسم الأوّل من اليمن؛ فأغنىٰ عن إعادته هنا .

وأما نَجْرانُ وجُرَشُ، فإنهما [كانا] بيَدِ جُرْهُم من القحطانية ؛ ثم غلبهم علىٰ ذلك بنو حِمْيَر، وصاروا وُلاةً للتبابعة؛ فكان كلُّ مَن ملك منهم يسمَّى أفْعىٰ . ومنهم كان الأفعىٰ الذى حكم بين أولاد نِزَارِ بن مَعَدّ بنِ عَدْنان فى قصتهم المشهورة .

ثم نزل نَجْرانَ بنو مَذْحِج، واستولَوْا عليها؛ ثم نزل فى جِوارهم الحارثُ بن كعب الأزدىّ فغلبهم عليها، وانتهت رياسة بنى الحارث فيها إلىٰ بنى الدَّيَّان؛ ثم صارت

إلىٰ بنى عبد المَدَان، إلىٰ أن كان منهم فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم يزيدُ، فأسلم علىٰ يد خالد بن الوليد رضى الله عنه .

وكان منهم زيادُ بن عبد الله بن عبد المَدَان خالُ السَّفَّاح، وَلَّاه نجرانَ واليمامةَ، وخلَّف ٱبنه محمدا ويحيىٰ ، ودخلت المـائة الرابعة والملك بهـا لبنى أبى الجُـود بن عبد المَدَان، وٱتصـل مجيئهم وكان آخِرُهم عبدَ القيس الذى أخذ علىٌّ بن مهـدىّ الملك من يده .

أما فى الإسلام، فقد تقـدّم فى الكلام علىٰ القسم الأوّل من اليمن أيضا أنه لَمَّا ظهر الإسلامُ أسـلم باذانُ نائبُ الفُرْس علىٰ اليمن، وتتابع أهـلُ اليمن فى الإسلام، وولَّى النبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ صنعاءَ شَهْرَ بنَ باذانَ المذكورِ، فلما خرج الأسود العَنْسىُّ، أخرجَ عُمَّال النبيّ صلى الله عليه وسلم من اليمن علىٰ ما تقدّم ، وزحف إلىٰ صنعاءَ فملكها وقتل شَهْرَ بن باذانَ وتزوّج ٱمرأته . فلما قُتِل العَنْسىُّ ورجع عُمَّـالُ النبيّ صلى الله عليـه وسلم إلىٰ اليمن ، ٱستبدَّ بصنعاء قيسُ بن عبد يَغُوثَ المرادىُّ ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأمر علىٰ ذلك .

ثم كانت خلافة أبى بكر رضى الله عنـه، فولّى علىٰ اليمن (فَيْروزَ الديْلَمِىَّ) ثم ولّى بعده (المُهَاجِرَبن أبى أُميَّة) . ثم توالت عُمَّال الخلفاء علىٰ اليمن علىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ القسم الأوّل من اليمن . ولم يزل الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أن كان أوّل المـائة الرابعة بعـد الهجرة أو ماقاربها ، فغلب علىٰ صنعاءَ وما والاها بنو يَعْفُر من بقايا التبابعة . قال ٱبن سعيد : وكان دارُ ملكهم كَحْلانَ، وهى قلعة من عمل صنعاءَ بالقرب منها، ولم أقف علىٰ تفاصيل أحوالهم وأسمـاء ملوكهم .

ثم كانت دولة أئمة الزيدية القـائمين بها إلىٰ الآنـــ ، وهم بنو القاسم الرَّسّىّ ،

ٱبن إبراهيم طباطبا، بن إسماعيل الديباج، بن عبد الله(١)، بن الحسن المثنّى، بن الحسن السبط، ٱبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وكان مبدأ أمرهم أن محمد بن إبراهيم طَبَاطَبا خرج بالكوفة فى خلافة المأمون، فى سنة تسع وتسعين ومائة ودعا إلىٰ نفسه، وكان شيعته من الزَّيْدِيَّة وغيرهم يقولون: إنه مستحِقٌّ للإمامة بالتوارث من آبائه عن جدّه إبراهيم الإمام، وغلب علىٰ كثير من بلاد العراق، ثم خَمَدتْ سَوْرَتُه، فتطلّب المأمون أخاه القاسم الرَّسّىّ فهرب إلىٰ الهند، ولم يزل به حتى هلك سنة خمس وأربعين ومائتين، فرجع ٱبنه الحسين بن القاسم الرسىّ بن إبراهيم طباطبا إلىٰ اليمن، فكان من عقبه هؤلاء الأئمة .

وأوّل من خرج منهم باليمن (يحيىٰ بن الحسين الزاهد) بن القاسم الرسىّ ودعا لنفسه بصَعْدَةَ وتلقّب بالهادى، وبويع بالإمامة سنة ثمان وثمانين ومائتين فى حياة أبيه الحسين، وجمع الشيعةَ وغيرهم وحارب إبراهيمَ بن يَعْفُر، ويقال أَسَد بن يعفر، القائمَ من أعقاب التبابعة بصنعاء وكحلان، وملك صنعاء ونجرانَ وضرب السكة باسمه .

قال فى "مسالك الأبصار": وٱستجاب الناسُ لندائه، وصلّوْا بصلاته وأمَّنُوا علىٰ دعائه، وقام فيهم مَقاما عظيما، وأثّر فيهم من الصلاح أثرا مشهودا . قال: وفى ذلك يقول:

بَنِى حَسَنٍ إنِّى نَهَضْتُ بثَأرِكُمْ * وثَأرِ كتابِ اللهِ والحَقِّ والسُّنَنْ
وَصَيَّرتُ نَفْسِى للحوادثِ عُرْضَةً * وغِبْتُ عن الإخْوانِ والأَهْلِ والوَطَنْ

ثم ٱرتجعهما بنو يَعْفُر منه ورجع هو إلىٰ صَعْدة، فتوفِّى بها سنة ثمان وتسعين ومائتين، لعشر سنين من بَيْعتِه . قال ٱبن المحاسب: وله مصنَّفات فى الحلال

(١) فى "كامل" ٱبن الاثير إبراهيم بدل عبد الله .

والحرام . وقال غيره، كان مجتهدًا فى الأحكام الشرعية؛ وله فى الفقه آراء غريبة ، وتآليفُ بين الشِّيعة مشهورة . قال ٱبن حزم : ولم يبعُد فى الفقه عن الجماعة كلَّ البعــد .

قال الصولىّ : ثم ولى بعده ٱبنه (محمد المرتضىٰ) وتمَّت له البَيْعــةُ ؛ فاضطرب الناس عليه . قال فى "أنساب الطالبيين" : وٱضْطُرَّ إلىٰ تجريد السـيف بجَرّده . وفى ذلك يقول :

كَدر الوِرْد علينا بالصَّدَر * فِعْلُ مَنْ بدّلَ حَقًّا أو كَفَرْ
أيُّها الأُمَّةُ عُودِى للهُدىٰ * ودَعِى عَنْكِ أحاديثَ البَشَرْ
عَدِمَتْنِى البِيضُ والسُّمْرُ معًا * وتَبَــدّلْتُ رُقادًا بسَــهَرْ
لأُجُرَّنَ علىٰ أعــدائِنا * نارَ حَرْبٍ بِضرام وَشَرَرْ

ومات سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة لثنتين وعشرين سنةً من ولايته .

وولى بعده أخوه (الناصر) فاستقام ملكه .

ثم ولى بعده ٱبنه (الحُسَين) المُنْتَجَب (بالجيم) ومات سنة أربع وعشرين وثلثمائة .

وولى بعده أخوه (القاسم المختارُ) بعهد من أخيــه المذكور، وقتله أبو القاسم بن الضحاك الهَمْدانىّ سنة أربع وأربعين وثلثمائة .

وولى بعده صَــعْدَةَ (جعفر الرشيد) ثم بعــده أخوه (المختار) ثم أخوه (الحسن المنتجب) ثم أخوه (محمد المهدىّ) .

قال "ٱبن المحاب" : ولم تزل إمامتهم بصَعْدَةَ مطردةً إلىٰ أن وقع الخلافُ بينهم وجاء السليمانيُّون أمراء مكة حين غلبة الهواشم عليهــم فغلبوا علىٰ صــعدة فى المـائة السادســة .

قال ٱبن سعيد : وقام بها منهم (أحمد بن حمزة) بن سليمان ، بن داود ، ٱبن عبد الله ، بن الحسن المثنّى ، بن الحسن السبط ؛ وغلب علىٰ زَبِيدَ وملكها من بنى مهدىّ ؛ ثم ٱنتزعها بنو مهدىٍّ منه ، وعاد إلىٰ صَعْدَة ومات .

فولِىَ بعده ٱبنه المنصور (عبد الله) بن أحمد بن حمزة ، وٱمتدّت يدُه مع الناصر لدين الله خليفة بنى العباس ببغداد ، وبعث دُعاتَهُ إلىٰ الدَّيْلم والجَبل ، فخُطب له بهما وأقيم له بهما وُلاة . وكان بينه وبين سيف الإسلام بن أيوب ، ثم الملك مسعود ابن الملك الكامل حروب باليمن . وبقِىَ حتى توفى سنة ثلاثين وستمائة عن عمر طويل .

وولى بعده ٱبنه (أحمد) بن المنصور عبد الله بن أحمد بن حمزة ، ولقب بالمتوكل صغيرا ولم يُخْطَبْ له بالإمامة لصغر سنه .

وكان بنو الرسىّ حين غلب عليهم السليمانيون بصَعْدَةَ أوَوْا إلىٰ جبل شرقىّ صَعْدَةَ ، فلم يبرحُوا عنه ، والخبر شائع بأن الأمر يرجع إليهم ، إلىٰ أن كان المتوكل أحمد من السليمانيين ، فبايع الزيديةُ أحمدَ الموطِّئ ، بن الحسين المنتجب ، بن أحمد الناصر ، بن يحيي الهادى ، بن الحسين ، بن القاسم الرسىّ ، بن إبراهيم طباطبا ، المقدّم ذكره فى سنة خمس وأربعين وستمائة .

وكان الموطِّئُ فقيها أديبا عالما بمذهبهم ، قوّاما صوّاما ، فأهَمَّ عمرَ بنَ علىّ بن رسول صاحبَ زبيد شأنُهُ ، فحاصره بحصن ملا سنةً فلم يصل إليه ؛ وتمكن أمر المَوطِّئ وملك عشرين حصنا ، وزحف إلىٰ صعْدَةَ فغلب السُّلَيمانيين عليها ، فنزل أحمدُ المتوكل : إمامُ السليمانيين إليه ، وبايعه فى سنة تسع وأربعين وستمائة ؛ وحج سنة خمسين وستمائة وبقِىَ أمرُ الزيدية بصَعْدَةَ فى عَقِبه .

وقد ذكر المقرّ الشهابيّ بن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أنه سأل تاج الدين عبد البـاقي اليمانيّ أحدَ كُتّاب اليمن عن تفاصيل أحوال هذه الأئمة فقال : إن أئمة الزيديين كثيرون، والمشهور منهم المؤيَّد بالله، والمنصور بالله، والمهديّ بالله، والمطَهَّر يحيي بن حمزة . قال : ويحيى بن حمزة هو الذى كان آخرا علىٰ عهد الملك المؤيَّد داود بن يوسف صاحب اليمن، وكانت الهدنُة تكون بينهما .

وذكر في "التعريف" أن الإمامة في زمانه كانت في بنى المطَهَّر . ثم قال : وآسم الإمام القائم في وقتنا حمزةُ . ثم قال : ويكون بينه وبين الملك الرسوليّ باليمن مُهادَنات ومُفـاسَخات تارةً وتارةً . قال قاضي القضاة وليّ الدين بن خلدون في تاريخه : وقد سمعت بمصر أن الإمام بصَعْدةَ كان قبل الثمـانين والسبعمائة عليّ آبنَ محمد من أعقابهم، وتوفي قبل الثمـانين، وولي آبنُه صَلَاح، وبايعه الزيديةُ . وكان بعضهم يقول فيـه : إنه ليس بإمامٍ لعدم آجتماع شروط الإمامة، فيقول : أنا لكم علىٰ ما شئتم : إمامٌ أو سلطان .

ثم مات صَلاحٌ آخر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، وقام بعده آبنه (نَجَاح) وآمتنع الزيدية من بيعته . فقال : أنا محتَسِب لله تعالىٰ .

قلت : وقد وهم في "التعريف" : فجعل هذه الأئمة من بقايا الحَسنِيين القائمين بآمُلِ الشَّطّ من بلاد طَبَرِسْتان، وأن القائم منهم بآمُل الشَّط بطبرستان هو الداعي المعروف بالعلَوىّ من الزيدية، وهو الحسن، بن زيد، بن محمد، بن إسماعيل، بن الحسن السبط، بن عليّ، بن أبي طالب رضي الله عنه . خرج سنة خمس وخمسين ومائتين أو مايقاربها، فملك طَبَرِستان وجُرْجان وسائر أعمـالها ثم مات؛ وقام أخوه (محمد بن زيد) مقامه . وكان لشيعته من الزيدية دولةٌ هناك، ثم آنقرضت وورثها

الناصر الأُطْروش ، وهو (الحسن) بن علىّ ، بن الحسين ، بن على ، بن عمر ، بن على زين العابدين ، بن الحسين السبط ، بن علىّ ، بن أبى طالب ، وكان له دولة هناك .

ثم خرج علىٰ الأُطروش من الزيدية الداعى الأصغَرُ ، وهو (الحسن) بن القاسم ، ٱبن على ، بن عبد الرحمن ، بن القاسم ، بن محمد البطحائى ، بن القاسم ، بن الحسن ، ٱبن زيد ، بن الحسن السبط ؛ وجرىٰ بينه وبين الأُطْروش حروبٌ إلىٰ أن قتل سنة تسع عشرة وثلثمائة ؛ ويجتمع الداعى الأصغر مع الداعى الأكبر فى الحسن ٱبن زيد ؛ وليس بنو الرسىّ الذين منهم أئمةُ اليمن من هؤلاء بوجهٍ .

الجملة الثالثة

(فى ترتيب مملكة هذا الإمام)

قال فى "التعريف" بعد أن ذكر إمام زمانه : وهذا الإمامُ وكلُّ من كان قبله علىٰ طريقة ما عَدَوْها ، وهى إمارة أعرابية ، لا كِبْرَ فى صدورها ، ولا شَمَمَ فى عَرَانِينها ؛ وهم علىٰ مُسْكة من التقوىٰ ، وتَردٍّ بشِعار الزُّهد ، يجلس فى نَدِىّ قومه كواحد منهم ، ويتحدّثُ فيهم ويحكم بينهم ، سواءٌ عنده المشروف والشَّريف ، والقوىّ والضعيف . قال : وربما ٱشترىٰ سِلْعته بيده ، ومشىٰ بها فى أسواق بَلَدِه ؛ لا يُغَلِّظ الحِجَاب ، ولا يَكِلُ الأمور إلىٰ الوزراء والحُجَّاب ؛ يأخذ من بيت المال قدرَ بُلْغته من غير توسُّع ، ولا تكثُّر [غير مشبع] (1) . هكذا هو وكل من سلف قبله ، مع عدلٍ شامل ، وفضلٍ كامل .

وذكر فى "مسالك الأبصار" عن تاج الدين عبد الباقى اليمانى الكاتب نحوَ ذلك ، فقال : وأئمتهم لا يُحْجَبون ولا يحتجبون ، ولا يَرَوْن التفخيم والتعظيم ؛ الإمام

---

(1) الزيادة عن التعريف .

كواحد من شيعته : فى مأكله ومشربه وملبسه، وقيامه وقعوده، وركوبه ونزوله، وعامّة أموره ؛ يجلس ويجالس ، ويعود المرضى ، ويصلّى بالناس وعلى الجنائز، ويشيّع الموتى، ويحضر دفن بعضهم . قال : ولشيعته فيه حسن اعتقاد، ويستشفون بدعائه، ويمرّون يده على مرضاهم، ويستسقون المطر به إذا أجدبوا، ويبالغون فى ذلك مبالغة عظيمة . قال "المقرّ الشهابىّ بن فضل الله" : ولا يكبر لإمامٍ هذه سيرته (فى التواضع لله وحسن المعاملة لخلقه، وهو من ذلك الأصل الطاهر، والعنصر الطيب) أن يجاب دعاؤه، ويتقبّل منه . وينادى ببلاد هذا الإمام فى الأذان "بحىَّ على خير العمل" بدل الحيعلتين، كما كان ينادى بذلك فى تأذين أهل مصر فى دولة الخلفاء الفاطميين بها . قال فى "التعريف" : وأمراء مكة تسرّ طاعته، ولا تفارق جماعته . قال ابن غانم : هذا الإمام يعتقد فى نفسه ويعتقد أشياعه فيه انه إمامٌ معصوم، مفترض الطاعه، تنعقد به عندهم الجمعة والجماعه؛ ويرون أنّ ملوك الارض وسلاطين الأقطار يلزمهم طاعته ومبايعته، حتى خلفاء بنى العباس؛ وأن جميع من مات منهم مات عاصيا بترك مبايعته ومتابعته . قال : وهم يزعمون ويزعم لهم أن سيكون لهم دولة يدال بها بين الأمم، وتملك منتهى الهمم؛ وأن الإمام الحجة المنتظر فى آخر الزمان منهم .

وذكر عن رسول هذا الإمام، الواصل إلى مصر : أن الأئمة فى هذا البيت أهل علم يتوارثونه : إمامٌ عن إمام، وقائمٌ عن قائم . وذكر عن بعض من مرّ بهم انه فارقهم فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وهم لا يشكّون أنه قد آن أوانُ ظهورهم، وحان حينُ ملكهم . ولهم رعايا تختلف إلى البلاد، وتجتمع بمن هو على رأيهم . يتربّصون ضعف الدولة فى أقطار الأرض .

وحكى "المقرّ الشهابى" بن فضل الله" عن قاضى القضاة كمال الدين محمد بن الزملكانى قاضى حلب : أنه مات رجلٌ من شيعتهم بحلب ، فُوجِد عنده صُنْدوقان ، ضِمْنهما كتبٌ من أئمة هذه البلاد إلىٰ ذلك الرجل وإلىٰ سَلَفه ، يستعرفون فيها الاخبارَ ، وأحوالَ الشِّيعة ، والسؤالَ عن أُنَاس منهم ؛ وأن فى بعضها : ولا يؤخّر مددُ من هنا من إخوانكم المؤمنين فى هـذه البلاد الشاسعة ، وهو حق لله فيـه تزكية أموالكم ، ومَدَدُ إخوانكم من الضعفاء وآتقوا الله و ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ .

ونَقَـل عن الشيخ شهاب الدين بن غانم : أنه حدّثه عنـد وُصوله من اليمن أنّ هذا الإمامَ فى مَنَعة مَنِيعه ، وذِرْوة رفيعه ؛ وأنه يَرْكب فى نحو ثلاثة آلاف فارس ، وأن عسكره من الرجّالة ، خلق لاجسم . وذكر عمن أقام عندهم : أنهم أهل نَجْدة وبأْس ، وشجاعة ورأى ؛ غير أنـ عددهم قليل ، وسِلاحهم ليس بكثير : لِضيق أيديهم ، وقِلّة دَخْل بلادهم . ونقل عن تاج الدين عبد الباقى اليمنى : أن قومه معه علىٰ الطّواعيَة والآنقياد ، لا يخرج أحد منهم له عن نَصٍّ ، ولا يشاركه فيما يتميَّز به .

قال آبن غانم : وزِىّ هـذا الإمام وأتباعه زِىُّ العرب فى لبـاسهم والعمامـة والحَنَك ؛ بخلاف ما تقـدّم من زِىّ صـاحب اليمن من بنى رسول . قال الشيخ شهاب الدين بن غانم : وهـذا الإمام لا يزال صاحبُ اليمن يَرْعىٰ جانبَه ، وفى كل وقت تُعْقَد بينهما العُقُود ، وتكْتَبُ الهُدَن ، وتُوثَّق المواثيق ، وتُشْتَرط الشروط .

قال فى "التعريف" : وقد وصل إلينا بمصر فى الأيام الناصرية (سقىٰ الله تعالىٰ عهدها) رسولٌ من هذا الإمام بكتاب اطال فيه الشكوىٰ من صاحب اليمن ، وعدّد قبـائحه ، ونَشَر علىٰ عيون النـاس فضائحه ؛ وآستنصر بمَـدَدٍ يأتى تحت الأعلام

المنصورة لإجلائه عن دياره، وإجرائه مُجْرىٰ الذين ظلموا فى تعجيل دَمَارِه .
وقال : إنه إذا حضَرت الجُيوشُ المؤيَّدة قام مَعَها، وقادَ إليها الأشرافَ والعربَ أجمعَها؛ ثم إذا آستنقذ منه ما بيده أُنْعِم عليه ببعضه، وأُعطِى منه ما هو إلىٰ جانب أرضه . قال : فكتبتُ إليه مؤْذِنا بالإجابه، مؤدِّيا إليه مايقتضى إعجابه؛ وضمن الجواب أنه لا رغبة لنا فى السَّلَب، وأن النُّصْرة تكون لله خالصةً وله كلُّ البلاد لاقدْرُ ما طلب .

وسيأتى ذكر المكاتبة إلىٰ هذا الإمام عن الأبواب السلطانية، فى الكلام علىٰ المكاتبات، فى المقالة الرابعة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

القُطْــــر الثـانى

(ممـا هو خارج من جزيرة العرب عن مُضافات الديار المصرية
"بلادُ البحرين" تثنية بحر)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وفتح الراء المهملة وسكون المثناة من تحت ثم نون . وهى قطعة من جزيرة العرب المذكورة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى ناحيـة من نواحى نَجْـد، علىٰ شَطِّ بحر فارس؛ ولهـا قُرًى كثيرة . قال : وهى (هَجَرُ) ونهايتُها الشرقيةُ الشمالية قال فى "الأطوال" ونهايتها من الشمال فى الإقليم الثـانى حيث الطولُ أربع وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرضُ خمسٌ وعشرون درجةً وخمس وأربعون دقيقة .

قال فى "المشـترك" : ويقال للبحرين هَجَرُ أيضا ـ بفتح الهـاء والجيم ثم راء مهملة وليست هَجَرُ مدينـةً بعينها . قال الأزهرىّ : وإنمـا سمِّيت هَجَرُ بالبحرَيْن بِبُحَيْرة بهـا عند الاحساء وبالبحر المِلْح يعنى بحر فارس، والنسـبة إلىٰ البحرين

بَحْرانِىّ . قال الجوهرىّ : والنسبة إلىٰ هَجَر هاجِرِىّ على غير قياس . قال الأزهرىّ : وسميت هجر بهَجَر بنت المكنف ، وهى التى بنَتْها .

وفيها ثلاث جمل :

الجملة الأولى

(فيما تشتمل عليه من المُدُن)

وقاعدتها (عُمَانُ) قال فى "اللباب" : بضم العين المهملة وفتح الميم ونون فى الآخر بعد الألف . قال الأزهرىّ : وسميت بعُمَانَ بنِ نعسان بن إبراهيم (١) عليه السلام ، وموقعها فى الإقليم الأوّل . قال : وهى علىٰ البحر تحت البَصْرة . قال المهلبىّ : وهى مدينة جليلة ، بها مَرْسىٰ السُّفُن من السِّنْد والهند والزَّنْج ، وليس علىٰ بحر فارس مدينةٌ أجلُّ منها ، وأعمالها نحو ثلثِمائة فرسخ . قال : وهى ديار الأَزْد قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة كثيرة النخيل والفَوَاكه ، ولكنها حارّة جِدًّا . وكانت القَصَبة فى القديم مدينةَ صُحَارَ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الصاد وفتح الحاء المهملتين كما فى الصحاح . قال : وهى اليوم خَرَاب .

وبها بلاد أخرىٰ غير ذلك .

منها (الأَحْساء) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح السين المهملتين وألفٍ فى الآخر . قال فى "المشترك" : والأحساءُ جمع حِسْى ، وهو رمل يَغُوص فيه الماءُ ، حتّى إذا صار إلىٰ صَلَابة الأرض أمسَكَته فتَحْفِر عنه العرب وتستخْرِجه . وموقعها فى أوائل الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيث الطولُ ثلاثٌ وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ،

(١) فى معجم ياقوت "يفثان" وفى "العبر" سميت بعمان بن قحطان أوّل من نزلها بولاية أخيه يعرب .

والعَرْضُ اثنتان وعشرون درجة . قال فى "تقويم البُـلْدان" : ذاتُ نخيل كثير، ومياهٍ جارية، ومَنابِعُها حارَّة شديدةُ الحَرَارة، ونخيلُها بقدر غُوطةِ دِمَشْق، وهو مستدير عليها، وهى فى البرية، فى الغرب عن القَطِيف بمَيْلة إلىٰ الجنوب، علىٰ مرحلتين منها . قال : وتعرف بأَحْساءِ بنى سَعْد .

ومنها (القَطِيف) . قال فى "اللباب": بفتح القاف وكسر الطاء المهملة وسكون المثناة من تحت وفاء فى الآخر. وهى بلدة علىٰ مرحلتين من الأَحْساء من جهة الشَّرق والشَّمال، واقعــة فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيثُ الطولُ ثلاث وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة، والعرض اثنتان وعشرون درجة وخمسٌ وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى علىٰ شَطِّ بحر فارس، وبها مَغَاصُ لُؤْلؤٍ، وبهـا نخيل دون نخيل الأحْساء . قال : وعن بعض أهلها أن لها سورا وخَنْدقا ولهـا أربعة أبواب ، والبحر إذا مَدَّ يصل إلىٰ سُورِها وإذا جَزَر ينكشف بعضُ الأرض ؛ وهى أكبر من الأَحْساء . قال : ولهـا خَوْر فى البحر تدخل فيه المراكبُ الكبار المُوسَــقَة فى حالة المَدّ والجَزْر ، وبينها وبين البصرة ستة أيام، وبينها وبين عُمَان مسيرةُ شهر .

ومنهـا (كاظِمةُ) . قال فى "تقويم البُـلْدان" : بكاف وألف وظاء معجمة مكسورة وميم وهاء . قال : وهى جَوْن علىٰ ساحل البحر، بين البصرة والقَطِيف، فى سَمْت الجَنُوب عن البصرة، وبينها وبين البصرة مسيرةُ يومين ، وبينها وبين القَطيف أربعةُ أيام .

الجملة الثانية

(فى ذكر ملوكها)

قد ذكر صاحب "العبر": أنها كانت فى القديم لعادٍ مع حَضْرَمَوْتَ والشِّحر وما والاهما، ثم غلب عليها بعد ذلك بنو يَعْرُبَ بنِ قحطان .

الجملة الثالثة

(فى الطريق الموصِّل إليها)

قد تقدّم فى الكلام على مملكة إيران الطريقُ من مملكة مصر إلى البَصْرة .
قال ٱبن خُرْداذْبه(١) : ثم من البصرة إلى عَبَّادان، ثم إلى الحدوثة ، ثم إلى عَرْفَجاء، ثم إلى الزَّابُوقة، ثم إلى المَغْز، ثم إلى عَصا ، ثم إلى المُعَرَّس ، ثم إلى خُلَيْجَة، ثم إلى حَسَّان، ثم إلى القُرى، ثم إلى مُسَيْلِحة، ثم إلى حَمَض، ثم إلى ساحل هَجَر ، ثم إلى العُقَير ، ثم إلى القَطَن، ثم إلى السَّبخة، ثم إلى عُمَان .

وذكر لها طريقا أخرى من مكة إليها على الساحل : وهى من مكة ، إلى جُدّة، إلى مَنزل، ثم إلى الشُّعيبة، ثم إلى المَرجاب ، ثم إلى أغيار، ثم إلى السِّرَّيْن، ثم إلى مَرْسى حَلْى، ثم إلى مَرْسى ضَنْكان، ثم إلى سِجّين، ثم إلى مِخْلاف الحَكَم، ثم إلى الجَوْدة، ثم إلى مِخْلاف عَكّ، ثم إلى غَلافِقة، ثم إلى مِخْلاف زَبِيد، ثم إلى المَنْدَب، ثم إلى مِخْلاف الرَّكْب ، ثم إلى المنجلة ، ثم إلى مِخلاف بنى مَجِيد، ثم إلى مَغَاص اللُّؤْلؤ، ثم إلى عَدَنَ، ثم إلى مخلاف لَحْج، ثم إلى قرية عبد الله بن مَذْحِج، ثم إلى مِخْلاف كِنْدَة، ثم إلى الشِّحْر، ثم إلى ساحل هَماه، ثم إلى عَوْكَلان، ثم إلى فرق، ثم إلى عُمَان . وهى طريق بعيدة .

---

(١) لم تتفق نسخ "ٱبن خرداذبه" فى بعض الأماكن فعوّلنا فى كثير منها على الأصل .

ولعَرَبها مكاتَبات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، على ما سيأتى ذكره فى الكلام على المكاتَبَات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

القُطْـــــر الثـالث

(ممـا هو خارج من جزيرة العرب عن مُضَافات الديار المصرية "اليَمَـامَةُ")

قال فى " تقويم البُـلْدان " : بفتح المثنَّاة من تحت والميم وألف وميم وهاء فى الآخر . وهى قِطْعة من جزيرة العرب من الحجاز، وعليه جرى الفقهاءُ فحَكَمُوا بتحريم مُقَام الكُفْر بها كما بسائر أقطار الحِجاز؛ وهى فى سَمْت الشرق عن مكة المُشَرَّفة . قال البيهقى : وهى مُلْك منقطِع بعمله؛ ويَحُدّها من جهة الشرق البَحْرَيْن، ومن الغرب أطرافُ اليمن والحِجاز، ومن الجَنُوب نَجْرانُ من نواحى اليَمَن، ومن الشَّمال نَجْد والحِجاز؛ وأرضها تسمَّى العَرُوض : لاعتراضها بين الحِجاز والبحرين؛ وطولُها عشرون مرحلةً . وهى فى جهة الغرب عن القَطِيف، وبينهما نحو أربع مراحلَ، وبينها وبين مكة أربعةُ أيام . وسمِّيت اليمامةَ باسم امرأة : وهى اليمامَةُ بنتُ سَهْم بن طَسْم، كانت تَنْزِلهـا إلى أن قتلها عبدُ كُلَال وصلبها على بابها فسميت بهـا، سَمَّاها بذلك تُبَّع الآخِر . قال فى " تقويم البُلْدان " : وكان اسمها فى القديم جَوّا بفتح الجيم وسكون الواو(١) . قال فى " تقويم البُلْدان " : وهى عن البصرة على ستَّ عشْرةَ مرحلة، وعن الكُوفة مثل ذلك . قال فى " تقويم البُلْدان " : وبهـا من القُرْب عينُ ماء متَّسِعةٌ وماؤها سارحٌ، وذكر أنها [أكثرُ نخيلا من](٢) سائر الحجاز،

(١) لعل الصواب وشدّ الواو .

(٢) بياض فى الأصل والتصحيح من التقويم .

ثم نقل عمن رآها فى زمانه أن بها آبارا وقليلَ نخْل، وكأنه حكىٰ ... ...(١) عما كانت عليه فى القِدَم؛ وبها واد يسمّى – الخَرْج – بخاء معجمة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وجيم فى الآخر، كما هو مضبوط فى الصِّحاح .

وفيها ثلاث جُمَل :

الجمـــلة الاولىٰ

(فيما آشتملت عليـــه من البُلْدانـ)

قد ذكر فى "تقويم البُلْدان" عمن أخبره ممن رآها فى زمانه أن بها عِدّةَ قُرًى : وبهـا الحنطةُ والشعير كثير . وقاعدتُها دونَ مدينة النبيّ صلى الله عليه وسلم، واقعةٌ فى أوائل الإقليم الثانى . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ إحدىٰ وسبعون درجةً وخمس وأربعون دقيقةً، والعَرْضُ إحدىٰ وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً .

ومن بلادها (حَجْر) قال فى "المشترك" : بفتح الحـاء المهملة وسكون الجيم وراء مهملة فى الآخر . وهى فى الغَرْب عن مدينة اليمـامة، علىٰ مرحلتين منهـا، وبعضهم يجعلها قاعدةَ اليمـامة . وموقعها فى أوائل الإقليم الثـانى . قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أنهـا حيث الطولُ إحدىٰ وسـبعون درجةً وعَشْرُ دقائق، والعرض آثنتان وعشرون درجة . قال : وبهـا قبورُ الشُّهَداء الذين قُتِلوا فى حرب مُسَيْلِمَةَ الكَذّابِ .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله حكى ذلك معبرا عما الخ .

الجمـــلة الثـانيـــة

(فى ذكر ملوكها)

قال صاحب "العبر" : كانت هى والطائف بيد بنى هزّان بن يَعْفُر بن السَّكْسَك ، إلىٰ ان غلبهم عليها (طَسْم) . ثم غَلَبهم عليهـا (جَدِيس) ، ومنهم زرقاءُ اليمـامة . ثم ٱستولىٰ عليها (بنو حَنِيفة) وكان منهم هَوْذَةُ بن علىّ ، وهو الذى كتب إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم يَدْعُوه إلى الإسلام . ثم ملكها من بنى حنيفة (ثُمـامةُ) بن أُثَال علىٰ عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأُسِر ثم أسلم . ثم كان بها منهم (مسيْلمة الكَذّاب) زَمَنَ أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه وقُتِل فى حرب المسلمين معه .

وكان لبنى (الأُخَيْضِر) من الطالبيين بها دولةٌ .

وأوّل من ملكها منهم (محمد بن الأُخَيْضِر) بن يوسف ، بن إبراهيم ، بن موسىٰ الجَوْن ، بن عبد الله ، بن الحسن المُثَنّى ، بن الحسن السِّبْط ، ٱبن أمير المؤمنين علىّ ٱبن أبى طالب رضى الله عنه . وكان ٱستيلاؤه عليها أيامَ المستعين الخليفة العبَّاسىّ . ثم ملكها بعده ٱبنه (يوسف) ثم (ٱبنه الحسن) ثم ٱبنه (أحمد) ولم يزل مُلْكُها فيهم إلىٰ أن غلب عليهم القرامطةُ علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ بلاد البحْرَيْنِ .

قال ٱبن سعيد : وسألت عرب البحرين فى سنة (١) ، لمَن اليمـامةُ اليوم؟ فقالوا لعرب من قيس عَيْلان وليس لبنى حنيفة بهـا ذكر .

قلت : ولم أَقِفْ لعربها علىٰ ذكر فى المكاتبات السلطانية بالديار المصرية .

---

(١) فى " العبر " بدل قوله فى سنة "وبعض مذحج" .

الجملة الثالثة
(فى الطريق الموصل إليها)

قد تقدّم أنها فى جهة الشرق عن مكة، وأنَّ بينهما أربعةَ ايام، وطريق مكة معروف على ما تقدّم .

أما ماذكره ٱبن خُرْداذبه من طريقها على البصرة ـ فمن البصرة إلى المَنْجَشَانية (١)، ثم إلى الكُفَير، ثم إلى الرُّحَيْل، ثم إلى الشَّجِى، ثم إلى الحَفَر، ثم إلى ماويَّة، ثم إلى ذات العُشَر، ثم إلى اليَنْسوعة، ثم إلى السُّمَيْنة، ثم إلى النِّبَاج، ثم إلى العُمُومية، ثم إلى القَرْيتين، ثم إلى سُوَيقةَ، ثم إلى صداة، ثم إلى السُّد، ثم إلى السق، ثم إلى المنبية، ثم إلى السَّفْح، ثم إلى المريقة، ثم إلى اليمَامة، والبصرة قد تقدّم أكثر الطريق إليها فى الكلام على مملكة إيران .

القُطْر الرابع
(مملكة الهِنْد ومُضَافاتها)

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مملكة عظيمة الشأن، لاتُقَاس فى الأرض بمملكة سواها : لاتساع أقطارها، وكثرة أموالها وعساكرها، وأُبَّهة سلطانها فى رُكُوبه ونُزُوله، ودَسْت مُلْكه، وفى صِيتها وسُمْعتها كفايةٌ . ثم قال : ولقد كنت أسمَعُ من الأخبار الطائحةِ والكُتُب المصنَّفة مايملأ العين والسمع، وكنت لاأقِفُ على حقيقة أخبارها لبُعْدها منا، وتَنَائِى ديارها عنَّا، ثم تَتَبَّعت ذلك من الرُّواة، فوجدت أكثَرَ مما كنت أسمع، وأجلَّ مما كنت أظُنُّ . وحَسْبُك ببلاد فى بحرها الدُّرّ، وفى برّها الذَّهَب، وفى جبالها الياقُوت والمَاس، وفى شعابها العُود والكافُور،

---

(١) اختلفت نسخ "ٱبن خرداذبه" فى أسماء البلدان فأثبتها طابعه فى هامشه ولكنا عوّلنا فى الكثير على مافى الأصل .

وفى مُدُنها أَسِرّة الملوك ، ومن وُحُوشها الفيـلُ والكَرْكَدّن ، ومن حديدها سُيوفُ الهند ؛ وأسعارها رَخِيَّة، وعساكرها لاتُعَدّ، وممالكها لاتُحَدّ، ولأهلها الحِكْمة ووُفورُ العقل، وهم أملَكُ الأمم لشَهَواتِهم، وأبذَلُهم للنفوس فيما يُظَن به الزُّلْفى .

قال : وقـد وصف محمد بن عبـد الرحيم الاقليشى هـذه المملكة فى كتابه "تحفة الألبـاب" فقال : المُلْك العظيم ، والعَـدْل الكثير ، والنعمة الجزيلةُ ، والسِّياسة الحَسَـنة ، والرضا الدائم ، والأَمْنُ الذى لاخَوفَ معـه فى بلاد الهِنْـد . وأهلُ الهنـد أعلَمُ النـاس بأنواع الحكمة والطِّب والهَنْدسة والصِّناعات العجيبة . ثم قال : وفى جبـالهم وجزائرهم ينْبُت شجرُ العُود والكافُور وجميع أنواع الطِّيب : كالقَرَنْفُل والسُّـنْبُل والدارصِينِى ، والقِرْفة ، والسَّـليخة ، والقاتلة ، والكَبَابة ، والبَسْباسة، وأنواع العقاقير . وعندهم غَزال المِسْك وسِنَّور الزَّبَاد؛ هذا مع ماهذه المملكة عليه من ٱتساع الأقطار، وتباعد الأرجاء، وتنائى الجَوَانب .

فقد حكى فى "مسالك الأبصـار" : عن الشيخ مبارَك بن محمود الأنْبَاتِى : أن عَرْض هذه المملكة مابين سُومنات وسَرَنْديب إلى غَزْنة، وطُولهـا من الفُرْضة المقابلة لعَدَن إلى سَـدّ الإسكندر عند مَخْرَج البحر الهندىّ من البحر المحيط ، وأن مسافة ذلك ثلاثُ سنين فى مثلها بالسـير المعتاد ، كلُّها متصلة المُدُن ذوات المنـابر والأسِرَّة، والأعمـال، والقُرى، والضِّياع ، والرَّسَاتيق ، والأسواق؛ لا يفصِل بينها خراب . بعد أن ذكر عنه أنه ثِقة ثبْت عارِفٌ بما يحكيه إلا أنه ٱستبعد هـذا المِقْدار، وقال : إن جميع المعمور لايَفِى بهذه المسافة، اللهم إلا أن يُريد أن هذه مسافةُ من يتَنَقَّل فيها حتى يحيطَ بجميعها مكانًا مكانًا، فيحتمل على مافيه .

وفيه إحدى عشرةَ جملةً :

الجملة الأولى

(فيما آشتملت عليه هذه المملكة من الأقاليم)

وتحتوى هذه المملكة على إقليمين عظيمين :

الإقليم الأوّل

(إقليم السِّنْد وما آنخرط فى سلكه من مُكْران، وطُوران، والبُدْهة، وبلاد [القُفْس] والبَلُوص)

فأما السِّند، فبكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة فى الآخر. قال آبن حوقل : ويُحيط به من جهة الغَرْب حدودُ كَرْمان، وتمامُ الحدّ مفازةُ سِجِسْتان؛ ومن جهة الجنوب مَفَازةٌ هى فيما بين كَرْمانَ والبحر الهندىّ، والبحر جَنُوبِىّ المفازة؛ ومن جهة الشرق بحر فارس أيضا : لأن البحر يتقوّس على كَرْمان والسِّند، حتى يصير له دَخْلة شرقىّ بلاد السند؛ ومن جهة الشمال قِطْعة من الهند. قال آبن خرداذبه : وبالسند القُسْط، والقَنَا، والخَيْزُران.

وقاعدته (المنصورة) — قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون النون وضم الصاد المهملة وسكون الواو وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر. وهى مدينة بالسِّند واقعة فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ خمس وتسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرضُ أربع وعشرون درجة وآثنتان وأربعون دقيقة. قال فى "القانون" : وآسمها القديم بَمَنْهُو وإنما سمِّيت المنصورةَ لأن الذى فتحها من المسلمين قال نُصِرْنا. وقال المهلبىّ : إنما سميت المنصورة لأن عُمَر بن حفص المعروف بهزارَمَرْد بناها فى أيام أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس وسماها بلقبه.

قال ابن حوقل : وهى مدينة كبيرة يُحيط بها خَليجٌ من نهر مِهْرانَ (وهو نهرٌ يأتى من المُلْتان) فهى كالجزيرة ولكنها بَلْدة حارّة وليس بها سِوىٰ النخيل ؛ وبها قصب السُّكَّر، وبها أيضا ثَمر علىٰ قدر التُّفّاح شـديدُ الحُموضة، يسمى اليمومة .

وبها عدّة مُدُن وبلاد أيضا .

منها (الدَّيْبُل) — قال فى "اللبـاب" : بفتح الدال المهـملة وسكون المثناة من تحتها وضم البـاء الموحدة ولام فى الآخر . وهى بلدة علىٰ ساحل البحر، واقعـةٌ فى الإقليم الثانى من الأقاليم السـبعة قال ابن سعيد : حيث الطولُ اثنتان وتسعون درجة وإحدىٰ وثلاثون دقيقـة، والعرضُ أربع وعشرون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة صغيرة علىٰ ساحل ماء السند شديدةُ الحرّ . قال ابن حوقل: وهى شرقىّ مِهْران، وهى فُرْضة تلك البلاد . وقال فى"اللباب" : إنها علىٰ البحر الهندىّ قريبة من السند . قال ابن سـعيد : وهى فى دَخْلة من البَرِّ فى خليج السِّـند، وهى اكبر فُرَض السند وأشهرُها ؛ ويجلب منها المتاع الدَّيْبُلِىُّ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها سِمْسِم كثير، ويُجْلَب إليها التَّمْر من البصرة، وبينها وبين المنصورة ست مراحل .

ومنها (البِيرُون) . قال فى "اللباب" : بكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وضم الراء المهملة وبعـدها واو ونون فى الآخر . وهى مدينة من أعمـال الدَّيْبُل بينهـا وبيـن المنصورة ، واقعـةٌ فى الإقليم الثـانى من الأقاليم السـبعة قال فى "القانون" : حيث الطولُ أربع وتسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرضُ أربع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال ابن سـعيد : وهى من فُرَض بلاد السِّند التى عليها خليجُهم المـالح الخارج من بحر فارس . قال فى "العزيزى" :

وأهلها مسلمون ، ومنها إلىٰ المنصورة خمسةَ عشرَ فرسخا . قال آبن سعيد : وإليها ينسب أبو الرَّيحان البِيْرُونىّ ، يعنى صاحب "القانون" فى أطوال البلاد وعروضها .

ومنها (سَدُوسانُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح السين وضم الدال المهملتين وواو ثم سين مهملة ثانية مفتوحة وألف ونون . وهى مدينة غربىّ نهر مِهْرانَ ، واقعة فى أوائل الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيث الطولُ أربع وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرضُ ثمانٍ وعشرون درجة وعشر دقائق . قال آبن حوقل : وهى خِصْبة كثيرةُ الخير وحولها قُرًى ورُسْتاق ، وهى ذات أسواق جليلة .

ومنها (المُولْتان) قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الميم وسكون اللام ثم تاء مثناة فوقية وألف ونون . قال : وهى فى أكثر الكتب مكتوبة بواو . وهى مدينة من السند فيما ذكره أبو الرَّيحان البِيرُونىّ ، وإن كان آبن حَوْقَل جعلها من الهند وعليه جرىٰ فى "مسالك الأبصار" لأن البِيرونىَّ أقعدُ بذلك منه : لأن السند بلاده فهو بها أخبر ، واقعةٌ فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطولُ ست وتسعون درجة وخمسٌ وعشرون دقيقةً ، والعرضُ ثمانٍ وعشرون درجة وأربعون دقيقة . قال آبن حوقل : وهى أصغر من المنصورة .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن بعض المصنَّفات أن قُرىٰ المُلْتان مائةُ ألف قرية وستة وعشرون ألفَ قرية . قال المهلَّبىّ : وأعمال المُلْتان واسعةٌ من قرب حدّ مُكْران من الجنوب إلىٰ حدّ المنصورة ، وبينها وبين غَزْنَةَ ثمانية وستون فرسخا .

ومنها (أَزُورُ) . قال آبن حوقل : وهى مدينة تقارب المُلْتانَ فى الكِبَر ، وعليها سُوران وهى علىٰ نهر مِهْران . وقال فى "العزيزىّ" : هى مدينة كبيرة وأهلها

مسلمون فى طاعة صاحب المنصورة وبينهما ثلاثون فرسخا ، قال فى "القانون" : حيث الطول خمس وتسعون درجة وخمس وخمسون دقيقة، والعرضُ ثمان وعشرون درجة وعشر دقائقَ .

* * *

وأما مُكْران، فقال فى "اللبـاب" : بضم الميم وسكون الكاف وفتح الراء المهملة وألف ونون . قال ٱبن حوقل : وهى ناحية واسعة عريضة، والغالب عليها المَفَاوِز والقَحْط والضِّيق . وقد ٱختلَفَ كلام صاحب تقويم البُلْدان فيها فذكر فى الكلام علىٰ السِّند أنها منه، وذكر فى كلامه علىٰ مُكْرانَ فى ضمن بلاد السند أنها من كَرْمان .

وقاعدتها (التِّـيز) قال فى "اللبـاب" : بالتاء المثناة الفوقية الممالة ثم ياء آخر الحروف وزاى معجمة فى الآخر، وموقِعُها فى الإقليم الثـانى من الأقاليم السـبعة قال ٱبن سعيد : حيث الطولُ ستٌّ وثمانون درجة، والعرضُ ست وعشرون درجة وخمسَ عشرةَ دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى فُرْضة مُكْرانَ وتلك النواحى، وهى علىٰ شَطِّ نهر مِهْران فى غربيِّـه بقرب الخليج المنفتح من مِهران علىٰ ظهر المنصورة .

* * *

وأما طُورَانُ . فناحية علىٰ خمسَ عشرةَ مرحلةً من المنصورة . قال فى "القانون" : وقَصَبَتها (قَنْدابِيلُ) قال : وهى حيثُ الطولُ خمس وتسعون درجةً، والعرضُ ثمـانٍ وعشرون درجة .

وذكر ٱبن حوقل أن قَصَـبة طُوران (قُزْدارُ) قال فى "اللبـاب" : بضم القاف وسكون الزاى المعجمة وفتح الدال المهـملة وألف وراء مهملة . وقد نقل فى "تقويم البُـلْدان" عن إخبار من رءاها أنها قُلَيْعة . قال فى "تقويم البُلْدان" :

وهى كالقرية لصغرها، وهى فى وَطَاءَة من الأرض على تُلَيْل، وحولها بعض بساتين. وذكر فى "اللباب" أن قُزْدارَ ناحيةٌ من نواحى الهند. قال فى "تقويم البُلْدان": وبينها وبين المُلْتان نحو عشرين مرحلة.

* * *

وأما البُدْهة، فقال ابن حوقل: وهى مفترِشةٌ ما بين حدود طُورانَ ومُكْرانَ والمُلْتان ومُدُن المنصورة، وهى فى غربىّ نهر مِهْران وأهلها أهل إبل كالبادية، ولهم أخصاصٌ وآجامٌ. قال فى "تقويم البُلْدان": ومن المنصورة إلى أوّل البُدْهة خمس مراحل، ومن أراد البُدْهة من المنصورة احتاج إلى عُبُور نهر مِهْران.

الإقليم الثانى

(إقليم الهند)

قال فى "الأنساب": بكسر الهاء وسكون النون ودال مهملة فى الآخر. قال فى "تقويم البُلْدان": والذى يُحِيط به من جهة الغرب بحرُ فارس، وتمامُه حدود السِّند، ومن جهة الجنوب البحرُ الهندىّ، ومن جهة الشرق المَفَاوِزُ الفاصلةُ بين الهند والصين، ولم يذكر الحدّ الذى من جهة الشَّمال. وذكر فى "مسالك الأبصار" أن حدّه من جهة الشَّمال بلادُ التُّرك. وذكر عن الشيخ مبارَك الأنْباتىّ: أنه ليس فى هذه المملكة خراب سوى مسافة عشرين يوما مما يلى غَزْنَة، لتجاذُب صاحب الهند وصاحب تُرْكُسْتان وما وراءَ النهر بأطراف المُنازَعة، أو جبال معطَّلة، أو شعواء[1] مشتبكة.

---

(١) كذا فى الأصل بالواو وصوابه بالراء كما فى المسالك والشعراء الأرض ذات الشجر أو كثيرته.

قال صاحب "مسالك الأبصار": وسألت الشيخ مبارَك الأَنباتىّ عن برّ الهند وضَوَاحيه فقال: إن به انهارا ممتدّة تُقارب الف نهر كبار وصغار، منها ما يضاهى النيلَ عِظَما، ومنها ما هو دُونه، ومنها ما هو مثلُ بَقِيَّة الأنهار. وعلىٰ صغار الأنهار القُرىٰ والمُدُن، وبه الأشجار الكثيفة والمُرُوج الفِيح. قال: وهى بلاد معتدلة لاتتفاوت حالاتُ فصولها، ليست مفرطةً فى حرّ ولا بَرْد، بل كأنَّ كلَّ أوقاتها ربيع، وتَهُبُّ بها الأهويةُ والنسيم اللطيف، وتتوالىٰ بها الأمطارُ مدّةَ أربعة أشهر، وأكثرها فى أُخْرَيَات الربيع إلىٰ ما يليه من الصيف.

ثم لمملكة الهند قاعدتان:

القـاعـــدة الأولىٰ
(مدينة دلّى)

قال فى "تقويم البُلْدان": بدال مهملة ولام مشدّدة مكسورة ثم مثناة تحتية، ولم يتعرّض لضبط الدال والناس يَنطقون بها بالفتح و بالضم. وسماها صاحب "تقويم البُلْدان" فى تاريخه دَهْلِى بابدال اللام هاء. وهى مدينة ذات إقليم متَّسِع، وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال فى "القانون": حيث الطولُ مائةٌ وثمانٍ وعشرون درجة وخمسون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. قال فى "تقويم البُلْدان": وهى مدينة كبيرة فى مستوٍ من الأرض، وتُربتها مختلطة بالحَجَر والرمل، وعليها سور من آجُرّ، وسورها أكبر من سور حَماةَ، وهى بعيدة من البحر، ويمرّ علىٰ فرسخ منها نهرٌ كبير دُونَ الفُرات، وبها بساتينُ قليلة وليس بها عنب، وتُمْطَر فى الصيف، وبجامعها مَنَارة لم يُعْلَم فى الدنيا مثلها، مبنية من حجر أحمر ودَرَجها نحو ثلثِمائة درجةٍ، وهى كبيرة الأضلاع، عظيمة الآرتفاع، واسعة الأسفل وآرتفاعها يقارب مَنَارة الإسكندرية.

وذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ برهان الدين بن الخلال البزي الكوفي : أن علوّها في نحو ستمائة ذراع . وذكر عن الشيخ مبارك الأنباتي أن دَلّي مدائنُ جمعت ولكل مدينة منها اسم يخصها ودَلّي واحدة منها . قال الشيخ أبو بكر بن الخلال : وجملة ما يطلق عليه الآن اسم دَلّي إحدى وعشرون مدينةً .

قال الشيخ مبارك : وهي مُمَيَّلة طولا وعرضا ، يكون دَوْرُ عُمْرانها أربعين ميلا ، وبناؤها بالحجر والآجُرّ ، وسقوفها بالخَشَب ، وأرضها مفروشة بحجرٍ أبيض شبيهٍ بالرُّخام ؛ ولا يُبْنَى بها أكثرُ من طبقتين وربما اقتُصِر على طبقة واحدة ، ولا يَفْرُشُ دُورَه فيها بالرُّخام إلا السلطانُ . قال : وفيها ألف مدرسة ، منها مدرسةٌ واحدة للشافعية وباقيها للحنفية ؛ وبها نحو سبعين بيمارستانا ، وتسمَّى بها دُورَ الشفاء ؛ وبها وببلادها من الرُّبُط والخوانق نحوُ ألفين ؛ وفيها الزيارات العظيمة ، والأسواق الممتدّة ، والحَمّامات الكثيرة ؛ وشربُ أهلها من ماء المطر ، تجتمع الأمطار فيها في أحواض وسيعة كلُّ حوض قُطْره غَلْوةُ سهم أو أكثر . أما مياه الاستعمال وشرب الدواب فمن آبار قريبة المستقَى ، أطول مافيها سبعة أذرع . وقد صارت دَلّي قاعدةً لجميع الهند [ومُستقرَّ السلطان] وبها قُصور ومنازلُ خاصَّةٌ بسكَنه وسكَن حريمه ، ومقاصيرُ جواريه وحَظَاياه وبيوتُ خدمه ومماليكه ، لايسكن معه أحد من الخانات ولا من الأمراء ، ولايكونُ بها أحد منهم إلا إذا حضر للخِدْمة ثم ينصرف كلُّ واحد منهم إلى بيته . ولها بساتين من جهاتها الثلاث : الشرق ، والجَنُوب ، والشَّمال على استقامة ، كل خط اثنا عشر ميلا ، أما الجهة الغربية فعاطلة من ذلك لمقاربة جبل لهابة . ووراء ذلك مُدُن وأقاليم متعدِّدة .

القــاعدة الثانيـــــة

(مدينة الدَّوا كِير)

ومدينة الدَّوا كِير بفتح الدال المهملة والواو وألفٍ بعـدها كاف مكسورة ثم ياء مثناة تحتية وراء مهملة فى الآخر . وهى مدينــة ذات إقليم متَّسِع . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ مبارَك الأنباتى : أنها مدينة قديمة جدّدها السلطان محمد بن طغلقشاه، وسمـاها " قبة الإسلام " . وذكر أنه فارقها ولم تتكامَلْ بعدُ، وأن السلطان المذكور كان قد قسمها علىٰ أن تبنىٰ مَحَلَّاتٍ لأهل كل طائفة مَحَلَّة : الجُنْد فى مَحَلَّة، والوزراء فى مَحَلَّة، والكُتَّاب فى مَحَلَّة، والقُضاة والعلمـاء فى مَحَلَّة، والمشايخ والفقراء فى مَحَلَّة ، وفى كل مَحَلَّة ما يُحتاج إليـه من المساجد، والأسواق، والحَمَّامات ، والطواحين، والأفران ، وأرباب الصنائع من كل نوع حتى الصُّوَّاغ والصَّـبَّاغين ، والدَّبَّاغين ، بحيث لا يحتاجُ أهل مَحَلَّة إلىٰ أخرىٰ فى بيع ولا شراء ، ولا أخذ ولا عطاء : لتكون كل مَحَلَّة كأنها مدينة مفْرَدة قائمة بذاتها .

واعلم أن صاحب "تقويم البُلْدان" : قد ذكر عن بعض المسافرين إلىٰ الهنـد أن بلاد الهند علىٰ ثلاثة أقسام :

القســـم الأوّل — بلاد الجُـزُرات

قال فى " تقويم البُـلْدان " : بالجيم والزاى المعجمة والراء المهملة ثم الف وتاء مثناة فوق . وبها عدّة مدن وبلاد .

منها (نَهْـلُوارة) بالنون والهـاء واللام والواو ثم ألف وراء مهملة وهاء . وقال ابن سـعيد : نَهْرُوالة، فقدّم الراء وأخّر اللام ، وكذلك نقله فى " تقويم البُلْدان "

عن بعض المسافرين . وفى "نزهة المشتاق" نَهْرُوارة براءين . وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيث الطولُ ثمانٌ وتسعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى غربى إقليم المَنيبار الآتى ذكره . قال : وهى أكبر من كَنْبايتْ ، وعمارتها مفرَّقة بين البساتين والمياه، وهى عن البحر على مسيرة ثلاثة أيام . قال صاحب حماة فى "تاريخه" : وهى من أعظم بلاد الهند .

ومنها (كَنْبايِت) قال فى "تقويم البُلْدان": بالكاف ونون ساكنة وباء موحدة ثم ألف وياء مثناة تحتية وتاء مثناة من فوقها، ومقتضى ما فى "مسالك الأبصار" : أن يكون آسمها أنبايت بإبدال الكاف همزة ، فإنه يُنْسَب إليها أنباتىّ . وهى مدينة على ساحل بحرالهند، موقعُها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ تسع وتسعون درجةً وعشرون دقيقة، والعرضُ آثنتان وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وذكر فى "تقويم البُلْدان" عمن سافر إليها أنها غربىّ المَنيبار على خَوْر من البحر طولُه مسيرةُ ثلاثة أيام . قال : وهى مدينة حَسَنة ، أكبر من المَعَرّة من بلاد الشام فى المِقْدار، وأبنيتها بالآجُرّ، وبها الرُّخَام الأبيض، وبها بساتينُ قليلة .

ومنها (تانَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : قال أبو العقول نقلا عن عبد الرحمن الريّان الهندى ـ بفتح المثناة الفوقية ثم ألف ونون وهاء . وهى بلدة على ساحل البحر، واقعةُ فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيث الطولُ مائة وأربعَ عشرةَ درجة وعشرون دقيقةً ، والعرضُ تسعَ عشرةَ درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من مَشَارق الجُزُرات . قال آبن سعيد : وهى مشهورة على ألْسُن التُّجّار . قال : وأهل هذا الساحل جميعُهم

كُفَّار يعبـدون الأنداد ، والمسلمون ساكنون معهم . قال الإدريسىّ : وأرضها وجبالهـا تُنْبِت القَنَا والطَّباشير ويُحْمَل منها إلىٰ الآفاق . قال أبو الرَّيْحان : والنسبة إليها تانِشىّ ومنها الثياب التانِشيَّة .

ومنها (صُومَنَاتُ) قال فى "تقويم البُـلْدان" : بالصاد المهملة ويقال بالسين المهـملة ثم واو ساكنة وميم ونون مفتوحتين ثم ألف وتاء مثناة فوقيـة فى الآخر، وموقعها فى الإقليم الثـانى من الأقاليم السـبعة قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ سـبع وتسعون درجة وعشرُ دقائق ، والعرضُ اثنتان وعشرون درجة وخمسَ عشرةَ دقيقة . قال فى "القانون" : وهى علىٰ الساحل فى أرض البَوَازِيج . قال ابن سعيد : وهى مشهورة علىٰ ألْسِنة المسافرين ، وتعرف ببلاد اللَّارِ ، وموضعها فى جهة داخلةٍ فى البحر فيَنْطَحُها كثير من مراكب عَدَن لأنها ليستْ فى جَوْن ؛ ولهـا خَوْر ينزل من الجبل الكبير الذى فى شَمَـالِيِّها إلىٰ شرقِيِّها ؛ وكان بها صَنَم تعظمه الهنودُ يُضاف إليها ، فيقال : "صَنَم صُومَنَات" فكسره يمين الدولة "محمود بن سُبُكْتِكين" عند فتحها كما هو مذكور فى التواريخ .

ومنها (سَنْدانُ) بالسين المهملة والنون والدال المهملة والألف والنون ، هكذا ذكره فى "تقويم البُلْدان" : ونقل لفظَه عن المهلبىّ فى "العزيزى" . وقال بعض المسافرين إنها (سَنْدَابُور) بالسين المهملة والنون والدال المهملة وألف وباء موحدة وواو وراء مهملة فى الآخر . وهى مدينة علىٰ ثلاثة أيام من تانةَ، موقعُها فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ مائة وأربعُ دَرَج وعشرون دقيقة ، والعرضُ تسعَ عشرةَ درجة وعشرون دقيقـة . قال فى "تقويم البلدان" عن بعض المسـافرين : وهى علىٰ جَوْنــ فى البحر الأخضر ، وهى آخر إقلـيم الجُزُرات . قال فى "القـانون" : وهى علىٰ الساحل . قال فى "العزيزى" :

وبينها وبين المنصورة خمسة عشر فرسخًا، وهى مَجْمَعُ الطُّرُق . قال : وهى بلاد القُسْط والقَنَا والخَيْزُران، وهى من أجلّ الفُرَض التى على البحر .

ومنها (نَاكُور) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح النون وألف وكاف مضمومة وواو وراء مهملة فى الآخر . وهى مدينة على أربعة أيام من دَلِّى .

ومنها (جالُور) بفتح الجيم ثم ألف ولام مضمومة وواو وراء مهملة . وهى على تَلّ تُرَاب نحو قلعة مِصْياف بين ناكُور وبين نَهْر والة . ويقال إنه لم يَعْصِ على صاحب دَلّى من الجُزُرات غير جالُورَ .

ومنها (منورى)(١) . قال فى "القانون" : وهى بين الفُرْضة وبين المَعْبَر إلى سَرَنْديب حيث الطولُ مائةٌ وعشرون درجة، والعرضُ ثلاثَ عشرةَ درجة .

القسم الثانى — من إقليم الهند بلاد المَنِيبَار

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وكسر النون(٢) وسكون الياء آخِرَ الحروف وفتح الباء الموحدة ثم ألف وراء مهملة فى الآخر . وهى إقليم من أقاليم الهند فى الشرق عن بلاد الجُزُرات المقدَّم ذكْرُها . قال : والمَنِيبار هى بلاد الفُلْفُل . ثم قال : والفُلْفُل فى شجره عناقيدُ كعناقيد الدُّخْن، وشجرُه ربما ٱلتَفَّ على غيره من الأشجار كما تلتف الدَّوالِى، وبها بلاد ...(٣) ... وجميعُ بلاد المَنِيبار مخضَرَّة كثيرةُ المياه والأشجار الملتفَّة .

(١) وقعت فى "التقويم" بالدال المهملة بدل الواو ولم يضبطها .

(٢) ذكرها ياقوت باللام بدل النون .

(٣) بياض فى الأصل ولعله "كثيرة" .

منها (هَنَوْرُ) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهاء والنون المشدّدةِ والواو وراء مهملة . وهى غربىَّ سَنْدابُورَ من بلاد الجُزُرات المقدَّم ذكُرها، فتكون أوّلَ بلاد المَنيبار من الغرب . قال : ولها بساتينُ كثيرة .

ومنها (بَاسَرُورُ) بالباء الموحدة و بالسين المفتوحة والراءين المهملات . وهى بلدة صغيرة شرقىّ هَنَّوْر المقدَّمة الذكرِ .

ومنهــا (مَنْجَرُورُ) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء المهملة ثم واو ساكنة وراء مهملة . وهى شرقىّ باسَرُورَ المقــدّمة الذكر . قال : وهى من أكبر بلاد المَنيبار، ومَلِكها كافر، ووراءَها بثلاثة أيام جبلٌ عظيم داخِلٌ فى البحر، يُرىٰ للمسافرين من بُعْد، يسمّى "رأسَ هَيْلِي" بفتح الهاء وسكون الياء المثناة من تحت وكسر اللام ثم ياء مثناة تحتية فى الآخر .

ومنها (تَنْدَيُور) بالتــاء المثناة الفوقيــة المفتوحة وسكون النون ثم دال مهملة وياء آخر الحروف مضمومة وواو وراء مهملة . وهى بُلَيدة شرقى "رأسِ هَيْلِي" لها بساتينُ كثيرةٌ .

ومنهــا (الشَّالِيات) بفتح الشين المعجمة وألف ولام مكسورة وياء آخِرَ الحروف ثم ألف وتاء مثناة فوقية .

ومنها (الشِّنْكلى) بالشين المعجمة المكسورة [وسكون النون](1) وكاف ولام وياء آخر الحروف . وهى بلدة بالقرب من الشَّالِيات .

ومنها (الكَوْلَمُ) قال فى "تقويم البُلْدان" : بالكاف المفتوحة والواو الساكنة

---

(1) الزيادة من تقويم البلدان .

ثم لام مفتوحة وميم فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الأوّل من الاقاليم السبعة قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ مائة وعَشْرُ درجات، والعرضُ ثمانَ عشرةَ درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهى آخر بلاد الفُلْفُل من الشرق، ومنها يُقْلَعُ إلىٰ عَدَنَ . قال صاحب "تقويم البُلْدان" : وحكىٰ لى بعضُ المسافرين أنها علىٰ خَوْر من البحر فى مستوٍ من الأرض وأرضها مُرْمِلة ؛ وهى كثيرة البساتين ، وبها شجر البَقَّم : وهو شجر كشجر الرُّمان، وورقُه يُشْبِه ورق العُنَّاب؛ وفيها حارة للسلمين وبها جامعٌ .

القســـم الثـالث — من إقليم الهند بلادُ المَعْــبَرِ

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون العين المهملة وفتح الباء الموحدّة ثم راء مهْمَلة . وهى شرقىّ بلاد الكَوْلَم بثلاثة أيام أوأربعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وينبغى أن تكون بمَيْلة إلىٰ الجنوب . قال ابن سـعيد : وهو مشهور علىٰ الألْسُن، ومنـه يُجْلَب اللانِسُ، وبها يُضْرب المثلُ فى قَصَّاريها . قال : وفى شمَـاليِّها جبال متصـلة ببلاد بلهرا مَلِك ملوكِ الهند ، وفى غربيها يصُبُّ نهرُ الصوليان فى البحر . وذكر فى "مسالك الأبصار" عن قاضى القضاة سراج الدين الهنـدى : أن بلاد المَعْبَر تشتمل علىٰ عِدّة جزائرَ كِبارٍ .

وبه عدّة مُدُن وبلاد .

منها (بِيرّداول) قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الباء الموحدة وتشـديد الياء المثناة التحتية وسـكون الراء وفتح الدال المهملتين وألف وواو ولام . قال : وهى قصبة بلاد المَعْبَر ، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة قال ابن سعيد :

حيث الطولُ مائةٌ وآثنتــانِ وأربعون درجة ، والعرض ســبعَ عشرةَ درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة سُـلطان المَعْبَر ، وإليه تُجْلَب الخيول من البلاد .

ثم آعلم أن وراء ماتقدّم بلادا أخرىٰ ذكرها فى "تقويم البُلْدان" .

منهـا (ماهُورةُ) قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح الميم والألف والهاء والواو ثم راء مهملة وهاء . وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ مائةُ درجة وأربعُ درج ، والعرض ســبعٌ وعشرون درجة . قال آبن ســعيد : وهى علىٰ جانبَىْ نهرِ كَنْك فى آنحداره من ــ قِنَّوْجَ إلىٰ بحر الهند . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلد البَرَاهمة ، وهم عُبَّاد الهند ينسبون إلىٰ البَرْهَمَن أوّل حكمائهم . قال آبن سعيد : وقلاعُهم بها لاتُرام .

ومنها (لَوْهَوْرُ) قال فى "اللباب" : بفتح اللام وسكون الواوين بينهــما هاء مفتوحة وفى الآخر راء مهملة . قال : ويقال لها أيضا لَهَـاوُر . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال فى "الأطوال" : حيثُ الطول مائةُ درجة والعرضُ إحدىٰ وثلاثون درجةً . قال فى "اللباب" : وهى مدينة كبيرة كثيرة الخير، خرج منها جماعة من أهل العلم .

ومنها (قِنَّوَج) قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر القاف وفتح النون المشــدّدة والواو ثم جيم . وموقعها فى الإقليم الثــانى من الأقاليم الســبعة قال آبن ســعيد : حيثُ الطولُ مائةٌ و إحدىٰ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، والعرضُ تسعٌ وعشرون درجة . وذكر فى "الأطوال" الطولَ بنقْص ســبع وعشرين درجةً ، والعرضَ بزيادة ستِّ درج . قال آبن سعيد : وهى قاعدةُ لَهَـاوُر ، وهى بين ذراعين من نهر

كِنْك . وقال المهلبىّ : هى فى أقاصى الهند فى جهة الشرق عن المُلتان على مائتين واثنين وثمانين فرسخا . قال : وهى مِصْر الهند وأعظمُ المُدُن بها . ثم قال : وقد بالغ الناسُ فى تعظيمها حتّى قالوا : إن بها ثلثمائة سُوق للجوهر، ولمَلِكها ألفان وخمسمائة فِيل؛ وهى كثيرة معادن الذهب . قال فى "نزهة المشتاق" : هى مدينةٌ حَسَنة، كثيرةُ التجارات، ومن مُدُنها قِشْمِيرُ الخارجة، وقِشْمِير الداخلة . قال : ومَلِكها يسمّى القِنَّوج باسمها .

ومنها (جِبالُ قامَرُون) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح القاف وألف وميم وراء مهملة ثم واو ونون . وهى حِجاز بين الهند والصِّين، وعدّها فى "القانون" من الجزائر . قال : وهى خارجة عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلى الجَنُوب قال فى "القانون" و "الأطوال" : حيث الطولُ مائةٌ وخمس وعشرون درجة، والعرض عشْرُ دَرَج، ومدينة المَلِك شرقيَّها، وبها مَعْدِن العُود القامَرُونىّ .

قلت : وذكر فى "مسالك الأبصار" عن قاضى القُضاة سراج الدين الهندى : أن فى مملكة صاحب الهند ثلاثةً وعشرين إقليما، عدّ منها بعضَ ماتقدّم ذكره، وهى : إقليم دَهْلِى، وإقليم الدّواكِير، وإقليم المُلْتان، وإقليم كَهْران، وإقليم سامانا، وإقليم سبوستان، وإقليم وَجّا، وإقليم هاسى، وإقليم سرستى، وإقليم المَعْبَر، وإقليم تلنك، وإقليم كجرات، وإقليم بداون، وإقليم عوض، وإقليم القِنَّوج، وإقليم لكنوتى، وإقليم بَهار، وإقليم كره، وإقليم ملاوه، وإقليم لَهاوُر، وإقليم كلافُور، وإقليم جاجنكر، وإقليم تلنج، وإقليم دور سمند .

ثم قال : وهذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة ومائتى مدينة، كلُّها مُدُن ذواتُ نيابات : كبارٍ وصغار، وبجميعها الأعمال والقرى العامرة الآهلةُ . وقال إنه لايعرف

عددَ قُراها ، إلا أن إقلـيم القِنَّوج مائةُ وعشرون لُكًّا ، كل لُكٍّ مائة ألف قرية ، فتكون آثنىْ عشرَ ألف ألف قرية ؛ و إقليم تلَنْك سـتة وثلاثون لُكًّا ، فيكون ثلاثة آلاف ألف وستمـائة الف قرية ؛ و إقليم ملاوه أكبر من إقليم القِنَّوج فى الجملة .

وحكى عن الشيخ مبارك الأَنْبـاتى : أن علىٰ لكنوتى مائتى ألف مركب صغار خِفَاف للسير ، إذا رمىٰ الرامى فى إحداها سهما وقع فى وسطها لسرعة جَرَيانها . ومن المراكب الكبار مافيه الطواحين والأفران والأسواق ، و ربمـا لم يعرف بعضُ ركابه بعضا إلا بعد مدّة لآتساعه وعِظَمه إلىٰ غير ذلك ممـا العهدة فيه عليه .

وآعلم أن بحر الهند جزائرَ عظيمةً معدودةً فى أعماله ، يكون بعضُها مملكةً منفردةً .

منهـا (جزيرة سَرَنْدِيبَ) قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح السـين والراء المهملتين وسكون النون وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتُ ثم باء موحدة . قال : ويقال لهـا جزيرة سِنْكَادِيب ، كأنه باللسان الهنـدى ، وموقعها خارجٌ عن الإقلـيم الأوّل من الأقاليم السـبعة إلىٰ الجنوب قال "فى الأطوال" : حيث الطولُ مائة وعشرون درجةً ، والعرضُ عشرُ دَرَج . قال آبن سعيد : ويشُقُّ هـذه الجزيرةَ جبلٌ عظيم علىٰ خط الآستواء ، آسمه جبل الرُّهُون ، يزعمون أن عليه هُبوطَ آدم عليه السلام . قال آبن خرداذبه : وهو جبل ذاهبٌ فى السماء ، يراه أهل المراكب علىٰ مسيرة عشرين يوما وأقلّ وأكثرَ .

وذكرت البراهمةُ : أن علىٰ هذا الجبل أثرَقدم آدمَ عليـه السلام : قَدَم واحدةٌ مغموسة فى الحجر ، وأنه خطا الخَطْوة الأخرىٰ إلىٰ الهند ، وهو منها علىٰ مسيرة يومين أو ثلاثة . قال : وعلىٰ هذا الجبـل شبيهٌ بالبرق أبدًا ، وعليـه العُودُ وسائر العِطْر والأَفَاويه ، وعليه وحواليـه الياقوتُ وألوانُه كلُّها ؛ وفى واديه المـاسُ والسُّنْباذَج ،

وغزالُ المِسك ، وسِنَّور الزَّباد؛ وفى أنهار هذه الجزيرة البِلّور، وحولها فى البحر مَغَاصاتُ اللؤلؤ ، ونهرها هو المعظَّم عند الهُنُود . قال ابن سعيد : ومدينتها تسمَّى أَغْنا . وهى حيثُ الطولُ مائة وأربع وعشرون درجة .

ومنها (جزيرة الرَّانَج) . قال فى "تقويم البُلْدان" : والظاهر أنها بالراء المهملة والألف والنون ثم جيم فى الآخر، وموقعها فى الجنوب عن الإقليم الأوّل . قال فى "الأطوال" : وطولُها مائةٌ وثلاثَ عشْرةَ درجةً ، ولا عَرْض لها، وفيها عِمَارة وزرع ونارَجيل وغير ذلك . قال فى "كتاب الأطوال" : وجبالها تُرىٰ من جبال اليمن، وبها جبال تشتَعِل النارُ فيها دائما ، وتُرىٰ تلك النار فى البحر من مسيرة أيام، وبها حَيَّات تبتلع الرجلَ والجاموس، وفى البحر عند لَهَاوُر "دَوْر" وهو مكان يدور فيه الماء ، ويُخْشىٰ علىٰ المراكب عنده . قال ابن خرداذبه : وفيها حَيَّات عظام تبتلع الرجل والجاموس والفيلَ ؛ وفيها شجر الكافُور ، تُظلُّ الشجرةُ منه مائةَ إنسان وعجائبُ لاتُحْصىٰ .

ومنها (جزيرة لَامْرِى) قال فى "تقويم البُلْدان" : بلام وألف وميم وراء مهملة ثم ياء آخر الحروف ، وموقعها فى الجنوب عن الإقليم الأوّل قال فى "الأطوال" : حيث الطولُ مائة وستٌّ وعشرون درجة، والعرضُ تسعُ دَرَج . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مَعْدِن البَقَّم والخَيْزُران .

ومنها (جزيرة كلة) قال فى "تقويم البُلْدان" : بالكاف واللام وهاء فى الآخر . وموقعها فى الجنوب عن الإقليم الأوّل قال فى "القانون" : حيث الطول مائة وثلاثون درجة ، ولا عَرْضَ لها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى فُرْضَةُ ما بين عُمَانَ والصِّين . قال المهلبي : وفيها مدينة عامرة يسكُنها المسلمون وغيرهم

وبها مَعادن الرَّصـاص ومَنابت الخَيْزُران وشجَرِ الكافور ؛ و بينها و بين جزائر المِهْراج عشرون مَجْرى .

ومنها (جزيرة المِهْراج) . قال فى "تقويم البُلْدان" : الظاهر أنها بالميم والهاء والراء المهملة ثم ألف وجيم فى الآخر . قال فى "كتاب الأطوال" : وهى جزيرة سَرِيرَةَ ، وموقعُها فى الجنوب من خطّ الآستواء قال فى الأطوال : حيث الطول مائة وأربعون درجة، والعرض فى الجنوب درجةٌ واحدة . قال آبن سعيد : وهى عِدّة جزائر، وصاحبها من أغنىٰ ملوك الهند وأكثرهم ذهبا وفِيـلَةً . وجزيرتُه الكبيرةُ هى التى فيها مقرّ مُلْكه ؛ وعدّها المهلبىّ فى جزائر الصين ؛ وقال : إنها عامرةٌ آهلة ، و إنه إذا أقلع المركَب منها طالباً للصين واجهه فى البحر جبالٌ ممتدّة ، داخلة فى البحر مسيرةَ عشرةِ أيام ، فإذا قَرُب المسافرون منهـا وجدُوا فيها أبوابا وفُرَجا فى أثناء ذلك الجبل ، يُفْضِى كلُّ باب منها إلىٰ بلد من بُلْدان الصين . وعدّ آبن سعيد سَرِيرَةَ من جزائر الزَّانَج ، وقال : إنــ طولها من الشَّمال إلىٰ الجنوب أربعُمائة ميل ، وعَرْضَها فى كلّ طَرَف من الجنوبىّ والشمالىّ نحوُ مائة وستين مِيلا ؛ وسَرِيرةُ مدينة فى وَسَطها ، ثم يدخُل منها جَوْن إلىٰ البحر وهى علىٰ نهر .

ومنها (جزيرة أنْدَرابِى) قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الدال والراء المهملتين ثم ألف و باء موحدة و فى الآخر ياء مثناة من تحتها .

ومنها (جزيرة الجَـاوَةِ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى جزيرة كبيرة مشهورة بكثرة العَـقَاقير . قال : وطَرَف هـذه الجزيرة الغربىُّ حيثُ الطولُ مائةٌ وخمس وأربعون درجة ، والعرضُ خمسُ دَرَج . قال : وفى جنوبِىّ جزيرة الجاوة مدينـة

قَنْصُور، التى ينسب إليها الكافور القَنْصُورىّ؛ وهى حيث الطولُ مائة وخمس وأربعون درجة، والعرضُ درجةٌ واحدة ونصفٌ .

ومنها (جزيرة الصَّنْف) . التى يُنْسَب إليها العُودُ الصَّنْفىّ . وهى من أشهر الجزائر الموجودة فى الكُتُب، وطولها من الغرب إلى الشرق نحو مائتىْ مِيل، وعَرْضها أقلّ من ذلك، ومدينتها حيث الطول اثنتان وستون درجة .

ومنها (جزيرة قِمَار) التى يُنْسَب إليها العُود القِمَارىّ وهو دونَ الصَّنْفىّ، ومدينتها قِمَار حيث الطولُ ستٌّ وستون درجة، والعرضُ درجتان، وشرقيَّها جزائر الصين .

ومنها (جزيرة الرامى) . قال ابن خرداذبه : وبها الكَرْكَدَّن وجواميسُ لاأذنابَ لها، وبها البَقَّم، وفيها ناسٌ عُرَاة فى غِيَاض لا يُفْهَم ما يقولون، كلامهم صَفِير، يستَوْحِشون من الناس، طولُ كلّ إنسان منهم أربعةُ أشبار، للرجل منهم ذكر صغير، وللمرأة فرج صغير، وشعرُ رءوسهم زَغَبٌ أحمرُ، يتسلّقون على الأشجار بأيديهم . وفى البحر هناك ناسٌ بِيض، يلْحَقُون المراكب سِباحةً والمراكب فى شِدّة جَرْيها، يبيعون العَنْبَر بالحديد يحملونه فى أفواههم؛ وجزيرة فيها ناسٌ سود يأكُلون الناس أحياءً، وجبلٌ طِينُه فِضّةٌ تظهر بالنار .

الجملة الثانية

(فى حيوانها)

قد ذكر فى ”مسالك الأبصار“ عن الشيخ مبارك الأَنْباتى : أنَّ بها الخيلَ على نوعين : عِرَابٍ وبَرَاذِينَ، وأكثرها ما لا يحمد فعله . قال : ولذلك تُجْلَب الخيلُ إلى الهند من جميع ماجاوَرَه من بلاد التُّرك، وتُقاد له العِرَاب من البحرين وبلاد اليَمَنِ والعِراق، وإن كان فى داخل الهند خيلُ عِرَاب يُتغالَى فى أثمانها ولكنها

قليلة. قال : ومتىٰ طال مُكْثُ الخيل بالهند انحلّت . وعندهم البِغَال والحمير، ولكنها مذمومةُ الرُّكوب عندهم ، حتّى لا يَسْتَحْسِن فقيه ولا ذو علم رُكوبَ بغلة .

أما الحمار فإن ركوبه عندهم مَذَلَّة وعارٌ عظيم؛ وخاصَّتُهم تَحمِل أثقالهم علىٰ الخيل، وعامتهم تحمل علىٰ البقر من فوق الأنف(١)، وهى عندهم كثيرة، وبها الجمالُ قليلة لاتكون إلا للسلطان وأتباعه : من الخانات، والأمراء، والوُزَراء، وأكابر الدولة؛ وبها من المواشى السائمـة ما لا يُحصىٰ : من الجواميس والأبقار والأغنام والمَعَز؛ وبهـا من دَوَاجِن الطير الدَّجاجُ والحمـام والإوَزُّ وهو أقل أنواعه، وان الدجاج عندهم فى قَدْرِ خلق الإوزّ . وبها من الوُحوش الفِيل، والكَرْكَدَّنُ . وقد تقدّم ذكرهما فى الكلام علىٰ الوحوش فيما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه من الحيوان فى المقالة الأولىٰ، فى غير ذلك من الوحوش التى لا تُعَدّ .

الجمـــلة الثـالثـــة

(فى حبوبها، وفَوَاكِهها، ورَيَاحِينها، وخَضْراواتِها، وغير ذلك)

أما الحبوب فقد ذُكِر عن الشيخ مُبارك الأنباتِى أن بها الأُرُزَّ علىٰ أحد وعشرين نوعا ؛ وبهـا من سائر الحبوب الحنطةُ، والشعيرُ، والحِمَّص، والعَدَس، والمَـاشُ، واللُّوبِياء، والسِّمْسِم؛ أما الفُول فلا يُوجَد عندهم . قال فى "مسالك الأبصار" : ولعل عدمه من حيث إنهم قوم حكماء، والفول عندهم ممـا يُفْسِد جوهَرَ العقل، ولذلك حَرَّمت الصابئة أكله .

وأما الفواكه ففيه التِّين، والعنب علىٰ قلّة، والرُّمان الكثير : من الحُلْو، والمُزّ والحامض إلىٰ غير ذلك من الفواكه : كالمَوْز، والخَوْخ، والتُّوت المسمّٰى بالفِرْصاد؛

---

(١) لعله مصحف عن الكتف .

وبها فواكه أخرى لا يُعْهَد مثلها بمصر والشام ، كالعنباء وغيرها ؛ والسَّفَرْجل على قلة ، والكُمَّثْرى ، والتُّفّاح ، وهما أقل من القليل ، ولكنهما والسفرجل تُجلَب إليه . وبها من الفواكه المستحسنة الرَّانَجُ ، وهو المسمّى عندهم بالنارَجيل ، والعامة تسميه جَوْز الهند . وبه البِطِّيخ الأخضَر والأصفر ، والخِيار ، والقِثَّاء ، والعَجُّور ، وبه من المحمضات الأُتْرُجُّ ، واللَّيْمون ، واللِّيم ، والنَّارَنْج . أما الحُمَّر[(1)] وهو التمر الهندىّ فكثير ببادتها .

وأما الخَضْراواتُ فقصبُ السكَّر ببلادها كثيرٌ للغاية ، ومنه نوعٌ أسودُ صُلْب المَعْجَم ، وهو أجوده للامتصاص لا الاعتِصار ، ولا يوجد فى غيرها ، ويُعمَل من بقيَّة أنواعه السكَّر الكثير : من النَّبات وغيره ، ولكنه لا يجمُدُ بل يكون كالسَّميذ الأبيض . وعندهم من الخَضْراوات اللِّفْت ، والجَزَر ، والقَرْع ، والباذنْجان ، والهِلْيَوْن ، والزَّنْجَبيل ، والسِّلْق ، والبَصَل ، والفُوم وهو الثُّوم ، والشَّمار ، والصَّعتَر .

وأما الرياحين ، فبها الورد ، واللَّيْنُوفر ، والبَنَفْسَج ، والبانُ ، والخِلاف ، والعَبْهَر ، والنَّرجس ، والفاغِيَة وهى التَّامِر حِنَّاء .

وأما غير ذلك فعندهم العَسَل أكثر من الكثير ، والشَّيْرَج ومنه وَقُودُهم ، والزيتُ يأتيهم مجلوبا . أما الشَّمَع فلا يوجَد إلا فى دُور السلطان ، ولا يُسْمَح فيه لأحد ؛ والحَلْوى على خمسة وستين نوعا ، والفُقَّاع ، والأَشْربة ، والأطعمة على ما لا يكاد يوجد فى غير ما هنالك . وبه من أرباب الصنائع صُنَّاع السُّيوف ، والقِسِىّ ، والرِّماح ، والزَّرد ، وسائر أنواع السلاح ؛ والصُّوَّاغ ، والزَّرا كِشَة ، وغيرهم من سائر أرباب الصنائع .

---

(١) ويقال له الحومر أيضا .

وللسلطان بِدَلّى دارُ طِرَاز، فيها أربعة آلاف قَزّاز، تَعْمَل الأقمشة المنوّعة للخِلَع والكَسَاوِى[(١)] والإطْلاقات، مع مايحمل إليه من قُمَاش الصين والعراق والإسْكندرية .

الجمـــلة الرابعـــة

(فى المعـاملات)

أما نقودهم، فقد ذكر الشيخ مبارك الأَنْبَاتى: أن لهم أربعَ دراهم يتعامَلُون بها .

أحدها — الهشتكانى . وهو وزن الدِّرهم النُّقْرة بمعاملة مصر، وجَوَازه جَوَازه، لايكاد يَتفاوتُ ما بينهما، والدِّرهم الهشتكانى المذكور عنه ثمان جتيلات، كل جتيل أربعة أفْلُس، فيكون عنه آثنين وثلاثين فَلْسا .

الثـانى — الدِّرْهم السُّلْطانى . ويسمّى وكانى، وهو رُبعُ دِرْهَم من الدراهم المصريّة، وكل درهم من السلطانية عنــه جتيلان، ولهذا الدرهم السلطانىّ نِصْف يسمّى جتيل واحد .

الثالث — الششتكانى . وهو نصفُ وربعُ درهم هشتكانى، ويكون تقــديره بالدراهم السلطانية ثلاثةَ دراهم .

الرابع — الدرهم الدرازد هكانى . وجوازه بنصف وربع درهم هشتكانىّ أيضا، فيكون بمقدار الششتكانى؛ ثم كل ثمـانية دراهم هشتكانيَّة تسمّى تنكه .

أما الذهب عنــدهم فبالمِثْقال، وكل ثلاثة مثاقيلَ تسمّى تنكه، ويعبر عن تنكة الذهب بالتنكة الحمراء، وعن تنكة الفِضَّــة بالتنكة البيضاء؛ وكل مائة ألف تنكة

(١) جارٍ العامّة فى هذا الجمع والا لجمعها كُسًا وكِسَاء كما فى القاموس .

من الذهب أو الفضة تسمى لُكًّا ، إلا أنه يعبر عن لك الذهب باللُّكّ الأحمر ، وعن لُكّ الفِضَّة باللك الأبيض .

وأما رِطْلهم فيسمَّى عندهم ستر، وزنته سبعون مثقالا ، فتكون زنته بالدراهم المصرية مائةَ درهم ودرهمين وثلثَىْ درهم ، وكل أربعين سترا مَنٌّ واحد ؛ وجميع مبيعاتهم بالوزن أما الكيل فلا يعرف عندهم .

الجملة الخامسة

(فى الأسعار)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" أسعارَ الهند فى زمانه نَقْلا عن قاضى القضاة سراج الدين الهندى وغيره فقال : إن الجاريةَ الخدّامة لاتتعدّى قيمتُها بمدينة دَهْلِى ثمانَ تنكات، واللواتى يصلُحْنَ للخدمة والفِراش خمسَ عَشْرة تنكة . وفى غير دَهْلِى أرخص من ذلك حتى قال القاضى سراج الدين : إنه اشترى عبدا مراهقا نَقَّاعا بأربعة دراهم . ثم قال : ومع هذا الرِّخَص إن من الجَوارى الهنديّات مَنْ تبلُغ قيمتُها عشرين ألفَ تنكة وأكثرَ لحُسْنهن ولُطْفهن .

ونقل عن الشيخ مُبارَك الأنباتى (وكان فيما قبل الثلاثين والسبعمائة) فقال : إن أوساط الأسعار حينئذٍ أن تكون الحنطةُ كلُّ مَنٍّ بدرهم ونصفٍ هشتكانى ، والشعيرُ كلُّ مَنٍّ بدرهمٍ واحد هشتكانى ، والأرُزُّ كل مَنٍّ بدرهم ونصف وربع هشتكانى ، إلا أنواعا معروفة من الأرُزّ فإنها أغلى من ذلك ، والحِمّص كلُّ مَنَّيْنِ بدرهم هشتكانىٍّ ، ولحمُ البقر والمَعَز كلُّ أربعة أستار بدرهم سلطانى ، والإوزّ كل طائر بدرهمين هشتكانية ، والدَّجاج كلُّ أربعة أطيار بدرهم هشتكانى ، والسكر كلُّ

خمسة أســتار بدرهم هشتكانى ، والرأس الغنم الجيدة السمينة بتنكة (وهى ثمـانية دراهم هشتكانية) والبقرة الجيـدة بتنكتين (وهما سـتة عشر درهما هشتكانية) وربمـا كانت بأقل ، والجاموسُ كذلك .

أما الحَمَام والعُصْفور وأنواع الطير فبأقلّ ثمن ، وأنواعُ الصيد من الوحش والطير كثيرة ، وأكثر مأْكلهم لحمُ البقر والمَعَز مع كثرة الضأن عنـدهم إلا انهم آعتـادُوا أكل ذلك .

وقد حكىٰ فى "مسالك الأبصار" عن الخُجَنْدِىّ أنه قال : أكلت أنا وثلاثةُ نَفَر رِفَاق فى بعض بلاد دلىّ لحمـا بَقَرِيًّا وخبزا وسمنـا حتى شبعنا بجيتل : وهو أربعـة افلس كما تقدّم .

الجمــــلة السادسة

(فى الطريق الموصلة إلىٰ مملكتَي السِّنْد والهِنْد)

اِعلم أن لهذه المملكة عدّة طرق :

الطريق الأوّل — طريق البحر ، قد تقدّم فى الكلام علىٰ الطريق الموصلة إلىٰ اليمن ذِكْرُ الطريق من سواحل مصر : من السُّوَيْس ، والطُّور ، والقُصَيْر ، وعَيْذَاب إلىٰ عَدَنَ من اليمن فى هذا البحر ، ومن عَدَنَ إلىٰ أن يركب فى بحر الهند المتصلِ ببحر القُـلْزُم ، إلىٰ سواحل السند والهنـد ، ويخرج إلىٰ أىّ البلاد أراد من الفُرَض الموصلة إليها .

الطريق الثانى — طريق بحر فارس ، قد تقدّم فى الكلام علىٰ مملكة إيران ذكْرُ الطريق الموصّلة من حلَبَ إلىٰ بغدادَ ، ثم من بغدادَ إلىٰ البصرة . قال آبن خرداذبه :

ثم من البصرة إلى عَبَّادانَ آثنا عشر فرسخا، ثم إلى الخَشَبات[1] فرسخان ، ومنها يُرْكَب فى بحر فارس :

فمن أراد طريقَ البر إلى السِّند والهِنْد ، جاز هذا البحر إلى هُرْمُزَ : مدينة كَرْمان، ومنها يتوصل إلى السند ثم الهند ثم الصين .

ومن أراد الطريق فى البحر، فقد ذكر آبن خرداذبه : أن من أُبُلَّة البصرة فى نهر الأُبُلَّة إلى جزيرة خارَكَ فى نخيل فارس سبعين فرسخا ، ومنها إلى جزيرة لابن ثمانين فرسخا ، ثم إلى جزيرة أبرون سبعة فراسخ ، ثم إلى جزيرة خَيْن سبعة فراسخ ، ثم إلى جزيرة كِيشْ سبعة فراسخ، ثم إلى جزيرة أبركاوان ثمانيةَ عشرَ فرسخا، ثم إلى جزيرة أرموز سبعة فراسخ ، ثم إلى بار سبعة أيام ، وهى الحدّ بين فارس والسند ، ثم إلى الدَّيْبُل ثمانية أيام ، ثم إلى مَصَبِّ مِهْران فى البحر فرسخان ، ثم من مِهْران إلى بَكين أوّل أرض الهند أربعة أيام، ثم إلى المَنْد فرسخان ، ثم إلى كُول فرسخان، ثم إلى سَنْدانَ ثمانيةَ عشرَ فرسخا ، ثم إلى ملى خمسة أيام ، ثم إلى بُلّين يومان .

ثم يفترق الطريق فى البحر :

فمن أخذ على الساحل — فمن بُلّين إلى باس يومان. ثم إلى السِّنْجلى وكَبْشكان يومان، ثم إلى كودا مصب نهر فريد ثلاثة فراسخ، ثم إلى كَيْلكان يومان، ثم منها إلى سَمَنْدَر، ومن سَمَنْدر إلى أو رسير اثنا عشر فرسخا ، ثم إلى أبينه أربعة أيام ، ثم إلى سرنديب يومان .

(١) الخشبات علامات فى البحر للراكب تنتهى إليها ولا تتجاوزها خوفا من الجزر لئلا تلحق الارض . أنظر التقويم (ص ٣٠٩) .

ومن أراد جهـــة الصين عدل من بُلّين وجعـــل سَرَنْديبَ عن يساره . فمن جزيرة سَرَنْديب إلىٰ جزيرة لنكبالوس عشرة أيام إلىٰ خمســـة عشر يوما ، ثم إلىٰ جزيرة كِلَه ســـتة أيام . وعن يســـارها جزيرة بالوس علىٰ يومـــين ، ثم علىٰ خمســـة عشر يوما بلاد تُنبِت العِطْر .

الجمـــــلة السابعة

(فى ذكـــر مـــلوك الهنـــد)

(١) جماعةٌ منهم ملوك الكُفْر، أسمـــاؤهم أعجمية لا حاجةَ إلىٰ ذكرهم ، فأضْربنا عنهـــم .

وأمّا فى الإسلام فأوّلُ من أخذ فى فَتْح ما فُتِح من الهند بنو سُبُكْتِكِين : ملوكِ غَزْنَةَ، المتقدّم ذكرهم فى مملكة خُوارزم والقَبْجاق وما مع ذلك .

ففتح يمينُ الدولة (محمودُ بنُ سُبُكْتِكِين) منه مدينة بَهاطِيَةَ . وهى مدينة حَصينة عاليةُ السُّور وراءَ المُلْتان ، فى سنة ستّ (٢) وتسعين وثلثمائة ، وسار إلىٰ بيدا ملِك الهند ، فهرب منه إلىٰ مدينته (٣) المعروفة بكالِيجَار ، فحاصره فيها حتّى صالحه علىٰ مال ، فأخذ المـــال وألبسه خِلْعته ، وآستعْفىٰ من شَدّ وسطه بالمِنْطقـــة فلم يُعْفِه من ذلك ، فشدّها علىٰ كُرْه .

ثم فتح (إبراهيمُ بنُ مســـعود) منهم حصوناً منـــه فى سنة إحدىٰ وخمسين وأربعمائة .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله أما قبل الإسلام فملكها جماعة من الخ .

(٢) ذكر أبو الفداء فتحها فى حوادث سنة ٩٥ ومسيره إلىٰ ملكها فى سنة ٩٦ .

(٣) عبارة أبى الفدا "قلعته" .

ثم كانت دولةُ الغُوريّة بغَزْنة أيضا . ففتح شهابُ الدّين أبو المظَفَّر (محمدُ بن سام) آبن الحُسَيْن الغُورِى منه مدينة لهَاوُر فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة(١) ، وأتبعها بفتح الكثير من بلادهم ، وبلغ من النّكاية فى ملوكهم مالم يبلُغْه أحدٌ من ملوك الإسلام قبله ، وتمكن من بلاد الهند ، وأقطعَ مملوكَهُ قطبَ الدين أيبك مدينةَ دَهْلى التى هى قاعدة الهند ، وبعث أيبكُ المذكور عساكِرَه ، فملكت من الهند أماكِنَ مادخلها مسلمٌ قبله حتّى قاربت جهة الصين .

ثم فتح (شهاب الدين محمد) المذكور أيضا بعد ذلك نَهْرواله فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وتوالت ملوكُ المسلمين وفُتُوحاتُهم فى الهند إلى أن كان (محمد بن طغلقشاه) فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية ، فقوِىَ سلطانه بالهند ، وكثرت عساكره ، وأخذ فى الفتوح حتّى فتح معظم الهند .

قال فى "مسالك الأبصار" قال الشيخ مبارك الأنباتى : وأوّل مافتح منه مملكة تلنك ، وهى واسعة البلاد ، كثيرة القُرى ، عدّة قراها تسعمائة ألف قرية وتسعمائة قرية . ثم فتح بلاد جَاجْنَكر ، وبها سبعون مدينة جليلة كلُّها على البحر ، دَخْلُها من الجَوْهر والقُماش المنوّع ، والطِّيب ، والأَفَاوِيه ، ثم فتح بلاد لكنوتى ، وهى كرسىّ تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دَوَاكِير . ويقال لها دَكِير ، ولها أربع وثمانون قلعة جليلات المِقْدار . ونقل عن الشيخ برهان الدين أبى بكر بن الخلال البزى : أن بها ألف ألف قرية ومائتى ألف قرية . ثم فتح بلاد دَوْر سمند ، وكان بها السلطان بلال الدبو وخمسة ملوك كُفّار . ثم فتح بلاد المَعْبَر : وهو إقليم جليل له تسعون مدينة بَنَادر على البحر ، يجئ من دَخْلها الطِّيبُ ، واللّانِس ، والقُماش المنوع ، ولطائفُ الآفاق .

---

(١) الذى فى العبر وتاريخ آبن الأثير أنه فتحها فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة وهو الصواب .

وذكر أنه حصل له من الأموال بسبب الفتوح التى فتحها مالا يكاد السامع يصدّقه . فحكىٰ عن الشيخ برهان الدين أبى بكر بن الخَلّال المقدّم ذكره : أنه حاصر مَلِكا علىٰ حدّ بلاد الدواكير ، فسأله أن يكُفّ عنه علىٰ أن يُرْسِل إليــه من الدّوابّ مايختار لِيُحَمِّله له مالا ، فسأله عن قدر ماعنده من المــال فأجابه فقال : إنه كان قبلى سبعةُ ملوك ، جمع كلُّ واحد منهم سبعين ألف صهريج متسعةً من المال ، فأجابه إلىٰ ذلك ، وختم علىٰ تلك الصهاريج باسمه وتركها بحالهــا ، وأقرَّ المُلْكَ باسم ذلك المَلِك ، وأمر بإقامته عنده ، وجعل له نائبا بتلك المملكة .

وحكى عن علىّ بن منصور العُقَيلى من عرب البحْرَيْنِ أنه تواتر عنــدهم من الأخبار أن هذا السلطانَ فتح مدينةً بها بُحَيرة ماء ، فى وسطها بيتُ بِرٍّ معظم عندهم يقصدونه بالنذر ، وكلما أُتِى له بنذر رُمِى فى تلك البُحيرة ، فصرف المــاء عنها وأخذ ما كان بها من الذهب ، فكان وَسْقَ مائتَىْ فِيــل وآلافٍ من البقر ، إلىٰ غير ذلك ممــا يكادُ العقل أن يُنْكِره ، ولذلك حصــل عنده من الأموال مالا يأخُذه الحصرُ ، وآتسعت أموالُ عساكره حتّى جاوزتِ الوصفَ ، حتى حكى الشــيخ تاج الدين بن أبى المجاهد السَّمَرْقندىّ : أنه غَضِب علىٰ بعض خاناته لشُرْبه الخمرَ فأمسكه وأخذ ماله ، فكان جمــلةُ ماوُجِد له من الذهب ألفَ ألفِ مثقال وســبعةً وثلاثين ألف مثقال ، ومقدار ذلك ثلاثة وأربعون ألف قنطار وسبعون قنطارا ، وهو مع ذلك يُعطِى العطاءَ الجزيل ويَصِل بالأموال الجَمَّة .

فقد حكى آبن الحكيم الطيــارى : أن شخصا قدّم له كتبا ، فَحَثَىٰ له حَثْيــةً من جوهر كان بين يدَيْه ، قيمتُها عشرونَ ألفَ مثقالٍ من الذهب .

وحكىٰ الشريف السَّمَرْقندىّ : أن شخصا قدّم له آثنتين وعشرين حبّةً من البِطِّيخ الأصفر ، حملها إليه من بُخارىٰ ، فأمر له بثلاثةِ آلافِ مثقالٍ من الذهب .

وحكىٰ الشيخ أبو بكر بن أبى الحسن المُلْتانىّ أنه آستفاض عنه أنه التَزَم أنه لايَنْحِطّ فى إطلاقاته بأقلَّ من ثلاثة آلاف مثقال، إلىٰ غير ذلك من العطاء الذى يخرق العقول .

وحكى عن قاضى القضاة سراج الدين الهندى : أنه مع كثرة البَذْل وسَعَة العطاء فى هِبَاته وما يُنْفِقه فى جُيوشه وعساكره لايُنْفِق نصفَ دَخْل بلاده .

قلت : ثم بعد محمد شاه ولى هذه المملكةَ من أقاربه سلطان آسمه (فَيْرُوزشاه) وبقِيَ فى الملك نحوَ أربعين سنة . ثم تنقلت المملكة فى بيتهم إلىٰ أن كان من تُمُرلنك ما كان من فتح دَلّى ونَهْبِها .

ثم آل الأمْرُ بعده إلىٰ سلطان من بيت الملك ، آسمه (محمود خان) وهو القائم بها إلىٰ الآنَ . وقد صارت الدواكيرُ منها لسلطان بمفرده ، وآسمه اليوم السلطان (غِيَاث الدين) .

الجملة الثامنة

(فى ذكر عساكر هذه المملكة ، وأرباب وظائفها علىٰ ماذكره فى "مسالك الأبصار" عن دولة السلطان محمد بن طغلقشاه المقدم ذكره ، نقلا عن الشيخ مبارك الأنباتىّ وغيره)

أما عساكره ، فقد ذكر أنها تشتمل علىٰ تِسْعِمائة ألف فارس : منهم مَنْ هو بحضرته ، ومنهم مَنْ هو فى سائر البلاد ، يَجْرِى عليهم كلِّهم ديوانُه ، وأن عسكره مجتَمِع من التُّرك والخِطا والفُرْس والهنود وغيرهم من الأجناس . وكلُّهم بالخيل المُسَوَّمة ، والسلاح الفائق ، والتجمُّل الظاهر ، وأن أعلىٰ عسكره الخاناتُ ، ثم الملوكُ ، ثم الأمراءُ ، ثم الاصفهسلارية ، ثم الجُنْد .

وذكر أن فى خدمته ثمانين خانا أو أكثر ، وأن لكل واحد منهم من الأتباع مايناسبه : للخان عشرةُ آلافِ فارس ، وللملك ألفُ فارس ، وللأمير مائةُ فارسٍ ، وللاصفهسلارية دون ذلك . وأن الاصفهسلارية لايؤهَّلُ أحد منهم للقُرْب من السلطان ، وإنما يكون منهم الوُلاة ومن يجْرِى مَجْراهم ؛ وأن له عشرة آلافِ مملوكٍ أتْراك ، وعشرة آلاف خادمٍ خِصِىّ ، وألف خزندار ، وألف بَشْمقْدار ، وله مائتا ألف عبدٍ رِكابِيَّة ، تلْبَس السلاح وتمشِى فى رِكَابه ، وتقاتل رَجَّالةً بين يديه ، وأن جميع الجُنْد تختصُّ بالسلطان ، ويجرى عليهم ديوانُه حتّى مَنْ فى خِدْمة الخانات والمُلُوك والأمراء ، لايجرى عليهم إقطاعٌ من جهةِ مَنْ هم فى خِدْمته كما فى مِصْرَ والشام .

وأما أربابُ الوظائف من أرباب السيوف ، فله نائبٌ كبير ، يسمَّى بلغتهم امريت وأربعةُ نُوابٍ دُونَه ، يسمَّى كل واحد منهم شق ؛ وله الحُجَّاب ومن يجرِى مَجْراهم من سائر أرباب الوظائف . وأمَّا من أرباب الأقلام ، فله وَزِيرٌ عظيم ، وله أربعة كُتَّاب سر ، يُسمَّى كل واحد منهم بلغتهم دبيران ، ولكل منهم تقدير ثلثمائة كاتب .

وأما القضاة فله قاضى قضاةٍ عظيمُ الشأن ، وله محتَسِب وشيخُ شيوخ ، وله ألفُ طبيب ومائتا طبيب .

وأما غير هؤلاء فله ألف بازْدار ، تحمل الطيورَ الجوارحَ للصيد راكبةً الخيلَ ، وثلاثة آلافِ سَوَّاق لتحصيل الصيد ، وخمسمائة نَديم ، وألفان ومائتان من المَلَاهى غير مماليكه المَلاهى ، وهى ألفُ مملوك برسم تعليم الغِناء خاصةً ، وألفُ شاعر بالعربيَّة ، والفارسيَّة ، والهندية ، من ذوى الذَّوْق اللطيف . يَجْرِى على جميع أولئك ديوانُه مع طهارة الذَّيْل والعِفَّة فى الظاهر والباطن .

الجملة التاسعة
(فى زىّ أهل هذه المملكة)

أمّا أربابُ السُّيوف فنُقِل عن الشيخ مُبارَك الأنباتى : أن لِبْس السلطان والخانات والملوك، وسائر أرباب السيوف تَتريّات، وتَكْلاواتٌ ، وأقْبِيَةٌ إسلامية، مُخصَّرة الأوساط خُوارزْمِيّة، وعمائمُ صغار لاتتعدّى العمامةُ منها خمسةَ أذرع أوستةً، وأن لِبْسهم من البياض والجُوخ .

وحكى عن الشريف ناصر الدين محمد الحسينىّ الأَدَمى أن غالب لِبْسهم تترية مُزَرْكَشةٌ بالذهب، ومنهم مَنْ يلبَس مطرَّز الكمين بزرْكَش، ومنهم من يعمل الطِّراز بين كتفيه مثل المُغْل، وأقْباعُهم مربّعة الأنْبساط ، مُرَصَّعة بالجواهر، وغالب ترصيعهم بالياقوت والمْـاس ، ويَضْفِرُون شعورَهم ذوائبَ، كما كان يُفْعَل بمصر والشام فى أوّل الدولة التركية ، إلا أنهم يجعلون فى الذوائب شَراريبَ من حَرير، ويشُدّون فى أوساطهم المَناطِقَ من الذهب والفِضّة، ويلبَسون الأخفافَ والمَهاميز، ولا يشُدّون السيوفَ فى أوساطهم إلا فى السَّفَر خاصّة .

وأما الوُزَراء والكُتّاب ، فزِيُّهم مثل زِىّ الجُنْد ، إلا أنهم لا يَشُدُّون المَناطِقَ، وربما أرخىٰ بعضُهم العذَبةَ الصغيرةَ من قُدّامه كما تفعل الصُّوفِيّة .

وأما القُضاة والعلماء، فلِبْسهم فرجيّات شَبيهاتٌ بالجندات ودَراريعُ .

وحكى عن قاضى القضاة سراج الدين الهندىّ أنه لا يَلْبَس عندهم ثيابَ الكَتّان المجلوبةَ من الرُّوس والإسكندرية إلا مَنْ ألبسه له السلطان، وإنما لباسهم من القُطن الرفيع الذى يفوقُ البَغْدادىّ حُسْنا، وأنه لا يَرْكَب بالسُّروج الملبَّسة والمُحَلّاة بالذهب إلا مَنْ أنعم عليه بها السلطان .

الجمـــلة العـاشرة

(فى أرزاق أهلِ دَوْلة السلطان بهذه المملكة)

أما الجُنْد، فنُقل عن الشيخ مبارك الأنباتِيّ أنه يكون للخانات والملوك والأمراء والاصفهسلارِيَّة بلادٌ مقرّرة عليهم من الديوان إقطاعًا لهم .

وذكر أن إقطاع النائب الكبير المسمّى بأمريت يكون إقليما عظيما كالعِرَاق . ولكلّ خان لُكَّانٍ ، كلُّ لكّ مائةُ ألف تنكة ، كل تنكة ثمـانية دراهم ؛ ولكل ملك من ستين ألفَ تنكة إلىٰ خمســين ألف تنكة ؛ ولكل أمير من أربعين ألفَ تنكة إلىٰ ثلاثين ألف تنكة ؛ وللاصفهسلارية من عشرين ألفَ تنكةٍ إلىٰ ما حولها ؛ ولكل جُنْدِيّ من عشرة آلاف تنكة إلىٰ ألف تنكة ؛ ولكل مملوكٍ من الممـاليك السلطانيَّة من خمسة آلاف تنكة إلىٰ ألف تنكة ، مع الطعام والكُسْوة وعَلِيق الخيل لجميعهم علىٰ السلطان . ولكل عبد من العَبِيد السلطانية فى كل شهر عشْرُ تنكات بَيْضاء ، ومَنَّان من الحِنْطة والأُرُزِّ ، وفى كل يوم ثلاثةُ أستار من اللحم ، وفى كل سنة أربع كساوٍ .

وأما أرباب الأقلام ، فإن الوزير يكون له إقليم عظـيمٌ نحو العِراق إقطاعًا له ؛ ولكل واحد من كُتَّاب السرّ الأربعة مدينةٌ من المُدُن البَنَادر العظيمةِ الدَّخْل ؛ ولأكابر كُتَّابهم قُرًى وضِياعٌ . ومنهم مَنْ يكون له خمسون قريةً . ولكلٍّ من الكُتَّاب الصِّغار عشرةُ آلافِ تنكة . ولقاضى القُضـاة المعبِّر عنه بصَـدْرجهان عشْرُ قُرًى ، يكون متحصِّلها نحوَ ستينَ ألفَ تنكة ؛ ولشيخ الشيوخ مثلُه ؛ وللمحتَسِب قريةٌ يكون متحصِّلها نحوَ ثمـانيةِ آلافِ تنكة .

وأما غير هؤلاء من سائر أرباب الوظائف ، فذكر أنه يكون لبعض النُّدَماء قريتانِ ولبعضهم قريةٌ ؛ ولكل واحد منهـم من أربعينَ ألفَ تنكة إلىٰ ثلاثين ألف تنكة

إلىٰ عشرين ألف تنكة علىٰ مَقادير مَرَاتِبهم ، مع الكَسَاوى والخِلَع والإفْتِقادات ، ولْيُقَس علىٰ ذلك .

الجملة الحادية عَشْرَة
(فى ترتيب أحـــوال هـــذه المملكة)

وتختلِفُ الحال فى ذلك باختِلاف أحوالِ السلطان .

أما الخِدْمة ، فخدمتان : إحداهمـا الخِدْمة اليَوْمِيَّة ، فإنه فى كل يوم يُمَدّ الخِوانُ فى قصر السلطان : ويأكل منه عشرون ألفَ نَفَر من الخانات ، والملوك ، والأُمَراء ، والاصفهسلارية ، وأعيـان الجُنْد ، ويُمَدُّ للسلطان خِوَانٌ خاصٌّ ، ويحضُرهُ معه من الفُقَهاء مِائتَا فقيهٍ فى الغَدَاء والعَشَاء ليأ كُلوا معه ويَبْحَثُوا بين يَدَيْه .

وحكى عن الشيخ أبى بكر بن الخَلَّال : أنه سأل طَبَّاخ هذا السلطان عن ذبيحته فى كل يوم — فقـال : ألفان وخمسُمائة رأس من البقر ، وألفا رأس من الغنم ، غير الخيل المسمَّنة وأنواع الطير .

والثانية — الجُمَعِيَّة ، فحكى عن الشيخ محمد الخُجَندىّ : أن لهذا السلطان يومَ الثَّلاثاء جلوسًا عامًّا فى ساحةٍ عظيمةٍ متسـعةٍ إلىٰ غاية ، يُضْرَب له فيها خَيْرٌ كـبير سلطانىّ ، يَجْلِس فى صدره علىٰ تَخْت عالٍ مصَفَّح بالذهب ، وتَقِف أربابُ الدَّوْلة حولَهُ يمينًا وشِمـالا ، وخلْفَه السِّلاح دارِيَّة وأربابُ الوظائف قيـامٌ بين يديه علىٰ مَنَـازلهم ، ولا يَجْلس إلا الخاناتُ وصَـدْرجهان « وهو قاضى القضاة » والدبيران «وهو كاتب السرّ الذى تكون له النَّوْبة » ويقِف الحُجَّاب أمامَه ، وينادىٰ مناداة عامَّة : إن من كان له شكوىٰ أوحاجةٌ فلْيحْضُر ، فيحْضُر من له شكوىٰ أو حاجةٌ ، فيَقِف بين يديه فلا يمنع حتّى يُنْهى حاله ، ويأمر السلطان فيه أمره .

ومن عادته أن لا يدخُل عليه أحدٌ ومعه سِلاحُ البَتَّـةَ حتَّى ولا سِكِّين صـغيرةٌ ؛ ويكون جلوسه داخِلَ سبعة أبواب ، ينزِلُ الداخلُون عليه على الباب الأوّل ، وربما أُذِن لبعضهم بالركوب إلى الباب السادس . وعلى الباب الأوّل منها رجل معه بُوق ، فإذا جاء أحدٌ من الخانات أو الملوك أو أكابر الأُمَراء ، نفخ فى البُوق إعلامًا للسلطان أنه قد جاءه رجل كبير : ليكون دائما على يَقَظة من أمره . ولا يزال ينفُخ فى البُوق حتّى يقـارب الداخلُ البابَ السابعَ ، فيجْلِس كلُّ مَنْ دخل عنـد ذلك البـاب حتّى يجتمع الكلُّ ، فإذا تكاملوا أُذِنَ لهم فى الدخول ، فإذا دخلوا جلس مَنْ له أهليَّـةُ الجلوس ووقف البـاقُونَ ؛ وجلس القُضاة والوزيرُ وكاتب السرِّ فى مكان لا يَقَع فيه نظرُ السلطان عليهم ، ومدَّ الخُوَانُ . ثم يُقـدِّم الحجّـابُ قِصصَ أرباب المَظَالم وغيرهـم ، ولكل قوم حاجبٌ يأخذ قِصَصَهم ، ثم يرفَعُون جميع القِصَص إلى حاجب مُقدَّم على الكل ؛ فيَعْرِضها على السـلطان ويسمَعُ ما يأمر فيها . فإذا قام السـلطان جلس ذلك الحـاجبُ إلى كاتب السرّ فأدّى إليـه الرسائلَ فى ذلك فينفِّذُها . ثم يقوم السلطان من مَجْلِســه ذلك ويدخل إلى مجلِسٍ خاصٍّ ، ويدخل عليه العلمـاءُ فيجالِسُهم ويحادِثُهم ويأكُل معهم ؛ ثم ينصرفون ، ويدْخُل السلطان إلى دُورِه .

أما حاله فى الركوب ، فإنه كان فى قُصوره يركَب وعلى رأسه الجتر والسلاح داريَّة وراءَه محمولا بأيديهم السلاحُ . وحوله قريبُ اثنَيْ عشَرَ ألفَ مملوكٍ ، جميعُهم ليس فيهم راكبٌ إلا حاملَ الجتر والسِّـلاح داريَّة والجِمْداريَّة حملةُ القماش إن كان فى غير قُصُوره . وعلى رأســه أعلامٌ سـودٌ فى أوساطها تِنِّين عظيم من الذهب ؛ ولا يحمِل أحدٌ أعلاما سُودا إلا له خاصَّـةً . وفى ميسرته أعلامٌ حُمْر ، فيهـا تِنِّينان ذهب أيضا . وطبوله الذى يُدَق بهـا فى الإقامة والسَّـفَر على مثل الإسكَنْدر .

وهو مائتا حمل نَقَّارات ، وأربعون حملا من الكُوسات الكِبَار ، وعشرون بُوقًا ، وعشرة صُنُوج .

قال الشيخ مبارَك الأنباتيّ : ويُحْمَل على رأسه الجتْر إن كان فى غير الحرب ، فإن كان فى الحرب حُمِل علىٰ رأسه سبعة جُتُورة ، منها آثنان مرصَّعان لا يُقَوَّمان لنَفَاستهما . قال : ولدَسْتِه من الفَخَامة والعَظَمة والقوانينِ الشاهِنْشاهِيَّة ما لا يكون مثلُه إلا للإسكَنْدر ذى القرنيْنِ أو لملِك شاه بن ألْب أرسلان .

ثم إن كان فى الصيد فإنه يخْرُج فى خِفٍّ من اللباس فى نحو مائة ألف فارس ، ومائتَىْ فيل ، ويحمَلُ معه أربعةُ قصور علىٰ ثمانمائة جمل ، كلُّ قصر علىٰ مائتَىْ جملٍ مُلبَّسةً جميعها بستُور الحرير المُذْهَبة ، وكل قصر طبقتان غير الخِيَم والخركاوات . فان كان يتنقَّل من مكان إلىٰ مكان للتنزُّه وما فى معناه ، فيكونُ معه نحوُ ثلاثين ألف فارس ، وألف جَنِيب مُسْرَجَة مُلْجَمة ، مابين ملَبَّس بالذهب ومُطَوَّق وفيها المُرصَّع بالجواهر واليَواقيت .

وإن كان فى الحرب ، فإنه يركَبُ وعلىٰ رأسه سبعةُ جُتورة ، وترتيبُه فى الحرب علىٰ ما ذكره قاضى القضاة سراج الدين الهندىّ : أن يقف السلطان فى القَلْب وحَوْلَه الأئمةُ والعلماءُ ، والرُّماة قدّامَه وخَلْفه ، وتمتدّ المَيْمنةُ والميسَرةُ موصولةً بالجناحين ، وأمامه الفِيَلة الملبَّسة البركصطوانات الحديد وعليها الأبراجُ المستَّرة فيها المقاتِلةُ ، وفى تلك الأبراج منافِذُ لرمى النُّشَّاب وقَوارِيرِ النِّفْط ، وأمامَ الفِيَلة العبيدُ المُشاة فى خِفٍّ من اللّباس بالسُّتُور والسلاح ، فيسحَبُون حِبالَ الفِيَلة والخيلُ فى الميمنة والميسَرة ، تضُم أطراف ... ...(١) من حَوْل الفِيَلة ومن ورائها حتّىٰ لا يجِدَ هاربٌ له مَفَرًّا .

---

(١) بياض بالأصل ولعله تضم أطراف " الجيش من الخ " .

أما غيرُ السلطان من عساكره ، فقد جرتْ عادتُهم أنَّ الخاناتِ والملوكَ والأمراء لا يركبُ أحد منهم فى السَّفَر والحَضَر إلا بالأعلام ، وأكثرُ مايحمِلُ الخانُ معه سبعةُ أعلام ، وأقلُّ ما يحمل الأمير ثلاثةٌ ، وأكثر ما يجُرّ الخانُ فى الحَضَر عشرُ جنائبَ ، وأكثرُ مايجرُّ الأمير فى الحَضَر جَنِيبانِ ، وفى السفر يتعاطىٰ كلُّ أحد منهم قدْرَ طاقتِه .

وأما ٱتصال الأخبار بالسلطان ، فذكر قاضى القُضَاة سراجُ الدين الهندىّ : أن ذلك يختلِفُ بٱختلاف الأحوال : فأحوالُ الرعيَّة له ناس يخالِطُون الرعيَّةَ ، ويَطَّلِعُون علىٰ أخبارهم ، فمن ٱطَّلع منهم علىٰ شىء أنهاه إلىٰ مَنْ فوقه ، ويُنْهِيه الآخَرُ إلىٰ من فوقَه حتى يتَّصِل بالسلطان . وأحوالُ البلاد النائية لٱتصال الأخبار منها من السرعة ما ليس فى غيرها من الممالك ، وذلك أن بين أُمَّهات الأقاليم وبين قصر السلطان أماكنَ متقاربةً ، مشبَّهة بمراكز البريد بمصرَ والشأم إلا أن هذه الأماكنَ قريبةُ المَدىٰ بعضُها من بعض ، بين كل مكانَيْنِ نحوُ أربع غَلَوات سهم أو دُونَها ، فى كل مكان عشرةُ سُعاةٍ ممن له خِفَّة وقُوّة ، ويحمل الكتُبَ بينه وبين مَنْ يليه ، ويَعْدُو بأشدِّ ما يمكنه إلىٰ أن يُوَصِّله إلىٰ الآخر ليَعْدُوَ به كذلك إلىٰ مَقْصِده ، فيصل الكتابُ من المكان البعيد فى أقربِ وقتٍ . وفى كل مكان من هذه الأمكنَة مسجِدٌ وسُوق وبِركةُ ماء . وبين دَلِّى وقُبَّةِ الإسلام اللتين هما قاعدتا المملكة طبولٌ مرتَّبة فى أمكنة خاصَّة ، فحيثما كان فى مدينة وفُتِح بابُ الأخرىٰ أو أُغْلِق يَدُقُّ الطبل ، فإذا سمِعه مايجاوره دَقَّ ، فيُعلَمُ خبرُ فتح المدينة وفتحُ باب الأخرىٰ وغَلْقه .

الفصــــل الثــانى

من الباب الرابع من المقالة الثانية

(فى المـالك والبُلْدان الغربيَّة عن مملكة الديار المصرية، وما سامَتَ ذلك ووالاه من الجهة الشَّمالية . وفيه أربعُ ممـالك)

المملكة الأولى

(مملكة تُونُس وما أُضيف إليها . وفيه اثنتان وعشرون جملة)

الجمـــــلة الأولى

(فى بيان موقعها من الأقاليم السبعة [وحدودها])

[أما موقعُها من الأقاليم السبعة] فإن أكثرها واقع فى الإقليم الثالث ، وبعضها واقعٌ فى أواخر الثانى .

وأما حدودها فعلى ماأشار إليه فى "التعريف": حَدُّها من الشرق العَقَبة الفاصلة بينها وبين الدِّيار المصرية؛ ومن الشَّمال البحر الرُّومىّ؛ومن الغرب جزائرُ بنى مَزْغِنَّان الآتى ذكرها؛ ومن الجَنُوب آخر بلاد الجَرِيد والأرض السَّـوَّاخة إلى مايقـال إن فيه المدينةَ المسماة بمدينة النُّحاس .

قال فى "مسالك الأبصار" : وحدّها من الجنوب الصَّحراء الفاصلةُ بينها وبين بلاد جباوة المسكونة بأُمَم من السُّودان . وحدُّها من الشرق آخرُ حدود أَطْرابُلُس ، وهى داخلة فى التحديد . وحدُّها من الشمال البحر الشاميُّ : وهو الرومى . وحدّها من الغرب آخر حُدودِ بَدْليس المجاورة لجزائر بنى مَزْغِنَّان ، آخرِ عُمَالة صاحب برّ العُدْوة .

وقد نقل فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام علىٰ بُونَةَ عن آبن سعيد أنّ آخر سلطنة بِجاية من الشرق مدينةُ بُونَةَ الآتى ذكُرها، وأنها أوّلُ سلطنة أفْرِيقِيَّةَ من الغرب. قال فى "مسالك الأبصار": وطولها خمس وثلاثون يوما، وعرضها عشرون يوما.

الجمـــــلة الثانيـــــة

(فى بيان ما آشتملت عليه هـــذه المملكةُ من الأعمـــال وما آنطوىٰ عليـــه كلُّ عمل)

وهذه المملكة تشتمل علىٰ عملين :

العمل الأوّل — أفرِيقيَّة[1]. قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح الهمزة وسكون الفاء وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحت وكسر القاف ومثناة تحتُ بعـدها هاء فى الآخر. وقد آختُلف فى سبب تسميتها أفريقِيَّـة. فقيل إن أفْرِيقس[2] أحد تَبَابعـة اليمن آفتتحها وآسـتولىٰ عليها فسمِّيت بذلك. وقيل إنمـا سميت بفارق بن [بيصر بن حام بن نوح عليه السلام][3].

وكانت قاعدتُها القديمةُ (سُبَيْطَلَة) بضم السين المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون المثناة من تحتها وفتح الطاء[4] المهملة واللام وفى آخرها هاء. وهى مدينة أزليَّة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة، حيثُ الطولُ ثلاثون درجة، والعرضُ ثلاثون درجة وثلاثون دقيقة. وبها آثار عظيمة تدُلُّ علىٰ عظم أمرها.

---

(١) ضبطها ياقوت بكسر الهمزة وتبعناه فيما تقدم و يظهر أن فيه لغتين.

(٢) فى المعجم والسبائك أفريقيس بياء بعد القاف وسـين مهملة فى الآخر. وفى العبر كالأصل إلا أنه بالمعجمة وقد تقدّم بها كثيرا.

(٣) بياض بالأصل والتصحيح عن معجم البلدان لياقوت.

(٤) فى معجم ياقوت وطاء مكسورة.

قال الإدريسى : وكانت قبل الإسلام مدينةَ افريسيس (١) ملك الروم الأَفارِقَة ، فتحها المسلمون فى صدر الإسلام وقتلوا مَلِكها المذكور .

ثم صارت قاعدتُها فى أول الإسلام (القَيْرَوَان) (٢) . بفتح القاف وسكون المثناة تحتُ وفتح الراء المهملة وواو وألف وفى آخرها نون . وهى مدينة فى الإقليم الثالث أيضا حيث الطول ثمان وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة (٣) ، بنيت فى صدر الإسلام بعد فتح أفْرِيقِيَّة فى جنوبىّ جبل شمـاليِّها ، وهى فى صحراءَ ، وشُرْب أهلها من ماء الآبار وقال فى "العزيزى" : من ماء المطر ، وليس لها ماءٌ جارٍ ، ولها وادٍ فى قبلة المدينة به ماءٌ مالحٌ يستعمله الناس فيما يحتاجونه . قال فى "العزيزى" : وهى أجلُّ مُدُن الغرب (يعنى فى القديم) . وكان عليها سُور عظيم هدمه زيادةُ الله بن الأغلب . قال الإدريسى : وبينها وبين سُبَيْطِلَةَ سبعون مِيلا .

ثم صارت قاعدتُها بعد ذلك (المَهْدِيَّة) بفتح الميم وسكون الهاء وكسر الدال المهملة نسبة إلى المَهْدِىّ . وهى مدينة بناها عُبَيد الله المهدىّ جدّ الخلفاء الفاطميين بمصر فى سـنة ثلاث وثلثمائة ، وموقعها فى الإقليم الثالث أيضا من الأقاليم السبعة حيث الطولُ ثلاثون درجة وأربعون دقيقـة ، والعرض آثنتان وثلاثون درجة فيما ذكره آبن سعيد . وهى على طَرَف داخلٍ فى البحر كهيئة كفٍّ متصل بزَنْد ، والبحر محيطٌ بها غيرَ مَدْخَلِها ، وهو مكان ضيق كما فى سَبْتَةَ . ولها سُور حَصين شاهقٌ فى الهواء ، مبنىّ بالحجر الأبيض بأبراجٍ عِظَام . وبها القُصور الحسنةُ المُطِلَّة على البحر .

---

(١) فى التقويم "جرجيس" وفى المعجم جرجير .

(٢) من هنا الى الكلام على الطابقة الثانية من القياصرة قبل ظهور دين النصرانية مقابل أيضـا على قطعة وجدت بدار الكتب الأزهرية .

(٣) لم يذكر العرض ، وذكر فى "تقويم البلدان" عن ابن سعيد أنه إحدى وثلاثون درجة .

ثم صارت قاعدتَها بعد ذلك (تُونُس) بضم المثناة من فوقُ وسكون الواو وضم النون وفى آخرها سين مهملة ، وهى قاعدة هذه المملكة الآن ، ومُسْتَقَرّ سلطانها . وهى مدينة قديمـةُ البناء ، واقعة فى الإقليم الثالث قال ابن سـعيد : حيث الطولُ اثنتـان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وإحدىٰ وثلاثون دقيقة . وهى علىٰ بُحَيرة مالحة خارجةٍ من البحر الرُّومىّ ، طولُها عشرة أميال وتُونُس علىٰ آخرها .

قال البكرى : ودَوْر هذه البُحَيرة نحوُ أربعة وعشرين ميلا . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة جليلة ، لهـا مِياهٌ ضـعيفةٌ جاريةٌ يُزْرَع عليها ؛ وفيها الخصب وكثرة الغَلَّات . وهى فى وطاءةٍ من الأرض فى سَفْح جبل يُعْرف بأمّ عَمْرو ، يَسْتدير بها خَنْدقٌ وسُور حَصِين ، ولها ثلاثة أرباضٍ كبيرة من جهاتها ، وأرضُها سَبِخة ، وجميع بنائها بالحجر والآجُرّ ، وأبنيتُها مسقَّفة بالأخشاب ، ودُورُ أكابرها مفروشةٌ بالرُّخَام . وذم فى "الروض المعطار" بيوتَهـا فقال هى كما يقال : ظاهِرُها رُخَام ، وباطنُهـا سُخَام . وشُربُ أهلها من الآبار ، وببيوتها صَهارِيجُ يُجْمع فيها ماءُ المطر لغَسْل القُماش ونحوه ؛ وبها الحَمَّـامات والأسواقُ الجليلة ؛ وبها ثلاثُ مَدارِسَ : وهى الشماعيـة والفرضية ، ومدرسة الهواء ، وبها البساتين البعيدة والقريبة منها ، والبساتين محيطة بُحَيرتها المقدّم ذكرها من جنوبيها .

قال فى "مسالك الأبصـار" : ومذ خَلَا الأندَلُس من أهله ، وأوَوْا إلىٰ جَنَاح ملوكها ، مَصَّروا إقليمها ، ونَوَّعوا بها الغِراسَ ، فكثُرت مستنزَهاتها ، وامتدّ بَسِـيط بساتينها . قال : وبها يُعْمَل القُماش الأفْريقى : وهو ثياب رِفَاع من القُطْن والكَتَّان معا ومن الكَتَّان وحده ، وهو أمتع من النِّصافىّ البغدادىّ وأحسَنُ ، ومنه جُلُّ كَسَاوى أهل المَغْرب . وللسلطان بها قلعةٌ جليلة يَسْكُنها ، يُعبِّرون عنهـا بالقَصَبة كما هو

مصطلح المَغاربة فى تسمية القلعة بالقَصَبة ، وللسلطان بها بستانان : أحدهما مُلاصق أرباضَ البلد يسمَّى برأس الطابية ؛ والثانى بعيدٌ من البساتين يسمَّى بأبى فِهْر ، بينه وبين البلد نحو ثلاثةِ أميال ، والماء مُنْساق إليهما من ساقية بجبل يعرف بجبل زَغْوان بفتح الزاى وسكون الغين المعجمتين ونون فى الآخر ، على مَسِيرةِ يومين من تُونُس .

وأما ما آشتملَتْ عليه من المُدُن سوى القواعدِ المتقدِّمةِ الذكر .

فمن مشارق تونس (سُوسَةُ) بضم السين المهملة وسكون الواو وفتح السين الثانية ثم هاء . وهى مدينةٌ على ساحل البحر ، واقعةٌ فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة ، حيث الطولُ أربعٌ وثلاثون درجة وعشْرُ دقائقَ ، والعرض آثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . وهى فى جَنُوبىّ تُونُس وشرقِيِّها فى طَرَفٍ داخلٍ فى البحر . قال فى "العزيزى" : وهى مَدينة أزليَّة بها سُوقٌ وفنادق وحَمَّامات . قال الإدريسىّ : وهى عامرة بالناس ، كثيرةُ المَتاجر ، والمسافرون إليها قاصِدُون وعنها صادِرُون ، وعليها سورٌ من حجرٍ حَصِينٌ .

وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن عليها سُورا من لَبِن ، وأنها قليلةُ العِمارة لآستيلاء العرب عليها .

ومنها (صَفَاقُسُ) بفتح الصاد المهملة ثم فاء وألف وقاف مضمومة وفى آخرها سين مهملة . وهى مدينة على ساحل البحر شَرْقِىّ المَهْدِيَّة ، واقعةٌ فى الإقليم الثالث قال آبن سعيد حيثُ الطولُ خمس وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقة ، والعَرْضُ إحدى وثلاثون درجةً وخمسون دقيقةً . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة صغيرة فى مستوٍ من الأرض ، وجَنُوبِيّها جبل يسمَّى جبل السَّبْع بفتح السين المهملة

والباء الموحدة وعين مهملة فى الآخر . يستدير عليها سُورٌ، وشُرْب أهلها من الآبار، ولها بساتينُ قليلة، ومن بحرها يُستخْرَج الصُّوف المعروفُ عند العامّة بصُوف السَّمَك المتّخَذُ منه الثيابُ النَّفيسةُ . قال ابن سعيد : أنا رأيته كيف يُخْرَج، يغوص الغوّاصون فى البحر فيُخْرِجون كمائمَ شبيهةً بالبصل بأعناق، فى أعلاها زُوَيْرة، فتُنْشَر فى الشمس فتَنْفتح تلك الكمائمُ عن وَبَر، فيُمْشَط و يؤخَذ صوفُه فيُغْزَل، و يعمل منه طعمة لقيام من الحرير، وتُنْسَج منه الثيابُ .

ومنها (قابِسُ) بفتح القاف وألف ثم باء موحدة وفى آخرها سينٌ مهملة . وهى مدينة فى الإقليم الثالث، حيثُ الطولُ اثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة، على ثلاثة أميال من البحر . قال فى "العزيزى": وعليها سُور وخَنْدق . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى فى أفْرِيقيَّة كدِمَشْق فى الشام، يَنْزِل إليها نهرانِ من الجبل فى جَنُوبِيِّها، يخترقان فى غُوطَتِها . قال : وقد خُصَّت من بلاد أفريقِيَّة بالمَوْز وحَبِّ العزيز والخِيَار .

ومنها (أَطْرابُلُس) بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح الراء المهملتين وألف وباء موحدة بعدها لام مضمومتان وسين مهملة فى الآخر . وهى مدينة شرقىَّ تونُسَ على البحر، واقعةٌ فى الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيثُ الطولُ ثمانٌ وثلاثون درجة، والعرضُ اثنتان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى آخرُ المُدُن التى شرقىَّ القَيْرَوان، و إذا فارقها المسافر مشرِّقا لا يجد مدينةً فيها حَمَّام حتّى يصل الإسكَنْدرية . وبناؤها بالصَّخْر، وهى واسعةُ الكُورة، وبها الخِصْب الكثير، وليس بها ماءٌ جارٍ، بل بها جِبَاب عليها سواق . قال فى "العزيزى" : وبها مَرْسًى للمراكب .

ومنها (قَصْر أحمد) وضبطه معروف، وموقعه فى أوّل الإقليم الرابع، حيث الطُّولُ إحدى وأربعون درجة وآثنتان وعشرون دقيقة، والعرضُ ثلاثٌ وثلاثون درجة وسبعٌ وثلاثون دقيقة. قال آبن سعيد: وهو حدّ أفريقيَّةَ من الشرق وحدّ بَرْقَةَ من الغرب. وهو قرية صغيرة، وحَوْلَه قُصور نحو آثنَىْ عشر ميلا؛ وهى بلادُ زيتونٍ ونخيلٍ، وأهلها يجلُبون الخيلَ للإسْكندريَّة، ومنها يركب المسافرُ البَرِّيَّةَ إلى الشرق.

ومن مَغَارب تُونُس على مسيرة يومين (باجَةُ) قال فى "المشترَك" بفتح الباء الموحدة وألف وتخفيف الجيم ثم هاء. وهى مدينة بالإقليم الثالث قال فى "الأطوال" حيث الطولُ تسع وعشرون درجة وخمسٌ وأربعون دقيقة، والعرضُ إحدى وثلاثون درجة. وهى مدينة كبيرة، ولها بساتينُ قليلة وعيونُ ماء؛ وعليها سورٌ حصين، مبنيَّةٌ فى مستوٍ من الأرض، على نحو يوم من البحر، ويقابلها على البحر مَرْسَى الخَرَز.

ومنها (نَبْزَرْت) بفتح النون وسكون الباء الموحدة وفتح الزاى المعجمة والراء المهملة وفى آخرها تاء مثناة من فوق، وقيل هى بتقديم الموحدة على النون. وهى مرسى تُونُس، وموقعها فى الإقليم الثالث قال آبن سعيد حيث الطولُ ثلاثون درجة وخمسون دقيقة، والعرضُ ثلاث وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقةٌ. وهى مدينة على نهرٍ يجرى فى شَرْقيِّها وعليه مستنْزَهاتها. قال فى "تقويم البُلْدان": ولها بُحَيْرة حُلْوة فى جَنُوبيِّها، وبُحَيْرة مالحةٌ فى شرقيِّها، تَصُبُّ كلُّ واحدة منهما فى الأخرى ستةَ أشهر، فلا الحلوةُ تفسُد بالمالحة ولا المالحة تعْذُب بالحُلْوة. قال الشيخ عبد الواحد: أما زيادة الحُلْوة فبكثرة السُّيول أيامَ الشتاء، وتقلُّ عنها السيولُ فى أيام الصيف فتَعْلُو عليها المالحة.

ومنها (بُونة) قال فى "اللباب" بضم الباء الموحدة وسكون الواو ثم نون وهاء . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى المسمّاة الآنَ بَلَدَ العُنّاب، وهى مدينة على ساحل البحر فى أول الإقليم الرابع قال ابن ســعيد حيث الطولُ ثمـان وعشرون درجة ، والعرضُ ثلاثٌ وثلاثون درجةً وخمسون دقيقة . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة جليـلة عامرةٌ خِصْبةُ الزَّرع ، كثيرةُ الفواكه ، رَخِيَّة ؛ بظاهرها مَعادِنُ الحديد ؛ ويُزْرَع بها الكَتَّان الكثيرُ . قال : وحَدَث بهـا عن قريب مَغَاصُ مَرْجانٍ، ولكن ليس كَمَرجانِ مَرْسَى الخَرَز .

ومن قِبْلىّ تُونُس للجَنُوب (بلادُ الجَرِيد) .

ومنها (تُوزَرُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" عن الشيخ عبد الواحد : بضم المثناة من فوقُ وسكونِ الواو وفتح الزاى المعجمة وراء مهملة فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الثالث قال ابن سـعيد حيثُ الطولُ ستٌّ وثلاثون درجة وسبعُ دقائقَ ، والعرضُ تسـعٌ وعشرون درجة وثمـانُ دقائقَ . وهى قاعدة بلاد الجَرِيد ، وبها بساتينُ ومُحْمَضات ونخيلٌ وزيتونٌ ؛ ولهـا نهر يَسْقِى بساتينها ؛ والمطر بها قليل ؛ ويُزْرَع بها الكَتّان والحِنّاء . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبذلك وبِقِلّة المطر تُشْبِه مِصْرَ . وقد عابها فى "الروض المِعْطار" بأن أهلها يبيعون ما يتحصّل فى مَرَاحِيضهم من رَجِيع النـاس ، يُفَحِّلون به بُقُولهم وبساتينهم ؛ ولكنهم لا يَرْغَبون فيـه إلا إذا كان جافًّا ، فيحمِلُهم ذلك على عَدَم الاستنجاء فى مَرَاحِيضهم ، ويخرج أَحَدُهم من بيته حتّى يأتى القَناةَ فيستَنْجِىَ من مائها ؛ وربمـا اتَّخذ أحدُهم المراحيضَ على قارعة الطريقِ للواردين عليها ليأخُذ ما يتحصَّلُ من ذلك فيبيعَه .

ومنها (قَفْصَةُ) بفتح القاف وسكون الفاء ثم صاد مهملة وهاء فى الآخر . وموقِعُها فى الإقليم الثالث قال فى "الأطوال" حيث الطولُ إحدىٰ وثلاثون درجةً، والعَرْضُ ثلاثون درجةً وخمسون دقيقةً . قال ابن سعيد : وهى قاعدةٌ مشهورةٌ من بلاد الجَرِيد بها النَّخيل والفُسْتُق . قال : ولا يكون الفُسْتُق ببلاد المَغْرب إلا فى قَفْصَةَ . وبها من الفَوَاكه والمشمومات أنواع كثيرة ؛ ومنها يُجْلَب دُهْن البَنَفْسَج وخَلُّ العُنْصُل ؛ وإليها يُنْسَب جلدُ الأَرْوىٰ المتخذُ منه النِّعال الشديدةُ اللُّيُونة .

ومنها (المَسِيلة) قال فى "تقويم البُلْدان" عن الشيخ عبد الواحد : بكسر الميم والسين المهملة وسكون المثناة من تحت وفى آخرها لام ألف، والجارى علىٰ الألْسِنة فتح الميم وهاء فى الآخر . وهى مدينة من بلاد الجَرِيد، موقعُها فى الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيثُ الطولُ ثلاث وعشرون درجة وأربعون دقيقة ، والعرضُ تسعٌ وعشرون درجةً وخمس وأربعون دقيقةً . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة مُحْدَثة ، بناها القائمُ الفاطمىُّ سنةَ خمسَ عشرةَ وثلثمائة . قال ابن سعيد : ولها نَهر يمُرّ بغربِيِّها ويغُوص فى رِمال الصَّحارىٰ .

ومنها (بِسْكَرَةُ) قال فى "اللباب" بكسر الباء الموحدة وقيل بفتحها وسكون السين المهملة وكاف وراء مهملة بعدها هاء . وهى مدينة من بلاد الجَرِيد ، فى أواخر الإقليم الثانى قال ابن سعيد حيثُ الطولُ أربع وعشرون درجةً وخمس وعشرون دقيقة ، والعرضُ سبع وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً . قال ابن سعيد : وهى قاعدةُ بلاد الزَّاب ، ولها بلادٌ ذاتُ نخيل وفواكه وزروع كثيرة ؛ ومنها يُجْلَب الثمرُ الطيِّب إلىٰ تونُس وبِجاية .

ومنها (طُرّا) قال فى "تقويم البُلْدان" عن عبد الواحد : بضم الطاء وتشديد الراء المهملتين وفى آخرها ألف ، ونُقِل عن بعضهم إبدال الألف هاءً . وهى مدينة من بلاد الجَرِيد فى الإقليم الثالث قال ابن سعيد : حيث الطولُ سبع وثلاثون درجةً وعشرون دقيقــة ، والعرضُ تسعٌ وعشرون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها يُعْمَل الزُّجَاج الصافِى وتفاصيل الصوف، ومنها يُجْلَب إلى الإسكندرية .

ومنها (غَدَامِسُ) بفتح الغــين والذال المعجمتــين(١) وألف وميم مكسورة وسين مهملة . وهى مدينة فى الصحراء جَنُوبىّ بلاد الجَرِيد، علىٰ طريق السُّودان المعروفين بالْكانِم . قال : فى "العزيزى" : وهى مدينة جليلة عامرة، فى وَسَطها عينٌ أَزَلِيَّة عليها أثَرُ بُنْيانٍ رُومىٍّ عجيب، يَفِيض المــاءُ منها ويقتسمُه أهــلُ المدينة بأقساط معلومة وعليه يَزْرَعون . وأهلها قوم من البربر مسلمون . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها الجلود المفَضَّلة؛ وليس لهم رئيس سِوىٰ مشايخهم .

ومنها (قلعة سِنَان) . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو قصر لا يُعْرَف علىٰ وجه الأرض أحصَنُ منه ، علىٰ رأس جبل منقطِع عن سائر الجبال فى غاية العُلُوّ، بحيث يقصُر سهــم العَقَّار عن الوصول إليه، يرتقىٰ إليــه من سُــلَّم نُقِر فى الحجر طوله مائة وتسعون درجة؛ وبه مَصَانِــعُ يجتمع فيها ماء المطر ، وبأســفله عينُ ماء عليها أشجار كثيرةُ الفواكه .

---

(١) أوردها ياقوت باهمال دالها ونص علىٰ فتح الغين وضمها ونحوه فى القاموس .

العمـــــل الثـانى

(بلاد بِجَـايَةَ)

وبِجَايَةُ بكسر البـاء الموحدة وفتح الجيم وألف ثم ياء مثناة تحت وهاء فى الآخر مدينةٌ من مُدُن الغرب الأوسط ، واقعةٌ فى أوائل الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ٱبن سعيد : حيثُ الطولُ ٱثنتان وعشرون درجة ، والعرضُ أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : هى قاعدة الغَرْب الأوسط ، وهى مُقَابِل طُرْطُوشـةَ من الأنْدَلُس ، وعرضُ البحر بينهما ثلاثُ مَجَارٍ . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينـةٌ قديمة مسوَّرةٌ ، أضيف إلىٰ جانبهـا رَبَض أُدِيرعليـه سُور ضامٌّ لِنِطاق المدينـة فصـارا كالشىء الواحد . قال : والرَّبَض فى وَطاءَة ، والمدينة القديمة فى سَفْح جبل ، يدخل إليها خَوْر من البحر الرومىّ تدخُل منـه المراكب إليها . قال فى "تقويم البُلْدان" : ولها نَهَر فى شرقيها ، علىٰ شاطئه البساتينُ والمَنَازِهُ . قال فى "مسالك الأبصار" : وبها عينان من المـاء : إحداهما كبيرة ومنها شُرب أهلها ، ولها نَهَر جار علىٰ نحو ميلين منها ، تَحُفُّ به البساتينُ والمناظرُ علىٰ ضَفَّتيه ممتدّة نحوَ ٱثنَىْ عشرَ ميلا ، متصـلا بعضُها ببعض لا ٱنفصالَ بينهـا إلا ما يُسْلَكُ عليـه إلىٰ البساتين ، إلىٰ أن يَصُبَّ فى بحر الروم . وبضَفَّتيْـه للسلطان بُستانانِ متقابِلان شرقًا وغربا الشرقىّ منهما يسمّى الربيع .

وغربىّ بجاية (جزائرُ بنى مَزْغِنَّانَ) بفتح الميم وسكون الزاى وكسر الغين المعجمتين ثم نونان بينهـما ألف الأولىٰ منهما مشدّدة ، كما فى "تقويم البُلْدان" عن الشـيخ شُـعَيب ، وبعضهم يُسْقِط النون الأخيرة . وفى "مسالك الأبصار" : مَزْغِنَّانَةَ بزيادة هاء فى الآخر . وهى فُرْضَةٌ مشهورةٌ هناك . قال فى "مسالك الأبصار" :

وهى بلدة حسنةٌ على ساحل البحر، تقابل (مَيُورْقَةَ) من بلاد الأندَلُس، بانحراف يسير، وبُعْدُها عن بجاية ستةُ أيام .

ومن المُدُن التى بأعمـال البِجَاية (قُسْطِينةُ) قال فى "تقويم البُلْدان": بضم القاف وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون المثناة من تحتُ ثم نون وهاء . قال : وعن بعض المتأخرين أن بعـد السين وقبلَ الطاء نونا، وحينئذ فتكون بضم السـين وسكون النون . وهى مدينة من الغرب الأوسط فى أواخر الإقليم الثـالث قال ابن سـعيد حيثُ الطولُ ستٌّ وعشرون درجة وأربعون دقيقـةً، والعرضُ ثلاثٌ وثلاثون درجةً واثنتان وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى علىٰ آخر مملكة بِجَايةَ وأوّلِ مملكة أفْرِيقِيَّـةَ . قال الإدريسىّ: وهى علىٰ قطعة جبل منقطع مربَّعٍ فيه بعضُ استدارة، لايُتوصَّل إليه إلا من جهة بابٍ فى غربيِّها ليس بكثير السَّعَة، ويُحيط بها الوادى من جميع جهاتها . قال فى "تقويم البُـلْدان": ولها نَهَر يَصُبُّ فى خَنْـدَقِها يُسْمَع له دَوِىٌّ هائل، ويُرىٰ النهر فى قعر الخَنْدَقِ مثلَ ذُؤابة النجم لشدّة ارتفاع البلد عن الخَنْدق . قال الإدريسىّ : وهى مدينة عامرة، وبها أسواق وتِجَاراتٌ . قال : وتُقِيم الحنطةُ فى مَطَامِيرها مائةَ سنة لا تَفْسُد .

وشرقىّ قُسْطِينةَ فى آخر مملكة بِجاية (مَرْسىٰ الخَرَز) بفتح الخـاء المعجمة والراء المهملة وزاى معجمة فى الآخر . ومنه يستخرج المَرْجانُ من قعر البحر علىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ الأحجار النفيسة فيما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه من المقالة الأولىٰ .

ومنها (سَطِيفُ) بفتح السين وكسر الطاء المهملتين ثم ياء مثناة من تحت ساكنة بعدها فاء . وهى مدينة من الغرب الأوسط فى الإقليم الثالث قال فى "الأطوال" حيثُ الطولُ سبع وعشرون درجةً، والعرضُ إحدىٰ وثلاثون درجةً . وهى مدينة

حَصينة، بينها وبين قُسْطِينة أربعُ مراحل، ولها حِصْن فى جهة الجنوب، عن بِجاية على مرحلتين منها، ولهـا كُورَة تشـتمل على قُرًى كثيرةٍ غزيرة المياه كثيرة الشـجر المُثْمِر بضروب من الفواكه، وبها الجَوْز الكثير، ومنها يُحْمَل إلى سائر البلاد.

ومنها (تَاهَرْتُ) ـ قال فى "اللباب": بفتح التاء المثناة فوقُ وألف وهاء وسكون الراء المهملة وفى آخرها تاء ثانية. قال فى "تقويم البُـلْدان": ونقلتُ من خط ٱبن سـعيد عوض الألف ياء مثناة تحتُ قال وهو الأصح لأن ٱبن سـعيد مَغْربىّ فاضلٌ. وهى مدينـة من الغربِ الأوسط، وقيـل من أفْرِيقِيَّةَ فى الإقليم الثالث قال فى "الأطوال" حيث الطولُ خمس وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً، والعرضُ تسعٌ وعشرون درجة. قال ٱبن حوقل: وهى مدينة كبيرةٌ خِصْبة، كثيرةُ الزَّرْع، كانت قاعدةَ الغرب الأوسط وبهـا كان مُقَام مُلوك "بنى رُسْـتُم" حتى ٱنقرضت دولتُهم بدولة الفاطميين خُلَفاء مصر. وذكر الإدريسىُّ أنها كانت فى القديم مدينتين: القديمةُ منهما على رأس جبل ليس بالعالى. قال فى "العزيزى": وتاهَرْتُ القديمةُ تسمَّى "تاهَرْتَ عبدالخالق" وهى مدينة جليلة كانت قديما تسمَّى "بغداد المَغْرِب" وتاهَرْتُ الجديدة على مرحلة منها، وهى أعظم من تاهَرْتَ القديمة، والمياه تخترق دُورَ أهلها. وهى ذاتُ أسواق عامرة، وبأرضها مَزارعُ وضِيَاع جَمَّة، ويمرّ بها نَهَر يأتيها من جهة المغرب، ولها نهر آخَرُ يجرى من عيون تجتمع فيه، منه شُرْب أهلها، وبها البساتينُ الكثيرةُ المُونِقة، والفواكه الحسنةُ، والسَّفَرْجل الذى ليس له نظير: طَعْمًا وشَمًّا، ولها قلعة عظيمة مُشْرِفة على سُوقها. وتاهَرْتُ كثيرة البَرْد، كثيرة الغُيوم والثَّلْج، وسُورها من الحَجَر، ولها ثلاثة أبواب (١): باب الصَّفَا، وهو باب الأَنْدَلُس، وباب النازل، وباب المَطَاحن.

(١) فى "المعجم" أربعة أبواب باب الصفا وباب الأندلس الخ.

وأما الطريق الموصــل إليها ، فقد ذكر صاحب "الذيل" على كامل آبن الأثير في التــاريخ عن ايدغدى التليــلي وايدغدى الخُوارزمى ، حين توجها رسولَيْن إلىٰ الغرب في ســنة ست وسبعمائة : أن من إسكندرية إلىٰ طُلْمَيْثا ، ومنها إلىٰ سُرْت ، ومنها إلىٰ سَرَاتة ، ومنها إلىٰ طهجُورة ، ومنها إلىٰ طَرَابُلُس ، ومنها إلىٰ قابِس ، ومنها إلىٰ صَفَاقُس ، ومنها إلىٰ المَهْدِيَّة ، ومنها إلىٰ سُوسة ، ومنها إلىٰ تُونُس .

وأما طريقها في البحر ، فمن إسكندرية إلىٰ تُونُس .

الجمـــــلة الرابعــــة

(في ذكر زُرُوعها ، وحُبُوبها ، وفواكهها ، وبُقُولها ، ورَيَاحينها)

أما زُرُوعها ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أنها تُزْرَع علىٰ الأمطار ، وأن بها من الحبوب القمحَ ، والشعير ، والحِمَّص ، والفُولَ ، والعَدَس ، والذُّرَة ، والدُّخْن ، والجُلْبان ، والبِسِلَّا ، وآسمها عندهم البسين . أما الأُرُزُّ فمجلوب إليها .

وأما فواكهها ، فبها من الفواكه العنبُ والتين ، كل منهما علىٰ أنواع مختلفة والرُّمَّان : الحُلْو والمزُّ والحـامض ، والسَّفَرْجَل ، والتُّفَّاح ، والكُمَّثْرَى ، والعُنَّاب ، والزُّعْرُور ، والخَوْخ ، والمِشْمِش علىٰ أنواع ، والتُّوت الأبيض ، والفِرْصاد ، وهو التُّوت الأسودُ ، والقَرَاصِيا ، والزَّيتونُ ، والأُتْرُجُّ ، واللَّيمون ، والليم ، والنارَنْج . أما الجوز بها فقليل ، وكذلك النَّخيل ، والفُسْتُق ، والبُنْدُق مفقودٌ بها وكذلك المَوْز . قال في "مسالك الأبصار" : وبها فاكهة تسمَّى مصغ فوق قدر البُنْدُقة ، لونُها بين الحُمْرة والصُّفْرة ، وطَعْمها بين الحُمُوضة والقَبْض شبيهٌ بطعم السَّفَرْجل ، يُوجد في الشتاء ، يقطف من شجره غَضًّا فيدفن ، ويثقَّل كما يُفْعَل بالمَوْز فينْضَج ويؤكل

حينئذ . ويُوجَد بها قَصَب السُّكَّر علىٰ قِلَّة ولا يُعْتَصَر بها . وبها البِطِّيخ الأصفر علىٰ أنواع ، والبطيخ الأخضر مع قِلَّة ، واسمه عندهم الدُّلاع ، وكذلك الخِيَار والقِثَّاء . وبها اللُّوبيا ، واللِّفْت ، والباذِنْجان ، والقُنَّبيط ، والكُرُنْب ، والرِّجْلة ، والبَقْلة اليمانِيَة ، واسمها عندهم بلندس ، والخَسّ ، والهِنْدِبَاء علىٰ أنواع ، وسائر البُقُول والمُلُوخيا علىٰ قِلَّة ، والهِلْيَوْن ، والصَّعْتَر .

وبها من الرَّيَاحين الآس ، والوَرْد ومعظمه أبيض ، والياسَمين ، والنَّرْجس ، واللَّيْنوفر الأصفر والتُّرُنْجاني ، والمنثور ، والمَرْزَنْجُوش ، والبَنَفْسَج ، والسَّوْسَن ، والزَّعْفَران ، والحَبَق ، والنَّمَّام .

الجملة الخامسة

(في مواشيها ، ووُحُوشها ، وطيورها)

أما مواشيها ، ففيها الخيل العِرَاب المشابهة لخيل بَرْقَة ، والبغال ، والحمير ، والإبل ، والبقر ، وغنم الضأن والمَعَز .

وأما وحوشها ، ففيها الغِزْلان ، وبقر الوَحْش وحُمُره ، والنَّعام ، وغير ذلك .

وأما طيورها ، ففيها الدَّجَاج ، والحَمَام كثيرا ، والإوَزّ بقِلَّة ، وبها الكَرَاكيّ ، وهي صَيْدُ الملوك كما بمصر ، وكذلك غيرها من طُيور الصيد .

الجملة الســادســـة

(فيما يتعلق بمعــاملاتهــا : مــن الدنانير ، والدراهم ، والأرطال ، والمكاييل ، والأسعار)

أما الدنانير ، فإنها تُضْرَب باسم مَلِكهم ، وزِنةُ كلِّ دينار من دنانيرهم (١) ... ... ويعبِّرون عنه بالدينار الكبير ، وذهبهم دُونَ الذهب المصرىّ فى الجَوْدة ، فهو ينقُص عنه فى السِّعر .

وأما الدراهم ، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن أبى عبد الله بن القُوَيع : أن دراهمهم على نوعين : أحدهما يُعْرَف بالقديم ، والآخر بالجديد ؛ ووزنهـــما واحد إلا أن الجديد منهما خالصُ الفضَّـــة والقـــديمَ مغشوشٌ بالنُّحاس للعاملة ، وتفاوُتُ ما بينهما أنَّ كل عشرة دراهِم عتيقة بثمانية دراهم جديدة ؛ وإذا أُطْلِق الدرهمُ عندهم فالمراد به القديمُ دونَ الجديد ؛ ثم مُصْطَلَحُهم أن كل عشرة دراهم عتيقـــة بدينار ، وهذا الدِّينار عندهم مسمًّى لا حقيقةَ له ، كالدينار الجَيْشى بمصر ، والرائج بإيران .

وأما أرطالها ، فزنة كلِّ رِطْل ستَّ عشرةَ أوقيةً ، كل أُوقيَّة أحد وعشرون درهما من دراهمها .

وأما كيلها ، فلهم كيلان : أحدهما يســمَّى القفيزَ ، وهو ستَّ عشرة وَيْبةً ، كل وَيْبـــة اثنا عشر مُدًّا قَرَوِيًّا ، وهو يقارب المُدّ النبوىّ ، على صاحبه أفضل الصـــلاة والسلام والتحية والإكرام . وهو أيضا ثمـــانية أمدادٍ بالكيل الحَفْصِىّ : وهو كيل قدَّره ملوكها الحَفْصِيُّون : آباء ملوكها القائمين بها الآنَ ، بقدر مُدّ ونصف من المدّ المقدّم ذكره . والثانى يسمَّى الصَّحْفة ، وكل صَحْفة اثنا عشر مُدًّا بالحَفْصِىّ .

(١) بياض بأصلى المكتبة الخديوية والمكتبة الازهرية .

الجملة السابعة

(فى ذكر أسعارها)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن أوْسَطَ الأسعار بها فى غالب الأوقات أن يكون كلُّ قفيز من القمح بخمسين درهما ، والشعيرُ دون ذلك . قال : وغالب سعر اللحم الضأن عندهم كُلُّ رِطْل أفْرِيقىّ بدرهم قديم ، وبقيَّةُ اللحوم دُونَه فى القيمة ، وفى الرَّبيع يحطُّ السِّعْر عن هذا القدر . وذكر أن الدَّجاجة الجَيِّدة عندهم بدِرْهمين جديدين . ثم قال : وأحوالُها مقاربة فى ذلك للديار المِصْرية لقرب المجاوَرَة . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن تُونُس وبِجاية فى المعاملة والسعر متقاربتان .

الجملة الثامنة

(فى صفات أهل هذه المملكة فى الجملة)

قال فى "مسالك الأبصار" : ولأهل أفْرِيقِيَّة لطفُ أخلاق وشمائلَ بالنسبة إلىٰ أهل برِّ العُدْوة وسائرِ بلاد المغرب : بمجاورتهم مصر وقُرْبهم من أهلها ، ومخالطتهم إيَّاهم ، ومخالطةِ مَنْ سكن عندهم من أهل إشْبِيلِيَةَ من الأَنْدَلُس . وهُمْ مَنْ هُمْ ! خِفَّةَ رُوح ، وحلاوةَ بادرةٍ . قال : وهم علىٰ كل حال أهلُ انْطباع ، وكرم طِبَاع ، وناهيك من بلاد من شِعْر مِلكها السلطان أبى العبَّاس قولُه :

مَوَاطِنُنَا فى دَهْرِهِنّ عجائبُ * وأزمانُنَا لم تَعْدُهُنَّ الغَرائبُ
مَوَاطِنُ لم تَحْكِ التواريخُ مِثْلَها * ولا حدّثَتْ عنها اللَّيالِى الذواهِبُ

وقوله :

أُنْظُر إلينـا [تجِدْنا] مابنا دَهَشٌ، * وكيف يَطْرُق أُسْدَ الغابة الدَّهَشُ؟
لاتَعْرِفُ الحادِثَ المرْهُوبَ أنفُسنا! * فاننـا بارتكاب المـوت نَنْتَعِشُ!

وقوله :

عسىٰ اللهُ يُدْنِي للمُحبِّين أَوْبةً * فتُشْفىٰ قلوبٌ منهـمُ وصُــدُورُ
وكَمْ من قَصِيِّ الدارِ أمْسىٰ بحُزْنه، * فأعْقَبه عنــد الصَّباح سُرُورُ

وإذا كان هذا رِقَّةَ طبع السلطان، فما ظَنُّك بغيره من العلماء والأُدَباء؟.

الجملة التاســـعة

(فى ذكر مَنْ ملكها جاهليَّةً وإسلاماً)

أما مُلوكُها فى الجاهليَّة قبل الإسلام، فإن بلاد المَغْرِب كلَّها كانت مع البَرْبر، ثم غلبهم الرُّوم الكيتم عليها، وآفتتحوا قاعدتها (قَرْطَاجَنَّة) وملكوها، ثم جرىٰ بين الرُّوم والبربر فِتَنٌ كثيرة كان آخِرُها أنْ وقَع الصُّلحُ بينهم علىٰ أن تكون المُدُن والبِلاد الساحِليَّة للرُّوم، والجبالُ والصَّحارىٰ للبَرْبَر؛ ثم زاحم الفَرَنْجُ الرُّومَ فى البلاد، وجاء الإسلام والمستوْلِي علىٰ بلاد المغرب من ملوك الفَرَنْجة "جِرْجِيس" ملكهم، وكان مُلْكه متصــلًا من طَرابلُس من جهــة الشرق إلىٰ البحر المحيط من جهة الغرب، وكرسىّ مُلْكه بمدينة (سُبَيْطَلَة)، وبقيتْ فى يده حتى آنتزعها المسلمُونَ منه فى سَرِيَّة عبدِ الله بن أبي سَرْح، فى خلافة عثمانَ بنِ عفَّان.

وأما ملوكها فى الإسلام، فعلىٰ أربع طَبَقات :

الطبقـــة الأولىٰ

(الخلفـاء)

قد تقدّم أنَّ أوّل من آفتتحها (عبدُ الله بن أبى سَرْح) فى خلافة عُثْمان بن عَفَّان رضى الله عنه، زحف إليها فى عشرين ألفًا من الصحابة وكِبار العرب، ففرّق جموعَ النَّصرانية الذين كانوا بها : من الفَرَنجة، والروم، والبربر، وهَدَم سُبَيْطَلَة : قاعدتَها وخرّبها، وعاثت خُيُول العرب فى ديارهم إلىٰ أن صالحُوا عبدَ الله بن أبى سَرْح بثلثمائة قنطار من الذهب، وقَفَل عنهم سنة سبع وعشرين من الهجرة، بعد فتح مصر بسبْع سنين او ثمانٍ .

ثم أغزاها معاويةُ بنُ أبى سُفْيان (مُعاويةَ بن حديج السَّكُونى) سنة أربع وثلاثين .

ثم ولّى معاويةُ (عقبةَ بنَ نافع) بنِ عبد قيس الفِهْرىّ سنة خمس وأربعين، فبنىٰ عُقبةُ القَيْروانَ .

ثم آستَعْمل معـاويةُ على مصر وأفريقيَّـةَ (مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد) فعزل عقبـةَ عن أفريقيَّة، وولى عليها (مولاه أبا المُهاجِر دينارا) سنة خمس وخمسين . ولمـا آستقلَّ يزيدُ بن معاوية بالخلافة، رجع عقبةُ بنُ نافع إلىٰ أفْرِيقيَّة سنة ثنتين وستين .

[ثم ولَّى عبدُ الملك بن مَرْوان عليها زُهَيْرَ بنَ قيس البَلَوىَّ فى سـنة سبع وستين إلىٰ أن قُتِل فى سـنة تسع وستين فولّى عليها][(١)] (حَسَّان بن النعمان) الغَسَّانى، فسار ودخل القَيْرَوانَ، وآفتتح قَرْطَاجَنَّةَ عَنْوة وخَرَّبهـا، فخرجت عليـه الكاهِنةُ مَلِكة

(١) الزيادة عن آبن الأثير فى مواضع منه ليستقيم الكلام .

الغرب فهزمَتْه ، ثم عاد إليها وقتلها ، وآستولىٰ علىٰ بلادها [ثم رجع إلىٰ عبد الملك وآستخلف علىٰ أفريقية رجلا آسمه صالح .

ثم ولّى الوليد بن عبدالملك] (١) (موسىٰ بن نُصَير) بضم النون ، فقَدِم القَيْروانَ وبها صالحٌ . ثم قفل موسىٰ إلىٰ المَشْرِق وآستخلف علىٰ أفريقيَّة آبنه عبد الله .

ثم عزله سليمانُ بنُ عبد الملك فى خلافته ، وولّى مكانه (محمد بن يزيد) .

ثم ولّى عمرُ بن عبد العزيز فى خلافته (إسماعيلَ) بن عبيد الله بن أبى المهاجر .

ثم ولّى يزيدُ بن عبد الملك (يزيدَ بن أبى مُسْلم) مولىٰ الحجاج وكاتبه ، فقَدِمها سنة إحدىٰ ومائة فقتله البربرُ ، وردُّوا محمدَ بن يزيد الذى كان عليهم قبله إلىٰ ولايته ، وكتبوا إلىٰ يزيدَ بن عبد الملك بذلك فأقرّه عليهم .

ثم ولّى يزيدُ بن عبد الملك (بشرَ بن صَفْوانَ الكَلْبىّ) فقَدِمها سنة ثلاث ومائة ، ومات سنة تسع ومائة .

ثم عزله هشامُ بنُ (٢) عبد الملك ، وولّى مكانه (عُبَيْدةَ بنَ عبد الرحمن السُّلَمىّ) فقَدِمها سنةَ عشر ومائة ، ثم عزل هشام عُبيدةَ ، وولّى مكانه (عبدَ الله بن الحَبْحاب) مولىٰ بَنى سَلُول ، فقدِمها سنة أربعَ عشْرةَ ومائة ، وبنى جامع تُونُس ، وآتخذ بها دارَ الصِّناعة للمراكب البحريَّة .

ثم عزله هشامُ بن عبدالملك وولّى مكانه (كُلْثومَ بنَ عِياض) ثم قُتل فبعث هشام آبن عبدالملك علىٰ أفريقيَّة (حنظلةَ بن صَفْوانَ الكلبى) فقدِمها سنة أربع وعشرين

---

(١) الزيادة عن آبن الاثير .

(٢) كذا فى "العبر" أيضا وعبارة "الكامل" فاستعمل هشام بعده عبيدة الخ وهو المناسب .

ومائة ، فخرج عليه (عبد الرحمن بنُ حبيب) سنةَ ستٍّ وعشرين ومائة ، فقفل حنظلةُ إلى المشرق سنة سبع وعشرين ، وآستقل عبد الرحمن بملك أفريقيَّة .

وولِيَ مَرْوان بن محمد آخِرُ خلفاء بنى أمية ، فكتب له بوِلَايتها .

ثم كانتْ دولة بنى العَبَّاس فأقرّه عليها السَّفّاح ، ثم المنصورُ ، ثم قُتِل سنة سبع وثلاثين لعشر سنين من إمارته وآشترك فى إمارتها (حبيبُ بن عبد الرحمن ، وعمُّه عمران بنُ حبيب ، وأخوه إلياسُ بنُ عبد الرحمن) ثم قتله عبد الملك بن ابى الجعد ثم غلب عليها (عبد الأعلى بن السَّمْح المَعَافِرى) .

ثم ولَّى أبو جعفر المنصورُ (محمدَ بن الأشعث) الخُزَاعى ، فقدِم القيْروانَ سنة خمس وأربعين ومائة ، وبنى سُورها .

ثم ثارت عليه المُضَرِيَّة وأخرجوه منها سنة ثمان وأربعين ، وولَّوْا عليهم (عيسى بن موسى) الخُراسانى .

ثم وَلَّى أبوجعفر المنصورُ عليها (الأغلبَ بنَ سالم) بن عقال بن خفاجةَ بن سَوَادةَ التميمى بعده ، فقدم القيْروانَ وسكَّن الناس ، ثم قُتل سنة خمسين ومائة ، وقام بأمر أفريقيَّةَ المخارق بن غفار .

ولما بلغ المنصورَ قتْلُ الأغلب ، بعث مكانَهُ عمرَ بن حفص بن قَبِيصة ، ابن أبى صُفْرة التميمى أخى المهلَّب ، فقدمها سنة إحدى وخمسين . ثم آنتقضت عليه البربر فضَعُف أمرُه ، فولَّى (يزيدَ بنَ حاتم) بن قَبِيصة بن المهلب ، آبن أبى صفرة التميمى ، ودخل القيْروانَ منتصَفَ سنة خمس وخمسين ، وهلك سنةَ سبعين ومائة فى خلافة هرون الرشيد ، وقام بأمره بعده آبنُه (داود) .

ثم ولّى الرشيدُ أخاه (رَوْحَ بن حاتم) فقدمها منتصفَ سنة إحدىٰ وسبعين ومائة، ومات فى رمضان ســنة أربع وسبعين ، فقام حبيبُ بن نصر مكانه ، وســار ابنه (الفضلُ) إلىٰ الرشيد فولّاه مكان أبيه، فعاد إلىٰ القَيْروان فى المحرَّم سنة سبع وسبعين ومائة، ثم قتله ابنُ الجارُود فى منتصَف سنة ثمان وسبعين ومائة فولّى الرشيد مكانه (هَرْثمَةَ بن أعْيَن) فسار إلىٰ القَيْروان، وقَدِمها سنة تسع وسبعين ومائة، ثم استعفىٰ فأعفاه الرشيدُ لسنتين ونصفٍ من وِلَايته .

وولّى مكانه (محمدَ بن مقاتل الكَعْبى) فقدِم القَيْروانَ فى رمضان ســنة إحدىٰ وثمانين، وكان سيِّئ السيرة .

ثم ولّى الرشيد (إبراهيمَ بن الأغلب) فقدم أفريقِيَّة منتصَفَ سنة أربع وثمـانين ومائة، وابتنىٰ مدينــة العَبَّاسيَّة بالقُرب من القَيْروان وانتقل إليهـا . وفى ولايتــه ظهرتْ دعوةُ الأدَارِســة من العَلَويَّة بالمغرب الأقصىٰ . ثم مات إبراهيم فى شــوّال سنة ست وتســعين ومائة بعد أن عهد لابنه أبى العَبَّاس (عبدِ الله بن إبراهيم) بن الأغلب بالولاية ، فقدِم القَيْروانَ فى صفر سنة سبع وتســعين ومائة . ثم مات فى ذى الحجة سنة إحدىٰ ومائتين .

ووَلِى مكانَهُ أخوه (زيادةُالله بن إبراهيم) وجاءه التقليد من قِبَل "المأمون"، وفى ولايته كان ابتداء فتح صِقِلِّيَّةَ علىٰ يد أسَد بن الفُرات، وتُوُفِّى فى رجب سنة ثلاث وعشرين ومائتين لإحدىٰ وعشرين سنةً ونصفٍ من ولايته .

ووَلِىَ مكانَهُ أخوه (أبو عِقال الأغلبُ) بن إبراهيم بن الأغلب، وتوفى فى ربيع سنة ست وعشرين ومائتين .

وولِيَ بعده ٱبنـه (أبو العَبَّاس محمد بن الأغلب بن إبراهيم) فدانتْ له أفريقيَّةُ ، وبنىٰ مدينـةً بقُرْب تاهَرْتَ وسَمَّاها العباسـيَّة ، سنة سبع وثلاثين ومائتين ، وبنىٰ قصر سُوسَةَ وجامِعَها سنة ست وثلاثين ومائتين ، وتوفى سنة ثنتين وأربعين .

وولى مكانَه ٱبنُـه أبو إبراهيم (أحمدُ بن أبى العباس محمد بن الأغلب) فأحسن السـيرة ، وكان مُولَعا بالعِمارة ، فبنىٰ بأفريقيَّـة نحوا من عشرة آلاف حصن ، وتُوفِّيَ آخِرَ سنة تسع وأربعين لثمـانِ سنينَ من وِلَايته .

وولِيَ مكانه ٱبنُـه (زيادةُ الله الأصغرُ) بن أبى إبراهيم أحمد ، وتوفى آخِرَ سـنة خمسين ومائتين .

وولى مكانه أخوه (محمد أبو الغَرَانيق) بنُ أبى إبراهيم أحمـد ، ففتح جزيرة مالِطةَ سنة خمس وخمسين ومائتين ، وبنىٰ حُصُونا ومَحَارِس علىٰ مسيرة خمسةَ عشَر يوما من بَرْقةَ فى جهـة المغرب وهى الآن معروفة به . وفى أيامه كان أكثَرُ فُتوح صِقلِّيَّةَ . فلمـا مات حمل أهلُ القَيْروان أخاه إبراهيمَ بن أحمد أخى أبى الغَرانيق علىٰ الوِلَاية عليهم لحُسْن سِيرته فٱمتنع ، ثم أجاب وٱنتقل إلىٰ قَصْر الإمارة وقام بالأمر أحسَنَ قيام . وكان عادلًا حازمًا فقطع أهل البَغْى والفساد وجلس لسَماع الظُّلَامات ، وبنىٰ الحُصونَ والمَحَارِسَ بسواحل البحر ، حتى كانت النـارُ تُوقَد فى ساحل سَبْتَةَ للإنذار بالعدو فيتصل إيقادُها بالإسكندرية فى الليلة الواحدة ، وبنىٰ سُور سُوسةَ وٱنتقل إلىٰ تُونُس فسكنها . وفى أيامه ظهرتْ دعوة العُبَيْدِيِّين بالغَرْب ، ثم مات سنة تسع وثمـانين ومائتين .

ووَلِى ابنُه أبو العَبَّاس (عبدُ الله بن إبراهيم) أخى محمدٍ أبى الغَرانيق ، وكان عادلا ،

حَسَن السيرة ، بصيرا بالحروب ، فنزل تُونُس مكانَ أبيه[(١)] ودخلوا فى أمره جملةً وجرىٰ بينه و بينه حروب ، ثم قتل فى شعبان سنة تسعين ومائتين .

وولى آبنه أبو مضر (زيادة الله) فأقبل علىٰ اللَّذَّات واللَّهْو، وأهمل أمورَ المُلْك ، وقتل أخاه وعمومته وأخواته ، وقوى حال الدعاة لعبيدالله المهدى جدّ الخلفاءالفاطميين بمصر فحمل زيادةُ الله أمواله وأثقاله ولحق بمِصر ، فمنعه عاملها من الدُّخُول إليها إلا بأمر المقتدر الخليفة ، فسار إلىٰ العراق فاستأذن عليه ، فأتاه كتاب المقتدر بالرجوع إلىٰ القَيْروان و إظهار الدَّعْوة ، فوصل إلىٰ مصر فأصابه بها علَّة سقط منها شَعرُه ، ورجع إلىٰ القُدْس فمات بها ، وآنقرضت دولة بنى الأغلب بالمغرب .

الطبقـــة الثانيـــة
(العُبَيْدِيُّونَ)[(٢)]

وكان مَبْدأُ أمرهم أن محمدا الحبيبَ بن جعفر المُصَـدّق ، بن محمد المكتوم ، بن إسمـاعيل الإمام ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن علىّ زين العابدين ، بن الحُسَين السِّبْط ، بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، كان مقيما بسَلَمْيَةَ من أعمال حِمْص ، وكان أهلُ شِيعتهم بالعِراق واليَمَن وغيرهما يتعاهدُونه بالزيارة إذا زاروا قبر الحسين عليه السلام ، فلمـا أدركته الوفاةُ عَهِد إلىٰ آبنــه عُبَيد الله وقال له : أنت المهدىُّ وتُهاجر بعدى هِجرةً بعيدة وتلقىٰ مِحْنة شـديدةً ، وشاع خبرُ ذلك فى الناس ،

---

(١) فى الكلام سقط أو اختصار مخل والذى يؤخذ من "العبر" أن أبا عبد الله الشيعى استولى فى عهد أبى العباس هذا علىٰ كتامة ودخلوا فى أمره كافة وحصلت بينه و بين أبى العباس حروب كانت نهايتها انهزام الشيعى وهدم قصره . ثم إن زيادة الله بن أبى العباس هذا صانع بعض الخدم علىٰ قتـل أبيه فقتل نائمـا فى شعبان سنة تسعين ومائتين اھ ملخصا من ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٢) فى نسخة المكتبة الأزهرية زيادة [من الفاطميين وأتباعهم] .

وآتصل بالمكتفِي خليفةِ بنى العبَّاس ببغداد فطلبه ففرّ من الشام إلىٰ العراق، ثم لحق بمصر ومعه آبنُه أبو القاسم غلاما حَدَثا وخاصَّتُه، وكان أبو عبد الله الشِّيعى قد بعث إليه يخبره بما فتح اللهُ عليهم من البلاد الغربيَّة، فعزم علىٰ اللُّحوق به، وخرج من مصر إلىٰ أفريقيَّة فى زِىِّ التُّجَّار، وسار حتّٰى وصل إلىٰ سِجِلْماسةَ من بلاد المغرب، فورد علىٰ عاملها كتابٌ بالقبض عليه، فقَبَض عليه وحبسه هو وآبنَه أبا القاسم. ولما آستفحل أمر أبى عبدالله الشِّيعى، آستخلف علىٰ أفريقيَّة أخاه أبا العباس وآرتحل إلىٰ سِجِلْماسةَ، فأخرج المهدىَّ وآبنَه من الحبس وبايع للمَهْدِىِّ، ثم آرتحلوا إلىٰ أفريقيَّة ونزلوا رُقادةَ فى ربيع سنة سبع وتسعين ومائتين، وبُويِع للمهدىِّ البيعةَ العامَّةَ وآستقام أمره وبعث العُمَّال علىٰ النواحى.

وولّٰى عهدَه آبنَه (ابا القاسم محمدًا) ويقال نِزَار، وبنىٰ مدينة المهدِيَّة، وجعلها دار مُلْكه. ولما فرغ منها صَعِد علىٰ سُورها ورمىٰ بسهم فى جهة المَغْرب، وقال: إلىٰ هنا ينتهى صاحبُ الحمار [فكان الأمر كذلك. وذلك أنه خرج بالمغرب خارجىّ اسمه أبو يزيد يعرف بصاحب الحمار وتبعه الناس فقصد مدينة المهدية يريد فتحها فانتهىٰ إلىٰ حيث انتهىٰ سهم المهدى ثم رجع من حيث أتىٰ فعظم أمر المهدى] (١). وآستولى علىٰ فاس، ودخَل ملوكُها من الأَدَارسة تحت طاعته فى سنة ثمان وثلثمائة، ومَهَّد المغرب، ودَوَّخ أقطاره، وتُوفِّى فى ربيع الأوّل سنة ثنتين وعشرين لأربع وعشرين سنة من خلافته.

وولى بعده آبنُه (القائمُ بأمر الله أبو القاسم) المتقدّم ذكره، وفى أيامه خرج أبو يزيد صاحبُ الحمار. وتوفّى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة، وكان قد عهد إلىٰ آبنه المنصور بالله إسماعيل، فقام بالأمر بعده، وكتَمَ موتَ أبيه فلم يتَسمَّ بالخليفة ولا غيَّر

(١) الزيادة من النسخة الأزهرية.

السِّكَّةَ والخطبةَ والبُنودَ؛ وتُوفِّي سلخَ رمضان سنة إحدىٰ وأربعين وثلثمائة لسَبْع سنينَ من خلافته .

ووَلِيَ الأمر بعده ٱبنُه (المعِزُّ لدين الله مَعَدّ) فاستقام له الأمر، وٱنتهت مملكته بالغرب إلىٰ البحر المحيط، وٱفتتح مصرَ علىٰ يد قائده "جَوْهر" فى منتصَف شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، وٱختطَّ له القاهرة؛ ثم قدم المُعِزُّ إلىٰ مصر، ودخل القاهرة لخمس من رمضان سنة ثنتين وستين وثلثمائة علىٰ ما سبق فى الكلام علىٰ مملكة الديار المصرية .

الطبقة الثالثـــة

(ملوكُها من بنى زِيرِى)

كان المُعِزُّ مَعَدٌّ الفاطمىّ حين قَدِم مصرَ علىٰ ما تقدّم ٱستخلف علىٰ أفريقيَّة والمغرب (بُلُكِّينَ بن زِيرى) بن مَيَّاد البربرى، ويقال: الحِمْيرىّ وأنزله القَيْروان، وسمَّاه يُوسفَ، وكنَّاه أبا الفُتُوح، ولَقَّبه سيفَ الدّولة وبقى حتّىٰ تُوُفِّيَ سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة ومات المعزُّ بالقاهرة، وٱنتقلت الخلافةُ بعده إلىٰ ٱبنه العزيز نزار، فولّى علىٰ أفريقيَّةَ والمغرب بعد بُلُكِّين ٱبنَه (المنصورَ بن بُلُكِّين) بولاية عهد من أبيه وبقى حتى تُوُفِّيَ سنة خمس وثمانين وثلثمائة .

وقام بأمره بعده (ٱبنه بادِيسُ) بن المنصور فبقِيَ حتّىٰ تُوُفِّيَ سنةَ ست وأربعمائة بمَعْسكَره فَجْأة وهو نائم بين أصحابه .

وبويع ٱبنه (المُعِزُّ بن بادِيس) وهو ٱبن ثمانى سنين، وٱستمرّ مُلْكُه بأفريقيَّة وعظُمَ مُلْكُه بها؛ وكان المُعِزُّ مُنْحرِفا عن الرَّفْض والتشيُّع، مُنْتَحِلاً للسُّـنَّة، وأعْلَن بذلك فى أوّل ولايَتِه؛ ثم كان آخِرُ أمره أنْ خَلَع طاعةَ العُبَيْدِيِّينَ، وقطَعَ الخطبةَ لهم

بأفريقيةَ سنة أربعين وأربعمائةٍ على عهد المستنصر العُبَيدىّ خليفة مصر، وخطب للقائم بن القادرِ الخليفةِ العبّاسىّ ببغداد، فاضطرب لذلك مُلْكُه، وثارت عليه الثُّوّار، وملكوا منه النَّواحىَ، ومات المُعِزُّ سنة أربع وخمسين وأربعمائة.

وقام بأمره من بعده ابنُه (تميمُ بن المُعِزّ بن باديس) وغلبه العَرَب على أفريقيّةَ، فلم يكن له إلا ما ضمَّه السُّور، واستمرّت الثُّوّار فى أيامه وبقِىَ حتّى هلك سنةَ إحدى وخمسمائة.

وملك بعده ابنه (يحيىٰ بن تميم) فراجع طاعةَ العُبَيْديِّين خُلَفاءِ مصرَ، ووصلَتْه منهم المخاطَبَات والهدَايا والتُّحَف، وأكثر فى غَزْو النصارىٰ من الفرَنْجة وغيرهم، حتّى لقّبُوه بالجرية من وراء البحر، ومات فَجْأَةً فى قصره سنة تسع وخمسمائة.

وملك بعده ابنه (علىّ بن يحيىٰ) وقام بالأمر على طاعة خُلَفاء العُبَيْديين بمصر، ومات سنة خمسَ عشرةَ وخمسمائة.

وملك بعده ابنه (الحسنُ بن علىّ) وهو ابن اثنتى عَشْرةَ سنةً، وقام بأمره مولاه صَنْدل، ثم مولاه مُوَفَّق، وغلبه النصارىٰ على المهديّة وبلاد الساحل كلِّها إلى أن استنقذها منهم عبدُ المؤمن شيخ الموحّدين، ولحق الحسنُ بالجزائر ونزل بها إلى أن فتح الموحّدون الجزائر سنةَ سبع وأربعين وخَمْسِمائة بعد مِلْكِهم المغربَ والأَنْدَلُس، فخرج إلى عبد المُؤْمن فأحسن إليه وبقِىَ معه حتّى افتتح المهديّةَ فأنزله بها، فأقام بها ثمانى سنين، ثم سار إلى مَرّاكُش فمات فى طريقه، وانقرضتْ دولةُ بنى باديس من أفريقية (١) فى أيامهم عند وقوع الفتن.

(١) فى قطعة المكتبة الازهرية بدل هذه الكلمات [وزالت بها دعوة العبيديين].

الطبقة الرابعـــة

(المُوَحِّدون أصحابُ المهدِىِّ بنِ تُومَرْت، وهم القائمون بها إلىٰ الآنَ)

وكان أوّلَ من ٱفتتحها منهم (عبـدُ المؤمن بنُ علىّ) أحد أصحاب ٱبن تُومَرْت والخليفةُ بعـده . وذلك أنه لمـا وقع بها ما تقدّم من الاضطراب وقيـام الثُّوَّار وٱستيلائهم علىٰ النَّواحى، وكان الموحِّدون قد ٱستَوْلَوْا علىٰ الأنْدَلُس والغربِ الأقصىٰ والغربِ الأوسـط إلىٰ بِجَايَةَ ، بعث عبـدُ المؤمن المذكورُ العساكِرَ إلىٰ أفريقيَّـةَ مع ٱبنه عبد الله فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فافتتح أفريقيَّةَ ، وٱستكمل فتحَها سـنة ستٍّ وخمسين . وولّىٰ عليها ٱبنه السـيدَ أبا موسى (عمرانَ بنَ عبد المؤمن) وأسره علىُّ بن يحيىٰ المعروف بابن غانيــةَ عند فتحه بجايةَ، وٱعتقله بها فى صفر سنة إحدىٰ وثمـانين وخمسمائة .

ولما وَلِىَ (المنصورُ يعقوبُ بنُ عبدالمؤمن) بعد أبيه عبدالمؤمن، وَلّىٰ علىٰ أفريقيَّة فى أوّل ولايته أبا سـعيد ابنَ الشيخ أبى حفص عمر، ثم غلب ابنُ غانِيَةَ علىٰ أكثر بلاد أفريقيَّة وٱستولىٰ علىٰ تُونُس ، وخطب للخليفة العبَّاسى ببغداد؛ ثم جهَّز الناصر ٱبنُ المنصور بنِ عبد المؤمن الشيـخَ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص من مرَّاكُش إلىٰ أفريقيَّةَ سنة ثنتين وستمائة فانتزعها من ٱبن غانِيَةَ؛ ثم وصل الناصر ٱبن المنصور إلىٰ أفريقيَّة بعـد ذلك ودخل تُونُس ، وأقام بهـا إلىٰ منتَصَف سنة ثلاث وستمـائة، وعزم علىٰ الرحيل إلىٰ مَرَّاكُش فروّى نظره فيمن يوليـه أمرها فوقع ٱختيارُه علىٰ الشيخ أبى محمد عبد الواحد ٱبن الشيخ أبى حفص؛ ورحل الناصرُ إلىٰ المغرب وقعـد مَقْعَد الإمارة بقَصَبة تُونُس يومَ السبت العاشر من شوّال سـنة ثلاث وستمائة وبقِى حتى تُوُفِّيَ مُفْتَتح سنة ثمانَ عشرةَ وستمائة .

وولى بعده ٱبنُه الأميرُ (أبو زيد عبدُ الرحمن) وقعد بمجلس أبيه فى الإمارة، وورد كتابُ المستنصِر بن الناصر خليفةِ بنى عبد المؤمن بعزله لثلاثة أشهر من وِلَايته .

وولّى المستنصر مكانه السيدَ أبا العُلىٰ (إدريسَ بن يوسف) بن عبد المؤمن ، ودخل إلىٰ تُونُس فى ذى القَعْدة من السنة المذكورة، فنزل بالقَصَبة ورتّب الأُمورَ، ومات بتُونُس سنة عشرين وسِتّمائة .

ثم مات المستنصر وصار الأمر (لعبد الواحد المخلوع) ابن يوسف بن عبد المؤمن، فبعث بوِلَاية أفريقيَّةَ إلىٰ (أبى زيد) بن أبى العلىٰ .

ثم صار الأمر إلى العادل فولّى (أبا محمد عبدَ الله) بنَ أبى محمد عبد الواحد ٱبنِ الشيخ أبى حفص، ودخل تونُسَ سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وأقام فى إمارته إلىٰ أن ثار عليه أخوه الأمير (أبو زَكرِيَّا يحيىٰ) بن أبى محمد عبد الواحد وولِىَ مكانَهُ، ودخل تُونُس فى رجب سنة خمس وعشرين وستمائة ، وٱفتتح قُسَنْطِينةَ وبِجَايةَ سنة ست وعشرين وٱنتزعهما من بَنِى عبد المؤمن .

ثم ملك تِلِمْسانَ من يَدِهم بعد ذلك وبايعه أهلُ الأنْدَلُس، ومات ببونة لسبع بَقِينَ من جمادىٰ الآخرةِ سنةَ سبع وأربعين وستمائة لاثنتين وعشرين سنة من وِلَايته .

وبويع بعده ٱبنه وولِىُّ عهده المستنصرُ بالله (أبو عبد الله محمد) ودخل تُونُس فى رجب من السنة المذكورة، فجدّد بيعته بها وهو أوّل من تلقب من الحَفْصِيّين بألقاب الخِلَافة كما سيأتى . وٱنتهىٰ أمرُه إلىٰ أن بُويِع له بمكّةَ المعظَّمةِ، وبُعِث بالبيعة إليه ، وٱستولىٰ علىٰ ما كان بيد أبيه من الغرب الأوسط ببجايةَ وقُسَنْطِينةَ، وفتح الجزائرَ، وبقِىَ حتّى مات يوم الأضحىٰ سنةَ خمس وسبعين وستمائة .

وبُويِـع بعده ٱبنُه (الواثق يحيىٰ) بن المستنصر ليلةَ موتِ أبيه، فأحسن السِّيْرة، وبسط فى الرعية العدلَ والعطاء، وبعث إليه أهلُ بِجَـايةَ بالبَيْعة، وخرج عليه عمُّه (أبو إسحاق) أخو المستَنْصِر ودخل بِجَـايةَ، وبايعه أهلها فى ذى القَعْدة سنة سبع وسبعين وسبعمائة وٱسـتولىٰ علىٰ قُسَنْطِينةَ، وقَوِىَ أمره ببجاية وما معها، وبلغ ذلك الواثقَ بنَ المستنصر، فتيقَّن ذَهَابَ الملك منـه فانخلع عن الأمر لعمـه أبى إسحاق إبراهيمَ بنِ يحيىٰ، ومن هنالك عُرِف بالمخلوع وأَشْهد علىٰ نَفْسـه بذلك فى أوّل ربيع الأوّل سنة ثمـان وسبعين وستمائة. وبلغ ذلك السـلطانَ أبا إسحاقَ فسار إلىٰ تُونُس، ودخلها فى نصف ربيع الآخِرِ من السـنة المذكورة، وٱستولىٰ علىٰ المملكة جميعها، وٱعتَقَل الواثِقَ وبَنِيـه، ثم دَسَّ عليهم مَنْ ذَبَحَهم فى الليل فى صـفر سنة تسع وسبعين وستمائة، وبقى حتّى خرج عليه (أحمد بنُ رَوْق)(١) بن أبى عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المَسِيلةِ سنة إحدىٰ وثمـانين وستمائة، وكان شبيهاً بالفضل ٱبن يحيىٰ المخلوع فعُرِف بالدَّعِيِّ، وٱستولىٰ علىٰ تُونُس بعد خروج السلطان أبى إسحاق منها، ولحق أبو إسحاق ببجايةَ فمنعه ٱبنه الأمير أبو فارس (عبد العزيز) من الدُّخُول إليها فانخلع له عنها وأَشْهَد عليه بذلك، ودعا الناسَ إلىٰ بيعته فى آخر ذى القَعْدة من السنة المذكورة فبايعوه وتلقَّب بالمعتَمِد، ثم كان بين الدعىّ والأمير أبى فارس واقعة قتل فيها الأمير أبو فارس فى سنة ثنتين وثمانين وستمائة. وخرج السلطان أبو إسحاق فلَحِق بتِلِمْسانَ ومعه ٱبنُه الأمير أبو زكريا، ودخل أهلُ بِجَايةَ فى طاعة الدَّعِيِّ.

ثم خرج علىٰ الدَّعىّ الأميرُ (أبو حفص عمرُ بن يحيى) بن عبدالواحد بن أبى حفص، فكانت بينهما حربٌ ٱنهزم الدَّعىّ فى آخرها. وٱستولىٰ أبو حفص علىٰ تُونُس وسائر

(١) فى ''العبر'' أحمد بن مرزوق وهو تصحيف.

المملكة ، وتلقب بالمستنصر واختفى الدَّعِيُّ ، ثم ظَفِر به أبو حفص بعد ذلك وقتله ، وبايعه أهلُ تِلِمْسان وطَرابُلُس وما بينهما .

وخرج الأميرُ (أبو زكريَّا يحيى) ابن السلطان أبي إسحاق على بجاية وقُسَنْطِينة فملكهما واقتطعهما عن مملكة أفريقيَّةَ ، وقسم دولةَ الموحدين بدولتين ، ولم يزل السلطان أبو حفص في مُلْكه إلى أن مَرِض في ذى الحجة سنة أربع وستين وستمائة ومات آخر ذى الحجة من السنة المذكورة .

وكان الواثقُ بنُ المستنصر لما قُتِل هو وأبوه ترك جارية حاملًا ، فسماه الشيخ محمد المَرْجانىّ «محمدا» وأطعم الفقراءَ يومَئِذ عصيدةً من عَصِيدة البُرِّ فلقب بأبى عصيدةَ ، فلما مات السلطان أبو حفص بايع الناسُ (أبا عَصِيدة) المتقدّم ذكره . ومات الأمير أبو زكريا صاحب بجايةَ وما معها على رأس المائة السابعة .

وقام بعده في تلك الناحية وليّ عهده ابنه (أبو البقاء خالد) فاستمر في تلك الناحية ، وبقى السلطان أبو عَصِيدةَ في مملكة أفريقيَّةَ حتّى مات في ربيع الآخِر سنةَ تسع وسبعمائة ولم يخلف ابنا .

وكان بالقصر (أبو بكر بن عبد الرحمن) بن أبي بكر ، بن يحيى ، بن عبد الواحد ، ابن أبي حفص في كَفَالة السلطان أبي عَصِيدَةَ فلما مات أبو عصيدة بايعه أهل تُونُس ، ثم ارتحل السلطان أبو البقاء خالد : صاحبُ بجايةَ إلى جهة تُونُس طالبا مُلْكَها بعد أبي عصيدةَ ، فخرج (أبو بكر الشهيد) في أهل تُونُس للقائه فانهزموا عنه ، وقُبِض على أبي بكر الشهيد واعتُقِل ثم قُتِل بعد ذلك فسمِّى الشهيدَ ، واستقلَّ السلطان أبو البقاء خالد بمُلْك تُونُس وبجايةَ وحاز جميع المملكة ، وتلقَّب الناصرَ لدين الله وبقِىَ حتى بُويع (أبو يحيى زكريَّا بن أحمد) بن محمد اللحيانى ، بن عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص : فبُويع بطَرابُلُس ، وخرج على أبي البقاء خالد فخافه فخلَع نَفْسه

فاعتُقِل وجاء السلطان أبو يحيىٰ علىٰ أثره فى رجب سـنة إحدىٰ عشْرةَ وسبعمائة ، فبُويِـعَ البيعةَ العامَّةَ ودخل تُونُسَ وٱستولىٰ عليها ، ثم ٱضطرب عليه أمْرُه ، فخرج من تُونُس إلىٰ قابِس أوّلَ سـنة سبعَ عشرةَ وسبْعِمائة بعد أن ٱستَخْلف بتُونُس ، وٱنتهىٰ إلىٰ قابس فأقام بها وصَرَّف [العُمَّال] فى جهاتها ، وقصد السلطان أبو بكر صاحبُ بجايةَ تُونُسَ ، وكان بينه وبين أهلها وقعـةٌ ٱنتهىٰ الحال فى آخرها إلىٰ أنّ السلطانَ أبا بكر رجع إلىٰ بجاية . وبايع أهـلُ تُونُس محمـدا المعروفَ (بأبى ضَرْبةَ) ابن السلطان أبى يحيىٰ فى سنة سبعَ عشرةَ المذكورة .

ثم قصـد السلطان أبو بكر صاحبُ بجاية تُونُسَ (١) ، وبها أبو ضَرْبةَ فغلبه عليها ، ودخلها فى ربيع الآخر سنة ثمـانَ عشرةَ وسبعمائة ، وبُويعَ بها البيعةَ العامَّةَ . ولحق السلطانُ أبو يحيىٰ اللحيانىُّ بمصر فى أيام الملك الناصر "محمد بن قلاوون" فأحسن نُزُلَه وأقام عنده إلىٰ أن مات ، ولحق ٱبنُه أبو ضربة بتِلِمْسانَ فأقام بهـا إلىٰ أن مات ، وٱستقلَّ السلطانُ أبو بكر بأفريقيَّة وبجايةَ إلىٰ أن غلبه علىٰ تُونُس (إبراهيمُ بنُ أبى بكر) الشهيدِ المتقدّم ذِكْرُه أوّلا ، ودخلها فى رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

ثم غلبه عليها السـلطان أبو بكر وٱنتزعها من يده فى شوّالٍ من السـنة المذكورة ، وٱستقرّ فى يده مُلْكُ أفريقِيَّة وبجايةَ إلىٰ أن مات فَجْأة فى جوف الليل فى ليلة الأربعاء ثانى رجب الفَرْدِ سنةَ سبع وأربعين وسبعمائة بمدينة تُونُس .

وبُويِـع ٱبنه (أبو حفصٍ عُمرُ) بن أبى بكر من ليلته ، وجلس من الغَدِ وبُويِـع البيعةَ العامَّةَ . وكان أبوه قد عهد إلىٰ ٱبنـه الآخر أبى العبَّاس أحمد ، وكان ببلاد الجَرِيد فاستجاش علىٰ أخيه وقدم عليـه تُونُسَ ، وكانت بينهما واقعـة قُتِل فيهـا أبو العباس وٱستقرّ السلطانُ أبو حفص علىٰ ولَايته . وكان السلطان أبو بكر حين عَهِد

(١) فى الأصل أبو زكريا والتصحيح من "العبر ج ٦ ص ٣٢٤".

لأبنه أبي العباس أرسل العهدَ إلى السلطان أبي الحسن المَرِينيّ : صاحب تِلِمْسان وسأله فى الكتابة عليه، فلما قُتِل أبو العباس المذكور ثَقُل ذلك على السلطان أبي الحسن وخرج إلى أفريقيَّة فى سنة ثمان وأربعين وسبْعمائة، ووصل إلى بِجاية ثم إلى قُسَنْطِينة فملكهما ؛ ثم سار إلى تُونُس فلقيه السلطانُ أبو حفص عمرُ ، وكانتْ بينهما واقعة قُبِض فيها على أبي حفص ثم قُتِل . ودخل السلطان أبو الحسن إلى تُونُس وآستولى على جميع المملكة مضافةً إلى مملكته، وكمل له بذلك ملك جميع المغرب .

ثم غَلَب (أبو العباس الفضلُ) بن السلطان أبي بكر على بجاية وقُسَنْطِينة وملكهما، وسار السلطان أبو الحسن إلى المغرب وآستخلف على تُونُس آبنَه أبا الفضل فسار الفضلُ آبن السلطان أبي بكر من بجاية إلى تُونُس فخرج منها أبو الفضل بن أبي الحسن فارّا إلى أبيه بالمَغْرِب، ودخلها الفضلُ آبن السلطان أبي بكر وملكها سنة تسع وأربعين وسبعمائة وآستولى على جميع المملكة ، وبقِيَ إلى أن قُبِض عليه فى جمادى الأُولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة .

وبُويِع بعده أخوه (أبو إسحاق إبراهيم) آبن السلطان أبي بكر، وهو يومئذ غلام قد ناهز الحُلُم، وقُتِل الفضلُ فى جوف الليل من الليلة القابلة خَنْقا، وآستولى على أفريقِيَّةَ وبجايةَ وقُسَنْطِينةَ ، وبقي حتّى غلبه بنو مَرِينٍ على بجاية وقُسَنْطِينة، وملكهما منه أبو عِنَان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

ثم آستولى السلطان (أبو العبَّاس أحمد) بن محمد بن أبي بكر على قُسَنْطِينةَ سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبُويِعَ بها .

ثم غلبه عليها أبو عِنَان وقَفَل إلى المغرب سنةَ سبع وخمسين وقد آستَخْلَفَ بها ، فتجهَّز إليها (أبو إسحاق إبراهيم) صاحب تُونُس وملكها من يد عامل أبي عِنَانٍ

سنةَ إحدىٰ وستين؛ ثم قَوِى أمر السلطان أبى العَبَّـاس وعاد إلىٰ قُسَنْطينة ومَلَكها فى السنة المذكورة .

ثم آستولىٰ (أبو عبد الله محمد) بن محمد آبن السلطان أبى بكر فى رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة فأساء السيرة بها، فسار إليه السلطانُ "أبو العَبّاس" من تُونُس فقتله ودخل بِجايةَ تاسعَ عشر شعبان ســنة سبع وستين وسبعمائة وملكها، و بقيَتْ بيــده وتونُس بيَــدِ السلطان أبى إسحاق إبراهيم آبن السلطان أبى بكر إلىٰ أن تُوُفِّى السلطان أبو إسحاق بَغْتةً فى الليل فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة .

و بويع بعده آبنُه (أبو البقاء خالد) وآستبدّ عليه منصورٌ مولىٰ أبيه، وآبنُ الباليقى حاجبُ أبيه فلم يكن له فى الدولة تحكُّم .

ثم رحل السلطان أبو العَبّاس من بِجايةَ إلىٰ تُونُسَ وقبض علىٰ السلطان أبى البقاء خالد بن إبراهيم بعد حِصارِه أيَّاما وآعتقــله وملك تُونُس وآنتظم فى مُلْكه أفريقيَّةُ وبجايةُ وقُسَنْطِينةُ وأعمالها، و بقى حتّى مات فى شعبان سنةَ ستٍّ وثمانين وسبعمائة .

وكان أبو العبّاس هــذا له شعر رائق، طلب مرةً كاتب إنشائه يحيىٰ بن أجاد، وكان يحيىٰ ثَمِــلا، فخافه علىٰ نفسه إن هو طلع إليه علىٰ تلك الحالةِ فكتَبَ إليه :

أصْبَحَ العبْدُ يحيىٰ * كَصَباحِ آبنِ أكْثَم
شــغَلَتْه الحُمَيَّــا * وهو بالأمرِ مُهْتَم
فَخَشِى من رَقِيبٍ * فَرأىٰ الدارَ أكْــتَمْ

فلمَّا قرأها وقَّع بخطه تحت خَطِّه :

قَـــرَّ عيْناً بعَيْشٍ * صَفْوُه بك قَــدْ تَمّْ
أنتَ أزكىٰ عَبِيدِى * ها هُنا كُنْتَ أوثَمّْ

فكان ذلك سببَ توبة يحيىٰ .

وبويع بعده ٱبنه أبو فارس (عَزُّوز) فى رابع شعبان من السنة المذكورة وٱستولىٰ علىٰ تُونُس وبِجاية وقُسَنْطِينة وسائر أعمالها . وهو السلطان أبو فارس عَزُّوز ٱبن السلطان أبى العباس أحمد ، ٱبن السلطان أبى بكر بن يحيىٰ ، بن إبراهيم ، بن عبد الواحد ، ٱبن الشيخ أبى حفص .

قلت : وهو باقٍ إلىٰ زماننا فى سنة ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة ، وقد شاع ذكر شجاعته وعَدْلِهِ حتّى إنه دوّخ البلاد ومهّدها وقتل العربَ وأبادَهم ، ودخل مَنْ بَقِى منهم فى طاعته بعد أن لم يَدِينُوا لطاعة غيره ؛ وقطع المُكُوسَ من بلاده ، وأزال الحاناتِ من تُونُسَ ، مع تواضُعٍ وقُرْبٍ من الفقراء ، وأخذٍ بيد المظلومين ، ووُجُوه بِرٍّ رتَّبها وقرَّرها لم تُعْهَد لأحد ممن قبله ، إلىٰ غير ذلك من صفات الملوك المحمودة التى ٱمتاز بها عن الملوك ، ذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء .

الجملة العاشرة

(فى منتمىٰ ملوك هذه المملكة القائمين بها الآن ، من الموحِّدين فى النَّسب ، ودعواهم الخلافةَ ، وبيانِ أصل دولتهم ، وتسميتهم الموحِّدين)

أما منتماهم فى النسب ، فقد ذكر فى "التعريف" : أن المَلِك القائم بها فى زمانه يَدَّعى النسبَ إلىٰ أمير المؤمنين : عُمَرَ بن الخَطّاب رضى الله عنه ؛ ومن أهل النَّسَب مَنْ يُنْكِر ذلك : فمنهم من يجعله من بَنى عدىّ بن كعب رَهْطِ عمرَ ، وليس من بنى عُمَر ، ومنهم من يقول بل من هَنْتاتَة وليسوا من قبائل العرب [فى شىء] . وهم الحَفْصِيُّون نسبة إلىٰ أبى حفص : أحد العشرة أصحاب ٱبن تُومَرْت . وهم بَقايا

الموحِّدين إذ كان من تقرير ٱبن تُومَرت أن الموحدين هم أصحـابه ، ولم يَبْقَ مُلْكُ الموحِّدين إلا فى بنى أبى حفص هذا .

وٱعلم أن النسَّابين قد ٱختلفوا فى نَسَبه علىٰ ثلاثة أقوال .

أحدها — نسبته إلىٰ أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهؤلاءِ يقولون : هو أبو حفص عمرُ بنُ يحيىٰ ، بنِ محمد ، بن وانُّودين ، بن علىّ ، بن أحمد ، ٱبن وَالَّال ، بن إدريس ، بن خالد ، بن اليَسَع ، بن إليـاس ، بن عمر ، بن وافتق ، ٱبن محمد ، بن نُجَيْه ، بن كَعْب ، بن محمد ، بنِ سالم ، بنِ عبد الله ، بن عُمَر بن الخَطَّاب . قال قاضى القضاة : "ولىّ الدين بن خلدون" ويظهر أن هذا النسب القُرشىَّ وقع فى المَصَامِدَة من البربر ، والْتحم بهم وٱشتملتْ عليه عَصَبِيَّتهم ؛ شأنُ الأنساب التى تَقَع من قوم إلى قوم .

الثـانى — نسبتُه إلىٰ بنى عدِىّ بن كعب : رهط عمر بنِ الخطـاب رضى الله عنه الذى ينْتَسِب فيه ، وهو أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب بن نُفَيل بن عبد العُزَّى ٱبن رِيَاح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزَاح بن عَدِىّ بن كعب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم وباقى نسبه إلىٰ عدنان معروف .

الثالث — نسبتُه إلى هَنْتاتَة ، وهَنْتاتَةُ ـ بفتح الهـاء وإسكان النون وفتح التاء المثنَّاة فوقُ وبعدها ألِفٌ ثم تاء مثناة فوقُ مفتوحة ثم هاء قبيلة من قبائل المَصَامدة من البربر ، بجبال دَرَن المتاخِمة لمَرَّاكُش ؛ وهى قبيلة واسعةٌ كبيرةٌ ، ويقال لها بالبربرية "يَنْتِي" وكان أبو حفص هـذا هو شيْخَهم وكبيرَهُم ، وهو الذى دعاهم إلى ٱتبـاع ٱبن تُومَرْت والحمل علىٰ طاعته .

وأما دعواهم الخلافَةَ ، فقد قال فى "التعريف" عند ذكر سلطان زمانه منهم : لايَدَّعِى إلا الخلافةَ ويتلقَّب بألْقاب الخُلَفاء ، ويُخاطَب بأمير المؤمنين فى بلاده .

وآعلم أن أوّل من تلقَّب منهم المستنصر بالله أبو عبد الله محمد آبن السلطان أبى زكريا يحيى بن عبدالواحد بن الشيخ أبى حفص، علىٰ أن أباه كان يمتنع من التلقب بألقاب الخلافة ، ويَمنعُ من يُخاطِبُه بها مقتصرا علىٰ التلقب بالأمير خاصَّةً حتّٰى إن بعض شعرائه رفع إليه قصيدةً مدحه بها أوّلها :

ألَا جُلْ بالأمير المُؤْمِنينا * فأنْتَ بها أحَقُّ العالَمِينَا

فأنكر ذلك عليه . وإنما حمل المستنصرَ علىٰ ذلك أن الخلافة فى زمنه قد تعطَّلت فى سائر الأقطار . وذلك أن الخلافة الأُمَوِيَّةَ ودعاوىٰ بنى عبد المؤمن قد زالت عنها فى المغرب بغلبة بنى مَرِينٍ عليهم وآنتزاعهم الأمر منهم؛ وخلافَةَ العُبَيديِّينَ قد زالت من مصر؛ وخلافةَ بنى العبَّاس قد زالت من بغداد باستيلاء التَّتَر عليها .

وأما مبدأ دولتهم ومَصِيرُ آخرها إلىٰ بنى أبى حفص بأفريقيَّة ، فإن أصل قيامها آبن تُومَرْت : وهو محمد بن عبد الله تُومَرْت، بن وُجَلّيد، بن يامصال، بن حمزة، آبن عيسىٰ فيما ذكره محققو المؤرخين . وبعضهم يقول : محمد بن تومرت، بن نيطاوس، بن سافلا، بن مسيعُون، بن ايكَلديس، بن خالد، أصله من هَرْغة من بطون المَصَامِدة من البربر . وبعضُ المؤرّخين يجعل نسبَهُ فى أهل البيت ويقول : هو محمد بن عبد الله، بن عبد الرحمن، بن هُود، بن خالد، بن تمام، بن عدنان، آبن سُفْيان، بن صفوان، بن جابر، بن عطاء، بن رباح، بن محمد، من ولد سليمان آبن عبد الله، بن حسن، بن الحسن، بن علىّ، بن أبى طالب . وسليمان هذا أخو إدْرِيسَ الأكبر الذى كان لبنيه الدولةُ بالغرب علىٰ ما مر (١) فى الكلام علىٰ مكاتبة صاحب بَرِّ العُدْوة .

(١) لعله علىٰ ماسيأتى .

ويقال إن سليمانَ هذا لَحِق بالمغرب إثرَ أخيه إدْريسَ . وقيل : بل هو من قَرَابة إدريس اللاحقين به إلىٰ المغرب ويكون علىٰ هــذا المقتضى نَسَبُه قد ٱلتحم بنسب المَصَامِدة، وٱتصل بهم وصار فى عدادهم كما تقدّم فى نَسَب أبى حَفْص .

وكان أهلُ بيته أهلَ دِينٍ وعبادة، وشبَّ محمدٌ هذا فيهم قارئا مُحِبًّا للعلم، وٱرتحل فى طلب العلم إلىٰ المشرق علىٰ رأس المـائة الخامسة، ومَرَّ بالأنْدَلُس، ودخل قُرْطُبَةَ وهى إذ ذاك دارُ عِلْم، ثم لَحِق بالإسكندريّة وحَجَّ، ودخل العــراقَ، ولقِىَ أكابِرَ العلمـاء به يومئذ وفُحُولَ النُّظَّار، ولقى أئمةَ الأشعريَّة من أهــل السُّنَّة وأخذ بقولهم فى تأويل المتشابِهِ . ويقال إنه لقِىَ أبا حامد الغزالىَّ رحمــه الله وٱستشاره فيما يُرِيده من قيام الدولة بالمغرب .

ورجع إلىٰ المغرب وقد حصَّــل علىٰ جانبٍ كبير من العلم، وطَعَــن علىٰ أهله فى الوقوف مع الظاهر وحَمَلَهــم علىٰ القول بالتأويل والأخذِ بمــذهبِ الأشــعَرِيَّة فى جميع العقائد، وألَّف العقائدَ علىٰ رأيهم مثل المُرْشِدة وغيرها . وكان مع ذلك يقول بعصمة الإمام علىٰ مذهب الإمامية من الشِّــيعة . وٱنتهىٰ إلىٰ بِجَاية فأقام بها يدرِّس العــلم ويأمُرُ بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، وهنــاك لقيــه عبد المؤمن أحدُ أصحابه وٱرتحل معه إلىٰ المغرب وصار إلىٰ بلاد هَرْغة من البربر، فاجتمع إليه الطلبةُ ونَشَر العلمَ، وأظهر مذْهَبَ الأشعرية .

وكان الكُهّان والمنجِّمون يتحدّثون بظهور مَلِك بالمغرب من البربر، وشاع فى الناس أنه ذلك الملك، وٱختار من أصحابه عشرةً بجعلهم خاصَّته : وهم عبد المؤمن بن علىّ، وأبو حَفْص عمرُ بن على، ومحمدُ بن ســليمان، وعمرُ بن تافركين، وعبــد الله بن ملُويَات وغيرهم . ودعا المَصَامدة إلىٰ بَيْعتــه علىٰ التوحيد وقتال المجسِّمين، فبايعوه علىٰ ذلك سنة خمسَ عشْرَة وخمسمائة .

ولما تكاملَتْ له البَيْعةُ لَقَّبوه بالمَهْدِىّ ، وكان قبل ذلك يلقب بالامام ، وكان عبدُالمؤمن أخصَّ أصحابِهِ به ، وكان يلقِّبه بالخليفة ، وأبو حَفْص بعده فى الخُصُوصيَّة ، وكان يلَقِّبه بالشيخ ، وكان يسمِّى أتباعه المُوَحِّدين تعريضًا بمن يَجْنح عن التأويل ويقِفُ مع الظاهر فيوقعُه فى التجسيم وغيره ، ولم تُحْفَظْ عليه بِدْعةٌ إلا ما وافق فيه الإماميَّةَ من القول بعِصْمة الإمام . وقد مر ذكر مدّة ولايته ثم استخلاف[(1)] عبد المؤمن بعده فى الكلام على مكاتبة صاحب بَرِّ العُدْوة . وقد تقدّم ابتداء انتقال مملكة إفريقيَّة إلى بنى أبى حفص وانسحابها فيهم إلى زماننا على الترتيب .

الجملة الحاديةَ عشرةَ

(فى ترتيب المملكة بها : من زِىِّ الجُنْد ، وأرباب الوظائف : من أرباب السُّيوف والأقلام ، ومقاديرِ الأرزاق الجاريةِ عليهم ، وزِىِّ السلطان ، وترتيبِ حاله فى المُلْك)

أما الجند ، فقد نقل فى "مسالك الأبصار" عن أبى عبد الله بن القُوَيع : أن الذى قَرَّره لهم مَهْدِيُّهم ابنُ تُومَرْت ، ثم عبدُ المؤمن وأبناؤُه بعده أنَّه ليس لهم أُمراءُ ولا أتباعٌ يطلَبُ بعدّتهم كعِدّة الأمراء بمصر ، وإنما لهم أشياخٌ من أعيانهم لاعدّةَ لهم ولا جُندَ ، بل المرء منهم بنفسه فقط ، ولكل طائفة منهم رئيس يتولّى النظرَ فى احوالهم يسمُّونه المِزْوار .

أما الجُنْد فمن المُوَحِّدين والأَنْدَلُسِيِّين وقبائلَ بها من المضافة إليهم ومن قبائل العرب ومَنْ هاجر إليهم من العرب القدماء ، الذين هاجروا فى مدّة بنى عبد المؤمن ، والمماليكِ التُّرْك المبتاعة من الديار المصرية ، ومن الفَرَنج وغيرهم .

---

(١) لم يتقدّم شىء من ذلك وسقطت هذه الجملة من القطعة الازهرية .

وحاصل ماذكره فى "المسالك" أن الجند عندهم على سبع طبقات .

الطبقة الأُولىٰ — الأشياخُ الكِبَار من الموحِّدين الذين هم بَقَايا أتباع المهدىّ بن تُومَرْت . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم بمثابة أُمَراء الأُلُوف بمصر، و بمثابة النُّوِيْنَات أمراءِ التوامين بمملكة إيران .

الطبقة الثانية — الأشياخُ الصِّغار من الموحِّدين أيضا : وهم دُونَ مَنْ تقدّم منهم فى الرتبة .

الطبقة الثالثة — الوَقَّافون . قال فى "مسالك الأبصار" : سألتُ ٱبن القُوَيْع عن معنىٰ الوَقَّافين ما هو ؟ فقال : هم قومٌ لهم خاصِّيَّة بالسلطان يسكُنُون معه فى القَصَبة : وهى القلعة، بمنزلة الأمراء الخاصِكيَّة . قال : وهم طبقتان : وَقَّافون كبار، ووَقَّافونَ صغار، وكلهم يَقِفُون بين يديه فى أوقات جلوسه إذا جلس للناس .

الطبقة الرابعة — عامّة الجُنْد .

الطبقة الخامسة — الجُنْد من قبائل العرب .

الطبقة السادسة — الصِّبْيان : وهم جماعة من الشَّبَاب بمَثَابة المماليك الكُتَّانية بالديار المصرية، يكونون فى خِدْمة السلطان .

الطبقة السابعة — الجُنْدمن الإفْرنج، و يعبَّر عنهم بالعُلُوج، وهم لخاصة السلطان لايطْمئِنُّ إلا إليهم .

وأما عِدّة العسكر . ففى "مسالك الأبصار" عن ٱبن القُوَيع أنها لاتبلغ عَشْرَة آلاف و إنما العَدَد الجمُّ فى العرب أهلِ البادية ولهم قوّة شَوكةٍ .

* * *

وأما أرباب الوظائف فعلى ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل
(أرباب السُّيوف، وهم ثمـانية)

الأوّل ـــ الوُزَراء : وهم ثلاثةُ وزراءَ : وزيرالجُنْد وهو المَرْدُود إليه الحديثُ فى أمر الجُنْد . قال فى ”مسالك الأبصار“ : وهو بمثابة الحاجب بالدِّيارِ المِصْرية، ووزيرُ المـال : وهو المتحدّث فى أمر المال، ويعبّر عنه بصاحب الأشغال، ووزيرُ الفضل وهو كاتب السِّرّ .

الثـانى ـــ شـيخُ الموحِّدين . قال ٱبن القُوَيع : وشيخ الموحدين كأنه نائب السلطان، ويسمّى الشيخَ المعظَّمَ وهو الذى يتولّى عَرْض الموحدين وأمورَهم .

الثالث ـــ أهـل المَشُورة : وهم ثلاثة من أشـياخ الموحدين يجلِسُون بمجلسـه للرأْى والمَشُورة .

الرابع ـــ صاحب الرِّقاعات . قال ٱبن سعيد : وهو الذى يتولّى إبلاغَ الظُّلامات إلى السلطان وإيصالَ قِصَصِهم إليه وعَرْضَها عليه ثم يخرج بجوابها عنه . قال فى ”مسالك الأبصار“ : وهذا بمَثابة الدوادار (يعنى بالديار المصرية) .

الخامس ـــ صاحب العلامات : وهو المتولِّى أمورَ الأعلام، وهو بمثابة أمير عَلَم بالديار المصرية . وفى معناه آخر إليه أمرُ دقّ الطبول، يأمر بدَقِّ الطُّبول عند ركوب السلطان فى المَوَاكب .

السادس ـــ الحافظ : وهو صاحب الشُّرْطة، وعنه يعبِّر المصريُّون بوالى المدينة .

السـابع ـــ محرِّكو الساقة : وهم قوم يكونـــ بأيديهم العِصىُّ، يرتِّبون الناسَ فى المواكب، بمنزلة النُّقباء بالديار المصرية .

الثـامن ـــ صاحبُ الطَّعام : وهو بمنزلة إستاددار الصُّحْبة .

الضـــــرب الثـانى
(أرباب الأقلام)

وقد ذكر منهم ثلاثة :

الأوّل — قاضى الجماعةِ : وهو مثلُ قاضى القُضاة بالديار المصريةِ .

الثانى — المُحتَسِب : وهو معروف .

الثالث — صاحب كُتُب المَظَالم . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو المَوَقِّع على القِصَص وكأنه بمَثابة مُوَقِّع الدَّسْت بمصر والشام .

الجمـــــلة الثـانيةَ عشرةَ
(فى ذكر الأرزاق المُطْلَقة من جهة السلطان)

ويختلِفُ الحال فيها باختلاف أحوال أربابها .

فأما أشياخُ الموحِّدين الكِبارُ ، فقد نقل فى "مسالك الأبصار" عن القاضى أبى القاسم بن بَنُّون أنَّ لهم أرضا يزرَعُونها أو يُحَكِّرونها ويكون لهم عُشْرُ ماطلع منها . وهذه الأرض بمثابة الإقطاع بمصر ، ولكل واحد منهم فى كل سنة حَرْثُ عشرةِ أزواجٍ بقرا ، كل زوج بشُعْبتَيْنِ ، كل شُعْبة رأسان من البقر فيكون لكل واحد عشرون شعبة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه الشعبة هى المسماة فى بلاد دمشق بالفدّان . ولهم مع ذلك راتب يفرّق عليهم فى طُول السنة ، يسمُّونه البَرَكات ، بمثابة الجَوَامك بمصر ، يفرّقُ أربعَ مَرَّات فى السنة : فى عيد الفِطْر تَفْرِقةٌ ، وفى عيد الأضحىٰ تفرقةٌ ، وفى ربيع الأوّل تفرقةٌ ، وفى رجَبٍ تفرقةٌ ، يُصيبُ كلَّ واحد منهم من ذلك أربعون دينارا مسماةً ، تكون بثلثمائة درهم عتيقة ، والسلطان يأخُذ معهم بسَهْم كواحد منهم علىٰ السَّوَاء ، فيكون جملة مالكُلِّ واحد منهم فى كل سنةٍ مائةً وعشرين دينارا

مسمّاة ، عنها ألفُ ومائتا درهم مَغْرِبية ، عنها من نقد مصر والشام ستمائةٍ وخمسون درهما ، وما يتحصّل من مَغَلّ عشرين فدّانا بقدر مثلها . قال فى "مسالك الأبصار" : فيكون تقدير ما لأحد المشايخ الكِبَار الذين بمثابة أمراء الألوف بمصر والشام فى كل سنة ألفُ وثلثمائة وعشرةُ دراهم نُقرةً بمعاملة مصر فى كل سنة .

وأما الأشياخُ الصِّغار ، فلكل واحد منهم حَرْثُ خمسة أزواج من البقر ، على النِّصف من الأشياخ الكبار ، والبَرَكاتُ فى كل سنة على ما تقدّم فى الكِبار . قال ابن بَنُّون : ولعامّة الأشياخ الكِبار والصِّغار والوَقّافين والجند شيءٌ آخر يُفَرِّقه السلطانُ عليهم ، يُسمّى المواساة : وهى غلة تفرّق عليهم عند تحصيل الغَلّات فى المخازن ، وشيء ثالثٌ يقال له الإحسانُ ، وهو مبلغ يفرّق عليهم . قال [وكلاهما](١) من السنة إلى السنة ليس لها قَدْر مضبوط ولا قَدْر مخصوص ، بل على قدر ما يراه السلطانُ وبحَسَب أقدار النــاس . ومقاديرُ العَطَايا بينهم متفاوِتةٌ . قال : وكذلك القبائلُ ومزاويرُهم على هـذا النحو . قال ابن القُوَيع : والجنـد الغُرَباء يتميزون فى الأعْطِيات على الموحِّدين . قال : وللعرب أهلِ البـادية إقطاعاتٌ كثيرةٌ ، ومنهم من يخرُجُ مع السلطان إذا استدعاهم السلطانُ للخروج معه .

الجمـــلة الثالثة عشرةَ
(فى لِبْس سلطان مملكة تُونُس ، ولِبْس أشياخه ، وسائر جُنْده ، وعامّةِ أهـــل بلده)

أما لِبْسُــه فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن سلطان زمانه بأفْرِيقيَّة : أن له عمامةً ليست بمُفْرِطة فى الكِبَر ، بحَنَك وعَذَبة صغيرةٍ . وقال ابن سعيد : له عمامةٌ

---

(١) بياض بالاصل بقدر كلمة والتصحيح من المسالك .

كبيرةٌ من صُوفٍ وكَتّان فيها طِرَاز من حرير . ولا يتعمّم أحدٌ من أهل دَوْلتـه قَدْرَها في الكِبَر . وذكر أن عَذَبة عمامته تكونُ خلف أُذُنِه اليُسْرىٰ ، وأنهـا مخصوصةٌ به وبأقاربِه ؛ وله جِبّاب تليها(١) ، ولا يلْبَس هو ولا عامّة جُنْده وأشياخه خُفًّا إلا في السَّفَر. وغالب لِبْسه ولِبْس أكابر مشايخه من قُمَاشٍ عندهم يسمّى "السَّفْسارىّ" ، يعمل عندهم من حرير وقطن أو حرير وصوف رفيع جِدًّا ، وقُماشٍ يُعرَف بالتِّلِمْسَانِيّ يُعْمَل بتِلِمْسانَ : إما صوفٌ خالصٌ أو حرير خالص : مُخَتَّم وغير مُخَتَّم . قال ٱبن بَنُّون : والسلطان يمتاز بِلُبْس الخَزّ ، ولَوْنُه لونُ الخُضْرة والسَّواد . قال : وهذا اللَّوْن هو المسمّى "بالجَوْزىّ" ، وبالغِيَار ، وبالنِّفْطِيّ . قال ٱبن سعيد : وهو ما يخرج من البحر بصَفَاقُس .

قال في "مسالك الأبصار" : وهو المسمى بوبر السمك بمصر والشام يعني المعبر عنه بصوف السمك المقدّم ذكره عند ذكر صَفَاقُس من بلاد أفريقية . قال ٱبن سعيد : وهي أفخر ثياب السلطان بتونس ونقل في "مسالك الأبصار" عن ٱبن سعيد : أنه يَلْبَس الثيابَ الصوف الرفيعة ، ذواتِ الألوان البديعة ، وأكثر مايلبس المختم الممتَزِج من الحرير والصُّوف ، بكمين طويلين من غير كَثْرة طُول ، ضيقين من غير أن يكونا مزنّدين . وثيابه دون شدّ نِطَاقٍ إلا أن يكون في الحرب فإنه يشُدُّ المِنْطقة ، ويلْبَس الأقبيةَ ؛ وله طَيْلَسانٌ صوفٍ في نهاية اللَّطافة ، كان يرتَدِى به ولا يضَعُه علىٰ رأسه .

[وأما لِبْس الأشياخ والدواوين والوقافين والجند والقضاه والوزراء والكتّاب وعامة الناس فعلى زىّ واحدٍ ، لاتكاد تتفاوت العمائم والجِبَابُ ولا يمتاز الأشياخ والوقافون

(١) لعله يلبسها .

والجند إلا بشيء واحد لا يكاد يظهر ولا يبين وهو صِغَر العمائم وضيق القماش، ولباس عامة أهل أفريقية من الجُوخ ومن الثياب الصوف ومن الأقبية ومن الثياب القطن، فمن لبس غير هذا مما يجلب من طرائف الاسكندرية والعراق كان نادرا شاذا] (١).

الجملة الرابعةَ عشرةَ

(فى شعار المُلْك بما يتعلق بهذا السلطان)

نقل فى "مسالك الأبصار" : عن ٱبن القُوَيع أن له علما أبيض يسمّى العَلَم المنصور، يُحَمل معه فى المواكب، وذكر أن الأعلام التى تحمل معه فى المواكب سبعة أعلام : الأوسطُ أبيض وإلى جانبه أحمر وأصفر وأخضر. قال : ولا أتحقق كيف ترتيبها وأن ذلك غير أعلام القبائل التى تسير معه فلكل قبيلةٍ علَمٌ تمتاز به بما عليه من الكتابة، والكتابة مثل لا إله إلا الله، أو الملكُ لله، وما أشبه ذلك، وأن له الطبولَ والبوقات والنفير.

الجملة الخامسةَ عشرةَ

(فى جلوس سلطان هذه المملكة فى كل يوم)

قال ٱبن سعيد : عادةُ هذا السلطانِ فى مدينة مملكتِه تَونُس : أنه يخرُج باكر كلّ يوم إلى موضعٍ يُعْرف بالمَدْرسة، ويبعث خادما صغيرا يستَدْعى وزيرَ الجُنْد من موضعه المعيَّنِ له، فيدخل عليه رافعا صوْتَه "بسلامٌ عليكم" عن بُعْد من غير أن يُومِئَ برأسه، ولا يقُومُ له السلطان، فيجلس بين يدَى السلطانِ، ويسأله السلطانُ عما يتعلَّق بأمور الجُنْد والحُروب، ثم يأمره باستِدْعاء مَنْ يُرِيده من أشياخ الجُنْد

---

(١) الزيادة من القطعة الأزهرية وهي فى "مسالك الأبصار" أيضا.

أو العَرَب أو مَنْ له تعلّق بوزير الجُنْد؛ ثم يأمر باستدعاء وزير المال وهو المعروفُ بصاحب الأشغال فيأتى معه ويُسَلّمان جميعا من بُعْد على السلطان، وإن كان قد تقدّم سلام وزير الجُنْد؛ ثم يتقدّم وزير المال إلى ما بين يَدَي السلطان ويتأخر وزير الجُنْد إلى مكان لا يَسْمَع فيه حديثَهما؛ ثم يخرج وزير المال ويستدْعي من يتعلّق به؛ ثم يحضُر صاحبُ الطعام بطعام الجُنْد ويَعْرِضه على وزيرهم لئلا يكونَ فيه تقصيرٌ؛ ثم يقوم السلطانُ من المَدْرسة إلى موضعٍ مخصوصٍ ويَسْتَدْعي وزيرَ الفَضْل: وهو كاتب السر، ويسأله عن الكُتُب الواردةِ من البلاد، وعما تحتاجُ خِزانةُ الكُتُب إليه، وعما تَجدّد فى الحضرة وفى البلاد مما يتعلّق بأرباب العلم وسائر فُنونِ الفضل والقُضاة، ويأمر باستدعاء مَنْ يَخُصّــه من الكُتّاب ويُمْلِي عليه وزيرُ الفضل ما أُمِرَ بكتابته، ويعلِّمُ عليه وزيرُ الفضل بخَطّه؛ ثم يستَدْعي السلطان مَنْ شاء من العلماء والفُضَلاء ويَتحاضَرُون مُحاضرةً خفيفةً. وإن كان وزيرُ الفضل قد رَفَع قصيدةً لشاعرٍ وافدٍ أو مرتّبٍ فى معنًى آستجدّ، أمره السلطان بقراءتها عليه، أو يأمر بحضُور الشاعر لِيُنْشِدَها قائمـا أو قاعدًا بحَسَب ما تقتضيه رُتْبته، ويتكلّمُ السلطانُ مع وزير الفَضْل ومن حَضَر من الفضلاء فى ذلك ويكتُب على كل قصيدةٍ بمـا يراه.

الجمـــــلة السادسةَ عشرةَ

(فى جلوسه للمظالم)

قال الشيخ شرف الدّين عيسى الزَّواوىّ: إذا جلس السلطانُ جلس حَوْلَه ثلاثةٌ من كِبَار أشـياخ الموَحّدين للرأى والمَشُورة، ويجلس معهم وزيرُ الجُنْـد إن كان كبيرا، وإن لم يكن كبيرا وقَف بإزاء أولئك الثلاثة، ويجلس دُونَهم عشرةٌ من أكابر أشياخه، وربما كان الثلاثةُ المختَصّون بالرأى من جملة العَشَرة المذكورين؛ ويقف

خمسون وَقَّافا وراءَ وزير الجُنْد . فإذا أمر السلطان بأمر بَلَّغه وزيرُ الجُنْد لآخَر واقفٍ وراءه، وبلَّغه الآخر لآخَرَ، وبلغه الآخُر لآخَر، حتّى ينتهى إلىٰ مَنْ هو خارج الباب بنقل ناسٍ عن ناس ؛ ويقف دون الخمسين المذكورين جماعةٌ تسمّى بالوَقَّافين بأيديهم السيوفُ حَوْلَه، وهم دون الخمسين المذكورين فى الرُّتبة . وقد ذكر آبن سعيد : أن يوم السبت مخصوصٌ عنده بأن يَقْعُد فى قُبَّة كبيرة فى القَصَبة : وهى القلعة، ويَحْضُر عنده أعيانُ دولته وأقاربه والأشياخُ ؛ ويجلس أقاربُه عن جانبه الأيمنِ، والأشياخ عن جانبه الأيْسَر ؛ ويجلس بين يديه وزيرالجُنْد، ووزيرُ المال، وصاحبُ الشُّرْطة، والمحتَسِب، وصاحب كُتُب المَظَالم : وهو المُوَقِّع على القِصَص . ويقرأ الكاتبُ المعيَّنُ ماوُقِّع له علىٰ قِصَص المظالم، ويردّ كلَّ مايتعلق بوظيفةٍ إلىٰ ربِّ تلك الوظيفةِ ويُنَفِّذُ الباقىَ .

الجملة السابعةَ عشرةَ

(فى خروجه لصلاة الجمعة)

قال آبن سعيد : من عادةِ السلطان بأفريقيَّة أنه لا يجتمِعُ يومَ الجمعة بأحد، بل يخرُج عند ما يُنادِى المنادى بالصلاة، ويشُقُّ رَحْبةَ قصره ما بين خواصّ من المماليك الأتراك، فعند ما يُعايِنُونَه ينادون "سلام عليكم" نداءً عاليا علىٰ صوت واحد يسمَعُه مَنْ يكون بالمسجد الجامع، ثم يتقدّمُه وزيرُ الجند بين يديه فى ساباط يَخْرُجُ هناك للجامع، عليه بابٌ مُذْهَب سلطانىّ ؛ ويسبِقُ الوزيرُ فيفتح البابَ، ويخرج منه السلطانُ وحده، ويَخْرُج له جماعة الوَقَّافين من أعيان الدّولة فلا يقوم له فى الجامع غيرُهم ؛ وليس له مقصورةٌ مخصوصةٌ للصلاة . فإذا آنفصل عن الصلاة قعد فى قُبَّة كبيرة له فى صَدْر الرَّحبة وحضر عنده أقارِبُه، ثم يدخُل قصْرَه .

الجملة الثـامنة عشرة
(فى رُكُوبه لصلاة العِيدَيْنِ أو للسَّـــفَر)

قال القاضى شرفُ الدين عيسىٰ الزَّواوِى : وعادته فى ذلك أن يركب السلطان، وعن يمينه فارسٌ وعن يساره فارس من أكابر أشـياخه من العشرة المقدّم ذكرهم، ويَمْشِى إلىٰ جانبـه رَجُلانِ مقلَّدان سيفَيْنِ رَجَّالة إلىٰ جانبه : أحدهما مُمْسِك بِركابه الأيمنِ، والثانى ممسكٌ بركابه الأيسرِ، ويليهما جماعةٌ رَجَّالةٌ من أكابر دولته : مثلُ الثلاثة أصحابِ الرأى، والعشرة الذين يَلُونهم، ومَنْ يَجرِى مَجْراهم من أعيان الجند؛ وتسمَّى هـذه الجماعة ايربان، يمشُون حوله بالسُّيوف وبأيديهم عَكَا كِيزُ . قال : وربمـا مَشىٰ فى هؤلاء قاضى الجماعة : وهو قاضى القُضَاة . وأمامَ هؤلاء الجمـاعة المَشَّائين نفرٌ كثيرمن الموحِّدين أقاربِ السـلطان بسيوف ومَزارِيق، ويُسَمَّوْن بالمَشَّائين . وقُدّامَهم جماعةٌ يقال لهم جفاوة : وهم عبيدٌ سودٌ بأيديهم حِرَاب فى رءُوسها راياتٌ من حرير، وهم لابسون جِبَابا بِيضًا مُقلَّدون بالسيوف . وأمامَ هؤلاء قومٌ يعبَّر عنهم بعبيد المخزن، وهم عوامُّ البلد وأهـل الأسواق، وبأيديهم الدَّرَق والسُّيوف، ومعهم العَلَمَ الأبيضُ المسمَّى بالعلم المَنْصور المقدّم ذكره فى شِعَار السَّلْطنة .

وعادتُهم أن يُنادىٰ فيهم ليـلةَ العِيد أو ركُوبِ السلطان لسَفَر، فيخرج أهل كل صِناعة بظاهرِ البَـلَد، ويكون خَلْفَ السـلطان صاحبُ العلامات، وهو أمير عَلَم راكب، ووراءه أعلامُ القبائل، ووراءَ الأعلام الطُّبُول والبُوقاتُ، وخلْفَهم محرِّكُو الساقة الذين هم بمَثَابة النُّقَبـاء وبأيديهـم العِصِىّ يرتِّبون العساكِرَ، وخَلْفَ هؤلاء العسكرُ . والفارسُ الذى عن يمين السلطان إليه أمرُ دَقِّ الطبول يقول : دُقَّ فلانٌ باسم كبيرهم، ويستمرّ مَنْ حولَ السـلطان من المُشَاة يمشُون ثم يركبون؛ ويطيف

بالسلطان جماعةٌ يقرءون حزبا من القرآن الكريم . ثم يقف السلطانُ ويدْعُو ويؤمّن وزيرُ الجند على دعائه، ويؤمّن الناس على تأمينه، ويُجِدّ الناسُ والسلطانُ السيْرَ . فإن كانوا في فضاء كان مشيهم على هذا الترتيب، وإن ضاق بهم الطريقُ مَشَوْا كيف جاء على غير ترتيب إلا أنّ الجندَ لا يتقدَّمُون على السلطان . فإذا قَرُبوا من المَنْزِلة وقف السلطان ودعا وأُمِّن على دعائه كما تقدّم . وإن كان في صلاة العيد ذهب في طريق وعاد في أخرى .

الجملة التاسعة عشرة

(في خروج السلطان للتنَزُّه)

قد تقدّم في الكلام على مدينة تُونُس أنها على طرف بُحَيرة خارجةٍ من البحر الرومىّ تُحْدِق بها البساتينُ من كل جانب؛ وفي تلك البُحَيرة جزيرةٌ يقال لها سكلة لاساكِنَ بها ربما ركب السلطان في السُّفُن وصار إليها في زمن الربيع، وتُضْرب بها أخْبِية ويُقِيم بها للتنَزُّه أياماً ثم يعود . على أنه لا ماءَ فيها ولا مَرْعَى، ولكن لِمَا تُشْرِف عليه من البَساتين المستديرة بتلك البُحَيرة وما قبلها من الجَواسِق المُشْرِفة ومَنْظَر البحر . وقد ذكر ابن سعيد : أنه ربما خرج إلى بُسْتانه، فيخرج في نحو مائتَىْ فارس من الشَّبَاب المعروفين بالصِّبيان الذين هم بمثابة المماليك الكتابية بالديار المصرية، يُوَصِّلونه إلى البستان ويرجِعُون، ويبقى وزراؤه الثلاثةُ نوّاباً له . وكل ما تجدّد عند كل واحد منهم من الأمر طالعه به وجاوبهم بما يراه . قال في "مسالك الأبصار" : وركوبه إلى البستان في زُقَاق من قَصَبته إلى البستان، مَحْجوب بالحِيطان لا يراه فيه أحد .

الجمــــلة العشرون

(فى مكاتبات السلطان)

قال فى "مسـالك الأبصار" : قال ابن سعيد : قال العلّامة أبو عبـد الله بن القُوَيع : إن هذا السلطانَ لا يَعَلِّم علىٰ شىء يُكْتَب عنه، وإنمـا يُعَلِّم عنه فى الأمور الكِبَار صاحبُ العَلَامة الكبرىٰ، وهو كاتب السِّر فى الغالب ، والعلامة "الحمد لله" أو "الشكر لله" بعد البسملة . قال : ومن خاصيَّة كتب هذا السلطان أن تكتَبَ فى ورقٍ أصْفَر . ومن عادته وعادة سائر المغاربة أن لا يُطِيلوا فى الكُتُب ولا يُباعِدوا بين السطور كما يُفْعَل فى مصر وما ضاهاها . أما فى الأمور الصِّغار فإنما تكون الكتابة فيها عن وزير الجند ، ويَكْتُب عليها صاحبُ العلامة الصغرىٰ آسمَ وزير الجند ، وتكون هذه الكتبُ فى غير الورق الأصفر .

الجملة الحاديةُ والعشرون

(فى البَرِيد المقرَّر فى هـــذه المملكة)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أنه إذا كُتِب كتابٌ إلىٰ نَواحى هــذه المملكة ليُوصَّل إلىٰ بعض نوابهـا ، جُهِّز مع مَنْ يَقَع الآختيارُ عليه من النُّقَباء أو الوُصْفانِ : وهم عبيد السلطان ، ويركَبُ على بغل إمَّا مِلْك له أو مستعارٌ ويسافر عليه إلىٰ تلك الجهة . فإن أعْيَا فى مكان تركه عنـد الوالى بذلك المكانِ وأخذ منه بَغْلا عِوضَه ، إما من جهة الوالى أو يُسَخِّره له من الرعايا ، إلىٰ أن ينتهى إلىٰ جهة قَصْـده ثم يعود كذلك .

الجملة الثانية والعشرون

(في الخلع والتشاريف في هذه المملكة)

قال القاضي أبو القاسم بن بنّون : ليس من عادة سلطان أفريقيّة إلباس من ولّى ولاية خلعةً كما في مصر ، وإنما هي كُسْوة : وهو قماش غير مُفَصَّل يتصرّف فيه كيف شاءَ .

المملكة الثانية

(من ممالك بلاد المغرب مملكة تِلِمْسانَ)

وهي مملكة الغرب الأوسط . وفيها جملتان :

الجملة الأولى

(في ذكر حُدُودها ، وقاعدتها ، وما آشتملت عليه من المُدُن ، والطريق المُوَصِّلةِ إليها)

أما حدودها ، فحدُّها من الشرق حُدُود مملكة أفريقيّة وما أُضِيف إليها من جهة الغرب ؛ وحدُّها من الشَّمال البحرُ الرومي ؛ وحدّها من الغرب حدودُ مملكة فاسٍ الآتي ذكرها من الشرق ؛ وحدّها من جهة الجنوب المَفَاوِزُ الفاصلةُ بين بلاد المغرب وبلاد السُّودان . وذكر في "العبر" : أن حدّها من جهة الغَرْب من وادي مَلَوِيَّة الفاصل بينها وبين الغرب الأقصى إلى وادي مجمّع في جهة الشرق الفاصلِ بينها وبين أفريقيّة .

***

وأما قاعدتها ، فمدينة (تِلِمْسانَ) بكسر المثناة من فوقُ واللامِ وسكون الميم وفتح السين المهملة وألف ونون . وهي مدينة من الغرب الأوسط . وقال

فى "تقويم البُلْدان": من الغرب الأقصى متاخِمةٌ للغرب الأوسط شرقىّ فاس بمَيْلة إلى الشّمال. وموقعُها فى أوائل الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيثُ الطولُ أربعَ عشرةَ درجة وأربعون دقيقة، والعرضُ ثلاثٌ وثلاثون درجةً واثنتا عَشْرةَ دقيقة. وهى مدينة فى سَفْح جبل، ولها ثلاثةَ عشَرَ بابا، وماؤها مجلوب من عين على ستة أميال منها، وفى خارجها أنهارٌ وأشجار، ويستدير بِقبْلِيّها وشرقِيّها نهرٌ يَصُبُّ فى بِرْكة عظيمة من آثار الأُوَل، ويُسْمَع لوَقْعه فيها خرير على مسافة، ثم يَصُبُّ فى نهرٍ آخَر بعد ما يمرّ على البساتين، ثم يصبُّ فى البحر، وعليه أرحاءٌ دائرة تدخل فيه السفُن اللِّطاف حيث يصبُّ فى البحر، وبُقْعتها شريفةٌ كثيرة المَرَافق.

ولها حصون كثيرة وفُرَضٌ عديدة.

منها (هُنَيْن) و(وَهْرانُ) و(مُسْتَغانم). فهنين تقابل المَرِيَّةَ من الأندَلُس ووَهْران فى شرقىِّ تِلمْسانَ بشمالٍ قليل، على مسيرة يوم من تِلِمْسان، ومستغانِم تقابل دانِيَةَ من الأندَلُس، وعَرْض البحر بينهما ثلاثُ مجارٍ ونصفُ مَجْرًى. قال الإدريسى فى "كتاب رُجَّار": وبها آثار الأُوَل، ولها أسواقٌ ضخمةٌ ومساجدُ جامعة. قال فى "مسالك الأبصار": وهى على ما بلغ حدَّ التواتُر أنها فى غاية المَنَعة والحَصَانة مع أنها فى وَطَاءة من الأرض ولكنها محصَّنة البناء. وبلغ من حَصَانتها أنَّ أبا يعقوبَ المَرِينىّ صاحب فاس حاصرها عشرَ سنين، وبنى عليها مدينةً سماها فاس الجديدة وأعجزه فتحُها ولها ثلاثةُ أسوار، ومن جهة القَصَبة وهى القلعة ستةُ أسوار، وبها أنهارٌ وأشجار، وبها شجر الجَوْز على كَثْرة، ومِشْمِشها يقارب فى الحُسْن مِشْمِشَ دِمَشْق. قال فى "مسالك الأبصار": زَكِيَّة الزرع والضَّرْع، ويقصِدُها تُجَّار الآفاق للتِّجارة. قال: ويطول مُكْثُ المخزونات فيها حتّى إنه ربما مَكَث القمحُ والشعير فى مَخَازنها ستَّ سنين ثم يُخْرَج بعد ذلك فيُزْرَع فينْبُت.

***

وأما مُدُنها الداخلة فى مملكتها، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن لها ثمانَ عشرةَ مدينةً: وهى تلمسان، وجده، ومَدْيونة، وتَدْرومه، وهُنَيْن، ووَهْران، وتيمزغزان، وبرسك، وشرشال، وتونت، ومستغانِم، وتَنَس، والجزائر، والقَصَبات، ومازونة، وتاجحمت، ومِلْيانة، والمَرِيَّة.

***

وأما الطريق الموصل إليها، فقد تقدّم فى الكلام على مملكة تُونُس الطريقُ من الديار المصرية إلى تُونُس. وقد ذكر فى "الذيل على الكامل" أن من تُونُس إلى باجَةَ، ومنها إلى تغريه وهى آخر بلاد أفريقية، ومنها إلى قُسَنْطينة وهى أوّل بلاد بِجايَةَ، ومنها إلى أوّل بلاد تِلِمْسان، ومنها إلى قُلَيْلِية، ومنها إلى البُقَيْعة، ومنها إلى تِلِمْسان.

الجملة الثانية

(فى حال مملكتها)

لم أقف على شىء من ترتيب مملكتها، والظاهر أنها تشبه مملكةَ تُونُس فى الحال والترتيب أو قريبٌ من ذلك. فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بِجايَةَ ثانيةُ تُونُس فى الرُّتْبة والحال، والموجودات، والمُعامَلات. وقد تقدّم أن بِجايَةَ من الغَرْب الاوسط، فتكون تِلِمْسانُ فى معناها، وإن وقعت مخالَفَةٌ فى ترتيب المملكة فإنما تكون فى القَدْر اليسير. قال فى "مسالك الأبصار" وهى مَمْلكة كبيرةٌ، وسلطنةٌ جليلة، قريبُ الثلثيْنِ من مملكة برّ العُدْوة. وهى وسيعة المَدَى، كثيرة الخَيْرات، ذاتُ حاضرةٍ وباديةٍ، وبَرٍّ وبحر.

المملكـــة الثـــالثة

(من بلاد المغرب — الغرب الأقصى ،
و يقـــال له بَرُّ العُدْوة ، وفيـــه ثلاثة مقاصـــد)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان مَوْقِعها من الأقاليم السبعة وذكر حدودها
وما ٱشتملت عليه من المُدُن والجبال المشهورة . وفيه أربع جمل)

الجمـــلة الأُولى

(فى بيان موقعها من الأقاليم السبعة)

فموقِعُها فى الإقليم الثالث كما فى مملكة تُونُس ، و بعضها فى الإقليم الثانِى ، و بعضها فى أوائل الإقليم الرابع على ما سيأتى ذِكْرُه .

وأما حدودها . فقد ذكر صاحب "العِبَر" : أنه من مدينة آسفِى حاضرةِ البحر المحيطِ إلى وادى مَلوِيَّة ومدينة تازا من جهة الشَّرْق ، يحيط به البحر المحيط من جهة الغرب ، وجبالُ دَرَن وما يليها من جَنُوبِيِّه ، وجبال تازا من شرقِيِّه ، والبحر الرومى من شَمَـالِيِّه . ثم قال : وهو ديارِ المَصَامِدة وغيرهم من البربر . وذكر فى "مسالك الأبصار" نقلا عن أبى عبـد الله محمد بن محمد السلايجى (١) : أن حدّها من الجنوب الصَّحْراءُ الكبيرة الآخذة من بلاد البَرْبر إلى جَنُوب أفريقيَّة ؛ ومن الشرق جزائر بنى مَزْغِنَّانَة وما هو آخذ على حدّها إلى الصحراءِ الكبيرةِ ؛ ومن الشَّمال البحرُ الشامىُّ ؛ ومن الغرب البحر المُحيطُ .

(١) فى المسالك السلالجى ، وقد تكرر .

وحكى عنه : أن طُولَ هذه المملكة من جزائر بَنِي مَزْغِنَّانَةَ ، وهى جزائر بنى مَزْغِنَّان المقـدّم ذكرها فى بلاد بِجَايَةَ من مملكة تُونُس إلىٰ البحر المحيط ، وعرضها من بحر الزُّقاق بِسَبْتَة إلىٰ نهاية بلاد البربر المتَّصلة بالصحراء الفاصلة بين هـذه المملكة و بين بلاد السُّودان ثلاثون يوما .

الجملــــة الثــانية

(فى بيان قَوَاعدها وما ٱشتملتْ عليه هــذه المملكةُ من الأعمال وما ٱنطوتْ عليه من المُدُن)

أما قواعدها فخمس[1] :

القــاعدة الأُولىٰ

(فاس)

بفتح الفاء ثم ألف وسين مهملة . وهى مدينــة بالغرب الأقْصىٰ ، واقعةٌ فى آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ عَشْرُ دَرَج وخمسون دقيقــة ، والعرض ثلاثٌ وثلاثون درجة . قال : وسمِّيت بفاس لأنهم لمَّـا شرعوا فى حفر أساسها ، وجدوا فَأْسا فى موضع الحفر . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وهى مدينتان يَشُقُّ بينهما نهر . الأولىٰ (فاسُ القديمةُ) والميـاه تجرى بأسواقها وديارها وحَمّـاماتها ، حتّٰى يقال إنه ليس بالمَشْرِق ولا بالمغْرب مدينــةٌ تُضاهيها فى ذلك ؛ إلا أن أرضها ذاتُ ٱرتفاع وٱنخفاض ، وفيها عِدّة عيون . قال أبو عبدالله العسلى : عِدّتها ثلثمائة وستون عينا . قال آبن سعيد : لم أَرَقَطُّ حَمَّاماتٍ فى داخلها عين تَنْبُع إلا فى فاس . قال : وهى أكثرُ مياهًا من دِمَشْق . قال آبن سعيد فى "المُغْرب"

---

(١) لم يذكر إلا أربعا .

وهى مدينتان : إحداهما بناها إدريسُ بنُ عبد الله : أحدُ خلفاء الأدارسة بالمغرب ، وتُعْرف بعُـدْوة الأندَلُس . والأخرىٰ بنيت بعـدها وتعرف بعُدْوة القَروِيِّين . قال فى "الروض المعطار" : وكان بناء عُدْوة الأندلسيين فى سنة ٱثنتين وتسعين ومائة ، وبناء عُدْوة القروِيين فى سنة ثلاث وتسعين ومائة . وعُدْوة القَروِيين أكثَرُ عيونًا وبساتينَ وأشجـارا من عُدْوة الأندلسيين . ورجال عُدْوة الأندَلُسِيِّين أشجعُ . ورجال عُدْوة القَروِيين أجملُ . ونساء عُدْوة الأندَلُسِيين أجمل . وبعُدْوة الأندلسيين تُفّاح حسنٌ طيِّب الطَّعْم يُعْرَف بالطرابُلُسِى" لا يُفْلِح بعُـدْوة القَروِيِّين . وبعُدْوة القروِيين أُتْرُجٌ حسنٌ لايُفْلِح بعدوة الأندَلُسِيِّين مع التقارُب علىٰ ضَفَّة النهر الغربية ؛ وهى فى مستوٍ من الأرض ، وهى فى عُلْو لايحكُم النهر عليها . والثانية (فاس الجديدةُ) وهى ثلاثُ مُـدُن بناءُ آباء ملوكها القائمين بهـا الآنَ حين ملكوا الغرب الأقصىٰ . ولمـا نزلوها بنَوْا معها ثلاث مُدُن علىٰ ضَفَّة النهر الغربية .

أوّلها (المدينةُ البيضاء) وتُعْرَف بالجَديدة . بناها أبو يوسفَ يعقوبُ بن عبد الحق أوّلُ من ٱستقل بالمُلْك بعد الموحِّدين .

الثانية (مدينة حِمْص) ويُعْرَف موضعها بالمَلّاح . بناها ولده أبوسعيد : عثمانُ ٱبن أبي يوسف إلىٰ جانب المدينة البيضاء المقدَّم ذكْرُها .

الثالثة (رَبَض النصارىٰ) وهى المتَّخَذةُ لسُكْنىٰ النصارىٰ من الفرنج المستخْدَمين بخدمة السلطان . وهذه المتجدِّدات الثلاث علىٰ ضَفَّة النهر الغربية : فرَبَض النصارىٰ يقابل فاسَ القديمةَ علىٰ بُعْد من ضَفَّة النهر . والبيضاء وهى فاسُ الجديدة آخذةٌ من شَمَالى" رَبَض النصارىٰ إلى ضَفَّة النهر . وأوّل عمارة فاس الجديدة آخر عمارة فاس العتيقة . وحِمصُ راكبة علىٰ النهر بشَمَال على جانب فاس الجديدة آخذةً إلىٰ رَبَض

النصارىٰ ، ينصبُّ من الجنوب إلى الشَّمال ، ثم ينعطف علىٰ زاويةٍ آخذا من الغرب إلىٰ الشرق حتّٰى يصير كأنه ينْحَدِر من الغرب ، وحِمْص علىٰ مجراه هناك ؛ ثم يمرّ آخذًا إلىٰ الشرق علىٰ حالِه فوق فاس الجديدة . ثم ينعطف عليها بزاوية إلىٰ الجنوب ثم ينعطف إلىٰ الشرق جائزا بها ؛ وهناك فاسُ العتيقةُ علىٰ الضَّفَّة الشَّمالية ، والقَصَبةُ وهى القلعة بها فى غربيها مرجَّلة علىٰ الأرض لا تميز علىٰ المدينة برفعةٍ ولا ببناءٍ عالٍ ؛ ويصير النهرُ مستَدْيرا بفاس الجديدةِ من جانب الشَّمال علىٰ المَجْرىٰ المرَكَّب عليه حِمْصُ ، ومن الشرق حيث آنعطف النهرُ عند فاس العتيقةِ .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهذا النهر متوسِّط المِقْدار . عرضُه فى المكان المتسع نحوُ أربعين ذراعا ، وفى الضَّيِّق دُونَ ذلك ؛ وربما تضايقَ إلىٰ خمسةَ عشرَ ذراعا فما دُونَها ؛ وعُمْقه فى الغالب تقديرُ قامة رجل . ونقل فى "مسالك الأبصار" عن آبن سعيد : أن نهرها يلاقى وادى سُبُو ، وهو من أعظم أنهار المغرب ، يصبُّ فى البحر المحيط بين سَلَا وقَصْر عبد الكريم . قال فى "تقويم البُلْدان" قال آبن سعيد : وعلىٰ أنهارها داخِلَ المدينة نحوُ ستِّمائة رَحًا تدور بالماء دائما . قال فى "مسالك الأبصار" (١) : وعليها ناعورةٌ ترفَع الماء إلى بُستان السلطان . وبناءُ فاس العتيقةِ بالآجُرِّ والجبالُ مكتَنِفة بها ، وعلىٰ كل من عتيقها وجديدها أسوارٌ دائرةٌ محصَّنة ذاتُ بروج وبَدَنات ، وجميع أبنيتها بالحَجَر والآجُرّ والكِلْس موثَّقة البناء مُشَيَّدة الأركان . وتزيد فاسُ الجديدةُ علىٰ فاس العتيقة فى الحَصَانة والمَنَعة ؛ والعتيقةُ بسُور واحد من الحجارة والجديدةُ بسُورَيْن من الطين المُفْرَغ بالقالب من التراب والرمل [والكِلْس المضروب وهو أشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق ولا تؤثر فيه ، وكذلك غالب أبْنيتها ، وسقوف جميعها الخشب وربما غشيت بعض السقوف بالقصدير والأصباغ الملونة ،

(١) يؤخذ من عبارة ياقوت أن نهرها يتفرق داخلها إلىٰ أنهار وعليها من الأرحاء ذلك المقدار .

وأرض دور رؤسائهـا مفروشة بالزَّلِّيج ، وهو نوع من الآجر مدهون بدهان ملوّن كالقاشانى بالأبيض والأسـود والأزرق والأصـفر والأخضر وما يركب من هـذه الألوان وغالبه الأزرق الكحلى وربمـا آتخذ منـه الوزرات بحيطان الدور، قال فى "مسالك الأبصار" : وسألت السلائحى عن مقدار عمارة فاس عتيقها وجديدها . فقال : تكون قدر ثلث مصر والقاهرة وحواضرهما . قال فى "تقويم البلدان"[(١)] : وللمدينتين ثلاثة عشَرَ باباً ، وفى القديمة مخازنُ الغِلال ، وهى مكان يستدير عليه سُورٌ منيعٌ عليه بابٌ وغَلَق داخِلَه المطامير. وبفاس العتيقة داخِلَ سُورها جِنانٌ ورياض ذاتُ أشجار ورياحينَ فى دُور الكُبَراء وبُيوتِ الأعيان . ثم قال : وبكل من فاس القديمة وفاس الجديدة المعروفةِ بالبيضاء وحمْص الجوامعُ والمساجدُ والمآذنُ والحَمّاماتُ والأسواق . أما المَـدارس والخوانِقُ والرُّبُط فما خَلَت صحـائفُ أهل المغرب مِنـ أُجُورها إلا النَّزْر اليسيرَ جدّا . وبفاس العتيقة مارِسْتان ، ودور فاس مَجَالس متقابلةٌ على عَمَد من حجر أو آجُرّ ورَفارِف تُطِلُّ على صحن الدار ، وفى وسَطِ صحن الدار بِرْكة يَصبُّ بها المـاءُ ويعبّر عنها عندهم بالصِّهْرِيج ، ولهم عِنَاية بآتخاذ القِبَاب فى بُيوتهم ، حتّى يوجد فى دار الكبير قُبّتان فأكثرُ ، وحَمّاماتهم صحنٌ[(٢)] واحد لاخلاوىٰ فيها ، ولذلك يتّخِذ غالبُ رؤسائهم الحَمَّاماتِ فى بيوتهم ، فرارا من مخالطة العامة فى الحَمّام .

قال ابن سعيد : ومدينة فاس متوسطةٌ بين مُلْك الغرب ، بينها وبين مَرَّاكُش عشرةُ أيام وبينها وبين تلمسان عشرة أيام ، وبينها وبين سبتة عشرة أيام ، وبينها

(١) الزيادة من القطعة الأزهرية .

(٢) أى ينسكب بها وصب يكون لازما ومتعديا الا أن اللازم من باب ضرب والمتعـدّى من باب نصر كما نص عليه فى تاج العروس والمصباح .

(٣) مراده أن حماماتها ليس بها حُجَر للخواص . وقد جارى العامة فى جمع الخلوة على خلاوى .

وبين سجلماسة عشرة أيام . قال فى "مسالك الأبصار" . ولذلك صَلَحت أن تكون قاعدةَ الملك . وهى تشبه الإسكندريةَ فى المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المُنْكَر والقيام بالنامُوس ، وتُشَبَّه بدِمَشْق فى البساتين .

وقد ذكر ابن مُنْقِذ : رسولُ السلطان "صلاح الدين يوسفَ بن أيوب" إلى بلاد المغرب : أنهم أُخْرِجوا إلى بستانٍ بفاس يقال له البحيرة متحَصَّله فى كل سنة خمسةٌ وأربعون ألف دينار ، وبه بِرْكةٌ ذَرْع كل جانب منها مائتان وستةَ عشرَ ذراعا ، يكون دورها ثمانمائة ذراع وأربعةً وستين ذراعا . قال : وبها ما هو أكبر من ذلك . قال فى "تقويم البُلْدان" : وأهلُها مخصوصون برَفاهِيَة العَيْش . قال فى "مسالك الأبصار" : ولأهلها حُسْن الصنعة فى المخْروطات من الخَشَب والنُّحاس . قال أبو عبد الله السلايجى : ولكنها وَخْمة ثقيلة الماء ، تعلُو وُجوهَ سُكَّانها صفرةٌ ، وتُحدِث فى أجسادهم كَسَلا وفُتورا .

القاعدة الثانية

(سَبْتة)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح السين المهملة وسكون الباء الموحدة وتاء مثناة فوق وهاء فى الآخر . قال فى "الروض المعطار" : والنسبة إليها سَبْتِيٌّ بكسر السين . وهى فى دَخْلة فى البحر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة بين بحرَيْنِ : بين البحر المحيط وبحر الرُّوم . ومَدْخَلها من جهة المغرب وهو مَدْخَل ضَيِّق ، والبحر محيط بأكثرها ، ولو شاء أهلها لوصلُوا البحر حَوْلَها وجعلوها جَزيرة . ولها أسوار عظيمة من الصَّخْر ، وعليها أبراج كثيرة ، والماء يُجْلَب إليها فى الشَّوانى حتى للحَمَّامات

التى بهـا ، وبها صَهاريجُ من ماء المطر . ويقال إنها أوّلُ ما بنى ببَرّ العُدْوة . قال فى "الروض المعطار" : وهى سبعةُ أجْبُل صِغارٌ متصلة بعضُها ببعض معمورة ؛ طولها من الغرب إلى الشرق نحو ميل . وقال فى "مسالك الأبصار" : طولها من السور الغربى المحيط برَبَضها إلى آخر الجزيرة خمسةُ أميال . قال فى "الروض المعطار": ولها بابان من جهة البَرّ ، ويتصل بها على مِيلَيْن من جهة الغرب جبلٌ يعرف بجبل موسى ، وهو موسى بن نُصَـيْر الذى فتح الأنْدَلُس ، ويجاوره بساتينُ وأشجارٌ وقُرًى كثيرة ؛ وهناك يُزْرَع قَصَب السكّر ويحمل إلى ما جاورها من البُلْدان ؛ ولها نهر عَذْب فى البحر ؛ وكان بها كنيسة جُعِلت جامعا ؛ وبها يستَخْرَج من البحر شَجَر المَرْجان الذى لا يَعْدِله مَرْجان . ويقابلها من الأنْدَلُس الجزيرةُ الخضراء وبحر الروم بينهما ضَيّق ، حتّى إنه إذا كان الصحو رِيئَتْ إحداهما من الأخرى ، ولذلك يسمّى بحرها بحر الزُّقاق ، ومِيناها شَرْقِيّها ؛ وغالب طُرَف الدنيـا موجودةٌ فيها ؛ والحِنْطة مجلوبةٌ إليها إذ لا يزكو نباتُها فيها (١) ؛ ويُصاد بها أسمـاكٌ مختلفة على نحو مائةِ نوع . ويقابل هذه المدينة من برّ الأندلُس الجزيرة الخَضْراء .

وكانت هذه المدينةُ قاعدةً لهذا القُطْر قبل الإسلام ، وهى يومئذ ديار غُمَارة من المَصامدة ، والحاكمُ عليها مَلِك الأندَلُس من القُوط ، وكان مَلِك غُمارة بها فى زمن الفتح يقال له يُلْيان ؛ ولمـا زحف إليه موسى بن نُصَير المذكور أميرُ أفريقيَّةَ فى زمن الفتح جاء معه بالهدايا ، وأذعن لأداء الجِزْية فأقرّه عليها ، وآسترْهن آبنَه وأبناءَ قومه ، وأنزل طارقَ بنَ زياد بطَنْجةَ بالعساكر إلى أن أجاز البحرَ لفتح الأنْدَلُس كما سيأتى فى الكلام على مكاتبة صاحب الأنْدَلُس .

---

(١) تقدمت هذه الجملة بمعناها فاثباتها سهو .

ولما هلك يُلْيانُ آستولىٰ المسلمون من العرب علىٰ مدينة سَبْتَة بالصُّلْح من أهلها فعمَرُوها إلى أن كانت فتنةُ مَيْسَرة الحفير وما دعا إليه من مذهب الخوارج وأخذ به الكثير من البربر من غمارة وغيرهم ، فزحف برابرةُ طَنْجة إلىٰ سَبْتَة فأخرجوا العرب منها وخَرَّبوها ، وبقيت خاليةً إلىٰ أن عَمَرها ماجكس من وجوه غمارة من البربر وبناها وأسلم وصَحِبَ أهلَ العلم، فرجع الناسُ إليها ومات .

فقام بأمره من بعده آبنه (عصام) فأقام بها زمنا إلىٰ أن مات .

فولي بعده آبنه (مجير) فأقام بها إلىٰ أن مات .

فوليها أخوه (الرَّضِيّ) ويقال آبنه، وكانوا يُعْطُون الطاعة لبنى إدريس من العَلَوِيَّة ملوك فاس ؛ ولما سَمَا الناصر الأُمَوِيّ صاحبُ الأَنْدَلُس إلىٰ مُلْك المغرب وتناول أكثره من يد الأدارِسَة ببلاد غُمَارَة وغيرها حين أُخْرِجوا من فاس وقاموا بدعوة الناصر فى جميع أعمالهم، نزلوا للناصر عن سَبْتَة ، فبعث إليها العساكر فانتزعها من يد الرَّضِيّ بنِ عصام سنة تسعَ عشرةَ وثلثمائة ، وآنقرض أمر بنى عصام وصارت سَبْتَةُ للناصر ومَنْ بعده من بنى أُمَيَّة خُلفاءِ الأندلُس . وكان علىّ والقاسم آبنا حَمُّود بن ميمون ، بن أحمد ، بن علىّ ، بن عبيد الله ، بن عمر ، بن إدريس العَلَوِىّ قد لحقا بالأندَلُس لما أخرج المستنصرُ الأمويُّ الأدارسةَ من المغرب ، وبَقِيَا بالأَنْدَلُس إلىٰ أن كانت أيامُ المستعين سليمانَ بن الحكم فآختَصَّ بقاسم وعلىّ آبنَىْ حَمُّود ، وعَقَد لعلىّ بن حَمُّود علىٰ طنجة وأعمال غُمَارة فنزلها ، ثم خرج عن طاعته ودعا لنفسه ، وعاد إلىٰ الأندلس وولِىَ الخلافةَ بقُرْطُبة كما سيأتى فى مكاتبة صاحب الأندلس ، ووَلَّى علىٰ عمله بطَنْجة آبنَه يحيىٰ بنَ علىّ .

ثم أجاز يحيىٰ بعد موت أبيه إلىٰ الأندلس وآستقلَّ أخوه إدريس بن علىّ بولاية طَنْجة وسائر أعمال أبيه من مواطنِ غُمَارَة .

ثم أجاز إلى الأندلس بعـد مَهْلَكِ أخيه يحيى ، وعقد لحَسَنِ ٱبنِ أخيه يحيى على عملهم بسَبْتَةَ وطَنْجة وأرسل معه نجا الخادمَ لتدبير دولته .

ثم أجاز (نجا) الخادمُ إلى الأَنْدَلُس ومعه حَسَن بن يحيى المذكور؛ ثم عقد حسنٌ لنجا الخادم على عملهم في بلاد غُمَارَة .

فلما هلك حَسَن بالأندلس ، أجاز (نَجَا) إلى الأَنْدَلُس وٱستخلف على العمل مَنْ وَثِق به من المَوَالى الصَّقالبة ، وٱستمرّت في المَوَالى واحدًا بعد آخَر إلى أن ٱســتقلّ بسَبْتَةَ وطَنْجَةَ من موالى بنى حَمُّود الحـاجبُ (سَكُّوت البرغوطى) فاســتقلّ بسَبْتَةَ وطَنْجَةَ وأطاعته قبائل غُمَارَة ، وٱتّصلت أيامُه إلى أن كانت دولة المُرَابِطين ، وغلب أمير المســلمين « يوسفُ بن تاشــفين » على مَغْراوة بفاس ، وسار إلى بلاد غُمَــارة ونازل سَكُّوت الحاجب ، وكانت بينهما واقعة قُتِل فيها سكوت ؛ ولحق ضياء الدولة ٱبن سكوت بسَبْتَةَ فأقام بها إلى أن نازله المُعِزُّ بن يوسف بن تاشفين بها فقبض عليه ثم قتله ؛ وٱنقرضت دولة بنى حَمُّود من بلاد غُمَارة وصارت في مِلْك المرابطين إلى أن فتح بنو عبد المؤمن من الموحِّدين مَرَّاكُش ، فدخل أهلُ سبتة وسائر غُمَارَة في طاعتهم ؛ وأقامت على ذلك إلى أن ضَعُفت دولةُ بنى عبد المؤمن : ثار في غُمَارة محمد بن محمد اللّثاميُّ المعروفُ بأبى الطواجن ، وكان له يدٌ في السِّيمياء ، وٱرتحـل إلى سَبْتَةَ فنزل عليها وٱدّعى النبوّة وأظهر أنواعا من الســيمياء فٱتّبَعــه جماعةٌ ؛ ثم ظهر لهم حقيقــةُ أمره فرجَعُوا عنه ، وقتله بعض البَرْبَرغِيلةَ ، إلى أن كانت أيامُ بنى مَرِينٍ وغَلَبِهِــم على بلاد المغرب فامتنعت عليهــم سَبْتَةُ ، وقام بأمرها الفقيــهُ أبو القاسم العزفى من مَشْيَخَتِها فبقيت بيــده ويد بَنِيه إلى أن ملكها منهم بنو مَرِينٍ ســنةَ تسع وعشرين وســبعمائة في أيام السلطان أبى الحسن ، فصارت تابعــةً لفاس دارِ مُلْك بنى مرين جاريةً في يد ملوكها ، وهي باقيةٌ بأيديهم إلى زماننا بعد العَشْر والثمــانمِــائة .

القاعدة الثالثة

(مدينة مَرَّاكُش)

بفتح الميم وتشديد الراء المهملة وفتحها وألف ساكنة ثم كاف ثم شين معجمة .

وهى مدينة واقعة فى أول الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطولُ إحدى عشرةَ درجةً ، والعرض تسع وعشرون درجةً . بناها أمير المسلمين « يوسفُ بن تاشفين » مَلِكُ المُرابِطِين فى أرض صَحْراوِيَّة ، وجلَب إليها المياهَ . قال ابن سعيد : وأول ما بُنِىَ بها القصرُ المعروف (بقصر الحَجَر) ثم بنى الناسُ حوله ، ثم زادها يعقوبُ بن عبد المؤمن ، وكبَّرها ومَصَّرها ، وفخَّمها وضَخَّمها ، وجلب إليها المِياهَ والغِراس . قال فى "تقويم البُلْدان" : ودَوْرها سبعةُ أميال ، ولها سبعةَ عشَرَ بابا . قال فى "الروض المِعْطار" : وبنى سُورَها علىُّ بن يوسف بن تاشفين فى سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة ، وقيل سنة أربعَ عشرةَ وخمسمائة . قال : وطولها مائة وعشرون ميلًا ، وعرضها قريبٌ من ذلك ؛ وهى فى وطاءة من الأرض ليس حَوْلَها جبال إلا جبل صغير منه قُطِع الحجر الذى بَنىٰ منه علىُّ بن يوسف بن تاشفين قصْرَه ؛ وعامَّةُ بنائها بالطين والطوب .

قال ابن سعيد : وهى مما سكَنْتُ بها وعرفتها ظاهرًا وباطنًا ، ولا أرى عبارة تَفِى بما تحتوى عليه ، ويكفى أن كلَّ قصر من قُصُورها مستقِلٌّ بالديار والبساتينِ والحمَّام والإصْطَبْلات والمياه ، وغير ذلك حتّى إن الرئيس منهم يُغْلِق بابَهُ علىٰ جميع خَوَلِه وأقاربه وما يحتاجُ إليه ، ولا يخرُج من بابه إلى خارج داره لحاجة يحتاجها ، ولا يشترِى شيئا من السوق لمأْكَل ، ولا يُقْرِئُ أولاده فى مَكْتَب ، ويخرُج من بابه راكبا فلا تَقَع عليه العين راجلا . قال : ولا أدرى كيف أَصِل إلىٰ

غاية من الوصف اصِفُ بها ترتيبَ هذه المدينــة المُحْدَثة ؟ فإنها من عجائب هِمَّات السلاطين ، ذاتُ أسوار ضَخْمة وأبواب عاليةٍ .

و بظاهرها مدينة آختطها المنصور "يعقوبُ بنِ عبدالمؤمن" له ولخواصّه تعرف بتامرّاكش ، وبها قصر الخلافة الذى بناه به دورٌ عظيمة ؛ و بها بستانٌ يعرف بالبحيرة طوله آثنا عَشَرَ ميــلا ، به بركة عظيمة لم يُعْمَلْ مثلُها قال العقيليّ : طولهـا ثلثمائة وثمـانون باعا ، علىٰ جانبها الواحد أربعُمائة شجرة نارَنْج ، بين كل آثنتين منها لَيمونة أو رَيْحـانة . وهى أكثر بلاد الغرب بسـاتينَ ، وشجرها أكثَرُ منها ، وبسـاتينُها تسـقىٰ بالبئار و بئارها قريبــة الرشاء علىٰ نحو قامتين من وجه الأرض ؛ وهى كثيرة الزَّرْع والضَّرْع ؛ و بهـا دارُ الضيافة المعروفةُ بدار الكرامة . وفيهـا يقول محمـد بن محمد البربرىّ من أبيات يمدحهم و يصفها :

خيْرُ قَوْمٍ دُعوا إلىٰ خيرِ دارٍ ، * هى للمُلْك نَضْرةٌ وكَمامــه

عالَمُ السبْعةِ الأقاليمِ فيهـا ، * وهُــمُ فى فِنائهـا كالقُلامه

و بمَرّاكُش جامعٌ جليلٌ يُعْرف بالكُتْبيِّين ، طوله مائةٌ وعشرة أذرع ، وعلىٰ بابه ساعاتٌ مرتفعة فى الهــواء خمسين ذراعا ، كان يُرْمىٰ فيها عند آنقضاء كلِّ ساعة صَــنْجةٌ زِنَتُها مائة درهم ، تَحَرّك لنزولهـا أجراسٌ تُسْمَع علىٰ بُعْــد ، تسمَّى عندهم بالبَجّانة . قال فى "تقويم البُلْدان" : إلا أنَّ الناس أكثَرُوا فيهـا البساتين فكَثُر وَخَمُها . قال فى "الروض المِعْطار" : وقد هَجَـاها أبو القاسم بنُ أبى عبد الله محمد آبن أيوب بن نُوحٍ الغافقىّ من أهل بلَنْسِيَةَ بأبيات أبلغَ فى ذَمِّها ، فقال :

مَرّاكُشُ إن سألْتَ عنها ، * فإنّهـا فى البِـلَاد عَارُ!

هَوَاؤُها فى الشّتاء ثَلْجٌ ، * وحَرُّها فى المَصيف نارُ!

وكلُّ ما ثَمَّ وهو خَــيرٌ * من أهلهـا عَقْرَبٌ وفَارُ!
فإنْ أكُنْ قد مكثتُ فيها، * فإنَّ مُكْثِي بِهَـا اضْطِرارُ!

وكانتْ هذه المدينةُ دارَ مُلْكِ المرابطين من المُلَثَّمين الذين ملكوا بعد بَنِي زِيرِى، ثم المُوَحِّدين من بعدهم. قال ابن سعيد: و بينها و بينَ فاس عشرةُ أيام. وقال فى "الروض المعطار": نحوُ ثمانيةِ أيام. قال: و بينها و بين جبال دَرَنَ نحوُ عشرين ميلا.

القاعدة الرابعة
(سِجِلْماسَةُ)

بكسر السين المهملة وكسر الجيم وسكون اللام وفتح الميم ثم ألف وسين مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر، وهى مدينة فى جنوب الغرب الأقصىٰ فى آخر الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد: حيث الطول ثلاث عشرة درجة واثنتان وعشرون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة وأربع وعشرون دقيقة.

وهى مدينة عظيمةٌ إسلاميَّة، و بينهـا و بين البحر الرُّومىّ خمس عشرةَ مرحلةً، وليس قِبْليَّها ولا غربيَّها عُمْرانٌ، و بينها و بين غانَةَ من بلاد السُّودان مسيرةُ شهرين فى رِمَال وجبال قليلةِ المِياه، لا يدخُلُها إلا الإبلُ المصبرة علىٰ العَطَش. اختطَّها يزيدُ بنُ الأسود (١) من مَوَالى العرب، وقيل: مِدْرارُ بن عبد الله. وكان من أهل الحديث، يقال إنه لقِىَ عِكْرِمَةَ مولىٰ ابن عباس بأفْرِيقيَّةَ وسمع منه. وكان صاحبَ ماشية، وكان ينتَجِع موضِعَ سِجِلْماسةَ بالصَّحراء ليَرْعىٰ به ماشيَته، فكان يجتمع إليه أهلُ تلك الصحراءِ من مِكْناسةَ والبَرْبر، وكانوا يدينون بدين الصُّفْرية من الخَوَارج،

---

(١) كذا فى الأصل وفى "العبر ج ٦ ص ١٣٠" عيسى بن يزيد الاسود.

فاجتمع عليــه جماعة منهم فلمــا بلغوا أربعين رجلا قدّموا عليهــم يزيدَ بن الأسود وخلعوا طاعة الخُلَفاء ، وآختطُّوا هــذه المدينةَ ســنة أربعين ومائةٍ من الهجرة . ولها آثنا عشَر بابا ، وهى كثيرةُ العمارة ، كثيرة البساتين ، رائقة البِقاع ، ذاتُ قُصور ومنــازلَ رفيعة وعماراتٍ متصــلة ، على نهر كثير المــاء يأتى من جهة المَشْرق من الصحراء ، يزيد فى الصيف كزيادة النِّيل ، ويُزْرَع على مائه كما يُزْرَع على ماء النيل ، والزَّرْع عليه كثير الإصابةِ ، والمطرُ عندهم قليل : فإذا كانت السنةُ كثيرةَ الأمطار ، نبت لهم ما حصدوه فى العام السابقِ من غير بَذْر ، وربمــا حَصَدُوه عنــد تنــاهيه وتركوا أصوله فتنبُتُ ثانيا . ويقال : يُزْرَع بهــا عاما ويُحْصَد ثلاثةَ أعوام ؛ وذلك أن أرضها مشقّقة ؛ وهى بَلْدة شديدة الحرّ فإذا يَبِس الزرعُ تناثَر عند الحَصَاد ودخل فى الشُّقُوق ؛ فإذا كان العامُ الثــانى وعلاه ماءُ النهر وخرج عنه حرثوه بلا بَذْر فينبُت مافى الشُّقوق ، ويبقىٰ كذلك ثلاث سنين .

وقد حكى آبن سعيد : أن هذا الزرع فى السنة الأُولىٰ يكون قمحا ، وفى باقى السنين سُلْتًا . وهو حبٌّ بين القمح والشعير . وبها الرُّطَب ، والتمر ، والعنَب الكثير ، والفواكه الجمَّة ؛ وليس فيهــا ذِئاب ولا كِلاب لأنهم يسَمِّنونها ويأكُلُونها ؛ وقلَّما يُوجَد فيها صحيحُ العينين ، ولا يوجَدُ بها مجذومٌ ؛ ولها ثمانيةُ أبواب من أىّ باب منها خرجت ترىٰ النهرَ والنخيل وغير ذلك من الشجر ، وعليها وعلىٰ جميع بَساتِينها حائطٌ يمنع غارة العرب مِساحتُه أربعون ميلا ؛ وثمرها يفْضُل ثمر سائرِ بلاد المغرب ، حتّى يُقال : إنه يضاهى الثَّمر العراقىّ ؛ وأهلها مياسيرُ ؛ ولهــا مَتاجِرُ إلىٰ بلاد السُّودان ، يخرجون إليها بالمِلْح والنُّحاس والوَدَع ، ويرجعون منها بالذهب التِّبر . قال آبن سعيد : رأيت صكا لأحدهم على آخَر مبلغه أربعون ألف دينار .

ولمّا قدموا عليهم عيسى بنَ الأسود المقدّم ذكره ، أقام عليهم أياما ثم قتلوه سنةَ خمس وخمسين ومائة، وآجتمعوا بعده على كبيرهم (أبى القاسم سَمْكو)، بن واسول آبن مصلان، بن أبى يزول، بن تافرسين، بن فراديس، بن ونيف، بن مكناس، آبن ورصطف، بن يحيى، بن تمصيت ، بن ضريس ، بن رجيك ، بن مادغش ، آبن بربر . كان أبوه سَمْكُو من أهل العلم آرتحل إلى المدينة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام) فأدرك التابعين ، وأخذ عن عكرمة مولى آبن عباس، ومات فجأة سنة سبع وستين ومائة لثنتَىْ عشرةَ سنةً من ولايته .

وكان مع ذلك على مذهب الصُّفْرية ، وخطب فى عَمَله للنصور والمهدىّ من خلفاء بنى العباس .

ولما مات وَلِىَ مكانَهُ آبنُه (إلياسُ بنُ أبى القاسم) [وكان يُدْعىٰ بالوزير ثم انتقضوا عليه] (١) سنة أربع وسبعين ومائة [فخلعُوه] (١) .

وولِى مكانَهُ أخُوه (اليَسَعُ بن أبى القاسم) وكنيته أبو منصور، فبنىٰ سُورَ سِجِلْماسةَ، وشيَّد بُنْيانها ، وآختطَّ بها المصانع والقُصور لأربع وثلاثين سنة من ولَايته . وعلى عهده آستفحل مُلْكُهم بسِجِلْماسةَ ، وسكَنها آخِرَ المائة الثانية بعد أن كان يسْكُن الصَّحْراءَ وهلك سنةَ ثمانٍ ومائتين .

ووَلِىَ بعده آبنُه (مِدْرَار) ولُقِّب المنتصِرَ وطال أمَدُ ولايته . وكان له ولدان آسم كل منهما ميمونٌ ، فوقع الحرب بينهما ثلاثَ سنين ؛ ثم كان آخِرُ أمرهما أن غَلَب أحدُهما أخاه وأخرجه من سِجِلْماسةَ ، ثم خلع أباه وآستقلّ بالأمر ، وساءت سيرَتُه فى الرعِيَّة فخلعُوه، وأعادوا مِدْرارا أباه .

(١) الزيادة من "العبر" ج ٦ ص ١٣٠ ليستقيم الكلام .

ثم حدّث نفسَــه بإعادة ٱبنه ميمونٍ المخلوع فخلعوه وولّوا ٱبنه (ميمونا) الآخَرَ ، وكان يعرف بالأمير ، ومات مدرارٌ إثْر ذلك سنة ثلاث وخمسين ومائتين . [ومات ميمونٌ سنةَ ثلاث وستين ومائتين](١) .

ووَلِيَ مكانه ٱبنُه (محمد) فبقِيَ إلىٰ أن تُوُفِّي سنة سبعين ومائتين .

فولِي مكانَهُ (اليَسَع) بن المنتصر . وفى أيامه وفَدَ عبيدُ الله المهديُّ الفاطميُّ وٱبنه أبو القاسم علىٰ سِجِلْماسةَ فى خلافة المعتَضِد العباسى ، وكان اليَسَعُ علىٰ طاعته فبعث المعتضدُ إليه فقبض عليهما وٱعتقَلَهما إلىٰ أن غلب أبو عَبْدالله الشِّيعى داعِي المهدىّ بَنِي الأغلبِ أصحابَ أفريقيَّةَ ، فقصد سِجِلْماسةَ فخرج إليــه اليَسَعُ فى قومه مكْناسةَ ، فهزمه أبو عبدِ اللهِ الشيعى وٱقتحم عليه البلَدَ ، وقتله ســنةَ ستٍّ وتسعين ومائتين ، وٱستخرج عُبيدَ الله وٱبنه من محْبِسهما ، وبايع (لعُبَيْدِ الله المهدىّ) .

وولّى المهدىُّ علىٰ سِجِلْماسةَ (إبراهيمَ بن غالب المَزاتى) وٱنصرف إلىٰ أفريقيَّة ؛ ثم ٱنتقض أهل سِجِلْماسةَ علىٰ واليهم إبراهيمَ ومن معه من مكناسة سنة ثمان وتسعين ومائتين .

وبايعوا (الفَتْح بن ميمونٍ) الأميرِ ٱبنِ مِدْرار المتقدّم ذكره ، ولقبــه واسول ، وهلك قريبا من وِلَايته علىٰ رأس المـائة الثالثة .

وولى مكانه أخوه (أحمدُ بن مَيْمون) الأميرِ ، وٱســتقام أمرُه إلى أن زحف مصالة بن حيوس فى جموع كُتامةَ ومِكْناسةَ إلى المغرب ســنة تسع وثلثمائة ، فافتتح سِجِلْماسةَ وقبض على صاحبها أحمدَ بنِ ميمون .

وولّى عليها ٱبنَ عمه (المعــتزَّ بنَ محمد) بن يادنَ(٢) بن مِدْرار ، فلم يلبَثْ أنِ ٱستبدَّ وتلقب المعتزّ ، و بقِيَ حتى مات سنةَ إحدىٰ وعشرين وثلثمائة قبل موتِ المَهْدِى .

(١) التتميم من "العبر" ج ٦ ص ٣١ ليستقيم الكلام .

(٢) فى العبر ج ٦ ص ١٣١ "ساور" .

ووَلِيَ من بعده آبنُه أبو المنتصر (محمدُ بنُ المعتزّ) فأقام عشرا ثم هلك .

ووَلِيَ من بعده آبنه (المنتصر سَمْكو) شهرين، ودَبَّرْته جدَّته لِصغَره .

ثم ثار عليه آبنُ عمه (محمدُ بن الفَتْح) بن ميمونٍ الأميرِ وتغلَّب عليه، وشُغِل عنه بَنُو عبيد الله المهدىّ بِفتْنة آبن أبى العافيـة وغيرها، فدعا لنفسـه مموِّها بالدعاء لبنى العَبَّاس وتلقَّبَ الشاكر لله ، وأخذ بمذاهب أهلِ السُّـنَّة ورَفَض الخارجيَّةَ ؛ وكان جميعُ مَنْ تقدّم من سَلَفه علىٰ رأى الأَبَاضِيَّة والصُّفْرية من الخوارج ، وضرب السِّكَّةَ بآسمه ولقبـه ؛ وبقى كذلك حتى فَرَغ بنو عُبيد الله من الفتن ، فزحف القائد جوهرٌ أيامَ المُعِزّ لدين الله مَعَدّ إلىٰ المغرب سنةَ سبع وأربعين وثلثمائة ، فغلب علىٰ سِجِلْمـاسةَ وملكها وفرّ محمد بن الفتح عنها؛ ثم قَبَض عليـه جوهر بعد ذلك وحمله إلىٰ القَـيْرَوان . فلمـا آنتقض المغربُ علىٰ العُبَيديِّين وفشَتْ فيـه دعوةُ الأُمَوِيِّين بالأندلُس، ثار بسِجِلْماسةَ قائم من ولد الشاكر، وتلقَّبَ (المنتصر بالله) ثم وثب عليه أخوه (أبو محمد) سنة آثنتين وخمسين فقتـله وقام بالأمر مكانَهُ، وتلقب (المعتزّ بالله) وأقام علىٰ ذلك مدّة ، وأَمْرُ مِكْناسةَ يومئذ قد تداعىٰ إلىٰ الآنحلال ، وأَمْرُ زَناتةَ قد آستفحل بالمَغْرِب إلىٰ أن زحف خَزْرون بن فَلْفول من ملوك مَغْراوة إلىٰ سِجِلْماسة سـنة ستٍّ وستين وثلثمائة، وبَرَز إليه أبو محمد المعتزُّ فهزمه خَزْرون وقتله وآستَوْلىٰ علىٰ بلده، وبعث برأسه إلىٰ قُرْطُبَة مع كتابه بالفتح؛ وكان ذلك لأوّل حِجَابة المنصُور آبن أبى عامر بقُرْطبةَ؛ فعقَد لخَزْرُون علىٰ سِجِلْماسة، فأقام دعوةَ هشامٍ فى نواحيها؛ فكانتْ أوّلَ دعوة أُقيمتْ لهم فى أمصـار المغرِب الأقْصىٰ ، وآنقرض أمر مِكْناسةَ من المغرب أجمعَ .

وآنتقلت الدَّولةُ إلىٰ مَغْراوة وبَنِى يَفرن وعَقَـد هشام (لخَزْرُون) علىٰ سِجِلْماسةَ وأعمالها، وجاءه عهدُ الخليفة بذلك، وضبطها وقام بأمرها إلىٰ أن هلك .

فولِي أمْرَ سِجِلماسةَ من بعــده ٱبنُه (وانُّودين بن خَزْرون) إلىٰ أن غلب زِيرِى ٱبن مَيَّاد علىٰ المغرب، فعقد علىٰ سِجِلْماسة (لحميد بن فضل) المِكْناسى، وفرّ وانُّودين ٱبن خزرون عنها، ثم أعاده عبدُ الملك إلىٰ سجلماسةَ بعد ذلك علىٰ قَطِيعة يؤدّيها اليه؛ ثم ٱستقلَّ بها من أوّل ســنة تسعين وثلثمائة مقيما للدعوة الأُمَويّة بالأنْدَلُس، ورجع المُعِزُّ بن زِيرِى بوِلاية المغرب عن المظَفَّر بن أبىعامر، وٱستثنىٰ عليه وِلايةَ سِجِلْماسة لكونها بيد وانُّودين؛ وٱستفحل مُلْك وانُّودين، وٱستضاف إلىٰ سجلمـاسةَ بعضَ أعمال المغرب ومات .

فقام بالأمر من بعده ٱبنه (مسعود بن وانُّودين) إلىٰ أن خرج (عبدُالله بن ياسين) شيخُ المرابِطين، فقتل ابنَ وانُّودين سنةَ خمسٍ وأربعين وأربعمائة؛ ثم ملك سِجِلْماسةَ بعد ذلك سنةَ ست وأربعين، ودخلَتْ فى ملك المرابطين لأوّل أمرهم، وٱنقرضت دولة بنى خَزْرون منها، وتداولها مَنْ بعدهم من ملوك الموحِّدين، ثم مُلُوك بنى مَرِينٍ علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك الغرب الأقصىٰ إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وأما ما ٱشتملت عليه هذه المملكة من المُدُن المشهورة .

فمنها مدينة (آسِفى)(١) بفتح الهمزة ومدّها وكسر السين المهملة والفاء وياء مثناة تحت فى آخرها . وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ٱبن سعيد : حيثُ الطولُ سبعُ درج، والعرضُ ثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من عمل دكَّالةَ، وهى كُورة عظيمة من أعمال مَرَّاكُش، قال ٱبن ســعيد : وهى علىٰ جَوْن من البحر داخلٍ فى البرّ، فى مستوٍ من الأرض . وهى فُرْضة مَرَّاكُش، وبينها وبين مَرَّاكُش أربعةُ أيام؛ وأرضها كثيرة الحجر، وليس بها ماءٌ إلا من

(١) ضبطها ياقوت فقال : بفتحتين وكسر الفاء .

المطر، وماؤها النّبع غير عَذْب، وبساتينها تُسْقىٰ علىٰ الدّواليب، وكُرُومها علىٰ باب البلد . قال الشيخ عبد الواحد : وهى تُشْـبِه حماةَ ودُونَها فى القَدْر، ولكن ليس لهـا نهر يَجْرى .

ومنها (سَـلاَ) بفتح السين واللام وفى آخرها ألف ؛ وهى مدينـة من الغرب الأقصىٰ فى آخر الإقليم الثالث قال آبن سـعيد : حيثُ الطول سـبعُ درج وعشرُ دقائق [والعَرْض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة](١) وهى مدينة قديمة فى غربيّها البحر المحيط وفى جنوبيّها نَهَر عظيم يَصُبُّ فى البحر المحيط والبسـاتينُ والكُرُومُ . وبنىٰ « عبـدُ المؤمن » أمامهـا من الشَّطِّ الجنوبىّ علىٰ النهر والبحر المحيط قصرا عظيما، وبنىٰ خاصّـتُه حوله المنازلَ فصارت مدينة عظيمة سماها المَهْدِيَّة . وسَـلا متوسِّطة بين بلاد المغرب الأقصىٰ قريبةٌ من الأندلُس؛ وهى مدينـة كثيرة الرَّخاء ، ولها مُعامَلة كبيرة يقال لها تامَسْنَا(٢)، كثيرةُ الزَّرْع والمَرْعىٰ، وفيها مُدُن كثيرة .

ومنها (لَمْطة) بفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء المهملة . وهى مدينة من الغرب الأقصىٰ واقعةٌ فى آخر الإقليم الثانى قال بعضهم : حيث الطول سبعُ دَرَج وثلاثون دقيقة، والعرضُ سبعٌ وعشرون درجةً ؛ علىٰ ثلاث مراحلَ من البحر المحيط ؛ ولها نَهَر كبير ينزل من جبل فى شرقيها علىٰ مرحلتين منها، يجرى علىٰ جَنُوبِيِّها غرباً بَمْيلة إلىٰ الشَّمال حتّى يصبّ فى البحر المحيط .

ومنها (السُّوس) بضم السـين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانيةٍ . وهى مدينة من أقصىٰ المغرب فى الإقليم الثانى قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ ثمانُ درج والعرض

(١) الزيادة عن "التقويم" نقلا عن آبن سعيد .

(٢) فى ياقوت "تامست" بتاء مثناة من فوق فى آخرها .

ستٌّ وعشرون درجة وعشرون دقيقــة ، وهى على طَرَف من البر داخلٍ فى البحر أربعين ميلا ، وفى جانبها الشّمالى نهر يأتى من الشرق من جبل لَمْطَةَ .

ومنها (قَصْر عبد الكريم) وضبطه معروف . وهى مدينــة من الغرب الأقصى فى أوائل الإقليم الرابع قال ابن سعيد : حيثُ الطول ثمــانُ دَرَج وثلاثون دقيقة ، والعرضُ أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقــة . وهى مدينــة على نهر من جهتها الشّمالية ، وهو نهر كبير تَصْــعَد فيه المراكبُ من البحر المحيط ، وجانبــاه محفوفان بالبساتين والكُرُوم . وكان قاعدةُ تلك الناحية قبلها مدينةً اسمها (البَصْرة) يسكُنها الأدارسة ، فلمــا عُمِرت هذه المدينة صارت هى القاعدة .

ومنها (طَنْجةُ) بفتح الطاء المهملة وسكون النون وفتح الجيم ثم هاء فى الآخر . وهى مدينة من أقاصى المغرب واقعةٌ فى الإقليم الرابع قال ابن سعيد : حيثُ الطول ثمــان درج وإحدى وثلاثون دقيقة ، والعرضُ خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى مدينة على بحر الزُّقاق ، واتساعُ البحر عندها ثُلُث مَجْرًى ، فإذا شَرَّق عنها اتَّسع عن ذلك . وهى مدينة أزلِيَّة ، واستحْدَث أهلها لهم مدينةً على مِيل منها على ظهر جبل ليمتنِعُوا بها ، والماء ينساق إليها فى قُنِيّ . قال فى "مسالك الأبصار" : وكانت دار مُلْك قديم . وهى التى كانت قاعدةَ تلك الجهات قبل الإسلام إلى حين فتح الأندَلُس ، وهى مَحَطُّ السُّفُن ، وهى كثيرة الفَوَاكه ، لاسيما العنبُ والكُمَّثْرى ، وأهلها مشهورون بقلة العقل وضَعْف الرأى ، على أن منهــا أبو الحسن الصِّنْهاجىّ الطَّنْجىّ ، تَرْجم له فى قلائد العِقْيان وأثنى عليه ، وأنشد له أبياتا منها :

وقد تَحْمِى الدُّروعُ من العَوَالِى ، * ولا تَحْمِى من الحَدَقِ الدُّروع !

وكذلك أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الحَضْرمِىّ القائل :

وضَنُّوا بتَوْديعٍ ، وجادُوا بتَرْكه ، * ورُبَّ دواء مات منــه عَليلُ !

ومنها (دَرْعة) بفتح الدال وسكون الراء وفتح العين المهملات وهاء فى الآخر. وهى مدينة من جنوبىّ المغرب الأقصى واقعةٌ فى الإقليم الثانى . نقل فى "تقويم البُلْدان" عن بعضهم أنّ طولَها إحدى عشرةَ درجة وستّ دقائق ، وعرضَها خمس وعشرون درجة وعشرُ دقائق . قال فى " نزهة المشتاق " : وهى قُرًى متصلة ، وعِمَاراتٌ متقارِبة ، وليست بمدينةٍ يَحُوطُ بها سُور ولا خَفِير . ولها نهر مشهور فى غربيها ينزل من رَبْوة حمراءَ عند جبل دَرَن ، وتَنبُتُ عليه الحِنَّاء ، ويغوص ما يَفْضُل منه بعد السَّقْى فى صحارى تلك البلاد .

ومنها (أغْماتُ) قال فى "اللباب" : بفتح الألف وسكون الغين المعجمة وفتح الميم وألف وتاء مثناة من فوق فى آخرها . وهى مدينة من الغَرْب الأقصى، واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولها إحدى عشرة درجةً وثلاثون دقيقة، والعرض ثمانٍ وعشرون درجة وخمسون دقيقة. وهى مدينة قديمةٌ فى الجَنُوب بمَيْلة إلى الشرق عن مَرَّاكُش ، فى مكان أفْيحَ طيِّب التُّرْبة، كثير النبات والعُشْب ، والمياهُ تخترِقه يمينا وشِمالا . قال ابن سعيد : وهى التى كانتْ قاعدةَ مُلْك أمير المسلمين « يوسفَ بن تاشفين » قبل بناء مَرَّاكُش .
قال الإدريسى : وحولها جنات مُحَدَّقة ، وبساتينُ وأشجار ملتفَّة ؛ وهواؤها صحيح ، وفيها نهر ليس بالكبير، يشُقُّ المدينة يأتيها من جنوبيِّها ويخرج من شَمَالِيِّها ؛ وربما جَمَد فى الشتاء حتّى يجتازَ عليه الأطفال .

ومنها (تَادِلَا) قال فى "تقويم البلدان" عن الشيخ عبد الواحد : بفتح المثناة من فوقُ ثم ألف ودال مهملة مكسورة ولام ألف . ثم قال : وفى خط ابن سعيد تادِلَةُ فى آخرها هاء، وهى مدينة بالمغرب الأقصى فى جهة الجَنُوب فى الإقليم الثالث قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتا عَشْرةَ درجة ، والعرضُ ثلاثون درجة . قال

ابن سعيد : وهى مدينةٌ بين جبالِ صِنْهاجةَ ، ويقال هى قاعدة صِنهاجة ؛ وغربيّها جبل درن ممتدّ إلى البحر المحيط ، وهى بين مَرَّاكُش وبين أعمال فاس ، ولها عَمَل جليل ، وأهلها بَرْبَرٌ يُعْرَفُون بجَرَاوة .

ومنها (أَزَمُّور) قال الشيخ شعيب : بفتح الهمزة(١) والزاى المعجمة وتشديد الميم ثم واو وراء مهملة فى الآخر . وهى مدينة على مِيلَيْنِ من البحر أكثر سُكَّانها صِنْهاجةُ .

ومنها (المَزَمَّة) وهى فُرْضة ببَرِّ العُـدْوة تقابل فُرْضـة المُنَكَّب من بَرِّ الأندلس من ساحل غَرْناطةَ . والمَزَمَّة فى الشرق عن سَبْتةَ بينهما مائتا مِيل .

ومنها (مدينة بَادِيسَ) وهى فُرْضة مشهورة من فُرَض غُمَارة فى الجنوب والشرق عن سَبْتةَ بينهما نحوُ مائة ميل . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قياسا حيثُ الطول عشرُ درَج وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وخمسٌ وعشرون دقيقة .

ومنها (أَوْدَغَسْتُ) قال الشيخ عبدالواحد : بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الدال المهملة(٢) والغين المعجمة وسكون السين المهملة وفى آخرها تاء مثناة فوق . وهى مدينة فى المغرب الأقصى فى الجنوب فى الصَّحْراء فى الإقليم الثانى قال فى "الأطوال" : حيث الطولُ ثمانُ درج وثمانُ دقائق . قال فى "القانون" : والعرض ستٌّ وعشرون درجة . قال : وهى فى بَرارِىّ سُودان المغرب . قال فى "العزيزى" : وهى جنوبىّ سِجِلْمـاسةَ وبينهـما ستٌّ وأربعون مرحلة فى رمال ومَفَاوِزَ على مِيـاه معروفة ؛ ولها أسواقٌ جليلة ؛ والسفن تصل إليها فى البحر المحيط من كل بلد ؛ وسُكَّان هذه المدينة أخلاط من البربر المسلمين ، والرِّياسة فيها لِصِنْهاجةَ . قال فى "العزيزى" : ولأَوْدَغَسْتَ أعمال واسعة ، وهى شديدة الحرارة ، وأمطارُها فى الصيف ، ويزرعون

(١) ضبطها ياقوت فقال : ثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم .

(٢) فى المعجم وفتح الذال المعجمة .

عليها الحِنطةَ، والذُّرة، والدُّخْن، واللُّوبيا، والكِرِسنَّة ؛ وبها النخلُ الكثيرُ وليس فيها فاكهة سِوىٰ التين، وبها شجرُ الحجاز كلُّه : من السَّنْط والمُقْل وغيرهما .

قلت : وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عِدّةَ مُدُن غير هذه غير مشهورة يطول ذكرها .

الجملة الثالثة

(فى ذكر جبالها المشهورة . وهى عدّةُ جبال)

منها (جبَلُ دَرَنٍ) بفتح الدال والراء المهملتين ونون فى الآخر. قال ابن سعيد : وهو جبل شاهقٌ مشهور لا يزال عليه الثلْجُ، أوّله عند البحر المحيط الغربىّ فى أقصىٰ المغرب، وآخره من جهة الشَّرْق علىٰ ثلاثِ مَراحلَ من إسكندرية من الديار المِصْرية، ويسمّى طَرَفُه الشرقىُّ المذكور رأسَ أَوْثانٍ، فيكون امتدادُه نحوَ خمسين درجة، وفى غربِيِّه بلاد تينملك من قبائل البَرْبر، وشرقيها بلاد هَنْتاتةَ من البربر أيضا وشرقيها بلاد مشكورة منهم، وشرقيها بلاد المصامدة .

ومنها (جبل كزولةُ) وهى قبيلة من البربر . قال ابن سعيد : وابتداؤه من البحر المحيط الغربىّ ، ويمتدّ مشرِّقا إلىٰ حيثُ الطولُ اثنتا عشْرةَ درجة ، وموقعُه بين الإقليم الثانى والإقليم الثالث، وبه مدينة اسمها تاعجست .

ومنها (جبل غُمَارَةَ) . بضم الغين المعجمة وفتح الراء بعد الألف . وهى قبيلة من البربر أيضا؛ وهو جبل ببرّ العُدْوة فيه من الأُمَم ما لا يُحْصيه إلا الله تعالىٰ؛ وهو رُكْن علىٰ البحر الرومىّ ، فإن بحر الزُّقاق إذا جاوز سَبْتةَ إلىٰ الشَّرق انعطف جَنُوبا إلىٰ جبل غُمارةَ المذكورة، وهنالك مدينة بادِيس المقدّم ذكرها .

ومنها (جبل مَدْيُونَة) بفتح الميم وسكون الدال المهملة وضم المثناة من تحت وواو ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر : وهو جبل ببرّ العُدْوة شرقيّ مدينة فاس ، يمتدّ إلى الجنوب حتّى يتصل بجبال دَرَن ، ومَدْيونةُ قبيلة من البربر واطنُون به .

ومنها (جبال مَدْغَرة) وهي شَرْقيّ مَدْيُونَة ، ومعظمُ أهلها كُومِيَةُ ــ بضم الكاف وكسر الميم وفتح المثناة تحت وهاء في الآخر . وهي قبيلة من البربر ، منها « عبدُ المؤمن » أحدُ أصحاب المهديّ بن تُومَرْت .

ومنها (جبل يُسْر) بضم الياء المثناة تحتُ وسكون السين المهملة . وهو جبل شرقيّ مَدْيُونَة أيضا منه يَنْبُع نهر يُسْر المذكور .

ومنها (جبل ونشَريش) وهو جبل يتصل بجبل يُسْر من شرقيه ، وفيه تعمل البُسُط الفائقة ، ومنه يَنْبُع نهر سَلَف المشهور . قال ابن سعيد : وهو نهرٌ كبير يزيد عند نَقْص الأنهار كنيل مصر .

الجملة الرابعة

(في ذكر أنهارها المشهورةِ ، وهي عِدّة أنهار)

منها (نَهرُ السُّوس الأقصى) وهو نهر يأتي من الجنوب والشرق من جبل يُعْرَف بجبل لَمْطَة ، ويجرى إلى الشمال ، ويمرّ على مدينة السُّوس من شَمَالِيّها ، ويُزْرع على جانبيه قَصَب السكَّر والحِنَّاءُ وغيرُ ذلك كما يزرع في مصر ، ويجرى حتى يصُبّ في البحر المحيط الغربيّ .

ومنها (نَهرَ سِجِلْماسَةَ) الآتي ذكرها (١) ، وهو نهر مَنْبَعُه من جنوبيّ سِجِلْماسة بمسافةٍ بعيدةٍ ، ويمرّ من شرقيها ويجرى حتّى يَصُبّ في نهر مَلْوِيَّة الآتي ذكره .

(١) صوابه كما في القطعة الأزهرية المتقدم ذكرها فانها تقدمت في القواعد .

ومنها (نهر مَلْوِيَّة) قال ابن سعيد : وهو نهر كبير مشهور فى المَغْرب الأقصى ، يَصُبُّ إليه نهر سِجِلْماسة ويصيران نهرا واحدا ، يجرى حتّى يصب فى بحر الروم شرقىَّ سَبْتة .

ومنها (نهر فاس) وهو نهر متوسِّط يشُقّ مدينة فاس كما تقدّم قال فى "تقويم البُلْدان" ومَخْرَجُه على نصف يوم من فاس ، يجرى فى مُرُوج وأزاهِر حتّى يدخُلها .

المَقْصِــــد الثـانى

(فى ذكر زروعها، وحبوبها، وفواكهها، و بقولها و رياحينها ومواشيها، ومعاملاتها ، وصفات أهلها . وفيه خمس جمل)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى ذكر زروعها، وحُبوبها، وفواكهها، وبُقولها، ورَياحينها)

أما زَرْعها فعلى المَطَر كما تقدّم فى أفْرِيقيَّة .

وأما حبوبها ، ففيها من أنواع الحبوب : القَمْح ، والشعير ، والفُول ، والحِمَّص ، والعَدَس ، والدُّخْن ، والسُّلْت وغير ذلك . أما الأَرُزّ فإنه عندهم قليل ، بعضه يُزْرع فى بعض الأماكن من بَرِّ العُدْوة ، وأكثره مجلوبٌ إليهم من بلاد الفَرَنج . على أنهم لانَهْمة لهم فى أكله ولا عِنايَة به . وبها السَّمْسِم على قِلّة ، ولا يُعْتَصَر منه بالمَغْرب شَيْرَج لاستغنائهم عنه بالزَّيْت حتّى مزورات الضعفاء (١) وكذلك يعملون الحَلْوىٰ بالعسل والزَّيْت ، وإنما يستعمل الشَّيْرَجُ عندهم فى الأمور الطِّبِّيَّة .

وأما فواكهها ، فبها أنواع الفواكه المستطابة اللذيذة المختلفة الأنواع : بين النخل ، والعِنَب ، والتِّين ، والرُّمّان ، والزيتون ، والسَّفَرْجل ، والتُّفّاح على أصناف ،

(١) كذا فى المسالك أيضا .

وكذلك الكُمَّثرىٰ(١) ، وتسمَّى عنـدهم الإنْجاص كما بِدِمَشْق ، وبها المِشْمِش والتين ، والبَرْقُوق ، والقَرَاصِيا ، والخَوْخ ؛ وغالب ذلك علىٰ عدّة أنواع ؛ والتُّوت علىٰ قلة ، والجَوْز ، واللَّوْز . ولا يُوجَد بهـا الفُسْتُق والبُنْدُق إلا مجلوبا . وبهـا الأُتْرُجُّ ، واللَّيْمون ، والليم ، والنـارَنْج ، والزُّنْبُوع ، وهو المسمَّى بمصر والشام الكبَّاد . وبهـا البِطِّيخ الأصـفر والأخضر وآسمه عندهم الدلّاع كما فى سائر بلاد المغرب علىٰ قلة ، والموجود منه غير مستطابٍ . وبها الخِيَار ، والقِثَّاء ، واللِّفت ، والباذِنْجان ، والقَرْع ، والجَزَر ، واللُّوبيَا ، والكُرُنْب ، والشَّمار ، والصَّعْتر وسائر البقول . والمَوْز موجود بها فى بعض المواضع نادرًا ، والقُلْقاس لا يُزْرَع عندهم إلا للتفرُّج علىٰ عُروقه لا لِأن يُؤْكَل ، وبها قصب السكر بجزائر بنى مَزْغِنَّانَ وبَسَـلَا كثير ، ويعصر ثم يُعْمَل منه القَنْـد ومن القند السُّكَّر علىٰ أنواع لاسيما بمَرَّاكُش ، فإنه يقال إن بها أربعين مَعْصَرة للسُّكَّر ، وإنّ حِمْلَ حمار من القصب يُساوِى درهما من دراهمهم : وهو ثُلُث درهم من الدراهم المِصْرية ؛ ويعمل منه المكَرَّر الفائق ، ومع ذلك فليس لهم به آهتمام لاكتفائهم عنه بعسل النحل مع كثرته عندهم ، ومَيْلِهم إليـه أكثر من السكَّر ، حتَّى يقال إنه لايستعمل السُّكَّر عندهم إلا الغُرباءُ أو المَرْضىٰ .

وأما رياحينها ، فبهـا الوَرْد ، والبَنَفْسَج ، والياسَمِين ، والآس ، والنَّرْجِس ، والسَّوْسن ، والبَهَار ، وغير ذلك .

الجملة الثـانيـــــة

(فى مواشيها ، ووحوشها ، وطيورها)

أما مواشيها ، ففيها من الدوابِّ الخيلُ ، والبِغال ، والحَمِير ، والإبِلُ ، والبَقَر ، والغنم ؛ أما الجاموس فلا يُوجَد عندهم .

---

(١) مكرر من الناسخ .

وأما الطير، فبها منه الإوَزُّ، والحَمَام، والدَّجاج ونحوها، والكُرْكِيُّ عندهم كثير على بُعْد الدار، وآسمه عندهم الغُرْنُوق، وهو صيدُ الملوك هُناك كما بمصر والشام .

وأما وحوشها، ففيها من أنواع الوحش الحُمُر، والبقر، والنَّعام، والغَزَال، والمَهَا وغير ذلك .

الجملة الثالثة

(فيما تتعامل به من الدّنانير، والدراهم، والأوزان، والمكاييل)

أما مثاقيلُ الذهب فأوزانُها لاتختلف، وأما الدراهم فذكر فى "مسالك الأبصار" عن السلايجى : أن مُعاملتها درهمان : دِرْهم كبير، ودرهم صغير؛ فالدِّرْهم الكبير قدر ثُلثِ درهم من الدراهم النُّقْرة بمصر والشام، والدِّرهم الصغير على النِّصف من الدرهم الكبير يكون قدر سدس درهم نقرة بمصر والشام. وعند الإطلاق يُراد الدرهم الصغيرُ دُونَ الدرهم الكبير إلا بمَرّاكُش وما جاورها، فانه يُراد بالدرهم عند الإطلاق الدرهمُ الكبير. قال : وكُلُّ مِثْقال ذهب عندهم يُساوِى ستين درهما كبارا، تكون بعشرين درهما من دراهم النُّقْرة بمصر .

وأما رِطْلها فعلى ما تقدّم من رِطْل أفرِيقيَّة؛ وهى كُلُّ رِطْل ستَّ عشرة أُوقِيَّة، كل أُوقِيَّة أحدٌ وعشرون دِرْهما من دراهمها .

وأما كيلُها فأكثره الوَسْق (ويسمَّى الصَّحْفة) وهو ستُّون صاعا بالصاع النبوِىّ على السواء .

الجمـــــلة الرابعـــــة

(فى ذكر أسعارها)

قد ذكر فى "مسالك الأبصـار" عن السلايجى أيضا عن سِعْر زمانه المتوسِّط فى غالب الأوقات ، (وهى الدولةُ الناصرية محمد بن قلاوون وما قاربها) : أنّ سعر كل وَسْق من القمح أربعون دِرْهمـا من الدَّراهم الصِّغار : وهو ثلاثةَ عشرَ درهما وثلثُ درهم مَن نُقْرة مصر؛ والشعيرُ دُونَ ذلك . وكلُّ رِطْل لحمٍ بدِرْهمٍ واحدٍ من الدراهم الصِّغار، وكلُّ طائر من الدَّجاج بثلاثةِ دراهمَ من الصِّغار، وعلىٰ نحو ذلك .

الجملة الخامســـــة

(فى صِـــفَات أهلها فى الجُمْـــلة)

قد تقدّم أن مُعظَم هـذه المملكة فى الإقليم الثـالِث . قال ٱبن سعيد : والإقليم الثالث هو صاحبُ سَفْك الدماء ، والحسدِ ، والحِقْد ، والغِـلّ ، وما يتبع ذلك . ثم قال : وأنا اقول : إن الإقليم الثالثَ وإن كثُرت فيه الأحكام المِرِّيخيَّة علىٰ زعمهم ، فإن للمغرب الأقصىٰ من ذلك الحظَّ الوافر، لاسيَّما فى جهـة السُّوس وجبال دَرَن، فإن قتل الإنسان عنـدهم كذبح العُصْفور ، قال وكَمْ قَتِيل قُتِل عندهم علىٰ كلمةٍ وهم بالقتل يفْتَخِرون . ثم قال : إن الغالب علىٰ أهل المغرب الأقصىٰ كثرة التنافُس المُفْرِط ، والمحاقَقَة ، وقلة التغاضى ، والتهوّرُ ، والمفاتنةُ .

أما البُخْل فإنما هو فى أراذلهم ، بخلافِ الأغنياء ، فإن فى كثير منهم السماحةَ المفرِطةَ والمفاخرةَ بإطعام الطعام والٱعتناءَ بالمفْضول والفاضِل .

المقصـــد الثـالث

(فى ذكر ملوكها، وما يندرج تحت ذلك : من آنتقال المُلْك من الموحِّدين إلىٰ بنى مَرِينٍ والتعريف بالسلطان أبى الحسن الذى أشار إليه فى كلامه فى "التعريف". وهم علىٰ طبقات)

الطبقة الأولىٰ

(ملوكها قبـــل الإســـلام)

قد تقدّم أنّ بلاد المغرب كلَّها كانت مع البربر، ثم غلبهم الرُّوم الكَيْتَم عليها ثم آفتتحوا قَرْطاجَنَّة وملكوها، ووقع بين البربر والرُّوم فتن كثيرة كان آخرها أن وَقَع الصلح بينهم علىٰ أن تكون البلادُ والمُدُن الساحليَّة للروم، والجبالُ والصحارىٰ للبربر، ثم زاحم الفَرَنْجُ الرومَ فى البلاد، وجاء الإسـلام والمستَوْلِى عليها من ملوك الفَرَنْجة جرجيس ملكهم، وكان مُلْكه متصِلاً من طَرَابُلُس إلىٰ البحر المحيط، وكرسىُّ مُلْكِه بمدينة سُبَيْطَلَة، ومن يده آنتزعها المسلمُون عند الفَتْح .

الطبقـــة الثـانية

(نوّاب الخلفاء من بَنى أُمَيّة و بنى العَبَّاس)

كان كُرسىّ المملكة بعد الفتح بأفرِيقيَّـة ، وكان نوّابُ الخلفـاء يُقيمون بها وينزلون القَيْروانَ ، وكانوا يُوَلُّون علىٰ ما فُتِح من بلاد المغرب مَنْ تحت أيديهـم . فبقِىَ الأمر علىٰ ذلك أيَّامَ عبدالله بن أبى سَرْح، الذى آفتتحها فى خلافة عُثْمانَ بن عَفَّان رضى الله عنه، ثم أيَّامَ معاويةَ بنِ صالح، ثم أيامَ عُقْبة بن نافع، ثم أيَّامَ أبى المُهاجِر، ثم أيَّامَ عُقبةَ بنِ نافع ثانيا، ثم أيام زُهَيْر بن قيس، ثم أيَّامَ حَسَّان بن النعمان، ثم أيامَ

موسى بن نُصَيْر، ثم أيَّامَ محمد بن يَزِيد، ثم أيامَ إسماعيلَ بن عبدالله بن أبي المُهَاجِر، ثم أيامَ يزيدَ بنِ أبي مسـلم، ثم أيامَ بِشْر بن صَفْوانَ الكلبيّ، ثم أيامَ عُبَيـد بن عبد الرحمن السُّلَميّ، ثم أيامَ عبد الله بنِ الحَبْحاب، ثم أيامَ كُلْثُوم بن عيـاض، ثم أيامَ حَنْظلةَ بن صَفْوانَ، ثم أيامَ عبدِ الرحمن بن حبيب، ثم أيَّامَ حَبيب بن عبدالرحمن، ثم أيامَ عبدالملك بن أبي الجَعْد، ثم أيامَ عبد الأعلىٰ بن السَّمْح المعَافرى، ثم أيامَ محمدِ بن الأشعث، ثم أيَّامَ الأغلب بن سـالم، ثم أيَّامَ عمرو بن حَفْص، ثم أيامَ يزيدَ بنِ حاتم بن قَبِيصة، ثم أيامَ رَوْح بن حاتم، ثم أيامَ الفضل بن رَوْح، ثم أيامَ هَرْثَمَة بن أَعْيَن، ثم أيَّامَ محمدِ بن مقـاتل، ثم أيَّامَ إبراهيمَ بن الأغلب، ممَّن تقدّم ذكره في ملوك أفرِيقِيَّةَ في خلافة هارون الرشيد. وفي أيامه ظهرَتْ دعوة الأدارسة الآتي ذكرهم بعد هـذه الطبقة. وسيأتي بَسْطُ القول فيهم بعضَ البسط في الكلام علىٰ مكاتبة صاحب تُونُس.

الطبقـــة الثـالثـــة

الأدارســة

(بنو إدريسَ الأكبر، بن حسن المثلث، بن حسن المثنّى، بن الحسن السبط، بن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنهم)

وكان مبدأ أمرهم أنه لما خرج حُسَين بن عليّ بن حسنٍ المثلَّث بمكة سنة سبعين ومائة أيَّامَ الهادي واجتمع عليه قرابَتُه وفيهم عَمُّه إدريسُ وقُتِل الحسين، فرّ إدريسُ ولَحِق بالمغرب، وصار إلىٰ مدينة وَلِيلِي من المغرب الأقصىٰ، فاجتمع إليـه قبائلُ البربر وبايَعُوه وفتح أكثرَ البـلاد، وبقيَ حتّى مات سنة خمس وسبعين ومائة، وأقاموا الدعوة بعده لابنه إدْرِيسَ الأصغر.

وكان أبوه قد مات وترك أمّه حاملا به فكفَلُوه حتّى شبّ ، فبايعوه سنةَ ثمانٍ وثمانينَ ومائة، وهو آبن إحدىٰ عشْرةَ سنةً، وآفتتح جميعَ بلاد المغرب وكثُرَ عسكرُه، وضاقتْ عليهم وَلِيلى فاختطّ لهم مدينةَ فاس سنةَ ثِنْتَيْن وتسعين ومائة علىٰ ماتقدّم وآنتقل إليها ، وآستقام له الأمر وآستولىٰ علىٰ أكثر بلاد البربر، وآقتطع دعوة العباسيين، ومات سنة ثلاثَ عشرةَ ومائتين .

وقام بالأمر بعده آبنُه (محمدُ بن إدريس) ومات سنة إحدىٰ وعشرين ومائتين بعد أن آستخلف فى مرضه ولَدَه (عليشا بن محمد) وهو آبن تِسْع سنين ، ومات سنة أربع وثلاثين ومائتين لثلاثَ عشرةَ سنةً من ولايته .

وكان قد عهد لأخيه (يحيىٰ بن محمد) فقام بالأمر بعده ومات .

فولى مكانَهُ آبنُه (يحيىٰ بنُ يحيىٰ) ثم مات فاستدعَوُا آبنَ عمه (علىَّ بن عُمَر) بن إدريس الأصغر فبايعوه بفاس، وآستولىٰ على جميع أعمال المغرب ، وقتل سنة ثنتين وتسعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده (يحيى بن إدريس) بن عمر، بن إدريس الأصغر، وملك جميع المغرب وخُطِب له علىٰ مَنابره، وبقى حتّى وافَتْه جُيوشُ عُبيدالله المهدىّ الفاطمىّ، فغلبوه علىٰ مُلْكه وخَلَع نَفْسه من الأمر وأنفذ ببيعته إلىٰ المهدىّ سنةَ خمس وثلثمائة وآستقرّ عاملا للمهدىّ علىٰ فاس وعملِها خاصّةً ، وبقية المغرب بيد موسىٰ بن ابى العافية كما سيأتى .

الطبقـــــة الرابعة

(ملوك بنى أبى العافِيَة من مِكْنَاسَةَ)

كانت مِكْنَاسةُ من قبائل البربر لأوّل الفتح بنواحى (تَازَا)[١] من أوساط المغرب الأقصىٰ والأوسط وكانوا يرجِعُون فى رياستهم إلىٰ بنى أبى باسِلٍ بن أبى الضحّاك وكانت الرياسةُ فى المـائة الثالثة لمِصَالة ـ بن حيوس، بن منازل، بن أبى الضَّحَّاك، ٱبن يَزُّول، بن تافرسين، بن فراديس، بن ونيف، بن مِكْنَاس، بن ورَصْطَف، بن يحيىٰ، بن تمصيت، بن ضَرِيس، بن رجيك، بن مادغش، بن بربر -؛ وموسىٰ بنِ أبى العافِيَة، بن أبى باسل، بن أبى الضحاك المتقدّم ذكره .

ولمـا ٱستَوْلىٰ عُبَيد الله المهدىّ على المغرب صار مِصَالة بن حيوس من أكبر قُوّاده وولّاه مدينة تاهَرْت والغربَ الأوسطَ .

ولمـا زحف مِصَالةُ إلىٰ المغرب الأقصىٰ سـنةَ خمس وثلثمائة وٱستولىٰ علىٰ فاس ثم علىٰ سِجِلْماسةَ وٱستنزل يحيىٰ بنَ إدريسَ بفاس إلىٰ طاعة عبيد الله المهدىّ وأبقاه أميرا علىٰ فاس علىٰ ماتقدّم، عقد لٱبن عمّه موسىٰ بن أبى العافيـة أميرِ مِكْنَاسةَ علىٰ سائر ضواحى المغرب وأمصاره مضافة إلىٰ عمله من قَبْلُ: تَسُول وتازَا ومامعهما وقَفَلَ مصالةُ إلىٰ القَيْروان .

فقام موسىٰ بن أبى العافية بأمر المغرب، وعاود مصالةُ غَزْوَ المغرب سـنةَ تسع وثلثمائة : أغراه موسىٰ بن أبى العافية بيحيىٰ بن إدريسَ، فقبض عليـه وأخذ ماله وطرده، فلَحِق ببنى عمه بالبصرة والريف؛ وولّى مصالةُ مكانه علىٰ فاس ريحـانًا الكُتَامِىَّ وقَفَل إلىٰ القيروان فمـات، وعَظُم ملك موسىٰ بن أبى العافية بالمغرب .

---

(١) لعله بنواحى تازا وغيرها من أوساط الخ وفى "العبر ج ٦ ص ١٣٤" بنواحى تازا وتسول والكل يرجعون الخ .

ثم ثار بفاس سنة ثلاثَ عشرةَ وثلثمائة (الحسنُ بن محمد) بن القاسم ، بن إدريس الملقب بالحَجَّام، ودخل فاسَ على حينِ غفلة من أهلها وقتل ريحانًا واليَها، وآجتمع الناس على بَيْعته ، ثم خرج لقتال آبن أبي العافية وآلتقوْا ، فهلك جماعة من مِكْناسةَ ثم كانت الغلبة لهم . ورجع الحسنُ مهزوما إلى فاس فغدر به عامله على عُدْوة القَروِيِّين : حامدُ بن حمدانَ الهَمْدانيّ ، فقبض عليه واعتقله وأمكن آبنَ أبي العافية من البلد ، وزحف إلى عُدْوة الأندلسيين فملكها وقتل عاملها ، وولّى مكانه أخاه محمدا ، وآستولى آبن أبي العافية على فاس وجميع المغرب وأجلى الأدارسةَ عنه .

ثم آستخلف على المغرب الأقصى آبنه (مَدْينَ) وأنزله بعُدْوة القَروِيِّين ، وآستعمل على عُدْوة الأندلُسِيِّينَ طُوَال (١) بن أبي زيد ، وعزل عنه محمد بن ثعلبة . ونهض إلى تِلِمْسانَ سنة تسعَ عشرةَ وثلثمائة فملكها ، وغلب عليها صاحبَها الحسنَ بن أبي العَيْش آبن عيسى ، بن إدريس ، بن محمد ، بن سليمان : من عَقِب سليمانَ بن عبد الله : أخي إدريس الأكبرِ الداخل إلى المغرب بعده ، ورجع بعد فتحها إلى فاس وخرج عن طاعة العُبَيْديين ، وخطب للناصر الأُمَوِيّ خليفةِ الأندلُس على منابر عَمَله ، فبعث عُبَيْدُالله المهديّ قائدَه حُمَيْدا المِكْناسيّ ابن أخي مِصاله إلى فاس ، ففرّ عنها مَدْينُ آبن موسى بن أبي العافية إلى أبيه فدخلها حُمَيد ، ثم آستعمل عليها حامدَ بن حَمْدانَ ورجع إلى أفْرِيقيَّة ، وقد دوَّخ المغرب .

ثم آنتقض أهل المغرب على العُبَيديين بعد مَهْلَك عبيدالله ، وثار (أحمدُ بن بكر) بن عبد الرحمن بن سهل الجُذَاميّ على حامد بن حَمْدانَ عامل فاسَ ، فقتله وبعث برأسه إلى موسى بن أبي العافِيَة ، فبعث به إلى الناصر الأُمَويّ بالأندلُس وآستولى على المغرب ، وزحف (مَيْسُور الخَصِيُّ) قائدُ أبي القاسم بن عبيد الله المهديّ سنة ثلاث

(١) كذا في القطعة الأزهرية أيضا وفي العبر ج ٦ ص ١٣٥ طول بن أبي يزيد وهو تصحيف .

وعشرين وثلثمائة إلىٰ فاس وحاصرها فأحْجَم ٱبْنُ أبي العافية عن لقائه ، وٱستنزل ميسورُ أحمدَ بنَ بكر عاملَها وقبض عليه وبعث به إلىٰ المَهْدِيَّة .

ثم خرج أهل فاس عن طاعته ، وقدّموا علىٰ أنفسهم (حسنَ بنَ قاسمٍ اللَّوَاتى) ؛ ثم حاصرهم ميسورُ فدخلوا تحت طاعتــه ، وٱشترطوا علىٰ أنفسهم الإتَاوَةَ ، فقَبِــل مَيْسورُ ذلك منهم ، وأقرّ حسنَ بنَ قاسم علىٰ وِلَايتــه بفاس ، وٱرتحل إلىٰ حرب ٱبن أبي العافِيَــة ، فكانت بينهم حروب آخِرُها أن ظهر ميســور علىٰ ٱبن أبي العافيــة ، وأجلاه عن أعمــال المغرب إلىٰ بلاد الصَّحْراء ، ثم قفل مَيْسورُ إلىٰ القَيْروان ســنة أربع وعشرين وثلثِمائة . ورجع موسىٰ بن أبي العافيــة من الصَّحْراء إلىٰ أعمــاله بالمغرب ، وزحف إلىٰ تِلِمْسان ، ففرّ عنها أبو العيش ولحق بتكُور ، وٱســتفحل أمر ابن أبي العافيــة بالمغرب الأقصىٰ وٱتّصــل عمَلُه بعمل محمد بن خزر مَلِك مَغْراوَةَ وصاحب المغِرب الأوسط ، وبَثُّوا دعوةَ الأُمَوِيَّة فى أعمالها ، وبعث ٱبنَه مَدْيَنَ إلىٰ منازلة فاسَ لحاصرها ، وهلك موسىٰ فى خلال ذلك سنة سبع وعشرين وثلثمائة .

وقام ٱبنه (مدينُ) بأمره ، وعقد له الناصر الأُمَوِىُّ علىٰ أعمال أبيه بالمغرب ؛ ثم قسم أعماله بينــه وبين أخويه البورى وأبي منقذ ؛ وأجاز البورىُّ إلىٰ الناصر بالأندلُس سنة خمس وثلاثين وثلثمائة فعقد له ثم هلك سنةَ خمس وأربعين وثلثمائة وهو محاصر لأخيه مدين بفاس ، فعقد الناصر لٱبنه (منصور) علىٰ عمله .

ثم تُوُفِّىَ مدين ، فعقد الناصر لأخيه أبي منقذ علىٰ عمله ؛ ثم غلب مَغْراوةُ علىٰ فاسَ وأعمالها ، وٱستفحل أمرهم بالمغرب ، وأزاحُوا مِكْناسة عن ضواحيه وأعمالِه ؛ وأجاز إسماعيل بن البُورى ومحمدُ بن عبدالله بن مدين إلىٰ الأندلُس ، فنزلا بها إلىٰ أن أجازوا مع واضح أيَّامَ المنصور بنِ أبي عامر عنــد ماخرج زِيرِى بنُ عطية عن طاعتهم سنةَ ستٍّ وثمانين وثلثِمائة .

الطبقة الخامسة

(بَنُو زِيرِى بن عطيَّة من مَغْراوة من البربر)

وهو زِيرِى بنُ عطية، بنِ عبدالله، بن خَزَر، بن محمد، بن خزر، بن حَفْص، آبن صولات، بن رومان، من بطون زَنَاتة من البربر . وكان أوّليَّة أمره أنّ زِيرِى هـذا كان أميرَ بنى خَزَر فى وقتـه، وآنتهت إليه رِيَاسَتُهم وإمارَتُهم فى البَـدَاوة . ولما غلب بُلُكِّينُ بنُ زيرِى الصِّنْهاجىُّ صاحِبُ أفريقيَّةَ وقومُه صِنهاجةُ على المغرب الأوْسَط سنة تسع وسـتين وثلثمائة وأجْلَوْا عنه مَغْراوةَ الذين كانوا به من تَقادُم السنين وصار المغربُ الأوسطُ جميعُه لِصنهاجةَ، لحق مَغْراوةُ فيمن بَقِىَ من بنى خَزَر، بالغرب الأقصى؛ وأمراؤهم يومئذ محمدُ بن الخيِّر، ومقاتلُ وزيرِى آبنَا عطية بن عبد الله، وخَزْرون بن فَلْفُول، ووصلوا إلى سَبْتَة وأميرهُمُ المنصورُ بنُ أبى عامر حاجب[(١)] .

وبعث العزيزُ بنُ نِزَار العُبَيْدىُّ من مصر الحسنَ بن كَنُّون من الأدارسة لآسترجاع مُلْـكه بالمغرب، فبعث المنصورُ لحربه أبا الحَـكَم عمرو بنَ عبد الله بن أبى عامر الملَقَّب بعسكلاجة سنة خمس وسبعين وثلثمائة، وآنحاش إليه زِيرِى بنُ عطية ومن معه من بنى خَزَر فى جموع مَغْراوةَ، وزحفُوا إلى الحسن بن كَنُّون حتى ألجـُوه إلى الطاعة؛ ثم آنصرف أبو الحكم بنُ أبى عامر إلى الأندلُس، فعقد المنصورُ بنُ أبى عامر على المغرب الأقصى للوزير (حسنِ بنِ أحمد) بن عبـد الوَدُود السُّلَمى، وأنفذه إليـه سنة ست وسبعين وثلثمائة، وأوصاه بملوك مَغْراوةَ خصوصا زِيرِى؛ فسار الحسـن بن أحمد حتّى نزل بفاس وضبط أعمـال المغرب . ومات مقاتلُ بنُ عطية سنة ثمـان وسبعين وثلثمائة، وآستقلّ أخوه زِيرِى بن عطية برياسة مَغْراوة؛ وبقى الحسنُ بنُ أحمد إلى أن قُتِل فى بعض الحروب سنة إحدى وثمـانين وثلثمائة،

(١) لعله حاجب هشام بن عبدالملك خليفة الأندلس كما سيأتى وهو كذلك فى القطعة الأزهرية على تصليح .

وبلغ الخبرُ المنصورَ بنَ أبي عامر فعقد على المغرب (لزيرى بنِ عطية) المذكور، وكتب إليه بعهده وأمره بضبط المغرب، فاستفحل مُلْكه وغلب على تِلِمْسانَ. فملكها من يد أبي البهار الصنهاجي، وبعث بالفتح إلى المنصور بن أبي عامر فجدد له العهدَ، واختط مدينة (وَجْدة) سنة أربع وثمانين، وأنزل بها عساكره.

ثم فسد ما بين المنصور بن أبي عامر وبين زيرى بنِ عطية، فعقد المنصورُ لمولاه واضح على المغرب، وعلى حرب زيرى بن عطية، وجهّزه إليه في عساكره، ثم أتبعه المنصورُ ابنَه المظفَّر عبد الملك فاجتمعا على زيرى بن عطية، ودارت بينهم الحرب فكانت الهزيمةُ على زيرى وجُرِح في المعركة وفرّ إلى فاس فامتنع عليه أهلها، فلحق بالصحراء جريحا، وكتب عبدُ الملك بنُ المنصور بالفتح إلى أبيه فاستبشر به وكتب إلى ابنه (عبد الملك) بعهده على المغرب.

وكان زيرى بنُ عطية لمّا فرّ إلى الصحراء صرف وجهه إلى حرب صنهاجة بالمغرب الأوسط فقصده وفتح تاهَرْتَ وتِلِمْسان وأعمالها، وأقام الدعوة فيها لهشام ابنِ عبد الملك خليفةِ الأندلس وحاجبه المنصورِ من بعده، وبقىَ على ذلك حتّى مات سنة إحدى وتسعين وثلثمائة.

وبُويِع من بعده ابنُه (المُعِزّ بن زيرى) فجرى على سَنَن أبيه من الدعاء لهشام بن عبد الملك والمنصورِ من بعده، ومات المنصور في خلال ذلك.

وقام بأمره من بعده ابنه المظفَّر (عبد الملك) وبعث المعِزّ بن زيرى يرغَبُ إلى المظفَّر في عمل فاس والمغرب الأقصى فأجابه إلى ذلك، وكتب له عهده بذلك، خلا سِجِلْماسَةَ فإنها كانت بيد خزرون[1]، وبقىَ المعزّ في ولايته إلى أن هلك سنة سبعَ عشرةَ وأربعمائة.

---

(١) الذي في العبر ج ٧ ص ٣٤ أنها كانت بيد واندين بن خزرون.

وولى من بعده ابنُ عمه (حَمَامةُ) بن المعز بن عطية وٱستفحل مُلْكه، ثم نازعه الأمير أبو الكمال (تميم بن زيرى) بن يعلى اليَفْرَنى سنة أربع وعشرين وأربعمائة، وٱستقلَّ بملك المغرب وبقِىَ حتّٰى مات سنة إحدىٰ وثلاثين وأربعمائة .

وولى من بعده ٱبنه (دُوناس) المعروفُ بأبى العَطَّاف، وٱستولىٰ علىٰ فاس وسائر عمل أبيه، فاستقامت دولتُه، وٱحتفل بعمارة فاس وأدار السُّورَ علىٰ أرباضها، وبنىٰ بها المَصَانِعَ، والحَمَّاماتِ، والفَنادِقَ، وبقِىَ حتّٰى مات سنة إحدىٰ وخمسين وأربعمائة .

وولى من بعده ٱبنه (الفَتُّوح بن دُوناس) ونازعه أخوه الأصغَرُ عُجَيْسة وٱستولىٰ علىٰ عُدْوة القَرَوِيِّين من فاس، وبقى الفَتُّوح بعُدْوة الأندَلُسِيِّين، وٱفترق أمرهما ووقعت الحربُ بينهما، وٱبتنى الفَتُّوح بعُدْوة الأندلسيين (باب الفتوح) المعروف به إلىٰ الآن، وٱبتنىٰ عجيسة بعدوة القرويين (باب الجيسة) المعروف به إلىٰ الآن، وحُذِفت العين منه لكثرة دَوَرانه علىٰ الألسِنة، وبقى الأمر علىٰ ذلك حتّٰى ظفر الفتوح بأخيه عُجَيسةَ، وقتَلَه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، ودهم المغربَ علىٰ إثر ذلك ما دَهَمه من أمر المرابطين من لَمْتُونةَ، وخشِىَ الفَتُّوح عاقبةَ أمرهم، فرحل عن فاس وتركها .

وزحف صاحبُ القلعة (بُلُكِّين) بن محمد بن حَمَّاد إلىٰ المغرب سنة أربع وخمسين، فدخل فاس وٱستَرْهَن بعضَ أشرافهم علىٰ الطاعة ورجع إلىٰ عمله، وولِّى علىٰ المغرب بعد الفَتُّوح (معتصر) بن حماد، بن معتصر، بن المعز، بن زِيرى .

وزحف (يوسفُ بن تاشفين) إلىٰ فاس فملكها صُلْحا سنة خمسٍ وخمسين وأربعمائة وخلَّف عليها عامله، وٱرتحل إلىٰ غُمَارة فخالفه معتصر إلىٰ فاس وملكها

وقتل العامل ومن معه من لَمْتُونَة ، وبلغ الخبرُ يوسفَ بن تاشفين فأرسل العساكر إلىٰ فاس وحاصرها ، وخرج معتصر للقـاء عساكره ، فكانت الدائرةُ عليــه وقُتِل فى المَعْرَكة سنة ستين وأربعمائة .

وبايع أهل فاس من بعده ابنــه (تميم بن معتصر) فكانت أيامُه أيامَ حِصَـار وفتنةٍ وشدّة وغَلَاء .

ولمـا فرغ يوسف بن تاشفين من أمر غُمَارة سنة ثنتين وستين وأربعمائة قصـــد فاس فحـاصرها أيّاما ثم افتتحها عَنْوة وقَتَل بهـا نحو ثلاثة آلاف من مَغْراوة وبنى يفرن ومِكْناســة وقبائل زَنَاتة وهلك تميم بن مُعْتَصِر فى جملتهـم . وأمر يوسف بن تاشفين بهــدم الأسوار التى كانت فاصلةً بين العُدْوتين وصيَّرهما مصرا واحدا وأدار عليهما سورا واحدا ، وفرّ مَنْ خَلَص من القتــل من مَغْراوة من فاس إلىٰ تِلِمْسان (١) ، وانقرض ملكُهم من الغرب الأقصىٰ ، وتصاريف الأمور بيد الله تعالىٰ .

الطبقة السادســـة

(المرابِطون من المُلَثَّمين من البربر)

كان المُلَثَّمُون من البربر من صِنْهاجةَ قبل الفتح الإسلامىّ متوطّنين فى القِفَار وراءَ رمال الصَّحْراء : مابين بلاد البربر وبلاد السُّودان ، فى جملة قبائل صنهاجةَ علىٰ دين المَجُوسيَّة ، قد اتخــذوا اللِّثامَ شِعارا يميِّز بينهم وبين غيرهم من الأمم ، والرياسة فيهم يومئــذ لِلَمْتُونة ، ولم يزالوا علىٰ ذلك إلىٰ أن كان فتحُ الأندَلُس واستمر ملكهم أيام عبد الرحمن أوّل خلفاء بنى أمية بالأندلس .

(١) فى الاصل من تلمسان إلىٰ فاس وهو خطأ من الناسخ والتصحيح من "العبر ج ٧ ص ٣٦"

قال ٱبن أبى زَرْع : أوّل من ملك الصحراء من لمتونة (يَتْلُوثان) وكان يركب فى ألف نجيب وتوفى سنة ٱثنتين وعشرين ومائتين .

وملك بعده (يُلْتان) فقام بأمرهم وتُوُفِّىَ سنةَ سبع وثمانين ومائتين .

وقام بأمرهم بعده ٱبنهُ (تَمِيمٌ) إلىٰ سنةِ ستٍّ وثلثمائة وقتله صِنهاجةُ .

ثم ٱفترق أمْرُهم بعد تميم مائةً وعشرين ســنة إلىٰ أن قام فيهم (أبُو عبد الله بنُ نِيفاوُت) المعروف بتادشت اللّمْتُونى، وحجّ ومات لثلاثةِ أعوام من رياسته عليهم .

وقام بأمرهم صِهْرُه (يحيىٰ بنُ إبراهيم) فحج فى سِنِى أربعين وأربعمائة، وعاد وصُحْبته عبدُالله بن ياسين الجزولىّ ليعلّمهم الدِّينَ؛ فلما مات يحيىٰ بنُ إبراهيم ٱطَّرَحُوا عبدالله ٱبن ياسين وٱستعصوا عليــه وتركوا الأَخْذَ بقوله فاعتزلهم؛ ثم ٱجتمع عليه رجال من لَمْتُونةَ فخرج فيهــم وقاتل مَنِ ٱســتعْصىٰ عليــه منهم حتّىٰ أنابُوا إلىٰ الحق وسَمّـاهم "المُرابِطين" وجعل أمرهم فى الحرب إلىٰ الأمير يحيى بنِ عُمَر، بن واركوت، بن ورتَنْطق، بن المنصور، بن مرصالة، بن منصور، بن فرصالة، بن أميت، بن راتمال، بن تلميت، وهو لَمْتُونةُ؛ فافتتحوا دَرْعة وسِجِلْماسةَ، وٱستعملوا عليها منهم، وعادُوا إلىٰ الصحراء، وهلك يحيىٰ بن عمر سنةَ سبع وأربعين وأربعمائة .

ووَلِىَ مكانَهُ أخوه (أبو بكر بن عمر) ثم ٱفتتحوا بلادَ السُّوس سنةَ ثمان وأربعين ثم مدينة أغْماتَ سنةَ تسع وأربعين؛ ثم بلادَ المَصَامدة وجبالَ دَرَن سنةَ خمسين؛ ثم ٱستُشْهِد عبدُالله بن ياسين فى بعض الغَزَوات سنةَ خمسين؛ وٱستمرّ أبو بكر بنُ عمر فى إمارة قومه، وٱفتتح مدينة لَوَاتةَ ســنة ثنتين وخمسين؛ ثم ٱرتحل إلىٰ الصحراء لجهاد السُّودان وٱســتعمل علىٰ المغرب ٱبن عمه (يوسف بن تاشفين) بن إبراهيم ٱبن واركوت، فسار يوسفُ فى عسكره من المرابطين ودَوّخ أقطار المغرب، وٱختط مدينة مَرّاكُش سنة أربع وخمسين .

ثم انتزع جبال زَناتَةَ بالمغرب من أيديهم؛ ثم افتتح فاس صُلْحا سنة خمس وخمسين ثم استُعيدتْ بعد فتحها؛ ثم فتحها عَنْوةً سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وأمر بهدْم الأسوارِ التي كانت فاصلةً بين عُدْوتَيِ القرويِّين والأندلُسيِّين وصيرهما مصرا واحدا؛ ثم افتتح بعد ذلك مدينة تِلِمْسان واستولىٰ على الغرب الأقصىٰ والغرب الأوْسط؛ ثم صار إلىٰ الأندلُس واستولىٰ علىٰ أكثر ممالكه كما سيأتي في ذكر مكاتبة صاحب الأندلس؛ ثم تُوفِّي يوسفُ بن تاشفين علىٰ رأس المائة الخامسة .

وقام بالأمر بعده ابنه (على بن يوسف) فاستولىٰ علىٰ ما كان بِيَدِ أبيه من العُدْوتين، وسار فيهم بأحسن السِّيرة . ولأربعَ عشرةَ سنةً من ولايته كان ظهور المَهْدِى بن تُومَرْت صاحب دولة الموحِّدين . ومات علىٌّ بن يوسف سنة سبع وثلاثين، وقد ضَعُفتْ كلمةُ المرابطين بالأندلُس لظهور الموحِّدين .

وقام بالأمر بعده ولدهُ (تاشفين بن على) وأخذ بطاعته وبَيْعتِه أهلُ العُدْوتين؛ وقد استفحل أمر الموَحِّدين وعَظُم شأنهم، ونزل تِلِمْسان فقصده الموحِّدُون، ففرّ إلىٰ وَهْران واتّبعه الموحدون، ففُقِد سنة إحدىٰ وأربعين وخمسمائة، واستولىٰ الموحدون على الغرب الأوسط .

ثم بويع بمَرّاكُش (إبراهيم بن تاشفين) بن على، بن يوسف بن تاشفين، فألفَوْه عاجزا فخلَعُوه .

ووُلِّى مكانَه عمه (إسحاق بن على) بن يوسف بن تاشفين، وقد ملك الموحِّدون جميعَ بلاد المغرب وقصدُوه في مَرّاكُش، فخرج إليهم في خاصّته فقتلوه، وأجاز عبدُ المؤمن والموحِّدون إلىٰ الأندلُس، فملكوه سنةَ إحدىٰ وخمسين وخمسمائة، وفرّ أمراء المرابطين في كلِّ وَجْه .

الطبقة السابعة
(ملوك الموحّدين)

كان أوّلُ أمرهم أن المهدىَّ محمدَ بنَ تُومَرْت، كان إماما متضلّعا بالعلوم، قد حَجَّ ودخل العراق وآجتمع بأئمته من العلماء والنُّظّار، كالغزالىّ [والإلكيا الهرّاسى](١) وغيرهما، وأخذ بمذهب الأشعريّة أهلِ السنة، ورجع إلى الغرب وأهلُه يومئذ على مذهب أهل الظاهر فى منع التأويل، فاجتمع إليه قبائلُ المَصامدة من البربر وجعل يَبُثُّ فيهم عقائدَ الأشعريّة، وينهىٰ عن الجُمُود على الظاهر، وسمّى أتباعه الموحدين، تعريضا بتكفير القائلين بالتجسيم الذى يؤدّى إليه الوقوفُ على الظاهر .

وكان الكُهّان يتحدّثون بظهور دولةٍ بالمغرب لأُمّة من البربر، وصرَفُوا القولَ فى ذلك إليه، ودعا المَصامدةَ إلى بيعته على التوحيد وقتال المجسِّمين سنةَ خمس عشْرَة وخمسمائة فبايعوه على ذلك .

ولما كَمُلتْ بيعتُه لَقّبوه المهدى، وكان قبل ذلك يلقّب الإمام، وأخذوا فى قتال المرابطين من لَمْتُونةَ حتّى آستقاموا على الطاعة . وتُوُفِّى المهدىّ سنةَ ثنتين وعشرين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده (عبدُ المؤمن) بنُ علىّ بعهده إليه . فكان من أمره ما تقدّم من آستيلائه على العُدْوتيْن وآنقراض مُلْك المرابطين بهما، وكان ذلك من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة إحدى وأربعين . ثم صَرَف هَمَّه إلى بجاية وأفْرِيقيّةَ فافتتحهما، وآستخلص المهديّةَ والبلادَ الساحليةَ التى كانت النصارى قد آستولَوْا عليها من أيديهم وآستولى على سائر بلاد أفريقيّةَ، وعاد إلى الغَرْب فى سنة ستٍّ وخمسين وخمسمائة. وتُوُفِّى بسَلَا من الغرب الأقصى فى جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وخمسين .

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عن تاريخ آبن الأثير وهو كذلك فى القطعة الازهرية .

وبويع بعده ابنه أبو يعقوب (يوسفُ بنُ عبد المؤمن) فاستولىٰ علىٰ ما كان بيد أبيه من العُدْوتين وأفريقِيَّة ، واشتغل بإصلاح الممالك وجِهاد العدو ، وأجاز إلىٰ الأندَلُس لِجهادِ النصارىٰ ، وقُتِل فى بعض غزواته فيه بسَهْم أصابه . وقيل مَرِض فمات سنة ثمانين وخمسمائة .

وبُويِع ابنه (يعقوبُ بنُ يوسف) بإشْبِيلِيَة عقِبَ وفاته وتلقَّب بالمنصور ، فاستولىٰ علىٰ ما كان بيد أبيه من المَمالك إلىٰ الأندلُس ، وكان له مع العدو وقائعُ ، ومرض بالأندَلُس فمات سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

وبُويِع ابنه (محمدٌ) ولىُّ عهده وتلقَّب الناصرَ لدين الله ، ورجع إلىٰ بلاد المغرب . وفى أيامه ثار (ابن غانيـة) علىٰ أفريقِيَّة وتغلب عليها ، وولَّى أبا محمد ابنَ الشيخ أبى حفص عليها ، فاستقرت بها قدَمُ بَنِيـه إلىٰ الآن ، وأجاز إلىٰ الأندَلُس ونزل إشبيلِيَة ، والتقىٰ مع العدو فى صفر سنة تسع وستمائة ، وابتُلِىَ المسلمون فى ذلك اليوم ورجع إلىٰ مَرَّاكُش فمات فى شعبان من السنة المذكورة .

وبُويِع ابنُه (يوسفُ بن محمد) سنةَ إحدىٰ عشرة وستمائة ، وهو ابن ستَّ عشرةَ سنةً ، ولُقِّب المستنصرَ بالله ، وتأخر أبو محمد ابن الشيخ أبى حفص عن بيعته لِصغَر سنه ، وغَلَب عليـه مَشْيخةُ الموحِّدين فقاموا بأمره . وبقِىَ المستنصرُ حتَّى مات يوم الأضحىٰ سنة ست وعشرين وستمائة (١) .

وبُويِع بعده أبو محمد (عبدُ الواحد بنُ يوسف) بن عبد المؤمن ، وهو أخو المنصور ويُعْرَف (بالمخلوع) . وكان الوالِىَ بالمُرْسِيَة من الأندَلُس أبو محمد عبدُالله بنُ يعقوبَ ابنِ المنصور ، بن يوسف ، بن عبد المؤمن . فثار بالأندَلُس ودعا لنفسه وتلقَّب

(١) فى العبر ج ٦ ص ٢٥١ يوم الاضحى من سنة عشرين وستمائة وهو الصواب .

(العادِلَ). وٱتصل الخبر بمرَّاكُشَ فاضطرب الموحِّدون علىٰ (المخلوع) وبعثُوا ببيعتهم إلىٰ العادل بالأندَلُس، وبادر العادلُ إلىٰ مَرَّاكُش فدخلها وبقى حتّٰى قُتِـل بها أيام الفِطْر سنة أربع وعشرين وستِّمائة .

وكان أخوه (إدريسُ[1] بنُ المنصور) بإشْبِيلِيَةَ من الأندَلُس فدعا لنفسه وبُويِـع وبعث الموحِّدون ببيعتهم إليه، ثم قصد مَرَّاكُش فهلك فى طريقه بوادى أُمِّ ربيع مُفْتَتَحَ سنةِ ثلاثين وستمائة، وتغلب ٱبن هُودٍ علىٰ سَبْتة .

وبويع بعده ٱبنُه (المأمونُ[2] عبـدُ الواحد بنِ إدريسَ) فلقِّب الرشـيدَ، ودخل إلىٰ مَرَّاكُش فبايعوه، وبَقِىَ حتّٰى تُوفِّى سنة أربعين وستمائة .

وبُويِـع بعده أخوه (أبو الحسن علىٌّ السعيد) ولُقِّب المعتضِدَ بالله، وقام بالأمر ثم سار إلىٰ تِلِمْسانَ فكان بها مَهْلَكُه علىٰ يدِ بَنِى عبدالواد فى صفر سنة ستٍّ وأربعين وستمائة، وكان فيها ٱستيلاء النصارىٰ علىٰ إشبِيلِيَةَ .

ثم ٱجتمع الموحِّدون علىٰ بيعة (أبى حفص) عمرَ بن أبى إسحـاق بن يوسفَ، ٱبن عبد المؤمن، فبايعُوه ولُقِّب (المرتضىٰ) وكان بسَلَا فقدِم إلىٰ مَرَّاكُش . وفى أيامه ٱستولىٰ أبو يحيىٰ بنُ عبد الحق المَرِينىُّ جدّ السلطان أبى الحسن علىٰ مدينة فاس سنةَ سبع وأربعين وستمائة، وٱستبدّ العزفىُّ بِسَبْتة .

ثم ٱنتقض علىٰ المرتضىٰ قائد حروبه (أبو العَلَاء) الملقَّبُ بأبى دَبُّوس، بن أبى عبد الله محمـد، بن أبى حفص، بن عبد المؤمن، ففرّ منه وٱجتمع عليه جموع من الموحِّدين وقصـد مَرَّاكُش وبها المرتضى فغلبه عليها، وٱلتقيا وفرّ المرتضى إلىٰ أَزْمُّور

(١) لقبه فى العبر بالمأمون .

(٢) صوابه ٱبنه عبدالواحد فإن المأمون لقب أبيه إدريس كما فى العبر وغيره .

فقبض عليـه واليها وآعتقله إلىٰ أن ورد أمر [أبى دبوس] (١) بقتله فقتله ؛ وآستقلَّ أبو دَبُّوس بالأمر وتلقَّب (الواثقَ بالله) والمعتمدَ علىٰ الله .

ثم جمع يعقوبُ بنُ عبد الحق وقصـد مَرَّاكُش فخرج إليه أبو دَبُّوس ، فكانت الهزيمةُ علىٰ أبى دبوس ، ففرّ هاربا فأُدْرِك وقُتِل ؛ ودخل يعقوب بن عبد الحق مَرَّاكُش وملكها سنةَ ثمانٍ وستين وستمائة ، وفرّ مَشْيخةُ الموحدين إلىٰ مَعَاقلهم بعد أن كانوا بايعوا عبدَ الواحدبنَ أبى دَبُّوس ولَقَّبوه المعتصِمَ ، فأقام خمسة أيام ، وخرج فى جملتهم ، وآنقرض أمر بنى عبد المؤمن ، ولم يبق للموحدين ملك إلا بأفْرِيقيَّة لبنى أبى حفص علىٰ ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقـــة الثامنـــة

(ملوكُ بنى عبد الحق من بنى مَرِينٍ (٢) ، القائمون بها إلىٰ الآن)

وهو عبـد الحق بن محُيو ، بن أبى بكر ، بن حمامةَ ، بن محمد ، بن وَرْزيز ، بن فكُّوس ، بن كوماط ، بن مَرِين ، بن وَرْتاجن ، بن ماخُوخ ، بن جديج ، بن فاتن ، آبن بدر ، بن نجفت ، بن عبدالله ، بن ورتبيص ، بن المعز ، بن إبراهيم ، بن رجيك ، آبن واشين ، بن بصلتن ، بن مشد ، بن إكيا ، بن ورسيك ، بن أديدت ، بن جانا ، وهوزناتةُ .

كانت منازلُ بنى مَرِينٍ مابين فيكيك إلىٰ صا ومَلْويه ؛ وكانت الرياسة فيهم (لمحمد) آبن وَرْزِيز بن فكُّوس .

---

(١) فى الاصل المرتضى وهو خطأ .

(٢) هو بوزن أمير كما ضبطه السيد مرتضى فى كتابه " تاج العروس " فى مادة م ر ن .

ولما هلك محمد قام بأمره من بعده ٱبنه (حمامةُ) ثم من بعده أخوه (عَسْكر) ولما هلك قام برياسته فيهم ٱبنُه (المخضب) فلم يزل أميرا عليهم إلىٰ أن قُتِل فى حرب الموحِّدين فى سنة أربعين وخمسمائة .

وقام بأمرهم من بعده (أبو بكرٍ ٱبنُ عمه حمامةَ بن محمد) وبقى حتّى هلك .

فقام من بعده ٱبنه (محيُو) ولم يزل حتّى أصابته جِراحةٌ فى بعض الحروب ، وهو فى عِداد المنصور بن عبد المؤمن ، هلك منها بعد مَرْجِعه إلىٰ الزَّاب سنةَ إحدىٰ وتسعين وخمسمائة .

وقام برياسته ٱبنه (عبد الحق بن محيو) وكان أكبرَ أولاده ، وهو الذى تنسب إليه ملوك فاس الآن . فأحسن السَّيْرَ فى إمارته إلىٰ أن كانتْ أيامُ المستنصر يوسفَ ٱبن الناصر : خامس خلفاء بنى عبد المؤمن فثارت الفتنةُ بينه وبين بنى مَرِينٍ ، وكانت بينهم حروبٌ هلك فى بعضها عبدُ الحق بن محيو .

ونَصَّب بنو مَرِينٍ بعده ٱبنَه أبا سعيد (عثمانَ بنَ عبد الحق) وشهرته بينهم ادرغال ، ومعناه بلغتهم الأعور ، وقَوِىَ سلطانُه وغلب علىٰ ضَوَاحى المغرب ، وضرب الإتاوةَ عليهم وتابعه أكثرُ القبائل ، وفَرَض علىٰ أمصار المغرب مثل فاس وتازا وغيرها ضَرِيبةً معلومةً فى كل سنة علىٰ أن يكُفَّ الغارةَ عنهم . ولم يزل علىٰ ذلك إلىٰ أن قتله عِلْج من علوجه سنةَ سبع وثلاثين وستمائة .

وقام بأمر بنى مَرِينٍ من بعده أخوه (محمدُ بنُ عبد الحق) فجرىٰ علىٰ سَنَن أخيه فى الاستيلاء علىٰ بلاد المغرب ، وضَرْب الإتاوةِ علىٰ بلاده ومُدُنه إلىٰ أن كانت أيامُ السعيد بن المأمون من بَنِى عبد المؤمن ، فجهّز عساكرَ الموحدين لقتال بنى مَرِينٍ ؛ فخرجوا إليهم فى جيش كَثِيفٍ فى سنة ثنتين وأربعين وستمائة ، ودارت الحربُ بينهم فكانت الهزيمةُ علىٰ بنى مَرِينٍ ، وقتل محمدُ بنُ عبد الحق .

وقام بأمرهم من بعــده ٱبنُه أبو يحيىٰ[1] (زكريَّا بنُ عبد الحق) وقسَم جبايتَه ببلاد المغرب فى عشائر بَنِى مَرِينٍ، ودارت الحربُ بينهــم وبين الموحِّدين، إلىٰ أن مات السعيدُ بن المأمون من بنى عبد المؤمن، وٱنتقل الأمرُ بعــده إلىٰ ٱبنه عبد الله؛ فضَعُفت دولةُ بنى عبد المؤمن . واستولىٰ (أبو يحيىٰ) بن عبد الحق علىٰ أكثر بلاد المغرب، وقصد فاسَ وبها بعضُ بنى عبد المؤمن فأناخَ عليها وتلطَّف بأهلها، ودعاهم إلىٰ الدَّعْوة الحَفْصِيَّة بأفريقيَّــة، فأجابوه إلىٰ ذلك وبايَعوه خارجَ باب الفتوح . ودخل إلىٰ قصبة فاس لشهرين من موت السعيد فى أوّل سنة ستٍّ وأربعين وستمائة؛ وبايعه أهل تازَا وأهلُ سَــلَا ورِبَاط الفتح، وٱستولىٰ علىٰ نواحيهــا، وأقام فيها الدَّعْوة الحَفْصِيَّة؛ وٱستبدَّ بنو مَرِينٍ بمُلك المغرب الأقصىٰ، وبنو عبد الواد بمُلْك المغرب الأوسط .

وملك سِجِلْماسةَ سنةَ ثلاثٍ وخمسين وستِّمائة من أيدى عامَّة الموحِّدين وبقِىَ حتّىٰ هلك بفاس فى رجبٍ سنةَ ستٍّ وخمسين وستمائة، ودُفِن بمَقْبرة باب الفُتُوح .

وتصدّى للقيام بأمره ٱبنه (عمر) ومال أهلُ الحَلِّ والعقد إلىٰ عمِّه أبى يوسف يعقوبَ بن عبد الحق، وكان غائبا بتازَا فقَــدِم ثم وقع الصلحُ بينهــما علىٰ أن ترَك يعقوبُ الأمرَ لٱبن أخيه عمر علىٰ أن يكون له تازَا وبلادُها؛ ثم وقع الخلف بينهما والْتقيَا فهُزِم عمرُ ثم نزل لعمه يعقوب عن الأمر .

ورحل السلطانُ أبو يوسفَ (يعقوبُ بنُ عبدالحق) فدخل فاس مملَّكا؛ ثم هلك عمرُ بعــد سنة، فكُفِىَ يعقوبُ شأنه وٱستقام ســلطانُه، وأخذ فى ٱفتتاح أمصار المغرب . وٱفتتح أمره باستنقاذِ مدينة سَلَا من أيدى النصارىٰ؛ ثم قصد إلىٰ مَرَّاكُش فخرج إليــه الخليفةُ المرتضىٰ من بنى عبــد المؤمن، وكانت بينهما حَرْب

(١) الأظهر أخوه وهم جميعا أولاد عبد الحق .

هُزِم فيها المرتضىٰ وقُتِل، وبايع الموحدون أخاه (إسحاق) ثم قُبِض عليه سنةَ أربع وستين وستمائة فقُتِل فيمن معه، وآنقرض أمر بنى عبد المؤمن من المغرب .

ووصل السلطان أبو يوسفَ إلىٰ مَرَّاكُش أوّلَ سنة ثمان وستين وستمائة فدخلها، ووَرِث مُلْكَ الموحدين بها؛ ثم رجع إلىٰ فاس بعد أن آستخْلَف علىٰ مَرَّاكُش فى شوّال من سنته؛ وشَرَع فى بناء المدينة التى آستجدّها مُلاصقةً لمدينة فاس فى ثالثِ شوّالٍ سنة أربع وسبعين وستمائة، ونزل فيها بحاشيته وذَوِيه؛ وغزا فى خِلال ذلك النصارىٰ بالأندلُس أربعَ مَرّات حتّى أذْعَن له شانجة بن أدفونش، وسأله فى عَقْد السِّلْم له فعقد له علىٰ شروط آشترطها عليه، وعاد إلىٰ بلاد المغرب فمَرِض ومات فى آخر المحرّم سنة خمس وثمانين وستمائة .

وبُويع بعده آبنُه ولىّ عهده أبو يعقوب (يوسفُ بن يعقوب) فجرىٰ علىٰ سَنَن أبيه فى العدل والغزو، وأجاز إلىٰ الأندلُس، وجدّد السِّلْم مع شانجةَ مَلِك النصارىٰ.

وغزا تِلِمْسانَ مَرّاتٍ وبَقِىَ حتّى طعنه خَصِىٌّ من خَدَمه، وهو نائم علىٰ فِراشه، فمات سابع ذى القَعْدة سنةَ ستٍّ وسبْعِمائة .

وبويع بعده آبنُه أبو ثابت (عامر بن أبى يعقوبَ يوسفَ) وآختلفَتْ عليه النَّواحى؛ ثم آستقام أمرُه وبقِىَ حتّى آنتقض عليه عُثْمان بن أبى العَلاء، بنواحى طَنْجةَ من أقصىٰ الغرب، فخرج لقتاله ومَرِض فى طَنْجةَ ومات فى ثامن صفر سنة سبع وسبعمائة .

وبُويع بعده أخوه (أبو الرَّبيع بن أبى يعقوب يوسفَ) فأحسن السِّيْرة، وأجزل الصِّلاتِ، وسار بسَيْرة آبائه وبقِىَ حتّى مات بمدينة تازَا فى سلخ جُمادىٰ الآخرة سنة عشر وسبعمائة ودُفِن بصَحْن جامعها .

وبويع بعده اخوه أبو سعيد (عثمانُ بن أبي يعقوب يوسُفَ) فلما استقام أمره بالغرب الأقصى سار إلى تلِمْسان سنةَ أربعَ عشرةَ وسبعمائة فانتزعها من موسى بن عثمان ابن يغمراسن : سلطان بني عبد الواد بها ؛ وآنتقض عليه محمدُ بن يحيى العزفى صاحب سَبْتةَ فسار إليه فى سنة ثمان وعشرين وسبعمائة فأذعن للطاعة ؛ وأحضر عبدَ المهيمن بن محمد الحضرمى من سَبْتةَ وولاه ديوانَ الإنشاء والعَلَامة .

وفى أيامه قصد بطرة وجوان ملكُ النصارى بالأندلس غَرْناطةَ . فاستغاثوا به ، فأجاز البحر إليهم ولَقِيَ عساكر النصارى فهلك بطرةُ وجوان فى المعركة وكانت النُّصرة للسلمين . وتُوفِّى فى ذى الحِجَّة سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة .

وبويع بعده آبنه ولىّ عهده أبو الحسن (على بن عثمان) وهو الذى كان فى عصر « المَقرّ الشهابى بن فضل الله » . وسار إلى تِلِمْسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، فملكها من آبن أبى تاشفين سلطان بنى عبدالواد بها بعد أن قتله بقصره . وملك تُونُس من يد أبى يحيى سلطان الحَفْصِيِّين بها فى جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ؛ وآتصل مُلْكه ما بين بَرْقَةَ إلى السُّوس الأقصى والبحرِ المحيط الغربى ؛ ثم آسترجع الحَفْصِيُّون تُونُسَ بعد ذلك . وملك بعد ذلك سِجِلْماسةَ قاعدةَ بلاد الصحراء بالغرب الأقصى ، وبقى حتّى مات فى الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ثِنْتين وخمسين وسبعمائة بجبل هَنْتاتةَ .

وبُويِع بعده آبنُه (أبو عِنان بنُ أبى الحسن) وكان بنو عبد الوادِ قد آستعادوا تِلِمْسانَ فى أيام أبيه فارْتَجعها منهم فى سنة ثلاث وخمسين ؛ ونزل له الأميرُ محمد آبن أبى زكريا صاحب بجايةَ عنها فانتظمتْ فى مُلْكه . وملك قُسَنْطِينةَ من الحفصِيِّين بعد ذلك بالأمان . ثم ملك تُونُس من أيديهم سنةَ ثمانٍ وخمسين ، ورجع

إلى المغرب فارتجع الحفصيّون تُونُس وسائرَ بلاد أفرِيقِيّةَ وبقِيَ حتى تُوفِّيَ فى ذى الحجة سنةَ تسع وخمسين .

وكان ٱبنــه (أبو زَيَّان) ولىَّ عهده فعُدل عنــه إلى ٱبنه (السَّعيد بن أبى عِنان) وٱستَوْلىٰ عليه الحسنُ بن عُمَر وزيرُ أبيه فحجبه فى داره، واستقلَّ بالأمور دُونَه .

وتغلب أبو حَمُّو سلطان بنى عبد الواد علىٰ تِلمْسان فانتزعها من يده فى سنة ستين وسبعمائة .

ثم خرج علىٰ السعيد بنِ أبى عنانٍ عمُّــه أبو سالم (إبراهيمُ بن أبى الحسن) وكان بالأندَلُس فجاء إليــه بالأساطيل ، وٱجتمع إليه العساكرُ، ووصل إلىٰ فاس، وخلع الحسنُ بنُ عُمر سلطانَهُ السعيد عن الأمر ، وأسلمه إلىٰ عَمِّــه أبى سالم وخرج إليه فبايعه ، ودخل فاسَ فى منتصَف شعبان ســنةَ ستين وسبعمائة ، وٱستولىٰ علىٰ ملك المغرب ، وقصد تِلِمْسان فأجفل عنها أبو حَمُّو سلطانُ بنى عبد الواد فدخلها بالأمان فى رجبٍ سنةَ إحدىٰ وستين وسبعمائة ، فأقرّ بمُلْكها حفيدا من أحفاد بنى عبد الواد يقال له أبو زَيَّان، ورجع إلىٰ فاس فى شعبانَ من سنته . وعاد أبو حَمُّو إلىٰ تِلمْسان فملكها من أبى زَيَّان . وبنىٰ إيوانًا فَخْما بفاس بجانب قصره ، وٱنتقــل إليه ، وفوّضَ أمرَ القلعة إلىٰ عُمَر بن عبدالله بن علىّ من أبناء وزرائهم، فعمد إلىٰ أبى عُمَر (تاشفين المُوَسْوِس) ٱبن السلطان أبى الحسن فأجلســه علىٰ أريكة المُلْك، وبايعه فى ذى القَعدة ســنة ثنتين وستين وسبعمائة ، وأفاض العطاءَ فى الجُند . وأصــبح السلطانُ أبو سالم فوجد الأمرَ علىٰ ذلك ففرّ بنفسه، فأرسل عمرُ بن [عبد الله بن] (١) علىٍّ فى أَثَره مَنْ قبض عليه وٱحتَزَّ رأسه وأتىٰ بها إلىٰ فاس .

(١) الزيادة من العبر ج ٧ ص ٣١٣ .

ثم أنكر أهلُ الدولة على عُمَر بن عبد الله ما وقع منه من نَصْب أبي عمر المذكور لضَـعْف عقـله ، فأعمل فِكْرَه فيمن يصْلُح للمُلْك فوقع رأيُه على (أبي زَيَّان محمد بن الأمير عبد الرحمن) بن السلطان أبي الحسن . وكان قد فَزِع إلى مَلِك النصارى بإشْبِيلِيَةَ من الأندَلُس ، فأقام عنـده خوفًا من السلطان أبي سالم ، فبعث إليـه مَنْ أتى به ، وخلع أبا عُمَر من المُلْك ، وبعث إليـه بالآلة والبَيْعة مَنْ تلقَّاه بطَنْجَةَ . ورحل إلى فاس في منتصَف شهر صفر سـنة ثلاثٍ وسـتين وسبعمائة ، ودخل إلى قصر الملك ، فأقام به والوزير عُمَرُ بن عبد الله مستبِدٌّ عليـه لا يَكِلُ إليه أمْرا ولا نَهْيا وحجره من كل وجه ، فثَقُل ذلك على السـلطان أبي زَيَّان ، ووامر بعضَ أصحابه في الفَتْك بالوزير عمرَ ، فبلغ الخبرُ الوزيرَ فدخل على السـلطان من غير إذن على ما كان آعتاده منـه ، وألقاه في بئر وأظهر للناس أنه سَقَط عن ظهر فرسه وهو ثَمِل في تلك البئر .

واستدعى من حينه (عبد العزيز) آبن السلطان أبي الحسن من بعض الدُّور بالقلعة ، فحضر القصرَ وجلس على سرير الملك ، ودخل عليه بنو مَرِينٍ فبايعوه وكُمُل أمره . وذلك في المحرم سنة ثمان وستين وسبعمائة ، وآستبدّ عليه كما كان مستبِدًّا على مَنْ قبله ، فحَجَره ومنعه من التصرُّف في شيء من أمره ، ومنع النـاسَ أن يسألوه في شيء من أمورهم ، فثَقُل ذلك عليه غايةَ الثِّقَل ، وأكَنَّه في نفسه إلى أن آستدعاه يومًا فدخل عليه القصرَ ، وكان قد أكْمَن له رجالًا بالقصر ، فخرجوا عليـه وضَرَبُوه بالسيوف حتَّى مات . وآستقلَّ السلطان عبد العزيز بمُلْكه ، وقصد تِلِمْسان فملكها من يَدِ أبي حَمو سلطان بني عبد الواد بالأمان بعد إجفال أبي حَمُو عنها . ودخلها يوم عاشوراءَ سنةَ آثنتين وسبعين وسبعمائة . وآرتحل عنها آخر المحرّم إلى الغرب ووصل

إلىٰ فاس ، ثم عاد إلىٰ تِلمْسان وخرج منها يُريد المغربَ ، فمرِض ومات فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنةَ أربع وسبعين وسبعمائة .

وبُويِع بعده ٱبنُه (سعيدُ بن عبد العزيز) وهو طِفْل ، وقام بأمره وزيرُه أبو بكر بن غازى ورجعوا به إلىٰ المغرب ودخل إلىٰ فاس وجُدِّدت له البيعة بها ، وٱستبدّ عليه الوزيرُ أبو بكر ، وحَجَره عن التصَرُّف فى شىء من أمره لِصغَره . ورجع أبو حَمُّو سلطانُ بنى عبد الواد إلىٰ تِلمْسان فملكها فى جُمادىٰ سنةَ أربع وسبعين وسبعمائة .

وخرج عليه (أبو العباس أحمد بن أبى سالم) وكان بالأندَلُس فأجاز البَحْرَ وسار إلىٰ فاس فملكها . ودخلها أوّلَ المحرَّم سنةَ ستٍّ وسبعين وسبعمائة، وٱستقل بملك المغرب ، وكان ذلك بموالاة ٱبن الأحمر صاحبِ الأندَلُس فٱتَّصلتْ بينهما بذلك الصُّحبةُ ، وتأكّدت المودّةُ ، وتخلّى عن مَرَّاكُش لعبد الرحمن ، وكان بينهما صُلْح وٱنتقاضٌ تارةً وتارةً؛ وقصد تلمسانَ فملكها من أبى حَمُّو بعد فِراره عنها، وأقام بها أياما وهَدَم أسوارها وخرج منها فى أتباع أبى حمو .

وخالفه السلطان (موسىٰ) ٱبنُ عمه أبى عِنانٍ إلىٰ فاس فملكها ، ونزل دار الملك بها فى ربيع الأوّل سنةَ ستٍّ وثمانين وسبْعِمائة ؛ وقَدِم السلطان أبو العباس إلىٰ فاس ، فوجد موسىٰ ٱبنَ عمه قد ملكها ففرّ عنها إلىٰ تازا ، ثم أرسل إلىٰ السلطان موسىٰ بالطاعة والإذْعان، فأرسل مَنْ أتىٰ به إليه، فقيّده وبعث به إلىٰ الأندَلُس وٱستقلّ السلطان موسىٰ بملك المغرب، وتوفى [لثلاث سنين من خلافته](١) .

---

(١) الزيادة من "العبر ج ٧ ص ٣٥٢" .

وبويع بعده (المُنْتصِر ٱبنُ السلطان أبى العباس) فلم يلبثْ أن خرج عليه (الواثق محمدُ بن أبى الفضـل) ٱبن السلطان (أبى الحسن) من الأندلس ، فسار إلىٰ فاس ودخلها وحَلَّ بدار المُلْك بها ، وبُويِع فى شوّال سنة ثمـان وثمـانين وسبعمائة .

وبعث المنتصر إلىٰ أبيه أبى العبَّاس بالأندَلُس فأجاز السلطانُ أبو العبَّاس من الأندُلُس إلىٰ سَبْتَةَ ، فملكها فى صفر سنة تسع وثمانين وسبعمائة ، ثم ٱستنزله عنها ٱبنُ الأحمر صاحبُ الأندَلُس وٱنتظمها فى مُلْكه ؛ ثم ظهرت دعوةُ السلطان أبى العَبَّاس بمرَّاكُش وٱســتولىٰ جُندُه عليها ؛ ثم سار إليهـا ٱبنُه المنتصِر وملكها ، وسار السلطان أبو العباس إلىٰ فاس فملكها ودخل البلَدَ الجديد بها خامِسَ رمضانَ سنةَ تسع وثمانين وسبعمائة لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خَلْعــه ، وبعث بالواثق إلىٰ الأندَلُس ثم أمر بقَتْله فقُتِل فى طريقه بطَنْجةَ .

وكان أبو حَمُّو صاحبُ تلمسان قد مات وٱستولىٰ عليها بعـده ٱبنه (أبو تاشفين) قائمـا بدعوة أبى العبَّاس صاحبِ فاس ؛ ومات أبو تاشفين وأقيمَ ٱبنُه طِفْلا فيها ؛ ثم قتله عمُّه يوسف بن أبى حَمُّو ، وجهَّز السلطان أبو العباس ٱبنه (أبا فارس عثمانَ) فملكها وأقام فيها دعوةَ أبيــه ؛ وتُوفِّى السلطان أبو العباس بمدينة تازَا فى المحرَّم سنة ست وتسعين وسبعمائة ، وٱستدعَوُا ٱبنَــه أبا فارس فبايعُوه بتَازَا ، ورجَعُوا به إلىٰ فاس ، وأطلقوا أبازَيَّان بنَ أبى حَمُّو من الٱعتقـال وبعثوا به إلىٰ تلِمْسـان . وبَقِى أبو فارس فى مَمْلكة الغـرب إلىٰ الآن : وهو السـلطان أبُو فارس : عثمانُ ٱبن السـلطان أبى العبـاس أحمد ، ٱبن السلطان أبى سالم إبراهيم ، ٱبن السـلطان أبى الحسن على ، ٱبن السلطان أبى سعيد عثمان ، ٱبن السلطان أبى يوسف يعقوب ، ٱبن عبد الحق .

المقصـــــد الرابع

(فى بيان ترتيب هذه المملكة، وفيه تسعُ (عشر) جُمَل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى ذكر الجُنْد، وأرباب الوظائف: من أرباب السُّيوف والأقلام؛ ومقادير الأرزاق الجارية عليهم، وزِىّ السلطان، وترتيب حاله فى المُلْك)

أما الجُنْد، فأشياخٌ كِبَار وأشياخٌ صِغَار، وهم القائمون مَقامَ الأُمَراء الطَّبلخانات بمصر على ما تقدّم فى أفرِيقِيَّةَ، ولا يُعْرف بها أميرٌ له عِدّة كما بمصر والشام وإيرانَ، ولا يُطْلق آسم الإمْرة عندهم على أحد من الجُنْد بحال. ثم بعد الأشياخ عامّةُ الجُنْد من الأندَلُسيِّين وغيرهم، والعُلُوج من الفَرَنج، علىٰ ما تقدّم فى مملكة أفريقيَّةَ من غير فَرْق فى الترتيب؛ والوُزَراءُ والقضاةُ وأربابُ الوظائف علىٰ نحو ما تقدّم فى أفريقِيَّةَ.

الجمـــــلة الثـانية

(فى زِىّ السلطان والأشياخ وأرباب الوظائف فى اللِّبس)

اما زِىّ السلطان والأشياخ وعامّةِ الجُنْد، فإنهم يتعمَّمُون بعمائم طوالٍ، قليـلةِ العَرْض من كَتَّان، ويُعْمَل فوقها إحرامات يُلَفُّونها علىٰ أكتافهم، ويتقلَّدون السُّيوف تقليدا بَدَوِيًّا، ويلْبَسون الخِفَاف فى أرجلهم (وتسمّى عندهم الأنمقة) كما فى أفريقيَّة، ويُشُدّون المَهامِيزَ فوقها، ويَتّخِذون المَنَاطِق وهى (الحَوَائِص) ويعبِّرن عنها بالمضمَّات من فضَّة أوذهب. وربما بلغت كلُّ مِضَمَّة منها ألفَ مثقال، ولكنهم لا يشُدّونها إلا فى يوم الحَرْب أو يوم التمييز: وهو يوم عَرْضهم علىٰ السلطان. ويختصّ السلطانُ

بلُبْس البُرْنُس الأبيض الرفيع، لا يلْبَسُه ذو سَـيْف غيْرُه . أما العلماء وأهلُ الصَّلاح فإنه لاحَرَجَ عليهم فى ذلك، ولا حرجَ فى غير المُلَوَّن[1] البيض من البرانس علىٰ أحد .

وأما زِىُّ القُضاة والعلمـاء والكُتَّاب وعامَّةِ النـاس، فقريبٌ من لِبْس الجُنْد . إلا أنَّ عمائمَهـم خُضْر، ولا يَلْبَس أحدُ منهم الأعمة : وهى الأخفافُ فى الحَضَر ولا يُمنَع أحدٌ منهم من لُبْسها فى السَّفَر .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى الأرزاق المطْلَقة من قِبَل السلطان على أهل دولته)

أما رِزْق الأجناد ففى "مسالك الأبصار" عن السَّلايحى : أن للأشياخ الكِبار الإقطاعاتِ الجاريةَ عليهم : لكلِّ واحد منهم فى كل سـنةٍ عشرون ألفَ مثقالٍ من الذهب، يأخُذُها من قبائل، وقُرًى، وضِياعٍ، وقِلاع؛ ويتحصَّل له من القمح والشعير والحُبوب من تلك البـلاد نحوُعشرين ألفَ وَسْق . ولكل واحد مع الاقطاع الإحسان فى رأس كل سنة وهو حصانٌ بسَرْجه ولِجامه، وسيفٌ ورمحٌ محلَّيان، وسَبنِيَّة : وهى بُقْجة قماش فيها ثوبٌ طَرْدُ وحشٍ مُذْهَبٌ سَكَنْدرِىٌّ، ويعبِّرون عن هذا الثوب بالزَّرَدْخاناه، وثوبانِ بياض من الكَتَّان عملِ أفريقيَّة، وإحرامٌ وشاشٌ طوله ثمـانون ذراعا، وقصبتان من ملف وهو الجُوخ . وربما زِيد الأكابرُ على ذلك، وربمـا نَقَص مَنْ هو دونَ هذه الرتبة . وللأشياخ الصِّغار من الإقطاعِ والإحسان نصفُ ماللأشياخ الكبار مع الحِصان المُسْرَج الملْجَم والسيف والرُّمح والكُسوة؛ ومنهم من لايلْحَق هذه الرتبةَ فيكون أنقصَ . ومَنْ عدا الأشياخَ من الجُنْـد علىٰ طبقات : فالمقرَّبون إلىٰ

---

(١) لعله فى الملون غير البيض من البرانس

السلطان يكون لكل واحدٍ منهم ستُّون مثقالا من الذهب فى كلِّ شهر، وقليلٌ مَاهم؛ ومَنْ دُونَ ذلك يكونُ له فى الشهر ثلاثونَ مثقالا ثم مادُونَها، إلىٰ أن يَتَناهىٰ إلىٰ أقلّ الطبقات وهى ستة مثاقيلَ فى كل شهر . وليس لأحد منهم بلد ولا مُزْدَرَع .

وأما قاضى القضاة، فله فى كل يوم مثقالٌ من الذهب، وله أرضٌ يسيرة، يُزْرَع بها ماتَجىء منه مؤونته وعليق دوابّه .

وأما كاتب السِّر، فله فى كل يوم مثقالان من الذهب، وله مُحَرَّان (يعنى قريتين) يتحصَّل له منهما متحصِّل جيِّد، مع رسوم كثيرة له على البلاد ومنافعَ و إرفاقات؛ ولكل واحد من كاتب السِّر وقاضى القُضاة فى كل سنةٍ بَغْلة بسرجها و لِجَامها، وسَبَنِيَّةُ قُماش برسم كُسْوته كما للأشياخ .

الجملة الرابعة

(فى جلوس السلطان فى كل يوم)

قال السلايجى : من عادة سلطانهم أن يجْلِس فى بكرة كلِّ يوم ، ويدخُلَ عليه الأشياخُ الكبار فيسلِّموا عليه ، فيمدُّ لهم السماطُ ثَرائد فى جِفَانٍ حولَها طَوافيرُ : وهى الخافى ، فيها أطعمةٌ ملوَّنة منوَّعة ؛ ومع ذلك الحَلْوىٰ : بعضها مصنوعٌ بالسُّكَّر، ومعظمها مصنوع بالعَسَل والزَّيت، فيأكلون ثم يتفرّقون إلىٰ أماكنهم . وربما ركب السلطان بعد ذلك والعسكرُ معه وقد لا يركَبُ . أما أُخْرَيَاتُ النهار فإن الغالب أن يركب بعد العصْر فى عَسْكره ويذهبَ إلىٰ نَهَر هناك، ثم يخرج إلى مكان فَسيح من الصَّحْراء ، فيقفُ به على نَشَز من الأرض ، وتتَطاردُ الخيلُ قُدّامه ، وتتطاعن الفُرْسان ، وتَتَداعىٰ الأقرانُ، وتُمثَّل الحرب لديه ،وتُقام صفوفُها علىٰ سبيل التمرين حتّىٰ كأنها يومُ الحرب حقيقةً ؛ ثم يعود فى موكِبه إلىٰ قصره ، وتتفرّق العساكر ؛

وتحضُرُ العلماء وفضلاءُ الناس وأعيانُهم إلىٰ مُحاضَرته حينئذ ، فيمدّ لهم سِمَـاطٌ بين يدَيْه فيأ كُلُون ويُؤا كِلُهم . ثم يأخذ كاتبُ السر فى قراءة القِصَص والرِّقاع والكلام فى المهمّات ، ويَبِيتُ عنـده مَنْ يُسامره من الفضلاء فى بعض الليـالى ، وربمـا آقتضتِ الحالُ مَبِيتَ كاتبِ السر فيبيت عنْده .

الجمـــلة الخامســـة

(فى جلوسه للمَظَالم)

قال السلايحى : قد جرتْ عادةُ مَنْ له ظُلامة أن يرتقبَ السلطانَ فى رُكُوبه فى مَوْكبه (يعنى يومَ جلوسه للظالم) فإذا آجتاز به السلطانُ صاح من بُعْدٍ «لا إله إلا الله آنصُرْنى نَصرَك الله!» فتؤخَذ قصتُه وتُدْفَع لكاتب السرّ، فاذا عاد جلَس فى قُبَّة معيَّنة لجلوسه، ويجلس معه أكابرُ أشياخه مقلَّدين السُّيوفَ، ويقفُ مَنْ دونهم علىٰ بُعْد، مُصْطَفِّين متكئين علىٰ سُيوفهم ، ويقرأ كاتبُ السرّ قِصصَ أصحابِ المَظَالم وغيرْها فينظُر فيها بما يراه .

الجمـــلة السادســـة

(فى شِـــعَار السلطانـــ بهـذه المَمْلكةِ)

منها عَلَم أبيضُ حريرٌ مكتوبٌ فيه بالذهب نَسيجا بأعلىٰ دائره آياتٌ من القرءان، يسمُّونه العَلَم المنصورَ كما فى أفريقيَّة . وربمـا عبَّر عنه هؤلاء بسَعْد الدولة ، يُحمَلُ بين يديه فى المواكب .

ومنها ـ أعلامٌ دُونَه مختلفةُ الألوان تُحمَلُ معه أيضا .

ومنها ـ سيفٌ ورُمْح ودَرَقة ، يُحمَلْنَ بين يديه فى المواكب أيضا : يحمِلُها ثلاثةٌ من خاصَّته من وُصْفانه أو من أبناء خَدَم سلَفه .

ومنها — أطبار تحمَل حوله . ويعبّرون عنها بالطَّبَرْزِينات ، يحملها أكابرُ قوّاد عُلُوجه من الفرنج ورجالٌ من الأندلُسيين خلفَه وقُدّامَه .

ومنها — رِماح طِوال وقِصار . يحملها خمسون رجلًا مُشاة بين يديه مشدودى الأوساط بيد كل واحدٍ منهم رُمحان : رمحٌ طويل ورمح قصير، وهو متقلّد مع ذلك بسيف .

ومنها — الجَنائب . وهى خَيلٌ تُقادُ أمامَهُ ، عليها سُرُوج مخروزةٌ بالذهب كالزَّرْكَش وركُبها ذهبٌ كل رِكَاب زِنتُه ألف دينار ، وعليها ثيابُ سروج من الحرير مرقومةٌ بالذهب ، ويعبّرون عن الجنائب بالمُقَادات ، وعن ثياب السُّروج بالبَرَاقع .

ومنها — الطبول تدقّ خلف ساقته وهى من خصائص السلطان ليس لأحد من الناس أن يضرب طبلة غيره حتّى يمنع من ذلك أصحاب الحِلَق .

ومنها — البُوقات مع الطبل على العادة .

الجملة السابعة

(فى ركوبه لصلاة العيد)

قال السلايحى : وفى ليلة العيدين يُنادى والِى البلد فى أهلها بالمَسير ، ويخرج أهلُ كلّ سُوقٍ ناحيةً ، ومع كل واحد منهم قَوْس أوآلةُ سلاح ، مُتجَمِّلين بأحسن الثياب ، ويبيت الناسُ تلك الليلةَ أهـلُ كل سُوق بذاتهم خارجَ البلد ، ومع أهل كل سوق عَلَم يختصّ بهم ، عليه رَنْك أهل تلك الصناعة بما يناسبهم . فإذا رَكب السلطان بُكْرة آصطفُّوا صُفُوفا يمشُون قُدّامه ، ويركَبُ السلطان ويركب العسكرُ معه مَيْمنة ومَيْسرةً والعلُوج خَلْفَه ملتفّون به ، والأعلام منشورةٌ وراءه ، والطبولُ خَلْفها حتّى يصلّى ثم يعود ، فينصرف أربابُ الأسواق إلى بيوتهم ، ويحضُر طَعامَ السلطان خواصُّه وأشياخُه .

الجمـــــلة الثـــامنة

(فى خروج السلطان للسَّـــفر)

من عادة هـذا السلطان إذا سافر أن يخْرُجَ من قصره و ينْزِلَ بظاهر بلَدِه، ثم يرتَحِلَ من هُناك فيُضْرب له طبلٌ كبير قبيل الصبح إشعارًا بالسفر، فيتأهَّب الناسُ و يشتغلُ كلُّ أحد بالآستعداد للرحيل . فإذا صلَّى صلاة الصبح ركب الناسُ على قبائلهم فى منازلهم المعلومة، ووقفُوا فى طريق السلطان صَفًّا إلىٰ صفٍّ ، ولكل قَبِيلِ رجلٍ علَمٌ معروفٌ به ومكانٌ فى الترتيب لا يتعدّاه ، فإذا صلَّى السـلطانُ الصبح قعد أمام النـاس ، ودارت عليه عبيدُه ووُصْفانُه ونُقَباؤه ، ويجلس ناسٌ حوله يُعرَفون بالطلبة يجرى عليهم ديوانُه، يقرءُون حزبا من القرءان ، ويذكرون شيئا من الحديث النبوىّ ، على قائله أفضل الصلاة والسلام! . فإذا أسْفَر الصبحُ ركب وتقدّم أمامه العـلَمُ الأبيض المعروفُ بالعَـلَم المنصور ، وبين يديه الرَّجّالة بالسلاح والخيـل المَجْنوبة، بثياب السُّروج المَوْشِيَّة، ويعبرّون عن ثياب السروج بالبراقع . وإذا وَضَع السلطانُ رِجْله فى الرِّكاب ، ضُرِب على طبـلٍ كبير يقـال له تريال ثلاث ضَرَبات إشعارا بركوبه . ثم يسير السلطان بين صفَّىِ الخيل ويسلِّم كلُّ صف عليه بأعلىٰ صوته « ســلام عليكم » ويكتنفانه يمينا وشمـالا ، وتَضْربُ جميع الطبول التى تحت البُنُود الكبار الملوّنة خلفَ الوزير علىٰ بُعْد من السلطان، ولا يتقدّم امامَ العَلَم الأبيض إلا من يكونُ من خواصّ عُلوج السلطان، وربما أمرهم بالجَولان بعضهم علىٰ بعض، ثم ينقطع ضربُ الطبول إلىٰ أن يقرُب من المنزل .

وإذا ركب السلطانُ لا يسايره إلا بعضُ كِبَار الأشياخ من بنى مَرِين أو بعض عظماء العرب، وإذا استدعىٰ أحدا لا يأتيه إلا ماشياً، ثم ربما حدّثه وهو يَمْشِى، وربما

أكرمه فأكرمه بالرُّكوب . فاذا قَرُب السلطانُ من المنْزِل تقدّمت الزَّمَّالة : وهم الفَرَّاشون ، و يضرِبُون شُقَّة من الكَتَّان فى قلبها جلود يقوم بها عِصِىٌّ وحِبال من القَصَب فى أوتاد، وتستدير على كثير من الأخْبِيَة و بيوتِ الشَّعَر الخاصَّة به وبعياله وأولاده الصِّغار، تكون هذه الشُّقَّة كالمدينة لها أربعة أبواب فى كل جهةٍ بابٌ، وهذه الشُّقَّة هى المعبَّر عنها فى الديارِ المصرية بالحَوْش، ويَحُفُّ به عبيدُه وعُلوجُه ووُصْفانُه، ويُضْرَبُ للسلطان أمامَ ذلك قُبَّة كبيرةٌ مرتفعة من كَتَّان تسمَّى قبة الساقة لجلوس الناس فيها وحُضُورهم عنده بها، وهذه هى التى تسمَّى بمصر المدوّرة .

و إذا عاد السلطان إلى حضرة ملكه ضَرَبت البشائرُ سبعةَ أيام ، وأطعم الناس طعاما شاملا فى موضع يَسَع كافَّتَهم .

الجملـــة التاسعة

(فى مقدار عسكر هـــذه المملكة)

قال فى "مسالك الأبصار" : سألت أبا عبد الله السلايجى عن عدّة هذا العسكر فى سلطنة أبي الحسن المَرِينِيّ، وكان ٱبن جرَّار قد قال إن عسكره مائةُ ألف وأربعون ألفا — فقال : الذى نعرفه قبل فتحه تِلمْسانَ أن جَرِيدتَه المُثْبَتَة فى ديوانه لاتزيد على أربعين ألفَ فارس غيرَ حفَظَة المُدُن والسواحل، إلا أنه [يُمْكِنُه] إذا ٱستجاش لحربٍ عليه أن يَخْرُج فى جموع كثيرة لا تكاد تحصر، وأنه يمكن أن يكون قد زاد عسكره بعد فتح تِلمْسان مثل ذلك .

الجمـــلة العاشرة

(فى مكاتبـات السلطـان)

قال فى "مسالك الأبصار" : جرت العادةُ أنه إذا انتهىٰ الكاتب إلىٰ آخر الكتاب وكتب تاريخَه، كتب السلطان بخطه فى آخره ماصورته "وكُتِب فى التاريخ المؤرَّخ به" . ونَقَل عن السلايجى : أن ذلك ممـا أحدثه أبو حفص «عمرُ المَرِينىّ» عم السـلطان أبى الحسن فى سلْطَنته ، وتبعه السـلطان أبو الحسن علىٰ ذلك مع وُثُوقه بكاتب سِرّه حينئذ : الفقيهِ الفاضل أبى محمد عبد المهيْمِن بن الحَضْرمى واْعتماده عليه ومشاركَتهِ له فى كل أمر .

المملكة الخـامسة

(من بلاد المغرب جبال البربر)

قال فى "مسالك الأبصار" : فى جَنُوب الغرب بين مملكة بَرِّ العُدْوة وبين بلادمالِّى وما معها من بلاد السُّودان ثلاثةُ ملوك من البربر بيضٌ مسلمون : وهم سلطان (أهير) وسلطان (دمونسة) وسلطان (تادمكة) كل واحد منهم ملك مستقلّ بنفسه لا يحكم أحد منهـم علىٰ الآخر، وأكبرهم ملك (أهير) وزِيهُّم نحو زِىّ المغاربة : يلبَسُون الدَّراريعَ إلا أنهـا أضيقُ ، وعمـائمَ بأحناك ؛ وركُوبهم الإبلُ ، ولا خيـل عندهم ولا للمَرِينىّ [عليهم حكم ولا لصـاحب مالِّى](١) ولا خبز عندهم ؛ وعيشُهم عيشُ أهل البَرِّ من اللحم واللَّبَن . أما الحبوب عندهم فقليلة ، وهم فى قِلَّة أقوات .

ونقل عن الشيـخ عيسىٰ الزواوىّ أن لهم جبالا عامرةً ، كثيرةَ الفواكه . وذكر أن ما بأيدى الثلاثة تقـديرُ نصف ما لمَلِك مالِّى من ملوك السُّودان أو أرجح بقليل ؛

---

(١) الزيادة من "مسالك الابصار" ليستقيم الكلام .

ولكن صاحب مالي أكثر في تحصيل الأموال لاستيلائه على بلاد الذهب وما يباع بمملكته من السلع ، وما يغنمه في الغزوات من بلاد الكفار لمجاورته لهم بخلاف هؤلاء فإنه ليس لهم يد تمتد إلى كسب ، بل غالب أرزاقهم من دوابهم . ثم قال : ودون هؤلاء فيما بينهم وبين مراكش من بلاد المغرب جبال المصامدة ، وهم خلق لا يعد ، وأمم لا تحصى ، وهم يفتخرون بالشجاعة والكرم .

ثم ذكر أنهم كانوا لا يدينون لسلطان إلا أنهم دانوا للسلطان أبي الحسن المريني ودخلوا تحت ذيل طاعته . على أنهم لا يملكون أحدا قيادهم ، ولا يسلمون إليه بلادهم . وبكل حال فهم معه بين صحة واعتلال .

المملكة السادسة

(من ممالك بلاد المغرب جزيرة الأندلس)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح الألف والدال المهملة وسكون النون بينهما وضم اللام ثم سين مهملة . وهي مقابل بر العدوة من بلاد المغرب ، وبينهما بحر الزقاق الذي هو فم بحر الروم ، وقد تقدم ذكره في الكلام على الأبحر في أول هذه المقالة .

وقد اختلف في سبب تسمية الأندلس بهذا الاسم : فقيل ملكته أمة بعد الطوفان يقال لها الأندلش بالشين المعجمة فسمى بهم ثم عرب بالسين المهملة ؛ وقيل خرج من رومة ثلاثة طوالع في دين الروم (١) ، يقال لأحدهم القندلش بالقاف في أوله وبالشين المعجمة في آخره ، فنزل القندلش هذه الأرض فعرفت به ، ثم

(١) لعله في زمن الروم .

عُرِّبت بابدال القاف همزةً والشين المعجمة سينا مهملة . ويقال : إن آسمه القديم أفارية ، ثم سمِّى باطقة ، ثم سمِّى أشْبانِيَة ، ثم سمِّى الأندلُس باسم الأُمَّة المذكورة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وسمِّيت جزيرةً لإحاطة البحر بها من الشرق والغرب والجنوب ، وإن كان جانبُه الشمالىّ متصلا بالبرّ كما سيأتى بيانه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وفيه ست جمل :

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى ذكر سمك[1] أرضـــه وحدوده)

قال فى "تقويم البُلْدان" : وجزيرة الأندلُس علىٰ شكل مثلّث : ركنٌ جنوبىّ غربىّ ، وهنـاك جزيرة قادِس وفَمُ بحر الزُّقَاق . وركن شرقىّ بين طَـرَّكُونة وبين بَرْشَلُونة ، وهى فى جَنُوبيه ، وبالقرب منـه بَلَنْسِيَةُ وطَرْطُوشَةُ وجزيرة مَيُورْقَة . وركن شَمَالِىٌّ بمَيْلة إلىٰ البحر المحيط ، حيثُ الطولُ عشر درجات ودقائق ، والعرضُ ثمانٍ وأربعون . وهناك بالقرب من الركن المذكور مدينة شَنْتَياقوه ، وهى علىٰ البحر المحيط فى شمـالىّ الأندلُس وغربِيِّها . قال : والضِّـلَع الأوّلُ من الركن الجنوبىّ الغربىّ ــ وهو الذى عند جزيرة قادِس ــ إلىٰ الركن الشَّرْقىّ الذى عند مَيُورْقَة ، وهذا الضِّلع هو ساحل الأندلس الجَنوبىّ الممتدّ علىٰ بحر الزقاق . والضلع الثانى من الركن الشرقىّ المذكور إلىٰ الركن الشمالىّ الذى عنـد شَنْتَياقوه ، وهـذا الضِّلع هو حدّ الأندلُس الشمالىّ ، ويمتـدّ علىٰ الجبل المعروف بجبل البِرْت الحـاجزِ بين الأندلُس وبين أرض تُعْرَف بالأرض الكبيرة ، وعلىٰ ساحل الأندلُس الممتدّ علىٰ بحر بَرْدِيل . والضلع الثالث من الركن الشمالى المذكور إلىٰ الركن الجَنُوبىّ المقدّم الذكر ، وهذا الضلع هو ساحل الأندلُس الغربىّ الممتدّ علىٰ البحر المحيط .

---

(١) لعله شكل كما يفيده ما بعده وفى القطعة الازهرية تشكيل أرضه .

قال ابن سعيد : قال الحجاريّ : وطول الاندلُس من جبل البِرْت الفاصلِ بين الأندلُس والأرض الكبيرة وهو نهاية الأندلُس الشرقيةُ إلىٰ أَشْبُونة : وهى فى نهاية الأندلُس الغربيةِ ألفُ ميل، وعَرْضُ وَسَطه من بحر الزُّقاق إلىٰ البحر المحيط عند طُلَيْطلةَ وجبل البِرْت ستةَ عشر يومًا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وقد قيل : إن طوله غربا وشرقا من أَشْبُونة : وهى فى غَرْب الأندلُس إلىٰ أربُونَةَ : وهى فى شرق الأندلُس مسيرةُ ستين يومًا، وقيل : شهر ونصف . وقيل : شهر . قال : وهو الأصح .

وآعلم أن جبل البِرْت المقدّم ذكْرُه متصلٌ من بحر الزُّقاق إلىٰ البحر المحيط وطولُه أربعون مِيلا ، وفيه أبواب فتحها الأوائلُ ، حتىّ صار للأندلُس طريقٌ فى البرّ من الأرض الكبيرة ، وقبل فتحها لم يكن للأندلُس من الأرض الكبيرة طريقٌ . وفى وسط الأندلُس جبل ممتدٌّ من الشرق إلىٰ الغرب يقال له جبل الشارة ، يقسمه بنصفين : نصفٍ جنوبىّ ونصفٍ شمالىّ .

الجملة الثانية
(فيما آشتمل عليه من المُدُن)

وهو يشتمل علىٰ عدّة قواعِدَ ومُضافاتِها :

القاعدة الأولىٰ
(غَرْناطةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح النون وألف وطاء مهملة وهاء فى الآخر . ويقال : أَغَرْناطة بهمزة مفتوحة فى أوّلها . وهى مدينة فى جَنُوب الأندلُس ، موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال

ابن سـعيد : حيثُ الطولُ إحدىٰ عشرةَ درجة وأربعون دقيقة ، والعرضُ سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومَمْلكتها فى الجنوب والشرق عن مَمْلكة قُرْطُبة ، وبينها وبين قُرْطُبة نحو خمسة أيام . قال : وغَرْناطةُ فى نِهاية الحَصَانة وغاية النَّزاهة ، تُشْبه دِمَشْق من الشام ، وتُفَضَّل عليها بأنَّ مدينتها مُشْرِفة علىٰ غُوطَتِها وهى مكشوفة من الشمال ، وأنهارها تنصبُّ من جبل الثلج الذى هو من جنوبيها وتخترق فيها ، وعليها الأرْحى داخلَ المدينة ، ولها أشجار وثِمار ومياه مسيرةَ يومين تقع تحت مَرْأىٰ العين لا يحجُبها شىء . قال فى "مسالك الأبصار" ولهـا ثلاثةَ عشَر بابا : باب إِلْبيرَة وهو أضخمها ، وباب الكُحْل ، وباب الرَّخاء ، وباب المرضىٰ ، وباب المَصْرَع ، وباب الرملة ، وباب الدبَّاغين ، وباب الطَّوَّابين ، وباب الفَخَّارين ، وباب الخَنْدق ، وباب الدفاف ، وباب البُنُود ، وباب الأَسْدر . وحولهـا أربعة أرباض (١) : ربَضُ الفَخَّارين ، وربَضُ الأجل ، وهو كثير القُصُور والبساتين ، وربض البيـازين بناحية باب الدفاف ، وهو كثير العمارة يخرج منه نحو خمسةَ عشرَ ألفَ مقاتل ، وهو ربض مستقلٌّ بحكَّامه وقُضاته وغير ذلك . وجامعها من أبدع الجوامع وأحسنها مَنْظَرا ، وهو مُحْكَم البناء لا يُلاصِقه بنـاء ، تَحُفُّ به دكاكينُ الشُّهود والعطَّـارين ، وقد قام سَقْفه علىٰ أعمـدة حِسان ، والمـاء يجرى داخِلَه ، ومساجدُها [ورِباطاتُها] لا تكاد تُحْصىٰ لكثرتها .

وذكر فى "مسالك الأبصـار" : أنها قليـلةُ مَهَبِّ الرياح ، لا تجرى بها الريحُ إلا نادرا لآكتناف الجبال إيَّاها . ثم قال : وأصل أنهارها نهران عظيمان (شَنِيل) (٢) و (حَدَرُّه) .

---

(١) لم يذكر الا ثلاثة وأسقط ربض الرملة وهو مذكور فى المسالك .

(٢) كذا فى "التقويم" أيضا والذى فى "المعجم" سنجل وهو الاظهر .

أما شَنِيل، فينحدر من جبل شُكَيْر بجنوبيها ويمرّ على غربيّ غَرْناطة إلى فَحْصها، يشُقّ فيها أربعين ميلا بين بساتين وقُرًى وضِياع كثيرةِ البيوت والغِلال وأبراج الحمام وغير ذلك . قال : وينتهي فحصها إلى (لَوْشَة) حيث أصحابُ الكهف على قول، وجبل شُكَيْر المذكور هو طَوْد شامخ لا ينْفَكّ عنه الثلج شتاءً ولا صيفا، فهو لذلك شديد البَرْد، ويؤثِّر برده بغَرْناطة في الشتاء : لقربه منها إذ ليس بينه وبينها سوى عشرة أميال . وفي ذلك يقول آبن صدرة الشاعر قاتله الله :

أُحِلَّ لنا تَرْكُ الصلاةِ بأرْضِكم، * وشُرْبُ الحُمَيَّا وهو شيءٌ مُحرَّم!
فِـرَارا إلى نار الجَحيم لأنَّها * أرَقُّ علينا من شُكَيْر وأرحَمُ!
لَئِنْ كان رَبِّي مُدْخِلي في جَهَنَّمٍ، * ففي مِثْلِ هذا اليومِ طابَتْ جَهَنَّمُ!

وأما حَدَرُّه، فينحدر من جبل بناحية (وادياش) شرقيَّ شُكَيْر فيمرُّ بين بساتين ومَزارعَ وكُرُوم إلى أن ينتهِيَ إلى غَرْناطة، فيدخلُها على باب الدفاف بشرقِيِّها، يشُقّ المدينة نصفين، تَطْحَن به الأرحاءُ بداخلها، وعليه بداخلها خمسُ قناطِرَ : وهي قنطرة آبن رَشيق، وقنطرة القاضي، وقنطرة حَمّام جاس، والقنطرة الجديدة، وقنطرة الفود، وعلى القناطر سواقٍ ومبانٍ محكمة . والماء يجري من هذا النهر في جميع البلد : في أسواقه وقاعاته ومساجده، يبرُزُ في أماكِنَ على وجه الأرض، وتخفى جداولُه تحتها في الأكثر، وحيثُ طُلِب الماء وُجِد، وبالمدينة جبلانِ يشقّان وسَطَها، يعرف أحدهما بالحزة ومَوْزُور . والثاني بالقصبة القديمة، وبالز . وبهما دُور حِسَان، وعَلاليّ مُشْرِفة على فحصها، فيرى منهما منظرا بديعا من فروع الأنهار والمُزْدَرَعات وغير ذلك مما يقصر عنه التخييل والتشبيه . وقد صارت قاعدةَ مُلْك الإسلام بالأندلُس بيد ملوكها من بني الأحمر الآتي ذكرهم في الكلام على ملوكها.

قال فى "مسالك الأبصار" : وبهـا من الفواكه التُّفَّـاح ، والقَرَاصِيا البَعْلَبَكِّيَّة التى لاتكاد تُوجد فى الدنيا منْظَرا وحلاوةً حتى إنها لَيُعْصَر منها العسلُ . وبها الجَوْز ، والقَسْطَل ، والتين ، والأعناب ، والخَوْخ ، والبَلُّوط ، وغير ذلك . وبجبـل شُكَيْر المقدّم ذكره عقاقيرُ كعقاقير الهنـد وعُشْب يستعمل فى الأدوية ، يعرفها الشجّارون لا تُوجَد فى الهند ولا فى غيره .

قال فى "التعريف" : ومقرّ سلطانها منها (القصبة الحمراء) قال : ومعنىٰ القصبة عندهم القلعة ، وتسمّى حمراءَ غَرْناطة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قلعة عالية شديدة الاِمتناع . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى بديعةٌ متَّسِعة كثيرةُ المَبَانى الضخمةِ والقصور ظريفةٌ جدّا ، يجرى بها المـاء تحت بَلَاط كما يجرى فى المدينة ، فلا يخلو منه مسجدٌ ولا بيتٌ ، وبأعلىٰ بُرْج منها عين ماءٍ ، وجامعُها من أبدع الجوامع حُسْنا ، وأحسنها بناءً ، وبه الثُّرَيَّات الفِضِّيَّة معلَّقة ، وبحائط محرابه أحجارُ ياقوت مُرَصَّفة فى جمـلة مانُمِّق به من الذهب والفِضَّة ، ومِنْـبره من العاج والآبنوس . قال فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام علىٰ الأندَلُس : ولم يبق للمسلمين بها غيرُ غَرْناطة وما أُضيف إليها ، مثل الجَزِيرة الخضراء ، والمَرِيَّة . قال فى "مسالك الأبصار" : وطولها عشرة أيام ، وعرضها ثلاثة أيام . وهى ممتدّة علىٰ بحر الزُّقاق وما يلى ذلك . ثم قال : وأوّلهـا من جهة المشرق المَرِيَّة ، وهى أوّل مَرَاسِى البـلاد الإسلامية . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وكانت القاعدةُ قبـل غَرْناطة حصنَ إلْبِيرةَ ، فخرب فى زمن الإسلام ، وصارت القاعدةُ غرناطةَ .

وقد عدّ فى "مسالك الأبصار" من هـذه المملكة عدّةَ بلاد مُضـافة إلىٰ مملكة غَرْناطةَ الآن .

منها (المَرِيَّة) قال فى "المشترك" : بفتح الميم وكسر الراء المهملة وتشديد المثناة من تحت وفى آخرها هاء . وهى مدينة بين مملكتىْ مَالَقَة ومُرْسِيَة، موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيث الطولُ أربعَ عشرة درجةً، والعرض خمس وثلاثون درجة وآثنتان وأربعون دقيقة . قال : وهى مدينة مسوَّرة علىٰ حافة بحر الزُّقاق، وهى باب الشَّرْق، ومفتاح الرِّزْق، ولها برّ فِضّىّ، وساحل تِبْرِىّ، وبحر زَبَرْجَدِىّ، وأسوارها عالية، وقلعتها منيعة شامخة، وهواؤها معتدِل، ويعمل بها من الحرير ما يفوق الجمال (١) .

قال فى "مسالك الأبصار" : والمَرِيَّة ثلاثُ مُدُن .

الأولىٰ — من جهة الغرب تعرف بالحَوْض الداخلىّ . لها سور محفوظ من العدوّ بالسُّمّار والحُرّاس، ولا عِمارة فيها ؛ ويليها إلىٰ الشرق المدينةُ القديمةُ ؛ وتليها المدينةُ الثالثة المعروفة بمصلَّى المَرِيَّة، وهى أكبر الثلاث . ولها قلعة بجوار القديمة من جهة الشِّمال، وتسمَّى القصبة فى عُرفهم . قال : وهماقصبتان فى غاية الحسن والمَنَعة . وساحل المَرِيَّة أحسن السَّواحِل ، وحولها حُصُون وقُرًى كثيرة وجبالٌ شامخة . وجامعها الكبير بالمدينة القديمة، وهو من بديع الجوامع . وهى مدينة كثيرة الفواكه، وأكثر زرعها بالمطر وعليه يترتب الخِصْب وعدمُه ؛ وإليها تُجْلَب الحنطةُ من برّ العُدْوة؛ وبها دار صناعةٍ لعِمارة المَرَاكب؛ وبينها وبين غَرْناطة مسيرةُ ثلاثة أيام . وكانت فى الزمن الأوّل قبل إضافتها إلىٰ غَرْناطةَ مملكةً مستقلّةً . ويقال : إن وادى المَرِيَّة من أبدع الأوْدِية علىٰ أن ماءه يقِلُّ فى الصيف حتى يُقَسَّط علىٰ البساتين .

---

(١) الذى فى تقويم البلدان "ويعمل بها من الحرير ما يفوق معمول غيرها" .

قال فى "مسالك الأبصار" : وعلىٰ وادى المَرِيَّة (بَجَّانَةُ) . قال : وهى الآن قرية عظيمة جِدّا ، ذاتُ زيتونٍ وأعنابٍ وفواكِهَ مختلفةٍ ، وبساتينَ ضَخْمةٍ كثيرة الثمرات .

ومنها (شَلُوبِين) بفتح الشين المعجمة وضم اللام (١) وسكون الواو وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر. وسماها فى "تقويم البُلْدان" : شلوبينية . ثم قال : وهو من حصون غَرْناطَةَ البحرية علىٰ بحر الزُّقاق ، ومنه أبو على عُمرُ بنُ محمد الشَّلُوبِينىّ إمامُ نحاة المغرب . قال صاحب حماة : وقد غلط من قال الشَّلُوبِينى هو الأشقر بلغة الأندلس . قال فى "مسالك الأبصار" : وبها يُزْرَع قصَبُ السكر، وهى مُعَدَّة لإرسال من يغضَبُ عليه السلطانُ من أقاربه .

ومنها (المُنَكَّب) . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة علىٰ القرب من شَلُوبِين دُونَ المَرِيَّة ، بها دارُ صناعةٍ لإنشاء السُّفُن ، وبها قصَب السكَّر، ومنها يحمَل السكر إلى البِلاد ، وبها المَوْز، ولا يُوجَد فى بلد من البلاد الإسلامية [هُنَالك] إلا بها إلا مالا يعتبَر، وبها زبيبٌ مشهورُ الاسم .

ومنها (بَلَّش) . وهى مدينة تَلِى المُنَكَّب من جهة الغرب ، كثيرة التِّين والعنب والفواكه . قال أبو عبد الله بن السديد : ليس بالأندلس أكثَرُ عنبا وتينا يابِسًا منها .

ومنها (مالِقَة) (٢) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وألف وكسر اللام وفتح القاف وهاء فى الآخر . وهى مدينة من جنوب الأندَلُس موقعها فى الإقليم الرابع

(١) ضبطه ابن خلكان فى "الوفيات" بفتح اللام وهو المشهور .

(٢) ضبطها ياقوت فى معجمه بفتح اللام وهو الاشهر .

من الأقاليم السبعة . قال : وقياس ابن سعيد أنها حيثُ الطولُ عشْر درج وثلاثون دقيقةً ، والعرضُ ثمانٌ وثلاثون درجة وأربع وخمسون دقيقة : وكانت فى القديم مملكةً مستقلّةً ، ثم أُضيفت الآن إلىٰ غَرْناطة وملكها حتّى مملكة قُرْطبة ، وهى بين مملكتَىْ إشبيلِيَة وغَرْناطة ، وهى علىٰ بحر الزُّقَاق ، وبها الكثير من التين واللَّوْز الحَسَن المَنْظَر ، ومنها يُنْقَل يابسا إلىٰ جميع غرب الأنْدَلُس . قال فى "مسالك الأبصار" : ولها رَبَضان عامران : أحدُهما من عُلْوها والآخَرُ من سُفْلها وجامعها بديع ، وبصحنه نارنج ونخلة نابتة ؛ وبها دار صناعةٍ لإنشاء المراكب ؛ وهى مختصَّة بعمل صنائع الجلد : كالأغْشِيَة ، والحُزُم ، والمدورات ؛ وبصنائع الحديد : كالسِّكّين والمِقَصّ ونحوهما . وبها الفَخّار المُذْهَب الذى لا يوجَدُ مثله فى بلد . قال ابن السديد : وبها سوق ممتدٌّ لعمل الخُوص من الأطباق وما فى معناها ؛ ولها عِدّةُ حصون فى أعمالها ، وفى أعمالها يوجد الحَرير الكثير .

ومنها مدينة (مَرْبُلَّة) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الباء[(١)] الموحدة وفتح اللام المشدّدة وهاء فى الآخر . وهى مدينة صغيرة مما يلى مالِقَة من الغرب علىٰ الساحل ؛ وبها الفواكِهُ الكثيرةُ والسمكُ .

ومنها (أُشْبُونة) . وهى مما يلى مَرْبُلَّة من جهة الغرب علىٰ الساحل ، وهى نظيرها فى كَثْرة الفواكه .

ومنها (جبل الفَتْح) . وهو الذى نزله طارقٌ عند فتح الأندَلُس فى أول الإسلام ، منيعٌ جِدًّا ، يخرج فى بحر الزُّقَاق ستة أميال ، وهو أضيقُ ما يكون عنده ، وقد كان هذا

(١) ضبطها ياقوت بفتح الباء وضم اللام .

الجبل فى مملكة الفرنج وأقام بيدهم عدّة سنين ، ثم أعاده الله تعالى إلى المسلمين فى أيام السلطان أبى الحسن المرينى" ، صاحب الغرب الأقصى فى زمن الملك الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب الديار المصرية .

ومنها (الجزيرة الخضراء) . وهى مما يلى جبل الفتح من الغرب على الساحل ؛ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول تسع درج ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال : وهى مدينة أمام سبتة من برّ العدوة من بلاد الغرب . وهى مدينة طيّبة نزهة ، توسّطت مدن الساحل ، وأشرفت بسورها على البحر ، ومرساها من أحسن المراسى للجواز ، وأرضها أرض زرع وضرع ؛ وخارجها المياه الجارية والبساتين النضيرة ؛ ونهرها يعرف بوادى العسل ، وعليه مكان نزه يشرف عليه وعلى البحر يعرف بالحاجبيّة ؛ ومن مستنزهاتها مكان يعرف بالنقاء . قال ابن سعيد : وهى من أرشق المدن وأطيبها وأرفقها بأهلها وأجمعها لخير البرّ والبحر . قال فى "المشترك" : والنسبة إليها جزيرىّ ، للفرق بينها و بين إقليم الجزيرة فإنه ينسب إليه جزرىّ . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى آخر البلاد البحريّة الإسلامية للأندلس وليس بعدها [لهم بلاد] . ثم قال : وهى الآن بيد النصارى أعادها الله تعالى وقصمهم ؛ وقد عدّها فى "تقويم البلدان" : من كور إشبيلية مما يلى جانب نهرها من الجنوب .

ومنها (رندة) بضم الراء وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر . وهى بعيدة عن البحر . وعدّها فى "تقويم البلدان" من كور إشبيلية . ثم قال : وبها معقل تعمّم بالسحاب ، وتوشّح بالأنهار [العذاب](١) وذكر أنها من كبار البلدان ؛ ثم قال :

(١) الزيادة عن التقويم .

وهي بلدة جليلة ، كثيرة الفواكه والمياه والحَرْث والماشِيَة ، وأهلها موصوفون بالجَمَال ورِقَّة البشرة واللَّطافة ؛ وبينها وبين الجزيرة الخضراء مَسيرةُ ثلاثة أيَّام .

ومنها (مدينة لَوْشَة) . قال في "تقويم البُلْدان" : وهي عن غَرْناطةَ على مرحلة بين البساتين والرياض .

ومنها (وادِيَاش) بفتح الواو وألف ثم دال مهملة مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية وألف ثم شين معجمة . ويقال : (وادِآش) بإبدال الياء همزةً . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بلدة حسنة ، بَديعة ، منيعة جدّا ، كثيرة الفواكه والمَزَارع ؛ والمياه تَشُقُّ أمام أبوابها كما في غَرْناطةَ ، قريبة من جبل شُكَيْر المقدّم ذكره مع غَرْناطةَ ، فلذلك هي شديدة البَرْد بسبب ماعلى الجبل المذكور من الثَّلج . قال : وهي بلدة مُمْلِقة ، وأهلها موصوفون بالشِّعْر ، ويحكم بها الرؤساء من أقارب صاحب غَرْناطةَ أو مَنْ يستقِلُّ بها سلطانا أو مَنْ خُلع من سلطان لنفسه .

ومنها (بَسْطَةُ) . وهي بلدة تلي وادِيَاش المقدّم ذكرها . وعدّها في "تقويم البُلْدان" من أعمال جَيَّان . قال في "مسالك الأبصار" : وهي كثيرة الزَّرْع وآختَصَّتْ بالزعفران ، فبها منه ما يكفي أهلَ المِلَّة الإسلامية بالأنْدَلُس على كثرة ما يستعملونه منه .

ومنها (أنْدَرَاش) . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة ظريفة ، كثيرة الخِصْب ، وتختصُّ بالفَخَّار لجَوْدة تُرْبتها ، فليس في الدنيا مثلُ فَخَّارها للطَّبْخ . إلى غير ذلك من البُلْدان مثل أرحضونة وأَنْتَقيرة وبَرْجةَ وغيرها . قال في "مسالك الأبصار" : وحصون هذه المملكة كثيرةٌ جدّا ، فليس بها من بلد إلا وحوله حُصُون كثيرة محفوظة بوُلاة السلطان ورجالٍ تحت أيديهم .

القـاعدة الثـانيـــة

(أُشْـــبُونة)

قال فى "تقويم البُـلْدان" : بضم الهمزة وسكون الشين المعجمة وضم البـاء الموحدة ثم واو ونون وفى آخرها هاء . قال : وعن بعض المسافرين أنّ أوّلها لام . وهى مدينة فى غَرْب الأندَلُس ، وموقعها فى أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السـبعة قال ٱبن سعيد : حيث الطولُ ستُّ دَرَج وخمس وخمسون دقيقة ، والعرضُ ٱثنتان وأربعون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قاعدةُ مملكةٍ علىٰ البحر المحيط فى غربىّ إشْبِيلِيَة وشَمَالِيِّها ، وغَرْبِىّ باجَة . وهى مدينة أزلِيَّة ولها البساتينُ والثِّمار المفَضَّلة علىٰ غيرها . قال ٱبن سعيد : وبينها وبين البحر المحيط ثلاثون ميلا . وهى علىٰ جانب نهر يُودانِس . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وبُزَاتها خِيارُ البُزَاة . قال : وكانت فى آخر وقت مضافةً إلىٰ بَطَلْيَوْس وملكها ٱبنُ الأفْطَس . وذكر فى "العبر" : أنها الآنَ قاعدةُ مملكةٍ من ممـالك النصارىٰ بالأندَلُس يقال لها مملكة البُرْتقال ، وأنها عُمَالة صغيرة ، وقد أُضِيفت الآنَ إلىٰ أعمال جِلِّيقِيَّة كما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك الأندَلُس .

ولهـا مضافات :

منها (شَنْتَرِيْن) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الشين المعجمة وسكون النون وكسر المثناة من فوق والراء المهملة وسكون المثناة من تحت وفى آخرها نون فيما هو مكتوب بخط ٱبن سعيد . وهى مدينة كانتْ فى القديم من جِلِّيقِيَّة شمالىَّ الأندَلُس ، ثم ٱستقرّت من أعمـال أُشْبُونَةَ المقـدّم ذكرها . موقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ٱبن سعيد : حيث الطولُ ثمـانُ درج وعشرُ دقائق ، والعرض

آثنتان وأربعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وهى على بحر بِرْطانِيَة : وهو بحر بَرْدِيل الخارج من البحر المحيط المقدّم ذكره فى الكلام على البُحُور، وهى على نهر يَصُبّ فى البحر وأرضها طيّبة .

ومنها (شَنْترة) . وهى مدينة ذكرها فى "تقويم البُلْدان" مع أُشْبونة آستطرادا ونسبها إلى عَمَلها، ولم يتعرّض لضَبْطها ولا لطُولها وعَرْضها . وقال : إن بها تُفّاحا مُفْرِطا فى الكِبَر والنَّبالة .

ومنها مدينة (باجَة) بفتح الباء الموحدة وألف ثم جيم مفتوحة وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى شرقىّ أُشْبُونة ، وهى من أقدم مدائن الأندلُس، وأرضها أرضُ زَرْع وضَرْع ، وعسَلُها فى نِهاية الحُسْن ، ولها خاصّيّة فى حُسْن دِباغ الأَدَم، وكانت مملكةً مستقِلّة .

القاعدة الثالثـــة

(بَطَلْيَوْس)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة وسكون اللام وفتح المثناة التحتية وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر . وهى مدينة من غرب الأندلُس موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ تسع درج، والعرض ثمانٌ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومَمْلكتها فى الشَّمال والغرب عن مَمْلكة قُرْطُبة . وهى فى الغرب بمَيْلة إلى الجَنُوب عن مملكة طُلَيْطلة . وهى مدينة عظيمة فى بَسِيط من الأرض مخضرّ على جانب نهر . قال : وهى مدينــة عظيمة إسلامية كانت بيد المتوكِّل بن عُمَر الأفْطَس، وبنى بها المبانِيَ العظيمةَ وفيها يقول ابن الفلاس :

بَطَلْيَوْسُ لا أنساكِ ما ٱتَّصل البُعْدُ ! * فللهِ غَوْرٌ من جَنابِك أو نَجْـدُ !

وللهِ دَوْحاتٌ تَحُفُّـك بينها ، * تَفَجَّرَ واديها كما شُقِّق الـبُرْدُ !

و بينها و بين قُرْطبةَ ستةُ أيام .

ولهـا مضافات من أعمالهـا .

منهـا (مارِدَةُ) قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح الميم ثم ألف و راء مهملة مكسورة ودال مهملة وهاء فى الآخر كما هو فى خط ٱبن سـعيد . وهى مدينـة على جَنُوبِىّ نهر بَطَلْيَوْس ، موقعها فى أوّل الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة . قال ٱبن سعيد : حيث الطولُ تسعُ درج وخمسٌ وخمسون دقيقة ، والعرض تسعَ عشرةَ(١) درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة أزلِيَّة ، ولها ماءٌ مجلوبٌ تحير صنعتُه . قال ٱبن سعيد : قال الرازى : وهى إحدى القواعد التى بَنَتْها ملوكُ العجم للقَرار . قال : وكان قد ٱتَّخـذها سلاطينُ الأندَلُس قبل الإسلام سريرًا لمُلْك الأندَلُس ، وكانت فى دولة بنى أُمَيَّةَ يليها عظماءُ منهم ، ثم صار الكرسىّ بعد ذلك بَطَلْيَوْسَ ، وقد صارت الآن للنصارى .

و يحكى أنه كان بكنيسـتها حجر يُضِىء الموضعُ من نُوره ، فأخذته العـرب أوّلَ دخولهـا .

ومنها (يابُرة) بياء آخر الحروف وألف و باء موحدة و راء مهملة وهاء فى الآخر . وهى مدينة ذكرها فى "تقويم البُلْدان" بعد ذكر بَطَلْيَوْسَ ٱستطرادا .

---

(١) فى تقويم البلدان أن عرضها تسع وثلاثون درجة .

القاعدة الرابعـــة

(إشْبِيلِيَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الألف وسكون الشين المعجمة وكسر البـاء الموحدة وسكون المثناة من تحت ولام وياء ثانية تحتية وفى آخرها هاء. قال : ومعنى آسمها المدينة المنبسطة . وهى مدينة أزلِيَّة فى غَرْب الأَنْدَلُس وجَنُوبِيِّه على القُرب من البحر المحيط، موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال آبن سعيد: حيث الطولُ تسعُ درج وعشرُ دقائق ، والعرض سبع وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقة . وهى على شَرْقىّ نهرها الأعظم وجَنُوبيه ، ولهـا خمسةَ عشرَ بابا ، ومملكَتُها غربىّ مملكة قُرْطُبَةَ ، فطول مملكتها من الغرب من عند مَصَبّ نهرها فى البحر المحيط إلى أعلى النهر من الشرق مما يلى مملكة قُرْطبَةَ نحو خمس مراحل؛ وعرضها من الجزيرة الخضراء على ساحل الأندَلُس الجنوبىّ إلى مملكة بطَلْيَوْس فى الشَّمال نحو خمسة أيام، وبينها وبين قُرْطُبَةَ أربعـة أيام؛ وهى الآن بيد ملوك النصارى . ولهـا عدّة كُوَر فى جنوبىّ نهرها وشَماليِّه .

فأما كُوَرها التى فى جنوبىّ نهرها وهى الأكثَرُ :

فمنها (كورة أُرْكُش) قال فى "تقويم البُلْدان": بالراء المهملة مَعْقِل فى غاية المَنَعة .

ومنهـا (كورة شَرِيش) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الشين المعجمة وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة التحتية وشين معجمة فى الآخر، وإليها ينسب «الشَّرِيشىّ» شارح "المَقَامات الحَرِيرية".

ومنهـا (كُورة طَرِيف) بفتح الطاء وكسر الراء المهملتين وسكون المثناة التحتية وفاء فى الآخر .

وأما التى شمالىّ النهر فكورتان : إحداهما (كورة أوتَنَة)(١) . وهى أشهرها وأوتَنَة مدينة جليلة .

قال فى "تقويم البُلْدان" : ومن المـالك المُضَافة لإشْبِيلية مملكة شِلْب . وهى كورة ومدينة فى غَرْبىّ إشْبِيلِيَةَ وشمـالِيِّها علىٰ ساحل البحر المحيط ، بينها وبين قُرْطبة تسـعةُ أيام ؛ وبشِلْبٍ هـذه قصر يعرف "بقصر الشَّرَاخِيب" وهو الذى يقول فيه بعض شعرائهم :

وَسَلِّم علىٰ "قَصْرِ الشَّرَاخِيبِ" عن فَتًى * له أبدًا شَـوْقٌ إلىٰ ذلِكَ القَصْرِ !

القاعدة الخـامســـة

(قُرْطُبَـــةُ)

قال فى "اللباب" : بضم القاف وسكون الراء وضم الطاء المهملتين وباء موحدة وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : هذا هو المشهور . وقال ٱبن سعيد : هى بلسان القُوط بالظاء المعجمة ونقله عن جماعة . وهى مدينة غربىّ نهر إشْبِيلِيَةَ فى غرب الأندُلُس بجَنُوب ، وموقعها فى أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال ٱبن سعيد : حيث الطولُ عشْرُ درج ، والعرض ثمـان وثلاثون درجة وعشرون دقيقــة . قال فى "تقويم البـُلْدان" : ومملكةُ قُرطُبـةَ شرقىّ مملكة إشْبِيلِيَةَ . وهى فى الجنوب والشرق عن مملكة بطَلْيَوْس ، وفى الجنوب عن مملكة طُلَيْطِلةَ ؛ ودَوْرُ قرطبـة ثلاثون ألف ذراع ، وهى أعظم مُدُن الأندلُس ، وعليهـا سُور ضَخْم من الحجر ، ولهـا سـبعة أبواب ؛ وبلغت عِدّة مساجدها ألفًا وستَّمـائة مسجد ،

---

(١) أى والثانية كورة شلب .

وحَمّاماتِها تسعمائةِ حمام . وهى مدينة حصينة . وقد ٱستولت عليها ملوك النصرانية ، وهى بأيديهم إلى الآنَ .

ولها مضافاتٌ :

منها (مدينة الزَّهْراء) . وهى مدينة بناها الناصر الأُمَوِىّ فى غربىّ قُرْطُبةَ ، فى سفح جبل .

ومنها (القُصَير) . وهو حِصْن فى شرقىّ قُرْطُبة على النهر ، وله كُورة من أشهر كورها .

ومنها (حِصْن المَدُور) . وهو المَعْقِل العظيم المشهورُ ، وللروم به ٱعتناء عظيم .

ومنها (حِصْن مُرادٍ) . وهو حِصْن فى غربىّ قُرطُبَة .

ومنها (كورة غافِقٍ) . وهى معاملة كبيرة .

ومنها (كورة إسْتِجَة) . وغير ذلك .

القاعدة السادسةُ

(طُلَيْطِلَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الطاء المهملة وفتح اللام وسكون المثنّاة من تحتُ وكسر الطاء الثانية ثم لام وهاء فى الآخر . وموقعها فى آخر الإقليم الخامس قال ٱبن سعيد : حيث الطول خمسَ عشرةَ درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثمانَ عشرةَ دقيقة . وهى مدينة أزلية كانت قاعدةَ الأَنْدَلُس فى القديم ، وبها كان كُرْسىُّ مُلْكِ «لَذَرِيق» : آخِرِ ملوك القُوط الذى ٱنتزعها

المسلمون منه . وهى الآن قاعدةُ مُلْك « الادفونش » أكبرِ ملوك النصرانيــة بالاندلُس المعروف بالفنش . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من امنع البلاد وأحْصَنها، مبنيةٌ علىٰ جبل عال، والأشجار مُحْدِقة بها من كل جهة، ويصير بها الجُلَّنار بقدر الرُّمّانة من غيرها، ويكون بها شجرُ الرمان عِدّة أنواع؛ ولهـا نهر يمرّ بأكثرها ينحدر من جبل الشارَة من عند حِصْن هناك يقال له (باجَةُ) وبه يعرف نهر طُلَيْطلَةَ. فيقال : نهرُ باجةَ؛ ومنها إلىٰ نهاية الأندلُس الشرقية عند الحاجز الذى هو جبل البِرْت نحو نصف شهر، وكذلك إلىٰ البحر المحيط بجهة شِلْب .

ولهـا مضافات :

منها (مدينة وَلِيد) بفتح الواو وكسر اللام وسكون المثناة من تحت ودال مهملة فى الآخر. وموقعها فى أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ إحدىٰ عشرةَ درجة واثنتا عشرةَ دقيقة، والعرضُ ثمانٍ وثلاثون درجة وثلاث دقائق. قال فى "تقويم البُلْدان": وهى من أحسن المُدُن. وهى فى الغرب من طُلَيْطِلة فى جنوبىّ جبل الشارَةِ الذى يَقْسِم الأندَلُس بنصفين. قال : ويَحُلُّها الفنش ملك الفرنج فى أكثر أوقاته .

ومنهـا (مدينة الفرج) [بفتح الفاء والراء المهملة ثم جيم](١) وهى مدينة شرقىّ طُلَيْطلَةَ. وشرقيها مدينةُ سالم. قال ابن سعيد : ويقال لنهرها وادى الحجارة .

ومنهـا (مدينةُ سالم) قال ابن سـعيد : وهى بالجهة المشهورة بالثغر من شرقىّ الأندلُس. قال : وهى مدينــة جليلة. قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها قبر «المنصُور بن أبى عامر» .

(١) ضبطناها من التقويم لتتم الفائدة .

القاعدة السابعة

(جَيَّانُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الجيم وتشديد المثناة من تحتُ وألف ونون فى الآخر . وموقعها فى أول الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ إحدى عشرةَ درجة وأربعون دقيقة، والعرضُ ثمانٌ وثلاثون درجة وسبع وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومَمْلكتها بين مَمْلكتىْ غَرْناطةَ وطُلَيْطِلةَ . وهى فى نهايةٍ من المَنَعة والحَصَانة . وهى عن قُرْطُبَة فى جهة الشرق وبينهما خمسة أيام، وهى من أعظم مُدُن الأندَلُس وأكثرِها خِصْبا، وكانت بيد بنى الاحمر أصحابِ غَرْناطةَ فأخذتها الفَرَنْج منهم بالسيف بعد حِصار طويل، وبلادها كثيرةُ العيون، طيبةُ الأرض، كثيرةُ الثِّمار، وبها الحرير الكثير .

ولها مضافات :

منها (مدينة قَبْجاطة) . وهى مدينة نَزِهة كثيرةُ الخِصْب، أخذها النصارى بالسيف أيضا .

ومنها (بَيَّاسةُ) بفتح الباء الموحدة وتشديد المثناة التحتية وألف ثم سين مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر . وهى مدينة على نهر إشْبِيلِيَةَ فوقَ إشْبِيلِيَةَ، طَيِّبَةُ الأرض، كثيرةُ الزَّرْع، وبها الزَّعفران الكثير، ومنها يحمل إلى الآفاق .

ومنها (مدينة آبِدَةَ) بمدّ الهمزة المفتوحة وكسر الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر . وهى مدينة إسلامية أُحْدِثَتْ فى دَوْلة بنى أُمَيَّة بالأندَلُس بجِوَار بَيَّاسة إلا أنها ليست على النهر، ولها عين تَسْقِى الزَّعْفرانَ .

ومنها (جبل سمنتان)(١) . وهو جبل به حُصُون وقُرًى كثيرة .

ومنها (مَعْقِلُ شَقُورَةَ) و (حصن بَرْشانةَ) .

القــاعدة الثامنـــــة

(مُرْسِـــيَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الميم وسكون الراء وكسر السين المهملتين ثم ياء مثناة من تحتها وهاء فى الآخر . وموقعها فى أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ ثمــانَ عشرةَ درجة ، والعرضُ تسع وثلاثون درجة وعشرُ دقائق . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة إسـلاميَّة مُحْدَثة ، بُنِيت فى أيام الأُمَوِيِّين الأندلسيِّين، قال وهى من قواعد شرق الأنْدَلُس . وهى تُشْبه إشْبِيلِيَةَ فى غرب الأندَلُس بكثرة المَنازِه والبساتين، وهى فى الذِّراع الشرقىّ الخارج من عين نهر إشْبِيلِيَةَ .

ولهــا عدّة منتزَهات .

منها [(الرَّشَاقة) و (الزَّنقات) و (جبل إيل) وهو(٢)] جبل تحته البساتين، وبَسْط تسرح فيه العيون .

ولهــا مضافات :

منها (مدينة مُولَةَ) . وهى فى غربىّ مُرْسِيَةَ .

ومنها (مدينة أَرْيُولة) وغير ذلك .

---

(١) كذا فى التقويم ص ١٧٧ ولم نعثر عليه .

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان .

القاعدة التاسعة

(بَلَنْسِيَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الباء الموحدة واللام وسكون النون وكسر السين المهملة وفتح المثناة من تحت وهاء فى الآخر. وموقعها فى أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ٱبن سعيد : حيثُ الطولُ عشرون درجة ، والعرضُ ثمانٌ وثلاثون درجة وستُّ دقائق . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من شرق الأندَلُس ، شرقىّ مُرْسِيَةَ وغربىَّ طُرْطُوشةَ . وهى فى أحسن مكان ؛ وقد حُفَّتْ بالأنهار والجنَان ، فلا ترىٰ إلا مياها تتفرّع ، ولا تَسْمَع إلا أطيارا تَسْجَع . وهى علىٰ جنب بُحَيرةٍ حسنةٍ علىٰ القرب من بحر الزُّقَاق ، يَصُبُّ فيها نهرٌ يجرى علىٰ شمالىّ بَلَنْسِيَةَ .

ولها عدّة مَنَازِه .

منها (الرُّصَافة) و (مُنْيَة ابن عامر) وحيث خرجت منها لاتلقىٰ إلا منازه . قال ٱبن سعيد : ويقال إن ضوء مدينة بَلَنْسِيَةَ يزيد علىٰ ضوء بلاد الأندَلُس ، وجوُّها صَقِيل أبدا ، لا يرىٰ فيه مايكدِّره .

ولها مُضَافات :ـ وقد صارت الآنَ(١) من مُضافات بَرْشَلُونَةَ فى جملة أعمال صاحبها من ملوك النصارىٰ ـ .

منها (مدينة شَاطِبَةَ) بفتح الشين المعجمة وألف بعدها طاء مهملة مكسورة ثم باء موحدة مفتوحةٌ وهاء فى الآخر . وهى مدينة عظيمة ، ولها مَعْقِل فى غاية الامتناع وعِدّة مستنَزَهات : منها (البَطْحاء) و (الغَدِير) و (العين الكَبِيرة) . وإليها ينسب الشاطبىّ صاحب "القصيدة" فى القراءات السبع ؛ وقد صارت الآن مضافةً إلىٰ ملك بَرْشَلُونة فى يد صاحبها .

(١) هذه الجملة ساقطة من القطعة الأزهرية .

ومنها (دانِيَةُ) بفتح الدال المهملة وألف ثم نونٍ مكسورة ومثناة تحتية مفتوحة وهاء فى الآخر . وهى من شرق الأَنْدَلُس، وموقعها فى أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ تسعَ عشرةَ درجة وعشرُ دقائق، والعرضُ تسعٌ وثلاثون درجة وستُّ دقائقَ . وهى غربىَّ بَلَنْسِيَةَ على البحر عظيمة القدر كثيرة الخيرات، ولها عدّةُ حصون . وقد صارت الآن من مُضافات بَرْشَلُونة مع بَلَنْسِيَةَ، على ماسيأتى ذكره فى الكلام على ملوك الأندلس إن شاء الله تعالى .

القاعـــدة العاشرة

(سَرَقُسْطَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح السين والراء المهملتين وضم القاف وسكون السين الثانيـة وفتح الطاء المهملة وهاء فى الآخر . وهى مدينةٌ من شرق الأَنْدَلُس، موقعها فى أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ إحدى وعشرون درجةً وثلاثون دقيقـة، والعرضُ آثنتان وأربعون درجةً وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قاعدة الثَّغْر الأعلى . وهى مدينة أزليَّـةٌ بيضاءُ فى أرض طيِّبة، قد أحدقَتْ بها من بساتينها زُمُرُّدة خضراء، وآلتفَّ عليها أربعـة أنهـار فأضحت بها مُرَصَّعةً مُجَزَّعة .

ولهـا متنزَّهات :

منها (قَصْر السُّرور) و(مجالس الذَّهب) . وفيهما يقول آبن هُودٍ من أبيات :

قَصْرَ السُّرور ومَجْلِسَ الذَّهَب، * بِكُمَا بلَغْتُ نِهَايةَ الطَّـرَب!

القاعدة الحادية عشرة

(طُرْطُوشَة)

قال فى "تقويم البُلْدان"[(١)] : بضم الطاءين المهملتين وبينهما راء ساكنة مهملة ثم واو ساكنة وشين معجمة وهاءٌ فى الآخر. وهى مدينة فى شرق الأندلُس، موقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ اثنتان وعشرون درجةً وثلاثون دقيقة، والعرضُ أربعون درجة . قال : وهى من كَرَاسِىِّ مُلْك شرق الأندلُس . وهى شرقىّ بَلَنْسِيَة فى الجهة الشرقيَّة من النهر الكبير الذى يمرّ على سَرَقُسْطَةَ ويَصُبُّ فى بحر الزُّقاق، على نحو عشرين ميلا من طُرْطُوشَة . قال : وشرقىّ طُرْطُوشَة (جزيرة مايُرْقَةَ) فى بحر الزُّقَاق ؛ وإلى طُرْطُوشَةَ هذه يُنْسَب «الطُّرْطُوشىّ» صاحب "سراج الملوك" .

القاعدة الثانية عشرة

(بَرْشَنُونَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الشين المعجمة وضم النون وسكون الواو ثم نون مفتوحة وهاء فى الآخر . ويقال (بَرْشَلُونَةُ) بإبدال النون الأولى لاما قال فى " تقويم البُلْدان " : وهى خارجة عن الأندلُس فى بلاد الفَرَنج، وموقعُها فى أوائل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ أربع وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً ، والعرض اثنتان وأربعون

(١) ضبطها ياقوت بفتح الطاء الأولى وضم الثانية وقال المجد بالضم وقد تفتح .

درجةً . وهى الآن قاعدةُ مُلْك النصارىٰ بشَرْق الأندَلُس، وقد أضيف إليها أرغُون، وشاطِبَةُ، وسَرَقُسْطةُ، وبَلَنْسِيَة، وجزيرةُ دانِيَةَ، ومَيُورْقَةُ، وغير ذلك . على ما يأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك الأندَلُس فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

القاعدة الثالثـــةَ عشرةَ

(يَنْبُــلُونةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الياء المثناة من تحتُ وسكون النون وضم الباء الموحدة واللام ثم واو ساكنة ونون مفتوحة وهاء فى الآخر . وموقعها فى أوائل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ اثنتان وعشرون درجةً وخمسَ عشرةَ دقيقة، والعرضُ أربعٌ وأربعون درجةً . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة فى غرب الأندَلُس خَلْفَ جبل الشَّارَةِ . قال : وهى قاعدة النَّبَّرِىّ : أحد ملوك الفَرَنج . وتعرف هـذه المملكة بمملكة نَبَّرَةَ ـ بفتح النون وتشديد البـاء الموحدة المفتوحة وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر . وهى مملكة فاصلة بين مملكتَيْ قَشْتالَةَ و بَرْشَلُونة، وهى مما يلى قَشْتالةَ من جهة الشرق، وسيأتى ذكرها فى الكلام علىٰ ملوك الأندَلُس فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الجملـــة الثـالثـــة

(فى ذكر أنهاره)

اعلم أن بالأندَلُس أنهارا كثيرة قد تقدّم ذكر الكثير منها، وأعظمها نهران :

الأوّل (نهر إشْبِيلِيَــةَ) . قال ابن سعيد : وهو فى قَدْرِ دِجلةَ، وهو أعظم نَهَر بالأندَلُس، ويسمّيه أهلُ الأندَلُس النهرَ الأعظمَ . قال فى "تقويم البُلْدان" ومَخْرَجه

من جبال شَقُورَةَ حيثُ الطولُ خمسَ عشرةَ درجة، والعرضُ ثمانٍ وثلاثون وثلثان، وهو يجرى فى ٱبتدائه من الشرق إلىٰ الغرب، ثم يَصُبُّ إليه عدّةُ أنهر .

منها (نهر شنّيل) الذى يمرّ علىٰ غَرْناطةَ . ونهر (سُوس) الذى عليه مدينة إسْتجَةَ، ويسير من جبال شقُورةَ إلىٰ جهات جَيَّان، ويمرّ علىٰ مدينة بَيَّاسة، ومدينة آبِدَةَ، ثم يمرّ علىٰ قُرْطُبَة، ثم إذا تجاوز قُرْطُبَة وقَرُب من إشْبِيلِيَةَ ينعطف ويجرى من الشمال إلىٰ الجنُوب، ويمرّ كذلك علىٰ إشْبِيلِيَةَ، وتكون إشبيليَةُ علىٰ شرقيّه وطَرْيانةُ علىٰ غربيّه مقابلَ إشبيليَةَ من البر الآخر، ثم ينعطف فيجرى من الشرق إلىٰ الغرب، ثم يجاوز حتّىٰ يصُبَّ فى البحر المحيط الغربىّ عند مكان يعرف ببرّ المائدة، حيث الطولُ ثمانُ درج وربعٌ، والعرضُ ستٌّ وثلاثون وثلثان، وتكون جزيرة قادس فى البحر الرومىّ علىٰ يسار مَصَبِّه، ويقع فى هذا النهر المدُّ والجَزْر من البحر (١) كما فى دِجْلة عند البصرة، ويبلغ المدُّ والجزرُ فيه سبعين ميلا إلىٰ فوق إشْبِيلِيَةَ عند مكان يعرف بالأرحى، ولا يملح ماؤه بسبب المدّ عند إشبيلِيَةَ بل يبقىٰ علىٰ عُذُوبته، وبين إشبيلية وبين مَصَبِّ النهر فى البحر خمسون ميلا، فالمدّ يتجاوز إشبِيلِيَةَ بعشرين ميلا، والمدّ والجزر يتعاقبان فيه كلَّ يوم وليلة، وكلما زاد القمرُ نورا زاد المدُّ، والمراكب لا تزال فيه منحدِرة مع الجَزْر صاعدةً مع المدّ، وتدخُل فيه السفن العظيمة الإفرنجيَّة بوَسْقها من البحر المحيط حتّىٰ تحطَّ عند سُور إشبِيلِيَةَ . قال ٱبن سعيد: وعلىٰ هذا النهر من الضِّياع والقُرىٰ مالا يبلغه وصف .

الثانى (نهر مُرْسِيَةَ) . قال فى "تقويم البُلْدان": وهو قسيمُ نَهَر إشبيلِيَةَ، يخرجان من جبال شَقُورة فيمرّ نهر إشبيلية مغرّبا علىٰ ماتقدّم ويصُبُّ فى البحر المحيط . ويمرّ نَهَر مُرْسِيَة مشرّقا حتّىٰ يصُبَّ فى بحر الروم عند مُرْسِيَةَ .

(١) المراد أن مد النهر وجزره من مد البحر وجزره .

الجمـــــلة الرابعـــــــة

(في الموجود بالأندلُس)

والظاهر أن كل ما يُوجَد ببــلاد المغرب أو غالبـه يوجد به . وقــد ذكر في "تقويم البُلْدان" أنه يوجد به من الوحش : الإيَّل ، والغزال ، وحمار الوحش . ولا يوجد به الأسـدُ ٱلبتَّة . وقد تقدّم ذكر مابِبُلْدانه من الفواكه والثّمار في الكلام على بلاده فأغنى عن إعادته هنــا . قال في "تقويم البُــلْدان" : وبه عِدَّة مَقَاطِع رُخَام من الأبيض والأحمر والخَمْرِيّ والمجَزَّع وغير ذلك .

الجمـــــلة الخامســــــة

(في ذكر ملوك الأندلُس : جاهليةً ، وإسلاماً . وهم على طبقات)

الطبقة الأولى

(ملوكها بعـــد الطُّوفان)

قال الرازى في كتاب "الاستيعاب" في تاريخ الأندلُس : أوّل مَنْ ملكها بعـد الطُّوفان على مايذكره علماء عَجَمها قومٌ يُعْرَفون بالأندلُش بالشين المعجمة ، وبهـم سُمّي الأندلُش ، ثم عرب بالســين المهملة ، وكانوا أهل تَمَجُّس فحبس الله عنهـم المطرَ حتّى غارت عيونُها ويَبِست أنهــارُها فهلك أكثرُهم ، وفرّ مَنْ قدر على الفِرار منهم ، فأقفرت الأندلُس وبقيت خاليةً مائةَ عام .

وقال « هروشيوش » مؤرّخ الروم : أوّل مَنْ سكنها بعد الطُّوفان قوم يقال لهم الأباريون ، وهم من ولد طُوبَال بن يافِث بن نوح عليه السلام سكنوها بعد الطُّوفان . قال في "الروض المعطار" ويقــال : إن عدد ملوكهــم الذين ملكوا الأندلُس مائةٌ وخمسون مَلِكا .

الطبقة الثانية

الأشبانيّة

(ملكوا بعد طائفة الأندلُش المتقدم ذكرهم)

قال الرازى : وأوّل من ملك منهم أَشْبان بن طيطش ، وهو الذى غزا الأفارقة وحصر مُلْكهم بِطَارقة(١)، ونقل رُخامها إلىٰ إشبيلِيَةَ وآتخذها دار مُلْكه، وبه سميت ، وكثُرتْ جموعه فعَلَا فى الأرض، وغزا من إشبيلية إيلِيَاءَ : وهى بيتُ المَقْدس بعد سنتين من مُلْكه : خرج إليها فى السُّفُن فهدمها وقتل من اليهود مائةَ ألف ، وآسترقّ مائة ألف ، وفرّق فى البلاد مائةَ ألف، ونقل رُخَام إيلياء وآلاتِها وذخائرها إلىٰ الأندلُس .

ويحكىٰ أن الخضر (عليه السلام) وقف علىٰ أشْبان هذا وهو يحرُثُ أرضًا له أيام حَداثته، فقال له : ياأشبان، إنك لَذُوشان! وسوف يحظيك زمان، ويُعْليك سلطان . فإذا أنت تغلّبت علىٰ إيلياء، فارْفُق بورَثة الأنبياء! ــ فقال له أشبان : أساخِرٌ بى رحمك الله؟ أنّىٰ يكون هذا وأنا ضعيفٌ مَهِين، فقير حَقِير؟ ــ فقال : قدّر ذاك مَنْ قدّر فى عصاك اليابسة ماتَرَاه، فنظر أشبانُ إلىٰ عَصَاه فرآها قد أورقَتْ، فآرتاع لذلك، وذهب الخَضِر عنه وقد وَقَر ذلك فى نفسه، ووَثِق بكَوْنه، فترك الآمتهانَ، وداخل الناس، وصحب أهل الباس ، وسَمَا به جَدُّه فارتقىٰ فى طلب السلطان حتّىٰ نال منه عظيما،ودام ملكه عشرين سنةً، وآتصلت المملكةُ فى بنيه إلىٰ أن ملك منهم الأندَلُس خمسة وخمسون ملكا .

---

(١) فى " نفح الطيب ج ١ ص ٦٨ " طالقة باللام .

الطبقـــــة الثـالثــــة

(الشبونقات)(١)

وهى طائفــة ثارتْ علىٰ الأندَلُس من رُومةَ فى زمن مَبْعَث المَسِيح عليه السلام، وملكوا الأندَلُس والإفرنجةَ معها ، وجعلوا دار مملكتهم مارِدَةَ ، وٱتصــل ملكُهم إلىٰ أن ملك أربعــة وعشرون ملكا(٢) . ويقال : إن منهم كان ذُو القَرْنَيْنِ . والذى ذكره « هروشيوش » مؤرّخ الروم أن الذى خرج عليهـم من رُومة ثلاث طوالع من الغريقِيِّين . وهم : الأنبيُّون ، والشوانِيُّون ، والقندلش ، وٱقتسموا مُلْكها : فكانت جِلِّيقيَّةُ لقندلش ، ونَشْـبُونةُ وماردةُ وطُلَيْطِلَةُ ومُرْسِـيَةَ للشوانيين ، وكانت إشْبِيلِيَةُ وقُرْطُبةُ وجَيَّانُ ومالَقَةُ للأنبيين ، حتّٰى زحفَ عليهم القُوط من رُومةَ كما سيأتى .

الطبقـــــة الرابعــــة

(القُــوط)

خرجُوا علىٰ الشبونقات فغَلَبوا علىٰ الأندَلُس وٱقتطعوها من صاحب رُومةَ ، وٱنفردوا بسلطانهم ، وٱتخذوا مدينة طُلَيْطِلَة دارَ مَلِكهم (دخشوش) ملك القُوط ، وهو أوّل من تنَصَّر من هؤلاء بدعاء الحَوَارِيِّين ودعا قومــه إلىٰ النصرانيــة ، وكان أعدلَ ملوكهم وأحسنَهم سيرةً .

وقال «هروشيوش» : إنه كان قد وَلِيَ عليهم ملك يقال له (اطفالش) .

ثم وَلِيَ عليهم بعده ملك ٱسمه (طشريك) وقتله الرومانيون .

---

(١) فى " نفح الطيب ج ١ ص ٧٠ " البشتولقات .

(٢) فى " نفح الطيب ج ١ ص ٧٠ " سبعة وعشرون .

ثم وَلِي مكانه ملك ٱسمه (تالبه) (١) ثلاثَ سنين، وزوّج أخته من طودشيش ملك الرومانيين، وصالحه على أن يكون له مايفتتحه من الأندلس، ثم مات .

وولى مكانه ملك ٱسمه (لُذْرِيق) ثلاثَ عشرةَ سـنة فزحف على الأندلُس وقتل ملوكها، وطرد الطوائفَ الذين كانوا بها، وبقيَ الحال على ذلك نحوًا من ثمانين سنة؛ ثم هلك لُذْريق .

وولى مكانَه ٱبنُه (وَرِيقش) سبع عشرة سنة، وٱنتقض عليه البَشْكَنْس إحدى طوائف القُوط فقهرهم وردّهم إلى طاعته، ثم هلك .

وولى بعده (الريك) (٢) ثلاثا وعشرين سنة، ثم قُتِل فى حرب الفَرَنْج .

وولى عليهم (أشتريك بن طودريك) وهلك بعد خمس سنين من مُلْكه .

وولى عليهم بعده (بشليقش) أربع سنين .

ثم ملك بعده مَلِك آخر ٱسمه (طوذ ريق) إحدى وستين سنة وقتله بعض أصحابه بإشْبِيلِيَة .

ووَلِيَ بعده ملك ٱسمه (املُرِيق) (٣) خمس سنين .

ثم ولى بعده ملك ٱسمه (طودش) ثلاثَ عشرةَ سنة .

ثم وَلِيَ بعده (طود شكل) سنتين .

ثم ملك بعده ملك ٱسمه (ايلة) خمس سنين، وٱنتقض عليه أهلُ قُرْطبةَ فحاربهم وردّهم إلى طاعته .

---

(١) فى "العبر ج ٢ ص ٢٣٥" طودوشيش .

(٢) فى "العبر" الديك بالدال المهملة .

(٣) فى "العبر ج ٢ ص ٢٣٦" إبرليق . وفيه فى هذا الموضع خلاف لما بيدنا من الاصل فى كثير من الاسماء .

ثم ولِيَ بعده ملك آسمه (طنجاد) خمس عشرةَ سنةً .

ثم ولى بعده ملك آسمه (ليوبة) سنة واحدة .

ثم ولى بعده ملك آسمه (لَوْبِيلَذه) ثمانى عشرة سنة ، وآنتقضتْ عليه الأطرافُ فحاربهم وسكّنهم ؛ ثم قُتِل .

وولى آبنه (رُذْرِيق) ستَّ عشرةَ ســنةً ، وهو الذى بنىٰ البلاط المنسوبَ إليه بقُرْطبةَ .

ولمــا هلك ولى بعده ملك آسمه (ليوبة) سنتين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (بَتْرِيق) سبع سنين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (عندمار) سنتين .

ثم ملك بعده مَلِك آسمه (شَشْبُوط) ثمــان سنين ؛ وعلىٰ عهده كان (هِرَقْل) ملك قسطنطينية والشام ، ولعهده كانتِ الهجرةُ .

ثم ملك بعده ملك آسمه (رُذْرِيق) ثلاثة أشهر .

ثم ملك بعده ملك آسمه (شتنلة) ثلاث سنين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (شَشْنادَش) خمس سنين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (خَنْشُونَد) سبع سنين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (جَنْشُونَد) ثلاثا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ملك آسمه (بانْبُه) ثمــان سنين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (لورى) ثمــان سنين .

ثم ملك بعده رجل آسمه (أَيْقَهْ) ستَّ عشرةَ سنة .

ثم ولى بعده رجل آسمه (غَطْسه) أربعَ عشرةَ سنةً .

ثم ولى بعده رجل آسمه (لذريق) سنتين، وهو الذى غلبه المسلمون على الأندلُس وفتحوها منه، وهو آخر مَنْ ملك منهم . قال صاحب " الروض المِعْطار " : وعدد مَنْ ملك منهم إلى آخرهم وهو (لذريق) ستةٌ وثلاثون مَلِكا .

الطبقة الخامسة

(ملوكُها على أثر الفتح الإسلامى)

وكان فتحُها فى خلافة الوَليد بن عبدالملك : أحدِ خلفاء بنى أُمَيَّة فى سنة آثنتين وتسعين، وكان من أمر فتحها أن طُلَيْطلَة كانتْ دارَ المُلْك بالأندلُس يومئذ، وكان بها بيت مُغْلَق مُتحامىَ الفتح، يلزَمُه من ثِقاتِ القُوط قومٌ قد وُكِّلوا به كَىْ لايُفْتَح، يَتَعْهد الأوّلُ بذلك للآخِر، كلَّما مَلَك منهم مَلِك زاد على ذلك البيت قُفْلا . فلما وَلِىَ «لذريق» الأخيرُ، عزم على فتح الباب والاطِّلاع على مافى البيت؛ فأعظم ذلك أكابِرُهم وتضرّعوا إليه فى الكَفِّ؛ فأبى وظَنَّ أنه بيتُ مال، ففَضَّ الأقفالَ عنه ودخله، فأصابه فارغًا لاشىْءَ فيه إلا تابوتًا عليه قُفْل؛ فأمر بفتحه فألفاه أيضا فارغا ليس فيه إلا شُقَّة مُدْرَجة قد صُوِّرت فيها صُوَر العَرَب على الخُيُول، وعليهم العمائم متقلِّدو السيوف متنكِّبو القِسِىّ، رافعو الرايات على الرِّماح؛ وفى أعلاه كتابة بالعجمية فقرئت فإذا هى " إذا كُسِرتْ هذه الأقفالُ عن هذا البيت، وفُتِح هذا التابوتُ، فظهر مافيه من هذه الصور فإن الأمّة المصوّرةَ فيه تغلب على الأندلس وتملكها " فوَجِمَ لذريق وعظُم غمُّه وغم الأعاجم، وأمر بردّ الأقفال، وإقرار الحَرَس على حالهم .

وكان من سير الأعاجم أن يبعث أكابرهم بأولادهم ذُكُورا كانوا أو إناثا إلىٰ بلاط المَلِك، ليتأدَّبوا بأدبه، وينالوا من كرامته حتّىٰ إذا بلغُوا أنكَحَ بعضهم بعضا ٱستِئلافا لآبائهم . وكان للذريق عامل علىٰ سَبْتَة من برّ العُدْوة يسمّى يُلْيان ، وله ٱبنة فائقة الجمال ، فوجّه بها إلىٰ دار لذريق علىٰ عادتهم فى ذلك ، فوقع نظر لَذَريق عليها فأعجبته ، فاستكرهها علىٰ نفسها فاحتالَتْ حتّىٰ أعلمتْ أباها بذلك سِرّا ، فشَقّ ذلك عليه ، وحلف ليُزيلَنَّ سلطانَ لذريق ؛ ثم تلطَّف حتّىٰ اقتلع بنتَهُ من بيت لذريق ؛ ثم لم يلبَثْ يُلْيانُ [أن كتب] إلىٰ موسىٰ بن نُصَيْر أمير أفريقيَّةَ من جهة «الوَليد بن عبد الملك» يحرّضه علىٰ غَزْو الأندَلُس ، وحثّه علىٰ ذلك ، ووصفَ له من حُسْنها وفوائدها مادعاه إلىٰ ذلك وهوّنَ عليه أمْرَ فتحها . فتوثّق منه موسىٰ بنُ نُصَيْر بذلك ، ودعا مولًى له كان علىٰ مقدّماته ، يقال له "طارقُ بن زِيَاد" فعـقَد له وبعثه إليها فى سبعةِ آلاف ، وهيَّأ له يُلْيانُ المراكبَ ، فعبرَ البحرَ وحَلَّ بجبل هناك يُعْرَفُ الآنَ (بجبل طارق) فوجد عَجُوزا من أهل الأندَلُس ــ فقالت له : إنه كان لى زَوْج عالم بالحِدْثان ، وكان يحدّث عن أمير يدخُل بلدنا هـذا ، ويصفه بأنه ضَخْم الهامة وأنت كذلك ، وكان يقول : إنه بكَتِفه الأيسر شامَةٌ عليها شَعَر ، فكشف طارقٌ ثوبَهُ فإذا بالشامة كما ذكرتِ العَجوزُ ، فاستبشر بذلك .

ويحكىٰ أنه رأىٰ (وهو فى المركب) النبيَّ صلى الله عليه وسلم والخلفاءَ الأربعـةَ يمشُونَ علىٰ المـاء حتّىٰ مَرُّوا ، فبشّره النبيّ صلى الله عليه وسلم بالفتح ، وأمره بالرِّفْق بالمسلمين والوفاء بالعهد ، فاستيْقظ مستبْشرا ، وتيقّن الفتحَ ، وهجَم البلَدَ فملكها . وكان عسكره قد ٱنتهىٰ إلىٰ ٱثنَىْ عشرَ ألفا إلا ستةَ عشَر ، ولذريق فى ستمائة ألف ، ﴿والله يؤَيِّدُ بنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ . وأقام طارقٌ بالأندَلُس حتّىٰ قَدِم إليها مولاه مُوسىٰ ٱبن نُصَـير المتقدّمُ ذكرُه فى رجب من السـنة المذكورة . وأقام موسىٰ فيها سنتين

ثم انصرف إلى القَيْروان ، واستخلف عليها ابنَه (عبدَ العزيز) فنزل قُرْطبةَ واتخذها دارَ إمارةٍ لهم ؛ وتوجَّه موسى سنةَ ستٍّ وتسعين بما سَباه وما غَنِمه إلى الوليد ابن عبد الملك ؛ ثم دَسَّ سليمانُ بن عبد الملك على عبد العزيز المذكور مَنْ قَتَله بالأندلس لاتِّهامه بموالاة أخيه الوليد .

ثم وليها بعده (عبدُ العزيز) [(١)] بن عبد الرحمن القَيْسيّ سنتين وثلاثة أشهر .

ثم وليها (السَّمْحُ بن مالك) الخَوْلانيّ سنتين وتسعةَ أشهر .

ثم وليها (عَنْبَسةُ بن سُحَيم) الكلبيّ أربعَ سنين وخمسة أشهر .

ثم وليها (يحيىٰ بن مسلَمة) سنتين وستة أشهر .

ثم وليها (حُذَيفة بن الأحْوص) القَيْسيّ سنةً واحدة .

ثم وليها (عثمانُ بْنُ أبي نِسْعةَ) الخَثْعَميّ خمسةَ أشهر.

ثم وليها (الهَيْثَمُ بن عُبَيد) خمسةَ أشهر .

ثم وليها (عبدُ الرحمن بن عبد الله) الغافقي سنتين وثمانية أشهر .

ثم وليها (عبد الملك) بن [قَطَن الفهري] [(٢)] أربع سنين .

ثم وليها (عُقْبةُ بْنُ الحَجّاج) خمسَ سنين وشهرين .

ثم وليها (مُفْلِح [(٣)] بن بشر القيسي) أحد عشر شهرا .

ثم وليها (حُسَام بن ضِرَار) الكلبيّ سنتين .

---

(١) لعله وليها بعد عبد العزيز أيوب بن حبيب اللخمى كما يؤخذ من نفح الطيب والعبر .

(٢) فى الاصل قطار، والتصحيح عن العبر ج ٤ ص ١١٩ .

(٣) فى "العبر ج ٤ ص ١١٩" بلخ بن بشر وفيه فى هذا المكان زيادة ونقص وتقديم وتأخير فى الولاة .

ثم وليها (ثوابة الجُذَامىّ) (١) سنة واحدة .

ثم وليها (يوسفُ بنُ عبدالرحمن) الفِهْرىّ تسعَ سنين وتسعة أشهر .

ثم كانتْ دولةُ بنى أمية بالأندلس، على ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة السادســـة

(بنو أُمَيَّة، وكانتْ دارُ ملكهم بها مدينة قُرْطُبَــة)

وأوّلُ من ملكها منهــم (عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ) بنِ هشام، بن عبــد الملك، ابن مروان، بن الحكم، ويُعْرَف (بعبدالرحمن الداخل) . وذلك أن بَنِي العَبَّــاس لمــا تتَبَّعوا بنِي أميَّةَ بالقتل، هرب عبد الرحمن المذكور، ودخل الأندَلُس وآستولىٰ عليها فى سنة تسع وثلاثين ومائة من الهجرة، وقصده بنو أُمَيَّةَ من المشرق وآلتجــئُوا إليه . وتُوفِّى فى ربيع الآخر سنة إحدىٰ وسبعين (٢) ومائة .

وملك بعده آبنُه (هِشَام) وتوفِّى سنة ثمــانٍ (٣) وسبعين ومائة .

وآستُخْلِف بعده آبنُه (الحَكَم) وفى أيامه آستعاد الفَرَنْجُ مدينةَ بَرْشَلُونة فى سنة خمس وثمــانين ومائة، وتُوُفِّى لأربع بَقِين من ذى الحجة سنة ستٍّ ومائتين .

وأقام فى الملك بعده آبنُه (عبدُ الرحمن) وتوفِّى فى ربيــع الآخر سنةَ ثمــانٍ وثلاثين ومائتيـــن .

وملك بعده آبنُه (محمد) وتُوفِّى فى سلخ صَفَر سنةَ آثنتين (٤) وسبعين ومائتين، وعمره خمسٌ وستون سنة .

---

(١) فى "العبر" و "نفح الطيب" ثعلبة بن سلامة الجذامى .

(٢) فى "الكامل ج ٦ ص ٤٠" وقيل سنة ثنتين وسبعين ... ... وهو الاصح .

(٣) فى "العبر والكامل" سنة ثمــانين ومائة .

(٤) فى "الكامل ج ٦ ص ١٥٣" ثلاث وسبعين .

وملك بعده ابنه (المُنْذِر) وتوفى لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين .

وبويع أخوه (عبدُ الله) يومَ موته، وتوفى فى ربيع الأوّل سنة ثلثمائة .

وولى بعده ابنُ ابنه (عبد الرحمن) بن محمد المقتول ابن عبد الله المتقدّم ذكره، وخُوطِب بأمير المؤمنين، وتلقّب بالناصر بعد أن مضى من ولايته تسعٌ وعشرون سنة، عند مابلغه ضَعْفُ خلفاء العباسيين بالعراق وظهور الخلفاء العَلَويين بأفريقيّة، ومخاطبتهم بأمير المؤمنين، وتُوفى فى رمضان سنة خمسين وثلثمائة .

ووَلِىَ الأمر بعده ابنُه (الحَكَم) وتلقّب بالمستنْصِر، وتوفى سنة ست وستين وثلثمائة .

وعَهِد إلى ابنه (هشام) ولقّبه المؤيّد، وبايعه الناسُ بعد موت أبيه، فأقام إلى سنة تسع وتسعين وثلثمائة .

ثم غلبه (محمد بنُ هشامٍ) بن عبد الجبّار بن عبد الرحمن الناصر المتقدّم ذكره، وتلقب بالمَهْدىّ فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

ثم غلبه (سليمانُ بنُ الحَكَم) بن سليمان بنِ عبد الرحمن الناصر المتقدّم ذكره، فهرب محمدُ بن هشام المذكور واستولى على الخلافة فى شوّال من السنة المذكورة .

ثم غلبه (محمدُ بنُ هشام) المهدىّ المذكور فى منتَصَف شوّال من السنة المذكورة .

ثم عاد (هشامُ بنُ الحكم) المتقدّمُ ذكرُه فى سابع ذى الحجة من السنة المذكورة .

ثم عاد (سليمانُ بنُ الحكم) المتقدّم ذكره فى منتصَف شوّال سنةَ ثلاثٍ وأربعمائة، ولُقِّب بالمستعين .

ثم غلبه (المهدىُّ محمدُ) بنُ هشام المتقدّم ذكره فى أُخْرَيَاتِ السنة المذكورة .

ثم غلبه (المستعِيـنُ) علىٰ قُرْطُبَة ؛ ثم قُتِل المهدىُّ محمدُ بنُ هشام المذكور وعاد [هشام المؤيد](١) إلىٰ خلافته ، هذا كله والمستعين محاصر لقُرْطبَة ، إلىٰ أن ٱفتتحها عَنْوةً سـنة ثلاث وأربعمائة ، وقتلوا المؤيَّد هشاما .

ثم جاء (علىُّ بن حَمُّود) وأخوه (قاسم) من الأدارسة : ملوك الغرب فى عساكر من البربر فملكُوا قُرْطبةَ سـنةَ سبع وأربعِمائة وقتلوا المستعين وأزالوا ملك بنى أميَّةَ من الأنْدَلُس ، وٱتصل ذلك فى خَلَفهم سبْعَ سنين .

ثم غلب علىَّ بن حَمُّود ، المرتَضِى بالله عبدُ الرحمن بن محمد بن عبـد الملك ، ٱبن المرتضى عبد الرحمن بن الناصر أمير المؤمنين .

ثم ٱجتمعوا علىٰ ردّ الأمر لبنى أُميَّة ،ثم وَلِىَ بعد ذلك المستظهِرُ بالله (عبدُالرحمن) ٱبن هشام بن عبد الجَبَّار فى رمضان سنة أربعَ عشرةَ وأربعِمائة .

ثم غلب عليه المستكْفِى بالله (محمدُ بن عبدالرحمن) بن عبيد الله ، بن عبدالرحمن ، الناصر أمير المؤمنين .

ثم رجع الأمر إلىٰ (يحيىٰ بن علىّ) بن حَمُّود سنة ست عشرة وأربعمائة .

ثم بُويِـع للمعتَمِد بالله (هِشَام بن محمد) أخى المرتَضِى من بنى أُمَيَّة سنة ثمانَ عشرةَ وأربعمائة . وتُوفِّىَ بها(٢) سنةَ ثمـانٍ وعشرين ، وٱنقطعتْ دولةُ الأُمَوِيَّة من الأنْدَلُس ، والله وارث الأرض ومَنْ عليها .

---

(١) الزيادة عن العبرج ٤ ص ١٥١ لتوضيح المقام .

(٢) فى ''العبرج ٤ ص ١٥٢'' ... ... وفر الى لاردة فهلك بها ... .

الطبقة السابعـــــة

(ملوك بنى حَمُّود من الأدارسة: ملوك الغَرْب)

كان فى جملة جماعة المستعين: سليمانَ بنِ الحكم الأُمَوِىّ المتقدّمِ ذكرُه القاسمُ وعلىٌّ آبنا حَمُّود، بن ميمون، بن أحمد، بن علىّ، بن عبيد الله، بن عُمَر، بن إدريس بعد آنقراض دولتهم بفاس وآنتقالهم إلى غُمَارَة وقيام رياستهم بها؛ فعقد المستعينُ للقاسم على الجزيرة الخَضْراء من الأندلُس؛ ولعلىّ على طَنْجة وعملِها من بَرّ العُدْوة. وطمِعَتْ نفسُ علىِّ بنِ حمود صاحبِ طَنْجة فى الخلافة، وزعم أن المؤيَّد هشاما من بنى أُمَيَّةَ عند حصارهم إيَّاه كتب له بعهد الخلافة؛ فبايعُوه بالخلافة وأجاز إلى مالَقَةَ فملكها، ودخل قرطُبَةَ سنة سبع وأربعمائة، وتلقب بالناصر لدين الله وآتصلتْ دولتهُ إلى أن قتله صَقَالِبتهُ بالحَمَّام سنة ثمانٍ وأربعِمائة .

فوَلِى مكانَهُ أخوه (القاسمُ) بن حَمُّود الذى كان بِطَنْجةَ وتلقب بالمأْمُون .

ثم غلبــه على ذلك (يحيىٰ آبنُ أخيــه علىّ) وزحف إلى قُرْطبــةَ فملكها ســنة ثِنْتَىْ عشرةَ وأربعمائة وتلقب بالمعْتَلِى، وكانت له وقائعُ كان آخرها أن آتفقُوا على تسليم المدائن والحُصون له؛ فعَلَا سلطانه، وآشتدّ أمره، وأخذ فى حصار آبن عَبَّاد بإشْبِيلِيَةَ فكبا به فرسُه وقُتِل، وآنقطعت دولة بنى حَمُّود بقُرْطبةَ .

ثم آستدعىٰ قومه أخاه (إدريسَ) بن علىّ بن حَمُّود من سَبْتة وطَنْجة فبايعوه على أن يُولِّىَ سَبْتَةَ (حَسَن آبن أخيه يحيىٰ) فتم له الأمْر بمالَقَة وتلقَّب بالمتأيد بالله، وبايعه أهل المَرِيَّة وأعمالها ورُنْدَة والجزِيرة، ومات سنة إحدىٰ وثلاثين وأربعمائة .

وبايع البربر بعــده (حَسَنَ بن يحيىٰ) المعتلى، ولقَّبُوه المستنصِرَ، وبايعته غَرْناطةُ وجملةٌ من بلاد الأندَلُس، ومات مسمومًا سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة .

وكان (إدريسُ بن يحييٰ) المعتلي معتَقلا ، فأَخْرِج وبُويِع له سنةَ تسع وثلاثين وأربعمائة ؛ وأطاعتـه غَرْناطةُ وقرمونة وما بينهما ، ولُقِّب العالي ؛ ثم قتَـل محمدا وحسنا ابنَيْ عمِّه إدريس ، فثار السُّودان بدعوة أخيهما محمدٍ بمـالَقَة فأسْلَموه .

وبويع (محمد بنُ إدريسَ) المتأيِّد بمالَقَةَ سنةَ ثمان وثلاثين وتلقَّب بالمهدى ، وأقام بمالَقَةَ ، وأطاعتْه غَرناطةُ وجَيَّان وأعمالها ، ومات سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

وبويـعَ (إدريسُ بن يحييٰ) بن إدريس المتأيِّد ولُقِّب الموفَّق ولم يُخْطَب له ؛ وزحف إليه إدريسُ المخلوعُ الملقب بالعالى ٱبن يحييٰ المعتلى من قمـارش فبويع له بمالَقَةَ إلىٰ أن هلك سنةَ سبع وأربعين .

وبويـع (محمدُ الأصغرُ) ٱبنُ إدريسَ المتأيد ولُقِّب المستعلِيَ ، وخُطِب له بمالَقَة والمَريَّة ورُنْدة ، وهلك سنة ستين وأربعمائة .

وكان (محمدُ بنُ القاسم) بن حَمُّود قد لحق بالجزيرة الخضراء سـنةَ أربعَ عشْرةَ وأربعمائة فملكها وتلقَّب بالمعتَصِم ، وبقىَ بها إلىٰ أن مات سنة أربعين وأربعمائة .

ثم ملكها من بعده (ٱبنُه القاسم) ولُقِّب الواثِقَ ، وهلك سنة خمسين ، وصارت الجزيرة الخضراء للمعتَضِد بن عَبَّاد ، وٱنقرضتْ دولةُ بنى حَمُّود بالأندلُس .

الطبقــــة الثـامنة

(مــلوك الطَّــوائِف بالأندلُس)

لمـا ٱضمحلَّ أمرُ الخِلافة من بنى أميَّةَ وبنى حَمُّود بعدهم بالأندلُس ، وثب الأمراءُ علىٰ الجهات ، وتفرق مُلْكُ الأندلُس فى طوائفَ من المَوالى ، والوُزَراء ، وكِبار العرب والبربر ، وقام كلٌّ منهـم بأمر ناحيـةٍ ، وتغلَّب بعضُهم علىٰ بعض وضَعُف

أمرُهم حتّى أعْطَوُا الإتاوةَ لملوك الفَرَنْجة من بنى أدفونش حتّى أدركهم اللهُ بأمير المسلمين يُوسفَ بن تاشْفين .

* * *

فأما إشْبِيلِيَةُ وغربُ الأندَلُس فاستولىٰ عليهما بنو عَبَّاد .

كان أوّلَهم القاضى أبُو القاسم (محمدُ بنُ ذى الوِزارتَيْنِ) أبى الوليد، بن إسماعيل، آبن قُرَيْش، بن عَبَّاد، بن عمرو، بن أسْلَم، بن عمرو، بن عَطَّاف، بن نُعَيم اللخمى؛ وآستبدّ بإشْبِلِيَةَ بعد فِرَار القاسم بن حَمُّود عن قُرْطُبَةَ، آنتزعها من آبن زيرى وكان واليًا عليها من جهة القاسم بن حَمُّود المذكور، وبَقِىَ بها إلىٰ أن مات سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة .

ولمـا مات قام بأمره آبنه (عَبَّاد) وتلقب المعتضِدَ، وطالتْ أيامُه، وتغلب علىٰ أكثر الممالك بغرب الأندلُس، وبقِىَ حتّى مات سنة إحدىٰ وستين وأربعمائة .

وولى مكانه آبنُه (أبوالقاسم محمد) الملقَّب بالمعتَمِد؛ فجرىٰ علىٰ سَنَن أبيه وآستولىٰ علىٰ دار الخلافة بقُرْطبةَ من يد آبن جَهْوَر، وفرّق أبناءه علىٰ قواعد المُلْك، وآستفحل مُلْكه بغَرْب الأندلُس ، وغلب علىٰ مَنْ كان هناك من ملوك الطوائف؛ وبقِىَ حتّى غلب أميرُ المسلمين « يوسفُ بنُ تاشفين » علىٰ الأندلُس فقَبَض عليه، ونقله إلىٰ أغْمات : قريةٍ من قُرىٰ مَرَّاكُش سنة أربعٍ وثمانين وأربعمائة، وآعتقله بها إلىٰ أن هلك سنةَ ثمانٍ وثمانين وأربعمائة .

* * *

وأما قُرطبةُ فاستَوْلىٰ عليها بَنُو جَهْوَر . وكان رئيسَ الجماعة بقرطبة أيامَ فتنة بنى أُمَيَّة، أبو الحزم (جَهْور بن محمد) بن جهور، بن عبد الله، بن محمد، بن الغمر[1]،

(١) فى العبرج ٤ ص ١٥٩ "المعمر" وهو تصحيف .

ٱبن يحيىٰ ، بن أبي المَعَافر، بن أبي عبيدة الكلبي . وأبو عبيدة هذا هو الداخلُ إلىٰ الأندَلُس ، وكانت لهم وزارة بقُرطبــةَ بالدولة العــامريَّة . ولمـا خلع الجنـد « المقتدرَ بالله » (١) آخرَ خلفاء بني أمية بالأندَلُس ، ٱستبَدَّ جَهْور بالأمر وٱستولىٰ علىٰ المملكة بقرطُبَةَ سنة ثنتين وعشرين وأربَعِمائة ، وكان علىٰ سَنَن أهل الفضل ، فأسنَدُوا أمْرَهم إليه إلىٰ أن يُوجَد خليفةٌ ، ثم ٱقتصروا عليه فدَبَّر أمْرَهم إلىٰ أن هلك في المحرّم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة .

ووَلِي مكانَهُ ٱبنه (أبو الوليـد محمد بن جَهْوَر) فخلعه أهلُ قرطبة سـنة إحدىٰ وستين وأربَعِمائة ، وأخرجوه [ثم فوض التدبير إلىٰ ٱبنه عبد الملك بن أبي الوليد فأساء السيرة فأخرجوه] (٢) عن قُرْطُبــةَ ، فاعتُقِـل [بشلطيلش] (٣) إلىٰ أن مات سنة ثنتين وستين .

ووَلَّى ٱبنُ عبَّاد علىٰ قرطبَة ٱبنَه (سِراجَ الدَّوْلة) وقتله ٱبنُ عُكَّاشـة سنة سبع وستين ، ودعا لٱبن ذي النُّون (يحيىٰ بن إسماعيل) وقدمها ٱبنُ ذي النُّون من بَلَنْسِيَة وقتل بها مسموما (٤) .

وزحف المعتمدُ بنُ عَبَّاد بعد مَهْلَكه إلىٰ قرطُبَةَ ، فملكها سنةَ أربع وثمـانين وأربعمائة .

---

(١) في "العبر ج ٤ ص ١٥٩" المعتز وتقدم للؤلف أن آخرهم المعتمد .

(٢) الزيادة من القطعة الأزهرية .

(٣) الزيادة من العبر ج ٤ ص ١٥٩ .

(٤) يؤخذ من "العبر ج ٤ ص ١٥٩" أن الذي قتل مسموما هو سراج الدولة .

❖

وأما بَطَلْيَوْس، فكان بها عند فِتْنة بنى أُمَيَّة بالأندلس أبو محمد (عبدُ الله بن مَسْلمة) التُّجيبى المعروف بآبن الأفْطَس، وآستبدَّ بها سنةَ إحدى وثلاثين وأربعمائة، ثم هلك.

فولِىَ من بعده آبنُه المظفَّر (أبو بكر) وعَظُم مُلْكه. وكان من أعظم ملوك الطوائف، ومات سنة ستين وأربعمائة.

ووَلِىَ بعده آبنُه المتوكِّل (أبو حَفْص عمرُ) بن محمد المعروف بساجةَ، ولم يزل بها إلى أن قتله «يوسفُ بنُ تاشفين» سنة تسع وثمانين وأربعمائة باغراء آبن عَبَّاد به.

❖

وأما غَرْناطةُ[1]، فملكها أيامَ الفتنة (زارى بن زِيرِى) بن مَيَّاد، ثم آرتحل إلى القَيْرَوان وآستخلف على غَرْناطة آبنَه، فبدا لأهل غَرْناطة أن بعثُوا إلى آبن أخيه (حبوس بن ماكسن) بن زِيرِى من بعض الحصون، فوصل وملك غَرْناطةَ وآستبدّ بها، وتُوفِّى سنةَ تسع وعشرين وأربعمائة.

وولى مكانه آبنُه (بادِيسُ) وكانت بينه وبين بَنِى عَبَّاد حروب، وتُوُفِّىَ سنةَ سبع وستين وأربعمائة.

ووَلِىَ حافدُه المظفَّر أبو محمد (عبدُالله بنُ بُلُكِّين بن باديس) وولَّى أخاه تميماً بمالَقَةَ بعهد جدّه إلى أن خلعهما «يوسف بن تاشفين» سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة.

(١) من هنا إلى قوله وأما طليطلة مضبب عليه فى القطعة الأزهرية وآقتصر على ماسيأتى فى الكلام على غرناطة قبيل الطبقة التاسعة.

*
* *

وأما طُلَيْطِلَةُ ، فاستولىٰ عليها بَنُو ذى النُّون . وذلك أن الظافر إسماعيل بنَ عبد الرحمن بن ذى النون الهوارى [تغلب] (١) أيام الفتنة علىٰ حصن أَقُلُنتين سنة تسع وأربعمائة ، وكانت طُلَيْطِلَةُ ليَعِيش بن محمد بن يَعِيش وليها فى أوّل الفتنة ، فلما مات سنةَ سبع وعشرين مضىٰ إسماعيل الظافر إلىٰ طُلَيْطِلَةَ فملكها ، وآمتدّ مُلْكُه إلىٰ جنجالة (٢) من عمل مُرْسِيَةَ ، ولم يزل بها إلىٰ أن هلك سنة تسع وعشرين .

فولِىَ مكانَه آبنُـه المأمونُ (أبو الحسن يحيىٰ) فآستفحل مُلْكه ، وعَظُم بين ملوك الطوائف سلطانُه ، ثم غلب علىٰ بَلَنْسِيَةَ وقرطُبَةَ ، ومات مسموما سنةَ سبعٍ وستين وأربَعِمائة .

وولِىَ بعـده علىٰ طُلَيْطِلَةَ حافدُه (القادر يحيىٰ) بن إسماعيلَ بن المأمون يحيىٰ بن ذى النون ،

وكان الطاغيــةُ أدفونش ملك الفَرَنج بالأندَلُس قد آستفْحل أمرُهُ عنــد وقوع الفتنــة بين ملوك الأنْدَلُس فضـايق آبنَ ذى النون حتّى تغَلّب علىٰ طُلَيْطِلَةَ وخرج له عنها (القادر يحيىٰ) سنة ثمـان وسبعين وأربعمائة ، وشرط عليه أن يُظاهِرَه علىٰ أخذ بَلَنْسِيَةَ ، فقبل شرطه وتسلَّمها الأدفونش ملكُ الفَرَنج ، وبقيت معه إلى الآن أعادها الله تعالى إلىٰ نِطَاق الإسلام .

*
* *

وأما شاطِبَــةُ وما معها من شرق الأندَلُس ، فاستولىٰ عليها العامريون . بويع للمنصور (عبد العزيز) بن الناصر عبدالرحمن بن أبى عامر بشاطبةَ سنةَ إحدىٰ عشرةَ

(١) الزيادة عن العبر ج ٤ ص ١٦١
(٢) لعلها جنجيال .

وأربعمائة، أقامه الموالى العامريُّون عند الفتنة البربرية فى زمن بَنِى أُمَيَّةَ، فاستبدّ بها، ثم ثار عليه أهلُ شاطبةَ فترك شاطبةَ ولحق ببَلَنْسِيَةَ فملكها، وفوّض أمره للموالى .

وكان (خَيْرانُ العامرىُّ) من مَوَاليهم قد تغلَّب قبلَ ذلك علىٰ أَرْبُونةَ سنة أربع وأربَعمائة ، ثم ملك مُرْسِيَةَ سنة سبع، ثم جَيَّانَ والمَرِيَّة سنة تسع ؛ وبايعوا جميعا للمنصور عبد العزيز . ثم آنتقض خَيْرانُ علىٰ المنصور وسار إلىٰ مُرْسِيَةَ وأقام بها آبنَ عمِّه (أبا عامر محمدَ بنَ المظفَّر) بن المنصور بن أبى عامر ؛ وجمع المَوالىَ علىٰ طاعته، وسماه (المؤتمن) ثم (المعتصم) ثم أخرجه منها ؛ ثم هلك خَيْرانُ سنة تسع عشرة وأربعمائة .

وقام بأمره بعده الأمير (عميدُ الدولة أبو القاسم زُهَير العامرىّ) وزحف إلىٰ غَرْناطةَ فبَرَز إليه باديسُ بن حيوس فقتله بظاهرها سنةَ تسع وعشرين وأربعمائة، وصار ملكه للمنصور (عبد العزيز) صاحب بلَنْسِيَةَ .

وكان قائده صُمَادِح وآبنه مَعْن يتولَّيان حروبه مع مجاهد العامرىّ صاحب دانِيَةَ، فولّٰى علىٰ المَرِيَّة (مَعْنَ بن صُمَادح) سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، وغزا المَوالىَ العامريِّين بشاطِبةَ فغلبهم عليها .

وولّٰى علىٰ بَلَنْسِيَةَ آبنَه (عبد الملك) فقام بأمره وجاهد المأمون بن ذى النون فغلبه علىٰ بلنسية وانتزعها منه سنة سبع وخمسين .

ولما مات المأمون وولى حافده القادر علىٰ ماتقدّم ذكره ولّٰى علىٰ بلَنْسِيَةَ (أبا بكر) آبن عبد العزيز بقيَّة وزراء آبن أبى عامر، فحسَّن له آبنُ هود الآنتقاضَ علىٰ القادر، ففعل وآستبدّ بها سنةَ ثمان وستين وأربعمائة حين تغلَّب المقتدرُ علىٰ دانِيَةَ ، ثم هلك لسنة ثمان وسبعين لعشر سنين من وِلَايته .

ووليَ ٱبنُه القاضى (عثمان) فلما سلَّم القادرُ بنُ ذى النون طُلَيْطلةَ للأذفونش وزحف إلىٰ بَلَنْسيَةَ، خلعوا القاضى عثمانَ خوفًا من ٱستيلاء ملك الفرنْج عليها .

ثم ثار علىٰ القادر سنةَ ثلاث وثمانين القاضى (جعفرُ بنُ عبد الله) بن جِحَاف، فقتله وٱستبدّ بها، ثم تغلب النصارىٰ عليها سنةَ تسع وثمانين وقتلوه، ثم جاءهم (يوسفُ بن تاشفين) .

وأما مَعْنُ بن صُمَادح قائد عبدالعزيز بن أبى عامر، فإنه أقام بالمَرِيَّة لما وَلَّاه المنصور سنة ثلاث وثلاثين، وتسمَّى ذا الوزارتين، ثم خلعه .

وولىَّ ٱبنه (المعتصم أبا يحيى محمد بن معن بن صُمَادح) سنةَ أربع وأربعين، ولم يزل بها أميرا إلىٰ أن مات سنة ثمانين وأربعمائة .

ووليَ ٱبنه (أحمد) وبقِىَ حتَّى خلعه يوسفُ بن تاشفين .

* * *

وأما سَرَقُسْطَةُ والثَّغْر فاستولىٰ عليهما بقية بنى هُود، إذ كان مُنْذِر بنُ يحيىٰ بنِ مطَرِّف، بن عبد الرحمن، بن محمد، بن هاشم التُّجِيبيّ صاحبَ الثَّغْر الأعلىٰ بالأندلُس، وكانت دارُ إمارته سَرَقُسْطةَ . ولما وقعت فتنة البربر آخرَ أيام بنى أُمَيَّةَ، ٱستقل (مُنْذِر) هذا بسَرَقُسْطةَ والثغر، وتلقب بالمنصور، ومات سنة أربعَ عشرةَ وأربعمائة .

ووليَ مكانه ٱبنُه (يحيىٰ) وتلقب بالمظَفَّر .

وكان أبو أيُّوب (سليمانُ بن محمد) بن هُود بن عبدالله بن مُوسىٰ، مَولىٰ أبى حُذَيفة الجُذَامىّ من أهل نسبهم مستقِلًّا بمدينة (تُطِيلَةَ) و (لارِدَةَ) من أول الفتنة . وجَدُّهم

هُودٌ هو الداخل إلى الأندلس . فتغلّب سليمانُ المذكورُ على المظفّر يحيى بن المنذر وقتله سنةَ إحدى وثلاثين وأربعمائة، وملك سَرَقُسْطةَ والثغر من أيديهم، وتحوّل إليها، وتلقّب بالمستعين وآستفحل مُلْكه، ثم ملك بَلَنْسِيَةَ ودانِيَةَ . وولّى على لارِدَةَ آبنَه (أحمدَ المقتدرَ) ومات سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة .

فولى آبنُه (أحمدُ) الملقّب بالمقتدر سَرَقُسْطةَ وسائر الثغر الأعلى، وولّى آبنَه (يوسفَ) الملقب بالمظفر لارِدَةَ . ومات أحمدُ المقتدر سنةَ أربع وسبعين لتسع وثلاثين سنةً من مُلْكه .

فولى بعده آبنُه (يوسف المؤتمنُ) وكان له اليدُ الطُّولى فى العلوم الرياضية، وألف فيها التآليف الفائقة، مثل "المناظر" و"الآستكمال"(1) وغيرهما؛ ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

ووليَ بعده آبنُه (أحمدُ) الملقبُ بالمستعين، ولم يزل أميرا بسَرَقُسْطة إلى أن مات شهيدا سنةَ ثلاثٍ وخمسمائة فى زَحْف ملك الفَرَنج إليها .

ووليَ بعده آبنُه (عبدُ الملك) وتلقّب عِمَاد الدولة، وزحف إليه الطاغيةُ أدفونش ملك الفَرَنج فملك منه سَرَقُسْطةَ وأخرجه منها، وآستولى عليها سنةَ ثنتَيْ عشرةَ وخمسمائة، ومات سنة ثلاثَ عشرةَ .

ووليَ آبنُه (أحمدُ) وتلقّب سيفَ الدولة والمستَنْصِر، وبالغ فى النّكاية فى الطاغية ملكِ الفَرَنج، ومات سنة ست وثلاثين وخمسمائة .

وكان من ممالك بنى هُودٍ هؤلاء طُرْطُوشة، وقد كان مَلَكَها (مقاتِلٌ) أحدُ المَوَالى العامريين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، ومات سنة خمس وأربعين .

---

(1) الذى فى العبر ج ٤ ص ١٦٢ "الاستهلال" .

وملكها بعده (يَعْلىٰ العامرىُّ) ولم تُطل مدته .

وملكها بعده (نبيل)(١) أحدهم إلىٰ أن نزل عنها لعماد الدولة (أحمد بن المستعين) سنة ثنتين وخمسين وأربعمائة ، فلم تزل فى يَدِه ويد بَنِيه بعده إلىٰ أن غلب عليها العدو المخذول فيما غَلَب عليه من شرق الأندلُس .

* * *

وأما دانِيَةُ ومَيُورْقة ، فاستولىٰ عليهما (مُجاهِدُ بن على) بن يوسف مولىٰ المنصور ابن أبى عامر ؛ وذلك أنه بعد الفتنة كان قد ملك طُرْطُوشة ثم تركها وسار إلىٰ دانية واستقرّ بها ؛ وملك ميُورْقة [ومَنُورقة] وبَيَّاسة ، واستقل بملكها سنة ثلاثَ عشرةَ وأربعمائة ، وولّى عليها ابنَ أخيه (عبدالله) ثم ولّى عليها بعد ابن أخيه مولاه (الأغلب) سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة . وهلك مجاهدُ سنةَ ستٍّ وثلاثين وأربعمائة .

ووليَ ابنُه (علىّ) وتلقَّب إقبالَ الدولة ، ودام ملكه ثلاثا وثلاثين سنةً ، ثم غلبه المقتدرُ بن هُودٍ علىٰ دانيةَ سنةَ ثمانٍ وستين وأربعمائة ونقله إلىٰ سَرَقُسْطَةَ ، فمات قريبا من [وفاة المقتدر](٢) سنة أربع وسبعين وأربعمائة ؛ وبقيَ الأغلبُ مولىٰ مجاهد علىٰ مَيُورْقة ؛ وكان كثير الغزو فى البحر فاستأذن علىَّ بنَ مجاهد فى الغزو ، واستخلف علىٰ مَيُورقة صهره سليمان بن مشكيان نائبا عنه فأقام سليمانُ خَمْسَ سنين ثم مات فولّى علىّ بن مجاهد مكانَهُ (مبَشرا ، وتسمّى ناصرالدولة) فأقام خَمْسَ سنين ، وانقرض ملك علىّ بن مجاهد وتغلب عليه المقتدر بن هُودٍ فاستقلّ (مبشر) بمَيُورْقَة ولم يزل يُرَدِّدَ الغَزْوَ الى بلاد العدوّ حتّى جمع له طاغيةُ بَرْشَلُونة وحاصره بمَيُورقة عشرة

(١) فى "العبر ج ٤ ص ١٦٣" شبيل .

(٢) الزيادة من "العبر ج ٤ ص ١٦٥" .

أشهر، ثم اقتلعها منه واستباحها سنة ثمان وخمسمائة؛ وكان مبشر قد بعث بالصَّريخ إلىٰ (علىّ بن يوسف) صاحب المغرب، فلم يواف أسطوله بالمَدَد إلا بعدَ تغلُّب العدُوّ عليها وموت مبشر، فلما وصل العساكر والأسطول دفعوا عنها العدو وولّى علىُّ بنُ يوسف عليها من قبله (وانُّود بن أبى بكر اللّمتونى) ثم عَسَف بهم فولّى عليها (يحيىٰ بن علىّ بن إسحاق) بن غانية صاحب غَرْب الأندلُس فبعث إليها أخاه (محمد بن علىّ) فأقام فى وِلَايتها عشر سنين إلىٰ أن هلك أخوه يحيىٰ، وسلطانُهم علىّ بن يوسف وآستقرّت مَيُورْقة فى ملك بنى غانِيَة وكانت لهم بها دَوْلة ثم ملكها الموحِّدون وآنقرض أمرُ بَنِى غانِيَةَ وبقيتْ فى أيدى الموحِّدين حتى ملكها الفَرَنج من أيديهم آخِرَ دولتهم.

وأما غرناطة فاستولىٰ عليها (زارى بن زيرى) بن ميّاد الصنهاجى، ثم عنّ له أنْ قدِم علىٰ المعزّ بن باديس صاحب أفريقية وهو حفيد أخيه بُلُكّين، فقدم عليه وآستخلَف مكانَه بغَرْناطة ابناً له فأساء السيرةَ فيهم فأرسلوا إلىٰ آبن عمه حيُّوس بن ماكس بن زيرِى فحضر إليهم فبايعوه، وعظُم فيها سلطانُه إلىٰ أن مات سنة تسع وعشرين وأربعِمائة.

وولى من بعده آبنه (باديس بن حيّوس) وتلقب بالمظفَّر، وهو الذى مصَّر غرناطةَ وآختطّ قصَبتَها وشيد قصورَها وحصَّن أسوارها، ومات سنة سبع وسبعين وأربعِمائة، وقد ظهر أمرُ المرابطين بالمغرب.

ووليَ من بعده حافده (عبد الله بن بُلُكّين) بن باديس فبقيَ بها إلىٰ أن أجاز يوسف بن تاشفين إلىٰ الأندلُس، ونزل بغَرْناطة سنةَ ثلاث وثمانين وأربعمائة فقبض علىٰ عبدالله المذكور.

الطائفة التاسعة

(ملوك المرابطين من لمتونة : ملوك الغرب المتغلبين على الأندلس)

لما غلب أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) أمير المرابطين على بلاد المغرب وآستولى عليها، وكان الأندلس قد تقسَّم بأيدى ملوك الطوائف كما تقدم، وكان الطاغية آبن الأدفونش ملك الجلالقة قد طمع فى بلاد الأندلس، بعث أهل الأندلس إلى أمير المسلمين يستصرخون به فلبّى دعوتهم وسار إلى الأندلس .

ونزل الجزيرة الخضراء فى سنة تسع وسبعين وأربعمائة ودفع الأدفونش، وسار تارة ببلاد المغرب وتارة ببلاد الأندلس، وملك إشْبِيلِيَة وبَلَنْسِيَة، وآستقلَّ (عبد الله بن بُلُكِّين) عن غرناطة وأخاه تميما عن مالَقَة وغلب المعتمدَ بنَ عَبَّاد على جميع عمله وآستنزل آبنَه المأمونَ عن قُرْطُبَة وآبنَه الراضىَ عن رُنْدة وقَرمونة، وآنتزع بَطَلْيَوْس من صاحبها عُمَر بنِ الأفطس، وآنتزع عامّة حصون الأندلُس من أيدى ملوك الطوائف، ولم يبقَ منها إلا سَرَقُسْطَةُ فى يد المستعين بنِ هُود، وآنتظمت بلاد الأندَلُس فى ملكه وآنقرض مُلْكُ الطوائف أجمعَ منها، وآستولى على العُدْوتين وخاطب المستظهِرَ الخليفةَ العباسىَّ ببغداد فى زمنه فعقد له على المغرب والأندَلُس وكتب له بذلك عهدا وأرسله إليه، ولم يزل الأمرُ على ذلك حتّى تُوفِّى سنة خمسمائة .

وقام بالأمر بعده آبنه (علىّ بنُ يوسفَ) وفى أيامه تغلب الأدفونش على سَرَقُسْطَةَ وآستولى عليها .

وعقد علىُّ بن يوسف لولده (تاشفين) على غرب الأندلس سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة وأنزله قُرْطبةَ وإشبيليَةَ، وعقد (لأبى بكر بن ابراهيم) على شرق الأندَلُس وأنزله بلَنْسِيَةَ، وعقد (لآبن غانية) على الجزائر الشرقية : دانيةَ ومَيُورقة ومنورْقة .

وبقي الأمر على ذلك إلى أن غلب الموحِّدون على بلاد المغرب وآنتزعوها من يد تاشفين آبن على فى سنة إحدى وخمسين وملكوها .

ثم عقد عبد المؤمن أمير الموحدين لآبنه (أبى يعقوب) على إشبيليَة ، ولآبنه (أبى سعيد) على غرناطة ثم كانت أيّام يوسف بن عبد المؤمن فغزا الأندلُس ، ثم رجع إلى إشبيلِيَة سنة ثمانٍ وستين وولّى عمّه (يوسف) على بَلَنْسِيَة ، وعقد لأخيه (أبى سعيد) على غَرْناطة ، وعقد على قرطبة لأخيه (الحسن) وعلى إشبيلية لأخيه (علىّ) . ثم عقد (لأبى زيد) آبن أخيه أبى حفص على غَرْناطة ولآبن أخيه أبى محمد عبد الله بن أبى حفص على مالَقَة . ثم عقد لآبنه أبى إسحق على إشبيلية ولآبنه يحيى على قرطبة ، ولابنه أبى يزيد على غَرْناطة ولابنه أبى عبد الله على مُرْسِيَة . وقتل فى قتال النصارى فى صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

وولى آبنه (أبو يعقوبَ) ورغب آبنُ أدفونش فى مهادنته فهادنه . وعقد على إشبيلية للسيد أبى زيد بن الخليفة ، وعلى بَطَلْيَوْس لأبى الربيع بن أبى حفص ، وعلى غرب الأندلس لأبى عبد الله بن أبى حفص . ورجع إلى مرّاكش سنة أربع وتسعين وخمسمائة ومات بعدها .

وولِىَ آبنه الناصر (محمد بن المنصور) ونزل إشبيليَة ، وذلك فى صفر سنة تسع وستمائة ثم رجع إلى مرّاكُش فمات بها .

وولىَ بعده آبنه (المستنصر يوسف) وكان الوالى بمُرْسِيَة أبا محمد عبد الله بن المنصور فدعا لنفسه ، وتسمّى بالعادل ، وكان اخوته أبو العلاء صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحبَ مالَقَة فبايعوه سِرّا وخرج من

مُرْسِيَةَ إلىٰ إشبيليَةَ فدخلها وبعث إليه الموحدون بالبَيْعة، ودخل مرّاكُش فكانت بالأندلُس فِتَن آخرها أن ثار آبن هود علىٰ الأندَلُس وآستولىٰ [عليه] وأخرج منه الموحدين .

الطائفة العاشرة

(بنو الأحمر ملوك الأندلِس إلىٰ زماننا هذا)

وقد تعرّض القاضى شهابُ الدين بن فضل الله إلىٰ الذى كان فى زمانه منهم وهو (يوسف) ولم يَنْسُبْه غير أنه قال : إنه من ولد قَيْس بن سعد بن عُبَادة . ثم ذكر أنه فاضل، له يد فى الموَشَّحات .

وآعلم أن بنى الأحمر هؤلاء أصلهم من أَرْجُونة من حصون قُرْطبة وينْتسبون إلىٰ سعد بن عُبَادة سيد الخَزْرج، ولم أقف علىٰ نسبهم إليه، ويعرفون ببَنِى نصر؛ وكان كبيرهم آخِرَ دولة الموحدين الشيخُ أبو دَبُّوس (محمدُ بن يوسف) بن نصر المعروف بابن الأحمر وأخوه إسماعيل؛ وكان لهما وَجَاهة ورِياسة فى تلك الناحية .

ولما ضَعُف أمر الموحِّدين بالأندلس وآستقلَّ بالأمر محمدُ بن يوسفَ بن هُودٍ الثائر بمُرْسِيَةَ وقام بدعوة العبّاسيَّة بالأندلُس وتغلب علىٰ جميع شرق الأندلُس، ثار محمدُ بنُ يوسفَ بنِ نصر : جدُّ بنى الأحمر علىٰ محمد بنِ يوسفَ بن هود؛ وبُويع له سنةَ تسع وعشرين وستمائة، علىٰ الدعاء للأمير أبى زكريّا يحيىٰ صاحبِ أفرِيقيَّة من بقية الموحدين، وأطاعته جَيَّانُ وشَرِيش فى السنة الثانية من مبايعتِه . ثم بايع لآبن هودٍ سنةَ إحدى وثلاثين عند وصول تقليد الخليفة من بغداد لآبن هود . ثم تغلب علىٰ إشبيلِيَةَ سنة ثنتين وثلاثين، واستُعِيدت منه بعد شهر ورجعت لآبن هود

[ثم تغلب](١) على غَرْناطَةَ سنة خمس وثلاثين، وبايعُوه وهو بجَيَّان، فقدِم إليها ونزلها وآبتنى بها حِصْن الحمراء منزِلًا له، وهو المعبَّر عنه بالقصبة الحمراء: وهى القلعة؛ ثم تغلب على مالَقَةَ وأخذها من يد عبد الله بن زنون الثائر بها بعد مَهْلِك آبن هود؛ ثم أخذ المَرِيَّةَ من يد محمد بن الرميمى وزيرِ آبن هود الثائر بها سنةَ ثلاث وأربعين. ثم بايعه أهلُ لُورْقة سنةَ ثلاثٍ وستين [وآنتزعها] ممن كانت بيده. وفى أيامه وأيام آبن هود الثائر آستعاد العــدوُّ المخذُولُ من المسلمين أكثَرَ بلادِ الأندُلس وحُصونِه، وهى بيدهم إلى الآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبقِيَ حتّى مات سنة إحدى وسبعين وستمـائة.

وقام بأمره من بعده آبنُه الفقيهُ (محمد) ابن الشيخ محمد بن يوسف، وآستجاش بنى مَرِينٍ ملوكَ المغرب على أهل الكُفْر فلَبَّوْه بالإجابة؛ وكان لهم مع طاغيـة الكُفْر وقائعُ أبلغت فيهم التأثيرَ، وبلغتْ فيهـم حدَّ النِّكَاية، وبقِيَ حتّى هلك سنة إحدى وسبعمائة.

ووليَ من بعده آبنُه (محمد المخلوع) ابن محمد الفقيه.

ثم غلب عليــه أخُوه (أبو الجُيُوش نصر بن محمد) الفقيه، وآعتقله سنة ثمانٍ وسبعمائة، وآستولى على مملكته، فأساء السِّيْرَة فى الرعية، والصُّحْبَةَ لمن عنـده من غُزَاة بنى مَرِينٍ.

فبايعُوا (أبا الوليد إسماعيل) آبن الرئيس أبى سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف آبن نصر، وزحف من مالَقَةَ إلى غَرْناطةَ، فهزم عساكر أبى الجُيُوش، فصالحه على الخروج إلى وادِياش ولحق بها، فجدّد له بها مُلْكا إلى أن مات سنة ثنتين وعشرين

(١) الزيادة عن العبر ج ٤ ص ١٧٠.

وسبعمائة(١)، فدخل أبو الوليد إلىٰ غَرْناطةَ وملكها ، وكان بينه وبين مَلِك قَشْتالةَ من ملوك النصارىٰ واقعةٌ بظاهر غَرْناطةَ ظهرت فيها مُعْجِزةٌ من معجزات الدِّين لغلبة المسلمين مع قِلّتهم المشركين مع العَـدَد الكثير، وغدر به بعض قَرَابته من بني نصر فطعنه عِنْد ماانفَضَّ مَجْلِسُه بباب داره فقتله .

وبُويع لآبنه (محمد بن أبي الوليد إسماعيل) فاستولىٰ عليه وزيرُه محمدُ بن المحروق، وغلب عليه حتّٰى قتـله بمجلسه غَدْرا في سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وآستبدّ بأمر مُلْكه، وآستجاش بَنِي مَرِينٍ على طاغية الكُفْر حتّٰى آسترجع جبل الفَتْح من أيديهم سنة ثلاثٍ وثلاثين وسبعمائة(١)، وغدرُوا به بعد رجوعه من الجبل المذكور إلىٰ غَرْناطةَ فقتلوه بالرِّمَاح .

وقدّموا مكانه أخاه (أبا الحجاج يوسفَ) بنَ أبي الوليد إسماعيل وهو الذى ذكر في التعريف أنه كان في زمانه . وفي أيامه تغلب النصارىٰ علىٰ الجزيرة الخَضْراء، وأخذوها صُلْحا سـنة ثلاث وأربعين بعد حروب عظيمة ، قُتِل ولدُ السلطان أبي الحسن المَرِينيِّ في بعضها وكان هو بنفسه في بعضها ، ولم يزل حتّٰى مات يومَ الفطر سنةَ خمس وخمسين وسبعمائة(١)، طُعِن في سجوده في صلاة العيد، وقُتِل للحِينِ قاتِلُه .

ووَلِيَ مكانه آبنُه (محمدُ بن يوسف) وقام بأمره مولاهم رِضوانُ الحاجبُ [فغلبه عليـه وحجبه . وكان أخوه إسماعيل ببعض قصور الحمراء وكانت له ذِمّة وصِهْر من محمد بن عبدالله بن إسماعيل بن محمد آبن الرئيس أبي سعيد، فسلط محمد هذا بعض الزَّعَانفة فتسوّر حصنَ الحمراء علىٰ الحاجب فقتـله ، وأخرج صهره إسماعيل ونَصَّبه

(١) في الاصل ستمائة وهو خطأ .

للملك(١)] وخلع أخاه السلطان محمدا ، وكان بروضةٍ خارج الحمراء ففرّ إلى السلطان أبي سالم بن أبي الحسن المَرِينيّ : ملِكِ المغرب فأحسن نُزُله وأكرمه .

وٱستقلّ أخوه (إسماعيلُ بنُ يوسف) بالمُلْك في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم قدْرُه ، سنة ستين وسبعمائة ، وأقام السلطان إسماعيل في المُلْك بالأندلُس إلى أن مات أوّل سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

وأُقيم مكانَه أبو الحجاج (يوسف بن إسماعيل(٢)) وبايعه النـاسُ ومات سنة أربع وتسعين وسبعمائة .

وبويع ٱبنه (محمد) وهو محمد بن يوسف بن محمد المخلوع بن يوسف بن إسماعيل ٱبن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ، وقام بأمره محمد الخصاصي القائد من جماعة أبيه ، وقد شغل اللهُ طاغيةَ الكفر بما وقع بينه وبين أخيه من الفِتَن المستأصِلة ، فامتنع صاحبُ الأندلُس عمّـا كان يؤدّيه من الإتاوة للنصارى في كل سنة ، وٱمتنع ذلك من ٱستقبال سنة ثنتين وسبعين وسبعمائة وإلى هذا الوقت . ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ المُؤْمِنِينَ القِتَالَ﴾ .

*
* *

وٱعلم انه لمـا ٱفتتح المسلمون الأندلُس ، أجفلت أُمَمُ النصرانية أمامهم إلى سِيفِ البحر من جانب الجَوْف ، وتجاوَزُوا الدُّروب من وراء قَشْتالَةَ ، وٱجتمعوا بجِلِّيقِيَّةَ ومَلَّكوا عليهم (بلاية بن قاقلة) فأقام في الملك تِسعَ عشرةَ سنة ، وهلك سنةَ ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة .

(١) الزيادة عن العبرج ٤ ص ١٧٤ باختصار ليستقيم الكلام . وفي القطعة الأزهرية ... ... رضوان حاجب أبيه وعمه فأقام خمس سنين ، ثم داخل أخوه اسماعيل من قتل رضوان الحاجب وخلع الخ

(٢) لعله يوسف بن محمد كما يؤخذ من اسم ولده الآتي .

وولِيَ ٱبنُه (قاقلة) سنتين ثم هلك ، فولَّوْا عليهم بعده (أدفونش بن بَطْرة) من الجَلاَلِقَة أو القُوط ، وٱتصل الملك فى عقبه إلىٰ الآن ، فجمعهم أدفونش المذكورُ علىٰ حِمايةِ مابقِيَ من أرضهم بعد مامَلك المسلمون عامّتها ، وٱنتَهَوْا إلىٰ جِلِّيقِيَّةَ ، وهلك سنة ثنتين وأربعين ومائة لثمانَ عشرةَ سنةً من مُلْكه .

وولى بعده ٱبنُـه (فَرُّويلة) إحدىٰ عشرةَ سنةً قوِيَ فيها سلطانه ، وقارنه ٱشتغالُ «عبدِ الرحمن الداخل» : أوّلِ خُلفاء بنى أمية بتمهيد أمره ، فاسترجع مدينة لُكِّ ، وبُرْتُقَال ، وسَمُّورة ، وسلمنقة ، وشقوبيــة ، وقَشْتالةَ ، بعد أن فتحها المسـلمون وصارت فى مملكتهم ، وهلك سنةَ ثنتيْنِ وخمسين .

وولِيَ ٱبنُه (أَوْر بن فَرُّوَيْلة) ست سنين ، وهلك سنة ثمـان وخمسين .

وولِيَ ٱبنُه (شبلون) عَشْرَ سنين ، وهلك سنة ثمـان وستين .

فولَّوْا من بنى أدفونش مكانَهُ رجلا ٱسمه (أدفونش) فوثب عليه (مورفاط) فقتله وملك مكانَه سبعَ سِنِين .

ثم وَلِيَ منهم آخَرُ ٱسمه (أدفونش) ثنتين وخمسين سنةً ، وهلك سـنةَ سبع وعشرين ومائتين .

فولِيَ ٱبنُه (رُدْمِير) وٱتصل الملك فى عقبه علىٰ التوالى إلىٰ أن ولى منهم (رُدْمِير) بن أردون آخر ملوكهم المستبدّين بأمرهم . قال ٱبن حيان : فى "تاريخ الأندَلُس" : وكانت ولايته بعد ترهُّب أخيه أدفونش الملكِ قبله ، وذلك سنة تسع عشرة وثلثمائة فى زمن الناصر الأُمَوىّ الخليفةِ بالأندَلُس ، وتهيأَ للناصر الظهورُ عليــه إلىٰ أن كانت وقعةُ الخَندق سـنةَ سبع وثلاثين وثلثمائة ، وحصـل للمسلمين فيها الٱبتلاءُ العظيم ، وهلك ردمير سنةَ تسع وثلاثين وثلثمائة .

وولِىَ أخوه (شانجة) وكان مُعْجبا تيَّاها فوهَنَ مُلْكه، وضَعُف سلطانه، ووثب عليه قَوَامِسُ[(١)] دَوْلته ـ وهم وُلاةُ الأعمال من قِبَل الملك الأعظم ـ فلم ينتظِمْ لبنى أدفونش بعدها مُلْك مستقِلٌّ فى الجلالِقة إلا بعدَ حِين، وصاروا كمُلوك الطوائف.

قال ابن حيان: وذلك أن فُرْدُلَنْد قَوْمَس أَلْبَةَ والقِلاع ـ وكان أعظم القَوَامس ـ انتقض على شانجةَ المتقدّم ذكره، ونَصَّب للملك مكانَه ابن عمه (أردون بن أدفونش) واستبدّ عليه، فمالت النصرانيــة عن شانجة إليه، وظاهَرَهم ملك البشكنس على شانجة، ووفد شانجةُ على الناصر الأموىّ بقُرْطبةَ صريخا، فجهَّز معه عساكرَ واستولى على سَمُّورة فملكها وأنزل المسلمين بها، واتصلت الحربُ بين شانجـة وفُرْدُلَنْد القَوْمس. وفى خلال ذلك ولِىَ الحَكَم المستنصرُ الأموىّ، ثم هلك شانجة بن أدفونش ببَطَلْيَوْس.

وقام بأمرهم بعده ابنه (ردمير) وهلك أيضا فُرْدُلَنْد قومسُ أَلْبَةَ والقِلاع، وقام بأمره بعــده ابنه غرسية، ومات الحَكَم المستنصر فقوِىَ سلطانُ ردمير، وعظُمت نِكَايتُــه فى المســلمين إلى أن قَيَّضَ الله لهم المنصورَ بنَ أبى عامر حاجِبَ هشام؛ فأثخن فى عَمَل ردمـير وغزاه مِرارًا وحاصره، وافتتح (شَنْتَ مانكس) وخربهـا فتشاءمتِ الجلالِقةُ بردمير[(٢)]، ورجع إلى طاعة المنصور ســنة أربع وسبعين وثلثمائة؛ وهلك على أَثَرِها، فأطاعت أمه.

واتفقت الجلالِقةُ على (بُرْمُنْـد بن أردون) فعقد له المنصور على سمورة وليون وما اتصل بهما من أعمــال غليســية إلى البحر الأخضر فقبــل؛ ثم انتقض فغزاه المنصورُ سنةَ ثمــان وسبعين وثلثمائةٍ، فافتتح ليون وسمورة، ولم يبقَ بعدها للجلالِقةِ

(١) جمع قومس وهو الأمير.

(٢) أى ردمير كما يؤخذ من عبارة العبرج ٤ ص ١٨١.

إلا حُصونٌ يسيرة بالجبل الحاجز بينهم و بين البحر الأخضر ؛ ولم يزل المنصورُ به حتّٰى ضرب عليه الجزيةَ وأنزل المسلمين مدينة سَمُّورة سنة تسع وثمانين وثلثمائة ؛ وولّٰى عليها أبا الأحوص (مَعْنَ بن عبدالعزيز) التُّجيبي ؛ وسار إلىٰ (غرسية بن فُرْدُلَنْد) صاحب أُلْيَةَ فملك عليه لَشْبُونة قاعدة غليسية وخَرَّبها ؛ وهلك غرسية .

فولِيَ ٱبنُه (شانجة) فضرب عليه الجزيةَ ، وصارت الجَلاَلقةُ بأجمعهم فى طاعة المنصور وهم كالعُمَّال له . ثم ٱنتقض برمند بن أردون فغزاه المنصور حتّٰى بلغ شَنْت ياقُب ، مكانَ حَجِّ النصارىٰ ومَدْفَن يعقوب الحَوارِىِّ من أقصىٰ غليسية ؛ فأصابها خاليةً فهدمها ونقل أبوابها إلىٰ قُرْطُبَةَ ، فجعلها فى نصف الزِّيادة التى أضافها إلىٰ المسجد الأعظم . ثم ٱفتتح قاعدتهم (شَنْتَمَرِيَّةَ) سنة خمس وثمانين وثلثمائة ؛ ثم هلك برمند بن أردون ملك بنى أدفونش .

وولِيَ ٱبنُه (أدفونش) وهو سبط غرسية بن فُرْدُلَنْد صاحب أُلْيَة ؛ وكان صغيرا فكفله (منند بن غند شلب) قَوْمس غليسية ، إلىٰ أن قُتِل منند غِيلةً سنة ثمانٍ وتسعين وثلثمائة فاستقلَّ أدفونش بأمره ، وطلب القَوَامِيس المتعذِّرين علىٰ أبيه وعلىٰ مَنْ سلف من قومه مثل بنى أرغومس و بنى فُرْدُلَنْد المتقدّم ذكرهم بالطاعة فأطاعوا ودخلوا تحت أمره . ثم جاءت الفتنة البربريةُ علىٰ رأس المائة الرابعة فضَعُف أمرُ المسلمين ، وتغلَّب النصارىٰ علىٰ ما كان المنصور تغلَّب عليه بقَشْتالةَ وجِلِّيقيَّةَ ؛ ولم يزل أدفونش بن برمند مَلِكا علىٰ جِلِّيقِيَّةَ وأعمالها . ثم كان المُلْكُ من بعده فى عَقِبه إلىٰ أن كان ملوكُ الطوائف ، وتغلب المُرابِطُون ملوكُ الغرب من لَمْتُونة علىٰ ملوك الطوائف بالأندلُس ، علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ مكاتبة ٱبن الأحمر ملك المسلمين بالأندَلُس .

وفى بعض التواريخ أن مَلِكَ قَشْتالةَ الذى ضرب الجزية على ملوك الطوائف فى سنى خمسين وأربعمائة هو (البيطبين) وأنه لما هلك قام بأمره بنوه فُرْدُلُنْد ، وغرسية ، وردمير . وولى أمرهم (فُرْدُلنـد) ثم هلك ؛ وخَلَّف شانجة وغرسية والفنش فتنازعوا ؛ ثم خلص المُلْك للفنش ، وآستولى على طُلَيطِلة سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة ؛ وعلى بَلَنْسِيَةَ سنة تسع وثمانين وأربعمائة ؛ ثم آرتجعها المرابِطُون من يده حتّى آستعادها النصارى سنةَ ست وثلاثين وستمائة . وهلك الفنش سنة إحدى وخمسمائة .

وقام بأمر الجلالقة (بنته)(١) وتزوّجت ردمير ، ثم فارقته وتزوّجت بعده قمطا من اقماطها فأتت منه بولد كانوا يسمُّونه (السليطين) . وأوقع آبن ردمير بابن هُود سنة ثلاثٍ وخمسمائة الواقعةَ التى آستُشْهِد فيها ، وملك منه سَرَقُسْطةَ .

وفى بعض التواريخ أن أمر النصارى فى زمن المنصور أبى يعقوب آبن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن كان دائرا بين ثلاثة من ملوكهم الفنش ، والبيبوح ، وآبن الزند ، وكبيرهم الفنش .

ولما فَشَلَتْ ريحُ بنى عبد المؤمن فى زمن المستنصر بن الناصر ، آستولى الفنش على جميع مافتحه المسلمون من مَعاقل الأندلُس ؛ ثم هلك الفنش .

وولى آبنُه (هِرَّاندة) وكان أحولَ و بذلك يُلَقَّب ، فآرتجع قُرْطبةَ وإشْبِيلِيَةَ من أيدى المسلمين .

وزحف ملك أرغون فى زمنه فاستولى على مارِدَة ، وشاطِبَةَ ، ودانِيَةَ ، و بَلَنْسِيَةَ ، وسَرَقُسْطة ، والزَّهْراء ، والزاهرة ، وسائِرِ القواعد والثُّغور الشرقِيَّة ؛ وآنحاز المسلمون

(١) فى العبر ج ٤ ص ١٨٢ "زوجته" .

إلىٰ سِيفِ البحر ، وملَّكُوا عليهم ٱبن الأحمر بعـد ولاية ٱبن هُود . وكان ٱسترجاع الطاغية ماردَةَ سنة ستٍّ وعشرين وستِّمائة ، ومَيُورْقة سنةَ سبع وعشرين ، وبلَنْسِيَةَ سنة ستٍّ وثلاثين ، وسَرَقُسْطةَ وشاطِبَةَ قبل ذلك بزمن طويل . ثم هلك هِرَّانْدة ، ووَلِيَ ٱبنُه [شانجة](١) ثم هلك [سنةَ ثلاثٍ وتسعين](١) .

ووَلِيَ ٱبنُه (هِرَّانْدةُ) وكان بينه وبين عساكِرِ يعقوبَ بنِ عبد الحق : سلطان الغرب الواصلة إلىٰ الأندلس حروب متصلة ، الغَلَبُ فيها لعساكر ٱبن عبد الحق ؛ ثم خرج علىٰ هِرَّانْدة هـذا ٱبنه (شانجـة) فوفد هِرَّانْدةُ علىٰ السـلطان يعقوبَ بنِ عبد الحق فقبَّـل يدَه ، وٱستجاشه علىٰ ولده شانجة ، فقَبِـل وِفادَتَه ، وأمدّه بالمـال والعساكر ، ورهن عنـده علىٰ المـال التاجَ المعروفَ من ذخائر سَلَفِهم ، فهو عنـد بَنِي عبد الحق إلىٰ الآنَ .

ثم هلك هِرَّاندة سـنةَ ثلاثٍ وثلاثين وستِّمائة(٢) ، وٱستقل ٱبنه (شانجة) بالمُلْك ، ووفد علىٰ يُوسفَ بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مَهْلَك أبيه يعقوبَ بن عبد الحق وعقد معه الهُدْنة ؛ ثم نقض وٱستولىٰ علىٰ مدينة طَرِيف سـنة ثلاثٍ وتسعين وستِّمائة ؛ ثم هلك سنة ثِنْتَيْ عشرةَ وسبعمائة .

فَوَلِيَ ٱبنُه (بطرةُ) صـغيرا ، وكَفَلَه عمُّه جُوَان وهلكا جميعا علىٰ غَرْناطةَ عنـد زَحْفهما إليها سنةَ ثمـانَ عشرةَ وسبعمائة .

فوَلِيَ ٱبنُه (الهُنْشة بن بَطْرة) صغيرا وكَفَله زُعماءُ دولته ، ثم ٱستقل بأمره وهلك مُحاصِرا جبلَ الفَتْح سنةَ إحْدىٰ وخمسين وسبعمائة فى الطاعون الجارف .

---

(١) الزيادة من العبرج ٤ ص ١٨٤ .

(٢) فى العبرج ٤ ص ١٨٣ "ثلاث وثمانين" .

وولِىَ (ٱبنُه بطرةُ) وفرّ ٱبنه القَمْط إلىٰ بَرْشَلُونة فاستجاش صاحبها علىٰ أخيه بطرة فأجابه، وزحف إليه بطرة فٱستولىٰ علىٰ كثير من بلاده، ثم كان الغَلَب للقمط سنة ثمان وستين وسبعمائة، وٱستولىٰ علىٰ بلاد قَشْتالةَ، وزحفت إليهم أممُ النصرانية، ولحق بطرةُ بأمم الفَرَنج الذين وراء قَشْتالة فى الجَوْف بجهات اللمانيـة وبرطانية إلىٰ ساحل البحر الأخضر وجزائره فزَوَّج بنتـه من ٱبن ملكهم الأعظم المعروف بالبنس غالس، وأمدّه بأمم لاتُحصىٰ فَمَلَك قَشْتَالَةَ والقرنتيرة، وٱتصلتِ الحربُ بعد ذلك بين بطرة وأخيه القَمْط، إلىٰ أن غلبه القمطُ وقتله سنة ثنتيْنِ وسبعين وسبعمائة، وٱستولىٰ القمطُ علىٰ مُلْك بنى أدفونش أجمعه، وٱستقام له أمر قَشْتالةَ، ونازعه البنس غالس ملك الإفرنجة بٱبنـه الذى هو من بِنْتِ بَطْرة، وطلب له الملكَ علىٰ عادتهم فى تمليك ٱبن البنت، وٱتصلت الحرب بينهما، وشغله ذلك عن المسلمين فامتنعُوا عن أداء الإتاوة التى كانوا يؤدّونها إلىٰ مَنْ كان قبله، وهلك القمط سنة إحدىٰ وثمانين وسبعمائة.

فولِى ٱبنه (دُن جُوان) وفرّ أخوه غريس ولحق بالبُرْتُغال، وٱستجاش علىٰ أخيه بجموع كثيرة، ثم رجع إليه وٱصطلح عليه، ثم هلك دُن جُوان سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة، وَنَصَّب قومُه فى الملك ٱبنَـه بطرةَ صبيا صغيرا لم يبلُغ الحُلُم وقام بكفالته وتدبير دولتـه اليركيش خال جدّه القمط بن الهنشـه والأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن، وفتنهم مع البنس غالس ومع الفَرَنج متصـلة، وأيديهم عن المسلمين مكفوفـة ﴿ واللّٰهُ مِنْ ورائِهِمْ محيطٌ ﴾.

قلت : والممالك القائمة بجزيرة الأندلس الآن من ممالك النصرانية أربع ممالك.

المملكة الأولىٰ

(مملــكة قشــــتالة)

التى عليها سِيَاقة الحديث إلىٰ أن صارت إلىٰ بطرة بن دُن جُوَان المتقدّم ذكره .

وهى مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل علىٰ طيطلة ، واشبيلِيَةَ ، وقشتالةَ ، وغليسية والقرنبيرة وهى بسط من الغرب إلىٰ الشرق ويقال لملكها الأدفونش والعامة تسميه الفنش .

المملكة الثانيـــــــــة

(مملكة البُرْتُغال)

وهى فى الجانب الغَرْبىّ من قَشْتالةَ ، وهى عُمَالة صغيرة تشتمل علىٰ أشْبُونةَ وغَرْب الأندَلُس ، وهى الآن من أعمال جِلِّيقِيَّةَ ، إلا أن صاحبها متميز بسِمَته ومُلْكه .

المملكة الثالثــــــــة

(مملكة بَرْشَلُونة)

وهى بجهة شَرْق الأندَلُس ، وهى مملكة كبيرة ، وعُمــالاتٌ واسعة ، تشتَمِل علىٰ بَرْشَلُونة ، وأرغون ، وشاطِبةَ ، وسَرَقُسْطةَ ، وبلَنْسِيةَ ، وجزيرة دانِيَةَ ، ومَيُورْقةَ ؛ وكان مَلِكُهم بعــد العشرين والسبعمائة ٱسْمه بطرة وطال عمره ، وهلك ســنة سبع وثمانين وسبعمائة ؛ وٱنفرد أخوه الدك بملك سَرَقُسْطةَ مقاسِمًا لأخيه ثم سار بعد ذلك فى أسطول فملك جزيرة صقلية من أيدى أهلها وصارت داخلة فى أعمالهم .

المملكة الرابعة

(مملكة نَبرَّة مما يلى قشتالة من جهة الشرق، فاصلا بين عُمالات ملك قشتالة وعمالات ملك برشلونة)

وهى عُمالة صغيرة، وقاعدتها مدينة ينبلونة، وملكها ملك البشكنس . أما ماوراء الأندلُس من الفَرنج فأمم لا تحصى، وسيأتى الكلام على ذكر مَلِكهم الأكبر ريدفَرَنْس فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة السادسة

(فى ترتيب هذه المملكة)

أما مملكة المسلمين فلا يخفى أنها فى معنى بلاد المغرب . [وفى كثير من الأوقات يملكهم ملوك المغرب الأقصى، فبالضرورة إن ترتيبهم جار على ترتيب بلاد الغرب](١) .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن أهل الأندلُس فى الجملة لا يتعمَّمون، بل يتعهَّدون شُعورَهم بالتنظيف والحِنَّاء ما لم يغلِب الشَّيْبُ؛ ويتطَيْلَسون فيُلْقُون الطَّيْلَسانَ على الكتِف أو الكتِفيْنِ مَطْوِيًّا طيًّا ظريفا [والمتعمم فيهم قليل](١)؛ ويلبَسون الثيابَ الرفيعةَ الملوّنةَ من الصُّوف والكَتَّان ونحو ذلك، وأكثرُ لِباسهم فى الشتاء الجُوخُ وفى الصيف البياضُ . قال : وأرزاقُ الجُنْد به ذَهَبٌ بحسب مراتبهم، وأكثرهم من برِّ العُدْوة من بنى مَرِينٍ وبَنِى عبد الواد وغيرهم . والسلطان مسكَنُه القصور الرفيعةُ، ويقعُد السلطان للناس بدار العَدْل فى مكانٍ يُعرَف بالسبيكة من القَصَبة الحمراء التى هى القلعة يومَ الاثنيْنِ ويومَ الخميس

---

(١) الزيادة من القطعة الأزهرية .

صباحا، ويحضُر معه المجلسَ الرؤساءُ من أقاربه ونحوهم ، ويُقرأ بمجلســه عَشْرٌ من القرءان وشيءٌ من الحديث النبوىّ ، ويأخذ الوزير القِصَص من الناس فتُقْرأ عليه .

وأما الحرب فإنهم فيها سِجَـال : تارةً لهم وتارةً عليهــم ، والنصرُ فى الأغلب للمسلمين علىٰ قلّتِهم وكَثْرة عدوّهم بقوّة الله تعالىٰ . وبالبلاد البحرية أسطول الحراريق المفرّق فى البحر الشامى ، يركبهــا الأنجاد من الرُّماة والرؤساء المهرة ، فيقاتلون العــدوّ علىٰ ظهر البحر ، وهم الظافرون فى الغالب ، ويُغيرون علىٰ بلاد النصارىٰ بالساحل وما هو بقُرْبه فيأسِرُون أهلَها ذكورَهم وإناثهم ، ويأتون بهم بلاد المسلمين ، فيَبْرُزون بهم ويحملونهم إلىٰ غَرْناطة إلىٰ السلطان فيأخذ منهم ما يشاء ويُهْدِى ويَبيع .

وقد كانت لهم وَقيعة فى الإفرنج سنة تسعَ عشرةَ وسبعمائة علىٰ مَرْج غَرْناطة قُتِل فيها من الإفْرنج أكثرُ من ستين ألفا ومَلِكان : هما بطرة وجوان عمه فَفُدِيت جيفةُ جوان بأموال عظيمة ، وحملت جُثَّـة بطرة إلىٰ غَرْناطة ، فعلِّقت علىٰ باب قلعتها فى تابوت ، وٱستمرّت معلّقةً هناك ، وحاز المسلمون غنيمةً من أموالهم قلَّمـا يُذْكَر مثلها فى تاريخ ، ﴿وما النَّصْرُ إلّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم﴾ .

وقد تقــدّم فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ النوع الرابع مما يَحتاجُ إليه الكاتبُ : وهو حفظ كتاب الله تعالىٰ : أن بعضَ ملوك الفَرَنْج كتبَ إلىٰ ابن الأحمر: صاحب غَرْناطةَ كتابا يُهدِّده فيــه ، فكان جوابُه أن قَلبــه وكتب علىٰ ظهره ﴿ ارْجِعْ إلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاقِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ .

وأما ملوك الفرنج به فعلىٰ ترتيب سائر ممالك الفَرَنْج مما هو غيرُ معلومٍ لنا .

الفصـــل الثـالث
من المقـالة الثـانية

في الجهة الجَنُوبيّـة عن مَمْلكة الديار المصرية : من مصرَ والشامِ والحجازِ ، ومُضَافاتها مما هو واقع في الثاني والثالثِ والرابع من الأقاليم السبعة)

اِعلم أنه قد دخل في جِهَتي الشرق والغَرْب المتقدّمتين ذكُرُ ما كَنَ مما هو في جهة الجَنُوب عن مملـكة الديار المصرية ومُضافاتها ، آنساق الكلامُ إليهـا آستِطْرادا وآستِتْباعا : كأطْراف اليمن ، والهند ، والصِّين الجَنُوبية الخارجة عن الإقليم الثـاني إلىٰ جهة الجنوب ممـا آستتبعَتْه ممـالكُ الشرق ، والمقصود الآن الكلام علىٰ ماعدا ذلك ، وهو بلادُ السُّودان .

وهي بلاد متّسعة الأرجاء ، رَحْبَـة الجَوانِب ، حدُّها من الغرب البحرُ المحيـطُ الغربيّ ؛ ومن الجنوب الخَرَاب ممـا يلي خَطَّ الآستواء ؛ ومن [الشَّرْق] بحرُ القُلْزم مما يُقابِل بلادَ اليمن والأمكنةُ المجهولةُ الحـالِ شرقيَّ بلاد الزَّنْج في جنوبيِّ البحر الهنديّ ؛ ومن الشَّمال البراريُّ الممتدّةُ فيما بين الديار المصرية وأرض بَرْقَة ، وبلاد البربر ، من جنوبي المغرب إلىٰ البحر المحيط .

والمشهور منها ستُّ ممـالكَ :

المملـــكة الأولىٰ
(بلاد البُــجَا)

والبُجَا بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف في الآخر . وهم من أصفَىٰ السُّودان لَوْنا . قال آبن سـعيد : وهم مسلمون ونصـارىٰ وأصحاب أَوْثانـ ؛ ومواطنهم

فى جَنُوبىّ صعيد مصر مما يلى الشرقَ، فيما بين بحر القُلْزُم و بين نهر النيل، على القُرْب من الديار المصرية .

وقاعدتهم (سَوَاكِن) بفتح السين المهملة والواو وكسر الكاف ونون فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام على بحر القُلْزُم : وهى بُلَيْدة للسُّودان، حيث الطولُ ثمانٌ وخمسون درجة، والعرضُ إحدى وعشرون درجة .

قلت وقد أخبرنى من رآها أنها جزيرةٌ على طَرَف بحر القلزم من جهته الغربيَّة قريبةٌ من البرّ يسكُنها التُّجّار، وصاحبها الآن من العرب المعروفين بالحَدَارِبة ـ بالحاء والدال المهملتين المفتوحتين وألف ثم راء مهملة و باء موحدة مفتوحة وهاء فى الآخر، وله مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، و يقال فى تعريفه الحُدُرْبِىّ بضم الحاء وسكون الدال وضم الراء، على ماسيأتى ذكره فى الكلام على المكاتبات فى المقالة الرابعة فيما بعدُ، إن شاء الله تعالى .

وقد عدّ فى "تقويم البُلْدان" من مُدُن البُجَا (العَلَّاقِى) بفتح العين المهملة واللام المشدّدة ثم ألف وقاف مكسورة ثم ياء مثناة من تحتُ . من آخر الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطول ثمانٌ وخمسون درجة، والعرضُ ستٌّ وعشرون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بالقُرْب من بحر القلزم ، ولها مَغَاصٌ ليس بالجَيِّد، وبجبلها معدِنُ ذَهَب ، يَتَحَصَّل منه بقدر ما يُنْفَق فى آستخراجه . قال المهلَّبى : إذا أخذْتَ من أُسْوانَ فى سَمْت المشرق تصل إلى العَلَّاقِى بعد آثنتَىْ عشرةَ مرحلةً . قال : و بين العَلَّاقى وعَيْذابَ ثمان مراحل ومن العلّاقى يُدْخَل إلى بلاد البُجَا .

المملكة الثانيـــة

(بلاد النُّوبة)

بضم النون وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وهاء فى الآخر . ولونُ بعضهم يميل إلىٰ الصَّفاء ، وبعضُهم شـديدُ السَّوادِ . قال فى " مسالك الأبصار " : وبلادهم مما يَلِي مِصرَ فى نِهَاية جَنُوبِيِّها مما يلى المغرب علىٰ ضفتى النيل الجارى إلىٰ مصر . قال فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام علىٰ الجانب الجَنُوبىِّ : وبينها وبين بلاد النُّوبة جبال مَنِيعة .

وقاعدتها مدينة (دُنْقُلَة) . قال فى " تقويم البُلْدان " : الظاهر أنها بضم الدال المهملة وسكون النون وقاف مضمومة ولام مفتوحة وهاء فى الآخر . وما قاله هو الجارى علىٰ ألسـنة أهل الديار المصرية ، ورأيتُها فى " الروض المعطار " مكتوبةً (دَمْقَلَة) بإبدال النون ميما ، مضبوطة بفتح الدال ، وباقى الضبط علىٰ ماتقدّم . وأنشـد بيت شعر شاهدا لذلك . وموقعها فى الإقليم الأوّل من الاقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ ثمانٌ وخمسون درجة وعشر دقائقَ ، والعرضُ أربعَ عشرةَ درجة وخمسَ عشرةَ دقيقةً . قال : وفى جنوبيِّها وغربيِّها مَجَالاَت زَنْج النُّوبة الذين قاعدتهم (كوشَةُ) خلف الخَطّ ، وفى غربى دُنْقُلَةَ وشماليِّها مُدُنُهم المذكورة فى الكتب . قال الإدريسىّ : وهى فى غربىِّ النيل علىٰ ضَفَّته وشُرْب أهلها منه . قال : وأهلها سُودانٌ لكنهم أحسنُ السُّودان وجوهًا ، وأجملُهم شـكْلا ، وطعامُهم الشـعيرُ والذُّرة والتمر يُجْلَبَ إليهـم ، واللحوم التى يسـتعملونها لحومُ الإبل : طَرِيَّةً ومقدّدةً ، ومَطْبوخةً[1] . وفى بلادهم الفِيَلة ، والزَّرَاريف ، والغِزْلان .

(١) فى التقويم "ومطحونة" وهو تصحيف .

قال فى "مسالك الأبصار" : ومُدُنها أشبه بالقُرىٰ والضِّياع من المُدُن، قليلةُ الخــير والخِصْب، يابسـةُ الهَوَاء . قال : وحدَّثنى غيرُ واحد ممن دخل النُّوبةَ : أن مدينةَ دُنقُلَة ممتدّةٌ علىٰ النيل، وأهلها فى شَظَف من العيش، والحُبوبُ عندهم قليـلةٌ إلا الذُّرة، وإنمـا تكثُرُ عندهم اللحومُ والألبـانُ والسَّمك . وأفخرُ أطْبِختهم أن تُطْبَخ اللُّوبِيَـا فى مَرَق اللحم، ويُثْرَد ويُصَفُّ اللحم واللُّوبيـا علىٰ وجه الثَّريد . وربَّمـا عُمِلت اللُّوبيا بورَقها وعُرُوقها . قال : ولهم آنهماك علىٰ السُّكْر بالمِزْر وميْل عظيم إلىٰ الطَّرَب .

ولمـا خاف بنو أيُّوبَ نورَ الدِّين الشهيدَ صاحبَ الشام علىٰ أنفسهم حينَ هَمَّ بقصْدهم، بعث السلطانُ صـلاحُ الدِّين أخاه شمسَ الدولة إلىٰ (النُّوبة) ليأخُذها لتكون مَوْئلا لهم إذا قصـدهم، فرأَوْها لاتصلُح لمثلهم، فعدَلُوا إلىٰ اليمن وآستَوْلَوْا عليها، وجعلوها كالمَعْقِل لهم . قال آبن سعيد : ودِينُ أهل هذه البلاد النصرانيةُ . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن هــذه البلاد نَجَم "لُقمانُ الحكيمُ" ثم سكَنَ مدينة أيْلَة، ثم دخل إلىٰ بيت المَقْدِس . ومنها أيضا "ذُو النون المِصْرىُّ" الزاهدُ المشهورُ، وإنما سمى المِصْرىّ لأنه سكن مِصر فنُسِب إليها . وكان ملوكها فى الزمن القــديم وسائرُ أهلها علىٰ دِين النَّصْرانية، فلمـا فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مِصْرَ غزاهم . قال فى "الروض المِعْطار" : فرآهم يرمُون الحَدَق بالنَّبْل، فكَفَّ عنهم، وقرّر عليهم إتاوةً فى كل سـنة . قال صاحب "العبر" : وعلىٰ ذلك جرىٰ ملوكُ مصر بعده، وربما كانوا يمـاطلون بذلك ويمتنعون من أدائه، فتغزُوهم عساكرُ المسلمين من مصر حتّٰى يُطيعوا، إلىٰ أن كان ملكهم فى أيام الظاهر بيبَرْس رحمه الله، رجلا آسمه (مرقشْنكُر) وكان له آبن أخٍ آسمـه (داود) فتغلب عليه، وآنتزع الملكَ من يَدِه، وآستفحل مُلْكُه بها، وتجاوز حدودَ مملكته قريبَ (أُسوانَ) من آخر صعيد

الدّيار المصرية ؛ فقدم (مرقشنكز) المذكورُ على الظاهر بيبرس بالدّيار المصرية ، وآستنجده على آبن أخيه (داود) المذكور ؛ فجهّز معه العساكرَ إلى بلاد النُّوبة ، فانهزم (داودُ) ولحق بمملكة الأبواب من بلاد السُّودان ، فقبض عليه ملِكُها وبعث به مقيّدا إلى الظاهر بيبرس ؛ فاعتُقِل بالقلعة حتّى مات ؛ وآستقرّ (مرقشنكز) فى مُلْك النُّوبة على جزية يؤدّيها فى كل سنة ، إلى أن كانت دولة المنصور (قلاوون) ثم آستقرّ بمملكة دنقلة فى الدولة المنصورية (قلاوون) رجل اسمه سيماءون وغزته عساكر قلاوون سنة ثمانين وستّمائة .

ثم ملكهم فى أيام الناصر "محمد بن قلاوون" رجل آسمه (أمَىْ) وبقِىَ حتّى تُوفّى سنة ستَّ عشرةَ وسبعمائة .

وملك بعده دُنقُلةَ أخوه (كرنبس) .

ثم خرج من بيت الملك منهم رجل آسمه (نشلى) فهاجر إلى مصر، وأسلم وحَسُن إسلامه ، وأقام بمصر بالأبواب السُّلطانيــة ، وأجرى عليه السلطانُ الملك النــاصر رِزْقا ، ولم يزل حتّى آمتنع (كرنبس) من أداء الجزية سنة ستَّ عشرةَ وسبعمائة ، فجهّز إليه السلطانُ العساكر مع نشلى المقدّم ذكره ، وقد تسمّى عبدَ الله ففرّ كرنبس إلى بلاد الأبواب ، فآستقرّ (عبد الله نشلى) فى ملك دُنقُلة على دين الإســلام ، ورجعت العساكرُ إلى مصر، وبعث الملكُ الناصرُ إلى ملك الأبواب فى أمر كرنبس فبعث به إليه ، فأسلم وأقام بباب السلطان ، وبقِىَ نشلى فى الملك حتّى قتله أهل مملكته سنة تسعَ عشرةَ وسبعمائة ، فبعث السلطان كرنبس إليهم فملكهم وآنقطعت الجزيةُ عنهم من حين أسلم ملوكُهم . قال فى "العبر" : ثم آنتشرتْ أحياءُ جُهينة من العرب فى بلادهم وآستوطنوها ، وعاثُوا فسادًا ؛ وعجز مُلوكُ النُّوبة عن مدافعتهم ،

فصاهروهم مصانعةً لهم ، وتفرّق بسبب ذلك مُلْكُهم حتّى صار لبعض جُهَيْنَة من أُمّهاتهم علىٰ رأْى العجم فى تمليك الأُخْت وٱبن الأُخْت ؛ فتمزّق مُلْكُهُم وٱستولَتْ جُهَينـةُ علىٰ بلادهم ، ولم يُحْسِنُوا سـياسة المُلْك ، ولم ينقَـدْ بعضهم إلىٰ بعض ، فصاروا شِـيَعًا ولم يبْقَ لهـم رسمُ مَلِك ، وصاروا رَحَّالة باديةً علىٰ عادة العرب إلىٰ هذا الزمان .

وذكر فى "مسالك الأبصـار" : أن ملكها الآن مُسْـلِم من أولاد (كنز الدولة) قال : وأولاد الكنز هؤلاء أهلُ بيتٍ ثارت لهم ثوائرُ مَرَّات . فيحتمل أن أولاد الكنز من جُهَينة أيضا جمعا بين المقالتين .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أنَّ سلطانَهم كواحد من العـامّة ، وأنه يَأْوِى الغرباءُ إلىٰ جامع دُنْقلةَ فيُرسِل إليهم ، فيأتونه فيُضيفُهم ويُنْعِم عليهـم هو وأمراؤُه ، وأن غالب عطائهم الدَّكاديك : وهى أكسيةٌ غلاظ غالبها سُود . وربما أعطَوْا عَبْدا أو جاريةً .

(وقد ذكر فى "الروض المعطار" : أن عمرَو بنَ العاص رضى الله عنه قصد قتالَ النُّوبة فرآهم يرمُون الحَدَق بالنَّبـل فكَفَّ عنهم ، وقرّر عليهم إتاوةً من الرَّقيق فى كل سنة) (١) ، ولم تزل ملوكُ مصر تأخُذ منهم هذه الإتاوةَ فى أكثر الأوقات حتّى ذكر فى "مسالك الأبصار" أنه كان عليهم فى زمنه مُقرَّرٌ لصاحب مصرَ فى كلّ سنة من العبيد ، والإماء ، والحِراب ، والوُحوش النُّوبية .

قلت : أمّا الآنَ فقد ٱنقطع ذلك . ﴿وربُّك يَخْلُق ما يَشاءُ ويَخْتار﴾ .

---

(١) هذه الجملة مضبب عليها فى القطعة الأزهرية اشارة الى الاستغناء عنها .

المملكة الثالثة

(بلاد البَرْنُو)

وبلاد البرنو ــ بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو . وهم مسلمون والغالب على ألوانهم السواد قال في " التعريف " : وبلاده تَحُدُّ بلاد التَّكْرُور من الشرق، ثم يكون حدّها من الشَّمال بلادَ أفرِيقِيَّةَ، ومن الجنوب الهَمَج .

وقاعدتهم مدينة (كَاكَا) بكافين بعد كلٍّ منهما ألف فيما ذكر لى رسولُ سلطانهم الواصلُ إلى الدّيار المصرية صحبةَ الحجيج فى الدولة الظاهرية (بَرْقوق) . وقد تعرّض إليها فى " مسالك الأبصار " فى تحديد مملكة مالِّى على ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

ومن مدنهم أيضا مدينة (كُتْنِسْكِي) بكاف مضمومة وتاء مثناة فوقية ساكنة ونون مكسورة وسين مهملة ساكنة وكاف مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية . وهى شرقيَّ (كَاكَا) على مَسِيرة يوم واحدٍ منها .

قلت : وقد وصل كتاب ملك البَرْنُو فى أواخر الدولة الظاهرية (بَرْقوق) يذكر فيه أنه من ذرِّية " سيف بن ذى يزن " الا أنه لم يحقق النسب فذكر أنه من قريش وهو غلط منهم فان "سيف بن ذى يزن" من أعقاب تبَابعةِ اليمن من حِمْيَر. على ما يأتى ذكره فى الكلام على المُكاتَبات ، فى المقالة الرابعة فيما بعدُ ، إن شاء الله تعالى .

ولصاحب البَرْنُو هذا مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، يأتى ذكرُها هُناك إن شاء الله تعالى .

المملكة الرابعـــــة

(بلادُ الكانِم)

والكانِم بكاف بعدها ألفٌ ثم نون مكسورةٌ وميم فى الآخر. وهم مسلمون أيضا والغالب على ألوانهم السَّوادُ . قال فى "مسالك الأبصار" : وبلادهم بين أفْرِيقِيَّةَ وبَرْقة ، ممتدّةٌ فى الجنوب إلى سَمْت الغَرْب الأوسط . قال : وهى بلادُ قَحْطٍ ، وشَظَف ، وسُوء مِزاج مستولٍ عليها . وغالب عيشهم الأَرُزّ ، والقمح ، والذُّرَة ؛ وببلادهم التِّين ، والليمون ، واللِّفت ، والباذِنْجان ، والرُّطَب . وذكر عن أبى عبدالله السلايجى ، عن الشيخ عثمان الكانمىّ وغيره أن الأُرُزَّ ينبُتُ عندهم من غير بَذْر . ومعاملتهم بقُماش يُنْسَج عندهم اسْمُه دندى ، طول كلّ ثوب عشرةُ أذرع فأكثر . قال : ويتعاملون أيضا بالوَدَع ، والخَرَز ، والنُّحاس المكسور ، والوَرَق ، لكنه جميعه يسعَّر بذلك القماش .

وذكر ابن سعيد : أن فى جَنوبيِّها صَحارىَ فيها أشخاصٌ متوحِّشة ، كالغُول أقربُ الحيوانات إلى الشَّكْل الآدمىّ ، تُؤذى بنى آدَمَ ولا يلحَقُها الفارس .

وذكر أبو عبد الله المَرَّاكُشىّ فى كتابه "التكملة" عن أبى إسحاق إبراهيم الكانمىّ الأديبِ الشاعر : أنه يظهر ببلاد الكانِم فى الليل أمامَ الماشى بالقُرْب منه قُلَل نار تُضِىء ، فإذا مشى بَعُدتْ منه ، فلا يصل إليها ولو جرى ، بل لا تزال أمامَه ، وربما رماها بحَجَر فأصابها ، فيتشظّى منها شَراراتٌ . قال فى "مسالك الأبصار" : وأحوالُها وأحوالُ أهلها حَسنةٌ ، وربما كان فيهم من أخذ فى التعليم ، ونَظَر من الأدب نَظْرة النجوم فقال إنى سَقيم ؛ فما يزال يُداوى عَليل فَهْمه ، ويُدارِى جامح علمه ، حتّى تشرق عليه أشعتها ، ويطَرِّز بديباجه أمتعتها .

وقاعدتها (مدينة جيمى) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الجيم وبالياء المثناة تحتُ الساكنة وكسر الميم ثم ياء مثناة تحتية فى الآخر حسب مادو فى خط ابن سعيد . وموقعها فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ ثلاثٌ وخمسون درجة ، والعرضُ تسعُ درج ، وبها مَقَرّة سلطانهم . قال فى "مسالك الأبصار" : ومبدأ هذه المملكة من جهة مصر بلدة اسمها (دلا) وآخِرُها طُولا بلدة يقال لها (كاكا) وبينهما نحوُ ثلاثة أشهر . وقد تقدّم أن كاكا هى قاعدةُ سلطان البَرْنو . وبينها وبين جيمى أربعون ميلا . قال وبها فواكهُ لاتُشْبِه فواكِهَ بلادنا ، وبها الرُّمان ، والخَوْخ ، وقَصَب السُّكَّر . قال فى "مسالك الأبصار" : وسلطان هذه البلاد رجل مسلم . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهو من ولد «سيف بن ذى يزن» . قال فى "مسالك الأبصار" : وأول من بثّ الإسلامَ فيهم الهادى العثمانىّ ، ادّعى أنه من ولد «عثمان بن عفّان» رضى الله عنه وملكها ، ثم صارت بعده لليَزَنِيِّين .

وذكر فى "التعريف" : أن سلطان الكانِم من بيتٍ قديم فى الإسلام ، وقد جاء منهم من ادّعى النسبَ العلوىَّ فى بنى الحَسَن . ثم قال : وتمذهَبَ بمذهب «الشافعىّ» رضى الله عنه . قال فى "مسالك الأبصار" : ومِلكهم على حَقارة سُلْطانه ، وسُوء بُقْعة مكانه ، فى غاية لاتُدْرك من الكِبْرياء ، يمسَحُ برأسه عَنان السماء ، مع ضَعْف أجناد ، وقلة متحصَّل بلاد ، لايراه أحد إلا فى يوم العيدين بُكْرةً وعند العصر . أما فى سائر السنة فلا يكلّمه أحد ولو كان أميرا إلا من وراء حِجاب . قال : والعدل قائم فى بلادهم ، ويتمذهبون بمذهَب الإمام «مالك» رضى الله عنه ، وهم ذَوُو اختصار فى اللباس ، يابسون فى الدِّين ، وعسكرهم يتلثَّمون ، وقد بنَوْا مدرسةً للمالكية بالفُسْطاط ينزِل بها وُفُودهم .

المملكة الخـامســـــــة

(بلاد مالِّى ومُضافاتها)

و(مالِّى) بفتح الميم وألف بعدها لامٌ مشدَّدة مفخَّمة وياء مثناة تحتُ فى الآخر. وهى المعروفة عند العامّة ببلاد (التَّكرور). قال فى "مسالك الأبصار": وهذه المملكة فى جَنُوب المغرب، متَّصلةٌ بالبحر المحيط. قال فى "التعريف": وحدّها فى الغرب البحرُ المحيط، وفى الشرق بلاد البَرْنُو، وفى الشَّمال جبال البَرْبر، وفى الجنوب الهَمَج. ونقل عن الشيخ سعيد الدَّكَّالى: أنها تقع فى جنوب مَرَّاكُش ودواخل بَرّ العُدْوة جنوبا بغرب إلىٰ البحر المحيط. قال فى "مسالك الأبصار": وهى شديدةُ الحَرّ، قَشِفَة المعيشة، قليلةُ أنواع الأقواتِ؛ وأهلها طِوَال فى غاية السواد وتَفَلْفُل الشُّعور، وغالب طُول أهلها من سُوقهم، لا من هَيَاكل أبدانهم. قال ابن سعيد: والتَّكْرور قسمان: قسم حَضَر يسكُنون المُدُن، وقسم رَحَّالة فى البَوَادى.

وقد حكىٰ فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ سعيد الدَّكَّالى: أن هـذه المملكة مُربَّعة، طولها أربعةُ أشهر أو أزيدُ، وعرضُها مثـلُ ذلك؛ وجميعها مسكونةٌ إلا ماقلَّ، وهذه المملكة هى أعظم ممالك السُّودان المسلمين.

وتشتمل علىٰ ثمانِ جُمَل:

الجمـلة الأولىٰ

(فى ذكر أقاليمها ومُدُنهـا)

وقد ذكر صاحب "العبر": أنها تشتمل علىٰ خمسة أقاليمَ كل إقليم منها مملكةٌ بذاتهـا.

الإقلـــيم الأوّل
(مالّي)

وقد تقدّم ضبطه . وهو إقليمٌ واسطة الأقاليم السبعة الداخلةِ فى هـذه المملكة ، واقعٌ بين إقليم صُوصُو و إقليم كَوْكَوْ : صُوصُو من غربيه ، وكَوْكَوْ من شرقِيّه .

وقاعدته على ما ذكره فى "مسالك الأبصار" : مدينة (بَنْى)(١) قال فى "مسالك الأبصار" : بالباء الموحدة والنون ثم الباء الموحدة أيضا . قال : وهى ممتـدّة تقديرَ طُول بريد فى عرض مثـل ذلك ؛ ومَبَانيها متفرّقة ، وبنـاؤُها بالبالستا . وهو أنه يُبْنىٰ بالطين بقدر ثُلُثَىْ ذراع ، ثم يُتْرك حتّى يجِفّ ، ثم يُبْنىٰ عليه مثلُه ، وكذلك حتّى ينتهِىَ ؛ وسقُوفُها بالخشب والقَصَب ، وغالبها قِبَاب أو جَمَلُونات كالأقباء ؛ وأرضُها تُرابٌ مُرْمِل ، وليس لها سُور ، بل يستديرها عدّةُ فُرُوع من النيل من جهاتها الأربع ، بعضُها يُخَاض فى أيام قِلّة المـاء ، وبعضها لا يُعْبَر فيه إلا فى السُّفُن . وللملك عدّة قُصُور يدور بها سُورٌ واحد .

الإقلـــيم الثـانى
(صُوصُو)

بصادين مهملتين مضمومتين ، بعد كلٍّ منهما واو ساكنة . وربمـا أبدلوا الصادَ سينا مهملةً سُمِّى بذلك باسم سُكّانه . قال فى "العبر" : وهم يسمُّونها الانكارية . وهو فى الغرب عن إقليم مالّى المقدّم ذكْرُه فيما ذكره فى "العبر" عن بعض النَّقَلة .

---

(١) فى القطعة الأزهرية " مدينة بيتى بكسر الياء المثناة تحت وسكون الياء الثانية وكسر المثناة فوق و ياء مثناة تحت فى الآخر " .

الإقلـــــيم الثـــالث

(بلاد غانَة)

بفتح الغين المعجمة وألف ثم نون مفتوحة وهاء فى الآخر . وهى غربىّ إقليم صُوصُو المقدّم ذكْرُه تُجاوِر البحرَ المحيط الغربىّ .

وقاعدته (مدينة غانَة) التى قد أُضِيف إليها . قال فى " تقويم البُلْدان " : وموقعُها خارجَ الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلى الجَنُوب . قال ٱبن سعيد : حيثُ الطول [تسعٌ وعشرون درجة] (١) والعرضُ عشرُ دَرَج . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى محلُّ سلطانِ بلاد غانَةَ .

وقد حكى ٱبن سعيد : أن لِغانَةَ نِيلاً شقِيقَ نِيل مصر ، يَصُب فى البحر المحيط الغربى عند طُول عَشر درج ونصفٍ ، وعرضِ أربعَ عشرةَ . وإليها تسير التُّجّار المغاربةُ من سِجِلْماسة فى برٍّ مُقْفِر ومفاوِزَ عظيمة فى جَنُوب الغرب نحوَ خمسين يوما ، فيكون بين غانَةَ وبين مَصَبِّه نحوُ أربعِ دَرَج . وهى مبنِيَّة على ضَفَّتَىْ نِيلها هـذا . قال فى "العبر" : وكان أهلُها قد أسلموا فى أوّل الفتح الإسلامى .

وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" : أنها مدينتانِ على ضفَّتَىْ نيلها ، إحداهما يسكُنها المسلمون والثانية يسكنها الكُفَّار .

وقد ذكر فى " الروض المِعْطار" : أن لصاحب غانةَ مَعْلَفين من ذهب ، يُرْبَط عليهما فرسان له أيامَ مَقْعده .

---

(١) الزيادة عن التقويم نقلا عن ٱبن سعيد .

الإقليـــم الرابع
(بلاد كَوْكَوْ)

وهى شرقىّ إقليم مالّى المقدم ذكره . قال فى "الروض المِعْطار" : ومَلِكها قائم بنفسه ، له حَشَم وقُوّاد وأجنادٌ وزىٌّ كامل ، وهم يركَبُون الخيل والجمالَ ، ولهم بأسٌ وقَهْر لمن جاورهم من الأُمَم . قال : وبها ينبُتُ عودُ الحيَّة : وهو عود يُشْبِه العاقِر قَرْحا ، إلا أنه أسودُ ، من خاصَّته أنه إذا وُضع على جُحْر الحيَّة خرجتْ إليه بسُرْعة ، ومن أمسكه بيده أخذ من الحيَّات ما شاء من غير جَزَع يُدْرِكه أو يقعُ فى نَفْسه . ثم قال : والصحيح عند أهل المغرب الأقصى أن هذا العُودَ إذا أمسكه مُمْسِك بيده أو علَّقه فى عُنُقه لم تقرَبْه حيةٌ البتَّةَ .

وقاعدته (مدينة كَوْكَوْ) بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدها . وموقعها فى الجَنُوب عن الإقليم الأوّل قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ أربعٌ وأربعون درجة ، والعرضُ عشرُ دَرَج . قال : وهى مَقَرُّ صاحب تلك البلاد . قال : وهو كافر يقاتل مَنْ غربيَّه من مسلمى غانة ومَنْ شرقيَّه من مسلمى الكانِم .

وذكر المهلَّبى فى العزيزى أنهم مسلمون ، وبينها وبين مدينة غانةَ مسيرةُ شهر ونصف . قال فى "الروض المِعطار" : وهى مدينة كبيرةٌ على ضَفَّة نَهَر يخرج من ناحية الشمال ، يمرّ بها ويجاوزُها بأيام كثيرة ، ثم يغُوص فى الصَّحْراء فى رِمَال كما يغُوص الفُراتُ فى بطائح العراق . قال ابن سعيد : وكَوْكَوْ فى شرقىّ النهر ؛ ولباس عامَّة أهلها الجُلُود يستُرون بها عَوْراتِهم ؛ وتُجَّارهم يلبَسُون الأكْسِيَةَ ، وعلى رُءُوسهم الكرازين ، ولِبْس خَوَاصِّهم الأزرقُ . قال فى "مسالك الأبصار" : وسُكَّانها قبائلُ يرنان من السُّودان .

الإقلـــيم الخـامس

(بلاد تَكْرُور)

وهى شرقىّ إقليم (كَوْكَوْ) المقدّم ذكره، ويليه من جهة الغرب مملكة (البرنو) المتقدّمةُ الذكر؛ وبها عُرِفت هذه المملكة علىٰ كبرها واشتهرت.

وقاعدته (مدينة تَكْرُور) بفتح التاء المثناة فوقُ[1] وسكون الكاف وضم الراء المهملة وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر. قال فى "الروض المِعْطار": وهى مدينة علىٰ النِّيل علىٰ القرب من ضِفَافِه أكبرُ من مدينة سَـلَا من بلاد المغرب؛ وطعامُ أهلها السمكُ، والذُّرة، والألبانُ؛ وأكثرُ مواشيهم الجمـال، والمَعَز؛ ولباسُ عامَّة أهلها الصُّوف، وعلىٰ رءوسهم كَرَازِينُ صُوف؛ ولباس خاصَّتهم القُطن والمآزر. قال: وبينها وبين سِجِلْماسَـةَ من بلاد المغرب أربعُون يوما بسير القوافل؛ وأقربُ البلاد إليها من بلاد لَمْتُونَةَ بالصحراء آسِفِي بينهما خمسٌ وعشرون مرحلة. قال: وأكثر مايُسافِرُ به تُجَّار الغرب الأقصىٰ إليها الصُّوف، والنُّحاس، والخَرَز؛ ويخرُجون منها بالتِّبر، والخَدَم. قلت: وذكر فى "مسالك الأبصار": أن هـذه المملكة تشتمل علىٰ أربعة عشر إقليما. وهى غانةُ، وزافُون، وترنكا، وتكرور، وسنغانة، وبانبغو، وزرنطابنا، وبيترا، ودمورا، وزاغا، وكابرا، وبراغودى، وكَوْكَوْ، ومالِّى. فذكر أربعة من الأقاليم الخمسة المتقدّمة الذكر، وأسقط إقليم صُوصُو، وكأنها قد اضمحلَّتْ وزاد باقِيَ ذلك، فيحتمل أنها انضافَتْ إلىٰ صاحبها يومئذ بالفتح والاستيلاء عليها.

قال فى "مسالك الأبصار": وفى شمالىّ بلاد مالِّى قبائلُ من البربر بيضٌ تحت حكم سلطانها: وهم يَنْتَصِر، ونيتغراس، ومدوسة، ولَمْتونة؛ ولهم أشياخ تحكم عليهم

(١) ضبطه المجد بالضم ولم يتعقبه شرحه ففيه لغتان.

إلا ينتصر ، فإنهم يتداولهم ملوكٌ منهم تحت حكم صاحب مالّي . قال : وكذلك فى طاعته قوم من الكفار بعضهم يأكل لحمَ الآدميين . ونقل عن الشيخ سعيد الدّكّالى : أن فى طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب . وهم بلاد هَمَج ، وعليهم إتاوة من التبر تُحمَل إليه فى كل سنة ، ولو شاء أخذهم ولكن ملوكُ هذه المملكة قد جرّبوا أنه ما فُتِحت مدينةٌ من هذه المُدُن وفشا بها الإسلام، ونَطَق بها داعى الأذان ، إلا قَلّ بها وجودُ الذهب ثم يتلاشىٰ حتّى يعدم ، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار، فرَضُوا منهم ببذل الطاعة ، وحِمل قُرّر عليهم . وذكر نحو ذلك فى "التعريف" فى الكلام علىٰ غانة .

الجملة الثانية

(فى الموجود بهذه المملكة)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ سعيد الدّكّالى[1] : أن بها الخيلَ من نوع الأكاديش التتريّة . قال : وتُجلَب الخيل العِراب إلىٰ ملوكهم، يتغالَون فى أثمانها ، وكذلك عندهم البِغال ، والحَمِير ، والبَقَر ، والغنم ، ولكنّها كلّها صغيرة الجُثّة ، وتلد الواحدةُ من المَعَز عندهم السبعةَ والثمانيةَ ، ولا مَرْعىٰ لمواشيهم ، إنما هى جَلّالة علىٰ القُمَامات والمَزابل . وبها من الوحوش الفِيَلة ، والآساد ، والنُّمورة ، وكلّها لا تُؤْذى من بنى آدم إلا مَنْ تعرّض لها . وعندهم وحش يسمّى (تُرُمّى) بضم التاء المثناة والراء المهملة وتشديد الميم ، فى قدر الذئب ، يتولد بين الذئب والضَّبع لا يكون إلا أُنْثىٰ : له ذكر وفرج ، متىٰ وَجَد فى الليل آدميًّا صغيرا أو مُراهِقا أكله . ولا يتعرّض إلىٰ أحد فى النهار ، وهو ينْعَر كالثور ، وأسنانه متداخلة . وعندهم تماسيحُ عِظام منها ما يكون

---

(١) نسبة إلىٰ دكالة قال فى القاموس كرمانة . وفى المعجم بالفتح بلد بالمغرب

طوله عشرة أذرع وأكثر، ومرارته عندهم سمٌّ قاتل تحمل إلى خزانة ملكهم . وعندهم بقر الوحش، وحمير الوحش، والغزلان . وفيما يسامت سجلماسة من بلادهم جواميس متوحّشة تصاد كما يصاد الوحش . وبها من الطيور الدواجن الإوزّ، والدّجاج، والحمام . وبها من الحبوب الأرزّ، والغوثى : وهو دق مزغّب، يدرس فيخرج منه حبّ أبيض شبيه بالخردل فى المقدار أو أصغر منه ، فيغسل ثم يطحن ويعمل منه الخبز، وهذا الحب هو والأرزّ هما غالب قوتهم، وعندهم الذّرة وهى أكثر حبوبهم، ومنها قوتهم وعليق خيولهم ودوابّهم، وعندهم الحنطة على قلّة فيها ، أما الشعير فلا وجود له عندهم ألبتة ، وعندهم من الفواكه البستانية الجمّيز وهو كثير لديهم، وعندهم أشجار بريّة ذوات ثمار مأكولة مستطابة، منها شجر يسمّى تادموت يحمل شيئا مثل القواديس كبارا فى داخلها شىء شبيه بدقيق الحنطة، ساطع البياض ، طعمه مزٌّ لذيذ يأكلون منه ، وإذا جفّ جعلوه على الحناء فيسوّده كالنوشادر، ومنها شجر يسمّى زبيزور تخرج ثمرته مثل قرون الخرّوب فيخرج منها شىء شبيه بدقيق الترمس حلو لذيذ الطعم، له نوى . ومنها شجر يسمّى قومى ، يحمل شبيه السفرجل، لذيذ الطعم يشبه طعم الموز، وله نوى شبيه بغضروف العظم، يأكله بعضهم معه . ومنها شجر اسمه فاريتى، حمله شبيه بالليمون وطعمه يشبه طعم الكمّثرى بداخله نوى ملحم، يؤخذ ذلك النوى وهو طرىّ، فيطحن فيخرج منه شىء شبيه بالسمن يجمد، وتبيّض به البيوت، وتوقد منه السّرج، ويعمل منه الصابون ، وإذا قصد أكله وضع فى قدر على نار ليّنة ، ويسقى الماء حتّى يقوى غليانه وهو مغطّى الرأس، ويسارق كشف الغطاء فى انعقاده، فانه متى كشف القدر فار ولحق بالسقف . وربما انعقد منه نار فأحرق البيت، فإذا نضج برّد، وجعل فى ظروف القرع، وصار يستعمل فى المأكل كالسّمن . ومتى جعل فى غير ظروف القرع

من الآنية خَرَقها . ويُوجَد بها من الثمرات البرّيّة ماهو شَبِيه بكل الفواكه البُستانِيّة على اختلاف أنواعها ، ولكنها حِرِّيفةٌ لا تُستطاب ، يأكلها الهَمَج من السُّودان ، وهى قُوتُ كثيرٍ منهم .

وبها من الخَضْراوات اللُّوبياء ، واللِّفت ، والثُّوم ، والبَصَل ، والباذِنْجان ، والكُرُنْب ؛ أما المُلُوخِيّة فلا تطْلُعُ عندهم إلا بَرِّيّة ، والقَرْع عندهم بكَثْرة . وعندهم شيءٌ شَبِيه بالقُلْقاس إلا أنه ألَذُّ من القُلْقاس ، يُزْرَع فى الخَلاء فإن سَرَق منه سارقٌ ، قَطَع المَلِكُ رأسَه وعَلَّقه مكانَ ماقُطِع منه ، عادةً عندهم يتوارَثُونها خَلَفا عن سَلَف ، لا تُوجَد فيها رُخْصة ، ولا تنفَع فيها شَفاعةٌ .

وجبالُها ذواتُ أشجار مشتَبِكةٍ ، غليظةِ السُّوق إلى الغاية ، تُظِلُّ الواحدةُ منها خَمْسَمِائة فارسٍ . وفيها بغانَةَ وما وراءها فى الجَنُوب من بلاد السُّودان الهَمَج معادِنُ الذهب .

وقد حكى فى "مسالك الأبصار" عن الأمير أبى الحسن علىّ بن أمير حاجب عن السلطان (منسا موسى) سلطان هذه المملكة : أنه سأله عند قُدومه الديارَ المصرية حاجًّا عن معادن الذهب عندهم — فقال : تُوجد على نوعين : نوع فى زمان الربيع ينْبُت فى الصحراء ، له ورق شَبِيه بالنجيل ، أصوله التبر . والثانى يُوجَد فى أماكن معروفة على ضَفَّات مَجارى النيل ، تُحفَر هناك حفائرُ فيُوجد فيها الذهبُ كالحجارة والحصى ، فيؤْخَذ . قال : وكلاهما هو المسمّى بالتِّبْر . ثم قال : والأوّل أفخل(١) فى العيار ، وأفضلُ فى القيمة . وذكر فى "التعريف" نحوه . وذكر عن الشيخ عيسى الزواوىّ عن السلطان (منسا موسى) المقدّم ذكره أيضا أنه يُحْفَر فى معادن الذهَب كُلُّ حفيرة عمقُ قامة أومايقاربها ، فيُوجد الذهب فى جَنَباتها . وربما وُجد مجتمعا فى سُفْل

(١) فى الأصل والأول أ ... ... فى الخيار والتصحيح عن "التعريف" و "المسالك" .

الحفيرة، وأنّ في مملكته أُممًا من الكُفّار لا يأخُذ منهم جزيةً، إنما يستعمِلُهم في إخراج الذهب من مَعَادِنه . ثم قد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن النوع الأوّل من الذهب يُوجَد في زمن الربيع عَقيب [الأمطار](١) ينبُتُ في مواقعها، والثاني يوجد في جميع السنة في ضَفّات مَجاري النِّيل . وذكر في "التعريف" : أن نبات الذهب بهـذه البلاد يَبْدأ في شهر (أغشت) حيثُ سلطانُ الشمس قاهرٌ، وذلك عند أخذ النِّيل في الآرتفاع والزيادة . فإذا آنحطّ النيل تُتبِّع حيثُ رَكِبَ عليه من الأرض، فيوجد منه ماهو نباتٌ يُشْبه النجيلَ وليس به . ومنه مايوجد كالحصَى . فجعل الجميع ممـا يحدُث في هـذا الزمن في أماكِنِ النيل خاصّةً، وفيه مخالفة لمـا تقدّم . بل قد قال : إن شهر (أغشت) الذى يطلُعُ فيه الذهب وهو من شهور الروم، ويقع ـ والله أعلم ـ أنه يُركّب من (تمُّوز) و(آب) يعني من شهور السريان، وهذا غلط فاحش . فقد تقدّم في المقالة الأولى أن شهور الروم منطبقة على شهور السُّريان في الآبتداء والآنتهاء، دون آبتداء أوّل السـنة، وشهر (أغشت) من شهور الروم هو شهر (آب) من شهور السريان بعينه .

ثم قد حكى في "مسالك الأبصار" عن والى مصر عن (منسا موسى) المقـدّم ذكره : أن الذهب ببلاده حِمًى له، يجمعُ له متحصِّله كالقَطيعة، إلا ما يأخُذه أهلُ تلك البلادِ منه على سبيل السَّرِقة .

وحكى عن الشيخ سعيد الدّكّاليّ : أنه إنمـا يُهادَى بشيء منـه كالمُصانَعة، وأنه يتكسّب عليهم في المَبيعات لأنّ بلادهم لاشيء بها . ثم قال : وكلام الدّكّالي أثبت وعليه ينطبق كلامُه في "التعريف" حيث ذكر غانةَ ثم قال : وله عليها إتاوةٌ مقرّرةٌ

(١) بياض بالاصل والتصحيح من "المسالك" .

تحمَلُ إليه فى كلِّ سنة . وبهذه البلاد أيضا معدنُ نُحاس وليس يُوجَد فى السُّودان إلا عندهم . قال الشيخ عيسى الزواوى : قال لى السلطان موسى : إن عنده فى مدينةٍ ٱسمها (نكوا) معدنَ نُحاس أحمر، يُجلَب منه قُضْبان إلى مدينة نَبْى قاعدة مالىِّ فيبعثُ منه إلى بلاد السُّودان الكُفَّار، فيُباع وزن مثقال بثلثَىْ وزنه من الذهب؛ يُباع كلُّ مائة مثقال من هذا النحاس بستةٍ وستين مثقالًا وثلثَىْ مِثقال من الذهب .

وبهذه البلاد (مَعْـدِن مِلْح) وليس فى شيء من السُّودان الوالِجين فى الجَنُوب والمُسامتين لِسجِلْماسة وما وراءها مِلحٌ سواه . قال "المقَرُّ الشهابىّ بن فضل الله" : حدّثنى أبو عبد الله بنُ الصائغ، أن المِلْح معدومٌ فى داخل بلاد السُّودان، فمن الناس من يُغرِّر ويصل به إلى أناس منهم يبذُلون نظير كلِّ صُبرة ملح مثـلَه من الذهب . قال ٱبن الصائغ : وحُدِّثت أن من أمم السودان الداخلة مَنْ لا يَظْهر لهم بل إذا جاء التُّجَّار بالمِلْح وضَعوه ثم غابوا ، فيجىءُ السُّودان فيضَعُون إزاءَه الذهبَ، فإذا أخذ التُّجَّارُ الذهبَ، أخذ السُّودان المِلْح . قال فى "مسالك الأبصار" : قال لى الدَّكَّالىّ : وأهلُ هذه المملكة كثيرٌ فيهم السحر ، ولهم به عِناية حتّى إنهم فى بلاد الكُفَّار منهم يصيدون الفِيلَ بالسحر حقيقةً لا مجازا؛ وفى كل وقت يتحاكمون عند ملكهم بسببه ، ويقول أحدهم : إن فلانا قَتل أخى أو وَلَدى بالسِّحْر، والسلطان يحكُم على القاتل بالقِصَاص وقَتْل الساحر .

وحكى عنه أيضا : أن السُّموم بهـذه المملكة كثيرة ، فإن عندهم حشائشَ وحيواناتٍ يركِّبون منها السـمُومَ القَتَّالة ، ولا سيما من سَمكٍ يوجَدُ عنـدهم . قال الشيخ سعيد الدَّكَّالى : ومن خِصِّيصة هـذه البلاد أن يسرع فيها فسادُ المدّخرات لاسيما السَّمْن فانه يفْسُد وينْتِنُ فيها فى يومين .

الجملة الثـالثـــة

(فى معـاملة هـــذه المملـــكة)

ذكر فى "مسالك الأبصار" عن آبن أمير حاجب : أن المعاملة عندهم بالوَدَع وأن التُّجّار تجلِبُه إليهم كثيرًا، فتَرْبَح فيه الرِّبح الكثير. وكأن هذا فى المعاملات النازلة من مثل المآكل وما فى معناها، وإلا فالذهب عندهم على ماتقدّم من الكَثْرة .

الجملة الرابعـــة

(فى ذكر مـلوك هــذه المملكة)

قد تقدّم أن هذه المملكة قد آجتمع بها خمسة(١) أقاليم ؛ وهى : إقليم مالّى، وإقليم صُوصُو، وإقليم غانةَ من الجانب الغربىّ عن مالّى، وإقليم كَوْكَوْ، وإقليم تَكْرُور فى الجانب الشرقى عن مالّى ؛ وأن كلَّ إقليم من هــذه الخمسة كان مملكةً مستقلّة، ثم آجتمع الكلُّ فى مملكة صاحب هــذه المملكة، وأن مالّى هى أصــل مملكته . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو وإن غلب عليه عند أهل مصر آسمُ سلطان التَّكْرُور فإنه لو سَمِـع هذا انِفَ منه، لأن التَّكْرور إنما هو إقليم من أقاليم مملكته، والأحبُّ إليه أن يقال (صاحب مالّى) لأنه الإقليم الأكبر، وهو به أشهرُ. ونَقَل عن الشيخ سعيد الدَّكّالِىّ : أنه ليس بمملكته من يُطْلَق عليه آسم مَلِك إلا صاحب غانةَ وهو كالنائب له وإن كان مَلِكًا . وكأنه إنمـا بقِىَ آسم الملك على صاحب غانةَ دون غيره لعـدم آنتزاعها منــه والآستيلاءِ عليها آستيلاءً كلّيا . فقد قال فى "التعريف" : وأما غانة فإنه لايملِكُها وكأنه ما لكُها، يتركُها عن قُدْرة عليها : لأن بها وبمـا وراءها جنوبًا منابتَ الذهب . وذكر ماتقــدّم من أن بلاد منابتِ الذهب متى فشا فيها الإســلامُ

(١) فى الاصل سبعة، وهو سهو من الناسخ لان المعدود هنا والمتقدم هناك خمسة .

والأذانُ، عُدِم فيها نبات الذهب، وصاحب مالّى يتركها لذلك لأنه مسلمٌ، وله عليها إتاوةٌ كبيرة مقرّرة تحمَل إليه فى كل سنة .

وقد ذكر صاحب "العبر" : أن هذه الممالك كانت بيد ملوكٍ متفرّقة، وكان من أعظمها مملكةُ غانَة . فلما أسلم الملَثَّمُون من البربر، تسلَّطُوا عليهم بالغزو حتّى دان كثيرٌ منهم بالإسلام، وأعطى الجزيةَ آخرون ، وضَعُف بذلك مُلْكُ غانَة وآضمحلَّ، فتغلَّب عليهم أهلُ صُوصُو المجاورون لهم، وملكوا غانَة من أيدى أهلها . وكان ملوك مالّى قد دخلوا فى الإسلام من زمنٍ قديم .

قال : ويقال إن أوّل مَنْ أسلم منهم ملك آسمه (بَرمِنْدانَّة) بباء موحدة وراء مهملة مفتوحتين وميم مكسورة ونون ساكنة ودال مهملة بعدها ألف ثم نون مشدّدة مفتوحة وهاء فى الآخر فيما ضبطه بعضُ علمائهم . ثم حَجَّ بعد إسلامه، فاقتفى سَنَنه فى الحج ملوكُهم من بعده .

ثم جاء منهم ملك آسمه (مارى جاطة) ومعنى (مارى) الامير الذى يكون من نسل السلطان ومعنى (جاطة) الأسد، فقوِىَ مُلْكُه وغلب على صُوصُو، وآنتزع ما كان بأيديهم من مُلْكِهم القديم ومُلْك غانَةَ الذى يليه إلى البحر المحيط . ويقال : إنه ملك عليهم خمسًا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده آبنه (مَنْسا وَلِى) ومعنى (منسا) بلغتهم السلطان، ومعنى (ولى) علىّ، وكان من أعظم ملوكهم، وحَجّ أيام الظاهر بِيبَرْس صاحب مصر .

ثم ملك من بعده أخوه (والى) .

ثم ملك من بعده أخوه (خليفةُ) وكان أحمقَ، يغلب عليه الحُمْق فيرمى الناس بالسِّهام فيقتلهم، فوثب به أهلُ مملكته فقتلوه .

وملك بعــده سِبْط من أسباط « مارِى جاطَة » المقدّمِ ذكره، ٱسمُه (أبو بكر) علىٰ قاعدة العجم فى تمليك البِنْت وٱبن البنت .

ثم تغلب علىٰ المُلْك مَوْلًى من مواليهم ٱسمه (ساكَبُورة) . ويقــال (سيكره) فاتسع نِطَاقُ مملكته وغلب علىٰ البلاد المجاورة له، وفتح بلاد كَوْكَو وٱستضافها إلىٰ مملكته، وٱتّصل ملكُه من البحر المحيط الغربىّ إلىٰ بلاد التَّكْرُور، فقوِىَ سـلطانه، وهابه أممُ السُّودان ورحل إليه التُّجّار من بلاد الغرب وأفريقِيَّةَ . وحَجَّ أيام السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » ورجع فقتل فى أثر عوده .

وملك بعده (قو) بن السلطان « مارى جاطة » .

ثم ملك من بعده (محمد بن قو) ثم ٱنتقل الملك من ولد مارى جاطة إلىٰ ولد أخيه أبى بكر .

فولِىَ منهم (مَنْسا موسى) بن أبى بكر . قال فى "العبر" : وكان رجلا صالحا، ومَلِكا عظيما، له أخبار فى العدل تُؤْثَر عنه، وعظُمت المملكة فى أيامه إلىٰ الغـايةِ، وٱفتتح الكثيرَ من البلاد .

قال فى "مسالك الأبصـار" : حكىٰ ٱبنُ أمير حاجب والى مصر عنه، أنه فتح بسيفه وحدَه أربعًا وعشرين مدينةً من مُدُن السُّودان ذواتِ أعمال وقرى وضياع . قال فى "مسالك الأبصار" : قال ٱبن أمير حاجب : سألتُه عن سبب ٱنتقال المُلْك إليــه — فقال : إن الذى قبلى كان يظُنُّ أن البحر المحيطَ له غايةٌ تُدْرَكُ، فجهز مِئِين سُفُن، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سِنينَ، وأمر مَنْ فيها أن لا يَرْجِعُوا حتّٰى يبلغوا نهايته أو تنفَدَ أزوادُهم، فغابوا مدّة طويلةً، ثم عاد منهم سفينة واحدة وحضر مقدَّمُها، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفُنُ زمانا طويلا حتّٰى عَرَض

لهـا فى البحر فى وسط اللُّجّة وادٍ له جِرْية عظيمة، فابتلع تلك المراكب وكنتُ آخِرَ القوم فرجعت بسفينتى؛ فلم يصدّقه: فجهّز ألفَىْ سفينة ألفًا للرجال وألفا للأَزْواد، وآستخلفنى وسافر بنفسه ليعـلَم حقيقةَ ذلك، فكان آخرَ العهد به وبمن معه . قال فى "العبر" : وكان حجُّه فى سنة أربع وعشريـن وسبعمائه فى الأيام النـاصرية «محمد بن قلاوون» .

قال فى "مسالك الأبصار" : قال لى المِهْمندار خرجتُ لمُلْتقاه من جهة السلطان فأكرمنى إكراما عظيما، وعاملنى بأجمل الآداب، ولكنه كان لا يحدّثُنى إلا بتَرْجُمان مع إجادته اللسانَ العربىّ . قال : ولمـا قَدِم ، قدّم للخِزانة السـلطانية حِمْلا من التِّبْر؛ ولم يترك أميرا ولا رَبَّ وظيفة سـلطانيّةٍ إلا وبعث إليـه بالذهب . وكنتُ أحاوله فى طُلُوع القلعة للاجتماع بالسلطان حَسَب الأوامر السلطانية فيأبىٰ خَشْـيَةَ تقبيل الأرض للسـلطان ويقول : جئتُ للحجّ لا لغيره ، ولم أزل به حتّىٰ وافق علىٰ ذلك .

فلما صار إلىٰ الحضرة السلطانية . قيل له : قَبِّـل الأرض ، فتوقف وأبىٰ إباءً ظاهرا . وقال : كيف يجوز هذا؟ فأسرّ إليه رجلُ كان إلىٰ جانبه كلامًا ــ فقال : أنا أسجدُ لله الذى خَلَقنى وفَطَرنى ثم سجد؛ وتقدّم إلىٰ السلطان، فقام له بعضَ القيام وأجلسه إلىٰ جانبـه وتحدّثا طويلا ؛ ثم قام السلطان موسىٰ فبعث إليـه السلطان بالخِلَع الكاملة له ولأصحابه، وخيلا مُسْرجة مُلْجَمة . وكانت خِلْعَتـه طَرْدَ وَحْش بقَصَب كثير، بسِنْجاب مُقَنْدس ، مطرّز بزَرْكش، علىٰ مفرج إسكندرى ، وكلُّوتة زركش، وكَلَاليب ذهب، وشاش بحرير، ورَقْم خَلِيفَتِى"، ومِنْطقة ذهب مرصَّعة، وسيف محلًّى، ومنديل مُذْهب خزّ، وفرسين مُسْرَجين مُلْجَمين بمراكب بغل محلّاة وأعلام؛ وأجرىٰ عليه الأنزالَ والإقامات الوافرةَ مدّةَ مُقامه .

ولما آن أوانُ الحج بعث إليه بمبلغ كبير من الدراهم ، وهُجُن جليلة كاملةِ الأكوار والعُــدّة لمركبه ، وهُجُن أتباع لأصحابه وأزوادٍ جمة ، وركّز له العليقَ فى الطُّرق ، وأمر أميرَ الركب بإكرامه وٱحترامه .

ولمـا عاد ، بعث إلى السلطان من هَدِيَّة الحجـاز تبرُّكا ، فبعث إليه بالخِلَع الكاملة له ولأصحابه ، والتُّحَف والألطاف من البَزِّ السَّكَنْدرى" والأمتعـة الفاخرة ، وعاد إلى بلاده .

وذكر عن ٱبن أمير حاجب والى مصر أنه كان معه مائةُ حِمْل ذهبـا أنفقها فى سَفْرته تلك على مَنْ بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر ، ثم من مصر إلى الحجاز توجُّها وعَوْدا حتّى ٱحتاج إلى القَرْض ، فاستدان على ذِمّتـه من تُجّار مصر بمـالهم عليه فيه المَكاسبُ الكثيرة ، بحيث يحصُل لأحدهم فى كلّ ثلثمائةِ دينارٍ سبْعمائة دينار رِبْحًا ، وبعث إليهم بذلك بعد توجُّهه إلى بلاده . قال فى "العبر" ويقال : إنه كان يَحْمِل آلتَهُ اثنا عشرَ ألفَ وصيفةٍ لابساتٍ أقبِيةَ الدِّيباج .

قال فى "مسالك الأبصار" : وذكر لى عنـه ٱبنُ أمير حاجب : أنه حكى له أن من عادة أهــل مملكته أنه إذا نشأ لأحدٍ منهــم بنتٌ حســناءُ ، قدّمها له أمةً موطوءةً ، فيملكها بغير تزويج مثل ملك اليمين ـ فقلت له : إن هذا لايحل لمسلم شَرْعا ـ فقــال : ولا للملوك ؟ ـ فقلت : ولا للمُلُوك وٱسأل العلمـاء . فقال : والله ما كنت أعلم ذلك ! وقد تركته من الآن . قال فى "العبر" : ودام ملكه عليهم خمسا وعشرين سنة ومات .

فملك بعده ٱبنــه (منسا مَغَا) ومعنى مَغَا عنــدهم محمد ، يعنون السلطان محمدا ، ومات لأربع سنين من ولايته .

وملك بعده أخوه (منسا سليمان) بن أبى بكر ، وهو أخو منسا موسىٰ المقدّم ذكره . قال فى "مسالك الأبصار" : وآجتمع له ما كان أخوه آفتتحه من بلاد السُّودان وأضافه إلىٰ يد الإسلام ، وبنىٰ به المساجدَ والجوامعَ والمناراتِ ، وأقام به الجُمَع والجماعات والأذان ، وجلب إلىٰ بلاده الفُقَهاءَ من مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، وتفقَّه فى الدين . قال فى "العبر" ودام ملكُه أربعا وعشرين سنةً ، ثم مات .

وولى بعده آبنه (قنبتا بن سليمان)(١) ومات لتسعة أشهر من مُلْكه .

وملك بعده (مارى جاطه) بن منسا مغا بن منسا موسىٰ فأقام أربعَ عشرةَ سنة أساء فيها السيرة ، وأفسد مُلْكهم ، وأتلف ذَخائرهم بسَرَفه وتبذيره ، حتّٰى آنتهىٰ به الحالُ فى السَّرَف أنه كان بخزائنهم حجرُ ذهبٍ ، زنته عشرون قنطارا منقولا من المعدن من غير سَبْك ولا علاج بالنار . وكانوا يرَوْنه من أنفَسِ ذخائرهم لنُدُور وجود مثله فى المَعْدِن ، فباعه علىٰ تُجّار مصر المتردّدين إليه بأبخس ثمن ، وصرف ذلك كله فى الفُسوق ، وكان آخر أمره أن أصابتْه عِلّة النوم وهو مرض كثيرا ما يصيب أهلَ تلك البلاد لا سيَّما الرؤساءُ منهم ، يأخذ أحدَهم النومُ حتّٰى لا يكاد يُفيق ، فأقام به سنتين حتّٰى مات سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

وملك بعده آبنُه (موسىٰ) فنَكَّب عن طريق أبيه ، وأقبل علىٰ العدل وحُسْن السيرة .

وتغلب علىٰ دولته وزيره (مارى جاطة) فحَجَره وقام بتدبير الدولة ، وكان له فيها أحسنُ تدبير ، وبقى مَنْسا موسىٰ حتّٰى مات سنة تسع وثمانين وسبعمائة .

وملك بعده أخوه (منسا مَغَا) وقُتِل بعده بسنة أو نحوها .

---

(١) وقع فى العبر ج ٦ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ "قنفتا" .

وملك بعده (صندكى) زوجُ أم موسىٰ المقدّم ذكره ، ومعنى (صندكى) الوزير ؛ ووثب عليه بعد أشهر رجلٌ من بيت مارى جاطة .

ثم خرج من ورائهم من بلاد الكَفَرة رجل آسمه (محمود) يُنْسَب إلىٰ (منسا قو) آبن منسا ولى ، بن مارى جاطة ، ولقبُه منسا مغا ، وغلب علىٰ المُلْك فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

قال فى "التعريف" : وصاحب التَّكْرور هذا يَدَّعى نسبًا إلىٰ عبد الله بن صالح ، آبن الحسن ، بن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجوههم . قلت : هو صالح بن عبدالله آبن موسىٰ ، بن عبد الله أبى الكِرام ، بن موسى الجَوْن ، بن عبد الله ، بن حسن المثنّى ، آبن الحسن السبط ، آبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" : أن سلطان غانَةَ يَدَّعى النسبَ إلىٰ الحسن بن علىّ عليهما السلام ، فيحتمل أنه أراد صاحب هذه المملكة لأنّ من جملة مَنْ هو فى طاعته غانةَ ، أو من كان بها فى الزمن القـديم قبل آستيلاء أهل الكُفْر عليها .

الجملة الخامسـة

(فى أرباب الوظائف بهذه المملكة)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بهذه المملكة : الوُزَراء ، والقُضاة ، والكُتّاب ، والدَّواوين ، وأن السلطان لايكتُب شيئا فى الغالب ، بل يَكِلُ كلَّ أمر إلىٰ صاحب وظيفته من هؤلاء فيفصِلُه . وكتابتهم بالخط العربىّ علىٰ طريقة المغاربة .

الجملة السادسة

(فى عساكر سلطان هذه المملكة، وأرزاقهم)

أما مقدار العساكر، فقد ذكر الشيخُ سعيد الدَّكالىّ: أن مقدار عسكره مائةُ ألف نفر، منهم خيَّالة نحو عشرة آلاف فارس، وباقيهم رَجَّالة لاخيلَ لهم.

وأما الإقطاعات لأمراء هذا السلطان وجنده والإنعامات عليهم، فقد قال الدَّكَّالى: إن من أكابرهم من يبلغ جملةُ ماله على الملِك فى كلّ سنة خمسين ألفَ مثقال من الذهب، وانه يتفقّدهم مع ذلك بالخيل والقُماش، وإن همته كلها فى تجميل زِيِّهم وتمصير مُدُنِهم.

الجملة السابعة

(فى زىّ أهل هذه المملكة)

قال الدكالىّ: لباسُهم عمائمُ بحنَك مثل الغرب، وقُماشُهم بياضٌ من ثياب قُطْن تُنْسَج عندهم فى نهاية الرقة واللطف تسمَّى الكمصيا ولِبْسهم شبيه بلِبْس المغاربة جِبابٌ ودَرارِيعُ بلا تَفْريج والأبطالُ من فُرْسانهم تَلْبَس أساورَ من ذهب، فمن زادت فُروسِيَّته لبِس معها أطواقًا من ذَهَب فإن زادت لبِس مع ذلك خلاخل من ذهب، وكلما زادتْ فُروسِيَّةُ البطل ألبسه الملِك سَراويلَ متسعة وسَراويلاتهم ضيقةُ أكمام الساقين متَّسعةُ الشرج؛ وأهل هذه المملكة يركبون بالسُّروج وهم فى غالب أحوالهم فى الركوب كأنهم من العرب، إلا أن هؤلاء يبدءُون فى الركوب بأرجلهم اليمنىٰ بخلاف غيرهم من سائر الناس جميعا، ولا يعرف عندهم ركوبُ جَمل بكور.

الجمـــلة الثـامنة

(فى ترتيب هـــذه المملكة)

أما جُلوس السُّلطان فى قَصْره فإنه يجلس علىٰ مَصْـطبة كبيرة، علىٰ دِكَّة كبيرة من آبنوسٍ، كالتخت علىٰ قدر المجلس العظـــيم المتسع، عليها أنياب الفِيَلة فى جميع جوانبها، النابُ إلىٰ الناب؛ وعنده سِلاحٌ له من ذهب كلُّه : سَـيْفٌ، ومِزْراق، وقَوْس، وتركاش، ونُشَّاب؛ وعليه سراويلُ كبير، مفصَّل من نحو عشرين نِصْفية، لايلبس مثلَه أحدٌ منهم، بل هو من خصوصيَّته؛ ويقف خَلْفَه نحوُ ثلاثين مملوكا من التُّرك وغيرهم ممن تُبْتاع له من مصر، بيــد واحد منهم چتر من حرير عليه قُبَّة، وطائرٌ من ذهب صــفةُ بازى يحمَل علىٰ يساره، وأمراؤه جلوس حولَه يمينا وشمالا؛ ثم دونهم أعيانٌ من فُرْسانِ عسكرِه جلوس؛ وبين يديه شخص يغَنِّى له وهو سَيَّافه، وآخرُ سَفِيرٌ بينه وبين الناس يسمَّىٰ الشاعر؛ وتُنْهىٰ إليه الشَّكاوىٰ والمظالم فيفْصلها بنفسه؛ ولا يكتُبُ شيئا فى الغالب، بل يأمر بالقول بلسانه؛ وحوله أناسٌ بأيديهم طُبول يَدُقُّون بها، وأناس يَرْقُصون وهو يَضْحَك منهم؛ وخَلْفه صَنْجقان منشوران، وأمامه فَرَسانِ مشــدودان محَصَّــلان لركوبه متىٰ أحَبَّ؛ ومن عَطَس فى مجالســه ضُرِب ضَرْبا مُؤْلمــا، لايُسامَحُ أحد فى مثل ذلك، فإن بغتَ أحدا منهم العُطَاسُ، آنبطح فى الأرض وعَطَس حتّىٰ لا يُعْــلم به . أما الملك فإنه إذا عَطَس ضرب الحاضرون بأيديهم علىٰ صُدُورهم . ولايدخل أحد دارَ السلطان منتعلاً كائنا مَنْ كان، ومن لم يخْلَع نعليه قُتل بلاعفو : عامدًا كان أوساهيا؛ وإذا قَدِم عليه أحد من أمرائه أو غيرهم، وقَفَ أمامَه زمانا، ثم يُومى القادمُ بيــده اليمنىٰ مثل من يَضْرِب الجوك ببلاد توران وإيران من بلاد المشرق . وصفة ذلك أن يكشِفَ مقدَّمَ رأسه ويرفعَ

الذى يضرِبُ الجوكَ يدَه اليمنىٰ إلىٰ قريبِ أذُنه ، ثم يضعها وهى قائمة منتصبةٌ ، ويُلْقِيها بيده اليسرىٰ فوق فخذه ، واليَدُ اليسرىٰ مبسوطةُ الكَفِّ لتلقى مِرْفَق اليمنىٰ مبسوطة الكف مضمومة الأصابع بعضها إلىٰ جانب بعض كالمُشْط ، تُمَاسُّ شَحْمة الأُذُن . قال ابنُ أمير حاجب : وقد رأيت هذا عند خِدمتهم للسلطان « موسىٰ » لما قدم الديارَ المصرية . فإذا أنعم علىٰ أحد بإنعام أووعده وعْدا جميلا أوشكره علىٰ فعل ، تمرّغ المنعَمُ عليه بين يدَيْه من أوّل المكان إلىٰ آخره ، فإذا وصل إلىٰ آخر المَكان ، أخذ غِلْمــانُ المنْعَم عليه أو مَنْ هو من أصحـابه من رَمَادٍ يكون موضوعا فى آخر مجلس المَلِك مُعَدّا لهذا الشأن ، فيَذُرّ فى رأس المنعم عليه ، ثم يَعُود و يتمرّغ ، إلىٰ أن يصل بين يدَيِ الملك ، ويضرب جوكا آخر بيده ثم يقوم .

وأما فى الركوب فقد جرَتْ عادةُ سلطان هذه المملكة أنه إذا قَدِم من سفر أن يحمل علىٰ رأسه الجترَ راكبٌ ، ويُنْشر علىٰ رأسه علم ، وتُضْرَب أمامه الطُّبولَ ، والطَّنابِير ، والبُوقات بقُرُون لهم فيها صناعة محكمة . قال ابن أمير حاجب : وشِعَارهذا السلطانِ أعلامٌ وألويةٌ كِبار جدّا ، ورَنْكه أصفرُ فى أرضٍ حمراءَ .

وأما غير ذلك من سائرأموره ، فقد ذكر الشيخ سَعِيد الدَّكّالىُّ : أن من عادة هذا السلطان أنه إذا عاد إليــه أحدٌ ممّن بعثه فى شُغُل له أو أمرٍ مُهِمٍّ أن يسأله عن كلّ ما حَدَث له من حين مفارقته له وإلىٰ حين عَوْدِه مُفَصَّلا . قال ابن أمير حاجب : وقد رأيت السلطان موسىٰ وهو بمصر لا يأكل إلا منفردا وحده ، لا يحضُرُه عنــد الأكل أحد البتّةَ .

المملكة السادســـــة

(من ممــالك بلاد السُّودان، مملكة الحَبَشة)

بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة والشين المعجمة وهاء فى الآخر.

وهى مملكة عظيمة جليلة المِقْـدار، متسعة الأرجاء، فسـيحة الجَوَانب. قال فى "مسالك الأبصار": وأرضها صَعْبة المَسْلَك: لكثرة جبالها الشامخة، وعِظَم أشجارها، وآشتباك بعضها ببعض، حتّى إنَّ مِلكَها إذا أراد الخروج إلى جهة من جهاتها، تقدّمه قوم مُرْصَدُون لإصلاح الطُّرُق بآلات لقَطْع الأشجار وإحراقها بالنار. قال: وهم قوم كثيرٌ عَدَدُهم، ولم يملك بلادَهم غيرُهم من النوع الإنسانىّ، لأنهم أجْبَر بَنِى حام، وأخبر بالتوغُّل فى القتال والآقتِحام، بطُول زمنهم فى الأسفار، وصيد الوحش، وقتالهم انمــا يكون عُرْياً من غير لَأْمة تدْفَع عنهم ولا عن خيلهم. ثم وصفهم بعد ذلك بأوصاف لَوْلَا ماهُمْ عليه من الشرك لكانوا فى الرُّتْبة العُلْيا من مَرَاتب بنى آدم: فذكر أنَّ المشهور عنهم مع ما هم عليه من المجـاعة أنهم يقبلُون الحَسَب ويصْفَحُون عن الجرائم. ومن عادتهم أنـ مَنْ رمىٰ سلاحه فى القتال حَرُم قتاله؛ ويكْرِمون الضيفَ، ولا ينْقُضُ الصديقُ منهم عهدَ صديقه، وإذا أحَبُّوا أظهروا المحبةَ، وإذا أبْغَضُوا أظهروا البُغْض؛ والغالب عليهم الذَّكاء والفِطْنة وصدْق الحَدْس، ولهم علومٌ وصناعات خاصَّة بهم؛ ولهم قَلَم يكتبُون به من اليمين إلىٰ الشِّمال كما فى العربىّ، عِدّة حُرُوفه ستّةَ عشر حرفا، لكل حرف منها سبعةُ فروع، فيكون عدّتُها مائةً وآثنين وثمانين حرفا (١)، سوىٰ حروفٍ أُخَر مستقِلّة بذاتها لا تفتقر إلىٰ حرف من الحروف المذكورة، مضبوطة بحركاتٍ نحوية متصلةٍ بالخط لا منفصلةٍ عنه. ومع كونهم جنسا واحدا

(١) كذا فى المسالك أيضا غير أنه قال: الجملة من ذلك مائة وثمانون فتأمله.

فلُغاتهم تزيد على خمسين لسانا ، و يميل الكثير من ألوانهم إلى الصَّفاء ، ولكل طائفة منهم وَسْم فى وجوههم يعبر عنه بالتلعيط ، بعضهم يَسِم فى الخدَّين وَسْما خَفيفا ، وأمْحَرا يَسِمُون فى الخدَّين والجبهة إلى الأنف خُطوطا طِوَالا . ويقال : إن أوّل بلادهم من الجهة الغربيَّة بلادُ التَّكْرور مما يلى جهة اليَمَن ، وأوّلها من الجهة الشرقية المائلة إلى بعض الجهة الشمالية بحرُ الهند واليمن ؛ وفيها يمرّ النهرُ المسمّى سَيْحُونَ الذى يُرفَدُ منه نيلُ مصر . وقد عدّ منها أحدَ عشَرَ إقليما من جهة الغرب (١) بمفازة بمكانٍ يسمّى (وادى بَرَكَة) يُتَوصَّل منه إلى إقليم يسمّى (سَحَرْت) و يسمّى قديما تِكْراى ، وكان به فى الزمن القديم مدينةٌ آسمها (احسْرم) بلغة أخرى من لغاتهم ، وتسمّى أيضا (زرفرتا) . بها كان كرسىُّ مُلْكِ النَّجاشىّ ، وكان مستوليا على أقاليم الحَبَشة . و يليه من جهة الشرق إقليم (أَمْحَرا) الذى به الآن مدينةُ المملكة ، ثم إقليم شاوة ، ثم إقليم داموت ، ثم إقليم لامنسان ، ثم إقليم السِّيهُو ، ثم إقليم الزلخ ، ثم إقليم عَدْل الأمراء ، ثم إقليم حماسا ، ثم إقليم باريا ، ثم إقليم الطِّراز الإسلامى . قال : وبها أقاليم كثيرة العدد ، مجهولة الأسماء ، غير مشهورة ولا معلومة .

ثم هى على قسمين :

القســـم الأوّل

(بلاد النَّصْرانية)

وهى القسمُ الأوفر عَدَدا ، الأوسَعُ مجَالا ، وهو الذى يملكه مَلك (أَمْحَرا) بفتح الألف وسكون الميم وفتح الحاء والراء المهملتين وألف فى الآخر . وهم جنس من الحبشة .

ويشتمل على ستّ جمل :

(١) فى القطعة الازهرية مصاحة هكذا [وأوّلها من جهة الغرب مفازة الخ] .

الجمـــــــلة الأولىٰ

(فى ذكر قواعدها)

وقاعدتها مدينة (مَرِعْدِى) بفتح الميم وكسر الراء وسكون العين وكسر الدال المهملتين وياء مثناة تحتُ فى الآخر . وهى مدينة بإقليم أَمْحَرا المقدّم ذكره فيما ذكره فى "مسالك الأبصار" إلا أنه لم يذكر صِفَتها ، والذى ذكره فى "تقويم الْبُلْدان" : أن قاعدة الحبشــة (مدينة جَرْمِى) بالجيم المفتوحة والراء المهــملة الساكنة ثم ميم مكسورة ثم ياء مثناة تحتية فى الآخر كما ضبطه ابن سعيد . وموقعها فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ خمسٌ وخمسون درجة ، والعرضُ تسعُ درج وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم الْبُلْدان" : وهى مدينة ذكرها أكثر المصـنِّفين فى كُتُب المسالك والممالك والأطوال والعروض ، وأنهــا كرسىّ مملكة الحَبَشة وقاعدتُهم ، ولم يزد علىٰ ذلك ، فيحتمل أنهــا قاعدةٌ قديمة ، ويحتمل أنها القاعدة المستقِرّة .

الجمـــــلة الثانيـــــة

(فى الموجود بهــا)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أنّ بها من المَوَاشى ذواتِ الأربع : الخيلَ ، والبغالَ ، والبَقَر ، والغَنَم وما فى معنــاها ، وأغنامُهم تُشْبِه أغنــامَ عَيْذَابَ واليَمَن . ومن الوُحُوش الأسَــدَ ، والنَّمِر ، والفَهْد ، والفِيلَ ، والزُّرَافة ، والغَزَال ، وبَقَر الوَحْش ، وحمار الوحش ، والقِرَدة ، وغيرها من الوُحُوش .

وبها من الطُّيور الجوّية : الصُّقورة، والبُزاة بكَثْرة، والنُّسور البِيض والسُّود، والغُرَاب، والحَجَل، وطَيْر الواجِب بجملته، والحَمَام، والعُصْفور، وغير ذلك مما لم يُوجَدْ بالديار المِصْرية . ومن الطيور البرِّية دَجَاج الحَبَش وأمثالها . ومن الطيور المائية البَطُّ؛ وعندهم بنَهَرِهم سَمَك يشبه البُورِىّ، وسمكٌ يُشْبِه الثُّعْبان، يطول إلى مقدار ذراعينِ ونصفٍ، ويغْلُظ إلى مقدار كِبار الخَشَب؛ وبنهرهم أيضا التِّمساح وفَرَس البحر، وغير ذلك .

وبها من الحبوب : الحِنْطة، والشَّعير، والحِمَّص، والعَدَس، والبِسِلَّا، والذُّرَة، وبعض الباقِلَّا، وحبوبٌ أُخْرَى غير ذلك منها حبٌّ يسمَّى (قنابهول) يستعملونه قُوتًا كالحنطة . والحِنطة عندهم على مثال الحنطة الشاميَّة، والشعيرُ حَبُّه عندهم أكْبَرُ من حب الشعير بالديار المصرية والشامية؛ ومنه ضَرْب يسمَّى طمجة . ولَوْن الحِمَّص عندهم إلى الحُمْرة . والباقِلَّا عندهم عزيز الوجود فى أكثر البلاد، ولكنهم لا يفتقرون إليه للعَلَف لكثرة المَرَاعى ببلادهم .

وعندهم حَبٌّ يسمَّى (طافى) على قَدْر الخَرْدل، ولونُه إلى الحُمْرة، ومَكْسِره إلى السَّواد، يتخذون منه الخُبْز . وعندهم ببعض الأقاليم حَبٌّ شَبِيه بالحنطة إلا أنَّ له قِشْرَيْن، يُنْزَع قِشْره بالهَرْس كالأَرُزِّ، ويتَّخِذون منه طعاما يكون مُغْنِيًا عن الحِنطة .

وعندهم بِزْر الكَتَّان وحَبُّ الرَّشاد، وهم يَزْرَعون على المَطَر فى كل سنة مرتين : مرةً فى الصيف، ومَرَّة فى الشتاء، تحصل فى كل مرة الغَلَّات .

ونقل البطرك (بنيامين) أنه يقع عندهم المَطَر الكثير، وتحصُل مع المطر الصواعقُ العظيمة .

وعندهم من أصناف المَقَاثِئ القَرْع، وفى بعض الأقاليم بِطِّيخ صغير .

وعندهم من البقول : الثُّوم ، والبَصَــل ، والكُزْبُرةُ الخضراء ؛ ومن الرياحين الرَّيْحان ، والقَرَنْفُل ، ونبـاتٌ أبيضُ يسمَّى بَعْتَران . وعنـدهم الياسَمِين البَرِّىّ ، ولكنه ليس بمشمُومٍ لهم .

وعـندهم من الفواكه العِنبُ الأَسْـودُ على قِلَّة ، والتِّين الوَزِيرىّ ، وأصنافُ الحَوَامِض خَلاَ النَّارَنْج .

وعندهم شجر يسمَّى (چان) بجيم بين الجيم والشين لا ثَمَـر له ، وإنمـا له قلوب تُشْبِه قلوبَ النارَنْج تُؤْكَل فتزيد فى الذَّكاء والفَهْم ، وتُفرِّح ، إلا أنها تقَلِّل الأكْل ، والنَّوْم ، والجِمَاع . وعنايتُهم به عنـايةُ أهل الهِنْد بالتَّنْبُل وإن كان بينهما مباينَةٌ . وأىُّ نَفْع فيما فائدتُه تقليل النَّوْم والأَكْل والجِمَـاع ، اللاتى هى لَذَّات الدنيا ، حتَّى يحكىٰ أنه وُصِف لبعض ملوك اليمن ـ فقال : أنا لا يذهَبُ متحَصِّل مُلْكى إلا على هذه الثلاث ، فكيف أسعىٰ فى ذَهَابها بأكل هذا ؟

ومن أشجـارهم الزَّيْتون ، والصَّنَوْبَرُ ، والجُمَّـيْز ؛ وفى بعض بلادهم الآبنوس ، وفى بعضها المُقْل ، وفى بعضها القَنَا المجوَّف والمَسْدُود . ومأ كَلُهم شحومُ البقر والمَعَز ، وبعضُ شُحُوم الضأن ؛ ومَشْرُوبُهم اللَّبَـن البقَرِىّ ، وفى ضَعْفهم يتداوَوْن باللبن المُدَافِ بالمـاء وسَمْن البَقَر .

وعندهم عَسَل النحل بكَثْرة فى جميع الأقاليم ، تختلفُ ألوانُه باختلاف المَرَاعى : منه ما يُوجَد فى الجبال فيؤخذ من غير حَجْر على أخْذه . ومنـه ماله خَلاَيَا من خَشَب منقورةٍ ، له مُلاَّك يختصُّون به . ووَقُود مَصَابيحهم شُحُوم البقر . أما الزَّيْت الطَّيِّب فيُجْلَب إليهم . وادِّهانُهم بالسَّمْن . وأوانى طعامهم فخَّار مَدْهونٌ أسودُ . واغتِسالهم بالمـاء البارد ، وربما استعملوا الحارّ منه .

وحكى البطرك (بنْيامين) أن عندهم من المعادن معدِنَ الذهب، ومعْدنَ الحديد .

وحُكِي عن الشريف عزالدين التاجر: أن فى بعض بلادهم يُوجَد معدِنُ الفِضَّة .

ومَصَاغُهم الذَّهب، والفِضَّة، والنُّحاس، والرَّصاص، كل أحد منهم بحسبه .

الجملة الثالثة

(فى ذكر معاملاتهم وأسعار بلادهم)

أما معاملاتهم، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن مُعامَلَتهم مُقايَضَةٌ بالأبقار والأغنام والحُبُوب وغير ذلك . وأما الأسعار فالقمح والشعير اللذان هما أصل المطعومات ليس لهما عندهم قيمة تذكر، لاستغنائهم عن ذلك باللحم واللَّبَن . وسيأتى ذكر معاملة "الطِّراز الإسلامى" فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الجملة الرابعة

(فى ذكر زِيِّهم وسلاحهم)

أما زِيُّهم، فقد ذكر فى "المسالك" أن لِبَاسَهم فى الشتاء والصيف واحدٌ: لكُلِّ واحدٍ منهم ثوبانِ غير مَخِيطيْنِ: أحدهما يَشُدّ به وسَطَه، والآخَر يلتَحِف به؛ ولا يعرفون لُبْس المَخِيط جملةً، إلا أن الخواصّ والأجناد يفضّلون فى اللِّبس، فيلبَسُون الحرير والأبراد اليمنِيَّة، والعوامُّ يلبَسُون ثيابَ القُطْن على ماتقدّم .

وأما سِلَاح المقاتلة منهم، فالسيوفُ، والحِراب، والمَزَاريق، والقِسِىّ، يرمون عنها بالنَّبْل: وهو نُشَّاب صغير، وربما رمى بعضهم بالنبل عن قوس طويل يُشْبِه قوسَ البُنْدُق، ولهم دَرَقٌ مدوّرة، ودِرَاق طِوَال يتّقُون بها .

الجملة الخامســـــة

(فى ذكر بَطَارِكَة الإسكندريّة، الذين عن توليتهم تَنْشأ ولاية ملُوك الحَبَشة)

اِعلم أنه قد تقدّم فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ مايحتاج إليه الكاتب عند ذكر النحل والملل أن البَطَارِكة عند النّصارىٰ عبارة عن خُلَفاء الحوارِيّين الذين هم أصحابُ المَسِيح عليه السلام، وأنه كان لهم فى القَدِيم أربعةُ كَرَاسِىّ : كُرسِىٌّ بُرومِيَةَ : قاعدةِ الروم، وكُرْسِىٌّ بالإسكَنْدرية من الديار المِصرية، وكُرسِىٌّ بأنْطاكِيَةَ : قاعدةِ العَوَاصم من بلاد الشام، وكُرْسِىٌّ بِبَيْت المَقْدِس . وأن كرسِىَّ رُومِيَةَ قد صار لطائفة المَلكانِيَّة وبه بَطْرَكُهم المعبَّر عنــه بالبابا إلىٰ الآنَ . وكرسِىَّ الإسكندرية قد صار آخِرًا لبطرك اليَعَاقِبــة تحت ذِمّة المسلمين بالديار المصرية من لَدُن الفتح الإسلامىّ وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا . وأن كُرسِىَّ بيت المقــدس وكُرسِىَّ أنطاكِيَةَ قد بَطَلا باستيلاء دين الإسلام عليهما . ثم كُرْسِىّ الإسكندرية بعد مَصِيره إلىٰ اليَعَاقبة قد تَبِــع البَطْرَكَ القائمَ به علىٰ مَذْهَب اليعاقبة الحبَشَةُ والنُّوبة وسائرُ متنصِّرة السُّودان، وصار لَدَيْهم كالخليفة علىٰ دين النصرانية عندهم، يتصرَّف فيهم بالوِلَاية والعَزْل، لاتَصِحُّ وِلايَةُ مَلِك منهم إلا بتوليته، حتّى قال فى "التعريف" فى الكلام علىٰ مكاتبة ملك الحبشة : ولولا أنّ معتقَدَ دِين النصرانية لطائفةِ اليَعاقِبةِ أنه لايَصِحُّ تعمُّد معمُودِىّ إلا باتّصال من البطريرك، وأن كرسىَّ البِطْرِيَرك كنيسةُ الإسكندرية، فيَحْتاج إلىٰ أخْذ مُطْران [بعد مُطْران] (١) من عنــده، وإلا كان شَمَخ بأنفه علىٰ المكاتبة، لكنه مضطَرٌّ إلىٰ ذلك . قال : ولأوامر البِطْرِيرك عنده مالشريعته من الحُرْمة، وإذا كتب إليه كتابا فأتىٰ ذلك الكتابُ إلىٰ أوّل مملكته، خرج عَمِيدُ تلك الأرض فحَمَلَ الكتابَ علىٰ رأس

(١) الزيادة عن "التعريف" .

عَلَم ، ولا يزال يحمِلُه بيده حتّى يُخرِجَه من أرضه وأربابُ الدولة فى تلك الأرض كالقُسوس والشَّمامسة حولَه مُشاةً بالأدْخِنة ، فإذا خرجوا من حَدّ أرضهم تلَقَّاهم مَنْ يليهم أبدًا كذلك فى كل أرض بعد أرض حتّى يَصِلوا إلىٰ أمحرا ، فيخرُج صاحبُها بنَفْسه ، ويفعَل مثل ذلك الفِعلِ الأوّل ، إلا أن المُطْرانَ هو الذى يحمِل الكتابَ لعَظمته لا لِتأبِّى المَلِك ، ثم لا يتصرف المَلك فى أمرٍ ولا نَهيٍ ولا قليل ولا كثير حتّى يُنادى للكتاب ويجمع له يومَ الأحد فى الكنيسة ، ويُقرأُ والملك واقِفٌ ، ثم لا يجاس مجْلَسه حتّى ينفذ ما أمره به .

ولما تعذر الوقوف علىٰ معرفة تواريخ ملوكهم ، اكتفينا بذكر البطاركة الذين عنهم تنشأ ولاياتهم ، فكانوا هم مُلوكَهُم حقيقةً .

اعلم أن أول مَنْ وَلِىَ من البَطاركة كنيسةَ الإسكندرية مُرْقُص الإنجيلىّ : تلميذ بُطْرس الحَوارىّ ، الذى أرسله المسيحُ عليه السلام إلىٰ رُومِيَةَ . وإنما سُمِّى بمرْقُص الإنجيلىّ لأن بُطْرَس الحوارىّ حين كتب إنجيلَه كتبه بالرُّومِيَّة ونسبه إلىٰ مُرْقُص المذكور فتلقَّب بالإنجيلى ، وأقام مرقص المذكور فى بَطْركية الإسكندرية سبع سنين يدعو إلىٰ النصرانية بالإسكندرية ومصر وبرقة والمغرب ثم قتله نيرون قيصر ابن اقليوديش قيصر سادس القياصرة .

ووَلِىَ مكانَه (حنانيا) ويسمّى بالعبرانية أنانيو ثم مات لسبع وثمانين سنة للمسيح .

ووِلِى مكانه (فابو)(١) فأقام ثلاثَ عشرةَ سنة ثم مات .

فولِىَ مكانه (كرتيانو) ومات لإحدىٰ عشرة سنة من ولايته فى أيام (طرنبش قيصر) .

---

(١) فى الخطط المقريزية ج ٢ ص ٤٨٤ مينيو .

ووَلِىَ مكانَهُ (إيريمو) ثنتَىْ عشرةَ سنة .

ثم ولِىَ بعده (نسطس) فى أيام (أندريانوس قيصر) ، وكان حكيما فاضلًا فأقام فى البطركية إحدىٰ عشرةَ سنةً ثم مات .

ووَلِىَ مكانَهُ (أرمانيون) إحدىٰ عشرةَ سنةً أيضا [ومات] فى أيام (أندريانوس) قيصر أيضـا .

ووَلِىَ بعــده (موقيانو) فلبِثَ تسعَ ســنين ومات فى أيام (أنطونيس قيصر) فى الخامسة من ملكه .

ووَلِىَ بعده (كلوتيانو) فأقام أربعَ عشرةَ سنةً فى أيام أنطونيس قيصر ومات .

ووَلِىَ بعده (أغريتوس) فبقِىَ اثنتَىْ عشرةَ سنة ومات .

ووَلِىَ بعده (يلبانس) فى أيام [أوراليانس](١) قيصر فلَبِث عشرَ سنين ومات .

فوَلِىَ مكانه فى أيام أوراليانس (ديمتريوس) فأقام ثلاثًا وثلاثين سنةً .

ووَلِىَ بعده (تاوَكْلا) فأقام ستَّ عشرةَ سنةً ومات .

فوَلِىَ بعده (دونوشيوش) فلبث تسعَ عشرةَ سنةً [ومات] .

ووَلِىَ مكانه (مكسيموس) فأقام ثِنْتَىْ عشرةَ سنةً ومات .

ووَلِى مكانه (ثاونا) فلبِثَ عشرَ ســنين [ومات] وكان النصارىٰ إذ ذاك يُقِيمون الدِّين خُفْيةً فلمــا صار بطركًا صانع الرومَ ولاطَفَهم بالهدايا فأذِنوا له فى بنــاء كنيسةِ مريَم ، وأعلنُوا فيها بالصلاة .

ثم ولِىَ بعده (بطرس) فلبث عشْرَ سنين وقتله (ديقلاديانوس قيصر) .

(١) بيض له فى الأصل والتكميل عن المقريزى وفى القطعة الأزهرية [فى أيام طرغش] ولكنه ضبب عليها بالشطب .

وولّى مكانه تلميذَه (إسكندروس) وكان كبير تلامذته فلَبِث ثلاثًا وعشرين سنةً. وقيل ثنتين وعشرين سنة، وقيل ستَّ عشْرةَ سنة، وكسَر صَنَم النُّحاس الذى كان فى هيكل زُحَل بالإسكندرية وبنىٰ مكانَه كنيسةً، وبقيتْ حتّى هَدَمها العُبيديُّون عند مِلْكهم الإسكندريةَ، ومات لإحدىٰ وعشرين سنة من ملْك (قسطنطين) ملك الروم.

ووِلَى مكانه تلميذه (ايناسيوس) ووثب عليه أهل إسكندرية ليقتلُوه لانتحاله مذهبا غير مَذْهبهم فهرب.

وتولى مكانه (لوقيوش) ثم رُدّ (ايناسيوس) المتقدّم ذكره إلىٰ كرسيه بعد خمسة أشهر وطرد لوقيوس، وأقام ايناسيوس بطركا إلىٰ أن مات.

فتولّى بعده تلميذه (بطرس) سنتين ووثب عليه أصحابُ لوقيوس فهرب ورُدّ لوقيوس إلىٰ كرسيه، فأقام ثلاث سنين، ثم وثبُوا عليه وردّوا بطرس ومات لسنة من إعادته، وقيل إنه حُبِس وأُقِيم مكانه (أريوس) من أهل سُمَيْساطَ.

ثم وِلَى (طيماناواس) أخو بطرس، فلَبِث فيهم سبع سنين ومات. ويقال: إن ايناسيوس المتقدّم ذكره رُدّ إلىٰ كرسيه ثم مات.

فولى مكانَه كاتبُه (تاوفينا) [فأقام سبعا وعشرين سنة][1] ومات.

وتولّى مكانه (كيرلس) آبن أخته [فأقام ثنتين وثلاثين سنة][1] ومات.

فوِلَى مكانه (دِيسَقْرس) فأحدث بِدْعةً فى الأمانة التى يعتقدُونها فأجمعوا علىٰ نفيه.

(١) الزيادة من المقريزى.

ووَلَّوا مَكانه (برطارس) وآفترقت النصارىٰ من حينئذ إلىٰ يعقُوبِيَّة ومَلكانية .

ووثب أهل الإسكندرية علىٰ برطارس البطرك فقتلوه لست سـنين من ولايته وأقاموا مكانه (طيماناوس) وكان يعقوبيا ، وهو أوّل من ولِىَ البطركية من اليعاقبة بالإسكندرية فأقام فيها ثلاث سنين ثم جاء قائد من القسطنطينية فنفاه وأقام مكانه (سوريس) من المَلَكية، فأقام تسع سنين . ثم عاد (طيماناوس) المتقدّم ذكره إلىٰ كرسيه بأمر لاون قيصر . ويقال انه بقى فى البطركيه آثنتين وعشرين سنةً ومات .

فولِىَ مكانَه (بطرس) وهلك بعد ثمـان سنين .

وولِىَ مكانه (اثناسيوس) وهلك لسبع سنين، وكان قَيِّماً ببعض البِيَعَ فى بطركية بطرس ومات .

فولِىَ مكانه (يُوحنا) وكان يعقوبيا، ومات بعد سبع سنين .

وولى مكانه (يوحنا الحبيس) ومات بعد إحدىٰ عشرةَ سنةً .

فولِىَ مكانه (ديسقرس الجديد) ومات بعد سنتين ونصف .

ثم ولى مكانه (طيماناوس) وكان يعقوبِيًّا ، فمكث فيهم ثلاثَ سـنين ، وقيل سبعَ عشرةَ سنة، ثم نُفى .

وولِىَ مكانَه (بولص) وكان مَلَكيا فلم تقبله اليَعاقبةُ، وأقام علىٰ ذلك سنتين .

ثم ولّى قيصر قائدًا من قوّاده آسمه (أثوليناريوس) فدخل الكنيسة علىٰ زىّ الجُنْد، ثم لَبِس زِىّ البَطاركة وحملهم علىٰ رأى اليعقوبِيَّة، وقَتَل مَنِ آمتنع وكانوا مائتين (١)، ومات لسبعَ عشرةَ سنةً من ولايته .

---

(١) فى خطط المقريزى مائتا ألف انسان .

ووَلِيَ مكانَهُ (يوحنا) وهلك لثلاثِ سنين .

وانفرد اليَعاقِبةُ بالإسكندرية وكان أكثُرهم القبط وقدّموا عليهم طودوشيوش بطركا، فمكث فيهم ثنتين وثلاثين سنةً . ثم جعل الملكيةُ بطركهم داقيانوس وطردوا طودوشيوش عن كرسيّه ستة أشهر؛ ثم أمر قيصر بأن يُعادَ فأُعيد؛ ثم نفاه بعد ذلك .

ووَلِّي مكانه (بولس التِّنِّيسى) فلم يقبَلْه أهل الإسكندريةِ ولا ماجاء به؛ ثم مات وغُلِّقت كنائسُ القبط اليعقوبية ، ولَقُوا شِدّة من المَلَكيةُ، ومات (طودوشيوش) الذى كان قد نُفِى .

وتولّى البطركية (بطرس) ومات بعد سنتين .

ووَلِيَ مكانه (داميَّانو) فمكث سِتاًّ وثلاثين سنةً ، وخَرِبت الدِّيَرةُ فى أيامه .

ثم وَلِيَ علىٰ الملكية بالإسكندرية ومصر (يوحنا الرَّحُوم) وهو الذى عَمِل البيمارستان للمرضىٰ بالإسكندرية، ولما سَمِع بمسير الفُرْس إلىٰ مصر هرب إلىٰ قُبْرس فمات بها لعشر سنين من ولايته، وخَلاَ كرسىُّ الملكية بعده بالإسكندرية سبْعَ سنين .

وكانت اليعاقبة بالإسكندرية قدّموا عليهم (انسطانيوس) فمكث فيهم ثنتَيْ عشرةَ سنة، واستردّ ما كانت الملكية استولَوْا عليه من كنائس اليعقوبيَّة ومات .

ثم ولى (اندرانيكون) بطركا علىٰ اليعاقبةِ فأقام ستَّ سنين خَرِبت فيها الدِّيرةُ ، ثم مات .

ووَلِيَ مكانه لأوّل الهجرة (بَنْيامين) فمكث تسعا وثلاثين سنةً . وفى خلال أيامه غَلَب هِرَقْلُ ملكُ الروم علىٰ مصر ومَلَكها .

وولّى أخاه (منانيا) بطركا على الاسكندرية وواليا وكان مَلَكِيًّا . ورأى بنيامين البطرك فى نومه مَنْ يأمُره بالاختفاء فاختفى . ثم غضِب (هِرقُل) على أخيه (منانيا) لمعتقَد فى الدين فأحرقه بالنار ثم رمى بُجُثّتــه فى البحر ؛ وبقى (بنيامين) مختفيا إلى أن فتح المسلمون الإسكندريةَ فكتب له عمــرُو بن العاص بالأمان ، فرجع إلى الإسكندرية بعد أن غاب عن كرسِيِّه ثلاثَ عشرةَ سنة ؛ وبقِىَ حتّى مات فى سنة تسـع وثلاثين من الهجرة ؛ واستمرت البطركية بعــده فى اليعقُوبِيَّة بمفردهم وغلَبُوا على مصر ، وأقاموا بجميع كراسِــيِّهم أساقفةً يَعاقِبةً ، وأرســلُوا أساقِفَتَهم إلى النُّوبة والحَبَشة فصاروا يعاقِبةً .

وخلفه فى مكانه (أغاثوا) فمكث سبعَ عشرةَ سنة ، ثم مات فى سنة ستٍّ وخمسين من الهجرة ، وهو الذى فى أيامه[1] قد انتُزِعت كنائسُ المَلَكية من اليعاقبة ، ووُلِّى عليهم بطرك بعد أن أقامُوا من لَدُن خلافة عمرَ بغير بطرك نحوًا من مائةِ سنة ورياسةُ البطرك لليعاقبــة وهم الذين يبعثُون الأساقِفَة إلى النَّواحى . ومن هنا صارتِ النُّوبة ومَنْ وراءهم من الحبشــة يَعاقبةً ؛ وهو الذى بنىٰ كنيســةَ مرقص وبقيت حتّى هُدِمت أيامَ العادل أبى بكر بن أيُّوب .

وولى مكانَهُ بطرك اسمه (يوحنا) .

ثم ولى البطركية بعــده (ايســاك) فأقام سنتين وأحد عشر شهرا [ومات] . وكانت تقدِمتُه فى الثامنــةَ عشرةَ ليوشطيان ملك الروم ، وتقرّر أن لا يقــدّم بطركٌ إلا يومَ الأحد .

---

(١) عبارة " العــبر ج ٢ ص ٢٢٧ " وفى أيام هشام ردت كنائس الملكية من أيدى اليعاقبة وولى عليهم الخ .

وقُدّم عوضه (سيمون السرياني) فأقام سبع سنين ونصفا، ومات في الرابع والعشرين من أبيب سنة أربعمائة وستّ عشرة للشهداء في خلافة عبد الملك آبن مروان.

ويقال: إنه وصل إليه رسولٌ من الهند يطلُب منه أن يقدم لهم أسقُفًّا وقُسُوسا فآمتنع إلى أن يأمره صاحبُ مصر، فمضى إلى غيره ففعل له ذلك.

وقُدّم بعده في البطركية (الاسكندروس) في سنة إحدى وثمانين من الهجرة في يوم عيد مرقص الإنجيليّ سنة أربعمائة وعشرين للشهداء، فمكث أربعا وعشرين سنة ونصفا، وقيل خمسا وعشرين سنةً، وقاسى شدّةً عظيمة، وصُودِر دَفْعتين، أَخذ منه في كل دَفْعة ثلاثةُ آلاف دينار، ومات في سنة ثمان ومائة، وكانت وفاته بالإسكندرية.

وقُدّم عوضه (قسيما) فأقام خمسة عشر شهرا ومات.

فقُدّم مكانه (تادرس) في سنة تسع ومائة فأقام إحدى عشرةَ سنةً ومات.

فقُدّم مكانه (ميخائيل)(١) في سنة عشرين ومائة فأقام ثلاثا وعشرين سنة ولقِيَ شدائدَ من عبد الملك بن موسى نائبِ مروانَ الجعديّ على مصر ثم من مروانَ لما دخل إلى مصر إلى أن قُتِل في أبي صِير وأطلق البطركَ والنصارى نائبُ أبي العباس السّفّاح.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة رُسِم بإعادة ما آستولى عليه اليعاقبةُ من كنائس المَلَكية بالديار المصرية إليهم، فأُعيدت وأقيم لهم بطركٌ، وكانت الملكيّة قد أقاموا بغير بطرك سبعا وتسعين سنة من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين الفتح الإسلاميّ إلى خلافة هشام بن عبد الملك.

---

(١) في الأصل جاتيل والتصحيح عن المقريزي.

وفى سنة سبع وأربعين ومائة صرف أبو جعفر المنصورُ (ميخائيل) بطرك اليعاقبة، وأقام عوضه (مينا) فأقام تسع سنين، ومات فى خلافة الهادى «محمد بن المهدىّ».

وقُدِّم مكانَه (يوحنا) فأقام ثلاثا وعشرين سنة، ومات سادسَ عشر طُوبة سنة خمسمائة وخمسَ عشرةَ للشهداء.

ثم فى سنة آثنتين وسبعين ومائة فى خلافة الرشيد قُدِّم فى البطركية (مُرْقص الجديد) فأقام عشرين سنة وسبعين يوما. وفى أيامه رسم الرشيدُ بإعادة كنائس الملكية التى آستولىٰ عليها اليعاقبة ثانيا إليهم، وثارت العُرْبان والمغاربة وخَرَّبوا الدِّيرة بوادى هُبَيْب ولم يبقَ فيها من الرُّهبان إلا اليسيرُ ثم مات فى سنة إحدىٰ عشرةَ ومائتين.

وقُدِّم عوضه فى البطركيَّة (يعقوبُ) قيل فى السنة الثالثة من خلافة المأمون. وفى أيامه عُمِرت الدياراتُ وعادت الرهبانُ إليها، ومات فى سنة آثنتين وعشرين ومائتين.

وقُدِّم عوضه (سيماون) فى السنة المذكورة فى خلافة المعتصم فأقام سنة واحدة. وقيل سبعةَ شهور وستةَ عشرَ يوما. وخلا الكرسىُّ بعده سنةً واحدةً وتسعةً وعشرين يوما.

وفى سنة سبع وعشرين ومائتين قُدِّم فى البطركية (بطرس) ويقال (يوساب) وكانت تقدمته فى دير (بومقار) بوادى هُبَيْب حادى عشرى هاتور سنة خمسمائة وسبعة وأربعين للشهداء. وقيل: إنه قُدِّم فى أيام المأمون، وإنه أقام ثمانىَ عشرةَ سنة، وسيَّر أساقفةً إلىٰ أفرِيقِيَّةَ والقَيْروان؛ ومات سنة آثنتين وأربعين ومائتين؛ وخلا الكرسىّ بعده ثلاثين يوما.

وقُدِّم عوضه (جاتيل)(١) فى السنة العاشرة من خلافة المتوكل . ويقال : إنه كان قُسًّا بدير بوحنس ، فأقام سنةً واحدةً وخمسةَ أشهر ، ثم مات ودفن بدير بو مقار ، وهو أوّل من دُفِن [فيه] من البطاركة . وخلا الكرسىّ بعده أحدا وثمانين يوما .

وقُدِّم عوضَه (قسيما) فى سنة أربع وأربعين ومائتين من الهجرة ، وهى الثانيةَ عشرةَ من خلافة المتوكل ، وكان شمَّاسا بدير بُومقار ، فأقام سبع سنين وخمسة شهور ثم مات ودُفِن بدنوشر ، وخلا الكرسى بعده أحدا وخمسين يوما .

وقدّم مكانه بطرك آسمه (اساسو) ويقال (سالوسو) فى أوّل سنة من خلافة المعتزّ وأحمدُ بن طولون بمصر ، فأقام إحدىٰ عشرةَ سنة وثلاثة أشهر ومات ، وهو الذى عمل مجارِىَ المياه التى تجرى تحت الأرض من خليج الإسكندرية إلىٰ آدُرِها .

ولما مات قُدِّم مكانه (ميخائيل) فى خلافة المعتمد فى سنةِ ثلاثٍ وستين ومائتين ، فأقام خمسًا وعشرين سنةً . وصادره أحمدُ بنُ طُولون فى عشرين ألفَ دينار ، فباع فى المُصادرة رِبَاع الكنائس بالإسكندريّة ، وبركةَ الحبَش بظاهر مصر ، ومات .

فبقِىَ الكرسىُّ بعده أربعَ عشرةَ سنة شاغرا إلىٰ سنة ثلثمائة . [وفى يوم الاثنين ثالث شوّال سنة ثلثمائة](٢) آحترقت الكنيسةُ العُظْمىٰ بالإسكندرية التى كانت بنتها (كلا بطره) ملكة مصر هيكلا لِزُحَل .

ثم قُدِّم البطرك (غبريال) فى السنة السابعة من خلافة المقتدر ، وهى سنة إحدىٰ وثلثمائة ، فأقام إحدىٰ عشرةَ سنةً ومات .

---

(١) فى المقريزى ميكائيل .

(٢) الزيادة عن المقريزى ليتضح الكلام .

فقُدِّم مكانه البطرك (قسيما) فأقام آثنتىْ عشرةَ سنة ومات . وفى السنة الأخيرة من رياسته (وهى سنة ثلاثَ عشرةَ وثلثمائة) أحرق المسلمون كنيسةَ مريمَ بدِمَشْقَ ونهبُوا مافيها وتتبّعوا كنائس اليَعاقِبةِ والنَّساطِرة .

ولمـا مات قسيما المذكور قدّموا عليهـم بَطْركا لم أقف على آسمه، فأقام عشرين سنة، ثم مات .

وقُدِّم فى البطركيـة (تاوفانيوس) من أهل إسكندرية فى السـنة الحادية عشرة من خلافة المطيع فأقام أربع سـنين وستةَ أشهر، ومات مقتولا فى سـنة ثمان وأربعين وثلثمائة .

وقُدِّم مكانه البطرك (مينا) فى السنة الخامسةَ عشرةَ من خلافة المطيع، والأخشيد نائبٌ بمصر، فأقام إحدى عشرةَ سـنةً ثم مات . وخلا كرسىُّ اليعاقِبَـةِ بعـد موته سنةً واحدة .

ثم قُدِّم مكانه بطركٌ آسمه (أفراهام السريانى) فى سـنة ست وستين وثلثمائة، فأقام ثلاثَ سـنين وستةَ أشهر، ومات فى أيام العزيز الفاطمى بمصر مسموما من بعض كُتَّاب النصارى : لإنكاره عليه التسرّى، وقُطِعتْ يدُ ذلك الكاتب بعد موته، ومات لوقته . وخَلَا الكرسىُّ بعده ستةَ أشهر .

وقُدِّم عوضه بطركٌ آسمه (فيلاياوس) فى سـنة تسع وستين وثلثمائة . وقيل : فى السنة الخامسة للعزيز الفاطمىّ فأقام أربعا وعشرين سنةً وسبعةَ أشهر ومات .

وقُدِّم بعده بطركٌ آسمه (دخريس) فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة فى أيام الحاكم الفاطمىّ، فأقام ثمـانا وعشرين سنة، ثم مات ودفن ببِرْكَة الحَبَش . وخلا كرسىّ

اليَعَاقبة بعده أربعةً وسبعين يوما . [ثم قدّم اليعاقبة بعده (سابونين) بطركا فى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة، فأقام خمسَ عشرةَ سنة ومات، فخلا الكرسىّ بعده سنة وخمسة أشهر] (١) .

ثم قُدِّم بعده بطركٌ آسمه (اخرسطوديس) فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة فى خلافة المستنصر الفاطمى، فأقام ثلاثين سنة، ومات فى السنة الحادية والأربعين من خلافة المستنصر المذكور بالكنيسة المعلَّقة بمصر . وهو الذى جعل كنيسةَ بومرقورة بمصر وكنيسةَ السيدة بحارة الروم بطركية . وخلا الكرسىّ بعده آثنين وسبعين يوما .

ثم قُدِّم بعده البطركُ (كيرلص) فأقام أربعَ عشرةَ سنةً وثلاثةَ أشهر ونصفا، ومات بكنيسة المختارة بجزيرة مصر سلْخَ ربيع الآخر سنةَ خمس وثمانين وأربعمائة . وخلا الكرسىّ بعده مائةً وأربعةً وعشرين يوما .

وقُدِّم عوضه بطرك آسمه (ميخائيل) فى سنة آثنتين وثمانين وأربعمائة، فى أيام المستنصر الفاطمى صاحب مصر، وكان قبل ذلك حبيسا بسِنْجَار، فأقام تسع سنين وثمانية أشهر، ومات فى المعلَّقة بمصر .

وقدّموا عوضه بطركا آسمه (مقارى) سنة آثنتين وتسعين وأربعمائة بدير بو مقار، ثم كمل بالإسكندرية، وعاد إلى مصر وقدّس بدير بو مقار ثم فى الكنيسة المعلَّقة . وفى أيامه هدم الأفضلُ بنُ أمير الجيوش كنيسةً بجزيرة مصر كانت فى بستان آشتراه .

ولما مات قُدِّم عوضه بطرك آسمه (غبريال) أبو العلا صاعد، سنة خمس وعشرين وخمسمائة فى أيام الحافظ الفاطمى، وكان قبل ذلك شَمَّاسا بكنيسة بومرقورة، فقُدِّم

(١) الزيادة عن المقريزى، وهى لازمة بها يتم الكلام .

بالمعلَّقة، وكُمِّل بالإسكندرية، فأقام أربعَ عشرةَ سنة، ومات بكنيسة بومرقورة . وخلا الكرسيّ بعده ثلاثة أشهر .

وقُدِّم بعده بطرك آسمه (ميخائيل) بن التقدوسيّ في الســنة الخامسةَ عشرةَ من خلافة الحافظ أيضا ، وكان قبل ذلك راهبا بقلّاية دنشرى، قُدِّم بالمعلَّقة وكُمِّل بالإسكندرية ، ومات بدير بومقار في رابع شوّال سنة إحدىٰ وأربعين وخمسمائة . وخلا الكرسيُّ بعده سنةً واحدة وسبعين يوما .

وقدّم عوضه بطركٌ آسمه (يونُس) بنُ أبي الفتح بالمعلَّقة بمصر وكُمِّل بالإسكندرية، فأقام تسعَ عشرةَ ســنة ، ومات في السابع والعشرين من جُمادىٰ الآخرة سنةَ إحدىٰ وخمسين وخمسمائة . وخلا الكرسيّ بعده ثلاثةً وأربعين يوما .

وقُدِّم بعده بطرك آسمه (مرقص) أبو الفَرَج بن زرْعة في ســنة إحدىٰ وستين وخمسمائة بمصر وكُمِّل بالإسكندرية ، فأقام آثنتين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسةً وعشرين يوما، وفي أيامه أُحْرِقت كنيسةُ بومرقورة بمصر، ثم مات . وخَلَا الكرسيّ بعده سبعة وعشرين يوما .

وقدّم بعده بطرك آسمه (يونُس) بنُ أبي غالب في عاشر ذي الحِجّة سنة أربع وثمانين وخمسمائة بمصر وكُمِّل بالإسكندرية ، وأقام ستًّا وعشرين ســنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما، ومات في رابع عشر رمضان المعظَّم قدرُه، سنةَ ثنتَيْ عشرةَ وستمائة بالمعلَّقة بمصر، ودُفِن ببركة الحَبَش .

وقُدِّم بعــده بطركٌ آسمه (داود) بن يوحنا، ويعرف بابن لَقْلَق بأمر العادل بن الكامل ، فلم يُوافِق عليــه المصريون فأُبْطلت بطركيتــه ، وبقي الكرسيُّ بغير بطرك تسعَ عشرةَ سنة .

ثم قُدِّم بطرك آسمه (كيرلس)(١) داود بن لقاق فى التاسع والعشرين من رمضان المعظم سنةَ ثلاثٍ وثلاثين وستمائة ، فأقام سبعَ سنين وتسعة أشهر وعشرةَ أيام، ومات فى السابع عشر من رمضان المعظم سنة أربعين وستمائة، ودُفِن بدير الشَّمَع بالجيزة . وخلا الكرسىّ بعده سبع سنين وستةَ أشهر وستةً وعشرين يوما .

وقُدِّم بعده بطركٌ آسمه (سيوس) بن القُسّ أبى المكارم، فى رابع رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة وكُمِّل بالإسكندرية، وأقام إحدىٰ عشرة(٢) سنة وخمسة وخمسين يوما ، ومات فى ثالث المحرم سنة ستين وستمائة . وخلا الكرسىُّ من بعده خمسةً وثلاثين(٣) يوما .

ثم قُدِّم بعده فى الدولة الناصريّة محمد بن قلاوون البطرك (بنيامين) وهو الذى كان معاصرا للمَقرّ الشهابىّ بنِ فضل الله، ونقل عنه بعض أخبار الحَبَشة .

ثم قُدِّم بعده المؤتمن (جرجس) بن القُس مفضَّل فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة .

ثم قدّم بعده البطرك متّى وطالت مدّته فى البطركية ثم مات فى شهور سنة آثنتىْ عشرة وثمانمائة .

وآستقرّ بعده الشيخ الأمجدُ (رفائيل) فى أواخر السنة المذكورة ، وهو القائم بها إلىٰ الآن .

---

(١) عبارة المقريزى بعد ماتقدم "ثم قدم هذا القس" يعنى به داود بن لقلق المتقدم فانه بعد أن منع عنها المدة المذكورة قدم اليها فى التاريخ المذكور .

(٢) فى الأصل إحدى وعشرين وهو خطأ ، والتصحيح عن المقريزى .

(٣) فى المقريزى خمسة وثمانين يوما .

* * *

أما ملوكهم القائمون ببلادهم، فلم يتّصلْ بنا تفاصيلُ أخبارهم؛ غير أنَّ المشهورَ أنَّ ملكهم فى الزمن المتقـدّم كان يلقّب النَّجاشيّ، سمةً لكُلّ من ملك عليهم، إلىٰ أن كان آخِرُهم (النجاشيّ) الذى كان فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأسلم وكتب إليه بإسلامه، ومات وصلّى عليه صلاةَ الغائب؛ وكان اسمُه بالحبشية (أَصْحَمَةَ) ويقال (صَحْمَة) ومعناه بالعربية عَطِيَّة .

وقد ذكر المَقَر الشهابيّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار": أن الملِكَ الأكبرَ الحاكم علىٰ جميع أقطارهم يسمّى بلغتهم (الحَطِّى) بفتح الحاء المهملة وتشديد الطاء المهملة المكسورة وياء مثناة تحت فى الآخر . ومعناه السلطان آسمًا موضوعا لكل مَنْ قام عليهم مَلِكا كبيرا . ثم قال : ويقال : إن تحتَ يده تسعةً وتسعين مَلِكا، وهو لهم تمـامُ المائة . وذكر أن المَلِك القائم بمملكتهم فى زمانه آسمه (عَمَدسيُون) ومعناه ركن صِهْيَونَ . قال : وصِهْيَوْنُ بِيعـةٌ قديمةُ البناء بالإسكندرية معظَّمة عندهم . قال : ويقال : إنه من الشجاعة علىٰ أوْفَرِ قِسْم، وإنه حَسَن السِّيرة، عادلٌ فى رعيته . قال فى "التعريف" : وقد بلَغنا أن الملك القائمَ عليهم أسلم سِرّا، وآستمرّ علىٰ إظهار دين النصرانية إبقاءً لمُلْكه . فيحتمل أنه (عَمَدسِيون) المقدّم ذكره، ويحتمل أنه غيره . قال فى "التعريف" : ومُدَبِّر دولتـه رجل يقْرُب إلىٰ بنى الأرشى الأطباء بدمشق . قال فى "مسالك الأبصار" : ومع ما هم عليـه من سَعَة البلاد، وكثرة الخَلْق والأجناد، مفتقرُون إلىٰ العِنَاية والمُلَاحظة من صاحب مصر . لأن المُطْران الذى هو حاكمُ شريعتهم فى جميـع بِلادِهم من أهل النصرانيـة لا يُقَام إلا من الأقبـاط اليَعَاقِبـة بالديار المصرية، بحيث تَخْرُج الأوامر السـلطانية من مصر

للبطرك المذكور بارسال مُطْرانٍ إليهم . وذلك بعد تقدُّم سؤالِ ملك الحبشة الذى هو الحَطِّى وإرسال رُسُله وهَدَاياه . قال : وهم يدّعون أنهم يحفَظُون مَجارِىَ النيل المنحَدِرِ إلىٰ مصر، ويُساعِدُون علىٰ إصلاح سُلُوكه تقرّبا لصاحب مصر.

وقد ذكر ابن العميد مؤرّخُ النصارىٰ فى تاريخه : أنه لمـا توقف النيل فى زمن المستنصر بالله الفاطمى، كان ذلك بسبب فسادِ مَجَاريه من بِلادِهم، وأنّ المستنصِرَ أرسل البطرك الذى كان فى زمانه إلى الحَبَشـة حتّى أصلحوه واستقامت مَجَاريه . لكن قد تقدّم فى الكلام علىٰ النيل عنـد ذكر مملكة الديار المصرية من هذه المقالة ما يُخَالف ذلك .

الجمـــــلة السادســـــة

(فى ترتيب مملكتهم)

قال فى "مسالك الأبصار" : يُقال إن الحَطِّى المذكورَ وجيشَه لهم خيامٌ ينقلونها معهم فى الأسفار والتنزُّهات، وإنه إذا جلس الملك يجْلِس علىٰ كرسى، ويجلس حولَ كُرْسيِّه أمراءُ مملكته وكبراؤها علىٰ كراسِىَّ من حديد : منها ماهو مُطَعَّم بالذهب، ومنهـا ما هو ساذَج علىٰ قدر مراتبهم . قال : ويُقال إن الملِك مع نَفاذ أمره فيهم يتثبَّتُ فى أحكامه . ولم يزد فى ترتيب مملكتهم علىٰ ذلك .

ولملِك الحبشة هذا مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، يأتى ذكْرُها فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء اللهُ تعالىٰ .

القســـم الثـانى

(من بلاد الحبشة ما بيد مسلمى الحبشة)

وهى البلادُ المقـابلةُ لبرّ اليمنِ على أعَالى بحْر القُلْزُم ، وما يتصلُ به من بحر الهند ، ويعبَّر عنهـا "بالطِّراز الإسلامى" لأنهـا على جانب البحر كالطِّراز له . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى البلاد التى يُقال لهـا بِمصرَ والشأم بلاد الزَّيْلَع . قال : والزَّيْلَع إنمـا هى قريةٌ من قُراها ، وجزيرةٌ من جزائرها ، غلب عليها ٱسمُها . قال الشيخ عبد المؤمن الزَّيْلعِيُّ الفقيه : وطولُها بَرًّا وبحرا خاصًّا بها نحوُ شهرين ، وعَرْضها يمتدُّ أكثر من ذلك ، لكن الغالب فى عَرْضها أنه مُقْفِر ، أما مقدار العِمارة فهو ثلاثة وأربعون يومًا طُولا ، وأربعون يومًا عَرْضا . قال فى "مسالك الأبصار" : وبيوتُهم من طين وأحجار وأخشاب ، مسَقَّفةٌ بجمَلُونات وقِباب ، وليسَتْ بذوات أسوار ولا لها نخـامةُ بِناء ، ومع ذلك فلها الجوامعُ ، والمساجدُ ، وتُقام بها الخُطَب والجمع والجماعاتُ ، وعنـد أهلها محافظةٌ على الدِّين ، إلا أنه لا تُعْرف عندهم مَدْرَسة ، ولا خانقاه ، ولا رِبَاط ، ولا زاوِيةٌ . وهى بلادٌ شـديدة الحر ، وألوانُ أهلها إلى الصَّفاء ، وليست شُعورهم فى غاية التفَلْفُل كما فى أهل مالِّى وما يليها من جنوب المغرب ، وفِطَنُهم أنْبَـهُ من غيرهم من السُّودان ، وفِطَرُهم أذْكى ، وفيهم الزُّهَّاد ، والأبرار ، والفُقَهاء والعلمـاء ، ويتمذْهبُون بمذهب أبى حنيفة ، خلا وفات فان ملكها وغالبَ أهلها شافعيَّة .

وتشتمل على ستِّ جمل :

الجمـــــلة الأولىٰ

(فيما آشتملت عليه من القواعد والأعمال)

مقتضىٰ ما ذكره فى "مسالك الأبصار" و"التعريف" أن هـذه البلاد تشتمل علىٰ سَبْع قواعد، كلُّ قاعدة منها مملكة مستقلّة بها ملِكٌ مستقل :

القــاعدة الأولىٰ

(وَفَات)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بالواو المفتوحة والفاء ثم ألف وتاء مثناة فوق فى الآخر، والعامّة تسميها (أَوْفات) . ويقال لها أيضا (جَبَرَةُ) بفتح الجيم والبـاء الموحدة والراء المهملة ثم هاء فى الآخر، والنسبة إلىٰ جبرة جَبَرْتِىٌّ. وموقعها بين الإقليم الأوّل وخط الآسْتِواء . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجةً، والعرضُ ثمــانُ دَرَج . قال : وعن بعض المسافرين أنهــا من أكبر مُدُن الحبشــة . وهى علىٰ نَشَز من الأرض، وعِمارتهــا متفرّقةٌ، ودارُ الملك فيها علىٰ تَلٍّ والقلعة علىٰ تَلٍّ، ولها وادٍ فيه نهر صغير، وتُمْطَر فى الليل غالبــا مَطَرا كثيرا، وبها قَصَب السُّكَّر . قال فى "مسالك الأبصار" : وقال الشيخ عبدُالله الزَّيْلَعىُّ : وطول مملكتها خمسةَ عشَر يوما وعرضُها عشرون يومًا بالسير المعتاد . قال : وكلُّها عامرة آهلةٌ بقُرًى متصلة، وهى أقرب أخَواتها إلىٰ الديار المصرية وإلىٰ السَّواحل المُسامِتة لليَمَن، وهى أوسعُ الممالك السَّبْع أرضا، والإجلابُ إليها أكثرُ لقُرْبها من البلاد . قال فى "مسالك الأبصار" : وعسكَرُها خمســةَ عشَرَ ألفا من الفُرْسان، ويتبعُهم عشرون ألفا فأكثرُ من الرَّجّالة، وسيأتى الكلام علىٰ سائر أحوالها عند ذكر أحوال سائر أخَواتها فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن مُضافاتها (زَيْلَعُ) . قال فى "تقويم البُـلْدان" : الظاهر أنها بفتح الزاى المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح اللام ثم عين مهملة فى الآخر، وهى فُرْضة من فُرَض هذه البلاد، وموقعها بين الإقليم الأوّل وخَطّ الاستواء . قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ إحدىٰ وستون درجةً، والعرضُ ثمانُ دَرَج . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى فى جهة الشرق عن (وَفَات) و بينهما نحوُ عشرين مرحلةً . قال ابن سعيد : وهى مدينة مشهورة وأهلها مسلمون ؛ وهى علىٰ رُكْن من البحر فى وَطَاءة من الأرض . قال فى "تقويم البُلْدان" : وعن بعض مَنْ رآها أنها مدينةٌ صغيرة نحو عَيْذابَ فى القَدْر ؛ وهى علىٰ الساحل والتُّجَّار تنزل عنـدهم فيُضيفونهم و يبتاعُونَ لهم . قال ابن سـعيد : وهى شديدة الحَرّ وماؤها عذبى من جفارات ؛ وليس لهم بساتينُ، ولا يَعْرِفون الفواكِهَ . قال فى "القانون" : وفيها مغاصُ لُؤْلُؤٍ . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أنها فى مملكة صاحب أَوْفات . وذكر فى "تقويم البُلْدان" عن بعض من رآها أن فيهـا شُيوخا يحكُمون بين أهلها، وقال : إن بينها و بين عَدَنَ من اليمن فى البحر ثلاثَ مجارٍ، وهى عن عَدَنَ فى جهة الغرب بميلة إلىٰ الجَنُوب .

القاعدة الثانيـــــة

(دَوَارو)

بفتح الدال المهـملة وواو ثم ألف وراء مهـملة وواو وهى مدينـة ذكرها فى "مسـالك الأبصـار" و "التعريف" : ولم يتعرَّض لصفتهـا . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أنها تلى أوفات المقـدّمةَ الذكرِ ، وان مملكتَها طولهُـا

خمسةُ أيام ، وعرضها يومانِ . ثم قال : وهى علىٰ هذا الضِّيق ذاتُ عَسكرٍ جَمٍّ ، نظير عسكر أَوْفَات فى الفارِس والراجِل . وسيأتى الكلامُ علىٰ تفصيل أحوالها مع أخواتها فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

القاعدة الثالثة

(أرابينى)

وهى مدينةٌ ذكرها فى "المسالك" و"التعريف" أيضا، ولم يذكر شيئا من صفتها . ثم ذكر أن مملكتها مربَّعة : طولُها أربعةُ أيام، وعَرْضها كذلك؛ وعسكرُها يقارب عشرةَ آلاف فارس . أما الرجَّالة فكثيرةٌ للغاية .

القاعدة الرابعة

(هَدْيةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بالهاء والدال المهملة والياء المثناة التحتية ثم هاء فى الآخر علىٰ ماذكره بعض من رآها . وموقعُها بين الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة وبين خَطّ الآستواء . قال : والقياس أنها حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة ، والعرض سبْعُ درج . وذكر عن بعض المسافرين أنها جنوبِيّ (وَفَات) . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى تلى أرابينى المقدّمَ ذكرُها، وطولُ مملكتها ثمانيةُ أيام، وعرضُها تسعةُ أيام؛ وصاحبها أقوىٰ إخْوانِه من ملوك هذه الممالك السبعة ، وأكثر خَيْلا ورِجَالا ، وأشدُّ بأسا علىٰ ضِيق بلاده عن مقدار أَوْفات . قال : ولملكها من العسكر نحوُ أربعين ألفَ فارس سِوىٰ الرَّجَّالة ، فإنهم خلْق كثير مثل الفُرْسان مرتين أو أكثَر . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومنها تُجْلَب الخُدّام ، وذكر

أنهم يَخْصُونهم بقريةٍ قريبةٍ منها . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن الخُدَّام تُجْلَب إليها من بلاد الكُفَّار . ثم حكىٰ عن الحاج فرج الفوّى التاجر : أنه حدّثه أن ملك أمْحَرا يمنع من خَصْى العبيد ويُنْكِر ذلك ويُشَدِّد فيه . وإنما السُّرّاق تقصِد بهم مدينة آسمها (وَشَلْو) بفتح الواو والشين المعجمة واللام، أهلها هَمَج لادِينَ عندهم فتُخْصىٰ بها العبيدُ، لايُقْدِم علىٰ هذا فى جميع بلاد الحبشة سِواهم . قال : ولذلك التُّجَّار إذا آشتَرَوُا العبيد يخرُجون بهم إلىٰ (وَشَلْو) فيَخْصُونهم بها لأجل زيادة الثمن؛ ثم يحمل من خُصِى منهم إلىٰ مدينة (هَدْيَة) لقربها من (وَشَلْو) فتُعادُ عليهم المُوسىٰ مرةً ثانيةً لينفتِح مَجْرىٰ البول لأنه يكون قد آستَدَّ عند الخَصْى بالقَيْح، فيُعالَجُون بهَدْية إلىٰ أن يبرءُوا، ولأن أهل (وَشَلْو) وإن كان لهم معرفةٌ بالخَصْى فليس لهم معرفةٌ بالعِلاج، بخلاف أهل هَدْيَةَ فإنهم قد درّبوا [علىٰ] ذلك وعَرَفوه . ثم قال : ومع هذا فالذى يموتُ منهم أكثرُ من الذى يعيش؛ وأضرُّ ما عليهم حملُهم بلامعالجة من مكان إلىٰ مكانٍ، فإنهم لو عُولِجُوا فى مكان خَصْيِهم كان أرفَقَ بهم .

القــاعدة الخامســـة

(شَـــرْحا)

بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وحاء ثم ألف .

وهى مدينـــة تَلِى (هَدْيَةَ) المقـــدّمةَ الذكر . ذكرها فى "مسالك الأبصار" و"التعريف" ولم يصرِّحْ لهـا بوصف . قال فى "مسالك الأبصار" : وطولُ مملكتهـا ثلاثةُ أيام، وعرضُها أربعةُ أيام . قال : وعسكرها ثلاثةُ آلاف فارس، ورَجَّالةٌ مثل ذلك مرتين فأكثرَ، وسيأتى الكلامُ علىٰ سائر أحوالها مع سائر أخواتها فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

القاعدة السادسة

(بالى)

بفتح الباء الموحدة وألف ثم لام وياء آخر الحروف .

وهى مدينة تلى شَرْحا المقدّمة الذكر ذكرها فى "المسالك" و"التعريف" قال فى المسالك : ولكنها أكثر خِصْبا ، وأطيب سَكَنًا ، وأبردُ هواء ، وسيأتى الكلام على سائر أحوالها مع سائر أخواتها فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

القاعدة السابعةُ

(دارة)

بفتح الدال المهملة وألف بعدها راء ثم هاء . وهى مدينة تلى (بالى) المقدّمة الذكر، ذكرها فى "المسالك" و"التعريف" . قال فى "المسالك" : وطولُها ثلاثةُ أيام، وعرضُها كذلك . وهى أضعف أخواتها حالًا ، وأقلها خَيْلا ورِجالا . قال : وعسكَرُها لا يزيد على ألفَىْ فارس ، ورَجَّالة كذلك ، وسيأتى الكلام على سائر أحوالها فى الكلام على سائر أخواتها فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(فى الموجود بهذه الممالك ، على ما ذكره فى "مسالك الأبصار")

قد ذكر أنَّ عندهم من المواشى الخيلَ العِرَابَ ، والبِغالَ ، والحميرَ ، والبقَر ، والغَنَم بكَثْرة . أما المَعَز فقليلٌ عندهم . ومن الوَحْش : البَقَر ، والحُمُر ، والغِزْلان ،

والمَهَا ، والإيَّل ، والكَرْكَدَّن ، والفَهْد ، والأَسَد ، والضَّبُعة العَرْجاء ، وتُسمَّى عندهم مرعفيف ، وعندهم جواميسُ بَرِّيَّة تُصاد كما تقدّم فى إقليم مَالِّى . وعندهم من الطيور الَّدواجِنِ الَّدجاجُ ، ولكن لا رغبةَ لهم فى أكله استقذارًا له : لأكله القُمامات والزُّبَالات ، ودَجاجُ الحَبَش يصيدونه ويأكلونه ، وهو عندهم مُستطَاب . وعندهم من الحبوب الحِنْطة ، والشعير ، والذُّرَة ، والطَّافِى : وهو حبٌّ نحو الخَرْدَل أحمرُ اللون على ما تقدّم ذكره فى الكلام على القسم الأوّل من بلاد الحَبَشة . وعندهم الخَرْدَل أيضا . وعندهم من الفواكه العنبُ الأسودُ على قِلَّة ، والمَوْز ، والرُّمّان الحامض ، والتوتُ الأسودُ على قِلَّة فيه ، والجُمَّيز بكثرة . وعندهم من المحمَّضات : الأُتْرُجُّ ، واللَّيْمون ، والقليل من النارَنْج . وعنـــدهم تِينٌ بَرِّىٌّ ، وخَوْخ بَرِّىٌّ ؛ ولكنهم لا يأكلون الخَوْخ دونَ التين . وعنـــدهم فواكهُ أخرى لا تُعرَف بمصر والشأم والعِراق ، منها شجر يسمى كشباد ، ثمره أحمرُ على صفة البُسْر ، وهو حلْوٌ ماوِىٌّ ، وشجر يسمَّى كوشى ، ثمره مستدير كالبَرْقُوق ، ولونه أصفرُ خَلُوقِىٌّ كالمِشْمِش ، وهو مُزٌّ ماوِىٌّ ، وشجر يسمَّى طانة ، ثمره أصغر من البُسْر ، وفى وسطه شــبه النَّوى ، وهو حُلْو صادقُ الحلاوة ونَوَاه يُؤْكَل معه لعدم صَلَابته . وشجر اسمه أوَجَاق ـ بفتح الواو والجيم ـ ثمره أكبر من حب الفُلْفُل وطعمُه شبيه به فى الحَرَافــة مع بعض حلاوة . وعنـــدهم شجر جان المقـــدّم ذكره فى القسم الأوّل من بلاد الحبشة ، وهو الذى يُؤْكَل عندهم للذَّكاء والفِطْنة ، ولكنه يُقِل النومَ والنكاح على ما تقـــدّم ذكره هناك . وعندهم من أنواع المَقَاثِئ البِطِّيخ الأخضر ، والخيار ، والقَرْع . ومن الخضروات اللُّوبيا ، والكُرُنْب ، والباذِنْجان ، والشَّمار ، والصَّعْتَر . أما المُلُوخيا فإنها تطلُع عندهم بَرِّيَّةً .

الجملة الثالثة

(فى معاملاتهم وأسعارهم)

أما معاملاتهم فعلى ثلاثة أنواع . منها ماهو بالأعراض مُقايَضَةً : تباع البَقَر بالغنم ونحو ذلك كما فى القسم الأول من بلاد الحبشة . ومنها ماهو بالدّنانير والدراهم كمصر والشام ونحوهما، وهو (وَفَات) وأعمالها خاصّة . قال فى "مسالك الأبصار" : وليس بأَوْفات سِكَّةٌ تضرَب بل معاملاتُهم بدنانيرِ مصرَ ودراهِمها الواصلةِ إليهم صحبة التُّجّار . وذلك أنه لو ضرب أحدٌ منهم سِكّة فى بلاده لم ترُجْ فى بلد غيره . ومنها ماهو بالحَكُنَات، جمع حَكُنة ـ بفتح الحاء المهملة وضم الكاف والنون ـ كما ضبطه فى "مسالك الأبصار" وهى قِطَع حديد فى طُول الإبرة، ولكنها أعرضُ منها بحيث تكون فى عَرْض ثلاثِ إبر، يُتَعامَلُ بها فى سائر هذه البلاد سوى ما تقدّم ذكره . قال : وليس لهذه الحَكُنة عندهم سعر مضبوطٌ بل تُباع البقرة الجيِّدة بسبعة آلاف حَكُنة، والشاة الجيِّدة بثلاثة آلاف حَكُنة . وتُكال غلّتهم بكيل آسمه الرابِعِيّة، بمقدار وَيْبة من الكيل المِصْرىّ . وزنة أرطالهم اثنتا عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم بصنجة مصر .

وأما الأسعار فكلّها رخيّة حتّى قال فى " مسالك الأبصار " : إنه يُباع بالدرهم الواحد عندهم من الحنطة بمقدار حِمْل بغل ؛ والشعيرُ لا قيمةَ له . وعلى هذا فقِس .

الجمـــلة الرابعـــة

(فى ملوكهـــم)

قد تقـدّم فى الكلام على القسم الأوّل من بلاد الحبشة أن الحَطِّى الذى هو سلطانُهم الأكبر تحت يده تسـعةٌ وتسعون مَلِكا وهو لهم تمـامُ المـائة . وقد ذكر فى "التعريف" : أن هذه السبعةَ من جملة التسعة والتسعين الذين هم تحت يَده . قال فى " مسالك الأبصـار " : والمُلْك منهـم فى بيوت محفوظـةٍ إلّا بَالِى اليومَ ، فإن المُلْك بهـا صار إلى رجل ليس من أهل بيت المُلْك ، تقرّب إلى سلطان أمْحَرا حتّى ولّاه مملكة بالى فاستقلّ مَلِكا بهـا . على أنه قد وَلِيها من أهـل بيت المُلْك رجال أكْفاء ، ولكنّ الأرضَ لله يُورِثهـا مَنْ يَشاء . قال : وجميع ملوك هذه الممـالك وإن توارَثُوها لا يستقِلّ منهم بمُلْك إلا مَنْ أقامه سلطانُ أمْحَرا ، وإذا مات منهم مَلِك ومن أهله رجال قصدُوا جميعُهم سلطانَ أمْحَرا ، وتقرّبُوا إليـه جُهْدَ الطاقة ، فيختار منهم رجلا يُولِّيه ، فإذا ولّاه سمع البَقِيَّةُ له وأطاعوا ، فهم له كالنُّوّاب ، وأمْرُهم راجع إليه . ثم كُلُّهم متفِقون على تعظيم صاحب أَوْفات ، مُنْقادُون إليه . ثم قال : وهذه الممـالك السبع ضَعِيفة البِناء ، قليلة الغَناء ، لضَعْف تركيب أهلها ، وقِلّة محصول بلادهم ، وتسلُّط الحَطِّى سلطانِ أمْحَرا عليهم ، مع ما بينهم من عَداوة الدِّين ، ومُبَاينة ما بين النصارى والمسلمين . قال : وهم مع ذلك كلمتُهم متفرِّقة ، وذاتُ بَيْنِهم فاسدة .

ثم حكى عن الشيخ عبد الله الزَّيْلَعِىّ وغيره : أنه لو ٱتفقتْ هـذه الملوكُ السبعة وٱجتمعتْ ذاتُ بينِهم ، قَدَروا على مدافعة الحَطِّى أو التمـاسك معه ، ولكنهم مع ماهم عليه من الضَّعف وٱفتراق الكلمة بينهم تنافُس . قال : وهم على ماهم عليه

من الذِّلَّة والمَسْكَنة للحَطِّى سلطان أمْحَرا عليهم قطائعُ مقرّرة، تحمل إليه فى كل سنة من القُمَاش الحريرِ والكتّان، ممـا يُجْلَب إليهم من مصر واليمن والعراق . ثم قال : وقد كان الفقيهُ « عبد الله الزيلعيُّ » قد سعىٰ فى الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسولِ سلطانِ أمحرا إلىٰ مصر فى تنجزُّ كتاب البِطْريرك إليه ، بكف أذِيَّته عمّن فى بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم . و برزَتِ المراسيمُ السلطانيةُ للبطريرك بكتابة ذلك ، فكتب إليـه عن نَفْسـه كتابا بليغا شافيا ، فيـه معنىٰ الإنكار لهذه الأفعال ، وأنه حَرَّم هذا علىٰ مَنْ يفعله ، بعباراتٍ أجاد فيها ؛ ثم قال : وفى هذا دلالة علىٰ الحال .

قلت : وقد كُتِب فى أوائل الدولة الظاهرية « برقوق » كتابٌ عن السلطان فى معنىٰ ذلك ، وقرينُه كتابٌ من البطريرك (مَتَّى) بطريرك الإسكندرية يومئذ بمعناه . وتوجَّه به إلىٰ الحَطِّى سلطان الحبشة ، « برهانُ الدين الدِّمياطىُّ » فذهب وعاد بالحِبَاء من جهة الملِك ؛ لكن ذكر عنه أنه أتىٰ أمورا هناك تقدح فى عقيدة ديانتـه ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وستأتى الإشارة إلىٰ المكاتبة إلىٰ هؤلاء الملوك السبعة فى المقالة الرابعة فى الكلام علىٰ المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ .

الجملـــة الخامسة

(فى زِىّ أهـــل هـــذه المملكة)

أما لِبْسهم ، فإنه قد جرتْ عادتهم أن الملِك يعصِّب رأســه بعِصَابةٍ من حرير ، تَدُور بدائر رأسه ، ويبقىٰ وسطُ رأسه مكشوفًا ؛ والأمراء والجند يُعَصِّبون رُءوسهم كذلك بعصَائبَ من قُطْن ؛ والفقهاء يَلْبَســون العمائم ؛ والعامَّةُ يلبَسُون كوافىَ بيضا

طاقيات، والسلطان والجند يتّزرون بثياب غير مَخيطة : يشُدّ وسطَه بثوبٍ، ويتّزِر بآخر، ويلبَسون مع ذلك سراويلاتٍ . ومَنْ عداهم من الناس يقتصِرُون علىٰ شَدّ الوَسَط والاتِّزار خاصّـةً بلا لُبْس سراويلَ . وربما لَبِس القُمصانَ منهم بعضُ الفقهاء وأربابُ النِّعم .

وأما رُكُوبهم الخيلَ ، فإنهم يركبونها بغير سُرُوج ، بل يُوَطّأُ لهم علىٰ ظُهورها بجلود مِرْعِزّى حتّى ملوكهم .

وأما سلاحهم فغالبه الحِراب والنُّشّاب .

الجملة السادسة

(فى شِعار المَلِك وترتيبه)

أما شعار المَلِك ، فقد جرتْ عادتُهم أن الملك إذا ركب تقدّم قُدّامهُ الحُجّاب والنُّقَباء لطَرْد الناس ، ويضرب بالشَّبّابة أمامه ، ويضرب معها ببُوقاتٍ من خشب فى رءوسها قرون مجوّفة ، ويُدَقُّ مع ذلك طبولٌ معلّقة فى أعناق الرجال تسمّى عندهم الوَطْواط . ويتقدّم أمامَ الكل بوقٌ عظيم يسمّى الجنبا ، وهو بوق مَلْوِىّ من قَرن وَحْش عندهم من نوع بقر الوحش آسمه (عجرين) فى طول ثلاثة أذرع ، مجوّف يُسمَع علىٰ مسيرة نصف يوم ، يَعْلَم من سمعه ركوبَ الملِك ، فيبادرُ إلىٰ الركوب معه مَنْ له عادةٌ به .

وأما ترتيب المَلك عندهم ، فإن من عادتهم أن الملك يجلس علىٰ كرسىٍّ من حديد مُطَعَّم بالذهب ، عُلُوُّه أربعةُ أذرع من الأرض ، ويجلس أكابرُ الأمراء حوْلَه

على كراسىّ أخفضَ من كرسيّه ، وبقيةُ الأمراء وقوفٌ أمامه ؛ ويحمل رجلان السلاحَ على رأسه . ويختصُّ صاحبُ (وَفَات) بأنه إذا ركب حُمِل على رأسه چتر على عادةِ الملوك .

ثم إن كان الملك راكبا فرسا، كان حاملُ الچتر ماشيًا بازائه والچتر بيده ، وإن كان راكبا بغلا، كان حاملُ الچتر رديفه والچتر بيده على رأس الملك .

وبالجملة فإنه يُعَدّ من حِشْمة الملك أو الأمير عندهم أنه إذا كان راكبا بغلا أن يُرْدِف غلامَه خلْفَه، بخلاف ما إذا كان راكبا فرسًا فإنه لا يُرْدِف خلفَهُ أحدا . ومما يعدّ بـ(وَفَات) من حِشْمة الملك أو الأمير أنه إذا مشى يتوكّأُ على يدَىْ رجلين . وملوكُهم تتصدّى للحكم بأنفسهم وإن كان عندهم القضاةُ والعُلَماء . وليس لأحدٍ من الأمراء ولا سائر الجُنْد إقطاعاتٌ على السلطان ولا نُقُود كما بمصر والشام ، بل لهم الدوابُّ السائمةُ . ومَنْ شاء منهم زرَع وآستغَلّ ولا يُعارَضُ فى ذلك . وليس لأحدٍ من ملوكهم سِمَاطٌ عامٌّ، بل إنما يمدّ سِماطُه له ولخاصَّتِه، ولكنه يفَرّق على أمرائه بَقَرا عِوَضا عن أمرِ أكلهم على السِّماطَ . وأكثر مايعطى الأميرَ الكبير منهم مائتَا بقرة .

قلت : وأهمل المقرُّ الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" و"التعريف" عدّةَ بلاد من ممالك الحبشة المسلمين .

منها (جزيرة دَهْلَك) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الدال المهملة وسكون الهاء ثم لام مفتوحة وكاف . وهى جزيرة فى بحر القُلْزم، واقعةٌ فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ إحدى وستُّون درجةً ، والعرضُ أربعَ عشرةَ درجةً . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى جزيرةٌ مشهورةٌ على

طريق المسافرين فى بحر عَيْذاب إلىٰ اليَمَن . قال ٱبن سعيد : غَرْبىّ مدينة (حَلْىٍ) من بلاد اليمن ، فطولها نحو مائتَىْ ميل ، و بينها و بين بَرّ اليمن نحو ثلاثين ميلا [ومَلِك دَهْلَك من الحبش المسلمين] (١) وهو يُدارى صاحب اليَمن .

ومنها (مدينة عَوَان) بفتح العين المهملة والواو وألف ثم نون . وهى مدينة علىٰ ساحل بحر القُلْزم مقابِل (تِهَامة اليَمَن) حيثُ الطولُ ثمانٍ وسبعون درجة ، والعرضُ ثلاثَ عشرةَ درجةً ونصفُ درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : و إذا كان وقت الضحىٰ ظهر منها (الجَنَاح) وهو جبل عالٍ فى البحر .

ومنها (مدينة مَقْدِشُو) بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة (٢) ثم شين معجمة وواو فى الآخر كما نقله فى "تقويم البُلْدان" عن ضبطه فى "مُزِيل الارْتياب" بالشكل . وموقعُها بين الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة وخَطّ الاستواء . قال ٱبن سعيد : حيثُ الطولُ ٱثنتان وسبعون درجةً ، والعرض درجَتانِ . قال فى "مُزِيل الارْتياب" : وهى مدينة كبيرةٌ بين الزَّنْج والحبشة . قال : وهى علىٰ [بحر] الهند ، ولها نهر عظيم شَبِيه بنيل مصر فى زيادته فى الصَّيف . قال : وقد ذكر أنه شقيقٌ لنيلِ مصر فى مَخْرَجه من بُحَيْرة كورا ، ومَصَبُّه ببحر الهند علىٰ القُرْب من مَقْدَشُو .

قلت : وقد أتى الحطِّى ملك الحبشة النصارىٰ علىٰ معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة وخرّبها وقتل أهلها وحَرّق ما بها من المصاحف وأكره الكثير منهم علىٰ الدخول فى دين النصرانية ، ولم يبق من ملوكها سوىٰ ٱبن مسمار المقابلة بلاده لجزيرة دَهْلك تحت طاعة الحطِّى ملك الحبشة وله عليه إتاوة مقرَّرة ، والسلطان سعد الدين

(١) الزيادة عن تقويم البلدان .

(٢) ضبطها ياقوت بفتح الدال .

صاحب زَيْلع وما معها وهو عاصٍ له خارج عن طاعته بينه وبينه الحروب لا تنقطع ، وللسلطان سعد الدين فى كثير من الأوقات النصرة عليه والغلبة والله يؤيد بنصره من يشاء .

وآعلم أن ماتقدّم ذكره من ممالك السُّودان هو المشهور منها ، وإلا فوراءَ ذلك بلادٌ نائيةُ الجوانب بعيدة المَرْمىٰ منقطِعة الأخبار .

منها (بلادُ الزنج) . وهى بلادٌ شرقىّ الخليج البربَرِىّ المقدّم ذكره فى الكلام علىٰ البِحار، تُقابل بلاد الحبشة من البر الآخَرِ .

وقاعدتها (سُفَالة الزَّنْج) . قال فى "تقويم البُلْدان" بالسين المهملة والفاء ثم ألف ولام وهاء فى الآخِرِ . وموقعها جنوبىّ خط الاستواء . قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ خمسون درجةً، والعرضُ فى الجنوب درجتان . قال فى "القانون" : وأهلها مسلمون . قال آبن سعيد : وأكثر معايِشهم من الذهب والحديد، ولِباسُهم جُلُود النُّمُور . وذكر المسعودىّ أن الخيلَ لاتَعِيش عندهم، وعسكرهم رَجَّالة، وربما قاتلوا علىٰ البقر .

ومنها (بلاد الهَمَج) جنوبىّ بلاد التَّكْرُور . فقد ذكر آبن سعيد انه خرج علىٰ أصناف السُّودان طائفة منهم يقال لهم [الدَّمَادم] (١) يشْبِهون التتر، خرجوا فى زمن خروجهم فأهلكوا ماجاورهم من البُلْدان . وذكر فى "مسالك الأبصار" عن آبن أمير حاجب والى مصر عن منسا موسى ملك التَّكْرُور أنهم كالتتر فى تَدْوِير وجوههم، وأنهم يركبون خُيُولا مشقَّقة الأنوف كالأكَادِيش ، وأن همج السودان عدد لا يَسْتَوْعِبُهم الزمان وأن منهم قوما يأكُلُون لحم الناس .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من مسالك الأبصار .

الفصـــــل الرابع

من الباب الرابع من المقـالة الثانية

(فى الجهة الشَّمالية عن ممـالك الدِّيار المصرية ومضافاتها، خَلَا ماتقدّم ذكره ممـا آنضمّ إلىٰ ممـالك المَشْرِق من شَمَـالى الشرق، نحو أرْمِينِيَةَ، وأرّان، وأذْرَبِيجان، وشمالِى خُراسان، وشمالِى مملكة تُوران: من خُوارَزْم، وما وراء النهر، و بلاد الأَزَق، و بلاد القِرِم، وما والىٰ ذلك وما آنضم إلىٰ ممـالك المغرب من شَمَـالِىِّ الغرب، وهـــو الأندَلُس)

وينقســـم ذلك إلىٰ قسميـــن :

القســــــم الأوّل

(مابيد المسلمين ممـا فى شرقِىِّ الخليج القُسْطَنْطِينىّ فيما بينه و بين أرمِينِيَةَ وهى البلاد المعروفة ببلاد الرُّوم)

قال فى "التعريف" : وتُعَرف الآنَ ببلاد الدَّرَبَنْدات . وقد سماها فى "التعريف" و "مسالك الأبصار" بلاد الأتْراك، وكانه يريد بالأتراك التُّرْكُمان ، فإنهم هم الذين آنضافَ مُلْكُها بعد ذلك إليهم، علىٰ ماسيأتى بيانه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" أنه يُحيط بهذه البلاد من جهة الغرب بحرُ الرُّوم، وعامَّةُ الخليج القُسْطَنْطِينى، و بحر القِرِم . ومن جهة الجنوب بلادُ الشام والجزيرة . ومن جهـة الشرق أرمينِيَةُ . ومن جهـة الشَّمال بلاد الكُرْج وبحر القرِم . وذكر

فى "التعريف" ما يخالف ذلك فقال : إنها منحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطيني ، تنتهي من شرقيها إلى بحر القرم المسمى بحر نيطش ومانيطش ؛ وفى الغرب إلى الخليج القسطنطيني ، وتنتهى متشاملة إلى القسطنطينية ؛ وتنتهى جنوبا إلى بلاد لاون (١) : وهى بلاد الأرمن يحدّها البحر الشامى . وبالجملة فإنها مفارقة ما يسامت شرقيها من بلاد الأرمن المضافة إلى بلاد الشام من ممالك الديار المصرية . والحاصل أن هذه البلاد مبتدؤها من الشرق مما يلى المغرب حدود أرمينية فى شمالى بلاد الجزيرة وما والاها من بلاد الأرمن المضافة الآن إلى مملكة حلب ؛ وتأخذ فى جهة الغرب إلى بحر الروم ، فيصير البحر فى جانبها من الجنوب ويمتد عليها حتى يتصل بالخليج القسطنطينى ، فيدور عليها الخليج وما يتصل به من بحر القرم من جهة الغرب ثم من جهة الشمال كالجزيرة ويحيط بها البحر من جميع جوانبها خلا جهة الشرق .

وقد كانت هذه البلاد فى زمان الروم من مضافات القسطنطينية وأعمالها . قال فى "مسالك الأبصار" : وقد كانت هذه البلاد على عهد الروم محتك الأعنه ، ومشتبك الأسنه ؛ دار القياصره ، ومكسر الأكاسره . ثم وصفها بأتم الأوصاف ، فقال بعد أن ذكر أنها أثرى البلاد : صخورها تتفجر ماء ، وجوها يسخر أنواء ، تعقد دون السماء سماء ؛ فيخصب زرعها ، ويخصم المحل ضرعها ، ويخصف ورق الجنة على الحدائق ثمرها وينعها ؛ ويطرب ورقها منظرها البديع ، ويحبرها من صناعة صنعاء الربيع ؛ فلا تسمع إلا كل مطربة تناجى النجى ، وتشجى الشجى ، وتخلب قلب الخلى ، وتهب الغوانى مافى أطواقها من الحلى ، يعجب ثوبها السندسى ، ونباتها المتعلق بذيل البهار بسجافها القندسى . فلا تجول فى أرضها إلا على أرائك ، ولا تنظر

(١) فى التعريف ابن لاون .

إلا نِساء كالحُور العِين ووِلْدانا كالمَلَائِك . ثم قال بعد كلام طويل : وهى شديدةُ البَرْد لا يُوصَف شِـتاؤها ، إلا أن سُكَّانها تستعدّ للشِّتاء بها قبـل دُخُوله ، وتحصِّل ما تحتاج إليه ، وتدّخِره فى بيوتها ، وتستكثِرُ من القَـديد والأَدْهان والخُمُور ، فتأكلُ وتشربُ مدّةَ أيام الشتاء ، ولا تخرجُ من بيوتها ، ولو أرادت ذلك لم تقدِرْ عليه ، حتّى تذُوبَ الثُّلُوج . قال وهذه الأيام هى بُلَهْنِية العيش عندهم .

ويَنْحصِر المقصودُ من ذلك فى خمس جمل :

الجمـــلةُ الأولىٰ

(فيما ٱشتملتْ عليه من القواعد ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(القواعدُ المستقِرّةُ بهـا الملوكُ والحُكّام

ممن يكاتَبُ عن الأبواب السُّلْطانيـــة بالديار المصـــرية)

فأما ما ذكــره المَقَرّ الشهابىّ بنُ فضــل الله من ذلك فى "التعــريف" و"مسالك الأبصار" ، فستَّ عشرةَ قاعدةً عبَّر عنهـا فى "مسالك الأبصار" : بممالك . ونحن نُورِدها علىٰ ما أوردها وإن كان قد أخَلّ بها فى الترتيب .

القاعدة الأولىٰ — (كِرْمِيـان) بكسر الكاف وسكون الراء المهملة والميم وفتح المثناة تحتُ وألف ثم نون فى الآخر . وهى مدينــة فى شرق هذه البلاد ، متوسطةٌ فى المِقْدار ، مبنِيَّة بالحجر ، عليها سُور دائر . وبهـا مساجدُ وأسواقٌ وحَمَّامات ، وبوسطها قلعةٌ حصينة علىٰ جبـل مرتفع ، وخارِجَها أنهار تجرِى وبساتينُ ذاتُ أشجار وفوا كِهَ منوّعة ، وأراضٍ مزْدَرَعة .

القاعدة الثانية — (طُنْغُزْلُو) بضم الطاء المهملة وسكون النون وضم الغين المعجمة وسكون الزاى المعجمة وضم اللام وواو فى الآخر . وهى مدينة متوسِّطة فى أوساط هذه البلاد، وبناؤها بالحجر، وليس لها سُور . وبها المساجدُ والأسواقُ والحماماتُ . وخارجها أنهار تجرى وبساتينُ مُحَدَّقة ذاتُ فواكِهَ وثِمارٍ .

القاعدة الثالثة — (تُوَازَا) بضم التاء المثناة فوقُ وواو مفتوحة بعدها ألف ثم زاى معجمة وألف فى الآخر وهى مدينة عظيمة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة تقع شرقى كرميان محضا، وموقِعُها مابين جنوبى بركى إلىٰ قوله ، وكرسيه تُوَازا . قال : ولصاحبها أربع قلاع ونحو ستمائة قرية ، وعساكره نحو أربعة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل . وقد عدّها فى "مسالك الأبصار" من جملةُ مضَافات كَصْطَمُونِيَةَ الآتى ذكرها . وذكر أنه كان بها إذ ذاك أميرٌ من قِبَل صاحبها آسمه (مراد بك) . وذكر فى "التعريف" أن آسمه أرينة .

القاعدة الرابعة — (حميدَلِى) . قال فى "مسالك الأبصار" وحميدَلِى اسم للإقليم، وقاعدته مدينةُ (بركو) وموقعُها من قوله الىٰ قراصار . قال : ولصاحبها أيضا اقليم بلواج واقليم قراغاج وإقليم اكرى دوز . قال : وهذه البلاد مدنها قليلة وقراها كثيرة، وبها خمس عشرة قلعةً، وعسكر صاحبها خمسة عشر ألف فارس ومثلهم رجَّالة وهى نهاية ما أخذ الىٰ الشمال وقد ذكر فى "التعريف" : أن صاحبها كان آسمُه فى زمانه دندار . قال : وهو أخو يُونُس صاحبِ أنْطالِيَا، وحينئذ فتكون من مملكة بنى الحميد .

القاعدة الخامسة — (قَسْطَمُونِيَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح القاف وسكون السين وبالطاء المهملتين وضم الميم وسكون الواو وكسر النون وبالياء المثناة

من تحتُ وهاء فى الآخر ، وربمـا أبدلوا القاف كافًا ، وعليه جرىٰ فى "التعريف" و "مسالك الأبصار" : وهى مدينةٌ فى شرقىّ هذه البلاد داخلةٌ فى حدودها ، موقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ خمس وخمسون درجةً وثلاثون دقيقــة ، والعرضُ ستٌّ وأربعون درجة وثمــانٌ وأربعون دقيقة . قال : وهى قاعدة التُّرْكمان ، وترَاكِمتُها يغزُون (القُسْطَنْطِينِيَّة) وهى شرقىّ (هِرَقْلَة) وفى الجنوب عن سَنُوب علىٰ ثلاث مراحِلَ منها ، وقيــل خمس مَراحِلَ . وهى فى الشرق عن أَنْكُورِيه علىٰ خمسة أيام منها . وقد أخبرنى بعضُ أهل تلك النواحى أنها مدينةٌ متوسطةُ المقدار ، مبنيةٌ بالحجر ، ذاتُ مساجدَ وأسواق وحَمّامات ، وليس عليهـا سُور ، وخارجَها أنهرٌ وبساتينُ ذاتُ فواكِهَ . قال فى "مسالك الأبصار" : وبها الأكادِيشُ الرُّومِيَّة الفائقة ، المفضَّل بعضُها علىٰ كلِّ سابق من الخيل العِراب ، ولها أنسابٌ محفوظة عندهم كخيل العَرَب ، يُتغالىٰ فى أثمانها لا سِيَّما فى بلادها ، حتّى تبلغ قيمةُ الواحد منها ألفَ دينار فمـا فوقَهُ ، بل لايستكْثِر فيها مَنْ يعرفها بَذْلَ مال . قال فى "التعريف" : وكانت آخر وقتٍ (لسليمان باشاه) وكان أميرا كبيرا كثير العَدَد ، مَوْفُور المَدَد ، ذا هَيْبة وتَمنُّع ، ثم مات

وورث ملكَه ابنُه (إبراهيم شاه) وكان عاقًّا لأبيه ، خارجا عن مَرَاضيه ، وكان فى حياته يَنْفَرِد بمَمْلَكة سَنُوب . قال : وهى الآن داخلة فى مُلْكه ، منخرطة فى سِلْكه . قال : وعسكره علىٰ ما يقال لنا ويبلغُنا نحوُ ثلاثين ألف فارس .

القاعدة السادسة — (فاويا) . قال فى "مسالك الأبصار" : ومملكتها تُجاوِر سمسون من غربيها . قال : ولصاحبها عشر مدن ومثلها قِلاع ، وعسكره نحو سبعة آلاف فارس أما الرجّالة فكثير عددهم ودرهمها نصف درهم فضة خالصة ، ورِطلها

ستة عشر رطلا بالمصرى ، ومدّها نحو إردب بالمصرى ، وأسعارها رخيَّة وقد ذكر في "التعريف" : أن آسم صاحبها فى زمانه (مراد الدين حمزة) . قال : وهو ملكٌ مضْعُوف، ورجل بمجالِس أُنْسِه مَشْغوف .

القاعدة السابعة — (بُرْسَا) بضم الباء الموحدة وسكون الراء وفتح السين المهملتين وألف فى الآخر . وربما أبدلت السينُ صادا مهملةً . والموجود فى "التعريف" و"مسالك الأبصار" وغيرهما إثباتُ السين دون الصاد . وهى مدينة كبيرة فى شمالىّ هـذه البلاد ، مبنيةٌ بالطُّوب والحجر ، وسقوفُها من الخشب ، وغالبها جَمَلُونات ؛ وبها مساجد وأسواق وحَمَّامات ؛ وبعض حَمَّاماتها من أعيُنٍ حارَّة تنْبُع من الأرض كذلك كما فى طَبَرِيَّةَ بالشام ؛ ولها سُور عظيم ؛ وبوسطها قلعة شاهقةٌ مرتفعةُ البناء بها سَكَن سلطانها ؛ وفيها قصور عظيمة متعدّدة، وجامع وثلاثُ حَمَّامات .

وخارج رَبَض المدينة نهران :

أحدهما — يسمّى (كُكْدَرَا) بضم الكاف الأولىٰ وسكون الثانية وفتح الدال والراء المهملتين وألف فى الآخر . ومعناه وادٍ أزرق ، سمّى بذلك لأنه يخرج من جبلٍ أزرقَ ، وتُقْطَع منه الحجارة بشِدّة جريه ، فتجرى منه بجريان الماء ، فيأخذها من عليه من أهل تلك النواحى فيعَمِّر بها ، ومعظم عمارة بُرْسَا منها .

والنهر الثانى — يسمى (منرباشى) فى قدر الفُرَات ، يشُقُّ المدينة ويمُرّ فى جامعها ؛ وبها جبل عظيم آسمه (كمش) به معدِنُ فِضَّة سمِّى باسم الفِضَّة .

وبُرْسَا هـذه هى مَقَرّ مملكة أولاد (عثمان جَقْ) الذين هم الآن رُءُوس ملوك تلك البلاد ، وإليهم آنقياد جميعهم علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوكها . وقد ذكر فى "التعريف": أن صاحبها فى زمانه كان أرخان بن عثمان . وذكر فى "مسالك

الأبصار" عن الشيخ حَيْدَر العُرْيان : أن عسكره نحوُ خمسةٍ وعشرين ألفا، وأن بينه وبين صاحب القُسْطنطِينِيَّة الحُروبَ، وأيَّامُها بينهم تارات، له فى غالبها على صاحب القسطنطينيَّة الغَلَب، وملك الروم يُدارِيه على مال، يحمِلُه إليه فى كلِّ هِلال . قال : ولقد جاز الجزيرةَ إلى بلاد النصارى وعاثَ فى نواحيها، وشدّ على بَطَارِقتِها لاعلى فَلَّاحيها، وألقى علوجَها بحيث تعتلج سُيُولُ الدماء، وتختلج سيوفُ النصرِ من الأعداء، وسيأتى ذكر ما انتهى إليه فتحه من برِّ القسطنطينيَّة بعد هــذا فى الكلام على ملوك هذه المملكة فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

القاعدة الثـامنة ــ (أكيرا) . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى تجاور مملكة بُرْسا آخذة الى الشمال وجبل القسيس جنوبيها وسنوب شماليها وهى طريق من طرق سنوب وقلاعها وعساكرها كثيرة . ومنها يخرج الحرير الكثير واللاذن الى غيرها من البلاد، ورطلها ثمانية أرطال بالمصرى، ومدّها نحو إردب ونصف وأسعارها رخية وقد ذكر فى "التعريف" : أن صاحبهـا فى زمانه كان (صاروخان بن قَرَاسِى) ولم يبين من أىّ طوائف التُّرْكُمَان هو .

القاعدة التـاسعة ــ (مَرْمَرا) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح الميم الثانية والراء المهملة الثانية وألف فى الآخر . وهى مدينة فى شمالىّ هذه البلاد، بها جبل فيه مَقْطَع رُخَام . قال فى "الروض المعطار" : والروم تسمِّى الرخام مَرْمَرا، فسميت بذلك . وذكر فى "التعريف" : أن صاحبها فى زمانه كان اسمه (بخشى بن قَرَاسِى) ولم يبـين من أىِّ طوائف التُّرْكُمان هو . وقد أخبرنى بعضُ أهـل تلك البلاد أنها قد خَرِبت ودَثَرت، ولم يبقَ بها عمارةٌ .

القاعدة العـاشرة ــ (مَغْنِيسِـيا) بفتح الميم وسكون الغين المعجمة وكسر النون وسكونِ اليـاء المثناة تحتُ وكسر السين المهملة وفتح الياء الثانية وألف فى الآخر .

وهى مدينة فى أوساط هذه البلاد، متوسّطةُ فى المقدار، مبنيةٌ بالحجر، وعليها سورٌ دائر، وبها مساجد وأسواق وحمامات وبساتين ومُرُوج . وقد ذكر فى "التعريف" : أنه كان آسم صاحبها فى زمانه (صاروخان) ولم يزد على ذلك .

القاعدة الحادية عشرة — (نِيْف) بكسر النون وسكون الياء المثناة تحتُ وفاء فى الآخر . وهى مدينة لطيفةٌ بأوساط هذه البلاد، بالقُرْب من (مَغْنِيسِيَا) المقدّم ذكرها على نحو مرحلتين منها . وهى مبنيّة بالحجر، وبها المساجد والأسواق والحمّامات وخارجها الأنهار والزُّروع والبساتين المختلفة الفواكه .

القاعدة الثانية عشرة — (بِرِكِي) بفتح الباء الموحدة وكسر الراء المهملة وكسر الكاف وياء مثناة تحتُ فى الآخر. وهى مدينة متوسطةُ القدر على القُرب من نِيف المقدّم ذكرها على نحو مرحلتين منها؛ وبها المساجدُ والأسواقُ والحمّامات والمياه والبساتينُ والزروع .

القاعدة الثالثة عشرة — (فُوكه) . وقد ذكر فى "التعريف" : أن صاحبها فى زمانه كان آسمه (أرخان بن منتشا) وآقتصر على ذلك .

القاعدة الرابعة عشرة — (أَنْطَالِيَا) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء المهملة وألف ولام مكسورة وهاء(١) فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيثُ الطولُ أربع وخمسون درجةً وآثنتان وثلاثون دقيقةً ، والعرضُ إحدى وأربعون درجة وأربعون دقيقة . قال آبن سعيد : وهى بلدةٌ مشهورةٌ . وقال آبن حوقل : هى حصن [للروم على شَطِّ البحر منيعٌ واسعُ الرُّسْتاق كثيرُ الأهل](٢) . قال

(١) الذى فى التقويم وألف فى الآخر .
(٢) الزيادة عن التقويم .

فى "تقويم البُلْدان" : وهى علىٰ دَخْلة فى البحر، وسُورُها من حجر فى غاية الحَصَانة، ولهـا بابان : بابٌ إلىٰ البحر، وبابٌ إلىٰ البر . وأخبرنى من رآها أنها ذاتُ أشجار وبساتينَ ومياهٍ تجرى ، وبها قلعة حَصِينة بوسطها ؛ وبها نهر يُعرَف بالصَّبَّاب . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى كثيرة المُحمضات : من الأُتْرُجّ، والنارَنْج، والليمون، وما أشبه ذلك . قال ابن سعيد : وكانت للروم فاستولىٰ عليها المسلمون فى عَصْرنا . قال : وبهـا أسـطول صاحب الدُّروب، وميناها غيرُ مأمونةٍ فى الأنواء . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وكان الحاكم بها شخصًا من أهـل تلك البلاد نخرج منها إلىٰ بعض جهاتها، فكبسها التُّرْكمان وملكوها ثم أمسكوه فقتلوه . قال : وصاحبها فى زماننا واحد من بنى الحميد ملوك التُّرْكمان . وقد ذكر فى "التعريف": أن صاحبها فى زمانه كان اسمه (خَضِر بن يُونُس) . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن صاحبها فى زمانه كان اسمه (خضر بن دندار) من أولاد (منتشا) . وقال : إن عسكره نحو أربعـين ألف فارس . ثم قال : إن لبنى دندار هؤلاء إلىٰ ملوك مصر انتماءً، وكان بمِصْر منهم من له إمرةٌ ثم عاد إلىٰ بلاده .

القـاعدة الخامسةَ عشرةَ — (قَراصار) بفتح القاف والراء المهملة وألف ثم صاد مهملة مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة فى الآخر . وتُعْرَف بقراصار التّكا بفتح التاء المثناة فوقُ . وهى قلعــة علىٰ جبل مرتفع يحُفُّ بهـا رَبَضٌ بأعلىٰ الجبل، وحول الرَّبَض فى الجبل زِراعاتُهم وبساتِينُهم . وقد ذكر فى "التعريف": أن اسم صاحبها فى زمانه (زكريا) ولم يزد علىٰ ذلك . وهى غير مدينة قَراصَار الصاحب . وهى مدينة لطيفة بأوساط بلاد الروم فى الغرب عن قَراصار هذه وفى الشَّمال عن أنْطالِيَا .

القاعدة السادسةَ عشرةَ — (أَرْمِنَاك) بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الميم وفتح النون وألف ثم كاف فى الآخر . وهى مدينــة فى مَشَارق الروم، مبنيَّـة

بالحجر غير مسوَّرة ، وبها مساجد واسواق وحمّامات ، وبها بساتينُ كثيرة وفواكِهُ جَمّة إلا أنها شديدةُ البرد . وقد ذكر فى "التعريف" : أنها بيد أولاد قرمان . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن المملكة كانت بيد (محمد بن قرمان) . وذكر فى "التثقيف" : أن آخِرَ مَنِ آستقرّ بها فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة (علاءُ الدّين على بك) بن قرمان .

* * *

وأما مازاد ذكره فى "التثقيف" : فخمسُ قواعِدَ :

القاعدة الأولىٰ — (العَلَايَا) بفتح العين المهملة واللام وألف بعدها ثم ياء مثناة تحتُ وألف فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياسُ أنها حيثُ الطولُ آثنتان وخمسون درجةً ، والعرضُ تسعٌ وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقةً . قال : وهى بلدة مُحْدَثة أنشأها (عَلَاء الدِّين علىّ) بعضُ ملوك بنى سَلْجوق بالروم فنُسِبت إليه . وقيل لها (العَلَائِيَّة) علىٰ النسب ، ثم خففها الناس ، فقالوا : (العلايَا) ثم قال : والذى تحقَّق عندى من جماعةٍ قدِمُوا منها أنها بُلَيْدة صغيرة أصغرُ من أنْطاليَا علىٰ دَخْلةٍ فى بحر الروم . وهى من فُرَض تلك البلادِ . وذكر أنها فى الجَنُوب عن أنطاليَا علىٰ مسيرة يومين ، وعليها سورٌ دائر ، وأنها كثيرةُ المياه والبساتين . وقد ذكر فى "التثقيف" : أن الحاكم بها فى زمانه كان آسمه (حُسَام الدين محمود) بن عَلَاء الدين . وقال : إنه كتب إليه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة ، ولم يبين من أىّ طوائف التُّرْكُمان هو . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أنها فى ساحل بلاد بنى قرمان ، وأن الحاكم بها من قبلهم حينئذ كان آسمه (يُوسُف) .

القاعدة الثانيــة — (بَلَاط) بفتح البـاء الموحدة واللام وألف ثم طاء مهملة فى الآخِر . وهى بلدةٌ بأوساط الروم علىٰ نحو ثمـانِ مراحلَ من بُرْسَا ؛ وهى مدينة صغيرة بغير سور، وبها قلعةٌ خرابٌ كانت مبنيّة بالرُّخام ؛ وبها مساجدُ وأسواقٌ وأربعُ حَمَّامات . ذكر لى بعضُ أهل تلك البلاد أنها بيد أولاد (منتشا) من ملوك التُّرْكُمان .

القاعدة الثالثـة — (أَكَرْدُور) بفتح الهمزة والكاف وسكون الراء وضم الدال المهملتين وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر . قال فى "التثقيف" : ويقال أكردون بالنون بدل الراء الأخيرة . وهى بلدة غير مسوّرة بها قلعة عظيمة علىٰ جبل شاهق ، وبها مساجِدُ وأسواقٌ وحَمّامات ، إلا أنَّ بساتينها قليلة ، وبها بُرْجٌ عظيم .

القاعدة الرابعة — (أَيَاسْ لُوقْ) بفتح الهمزة والياء المثناة تحتُ وألف ثم سين مهملة ساكنة ولام مضمومة بعدها واو ساكنة ثم قاف فى الآخر . وهى مدينـة عظيمة علىٰ ساحل البحر الرومىّ ، بها المساجدُ والأسواقُ والحَمَّـامات ؛ وبها أعينٌ وأنهـار تَجْرِى وبساتينُ ذاتُ فوا كهَ . وقد أخبرنى بعض أهلِ تلك البلاد أنهـا فى ملك بنى أيدين .

القاعدة الخامسة — (سِنُوب) . قال فى " تقويم البُـلْدان " : بالسين المهملة والنون والواو وباء موحدة فى الآخر ولم يقيِّدها بالضبط . وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة ، والعرضُ ستٌّ وأربعون درجةً وأربعون دقيقـة . قال فى " تقويم البُـلْدان " : وهى فُرْضة مشهورة (يعنى علىٰ بحر القِرِم) . ثم قال : وهى فى الشَّمال عن كَسْطَمُونِيَةَ وفى الغرب عن سامْسُون . قال : وعن بعض الثِّقـات أن بسـنوبَ سُورًا حصينا ، يضربُ البحرُ فى بعض أبراجه . ولهـا بساتينُ كثيرة إلىٰ الغاية ؛ وبينها وبين سامْسون نحو

أربع مَراحِلَ . ثم قال : وصاحب سنوب فى زماننا من ولد البرواناه، وله شَوانٍ[(1)] يغزو بها فى البحر ولا يكاد أن ينقهر . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أنها من مضافات كَسْطَمُونِيَة المقدّم ذكرها ، وأنه كان بها فى زمانه نائب من جهة (إبراهيم آبن سليمان باشاه) صاحب كَسْطَمُونِيَة آسمه غازى چلبى . وقال فى "التثقيف" : يقال إن بها إبراهيم بك بن سليمان باشاه ، فإن كان يريد الذى كان فى زمن صاحب "مسالك الأبصار" : بكَسْطَمُونِية ، فقد أبعد المرمىٰ . وإن كان آخر بعده كان سُمِّى باسمه ، فيحتمل أنه فى "التعريف" قد ذكر صاحبها فى جملة ملوك الكُفْر وكأن ذلك كان قبل أن تُفْتَح .

الضرب الثانى

(من هذه البلاد مالم يَسْبِق إلىٰ صاحبه مكاتبةٌ

عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، ممن هو بصَدَد أن تَطْرأ له

مكاتبةٌ ، فيُحْتاج إلىٰ معرفته)

وهى عدّة قواعِد :

منها (سِيوَاس) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحتُ وفتح الواو ثم ألف وسين مهملة فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ إحدىٰ وسبعون درجةً وثلاثون دقيقةً ، والعرضُ أربعون درجةً وعشرُ دقائق . قال آبن سعيد : وهى من أُمّهات البلاد مشهورةٌ علىٰ ألسنة التُّجّار ، وهى فى بَسِيط من الأرض . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة كبيرة مسوَّرة ، وبها قلعة صغيرةٌ ذاتُ أعيُنٍ ، والشجر

---

(1) فى التقويم سامسون ، والصواب ما هنا .

بها قليل، ونهرها الكبير بعيدٌ عنها بمقدار نصف فَرْسَخ . قال : ويقول المسافِرُون : إن فيها [أربعًا][(١)] وعشرين خانًا للسبيل، وهى شـديدةُ البَرْد، و بينها و بين قَيْسارِيَّة ستون مِيلًا، وكانت سِيواسُ هـذه قد غَلَب عليهـا فى الأيام الظاهرية « برقوق » صاحبِ الديار المصرية قاضيها (القاضى إبراهيمُ) ومَلَكها .

ومنهـا (أَمَاسِيَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة والميم وألف وكسر السين المهملة ثم ياء مثناة تحتية مفتوحة وهاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال فى "رسم المعمور" : حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، والعرضُ خمسٌ وأربعون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : ذكر بعضُ من رآها أنهـا بلدة كبيرة ذاتُ سور وقلعـة، وفيهـا بساتينُ ونَهَر كبير عليـه نَواعيرُ، يمرّ عليهـا ثم يصُبُّ فى بحر سَنُوب يعنى بحر القِرِم . قال ٱبن سـعيد : وهى من مُدُن الحكماء، وهى مشهورةٌ بالحُسْن وكثرة المياه والبساتينِ والكروم، وهى فى الشرق عن سَنُوب و بينهما سـتة أيام . ثم قال : وذكر بعضُ مَنْ رآها أن بها معدِنَ فِضَّـة .

ومنها (هِرَقْلَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الهاء وفتح الراء المهمـلة وسكون القاف وفتح اللام ثم هاء فى الآخر . وموقعُها فى الإقليـم السابع من الأقاليم السبعة قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجةً وعشرون دقيقةً، والعرضُ إحدىٰ وأربعون درجةً وثلاثون دقيقةً . قال ٱبن سعيد : وهى فى شرقىّ نهرٍ ينْزِل من جبـل العَلَايا إلىٰ نحو سَنُوب وهِرَقْلَةُ عليه فى قُرْب البحر . قال : وهى التى هدمها الرشيدُ . قال : وفى شرقيها جبل الكَهْف .

(١) الزيادة عن التقويم .

وقد حكىٰ ٱبن خُرْدَاذْبَة فى كتابه "المسالك والممالك" عن بعضهم أنه سار إلىٰ هـذا الكهف ودخل بمساعـدة صاحب الروم فوجد به أمواتًا بُرَوَاق فى كَهْف فى جبلٍ عليهم مُسُوح قد طال عليها الزمنُ حتّى صارت تَنْفَرِك باليد، وقد طُلِيت أجسادُهم بالمُرِّ والصَّبِر فلم يَبْلَوْا، ولَصِقَتْ جلودُهم بعظامهم، وجَفَّت، وعندهم سادِنٌ يخدُمُهم، وأنه أنكر أن يكون أُولئك هم أهل الكهف المذكُورُون فى القُرءان، للاختلاف فى محلِّ الكَهْف هل هو فى هذه البلاد أو غيرها .

ومنها (أَقْسَرَا) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح السين والراء المهملتين وألف فى الآخر، وربَّما أبدلت السين صادًا مهملة . قال: ويقال إن أصلها (أَخْ سرا) يعنى بالخاء المعجمة بدل القاف . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ خمس وسبعون درجةً، والعرضُ أربعون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينةٌ ذاتُ أشجار وفواكِهَ، ولها نهر كبير يجرُّ وَسَط البلد ويدخُل الماءُ منه بعضَ بيوتها، ولها قلعة حصينة فى وَسَطها . قال ٱبن سعيد : وبها تعمل البُسُط الأَقْصَرِيَّة الفائقة؛ ومنها إلىٰ قُونِيَة ثمانية وأربعون فرسخا، وكذلك بينها وبين قَيْسارِيَّة .

ومنها (قَيْسارِيَّةُ) . قال فى "اللباب" : بفتح القاف وسكون المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وألف ثم راء مهملة وياء مثناة تحتية مفتوحة مشدّدة وهاء فى الآخر قال فى "تقويم البُلْدان" : وتقال بالصاد المهملة بدلَ السين . قال ٱبن سعيد : وهى منسوبة إلىٰ قَيْسَر، وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ ستون درجة والعَرْض أربعون درجةً . قال ٱبن سعيد : وهى مدينة جليلةٌ يحُلُّها سلطان البِلاد . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة كبيرةٌ

ذاتُ أشجـار وبساتينَ ونواكِه وعيون تدخُل إليهـا . وداخِلَها قلعـةٌ حصينة ، وبها دارٌ للسلطنة .

وقَيْسارِيَّةُ هذه كان بها تَخْتُ السلطنة لبنى سَلْجُوقَ بهذه البلاد . ولمـا ملك التترُ هـذه البلادَ بَقُوا بقاياهم فى المُلْك إلىٰ أن دخلها السلطانُ الملك (الظاهر بيبرس) صاحبُ الديار المصرية ، وجلس علىٰ تخت آل سَلْجُوقَ بهـا ، ثم عاد إلىٰ الديار المصرية فزال مُلْك السَّلْجُوقِيَّـة منها من حينئذ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك هذه البلاد .

ومنها (قُونِيَةُ) . قال فى " تقويم البُلْدان " : بضم القاف وسكون الواو وكسر النون وبعدها ياء مثناة من تحت مفتوحة وهاء فى الآخر . وموقعُها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال فى " الأطوال " : حيثُ الطولُ ستٌّ وخمسون درجة ، والعرضُ تسعٌ وثلاثون درجة . قال ابن سـعيد : وهى مدينةٌ مشهورة ، وبها دار للسلطنة ، والجبال مُطِيفةٌ بها من كل جانب، وتبعُد عنها من جهة الشَّمال . وينزِل من الجبل الجنوبىّ منها نهرٌ يدخُل إليها من غربيِّها ؛ وبها البساتينُ من جهة الجبل علىٰ نحو ستة فراسخَ ، ونهرها يسقِى بساتينَها، ثم يصير بُحَيْرة ومُرُوجا ؛ وبها الفواكهُ الكثيرة ، وفيهـا يُوجَد المشمش المعـروف بقَمَر الدّين ، وهى ثانى قاعدةِ مملكة السَّلْجُوقِيَّة ببلاد الروم ، كان الملك ينتقل منها إلىٰ قَيْسارِيَّةَ ، ومن قيسارِيَّةَ إليها . قال ابن سعيد [وبقلعتها تُرْبة](١) أفلاطون الحكيم .

ومنها (أَقْ شَهْر) بفتح الهمزة ثم قاف ساكنة وشين معجمة مفتوحة وهاء ساكنة وراء مهملة فى الآخر، كما فى " تقويم البُلْدان " : عمّن يُوثَق به من

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن تقويم البلدان .

أهل المعرفة، وربمـا أبدلوا الهاء ألفا فقالوا (أَقْشَار) . وفى كتاب "الأطوال" : (أَخْ شَهْر) بإبدال القـاف خاء معجمة . وموقعها فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السـبعة ، قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ خمس وخمسون درجةً، والعرضُ إحدىٰ وأربعون درجةً . قال ٱبن سـعيد : وهى من أنزه البُـلْدان ، وبها بساتينُ كثـيرة وفواكهُ مفضَّلة . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وأخبرنى من رآها أنها علىٰ ثلاثة أيام من قُونِيَةَ شَمالًا بغَرْب .

ومنها (عَمُّورِيَّةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح العين المهملة وميم مشدّدة مضمومة وواو ساكنة وراء مهـملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحتُ مفتوحة وهاء فى الآخر . قال : وهى بلدة كبيرة ، ولهـا قلعةٌ داخِلَها حصينة ، وأكثر ساكنيها التركمان وبهـا بساتينُ قليلةٌ ، ولهـا نهر وأعينٌ جارية ، وهى التى فتحها « المعتصمُ ٱبنُ الرشـيد » : أحد خلفاء بنى العَبَّاس، وكان المنجِّمُون قد زعموا أنهـا لا تُفْتَح إلا فى زمان التِّين والعِنَب ، فلمـا فتحها أنشده أبو تَمَّـام قصيدتَه التى أوّلُهـا :

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً من الكُتُبِ * فى حَدِّه الحَـدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ !

ومنها (أَنْكُورِيَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون النون وضم الكاف وسكون الواو وكسر الراء المهملة ثم ياء مثناة تحتية مكسورة[1] وهاء فى الآخر . ويقال لهـا (أَنْقِرَةُ) أيضا بفتح الهمزة وسـكون النون ثم قاف وراء مهـملة وهاء فى الآخر . وموقعُها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ أربعٌ وخمسـون درجةً ، والعرضُ إحدىٰ وأربعون درجةً . قال ٱبن

(١) كذا فى التقويم أيضا مضببا عليه بعلامة التوقف ولعله مصحف عن مفتوحة ونظائرها كثيرة مثل أرمينية وعمورية وانطاكية الخ .

سعيد : وهى بَلْدة لها قلعة علىٰ تلٍّ عالٍ، وهى بين الجبال، وليس بها بساتين ولاماء، وشرب أهلها من الآبار، وهى عن قَسْطَمُونِيَة فى جهة الغرب علىٰ خمسة أيام .

ومنها (فَلَكْ بَار) . قال فى "تقويم البُلْدان" : الفَلَك معروف، وبَار بباء موحدة وألف وراء مهملة فى آخرها . قال : وهى مدينة أنشأها مَلِك من ملوك بنى الحميد آسمه (فَلَكُ الدين) وهى فى مستوٍ من الأرض فى وَسَط الجبال علىٰ قريب من منتَصَف الطريق بين قُونِيَةَ والعَلايَا ، فى الغرب من قُونِيَة علىٰ مسيرة خمسة أيام ، وهى فى الشرق عن أنْطاليَا علىٰ مسيرة خمسة أيام . قال : وليس فى تلك الجبال الآنَ مدينةٌ أكبرُ منها، وقد صارت قاعدةً لبنى الحميد : ملوك التُّرْكُمان بتلك الناحية .

ومنهـا (لارَنْدَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بلام وألف وراء مهملة مفتوحة ونون ساكنة ثم دال مهملة وهاء فى الآخر . قال : وهى قريبة من قُونِيَةَ علىٰ مسافة يوم من الشرق والشمال، حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة، والعرضُ أربعون درجة وثلاثون دقيقة .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مملكة الشام من مُضَـافات الديار المصرية أن مدينـةَ مَلَطْيَةَ دخلتْ فى مملكة مصر ومضافاتها فصارتْ فى معاملة حَلَب .

واعلم انه قد تقدّم أن خليج القُسْطَنْطِينيَّة وما اتصل به من بحر نيطش المعروف ببحر الروم يُطِيف بهذه البلاد من غربيِّها وشَمَاليِّهـا، وعلىٰ ساحل هـذا البحرِ عدّة فُرَض منتظمة فى سلك هـذه البلاد قد ذكرها فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام علىٰ مملكة أرْمِينِيَةَ ومامعها، وأشار إليها فى الكلام علىٰ هـذا البحر عند ذكره له فى جملة البِحَار علىٰ ما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الكلام علىٰ البحار فى أوّل هذه المقالة ، غالبها فى مملكة آبن عثمان صاحب بُرْسَا .

أوّلها (الجرون) . وهى قلعة خراب عند فَمِ الخليج القسطنطينى من الجهة الشَّمالية مقابلَ القُسْطَنْطِينيَّة، حيثُ الطول خمسون درجة، والعرضُ خمس وأربعون درجة وعشْرُ دقائقَ .

ويليها من جهة الشَّمال بمَيْلة إلىٰ الشرق مدينة آسمها (كربِي) بكاف وراء مهملة ثم باء موحدة وياء مثناة تحت فى الآخر .

ويليها فى الشرق مدينة آسمها (بَنْتَر) بباء موحدة ونون وتاء مثناة فوق وراء مهملة .

ويليها فى الشرق والشَّمال بلدةٌ آسمها (سامصرىٰ) بسين مهملة وألف ثم ميم وصاد وراء مهملتين وألف فى الآخر .

ويليها فى الشرق أيضا مدينةٌ آسمها (كُتْرُو) بكاف وتاء مثناة من فوق ثم راء وواو فى الآخر وهى آخر أعمال قسطنطينيّة .

ويليها فى الشرق مدينة آسمها (كِينُولِي) بكسر الكاف وسكون المثناة التحتية وضم النون وسكون الواو وكسر اللام وياء مثنّاة من تحتُ فى الآخر .

ويليها فى جهة الغرب (فُرْضَة سَنُوب) المقدّم ذكرها فى الكلام علىٰ مازاده فى "التثقيف" .

ويليها من جهة الشرق مدينةُ (سامْسُون) المقَدَّم ذكرها فى الكلام علىٰ الضرب الثانى من هذه البلاد .

ويليها فى جهة الشرق أيضا مدينة (أَطْرابْزُون) بألف وطاء وراء مهملتين وباء موحدة بعدها زاى معجمة ثم واو ونون . وهى آخر مُدُن هذه البلاد علىٰ الساحل، ومنها ينتهى إلىٰ ساحل بلاد الكُرْج علىٰ ما تقدّم الكلامُ عليه فى الكلام علىٰ بحر نيطش .

الجمـــلة الثـانية
(فى ذكر الموجود بهـــذه البـــلاد)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ حَيْدَر العُرْيان الرُّومى : أن بها من المَوَاشى الخيلَ ، والبَقَر ، والغَنَم مالا يقع عليه عَدَد ولا يدخل تحت الإحصاء ، ونِتاج بلادهم من الخيل هى البَرَاذِينُ الرُّوميَّة الفائقة . وقد تقدّم الكلام على القسطمونيات منها فى الكلام على قَسْطَمُونِيَة ، وتُجْلَبُ إليهم العَرَبيَّات من بلاد الشأم وغيرها ؛ وأكثر مواشيهم نِتاجًا الغنمُ . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مما يُبْسَط فرشُ الأرض [منها] . قال : ومنهـا المعَز المِرْعِزّى ، ذواتُ الأوبار المضاهيـةِ لأنْعَم الحرير . ثم قال : وغالب قِنْية أهل الشام وديار بَكْر والعِراق وبلاد العجم وذبائحهم مما يَفْضُل عنها ويُجْلَب إليها منها ، وهى أطيبُ أغنام البلاد لَحْمًا ، وأشهاها شَحْمًا ؛ ويترتب على ذلك فى كثرة الوجود الألبـانُ وما يَتحصَّـل عنها من السمن والجُـبْن وغير ذلك .

وبها من الحبوب القمحُ ، والشعير ، والباقِلَّا ونحوها ؛ ويزْرَع بها الكَتَّان ، والقُطْن الكثير ؛ وبهـا من الفواكه كلُّ ما يوجَدُ بمصر والشأم من التُّفَّاح ، والسَّـفَرْجَل ، والكُمَّثرى ، والقَراصيا ، والإجَّاص ، والرمَّان : الحلو والمزُّ والحامض ، وغير ذلك . أما المحمضات فلا تُوجَد إلا ببلاد السواحل من بلادهم على ما تقدّم ذكره ؛ والمَوْز والنَّخيل لا يوجَدُ ببلادهم ؛ وبهـا من العسل مايُضاهِى الثلج بياضا والسُّـكَّر لَذاذة وطَعْما ، لا حِدّة فيه ولا إفراطَ حلاوةٍ تُوقِف الأكل عنه ، إلى غير ذلك من الأشياء التى يطول ذكرها . وقد تقدّم أنّ بها معدِن فضة بمدينة بُرْسا ، ومعدن فضة بأماسية .

وذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ حَيْدَر العُرْيان أن بها ثلاثةَ معادِنِ فِضَّـةٍ مستمرّة العمل : معدن بمدينة ركوة ، ومعدن بمدينة كش ، ومعدن بأراضى مدينة تاخرت .

الجملة الثالثة

(فى معاملاتها وأسعارها)

أما معاملاتها ، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ حَيْدَر العُرْيان أن لملوك التُّرْكُمان هؤلاء نُقودا ولكن لا يَرُوج نقدُ واحد منهم فى بلادِ الآخَر . قال : ودِرْهمهم فى الغالب تقديرُ نصفٍ وربع درهم من نقدِ مصرَ ، وأرطالهم مختلفةٌ ، وأكثرها بالتقريب زِنَةُ اثنَىْ عشر رطلا بالمصرى ، وأقلُّها ثمانيةُ أرطال ، وكيلهم الذى تُباع به الغَلَّات يسمَّى الوط تقدير إردبٍّ ونصفٍ بالمصْرى .

وأما أسعارها ، فقد ذكر أنها رخِيَّة رَخِيصةُ الأسعار للغاية لقِلَّة المُكُوس وكثرة المَرَاعى واتِّساع أسبابَ التجارة واكتناف البحر لها من كل جانب بحيثُ يحمُل إليها على ظهره كلُّ شىء مما لا يوجَدُ فيها . قال : وقيمة الغَلَّات بها دون قيمتها بمصر والشام أو مثلُهما فى الغالب . والأغنامُ فى غاية الرِّخَص ، حتّى إن الرأس الغنم الجيِّد لا يُجاوز اثنَىْ عشرَ درهما من دراهمهم ، يكون بنحو تسعة دراهم من دراهم مصر إلى ما دون ذلك ، ويترتب على ذلك رِخَصُ اللحم . أما اللبَنُ وما يُعمَل منه فإنه لا يكاد يُوجَد مَنْ يشتريه : لاستغناء كلِّ أحد بما عنده من لَبَن مواشيه ، لاسيما فى زمن الربيع . قال : والعسلُ لا يتجاوز الرطلُ منه ثلاثةَ دراهم برطلهم ودرهمهم ، وهو (ذلك الرطلُ الكبير والدرهم الصغير) والفواكه فى أوانها فى حكم اللبَنِ وما فى معناه فى زمن الربيع ، فى عدم وجود مَنْ يشتريه . ثم قال : وبالجملة فبلادُ الروم إذا غلَتْ وأقْحَطَتْ كانت كسعْر الشام إذا أقبل وأرخص .

الجمـــــلة الرابعة

(فى ذكر مَنْ ملك هـــذه البلاد)

قد ذكر ٱبن سعيد : أن هذه البلاد كانت بيد اليُونان، وهم بنو يُونان بن علجان ابن يافث بن نوح عليه الســلام من جملة ما بيــدهم قبل أن يَغْلِب عليهــم الرُّوم؛ ثم غلب عليها الرُّوم بعد ذلك فيما غَلَبُوهم عليه، وٱستمرَّتْ بأيديهم فى مملكة صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة علىٰ ما سيأتى ذكُره فى الكلام علىٰ مملكة القسطَنْطِينِيَّة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وكان كُلُّ مَنْ ملك هذه البلاد التى شرقِيَّ الخليج القُسْطَنْطِينى يسمَّى (الدُّمُسْتَق) بضم الدال المهملة وفتح الميم وسكون السين المهملة والتاء المثناة فوقُ وقاف فى الآخر، وله ذكر فى حروب الإسلام . قال فى "العبر": وكان ثُغُور المسلمين حينئذ من جهة الشام (مَلَطْيَة) ومن جهة أَذْرَبِيجان (أرْمِينِيَة) إلىٰ أن دخل بعض قرابة (طُغْرُلْبَكْ) أحد ملوك السَّلْجُوقِيَّة فى عسكرٍ إلىٰ بلاد الروم هذه فلم يَظْفَروا منها بشيء .

ثم دخلها بعــد ذلك (ممانى) أحد أمرائهم بعــد الثلاثين وأربعمائة، ففتح وغَنِم وٱنتهىٰ فى بلادهم حتّٰى صار من القُسْطنطينيَّة علىٰ خمسَ عشرةَ مرحلة؛ وبلغ سَبْيُه مائةَ ألف رأس، والغنائم عشرةَ آلاف عَجَلة، والظَّهرُ مالا يُحْصىٰ .

ثم فتح (قطلمش) بن إسرائيل بن سَلْجُوق قُونِيَةَ، وأقْصَرا، وأعمالها؛ ثم وقعت الفتنة بين قطلَمُش وبين (ألْب أرسلان) السَّلْجُوقىّ بعد طُغْرُلْبَكْ، وقُتِل قطلَمُش فى حربه فى سنة ست وخمسين وأربعمائة .

وملك البلادَ من بعده (ٱبنُه سليمانُ) ثم كان بين سليمانَ ومسلم بن قريش صاحب الشأم حروبٌ ٱنهزم سليمان في بعضها وطعن نفْسَه بخَنْجَر فمات في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

وملك بعده ٱبنه (قليج أرسلان) تلك البلادَ ، ثم قُتِل قليج أرسلان في بعض الوقائع .

ووَلِيَ مكانه بقُونِيَةَ وأقْصَرا وسائر بلاد الروم ٱبنُه (مسعود) وٱستقام له ملكُها ، ثم تُوُفِّيَ مسعود بن قليج أرسلان سنة إحدىٰ وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده ٱبنُه (قليج أرسلان) .

ثم قسم قليج أرسلان المذكور هذه البلاد بين أولاده : فأعطىٰ قُونِيَةَ وأعمالها لٱبنه (غياث الدين كِيخُسْرَوْ) وأقْصَرا وسِيوَاس لٱبنه (قطب الدين) ودُوقاط لٱبنه (ركن الدين سليمان) وأَنْكُورِيَة لٱبنه (محيي الدين) ومَلَطْية لٱبنه (عِزّ الدين قيصرشاه) والأَبُلُسْتَيْن لٱبنه (غَيْث الدين) وقَيْسارِيَّة لٱبنه (نور الدين محمود) وأعطىٰ أماسِيَةَ لٱبن أخيه . ثم ندم علىٰ هذه القسمة ، وأراد ٱنتزاعَ الأعمال من أولاده فخرجوا عن طاعته إلا ٱبنَه غياثَ الدين كِيخُسْرَوْ صاحبَ قُونِيَةَ فإنه بقيَ معه . وحاصر ٱبنه محمودا في قَيْسارِيَّةَ فتُوفِّيَ وهو محاصر لها في منتَصَف شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وٱستقلَّ (غياثُ الدين كِيخُسْرَوْ) بقُونِيَةَ وما والاها .

ثم ملكها من يده أخوه (نورُ الدين محمود) .

ثم ملك (قطبُ الدين) صاحبُ أقْصَرا وسِيوَاس قَيْسارِيَّةَ من يد أخيه محمود غَدْرا ، ثم مات قطبُ الدين في أَثَر ذلك .

فملك أخوه (ركنُ الدين سليمان) صاحبُ دُوقاط ما كان بيد أخيه قطبِ الدين من سِيواسَ وأقصَرا وقَيْسارِيَّةَ . ثم ملك قُونِيَةَ بعــد ذلك من يد أخيه غياثِ الدين . ثم ملك أماسِيَةَ ؛ ثم سار إلىٰ مَلَطْيَةَ ، فملكها من يد عزِّ الدين قيصر شاه سنة سبع وتسعين وخمسمائة . ثم ملك أَنْكُورِيَةَ بعد ذلك في سنة إحدىٰ وستمائة ؛ وآجتمع لركن الدين سليمان سائرُ أعمال إخْوته وتوفى عَقِبَ ذلك .

وتولّى بعده آبنُه (قليج أرسلان) فأقام يسيرا ثم قبض عليه أهلُ قُونِيَةَ وملَّكوا عمه غيــاثَ الدين كَيخُسْرَوْ مكانَه فقوِىَ مُلْكه وعَظُم شأنه ، وبقى حتّٰى قُتِـــل في حرب صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة سنة سبع وستمائة .

وملك بعــده آبنه (كَيكَاوس) وتلقب الغـالبَ بالله ، وبقِىَ حتّٰى مات ســنة ستَّ عشرةَ وستمائة ، وخلَّف بنين صغارًا .

وملك بعــده أخوه (علاءُ الديـــن كيقُباد محمد شاه) وبقِىَ حتّٰى توفِّى ســنة أربع وثلاثين وستمائة .

وملك بعده آبنه (غياث الدين كَيخُسْرَوْ) وتوفى سنة أربع وخمسين وستمائة .

وملك بعده آبنه (عَلاءُ الدين كيقُباد) بعهدٍ من أبيــه . وفى أيامه أرسل القان (منكوقان بن جنكزخان) صاحب التخت بقَرَاقُوم عســكرا فاستولَوْا علىٰ قَيْسارِيَّة ومسيرةِ شهرٍ معهــا ورجعوا إلىٰ بلادهم . ثم عادوا فى سنة خمس وخمسين وستمائة وآستولَوْا علىٰ ما كانوا آستولَوْا عليه أوّلا وزادُوا عليه ؛ فسار علاء الدين كيقُباد إلىٰ القان بهدايا آستصحبها معــه مُصانِعًا له فمات فى طريقه ؛ فوصل رُفْقَتُه بمــا معهم من الهدايا إلىٰ القان ، فأخبروه الخبرَ ، ورَغِبوا إليه فى ولاية (عز الدين كيكاوس) أخى كيقُباد المذكور فكتب القانُ إليه بالولاية ؛ ثم أشْرَكَ بعد ذلك بينه وبين أخيه

(ركن الدين قليج أرسلان) على أن يكون من سِيوَاس إلى تُخُوم القسطنطينيَّة غربا لعز الدين كيكَاوس . ومن سيواس إلى أرْزَن الرُّوم شرقا متصلا ببلاد التتر ، لركن الدين قليج أرسلان ، على إتاوة تُحْمَل إلى القان بقَراقُوم ؛ وجهَّز القانُ من أمرائه أميرا آسمه (بيدو) على أن يكون شِحْنَةً له ببلاد الروم ، لا ينفِّذون فى شىء إلا عن رأيه ، ورجعُوا إلى بلادهم ، وقد حملوا معهم جُثَّةَ كيقُباد إلى قُونِيَةَ فدفنوه بها . ولم يزل الأمرُ على ذلك حتّى سار هولاكو بن طولى بن جنكزخان بعد آستيلائه على بغداد إلى الشام فى سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة ، بعث إلى عز الدين كيكَاوس ، وركن الدين قليج أرسلان المذكورين بالطَّلَب ، فحضرَا إليه وحَضَرا معه فتح حَلَب ، ومعهما مُعين الدين سليمان البرواناه صاحب دقليم ، فاختار هُولاكُو أن يكون البرواناه المذكور سفيراً بينه و بينهما ؛ ثم هلك بيدو الشِّحْنة ببلاد الروم .

وولى بعده آبنه (صمغان) ثم غلب ركنُ الدين قليج أرسلان على أخيه (عز الدين كيكَاوس) و بقى فى الملك وحده ، وفرّ كيكاوس إلى (ميخائيل اللشكرى) صاحب القسطنطينِيَّة ، فأقام عنده حتّى بلغه عنه ما غيَّر خاطِرَه عليه فقبض عليه وآعتقله حتّى مات .

وآستبدّ ركن الدين قليج أرسلان بسائر بلاد الروم ، فغلب على أمره معينُ الدين سليمان البرواناه المقدَّم ذكره ؛ ولم يزل حتّى قتله .

وأقام آبنَه (غياثَ الدين كيخُسْرَو) بن قليج أرسلان مكانَه وآستولى عليه وحجره ، وصار البرواناه هو المستولى على بلاد الروم والقائم بملكها .

ثم دخل (الظاهر بِيبَرْس) صاحبُ الديار المصرية إلى بلاد الروم فى سنة خمس وسبعين وستمائة ، ولقيه صمغان بن بيدو الشِّحْنة من جهة التتار على بلاد الروم

فى جيش التَّــتَر، فهزمهم وقتَل وأَسَر، وسار إلىٰ قَيْسارِيَّةَ فملكها وجلس علىٰ تخت آل سَلْجُوق بهــا، ثم رجع إلىٰ بلاده .

وبلغ ذلك (أبغا) بن هُولاكُو صاحب إيران، فسار فى جموعه إلىٰ قَيْسارِيَّةَ ورأىٰ مصارِعَ قومه فشَقّ عليه، وٱتهم البرواناه فى ممالأة الظاهر، فقبض عليه وقتله .

وٱستقلَّ (غياثُ الدِّين كِيخُسْرَو) بن ركن الدين قليج أرسلان بالملك بعده .

ثم لمــا وَلِىَ (أرغون) بن أبغا مملكة إيران بعد أبيه، قبض علىٰ غياث الدين كِيخُسْرَو وقتله فى سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة .

وأقام مكانَه (مسعودا) ٱبن عمه كيكَاوُس، وعزل صمغانَ بن بيدو الشِّحْنة . وولّى مكانه أميرا ٱسمــه (أولاكو) وبقى مســعودُ بْنُ كيخُسْرَوْ فى المُلْك وليس له منــه سِوىٰ الٱسم، والمتحدّث هو الشِّحْنة الذى من جهة التتر إلىٰ أن مات فى سنة ثمــانَ عشرَة وسبعمائة، وٱستقلَّ الشِّحْنة بالمَمْلكة . وبقى أمراء التتر يتغالَبُون علىٰ الشِّحنَكِيَّة واحدا بعــد واحد إلىٰ أن كان منهم الأمير (سَلَامش) وبقِىَ بها مدّةً . ثم ٱنحرف عن طاعة بيت هُولاكُو صاحبِ إيران، وكتب إلىٰ الملك المنصور لاچين صاحبِ الديار المصرية يطلب تقليــدا بأن يكون حاكما بجميع بلاد الرُّوم، وأن يكون (أولاد قرمان) ومَنْ عداهم فى طاعتــه، فكُتِب له تقليدٌ بذلك بإنشاء الشيخ شهاب الدين «محمود الحلبى» علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ التقاليد فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ فى المقالة الخامسة .

ثم خاف علىٰ نفسه من (غازان) صاحب إيران، ففرّ إلىٰ الديار المصرية فى الدولة المنصورية لاچين، ثم عاد إلىٰ بلاد الروم لإحضار مَنْ تأخّر من أهله فقبضتْ عليه

عساكرُ غَازَان وحملته إليه فقتله . ولم يزل أمرُهُم على التنقل من أمير إلى أمير من أمراء التتر إلى أن كان منهم الأمير (برغلى) وهو الذى قتل هيتوم ملك الأرمن صاحب سِيس .

ثم كان بعده فى سنة عشرين وسبعمائة الأمير (إِيتَشْبُغَا) .

ثم ولّى أبو سعيد صاحبُ إيرانَ بعد ذلك على بلاد الرُّوم هذه (دَمِرْداش) ابن جُوبان سنةَ ثلاثٍ وعشرين وسبعمائة فقَوِى بها مُلْكه . ثم قتل أبو سعيد جُوبانَ والدَ دَمِرْداش المذكور، فهرب دَمِرْداش إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية . وكان سُنْقُر الأشقرُ أحد أمراء الملك الناصر قد هرب إلى السلطان أبى سعيد فوقع الصلحُ بين السلطانين على أن كلًّا منهما يقتل الذى عنده ففعلَا ذلك .

وكان قد بقِىَ ببلاد الروم أميرٌ من أمراء دَمِرْداش اسمه (أرتنا) فبعث إلى أبى سعيد بطاعته، فولّاه البلادَ فملكها؛ فنزل سِيواسَ واتخذها كرسيا لمُلْكه؛ ثم خرج عن طاعة أبى سعيد وكتب إلى الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب الديار المصرية، وسأله كتابةَ تقليدٍ بالبلاد، فكتَب إليه بذلك وجُهِّزت إليه الخِلعُ؛ فأقام دعوةَ الخطبة الناصِريَّة على منابر البلاد الرُّوميَّة ، وضرب السِّكَّة بآسمه ، وجهَّز بعضَ الدراهم المضروبةِ إلى الديار المصرية؛ وصارتْ بلادُ الروم هذه من مُضافاتِ الديار المصريةِ، ولم يزل (أرتنا) على ذلك إلى أن تُوفِّى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

وآستولى على الروم أولادُه من بعده إلى أن كان بها (محمد بن أرتنا) فى سنة ست وستين وسبعمائة ، وبقِىَ حتّى تُوفِّى فى حدود الثمانين والسبعمائة وخلَّف آبنا صغيرا .

فاستولى عليه الأمير (قليج أرسلان) أحد أمراء دولتهم وكَفَله .

ثم غدر به (القاضى إبراهيم) صاحب سِيواس وقتله فى سنة آثنتين وتسعين وسبعمائة وآستولىٰ علىٰ مملكة سِيواس .

قال فى "العبر" : وكان من طوائف التُّرْكُمان ببلاد الروم جموعٌ كثيرة ، كانوا يستعينون بهم فى حروبهم علىٰ أعدائهم ، وكان كبيرُهم فى المـائة الرابعة أميرا من أمرائهم آسمه (جق) فلمـا ملك سليمانُ بن قطلُمُش المقدّم ذكره قُونِيَةَ وأقْصَرَا بعـد أبيه علىٰ ماتقدّم ذكره ، خرج جق هذا مع «مسلم بن قُرَيش» صاحب المَوْصِـل علىٰ سليمان بن قطلَمُش . فلما آلتقىٰ الجمعان مال (جق) بمَنْ معه من التُّرْكُمان إلىٰ سليمان بن قطلُمُش ، فآنهزم مسلم بن قريش وقُتِل ، وأقام أولئك التُّرْكُمان أيامَ سليمان بن قطلمش بجبال تلك البلاد وسواحلها . فلما ملك التترُ هذه البلادَ وصار الملك لقليج أرسلان بعد غلبة أخيه كيكاوُس ، كان أمراءَ التُّرْكُمان يومئذ (محمد بَكْ) وأخوه (إلياس بك) وصهره (على بَكْ) وقريبه (سونج) فخرجوا عن طاعة قليج أرسلان و بعثوا بطاعتهم إلىٰ هُولاكو صاحب إيران وتقريرِ إتاوةٍ عليهم علىٰ أن يبعث إليهم بلواء المُلْك علىٰ عادة المُلُوك ، وأن يبعث شِحْنَةً من التتر تختصُّ بهم ، فأجابهم إلىٰ ذلك وقلّدهم الملكَ وبعث إليهم بلِواء . فملّكوا عليهم (محمد بَكْ) .

ثم أرسـل هُولاكو يطلب محمد بَكْ ، فامتنع عليـه وخالفه صهرُه علىّ بك فقدِمَ علىٰ هولاكو فقـدّمه علىٰ قومه مكانَ محمد بك . ثم جاء محمد بك إلىٰ قليج أرسلان صاحب بلاد الروم مستأمِناً فأمّنه ثم قتله ، وآستقرّ على بك فى إمرة التُّرْكُمان .

ولمـا تناقص أمر التتر وضَعُف ببلاد الروم المذكورة وآسـتقرّ بنو أرتَنا بسيواس وأعمالهـا ، غلَبَ هؤلاء[(١)] علىٰ ماوراء الدروب وما كان فتحه التترُ من نواحى الشمال إلىٰ خليج القسطَنْطِينِيّة .

وآشتهر من ملوكهم ستُّ طوائفَ :

---

(١) فى الأصل «ثم غلب هولا كو الخ» وهو خطأ والصواب ماأثبتناه نقلا عن "العبر ج ٥ ص٥٦٢".

الطائفـــــة الأولى

(أولاد قَرْمان)

وهم أصحاب أَرْمِنَاكَ وقَسْطَمُونِيَةَ وما والاها من شرق هذه البلاد كما تقدّم . قال في "مسالك الأبصار" : وهم أهلُ بيتٍ توارثُوا هذه البلاد، ولا يُخاطَبُ قائم منهم إلا بالإمارة . قال في "التعريف" : وهم أجلّ من لَدىٰ ملوكنا من التُّرْكُمان : لقرب ديارهم ، وتواصل أخبارهم ، ولنكايتهم في متملِّك سِيسَ وأهلِ بلاد الأرمن ، وٱجتياحِهم لهم من ذلك الجانب، مثلَ ٱجْتِياح عساكرنا لهم من هذا الجانب . قال : وأكبرهم قَدْرا ، وأفتكهم نابًا وظُفْرا، الأمير (بهاء الدين موسىٰ) وحضر إلىٰ باب السلطان وتُلُقِّيَ بالإجلال ، وأُحِلَّ في ممتـدّ الظِّلال ، وأُورِد موارِدَ الزُّلال، وأُرِيَ مَيامِنَ أسعدَ من طلعـة الهِلال، وحَجَّ مع الركب المِصْريّ وقضىٰ المناسك ، وأسبَلَ في ثَرىٰ تلك الرُّبا بقيَّـةَ دمعه المتماسك ، وشكر أمراءُ الركبِ دِينَه المتين ، وذكروا ما فيه من حُسْن اليقين، وعاد إلىٰ الأبواب السلطانية، وأجلس في المرتين مع أمراء المَشُورة، فأُشْرِكَ في الرأي وسأل السـلطان في مَنْشور يُكتَبُ له بمـا يفتَحُ بسيفه من بلاد الأرمن ليقاتل بعَلَمه المَنْشُور، ويجتنِيَ من شجر المُرّان جَنىٰ عسَله المَشُور، فكتبه له .

ثم قال : وهم علىٰ ماهم عليه يدارون مُلُوكَ التتار ، وهو ومَنْ سلف من أهل بيته مع ملوك مصر لا تُغبُّ المكاتبات بينهم، ولا يَنْقَطع بذل خدمته لهم ، وإقبالُهم عليه ، وٱعتدادُهم بموالاته .

قال في "مسالك الأبصار" : وهم عُصْبة ذاتُ أيْد ويَدْ، وجُيوش كثيرة العَدَد، وهم أصحاب الحروب التي ضَعْضعت الجبال، ولهم مع الأرمن وبلاد التَّكْفور، وقائع

لا يجحَدُها إلا الكَفور ، تتخطّفهم عِقْبانهم القَشاعِم [وتلتهِمُهم] (١) أُسُودهم الضَّراغِم . قال : وهم أهل بيت ألقى اللهُ عليهم محبةً منه ، وإذا شاء أميرهم جمع أربعين ألفا . ثم ذكر بعد ذلك بكلام طويل أنهم هم الذين كانوا ألَّفُوا بين سلامش وبين المنصور لاچين ، وأنهم هم الذين لا يُرْتاب فى رأيهم ، ولا يُطْعَن فى دِينهم ؛ بل مهما ورد من جهتهم تُلُقِّيَ بالقبول ، وحمل على أحسن المحامل . ثم قال : وحُكِيَ عمّن تردّد إليهم وعَرَف ماهم عليه أنهم رجالُ صِدْق ، وقومُ صَبر ، لا تُستَخَفُّ لهم حَفِيظه ، ولا تُرَدّ بحَنَقها لهم صُدورٌ مَنِيظه ؛ ولهذا أمراءُ الرُّوم لا يطَئُون لهم مَوْطِئًا يَغِيظ ، ولا يُواطِئُون لهم عدَّة شُهور فى مَشْتًى ولا مَقِيظ ؛ وما أحدٌ ممن يحسُدُهم على ما آتاهم الله من فضله إلا مَنْ يستجِيشُ عليهم بالتتار ، ويعدّدُ عليهم عِظامَ الذنوب الكِبَار ؛ ووقايةُ الله تكْفِيهم ، وحياطته عن عيون القوم تُخْفِيهم ؛ ولذلك كان السلطان (محمود غازان) يقول : أنا أطلُب الباغِيَ شرقا وغربا ، والباغى فى ثَوْبى ، يريد أولاد قَرْمان وتُرْكُمان الروم [ومع هذا لم يسلَّطْ عليهم] (٢) .

وحكى عن الصدر شمس الدين عبد اللطيف أخى النجيب أنه قال يوما : لولا الأكراد وأولاد قَرْمان وتُرْكُمان الروم ، دُسْتُ بخَيْلِي مَغْرِبَ الشمس .

الطائفة الثانيــــــة

(بنو الحميـد)

وهم أصحاب أنطاليا وفَلَكْ بار على ماتقدّم ذكره ، وهم من عظماء ملوك التُّرْكُمان .

---

(١) بياض بالاصل والتصحيح عن "مسالك الابصار" .

(٢) الزيادة من المسالك .

الطائفة الثالثة

(بنو أيدين)

وهم أصحاب بِرِكى وما معها، على ماتقدّم ذكره . قال فى "مسالك الابصار" وقد ذكر محمد بن أيدين صاحب بركى المذكورة : وهذا ابنُ أيْدِين ما أعرِفُ أن له بمن حوله من ملوك الممالك إلْماما، ولا أنّ له أخبارا تَرِدُ طُروقا ولا إلْماما؛ بل هو فى عُزْلة من كل جانب، لامخالِطَ ولا مُجانِب .

الطائفة الرابعة

(بنو منتشا . وهم أصحاب فوكة وما معها)

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن منهم أولاد دندار . ثم قال : ولهؤلاء بَنِي دندار إلى ملوك مصر انتماء، ولهم من تُحَف سلاطينها نَعْماء . قال : وكان بمصر منهم من له إمْرة فيها ثم عاد إلى بلاده بعد مَهْلِكِ تَمرْتاش بن جُوبان ، لأنه كان قد ترك بلاده لأجله ، وفرّ هاربًا من يده لعَداوةٍ كانت قد اضْطَرمت بينهما شُرورُها، واضطربت أمورُها، فلمّا خلتْ من مجاورة تَمرْتاش تلك البلادُ، عاد . ويقال : إنه قُتِل ولم يصل إلى بلاده .

الطائفة الخامسة

(بنو أُورْخان بن عثمان جَقْ)

وهو صاحب بُرْسا على ماتقدّم ذكره . قال فى "العبر" : وكان قد اتخذ بُرْسَا دارًا لملكه ، ولكنه لم يفارق الخِيامَ إلى القُصور ، وإنما كان يَنْزِل بخيامه فى بَسيطها وضواحيها ولم يزل على ذلك إلى أن مات .

وملك بعده آبنُه (مراد بَكْ) وتوغّل فى بلاد النصرانية فيما وراء الخليج القُسْطَنْطِينِىّ فى الجانب الغربىّ ، وفتح بلادهم إلىٰ أن قَرُب من خليج البنادقة ، وجبال جَنَوة ، وصير أكثرهم أُمراءَ ورعايا له ، وعاث فى بلاد الكُفّار بما لم يُعْهَد قبله من مثله ؛ وأحاط بالقُسْطَنْطِينِيّة من كل جانب حتّى أعطاه صاحبها الجِزيةَ . ولم يزل علىٰ ذلك حتّى قُتِل فى حرب الصَّقَالبة سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة .

وملك بعده آبنه (أبو يَزِيدَ) فجرىٰ علىٰ سَنَن أبيه ، وغلب علىٰ قِطْعةٍ من بلاد الروم هذه فيما بين سِيوَاسَ وأنْطاليَا والعَلَايا ، بساحل البحر إلىٰ قريب مدينة بنى قَرْمان ؛ ثم تزوّج فى بنى قَرْمان بنتَ أحدهم وغلب علىٰ ما بيـده من تلك النواحى ؛ ودخل بنو قَرْمان وسائر التُّرْكُمان فى طاعته ، ولم يبق خارجًا عن مُلْكه إلا سِيواسُ التى كانت بيـد قاضيها (إبراهـــيم) المتغلِّب عليها ومَلَطْيَـةُ الداخلةُ فى مملكة الديار المصرية ومضافاتها علىٰ ماتقدّم . ولم يزل علىٰ ذلك حتّى قصده تُمرلنك بعـد تخريب الشام فى سنة ثلاث وثمـانمـائة وقبض عليه ، فبقى فى يده حتّى مات .

وملك بعده آبنه (سليمانُ جلبى) وبقى حتّى مات .

فملك بعــده أخوه (محمد بن أبى يزيد) بن مُراد بَك بن عثمان جق ، وهو القائم بمملكتها إلىٰ الآن .

قال فى "مسالك الأبصـار" : ولو قد آجتمعت هـذه البلاد لسلطانٍ واحد ، وكُفّت بهـا أَكُفُّ المفاسد ، لمـا وسع ملوكَ الأرض إلا آنتجاعُ سَحابه ، وآرتجاع كل زمانٍ ذاهبٍ فى غير جَنَـابه ، ثم قال : الله أكبر إن ذلك لَمُلْك عظيم ، وسِلْك نظيم ، وسلطنة كبرىٰ ودنيا أخرىٰ ﴿ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ .

الجملة الخامسة

(فى زىّ أهل هذه المملكة ، وترتيب الملك بها)

أما زىّ أهلها فإن لِبْس السلطان والأمراء والجُنْد أقبيةٌ تترية ضيقة الأكمام، مزنّدة على الأكُفّ، والأمراء منهم يلبَسُون فوق ذلك أقبيةً قصارَ الأكمام من رقيق الخام مضرَّبة تضريبًا واسعًا، وعلى رءوسهم عمائم من لانس متوسطةُ المِقدار بين الكبر والصِّغر، مكوَّرةٌ تكويرا خاصًّا، حسَنَ الصَّنْعة، متداخِلَ بعض اللفّات فى بعض، ويلبَسُون خفافا من أدَم؛ وقد شاهدت أميرا من أمرائهم وَرَدَ رسولا عن أبى يزيد ابن مراد بك بن عثمان إلى الظاهر «برقوق» صاحب الديار المصرية وهو على هذه الهيئة، وكثير من الجُنْد يلبَسُون الطراطيرَ البِيض والحمر المتخذة من اللبد .

***

وأما ترتيب مملكتهم فلم تتحرّر لى كيفية ذلك إلا أنه قد تقدّم نقلا عن صاحب "العبر" أنهم كانوا يسكنون الخيم ثم نزلوا المدن بعد ذلك؛ فلا يبعد أن يكون ترتيب ملكهم على نحو من ترتيب التتر والله أعلم .

القسم الثانى

(من الجهة الشمالية عن الديار المصرية ، مابيد ملوك النصارى)

وهو ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(جزائرُ بحر الروم)

وهو البحر الشاميّ الممتدُّ من البحر المحيط الغربىّ ، المسمّى (بحر أوقيانوس) إلى ساحل الشام وما على سَمْته من بلاد الأرمن الممتدّ ساحله الجنوبىّ على ساحل

الديار المصرية، ثم على ساحل بَرْقَة، ثم على ساحل أفرِيقِيَّة، ثم على ساحل الغرب الأوسـط، ثم على ساحل الغرب الأقصى إلى البحر المحيـط . وساحلُه الشّمالىّ على بلاد الرُّوم التى شرقىّ الخليج القسطنطينىّ، ثم على سواحل بلاد الروم والفَرَنْجة من غربىّ الخليج المذكور إلى ساحل الأندَلُس إلى البحر المحيط، على ماتقدّم ذكره فى الكلام على البحار فى أوّل هذه المقالة .

وبه إحدى عشرةَ جزيرةً :

إحداها — جزيرة (قُبْرُس) . قال فى "اللباب" : بضم القاف وسكون البـاء الموحدة وضم الراء المهملة وفى آخرها سـين مهملة . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ سـبع وخمسون درجة، والعرض خمسٌ وثلاثون درجة . وهى جزيرة فى مَشَارق هذا البحر . قال ابن سعيد : على القُرْب من ساحل الشام بينها وبين الكُرْك(1) (بضم الكاف وسكون الراء المهملة من بلاد الأرمن) نحو نصف مجرى . قال : وطولها من الغرب إلى الشرق مائتا ميل، ولهـا ذَنَب دقيق فى شرقيها . قال الإدريسى : ودَوْرها مائتان وخمسون ميـلا ؛ ولصاحبها مكاتبةٌ تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، على ماسيأتى ذكره فى الكلام على المكاتبات، فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

الثانية — (جزيرة رُودِس) . قال فى "تقويم البُلْدان": بضم الراء المهملة ثم واو ساكنة ودال مهملة ويقال معجمة مكسورة ثم سين مهملة . وموقعها فى الإقليم [الرابع](2) من الأقاليم السبعة قال فى "الأطوال": حيثُ الطولُ إحدى وخمسون درجة وأربعون دقيقة، والعرضُ ستٌّ وثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى

(1) كذا فى التقويم أيضا بالكاف فى الآخر ولعله بالجيم .

(2) بياض بالأصل، والتصحيح عن "تقويم البلدان" .

علىٰ حِيَال الإسكندرية، بين جزيرة المَصْطَكىٰ وجزيرة أقريطش . قال: وآمتدادها من الشَّمال إلىٰ الجنوب بانحراف نحوُ خمسين ميلا ، وعرضُها نصفُ ذلك . وبين هــذهِ الجزيرة وبين ذَنَب جزيرة أقريطش مجرًى واحدٌ ، وهى فى الغرب عن جزيرة قُبْرس بآنحراف إلىٰ الشمال . قال : وبعضها للفَرَنْج ، وبعضها لصاحب اصطنبول (وهى القُسْطَنْطِينِيَّة) ومن رُودِس يُجْلَب العسل الطيبُ العديمُ النظير ، ولصاحبها مكاتبة تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الثالثــة — (جزيرة أقْرِيطش) . قال فى "اللباب" : بفتح الألف وسكون القاف وكسر الراء المهملة وسكون اليـاء المثناة من تحت وكسر الطاء وشين معجمة فى الآخر . قال فى "الروض المِعْطار" : سمِّيت بذلك لأن أوّل من عَمَرها كان آسمه (قراطى) قال : وتسمى أيضا (أقريطش البترليش) ومعناها بالعربية مائة مدينة . وهى علىٰ سَمْت بَرْقة ، وموقعها فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة ، قال آبن سـعيد : ومدينتها حيث الطولُ سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقــة ، والعرضُ أربعون درجةً وثلاثون دقيقة . قال آبن سـعيد : وهى جزيرةٌ عظيمة مشهورة ، وآمتدادها من الغرب إلىٰ الشرق ودَوْرها ثلثُمائةٍ وخمسون ميلا . وقيل : هذه الأميال إنمـا هى طولها شرقًا بغرب لادَوْرها ، وذكر فى "كتاب الأطوال" أن دَوْرها سبعةَ عشرَ يوما . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومنها يجلب إلىٰ الإسكندرية العَسَلُ والجُبْن وغير ذلك . قال فى "الروض المعطار" : وهى جزيرة عامرة ، كثيرةُ الخِصْب ، ذاتُ كروم وأشجار ، وبهـا معدِنُ ذهبٍ . وأكثرُ مواشيها المَعَز ، وليس بها إبِلٌ ، ولم يكن بها سَبُع ولا ثَعْلب ولا غيرهما من الدوابِّ الدابَّة بالليل ، وكذلك ليس بهـا حَيَّة ، وإن دخلت إليها حيَّة ماتت فى عامها . ويقال : إن صناعة المُوسيقىٰ أوّل ما ظهرت بها ، وبينها وبين ساحل بَرْقة يومٌ وليلة ، وبينها وبين قُبْرس أربعة مجارٍ ،

وإليها ينسب الأَنْتِيمون الأَقْرِيطِشيّ المستعمَل فى الأدوية . وكان « عبد الله بن أبى سرح» أميرُ مصر قد آفتتحها فى زمان إمارته فى خلافة «عثمان» رضى الله عنه، وبقيت بأيْدى المسلمين حتّى تغلب عليها النصارىٰ فى سنة خمس وأربعين وثلثمائة . قال فى "الروض المِعْطار" : وهى بيد صاحب القُسْطَنطِينِيَّة .

الرابعة — (جزيرة المَصْطَكَى) بفتح الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملة والكاف وألف فى الآخر . وسمِّيت بذلك لأنه ينبُت بها شجر المَصْطَكىٰ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى جزيرة بالقُرْب من فَم الخليج القُسْطَنْطِينى . وقال آبن سعيد : هى داخلةٌ فى بحر الروم علىٰ مائة وخمسين ميلا من فَم الخليج القُسْطَنْطِينى . قال : وطولها من الشَّمال إلىٰ الجنوب نحوُ ستين ميلا . قال : وهى شرقيّ (جزيرة التغريب) وبينهما نحوُ ثلاثين ميلا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها دُيورةٌ وقُرًى ، ومنها تجلب المَصْطَكىٰ إلىٰ البلاد ، وهى صَمْغ شجر ينبُت بها يُشبِه شجر الفُستُق الصغار ، يُشْرَط فى فصل الربيع بمَشَارِيط فتسيل منها المَصْطَكىٰ ، ثم تجمُد علىٰ الشجر ، وربما قَطَر منه شىء علىٰ الأرض ، والأول أجود .

الخامسة — (جزيرة التَّغْرِيب)(١) بالتاء المثناة فوق المفتوحة وسكون الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وياء مثناة تحتُ وباء موحدة فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من الغُرْبة ، وموقعها فى أواخر الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال آبن سعيد : وطَرَفُها الشرقيّ حيثُ الطولُ ثمانٍ وأربعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرضُ آثنتان وأربعون درجةً وخمسٌ وخمسون دقيقة . وهى جزيرة كبيرة فى الغرب عن جزيرة المَصْطَكىٰ المقدّم ذكرها ، وامتدادها من المغرب إلىٰ المشرق بانحراف إلىٰ

(١) سماها فى تقويم البلدان "جزيرة التقريبنت" وذكر أن فى بعض النسخ «التغريب» كما هنا .

الجنوب مائةٌ وخمسون ميلا ، وفى العرض من عشْرين ميلا إلىٰ نحو ذلك . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى معروفة بخروج الشَّوانى والقطائع منها .

السادسة — (جزيرة لَمْرِيَا) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح اللام وسكون الميم وكسر الراء المهملة ثم ياء مثناة تحتية وألف فى الآخر . قال : وعن بعض المسافرين أن بعد المثناة هاء . قال ابن سعيد : وتُعْرَف فى الكتب بجزيرة بلونس ، وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : ووسَطُها حيثُ الطولُ خمس وأربعون درجة واثنتان وأربعون دقيقة ، والعرضُ ثلاثٌ وأربعون درجة وثلاثَ عشرةَ دقيقة . قال : وهى أكبر جزائر الرُّوم ودَوْرها علىٰ التحقيق سبعُمائة ميل ، وفيها أخوار وتعريجات ، ومدينتها فى وسطها .

السابعة — (جزيرة صَقَلِّيَةَ)[1] . قال فى "اللباب" : بفتح الصاد المهملة والقاف ولام وياء مثناة من تحت وهاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة ، وبين ذنبها الغربىّ وبين تونس مَجْرًى وستون ميلا ، ودَوْرها خمسمائة ميل . وهى علىٰ صورة شكلٍ مثلَّث حادِّ الزاوية : فالزاوية الأولىٰ شَمَالية ، وهناك المجاز الضيق إلىٰ الأرض الكبيرة (يعنى التى وراء الأندلُس) وهو نحو ستة أميال . والزاوية الثانية جُنُوبِيَّة ، وهى تقابِلُ برّ طَرابُلُس من أفريقِيَّة من بلاد الغرب . والزاوية الثالثة غربِيَّة ، وهناك (بركان النار) فى جزيرة صغيرة منقطعة شَمالىَّ الزاوية المذكورة ، وشمالِىَّ صَقَلِّيَة بلاد قلفريَةَ الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ الضرب الثانى . قال فى "تقويم البُلْدان" : وصاحب صَقَلِّيَة فى زماننا هذا فَرَنْجىّ من الكيتلان اسمه الريد افريك .

(١) ضبطها ياقوت بثلاث كسرات وتشديد اللام والياء ثم قال وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام .

وقاعدتها مدينة (بَلَزْم) بفتح الباء الموحدة واللام وسكون الزاى المعجمة وميم فى الآخر . قال ابن سـعيد : وهى حيثُ الطولُ خمس وثلاثون درجةً ، والعرضُ ستٌّ وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقة . وبها عِدّةُ مُدُن غير هذه القاعدة .

منهـا مدينة (مازَر) . قال فى "المشترك" : بفتح الزاى المعجمة وبعدها راء مهملة ، وإليها ينسب "الإمام المازَرِىُّ المالكى" شارح "موطإ مالك" وغيره .

ومنها (قَصْرُيانَّةَ) بلفظ قصر المعروف ، ويانَّةُ بفتح اليـاء المثناة تحتُ وألف ونون مشدّدة ، وهى مدينة كبيرة علىٰ سِنِّ جبل .

الثامنة — (جزيرة سُردانِيَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم السـين[(١)] وكسر الراء وفتح الدال المهـملات ثم ألف ونون مكسورة وياء مثناة تحت مفتوحة وهاء فى الآخر . قال : واسمها بالفَرَنْجية صُردانِى ، يعنى بابدال السين صادا مهملةً وحذف الهـاء من الآخر . وهى غربىّ الجُزُر المتقدّمة الذكر . وموقعُها فى الإقليم الرابـع بين مَرْسَىٰ الخَـرَز من البر الجنوبىّ وبين مملكة بِيزةَ من البَرِّ الشمالىّ . قال فى "الأطوال" : وطولُها إحدىٰ وثلاثون درجة ، وعرضُها ثمانٍ وعشرون درجة . قال ابن سـعيد : وامتدادُها من الطول من الشمال إلىٰ الجَنوب مجرًى ونصف ، وفى غربيها مَغَاص المَرْجان الفائق الذى ليس له نظيرٌ، وبها معدِنُ فِضّة ، وهى الآن بيد الفَرَنج الكِيتْلانيين ، ولِمَلِك الكِيتلان نائبٌ بها .

التاسعة — (جزيرة قَرْسَقَة) بفتح القاف وسكون الراء المهملة وفتح السين المهملة والقاف وهاء فى الآخر . وهى مقـابل (جَنَوة) الآتى ذكرها فى الضرب الثـانى ؛

(١) فى المعجم بفتح أوّله وسكون ثانيه .

و بينها و بين سَرْدانِيَة المتقدّمة الذكر مجازٌ نحوُ عشرة أميال ، وآمتدادُها من الشَّمال إلىٰ الجنوب مجرًى ونصف ، و وسطها متّسع ، ورأسها من جهة جَنَوة ضَيِّق .

العاشرة — (جزيرة أنكَلَطْرة) بألف ونون ساكنة وكاف مفتوحة ولام مفتوحة وطاء مهملة ساكنة و راء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر . قال آبن سعيد : ويقال (أنكَلَتْرة) بابدال الطاء تاء مثناةً من فوقُ . قال : وطُول هذه الجزيرة من الجنوب إلىٰ الشمال بآنحراف قليلٍ أربعمائة وثلاثون ميلا ، وآتساعُها فى الوسط نحو مائتَىْ ميل ، وفيها معدِن [الذهب][(١)] والفِضّة والنُّحاس [والقصدير][(١)] وليس فيها كرومٌ لِشدّة البرد بها ، وأهلها يحملُون الذهبَ إلىٰ بلاد الفرَنج ، و يعتاضُون عنه الخمرَ لعدمه عندهم .

وقاعدتُها (مدينة لندرس) بلام ونون ودال وراء وسين مهملات . وصاحب هذه الجزيرة يسمى (الانكتار) بنون وكاف وتاء مُثناة فوقية وألف وراء مهملة فى الآخر. وهو الذى عقد الهُدنةَ بينه و بين الملك العادل « أبى بكرِ بن أيوب » فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، والملكُ العادلُ علىٰ عسقلانَ . وكان من أمره أنه لم يحلف علىٰ الهُدْنة بل أُخِذَتْ يده وعاهدوه ، وآحتج بأن الملوك لا يحلِفُون ، وكانت الهُدْنة بينهما ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أوّلها كانون الأوّل الموافق لحادى عشرى شعبان من السنة المذكورة .

الحادية عشرةَ — (جزيرة السَّنَاقِر) . جمع سُنْقُر وهو الجارح المعروف المقدّم ذكره فى الكلام علىٰ مايحتاجُ الكاتب إلىٰ وصفه فى المقالة الأولىٰ . وهى جزيرة علىٰ القُرْب من (جزيرة أنكَلَتْرة) المقدّمة الذكر . قال آبن سعيد : وآمتدادُها فى الطُّول شرقا بغربٍ سبعةُ أيام ، وفى العرض أربعةُ أيام . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومنها

---

(١) الزيادة عن التقويم .

ومن الجزائر التى شماليها تجلب السَّناقِرُ التى هى أشرفُ أنواع الجوَارِح ، وإلىٰ ذلك أشار فى "التعريف" فى الكلام علىٰ أوصاف السَّناقر بقوله وهى مجلوبةٌ من البحر الشامىّ . قلت : وجزيرة جِرْبَةَ تقدّم ذكرها مع بلاد أفريقيَّةَ . وجزيرة مَيُورْقةَ وجزيرة يابسةَ وجزيرة قادس تقدّم ذكرها مع جزيرة الأندلُس .

الضرب الثانى

(ماشمالىّ بحر الروم المقدّم ذكُره من غربىّ الخليج القُسْطَنْطِينىّ مما يمتدّ غَرْبا إلىٰ البحر المحيط الغَرْبىّ ، وما يتصل بذلك مما شمالىّ بحر نِيطش المعروف ببحر القِرمِ إلىٰ أقصىٰ الشمال ، وهو جهتان) .

الجهـــة الأولىٰ

(ما هو فى جهة الغرب عن الخليج القُسْطَنْطِينىّ . وهو قُطْرانِ)

القُطْـــر الأوّل

(ما بين الخليج المذكور وبين جزيرة الأندلُس ، وما علىٰ سَمْت ذلك . ويشتمل علىٰ ممـالكَ كِبَار وممالكَ صِغار)

فأما الممـالك الكِبَار ، فالمشهور منها خمس ممـالكَ :

المملكة الأولىٰ

(مملـــكة القُسْـــطَنْطِينَة)

قال فى "اللُّبَاب" : بضم القاف وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وسكون النون وكسر الطاء الثانيــة وسكون المثناة من تحت ثم نون (يعنى مفتوحة) ثم هاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وتسمّٰى بُوزَنْطِيا يعنى بالبـاء الموحدة والواو

والزاى المعجمة والنون والطاء المهملة ثم ياء مثناة من تحت وألف فى الآخر . وربما قالوا : بُوزَنْطِيَةُ بابدال الألف هاء . وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال فى "رسم المعمور" : حيث الطولُ ثمانٌ وأربعون درجةً ، والعرضُ خمس وأربعون درجةً ، ووافقه علىٰ ذلك صاحب "الأطوال" وصاحب "القانون" وآبن سعيد : وهى قاعدة الرُّوم بعد رُومِيَةَ وعَمُّورِيَةَ ؛ وهى المستقِرّة قاعدةَ مُلْك لهم إلىٰ الآنَ .

قال فى "الروض المعطار" : نزل رُوميةَ من ملوك الروم عشرون مَلِكا ؛ ثم نزل عَمُّورِيَةَ منهم مَلِكانِ ؛ ثم عادت المملكة إلىٰ رُومِيَـةَ فنزلها منهم ملكان ؛ ثم ملك (قُسْطَنْطِين) بن هيلانى ، فجدّد بناء بُوزَنْطِيَةَ وزاد فى بنائها ، وسماها قُسْطَنْطِينِيَّةَ نسبةً إليـه ونزل بها فصارت دار ملك للرُّوم بعده إلىٰ الآنَ . قال : وهى علىٰ ضَفَّةَ الخليج المُنْصَبِّ من بحر نيطش ومانيطش إلىٰ بحر الرُّوم ، وقد صار هذا الخليج مشهورًا بها ، فيقال فيه (الخليج القُسْطَنْطِينِيّ) كما تقـدّم . وجهاتُها الثلاثُ من الشرق والغرب والجنوب إلىٰ البحر ، والجهة الرابعة وهى الشَّمال إلىٰ البَرِّ ، وقُطْرها من الشرق إلىٰ الغرب ثمانيةٌ وعشرون ميلا ، ولها سُوران من حجارة بينهما فضاء ستُّون ذراعا ، وعَرْض السُّور الداخل آثنا عشر ذراعا ، وآرتفاعه آثنان وسبعون ذراعا ، وعَرْض السُّور الخارج ثمانيةُ أذرع ، وآرتفاعه آثنان وأربعون ذراعا ، وفيما بين السُّورَيْنِ نهر يسمّى (قُسْطَنْطِينِيَانُوس) مغطًّى ببلاط من نُحَاس ، يشتمل علىٰ آثنين وأربعين ألفَ بلاطةٍ ، طولُ كلِّ بلاطة ستة وأربعون ذراعا ، وعمق النهر آثنان وأربعون ذراعا . ولها نحوُ مائة باب أكبرها باب الذهب : وهو باب فى شَمَالِيّها ، طوله أحد وعشرون ذراعا ، وهو مضَبَّب بالحديد ، وبه أعمدةٌ من ذهب ، وبها قصر فى غاية الكِبَر والعُلُوّ ، وطريقه الذى يُتَوصل إليه منه يعرف بالبدندون . وهو من

عجائب الدنيا، يُمْشىٰ فيه بين سَطْرين من صُوَر مفرَّغة من النحاس البديع الصِّناعة علىٰ صُوَر الآدميين وأنواعِ الخيل والسِّباع وغير ذلك ، وفى القصر ضروب من عجائب المصنوعات .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وحكىٰ لى بعضُ من سافر إليهـا أن داخلَها مزدرع وبساتينُ، وبها خراب كثير ، وأكثر عِمارتها فى الجانب الشرقىّ الشّمالىّ ؛ وكنيستها مستطيلةٌ ، وإلىٰ جانب الكنيسة عمودٌ عالٍ دَوْرُه أكثر من ثلاثة باعات ، وعلىٰ رأسه فارسٌ وفرسٌ من نُحَاس، وفى إحدىٰ يديه حَرْبة كبيرة، وقد فتح أصابع يده الأخرىٰ وهو مشير بها . قيل : إن ذلك صورةُ (قُسْطَنْطِين) بانى المدينة . قال فى العزيزىّ : ولها أربعَ عشرةَ معاملةً .

وآعلم أن هـذه المملكة كانت أوّلا بيد اليُونان . قال البيهقىّ : وهم بنو يُونانَ بن علجَانَ، بن يافِثَ، بنِ نوح عليه السلام . وفى التوراة أن يُونانَ ابنُ يافثَ لصلبه، وآسمه فيها (ياقان) بقاء تقْرُب من الواو . وخالف الكندىّ فنسبهم إلىٰ عَابَر بن فالَغ فجعـل يُونانَ أخًا لقَحْطانَ ، وذكر أنه خرج من اليمن بأهـله وولده مُغاضِبًا لأخيه قَحْطانَ فنزل ما بين إفْرَنجةَ والرُّوم ، فاختلط نَسبُه بنسبهم . وردّ عليه أبو العبَّاس الناشى[(١)] فى ذلك بقوله :

[و] تَخْلِطُ يُونانًا بقَحطانَ ضِـلَّةً * لعَمْرِى لقد باعدْتَ بينهما جِدًّا !

---

(١) هو عبد الله بن محمد الناشى وأوّل الأبيات :

أبا يوســف إنى نظرت فـلم أجد * علىٰ الفحص رأيا صح منك ولا عقدا
وصرت حكيما عنـد قوم إذا آمرؤ * بلاهم جميعا لم يجـد عندهم عنـدا
أتقرن الحـادا بدين محمـد * لقـد جئت شيئا ياأخا كندة إدّا

وتخلط الخ اه من مروج الذهب (ج ١ ص ١٣٨) .

وقيــل إنهم إنمـا نَجَمُوا من رجل يقال له (الكن) وُلِد سنة سبع وأربعين لوفاة موسٰى عليه السلام .

وكانت قاعدةُ ملكهم الأولىٰ (مدينةَ أغريقيَّة) . وهى مدينة بناها (أغريقش) آبن يُونانَ المقــدّم ذكره علىٰ الجـانب الغربىّ من الخليج القُسطَنْطِينىّ ، وهى أوّل مُدُنهم ، ثم هدمها هيليوس أحدُ ملوكهم وبنىٰ (مدينــة مَقَدُونِيَّة(١)) فى وسط المملكة بالجـانب الغربىّ أيضا ونزلهـا فصارت منزلا لملوكهم من بعـده ، وإليها يُنْسب ملوكهم فيقــال ملوكُ مَقَدُونِيَــةَ ؛ وقد كان يقال للإسكندر بن فيلبس المَقَدُونى نسبة إلىٰ مَقَدُونِيَة هذه . ومن طائفة اليُونان كان معظمُ الحكماء الذين عنهم أُخِذَتْ علومُ الفلسفة ، ومنهم بقراط وسقراط وأفلاطُن وأرَسْطُوطاليس وإقليدس وغيرهم من الحُكَماء .

وكان لهم عدّة ملوك ، أوّلهم (يُونانُ) بن يافِثَ بنِ نوح .

ثم ملك بعــده آبنه (أغْرِيقِش) وهو الذى بنىٰ مدينَةَ أغْرِيقيَّةَ المتقدّم ذكرها . وتوالىٰ الملك فى ولده ، وقهروا اللَّطِينيِّين ودَالَ ملْكُهم فى أرمِينِيَةَ .

ثم ملك (هِرَقْلُ الجبَّار) بن مَلْكان ، بن سلَقُوس ، بن أغْرِيقِش .

ثم ملك بعده آبنه (بلاق) وإليــه تُنْسَب الأمّة البلاقِيَّــة التى هى الآن علىٰ بحر سُوداق ؛ وآتصل الملكُ فى عقب بلاق المذكور إلىٰ أن ظهر عليهم إخوانُهم الرومُ وآستبدُّوا بالملك .

فكان أوّلهم (هردوس) بن مطرون ، بن رُومى ، بن يُونان ؛ فملك الأُمَمَ الثلاثةَ ، وصار آسمه لقبا لكل مَنْ ملك بعده .

---

(١) قال ياقوت : بفتح أوّله وثانية وضم الذال المعجمة الخ .

ثم ملك بعده ابنُه (هرمس) وحاربه الفُرْسُ فقهروه وضربوا عليه الإتاوةَ .

ثم ملك بعده ابنُه (مطرنوس) فحمل الإتاوةَ للفُرْس .

ثم ملك بعده (فيلبوس) فظهر على الأعداء وهدم مدينـةَ أغْريقيَّة ، وبنى مدينة مَقَدُونِيَةَ المتقدّم ذكرُها ، وكان محبًّا فى الحكمة فكثر الحكماءُ فى دولته .

ثم ملك بعده ابنُه (الإسكَنْدرُ) فاستقام له الأمرُ وملك الشامَ ، وبيت المَقْدِس ، والهندَ ، والسِّنْدَ ، وبلادَ الصين ، والتُّبَّت ، وخُراسان ، وبلادَ التُّرك ، وذلَّتْ له سائر الملوك ، وهاداه أهلُ المَغْرِب والأَنْدَلُس والسُّودان ، وبنى مدينةَ الإسكندريَّة بالديار المصرية عنـد مصَبِّ النيل على ساحل البحر الرُّومىّ ، وبنى بالسِّنْد أيضا مدينةً سماها الإسكندريَّة ، ورجع إلى بابِل فمات بها ، وعُرِضَ المُلْكُ على ابنـه إسكندَرُوس فأبى واختار الرَّهْبانِيَّة .

ثم ملك بعده (لُوغُوس) من بيت المُلْك ، وتلقب (بَطْلَيْمُوس) فصار ذلك علمـا على كل مَنْ ملك منهم . وقيل : هو بَطْلَيْمُوس بن لاوى صاحب عسكر الإسكندرية ، وهلك لأربعين سنةً من مُلْكه .

وملك بعـده ابنه (فلديفش) فأقام ثمـانيا وثلاثين سـنة ، وتُرجِمَتْ له التوراةُ من العبْرانِىّ إلى الرُّومىّ .

ثم ملك بعده ابنُه (أنطرطيش) (١) فأقام ستًّا وعشرين سنةً وهلك .

فملك بعده أخوه (قلوباطر) (٢) فأقام سبعَ عشرةَ سنةً وهلك .

فملك بعده ابنه (أَبِيفانش) فأقام أربعا وعشرين سنة .

---

(١) فى " العبر ج ٢ ص ١٨٩ " انطريس .

(٢) فى " العبر ج ٢ ص ١٨٩ " فلوباذى .

وملك بعده ٱبنه (قلوماطر) فأقام خمسًا وثلاثين سنةً . وكان مَقَرّه الإسكندرية وهلك .

فملك بعده ابنه (إبرياطش) فأقام سبعا وعشرين سنةً . وعلىٰ عهده آستفحل مُلْكُ رُومةَ، وملكوا الأندَلُس وأفريقيَّةَ وهلك .

فملك بعده ٱبنُه (شوطا)[1] فأقام سبعَ عشرةَ سنة، وهلك .

فملك بعده أخوه (الإسكندر) فأقام عشرَ سنين وهلك .

فملك بعده (دُنُونُشْيُشْ) بن شوطا، فأقام ثمانياً وثلاثين سنة، وفى أيامه ملك الرُّوم بيتَ المقدس وأنطاكِيَةَ، وهلك .

فملك بعده بنته (كلابَطْرَةُ) فأقامت سنتين، وكان سكنُها الإسكَنْدريةَ . وكان الملك علىٰ الروم يومئذ أُغُشْطُش قيصر ملك الروم، فقصدها، فاحتالت بأن آتخذَتْ حيَّةً تُوجَد بين الحجاز والشام، فلمَست الحيةَ فيَبِسَتْ مكانَها، وبقيت الحيةُ فى رَيَاحِينَ حوْلَها، وحضر أغشْطُش فوجدها جالسةً ولم يَشْعُرْ بموتها، فتناول من الرياحين ليَشَمَّها فلسَعَتْه الحيةُ فمات[2] . وزالت دولةُ اليُونان بزوالها .

هكذا رتَّبهم (هروشيوش مؤرّخ الروم) وسبب ذلك أن الرومَ واليُونان كانوا متجاوِرينَ متلاصِقِين لعَلَاقة النَّسَب فقد نقل آبن سعيد عن البيهقى أن الرُّوم من ولد رُومِىّ بن يُونان المقدّم ذكره . وقيل هم بنو لَطِين بن يُونان أخى رُومىّ المذكور، ولذلك يقال لهم اللَّطِينِيُّون . وقيل هم من بنى كِتّيم بن ياثان وهو يُونان . وقيل بل هم من بنى عِيصُو بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

(١) فى "العبرج ٢ ص ١٩٠" شوطار .

(٢) فى القطعة الأزهرية إصلاح على هذا الوجه [فبطل شقه ولم يمت إذ كانت الحية قد أفرغت سمها فى كلابطرة قبله] .

قال صاحب حماة فى تاريخه : وكان أوّلُ ظهورِهم فى سنة ستٍّ وتسعين وثلثمائة لوفاة موسىٰ عليه السـلام . قال : وهم يُعْرَفُون ببنى الأَصْفَر ، والأصفر هو رُوَيْم ٱبن العِيص . قال فى "العبر" : وذلك أنه لمـا خرج يوسُفُ عليه السلام من مصر بأبيه يعقوبَ ليدْفِنَه بالشأم عند الخليل عليه السلام ، ٱعترضه بنو عِيصُو فحاربهم وهَزَمهم ، وأسر منهم صفوا بن إليفار بن عيصو ، وبَعَث به إلىٰ أفرِيقيَّةَ ، فأقام بها وٱتصــل بمَلِكها وٱشتهر بالشجاعة ، ثم هرب من أفرِيقيَّةَ إلىٰ أَسْبانِيَةَ ، فزوّجوه وملَّكوه عليهم ، فأقام فى المُلْك خمسا وخمسين سنة ، وبقِيَ المُلْك فى عَقِبه إلىٰ أن كان منهم ملك ٱسمه (رُومِيش) فبنىٰ مدينة رُومِيَةَ وسكنها فعُرِفت به . وبالجملة فإنهم كانوا مجاوِرينَ لهم : الرومُ فى المغرب ، واليُونان فى المَشْرِق ، فوقعت الحربُ بينهم ، وكانت الغَلَبة للروم علىٰ اليُونان مرةً بعــد أخرىٰ إلىٰ أن كانت غلبة أُغُشْطُش علىٰ قُلوبطرا علىٰ ما تقدّم ذكره .

ثم ملوكُ الرُّوم علىٰ طبقات :

الطبقة الأولىٰ

(مَنْ مَلَكَ منهم قبل القَيَاصِرة)

قال "هروشيوش" مؤرّخ الرُّوم[(١)] : وأوّل من ملك منهم (بيقش) بن شطونش ٱبن يوب ، فى آخر الألف الرابع من أوّل العالَم علىٰ زمن تِيهِ بنى إسرائيل .

ثم ملك بعده ٱبنه (بَرْيامِش) وٱتصــل الملكُ فى عقب بيقش المذكور وإخوته إلىٰ أن كان منهم كرمنش بن مرسية بن شبين بن مُرْكة ، بعد أربعة آلاف وخمسين

(١) فى العبر ج ٢ ص ١٤٦ "الفنش" .

لأوّل العالم فى زمن بار بن كلعاد من ملوك بنى إسرائيل، وهو الذى ألّف حروف اللسان اللَّطِينىّ ولم تكن قبله .

ثم كان منهم (أناش) من عَقِب بريامش بن بيقش[(١)] المتقدّم ذكره لأربعة آلافٍ ومائة وعشرين للعالم .

وفى أيامه خرّب الأغريقيُّون مدينة طروبة المتقدّم ذكرها فى قواعد مملكتهم .

ثم ملك بعده آبنه (أشكانيش) وهو الذى بنىٰ مدينة ألبا، ثم آتصل المُلكُ فيهم إلىٰ أن آفترق أمرهم؛ ثم كان من أعقابهم برقاش علىٰ عهد عُزْيَا بن أَمْصِيا من ملوك بنى إسرائيلَ . وآتصل المُلكُ لآبنه ثم لحافِدَيْه روملش وراملش لأربعة آلافٍ وخمسمائة سنة للعالَمِ . وهما اللذان آختطّا مدينة رُومِيَةَ، وكان الرُّوم بعد روملش وراملش وآنقراضِ عَقِبهم قد سَئِمُوا ولايةَ المُلوك عليهم، فصيّروا أمرهم شُورىٰ بين سبعين وزيراً . وقال آبن العميد : كانوا يقدّمون شيخا بعد شيخ، ولم يزل أمرهم علىٰ ذلك مدّة سبعِمائة سنةٍ، تقترع الوزراءُ فى كل سنة، فيخرج قائدٌ منهم إلىٰ كل ناحيــة علىٰ ماتُوجِبه القُرْعة؛ فيحاربون الأُمَمَ والطوائفَ، ويفتحون المَمالكَ حتّى ملكوا الأندَلُس وأثخنوا فى الجَلالِقَة، وملكوا سَمّورية[(٢)] مدينــة القُوط، وآستولَوْا علىٰ الشأم وأرضِ الحجاز، وآفتتحُوا بيت المَقدِس وأسروا مِلكَها؛ وكانت الحرب بينهم وبين الفُرْس سِجَالا إلىٰ أن كانت القياصرة كما سيأتى إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى العبرج ٢ ص ١٤٦ "الفنش" .

(٢) فى القاموس والمعجم سمورة أى بدون ياء فلعلها من الناسخ .

الطبقة الثانيــــــة

(القياصرة قبل ظُهور دِين النَّصْرانية فيهم)

قال ابن العميد : لم يزل تدبيرُ المشايخ الذين رتَّبُوهم نافذًا فيهم ، إلى أن كان آخِرَهم أغانيوش فَدَبَّرهم أربعَ سنين وتسمَّى قَيْصَرَ ، وهو أوّل من تسمَّى بذلك من ملوكهم ، ثم صار سِمةً لمن بعده . وسيأتى الكلام على معنى هذه اللفظة .

ثم مَلَك بعده (بوليوش قيصر) ثلاثَ سنينَ .

ثم مَلَك بعـده (أوغشطش قَيْصَر) بن مونوخس ، وهروشيوش يسمِّيه (أكتبيان قيصر) وهو الثانى من القياصرة ، وهو الذى سلب مُلْكَ كلابَطْرا آخِر ملوك اليونان المقدّم ذكرها . واستولى على مِصْرَ والإسكندرية وسائر ممالك اليُونانِ (١) الرُّوم . ويقال : إنه كان آخِرَ قُوّاد الشيخ مدَبِّرُ رُومةَ ، وإنه توجه بالعساكر لفتح الأَنْدَلُس ففتحها ثم عاد إلى رُومةَ فملكها وطرد الشيخَ عنها ، ووافقه الناسُ على ذلك ، ثم قتل نائبَهُ بناحية المَشْرِق واستولى عليها لِثِنْتَى عشرةَ سـنةً من مُلْكه [ولثنتين وأربعين سـنة من ملك أغشطش وُلِد المسيحُ بعـد مَوْلِد يحيى بثلاثة أشهر وذلك] (٢) لتمـام خمسة آلاف وخمسمائة سنةٍ شمسيَّة للعالَم .

ثم ملك من بعده ابنه (طباريش قيصر) فاستولى على النَّواحى ، وفى أيامه كان رفعُ المسيح عليه السـلام وافتراقُ الحوارِيِّين فى الآفاقِ لإقامة الدِّين وحمل الأُمَم على عبادة الله تعالى . ومات لثلاثٍ وعشرين سنةً من مُلْكه بعد أن جدّد مدينةَ طَبَرِيَّةَ واشتُقَّ اسمُها من اسمه .

---

(١) هنا انتهت القطعة الأزهرية وتوحد الأصل والله المستعان .

(٢) الزيادة من "العبرج ٢ ص ٢٠٠" ليتم الكلام وفيه فى بعض أسماء الملوك مغايرة لما فى الأصل .

ثم ملك من بعده (غابيش قيصر) وهو الرابع من القياصرة . وقال هروشيوش : وهو أخو طباريش، وسماه غابيش قليفة بن أكتبيان . قال آبن العميد : ووقعت في أيامه شدّةٌ على النصارى، وقتل يعقوبُ أخاه يُوحَنَّا من الحواريّين، وحبس بُطْرس رأسهم؛ ثم وثب عليه بعض قُوّاده فقتله .

وملك من بعده (قَلوديش قيصر) وهو الخامس من القياصرة . قال هروشيوش : هو آبن طباريش المتقدّم ذكره فيكون أخا[1] غابيش، وعلى عهده كَتَب مَتّى الحواريُّ إنجيلَهُ في بيت المَقْدس بالعِبْرانية، ونقله يُوحَنَّا بن زندى إلى الروميَّة، وكتب بطرس رأسُ الحواريّين إنجيلَه بالروميَّة وبعث به إلى بعض أكابر الرُّوم، وهلك قلوديش قيصر لأربعَ عشرةَ سنةً من ملكه .

وملك بعده آبنُه (نيرون قيصر) وهو السادس من القياصرة، وكان غَشُوما فاسقا، فأنكر على مَنْ أخذ بدين المَسيح وقتلهم؛ وقتل بُطْرس وبُولِس الحواريّين، وقتل مُرْقُص الإنجيليَّ : بطركَ الإسكندرية لثنتَيْ عشرةَ سنة من مُلْكه . وفي أيامه هدم اليهودُ كنيسةَ النصارى بالقُدْس، ودفنوا خشبَتَي الصَّليب بزعمهم في الزُّبالة . قال هروشيوش : وقتله جماعةٌ من قُوّاده لأربعَ عشرةَ سنة من مُلْكه؛ وآنقطع ملك آل يوليوش قيصر لمائة وستّ عشرةَ سنة من أوّل ملكهم . قال هروشيوش : وكان نيرون قيصر قد وجّه قائدا إلى جهة الأندلس فافتتحها وعاد إلى رُومةَ بعد مَهْلِك نيرون قيصر فملّكه الروم عليهم . وكان لنيرون قيصر صهرٌ على أخته يسمَّى (يشبشيان) وآبن العميد يسميه (إشبا شيانس) وكان نيرون قيصر قد وجهه لفتح بيت المَقْدس ففتحه وعاد فقتل ذلك القائدَ الذى آستولى على المملكة بعد نيرون

(٢) لعل الصواب فيكون آبن أخي غابيش .

قيصر، وملّك مكانه، وتسمّى قيصر كمن كان قبله وآستقام له الملك، هكذا ذكره هروشيوش .

والذى ذكره آبن العميد أنه لما هلك نيرون قيصر وإشباشيانس الذى سماه هروشيوش يشبشيان [محاصرٌ للقدس][(١)] ملّك الروم عليهم غلياش قيصر، فأقام تسعةَ أشهر وكان ردىءَ السيرة فقتله بعضُ خدَمه .

ثم ملّكوا عِوَضَه (أنون) ثلاثةَ أشهر، وملّكوا (بطالس) ثمانيةَ أشهر، وسار إليه اشباشيانس الذى يسميه هروشيوش يشبشيان فقتله ، وهلك اشباشيانس المذكور لتسع سنين من مُلْكه .

وملك بعده آبنه (طيطش قيصر) لأربعمائة سنة من مُلْك الإسْكندر، فأقام فيهم سنتين وقيل ثلاثا وقيل أربعا ، وكان حَسَن السيرة متفننا فى العلوم .

ثم ملك بعده أخوه (دومريان قيصر) وقيل آسمه دوسطيانوس ، وقيل دوماطيانوس، فأقام خمسَ عشرةَ سنة، وقيل ستَّ عشرةَ سنة، وقيل تسع سنين، وهو ابن أخت نيرون قيصر المتقدّم ذكره، وكان ظَلُوما غاشِمًا فحبَس يُوحَنَّا الحَوَارِىَّ ، وأمر بقتل النصارىٰ ونَفْيِهم ، وقتل اليهودَ من نسل داود حِذارَ أن يَمْلِكوا، وهلك فى حرب الفرَنج .

وملك بعده (نربا) آبن أخيه طيطش ، وقيل آسمه تاوداس ، وقيل قارون ، وقيل : برسطوس، فأقام نحوًا من سنتين أو سنةً ونصفا، فأحسن السِّيْرة وأمر بردّ مَنْ نُفِى من النصارىٰ وخَلَّاهم ودِينَهُم ، ولم يكن له ولد .

---

(١) الزيادة من الأبرج ٢ ص ٢٠٢ ليستقيم الكلام .

فعَهِد بالمُلك إلى (طريانش) من عظماء قُوّاده . وقيل : آسمه أنديانُوش، وقيل طرينوس ، فملك بعده وتسمّى قيصر ، فأقام تسعَ عشرةَ سنة ، ولقى النصارى فى أيامه شِدّةً وتتبع أئمتهم بالقتل وآستعبد عامّتهم . وفى زمنه كتب يُوحَنَّا إنجيله برُومةَ فى بعض الجزائر، وهلك طريانش المذكور لتسعَ عشرةَ سنةً من ولايته .

وملك بعده (أندريانوس) فأقام إحدى وعشرين سنةً (١) ، وقيل عشرين سنة وهو الذى بنى مدينة القُدْس وسماها إيليا ، وكان شديدًا على النصارى وقتَل منهم خلقا كثيرا ، وأخذ الناس بعبادة الأوثان ، وألزم أهل مصر حَفْر خليجٍ من النيل إلى القُلْزم فحفروه وأجْرَوْا فيه ماءَ النيل ثم آرتدم بعد ذلك .

ولما جاء الفَتْح الإسلامىُّ ألزمهم عمرُو بنُ العاص رضى الله عنه حَفْرَه فحفروه وجرى فيه الماءُ ثم آرتدم أيضا ، وبقِى على ذلك مردوما إلى زماننا . ومات أندريانوس لاحدى وعشرين سنةً من مُلْكه .

فملك بعده آبنه (آنطونيش) وتسمّى (قيصَر الرحيم) فأقام ثنتين وعشرين سنة، وقيل إحدى وعشرين سنة وهلك .

فملك بعده أخوه (أوراليانس) وقيل آسمه أورالش ، وقيل آسمه أنطونيش الأصغر، وأصاب الأرضَ فى زمنه قَحْط ووباءٌ عظيم، وأصاب النصارى فى أيامه شدّةٌ عظيمة، وقتل منهم خلقا كثيرا، وهلك لتسعَ عشرةَ سنة من مُلْكه .

وملك من بعده آبنه (كمودة) ويقال بالقاف بدل الكاف، فأقام ثلاثَ عشرة سنة ، وقيل ثنتَىْ عشرةَ سنة . وفى عاشرة مُلْكه ظهر « أردشير بن بابَكْ » أوّل

---

(١) فى الأصل إحدى عشرة والتصحيح من العبر ج ٢ ص ٢٠٤ .

ملوك الساسانية من الفُرْس . وفى زمنه كان «جالينوسُ» اليونانىُّ المشهورُ بالطِّب ، و «بقراطس» الحكيم ، ومات كمودة المذكور .

فملك بعده (و رمتيلوش قيصر) وقيل آسمه برطنوش ، وقيل آسمه فرطيخوس ، وقيل برطانوس ، وقيل ألبيش بن طنجيش فأقام ثلاثةَ أشهر ، وقيل شهرين ، وقيل سنة ، وقتله بعضُ قوّاده .

فملك بعده (يوليانوس قيصر) فأقام شهرين ومات .

فملك بعــده (سوريانوس قيصر) وقيــل آسمه سورس ، وقيل طباريش ، فأقام تسعَ عشرةَ سنة ، وقيل ثمــانَ عشرةَ ، وقيل ستَّ عشرةَ ، وقيل ثلاثَ عشرةَ ، وقيل ست سنين ، وآشتدّ على النصارى وفتك فيهم وسار إلى مصر والإسكندرية فقتلهم ، وهدم كنائسَهم وشرَّدهم فى البلاد ، وهلك .

فملك من بعده (أنطونيش قيصر) وقيل أنطونيش قسطس لخمسٍ وعشرين سنة وخمسِمائة لغَلَبــة الإسكندر ، فأقام ستَّ سنين ، وقيل ســبْعَ سنين ، وضَعُفَ عن مقاومة الفُرْس فغَلَبُوا على أكثر مُدُن الشام ونواحى أرمينِيَةَ ، وهلك فى حروبهم .

فملك بعده (مقرين قيصر) بن مُرْكة ، وقيل آسمه مَقْرونيوس ، وقيل مَرْقِيانُوس ، فأقام سنة وقتله قوّادُ رُومَةَ .

ثم ملك من بعده (أنطونيش) قيل ثلاثَ سنين ، وقيل أربعَ سنين ، وفى أوّل ســنة من ملكه بُنِيتْ مدينــةُ عِمْواس(١) بأرض فِلَسْطِين من الشأم وملَك سابورُ آبنُ أرْدَشِير مُدُنا كثيرة من الشام ، ومات .

---

(١) وقع فى العبر ج ٢ ص ٢٠٦ عمان والصواب مافى الاصل لان عمواس هى التى من أرض فلسطين أنظر معجم ياقوت .

فملك من بعده (اسكندروس) فأقام ثلاثَ عشرةَ سنةً، وقيل عشرين سنة، وكانت أمُّه نَصْرانيَّةً، فكانت النصارىٰ معه فى سَعَة من أمرهم. قال هروشيوش: ولعشرٍ من مُلْكه غزا فارسَ وقتل سابورَ بنَ أَرْدشير ملِكَ الفُرْس، وثار عليه أهل رُومةَ فقتلوه.

وملك بعده (مخشميان) بن لوجيه، وقيل آسمه نقيموس، فأقام ثلاثَ سنين ولقِيَ النصارىٰ منه شِدّةً عظيمة. قال آبن العميد: وفى ثالثةِ مُلْكه مات سابورُ آبن أرْدَشير، وهو خلافُ ما تقدّم من كلام هروشيوش أنه قتله [اسكندروس] فى العاشرة من ملكه، وهلك.

فملك بعده (يونيوش) وقيل آسمه لوكيوش قيصر، وقيل بلينايوس، فأقام ثلاثةَ أشهر وقُتِل.

ثم ملك بعده (غرديانوس قيصر) وقيل آسمه فوديوس، وقيل فرطانوس وقيل غرديان بن بلذسيان، فأقام ستَّ سنين، وقيل سبع سنين، وطالتْ حروبه مع الفُرْس، وقتله أصحابه علىٰ نهر الفُرَات.

وملك بعده (فلفش قيصر) بن أوليان بن أنطونيش، فأقام سبعَ سنين، وقيل ستَّ سنين، وقيل تسع سنين، ودانَ بدِين النصرانية. وهو أوّلُ من تنَصَّر من ملوك الروم، وقتله قائد من قوّاده.

وملك ذلك القائدُ الذى قتله مكانَهُ، وكان من أولاد الملوك. وآسمه داجية ابن مخشميان فأقام خمس سنين، وقيل سنتين، وقيل سنة، وكان يعبد الأصنامَ ولقِيَ النصارىٰ منه شِدّةً، قيل وفى أيامه كانت قصَّةُ أهل الكَهْف مع مَلِكهم، وهلك.

فملك من بعده (غالش قيصر) فأقام سنتين، وقيل ثلاثَ سنين، واستتبع فى قتل النصارىٰ . وكان فى أيامه وباءٌ عظيم أقفرَتْ منه المُدُنُ، ومات .

فملك بعده (والاريانس) لسبعين وخمسمائة لغَلَبة الإسكندر، وقيل آسمه غاليوش، وقيل أقيوس وغاليوش آبنه، وقيل أورليوس، وقيل غليوش، وقيل أدرياليانوس، فأقام إحدىٰ عشرةَ سنةً، وقيل خمسَ عشرةَ سنة، وقيل أربعَ عشرةَ سـنة، وقيل خمسَ سنين؛ وكان يعبد الأصنامَ فلقِىَ النصارىٰ منه شِـدّةً عظيمةً، ووقع فى أيامه وباءٌ عظـيم فرَفَع الطلبَ عن النصارىٰ بسببه . وفى أيامه خرج القُوطُ من بلادهم وتغلَّبوا علىٰ بلاد مَقَدُونِيَة وبلاد النَّبَط وآقتلعوها منه؛ وقتله بعضُ قوّاد رُومةَ .

وملك بعــده (افلوديوش قيصر) لثمـانين وخمسمائة للإسكندر، فأقام سـنةً واحدة، وقيل سنةً وتسعةَ أشهر، وقيل هو فلوديش بن بلاريان ولم يكن من بيت الملك وأقام سنتين، وقيل ملك [بعده أخوه](١) قنطل فأقام سـبعةَ عشرَ يوما؛ ودفع القُوطَ عن مَقَدُونية وأرمِينِيَة، وقتله بعضُ قوّاده .

ثم ملك (أوريليانس) وقيل آسمه أوراليوس، وقيل أورينوس، وقيل أروليوس، وقيل أوراليان بن بلنسيان، فأقام ستَّ سنين، وقيل خمس سنين؛ وآشـتدّ علىٰ النصارىٰ وجدّد بناءَ رُومةَ؛ وفى سادسة ملكه وُلد قُسْطنطين، ثم قتل .

وملك بعــده (طافيش بن اليش) وقيل آسمه طافسيوس، وقيل طافساس، فأقام نحوَ سنة، وقيل تسعةَ أشهر، وقيل ستةَ أشهر .

---

(١) الزيادة عن العبرج ٢ ص ٢٠٨ .

ثم ملك بعـده (فروفش قيصر) وقيل آسمه فرويس ، وقيل برويش ، وقيل ولا كيوش ، وقيل ارفيون ، فأقام خمسَ سنين ، وقيل ستَّ سنين ، وقيل سبع سنين ، وقتله قُوّاد رُومةَ .

ثم ملك بعـده (قاريوش قيصر) وقيل آسمه قوروش ، وقيل قاروش لخمسمائة وثنتين وتسـعين للإسكندر فى زمن سابُورَ ذى الأكتاف : أحدِ ملوك الساسانيَّة من الفُرْس ، فأقام سنتين ، وقيل ثلاثَ سنين ، وتغلَّب علىٰ كثير من بلاد الفُرْس ، وآشتدّ علىٰ النصارىٰ وقتل منهم خلقا كثيرا وهلك فى الحرب .

فملك بعده آبنه (منار يان) وقُتِل لوقته .

ثم ملك من بعده (ديقلاديانوس) لخمسمائة وخمس وتسـعين سنة للإسكندر ، وقيل آسمه دقلطيانوس ، وقيل غرنيطا ، فأقام إحدىٰ وعشرين سنةً ، وقيل عشرين سنة ، وقيل ثمانَ عشرةَ ، ولقِىَ النصارىٰ منه شدّةً وأمر بغَلْق الكنائس ، وقتل جملةً من أعيان النصارىٰ ، وهلك .

فملك بعده آبنه (مقسيانوس قيصر) فأقام سبع سنين ، وقيل سنةً واحدة .

وكان شريكه فى الملك (مفطوس) وهو أشدّ كفرًا منه ، ولقِىَ النصارىٰ منهما شدّة عظيمةً وقتل منهم خلقا كثيرا ، ووقع فى كلام هروشيوش مايخالف هذا الترتيب ، ولا حاجة بنا إلىٰ ذكره .

الطبقة الثـالثــــــة

(القَيـاصرة المتنصرة إلىٰ الفتح الإسلاميّ)

وكانوا يَدينون أوّلًا بِدين الصـابئة ، ثم دانُوا بدين المَجُوسـيَّة ، ثم بعـد ظهور الحَوَاريِّين وتسلُّطهم عليهم مرةً بعد أخرىٰ أخذوا بدين النَّصْرانية . وكان أوّل من أخذ منهم به قُسْطَنْطِين بن قسطنش بن وليتنوش ؛ وكان قد خرج علىٰ مقسيمانوس قيصر: آخرِ القياصرة من الطبقة الثانية، فهزمه ورجع مقسيمانوس إلىٰ رُومةَ، فازدحم عســكره علىٰ الجِسْر فغَرِق فيمن غَرِق؛ ودخل قُسْطَنْطِين رُومةَ وملكهـا فبسط العدلَ، ورفع الجَوْر، وتنصر لثنتَيْ عشرةَ سنة من مُلْكه ؛ وهدم بيوتَ الأصـنام، وتوجهتْ أمُّه (هلانَة)(1) إلىٰ القُدْس وآستخرجتْ خشبةَ الصَّلَبُوت بزعمهم من تحت القُمَامات، وبنَتْ مكانها كنيسةَ قُمامةَ، وذلك لثلثمائة وثمانٍ وعشرين سنةً من مَوْلِد المسيح عليه السلام . وفى السنة التاسعةَ عشرةَ من مُلْكه كان مجمعُ الأَساقِفة بِنيقِيةَ. ولمـا تنصر قُسْطنطِينُ وخرج عن دين المجوسيَّة ، خاف من قومه فارتحل من رُومةَ إلىٰ مدينة بُوزَنْطِيةَ فجدّدها وزاد فيها وسمـاها القُسْطَنْطينيَّة باسمه، وأقام فى المُلْك خمسين سنة : منها ببوزنطيَةَ ستٌّ وعشرون سنة قبل غَلَبة مقسيمانوس، وأربع وعشرون بعد آستيلائه علىٰ الرُّوم، وهلك لستمائة وخمسين للإسكندر .

وملك بعده آبنه (قُسْطنطين الأصغر) بن قسطنطين، بن قسطنطين،(2) بن قسطنش فأقام أربعاً وعشرين سنةً ومات .

---

(1) الذى فى تاريخ أبى الفداء أن آسمها "هيلانى" .

(2) لعل هذا اللفظ زائد من قلم الناسخ .

فملك بعده ٱبنُ عمه (يوليانش) فأقام سنةً واحدة، وقيل سنتين، فكان على غير دين النصرانية : فقتل النصارى وعزلهم عن الكنائس وٱطّرحهم من الدّيوان، وسار لقتال الفُرْس فمات من سَهْمٍ أصابه، وقيل ضَلَّ فى مفازة فقتله أعداؤه .

وملك بعده (يليان) بن قسطنطين سنةً واحدة وهلك .

فملك بعده (بوشانوش) فأقام سنةً واحدة، وقيل إنما هو بلنسيان بن قُسْطَنْطين، وقيل واليطينوش، وانه ملك ثنتَىْ عشرةَ سنة أو خمسَ عشرةَ سنة ثم هلك بالفالج .

وملك بعده أخوه (واليش) وقيل ٱسمه وَالآش فأقام أربعَ سنين، وقيل ثلاثَ سنين ، وقيل ستين ، وقيل إنه كان شريكَ واليطينوش المتقدم ذكره فى المُلْك ؛ ثم خرج على واليش خارجٌ من العرب وقُتِل فى حربه .

وملك بعده (اغراديانوس قيصر) وهو أخو واليش ، ويقال إن ولنطيانش ويقال والنطوش بن واليش كان شريكًا له فى الملك فأقام سنة واحدة ، وقيل سنتين ، وقيل ثلاثَ سنين، ومات اغراديانوس وٱبن أخيه فى سنة واحدة .

وملك بعدهما (تاوداسيوس) ويقال إنه طودوشيوش لستمائة وتسعين من مُلْك الإسكندر، فأقام سبعَ عشرةَ سنة، وفى الخامسةَ عشرةَ من مُلْكه ظهر أهلُ الكَهْف وأفاقوا من نَوْمهم ، فأرسل فى طَلَبهم فوجدهم قد ماتُوا فأمر أن تبنى عليهم كنيسةٌ وَيُتَّخذ يومُ ظهورهم عيدًا . وفى أيامه كان المَجْمَع بقُسْطَنطينيَّة لِمائتين وخمسين سنة من [مجْمَعَ] نِيقِيَة .

ثم ملك (اركاديش) بن تاوداسيوس، فأقام ثلاثَ عشرةَ سنة، وَوُلِد له ولد سماه طودوشيوش، فلما كَبِر هَرَب إلى مصر وترهَّب ، وأقام فى مَغَارة فى الجبل المُقَطَّم ومات، فبنى الملكُ على قبره كنيسةً وديرا يسمّى دير القُصَيْر، وهو دير البَغْل، وهلك .

فملك بعده ٱبنــه (طودوشيش قيصر) الأصغر، فأقام ثِنْتين وأربعين سنةً . وفى أيامه كان المجمَعُ الثالثُ للنصارىٰ بمدينة أُفْسُس، وولّى أخاه أنوريش علىٰ رومة وٱقتسما الملكَ بينهما ؛ وقيـل إن أركاديش بن طودوشيوش(١) ولّى أخاه أنوريش علىٰ رُومةَ وٱقتسما الملك وإنه لما هلك أركاديش ٱستبـدّ أخوه أنوريش قيصر بالملك خمسَ عشرةَ سنة؛ وإنه لما هلك ملك من بعده طودوشيش المقدّم ذكره .

ثم ملك (مرقيان قيصر) ويقال بالكاف بدل القاف ، فأقام ستَّ سنين . وفى أيامه كان المَجْمَع الرابعُ بخَلْقَدُونِيَةَ وٱنقسم النصارىٰ إلىٰ يَعْقُوبِيَّـة ومَلَكية ، ونَسْطُورِيَّة . وفى أيامه سكن شَمْعُون الحبيس الصَّومعةَ بأنْطاكِيَةَ وترهَّب فيها وهو أوّل من فعل ذلك من النصارىٰ؛ ثم مات مرقيان .

وملك بعده (لاون قيصر) ويُعْرَف بلاون الكبير لسبعِمائةٍ وسبعين سنةً من مُلْك الإسكندر، وقيل ٱسمه ليون بن شميخلية، وكان مَلَكِيًّا فأقام ستَّ عشرةَ سنة ومات .

وملك بعـده (لاون قيصر) ويعرف بلاون الصغير، وكان يعقوبِيًّا فأقام سـنةً واحدةً وهلك .

فملك بعده (زينون قيصر) وقيل ٱسمه سينون بالسين المهملة بدل الزاى، وكان يعقوبِيًّا فأقام سبعَ عشرةَ سنةً وهلك .

فملك بعـده (نسطاش قيصر) لثمانِمـائة وثلاث سنين للإسكندر ، فأقام سبعا وعشرين سـنةً ، وكان يعقوبِيًّا ، وسكن حماةَ من الشأم ، وأمر أن تُشادَ وتُحَصَّن فبُنِيت فى سنتين؛ وأمر بقتل كلّ ٱمرأةٍ قارئةٍ كاتبةٍ؛ وهلك .

(١) تقدم أن ٱسمه ''تاوداسيوس'' .

فملك بعده (يشطيانش قيصر) لثمانمائة وثلاثين للإسكندر ، وكان مَلَكيًّا فأقام تسعَ سنين ، وقيل سَبْعَ سنين ، ويقال إنه كان معه شريكٌ فى مُلْكه يقال له يشطيان ، وهلك .

فملك بعده (يشطينانش قيصر) لثمانمائة وأربعين للإسكندر ، وكان مَلَكيًّا وهو ابن عم يشطيانش الملك قبله ، وقيل كان شريكه فأقام أربعين سنةً ، وقيل ثلاثا وثلاثين سنة ، وأمر بأن يُتَّخذَ عيدُ الميلاد فى الرابع والعشرين من كانُون ، والغِطَاس فى ستٍّ منه ، وكانا قبل ذلك جميعًا فى سادسه ، وكانت كنيسةُ بيتِ لَحْم بالقُدْس صغيرةً فزاد فيها ووسَّعها حتّى صارتْ علىٰ ما هى عليه الآنَ . وفى أيامه كان المَجْمع الخامسُ للنصارىٰ بالقُسْطَنْطِينِيَّة ، وهلك .

فملك بعده (يوشطونش قيصر) لثمانمائة وثمانين سنةً للإسكندر فى زمن كِسْرىٰ أُنوشِرْوانَ فأقام ثلاثَ عشرةَ سنةً ، وقيل إحدىٰ عشرةَ سنةً ، وهلك .

فملك بعده (طباريش قيصر) لثمانمائةٍ وثنتين وتسعين للإسكندر ، فأقام ثلاث سنين ، وقيل أربعَ سنين ، وهلك .

فملك بعده (موريكش قيصر) لثمانمائة وخمسٍ وتسعين للإسكندر ، فأقام عشرين سنة ، وكان حَسَن السِّيرة ، ووثَب عليه بعضُ مماليكه فقتله .

وملك بعده (قوقاص قيصر) قريب موريكش الملك قبله ، وكان هو الذى بعث مملوكَهُ علىٰ قتله . وفى أيامه ثار كِسْرىٰ أبرويز علىٰ بلاد الرُّوم ، وملك الشأمَ ومصرَ ، فأقاما فى مملكة الفُرْس عشرَ سنين ، وحاصر القُسْطَنْطِينِيَّة طلبًا لثأر موريكش لمصاهرةٍ كانت بينهما ، فثار الرُّوم علىٰ قوقاص فقتلته بسبب ماجابه إليهم من الفتنة .

وملك بعــده (هِرَقْلُ) بن أنطونيش، وقيــل هِرَقْل بن هِرَقْل بن أنطونيش لستمائة وإحدىٰ عشرةَ من تاريخ المَسِيح، ولألفٍ ومائةٍ من بنــاء رُومةَ، ولتسعمائة وثنتين وعشرين ســنةً للإسكندر، ولأول سنةٍ من الهجرة، وقيل لإحدىٰ عشرة ســنة منها، وقيل لتسع سنين. فارتحل أبرويز عن القُسْطَنْطِينِيَّة راجعا إلىٰ بلاده؛ وأقام هِرَقْلُ فى المُلْك إحدىٰ وثلاثين سنةً ونصفا، وقيل ثنتين وثلاثين سنة، وثار علىٰ بلاد الفُرْس فخرَّبهــا فى غَيْبــة كِسْرىٰ، وضَعُفتْ مملكةُ الفُرس بسبب ذلك، وآستولىٰ هِرَقْلُ علىٰ ما كان كِسرىٰ آســتولىٰ عليه من بلاده: وهو مصر والشأم، وأعاد بناء ما كان خَرَّب من الكنائس فيهما، وكتب إليه النبيُّ صلّى الله عليه وســلم يدعوه للإسلام.

قال المسعودىّ، وقيل إن مَوْلِد النبىّ صلّى الله عليه وسلم كان فى أيام يوشطيانش، وإن ملكه كان عشرين سنة. ثم ملك (هِرَقْل بن نوسطيونس) خمسَ عشرةَ سنة، وإليه تُنْسَب الدراهم الهِرَقْلِيَّة. ثم ملك بعده (مورق بن هرقل). قال: والمشهور بين الناس أن الهجرةَ وأيامَ الشيخين كان مُلْكُ الروم لهِرَقْل. قال: وفى كتب السير أن الهجرةَ كانت علىٰ عهد قَيْصَر بن مورق، ثم كان بعده قَيْصَر بن قيصر [أيام أبى بكر ثم هِرَقْل بن قَيْصَر] (١) أيام عمر، وعليه كان الفتح وهو المُخْرَج من الشأم.

---

(١) الزيادة من (العبرج ٢ ص ٢٢٢).

الطبقة الرابعـــــة

(ملوكُ الروم بعد الفتح الإسلاميّ إلىٰ زماننا)

قد تقدّم أن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم بُعِثَ وهاجر وهِرَقْلُ ملكُ الروم؛ وكتب إليه يدعوه إلىٰ الإسلام . وبقِيَ هِرَقْلُ إلىٰ أن آفتتح المسلمون الشأْمَ فى خلافة عمر آبنِ الخطَّاب رضى الله عنه . فلمـا غلب المسلمون علىٰ أكثرِ بلاد الشأم ، خرج إلىٰ الرُّهَا ، ثم عَلَا علىٰ نَشَزٍ من الأرض وآلتفت إلىٰ الشأم وقال : " السـلامُ عليكِ ياسُورِيا سلامٌ لا آجتماعَ بعده ، ولا يَعُودُ إليكِ رُومِىٌّ بعدها إلا خائفًا " وسار حتّىٰ بلغ القُسْطنْطِينِيَّةَ فأقام بهـا ؛ وآستولىٰ المسلمون علىٰ الشأم ومصر والإسكندرية وأفريقيَّةَ والأندَلُس ؛ وآستولوا علىٰ جزائر البحر الرُّومى : مثل صِقِلِّيَة ، ودانِيَـةَ ، ومَيُورْقَـة وغيرها ممـا كان بيدِ الرُّوم . وأقام فى المُلْك إحدىٰ وثلاثين سنةً ، وهلك لإحدىٰ وعشرين سنةً من الهجرة .

وملك بعده علىٰ الرُّوم بقُسطَنْطينيَّةَ آبنُه (قُسْطَنْطِين) بنُ هِرَقْل فأقام ستة أشهر وقتله بعضُ نساء أبيه .

وملك بعده أخوه (هِرَقْلُ) بنُ هِرَقْلَ ، فتشاءم به الرومُ فخلعوه وقتلوه . وملَّكوا عليهم (قسطينو بن قسطنطين) فأقام ستَّ عشرة سـنة . وفى أيامه غزا مُعاوِيَةُ آبنُ أبى سـفيان بلادَ الرُّوم وهو أمير علىٰ الشأم من قِبَل عمر بنِ الخطاب فى سـنة أربع وعشرين من الهجرة فدوّخ البـلاد وفتح منها مُدُنا كثيرة ؛ ثم أغزىٰ عساكرَ المسلمين إلىٰ قُبْرُصَ فى البحر فى سنةِ سبع وعشرين ، ففتح منها حُصُونا ، وضرب الجِزْيةَ علىٰ أهلها . ومات قسطينو سنةَ سبع وثلاثين من الهجرة .

فملك بعده آبنه (يوطيانُس) فأقام آثنتىْ عشرةَ سنة ، ومات سنة ثمانٍ وأربعين من الهجرة .

وملك بعده آبنُه (لاون)(١) فأقام ثلاث سنين ، ومات سنة خمسين من الهجرة .

فملك بعده (طيباريوس قيصر) فمكث سبْعَ سنين . وفى أيامه غزا يزيدُ بنُ معاويةَ القسطنطينية فى عساكر المسلمين وحاصرها مُدّةً ، ثم أفرج عنها واستُشْهِد أبو أيُّوبَ الأنصارىُّ فى حِصَارها ودُفِن فى ساحتها، وقُتِل طيباريوس المذكور سنة ثمانٍ وخمسين من الهجرة .

وملك بعده (أغشطش قيصر) فذبحه بعضُ عبيده .

وملك بعده آبنه (إصطفانيوس) فى أيام عبد الملك بنِ مَرْوان ثم خُلِع .

وملك بعده (لاون) ومات سنة ثمانٍ وسبعين من الهجرة .

وملك بعده (طيباريوس) سبعَ سنين، ومات سنة ستٍّ وثمانين من الهجرة .

وملك بعده (سطيانوس) فى أيام الوليدِ بنِ عبد الملك بانِى الجامع الأُمَوىّ بدِمَشْق .

ثم ملك بعده (تداوس) فى سنة إحدىٰ ومائة من الهجرة، فأقام سنةً ونصفا .

ثم ملك بعده (لاون) فأقام أربعا وعشرين سنة .

وملك بعده آبنه (قسطنطين) . وفى أيامه غزا هشامُ بنُ عبد الملك الصائفةَ اليُسْرىٰ من بلاد الروم ، وأخوه سليمان الصائفة اليُمْنىٰ فى سنة ثلاثَ عشرةَ ومائة، فلقيهم قسطنطين المذكور فى جُموع الرُّوم فانهزم وأُخِذ أسيرا ثم أُطْلِق .

---

(١) كذا فى العبر أيضا الا أنه جعله تاريخا لوفاة يوطيانس وأسقط لاون من البين .

ثم ملك بعده رجل اسمه (جرجس) من غير بيت المُلْك فبقى ايامَ السَّفَّاح، والمنصور وأمُرُه مضطرب ثم مات .

وملك بعده (قسطنطين) بن لاون، وبنى المُدُن وأسكنها أهل أرمينِيَة وغيْرَهم، ثم مات .

وملك بعده ابنه (لاون) وهلك .

فملك بعده (نقفور) وهلك فى خلافة الأمين بنِ الرَّشيد .

وملك بعده ابنُه (استيراق قيصر) وأقام إلىٰ خلافة المأمون . وفى أيام المأمون غلب قسطنطين [بن قلفط][(١)] علىٰ مملكة الروم، وطرد ابن نقفور، هكذا رتبه ابن العميد . وفى كلام المسعودىّ ما يخالفه .

قال المسعودىّ : ثم ملك بعد قسطنطين (نوفيل) أيَّامَ المعتصم .

ثم ملك من بعده (ميخائيل) بن نوفيل أيَّامَ الواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين .

ثم تنازع الرومُ وملَّكُوا عليهم (نوفيل بن ميخائيل) أيام المعتز، والمهتدى، وبعض أيام المعتَمِد .

ثم ملك من بعده ابنُه (أليون) بن نوفيل [بقية] أيام المعتَمِد وصَدْرا من أيام المعتَضِد .

ثم ملك من بعده (الإسكندروس) بن أليون، فنَقَموا سيرتَه، فخلَعُوه .

وملَّكوا عليهم أخاه [لاوى][(١)] بن اليون، فأقام [بقية] أيام المعتضد والمكتفى، وصدرا من أيام المقتَدِر ثم هلك .

---

(١) الزيادة عن "العبرج ٢ ص ٢٢٩ نقلا عن المسعودى" لتتم الفائدة .

وملك ٱبنُه (قسطنطين) صـــغيرا ؛ وقام بتدبير دولته أرمنوس بِطْرِيق البحر، وزوّجه ٱبنته وتَسَمّى بالدمستق، والدمستق هو الذى يلى شرقَ الخليج القسطنطينى" وٱتصل ذلك أيامَ المقتدِر، والقاهر، والراضى، والمتقى . ثم ٱفترق أمرُ الروم .

ثم ظاهرُ كلام ٱبن الأثير أنـــ أرمنوس المتقـــدّم ذكره صار إليـــه المُلْك بعد قسطنطين . قال : وكان الدمســـتق على عهده قوقاس فملك مَلَطْيَةَ من يد المسلمين بالأمان فى ســـنة ثِنْتين وعشرين وثلثمائة ، وولّى تقفورَ دمســـتقا ؛ وهلك أرمنوس وترك ولدين صغيرين وكان تقفور الدمستق غائبا ببلاد المسلمين فلمـا رجع ٱجتمع إليـــه زعماءُ الروم وقدّموه لتدبير أمر الصغيرين وألبسوه التـاجَ ، ثم دَسَّت عليـــه أم زوجة أرمنوس أم الصغيرين (١)، فقتلته فى سنة ستين وثلثمائة .

وقام ٱبنها الأكبر وهو (بســـيل بن أرمنوس) بتدبير مُلْكه فطالت مدّته ، وأقام فى الملك نَيِّفا وسبعين سنة ، وهلك بسيل سنة عشر وأربعمائة .

وملَك بعده أخوه (قسطنطين) فأقام تسعَ سنين ؛ ثم هلك عن ثلاث بنات .

فملّك الرومُ عليهم الكُبْرىٰ منهن ، وقام بأمرها ٱبنُ خالها (أرمانوس) وتزوّجت به فاستولىٰ علىٰ مملكة الرُّوم ؛ ثم مالت زوجته إلىٰ المتحكِّم فى دولتـــه ، وٱسمه ميخائيل فدسّتْه عليه فقتله وٱستولىٰ علىٰ الأمر ، ثم أصابه الصَّرْع ودام به .

فعُهِد لٱبن أخت له ٱسمه (ميخائيل) فأحسن السِّيرة وطلب من زوجة خاله أن تَخْلَع نفسها عن المُلْك فأبتْ فنفـاها إلىٰ بعض الجُزُر ، وٱستولىٰ علىٰ المملكة ســـنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ؛ وأنكر عليه البطرك خَلْع المرأة فهمَّ بقتله ، فنادىٰ البَطْرَكُ

(١) لعل لفظ أم زائد ، أنظر العبر .

فى النصارى بخَلْعه فخلعوه، واستدعى الملكة التى خلعها وأعادها إلى المُلْك، ونفَتْ ميخائيل كما نفاها؛ ثم اتفق البطرك والروم على خَلْعها فخُلِعَتْ .

وملَّكوا عليهم أختها (ندورة) وسَمَلُوا ميخائيل فوقع الخُلْف بسبب ذلك، فأقرعوا بين المترشِّحين للمُلْك منهم فخرجتْ على رجل منهم اسمه (قسطنطين) فملَّكوه عليهم وزوّجوه بندورة الملكة فى سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، ثم تُوفِّى قسطنطين المذكور سنةَ ستٍّ وأربعين وأربعمائة .

ومُلِّك على الروم (أرمانوس) وذلك لأوّل دولة السَّلْجُوقِيَّة، وخرج لبلاد الإسلام [فزحف إليه ألب أرسلان من أَذْرَبِيجانَ فهزمه وحَصَل فى أسره، ثم فاداه على مال يُعْطِيه وأجروه عليه وعقد معه صلحا](١) .

فوثب (ميخائيل) بعده على مملكة الروم . فلما انطلق من الأَسْر وعاد إلى قُسْطِنطِينيَّة، دفعه ميخائيلُ عن المُلْك، والتزم لِألْب أرسلان ما انعقد عليه الصلح . وترهَّب أرمانوس وترك المُلْك . إلى هنا انتهى كلام ابن الأثير .

ثم توالتْ عليها ملوكُ الروم واحدًا بعد واحد إلى آخر المائة السادسة . وكان مَلِكُ القُسْطِنطِينيَّة يومئذ قد تزوّج أختَ الفَرَنْسيس ملك الفَرَنجة، فوُلِد له منها ابنُ ذكر .

ثم وثب بالمَلِك أخوه فسَمَله وملَك مكانَهُ؛ ولحق الابن بخاله الفَرَنْسيس، فوجده قد جَهَّز الأساطيلَ لارتجاع بيت المَقْدس وفيها ثلاثة من ملوك الفَرَنْجة وهم كيدقليس : أحد ملوكهم، وهو أكبرهم؛ ودوقس البنادقة، والمركيس مقدّم الفَرَنْسيس . فأمرهم الفَرَنْسيس بالجواز على القسطنطينية لِيُصْلِحوا بين ابن أخته

(١) الزيادة عن العبرج ٢ ص ١٣١ ليتضح المقام .

وبين عمه ملك الروم . فلمـا وصـلُوا إلىٰ مَرْسَى القسطنطينيَّة خرج إليهـم عمُّه وحاربهم فهزموه ودخلوا البَـلَدَ ، وأجلسوا الصبـيّ علىٰ سرير المُلْك ؛ وساء أمرُهم فى البلد ، وصادرُوا أهل النِّعم ، وأخذوا أموال الكنائس ، وثقُلَتْ وطْأتهم علىٰ الرُّوم ؛ فعقَلُوا الصبيّ وأخرجُوهم من البـلد ، وأعادوا عَمَّ الصبيّ إلىٰ المُلْك . ثم هجم الفَرَنْج البلد واستباحُوها ثمـانيةَ أيام حتّىٰ أقفرتْ ، وقتـلوا مَنْ بها من القِسِّيسِينَ والرُّهبانِ والأساقفة ، وخَلَعُوا الصبِيَّ ، واقترع ملوك الفرنج الثلاثةُ علىٰ المُلْك ، فخرجت القرعة علىٰ كيدقليس كبيرهم فملَّكوه علىٰ القسطنطينية وما يجاورها . وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائرَ البحريَّة : مثل أقريطش ورودس وغيرهمـا ، وللمركين البلاد التى فى شرقىّ الخليج : مثـل أرسوا ولارتو فى جوار سليمان بن قليج أرسلان ، فلم يحصل لأحد منهم شيءٌ من ذلك إلا لمن أخذ شرقِيَّ الخليج . ثم تغلَّب علىٰ القسطنطينية بِطْريق من بَطَارقة الرُّوم شهرته لشكرىّ واسمه (ميخائيل) فدفع عنها الفَرَنْج وملَكَها وقتل الذى كان مَلِكا قبله ، وعقد معه الصُّلْح الملكُ المنصور « قلاوون الصالحىّ » صاحب مصر والشام ، وتُوفِّيَ سنة إحدىٰ وثمـانين وستِّمائة .

وملك بعده آبنه (ياندر) وتلقَّب الدوقس ، وشهرتهم جميعا اللشكرى ، وبقى بنوه فى مُلْكها إلىٰ الآنَ . ولم أقف علىٰ تفاصيل أخبارهم غير أنه لم يبقَ بيدهم سوىٰ قسطنطينيَّة وبعضِ أعمالها المجاورةِ لهـا . وقد آستولىٰ الفرنجُ علىٰ جهاتها الغربية ، وآستولىٰ المسلمون علىٰ ماهو شرقِيّ الخليج القسطنطيني وعلىٰ أعمالٍ كثيرة من غربِيِّه إلىٰ مايقارب خليجَ البنادقةِ علىٰ ما تقدّم بيانه فى الكلام علىٰ القسم الأوّل من هـذا المَقْصد ، مع تسلُّط صاحب السَّراى مَلِك تتر الشمال من بنى جنكزخان عليه بالبُعُوث والسَّرايَا قبل ذلك ، حتّىٰ إن « القان أزبك » صاحب هـذه المملكة قَرَّر عليه إتاوةً تُحمَلُ إليه فى كل سـنة ليُكَفَّ عنه ، كما أشار إليـه فى "التعريف" فى الكلام علىٰ

مكاتبة صاحب القُسْطنطينِيَّة . قال آبن سعيد : ومنتهىٰ حكم اللشكرىّ صاحب القسطنطينية الآن إلىٰ إيثنية . قال فى "تقويم البُلْدان" : بالهمزة والياء المثناة التحتية والثاء المثلثة ونون ثم ياء مثناة تحتية ثانية وهاء فى الآخر . قال آبن سعيد : وهى غربىّ الخليج القسطنطينى بشَمَال . قال آبن حوقل : وهى مدينةٌ بها مجمَعُ النصارىٰ بقُرْب البحر، وهى دار حِكْمة اليونان فى القديم ، وبها تُحفَظُ علومهم، وحِكَمُهم .

ولصاحب القسطنطينية المستقرّ بها مكاتبةٌ تخصُّه من الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، علىٰ ما يأتى بيانه فى الكلام علىٰ مكاتبات ملوك الكُفْر فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

المملكة الثانية

(مملكة الألمان)

قال المؤيد صاحبُ حماةَ فى تاريخه : وهم من أكبر أُمَم النصارىٰ ، يسكُنُون فى غربىّ القُسْطنطينِيَّة إلىٰ الشَّمال ، ومِلكُهم كثيرُ الجنود . قال : وهو الذى سار إلىٰ الشأم فى زمن السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» فى سنة ستٍّ وثمانين وخمسمائة ، فهلك قبل وصوله إلىٰ الشام . وكان قد خرج بمائة ألفِ مقاتل فسلّط الله عليهم الغَلَاء والوباء فمات أكثَرُهم فى الطريق ، ولما وصل إلىٰ بلاد الأرمن نزل يغتسل فى نهر هناك فغرِق فيه ، وبقِيَ من عسكره قدرُ ألف مقاتل لا غير فعادُوا إلىٰ بلادهم . ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لم يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ .

وقاعدتهم فيما ذكر ٱبن سعيد (مدينة بُرْشان) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الشين المعجمة ثم ألف ونون فى الآخر. قال : ويقال لها أيضا (بُرْجَان) بالجيم وذكر ٱبن سعيد : أنه كان بها الأُمَّة المسماة بُرْجَان فى قديم الزمان فاستولت عليهم الألمانِيَّة وأبادوهم حتّى لم يَبْق منهم أحد، ولم يبق لهم أثر . وهٰؤلاء البُرْجان هم الذين كان يقاتلهم قُسْطَنْطين ورأىٰ فى منامه أعلاما عليها صُلْبان فتنصَّر .

المملكة الثالثـــــة

(مملكة البنادقة)

وهم طائفةٌ مشهورة من الفَرَنْج، وبلادهم شرقىّ بلاد (الأنبردية) الآتى ذكرهم .

وقاعدة مملكتهم (البُنْدُقِيَّة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الباء الموحدة وسكون النون ثم دال مهملة وقاف ومثناة تحتية وهاء فى الآخر. وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعةِ قال ٱبن سعيد : حيثُ الطولُ ٱثنتان وثلاثون درجةً، والعرضُ أربعٌ وأربعون درجةً . قال ٱبن سعيد : وهى علىٰ طَرَف الخَليج المعروف بجَوْن البَنَادقة، وقد تقدّم الكلام عليه عند ذكره فى الكلام علىٰ بحر الرُّوم . قال : وعمارتها فى البحر، وتخترق المراكبُ أكثَرَها ، تتردَّد بين الدُّور، ومَرْكَب الإنسان علىٰ باب داره، وليس لهم مكانٌ يَمْشُوْن فيه إلا الساباط الذى فيه سُوق الصَّرْف، صنعوه لراحتهم إذا أرادوا التَمَشِّىَ، ومَلِكهم من أنفسهم يقال له الدُّوكُ، يعنى بضم الدال المهملة وسكون الواو وكاف فى الآخر. ودنانيرهم أفضلُ دَنَانيرِ الفَرَنْجة ، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ معاملة الديار المِصْرية فى أوّل هذه المقالة أن دينارهم

يقال له (دُوكَات) نسبة الى الدُّوك الذى هو مَلِكهم، و إليها يُنْسَب الجُوخُ البندُقِىّ الفائق لكل نوع من الجُوخ .

قال السلطان عمادُ الدِّين صاحب حماةَ فى تاريخه : وهى قريبة من جَنَوة فى البر، و بينهما نحو ثمانية أيام . أما فى البحر فبينهما أمدٌ بعيدٌ أكثَرُ من شهرين ، وذلك أنهم يخرُجُون إلىٰ بحر الرُّوم فى جهة الشرق ثم يسيرون فى بحر الرُّوم إلىٰ جهة الغرب .

قال فى "تقويم البُلْدان" : ومن أعمال البُنْدُقِية (جزائر النَّقْرَبَنْت) بفتح النون وسكون القاف والراء المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون النون وتاء مثناة فوقية فى الآخر . قال : وكثيرا مايكْمُن بين تلك الجزائر شوانى الحَرَامِيَّة .

ثم قال : وفى شمالىّ هذه الجزائر مملكة (أَسْتِيبَ) بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية وباء موحَّدة فى الآخر . وفى مملكة أسْتِيبَ هذه يُعْمَل الأطلس المعدنىّ .

المملكة الرابعة

(مملكة الجَنَوِيين)

وهم طائفة من الفرنج مشهورة أيضا .

وقاعدة مملكتهم (مدينة جَنَوَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الجيم والنون والواو ثم هاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ إحدىٰ وثلاثون درجةً ، والعرضُ إحدىٰ وأربعون درجةً وعشرون دقيقة . قال : وهى علىٰ غربىّ جَوْن عظيم من البحر الرومىّ ، والبحر فيما بينها و بين

الأندَلُس يدخُل فى الشَّمال . وهى غربىّ (بلاد البَيَازِنة) . قال الشريف الإدريسىّ : وبهـا جَنَّات وأَوْدِية، وبهـا مَرْسًى جيِّدٌ مأمونٌ ، ومَدْخَلُه من الغرب . قال فى "تقويم البُلْدان" : وعن بعض أهلها أنهـا فى ذَيْل جبل عظيم، وهى علىٰ حافَة البحر، وميناها عليها سُورٌ ، وأنهـا مدينة كبيرة إلىٰ الغاية، وفيهـا أنواعُ الفَوَاكه، ودُورُ أهلها عظيمة، كلُّ دار بمنزلة قَلْعة، ولذلك آغتَنَوْا عن عمل سُورٍ عليها، ولها عيونُ ماء ، منهـا شُرْبهم وشُرْب بساتينهم . قال المؤيَّدُ صاحب حماة فى تاريخه : ولها بلادٌ كثيرةٌ .

المملكة الخامســـة

(بلاد رُومِيَّة)

بضم الراء المهملة وسكون الواو وكسر الميم وفتح الياء المثناة تحت المشـدّدة وهاء فى الآخر[(١)]. قال فى "تقويم البُلْدان" : ويقال لها أيضا رُومَةُ (يعنى بضم الراء وسكون الواو وفتح الميم وهاء فى الآخر) . وهى مدينةٌ عظيمة واقعةٌ فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة قال فى " القانون " : حيثُ الطولُ خمس وثلاثون درجةً وعشرون دقيقة ، والعرضُ أربعون درجةً وخمسون دقيقةً . قال آبن سـعيد : وهى مدينة مشهورةٌ فى جَنُوبِىّ جَوْن البَنَادقةِ علىٰ جانبَىْ نهرٍ يُعْرف بنهر الصُّفْر .

وقد ذكر « هروشيوش » مؤرّخ الروم أنهـا بُنِيت لأربعةِ آلافٍ وخمسمائةِ سنة من أوّل العالَم ، علىٰ زمن حزقيا بن احاز رابع عشر ملوك بنى إسرائيل . وذكر آبن كريون : أنها بُنِيت فى زمن داود عليه السلام، وبينهما تفاوتٌ كثير فى المدّة . قال

---

(١) ضبطها ياقوت بتخفيف اليـاء ونقل عن الأصمعى أنها مثـل أنطاكية وأفامية إلى أن قال وهو كثير فى كلام الروم و بلادهم فانظره ج ٢ ص ٨٦٦ .

فى "الروض المعطار" : وهى من أعظم المدن وأحْفَلِها . يقال : إنه كان طولها من الشَّمال إلىٰ الجَنُوب عشرين ميلا ، وعرضُها من الشرق إلىٰ الغرب آثنَىْ عشرَ ميلا . وقيل : دَوْرها أربعون مِيلا ، وقُطْرها آثنا عشر ميلا ، وآرتفاعُ سورها ثمانيةٌ وأربعون ذراعا . وقيــل آثنان وسبعون ذراعا ، فى عَرْض آثنَىْ عشرَ شبرا مبنىّ بالحجر ، وهى فى سهل من الأرض تُحيط بهـا الجبالُ علىٰ بُعْـد ، و بينها و بين البحر الرومىّ آثنا عشر ميلا ، و يشُقُّها نَهَر ينقسم داخلَها قسمين ثم يلتقيان آخِرَها ، وأرضه مفروشة بالنُّحاس الأصفرِ مسافةَ عشرين ميلا ، وفى وَسَطها صَحْن فى صخرة مرتفعةٍ لم يظْفَر به عَدُوّ قط .

وفى داخلها كنيسةٌ طولها ثلُثمِائةِ ذراع وارتفاعها مائتا ذراع ، لها أربعة ابوابٍ من فِضَّـةٍ سَبْكا واحدا ، مُسَقَّفةٌ بالنحاس الأصفر المُلْصَق بالقَصْدير ، وحيطانها ملبَّسة بصفائح النُّحاس ؛ وبها كنيسةٌ أخرىٰ بهـا بُرْج طولهُ فى الهواء مائة ذراع ، وعلىٰ راس ذلك البُرْج قُبَّة مبنية بالرَّصاص ، وعلىٰ رأس القبة زُرْزُور من نُحَـاس إذا أدرك الزيتونُ آنحشَرتْ إليه الزَّرازِير من الأقطار البَعيدة ، فى مِنْقار كل زُرْزُور زَيْتُونة وفى رجليـه زيتونتان ، فيطرَحُها علىٰ ذلك البُرْج فيُعْصَر ويؤخذ زيته ، فيُستَصْبَح به فى الكنيسة جميعَ السنة . قال : وأهل رُومِيَةَ أجبَنُ خلق الله تعالىٰ ، ومن سنَّتهم أنهم لايدفِنُون موتاهم ، و إنما يُدْخِلونهم فى مغائِر(١) ويتركونهم فيها فيستَوْبِئُ هواؤهم ويقع الذُّبَاب علىٰ الموتىٰ ، ثم يقع علىٰ ثمـارهم فيُفْسِدها ، ولذلك هم أكثر بلاد الله تعـالىٰ طَوَاعينَ ، حتّى إن الطاعون يقع فيهـا ولا يتعدّاها إلىٰ غيرها فوق عشرين ميلا ؛ وجميعُ أهلهـا يَحْلِقون لِحَاهم ، ويزعُمون أن كلَّ مَنْ لا يَحْلِق لحيتَه

(١) لعل الصواب "مغارات" أو "مغاور" فان وزنها مفعلة لا فعالة حتى تجمع هذا الجمع ولم ينبه عليها اللغويون فى الشواذ .

فليس نصرانياً كاملا ، زاعمينَ أن سببَ ذلك أن شَمْعون الصفا والحَوَاريِّين جاءُوهم وهم قومٌ مساكينُ ليس مع كل واحد منهم إلا عصا وجرابٌ ، فدعَوْهم إلى النَّصرانية فلم يُجيبوهم ، وأخذُوهم فعذَّبوهم وحَلَقوا رُءُوسهم ولِحَاهم . فلما ظهر لهم صِدْقُ قولهم واَسَوْهم بأن فعلوا بأنفسِهم مثلَ ذلك .

ولم تزل رُومِيَةُ هي القاعدةَ العُظمىٰ للرُّوم حتّى بنيت القُسْطَنْطِينِيَّة وتحوّل إليها قُسْطَنْطِين ، وصارت قسطنطينِيَّةُ هي دارَ مُلْكِ الروم علىٰ ما تقدّم ذكره في الكلام عليها ، مع بقاء رُومِيَةَ عندهم علىٰ رفعة المحلّ وعِظَم الشأن إلىٰ أن غلب عليها الفَرَنْج وآنتزعوها من أيديهم ، ورفعوا منها قواعِدَهم وآستولَوْا علىٰ ما وراءها من النواحي والبُلْدان والجزائر : كجَنوةَ ، والبُنْدُقيَّة ، وأقْرِيطش ، ورُودِس ؛ وآسترجعوا كثيرا ممـا كان المسلمون آستولَوْا عليه من بلاد الروم كغالب الأندُلُس . ثم حدثتِ الفتنُ بينهم وبين الروم بالقُسْطنطِينِيَّة ، وعَظُمت الفتنُ بينهم ودامتْ نحوا من مائةِ سنةٍ «وملك الروم بالقُسْطنطِينِيَّة معهم في تناقُص» حتّى إن رجّار صاحب جزيرة صِقِلِّيَة صار يغزو القسطنطينيَّة بأساطيله ويأخذ ما يجد في ميناها من سُفُنِ التُّجّار وشَوَانِي المدينة ، وآنتهى أمره أن جرجا بن ميخائيل صاحب أساطيله دخل إلىٰ مِينا القسطنطينية في سنة أربع وأربعين وخمسمائة ورمىٰ قصر الملك بالسِّهام ، فكان ذلك أنكىٰ علىٰ الروم من كلِّ نِكَاية . ثم تزايد الحالُ إلىٰ أن آستولىٰ الفَرَنْج علىٰ القسطنطينيَّة نفسِها في آخر المـائةِ السادسة ، وأوقعوا بأهلها وفتكُوا وخَرَّبوا علىٰ ما تقدّم بيانه في الكلام علىٰ ملوك القسطنطينية . وبالجملة فرومِيَةُ اليوم من قواعد الفَرَنْج ، وهي مقرّ (البابـم) الذي هو خليفةُ النصارىٰ المَلِكانية وإليه مرجعهم في التحليل والتحـريم .

ولهذا البـابِ مكاتَبةٌ تخصُّه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، كما سيأتى ذكره فى الكلام على المكاتَبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

*
* *

وأما الممالك الصغار فسبعُ ممَـالكَ :

الأولى

(مملكة المَــرَا)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم والراء المهملة وألف . وهى مملكة تبتدئ من الخليج القُسْطنطِينِى من الغرب على ساحل بحر الروم وتمتدّ مغرِّبا [وتشتمل على قطعـة من] (١) ساحل بحر الروم وعلى بلادٍ وجبالٍ خارجةٍ عن البحر . قال : وهذه المملكة مناصَفَة بين صاحب قسطنطينيَّة وبين جنس من الفَرَنج يقال لهم (القيتلان) بالقاف واليـاء السا كنة آخر الحـروف والمثناة الفوقيـة ولام ألف ونون ، ويقال (الكيتلان) بإبدال القاف كافا، وهذا هو الجارى على ألسنة الناس فى النطق بهم .

الثـانيـــة

(بلاد المَلْفَجُــوط)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون اللام وفتح الفاء وضم الجيم وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر . وهم جنس من الروم لهم لسان ينفردون به ، وبلادهم من أعمـال قُسْطنطِينِيَّةَ على ساحل بحر الروم ممـا يلى مملكة المَرَا المقدّمَ ذكرها من جهة الغرب فى مقابلة مشاريق بَرْقةَ من البر الآخَرِ ، على ما تقدّم ذكره فى الكلام على بحر الروم فى أوّل هذه المقالة .

---

(١) الزيادة من التقويم ص ١٩٨ ليستقيم الكلام .

الثـالثـــة

(بـــلاد إقْـــلِرِنْس)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام والراء المهملة وسكون النون وسين مهملة فى الآخر . وهى بلاد على ساحل بحر الروم غربىّ بلاد المَلْفَجُوط المقــدّم ذكرها وشرقىّ بلاد الباسَلِيســة الآتى ذكُرهــا ، وهم فى مملكة الباسليسة المذكورة .

الرابعـــــة

(مملـــكة بُولِيـــةَ)

بضم البــاء الموحدة وسكون الواو ولام و ياء آخر الحروف وهاء . قال : ويقال لها أَنْبُولِيةُ أيضا يعنى بزيادة همزة فى أوّلها ونون ساكنة بعــدها . وهى مملكة على بحر الروم عند فَم جَوْن البنادقة من غربِيِّــه ، فى مقابل مملكة الباسَلِيسة من بر الجَوْن المذكور من الجهة الشرقية ، وببُولِيةَ هــذه يُعْرف الزيت المعروفُ بالبوليــة . قال فى " تقويم البُلْدان " : وملك بولية هذه فى زماننا يقال له الريدشار .

الخامســـــة

(بـــلاد قَلفْـــرِيَةَ)

قال فى " تقويم البُلْدان " : بفتح القاف واللام وسكون الفاء وكسر الراء المهملة وفتح المثناة تحتُ وهاء فى الآخر . قال : ويقال لها قَلَوْرِيَةُ أيضا بابدال الفاء واوا . وهى من جملة بُولية المقــدّمة الذكر ، واقعة فى غربيها وشرقىّ مملكة رُومِيَةَ المتقدّمة الذكر ، وقد تقدّم فى الكلام على بحر الروم أنه يقابلها طرابُلُس الغرب من البر الآخِرِ .

السادســـة

(بـــلاد التُّشْقان)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم المثناة الفوقيَّـة وسكون السين المهملة وقاف وألف ونون . قال : وهم جنس من الفَرَنْج ليس لهم ملكٌ بعينه يحكم عليهم بل لهم أكابِرُ يحكمون بينهم، ثم قال : و بتلك البلاد يكون نَبَاتُ الزَّعفران، وقد تقـدّم فى الكلام على البحر الرومىّ أنه يقابلها مدينة تُونُس من البرِّ الآخر .

السابعـــة

(بـــلاد البَيَـازِنَة)

بفتح الباء الموحدة والياء المثناة تحتُ وألفٍ ثم زاى معجمة مكسورة ونون مفتوحة وهاء فى الآخر . وهم فِرقة من الفَرَنْج .

وقاعدة مُلْكهم (مدينةُ بِيزَةَ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بباء موحدة مكسورة وياء آخر الحروف ساكنة وزاى معجمة يعنى وهاء فى الآخر . قال : وقد تُبْـدَل الزاى شينا معجمةً . وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال : والقياس أنهـا حيثُ الطولُ آثنتان وثلاثون درجةً ، والعرضُ ستٌّ وأربعون درجة وسبعٌ وعشرون دقيقةً . وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" أنهـا على الركن الشَّمالىِّ من بلاد الأندَلُس فى مقابِل جزيرة سِرْدانِيَةَ المقـدّمة الذكر . وهى غربىّ بلاد رُومِيَـةَ ؛ وليس لهم مَلك وإنما مرجعُهم إلى الباب : خليفةِ النصارى؛ وإلى بِيزَةَ هذه تُنْسَب الفَرَنج البَيازِنَةُ والحديد البِيزَانِىّ . وقد تقدّم فى الكلام على البحر الرومىّ أنه يقابلها من البر الآخر مَرْسَى الخَرَز .

القطـــــر الثـانى

(ممـا غَرْبىّ الخليج القسطنطينىّ الأرضُ الكبيرةُ)

قال صاحب حماةَ : وهى أرضٌ متسعةٌ فى شَمالىِّ الأندَلُس ، بهـا ألسُنٌ كثيرةٌ مختلفة . وقد ذكر فى "التعريف" أنها فى شرق الأندلُس ، ولا يصح ذلك إلا أن يُرِيد منها ماهو شرق شمالى الأندلس .

ويتعلق الغرض منها بثلاث ممـالك :

المملكة الأولىٰ

(مملكة الفَـــرَنْج القديمـــة)

وقاعدتها (مدينة فَرَنْجَة) بالفاء والراء المهملة المفتوحتين وسكون النون وفتح الجيم وهاء فى الآخر، وقد تُبْدَل الجيم منهـا سينا مهـملة فيقال فَرَنْسَة . ويقال لملكهم ريدإفْرَنْس، ومعناه ملك إفْرَنْس، والعامّة تقول الفَرَنْسِيس . وهو الذى قصد ديار مصرَ وأخذ دِمياطَ وأسره المسلمون ثم أطلقُوه . يشير بذلك إلىٰ قَضِـية تاريخية ، وهى أنــ الفَرَنْج فى ســنة خمس عشرةَ وسِتِّمـائة وهم مستولُون علىٰ سواحل الشام يومئــذ سار منهم نحوُ عشرين مَلِكا من عَكَّا وقصدُوا دِمياطَ فى أيام الملك العـادل «أبى بكرِ بن أيُّوب» رحمه الله، وسار العادل من مِصْرَ إليهم فنزل مقابِلَهم ، وأقاموا علىٰ ذلك أربعةَ أشهرٍ ، ومات العادل فى أثنـاءِ ذلك، وٱســتقر بعده فى المُلْك ٱبنُه الملك «الكاملُ محمد» فوقع فى عســكره ٱختلافٌ تشاغَلَ به ؛ فهجم الفَرَنْج دِمْيـاطَ وملَكُوها عَنْوة فى سنة ستَّ عشْرةَ وستِّمائة ،وطَمِعوا بذلك فى مملكة الديار المصرية ، فبنىٰ الملكُ الكامل بلدةً عند مَفْرَق النيل : الفِرْقة الذاهبة إلىٰ دمياط ، والفرقة الذاهبة إلىٰ أُشْمُوم طَنَاح ، وسماها (المنصورةَ) ونزلها بعساكره ؛ ولم يزل الأمر علىٰ ذلك إلىٰ

أن دخلتْ سنةُ ثمانَ عشرةَ وستِّمائة، وقد اشتدّ طمَعُ الفَرنج فى الديار المصرية، وتقدّموا عن دِمْياط إلىٰ المنصورة وضايقوا المسلمين إلىٰ أن سألهم الملكُ الكاملُ فى الصُّلْح علىٰ أن يكون لهم القُدْس، وعَسْقلانُ، وطبَرِيَّةُ، واللاذِقيَّة، وجَبَلة، وسائر ما فتحه السلطان صلاحُ الدين من سواحل الشأم، خلا الكَرَك والشَّوْبك؛ فأبَوْا إلا أن يكون لهم الكَرَك والشَّوْبك أيضا، وأن يُعْطَوْا مع ذلك ثلثمائةِ ألف دينار فى نظير ماخَرَّبوه من سُور القُدْس؛ فأعمل المسلمون حينئذ الحِيلةَ فى إرسال فَرْع من النيل فى إبَّان زيادتِه، حالَ بين الفَرَنْج و بين دِمْياطَ، انقطع بسببه المِيرةُ عنهم، وأشرفوا علىٰ الهَلاك؛ وكان آخِرُ أمرهم أن أعرضُوا عن جميع ما كانوا سئلوا به من الاماكن المتقدّمة الذكر ونزلوا عن دِمياطَ للمسلمين، وتسلَّمها الملكُ الكاملُ منهم؛ ثم عاد إلىٰ مصر و بقيَتْ دِمْياطُ بيد المسلمين إلىٰ أن قصدها الفَرَنْسِيس فى خمسين ألفَ مقاتل، ومعه الأذْفُونش صاحب طُلَيْطلةَ فى أيام الملك «الصالح أيوب» بن الكامل محمد، بن العادل أبى بكر، بن أيُّوبَ فى سنة سبع وأربعين وستمائة، وهَجَم دِمْياط وملَكها عَنْوة؛ وسار المَلِكُ الصالح فنزل بالمنصورة، وسار الفَرَنْج فنزلوا مقابِلَه؛ ثم قصدوا دِمْياطَ فتبعهم المسلمون وبذَلُوا فيهم السيْفَ، فقتلوا منهم نحوَ ثلاثين ألفا، وأُسِرَ الفَرَنْسِيس وحُبِس بالمنصورة بدار الصاحب «فخر الدين إبراهيم بن لُقْمانَ» صاحب ديوان الإنشاء، ووُكِّل به الطَّواشيّ صَبِيح «المعظميّ» ومات الصالح فى أثناء ذلك، واستقرّ ابنه الملك المعظَّم مكانَهُ فى المُلْك؛ ثم قُتِل عن قريب، وفُوِّض الأمر إلىٰ «شجرة الدُّرّ» زوجةِ الملك الصالح، وقام بتدبير المملكة معها «أيبك التُّرْكُمانىّ» ثم تسلم المسلمون دِمياطَ من الفَرَنْسِيس وأطلقوه فسار إلىٰ بلاده فيمن بقِىَ معه من جماعته . وفى ذلك يقول جمال الدِّين يحيىٰ بن مطروح الشاعر :

قُـلْ للفَرَنْسِيس إذا جِئْتَـه * مَقالَ صِدْقٍ من قَـوُولٍ نَصُوح:[1]
أتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَــغِي مُلْكَها * تَحْسَبُ أن الزَّمْرَ يا طبلُ رِيحْ
وكُلَّ أصْحـابِكَ أودَعْتَهُــمْ * بحُسْنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنَ الضَّرِيحْ!
خمسين ألفًا لا ترىٰ مِنْهُمُ * غيرَ قتيلٍ أو أسـيرٍ جَرِيحْ!
وفَّقَـــكَ اللهُ لأمْثـالِهَـا * لَعَـلَّ عيسىٰ مِنكُمُ يَسْـتَرِيح
آجَرَكَ اللهُ علىٰ مَا جَـرىٰ * أفْنَيْتَ عُبَّادَ يَسُوعَ المَسِيح
فَقُـلْ لَهُمْ إن أضْمَرُوا عَوْدَةً، * لأخْذِ ثارٍ أو لقَصْـدٍ صَحِيح!
دارُ «آبنِ لُقْمانَ» علىٰ حالِهَـا * والقَيْدُ باقٍ، والطَّواشِي صَبِيح!

وقد تعرّض فى "التعريف" للإشارة لهذه الواقعة فى الكلام علىٰ مكاتبة الأدفونش صاحب طُلَيطِلةَ من الأندلُس، وآقتصر من هذه الأبياتِ علىٰ الأوّل والأخيرِ فقط.

المملكة الثانيــــــة

(مملكة الجلالِقَة)

قال السلطان عمادُ الدين صاحب حماةَ فى تاريخه: وهم أُمّة كالبهائم، يغلب عليهم الجَهْل والجَفَاء. ومن زِيهم أنهم لا يَغْسلون ثيابَهم، بل يتركونها عليهم إلىٰ أن تَبْلَىٰ، ويدخلُ أحدُهم دارَ الآخرِ بغير إذْن. قال: وهم أشدُّ من الفَرَنْج، ولهم بلادٌ كثيرة شماليَّ الأندَلُس، ونِسْبتهم إلىٰ مدينة لهم قديمة تسمى جِلِّيقِيَّة. قال فى "اللباب": بكسر الجيم واللام المشدّدة وبعدها ياء آخر الحروف وقاف. قال فى "تقويم البُلْدان": [ثم ياء ثانية][2] وهاء.

(١) فى تاريخ أبى الفداء وخطط المقريزى "قـول نصيح وفى آبن إياس فصيح".

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان.

وقاعدتها (مدينة سَمُّورَة) بسين مهملة وميم مشدّدة مضمومة وراء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ عشرُ دَرَج ، والعرض ستٌّ وأربعون درجة . قال فى "اللباب" : وهى من بلاد الرُّوم المتاخمة للأندُلس ؛ وكأنه يريد أنها كانت للروم أوّلا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وعن بعضهم أنها مدينةٌ جليلةٌ معظَّمة عندهم . قال آبن سعيد : وهى قاعدة جِلِّيقيَّة ، أكبر مُدُن الفنش ، فى جزيرة بين فرعين من نهر يُعرَف بها . قال : وكان المسلمون قد مَلَكوها ثم آسترجعها الجَلالِقةُ زمن الفِتْنة ، ونهرُها يصُبُّ فى البحر المحيط الغربىّ حيثُ الطولُ خمسُ درج وثلاثون دقيقةً من الجزائر الخالدات ، والعرضُ ستٌّ وأربعون درجة .

المملكة الثالثة

(مملكة اللُّنبَرْديّة)

قال فى "تقويم البُلْدان" : باللام المشدّدة المضمومة والنون الساكنة والباء الموحدة المفتوحة والراء المهملة الساكنة والدال المهملة والياء المثناة التحتية والهاء . قال : ويقال لها النُّوبرديَّة ، والأنبرديَّة . وموقعها فى أول الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ ثلاثون درجةً وسبعٌ وثلاثون دقيقة ، والعرضُ ثلاث وأربعون درجة وخمسون دقيقةً . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى ناحية من الأرض الكبيرة ، وبلادها تُحيط بها جبالٌ إلى حدّ جَنَوَة . قال : ومَلِكها فى زماننا صاحبُ القُسْطنطِينيَّة ، ورثها من خاله المركيش .

ثم قال : وغربيّ هذه البلاد (الرِّيْدراقُون) بكسر الراء المهملة وسكون المثناة التحتية ثم دال مهملة وراء مهملة [وألف][1] وقاف مضمومة وواو ونون في الآخر. ومعناه ملك راقون ، وقد تُبْدَل القاف غينا معجمة . فيقال ريدراغون وهو الموجود في مكاتبات أهل الأندلُس وهُدَنِهم .

الجهة الثانيـــــة

(ماشَمَاليَّ مدينة القسطنطينية وبحر نِيطش وما نِيطش إلىٰ نهاية المعمور في الشَّمال)

ويشتمل علىٰ عدّة ممالك وبلاد :

منها (بلاد الجَرْكَس) : قال السلطان عمادُ الدين صاحب حماةَ في تاريخه : وهم علىٰ بحر نيطش من شرقيِّه ، وهم في شَظَفٍ من العيش . قال : والغالب عليهم دينُ النصرانية .

قلت : وقد جلب منهم «الظاهرُ برقوق» صاحبُ الديار المصرية من المماليك أيامَ سلطنته مايربُو علىٰ العَدَد حتّى صار منهم معظَمُ جُنْد الديار المصرية ، وصار بهم جَمَالُ مواكبها ، والمُلْك باقٍ فيهم بالديار المصرية إلىٰ الآنَ .

ومنها (بلادُ الآصِ)[2] : بفتح الهمزة الأولىٰ والثانية وصاد مهملة في الآخر . وهم طائفة ، وبلادهم علىٰ بحر نيطش .

وقاعدتهم (مدينة قِرْقِر) . قال في "تقويم البُلْدان" : بكسر القاف وسكون الراء المهملة وسكون القاف الثانية وكسر الراء المهملة في الآخر . وموقعها في الشَّمال

(١) الزيادة من التقويم .

(٢) تقدّم له ضبطه بمد الهمزة وبالصاد وهو الصواب .

عن الإقليم السابع أو فى آخره . قال : والقيـاس أنها حيثُ الطولُ خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، والعرضُ خمسون درجة . وهى قلعـة عاصيَةٌ منيعة فى جبل لايَقْدِر أحد علىٰ الطلوع إليه، وفى وسط الجبل وطاءة تَسُع [أهل](١) تلك البلادِ، وعندها جبل عظيم شاهق يقال له (جاطِرْ طاغ) يظهر لأهل السفن من بحر القِرِم . وهى فى شمـالىّ صارِى كَرْمان علىٰ نحو يوم منها .

ومنها (بلاد البُرْغال) بضم الموحدة وسكون الراء وفتح الغين المعجمة وألف ثم لام فى الآخر . ويقال لهم أولاقُ أيضا بقاف فى الآخر .

وقاعدتهم (مدينـة طِرْنَوْ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بالطاء المكسورة والراء الساكنة المهملتين والنون المفتوحة وواو فى الآخر . وموقعها فى الإقليم السابع . قال : والقياس أنها حيثُ الطولُ ستٌّ وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمسون درجة . وهى غربىّ صَقْجى علىٰ ثلاثة أيام وأهلها كُفّار . قال بعض المسـافرين وهى علىٰ خَوْر البُرْغال .

ومنها (بلاد البُلْغار والسَّرْب) . وهما طائفتان علىٰ بحر نيطش .

فأما البُلْغار فبضم البـاء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف ثم راء مهـملة . قال المؤيَّد صاحب حماة فى تاريخه : وهم منسوبون إلىٰ المدينـة التى يسكُنُونها . وقد سماها فى كتابه "تقويم البُلْدان" بُلَار بضم الباء وفتح اللام وألف وراء مهملة فى الآخر . ثم قال : ويقال لها بالعربية (بُلْغار) .

وأما السَّرْب فبفتح السـين وسكون الراء المهملتين و باء موحدة فى الآخر . وهم فى مملكة صاحب البُلْغار . وقاعدة ملكهم مدينة بُلْغار المذكورة، وموقعها فى الشَّمال

---

(١) بياض بالاصول والتصحيح عن تقويم البلدان .

عن الإقليم السابع من الاقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيثُ الطول ثمانون درجة ، والعرضُ خمسون درجة وثلاثون دقيقة . قال : وهي بَلْدة في نهاية العمارة الشمالية قريبةٌ من شط إِتل من الجانب الشمالىّ الشرقىّ ، وهي وصَراى في بَرٍّ واحد ، وبينهما فوق عشرين مَرْحلةً ؛ وهي في وطاءة ، والجبل عنها أقلُّ من يوم ؛ وبها ثلاثُ حَمَّامات ، ولا يكون بهـا شيء من الفَوَاكه ولا أشجارِ الفواكه من العنب وغيره لشدّة بردها ؛ وبها الفُجْل الاَسودُ في غاية الكِبَر . قال المؤيَّد صاحبُ حماةَ : وحكىٰ لى بعضُ أهلها انَّ في أوّل فصل الصيف لا يغيب الشَّفَق عنها ويكون ليلُها في غاية القِصَر . ثم قال : وهذا الذى حكاه صحيحٌ موافق لمـا يظْهر بالأعمال الفَلَكيَّة ، لأن من عَرْض ثمـانية وأربعين ونصفٍ يبتدئ [عدمُ](١) غَيْبوبةِ الشَّفَق في أوّل فصل الصيف ، وعرضُها أكثر من ذلك ، فصحَّ ذلك علىٰ كل تقدير .

وقد حكى في "مسالك الأبصار" عن حَسَنٍ الرومى عن مسـعود الموَقِّت بها : أنـ أقصر ليلها أربعُ ساعات ونصفٌ تحريرا ، وأنهـم جَرَّبوه بالآلات الرَّصْدية فوجدوه كذلك . قال صاحب حمـاة في تاريخه : وكان الغالبُ عليهـم النصرانية ثم أسـلم منهم جماعةٌ . وذكر في "تقويم البُلْدان" أن أهلها مسـلمون حنفيَّة . وذكر المسعودى في "مروج الذهب" أنه كان بالسَّرب والبُلْغار دارُ إسلام من قديم . قال في "مسالك الأبصار" : أما الآن فقد تبدّلتْ بإيمانها كُفْرا ، وتداولها طائفةٌ من عُبَّاد الصَّليب ، ووصلَتْ منهم رُسُلٌ إلىٰ صاحب مصر سنةَ إحدىٰ وثلاثين وسبعمائة بكتاب من صاحب السَّرْب والبُلْغار ، يعرضُ نفسَه علىٰ مودّته ويسأله سيفا يتقلّده ، وسَنْجَقا يقْهر أعداءه به ؛ فأكرم رسولَه ، وأحسن نُزُلَه ، وجهَّزله معه خِلْعةً كاملة :

(١) الزيادة عن تقويم البلدان ليستقيم الكلام .

طَرْدَ وَحْش بقَصَب بسنجابٍ مُقَنْدس ، علىٰ مفرّج إسكندرى ، وكَلُّوته زركش ، وشاش بطَرَفين رقم ، ومِنْطَقة ذهب ، وكَلاليب كذلك ، وسيفٍ محلًّى ، وسَنْجَق سلطانىّ أصفر مُذْهَب . قال فى "التعريف" : وجهز له أيضا الخيلَ المُسْرَجة الملجمةَ . وربما أنه يُظْهِر لصاحب السراى الأنقيادَ والطاعة . قال فى "مسالك الأبصار" : وذلك لعَظَمة سلطانه عليهم ، وأخذه بخِناقهم لقربهم منه .

ولصاحب السَّرْب والبُلْغار مكاتبة تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

ومنها (بلادُ أفْكُون) بألف وفاء وتاء مثناة ثم كاف وواو ونون . وهى بلادٌ تلى بِلادَ البُلْغار فى جهة الشَّمال .

وقاعدتهم مدينة تسمّى (قَصَبة أفكون) . والقَصَبة فى مصطَلَحِهم المدينةُ الصغيرة . قال فى "مسالك الأبصار" : وبينها وبين البُلْغار مسافةُ عشرين يومًا بالسير المعتادِ . وحُكِى عن مسعود الموقّت بالبُلْغار أنه حَرَّر ليلها فوجد أقصرَ ليلِها ثلاثَ ساعاتٍ ونصف ، أقصرُ من ليل البُلْغار بساعةٍ واحدة .

ومنها (بلادُ الصَّقَالِبَة) بفتح الصاد المهملة والقاف وألف وكسر اللام وفتح الباء الموحدة وهاء فى الآخر . ويقال لبعض بلادها بلاد سبراوير . وهى تلِى بلادَ أفْكُون فى جهة الشمال . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى بلادٌ شديدةُ البرد ، لا يفارقها الثلْجُ مدّةَ ستةِ أشهر لا يزال يسقُط علىٰ جبالهم وبُيوتِهم ، ولهذا تقِلُّ المواشى عندهم . وحكىٰ عن الفاضل شجاع الدين : عبد الرحمن الخوارزمى الترجمان أن منها يُجْلَب السَّمُّور والسِّنْجاب . ثم قال : وليس بعدهم فى العمارة شىءٌ . وذكر أنه جاء جَدَّه فُتْيا من بعض اهلها يسأل فيها كيف تكونُ صلاةُ أهلِ بلدٍ لا يَغيبُ عندهم الشفقُ

حتّى يطلُع الصبحُ ؟ لسرعة آنقضاء الليل وهذا ظاهر فى أن هـذه البلاد مسلمون أو فيهم المسلمون .

ومنهـا (بلاد جُولمـان) بجيم وواو ولام ثم ميم وألف ونون . وهى تلى بلاد سبراوير المقدّمة الذكر فى جهة الشمال . وهى علىٰ مثل حال بلاد سبراوير فى شـدّة البَرْد وكَثْرة الثلج وأشدّ من ذلك . قال فى "مسالك الأبصار" قال حسن الرومىّ : وهؤلاء هم سُكّان قلب الشّمال ، والواصل إليهم من الناس قليلٌ ، والأقوات عندهم قليـلةٌ حتى يحكىٰ عنهم أنّ الإنسان منهـم يجمع عظام أىّ حيوانـ كان ، ثم يغلى عليـه بقَدْرِ كفايته ثم يتركها ، وبعد سـبْع مرات لايبقىٰ فيهـا شيء من الوَدَك . قال : وهم مع ضِيق العيش ليس فى اجناس الرَّقيق أنعَمُ من أجسامهم ، ولا أحسنُ من بياضهم ؛ وصورتُهـم تامةُ الخِلقــة فى حُسْن وبياضٍ ونُعُومة عجيبة ، ولكنهم زُرْق العيون . وإذا سافر المسافر من جُولْمـان إلىٰ جهة الشرق ، وصل إلىٰ مدينة قَراقُوم قاعدة القان الكبير القديمة . قال : وهى من بلاد الصين ، وإذا سافر منها إلىٰ جهة الغرب وصل إلىٰ بلاد الرُّوس ، ثم إلىٰ بلاد الفَرَنْج .

ومنها (بلادُ الرُّوس) بضم الراء المهـملة وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر . قال فى "مسالك الابصار" : وهى بلادٌ واغلة فى الشَّمال ، فى غربىِّ بلاد جُولْمـان المقدّمةِ الذكر . قال صاحب حماةَ فى تاريخه : ولهم جزائرُ أيضا فى بحر نيطش .

ومنها (بلادُ الباشقرد) . قال صاحب حماةَ فى تاريخـه : وهم أمة كبيرة مابين بلاد الباب وبلاد فَرَنْجـةَ . قال : وغالبهم نصارىٰ وفيهم مسـلمون ، وهم شَرِسُو الأخلاق . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مُصاقِبة لبلاد جُولْمـان . ثم قال : وفى باشقرد قاضٍ مسلمٌ معتبر .

ومنها (بلاد البُرْجان) بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الجيم وألف ونون، وقد تبدل الجيم شينا . قال صاحب حماةَ فى تاريخه : وهم أمم كثيرةٌ طاغية قد فشا فيهم التثليثُ . قال : وبلادهم واغلةٌ فى الشَّمال، وأخبارهم وسِيَرُ ملوكهم منقطعة عنَّا لبُعْدهم وجفاء طِباَعهم . وقد تقدّم أن البُرْجان غلب على مكانهم الألمانِيَّةُ، فيحتمل أنهم هؤلاء، ويحتمل أنهم طائفة أخرى منهم غير هؤلاء .

ومنها (بلاد بَمْخ) بباء موحدة وميم ثم خاء معجمة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى بلاد مشتركة بين بلاد الروس والفَرَنْج .

ومنها (بلاد بُوغْزَة) بباء موحدة ثم واو وغين وزاى ثم هاء فى الآخر . قال فى "مسالك الأبصار" : قال الشيخ عَلَاء الدين بنُ النُّعمان الخوارزمى : وهى بلادٌ فى أقصى الشَّمال ، وليس بعدها عِمَارة غير بُرج عظيم من بناء الإسكندر على هيئة المَنارة العالية، ليس وراءه مذهب إلا الظلمات؛ وهى صِحَار وجبالٌ لا يفارقها الثلج والبَرْد، ولا تطْلُع عليها الشمس ، ولا ينبُت فيها نَبَات ، ولا يعيش فيها حيوان أصلا، متصلةٌ ببحرٍ أسودَ لا يزال يُمْطِر والغيم منعقِدٌ عليه، ولا تطلُع عليه الشمس أبدا . قال ابن النعمان : ويقال إن الإسكندرَ مرّ بأطراف أوائل جبال الظُّلُمات الغربيةِ من العِمارة فرأى فيه أُناسًا من جنس التُّرك أشْبَهَ شىء بالوحوش لا يعرف أحدٌ بلُغتهم، وإذا أمسكهم أحد فرُّوا من يده، يأكلون من نبات الجبال المجاوِرة لهم فإذا أَقْحَطوا أكل بعضُهم بعضا؛ فمرّ بهم ولم يعترضهم .

واعلم أنه قد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ عَلَاء الدين بن النُّعمان أن التُّجَّار المتردّدين إلى بلاد الديار المصرية لا يتعدَّوْن فى سفرهم بلادَ البُلْغار، ثم يرجعون من هناك؛ ثم تُجَّار بُلْغار يُسافرون منها إلى بلاد جُولْمان، وتُجَّار جُولْمان

يسافرون إلىٰ بلاد بُوغْرة التى ليس بعدها عمارة . وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" أن شمالىّ بلاد الرُّوس مما هو متصل بالبحر المحيط الشمالىّ قوما يُبَايعون مُغايبةً . وذكر عن بعض من سافر إلىٰ تلك البلاد أنه إذا وصل التُّجَّار إلىٰ تُخُومهم، أقاموا حتّىٰ يعلموا بهم ، ثم يتقدّمون إلىٰ مكانٍ معروفٍ عندهم بالبيع والشراء ، فيضعُ كُلُّ تاجرٍ بضاعتَه ، ويعلِّمها بعلامة ، ثم يرجعون إلىٰ منازلهم ، ثم يحضُرُ أولئك القومُ ويضعون مُقابِلَ تلك البضائع السَّمُّور ، والوشقَ ، والثعلبَ ، وما شاكل ذلك ، ويَدَعُونه ويَمْضُون ، ثم يحضُر التجّار من الغَد فمن أعجبه ذلك أخذه وإلا تركه ، حتّىٰ يتفاصلوا علىٰ الرضا . وقد تقدّم ذكر مثلِ ذلك عن قوم بالهند وعن قوم ببلاد السُّودان فى الكلام علىٰ مملكة مالِّى .

قلت : وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مملكة خوارزم والقَبْجاق من مملكة التورانيين فى القسم الثانى منها أن الجَرْكَس والرُّوس والآص أهلُ مُدُن عامرةٍ آهلةٍ ، وجبال مُشْجِرة مُثْمِرة ، ينْبُتُ عندهم الزرع ، ويدِرُّ الضَّرْع ، وتجرى الأنهار ، وتُجْنَى الثِّمار ، ولا طاقة لهم بسلطان تلك البلاد . وإن كان فيهم ملوك فهم كالرَّعايا لصاحب السراى إن داروه بالطاعة والتُّحَف والطُّرَف كفّ عنهم وإلا شَنَّ عليهم الغارات وضايقهم وحاصرهم .

المقالة الثالثة

(فى ذكر أمورٍ تشترك فيها أنواعُ المكاتَبات ، والوِلَايات ، وغيرِهما من الأسماء، والكُنىٰ، والألقابِ، ومَقَادِير قَطْع الورَق ،وما يناسب كلَّ مِقْدار منها من الأقلام ؛ ومقاديرِ البياض فى أوّل الدَّرْج وحاشيتِه، ومقدارِ بُعْد مابين السُّطُور فى الكتابات ، وبيان المستَنَدات التى يصدُرُ عنها ما يُكْتَب من ديوان الإنشاء بهذه المملكة : من مكاتبات ، وولايات ، وكتابة الملَخَّصات ، وكيفيةِ تعيين صاحب الدِّيوان لها، وبيان الفَوَاتح، والخَوَاتم . وفيه اربعة أبواب) .

الباب الأوّل

(فى الأسماء والكُنىٰ والألقاب، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

(فى الأسماء والكُنىٰ ، وفيه طَرَفان)

الطَّرَف الأوّل

(فى الأسماء)

والآسمُ عند النُّحاة مادلَّ علىٰ مسمًّى دِلالةَ إشارة ، واشتقاقه من السِّمَة وهى العَلَامةُ لأنه يصير علامةً علىٰ المسمّٰى يميزه عن غيره ؛ أو من السمُوّ لأن الآسم يَعْلُو المسمّٰى باعتبار وضعه عليه .

ثم المراد هنا بالآسم أحدُ أقسام العَلَم : وهو ماليس بكُنْية ولالَقَب؛ وفيه جملتان :

الجمـــلة الأولىٰ

(فى أصـــل التسمية والمقصودِ منها، وتنويع الأسمـاء، وما يُسْتَحْسن منها، وما يُسْتَقْبَح)

أما أصلُ التسمية فهى لاتخرج عن أمرين :

أحدهما أن يكون الاسم مُرْتجَلا : بأن يَضَعُه الواضعُ علىٰ المسمّى ابتداء ، كأُدَد اسم رجل، وسُعَادَ اسم امرأة، فإنهما ليسا بمسبوقين بالوضع علىٰ غيرهما . والرجوعُ فى معرفة ذلك إلىٰ النقل والاستقراء .

والثانى أن يكون الاسم منقولًا عن معنًى آخر، كاسَدٍ إذا سمِّى به الرجلُ نقلا عن الحيوان المفترِس ، وزيدٍ إذا سُمِّى به نقلا عن معنَى الزيادة وما أشبه ذلك . وهذا هو أكثر الأسمـاء الأعلام وُقوعًا، والرجوع فى معرفته إلىٰ النقل والاستقراء أيضا كما تقدّم فى المرتَجَل .

***

وأما المقصود من التســمية ، فتمييز المســمّى عن غيره بالاسمِ الموضوعِ عليــه ليتعـــرّف .

***

وأما تنويع الأسمـاء ، فيختلف باختلاف المســمِّينَ وما يدُور فى خَزائن خيالهم ممـا يأْلَفُونه ويُجاوِرُونه ويخالِطُونه .

فالعرب ــ أكثرأسمائهم منقولةٌ عَمَّا لَدَيْهم مما يَدُور فى خزائن خَيَالهم إما من أسمـاء الحيوان كبَكْر : وهو وَلَدُ الناقة ، وأَسَد : وهو الحيوان المفترِسُ المعروفُ ، وإما من

أسماء النّبات كحَنْظَلَة : وهو ٱسم لواحدة الحَنْظَل الذى هو النباتُ المعروفُ من نبات البـادِيَة ، وطَلْحة : وهو ٱسمٌ لشجرة من شجر الغَضٰى ، وعَوْسَجَة : وهو ٱسم لشجرة من شجر البادِيَةِ . وإما من أجزاء الأرض كحَزْن : وهو الغليظُ من الأرض ، وصَخْر: وهو الصَّلْد من الحجارة . وإما من أسمـاء الزَّمان كرَبِيع : وهو أحد فُصُول السنة الأربعةِ . وإما من أسمـاء النُّجوم كَسِماك : ٱسم لنَجْم معروفٍ . وإما من أسمـاء الفاعلين : كحارِث فاعِل من الحَرْث ، وهَمّـام فاعِل من هَمَّ أن يفعل كذا ، إلىٰ غير ذلك من المنقُولات التى لا تُحْصىٰ .

وكان من عادتهم أن يختاروا لأبنائهم من الأسماء مافيه البَأْس والشِّدَّةُ ونحو ذلك : كمُحَارِب ، ومُقاتِل ، ومُزاحِم ، ومُدَافِع ونحو ذلك ؛ ولمواليهم ما فيه معنىٰ التَّفاؤُل : كفَلاح ، ونَجَاح ، وسالِم ، ومُبارَك ، وما أشبهها ؛ ويقولون : أسماءُ أبنائنا لأعدائنا ، وأسماءُ مَوالينا لنا ؛ وذلك أن الإنسان أكثرُ مايدعُو فى ليله ونَهارِه مواليَهُ للآستخدام دُونَ أبنائه فإنه إنمـا يحتاج إليهم فى وقت القتال ونحوه .

والتُّرْكُ ــ راعَوْا فى أسمـائهم ما يدُلّ علىٰ الجَلادة والقُوّة ممـا يألَفُونه ويُجاوِرُونه ، وغالبُ ما يسمُّون باسم بَغَا ، ومعناه بلُغتهم الفحلُ : إما مفرَدا كما تقدّم وهو قليل ، وإما موصوفاً بحيوان من الحيوانات ، مقدِّمينَ الصفةَ علىٰ الموصوف علىٰ قاعدة لُغتهم فى ذلك ، كطيبغا بمعنىٰ فحلِ مُهْرٍ . وإما بمعدِنٍ من المعادن : كالطنبغا بمعنى فحلِ ذهبٍ ، وكمشبغا بمعنىٰ فحلِ فضةٍ ، وتمربَغَا بمعنى فحلِ حديد . وربما أبدل ٱسمُ الفحل باسم الحديد ، وٱسمه بلغتهم دُمُر كبى دُمُر بمعنى أمـير حديد ، وطى دُمُر بمعنى مهر حديد . وربمـا أفردُوا الآسم بالوصف كدُمُر بمعنى حديد ، وأرسلان بمعنى أسد ، وتُنْـكُز بمعنى بحر ، ونحو ذلك إلىٰ غير ذلك من المفردات والمركّبات التى لا يأخذها

حصر . وكذلك كلُّ أمة من أمم الأعاجم تُراعِى فى التسمية ما يدور فى خِزَانة خيالها مما يخالِطُونه ويُجاوِرونه .

وأما الأمم المتديِّنة فإنهم راعَوْا فى أسمائهم التسميةَ بأسماء أنبيائهم وصحابهم .

فالمسلمون — تسمَّوْا باسمَي النبيّ صلى الله عليه وسلم الوارِدَيْنِ فى القرءان وهما "محمد" و"أحمَدُ" إذ يقول صلّى الله عليه وسلم، تَسَمَّوْا باسمى . وكذلك تسمَّوْا باسم غيره من الأنبياء عليهم السلام : إما بكَثْرةٍ : كإبراهيمَ، ومُوسٰى، وهارونَ، وإما بِقِلّةٍ : كآدمَ، ونُوحٍ، ولُوطٍ . وأخذوا بوافِرِ حَظٍّ من أسماء الصَّحابة رِضْوان الله عليهم : كأبى بَكْرٍ، وعُمَر، وعُثمانَ، وعلىٍّ، وحَسَنٍ، وحُسَيْن، وما أشبه ذلك .

والنصارىٰ — تسمَّوْا باسم عيسٰى وغيره من الانبياء عليهم السلام ممن يعتقدون نُبوّته : كإبراهيم، وإسحاقَ، ويعقُوب، ويُوسفَ، وموسٰى؛ وكذلك أسماء الحوارِيِّين : كبُطْرُس، ويُوحَنَّا، وتُوما، ومَتّٰى، ولُوقَا، وسِمْعان، وبرتلوما، وأندراوس، ونحوها : كمُرْقُص، وبُولص، وغيرهما .

واليهود — تسمَّوْا باسم موسٰى عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين يعتقدون نُبوّتَهم : كإبراهيم، وإسحاقَ، ويعقوبَ، ويُوسفَ؛ ولم يتسمَّوْا باسم عيسٰى عليه السلام لإنكارهم نبوّتهُ .

*
* *

وأما مايُسْتحسن من الأسماء فما وردت الشريعةُ بالنَّدب إلىٰ التسمية به : كأسماء الأنبياء عليهم السلام، وعبد الله، وعبدِ الرحمن، ففى سُنَنِ أبى داود والتِّرْمذىّ من

رواية أبى وَهْبٍ الجُشَمِىّ أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال : «تَسَمَّوْا بأسماءِ الأنبياء، وأَحَبُّ الأسماءِ إلى اللهِ عبدُ اللهِ، وعبدُ الرحمن، وأصدَقُها حارثٌ، وهَمَّام، وأقبَحُها حَرْبٌ، ومُرَّةٌ» .

⁂

وأما ما يُسْتَقْبَح فما وردتِ الشريعةُ بالنهى عنه : إما لكَراهةِ لفظه كحربٍ ومُرَّة، وإما للتطَيُّر به كرَبَاح، وأفْلَح، ونَجِيح، وراجِح، ورافِع، ونحوها . ففى صحيح مسلم وغيره النهىُ عن التسمية بمثـل ذلك معلَّلا بأنك تقول : أَثَمَّ هو ؟ فيُقَال لا، وإما لعَظَمةٍ فيه : كالتسمية بشاهِنْشاهْ، ومعناه بالفارسية مَلِك الأملاك . ففى الصحيحين من رواية أبى هُرَيْرة أنه أَخْنَعُ اسمٍ . وقد ورد فى جامع الترمذىّ من حديث عائشة رضى الله عنها، «أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم كان يُغَيِّر الاسمَ القَبِيحَ» .

الجمـــــلة الثانية

(فى مواضع ذكر الأسماء فى المكاتَبات والوِلَايات)

أما المُكاتباتُ، فالأسماء التى تذكر فيها على أربعة أنواع :

النوع الأوّل

(اسم المكتوب عنـــه)

وذِكْره إنمـا يَقَع فى المكاتبات فى موضع الخُضُوع والتواضُع، إذ من شأن المكتوب عنه ذلك، وله مَحَلَّان :

المحل الأوّل — فى نفس المكاتَبة وذلك فيما إذا كانت المكاتبة بصورة «من فلان إلى فُلانٍ» كما كان يُكْتَب عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم : من محمد رسول الله إلى

فلانٍ ، وكما كان يُكْتَب عن الخلفاء : من عبدِ الله فلان أمير المؤمنـين إلىٰ فلانٍ ، وكما يُكْتَب الآن فى المكاتبات السلطانيــة إلىٰ ملوك المغرب ، وما يكتب عنهم إلىٰ الأبواب السلطانية ونحو ذلك .

المحل الثانى — العَلاَمة فى المكاتَبات كما يكتب المملوك فلان، أو أخوه فلان ، أوشا كِرُه فلانٌ، أوفلانٌ فقط ، ونحو ذلك علىٰ آختلاف المراتب الآتية علىٰ ماسيأتى الكلام عليه إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــــوع الثانى

(آسمُ المكتوب إليه، وله مَحلاَّن)

المحل الأوّل — ابتداء المكاتبــة كما يُكْتَب فى بعض المكاتبات «من فلان إلىٰ فلان، أو إلىٰ فلانٍ من فلانٍ» ونحو ذلك، وكما يكتب فى مكاتبات القانات، فُلَان خان، وكما يذكر آسم ملوك الكُفْر فى مكاتباتهم عن الأبواب السلطانية ونحو ذلك . وفيما عدا ذلك من المكاتبات المصدّرة بالتقبيل والدعاء وغيرهما من المصطلح عليــه فى زماننا وما قاربه لايُصَرَّح باسم المكتوب إليــه غالبا تعظيما له عن التفوّه بذكره ، إذ ترك التصريح بالآسم دليـلُ التعظيم والتوقير والتبجيلِ ، بخلاف الكُنْية واللَّقب ، فإنهما بصدد التعظيم للملقَّب أو المَكْنِىّ علىٰ ما سـيأتى بيانُه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ ولذلك لم يخاطِبِ اللهُ تعالىٰ نبيَّه محمدا صلّى الله عليه وسلم فى كتابه العزيز باسمه تشريفًا لمَقامه ، ورفعةً لمحله ، فلم يقل يامحمدُ ويا أحمدُ كما قال يا آدمُ ، يا نوحُ ، يا إبراهــيمُ ، ياموسىٰ ، ياعيسىٰ . بل قال ﴿ يـٰأيُّها الرَّسولُ . يـٰأيُّها النبىُّ ﴾ وقد صرَّح أصحــابنا الشافعيةُ وغيرهم أنه لايجوز نِداؤُه صلّى الله عليه وسلم بآسمه آحتجاجا بالآية الكريمة .

وفى كتاب ٱبن السنيّ عن أبي هريرة رضى الله عنه « أن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم رأىٰ رجُلًا معه غُلامٌ فقال للغُلَام : مَنْ هذا ؟ ـ قال أبِي ـ قال : فلا تَمْش أمامَهُ ولا تَسْتَسِبَّ له ، ولا تجلِسْ قَبْلَهُ ، ولا تَدْعُه بِٱسْمِه » .

المحل الثانى — العُنْوان من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ . كما يكتب فى عُنْوان بعض المكاتبات « مُطالَعة المملوك فلان » علىٰ ماسيأتى فى الكلام علىٰ العنوان . وإذا كان من تعظيم المخاطَب أن لايُخاطَب باسمه فكذلك فى مكاتَبَته : لأن المكاتبة الصادرةَ إلىٰ الشخص قائمةٌ مَقامَ خِطابه ، بل المكاتبة أجدرُ بالتعظيم لٱصطلاحهم فى القديم والحديث علىٰ ذلك .

النـــــوع الثالث

(ٱســم المكتوب بســـببه)

وهو ممـا لانقْصَ فيه بسبب ذكره ، إذ لا بُدّ من التصريح باسمه ليُعْرف ، اللهم إلا أن يَشْتَهِر حتّٰى تغنِيَ شُهرتُه عن ذكر ٱسمه ؛ وله محلان :

المحل الأوّل — فى الطرّة بأن يقال « هذا ماعَهِد به فُلَانٌ » إما الخليفةُ فى عهده بالخلافة أو السَّلْطنة ، أو السلطانُ فى عهده بالسلطنة علىٰ ماسـيأتى بيانُه . وفى معنىٰ ذلك البَيْعات بأن يقال « مبايعةٌ شريفة لفلان » ونحو ذلك .

المحل الثانى — صَـدْر الولاية حيث يقال : هذا ماعهِد عبدُ الله ووليُّه فلان ، أو من عبدِ الله ووليّـه فُلان ، ونحو ذلك علىٰ ٱختلاف المذاهب فى الٱبتـداء علىٰ ماسيأتى .

النـــــــوع الرابع

(آسم مَنْ تَصْدُر إليه الوِلايةُ، وله محلان)

المحل الأوّل — فى الطُّرّة إما فى العُهود حيث يقال: هذا ماعِهد فلانٌ إلىٰ فلان. و إما فى التقاليد والتواقيع والمَرَاسِيم، حيث يقـال: أن يُفَوّض إلىٰ فلان، أو أن يستقِرّ فلان، أو أن يرتّب فلانٌ.

المحل الثانى — أثناء الولاية حيث يقـال: أن يُفوّض إلىٰ فلان، أو أن يستقِرّ فلان، أو أن يُرتّب فلان، علىٰ نظير ما فى الطرّة؛ أما المولّى عليه فقلَّ أن يُذْكَر كما فى التحدّث علىٰ شخص معيَّن ونحوه.

الطَّـــــرَف الثـانى

(فى الكُنىٰ)

والكُنْية عند النُّحاة أحد أقسام العَلَم أيضا، والمراد بها ماصُدِّر بأبٍ أو أُمٍّ، مثل أبى القاسم، وأمّ كُلْثُوم وما أشبه ذلك. وقد كان للعرب بالكُنىٰ أتمُّ العِناية، حتّىٰ إنهم كنَّوْا جملةً من الحيوان بكُنًى مختلفةٍ: فكَنَّوُا الأسدَ بأبى الحارِث، والثعلبَ بأبى الحُصَيْن، والدِّيكَ بأبى سُلَيمان، وكَنّوا الضَّبُعَ بأمّ عامرٍ، والدَّجاجةَ بأمّ حَفْصَة، والجَرادةَ بأُمّ عَوْف ونحو ذلك. وفيه ثلاثُ جمل:

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى جواز الكُنْية ، وهى علىٰ نوعين)

النـــــوع الأوّل

(كُنىٰ المسلمين)

قال الشيخ محيي الدين النووىّ رحمه الله فى كتابه "الأذكار" : وجوازُ التكنِّى أشهرُ من أن نذكُر فيه شيئًا منقولا ، فإن دلائله يشترك فيها الخواصّ والعوامّ . قال : والأدبُ أن يُخاطَب أهلُ الفضل ومَنْ قاربهم بالكُنْية ، وكذلك إن كَتَب إليه رسالةً ، أو روىٰ عنه روايةً . فيقال : حدثنا الشيخ أو الإمامُ أبو فلانٍ فلانُ بنُ فلان وما أشبهه .

وآعلم أن الأوّلين أكثرُ ما كانوا يعظّمون بعضُهم بعضا فى المخاطبات ونحوها بالكُنىٰ ، ويَرَوْن ذلك فى غاية الرِّفعة ونهاية التعظيم حتّى فى الخلفاء والمُلُوك : فيقال : أبو فُلان فُلانٌ ، وبالَغُوا فى ذلك حتّى كَنَّوْا من آسمُه فى الأصل كُنْيةٌ فقالوا فى أبى بكر «أبو المَناقِب» آعتناءً بشأن الكُنْية ؛ وربما وقف الأمرُ فى الزمنِ القديم فى تكنِيَة خاصّة الخليفة وأمرائه علىٰ ما يكَنِّيه به الخليفةُ ، فيكون له فى الرِّفْعة منتهًى ينتهى إليه ؛ ثم رجع أمرُهم بعد ذلك إلىٰ التعظيم بالألقاب . علىٰ أن التعظيم بالكُنىٰ باقٍ فى الخلفاء والمُلُوك فمَنْ دُونَهم إلىٰ الآنَ علىٰ ما ستقف عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالىٰ ، وكذلك القُضاةُ والعلماء ، بخلاف الأمراء والجُنْد والكُتّاب ، فإنه لاعِنايةَ لهم بالتكنِّى .

ثم لا فرق فى جواز التكنِّى بين الرجال والنساءِ، فقد كانت «عائشةُ» أمُّ المؤمنين رضى الله عنهـا تكَنَّى «بأمّ عبدِ الله» وكذلك غيرُها من نساء الصحابةِ والتابعـين كان لهنَّ كُنًى يكْتَنِين بها .

النـــــوع الثـــانى

(كُنىٰ أهل الكُفْر والفَسَقة والمبتدِعين)

قال النووىّ : والكافِرُ والفاسقُ والمبتـدِعُ إن كان لا يُعْرَف إلا بالكُنْية جاز تكْنِيَته . قال تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وآسمه عبدُ العُزّى، قيـل : إنه ذكر تكنِيَتَه لكونه كان لا يُعْرَف إلا بها، وقيل : كراهةً لآسمه حيثُ جُعِل عبدًا للصَّنَم؛ وقد تكرر فى الحديث ذكْرُ أبى طالبٍ بكنيته ، وآسمه عبـدُ مَنَاف . وفى الصحيح أنه صلّى الله عليه وسلم «لَمَّـا مَرّ بأرضِ الحِجْر من الشأْم ، قال هذا قَبْرُ أبِى رِغَالٍ» لعاقرِ الناقةِ من قومِ ثَمُودَ . قال : وكذلك إذا خِيف من ذكره باسمه فِتنةٌ، كما ثبت فى الصحيحين «أن رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلم رَكِبَ علىٰ حِمَارٍ ليعُودَ سَعْدَ بنَ عُبَادةَ رضى الله عنه، فمَرّ فى طَرِيقه علىٰ عبدِ الله بنِ أُبَيِّ ابنِ سَلُولَ المنافِقِ ، وما كان من بَذَاءته علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم حِينَ مَرّ عليه ، وأن النبىّ صلّى اللهُ عليه وسلم سار حتّى دخل علىٰ سَـعْدِ بنِ عُبادةَ ـ فقال النبىّ صلى الله عليه وســلم : ألم تَسْمَعْ إلى ماقال أبو حُبَابٍ ؟ (يريدُ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ آبنَ سَلُولَ) قال كذا وكذا . وذكر الحديثَ . قال : فإن كان يُعْرَف بغير الكُنْية ولم تُخَفْ فتنةٌ لم يُزَدْ علىٰ الآسم كما ثبت فى الصحيحين أن النبىَّ صـلى الله عليه وسـلم كتَبَ «من محمدٍ عبدِ الله ورسولِهِ إلىٰ

هِرَقْل » فسمّاه باسمه ولم يكَنّه ولا لقّبه بملِك الرُّوم . قال : ونظائر هذا كثيرة، وقد أُمِرْنا بالإغلاظ عليهم، ولا ينبغي لنا أن نُكنّيهم، ولا نَرْفُق بهم، ولا نُلِين لهم قولا، ولا نُظْهِر لهم وُدّا ولا مؤالفة .

الجملة الثانية

(فيما يُكْنَى به، وهو على نوعين)

النوع الأوّل

(كُنَى الرجال، ولها حالان)

الحال الأول — أن يكون للرجل ولدٌ أو أولادٌ . قال النوويّ : فإن كان له ولدٌ يُكَنَّى به، ولا فرقَ في ذلك بين أن يكون الولد ذكرًا أو أنثى، فيجوز تكنية الرجل بأبي فلانةَ كما يجوز بأبي فلان . فقد تكنّى جماعةٌ من أفاضل السَّلَف من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بأبي فلانةَ، فمن الصحابة أبو لَيْلَى : والدُ عبد الرحمن بن أبي لَيْلَى، وأبو فاطمةَ الليثيُّ، وأبو مَرْيَم الأزْديُّ، وأبو رُقَيَّةَ تميمٌ الداريُّ، وأبو زُرْعة المِقْدادُ بن معدِي كرِبَ . ومن التابعين أبو عائشةَ مَسْروقُ بن الأجْدَع وخلائقُ لا يُحْصَوْن . وإن كان له أولادٌ يكنّى بأكبرهم : فقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُكَنَّى بأبي القاسم، وكان القاسمُ أكبرَ بنيه .

وفي سُنَنِ أبي داودَ والنَّسائيّ عن شُرَيْح الحارثيّ أنه وَفَد على رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم مع قَوْمِهِ فسَمِعهم يُكَنُّونه بأبي الحَكَم، فدعاه رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : إنَّ اللهَ هو الحَكَمُ وإليه الحُكْم ! فلِمَ تُكَنَّى أبا الحَكَم ؟ — فقال : إنَّ قومي

اختلفوا فى شىء فأتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسن هذا ! فما لك من الولد؟ ـ قال : شريح، ومسلم، وعبد الله ـ قال : فمن أكبرهم؟ ـ قال ـ شريح ـ قال : فأنت أبو شريح »

فلو تكنى بغير أولاده فلا بأس به قاله النووى . ثم قال : وهـذا الباب واسع لا يحصى من يتصف به .

وقد اختلف فى جواز التكنى بأبى القاسم : فنص الشافعى رضى الله عنه على أنه لا يجوز التكنى بذلك مطلقا، لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال «تسموا باسمى ولا تكتنوا بكنيتى» . وذهب ذاهبون إلى تخصيص ذلك بحياته صلى الله عليه وسلم احتجاجا بأن المنع فيـه كان لعلة : وهى أن اليهود كانوا ينادون يا أبا القاسم ! فإذا التفت النبى صلى الله عليه وسلم قالوا : لم نعنك ، قصدا لإيذائه صلى الله عليه وسلم وقد زالت هـذه العلة بوفاته صلى الله عليه وسـلم ، واختاره النووى من أصحابنا الشافعية . وذهب آخرون إلى تخصيص المنع بما إذا جمع لواحد بين الاسم والكنية، بأن يتسمى محمدا و يتكنى بأبى القاسم، بخلاف ما إذا لم يكن اسمه محمدا فإنه يجوز، وهو وجه قوى .

الحال الثـانى ــ أن لا يكون للرجل ولد بأن لم يولد له ولد اصـلا ، قال النووى : فيجوز تكنيته حتى الصغير . ففى الصحيحين عن انس بن مالك رضى الله عنه قال : « كان النبى صلى الله عليـه وسلم أحسن الناس خلقا، وكان لى أخ يقال له أبو عمير (قال الراوى) : أحسبـه فطيما ، وكان النبى صلى الله عليه وسـلم إذا جاء يقول يا أبا عمير ، ما فعل النغير ؟ لنغير كان يلعب به » . قال النووى : وكان من الصحابة رضوان الله عليهـم جماعات لهم كنى قبـل ان يولد لهم ،

كأبى هريرةَ وخلائقَ لا يُحْصَوْن من التابعين فمن بعدهم . قال : ولا كراهةَ فيه بل هو محبوب بشَرْطه .

وآعلم أن الرجل قد يكون له كُنيتانِ فأكثرُ ، فقد كان لأمير المؤمنين عثمانَ بن عفّانَ رضى الله عنه ثلاثُ كُنًى : أبو عَمْرو ، وأبو عبد الله ، وأبو لَيْلىٰ .

النـــوع الثانى
(كُنىٰ النساء)

والحال فيه أنه إن كان للمرأةِ ولدٌ تكنّتْ به ذكرا أو أنثىٰ ، كما تقدّم فى الرجل . وإن كان لها أولاد تكنّتْ بأكْبَرِهم مع جواز الكُنْية بغير أولادِها كما فى الرجل أيضا . قال النووىّ : ويجوز تكنيَتُها ولو لم يُولَدْ لها ، ففى سُنَن أبى داودَ وغيره بأسانيدَ صحيحةٍ عن عائشةَ رضى الله عنها قالت : « يارسولَ اللهِ كُلُّ صَوَاحِبى لَهُنّ كُنًى ، قال : فاكْتنِي بابْنِك عَبْدِ اللهِ ـ يعنى عبدَ الله بنَ الزُّبير ، وهو آبن أختها أسماءَ ، وكانت عائشةُ رضى الله عنها تكنىٰ أمَّ عبدِ الله » قال : هذا هو الصحيح المعروف . وما رواه آبن السنىّ عن عائشة أنها قالت «أَسْقَطْتُ من النبىّ صلى الله عليه وسلم سِقْطا فسمّاه عبدَ الله » فحديث ضعيف . ثم كما تجوز تكنيةُ الرجل بأبى فلانة ، يجوز تكنية المرأة بأمّ فلانةَ من باب أوْلىٰ .

الجمـــــــلة الثـالثة

(فى التكنّى فى المكاتبـات والولايات)

فأما الكُنْية فى المكاتبات فعلىٰ ثلاثة أنواع :

النوع الأوّل

(تكنّى المكتوبِ عنـــه)

قال محمد بن عمر المداينى فى كتاب "القلم والدواة" : أوّلُ من آكتنىٰ فى كُتُبه «الوليدُ بنُ عبد الملك» . قال النووىّ فى "الأذكار" : والأدبُ أن لايذْكُر الرجلُ كنيتَه فى كتابه ولا فى غيره إلا أن لايُعْرف إلا بِكُنْيته، أو كانت الكنية أشهَرَ من آسمه . وقال أبو جعفر النحاسُ : إذا كانت الكنيةُ أشهرَ، يكنّى علىٰ نظيره ويسمّى لمَنْ فوقَه ثم يُلْحَقُ «المعروفَ أبَا فُلانٍ، أو بأبِى فُلانٍ» .

ثم الكنية من المكتوب عنـه قد تكونـ فى صَـدْر الكتاب كما يُكْتَب عن الخلفاء « من عبد الله ووَلِيّه أبِى فلانٍ فلانٍ أميرِ المؤمنـين » أو فى موضع العَلَامة كما يكتب فى الطغراة من السـلطان لملوك الكُفْر بعـد سِيَاقة ألقـاب السـلطان « أبُو فُلانٍ فلانٌ » أو فى العُنْوان كما كان يكتب فى المصطلَح القديم «من أبِى فلانٍ فلان إلىٰ فُلانٍ » .

النوع الثانى

(تَكْنِيَة المكتوب إليـــه)

وبه كان الاعتناء فى الزمن المتقدّم لا سيّما إذا كان المكتوبُ إليه ممّن يَسْتحِقُّ التعظيمَ بالتكنِيَة . وكنيةُ المكتوبِ إليـه[1] تارةً تكون فى عُنْوان الكتاب كما يُكْتَب « إلىٰ أبى فُلانٍ فُلان » وتارة تكون فى صَــدْر الكتاب كما كان يكتب « من فُلان إلىٰ أبى فُلانٍ فُلانٍ» .

النوع الثـالث

(تكنيةُ المكتوب بسببه)

وهى تارةً تذكر فى طُـرّة الكتاب فيقـال فيمن قُصِـد تعظيمه « بمـا قصــده أبُو فلان فُلان» وآستعماله قليل . وتارة تذكر فى أثناء الكتاب حيث يجرى ذكُره .

* * *

وأما الكنية فى الولايات فلها محلان :

أحدهما ــ فى طُرّة الولاية، حيث يقال : «عَهْد شريف [لأبى فُلانٍ][2] فُلان» أو «تقليدٌ شريفٌ بأن يُفَوّض إلىٰ [أبى فلانٍ][2] فُلان» .

والثانى ــ فى أثناء الولايات حيثُ يجرِى ذكُره علىٰ ماسيأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) فى الأصل عنه، وهو غير مناسب، والتصحيح عن الضوء للؤلف .

(٢) الزيادة عن الضوء .

الفصــــل الثــانى

من البــاب الأوّل من المقـالة الثـالثة

(فى الألقاب، وفيه طرفان)

الطَّرَف الأوّل

(فى أصول الألقاب، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى معنى اللَّقَب والنَّعْت، وما يجوز منه و يمتنِـع)

أما اللقب فأصلُه فى اللغة النَّــبَزُ ــ بفتح البـاء . قال ابن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" : والنَّبَز مايخاطِبُ به الرجلُ الرجلَ من ذكر عيوبه وما سَتْره عنده أحبُّ إليه من كَشْفه، وليس من باب الشَّتْم والقَذْف .

***

وأما النعتُ فأصله فى اللغة الصِّفَة . يقال : نعتَه يَنْعَتُــه نَعْتا إذا وصَفَه . قال فى "ذَخيرة الكُتَّاب" : وهو مُتَّفَق علىٰ أنه ما يختاره الرجل ويُؤْثِره ويزيد فى إجلاله ونَبَاهتــه، بخلاف اللَّقَب . قال : لكن العامَّةُ ٱستعملت اللقَبَ فى موضع النَّعْت الحَسَن، وأوقعوه مَوْقِعَه لكثرة ٱستعمالِهِمْ إيَّاه، حتّىٰ وقع الاتِّفاق والاصطِلاحُ علىٰ استعماله فى التشريف والإجلال والتعظيم والزيادةِ فى النَّبَاهة والتَّكْرِمة .

قلت : والتحقيق فى ذلك أن اللَّقَب والنعت يُستعملانِ فى المَدْح والذمِّ جميعا : فمِن الألقاب والنُّعوت ماهو صِــفةُ مدحٍ ومنها ما هو صِــفةُ ذمٍّ . وقد عرَّفت النحاةُ اللقَبَ بأنه ما أدّىٰ إلىٰ مَــدْح أو ذمٍّ ؛ فالمؤدِّى إلىٰ المدح كأميرِ المؤمنين ،

وزَيْنِ العابِدين ؛ والمؤدّى إلىٰ الذمّ كأنْف النــاقة وسـعيدِ كُرْز وما اشبه ذلك . والنعتُ تارةً يكون صـفةَ مدح ، وتارةً يكون صـفةَ ذمّ ؛ ولا شكّ أن المراد هنا من اللقب والنَّعْت ماأدّى إلىٰ المدح دُونَ الذمّ . وقد ٱصطلح الكُتّاب علىٰ ان سَمَّوْا صِفاتِ المدح التى يُوردونها فى صُدور المُكاتبات ونحوها بصـيغة الإفراد كالأميرِ والاميرىّ والأجلّ والأجلّىّ والكَبِير والكَبِيرىّ ونحو ذلك ألقاباً ؛ وصِـفاتِ المدح التى يُوردُونها علىٰ صـورة التركيب كسَيْف أمير المؤمنـين وظَهِير الملوك والسّلاطين ونحو ذلك نُعوتاً ؛ ولامعنىٰ لتخصيص كلّ واحدٍ منهما بالأسم الذى سَمَّوْه به إلا مجرّدُ الأصطلاح ؛ ولا نزاع فى إطلاق اللقَب والنعْتِ عليهما باعتبارين : فمن حيث إنها صفاتٌ مؤدّيةٌ إلىٰ المدح يُطْلَق عليها ٱسمُ اللقَب ، ومن حيث إنهـا صفاتٌ لذواتٍ قائمةٌ بها يطْلَق عليها ٱسمُ النعْتِ .

* * *

وأما مايجوز من ذلك ويمتنع ، فالجـائز منه ما أدّى إلىٰ المَدْح ممـا يحبُّه صاحبه ويُؤْثِره ، بل ربما ٱستُحِبّ ، كما صرح به النووىّ فى «الأذكار» للإطباق علىٰ ٱستعماله قديمـا وحديثًا . والممتنع منه ماأدّى إلىٰ الذمّ والنَّقِيصةِ ممـا يكْرَهه الإنسان ولا يُحِبُّ نسبتَه إليه . قال النووىّ : وهو حرام بالأتفاق ، سواء كان صفةً له : كالأعْمَش ، والأجْلَح ، والأعمىٰ ، والأحْوَل ، والأبْرَص ، والأشجّ ، والأصْـفَر ، والأحْدَب ، والأصَمّ ، والأزْرَق ، والأشْـتَر ، والأثْرَم ، والأقْطَع ، والزَّمِن ، والمُقْعَد ، والأشَلّ ، وما أشبه ذلك . أو كان صفة لأبيه : كابنِ الأعمىٰ ، أو لأمّه : كابن الصَّوْراء ونحو ذلك مما يكرهه قال تعالىٰ : ﴿ولا تَنَابَزُوا بِالألْقاب بِئْسَ الٱسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ﴾

قال : وآتفقوا على جواز ذكره بذلك على جهة التعريف لمن لايعرفه إلا بذلك؛ ودلائل ذكره كثيرة مشهورة، وهو أحد المواضع التى تجوز فيها الغيبة .

الجمـــلة الثـانية

(فى أصل وضع الألقاب والنعوت المؤدّية إلى المدح)

وآعلم أن ألقـاب المدح ونعوته لم تزل واقعـة على أشراف الناس وجلّة الخلق فى القديم والحديث؛ فقد ثبت تلقيب إبراهيم عليه السلام بـ«الخليل» وتلقيب موسى عليه السلام بـ«الكليم» وتلقيب عيسى عليه السلام بـ«المسيح» وتلقيب يونس عليه السلام بـ«ذى النون» وكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يلقّب قبل البعثة بـ«الأمين» ووردت التواريخ بذكر ألقاب جماعة من العرب فى الجاهلية : كذى يزن، وذى المنار، وذى نواس، وذى رعين، وذى جدن، وغيرهم ممـا هو مشهور شائع . وكذلك وقعت ألقاب المـدح على كثير من عظماء الإسـلام وأشرافه كالصحابة رضوان الله عليهم فمن بعدهم من الخلفاء والوزراء وغيرهم : فكان لقب أبى بكر «عتيقا» ثم لقّب بـ«الصّدّيق» بعـد ذلك، ولقب عمر «الفـاروق» ولقب عثمان «ذا النورين» ولقب علىّ «حيدرة» ولقب حمزة بن عبدالمطلب «أسد الله» ولقب خالد بن الوليد «سيف الله» ولقب عمرو بن عمرو (1) «ذا اليدين» ولقب مالك بن التّيّهان الأنصارىّ «ذا السّيفين» ولقب خزيمة بن ثابت الأنصارىّ «ذا الشّهادتين» ولقب جعفر بن أبى طالب بعد آستشهاده «ذا الجناحين» .

وأما الخلفاء، فخلفاء بنى أميّة لم يتلقب أحد منهم، فلما صارت الخلافة إلى بنى العبّـاس وأخذت البيعة لإبراهيم بن محمد، لقّب بـ«الإمام» ثم تلقب من بعده من

(1) فى كتب اللغة والحديث أن اسمه الخرباق فلعل فيه خلافا .

خلفائهم : فتلقّب محمدُ بن علىّ بـ«السَّفّاح» لكثرة ماسفَح من دماء بنى أُمَيَّة . واختُلِف فى لقبه بالخلافة : فقيل «القائم» وقيل «المهتدى» وقيل «المرتضى» وألقابُ الخُلفاء بعده وإلى زماننا معروفة مشهورةٌ على ما مرّ ذكره فى المقالة الثانية . وعلى ذلك كانت ألقابُ خلفاء بنى أُمَيَّةَ بالأندلُس إلى حين انقراضهم على ما هو مذكور فى مكاتبة صاحب الأندلس ، على ماسيأتى فى المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء اللهُ تعالى .

ثم تعدّت ألقابُ الخلافةِ إلى كثيرٍ من ملوكِ الغَرْب بعد ذلك ، وتلا الخلفاءَ فى الألقاب الوزراءُ لاستقبال الدولة العباسيّة وما بعد ذلك : فلُقِّب أبوسلمةَ الخَلّالُ وزيرُ السَّفّاح بـ«وزير آل محمد» ولَقَّب المهدىُّ وزيرَه يعقوبَ بن داودَ بن طَهْمان «الأخَ فى الله» ولَقَّب المأمونُ الفضلَ بنَ سهل حين استوزره «ذا الكِفايَتَيْن» ولَقَّب أخاه الحسنَ بن سَهْل «ذا الرِّياسَتَيْنِ» ولَقَّب المعتمدُ على الله وزيرَه صاعِدَ ابنَ مخلد «ذا الوزارتَيْنِ» إشارة إلى وزارة المعتمد والموفّق ؛ وكان لقبُ إسماعيل ابن بلبل الشكور «الناصرَ لدين الله» كألقاب الخلفاء .

وكذلك وقع التلقيبُ لجماعة من أرباب السُّيوف وقُوّاد الجيوش : فتلقب أبو مُسْلم الخُراسانىّ صاحبُ الدَّعوة بـ«أمير آل محمد» . وقيل «سَيْف آل محمد» وتلقب أبو الطيِّب طاهرُ بن الحسين بـ«ذى اليمينَيْن» ولَقَّب المعتصمُ بالله حيدرَ ابن كاووس بـ«الأَفْشين» لأنه أُشْرُوسَنِىٌّ ، والأَفْشِينُ لقبٌ على الملك بأُشْرُوسَنَةَ ولُقِّب إسحاق بن كيداح أيامَ المعتمد بـ«ذى السَّيفَيْنِ» ولُقِّب مُؤْنِس فى أيام المقتدر بـ«المظَفَّر» ولُقِّب سلامةُ أخو نُجْح أيام القاهر بـ«المؤتَمَن» ولُقِّب أبو بكر ابن محمد بن طُغْج(١) الراضى بالله بـ«الأخْشِيد» والأخْشيد لَقَبٌ على الملك بفَرْغانة .

(١) معنى طغج عبد الرحمن كما فى ابن خلكان .

ثم وقع التلقيب بالإضـافة إلىٰ الدَّوْلة فى أيام المكتفِى بالله : فلقَّب المكتفِى أبَا الحُسَيْنِ بنَ القاسم بنِ عُبَيْـد الله « وَلىَّ الدولة » (١) ، وهو أوّل من لُقِّب بالإضافة إلىٰ الدولة ، ولَقَّب المقتدرُ بالله علىَّ بنَ أبى الحسين (١) المتقدّم ذكره «عَمِيدَ الدولة» .

ووافت الدولة البُوَيْهِيَّة أيام المُطِيع لله والأمرُ جارٍ علىٰ التلقيب بالإضافةللدولة ، فافتُتِحت ألقاب المُلوك بالإضافة إلىٰ الدولة ، فكان أوّل من لُقِّب بذلك من الملوك بَنُو بُوَيْه الثـلاثة : فلُقِّب أبو الحسن علىّ بن بُوَيْه بـ«عِمَاد الدولة » ولقِّب أخوه أبو علىّ الحسنُ بـ«رُكْن الدولة» وأخوهما أبو الحُسَين أحمدُ بـ«مُعِزّ الدولة» ثم وافىٰ «عضُدُ الدولة» من بعـدهم فاقترح أن يلَقّب بـ«تاج الدَّوْلة» فلم يُجَبْ إليـه وعُدِل به إلىٰ « عَضُـد الدولة » ؛ فلما بذل نفْسه للمعاونة علىٰ الأتراك ، آختار له أبو إسحاق الصابى صاحبُ ديوان الإنشاء « تاجَ المِلَّة » مضافا إلىٰ عَضُد الدولة ؛ فكان يقال « عَضُـد الدولة وتاجُ المِلَّة » ولُقِّب أبو محمد الحسنُ بنُ حَمْدانَ أيامَ المتقى لله «ناصِرَ الدولة» ولُقِّب أخوه أبو الحسن علىُّ بنُ حَمْدان «سَيْفَ الدولة» .

وبقِىَ الأمرُ علىٰ التلقيب بالإضافة إلىٰ الدولة إلىٰ أيام القـادر بالله فافتتَح التلقيبُ بالإضافة إلىٰ الدين . وكان أوّلَ مَنْ لقِّب بالإضافة إليه أبو نَصْر بهـاءُ الدولة بنُ عَضُـد الدولة بنِ بُوَيه ، زِيدَ علىٰ لقبـه بهاءِ الدولة « نِظامُ الدِّين » فكان يقال «بهـاءُ الدولة ونِظَام الدِّين» قال آبن حاجب النعمان : ثم تزايد التلقيبُ به وأَفْرَط ، حتّى دخل فيـه الكُتّاب والجُنْـد والأعرابُ والأكراد ، وسائرُ من طَلَب وأراد ، وكره (؟) حتّى صار لقبا علىٰ الأصل . ولا شـك أنه فى زماننا قد خرج عن الحدّ

(١) لم يذكر فى الضوء لفظ الاب فى المحلين .

حتّٰى تعاطاه أهلُ الأسواق ومَنْ فى معناهم ، ولم تَبِق به مِيزةٌ لكبير علىٰ صغير ، حتى قال قائلهم :

طَلَع الدِّينُ مستغيثًا إلىٰ اللهِ* وقال : العِبادُ قد ظَلَمُونى !
يَتَسَمَّوْن بى ، وحقك لا أعـ*ـرِفُ مِنْهُمْ شخصًا ولا يَعرِفُونِى !

أما الديارُ المِصرية فكان جريهم فى الألقاب علىٰ ما ينتهى إليهم خبرُه من ألقاب الدولة العباسِيَّة ببغدادَ ، فتلقب خلفاءُ الفاطِميِّين بها بنحو ألقاب خُلَفاء بنى العَبَّاس ببغداد ، فكان لقبُ أوّل خلفائهم بها «المعِزّ لدين الله» وثانيهم بها «العزِيز بالله» وعلىٰ ذلك إلىٰ أن كان لقبُ آخرهم «العاضِد لدِين الله» علىٰ ما تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ مُلوك الديار المِصْرية .

وتلقَّب وُزَراؤهم وكُتّابهم بالإضافة إلىٰ الدولة ؛ وممن لُقِّب بذلك فى دولتهم «وَلِىّ الدولة» بنُ أبى كُدَيْنَة وزيرُ المستنصر ، وأيضا «ولىُّ الدولة» بنُ خَيْران كاتبُ الإنشاء المشهور . ولما صارت الوزارة لبدر الجمالىّ تلقَّب بـ«أمير الجُيُوش» . ثم تلقب الوُزَراء بعده بنحو «الأفْضَل» و «المأمُون» . ثم تلقبوا بالمَلك الفُلانىّ ، كـ«الملك الأفْضَل» و «الملك الصالح» ونحو ذلك علىٰ ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

وكان الكُتّاب فى أواخر الدولة الفاطميّة إلىٰ أثناء الدولة الأيُّوبيّة يلقّبون بـ«الفاضل» و «الرَّشيد» و «العِماد» وما أشبه ذلك ؛ ثم دخلوا فى عموم التلقيب بالإضافة إلىٰ الدين ، واختص التلقيب بالإضافة إلىٰ الدولة كولىّ الدولة بكُتّاب النصارىٰ ، والأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ الآنَ .

الطرف الثـانى

(فى بيان معانى الألقاب، وفيه تسعُ جملٍ)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى الألقابِ الخاصّة بأرباب الوظائف المعتبَرة التى بهـا ٱنتظامُ أمور المملكة وقِوامُها؛ وهى قسمان)

القســم الأوّل

(الألقابُ الإسلاميّة؛ وهى نوعان)

النـــوع الأوّل

(الألقاب القديمةُ المتداوَلة الحُكْم إلىٰ زماننا، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(ألقاب أرباب السيوف، وهى سبعةُ ألقاب)

الأوّل — الخليفةُ . وهو لَقَبٌ علىٰ الزعيم الأعظم القائِم بأمور الأُمَّة؛ وقد ٱختُلِف فى معناه، فقيل : إنه فَعِيلٌ بمعنىٰ مفعول، كجَرِيح بمعنىٰ مجْروح، وقَتِيل بمعنىٰ مَقْتول ويكون المعنىٰ أنه يَخْلُفه مَنْ بعده؛ وعليه حمل قوله تعالىٰ ﴿إنِّى جَاعِلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ علىٰ قول من قال : إن آدم عليه السلام أوّلُ من عَمَر الأرضَ وخَلَفه بَنُوه من بعده . وقيل : فَعِيل بمعنىٰ فاعل، ويكون المراد أنه يَخْلُف من بعـده (١) ، وعليه حمل الآيةَ من قال إنه كان قبْـلَه فى الأرض الجنُّ وإنه خَلَفهم فيهـا ، وٱختاره النَّحّاس

(١) كذا فى الضوء أيضا وفى نسخة أخرى والأظهر من قبله .

فى "صناعة الكُتّاب" : وعليه اقتصر البَغَوىّ فى "شرح السُّنّة" والماوَرْدِىُّ فى "الأحكام السُّلْطانية". قال النحّاس : وعليه خُوطِب أبو بكر الصِّدّيق رضى اللهُ عنه بخليفةِ رسولِ الله .

وقد أجازوا أن يُقال فى الخليفة « خَليفةُ رسول الله » لأنه خَلَفه فى أُمّته . واختلفوا هل يجوز أن يُقال فيه خَليفةُ الله : فجوّز بعضهم ذلك لقيامه بحقوقه فى خَلْقه محتجّين بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ وامتنع جُمْهور الفقهاء من ذلك محتجّين بأنه إنما يَسْتَخْلِف من يَغيب أو يموتُ واللهُ تعالى باقٍ موجود إلى الأبَد لايَغيب ولا يموتُ . و يؤيّد مانُقِل عن الجمهور بما رُوِى أنه قيل لأبى بكرٍ رضى الله عنه : ياخليفَةَ الله — فقال : لَسْتُ بخَليفةِ اللهِ ولكنّى خليفةُ رسولِ اللهِ ، وقال رجل لعمَرَ بن عبد العزيز : ياخليفَةَ اللهِ — فقال : وَيْلَكَ ! لقد تَناوَلْتَ مُتناوَلًا بَعيدا ! إنّ أُمّى سمّتنِى عُمَرَ ، فلو دعَوْتَنِى بهذا الاسم قبِلْتُ ، ثم كَبِرت فكُنّيتُ أباحَفْصٍ ، فلو دعَوْتَنِى به قبِلْتُ ، ثم ولَّيتمُونى أُمورَكم فسمّيتمونى أميرَالمؤمنين ، فلو دعَوْتَنِى به كفاك . وخصّ البغوىُّ جوازَ إطلاقِ ذلك بآدمَ وداودَ عليهما السلام ، محتجًّا بقوله تعالى فى حق آدم : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقوله فى حَقّ داود : ﴿يادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ﴾ ثم قال : ولا يسمّى أحدٌ خليفةَ الله بعدهما . قال فى "شرح السنّة" : ويسمّى خليفةً وإن كان مخالفا لسيرة أئمة العَدْل .

ثم قد كَرِه جماعةٌ من الفقهاء منهم « أحمدُ بنُ حنبل » إطلاقَ اسم الخليفةِ على ما بعدَ خلافةِ « الحسنِ بنِ علىّ » رضى الله عنهما فيما حكاه النحاسُ وغيره ، محتجّين بحديثِ «الخِلافةُ بَعْدِى ثَلاثُونَ» يعنى ثلاثين سنة ، وكان انقضاءُ الثلاثين بانقضاء

خلافةِ الحَسَن، ولمـا آنقضت الخلافةُ صارت مُلْكا . قال المعافىٰ بن إسماعيل فى تفسيره : وقد رُوِى أن عُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنه سأل طلحةَ والزُّبَيْرَ وكَعْبا وسَلْمانَ عن الفَرْق بين الخَليفة والمَلِك ـ فقال طلحةُ والزبير لانَدْرِى ـ فقال سَلْمانُ : الخليفةُ الذى يَعْـدل فى الرعيَّه، ويَقْسِم بينهم بالسَّوِيَّه، ويُشْفِق عليهم شَفقةَ الرجل علىٰ أهله والوالِدِ علىٰ وَلَده، ويقضى بينهم بكتابِ الله تعالىٰ ـ فقال كعب : ما كُنْتُ أَحْسَب أن فى هذا المجلِس مَنْ يُفَرِّق بين الخليفة والمَلِك، ولكِنَّ الله ألهم سَلْمانَ حُكْما وعِلْمـا ! .

وآختُلِف فى الهـاء فى آخره : فقيـل أُدْخِلت فيه للمبالغـة كما أُدْخِلت فى رجلٍ داهيـةٍ وراوِيَةٍ وعَلّامة ونَسّابة وهو قول الفَرّاء، وآستحســنه النحاسُ ناقلا له عن أكثر النحويين وخَطَّأه علىُّ بنُ سـليمانَ محتجًّا بأنه لو كان كذلك لكان التأنيثُ فيـه حقيقيًّا . وقيـل : الهـاء فيه لتأنيث الصِّـيغة . قال النحاس : وربمـا أسقطُوا الهـاءَ منه وأضافُوه فقالوا «فلانٌ خَلِيفُ فلانٍ» يعنون خليفتَهُ .

ثم الأصل فيه التذكيرُ نظرا للمعنىٰ لأن المراد بالخليفـة رجلٌ وهو مذكَّر ، فيقال أمر الخليفةُ بكذا علىٰ التذكير، وأجاز الكوفيُّون فيه التأنيثَ علىٰ لفظِ خليفـةٍ فيقال أمرتِ الخليفةُ بكذا، وأنشد الفرّاء .

* أبُوكَ خَلِيفةٌ ولَدَتْه أُخْرىٰ *

ومنعه البَصْريون محتجين بأنه لو جاز ذلك لجاز قالتْ طلحةُ فى رجل اسمه طلحةُ وهو ممتنع . فإن ظهر آسمُ الخليفة تعين التذكيرُ باتِّفاق فتقول قال أبُو جعفرٍ الخليفةُ او قال الراضى الخليفةُ ونحو ذلك . ويجمعُ علىٰ خُلَفَاء ككريم وكُرَماء، وعليه ورد قوله تعـالىٰ : ﴿ وَآذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وعلىٰ خَلائِفَ كصحيفةٍ

وصحائف ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرض﴾ والنسبةُ إليـه خَلَفِىّ كما يُنْسَب إلىٰ حنيفة حَنَفِىّ . وقول العامة درهم خَلِيفَتِىّ ونحوه خطأ ، إذ قاعدةُ النسب أن يحذَفَ من المنسوب إليـه الياء وهاء التأنيث علىٰ ما هو مقرّر فى علم النحو . وممن وَهِم فى ذلك المقرُّ الشهابىُّ بنُ فضـل الله رحمـه الله فى كتابه "التعريف" حيث قال : وأوّل مانبدأ بالمكاتبةِ إلىٰ الأبواب الشريفة الخَلِيفَتِيَّة ، ولعله سبقُ قلم منه ، وإلا فالمسألة أظهرُ من أن يجهلَها أو تخفىٰ عليه .

الثانى — المَلِك . وهو الزَّعِيم الأعظمُ ممن لم يُطْلَق عليه ٱسمُ الخلافة ، وقد نطق القرءانُ بذكره فى غير موضعٍ كما فى قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ﴿وقال المَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات . ويقال فيـه مَلْك بكسر اللام ومَلْك بإسكانهـا ومَلِيك بزيادةِ ياء ، ومنـه قوله تعـالىٰ : ﴿عِنْـدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ قال الجوهرىّ : والمَلك مقصورٌ من مالك أو مَلِيك ، ويجمع علىٰ مُلُوك وأمْلاك . ويقال لموضع المُلْك المَمْلَـكة .

الثالث — السُّـلْطان . وهو ٱسمٌ خاصٌّ فى العُرف العـامّ بالملوك . ويقال : إن أوّلَ من لُقِّب به « خالدُ بنُ بَرْمَك » وزيرُ الرشيد ، لَقَّبه به الرشـيدُ تعظيما له ، ثم ٱنقطع التلقيب به إلىٰ أيام بنى بُوَيْه فتلقب به مُلُوكُهم فمَنْ بعدهم من الملوك السَّلاجِقَة وغيرهم وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا .

وأصلُه فى اللغة الحُجَّة قال تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ من سُلْطان﴾ يعنى من حُجَّة . وسُمِّى السلطان بذلك لأنه حُجَّة على الرعية يجب عليهم الانقيادُ إليه .

وٱختُلِف فى ٱشتقاقه : فقيـل إنه مشتقٌّ من السَّـلاطة وهى القهر والغَلَبة : لقهره الرعيةَ وٱنقيادِهم له ، وقيل مشتقٌّ من السَّلِيط : وهو الشَّيْرَجُ فى لغة اهل اليمن

لأنه يُستضاءُ به في خَلاص الحقوق ، وقيل من قولهم لسانٌ سَلِيط أي حادّ ماضٍ لمضيّ أمره ونُفوذِه . وقال محمد بن يزيدَ البَصْريّ : السُّلْطانُ جمعٌ واحده سليط كقَفِيزٍ وقُفْزانٍ، وبَعِيرٍ وبُعْرانٍ .»

وحكىٰ صاحب "ذخيرة الكُتَّاب": أنه يكون واحدًا ويكون جمعا، ثم هو يُذَكَّر علىٰ معنىٰ الرجل، ويؤنَّث علىٰ معنى الحُجَّــة . وحكىٰ الكسائىُّ والفرّاءُ علىٰ التأنيث عن بعض العرب قضَتْ به عليك السلطانُ . قال العسكرىّ في كتابه "الفُرُوق" في اللغــة : والفرق بينــه وبين المَلِك أن الملِكَ يختَصّ بالزعيم الأعظم، والسُّــلطانَ يُطْلَق عليه وعلىٰ غيره . وعلىٰ ماذكره العسكرىّ عُرْف الفقهاء في كتبهم، إذ يُطْلِقونه علىٰ الحــاكم من حيثُ هو حتّى علىٰ القاضى فيقولون فيمن ليس لهــا وَلِىّ خاصّ يزوّجُها الســلطانُ ونحو ذلك . ومن حيث إن الســلطان أعمّ من الملِك يُقَــدَّم عليه في قولهم السلطانُ الملِكُ الفلانىّ : ليقع الســلطانُ أوّلا علىٰ الملك وعلىٰ غيره ثم يخرج غيرُ الملك بعد ذلك بذكر الملك .

الرابع — الوزير . وهو المتحدّث للمَلِك في أمر مملكته . وآختُلِف في آشتقاقه : فقيل مشتق من الوَزَر بفتح الواو والزاى وهو المَلْجأ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ سُمِّى بذلك لأن الرعية يَلْجَئُون إليه في حوائجهم ، وقيل مشــتق من الأوْزَار وهى الأمتعة، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ولٰكِنَّا حُمِّلْنَا أوْزارًا من زِينَةِ القَوْمِ﴾ سُمِّى بذلك لأنه متقلِّد بخزائن المَلِك وأمتعته، وقيل مشتق من الوِزْر بكسر الواو وإسكان الزاى وهو الثِّقْل، ومنه قوله تعــالىٰ : ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الحَرْبُ أوْزارَها﴾ سمى ذلك لأنه يتحمل أثقال المَلِك، وقيل مشــتق من الأَزْر : وهو الظَّهر، سمى بذلك لأن المَلِك يقوىٰ بوزيره كقوّة البَدَن بالظهر، وتكون الواو فيه علىٰ هذا التقدير منقلبةً عن همزة . وقد

أوضحت القولَ فى ذلك فى "النفحات النَّشْرية فى الوزارة البَدْرية" . قال القُضاعى فى " عيون المعارف فى أخبار الخلائف " : وأوّل من لُقِّب بالوِزَارة فى الإسلام أبوسلَمَة : حفصُ بن سلْمان الخَلّال و زيرُ السفَّاح . قال : وإنما كانوا قبل ذلك يقولون كاتِب . ثم هو إما وَزِيرُ تفويض : وهو الذى يُفَوِّض الإمامُ إليه تدبيرَ الأمور برأيه وإمضاءَها على آجتهاده كما كانت الوُزَراء بالديار المصرية من لَدُنْ وِزَارة بَدْرٍ الجَمالىّ و إلى حين آنقراضها ، وإما وزيرُ تنفيذ : وهو الذى يكون وَسيطا بين الإمام والرَّعايا معتمِدا على رأْىِ الإمام وتدبيرِه . وهذه هى التى كان أهلُ الدولة الفاطمية يعبِّرون عنها بالوَساطة . أما الوِزَارة فى زماننا فقد تقاصَرتْ عن ذلك كلِّه حتّى لم يبقَ منها إلا الأسمُ دون الرَّسْم ، ولم تزل الوِزَارةُ فى الدُّوَل تتردّد بين أرباب السيوف والأقلام تارةً وتارةً إلا أنها فى زماننا فى أربابِ الأقلام .

الخامس — الأمير . وهو زعيمُ الجيش أو الناحيةِ ونحو ذلك ممن يولّيه الإمامُ . وأصله فى اللغة ذو الأمْر وهو فعيل بمعنى فاعل فيكون أمير بمعنى آمِر ، سمى بذلك لأمتثال قومه أمره . يقال : أَمَرَ فلان إذا صار أميرا ، والمصدر الإمْرة والإمَارة بالكسر فيهما ، والتأميرُ توليةُ الأَمير، وهى وظيفةٌ قديمة .

السادس — الحاجبُ . وهو فى أصل الوضع عبارةٌ عمن يبلِّغ الأخبارَ من الرعيَّة إلى الإمام ويأخُذُ لهم الإذنَ منه ، وهى وظيفة قديمةُ الوضع كانت لأبتداء الخلافة فقد ذكر القُضاعىّ فى "عيون المَعارف" لكل خليفة حاجبًا من آبتداء الأمْرِ وإلى زمانه : فذكر أنه كان حاجبُ أبى بكرٍ الصدّيق رضى الله عنه « شديدًا » مولاه ، وحاجبُ عمر « يَرْفَأ » مولاه ، وحاجبُ عثمانَ « حُمْرانَ » مولاه ، وحاجب علىّ « قُنْبراً » مولاه ، وعلى ذلك فى كل خليفة ، ماعدا الحسنَ بن علىّ رضى الله عنهما فإنه لم يذكر له حاجبًا . وسمّى الحاجب بذلك لأنه يحجُب الخليفةَ أو المَلِك عمن

يدخل إليه بغير إذن . قال زياد لحاجبه : « وَلَّيتك حِجَابِي وعَزَلْتك عن أربع : هـذا المنادي إلى الله في الصلاة والفَلاَح فلا تعُوجَنَّه عنِّي ولا سُلطانَ لك عليـه ، وطارقُ الليـل فلا تحجُبْه فَشَرٌّ مَّا جاء به ولو كان خيرًا ما جاء في تلك السـاعة ، ورسولُ الثَّغْر فإنه إن أبطأ ساعةً أفسد عَمَلَ سنةٍ فأدخِلْه عَلَيَّ وإن كنتُ في لِحَافي ، وصاحبُ الطعام فإن الطعام إذا أُعِيد تسخِينُه فسد » .

ثم تصرَّف الناسُ في هذا اللقَب ووضعُوه في غير موضعه ، حتَّى كان في أعقابِ خلافةِ بني أُميَّةَ بالأَندَلُس ربمـا أُطْلِق علىٰ من قام مَقامَ الخليفة في الأمر ، وكانوا في الدولة الفاطميَّـة بالديار المصرية يعبِّرون عنـه بصاحبِ البـاب كما سـبق بيانُه في المقـالة الثانية في الكلام علىٰ ترتيب دولتهم . اما في زماننا فإنه عبارةٌ عمن يَقِف بين يدَيِ السلطان ونحوِه في المواكب ، ليبَلِّغ ضَروراتِ الرعية إليه ، ويركب أمامه بعصًا في يده ، ويتصدَّى لفَصْل المَظَالم بين المتداعيَيْن خصوصا فيما لاتسوغ الدعوىٰ فيـه من الأمور الدِّيوانية ونحوها . وله ببلاد المغرب والأندُلس أوضاعٌ تخصُّـه في القديم والحديث، علىٰ ما سيأتي ذكره في الكلام علىٰ مكاتباتهم في المقالة الرابعـة إن شاء الله تعالىٰ .

السابع — صاحبُ الشُّرْطة . بضم الشين المعجمة وإسكان الراء : وهو المعبَّر عنه في زمانـنا بالوالي ، وتجمع الشُّرْطة علىٰ شُرَطٍ بضم الشين المعجمة وفتح الراء . وفي آشتقاقه قولان : أحدهما أنه مشتقٌّ من الشَّرَط بفتح الشين والراء وهي العَلاَمة ، لأنهـم يجعلون لأنفسهم علاماتٍ يُعرَفون بهـا ، ومنه أَشْراطُ الساعة يعني علاماتها ، وقيل من الشَّرَط بالفتح أيضا : وهو رُذَال المـال ، لأنهم يتحدَّثون في أراذِل الناس وسِفْلتهم ممن لامالَ له من اللُّصوص ونحوهم .

الصِّنْفُ الثَّانى

(ألقابُ أربابِ الأقلام، وفيه ثلاثةُ ألقاب)

الأوّل — القاضى . وهو عِبارةٌ عمن يتولّى فصلَ الأمور بين المتداعيَيْنِ فى الأحكام الشرعيّة . وهى وظيفةٌ قديمة كانتْ فى زَمن النبىّ صلّى الله عليه وسلم . فقد ذكر القُضاعىّ أنه صلّى الله عليه وسلم وَلّى القضاءَ باليمن علىَّ بنَ أبى طالب ومُعاذَ بنَ جَبَل وأبا مُوسَى الأشعرىَّ ؛ وأن أبا بكر رضى الله عنه ولّى القضاءَ عُمَرَ ابنَ الخطاب رضى الله عنه .

ثم هو مشتقٌّ من القضاء ؛ وٱختُلِف فى معناه فقال أبو عبيد : هو إحكامُ الشيء والفَراغُ منه ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وقَضَيْنَا إلىٰ بَنِي إسْرائِيلَ فى الكِتَابِ﴾ أى أخبرناهم بذلك وفَرغْنا لهم منه . قال أبو جعفر النحاس : وسمِّى القاضِى قاضيًا لأنه يقال قَضىٰ بين الخصمين إذا فَصَل بينهما وفَرَغ ؛ وقيل معناه القَطْعُ ، يقال قضىٰ الشيءَ إذا قَطَعه ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَاقْضِ ما أنْتَ قَاضٍ ﴾ وسمى القاضى بذلك لأنه يَقْطَع الخصومة بين الخصمين بالحُكْم . علىٰ أن كُتَّاب الزمان يُطْلِقون هذا اللقبَ والألقاب المتفرّعة منه كالقضائىّ والقاضوىّ علىٰ أرباب الأقلام فى الجملة ، سواء كان صاحبُ اللّقب متصدّيا لهذه الوظيفة أو غيرها ، كسائر العُلماء والكُتَّاب ومَنْ فى معناهم ، وعلىٰ ذلك عُرْفُ العامّة أيضا .

الثانى — المحتسِبُ . وهو عبارةٌ عمن يقوم بالأمر بالمعروف والنهْىِ عن المنكر ، والتحدّث فى أمْر المَكاييل والمَوازين ونحوهما . قال الماوردىّ فى "الأحكام السلطانية"(١) : وهو مشتقٌّ من قولهم حَسْبُك بمعنى اكْفُفْ ، سَمِّى بذلك لأنه يكفى

(١) عبارة الضوء نقلا عن الماوردى هكذا (وهو مشتق من قولهم حسبك بمعنى اكفف لأنه يكف عن الظلم وقال النحاس من قولهم أحسبه إذا كفاه لأنه يكفى الخ) وبه تعلم ما فى الاصل .

النـاسَ مئـونةَ من يبخسهم حقوقهـم . قال النحاس : وحقيقتـه فى اللغة المجتهد فى كِفاية المسلمين ومنفعتهم إذ حقيقةُ ٱفتعل عند الخليل وسيبويه بمعنى ٱجتَهَد .

وأوّلُ مَنْ قام بهذا الأمر وصنَع الدِّرّة عمرُ بنُ الخطّاب رضى الله عنه فى خلافته. وقد كانوا فى الأيام الفاطميَّة بالديار المصرية يُضيفونها إلى الشُّرْطة فى بعض الأحيان، كما هو موجود فى تقاليد الحِسْبة فى زمانهم .

الثالث — الكاتب . وقد تقدّم ٱشتقاقُه ومعناه فى مقدِّمة الكتاب، وأنه كان فى الزمن الأوّل عنـد الإطلاق إنمـا يُراد به كاتبُ الإنشاء ثم تغيَّر الحـال بعد ذلك إلى أن صار فى العُرْف العـامِّ بالديار المصرية عنـد الإطلاق يراد به كاتبُ المـال ومَنْ فى معناه . وهو من الألقاب القديمة فقد تقدّم فى الكلام على الوِزارة من كلام القُضَاعىّ أنهم قبل التلقيب بالوِزارة فى الدولة العباسيَّة فى خلافة السفّاح إنمـا كانوا يقولون كاتب .

قلت : ووراء ما تقدّم من الألقاب القديمة المتداوَلة ألقابٌ أُخرى كانت مستعملةً فى الأيام الفاطمية ثم رُفِضت الآنَ وتُرِكَتْ .

كـ«صاحب المَظَالم» وهو المتحدِّث فى فصل الخُصُومات .

وصاحب الصَّلاة : وهو المتحدِّث فى أمر المساجد والصلوات .

وكالمتحدّث فى الوَساطة ، وهى القيام بوظيفة الوِزارة ممن لم يؤهَّل لإطلاق ٱسم الوِزارة عليه .

وصاحبِ البابِ كنحو الحاجب .

وداعى الدُّعاة للشِّيعة ونحو ذلك .

النـــــوع الثـانى
(الألقابُ المحدَثة)

وهى إما عَرَبِيَّة ، وإما عَجَمِيَّة . والعجمية منها إما فارسيَّة ، وإما تُرْكِيَّة ، وأكثرها الفارسيَّة . والسببُ فى استعمال الفارسِىّ منها وإن كانت الفُرْس لم تَلِها فى الإسلام أن الخلافةَ كانت ببغْداد وغالبُ كلام أهلها الفارسيةُ ، والوظائفُ منقولةٌ عنها إلىٰ هذه المملكة ، إما مُضاهاةً كما فى الدولة الفاطمية علىٰ قِلَّة ، كما فى الاسْفَهْسلاَر، وإما تبعا كما فى الدولة الأيوبية فما بعدها .

وهى أربعة أصناف :

الصنف الأوّل
(المفـرَدة ، وهى ضربان)

الضرب الأوّل
(مالفظه عَرَبِىّ ، وهو ثلاثة ألقاب)

الأوّل — النائبُ : وهو لقبٌ علىٰ القائم مَقامَ السلطان فى عامَّة أموره أو غالبِها ، والألِف فيه (١) منقلبةٌ عن واو . يقال : نابَ فلانٌ عن فلانٍ يَنُوبُ نَوْبا ومَنَابا إذا قام مَقامه فهو نائبٌ . ويطلق هذا اللقب فى العُرْف العامِّ علىٰ كل نائبٍ عن السلطان أو غيره بحضرته أو خارجا عنها فى قُرْب أو بُعْد ، إلا أن النائب عن السلطان بالحضرة يُوصَف فى عُرف الكُتَّاب بالكافِل : فيقال « النائبُ الكافلُ » وفى حال الإضافة «كافِلُ الممالِك الإسلاميَّة» علىٰ ماسيأتى ذكره فى النُّعوت إن شاء الله تعالىٰ ،

(١) مراده الهمزة التى هى عين فاعل .

والنـائبُ عنه بدِمَشْق يقال فيـه «كافِلُ السَّلْطنة» ومَنْ دونه من أكابر النُّوّاب : كنائب حلَبَ ونائب طَرَابُلُس ونائب حَمَاةَ ونائب صَـفَدَ ونائب الكَرَك من الممـالك الشامية، ونائبِ الإسكندريَّة ونائبَي الوجهين : القِبْلي والبحريّ بالديار المصرية . [يقال فيه نائب السلطنة الشريفـة بكذا ليس إلا](١) ويقال فيمن دُونَهم من النُّوّاب بالممـالك الشامية كنائب حِمْص ونائب الرَّحْبة وغيرهما «النائبُ بفلانة» .

الثـانى — الساقِى . وهو لَقَب علىٰ الذى يتولّى مدَّ السِّماط وتقطيعَ اللحم وسَقْيَ المشروب بعد رفْع السِّماط ، ونحو ذلك . وكأنه وُضع فى الأوّل لسَقْيِ المشروب فقط ثم ٱستُحْدث له هذه الامورُ الأُخرىٰ تبعًا . ويجوز أن يكون لُقِّب بذلك لأنَ سَقْيَ المشروب آخِرُ عمله الذى يَخْتِمُ به وظيفتَهُ .

الثـالث — المُشْرِف . وهو الذى يتولّى امر المَطْبَخ ويَقِف علىٰ مشـارَفة الأطبخة فى خِدْمة إستادار الصُّحْبة الآتى ذكره، ومعناه ظاهر .

الضرب الثـانى

(مالفظه عجمىّ وهو لَقَبٌ واحدٌ)

وهو «الأُوْجَاقِىّ» وهو لقبٌ علىٰ الذى يتولّى ركوبَ الخيول للتسـيير والرياضة، ولم أقف علىٰ معناه .

---

(١) الزيادة من الضوء ص ٢٤٢ ليتم الكلام .

الصنف الثانى

(المركَّبة ، وهى ثلاثة اضرب)

الضرب الأوّل

(ما تمحَّض تركيبُه من اللفظ العربىّ ، وفيه سبعةُ ألقاب)

الأوّل — مَلِك الأُمَراء . وهو من الألقاب التى اصطُلِح عليها لكُفّال الممالك من نُوّاب السلطنة ، كأكابر النُّوّاب بالممالك الشامية ومَنْ فى معناهم . وذلك أنه قام فيهم مَقامَ المَلك فى التصرّف والتنفيذ ، والأمراءُ فى خِدْمته كخِدْمة السلطان . وأكثرُ ما يخاطَبُ به النوّابُ فى المكاتَبات ، وذلك مختَصٌّ بغير المخاطَبات السلطانية ، أما السلطان فلا يُخاطَب عنه أحدٌ منهم بذلك .

الثانى — رأسُ نَوْبة . وهو لَقَب علىٰ الذى يَتحدّث علىٰ مماليك السلطان أو الأمير ، وتنفيذِ أمْرِه فيهم ، ويجمع علىٰ رُءُوس نُوَب . والمراد بالرأس هنا الأعلىٰ أخذا من رأس الإنسان لأنه أعلاه . والنَّوْبة واحدةُ النُّوَب وهى المرّة بعد الأُخْرىٰ ، والعامّة تقول لأعلاهم فى خِدْمة السلطان « رأسُ نَوْبة النُّوَب » وهو خطأ لأن المقصود علُوُّ صاحب النَّوْبة لا النوبة نفسها ، والصواب فيه أن يقال : « رأْس رُءُوس النُّوَب » أى أعلاهم .

الثالث — أمير مَجْلِس . وهو لقَبٌ علىٰ مَنْ يتولّىٰ أمر مجلس السلطان أو الأمير فى الترتيب وغيره ؛ ويجمع علىٰ أُمَراء ؛ ومعناه ظاهر ، والأحسنُ فيه أن يقال أميرُ المجْلِس بتعريف المضاف إليه ، وتكون الألف واللام فيه للعهد الذِّهْنى ، إما مجلسُ السلطان أو غيرُه .

الرابع — أميرُ سِـلاح . وهو لقبٌ على الذى يتولّى أمْر سِلاح السلطان أو الأمير . ويجمع على أُمَراءِ سِلاح ، والسـلاح آلة القتال . قال الجوهرىّ : وهو مذكّر ويجوز تأنيثه .

الخامس — مُقَدَّم المماليك . وهو لقبٌ على الذى يتولّى أمر المَماليك للسلطان أو الأمير — من الخُدّام الخِصْيان المعروفين الآنَ بالطَّواشيَّة . ومقامُه فيهم نحو مَقام رأس النَّوْبة ، ولفظ المقدّم والمماليك معروف .

السادس — أمـيرُ عَلَم . وهو لقبٌ على الذى يتـولّى أمرَ الأعلام الســلطانية والطَّبْلخاناه وما يجرِى مَجْرَى ذلك . والعَلَم فى اللغـة يطلق بإزاء معانٍ أحدها الرايةُ(١) ، وهو المراد هنا .

الســابع — نقيبُ الجَيْش . وهو الذى يتكفّل بإحضار مَنْ يطلُبه السلطان من الأمراء وأجناد الحَلْقـة ونحوهم ، والنقيب فى اللغـة العَرِيف الذى هو ضَمين القوم وفى التنزيل حكايةً عن بنى اسرائيل : ﴿وبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ ويقال : نَقَب على قومه يَنْقُب نَقْبا مثل كَتَب يكتُب كَتْبا . والجَيْش العسكر ويجمع على جُيُوش . أما بالمَمالك الشامية فإنه يقال فى مثله نَقِيب النُّقَباء .

الضرب الثانى

(ما تمحَّض تركيبُه من اللفظ العجمىّ)

وقاعدةُ اللُّغات العجمية تقديمُ المضاف إليه على المضاف(٢) ، والصِّفة على الموصوف ، بخلاف اللغة العربية . ولهذا الضرب حالتان :

---

(١) فى الأصول الرؤية ، والتصحيح عن الضوء .

(٢) فى الاصول " المضاف على المضاف اليه " وهو سبق قلم .

الحالة الأولى

(أن تكون الإضافة إلى لفظ دار)

وهى لفظة فارسية معناها مُمْسِكٌ فاعل من الإمساك . وكثير من كُتَّاب الزمان أو أكثرهم بل كلُّهم يظُنُّون أن لفظ دار فى ذلك عربىّ بمعنى المَحلة، كدار السلطان أو الأمير ونحو ذلك، وهو خطأ كما سيأتى بيانه فى الكلام على إسْتَدَّار، وخِزَنْدار وغيرهما .

والمضافُ إلى لفظ دار من وظائف أرباب السيوف تسعةُ ألقاب :

الأوّل — الإسْتَدَّار . بكسر الهمزة وهو لَقَب على الذى يتولَّى قبضَ مالِ السلطان أو الأميرِ وصرفَهُ، وتُمتثل أوامِرُه فيه . وهو مركَّب من لفظتين فارسيتين : إحداهما إستذ، بهمزة مكسورة وسين مهملة ساكنة بعدها تاء مثناة من فوق ثم ذال معجمة ساكنة، ومعناها الأخذ . والثانية دار، ومعناها المُمْسِك كما تقدّم، فأدغمت الذال الأولى وهى المعجمةُ فى الثانية وهى المهملةُ فصار إسْتَدَّار . والمعنى المتولِّى للأخْذ، سمى بذلك لما تقدّم من أنه يتولَّى قبضَ المال . ويقال فيه أيضا : سِتَدَّار بإسقاط الألف من أوّله وكسر السين، والمتشدّقون من الكُتَّاب يضُمُّون الهمزةَ فى أوّله ويُلحِقُون فيه ألفًا بعد التاء، فيقولون : «أُسْتادَّار» وربما قالوا : «أُسْتاذ الدار» بادخال الألف واللام على لفظِ الدارِ ظنًّا منهم أن المرادَ حقيقةُ الدار فى اللفظ العربىّ، وأن أُسْتاذ بمعنى السيد أو الكبير، ولذلك يقولون «أستادّار العالية» : أو «أستاذ الدّار العالية» وهو خطأ صريح لما تقدّم بيانهُ . على أن العامة تنْطِق به على الصواب، من كسر الهمزةِ وحذفِ الألف بعد التاء . ثم قد يُزاد فى هذا اللقب لفظُ الصُّحْبة، فيصير «إستَدَّار الصُّحْبة» ويكون لقبا على متولِّى أمرِ المَطْبخ، وكأنه لُقِّب بذلك لملازمته البابَ سَفَرا وحَضَرا .

الثـانى — الجُوكَانْدار، وهو لقبٌ على الذى يحمل الجُوكَان مع السلطان فى لَعِب الكُرَة، ويجمع على جُوكَان دارِيَّة، وهو مركَّب من لفظتين فارسيَّتين أيضا : إحداهما جوكَان، وهو المِحْجَن الذى تُضْرَب به الكُرَة، ويعبر عنه بالصَّوْلَجَان أيضا : والثانية دار، ومعناه مُمْسِك كما تقدّم . فيكون المعنى مُمسك الجُوكَان . والعامّة تقول : «جُكَنْدار» بحذف الواو بعد الجيم والألِف بعد الكاف .

الثـالث — الطَّبَرْدَار . وهو الذى يحمل الطَّبَر حولَ السلطان عند ركوبه فى المَوَاكب وغيرها . وهو مركَّب من لفظين فارسيين : أحدهما طَبَر ومعناه الفأس، ولذلك يقولون فى السُّكَّر الصُّلْب الشديدِ الصَّلابة طَبَرْزَد بمعنى يكسر بالفأس . والثانى دار ومعناه ممسك كما تقدّم، فيكون المعنى مُمْسِك الطَّبَر .

الرابع — السَّنْجَقْدَار . وهو الذى يحمل السَّنْجَق خلفَ السلطان . وهو مركب من لفظين : أحدهما تُرْكِيٌّ وهو سَنْجَق، ومعناه الرُّمْح وهو فى لغتهم مصدر طَعَن، فعبِّر به عن الرُّمْح الذى يُطْعَن به . والثانى دار ومعناه ممسك كما تقدّم، ويكون المعنى مُمْسِك السَّنْجق وهو الرمح . والمراد هنا العَلَم الذى هو الراية كما تقدّم، إلا أنه لما كانت الرايةُ إنما تُجْعَل فى أعلى الرمح عُبِّر بالرمح نفسه عنها .

الخامس — البُنْدُقْدار . وهو الذى يحمِلُ جراوة[(1)] البُنْدُق خلفَ السلطان أو الأمير . وهو مركَّب من لفظتين فارسيتين إحداهما بُنْـدُق، وإن كان الجوهرىّ قد أطلق ذكره فى الصحاح من غير تعرُّض لأنه معرَّب فقال : والبُنْدُق الذى يُرْمى به . ثم هو منقولٌ عن البُنْدُق الذى يؤكَل وهو الجِلَّوْز بكسر الجيم والزاى المعجمة فى آخره .

(١) كذا فى الاصل ولعله مصحف عن غرارة أو نحوه .

فقد قال أبو حنيفة فى كتاب "النبات" الجِلَّوْز عربىّ وهو البُنْدُق والبُنْدق فارسىٌّ .
اللفظة الثانية دار ومعناها ممسك كما تقدّم ، ويكون المعنى ممسك البُنْدق .

السادس — الجَمَدَار . وهو الذى يتصدّى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابَهُ .
وأصله جَامَا دار فحُذِفت الألف بعد الجيم وبعد الميم آستثقالا وقيل جَمَدار .
وهو فى الأصل مركب من لفظين فارسيين احدهما جاما ، ومعناه الثوب . والثانى دار ،
ومعناه ممسك كما تقدّم فيكون المعنى ممسك الثوب .

السابع — البَشْمَقْدار . وهو الذى يحمل نعلَ السلطان أو الأمير ، وهو مُرَكّب
من لفظين : أحدهما من اللغة التركية وهو بَشْمَق ومعناه النعلُ . والثانى من
اللغة الفارسية وهو دار ومعناه مُمْسِك على ماتقدّم . ويكون المعنى ممسكَ النعلِ .
على أن صاحب « الأنوار الضوِّية فى إظهار غلط الدرّة المضية فى اللغة التركية »
قد ذكر أن الصواب فى النعل بصمق بالصاد المهملة بدل الشين المعجمة ، وحينئذ
فيكون صوابه على ما ذكر بَصْمَقْدار . والمعروف فى ألسنة الترك بالديار المصرية
ما تقدّم .

الثامن — المَهْمَنْدار . وهو الذى يتصدّى لتلقى الرُّسُل والعُرْبان الواردين على
السلطان ويُنْزِلهم دارَ الضيافة ويتحدّثُ فى القيام بأمرهم . وهو مركب من لفظين
فارسيين : أحدهما مَهْمَن بفتح الميمين ومعناه الضيف ، والثانى دار ومعناه ممسك
كما تقدّم ، ويكون معناه ممسكَ الضيف ، والمراد المتصدّى لأمره .

التاسع — الزَّنَانْ دار المعبر عنه « بالزِّمام دار » . وهو لقب على الذى يتحدّث
على باب سِتارةِ السلطان أو الأمير من الخُدّام الخِصْيان . وهو مركّب من لفظين
فارسيين : أحدهما زَنَان بفتح الزاى ونونين بينهما ألف ، ومعناه النساء .

والثانى دار، ومعناه ممسك كما تقدّم فيكون معناه ممسك النّساء، بمعنىٰ أنه الموكّل بحفظ الحريم إلا أن العامّة والخاصة قد قلبوا التونين فيــه بميمين فعبّروا عنـه بالزّمام دار كما تقــدّم، ظنًّا أن الدار علىٰ معناها العربىّ والزّمام بمعنىٰ القائد، أخذا من زِمَام البعير الذى يُقاد به .

الحالة الثانيـــــــة

(أن تكون الإضافة إلىٰ غير لفظ دار، وفيها لقبان)

الأوّل — الجَـاشْنَكِير . وهو الذى يتصدّىٰ لذَوَقَان[1] المأكول والمشروب قبــل السلطان أو الأمير خوفًا من أن يُدَسّ عليه فيه سُمٌّ ونحوه . وهو مركّب من لفظين فارسيين : أحدهما چاشْنا بجيم فى أوّله قريبةٍ فى اللفظ من الشين، ومعناه الذَّوْق، ولذلك يقولون فى الذى يذوقُ الطعام والشرابَ الشَّيْشْنِىُّ . والثـانى كِير وهو بمعنىٰ المتعاطى لذلك، ويكون المعنىٰ الذى يذوقُ .

الثانى — السَّرَاخُور . وهو الذى يتحدّثُ علىٰ عَلَف الدّوابّ من الخيل وغيرها . وهو مركّب من لفظين فارسيين : أحدهمـا سَرَا[2] ومعناه الكبيرُ . والثـانى خُور، ومعناه العلَف، ويكون المعنىٰ كبيرُ العلَف والمراد كبير الجمـاعة الذين يتولّوْن عَلَف الدّوابّ . والعامّة يقولون سَرَاخُورِىٌّ باثبات ياء النسب فى آخره ولا وجه له . ومتشدّقو الكُتّاب يُبْدلون الراء فيه لاما فيقولون سَلَاخُورِىّ وهو خطأ .

---

(١) مصدر ذاق الذوق والمذاق والذواق فما فى الأصل جارىٰ فيه لغة العامة .

(٢) خالف فى هذا قاعدة اللغة العجمية من تقدم المضاف اليه علىٰ المضاف . ووجد بهامش بعض النسخ "السراخور مركب من سرا فارسى بمعنى الرأس واخور بمعنى اصطبل فمعناهما رأس الاصطبل السلطانى" .

الضرب الثالث

(ماتركّب من لفظ عربيّ ولفظٍ عجميّ، وله حالتان)

الحالة الأولى

(أن يصدّر بلفظ أمير وهو لفظٌ عربيّ كما تقدّم
في الكلام على ألقابِ أربابِ الوظائف، وفيها أربعةُ ألقاب)

الأوّل — أمِيرآخُور. وهو الذى يتحدّثُ على إصطبل السلطان أو الأمير، ويتولّى أمرَ مافيه من الخيل والإبل وغيرهما مما هو داخل فى حكم الإصطبلات، وهو مركّبٌ من لفظين: أحدهما عربيّ وهو أمير، والثانى فارسيّ وهو آخُور بهمزة مفتوحة ممدودة بعدها خاء معجمة ثم واو وراء مهملة ومعناه المَعْلَف، والمعنى أمير المَعْلَف: لأنه المتولِّى لأمر الدوابِّ على ماتقدّم وأهمُّ أمورها المَعْلَف.

الثانى — أمِيرُجانْدَار. وهو لقب على الذى يستأذِنُ على الأمراء وغيرِهم فى أيام المواكبِ عند الجُلُوس بدار العَدْل. وهو مركّب من ثلاثةِ ألفاظ: أحدها عربيّ وهو أَمِير وقد تقدّم معناه. والثانى جان بجيم وألف ونون، ومعناه الروح بالفارسيّة والتركية جميعا. والثالث دار، ومعناه ممسك كما تقدّم، فيكون المعنى «الأمير الممسك للروح» ولم يظهر لى وجهُ ذلك إلا أن يكون المراد أنه الحافظُ لدم السلطان فلا يأذَنُ عليه إلا لمن يأمَنُ عاقبتَه.

الثالث — أميرُشِكَار. وهو لقب على الذى يتحدّث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد. وهو مركّب من لفظين: أحدهما عربيّ وهو أمير والثانى فارسيّ وهو شِكَار بكسر الشين المعجمة وكاف وألف ثم راء مهملة فى الآخر، ومعناه الصيد فيكون المرادُ «امير الصيد».

الرابع — أمير طَبَر . وهو لقب على الذى يتحدّث على الطَّبَرْدارِيّة الذين يحملون الأطْبـارَ حولَ السلطان فى المواكب ونحوها . وهو مركّب من لفظين : أحدهما عربىّ وهو أمير، والثانى طَبَر وهو بالفارسية الفأسُ كما تقـدّم فى الكلام على الطَّبَرْدار .

الحـالة الثانيـــة

(أن لا يُصدّرَ اللقبُ بلفظ أمير، وفيها خمسةُ ألقاب)

الأوّل — الدَّوادار . وهو لقب على الذى يحمل دواةَ السلطان أو الأمير أو غيرِهما، ويتولّى أمْرَها مع ماينضمّ إلى ذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حُكْمٍ وتنفيذِ أمور وغير ذلك بحسب مايقتضيه الحالُ . وهو مركّب من لفظين : أحدهما عربىّ وهو الدَّواة ، والمراد التى يُكْتَب منها . والثـانى فارسىّ وهو دار، ومعناه ممسك كما تقدّم . ويكون المعنى « مُمْسك الدَّواة » وحُذِفَت الهـاء من آخر الدواة آستثقالا . أما فى اللغـة العربية فإنه يقال لحامل الدواة « داوٍ » على وزن قاضٍ ، فتثْبُت الياء فيـــه مع الألف واللام فتقول جاء الدَّاوِى ورأيت الداوِىَ ومررت بالدَّاوِى، ويجوز حذفها كما فى سائر الأسماء المنقوصة .

الثـانى — السِّلاح دَار ، وهو لقب على الذى يحملُ ســلاحَ السلطان أو الأمير ويتولّى أمر السِّلَاح خَانَاه وما هو من توابع ذلك . وهو مركّب من لفظين : أحدهما عربىّ وهو السِّلَاح ، وقد تقدّم معناه فى الكلام على أمير سلاح . والثانى فارسىّ وهو دار ومعناه مُمْسك كما تقدّم، ويكون المعنى «مُمْسك السِّلَاح» .

الثـالث — الخَزْنْدار بكسر الخاء وفتح الزاى المعجمتين . وهو لَقَب على الذى يتحدّث على خِزَانة السلطان أو الأمير أو غيرهما . وهو مركّب من لفظين : أحدهما

عربىّ وهو خِزَانة : وهى ما يُخْزَن فيه المــالُ . والثــانى فارسىّ وهو دار، ومعناه مُمْسك كما تقــدّم فحذفت الألف والهــاء من خِزَانةٍ استثقالا فصار خِزَنْدار ويكون المعنى «مُمْسك الخِزَانة» والمرادُ المتولِّى لأمرها ، ومتشدّقو الكتّاب يُسْقطون الألف والهاء من خِزَانة على ما تقدّم ويُلْحقون بعد الخــاء ألفا فينقُلُون لفظ خزانة إلى خازِن فاعلٍ من الخَزْن ويُضيفونه إلى دار، ظنًّا منهم أن الدار على معناها العَرَبىّ كما تقدّم فى الإســتدّار والزَّنّان دار، وهو خطأ كما تقدّم بيــانه هناك . على أن العامة تنطِق بحروفه على الصواب إلا أنهم يكسِرُون الزاىَ بعد الخاء والصواب فتحها .

الرابع — العَلَمْ دار . وهو لقبٌ على الذى يحمل العَلَم مع السلطان فى المواكب . وهو مركَّب من لفظين : أحدهما عربىّ وهو العَلَم ، وقد تقدّم أن معناه الراية . والثانى فارسىّ وهو دار ومعناه ممسك كما تقدّم، ويكون المعنى « ممسك العَلَم » .

الصــــنف الثــانى (١)

(ألقابُ أربابِ الأقلام، وهى على خمسة أضرب)

الضرب الأوّل

(ألقابُ أرباب الوظائف من العُلَماء، وفيه خمسة ألقاب)

الأوّل — الخَطِيب . وهو الذى يَخْطُب النــاسَ ويُذَكِّرهم فى الجُمَع والأعيــاد ونحوهمــا . وقد كان ذلك فى الزّمن المتقــدّم مختصًّا بالخلفاء والأمراء بالنَّواحِى على ماتقدّم فى الكلام على ترتيب الخِلَافة فى المقالة الثانية .

---

(١) كذا فى الأصل ولعله الثالث ومع ذلك لم يذكر الصنف الرابع وقد جعل فى الضوء هذا القسم من نوع ألقاب أرباب الوظائف الدينية وهو الموافق .

الثانى — المُقْرِئ . وهو الذى يُقْرِئ القرءانَ العظيمَ، وقد غلب آختصاصُه فى العُرْف على مشايخ القِراءة من قُرّاء السبعة المُجِيدين المتصدِّين لتعليم عِلْم القِراءة .

الثالث — المُحدِّث . والمراد به مَنْ يتعاطى علم حَديثِ النبىّ صلّى الله عليه وسلم بطريق الرِّواية والدِّراية، والعلمِ بأسماء الرجال وطُرُق الأحاديث، والمعرفةِ بالأسانيد ونحو ذلك .

الرابع — المُدَرِّس . وهو الذى يتصدّى لتدريس العلوم الشرعية : من التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والتصريف ونحو ذلك . وهو مأخوذ من دَرَسْت الكتابَ دِراسةً إذا كرّرته للحفظ .

الخامس — المُعِيد . وهو ثانى رُتْبة المدرِّس فيما تقدّم، وأصلُ موضوعه أنه إذا ألقى المدرِّسُ الدرسَ وآنصرف أعاد للطلبةِ ما ألقاه المدرِّسُ إليهم ليفهَمُوه ويُحسِنُوه .

الضرب الثانى

(ألقابُ الكُتّاب، وهى نمطان)

النمط الأوّل

(ألقاب أرباب الوظائف من كُتّاب الإنشاء . وفيه ثلاثة ألقاب)

الأوّل — كاتبُ السِّرّ . وهو صاحبُ ديوان الإنشاء وقد تقدّم الكلامُ عليه مستوفًى عند الكلام على الكِتابة والكُتّاب فى مقدّمة الكِتاب .

الثانى — كاتبُ الدَّسْت . وهو الذى يجلس مع كاتب السرّ بدار العدل أمامَ السلطانِ أو النائبِ بمملكة من الممالك، ويوقّع على القِصَص . وهم جماعة وقد تقدّم الكلام عليهم فى المقدّمة أيضا .

الثالث — كاتب الدَّرْج . وهو الذى يكتُب المكاتَبات والوِلايات وغيرها فى الغالب وربما شاركه فى ذلك كُتَّاب الدَّسْت ، ويعبَّر الآنَ عنه بالمُوَقِّع ، وقد تقدّم الكلام عليه هناك أيضا .(١)

الضرب الثالث

(ألقاب أرباب الوظائف من كُتَّاب الأموال ونحوِها ، وفيه تسعةُ ألقابٍ)

الأوّل — الوَزير إذا كان من أرباب الأقلام ، وقد تقدّم الكلامُ عليه فى ألقاب أربابِ السُّيوف فى الصِّنْف الأوّل .(٢)

الثانى — الناظِرُ . وهو مَنْ ينظُر فى الأموال ويُنَفِّذ تصرُّفاتِها ويُرْفَعُ إليه حسابُها لينظر فيه ويتأمّلَه فيُمْضِى ما يُمْضِى ويَرُدُّ ما يردُّ . وهو مأخوذ إمّا من النظر الذى هو رأىُ العين : لأنه يُدير نظَرَه فى أمور ما ينظُر فيه ، وإما من النظر الذى هو بمعنى الفِكْر : لأنه يفكِّر فيما فيه المصلحةُ من ذلك . ثم هو يختلِف باختلاف ما يُضاف إليه كـ(ناظر الجَيْش) وهو الذى يتحدّث فى أمر الجُيُوش وضَبْطِها . أو (ناظر الخاصّ) وهو الذى ينظُر فى خاصّ أموال السلطان . أو (ناظر الدَّواوين) وهو الذى يعبَّر عنه بناظر الدَّوْلة ويُشارِكُ الوزيرَ فى التصرف . أو (ناظر النُّظَّار بدِمَشْق) وهو الذى يقومُ بها مقامَ الوزير بالديار المصرية . أو (ناظر المَمْلَكة) بحلَب ، أو طرابُلُس ، أو حماةَ ونحوها . أو (ناظرِ أوقافٍ أو جِهات بِرٍّ) وما يجرى مجرىٰ ذلك .

(١) لم يذكر النمط الثانى من هذا الضرب ولعله سهو من الناسخ . وهو كذلك فى نسخة أخرىٰ .

(٢) أى من الالقاب الاسلامية القديمة وقد تقدم فى ص ٤٤٨ من هذا الجزء .

الثـالث — صـاحبُ الديوان . وكانوا فى الزمن الاوّل يعبّرون عنـه بمتولّى الدّيوان ، وهو ثانى رتبةِ الناظر فى المراجَعة . وله أمورٌ تخصُّـــه كترتيب الدَّرْج ونحو ذلك .

الرابـــع — الشاهد . وهو الذى يَشْهَد بمتعلَّقات الديوان نَفْيا و إثباتًا .

الخامس — المستَوْفِى . وهو الذى يَضْبِط الديوانَ، وينبِّه علىٰ ما فيه مصلحته من آستخراج أموالِهِ ونحو ذلك . ولعظم موقِعِه أشار إليــه الحريرىُّ فى مَقاماته بقوله : «منهم المستَوْفِى الذى هوقُطْب الدِّيوان» إلىٰ آخره. ثم فى بعض المُبَاشَرات قد ينقسم إلىٰ مستوفٍ أصــلٍ ومستَوْفِى مباشَرة ، ولكلٍّ منهما أعمال تخصُّه .

السادس — العامل . وهو الذى ينَظِّم الحسبـانات ويكْتُبها . وقد كان هـذا اللقبُ فى الاصل إنما يقع علىٰ الأمير المتولِّى العمل ثم نقله العُرفُ إلىٰ هذا الكاتب وخصَّه به دُونَ غيره .

السابع — المـاسِحُ . وهو الذى يتصدَّى لقياس أرض الزِّراعة، وهو فاعِلٌ من مَسَحَ الأرض يَمْسَحُها مِساحةً إذا ذَرَعها .

الثـامن — المُعِين . وهو الذى يتصدَّى للكتابة إعانةً لأحدٍ من المبـاشِرين المذكورين، ومعناه واشتقاقه ظاهر .

التـاسع — الصَّـيْرَفِىُّ . وهو الذى يتولَّى قبضَ الأموال وصَرْفهـا . وهو مأخوذ من الصَّرْف : وهو صَرْفُ الذهب والفِضّة فى الميزان . وكان يقال له فيما تقدّم الجِهْبِذُ .

الضـــــرب الرابع

(ألقابُ أربابِ الوظائفِ من أهل الصِّناعات ، وفيه خمسةُ ألقاب)

الأوّل — مُهَنْــدِس العمائرِ . وهو الذى يتولّى ترتيبَ العمائر وتقــديرَها ويحكم علىٰ أربابِ صناعاتِها . والهندسةُ عِلْم معروف فيه كتبٌ مفردَة بالتصنيف .

الثانى — رئيس الأطِبّاء . وهو الذى يحكم علىٰ طائفةِ الأطِبّاء ويأذَنُ لهم فى التطبيب ونحو ذلك . وسيأتى الكلامُ علىٰ ضَبْط ذلك ومعناه فى الكلام علىٰ الرئيس فى الألقاب المُفْرَدة فى حرف الراء فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الثالث — (رئيسُ الكَحّالين) . وحكمه فى الكلام علىٰ طائفــةِ الكَحّالين حُكْمُ رئيس الأطِبّاء فى طائفة الأطِبّاء .

الرابع — رئيس الجَرائحيّة . وحكمُــه فى الكلام علىٰ طائفةِ الجرائحيّة والمجبِّرين كالرئيسَيْن المتقدّمَيْن .

الخامس — رئيس الحَرّاقة . وهو الذى يحكُم علىٰ رجال الحَرّاقة السلطانية ويتولّى أمْرها . وكان فى الزمن المتقــدّم يقال له رئيس الخلافة جَرْيًا علىٰ ما كان الأمر عليه فى الخلافة الفاطمية بالديار المصرية .

الضـــــرب الخـامس

(ألقاب أربابِ الوظائفِ من الأتباع والحواشِى والخَدَم، وهم طائفتان)

الطـائفة الأولىٰ

(الأعوانُ، وهم نمَطان)

النمـــــط الأول

(ما تمحّضتْ ألفاظه عربيّةً، وفيه ثلاثة ألقاب)

الأوّل — مُقَدَّم الدَّوْلة . وهو الذى يتحدّثُ علىٰ الأعوان والمتصرِّفين لخِدْمة الوزير . والمراد المقدَّمُ علىٰ الدولة، والدولةُ لفظٌ قد خصه العُرْف بمتعلّقات الوِزَارة . كما يقال لناظر الدَّواوين ناظر الدولة علىٰ ما تقدّم ذكُره .

الثـانى — مُقدّم الخاصّ . وهو المتحدّث علىٰ الأعوان والمتصرفين بديوان الخاصِّ المختصّ بالسلطان، كمقدَّم الدولة بالنسبة إلىٰ أعوان الوِزَارة .

الثالث — مقدّم التُّرْكُمان . ويكون بالبلاد الشاميَّة والحَلَبية متحدّثًا علىٰ طوائف التُّرْكُمان الذين يُقَدَّمُ عليهم .

النمـــــط الثـانى

(ما تمحّض لفظُه عجميًّا، وفيه لَقَب واحد)

وهو (البَرْدَدَار) . وهو الذى يكون فى خدمة مباشِرِى الدِّيوان فى الجملة متحدّثًا علىٰ أعوانه والمتصرِّفين فيه، كما فى مقدّم الدولة والخاصّ المقدّم ذكرهما . وأصـله

(فَرْدادار) بفاء فى أوّله وهو مركَّب من لفظين فارسيين : أحدهما فَرْدا ، ومعناه الستارة. والثانى دار، ومعناه ممسك، والمراد «ممسكُ السِّتارة» وكأنه فى أوّل الوضع كان يقف بباب السِّتارة ثم نقل إلى الديوان .

الطائفة الثانيـــة

(أرباب الخِدَم ، وهم نَمَطان)

النَّمَـــط الأوّل

(مايُضاف إلى لفظ الدار كما تقدّم فى أرباب السُّيوف، وهى سبعة ألقاب)

الأوّل — الشَّرَبْدار . وهو لقبٌ على الذى يتصدّى للخِدْمة بالشَّرابْ خاناه، التى هى أحدُ البيوتِ . وهو مركب من لفظين : أحدهما شَراب وهو مايُشْرَب من ماء وغيره، فحذفوا الألف فيه آستثقالا . والثانى دار، ومعناه ممسك على ماتقدّم، والمعنى «ممسكُ الشَّراب» .

الثانى — الطَّشْتَ دَار . وهو لقبٌ على بعض رجال الطَّشْت خاناه . وهو مركب من لفظين أحدُهما طَشْتٌ بفتح الطاء وإسكان السين المهملة فى اللغة العربية، وهو الذى يُغْسَل فيه، ويجمع على طُسُوس بسينين من غير تاء ، ويقال فيه أيضا طَسٌّ بإسقاط التاء ، إلا أن العامة أبدلُوا السين المهملة فيه بشين معجمة . والثانى دار ومعناه ممسكٌ على ماتقدّم، فيكون معناه «مُمْسِك الطَّشْت» .

الثالث — البَازْدَار . وهو الذى يحمل الطيورَ الجوارحَ المَعَدّةَ للصيد على يَدِه . وخُصَّ باضافته إلى البازِ الذى هو أحد أنواع الجوارح دُونَ غيره لأنه هو المتعارَف بين الملوك فى الزمن القديم ، على ما سيأتى ذِكْرُه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الرابع — الحَوَنْدار . وهو الذى يتصدّى لخدمة طُيُور الصيد من الكَرَاكِيّ والبَلَشُونات ونحوها ، ويحملها إلىٰ موضع تعليم الجَوَارح . وأصله « حَيَوَانْ دَار » أطلق الحيوان فى عُرْفهم علىٰ هذا النوع من الطيور، كما أُطْلِق علىٰ مَنْ يتعانىٰ معامل الفَرُّوج الحَيَوانِيّ .

الخامس — المَرَقْدَار . وهو الذى يتصدّى لِخدْمة ما يحوزُ المَطْبَخ وحفظِه . سمِّى بذلك لكثرة معاطاته لمَرَق الطعام عند رفع الخِوَان ونحو ذلك .

السادس — المِحَفَّدار بكسر الميم . وهو الذى يتصدّى لخِدْمة المِحَفَّة . وهو مركب من لفظين . أحدهما مِحَفَّة فحذفت التاء منها آستثقالا ، والثانى دار ، ومعناه ممسكٌ علىٰ ما تقدّم ، فيكون بمعنى « ممسك المِحَفَّة » .

النمـــــط الثانى

(مالا يتقيّد بالإضافة إلىٰ دار ولا غيرها، وفيه خمسة ألقاب)

الأوّل — المِهْتَارُ . وهو لقبٌ واقع علىٰ كبير كلِّ طائفة من غِلْمان البيوت، كمِهْتَار الشَّراب خاناه، ومِهْتار الطَّشْت خاناه، ومِهْتار الرِّكَاب خاناه . ومِهْ بكسر الميم معناه بالفارسية الكبير، وتَار بمعنى أفعل التفضيل، فيكون معنىٰ المِهتار الأكبر .

الثانى — البَابَا . وهو لقبٌ عامٌّ لجميع رجال الطَّشْت خَانَاه ممن يتعاطىٰ الغَسْل والصَّقْل وغير ذلك . وهو لفظ رومىّ، ومعناه أبو الآباء علىٰ ماسيأتى بيانه فى لقب الباب فى الكلام علىٰ ألقاب أهل الكُفْر . وكأنه لُقِّب بذلك لأنه لما تعاطىٰ ما فيه ترفيهُ مخدومه : من تنظيف قُمَاشه وتحسين هيئته أشْبَهَ الأبَ الشفيق فلُقِّب بذلك .

الثالث — الرَّخْتَوان . وهو لقبٌ لبعض رجال الطسْت خاناه يتعاطى القُماش، والرَّخْت بالفارسية آسمٌ للقماش، والواو والألف والنون بمعنى ياء النسب، ومعناه «المتولِّى لامر القُماش» .

الرابع — الخِوَان سَلَار . وهو لقب مختصٌ بكبير رجال المَطْبَخ السلطانىّ، القائم مقام المِهْتار فى غير المَطْبَخ من البيوت . وهو مركَّب من لفظين : أحدهما خِوَان، وهو الذى يؤكل عليه . قال الجوهرىّ : وهو معرَّب . والثانى سَلَار، وهى فارسية ومعناها المقدّم وكأنه يقول مقدّم الخِوَان . والعامة تقول : «إخوان سلار» بألف فى أوّله وهو لحن .

الخامس — المِهْمَرْد . وهو الذى يتصدّى لحفظ قُماش الجِمَال او قُماش الإصطبل والسقائين ونحو ذلك . ومعناه باللغة الفارسية « الرجل الكبيرُ » فمهْ آسمٌ للكبير، ومَرْد آسمٌ للرجل .

السادس — (الغُلَام) . وهو الذى يتصدّى لخِدْمة الخيل ، ويجمع على غِلْمانٍ وغِلْمةٍ بكسر الغين وسكون اللام . وهو فى أصل اللغة مخصوصٌ بالصبىّ الصغير والمملوك ثم غَلَب على هذا النوع من أرباب الخِدَم ؛ وكأنهم سَمَّوْه بذلك لِصغَره فى النُّفوس . وربما أُطْلِق على غيره من رجال الطَّسْت خاناه ونحوهم .

القســـم الثـانى

(من ألقاب أربابِ الوظائف ألقابُ أرباب الوظائف من أهل الكُفْر، والمشهور منهـــم طائفتان)

الطائفة الأولى النصارى

(والمشهور من ألقاب أرباب وظائفهم ثمـانيةُ ألقابٍ)

الأوّل — الپاپ — بباءين موحدتين مفخمتين فى اللفظ . وهو لقب على القائم بأمورِ دِين النصارى المَلكانيَّة بمدينة رُومِيَةَ . وما ذكره فى "التثقيف" من أنه عندهم بمثابة القانِ عنــد التتار خطأٌ ظاهر : لأن البـاپَ قائم فى النصارى مَقام الخليفة، بل به عندهم يُناطُ التحليلُ والتحريمُ، وإليه مرجعهم فى أمر دِياناتهم بخلاف القان فإن أمره قاصرٌ على أمر المُلْك، وأصله الپاپا بزيادة ألف فى آخره، والكُتّاب يُثْبِتونها فى بعض المواضع ويحذفونها فى بعض، وربمـا قيل فيه الپاپه بابدال الألف هاءً . وهى لفظة رومِيَّـــة معناها أبو الآباء . وأوّل ماوُضِع هــذا اللقبُ عندهم على بَطْرك الإســكندرية الآتى ذكره فيما بعــدُ؛ وذلك أن صاحب كلِّ وظيفة من وظائفهم الآتى ذكْرُها كان يخـاطِبُ مَنْ فوقه منهم بالأَبِ، فالْتَبَس ذلك عليهــم فاخترَعُوا لبطرك الإسكندرية البَابَا دفعًا للاشتراك فى آسم الباب، وجعلوه أبًا للْكُلّ؛ ثم رأَوْا أن بَطْركَ رُومِيَةَ أحقُّ بهذا اللقب : لأنه صاحب كرسِيِّ بُطْرس كبير الحَوَارِيِّيـــن ورسولِ المســيح عليه الســلام إلى رُومِيَــةَ؛ وبطركُ الإسكندرية صاحبُ كرسِيِّ مُرْقُصَ الإنجيلى تلميذِ بُطْرُسَ الحوارىّ المقــدّم ذكره فنقــلوا آسمَ الپاپا إلى بَطْرك رُومِيَةَ، وأبقَوا آسم البطرك على بَطْرك الإسكندرية .

الثانى — البَطْرَك — بباء موحدة مفتوحة ثم طاء مهملة ساكنة وبعدها راء مهملة مفتوحة ثم كاف فى الآخر . وهو لقب على القائم بأمور دين النَّصرانية . وكراسىّ البَطارِكة عندهم أربعة : كرسىّ برومية وهو مقرّ الپاپ المقدّم ذكره، وكرسىّ بأنْطاكِيَة من بلاد العواصم، وكرسىٌّ بالقُدْس، [وكرسىٌّ بالإسكندرية](١) وقد غلب الآن بالديار المصرية على رئيس النصارى اليَعْقُوبيَّة بالديار المِصرية وهو المعبر عنه فى الزمَن القديم ببطرك الإسكندرية، ومقرّه الآن بالكنيسة المعلقة بالفُسْطاط على ماسيأتى ذكره فى موضعه ان شاء الله تعالى .

وأصله البَطْرِيَرْك بزيادة ياء مثناة تحتُ مفتوحة بعدها راء ساكنة وهو لفظ رومىّ معناه ... ...(٢) ورأيت فى ترسُّل العَلاء بن موصَلَايا كاتب القائم بأمر الله العباسىّ فى تقليدٍ أنشأه "الفَطْرك" بابدال الباء الموحدة فاءً . وقد تقدّم أن هذا البطرك هو الذى كان يُدْعى أوّلا بالپاپا ثم نُقِل ذلك إلى بابا رومية، على أن بطرك الإسكندرية لم يكن فى الزمن المتقدّم مختصا ببطرك اليعقوبية بل كان تارةً يكون يعقوبيا وتارةً يكون مَلِكانيا وانما حدث اختصاصه باليعقوبية فى الدولة الإسلامية على ما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثالث — الأُسْقُفّ — بضم الهمزة والقاف . وهو عندهم عبارة عن نائب البَطْرَك .

الرابع — المِطْرانُ — بكسر الميم . وهو عبارة عن القاضى الذى يفصل الخُصوماتِ بينهم .

الخامس — القِسِّيسُ — بكسر القاف . وهو القارئ الذى يَقْرأ عليهم الإنجيلَ والمَزاميرَ وغيرها .

(١) الزيادة من الضوء .

(٢) بياض بالاصول .

السادس — الجَاتَلِيقُ - بجيم بعدها ألف ثم تاء مثناة فوق ولام ثم ياء مثناة تحتُ وقاف فى الآخر . وهو عندهم عبارة عن صاحب الصَّلاة .(١)

السابع — الشَّمَّاس - بشين معجمة فى الأوّل وسين مهملةٍ فى الآخر وميم مشدّدة . وهو عبارة عندهم عن قَيِّم الكَنِيسة .

الثامن — الراهِبُ . وهو عبارةٌ عن الذى حَبَس نفسَه على العبادة فى الخَلْوة .

الطائفة الثانية اليهود

(والمشهور من ألقابِ اربابِ وظائفهم ثلاثةُ ألقابٍ)

الأوّل — الرئيس . وهو القائم فيهم مَقامَ البَطْرك فى النصارى ، وقد تقدّم الكلامُ على لفظ الرئيس وأنه يقال بالهمز وبتشديد الياء .

الثانى — الحَزَّان - بحاء مهملة وزاى معجمة مشدّدة وبعد الألف نون . وهو فيهم بمثابة الخَطِيب يَصْعَد الْمِنبَر ويَعِظهم .

الثالث — الشِّلِيَحْصَبُّور - بكسر الشين المعجمة واللام وفتح الياء المثناة تحتُ وبعدها حاء مهملة ساكنة ثم صاد مهملة مفتوحة وباء موحدة مشدّدة مضمومة بعدها راء مهملة . وهو الإمام الذى يصلِّى بهم .

---

(١) نص فى القاموس على جواز الفتح والكسر فيه وأورده بالثاء المثلثة فلعل ما أثبته فى الاصل تصحيف أولغة .

الجمـــــلة الثـانية

(فى ذكر الألقاب المرتَّبة على الأصول العِظام من ألقابِ أرباب الوظائف المتقدّمة، وهى نوعان)

النـــوع الأوّل

(ألقابُ الخُلَفاء المرتَّبة على لقب الخليفة، وهى صنفان)

الصـــنف الأوّل

(ماجرى منها مَجْرى العُمُوم، وهو لقبان)

الأوّل — أميرُ المؤمنين . وهو لقبٌ عامٌّ للخلفـاء . وأوّل من لُقِّب به منهم عمرُ آبنُ الخطاب رضى الله عنه فى أثناءِ خلافته، وكانوا قبل ذلك يَدْعُون أبا بكر الصدّيقَ رضى الله عنـه بخليفةِ رسول الله، ثم دَعَوْا عُمَر بعـده لآبتداء خلافته بخليفةِ خليفةِ رســول الله .

وآختُلِف فى أصل تلقيبه بأمير المؤمنين فروى أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" بســنده إلى أبى وبْرَة، أن أصلَ تلقيبه بذلك أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهـما كانا يَجْلدان فى الشراب أربعيـــن، قال فبعثنى خالدٌ إلى عمر فى خلافته أسأله عن الجَلْد فى الشراب بجئته، فقلت : ياأمير المؤمنين إن خالدًا بعثنى اليك — قال فِيمَ؟ قلت : إن الناس قد تَحَاقَرُوا العقوبة وآنهمكوا فى الخمر فمـا ترى فى ذلك فقال عمرُ لمن حوله ما تَرون فى ذلك فقال علىّ نرى يا أمير المؤمنين ثمـانين جلدةً فقبِل ذلك عمرُ فكان أبو وبْرَة ثم علىّ بن أبى طالب أوّلَ من لَقَّبه بذلك .

وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" أن أصل ذلك أن عمر رضى الله عنه بعث إلىٰ عامله بالعراق أن يرسل إليه رجلين عارفين بأمو ر العراق يسألهما عمـا يريد فأنفذ إليـه لبيدَ بنَ رَبِيعةَ وعدىَّ بن هشام (١) فلما وصلا المدينةَ دخلا المسجدَ فوجدا عَمْرو بن العاص فقالا له : ٱستأذِنْ لنا علىٰ أمير المؤمنين ــ فقال لهما عمرو : أنتما أصبتُما ٱسمَه ! ثم دخل علىٰ عمرَ فقال السـلام علىٰ « أمير المؤمنينَ » ــ فقال : مابدا لك يا ٱبنَ العاص ؟ لَتَخْرُجَنَّ من هذا القول ! فقصَّ عليه القصـةَ فأقرّه علىٰ ذلك ، فكان ذلك أوّلَ تلقيبـه بأمير المؤمنين ، ثم ٱستقرَّ ذلك لقبًا علىٰ كلِّ من وَلِىَ الخلافة بعـده أو ٱدَّعاها خَلَا خلفاءَ بنى أُمَيَّةَ بالأندَلُس فإنهـم كانوا يخاطَبُون بالإمارة فقط إلىٰ أن وَلِىَ منهم عبدُ الرحمن بنُ محمدِ بن عبد الله ، بنِ عبد الرحمن ، وهو الثالثَ عشرَ من خلفائهم إلىٰ زماننا .

الثـانى ـــ عبـدُ الله ووليُّه . وهو لقبٌ عامٌّ للخلفاء أيضا ، إذ يُكْتَب فى نعت الخليفة فى المكاتبات ونحوها « من عبدِ الله ووَليِّـه أبى فلانٍ فُلانٍ أمير المؤمنين » فأما عبدُ الله فأوّلُ من تلقّب به أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه أيضا ، فكان يكتُبُ فى مكاتبـاته « من عبدِ الله عمـرَ » ولزم ذلك مَنْ بعـده من الخلفاء حتّى إن المأمون كان ٱسمه عبدَ الله فكان يكتب من «عبدِ الله عبدِ الله بن هارون» مكرّرًا لعبدِ الله علىٰ الأسم الخاص واللقبِ العـامّ ، وأما إردافها بقوله « ووليُّـه » فأُحْدِث بعد ذلك .

---

(١) كذا فى الأصول ومثله فى الضوء وفى مروج الذهب عدىّ بن حاتم وهو الصواب .

الصنف الثانى

(ألقابُ الخلافة الخاصةُ بكل خليفة)

والمتلقّبون بألقاب الخلافة خمسُ طوائف :

الطائفة الأولىٰ

(خلفاء بنى العَبّاس)

قد تقدّم فى الجملة الثانية من الطَّرَف الأوّل من هذا الفصل فى الكلام علىٰ أصلِ وضْع الألقاب والنُّعوت أن خلفاء بنى أُمَيّة لم يتلقّبْ أحدٌ منهم بألقابِ الخلافة ، وأن ذلك ٱبتُدِئ بابتداء الدولة العبّاسية فتلقب إبراهيمُ بنُ محمدٍ حين أُخذتْ له البيعةُ بـ«الإمام» وأن الخُلْف وقع فى لقب السفّاح : فقيل «القائم» وقيل «المهتدى» وقيل « المرتضى » ، ثم تلقب أخوه بعده بـ«المنصور» وٱستقرّت الألقابُ جاريةً علىٰ خلفائهم كذلك إلىٰ أن وَلِىَ الخلافةَ أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ الرشيد بعد أخيه المأمون فتلقّب بـ « المعتصِم بالله » فكان أوّلَ من أُضيف فى لَقَبه من الخلفاء ٱسمُ الله . وجرىٰ الأمر علىٰ ذلك فيما بعده من الخلفاء ، كـ«الواثق بالله» و «المتوكّل علىٰ الله» و«الطائع لله» و «القائم بأمر الله» و «الناصر لدين الله» وما أشبه ذلك من الألقاب المتقدّمة فى الكلام علىٰ ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية .

وكان من عادتهم أنه لا يتلقّب خليفةٌ بلقبِ خليفةٍ قبلَه إلىٰ أن صارت الخلافةُ إلىٰ الديار المصرية فترادَفُوا علىٰ الألقاب السابقة ، واستعملوا ألقابَ مَنْ سلف من الخلفاء علىٰ ماتقدّمت الإشارة إليه فى الكلام علىٰ ترتيب الخلفاء ، إلىٰ أن تلقب أميرُ المؤمنين محمدُ بنُ أبى بكر خليفةُ العصر ، بـ « المتوكل علىٰ الله » وهو من أوائل ألقاب الخلافة العباسية .

الطائفـــة الثـانية

(خلفـاء بني أميَّـــة بالأندلُس)

(حين غلب بنو العباس علىٰ الأمر بالعراق، وآنتزعوا الخلافة منهم)

وأوّل من وَلِيَ الخلافة منهم بالأندلُس « عبدُ الرحمن » بنُ معاوية، بنِ هشامٍ، آبنِ عبدالملك، بنِ مَرْوان، المعروفُ (بالداخل) لدخوله الأندَلُس في سنة تسع وثلاثين ومائة علىٰ ماسيأتي ذكره في مكاتبة صاحب الأندَلُس . ولم يتلقَّبْ بلقبٍ من ألقاب الخلافة جَرْيا علىٰ قاعدتهم الأولىٰ في الخلافة . وجرىٰ علىٰ ذلك مَنْ بعده من خلفائهم إلىٰ أن وَلِيَ منهم « عبدُ الرحمن » بنُ محمد، المعروف بـ«المَقْبول» فتلقب بـ« النـاصر» بعد أن مضىٰ من خلافته تسعٌ وعشرون سنة، وتبعه مَنْ بعده منهم علىٰ ذلك إلىٰ أن ولي عبدُ الرحمن بنُ محمد، بن عبد الملك، بن الناصر عبد الرحمن المقدّم ذكره، فتلقب بـ«المرتضِى بالله» وهو أوّل من أُضِيف في لقبه بالخلافة منهم آسمُ الله، مضاهاةً لبني العباس، وذلك في حدود الأربعمائة . وبقي الأمرُ علىٰ ذلك في خلفائهم إلىٰ أن كان آخرهم هشام بن محمد فتلقب بـ«المعتمد بالله» وآنقرضت خلافتهم من الاندلس بعد ذلك بانقراضه في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .

الطائفة الثالثـــــــة

(الخلفاء الفاطميُّون ببلاد الغرب ثم بالديار المِصْرية)

وأوّل ناجمٍ نَجَم منهم ببلاد الغرب (أبو محمد عبيدُ الله) في سـنة ست وتسعين ومائتين من الهجرة، وتلقب بـ«المَهْدِىّ» ثم تلقب بنوه من بعده بألقاب الخلافة المضافِ فيها آسمُ الله كـ«القائم بأمر الله» و « المنصورِ بالله » إلىٰ ان كان منهم

المعزُّ لدين الله أبو تميم مَعَدٌّ، وهو الذى انتزع الديارَ المصرية من أيدى الأخْشيديَّة، وصار إليها فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة . وتداول خلفاؤُهم بها مثل هذه الألقاب إلىٰ أن كان آخرُهم العاضدَ لدين الله عبدَ الله وانقرضتْ خلافتهم بالدولة الأيُّوبيـة علىٰ ماتقدّم ذكره فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ ملوك الديار المصرية .

الطائفة الرابعـــة

(الخلفاء الموحّدون الذين ملوكُ أفريقيَّة بتونُس الآنَ من بقاياهم)

وأوّلهم فى التلقيب بألقاب الخلافة إمامُهم محمدُ بن تُومَرْت البربرىّ، القائمُ ببلاد الغربِ فى أعقاب الفاطميين المتقـدّم ذكرهم، تلقب بـ«المهدىّ» وآل الأمرُ من جماعته إلىٰ الشيخ أبى حفص أحدِ أصحابه، ومن عقبه ملوكُ تونُسَ المتقدّمُ ذكرهم فلم يتلقب أحد منهم بألقاب الخلافة إلىٰ أن ولى منهم أبو عبدالله محمدُ بنُ أبى زكريَّا يحيىٰ فتلقب بـ«المستنصر بالله» وتبعه مَنْ بعده من ملوكها علىٰ التلقيب بألقاب الخلافة إلىٰ زماننا . ولذلك قال المقرّ الشهابىّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" فى الكلام علىٰ مكاتبـة صاحب تونُسَ «لايدَّعِى إلا الخلافةَ» وشبهتُهم فى ذلك أنهم يدّعون انتسابَهم إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه، وهو من صميم قُرَيْش .

الطائفة الخامســـة

(جماعةٌ من ملوك الغرب ممن لاشبهةَ لهم فى دعوىٰ الخلافة)

كملوك الطوائف القائمين بالأندَلُس بعد انقراض الدولة الأمويَّة منهـا : من بنى عبَّاد وبنى هُود وغيرهم حيث كانوا يلقَّبُون بـ«المعتمد» وغيره .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ الملوك المختصةُ بالملك ، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(الألقابُ العامةُ ، وهى التى تقع بالعموم على ملوكِ ممالكَ مخصوصةٍ تصدُق على كلّ واحد منهم ، وهى ضربان)

الضرب الأوّل

(الألقابُ القديمة ، والمشهور منها ألقابُ ستّ طوائفَ)

الطائفة الأولى

(التّبابِعةُ ملوكُ اليمن)

كان يقال لكلّ منهم «تُبَّعٌ» . قال السُّهَيْلىّ فى "الروض الأُنُف" : سُمُّوا بذلك لأن الناس يَتْبَعونهم ، ووافقه الزمخشرى على ذلك . وقال ابن سيده فى "المحكم" : سُمُّوا بذلك لأنهــم يَتْبَعُ بعضُهم بعضــا . قال المسعودى فى "مروج الذهب" : ولم يكونوا لِيُسَمُّوا أحدا منهم تُبَّعا حتّى يملك اليمَنَ والشِّحْرَ وحضرموتَ . وقيل : حتّى يتبعه بنو جُشَمَ بن عبد شمس ، أما إذا لم يكن كذلك فإنمــا يسمّى مَلِكا . وأول من لُقِّب منهم بذلك «الحارثُ بن ذى شمر» وهو الرائش . ولم يزل هذا اللقب واقعا على ملوكهم إلى أن زالت مملكتُهم بملك الحبشة اليمَن .

الطائفـــة الثـانية

(ملوك الفُرْس ، وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى — الفيشدادية . كان يقال لكل من ملك منهم فيشداد ، ومعناه « سيرة العدل » وأولهم كُيُومَرْث ، والفُرْس كلهم مطبقون على أنه مبدأ نَسْل البَشَر ، وكأنهم يريدون به آدمَ عليه السلام .

وحكى الغزالى فى "نصيحة الملوك" : أن كيومرث ابنُ آدم لصُلْبه ، وأن آدم عَهِد إلى شيث بأمر الدّين وإلى كُيومرث بأمر الملك . وبعضهـــم يقول إنه كامِرُ ابنُ يافث بن نوح عليه السلام .

الطبقة الثانية — (الكَيانِيّة)[1] . سُمّوا بذلك لأن فى أوّل آسم كل واحد منهم لفظ كِى ، وأولهم (كيقُباذ) .

الطبقة الثالثة — (الأشْغانِيّة) . كان يقال لكل منهم «أشْغان»[2] . قال المسعودى : بالغين المعجمة ويقال بالكاف .

الطبقة الرابعة — (الأكاسِرَةُ) . كان يقال لكل منهم «كِسْرى» بكسر الكاف وفتحها ، وربما قيل فيهم « الساسانيّة » نسبةً إلى جَدّهم ساسانَ بنِ أرْدَشير بن كِى بَهْمَنْ . وأوّلهم أرْدَشِير بنُ بابَكْ وآخرهم يَزْدجِرد الذى آنقرض ملكُهم بانتزاع المسلمين الملكَ من يديه فى خلافة عثمانَ رضى الله عنه .

---

(١) فى العبر ٢ ص ١٥٩ "الكينية" .

(٢) فى الأصول بدون نون والتصحيح من المسعودى .

الطائفـــة الثالثة

(ملوك مصر من بعد الطُّوفان من القِبْط)

كان كلُّ مَنْ ملكها منهم يسمَّى «فِرْعَوْن» قال إبراهيم بن وَصِيف شاه فى "كتاب العجائب" : والقِبْط تزعم أن الفراعنة مَنْ مَلَكها من العمالقة دُونَ القِبْط، كالوَليد بن دُومَغْ ونحوه. ويقال : إن أوّل من تسمَّى بهذا الاسم منهم (فرعان) آخر ملوكها قبل الطُّوفان ثم تسمَّى مَنْ بعده بـ«فِرْعَوْن». قال المؤيد صاحب حماة فى تاريخه : ولم أدر لأىّ معنًى سُمّى بذلك. والمذكور فى القرءان منهم هو الذى بُعِث موسى عليه السلام فى زمانه.

الطائفـــة الرابعة

(مـــلوك الروم، وهم طبقتان)

الطبقةُ الأولى منهما ليس لهم لقبٌ يعمُّ كل مَلِك، بل لكلِّ ملك منهم اسم يخُصُّه.

الطبقة الثانية — القَيَاصِرةُ. كان يقال لكُلِّ مَنْ ملك منهم قَيْصَر. وأصل هذه اللفظة فى اللغة الروميّة جاشَر بجيم وشين معجمة فعرّبتها العرب قَيْصَر ولها فى لغتهم معنيان : أحدُهما الشَّعَر، والثانى الشىءُ المشقوقُ.

وٱختُلِف فى أوّل مَنْ تلقّب بهذا اللقب منهم : فقيل أغانيوش أوّلُ ملوك الطبقة الثانية منهم. سُمِّى بذلك لأنّ أمه ماتت وهو حَمْل فى بطنها فشُقَّ جوفُها وأُخْرِج فأُطْلِق عليه هذا اللفظ أخذًا من معنَى الشقّ، ثم صار عَلَمًا على كل مَنْ مَلَكهم بعده، وقيل أوّل مَنْ لُقّب بذلك يوليوش الذى ملك بعد أغانيوش المذكور، وقيل

أوّل من لُقِّب به أُغُسْطُش ، وآختلف فى سبب تسميته بذلك : فقيل لأن أمه ماتت وهو فى جوفها فشُقّ عنه وأُخرج كما تقدّم القول فى أغانيوش، وقيل لأنه وُلد وله شَعَر تامّ فلُقِّب بذلك أخذا من معنى الشعر كما تقدّم . ولم يزل هذا اللقبُ جاريًا علىٰ ملوكهم إلىٰ أن كان منهم هِرَقْل الذى كتب إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم .

وزعم القاضى شهابُ الدين بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" فى الكلام علىٰ مكاتبة الأدفُونش أن هِرَقْل لم يكن المَلِكَ نفسَه وإنما كان متسلِّم الشأم لقَيْصَر، وقَيْصَرُ بالقسطنطينية لم يرِمْ، وإنما كتب النبىّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ هِرَقْل لقربه من جزيرة العرب وبقى هذا اللقب عليهم بعد الإسلام إلىٰ أن كان آخِرُ من تلقَّب به منهم (إستيراق قيصر) ملك القسطنطينية فى خلافة المأمون بن الرَّشيد .

الطائفة الخامسة

(ملوكُ الكَنْعانيِّين بالشأم)

كان كلُّ مَنْ ملك منهم لُقِّب «بجَالُوت» إلىٰ أن كان آخرهم جالوتَ الذى أخبر الله تعالىٰ عنه بقوله ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ .

الطائفة السادسة

(ملوك الحبشة)

كان كلُّ مَنْ ملك منهم يلقّب «بالنَّجَاشىّ» ولم يزلْ ذلك لقبا علىٰ ملوكهم إلىٰ أن كان منهم النجاشىُّ الذى كتب إليه النبىُّ صلَّى الله عليه وسلم وصلَّى عليه النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد موته . وهو الذى هاجر إليه مَنْ هاجر من الصحابة رضوانُ الله عليهم الهجرةَ الأُولىٰ . وآسمه صَحْمة ويقال أَصْحَمةُ، ومعناه بالعربية عَطِيَّة .

الضرب الثانى

(الألقابُ المستحدَثةُ، والمشهور منها ألقابُ ستِّ طوائفَ)

الطائفة الأولىٰ

(ملوكُ فَرْغانةَ)

كان كلُّ مَنْ ملك منهم يلقَّب « الأَخْشِيد » ولذلك لَقَّب الراضى بالله العباسىُّ محمدَ بنَ طُغْج صاحبَ الديار المصرية والبلاد الشامية بـ«الأَخْشِيد» لأنه كان فَرْغانياً .

الطائفة الثانية

(ملوك أُشْرُوسَنَةَ)

كان كلُّ مَنْ ملكها يقال له « الأَفْشِين » . قال فى " ذخيرة الكُتَّاب " : وبه لَقَّب المعتصمُ بالله حَيْدَر بن كاوس بـ«الأَفْشِين» لأنه أُشْرُوسَنِىٌّ .

الطائفة الثالثة

(ملوكُ الجلالقةِ من الفرنج)

الذين قاعدة مُلْكِهم طُلَيْطِلَةُ وبَرْشَلُونَةُ من الأندلس . يقال لكلِّ مَنْ ملك منهم « أَذْفُونَش » بدال مهملة ثم فاء بعدها واو ثم نون مفتوحة وشين معجمة فى آخره . وهذا اللقب جارٍ علىٰ ملوكهم إلىٰ زماننا ، وهو الذى تُسَمِّيه العامةُ « الفُنْش » .

الطائفـــة الرابعة

(ملوك فَرَنْسَة، ويقال فَرَنْجَة بالجيم)

وهو ملك الأرض الكبيرة بظاهر الأندلس. يقال لكلّ من ملكها «ريدافرنس» ومعنى ريد بلغتهم الملك، والأفرنس اسم للجنس الذين يملك عليهم. والمعنى ملك الأفرنس. وهو الذى تسميه العامّة «الفرنسيس» وهــذا اللقب جارٍ على ملوكهم إلى الآن.

الطائفـــة الخامسة

(ملوك البُنْدُقيّة من بلاد الفرنج)

كلّ من ملك منهم يسمّونه «دُوك» بالكاف المشوبة بالجيم فيقال: «دُوك البُنْدُقِيّة». وهذا اللقب جارٍ على ملوكهم إلى آخر وقت.

الطائفـــة السادسة

(مــلوك الحَبَشـــة فى زماننا)

كلّ مَنْ ملك منهــم يقال له «حَطِّى» بفتح الحاء المهــملة وكسر الطاء المهملة المشدّدة. وهذا اللقب يُذكر فى مكاتباتهم عن الأبواب السلطانية على ماسيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى.

الصـــــنف الثـــانى

(من النوع الثانى الألقابُ الخاصـــة)

وهى التى يُخَصُّ كلُّ ملكٍ من ملوك الإســلام منها بلقبٍ ، وهو المعبَّر عنه عند الكُتَّاب باللقبِ المُلُوكىّ . ويختلف الحالُ فيه باختلاف البلادِ والزمانِ .

فأما بلاد المشرق فأوّل آفتتـاح تلقيب مُلُوكهم بالإضافة إلى الدولةِ ، وكان أوّلَ من تلقَّب منهم بذلك بنو حَمْدانَ ملوكُ حلَبَ ، فتلقب أبو محمـدٍ الحسنُ بنُ حَمْدانَ فى أيام المتقى لله «ناصرَ الدولة» وتلقَّب أخوه أبو الحسن علىٌّ «سيفَ الدولة» وعلى ذلك جرى الحال فى ملوك بنى بُوَيْه على ماتقدّم ذكره فى الكلام على أصول الألقاب ، وتوالى ذلك فيهم إلى آنقراض دولتهم . ثم وقع التلقيبُ بالسلطان فيما بعدهم من الدُّوَل كدولة بنى سُبُكْتِكين ، وبنى ساسانَ ، وبنى سَلْجُوق ، إلى أن غلبت التتارُ على بلاد المشرق فجَرَتْ ملوكُهم فى التلقيب بألقابٍ على عادة ملوكهم .

وأما بلاد المغرب : فأوائلُ ملوكهم على عموم ملوكهم جميعها وخصوصه ببعضها مابين مدّعٍ للخلافة ، كبنى أُمَيَّةَ بالأندلُس ، وأتباع المهدىّ بن تُومَرْت ، فيدور أمر أحدهم بين التلقيب بألقـاب الخلافة والآقتصار على آسمـه أو كنيته ، وما بين غير مدّعٍ للخلافة ، فيَقْتَصر على آسمه أو كنيته فقط إلى أن غلب يوسفُ بن تاشفِينَ فى أوائل دولة المُرَابِطين من الملثَّمين من البربر على بلاد المغرب والأندلُس ، ودانَ بطاعة الخلافة العباسـيَّة ببغدادَ ، فتلقب بـ«أمير المسلمين» خضوعًا عن أن يتلقَّب بـ«أمير المؤمنين» الذى هو من خصائص الخلافة ؛ وتبعه على ذلك مَنْ جاء بعده من ملوك الغرب من البربر : فتلقَّب به بَنُو مَرِينٍ : ملوكُ فاس ، وبنو عَبْد الواد ملوكُ تِلِمْسانَ ، وبقىَ الأمر على ذلك إلى أن ملك فاسَ وما معها من بلاد المغرب

ابوعنان من أحفاد السلطان ابى الحسن، فتلقب بـ«أمير المؤمنين» وصارت مكاتباته تَرِدُ إلى الديار المصرية بذلك، وتبعه مَنْ بعده من ملوكهم على ذلك .

أما ملوك تونس من بقايا الموحّدين، فلم يزالوا يلقّبون بألقاب الخلافة على ماسبق ذكره فى الكلام على ألقاب الخلفاء .

وأما الديار المصرية، فمضى الأمر فيها على نُوّاب الخلفاء من حين الفتح الإسلامى وإلى انقراض الدولة الأخشيديّة ولم يتلقّب أحد منهم بلقبٍ من الألقاب الملوكية . ثم كانت دولة الفاطميين فتلقّبوا بألقاب الخلفاء على ما مر ذكره . ولم يتلقّب أحد من وزرائهم أربابِ السيوف لابتداء أمرهم بالألقاب الملوكية إلى أن ولِىَ الوزارةَ المستنصرُ بدرُ الجمالى وعظُم أمرُ الوزارة، وصارت قائمةً مقامَ السلطنة الآنَ فتلقب بـ«أمير الجُيُوش» وتلقب ابنُه فى وِزارته بعده بـ«الأفضل» وتلقّب ابن السّلار بعد ذلك بـ«العادل» وتلقّب ابن البطائحىّ وزيرُ الآمر بـ«المأمون» ثم وُزِّر بعد ذلك الحافظ بَهْرام الأرمنىُّ النصرانىُّ فتلقب بـ«تاج الدولة» ثم وُزِّر بعده وزيرٌ اسمه رِضْوان، فلقبه بـ«الملك الأفضل» . قال المؤيد صاحب حماة : وهو أوّل مَنْ لُقِّب من وزرائهم بالملك، وجرى الأمر على ذلك فى وِزارتهم حتّى كان منهم الملكُ الصالحُ طلائعُ بن رُزّيك وزيرُ الفائز ثم العاضد، ثم وُزّر للعاضد آخرا أسدُ الدّين شِيركُوه عمُّ السلطان صلاح الدين يوسفَ بن أيوبَ ولُقّب بـ«الملك المنصور» ثم وُزّر له بعده ابنُ أخيه صلاحُ الدين، فلقّب بـ«الملك الناصر» ثم استقلّ بالمُلْك بعد ذلك، وبقى فى السلطنة على لقبه الأوّل . وتداول ملوكُ الدولة الأيوبية بعده مثلَ هذه الألقاب : كالملك العَزيز ابن السلطان صلاح الدين، والملِك العادل أبى بكر بن أيوب، والملك الكامل محمدٍ ابنه، والأفضلِ صاحب دمشقَ، والمعظّم صاحب الكَرَك، وغيرهم إلى حين انقراض دولتهم ودخولِ الدولة التركيّة . فتلقب أَيْبك التُّرْكمانىُّ أوّلُ ملوكهم

بـ«الملك المُعِزّ» واستمرّ التلقيب بمثل ذلك فى الدولة التركية إلى أن صارت المملكة آخرًا إلى الظاهر بَرْقُوق، ثم ابنه الناصر فَرَج، وهم على ذلك . وعلى نحو ذلك ملوك البلاد المجاورة لهذه المملكة : كماردِينَ، وحِصْنِ كَيْفَا ونحوهما .

الجملة الثالثـــة

(فى الألقاب المفرّعة على الأسماء، على ما استقرّ عليه الحال من التلقيب بالإضافة إلى الدّين ، وهى على أربعة أنواع)

النـــوع الأوّل

(ألقابُ أربابِ السُّـــيوف ، وهم صنفان)

الصنف الأوّل

(ألقاب الجُنْد من التُّرْك ومَنْ فى معناهم)

واعلم أن الغالب فى ألقاب التُّرْك من الجُنْد التلقيبُ بـ«سيْف الدِّين» لما فيه من مُناسَـبةِ حالهم وانتسابِهم إلى القوّة والشِّـدّة : كَبَلْبُغا، ومنكلى بغـا ، وبى نجا ، وأسن نجا، وتغرى بردى، وتغرى برمش ، ونحو ذلك . وقد يخرج ذلك فى بعض الأسمـاء فيلَقَّب بألقاب خاصّة، كما يلقّبون طيبغا، والطنبغا، وقرابغا «علاءَ الدين» وأيْدُمُر و بيْدُمُر «عزّ الدِّين» ولاچين «حُسامَ الدين» وأرسلان «بهاءَ الدِّين» وأقوش «جمـالَ الدِّين» وسَنْجَر «عَلَمَ الدين» ونحو ذلك . وفى المولدين يقولون فى لقب محمد : «ناصرُ الدين» ولَقَبِ أبى بكر «سيْفُ الدِّيـن» ولقب عُمَرَ «رُكْنُ الدين» ولقبِ علىّ «عَلاءُ الدين» ولقب إبراهـيم «صارم الدِّين» ولقب إسمـاعيل «تاج الدين» ولقب حسن وحسـين «حُسَـام الدين» ولقب خالد «شُجاع الدين» ونحو ذلك .

الصنف الثانى

(ألقابُ الخُدّام الخِصْيانِ المعبَّر عنهم الآنَ بالطَّواشِيَّة، وفى زمن الفاطميين بالأستاذِينَ)

ولهم ألقابٌ تخصهم : فيقولون فى هلال ومَرْجان «زَيْنُ الدِّين» وفى دينارٍ «عِزُّ الدين» وفى بَشِير «سَعْدُ الدين» وفى شاهِين «فارسُ الدين»، وفى جَوْهر «صَفِيُّ الدين»، وفى مِثْقال «سابِق الدين» وفى عَنْبر «شُجاع الدين» وفى لُؤْلؤ «بَدْرُ الدين» وفى صَوَاب «شَمسُ الدين» وفى مُحْسِن «جمالُ الدين» ونحو ذلك .

النوع الثانى

(ألقابُ ارباب الأقلام، وهى على صنفين)

الصنف الأول

(ألقابُ القُضاة والعلماء)

قد كان فى الزمن الأوّل لغالب أسمائهم ألقابٌ لا يتعدَّوْنها ، كقولهم فى محمد : «شمسُ الدين» وفى أحمد «شهابُ الدين» وفى أبى بكر «زَيْنُ الدِّين» وفى عُمَرَ «سراجُ الدين» وفى عُثمانَ «فَخْر الدين» وفى علىّ «نُور الدين» وفى يوسُفَ «جَمَالُ الدين» وفى عبد الرحمن «زَيْن الدين» وفى إبراهيم «بُرْهان الدِّين» ونحو ذلك . ثم ترك أعيانُهم ذلك لابتذاله بكثرة الاستعمال، وعدَلُوا إلى ألقابٍ أُخَرَ ابتدعوها على حَسَب أغراضهم فقالوا فى محمد «بَدْر الدين» و «صَدْر الدين» و «عِزُّ الدين» ونحوها، وفى أحمد «بَهاءُ الدين» و «صدر الدِّين» و «صَلاحُ الدين» وفى علىّ «تَقِىّ الدين» وفى عبد الرحمن «جَلاَل الدِّين» ونحو ذلك ، ولم يتوقَّفُوا فى ذلك على لقبٍ مخصوص، بل صاروا يقصِدُون المخالفة لما عليه جادّةُ مَنْ تقدّمهم فى ذلك .

الصنف الثـانى

(ألقـاب الكُتّاب من القِبْـــط)

ولهم ألقاب تخصّهم أيضا: فيقولون فى عبد الله «شمسُ الدين»(١) وفى عبد الرازق «تاجُ الدين» وربمـا قالوا «سَـعْد الدين» وفى إبراهيم «عَلَم الدين» وفى ماجِدٍ «مَجْدُ الدين» وفى وَهْبة «تَقِىّ الدين» ونحو ذلك .

النـــوع الثـالث

(ألقـاب عامة الناس من التُّجّار والغِلْمان السُّلْطانية ونحوهم)

وهم على سَنَن الفقهاء فى ألقابهم، وربمـا مالَ مَنْ هو منهم فى الخِدَم السلطانية إلى التلقيب بألقاب الجُنْد .

النـــوع الرابع

(ألقـاب أهـــل الذِّمّة من الكُتّاب والصَّـيارف ومَنْ فى معناهم من اليهود والنصارى)

وقد اصطلحوا على ألقـابٍ يتلقبون بهـا غالبها مصدَّرة بالشيخ، ثم منهم مَنْ يجرى على الرسم الأوّل فى التلقيب بالإضافة إلى الدولة فيتلقب بولىّ الدولة ونحوه؛ ومنهم من يحـذف المضافَ إليـه فى الجملة ويعرّف اللقب بالألف واللام فيقولون

---

(١) لعل هذا بعد اسلامهم كما يدل عليه ما بعد فى النوع الرابع .

« الشيخ الشمسىّ » و « الشيخ الصفىّ » و « الشيخ الموفّق » وما أشبه ذلك . فإذا أسلم أحدهم أُسْقِطت الألف واللام من أوّل لقبه ذلك ، وأُضِيف إلى لفظ الدين . فيقال فى الشيخ الشمسى «شمس الدين» وفى الصفىّ «صفى الدين» وفى ولىّ الدولة «ولىّ الدين» وما أشبه ذلك . وربما كان لقب الذمىّ ليس له موافقةٌ فى شىء مما يضاف إلى الدين من ألقاب المسلمين ، فيراعى فيه إذا أسلم أقربُ الألقاب إليه ، مثل أن يقال فى الشيخ السعيد مثلا إذا أسلم «سَعْدُ الدين» ونحو ذلك .

الجملة الرابعة

(فى أصل وضع الألقاب الجارية بين الكُتَّاب ، ثم آنتهائها إلى غاية التعظيم ومجاوزتها الحدّ فى التكثير)

أما أصل وضعها ثم آنتهاؤها إلى غاية التعظيم فإنّ ألقاب الخلافة فى آبتداء الأمر — على جلالة قَدْرها وعِظَم شأنها — كانت فى المكاتَبات الصادرة عن ديوان الخلافة و إليه ، والولايات الناشئة عنه «عَبْد الله ووليّه الإمام الفُلانىّ أمير المؤمنين» ولم يزل الأمرُ على هذا الحدّ فى الألقاب إلى أن آستولى بنو بُوَيْه من الدَّيْلَم على الأمر ، وغلبُوا على الخلفاء ، وآستبدّوا عليهم آحتجبت الخُلَفاء ولم يبق إليهم فيما يُكْتَب عنهم غالبا سوى الولايات ، وفُوِّض الأمْرُ فى غالب المكاتَبات إلى وزرائهم ، وصارت الحال إذا آقتضَتْ ذكر الخليفة كُنِى عنه بـ«المَواقف المقدّسة» و «المقاماتِ الشريفة» و «السرّة النبويّة»[(1)] و «الدار العَزيزة» و «المحل الممجّد» يعنون «بالمواقف» الأماكنَ التى يقف فيها الخليفةُ ، وكذلك المَقامات ، و بالسرة[(1)] الأنماط التى يجلس عليها الخليفةُ ، و «بالدار» دارُ الخلافة ، و «بالمحَل» محلُّ الخليفة . قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" : وليت شعرى أىّ شىء قصَد مَنْ كَنَى عن امير المؤمنين

(١) كذا هو بالراء المهملة فى الأصول وهو آصطلاح لهم .

بهـذه الكنايات ، ويذل نعوته وصفاته المعظمة المكرمة بهذه الألفاظ المحقّرات ؟ وإذا ٱستُجيز ذلك ورُضِى به وأُغْضِى عنه كان لآخَر أن يقول «المجالس الطاهرة » و«المَقَاعِدُ المقدّسةُ» و«المَراكب المعظّمة» و«الأسرّة الممجّدة» ومايجرى هذا المَجْرى مما ينبو عنه السمع وينكره لاستحداثه واستجداده . على أنه لو توالى على الأسماع كتوالى تلك الألفاظ لم تنكره بعدُ إذ لا فرق . قال : ولم يستسنّه النبيّ صلى الله عليه وسلم ولا آختاره لنفسه ، ولا آستحدثه الخلفاءُ من بعده . فما وجهُ العمل بموضعه والاقتفاء لأثره ؟ وكيف يجوز أن يكنى عن الجمادات، بما يُكْنَى به عن الإنسان الحيّ الناطق الكامل الصفات . ولما آنتهى الحال بالخلفاء إلى التعظيم بهذه الألقاب والنعوت المستعارة، تداعى الأمر إلى تعظيم الملوك والوزراء بالتلقيب بـ«المَجْلِس العالى» و«الحَضْرة السامية» وما أشبه ذلك . قال : وهذا مما لم يكن فى زمان، ولا جرى فى وقت، ولا كتب به النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولا آستعمله الخلفاءُ بعده . ثم تزايد الحال فى ذلك إلى أن كنَوْا بـ«المَقام» و«المَقَرّ» و«الجَناب» و«المَجْلس» ونحو ذلك على ماسيأتى ذكره فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

*
* *

وأما مجاوزتها الحدّ فى الكثرة، فقد تقدّم أن اللقب الواحد كان يُلَقَّب به الشخص دُونَ تعدُّد ألقاب ، إلى أن وافتْ أيامُ القادر بالله والتلقيبُ بالإضافة إلى الدولة فزيد فى لقب عضُد الدولة بن بُوَيْه (تاجُ المِلة) فكان يقال «عضُد الدولة وتاج المِلّة» وكان أوّلَ من زيدَ فى لقبه على الإفراد ، وان آبنَه « بهاءَ الدولة » زيد فى لقبه فى الأيام القادرِيَّة أيضا « نظامُ الدين » فكان يقال : « بهاءُ الدولة ونظامُ الدين »

ويقال : إنه زاده من بعد بهاء الدولة لفظ «فى الأمة» فكان يقال : «بهاء الدولة فى الأمة ونظام الدين» ثم لقب محمود بن سبكتكين فى الأيام القادرية أيضا «يمين الدولة، وأمين الملة، وكهف الإسلام والمسلمين، ولى أمير المؤمنين» وتزايد الأمر بعد ذلك فى تكثير الألقاب حتى جاوز الحد وبلغ النهاية، وصارت الكتاب فى كل زمن يقترحون ألقابا زيادة على ما سبق إلى أن صارت من الكثرة فى زماننا على ماستقف عليه إن شاء الله تعالى فيما بعد .

الجملة الخامسة

(فى بيان الألقاب الأصول وذكر معانيها واشتقاقها، وهى صنفان)

الصنف الأول

(مايقع فى المكاتبات والولايات، وهى ثمانية ألقاب)

الأول — الجانب . وهو من ألقاب ولاة العهد بالخلافة ومن فى معناهم : كإمام الزيدية باليمن فى مكاتبته عن الأبواب السلطانية . وربما وقع فى الخطاب فى أثناء المكاتبة : فيقال «الجانب الأعلى» و«الجانب الشريف العالى» [والجانب الكريم العالى](١) و«الجانب العالى» مجردا عنهما، رتبة بعد رتبة .

ثم الجانب فى أصل اللغة اسم للناحية، والمراد الناحية التى صاحب اللقب فيها، كنى بها عنه تعظيما له عن أن يتفوه بذكره؛ وكذا فى غيره مما يجرى هذا المجرى من الألقاب المكتتبة : كالمقام والمقر ونحوهما .

الثانى — المقام بفتح الميم . وهو من الألقاب الخاصة بالملوك . وأصل المقام فى اللغة اسم لموضع القيام، أخذا من قام يقوم مقاما . وقد ورد [فى] التنزيل بمعنى موضع القيام فى قوله تعالى : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد موضع قدميه

(١) الزيادة ساقطة من الناسخ يحتاج إليها الكلام .

فى الصَّخْرة التى كان يقومُ عليها لبناء البيت ، ثم تُوُسِّع فيه فأُطْلِق على ما هو أعمّ من موضع القيــام من مَحَــلَّة الرجل أو مَدِينته ونحو ذلك . ومن ثَمَّ قال الزمخشرىّ فى الكلام على قوله تعالى : ﴿إنَّ المتَّقِينَ فى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ إنه خاصٌ آستُعمِل فى معنى العموم ، يعنى أنه يُستَعمل فى موضع الإقامة فى الجملة . أما المُقَامُ بالضم فاسمٌ لموضع الإقامة أخذاً من أقام يُقِيم ، إذ الفعل متى جاوَز الثلاثة فالموضع منــه مضموم كقولهم فى المكان الذى يُدَحْرَج فيــه مُدَحْرَج كما نَبَّــه عليه الجوهرىّ وغيره . وقد قرئ قوله تعالى : ﴿يأَهْلَ يَثْرِبَ لامُقَامَ لَكُمْ﴾ بالفتح والضم جميعا على المعنيين . قال الجوهرىّ : وقد يكون المَقَام بالفتح بمعنى الإقامة والمُقَام بالضم بمعنى موضع القيام . وجعل من الثانى قوله تعالى : ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقَامًا﴾ أى موضعا . وبالجملة فالذى يستعمله الكُتَّاب فى المَقَام الفتحُ خاصةً ، يكنون بذلك عن السلطان تعظيمًا له عن التفوّه باسمه . قال المَقرّ الشهابىّ بنُ فضل الله فى "عُرْف التعريف" : ويقال فيه «المَقَام الأشرفُ» و «المَقَام الشريفُ العالى» ، ورُبَّما قيل فيه «المَقَام العالى» ولم يتعرض لذكر «المَقَام الكَرِيم» ولو حُمِل عليه تأسِّيًا بلفظ القرءان الكريم حيث قال تعالى : ﴿ومَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ لكان حَسَنا .

الثالث — المَقَرّ — بفتح الميم والقاف . قال فى "عرف التعريف" : ويختص بكِبَار الأمراء ، وأعيان الوُزَراء ، وكُتَّابِ السّر ومن يَجْرِى مَجْراهم : كناظر الخاصّ ، وناظر الجَيْش ، وناظر الدَّوْلة ، وكُتَّاب الدَّسْت ومَنْ فى معناهم . قال : ولا يُكْتَب لأحد من العلماء والقُضاة ، وكأنه يريد العُرف العامّ . والتحقيق فى ذلك أن الحال فيه يختلف بحسَب المكتوبِ عنــه ، فلا يقال فيما يُكْتَب عن السلطان إلا لأكابر الأمراء وبعض المــلوك المكاتَبين عن هــذه المملكة : كصاحب مارِدِينَ ونحوه .

بل قد ذكر ٱبنُ شيثٍ فى "مَعَالِم الكتابة" أن المَقرّ من أجلّ ألقاب السلطان .
وقد رأيت ذلك فى العهد المكتتب بالسلطنة للنصور قلاوون من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبدالظاهر . أما عمّن عدا السلطان كالنّوّاب ونحوهم فإنه يُكْتَب به لأكابر أرباب السيوف والأقلام : من القُضاة والعلماء والكُتّاب . على أن ٱبن شيثٍ فى "معالم الكتابة" قد جعله من الألقاب المُلوكيّة كالمَقَام ، بل جعلهما على حدٍّ واحدٍ فى ذلك . قال فى "عرف التعريف" : ويقال فيه «المَقرّ الأشرفُ» و«المقرّ الشريفُ العالى» و«المَقرّ الكريم العالى» و«المَقرّ العالى» مجردا عن ذلك .
وأصله فى اللغة لموْضِع الاستقرار ، والمرادُ الموضع الذى يستقرُّ فيه صاحبُ ذلك اللقب . ولا يخفىٰ أنه من الخاصّ الذى ٱستُعْمِل فى العموم كما تقدّم فى لفظ المَقَام عن الزمخشرىّ . إذ يجوز أن يقال فلان مقرّه مَحَلَّة كذا و بَلْدة كذا ، كما يقال مَقَامه مَحَلَّة كذا وبلد كذا .

الرابع — الجَنَاب . وهو من ألقاب أربابِ السُّيوف والأقلام جميعا فيما يكتب به عن السلطان وغيره من النوّاب ومَنْ فى معناهم . قال فى "عرف التعريف" : وهو أعلىٰ ما يكتب للقُضَاة والعلماء من الألقاب . قال : ويُكْتَب لمن لا يُؤَهّل للقرّ من الأمراء وغيرهم ممن يجرى مَجْرىٰ الوزراء ، ويزيد علىٰ ماقد ذكره أنه يكتب به لبعض الملوك المكاتَبين عن الأبواب السلطانية . قال فى "عرف التعريف" : ويقال فيه «الجَنَاب الشريفُ العالى» و«الجَنَاب الكريم العالى» و«الجناب العالى» مجردا عنهما . وأصل الجَنَاب فى اللغة الفِناء أو ماقَرُب من مَحَلّة القوم ، ومنه قولهم : لُذْنا بجَنَاب فُلانٍ وفلانٌ خَصِيب الجَنَاب ، فيعبَّر عن الرجل بفِنائه وما قرُب من مَحَلّته تعظيما له ، ويجمع علىٰ أَجْنِبَة كمكانٍ وأمكِنَة وعلىٰ جَنَابات كجَمَاد وجَمَادات .

الخامس — المَجْلِس . وهو من ألقـاب أربابِ السُّـيوف والأقلامِ أيضا ممن لم يُؤَهَّل لرتبة الجَنَاب ، وربمـا لُقِّب به بعضُ الملوك فى المكاتبات السـلطانية . على أنه كان فى الدولة الأيوبية لايلَقَّب به إلا الملوكُ ومَنْ فى معناهم . ومكاتبات القاضى الفاضلِ والعمادِ الأصْفَهانىّ وغيرِهما من كُتَّاب الدولة الأيوبيَّة ومَنْ عاصرها مشحونةٌ بذلك ، حتَّى قال صاحب "مَعَالم الكتابة" : وقد كانوا لا يكتبون المَجْلِس إلا للسلطان خاصَّةً . قال : ولم يكن السلطانُ يُكاتِبُ به أحدًا من الداخلين تحت حكمه والمنسَحِب عليهم أمرُه . ثم ذكر أنه كان يُكْتَب به فى زمانه إلىٰ كِبَار الأمراء والوزراء ووُلَاة العهد بالسلطنة .

أما فى زماننا فقد صار فى أدْنىٰ الرُّتَب وجُعِل الجَنَابُ والمَقَرّ فوقه علىٰ ماتقدّم . ويقال فيه : «المجلس العالى» و«المجلس السامى» رُتْبةً بعد رُتْبة . ويقال فى المجلس السامى السامِىّ بالياء ، والسامِى بغير ياء ، رتبةً بعد رتبةً .

واعلم أن العالِىَ والسامىَ اسمـان منقوصان كالقاضى والوالى وقد تقرّر فى علم النحو أنه إذا دخلت الألفُ واللامُ علىٰ الاسم المنقوص جاز فيه إثباتُ الياء وحذفُها فيقال القـاض والقاضى ونحو ذلك ، وحينئـذ فيجوز فى العالى والسامى إثبات الياء وحذفها ولكن الكُتَّاب لا يستعملونهما إلا بالياء .

فأما فى العـالِى فيجوز أن تكون الياء التى تُثْبِتها الكُتَّاب فى آخره هى الياء اللاحقةُ للاسم المنقوص علىٰ ماتقـدّم وتكونُ حينئذ ساكنةً ، ويجوز أن تكونَ ياءَ النَّسب نسبة إلىٰ العالى وتكون مشدّدة ، وكذلك فى السامى بالياء .

أما السامى بغـير ياء فيجوز أن يكون المراد حذفَ ياء النسب لا الياء اللاحقـة للاسم المنقوص ، لمـا تقدّم من أن الكُتَّاب لم يستعملوها إلا باثبات الياء ، وحينئذ

فتُحذف اليـاء من الألقاب التى تُنْعتُ بها . ويحتمل أن يكون المرادُ حذفَ الياء اللاحقةِ للآسم المنقوص وهو بعيد .

وأصلُ المَجْلِس فى اللغة لموضع الجُلُوس ، ويشار بذلك إلىٰ الموضع الذى يَجْلس فيه تعظيما له علىٰ ما تقـدّم فى غيره . ولا يخفىٰ أنه ليس للمَجْلِس ما للمَقَرّ والمَقَام من العُمُوم حتّى يعمَّ ما فوق موضع الجلوس ، إذ لا يَحْسُن أن يقال مَجْلِس فلان مَحَلّة كذا ولا بَلَد كذا كما يحسن أن يقال : مَقَرّه أو مَقَامه مَحَلّة كذا أو بَلَدُ كذا .

السادس ـــ مجلس ـــ مجرّدا عن الألف واللام مضافًا إلىٰ ما بعــده ؛ وله فى الآصطلاح أربعُ حالاتٍ :

الأولىٰ أن يُضافَ إلىٰ الأمير : فيقــال « مَجْلِس الأَمِــير » وهو مختصٌّ بأرباب السيوف علىٰ آختلاف أنواعهم من التُّرْك والعَرَب وغيرهم .

الثانية أن يُضاف إلىٰ القاضى : فيقال « مجلِسُ القاضى » وهو مختصٌّ بأرباب الأقلام من القُضاة والعلماء والكُتَّاب ومَنْ فى معناهم .

الثالثة أن يُضاف إلىٰ الشيخ : فيقال «مجلِسُ الشيخ» ويختصُّ ذلك بالصُّوفيّة وأهلِ الصَّلاح ومَنْ فى معناهم .

الرابعة أن يضاف إلىٰ الصَّـدْر : فيقال « مجلسُ الصَّدْر » وهو مختصٌّ بالتُّجار وأربابِ الصَّنائع ومَنْ فى معناهم ، وربمــا كُتِبَ به فى الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" وما قاربها لكُتَّاب الدَّرْج ومَنْ فى معناهم . والمراد بالصَّدْر صَدْر المجلس الذى هو أعلىٰ أماكنه وأرفَعُها ، والمضافُ والمضافُ إليه فيه كالمتعاكسين ، والتقدير صَدْر المَجْلِس .

السابع — أن يُقْتَصر على المضاف إليه من مَجْلس الأمير، أو مجلس القـاضِى، أو مجلِس الشيخ، أو مجلِس الصَّدْر ويقال فيه : «الأميرُ الأجَلُّ» و«القاضِى الأجَلُّ» و«الشيخُ الصالحُ» و«الصدْرُ الأجَلُّ» .

الثـامن — الحضرة . والمراد بها حضرةُ صاحب اللَّقَب . قال الجوهرى : وحَضْرةُ الرجُل قُرْبه وفِنَـاؤه . قال ابن قتيبة فى "أدَبِ الكاتِب" : وتقال بفتح الحـاء وكسرها وضمها وأكثر ماتُستعمل فى المكاتَبات . وهى من الألقابِ القديمة التى كانت تســتَعْمَل فى مكاتبات الخُلَفـاء . وكان يقال فيها « الحَضْرةُ العاليــةُ » و«الحَضْرةُ الساميَةُ» ، وتستعمل الآنَ فى المكاتبات الصادرةِ عن الأبواب السلطانية إلى بعض المُلُوك . ويقال فيها : «الحضرةُ الشريفةُ العاليةُ» و«الحضرة الكريمةُ العاليةُ» و«الحَضْرة العليَّة» بحسب ماتقتضيه الحالُ . قال ابن شيثٍ فى "معالم الكتَابة" : وكانت ممـا يُكتَب بها لأعيان الدولة من الوُزَراء وغيرهم، ولم يكن السلطانُ يكاتِبُ بها أحدا من الداخلين تحتَ حكمِه والمنسحِبِ عليهم أمْره . وتُستعمَل أيضـا فى مكاتبات ملوك الكُفْر، ويقال فيه بعد الدعاء للحَضْرة : «حَضْرةُ الملك الجليل» ونحو ذلك على ماسيأتى بيانه فى موضعه . وقد تُستعْمَل فى الولايات فى نحو مايُكتَب للبَطْرَك . فيقال : « حضرةُ الشيخ » أو « حضرة البَطْرَك » ونحو ذلك . قلت : وكثيرٌ من كُتَّاب الزمان يظُنُّون أن هذه الألقابَ الأصولَ أو أكثرَها أحدثها القاضى شهابُ الدين بنُ فضـل الله وليس كذلك ، بل المجلسُ مذكورٌ فى مكاتَبات القاضى الفاضل ومَنْ عاصره بكَثْرة بل لاتكاد مكاتَبةٌ من مكاتَباته المُلُوكيَّة تخلو عن ذلك . ومقتضى كلام ابن حاجبِ النُّعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" أنه أوّل ماابْتُــدِع فى أيَّام بنى بُوَيْه ملوكِ الدَّيْلَم . والجَنَابُ موجود فى مكاتَبات القاضى الفاضل أيضا بقِلَّة .

وقد ذكره ابن شيث فى مصطَلَح كتابة الدولة الأيوبيـة . والمَقَرّ موجودٌ فى كلام القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر . والمَقَام موجود فى مكاتبات مَنْ قبل القاضى شهاب الدّين المذكور، نعم هذا الترتيبُ الخاصّ : وهو جعل أعلاها المَقَام، ثم المَقَرّ، ثم الجَنَاب، ثم المَجْلس، ثم مَجْلِس الأميرِ أو القاضى أو الشيخ، لم أره إلا فى كلام المَقَرّ الشهابىّ المشارِ إليـه ومتابعيه، ولا أدرى أهو المقتَرِح لهـذا أم سـبقه إليه غيره ؟ وقد أُولِـعَ الفضلاء بالسؤال عن وجه هذا الترتيب، بل أخذوا فى إنكاره علىٰ مرتِّبه من حيث إن هذه الألقابَ متقاربةُ المعانى فى اللغة، فلا يتجه تقديمُ بعضها علىٰ بعض فى الرتبـة ، ولا يخفىٰ أن واضع ذلك من المَقَر الشهابىّ أو غيره لم يَضَعْه عن جهلٍ علىٰ سبيل التشهّى إذ لا يليقُ ذلك بمن عنـده أدنىٰ مُسْكة من العلم . وقد ظهر لى عن ذلك أجوبة يستحسِنُها الذهن السليم إذا تُلُقِّيت بالإنصاف . ولا بدّ من تقديم مقدّمة علىٰ ذلك : وهى أن تعلَم أن الخطاب فى المكاتَبَات، والوصفَ فى الولايات، مبنىٌّ علىٰ التفخيم والتعظيم ، علىٰ ما سـيأتى بيانه فى موضـعه إن شاء الله تعـالىٰ . ومن ثَمَّ أُتِى فيهما بالألقاب المؤدِّية إلىٰ الرِّفْعة كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى أوّل الكلام علىٰ الألقاب . ثم أثبتُوا هذه الألقابَ بمعنىٰ الأماكن كِنَاية عن أصحابها من باب مَجَاز المُجَاورة، وجعلوها رتبـةً بعد رتبةٍ بحَسَب ماتقتضيه معانيها اللائحةُ منها علىٰ ماسيأتى بيانه ، فجعلوا أدناها رتبـةَ الأمير والقاضى والشيخ ، التى وقع فيهـا التصريح بذكر الشخص، وجعلوا فوق ذلك المجلسَ لتجرّده عن الإضافة إلىٰ ماهو فى معنىٰ القريب من التصريح، وجعلوا فوق ذلك الجَنَابَ الذى هو الفِنَاء من حيثُ إن فِنـاء الرجلِ أوسعُ من مجلسه ضرورةً، بل ربمـا آشتمل علىٰ المجلس وآستضافه إليه، وجعلوا فوقَ ذلك المَقَرَّ الذى هو موضع الآستقرار مع ما يقتضيه من شمول جميع المَحَلّة أو البَـلَد الذى هو مُقِيم فيه، من حيث إنه يَسُوغ أن يقال مَقَرُّه مَحَلَّة كذا أو بلدُ كذا، وتضمُّنه

معنىٰ القَرار الذى هو ضد الزَّوال علىٰ ماقال تعالىٰ : ﴿ وإنَّ الآخِرَةَ هِىَ دارُ القَرار ﴾ وجعلوا فوق ذلك المَقَــامَ لٱستعماله فى المعنىٰ العامِّ، الذى هو أعم من موضع القِيَام كما أشار إليــه الزمخشرى"، مع ما فى معنىٰ القيــام من النَّهْضة والشَّهامة الزائدةِ علىٰ معنى الٱســتِقْرار، من حيث إن القعودَ دليــلُ العجْز والقُصُور . قال تعــالىٰ : ﴿ وقَالُوا ذَرْنَا نَكُــنْ مع القَاعِدِينَ رَضُوا بأنْ يَــكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ ﴾ وقال : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوانِهِمْ وقَعَدُوا لَوْ أطَاعُونَا ما قُتِلُوا ﴾ فكان المَقامُ باعتبار ذلك أعلىٰ من المَقرّ، ويُوَضِّح ماذكرناه أنهم جعلوا المجلِسَ أدنىٰ المراتب والمقامَ أعلاها .

أما تخصيصُه خطابَ الخليفة بالدِّيوان فلِبُعْد تعلُّقه، مع كونه عنه تصدُر المخاطَباتُ وعليه تَرِد، علىٰ ماسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــــنف الثـانى

(من الألقابِ الأُصولِ مايختص بالمكاتَبات دُونَ الولايات،وفيه تسعةُ ألقاب)

الأوّل — الدِّيوانُ . وقد تقــدّم الكلامُ علىٰ ضبطه ومعنـاه فى الكلام على ترتيب ديوان الإنشاء فى مقدّمة الكتاب، ويُصدَّر بالدعاء له فى المكاتَبة إلىٰ أبواب الخلافة المقدَّسة، ويقال فيه «الدِّيوانُ العزيزُ» علىٰ ماسيأتى فى الكلام علىٰ المكاتبات فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ . قال المَقرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" : والمعْنِىّ به ديوانُ الإنشاء إذ الكُتُب وأنواع المخاطَبَات إليه واردةٌ، وعنه صادِرة . قال : وسببُ الخِطاب بالدِّيوان العزيزِ الخُضْعانُ عن خِطاب الخليفة نَفْســه . ثم كُتَّاب الزمان قد يستعملون ذلك فى غير المكاتَبات مثل أن يُكْتَب عن السلطان منشور إقطاعٍ للخليفة فيقــال : « أن يُجْرىٰ فى الديوان العزيز » ونحو ذلك علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ المناشير فى موضعه إن شاء اللهُ تعالىٰ .

الثاني — الباسطُ . وهو مما يُستعمَل فى المكاتبات بالتقبيل على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ . وأصله فى اللغة فاعِلٌ من البَسْط ، والمراد بَسْط الكَفِّ بالبَذْل والعطاء . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ﴾ وهو من ألقاب اليد ، ويشترك فيه أربابُ السيوف والأقلام وغيرُهم . قال فى "عرف التعريف" : ويقال فيه « الباسطُ الشَّريف العالِى » و « الباسطُ الكريمُ العالِى » .

الثالث — الباسطةُ بلفظ التأنيث . وهو بمعنىٰ الباسِط إلا أن الباسطة دُونَ الباسط فى الرتبة لمِيزة التذكير علىٰ التأنيث .

الرابع — اليَدُ . وهى فى معنىٰ الباسطة إلا أنها دُونَها لفَوات الوصف بالبَسْط فيها . قال فى "عرف التعريف" : ويقال فيها «اليَدُ الشريفةُ العاليةُ» و«اليدُ الكريمةُ العاليةُ» واليد العالية مجرَّدة عنهما .

الخامس — الدارُ . وهى معروفة . وتجمع علىٰ آدُرٍ ، ودِيارٍ ، ودُوْرٍ ، والمراد دار المكتوب إليه ، تنزيهاً له عن التصريح بذكره كما فى الجَناب وغيره . وكانت مما يُكْتَب به فى الزمن القديم فى ألقاب الخُلَفاء ويقال : «الدار العزيزةُ» وما أشبه ذلك ، وربما كُتِب بها فى القديم أيضا للخَوَاتِينِ من نساء الملوك وغيرِهم . وممن كَتَب به لهنّ العلاءُ بنُ مُوصَلايَا صاحب ديوان الإنشاء فى أيام القائم العباسىِّ ، وعلىٰ ذلك الأمرُ فى زماننا فى الكُتُب الصادرة إليهنّ من الأبواب السلطانية وغيرها ، وإنما كُتِب إليهن بذلك إشارةً إلىٰ الصَّوْن لملازمتهن الدُّورَ ، وعدمِ البُروز عنها .

السادس — السِّتَارة . وكُتَّاب الزمان يستعملونها فى نحو ما تُستعْمَل فيه الدارُ ، ويَكْنُون بها عن المرأة الجليلةِ القَدْر ، التى هى بصَدَد أن تُنْصَب علىٰ بابها السِّتارةُ حِجاباً .

السابع — الجِهَةُ . وهو مستعملٌ فى معنى الدار والسِّتارةِ من المكاتبات، ويُعْنىٰ بها المرأةُ الجليلة القَـدْر . وهى فى أصـل اللغة آسمٌ للناحية ، فكَنَوْا بها عن المرأة الجليلة، كما كَنَوْا عن الرجل الجليل بالجَناب .

الثامن — البـابُ . وهو من الألقاب المختصـة بالعُنْوان فى جليل المكاتبات ، وأصلُ البابِ فى اللغة لمـا يُتَوصَّل منـه إلى المقصود ، ويجمع على أَبْوابٍ : كحـالٍ وأحْوالٍ، وعلىٰ بِيبَانٍ : كجارٍ وجِيرانٍ، والمراد بابُ دارِ المكتوبِ إليه، وكأنه أَجَلَّ صاحبَ اللَّقَب عن الوصول إليــه والقُرْب منه ، لعُلُوِّ مكانِه ورِفْعة مَحَلِّه . ويقال فيه « البابُ الشريفُ العالى » و « البابُ الكريمُ العالى » و « البابُ العالى » مجرّدا عنهما ، وآســتعماله بلفظ الجمع على أبواب أعلىٰ منه بلفظ الإفراد لمـا فى معنىٰ الجمع من الشَّرَف . أما الجمع على بِيبانٍ فلا يستعمله الكُتَّاب أصلاً .

التاسع — المُخَيَّم . وهو من الألقاب المختصة بالعُنْوان للمسافر، والمراد المكانُ الذى تُضْرَب فيه خِيامُ المكتوبِ إليـه ، أخذا من قولهم خَيَّم بالمكان إذا أقام به ، أو خَيَّمه إذا جعله كالخَيْمة . والخَيْمةُ فى أصل اللغة آسم لبيتٍ تُنْشئه العرب من عِيدانٍ ثم تُوُسِّع فيـه فاستُعمِل فيما يُتَّخَذ مِن الجلود والقُطْن المنسوج ونحوه ، ويُوصَف بمـا يوصَفُ به الباب : من الشريفِ، والكريم، والعالِى .

قلت : وقد يُستعمَل بعضُ هـذه الألقـاب كالدار والسِّتارة والجهـة فى غير المكاتبات من الولايات وغيرها ولكن بقِـلَّة ، والغالب آستعمالُهـا فى المكاتبات ، فلذلك خَصَّصتُها بها .

الجملة السادسة

(فى بيان الألقاب المفرّعة على الأصول المتقدّمة ، وفيها مَهْيَعان)

المَهْيَع الأوّل

(فى بيان أقسامها ، وهى على نوعين)

النوع الأوّل

(المفْردة ، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(المجرّدةُ عن ياء النسب)

كالسلطان ، والمَلِك ، والأمير ، والقاضى ، والشيخ ، والصَّدْر ، والأجَلّ ، والكَبير ، والعالِم ، والعامِل ، والأَوْحَد ، والأكمل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثانى

(الملحقُ بها ياءُ النسب)

كالسلطانىّ ، والمَلَكىّ ، والأميرىّ ، والقَضَائىّ ، والقاضَوِىّ ، والشَّيْخىّ ، والصَّدْرِىّ ، والأجَلّىّ ، والكَبِيرىّ ، والعالِمِىّ ، والعامِلىّ ، والأوحدىّ ، والأكملىّ ، ونحو ذلك .

ثم الألقابُ الملحقة بها ياء النسب تارةً يُراد بالنسب فيها النسبُ الحقيقىُّ على بابه : كالقَضَائىّ ، لأنه منسوبٌ إلى القَضَاء الذى هو موضوعُ الوظيفة التى مَناطُها فصلُ

الحُكُومات الشرعية على ماتقدّم؛ وتارةً يُراد به المبـالغةُ كالقاضَوِيّ، فإنه منسوب إلى القاضى نفسه مبالغةً . وفى معناه الأميرىّ نسبةً إلى الأمير، والوزيرىّ نسبةً إلى الوزير، والشيخىّ نسبةً إلى الشيخ، والكبيرىّ نسبة إلى الكبير، والعالمىّ نسبة إلى العالم، وما أشبه ذلك .

والأصل فيه أنّ عادةَ العرب أنهم إذا أرادوا المبالغةَ فى وصف شىءٍ أدخلُوا عليه ياء النسب فى آخره للمبالغة فى وصفه فيقولون فى الأحمر اذا قصدوا المبالغة فى وصْفه بالحمرة أحْمَرِىٌّ ونحو ذلك على ماهو مقرّر فى كتب النحو المبسوطة كالتسهيل ونحوه . ثم منها مايستعمل بالتجريد عن ياء النسب أو إثباتها : كالعالم، والعالمىّ؛ ومنها مايستعمل مجرّدا عنها فقط كالقُطْب والغَوْث من ألقاب الصُّوفيَّة؛ ومنها مايستعمل بإثباتها فقط كالغِيَاثِىّ . وبكلّ حالٍ فالألقـاب التى قد تثبُتُ ياء النسب فى آخرها وقد لا تثبت كالأمير والأميرىّ إن كانتْ من ألقاب المجلس السامِىّ بالياء فما فوقه من المجلس العالِى والجَنَاب العالى، والمَقَرّ والمقام على مراتبها تثبُت اليـاء فى آخرها، وإن كانت من ألقاب المجلس السامى بغير ياء فـا دونه من مجلس الأمير ومجلس القاضى، ومجلس الشـيخ، ومجلس الصَّدْر، والأمير، والقاضى، والشيخ، والصدر، لم تثبت اليـاء فى آخرها . والألقابُ المضافةُ إلى الدين، مثـل «ناصِر الدِّين» و «شمسِ الدين» و «نُور الدين» و «عز الدين» و «وَلِىِّ الدين» و «سَيْف الدين» وما أشـبه ذلك إن كانت فى ألقاب مَنْ تثبت الياءُ فى ألقابه من المجلس السامىّ بالياء فما فوقه حُذف المضاف إليه وأُدْخلت الألف واللامُ على المضاف وأُلحقَتْ به ياءُ النَّسب، فيقـال فى ناصر الدين «الناصِرىّ» وفى شمس الدين «الشَّمْسِىّ» وفى نورالدين «النُّورِىّ» وفى عز الدين «العِزّىّ» وفى وَلِىّ الدين «الوَلَوِىّ» وفى سيف الدين «السيْفىّ» وما أشـــبه ذلك .

النـــوع الثـانى

(المركَّبـــة)

وهى المعبَّر عنها بالنُّعُوت . وأكثر ما يكون التركيب فيها بالإضافة ، ثم تارةً تكون بإضافةٍ واحدةٍ نحو «ممهِّد الدُّوَل» وتارةً تكون بإضافتين نحو «سيِّد أمراء العالَمِين» وتارة تكون بثلاثِ إضافاتٍ نحو « حاكم أمورِ وُلاةِ الزَّمان » وربما زيد على ذلك ، وتارة تكون بوَصْف المضاف ، نحو « بَقِيَّة السُّلالة الطاهرة » وتارة تكونُ بالعطف على المضاف إليه : إما بعَطْفٍ واحد ، نحو «سيدُ الملوك والسلاطين» وإما بأكثر ، نحو «ناج الممالكِ والأقاليم والأقطارِ» وتارة تكون بجارٍّ ومجرور بعد المضاف إليه ، نحو « سـيِّدُ الأُمَراء فى العالمين » وربما توسط النعتُ بين المضاف إليــه والجارّ والمجرور ، نحو « سيد الأُمَراءِ الأشرافِ فى العالمين » . وقد يكون التركيب بغـير الإضافة إما بالجار والمجرور ، نحو « المجاهِدُ فى سبيل ربِّ العالمين » وإما بغير ذلك مثل المُعَفِّى آلِ ساسانَ وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

[واعلم أنه إذا كان لقبُ الأصل مفردًا نحو المَقرّ والجَنَاب ، جاءتْ ألقابُه ونعوتُه مفردةً فيقال «المَقرّ الشَّريف» و «الجَنَاب الشريفُ» و «المَقرّ الكريم» وفى نُعُوته «سيدُ الأُمَراء فى العالمين» ونحو ذلك .

ثم إن كان مذَكَّرا جاء بصيغة التذكير، كما تقدّم فى ألقاب المَقرّ](١) .

وإذا كان لقب الأصل فيه مؤنَّثا كالجهـةِ فى ألقاب النساء ، أتت ألقابُه ونعوتُه مؤنَّثةً تبعًا له ، فيقال فى ألقاب الجهة « الجهة الشريفةُ أو الجهةُ الكريمةُ العاليةُ » وفى النعوت « سيدةُ الخَوَاتِين فى العالَمِين » ونحو ذلك .

---

(١) هذه الجملة التى بين القوسين غير موجودة فى الأصول ، فنقلناها عن الضوء للمؤلف لتتم الفائدة .

وإن كان اللقب فى الاصـل مجموعا ، نحو « مَجالِس الأمَراء » كما يكتب فى المُطْلَقات ، جاءت الألقابُ والنُّعوتُ مجموعةً فيقال فى الألقاب الأَجلَّاء الأكابِر وما أشـبه ذلك ، وفى النعوت إن كان ذلك اللقب آسم جِنْس نحو « عَضُد المُلُوك والسلاطين » أو مصدرًا ، نحو « عَوْن الأمَّة » جاز إبقاؤه على الإفراد كذلك : لأن المصدَر وآسمَ الجنس لا يتَثَنَّيان ولا يُجْمَعان ، وإن أُوحِظ فيه معنى التَّعَدُّد ، جاز الجمع فيقال « أعوانُ الأمة » و « أعضَادُ المُلُوك والسلاطينِ » ونحو ذلك . وقد أشـار إلى ذلك المقـرّ الشهابىّ بن فضـل الله فى كتابه "التعريف" فى الكلام على كتابة المُطْلَقات فقال ونحو عَضُد وأَعْضاد .

تم الجزء الخامس . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس

وأوله المَهْيَـــع الثـانى

(فى ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتَّاب الزمان ، وبيان معانيها ، ومَنْ يقع عليه كل واحد منها من أرباب السُّيوف وغيرهم ، وهى نوعان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(٣٠٠٠/١٩١٤/٥٤٩٦/م٠م)

السابع — الجِهَةُ . وهو مستعمَلٌ فى معنىٰ الدار والسِّتارةِ من المكاتبات، ويُعْنىٰ بها المرأةُ الجليلةُ القَــدْر . وهى فى أصـل اللغة آسمٌ للناحية ، فكَنَوْا بها عن المرأة الجليلة، كما كَنَوْا عن الرجل الجليل بالجَناب .

الثامن — البــابُ . وهو من الألقاب المختصـة بالعُنْوان فى جليل المكاتبات ، وأصلُ البابِ فى اللغة لمـا يُتوصَّل منـه إلىٰ المقصود ، ويجمع علىٰ أبْوابٍ : كحـالٍ وأحْوالٍ، وعلىٰ بِيبَانٍ : كجَارٍ وجِيرانٍ، والمراد بابُ دارِ المكتوبِ إليه، وكأنه أجَلَّ صاحبَ اللَّقَب عن الوصول إليـه والقُرْب منه ، لعُلُوِّ مكانِه ورِفْعة مَحَلِّه . ويقال فيه « البابُ الشريفُ العالى » و « البابُ الكريمُ العالى » و « البابُ العالى » مجرّدا عنهما ، وآسـتعماله بلفظ الجمع علىٰ أبواب أعلىٰ منه بلفظ الإفراد لمـا فى معنىٰ الجمع من الشَّرَف . أما الجمع علىٰ بِيبانٍ فلا يستعمله الكُتَّاب أصلاً .

التاسع — المُخَيَّم . وهو من الألقاب المختصة بالعُنْوان للسافر، والمراد المكانُ الذى تُضْرَب فيه خِيامُ المكتوبِ إليـه ، أخذا من قولهم خَيَّم بالمكان إذا أقام به، أو خَيَّمه إذا جعله كالخَيْمة . والخَيْمةُ فى أصل اللغة آسم لبيتٍ تُنْشِئه العرب من عِيدانٍ ثم تُوُسِّع فيـه فاستُعْمِل فيما يُتَّخَذ من الجلود والقُطْن المنسوج ونحوه ؛ ويُوصَف بمـا يوصَفُ به الباب : من الشريفِ، والكريم، والعالِى .

قلت : وقد يُستعمَل بعضُ هـذه الألقـاب كالدار والسِّتارة والجهـة فى غير المكاتبات من الولايات وغيرها ولكن بِقِـلَّة ؛ والغالب آستعمالُهـا فى المكاتبات ، فلذلك خَصَّصْتُها بها .

الجملة السادسة

(فى بيان الألقاب المفرّعة على الأصول المتقدّمة، وفيها مَهْيَعان)

المَهْيَع الأوّل

(فى بيان أقسامها ، وهى على نوعين)

النوع الأوّل

(المفردة ، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(المجرّدةُ عن ياء النسب)

كالسلطان ، والمَلِك ، والأمير ، والقاضى ، والشيخ ، والصَّدْر ، والأجَلّ ، والكَبِير ، والعالِم ، والعامل ، والأَوْحَد ، والأكمل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثانى

(الملحقُ بها ياءُ النسب)

كالسلطانىّ ، والمَلَكىّ ، والأميرىّ ، والقَضَائىّ ، والقاضوىّ ، والشَّيْخىّ ، والصَّدْرِىّ ، والأجَلّىّ ، والكَبِيرِىّ ، والعالِمىّ ، والعامِلىّ ، والأوحدىّ ، والأكملىّ ، ونحو ذلك .

ثم الألقابُ الملحقة بها ياء النسب تارةً يُراد بالنسب فيها النسبُ الحقيقىُّ على بابه : كالقَضَائىّ ، لأنه منسوبٌ إلى القَضَاء الذى هو موضوعُ الوظيفة التى مَنَاطُها فصلُ

السابع — الجِهَةُ . وهو مستعملٌ فى معنىٰ الدار والسِّتارةِ من المكاتبات، ويُعْنىٰ بها المرأةُ الجليلةُ القَــدْر . وهى فى أصــل اللغة ٱسمٌ للناحية ، فكَنَوْا بها عن المرأة الجليلة، كما كَنَوْا عن الرجل الجليل بالجَنَاب .

الثامن — البــابُ . وهو من الألقاب المختصــة بالعُنْوان فى جليل المكاتبات ؛ وأصلُ البابِ فى اللغة لمـا يُتَوصَّل منـه إلىٰ المقصود ، ويجمع علىٰ أبْوابٍ : كحَالٍ وأحْوالٍ، وعلىٰ بِيبَانٍ : كجَارٍ وجِيرانٍ، والمراد بابُ دارِ المكتوبِ إليه، وكأنه أجَلَّ صاحبَ اللَّقَب عن الوصول إليــه والقُرْب منه ، لِعُلوّ مكانِه ورِفْعة مَحَلِّه . ويقال فيه « البابُ الشريفُ العالى » و « البابُ الكريمُ العالى » و « البابُ العالى » مجرّدا عنهما ، وٱســتعماله بلفظ الجمع علىٰ أبواب أعلىٰ منه بلفظ الإفراد لمـا فى معنىٰ الجمع من الشَّرَف . أما الجمع علىٰ بِيبانٍ فلا يستعمله الكُتَّاب أصلاً .

التاسع — المُخَيَّم . وهو من الألقاب المختصة بالعُنْوان للسافر، والمراد المكانُ الذى تُضْرَب فيه خِيامُ المكتوبِ إليــه ، أخذا من قولهم خَيَّم بالمكان إذا أقام به ، أو خَيَّمه إذا جعله كالخَيْمة . والخَيْمةُ فى أصل اللغة ٱسم لبيتٍ تُنْشئه العرب من عِيدانٍ ثم تُوُسِّع فيــه فاستُعْمِل فيما يُتَّخَذ من الجلود والقُطْن المنسوج ونحوه ؛ ويُوصَف بمـا يوصَفُ به الباب : من الشريف، والكريم، والعالِى .

قلت : وقد يُستعمَل بعضُ هــذه الألقــاب كالدار والسِّتارة والجهــة فى غير المكاتبات من الولايات وغيرها ولكن بقِــلّة ؛ والغالب ٱستعمالُهـا فى المكاتبات ، فلذلك خَصَّصتُها بها .

الجملة السادسة

(فى بيان الألقاب المفرّعة على الأصول المتقدّمة ، وفيها مَهْيَعان)

المَهْيَع الأوّل

(فى بيان أقسامها ، وهى على نوعين)

النوع الأوّل

(المفْردة ، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(المجرّدةُ عن ياء النسبِ)

كالسلطان ، والمَلِك ، والأميرِ ، والقاضِى ، والشيخ ، والصَّدْر ، والأجَلّ ، والكَبِير ، والعالِمِ ، والعامِل ، والأَوْحَد ، والأكمل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثانى

(الملحقُ بها ياءُ النسب)

كالسلطانىّ ، والمَلَكىّ ، والأميرِىّ ، والقضائىّ ، والقاضوِىّ ، والشَّيْخىّ ، والصَّدْرِىّ ، والأجَلِّىّ ، والكَبِيرِىّ ، والعالِمِىّ ، والعامِلىّ ، والأوحدىّ ، والأكملىّ ، ونحو ذلك .

ثم الألقابُ الملحقة بها ياء النسب تارةً يُراد بالنسب فيها النسبُ الحقيقىُّ على بابه : كالقَضائىّ ، لأنه منسوبٌ إلى القَضاء الذى هو موضوعُ الوظيفة التى مَناطُها فصلُ

الحُكُومات الشرعيةِ علىٰ ماتقدّم؛ وتارةً يُراد به المبـالغةُ كالقاضَوِىّ ، فإنه منسوب إلىٰ القاضى نفسِه مبالغةً . وفى معناه الأميرىّ نسبةً إلىٰ الأمير، والوزيرىّ نسبةٌ إلىٰ الوزير، والشيخىّ نسبةٌ إلىٰ الشيخ ، والكبيرىّ نسبة إلىٰ الكَبِير ، والعالمىّ نسبة إلىٰ العالم، وما أشبه ذلك .

والأصل فيه أنّ عادةَ العرب أنهم إذا أرادوا المبالغةَ فى وصف شيء أدخلُوا عليه ياء النسب فى آخره للمبالغة فى وصفه فيقولون فى الأحمر اذا قصدوا المبالغة فى وصْفه بالحمرة أَحْمَرِىٌّ ونحو ذلك علىٰ ماهو مقرّر فى كتب النحو المبسوطةِ كالتسهيل ونحوه، ثم منها مايستعمل بالتجريد عن ياء النسب أو إثباتها : كالعالم، والعالمىّ ؛ ومنها مايستعمل مجرّدا عنها فقط كالقُطْب والغَوْث من ألقاب الصُّوفيَّة؛ ومنها مايستعمل باثباتها فقط كالغِيَاثِىِّ . وبكلِّ حالٍ فالألقـاب التى قد تثبُتُ ياء النسبِ فى آخرها وقد لا تثبت كالأمير والأميرىّ إن كانتْ من ألقاب المجلس السامِىّ بالياء فما فوقه من المجلس العالِى والجَنَاب العالى، والمَقَرّ والمقام على مراتبها تثبُت اليـاء فى آخرها، وإن كانت من ألقاب المجلس السامى بغير ياء فما دونه من مجلس الأمير ومجلس القاضى ، ومجلس الشـيخ، ومجلس الصَّدْر ، والأمير، والقاضى، والشيخ، والصدر، لم تثبت اليـاء فى آخرها . والألقابُ المضافةُ إلىٰ الدين، مثـل « ناصِرِ الدِّين » و «شمسِ الدين » و « نُور الدين» و «عز الدين» و «وَلِىِّ الدين» و «سَيْف الدين» وما أشـبه ذلك إن كانت فى ألقاب مَنْ تثبت الياءُ فى ألقابه من المجلس السامىّ بالياء فما فوقه حُذِف المضاف إليه وأُدْخلت الألف واللامُ علىٰ المضاف وأُلحِقَتْ به ياءُ النَّسب ، فيقـال فى ناصر الدين «الناصِرِىّ» وفى شمس الدين «الشَّمْسِىّ» وفى نورالدين «النُّورِىّ» وفى عز الدين « العِزِّىّ » وفى وَلِىّ الدين « الوَلَوِىّ » وفى سيف الدين « السيْفِىّ » وما أشـــبه ذلك .

النـــــوع الثـانى

(المركّبـــة)

وهى المعبّر عنها بالنُّعوت . وأكثر ما يكون التركيب فيها بالإضافة ؛ ثم تارةً تكون باضافةٍ واحدةٍ نحو «ممهِّد الدُّوَل» وتارةً تكون باضافتين نحو «سيِّد أمراء العالَمين» وتارة تكون بثلاثِ إضافاتٍ نحو « حاكِم أمورِ وُلاةِ الزَّمان » وربما زِيد على ذلك ، وتارة تكون بوَصْف المضاف، نحو « بقيَّة السُّلالة الطاهرة » وتارة تكونُ بالعطف على المضاف إليه : إما بعَطْفٍ واحد، نحو «سيدُ الملوكِ والسلاطين» وإما بأكثر، نحو «فاتح الممالِكِ والأقاليم والأقطارِ» وتارة تكون بجارٍّ ومجرور بعد المضاف إليه، نحو « سـيِّدُ الأُمَراء فى العالمين » وربمـا توسط النعتُ بين المضاف إليـه والجارّ والمجرور، نحو « سيد الأُمَراءِ الأشرافِ فى العالمين » . وقد يكون التركيب بغـير الإضافة إما بالجارّ والمجرور، نحو « المجاهِدُ فى سبيل ربِّ العالمين » وإما بغير ذلك مثل المُعَفِّى آلِ ساسانَ وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

[واعلم أنه إذا كان لقبُ الأصل مفردًا نحو المَقرّ والجَناب، جاءتْ ألقابُه ونعوتُه مفردةً فيقال «المَقرّ الشَّريف» و «الجَناب الشريفُ» و«المَقرّ الكريم» وفى نُعوته «سيدُ الأُمَراء فى العالمين» ونحو ذلك .

ثم إن كان مذكَّرًا جاء بصيغة التذكير، كما تقدّم فى ألقاب المَقرّ] (١) .

وإذا كان لقب الأصل فيه مؤنثًا كالجِهـةِ فى ألقاب النساء، أتت ألقابُه ونعوتُه مؤنَّثةً تبعًا له ، فيقال فى ألقاب الجهة « الجهة الشريفةُ أو الجهةُ الكريمةُ العاليةُ » وفى النعوت « سيدةُ الخَواتينِ فى العالَمين » ونحو ذلك .

---

(١) هذه الجملة التى بين القوسين غير موجودة فى الاصول ، فنقلناها عن الضوء للمؤلف لتتم الفائدة .

وإن كان اللقب فى الاصل مجموعا ، نحو « مَجالِس الأمَراء » كما يكتب فى المُطْلَقات ، جاءت الألقابُ والنُّعوتُ مجموعةً فيقال فى الألقاب الأَجلَّاء الأكابِرُ وما أشبه ذلك ، وفى النعوت إن كان ذلك اللقب اسم جِنْس نحو « عَضُد المُلُوك والسلاطين » أو مصدرًا ، نحو « عَوْن الأُمَّة » جاز إبقاؤه على الإفراد كذلك : لأن المصدَر واسمَ الجنس لايثَنَّيان ولا يُجْمَعان ؛ وإن لُوحِظ فيه معنى التَّعَدُّد ، جاز الجمع فيقال « أعوانُ الأمة » و « أعضَادُ المُلُوك والسلاطينِ » ونحو ذلك . وقد أشار إلى ذلك المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى كتابه " التعريف " فى الكلام على كتابة المُطْلَقات فقال ونحو عَضُد وأَعْضاد .

تم الجزء الخامس . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس

وأوّله المَهْيَع الثانى

(فى ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتَّاب الزمان ، وبيان معانيها ، ومَنْ يقع عليه كل واحد منها من أرباب السُّيوف وغيرهم ، وهى نوعان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(م م/٥٤٩٦/١٩١٤/٣٠٠٠)

صبح الأعشى

الجزء الخامس

فهـــــرست

الجـــزء الخامس

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

صفحة

(١) كذا فى الأصول وحقيقتها الثالثة ثم يتسلسل العدد .

صفحة

صفحة

صفحة

المقالة الثالثة

استلفات للقارئ — وقع فى ص ٣٣ س ٦ من هذا الجزء بياض وحقيقته كما ذكره فى "بغية المستفيد" (وولى بعده ابنه الملك الناصر أحمد ابن الملك الأشرف الخ)

(تم فهرست الجـــزء الخامس من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجـــــزء السادس

دار الكتب الخديوية

كتاب
صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء السادس

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

المَهْيَع الثانى

فى ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتّاب الزمان، وبيان معانيها، ومَنْ يقع عليه كل واحد منها من أرباب السُّيوف وغيرهم

(وهى نوعان)

النوع الأوّل

(الألقاب الإسلامية، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(المذكّرة، وهى ضربان)

الضرب الأوّل

(الالقاب المفردة المختصة فى اصطلاح الكُتّاب باسم الألقاب)

وهذه جملة منها مرتبة على حروف المعجم ليسهُلَ آستخراجها .

حرف الألف

(الأَتَابِكِىّ) وهو من ألقاب أميرِ الجُيوش ومَنْ فى معناه، كالنائبِ الكافِلِ ونحوه، وهو بالأتابك أخصُّ. وقد تقدّم معنى الأتَابك فى الكلام على ألقاب أرباب الوَظَائف،

وأنَّ أصلَه بالطاء فقُلِبت تاءً فى الآستعمال، وأن معناه «الأبُ الأمِير» وحينئذ فتكون النســبةُ فيه للمبالَغَة . نعم إن نُسِب إليه غيرُه من أتباعه كانت النســبةُ إليه حقيقيّةً علىٰ بابهــا .

(الأتْقىٰ) من ألقابِ ملوكِ المَغرِب التى يُكْتَب إليهم بها من الأبواب السلطانية، مضاهاةً لـما يُوجَد فى مكاتَبَاتهم من الألقاب . وهو أفعلُ التفضيل من التَّقْوىٰ .

(الأَثِير) بالثاء المثلَّثة من ألقاب أرباب الأقلام : من القُضَاة والعلماء والكُتَّاب ونحوهم ؛ وربمـا آستُعمِل فى ألقــاب الصُّلَحاء أيضا . وأصله فى اللغة المُخَالِص، وحينئذ فيصلح أن يكون لَقَبا لـكلِّ من نُسِب إلىٰ المُخالَصة من أرباب الســيوف والأقلام جميعًا؛ والأَثِيرى نسبة إليه للمبالغة .

(الأَثِيل) بالمثلثــة أيضا من ألقاب أرباب الأقلام كالأثير، ومعناه فى اللغــة الأَصِيل، ومنه قيل مَجْدٌ مُؤَثَّل وأَثِيــل أى أَصِيل . وحينئذ فيصلُحُ أن يكون لقبــا لـكلِّ ذى أَصَالة من أرباب السيوف والأقلام، والأَثِيلِىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الأجَلُّ) يكون فى الآصطلاح من ألقاب السلطان كما يقال السلطانُ السيِّدُ الأجَلُّ ويكون من ألقاب السامِى بغــير ياء فمــا دونه فيقــال : « السامى الأميرُ الأجَلُّ » ونحو ذلك، وهو مما يُنْكَر علىٰ كُتَّاب الزمان : لآستعماله فى الأعلىٰ والأدنىٰ علىٰ ماسيأتى بيانه إن شاء الله تعــالىٰ . علىٰ أن هــذا اللقبَ فى الدولة الفاطميّــة كان هو أعلىٰ الألقاب وأرفَعَها قَدْرا، حتّى قال آبن شِيثٍ فى "مَعالم الكِتَابة": إنه محظورٌ علىٰ غير الوزير. وقد كانت الوزارةُ فى زمانهم بمثابةِ السَّلْطنة فى زماننا، فتصرّفَ فيه الكُتَّاب حتّى آستعملوه فى أدنىٰ الرُّتَب أيضا، والأجَلِّىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الأَخَصّ) من ألقاب أرباب السُّيُوف، والكُتّابُ يستعملونه فى أدنىٰ الألقاب مما تَسْقُط فيه ياءُ النسب : من السامى بغير ياء فما دُونَه ، علىٰ أن معناه رَفِيع : لأَخْذه من الخُصُوصية : وهى الانفراد بالشىء، وكان الأحقُّ أن يكون مختصًا بالألزام المقرَّبين دُونَ غيرهم؛ والأَخَصِّىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الأَخَوِىّ) من الألقاب المختصةِ فى الغالب بالمكاتَبَات الإِخْوانِيَّة ، وربما وقعت فى المكاتبات المُلُوكية إذا كان قَدْرُ المَلِكين المتكاتبين متقاربًا، وهو نسبةٌ إلىٰ الأخوة، وكأنه جعله أخاه حقيقةً .

(الأَرِيب) من ألقابِ أرباب الأقلام . وهو فى اللُّغة العاقلُ ، ومنه قيل للدَّهَاء إِرْبٌ بكسر الهمزة وإسكان الراء لأنَّ الدَّهاء من جملة العقل؛ والأَرِيبىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الأَرْقىٰ) من ألقاب ملوك المَغْرِب . وهو مأخوذٌ من الرُّقِىّ : وهو الارتفاعُ والعُلُوّ فى الدَّرَج .

(الأَزْكىٰ) من ألقاب ملوكِ المَغرِب أيضا . وهو مأخوذٌ من الزَّكاة : وهى الزيادةُ ، كأنه نَسَبه إلىٰ الزيادة فى الرِّفْعة ونحوها .

(الأَسْرىٰ) بالسين المهملة من ألقاب ملوك المَغرِب . وهو مأخوذٌ من السَّرْو وهو سَخاءٌ فى مُرُوءة ، ومنه قيل لمن اشتمل علىٰ ذلك سَرِىّ ، وبه لُقِّب من لُقِّب «سَرِىَّ الدِّين» .

(الأَسْفَهْسِلار) بسينين مهملتين بينهما فاء ثم هاء من ألقاب أرباب السيوف ؛ وكان فى الدولة الفاطمية لقبًا علىٰ صاحب وظيفةٍ تلِى صاحب البابِ ، علىٰ ما تقدّم

بيانه فى الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية فى المقالة الثانية. ومعناه «مُقدَّم العَسْكر» وهو مُرَكَّب من لفظين : فارسىّ، وتُرْكىّ، فأسْفَهْ بالفارسية بمعنى المقدّم، وسِلّار بالتركية بمعنى العسكر، والعامة تقول لبعض من يقف بباب السلطان من الأعوان : (أسپاسلار) بالباء الموحدة، وكأنهم راعَوْا فيه معنى المقدّم فى الجملة، والباء تعاقب الفاء فى اللغة الفارسية كثيرا؛ ولذلك قالوا : أَصْبِهَان وأصفَهَان بالباء والفاء جميعا؛ والأسْفَهْسِلارِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وقد ذكر المقرُّ الشهابىُّ بن فضل الله فى بعض دَسَاتيره أن هذا اللقبَ يختصُّ بأمراء الطَّبْلَخاناه، على أنه قد تُرِك ٱستعمالُه فى زماننا، وكأنهم كرهوا مشاركةَ بعضِ الأعوان فيه فأضربُوا عنه لذلك، أو لم يَفْهَمُوا معناه فتركُوه .

(الأَسْنَىٰ) من ألقاب ملوكِ المغرب . وهو مأخوذ من السَّناء بالمدّ : وهو الرفعة؛ ويجوز أن يكون من السَّنَا بالقصر : وهو الضِّياء .

(الأَشْرَفُ) من ألقاب المَقَام والمَقَرّ فى مصطَلَح كُتَّاب الزَّمان على ما تقدّم ذكره، وربما وقع أيضا فى ألقاب مُلوك المَغْرِب . وهو أفعلُ التفضيلِ من الشَّرَف بمعنى العُلُوّ .

(الأَصْعَد) من ألقاب ملوكِ المَغْرِب، وهو أفعل التفضيل من الصُّعود ضِدّ الهُبُوط .

(الأصيل) من ألقاب أرباب الأقلام غالبًا، وربما وقع فى ألقاب أرباب السُّيوف إذا كان لصاحب اللقب عَرَاقةُ نَسَب؛ وهو فَعِيل من الأَصْل بمعنى الحَسَب؛ والأَصِيلىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . قال فى "عرف التعريف" : ويختصّ بمن له ثلاثةٌ فى الرِّياسة، ٱبنٌ عن أبٍ عن جَدٍّ .

(الأَضْخَم) من ألقابِ ملوكِ المغرب، وهو مأخوذ من الضَّخَامة؛ والمراد بها هنا العَظَمة. وهى فى أصل اللغة الغِلَظ واستعملت فى العَظَمة تَجوُّزا.

(الأعَزّ) من ألقاب ملوك المغرب؛ وقد يستعمل فى ألقاب من لم يَثْبُت فيه ياء النسب من السامى بغير ياء فما دونه كالأخَصّ: فيقال «الأعَزُّ الأخَصُّ» ونحو ذلك؛ وهو أفعل التفضيلِ من العِزّ.

(الأعظَم) من ألقاب السلطان، يقال فيه «السلطانُ الأعظَمُ» ويقع فى ألقاب ملوك المغرب أيضا. وهو أفعلُ التفضيل من العَظَمة: وهى الكِبْرياء.

(الأعلىٰ) من ألقاب ملوك المَغْرِب. وهو أفعل التفضيل من العُلُوّ: وهو الارتفاع.

(الأعلم) من ألقاب مُلوكِ المغرب. وهو أفعل التفضيل من العِلْم الذى هو خلاف الجَهْل.

(الأفْخَم) من ألقاب ملوك المغرب. وهو أفعلُ التفضيل من الفَخَامة: وهى العَظَمة والقُوّة.

(الأفضل) من ألقاب السلطان؛ ويستَعْمَل فى ألقاب ملوك المغرب أيضا وهو أفعلُ التفضيل [من الفضل] بمعنىٰ الزيادة، والمراد الزيادة فى الفضيلة.

(الأكمل) من ألقاب السلطان أيضا؛ ويستعمل فى ألقاب ملوك المَغْرِب وفى القاب من لم تَثْبُتْ فيه ياءُ النسب من السامى بغير ياء فما دُونَه؛ والأكملىّ نسبةٌ إليه للمبالغة.

(الإمام) من ألقاب الخُلَفاء كما يقال فى المكاتبات عنهم «من عَبْدِ الله ووَلِيِّه الإمامِ الفلانىّ» وقد تقدّم أن أوّل من تلقَّب به «إبراهيمُ بن محمد» أوّلُ من بُويِعَ له

بالخلافة من بنى العبّاس، ويقع أيضا فى ألقاب أكابر العلماء . وأصل الإمام فى اللغة الذى يُقْتَدىٰ به ؛ ولذلك وقع علىٰ المجتهِدين كالأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة : وهم الشافعىُّ، ومالكٌ، وأبو حنيفةَ ، وأحمدُ . والإمَامىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الأمْجَدُ) من ألقاب ملوك المغرِب ؛ وربما كُتِب به للتُّجّار ونحوهم فى ألقاب الصَّدْر الأجَلّ . وهو أفعلُ التفضيلِ من المجد : وهو الشَّرَف أو الأَصَالةُ .

(الأَميرىّ) من ألقاب أرباب السيوف . قال فى "عرف التعريف" : ويُكْتَب به لكِبَار ... ...(١) وإن كانوا من أرباب الأقلام . وذكر فى دُسْتورٍ له آخَرَ أنه يكتب به لنَقِيب الأشْراف ولا يُكْتَب له القَضَائِىُّ أصلا وإن كان من أرباب الأقلام ؛ وقد تقدّم لقب الأمير مجرّدًا عن ياء النسب وأصلُه المأخوذُ منه فى الكلام علىٰ ألقاب أرباب الوظائف فأغنىٰ عن إعادته هُنَا . وٱعلم أنهم لم يستعملُوا فيه النسبةَ لنفس الإمرة فلم يقولوا فى النسبة إليه الإمْرِىّ كما قالوا فى النسبة إلىٰ القضاء القَضَائىّ .

(الأمين) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكِيَّة وألقاب الخُدّام المعروفين فى زماننا بالطَّوَاشِيَّة ، خُصُّوا بذلك لٱئتمان التجّار علىٰ الجَوَارى والمماليك فى حال جَلْبِهِم إلىٰ الملوك، وٱئتمان الخُدّام علىٰ الحَرِيم والمماليك بأبواب الملوك؛وهو مأخوذ من الأمانة ضِدّ الخِيَانة؛ والأَمِينىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(الأوحد) يقع فى الألقاب السلطانية ، ويكون من ألقاب أرباب الأقلام لمن لا تثبت الياء فى ألقابه من السامى بغير ياء فما دونه، وفيه ما تقدّم فى الكلام علىٰ

---

(١) بياض بالأصول ولعله لكبار الأمراء، أو الوزراء .

الأجلّ من الاعتراض علىٰ الكُتَّاب فى جمعهم الأعلىٰ والأدنىٰ فى لقبٍ واحد؛ والأوحَدِىُّ نسبة إليه للمبالغة .

حرف البـاء

(البـارِعُ) من ألقاب أرباب الأقلام، وهو فاعلٌ من البرَاعة : وهى النّهْضة بالشىء والتقدُّم فيه؛ والبارِعىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(البَلِيغ) من ألقاب أرباب الأقلام ، وأحسَنُ ما يقع فى ألقاب ذوى البَلاَغة من الكُتَّاب ونحوهم، وهو فعيل من البَلاَغة : وهى تأديةُ كُنْهِ المراد بإيجازٍ لايُخِلّ، وإطنابٍ لايُمِلّ؛ والبَلِيغىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

حرف التـاء

(التَّقِىُّ) من ألقاب ملوك المَغْرِب يقال التقىُّ الزَّكِىُّ ونحو ذلك ؛ وربما آستعمل بالديار المصرية فى ألقاب أرباب الأقلامِ وأهلِ الصلاح ؛ وهو مأخوذ من التقوىٰ كما تقدّم فى الأتقىٰ .

حرف الجيم

(الجَلِيل) من ألقاب مَنْ يُكتَب له الحاجُّ كمقدَّمِى الدولة ونحوهم، ويقال فيه : «الحاجُّ الجليلُ» ونحو ذلك؛ والجَلِيلُ فى أصل اللغة العظِيمُ، وكان مقتضىٰ الوضع أن يكون لأعلىٰ من هذه الرُّتْبة .

حرف الحـاء المهملة

(الحاجُّ) من ألقاب مقدّمى الدّولة ومِهْتارِيَّة البُيوت ومَنْ فى معناهم وإن لم يكن قد حَجَّ ، وإن كان موضوعُ الحاجِّ فى العرف العامِّ إنما هو لمن حَجَّ البيتَ وإنما آصطُلِح لهم علىٰ ذلك حتّى صار كالعَلَم عليهم .

(الحافظُ) من ألقـاب المحدِّثين ؛ وأصله من الحفظ ضِدّ النِّسيان ، وٱختَصّ بالمحدّثين لٱحتياجهم إلىٰ كَثْرة الحِفْظ لمتون الأحاديث وأسمـاءِ الرجال ونحو ذلك ؛ والحافِظِيّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الحافِلُ) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه الكثير الجَمْع ، أخذا من قولهم وادٍ حافِلٌ إذا كَثُر سيله .

(الحاكم) من ألقاب القُضَاة . قال أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" : وأصله من الحَكَمة بفتح الكاف : وهى حديدةٌ مستديرةٌ فى اللِّجام تمنَعُ الدابَّة من الجَرْى والشِّبَاب ؛ سُمِّى بذلك لأنه يردّ النـاسَ عن الظُّلْم ؛ وأكثر مايستعمله كُتَّاب الزمان فى عُنْوان المكاتَبات فى تعريف المكتُوب إليهم ، وفى أثنائها فى وصف المكتوب بسببه ؛ والحاكِمِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الحـائزُ) من ألقاب ملوك المغْرِب ، وهو فاعل من الحِيَـازة : وهى الحِيَاطةُ ، والمراد الحائز للمُلْك ، أو الحائزُ للفضائل ونحو ذلك .

(الحَبْر) من ألقاب أكابر العلماء ــ وهو بفتح الحاء وكسرها لغتان ، والذى ٱختاره ٱبن قُتَيبة فى "أدب الكاتب" الكَسر ، وبه سُمِّى الحِـبْرُ الذى يُكْتَب به ، ولكن الجارى علىٰ ألسنة الناس الفتحُ ؛ والحَبْرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الحُجِّىُّ) بضم الحاء وكسر الجيم المشـدّدة وفى الآخر ياء النسب من ألقـاب أكابر القُضَاة والعلماء ، وهو منسوب إلىٰ الحُجَّة بحذف تاء التأنيث منه علىٰ قاعدة النَّسَب ، كما تُحْذَف من طَلْحة ونحوه علىٰ ما هو مقرّر فى علم النحو . وبعضُ جَهلة الكُتَّاب يثبت فيه تاء التأنيث مع النسب فيقول الحُجَّتِىّ وهو خطأ ؛ ثم النسبة فيـه

حقيقيةٌ لأن المنسوب إليـه وهو الجهـة غير مَنْ له اللقَبُ، ويجوز أن تكون للمبالغة بأن يجعل صاحبُ اللقب هو نَفْس الجهة تجوُّزا وهو أبلَغُ .

(الحَسِيب) من ألقاب الشُّرَفاء من ولد علىّ بن أبى طالب كَرَّم الله وجهـهُ من فاطمة رضى الله عنهـا ، أخذًا من الحَسَب : وهو مايَعُدّه الإنسانُ من مَفَاخرآبائه علىٰ ما ذكره جماعة من أهل اللغـة ولذلك ٱختص فى الأصطلاح بالشُّرَفاء، إذ كان آباؤهم أعظمَ الناس مَفَاخِرَ، لكن قد ذكرٱبن السِّكِّيت فى "إصلاح المَنْطِق" أن الحَسَب يكون فى الرجُل وإن لم يكن له آباءٌ لهم شَرَف، وعلىٰ هـذا فلا يختص هذا اللقب بذوى الأنسابِ التى فيها عَرَاقةٌ، والحَسِيبىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة.

حرف الخـاء المعجمة

(الخاشِعُ) من ألقاب الصُّوفِيَّة وأهلِ الصَّلاح ، وربمـا ٱستُعْمِل فى العُلَماء ، بل ربمـا ٱستُعْمِل فى أرباب السُّيوف إذا كان المكتوبُ له متَّصِفًا بذلك ، بل ربمـا ٱستُعْمِل فى ألقاب بَطَارِكةِ النصارىٰ من البـاپ وغيره ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . والخاشعُ فى اللغة الخاضعُ والمتذَلِّل، والخاشِعىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الخَوَاجَا) من ألقاب أكابر التُّجَّار الأعاجِم من الفُرْس ونحوهم . وهو لفظٌ فارسىّ، ومعناه السيِّد، والخَوَاجَكِىُّ بزيادة كافٍ نسبةٌ إليـه للمبالغة، وكان الكاف فى لغتهم تدخل مع ياء النسب .

(الخَيِّر) بفتح الخـاء وتشديد اليـاء المثناة تحتُ، من ألقـاب أهلِ الدِّين والصَّـلاح . وهو فى أصل اللغة خلافُ الشِّرِّير، ثم غلب ٱستعمالُه فيمن غَلَب عليـه الخَيْرُ، والخَيِّرِىُّ نسـبةٌ إليه للمبالغة، وقلَّ أن يستعملَه الكُتَّاب إلا باثبـات الياء فى آخره .

حرف الذال المعجمة

(الذُّخر) بضم الذال وإسكان الخاء من ألقاب أرباب السيوف ، وربما أُطْلِق علىٰ غيرهم . وأصله فى اللغــة لمـا يُذْخَرُ من النفائس، وهو مصــدر ذَخَرتُ الشيءَ أَذْخَرُهُ، وكثيرا مايُغْلَط فيه فيجعل بالدال المهملة . وممَّن وقع له الوَهْم فى ذلك الشيخ جمالُ الدين الأسـنَوِىُّ فى "طَبَقات الفُقهاء" فأورد صاحب "الذَّخائر" فى الدال المهملة؛ والذُّخْرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة، وأكثر مايستعمله الكُتَّاب كذلك .

حرف الراء المهملة

(الرَّبَّانىّ) من ألقاب الصُّوفيَّــة وأهلِ الصَّلَاح، وربمـا لُقِّب به العالمُ فيقال «العـالم الرَّبَّانىّ» قال الجوهرىّ، وهو المُتَأَلِّهُ والعارفُ بالله تعالىٰ . قال تعالىٰ : ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ .

(الرُّحْلَة) بضم الراء من ألقاب أكابر العلماء والمحدِّثين، والرُّحْلة فى اللغة مايُرْحَل إليه ، لُقِّب بذلك لأنه فى حَيِّز أن يُرْحَل إليه للأخذ عنه . أما الرِّحْلة بالكسر فالارتحالُ؛ والرُّحْلىّ بالضم أيضا نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الرَّئِيس) بالهمزة علىٰ وزن فَعِيل من ألقاب عِلْيَةِ الناس وأشرافِهِمْ ، ويقال : فيه رَيِّس علىٰ وزن قَيِّم قاله الجوهرىّ . وأصله من الرِّيَاسة وهى رِفْعةُ القدر وعُلُوّ الرُّتبــة؛ والرئيسِىُّ نسبة إليه للمبـالغة، وغالب مايستعمله الكُتَّاب كذلك، وهو من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكُتَّاب .

حرف الزاى

(الزاهِدُ) من ألقاب الصُّوفيَّة وأهل الصَّلَاح ، وهو فى اللغة خلافُ الراغب ، والمراد هنا مَنْ أعرض عن الدنيا فلم يلتَفِتْ إليها، والزاهِدىّ نسبة إليه للمبالغة .

(الزَّعِيمِىّ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف، كنُوّاب السلطنة ومَنْ فى معناهم؛ وهو نسبة إلىٰ الزَّعيم بمعنىٰ السيد والكافِلِ وكأنَّه بولايته علىٰ القوم سادهم أو كفَلَهم وتولَّاهم ولم يستعملوا فيه الزعيم بغير ياء : لأنه إذا كان مختصا بكبار أرباب السيوف دون أدَانِيهم، وجب إثبات الياء للمبالغة.

(الزَّكِىّ) من ألقاب المتدينين من أرباب الأقلام وغيرهم، يقال التقىّ الزكىّ ونحو ذلك . وهو فى أصل اللغـة بمعنىٰ الزاكى وهو الزائد وقد تقدّم مثله فى الأزكىٰ فى حرف الألف .

حرف السين المهملة

(السالك) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو فاعل من السلوك، والمراد سلوكُ سبيل الرشاد الموصل إلىٰ الله تعالىٰ، والسالكىّ نسبة إليه للمبالغة .

(السامى) من ألقاب المجلس، وقد تقدّمت الإشارة إليه فى الكلام علىٰ الألقاب الأصول وأنه ينقسم إلىٰ السامىّ بالياء والسامى بغير ياء فليراجع منه .

(السَّفيرىّ) قال فى "عرف التعريف" : وهو من الألقاب الخاصة بالدَّوَادار، على أنى قدر أيته فى بعض الدساتير الشامية قد كُتِب به لبعض التجار الخواجكيَّـة لِسفَارتهم بين الملوك وتردّدهم فى الممـالك لجَلْب المماليك والجوارِى ونحو ذلك وهو منسوب إلىٰ السفير : وهو الرسول والمصلح بين القوم نسبةَ مبالغة ولم يستعمله الكتّاب مجرّدا عن الياء : لأنه إذا كان خاصا بهذين ورتبتهما علية لايَليق بهـا حذف الياء لم يناسب استعماله مجرّدا عنها .

(السلطانىّ) من ألقـاب الملوك فيثبت فى ألقاب المقام الشريف ونحوه، فيقال المقام الشريف العالى السلطانىّ ونحو ذلك ؛ وهو منسوب إلى السلطان وقد تقدّم الكلام عليه فى الكلام على أرباب الوظائف .

(السيِّد) من الالقاب السلطانية يقال السلطان السيِّدُ الأجَلُّ ونحو ذلك ؛ ويَقع فى اللغة علىٰ المـالِك والزَّعِيم ونحوهما ؛ والسيِّدِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة ، وهو من الالقاب الخاصة بالجَنَاب الشريف فما فوقه . قال فى "عرف التعريف" ولا يُكْتَب به عن السلطان لأحد .

حرف الشين المعجمة

(الشَّاهِنْشاه) من الألقاب المُلُوكية المختصةِ بالسلطانِ وأكابرِ المُلُوك . وهو لفظ فارسىٌّ معناه بالعربية «مَلِك الأمْلَاك» وقد ورد النهىُ عن التسمِّى به ؛ وفى الحديث أنه صلّى الله عليه وسلم قال : "إنَّ أخْنَعَ آسمٍ عِنْدَ اللهِ رجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ ، لا مَلِكَ الأملاكِ إلا اللهُ" . قال سفيان بن عيينة : معناه شاهِنْشَاه ؛ ولذلك يحذفُه المتديِّنون من الكُتَّاب من الألقاب السلطانية ؛ وقد أشار إلىٰ ذلك فى " التثقيف " فى مكاتبة صاحب المغرب .

وآعلم أنه كان قد وقع فى تلقيب الملوك بهـذا اللَّقَب نِزَاع بين العلماء فى سَلْطَنة السلطان "جلَالِ الدولة" السَّلْجُوقِىّ فى سـنة تسع وعشرين وأربعمائة كما حكاه آبن الاثير فى تاريخه "الكامل" وذلك أن السلطانَ جلالَ الدولة كان قد سأل أميرَالمؤمنين (القائمَ بأمر الله) الخليفةَ يومئذٍ فى أن يُخاطَب بمَلك الملوك فامتنَع ، فكتب فَتْوىٰ للفقهاء فى ذلك ؛ فكتب القاضى أبو الطيِّب الطبرى ، والقاضى أبوعبدالله الصَّيْمَرِىّ . والقاضى آبن البيضاوِىّ ، وأبو القاسم الكَرْخِىّ بجَوَازه ؛ ومنع منـه أقضى القُضاةِ أبو الحَسَـن المـاوَرْدِىّ ، وجرىٰ بينـه وبين من أفتىٰ بجوازه مراجعاتٌ ؛ وخُطب لجـلال الدولة بـ«مَلك المُلُوك» وكان المـاوَرْدِىّ من أخصِّ الناس بجَلَال الدولة ، وكان يتردّدُ إلىٰ دار المملكة كلَّ يوم فلما أفتىٰ فى ذلك بالمنع ، آنقطع ولزم بيتَه خائفا ،

وأقام منقطعا من شهر رمضان إلىٰ يوم النحْر ؛ فاستدعاه جلالُ الدولة، فحضر خائفًا فأدخله عليه وحْده، وقال له : قد علم كلُّ أحدٍ أنك من أكثر الفُقَهاء مالًا وجاهًا وقُربًا منا وقد خالفْتَهم فيما خالف هَوايَ، ولم تفعل ذلك إلا لعَدَم المحاباة منك وٱتّباع الحقِّ، وقد بان لى موضِعُك من الدِّين ومَكانُكَ من العِلْم، وجعلتُ جزاءَ ذلك إكْرامَكَ بأن أدخلتك إلىّ وَحْدَك، وجعلتُ إذْنَ الحاضرين إليك، ليتحقَّقُوا عَوْدِى إلىٰ ماتُحِب . فشكره ودعا له وأذن لكل مَنْ حضر للخدمة بالآنصراف[1] .

(الشريف) من ألقاب المَقَرّ والجَنَاب، من حيث إنه يقال المَقَرّ الشريف والجَنَاب الشريف، وذكر فى "عُرْف التعريف" أنه مختصٌّ بالأشراف أبناءِ فاطمة من علىّ رضى الله عنهما، وكأنه يريد فى الألقاب المطلقة التى لا تلى المقرّ والجناب وهو فعيل من الشرف وهو العلوّ والرفعةُ، قال آبن السكيت : ولا يكون إلا لمن له آباءٌ يتقدّمونه فى الشرف بخلاف الحسيب ومن هنا جعله الكُتَّاب أعلىٰ رتبة من الكريم لآشتماله علىٰ قدر زائد لايعتبر فى الكريم من عَرَاقة الأصل وشَرَف المحْتِد، والشَّريفىّ نسبة إليه للمبالغة .

(الشهير) من ألقاب ملوك المغرب، ومعناه المشهور الظاهر، والمراد هنا من آشتهر علوّ قدره ورفعتُه .

(الشيخ) من ألقاب العلماء والصلحاء وأصله فى اللغة الطاعن فى السِّن، ولُقِّب به أهلُ العلم والصَّلاح توقيرًا لهم كما يوقّر الشيخ الكبير، والشيخىّ نسبة إليه للمبالغة.

حرف الصاد المهملة

(الصاحب) من ألقاب الوزراء . قال فى "عرف التعريف" : وهو مختص بأربابِ الأقلام منهم دون أرباب السُّيوف . وهو فى أصل اللغة آسمٌ للصَّديق ،

(١) أورد ابن الأثير هذه العبارة فى كتابه الكامل (ج ٩ ص ١٧١) .

وأوّل مَنْ لُقِّب به من الوزراء كافِى الكُفَاة إسماعيلُ بنُ عبَّاد، وذلك أنه كان يصحب الأستاذَ آبنَ العَمِيد، فكان يقال له بذلك «صاحبُ آبن العميد» ثم غلب عليه حتّى آستُعْمِل فيه بالألف واللام، ثم صار لَقَبا علىٰ كل مَنْ وَلِىَ الوزارة بعده . علىٰ أن كُتَّاب الإنشاء بالممالك الشامية يلقِّبون العلمـاء من قضاة القُضَاة ومَنْ فى معنـاهم بذلك ،وهم علىٰ ذلك إلىٰ الآنَ ، بخلاف كُتَّاب الديار المصرية ، فإنهم يَقْصُرونه علىٰ الوزراء دون غيرهم كما تقدّمت الإشارةُ إليه . والصاحِبِىّ نسبةٌ إليه للمبـالغة . وهو المستعمل عند كُتَّاب الإنشاء، وبغير الياء فى العرف العامّ .

(الصالح) من ألقـاب أهـل الصَّـلاح والصُّوفية يقـال الشـيخُ الصالحُ ونحو ذلك . وهو مأخوذ من الصَّلاح ضِدّ الفساد، ولم يستعملوه باثبات ياء النسب فلم يقولوا الصالِحِىّ ، وكأنهـم تركوا ذلك خوفاً من الآلتبـاس بالنسبة إلىٰ البـلد المعروف أو غيره .

(الصَّدْر) من ألقـاب التُّجّار ونحوهم . والمراد مَنْ يكون صَـدْرا فى المَجَالس؛ وصــدرُ كلِّ شىء فى اللغة أوّلُه ، وعُبِّر عن صَدْر المجلس بأوّله لأنه فى الحقيقة أوّلُ المجلس وكل جانب من جانبيه يِلْوُله ، والصَّدْرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

حرف الطـاء

(الطاهر) من ألقاب ملوك المَغْرب، والمراد المتَنَزّه عن الأدناس .

حرف الظـاء

(الظَّهِيرىّ) من ألقاب ...ار أرباب السُّيُوف كأعيـانِ الأُمَراء من نُوّاب السلطنة وغيرهم؛ وهو نسـبةٌ إلىٰ الظَّهِير بمعنىٰ العَوْن للمبـالغة، ومنه قوله تعـالىٰ :

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولم يستعملوه مجردا عن ياء النسب لآختصاص المُظَاهِرةِ بأكابر أربابِ السُّيوف، وهو بغير الياء لايقع إلا علىٰ الأَدْوان منهم .

حرف العين

(العابِدُ) من ألقاب الصُّوفية وأهلِ الصَّلاح، وهو فاعِلٌ من العبادة وهى الطاعة . وربما آستُعْمِل فى أرباب السيوف والأقلام أيضا : لآتصافِ متصفٍ منهم بذلك أو وقوعِه أوّلا علىٰ متصفٍ به منهم ثم لزومه مَنْ بَعْدَه من أهل تلك المرتبة كما فى نائب الشام، حيثُ كُتِب لبَيْدُمُر الخوارزمى فى نيابته بذلك؛ ثم لَزِم مَنْ بعده من نوّاب الشام والنائبِ الكافلِ علىٰ ما سيأتى ذكره فى المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ .

(العادل) من ألقابِ السُّلْطان، وهو خلاف الجائِرِ، وذلك أعلىٰ ما وُصِف به الملكُ ونحوه من وُلاة الأُمورِ: لأن العدل به تقع عِمَارة الممالك؛ والعادِلىّ نسبةٌ إليه للمبالغة؛ وهو من ألقاب أكابِرِ أرباب السيوف من النُّوّاب ونحوهم .

(العارف) من ألقاب أكابِرِ أهلِ الصَّلاح، وهو خلاف الجاهِلِ؛ ومنهم مَنْ يفَرِّق بينه وبين العالم بأن المعرفة قد يتقدّمها جَهْل والعلم لا يتقدّمُه جَهْل، ولذلك لم يُطْلق آسمُ العارف علىٰ البارِئ سبحانه وتعالىٰ بخلاف العالم فإنه يُطْلَق عليه؛ والعارفىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(العاضد) من ألقاب ملوك المَغْرِب؛ وهو فى أصل اللغة آسمٌ للمُعِين، يقال عَضَدْته أعضُدُه إذا أعنْته .

(العالم) من ألقاب السُّلْطان، وهو خلاف الجاهل . ثم هو فى الحقيقة إنما هو من ألقاب العُلَماء إلا أنهم نَعَتُوا به الملوك تعظيمًا، إذ العلم كُلُّ أحدٍ يزاحم علىٰ

الاتّصاف به ، والعالِىُّ نسبة إليه للمبالغة . وهو من الألقاب المشتركَةِ فى الاصطلاح بيْنَ أرباب السيوف والأقلامِ وإن كان المختصُّ بها فى الحقيقة العلماءَ .

(العالى) من الألقاب التى يشترك فيها أربابُ السيوف والأقلامِ ، ويُوصَف به المَقَام والمَقرّ والجَناب والمَجْلِس فى إحدىٰ حالتيه ، وهو من العَلَاء بالمدّ وهو الشرف . يقال عَلِىَ بكسر اللام يَعْلىٰ بفتحها إذا شَرُف ، ومنه قيل فى علىّ ونحوه «عَلَاء الدِّين» ويحتمل أن يكون من العُلُوّ فى المكان يقال فيه عَلَا بفتح اللام يَعْلُو عُلُوّا ؛ وسيأتى معنىٰ الفرق بينه وبين السامِى وإن كان بمعناه فى اللغة .

(العامل) من ألقاب أهل الصَّـلاح ، والمراد المجِدُّ فى العمل المجتهدُ فى العِبَادة ؛ والعاملىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة ، وهو من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأقلام كالعـالِىّ .

(العريق) من ألقاب ذَوِى الأَصَالة ، وأكثرُ مايقع علىٰ أرباب الأقلام ، والمرادُ مَنْ له عَرَاقة فى كَرَم الأصل ؛ والعَرِيقىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(العَزِيز) من ألقاب ديوان الخِلافة ، يقال فيه « الدِّيوانُ العَزِيز» علىٰ ما سيأتى بيانه فى المكاتبة إلىٰ أبواب الخِلافة ، وربمـا آستعملوه فى الوَلَد فقالوا الولدُ العزيزُ ، ولم يستعملوه مضافا إلىٰ ياء النَّسَب .

(العَضُد) من ألقاب أرباب السُّيوف ؛ وهو فى الأصل آسمٌ للساعِدِ : وهو مابين المِرْفَق والكَتِف ، وآستُعْمِل فى المُعِين والمُساعد لقيامه فى المُساعدة مَقَام العَضُد الحقيقِىّ من الإنسان ؛ ثم الأفصحُ فيه فتحُ العين مع ضم الضاد ، ويجوز فيه كسرُ الضاد وإسكانُها مع الفتح أيضا وضمُّ العين مع إسكان الضاد ؛ والعَضُـدِىّ نسـبةٌ إليه للمبـالغــة .

(العَوْنِىُّ) من الألقاب المختصة بأكابر أرباب السيوف، وهو نسبة إلىٰ العَوْن وهو الظَّهِيرُ علىٰ الأمرِ المعاونُ عليه . ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب لوقوع العَوْن علىٰ الواحد من أعوانِ صاحب الشُّرْطة ونحوه .

(العَلّامة) بالتشديد من ألقاب أكابر العلماء . قال الجوهرىّ : وهو العالِمُ للغاية، وقَلَّ أن يُستعملُوه إلا فى ألقاب المكتوب بسببه ونحو ذلك، وحذفُ الهاء منه لغةٌ، وليست بمستعملة بين الكُتَّاب أصلا؛ والعَلَّامىّ نسبة إلىٰ العَلَّام أو العَلَّامة للمبالغة . قال فى "عرف التعريف" : ويختص بالمُفْتِى .

حرف الغين المعجمة

(الغازى) من ألقاب أربابِ السُّيوف، وهو من الأسماء المنقُوصةِ كالقاضى ونحوه، وقَلَّ أن يُستعْمَل إلا فى ألقاب السامِى بغير ياء فما دُونَه .

(الغَوْثُ) بالثاء المثلثة من ألقاب الصُّوفيَّة، وهو عندهم لقبٌ علىٰ القُطْب الذى هو رأس الأولياء؛ وأصلُه فى اللغة من قول الرجل واغَوْثاهْ، وقلَّ أن تستعمله الكُتَّاب بل لم يستعمِلُوه مضافا إلىٰ ياء النسب أصلا .

(الغِيَاثِىُّ) من ألقاب أرباب السيوف ، وأكثرُما يُستعْمَل فى الملوك ، وهو فى اللغة الاسمُ من استغاثَنِى فأغثْتُه ، وأصله الغِوَاثِىُّ بالواو فقُلِبَتِ الواو ياء لانكسار ماقبلها .

حرف الفاء

(الفاتح) من ألقاب ملوك المغْرِب ، وهو فاعلٌ من الفتح بمعنىٰ النَّصْر ، والمراد فتحُ الأمصار وتملُّكها .

(الفاضل) من ألقاب أرباب الأقلام ، وأكثرُ مايقع فى ألقاب العلماء ، وربما وقع فى ألقاب الكُتّاب ، وهو خلاف الناقِص ، والمراد زائدُ الفَضْــل ، وبه لُقِّب القاضى الفاضــلُ « عبدُ الرحيم البَيْســانِىُّ » الكاتب المشهورُ ؛ والفاضلِىُّ نســبة إليـــه للبالغة .

(الفائز) من ألقاب ملوك المغرِب ، وهو فاعِلٌ من الفَوْز بمعنى النَّجاةِ أو الظَّفَر ، وقد يُتَسَامَحُ فى التلقيب به فإن الفوزَ يطلق علىٰ الهلاك أيضا علىٰ ماهو مقرّر فى كتب اللغة ، ومثل ذلك يجبُ آجتنابُه لمــا فيه من الآشتراك بين المحمودِ والمذمُوم ، إلا أنه غلب آستعمالُه فى النَّجاة حتّى إنه لم يرد فى القُرْءان إلا بمعنــاها ، ولذلك عوّل الكُتّاب علىٰ آســـتعماله .

(الفقيه) من ألقاب العُلَماء وهو آسم فاعِل من فَقُه بضم القاف إذا صار الفقهُ له سَجِيّة ، ككَرُم إذا صار الكَرَم له سجِيَّةً . قال المسيلىّ (١) فى "شرح مختَصَر ابن الحاجب" : وإنما يقع علىٰ المجتهد دون المقَلِّد ، أما إطلاقه علىٰ فقهاء المَكاتِب ونحوهم فعلىٰ سبيل المجاز . علىٰ أن الكُتّاب بالديار المِصْرية لم يستعملوا هذا اللقبَ إلا فى القليل النادرِ ، بل كثير من جَهَلة الكُتّاب وغيرهم يستصغِرُون التلقيبَ به ويَعُدّونه نقصًا ، وإنمــا يُعَظَّم به جِدَّ التعظيم أهلُ المغرِب ؛ والفَقِيهِىُّ نسبةٌ إليه للبــالغة ، وهو مســتعمل فى ألقاب العلمــاء .

(الفَريدِىّ) من ألقاب أكابر العلماء ، وهو نسبةٌ إلىٰ الفَرِيد بمعنىٰ المنفَرِد للبالغة ، والمراد المنفردُ بمــا لم يُشَارِكْه فيه غيرُه ، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النَّسب .

(١) كذا بالاصول ولعله السبكى انظر شراح مختصر آبن الحاجب فى كشف الظنون .

حرف القاف

(القاضَوِىّ) من ألقاب أرباب الأقلام ، وهو نسبةٌ إلىٰ القاضى للمبالغة ، ثم فى الحقيقة كان يجب أن يختص بالقُضَاة الذين هم حُكَّام الشريعة دون غيرهم ، إلا أنه تُوسِّع فيه حتّٰى ٱستُعمِلَ فى غيرهم من ألقاب أرباب الأقلام .

(القِدْوة) بكسر القاف وضمّها لغةٌ من ألقاب العلماء والصُّلَحاء ، وهو بمعنىٰ الأُسْوة . يقال : فلان قِدْوة يُقتدىٰ به ؛ والقُدْوِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة ، وحذفت منه تاء التأنيث المبدلةُ من الهاء علىٰ قاعدة النسب عند النحاة ، وكثيرٌ من جَهَلة الكُتَّاب يُثْبتون فيه تاء التأنيث مع النسب فيقولون القُدْوتِىّ ، وهو خطأ كما تقدّم فى الكلام علىٰ الحُجّة فى حرف الحاء .

(القَضَاميرىّ) من الألقاب التى يستعملها بعضُ الكُتَّاب فى ألقاب مَنِ ٱجتمع له رياسةُ السيف والقلم ؛ وهو نسبة إلىٰ القَضاء والأمير تشبيها بمذهب مَنْ يرىٰ النسبةَ إلىٰ المضاف والمضاف إليه جميعا فيقول فى النسبة إلىٰ عَبْد شمس عَبْشَمِىّ ، وإلىٰ عبد الدَّارِ عَبْدَرِىّ ، ونحو ذلك ، وهو مذهب مرجوح علىٰ ماتقدّم بيانه فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ النحو ، والأحسن فيه النسبةُ إلىٰ كلٍّ منهما علىٰ ٱنفراده ، فيقال القَضَائىُّ الأَميرىّ ، أو الأميرىُّ القضائِىُّ ؛ وعلىٰ العمل به فاللائق بعُلُوّ الرُّتبة أن يقال القاضَميرىّ ليكون مركّبا من القاضَوِىّ والأميرىّ ، إذ كان القاضوِىّ فى المعنىٰ أبلغَ من القَضَائىّ لما فى القاضَوِىّ من المبالغة علىٰ ماتقدّم بيانه .

(القَضَائىّ) من ألقاب أرباب الأقلام ،وهو نسبةٌ إلىٰ القَضَاء فلا مبالغةَ فيه .

(القُطْب) من ألقاب الصُّوفية وأهلِ الصَّلاح ، وهو عندهم عبارةٌ عن رأس الأوْلياءِ الذى عليه مَدَارُهم كما تقدّم فى الغَوْث ، وقَلَّ أن يستعمله الكُتَّاب ؛

ولم يستعملوه مضافاً إلىٰ ياء النسب فيما وقفتُ عليه أصلا . والقُطْب فى أصل اللغة كَوْكَبٌ بين الجَدْى والفَرْقَدَيْن يدور عليــه الفَلَك فيما قاله الجوهرى . والتحقيق أنه نقطةٌ متوهَّمة بالقرب من هــذا الكَوْكَب علىٰ ماهو مقرَّر فى علم الهيئة ، ولذلك قيل لسـيِّد القوم الذى عليــه مَدَارُ أمرِهم قُطْبُ بنى فُلانٍ ، ومِنْ هُنَا عبَّروا عن مَدَار الأولياء بالقُطْب . وقلَّ أن يستعمله الكُتَّاب ، ولم يستعملوه مضافا إلىٰ ياء النسب فيما وقفتُ عليه .

(القَوَامِىّ) بفتح القاف من ألقاب أرباب السيوف . وهو نسبةٌ إلىٰ القَوَام وهو العدل . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ولم يسـتعملوه مجرّداً عن ياء النسب .

حرف الكاف

(الكافِلُ) من الألقاب المختصَّة بنائب السلطنة بالحَضْرة ، يقال فيه النائب الكافلُ ونحو ذلك ، والكافلُ فى اللغة الذى يَكْفُل الإنسانَ ويَعُولُه ، ومنــه قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ولُقِّب بذلك لأنه يكفُل الرعيةَ ويعُولُهم ؛ والكافلىُّ نسبة إليه للمبالغة . قال فى "عرف التعريف" : وهو مختص بنائب سلطانٍ أو وزيرٍ كبير . وذكر فى دستور آخر أنه لايكتب به لغيرهما .

(الكَبِير) من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأقلام ، وهو فى الأصل خلاف الصغير ، والمراد هنا الرفيعُ الرُّتْبة ؛ والكَبِيرىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(الكريم) من ألقاب المَقَرّ والجَنَاب ، ويشترك فيه أربابُ السيوف والأقلامِ ، والكريمُ خلاف اللئيم فيما يقتضيه كلام الجوهرىّ حيث قال : الكَرَمُ نقيضُ اللُّؤْم ، وحينئذ فيكون المراد بالكريم الخالصَ من اللُّؤْم ، ومن ثَمَّ جُعِل دون الشريف

فى الرُّتْبة، إذ فى الشَّرَف قَدْرٌ زائدٌ علىٰ ذلك، وهو اعتبار ثُبوتِ رِفْعة القَدْر، بل اعتبارُ ذلك فى آبائه أيضا كما قاله ابن السكيت علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ لقبِ الشريف، ويُوضّح ذلك أن الفُقَهاء قالوا يُسْتحَبُّ فى الزوجة أن تكون نسِيبةً فحمله بعضهم علىٰ الصحيحةِ النَّسَب احترازا بذلك عن بنت الزِّنا، وحمله آخرون علىٰ العَرَاقة فى النَّسب، والأوّلُ فى معنىٰ الكَرَم الذى لم يُعتَبَرْ فيه سِوىٰ خُلُوصه من اللُّؤم، والثانى بمعنىٰ الشريف الذى اعتُبِر فيه قدرٌ زائدٌ، ثم هو فَعِيل من كَرُم بضم الراء إذا صار الكَرَمُ له سجيةً كما تقدّم فى الفقيه .

(الكَفِيلِىّ) من ألقاب أكابر نُوّاب السلْطَنة، وهو أعلىٰ من الكافِل، لأن صيغة فَعِيلٍ أبلغُ من صِيغةِ فاعلٍ علىٰ ماهو مقرّر فى علم النحو والتصريف .

حرف اللام

(اللَّبِيب) من ألقاب أرباب الأقلام، وهو فَعِيلٌ من اللُّبِّ وهو العقل؛ واللَّبِيبىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(اللَّوْذَعِىّ) بالذال المعجمة من ألقاب أرباب الأقلام، وهو الذَّكِىُّ القَلْب .

حرف الميم

(الماجدُ) من ألقاب أرباب الأقلام غالبًا، وربما أُطْلِق علىٰ غيرهم، وهو مختص بذَوِى الأَصَالة فقد قال ابن السكيت إن المَجْدَ لايكُون إلّا بالآباء؛ والماجدىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(المالِكِىُّ) من الألقاب المختصَّة بأكابر أربابِ السيوف والأقلامِ . قال فى "عُرْف التعريف": ولا يكتَبُ به عن السلطان لأحدٍ، وهو نسبةٌ إلىٰ المالك الذى هو خلافُ المملوك للمبالغة، ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب .

(المُثاغِرُ) بالثـاء المثلثة من ألقاب السلطان، والمراد القائمُ بسَدّ الثُّغور : وهى البلادُ التى فى نَحْرِ العدوّ، أخذًا من الثَّغْر وهو السِّنّ، لأنه كالبـاب علىٰ الحلق الذى يمتنع الوصول إليه إلا منه؛ والمُثاغِرِىّ نسبةٌ إليـه للبالغة . وهو من ألقاب أكابِرِ أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(المتصَرِّفىّ) من ألقاب الوُزَراء ومَـنْ فى معناهم ، والمراد مَنْ ينفُـذ تصرُّفه فى الأمور، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(المجاهِدُ) من الألقاب السلطانية ، والمرادُ المجاهدُ فى سبيل الله تعالىٰ، وربمـا آستُعْمِل فى ألقاب السامِى من غير ياء فمـا دونه كما تقدّم فى الغازى ؛ والمجاهِـدِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(المُجْتَهِد) من ألقـاب العلمـاء ، والمرادُ به فى الأصـل مَنْ يَسْتَنْبِط الأحكامَ الشرعيةَ من الكتاب والسُّنّة والإجمـاع والقياس ، وقَلَّ أن يستعمله الكُتَّاب؛ والمجتهِدىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وأَكْثَرُ آستعماله كذلك .

(المُحْتَرَم) من ألقاب العامّة ممن يلقَّبُ بالصَّدْر الأجَلِّ . فيقال : «الصَّدْر الأجَلُّ الكبيرُ المحتَرَمُ» ونحو ذلك .

(المحقِّق) من ألقاب العلماء، وربمـا آستُعْمِل فى ألقاب الصُّوفية، والمراد أنه يأتى بالأشياء علىٰ حقائقها لِحِدّة ذِهْنه وصِحَّة حَدْسِه؛ والمحقِّقِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(المختـارُ) من ألقاب أرباب السُّـيوف غالبا ، ويختصّ بالسامى بغير ياء فمـا دُونَه ، وهو آسمُ مفعولٍ من الآختِيار ، بمعنىٰ أن الملوكَ وأربابَ الأمورِ يَخْتارونَه ، علىٰ أنّ آسم الفاعل منـه أيضا المختارُ كلفظ المفعول علىٰ السَّواء وإنمـا تُرْشِـد إليه القرائنُ .

(المَخْـدُوم) من الألقـاب المختصَّـة بالمكاتَبات، والمراد مَنْ هو فى رُتْبـة أن يكون مَخْدُوما لعلوّ رتبتـه وسُمُوّ محَلّه ؛ والمخدُومِىّ نسـبةٌ إليه للمبالغـة . قال فى " عرف التعريف " : ولا يُكْتَبُ به عن السُّلْطان لأحد .

(المدَبِّرىّ) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم كُتَّاب السرّ ونحوهم ، وهو نسبة إلىٰ المدَبِّر بكسر البـاء الموحدة : وهو الذى ينظُر فى الأمر وما تَئُول إليـه عاقبتُه، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النَّسَب .

(المـدَقِّق) من ألقاب العلمـاء، وهو الذى يُنْعِم النظـرَ فى المسائل ويدقِّقُه ؛ والمدَقِّقِىّ نسبة إليه للمبالغة .

(المُرابِط) من الألقـاب السُّلْطانية، وهو مُفاعِل من الرِّباط : وهو ملازمةُ ثَغْر العدوّ؛ والمُرَابِطِىّ نسـبةٌ إليه للمبالغة . وهو من ألقـاب أكابر أربابِ السيوف، كنُوّاب السلطنةِ ونحوهم .

(المرَبِّى) من ألقاب الصوفية، والمراد مَنْ يربىِّ المريدين ويسَلِّكهم ويعرِّفهم الطريق إلىٰ الله تعالىٰ .

(المرتضىٰ) من ألقاب أرباب السُّيوف والأقلام، ويختصُّ بالسامى بغير ياء فما دونه، والمراد مَنْ يرضاه وُلاةُ الأمور ويختارُونَه .

(المُرْشِد) من ألقاب ملوكِ المغرِب، وربما آستُعْمِل فى ألقاب الصوفيَّة، والمراد مَنْ يُرْشِدُ الناس إلىٰ الحق ويهديهمُ السبيلَ؛ والمرشِدىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(المُسَدَّدِىّ) من ألقاب أرباب السيوف وألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، وهو بفتح الدال المشدّدة نسـبةٌ إلىٰ المسدَّد، وهو آسم مفعول من السَّدَاد بالفتح : وهو

الصَّواب والقَصْد من القول والعملِ . ويجوز أن يكون بالكَسْر علىٰ أنه ٱسمُ فاعلٍ منه بمعنىٰ أنه يُسَدِّد غيره، ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب .

(المَسَلِّك) بتشـديد اللام المكسورة من ألقاب الصوفيَّة ، وهو ٱسم فاعل من تسـليك الطريق وهو تعريفُها، والمراد تعريفُ المريدين الطريقَ إلىٰ الله تعـالىٰ؛ وأصل التسليك إدخالُ الشيء فى الشيء، ومنه قيل للخيط سلك، لقب بذلك لإدخاله المريدين فى الطريق؛ والمَسَلِّكىّ نسبة إليه للمبالغة .

(المُشَيِّدىّ) بتشديد اليـاء المكسورة من ألقاب أكابِر أرباب السيوف، كنُوّاب السلطنة ونحوهم ، وهو نسبةٌ إلىٰ المُشَيِّد فاعل من التشييد وهو رَفْع البناء ، ومنه قوله تعـالىٰ : ﴿ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ أى مرتفع، والمراد أنه يُشَيِّد قواعدَ المملكة ويرفعها؛ ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب إذ لا يليق بالأدْنَيْنَ .

(المُشِيرىّ) من ألقـاب الوزراء وأكابر الأُمَراء ومَنْ ضاهاهم ممن يُؤْخَذ رأيه فى الأمور . قال فى "عرف التعريف" : ولا يُسْمَح به لأحدٍ من أرباب السيوف ما لم يكن مقدَّمَ ألفٍ ؛ وهو نسـبةٌ إلىٰ المُشِير: وهو الذى يُؤْخَذ رأيُه . وٱختُلِف فى أصله المأخوذ منه فقيل : من شُرْتُ العسلَ إذا استخرجته من كوّارة النحْل ، لأنْ الرأىَ يُستخْرَجُ من المُشِير. وقيل من شُرْت الناقةَ إذا عرضْتَها علىٰ الحوض لأن المستشير يعرض ما عنده علىٰ المُشِير، ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب لٱنحطاطه عن رتبة الأكابر .

(المُظَاهِر) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه المُعاوِن أخذًا من المُظَاهَرة: وهى المُعَـاونة .

(المُظَفَّر) من الألقاب السلطانية ، أخذًا من الظَّفَر وهو النَّصْر ؛ والمُظَفَّرِىّ نسبة إليه للمبالغة، وهو من ألقابِ أكابِر أرباب السيوف .

(المُعْرِق) بضم الميم وإسكان العين وكسر الراء من ألقاب ملوك المغرب، والمراد به من أَعْرَقَ في الكَرَم. على أن المُعْرِق قد يُطْلَق في اللغة على المُعْرِق في اللُّؤم أيضا فهو من الأضداد، ومثل ذلك يُجْتَنَب في التلقيب.

(المُعَزّز) بزاءين معجمتين الأولى منهما مشدّدة مفتوحة من ألقاب ملوك المغرب، وهو اسمُ مفعول من العِزّ خلاف الذُّلّ، ومنه قراءة من قرأ (ويُعَزِّزُوه ويُوَقِّروه) بزاءين معجمتين.

(المعظَّم) بفتح الظاء المشدّدة من ألقاب ملوك المغرب أيضا، وهو اسمُ مفعول من العَظَمة وهي الجلالة، وربما استُعْمِل في ألقاب بعض ملوك الكُفْر على ما سيأتي ذكره فيما بعدُ إن شاء الله تعالى.

(المفَخَّم) بفتح الخاء المعجمة المشـددة من ألقاب ملوك المغرب، وهو مأخوذٌ من الفَخَامة وهي الضَّخَامة.

(المُفَوَّه) بفتح الواو المشدّدة من ألقاب البُلَغاء من الكُتّاب وغيرهم. وهو البَلِيغ اللَّسن؛ والمُفَوَّهِيّ نسبة إليه للمبالغة.

(المُفيد) من ألقاب العلمـاء، وهو اسم فاعِلٍ من الإفادة وهي إنالةُ الشخص مالم يكن حاصلاً عنده؛ والمُفِيدِيّ نسبةٌ إليه للمبالغة.

(المُقَدَّميّ) بفتح الدال المشدّدة من ألقاب أرباب السيوف. ويختص بمقدَّمي الأُلوف من الأمراء، والمراد أنه مُقَدَّم على مضاهيه من الأمراء والأجناد، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النَّسَب.

(المُقَرّب) بفتح الراء المشـدّدة من ألقـاب الخُدّام والخَواجَكِيَّة، والمراد أنه مقرّبٌ عند الملوك ومَنْ فى معناهم، وهو من القُرْب خلاف البُعْد؛ والمقرّبىّ نسبة إليه للمبالغة .

(المُكَرّم) بفتح الراء المشـدّدة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مُفَعَّـــل من الكَرَامة .

(المَلَكِىّ) بفتح اللام من القاب المَلِك وألقابِ أتباعه المنسوبين إليه من الأمراء والوزراء ومَنْ فى معنـاهم؛ وهو نسـبةٌ إلىٰ المَلِك بكسر اللام وإنما فُتِحت لامُه فى النسب جَرْيا علىٰ قاعدة النسب فى نَمِر فإنه ينسب إليه نَمَرِىّ بفتح الميم علىٰ ما هو مقرّر فى علم النحو . علىٰ أن كثيرا من كُتَّاب الزمان يَغْلَطون فيــه فيكسرون لامه فى النسب أيضا وهو خطأ . ثم النسبةُ إن كانت فى حق المَلِك نفسه كقولهم فى ألقاب المَلِك المَلَكِىّ، فالنسـبة فيه للمبالغــة، وإن كانت فى حق أحدٍ من أتباعه كقولهم فى حق بعض الأمراء ونحوهم المَلَكِىُّ الفلانى فالنسبة فيه علىٰ حقيقة النسب .

(المُمَجّد) بفتح الجيم المشـدّدة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مُفَعَّل من المَجْد وهو الشَّرَف . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الماجد عن ابن السكيت أنه يكون المَجْدُ(1) للرجل وإن لم يتقدّمْه شرفُ آباء .

(المُمهِّدىّ) بكسر الهاء المشدّدة من ألقاب أكابر أرباب السيوف، نسـبةٌ إلىٰ المُمهِّد : وهو الذى يمهِّد الممالكَ ويُدَوِّخها، والنسبة فيــه للمبالغة، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

---

(1) المنقول فى كتب اللغـة عن ابن السـكيت أن المجد والشرف لا يكونان إلا بالآباء والحسب والكرم يكونان للرجل وإن لم يكن له آباء كرام وقد نقل المؤلف نفسه هذا المعنى فى غير هذا الموضع فتنبه .

(المنتَخَب) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكيَّة : وهو المختار ؛ والمنتخَبيّ نسبةٌ إليه للمبالغـــة .

(المُنَفِّذِيّ) بكسر الفاء المشـدّدة و بالذال المعجمة من ألقـاب الوزراء ومَنْ فى معناهم نسـبة إلىٰ المنفِّذ : وهو الذى له معرفة بتنفيـذ الأمور ووَضْع الأشـياءِ فى مواضعها، والنسبة فيه للمبالغة ، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(المُنْصِفِيُّ) من ألقـاب الوزراء ووُلَاة الأمور نسبةٌ إلىٰ المُنْصِف : وهو الذى يُنْصِف المظلومَ من الظالم ، والنسبةُ فيه للمبالغة ، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(المَنْصورُ) من الألقاب السلطانية ، يقال منه «المؤيَّد المنصورُ» ونحو ذلك ، ومعناه ظاهر ، والمنصُورِىّ نسـبة إليه للمبالغة ؛ وهو من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(المؤتَمَنُ) من ألقاب الخُدّام والتُّجّار الخَوَاجَكيَّة ، والمراد أن الخُدّامَ يُؤْتَمَنُون علىٰ الحريم والمَمَالِيك فى الحَضَر ، والتُّجّار يُؤْتَمَنُون علىٰ المماليك والجَوارِى فى السَّفَر ، أو يؤتَمَنُون علىٰ أخبار المَمَالك وأحوالها ، فلا يُخْبِرون عن مملكة بمملكة أُخرىٰ إلا بما فيه السَّـــدَاد .

(المَوْلىٰ) من ألقاب الكُتّاب ، وأكثر مايَجْرِى ذلك فى تعيين كاتِبِ السرّ ونحوه . فيقـال : « المَوْلىٰ فلان الدِّين » والمراد هنا السيِّد ، والمَوْلَوِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وهو من ألقابِ أكابِرِ أرباب السيوف والأقلام . قال فى "عُرْف التعريف" : ولا يُكْتَب به عن السـلطان لأحدٍ . علىٰ أن المولىٰ لفظٌ مشتَرَك يَقَع فى اللغة علىٰ السيد كما تقـدّم ويعبَّر عنه بالمولىٰ من أعلىٰ ؛ ويقع علىٰ المملوك والعَتِيق ويعـبَّر عنه بالمولىٰ من أسـفَلُ ؛ ويقع علىٰ المنضَمِّ إلىٰ القبيلة من غير أنفُسها ، كما يقال فى الإمام

البُخَارِىّ « الجُعْفِىّ مَوْلاهم » بمعنىٰ أنه ليس من صُلْب القبيـلة ؛ ويُطْلَق علىٰ غير ذلك أيضا . وإذا كان مشـتركا بين المولىٰ من أعلىٰ والمولىٰ من أسـفل فكان الأحسنُ الإضرابَ عنه .

(المؤيَّد) بفتح الياء المشدّدة من الألقاب السلطانية، وبالكسر من ألقاب السامىّ بالياء فما دُونَه ، والمراد أنه يؤيِّد المَلِك وينصُره ، وكلاهما مأخوذٌ من الأَيْد وهو القُوّة، والمراد أن الله تعالىٰ يؤيِّده ويُقَوِّيه، ومنه قولهم فى الدعاء: «أيَّده اللهُ تعالىٰ» أى قَوّاه ؛ والمُؤَيَّدِىّ بالفتح من الألقاب الملوكية نسـبةٌ إلىٰ المؤيَّد بالفتح للمبالغة ؛ وبالكسر من ألقاب أكابر أرباب السيوف نسبةٌ إلىٰ المؤيِّد بالكسر للمبالغة .

(المَلاَذِىّ) بالذال المعجمة من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم من وُلاة الأمور . وهومنسوب إلىٰ المَلاَذِ بمعنىٰ المَلْجإ نسبةَ مبالغة ؛ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

حرف النون

(الناسِكُ) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصلاح، ومعناه العابدُ أخذًا من النُّسُـك وهو العبادة ؛ والناسكىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وهو من ألقاب الصُّلَحاء أيضا ، وربما كُتِب به لأرباب السيوف والأقلام إذا كان فيهم مَنْ يُنْسَب إلىٰ الصَّلاح .

(النَّبَوِىّ) من ألقاب ديوان الخلافة وما فى معناه من متعلّقاتها ، يقال فيه : « الدِّيوانُ العَزِيزُ النبَوِىّ » ونحو ذلك . ويقع أيضا فى ألقاب وُلَاة العهد بالخِلَافة ؛ وربما وقع فى ألقاب الأَشْراف . وهو نسبة إلىٰ النبوة لأنتسابِ الخلافة العَبَّاسيَّة إلىٰ العَبَّاس عمِّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، وآنتساب الأشراف إلىٰ آبنته فاطمةَ رضى الله عنها .

(النَّسِيب) من ألقاب الشُّرَفاء أبناءِ فاطمـةَ من علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما، والمراد العَرِيق فى النَّسَب، لُقِّبوا بذلك لأنهم أعرقُ الناس نسبًا، لانتسابهم إلىٰ بنتِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم . ومن خصائصه صلّى الله عليه وسلم جوازُ نسبة أولاد بَناتِهِ إليه بخلاف غيره، علىٰ ما هو مقرّر فى كُتُب الفقه . وقد أوضحت ذلك فى كتابى المسمّى بـ«الغُيُوث الهوامع» فى شرح جامع المختَصَرات ومختَصَرِ الجَوَامع» فى أوائل النكاح؛ والنَّسِيبىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(النَّصِـير) من ألقاب أرباب السيوف للمجلس السامىّ بالياء فمن دُونَه . وهو بمعنى الناصر إلا أنه أبلَغ منه، لأن صيغة فَعِيل أبلغُ من صِيغةِ فاعِلٍ علىٰ ما تقـدّم؛ والنَّصِيرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة فى نَصْره .

(النِّظَامِىّ) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، وهو نسبة إلىٰ النِّظَام وهو صورة الآجتماع والآلتئام ، ومنه نَظْم اللُّؤْلُؤِ وغيره، والمراد أنه يكون به آنتظامُ الأمور وآلتئامُها ، وحينئذ فيكون النسَب فيه علىٰ حقيقته ، لأنه نسـبة إلىٰ غير صـاحب اللَّقَب؛ ويجوز أن تكون النسبة فيه للمبـالَغَة علىٰ معنى أن صاحب اللقب قد جعل[1] عن النظام تجوّزا؛ ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(النُّوَيْنُ) بضم النون وفتح الواو وسكون اليـاء المثناة تحت ونون فى الآخر من ألقاب كُفَّال الممالك بالممـالك القانِيَّة : كنائب السَّلْطنة ، وأُمَراء الأُلُوس، والوزير ونحوهم فيما كان عليه مملكةُ إيران إلىٰ آخرِ مملكةِ أبى سـعيد؛ والنُّوَيْنِىّ نسـبةٌ إليه للمبالغة . قال فى "التثقيف" : وهو بمثابة الكافِلىّ فى ألقاب النُّوّاب . قال : وهو نعت يستعمل دائمـا لأهل تلك البلاد ولا يستعملون الكافلىّ أصلا .

---

(١) أى أطلق عليه النظام .

حرف الهـــاء

(الهُمَام) من ألقاب أرباب السُّيوف ، والمراد الشُّجاعُ ؛ والهُمَامِيُّ نسبة إليه للمبالغة .

حرف الـــواو

(الوالِدِيّ) من ألقاب المُسِنِّين من الأكابر ، وهو نسبة إلىٰ الوالد ، وكأنه جعله والدًا له فتكون النسبةُ إليه علىٰ حقيقة النسب ، لأن النسبة فيه ليست[1] إلىٰ صاحب اللقبِ نفســه ، وربمـا قُصِد بذلك الوالد حقيقة ؛ وأكثرُ ما يقع هـذا اللقب فى المكاتَبَات .

(الوَرِع) من ألقاب الصُّوفيَّة واهل الصلاح ، وربمـا لُقِّب به أربابُ السيوف والاقلام أيضا إذا آتصفوا بذلك ؛ والمراد مَنْ يتنَزَّه عن الوقوع فى الشُّبُهات . وهو فى اللغــة التقِىّ ، يقال منه وَرِع يَرِع بكسر الراء فيهما وَرَعا فهو وَرِع ؛ والوَرَعِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الوَزيرىّ) من الألقاب الخاصة بالوزراء من أرباب السيوف والأقلام . وهو نســبة إلىٰ الوزير ، وقد تقــدّم معناه وآشــتقاقُهُ فى الكلام علىٰ ألقــاب أرباب الوظائف .

(الوَلَدِىُّ) من ألقاب الأحداث من الرؤساء ، وهو نسبة إلىٰ الولد ، كأنه جعله وَلَدا له ، وربمـا وقع علىٰ الوَلَد حقيقــة ؛ وأكثر ما يقَعُ فى المكاتبات كما تقــدّم فى الوالِدِىّ .

---

(١) فى الاصل تنسب وهو تصحيف ظاهر .

حرف اللام ألف

(الألمَعِيُّ) من ألقاب الأذْكِياء . قال الجوهرىّ : ومعناه الذَّكِىُّ المتوقِّد .

حرف اليــاء

(اليَمِينِىّ) من ألقاب الدَّوَادَار وكاتِبِ السرِّ والحاجبِ . قال فى "عرف التعريف" ولا يقال لغيرهم ، وهو نسبة إلى اليمين كأنه يمِينُ السلطان الذى يَتناولُ به الأشياءَ ، وإلا فمَجْلِس كاتب السرّ بدار العَدْل عن يسار السلطان ، والدَّوَادارُ والحَاجِبُ قائِمـان أمامَه .

الضـــــــرب الثـانى

(المركَّبَـــةُ المعــبَّر عنهـا فى ٱصطلاح الكُتَّاب بالنُّعوت)

(وهذه جملة منها مرتَّبة علىٰ حروف المعجم أيضا)

حرف الألف

(أَتابك العَسَـاكر) من نُعُوت الأميرِ الأَتابك ومَنْ فى معناه كالنـائب الكافل ومَنْ فى رُتْبته . وذكر فى "عرف التعريف" أنه ممـا يختصُّ بالنـائب الكافل . وقد تقـدّم ذكرُ معنَى الأتابك فى الكلام علىٰ الألقـاب الأصول ، والعَسَاكر جمعُ عَسْكَر وهو الجَيْش .

(إسْكَنْدَر الزَّمانِ) من الألقاب السلطانية ، والمراد بالإسْكَنْدر هنا الإسكندر ٱبن فيلبس اليُونَانىّ ، وهو الذى يؤرَّخ بظهوره علىٰ الفُرْس وغلبتِه إيَّاهم علىٰ ماسيأتى فى الكلام علىٰ التاريخ فى أواخر هذه المقالة .

كانَ مِلكا عظيما مَلَكَ الشأم، و بيتَ المَقْدِس، والعِرَاقَيْنِ، والسِّنْدَ، والهِنْد، و بلادَ الصِّين، والتُّبَّت، وخُرَاسانَ، و بلادَ التُّرْك؛ وذَلَّتْ له سائرُ الملوك؛ وهاداه أهلُ الغرب، والأَنْدَلُس، والسُّودان؛ وهو الذى بنىٰ مدينةَ الإسْكَنْدرِيَّة، و يقال: إنه ذُو القَرْنَيْن الذى ذكره الله تعالىٰ فى كتابه العزيز. قال المؤيَّد صاحب حماة فى تاريخه: والصحيح أن ذا القرنين مَلِكٌ عظيم كان قبل الإسكَنْدَر بزمن طويل .

(أَثِيرُ الإمَام) من ألقاب أرباب الأقلام غالبًا، وهو أَثِيرٌ بمعنىٰ مَأْثُور، والمراد أن الإمام يُؤْثِره علىٰ غيره فيقدّمُه عليه .

(اعْتِضادُ صَنادِيدِ الزمان) من ألقاب أرباب السُّيوف؛ وقد يكتب به لبعض الملوك. والاعتضاد الاستعانةُ، يقال: اعتضَدْتُ بفلانٍ إذا استعَنْت به، والصَّنادِيد جمع صِنْدِيد وهو الشُّجاع .

(أَكْرَمُ نُجَباءِ الأَبْناءِ فى العالَمِين) من ألقاب الرؤساء من أرباب الأقلام، وأكْرَمُ أفعلُ التفضيلِ من الكَرَم خلافِ اللُّؤم، والنُّجباء جمع نَجِيب وهو الكريم .

(أجمـلُ البُلَغاء فى العالَمِين) من ألقاب أرباب البَلَاغة من الكُتَّاب وغيرهم، ومعناه ظاهرٌ .

(الذَّابُّ عن حَوْزة المؤمنين) من ألقـاب ملوك المغرب، و يصلُحُ لكل مَلِكٍ مسـلم يقوم بفَرْض الجهاد . والذابُّ الدافعُ، والحَوْزَةُ بفتح الحـاء المهملة والزاى المعجمة الناحيةُ .

(القائمُ فى مَصالح المسلمين) من القاب ملوك المغرب . ذكر فى "التعريف" أنه يُكْتَب به إلىٰ صاحب تُونُس، و يصلُح لكلِ متَّصف بذلك من ملوك الإسلام، ومعناه ظاهر .

(المُجاهِدُ عن الدِّين) من ألقاب ملوك المغرب، ومعناه ظاهر أيضا .

(المعَفِّي مُلُوكَ آلِ سَاسَان، وبَقَايَا فراسياب وخَاقَان) من ألقاب عُظَماء ملوك الأعاجم. وقد ذكره فى "التعريف" فى ألقاب صاحب الهِنْد . والمعَفِّي بتشديد الفاء المكسورة الماحِي للأَثَر، يقال عَفَّت الريحُ كذا بالتشديد إذا درَسَتْه ومحَتْ أَثَره، وشُدِّد للمبالغة .

وآل سَاسَانُ ملوك الأَكاسرة وهم الطبقةُ الرابعةُ من ملوك الفُرْس الساسانيَّة إلىٰ أن غَلَبهم الإسلام وآنتزع الملكَ من أيديهم ، يُنْسَبُون إلىٰ جدّهم ساسانَ : وهو ساسانُ بن أردشير بَهْمَنْ بن كيبستاسف من ملوك الطبقة الثانية فيهم ، علىٰ ما سيأتى بيانُه فى الكلام علىٰ مكاتبة ملوك إيران، فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

وفرَاسياب بفاء فى أوّله ثم سين مهملة بعدها ياء ثم ألف وباء موحدة ملِكٌ عظيم من ملوك الترك، ويقال إن أصله من أبناء ملوك الفُرْس،وهو فراسياب بن طُوج آبن أفريدون ، من الطبقة الأولىٰ من ملوك الفُرْس ، وإن آبن عمه منوشهر غلب عليه بعد أن قتل أباه طُوجا ففرّ إلىٰ بلاد الترك وتزوّج منهم ، وآنتهتْ به الحال إلىٰ أن ملكهم وعَظُم ملكه فيهم .

وخاقانُ بخاء معجمة وقاف ونون ملِكٌ من ملوك الترك أيضا كان فى زمن كسرىٰ أنُوشروان فيما يقتضيه كلام أبى هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" حيث ذكر أنه كان بينه وبينه حرب .

(المَوَاقِف المقدّسة) من ألقاب الخُلَفاء فى مخاطباتهم فى المكاتبات ونحوها، والمراد الأماكنُ التى يقف فيها الخليفةُ ، كُنِيَ بها عن الخليفة تنويهاً عن التصريح بذكره، والمقدّسة المطَهَّرة، والمراد طهارتها عن الأدناس المعنويَّة .

(إمامُ الأئمةِ) من ألقاب العلماء ، وربما قيل «إمامُ الأئمة فى العالَمين» .

(إمام البُلَغاء) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب ومَنْ فى معناهم

(إمام المتكلِّمين) من ألقاب العلماء، وهو بأهل المعقول أَلْيَقُ لإطلاق علم الكلام علىٰ أصول الدِّين ، وإنما سمِّىَ بذلك لأنه لما وقع القولُ بخَلْق القرءان فى صَدْر الإسلام ممن وقَع كثُر الكلامُ والخوضُ فى ذلك فأُطْلِق علىٰ أصول الدين علم الكلام وبقِىَ عَلَما عليه .

(أوْحَدُ الأشراف) من ألقاب الشُّرَفاء، وربما قيل «أوْحدُ الأشراف فى العالَمين» أو «أوحد الاشرافِ الطاهِرين» أو «أوحدُ الأشرافِ الماجِدين» ونحو ذلك .

(أوحدُ الأصحابِ) من ألقاب الوُزراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم ككاتب السِّرّ ونحوه وإن كان الصاحبُ يختصُّ بالوزير فى عُرْف [كُتَّاب الديار المصرية] (١) علىٰ ما تقدّم .

(أوْحَدُ الأكابِر) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجكيَّة ، وربما كُتِب به لغيرهم من الرؤساء ، وربما قيل «أوحدُ الأكابر فى العالَمين» .

(أوحَدُ الأُمَّة) من ألقاب العلماء، وربما أُطْلِق علىٰ غيرهم .

(أوحَدُ الأَمَناء فى العالمين) من ألقاب الكُتَّاب ، والأمناءُ جمعُ أمينٍ وهو خلاف الخائن .

(أوحَدُ الأئمة العلماءِ فى العالَمين) من ألقاب العلماء، وربما ٱقتُصِر علىٰ أوحد العلماء .

---

(١) بياض بالاصول والتصحيح من لقب الصاحب المتقدم فى الالقاب المفردة .

(أوحد البُلَغاء) من ألقاب أرباب الأقلام، وربما قيل «أوحدُ البلَغاء فى العالَمين» ونحو ذلك والبُلَغاء جمعُ بَلِيغ وقد تقدّم معناه .

(أوْحَدُ الرُّؤَساء) وربما قيل «أوحدُ الرُّؤَساء فى العالمين» أو «أوْحَدُ الرؤساء فى الأنام» ونحو ذلك، ومعناه ظاهر .

(أوحدُ الحُفَّاظ) من ألقاب المحدِّثين، وربما قيل «أوحدُ الحُفَّاظ فى العالَمين» ونحو ذلك .

(أوْحدُ الخُطَباء فى العالمين) من ألقاب الخُطَباء .

(أوحدُ العلماء الأعْلام) من ألقاب العلماء، وربما قيل «أوحدُ العلماء فى العالَمين» .

(أوحدُ الفُضَلاء) من ألقاب العلماء، وربما ٱستُعْمِل فى غيرهم من أرباب الأقلام، وربما قيل «أوحدُ الفُضَلاء المُفِيدين» أو «أوْحدُ الفضَلاءِ العارِفين» ونحو ذلك .

(أوحدُ الكُبَراء) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة، ويجوز أن يُستَعْمَلَ فى غيرهم .

(أوحدُ الكُتَّاب) من ألقاب الكُتَّاب سواء كُتَّاب الإنشاء وغيرهم .

(أوحد المتصَرِّفين) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم .

(أوْحدُ المُجَاهِدين) من ألقاب أرباب السُّيوف .

(أوحدُ المحقِّقين) من ألقاب العلماء .

(أوحد المتكَلِّمين) من ألقاب العلماء، وهو بعلماء المَعْقُول أنسَبُ .

(أوحدُ المُفِيدين) من ألقاب العلماء .

(أوحد المُلُوكِ والسلاطين) من الألقاب السلطانية .

(أوحد الوُعَّاظ) من ألقاب أهل التذكير والوَعْظ .

(أوحدُ الوَقْت) من ألقـاب أرباب الأقلام ، وربمـا قيـل «أوحدُ الوقْت والأَوَان» والوقت معروف، والأَوَان الحِينُ، ويجمع علىٰ آوِنَةٍ مثل زَمانٍ وأزْمِنَةٍ .

حرف البـاء

(بركَةُ الأَنَام) من ألقاب الصُّلَحاء، وقد تُستَعْمَل للعلماء أيضا .

(بركَةُ الدَّوْلة) من ألقاب الصُّلَحاء أيضا، وقد يقال «بركة الدُّوَل» علىٰ الجمع ، وربمـا كُتِب به لأرباب الأقلام من العلماء وغيرهم. والمرادُ بالدولة المملكةُ القائمةُ، وأصلها من الدَّوْلة فى الحرب وهى النَّصْر والغَلَبَةُ .

(بركَةُ المسلمين) من ألقاب الصُّلَحاء، وقد تُستَعْمَل لأهل العلم أيضا .

(بقِيَّة الأكابِرِ) من ألقـاب بَقايَا البيوتِ الرئيسةِ من أهـل الأقلام وغيرهم ، وربمـا قيل «بقِيَّة الأكابِرِ فى العالَمين» .

(بقِيَّـة البيتِ النَّبوِىّ) من ألقـاب الأشراف ، وبه يُكْتَب إلىٰ إمام الزيدية باليمن .

(بقِيَّة السَّلَف) من ألقاب العلماء والصُّلَحاء، وربمـا قيل «بقية السَّلَف الصالِح» أو «بقِيَّة السَّلفِ الكِرَام» والمراد بالسَّلَفِ الآباء المتقدّمون، أخْذًا من قولهم سَلَفَ إذا مضىٰ، وربمـا أُطْلِق علىٰ مَنْ تقدّم فى صَدْر الإسلام من الصَّحابة والتابعين .

(بقِيَّة السُّلالةِ الطاهِرةِ) من ألقـاب الأشراف، وقد يقال فيه بقِيَّـة السُّلَالة الطاهِرة الزَّكِيَّة،وربمـا أُطْلِق علىٰ غيرهم. وبذلك يُكْتَب لصاحب تُونُس لآدِّعائه أنه من نَسْل أمير المؤمنين عمرَ بن الخطَّاب رضى الله عنه . والسُّـلَالة فى الأصـل ما آسْتُلَّ من الشيء، والمراد هنا النُّطْفةُ لأنها مستَلَّة من الإنسان.

(بقيّةُ الملوكِ والسلاطينِ) من ألقاب مَنْ له سلَفٌ فى المُلْك، كصاحب حِصْنِ كَيْفَا من بَقايَا الملوك الأيوبِيَّة .

(بقيّة الأصحابِ) من ألقاب الوُزَراء أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم .

(بقِيّة شَجرةِ الفَخَار) من ألقاب ذَوِى الأصالة العَرِيقين فى النَّسَب، وبه يُكْتَب لآبن الأحمر صاحب الأندلُس .

(بَهَاء الأعيان) من ألقاب أرباب الأقلام، والبَهَاء الحُسْن، والأعيانُ جَمْع عين تجمَعُ علىٰ أعيُنٍ وعُيُونٍ وأعْيانٍ، والمراد هنا الخِيَارُ، إذ عينُ كلِّ شيءٍ خِيارُه .

(بَهَاءُ الأنَام) من ألقاب أرباب السيوف غالِبًا، وربما أُطْلِق علىٰ غيرهم؛ والأنَامُ الخَلْق .

(بَهاءُ العِصابة العَلَوِيَّة) من ألقاب الأشراف، وبه يُكْتَب لأَميرَىْ مكةَ والمدينة المُشَرَّفتين، والعِصَابة بالكسر الجماعةُ من الناس وتجمَعُ علىٰ عصائِبَ . والعَلَوِيَّة نسبة إلىٰ أمير المؤمنينَ علىِّ بن أبى طالب رضى الله عنه

حرف التاء المثناة من فوقُ

(تاجُ العلماء والحُكّام) من ألقاب القُضاة، والتاجُ مايُوضَع علىٰ الرأس وهو معروف .

(تاجُ الأُمَناء) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة، ويصلُح لكُتَّاب الأموال أيضا .

(تاج المتصَرِّفين) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم .

(تاج الفُضَلاء) من ألقاب أرباب الأقلام . ورأيتُ فى بعض الدَّساتيرِ الشامية «تاجُ الفُضَلاء المُنْشِئِين» وهو مناسبٌ لمن هو فى أوّل نَشْأته وآبتداءِ رِيَاسته، وحَدَاثة سِنّه .

(تاج المِـلَّة) من الألقاب التى يشترِك فيهـا أربابُ السيوف والأقلام جميعًا . والمِلَّة فى أصل اللغة الدينُ والشَّرِيعة ، والمراد هنا مِلَّةُ الإسلام، والألفُ واللامُ فيها للعهد الذِّهْنىّ .

حرف الثـاء المثلثة

(ثِقَة الدُّوَل) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكِيَّة ، وربما قيل «ثِقةُ الدولتيْنِ» والثِّقةُ فى اللغة الأَمِينُ وخُصَّ ذلك بالتُّجّار لتردّدهم فى المَمَالك ، ويحسُـنُ أن يلَقَّب به المتردِّدُون فى الرسائل بين المُلُوك .

حرف الجـــيم

(جامعُ كلمةِ الإيمـان) من الألقاب السلطانية .

(جامعُ طُرُق الواصفين) من ألقـاب الصُّوفيَّة وأهل الصَّـلَاح ، وربمـا قيل «جامع الطُّرُق» ويصلُحُ أن يكون من ألقاب العلماء أيضا .

(جمالُ الإسْلام) من ألقاب العلماء، وربمـا قيل جمال الأكابر من ألقاب التجّار الخَوَاجَكِيَّة، وقد يستعمَلُ لأرباب الأقلام، والجَمَـال فى اللغة الحُسْن .

(جَمَال الذُّرِّية) والمراد ذُرِّيَّة النبىّ صلى الله عليه وسلم لأن الذرِّيَّةَ تشمل أولاد البنات ، وقد عدّ الله تعـالىٰ عيسىٰ عليه السلام [من ذُرِّيَّة إبراهيم عليه السـلام](1) وهو آبن بِنْته .

(جَمَالُ الصُّدُور) من ألقاب أربابِ الأقلامِ ، والصُّـدُور جمع صَدْر ، والمراد صُدُور المجَالِس .

---

(١) الزيادة لتتميم الكلام وسقوطها سهو من الناسخ .

(جمالُ الأئمة) من ألقاب العلماء، وربما قيل «جَمالُ الأئمة العارِفين» .

(جَمَال البارِعِين) من ألقاب أربابِ الأقلام، والبارِعِين جمع بارع وهو الناهِضُ .

(جَمَال البُلَغاء) من ألقاب كُتَّاب الإنشاء ونحوهم .

(جَمَالُ الطائفةِ الهاشِميَّة) من ألقاب الشُّرَفاء، والطائفةُ فى أصل اللغة ٱسمٌ للقِطْعة من الشىء . قال ٱبن عباس وتُطْلَق علىٰ الواحد فما فوقه ، والهاشِمِيَّة نسبةٌ إلىٰ هاشم : وهو هاشِمُ بنُ عبدِ مَنَاف جدُّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم .

(جَمَال العِتْرةِ الطاهرة) من ألقاب الشُّرَفاء أيضا، ورُبَّما ٱقتُصِر علىٰ جمال العِتْرة فقط . وعِتْرة الرجل نَسْلُه وأهلُه الأَدْنَوْن، والمراد عِترةُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم .

(جمالُ العَصَبة الفاطِميَّة) من ألقاب الشُّرَفاء أيضا، والعَصَبة بفتح العين والصاد واحدة العَصَبات ، وهى فى أصل اللغة البَنُونَ والقرابةُ للأبِ . قال الجوهرىّ : سُمُّوا عَصَبةً لأنهم عَصَبوا بالشخص بمعنىٰ أنهم أحاطُوا به : فالأمُّ طَرَف، والأَبُ طَرَف ، والعَمُّ جانب ، والأخُ جانِبٌ . والمراد هنا أبناءُ فاطمةَ رضى الله عنها وهم أحدُ أفراد العَصَبة . ولا يجوز أن يقال العُصْبة بضم العين وإسكان الصاد : لأن المراد بذلك الرجالُ ما بين العَشْرة والأربعين كما قاله الجوهرىّ . وبَنُو فاطمة رضى الله عنها قد أَرْبَوْا عن العدد فى الشَّرْق والغَرْب .

(جَمالُ العلماء) من ألقاب أهل العلم .

(جَمالُ الفُضَلاء) من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكُتَّاب، وربما قيل «جمالُ الفُضَلاء المُفِيدِين» ونحو ذلك ويختصّ حينئذ بالعلماء .

(جَمالُ الكُتَّاب) من ألقاب كُتَّاب الإنشاء وغيرهم من الكُتَّاب .

(جمالُ المَمْلَكة) من ألقاب الكُتَّاب .

(جَمَالُ الوَرِعِينَ) من ألقاب الصُّوفية وأهلِ الصَّلاَح .

(جمالُ أهل الإفْتاء) من ألقاب أكابر العُلَماء .

(جَلاَل الإســلام) من ألقاب أرباب الأقلام، ويصْلُح أن يكون لَقَباً لبعض الملوك، وبه يكْتَب لإمام الزَّيدِيَّة باليمن، وربما قيل «جَلاَل الإسلام والمسلمين» .

(جَلاَلُ الأصْحاب) من ألقاب الوُزراء ومَنْ فى معناهم .

(جَلاَلُ الأكابر) من ألقاب أرباب الأقلام، وبه يُكْتَب لناظر الخاصِّ .

(جَلاَلُ الحُكَّام) من ألقاب أكابر القُضاة ، والجَلاَل فى اللغة العَظَمة .

(جَلاَل العِتْرة الطاهرةِ) من ألقاب الشرفاء، وبه يُكْتَب لأميرىْ مكةَ والمدينة المشرَّفتين .

(جَلاَل العُلَماء فى العالَمِين) من ألقاب أهل العلم ، وربمـا قيل «جلال العُلَمـاء العامِلين» ونحو ذلك .

(جلالُ الكُبَراء) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام .

(جلال الأُسْرة الزاهِرَة) من ألقاب الأشراف . والأُسْرة بضم الهمزة الرَّهْطُ ، والمراد رَهْط بنى هاشِمٍ ، والزاهِرة المُضيئة ،وبه سمِّى الكَوْكَب المعروف بالزُّهَرة .

(جَهْبَذ الحُذَّاق) من ألقاب الكُتَّاب ، وربمـا قيل «جَهْبَذُ الحُذَّاق المتصرِّفين» والجَهْبَـذُ (١) بفتح الجيم وإسكان الهاء وفتح الموحدة النَّقَّاد للذَّهَب والفِضَّة ، ولذلك يقال للصيرفِىِّ جَهْبَذ ، والمرادهنا أنه ينقُدُ الأمور فيستخرج جَيِّدها من رديئهـا كما يفعل الصــيرَفِى .

(١) ضبط فى القاموس الفيروز باذى بالكسر ثم قال شارحه كز برج .

حرف الحـاء المهملة

(حاكِمُ الحُكَّام) من ألقاب قُضاة القُضاة .

(حاكِمُ أمورِ وُلاَة الزمان) من ألقـاب أرباب السُّـيُوف، وربمـا كُتِب به لبعض الملوك .

(حافِظُ الأسْرار) من ألقاب كاتِبِ السِّرّ .

(حُجَّة الأمة) من ألقاب قُضاة القُضاة وأكابر العلماء، والحُجَّة فى اللغـة البُرْهان ومنه قوله تعـالى : ﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ والأُمَّة فى أصل اللغة الجماعةُ، والمرادُ هنا أُمَّة النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، والمعنىٰ أنه تَقُوم به الحجةُ لأهل الإسلام علىٰ غيرهم .

(حُجَّة الأئمة) من ألقاب أكابر العلماء ؛ والأئِمةُ جمع إمَام، وقد تقدّم أنه الذى يُقْتدىٰ به .

(حُجَّة البُلَغاء) من ألقاب أرباب الأقلام، وهو بالكُتَّاب أمَسُّ .

(حُجَّة العَرَب) من ألقاب النُّحاة واللُّغَويين ومَنْ فى معناهم، كأنهم يحتَجُّون به لُلغتِهِـــم .

(حُجَّة المَذَاهب) من ألقاب اكابر العلماء ، وربمـا قيل «حُجَّة المَذْهَب» إذا أُريد مَذْهَبُه خاصَّة، وهو دون الأوّل .

(حُجَّة المُفتِيين) من ألقاب أكابر العلماء ، والمراد بالمُفْتِين من هُمْ أهـلٌ للفَتْوىٰ فى الأحكام الشرعيَّة .

(حِرْز الإمام) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم من حَفَظة الأموال . والحِرْز فى اللغة الموضِعُ الحَصِين، والمراد بالإمَام السلطانُ ومَنْ فى معناه .

(حُسَامُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم . والحُسَام من أسماء السَّيْف ، سُمِّى بذلك أخذًا من الحَسْم وهو القَطْع .

(حَسَــنَةُ الأيَّام) من ألقـاب أكابر أرباب الأقلام من الوُزَراء والقُضاة ومَنْ فى معناهم . والحَسَــنة خِلافُ السيئة ، والمراد أنَّ الأيامَ أحسنَتْ بالامتنان به . وقد ذكر القاضى «شهابُ الدين بنُ فضل الله» فى بعض دساتِيرِهِ أنه يصلح لكل مَنْ له سَلَف فى الكِتَابة، وهو بعيد المَأخَذ .

(حَكَم المُلُوكِ والسلاطين) من ألقاب قُضاة القُضاة، والحَكَم بمعنى الحاكِم .

حرف الخـاء المعجمة

(خادِمُ الحَرَمين الشريفَيْنِ) من الألقاب السلطانية، والمرادُ حَرمُ مكةَ المشرّفةِ، والمدينةِ النبويّةِ الشريفةِ علىٰ ساكنهـا أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام .

(خالِصَةُ الدولة) من ألقاب الوزراء ، والخالِصةُ فى اللغة بمعنى الخاصَّة . يقال هذا لى خالِصَــة يعنى خاصَّةً . ومنه قوله تعالى : ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعليه [حمل] قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ .

(خالصــةُ المُــلوك والسلاطين) مـن ألقـاب أرباب الأقــلام . قال فى "عُرْف التعريف" : وهو فى حَقِّ مَنْ لم يكن حاكمًا فى مَقـام حَكَم المــلوك والسلاطين لمن هو حاكِمٌ .

(خالِصةُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب الأقلام .

(خالِصةُ الإمام) من ألقاب الصُّوفيَّة، وربما جعل من ألقاب العلماء أيضا، والمراد بالإمام الخليفةُ أو السلطانُ .

(خالِصةُ سَلَف الأنصار) من الألقاب التى يُكْتَب بها لابن الأحمرِ صاحب الأندَلُس : لأنه يَذْكُر أنه من ذرِّية «سَعْد بن عُبَادة» الأنصارىّ رضى الله عنه، ويصْلُح لكل مَنْ وافقه فى ذلك ، وكان الأحسنُ أن يقال خُلاصة بدل خالِصة ، لما تقدّم من أن المراد بالخالِصة الخاصَّة . والمراد بالأنصارِ أنصارُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم وهم الأَوْس والخَزْرَج الذين هاجَر إليهم النبىّ صلّى الله عليه وسلم بالمدينة.

(خَطِيب الخُطَباء) من ألقاب أكابر الخُطَباء، وربما كُتِب به لقُضاة القُضاة، إذا أُضِيف له خَطَابة جليلة، كخَطَابة جامع القلعة بالديار المصرية ، وخَطَابة الجامع الأَموىّ بِدِمَشْق .

(خَلَف الأولياء) من ألقاب أولاد الصالحين .

(خَلِيفة الأئمة) من ألقاب الشِّيعة، والمراد مَنْ يعتقدونه من الأئمة المَعْصُومين كالإمامية ونحوهم . وبه يُكْتَب لإمام الزَيْدِيَّة باليَمَن .

(خَلِيلُ أمير المؤمنين) من ألقاب أولاد السلطان ، وربما كُتِب به لبعض الملوك، والخَلِيلُ بمعنى الصَّدِيق .

(خُلَاصة الخِلافة المعَظَّمة) من ألقاب بعض الملوك ، والخُلَاصة الذى خَلَص من الثُّفْل ونحوه . ويقال فيه خِلَاص أيضا بغير هاء .

(خُلَاصة سَلَف القوم) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصَّلَاح ، والقوم يختَصُّ فى اللُّغة بالرجال دُونَ النساء قال تعالى : ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ ثم قال : ﴿ولا نساءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ .

(خِيرةُ الإسْلام) من ألقاب أهل الصَّلاح فيما ذكره في "عُرْف التعريف" : ويصْلُح لأهل العلم أيضا . والخِيرةُ الاسمُ من قولك اختار فلانٌ فلاناً، والمراد أنَّ الإسلامَ اختاره .

حرف الدال المهملة

(دليلُ المُرِيدين إلىٰ أوضح الطَّرائق) من ألقاب مشايخ الصُّوفيَّة، والمراد بالمُرِيدين طُلَّابُ الطَّرِيق إلىٰ الله تعالىٰ .

(داعِي الدُّعاة بالبراهين الظاهِرةِ إلىٰ استِعْلام الحَقَائق) من ألقاب العلماء .

حرف الذال المعجمة

(ذُخْرُ الإسلامِ والمسلمين) من ألقاب المُلُوك، وبه يُكْتَب لصاحب تُونُس وملك التَّكْرور . والذُّخْر في اللغة مصدر ذَخَرت الشيءَ أذْخَرُه بفتح الخاء إذا جعلته ذخيرةً .

(ذُخْر الأُمَّة) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(ذُخْر الدَّوْلة) من ألقاب أرباب السيوف، وقد يقع في ألقاب الصُّلَحاء والعلماء .

(ذُخْر الغُزاةِ والمجاهِدِين) من ألقاب أرباب السيوف أيضا .

(ذُخْر الطالِبِين) من ألقاب الصُّلَحاء والعلماء، والمراد طالِبو الوصولِ إلىٰ الحق أو نحو ذلك .

(ذُخْر المسلمين) من ألقاب الملوك، وبه يُكْتَب لإمام الزيديَّة باليمن فيما ذكره في "التعريف" .

(ذُخْر المِلَّة) من ألقاب أرباب السيوف، وقد تقدّم معنىٰ المِلَّة .

(ذُخْر المَمَالك) من ألقاب بعض الملوك . وربّما قيل ذُخْر المملكة .

(ذُخْر الموحِّدين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائبِ الكافِلِ ونحوه ، وجعله فى "عرف التعريف" خاصًّا بالكافل دُونَ غيره .

(ذُخْر أمير المؤمنين) من ألقاب الملوك، وهو دُونَ خَليلِ أمير المؤمنين .

حرف الراء المهملة

(رَأْسُ البلغاء) من ألقاب أكابر كُتَّاب الإنشاء ككاتب السِّرّ ومن يجْرِى مجْراه .

(رأْسُ الصُّدور) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام فى الجملة من أهل العلم والكُتَّاب ومَنْ يجرِى مَجْراهم . والمراد رأسُ صدورِ المجالس .

(رأسُ العَلْياء) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام من العلماء والوُزَراء .ومَنْ فى معناهم، ويصلح لكلِّ علِيّ القَدْر فى الجملة، وبه يُكْتَب إلىٰ إمام الزَّيْدِيَّة باليمن .

(رُحْلة الحُفَّاظ) من ألقاب المُحَدِّثين، وقد تقدّم أن الرُّحْلة بضم الراء ما يُرحَلُ إليه ، والحُفَّاظ جمع حافِظٍ، والمراد حِفْظُ الحديث.

(رُحْلة القاصدينَ) من ألقاب كِبَار أرباب الأقلام ، وهو بأهل الكَرَم والجُود أخَصُّ، والمراد مَنْ يُقْصَد بالتَّرحال إليه .

(رُحْلة المُحَصِّلين) من ألقاب العلمـاء ، والمراد مَنْ يُرْحَل إليـه لتحصيل العلم بالأخْذ عنـه .

(رُحْلة الوقت) من ألقاب العلمـاء والمراد من آنفرد فى الوقت بالرحيل اليه لأخذ العلْم عنه .

(رَضِىّ الدولة) من ألقاب الكُتّاب، والمراد من يُرْضِيه أعيانُ الدولة بالتقريب . ثم الظاهر أنه بكسر الضاد بمعنى مَرْضِىّ عند أعيان أهل الدولة . ويجوز أن يكون بفتح الضاد علىٰ جعله هو نفس الرِّضا تجوّزا .

(رَضِىّ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب الأقلام . والكلامُ فيه كالكلام فى الذى قبله .

(رُكْنُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف . وبه كان يُكْتَب للنائب الكافل علىٰ ماهو مذكور فى "التعريف" والرُّكْن واحد الأركان وهو معروف .

(ركن الأُمّة) من ألقاب الملوك، وبه يُكْتَب لملك التُّكْرور .

(ركن الملوك والسلاطين) من الألقاب الملوكيّة وما فى معنىٰ ذلك من أرباب السيوف . ونقل فى "التثقيف" أنه كُتِب به لبعض مشايخ التصوّف ثم أنكره وقال : الأولىٰ أن يكون بَدَله (بركةُ الملوك والسلاطين) وما ذكره واضح . علىٰ أنه فى "عرف التعريف" قد أورده فى ألقاب الصلحاء، وكأنهم راعَوْا فى ذلك أنه رُكْن لهم من حيث البركة والدعاء إلا أن الأوّل أظهرُ .

(رُكْن الأولياء) من ألقاب أهل الصلاح علىٰ أن المراد أولياء الله تعالىٰ ويجوز أن يكون من ألقاب أرباب السيوف وارباب الأقلام أيضا علىٰ معنىٰ أن المراد أولياء الدولة .

(رَئِيس الكُبَرَاء) من ألقاب الوُزَراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم . وأهل الشأم يستعملونه فى أكابر أرباب الأقلام من[1] قُضاة القُضاة ونحوهم، وقد تقدّم المراد بالصاحب فى الكلام علىٰ الألقاب المفردة .

(١) أى فى حرف الصاد المهملة وهذه الجملة غير مناسبة لشرح هذا اللقب .

حرف الزاى المعجمة

(زَعيم الجُنُود) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف كالنائب الكافل، والزَّعيمُ الكَفِيل . والمراد هنا التكفُّل بالجنود والقيامُ بأمرها . ويجوز أن يكون بمعنى السيِّد، يُقال لسيِّد القومِ زَعِيمُهم ، والأوّل أليَقُ بالمقام ، والجُنُود جمع جُنْد وهم الأعوان علىٰ ما تقــدّم .

(زَعِيم الجُيُوش) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم، والجُيوش جمعُ جيش وهو العَسْكر .

(زَعِيم الموحِّدين) من ألقاب صاحب تُونُس علىٰ تخصيص الموَحِّدين ، والمراد بالموَحِّدين فيه أتباعُ المَهْدِى بن تُومَرْت الذين من بقاياهم ملُوكُ تُونُس ؛ كان المهدىُّ المذكور قد سمــاهم الموَحِّدين تعريضا بذَمِّ من كان قبــله ببلاد المَغْرِب ممن يدّعِى التجسيم علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مكاتبــة صاحب تُونُس فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ . ويجوز أن يراد بالموَحِّدين هنا عامةُ أهل الإيمــان ويكونَ المرادُ بالموَحِّدين جميعَ المؤمنين . ويصح وقوعُ هذا اللقب حينئذ علىٰ غير صاحب تُونُس من الملوك ونحوهم، ولذلك يُكْتَب به لملك التُّكْرور علىٰ ماذكره فى "التعريف" .

(زَعِيم المؤمنين) من الألقاب التي يُكتَب بها لإمام الزيْدِيَّة باليمن . ويصحُّ وُقُوعه علىٰ غيره من ملوك المسلمين أيضا كما فى « زعيم الموَحِّدين » إذا جعل عامًّا فى حق كل موحِّد علىٰ ماتقدّم بيانُه .

(زَعِيمُ جُيوشِ الموحِّدين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف ، كنائبِ السلطنة بحَلَبَ، وبه يُكْتَب لصاحب حصْن كَيْفا فيما ذكره فى "التعريف" .

(زَيْن الإسلامِ والمسلمين) من ألقـاب أرباب الأقلام ، والزَّيْــن فى اللغة نَقِيضُ الشَّيْن .

(زَيْن الأعْيان) من ألقـاب أرباب الأقلام ، والأعيانُ جمعُ عَيْن ، وقد تقدّم الكلام عليه .

(زَيْنُ الأكابر) من ألقاب التُّجَّار الخَواجَكِيَّة ومَنْ فى معناهم .

(زَيْنُ الأنامِ) من ألقاب صِغَار أرباب السيوف، وربمـا كُتِب به لغيرهم .

(زَيْنُ الأئمة) من ألقاب العلماء، وربمـا قيل «زين الأئمة العُلَماء» .

(زَيْنُ البُلَغاء) من ألقاب الكُتَّاب ونحوهم .

(زَيْنُ الحُكَّام) من ألقاب القضاة .

(زَيْنُ الذَّوائب الهـاشِميَّة) من ألقاب الشرفاء ، والذَّوائب بالذال المعجمة جمعُ ذُؤَابة بالهمز : وهى ما يُرْخىٰ من الشَّعَر . قال الجوهرىّ : وكان الأصل ذَآئِب [لأن الألف التى فى ذؤابة](١) كالألف التى فى رسالة حقها أن تُبْدَل منها همزة فى الجمع ، ولكنهم آستثقلوا أن تقـع ألفُ الجمع بين الهمزتين فأبدلوا من الأولىٰ واوا . وإنمـا آختَصّ هـذا اللقب بالشُّرفاء لأنهم من صميم عَرَب الحِجـاز، وعادة عرب الحجاز إرخاءُ الرجالِ الذَّوائب .

(زَيْنُ الزُّهَّاد) من ألقاب الصُّوفيَّة وأهل الصلاح .

(زَيْنُ العُبَّاد) من ألقاب أهل الصَّلاح أيضا .

(زَيْنُ العِتْرة الطاهرةِ) من ألقاب الشُّرفاء،وبه يُكْتَب لأميرَىْ مكةَ والمدينةِ. وقد تقدّم معنىٰ العِتْرة .

---

(١) الزيادة عن الصحاح للجوهرى .

(زين الكُتَّاب) من ألقاب كُتَّاب الإنشاء وغيره .

(زَيْن المجاهِدِين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما قيل «زَيْن الأمراء المجاهِدِين» وربما كُتِب به لبعض صِغار الملوك ، كصاحب دُنْقُلَة ونحوه .

(زَيْن المُنْشَئِين) رأيتـه فى بعض الدساتير الشاميَّة فى ألقاب الكُتَّاب ونحوهم ، وهو صالحُ لكل حَدَثٍ مترَقٍّ فى العلوّ .

حرف السين المهملة

(سِدَاد الثُّغُور) من ألقاب الوزراء ، وهو بكسر السين وتخفيف الدال بعدها ، بمعنى أنه الذى تُسَدّ به الثُّغور ، أخذًا من سِدَاد القارُورةِ وهو مايُسَدّ به فَمُها ، ومنه قول الشاعر :

أَضَاعُونِى وأَىّ فَتًى أضَاعُوا * لِيَوْمِ كَرِيهـةٍ وسِـدَادِ ثَغْرِ

ويُحْكَىٰ أنّ المأمون نَطَق بمثـل ذلك بفتح السين بحَضْرة النضر بن شُمَيْل فردّه عليـه فأمر له بثمانينَ ألفَ درهم ، فكان النضر يفتخر بذلك ويقول : أخذْتُ بإفادةِ حرفٍ واحد ثمانين ألفَ دِرْهم .

(سَفِير الأُمّة) من ألقاب الدَّوَادار وكاتب السرّ ، وقد تقدّم معنى السَّفِير .

(سَفِير الدولة) من ألقاب المذكورَيْن .

(سَفِير الممَالك) من ألقاب من تقدّم ، وربما قيل «سَفِير المملكة» .

(سَفِير المُلوك والسلاطين) كذلك .

(سُلطانُ الإسلام والمسلمين) من الألقاب السلطانية .

(سُلْطانُ الأَوَان) من الألقاب السلطانية الجليلة .

(سُلْطان البَسِيطة) من الألقاب السلطانية، والبَسِيطة الأرض أخذًا من البَسْطة وهى السَّعَة ومنه قيل : تَبَسَّط فلانٌ فى البلاد إذا سار فيها طُولا وعَرْضا .

(سلطان العَرَب والعَجَم والتُّرْك) من الألقاب السلطانية أيضا . وهو غير محرّر الوضع لأن العَجَم فى اللغــة يقع علىٰ مَنْ عدا العربَ فى الجمــلة ولا يختص بالفُرْس علىٰ ماهو المعروف بين العامة وهو مقصودُهم هنا ، فالتُّرْك من جملة العجم فكان يكْفِى أن يقال سلطان العَرَب والعَجَم ، وإنمــا حملهم علىٰ ذلك زيادةُ الإطراء والمَدْح .

(سَلِيل الأطْهار) من ألقاب الشُّرَفاء، والسَّلِيل الولَدُ، والمراد بالأطهار المبرَّءُون عن الأدناس .

(سَلِيل الأكابِر) من ألقاب أولاد الأكابر والرؤساء .

(سَليلُ الطيِّبين) من ألقاب أرباب الأقلام من ذَوِى الأصالة .

(سَليلُ الملوك والسلاطين) من ألقاب أولاد الملوك ومَنْ مضىٰ له سَلَف فى المُلْك .

(سيدُ الأمراء المقدَّمين) من ألقاب الأمراء مقدَّمى الألوف، فى الرتبة المتوسطة .

(سيِّد الأمراء فى العالَمين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم، وربمــا كُتِب به لبعض الملوك عن الأبواب السلطانية .

(ســيِّدُ الرؤساء فى العالَمين) مِــن ألقاب أكابر أصحــاب الأقلام ككاتب السرّ ونحوه .

(سيد العُلَماء والحُكَّام فى العالمين) من ألقاب القُضَاة .

(ســيدُ الكُبَراء فى العالمين) من ألقــاب أكابر أرباب الأقــلام كناظر الخاصّ ونحوه .

(سيد الوُزَراء فى العالمين) من الألقاب الخاصَّة بالوزراء .

(سيِّدُ أمراء العالمين) من ألقاب النُّوّاب المتوسطين .

(سَيْفُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما كُتِب به لبعض الملوك .

(سَيْفُ الحقِّ) من ألقاب العلماء وأهل النَّظَر .

(سيفُ الخِلافة) من الألقاب الملوكية ، وبه يُكْتَب لملك التَّكْرُور .

(سيفُ المناظِرين) من ألقاب العلماء ، والمراد بالمُنَاظِرين أهلُ البحثِ والجَدَل ، أخذًا من النَّظَر وهو الفِكْر المؤدّى إلى الدَّلِيل .

(سيْفُ النَّظَر) بمعناه أيضا .

(سيْفُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ، وهو فى الرُّتْبة المتوسطة .

(سيْفُ جماعة الشاكِرين) من الألقاب الخاصَّة بصاحب تُونُس ، وهذا اللَّقَب رأيته واردا فى "التثقيف" ولم أعْرِف له معنًى ؛ وسألتُ «قاضىَ القضاة ولىَّ الدين ٱبنَ خَلْدون» هل يَعْرِف لذلك معنًى؟ فقال : لا .

حرف الشين المعجمة

(شَرَفُ الأصفياء المقرَّبين) من ألقاب كِبار التُّجَّار الخَوَاجَكيَّة .

(شَرَفُ الدُّوَل) من ألقاب بعض الملوك ، ويصلُح لغير الملوك أيضا .

(شرَفُ الأمراءِ فى العالمين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما قيل شَرَفُ الأمراءِ الأشرافِ فى العالمين إذا كان شريفا ، أو شرفُ الأمراءِ العُرْبان فى العالمين

إذا كان غير أميرِ عرب[١]، وربمـا قيل «شَرفُ الأمراء المقدَّمين» إذا كان مُقـدَّم ألف، وقد يُقتَصَر علىٰ شَرَف الأمراء فقط .

(شَرفُ الرُّؤساء فى العالَمِين) من ألقـاب أكابر أرباب الأقلام كوزير الشأم ونحوه، وربمـا آقتُصِر علىٰ «شَرَف الرؤساء» ويكون من ألقـاب التجّار الخواجَكيَّة ونحوهـــم .

(شَرفُ الصُّلَحاء فى العالمين) من ألقاب أهل الصَّلَاح .

(شرف العلماء العامِلِين) من ألقـاب أكابر العلمـاء كقُضاة القُضاة ونحوهم، وربمـا قيل «شَرفُ العلماء فى العالَمِين» .

(شرفُ الكُتَّاب فى العالَمِين) من الألقاب الكِتَابية .

(شرف المُلُوك والسلاطين) من الألقاب المُلُوكية .

(شَمْس الأُفُق) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام، وهو بالعلماء ألْيَقُ، لأن بهم يحصُل النُّور كما يحصُـل بالشمس . وهو ما يُتَخَيَّل آنطباقُ السماء علىٰ الأرض بالنظر فى كل ناحيةٍ فيـه . وأصلُ الأفُق الناحيـةُ ومنه قيل للنَّواحِى آفاقٌ، وإنمـا خُصَّ الشمس هنا بالإضافة للأفق لأنها عنـد مَطْلَعها تكون فى النظر أعظَمَ صورةً .

(شَمْس الشَّريعة) من ألقاب أكابر العلماء، والمراد بالشريعة هنـا شريعةُ الإسلام، آستُعِيرت الشمس لها لمشابهتها لها فى النُّور .

(شمسُ العَصْر) من ألقاب العلماء والصُّلَحاء ونحوهم .

(شَمْسُ المَذَاهب) من ألقاب العلمـاء الأكابر، والمَـذَاهب جمع مَذْهَب وهو ما يَذْهَب إليه المجتهِدُ، وأصله فى اللغة لموضع الذَّهَاب .

---

(١) الظاهر أن لفظ غير زائد من الناسخ .

(شيخُ المَشَايخ) من ألقاب العلماء وأهل الصَّلَاح، وربما قيل « شيخ شُيوخ الإســـلام » .

(شيخُ الملوك والسلاطين) من ألقاب المُسِنِّين من الملوك . وهذا اللقب رأيته فى كتاب وَقْف عن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيُّوب، بعث به نجمُ الدين أيوبُ والدُ السلطان صلاح الدين يُوسفَ .

(شيخ شُيُوخ العارفين) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصلاح، ومرادُهم بالعارفين العارفُون بالله تعالىٰ .

حرف الصـاد المهملة

(صالحُ الأولياء) من ألقاب إمام الزيدِيَّة باليمن، ويصلُح لأهل الصلاح ايضا .

(صَدْر المدرِّسين) من ألقاب العلماء .

(صَدْر مِصْرَ والشام) من ألقاب أكابر العلماء كقُضاة القُضاة ونحوهم، وإنما خُصَّ هذان القُطْران بالذكر لكثرة علمائهما، وربما قيل «صَدْر مصر والعِراقِ والشامِ » وربما ٱقتُصِر علىٰ صَدْر الشام فقط إذا كان برسم وظيفةٍ فى الشأم ونحو ذلك .

(صَفْوة الدَّوْلة) من ألقاب مَنْ فى معنىٰ الوزراء كناظر الخاصِّ ونحوه .

(صَفْوةُ الصُّلَحاء) من ألقاب أهل الصَّلَاح .

(صَفْوةُ الأتْقياء) من ألقاب الصُّلَحاء أيضا .

(صفوةُ المُلوك والسلاطين) من ألقـاب أرباب الأقلام (١) كناظر الشام ونحوه، وربما كتب به للتُّجار الخَوَاجَكِيَّة .

(صَلَاح الإسلام) من ألقاب الصُّوفيَّة والعلماء .

---

(١) لعله كناظر الخاص أو ناظر الجيش .

(صلاح الإسلام والمسلمين) من ألقـاب أكابر أرباب الأقـلام ، كالوُزَراء وَمَنْ فى معناهم .

(صَـلَاحُ الدول) من ألقاب بعض المـلوك ، وبه يُكْتَب لصاحب تُونُس . ويصلُح أيضا لأكابر أربابِ الأقلام من الوُزَراء وغيرهم .

(صلاحُ المِلَّة) من ألقاب العلماء والصلحاء .

حرف الضاد المعجمة

(ضِياءُ الإسلام) من ألقاب العلماء والصُّلَحاء ، وربما قيل «ضِياءُ الإسلام والمسلمين» والضِّياء خلافُ الظَّلام . وهو مخصوص بما كان مُضيئا لِذَاتِه ، بخلاف النور فإنه يقع علىٰ ماهو مكتَسِبُ النُّور ، ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ جَعَلَ الشمسَ ضِياءً والقَمَرَ نُورًا ﴾ فخصَّ الضياءَ بالشمس لأنَّ نُورها لِذَاتِهـا ، والنورَ بالقمر لأن نُوره مكتَسَب من الشمس ، علىٰ ماهو مقرّر فى علم الهيئة .

(ضياءُ الأنامِ) من ألقاب مَنْ تقدّم ذكره .

حرف الطـاء المهملة

(طِرَازُ العِصَابة العَلَوِيَّة) من ألقاب الأشراف كأميرَىْ مكة والمدينةِ المشرَّفتين . والطِّرازُ فى أصـل اللغة عَلَمُ الثوب . قال الجوهرى : وهو فارسىٌّ معرَّب ، كأن صاحب اللقَب جُعِل عَلَما لتلك الطائفة كما جُعِل الطِّراز عَلَما للثوب .

حرف الظـاء المعجمة

(ظِلُّ اللهِ فى أرضه) من الألقاب السلطانية ، والظل ما يحصُل عن الشاخِص فى ضَوْء الشمس ، والمراد أن الخَلْق يستظِلُّون بالسلطان من حرّ الجَوْر كما يستظلّ

المستظِلُّ بظِلِّ الشجرة ونحوها من حَرّ الشمس . وقال آبن قتيبة فى "أدب الكاتب" أصل الظِّلِّ السِّتر ومنه قولهم : أنا فى ظِلِّك أى فى سِتْرك ، ثم آسمُ الظِّلِّ مخصوصٌ بما قَبْل الزوال؛ أما بعد الزوال فإنه يسمّى فيئا لأنه يَرْجِعُ من جهة الغَرْب إلى جهَة الشرق أخذًا من قولهم فَاءَ إذا رجع .

(ظَهِيرُ الملوك والسلاطينِ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة .

(ظَهِيرُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف أيضا، وربما كُتِب به لبعض الملوك كصاحب الأندَلُس ونحوه .

(ظَهير الإمامة) من ألقاب بعض الملوك، وبه يُكْتَب إلى صاحب التَّكْرور .

حرف العين المهملة

(عاقِدُ البُنُود) من ألقاب النائبِ الكافِل ونحوه، والعاقِد فاعل من العَقْد نقيض الحَلّ ، والبُنود جمع بَنْد ـ بفتح الباء وإسكان النون ـ وهو العَلَم الكبير قال الجوهرىّ وهو فارسىّ معرب .

(عِزُّ الإسلام) من ألقاب بعض المُلُوك، وبه يُكْتَب إلى ملك التُّكْرور .

(عِزُّ الإسلام والمسلمين) من ألقـاب الرُّتبة الوُسْطى من نُوّاب السلطنة ومَنْ فى معناهم، وربمـا كُتِب به لبعض الملوك .

(عُدّة الدنيـا والدِّين) من ألقاب الملوك، وبه يُكْتَب لصاحب تُونُس . والعُدّة بالضم فى اللغة ماأعددته لحوادث الدهرِ من المـال والسِّلاح ونحو ذلك وهو المراد هنا ، وربمـا أُطْلِق على نَفْس الآستعداد .

(عُدّة الملوكِ والسلاطين) من ألقاب أصاغِرِ أرباب السُّيوفِ .

(عَضُد الملوكِ والسلاطينِ) من ألقاب متوسِّطى أرباب السيوف ، وقد تقدّم أن أصل العَضُد لمـا بينَ الساعد والكَتِف .

(عَضُــد أمير المؤمنين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف من نُوّاب السلطنة وغيرهم . وربمـا كُتِب به إلى بعض الملوك كملك التَّكْرور .

(عَلَم الدولة) من ألقاب الأمراء والوُزَراء ومَنْ فى معناهم . وقد تقــدّم معنى العَلَم ومعنَى الدولة .

(عَلَم الزُّهّاد) من ألقاب الصُّوفِيّة وأهــل الصَّلاح ، وقد تقدّم أن المراد بالعَلَم الرايةُ و بالزُّهْد الإقلاعُ عن الدنيا .

(عَلَمُ العلماء الأعلام) من ألقاب أكابر أهل العلم ، وربما قيل «عَلَم المُفَسِّرين» أو «عَلَم النُّحاة» ونحو ذلك .

(عَلَم الهُدَاة) من ألقاب إمام الزيديّة باليمن ، ويَصْلُح لأكابر العلماء والصلحاء . والهُدَاة جمعُ هادٍ وهو المرشِد .

(عَلَم الأعْلام) من ألقاب العلماء والصلحاء ، ويَصْلُح لأرباب السيوف أيضا .

(عِمادُ الحُكّام) من ألقاب أكابر القُضاة ، وربما قيل «عِمادُ الحُكّام البارِعين» أو «عِمادُ الحُكّام فى العالَمين» ونحو ذلك . وأصلُ العِمادِ فى اللغة الأبنيةُ الرفيعةُ واحدها عَمادةٌ ، ومنه قيل فلانٌ طويلُ العِماد كأنَّ بناءه بالارتفاع صار عَلَمـا لزائِريه .

(عِمادُ العَرَب) من ألقاب أكابر أُمَراء العُرْبان ، كأمير آلِ فَضْلٍ ونحوه .

(عِماد الدَّوْلة) من ألقاب الأمراء وأكابِر الوُزَراء ونحوهم .

(عمَادُ المِلّة) كذلك .

(عمَادُ المملكة) نحوه ، وهو دونه فى الرُّتْبة .

(عِمَـاد المُحَدِّثين) من ألقاب علماء الحديث النبوىّ علىٰ صاحبه أفضلُ الصلاة والسلام، وبه يُكْتَب لقُضاة القُضاة ومَنْ فى معناهم .

(عُمْدة الملوك والسلاطين) من ألقاب صغار أرباب السيوف ، وهو دُونَ عُدّة الملوك والسلاطين والعمدةُ فى اللغة ما يُعتَمَد عليه .

(عَوْنُ العساكر) من ألقاب ناظِرِ الجيش ونحوه، والعَوْن فى اللغة الظَّهِير والمعاوِنُ .

(عَوْنُ جيوش الموحِّدين) من ألقاب بعض الملوك، وبه يُكْتَب لملك التَّكْرور، ويَصْلُح لكبار أرباب السيوف من أهل المملكة أيضا .

(علاء الإسلام والمسلمين) من ألقاب العلمـاء والصلحاء ويصلح لارباب السيوف أيضا .

والعَلَاء بالفتح والمدّ مصدر عَلَا فى الشرف ونحوه يَعْلىٰ بفتح اللام (١) .

(عَيْن المملكة) من ألقاب أرباب الأقلام ونحوهم .

(عَيْنُ الأعْيان) نحوه .

حرف الغين المعجمة

(غُـرَّةُ الزمان) من ألقاب أرباب الأقلام، والغُرّةُ فى أصل اللغة بياضٌ فى جَبْهة الفرس فوق الدِّرْهَم، شُبِّه بالغرّة فى وجه الفَرَس لظهورها وتحسين الفَرَس بها .

(غَوْثُ الأنَام) من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كالنائب الكافل ونحوه . وقد تقدّم معنىٰ الغَوْث .

---

(١) قوله بفتح اللام أى فيهما وهي لغة فى على يعلىٰ من باب تعب أنظر المختار .

(غِيَـاثُ الأَنام) من ألقاب أكابر الملوك كصاحب الهِنْـد ونحوه . وقد تقدّم معنىٰ الغِيَاث .

(غِيَاثُ الأُمَّة) نحـــوه .

حرف الفــاء

(فاتحُ الأقطار) من الألقاب السلطانية، والفاتحُ فاعِلٌ من الفتح وهو معروف، والأقْطارُ جمع قُطْر وهو الناحية والجانِبُ، والمراد نواحِى المـالك .

(فارِسُ المسلِمِين) من ألقاب أكابر أرباب السـيوف ، ذكره آبن شِيثٍ من كُتّاب الدولة الأيّوبية فى " معالم الكتابة " .

(فَخْر الأَنَام) من ألقاب أرباب الأقلام، ويجوز أن يكونَ من ألقاب أرباب السيوف أيضا .

(فَخْرُ الأُسْرة الزاهِرة) من ألقـاب الشرفاء كأميرَىْ مكة والمدينة المشَرَّفتين ، وأُسْرة الرجل بضم الهمزة رَهْطه .

(فَخْر الأعْيان) من ألقاب التُّجّار الخَواجَكِيَّة ، ويصلح لغيرهم من الرُّؤَساء أيضا .

(فَخْر الرُّؤَساء) من ألقاب التجّار الخَوَاجَكِيَّة .

(فَخْر السُّلَالة الزاهِرَة) من ألقاب الأشراف، كأميرَىْ مكةَ والمدينة المشَرَّفتين، والسُّلَالةُ الزاهِرةُ تقدّم الكلامُ علىٰ معناها .

(فَخْر الصُّدُور) من ألقاب أرباب الأقلام، وربما كُتِب به للتُّجّار الخَواجَكِيَّة .

(فَخْر الصُّلَحاء) من ألقاب الصُّوفيّة واهل الصَّلَاح .

(فَخْر العُبَّاد) من ألقاب أهل الصَّلاح أيضا .

(فَخْر المجاهِدِين) من ألقاب أرباب السيوف .

(فَخْر المُحَدِّثِين) من ألقاب أصحاب الحديث .

(فَخْر المدَرِّسِينَ) من ألقاب العلماء، وبه يُكْتَب لقُضاة القُضاة ونحوهم .

(فَخْر المُفِيدين) من ألقاب العلماء أيضا .

(فَخْر المُلُوك والسلاطين) من ألقاب بعض الملوك .

(فَخْر الشَّجَرة الزكِيَّة) من ألقاب الشرفاء، والمراد شَجرةُ نَسَبهم الشريف .

(فَخْر النَّسَب العَلَوىّ) من ألقاب الشرفاء أيضا، وبه يكْتَب لإمام الزيديَّة باليمن .

(فَرْدُ السالِكِين) من ألقاب أهل الصلاح .

(فَرْدُ الزمان) من ألقاب العلماء والصلحاء .

(فَرْدُ الوُجود) من ألقاب العلماء وأهل الصلاح .

(فَرْعُ الشَّجَرة الزَّكِيَّة) من ألقاب الشرفاء .

حرف القاف

(قامِعُ البِدْعة) من ألقاب أكابر العلماء، وربما قيل «قامِعُ البِدَع» وقد يقال «قامع البِدَع ومُخْفِى أهلِها» والقامع فاعلٌ من قَمَعه إذا ضَرَبه بالمِقْمَعة : وهى مِحْجَنٌ من حديد يُضْرَب به على رأس الفِيل، والبِدْعة واحدة البِدَع : وهى خلاف السُّنَّة النبويَّة وماعليه الجماعةُ .

(قُدْوةُ الأوْلياء) من ألقاب أهل الصلاح .

(قُدْوةُ البارِعين) من ألقاب أرباب الأقلام،وهو بالكُتَّاب أليق،والبارِعُ الماهر.

(قُدْوةُ البُلَغـاء) من ألقـاب أرباب الأقلام . وهو بكُتَّاب الإنشاء ومَنْ في معناهم أخصُّ .

(قُدْوةُ الخَلَف) من ألقاب العلماء وأهل الصلاح، والخَلَف في اللغة الذي يَجِيء بعد غيره ويقوم مَقَامه، والمراد خَلَفُ مَنْ سلَف من علماء الأمة أو صالحيها .

(قُدْوة العُبَّاد) من ألقاب أهل الصلاح ، وربمـا قيل «قُدْوة العُبَّاد والزُّهَّاد» أو نحو ذلك .

(قُدْوةُ العلماء) من ألقاب أكابر أهل العلم، وربما قيل «قُدْوةُ العلماء العامِلِين» ونحو ذلك .

(قُدْوة الفِرَق) من ألقاب العلماء، والمراد فِرَقُ أهل الحقّ من أرباب المذاهب والعقائدِ الصحيحةِ، والفِرَقُ جمع فِرْقة .

(قُدْوةُ الفُضَلاء) من ألقاب أكابر العلماء، والفُضَلاء جمع فاضل وهو خلافُ الناقِص .

(قُدْوة الكُتَّاب) من ألقـاب أكابر الكُتَّاب كالوُزَراء مِن أرباب الأقلام ومَنْ في معناهم من كاتب السرّ ونحوه .

(قُدْوةُ المجتَهِدين) من ألقاب كبار العلمـاء، وقد تقدّم في الألقاب أنَّ الاجتهادَ عبارةٌ عن استنباطِ الأحكام الشرعية من الكتاب والسُّنَّة والإجماع والقياس .

(قُدْوةُ المحقِّقين) من ألقاب أكابر العلماء، وقد تقدّم معنى التحقيق .

(قُدْوةُ المُسَلِّكِين) من ألقاب الصُّوفِيّة وأهل الصَّلَاح، والمراد بالمسَلِّكِين المعرّفون الطريقَ إلى الله تعالى كما تقدّم بيانُه .

(قُدوةُ المشتَغِلين) من ألقاب أهل العلم، والمرادُ الاشتغالُ بالعلم .

(قُدْوةُ الموَحِّدِين) من الألقاب الخاصّة بصاحب تُونُس : لوقوع الموحِّدين فى اصطلاحهم على أَتْبَاع المهدِىّ بن تُومَرْت؛ وصاحب تُونُس الآنَ من بقاياهم كما تقدّم .

(قَسِيمُ أميرِ المؤمنين) من الألقاب السلطانية ، وهو فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٍ فيكون معناه يُقاسِم أميرَ المؤمنين، والمراد مقاسمتُه الأمْرَ .

(قُطْب الزهّاد) من ألقاب أهل الصلاح ؛ والقُطْب تقدّم معناه .

(قُطْب الأوْلِياء) من ألقابهم أيضا ، والأولياءُ جمع وَلِىٍّ وهو خلاف العَدُوّ ، والمرادُ أولياءُ الله تعالى .

(قِوَام الأمة) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والقِوَام بالكسر نِظام الشىء وعِمادُه ومِلَاكه ، يقال فلانٌ قِوامُ أهل بيته ، ومنه قِوَام الأمر بمعنى نظامه .

(قِوَام الجُمْهور) قال فى "عرف التعريف" : هو من ألقاب الوزراء، والجُمْهور من الناس جُلُّهم، أخذا من الجُمْهور وهى الرملة المجتمعةُ المُشْرِفة على ماحَوْلَها .

(قِوَامُ الدَّوْلة) من ألقاب الكُتَّاب وهو بالكسر أيضا .

(قِوَام المَصَالح) من ألقاب أكابر الكُتَّاب من الوزراء ومَنْ فى معناهم ، وهو بالكسر أيضا، والمَصَالح جمع مَصْلَحَة وهى خلاف المَفْسَدة .

(قِوَامُ الإسلام) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو بالكسر كالذى قبله .

حرف الكاف

(كافِلُ السَّلْطنة) من ألقــاب كِبَار النُّوّاب كنائب دِمَشْقَ ، وقد تقــدّم معنىٰ الكافل فى الكلام علىٰ ألقابِ أربابِ الوظائف .

(كافِلُ المـمالك الإسـلامِيَّة) من ألقاب النائبِ الكافل : وهو النائبُ بحضرة الســلطان .

(كَافِى الدَّوْلة) مِـن ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معنـاهم ، والكافِى آسمُ فاعلٍ من الكِفَاية .

(كَنْزُ التُّقىٰ) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، والكَنْز فى أصل اللغة المـالُ المدْفُونُ ، استعير لصاحب اللّقب لأنه كالشىءِ المكنوز لذلك الباب .

(كَنْز الطالبين) من ألقاب العلماء .

(كَنْزُ العلمــاء) من ألقاب أهل العـــلم وربمـا قيل « كَنْز المُفَسِّريـــن » أو « كَنْز المتفقّهين » ونحو ذلك .

(كَنْزُ المُسَلِّكِين) من ألقاب الصوفيّة وأهلِ الصّلاح .

(كَهْفُ الأُسْرة الزاهِـرَة) من ألقاب الشرفاء ، والكَهْفُ المَلْجَأ ، ومنه قولهم : فُلانٌ كَهْفٌ . والأصــل فى الكهف البيتُ المَنْقُور فى الجَبَل ويجمع علىٰ كُهُوف ؛ وقد تقدّم الكلام علىٰ الأُسْرة والزاهِـرَة .

(كَهْفُ الكُتَّاب) مِـن ألقاب أكابر الكُتّاب كالوزير من أرباب الأقــلام وكاتب السرّ ومَنْ فى معناهم .

(كَهْف المِلَّة) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(كَوْكَبُ الأُسْرة الزاهِرَة) من ألقاب الأشراف كأميرَىْ مكةَ والمدينة المشرّفتين والكَوْكبُ واحد الكواكبِ وهو يقَعُ علىٰ النجُوم والشمسِ والقمرِ .

(كَوْكَبُ الذُّرِّيَّة) من ألقاب الشرفاء أيضا ، والمراد الذُّرِّية العَلَوِيَّة .

حرف اللام

(لِسانُ الحقيقةِ) من ألقاب الصوفية ، واللسانُ هنا جارحةُ الكلام ، والحقيقةُ خلافُ المجَازِ ، وهى فى الأصل عينُ الحق ، والمراد هنا معرفةُ الأمرِ علىٰ ما هو عليه .

(لِسانُ الحُفَّاظ) من ألقاب المحدِّثين والوُعَّاظ ، والمراد المتكلمُ عنهم ، يقال فلان لسانُ القوم إذا كان متكلِّما عنهم ؛ ويجوز أن يكون المرادُ اللسانَ الذى هو جارحة الكلام ويكون المعنىٰ آلتَهُم للكلام كما أن اللسان آلةُ الكلام للتكلِّم ؛ ويجوز أن يكون من اللسان بمعنىٰ اللُّغة ، كما فى قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ ويكون المعنىٰ أنه المترجِمُ عنهم والمتكلِّم بلغاتهم المختلفةِ .

(لِسانُ الدَّوْلة) من ألقاب كاتب السرّ ومَنْ فى معناه ، واللسان فيه يحتمل المعنيين .

(لِسَانُ السلطنة) من ألقاب كاتب السرّ .

(لِسانُ المتكلِّمين) من ألقاب العلماء ، والمتكلِّمون يجوز أن يراد بهم كلُّ متكلم فى الجملة تعميما للمدح ؛ ويجوز أن يراد العلماءُ بعلم الكلام وهو أصول الدِّين ، لأن أصحابه هم أرباب النظر الدّقيق والبحثِ لدِقَّة متعلَّقه ، وهو الظاهر .

(لسانُ المَمَالك) من ألقاب كُتَّاب السرّ، والممالكُ جمع مَمْلكة وهو موضِع المُلْك، والمعنىٰ أنه يتكلم بلسان مُلوكِ المَمَالك .

(لسانُ ملوكِ الأمْصارِ) من ألقاب كاتب السرّ .

حرف الميم

(مالِكُ زِمام الأدَبِ) من ألقاب البُلَغاء من الكُتَّاب ونحوهم، ويصلح لكاتب السرّ ومَنْ فى معناه .

(مانحُ المَمَالكِ والأقاليم والأمصارِ) من الألقاب السلطانية، والمانحُ المُعْطِى، والممالكُ تقدّم بيانُه،والأقالِيمُ جمع إقْلِيم، وله معنيان أحدهما واحدُ الأقاليم السبعة التى تُسمِّيها الحكماء، ممتدّة فى طول الأرض مابين المغْرِب والمشرق . والثانى الواحد من الأقاليم العُرْفِيَّة : كمصر والشأم والعِراقِ وما أشبه ذلك وقد مرّ القولُ فيهما .

(متعمِّد المَصَالح) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والمراد بالمتعمِّد المَتَقَصِّد.

(مَجْد الإسلام) من ألقاب صغار أرباب السيوف .

(مجْدُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب متوسطيهم .

(مجدُ الأُمَراء) من ألقاب أصاغر أرباب السيوف كأمراء العِشْرين ونحوهم .

(مَجْد الرُّؤَساء) من ألقاب التُّجَّار الخَواجَكيَّة .

(مُجَلِّى الغَياهِب) من ألقاب أكابر العلماء، والمُجَلِّى بالتشديد الكاشِفُ، يقال: جَلَا الأمْرَ إذا أوضحه وكَشَفه، ومنه جَلَوت السيفَ ونحوه إذا كشَفْته من الصدَإ؛ والغَيَاهِبُ جمع غَيْهَب وهو الظُّلْمة الشديدة ، يقال : فرسٌ أدْهَمُ غَيْهَبٌ إذا آشتدّ سَوَاده .

(مَجْد الصُّدُور) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكِيَّة .

(مُجَمِّل الأمصار) من ألقـاب أكابر أربابِ الأقلام ، والمجَمِّل فاعلُ الجَمَال، والأمصارُ جمعُ مصرٍ وهو الإقليم .

(مُجْهِدٌ نَفْسَه فى رِضا مولاه) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح [والمرادُ به] المُعْمِل نفسَهُ للغايةِ . يقال : ٱجْهَدْ جَهْدَك فى هذا الأمرِ أى ٱبلغ غايَتَك، والمراد بالمَوْلىٰ هنا الخالقُ سبحانه وتعالىٰ .

(مُحْيِي السُّنَّة) من ألقاب العلماء والصلحاء .

(مُحْيِي العَدْل فى العالَمِين) من الألقاب السلطانية .

(مُدَبِّر الجُيُوش) من ألقاب ناظر الجيش .

(مُدَبِّر المَمَـالك) من ألقاب الوزراء، وربمـا قيل «مُدَبِّر الدولة»، والمدَبِّر فاعلُ التدبير، وقد تقدّم معناه فى الكلام علىٰ المُدَبِّرِىّ فى جملة الألقاب المفردة .

(مُدَبِّر أُمُور السلطنة) من ألقاب الوزراء وكُتَّاب السِّرّ وغيرهم .

(مُذَكِّر القُلُوب) من ألقاب الخُطَباء والوُعَّاظ ، والمُذَكِّر فاعل التذكير وهو الأَخْذ بالذكرىٰ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ .

(مُذِلُّ البِدْعة) من ألقاب علماء السنة ، والمُذِلّ نقيض المُعِزّ .

(مُذِلّ حِزْب الشيطان) مِن ألقاب العلمـاء والصلحاء ، والحِزْب الطائفةُ، وحِزْبُ الرجل أصحابُه .

(مُرَبِّي المُرِيدِين) من ألقاب الصلحاء .

(مُرَتِّب الجُيُوش) من ألقاب ناظر الجيش .

(مُرْتَضَىٰ الدولة) من ألقاب الكُتَّاب، والمُرْتَضَى بمعنى المَرْضِيّ المقبول .

(مُرْتَضَىٰ الملوك والسلاطين) من ألقاب ارباب السيوف والأقلام جميعا .

(مُسْتَخْدِمُ أربابِ الطَّبْل والعَلَم) من ألقاب النائب الكافل ونحوه .

(مُشَيِّد الممالك) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والمُشَيِّد فاعلُ التشييد وهو رَفْع البناء .

(مُشِير الدَّوْلة) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والمُشِير الذى يُشِير علىٰ غيره بالرأى .

(مُشِير السلطنة) مثله .

(مُشِير الملوك والسلاطين) مثله .

(مُظْهِر أَنْباء الشريعةِ) من ألقاب العلماء، وهو بضم الميم وإسكان الظاء علىٰ أنه فاعِلٌ من الظُّهُور(١)، والأنباء جمعُ نَبَإ وهو الخبَرُ، والمراد أنه يُظْهِرُ أخبارَ الشريعة ويُذِيعها؛ ويجوز أن يكون بفتح الميم علىٰ أنه هو نفس المَظْهر وهو أبلَغُ .

(مُعِزُّ الإسلام والمسلمين) من ألقاب النائب الكافِلِ ومَنْ فى معناه .

(مُعِزُّ السُّنَّة) من ألقاب العلماء، والسنَّةُ خلاف البِدْعة .

(مُعِين الحقّ وناصِرُه) من ألقاب الحُكَّام من أرباب السيوف وغيرهم .

(مُفْتِي المسلمين) من ألقاب العلمـاء .

(مُفِيدُ البُلَغاء) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب وغيرهم .

---

(١) الاولىٰ من الإظهار .

(مُفيد الطالِبِين) من ألقاب العلمـاء .

(مُفيـد المَناَجِ) من ألقاب الوُزَراء ، والمَناَجِ جمع مَنْجَح أخذا من النَّجَاح وهو الظَّفَر بالحوائج .

(مُفِيد أهل مِصْرَ والعِراق والشام) من ألقاب العلمـاء .

(مُفِيدُ كلِّ غادٍ ورَائح) من ألقابهم أيضا .

(مُقَرَّبُ الحَضْرتينِ) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة إذا كان متردِّدا بين مملكتَيْن .

(مُقَرَّب الدُّوَل) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة ، وهو أعمُّ من الأوّل .

(مَلْجأ الفُقَراء والمَسا كِين) من ألقاب النائبِ الكافِلِ ونائبِ الشأْم علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ آخِرا .

(مَلْجأ المُريدين) من ألقاب الصوفيَّة وأهل الصلاح .

(مَلِكُ البَحْرَيْن) من الألقاب السلطانية ، والمرادُ بحرُ الرُّوم وبحرُ القُلْزُم : لأنهما يتقاربان بينَ مصرَ والشام علىٰ القُرْب من العَرِيش .

(مَلِكُ البُلَغاء) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب وغيرِهم .

(مُمَلِّك الممـالك والتُّخُوتِ والتِّيجان) من الألقاب السـلطانية أيضا ، والمرادُ بالتُّخُوت هنا تُخوتُ المُلْك ، يريد أنه مملِّك الملوكِ مِنْ تحتِ يده .

(مُمَهِّد الدُّوَل) من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم ، وربمـا كُتِب به لبعض الملوكِ أيضا ، وقد تقـدّم الكلام علىٰ التمهيد عند الكلام علىٰ المُمَهِّدِيّ فى جملة الألقاب المفردة .

(مُنَبِّه الخَوَاطِر) من ألقاب الخطباء والوُعّاظ ، والمُنَبِّـه المُوقِظُ ، والخَواطر جمع خاطِرٍ .

(مُنْجِد الملوك والسـلاطينِ) من ألقاب النـائبِ الكافِلِ، وبه يُكْتَب لإمام الزيديَّة باليمن . والمُنْجِد المُعِين أخذًا من قولهم ٱستنجَدنِى فلانٌ فأنجدْتُه أى ٱستَعَانَ بِى فأعَنْتُه .

(مُنْشِى العلمـاء والمُفْتِين) من ألقاب أكابر العلمـاء .

(مُنْصِف المظلومين من الظالمين) من الألقاب السلطانية .

(مَوْرِد الجُود) من ألقاب الكرماء .

(مُوَصِّل السالكين) من ألقاب الصوفية والصُّلَحاء .

(مُوَضِّح الطَّريقـة) من ألقـاب الصوفيَّـة والصلحاء أيضا ، وربمـا قيـل «مُوَضِّح الطَّرائق» وقد تقدّم أن المراد الطريقُ إلىٰ الله تعالىٰ .

(مُولِى الإحسانِ) من الألقاب السلطانية، والمراد بالمُولِى المُنِيل .

(مُؤَمِّن الأرض المحيطةِ) من الألقاب السلطانية أيضا، وكأنهم يريدون الأرضَ المُحِيطَـةَ لٱتساعها، ويكون المرادُ أرضَ المملكة، وإلا فالأرضُ محوطةٌ من حيثُ استدارةُ المـاء عليها لامُحِيطةٌ بغيرها .

(مَلَاذُ الطالِبِين) من ألقاب العلمـاء والصلحاء، والمراد المَلْجَأ .

(مَلَاذُ العُبَّاد) من ألقاب الصلحاء . وفيه نظر لأن العُبَّاد لايلوذون إلا بالله تعالىٰ ولا يَلْجَـُون إلا إليه .

(مَلَاذُ الكُتَّاب) من ألقاب أكابر الكُتَّاب، ككاتب السرّ ونحوه .

(مُؤَيِّد الحقّ) من ألقاب أرباب السيوف وغيرهم ، والمؤيِّد المُقَوّى أخذا من الأيْدِ وهو القُوّة .

(مُؤَيِّد المِلّة) من ألقاب العلماء .

(مُؤَيِّد أمورِ الدِّين) كذلك . وبه يُكْتَب لإمام الزيديّة باليمن .

حرف النون

(ناصِحُ الملوك والسلاطين) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكِيّة .

(ناصِرُ السُّنّة) من ألقاب العلماء .

(ناصِرُ الغُزاة والمُجاهِدِين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائبِ الكافلِ ونحوه، وربما كُتِب به لبعض الملوك كملك التَّكْرور ونحوه .

(ناصِرُ الشَّريعة) من ألقاب العلماء، والشريعةُ ما شَرعه اللهُ تعالىٰ من الدِّين . يقال شَرَع لهم شَرْعا، وأصله من الشَّرِيعة التى هى مَوْرِد الماء .

(ناشِرُ لِوَاء العَدْل والإحسان) من الألقاب السلطانية .

(نَجْل السلطنة) من ألقاب أولاد الملوك ، والمراد أنه وُلِد فى السلطنة .

(نجل الأكابر) من ألقاب ذَوِى الأصالة ، والنجل النسل . يقال نَجَله أبوه إذا ولده .

(نَسِيبُ الإمام) من ألقاب الشرفاء كاميرَىْ مكةَ والمدينة المشرّفتين ، والنَّسيب القريب . يقال فلان نسيبُ فلان أى قريبُه ، وذلك أن مَرْجِع بنى العبّاس والعَلَوِيِّين إلىٰ بَنِى هاشم .

(نَسِيب أمير المؤمنين) مثله .

(نَصْر الغُزَاة والمجاهِدِين) من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم، وهو عندهم [فَوْقَ] نَاصِر الغُزَاة .

(نَصِير الغُزاة والمجاهِدِين) كذلك ، وهو عندهم دُونَ الأوّل وفوقَ الثانى ، وفيه كلامٌ يأتى ذِكْرُه .

(نِظَامُ الدولة) من ألقاب أكابر أرباب السيوف والكُتَّاب، وقد تقدّم الكلامُ على النِّظام فى الألقاب المفردة .

(نِظَام الممالك) من ألقاب الوُزَراء وكُتَّاب السرّ ونحوهم .

(نِظَامُ المَنَاجِح) من ألقابهم أيضا .

(نُورُ الزُّهَّاد) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح .

حرف الهـــاء

(هُمَـام الدولة) من ألقاب أرباب السيوف وقد تقدّم فى الكلام على الألقاب المفردة أن الهُمَام بمعنى الشجاع .

حرف الـــواو

(وارِثُ المُلْك) من الألقاب السلطانية .

(وَلِىّ أمـير المؤمنين) مـن الألقـاب التى يَشْترِك فيهـا أربابُ السـيوف والأقلام : كالوزراء وقُضاة القُضاة وكاتب السرّ ومَنْ فى معناهم ، والوَلىُّ فى اللغة خلافُ العَدُوّ .

حرف اللام ألف

(لابِسُ ثَوْبِ الفَخَار) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام .

(لافِتُ الغُواة إلىٰ طريق الرَّشاد) من ألقاب الصلحاء والوُعَّاظ، واللافِتُ الصارفُ، يقال لَفَتَ وجْهَه عنى إذا صرفه ، وأصل اللَّفْت اللَّىّ ، والغُوَاة جمع غاوٍ وهو الضالُّ ، يقال غوىٰ يَغْوِى غَيًّا إذا ضَلَّ فهو غاوٍ .

حرف اليـــاء

(يَمِينُ الملوك والسلاطين) قال فى "عرف التعريف" : يختَصُّ بالدَّوادار وكاتب السِّرّ، وقد تقدّم الكلامُ علىٰ معنىٰ ذلك فى الكلام علىٰ اليَمِينِىّ فى الألقـاب المفردة، وأن المراد يمينُ السلطان التى يتناوَلُ بها،وإلا فمجْلِس كاتب السرّ عن يسار السلطان والدَّوادَارُ واقفٌ أمامه .

(يَمين المملكة) مثله .

(يمينُ الدولة) كذلك .

الضرب الثـانى

(من الألقاب المفردةِ المؤنَّثةُ ، ولتأنيثها سببان)

السـبب الأوّل

(الجمـع)

بأن يجمَع شىءٌ من الألقاب المذكَّرة المفردة أو المرَكَّبـة، فتنتقِلَ من التذكير إلىٰ التأنيث ، فإنّ الجموعَ كلَّها مؤنثةٌ علىٰ ماهو مقرَّر فى علم النحو . ويتأتّى ذلك

فى المُطْلَقات، مثلُ أن يجمع فى صدر المُطْلَق بين المَقَرّ الكريم والجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى والمَجْلِس العالى، ثم يُتْبِعُها بالألقاب التى تليق بها مما يأتى ذكره، فيأتى بتلك الألقاب مجموعةً بلفظ التأنيث مفردةً ومركَّبة . مثل أن يكتب إلىٰ المقرّ والجَنَاب الكريمين، والجنابات العاليةِ، والمجلِس العالى الأمِيريَّةِ، الكَبِيريَّة، العالِمِيَّة العادِليَّة، المؤيِّدِيَّة، الزَّعيمِيَّة، العَوْنِيَّة، الغِيَاثية، المُثَاغِرية، المُرابطية، المُمَهِّدية، المشَيِّدية، الظَّهيريَّة، الكافليَّة، الفلانية، إعزازِ الإسلام والمسلمين، سادات الأمراء فى العالمين، أنصارِ الغُزاة والمجاهدين، زُعَماءِ الجيوش، مقدَّمى العساكر، ممهِّدى الدول، مشَيِّدِى الممالك، عماداتِ الملَّة، أعوانِ الأمَّة، ظَهِيرِى الملوك والسلاطين، سُيوف أمير المؤمنين، ونحو ذلك .

وآعلم أن هذه الألقابَ كلَّها من جملة الألقاب المفردة والمركبة المتقدّم ذكرها، فيستغنىٰ عن بيان مُشْكلها وتعريف أحوالها هنا آكتفاءً بما تقدّم، إلا أن من الألقاب المجموعة ما يقوم لفظُ الإفراد مَقامَه بأن يكون اللقبُ آسمَ جنس، مثل عَضُد ومَجْد ونحو ذلك مما لايجوز جمعه لأنه يُقْصَد به الجنس . فيجوز للكاتب حينئذ أن يأتى بذلك بلفظ الجمع ولفظ الإفراد الذى معناه الجمع . وقد أشار إلىٰ ذلك القاضى شِهابُ الدين بنُ فضل الله فى "التعريف" فى الكلام علىٰ المطلقات . فقال عند ذكره آعتضاد الملوك والسلاطين : ويجوز فيه أعضادُ الملوك وعَضُد الملوك، إطلاقا للافراد علىٰ الجمع .

السـبب الثـانى

(تأنيثُ اللقبِ الأصلِ الذى تتفرّع عليه الألقابُ الفروعُ . وله حالتان)

الحـالة الأولىٰ — أن يكون اللقبُ الأصـلُ لمؤنَّث غير حقيقىٍّ كالحَضْرة واليَدِ والباسِطَة . فتأتى الألقابُ المفرّعةُ عليها مؤنثةً بناء علىٰ أن الصـفةَ تتبع الموصوفَ فى تَذكيره وتأنيثه ، علىٰ ما هو مقرّر فى علم النحو . أما نعوتُ الحضرة فمثل أن يقال : «الحَضرةُ الشريفةُ، العليّةُ، السنيّة، العالِيّة، العامِلِيّة، العادِليّة، الأوحدِيّة، المؤيّدِيّة، المُجاهِديّة، المرابطِيّة، المُتاغِرِيّة، المظفَّرِيّة، المنْصورِية، وما أشبه ذلك» وأما نعوت الباسطة فمثل أن يقال : «الباسطةُ الشريفةُ ، العاليـةُ، المَوْلويّة، الأميريّةُ ، الكبيرِيّة ، العالِمية، العادِليّة، المؤيّديّةُ، الحسِنِيّة، السيِّديّة، المالكيّة، الفلانية » وفى معناها نعوت اليد . وألقاب هـذه الحالة كلُّها فى معنىٰ ما تقدّم من الألقاب المذكَّرة لا تختلف الحال فيها إلا فى التذكير والتأنيث، وأنه ليس فيها ألقاب مركَّبة، فيستغنىٰ بمـا تقدّم عن ذكر معانيها وأحوالها أيضا .

الحـالة الثانية — أن يكون اللقب الأصـلُ لمؤنّث حقيقىّ ، كالدّارِ والسِّتارة والجِهَة إذا كُنِى بها عن المـرأة فى الكتابة إليها مثـل أن يقال : « الدارُ الكريمةُ » و « السِّتارةُ الرفيعةُ » و « الجِهةُ المَصُونة » ونحو ذلك، فتَتْبَعُها الألقـابُ المفرّعةُ عليها أيضا فى التأنيث إلا أنَّ لها معانِىَ تخصها . وهى علىٰ ضربين : مفردةٍ ومركبةٍ كما تقـدّم فى المذكَّرة ، وإن لم تبلغ شأْوَها فى الكَثْرة . فأما المفردة فكالشريفة ، والكُبْرىٰ ، والعالِية ، والمعظَّمة ، والمكرَّمة ، والمحجَّبة ، والمَصُونة ، والخاتُونِيّة ، والخوند . وربما قيل الوالديّة إذا كانت والدة حقيقةً أو فى مَقَامها، والوَلَدِية إذا كانت بنتا حقيقةً أو قائمةً مَقامَها ، والحاجِّيّة إذا كانت حاجّة ونحو ذلك .

ثم الألقابُ المفردةُ تارةً تكون مجرّدةً عن ياء النسب ، كالألقاب المتقدِّم ذكرها؛ وقد تلحَقُها ياء النسب للمبالغة فى التعظِيم فيما تدخل فيه ياء النسب فى المذكَّر، مثل أن يقال : المعظَّميّة والمكَرَّميّة، والمُحَجَّبيّة، وما أشبه ذلك . وهذه الألقاب أكثرها منقول عن المذكَّر، فيستغنىٰ عن ذكر معانيها وأحوالها؛ وفيها ألقاب لم يتقدّم ذكر مثلها فى المذكر كالمحجَّبيَّة، وهو مأخوذ من الحِجاب كأنها محجوبةٌ عن أن يراها الناس؛ ومنها المَصُونة وهو مأخوذٌ من الصِّيانة ، وهى جعْل الشىءِ فى الصِّوَان وقايةً له عن مثل النظَر والمَسِّ ونحو ذلك؛ ومنها الخاتُون، وهو لفظ تُرْكِىّ معناه السيدةُ؛ ومنها الخوَنْد، وهى لفظة عجمية بمعنى السيادة أيضا .

وأما المركَّبة فمثل جَلَال النساء، وسيدةِ الخوَاتين فى العالَمين ، وشَرِف الخوَاتين، وجَمِيلة المحجَّبات ، وجليلة المَصُونات ، وقَرِينة الملوك والسلاطين، وسَلِيلة الملوك والسلاطين، اذا كانت بِنْتًا لسلطانٍ أو فى معناها ، وكريمة الملوك والسلاطين إذا كانت أختَ سلطان . ومعانِى هذه الألقابِ ظاهرةٌ معلومة .

الصنف الثانى (١)

(من الألقاب المفرّعة علىٰ الأصول ألقابُ مَنْ يُكْتَب إليه من أهل الكُفْر، ممّا ٱصطُلِح عليها لمكاتَبَاتهم)

وٱعلم أنه لم يكن مَلِكٌ من ملوك الكفر ممن يُكْتَب له عن الأبواب السلطانية غيرالنصارىٰ : لأنّه لم يكن لغيرهم من أهل المِلَل بالقُرْب من هذه المملكة مملكةٌ قائمة ، بل اليهودُ ليس لهم مملكةٌ قائمة فى قُطْر من الأقطار بعد غَلَبة الإسلام ، إنما يُؤدُّون الجِزْيَة حيث حَلُّوا ، إذ يقولُ تعالىٰ فى حقهم : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

---

(١) لعل الصواب "النوع الثانى" وبالجملة فالتراجم كثيرا ما يقع فيها السهو اما من الناسخ أو المؤلف فتنبه .

ثم مَنْ يلقّب من أهل الكفر فى المكاتبات إن كان من متديِّنتِهم كالپاپ والبَطْرَك، ناسبه من الألقاب مافيه معنىٰ التنسُّك والتعبُّد، وإن كان من الملوك ناسبه ما فيه معنىٰ الشَّجاعة والرِّياسة والقيامِ بأمر دينه وتحمُّله أعباءَ رعيَّته وما فى معنىٰ ذلك . فقد ثبت فى الصحيحين أن النبي صلّى الله عليه وسلم كتب إلىٰ هِرَقْل : "مِنْ محمدٍ رَسُولِ الله إلىٰ هِرَقْلَ عَظِيم الرُّومِ" وفى كتب السيرة أنه صلّى الله عليه وسلم كتب إلىٰ كِسْرىٰ : "مِنْ رَسُولِ اللهِ إلىٰ كِسْرىٰ عَظِيم فارِسَ" وأنه كتب إلىٰ المُقَوْقِس : "من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ المُقَوْقِسِ عَظِيم القِبْط" فعبّر عن كلٍّ من الملوك الثلاثةِ بعظيم قومه لمناسَبة ذلك لهم .

وبالجملة فالألقاب التى تُكْتَب إليهم علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(الألقابُ المذكَّرة ، وهى نَمَطان)

النمط الأوّل

(المفـرَدَة)

وأكثر ما تُبْنىٰ علىٰ صفات الشَّجاعة وما فى معناها . وهذه جملة منها مرتبة علىٰ حروف المعجم أيضا ، مقفَّاةٌ عليها .

حرف الألف

(الأَسَدُ) من الألقاب التى آصطُلِح عليها بمعنىٰ الشجاعة، وهو فى الأصل للحيوان المفتَرِس، ثم آستُعْمِل فى الرجُل الشجاع مجازًا لعلاقة ما بينهما من الشَّجاعة .

(الأَصِيل) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم أيضا، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب الإسلامية نقلا عن "عرف التعريف" أنه يختَصُّ بكلِّ مَنْ له ثلاثةُ آباءٍ فى الرياسةِ، وحينئذ فيكون هنا مختصًّا بمن له ثلاثةُ آباءٍ فى المُلْك، علىٰ أنهم الآنَ لا يَقِفُون مع ذلك بل يُراعُون مَنْ له أدْنىٰ نَسَب .

(الأَنْجالُوس) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم ، وهى لفظة يُونانِيَّة معناها المَلَك واحد الملائكةِ ، وإنما كُتِب إليهم بذلك مضاهاةً للكُتُب الواردة عنهم، ولعلَّ الكاتب لم يَعْلَم معنىٰ ذلك، وكذلك غيرها من الألفاظ التى فى معناها .

حرف البـاء

(البالَالُوغِس) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم ، وهى لفظة يُونانِيَّة أصلها البالى لوغس، ومعناها «الكلمةُ القديمةُ» .

حرف الجـــيم

(الجَلِيل) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم، ومعنىٰ الجليل فى اللغة العظيمُ، لكن قد آستُعْمِل فى ألقابهم فى المكاتَبَات لملوكهم . فيقال «الملِك الجليلُ» والمرادُ الجليلُ بالنسبة إلىٰ ملوك الكُفْر، وإلا فالكافر لا يُوصَف بالعَظَمة . وكان الأحسَنُ أن لا يُكْتَب به إليهم، لاسيَّما وهو آسم من أسمائه تعالىٰ .

حرف الخاء المعجمة

(الخاشِعُ) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لمتديِّنَتِهم : كالپاپ والبَطْرك . وقد تقدّم فى الألقاب الإسلامية أنه يكون من ألقاب الصُّلَحاء والصوفية، وأن معنىٰ الخاشع المتذلِّل .

(الخَطِير) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم ، والخَطِير فى اللغة الكَبِير الجليلُ القدرِ، ومنه قولهم : أَمْرٌ له خَطَر أى مِقْدار كبيرٌ .

حرف الدال المهملة

(الدُّوقِس) بضم الدال وكسر القاف من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم . وقد يقال (الضُّوقِس) بالضاد بدل الدال، وهى لفظة يُونانِيَّة أصلها دقستين، ومعناها المشكور .

حرف الراء المهملة

(الرُّوحَانِىّ) من الألقاب التى آصطُلِح عليها للتديِّنين منهم، وهو بضم الراء نسبة إلى الرُّوح التى بها مَنَاط الحياة للمخلوقِين ، ومنه نُسِب إلى الملائكة والجِنّ رُوحانِىّ؛ وبالفتح نسبةٌ إلى الرَّوْح بمعنى الرائحة، والمعنى الأوّلُ أقربُ إلى مراد الكُتَّاب .

حرف السين

(السَّمَيْدَع) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم . قال الجوهرى : وهو بضم السين وقال فى "كفاية المتحفِّظ" بفتحها ، ومعناه السيِّد، وكأن المراد سيدُ قومه وزعِيمُهم .

حرف الضاد المعجمة

(الضِّرْغام) من الألقاب التى آصطلح عليها لملوكهم، وهو من أسماء الأَسَد، لُقِّب به ملوكُهم لما فيه من معنى الشجاعة .

حرف الغين المعجمة

(الغَضَنْفَرُ) بفتح الغين والضاد المعجمتين وسكون النون وفتح الفاء من أسماء الأســد، اصطَلَح الكُتَّاب على تلقيبهم بذلك لما فيه من معنى الشجاعة كالأسَـدِ والضِّرْغام. على أنه قد يُطْلَق في اللغة على الرجل الغليظ كما حكاه الجوهريّ. ولا بأس باستعمال الألفاظ التي لها كامل نارله (١) في المكاتبات إلى الكُفَّار.

حرف القـاف

(القِدِّيس) بكسر القاف من الألقـاب التي اصطُلِح عليها لمتديِّنتهم من البـاب والبَطْرِيَرْك ونحوهما، وأصله من التقديس وهو التنْزِيه.

حرف الكـاف

(الكَرَّار) بتشديد الراء من الألقاب التي اصطُلِح عليها لملوكهم، والكَرّارُ صيغةُ مبالغة من الكَرّ خلافِ الفَرّ. والمراد أنه يَرْجِع في المحاربة على قِرْنه المرّةَ بعد المرّة ولا ينهزِمُ عنه.

(الكمينيوس) من الألقاب التي اصطلح عليها لملوكهم، وهو لفظ روميّ معناه (٢) ... ...

حرف المـــيم

(المتَبَتِّل) من الالقاب التي اصطُلِح عليها لمتديِّنَتهم، ومعناه المنْقَطِع عن الدنيا.

(المتَخَتِّت) بفتح الخاء المعجمة المشدّدة من الألقاب التي اصطلح عليها لملوكهم، والمراد أنه ممن يجلِس مثلُه على تخت الملك لاستحقاقه له.

(المتَوَّجُ) بفتح الواو المشدّدة من الألقاب التي اصطلح عليها لمُلُوكهم والمراد أنه ممن يلْبَس التاجَ لاستحقاقه له.

---

(١) كذا في الاصول بالاهمال مع اشارة التوقف والمراد الألفاظ التي تحتمل التعظيم وغيره.

(٢) بيض له في الاصول وأورده في الضوء ولم يفسره.

(المُحْتَشِم) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لتُجَّار الروم والفَرنج ، والمراد بالمحتَشِم هنا الرئيسُ الذى له حَشَم وهم خَوَلُه وخَدَمه . وأصل الحِشْمة فى اللغة الغَضَب ، وسمى خَوَلُ الرجل وخَدَمه حَشَما لأنهم يَغْضَبون له ؛ وبعضُهم يُطْلق المحتَشِم علىٰ المستَحْيِي وعليه عُرْفُ العامة وهو المراد هُنا ، وأنكره ٱبنُ قتيبة وغيرُه حتّٰى قال النحاس إنه لا يُعْرَف ٱحْتَشَم إلا بمعنىٰ غَضِب وإن كان الجوهرىُّ قد حكاه .

(المُعَزَّز) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم [وهو ٱسم مفعول من العز خلاف الذل .

(الممجد) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لملوكهم] (١) وهو مُفَعَّل من المجد . وقد تقدّم الكلام عليه فى الألقاب الإسلامية .

حرف الهاء

(الهُمَام) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وقد تقدّم فى الألقاب الإسلامية ان معناه الشجاعُ .

النمط الثانى

(من الألقاب التى يُكْتَب بها لملوك الكفر الألقاب المركَّبة)

وهذه جملة منها مرتَّبةٌ علىٰ حروف المعجم أيضا .

حرف الألف

(آخر ملوك اليُونان) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وهى تصلُح لكل ملِك ينتسب إلىٰ اليُونان أو قام مقامهم فى المُلْك . واليُونَان أُمَّةٌ معروفة مشهورة ، وكانت مملَكَتُهم أوّلا فى الجانب الشرقىّ من الخليج القُسْطَنْطِينىّ المعروف الآنَ ببلادِ

---

(١) الزيادة يقتضيها الكلام كما لايخفى على المتأمل .

الرُّوم ثم ملكوا بعدها العِرَاق، والتُّرْك، والهنـدَ، وبلادَ أرْمينيَةَ، والشامَ، ومصرَ، والإسكندريةَ . ومنهم أكثر الحكماء والفلاسفةِ . وكانت دولتُهم من أعظم الدُّوَل؛ وآختُلِف فى نَسَبهم : فنقل ابن سـعيد عن البيهقىّ وغيره من المحقِّقين أنهم من وَلَد أفريقش بن يُونان، بن عَلْجان ، بن يافِثَ، بن نُوحٍ عليه السـلام . والمنقول عن التوراة أن يُونانَ هو آبن يافِثَ لصلبه،وآسمه فيها يَاقَان بفاء تقرب فى اللفظ من الواو فعرّبت يُونانَ . وخالف كثير من المؤرّخين فنسبوا يُونان إلىٰ عابَر بن فالَغ ، بجعـله أخا لقَحْطانَ جدِّ العرب العاربةِ ، وأنه خرج من اليمن مُغاضِبا لأخيه قَحْطانَ فنزل ما بين الأفْرَنْجة والروم وآختلط نسـبُه بنسبهم . وقيل : بل اليُونان من جملة الرُّوم من ولد صُوفر بن العيص، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام .

(أُسْوة الملوك والسـلاطين) من الألقاب التى آصطلح عليها لملوكهم،والإسوة بكسر الهمزة وضمها بمعنىٰ القُدْوة ومنه قولهم : لى فى فلانٍ إسوةٌ يعنى قُدوةً، وكأنهم جعلوه إسوَةً لملوك الكفر يقتـدُون به وإلا فلا يجوز إطلاق ذلك علىٰ الملوك من حيث هم لدخُول ملوك الإسلام فيهم .

(العـادِلُ فى مِلّته) من الألقاب التى آصطُلح عليهـا لملوكهم ، وقد تقدّم معنىٰ العادل والمِلَّة فى الكلام علىٰ الألقاب الإسلامية .

(العادلُ فى مَمْلَكته) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم،وقد تقدّم معنىٰ العادل، والمملكةُ فى الأصل موضعُ الملك ثم أطلقت علىٰ الرعيَّة مجازا .

(الرِّيد أرغون) من الألقاب التى آصطلح عليها لبعض ملوكهم ممن يملك البلاد المعروفة بأَرْغُون، وقد ذكر فى "الروض المعطار" بلادَ أرْغُون، وقال : هو آسم بلاد غرسيه بن شانجة ، تشتمل علىٰ بلاد ومنازل وأعمـال، ولم يذكر فى أىِّ حيِّز هى

ولا فى أىّ قُطْر . وقد رأيت هــذا اللقب فى "التعريف" : للمقرّ الشّهابىّ بن فضــل الله فى ألقاب صاحب القُسْطنطينية وفى "التثقيف" لآبن ناظر الجيش ، فى ألقاب الأذْفُونش صاحب طُلَيْطِــلةَ من الأندَلُس، ويحتاج إلى تحقيق من يملك هذه الطائفةَ منهما فيكْتَب به إليه . والرِّيد فى لغتهم بمعنى الملك كما تقدّم فى الكلام على رِيد أفرنس فى ألقاب الملوك .

(المُنْصِف لرِعيَّته) من الألقاب التى آصطلح عليها لملوكهم، والرعيَّة من يَسُوسُه المِلكُ ، سُمُّوا بذلك تشبيها لهم بالغَنَم وله بالراعى .

(أوحَدُ المُلوك العِيسَوِيَّة) من الألقاب التى آصطلح عليهــا لملوكهم ، ويصلح للمِلكانيَّة واليَعْقُوبية جميعا : لأنه لم يقيد بمذهب من مذاهب النصارى .

(أوحد ملوك اليعقُوبِيَّة) من الألقاب التى آصطُلح عليها لملوك الحَبَشة : لأن مَلِكها من طائفة اليعقُوبِيَّة .

حرف البـاء

(بطَلُ النَّصْرانِيَّــة) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم ، وهو صالح لكل واحد منهم، ومعنى البَطَل فى اللغة الشجاعُ، سمِّى بذلك لأنه يُبْطِل حركة قِرْنه .

(بقيَّة أبناء التُّخُوت والتِّيجان) من الألقاب التى آصطلح عليها لملوكهم ، وهى تصْلُح لكلٍّ منهم أيضا من المَلِكانية واليَعاقِبَة جميعا .

(بقِيَّةُ الملوك الأغْرِيقِيَّة) من الألقاب التى آصطلح عليها لبعض الملوك من بقايا طائفة الأغريقية من اليُونانِ، وهم طائفةٌ من اليُونان تنسب إلى أغريقش بن يُونان المقــدّم ذكره ، وهم اليُونانُ الأول . وقد ذكره فى "التعريف" فى ألقاب مَلِك الكُرْج ، ولعله آطّلع على أنه من بقايا هذه الطائفة ، وهو ممــا يَحْتاج إلى تحرير .

(بقِيَّـة سَلَف قَيْصَر) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لبعض ملوكهم ممن ٱنتسب إلىٰ القَياصِرة ملوكِ الروم أو قام مَقَامهم . وقَيْصَرُ ٱسمٌ قديم لكل مَنْ ملك الروم، وأصل هذه اللفظة فى اللغة الرومية جاشَر بجيم وشين معجمة فعُرِّبت قَيْصَر، ولها عنـدهم معنيان : أحدهما الشىء المشقوقُ عنـه، والثانى الشَّـعَر . وٱختلف فى أوّل مَنْ لُقِّب بذلك منهـم فقيـل : أغانيوش قَيْصَر، أوّلُ الطبقة الثانيـة من ملوكِ الروم : ماتت أمّه وهو حَمْل فشُقَّ بطنُها وأخرج فسمِّىَ بذلك لما فيه من الشق عليـه ، وقيل يوليوش قَيْصَر، وهو الذى ملك بعد أغانيوش المقـدَّم ذكره ، وقيل أغشطش قَيْصَر وهو الذى وُلِد المسيحُ عليه السـلام فى زمانه ، فقد قيل إنه الذى ماتت أمّه وهو حَمْل فشُقَّ جوفُها وأُخْرِج فسمِّى بذلك، وقيل لأنه وُلد وله شَعَرٌ تامٌّ فسمى قَيْصَر لوجود الشعر فيه حينئذ .

حرف الجـــيم

(جامِعُ البلادِ الساحِليَّة) من الألقابِ التى تَصْلُح لكل ملك [مملكة] متسعةٍ علىٰ ساحل البحر كصاحب القُسْطنطينِيَّة ونحوه .

حرف الحـاء المهملة

(حافِظُ البلاد الجَنُوبِيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لمَلك الحَبَشَـة من النصـارىٰ . علىٰ أنه يصلُح لغيره من ملوك السُّـودان أيضا ممن أَخَذ فى الجنوب من المسلمين وغيرهم .

(حامِلُ رايةِ المَسِيحيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، وهى تصلح لكل ملك كبيرٍ من ملوك النصارىٰ ، والمـراد بالمَسِيحيَّة الملةُ المَسِـيحيَّةُ ، فحذف

الموصوف وأُقيمت الصفةُ مُقامه ، يريدون مِلَّةَ المَسيح وهو عيسىٰ عليه السلام . وٱختُلِف فى [سبب] تسميته بالمَسِيح : فقيل لأنه كان ممسوحَ القدمين بمعنى أنه لاأَخْمَص له . وقيل لأنه مَسَحَ الأرضَ بالسِّيَاحة ، وقيل غير ذلك . أماتسمية الدَّجَّال بالمَسِيح فلأنه ممسوحُ العين لأنه أعور . وقيل لأنه يَمْسَح الأرضَ بالسير فيها .

(حامِى البِحَار والخُلْجَان) من الألقاب التى تصلح لكل مَنْ مملكتُه منهم علىٰ البحر ، والبِحارُ جمع بَحْر ، وأصله فى اللغة الشَّقُّ ، ومنه سمِّيت البَحِيرةُ المذكورة فى القرءان : وهى الناقة التى تُشَقُّ أذنُها فتُرْسَل فلا تُعارَض ، والخُلْجان جمع خَلِيج وهو الجَدْول الصغيرُ ، والمراد ما يتشعَّب من البحر كَخَلِيج القُسْطنطينية وجَوْن البَنادقة ونحوهما .

(حامِى حُمَاةِ بَنِى الأصفر) من الألقاب التى تصلُح لملوك الرُّوم والفَرَنْج بالممالك العِظام : كصاحب القُسْطنطينيَّة وغيره ، والمراد ببَنِى الأصفر الرومُ فإنهم من ولد صوفر بن العيص ، بن إسحاق ، بن إبراهيم عليه السلام ، والمؤرّخون يعبِّرون عن صوفر بالأصفر . وإنما خَصَّه بحماية الحُمَاة تفخيما له فإنه إذا حمىٰ الحُماةَ كان بحماية غيرهم أجدَر .

حرف الخاء المعجمة

(خالِصةُ الأصْدِقاء) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، والمراد بالخالصة هنا مَنْ ليس فى صداقته شائبةٌ .

(خُلَاصة ملوك السُّرْيَان) من الألقاب التى تصلُح لكل من يُنْسَب إلىٰ بَقايا السُّرْيانيِّين من الملوك . والسُّرْيان أقدمُ الأمم فى الخليقة ، وكانوا يَدينون بدين الصابِئة ، وينتسبون إلىٰ صابئ بن إدريس عليه السلام . قال ٱبن حَزْم : ودينهُم

أقدمُ الأديانِ علىٰ وجه الأرضِ، ومَدَارُ مذاهبهم علىٰ تعظيم الرُّوحانِيَّات والكواكِب، وكانتْ منازلُهم أرض بابِلَ من العراق . قال المسعودىّ : وهم أوّلُ ملوكِ الأرض بعد الطُّوفان .

حرف الذال المعجمة

(ذُخْر ملوكِ البِحار والخُلُج) من الألقاب التى تصلُح لكل مَلِك منهم علىٰ ساحل البحر، وقد تقدّم معنىٰ الذُّخْر والبِحَار، والخُلُجُ هى الخُلْجان؛ وقد تقدّم معناها .

(ذُخْرالأمة النصرانيَّة) من الألقاب التى تصلح لجميع ملوك النصرانية من المَلِكانِيَّـة واليَعَاقِبـة ، وقد تقـدّم معنىٰ الذُّخْر والأُمَّةِ فى الكلام علىٰ الألقـاب الإســلامية .

حرف الراء المهملة

(رِضَىّ البـاب بَابَا رُومِيَة) يجوز أن يكون بفتح الراء وكسر الضاد بمعنىٰ مَرْضِىّ الباب ، و يجوز أن يكون بكسر الراء وفتح الضاد بمعنىٰ أنه يُجْعَلُ نفسَ رِضا الباب وهو أبلغ . وهو من الألقاب التى آصطُلِح عليهـا لملوكهم؛ وقد تقدّم فى الألقـاب الأصول معنىٰ البَابَا، ورُومِيَة آسم لرومِيَة التى بها البابُ مقيم، إضافة إليها لإقامته بها، وقد مرّ القولُ عليها فى الكلام علىٰ المَسالك والمَمـالك فى المقالة الثانية؛ وتأتى الإشارة إليها فى الكلام علىٰ مكاتبة البابِ فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

(رُكْنُ الأُمَّة العِيسَوِيَّة) من الألقـاب التى آصطلح عليهـا لِكبَار ملوكهم كملك الحَبَشة ونحوه، ويصلح لِلمَلِكانِيَّة واليَعَاقبة جميعا .

حرف الشين المعجمة

(شَبِيهُ مَرْيُحَنَّا المَعْمَدانِ) من الألقاب التى تصلُح لكبار ملوكهم، ومَرْيُحَنَّا بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الياء المثناة تحتُ و بعدها حاء مهملة ونون . ومعنىٰ مَرْ السيد ، ويُحَنَّا بلغتهم يحيىٰ ، والمراد شَبيه السيد يحيىٰ ، والمَعْمَدانُ بميمين مفتوحتين بينهما عين مهملة صفة عندهم ليحيىٰ فهم يزعُمُون أن مريم عليها السلام خرجَتْ بعيسىٰ عليه السلام من الشأم إلىٰ مصر وعادت به إلىٰ الشأم وهو ٱبن ٱثنَتَىْ عشرةَ سنةً ، فتلقَّاه يحيىٰ عليه السلام وهو ٱبنُ خالته ، فغَمَسه فى نَهَر الأُرْدُنِّ، وهو عندهم أصلُ ماء المَعْمُودِيَّة الذى لايصح عندهم تنصُّرُ نصرانىّ إلا به فأطلَقُوا علىٰ يحيىٰ عليه السلام المَعْمَدان لمعنىٰ ذلك،وكأنه شَبَّهه به من حيث إنه أصلُ المَعْمُودِيَّة بزَعْمِهم .

حرف الصاد المهملة

(صَديق الملوك والسلاطين) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، والمراد أن فيه صداقةً ووُدًّا لملوك الإسلامِ وسلاطينهِم .

حرف الضاد المعجمة

(ضابِطُ الممالك الرُّومِيَّة) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لصاحب القُسْطنطينِيَّة، وهو نظير حافِظ البلادِ الجَنُوبية لمَلِك الحَبَشة.

حرف الظاء المعجمة

(ظَهِير البابِ بَابَا رُومِيَةَ) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم،وقد تقدّم معنىٰ الباب والبابَا .

حرف العين المهملة

(عِزُّ المِلَّة النَّصْرانية) من الألقاب التى آصطُلح عليها لأكابر مُلُوكهم .

(عِمَادُ بَنِي المَعْمُودِيَّة) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لِكبَار ملوكهم، والعمَاد فى اللغة الأبنِيَةُ الرفيعة، يذَكَّر ويُؤنَّث . وقد مَرَّ بيانُ معنىٰ المعمودية فى حرف الشين .

حرف الفـاء

(فارِسُ البَرِّ والبَحْر) يصلح لمن يكون مجاوِرا للبر والبحر من الملوك كأصحـاب الجزائر، وقد يصلُحُ لغيرهم أيضا .

(فَخْر المِلَّة المَسِيحيَّة) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم، وتصلح للمَلِكانِيَّة واليَعَاقِبة منهم .

حرف المـيم

(مُتَّبِـع الحَوَارِيِّينَ والأَحْبارِ الرَّبَّانِيِّين والبَطَارِكَة القِدِّيسِين) من ألقـاب عظماء ملوكهم ، والمراد بالحَوَارِيِّين أصحابُ عيسىٰ عليـه السلام الذين بعثهـم إلىٰ أقطار الأرض للبِشَـارة به وللدِّعايَةِ إلىٰ الله تعـالىٰ ، وعنهـم أخبر تعـالىٰ بقـوله : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ ﴾ وهم آثنَا عشَرَ نفسا أسماؤهم يُونانِيَّة .

أحدُهـم ــ بُطْرس ، ويقـال له شَمْعُون الصَّـفا ، وهو الذى بَشَّر بالقُـدْس وأَنْطاكِيَةَ وما حولهـا .

والثـانى ــ أندراوس . وهو الذى بَشَّر ببلاد الحَبَشة والسُّودان .

والثـالث ــ يَعْقُوبُ بن زِبِرِى . وهو الذى بشر بمدينة (١) ... ...

(١) بياض فى الأصول .

والرابـــع — يُوحَنَّا الإنْجِيلىّ . وهو الذى بَشَّر ببلاد أفْسُس وما معها .

والخامس — فِيلِبس . ولم أقف على موضع بشارته .

والسادس — برتلُوما . وهو الذى بشر فى الواحات والبَرْبر.

والسابـع — تُوما و يعرف بِتُوما الرسول . وهو الذى بَشَّر فى السِّند والهند .

والثـامن — مَـــتَّى . وهو الذى بَشَّر بأرض فِلَسْطِينَ ، وصُور ، وصَـيْدَا ، ومصر ، وقَرْطَاجَنَّةَ من بلاد المغرب .

والتـاسع — يَعْقُوب بن حلفا . وهو ممن بَشَّر ببلاد الهند أيضا .

والعـاشر — سِمْعان و يقال شَمْعون الصَّـفَا . وهو الذى بشر بِشِمْشاط وحَلَب ومَنْبِج و بَزَنْطِيَة : وهى القُسْطنطينِيَّة .

والحادى عشر — بُولس ويقـال له تداوس ، وهو الذى بَشَّر بِدِمَشْق و بالقدس أيضا و بلاد الروم والجزائر و رُومِيَة .

والثانى عشر — يَهُوذا الأسْخَرْيوطىّ : وهو الذى خرج عن طاعة المَسِيح ودلَّ عليه اليهودَ ليقتُلُوه فألقىٰ الله تعالىٰ شَبَه المسـيح عليه فأمسكه اليهود وقتـلُوه وصلبُوه ورفع الله تعالىٰ المسيحَ إليه ، وليس هذا من المراد بالحواريِّين هُنا : لأنه قد خرج عن دائرتهم . فلفظ الحوارِيِّين مأخوذ من الحَوَر وهو شدّة البياض ، سُمُّوا بذلك لصفائهم وتفانيهم فى اتِّباع المسيح عن الدَّخَل ، وقيل لأنهم كانوا فى الأوّل قصَّارين يبيِّضون الثياب .

والأحبار جمع حَبْر — بفتح الحاء وكسرها وهو العالم .

والرَّبَّانيُّون جمع ربَّانىّ وقد تقدّم معناه فى الألقاب الإسلامية .

والبَطارِكَةُ جمع بَطْرك وقد تقدّم الكلام عليه فى الألقاب الأصول وأن أصله بَطْرِيَرْك ، وأنه يقال فيه فَطْرك بالفاء بدل الباء ، وكان لهم خمسةُ كَراسىّ : كرسىّ برومِيَة ،

وهو الذى قعد فيه الپاپ ، وكرسىّ بالإسكندرية : وهو الذى استقرّ لبَطْرك اليعقوبية الآن ، وكرسىّ ببَزَنْطِيَــةَ وهى القسطنطينية ، وكرسىّ بأنطا كِيَةَ وكان فيه بَطْرك النسطوريّة ، وكرسىّ بالقُدْس وهو أصغرها عندهم .

(محْيِي طُرُق الفلاســفة والحكماء) من الألقاب التى آصــطُلح عليهـا لصاحب القسطنطينية لأن مملكته منْبَع حكماء اليونان وفلاسِفتهم . والفلاسفة جمع فِيلسُوف بكسر الفاء وهى لفظ يونانىّ مركّب من مضاف ومضاف إليه ،معناه محِبُّ الحكمة ، فلفظ فِيل بمعنى محبّ ، وسُوف بمعنىٰ الحكمة ، وهم يطلِقون الفلسفة علىٰ من يحيط بالعلوم الرياضية . وهى : الهيئة والهندسة والحساب واللحون وغيرها . والحُكَماء جمع حكيم ، وهو من يُحْسِن دقائق الصناعات ويُتْقنها أو من يتعاطىٰ الحِكْمَة ، وهى معرفةُ أفضلِ الأشــياء وأفضلِ العلوم ، وأوّلُ ماصارت الحكمةُ فيهم فى زمن بُخْتَنصّر ، ثم آشتهرتْ فيهم بعد ذلك ،ولذلك عُبِّر بالفلاسفة القُدَماء إشارة إلىٰ أوّل زمن الحكماء .

(مُخَوِّل التُّخُوت والتِّيجان) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لصاحب القُسْطنطينِيَّة لعِظَم مَمْلكته فى القديم والحديثِ ،والمُخَوّل المُمَلِّك ،والتُّخوت جمع تَخْت وهو كُرسىّ المُلْك الذى يجلس عليه الملِكُ فى مجلسه العــامّ ، والتيجانُ جمع تاج وهو الذى يُوضَع علىٰ رأس الملِك إذا جلس علىٰ تَخْته ، والمعنىٰ أنه يُعْطِى المُلوك الممــالكَ من تحت يده لسَــعَة مملكته وعَظَمتِها ، وقد كانت القُسْطنطِينِيَّة قبــل غَلَبَة الفَرَنج وقُوّةِ شوكتهم مُلْكا عظيما .

(مَسِيح الأبطال المَسِيحيَّة) من الألقــاب التى آصطُلِح عليها لأكابر مُلُوكهم كصاحب القسطنطينية . أضافَ المَسِيحَ إلىٰ الأبطال ثم وصفها به جمعًا له بين رتبتَىِ الشجاعة والتديُّن بدينه .

(مُصافِي المسلمين) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لمُلوكهم، والمُصافى مفاعِل من الصَّفاء، والمراد أنه صافى النيةِ للمسلمين والمسلمون صافو النيةِ له .

(مُعِزّ النَّصرانية) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لأكابر ملوكهم، والمراد بالنصرانيــة ملة النصرانية، حذف الموصوفَ وأقام الصفةَ مُقَــامه، والنصرانيــةُ فى الأصل منسوبة إلىٰ الناصرة وهى القريَةُ التى نزلهــا المسيح وأمه عليهما السلامُ من بلاد القُدُس عند عوْدهما إلىٰ مصر، وقيــل مأخوذة من قوله تعالى حكايةً عن عيسىٰ عليه السلام ﴿ مَنْ أَنْصَارِى إِلىٰ اللهِ قالَ الحَوارِيُّون نَحْنُ أنْصارُ الله ﴾ .

(معظِّم البيت المقدَّس) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، وربَّمــا زِيدَ فيها فقيل «معظِّم البيت المقدّس بعَقْد النيــة» لموافقة الروىّ فى السَّجْعة التى تقارنهــا؛ ويصــلُح لكل ملك من ملوكهم لأن جميعَهم يعتقــدون تعظيم البيت المقــدّس، والبيتُ المقدّس معروف، والتقديس التنزيه والتطهير .

(معظِّم كَنِيسة صِهْيَوْن) من الألقاب المختصة بملِك الحبشة لأنه يعقوبىّ، وكنيسة صِهْيونَ بالإسكندرية : وهى كنيسة بَطْرك اليعاقبة الآنَ ، ومعتقَدُهم أنه لايصح ولايةُ ملك منهم الا باتصال من هــذا البَطْرك، على أنه فى ابتداء البَطْركية فى زمن الحوارِيِّين لم يكن بكرسىّ الإسكندريّة أحدٌ من الحواريين، انمــا كان بها مرقصُ الإنجيلى تلميذ بطرس الحوارىّ صاحب كرسىّ رومية، والنصارى يومئذ علىٰ طريقةٍ واحدة قبــل ظهور المَلَكية واليعقوبية ، فلمــا افترق دينُ النصرانية إلىٰ المِلكانية واليعاقبة وغيرهم، كانت بطركية الإسكندرية يتداولها المَلَكية واليعقوبية تارةً وتارةً بحسَب انتحال الملوك والميل إلىٰ كلٍّ من المذهبين، ثم ٱستقرّت آخرا فى بطرك اليَعاقبة إلىٰ زماننا، وتبعه ملوك الحبشة لأنتحالهم مذهبَ اليعاقبة، كماتبع الروم والفَرَنْجةُ الباپ

برومية : لانتحالهم مذهب المَلِكانية، وسيأتى الكلام علىٰ طَرَف من ذلك فى الكلام على مكاتبة ملك الحبشة إن شاء الله تعالى .

(مَلِكُ مُلُوكِ السُّرْيان) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لصاحب القسطنطينية لعَظَمته عندهم، وقد تقدّم ذكر السُّرْيان فيما قَبْلُ .

(مُوادُّ المسلمين) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، وهو بتشديد الدال أخذا من المَوَدّة .

(مؤيِّد المَسِيحيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، والمُؤيِّد المقوِّى، والمراد بالمَسِيحية الملةُ المسيحيَّة كما تقدّم بيانُه، وربما قيل «مُؤَيِّد العِيسَويَّة» : والأمر فيهما كذلك .

حرف النون

(ناصِرُ المِلَّة المَسِيحيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لأكابِر ملوكهم، وقد تقدّم معنىٰ هذه الألقاب فى مواضعها .

حرف الــــواو

(وارِثُ التِّيجانِ) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم. وقد تقدّم معنىٰ التِّيجان، والمراد أنه ٱنتقل إليه الملكُ وِراثةً من آبائه .

(وارثُ آبائه فى الأسِرَّة والتِّيجان) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لمن يكون عرِيقا فى المُلْك، وهو قريب من اللَّقَب الذى قبله .

(وارِثُ القَياصرة العُظَماء) من الألقاب التى ٱصطُلح عليها لصاحب القسطنطينية التى هى قاعدة القَياصِرَة، وقد تقدّم أوّلُ مَنْ سُمِّى قيصر فيما سَلَف من الالقاب .

الضـــرب الثـانى

(من ألقاب أهل الكفر الألقابُ المؤنَّثةُ: بأن يكون اللقبُ الأصلُ مؤنَّثا فتتبعه الألقابُ الفروعُ فى التأنيث. ولها حالتان)

الحـالة الأولىٰ — أن يكون اللقبُ الأصلُ لمؤنَّثٍ غير حقيقيٍّ كالحَضْرة مَثَلا ، فتَرِدُ ألقابه مؤنَّثـة ، وفى الغالب إنمـا يقع التأنيثُ فى اللَّقَب الأوّلِ ثم يَنْتَقِلُ إلىٰ الألقاب المذكَّرة ، مثل أن يقال : « الحَضْرة العاليةُ أو الساميةُ أو العلِية ، حضرة الملك الجليل » ويؤتىٰ بمـا يناسبه من الألقاب بعد ذلك ، وربما أُتِى للحَضْرة بلقَبين فأكثَرَ طلبا للتفخيم ، ثم يُعْدَل إلىٰ الألقاب المذكَّرة ، مثل «الحضرةِ العاليةِ المكَّرمة» ثم يقال « حضرةُ الملِك الجليل » وما أشبه ذلك .

الحالة الثانية — أن يكون اللقب الأصل لمؤنَّث حقيقىّ بأن يكون لامرأة كما إذا كانتْ ملِكةً فى بعض ممالكهم ، علىٰ قاعدة الأعاجم فى إسناد المُلْك إلىٰ بنات المُلوك ، فيؤتىٰ بألقابها المفردةِ والمركَّبَة مؤنثةً ، فيُكْتَب مثلا «المَلِكة الجليلةُ المكَّرمة المَبجَّلةُ الموقَّرة المفخَّمة المعزَّزة فلانةُ العادلةُ فى مملكتها ، كبيرةُ دين النَّصرانية ، نُصرةُ الأمَّة العِيسوية ، حامِيةُ الثُّغور ، صديقةُ الملوك والسلاطين» وماأشبه ذلك ، ومعانى هذه الألقاب معلومةٌ ممـا تقدّم .

قلت : قد أتيتُ من ألقاب أهـل الإسـلام وألقابِ أهل الكفر : المفردةِ والمركَّبة علىٰ ماتضمنه ”التعريفُ بالمصطلَح الشريفُ“ للمقرّ الشهابىّ بن فضل الله ، و”عُرْف التعريف“ فى الإخوانيَّات له ، و”تَثْقيف التعريف“ للقاضى تقىّ الدين ابن ناظر الجيش إلا ماشَرَد عنه القلم ، مع ماضممتُه إلىٰ ذلك مما وجدتُه فى غيرها من

الدساتير المجموعة فى السلطانيات والإخوانيات المصريّة والشامية جاريًا علىٰ عُرْفهم مما آستعمله أهلُ الزمان ومَن قاربه ؛ والكاتب الماهرُ إذا فَهِم أصلَها وعَرَف طُرُقها، آخترع ماشاءَ من الألقاب والنُّعوت؛ والضابط فى وضع الألقاب أن يراعىٰ فيها أحوالُ المكتوب له ، فيؤتىٰ منها بما يناسب حاله فى الوظيفة والرِّياسة وسائر أوصاف المَدْح اللائقةِ به ؛ فيؤتىٰ لصاحب السيف بالألقاب المقتضية للشَّجاعة والبَسَالة : مثل المُجاهِدىّ والمُثَاغِرِىّ والمرابِطىّ وما أشبه ذلك . وربما أُضيفَ له بعضُ الألقاب المقتضيةِ للعلم والصَّلاح، كالعالِمِىّ والعامِلِىّ ونحو ذلك، لآشتراك الناس فى المَدْح بمثل ذلك . ويؤتىٰ للعالِم والقاضى ونحوهما بالألقاب المقتضية للعِلْم كالعالمىّ والمحقِّقىّ والمدَقِّقىّ ونحو ذلك . وربما أُضيف إليها الألقابُ المقتضيةُ للصَّلاح لتمدّح العلماء به . ويؤتىٰ للصوفية وأهل الصَّلاح بالألقاب المقتضيةِ للصلاح والتعبُّد كالعابدىّ والزاهدىّ ونحوهما . ويؤتىٰ لكُتَّاب الإنشاء بالألقابِ المقتضيةِ للبلاغة كالبَلِيغ والمُفَوَّهىّ ونحوهما . ويؤتىٰ للنساء بالألقاب المقتضية للصِّيانة والعِفَّة كالمَصُونة والمحجَّبة وما أشبههما . ويؤتىٰ لأهل الكُفْر من الملوك ونحوهم بما لاحرج فيه علىٰ الكاتب : كالشجاعة وما فى معناها، والتقدُّم علىٰ ملوك طائفته وأهلِ ملَّته وما فى معنىٰ ذلك . فإن آجتمع فى شخصٍ واحدٍ أوصافٌ متعدّدةٌ من المَمَادح جُمِعتْ له . علىٰ أن أكثر مايستعمله الكُتَّاب من الألقاب غيرُ موجودة فى صاحبها، وإنما هى ألقابٌ حَفِظُوها لرتَبٍ معيَّنة لايسعُهم الإخلالُ بشىء منها وإن كانتْ كذبا محضا و﴿ إنَّا لله وإنَّا إليه راجعُونَ ﴾ . وقد كان فى القديم قاعدةٌ مستقرّةٌ : وهو أنه لا يلَقَّب أحد بلقب ولا يُكْنىٰ بكنية إلا أن يكون الخليفةُ هو الذى يلَقِّب بذلك أو يكني .

الجمـــــلة السابعة

(فى تفاوُتِ الألقابِ فى المَراتِب ، وهى قسمان)

القســـم الأوّل

(مايقع التفاوتُ فيه بالصُّعود والهُبُوط ، وهو نوعانـــ)

النـــوع الأوّل

(ما يقع التفاوتُ فيـــه بحسب القِـــلَّة والكَثْرة ، وله حالتان)

الحـالة الأولىٰ — أن يكون المكتوبُ إليه من أتباع المكتوبِ عنه ، كنُوّاب السلطنة فيما يُكْتَب عن الأبواب السلطانية من مكاتبَات ووِلَايات ، فزيادةُ الألقابِ وكثرتُها فى هذه الحـالة عُلُوّ وشرَف فى حقّ المكتوب إليه ، لأنهـا من باب المَدْح والإطراء ، ولا شكَّ أن كثرة المَدْح من المتبوعِ للتـابع أعلىٰ من قِلَّته ، ولذلك تقع الإطالةُ فى ألقاب كِبَار النُّوّاب والآختصارُ فى صـغارهم ، وتأتى فى غاية الآختصار فى نحو وُلَاة النَّواحى ومَنْ فى معناهم .

الحالة الثانية — أنـ يكون المكتوبُ له أجنبيًّا عن المكتوب عنه ، كالملوك الذين تُكْتَب إليهم المكاتباتُ عن السلطان ، فقِلَّة الألقاب فى حَقِّه أرفعُ لأن الإكثارَ من ذلك يُرىٰ أنه من باب المَلَق المذمومِ بين الأكابِر فى المكاتَبات فوجب تجنُّبـه كما يجب تجنُّب المدحِ وكثرةِ الدعاء ، ولذلك يقع الآختصارُ فى الألقاب فيما يُكْتَب لهم عن السلطان إجلالا لقَدْرهم عن رُتْبة رعاياه الذين يُكْثِر من ألقابهم .

النـــــوع الثـانى

(مايقَعَ فيه التفاوتُ فى العُلوِّ والهُبوط بحَسَب مايقتضيه جَوْهرُ اللفظ
أو ما وقع الاصطلاحُ عليه . وهو صنفان)

الصـــــنف الأوّل

(الألقـابُ المفـرَدة . وهى علىٰ أربعة أنمـاط)

النَّمَــــط الأوّل

(التـــوابع)

وهى التى تَلِى الألقابَ الأصولَ كالتى تلى المقامَ والمقرَّ والجنابَ والمجلسَ ؛ فيلى المَقامَ لفظُ الأشرف ولفظُ الشريف ولفظُ العـالى، فالمقام يقال فيـه « المَقَـام الأشرفُ العالِى » و « المقامُ الشريفُ العالى » و « المقامُ العـالى » . ويلِى المَقَرَّ لفظُ الأشْرَف ولفظُ الشريف ولفظ الكرِيم ولفظ العالِى ، فيقال « المَقَرُّ الأشرفُ العالى » و « المقرُّ الشريفُ العالى» و « المَقرّ الكريمُ العالى» و « المَقَرّ العالى » . ويلِى الجنـابَ لفظُ الكريم ولفظُ العـالى ، فيقال « الجنـابُ الـكريم العـالى » و «الجَنابُ العالى» . ويلى المجلس لفظ العالِى والسامِى، فيقال « المجلِسُ العالى » و « المجلِس السـامى » . والألفـاظ التى تتبع وهى الأشرف والشريف والكريم والعالى والسامى بعضُها أرفعُ من بعض علىٰ الترتيب . فالأشرفُ أرفع من الشريف، لأن أشرفَ أفعـلُ تفضـيل يقتضى الترجيحَ علىٰ غيره كما هو مقرّر فى علم النحو ؛ والشريف أرفعُ رتبةً من الكرِيم لمـا تقدّم عن ابن السِّكِّيت أن الكرم يكون فى الرجل وإن لم يكن له آباءٌ شرفاءُ ، والشَّرفَ لايكون إلا لمن له آباءٌ شرفاءُ . ومقتضىٰ ذلك ترجيحُ الشريف علىٰ الكريم لاقتضائه الفضل فى نفس الشخص وفى آبائه ، بخلاف

الكَرَم ؛ ولذلك آختير الشرفُ لأبنـاء فاطمةَ رضى الله عنهـا دُونَ الكَرَم . والكريمُ أرفعُ رتبـةً من العالى، لأن الكريمَ يحتمِل أن يكون من الكَرَم الذى هو خلاف اللُّؤم ويحتمل أن يكون من الكَرَم الذى هو خِلافُ البُخْل وكلاهمـا مقطوعٌ بأنه صفةُ مَدْح ، وإن الأقرب إلىٰ مُراد الكُتَّاب المعنىٰ الأوّل . والعـالى يحتمل أن يكون مِن عَلِيَ بكسر اللام يعلىٰ بفتحها عَلاءً بفتح العـين والمدّ إذا شَرُف ؛ ويحتمل أن يكون من عَلَا يعلُو عُلُوًّا إذا آرتفع فى المَكَان ، وليس العُلو فى المكان ممـا يدلُّ علىٰ صـفة المَدْح إلا أن يُسْـتَعارَ للآرتفاع فى الشرَف فيكون صـفةَ مَدْح حينئذٍ علىٰ سبيل المجَـاز وإن كان مراد الكُتَّاب هو المعنى الأوّل؛ وما كان مقطوعا فيه بالمدح من الجانبيْنِ أعلىٰ ممـا يكون مقطوعًا فيه بالمَدْح من جانبٍ دُونَ جانب . وقد آصطلَحُوا علىٰ أن جعلوا العالِيَ أرفعَ رتبةً من السامى ، وهو ممـا أُنْكِر علىٰ واضعه ، إذ لافرق بينهما من حيثُ المعنىٰ ، لأن السمُوّ بمعنىٰ العُلُوّ . والذى يظهر أن الواضعَ لم يَجْهَلْ ذلك ولعله إنمـا جعل العالِيَ أرفعَ رتبـةً من السامِي وإن كان بمعناه لأن العـالِيَ لفظٌ واضحُ المعنىٰ يفهمُه الخـاصُّ والعامُّ ، فيكون المدحُ به أعَمَّ باعتبار مَنْ يفهمُه ، بخلاف السامِي فإنه لا يَفْهَم معنىٰ العلوّ منه إلا الخاصةُ ، فيكون المدحُ به أخصَّ لآقتصار الخاصَّة علىٰ معرفته دُونَ العامَّة .

النمـــط الثـانى

(مايقع التفاوتُ فيه بحسَب لُحُوق ياءِ النسب وتجرُّده منها)

قد تقدّم أن الألقابَ المفردةَ منها ما تُلْحق به ياءُ النسب ومنها ما يَتجرَّد عنهـا ، وأن الذى تَلحقُه ياء النسب منها منـه ماهو منسوبٌ إلىٰ شيءٍ خارجٍ عن صاحب اللقب كالقضائىّ فإنه منسوبٌ إلىٰ القضاء الذى هو نفسُ الوظيفة، فيكون النسبُ

فيه علىٰ بابه؛ ومنه ماهو منسوبٌ إلىٰ صاحب اللَّقَب نفســه كالامِيرِىّ فإنه نسبةٌ إلىٰ الأمير وهو عينُ صاحبِ اللقب فدخلتْ فيــه ياءُ النسب للمبالغــة، كما فى قولهم لشدِيد الحُمْرة أحمرى" علىٰ ماتقدّم بيانهُ .

وبالجملة فقد ٱصطلَحُوا علىٰ أن يكون مالحِقَتْ به ياءُ النسبِ ارفعَ رتبةً ممــا تجرّد عنها، سواء كان منسوبًا إلىٰ نفس صاحب اللقبِ أو غيره، فيجعلون الأمِيرىَّ أعلىٰ رتبةً من الأمير، والقَضَائىّ أرفَعَ رتبــةً من القاضى؛ ثم يجعلون المنسوبَ إلىٰ نفس صاحب اللقبِ أرفعَ رتبــةً من المنسوب إلىٰ شيءٍ خارجٍ عنــه؛ ومن أجل ذلك جعلوا القاضَوِىّ أرفعَ رتبةً من القَضَائىّ. أمّا كون مالحِقتْ به ياءُ النسب (١) أرفعَ رتبةً من المجرّد عنهــا فظاهرٌ : لأن المبالغة تقتضى الرفعةَ ضرورةً؛ وأما كونُ المنسوب إلىٰ شيءٍ آخَرَ غيرِ المنسوب إليــه يقتضى الرفعةَ وإن لم يكن فيه مبالغةٌ ، فللالحاق بمــا فيه المبالغةُ ٱســتطرادًا ، لئلا يلتَبِس الحالُ فى النِّسبتيْن علىٰ الضعيف الفَهْــم فلا يفرُقُ بين ما هو منسوبٌ إلىٰ هــذا وبين ماهو منسوب إلىٰ ذاك . علىٰ أنهم لم يَقِفُوا مع الحــكم فى كون ما دخلتْ عليــه ياءُ النسب أرفعَ ممــا لم تدخُل عليــه فقد ٱســتعملوا الأجلَّ ونحوَه فى الألقاب الســلطانية التى هى أعلىٰ الألقــابِ ، فقالوا «السلطانُ الأجلُّ العالمُ العادِلُ» إلىٰ آخر ألقابه المفْرَدة منغيرإلحاقِ ياء النسب بها؛ ثم ٱستعملوا مثل ذلك فى ألقاب السامِى بغيرياء فما دُونَه مما هو أدنىٰ الألقاب رتبةً. وكأنهم اكتفَوْا بمكانة السلطانِ من الرِّفعة عن المبالغة فى ألقابه بإلحاق ياءِ النسب ، من حيث إن المعرَّف لا يحتاج إلىٰ تعريف .

---

(١) أى التى للمبالغة كما يفيده التعليل بعدُ .

النمـــــط الثـالث

(ما يَقَع التفاوتُ فيه بصيغةِ مبالغةٍ غير ياءِ النسب)

فيكون أرفعَ رتبةً لمعنى المبالغة كما فى الكَفيلِىّ فإنه أرفعُ رتبةً من الكافِلىّ ، لأن صيغةَ فَعِيلٍ أبلَغُ فى المعنىٰ من صيغةِ فاعلٍ من حيثُ إن فَعِيلا لا يصاغ إلامن فَعُل بضم العـين إذا صار ذلك الفعلُ له سجيـةً ، كما يقال كَرُم فهو كَرِيم وعَظُم فهو عظيم وحَلُم فهو حَلِيم ، بخلاف فاعلٍ ؛ ومن أجْل ذلك كان لفظُ فَقِيه أبلَغَ من لفظ فاقهٍ لأن فاقِه يُصاغُ من فَقِهَ بكسر القاف إذا فهِم ، ومن فَقَه بفتحها إذا سبق غَيْرَه إلىٰ الفهم . وفَقِيه إنمـا يُصاغ من فَقُه بضمها إذا صار الفِقْهُ له سجيَّـة كما مرّ القول عليه فى الكلام علىٰ الفَقِيه والفَقِيهى ّ فى الألقاب الإسلامية المفردة .

النمـــــط الرابع

(مايقع فيه التفاوتُ بحسب ما فى ذلك اللَّقَب من ٱقتضاء التشريف لعلو متعلَّقه و رِفْعته)

كالمَمَهِّدِىّ والمُشَيِّدِىّ ،فإن المراد ممهِّد الدول ومشيِّد الممالك علىٰ مامرّ فى الألقاب المركَّبة ؛ فإن من ينتهى فى الرُّتْبـة إلىٰ تمهيد الدُّوَل وتشييد الممـالك فلا نزاعَ فى أنه من عُلُوّ الرتبة بالمكانـ الأرفَع ، وكذلك ما يَجْرِى هذا المجرىٰ كالمدَبِّرِىّ بالنسبة إلىٰ الوزراء ومَنْ فى معنـاهم ، والمحقِّقِىّ بالنسبة إلىٰ العلمـاء ، والأَصِيلِىّ بالنسبة إلىٰ العَرِيق فى كَرَم الأصل ونحو ذلك .

الصنف الثـانى

(الألقابُ المركَّبة، وهى علىٰ ضربين)

الضـــــرب الأوّل

(ما يترتَّب بعضُه علىٰ بعض لَقَباً بعد لَقَب، وله ٱعتباران)

الاعتبـار الأوّل

(أن يشترك فى رعاية الترتيب أربابُ السيوف والأقلامِ وغيْرُهم،
وهـــو علىٰ ثـــلاثة أنمـاط)

النمـــط الأوّل

(ما يُضاف إلىٰ الإسلام، وله ثلاثةُ أحوال)

الحـال الأوّل — أن يكون ذلك فى ألقـابِ أرباب السُّيوف . وقد ٱصطَلَح المقرُّ الشِّهابِىّ بنُ فضل الله علىٰ أن جعل أعلاها رُكْنَ الإسلام والمسلمين فذكر ذلك فى المكاتبة إلىٰ النائب الكافِل، ومكاتبتُه يومئذ بالجَنَاب الكرِيم؛ ثم أبدل الكُتَّاب ذلك بعــده بمُعِزّ الإسلام والمسلمين، وجعلوه مع المكاتبة إليه بالمَقَر الكريم علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحـالُ آخِرا فى المكاتَبة إلىٰ النـائب الكافِل ونائبِ الشام؛ وجعلُوا دُونَ ذلك عِزّ الإسلام والمسلمين فأوردُوه مع الجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى علىٰ ما ٱستقرّ عليــه مصطلَحُهم فى السلطانيـات . وجعل فى "عرف التعريف" فى الإخوانِيَّات عزّ الإسـلام والمسلمين أعلىٰ الألقاب فأورده فى ألقاب المَقَرّ الشريف، ثم طَرَده فيما بعد ذلك من المَقَرّ الكريم والمقرّ العالى ولم يَعْدُه إلىٰ مابعدُ؛

ثم جعل دُونَه مجـد الإسلام والمسلمين ، فأورده مع المجلس العـالى مُطْلقا مع الدعاء وصَـدرَتْ ؛ ثم جعل دُونَ ذلك مجدَ الإسلام فقَطْ من غير عطف المسلمين عليه، فأورده فى المجلس السامىّ بالياء والسامى بغير ياء ، ولم يَعْـدُه إلىٰ مجلس الأمير بل أعاضه بمجد الأمراء علىٰ ما سيأتى ذكره ، وتابعه علىٰ ذلك فى التثقيف .

الحال الثانى — أن يكون ذلك فى ألقاب الوزراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم ككاتب السِّر ، وناظر الجَيْش ، وناظر الخاصّ فمن دُونَهم من الكُتّاب .

وقد ذكر المقرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى بعض دساتيره السامية أن أعلاها لهم ركْنُ الإسلام والمسلمين ، وجعل فى "عرف التعريف" أعلاها للوزراء صَلَاح الإسلام والمسلمين ، ولمن فى معنىٰ الوزراء عِزّ الإسلام والمسلمين ، اوجلال الإسلام والمسلمين وأورد ذلك مع المَقَرّ الشريف ومابعده : من المَقَرّ الكريم ، والمقرّ العالى ، والجناب الشريف ، والجناب الكريم ، وجعل دُونَ ذلك مَجْدَ الإسلام مجرّدا عن عطف المسلمين عليه ، وأورده مع المجلس العالى ، والمجلس السامى .

أما تخصيص صلاح الإسلام والمسلمين بالوزراء ، وعزّ الإسلام والمسلمين وجلال الإسلام والمسلمين بمن فى معناهم فلأن الصلاح فيـه معنى السَّداد والقصد ، والعز والجَلَال فيهما معنى العَظَمـة والهيبة ، ولاشك أن وظيفة الوزارة التى مَنَاطُها تدبير المُلْك بالصلاح أجدر ؛ علىٰ أنه اذا حصل الصلاحُ تبعتْه العظمة والهيبة ضرورةً . وأما كون جَلَال الإسـلام والمسلمين أعلىٰ من مجد الإسلام ، فلأمرين أحدهمـا أن الجلالَ بمعنى العظمة والمجد بمعنى الشرف والعظمة أبلغُ من الشرف لمـا فى العظمة من نَفَاذ الكلمة . والثانى أن الإضافة فى جلال الإسلام والمسلمين فى المعنى إلىٰ شيئين وفى مجد الإسلام إلى أحدهما .

الحـال الثالث — أن يكون فى ألقـاب القُضاة والعلمـاء ، وقد جعل فى "عُرف التعريف" أعلاها حُجّةَ الإسلام أوضياءَ الإسلام، فأوردهما مع الجَناب الشريف الذى هو عنده أعلىٰ الرُّتب لهذه الطائفة ، وجعل دُونَ ذلك بَهاءَ الإسلام فأورده مع الجَناب الكريم ، وجعـل دُونَه مَجْد الإسلام فأورده مع المجلس العالى والسامىّ بالياء وبغير ياء .

أما كون حجة الإسلام وضـياء الإسلام أعلىٰ رتبة من مجد الإسلام فلأن الحجـة فى اللغـة بمعنى البُرْهان وهو الدليـل القاطع، وبه تتقرّر قواعد الإسـلام ومبانيه؛ والضياء فى أصل اللغة خلاف الظلمة؛ ثم استعير للهداية وما فى معناها، ولاشكّ أن الوصف بهذين الأمرين أبلغ من الوصف بالمجد الذى هو بمعنىٰ الشرف .

الحال الرابعُ — أن يكون فى ألقاب الصلحاء، وقد جعل فى "عُرْف التعريف" أعلاها صَلَاحَ الإسـلام وأورده مع الحَضْرة، ومع الجَنـاب الشَّريف، والجَنَاب الكريم،وجعل دُونَه جَلَال الإسلام وأورده مع الجناب العالى،ودونه ضياءالإسلام وأورده مع المجلس العالى، وجعل دونه جلال الإسلام فأورده مع المَجلِس السامىّ بالياء فـا دُونَه .

أمّا كونُ صَلَاح الإسلام والمسلِمين أعلىٰ من جَلَال الإسلام والمسلمين فقد تقدّم بيانُه . وأمّا كونُ جلالِ الإسلام والمسلمين أعْلىٰ من ضياء الإسلام والمسلمين فلأَنَّ الجَلَال معناه العَظَمة وهى أَعْلىٰ من الضياء على ما فيه من التعسُّف .

النمـــــط الثـانى

(من الألقـاب المركَّبة ما يُضافُ إلىٰ الأُمَراء والوُزَراء ونحوهم ، من أرباب المراتب السَّنِيَّة ، وهو علىٰ الأحوال الأربعة المتقدّمة الذكر فيما يُضافُ إلىٰ الإسلام)

الحـال الأوّل — أن يكون فى ألقاب أرباب السـيوف . قد جعـل فى "عُرْف التعريف" أعلاها سَيِّدَ الأُمَراء فى العالمين ، وأورده مع المَقَرّ الشريف ، والمَقَرّ الكريم ، والمَقَرّ العالى . وجعل دُونَه سَـيِّد الأمراء المقدّمين ، وأورده مع الجَنَاب الشريف ، والجَنَاب الكريم ، والجَنَاب العالى . ودُونَه شَرَفُ الأمراء المقدّمين ، وأورده مع المَجْلس العـالى والدُّعاء . ودونُه شَرَفُ الأمراء فى الأنام ، وأورده مع السامىّ باليـاء . ودُونَه زَيْن الأمراء المجـاهدين ، وأورده مع السامى بغير ياءٍ . ودُونَه مَجْد الأمراء ، وأورده مع مجلس الأمير .

والذى فى "التثقيف" بعد سَيّد الأمراء فى العالمين سيّد أمراء العالمين ، وأورده مع الجناب العالى . ودونه شرف الأمراء فى العالمين ، وأورده مع المجلس العالى والدعاء . ودونه شرف الأمراء المقدّمين ، وأورده مع صدرَتْ والعالى . ودونه شرف الأمراء فقط ، وأورده مع السامىّ بالياء . ودونه فخر الأمراء ، وأورده مع السامى بغير ياء . ودونه مجد الأمراء ، وأورده مع مجلس الأمير . ولا يخفىٰ ما بينهما من الاختلاف . ولا مشـاحَّةَ فى الاصطلاح بعـد فهم المعنىٰ ، ولا نزاع فى أن الترتيب الذى فى التثقيف أحسن . واذا تأملت ذلك وعرضته على ما تقدّم من التوجيه فى النمط الأوّل ظهر لك حقيقة ذلك .

الحال الثـانى — أن يكون فى ألقـاب الوُزَراء ومن فى معناهم . فقـد ذكر فى "عرف التعريف" أن أعلاها للوزراء سيدُ الوزراء فى العالمين ، ولمن فى معناهم

من كاتب السرِّ ونحوِهِ سيِّد الكبراء فى العالمين ، وأورد ذلك مع المَقَرّ الشريف ، والمَقَرّ الكريم ، والمَقرّ العالى ، والجَنَاب الشَّريف ، والجناب الكريم ، والجناب العالى ، وجعل دونه لمن دونَ هؤلاء من الكُتَّاب فخر الأنام ، وأورده فى المجلس العالى والدعاء مع ما بعده .

الحال الثالث — أن يكون من ألقاب القضاة والعلماء .

وقد جعل فى "عرف التعريف" : أعلاها شرف الأنام . وأورده مع الجناب الشريف الذى جعله أعلىٰ المكاتبات لهم ، ومع الجناب الكريم والجناب العالى وجعل دونه فخر الأنام ، فأورده مع المجلس العالى بالدعاء . ودونه بهاء الأنام ، وأورده مع صَدرتْ والعالى ، ومع السامى بالياء والسامى بغير ياء .

الحال الرابع — أن يكون من ألقاب الصلحاء وقد جعل فى "عُرْف التعريف" أعلاها خالِصةَ الأنامِ ، وأورده مع الحَضْرة الشريفة التى جعلها أكبَرَ رُتَبِهم ، ومع الجَنَاب الشريف ، والجَنَاب الكريم ، والجَنَاب العالى ، وجعل دُونَهَ شرفَ الأنام واورده مع المجلس العالِى . ودُونَه زَيْن الأنام ، وأورده مع السامىّ بالياء وبغير ياء .

النَّمَـــط الثـالث

(من الألقاب المركَّبـــة مايُضاف إلىٰ المُلوك والسَّلاطين ، وهو علىٰ الأحوال الأربعة المتقدّمة الذكر)

الحـال الأول — أن يكون من ألقابِ أربابِ السُّيوف . وقد ذكر فى "عُرف التعريف" أن أعلاها ظَهِيرُ المُلوك والسلاطين ، وأورده مع المَقرّ الشريف والمَقَرّ الكريم ، والمَقرّ العالى ، والجَنَاب الشريف ، والجَنَاب الكَرِيم ، والجَنَاب العالى ،

وجعل دُونَه عَضُدَ الملوك والسلاطين ، وأورده مع المَجْلِس العالى والمَجْلِس السامىِّ بالياء. ودُونَه عُمْدَةَ الملوك والسلاطين، وجعله مع مَجْلِس الأمير. والذى فى "التثقيف" إيراد ظَهِير الملوك والسلاطين مع المَقَرّ الكريم ومابعده إلىٰ آخرِ المجلس العالِى؛ وجعل عَضُد الملوك والسلاطين مع السامىّ بالياء، وعُمْدَةَ الملوك والسلاطين مع السامِى بغير ياء، وعُدّةَ الملوك والسلاطين مع مجلس الأمير .

والحاصل أنه فى " التثقيف " زاد رُتْبتيْنِ فى ظَهِير الملوك والسلاطين ، فجعله فى المجلس السامِى مع الدعاء ومع صدرَتْ، علىٰ أن التحقيق أن عَضُد الملوك والسلاطين أعلىٰ فى الحقيقة من ظَهِير الملوك والسلاطين؛ لأن العَضُد عُضْو من أعضاء الإنسان: وهو مابين المِرْفَق والكَتِف، والظَّهِير خارجٌ عنه، وما كان من نَفْس الإنسان كيف يُجْعَل ماهو خارجٌ عنه أرفعَ منه بالنسبة إلىٰ ذلك الشخص ؟ .

الحال الثانى — أن يكونَ من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم . وقد جعل فى " عُرْف التعريف " أعلاها ظَهِيرَ المُلُوك والسلاطين أيضا، وأورده مع المَقَرّ الشريف، والمَقَرّ الكريم، والمَقَرّ العالى؛ والجنابِ الشريف، والجنابِ الكريم، والجناب العالِى؛ وجعل دُونَه صَفْوةَ الملوك والسلاطين، وأورده مع المجلس العالى فما دُونَه .

الحال الثالث — أن يكونَ من ألقاب القُضَاة والعُلَماء . وقد جعل فى " عرف التعريف" أعلاها للقُضَاة حَكَمَ المُلُوك والسلاطين، ولغيرهم من العُلَماء خالِصَةَ الملوك والسلاطين، وهو عنده للجَناب الشريف فما فَوْقَه. ودُونَه بَرَكَةَ الملوك والسلاطين، وأورده مع الجناب الكَرِيم، والجناب العالِى، والمجلِس العالِى، مع الدُّعاء. وجعل دُونَه صَفْوةَ الملوك والسلاطين، وأورده فى صدرَتْ والعالِى فما دُونَ ذلك .

الحـال الرابع — أن يكون فى ألقاب الصُّلَحاء . ولم يزد فى "عرف التعريف" علىٰ أنه يُكْتَب لهم بَرَكةُ الملوك والسلاطين ، وحينئذ فيُقْتَصر عليهـا لجميعهم ممن يستحقُّ ذلك بحسب ما يقتضِيه حالُ المكتوبِ بسببه .

النمـــط الرابع

(من الألقاب المرَكَّبة ما يضاف لأمير المؤمنين ، وهو علىٰ الأحوال الأربعةِ المتقـــدّمِ ذكرها (١))

الحـال الأوّل — أن يكون من ألقـاب أرباب السيوف ، وأعلاها قَسِيمُ أميرِ المؤمنين ، وهو من الألقاب الخاصَّة بالسلطان كما تقدّم ذكره فى موضعه . ودونه خَلِيل أمير المؤمنين ، وهو من ألقاب أولاد المُلُوك وألقاب بعض الملوك الأجانِب المكتوبِ إليهـم عن الأبواب السلطانية . ودُونَه عَضُـد أمير المؤمنين ، وهو أعلىٰ ما يُكْتَب لنُوّاب السلطنة عن الأبواب السلطانية ؛ وجعله فى "عرف التعريف" مع المَقَرّ الشريف خاصَّةً . ودُونَه سـيفُ أمير المؤمنين ، وأورده مع المَقَرّ الكريم والمَقرّ العالى ؛ ودُونَه حُسَامُ أمير المؤمنين ، وجعله فى "عُرْف التعريف" مع الجَنَاب الشريف والجنَـاب الكريم والجنابِ العالى ؛ ولم يُورِد بعـد ذلك لَقَبا بالإضافة إلىٰ أمير المؤمنيـن بل ٱقتَصر علىٰ ما يضاف إلىٰ الملوك والسَّلاطِين . وأما فى التثقيف فجعله مع المَقرّ الكريم والمَقرّ العالى . ودُونَه حُسَام أمير المؤمنين ، وأورده مع المجلس العالى والدُّعاء ، ولم يُورِد فيما بعد ذلك لقباً بالإضافة إلىٰ أمير المؤمنين .

والحاصـل أنه فى " عُرْف التعريف " زاد رتبةً فيما يُضاف إلىٰ أمير المؤمنين ، وهى حُسَام أمير المؤمنين .

---

(١) كذا فى الاصول ولم يذكر الحال الرابع وهو ألقاب الصلحاء فتأمل .

الحال الثانى — أن يكونَ من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم . ولم يَزِد فى "عُرْف التعريف" علىٰ وَلِىّ أمير المؤمنين، وأورده مع المَقرّ الشريف، والمَقرّ الكريم، والمَقرّ العالى والجناب الشريف؛ ويَحْسُن أن يجىء مع الجناب الكريم خالِصةُ أمير المؤمنين، ومع الجنَاب العالى صَفِىّ أمير المؤمنين أو صَفْوة أمير المؤمنين، ولا يُضَاف إلىٰ أمير المؤمنين مع المجلس العالى فما دُونه شىءٌ من الألقاب اكتفاءً بما يُضاف إلىٰ الملوك والسلاطين كما تقدّم فى أرباب السيوف .

الحال الثالث — أن يكون من ألقاب القُضَاة والعُلَماء . فقد جعل فى "عُرْف التعريف" أعلاها وَلِىّ أمير المؤمنين، وجعله مع الجنَاب الشريف فما فوقه، ويَحْسُن أن يجِىءَ مع الجَنَاب الكريم خالِصَةُ أمير المؤمنين، ومع الجناب العالى صَفِىّ أمير المؤمنين أو صَفْوة أمير المؤمنين، كما تقدّم فى الوزراء ومَنْ فى معناهم ومَنْ دُونَهم من الكُتَّاب .

الاعتبار الثانى

(فى الألقاب المرَكَّبة أن يختصَّ الترتيبُ فى الألقاب بنَوْع من المكتوب لهم، وهو أربعة أنماط)

النمـــط الأوّل

(ما يختصّ بأرباب السيوف، وله حالان)

الحال الأوّل — أن تَقع الإضافةُ فيه إلىٰ الغُزَاة والمُجاهِدين . وقد جعل المَقرُّ الشِّهابِىّ بن فضل الله فى "التعريف" ناصِرَ الغُزَاة والمجاهِدين أعلاها، فأورده فى المكاتبة إلىٰ نائب الشام، والمُكاتبةُ إليه يومئذ دُونَ المكاتبة إلىٰ النائب الكافل؛

وهو خلافُ مقتضىٰ تركيب لغة العَرَب لما تقدّم من أن صِيغةَ فَعِيل أعلىٰ من صيغةِ فاعل ، ولذلك جعلوا الكَفِيل أعلىٰ من الكافل علىٰ ماتقدّم بيـانُه . وحينئذ فيكون نَصِير الغُزَاة والمجاهدين أعلىٰ من ناصِرِ الغُزاة والمجاهدين علىٰ خلاف ماذكره .

أما فى "عُرْف التعريف" فإنه أعرضَ عن ذكر الألقاب المضافَة إلىٰ الغُزَاة والمجاهدين مع المَقَرّ الشريف الذى هو أعلىٰ الألقاب لأرباب السيوف من النُّوّاب وَمَنْ فى معناهم، وأتىٰ بعده مع المَقَرّ الكريم بنَصِير الغُزَاة والمجاهدين ، ثم أتىٰ بعده مع الجَنَاب الشريف إلىٰ آخر المجلس العـالى بنُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، فجعل نَصِيرَ الغُزاةِ أبلَغَ من نُصْرة الغزاة : لمـا فى نَصِـير من لفظ التـذكير وفى نُصْرة من لفظ التأنيث ، والتذكير أعلىٰ رتبـةً من التأنيث ؛ ثم أتىٰ مع السامىّ باليـاء بذُخْر الغُزاة والمجاهدين، ثم مع السامِى بغير ياء بزَيْن الأُمَراء المجاهدين علىٰ وَصْف الأمراءِ بالمجاهِدين دُونَ عطفِ المجاهدين علىٰ الأمراء ؛ ثم مع مَجْلِس الأمير بزَيْن المجاهدين .

وجعل فى "التثقيف" أعلاها ناصِرَ الغُزاة والمجاهدين تبعًا "للتعريف" وأورده مع المَقَرّ الكريم ، ودُونَه نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، وأورده مع الجَنَاب الكريم وما بعده إلىٰ آخرِ المجلس العالِى ؛ ثم أتىٰ مع السامِىّ بالياء بأوْحَد المجاهِدين، ومع السامِى بغير ياء ومجلس الأمير بزَيْن المجاهدين، والحالُ فى ذلك قريبٌ .

الحال الثانى — أن يكون اللقب مضافًا إلىٰ الجُيوش . وقد جعل فى "التعريف" أعلاها أَتَابِك الجُيوش، وأورده فى ألقاب النائب الكافل؛ وجعل دُونَه زَعِيم الجُيوش وأورده فى ألقــاب نائب الشام، وهو يومئذ دُون النـائبِ الكافِل؛ ثم جعل دُونَه زَعِيمَ جُيوش الموحِّدين ، وأورده فى ألقاب نائب حَلَب . وعلىٰ نحوٍ من ذلك جرىٰ فى "عرف التعريف" فجعــل أعلاها زَعِيم الجُيُوش وأورده مع المَقَر الشريف ،

والمَقَرّ الكريم والمَقَرّ العالى ؛ ودُونه زَعِيمَ جُيوش الموحِّدين، وأورده مع الجناب الشريف والجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى ؛ ولم يُورِدْ شيئا فى هذا المعنىٰ فيما بعد ذلك ، وعلىٰ نحو ذلك جرىٰ فى التثقيف .

النمــط الثـانى

(ما يختص بالوُزَراء ومَنْ فى معناهم : من كاتِب السرّ ونحوه فمَنْ دُونَهــم من الكُتَّاب)

وقد ذكر فى "عرف التعريف" أن أعلاها للوُزَراء سيِّدُ الوُزَراء فى العالمين، ولمن فى معناهم سيِّدُ الكُبَراء فى العالمين ، وأورد ذلك مع المَقَرّ الشريف والمَقَرّ الكريم والمقرّ العالى والجَنَاب الشريف والجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى؛ وجعل دُونَه لمَنْ دُونَهم من الكُتَّاب شَرَف الرؤساء،وأورده مع المجلس العالى؛ ولا شَكَّ أنه يَجِيء بعده أوْحَدُ الكُتَّاب أو شَرَفُ الكُتَّاب مع المجلس السامىّ بالياء ، ثم جَمَال الكُتَّاب للسامى بغير الياء فما دُونَه .

النمــط الثـالث

(ما يختصُّ بالقُضاة والعلمــاء)

وقد جعل فى "عرف التعريف" أعلاها سَيِّد العلماءِ والحُكَّام، ولغيرهم أوْحَد العلمــاء الأعلام، وجعله للجناب الشريف فما فوْقَه، ثم للجنَاب الكريم، والجَنَاب العالى؛ وجعل دُونَه تاجَ العُلمــاء والحُكَّام ، أو شَرَف العلمــاء والحُكَّام ، وأورده مع المجلس العالى ؛ ودُونَه جَمَال العلماء أوْحَد الفُضَلاء ، وأورده مع السامىّ بالياء؛ ودُونَه جَمَال الأعيان مع السامِى بغير ياء فما دُونَه .

النَّمَــط الرابع

(مايختَصُّ بالصُّــلَحاء)

وقد جعل فى "عرف التعريف" أعلاها لهم شَيْخ شُيُوخ العـارفين، وأورده مع الحَضْرةِ الطاهِرةِ ، وجعل دُونَ ذلك أوْحَدَ المحقِّقين ، فأورده مع الجَنَاب الكريم؛ ودُونَه أوْحَد النَّاسِكين، فأورده مع الجَنَاب العالى .

قلت : وليس وَضْعُ هذه الالقاب علىٰ الترتيب فى العُلُوّ والهُبُوط راجعًا إلىٰ مجرّد التَّشهِّى من غير تَقَصٍّ لعُلُوّ أو هُبُوط يدلُّ عليه جوهَرُ اللفظ ، بل لا بدّ أن يكون لتقدُّم كلِّ لقبٍ منها علىٰ الآخر و رِفْعته عليه فى الرُّتْبة سببٌ يقتضيه اللفظُ وتوجبُـهُ دلالتَهُ الظاهرةُ أو الخفيَّةُ . وما وقع فيها مما يخالف ذلك فلعدم تأمُّل الواضعِ لذلك، أو وُقُوعه من بعض المُدَّعين الظانِّين أن القلَمَ فى ذلك مطلَقُ العِنَان، يتصرَّفُ فى وضعه كيف شاء من غير نظرٍ إلىٰ ما يُوجِب تقديمـًا ولا تأخيرًا . ومـما يُوضِّح ذلك ويُبيِّنه أنك إذا اعتبرتَ الألقـابَ المضافةَ إلىٰ الإسلام المتقدّمةَ الذكر فى أرباب السيوف مثلًا، رأيت أعلاها رُكْنَ الإسلام والمسلمين، علىٰ ماهو مذكورٌ فى "التعريف" وغيره من سائر دَسَاتيرِ المَقرّ الشِّهابىِّ بن فضل الله، وأعلاها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" مُعِزّ الإسلام والمسلمين، ودُونَ ذلك فى الرتبــة عِزّ الإسلام والمسلمين، ودونَه مَجْد الإسلام والمسلمين، ودونه مجد الاسلام فقط من غير عَطْف، علىٰ ما تقدّم ذكره .

أمَّا كونُ رُكْنِ الإســلام والمسلمين أعلىٰ من عِز الإسلام والمسلمين، فلأنَّ رُكْنَ الشىء فى اللغــة جانِبُــه الأَقْوىٰ ، وقد قال الأُصوليُّون : إن الرُّكْن ما كان داخِلَ المــاهِيَّة ، وحينئذ فيكون رُكنُ الشىءِ بعضًا منه بخلاف العِزِّ فانه معنًى من المعـانى خارجٌ عنه، وما كان بعضًا للشىء كان أَخَصَّ به ممـا هو خارجٌ عنه .

وأما وَجْه إبدالهم رُكْن الإســلام والمسلمين بعِزِّ الإســلام والمسلمين فلأن في الرُّكْن معنى العِزِّ والقُوَّة ، وقد فسر قوله تعالى حكايةً عن لُوطٍ عليه السلام : ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ بالعِزِّ والمَنَعة ، فجُعل المعزُّ لهذا الاعتبار في الألقاب قائما مَقَامَ الركن .

وأمّا كَونُ عِزِّ الإسلام والمسلمين أعلى من مَجْد الإســلام والمسلمين ، فلأن العِزَّ أجدى في النَّفْع من المَجْد ، فقد تقدّم أن ٱبنَ السِّكِّيت قال : إن المَجْد لا يكون إلا بشَرَف الآباء ، ولا نِزاعَ في أن العِزَّ في تعارُف الملوك أكثرُ جَدْوى وأوفرُ نفعا في تحصيل المَقَاصد . وقد ذكر أبو جعفر النحاسُ في "صناعة الكُتَّاب" أن الكُتَّاب في الزمن القديم كانوا يجعلون الدُّعاءَ بالعِزِّ عَقِبَ الدعاء بطُول البَقَاء ، فإنه يكون بالعزّ مَصُونا عاليا آمِنًا غَنِيًّا .

وأمّا كونُ مَجْدِ الإسلام والمسلمين أعلى من مَجْد الإسلام ، فلأنَّ الشيء كلَّما تعدّى فعلُه إلى غيره كان أرفعَ رتبةً ، ومجدُ الإســلام والمسلمين يتعدّى إلى شيئين : وهما الإسلام والمسلمين ، ومَجْد الإسلام لا يتعدّى إلا إلى شيء واحد : وهو الإسلامُ .

فلذلك[1] إذا ٱعتبرتَ الألقاب المضافة إلى أمير المؤمنين ، رأيتَ أعلاها في أرباب السيوف قَسِيمَ أمير المؤمنين ، ودُونَه خَلِيل أمير المؤمنين ، ودُونَه عَضُد أمير المؤمنين ودُونَه سَيْف أمير المؤمنين ، ودُونَه حُسَام أمير المؤمنين .

أمّا كونُ قَسِيم أمير المؤمنين أعلى من خَلِيل أمير المؤمنين ، فلأنَّ القَسِيم بمعنى المُقَاسِم ، والمراد أنه قاسَمَ أمير المؤمنين المُلْكَ وساهمه في الأمر فصارا فيه مشترِكَيْن ، وخَلِيلُ أميرالمؤمنين مأخوذ من الخُلَّة بضم الخاء وهي الصَّدَاقة ، وفَرْقٌ بين مَنْ يُقَاسِم

(١) كذا في الاصول والأظهر وكذلك إذا اعتبرت الخ عطفا على أنك إذا اعتبرت الخ المتقدم في الصفحة قبل .

الخليفةَ فيصير عَديلَه فى الامر، وبَينَ مَنْ يكون خَليله وصاحِبَه . علىٰ انه قد تقدّم أن الملوكَ قد أربت بأنفُسِها (١) عن هذا اللقب لاستبدادهم بالملكِ واستيلائهم عليه .

وأمّا كونُ خليلِ أميرِ المؤمنين أعلىٰ من عَضُد أمير المؤمنين ، فلأن العَضُد ليس المرادُ منه العُضوَ الحقيقيَّ الذى هو بين الكَتِف والمِرْفَق ، وإنما آستُعير للناصر وكأنه يَنْصُره بنَفْسه كما ينصُره عَضُده ، ومثل هذا الوصف لا يكون إلا للأتْباع ، بخلاف الخَلِيل والصَّدِيق فإنه لاتكاد رتبتُه عند الشخص تنحطُّ عن رُتْبة نفسِه .

وأمّا كونُ عضُدِ أمير المؤمنين أعلىٰ من سَيْف أمير المؤمنين ، فلأن العَضُد وإن قُصِد به الناصرُ فإنه منقول عن العُضْو للناصِر كما تقدّم وعُضْو الإنسان عنده فى العِزّة وقُوّة النَّصر فوق سيفه فى ذلك .

وأمّا كونُ سيفِ أمير المؤمنين أعلىٰ من حُسَام أمير المؤمنين ـ وإن كان الحُسَام متضمِّنا لوَصْف القَطْع الذى هو المقصودُ الأعظمُ من السيف من حيث إنه مأخوذ من الحَسْم : وهو القطع ـ فلأن السيفَ مأخوذٌ من سافَ إذا هَلَك كما صرح به الشيخُ "جمالُ الدين بنُ هشام" فى شرح قصيدةِ كعبِ بن زُهَيْر ، ولا شكَّ أن معنىٰ الإهلاك أبلغُ من معنَى القطع : لأن القطع قد يقَع فى بعض البَدَن مما لا يتضمَّن الإهلاكَ ، وهذا مما يجب التنبُّه له فإنه ربما تُوُهِّم أن الحُسام أبلغُ من السيف لتضَمُّن وصف القَطْع كما تقدّم .

وبالجملة فلا سبيلَ إلىٰ استيعابِ جميع مايَرِد من هذا الباب بالتوجيه : لأن ذلك يُؤدّى إلىٰ الإسهاب والمَلَل . والقولُ الجامع فى ذلك أنه يُنْظر إلىٰ الألفاظ الواقعة فى الألقاب وما تقتضيه من أصناف المَدْح ، وما تنتهى إليه رتبتُها فيه من أعلىٰ

(١) لعله ربأت بأنفسها أى ترفعت أو زمت بأنفها أى شمخت .

الدرجات أوْ أوْسـطها أو أدناها فيرتبها علىٰ هـذا الترتيب ، ويوجِّهُها بمـا يظهر له من التوجيه علىٰ نحو ماتقدّم . كما إذا ٱعتبَرتَ رتبةَ الجَلال والجَمال فإنك تجِدُ الجَلال أعلىٰ رتبةً : لأن معنىٰ الجَلال العظمةُ ، ومعنى الجَمال الحُسْن ، ولا نزاعَ فى أن العظمة أبلغُ وأعلىٰ مَوْقِعـا من الحُسْن . وكما إذا ٱعتـبَرْتَ الضِّياء والبَهاءَ ، فإن الضِّياء يكون أبلغَ لأن الضـياء معناه النُّورِ الذاتىُّ وهو متعدِّى النفع عامُّ الفَضِـيلة ، والبَهاء معناه الحُسْن وهو قاصرٌ علىٰ صاحبه . وفيما ذُكِر إرشادٌ إلىٰ مالم يذكر .

القســـم الثـانى

(ممـا نتفاوت فيه مراتبُ الألقـاب ما يقَعُ التفاوتُ فيه بالتقديم والتأخـير ، وهو نوعان)

النـــوع الأوّل

(الألقابُ المفردةُ ، وهى علىٰ ســتة انمـاط)

النَّمَـــط الأوّل

(الألقابُ التى تلى الألقابَ الأصُولَ)

وهى التى تلى المَقام والمَقَرّ والجَنَاب والمَجلس : كالأشرف والشريف والكريم والعالى والسامى : فالأشرفُ يلى المقامَ والمقرَّ ، فيقال : المقامُ الأشرفُ ، والمقرُّ الأشرفُ ، والشريفُ يلى المقامَ والمقرَّ والجنابَ ، فيقال : المقامُ الشريفُ ، والمقرُّ الشريفُ ، والجنابُ الشريفُ . والكريمُ يلى المَقَرّ والجنابَ ، فيقال : المَقرّ الكريمُ ، والجنابُ الكريم . والعالى يلى المَقام والمَقرّ والجَناب والمَجْلس ، فيقال : المَقَام العالى ، والمَقرّ

العالى ، والجَنَـاب العالى ، والمَجْلِس العالى . والسامى يلى المجلِس خاصّةً، فيقال : المجلس السَّامِي . والعالِي يلى الأشرفَ والشريف والكريمَ، فيقال : الأشرفُ العالى، والشريفُ العالِي، والكريمُ العالِي .

النمـــــط الثـانى

(مايلى العالِي أو السامِي من الألقاب)

وهو اللقب الذى يميّز نوعَ المكتوب له ، كالأميرِى لأرباب السيوف، والصاحبِيّ للوُزَراء من أرباب الأقلام، والقَضَائىّ والقَاضَوىّ لسائر أرباب الأقلام، والشَّيْخىّ للصوفِيَّة وأهـل الصَّلاح ، والصَّدرِىّ للتُّجَّار ومَنْ فى معناهم . مثل أن يقال : المَقَرّ الكريم العالى [الأميرىّ](١) والجناب العالى الصاحبِيّ، أو الجناب العالى القاضَوِىّ ، أو المجلس العـالى ، أو المجلس السامى الشَّـيْخىّ، أو المجلس السـامى الصَّدْرىّ، وما أشبه ذلك . والمعنىٰ فى وضع هذه الألقاب فى هذا الموضع أن يُدَلّ أوّلُ لقبٍ يُذْكر بعـد اللقب الأصل وتابِعِه علىٰ الوَظِيفـة كما تَدُلّ براعةُ الاستهلال علىٰ صورة الحـال فى المكاتبة أو الوِلَاية أو غيرهما، وربمـا كان المحلُّ ممـا يقتضى التلقيب بالمَوْلَوِىّ فيقدَّم لقبُ المولوىّ علىٰ لقب الوظيفة . مثل أن يقال : المَقَرّ الشريفُ العـالى المَوْلَوِىّ الأَمِيرِىّ، فإن كان اللقبُ الأصلُ مضافاً لمجلِس الأمير أو مجلِس القـاضى أو مجلس الشيخ أو مجلس الصَّدْر ، قام المضافُ إليه مَقامَ لقب الوظيفة؛ فيقوم الأمير من مجلس الأمير مقام الأميرِىّ، والقاضى من مجلس القاضى

---

(١) الزيادة متعينة وقد أخذناها من الضوء للؤلف .

مقـام القَضَائىّ، والشـيخ من مجلس الشيخ مقـام الشَّيْخىّ، والصَّدْر من مجلس الصدر مَقـامَ الصَّدْرىّ . ثم لا يُنْعت بعد ذلك فى هذه الحالة إلا بالأجَلّ، ويُؤْتىٰ بعده بمـا يناسبه من الألقاب .

النمـــط الثالث

(ما يلِى لقَبَ الوظيفـــة)

وهو الكَبِير أو الكَبِيرى، فيؤتىٰ به تِلْوَ اللقبِ الدالّ علىٰ الوظيفة مثل أن يقال : المَقَرّ العـالى الأمِيرِىّ الكَبِيرى، أو الجناب العالى القَضَائى الكَبِيرىّ، أو المجلس السامِىّ الكبِيرىّ إذا كان بالياء، أو الكبير إذا كان بغير الياء .

النمـــط الرابع

(مايقع قبْل لَقَب التعرِيف الذى هو الفُلانىّ أو فلانُ الدِّين)

وهو اللقبُ الدالُّ علىٰ الوظيفـة دلالةً خاصَّـةً ، كالكافِلىّ والكَفِيلىّ للنوّاب، والوَزِيرِىّ للوزراء ، والحاكمىّ للقُضاة . فإن كان المكتوبُ له نائبَ سلطنة كتب له قَبْلَ الفُلانى الكافلىّ أو الكَفِيلىّ بحسَب ما يقتضيه الحالُ، وإن كان حاكما كُتِب الحاكمىّ . قال فى "التثقيف" : وإن كان وزيرًا كُتِب فى آخر ألقابه الوَزِيرىّ . والذى ذكره فى " عُرْف التعريف " أن الوَزِيرِىّ يلى لقبَ الوظيفـة ، فإذا كان الوَزيرمن أرباب السـيوف كُتِب الأَميرىّ الوَزيرىّ؛ وإن كان من أرباب الأقلام كُتِب الصاحِبىّ الوزِيرىّ . وما ذكره فى " التثقيف " متّجه فيما إذا كان الوزير صاحبَ قَلَم ، فإن التعريف فى الوظيفـة يُعْرَف أوّلا من قوله الصاحبِىّ .

وما ذكره فى "التعريف" ظاهرٌ فيما إذا كان الوزيرُ من أرباب السيوف، فإنه يتعين تقديمُ الوَزيرىّ فيذكر بعد الأميرىّ ليدل من الابتداء على الوظيفة، إذ مطلق الإمرة لايَدُلُّ على وِزَارة ولاعدمها، فلو أُخِّر إلى آخر الألقاب لَمَا عُرِف أنها ألقابُ وزيرٍ إلى حين ذكر هذا اللقَبِ، وإنما رُتِّب هذا الترتيب ليدُلَّ باللقب الذى هو أوّل الألقاب بعد العالى أو السامى على حال صاحبِ تلك الالقاب هل هو من ارباب السيوف أو الأقلام أو غير ذلك، وباللقب الذى هو آخر الألقاب المفردة على وظيفته الخاصّة به .

النمـــط الخامس

(ما يقع فَصْلا بين الألقاب المفردة والمركَّبة)

وهو لقب التعريف كالفُلَانىّ وفُلَان الدين ، فقد جعلوه فاصلًا بينهما .

النمـــط السادس

(ماليس له موضعٌ مخصوصٌ من الألقاب المفردة)

وهو مابين اللقَب الذى يقَع به التميـيزُ بين الأميرىّ ونحوه، وبين اللقب الذى قبل لقب التعريفِ كالعالمىّ والعادلىّ ونحوهما، فالقلم فى ذلك مطلق العِنَان بالتقديم والتأخير على ما يقتضيه الحالُ بحسب ما يراه الكاتبُ .

النـــوع الثـانى

(ممـا تتفاوَتُ فيه مراتبُ الألقاب بالتقديم والتأخير الألقابُ المركَّبة المعبَّر عنها بالنُّعوت، وهى علىٰ ثلاثة أنمـاط)

النمـــط الاول

(ما يلى لقَبَ التعريفِ الذى هو الفُلانِىُّ أو فلانُ الدين)

وهو ما يضاف إلىٰ الإسـلام مثل رُكْن الإسـلام والمسلمين وعِزُّ الإسلام والمسـلمين وما اشـبه ذلك ، فقـد اصطلَحُوا علىٰ أن يكونَ ذلك أوّلَ الألقاب المركَّبة ، وتوجيهه ظاهر لأن المضافَ يشْرُف بشرف المضاف إليـه ، ولا أشْرَفَ عند اهل الإسلام من الإسلام فوجب تقديم ما يُضاف إليه علىٰ غيره .

النمـــط الثـانى

(ما يقـــع فى آخر الألقـابِ المركَّبـــة)

ويختلف الحال فيه باختلاف حالِ المكتوبِ له ، فإن كان ممن يُكْتَب له المجلس السامِى بغير ياء فمـا دُونَه جُعِل آخِرُ الألقاب فيه مايضاف إلىٰ المُلوك والسلاطين، مثل أن يقال : صَفْوةُ الملوك والسلاطين، أواختيارُ الملوك والسلاطين وما أشـبه ذلك . وإن كانـ ممن يُكْتَب له السامىّ بالياء فمـا فوقه جُعِل آخِرُ الألقاب فيه مايضاف إلىٰ أمير المؤمنين : مثل عَضُد أمير المؤمنين، ووَلِىّ أمير المؤمنين،وخالصة أمير المؤمنين، وما أشـبه ذلك علىٰ ما تقتضيه رُتْبـة المكتوب له . والمعنىٰ فيه أن حُسْن الاختتام بالإضـافةِ إلىٰ الملوك والسلاطين الذين هم ثانى رُتْبة الخلافة .

النمـــــط الثـالث

(مابين أوّل الألقاب المركّبة و بين آخرها)

فقد آصطلحوا علىٰ أن يكون المقدّمُ منها ممـا يقتضى تقديمَ المكتوبِ له علىٰ أبناء جنسه . مثل : سـيّدُ الأمراء فى العالمين ، وسيّدُ العلمـاء والحُكّام فى العـالمين ، وما أشبه ذلك؛ ثم فى حقّ كل أحد من أرباب الأقلام والسيوف بحسب مايقتضيه حالُه علىٰ نحو ما تقدّم فى الكلام علىٰ ماتتفاوت رتبُه بالعُلُوّ والهُبُوط .

الجمـــــلة الثامنة

(فى بيـان محل اللّقب المضافِ إلىٰ الملك ولقبِ التعـريف الخاصّ به الواقعِ تِلْوَ اللقب الملوكىّ ، مثـل المَلَكِىّ الناصرىّ الزَّيْنىّ وما أشبه ذلك ؛ وله ثلاثة أحوال)

الحـالة الاولىٰ — أن يكونَ ذلك فى ألقاب السلطان نفسِه ، كما يقع فى التقاليد والمَنَاشير ونحوهما . فموضعُه بعدَ رُسِم بالأمر الشريف ،أو خَرجَ الأمرُ الشريف ، مثـل أن يُكْتَب رُسِم بالأمر الشريفِ العـالِى المَوْلَوِىّ السلطانىّ المَلَكِىّ الناصرىّ الزَّيْنِىّ ، أو ــ فلذلك رُسِم بالأمر الشريفِ الفلانِىّ الفلانىّ ، أو خرج الأمرُ الشريفُ العالى المَوْلوِىُّ السلطانىّ المَلَكِىّ الفُلَانىّ الفُلَانىّ ، وما أشبه ذلك .

الحـالة الثانية — أن يكون اللقب المضاف إلىٰ الملك فى ألقاب المكتوبِ له ، كما لو كُتِب فى تقليد أو نحوه . ومحـلُّه بعد ذكر اسم المكتوبِ له بعـد الألقاب ، مثل أن يقال بعد آنتهاءِ الألقـابِ : فُلَان الظاهِرىّ أو الناصِرىّ ونحو ذلك ، ولا يقال له المَلَكىّ حينئذٍ .

الحالة الثالثة — أن يكون فى ألقاب المكتوب عنه كما يُكْتَب فى أوّل المُكاتباتِ المَلَكِيِّ الفلانىّ، وقد ٱصطلَحُوا علىٰ أن يُكْتَب ذلك تحت جَرَّة البسملةِ علىٰ ماسيأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة التاسعة

(فى ترتيب جملةِ الألقابِ الفُروع علىٰ الألقاب الأُصُول علىٰ قَدْر طَبَقاتها، وهى قسمان)

القسم الأوّل

(الألقابُ الإسلاميَّةُ)

واعلم أن ترتيبَ الألقاب تارةً يكون فى السُّلْطانِيَّات ، وتارةً يكون فى الإخوانِيَّات وما يُكْتَب عن النُّوّاب . وقد كانوا فى الأيَّام الناصِرِيَّة « محمد بن قلاوون » يستعملون فى الإخْوانِيَّات وما يُكْتَب عن النُّوّاب النُّعوتَ المركَّبة كما فى السُّلْطانيات، لا يَفْرِق بينهما إلا مافى الإخوانيات وما فى معناها من الألقاب التى لاتصْلُح للسلطانيات، كالمَوْلَوِىّ والسيِّدىّ والمَخْدُومىّ ونحوها . أما الآنَ فقد وقع الاقتصارُ فيها علىٰ المُفْرَدات دُونَ المركَّبات، وصارت المركَّبات مختصةً بالسلطانِيَّات .

ثم الألقابُ الإسلاميةُ الفروعُ المرتَّبةُ علىٰ الألقاب الأصولِ علىٰ سبعة أضْرُب :

الضرب الأوّل

(الألقاب المتعلِّقةُ بالخلافة وما يلتحِقُ بها، ومَبْناها علىٰ الآختصار ؛
وهى ثلاثةُ أنواع)

النـــــوع الاوّل

(ألقــابُ الخلفاء ، وهى صــنفان)

الصنفُ الأوّل — أن تكون لنَفْس الخليفة . فكان يقال فيها فى الزمن القديم « عبدُ اللهِ فلانٌ أميرُ المؤمنين » [فإن كان آسمُ الخليفةِ عبدَ الله كالمأمون كُرِّر الآسمُ مرتين : مرةً للاِسم العَلَم ومرةً للقَبِ الخِلافة ، فيقال : « عَبْد الله عبدُ الله أمير المؤمنين »](1) ثم زِيد فيهـا الكنيةُ بعدِ ذلك ، فقيــل « عبدُ الله فلانٌ أبو فلان أمير المؤمنين » ثم زِيدَ لفظُ الإمام فقيــل « عبد الله فلانٌ ابو فلان [الإمام](1) الفلانِىُّ — بلقب الخلافة مثل المتوكل علىٰ الله ونحوه — أمير المؤمنين» ثم زيد ووليُّه بعد عبدِ الله، فقيل : «عبدُالله ووليُّه فلانٌ أبو فلانٍ الإمام الفلانىّ أمير المؤمنين» وهو ما آستقرّ عليه الحال آخِرا .

الصنف الثــانى — أن تكون الألقــاب للدِّيوان فى مكاتبةٍ أو غيرها . والذى آصطُلِح عليه أن يقال « الدِّيوانُ العزيزُ المَوْلَوىُّ السيِّدىّ النَّبَوىّ الإمامىّ الفلانىّ» بلقب الخلافة .

---

(1) الزيادة عن ضوء الصبح للؤلف ج ١ ص ٣٦٩ لتمام الفائدة .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ وُلَاة العـــهد بالخلافـــة)

وهى « الجـانبُ الشريفُ ، المَوْلَوِىّ ، السيِّدىُّ ، النَّبوِىّ ، الفُلانىّ » بلقبه المنسوب إلىٰ الخلافة . وربمـا قيل فيـه الجَنَاب بدل الجانب ، وبقيَّةُ الألقاب علىٰ ماتقدّم .

النـــوع الثـالث

(ألقـابُ إمام الزيدية باليَمَـــن)

وهى «الجَنَاب الكريم، العـالى ، السيِّدىّ، الإمامىّ، الشَّريفىّ ، النَّسِيبىّ ، الحَسِيبىّ، الفلانىّ» بلقب التعريف «سَـلِيل الأطهار ، جَلَال الإسـلام، سَيْف الإمام، بقيَّة البيت النبوِىّ، فَخْر الحَسَب العلوىّ، مُؤيِّد أمورِ الدين، خليفة الأئمة، رَأس العَلْياء ، صالح الأولياء ، علَم الهُدَاة ، زَعِيم المؤمنين ، ذُخْر المسلمين ، مُنْجِد الملوك والسلاطين» .

الضرب الثـانى

(الألقابُ المُلُوكيـــة ، وهى نوعان)

النـــوع الأوّل

(الألقابُ التى آصطُلِح عليها للسلطان بالدِّيار المصرية علىٰ ما الحالُ مستقرّ عليه، وقد ذكر فيها فى التعريف مذهبين)

المذهبُ الأوّل — أن يقال « السُّـلطان السيِّدُ الأجَلّ الملكُ الفلانىّ العالم العادلُ المجاهــدُ المرابطُ المتاغرُ المؤيَّد المظفَّر المنصورُ الشاهنْشاه فلانُ الدنيا

والدّين، سلطـانُ الإسلام والمسلمين ، مُحْيِي العَدْل فى العالَمين، وارثُ المُلْك، مَلِك العَرَب والعجَمِ والتُّرْك ، ظلّ الله فى أرضِه ، القائمُ بسُنَّته وفَرْضه ، إسكندرُ الزمان، مُمَلِّك أصحـابِ المَنابِر والأسِرَّة والتِّيجان ، واهبُ الأقاليم والأمصارِ، مُبِيـد الطُّغاة والبُغـاة والكُفَّار، حامى الحرمين الشريفين والقبلتين ، جامعُ كلمةِ الإيمـان، ناشرُ لِواء العدلِ والإحسان ، سـيِّدُ ملوك الزمان ، أبو فلان فلان، آبن السلطان الشهيد الملك الفلانى، والد الملوك والسلاطين، أبى فلان فلان » .

أما فى "التثقيف" فإنه ذكـر ذلك بزيادةٍ وتغيير، وتقديم وتأخيرـ فقال : « السلطان الأعظمُ، المـالك الملك الأشرف السيدُ الأجلُّ العالم العادل المؤيَّد المجاهدُ المرابط المثاغرُ المظفَّر الشاهِنْشاه ناصرُ الدُّنيـا والدين، سلطانُ الإسلام والمسلمين، محيي العدل فى العالمين، مُنْصِف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العَرَب والعَجَم والترك، فاتح الأقطار، مانحُ الممالك والأمصار، إسكندَرُ الزمان، مُولِى الإحسان، جامع كلمة الإيمـان ، مُمَلِّك أصحاب المَنابِر والتُّخُوت والتِّيجان ، مَلِك البحرين، مسَلِّك سُبُل القبلتين، خادمُ الحرمين الشريفين، ظلُّ الله فى أرضه، القـائمُ بسنَّته وفرضه ، سلطانُ البسيطه ، مؤمِّن الأرض المُحِيطه ، سـيد الملوك والسلاطين ، وَلِىّ أمير المؤمنين، أبو فلان فلان بن فلان » . وذكر أن الغالب أن تُحْذَف الشاهنشاه، لأن معناها مَلِك الأملاك، وقد تقدّم النهىُ عن التسمِّى بذلك.

ثم قال : والواجب أن يكون بدل وَلِىّ أمير المؤمنين، قَسيم أمير المؤمنين .

المذهب الثانى — أن يُكْتَب المقامُ الشريف أو الكريمُ أو العالى مجرَّدا عنهما ، ويُقْتَصر على المفرَدَة دون المركَّبة . مثل أن يُكْتَب « المقـامُ الشريفُ العـالى ،

المَوْلِوىّ، السلطانىّ، المَلَكِىّ، الفلانىّ، ابو فلانٍ فلان» . قال فى "التعريف" : وإلىٰ هذا ذهب المتأخرون من الكُتَّاب ؛ ثم قال : وأنا علىٰ الأوّل أعمَلُ .

النـــوع الثـانى

(الألقـاب التى يُكْتَب بهـا عن السـلطان لغيره من الملوك، وهى علىٰ ثلاثة أصـــناف)

الصنف الأوّل

(ألقـابُ وُلاة العهـــد بالسَّـلْطنة)

« وهى المَقَام العالى ، العالِىّ ، العادِلىّ ، المَلَكِىّ، الفُلانىّ ، الفُلانىّ ـ بلقبِ الملك واللقبِ المتعارف » . قال فى " التثقيف " : فإن كان أخًا للسلطان زِيد فيه الأَخَوِىّ ، أو ولدا زيد فيه الوَلَدِىّ .

الصّـــنف الثـانى

(ألقابُ الملوك المستقِلّين بِصغَار البُلْدان)

كما كان صاحبُ حماةَ فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وكان يُكْتَب له : «المَقامُ الشريف العالى السُّلطانى المَلَكِىّ الفُلانى، بلقب المَلِك» . وربما كُتِب له قبل لقب الملك «الأَصِيلىّ» لعَرَاقته فى المُلْك .

الصـــــنف الثـالث

(ألقابُ المكتوب إليهم من الملوك عن الأبواب السلطانية، وهى نمطان)

النمـــــط الأوّل

(ما يُصَدَّر بالألقاب المذكَّرة. وهى علىٰ أربع طَبَقات)

الطبقة الأولىٰ — ما يُصَدَّر بالمَقَام. وأعلاها «المَقَام الأشرف» كألقاب صاحب الهِنْد، وهى : «المَقَام الأشرفُ العالِى المَوْلَوِىّ السلطانىّ الأعْظَمِىّ الشاهِنْشاهِىّ العالِمِىّ العادلىّ المجاهِدِىّ المُثَاغِرِىّ المظفَّرِىّ المؤيَّدِىّ المَنْصُورِىّ إسكَنْدَر الزمان، سُلطانُ الأوان، مَنْبعُ الكَرَم والإحسان، المُعَفِّى آل ساسانَ، و بَقَايَا فراسياب وخاقان؛ ملِكُ البَسيطة، سلطان الإسلام، غِيَاث الأنام، أوحد الملوك والسلاطين» .

ودونه «المَقَام الشريف» كألقاب الشيخ حسن الكَبِير صاحب بغـداد كان، وهى : « المَقَام الشريفُ العالى الكَبِيرىّ السلطانىّ العـالمىّ العادلىّ المجاهدىّ المؤيَّدِىّ المُرَابِطىّ المنْصُورِىّ المَلَكِىّ الفُلانىّ الفُلانىّ — بلقَبِ المُلْك والتعارف .

ودونه « المَقَام العـالى » كألقاب القان ببلاد أزْبَك فيما ذكره فى "التثقيف" وهى : « المقامُ العـالى السلطانىّ الكَبِيرىّ المَلَكِىّ الأَكْرَمىّ الفلانىّ — بلقب التعريف — فلان الدُّنْيا والدين مؤيِّد الغُزاة والمجـاهدين قاتلُ الكَفَرة والمُشْرِكين، وَلِىُّ أمير المؤمنين » . وكألقـاب صاحب المغرب فيما ذكره فى "التعريف" وهى : « المَقَام العالى السلطانىّ السيدُ الأجلُّ العالم العـادل المجاهد المُرابِط المُثَـاغِر المؤيَّد المظَفَّر المنصور علىٰ أعداء الله أمير المسلمين، قائد الموحِّدين، مجهِّز الغُزاة والمجاهدين، مجنِّد الجنود، عاقد البُنُود؛ مالئ صُدُور البَرَارى والبِحار،

مُزَعزِع اسرّة الكُفَّار ، مؤيِّد السنَّه ، مُعِزّ المِلّه ، شرفُ الملوك والسلاطين ، بقيَّة السلفِ الكريمِ ، والنَّسَب الصَّمِيم ، ربيب المُلْك القديم ، أبو فلانٍ فلان » .

الطبقة الثانيــة — مايُصَدَّر بالمَقَرّ ، وأعلاها فيما رأيت « المَقَرّ الكريم » كألقاب صاحب هَراةَ فيما ذكره فى "التعريف" وهى : « المَقَرّ الكريم ، العالى العالمىّ العادِلىّ المجاهدىّ المؤيَّدىّ المُرَابِطىّ المثاغرىّ الأوْحَدِىّ الفلانىّ ، شرف الملوك والسلاطين ، خليل أمير المؤمنين » . وكألقاب صاحب كَرْمِيان [من بلاد الروم] (١) فيما ذكره فى "التثقيف" وهى : « المَقَرّ الكريم العالى المَلَكىّ الأجلّىّ العالمىّ [العادلىّ] (١) المجاهدى المؤيَّدىّ المرابِطىّ المثاغرىّ المظفَّرىّ المنصورىّ الفلانىّ ، عِزّ الإسلام والمسلمين ، فخر الملوك والسلاطين ، نَصِير الغُزاة والمجاهدين ، زَعِيم الجيوش مقدَّم العساكر ظَهِير أمير المؤمنين » .

ودونه « المَقَر العالى » كألقاب صاحب مالّى من بلاد التُّكْرور فيما ذكره فى "التعريف" وهى : « المَقَرُّ العالى السلطانىّ الجليل الكبير العالم العادلُ المجاهد المؤيَّد الأوحدُ ، عِزُّ الإسلام ، شرفُ ملوك الأنام ، ناصر الغُزاة والمجاهدين ، زَعِيمُ جيوش الموحِّدين ، جمال الملوك والسلاطين ، سيفُ الخِلافة ، ظَهِير الإمامة ، عَضُد أمير المؤمنين » .

الطبقة الثالثــة — مايُصَدّر بالجناب . وأعلاها « الجَنَاب الكريم » كألقاب ملك التُّكرور فيما ذكره فى "التثقيف" أنه آستقرّ عليه الحال ، وهى : « الجَنَاب الكريم ، العالى المَلِك الجليل العالم العادل المجاهد المؤيَّد المُثَاغِر المُرَابِط العابِد الخاشِعُ الناسِكُ الأوْحَد فلان ، ذُخر الإسلام » . وكألقاب مَلِكى البَرْنُو والكانم فيما ذكره

(١) الزيادة عن الضوء .

فى "التعريف" وهى : «الجَنَاب الكريم العالى الملك الجليلُ الكَبِير العالم العادِل الغازى المجاهِد الهُمَام الأوْحَد المظفَّر المنصُور عِزّ الإسلام» . ثم بقِيَّة الألقاب من نسبة ألقاب ملك الُتكْرور .

الطبقة الرابعة — ألقابُ المَجْلِس . وأعلاها « المَجْلس العالى » كألقاب صاحب حِصْن كَيْفَا فيما ذكره فى "التعريف" وهو : «المَجْلس العالى المَلَكِىّ الفلانى الأجَلّىّ العالِمِىّ العـادِلىّ المجاهِدىّ المؤيَّدىّ المرابِطِىّ المُثاغِرىّ الأَوْحَدِى الأَصِيلىّ الفُلَانى ـ بلقب التعريف ـ عِزّ الإسلام والمسلمين ، بَقِيَّة الملوك والسلاطين ، نَصِير الغُزاة والمجاهِدِين ، زَعِيم جُيوش المُوَحِّدين ، شَرَفُ الدول ، ذُخْر الممالك ، خليلُ أمير المؤمنين أو عَضُد أمير المؤمنين» علىٰ مخالَفة فيه فيما أورده فى "التثقيف" تأتى فى المكاتبة إليه .

ودونه المَجْلس السامِىّ بالياء ـ كألقاب صاحب أَرْزَنَ ، وهى «المَجْلس السامىّ المَلَكِىّ الفلانى ـ بلقب المُلْك ـ الأَصِيلىّ الكَبِيرىّ العالمىّ المجاهِدىّ المؤيَّدىّ المرابِطىّ الأَوْحَدىّ الفلانى ـ بلقب التعريف ـ عِزّ الإسـلام ، شرف الملوك فى الأنام ، بقِيَّة السلاطين ، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، ولىّ أمير المؤمنين» .

ودونه المجلِس بغـير ياء فى ألقابه كألقاب صاحب دُنْقُـلة إذا كان مسلما ، فيما ذكره فى " التعريف " وهى : «المجلس الكَبِير الغازِى المجاهِد المؤيَّد الأَوْحَد العَضُد ، مَجْـدُ الإسلام ، زينُ الأنام ، فخرُ المجـاهدين ، عُمْدة الملوك والسلاطين» ولم يذكر فيـه السامى ولا لقبًـا مضافا إلىٰ المَلِك ، وهو المَلَكىّ إلا أنهم أوردوه فى عِدّة الملوك .

قلت وأكثر هذه الالقاب يؤتىٰ فيها بالألقاب المختصَّة بالمَلِك : إما فى المفْرَدة كالملَكِىّ الفلانىّ، وإما فى المركَّبة مثل « بقيَّة الملوك والسلاطين » ونحو ذلك ، لتدُلّ علىٰ أن المكتوب له مَلِك فيمتاز عن غيره . وربما أُتِىَ فيها بالألقاب الإمارِيَّة دون الملوكية لوقوع آصطلاح أهل تلك المملكة علىٰ ذلك . كما يُكْتَب فى ألقاب صاحب تُونُس « أمير المؤمنين » لآدّعائه الخلافةَ ، وفى ألقاب صاحب فاس « أمير المُسْلمين » آتباعا ليُوسُف بن تاشفين صاحبها فى القديم ، إذ كان أوّلَ من تلقب بذلك خُضوعًا عن أن يتلقَّب بأمير المؤمنين ، لآختصاصه بالخِلافة كما سيأتى الكلام عليه فى المكاتبة إليه إن شاء الله تعالىٰ .

النمط الثانى
(ما يصدَّر بالالقاب المؤنَّثة ، وهى الحَضْرة)

ويختلف الحال فيها باختلاف الممالك . فألقاب القانِ بمَمْلكة إيران علىٰ ما كان عليه الحال فى أيام السلطان أبى سعيد وما قبله « الحَضْرة ، الشريفةُ ، العاليةُ ، السلطانِيَّة ، الأعظَمِيَّة ، الشاهِنْشاهِيَّة ، الأوحدية ، القانِيَّة ، الفُلانية » . قال فى "التعريف" ولا يخلط فيها المَلَكية لهوانها لديهم وإن كان صاحب "التثقيف" قد أثبت فيها المَلَكية أيضا علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ المكاتبة إليه فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . وألقابُ صاحب تُونُس فيما ذكره فى "التثقيف" «الحَضْرة ، العلية ، السَّنِيَّة ، السَّرِيَّة ، المظفَّرِية ، الميمُونَة ، المنصُورة، المَصُونة ، حضرة الأمير العالم » إلىٰ آخر الألقاب المذكورة .

الضربُ الثـالثُ

(من الألقاب الإسلامية الألقابُ العامّةُ لسائر الطوائف ممـا يُكْتَب به عن الأبواب [السلطانية](١) ، وهى ثمـانية أنواع)

النـــوع الأوّل

(ألقابُ أربابِ السيوف من أهل المملكة وغيرهم : من الأُمَراء والعُرْبان والأكراد والتُّرْكُمان. وهي علىٰ خمس درجات)

الدرجـــة الأولىٰ

(درجة المَقرّ ، وفيها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبـــة الأولىٰ — مرتبة المَقرّ الشريف . وهو مختَصٌّ فى عُرْف الزمان بمـا يُكْتب عن نُوّاب السلطنة .

وصورتُهـا علىٰ ما أورده فى "عُرْف التعريف" : « المَقرّ الشريفُ، العـالى، المَوْلَوِىّ، الأمِيرِىّ، الكَبِيرِىّ، العالِمِىّ، العادلِىّ، المهِّدِىّ، المشيِّدِىّ، الزَّعِيمِىّ، المقَدَّمِىّ، الغَوْثِىّ، الغِيَاثِىّ، المرابِطِىّ، المُثَاغِرِىّ، الظَّهِيرِىّ، المالِكِىّ، المخدُومِىّ، الفلانى ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّد الأمراء فى العالمين ، زعيمُ الجيوش، مُقَدَّم العساكر ، عَوْنُ الأمة، غِيَـاث المِلَّة ، ممهِّد الدُّوَل، مشَيِّد الممـالك، ظَهِيرُ الملوك والسلاطين، عَضُدُ أمير المؤمنين» .

المرتبة الثانية — مَرْتَبة المَقرّ الكريم . وهى مستعملة فى السُّلْطانيات وما يُكْتَب عن النُّوّاب .

---

(١) الزيادة من الضوء ص ٣٧٢ .

فأما فى السُّــلْطانيات فصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى الألقاب المستقِرّة للنــائب الكافِلِ ونائب الشام : «المَقَرُّ الكريم ، العــالى ، الأميرِىّ ، الكَبِيرِىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ ، الزَّعيمىّ ، الغَوْثىّ ، الغِيَاثىّ ، المُثاغِرِىّ ، المُرَابِطىّ ، المُمهِّدىّ ، المَشَيِّدىّ ، الظَّهِيرىّ ، العابِدىّ ، الناسِكىّ ، الأَتَابكىّ ، الكَفِيلىّ ، الفُلانىّ ؛ مُعِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّد أُمَراء العالمين ، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين ، زَعِيم جُيوش الموحِّدين ، ممهِّد الدُّوَل ، مشَيِّد الممــالك ، عِمادُ المِلَّة ، عَوْنُ الأمة ، ظَهير الملوك والسلاطين ، عَضُد أمير المؤمنين » .

* * *

وأما فيما يكتب عن النُّوّاب فقــد ذكر فى " التعريف " أنّ ألقابها من نســبة ما تقدّم فى ألقاب المقرّ الشريف .

وصورتها علىٰ ما أورده شِهــاب الدين الفــارقى فى دُسْتوره عن نائب الشام : «المَقَرّ الكريم ، العالى ، المَوْلَوِىّ ، الأميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ ، المُمهِّدىّ ، الغَوْثىّ ، المقدَّمىّ ، الذُّخرىّ ، الغِيَاثىّ ، الفلانى ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، زعيمُ جيوش الموحِّدين ، مقدَّم العساكر المجاهدين ، ذُخْر الدولة بهَاء المِلَّة ، ممهِّد المملكة ، ظَهِير الملوك والسلاطين ، عَضُد أمير المؤمنين » .

وصورتهــا علىٰ ما أورده الصَّلاح الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام أيضا : «المَقَرّ الكريم ، العــالِى ، المَوْلَوِىّ ، الأميرِىّ ، الكبِيرىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ ، المجاهِدىّ ، الذُّخْرىّ ، العَضُــدىّ ، النَّصيرىّ ، المقدَّمىّ ، الغَوْثىّ ، الغِيَاثىّ ، الفلانىّ ؛ رُكْنُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجــاهدين ، غِيَــاث المِلَّة ، كَهْف الأمة ، ذُخْر الملوك والسلاطين » .

ثم قال : وإن كان المكتوبُ إليه نائبَ سلطنة زيد فى ألقابه « المَهِّدىّ ، المَشيِّدىّ ، الزَّعيمىّ ، المدبِّرىّ ، الكافِلىّ ، الفلانىّ » .

وصورتُها على ما أورده غيره : «المَقرّ الكريم ، العالى ، المَوْلَوىّ ، الأَميرِىّ ، الكَبِيرىّ ، العالِمِىّ ، العادلىّ ، الغَوْثِىّ ، الغِيَاثىّ ، الذُّخْرىّ ، الزَّعِيمىّ ، الفُلانىّ ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالمين ، جَمالُ الدولة ، ذُخْر الملة ، زَيْن المملكة ، عَيْن السلطنة ، سَفِير الأمة ، ظَهِير الملوك والسلاطين ، عَضُد أمير المؤمنين» .

وصورتها على ما رأيتُه فى بعض الدَّساتير عن نائب حَلَبَ : «المَقرّ الكريمُ ، العالِى ، المَوْلَوىّ ، الأمِيرِىّ ، الكَبِيرىّ ، العالمىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ ، الذُّخْرىّ ، المُشَيِّدىّ ، الزَّعِيمىّ ، الظَّهِيرىّ ، الفلانىّ ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، ناصِرُ الغُزاة والمجاهدين ، زَعِيمُ الجيوش ، مقدَّمُ العساكر ، عَوْن الأمة ، ظَهِير الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مَرْتبةُ المَقرّ العالى . وقد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابها من نسبة ما تقدّم فى المَقرّ الشريف . وذكر الصَّلاح الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام فى ألقابه ما تقدّم له فى ألقاب المَقرّ الكريم ثم قال : إلا أنه لا يقال فيه الذُّخْرِىّ .

وصورتها على ما رأيته فى توقيع نَقيب الأشراف بحَلَبَ عن النائب بها : «المَقرّ العالى ، الأميرِىّ ، الكبِيرِىّ ، النَّقيبىّ ، الشَّريفىّ ، الحَسِيبىّ ، النَّسِيبىّ ، العَرِيقىّ ، الأَصِيلىّ ، الفاضِلىّ ، العَلَّامىّ ، الحُجِّىّ ، القُدْوِىّ ، الناسكىّ ، الزاهِدىّ ، العابِدىّ ، الفلانىّ ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، جلالُ العلماء العاملين ، جَمالُ الفُضَلاء البارعين ، حُجَّة الأمراء الحاكمين ، زَيْنُ العِتْرة الطاهرة ، شرفُ الأُسْرة الزاهرة ، حُجَّة العِصَابة

الهاشمية، قُدوة الطائفة العَلَوِيَّة، نُخْبةُ الفِرْقة الناجيةِ الحُسَيْنية، شرفُ أُولِى المراتب، نقيب أُولى المَناقب، مَلاذُ الطُّلَّاب الراغبين، بَرَكةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثانيـــــة

(درجة الجَنَاب، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مَرْتبةُ الجَنَاب الشريف . وليست مستعملةً فى السلطانيات، وهى مستعملة فيما يُكْتَب عن النُّوّاب .

وصورتها علىٰ ما أورده فى " عرف التعريف " : « الجَنَاب الشريف العالِى، المَوْلَوِىّ، المجاهِـدِىّ، المؤيِّدىّ، المَمهِّدىّ، الذُّخْرىّ، الأوْحَدِىّ، العَوْنِىّ، الظَّهِيرىّ، الفلانى؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء المقدَّمين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، عِمادُ الملة، عونُ الأمة، ذخر المِلَّة، ظَهِير الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

المرتبة الثانيةُ — مرتبـــة الجَنَاب الكريم . وهى مستعملةٌ فى السُّـلْطانيات وما يُكْتَب عن النُّوّاب .

فأما فى السلطانيات فصورتهـا علىٰ ما أورده فى " التعريف " فى ألقاب النائب الكافل فى الزَّمن المتقدّم : «الجَنَاب الكريم العالى، الأَميرىّ، الأجلِّىّ، الكَبِيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، المَمهِّدىّ، المشيِّدىّ، الزَّعِيمىّ، الذُّخرىّ، المقدَّمىّ، العَوْنىّ، الغِيَاثىّ، المرابِطىّ، المُثَاغِرِىّ، المظَفَّرى، المنصورىّ، الأَتَابَكىّ؛ رُكْن الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، أتابك الجُيُوش، مقدَّم العساكر، زعيم الجُنود، عاقد البُنود، ذُخْر الموحِّدين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين، غِياثُ الأمّة،

عون الملة ، مشَـيِّد الدُّوَل ، كافلُ الممـالك ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، عَضُد أميرِ المؤمنين » .

وصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب النائبِ الكافلِ أيضا علىٰ ما كان الحال عليه أوّلا : «الجَنَاب الكريم العالى،الأَميرىّ، الكبيرى ، العالمىّ، العادِلىّ، المؤيِّدىّ، الزَّعِيمىّ، العَوْنىّ، الغِيَـاثىّ ، المُثَاغِرىّ ، المُرَابِطىّ، الممَهِّـدىّ، المَشَيِّدىّ، الظَّهيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ؛ مؤيِّد الإسلام والمسلمين ، سـيِّدُ أمراءِ العالمين، ناصرالغُزَاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحِّدين ، مقدَّم العساكر، ممهِّـد الدول ، مشَـيِّد الممالك، عِمـادُ الملة ، عون الأُمَّة، كافل السـلطنة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين » .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التعريف" فى ألقاب نائب الشام علىٰ ما كان الحال عليه أوّلا : «الجَنَاب الكريم العـالى، الأميرىّ، الأجَلِّىّ، الكَبِيرىّ، العالمىّ، العادِلىّ، المؤيِّدىّ،الممَهِّدىّ، المشَيِّدىّ، العَوْنىّ، الغِيَاثىّ، الذُّخْرىّ، الزَّعِيمىّ، المقدَّمىّ، الظَّهِيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سـيد الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغُزَاة والمجاهدين ، زعيمُ الجُيُوش، مقدَّم العساكر، عونُ الأمة،غياثُ المِلَّة، ممهِّد الدول، مشيِّد الممالك، ظهيرُ الملوك والسلاطين، عضُدُ أمير المؤمنين» .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى المكاتبـة لنائب الشام علىٰ ما كان عليه الحال أيضا : « الجَنَاب الكريم العالى ، الأميرِىّ،الكَبِيرىّ ، العالمىّ، العـادلىّ، المؤيِّدىّ ، الزَّعِيمىّ ، العَوْنىّ ، الغياثىّ ، المُثَاغِرىّ ، المرابطىّ ، الممهِّـدىّ ، المُشَيِّدىّ، الظَّهِيرىّ، الكافِلِىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الاسـلام والمسلمين،سيد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجـاهدين ، زعيمُ جيوش المَوحِّدين ، مقـدَّم العَسَاكر،

ممهِّد الدول ، مشيِّد الممالك ، عِماد الملة ، عَونُ الأمة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سَيْفُ أمير المؤمنين» .

وصورتُها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى المكاتبة إلىٰ أحد الأمراء الأَلُوس بمملكة إيران فى دولة السلطان أبى سَعيد : «الجنَاب الكَريم العالى، الأميرىّ، الكَبيرىّ، العالِمىّ، العادِلىّ، المؤيِّدى، الزَّعيمىّ ، العَوْنىّ ، الغِياثىّ ، المُثاغِرىّ ، المُرابِطىّ ، المَمَهِّدىّ ، المُشيِّدىّ، النُّوينِىّ، الفُلانىّ؛ عَوْنُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء فى العالمين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش الموحِّدين، ممهِّد الدُّوَل، عِمادُ المِلَّة، عونُ الأمة، كافِى الدولة القانيَّة، كافل المَمْلكة الشرقية، أميرالتَّوامين، أميرالأَلُوس، ظهيرُ الملوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين» .

وصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب ابن المظَفَّر اليزدى : «الجنَاب الكريمُ العالى ، الأميرىّ ، الكَبيرىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ، العَوْنىّ ، الزَّعيمىّ، المُمَهِّدىّ ، المشَيِّدىّ، الظَّهِيرىّ، الغِياثىّ، المُثاغِرىّ، المرابِطىّ، النُّوَيْنىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش الموحِّدين، مقدَّم العساكر، ممهِّد الدول، مشيِّد الممالك، عمادُ المِلَّة ، عونُ الأمّة، حاكمُ أمور وُلاةِ الزمان، موضِّح قوانينِ العَدْل والإحسان، اعتضادُ صَناديدِ الأوَان، مستَنيب ملوكِ العَجَم، مستخْدِم أرباب الطَّبْل والعَلَم ، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

* * *

وأمّا فيما يُكْتَب عن النوّاب وما كان يكتب به فى الإخْوانيات فى الزمن المتقدّم، فقد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابه من نِسْبة ما تقـدّم فى ألقاب الجناب الشريف .

وصورتها على ماأورده القاضى شِهابُ الدين الفارقىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام :
« الجَنابُ الكريم العالى ، المَوْلوىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العـالمىّ ، العادلىّ ، العَضُدِىّ ، النَّصيرىّ ، المؤيِّدِىّ ، المقدَّمىّ ، الذُّخْرِىّ ، الفلانىّ ؛ مَجْدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما أورده الصَّلاح الصفدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام : «الجَنابُ الكريم العـالى ، المَوْلَوِىّ ، الأمـيرىّ ، العالمىّ ، العـادِلىّ ، العَوْنىّ ، الغِيَـاثىّ ، الظَّهِيرىّ ، المُقَدَّمىّ ، الفلانىّ ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، ناصِرُ الغُزاة والمجاهِدِين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَنَاب العالى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وما يكتب عن النوّاب وما كان فى الإخوانيَّات قديما .

فأمّا فى السلطانيات فلها رتبتان :

الرتبة الأولى — مع الدعاء بمضاعَفَة النعمة .

وصورتها على ماأورده فى " التعريف " فى ألقاب نائبِ حلبَ على ما كان الحال عليـه أوّلا : « الجَنابُ العالى ، الأميرىّ ، الأجَلِّىّ ، الكبِيرىّ ، العالمىّ ، العادِلىّ ، الممهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، العوْنىّ ، الذُّخْرِىّ ، الزَّعِيمىّ ، المقدَّمىّ ، الظَّهِيرىّ ، المُرابِطىّ ، المُثاغِرىّ ، الفلانىّ ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، نَصِير الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحِّدين ، عمـادُ الأمة ، ذُخْر الدولة ، ظهـيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين » .

وصورتهـا على ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب نائب طَرَابُلُس ومَنْ فى رُتْبته :
«الجناب العـالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنىّ ،

الزَّعِيمىّ، المَمهِّدى ، المشَيِّدىّ ، الظَّهِيرىّ، الكافِلىّ ، الفُلانىّ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين، سيدُ أمراء العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش المُوَحِّدين مقدَّم العساكر، ممهِّد الدُّوَل، مشَيِّد الممالك، عمادُ المِلّة، عونُ الأمة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب قطلوبغا إيناق أحد امراء الألُوس ببلاد أزْبك : «الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، العَوْنىّ، الزعيمىّ، الممهِّدىّ، المشَيِّدىّ، الظهيرىّ، النُّوَيْنِىّ، الفلانىّ؛ عزّ الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغُزَاة والمجاهدين، زعيمُ الجيوش، مقدَّم العساكر، كَهْفُ المِلّة، ذُخْر الدَّوْلة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

الرتبة الثانية — مع الدعاء بدوام النعمة .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب مقدَّم العسكر بغَزَّة ومَنْ فى رتبته : «الجنابُ العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ ، العالِمىّ، العادلىّ، المؤيِّدى ، الأوْحَدىّ ، النَّصِيرىّ، العَوْنىّ، الهُمَامىّ، المقَدَّمىّ، الظَّهِيرىّ، الفلانىّ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء فى العالمين ، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّم العساكر ، كهفُ المِلّة ، ذُخْر الدَّوْلة ، عمادُ المملكة، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسامُ أمير المؤمنين » .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب مماى : أحد الحُكّام ببلاد أزبك كان : «الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المُجَاهدىّ، المؤيِّدىّ، الذُّخرىّ، النَّصِيرىّ، الهُمَامىّ، المقدَّمىّ ، النُّوَيْنىّ، الفلانىّ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، مقدَّم العساكر، ذُخْر الدولة ، عَضُد الملوك والسلاطين، حُسَام أمير المؤمنين» .

* * *

وأمّا ما يكتب عن النوّاب وما كان يكتب فى الإخوانيات قديمـا، فقـد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابه من نِسْبة ماتقدّم فى ألقاب الجَنَاب الشريف .

وصورتها على ما أورده الصّـلاح الصفَدِىُّ فى دُسْتوره عن نائب الشام فى الرتبة الأولى منها : «الجنابُ العالى، الأميرىّ ، الأجلىّ ، الكبيرىّ ، المؤيِّدىّ ، المجاهِدىّ ، العَوْنىّ ، المقدَّمىّ ، الاسفَهْسَلَارىّ ، الظَّهِيرىّ ، الفلانىّ ؛ مَجْد الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، نُصرة الغُزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ماأورده فى "التذْكِرة الآمِديَّة" عن نائب الشام أيضا فى الرتبة الثانية من هذه المرتبة : «الجنابُ العالى ، الأميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العَضُدىّ ، الذُّخْرىّ ، النَّصِيرىّ ، المؤيِّدىّ ، المقَدَّمىّ ، الظَّهِيرىّ ، الفُلانِىّ ؛ مجد الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــة

(درجة المجلس وفيهـا ثلاث مراتب)

المرتبـــة الأولى

(مرتبـــة المجلس العـالى)

وهى مستعملة فى السـلطانيات وما يكتب عن النوّاب وما كان يكتب فى الإخوانيات قديمـا .

فأما فى السلطانيات فلها رتبتان :

الرتبة الأولىٰ — مع الدعاء للمجلس .

وصورتُها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب نائب الكَرَك : «المجلسُ العالى، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، المجاهـدىّ ، المؤيِّدىّ، المقدَّمىّ ، الأوحدِىُّ ، النَّصِيرى ، الهُـمَامىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانىّ ؛ عِزُّ الإسـلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كَهْفُ المِلَّة ، ذُخْرُ الدولة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، حُسامُ أمير المؤمنين » .

وصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" أيضا فى ألقاب وزير القانِ ببلاد أَزْبك : «المجلس العالى الأميرىّ، الكَبِيرىّ، الذُّخْرِىّ، الأَوْحَدِىّ ، الاكملىّ، المتصرِّفىّ ، العَوْنىّ ، الوَزِيرىّ، الفُلانىّ، مجدُ الإسـلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء والوزراء فى العالمين ، جَمَـالُ المتصرِّفين ، أوحدُ الأولياء المقرَّبين ، ذُخْرُالدولة ، مُشِيرُالملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" أيضا فى ألقاب حافظ أخى على باشاه : « المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيِّدىّ، الأوحدِىّ، النَّصِيرى، العوْنىّ، الهُمَامىّ، المقدَّمىّ، الظَّهِيرىّ، النُّوَيْنِىّ، الفلانىّ؛ عِزُّالإسلام والمسـلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، زعيمُ الجُيُوش، مقـدَّم العساكر، كهفُ المِلَّة ، عِمادُ الأُمَّة، ظَهِير المُلوك والسلاطيـن ، حُسام أمير المؤمنين » .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب أمير مكة المشرفة : « المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ ، الشَّريفىّ، الحَسَيبىّ، النَّسِيبىّ، العالمىّ، المجاهِدِىّ،

المُقَدّمى ، الأوحَدِىّ ، النّصِيرىّ ، العَوْنىّ ، الهُمَامِىّ ، الظّهِيرىّ ، الأَصِيلىّ ، العَرِيقىّ ، الشِّهَابِىّ ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين ، شَرفُ الأمراء الأشراف فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، كهفُ المِلّة ، عَوْنُ الأُمّة ، فخرُ السُّلالة الزاهره ، زينُ العِتْرة الطاهره ، بَهاء العِصَابة العَلَويّه ، جَمالُ الطائفة الهاشميه ، ظهير الملوك والسلاطين ، نَسِيبُ أمير المؤمنين » .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب أمير آل فَضْل من عرب الشام : « المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، الأوحدىّ ، النّصيرىّ ، العَوْنِىّ ، الهُمامىّ ، المقدّمىّ ، الظهيرىّ ، الأَصِيلىّ ، الفلانى ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء العُرْبان فى العالمين ، نُصرة الغزاة والمجاهدين ، مقدَّم العساكر ، كهفُ المِلّة ، ذُخْر الدولة ، عمادُ العَرب ، ظهير الملوك والسلاطين ، حُسَام أمير المؤمنين » .

الرتبة الثانية — المجلس العالى مع صدَرَتْ .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب نائب الرَّحْبة ومَنْ فى رُتْبته : « المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العضُدىّ ، الذُّخْرىّ ، النّصِيرىّ ، الأوحدىّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنىّ ، الهُمامىّ ، المُقَدَّمىّ ، الظّهيرىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، نُصرة الغُزاة والمجاهدين ، مقدّمُ العساكر ، ذُخْر الدولة ، كَهف المِلّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين » .

⁂

وأما فيما يكتب عن النُّوّاب وما كان يُكْتَب فى الإخوانِيّات أوّلا ، فصورتُها علىٰ ما أورده فى "عُرف التعريف" : « المجلسُ العالى ، الأميرىّ ، الاسفَهْسلارى ،

الأجلّىّ ، الكبيرىّ ، المجاهدىّ ، المؤيّدىّ ، النَّصيرىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، زينُ الأمراء المقدَّمين ، نُصرة الغزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما أورده الصلاحُ الصَّفَدىّ فى دُسْتُوره عن نائب الشام "المجلس العالى ، الأميرىّ ، الأجلّىّ ، الكبيرىّ ، المؤيّدىّ ، المجاهدىّ ، الاسفَهْسلارىّ ، العَوْنىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانى ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدّمين نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التذكرة الآمديَّة" عن نائب الشام : «المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العضُدىّ ، النَّصيرىّ ، المؤيّدىّ ، المجاهدىّ ، الذُّخْرىّ ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، ذُخْر الغُزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية
(مرتبة المجلس السامىّ بالياء)

وهو مستعمل فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتُها علىٰ ماذكره المقَرُّ الشِّهابىّ بن فضل الله فى بعض دساتيره فى توقيع نَقِيب الأشراف : « المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيّدىّ ، الشريفىّ ، الحَسِيبىّ ، النَّسيبىّ ، الذُّخْرىّ ، النَّصيرىّ ، الأوْحدىّ ، الأَصِيلىّ ؛ عزُّ الإسلام ، زينُ الأنام ، نَسِيب الإمام ، شرفُ الأمراء ، نقيبُ النُّقَباء ، جَمالُ العِترةِ الطاهره ، جلالُ الأُسْرة الزاهره ، ذُخْر الغُزاة والمجاهدين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين» .

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقـاب الكُشّاف بالوجهين القبلى والبحرى بالديار المصرية : «المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الذُّخْرىّ ، النِّصيرىّ ، الأوحدِىّ ، المؤيِّدىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام ، بَهَـاء الأنام ، شرفُ الأمراء ، أوحدُ المجاهدين ، عضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى بعض المراسيم لأمير آل مرا من عَرَب الشام : « المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، المجاهـدىّ ، المؤيِّدىّ ، العَضُـدىّ ، الذُّخْرىّ ، النِّصـيرىّ ، الأوحدىّ ، الأَصيلىّ ، العَريقىّ ؛ مجد الإسلام ، بَهَـاء الأنام ، شرفُ الأمراء ، زينُ القبائل ، فخر العَشَائِر ، مَلَاذُ العرب ، عَضُـد الملوك والسلاطين » .

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب وزير الشيخ أويس ببغداد : « المجلس السـامِىّ ، الأجَلِّىّ ، الكبيرىّ ، الأوحـدىّ ، المقـدَّمى ، المنتخَبِىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام ، بَهَاءُ الأنام ، شرفُ الرؤساء ، أوحد الأعيان ، صَفْوة الملوك والسلاطين » .

وصورتها فى ألقـاب أمراء العرب : «المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبِيرىّ ، الذُّخْرىّ ، المؤيِّدىّ ، الفـلانىّ ؛ مجدُ الإسـلام ، بَهَـاء الأنام ، زينُ القبـائل ، فَخْر العشائر ، عِمادُ الملوك والسلاطين » .

*
* *

وأما فيما يُكْتَب عن النُّوّاب ونحوهم ، فصورتها علىٰ ما أورده فى "عُرْف التعريف" : «المجلس السامِىّ ، الأميرىّ ، الأجَلِّىّ ، الكبِيرىُّ ، المؤيِّدىّ ، العَضُدىّ ، النِّصيرىُّ ،

الأوحدىّ، الهُمامِىّ ، الفلانىُّ؛ مَجْد الإسلام ، زينُ الأمراء فى الأنام، ذُخْر الُغزاة والمجاهدين، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتُهــا علىٰ ما أورده شِهابُ الدين الفارقىّ فى دُسْتُوره عن نائب الشام : «المجلس السامىّ، الأميرىّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ، المؤيِّدىّ، الفلانى ؛ مجدُ الإســلام ، جَمالُ الأمراء، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، عَضُــد الملوك والسلاطين » .

وصورتهــا علىٰ ماأورده الصَّلاحُ الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام أيضا : «المجلس السامِىُّ، الأميرىّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، المؤيِّدىّ، المجاهدىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ ، الهُمَامىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإســلام ، شرفُ الأمراء ، نُصْرة الغُزَاة، عمدةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـــالثـــــة

(مرتبـــةُ المجلس السامِى بغـــير ياء)

وهى مستعْمَلة فى السلطانِيَّات وغيرها .

فأما فى السُّلْطانيات ، فصورتها علىٰ ما أورده فى " التثقيف " فى ألقاب الوُلَاة الطَّبْلخاناه بالوجهين القِبْلىّ والبحرىّ : المجلسُ السامِى ، الأميرُ، الأجلُّ ، الكبيرُ، الغــازى ، المجاهــدُ ، المؤيِّد، الأوحدُ، المرتَضى ؛ فلان الدين ، مجدُ الإســلام، بهاءُ الأنام ، فخرُ الأمراء، زينُ المجاهدين، عمدةُ الملوك والسلاطين » .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض نُسخ التَّواقيع : ترتيب الشيخ شِهَاب الدين محمود الحلبى : « المجلسُ السامِى، الأميرُ، الأجلّ، الكبير، الحَسيب، النَّسِيب،

الطاهرُ ، الكاملُ ، العالم ، العامل ، الفاضـلُ ، الزاهـدُ ، الوَرِع ، الزَّكِى ، التقِىّ ؛ فلان الدين ، جلالُ الإسـلام ، شرفُ السادةِ الأشراف ، فخرُ العِتْرة الطاهره ، زينُ السُّلالة الزاهره ، نقيبُ نُقَباء الشُّرفاء ، مجدُ العَصَبة العَلَويّة ، جَمال العَصَبة الفاطميّة ؛ صدرُ الأئمة العلماء ، مجتبىٰ الدولة ، بهاء المِلّة ، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتُهـا علىٰ مافى ألقاب النائب باليَنْبُع : «المجلسُ السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، المجاهد ، المؤيِّد ، الشريفُ ، الحَسِيبُ ، النَّسِيب ؛ مجدُ الإسـلام ، بَهـاء الأَنَام ، زينُ العِتْره ، فخرُ الأُسْره ، جمال الذُّرِّيه ، فخر الشجرة الزَّكِيَّه ، عمدةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب أكابر عُرْبان آل فَضْـل من عرب الشام : «المجلسُ السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الغازى ، المجاهدُ ، المؤيِّد ، الأوحدُ ، الأَصِيل ؛ فلان الديـن ، مجدُ الإسلام ، بَهَـاء الأنام ، فَخْر القبائل ، زَيْن العشائر ، عمادُ الملوك والسلاطين» .

* * *

وأما فيما يكتب عن النُّـوّاب ومَنْ فى معنـاهم ، فصورتهـا علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" : «المجلس السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبـيرُ ، الغازى ، المجاهدُ ، المؤيِّد ؛ فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، زينُ الأمراء ، فخرُ الأنام ، ذُخْر الغُزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التذكرة الآمِديّة" عن نائب الشام : «المجلسُ السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبير ، المؤيِّد ، المجاهد ، العَضُد ، النَّصير ؛ فلان الدين ، مجدُ الأمراء ، شرفُ الخَوَاصّ ، زينُ الغُزَاة ، عُدّة الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعـــة

(درجـــةُ مَجْلِس الأمـــير)

وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها على مَرْتَبة واحدة .

فأما فى الســلطانيات، فصورتُها على ما أورده فى "التثقيف" فى ألقــاب الوُلَاة العشرات بالوجهين القبلىّ والبحرىّ : « مجلس الأميرِ، الأجلّ، الكبيرِ، الغازى، المجاهد، المؤيِّد، الأوحد، المُرْتضى؛ فلان الدين، مجدِ الأمراء، زين المجاهدين، عُدّةِ الملوك والسلاطين» .

* * *

وأما فيما يُكْتَب عن النُّــوّاب ومَنْ فى معنــاهم، فصــورتُها على ما أورده فى "عرف التعريف" : « مجلسُ الأميرِ، الأجلّ، الكبيرِ، الغازى، المجاهد، المرتضى؛ فلان الدين، فَخْر الأمراء، زين المجاهدين، عُمْدة الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما أورده الفارِقىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام : « مجلسُ الأميرِ، الأجلّ، الكبير، الأخصّ، الأكمل، الغازى، المجاهد، المُرْتضى، المختار؛ فلان الدين، مجدِ الأمراء، زين الغُزاة، عُدّة الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ماأورده فى "التذكرة الآمِديّة" : «مجلس الاميرِ، الأجلّ، الكبيرِ، المؤيِّد، المجاهد، الأعزّ، الأخصّ، الأكمل، المجتبى، المختار؛ فلان الدين، مجد الأمراء، زين الغزاة، عُدّة الملوك والسلاطين» .

الدرجة الخامســة

(درجة الأمــير مجرّدا عن مضاف إليــه)

وأ كثر ما يأتى ذلك فى الولايات أو فيمن يُكْتَب بسببه كتابٌ وما أشبه ذلك .

وصورتها فى السـلطانيات : « الأميرُ الأجلُّ » وربمـا زِيد علىٰ ذلك فقيل : « الكبيرُ الغازى » .

وصورتها فى غير السُّلْطانيات علىٰ ما أورده فى "التذكرة الآمِدِيَّة" : « الأميرُ، الأجلُّ، الأخصُّ، الأكمُل» .

النــوع الثانى

(من الألقاب الإسلامية الألقابُ الدِّيوانية . وهى أيضا علىٰ خمس درجات)

الدرجـــــةُ الأولىٰ

(درجــة المَقَرّ)

وليست مستعملةً فى السلطانيات جمـلةً لأنه لايُكْتَب لأحدٍ من هـذا النوع عن السلطان بالمَقَرّ، وهى مســتعملةٌ فيما يكتب عن النُّوّاب ومَنْ فى معناهم، ولهـا ثلاث مراتب :

المرتبــة الأولىٰ — مَرْتَبــة المَقَرّ الشريف . وصـورتهـا علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" فى ألقاب الوُزَراء من أرباب الأقلام، : «المَقَرّ الشريف، العالى، المَوْلَوِىّ، الصاحِبىّ، الوَزيرىّ، المنفِّذىّ، العالِمىّ، المهِّدىّ، المشيِّدىّ،

العَوْنِىّ، الغِيَـاثِىّ، المـالِكِىّ، المخدُومِىّ، الفلانى؛ صَلاحُ الإسـلام والمسلمين، سـيِّدُ الوزراء فى العالَمِين، رئِيسُ الأصحاب، قِوَامُ الأئمة، نِظامُ المِلَّة، مدبِّر الدولة، ذُخْر المـالك، ظَهِير الملوك والسلاطين، وَلِىّ أمير المؤمنين» .

وصورتهـا على ما أورده فى "عرْف التعريف" أيضا فى ألقـاب غير الوزراء من الكُتَّاب : «المَقَرّ الشريفُ، العـالى، المَوْلَوِىّ، القَضائىّ، السَّـيِّدىّ، العالِمِىّ، العادلىّ، الممهِّدىّ، المشيِّدىّ، العَوْنِىّ، الغياثِىّ، المـالِكِىّ، المخدُومِىّ، الفلانى؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الرؤساء فى العالمين، رئِيسُ الأصحاب، قِوَام الأُمَّة، نِظَام المِـلَّة، زينُ الدولة، ذُخْر المالك، ظَهِير الملوك والسـلاطين، ولِىّ أمير المؤمنين» .

وصورتها على ما رأيتـه فى بعض الدساتير عن نائب الشام فى ألقاب بعض كُتَّاب السِّرّ العلماء : «المَقَرّ الشريف، العالى، المَوْلَوِىّ، القاضَوِىّ، الكَبِيرِىّ، العالِمِىّ، العامِلِىّ، العَلَّامِىّ، الأكْمَلِىّ، الأفضَلِىّ، المُفِيدىّ، الفَرِيدىّ، القُدْوِىّ، المحقِّقِىّ، المُسَلِّكِىّ، الأَصِيلِىّ، العَرِيقِىّ، المدبِّرِىّ، المُشِيرِى، اليَمِينِىّ، السَّفِيرِىّ، المالِكِىّ، المخدُومِىّ، الشيْخِىّ، العَلَّامِىّ؛ ضِياءُ الإسلام والمسلمين، سـيدُ العلماء والرؤساء والمشايخ فى العالَمين، رئيسُ الأصحـاب، فخر الكُتَّاب، حسنَةُ الأيَّام، بقيةُ السَّلَف الكرام، صَدْرُ مِصرَ والشام، لسانُ السلطنة، سَفِير المملكة، شيخُ شُيوخ العارفين، جامع طُرُق الواصِـفِين، صَدْر المُدَرِّسِـين، مشـيرُ الملوك والسلاطين، وَلِىّ أمير المؤمنيـن» .

المرتبة الثانية — مَرْتَبة المَقَرّ الكريم . قال فى "عرف التعريف" : والألقابُ فيها من نِسْبة ماتقدّم فى ألقاب المَقَرّ الشريف .

وصورتها على ما أورده الصَّــلاحُ الصَّفَدىّ في دُسْتوره عن نائب الشام : «المَقرّ الكريم، العالى، المَولوىّ، القَضائى، العالِمىّ، القَوَامِىّ، النِّظامِىّ، المُدَبِّرىّ، المُشيرىّ، المَلاذِىّ، الفلانىّ؛ جلالُ الإسلام والمسلمين، سيِّدُ الأكابر في العالمين، عونُ الأمّة، ذُخر المِــلَّة، مدبِّر الدُّوَل، جَمَـال الممالك، حسنَةُ الوجود، خالِصــةُ الملوكِ والسلاطين» .

المرتبة الثالثة ــ مَرْتبةُ المَقرّ العالى . وقد جعلها في " عرف التعريف " من نسبة ماتقدّم من ألقاب المقرّ الشريف أيضا .

وصورتهــا على ما رأيته في بعض الدَّساتير عن نائب الشام فيما كُتِب به للقاضى شرف الدين عبــد الوَهَّاب بن أبي الطيب كاتب السرّ بالشام : « المَقَرّ العــالى ، المَوْلوى ، القَضَائِىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضِلىّ ، الكاملىّ ، البارِعىّ ، الأوحدِىّ ، المــاجِدىّ ، القَوَامِىّ ، النِّظامِىّ ، المُفَوَّهِىّ ، الرئيسىّ ، الأثيرىّ ، الأثيلىّ ، الأصيلىّ ، العَرِيقىّ ، الفلانى ؛ عِزُّ الإســلام والمســلمين ، شرفُ الرؤساء في العالَمين ، أوحدُ الفضلاءِ الماجدين ، حُجّة المُنْتشئِين ، صدرُ الرؤساء ، رأسُ الصدور ، عينُ الأعيان ، خالِصةُ الملوك والسلاطين » .

الدرجة الثانيــــة

(درجة الجَناب ، وفيها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبة الأولىٰ ــ مرتبةُ الجَنَاب الشريف . وهى مستعملةٌ[1] في غير السلطان دون السُّــلْطانيات . قال في " عرف التعريف " : وهى من نسبة الألقاب المتقــدّمة في المَقرّ الشريف .

---

(١) عبارة الضوء ج ١ ص ١٨٠ «وهى مختصة بما يكتب عن النوّاب دون السلطانيات» وهى أوضح .

المرتبة الثانية — مرتَبَةُ الجناب الكريم . وجعلها فى "عرف التعريف" من نسبة ماتقدّم فى المقرّ الشريف .

وصورتها علىٰ ماأورده الصَّلاحُ الصَّفَدِىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام: «الجَنَاب الكريمُ العالى ،المَوْلوِىّ، القَضَائِىّ ، العالِمِىّ، الأوحدِىّ، الرئِيسِىّ، الأجَلِّىّ، الأثِيرِىّ، البارِعِىّ، الماجدِىّ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين، شرفُ الرؤساء فى العالمين، جمالُ الأكابر، فخرُالأعيان، أوحَدُ الكُتَّاب، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتُها علىٰ مارأيتهُ فى بعض الدَّساتيرعن نائب الشام فى توقيعٍ باسم شِهابِ الدين ابن أبى الطيب بِكِتَابة الدَّسْت بالشام : « الجَنَاب الكريم ، العالى، المَوْلوِىّ، القَضَائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العاملىّ، البارِعىّ، الكامِلىّ، الماجِدِىّ، القَوامِىّ، النِّظامِىّ، الرَّئِيسىّ ، الأَصِيلىّ ، العرِيقِىّ، الأوحدِىّ ، الفلانى ؛ جلالُ الإسلام والمسلمين، أوحدُ الرؤَساء فى العالمين، تاجُ الفضلاء المُنْتشئِين، جِهْبِذ الحُذَّاق المتصرِّفين ، سُلالةُ الأتقياء العارفين ، خالصةُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجناب العالى، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب الوزارة بالديار المصرية : « الجنابُ العالى ، الصاحِبِىّ ، الكبِيرِىّ ، العالِمِىّ ، العادِلىّ ، الأوحدِى ، الأكملىّ ، القوَامىّ ، النِّظامىّ ، الأَثِيرِىّ ، البلِيغِىّ ، المنفِّذِىّ ، المسَدِّدِىّ ، المتصرِّفى ، الممهِّدىّ ، العوْنِىّ ، المدبِّرِىّ ، المُشيرِىّ، الوزيرىّ، الفلانى ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الوزراء فى العالمين ، رئيسُ الكُبَراء ، كبير الرؤساء ، أوحَدُ الأصحاب ، مَلاذُ الكُتَّاب ، قِوام الدُّوَل ، نِظَامِ المُلْك ، مُفيد

المَنَاجح، معتَمَدُ المَصَالح، مرتِّب الجُيوش، عِمادُ الملة، عونُ الأمة، مُشِير الملوك والسلاطين، ولىّ أمير المؤمنين» .

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها على ما رأيته فى بعض الدساتير عن نائب الشام فى ألقاب كاتبِ دَسْت بالشام : «الجنابُ العالى، القَضَائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأكملىّ، البارعىّ، الأوحدىّ، القَوَامىّ، النظامِىّ، المُفَوَّهِىّ، الرئيسىّ، المـاجِدىّ، الفلانى ؛ مجدُ الإسـلام والمسلمين، شرفُ الرؤساء فى العالمين، أوحدُ الفضلاء المـاجِدين، قُدوةُ البلغاء، جمال الكُتَّاب، زين المنشئين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــة

(درجة المجلس، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبةُ المجلس العالى، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها .

فأمّا فى السلطانيات، فصورتُها على ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب كاتبِ السرّ بالأبواب السلطانية : «المجلسُ العالى، القاضِوىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، العلّامىّ، الأفضلِىّ، الأكملِىّ، البليغِىّ، المسدَّدىّ، المنفِّذىّ، المشيِّدىّ، العونِىّ، المُشـيرِىّ، اليمينِىّ، السَّفِيرىّ، الأصِـيلىّ، العَرِيقىّ، الفلانى ؛ صـلاحُ الإسلام والمسلمين، سـيدُ الرؤساء فى العالمين، قُدوةُ العلمـاء العاملين، جمـالُ البُلَغاء،

أوحد الفضلاء ، جلالُ الأصحاب ، كَهْفُ الكُتّاب ، يمينُ المملكة ، لسانُ السّلطنة ، سفيرُ الأمة ، سليلُ الأكابر ، مشيرُ الملوك والسلاطين ، وَلىّ أمير المؤمنين» .

وصورتها على ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب ناظر الخَوَاصّ الشريفة : «المجلسُ العالى ، القاضوِىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الأوحدِىّ ، الأكملىّ ، الرئيسىّ ، البليغِىّ ، البارعىّ ، القوَامىّ ، النِّظامىّ ، الماجِدىّ ، الأميرِىّ ، المنفِّذىّ ، المسدَّدىّ ، المتصرِّفىّ ، الفلانى ؛ جَمالُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء فى العالمين ، قِوام المَصالح ، نِظامُ المَناجح ، جَلَالُ الأكابر ، قُدوة الكُتّاب ، رئيسُ الأصحاب ، عماد المِلّة ، صفوةُ الدولة ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده فى ألقاب وزير دمشق إذا صُرِّح له بالوِزارة : «المجلسُ العالى ، الصاحِبىّ ، الوزِيرىّ ، الأَصِيلىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الأوحدىّ ، القَوَامىّ ، النظامِىّ ، الماجِدىّ ، الأثيرِىّ ، المُشيرِىّ ، الفلانى ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الوزراء فى العالمين ، رئيسُ الكُبَراء ، كَبِيرُ الرُّؤساء ، بقِيّة الأصحاب ، مَلَاذ الكُتّاب ، عمادُ الملة ، خالصةُ الدولة ، مُشِير الملوك والسلاطين ، خالِصةُ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده فى ألقابه إذا لم يُصَرَّح له بالوزارة ، بل كان ناظر النُّظّار بالمملكة الشامية : « المجلسُ العالى ، القَضائِىّ ، الكبِيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الأوحدِىّ ، الرئيسىّ ، الأثيرىّ ، القوَامىّ ، النِّظامِىّ ، المنفِّذىّ ، المتصرِّفىّ ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، أوحدُ الفضلاء ، جلالُ الكُبَراء ، حُجّة الكُتّاب ، صفوةُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أمير المؤمنين» .

*
* *

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ ماأورده فى "التذكرة الآمِديَّة" فى بعض التواقيع من ترتيب المَقرّ الشِّهابىّ بن فضــل الله بكتابة الدَّسْت بالشام : «المجلس العالى، القضائِىّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، الرئيسىّ، العالمىّ، العاملىّ، البارعىّ، الأوحدىّ، المــاجدىّ، الأثيرىّ، الأَثِيلىّ، الأفضلِىّ، الأَصِــيلىّ، الفلانى؛ مجدُ الإسلام، بَهاءُ الأنام، شرفُ الرؤساء، أوحدُ الكبراء، صــدرُ الأعيانــ، جمالُ الكُتَّاب، جلالُ الحُسَّاب، صفوةُ الدولة، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبةُ المجلس السامىّ بالياء، وهى مســتعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأما فى السلطانيات فلم يذكر صورَتَها فى "التثقيف" .

وصورتها علىٰ مارأيتُه فى بعض الدساتير : «المجلس السامىّ، القضائىّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضِلىّ، الكافِلىّ، الرئيسىّ، الأوحدىّ، الأَصِيلىّ، الأثِيرىّ، البليغِى، الفلانى؛ مجدُ الإســلام، شرفُ الرؤساء، فخرُ الأنام، زينُ البلَغاء، جمالُ الفُضَلاء، أوحد الكُتَّاب، فخر الحُسَّاب، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

*
* *

وأما فى غير السلطانيات، فصورتهــا علىٰ مارأيته فى "التذكرة الآمِديَّة" فى توقيع بكتابة الدَّرْج عن نائب الشام : «المجلس السامىُّ، القضَائِىّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، البليغىّ، الأصيلىّ، الرئيسىّ، الفلانىّ؛ مجد الإسلام، شرفُ الرؤساء، أوحدُ الكُتَّاب، جمالُ البلغاء، مرتضى الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثــالثة — مرتبة المجلس السامى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأما فى السلطانيات، فلم يذكر لها صورة فى "التثقيف" أيضا .

وصورتها على ما رأيته فى "التذكرة الآمدِيّة" فى توقيع شريفٍ بكتابة الدَّرْج : المجلسُ السامِى، القاضى، الأجلُّ، الكبيرُ، الصدرُ، الرئيس، الأوحَدُ، البارعُ، الكاملُ، الأصيلُ، الفاضلُ؛ فلان الدين، جمالُ الإسلام، بهاءُ الأنام، شرفُ الأكابر، زينُ الرؤساء، أوحدُ الفُضَلاء، زَيْنُ الكُتَّاب، صَفْوة الملوك والسلاطين» .

* * *

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها على مارأيته فى "التذكرة الآمدِيّة" فى توقيع كريمٍ عن نائب الشام بكتابة الدَّرْج بالشام، ترتيب مؤلِّف "التذْكِرة" المذكورة : «المجلس السامِى، القاضِى، الأجلّ، الكبيرُ، الفاضلُ، البارعُ، الكاملُ، الأوحدُ، الرئيسُ، الأثيرُ؛ فلان الدين، مجدُ الإسلام، شرفُ الصُّدُور، أوحدُ الفضلاء، زينُ الكُتَّاب، جمالُ الحُسَّاب، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعة

(درجةُ مجلس القاضِى، وهى مستعملةٌ فى السلطانِيَّات وغيرها)

فأما فى السلطانيات، فلم يُورِد لها فى "التثقيف" أيضا صورةً .

وصورتها على ما يقتضيه عُرْف الدِّيوان : «مجلس القاضى، الأجلّ، الكبيرِ، الفاضِل، الأوحدِ، الأثيرِ، الرئيسِ، البليغ، العَرِيق، الأصيلِ؛ فلان الدين، مَجْدِ الإسلام، بهاءِ الأنام، شرفِ الرؤساء» .

* * *

وأما فى غير السلطانيات، فعلى نحو ذلك .

الدرجة الخامســـــــة

(درجةُ القاضى، وهى مستعملة فى السلطانيات [وغيرها](١))

وصورتها فيهما : « القــاضى الأجل » وربمـا زيد فى تعظيمه فقيل « الكبيرُ الصدرُ الرئيسُ » ونحو ذلك .

النـــــوع الثـالث

(من الألقاب الإسلامية ألقابُ أرباب الوظائف الدِّينية،

وهى علىٰ خمس درجات أيضا)

الدرجـــــة الأُولىٰ

(درجة المَقَـــرّ)

وهى مختصّــة بغير السلطانيات، لأنه لا يُكْتَب لأحدٍ من أهل هــذا النوع عن السلطان بالمَقَرّ أيضا، بل قال فى "عرف التعريف" : إنه لا يُكْتَب به لأحدٍ من هــذا النوع فى غير السلطانيات أيضا ولكِنِّى رأيتــه مستعملا فيما يكتب عن النُّوّاب بالممـالك . وهى علىٰ ثلاث مراتبَ :

المرتبة الأُولىٰ — مرتبة المَقَرّ الشريف .

وصورتها علىٰ ما رأيتــه فى بعض الدّسَاتير فى توقيع عن نائب الشأم للقاضى جمالِ الدين إبراهيم بن العَدِيم ببعض الأنظار والتداريس بالشام : «المَقَرّ الشريف، العالى، المَوْلَوِىّ، القاضَوِىّ، الكبيرِىّ، العالمىّ، العـادلىّ، الأَصِيلىّ، العَرِيقىّ، القَوَامِىّ، النِّظامىّ، الإمامىّ، العَلّامىّ، القُدْوِىّ، المُفِيدِىّ، الشَيْخِىّ، الصاحِبِىّ،

---

(١) من الضوء .

الحاكمىّ، المُحْسِنىّ ، الفلانى ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ،سيدُ الفضلاء العامِلِين، قُدْوة العلماء فى العالَمين ، لسانُ المتكلِّمين ، بُرْهان المناظِرين ، صَـدْر المدرّسين ، جَلَالُ الطالبين، بقيَّة السلف الكرام الدَّارِجين ، بركةُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أمير المؤمنين» .

المرتبة الثـانية ــ مرتبة المَقرّ الكَرِيم .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض الدَّساتير عن نائب الشام فى توقيع ببعض الوظائف الدِّينيَّة بِدِمَشْق : «المَقرّ الكريمُ العالى، المولَوِىّ،القضائىّ، الصاحبىّ، الإمامىّ، العالِمىّ، العامِلىّ، العَلَّامىّ، المُفيدىّ، الفريدىّ، البليغىّ، الأوْحَدىّ ، المحقِّقىّ ، القَوَامىّ ، النِّظامِىّ ، العَريقىّ ، الحاكمىّ ، المُحْسِنىّ ، الفلانى ؛ جمـالُ الإسلام والمسلمين، جَلالُ العلماء العاملين، أوحدُ المتكلِّمين، أكمَلُ البلغاء فى العالَمين، قِدْوة المحقِّقين ، بركةُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثـالثة ــ مرتبةُ المَقرّ العـالى .

وصورتهـا علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير عن نائب حلَب بتدريس بها : «المَقرّ العالى، المولوىّ ، الشيخىّ، الكبيرىّ ، الإمامىّ، العالمىّ ، العلَّامىّ، المفيدىّ ، القُدوىّ، الفَريدىّ، المحقِّقىّ، القَوَامىّ، النِّظامىّ، الحاكمىّ، الفلانى؛ علاءُ الإسلام والمسلمين، أوحدُ الفضلاء العارفين، رُحلةُ الطالبين، نُخْبة المحقِّقين، جمـالُ العلماء فى العالَمين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثـانيـــة

(درجة الجَنَاب)

وقد جعلهـا فى "عرف التعريف" أعلىٰ ما يُكْتَب لهـذا النـوع ، وهى علىٰ ثلاث مراتب :

المرتبة الأولىٰ — مرتبةُ الجَنَاب الشريف . وهى مختصة بغير السلطانيات .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" « الجنـابُ الشريفُ العـالى، المولوىّ، القضائىّ، السيدىّ، الإمامىّ، العالمىّ، العاملىّ، العَلَّامىّ، الكاملىّ، الأَصِيلىّ، الأوحدىّ، المفيدىّ، القُدْوىّ، الفريدىّ، الحُجِّىّ، المجتهدىّ، الفلانى؛ حُجَّةُ الإسلام (أوضِياء الإسلام) شرفُ الأنام، أثيرُ الإمام، صدرُ الشام، سيدُ العلماء والحُكَّام، أو أوْحدُ العلمـاء الأعلام، بقِيَّةُ السلف الكِرام؛ شيخُ المذاهب، مُجَلِّى الغَيَاهب، قُدْوة الفِرَق، رئيسُ الأصحاب، مفتِي السُّنَّة، مؤيِّد الملة، شمسُ الشريعة، سيفُ النَّظَر، مفيدُ الطالبين، لسان المتكلِّمين، ولىُّ أمير المؤمنين » .

فإن كان حاكما قيل قبل الفلانى « الحـاكمى » وقبل ولىّ أمير المؤمنين « حَكَم الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثانية — مرتبة الجَنَاب الكريم . وهى مختصَّةٌ بغير السلطانيات أيضا .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى بعض الدَّساتير الشامية فى توقيع القاضى جمـال الدين آبن أبى جرادة الحنفىّ ببعض الوظائف الدينية : «الجَنَاب الكريم العالى، المولوىّ، القضائىّ، الكبيرىّ، الصاحبىّ، الإمامىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، الأَرِيبىّ، اللَّبِيبىّ، الأصيلىّ، العَرِيقىّ، القَوَامىّ، النظامىّ، الفلانى؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، أوحدُ الفضلاء فى العالَمين، أكمَلُ نُجَباء الأبناء العالِمين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَنَاب العالى . وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات، فصورتها علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحال فى ألقاب قاضى القُضاة الشافعىّ بالديار المصرية : « الجَنَاب العـالى، القاضَوِىّ، الشيخِىّ ، الكبيرىّ ، العالِمِىّ، العاملىّ، الأفضلىّ، الأكملىّ، الأوحدىّ، البليغىّ، الفريدىّ، المفيدِىّ، النَّجيدىّ ، القُدْوِىّ ، الحُجِّىّ، المحقِّقىّ، الوَرَعىّ، الخاشعِىّ، الناسِكِىّ ، الإمامىّ، العَلَّامىّ ، الأصيلىّ ، العَرِيقىّ ، الحاكمىّ ، الفلانى ؛ جمـالُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ العلمـاء العاملين، أوحدُ الفضلاء المُفِيدين، قُدوةُ البلغاء، حُجَّة الأمة، عمدةُ المحقِّقين ، فخرُ المدرّسين ، مفتِى المسلمين ، جلالُ الحُكَّام، بركةُ الدولة صَدْر مصر والشام، مُعِز السنة، مؤيِّد الملة، شمْس الشريعة، رئيسُ الأصحاب، لسانُ المتكلمين، حَكَم الملوك والسلاطين، وَلِىّ أمير المؤمنين» .

* * *

وأما فى غير السلطانيات، فصورتهـا علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير فى توقيع عن نائب الشام ببعض الوظائف الدينية لبعض العلماء : «الجَنَابُ العـالى، الشيخىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، الأوحدىّ، الماجدىّ، القِوَامىّ، النِّظامىّ، الفلانىّ؛ ضياءُ الإســلام والمسلمين ، أوحدُ الفضلاء العـارفين ، جلالُ الأئمـــة فى العالمين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــــة

(درجة المجلس وفيهـا ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مرتبةُ المجلِس العالى، وهى مستعملةٌ فى السُّلْطانيات وغيرها .

فأمّا فى السلطانيات ، فصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب القُضاة الثلاثة بالديار المصرية غيْرَ الشافعى : «المجلس العـالى، القـاضَوِى ، الكبيرى ، العالِمى، العاملى ، الأفضلى ، الأكملى ، الأوحدِى ، البليغى ، الفريدى ، المفيدِى ، النَّجيدى ، القُدوى ، الحُجّى ، المحقِّقى ، الإمامى ، الأصيلى ، العريقى ، الحاكمى ، الفلانى ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ العلماء العاملين ، أوحدُ الفضلاء المُفِيدين ، قُدْوة البلغاء ، حُجَّة الأمة ، عُمْدةُ المحدّثين ، فخرُ المدرّسـين ، مفتِي المسلمين ، جلالُ الحُكّام ، حَكَم الملوك والسلاطين» .

❖

وأما فى غير السلطانيات ، فصورتها علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" : «المجلس العـالى ، القَضائى ، الأجَلّى ، الإمامى ، الصَّدْرى ، الرَّئيسى ، الفَقيهى ، العالمى ، العَلامى ، الكاملى ، الفاضلى ، الأوحدِى ، الفلانى ؛ مجدُ الإسـلام ، فخرُ الأنام ، تاجُ العلماء والحُكّام (أو شرف العلماء والحُكّام) جمالُ الأمّة ، أوحدُ الأئمة ، صدرُ المدرِّسين ، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـانية — مرتبة المجلس السامى بالياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأمّا فى السلطانيات ، فلم يذكر لها فى "التثقيف" صورةً .

وصورتها علىٰ ما رأيتـه فى بعض التواقيع : « المجلس السامىّ ، القضـائىّ ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأوحدى ، الرئيسىّ، المُفيدىّ، البليغىّ، القُدوىّ، الأثيرىّ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين، جمـالُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء، صدرُ المدرِّسين، عمدةُ المفتين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض تواقيع بعض الخُطَباء «المجلس السامىّ، القضائىّ، الشَّـيْخىّ، الإمامىّ، العالمىّ، العاملىّ، العابدىّ، الزاهدىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، الخَطِيبىّ، الفلانى ؛ ضياءُ الإسلام والمسلمين، أوحدُ الخُطَباء فى العالمين، جمالُ الأئمة الفُصَحاء البارعين، لسانُ البيان، تَرْجُمان الزمان، بركةُ الملوك والسلاطين» .

✣ ✣ ✣

وأمّا فى غير السـلطانيات ، فصورتهـا علىٰ ما أورده فى "عُرْف التعريف" : « المجلس السامىّ، القضائىّ، الأجلِّىّ، الإمامىّ، الصَّدْرىّ، الفَقِيهىّ، العـالمىّ، الكاملىّ، الفاضلىّ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام، بهـاءُ الأنام، جمالُ العلمـاء، أوحد الفُضَلاء، شَرَفُ النُّبَلاء، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثـة — مرتبة المجلس السامى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـيرها .

فأمّا فى السلطانيات فلم يذكر لها صورةً فى "التثقيف" .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض التواقيع : «المجلسُ السامى، القـاضى، الأجلُّ، الكبيرُ، الصدْرُ، الرئيسُ، العالم، الفاضلُ، الكاملُ ؛ فلان الدين، مجدُ الصدور، زينُ الأعيان، مُرْتضىٰ الملوك والسلاطين» .

* * *

وأمّا في غير السـلطانيات ، فصورتهـا على ما ذكره في "عرف التعريف" : «المجلس السامِي ، القاضِي ، الأجلُّ ، الكبيرِ، العالمُ، الفاضلُ ، الكاملُ ، الأوحدُ ، الأثيرُ، البارعُ ؛ فلان الدين ، مجدُ الإسـلام ، بَهَـاءُ الأنام ، فخرُ الصـدور ، جمالُ الأعيان ، مرتَضى الدولة ، صَفْوَةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعـــة

(درجةُ مجلِس القاضى ، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها)

فأمّا فى السلطانيات فلم يذكر لها صورة فى "التثقيف" .

وصورتها على ما رأيته فى بعض التواقيع : «مجلس القـاضى ، الأجلِّ ، الكبيرِ ، العالِم ، الفاضلِ ، الأوحدِ ، الكامِلِ ، الصدرِ ، الرئيسِ ؛ مجدِ الإسلام ، بهاءِ الأنام ، زينِ الأعيان ، فخرِ الصدور ، مرتضى الملوك والسلاطين» .

* * *

وأمّا فى غير السلطانيات فعلى نحو من ذلك .

الدرجة الخامســـة

(درجة القاضى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : «القاضى ، الأجَلُّ» وربما زيد فى التعظيم نحو « الكبيرُ الصدرُ الرئيسُ» ونحو ذلك .

النـــــوع الرابع

(من الألقاب الإسلاميّة ألقابُ مشايخ الصوفيَّة وأهل الصَّلَاح ، وهى علىٰ خمس درجات)

الدرجة الأولىٰ

(درجة المَقَرّ، وليس لها ٱستعمالٌ فى السلطانيَّات، وفى غير السلطانيات لهـا ثلاثُ مراتِبَ)

المرتبة الأولىٰ — مرتبة المَقَرّ الشَّريف .

وصورتها : «المَقَرّ الشريفُ ،العالِى ،المَوْلوِىّ ، الشَّيْخِىّ ، السَّيِّدىّ ، الإمامِىّ ، العالمىّ ، العامِلىّ ، الكافِلىّ ، الفاضِلىّ ، الوَرَعىّ ، الزاهِدىّ ، العابِدىّ ، الناسِكىّ ، السالِكىّ ، الخاشِعىّ ، المُسَــلِّكىّ ، المحقِّقىّ ، المدقِّقىّ ، الفلانىّ ؛ صـلاحُ الإسلام والمسلمين ، جمالُ الأصفِياء العاملين ، خالصةُ الأنام ، صفوةُ الأتقياء ، قُطْب العُبَّاد ، المِلْكُ علىٰ الحقيقـه ، والمـالك لأزِمَّة الطريقه ، بقِيَّة السَّلَف ، قُدْوة الخَلَف ، مفيدُ الطالبين ، أوحدُ المحقِّقين ، رُكْن الملوك والسلاطين ، وَلىُّ أمير المؤمنين» .

وقد تقدّم أنَّ الأحسن فى اللقب المضافِ إلىٰ السلاطين هنا « بركةُ الملوك والسَّلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبةُ المَقَرّ الكريم ، وألقابُها من نسبة الألقاب المتقدّمة .

المرتبة الثالثة — مرتبة المَقَرّ العــالى ، وألقابُها نحوُ ذلك .

الدرجة الثانيـــــة

(دَرَجة الجَنَاب ، وفيها ثلاثُ مراتِبَ)

المرتبة الأولى — مرتبةُ الجناب الشريف . وهى مختصَّة بغير السلطانيات .

وصورتُها : «الجنابُ الشريفُ، العالى، المَوْلَوِىّ، الشيخىّ، الإمامىّ، العالِمىّ، العامِلىّ، الكافِلىّ، الفاضلىّ، الزاهِدىّ، العابِدىّ، الخاشعىّ، الناسِكىّ، الوَرِعىّ، جلالُ الإسلام، سيفُ الإمام، قُطبُ الزُّهَّاد، عَلَم العُبَّاد، أوحد الناسكين، فَرْدُ السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة الجناب الكرِيم . وهى مختصَّة بغير السلطانيات أيضا .

وصورتها على ما رأيتُه فى بعض التواقيع عن نائبِ الشام : «الجنابُ الكريم، العالى، الشيخىّ، العالمىّ، العامِلىّ، العَلَّامىّ، الأوحَدىّ، القُدْوِىّ، العابِدىّ، الناسكىّ، الخاشعىّ، المسلِّكىّ، المربِّى، الربانىّ، الأَصِيلىّ، الفلانى، مجدُ الإسلام، حسنةُ الأيام، قِدْوة الزُّهَّاد، مَلَاذ العُبَّاد، جمال الوَرِعين، مربِّى المريدين، أوحدُ المسلِّكين، خَلَف الأولياء، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبةُ الثالثة — مرتبة الجناب العالى . وهى مختصَّة بغير السلطانيات .

وصورتها على ما رأيته فى بعض التواقيع عن نائب الشام : «الجنابُ العالى، الشيخِىّ، العالمىّ، العاملىّ، الأوحَدىّ، العابِدىّ، الناسكىّ، الوَرِعىّ، الزاهِدىّ، الخاشعىّ، المسَلِّكىّ، الأَصِيلىّ، الفلانىّ، مجدُ الإسلام، بهاءُ الأنام، قِدْوة العُبَّاد، جَمَال الزُّهَّاد، أوحدُ المسلِّكين، برِكةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــة

(درجة المجلس، وفيها ثلاثُ مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مرتبة المجلِس العالى، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات، فصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب شَيْخ الشُّيوخ بخانقاه سِرْياقُوسَ : «المجلسُ العـالى ، الشيخىّ، الكَبِيرىّ، العالِمِىّ، العاملىّ، السالِكىّ، الأوحدىّ، الزاهِدىّ، العابِدىّ، الخاشِـعِىّ، النـاسِكِىّ، المُفيدىّ، القُدْوِىّ، الإمَامىّ، النِّظامِىّ، المَلَاذِىّ؛ جَلَال الإسـلام والمسلمين ، شرفُ الصلحاء فى العالَمِيـــن ، شيخُ شيوخِ الإسـلام ، أوحدُ العلماءِ فى الأَنَام ، قُدْوة السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين» .

*
* *

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ ماأورده فى "عرف التعريف" : «المجلس العـالى، الشيخىّ، الأجَلِّىّ ، الإمامِىّ، العـالِمىّ، العامِلىّ، الزاهِدىّ، العابِدىّ، الوَرَعِىّ، الخاشِعِىّ، الناسكىّ، القُدْوِىّ، الفلانىّ؛ خِيرةُ الإسلام ، شرفُ الأنام، زين العُبَّـاد ، نور الزُّهَّاد، ذُخْر الطالبين ، كنز التُّقىٰ ، ملجأ المريدين ، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامىّ بالياء،وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

أما فى السلطانيات ، فصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب الشـيخ شمس الدين الطُّوطى ممَّن كان يُكْتَب إليه قديمـا : «المجلس السامىّ ، الشيخىّ ، الأجَلِّىّ، العالمىّ، العـامِلىّ، الكامِلىّ، الفاضِـلِىّ، الزاهدىّ، الوَرَعىّ، العابِدىّ، الخاشِعِىّ، الناسِكِىّ، القُدْوِىّ، الأوحدِى ، الفلانِىّ؛ مجدُ الإسلام، ضياءُ الأنام،

بقيّةُ السَلَف الكِرام ، فخر الصُّلَحاء ، أوحدُ الكُبَراء ، زين الزُّهّاد ، عِمَـادُ العُبّاد ، قُدوة المتورّعين، ذُخْر الدُّوَل، ركنُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على مارأيته فى بعض التواقيع الشريفة : «المجلس السامىّ، الشيخىّ، الكبِيرىّ، الأوحدِىّ، الأكملىّ، العابِدىّ، الخاشِعىّ، الناسِكىّ؛ جمالُ الإسلام، زينُ الأنام، صَفوةُ الصلحاء، فخر العُبّاد، بركةُ الملوك والسلاطين» .

* * *

وأما فى غير السلطانيات ،فصورتها على ما ذكره المَقَرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى بعض التواقيع عن نائب الشام : «المجلسُ السامىّ، الإمامىّ، العالمىّ، العامِلىّ، الخاشعىّ، الوَرَعىّ، الناسِكِىّ، السالِكىّ، العارِفىّ، القُدْوىّ، البَليغىّ، الأصيلىّ، الشيخِىّ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسلام، شرفُ العلمـاء، قُدْوة الفُضَلاء، فخر الصُّلَحاء، جمـالُ النُّسّاك، قدوة السُّلّاك، أوحدُ العارفين، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـالثة — مرتبةُ المجلس السامى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـيرها .

فأما فى السلطانيات فلم يُورد لهـا صورةً فى "التثقيف" .

وصورتها على مارأيته فى بعض التواقيع الشريفـة : « المجلس السامى ، الشيخُ، الصالحُ، الزاهدُ، العابد، الوَرِع، الخاشـعُ، الناسِكُ ، السالِكُ ؛ فلان الديـن ، مجدُ الصلحاء، زينُ المشايخ، قُدوةُ السالكين ، بركةُ الملوك والسلاطين » .

* * *

وأمّا فى غير السلطانيات، فصورتها على نحوٍ من ذلك .

الدرجة الرابعـــــة

(درجة مجلس الشيخ)

وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

ولم يورد لها صورةً فى "التثقيف" . وصورتُها على مافى بعض الدَّساتير: «مجلس الشيخ، الصالحِ، الزاهِدِ، العـابِدِ، الناسِكِ، السالِك؛ فلان الدين، مجدِ الصُّلَحاء، زينِ المشايخ، بركةِ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الخامســـــة

(درجة الشيخ)

وهى «الشيْخُ، الصالحُ، الوَرِع، الزاهدُ» ونحو ذلك .

النـــوع الخامس

(ألقاب التُّجّار الخَواجَكِيَّة، والمستعملُ فيه أربع درجات)

الدرجة الأولىٰ

(درجــةُ الجَنَـاب)

ولم أر فيها غير مرتبة الجَنَاب العالى فيما عدا السلطانيَّات .

وصورتها علىٰ مارايته فى بعض الدَّسَاتير الشاميَّة فيما كُتِب به لبعض الخَوَاجَكِيَّة: «الجنابُ العالى، الصَّدْرى، الكبيرى، المحترَمى، المؤتَمَنى، الأوحَدى، الأكملى، الرئيسِى، العارفى، المُقَرَّبى، الخَوَاجَكى، الفلانى؛ مجدُ الإسـلام والمسلمين،

شرفُ الأكابر فى العالَمين، أوحدُ الأمناء المقرَّبين، صدرُ الرؤساء، رأسُ الصُّدُور، عينُ الأعيان، كبيرُ الخَوَاجَكِيَّة، ثِقَةُ الدولة، مؤتمنُ الملوك والسلاطين» . فإن اتفق أن يُكْتَب لاحد من الخَوَاجَكِيَّة بأعلىٰ من الجناب العالى، كُتِب له من نظير هـذه الألقاب وأعلىٰ منها .

الدرجة الثانيـــــــة

(درجة المجلس، وفيها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبة الأولىٰ — مرتبة المجلس العالى، وهى مختصة بغير السلطانيات .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض الدساتير الشاميَّة : « المجلسُ العالى، الصدْرِىّ، الرئيسىّ، الكبيرِىّ، المحترَمىّ، المؤتَمنِىّ، الأوحَدىّ، الأكملىّ، المقرَّبىّ، الخَوَاجكِىّ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسلام، شرفُ الأكابر، أوحدُ الأمناء، صدرُ الرؤساء، زَيْنُ الأعيان، ثِقَةُ الدولة، مؤتَمنُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـانية — مرتبةُ المجلس السامِىّ باليـاء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأمّا فى السلطانيات، فصورتُهـا علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقـاب خَوَاجَا عَسَّافِ بن مُسافِر، ونظامِ الدِّين الإسْعِرْدِىّ : «المجلسُ السامىّ ، الصَّدْرِىّ ، الكَبِيرِىّ، الكاملىّ، الماجِدىّ، الأوحِدىّ، المقرِّبِىّ، المنتَخبِىّ، الأَمِينىّ، الأَثِيرِىّ، الخَوَاجَكِىّ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام، زينُ الأنام، شرفُ الرؤساء، أوحدُ الكُبَرَاء، تاجُ الأُمَنـاء، فخرُ الأعيان، مُقَرَّب الحضرتين، موتَمنُ الدُّوَل، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

* * *

واما فى غير السلطانيات، فصورتها على نحوٍ من ذلك .

المرتبة الثـالثة — مرتبة المجلس السامِى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأمّا فى السلطانيات ، فصورتها على ما أورده فى " التثقيف " فى ألقـاب بعض الخَواجَكيَّة : «المجلس السامى، الصدرُ، الأجلُّ، الكبيرُ، الكاملُ، الماجدُ، الأوحدُ، المقرّبُ، المنتخَبُ، الأمينُ، الأثيرُ، الخَواجَا، فلان الدين، مجدُالرؤساء، زينُ الأكابر، مجد الصُّدُور، جمالُ الأعيان، مقرّبُ الدولة، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

* * *

وأمّا فى غير السلطانيات فعلى نحوٍ من ذلك .

الدرجة الثالثـــــة

(درجة مجلس الصَّدْر، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

فأما فى السلطانيات، فصورتها على ماذكره فى " التثقيف " : «مجلسُ الصدر، الأجلّ، الكبير، المحترَم، المقرّبِ، الأوحدِ، فلان الدين» .

* * *

وأمّا فى غير السلطانيات، فلا تخرج عن ذلك .

الدرجة الرابعـــــة

(درجة الصَّدْر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

فأمّا فى السلطانيات فصورتُهـا علىٰ ماأشار إليـه فى " التثقيف " : « الصَّدْرُ ، الأجلُّ، الكبيرُ، المحترَم، المقرّبُ، الأوحدُ، فلان الدين» .

* * *

وأمّا فى غير السلطانيات، فلا تبعُدُ من ذلك .

النـــــوع السادس

(من الألقاب الإسلاميـــة ألقـابُ أرباب الصناعات الرئيسـيَّة ، كرياسة الطب ، ورياسة الكحّالين ، ورياسة الجرائحية ، ونحو ذلك، والمستعمل فيه درجتان)

الدرجة الأولىٰ

(درجة المجلس، وفيها ثلاثُ مراتِبَ)

المرتبة الاولىٰ — مرتبة المجلس العالى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأمّا فى السلطانيات، فكألقاب رئيس الأطِبَّاء،وهى«المجلسُ العالى . [(١) القَضَائِىّ، العالمىّ، الفاضـلِىّ، الكامِلىّ، الأوحدِىّ، الفلانىّ؛ جمالُ الإسـلام والمسلمين، سيدُ الرؤساء فى العالَمين، أوحدُ الفضلاء المقرَّبين، خاصّةُ الملوك والسلاطين»](١) .

---

(١) بيض لهذه العبارة فى الاصول ، فنقلناها من ضوء الصبح للؤلف .

* * *

وأمّا فى غير السلطانيات فعلىٰ نحوٍ من ذلك .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامِىّ ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها : « المجلس السامِىّ ، الصدْرِىّ ، الأجَلِّىّ ، الكبيرىّ ، الرئيسِىّ ، الفلانىّ » .

* * *

واما فى غير السلطانيات فعلىٰ نحوٍ منه .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامِى بغير ياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها : « المجلس السامِى ، الصدرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، المحترمُ » .

* * *

وأما فى غير السلطانيات ، فعلىٰ نحو ذلك .

الدرجة الثانية

(درجة الصَّدْر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : « الصدرُ الأجلُّ » فإن زيدَ فى تعظيمه ، قيل : « الكبيرُ المحتَرَم » .

النـــــوع السابع

(من الألقاب الإسلاميَّة ألقابُ الحاشية السلطانية ، كمِهْتاريَّة البيوت ، ومُهنْدِس العمائر، ورئيس الحَرّاقة ونحوهم، وفيه درجتان)

الدرجـــــة الأولىٰ

(درجة مجلس الصَّدْر، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

فأما فى السلطانيات ، فصورتها علىٰ ماذكره فى " التثقيف " فى ألقاب المهنْدِس والرئيس : «مجلس الصَّـدْر ، الأجلّ ، الكبير، المحترَم ، المؤتَمَن، فلان الدين» . وفى ألقاب مِهْتارِيَّة البيوت : من مِهْتار الشَّرابْ خاناه، والطَّشْت خاناه، والفرَاش خاناه، وإخْوان سَلَار ونحوهم : «مجلس الصَّدْر، الأجلّ، الكبير، المحترَم، المؤتَمَن، الحاج فلان» .

*
* *

وأما فى غير السلطانيات، فكذلك أو أزْيد .

الدرجة الثـــانيـــــة

(درجة الصَّدْر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتُهـا فيهما : «الصـدْرُ الأجلُّ» فإنـ زِيدَ فى رِعايَته قيل بعد ذلك : «الكبير المحترَم» .

النـــوع الثامن

(من الألقاب الإسلامية ألقاب النساء ، وفيه درجتان)

الدرجـــة الأولىٰ

(درجة الجهَة ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولىٰ — مرتبة الجِهَةِ الشريفة ، وصورتها علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقـاب إلىٰ بِنْتِ[(١)] الملك الناصر محمد بن قلاوون عن والدتها : «الجِهةُ الشريفةُ، العاليةُ المحجَّبَة، المصُونةُ، الوَلَدِيَّة، العِصْمِيّة، عِصْمة الدين، جلالُ النساء، شرفُ الخَوَاتين، سليلةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا علىٰ ماذكره فى " التثقيف " أيضـا فى المكاتبة إلىٰ أم آنوك : زوجة السلطان الملك الناصر عنه : « الجِهةُ الشريفةُ، العاليةُ، المعظَّمة، المحجَّبة، المصونةُ ، الكُبْرىٰ ، خُوند خاتونُ ، جلالُ النسـاء فى العالمين ، قرينـةُ الملوك والسلاطين » .

وصورتها علىٰ ما ذكره فى المكاتبة إلىٰ أُخْت السلطان الملك الناصر حَسَن عنه : « الجهةُ الشريفةُ ، العاليةُ ، المكَرَّمة ، المحجَّبة ، المصونةُ ، الكبرىٰ ، الخاتُون ، جلالُ النساء فى العالمين ، جَميـلةُ المحجَّبات ، جليـلةُ المصُونات ، كريمـةُ الملوك والسلاطين » .

---

(١) سقط لفظ إلىٰ من الضوء وهى أوضح .

وصورتهـا على ما ذكره فى ألقـاب الستّ حَدَق : «الجهة الشريفة، العـاليةُ، الكبيريَّةُ، المحجَّبِيَّة، المَصُونِيَّة، الحاجِّيَّة، الوَالِديَّة، جلالُ النساء فى العالمين، بركةُ الدولة، والدةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا على ما رأيته فى بعض الدَّساتيرِ فى ألقاب والدةِ الأشرفِ شعبانَ آبن حسـين : «الجِهةُ الشريفةُ، العالية، الكُبْرىٰ، المعظَّمة، المحجَّبة، العِصْمىّ، الخـاتُونىّ، جلالُ النساء فى العالمين، سيِّدةُ الخواتين، جميلةُ المحجَّبات، جليلةُ المَصُونات، والدةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـانية — مرتبة الجِهَـة الكريمة .

وصورتها على ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب دلشاه : زوج الشيخ حسن الكبير ببغداد : الجِهةُ الكريمة، المحجَّبة، المصونة، العِصْمِيَّة، الخاتُونِيَّة، المعظَّمة، سيدةُ الخَوَاتين، زينةُ النِّساء فى العالَمين، جميلةُ المحجَّبات، جليلةُ المصونات، قرينةُ نُوَيْن الملوك والسلاطين .

الدرجة الثـانيـــة

(درجةُ الدار. وهى على نحو المرتبتين المتقدّمتين فى الألقاب السابقة)

الدرجة الثـالثـــة

(درجة السِّتارة وهى لاتكادُ تخرُج عما تقدّم من المرتبتين المتقدّمتين)

القسم الثانى
(من الألقاب المرتّبة ألقابُ أهل الكُفْر ، وهى علىٰ ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل
(ألقابُ متدينتِهم ، وهى نوعان)

النوع الأوّل
(ألقاب بَطَاركة النصارىٰ)

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب الباب برُومِيَة : «البابُ، الجليلُ، القِدّيس، الرُّوحانِىّ، الخاشعُ، العامل، پَاپَا رُومِيَة، عظيم المِلّة المَسيحيَّة، قُدْوة الطوائف العِيسويّة، مملّك ملوك النصرانيــة، حافظ البِحَار والخُلْجان، مَلاَذُ البطاركة والأساقِفَــة والقُسُوس والرُّهْبان، تالِى الإنجيــل، معرِّف طائفته التحريمَ والتحليل، صَدِيقُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب البَطْرِيَرْك بالديار المِصْرية : «البَطْرِيَرْك الجليل، القِدِّيس، الخاشع، قُدْوة النصرانية» . ثم قال : ومن نسبة ذلك.

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض التواقيع له : «الحضرةُ الساميَة، الشيخ، الرِّئيس، المبجّل، المكَرَّم، الكافى ، المُعزَّز، المفَخَّر، القِــدِّيس، شمسُ الرياسة، عمَــاد بنى المعمودية، كنزُ الطائفة الصَّلِيبيَّة، آختيار الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض الدساتير الشاميَّة عن نائب الشام للبطْرِيَرْك بها : «البَطْرِيَرْك، المحتَشم ، المبجَّل، العارف، الحَبْر، فلان، العالمُ بأمور دينه، المعلِّم لأهل ملته ، ذُخْر المِلَّة المَســيحية ، كنزُ الطائفة العِيسوية، المشــكورُ بعَقْله عند الملوك والسلاطين» .

النـــوع الثـانى

(ألقـاب رؤسـاء اليهـــود)

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض التواقيع لرئيس اليهود بالشام من إنشاء القـاضى محيي الدين بن الزكى فى سنة ست وعشرين وستمائة : «الرئيسُ، الأوحدُ، الأعزُّ، الأخصُّ، الكبير، شرفُ الطائفة الإسرائيلية فلان» .

الضرب الثـانى

(ألقاب ملوكهم وتختص بالنصارىٰ ، وهو نمطان)

النمـــط الأوّل

(الألقاب المذكَّرة، وهى علىٰ ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل

(ما يُصَـــدَّر بالألف واللام ، وهى علىٰ خمس مراتِبَ)

المرتبة الأولىٰ — مرتَبةُ الحضرة العالية .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب مَلِك الحَبَشــة : «الحضرةُ العالِيَــة، حضرةُ المِلك الجليل ، الهُمَام، الضِّرْغام ، الأســد، الغَضَنْفَر، الخطير، الباسل، السَّمَيْدَع ، العالم فى مِلَّته ، العادل فى مملكتِه، المُنْصِف لرعِيَّته، المتَّبِـع لما يجب فى أقضيته، عزّ الأمة النصرانية، ناصر الملة المَسِيحية، رُكْن الأُمَّة العِيسويَّة، عِماد بنى المعمودية، حافظ البلاد الجَنُوبية، مُتَّبِـع الحواريِّين، والأحبار السُّرْيانيِّين،

والبَطاركة القِدّيسين، مَعَظِّم كنيسة صِهْيَوْن، أوحد ملوك اليَعْقوبية، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده فى "التعريف" أيضا فى ألقاب صاحب القُسْطنطينيَّة : « الحضرة العاليةُ ، المكرَّمة ، حضرة الملك الجليـلِ ، الخطيرِ ، الهُمَامِ ، الأسـد ، الغَضَنْفَر ، الباسل ، الضِّرغام ، المُعْرِق ، الأصـيل ، الممَجد ، الأَثيل ، البلالاوس ، الرِّيدأرغون ، ضابطُ الممالك الرُّومِيَّة ، جامع البلاد الساحِلية ، وارثُ القَياصرة القُدَماء ، مُحْيِي طُرُق الفلاسفةِ والحُكَماء ، العالِمِ بأمور دينه ، العادلِ فى ممالكه ، مُعزّ النّصْرانية ، مؤيِّد المسـيحية ، أوحد ملوك العِيسَـوية ، مُخَوَّل التُّخُوت والتِّيجان ، حامى البِحار والخُلْجان ، مَلِك ملوك السُّرْيان ، عماد بَنِي المعموديَّة ، رَضِيّ الباب پَاپَا رُومِيَة ، ثِقَة الأصدقاء ، صديق المسلمين ، أسوة الملوك والسلاطين فلان » .

المرتبة الثانية — مرتبة الحضرة العليَّة .

وصورتها على ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب مَلِك الكُرْج : «الحضرةُ العليَّة ، حضرةُ الملك الجليـلِ ، الهُمَامِ ، الباسل ، الضِّرْغام ، السَّمَيْدَع ، الكَرَّار ، الغضَنْفَر ، المتَخَّت ، المتوَّج ، العالم فى مِلَّته ، العادل فى رعِيَّته ، بقيَّة الملوك الاغْرِيقيَّة ، سلطان الكُرْج ، ذُخْر ملوك البِحار والخُلُج ، حامى حِمَىٰ الفُرْسان ، وارثِ آبائه فى الأسِرة والتِّيجان ، سَيَّاج بلاد الرُّوم وإيران ، سـليلِ اليُونان ، خلاصـةِ ملوك السُّرْيان ، بقية أبناء التُّخُوت والتِّيجان ، مُعزّ النصرانية ، مؤيِّد العِيسويَّة ، مَسِيح الأبطال المَسيحيّة ، معظِّم البيت المقَـدَّس بعَقْد النية ، عمـاد بَنِي المعموديّة ، ظهير الباب پاپا رُومية ، مُوادِّ المسلمين ، خالصةِ الاصدقاء المقرَّبين ، صديقِ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مرتبة الحضرة السامية .

وصورتها على ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب الأدفُونش صاحب طُلَيْطلة وإشْبِيلِيَةَ من الأندَلُس : «الحضرةُ الساميةُ ، الملكُ الجليـلُ ، الهُمَام ، الأسـدُ ، الباسـلُ ، الضِّرْغام ، الغضَنْفَر ، بقِيَّـة سلف قَيْصَر ، حامِى حُمَـاة بنى الأصْـفَر ، الممَّنع السـلوك ، وارث لَذَرِيق وذرارِىّ الملوك ، فارس البَرِّ والبحر ، ملِك طُلَيْطِلة وما يليها من البـلاد الأندَلُسية ، بطلُ النصرانية ، عمـادُ بنى المعمودِيَّة ، حامل راية المَسِـيحيَّة ، وارثُ التِّيجان ، شبيه مَرْيُحَنَّا المَعْمَدان ، محبُّ المسلمين ، صـديقُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الرابعة — مرتبة الحضرة المكرّمة .

وصورتهـا على ما رأيته فى بعض الدَّسَاتير الشامية فى ألقـاب صاحب قُبْرس : « الحضرة المكَرَّمة ، حضرة الملك الجليـل ، البَطَل ، الباسـل ، الهُمَام ، السَمَيْدَع الضِّرْغام ، الغضَنْفَر ، القَمْقام ، مؤيِّد الملة المَسِيحية ، عِمَاد بَنِى المعموديَّة ، ذُخْر الملة النَّصْرانيـة ، حامى الجَزائر القُبْرُسية ، مُوادّ المسلمين ، صديق الملوك والسلاطين ، الملك فلان» .

المرتبة الخامسة — مرتبة الحضرة الموَقَّرة .

وصورتهـا على ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقاب الأدفونش المقـدّم ذكره : «الحضرة الموَقَّرة ، الملك الجليـلُ ، المكَرَّم ، المبجَّل ، الخطير ، البطَلُ ، الباسـل ، الهمام ، الضِّرْغام ، الرِّيدأرْغُون ، نَصْر النصرانيـة ، فخر الأُمَّة العِيسَوِية ، ذُخْر الملة المسيحية ، حامى الثُّغور ، متملِّك السواحل والبُحُور ، عمادُ بنى المَعْمُوديَّة ، ظَهِير بابا رومية ، مَلَاذُ الفُرْسان ، جمالُ التُّخُوت والتِّيجان ، صديقُ الملوك والسلاطين» .

النـــــوع الثـانى
(ما يُصَدَّر بحضرة مع الإضافة)

وصورتهـا علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقـاب صاحب القُسْطنطينيَّة : «حضرةُ الملِك، الجليل، المكَرَّم، المبجَّل، الأسدِ، الخَطِير، البطَلِ، الباسل، الهُمَام، الضِّرْغام، فلان؛ العالم فى مِلَّته، العادل فى أهل مملكتِه، عِزّ الأُمَّة المَسِيحية، كنزِ الطائفة الصَّلِيبيَّة، جَمَـالِ بنى المَعْمُودية، صَمْصَامِ الملوك اليُونانِيّـة، حُسَامِ المملكة المـالُوصِية، صاحبِ أمصار الرُّوس والعَلَّان، مُعِزّ اعتقاد الكُرْج والسُّرْيان، وارثِ الأَسِرَّة والتِّيجان، الحـاكم علىٰ الثُّغُور والبحور والخُلْجان، الدُّوقس الانجالوس الكمينيوس البَالَالوغس، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقاب ملك الكُرْج : «حضرةُ الملك الجليل، المكَرَّم، الخطيرِ، الباسلِ، القَمْقام، القِدِّيس، الرُّوحَانىّ، فلان؛ عِزّ الأمة المسيحية، كنز الطائفة الصليبية، فَخْر دين النَّصرانية، ملك الجبال والكُرْج والجُرْجان، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض الدساتير فى ألقاب ملك الكُرْج أيضا : «حضرة الملكِ الجليـل، العالم فى ملته، العادل فى مملكته، المتوَّج من الله فلان؛ سيد ملوك النَّصْرانية، أكبرِ زُعَماء الملة المَسِيحية، ضابط المـالك الكُرْجية، ... ...(١) خَليل الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما ذكره فى "التعريف" فى ألقاب مُمَلِّك سِيسَ قبـل فَتْحها : «حضرة الملكِ الجليـلِ، البطلِ، الباسـل، الهُمَام، السَّمَيْدَع الضِّرغام، الغَضَنْفر

(١) بياض بالاصول بقدر كلمة .

فلان ، فَخْر الملة المَسِيحية ، ذُخْر الأمة النصرانية ، عماد بنى المعمودية ، صديقُ الملوك والسلاطين» .

وصورتُها على ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقاب متملِّك سِيس المذكور أيضا : «حضرةُ الملك الجليــل ، المكرَّم ، المبجَّل ، المعزَّز ، الهمام ، الباسل ، فلان ، عِزّ دين النصرانية ، كبير الطائفة الصَّلِيبية ، عمادِ بنى المعُمُودية ، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتهــا على ما ذكره فى "التثقيف" أيضــا فى ألقاب صاحب البُنْدُقِيَّــة : «حضرة الدُّوك الجليــــل ، المكَرَّم ، الخطير ، الباســل ، الموَقَّر ، المفخَّم ، فلان ، فخر المِلَّة المسيحية ، جمــال الطائفة الصليبيَّة ، دُوك البندُقِيَّة والمانسية ، فلان ، زين بَنِى المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب ملك السِّرْب والبُلْغار : «حضرة الملك الجليل ، المكَرَّم ، المبجَّل ، الهُمَام ، الضِّرغام ، الباسل ، الدُّوقس ، الأَنْجالُوس ، الكمينيوس ، فلان ، عِمادِ النصرانية ، مالكِ السِّرْب والبُلْغار ، فخر الأُمَّة العِيسَوِيَّة ، ذخرِ الملة المَسِيحية ، فارسِ البُحُور ، حامى الحُصُون والثُّغُور» .

وصورتها على ماأورده فى ألقاب ملك مونفراد : «حضرة الملِك الجليل ، المكَرَّم ، البطلِ ، الهمام ، الأسدِ ، الضِّرغام ، فلان ، مجدِ النصرانية ، فخر العِيسَوية ، عمادِ بنى المعموديَّة ، جمــالِ الطائفتين الرُّومية والفَرَنْجِيَّة ، ملك منفراد ، وارثُ التــاج ، مُعِزّ البــاب» .

وصورتُها على ما أورده فى ألقابِ لِدُوك البندُقِيَّة غير ما تقدّم : «حضرة المحتَشم ، الجليل ، المبجَّل ، الموقَّر ، المكرَّم ، المفَخَّم ، الباســل ، الضِّرغام ، فلان ، عِزّ الملة المسيحية ، جمال الطائفة العِيسويَّة ، ذُخْرِ الملة الصَّلِيبيَّة ، صديقِ الملوك والسلاطين» .

النـــوع الثالث

(مايُصَدَّر بالمَلِك وما فى معناه)

وصورتُه على ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب مَلِك الحَبَشة : «الملكُ الجليلُ، المكَرَّم، الخَطِير، الأسدُ، الضِّرْغام، الباسل، فلان، العالمُ فى ملته، العادلُ فى مملكته، حَطِّى مَلِك أمْحَرا، أكبر ملوك الحُبْشان، نَجَاشِيّ عَصْره، سَنَد الملة المَسيحيّة، عَضُد دِين النصرانية، عِمَادُ بنى المعمُودية، صديقُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ماذكر فى "التثقيف" فى ألقاب دُوك البنْدُقية غير ماتقدّم : «الدُّوك الجليل، المكَرَّم، المبجَّل، الموقَّر، البطَلُ، الهمام، الضِّرْغام، الغضَنْفر، الخَطِير، مجدُ المِلَّة النصرانيَّة، فخرُ العِيسويَّة، عمادُ بنى المعمُودية، معزُّ پاپا رُومِية، صديقُ الملوك والسلاطين فلان» .

النمـــط الثانى

(من ألقاب ملوك الكُفْر [الألقابُ المؤنَّثة])

وصورتها على ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب صاحبة بابِل : «الملِكةُ الجليلة، المكَرَّمة، المبجَّلة، المُوَقَّرة، المفخَّمة، المعزَّزة، فلانةُ، العالمةُ فى مِلَّتها، العادلةُ فى مملكتها، كبيرةُ دِين النَّصْرانية، نِصيرةُ الملَّة العِيسَوِيَّة، حامِيَة الثغور، صديقةُ الملوك والسلاطين» .

الضرب الثـالث

(ألقابُ نوّاب ملوكهم وكَاصِلَتهم ومَنْ فى معنىٰ ذلك . وهو علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(ألقـاب النُّــوّاب)

وصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب النائب بالأبواب: «النائبُ الجليلُ، المبجَّل، الموقَّر، القِدّيس، الرُّوحانىّ» والنُّعوت من نِسْبة ألقاب متملِّك سِيس .

وصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب صاحب دُنْقُلة : «النائبُ الجليل، المبجَّل، الموقَّر، الأسـدُ، البـاسلُ، فلان؛ مجدُ الملة المَسيحية، كبير الطائفة الصَّليبيَّة، غَرْسُ الملوك والسلاطين» .

النوع الثـانى

(القـاب الكَاصِـلة)

وصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب الكُنْصُل بانكفا(١) كألقاب متملِّك سِيس المنقولة عن التثقيف فيما تقدّم .

وصورتها علىٰ ماأشار إليه فى "التثقيف" فى ألقاب المُطْران نائب البابِ بالانهة(١): وهى قُبْرُس نحو ما تقـدّم فى ألقـاب البَطْرك بالديار المصرية . قال : ويُزاد عليه «المُطْران فلان» ويقـال فى نُعوته «ناصح المُلُوك والسَّلاطين» .

وصورتُها علىٰ مارأيته فى بعض الدَّساتير الشامية فى ألقاب إبراهيم كِرِى: أحد كُتَّاب الفرَنْج عن نائب دمشق : «المُحْتَشم، الكَبِير، المخَوَّل، الأسدُ، الهُمَام، الغَضَنْفر،

(١) كذا فى الأصول بدون نقط .

مُوَادُّ المسلمين، متَّبِـع الحَوَارِيِّين، جَمَالُ العِيسويَّة، أوحدُ بنى المعمودية، صاحِبُ الملوك والسلاطين» .

قلت : قد تبيَّنَ بمـا تقدّم من الألقاب والنُّعوت الإسلاميَّة وألقاب أهل الكُفْر ونُعوتهم أنها ليستْ واقفةً عند حَدّ، بل هى راجعةٌ إلىٰ ٱصطلاح الكُتَّاب وٱختيارهم فى زيادة الألقاب ونَقْصها ، والإتيانِ بلَقَبٍ دون لَقَب، مع رعاية المُناسبة لكلِّ مَقَام وما يحتمِلهُ من الألقاب، إلا أن لذلك (أصولًا يُرْجَع إليها) وقوانينَ يُوقَف عندها، إذا اعتمدها الكاتبُ ومشىٰ علىٰ نَهْجها ونَسَج علىٰ مِنْوالها، أصاب سَـوَاء الثُّغْرة من الصِّناعة، وطَبَّق المَفْصِلَ بالمَفْصِل فى الإتيان بالمَقْصِد، ومتىٰ أهملها وفَرَّط فى مراعاتها ضلَّ سواءَ السبيل، وخرج عن جادَّةِ الصواب : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ هادٍ﴾ .

الأصل الأوّل — أن يقِفَ علىٰ ما رتَّبه البلغاء من أرباب الصَّنْعة من الألقـاب والنُّعوت لكلِّ صِنْف من ذَوِى الألقاب والنعوت : لأهلِ الأسلام وأهلِ الكفر . ويُجْرِى ذلك منه مُجْرىٰ الحفظ والٱستِحْضَار، ليسهُل عليه إيرادُهُ فى موضعه، ولايَشِذّ عنه شىءٌ منها عند الٱحتياج إليه . وقد تقدّم من ذلك جملة مستكْثَرَة يُهتدىٰ بنَجْمها، ويستضاء فى ظلمة اللَّبْس بضَوْئها .

الأصل الثانى — أن يعرِفَ ماهو من الألقاب والنُّعوت حَقِيقىٌّ لصاحب اللَّقب الذى يستعمله فيه : كالعالِمىّ لأهل العلم، والعابِدىّ لأهل الصَّلَاح، والعادِلىّ للحُكَّام من أرباب السيوف وغيرهم؛ وماهو منها مَجَازِىّ : كالعالمىّ لأرباب السُّيوف والكُتَّاب حيث لا ٱتصافَ لصاحب اللَّقَب بالعلم ، والأصِيلِىّ لمن ليس له آباءٌ فى الرِّياسة ولا عَرَاقةٌ فى النَّسب، ونحو ذلك ممـا يَجْرى هذا المَجرىٰ .

الأصل الثالث — أن يَعْرِف الألقابَ الخاصَّةَ ببعضٍ دون بعض، كالشَّرِيفىّ، والحَسِيبِىّ، والنَّسِيبِىّ، للأشراف أولاد فاطمةَ رضى الله عنهـا، والكافِلِىّ لنـائب

السلطنة أو وَزِيرٍ كبير، والنُّوَيْنِيّ لأمير التَّوامِينِ بالشرق، والمدبِّرِيّ للوزير ونحوه من ناظر الخاص ومَنْ فى معناه، والمُشِيرِيّ لمن يُؤْخَذ رأيه من أكابر أرباب السيوف والأقلام، والسَّفِيرِيّ للحاجب والدَّوادَار وكاتِبِ السرّ، واليَمِينِيّ للدَّوَادار وكاتب السرّ، والعَرِيقِيّ لذى العَرَاقة فى النسب، والأَصِيلِيّ لمن له ثلاثةُ آباءٍ فى الرياسة .

وكذلك النعوت كوالِدِ المُلوك والسلاطين لمن يكون له أولاد من الملوك، ووَلَد الملوك والسلاطين لأولاد الملوك، وعَضُد الملوك والسلاطين للأمراء ونحوهم، وكافِل الممالك للنائب الكافل، وسَفِير الدولة ولسان المملكة للدَّوادار وكاتب السرّ، ويَمِين الملوك والسلاطين لهما أيضا، ووالدةِ الملوك والسلاطين لمن يكون من أولادها مَلِك، وكريمة الملوك والسلاطين لمن يكون من إخْوتها سلطان، وقَرِينة الملوك والسلاطين لمن تكون زوجةَ ملك، وصَدِيقِ الملوك والسلاطين، أو مُوادّ الملوك والسلاطين لملوك الكُفْر، وقَرِين الملوك والسلاطين لنُوَّابهم، ونحو ذلك مما يَجْرِى هذا المَجْرىٰ : فيُوقِع كلَّ لقبٍ او نعتٍ منها فى موضعه ولا يُجاوِزه إلىٰ غيره . وأنت إذا تأملتَ ما سَلَف من ترتيب الألقاب والنُّعوت علىٰ الأصول المتقدّمة، ظهر لك منها ما تستعين به علىٰ ترتيبها وإيقاعها مَواقِعَها .

الأصل الرابع — أن يَعْرِف الألقابَ والنُّعوتَ الرفيعةَ المِقْدارِ، فيُلْحِقَها بما يناسبها من الألقاب الأصول؛ كإلحاق العالىّ والعادِلىّ وممهِّد الدُّوَل ومُشيِّد الممالك وما شاكل ذلك بالمَقرّ والجَناب الكريم ونحو ذلك . ويَعْرِفَ الألقابَ النازِلةَ، فيُخْرِج منها ما يجرِّده عن الياء ويلحقُه بالسامى بغير الياء فما دُونَه كالعَضُد والذُّخْر وما أشبه ذلك .

الأصل الخامس — أن يَعْرِف مراتبَ الألقاب فى التقديم والتأخير، مثل أن يعلم أن الشريفَ والكريمَ يَلِيانِ المَقرّ والجنابَ، والعالِيَ يليهما؛ ثم العالى يلى المَقرّ

والجناب والمجلس ، والسامي يلي المجلس حيث لايليه العالي . وأن النعتَ المضاف إلىٰ أمير المؤمنين مثل عَضُد أمير المؤمنين ، وسيف أمير المؤمنين ، وحُسام أمير المؤمنين ، يكون آخرَ النُّعوت . وأن المضاف إلىٰ الملوك والسلاطين مثل عَضُد الملوك و السلاطين ، وظَهير الملوك والسلاطين ، يكونُ قبله المضاف إلىٰ أمير المؤمنين إن كان فى رتبةٍ يثبت فيها ما يُضَاف إلىٰ أمير المؤمنين، وإلا يكون المضاف إلىٰ الملوك والسلاطين هو آخر الألقاب . وأن يعلم أن لقب التَّعْريف: وهو الفُلانِيُّ أو فُلانُ الدين يكون واسطةً بين الألقاب والنعوت، فاصلًا بينهما . وأن لقبَ الوظيفة كالكافِلِيّ والحاكِميّ وماأشبههما يكون قبل لقَبِ التعريف غالبا علىٰ ماتقدّم بيانُه، فيضع هذه الألقابَ فى مواضِعِها ولا يخرجُها عنها، بخلاف مايجوز فيه التقديم والتأخيرُ من الألقاب والنُّعوت .

الجملة العاشرة

(فى ذكر ألقابٍ تَقَع علىٰ أشياءَ متفرِّقةٍ قد جرتْ فى عُرْف الكُتَّاب . وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(فيما يجرِى من ذلك مجْرىٰ التفاؤل، ويختلف باختلاف الأحوال والوقائع، ويَتنوَّع إلىٰ أنواع)

النـوع الأوّل

(مايوصف بالنَّصر، كالجُيُوش والعساكر والقِلاع والبَرِيد ونحوذلك)

فيقال فى الجيوش والعساكر : «الجُيُوش المنصورة، والعساكر المنصُورة» ويقال فى القِلاع المنصورة «وقلعة دمَشْق المنصورة وقلعة حلب المنصورة» ونحو ذلك،

وكذلك يقال «القِلاعُ المنصورةُ» على الجمع تَفاؤُلا بحصول النَّصْر لها، ويقال فى البَرِيد: «البَرِيد المنصورُ» على ما اصطَلَح عليه كُتّاب الزمان. على أن فى وصف البريد بالمنصور نظرا: لأنه إنما وُضِع ليوصِّل الأخبارَ ونحو ذلك، وكان الأحسنُ أن يوصف بالسَّعِيد ونحوه اللهم إلا أن يُراد أنه ربما وصل به خبرُ النصر على العَدُوّ، وهو من أهم المهمَّات، وكأنه وُصِف بأشرف متعلَّقاته.

النـــوع الثانى

(ما يُوصف بالحِرَاسة، كالمُدُن والثُّغُور)

فيقال فى المُدُن «مِصْر المحروسةُ» و«القاهِرةُ المحروسةُ» و«دِمَشْقُ المحروسةُ» و«حَلَبُ المحروسة» ونحو ذلك. ويقال فى الثغور «الثَّغْر المحُروس» و«ثغر الإسْكَنْدَرِيّة المحروس» و«ثغر رَشِيدَ المحروس» و«ثغر دِمْياطَ المحروس» و«ثغر أُسْوانَ المحروس» ونحو ذلك تفاؤُلا بوقوع الحِرَاسة لها. على أنه لو وُصِفَت القِلاع أيضا بالحراسة فقيل «القلعةُ المحروسة» و«القِلَاع المحروسة» ونحو ذلك لكان له وَجْهٌ ظاهر. وبكل حال فكلُّ ما كان محلَّ خوف مما ينبغِي حِراستُه والاحتفاظ به، حَسُن وصفه بالحِراسة. وقد رأيت مَنْ يذكر ضابطا لذلك فى البلاد: وهو أن كل مدينة مُسوَّرة يُقال فيها محروسة وإلا فلا، وهو بعيد، والظاهر ما قدَّمنا ذِكْرَه.

النـــوع الثـالث

(مايُوصف بالعِمارة، كالدواوين)

وهى المواضع التى يجلِسُ فيها الكُتَّاب علىٰ ما تقدّم بيانُه فى مقدِّمة الكِتَاب وغير ذلك . فيقال : «الدِّيوان المعمور» و «الدَّواوينُ المعمورةُ» تفاؤُلا بأنها لاتزال معمورةً بالكُتَّاب، أو بدَوَامِ عِزِّ صاحبها و بقاء دولته .

النـــوع الرابع

(مايوصف بالسَّعادة، كالدواوين أيضا)

فيقال : «الدِّيوان السـعيدُ» و«الدَّواوين السعيدةُ» تفاؤُلا بدوام سَعَادتها بدوام سعادةِ صاحبها .

النـــوع الخامس

(مايُوصَـــف بالقَبُــول)

كالضَّحايا المقْبُولة تفاؤلا بأن الله تعـالىٰ يتقَبَّلُها، وهو فى الحقيقة بمعنى الدعاء، كأنه يقال تقبَّلها الله تعالىٰ .

النـــوع السادس

(مايُوصف بالبِرّ، كالصَّدَقة والأَحْباس)

فيقال فى الأحباس : «الأَحْباسُ المبرورة» وفى الصَّـدَقة «الصدقة المَبْرُورة» تفاؤلا بأنها تكون جاريةً مَجْرىٰ البِرّ الذى يلحقُ به الثوابُ . وكُتَّاب الجيش ونحوُهم يستعملون ذلك فى وصف الرِّزْقة أيضا : وهى القطْعة من الأرض تُرْصَـد لمصالح المسجد أو الرِّبَاط أو الشخص المعيَّن . فيقولون : «الرِّزْقة المبرورةُ» لجَرَيانها مَجْرىٰ الصدقة .

النـــــوع السابع

(مايوصف بالخِذْلان ، كالعَدُوّ ونحوه)

فيُقال : « العَـدُوّ المخذول » علىٰ الإجمـال و « فلانٌ المخذُول » بالتصريح باسمه «وأهـل الكُفْر المَخْذُولون» ونحو ذلك تفاؤُلا بأنَّ الله تعـالىٰ يُوقع بالعدوّ الخِذْلان ويَرْمِيـــه به .

الضرب الثـانى

(مايجـــرِى من ذلك مَجْـــرىٰ التشريف، ويختلف أيضا باختلاف الأحوال، ويتنوّع أنواعا)

النـــــوع الأوّل

(ما يُوصَف بالعِزّ ، كالكِتَاب بمعنى القرءان)

فيقال فيه : « الكِتَاب العزيز» ومن ثَمَّ يقولون فىقارئ القُرءان : « من حَمَلة كِتَاب الله العزيز» وربمـا وُصِف بذلك الدِّيوان أيضا ، كما يقال فىدِيوان الخلافة : « الدِّيوانُ العزيزُ» علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ الألقاب .

النـــــوع الثـانى

(ما يُوصَف بالشريف ، كالمُصْحَف والعِلم)

فيقال فى المُصْحَف : «المصحفُ الشريف » وفى العلم « العِلْم الشريفُ» ولذلك يقولون « فلانٌ من طَلَبـة العلم الشريف» ونحو ذلك ، وكذا فى الأماكِنِ الرفيعة ،

كـمَّةَ والمدينـةِ النبويَّة والقُدْس . فيقال : «مكَّة المشرَّفة» و « المدينةُ الشريفةُ» و « القُدْس الشريفُ» والحَرَم الشريفُ تارةً لحرم مكة وتارةً لحرم المدينـة . فإذا جمعا قيـل : « الحَرَمانِ الشَّريفان » وربمـا أُطْلِق فى عُرْف الكُتَّاب الحَرَمان علىٰ القُدْس الشريف ومَقَامِ الخليل عليه السلام،وهو مراد المَقَرِّ الشهابىّ بن فضل الله فى كتابه "التعريف" فى قسم الوَصَايا بناظر الحرمين الشريفين دُونَ حرم مكة والمدينةِ المشرَّفتين . وقد آصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ أن وصَفُوا أكثر ما يُضاف إلىٰ السلطان بالشريف ، فيقولون فيما يصدُر عن السلطان من عَهْد وتقليد وتَوْقيع ومَرْسوم ومثال وتَذْكرة : «عَهْد شريف» و«تقليدٌشريف» و«توقيعٌ شريف» و«مرسومٌ شريف» و «مثالٌ شريف» و«تَذْكرة شريفة» ونحو ذلك .

النـــوع الثـالث

(ما يُوصف بالكريم ، كالقرءان)

فيقال : « القُرءانُ الكريم » والأصـل فيه قوله تعـالىٰ : ﴿ إنَّه لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ ﴾ وقد آصطلَح كُتَّاب الزمان علىٰ أن جعلُوه دونَ الشريف فى الوصف ، فوصَـفُوا به ما يصـدُر عمَّن دونَ السـلطان من أكابر الدولة من النُّوّاب والامراء والوُزَراء : من تَوقيع ومرسوم ومثـالٍ وتَذْكِرة ونحو ذلك . فيقولون : « توقيعٌ كريم » و« مَرْسومٌ كريم » و« مِثالٌ كريم » و« تَذْكِرة كريمة » . وقد تُوصف به المكاتبَة أيضا فيقـال : « إنَّ مكاتبته الكريمةَ وردَتْ » ونحو ذلك ، وقد ورد فى التنزيل : ﴿ إنِّى أُلْقِىَ إلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ علىٰ أنه قد تقدّم أنه كان ينبغى أن يكون أرفعَ رتبـة من الشريف لورود التنزيل بوَصْف القرءان به .

النـــــوع الرابع

(مايُوصَف بالعُلُوّ، وهو فى معنىٰ الكَرَم فى آصطلاحهم)

فيقــال : « توقيعٌ عالٍ » و «مرسومٌ عالٍ» ونحو ذلك، وقد يُوصف به الرأىُ. فيقال : «الرأْىُ العالى» وقد يُوصَف به أمرُ السلطان أيضا من ذى الرُّتبة الرفيعة، مثل كِتابةِ الوزيرعلىٰ المَرَاسيم الشريفة ونحوها «أَمتَثِلُ الأَمْرَ العالى».

النـــــوع الخامس

(مايُوصَــــف بالســـعادة)

كـ « الرأى السَّعيد » و « الآراءِ السعيدةِ » وربمـا وصف بذلك الدِّيوان فقيل « الدِّيوانُ السعيد » ونحو ذلك .

النـــــوع السادس

(ما يُوصَف بالبركة ، كالكَعْب)

فيقال : « كَعْبٌ مبارَك » وقد يُوصَف به المنْزِل فيقــال : « مَنْزِلٌ مُبارَك » وقد يوصف به الأمرُ لمن دُونَ العــالى، فيقال : « يتقدّم أمرُه المبارَك » وكذلك المكاتبة ، فيقال : « إن مُكاتَبَته المبارَكة وردَتْ » ونحو ذلك .

الباب الثانى
من المقالة الثالثة
(فى مقادير قَطْع الورق، وما يناسب كلَّ مِقْدار منها من الأقلام، ومَقَادِير البياض فى أول الدَّرْج وحاشيتِه، وبُعْدِ مابين السطور فى الكتابات، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل
(فى مقادير قَطْع الوَرَق، وفيه طَرَفان)

الطرَف الأوّل
(فى مقادير قطع الورق فى الزَّمن القديم)

قد ذكر محمد بن عمر المدائنى فى كتاب "القلَم والدواة" أن الخُلَفاء لم تزلْ تستعمل القَرَاطيسَ آمتيازا لها علىٰ غيرها من عَهْد مُعاوِيةَ بنِ أبى سُفْيان. وذاك أنه يكتب للخُلَفاء فى قِرْطاس من ثُلُثَىْ طُومارٍ، وإلىٰ الأمراء من نِصْف طُومار، وإلىٰ العُمَّال والكُتَّاب من ثُلُثٍ، وإلىٰ التُّجَّار وأشباههم من رُبُع، وإلىٰ الحُسَّاب والمُسَّاح من سُدُس. فهذه مقاديرُ لقطع الورق فى القديم: وهى الثُلُثانِ والنصفُ والثلثُ والربعُ والسُّدُس، ومنهـا أستُخْرِجت المقـاديرُ الآتى ذكرها. ثم المراد بالطُّومار الورقةُ الكاملةُ، وهى المعبَّر عنهـا فى زماننـا بالفَرْخة؛ والظاهرُ أنه أراد القَطْع البَغْدادِىَّ لأنه الذى يحتمل هذه المقاديرَ، بخلاف الشامِىِّ، لاسيما وبغدادُ إذ ذاك دارُ الخلافة، فلا يحسُن أن يقدَّر بغير ورقها مع آشتمالِه علىٰ كمال المحاسن. وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ آلات الكِتابة فى المَقَالة الأولىٰ بيانُ الخلاف فى أوّل من صَنَع الوَرَق.

الطـــــرف الثـانى

(فى بيان مقادير قَطْع الورق المستعمل فى زماننا، وفيه ثلاث جمل)

الجمــــلة الأولى

(فى مقادير الورق المستعمل بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية

بالديار المصرية، وهى تسعة مقادير)

المقدار الأول — قَطْع البَغْدادىّ الكامل . وعَرضُ دَرْجه عرضُ البَغْدادىّ بكماله : وهو ذراعٌ واحد بذراع القُمَاش المِصْرىّ، وطولُ كلِّ وصل من الدَّرْج المذكور ذراعٌ ونصفٌ بالذراع المذكور. وفيه كان تُكْتب عهودُ الخلفاء وبَيْعاتُهم. وفيـه تُكتَب الآن عُهودُ أكابر الملوك، والمكاتباتُ إلى الطبقة العُلْيا من الملوك، كأكابر القاناتِ من ملوك الشَّرْق .

المقدار الثـانى — قَطْع البَغْدادىّ النـاقص . وعَرْض دَرْجه دون عَرْض البغدادِىّ الكامِل بأربعةِ أصابعَ مطبوقةً . وفيه يُكْتب للطبقة الثانية من الملوك، وربمـا كُتِب فيه [للطبقة العليا] (١) لإعْواز البَغْدادىّ الكامِل .

المقدار الثـالث — قَطْع الثلثين من الورق المِصْرىّ . والمراد به ثُلُثا الطُّومار من كامل المنصورىّ، وعَرْض دَرْجه ثُلُثَا ذراع بذراع القُماش المِصْرىّ أيضـا . وفيه تُكْتَب مَناشِيرُ الأمراء المقدّمين، وتقاليدُ النُّوّاب الكِبَار والوزراءِ وأكابرِ القُضاة ومَنْ فى معناهم . ولم تجر العادةُ بكتابة مكاتَبةٍ عن الأبواب السلطانية فيه .

---

(١) الزيادة من الضوء بالمعنى ليتم الكلام .

المقدار الرابع — قَطْع النصفِ. والمراد به قَطْع النِّصف من الطُّومار المنصوري؛ وعَرْضُ دَرْجه نصفُ ذراع بالذراع المذكور. وفيه تُكْتَب مناشيرُ الامراءِ الطَّبْلَخاناه، ومراسيمُ الطبقة الثانيـة من النُّوّاب، والمكاتباتُ إلىٰ الطبقة الثانيـة من الملوك.

المقدار الخامس — قطع الثلث. والمراد به ثلثُ القَطْع المنصوري؛ وعرضُ دَرْجه ثُلُثُ ذراع بالذراع المذكور. وفيه تُكتَب مناشيرأمراءِ العشرات، ومراسيمُ صغار النُّوّاب، والمكاتباتُ إلىٰ الطبقة الرابعة من الملوك.

المقدار السادس — القَطْع المعروف بالمنصوري. وعَرْضه تقـديرُ رُبُع ذراع بالذراع المذكور. وفيه تكتَب مناشيرُ الممالك السلطانية ومقدَّمِي الحَلْقة، ومناشيرُ عشرات التُّرْكُمَان ببعض الممـاليك الشامية، وبعضُ التواقيع وما في معنىٰ ذلك.

المقدار السابع — القَطْع الصغير، ويقال فيه قَطْع العادة. وعَرْض دَرْجه تقدير سُدُس ذراع بالذراع المذكور. وفيه تُكْتَب عامةُ المكاتبات لأهل المملكة وحُكّامها، وبعضُ التواقيع والمراسِيم الصِّغار، والمكاتباتُ إلىٰ حُكّام البلاد بالممـالك، وما يَجْرِي هذا المَجْرىٰ. وقد كان هذا القطعُ والذى قبله فى أوّل الدَّوْلة التركية طُولُ كلِّ وصل منه شبران وأربعةُ أصابع مطبوقةً فمـا حَوْلَ ذلك.

المقدار الثامن — قطعُ الشـامىّ الكاملُ. وعرضُ دَرْجه عرضُ الطُّومار الشامىّ فى طُوله، وهو قليـلُ الاستعمال بالدِّيوان، إلا أنه ربمـا كُتِب فيـه بعضُ المكاتبات، كما كتب فيـه عن الأشرف شعبانَ بن حُسَين لوالدته حين سافرَتْ إلىٰ الحجاز الشريف.

المقدار التاسعُ — القَطْع الصغير . وهو فى عَرْض ثلاثةِ أصابع مطبوقةً من الورق المعروفِ بورق الطَّيْر، وهو صِنْف من الورق الشامىّ رقيقٌ للغـاية . وفيـه تُكتَب ملطَّفات الكُتُب وبطائق الحمامِ .

الجمـــلة الثـانية

(فى مقادير الورق المســتعملةِ بدَوَاوين الإنشاء بالممـالك الشاميــة :
دِمشقَ ، وحَلَبَ ، وطَرابُلُسَ ، وحَمـاةَ ، وصَــفَدَ ، والكَرَك .
فى المُكاتَبَات والوِلَايات الصادرة عن النوّاب بالممـالك ،
وهى لاتخرُج عن أربعة مقادير)

المقــدار الأوّل — قطعُ الشامىّ الكاملُ : وهو الذى يكون عَرْضــه عَرْض الطُّومار الشامىّ الكامِل فى طوله علىٰ ما تقدّم فيه . وفيه يُكْتَب عن النوّاب لأعلىٰ الطبقات من أرباب التَّوَاقيع والمَرَاسيم ليس إلّا .

المقدار الثانى — قَطْع نصف الحَمَوِىّ . وعرْض دَرْجه عرضُ نِصف الطُّومار الحَمَوِىّ ، وطوله بطول الطُّومار . وفيه يُكْتب للطبقة الثانيــة من أرباب التواقيع والمَرَاسيم الصادرةِ عن النوّاب .

المقدار الثالث — قطع العــادةِ من الشامىّ . وعَرْض دَرْجه ســدُسُ ذراع بذراع القُماش المِصْرىّ فى طول الطُّومار أو دُونَه . وفيــه يُكْتب للطبقة الثالثــة من أرباب التواقيع والمراســيم الصادرة عن النُّوّاب وعامّة المكاتبات الصادرةِ

عن النُّوّاب إلىٰ السلطان فَمَنْ دُونَه من اهل المملكة وغيرهم ، إلا أن نائب الشام ونائب الكَرَك قد جَرَتْ عادتُهما بصدُور المكاتبات عنهما فى الورق الأحمر دُونَ غيرهما من النوّاب .

المقدار الرابع — قَطْع ورق الطير المقدَّم ذكره فى آخر المقادير المستعملة بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وفيه تُكتب المَلَطَّفاتُ والبطائقُ علىٰ ماتقدّم .

قلت : هذه مقادير قَطْع الورق بالديار المصرية والبلاد الشاميَّة . أما غير مملكة الديار المصرية من الممالك ، فالحالُ فيها يختلِفُ فى مقادير الورق المستعملِ بدواوينها . فأمّا بلادُ المَشْرِق فعلىٰ نحو المقادير المتقدِّمة . وأما بلاد المَغْرِب والسُّودان و بلادُ الفَرَنْج ، فعادةُ كتابتهم فى طُومارٍ واحد ، يزيدُ طولُه علىٰ عَرْضه قليلا ، مابين صغير وكبير بحَسَبِ ما يَقْتَضيه حال المكتوب .

الجملة الثالثة

(فى مقادير قَطْع الورق الذى تَجرى فيه مكاتباتُ أعيان الدَّوْلة
من الأُمَراء والوزراء وغيرهم بالديار المصرية
والبلاد الشامية)

وهو قَطْع العادة من البَلَدىّ بالديار المصرية ، ومن الشامى بالبلاد الشامية .

الفصـــــل الثـانى

من الباب الثانى من المقالة الثالثة

(فى بيان ما يُناسِبُ كلَّ مِقْدار من مقادير قَطْع الورق المتقدّمة الذِّكر من الأقلام ، ومَقاديرِ البَيَاض الواقعِ فى أعلىٰ الدَّرْج وحاشيتهِ ، وبُعْدِ ما بين السُّطور فى الكتابة . وفيه طَرَفان)

الطـــــرف الأوّل

(فيما يناسِبُ كلَّ مقدار منها من قَطْع الورق من الأقلام)

قد ذكر المقرُّ الشِّهابىُّ بنُ فضـل الله فى كتابه "التعريف" فى آخر القسم الثانى ما ينـاسبُ كلَّ مقدار من مقـادير الورق المستعملة بديوان الإنشاء بالديار المصرية من أقلام الخَطِّ المنسوب فقال : إن لِقطع البَغْدادىِّ قَلَم مختصر الطُّومار ، ولقَطْع الثلثين قَلَمَ الثلث الثقيلِ ، ولقَطْع النِّصف قلَمَ الثلث الخَفِيف ، ولِقَطْع الثلُث قلَمَ التوقيعات ، ولقَطْع العادة قَلَم الرِّقاع . ومن ذلك يُعْلَم ما يناسب كلَّ قَطْع من مقادير القطع المستعملة بدواوين الإنشاء بالممـالك الشامية . فيناسبُ الشامىَّ الكاملَ قلَمُ التوقيعات : لأنه فى مِقْدار قطع الثُلُث البَـلَدىِّ أو قريبٌ منـه ؛ ويناسبُ نصفَ الحموىّ والعادةَ من الشامىّ قلَمُ الرِّقاع ، لأنهما فى معنىٰ القَطْع المنصورىّ والعـادةِ بالديار المِصْرية . أما قلم الجَنَاح (1) لكتابة بَطائق الحمامِ به . وأما ما كان يَكْتُب به الخلفاء

(١) عبارة الضوء للؤلف ج ١ ص ٤١٥ ، ٤١٦ "ويناسب قطع الحموى والعادة من الشامى قلم الرقاع لانهما فى معنى العادة ، ويناسب ورق الطير الذى تكتب فيه البطائق والمطلقات قلم الغبار ولذلك يسميه بعض الكتّاب قلم الجناح الخ" وهى واضحة .

أسماءهم فى الزمن القديم وبه يكتُب الملوكُ أسماءَهم الآنَ ، فقلم الطُّومار : وهو القلمُ الجليلُ الذى لاقَلَم فوقه . وقد تقدّم الكلام علىٰ هذه الأقلام فى بيان ما يحتاج إليه الكاتب فى أواخر المقالة الأولىٰ .

الطـــرف الثانى

(فى مقادير البياض الواقع فى أوّل الدَّرْج ، وحاشيَتِـــه وبُعْد مابين السُّطور فى الكتابة)

أما مقدار البياض قبل البسملة ، فيختلِف فى السلطانيات باختلاف قَطْع الورق ، فكُلَّما عظُم قطعُ الورق ، كان البياضُ فيه أكثَرَ : فقَطْع البَغْدادِىّ يُتْرك فيه ستةُ أوصالٍ بياضا ، وتُكتَب البسملة فى أوّل السابع ، وقطعُ الثلثين يُترك فيـه خمسةُ أوصال ، وقطعُ النصفِ يُتْرك فيه أربعةُ أوصال ، وقطعُ الثلث يُتْرك فيه ثلاثةُ أوصال ، وقطعُ المنصورىّ والعـادةِ تارةً يترك فيه ثلاثةُ أوصال ، وتارةً يُترَكُ فيه وصلان ، بحسَب ماتقتضيه الحالُ . وقَطْع الشامىّ الكامل فى معنىٰ قطع الثلث ، وقَطْع نِصف الحموىّ والعادةِ من الشامىّ فى معنىٰ القطع المنصورىّ والعـادةِ فى البلدِىّ . وربمـا ٱجتهدَ الكاتبُ فى زيادة بعض الأوصال ونُقْصانها بحسَبِ ماتقتضيه الحال . وفى المكاتبات الصادرةِ عن سائر أرباب الدولة مصرًا وشاما يُتْرك فى جميعها قبل البسملة وصـلٌ واحدٌ فقط . وفى كتابة الأدْنىٰ إلىٰ الأعلىٰ يُترَكُ بعضُ وَصْل .

⁂

وأما حاشيةُ الكِتَاب ، فبحَسَب ٱجتهاد الكاتب فيه فى السَّعة والضِّيق . وقد رأيت بعض الكُتَّاب المعتبَرِين يقدّر حاشيةَ الكتاب بالرُّبُع من عَرْض الدَّرْج ، وهو ٱعتبارٌ حسنٌ لا يكاد يخرُجُ عن القانون .

* * *

وأما بُعْدُ ما بين السطور ، فيختلِفُ باختــلاف حال المكتوب وٱختلافِ قطع الورق : ففى السلطانيات كلِّهـا علىٰ ٱختلاف قَطْع الورق فيهـا تكْتَبُ البســملة فى أوّل الفصل بعدَ ما يُتْرك من أوصال البيـاض فى أعلىٰ الدَّرْج بحسَبِ ما تقتضيه الحـالُ ، ثم يكْتَب تحت البسملة سطرٌ ملاصقٌ لهـا بحسَب ما يقتضيه وضعُ القلَم المكتوب به فى القُرْب والبُعْد ، بحسب الدِّقَّة والغِلَظ ؛ ثم يُكْتَب الســطر الثـانى فى آخر الوَصْــل الذى كُتِبت البســملةُ فى أوّله ، بحيث يبقىٰ من الوصل ثلاثةُ أصابعَ مطبوقةً أو نحوُها فى القطع الكبير ، وقــدرُ إصبعين فى القَطْع الصــغير ، وما بينهما بحَسَبه .

وقد قدّر صاحبُ «موادّ البيان» البياضَ الباقىَ بين السطر(١) الأوّل والثانى أيضا . وهذا إنمـا يُقارِب فى القطع الكبير . وقد ذكر ٱبن شيث فى "معالم الكتابة" . ـ وكانــ فى آخر الدولة الأيُّوبية فيما أظُنُّ ـ أن مقدار ما بين كلِّ سطرين يكون ثلاثةَ أصابع أو أربعةَ أصابع . والذى جرتْ به عادةُ الكُتَّاب فى زماننـا أنه يكون فى قَطْع العادةِ والمنصورىّ فى كلِّ وصل من أوصال(٢) الزمان ثلاثةَ أسطر ، وفيما عداه سطران . وربما وقع التفاوتُ فى القَطْع الصغير بحسب الحال حتّى يكون فى التواقيع التى علىٰ ظُهُور القِصَص ونحوها بين كلِّ سطرين بَعْــدَ بيتِ العلامةِ قَدْرَ إصبعين ؛ وربمـا تواصلت الأسطرُ كما فى الملطفات ونحوها .

أمّا ما يُكْتَب عن النوّاب من الولايات والمكاتَبات من سائر أعيان الدولة ، فدُونَ السلطانيات فى مقــدار خُلُوّ موضع العلامة ، وهو ما بين قدر خمسِ أصابع مطبوقةً ونحوها ؛ وقدرُ [بُعْد] السطور فيما بَعْدَ بيت العلامة من قدرِ إصبعين إلىٰ مادونهما .

(١) عبارة الضوء نقلا عن مواد البيان "بين السطر الأول والثانى بقدر شبر" .

(٢) لعله من أوصاله أى العادة أو المنصورى . انظر الضوء ص ٤١٧ .

الباب الثالث

من المقالة الثالثة

(فى بيان المستَنَدات، وكتابة الملَخَّصات، وكيفيّةِ التعيين . وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

(فى بيان المستَنَدات : وهى التوقيع علىٰ القِصَص ومايجرى مَجْراه،
وما يُحْتاج فيه إلىٰ كتابة المستَنَدات ، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(السُّلْطانيات ، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(ما يصدُر عن متولِّى ديوان الإنشاء : كولايات النُّوّاب والقُضاة وغيرهما
من أرباب الوظائف، والتواقيع التى تُكْتَب فى المُسامَحات
والإطلاقات، ومكاتَبات البريدِ الخاصّةِ بالأشغال السلطانية،
وأوراق الطريق وما يَجْرِى مَجْرىٰ ذلك)

وجميعها مَعْدُوقةٌ بنظَر صاحبِ ديوان الإنشاء . فما كان منها جليلَ الخَطَر كولايات النُّوّاب والقُضاة وأكابر أرباب الوظائف والمكاتَباتِ المتعلِّقة بمهمّات السلطنة ، فلا بُدَّ من مخاطبة صاحبِ ديوان الإنشاء فيها وٱعتمادِ مايبْرُز به أمْرُه . وما كان منها حقيرًا بالنسبة إلىٰ مخاطبة السلطان فيه ٱستقلَّ فيه بما يَقْتضيه رأيُه .

ثم من ذلك ما يَكْتُب به صاحبُ الديوان رقاعًا لطيفةً بخطه ويُعيِّنها علىٰ الكاتب الذى يكتبها وتُدْفَع إليه لتُخَلَّد عنده شاهدًا له ، كالولَايات والمُسامَحات والإطلاقات

والمُكاتَبات المتعلّقة بأمور المملكة ونحو ذلك . ومن ذلك ما يَبْرُز به أمرُ صاحبِ الديوان مشافَهةً فيكتبه من غير شاهد عنده ، وذلك فى الأمور التى لادَرَكَ فيها على الكاتب ، كتقاليد النُّوّاب وبعض المكاتَبَات ، إذ لا تُهَمَة تلحقُ كاتبَ الإنشاء فى مثل ولاية نائبٍ كبيرٍ أو قاضٍ حَفِيل : لأن مثل ذلك لايخفى على السلطان ، فأشبه خِطابُ صاحبِ الديوان فيها الكاتبَ خطابَ السلطان صاحبَ الديوان حيثُ لا شاهدَ عليه إلا اللهُ تعالى ، بخلاف الأمور التى يلْحَق كاتبَها الدَّرَكُ ، فإنه لابُدّ فى كتابتها من تخليدِ شاهدٍ . وكان الواجب أن لا يُكتبَ حَقيرٌ ولا جليلٌ إلا بشاهدٍ من صاحب الديوان ، فإن الأمورَ تتراكم وتكثُر ، والإنسانُ معرَّضٌ للنسيان ، وربما عرِضَ إنكارٌ بسببِ ما يكتُبه الكاتبُ ونَسِيَهُ صاحبُ الديوان فيكون الكاتبُ قد عرّضَ نفْسَه لأمرٍ عظيم . ولا يُقاسُ الكاتبُ على صاحب الديوان فى عدمِ أخذه شاهدًا بخطّ السلطان ، فإن صاحبَ الديوان هو المتصرّف حقيقةً ، والسلطانُ وكلُّ جميع أمّور المملكة إليه ، فلا يُتَّهَم فى شىء منها ، بخلاف الكاتب .

وقد ذكر أبو الفضل الصُّورىّ فى "تَذْكرته" أن المكتوبَ من الديوان إن كان مكاتبةً فالواجب أن يكون عُنْوانُها بخط متولّى الديوان ، وإن كان منشورًا فالواجب أن يكون التاريخُ بخَطّه ليدُلَّ على أنه وقَفَ على المكتوب وأمضى حُكْمه ورَضِيه ، ويكون ذلك قد قام مَقَام كتابةِ آسمه فيه . ثم قال : وقد كان الرسمُ بالعِراق ــ وفيه الكُتَّاب الأفاضلُ ــ أن يَكْتُبَ الكُتَّابُ ما يكْتُبون ثم يقولون فى آخره : « وكتب فلانُ بن فلان» بآسم متولّى ديوان الرسائل . وماذكره عن أهل العراق قد ذكر نحوه أبو جعفر النَّحاسُ فى "صناعة الكُتّاب" إلا أنه قد جعل بدل آسم متولّى الديوان آسمَ الوزير [فقال] ويُكْتَب فى آخر الكتاب «وكتب فلانُ بنُ فلان» باسم الوزير وآسم أبيه . وقد رأيت نُسَخًا عدّةً من سِجِلّات الخلفاء الفاطميين بالديار المِصْرية

مستشهَدا فيها باسم الوزير علىٰ النَّهْج المذكور . علىٰ أنه كان الواجب أن يكون الاستشهادُ فى آخر كل كتابٍ بٱسم كاتبه الذى يكتُبه ليُعْلَم مَنْ كتبه ، فإن الخطوط كثيرةُ التشابهُ ، لاسيما وقد كَثُر كُتَّاب الإنشاء فى زماننا وخرجوا عن الحدّ ، حتّىٰ إنه لم يَعْرِف بعضُهم بعضا فضلا عن أن يَعْرِف خَطَّه . وقد كان كُتَّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلم إذا سَجَّلُوا عنه سِجِلًّا أو نحوه كتب الكاتب فى آخره «وكتب فلان ٱبن فلان» . وهذه الرُّقْعة التى كتبها النبيّ صلّى الله عليه وسلم لتميم الدارِىّ بإقطاع قُرًى من قُرىٰ الشام موجودةٌ بأيدى التميميِّين إلىٰ الآنَ مستشْهَدا فيها بخَطِّ أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب كرَّم الله وجهه . وإنما عَدَلُوا عن ٱسم الكاتب نفسه إلىٰ ٱسم متولِّى الديوان أو الوزير ٱستصغارًا للكاتب أن يُستَشْهَد للكتاب بٱسمه فيما يُكْتَب به عن الخليفة . قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : وقد قالوا إن أوّل مَنْ كتب فى آخر الكتاب «وكتب فلانُ بنُ فلان» أُبَىُّ بنُ كعبٍ رضى الله عنه .

الصّنْف الثانى

(ما يصدُر عن غير صاحبِ ديوان الإنشاء : كالأمور التى يُكتَب بها من الدواوين السلطانية غيرِ ديوان الإنشاء وتُلتَمَس الكُتُب من ديوان الإنشاء علىٰ مقتضاها ، كالمكاتبات الخاصَّة بتعلُّقات شىء من الدواوين المذكورة ، وبعضِ التواقيع التى أصلُها من ديوان الوزارة)

وينحصِر ذلك فى أربعة دواوين :

الديوان الأوّل ـ ديوانُ الوزارة : وهو أعظمُها خَطَرا ، وأجلُّها قَدْرا .

وقد جرت العادةُ أنه إذا دعتِ الضرورةُ إلىٰ كتابة كِتَابٍ من ديوان الإنشاء يتعلَّقُ بديوان الوزارة أن تُكتبَ به قائمةٌ من ديوان الوزارة فى ورقةٍ ديوانيَّةٍ بمـا مثاله : « رُسِم بالأمرِ الشريف ـ شرفه الله تعـالىٰ وعظمه ـ أن يُكْتَب مثـالٌ شريف إلىٰ فُلانٍ الفلانى بكذا وكذا » . وكيفية وضع هذه القـائمةِ أن يكون السطرُ الأوَّلُ فى رأس الورقة من الوجه الأوّل منها، وآخره «شرفه الله تعالىٰ وعظَّمه» وبينه وبين السطر الثـانى قدرُ إصبعين معتَرِضين بياضا، وباقى السطور مسترسلةٌ متقارِبةٌ بقلم الرِّقاع؛ ويكتُبُ الوزير فى البياض الذى بين السطر الأوّل والثـانى بقلم الثلث مامثاله : «يُكْتب» . ويوجَّه بالقائمة إلىٰ ديوان الإنشاء صحبةَ مديرٍ من ديوان الوزارة أوغيره، فيَكْتُب علىٰ حاشيتها يُكْتَب بذلك، ويُعيِّنها علىٰ بعض كُتَّاب الإنشاء فيكتب مثالا بمـا فيها، ويخلِّد القائمةَ عنده شاهدًا له؛ وربما خُلِّدت بديوان الإنشاء فى جملة مايخَلَّد فى الأضَابِيرِ شاهدًا لديوان الإنشاء، والأوّل هو الأليقُ .

وإن كان الذى يُكْتَب من ديوان الوزارة توقيعًا باطلاقٍ أونحوه ممـا أصـلُه من ديوان الوزارة، كتب الوزيرُ علىٰ حاشيةِ قصةِ صاحبه ما مثاله «يكتب بذلك، أو يُوقَّع بذلك » وتُبْعَث إلىٰ ديوان الإنشاء فيكتُب عليهـا صاحبُ ديوان الإنشاء بالتعيين . ثم إن كان التوقيع مُلْصَقا بقصةٍ فذاك ، وإلا خَلَّد الكاتبُ القصةَ شاهدًا عنـده علىٰ ذلك ؛ وربمـا كُتِب بالإطلاقات من ديوان الوزارة مُرَبَّعـاتٌ بخطِّ مُسـتوفِى الصُّحْبة .

الديوان الثـانى ـ ديوانُ الخاصّ :

وهو فى كتابة الأمثلةِ الشريفةِ علىٰ مامرّ من كتابة القائمة ليخرجَ المثالُ علىٰ نظيرها، علىٰ ماتقدّم فى ديوان الوزارة . فتكتبُ القـائمةُ علىٰ الحُكْم المتقـدّم من غير فرق،

ويكتب ناظرُ الخاص عليها نظير كتابة الوزير السابقةِ ، ويوجِّه بها إلىٰ ديوان الإنشاء فيكتب عليها بالتعيين كما تقدّم ، ويخلِّد الكاتبُ القائمةَ عنده شاهدًا له ، أو تُخلَّد بديوان الإنشاء علىٰ ماتقدّم فى ديوان الوزارة . ولا يُكْتَب من ديوان الخاصِّ تواقيعُ بإطلاقات ونحوها بل تُكْتَبُ بها مراسيمُ مربَّعة فى ورقٍ شامىّ بخط مباشِرِى ديوان الخاصِّ .

الديوان الثالث ــ ديوانُ الإستَدَّاريَّة :

وحكمُه فى ذلك حكمُ ديوان الخاصِّ من غير فَرْق ، ويَكْتُبُ الإستَدَّار عليها كما يكتُبُ الوزير وناظرُ الخاص ، ويبعَث بها إلىٰ ديوان الإنشاء ، فيجرى الحكمُ فيها علىٰ ماتقدّم فى الديوانين المذكورين .

الديوان الرابع ــ ديوان الجَيْش :

والذى يرد إلىٰ ديوان الإنشاء منه ٱبتداءً هى المربّعات التى تُكْتَب بالإقطاعات لتخرُج المناشيرُ علىٰ نظيرها .

وصورتها أن يُكْتَب فى نصف فرخةٍ مكسورة فى القَطْع البلدىّ بعد البسملة الشريفة مامثاله «المرسوم بالأمر العالى ، المَوْلوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ ، الفلانىّ ، أعلاه الله تعالىٰ وشَرَّفه ، وأنفذه وصَرَّفه ؛ أو أعلاه اللّٰهُ تعالىٰ وأسماه ، وشَرَّفه وأمضاه ، أن يُقْطَع باسم فلانٍ الفلانى ــ أحدِ الأمراء المقدّمين ، أو الطبلخانات ، أو العشرات ، أو الخمسات ــ بالمكان الفلانى ؛ أو أحدِ المماليك السلطانية ، أو مقدّمى الحَلْقة ، أو أجنادِ الحَلْقة ، بالمكان الفلانىّ المرسوم ٱستقرارُه فى أمراء العشرات ، أو الطَّبْلخانات ، أو المقدّمين ، أو نحو ذلك ــ ما رُسم له به الآنَ من الإقطاع » . فإن كان أميرا قيل بعد ذلك : « لخاصَّته ولمن يستخْدِمه من الأجناد الجِياد للخِدْمة الشريفة ، والبَرْك التام ، والعُدّة الكاملة ، بمقتضى المثال الشريف ، او الخطِّ

العالى الكافلىّ»؛ أو بمقتضى الإشهاد المشمول بالخَطِّ الشريف، أوالخط الكافلىّ علىٰ نظير ما تقدّم » أو « بمقتضى المربَّعة المكتتبة من المملكة الفلانية المشمولةِ بالخط الشريف» إن كان أصله مربَّعةً من بعض الممالك وما أشبه ذلك . فإن كان أميرا ذُكِرت عِدّته علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ المناشير فى المقالة الخامسة . ثم يقال : « حَسَب الأمرِ الشريف » ويكمل التاريخ « والحمد لله ، والصلاة علىٰ النبى صلّى الله عليه وسلم » ويُبْعث بها إلىٰ ديوان الإنشاء فيكتب عليها صاحب الديوان بالتعيين علىٰ بعض كُتَّاب الإنشاء ، فيكتبها ويخلّد المربعةَ شاهدا عنده .

الضرب الثانى

(ما يتعلق بالكُتُب فى المظالم ، والنظرُ فيه من وجهين)

الوجه الأوّل

(فيما يتعلّق بالقِصَص)

وهى تُرفع إلىٰ وُلَاة الأمور بحكايةِ صورةِ الحال المتعلّق بتلك الحاجة ، وسُمِّيت قصصا علىٰ سبيل المجاز، من حيث إن القِصَّة آسم للمَحْكِىِّ فى الورقة لا لنفس الورقة . وربما سُمِّيت فى الزمن القديم رِقاعًا لِصِغَر حَجْمها ، أخذا من الرُّقعة فى الثوب .

ثم الذى يجب فى هذه القِصَص الإيجازُ والآختصارُ مع تبليغ الغَرَض المطلوبِ والقُرْب من فَهْم المخاطَب. فإنها متىٰ كانتْ خارجةً عن الحدّ فى الطول ، أدّت إلىٰ الإضْجار والسَّآمة المنفِّرَيْن للرؤساء . وربما كان فى ذلك حِرمانُ الطالب ودَفْعُه عن حاجته : إما للإعراض عنها آستثقالا ، وإما لعدم فَهْم المقصود منها لطُولها وآختلاطِ بعض مقاصِدِها ببعض . وأما كونُها مبلِّغةً للغرض المطلوب وفَهْم المخاطب ،

فلأنها إذا كانت بصَدد الاختصار المُجحِف والتعقيد، نَبَا عنها فهم الرئيس ومَجَّها سمعُه : فإما أن يُعْرِض عنهـا فيفُوتَ علىٰ صاحبها المطلوبُ، وإما أن يسأل غيره عن معناها فيكون سبباً لتنزُّله عن عِزِّ الرياسة إلىٰ ذُلِّ السؤال، وكلاهما غير مستحْسَن .

وقد جرتِ العادةُ فى مثل ذلك أن يخلِّى من أوّل الورقة قليلا ، ويجعل لها هامش بحسَبِ عَرْضها ، ويبتـدأ فيها بالبسملة ثم يُكْتَب تحت أوّل البسملة : «المملوكُ فلانٌ يقبِّل الأرضَ، ويُنْهِى كذا وكذا » إلىٰ آخر إنهائه : ثم يقال : « وسؤالُه كذا وكذا » فإن كان السؤال للسلطان قال : «وسؤالُه من الصَّدَقات الشريفة كذا وكذا» وإن كان السؤال لغير السلطان قال : « وسؤاله من الصدقات العميمة كذا وكذا » . ثم إن كان المسئول كتابا : فإن كان عن السلطان قال : وسؤاله مثالٌ شريفٌ بكذا وكذا، وإن كان عن غير السلطان قال : « مثالٌ كريمٌ بكذا وكذا » ثم يقول إن شاء الله تعالىٰ، ويَحمَدُ الله تعالىٰ ويصلِّى علىٰ النبىّ صلَّى الله عليه وسلم ويُحَسْبِل . وربما كتب « المملوك فلان » بحاشية القِصَّة، خارجا عن سَمْت البسملة . وربمـا أُبْدِل لفظُ المملوك بلفظ الفَقِير إلىٰ الله تعـالىٰ . ويقال حينئـذ بدل « يقَبِّل الأرضَ » « يبتَهِـل إلىٰ الله تعالىٰ بالأدْعية الصـالحة » أو « يواصـل بالأدْعِيَة الصالحـة » ونحو ذلك .

وقد جرتِ العادة فى كتابة القِصَص أن صاحبها إن كان أميرًا ونحوه كَتَب تحت البسملة « المَلَكىّ الفلانىّ» بلقب سلطانه ، مخلياً بياضا من جانبيها . علىٰ أنه قد تصـدّى لكتابة القصص من لا يفرِّق بين حسَنَهـا وقَبِيحها ، ولا ينظُر فى دلالتها ، ولا يُراعِى مدلولها . وذلك كسُنَّة الزمان فى أكثر أحواله .

قلت : وقد جرتْ عادةُ أكثر الناس فى القِصَص أنه إذا فرغ الكاتبُ من كتابة القِصَّـة يقطع قليلا من زاويتها اليمنىٰ من الجهة السُّفلىٰ، مستنِدِينَ فى ذلك إلىٰ كراهة التَّرْبيع .

ومن غريب ما يُحْكىٰ فى ذلك أن بعض الوزراء قال يوما بمجلس (١) ... ... وأنا وُلِّيتُ الوزارةَ رابعَ ربيع الأوّل سـنةَ أربع وأربعين وأربعمائة ـ فقال له بعض جلسائه : إن تفاءلتَ أنتَ به فقد تطيَّرنا نحنُ به . ولا شكَّ أن مستندَهُم فى ذلك التشاؤُم بالتربيع فى القِرَان النُّجومىّ، ولا يُعوّل عليه . وقد ورد أنَّ حوضَ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى القيامة زَوايَاه علىٰ التربيع، ولولا أن التربيعَ أحسنُ الأشكال لمـا وُضِع عليه حوضُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم .

الوجـــــه الثـانى

(فيما يتعلق بالنَّظر فى المَظَالم، وما يكتَبُ علىٰ القصص، وما يَنْشأ عنها من المُساءلات وغيرها)

وهو أمرٌ مُهِمٌّ، به يقَعُ إنصافُ المظلومِ من الظالم، وخَلاصُ المُحِقّ من المُبْطل، ونُصرةُ الضعيف علىٰ القوىّ، وإقامةُ قوانينِ العدل فى المملكة . وقد نَبَّه أبو الفضل الصُّورى فى "تذْكِرته" علىٰ جَلَالة هـذا القدر وخَطَره، ثم قال : ومن المعلوم أن أكثر المتظلِّمين يَصِـلُون من أطراف المملكة ونواحيها، وفيهـم الحُرَم والمنقَطِعات

---

(١) بياض فى الأصول بقدر كلمتين .

والأيتام والصّعاليك ، وكلُّ من يَفِد منهم معتقدٌ أنه يصير إلىٰ مَنْ ينصره ويَكْشِف ظُلامته ويُعْديه علىٰ خَصْمه . فيجب أن يُتَلقّىٰ كلُّ منهم بالتّرحاب واللُّطْف ، ويُنْدَب لهم من يحفَظ رِقَاعَهم ويَتَنجَّز التوقيع فيها من غير ٱلتمـاس رَشْوة ولا فائدةٍ منهم ، وأن تكون التوقيعاتُ لهم شافيةً فى معانيها ، مستوعِبةً لكَشْف ظُلَاماتهم ، مُؤْذِنةً بإنجاح طَلِباتِهم .

قال أبو هـلال العسكرىّ : فى كتابه " الأوائل " : كان المهـدىُّ يجلِس للظالم وتُدْخَل القِصصُ إليه ، فارتشىٰ بعضُ أصحابه بتقديم بعضها ، فاتخذ بيتا له شُـبَّاكٌ حديدٌ علىٰ الطريق تُطْرَح فيه القِصَص ، وكان يدْخُله وحده فيأخُذ ما يقع بيده من القِصَص أوّلا فأوّلا فينظر فيه لئلّا يُقَدّم بعضها علىٰ بعض .

قال : وقدم عليه رجل فتظَلَّم فأنصفه فاستخفَّه الفَرَح حتّىٰ غُشِىَ عليه ، فلَمّا أفاق قال : ما حَسِبت أنى أعيشُ حتّىٰ أرىٰ هـذا العدلَ فلما رأيته داخلَنِى من السرور مازال معه عَقْلى ــ فقال له المهـدىّ : كان الواجبُ أن نُنْصِفَك فى بلدك ، وكان قد صَرَف فى نفقة طريقه عشرين دينارا فأمر له بخمسين دينارا وتحلّل منه .

قال أبوالفضل الصُّورىّ : ومهما كان من الرِّقاع يحتاجُ إلىٰ العَرْض علىٰ السلطان ، عرضه عليه ، وأحسنَ السِّفارةَ والتلطُّف فيـه ، ووقَّع بمـا يؤمَر به ، فقد تحدث فى هـذه الرقاع الأمورُ المهمَّةُ التى تنتفِعُ بها الدولة ، وتستضِرُّ بتأخير النظر فيهـا ، ويفهم من طىّ هذه الرقاع من جَوْر بعض الوُلَاة والمستخْدَمين ما تُوجِب السياسةُ صَرْفهم عمَّا وُلُّوه منها . ومهما كان منها مما يَشُكُّ السلطان فى صحته ، نَدَب مَنْ يثِق به للكَشْف مع رافعه ، فإن صح قوله أُنْصِف من خَصْمه ، وإن بان تمحُّله قُوبِل بمـا

يَرْدَعُ أمثـاله عن الكَذب والتمرُّد؛ ويعلم الوُلاةُ والمشارِفُون وسائرُ المستخْدَمين أن السـلطان متفرِّغ للنظر فى قِصَص النـاس وشكاوِيهم ، وقد نصب لذلك من يتفرّغ له ويطالعه بالمُهِمِّ منه فيُكُفّ أيديهم عن الظلم ، ويحذَرُون سُـوءَ عاقبة فعلهم ، ويقِلُّ المتظلِّمون قولا واحدا ، وتحسُن سُمْعـةُ الدولة بذلك فيكونُ لهـا به الجمـالُ الكبير .

قلت : والذى يُرفَع من القِصَص فى معنىٰ ذلك فى زماننا علىٰ ستة أنواع .

النـــوع الأوّل

منهـــا

(ما يرفع إلىٰ السلطان فى آحاد الأيَّام)

وقد جرت العـادةُ فيه أن يُقْرأَ علىٰ السلطان : فمـا أمضاه منه كُتِب علىٰ ظهر القِصَّة ما مثاله «يكْتَب» ثم تحمل إلىٰ كاتب السر فيعيِّنها علىٰ بعض كُتَّاب الإنشاء، فيكتُب بمقتضاها ويخلِّدها عنده شاهدًا له .

النـــوع الثـانى

(ما يُرفَع لصاحب ديوان الإنشاء)

وقد جرتِ العادةُ فى ذلك أن رافع القِصَّة والمحتاجَ إلىٰ الأمثلة الشريفةِ السلطانية فى مُهِمَّاته ومتعلّقاته إن كان من الأعيـان والمعتَبَرين كأحدٍ من الأمراء أو الممـاليك السلطانية وأكابرِ أرباب الأقلام ، بَعَث بقصَّتِه لديوان الإنشاء ، فيقِف عليها صاحبُ ديوان الإنشاء ويتأمَّلُهـا وينظر ما تضمَّنته ، فإن كان ممـا يُحتاج فيه إلىٰ مخاطَبة السـلطان ومؤامَرَته ، أخذها ليقرأَها عليه عند حُضُوره بين يديه ، ويمتثل

ما يأمُر به فيها، فيكتب بمقتضاه، سواء طابقَ سُؤالَ السائل أم لا، ويعيِّنها علىٰ كاتب من كُتَّاب الإنشاء، فيكتب بمقتضاها ويخلِّد القصةَ شاهدا عنده . وهذه المثالات ورقُها من ديوان الإنشاء من المرتَّب السلطانى . وإن كان رافعُ القصة من غير المعتبَرين كآحادِ الناس، دفعَ القصة إلىٰ مُدير من مُدَراء ديوانِ الإنشاء فيجعل عليها علامةً له، ويجمع كلُّ مديرٍ مامعه من القِصَص، وتُرْفَع إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء، فما كان منها غيرَ سائغ للكتابة عليه قَطَعه أو ردّه؛ وما كان منها سائغًا كتب عليه وعَيَّنه . وربما آستَشْكل بعضَها فأخَّره ليقرأَه علىٰ السلطان وينظُرَ ما يأمُر به فيه فيعتَمِدُه . وإذا عيَّنها علىٰ كاتب من كُتَّاب الإنشاء كتب بمقتضاها وخلَّد القِصَّة عنده شاهدا .

النوع الثالث

(ما يُرْفَع من القِصَص بدار العَدْل عند جلوس السلطان للحُكْم فى المواكب)

وقد جرتِ العادةُ فى ذلك أنه إذا ترتَّب مجلسُ السلطان علىٰ ماتقدّم فى ترتيب المملكة أن القِصَص تُفَرّق علىٰ كاتب السرّ ومَنْ حضر من كُتَّاب الدَّسْت، فيقرأ كاتبُ السرّ منها ما عَنَّ له قراءتُه؛ ثم يقرأ الذى يليه من كُتَّاب الدَّسْت، ثم الذى يليه إلىٰ آخرهم؛ ويشيرُ السلطان برأسه أو يده بإمضاء ماشاء منها؛ فيكتُب كاتب السرّ أو كاتبُ الدَّسْت علىٰ تلك القِصَّة بما فيه خلاصُ قلَمه، ثم تُحمَلُ إلىٰ ديوان الإنشاء فيعينها علىٰ من يشاء من كُتَّاب الإنشاء فيكْتُبها، ويخلِّد تلك القِصَص عنده شاهدا .

النـــــوع الرابع

(مايُرفَع منها للنائب الكافلِ، إذا كان ثَمَّ نائبٌ)

وقد جرتِ العادةُ أن النائب يكونُ عنده كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْت يجلِس بين يديه لقراءة القِصَص عليه، وتنفيذِ ما يُكْتَبُ عنه. فاذا رُفِعت القصةُ إلىٰ النائب الكافل قرأها عليه كاتبُ الدَّسْت وآمتثل أمْرَه فيها، وأصلح فى القِصَّة ما يجبُ إصلاحُه، وضرب علىٰ ما يجب الضربُ عليه، وزاد بين سطورِه ماتقتضيه الزيادةُ؛ ثم تُدفع القصةُ إلىٰ النائبِ الكافل، فيكْتُب علىٰ حاشيتها فى الوسَط آخذًا من جهة أسفلِها إلىٰ جهةِ أعلاها بقَلَم مختصرِ الطُّومار مامثاله «يُكْتَب» ثم تحمَلُ بعدَ ذلك إلىٰ كاتب السر فيعيِّنها علىٰ بعض كُتَّاب الإنشاء فيكْتُبها.

النـــــوع الخامس

(ما يُرفَع من القِصَص إلىٰ الأتابك، إذا كان فى الدولة أتابك عَسْكر: وهو الأمير الكَبِير)

وغالب ما يكون ذلك إذا كان السلطان طِفْلا أونحوَ ذلك. وقد جرتِ العادةُ أن يكون عند الأتابك كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْت أيضا، فاذا رُفِعت القصةُ إلىٰ الأتابك: فإن كان الأمرُ فيها واضحًا كخلاص حقٍّ أونحوه، كتب كاتبُ الدَّسْت علىٰ حاشيتها ماتقتضيه الحالُ فى ذلك من غير قراءتها علىٰ الأتابك. وإن كان الأمرُ فيها غيرَ واضح كما إذا كان الأمرُ راجعا إلىٰ مُنازَعةِ خَصْمين ونحو ذلك، قرأها علىٰ الأتابك وآمتثل أمْرَه فيها، وكتبَ عليها ما بَرَزَ به مَرْسُومُه. وفى كلتا الحالتين جَرَت العادةُ فى زماننا [أنه يَعْمد] إلىٰ أشهر حرفٍ فى آسم الأتابك فيرقُمه فى آخر ما يكتُبه أو تحته؛ كما كان يُكْتَب عن برقوق قبل السلطنة (ق) وعن إيتمش (ش) وعن نوروز (ن) ونحو ذلك.

النـــوع السادس

(ما يُرْفَع منها للدَّوادار لتُعَلَّق عنه الرسالةُ عن السلطان به)

وٱعلم أن العـادة كانتْ جاريةً فى الزمن المتقدّم أن السلطانَ إذا أمر بكتابة شىء علىٰ لسان أحدٍ من الدَّوَادارِيَّة ، حَمل بَرِيدىٌّ من البريديَّة الرسـالةَ لذلك عن ذلك الدَّوادار إلىٰ كاتبِ السرّ فيســمَعُ كلامَ البَرِيدىّ و يكتبُ علىٰ القِصَّة إن كانت أو ورقةٍ مفردة مامثاله : «حضرت رسالةٌ علىٰ لسان فلان البَرِيدىّ بكذا وكذا» ويعيِّنه علىٰ من يكتُبه من كُتَّاب الإنشاء . ولم يزل الأمُر علىٰ ذلك إلىٰ الدولة النـاصرية «محمد بن قلاوون» فأفرد المَقَرُّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله صاحبُ ديوان الإنشاء كاتبًـا من كُتَّاب الإنشاء لتَعْليق الرسالة، فصار يكتب ما كان كاتبُ السرّ يكتبُه من ذلك علىٰ القِصَص أو الورقــة المفردة ثم تُرفَـع إلىٰ كاتب السرّ فيكتُب عليهـا بالأمر بكتابتها، ويعيِّنها علىٰ مَنْ يكتب بمقتضاها ، وتُخَلَّد القصةُ أو الورقة التى عُلِّقت فيها الرسالةُ عنده شاهدًا له . وٱستمرّ ذلك إلىٰ مُباشرة القاضى فتح الدين بن شاس أحد كُتَّاب الدست عند الدَّوادار، والدَّوادارُ يومئذ الأميرُ يونس النَّوْرُوزى ، فأذن له كاتبُ السرّ فى تعليق الرسالة عن الامير يُونُس الدَّوادار علىٰ ظُهور القِصَص وغيرها ففعل . وكان يكتُبُ علىٰ حواشى القِصَص فى وَسَـط القِصَّة آخذًا من جهة اليمين إلىٰ جِهَة اليسار بمَيْلة إلىٰ الأعلىٰ بقلم دقيقٍ متلاصقِ الأسْطُر ما مثاله : «رُسِم برسالة الجناب العالى الأميرِىّ الكبيرِىّ الشَّرَفىّ يونُس الدَّوادار الظاهرِىّ ـ ضاعفَ الله تعالىٰ نعمته ـ أن يُكْتَب مثالٌ شريف بكذا أو توقيع شريفٌ بكذا» وما أشبه ذلك ، و يؤرّخه بيوم الكتابة ، ثم تحمل إلىٰ كاتب السرّ فيكتب عليها بالأمر بالكتابة ، و يعيِّنها

علىٰ كاتبٍ من كُتّاب الإنشاء، فيكتُب بمقتضاها ويخلّدها شاهداً عنده . وجرىٰ الأمرُ علىٰ ذلك بعده إلىٰ آخر وقتٍ .

قلت : وقد كان فى الدولة الفاطميّة كاتبٌ مفرَد لتعليق الرسالة عن الخليفة، يسمّى صاحبَ القلم الدقيق ، يعلّق ما تَبْرُز به أوامر الخليفة فى الرّقاع وحَوَاشِى القِصَص ، وتحمَلُ إلىٰ ديوان الوزارة ، فيعتَمِدُها الوزيرُ، ويُبْرِز أمْرَه إلىٰ ديوان الإنشاء باعتمادها وكتابةِ ما فيها ، علىٰ ماتقدّم ذكره فى ترتيب الخلافة الفاطمية بالديار المصرية فى المقالة الثانية .

الفصـــــل الثـانى

(فى التعيين وكيفية كتابة صاحب ديوان الإنشاء علىٰ الرّقاع والقِصَص، وتعيينها علىٰ كُتّاب الإنشاء)

ويختلف الحال فى ذلك باختلاف حالِ الكاتب المعيَّن عليه وحال الرُّقْعة المعيَّنة . فأما اختلافه باختلاف حال مَنْ يعيَّن عليه . فإنه إن كان المعيَّنُ عليه كاتبا من كُتّاب الدَّسْت ، كتب له كاتبُ السرّ فى التعيين : « المولىٰ ، القاضى ، فلان الدين ، اعزّه الله تعالىٰ » وربما رَفَع قدرَه علىٰ ذلك فيكتب له : « المولىٰ ، الأخُ ، القاضى ، فلان الدين ، أعزّه الله تعالىٰ » . وإن كان من كُتّاب الدَّرْج : فإن كان كبيرا كتب له : « المولىٰ فلان الدين » . وإن كان صغيرا ، كتب له : «الوَلَدُ فلان الدين » وربما وقع التميز لبعض كُتّاب الدَّسْت أو كُتّاب الدَّرْج للتقدّم بالفضل فكتب له : « المولىٰ ، الشيخ فلان الدين » أو « الشيخ فلان الدين » تارةً مع الدعاء وتارة دُونَه .

***

واما آختلافه باختلاف حال المكتوب الذى يعيَّن، فإنه إن كان قِصَّةً بظاهرها خط السلطان «يُكْتَب» فموضع كتابة التعيين تحت خط السلطان بظاهر القِصَّة، ولا كتابة له عليها غير ذلك .

وإن كان رُقْعةً جميعها بخط كاتب السرّ ، فإنه يكتب فيها «يكتب بكذا وكذا» ثم يكتب التعيين بأوّل ذيلها .

وإن كان قصةً رفعت إلىٰ كاتب السرّ، فإنه يكتب علىٰ حاشيتها فى اعاليها آخذا من جهة اسفلِ القِصة إلىٰ أعلاها ما مثاله : « يُكْتَب بذلك » أو « يكتب بكذا وكذا » ثم يَكْتُب التعيين بحاشيتها أسفلَ ذلك فى عَرْض الحاشية مُميلا للكتابة إلىٰ جهة الأعلىٰ قليلا .

وإن كان قصةً عليها خطُّ النائب الكافل، فإنه يكتب عليها بالتعيين ليس إلا ، وموضع التعيين فيها بحاشية القِصَّة أسفلَ خط النائب .

وإن كان قصةً قد كتب بهامشها مرسومُ الأتابك أو عُلِّق بحاشيتها رسالةُ الدَّوادار، كُتِب فى جهة أعلىٰ القصة : «يكتب بذلك» وعلىٰ القُرْب منه التعيين. وإنما يُكْتَب هنا فى جهة أعلىٰ القصة وفيما عليه خَطُّ النائب الكافل فى جهة أسفلها لأن التعليق الذى علىٰ الهامش فيما عُلِّق عن مرسوم الأتابك أو رسالة الدَّوادار بخط كاتب الدَّسْت الذى فى خدمته ، بخلاف ما عليه خَطُّ النائب بنفسه .

وإن كان الذى يقع فيه التعيين قائمةً من ديوان الوزارة ، أو ديوان الخاصّ أو ديوان الإستَدَّار، كتب بهامش القائمة من أعلاها مقابِلَ كتابة المتحدِّث علىٰ ذلك الديوان ما مثاله : « يُكْتَب بذلك » ثم يكتب التعيين تحته علىٰ القُرْب منه .

وإن كان الذى يقَع فيه التعيين مَربَّعةَ إقطاعٍ من ديوان الجيش، كَتب بالتعيين فى آخرها مقابِلَ التاريخ من الجهة اليمنىٰ، ولا كتابةَ له عليها غير ذلك .

قلت : وقد جرتْ عادةُ كُتَّاب السرّ فى زماننا أنه يُكْتَب علىٰ القِصَص ونحوها، "يُكْتَب بذلك" أو "يُكْتَب بكذا وكذا" علىٰ ما تقدّم بيانه بغير لام فى أوّله . وكذلك الوزير وناظر الخاصّ والإستَدَّار يكتبون بغير لام فى الأوّل . أما القُضَاة فى الإذن بكتابة المَحاضر ونحو ذلك فإنهم يكتبون "لِيُكْتَبْ" باثبات اللام فى أوّله، وهذه اللام تسمّى لامَ الأمر وقد صرَّح الإمام أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" أنه لا يجوز حَذْفها . وعلىٰ ذلك ورد لفظ القرءان الكريم كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ . وقوله : ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ ونحو ذلك . وحكىٰ جمالُ الدين آبنُ هشام فى المغنى [(١) جوازَ حذفها فى الشِّعر كقوله :

فَلَا تَسْتَطِلْ مِنِّى بَقَائِى ومُدَّتِى * ولٰكِنْ يكُنْ للخيرِ مِنْكَ نَصِيبُ !

وقوله :

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ * إذا ما خِفْتَ منْ شَىْءٍ تَبَالَا ! (٢)] .

الطَّرَف الثانى (٢)

(فى كتابة المَلَخَّصات والإجابةِ عنها من الدواوين السلطانية)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ماينْظُر فيه صاحبُ الديوان أنه لما كان صاحبُ ديوان الإنشاء يَضِيق زمَنُه عن آستيعاب حال الكُتُب الواردةِ من المملكة لوُفُورها وآتِّساع

---

(١) بيض فى الأصول لهذه الجملة، وقد نقلناها من المغنى (ج ١ ص ٢٢٣) والشاعر يخاطب ابنه لما تمنىٰ موته .

(٢) لم يتقدّم له تقسيم بالأطراف فى هذا الباب ولم يذكر الاول حتى يكون هذا ثانيا له نعم قال فى عنوان الباب انه يتكلم فيه علىٰ كتابة الملخصات فهو مما وعد به وجل من لا يسهو .

الدولة وكثرةِ المكاتِبين ، ناسب أن يُتَّخذَ كاتباً يتصفَّح الكُتُبَ الواردةَ ويتأملها ، ويلخِّص مقاصِدَها؛ قال أبو الفضل الصُّورى فى "تذكرته" : والرسم فى ذلك أن الكاتب الذى يُقيمه صاحبُ الديوان يتسلَّم الكتبَ الواردةَ ويُخْرِجُ معانيَها علىٰ ظهورها ، ملخِّصا الألفاظَ الكثيرةَ فى اللفظ القليلِ ، غير مخلٍّ بشىء من المعنىٰ ولا محرِّفٍ له ، مُسْقِطا فضولَ القول وحَشْوَه ، كالدعاء والتصدير والألفاظ المتردِّدة .

قال : ويُخْرِج أيضا مايختصُّ بديوان الخَرَاج ، من الأمور التى تَرِدُ ضِمْنَ الكتب فى معنىٰ الخراج فى أوراق يُعيِّن فيها الكتبَ التى وصلَتْ فيها وتاريخَها والجهةَ التى وردت منها ، وينُصُّها علىٰ هيئتها ، ويوجِّهها إلىٰ ديوان الخَراج ، فيجاب عنها منه ، ويستدْعِى من متولِّى ديوان الخراج الجوابَ عنها ؛ ثم يُعْرِض جميع ذلك علىٰ الملك ، ويستخْرِج أمره بإمضاء المكاتبَةِ به أو بغيره . فإن كان بخطٍّ مخالفٍ للعربىّ : كالرُّومىّ والفَرَنْجِىّ والأرمَنِىّ وغيرها ، أحضر مَنْ يعرف ذلك الخطَّ ممن يُوثَق به ليترْجمه فى ظَهْره ، فإن كان ذلك المترجِمُ يُحْسِن الخطَّ العربىّ ، كتب بخطه فى ظهر الكتاب ما مثاله « يقول فلان : إنى حضرْتُ إلىٰ ديوان الإنشاء وتسلمْتُ الرُّقعةَ أو الكتابَ الذى هذا الخط بظاهره ، وسُئِلتُ عن تفسيره فذكرتُ أنه كذا وكذا» ويَسْرُدُه إلىٰ آخره «وبذلك أشهدْتُ علىٰ نفسى» ويشهدُ عليه شاهدانِ : «هذا الذى ذكره بلا زيادةٍ ولا نقص » .

وإن كان الكتابُ مشحونًا بالكلام بطنًا وظهراً ، نقله بخطه بالقلم الذى هو مكتوبٌ به ، وترجمه علىٰ ظاهره بخطِّه بالعربىّ . وإن لم يحسن الكتابةَ بالعربىّ ، كتب عنه الكاتبُ بمحضر من الشاهدين وأشهد عليه ليَهابَ أو يُحْجِمَ فيما يقول ، أو يغيِّرَه أو يَنْقُصَه لأن أكثر من يترجم علىٰ مذهب صاحب الخط ، فربما كتم عنه أوداجىٰ فيه . فإذا خُوِّف بالإشهاد عليه وخَشِىَ أنَّ غيره قد يقرؤُه علىٰ غير الوجه

الذى أَشْهد به علىٰ نفسه ربمـا أَدّى الأمانةَ فيه . فإذا لُخِّصتِ المكاتبةُ بظاهرها، سُـلِّمت إلىٰ متولِّى الديوان ليقابل ظاهِرَها بباطنها : فإن وجده أخَلَّ فيها بشىء، أضافه بخطه وأنكر عليه إهمـالَه ليتنبَّه فى المستقْبَل . فإن لم يكن فيها خلل عرضـه علىٰ الملِكِ وآعتمد أمْره فيه، وكتب تحتَ كلَ فصل منها ما يجب أن يكون جوابا عنه علىٰ أحسن الوجوه وأفضلها، ثم يسلِّمها إلىٰ مَنْ يكتب الجوابَ عنها ممن يعرف آضْطِلاعه بذلك، ثم يقابل الجوابَ بالتخريج وما وُقِّع به تحته : فإن وَجَد فيها خللا سدّه، أو مُهْمَلا ذكَرَه، أو سَهْوا أصلحه . وإن رآها قد كُتِبت علىٰ أفضل الوُجُوه وأسدِّها، لم يفوِّت فيها معنًى ولم يَزِدْ إلا لفظا يُنَمِّق به كتابه ويُؤكِّد به قوله، عرضها (١) علىٰ المَلِك حينئذ ليُعلِّم، ثم استدعىٰ مَنْ يتولَّى الإلصاق فألصقها بحضرته، وجعل علىٰ كلِّ منهـا بِطاقةً يُشِـير فيها إلىٰ مضمونها : لئلَّا يُسْأل عن ذلك بعـد إلصاقها فلا يَعْلَم ماهو، ثم يسَلِّمها إلىٰ مَنْ يتولَّى تنفيذها إلىٰ حيث أُهِّلت له، وتَسلَّم النسخ الملخَّصة إلىٰ من يُؤَهِّله لحفظها وترتيبها .

قلت : قد تبيَّنَ بمـا تقدّم من كلام أبى الفضل الصُّورىّ [ما كان عليه الحالُ فى زمنه] والذى عليـه حالُ الديوان فى زماننا فيما يتعلق بذلك أن الكُتُبَ الواردةَ إلىٰ الأبواب السلطانية من أهل المملـكة وغيرها من سائر الممـالك يتلقَّاها أكبرُ الدَّواداريّة : وهومقدّمُ ألِف علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب الدِّيار المصرية؛ ويحضُر القاصدالمُحْضِر للكتاب من بَرِيدىّ أوغيره، ثم يناولُه للسلطان فيفُضُّ خِتامَه، وكاتبُ السرّ جالسٌ بين يديه، فيدفَعُه السلطانُ إليه، فيقْرَؤُه عليه ويستصْحِبُه معه إلىٰ الديوان : فإن كان الكتابُ عربيًّا دفعـه كاتبُ السرّ إلىٰ نائبه أو من يُخُصُّـه بذلك ليلَخِّص معناه : فيُنْعِم النظرَ فيـه، ويستوفى فُصولَه، ويلَخِّص مَقاصدها،

(١) فى الاصول ثم عرضها ولكن زيادة ثم فى الكلام تنقصه والظاهر أنها زيادة من قلم الناسخ تأمل .

ويكتب لكلّ ديوان من الدواوين التى يرفع إليها متعلّق ذلك الكتاب ملخّصا بالفصول المتعلّقة به فى ورقة مفردة، ليجاوبَ عليها متولّى ذلك الديوان بما رُسم له من الجواب عنها .

وٱعلم أن الذى تُكتَب له الملخّصاتُ فى زماننا من الدواوين السلطانية خمسةُ دواوِينَ . وهى : ديوانُ الإنشاء ، وديوانُ الوِزارة ، وديوانُ الجيش ، وديوانُ الخاصّ، وديوانُ الإستَدّاريّة : وهو الديوان المفْرَد .

والطريق إلى كتابة الملخّصات أن يَحْذِف ما فى صدْر الكُتب من الحَشْو على ماتقدّم فى كلام أبى الفضل الصُّورِىّ، ثم يَعْمِدَ إلى مقاصد الكِتاب فيستوفِى فُصولَه ويتصوّرُها بذهنه، ثم ينظرُ فى متعلّقات تلك الفصول ، ويكتُب لكل ديوان من الدواوين المتقدّمة ملخّصا بما يتعلق به من الفصول فى فصل واحد أو أكثر، بحسَبِ ماتقتضيه قِلّةُ الكلام وكثرتُه .

وكيفية كتابته أن يترُك من رأس الوَصْل قدرَ ثلاثة أصابع بياضًا، ثم قدرَ إصبعين بياضا عن يمينه ، وقدرَ إصبعين بياضًا عن يساره ؛ ويكتب فى صدره ما مثاله : « ذكر فلانٌ فى مكاتبته الواردة على يد فلان المؤرّخة بكذا وكذا » يمدّ لفظ «ذكر» بين جانبى الوصل، ويكتب باقى الكلام تحتها من أوّل الوصل إلى آخره فى العَرْض من غير خُلُوّ بياض « أنه ٱتفقَ من الأمر ماهو كذا وكذا » أو « أنه سألَ فى كذا وكذا» . ثم يخلّى بياضا قدر أربعة أصابعَ مثلا ويكتب فى وَسَط الدَّرْج بخلوّ بياض من الجانبين ، « وذكر » على نحو ماتقدّم؛ ثم يكتب باقى الكلام من أوّل الوصل إلى آخره ، ويفعل ذلك بكل فصل فى الكتاب يتعلّق بذلك الديوان المختص بذلك الملخّص؛ ويكتب فى آخر كل فصل «وقد عُرِض على المَسامع الشريفة» و«مهما برَزَتْ به المَراسِيمُ الشريفةُ كان العمل بمقتضاه» ونحو ذلك .

ثم إن كان المَلخص لديوان الإنشاء، كَتَب بأعلىٰ الوصل من ظاهره من الجانب الأيسر منه مامثاله «ديوان الإنشاء» . وإن كان لديوان الجَيْش كتب هناك مامثاله «ديوان الجيش» . وكذا ديوان الخاصّ وسائر الدواوين المتقدّمة الذكر . فإذا كملت المَلَخَّصات ، وقف عليها كاتب السرّ : فما كان منها متعلِّقا بديوان الإنشاء عرضه علىٰ السلطان وآستمطر جوابه عنه ، فيكتب مقابله فى الملخص « يُكْتَب بذلك » أو « يكتبْ بكذا وكذا » أو « رُسِم بذلك » أو «رُسِم بكذا وكذا» . وما كان منها متعلِّقا بديوان الوزارة بَعَث به إلىٰ الوزير؛ وما كان منها متعلقا بديوان الجيش بعث به إلىٰ ناظر الجيش ؛ وما كان منها متعلقا بديوان الخاص بعث به إلىٰ ناظر الخاصّ : ليقرأ كلٌّ منهم ملخَّصه علىٰ السلطان ويَنْظُر ما يأمُرُ به فيه ، فما كان كَتَب به بجانب الفصل الذى كُتِب به فى الملخَّص « أُمْضِىَ ذلك » أو « لم يمض» أو « رسم بكذا وكذا » ونحو ذلك : وسائر الدواوين علىٰ هذا النمط .

وإن كان الكتّابُ غيرَ عربىّ : فإن كان بالتركية المُغْلِيّة ونحوها كالكُتُب الواردة عن بعض القانات من ملوك الشَّرْق ، فإنه يتولّىٰ ترجمتَها من يُوثَق به من أخِصَّاء الدولة : من الأمراء أو الخاصكيَّة ونحوهم ، ممن يَعْرِف ذلك اللسان؛ ثم يقرأ ترجمته علىٰ السلطان، ويعتَمِد مايأمر به فى جوابه ليكْتُب به . وإن كان بالرومية أوالفرَنْجية ونحوهما من اللغات المختلفة ، تُرجِم علىٰ نحو ما تقدّم ، وكُتِب ملخَّصُه وقُرِئَ علىٰ السلطان وٱلتُمِس جوابُه ، وكتب كاتبُ السرّ علىٰ الملخَّص بما رُسم فيه .

البـاب الرابع

من المقـالة الثالثـــــة

(فى الفَوَاتح والخَوَاتم واللَّواحِق ، وفيه فصـــلان)

الفصـــــل الأوّل

(فى الفَـــوَاتح ، وفيه ســـتة أطراف)

الطَّرَف الأوّلُ

(فى البسملة، وفيه ثلاث جُمَل)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى أصـــل الأفتتاح بهـا)

كانَتْ قريْشٌ قبل البِعْثة تكتُبُ فى أول كُتُبها «بِاسْمِك اللّهُم» والسببُ فى كتابتهم ذلك ماذكره المسعودىّ فى "مُرُوج الذهب" عن جماعةٍ من أهل المعْرفة بأيّام النـاس وأخبارِ مَنْ سَلَف : كابن دَأْب ، والهَيْثَم بن عَدىّ ، وأبى مِخْنَفٍ لُوط بن يحيىٰ ، ومحمدِ بن السائب الكَلْبىّ : أن أُميَّةَ بنَ أبى الصَّلْت الثَّقفىَّ خرج إلىٰ الشام فى نَفَر من ثَقِيف(١) وقُرَيْش فى عِيرٍ لهم ، فلما قَفَلُوا راجعين [نزلُوا مَنْزِلا وآجتمعوا لِعَشَائهم ، إذ](٢) أقبلَتْ حيَّةٌ صغيرةٌ حتّى دنَتْ منهم فحَصبها بعضُهم بحجَر فى وجْهها فرجعتْ ، فشَدُّوا سُفْرَتهم ، ثم قاموا فشَدُّوا علىٰ إبلِهم وآرتحلُوا من مَنْزِلهم ، فلما بَرَزُوا من المنْزِل ، أشرفَتْ

(١) فى الاصول وغيرهم ، وهو تصحيف والتصحيح عن المسعودىّ فى مروج الذهب ج ١ ص ٣٣ .

(٢) الزيادة عن مروج الذهب ج ١ ص ٣٣ ليتضح الكلام .

عليهم عجوزٌ من كَثِيبِ رملٍ متوكِّئَةٌ علىٰ عصًا، فقالت : مامَنَعكم أن تُطْعِمُوا رَحِيبةَ(١) اليتيمة الصغيرةَ التي باتَتْ لطعامكم عَلِيلةً؟ قالوا : وما أنتِ؟ قالتْ أمُّ العوام، أرْملْتُ منْذُ أعْوام؛ أما وربِّ العبـاد، لتَفَرَّقُنَّ فى البِـلاد ! ثم ضربَتْ بعصاها الأرضَ وأثارتْ بها الرملَ، وقالت : أَطِيلِي إيابَهُم، وفرِّقى رِكابَهُمْ! فوثَبَت الإبلُ كأنَّ علىٰ ذِرْوة كلٍّ منهـا شيطانا، ما يَمْلِكُون منها شيئا حتّى آفترقَتْ فى الوادى، فجمَعُوها من آخرِ النهـار إلىٰ غُدْوة، فلمـا أناخُوا الرَّواحلَ طلعَتْ عليهـم العجوزُ وفعلَتْ كما فعلَتْ أوّلا وعادتْ لمَقَالهـا الأوّل، فخرجتِ الإبلُ كما خرجتْ فى اليوم الأوّل، فجمعوها من غَدٍ . فلما أناخُوها ليَرْحَلُوها، فعلتِ العجوزُ مثل فِعْلها فى اليوم الأوّل والثانى فنفَرت الإبلُ، وأمسَوْا فى ليلة مُقْمِرة ويَئِسُوا من ظُهورِهم؛ فقالوا لأُمَيَّـة ابن أبى الصَّلْت : أيْنَ ما كُنتَ تُخْبِرنا به عن نَفْسك وعِلْمِك؟ [فقال : آذهَبُوا أنتم فى طلب الإبل ودَعُونى](٢). فتوجَّه إلىٰ الكَثِيب الذى كانتْ تأتى منه العجوزُ حتّى هبَط من ثَنِيَّتِه الأُخْرىٰ، ثم صَعِدَ كَثِيبًا آخَرَ حتّى هبط منه، ثم رُفِعتْ له كنيسةٌ فيها قناديلُ ورجُلٌ معترِض مضْطَجِع علىٰ بابهـا، وإذا رجلٌ جالسٌ أبيضُ الرأسِ واللحيـةِ؛ قال أميّةُ : فلمَّـا وقَفْتُ قال لى : [إنك لمَتبُوع، قلتُ أجَلْ، قال فمِنْ أينَ يأْتِيك صاحبُك؟ قلت : من أُذُنِى اليُسرىٰ . قال : فبأىِّ الثِّياب يأمُرُك؟ قلت : بالسَّواد . قال : هــذا خطيبُ الجِنِّ، كِدْتَ واللهِ أن تَكُونه ولم تفْعَلْ . إن صاحبَ النبُوّة يأتيه صاحبُه من قِبَل أُذُنه اليُمْنىٰ، فيأمُره بلِبَاس البَيَاض، فمـا](٣) حاجتُك؟ فحدَّثته حديثَ العَجُوز . فقال : هى آمرأة يهودِيَّة هلك زوجُها منذُ أعوام، وإنها لن تزالَ

(١) فى المسعودىّ ج ١ ص ٣٣ "رحيمة الجارية اليتيمة" وفى الاغانى "رجيمة" بالجيم .

(٢) الزيادة عن الأغانى .

(٣) الزيادة عن المسعودى ج ١ ص ٣٤، وهو علىٰ هذا النحو فى الاغانى .

تفْعَل بكم ذلك حتّٰى تُهلِكَكُم إنِ ٱستطاعتْ ـ قال أمية : قلتُ فما الحيلةُ ؟ ـ قال : ٱجمَعُوا ظَهْركم فإذا جاءتكم وفعلَتْ ما كانتْ تَفْعل، فقولُوا سَبْعا من فوقُ وسَبْعا من أسفَلُ " باسمِك اللّهُمَّ " فإنها لن تَضُرَّكم . فرجع أميَّةُ إلىٰ أصحابه فأخبرهم بما قيل له وجاءتْهم العجوزُ ففعلَتْ كما كانتْ تفْعَل فقالوا سبْعًا من فوقُ وسبْعًا من أسفلُ باسمِك اللّهُمَّ فلم تَضُرَّهم . فلما رأت الإبلَ لا تُحرَّك ، قالت : قد علَّمكم صاحبُكم ، لَيُبَيِّضَنَّ الله أعلاه ولَيُسَوِّدَنَّ أسفله . وساروا فلما أدركهم الصبحُ، نظروا إلىٰ أُمَيَّةَ قد بَرِصَ فى غُرَّته (١) و رقبتِه وصَدْره وٱسودَّ أسفلُه . فلما قدِمُوا مكةَ ذكروا هذا الحديثَ، فكتبتْ قريشٌ فى أوّل كُتُبها " باسمك اللهُمَّ " فكان أوّلَ ما كتبها أهلُ مكةَ وجاء الإسلام والأمرُ علىٰ ذلك .

قال إبراهيم بن محمد الشيبانى : ولم تزل الكُتُب تُفْتَتح باسمك اللهمَّ حتّٰى نزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم ﴾ فاستفتح بها رسولُ الله صلّٰى الله عليه وسلم وصارت سُنَّةً بعده . وروىٰ محمدُ بنُ سعد فى طَبقاته ، أنَّ رسولَ الله صلّٰى الله عليه وسلم كان يكتُب كما تكتُبُ قريش " باسمِكَ اللهُمَّ " حتّٰى نزل عليه ﴿ وقالَ ٱركَبُوا فيها بِسْمِ اللهِ مَجْراها ومُرْسَاها ﴾ . فكتب باسم اللهِ، حتّٰى نزل ﴿قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أوِ ٱدْعُوا الرحْمٰنَ﴾ . فكتب «بسم اللهِ الرحمٰنِ» حتّٰى نزل ﴿ إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وإنَّهُ بِسم اللهِ الرحْمٰنِ الرَّحيم ﴾ فكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» . وذكر فى " موادِّ البيان " نحوَه .

وعن سُفْيانَ الثورىّ أنه كان يَكْرَه للرجل أن يكتُبَ شيئا حتّٰى يكتُبَ «بسم الله الرحمن الرحيم» . وعن هِشام بن عُروة عن أبيه أنه كان يكره أن يكْتُبَ

(١) فى مروج الذهب ج ١ ص ٣٤ " عذاريه " وكذلك فى الأغانى .

كتابا أو غيره حتّى يبـدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» . وعن سعيد بن جُبَيْر أنه كان يقول : لايصْلُح كِتابٌ إلا أن يكونَ أوّلُه « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وهذه الأحاديثُ والآثارُ كلُّها ظاهرةٌ فى آستحباب الابتداءِ بالبسملة فيما يُكْتَب به من أصناف المكاتَبـات والوِلاياتِ وغيرها ؛ وعلىٰ ذلك مصطَلَح كُتَّاب الإنشاء فى القديم والحديث، إلا أنهم قد آصطَلَحُوا علىٰ حذفها من أوائل التّوَاقيع والمَرَاسِيم الصِّغار، كالتى علىٰ ظُهور القِصَص ونحوها ؛ وكأنهم أخذُوا ذلك من مفهوم ما رواه أبو داودَ وآبن ماجه فى سُنَنِهما وأبو عَوَانة الأَسْفَرَايِنِيّ فى مُسْـنَده عن أبى هُرَيْرَةَ رضى الله عنه أن النبيّ صـلّى الله عليه وسلم قال : "كُلُّ أَمْرٍ ذِى بَالٍ لاَ يُبْدَأُ فيـه بِبِسْمِ الله الرحمٰن الرحيم فهو أَقْطَعُ" يعنى ناقصَ البركة ، وما يُكْتَب فى التواقيع والمَرَاسيم الصِّغار ليس من الأُمور المُهِمَّة فناسب تركُ البسـملةِ فى أوّلهـا . لكن قد ذكر محمدُ بن عمرَ المَدَائِنى فى كتاب "القَلَم والدواة" أنَّ أهلَ العلم كَرِهوا حذفَ البسـملة من التواقيع والسِّراحات وذَمُّوه . وقد كان القـاضى علاءُ الدِّين الكَرَكِيّ كاتبُ السرّ فى الدولة الظاهرية "برقوق" فى أوّل سلطنته الثانية أمر بأن يُكْتَب فى أوّلهـا بسملةٌ بقلمٍ دقيق ، ثم بطل ذلك بعـدَ مَوْته وبقِى الأمرُ علىٰ ما كان عليه أوّلا . ثم قد آختُلِفَ فى كتابتها أمامَ الشِّعر : فذهب سعيدُ بن المسيَّب والزُّهْرِىُّ إلىٰ مَنْع ذلك ، وذهب سعيدُ بن جُبَيْر وإبراهيمُ النَّخَعِيّ إلىٰ جَوَازه . ويروىٰ مثلُه عن آبن عباس رضى الله عنه . قال أبو جعفر النحاسُ فى "صـناعة الكُتَّاب" : ورأيتُ علىَّ بنَ سـليمانَ يميل إليـه . قال محمدُ بنُ عمر المدائنيّ : ولا بأسَ إن يكُنْ[(١)] بينَ الشِّعرِ وبينها كلامٌ ، مثل أنشدَنِى فلانٌ الفلانىّ وشِبْهُ ذلك ، فأما أن يصلَهُ بها فلا يجـوز .

(١) فى الاصول أن يكون ولكن يأباه المعنىٰ وبقية الكلام تأمل .

الجمـــــلة الثـانية
(فى الحَثِّ علىٰ تحسِينِها فى الكِتابةِ وما يجبُ من ترتيبها فى الوضع)

أما الحثُّ علىٰ تحسينها فى الكتابة، فينبغى للكاتب أن يُبالِـغَ فى تحسينها فى الكتابة ما آستطاعَ تعظِيماً لله تعالىٰ . فقد رُوِى أن رسـولَ الله صلّى الله عليه وسـلم قال : « مَنْ كَتَبَ بسم الله الرحمنِ الرحيم فحَسَّـنه أحْسَنَ اللهُ إليَهْ» . وعن واصـلٍ مولىٰ أبى عُيَيْنَةَ قال : سمعتُ حَمّادا يقول : كانوا يُحِبُّون أن تُحَسَّن بسم الله الرحمن الرحيم.

* * *

وأما ما يجبُ من ترتيبها ، فأوّل ما يجبُ من ذلك إطالةُ البـاء لتَدُلَّ علىٰ الألف المحذوفة منها لكثرةِ الآستعمال، ثم إثبات السين بأسنانهـا الثلاثِ، غيرَ مُرْسِلٍ لهـا إرسالا كما يفعله بعضُ الكُتَّاب فقد كَرِه ذلك أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه وزيدُ بنُ ثابت والحسنُ وآبنُ سِيرينَ، حتّى يُرْوىٰ أن عمرَ رضى الله عنه ضَرَبَ كاتبًا علىٰ حَذْف السين منها ـ فقيل له : فِيمَ ضَرَبك عمرُ ؟ ـ فقال : فى سـين، فجرىٰ مثلا . ويُرْوىٰ أن غلامًا لعمَرَ بن عبد العزيز كتب إليه من مِصْرَ كتابا ولم يجعل لبسم الله الرحمن الرحيم سينا، فكتب إليه عمرُ يأمره بالقُدُوم عليه، فلما قدم قال : آجعل لبسم الله الرحمن الرحيم سينا وآنْصَرِف إلىٰ مصر . وكذلك لا يُمَدّ البـاءَ قبل السين ثم يكتب السـين بعد المدّة، كما يفعله بعضُ كُتَّاب المَغاربة فقد روىٰ محمد آبنُ عمر المَدَائِنىّ من حديث شُعَيْب بنِ [أبى] الأشعَث أنَّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قال : " إذا كَتَبَ أحدُكُمْ بسم الله الرحمن الرحيم فلا يَمُدَّها قبل السين . يعنى الباءَ" وعن ليثٍ عن مجاهد يرفَعُه إلىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم نحوَه . ويروىٰ مثلُه عن آبن عمر، وابن سِـيرينَ . وعن عبد العزيز بن عبد الله وعبدِ الله بن دينار وغيرهما

أن العلمــاء كانوا يَكْرَهُون ذلك ويَنْهَوْن عنه أشَــدَّ النَّهيِ حتّى رُوِى عن الضحّاك آبن مزاحم أنه قال : وَدِدْت أنّى لو رأيتُ الأيْدِىَ تُقْطَع فيه . نعم يستَحَبُّ المدّ بين السين والميم كما هو عادةُ كُتّاب المِصْريين وأهل المَشْرِق . وكذلك آستحسَنُوا مدّ الحاء من الرحمن قبل الميم وقالوا : إنه من حُسْن البيان، حتّى يروىٰ أن عمرَ بن عبدالعزيز كتب إلىٰ عُمّاله إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمدّ الرحمن . وهذا ممــا يتعاطاه كُتّاب المغرب دون كُتّاب مصر وأهلِ المشرِق . أما غير ذلك من وجوه التحسين فيأتى الكلامُ (١) عليه فى الكلام علىٰ الخط إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــــلة الثالثة

(فى بيان مَوْضِعها من المكتوب، ويتعلّق به أمران)

الأمر الأوّل

(تقـــدُّمها فى الكتابة)

فيجب تقديمها فى أوّل الكلام المقصود : من مكاتبةٍ أو ولايةٍ أو منشورِ إقطاع أوغير ذلك، تبرّكا بالآبتداء بها وتَيَمُّنا بذكرها، عملا بالأخبار والآثار المتقدّمة فى الجملة الأولىٰ . علىٰ أنه قد آختُلِف فى معنىٰ قوله تعــالىٰ حكايةً عن بِلْقِيسَ حين أُلْقِى إليها كتابُ سليمان عليه السلام : ﴿ إنِّى أُلْقِىَ إلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيمِ ألّا تَعْلُوا عَلَىَّ وأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ : فذهب بعضُ المفسرين إلىٰ أن قوله ﴿ إنَّهُ من سُلَيْمَانَ ﴾ من كلام بِلْقِيس، وإنما حكتِ الكتابَ بقولهــا : وإنَّهُ بسم الله

---

(١) قد مضى الكلام علىٰ الخط فى أوائل الجزء الثالث من هذا الكتاب و بين هناك أوضاع البسملة وكيفية كتابتها أوضح بيان فلعل ماهنا سهو عما فات .

الرحمن الرحيم إلى آخر الآية، فيكون ٱبتداء الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، ويكون ذلك ٱحتجاجًا على وجوب تقديمها . وذهب آخرون إلى أن قوله ﴿ إنَّهُ من سليمانَ ﴾ بدايةُ كتاب سليمان ، فيكونُ سليمانُ عليه السلام قد بدأ في كتابه باسْمِه . فإن قيل كيف ساغ على ذلك تقديمُ ٱسمه على ٱسم الله تعالى في الذِّكْر مع أن الأنبياءَ عليهم السلامُ أشدُّ الناس أدبًا مع الله تعالى؟ فالجواب ماقيل : إنه كان عادةُ ملوك الكُفْر أنه إذا ورد عليهم كتابٌ بما يكْرَهُون ربما مَزَّقوا أعلاه أو تفَلُوا فيه، فجعل سليمانُ عليه السلام ٱسمَه تَقِيَّةً لِٱسم الله تعالى فذكره أوّلا . ومن هنا ٱصطلح الكُتَّاب في الكُتُب الصادرة عن ملوك الإسلام إلى ملوك الكُفْر بكتابة ألقابِ الملك المكتوبِ عنه في وصل فوقَ البسملة، تأسِّيًا بسليمان عليه السلام .

أما مايُكتَب في طُرَّة الولايات من العُهُود والتقاليد وغيرها ، فإنه في الحقيقة جُزْء من المكتوب، فلا يُوصَف بأنه شيءٌ مقدّمٌ على البسملة . وأما الطغراة التي كانت تُوضَع في مناشير الإقطاعات في وَصْلٍ بين وصل الطُّرّة والبسملة فيها ألقابُ السلطان على ما سيأتي في الكلام على كتابة المَنَاشير في موضعه إن شاء الله تعالى، فإنها كتابةٌ أجنبيّةٌ مكتوبةٌ بخطٍّ غير الكاتب فلم تُنْسَب في الحقيقة إلى التقديم . على أن ذلك قد بطل في زماننا . وهاتان المسئلتان المتعلّقتان بالطُّغراة المكتوبة في المناشير ومكاتبات أهل الكفر مما سأل عنه الشيخُ جمالُ الدين بْنُ نباتَة في رسالته التي كتبها إلى كُتَّاب ديوان الإنشاء بالشام، في مباشَرة الشيخ شِهابِ الدين محمودٍ الحلبيّ، حينَ بلغه أن بعضهم وَقَع فيه .

الأمر الثـانى

(إفــرادهـا فى الكتابة)

قال محمد بنُ عمرَ المدائنىّ فى كتاب "القلم والدواة" : ينبغى للكاتب أن يُفْرِد البسملة فى سطر وحدها، تبجيلًا لآسم الله تعالىٰ وإعظامًا وتوقيرًا له؛ ثم ساق بسنده إلىٰ أبى هُرَيرةَ رضى الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليــه وسلم "نَهىٰ أن يُكْتَبَ فى سَــطْرٍ بسم الله الرحمن الرحيم غَيْرُها" . وعلىٰ هذه الطريقة جرىٰ كُتَّاب الإنشاء فى مكاتبتهم وسائر ما يصْدُر عنهم . أما النُّسَّاخ وكُتَّاب الوثائق فربمــا كَتَبُوا بعــدها فى سطرها «الحمد لله» أو «الصَّلاة علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلم» ونحو ذلك . وكذلك يكتُبُ القضاةُ « الحمد لَهَ » فى علامات الثُّبوت فى المَكاتِيب الشرعيَّة .

الطـــــــرف الثـانى

(فى الحَمْــدَلةِ)

لمــا كان الحمدُ مطلوبًا فى أوائل الأمور طلبًــا للتيمُّن والتبرُّك ، عملًا بمــا رواه الراوُون لحديثِ البسملة المتقدّمِ من روايةِ أبى هريرةَ رضى الله عنه أنه صلّى الله عليه وسلم قال : «كلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لايُبْدأُ فيه بحمدِ اللهِ فهو أجذَمُ» آصطلح الكُتَّاب علىٰ الآبتــداء به فى الكثير ممــا يكْتُبونه من المكاتَبَات والولايات وغيرهما ممــا له شأنٌ وبالٌ : كمكاتَبَات أكثر الملوك من قاناتِ الشَّرْق ، وكلِّ ما تضمَّن نعمةً من المكاتبات ونحو ذلك ، وكالبَيْعات والعهودِ والتقاليدِ علىٰ رأيِ مــن يرىٰ آفتتاحها بالخُطَب، وغير ذلك ممــا يأتى ذكرُه فيما بعدُ إن شاء الله تعــالىٰ . بل ربمــا كَرَّروا الحمدَ المرّاتِ المتعدّدةَ إلىٰ السَّبْع فى الخُطْبة الواحدة ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى موضعه

إن شاء الله تعالىٰ . وأتَوْا بالحمد لله بعد البسملة تأسِّيًا بكتاب الله تعالىٰ ، من حيثُ إن البسملة آيةٌ من الفاتحة كما هو مذهبُ الشافعىّ رضى الله عنه ، أو فاتحةٌ لها — وإن لم تكن منها — كما هو مذهبُ غيره . أما سائر المكاتَبات والولايات المفتَتَحة بغير الحمد، فإنما حذف منها الحمد آستصغارا لشأنها ، إذ كان الآبتداء بالحمد إنما يكون فى أمرٍ له بالٌ كما دل عليه الحديثُ المتقدّمُ ، وسيأتى الكلامُ علىٰ كل شىء من ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . قال فى "الصناعتين" : وإنما آفتُتِح الكلامُ بالحمد لأن النفوس تَتَشوّف للثناء علىٰ الله تعالىٰ، والآفتتاح بما تَتَشوّفُ النفوس إليه مطلوبٌ . وربما أتىٰ الكُتّاب بالحمد بعد البَعْدِيّة : « فكتبوا » أما بعْدَ حمدِ الله، أو «أما بعدُ فالحمدُ لله » فأما الصيغة الأولىٰ فالحمد مقدّم فيها معنىً وإن لم يُذْكَر لفظا لأن قوله أما بعدَ حمدِ الله يقتضى تقدُّم حمد الله ، وأما الصيغةُ الثانية فإنها تقتضى تقدُّم شىء علىٰ الحمد، ولا شك أنّ المقدّمَ هنا هو البسملة علىٰ ماسيأتى فى الكلام علىٰ أما بعدُ فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

ثم قد يُستعْمَل الحمدُ بصيغة الفعل كقولهم فى المكاتَبات : فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ . وقد آختُلف فى أىّ الصيغتين أبلغُ : صيغةِ الحمدُ لله ، أو صيغةِ أحَمدُ الله : فذهب المحقّقون إلىٰ أن صيغةَ الحمدُ لله أبلغ : لما فيها من معنىٰ الآستغراق والثبوت والآستمرار علىٰ ماهو مقرّر فى علم المعانى . وذهب ذاهبُون إلىٰ أن صيغةَ أحمدُ اللهَ أبلغ : لأن القائل الحمد لله حاكٍ لكون الحمد لله، بخلاف القائل أحمدُ الله فإنه حامدٌ بنفسه ، ولذلك يُؤْتىٰ بالتحميد ثانيا فى الخُطَب بصيغة الفعل .

وله فى الآستعمال ثلاثُ صيغ :

الصيغة الأولىٰ — « يَحْمَدُه أمير المؤمنين » فيما إذا كان ذلك صادراً عن الخليفة في مكاتبةٍ أو غيرها .

الصيغة الثانية — «نَحْمَده» إما بنون الجمع الحقيقية كما إذا كان ذلك صادرا عن ... ...(١) مثل أن يؤتىٰ بذلك في بيعةٍ لخليفة أو نحوها، أو بنون الجمع للتعظيم كما إذا كان ذلك صادرًا عن السلطان نحو مايَقع في خُطَب التقاليد والتواقيع في زماننا .

الصيغة الثالثة — « أحمَدُه » بلفظ الإفراد ، كما إذا كان ذلك صادرا عن واحد فقط حيثُ لاتعظيمَ له .

الطـــرف الثـالث

(في التشهد في الخطب)

قد جرتْ عادة المتأخِّرين بالإتيـان بالتشهُّد بعد التحميد في الخطب ويكون تابعًا لصيغة التحميد : فإن كان قد قيل يحمَدُه أمير المؤمنين، قيل بعده : ويَشْهَد؛ وإن كان قد قيل نحمَدُه ، قيل بعده : ونَشْهَد ؛ وإن كان بعْدَ أما بعدَ حمدِ الله ، قيـل والشهادةِ له بالجر عطفًا علىٰ حَمْـد . علىٰ أن الخُطَب الموجودةَ في مكاتبات المتقـدّمين لا تَشَهُّدَ فيها . ومستَنَد المتأخِّرين في ذلك ما رواه أبو داود والترمذيّ وصَحَّحه البيهقي أنــ النبيَّ صلّى الله عليه وسـلم قال : "كُلُّ خُطْبةٍ ليس فيها تَشَهُّدٌ فهي كاليَدِ الجَذْماء" .

---

(١) بياض في الاصول ولعله "عن متعددين" .

الطـــــــرف الرابع

(فى الصلاةِ والسلام علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله وصحبه فى أوائل الكُتُب)

لا نِزاعَ فى أن الصلاةَ علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم مطلوبةٌ فى الجملة ، وناهيك فى ذلك قولُه تعالىٰ فى مُحْكَم التنزيل : ﴿إنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلىٰ النَّبِيِّ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ والأحاديثُ الواردةُ فى الحثّ علىٰ ذلك أكثرُ من أن تُحْصَر، فناسب أن تكون فى أوائل الكُتُب ، تيمُّنا وتبرُّكا . وقد جاء فى تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أن المعنىٰ ماذُكِرْتُ إلا وذُكِرْتَ معى . فإذا أُتِىَ بالحمد فى أوّل كتابٍ ، ناسب أن يُؤْتىٰ بالصلاة علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فى أوّله ، إتيانًا بذكره بعد ذكرِ الله تعالىٰ . وقد رُوِى من حديثِ ابن عبّاس رضى الله عنهما أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : "مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فى كتابٍ لم تَزَلِ الصلاةُ جاريةً له مادام اسْمِى فى ذلك الكتابِ" . قال الشيخ عمادُ الدين فى تفسيره : إلا أنه ضعيفٌ ، ضعَّفه المحدّثون . قال محمد بنُ عمر المدائنىّ فى "كتاب القَلَم والدواة" : وقد رأينا بعضَ الكُتَّاب لا يرىٰ الصلاةَ علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فى الكُتُب ، فباءُوا بأعظم الوِزر مع مافاتهم من الثواب .

وأما السلامُ عليه صلّى الله عليه وسلم بعد التصلية ، فقد قال الشيخ محيى الدين النووىّ فى كتابه "الأذكار" : وإذا صلّى علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فليَجْمَعْ بين الصلاة والتسليم ولا يَقْتصِرْ علىٰ أحدهما فلا يقال صلّى اللهُ عليه فقط ، ولا عليه

السلامُ فقط . قال الشيخ عمادُ الدين بنُ كثير : وهذا منتزع من قوله تعالىٰ : ﴿ إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يصلُّون علىٰ النبِيّ ﴾ الآية .

وأما الصلاة علىٰ الآلِ والصحبِ بعد الصلاة علىٰ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم، فقد نقل الشيخُ عمادُ الدين بنُ كثير فى تفسيره الإجماعَ علىٰ جواز الصلاة علىٰ غير الأنبياء عليهم السلام بطريق التبَعِيَّة، مثل أن يقال : اللهمَّ صلِّ علىٰ سـيدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه وأزواجِه وذُرِّيته ونحو ذلك . ثم قال : وعلىٰ هذا يُخَرّج مايكتُبونه من قولهم : وصلواتُه علىٰ سـيدنا محمد وآله وصحبه فلا نِزاعَ فيه، وإنمـا الخلاف فى جواز إفراد غير الأنبياء عليهم السـلام بالصـلاة : فأجازه قوم محتجِّين بنحو قوله تعـالىٰ : ﴿ وصَلِّ عليْهِمْ ﴾ وقوله صلّى الله عليه وسلم : "اللّهُمَّ صلِّ علىٰ آل أبِي أوْفىٰ". ومنعه آخرون آحتجاجًا بأن الصلاةَ صارتْ شِعارا للأنبياء عليهم السـلام فلا يُلْحَق بهم غيْرُهم، فلا يقال : أبو بكر صلّى الله عليه وسـلم وإن كان المعنىٰ صحيحا، كما لا يقال : محمد عَزَّ وجلَّ، وإن كان عزيزًا جليلاً .

ثم الصحيح من مذهب الشافعيّ رضى الله عنه أن ذلك لايجوز فى غير التبعية . وحكىٰ النوويّ فى "الأذكار" فيه قولا بأنه كراهةُ تحريم، وقولا بأنه كراهةُ تنزيه، وقولا بأنه خلافُ الأولىٰ، ورجَّح كونَه كراهةَ تنزيه، لأنه شِعارُ أهل البِدَع .

وأما السلام علىٰ غير الأنبياء، فحكىٰ النوويُّ عن أبى محمدٍ الجُوَيْنيِّ منْعَه فى الغائب من حَيٍّ وميِّت وأنه لا يفرد به غير الأنبياء، فلا يقال : علىٌّ عليه السلام، بخلاف الحاضر فإنه يُخاطَب به .

إذا علمت ذلك فالصلاةُ وتوابعُها فى أوائل الكُتُب قد تكون بعدَ التحميد فى الخُطْبة كما فى الولايات [والمكاتبات] المفتَتحة بالخُطَب من البَيْعات والعهود والتقاليد والتفاويض

والتَّواقِيع والمَرَاسِيم وغيرها، وكما فى الكُتُب المفتَتَحة بالخُطَب. وقد تكون فى صُدُور المكاتبات المفتَتَحة بغير الخطب، كما كان يُكْتَب فى القديم فى صدور المكاتبات «وأسأله أن يصَلِّ علىٰ محمد عبده ورسوله» وهو مما أحدثه الرشيد فى المكاتبات. قال فى "ذخيرة الكُتَّاب": وكان ذلك من أجَلِّ مناقبه. وكان الخلفاءُ الفاطميون بمصر يقولون عن لسان الخليفة: ويسألُه أن يُصَلِّ علىٰ جدّه محمد، ويخصون الصلاةَ بعده بأمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه علىٰ طريقة الشِّيعة.

الطرف الخامس

(فى السلام فى أوّل الكُتُب)

إنما جُعِل السلام فى ابتداءِ الكُتُب وصُدُورِها لأنه تحيةُ الإسلام المطلوبةُ لتأليف القلوب، فكما أنه يُفتَتح به الكلام طلبًا للتأليف كذلك تُفْتَتَح به المكاتبات وتصدّر طلبا للتأليف، إذ يقول صلّى الله عليه وسلم: «أَلَا أُنَبِّئُكُم بشَىْءٍ إذا فَعَلْتُموه تحابَبْتُم! أفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُم». قال فى "الصناعتين": وتقول فى أوّل كتابك: «سلامٌ عليك» وفى آخره «والسلامُ عليك» والمعنىٰ فيه أن الأوّل نكرةٌ إذ لم يتقدّم له ذِكْر والثانى معرفةٌ يشارُ به إلىٰ السلام الأوّل علىٰ حدّ قوله تعالىٰ: ﴿كما أرْسَلْنَا إلىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً فعَصىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ فأتىٰ فى الأوّل بتنكير الرسول وفى الثانى بتعريفه. وكذلك قال تعالىٰ فى سورة مريَمَ فى قصة يحيىٰ عليه السلام: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ لعدم تقدُّم ذكر السلام؛ ثم قال بعد ذلك فى قصّة عيسىٰ عليه السلامُ: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يومَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وإلىٰ ذلك يشير أحمدُ بن يوسف بقوله: اكتُبْ فى أوّل كتابك

ســلام عليك وٱجعَلْهُ تحيةً ، وفى آخره « والسلامُ عليك » وٱجعَلْه وَدَاعا . وذلك أن سلام التحية يكون ٱبتداءً فيكون نكرةً، وسلامَ الوَداع يكون ٱنتهاءً فيكون معرفةً لرجوعه إلىٰ الأوّل . وقد كره بعضُ العلماء أن يقال فى الآبتداء : عليك الســلامُ ، ٱحتجاجا بمـا رُوِى عن أبى مُكْعِتٍ الأسدِىّ أنه قال « أتيتُ رسولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم فأنشدته :

يَقُول أبُو مُكْعِتٍ صادِقًا: * عَلَيْكَ السلامُ أبَا القَاسِمِ!

فقال : ياأبا مُكْعِتٍ عليك السلامُ تحيَّةُ المَوْتىٰ» . وجعل ابن حاجبِ النُّعمان من ذلك قول عَبْدَةَ بن الطَّبِيب :

عَلَيْكَ سلامُ اللهِ قيسَ بنَ عاصِمٍ * ورَحْمتُه ما شاءَ أنـ يَتَرَحَّمـا

قال ابن حاجب النعمان : ويكتبُ السلامُ باسقاط الألف فى صَدْر الكتَّاب وعَجُزه . قال أبو جعفر النحاس : وقولهم فى أوّل الكتّاب ســلامٌ عليك ، بالرفع ويجوز فيــه النصبُ والآختيارُ الرفع وإنـ كان النُّحاة قد قالوا : إنَّ ما كان مشــتقًّا من فعل فالآختيــار فيه النصبُ نحو قولك سَــقْيًا لك : لأن معنىٰ الســلام فى الرفع أعَمُّ، إذ ليس يريد أفعَلُ فعلا ، فيكون المعنىٰ تحيةً عليك بنصب تحية . وقيل : ســلامٌ عليك بمعنى سلامٌ لك . وسيأتى الكلامُ علىٰ إتباع السلام الرحمةَ فى الكلام علىٰ الخواتم فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الطَّــــرَف الســادس

(فى أما بعــد)

اِعلم أن « أما بعْدُ » تُستعْمَل فى صُدُور المكاتبات والوِلَايات وربما ٱستُعْمِلت فى ٱبتدائها . وهى مركَّبة من لفظين أحدهما أما والثانى بعد . فأما « أما » فحرف شرط و« بعــدُ » ظرفُ زمان إذا أُفْرِد بنِي على الضم ، قال تعــالىٰ : ﴿ لِلّٰهِ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ﴾ وأجاز الفرّاء أما بعدًا بالنصب والتنوين ، وأما بعدٌ بالرفع والتنوين . وأجاز هشام أما بعدَ بفتح الدال ومنعه النحاسُ وقال : إنه غير معروف .

ثم أمَّا تقَع فى كلام العرب لتوكيد الخبر ، والفاء لازمةٌ لهــا : لتصل ما بعــدها بالحرف الملاصق لما قبلها ، فتقول أما بعدُ أطالَ اللهُ بقاءَك ! فإنى قد نظرتُ فى الأمر الذى ذكرْتَه . ويجوز أمَّا بعدُ فأطال الله بقاءَكَ إنى نظرتُ فى ذلك ، فتثبت الفاء فى أطال وإن كان معــترضا لقُرْبه من أما ، ويجوز أما بعــد فأطال اللهُ بقاءك فإنّى نظرت ، ويجوز أما بعد ثُمَّ أطال الله بقاءك فإنى نظرت حكىٰ ذلك كلَّه النحاسُ ، ثم قال : وأجودُها الأوّلُ وهو ٱختيار النحويين . قال : وأجودُ منه أما بعدُ فإنى نظرت أطال الله بقاءك . فان أضيفتْ بعــدُ إلىٰ ما بعدها فُتحتْ فتقول أما بعــدَ حمــد الله ونحو ذلك . قال فى "ذخيرة الكتّاب" وإذا كانت بعــد البسملة فمعناه أما بعــد قولنا «بسم الله الرحمن الرحيم» فقد كان كذا وكذا .

وقد ٱختُلِف فى أوّل مَنْ قال أما بعدُ : فقيل داودُ عليه السلام ، وبه فُسِّر فصلُ الخطاب فى قوله تعــالىٰ : ﴿ وآتيْناهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ علىٰ أحد الأقوال ، وقيل أوّلُ مَنْ قالها كعبُ بنُ لؤىّ جدُّ النبي صلَّى الله عليه وسلم ، وقيل أوّلُ مَنْ قالها قُسُّ بنُ ساعدةَ الإيادِىّ . قال سيبويه : ومعناها مهما يَكُنْ من شيء .

الفصـــــــل الثانى

(فى الخَوَاتِم واللَّواحِق، وفيه سبعةُ أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى الآستثناء بالمشيئة : بأن يَكْتُب إن شاء الله تعالىٰ، وفيه جملتان)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى الحَثّ علىٰ كتابة إن شاء الله تعالىٰ)

اعلم أنه يُسْتحبُّ للكاتب عند آنتهاء مايكتُبُه : من مكاتَبةٍ أو وِلاية أو غيرهما أن يكتب "إن شاء الله تعالى" تبرُّكا ورغبةً فى نجاح مَقْصد الكِتاب ، فقد ورد الحَثُّ علىٰ التعليق بمشيئة الله تعالىٰ والنَّدْبُ إليه ؛ قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ . وذمَّ قوما [علىٰ تَرْك الآستثناء](١) فقال : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ إلىٰ آخر القِصَّة . قال أصحاب السِّيَر : كان باليمن رجلٌ له جَنَّةٌ يأخُذُ منها قُوتَ سنته ويتصدّقُ بالباقى، وكان يترك للساكين ما أخطأ المِنْجَلُ من الزَّرْع أو القِطَاف من العِنَب والنَّخْل وما بَقِىَ علىٰ البِساط الذى يُبْسَط تحت النَّخْلة ، فلمَّا مات شَحَّ بَنُوه علىٰ المساكين بما كان يَتْرُكه أبُوهم وحلَفُوا علىٰ قَطْعها فى الغَلَس كَيْلا يُدْرِكهم الفُقَراء، فأصابتها نارٌ فى الليل فاحترقَتْ وأصبحتْ كالصَّريم يعنى الليلَ المُظْلِمَ. قال المفسرون : والمراد بقوله : ﴿ ولا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أنهم لم يقولوا إن شاء اللهُ تعالىٰ . قال الزمخشرىّ :

(١) الزيادة عن الضوء .

وسُمِّى آستثناءً و إن كان بمعنَى الشرط لأنه يؤدِّى مؤدّى الاستثناء من حيثُ إن معنىٰ قولك لأخرُجَنَّ إن شاء الله ولا أخْرُج إلا أن يشاءَ الله واحدٌ .

وآعلَمْ أن الاستثناء لا يدخُل علىٰ ماضٍ فلا يقال ما فعلت ذلك إنْ شاء اللهُ ، و إنما يدخُل علىٰ مستقبل فتقول لا أفعَلُ ذلك إن شاء الله ، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ . وكذلك كلُّ ما فيه معنىٰ الاستقبال ، كما قال تعالىٰ حكايةً عن يُوسُفَ عليه السلام : ﴿ وقال آدْخُلُوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ ونحو ذلك .

أما ما ورد من ذلك بلفظ المُضِىّ مثل قول القائل لزوجته أنتِ طالقٌ إن شاء الله فإنه و إن لم يكُنْ مستقْبَلا لفظا ، فإنه مستقبَلٌ معنًى ، إذ معناه الإنشاء و إلا لما وقع به الطلاقُ . إذا علمت ذلك ، فلفظ "إن شاء الله تعالىٰ" فى آخر المكاتَبةِ أو الوِلاية ونحوِهما يكون معلّقا بآخِرِ المكتوب مما يناسبُ ذلك ، كتعَلُّقها بالتأييد من قوله واللهُ تعالىٰ يؤيِّده بمَنّه وكرمه إن شاء الله تعالىٰ ، ونحو ذلك .

الجملة الثانية

(فى محل كتابتها وصورةِ وَضْعها فى الدَّرْج)

لانزاعَ فى أنها أوّلُ خاتمةٍ تُكتَبُ من خواتِم المكتوب ، فمحلها من الدَّرْج أسفلُ المكتوب ، فى وَسَط الوصل ، مكتَنَفة ببياض عن يمينها وشِمالها ، وبينها وبين السَّطْر الآخِر من المكتوب كما بين سَطرين أو دُونَه .

وقد جرتْ عادةُ الكُتّاب فى كتابتها بأنها إن كانتْ بقلم الرِّقاع كما فى القطع الصغير ، كتبت معلّقة مُسَلْسَلة علىٰ هذه الصورة 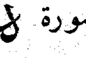 أوما قاربها ، وإن كانتْ بقلم

جليل كالثلث ونحوه ، كُتِبتْ واضحة مبيَّنة ، والغالب فيها أن تكونَ على هــذه الصورة إن شاء الله تعالى قال جمالُ الدِّين بن شيثٍ في "معالم الكِتابةِ" : ولا يُضيف الكاتبُ إليها شيئًا في سطرها ، بل تكون مفرَدةً في سطرٍ واحدٍ .

الطَّـــرَف الثانى
(في التــاريخ ، وفيه ثمــانُ جمـــل)

الجمـــلة الأولى
(في معنـــاه)

وقد آختُلِف في أصــل لفظه : فذهب قومٌ إلى أنه عــرَبِيّ ، وأن معناه نهــايةُ الشيء وآخرُه ، يقــال فلانٌ تاريخُ قومه إذا آنتهى إليه شرفُهُم ، وعليــه يدلُّ كلامُ صاحب "موادِّ البيان" وآبنِ حاجب النعمان في "ذخيرة الكُتَّاب" ونقل الشــيخ علاءُ الدين بن الشاطر في "زِيجِه" عن بعض أهل اللُّغــة أن معناه التأخير فيكون مقلوبا منه . وذهب آخَرُون إلى أنه فارسيّ ، وأن أصلَهُ «ماه‌زور» فعرّب مورخ ، ثم جعل آسمُه التاريخ ، و إليه يرجع كلام السلطان عماد الدين صاحب حماة رحمه الله في تاريخه ، و يقــال منه أرَّخْت ووَرَّخْت بالهمزة والواو لغتانـــ ، ولذلك قالوا في مصدره تأرِيخ وتَوْرِيخ ، كما يقال تأكِيد وتَوْكِيد . قال في "ذخيرة الكُتَّاب" : أرَّخْت لغةُ قيس ، ووَرَّخت لغةُ تميم . قال أبو هلال العسكريّ في كتاب "الأوائل" : ولا تكاد وَرَّخْت تستعْمَل اليومَ ، وكأنَّ الكُتَّاب كانوا قد رفَضُوا هــذه اللغة في زمانه و إلا فهى لغــةٌ مستعملةٌ إلى الآنَ ، إلا أنها لمــا غلبَتْ في ألسِــنة العوَامِّ

ابتُذِلتْ . قال الشيخ « أثير الدين أبو حيان » فى شرح التسهيل : والتاريخُ هو عدَد الليالى والأيام بالنظر إلىٰ ما مضىٰ من السنة أو الشهر وإلىٰ ما تبَقّىٰ منهما ، قال فى "موادّ البيان" : وهو محقق للخبر ، دالٌّ علىٰ قُرْب عَهْد الكِتَاب وبُعْده .

الجملة الثانية

(فى وجه الاحتياج إليه)

قال محمد بن عمر المدائنى فى كتاب "القلم والدواة" : أجمعتِ العلماءُ والحكماءُ والأُدَباء والكُتّاب والحُسّاب علىٰ كتابة التاريخ فى جميع المكتَتَبات . قال صاحب "نهاية الأرب" : ولا غُنْيَة عنه ، لأن التاريخ يُستَدَلُّ به علىٰ بُعْد مسافة الكِتاب وقُرْبها ، وتحقيقِ الأخبار علىٰ ماهى عليه . وقد قال بعض أئمة الحديث : لما استعمَلُوا الكذبَ استعمَلْنا لهم التاريخَ . وقد اصطلح الكُتّاب علىٰ أنهم يؤرِّخُون المكاتبات والولاياتِ ونحوَها مما يصدُر عن الملوك والنُّوّاب والأمراء والوزراء وقضاة القضاة ومن ضاهاهم ، بخلاف المكاتبات الصادرة عن آحاد الناس ، فإنه لم تجْرِ العادةُ فيها بكتابة تاريخ .

الجملة الثالثة

(فى بيان أصول التواريخ)

قال القُضَاعىّ فى "عيون المَعَارف فى تاريخ الخلائف" : كانت الأممُ السالفةُ تُؤَرِّخ بالحوادث العِظَام وبمِلْك الملوك : فكان التاريخُ بهبوط آدمَ عليه السلام ، ثم بمَبْعَثِ نوح ، ثم بالطُّوفان ، ثم بنارِ إبراهيمَ عليه السلام .

ثم تفرق بَنُو إبراهيم : فأرّخ بَنُو إسحاق بنار إبراهيم إلىٰ يُوسفَ ؛ ومن يوسفَ إلىٰ مَبْعَثِ موسىٰ عليه السلام ؛ ومن مُوسىٰ إلىٰ مَلْك سليمان عليه السلام . ثم بما كان من الكوائن . ومنهم من أرّخ بوفاة يعقوبَ عليه السلام ، ثم بخُرُوج موسىٰ من مصْر ببني إسرائيل ، ثم بخَراب بيت المَقْدِس .

وأما بنو إسماعيل ، فأرّخُوا ببناء الكَعْبة ، ولم يزالوا يؤرِّخُون بذلك حتّىٰ تفرّقت بَنُو مَعَدّ ، وكان كُلّما خرج قومٌ من تِهامَة أرّخوا بخُرُوجهم . ثم أرّخوا بيوم الفِجار ، ثم بعام الفِيل .

وكان بَنُو مَعَدّ بن عَدْنانَ يؤرّخون بغلبة جُرْهُمَ العماليقَ و إخراجِهم إيّاهم من الحَرَم . ثم أرّخوا بأيّامِ الحُرُوب : كحرب بَنِي وائلٍ ، وحَرْب البَسُوس ، وحَرْبِ دَاحِسٍ .

وكانت حِمْيرُ وكَهْلانُ يؤرّخُون بملوكهم التَّبَابِعةِ ، وبنار ضِرَارٍ : وهى نارٌ ظهرتْ ببعض خَرَاب اليَمَن ، وبسَيْل العَرِم ، ثم أرّخُوا بظهور الحَبَشة علىٰ اليمن .

وأما اليُونانُ والرُّوم ، فكانوا يؤرّخُون بمِلْك بُخْتُنَصَّر ، ثم أرّخُوا بمِلْك دقلطيانوس القِبْطىّ .

وأما الفُرْس فكانوا يؤرّخُون بآدمَ عليه السلام ، ثم أرّخُوا بقَتْل دَارَا وظُهورِ الإسْكَنْدَر عليه ، ثم بمِلْك يَزْدَجِرْد . والذى ذكره السلطان عماد الدين صاحب حماة فى تاريخه فى دائرة آتصال التواريخ القديمة بالهجرة عشرون تاريخًا ، ذكر ما بينها وبين الهجرة من السنين ، إلا أنه لم يراع الترتيبَ فى بعضها ، وأهمل منها تاريخَ يَزْدَجِرد لوقوعه بعد الهجرة .

وبالجملة فالتواريخ علىٰ قسمين :

القســـم الأوّل

(ما قبل الهِجْرة ، وقد أوردتُ منه تسعةَ عشرَ تاريخا)

الأوّل — من هُبُوط آدمَ عليه السلام . وقد آختُلِف فيما بينه وبين الهجرة آختلافا فاحشا : فمقتضىٰ ما فى التوراة اليُونانيَّة علىٰ آختيـار المؤرّخين أنَّ بينهما ستةَ آلافٍ سـنة ومائتين وستَّ عشْرةَ سنة ، وعلىٰ آختيار المنجِّمين أنَّ بينهما خمسةَ آلافٍ وسبعمائة(١) وتسعا وستين سـنة .

ومقتضىٰ ما فى التوراة السامِرِيَّة علىٰ آختيار المؤرّخين خمسةُ آلاف ومائةٌ وسبعٌ وثلاثون سـنة ، وعلىٰ آختيار المنجِّمين ينقص عن ذلك .

ومقتضىٰ ما فى التوراة العِبْرانيَّة ، علىٰ آختيار المؤرّخين أن بينهما أربعـةَ آلاف وسبعَمِائةٍ وإحدىٰ وأربعين سـنةً ، وعلىٰ آختيار المنجِّمين ينقُصُ مائتين وتسعًا وأربعين سنةً .

الثـانى — من الطُّوفان . وبينـه وبين الهجرة ثلاثةُ آلافٍ وتسعُمائةٍ وأربـعٌ وتسعون سـنة علىٰ آختيار المؤرّخين ، وعلىٰ آختيار المنجِّمين ثلاثةُ آلافٍ وسبْعُمائةٍ وخمسٌ وعشرون سنةً وثلثمائةٍ وستةُ أيَّام .

الثـالث — من تَبَلْبُل الألْسنِ . وبينه وبين الهجرة علىٰ آختيار المؤرّخين ثلاثةُ آلافٍ وثلثُمائةٍ وأربعٌ(٢) وستون سـنة ، وعلىٰ آختيار المنجِّمين ينقُصُ عن ذلك مائتين وتسعا وأربعين سنةً .

---

(١) فى تاريخ أبى الفداء المطبوع وتسعمائة .

(٢) فى تاريخ أبى الفدَاء المطبوع وأربع سنين .

الرابع — من مولد إبراهيم عليه السلام. وبينه وبين الهِجْرة علىٰ اختيار المؤرّخين ألفانِ وثمانُمائةٍ وثلاثٌ وتِسْعون سنة، وعلىٰ آختيار المنجِّمين ينقص عن ذلك مائتين وتسعا وأربعين سنةً .

الخامس — من بِنَاء إبراهيم الكَعْبَة . وبينه وبين الهجرة ألفانِ وسبعُمائةٍ وثلاثٌ (١) وسبعون سنة .

السادس — من وَفاةِ موسىٰ عليه السلام . وبينه وبين الهجرة علىٰ آختيار المؤرّخين ألفان وثلثُمائةٍ وثمانٌ وأربعون سنة .

السابع — من عِمَارة سليمان عليه السلام بيتَ المقدس . وبينه وبين الهجرة (٢) ألفٌ وثمانُمائة وستُّون سنة .

الثامن — من ابتداء ملك بُخْتُنَصَّر . وبينه وبين الهجرة ألفٌ وثلثمائة وتسعٌ وستون سنة . قال صاحب حماة : بلا خلاف .

التاسع — من تخريب بُخْتُنَصَّر بيتَ المَقْدِس . وبينه وبين الهجرة ألف وثلثمائة وخمسون سنةً .

العاشر — من مَلْك فيلبس أبى الإسْكَنْدَر . وبينه وبين الهجرة تِسْعمائة وخمس وأربعون سنةً ومائةٌ وسبعةَ عشرَ يومًا .

الحادى عشر — من غَلَبَة الإسكندر علىٰ مُلْك فارس وقَتْلِ دَارَا مَلِكِ الفُرْس . وبينه وبين الهجرة تسعُمائةٍ (٣) وآثنتان وثلاثون سنة ومائتان وتسعون يوما .

(١) فى المختصر وتسعون .

(٢) فى المختصر وقريب سنتين والظاهر أنه تصحيف .

(٣) فى المختصر وأربع وثلاثون .

الثانى عَشَرَ — من مولد المسِيح عليه السلام . و بينه و بين الهجرة ستمّائةٍ و إحدى وثلاثون سنةً .

الثالث عشر — من مَلْك أرديالونص (١) . و بينه و بين الهجرة خمسُمائة وتسعٌ وستون سنةً .

الرابع عشر — من مَلْك أرْدشيرَ أوّلِ ملوك الأَكاسرة من الفُرْس . و بينه و بين الهجرة أربعمائةٍ وآثنتان وعشرون سنةً .

الخامس عشر — من خَراب بيت المَقْدِس المرّةَ الثانيةَ . و بينه و بين الهجرة ثلثُمائة وستٌّ وأربعون سنةً (٢) .

السادس عشَرَ — من مَلْك دِقْلطيانوس : آخرِ عَبَدة الأصنام من ملوك الروم على القِبْط . و بينه و بين الهجرة ثلثُمائة وسبعٌ وثلاثون سنة وأحدٌ وعشرون يوما .

السابع عشر — من غَلَبة أغشطش ملك الروم على قلوبطرا ملكة اليُونان ومصر . و بينه و بين الهجرة مائتان وخمسون سنةً (٣) ومائتان وستة وأربعون يوما .

الثامن عشر — من عام الفِيل، وهو العامُ الذى وُلِد فيه النبي صلّى الله عليه وسلم . و بينه و بين الهجرة ثلاثٌ وخمسون سنةً وشهرانِ وثمانيةُ أيام .

---

(١) فى المختصر أدريانس و بالجملة ففى المختصر المطبوع لابى الفداء ج ١ ص ١٢٥ مخالفة لما فى أصولنا المخطوطة فتنبه .

(٢) فى مختصر أبى الفداء ج ١ ص ١٢٥ خمسمائة وثمانية وخمسون وكان لمضىّ أربعين سنة من رفع المسيح .

(٣) فى المختصر ستمائة واثنان وخمسون سنة وهو أشبه بالصواب لان غلبة أغشطش على قلوبطرا قبل مولد المسيح باحدى وعشرين سنة .

التـاسع عشر — من مَبْعثِ النبيّ صلّى الله عليه وسلم . وبينه وبين الهجرة ثلاثَ عشرةَ(١) سنةً وشهران وثمـانيةُ أيام .

القســـــم الثـانى

(مابعد الهجرة)

وفيه تاريخٌ واحد، وهو من هلاك يَزْدَجِرْد آخرِ ملوك الفُرْس . وكان بعد الهجرة بعشر سنين وثمـانية وسبعين يوما .

الجمـــلة الرابعـــة

(فى أصل وَضْع التاريخ الإسلامىّ وبنـائه على الهجرة دُونَ غيرها)

وقد آختُلِف فى أصل ذلك : فحكى أبو جعفر النحاس فى "صِناعة الكُتَّاب" عن محمد بن جرير : أنه روى بسنده إلى آبن شِهابٍ أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم لمـا قَدِم المدينة — وقدمها فى شهر ربيع الأوّل — أَمَرَ بالتاريخ . وعلى هـذا فيكون ابتداءُ التاريخ فى عامِ الهجرة . قال النحاس : والمعروف عند العُلَماء أن آبتداء التاريخ بالهجرة كان فى خلافةِ عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه .

ثم آختلف فى السبب المُوجِب لذلك : فذكر النحاس أن السببَ فيه أن عاملَ عمر بنِ الخطاب رضى الله عنه باليمن قَدِم عليه فقال : أما تُؤَرِّخُون كُتُبَكم؟ فا تخذُوا التاريخَ . ووافقـه على ذلك صاحب "موادّ البيان" . وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" أن السبب فيه أن أبا موسى الأشعرىَّ كَتَب إلى عمرَ بنِ الخطاب

(١) فى الأصل ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية أيام وهو تحريف والتصحيح من مختصر أبى الفداء .

رضى الله عنه: إنه يأتينا من قِبَل أمير المؤمنين كُتُبٌ لاندرى على أيِّها نعمل قد قرأنا [كتابا منها] (١) مَحِلُّه شعبانُ، فما نَدْرِى فى أىّ الشَّعْبانَيْنِ الماضى أو الآتى، فأحدَثَ عمرُ التاريخَ . وتبعه على ذلك ابنُ حاجب النعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" . وذكر صاحبُ حماةَ فى تاريخه : أنه رُفِع إلى عمرَ رضى الله عنه صَكٌّ مَحِلُّه شعبانُ فقال : أىُّ شعبان، لاندْرِى ألذِى نحنُ فيه أم الذى هو آتٍ، ثم جمع وجوه الصحابة وقال : إنَّ الأموالَ قد كَثُرتْ، وما قَسَمناه منها غيرُ مؤقَّتٍ فكيف التوصُّل إلى ما يُضْبَطُ به ذلك ؟ — فقالوا : يجب أن نَعرِف ذلك من أمور الفُرْس، فاستحْضَر الهُرْمُزَان وسأله — فقال : إن لنا حساباً نُسَمِّيه (مَاهْ رُور) ومعناه حساب الشُّهور والأيام فعَمِل عمرُ التاريخَ .

الجملة الخامسة

(فى بيان صورةِ ٱبتدائِهم وضعَ التاريخ من الهجرة)

قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" : لما أراد عمرُ التأريخَ، جمع الناسَ للمَشُورة، فقال بعضهم : نُؤَرِّخ بمَبْعَث النبىّ صلّى الله عليه وسلم — وقال بعضُهم : بل بوَفاته — وقال بعضهم : بل بهجْرته من مكةَ إلى المدينة : لأنها أوّلُ ظهورِ الإسلام وقُوّته . فصوّبه عمر واجتمع رأْيُه عليه ؛ وكان النبىّ صلّى الله عليه وسلم قد وُلِد فى عام الفِيل المقَدَّم ذكره فى التواريخ القديمة . قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" : وكان وقوعُ ذلك فى اليوم الثانِى عشَرَ من شُبَاط سنةَ ثمانمائةٍ وٱثنتين وثمانين لذى القَرْنَيْنِ . وبُعِث النبىّ صلّى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنةً من وِلَادته ، وأقام بمكة بعْدَ النبوّة عَشْرَ (٢) سنينَ ،

---

(١) بياض بالاصول والتصحيح من الضوء للؤلف .

(٢) ينظر ذلك مع ما تقدم من أن بين المبعث والهجرة ثلاث عشرة سنة .

ثم هاجر إلىٰ المدينة فى شهر ربيع الأوّل بعد عَشْرٍ(١) من النبوّة، وقَدِم المدينةَ لاثنتى عشرةَ ليلةً منـــه .

ثم بعـد اتفاقهم علىٰ التأريخ من الهجرة اختلفوا فى الشهر الذى تقع البُدَاءة به : فأشار بعضُهم بالبُداءة برمضانَ لشَرَفه وعِظَمه ـ فقال عمر بل بالمُحَرَّم : لأنه مُنْصَرَفُ الناس من حَجِّهـم، فرجعوا القَهْقَرىٰ ثمـانيةً وستين يوماً، وهى القدر الذى مضىٰ من أوّل المُحرّم [إلىٰ ذلك الوقت](٢) واستقر تاريخُ الإسلام من الهجرة .

قال القضاعى فى "عيون المعارف" : وكان ذلك فى سنةِ تسْعَ عشرةَ أو ثمـانِى عشرة من الهجرة .

قلت : واسـتقرتْ تواريخُ الأمم علىٰ أربعـةِ تواريخَ ، ابتداءُ بعضها مقـــدَّمٌ علىٰ ابتداء بعضٍ .

أوّلهـا ـــ غَلَبَةُ الإسكَنْدَر علىٰ الفُرْس . وعليه تاريخ السُّرْيان والرُّوم إلىٰ زماننا .

والثـانى ـــ مِلْك دِقْلِطْيـانُوس ملك الروم علىٰ القِبْط . وعليـه تاريخُ القِبْط إلىٰ زمانِنـا .

والثالث ـــ الهجرةُ النبوّية علىٰ صاحبهـا أفضل الصلاة والسلام . وعليهـا مَدَارُ التاريخ الإسلامىّ .

والرابـع ـــ هَلَاك يَزْدَجِرْد آخر ملوك الفرس . وبه تؤرِّخُ الفُرْس إلىٰ زماننـا، وقد تقدّم بيانُ بُعْد ما بين تاريخ كلٍّ من غَلَبة الإسـكندر ومِلْكِ دقلطيانُوس وبين الهجرة فى القَبْلية، وبُعْـد ما بين تاريخ يَزْدَجِرْد وبين الهجرة فى البَعْـدِية فى الكلام

---

(١) ينظر ذلك مع ما تقدم من أن بين المبعث والهجرة ثلاث عشرة سنة .

(٢) الزيادة من الضوء .

علىٰ أصول التواريخ، مع ما سبق فى المقالة الأولىٰ فى بيان مايحتاجُ إليه الكاتبُ من ذكر مقدار سنة كلٍّ منها وعدَدِها من الأيام ، وسيأتى الكلامُ علىٰ ٱستخراج بعضها من بعضٍ فيما بَعْدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة السادسة

(فى كيفيَّةِ تقييد التاريخ فى الكِتابة بزَمنٍ معيَّنٍ، وهو ضربان)

الضرب الأوّل

(التاريخُ العربىّ)

ومَدَارُه الليالِى دُونَ الأيام: لأن سِنِى العرب قمريَّةٌ، والقمر أوّلُ مايَظْهَر للأبصار هِلالًا فى الليل ، فتكون الليالِى بهذا الٱعتبارِ سابقةً للأيَّام ، إذ اليومُ عندهم عبارةٌ عن النهار، وهو إما من طُلُوع الفجر علىٰ ماورد به الشرع فى الصوم ونحوِه، وإما من طُلُوع الشمس علىٰ رأى المنجِّمين . قال أبو إسحاقَ الزجاجىُّ فى كتابه "الجُمَل" : وإنما حُمِل علىٰ الليالى دُونَ الأيام لأن أوّلَ الشهر ليلُهُ ، فلو حُمِل علىٰ الأيام سقطتْ منه ليلةٌ . قال الشيخ أثيرُ الدين أبُو حَيَّان فى "شرح التسهيل" : واستُغْنِى بالليالى عن الأيام للعلم أن مع كلِّ ليلة يوماً ، فإذا مضىٰ عددٌ من الليالى مضٰى مثلهُ من الأيام، فيجوز أن يُستغنىٰ بذكر أحدهما عن الآخر . وقد ذكر جمالُ الدين عبدُ الرحيم ٱبن شيثٍ فى كتابه "معالم الكِتَابة" : أن كُتبَ السلطان والأعيانِ تؤرَّخ بالليالى، والكُتُب من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ تؤرَّخ بالأيام . ولم أعلم من أين أخَذَ ذلك ولا مامستَنَدُه فيه .

إذا عُلِم ذلك فلكتابة التاريخ ثلاثةُ ٱعتبارات :

الاعتبـار الأوّل

(أن يؤرَّخ ببعض ليالى الشهر، وله ستُّ حالات)

الحـالة الأولىٰ

(أن تَقع الكتابةُ فى الليلة الأُولىٰ من الشهر، أو فى اليوم الأوّل منه)

فإن كانت الكتابةُ فى الليـلة الأولىٰ منـه فقد ذكـر أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكتّاب" أنه يُكْتَب «كُتِب غُرّةَ شهر كذا، أو [أوّل][1] ليلةٍ من كذا، أو مُسْتَهَلَّ شهر كذا، أو مُهَلَّ شهرِ كذا» . وحكىٰ الشيخُ أثير الدين أبو حَيَّان مثلَ ذلك عن بعضهم، وزاد أنه يُكْتَب أيضا «كُتِب أوّلَ شهرِ كذا» .

قال النحاس : ولا يجوز حينئذ لليلةٍ خلَتْ ولا مضَتْ لأنهم فى الليلة بعدُ . قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" : وربما كتب بعضُ الكُتَّاب ليلَةَ الاستهلال «لليلةٍ [تخلو][2]» .

وإن كانت الكتابةُ فى اليوم الأوّل وهو النهار الذى يلى الليلةَ الأُولىٰ من الشهر، كُتِبَ «لليـلةٍ خلَتْ أو مضتْ من شهر كذا» . قال النحاس : ويجوز كُتِب «لغُرّة الشهر أو لِأوّل يوم من الشهر» ومنع ان يقال حينئذ : اوّلَ ليلة من شهر كذا، أو مُسْتَهَلَّ شهر كذا، أو مُهَلَّ شهر كذا، مُوَجِّها لذلك بأن الاستهلالَ إنمـا يَقع فى الليـل . وتبعـه علىٰ ذلك ابنُ حاجبِ النعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" وصاحبُ "موادِّ البيان" وبه جزم الشيخُ جمالُ الدين بنُ هشام فى وَرَقاته فى الوراقة . وكلامُ ابن مالك فى التسهيل يُوهِم جوازَ ذلك فإنهقد قال : فيقال أوّلَ الشهر، كُتِب لأوّل

---

(١) الزيادة من الضوء .

(٢) بياض بالاصول، والتصحيح عن الضوء للؤلف .

ليلة منه، أو لغُرّته أو مُهَلّه أو مُسْتَهَلّه . وأوّلُ الشهر أعمٌّ من اليوم والليلة بل هو إلىٰ الليلة أقربُ، لأن الليلة سابقةٌ بالأوّلية .

قال الشيخ أثير الدين : ومفتَتَحُ الشهر أوّلُ يوم منه . ومقتضىٰ كلامه أنه يؤرَّخ بالمفتَتَح فى اليوم الأوّل من الشهر دُونَ الليلة وفيه نظر، بل الظاهر جوازُ آستعماله فيهما، بل الليلة بالمُفْتَتَح أولىٰ لسبقها اليومَ كما تقدّم، أللهم إلا أن يُراعىٰ فيه موافقةُ المُفْتَتَح لليوم فى التذكير دُونَ الليلة لتأنيثها . قال فى "مواد البيان" : والعرب تُسمِّى أوّل ليلة من الشهر النحيرةَ، ولكن لا تستعمِله الكُتّاب فى التواريخ .

الحالة الثانيـــة

(أن تَقَع الكتابةُ فيما بعدَ مُضِىِّ اليوم الأوّل من الشهر إلىٰ آخر العَشْر)

فإن كان قد مضىٰ منه ليلتان ، كُتِب « لليلتينِ خَلَتَا من شهر كذا» أو لليلتين مَضَتَا منه » قال فى "ذخيرة الكتاب" : ولا يُكْتَب ليوم خَلَا ولا ليومين خَلَوَا : لأن ذكر الليالى فى باب التأريخ أغلب، كما تقول ليلة السبت وليلة الأحد، فتُضيف الليلةَ إلىٰ اليوم لأنها أسبقُ، ولا تضيف اليومَ إلىٰ الليلةِ .

وحكىٰ الشيخ أثيرُ الدين أبوحَيَّانَ أنه إذا مضىٰ من الشهر يومٌ كُتِب «ليومٍ مضىٰ» وإذا مضىٰ يومان «كُتب ليومين مَضَيَا» . والتحقيق فى ذلك أنه يختلفُ الحالُ فيه باختلافِ الكتابة فى الليل والنهار : فإن كَتَبَ فى الليلة الثانية، ناسبَ أن يَكْتُب «ليوم خَلَا من شهر كذا» لأنه إن كَتَب لليلتين خَلَتَا فهو فى الليلة الثانية بعْدُ، وإن كَتَب لليلةٍ خلَتْ لم يظْهَر الفرقُ بينه وبين الكتابة فى اليوم الأوّل من الشهر . وإن كتب فى اليوم الثانى من الشهر، ناسبَ أن يَكْتُب لليلتين خَلَتَا أو مَضَتَا . وإن كان

قد مضىٰ من الشهر ثلاثُ ليـال، كَتَبَ لثلاثٍ خلَوْنَ أو مضَيْنَ من شهر كذا، أو لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ . ويجوز فيه لثلاثٍ خلَتْ أو لثلاث ليال خَلَتْ علىٰ قِلَّة . وكذا فى الباقى إلىٰ العشر فتقول : لعشرٍ خلَوْنَ أو مضَيْنَ، أو لعشر ليال خَلَوْنَ أو مَضَيْن، أو لعشرٍ، أو لعشر ليالٍ خلَتْ أو مضَتْ علىٰ اللغة القليلة .

الحـالة الثالثـــة

(ان تقع الكتابة فيما بعدَ العشر إلىٰ النصف)

فيَكْتُب لإحدىٰ عشرةَ خلتْ أو مضتْ من شهر كذا . أو لإحدىٰ عشرةَ ليلةً خلَتْ أو مضت، ويجوز فيه لإحدىٰ عَشْرَة خلون أو لإحدىٰ عشرةَ ليلةً خلَوْنَ علىٰ قلة . وكذا فى الباقى إلىٰ النصف من الشهر . قال الشيخ أثيرُ الدين أبو حيان : فإن صَرَّح بالمميِّز وكان مُذَكَّرا، أُعِيـد الضميرُ عليه فيقـال : لاحدَ عَشَر يوما خَلاَ أو مضىٰ ونحو ذلك .

الحـالة الرابعـــة

(أن تَقَع الكتابةُ فى الخامسَ عشَرَ من الشهر)

فيكتُب «كُتِب لنِصفِ شهر كذا» . قال النحاس : وأجازوا لخمسَ عَشْرةَ ليلةً خلَتْ أو مضَتْ . وكلام ابن مالك فى "التسهيل" يُشير إلىٰ جواز لخمسَ عَشْرةَ ليلةً خلَتْ أو مضَتْ [أو بقِيَتْ](١) علىٰ رأى من يُجَوز التاريخَ بالباقى . ولو حَذَفَ ذِكْرَ الليلة فقال : لخمسَ عشْرةَ خلَتْ أو مضَتْ أو بقيت صَحَّ . قال فى " التسهيل " والتاريخ بالنصف أجود .

---

(١) الزيادة لازمة ليصح الكلام .

الحـالةُ الخامســـةُ

(أن تقع الكتابةُ فيما بعدَ النِّصْف من الشهر إلىٰ الليلةِ الأخيرةِ منه)

وفيه لاهل الصِّناعة مذهبان :

المذهبُ الاوّل — أن يؤرِّخ بالماضى من الشهر كما فى قبْل النصف، فيقـال : لِستَّ عشرةَ خلَتْ أو مضَتْ، أو لستَّ عشْرةَ ليـلةً خلَتْ أو مضَتْ . وكذا إلىٰ العشرين فيقال : لِعشرينَ خلَتْ أو مضَتْ ، أو لعشرين ليـلةً خلَتْ أو مضت، وكذا فى البواقى إلىٰ آخر التاسـع والعشرين ، فيكون التاريخ فى جميع الشهر من أوّله إلىٰ آخره بالمـاضِى دُونَ البـاقى فِرارًا من المجهول إلىٰ المحقَّق ، وهو مذهَبُ الفُقهاء لأنه لا يُعْرفُ هل الشهر تامٌّ أو ناقِصٌ . قال النحاس : ورأيتُ علىَّ بنَ سليمان يختاره . قال فى " ذخيرة الكُتَّاب " : وهو أثبتُ وحُجَّتُه أقوىٰ . ثم لا شكَّ أنَّ من يرىٰ التاريخ باليوم يجوز لستةَ عشَر يومًا خَلَا أو مضىٰ من شهر كذا، وكذا فيما بعْدَه .

المذهب الثانى — أن يؤرِّخ بمـا بَقِىَ من الشهر . وللمؤرِّخين فيه طريقان :

الطريق الأوّل — أن يجْزِم بالتاريخ بالبـاقى فيكتب لأربع عشرة ليـلةً بقيت من شهر كذا ، ثم لثلاثَ عشرةَ ليلةً بقِيَتْ ، وهكذا إلىٰ الليلة الأخيرة من الشهر ؛ فيكتب لليلةٍ بقِيَتْ، وهو مذهبُ الكُتَّاب . قال النحاس : ورأيت بعض العلمـاء وأهـل النظر يصوّبونه ، لأنهم إنمـا يكتُبون ذلك علىٰ أن الشهر تامٌّ ، وقد عُرِف معناه وأن كاتبَـه وقارئه إنمـا يُرِيد إذا كان الشهرُ تامًّا فلا يحتـاج إلىٰ التلَفُّظ به . قال محمدُ بن عمرَ المدائنى : وآحتجُّوا لذلك بأن مُعاوِيةَ بنَ أبى سُفْيانَ رضى الله عنه : حين كَتَب عن النبىّ صـلّى الله عليه وسـلم لابن الحَضْرمىّ كتب فى آخر الكتاب :

«وكَتَبَ معاويةُ بنُ ابى سُفْيان لثلاثِ ليالٍ بَقِينَ من ذى القَعْدة بعد فتح مكةَ سنةَ ثمانٍ» ثم قرأه عثمانُ بنُ عفَّان رضى الله عنه والناسُ حَوْلَه . قال النحاس : وقد وقع مثلُ ذلك فى كلام النُّبوّة . فقد ورد فى الحديث أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال فى ليلة القدر : "ٱلتمِسُوهَا فى العَشْرِ الأَوَاخِرِ لسابعةٍ تَبْقىٰ أو لخامسةٍ تَبْقىٰ" . وهذا الحديث الذى ٱستشهد به النحاسُ ثابتٌ فى الصحيح فلا نِزاعَ فى العمل به .

الطريق الثانى — أن يُعلّق التاريخَ بالباقى علىٰ شَرْط . فيكتبُ لأربعَ عشرةَ إن بَقِيتْ ، أو لأربعَ عشْرةَ ليلة إنْ بَقِيتْ ، وعلىٰ ذلك فى الباقى ، فِرارًا من إطلاق التاريخ بما لا يُعْلَم تمامُه أو نقصه وتَعْلِيقا له علىٰ حُكْم التمام ؛ وكأنه يقول : لأربَعَ عشرةَ ليلةً بقِيتْ من الشهر إن كان تمامًا . ومن يرىٰ التاريخ بالأيام يجوّز لأربعةَ عشَرَ يوما تَبْقى من شهر كذا ، وكذا فى الجميع .

الحالة السادسة

(أن تَقَع الكتَابةُ فى الليلة الأخيرةِ من الشهر أو فى اليوم الأخير منه)

فإن كان فى الليلة الأخيرةِ منه كُتِب «لآخرِ ليلةٍ من شهر كذا ، أو فى سَلْخ شهرِ كذا ، أو فى ٱنْسِلاخه» . وإن كان فى اليوم الآخِرِ منه كُتِب «لآخِرِ يومٍ من شهر كذا ، أو فى سَلْخه أو ٱنْسِلاخه أيضا» . ولم يختلفوا هنا فى جواز التاريخ باليوم . قال ٱبن حاجب النعمان : وذلك أن الشهر يبتدئ بابتداء اللَّيالِى وينقضى بانقضاء النهار . وذكر صاحب "موادّ البيان" أن الذى كان كُتَّاب مصر يستعمِلُونه بالديار المِصْرية أن يُجْعل شهرٌ ثلاثين يوما وشهرٌ تسعةً وعشرين ، وهذا جُنُوح منهم إلىٰ الٱعتبار النُّجومىّ ، ولامُعوَّل علىٰ ذلك فى الشريعة .

قلت : وكُتَّاب زماننا قد أهملوا النظرَ فى ذلك جُمــلةً وعوّلوا علىٰ التاريخ بالأيَّام، واقفين عند حَدِّ اليوم الذى ينتهِى إليه العَدَدُ من الشهر عند الكتابة فيكتبون فى اليوم الأوّل : كُتِب فى مستَهَلِّ شهر كذا ، ثم فى ثانى شهر كذا أو ثالثـه إلىٰ العشر؛ ثم فى حادِى عَشْرِه وثانِى عشره إلىٰ العشرين ، ثم فى العشريـــن من شهـــر كذا ، أو الحادى والعشرين، والثـانى والعشرين إلىٰ التاسع والعشرين . وفى اليوم الأخير من الشهر يكتبون فى سَلْخ شهرِ كذا لا يَعْرِفُون غير ذلك .

ثم ممـا يُستَحْسَن فى التـاريخ أنه إذا وقعتِ الكتابةُ فى يوم مشـهور ـ كأيام المواسم ـ أُرِّخ به، مع قطع النظر عن عدد ما مضىٰ من الشهر أو بَقِىَ منه . فيكتب فى اليوم الأوّل من شوّال «كُتِب فى يوم عيـد الفطر» وفى تاسـع ذى الحِجّة «كُتِب فى يومِ عرفـةَ» وفى عاشره «كُتِب فى يومِ عيـدِ النَّحْر، أو فى يوم عيدِ الأضحىٰ» وفى حادى عشره «كُتِب فى يوم القَرّ» ـ بفتح القاف، سمى بذلك لأن الناس يَسْتقِرُّون فيه بِمِنًى ، وفى ثانى عشره «كُتِب فى يوم النَّفْر الأوّل» لأن الحجيج يَنْفِرُون فيه من مِنًى، وفى ثالث عشره «كُتِب فى يوم النَّفْر الثانى» .

الاعتبار الثـانى

(أن يؤرّخ بجمـــلة من أيام الشهر)

فإن أَرَّخ بعَشْر من الشهر، بناه علىٰ التأنيث : فيكتب «كُتِب فى العَشْر الأُولىٰ، او فى العَشْر الأُوَل ـ بضم الهمزة وفتح الواو جمع أوّلة (١) . أو كتب فى العَشْر الوُسْطىٰ أوفى العَشْر الوُسَط ـ بضم الواو وفتح السين جمع وُسْطىٰ، أوكتب فى العَشْر الأُخْرىٰ

---

(١) لعل الصواب "جمع أولىٰ" .

اوفى العشر الأُخَر ـ بضم الهمزة وفتح الخاء جمع آخِرةٍ . قال الشيخ اثيرُالدين ابوحيّان : ولا يُكْتَب العَشْر الأوّلُ ولا الأوسطُ ولا الآخِرُ . وقال بعض النحويين يُكْتَب «وكتب فى العَشْر الآخِرةِ أوالأواخِرِ» ولايُكْتَب الأُخْرى ولاالأُخَر: لئلايلتبس بالآخِرِ بمعنى الثانى أو الأُخَر بمعنى الثوانى . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ أيام الشهر أن العرب تسمّى ليالِيَ الشهر كُلَّ ثلاث منها باسمٍ ، وقد تقدّم ذكرُ أسمائها هُنالكَ . فإذا وقعت الكتابةُ فى ثلاثٍ منها ، كالغُرَر: وهى الثلاث الأولىٰ من الشهر ، والدَّآدِى : وهى الثلاثُ الأخيرةُ منه ، كان للكاتب أن يؤرِّخ بهـا كما يؤرِّخ بعشر من الاعشار الثلاثِ ، بل الثلاثُ أقربُ لمعرفةِ التاريخ من العشر . وقد أشار إلىٰ ذلك الشيخُ أثير الديـن فى "شرح التسهيل" فقال : وإن أرَّخ بالثلاث الأخيرةِ من الشهر كَتَب الدَّآدِى . وإذا كان فى السَّـنَة أيام مشهورةٌ ، أُرِّخ بها(١) كالأيام المعلومات : وهى العشرُ الأوَل من ذى الحِجّة ، والأيامِ المعدُوداتِ : وهى أيامُ التشريق علىٰ ماتقدّم ذكرُه فى موضعه ، كان للكاتب أن يؤرِّخ بها .

الاعتبار الثـالث

(أن يؤرّخ بأجْزاء اليوم أو الليـلة)

وأكثرُ ما يحتاج الكاتبُ إلىٰ ذلك فى تاريخ بَطَائق الحَمَـام ، وقد سبق فى الكلام علىٰ الأيام أنَّ كلَّ واحدٍ من الليـل والنهـار آثنتَا عَشْرَة ساعةً زمانيَّة ، تطولُ بطُول أحدهما وتقصُر بقِصَره ، ولكلِّ ساعةٍ منها آسمٌ يَخُصُّها ، كالشُّروق : وهو أوّلُ ساعاتِ النهار ، والغُروب : وهو آخر ساعاته ، والشَّفَق : وهو أوّل ساعاتِ الليل ، والصَّباح وهو آخر ساعاته . فينبغى للكاتب إذا كتب بِطَاقـةً من بَطَائق الحمـام أن يكتب

---

(١) عبارةالضوء ص ١٠٤ "ولانزاع فى أنه يجوز التاريخ بالأيام المشهورة فى السنة كالأيام المعلومات الخ" وهى أوضح .

الساعةَ التى كُتِبت فيها من ساعات النهار ، أما ساعاتُ الليل فلا يتأتّى فيها ذلك ، لأن الحمام لا يُسَرَّحُ فى الليـل ، اللهم إلا أن تَدْعُوَ الضرورة إلىٰ التاريخ بساعةٍ من ساعات الليل فى بعض المكاتَبات فيؤرّخ بها .

قلت : وهذا الترتيب قد تركه كُتَّاب زماننا ، وصاروا يؤرِّخُون بالساعات المشهورة عندهم ، كالأُولىٰ من النهار ، أو الثانيـةِ ، أو وقْتِ الظهر ، أو وقتِ العَصْر ، ونحو ذلك .

الضــــرب الثـانى

(التـاريخ العَجَمىّ)

ومَدَارُه الأيام دُونَ الليالى ، لأن سَنَتَهم مع ٱختلافها فى الشهور ومَبادئها ومَقَاطعها شمسيَّةٌ ، والشمسُ محلُّ ظهورها النهـارُ دُونَ الليـل ، فلذلك أرّخُوا بالأيام . قال أبو هلال العسكرِىّ فى كتابه "الأوائل" : قال أحمدُ بن يحيىٰ البَلاَذُرِىّ : حضرتُ مجلِسَ المتوكِّل ، وإبراهيمُ بنُ العبَّاس يقرأ الكِتابَ الذى أنشأه فى تأخير النَّوْرُوز ، والمتوكِّل يتعجَّب من حُسْن عِبَـارته ولُطْف معَانِيـه والجمـاعةُ تشهَدُ له بذلك ، فدخَلَتْنِى نَفَاسةٌ ، فقلت : يا أمير المؤمنين فى هـذا الكتاب خطأ ! فأعادوا النظر ، وقالوا : ما نراه فمـا هو ؟ ـ قلت : أَرَّخ السـنةَ الفارسيَّةَ بالليـالِى ، والعجَمُ تؤرِّخ بالأيام ، واليومُ عندهم أربعٌ وعشرون ساعةً تشتَمِل علىٰ الليل والنهـار ، وهو جُزْء من ثلاثين جُزْءا من الشهر ؛ والعربُ تؤرِّخ بالليـالى ، لأن سِنِيهم وشهورهَم قَمَرِيَّة ، وٱبتداءُ الهلال بالليل ـ قال : فشهدوا بِصحَّة ماقلته ، وٱعترف به إبراهيمُ . وقال : ليس هذا من عِلْمِى .

قلت : وأكثرُ ما يُحْتـاج إلىٰ ذلك فى تحويل السِّنينَ ونَقْل النَّيْروز عند دَوَران السـنين ، كما فى كِتَاب إبراهيمَ بنِ العبـاس المقدّم ذكره ، وكذلك فى كتابة الهُدَن فسيأتى أنه يجْمَعُ فيها بين التاريخ العَربىّ والعَجَمىّ جميعًا ، ويجب فيه تقديم العَرَبىّ علىٰ العَجَمىّ ، مثل أن يكْتُب «كُتِب لعَشْرٍ خلَوْنَ من المحرّم سنة ثمانِمائةٍ ، موافِقًا للعاشر من تُوتٍ من شُهور القِبْط» أو العاشِر من تَشْرين الأوّلِ من شُهور السريان ، أو العاشِر من ينير من شهور الروم ، أو العاشر من أفرودين ماه ، من شهور الفُرْس ونحو ذلك .

الجمـــلة السابعة

(فى تقييـــد التـاريخ بالســـنة)

قد علمتَ أن فائدةَ التاريخ إنمـا تتحقَّقُ بذكر السنة بعد اليوم والشَّهْر ، وإلا فلا يُعْلَم من أىّ السنين . فإذا كتب يوم كذا من شهر كذا كَتَب بعد ذلك ، سنةَ كذا ، سـواء كان التاريخُ عَربيا أو عَجَميًّا ، أو مُرَكَّبًا منهما ، مثل أن يكتب سنةَ كذا من الهجرة الموافِقِ لكذا من سِنِي الرُّوم أو سِنِي الفُرْس .

ثم للكاتب فى كتابة تاريخ السنة مصطلحانِ .

المصطلح الأوّل — أن يكتُب «سنةَ كذا» فيحتاج إلىٰ حَذْف الهاء من العَدَد ، علىٰ قاعدة حَذْفها من عَدَد المؤنَّث ، مثل أن يكتب سنة ستٍّ وثمانمائةٍ ونحو ذلك ، وعلىٰ هذا آصطلح كُتَّاب الديار المِصْرية وبلادِ المَشْرِق .

المصطلح الثانى — أن يكتب «عامَ كذا» فيحتاج إلىٰ إثبات الهاء فى العدد علىٰ قاعدة إثباتها فى عدد المذكَّر ، مثل أن يكتب «عام ستَّةٍ وثمـانمائةٍ» وعلىٰ نحو ذلك

يَجْرِى كُتَّاب الغَـرْب غالبا ، لمـا يقال : إن العـام يختصّ بالخِصْب والسـنة تختص بالمَحْل علىٰ ما تقــدّم ذِكْره فى الكلام علىٰ السِّـنين فيما يحتاج إليه الـكاتبُ فى المقالة الأُولىٰ .

الجمــــــلة الثامنة

(فى معرفة بعض التواريخ من بعض)

قد ذكر فى "مواد البيان" أن من جملة أدَب الكاتب العِلمَ بتواريخ سِنِى العالَم وٱستخراج بعضها من بعض فى كل وقتٍ من أوقات اليوم الذى هو فيـه من كل شهرٍ وسنة من سِنِى الأمم . وقد تقدّم أيضا أن المستعمل من التواريخ فى زماننا بين الأمم أربعةُ تواريخَ، بعضها أقدَمُ من بعض .

أوّلهـا — تاريخُ غَلَبة الإسكَنْدَر . وهو التاريخ الذى تُؤرّخ به السُّرْيان والرومُ والفَرَنْجة ومَنْ فى معناهم إلىٰ الآنَ، وهو بعــدَ الطُّوفان فيما حَرَّره الشيخُ علاء الدين ابن الشاطر فى "زيجه" بثلاثة آلافٍ وسَـبْعمائةٍ وخمس وثلاثين سنةً وثلثمائةٍ وعشرين يوما .

الثانى — التاريخ من مِلْك دقلطيانوس . وهو الذى يؤرّخ به القِبْط إلىٰ الآن، وربمـا عَبَّروا عنه بتاريخ الشُّهداء، إشارة إلىٰ تسميتهم الذين قَتَلهم دقلطيانوس من القبط شُهَداءَ، وهو بعــد غَلَبَة الإسكندر بخَمْسمائةٍ وأربع وتسعين سـنة وثلثمائة واثنين وثلاثين يومًا .

الثالث — التاريخ من الهجرة،وعليه تاريخُ الإسلام . وهى بعد مِلْك دقلطيانوس بثلثمائة وستٍّ وثلاثين سنة وثلثمائة وأحدٍ وعشرين يومًا .

الرابع ــ التاريخُ من هلاك يَزْدَجِرْد آخر ملوك الفُرْس . وقد تقدّم أنه بعد الهِجْرة بعشرِ سنينَ وثمـانيةٍ وسبعين يومًا .

فأما التاريخ السُّرْيانىّ والرومىّ وهو الذى مبدؤه من غَلَبة الإسكندر فقد تقدّم أن شُهور السُّرْيانيين آثنا عَشَر شهرا ، وهى : تشرينُ الأوّلُ ـ تشرين الثـانى ـ كانون الأوّل ـ كانون الثانى ـ شُبَاط ـ أَذَار ـ نَيْسانُ ـ أيَّار ـ حَزِيرانُ ـ تَمُّوز ـ آب ـ أيْلُول . منها سبعةُ أشهر كلُّ شهر منها أحدٌ وثلاثون يوما ، وهى : تَشْرِين الأوّلُ ، وكانون الأوّلُ ، وكانونُ الثانى ، وأدارُ ، وأيَّار، وتَمُّوز ، وآبٌ ، وأربعةُ أشهر كل شهر منهـا ثلاثون يوما ، وهى : تشرينُ الثانى ، ونَيْسانُ ، وحَزِيرانُ ، وأيلولُ . ومنها واحدٌ ثمـانية وعشرون يوما : وهو شُبَاط ، فتكون أيامُ سِنِيه ثلثمائةٍ وخمسةً وستين يوما ، ويُضاف إليها ربعُ يوم مراعاةً للسنة الشمسيَّة ، فتصير ثلثمائة وخمسةً وستين يوما وربُعَ يوم ينقصُ جزءًا يسيرا . ومن أجْل ذلك يَعُـدّون ثلاثَ سـنينَ بسائطَ يكونُ[(١)] شُبَاطُ فيها تسعةً وعشرين يوما : لإضافة رُبع اليوم فى السنين الأربع إليه ، وتكون السنة فيها ثلثَمائةٍ وستةً وستين يوما .

وقد تقدّم أيضا أن شهور الســنة الرُّومية تُضاهى شهورَ السنة السُّرْيانية فى عَدَد الأيام ، بل هى هى ، إلا أن الرُّوم يُسمُّون أشهرَهم بأسماءٍ غير أسماء شُهور السُّرْيان ، ويكون أوّلُ شهورهم موافقًا لكانون الثانى ، وهو الشهرُ الرابعُ من شهور السُّرْيان ، ويكون آخرُ شهورهم موافقًا لكانون الأوّلِ .

---

(١) كذا فى الاصول و يظهر أن فيه سقطا من الناسخ والاصل "يعدون ثلاث سنين بسائط" وسنة كبيسة يكون الخ كما يؤخذ من نظيره فى التاريخ القبطى تأمل .

وأسماء شهورهم : ينَيَّر، فَبْراير، مارس، ابريل، مايه، يونيه، يوليه، أغشت، شتنبر، أكتوبر، نونمبر، دجنبر . ولا فرق فى شيءٍ منها سوىٰ آختلافِ الأسماء وآبتداء رأس السنة، وحينئذ فيكون الكلُّ فيها فى التاريخ واحدا .

⁂

وأما التاريخ القِبْطىّ : وهو الذى مبدؤه من مَلْك دقلطيانُوسَ ، فقد تقدّم أن شهور السنة القِبْطية آثنا عشَرَ شهرًا . وهى : توت، بابه، هتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بئونه، أبيب، مسرىٰ . وكل شهر منها ثلاثون يومًا من غير آختلاف ، ثم بعد مسرىٰ خمسة أيام يسمُّونها أيام النسىء، فتكون أيامُ سنَتِهم ثلثمائةٍ وخمسةً وستين يوما، وتزيد بعد ذلك رُبُعَ يوم فى كل سنة كما فى التاريخ الرومىّ، وقد آصطلحوا علىٰ أن يَعُدّوا منها ثلاثَ سنين بسائطَ، كلُّ سنة منها ثلثمائة وخمسةٌ وستون يوما لا زيادةَ فيها، والرابعة كبيسةٌ تكون أيامُ النسىء فيها ستةَ أيام وزيادةَ رُبُع يوم؛ وتصير أيامُ تلك السنة ثلثمائة وستة وستين يوما، علىٰ نحو ما تقدّم فى السُّرْيانىّ والرومىّ .

⁂

وأما التاريخ العربىّ : وهو الذى مبدؤه الهجرة، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ الشهور فى المقالة الأولىٰ أن شهور سنة العرب آثنا عشَرَ شهراً . وهى : المحرّم، صَفَرُ، ربيع الأوّلُ، ربيعُ الآخِر، جُمَادىٰ الأولىٰ، جُمادىٰ الآخِرة، رجبٌ، شعبانُ، رمضانُ، شوّالٌ، ذو القَعْدة، ذو الحِجَّة . وأنها قمرية مَدَارُها رؤية الهلال ، إلا أن المنجّمين آعتمدوا فيها علىٰ الحِسَاب دُونَ الرؤية لتصحيح حساب التواريخ ونحوها، وجعلوا فيها شهرا تامًّا عدَدُه ثلاثون يوما ، وشهرا ناقصا عدَدُه تسعةٌ وعشرون يوما ، علىٰ ترتيب شهور السنة ، فالمحرّم عنْدهم تامٌّ ، وصفَرُ ناقص، وربيعُ الأول تامٌّ،

وربيعُ الآخِرُ ناقِصٌ، وجُمادىٰ الأولىٰ تامٌ، وجمادىٰ الآخِرةُ ناقص، ورجب تام، وشعبانُ ناقص، ورمضانُ تام، وشوّالُ ناقصٌ، وذُو القَعْدة تامٌّ، وذوالحِجّة ناقص . فيكون من السنة ستة أشهر تامة وستة أشهر ناقصة، وتكون السنة حينئذ ثلثمائة يوم وأربعةً وخمسين يوما، ويلحَقُها بعد ذلك كسرٌ فى كل سنة، وهو خُمُس يوم وسُدُس يوم، فتصير السنةُ(١) ثلثمائة يوم وأربعة وخمسين يوما وخُمُس يوم وسُـدُسَ يوم مفرّقة فى ثلاثين سـنة ؛ ويجعلون الكَبِيسةَ سنةً بعدَ سنة ثم سنةً بعد سنتين ، ثم سنةً بعد سنة ،وعلىٰ هذا الترتيب إلىٰ آخر الثلاثين، فتكون الكبائُس هى : الثانيةَ، والخامسةَ، والسابعةَ والعاشرةَ ، والثالثةَ عشرةَ ، والخامسةَ عشرةَ ، والثـامنةَ عشرةَ ، والحادية والعشرين، والرابعةَ والعشرينَ، والسادسةَ والعشرين، والتاسعةَ والعشرين . فتكون كل سنةٍ منها ثلثمِائة وخمسةً وخمسين يوما ، ويجعلُ الزائدُ فيها فى ذى الحجة ، فيكون فيها ثلاثين يوما وباقى سنى الثلاثين بسائط ، كلُّ سنة منها ثلثُمائة وأربعةٌ وخمسون يوما ، وذو الحجة فيها تسـعةٌ وعشرون يوما ، بناء علىٰ الأصل فى أن يكون شهرٌ تامًّا وشهرٌ ناقصا .

* * *

وأما التاريخ الفارسىّ : وهو الذى مبدؤه من هَلَاك يَزْدَجِرْد، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ الشهور أن سِنِي الفُرْس آثنا عَشَرَ شهرا ، كلُّ شهر منهـا ثلاثون يوما . وهى : افرودين ماه، أرديهشتماه، حردادماه، تيرماه، ترداه، شهريماه، مهرماه، أبان ماه،

(١) كذا فى الأصول وعبارة الضوء ص ١٥٦ "ويجتمع من هذا الخمس والسـدس يوم فى كل ثلاث سنين فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما و يبقى من ذلك بعد اليوم الذى آجتمع شىء فيجتمع منـه ومن خمس اليوم وسدسه فى السنة السادسة يوم واحد وكذلك إلىٰ أن يبقى الكسر أحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة وتسمى تلك السنين كبائس العرب" وهى أوضح .

أدرماه، ذى ماه، بَهْمَن ماه، اسفندارماه . وبين ابان ماه وأدرماه خمسةُ أيام تسمّى المسترقَة بمثابة أيام النسىء فى آخر سنة القِبْط ؛ وبمقتضىٰ ذلك تكون سنتُهم ثلثمائة وخمسةً وستين يوما ، وليس فيها زيادةٌ ولا نقصٌ . فلا بدّ من معرفة هذه الأصول لاستخراج تواريخ بعض السنين المذكورةِ من بعض .

ثم مما يجب تعرّفه بعد ذلك أن تَعْلَم أن التاريخ السُّرْيانىّ والرومىّ سِنُونُه سُرْيانية أو رومية علىٰ ماتقدّم ، فيعتبر فيها مايعتبر فى السنين السُّريانية والروميَّة من عدد الأيام والكبائس ، والتاريخ القِبْطىّ سِنُونُه قبطية فيعتبر فيها مايعتبر فى السنينِ القبطيَّة من الأيام والكبائس ، والتاريخَ العربىّ سِنُونُه عربية فيكون علىٰ ما تقدّم فى السِّنِين العربية من عدد الأيام والكبائس، والتاريخ الفارسىّ سِنُونُه فارسيةً فيعتبر فيها مايعتبر فى السنين الفارسية من عدد الأيام ، ولا كَبِيسةَ فيها .

إذا علمت ذلك فإذا أردت استِخْراجَ بعض هذه التواريخ من بعضٍ، فانظر التاريخَ المعلومَ عندها عندك، كالتاريخ العربىّ مَثَلا عند الإسلاميين فاجعل السنين التامّةَ من التاريخ المعلومِ أيّاما ، وزِدْ عليها مامضىٰ من السنة المكسورةِ من الشهور والأيام إلىٰ اليوم الذى تُرِيد أن تعلم موافَقَته لمثله من التاريخ المجهول ، ثم انظر : فإن كان التاريخ المعلومُ اقدمَ من التاريخ المجهول، فانْقُصْ من أيامِ التاريخ المعلومِ ما بين التاريخين من الأيام فما بَقِيَ فهو ايامُ التاريخ المجهول . وإن كان التاريخ المجهولُ اقدمَ ، فزد ما بين التاريخين من الأيام فما بَقِيَ فهو أيامُ التاريخ المعلوم ، فما بلغ فهو أيامُ التاريخ المجهول . فإذا علمت أيامَ التاريخ المجهول بزيادةِ مابين التاريخين علىٰ أيام التاريخ المعلوم أو نُقْصانِها منه علىٰ ما تقدّم، فاجعل ما حصل معك من أيام التاريخ المجهول الذى تُرِيدُ استخراجَه ، فما كان فهو السِّنُون التامّةُ

للتاريخ الذى تريد آستخراجه ، فإن بَقِىَ شىءٌ من الأيام بعد السنين التامّة، نخذ منها لكل شهر عدَدَ أيامه، ومابقى من الأيام دُونَ شهر فهو المـاضى من أيام الشهر الذى يَلِى ذلك .

مثـال ذلك إذا أردت ان تستخرج التاريخ السُّرْيانىّ أو الرومىّ الموافقَ لآخِرِ سـنة ثمـانمائة من الهجرة، فقد تقدّم لك أن التاريخ السريانىّ والرومىّ مبدؤه من غَلَبة الإسكندر علىٰ الفُرْس ، وهو قبل الهِجْرة بِتِسْعِمائة سـنةٍ وآثنتين وثلاثين سنة ومائتين وسبعةٍ وثمـانين يوما(١)، وذلك ثلثمائة ألف يوم وأربعون ألف يوم وسـبعمائة يوم ، فاحفظ ذلك ، ثم آبْسُطِ المـاضِىَ من سِنِى الهجرة وهو ثمانمـائة سنة أياما ، بأن تضرب الثمـانمائة فى عشرة آلاف وستمـائة وأحد وثلاثين يوما ، وهى بسـط السنة العربية من حين كسرها الزائد علىٰ أيامها، وهو خمس يوم وسدس يوم، يكون ثمـانية آلاف ألف وخمسمائة ألف وأربعة آلاف وثمـانمائة ، فاقسـمه علىٰ ثلاثين وهى مخرج الكسر الذى هو الخمس والسدس ، يخرج بالقسمة مائتـا ألف وثلاثة وثمانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون، وهو عدد أيام الثمـانمائة سنة ، فأضفه علىٰ ما بين غلبة الإسـكندر والهجرة من الأيام ، وهو ثلثمائة ألف وأربعون ألفـا وسبعمائة يوم، يكون الجميعُ ستّمائة ألف وأربعةً وعشرين ألفا ومائةً وثلاثةً وتسعين، فاجعل تلك الأيامَ سنين سُرْيانية، بأن تضربَ تلك الأيامَ فى أربعة، يحصُل منهـا ألفا ألف وأربعمائة ألف وستةٌ وتسعون ألفا وسبْعُمائة وآثنان وسبعون يوما ، فآقسمه علىٰ ألف وأربعمائةٍ وأحد وستين ، يخرج بالقســمة ألفٌ وسبعُمائة وثمـانية ، وهى سنونَ تامّة ، ويفضل بعد ذلك ألفٌ وثلثمائة وأربعة وثمانون، فاقسمها علىٰ أربعة ،

---

(١) الذى تقدم له "ومائتين وتسعين يوما" .

يخرج ثلثمائة وستة وأربعون يوما ، يكون ذلك أحد عشر شهرا ، من أول تشرين الأوّل وأحد عشر يوما من الشهر الثانى عشر من الشهور السُّرْيانية وهو أيلول ؛ فيكون آخر يوم من سنة ثمانمائة هجرية موافقًا لليوم الحادى عشر من أيلول سنة ألف وسبعمائة وتسع من السريانية .

وإن أردت أن تستخرج التاريخ القبطىّ لآخر سنةِ ثمانمائةٍ، فقد تقدّم أن التاريخ القبطىّ آبتداؤه من ملْك دقلطيانوس على القِبْط ، وهو قبل الهجرة بثلثمائة وسبع وثلاثين سنة وثلثمائةٍ وعشرين يوما ، وجملة أيامه مائةُ ألفِ يوم وثلاثةٌ وعشرون ألفَ يوم وأربعُمائةِ يوم وتسعةُ أيام ، فأضِفْ أيام الماضى من سنى الهجرة : وهو مائتا ألف وثلاثة وثمانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون على ماتقدّم فى التاريخ السريانىّ [على ماقبل الهجرة[1]] وهو مائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وأربعمائة وتسعة أيام ، يكون المجموعُ أربعَمائةِ ألفٍ وستّةَ آلاف وتسعَمائة يوم ويومين ؛ فاجعله سنين قبطية، بأن تضرب ذلك فى أربعة عدد مَخْرَج كسر السنة القبطية، وهو الربع الزائد على الخمسة وستين ، يكون ألف ألف وستمائة ألف وسبعة وعشرين ألفا وستمائة وثمانية ؛ فاقسمه على ألف وأربعمائة وأحد وستين ، يخرج بالقسمة ألف ومائة وأربعة عشر ، وهو عدد السنين القبطية التامة ، ويبقى بعد ذلك أربعةٌ وخمسون ؛ فاقسمه على الأربعة المذكورة يخرج بالقسمة أربعة عشَرَ ، وهى أيام من الشهر الأول من السنة القبطية الناقصة ، فيكون آخر يوم من سنة ثمانمائة للهجرة موافقا لرابع عشر شهر توت سنة ألف ومائة وخمس عشرة من السنين القبطية .

(١) الزيادة لازمة لتوضيح المقام وهى مرادة للؤلف .

وإن أردت أن تستخرج التاريخ الفارسىّ لآخر سنة الثمانمائة المذكورة ، فقد تقدّم أن ٱبتداء التاريخ الفارسىّ بعد الهجرة بعشر سنين وثمانين يوما ، وجملةُ أيامه ثلاثةُ آلافِ يوم وستُّمائةِ يوم وأربعةٌ وعشرون يوما؛ فأسقطها من الحاصل من أيام النَّسِىء[(١)] الماضى من الهجرة إلىٰ آخر الثمانمائة، يكون الباقى بعد ذلك مائتَىْ ألفٍ وتسعةً وسبعين ألفا وثمانمائة وتسعةً وستين يوما؛ فاقسمها علىٰ ثلثمائة وخمسة وستين ، يخْرُجْ لك سبعُمائة وستةٌ وستون سنة ، وهو عدد السنين الفارسية التامة؛ ويفْضُل بعد ذلك مائتان وتسعةٌ وسبعون يوما ، نخذْ لكل شهر عددَ أيامه : وهو ثلاثون يوما ويبقىٰ تسعةُ أيام ، منها خمسةُ أيام فى نظير الخمسةِ الأيام الزائدة فى آخر أبان ماه المعروفة بالمسْتَرقة ، يبقىٰ أربعةُ أيام من شهر ذى ماه : وهو الشهر العاشر من شهورهم ، فيكون آخرُ يوم من ثمانمائة من الهجرة موافقًا لليوم الرابع من ذى ماه من شهور الفُرْس سنةَ سبعمائة وسبع وستين .

فلو فُرِض أنه مضىٰ من سنة إحدىٰ وثمانمائة ستةُ أشهر مثلا ، فاجعل الأشهرَ شهراً تامًّا وشهرا ناقصا علىٰ ماتقدّم ، تكون أيامُها مائةً وسبعة وسبعين يوما فأضفها علىٰ أيام الثمانمائة، وٱفعل فيها ما تقدّم ذكره، لايتغير العمل فى شىء من ذلك .

مثال ذلك : إذا أردت ٱستخراج التاريخ السُّرْيانىّ فى آخر جمادىٰ الآخرةِ سنة إحدىٰ وثمانمائة ، فأضف مائة وسبعة وسبعين : وهى أيام ستة أشهر علىٰ أيام الثمانمائة ، وهى مائتا ألفٍ وثلاثةٌ وثمانون ألفا وأربعُمائة وثلاثةٌ وتسعون ، يكون المجموع مائتَىْ ألفٍ وثلاثةً وثمانين ألفا وستَّمائة وستين يوما ، فأضف إليه ما بين الهجرة والتاريخ السُّرْيانىّ : وهو ثلثمائة ألفٍ وأربعون ألفا وسبعمائة ، يحصل

(١) كذا فى الاصول ولعله السنين الماضية من الهجرة .

من ذلك ستمائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا وثلثمائة وسبعون ؛ فاضربه فى أربعة يخرُجْ لك ألف وستمائة وتسعة ، ويفْضُل من الأيام مائةٌ وثمانية وخمسون يوما ، تكون سابع أدار من شهور السريان ، فيكون آخر يوم من جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانمائة موافقًا للسابع من شهر أدار سنة ألف وسبعمائة وعشر من سِنِى السريان .

قلت : وفى كُتُب الزِّيجات وغيرها طُرُق مختلفةٌ لاستخراج التواريخ ، وجَداولُ موضوعةٌ لايحتملها هذا الكتاب فليراجعها من احتاج إلى زيادة على ذلك .

الجملة الثامنة

(فى موْضِع كتابة التاريخ من الكِتاب ، وصورة وَضْعه فى الكتابة)

أمَّا موضعُه من الكتاب ، فقال محمدُ بن عمرَ المدائنى فى كتاب " القلم والدَّواة " : رَسَمُوا تاريخَ الكتب فى آخرها ، وجعلته العامّة فى صُدُورها . والتحقيق فى ذلك ما ذكره صاحبُ " موادّ البيان " وغيره أن الكُتُب التى تؤرّخ على ضربين :

الضرب الأوّل — الكتب السلطانية ، ولها حالان :

الحالة الأولى — أن يكون الكتابُ فى أمر تتشوّفُ النُّفُوس إلى معرفة اليوم الذى وقع ذلك الأمرُ فيه : كالحوادث العِظَام ، والفُتُوحات والمواسم ونحوِها ، فيؤرّخ الكتابُ فى صَدْره ، مثل أن يكتب فى صدر الكتاب « كتابُ أمير المؤمنين إليك ، او كتابنا إليك يوم كذا من سنة كذا » كما كان يُكْتَب فى الزمن المتقدّم فى مثل ذلك .

الحالة الثانية — أن يكون الكتاب فى أمر لاتتشَوَّفُ النفوس إلى معرفة اليوم الذى يقع ذلك الأمرُ فيه ، فيؤرّخ الكتاب فى آخره .

الضرب الثانى — كُتُب الأتباع إلى الرؤساء .

والرسم فيها أن تُؤَرَّخ فى صدورها . قال فى "موادّ البيان" : وذلك مثل أن يقال : كتب العبدُ من مَقَرّ خدمته يوم كذا .

قلت : والذى آستقرّ عليــه حال كُتَّاب الزمان كتابةُ التاريخ فى آخر الكتاب بكل حال ، سواءٌ كان المكتوبُ ولايةً أو مكاتبـةً أو غير ذلك ؛ ولعلَّ الولاياتِ وما فى معناها لم يقع الآختلافُ فى كتابتهـا فى آخر المكتوب فى زمن من الأزمان .

*

وأمّا صورةُ وضع التاريخ فى الكتابة ، فقد آصطلح الكُتَّاب علىٰ أن جَعَلُوا التاريخ بعد كتابةِ إن شاء الله تعـالىٰ فى سطرين : فيكتبون « كُتِب فى كذا من شهر كذا » فى سطرٍ ، ثم يكتبون « سنة كذا » فى سطر تحته ؛ وفى الكُتُب عن قُضاة القضاة يجعل كُتَّابهم جميعَ التاريخ فى سطر واحد .

الطَّرَف الثـالث

(فى المستَنَدات ، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى صورة ما يُكْتَب ، وهو علىٰ ضربين)

الضربُ الأوّلُ

(أن يُضافَ إلىٰ مَرْسوم السلطان ، وله خمسُ حالات)

الحالة الأولىٰ — أن يكون بتلَقِّى كاتب السرّ، إما بما يأمُر به السلطانُ عند قراءته القصةَ عليه ، أو بمـا يكتُبُه كاتب السر ويُمْضيه من نَفْسه ، كما فى خلاص الحُقُوق ونحوها ؛ فيكتب فيه «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطرٍ واحد لا غير .

الحالة الثانية — أن يكون بتلقّي كاتب السرّ أو أحد من كُتّاب الدَّسْت بدار العدل ، عنـد جلوس السـلطان فى المواكب بالإيوان وقراءةِ كاتب السرّ وكُتّاب الدَّسْت قِصَصَ المظالم ونحوها عليه . فيكتب فيـه « حسب المرسوم الشريف من دار العدل الشريف » سطرين أحدهما تحت الآخر ، ويكون فى السطر الأوّل « حسب المرسوم الشريف » والباقى فى السطر الثانى .

الحـالة الثالثة — أن يكون برسالة الدَّوَادَار . فيكتب فيـه « حسب المرسوم الشريف » سـطرا واحدا ، ثم يكتب تحتـه « برسالة الجناب العـالى الأمـيرىّ الدَّوادار ، الفلانىّ » باللقب المضاف إلىٰ المَلِكِ كالنـاصِرىّ ونحوه « ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمتَه » ويكون آخر السطر الأوّل «الأميرىّ الفلانىّ» .

الحالة الرابعـة — أن يكون من ديوان الخاص . فيكتُب فيه «حَسَب المرسوم الشريف من ديوان الخاص الشريف» ويكون « حَسَب المرسوم الشريف » سطرا، وباقى الكلام سطرا .

الحالة الخامسة — أن يكون بخط السلطان بظاهرِ قِصَّـةٍ . فيكتب « حَسَب المرسوم الشريف بالخَطِّ الشريف» سطرين، ويكون «حَسَب المرسوم الشريف» سطرا علىٰ ما تقدّم، وما بعده سطرا .

قلت : وممـا يجب التنبُّه له أنَّ لفظ حَسَب الواقع فى المستَنَدات منقولُ اللغـة فيه بفتح السـين كما تقول : فعلتُ ذلك حَسَب أمرك ، ولا يجوز تسكينها بحـال كما أطبق عليه علماءُ اللغة، إلا ما حكاه الجوهرىّ فى "صِحَاحه" من جواز تَسْكينها فى ضرورة الشـعر ، علىٰ أن جُلَّ كُتَّاب الزمان يَغْلَطُون فى ذلك فلا يَنْطِقُون بهـا إلا ساكنةَ السين ، وربمـا ضَبَطُوه كذلك فى الكِتابة .

الضرب الثـانى

(أن يَجْعل مستندَه الإشارة، وله ثلاث حالات)

الحالة الأولىٰ — أن يكون بإشارة النائبِ الكافل . فيكتب «بالإشارة العاليـة الأميرية الكبيرية الكافلية، كافلِ الممالك الشريفة الإسلامية، أعلاها الله تعالىٰ! » سطرين ، ويكون آخر السطر الأوّل الكافلية الفلانية .

الحـالة الثانية — أن يكون بإشارة الوزير . فيكتب «بالإشارة العالية الوزيرية الفلانية، مدَبِّر المـمالك الشريفة أعلاها الله تعالىٰ! » سطرين، ويكون آخر السطر الأوّل الوزيرية الفلانية .

الحالة الثالثة — أن يكون بأشارة الإستَدّار . فيكتب « بالإشارة العالية الأميريَّة الكبيرية الفلانية، إستَدّار العالية، أعلاها الله تعالىٰ! » سطرين، ويكون آخرالسطر الأول الكبيرية الفلانية . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب ما جرىٰ عليه الكُتَّاب فى لفظ إستَدّار من التحريف، واستعملوه بلفظ إستادار ، أو استاد الدار ، وتجب موافقتهم عليه وإن كان خطأ جَرْيا علىٰ المصطلح .

الجمـــلة الثانية

(فى موضـــع كتابة المستَنَد)

وقد آصطلح الكُتَّاب علىٰ أن يُكْتَب المستنَدُ فى الغالب بَعْـدَ التاريخ ، ويكون الظرفُ أو الجارّ والمجرور فيه متعلِّقا من التاريخ بلفظ كتِب ، وكأنه يقول : كُتب فى تاريخ كذا، حَسَبَ الأمر الشريف، أو بالإشارة الفلانية . وربما كتب بحاشية المكتوب فى المراسـيم الصِّـغار التى تُكْتَب علىٰ ظهور القِصَص ونحوها ، وكذلك

أوراق الطَّرِيق ؛ وموضع كتابته يقابل بين السطرين الأوّلين آخذا من جِهةِ الأسفل إلىٰ جِهَـة الأعلىٰ بحيث يكون آخِرُكتابة المستند مسامتاً للسـطر الأوّل ، فإن كان «حَسَب المرسوم الشريف» فقط ، كتبه سطرا واحدا ، وإن كان «من دار العَدْل» كتب «حَسَب المرسومِ الشريف» سطرا ، ومنْ «دار العدل الشريف» سطرا تحته ، وكذلك إن كان « من ديوان الخـاص » كما يُكْتَب فى أسفل الكتاب . وإن كان برسالة الدوادار ، فقد جرت العـادة أن يكتب « حَسَب المرسوم الشريف » فى أسفل الكتاب تحت التاريخ سطرا واحدا ، ويكتب « برسالة الجناب العـالى ، الأميرِى ، الكَبِيرِى ، الفلانى ، الدَّوادار ، الفُلَانى ضاعف الله تعالىٰ نِعْمَتَه ! » بالهامش فى المحل المتقدّم سطرين كما كان يُكْتَب بآخر الكتاب . وإن كان المستَنَد الإشارة كتب جميعه بحاشية الكتاب فى المحل المقدّم ذكره سطرين علىٰ ماتقدّم بيانُه .

الطـــرف الرابع

(فى الحمدلة فى آخر الكتاب ، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى الاصــل فى كتابتهـا)

والأصلُ فى ذلك أنَّ الله سبحانه كما جعل الحمدَ مِفْتاحا للأمور تَيَمُّنا بالافتتاح به ، جعله خِتامًا لها تَيَمُّنا بالاختتام به قال تعالىٰ : ﴿وقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وقِيلَ الحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ﴾ وقال جلَّتْ قدرتُه : ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلَامٌ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ﴾ . وكان النبىُّ صلّى الله عليه وسلم إذا رجع من السفر قال : "آيِبون تائِبُونَ لِرَبِّنا حامِدُونَ" . قال السهيلىّ : ومن ثَمَّ سُمِّىَ النبىُّ صلّى الله عليه وسلم (أحمد) إشارةً إلىٰ أنه خاتَمُ الأنبياء وآخِرُ المرسلين .

ولما كان الأمرُ كذلك ، ٱصطلح الكُتَّاب علىٰ ٱختتام الكُتُب بالحمـد تبرُّكا .
قال ٱبن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يُختَم بالحمدُ لله فى التواقيع فى المَظَالم، وربما خُتِم بها فى تواقيع الإطلاقات . وقد ٱصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ حذفها من آخِر ما لا تُكْتَب فى أوّله البسملةُ : كالتواقيع الصِّغار ونحوها ، علىٰ ما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ. وكأنهم يُشيرون بذلك إلىٰ أنَّ مثل ذلك لا يُهْتَمُّ بشأنه، فكما حذفوا البسـملةَ من أوّلها حذفوا الحمدلَةَ من آخرها إشارةً إلىٰ عدم الاهتمام بها كما حُذِفت من أوّل الكلام الذى لا يُهْتَمُّ به لأجل ذلك علىٰ ماتقدّم بيانُهُ .

الجمـــــلة الثانية

(فى بيان ما يُكْتَب وصورةِ وضعه فى الكتابة)

أمّا ما يُكْتَب ، فقد ٱصطلحُوا علىٰ أن يكْتُبوا فى حَمْدَلة آخرِ الكتابِ « الحمدُ لله وحده » وربما كَتَبُوا : «الحمدُ للهِ ربِّ العالمين» . علىٰ أنهم لو أطبقوا علىٰ كتابتها لكان أَوْلىٰ . فقد ذكر النوويّ فى كتابه "الأذكار" أنها أفضـلُ صيغ الحمد ومن أجل ذلك ٱفتُتِحتْ بها فاتحةُ الكتاب التى هى أمُّ القرءان .

* * *

وأما وضعها فى الكتابة، فقد ٱصطلحُوا علىٰ أنْ جعلوها بعد كتابة المستَنَد عن يَمْنة الدَّرْج ، علىٰ بُعْد قدر ما بين إن شاء الله تعالىٰ والسطر الآخِرِ من المكتوب . قال فى "معالم الكتابة" وقد تحتمل الخروج عن سَمْت السُّطور .

الطـــرف الخامس

(فى الصـــلاة علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وســلم فى آخر الكتاب، وما يلتحق بذلك، وفيــه جملتان)

الجمــلة الأولىٰ

(فى أصل إثباتها فى آخر الكُتُب)

والأصلُ فى ذلك مع ماتقدّم فى الكلام علىٰ الصلاة علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى أوّل الكُتُب فى الكلام علىٰ الفَوَاتح أنه كما ذُكرتْ فى أوائل الكُتُب تبرُّكا، كذلك ذُكرتْ فى آخرها تبرُّكًا . وقد قال تعـالىٰ فى حقّه صلّى الله عليــه وســلم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فإن معناه ما ذُكرْتُ إلا ذُكِرْتَ مَعِى ، ولمـا ٱخْتُتِمَتِ الكتبُ بالحمدُ لله ، ناسب أن يُقْرن الحمدُ بالصلاةِ علىٰ النبىّ صلّى الله عليــه وســلم جمعًا بين ذِكْره وذِكْر الله تعـالىٰ . وقد ذكر ٱبن هشام فى "سِــيرته" : أن النبىّ صلى الله عليه وســلم كتب فى آخِر عَهْــده لعَمْرو بن حَزْم حِينَ وجَّهَه إلىٰ اليمن «صلّى اللهُ علىٰ محمد» .

ثم الكلامُ فى الجمع بين الصلاة والســلام، والصلاة علىٰ الآل والصَّحْبِ بعــده صلّى الله عليه وســلم فى آخِرِ الكتاب علىٰ مامَرَّ فى الصلاة عليه صلّى الله عليه وســلم فى أوّل(١) الكتاب .

قلت : فلو كُتِبَ كتابٌ لسلطانٍ أو غيره من المسلمين إلىٰ أحد من أهل الكُفْر، فهل يُؤتىٰ بالصلاة علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم كما يُؤتىٰ بها فى الكتاب إلىٰ المســلم

(١) فى الأصول "آخر" وهو خطأ من الناسخ، وعبارة الضوء علىٰ مامر فى الفواتح، وهى أظهر .

إرغاما للكافر بالصلاة علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم، اولا يُؤْتىٰ بها صيانةً لاسمه صلّى الله عليه وسلم عن حُصُوله فى يدِ كافرٍ، كما يمنع من السَّفَر بالمصحف إلىٰ بلاد الكُفْر؟ لم أر مَنْ تعرّض له، والظاهر أنه يُؤتىٰ بها إرغامًا للكافر، ومواجهةً له بما يَكْرَه.

وقد حكىٰ أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل": أن عبدَ المَلِك بنَ مَرْوان، حينَ أحدثَ كتابةَ سورةِ الإخلاص وذِكْرِ النبىّ صلّى الله عليه وسلم علىٰ الدَّنانير والدَّراهم، كَتبَ إليه ملكُ الروم: إنكم قد أحدَثْتم فى طَوَامِيركم شيئًا من ذكر نَبِيِّكم، فاتْرُكُوه وإلا أتاكم فى دَنانيرنا ذكْرُ ماتَكْرَهون؛ فعَظُم ذلك فى صَدْر عبدالملك، فأرسل إلىٰ خالدِ بن يزيدَ بنِ معاويةَ يستشيرُه فى ذلك، وكان أديبًا عالمًا فقال له خالدٌ: فَرِّخْ رَوْعَكَ(١) ياأمير المؤمنين، حَرِّمْ دنانيرَهم وٱضْرِب للناس سِكَكا فيها ذكْرُ الله تعالىٰ وذكْرُ رسوله صلّى الله عليه وسلم ولا تُعْفِهم ممـا يكْرَهُون فى الطَّوامير، فَفَعل.

الجملة الثانية

(فى بيان مايُكْتَب فى التصلية فى آخر الكُتُب، وصورةِ وضعه فى الكتابة)

أماصورةُ مايكتب، فقد ٱصطلح الكُتَّاب علىٰ أن يكتُبوا فى التصلية فى آخر الكتاب بعد الحمدُ لله وحده ما صورته «وصلَواتُه علىٰ سيدنا محمد وآلِه وصَحْبه وسلامُهُ». وهى صيغة مستحْسَنة للإتيان بالصلاة فيها بِصيغة الجَمْع، والجمْع بين الصلاةِ والسلام، وإتباعِ الصلاة والسلام عليه صلّى الله عليه وسلم بالصلاةِ والسلام علىٰ الآلِ والصَّحْب. وربما أتىٰ بعضُ الكُتَّاب بالصلاة بلفظ الإفراد، فيكتب وصَلاتُه.

(١) أى أذهب فزعك ورعبك، ووقع فى الأصول فرج بالجيم وهو تصحيف.

وآعلم أن الصلاة يجوز كتابتها بالألف على هذه الصورة "الصَّلَاة" ويجوز كتابتها بالواو على هـذه الصورة "الصَّلوة" إلا أن محلَّ ذلك ما إذا لم تُضَـفْ إلى ضمير نحوُ صلاته وصلاتك . فإن أُضِيفَتْ إلى الضمير تعيَّنتْ كتابتها بالألف دُونَ الواو ، وربمـا غَلِط فيها بعضُ الكُتَّاب فكتبها بالواو .

⁂

وأما موضعها فى الكتابة ، فقد آصطلَحُوا على أن يَكْتُبُوا ذلك تِلْوَ الحمـدُ لله وحده ، يفصل بياض بينهما لتكون الحمدلةُ فى أوّل السطر ، والتصلية فى آخره .

الطرف السـادس

(فى الحَسْبَلة فى آخِرِ الكتاب ، وفيه جملتان)

الجمـــــلة الأولى

(فى أصل كتابتها)

والأصل فى ذلك مادلَّ عليـه قولُه تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُـمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قد جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمـانًا وقالُوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ فجعل قولَهم : حسبُنا الله ونعم الوكيل سبباً لحُسْن المنقلَب والصَّوْن عن السوء . وقد قيل : مَنْ قال حسْبُنا الله ونعم الوكيل لم يَخِبْ فى قَصْده .

الجمـــلة الثانية

(فى بيان ما يُكْتَب فى ذلك ، وكيفيَّة وضعه فى الكتابة)

أما مايكتب ، فقد آصطلح الكُتَّاب على أن يكتُبُوا «حَسْبُنا اللهُ ونعم الوكيل» بلفظ الجمع ، على أن المتكلم يتكلَّم بلسانه ولسانِ غيره من الأُمَّة ، لا أنَّ الجمعَ للتعظيم : لأنه

ليس بلائِق بالمَنَام. وكان بعض الكُتّاب يَسْتَحِبُّ أن يكتب «حَسْبِيَ الله» بلفظ الوحدة فِرارًا من اللَّبْس فى لفظ الجمع بين التَّعْظيم والجمع الحقيقيّ. وقد أشار فى "صناعة الكُتّاب" إلىٰ بعض ذلك. قال ٱبن شيث فى "معالم الكتابة": وقد يتأدّب الأدنىٰ مع الأعلىٰ، فيأتى بالآية علىٰ نصها فيقول: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾ فِرارًا من نُون الجمع التى هى للعَظَمة. قال: وقد يقال فى مكانها: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُه﴾ ثم قال: فأما الأعلىٰ إذا كَتَب للأدنىٰ فلا يخرج عن «حَسْبُنَا الله ونعم الوكِيلُ». ثم بعض الكُتّاب قد يكتُب مع الحَسْبَلة واوا بأن يكتُب: وحَسْبُنا الله ونعم الوَكِيل، ولا معنىٰ للواو هنا، إذ لا عِلاقةَ بين الحَسْبلة وما قبلَها حتّى يسوغَ العَطْفُ عليه، فالواجب حذْفها كما نبه عليه الشيخُ جمال الدين بن هشام فى "وَرَقاته فى الوراقة".

* * *

وأما موضع وضعها فى الكتابة، فقد ٱصطلحُوا علىٰ أن يكتُبوها سطرًا واحدًا بعد سطر الحَمْدَلة والتصلِية، ويكون بينهما فى البُعْد قدرُ مابين إن شاء الله تعالىٰ و بين السطر الآخرِ من البياض. قال ٱبن شيث: وموضعُها ثلثُ السطر من الجانب الأيمنِ إلىٰ حيثُ ينْتَهِى.

وٱعلم أن الكُتّاب قد ٱصطلَحُوا علىٰ أن يكتُبوا تحت الحَسْبَلَة صورةَ حاء لطيفة منكبة علىٰ هذه الصورة "حر" ولا معنىٰ لها، إذ هى فى الأصل إشارة إلىٰ الحَسْبلة نفسها، وكأنَّ بعض الكُتّاب كان يكتفِى بها عن الحَسْبلة، ثم ٱلتبس ذلك علىٰ بعض الكُتّاب فأثبتها مع الحَسْبَلَة علىٰ ظَنٍّ أنّ فيها قدرًا زائدًا عليها؛ ويحتمل أنها إنما وُضِعتْ فى الأصل لسدّ البياضِ كما يُكْتَب بعض الدّوائر لسَدّ البياض أو الفَصْل بين الكلامين وغير ذلك.

الطـــرف السابع
(فى اللّواحق ، وفيــه جملتان)

الجمـــلة الأُولىٰ
(فى التتريب ، ويتعلّق به أمران)

الأمر الأوّلُ
(فى النّـــدْب إلىٰ التتريب)

لا نِزاعَ فى أنّ تَتْرِيب الكتاب بعد الفَرَاغ منه بإلقاء الرَّمْل ونحوه عليه مطلوبٌ، وفيه معنيان :

المعنىٰ الأوّل — التبرُّكُ طلبًا لنُجْح القَصْد ؛ فقــد روىٰ محمد بنُ عمر المدائنى فى كتاب "القلم والدواة" بسنده عن إسمـاعيلَ بن محمدِ بن وهبٍ عن هشامِ بن خالد وهو أبومَرْوان الأزدىّ، عن بَقِيَّةَ بن الوليد، عن عطاءٍ، عن آبن جُرَيج، عن آبن عباس عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم أنه قال : "تَرِّبُوا الكتابَ ونَحُّوه من أسفَلِهِ فإنه أعظَمُ للبَركة وأنْجَحُ للحاجةِ" . وفى حديث "إذا كتَبَ أحدُكُم كتابًا فليُتَرِّبْهُ فإنَّه مُبارَكٌ وهو أنجَحُ لحاجته" .

ومن كلام أمير المؤمنين عمرَ بن الخطّاب رضى الله عنه : تَرِّبُوا(١) الكتاب تَنْجَحُوا . ويؤيِّدُ ذلك ما رُوِىَ أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم كتب كتابَيْنِ إلىٰ أهل قريَتَيْنِ فتُرِّبَ أحَدُهما ولم يُتَرَّب الآخَر ، فأسْلَمَتِ القريةُ التى تُرِّب كتابها . وهـذا المعنىٰ موجود فى المكاتَبات والوِلَايات وغيرهما لطلب البركة والنَّجاح فى جميع ذلك .

(١) رواية كتب اللغة "أتربوا الكتاب" .

وقد حُكِى ان أبادُهْمان مَرِض مَرَضا أشفىٰ فيه، فأوصىٰ وأملىٰ وصِيَّته علىٰ ٱبنه، فكتبها وأتْربَهـا فقال: نَعَمْ تَرِّبْها فإنه أنجحُ للحاجة . ولا فرقَ فى ذلك بين أن يكون المكتوبُ قد جَفَّ أم لا : لأن القصد إنمـا هو النُّجْح والبركة .

المعنىٰ الثانى ـ التجفيفُ لمـا كتبه بطَرْح التُّراب عليـه كى لايَنْمَحِىَ بما يُصيبه قبل الجَفَاف، وهـذا المعنىٰ أضعفُ من الأوّل، ومقتضاه أنه إذا جفَّ الكتاب لا يُتَرَّب، وعليه عملُ كُتَّاب الزمان . ومن هنا يَضَعُون الترابَ علىٰ آخر الكتاب من حيثُ إنه أقربُ عهـدًا بالكتابة فيحتـاجُ إلىٰ التجفيف، بخلاف أوّل الكتاب فإنه يكون قد جَفَّ عند نِهاية الكتاب غالبًا، لاسيَّما فى الزمن الحارّ، أومع طول الكتاب وٱمتداد زمن كتابتـه . علىٰ أن صاحب "مواد البيان" وغيرَه من قُدَماء الكُتَّاب قد صرَّحُوا بأنه يستَحَبُّ وضع التُّراب أوّلا علىٰ البَسْملة، ثم يُمِرُّه الكاتبُ منهـا علىٰ سائر المكتوب ليَعُمَّ الكتابَ بركةُ البسـملة . ولقائل أن يقول إن التتريب من آخر الكتاب إلىٰ أعلاه لا يخلُو أيضا من بركة، لمُلامسة التراب أوّلًا الحمدلةَ والصلاةَ علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسـلم والحَسْبَلة . وربمـا بَلَغ بالتراب من أسـفل الكتاب إلىٰ البسملة ثم أعاده فيجمع فيـه بين البَركتين .

الأمر الثـانى
(فيما يُتَرَّب به الكتابُ)

وقد ٱصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ التتريب بالرَّمْـل الأحمر . أما تخصيصهم التتريبَ بالرمل فلأنه لا غُبارَ فيه يَعْلَق بالكتاب فيُذْهِبُ بَهْجة الوَرَق . وأما ٱختيارُهم الأحمرَ دُونَ غيره فلأنه أبْهَجُ إذا لَصِق بالكتاب . قال محمد بن عمر المدائنيّ : وكَرِهوا ونَهَوْا

عن تراب الحيطان، وماَلوا إلى النُّشارة والأُشْنان . قال : وبلغنا أنّ بعضَ الأئمة من أهل العلم كان يُتَرِّب الحديثَ بالصَّنْدل ويقول : لا أطْرَحُ على حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم الترابَ . وكان حَيْوَةُ بن شُرَيْح يخرُج إلى الصَّحْراء فيأخُذ الطِّينَ الأسودَ فيدُقُّه ويَنْخُله فيُتَرِّب به . وقد صَرَّح الرافعيّ وغيره من أصحابنا الشافعيَّة أنه يَحْرُم التتريب من جِدار الغير، ومعناه ظاهرٌ لما فيه من الاغتصاب والاعتداء. وقد سبق فى المقالة الأولى فى الكلام على الخط ذكرُ أنواع الرمل، وأن من أحسنه رملًا يُؤْتَى به من صَحْراء مارِدِينَ ، فيه شُذُورٌ صُفْر كشُذُور الذهب ، يلقى فى الرمل الأحمر فيُتَرِّب به الأمراء والوُزَراء ومَنْ فى معناهم .

الجملة الثانيـــــة

(فى نظر الكاتب فى الكتاب وتأمُّله بعد الفَرَاغ منه)

قد نَصُّوا على أنه إذا فَرَغ الكاتب من كتابة الكتاب ينبغى له أن يتأمَّلَه من أوّله إلى آخره ويَتَتَبَّع ألفاظه ويتأمَّلَ معانِيَه ويُصْلِح منها مالعَلَّه وَهِم فيه الفكرُ أوسبَق إليه القلمُ : ليَسْلَم من قَدْح القادح وطَعْن الطاعن . وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب أن صاحبَ الديوان لا يكتَفِى بنظر الكاتب فى ذلك ، بل يَكِلُه إلى نظر كاتبٍ كاملٍ يَنْصِبُه لذلك، ثم يتأمَّلُه هو بنفسه بعد ذلك ليتنقَّح الكتابُ ويتهذَّب .

المقـالة الرابعـــة

فى المـكاتبـات ، وفيهـا بابان

البـاب الأوّل

(فى أمورٍ كُلِّية فى المكاتبَات، وفيه فصلان)

الفصـــــل الأوّل

(فى مقـــدّمات المـكاتبـات ، وفيـــه ثلاثةُ أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى أصول يعتَمِدها الـكاتبُ فى المـكاتبات)

ويتعلّق المقصود منها بعشرة أصول[(١)] :

الأصــــل الأوّل

(أن يأتى الـكاتبُ فى أوّل المـكاتبَـــة بحُسْـــن الاْفتتاح المطلوبِ فى سائر أنواع الـكلام : من نَثْر ونَظْم ممـا يوجب التحسين : ليكون داعيةً لاْستماع مابعده، علىٰ ماتقدّم بيانُه فى الكلام علىٰ علوم البلاغة فى المقالة الأُولىٰ)

ويرجعُ حسنُ الاْفتتاح فى المكاتبات إلىٰ معنيين .

المعنىٰ الأوّل — أن يكون الحُسْن فيه راجعًا إلىٰ المبتدإ به . إما بالاْفتتاح بالحمدُلله كما فى بعض المكاتبات : لأن النُّفوس تتشوّفُ إلىٰ الثناء علىٰ الله تعالىٰ، أو بالسلام الذى جعله الشارع مفتتَح الخطاب أو نحو ذلك . وإما بالاْفتتاح بما فيه تعظيم المكتوب

(١) المعدود اثنا عشر كما ستقف عليه .

إليه : من تقبيلِ الأرض أو اليدِ أو الدُّعاء له أو غير ذلك ، فإنَّ أمر المكاتبات مبنيّ على التملُّق وآستجلابِ الخواطر وتألُّف القلوب ، إلى غير ذلك مما يجرى هذا المَجرى ، على ما يقتضيه آصطلاحُ كلِّ زمن فى الآبتدا آت .

المعنى الثانى — أن يكون الحُسْنُ فيه راجعا إلى مايوجب التحسينَ : من سُهُولة اللفظ ، وصِحَّة السبك ، ووُضُوح المعنى ، وتجنُّب الحَشْو ، وغير ذلك من مُوجِبات التحسين ؛ كما كتب الأستاذ أبو الفضل بنُ العميد عن رُكْن الدولة بن بُوَيه ، إلى مَنْ عصى عليه ، مفتتِحا كتابه بقوله : "كِتابِى إليْكَ ، وأنا متردِّد بين طَمَعٍ فيك وإياسٍ منك ، وإقبالٍ عليك وإعْراضٍ عنك ؛ فإنك تُدِلُّ بسالِفِ خِدَمٍ أيسَرُها يُوجب رِعايه ، ويقْتَضِى محافظةً وعِنَايه ؛ ثم تشْفَعُها بحادثِ غُلُول وخِيانة ، وتُتْبِعها بألِفِ خلاف ومعصية ، أدنى ذلك يُحْبِط أعمالك ، ويُسْقِط كل ما يُرْعَى لك" .

وكما كتب أبو حفص بن برد الأندَلُسىّ عن مَلِكه إلى مَنْ عصى عليه ثم عاد إلى الطاعة كتابًا آفتتحه بقوله : "أما بعـدُ فإن الغلَبَة لنا والظُّهورَ عليك جلَبَاك إلينا على قَدَمِك ، دُونَ عهْدٍ ولا عَقْـد يمنعانِ من إراقةِ دَمِك ؛ ولٰكِنَّا لمـا وهب اللهُ لنا من الإشراف على سرائر الرِّياسـه ، والحِفْظ لشرَائع السِّياسـه ؛ تأمَّلْنا مَنْ ساس جِهتَكَ قبْلَنا ، فوجَدْنا يَدَ سياسته خَرْقاء ، وعينَ خدامته عَوْراء ، وقدَمَ مُداراته شَلَّاء : لأنه مالَ عن ترغيبك فلم ترْجُه ، وعن ترهيبك فلم تخْشَـه ؛ فأدَّتْك حاجتك إلى طِلَاب المَطَاعم الدَّنِيَّـه ، وقلَّةُ مَهابتك إلى التَّهالُكِ على المَعَاصى الوَبِيَّه" ونحو ذلك من الآفتتاحات البَهِجة ، والآبتداآتِ الرائقة ، ممـا ستقف على الكثير منـه فى خلَال هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

الأصـــــل الثـانى

(أن يأتِىَ فى آبتـــداء المكاتبة ببراعة الآستهلال المطلوبةِ فى كلِّ فنٍّ من فنون الكلام)

بأن يأتِى فى صَدْر المكاتبة بمـا يدُلُّ علىٰ عَجُزها . فإن كان الكتَابُ بفَتْح ، أتىٰ فى أوّله بما يدُلُّ علىٰ التهنئة . أو بتَعْزِيَة ، أتىٰ فى أوّله بما يدُلّ علىٰ التَّعْزية . أو فى غير ذلك من المعانى ، أتىٰ فى أوّله بمـا يدلُّ عليه : ليُعْلَم من مبدإ الكتاب ما المرادُ منه . كما يحكىٰ أن عمرو بن مَسْعَدَة كاتبَ المأمون أمر كاتبــه أن يكتُبَ إلىٰ الخليفة كتابا يعرِّفه فيه أن بقرةً ولدَتْ عِجْلا وجْهُه وجهُ إنسان ، فكتب : "أمّا بعدَ حمدِ الله خالقِ الأنَام ، فى بُطُون الأنعام" . وفُضلاء الكُتَّاب وأئمتُهم يعتَنُون بذلك كلَّ الآعتناء ، و يرَوْن تَرْكه إخلالا بالصنعة ، ونَقْصا فى الكتابة ، حتّى إن الوزير ضياءَ الدين بنَ الأثير فى المَثَل السـائر قد عاب أبا إسحاق الصابى علىٰ جَلَالة قَدْره فى الكتابة ، وآعترافِه له بالتقدّم فى الصناعة ، بكتابٍ كتبه بفَتْح بغدادَ وهزيمة التُّرك فقال فى أوّله :

"الحمدُ لله ربِّ العالمين ، الملِكِ الحقّ المُبِين ، الوحيدِ الفَرِيد ، العَلِيّ المَجِيد ، الذى لا يُوصَف إلا بسَلْب الصِّفات ، ولا يُنْعَت إلا برَفْع النُّعوت ؛ الأزَلِىِّ بلا آبتداء ، الأبدىِّ بلا آنتهاء ؛ القديم لا منذ أمدٍ محدود ، الدائم لا إلىٰ أجَل مَعْدود ؛ الفاعل لا منْ مادَّة آمْتَـدّها ، الصانِـع لا بآلة آستَعْملها ؛ الذى لا تُدْرِكُه الأعين بألحاظها ، ولا تَحُدُّه الألْسُن بألفاظها ، ولا تُخْلِقُه العُصور بمُرُورها ، ولا تُهْرِمه الدُّهورُ بكُرُورها ؛ ولا تُجارِيه أقدامُ النُّظَراء والأشكال ، ولا تُزاحِمُـه مناكِبُ القُرَناء والأمثال ؛ بل هو الصَّمَد الذى لا كُفْء له ، والفَرْد الذى لا تَوْءَم معه ؛ والحىُّ الذى لا تَخْتَرِمُه المَنُون ؛ والقَيُّوم الذى لا تَشْغَله الشُّـئُون ؛ والقدير الذى لا تَـئُودُه المُعْضلات ، والخبيرُ الذى

لا تُعْييه المُشْكلات" ثم قال : إن هـذه التحميدةَ لا تُناسب الكتَابَ الذى ٱفتتحه بها، ولكنها تصْلُح أن تُوضَع فى صدر مُصَنَّف من مصنَّفات أصول الدين : ككتاب "الشامل" للجُوينى، أو كتاب "الاقتصاد" للغَزالى، وما جرىٰ مَجْراهما . فأما أن تُوضَع فى أوّل كتَابِ فَتْح فلا .

وٱعلم أن براعة الاستهلال فى المكاتَبات قد تَقَع مع الابتداء بالتحميد ، كما فى كتَاب عَمْرو بن مَسْعدة المتقدّم ذكْرُه، وكما كتب أبو إسحاق الصابى عن الطائع إلىٰ بعض وُلَاة الأطراف ، عِنْد زَوال الوَحْشة بينه و بين الأُمَراء ، ووُقُوع الصُّلْح والاتفاق : "أمّا بعدُ فالحمدُ لله ناظم الشَّمْلِ، بعد شَتَاته، وواصلِ الحَبْلِ، بعد بَتَاته، وجابرِ الوَهْن إذا انْثَلَمْ، وكاشفِ الخَطْب إذا أظْلَم" .

وقد تَقَع مع الابتداء بالتقبيل : كما كتبت إلىٰ بعض الرُّؤساء بثَغْر الإسكندرية، مُلَوِّحا إلىٰ التعبير عنـه بالثَّغْر، وعن الرِّيح التى تَهُبُّ دايه من جانب البحر بالمَلْثَم ، وعن مُستَنْزَهٍ(١) من مستَنْزَهاته بالرمل، وعن المَساكن التى به بالقُصُور مع قُرْبه من البحر، ومُناسَبة ذكر النَّسيم بالثَّغر بما صُورتُه : "يُقَبِّل أرضَ ثَغْر قَدْرَقَّ مَلْثِمُه ، وراق مَبْسِمُه ؛ بانًّا لشُكْر يعترِفُ الرَّمْلُ بالقُصُور عن حَدّه ، وتَقِف أمواجُ البَحْر المحيطِ دُونَ عَدّه" .

وقد تقع مع الابتـداء بالدعاء ، وتكون براعةُ الاستهلال فى الدعاء المعطوفِ علىٰ المبتَدإ به : بأن يكون الدُّعاء مناسبًا للحالة المكتوبِ فيها ، كما نبَّه عليه صاحب "المَثَل السائر" وغيْرُه، وسيأتى الكلام علىٰ أمثلة ذلك فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) عبارة الضوء " و يلوّح بذكر مستنزه لهم علىٰ البحر يسمى بالرمل ومساكن لهم فى ذاك المستنزه تسمى القصور" وهى أوضح .

ثم من المكاتَبَات مايَعْسُر معه الإتيانُ بَبرَاعة الاستهلال[(١)] فيما يلى ذلك من الكلام فى مقـدّمة المكاتبة قبـل الخَوْض فى المقصود ولا يُهْملها جملة . علىٰ أن الشيخ شهاب الدين محمودا الحلبيّ رحمه الله قد ذكر فى كتابه "حسن التوسل" أنه إن عسُر عليه براعةُ الاستهلال، أتىٰ بما يُقاربُ المعنىٰ . و بكل حال فإذا أتىٰ ببَرَاعة استهلالٍ فى أوّل مكاتبته ٱستصحبها إلىٰ الفراغ من الخُطْبة إن كان الكتاب مفتتَحا بخُطْبة ، و إلا ٱستصحبها إلىٰ الفَرَاغ من مقدِّمة الكتاب الآتى بيانُها .

الأصـــــل الثـالث

(أنْ يأتِيَ فى المكاتبة المشتملةِ علىٰ المَقاصد الجليلةِ بمقدِّمة يُصَدِّر بها تأسيسا لمـا يأتى به فى مكاتبته)

مثلُ أن يأتى فى صُـدُور كُتُب الحَثّ علىٰ الجهـاد بذكر ٱفْتراضه علىٰ الأُمَّة ، وما وعد اللهُ تعـالىٰ به من نَصْر أوْليائه ، وخِذْلان أعدائه ، وإعزاز الموحِّدين ، وقَمْع المُلْحِدين . وفى صُـدُور كُتُب الفَتْح بإنجـازِ وَعْد الله الذى وعدَهُ أهلَ الطاعة من النَّصْر والظَّفَر ، و إظهـار دينِهِ علىٰ الدِّين كُلِّه . وفى صُدُور كُتُب جِبَاية الخَرَاج ، يُصَدِّر بحاجة قيام المُلْك وأُسِّ السلطنة إلىٰ الاستعانة بما يُسْتَخْرَج من حقوق السلطان فى عِمَارة الثُّغُور ، وتحصين الأعمال ، وتَقْوية الرِّجال ، ونحو ذلك ممـا يجرى علىٰ هذا النمط ممـا سيأتى بيانه فى مقاصد المكاتَبَات فى الكلام علىٰ الابتـداآت والجوابات فيما بعدُ إن شاء اللهُ تعالىٰ .

فقد قيل : إنه لايحسُن بالكاتب أن يُخْلِيَ كلامه ــ و إن كان وَجيزًا ــ من مُقدِّمة يفتَتِحُـه بهـا و إن وقعت فى حرفين أو ثلاثة ، لِيُوَفِّيَ التأليفَ حقَّـه . قال

---

(١) لعله الاستهلال فى البداءة فيأتى بها فيما يلى ذلك ... الخ كما هو ظاهر من بقية الكلام .

فى " موادّ البيان " : وعلىٰ هذا السبيل جرتْ سـنّةُ الكُتّاب فى جميع الكُتُب : كالفُتُوح ، والتّهانى ، والتّعازِى ، والتّهادِى ، والآستِخْبار ، والآستِبْطاء ، والإحْماد ، والإذمام ، وغيرها : ليكون ذلك بِسَاطا لما يُريد القولَ فيـه ، وحُجّةً يستَظْهِر بها السلطان ؛ لأن كلّ كلام لابُدّ له من فَرْش يُفْرَش قبله : ليكون منه بمنزلة الأساسِ من البُنْيان .

قال : ويُرْجَع فى هـذه المقدّمات إلىٰ معرفة الكاتب ما يستحقّه كُلُّ نوع من أنواع الكلام من المقـدّمات التى تُشاكلُها . ثم قال : والطريق إلىٰ إصابة المَرْمىٰ فى هذه المقدّمات أن تُجْعَلَ مشتملةً علىٰ ما بَعْـدَها من المَقَاصد والأغراض ، وأن يُوضَع للأمر الخاصّ مقدّمةٌ خاصّة ، وللأمر العامّ مقدّمةٌ عامّة ، ولايُطَوّل فى موضع الآقتصار ، ولايُقَصّر فى مَوْضِع الإيجاز ، ولا يجعلَ أغراضها بعيدَة المأْخذ ، مُعتاصةً علىٰ المتصَفّح . وذلك أن الكاتب رُبّمـا قصد إظهارَ القُدْرة علىٰ الكلام والتّصرُّف فى وجوه المَنْطِق ، فخرج إلىٰ الإملال والإضْجار الذى تَتَبَرّم منه النُّفُوس ، ولا سيما نُفُوس الملوك وذَوِى الأخطار الجليلة .

أما الأمور التى لاتشتمل علىٰ المَقَاصد الجليلة : كَرِقاع التُّحَف والهَدَايا ونحوهما . فقد ذكر فى " موادّ البيان " أنه لايُجعل لهـا مقدّمةٌ تكون أمامها فإن ذلك غيرُ جائز ولا واقع مَوْقِعَه . قال : ألا ترىٰ أنهم آستحسَنُوا قولَ بعضهم فى صَـدْر رُقْعة مقترنةٍ بتُحَفَة فى يومِ مِهْرَجان أو نحوه : «هذا يومٌ جرَتْ فيه العاده ، بأن تُهْدَى فيه العَبِيدُ إلىٰ الساده » وآستظْرَفوا الكاتبَ لإيجازه وتقرِيب المأْخذ .

الأصـــــل الرابع

(أن يَعْرِفَ الفرقَ بين الألفاظ المســتعملة فى المكاتبات فيضَعَهـا فى مواضــعها)

قال فى "ذخيرة الكُتّاب" : يجب علىٰ الكاتب الرئيس أن يَعْرِفَ مرتبةَ الألفاظ ومواقعها : ليرَتّبهـا و يفرق بينها فرقا يَقِفُه علىٰ الواجب و ينتهى به إلىٰ الصواب ، فيخاطب كُلًّا فى مكاتبته بمـا يستحِقُّه من الخطاب ؛ فإنه قبيحٌ به أن يكونَ خطابهُ أوّلًا خطابَ الرئيس للمرءوس ، و يُتْبِعَ ذلك بخطاب المَرْءوس للرئيس ، أو يَبْـدأَ بخطاب المرءوس للرئيس ثم يتبعه بخطاب الرّئيس للمرءوس .

قال : ومتىٰ آستمرّ الكاتب علىٰ هذه المخالفةِ من الألفاظ والمناقضــةِ ، نقَصَتِ المعانى ، ورَذُلت الألفاظ ، وسقَطت المقاصدُ ، وكان الكاتب قد أخَلَّ من الصِّناعة بمُعْظَمِها ، وترك من البلاغة غايةَ مُحْكَمِها . بل يجب أن يبدأَ بخطاب رئيسٍ أو نظيرٍ أو مرءوسٍ ، ويكون ما يتخلل مكاتبتَــه من الألفاظ علىٰ آتساق إلىٰ آخرها وآطّرادٍ من غير مخالفة بينها ولا مُضادّةٍ ولا مناقَضةٍ .

فمن ذلك الفرقُ بين أصدَرْنا هذه المكاتبة أو أصدرناها ، وبين أُصْدِرت ، وبين صَدَرت . فأصدرناها أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوبِ إليه : للتصريح فيها بالضمير العائد علىٰ الرئيس التى صدَرت المكاتبةُ عنه ، إذ الشىءُ يَشْرُف بشرف متعلَّقه . ويلى ذلك فى الرتبة أُصْدِرتْ ، لآقتضائها إصــدارا فى الجملة ، والإصدارُ لا بُدّ له من مُصْدِرٍ ، وذلك المُصْــدر هو الرئيس الصادرةُ عنــه فى الحقيقة . وإنمـا كانتْ دونَ الأُولىٰ للتصريح بالضمير هناك دون هنا . ودُونَ ذلك فى الرتبــة صدَرتْ : لآقتضاء الحال صُدورَها بنفسها دُونَ دِلالةٍ علىٰ المُصْدِر أصلا .

ومن ذلك الفرقُ بين «ونبدى لعِلْمِه» و بين «ونوضِّح لعلمه» : فنبدى لعلمه أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه : لأن الإبداء يرجع فى المعنىٰ إلىٰ إظهار شىءٍ خفِىّ ، والإيضاح يَرْجِع إلىٰ بيانِ مُشْكِل ، وحصولُ الإشكال المحتاج إلىٰ الإيضاح ربما دلّ علىٰ بُعْد فَهْم المخاطَب عن المقصود، بخلاف إظهار الخَفِىّ فإنه لايَنْتهِى إلىٰ هـذا الحدّ .

ومن ذلك الفَرقُ بين « علْمِه الكريم » و بين « عِلمِه المبارك » فالكريم أعلىٰ من المبارك ، لأن فى الكريم عراقةَ أصل وشرفٍ قد تُوجَد فى المبارك وقد تتخلف عنه .

ومن ذلك الفرق بين « ومَرْسُومنا لفلان بكذا » وبين « والمَرْسُوم له بكذا » : فمرسومنا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب عنه لاشتماله علىٰ نون الجمع المقتضية للتعظيم ، ولذلك اختَصّت بالملوك دُونَ غيرهم ، بخلاف والمَرسُوم له بكذا فإنه عارٍ عن ذلك .

ومن ذلك الفرقُ بين «والمَسْئول» و بين « والمستَمَدّ » : فإن المسئول أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب اليه (١) ، فإن المسئول يتضمَّن نوعَ ذِلّةٍ بخلاف الاستمدادِ فإنه لا يستلزم ذلك .

ومن ذلك الفرق بين « بلغنا » و بين « أُنْهِىَ إلىٰ علمنا » و بين « اتصل بنا » : فاتصل بنا أعلىٰ من أُنْهِى إلىٰ علمنا ، لما فى معنىٰ الاتصال من الالصُوق ، بخلاف الإنْهاء ؛ وأُنْهِىَ إلىٰ علمنا أعلىٰ من بلغنا : لأن البلوغ قد يكون علىٰ لسان آحاد الناس .

(١) فى الاصول « عنه » والتصحيح من الضوء .

ومن ذلك الفرق بين « أنهىٰ فلان كذا » وبين « عرّفنا كذا » : فعرّفنا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ رافع الخبَر ، لأن فى التعريف مَزِيَّةَ قُربٍ من الرئيس ، بخلاف الإنهاء فإنه لا يقتضِى ذلك .

ومن ذلك الفرق بين « وردت مكاتبتُه » وبين « وردَتْ علينا مكاتبته » : فوردت علينا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ صاحب المكاتبة الواردة : لتخصيصها بالوُرُود علىٰ الرئيس بخلاف الوُرُود المطلق .

ومن ذلك الفرق بين « عُرِضَتْ علينا مكاتبتُك » وبين « وَقَفْنا علىٰ مكاتبتك » فوقفنا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ صاحب المكاتبة : لأن الوقوف عليها يكون بنفسه ، والعرض يكون من غيره .

ومن ذلك الفرق بين «وشكَرْتُ الله تَعالىٰ علىٰ سلامته» وبين «وتَوَالىٰ شُكْرِى للهِ تعالىٰ» : فتوالىٰ شُكْرِى أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه : لما فيه من معنىٰ التكرار ومَزِيد الشكر المَعْدُوق بالآحتفال .

ومن ذلك الفرق بين «ورَغِبْت إلىٰ الله تعالىٰ» وبين «وضَرَعْت إلىٰ الله تعالىٰ» : فضَرَعْت أعلىٰ من رَغِبْت : لما فى الضَّرَاعة من مزيد التأكيد فى الطَّلَب ، بخلاف الرَّغْبة فإنها لاتبلُغُ هذا المَبْلَغ .

ومن ذلك الفرق بين «وقابلْتُ أمْرَه بالطاعة» وبين «وآمتثَلْتُ أمره بالطاعة» : فآمتثَلْتُ أمْرَه أعلىٰ من قابلت أمْرَه ، لما فى الآمتثال من معنىٰ الإذعان والآنقيادِ ، بخلاف المُقابلَة .

ومن ذلك الفرق بين «وشَفَعْت له» وبين «وسألْتُ فيه»: فالسؤال أعلىٰ فى حق المسئول من الشَّفاعة : لمـا[1] فى الشفاعة من رِفْعة المقام المؤدّى إلىٰ قبُول الشفاعة.

ومن ذلك الفرقُ بين « وخاطبتُ فلانا فى أمره » وبين « وتحدّثتُ فى أمره » : فتحدّثت أشدّ فى تواضع المتكلِّم من خاطبت ، لأن الخطابَ من الألفاظ الخاصة التى لايتعاطاها كُلُّ أحد بخلاف التحدُّث .

ومن ذلك الفرق بين « تشْرِيفِى بكذا » وبين « إسعافى بكذا » [وبين « إتحافى بكذا »][2] فالإسعاف أعلىٰ رتبةً من التشريف لمـا فيه من دَعْوىٰ الحاجة والفاقة إلىٰ المطلوبِ ، بخلاف التشريف ؛ وإتحافِى دون تشريفِى لأن الإتحاف قد لايقتضى تشريفا .

ومن ذلك الفرق بين قوله : «نزل عِنْده» وبين قوله : «نزل بساحَتِه» : فالساحة أعلىٰ لمـا فيها من معنىٰ الفُسْحَة والاتّساع .

ومن ذلك الفرقُ بين «فيُحيط علمُه بذلك وبين فيَعْلَم ذلك» : فيُحيط علمه أعلىٰ من يَعْلَم ذلك : لأن فى قوله فيُحيط عِلمُه بذلك نِسبته إلىٰ سَعةِ العلم : لمـا فيه من معنىٰ الإحاطة بخلاف فيَعْلم ذلك .

---

(١) عبارة الضوء "لمـا فى السؤال من معنى الذلة وما فى الشفاعة من معنى الشرف" وهى أوضح .

(٢) الزيادة من الضوء وهى ساقطة من قلم الناسخ بدليل بقية الكلام .

الأصـــــل الخـــامس

(أن يعرِفَ مواقع الدُّعاء فى المكاتبات ، فيدْعُو بكل دُعاءٍ فى موضعه)

ويتعلق النظر فيه بســـتة أوجه

الأوّل — أن يَعْرِف مراتب الدُّعاء لِيُوقِعها فى مواقعها ، ويُورِدَها فى مَوَارِدها، ويتأتّى ذلك فى عدّة أدعية .

(منها) الدُّعاء بإطالة البَقَاء ، والدُّعاء بإطالة العُمُر : فالدعاء بإطالة البقاء أرفعُ من الدُّعاء بإطالة العُمُر . وذلك أن البقاءَ لا يَدُلُّ علىٰ مُدّة تنقضى لأنه ضِدُّ الفَنَاء ، والعُمُر يدلُّ علىٰ مدّة تنقضى؛ ولذلك يُوصَفُ الله تعالىٰ بالبقاء ولا يوصف بالعُمُر . قال فى "موادِّ البيان" : ومن هنا جُعِــل الدعاءُ بإطالة البقــاء أوّلَ مَرَاتب الدعاء وخُصَّ بالخلفاء، وجُعــل ما يليه لمن دُونَهم . ويتلوه الدعاء بالمَدّ فى العُمُر، فيكون دُونَ الدعاء بالإطالة ، لأن الوصــفَ بطُول الزمان أبلَغُ من الوصف بالمَــدِّ فيه من حيث إن المدّ قابلٌ للمــدّة الطويلة والمدّةِ القصــيرة ؛ ولذلك صارت مرتبةُ الطُّول أقربَ إلىٰ مرتبة البقاء من مرتبة المَدّ .

(ومنها) الدعاء بدَوامِ النِّعمة، والدعاء بمُضَاعفتها : فالدعاء بالمضاعفة أعلىٰ : لأن الدوامَ غايتُه آستصحابُ ماهو عليه، والمضاعفةُ مقتضيةٌ للزيادة علىٰ ذلك .

(ومنها) الدعاء بعِزِّ الأنصــار، وبعِزِّ النَّصْر، وبعِزِّ النُّصْرة . وقد آصطلح كُتّاب الزمان علىٰ أن جعــلوا أعلاها الدعاءَ بعز الأنصار، لأن عِزَّ أنصاره عِزٌّ له بالضرورة مع ما فيــه من تعظيم القَدْر ورِفْعــة الشأن ؛ إذ الأنصارُ لا تكون إلا لملِكٍ عظيمٍ أو أميرٍ كبــير . والدعاء بعِزِّ النصر أعلىٰ من الدعاء بعزِّ النُّصْرة : لمــا فى الأوّل من

معنىٰ التـذكير وهو أرفعُ رتبـةً من التأنيث . علىٰ أنه لو جُعِل الدعاء بعز النصر أعلىٰ من الدعاء بعز الأنصـار ، لكان له وجه : لمـا فى عز النصر من الغَنَـاء عن عِزِّ الأنصار .

(ومنها) الدُّعاء بعِزِّ الأحكام ، والدعاء بتأييـد الأحكام : فالدعاء بعِزِّ الأحكام أعلىٰ : لأن المراد بالتأييد التقويةُ ، فقد تُوجَدُ القوة ولا عِزَّ معها .

و ينبغى للكاتب أن يحترِزَ فى تنزيل كلِّ أحدٍ من المكتوب إليهم منزلته فى الدعاء ، فلا ينقصُ أحدا عن حقِّه ، ولا يزيدُه فوق حقِّه ، فقد قال فى "موادِّ البيان" : إن الملوك تَسْمَح ببَدَراتِ المـال ولا تسمح بالدَّعْوة الواحدة .

الثـانى — أن يَعْرِفَ ما يناسبُ كلَّ واحد من أرباب المَنَاصبِ الجليـلة من الدعاء فيخُصُّه به .

فيأتى بالدعاء فى المكاتَبَة للملوك بإطالة البقاءِ ، ودَوَامِ السـلطان ، وخُلُود المُلْك ، وما أشبه ذلك .

و يأتى فى المكاتبـة إلىٰ الأُمَراء بالدعاء بعِزِّ الأنصـار ، وعِزِّ النَّصْر ، ومُضَاعفة النِّعمة ، ومُدَاومتها وماشاكل ذلك . علىٰ أن ٱبن شيث قد ذكر فى "معالم الكتَابة" : أن الدعاء بعِزِّ النَّصر ومُضَاعفة الاقتدار كان فى الدولة الأيوبية مما يختَصُّ بالسلطان دُونَ غيره .

و يأتى فى المكاتبات للوزراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم بالدعاء بسُبُوغ النَّعْماء ، وتخليدِ السَّعادة ، ودَوامِ المَجْد ، وما يضاهِى ذلك .

و يأتى فى المكاتبـات للقُضاة والحُكَّام بالدعاء بعزِّ الأحكام ، وتأييـد الأحكام وما يُطابِق ذلك .

ويأتى فى المكاتبة إلىٰ التُّجّار بالدعاء بمزيد الإقبال، وخُلُود السعادة وشبه ذلك .

ويأتى فى المكاتبة فى الإخوانيّات ومكاتبات النُّظَراء من الدعاء بما يقتضيه الحال بينهم من الوُدِّ والإدْلال ، بحسَب ما يراه الكاتبُ ويؤدّى إليه ٱجتهادُه . قال فى "موادّ البيان" : وقد كانوا يختارون فى الدعاء للأُدَباء أبقاكَ الله، وأكرمكَ الله . وفى الدعاء للابن والحُرْمة أبقاك الله وأمتع بك .

* * *

أمّا أهل الكُفْر فقد ٱصطلحُوا علىٰ الدعاء لهم بطول البقاء وما فى معناه . أمّا جواز اصل الدعاء لهم فلمـا رُوِى أنّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم ٱستَسْقىٰ فسَقَاه يَهُودِىّ ، فقال له : جَمَّلك الله ، فما رُؤِى الشيبُ فى وَجْهه حتّى مات ، فدلَّ علىٰ جواز الدعاء للكافر بمـا لا ضَرَر فيه علىٰ المسلمين ما لم تنضم إليه قُوّة ونحو ذلك، بل ربمـا كان فى طُول بقائِه حملُ جزية أو غنيمةٍ أو ثوابُ جِهادٍ ونحو ذلك . وقد حكىٰ أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" : أن الشافعىّ رضى الله عنه قال لنصرانىّ : أعزّك الله ! فعُوتِبَ فى ذلك ، فقال ... ...(١)

وٱعلم أنه يجب مع ذلك أن يعرف مرتبةَ المكتوب إليه من الدعاء ، فيدعو بعِزّ الأنصار لواحدٍ، ويدعو بعِزّ النصر لمن دُونَه : لأن عزّ الأنصار مستلزم لعِزّ النصر. علىٰ أنه لو قيـل : إن عزّ النصر أعلىٰ لكونه دعاءً لنفس الشىء بخلاف الدعاء بعز الأنصار فإنه دعاءٌ لشىء خارجىّ لكان له وجه . ويدعو بعز النُّصْرة لمن دون مَنْ يُدْعىٰ له بعز النصر، لأنّ النصر مذكّر ورتبـةُ التذكير أعلىٰ من رتبة التأنيث .

---

(١) بياض فى الاصول بقدر كلمتين ولم يورده فى الضوء ولعل الشافعىّ ٱستدل بالحديث السابق .

ويدعو بدَوَام النعمة لواحِد ويدعُو بمضاعفة النِّعمة لمن دُونه (١) ، لأن الصيغة تقتضى مَزِيدا علىٰ القدر الحاصل ، بخلاف الدَّوام فإنه يقتضى آستصحاب القـدر الحاصل فقط ، وعلىٰ هذا النهج . قال فى "معالم الكتابة" : ولا يُكْتَب عن السلطان إلىٰ أحدٍ ممن فى ممالكه بلاَ زَالَ ، ولا بَرِح ، بل يختصُّ ذلك بملكٍ مثله . قال : ولاحرجَ فى الكتابة بذلك عن السلطان إلىٰ وَلَده إذا كان نائبًا عنه فى المُلْك . قال : وكذلك لايدعُو الأعلىٰ للأدنىٰ بلاَ زالَ ، ولا بَرِح .

قلت : والذى آستقرّ عليه الحالُ الكتابةُ عن السلطان بذلك لأكابر النُّوّاب ، ويكتب به أكابر الدّولة بعضهم إلىٰ بعض .

الثالث — أن يعرف مايناسب كلَّ حالة من حالات المكاتبات ، فيأتى لكل حالة بما يناسِبها من الدُّعاء . قال فى "موادِّ البيَان" : ينبغى أن تكون الأدعيةُ دالَّةً علىٰ مقاصد الكتَّاب : فإن كان فى الهَناء كان بما راجَتْ معرفَتُه ، وإن كان فى العَزاء كانتْ مشتَقَّةً من وَصْفه ، وكذلك سائرفُنون المكاتَبَات ، فإنه متىٰ خرجَ الدعاءُ عن المناسبة وبايَنَ المقصودَ ، خرج عن جادَّة الصناعة وتوجَّه اللومُ علىٰ الكاتب ، لاسيَّما إذا أتىٰ بما يُضادُّ المراد . كما حكىٰ أبو هلال العسكرىّ فى "الصناعتين" أن بعضهم كتب إلىٰ محبوبته : عَصَمنا اللهُ وإيَّاكِ مما يُكْرَه . فكتبَتْ إليه : ياغَلِيظَ الطَّبْع ! إن آستُجيبَ لكَ لم نلتقِ أبدًا .

ويختلف الحالُ فى ذلك باختلاف حال المكاتبات : فتارةً تكونُ باعتبار الشىءِ المكتوب بسبَبِه . كما يكتب فى معنىٰ البِشارة بجلوس المَلِك علىٰ تخْت المُلْك : لازال أمْرُه ! وأمتعه من البشائر بما يتوضَّح علىٰ جَبِينِ الصَّباح بِشْره ، وما يترَجَّح علىٰ مِيزان الكَواكب قَدْرُه ، وما ينْفَسِح من أوقات أمنٍ لايختلف فيها زيدُه وعَمْرُه .

(١) صوابه "لمن فوقه" كما هو مقتضى التعليل بعد وكما يؤخذ من عبارة الضوء ص ٤٢٣ .

وكما يُكْتَب فى البشرىٰ بفتح : ولا زالتْ آياتُ النصرِ تُتْـلَىٰ عليـه من صُحُفِ البشائر، ونفائسُ الظَّفَر تُجْلَىٰ علىٰ سِرّه فى أسْعَد طائر، ونوافحُ الفَتْح تُزْهىٰ به الأَسِرّةُ وتَزْهُو بنُوره المَنَابِر .

وكما يُكْتَب فى التهنئة بعافيـة، ولا بَرِح فى بُرْد الصحة رافلا ... ... [(1)] بعَزْمِه وحَزْمِه كافلا، والإقبالُ لجنابه العالِى بالهَنَاء بعافيته وَاصِلا .

وتارة تكون بٱعتبار حال المكتوبِ إليه التى هو بصَدَدها .

كما يكتب لمن خرج إلىٰ الغَزْوِ : وحفَّه بلُطْفه فلا يَخيب ، وهَيَّأله النصرَ والفَتْح القَرِيب، وجعـل علىٰ يَدَيْه دَمَار الكُفَّار حتّٰى لا يبقىٰ لهم بشِـدّة بأسه من السلامة نَصِيب .

وكما يكتب إلىٰ مَنْ خرج إلىٰ الصَّـيْد : وأمتَعه بصُـيُوده ، وجعل الأقدارَ من جُنُوده ، وأراه من مَصَارع أعدائه بسُيوفِه ورِماحِه ما يراه من مَصَارع صَيْده بُزَاتِه وفُهُوده .

وكما يُكْتَب لمن خرج فى سَفَر : وقضىٰ بقُرْب رَجْعته، وجعله كالهلَال فى مَسِيره سَبَبُ رِفعته ، وسكَّن بقُدُومه أشواقَ أوليائه وأهلِ محبَّته .

وكما يُكْتَب لمن خرج لتخضير البلاد : وألْبَس البلادَ بقُدُومه أخْضَرَ الأثواب ، وأحلَّهُ أشرفَ محلٍّ وأخْصَبَ جَناب .

وتارة تكون باعتبار وظيفة المكتوب إليه التى هو قائم بهـا

كما يُكْتَب إلىٰ كافل المملكة : ولازالَتْ كِفَايَةُ كَفَالته تزيدُ علىٰ الآمال ، وتَتَقَرَّب إلىٰ الله تعالىٰ بصالح الأعمال، وتَكْفُل ما بين أقصىٰ الجنُوب وأقصىٰ الشَّمَال .

(١) بياض فى الاصول بقدر كلمة ولعله ولا زال الزمان .

وكما يكتب إلىٰ قاض : وفَصَل بين الخُصوم بأحكامِه المسدَّده، وأقضيَتِهِ التى بها قواعدُ الإسلام ممَهَّده، وأبنيةُ الشرع المطهَّرِ وأركانُه مُشَيَّده .

وكما يكتب إلىٰ متصوّف : وأعاد من بَرَكات تهجُّداته ، وأنار الليالىَ بصالح دَعَواتِه .

وتارة تكون باعتبار بلد المكتوب إليه وناحِيَته .

كما يكتب إلىٰ نائب الشام : ولا زال النَّصْرُ حِلْيَةَ أيَّامه وشَامَةَ شامِه ، وغَمامة مايحلِّق علىٰ بلده المُخْصِب من غَمَامِه .

وكما يكتب إلىٰ نائب حَلَب فى زمن الحروب : ولا زال يُعَدّ ليوم تَشِيب فيه الوِلْدان، ويُصَدّ دُونَه كلُّ مُحَارِب بين الشَّهْباء والمَيْدان ، ويعُمُّ حَلَب من حلىٰ أيامه مالا يُفْقَد معه إلا ٱسمُ ٱبن حَمْدان، ونحو ذلك مما ينخرط فى هذا السلك .

وتارة تكون باعتبار ٱسم المكتوب إليه أو لقبِه .

كما يكتب إلىٰ مَنْ لقبه سيفُ الدين : ولازال سيفُه فى رقاب أعدائه مُغْمَدا ، وحَدُّه يَذَرُ كلَّ مُلحِد مُلْحَدا .

وكما يكتب إلىٰ مَنْ لَقَبُه عِزّ الدين : ولا زال عزُّه دائما، والزمانُ فى خِدْمته قائما، وطَرْفُ الدهر عن مراقبةِ سعادتِه نائما .

وكما يكتب إلىٰ مَنْ لقبه شمسُ الدين: ولا زالتْ شمسُ سعادته مُشْرِقه، وأغصان فضله بالعَوارف مُورِقَه ، وعيونُ طوارق الغِيَرِ عنه فى كلِّ زَمَن مُطْرِقه .

وكما يكتب إلىٰ مَنْ لقبُه ناصر الدين : ونَصر عزائمه، وشَكَر مكارِمَه ، ووَفَّر من الحسنات مَغَانِمَه . إلىٰ غير ذلك من الأمور التى ستقف علىٰ الكثير منها فى الكلام علىٰ مقاصد المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ .

الرابع — أن يعرف مواضع الدعاء على المكتوب إليه، ومَن الذى يُصَرَّح بذلك فى المكاتبة إليه . قد ذكر ٱبنُ شيث فى "معالم الكتابة" أن الدُّعاء على الأعداء فى صُدُور الكُتُب كان من عوائد مكاتبة الأدنى إلى الأعلى . مثل : وقَصَم، وأذَلَّ، وقهر، وخضد . وكذلك المماثل والمقارب؛ فأما من الأعلى إلى الأدنى فلم يكن ذلك معروفا عند المتقدّمين ، لاسيما إذا كان الكَتَابُ عن السلطان . ثم قال : ولكن قد أُفْلِتَ الحبلُ فى ذلك الآن [إلى أن] قال : ولا يقال للأدنى غير كَبَت عدوّه ، أو ضِدّه، أو حَسُوده خاصة .

ومنها(١) — أن يَعْرِف ما كرهه الكُتَّاب من الدعاء فيتجنَّبه. وهو على ضربين :

الضرب الأوّل

(ما كَرِهُوه فى المكاتبة إلى كل احد)

قال فى "موادّ البيان": كانت عادتُهم جاريةً ان يتجنَّبُوا من الأدعية مالا محصولَ له ، كقولهم : جَعلَنِي الله فِدَاكَ ، وقدّمَنِي إلى السُّوء دُونَك : لما فى ذلك من التصنُّع والمَلَق الذي لا يرضاه السلطان ، لأن نَفْس الداعى لا تَسْمَح باستجابته . ويؤيِّد ما ذكره ما كتبَ به ٱبن عبدِ كان إلى بعض أصدقائه : جُعِلْتُ فِدَاكَ على الصحة والحقيقة، لا على مَجْرى المكاتبة ومَذْهب العادة . قال فى "موادّ البيان" : وإنما يحسُن ذلك من الخوَاصّ الذين يتحقّقون أن بقاءهم معدوقٌ ببقاء رؤسائهم ، وثبات نِعَمهم مقرونٌ بثَبَات أيام سلاطينهم ، لأنه يصــدر عن عقائدَ مستحْكِمَة مِنْ بَذْل الأنفُس دُونَهم . وما ذهب إليه من كراهة ذلك قد نقل فى "صناعة الكُتَّاب" مثله عن مالك بن أنس ، وٱحتجَّ له بما رُوِى عن الزبير رضى الله عنه أنه قال

(١) عدّها فى الضوء مرتبة خامسة وهو أنسب .

للنبيّ صلّى الله عليه وسلم : «جُعِلْتُ فِدَاكَ ـ فقال له أما تَرَكْتَ أَعْرابِيَّتَك بَعْدُ ! » علىٰ أن بعضهم قد أجاز ذلك آحتجاجًا بقوله صلّى الله عليه وسلم لسَعْدِ بن مالك يومَ أُحُد : «اِرْمِ فِدَاكَ أَبِى وأُمّى » وبمـا رُوِى عن آبن عباس رضى الله عنهـما أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال له : « أَلَا أُعَلِّمُك كَلِمـاتٍ يَنْفَعُك اللهُ بهِنّ ؟ قال نَعَمْ جَعَلَنِى اللهُ فِدَاكَ ! » ولم يُنْكِر عليه ، ونحو ذلك ؛ وفى معنىٰ ذلك كلُّ ما يجرى هذا المجرىٰ ونحوه .

الضـــرب الثـانى

(ماتختصُّ كراهتُه بالبعض دُونَ البعض، وهو نوعان)

النوع الأوّل ـــ مايختص بالرجال، فمن ذلك ماذكره فى "موادّ البيان" : أنهم كانوا لا يَسْتَحْسِنون الدعاءَ بالإمْتـاع نحو أَمْتَع اللهُ بِك وأَمْتَعـنِى اللهُ بكَ ، فى حق الإخوان . وممـا يُحْكىٰ فى ذلك أن محمدَ بنَ عبد الملك الزَّيات، كتب إلىٰ عبد اللهِ ابن طاهر فى كتاب : وأَمْتَعَ بك؛ فكتب إليه عبدُ الله بن طاهر :

أَحُلْتَ عَمَّا عَهِدْتُ مِنْ أَدَبِكْ ؟ * أَمْ نِلْتَ مُلْكا فتِهْتَ فى كتبِـك ؟
أَتْعَبْتَ كَفَّيْـــكَ فى مُكاتَبَـتِى * حَسْبُك ممـا يَزِيدُ فى تَعَبِـكْ !
إنَّ جَفَاءً كتابُ ذِى مِقَـــةٍ * يكونُ فى صَدْره، "وأَمْتَعَ بِكْ" .

فأجابه محمدُ بنُ عبد الملك الزيّات معتذِرا بقوله :

كيف أَخُونُ الإخَاءَ يا أَمَلِى ؟ * وكلُّ شىءٍ أَنَالُ من سَبَبِكْ !
إنْ يَكُ جَهْلٌ أتاكَ من قِبَلِى، * فعُدْ بفَضْلٍ عَلَيّ من أَدَبِكْ .

علىٰ أن في كراهة الدعاء للإخوان بذلك نظرا فسيأتي في الكلام علىٰ ترتيب المكاتبات علىٰ سبيل الإجمال أن أمّ حَبِيبة بنتَ أبي سُفْيان زوجَ النبيّ صلّى الله عليه وسلم [قالت] : اللهم أَمْتِعْنِي بزَوْجِي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم وبأبي أبي سُفْيان، وبأخي مُعاوية ــ في حديث طويل يأتي ذكره هناك إن شاء الله تعالىٰ .

أما الدعاء بالإمتاع للأتْباع، فقد أجازه جماعةٌ من محقِّقي الكُتّاب، محتجِّين علىٰ ذلك بأنّه صلّى الله عليه وسلم دعَا لأبي اليَسَر : كَعْب بن عُبيد الله (1) بقوله « اللَّهُمَّ أَمْتِعْنا بِهِ» . قال ابن عفير : فكان آخِرَ أهلِ بَدْرٍ وفاةً، مات سنة خمس وخمسين من الهجرة .

النوع الثاني ــ ما يَخْتصُّ بالنساء . فقد ذكر «أبو جَعْفر النحاسُ» أنه لا يقال في مكاتبتهنّ « وأدام كَرَامَتَكِ » ولا « وأتَمَّ نعمتَهُ عليْكِ » ولكن لَدَيْكِ، ولا «فَضْله عندك» ولا «وأدام سَعادَتَك» . أما منع الدعاء لهنّ بالكَرامة، فلما حكىٰ محمدُ بن عمر المدائني أن بعض عمال زُبَيْدَةَ كتب إليها كتاباً بسبب ضِيَاع لها فوقّعتْ له علىٰ ظهر كتابه : أردت أن تدْعُوَ لنا فدعَوْتَ علينا، فأصلِحْ خطأك في كتابِكَ وإلا صَرفناك عن جميع أعمالك! . فأدركه القلَق ، وجعل يتصفّح الكتابَ ويَعْرِضُه علىٰ الكُتّاب فلا يجِدُ فيه شيئًا ، إلىٰ أن عَرَضه علىٰ بعض أهل المعرفة فقال : إنما كرهت دُعاءكَ في صدر كتابك بقولك : وأدام كَرَامَتك : لأنَّ كرامة النساء دفنهنّ ــ قال : رسول الله صلّى الله عليه وسلم « دَفْنُ البَناتِ من المَكْرُماتِ » فغيِّرْ ذلك الحرفَ من كتابه وأعاده إليها فوقّعت له علىٰ ظهره ــ أحسنْتَ ولا تَعُدْ ــ . وأما كراهة وأتمّ نعمته عليك وإبدالُ ذلك بلفظ وأتم نعمتَه لَدَيْك ، فكأنه لما يلْمَح فيه من ذكر العُلُوّ علىٰ النساء . وأما منع وأتَمَّ فضلَهُ عندك، أو وأتم سعادَتك فيحتاج إلىٰ تأمل .

(1) الذي في « خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للخزرجي (كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو) ونحوه في تاج العروس مادة ي س ر .

الخـامس — أن يتجنَّب الخِلافَ فى الدعاء فى فُصُول الكتّاب، ولا يُوالِيَ بين دَعْوتينِ منه [متفقتين] . فأما الخلاف فى الدعاء، فقال أبو جعفر النحاس : هو مثلُ أن يقول أطالَ اللهُ بقـاء سَيِّدى — بلفظ الغَيْبـة ، ثم يقول بعـد ذلك : وبَلَّغَك أملَك — بلفظ الخطاب . وأما المُوالاة بين دَعْوتين ولا يأتى بهما متفقتين(١) ، فقال فى "موادّ البيان" : هو مثل حَرَس اللهُ الأميرَ أعَزّه الله، ثم يقول فى الفصل الذى بعده : أعَزَّه الله تعالىٰ ، وما اشبه ذلك .

السادس — أن يتجنَّب وقُوعَ اللَّبْس فى الدعاء . فإذا ذُكِر الرئيسُ مع عدوّه مثـلا ، لم يَدْعُ للرئيس حينئـذ ، فإنه لو ذَهب يقول وقد كان من عَدُوّ سَيِّدى — أبقاهُ الله — كذا، لاحتمل عودُ الدعاء إلىٰ الرئيس وإلىٰ عَدُوّه فيقع اللَّبْس . أما إذا ذُكِر الرئيسُ وحده كما إذا قال : وقد كنتُ عرّفتُ سـيِّدى — أبقـاه الله — كذا ، فإنه لا ٱلتباسَ .

الأصـــــل السادس

(أن يَعْرِفَ ما يناسبُ المكتوبَ إليه من الألقاب فيُعْطِيَه حقَّه منها)

ويتعلقُ الغرضُ من ذلك بثلاثة أمور .

أحدها — أن يَعْرِف ما يناسب من الألقاب الأصول — المتقدّمةِ الذكرِ فى المقالة الثالثة عنـد الكلام علىٰ الألقـاب المصطلَح عليها بحَسَب ذلك الزمان : كالمَقَام، والمقرّ، والجَنَاب، والمَجلس — فى زماننا؛ فيعطىَ كلَّ أحد من المكتوب إليهم ما يليق به من ذلك؛ فيجعل المَقَام لأكابر الملوك . والمَقرّ لمَنْ دُونَهم من الملوك، وللرُّتْبة العُلْيا

(١) عبارة الضوء ص ٢٦ ٤ هكذا "وأما موالاة دعوتين متفقتين فمثل أن يقول أعزه الله تعالىٰ ثم يقول فى الفصل الذى بعده أعزه الله تعالىٰ" وهى أوضح .

من أهل المملكة . والجَنَاب للرتبة الثالثة من الملوك والرُّتْبة الثانية من أهل الدَّوْلة . والمجْلِسَ للرتبة الرابعة من الملوك والرتبــة الثالثة من أهل الدولة . ومَجْلِس الأمير لمن دُونَ ذلك من اهل الدولة علىٰ المصطلَح المستقِرّ عليه الحالُ .

الثــانى — أن يعرف ما يناسب كلَّ لقب من الألقاب الأُصُــول من الألقاب والنُّعوت التابعةِ لذلك؛ فيُتْبع كلَّ واحد من الأصول بمـا يناسبُه من الفروع .

الثالث — أن يَعْرِفَ مِقدارَ المكتوب إليه، فيُوَفِّيَه قِسْطَه من الألقاب فى الكَثْرة والقِلَّة بحسَب مايَجْرِى عليه الأصطلاحُ . فقد ذكر فى "مَعَالم الكِتَابة" أن السلطان لا يُكْثَر فى المكاتبة إليه من نُعُوته، بل يُقْتَصر علىٰ الأشياء التى تكون فيه : مثل العالم العــادل . أما غير ذلك فيقع باللقبين المشهورين : وهما نعتُه المفرَد، ونعته المضافُ إلىٰ الدِّين . وأنه فى الكتابة عن السلطان كُلَّمـا زِيدَ فى النُّعوت كان أمْيَز : لأنها علىٰ سبيل التشريف من السلطان، ويجعل المضاف إلىٰ الدين متوسِّطا بين الألقاب لا فى أوّلهـا .

الأصـــــــل السابع

(أن يُراعِىَ مقاصدَ المكاتَبَات ، فيأتِى لكل مقْصِد بمـا يناسبه)

ومَدَار ذلك علىٰ أمرين :

الأمر الأوّل — أن يأتىَ مع كل كلمة بمـا يليق بهـا ، ويتخَيَّر لكل لفظة مايشا كِلُها . قال ٱبن عبد ربه : وليكن ماتَخْـتِمُ به فُصولَك فى موضع ذكر البَلْوىٰ بمثــل : نسألُ اللهَ رَفْعَ المَحْذُور، وصَرْفَ المكروه، وأشباه ذلك . وفى موضع ذكر المُصيبة : إنَّا لِلهِ وإنا إليه راجِعُون . وفى موضع ذِكْر النِّعمة ، الحمدُ لله خالصًا ،

والشُّكْرُ لله واجبًا ، وما شاكل ذلك . قال فى "موادّ البَيَان" : وإذا ذكر البَلْوىٰ شفعها بالاستعانة بالله تعالىٰ والرُّجوع إليه فيها ، وردّ الأمْر إلىٰ حَوْله وقوّته . قال ٱبن عبد ربه : فإن هذه المواضعَ مما يتعيَّنُ علىٰ الكاتب أن يتفقَّدها ويتحفَّظ فيها ، فإن الكاتب إنما يصير كاتبا بأن يَضَع كلَّ معنًى فى موضعه ، ويُعَلِّق كلَّ لفظ علىٰ طِبْقه فى المعنىٰ .

ومما يلتحق بذلك أيضا أنه إذا ذُكِرَ الرئيس فى أثناء المكاتبة ، دعا له ، مثل أن يقول عند ذكر السلطان : خَلَّد الله مُلْكَه . وعند ذكر الأمير الكبير : عَزَّ نَصْرُه ، أو : أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَه . وعند ذكر الحاكم : أيَّد الله تعالىٰ أحكامَه ، وما أشبه ذلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ .

الأمر الثانى — أن يتخطَّى التصريحَ إلىٰ التلويح والإشارة إذا ألجأته الحال إلىٰ المكاتبة بما لا يجوز كَشْفُه وإظهارُه علىٰ صَراحته ، مما فى ذِكْره علىٰ نَصِّه هَتْكُ سِتْر، أو فى حكايته ٱطِّراحُ مَهابة السلطان ، وإسماعُه مايلزم منه إخلالُ الأدَب فى حقه ؛ كما لو أطلق عدُوُّه لسانَه فيه بلفظٍ قبيحٍ يَسُوءُه سماعُه . قال فى "موادّ البيان" : فيحتاج المنشئ إلىٰ ٱستعمال التَّورِيَة فى هذه المواضع ، والتلَطُّف فى العبارة عن هذه المعانى ، وإبرازها فى صورةٍ تقتضى تَوْفِيَةَ حقِّ السلطان فى التوقير والإجلال والإعظام ، والتنزيه عن المخاطبة بما لايجوزُ إمراره علىٰ سَمْعه ، وإيصالِ المعنىٰ إليه من غير خِيَانةٍ فى طَىِّ ما لا غِنًى به عن علمه . قال : وهذا مما لايستَقلُّ به إلا المبرِّزُ فى الصناعة ، المتصرِّف فى تأليف الكلام .

الأصـــــل الثـامن

(أن يَعْرِف مقدارَ فهم كل طبقة من المخاطَبِين فى المكاتبات من اللسان فيخاطب كلَّ أحد بما يناسبُه من اللفظ ، وما يَصل إليه فهمُه من الخطاب) .

قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين" : أوّلُ ماينبغِى أن تستعملَ فى كتابك مكاتبةُ كل فريق علىٰ مقدار طبقتهم فى الكلام وقُوّتهم فى المَنْطِق . قال : والشاهد علىٰ ذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم لَمَّا أراد أن يكْتُب إلىٰ أهل فارس ، كتب إليهم بمـا يُمْكِنُهم ترجمتُه فكتب إليهم : "مِنْ محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ كِسْرىٰ أبْرَوِيز عظيمِ فارسَ ، سلامٌ علىٰ مَنِ ٱتَّبع الهُدىٰ وآمَنَ باللهِ ورَسُوله ، وأدْعُوك بدعايةِ اللهِ فإنى أنا رسولُ اللهِ إلىٰ الناسِ كافَّةً ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا ويَحِقَّ القَوْلُ علىٰ الكافرين﴾ فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، وإن أبَيْتَ فإثمُ المَجُوس عَلَيْكَ" فسهَّل رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم الألفاظَ غايةَ التسهيل حتّى لا يخفىٰ منها شيءٌ علىٰ مَنْ له أدنىٰ معرفةٍ بالعربيَّة .

ولمـا أراد أن يكتُبَ إلىٰ قوم من العرب ، فَخَّم اللفظ لِمـا عَرَف من قُوّتهم علىٰ فَهْمه ، وعادَتِهِم بسَماعِ مثله ؛ فكتب لوائلِ بن حُجْرٍ الحَضْرمىّ : "من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ الأقْيـالِ العَباهِلَةِ من أهْلِ حَضْرَمَوْتَ بإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ : علىٰ التِّيعةِ الشاةُ ، والتِّيمةُ لصاحِبِها ، وفى السُّيُوب الخُمُس ، لا خِلاَطَ ولا وِرَاطَ ولا شِنَاقَ ولا شِغَارَ ، ومن أجْبىٰ فقد أرْبىٰ ، وكلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ" .

وقد ذكر العَسْكَرىّ أيضا فى باب الإطنـاب ما يحسُنُ أن يكون شاهدًا لذلك من القرءان الكريم ــ فقال : قد رأينا أنَّ اللهَ تعالىٰ إذا خاطب العَرَبَ والأعْرابَ، اخرج الكلامَ مَخْرَجَ الإشـارة والوَحْى كما فى قوله تعـالىٰ خطاباً لأهـل مـكة

﴿إنَّ الذين تَدْعونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً ولوِ آجتمَعُوا لَهُ وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْـهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطْلُوبُ﴾ وقوله : ﴿إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بِمَـا خَلَقَ ولَعَـلَا بَعْضُهُمْ علىٰ بَعْضٍ﴾ وقوله : ﴿أَوْ أَلْقىٰ السَّـمْعَ وهُوَ شَهِيدٌ﴾ فى أشـباهٍ كثيرةٍ لذلك . وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكىٰ عنهم ، جعل الكلامَ مَبْسوطا ، كما فى سورة طٰه وأشباهها ، حتّٰى إنه قَلَّما تجدُ قِصَّةً لبنى إسرائيل فى القرءان إلا مُطوّلةً مشروحةً ومكرَّرةً فى مواضعَ مُعادةً ، لبُعْد فَهْمِهِم ، وتأخُّر معرفَتِهِمْ .

قال فى "موادّ البيان" : فيجبُ علىٰ الكاتب أن يتنقَّل فى آستعمال الألفاظ علىٰ حسَب ما تقتضيه رُتَبُ الخطاب والمخاطَبِين ، وتُوجِبُه الأحوالُ المتغايرة ، والأوقات المختلفـةُ : ليكون كلامُه مُشاكلا لكلٍّ منهـا ، فإن أحكام الكلام تتغيَّر بحـكم تغيُّر الأزْمِنة والأمْكِنة ومنازِل المخاطبين والمُكاتَبِين .

قال : ولتحرِّى الصَّدْر الأوّلِ من الكُتَّاب إيقاعَ المناسبة بين كُتبهم وبين الأشياء المتقدّمة الذكر آسـتعمل كُتَّاب الدولة الأُمَوِيَّة من الألفاظ العربيةِ الفَحْلة ، والمتينةِ الجَزْلة ، ما لم تَسـتعمِلْ مثلَه الدولةُ العباسـيَّة : لأن كُتَّاب الدولة الأُمَوِيَّة قصدُوا ماشاكلَ زمانَهُم الذى آستفاضَتْ فيـه علومُ العرب ولُغاتُهـا ، حتّٰى عُدَّتْ فى جملة الفضائل التى يُتَنافَسُ علىٰ آقتنائها ، والأمكنةَ التى نزلها ملوكُهُم من بلاد العرب ، والرجالَ الذين كانت الكُتُب تصْدُر إليهم ؛ وهم أهل الفَصَاحة واللَّسَن والخَطَابة والشِّعر .

أما زمان بنى العباس ، فإن الهِمَمَ تقاصرتْ عمَّا كانت مُقْبِلة علىٰ تطلُّبه فيما تقدّم من العلوم المقدّم ذكرُها ، وشُغِلتْ بغيرها من علوم الدين ؛ ونزل مُلُوكُهم ديارَ العِراق وما يُجاوِرُها من بلاد فارِسَ ، وليس آستفاضةُ لغةِ العرب فيها كاستِفاضتها فى أرض الحجاز والشام . ومن المعلوم أن القوم الذين كانوا يُكاتَبُون عنهم لايُجارُون تلك الطبقة

فى الفَصَاحة والمْعرِفة بدِلالا تِ الكلام؛ فانتقَل كُتَّابُها من اللفِظ المَتِـين الجَزْل، إلىٰ اللفظ الرَّقيق السَّهْل ؛ وكذلك ٱنتقل متأخِّرو الكُتَّاب عن ألفاظ المتقدّمين إلىٰ ماهو أعذبُ منها وأخَفُّ، للمعنىٰ المتقدّم ذكره .

قال : وحينئذ ينبغى للكاتب أن يُراعِىَ هذه الأحوالَ، ويُوقِعَ المُشاكلة بين مايَكْتُبه و بينها ، فإذا ٱحتـاج إلىٰ إصدار كتابٍ إلىٰ ناحيـةٍ من النواحى ، فلْينْظُرْ فى أحوال قاطنيها : فإن كانوا من الأُدباء البُلَغاء العارفين بنظم الكلام وتأليفه، فلْيُودِعْ كتابَهُ الألفاظَ الجَزْلة، التى إذا حُلِّيَتْ بهـا المعانى زادتْها فخامة فى القلوب، وجَلالةً فى الصُّــدُور . وإن كانوا ممن لا يُفَرِّق بين خاص الكلام وعامِّه ، فليُضَمِّنْ كتابَهُ الألفاظَ التى يَتَساوىٰ سامعُوها فى إدراك معانيهـا ، فإنه متىٰ عَدَل عن ذلك ضاع كلامُه ، ولم يصِـلْ معنىٰ ما كتبَ فيه إلىٰ مَنْ كاتبه : لأن الكلام البليغَ إنمـا هو موضُوعٌ بإزاء أفهام البُلَغاء والفُصَــحاء . فأما العَوامُّ والحُشْوة : فإنمـا يَصِــل إلىٰ أفهامهم الكلامُ العاطِلُ من حُلىٰ النَّظْم ، العـارى من كُسْوة التأليف ، فيجب علىٰ الكاتب أن يستعمل فى مخاطبة مَنْ هذه صورتُه أدْنىٰ رُتَب البلاغة وأقربهَا من أفهام العامّة والأمم الأعجميَّة إذا كتب إليهم .

ثم قال : فأما الكُتُب المعتدّة عن السلطان، فإنَّ منها كُتُبَ الفتوحات والسلامات ونحوها، وهى محتملةٌ للألفاظ الفَصِيحة الجَزْلة، والإطالةِ القاضيةِ بإشباع المعنىٰ ، ووصوله إلىٰ أفهام كافَّة سامِعيه من الخاص والعـامّ . ومنها كُتُب الخراج وجِبَايته وأمورِ المعاملات والحِساب، وهى لا تحتمل اللفظَ الفصيح، ولا الكلامَ الوجيزَ لأنها مبنيَّة علىٰ تمثيل مايُعْمَل عليه، وإفهام مَنْ لايصل المعنىٰ إلىٰ فهمه إلا بالبَيان الشافى

فى العِبارة . ومنها مخاطبته السلطان عن نفسه ، فيجبُ فيها مخاطبته علىٰ قدر مَكَانه من الخِدْمة من الألفاظ المتوسِّطة، ولايجوز أن يستعمل فيها الفصيحةَالتى لاتُحْتَمل من تابع فى حقِّ مَتْبوع : لمــا فيه من تعــاطِى التفَاصُح علىٰ ســلطانه، وهو غيرُ جائز فى أدب الملوك ؛ وكذلك لا يجوز فيه تعَاطِى الألفاظ المبتَــذَلة الدائرة بين السُّوقة، لمــا فى ذلك من الوضع من السلطان بمقابلته إيَّاه بمــا لايُشْبِه رُتْبَتَه .

وأما الكتب الإخوانِيَّــاتُ النافذة فى التَّهانى والتَّعازى، فإنهــا تحتَمِل الألفاظَ الغريبةَ القويَّةَ الأخْذِ بمجامع القُلُوب، الواقعةَ أحسن المواقع من النُّفُوس : لأنها مبنيَّة علىٰ تحسين اللفظ ، وتزيين النظم ؛ وإظهارُ البَلَاغة فيها مستحسنٌ واقعٌ مَوْقِعه .

قلت : والذى تُراعىٰ الفصاحةُ والبلاغةُ فيهمن المكاتبات عن الأبواب السلطانية فى زماننا مكاتَبَاتُ ملوك المَغْرب : كصاحب تُونُس، وصاحب تِلِمْسانَ، وصاحب فاس، وصاحب غَرْناطة من الأندَلُس ، وكذلك القاناتُ العِظامُ من ملوك المَشْرِق ومَنْ يجرِى هذا المَجْرىٰ، ممن تَشْتَمِل بلادُه علىٰ العلمــاء بالبلاغةِ وصِناعة الكِتابة . ويظهر ذلك بالاستِخْبار عن بلادهم، وبالاطِّلاع علىٰ كُتُبِهم الصادرة عن ملوكهم إلىٰ الأبواب الســلطانية . بخلاف مَنْ لاعِنايةَ له بذلك : كحُكَّام أصاغِر البُــلْدان وأصحاب اللُّغات العجمية : من الرُّوم والفَرَنْج والسُّودان ومَنْ فى معناهم؛فإنه يجب خطابُهم بالألفاظ الواضحة ، إلا أن يكون فى بعضِ بلادهم مَنْ يتعاطىٰ البلاغةَ من الكُتَّاب ووردَتْ كتبُهم علىٰ نَهْجها فإنه ينبغى مكاتبتُهم علىٰ سَنَن البلغاء .

الاصـــل التـاسع

(أن يُراعِىَ رتبــةَ المكتوب عنــه والمكتوب إليـــه فى الخطاب ،
فيعبِّر عن كل واحدٍ منهـــما فى كلِّ مكاتبة بمـا يليق به ،
ويُخاطِب المكتوبَ إليه بمـا يقتضيه مَقامُه)

فأما المكتوب عنه، فيختلف الحالُ فيه باختلاف مَنْصِبه ورُتْبته .

فإن كان المكتوبُ عنه خليفةً، فقد جرتْ عادةُ مَنْ تقدّم من الكُتّاب بالتعبير عنه فى الكُتُب الصادرة عن أبواب الخلافة بأمير المؤمنين، مثل أن يقال : فَجَرىٰ أمرُ أمير المؤمنين فى كذا علىٰ كذا وكذا ، وأوْعَزَ أمير المؤمنين إلىٰ فلان بكذا ، واقتضىٰ رأْىُ أمير المؤمنين كذا، وخرَج أمرُ أمير المؤمنين بكذا، وتقدّمَ أمرُ أمير المؤمنين إلىٰ فلان بكذا ، وما شاكل ذلك . وربمـا عُبِّر عنه بالسلطان ، مثلُ أن يقال فى حَقِّ المخالفين : وحارَبُوا عساكِرَ السلطان ، أو وَمنعُوا خراجَ السلطان وما أشبه ذلك ، يريدون الخليفةَ، علىٰ ماستقِف عليه فى الكُتُب التى نُورِدها فى المكاتباب عن الخُلَفاء فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وقال ابن شيث فى " معالم الكتابة " : ويُخاطَبُ بالمَوَاقف المقدّسة الشريفةِ ، والعَتَبات العالية ، ومَقَرّ الرحمة ، ومَحلِّ الشرف. وذكر المَقَرّ الشِّهابِىّ بن فضل الله فى " التعريف " نحوه . فقال : ويُخاطَبُ بالديوان العزيز، والمَقَـامِ الأشرف، والجانب الأعْلىٰ أو الشريف، وبأمير المؤمنين، مجرّدةً عن سيِّدنا ومولانا، ومرّةً غير مجرّدة، مع مراعاة المناسبه، والتسديد والمقاربه . قال : وسبب الخطاب بالديوان العزيز الخُضْعانُ عن مخـاطبة الخليفة نفسِــه ، وتنزيلُ الخطاب منزلةَ مَنْ يخاطب

نفس الديوان ؛ والمعْنِيُّ به ديوانُ الإنشاء، إذ الكُتُب وأنواع المخاطبات إليه واردةٌ وعنـــه صادرةٌ .

وقد سـبق فى الكلام علىٰ الألقاب فى المقالة الثالثة نَقْلا عن ٱبن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكتّاب" إنكارُ هذه الاسـتعارات والمخْترَعات(١) ، وسـيأتى فى المكاتبة إلىٰ الخلفاء ذكْرُ ترتيبها إن شاء الله تعالىٰ .

وإن كان المكتوب عنه مَلِكا ، فقد جرتِ العادةُ أن يعبَّر عنه بنون الجمع للتعظيم فيقال : فعَلْنا كذا، وأمَرْنا بكذا، وٱقتضتْ آراؤنا الشريفةُ كذا، وبرَزَتْ مراسِيمُنا بكذا، ومَرْسُومنا إلىٰ فلان أن يتقدّم بكذا، أو يتقدّم أمره بكذا، وماأشبه ذلك . وذلك أن ملوكَ الغَـرْب كانوا يجْرُون علىٰ ذلك فى مخاطباتهـم ، فجرتِ الملوكُ علىٰ سَنَنِهم فى ذلك . وفى معنىٰ الملوك فى ذلك سائرُ الرؤساء : من الأُمَراء، والوُزَراء، والعلماء، والكُتّاب، ونحوهم من ذوى الأقدار العلية، والأخطار الجليـلة، والمراتب السنِيَّة فى الدِّين والدنيا ، ممَّنْ يصلُح أن يكون آمرا وناهيا، إذا كتبوا إلىٰ أتباعهم ومأمُوريهم، إذ كانت هذه النون مما يختَصُّ بذوِى التعظيم دُونَ غيرهم . وشاهدُ ذلك من القرءان الكريم قوله تعالىٰ : ﴿حَتَّى إذا حَضَرَ أحَدَهُم المَوْتُ قال رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ فدعاه دعاء المُفْرَد لعَدَم المشارَكة له فى ذلك الاسم، وسأله سُؤالَ الجمع لمكان العَظَمة، إلىٰ غير ذلك من الآيات الواردةِ مَوْرِدَ الاختصاص له كما فى قوله تعـالىٰ : ﴿ إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرْضَ وَمَنْ عَلَيْها ﴾ وقوله : ﴿ إنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتىٰ ﴾ وقوله : ﴿نَحْن الوارِثُونَ﴾ وغير ذلك من الآيات . قال فى "معالم الكتابة" : وقد أخذ كُتّاب المغرب بهـذا مع وُلاة أمورِهم فى الجمع بالميم فخاطبوا الواحدَ مخاطبةَ الجمع مثـل : أنتم، وفعلتم، وأمَرْتم، وما أشبه ذلك .

---

(١) فى الاصول والخوارع وهو تعبير عرفى .

قلت : والأمرُ فى ذلك عندهم مستـمِرٌ إلىٰ الآنَ . قال ٱبن شيث : وهو غيرُ ماصُورٍ به عند غيرهم .

وإن كان المكتوب عنـه مَرْءُوسا بالنسبة إلىٰ المكتوبِ إليه كالتـابع ومَنْ فى معناه ، فقال فى " موادِّ البيان " : ينبغى أن يَتَحَفَّظ فى الكُتُب النافذة عنه من الإتيان بنُون العظمة وغيرها من الألفاظ التى فيها تعظيمُ شأنِ المكتوبِ عنه مثـل أن يقول : أمرتُ بكذا ، أو نهيتُ عن كذا ، أو أوعَزْتُ بكذا ، أوتقدّمَ أمْرِى إلىٰ فلانٍ بكذا ، أو أنْهِىَ إلىّ كذا ، أو خرج أمْرِى بكذا ، وما فى معنىٰ ذلك ممـا لايُخاطَبُ به الأتباعُ رُؤساءَهم ، بل يعـدل عن مثل هذه الألفاظ إلىٰ مايؤدّى إلىٰ معناها مما لاعظمة فيه ، مثل أن يقول : وجدْتُ صواب الرأى كذا ففعلْته ،ورأيت السياسةَ تقتضِى كذا فأمضيْتُه ، وما أشبه ذلك ،إن كان عُرْفُ الكُتَّاب علىٰ الخطاب بالتاء ، وإلا قال : وجد المملوكُ صوابَ الرأى كذا ففعله ، ورأىٰ السـياسةَ تقتضِى كذا فأمضاه ، وما يجرى هذا المَجْرىٰ .

***

وأما المكتوب إليه ، فقال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه " الصناعتين " : ينبغى أن يَعْرِف قدرَ المكتوب إليه من الرؤساء ، والنُّظَراء ، والعلمـاء ، والوُكَلاء : ليُفَرِّق بين مَنْ يُكتب إليه «أنا أفعلُ كذا» ومَنْ يكتب إليه «نحن نَفْعَل كذا» (فأنا) من كلام الأشباه والإخوان ، (ونحنُ) من كلام الملوك ، ويفرّق بين من يُكتب إليه «فإن رأيتَ أن تفعلَ كذا» وبين من يكتب إليه : (فرأْيَك) . قال فى "موادّ البيان" : وذلك أن قولهم فإن رأيتَ أن تفعَلَ كذا لفظُ النُّظَراء والمُساوِين ، بخلاف فَرأْيَك ، فإنه لا يكتبه إلا جليـاًّ ، معظَّم : لتضمنهـا معنىٰ الأمر والتقـديرُ فَرَأْيَك ، بخلاف فإن رأيت ، فإنه لا أمر فيـه ، إذ يقال : فإن رأيت أن تفعل كذا فافعـله . علىٰ أن الأخفش

قد أنكر هذا على الكُتّاب، لأن أقل الناس يقول للسلطان : آنظُرْ فى أمرى، ولفظه لفظ الأمر ومعناه السؤال . وذكر مثله فى "صناعة الكُتّاب" عن النحويين . قال فى "موادّ البيان" : وحُجّة الكُتّاب أن المشافهةَ تحتمل مالا تحتمله المكاتبةُ، لأن المشافهةَ حاضرٌ يحضُر الإنسانَ لايمكنه تقييدُه وترتيبه، والمكاتبة بخلاف ذلك، فلا عُذْرَ لصاحبها فى الإخلال بالأدَب . قال آبن شيث : وقد آصطلَحُوا على أن يُكْتَب فى أواخر الكتب : «وللآراءِ العاليةِ فضلُ السُمُوّ والقُدْرة إن شاء الله تعالى» . ودُونَ ذلك : «وللرأْى السامِى حكمه» ودونه : «والرأى أعلى» . ودونه : «والرأْى مُوَفَّق» وموفَّقا بالرفع والنصب . ودونه : «ورأْيُه» للمجلس : «ورأْيُها» للحَضْرة . قال : وربما قالوا : «فإن رأى مولانا أن يكون كذا وكذا أمر به أو فعل» إلا أنها لاتقومُ مقامَ قوله : والرأى أعلى . فأما لمن دُونهُ فمحتمل . وذكر أنه كان مصطلَحُهم أن يقال فى آخر كُتُب السلطان : «فاعلَمْ ذلك وآعمَلْ به إن شاء الله تعالى» . وأن أعيان أصحاب الأقلام كانوا يكتُبونه إلى مَنْ دُونَهم .

قلت : والذى آستقرّ عليه الحالُ أن يُكْتَب فى مثل ذلك : «وللآراءِ العاليةِ مزيدُ العُلُوّ» وأن تختم الكتابةُ للأكابر بمثل : «فنُحيط علْمَه بذلك» ولمن دونهم : «فنُحيط بذلك علما» وللأصاغر : «فليَعْلَمْ ذلك ويعتمدْه» ونحو ذلك . قال محمدُ آبنُ إبراهيم الشيبانىّ : إن آحتجتَ إلى مخاطبة المُلوك والوُزَراء والعلماء والكُتّاب والأُدَباء والخُطَباء وأوساطِ الناس وسُوقَتِهم، نخاطِبْ كلًّا منهم على قَدْر أُبَّهته وجَلالته وعُلُوّه وآرتفاعه وفِطْنته وآنتباهه . ولكل طَبَقة من هذه الطَّبَقات معانٍ ومذاهبُ يجب عليك أن ترْعاها فى مُراسلتك إيّاهم فى كُتُبك، وتزِنَ كلامَك فى مخاطبتهم بميزانه، وتُعطِيَه قِسمته، وتُوفِّيَه نصيبه؛ فإنه متى أهملْتَ ذلك وأضعْتَه، لم آمنْ عليكَ أن تَعدِل بهم عن طريقتهم، وتسْلُكَ بهم غيرَ مَسْلَكِهم،

وتُجرِى شُعاعَ بلاغتك فى غير مَجْراه ، وتَنْظِم جَوْهَر كلامك فى غير سِلْكه ، فلاتعتدّ بالمعنىٰ الجَزْل ما لم تَكْسُه لفظا مختلِفا علىٰ قَدْر المكتوب إليه ؛ فإن إلباسَكَ المعنىٰ ـ وإن صح إذا أُشْرِب ـ (١) لفظا لم تَجْرِبه عادةُ المكتوب إليه تَهْجينٌ للمعنىٰ ، وإخلالٌ بقَدْر المكتوب إليـه ، وظُلْمٌ يَلْحَقه ، ونقصٌ ممـا يجب له ؛ كما أن فى آتباع مُتعارَفِهم ، وما آنتشرتْ به عادَتُهم ، وجَرَتْ به سُنَّتهم ، قَطْعاً لعُـذْرهم ، وخُروجًا عن حَقِّهم ، وبُلُوغا إلىٰ غايةِ مُرادِهم ، وإسقاطًا لحُجَّةِ أدبهم . قال آبنُ عبد ربه : فامتثِلْ هذه المذاهبَ وأجْرِ عليها القوم (٢) .

قال فى "موادّ البيان" : وذلك أن المعانِىَ التى يُكْتَب فيهـا وإن كان كلٌّ منها جنسا بعينه : كالتهنئة والتَّعْزِية والآعتــذار والعِتَاب والآستِظْهار ونحو ذلك ، فإنه لا يجوز أن يخرُج المعنىٰ لكلِّ مخاطَبٍ علىٰ صيغةٍ واحدةٍ من اللفظ ، بل ينبغى أن يخرُجَ فى الصيغة المشاكلةِ للمخاطَب ، اللائقة بقَدْره ورُتْبته . ألا ترىٰ أنك لو خاطبت سـلطاناً أو وزيرًا بالتعزية عن مُصيبةٍ من مَصَائب الدنيا ، لمـا جاز أن تَبْنِىَ الكلام علىٰ وَعْظِه وتَبْصِيره وإرشادِه وتذكيره وحَضِّه علىٰ الأخْذ بحظٍّ من الصَّبر ، ومجانَبة الجَزَع ، وتلَقِّى الحـادثاتِ بالتسليم والرِّضا ؛ وإنمـا الصواب أن تبنِىَ الخطابَ علىٰ انه أعلىٰ شانا ، وأرفعُ مكانا ، وأصحُّ حَزْما ، وأرجَحُ حِلْمـا ، من أن يُعَزّىٰ ؛ بخلاف المتأخِّر فى الرتبة ، فإنه إنما يُعزّىٰ تنبيها وتذكيرا ، وهدايةً وتبصيرًا ، ويعرّفُ الواجبَ فى تلقِّى السَّرَّاء بالشُّكر ، والضَّرَّاء بالصبر ، ونحو ذلك .

وكذلك إذا كاتبت رئيسًا فى معنىٰ الآستزادةِ والشَّكْوىٰ ، لايجوز أن تأتى بمعناهما فى ألفاظهما الخاصَّة ، بل يجب أن تَعْدِل عن [ألفاظ] الشكْوىٰ إلىٰ ألفاظ الشُّكْر ،

(١) هذا الشرط غير موجود فى الضوء .

(٢) لم يذكر فى الضوء لفظ القوم .

وعن ألفاظ الآستزادة إلى ألفاظ الآستعطاف والسؤال فى النظر، لتكون قد رتبت كلامك فى رتبته، واخرجت معناك مخرج من يستدعى الزيادة لا من يشكو التقصير .

قال آبن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يخاطب السلطانُ فى خلال الكتابة إليه بسيدنا مكان مولانا، فإن سيدنا كانها خصصت بأرباب المراتب الدينية والديوانية، ومولانا تخص السلطانَ وحده، وإن كان من نعوت السلطان السيد الأجلّ .

قال : على أن ذلك مخالف لمذهب المغاربة : فإنهم يعبرون عن ولاة أمورهم بالسادة، ويعبرون عن صاحب الأمر بسيدنا؛ وكأن هذا كان فى زمانه، وإلا فالمعروفُ عند أهل المغرب والأندلس الآنَ التعبيرُ عن السلطان بالمولى، يقول أحدهم مولانا فلان . وأهلُ مصر الآنَ يُطلقون السادةَ على أولاد الملوك .

وكذلك لو وقع واقع للسلطان فنصحتَه لم يجز أن تورد ذلك مورِدَ التنبيه على ما أغفله، والإيقاظ لما اهمله، والتعريف من الصواب لما جهله : لأن ذلك من القبيح الذى لايحتمله الرؤساء من الأتباع، ولكن تبنى الخطابَ على أن السلطان اعلى وأجلّ رأيا، وأصحّ فكرا، وأكثرُ إحاطةً بصُدورِ الأمور وأعجازها، وأن آراء خدمه جزء من رأيه، وأنهم إنما يتفرسون مخايِلَ الإصابة بما وقفوا عليه من سلوك مذهبه، والتأدب بأدبه، والآرتياض بسياسته، والتنقل فى خدمته، وإن مما يفرضونه فى حكم الإشفاق والآهتمام، وما يُسبغ عليهم من الإنعام، المطالعةَ بما يجرى فى أوهامهم، ويحدث فى أفكارهم، من الأمور التى يتخيلون أن فى العمل بها مصلحةً للدولة، وعمارةً للملكة، ليتصفحه بأصالة رأيه التى هى أوفرُ وأثبتُ . فإن آستصوبه أمضاه، وإن رأى خلافه ألغاه، وكان الرأىُ الأعلى مايراه؛ إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

قال ابن شيث فى " معـالم الكتابة " : ولا يقارِنُ الكاتبُ السـلطان فى تكرار المواضع التى يقع الآلتباسُ فيها بين الكاتب والمكتوب إليه ، لأن هاءَ الضمير تعود عليهـما معا لمـا تقدّم من ذِكْرهما، وإن كان فى القرينة مايدُلُّ علىٰ ذلك بعد الفِكرة وإذا آبتدأ معهم بالمملوك لايقال بعـد ذلك العَبْد ولا الخادم، وإن كان ذلك جائزا مع غير السلطان .

قال : ولا بأس بتكرار الإشارة إلىٰ السـلطان فى المواضع التى يَحْمِل فيها الآشتراكُ بينه وبين المكتوب إليه،مثل أن يقال: وكان قد ذَكَركذا وكذا، والضميرُ فى كان يصلُح لهما معا ، فلا بُدّ هُنا من ذكر المملوك، إن كان الآلتباسُ من جهـة الكاتب ، أو مولانا إن كانت الإشارةُ إلىٰ السلطان .

الأصـــــــل العـاشر

(أنـ يُراعِىَ مَوَاقع آيات القرءان والسَّـجْع فى الكُتُب، وذكرِ أبيات الشعر فى المكاتبات)

أما آياتُ القرءان الكريم، فقد ذكر آبنُ شيث فى "معالم الكتابة" أنها فى صَدْر الكُتُب قد يذكرها الأدنىٰ للأعلىٰ فى معنىٰ ما يَكْتُب به ، مثـل قوله تعـالىٰ : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ وقوله تعـالىٰ : ﴿وقالُوا الحمدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُور﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات المناسـبة للوقائع وإن كانتْ فى أثنـاء الكُتُب، فقد آستشهد بها جماعةٌ من الكُتّاب فى خلال كتبهم ممـا رأيتُه .

*
* *

وأما السجع، فقد ذكر ابن شيث: أنه لا يُفرَق فيه بين كتاب الأعلىٰ للأدنىٰ وبالعكس، وأنه بما يُكْتَب عن السلطان أليَقُ؛ لكن قد ذكر بعض المتأخرين أن الكتابةَ بالسَّجْع نقصٌ فى حق المكتوب إليه، وقضيّته أنه لا يُكْتَب به إلا من الأعلىٰ للأدنىٰ، إلا أنَّ الذى جرىٰ عليه مصطلح كُتَّاب الزمان تخصيصُه ببعض الكُتُب دُونَ بعض من الجانبين.

*
* *

وأما الشعرُ فيُورِدُه حيثُ يحسُن إيرادُه، ويمنعُه حيثُ يحسُن منعُه، فليس كلُّ مكاتبة يحسُن فيها إيرادُ الشعر، بل يختلفُ الحالُ فى ذلك بحسَب المكتُوب عنه والمكتوبِ إليه. فأما المكاتباتُ الصادرةُ عن الملوك والصادرةُ إليهم، فقد ذكر فى "موادِّ البيان": أنه لا يُتمَثَّل فيها بشيءٍ من الشعر، إجلالًا لهم عن شَوْب العبارة عن عَزائِم أوامِرِهم ونَوَاهِيهم والأَخْبار المرفوعةِ إليهم، بما يُخالف نَمَطها ووضْعَها، ولأن الشعرَ صناعةٌ مغايرةٌ لصناعة الترَسُّل، وإدخالُ بعض صنائِع الكلامِ فى بعض غيرُ مستحْسَن.

قلت: الذى ذكره عبدُ الرحيم بنُ شيث فى كتابه "معالم الكتابة ومَوَاضع الإصابة" أنه [يُتمَثَّل] بالشعر فى المكاتَبات الصادرةِ عن المُلُوك دُونَ غيرهم، وهو معارِضٌ لما ذكره فى "موادِّ البيان". وكأنه فى موادّ البيان يريد الكُتُب النافذةَ عن الملوك إلىٰ مَنْ دُونهم، أو مِمَّنْ دُونَهم إليهم. أما الملوكُ والخُلَفاء إذا كتبوا إلىٰ مَنْ ضاهاهم فى أُبَّهة المُلْك وقاربهم فى عُلُوّ الرتبة، فإنه لا يمتنع التمثُّلُ بأبيات الشعر فيها، تطريزًا للنثر بالنَّظْم، وجمعًا بين جنْسَى الكلام اللَّذَيْنِ هما خلاصة مقاصده.

وما زالت الخلفاءُ والملوكُ السالفـةُ يُحَلّون كُتُبهم الصادرةَ عنهم إلىٰ نُظَرائهم فى عُلُوّ الرتبة بالأبيات الرقيقة الألفاظِ ، البديعةِ المعانِى ، للاستشهاد علىٰ الوقائع المكتوب بسببها : كما كتبَ أميرُ المؤمنين "عثمانُ بنُ عفّان" رضى الله عنـه حين تمـالأَ عليه القومُ واجتمعوا علىٰ قتله إلىٰ علىّ بن أبى طالب كَرَّم الله وجهه !

فإنْ كُنْتُ مَأْكُولًا ، فكُنْ خَيْرَ آكِلٍ * وإلَّا فأدْرِكْــنِى ولَمَّا أُمَزَّقِ !

وكما كتب أمير المؤمنين علىُّ بن أبى طالب كَرَّم الله وجهه ! إلىٰ مُعاويةَ بنِ ابى سُـفْيان ، فى جوابِ كتابٍ له حين جرىٰ بينهما التنازُع فى الخِلافة ، فقال فى أثناء كتابه : وزَعَمْتَ أنّى لكلِّ الخلفاء حَسَدْت ، وعلىٰ كلِّهم بَغَيْت ؛ فإن يَكُ ذلِكَ كذلك فليسَتِ الجنايةُ عليك ، فيكونَ العُذْرُ إليك :

* وتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُها *

وعلىٰ ذلك جرىٰ كثيرٌ من خلفاء الدولتين الأُمَوية والعبَّاسية : كما حكىٰ العسكرىّ فى "الأوائل" أن أهـلَ حِمْصَ وثَبُوا بعاملهـا فأخرَجُوه ، ثم وثَبُوا بعـدَهُ بعاملٍ آخَرَ ؛ فأمر المتوكِّلُ إبراهيمَ بنَ العبـاس(١) أن يكتُب إليهـم كتابًا يحذّرهم فيـه ويَخْتَصِر ، فكتب .

أما بعـدُ ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يَرىٰ مِنْ حقِّ الله تعـالىٰ عليـه فيما قَوَّم(٢) به من أَوَد أو عَدَّل به من زَيْغ ، أو لَمَّ به من شَعَث ، ثلاثًا يقدِّم بعضَهن أمامَ بعضٍ : فأُولاهُنّ مايستظْهِر به من عِظَةٍ وحُجَّة ، ثم مايَشْفَعه به من تحْذِيرٍ وتنبيه ، ثم التى لاينفَع حَسْمَ الداء غيرُهـا :

أَناةٌ ، فإنْ لم تُغنِ عقَّب بعـدَها * وَعِيدٌ ، فإن لم يُجْدِ ، أجدتْ عَزائمُه !

(١) أى الصولى .
(٢) فى الاصول فى من يقوّم به الخ . والتصحيح من "أدب اللغة" للشيخ أحمد اليكندرى .

وممن كان يُكثِرُ التمثُّل بالشعر فى المكاتبات من خُلَفاء بنى العباس وتَصْدُر إليه المكاتبات كذلك «الناصرُ لدين الله» حتّٰى يُحكىٰ أن الملِك الأفضل، علىّ ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب دِمَشْق حين تعصّب عليه أخوه الملكُ العزيز عثمانُ وعمُّه الملكُ العادل أبو بكر، كتبَ إلىٰ الناصر لدين الله يستَجيشُه عليهما كتابًا يُشير فيه إلىٰ ما تعتقِدهُ الشِّيعة من أن الحقَّ فى الخلافة كان لعلىّ، وأن ابا بكْر وعثمانَ رضى الله عنهما تقدّماَ عليه، إذ كان الناصرُ يَميل إلىٰ التشيُّع، وكتب فيه :

مَوْلاَى ! إنَّ أبا بَكْرٍ وصاحِبَه * عُثمانَ قد غَصبَا بالسَّيْفِ حَقَّ عَلِي !
فانظُرْ إلىٰ حَظِّ هذا الِاسم كيفَ لِقِى * من الأَوَاخِرِ ما لاَقىٰ من الأُوَل !

فكتب إليه الناصرُ الجوابَ عن ذلك، وكتب فيه :

وافىٰ كتابُكَ يا ابنَ يوسُفَ ناطِقًا * بالحقِّ يُخْبِرُ أنَّ أصلَكَ طاهِرُ !
غَصَبُوا عَليًّا حقَّهُ إذ لَمْ يَكُنْ * بَعْدَ النَّبِيِّ له بيثْرِبَ ناصِرُ!
فاصْبِرْ فإنَّ علىٰ الإلٰهِ حِسَابَهُمْ * وابْشِرْ فناصِرُكَ الإمامُ الناصِرُ!

وعلىٰ ذلك جرىٰ الملوكُ القائمون علىٰ خُلَفاء بنى العباس فى مكاتباتهم أيضا. كما كتب أبو إسحاق الصابى عن مُعزِّ الدولة بن بُوَيْه، إلىٰ عُدّة الدولة أبى تَغْلِبَ كتابا يذكُر له فيه خلافَ قريبين له، لم يُمْكِنه مساعدةُ أحدهما علىٰ الآخرِ، واستَشْهَد فيه بقول المتلمس :

وما كُنْتُ إلا مِثْلَ قاطِعِ كَفِّهِ * بِكَفٍّ لَهُ أُخرىٰ فأصْبَحَ أجْذَما !
فلمَّا استقادَ الكَفُّ بالكَفِّ، لم يجِدْ * لَهُ دَرَكًا فى أنْ تَبِينَا فأحْجَما .

وعلىٰ هذا النَّهج جرىٰ الحالُ فى الدولة الأيُّوبية بالديار المصرية . كما كتب القاضى الفاضلُ عن السلطان صلاح الدين "يوسُفَ بن أيُّوب" إلىٰ ديوان الخلافة ببغدادَ، عنـد قتل ابن رئيس الرُّؤساء وزير الخليفـة كتابًا ليُسَلِّيَ الخليفةَ عنـه ، وكان ممن اساء السيرةَ وأكثر الفَتْكَ ، متمثّلا بالبيتين المقُولين فى أبى حَفْص الخَلَّال : وزير أبى العَبَّاس السَّفَّاح ، وكان يُعرَفُ بوزير آلِ محمد .

إنَّ المَكَارِهَ قد تَسُرُّ، ورُبَّمـا * كان السُّرُورُ بما كَرِهْتَ جَدِيرا!

إنَّ الوَزِيرَ وَزِيرَ آلِ محمَّــدٍ * أودىٰ، فمَنْ يَشْنَاكَ كانَ وَزِيرا.

وكما كتب القاضى « محيى الدين بن عبد الظاهر » عن « المنصور قلاوون » إلىٰ صاحب اليمن فى جوابِ تَعْزِيَة ارسـلها إليه فى وَلَده الملكِ الصالح ، مع تعريضـه فى أَمْرٍ له بأن الحروب ممـا يَشْغَل عن المصائب فى الأولاد، مستشهدا فيه بقوله :

إذا اعْتادَ الفتىٰ خَوْضَ المَنايَا، * فأهْوَنُ ماتَمُرّ به الوُحُول!

وكما كتب صاحبُنا الشيخُ علاءُ الدين البيرى رحمه الله عن "الظاهر برقوق" صاحب الديار المصرية، جوابا لصاحب تُونُس من بلاد المغرب ، واستشهد فيـه لبلاغة الكِتابِ الواردِ عنه بقوله :

وَكَلامٍ كَدَمْعِ صَبٍّ غَـرِيبٍ * رَقَّ حَتّىٰ الهواءُ يَكْثُفُ عِنْدَهْ!

راقَ لَفْظا، ورَقَّ مَعْنًى، فأضحىٰ * كلُّ سِحْرٍ من البَلاغَةِ عَبْـدَه!

وعلىٰ ذلك جرتْ ملوكُ المَغرِب من بَنِي مَرِينٍ وغيرهم . كما كتب بعضُ كُتّاب السلطان أبى "الحَسَن المَرِينِيّ" عنه إلىٰ السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" صاحبِ الديار المصرية كتابا يُخْبِرُه فى خِلَاله أنّ صاحب بِجَايَةَ خرج عن طاعته فغَزَاه، وأوقع به وبجُيوشه ماقَمَعه، مستشهدا فيه بقوله :

إنْ عادَتِ العَقْربُ ، عُدْنَا لها * وكانتِ النَّعْـلُ لهـا حاضِرَه !

إلىٰ غير ذلك من المكاتبات الملوكية التى لاتُحْصىٰ كثرةً . بل ربمـا وقع التمثـل بالشِّعْر فى المكاتبات عن الخلفاء والملوك إلىٰ مَنْ دُونَهم وبالعكس . كما حكىٰ العسكرىّ فى "الأوائل" أن رافعًا رفع كتابا إلىٰ الرَّشيد، وكتب فى أسفله :

إذا جِئْتُ عارًا أو رَضِيتُ بِذِلَّةٍ ، * فنَفْسِى علىٰ نَفْسِى من الكَلْب أهْوَنُ !

فكتب إليه الرشيد كتابًا وكتب فى أسفله :

ورَفْعُكَ نَفْسًا طالبًا فوْقَ قدْرِها * يَسُوقُ لكَ الحَتْفَ المُعجّلَ والذُّلّا

وبالجملة فمذاهبُ النـاس فى التمثُّل بالشِّـعر فى المكاتبـات الملوكيّـة مختلفةٌ ، ومقاصدُهم متباينةٌ بحَسَب الأغراض ؛ ولذلك أورد الشـيخ جمالُ الدين بن نُباتةَ هـذه المسئلةَ فى جملة أسْئُلته ، التى سأل عنها كُتَّابَ الإنشاء بدِمَشْق ، مخاطبًا بها الشيخَ شِهابَ الدين محمودًا الحَلَبىّ ، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء بها فقال : ومَنْ كَرِه الاستشهادَ فى مكاتبة الملوك بالأشعار؟ وكَيف تَركها علىٰ مافيها من الآثار؟

أما المكاتَبَات الإخوانيات الواقعـة بالتَّهانى ، والتَّعازِى ، والتَّزاوُر ، والتَّهـادِى ، والمُداعبة ، وسائِرُ أنواع الرِّقاع فى فنون المكاتبات ، فقد قال فى "موادِّ البيان" إنه يجوز أن تُودَع أبياتَ الشعر علىٰ سبيل التمثُّل وعلىٰ سبيل الاختِراع ، محتجًا بأن الصَّدْر الأوّل كانوا يَستعْمِلون ذلك فى هذه المواضع . وهذا الذى ذكره لاخَفاءَ فيه ، وكُتُب الرسائل المدوّنةِ من كلام المتقدّمين والمتأخِّرين من كُتَّاب المَشْرق والمَغْرِب شاهدةٌ بذلك ، ناطقةٌ باستعمال الشعر فى المكاتَبات ، وأثنائها ونِهاياتها ، مابين البَيت والبيتين فأكثَر ، حتّى القصائد الطِّوال . وأكثرُ مايقع من ذلك البيتُ المفرد والبيتان فمـا حَوْلَ ذلك . كما استشهد القاضى الفاضلُ فى بعض مكاتباته فى الشوق بقوله :

وِمنْ عَجَبِي أنِّى أَحِنُّ إلَيْهِــمُ، * وأسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أرىٰ وَهُمُ مَعِي!
وتَطْلُبهُــمْ عَيْنِي وهُمْ فِي سَوَادِهَا * ويَشْتَاقُهُمْ قلبى وهُمْ بيْنَ أضْلُعِي!

وكما كتب أيضا لبعض إخوانه فى جوابِ كتاب :

وكَمْ قُلْتُ حَقًّا : لَيْتَنِي كُنْتُ عِنْدَهُ! * وماقُلْتُ إجْلالًا له : لَيْتَـهُ عِنْدِى!

وكما كَتَب فى وَصْف كتابٍ وَرَد عليه مستشهِدًا بقوله :

وحَسِبْتُه ــ والطَّرْفُ مَعْقُودٌ به ــ * وَجْهَ الحَبِيب بَدَا لوَجْهِ مُحِبِّـهِ!

وكما كَتَب فى كتاب تَعْزِية بصدِيقٍ مستشهدا فيه بقوله :

وذَاكَ الَّذِى لايَبْرَحُ الدَّهْرَ رُزْؤُه، * ولا ذِكْرُه ماأرْزَمَتْ أُمُّ حائلِ .

إلىٰ غير ذلك من المكاتبات التى لا يأخُذها حَصْر، ولا تدخُل تحت حدّ، مما ستقف علىٰ الكثير منه فى الكلام علىٰ مقاصد المكاتَبَات، إن شاء الله تعالىٰ .

الأصل الحادى عشر

(أن يأتى فى مكاتبتـــه بحُسْنِ الاختتام)

ويرجع إلىٰ معنيين، كما فى حُسْن الافتتاح المقــدّم ذكره .

المعنىٰ الأول ــ أن يكون الحسنُ فيــه راجعا إلىٰ المعنىٰ المختَتَم به : إما بمعاطاة الأدَبِ من المرءُوس إلىٰ الرئيس ونحو ذلك، وإما بمـا يقتضىٰ التعزيرَ والتوقيرَ من الرئيس إلىٰ المرءوس، كالاختتام بالدعاء ونحو ذلك، مما يقع فى مصطلَح كل زمن .

المعنى الثانى ــ أن يكون الحسن فيه راجعا إلىٰ مايوجب التحسينَ من سُهولة اللفظ، وحُسْن السَّبْك، ووُضُوح المعنىٰ، وتجنُّب الحَشْو، وغير ذلك من مُوجِبات

التحسين ؛ كما كتب الصاحبُ بنُ عَبّاد فى آخر رسالة له : "لَئِنْ حَنِثْتُ فيما حَلَفْت ، فلا خَطَوْت لتحصِيلِ مَجْد ، ولا نَهَضْت لِاقْتِناء حَمْد ، ولا سَعَيْتُ إلىٰ مَقَامِ فَخْر ، ولا حَرَصْت علىٰ عُلُوِّ ذِكْر" . قال أبو هلال العسكرى : فهذه اليمين ، لو سمعها عامرُ بن الظَّرِب ، لقال هى اليمين الغموسُ لا القسمُ باللاتِ والعُزّى ومناةَ الثالثةِ الأخرىٰ ، ونحو ذلك مما يَجْرِى هذا المَجْرىٰ .

قلت : وآعتبارُ هذه الأصول [الأحد عشر](1) بعد ماتقدّم آعتبارُه فى الكلام علىٰ صنعة إنشاء الكلام وترتيبه فى المقالة الأولىٰ ، من أنه لايستَعْمِل فى كلامه ماأَتَتْ به آياتُ القرءان الكريم : من الآختصارِ ، والحَذْف ، ومخاطبةِ الخاصِّ بمخاطَبة العامِّ ، ومخاطبـةِ العامِّ بمخاطَبة الخاصِّ ، ولا مايختَصُّ بالشِّعر : من صَرْف مالا ينصرفُ ، وحَذْف مالا يُحْذَف ، وقَصْر الممدُود ، ومَدِّ المَقْصُور ، والتقديم والتأخيرِ ، والإضمار فى موضع الإظهار ، وتصغيرِ الآسم فى موضع التعظيم ، مثل دُوَيْهِيَةٍ ، وما شاكل ذلك مما تقدّم التنبيهُ عليه فى موضعه ، فلا بدّ من آعتباره هنا .

الأصـــل الثانى عشر

(أن يعرِفَ مقاديرَ قطع الورق ، وسَعَةَ الطُّرَّة والهامش ، وسَعةَ بيت العلامة ومقدارَ ما بين السُّـطور وما يُتْرَكُ فى آخر الكتاب)

أما مقدار قطع الورق ، فقد تقدّم فى المقالة الثالثة أنه يختلف باختلاف المكتوبِ إليهم عن السلطان ، فكلّما عظُم قدرُ المكتوب إليه ، عَظُم مقدار قَطْع الورق ؛ وربما رُوعِىَ فى ذلك قدرُ المكتوب عنه والمكتوبِ إليه جميعا .

---

(1) فى الاصل "العشرة" .

⁂

وأما طول الطُّرّة فى أعلىٰ الكتاب ، فقد ذكر فى " معالم الكتابة " أنها تُطَوَّل فيما إذا كان الكتابُ من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ ، وتكون متوسطة من الأتباع ، وسيأتى أن المصطلح عليه فى زماننا أن المكاتبات الصادرة عن السلطان تكون الطرّة فيها ما بين ثلاثة أوصال إلىٰ وصلين ، ومن النوّاب ومن فى معناهم تكون وصلا واحدا .

⁂

وأما مِقْدارُ سَعَة الهامش فقد سمِعتُ بعض فضلاء الكُتّاب يذكر أن الضابط فيه أن يكونَ ثلثَ عَرْض الدَّرْج المكتوب فيه .

⁂

وأما بيتُ العَلَامة فقد تقدّم أنه يكون مقدارَ نحو شِبْر فى كُتُب السلطان ، أما فى غيره ــ حيث كانت العلامةُ تحت البسملة ــ فتكونُ نحوَ ثلاثة أصابعَ أو أربعةٍ .

⁂

وأما سَعةُ مابين السطور فقد تقدّم أنها تكون بمقدار نصفِ بيتِ العلامة . وذكر آبن شيث : أنها ثلاثةُ أصابعَ او أربعة .

⁂

وأما [مايترك فى] آخر الكتاب فقد ذكر آبن شيث أنه لا يَتْرُك فى آخر المكاتبة شيئا .

⁂

وأما الخطُّ فانه كلّما غَلُظ القلم وآتسعت السطور كان أنقَصَ فى رُتْبة المكتوبِ إليه وقد ذكر فى " معالم الكتابة " أنّ الكتب الصادرة إلىٰ السلطان لا يكونُ بين سُطُورها أكثَرُ من إصبعين .

الطَّـــــرَف الثـانى

(فى بيان مقادير المكاتبات وما يُناسبها من البَسْط والإيجاز، وما يلائِمُ كلَّ مكاتبةمنها من المعانى)

ولتَعْلَمْ أن المكاتبات علىٰ ثلاثة أقسام :

القســــم الأوّل

(مايُكْتَب عن الســلطان أو مَنْ فى معناه من الرؤساء إلىٰ الأتباع . وهى علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(مايُعْمَل فيــه علىٰ الإيجــاز وا لاختصار)

وقد ٱستحسنوا الإيجاز فى خمســة مواضع :

أحدها ــ أن يكون المكتوبُ عن السلطان فى اوقات الحُرُوب إلىٰ نُوَّاب المَلِك . قال فى "حُسْن التوســل" : فيجب أن يتوخَّى الإيجاز والألفاظَ البليغةَ الدالةَ علىٰ القصد، من غير تطويل ولا بَسْط يُضِيع المقصدَ ويَفْصِل الكلامَ بعضــه من بعض . ولا يَعْمِد فى ذلك إلىٰ تهويلٍ لأمر العدوّ يُضْعِف القلوبَ، ولا تهوينٍ لأمره بحيث يحصُل به الاغترار .

الثــانى ــ أن يكون ما يُكْتَبُ به عن السلطان خبرًا يريد التورية به عنه وسَتْرَ حقيقته ، كإعلامهم بالحوادث الحادثةِ علىٰ الملوك ، والنوائب المُلِمَّة بالدولة : من هزيمة جَيْش، أو تغييرِ رَسْم، أو إحداثه ، أو تكليف الرعيَّة مالا يَسْهُل عليها تكليفُه

وما أشبه ذلك . قال فى "مواد البيان" : فيجب أن يقصد فى ذلك إلى الاختصار والإيجاز، ويعدل عن استعمال الألفاظ الخاصّة بالمعنى إلى غيرها مما يحتمل التأويل، ولا تنفر الأسماعُ عنه، ولا تُراعُ القلوبُ به ، من غير أن يحتمل كذبا صُرَاحا ؛ فإنه لاشيء أقبح بالسلطان، ولا أغمص لشأنه وقَدْره من أن يُضَمّن كتابه ماينكشف للعامّة بطلانه . قال وينبغى للكاتب أن يتخلّص من هذا الباب التخلّص الجيّد الذى يُزيّن به الأثر، من غير تصريح بكذب، وأن يخرج الباطل فى صورة الحق، ويعرّض سلطانه فى ذلك للإحماد والتقريظ من حيث يستحقّ التأنيب والإذمام فإن هذه سبيلُ البلاغة، وطريقةُ فضلاء الصّناعة، لأن الأمر الظاهرَ الحَسَن المجمعَ على فضله لا يحتاج فى التعبير عن حُسْنه إلى كدّ الخاطر، وإتعاب الفِكْر، إذ الألْكَن لايَعْجِز عن التعبير عنه فَضْلا عن الّلسِن ، وإنما الفضلُ فى تحسين ماليس بحَسَن، وتصحيح ماليس بصحيح، بضروبٍ من التمويه والتخييل، وإقامة المعاذير، والعِلَل المُعَفِّية على الإساءة والتقصير، من حيثُ لا يلحَقُ كذبٌ صريحٌ ولا زُور مطلق . ولِضيق هـذا المقام وصُعُوبة مُرْتقاه ، أورده الشيخ جمالُ الدين بنُ نُباتةَ فى جملة مسائله التى سأل عنها كُتّابَ الإنشاء بدِمَشْقَ ـ فقال : وما الذى يُكْتَب عن المهزوم إلى مَنْ هَزَمه ؟ .

الثـالث ــ أن يكون المكتوب به عن السلطان أمرًا أونهيا . قال فى "مواد البيان" : فحكمها حكم التوقيعات الوجيزة الجامعةِ للمعانى، الجازمة بالأمر أو النهى . اللهم إلا أن يكون الأمر أو النهى مما يحتاجُ إلى رُسُوم ومُثُل يُعْمَل عليها، فيحتاج إلى الإطالة والتكرير، بحسَب مايُؤْمَر به ويُنْهَى عنه دُونَ الحَذْف والإيجاز.

الرابع — أن تكون الكُتُب المكتوبة عن السلطان باستخراج الخَرَاج وجِبَاية الأموال وتَدْبِير الاعمال . قال فى "موادّ البيان" : فسبيلُها أن يَنُصّ فيها علىٰ ما رآه السلطان ودَبَّره ، ثم يَخْتِم بفصل مقصورٍ علىٰ التوكيد فى آمتثال أمْره وإنفاذه ، ولا يقتصر علىٰ ما تقدّم ، إيجاباً للحُجّة ، وتضييقا للعُذْر ، وحَسْما لأسباب الاِعْتِذار .

الخامس — أن يكون مايكتب به عن السلطان إحْمادًا أو إذْمامًا ، أو وَعْدا أو وعيدا أو آستِقْصارًا او عَذْلا أو تَوْبيخا . قال فى " موادّ البيان " : فيجب أن يُشْبعَ الكلامَ ويمدّ القولَ ، بحسَب ما يقتضيه أمر المكتوب إليه : فى الإساءة والإحسان ، والآجتهاد والتقصير ، لينشرح صدر المشمِّر المُحْسِن ، ويَنْبسِطَ أملُه ورجاؤه ، ويرتدع المقصِّر المُسىء ، ويرتَجِع عما يُذَمّ منه ، ويتلافىٰ مافرّط فيه .

الضرب الثانى

(ما يُعمَل فيه علىٰ البَسْط والإطناب)

وقد آستحسنوا البَسْط فى موضعين :

أحدهما — أن يكون ما يَكْتُب به عن السلطان خبراً يُرِيد تقريرَ صُورته فى نُفُوس العامة ، كالإخبار بالفُتُوحات المتجدّدة فى إعلاء الدِّين والسلطان . قال فى "موادّ البيان" : فيجب أن يُشْبعَ القولَ فيها ، ويَبْنِىَ علىٰ الإسهاب والإطناب وتكثير الألفاظ المترادفةِ ، ليَعْرِفوا قدرَ النِّعمة الحادثةِ ، وتزيدَ بصائرُهم فى الطاعة ، ويَعْلُوَ موضعُ سلطانهم من عناية الله تعالىٰ به ، فتَقْوىٰ قلوب أوليائهِ ، وتضعُف قلوب أعدائه ، لأنه لو كتب كتابا فى فتح جليل ليُقْرَأ فى المَحافل والمَشاهد العامّة علىٰ رُءُوس

الأشهاد بين العامَّة ومَنْ يراد تفخيمُ السلطان فى نفسه علىٰ صُورة الاختصار، لأوقع كلامَه فى غير رتبته ، ودَلَّ ذلك علىٰ جَهْله . وقد اوضح الشيخُ شهابُ الدين محمود الحلبىّ رحمه الله هذا المقام فى كتابه "حُسْن التوسل" فقال : وإذا كَتَب فى التهانى بالفتوح فليس إلا بَسْط الكلام والإطناب فى شُكْرِ نعمة الله تعالىٰ، والتبرِّى من الحول والقُوّة إلا به ، ووَصْف ما أَعْطىٰ من النصر . وذِكْر مامَنَح من الثبات، وتعظيم مايَسَّر من الفتح، ثم وصف مابعد ذلك : من عَزْم، وإقدام ، وصَبْر ، وجَلَد ، عن المَلِك وعن جيشه مما حَسُن وصفُه ولاقَ ذِكْرُه، وراقَ التوسُّع فيه، وعَذُب بَسْط الكلام معه . قال : ثم كُلَّما اتسع مجالُ الكلام فى ذكر الواقعة ووَصْفِها ، كان احسنَ وأدلَّ علىٰ السَّلامة ، وأدْعىٰ لسُرور المكتوب إليه ، وأحسنَ لتوقُّع المِنَّة عنده ، واشهىٰ إلىٰ سمعه ، واشفىٰ لغليل شَوْقه إلىٰ مَعْرِفة الحال . قال : ولا بأس بتهويل أمْرِ العَدُوّ، ووصْف جَمْعه وإقدامه ، فإنَّ فى تصغير أمره تحقيرًا للظَّفَر به .

قال فى "موادّ البيان" : ولا يُحتَجُّ للإيجاز فى كُتُب الفُتُوح بما كتب به كاتبُ المهلَّب بن أبى صُفْرة إلىٰ الحَجَّاج فى فتح الأزارقةِ، علىٰ ارتفاع خَطَره، وطُول زمانه، وعِظَم صِيتِه، من سُلُوكه فيه مَسْلَك الاختصار، حيث كَتَبَ فيه :

«الحمد لله الذى كفىٰ بالإسلام فَقْدَ ماسِواه، وجعل الحمدَ متصلا بنُعْماه، وقضىٰ ان لا ينقَطِع المزيدُ من فَضْله ، حتّٰى ينقطعَ الشُّكر من خَلْقه . ثم إنَّا كُنَّا وعدُوّنا علىٰ حالين مختلفين ، نرىٰ منهم ما يسُرّنا أكثَرَ مما يسوءُنا ، ويَرَوْن منا ما يسُوءهم أكثَرَ مما يسُرّهم، فلم يزل ذلك دَأْبَنَا ودأْبَهم : ينصُرنا الله ويخذُلهم، ويُمحِّصنا ويَمحَقُهم، حتّٰى بلغ الكتابُ بنا وبهم أجلَه ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحمدُ للهِ رَبِّ العالَمين ﴾ .

فإنه إنما حَسُن فى موضعه لمخاطبة السُّلطان به، ولغرضٍ كانت المكاتبةُ فيه . قال : فإنْ كَتَب مثل هذا الكتاب عن السلطان فى مثل هذا الفَتح أو ما يقارِبُه ، ليُورَدَ علىٰ العامّة ، ويُقَرِّرفى نفوسهم به قَدْرُ النعمة ، لم يحسُنْ موقعُه ، وخرج عن شَرْط البلاغة بوضعه إيَّاه فى غير موضعه، وذكر العسكرىّ نحو ذلك فى "الصناعتين".

ثم قال فى " حسن التوسل " : وإن كان المكتوبُ إليه مَلِكا صاحبَ مملكة بمفرَده ، تعيَّن ان يكون البَسْط أكثَرَ، والإطنابُ والتهويلُ أبلغَ ، والشرحُ أتمَّ . ثم قال : وإن ٱضْطُرّ أن يكْتُب مثلَ ذلك إلىٰ ملكٍ غير مسلم لكنّه غيرُ محارِب ، فالحكم فى ذلك أن يذكُرَ من أسباب المودّة ما يقتضى المشاركةَ فى المَسَارّ، وأنَّ أمر هذا العدوّ مع كثرته أُخِذَ بأطْراف الأنامل ، وآلَ أمْرُه إلىٰ ما آل . ويُعَظِّم ذكرَ ما جرىٰ عليه من القَتْل والأسْر . ويقول : إن تلك عوائدُ نصرِ الله تعالىٰ لنا ، وٱنتقامِه ممَّنْ عادانا ،

وإن كان المكتوبُ إليه متَّهما بممالأة العدوّ ، كتب إليه بما يدل علىٰ التَّقْريع والتَهكُّم والتهديدِ فى مَعْرِض الإخبار .

الثانى — أن يكون مايُكْتَب به عن السلطان فى أوقات حَرَكات العَدُوّ إلىٰ أهل الثُّغُور، يُعْلِمهم بالحركة للقاء عدوّهم . قال فى "حسن التوسل" : فيجب أن يُبْسَط القولُ فى وصف العزائم، وقُوَّة الهِمَم ،وشِدّة الحَمِيَّة للدِّين، وكثرةِ العساكر والجُيُوش وسُرْعة الحركة ، وطَىِّ المَراحل، ومعاجَلة العَدُوّ ، وتخْييلِ أسباب النَّصْر، والوُثُوق بعوائد الله تعالىٰ فى الظَّفَر،وتقويةِ القلوب منهم،وبَسْط آمالهم ، وحَثِّهم علىٰ التيقُّظ ، وحفظ ما بأيديهم ، وما أشبه ذلك . ويُبْرِزُ ذلك فى أمْثَل كلام وأجَلِّه وأمْكَنِه ، وأقْرَبِه من القُوّة والبَسَالة، وأبْعدِه من اللِّين والرِّقة . ويُبالِغ فىوصف الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ واستنزال نَصْره وتأييده، والرُّجوع إليه فى تَثْبِيت الأقدام، والاعتصامِ به

فى الصـبر، والاستعانةِ به علىٰ العَدُوّ، والرغبـةِ إليه فى خِذْلانهم وزَلْزلة اقـدامِهِم وجَعْلِ الدائرة عليهـم، دُونَ التصريح ببُطْلان حَرَكتهم، ورجاء تأخُّرِهم، وانتظـار العَرَضيَّات فى ضَعْفِهم، لما فى ذلك من إيهامِ الضَّعْف عن لِقَائهم، وٱستِشْعار الوهم والخوف منهم .

القســـم الثـانى

(مايكتب به عن الأتباع إلىٰ السلطان والطَّبَقة العُلْيا من الرؤساء، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يُعْمَل فيـــه علىٰ الإيجـاز والاختصار)

وقد ٱستَحَبُّوا الإيجاز فى ثلاثة مواضـــع :

احدها — أن يكون مايكتُب به من باب الشكرعلىٰ نعمةٍ يُسْبِغها سلطانُه عليه، وعارفةٍ يُسْدِيها إليه . قال فى "موادِّ البيان" : فسبيلُه أن لايبنِيَها علىٰ الإسهاب وتجاوُز الحدّ، بل يَبْنِيها علىٰ اللَّفْظ الوجيز، الجامع لمعانى الشُّكْر، المشتمِلِ علىٰ أساليب الاعتِراف والاعْتِداد، فإن إطناب الأصاغِرِ فى شُكْر الرؤساء داخلٌ فى باب الإضْجار والإبْرام، ولا سِيَّما إذا رجعُوا إلىٰ خُصوصِيَّة وتقدُّم خِدْمة . وكذلك لا يُكْثِر من الثناء عليه، لأن ذلك من باب المَلَق الذى لايَليق إلا بالأباعد الذين لم يتقـدّم لهم من المَوَاتِّ والحُرَم مايدُلُّ علىٰ صِحَّة عقائدهم، ولم يُضِف عليهم من النِّعم مايوجب خُلُوص نِيَّاتهم. أما إذا كان المُثْنِى أجنبيا متكَسِّبا بالتقريظ والثناء، فإنه لايقْبُح به الإيغالُ والإغراقُ فيهما . قال : وكذلك لاينبغى للخاصة الإكثارُ من الدعاء، وتكريرُه فى صُدُور الكُتُب

عند مايجرِى ذكرُ الرئيس ، فإن فى ذلك مشقّةً وكُلفة يستثقلُها المُلوك . والحكم فيما يُستعمَل من ذلك فى الكُتُب شبيهٌ بما يُستَعمَل شِفاهًا منه . ويقبُح من خادم السلطان أن يَشْغَل سمعَه فى مخاطبته إيّاه بكثرة الدعاء وتكريره .

الثانى — أن يكون ما يكتُب به التابعُ إلىٰ السلطان ونحوه فى سؤالِ حُسْن النظر وشَكْوىٰ الفَقْر والخَصاصة . قال : فى "موادِّ البيان": فيبنِي القولَ علىٰ الإيجاز ويمزُجُ الشكوىٰ بالشُّكر والاعتدادِ بالآلاء ، والرغبةِ فى مُضاعفَة الإحسان والزيادةِ فى البِرِّ ، والإلحاق بالطَّبَقة الرابعة فى إيلاء العوارف ، فإن ذلك أعطفُ لقَلْب الرئيس ، وأدْعىٰ إلىٰ بلوغ الغَرَض ، ولا يُكْثِر شكوىٰ الحال ورثاثتها ، واستيلاءَ الخَصاصة والفقرِ عليه ، فإن ذلك يجمَعُ إلىٰ الإضجار والإبرام شِكايةَ الرئيس بسُوء حال مَرْءُوسه ، وقلةِ ظُهُور نعمته عليه ، وذلك ممايكرهه الرؤساء ويَذُمُّونه .

الثالث — أن يكون مايكتب به التابعُ إلىٰ المتبوع من باب التَنَصُّل والاعتذار عن شيءٍ قُرِف به عند رَئيسه . قال فى "موادِّ البيان" فسبيلُه أن يبنى كلامَهُ علىٰ الاختصار ، ويعدِلَ عن الإسهاب والإطْناب ، ويقصدَ إلىٰ النُّكت التى تُزِيل ماعَرَض عنده من الشُّبْهة فى أمره ، وتمحُو المَوْجِدةَ السابقةَ إلىٰ ضمير رئيسه ، ولا يُصَرِّحُ ببراءة الساحة عن الإساءة والتقصير ، فإن ذلك مما يكرهُه الرؤساء من أتباعهم ، لأن عادَتَهم جاريةٌ بإيثار اعترافِ الخَدَم لهم بالتقصير والتَّفْريط ، والإقرار بالمقروف به ليكونَ لهم فى العَفْو عند الإقرار موضعُ مِنّة مستأنَفَة تستَدْعى شُكْرا ، وعارفةٍ مستَجَدَّةٍ تقتضى نَشْرا . أما إذا أقام التابعُ الحجةَ علىٰ براءته مما قُرِف به ، فلا موضِعَ للإحسان إليه فى إقراره علىٰ منزلته والرضا عنه ، بل يكونُ ذلك قَدْرا واجبًا له ، إن منعه إيَّاه ظلمه وتعدّى عليه .

الضرب الثـانى

(مايعمل فيه على البسط والإطناب)

وقد استحَبُّوا البَسْط هنا فى موضع واحدٍ : وهو ما إذا كان ما يكتُبُ به التابعُ إلى السلطان واقعًا فى باب الإخبار بأحوال ما ينظُر فيه من الأعمال ، وما يجرِى على يَدَيْه من المُهِمَّات . قال فى "موادِّ البيان" فسبيله أن يُوَفِّىَ حقَّه فى الشرح والبيان، ويَسْلُكَ فيـه طريقةً يجمَعُ فيها بين إيضاح الأغراض من غير هَذْر يُضْجِر ويُمِلُّ ، ولا آختصار يُقَصِّر ويُخِلُّ، وأن يقصد إلى آستعمال الألفاظ السَّهْلة التى تَصِل معانيها إلى الأفهام من غير كُلْفة، ويتجنبَ مايقع فيه تعقيدٌ وتَوْعِير أو إيهام، إلا أن يعرض له فى المكاتَبـة ما يحتاج إلى التَّورية والكناية كما تقـدّم فيما إذا أطلق عدوٌّ لسـانه فى السلطان فإنه يحتاج إلى الكناية عنه على مامرَّ .

القســـم الثـالث

(ما يُكْتَب به إلى الأكفاء والنُّظَراء ، والطبقةِ الثانيةِ من الرؤساء)

قال فى "موادِّ البيان" : وسبيلُ مكاتبتهم أن يؤتى فيهـا باللفظ المساوِى للمعنى من غير إيجاز ولا إطناب : لأنها رتبةٌ متوسِّـطة بين الرُّتبتين المتقدّمتين . ولا يخفى أن ما ذكره إنمـا هو عِنْد الوقوف مع حقائق المكاتبات . أما الإخوانِيَّات المُطْلقة، فإنها تكون فى الطُّولِ والقِصَر بحَسَب مابين الصديقين من المَودّة والقُرْب، وما يعلمُه كلُّ واحدٍ منهما من خُلُق الآخَر ، وما توجبه دالَّتُه عليه .

وسيأتى فى مقاصد المكاتبات من أمثلةِ الأقسام الثلاثةِ مايُوضِّح مقاصدَها ويقرِّب مآخذَها إن شاء الله تعالى .

الطَّرَف الثالث

(فى أمور تختص بالأجوبة ، وفيه جملتان)

الجملة الأولىٰ

(فى بيانِ أىّ الأمرين من الابتداء والجواب أعلىٰ رتبةً وأبلغُ فى صناعة الكتابة)

وقد اختلف الكُتّاب فى ذلك : فذهب أكثرُ البلَغاء إلىٰ أن الكُتُب الجَوابِيّة أتعبُ مَطْلَبا وأصعب مُرْتقىً من الكتب الابتدائية، وأن فيها تَظْهرُ مَهارةُ الكاتب وحِذْقه ، لاسيما إذا كان الخِطاب محتمِلا(١) للاعتذارِ والاعتلالِ عن امتثالِ الأوامر والنواهى، والتَّوريةِ عن نُصوص الأحوال، والإعراضِ عن ظَوَاهِرِها، قائدًا إلىٰ استعمال المُغالَطة، مُوجِبًا للانفصال عن الاحتجاج والإلزام، ونحو ذلك مما يؤدِّى إلىٰ الخلاص من المَكاره .

واحتجُّوا لترجيح ذلك بوجوه .

منها — أن المبتدئ مُحَكَّم فى كتابه ، يبتدئ بألفاظه كيف شاءَ ، ويَقْطَعها حيثُ يشاء ، ويتصرّفُ فى التقديم والتأخير، والحَذْف والإثبات ، والإيجاز والإسْهاب ، ويَبْنِي علىٰ أساس يؤسسه لنفسه ؛ والمجيبُ ليس له تقديمٌ ولا تأخير، وإنما هو تابعٌ لغرض المبتدئ، وبانٍ علىٰ أساسه .

ومنها — أنَّ المُجِيبَ — إذا كان جوابه محتَمِلًا للإشباع والتوسُّع — مُضْطَرٌّ إلىٰ اقتصاص ألفاظ المبتدئ واتّباعها للإجابةِ عنها ، وذلك يؤدّى إلىٰ تصَفُّح كلام المبتدئ والمجيبِ ويَصل مابين الكلامين : لأن الكلامين يتقابلان فلا تَخْفىٰ رتبتهما والفاضلُ منهما من الرَّذْل، وهذا مرفوعٌ عن المبتدئ .

(١) أى حاملا ومشتملا .

ومنها ـ أن تأليف الكلام وآنتظامَهُ وآتِّساقه وآلتئامه يقْدِرُ منها المبتدئ على مالا يقدر عليـه المُجيب : لأن الجواب يُفَصِّـل أجزاء الكلام ويُبَدِّد نِظامه ويُقَسِّـمه أقساما ، لمكان الحاجةِ إلىٰ آسـتئناف القول من الفَصْـل بعد الفَصْـل بقول وأمّا كذا وأمّا كذا ، فظهور الصورة المستحسـنةِ فى المتصـل أكثرُ من ظهورها فى المنفَصِـل .

أما إذا كان الجوابُ مقتَضبا مَبْنِيًّا علىٰ آمتثالِ مأمور ، أوآنتهاءٍ عن مَنْهِيٍّ عنـه ، فإنه سهل المَرَام ، قريبُ المتَنَاوَل : لأنه إنما يشتمل علىٰ ذكر وُصولِ الكِتابِ والعمل بمـا فيـه .

وذهب صاحبُ "مَوَادّ البيـان" إلىٰ أن الأبتـداء والجواب فى ذلك علىٰ حدٍّ واحدٍ ، و إن كان(1) الكاتبُ قد يُجيد فى الأبتداء ولايجيد فى الجواب و بالعكس ، محتجًّا لذلك بأن كُلًّا من المبتـدئ والمجيب ممتـاحٌ من جَوْدة الغريزة ، محتاجٌ من البلاغة والصِّـناعة إلىٰ ما يحتاج إليه الآخر : لأن الكاتب يكون تارةً مبتـدئا وتارةً مجيبا ، وليست الإجابةُ بصناعةٍ علىٰ حِيالها ، ولاالبِداية بصناعةٍ علىٰ حِيالها ، بل هما كالنوعين للجنس ، ولا مَنْعَ من أن يكون الكاتب ماهرًا فى نوعٍ دُونَ نوعٍ .

قال : والكاتبُ لايكونُ فى الأمرِ الأعَمِّ كاتبًا عن نَفْسه و إنما يكونُ كاتبًا عن آمرٍ يأمُرُه بالكِتابة فى أغراضه ويسَلِّمها إليه منثورةً ، فيحتاج إلىٰ نظمها وضَمِّها و إبرازِها فى صورةٍ محيطةٍ بجميع تلك الأغراضِ من غير إخلالٍ بشىءٍ منها ؛ فعلىٰ المبتـدئ من المَشَقَّة فى إيراد أغراض المكتوب عنـه فى الصُّورة الجـامعة لهـا مع نَظْمها

---

(1) الظاهر أن كان زائدة والاصل وأن الكاتب قد يجيد آلخ كما يفيده المعنى وآخر العبارة .

فى سِلْك البلاغة مثلُ ما علىٰ المجيب من المَشَقَّة فى توفِيَةِ فصول كتاب المبتدئ حقَّها من الإجابة والتصرُّفِ علىٰ أوضاع ترتيبها ، بَلْ كلفةُ المجيب قريبــة ، لأنه يستَنْبِط من نفس معانى كتاب المبتدِئ للمعانِى التى يُجيب بها : لأنِ الجواب لا يخلو من أن يكونَ يوافقُ الآبتداءَ أو يناقضه : فإن وافقه فالأمر سَهْل ، وإن ناقضه فإن كل نقيض قائمٌ فى الوهم علىٰ مقابَلةِ نقيضــه ، إلا أنه أتعَبُ علىٰ كل حال من الموافق ، ولا شكَّ أن الجواب بتَجْزئته قد خَفَّ تحمُّله : إذ ليس من يجمَعُ خاطِرَه علىٰ الفصل الواحد حتّىٰ يخرج عن جوابه كمن يجمع خاطِرَه علىٰ الكتاب كُلِّه . ثم قال : وليس القَصــدُ مما ذكرناه مناقضةَ مَشايخ صناعَتِنا[1]، ولكن القصــدُ تعريفُ الحق الذى يجب آعتقاده والعمل عليه .

الجملة الثانيـــــة

(فى بيـــان ترتيب الأجْـــوِبة)

وآعلم أن للجواب حالتين :

الحالة الأولىٰ — أن يكون الجوابُ من الرئيس إلىٰ المرءوس عما كتب به الرئيس إليــه ، فالذى ذكره فى "مواد البيان" أن للرئيس أن يَبْنِى حكايةَ كتابِ مَرْءُوسه إليــه فى جوابه علىٰ الآختصار ، ويجمع معانِيَــه فى ألفاظٍ وجيزةٍ، محيطةٍ بما وراءها كأن يقول : وصل كتابُكَ فى معنىٰ كذا وفَهِمْناه .

الحالة الثانية — أن يكون الجواب من المرءُوس إلىٰ الرئيس عما كتب به الرئيسُ إليه، قال فى "مواد البيان": والواجب فى هذه الحالة أن يَحْكِيَ فصولَ كتاب

---

(١) فى الاصول "مشاح هنا عبثا" وهو تصحيف فظيع من الناسخ والتصحيح من الضوء .

رئيسه علىٰ نَصِّها ويُقصّها علىٰ وَجْهها من غير إخلالٍ بشيءٍ منها ، إعظامًا لقدر الرئيس وإجلالًا لِخطابه. قال: وليس للمجيب إن مرّ فى كتاب الرئيس بلفظة واقعة فى غير موضعها أن يُبْدِلها بغيرها : لما فى ذلك من الإشارة إلىٰ أن هذا أَصَحُّ من كتابِ رئيسه فى ألفاظِه ومعانيه . قال : ولا يجوز الخروجُ عن حكاية لفظِ رئيسِه فى كتابه بحال ، اللهم إلا أن يكون الكتابُ الواردُ علىٰ المجيب فى معنىٰ الشكر والتَّقْريظ من رئيسه له والثناءِ عليه فى قيامه بالخِدْمة ، فإنه لايجوز أن يأتى به علىٰ نصه : لأنه يصير بذلك مادحًا نَفْسَه ، ومدحُ الإنسان نفسَه غيرُ سائغ ؛ ولا يجوز أن يُهْمِل ذكره جملةً لأنه يكون قد أخلَّ بما يجبُ من شُكْرِه له علىٰ تشريف رُتْبته بإحماده له والثَّناءِ عليه ، بل الواجبُ أن يُوقِعَ تلك الصفةَ علىٰ جملةٍ تجعل نفْسَه بعضا منها ، مثل أن يقول : «فأما ماوصفه من ٱعتداده بخادِمه فى جملة مَنْ نَهض بحقوق خِدْمته ، وقام بفَرْض طاعته ، فأهَّله لما يَرْفَع الأقدار من إحمادِه وثَنائه ، ويُعْلِي الأخطارَ من شُكْره ودُعائه» وما يضاهى هذا من العبارة التى تشتمل علىٰ معانى ألفاظِ رئيسه ، فإنه إذا قصد هذا السبيل فى حكايةِ كتابِ رئيسه فى هذا المعنىٰ ، فقد جمع بين البلاغة والإتيان علىٰ معانى ألفاظِ رئيسه والأدَبِ فى ترك التفخيم لنَفْسه بإضافته لها إلىٰ جملةِ الخاصَّة دُونَ إيقاع المَدْح عليها فقط .

قلت : هذا هو الترتيب الذى يجب ٱعتمادُه فى الأجوبة ، فلايجوز الخروج عنه إلىٰ غيره ؛ علىٰ أن كُتَّاب زماننا قد اطَّرحُوا النظرَ فى ذلك جملةً ، وصاروا يكتبُون الأجوبةَ بحسَب التشَّهى : فمنهم مَنْ يحكى الكتابَ الذى يقَع الجوابُ عنه بنصه مطلقا ، سواءٌ كان من رئيس أومرءوس وبالعكس ، مع قَطْع النظر عما وراء ذلك . فتنبه لهذه الجملةِ فإنها دقيقةٌ جليلةٌ .

الفصل الثانى

من الباب الأوّل من المقالة الرابعة

(فى ذكر أصول المكاتبات وترتيبها، وبيان لواحقها ولوازمها . وفيه طرفان)

الطرف الأوّل

(فى ذكر أصولها وترتيبها . وفيه جملتان)

الجملة الأولىٰ

(فى المكاتباتِ إلىٰ اهل الإسلام)

وآعلم أن المكاتبات الدائرةَ بين المسلمين من صَدْر الإسلام و إلىٰ زماننا لا يأخُذُها حدٌّ، ولا تدخُل تحت حَصْر .

والمشهور آستعماله منها فى دواوين الإنشاء علىٰ آختلاف الأزمان خمسةَ عشرَ أُسْلُوبا .

الأسلوب الأوّل

(أن تُفْتَتَح الكتبُ بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : وأوّل مَنْ كتب بذلك قُسُّ بنُ ساعدةَ الإيادىُّ ؛ وعلىٰ ذلك كانتْ مكاتباتُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم والسلفِ من الصحابة والتابعين رضوانُ الله عليهم . فكان النبىّ صلّى الله عليه وسلم يكتُب : "من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ فلان". ثم كتب أبو بكر الصدّيقُ رضى الله عنه فى خلافته : «من أبى بكرٍ خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلم» . ثم كتب عمرُ بعْدَه : «من عُمَرَ

آبن الخطاب خليفةِ خليفــةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم إلىٰ فلان» . فلمــا لُقِّب بأمير المؤمنين زاد فى ذلك لفظَ «عبدِ الله» قبل عُمَر، ولَقَبَ «أمير المؤمنين» بعده؛ فكان يكتب : «من عبدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلىٰ فلان» . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ خلافة هارونَ الرشيد، فأمر أن يُزاد فى صُدُور الكتب بعدَ «فإنّى أحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو، وأسأله أن يُصَلِّىَ علىٰ جدّه(١) محمدٍ عبده ورسوله» . فجرىٰ الأمرُ علىٰ ذلك فى زمنه ومابعده . قال أبو هلال العسكرىّ فى "الأوائل" : وكان ذلك من أَجَلِّ مَنَاقبه . قال صاحب "ذخيرة الكُتَّاب" : وكان الرشــيدُ قد قال ليَحْيىٰ آبن خالد : إنى قد عزَمْت علىٰ أن يكونَ فى كُتُبى : «من عبدِ الله هارونَ الإمامِ أميرِ المؤمنين عبدِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم» ــ فقال له يحيىٰ : قد عرفَ اللهُ نيَّتك فى هــذا يا أمير المؤمنين ! [وأجْزلَ] لك الأَجْر، والتعبدُ إنمــا هو لله وحْدَه لا لغيره ــ قال : فاكْتُبْ «من هارونَ مَوْلىٰ محمدٍ رسول الله» ــ فقال : إن المَوْلىٰ ربمــا كان فى كلام العَرَب آبنَ العَمِّ ، وجزىٰ الله أميرَ المؤمنين خيرًا عن هــذه النية وهذا الفِكْر .

الأُسْــــلوب الثــانى

(أن يُفْتَتَح الكتَابُ بلفظ «لفلان من فلان» أو «إلىٰ فلان من فلان» وبقيةُ الصَّدْر، والتخلصُ بـ«أما بعد» أوغيرها، والآختتامُ بالسلام وغيره علىٰ ماتقدّم فى الأسلوب الأوّل)

وقد آختلف العلماء فى جواز الآبتداء فى المكاتبة باسم المكتوب إليه : فذهب جماعةٌ من العلماء إلىٰ جواز ذلك، محتجّين بأن الصَّحابة رضى الله عنهم وبعضَ الملوك

---

(١) لعله جدى وسقط لفظ جده من عبارة الضوء وهى أوضح وأصرح .

كانوا يكتُبُون إلىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم كذلك . كما كتب إليه خالدُ بنُ الوليد والنجاشيُّ والمقَوْقِس فى إحدىٰ الروايات، علىٰ ما سيأتى ذكره فى المكاتبات إلىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وقد رُوِى أن رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قال : "إذا كَتَبَ أحدُكُم فليَبْدَأْ بنفسه، إلّا إلىٰ والدٍ أو والدةٍ أو إمام يَخافُ عُقُوبَتَه" وعن نافع قال : كانت لٱبن عُمَرَ إلىٰ معاويةَ حاجةٌ ، فقال له ولده : ٱبْدأْ به فى الكتاب، فلم يزالوا به حتّى كتب : «بسم الله الرحمن الرحيم، إلىٰ معاويةَ من عبدِالله بن عمر». وعن الأوزاعىّ أنه كان يكتب إلىٰ عُمَرَ بن عبد العزيز فيبدأ به فلا يُنْكِر ذلك . وعن سعيد بن عبد العزيز قال : كتب عمرُ (يعنى ٱبنَ عبد العزيز) إلىٰ الحَجّاج، فبدأ بالحَجّاج قبل نفسه ـ فقيلَ له فى ذلك ـ فقال : بدأتُ به لأحْقِنَ دَمَ رجل من المسلمين . قال سعيد : فحقَن له دَمَه . وعن بكر بن عبد الله أنه كتب إلىٰ عاملٍ فى حاجة ، فكتب : «بسم الله الرحمن الرحيم، إلىٰ فلانٍ من بَكْر» ـ فقيل له أتبدأ باسمه فقال : وما علىّ أن أُرْضِىَ صاحبِي وتُقْضىٰ حاجةُ أخى المسلم ؟ قال فى "صناعة الكُتّاب" : وعلىٰ ذلك جرىٰ التعارُفُ فى المكاتبة إلىٰ الإمام .

وذهب قوم إلىٰ كراهة ذلك ، لأنه مأخوذٌ عن ملوك العَجَم . قال ميمون ٱبن مِهْران : كان العجم يبدءُون بملوكهم إذا كتبُوا إليهم . وقد رُوِى عن العلاء ٱبن الحضرمىّ أنه كتبَ إلىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فبدأ بنَفْسه . وعن الربيع ٱبن أنَسٍ قال : ما كان أحدٌ أعظَمَ حرمةً من رسول الله صلّى الله عليه وسلم وكان أصحابه يكتُبون إليه يبدءُون بأنفسهم . وعلىٰ ذلك جرىٰ فى "نهاية الأرب" فقال : كان أصحابُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأمراءُ جُيوشه يكتُبون إليه

كما يكتُب إليهم : يبدءُون بأنفُسِهم . وعن ميمون بن مِهْرانَ أنه قال : كان آبن عُمَرَ إذا كتب إلىٰ أبيـه كتب « من عبـد الله بن عُمَر إلىٰ عُمَر بن الخطَّاب » . وعن يحيىٰ بن سـعيد القَطَّان قال : قلت لسُفْيانَ الثورىّ : اكتب إلىٰ أمير المؤمنين يعنى المهدىَّ ، قال : إن كتبتُ إليه بدأتُ بنَفْسى ـ قلت : فلا تكْتُبْ إليه إذَنْ . وهـذه الأقوال كلها جانحةٌ إلىٰ ترجيح بُدَاءة المكتوب عنـه بنفسه . قال أبو جعفر النحاس : وهذا عنـد أكثر الناس هو الإجماعُ الصحيح ؛ لأنه هو إجماع الصحابة رضى الله عنهم .

ولْتَعْلَمْ أن الذاهبين إلىٰ جِواز الابتداء باسم المكتوب إليه اختلفوا : فذهب قومٌ إلىٰ أنه إنما يكتبُ « إلىٰ فلان من فلان » كما تقدّم فى كتاب آبن عمرَ إلىٰ معاويةَ ، ولا يكتبُ « لفلان من فلان » . وآستشهد لذلك بمـا رُوِى عن آبن عمرَ رضى الله عنه أنه قال : يكتُب الرجلُ «من فلان إلىٰ فلان» ولا يكتب لفلان ؛ وبمـا رُوِى عن هُشَيْم عن المُغيرة عن إبراهيم انه قال : كانوا يَكْرَهون أن يكتُبوا «بسم الله الرحمن الرحيم لفلان من فلان» لكن قد رُوِى أن رجلا كتب عند ابن عمر « بسم الله الرحمن الرحيم لفلان من فلان » فقـال آبن عمر : مَهْ ! فإن آسم الله هو له إذَنْ . ومقتضىٰ ذلك أن الكراهةَ إنمـا هى لإيهام أن البسملة للمكتوب إليه ، لا للابتداء باسم المكتوب إليه .

وذهبت طائفـة إلىٰ جواز أن يُكْتَب « لفلانٍ من فلان » واحتجَّ لذلك بمـا رُوِى عن مالك بن أَنَس عن عبـد الله بن دينار أن آبنَ عمر كتب إلىٰ عبـد الملك ابن مَرْوانَ : « بسم الله الرحمن الرحيم أما بعدُ لعبد الله عبد الملك امير المؤمنين من عبدالله بن عمر» وهو ظاهر ، فقد كانت مكاتبةُ خالدِ بن الوليد والنَّجاشىِّ والمقَوْقس

« لمحمد رسولِ الله » على ما سيأتى ذكره . وعلى ذلك كانت المكاتبةُ للخلفاء (١) : فكان يُكْتَب لعمرَ بن الخطاب رضى الله عنه من عُمَّاله وغيرهم « لعبد الله عمر امير المؤمنين» وعلى ذلك جرى الحال فى المكاتبة إلى سائر الخُلَفاء بعدَه على ما ستقف عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

الأُسْلُوب الثالث

(ان يفتتح الكتابُ بلفظ أما بعد)

وعليه ورد بعضُ المكاتبات الصادرةِ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعن الخلفاء من الصحابة فمن بعدهم فى صدر الإسلام على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وكانوا بعد حُدُوث الدعاء فى المكاتبات يُتْبِعونها بالدعاء بطُول البقاء غالبا، فيقال : « أما بعدُ أطال الله بقاءَك» ونحو ذلك ، ثم أَضْرَبَ عنها بعضُ الكُتَّاب بعد ذلك . قال أبو هلال العسكرىّ : فى كتابه "الصناعتين" : وكان الناس فيما مضى يستعملون فى أوائل فصول الرسائل « أما بعدُ » وقد تركها جماعةٌ من الكُتَّاب فلا يكادون يستعملونها . قال : وأظنُّهم ألمُّوا بقول ٱبن القِرِّيّة ـ وقد سأله الحجاجُ عما يُنْكِره من خَطَابته ـ فقال : إنك تُكْثِر الرَّدّ، وتشير باليَد، وتستعين بأمَّا بعد. فتحامَوْها لهذه الجهة . ثم قال : فإن ٱستعمَلْتها ٱتِّباعا للسلف ورغبةً فيما جاء فيها من التأويل أنها فصلُ الخطاب، فهو حَسَن ؛ وإن تركتها توخِّيا لمطابقةِ أهل عصرك، وكراهةً للخروج عما أصَّلوه لم تكن ضائرا . أما الآنَ فقد تُرِك الابتداءُ فى الكتب بأما بعد

---

(١) فى الاصل وعلى كل حال وهو سبق قلم كما هو ظاهر .

حتّى لا يكاد يُعوِّل عليها فى الابتداء كاتبٌ من كُتَّاب الزمان ، ولا يَفْتتح بها مكاتبة . نعم يؤتىٰ بهافى أثناء بعض المكاتَبَات علىٰ ماسيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

وقد تقدّم الكلام علىٰ معناها وأوّلِ مَنْ قالها فى الكلام علىٰ الفواتح فى المقالة الثالثة ، وكُتَّابُ المغاربة ربما ٱفتتحوا مكاتباتِهم بلفظ وبعدُ .

الأســـلوب الرابع

(أن تفتتح المكاتبةُ بخُطْبة مفتَتَحة بالحمدُ لله)

وأصلُ هذه المكاتبة مختَلَسٌ من الأُسلوب الأوّل من قولهم : فإنّى أحمد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو . ثم جاء عبدُ الحميد بنُ يحيىٰ كاتبُ مَرْوانَ بن محمد : آخر خلفاءِ بنى أُميّـةَ ، وأطال التحميداتِ فى صُـدُور الكُتُب مع الإتيان بأما بعـدُ ، وتَبِعه الكُتَّاب علىٰ ذلك ؛ ثم توسَّعُوا فيـه حتّى كَرَّروا الحمـدَ المَرَّاتِ فى الكتاب الواحد ، لا سيما فى أماكن النِّعم الحادثة ، كالفُتُوحات ونحوها ؛ ثم توسَّع بعضُ الكُتَّاب فى ذلك حتّى جعل الحمـدَ لله ٱفتتاحا ، وٱستمرّ ذلك إلىٰ الآنَ . وعلىٰ ذلك بعضُ المكاتبات السلطانية فى زماننا ، علىٰ ماستقِف علىٰ ذلك جميعه فى مواضعه إن شاء الله تعالىٰ .

ولا خفاءَ فى أن الحمدَ أفضلُ الافتتاحات ، وأعلىٰ مراتِب الابتداآت ، وإن لم يقع الابتداء به فى صَدْر الإسلام، فهو من المبتَدَعات المستحسَنَة . وحيث ٱفتتحت المكاتبـةُ بالحمد لله كان التخَلُّص منها إلىٰ المقصود بأما بعْدُ ؛ وربما وقع التخَلُّص بغير ذلك ، ويكون الاختتامُ فيها تارةً بالسلام ، وتارةً بالدّعاء ، وتارةً بغير ذلك . قال ٱبن شيث فى " معالم الكتابة " : والتحميدُ فى أوّل الكُتُب لايكونُ إلا فى الكُتُب

المكتوبة عن السلطان . قال : وغاية عظَمَة الكاتب أن يكرِّر التحميدَ ثانيةً وثالثةً في الكتاب، ثم يذكر الشهادتين والصلاةَ على النبيّ صلّى الله عليه وسلم .

قلت : والتكرار في الحمد يكون بحسَب مقدار النعمة المكتوب بسببها من فَتْح ونحوه .

الأُسْــــلوب الخامسُ

(أن تَفْتَتِح الكتابَ بلفظ « كتابِي إليك » أو « كتابُنا إليك من موضع كذا، أو في وقت كذا والأمر على كذا » وتشرح القضـية، وتختِمَ المكاتبةَ « بكتابُنا إليك» بنحو قولك : «فإن رأيتَ أن تفعلَ كذا فعلت» والمكاتبةَ « بكتابي إليــك » بنحو قولك : «فرأْيَك في كذا » وما يجرِي هــذا المَجْرىٰ)

والأصلُ في هذه المكاتبـة أنَّ النبيّ صلّى الله عليه وسـلم كان يكتُبُ في بعض المكاتبات الصادرة عنه : « هذا كِتَابٌ من محمدٍ رسولِ الله إلى فلانٍ، أو إلى الجماعة الفلانيين » . فلما كان أيامُ بني بُوَيه في أثناء الدولة العباسية ، ٱستخرج كُتَّابها من هذا المعنىٰ الٱبتـداءَ « بكتابي إليك » إذا كانت المكاتبةُ إلى النظير ومَنْ في معناه، والٱبتداءَ « بكتابُنَا إليك » إذا كانت المكاتبةُ عمَّن له رتبـةُ نونِ العظمة من الملوك ونحوهم ؛ وكانوا يُتْبِعون ذلك بالدعاء بطُول البقاء نحو «كتابِي إليكَ أطال اللهُ بقاءكَ» أو « كتابُنا إليك أطالَ اللهُ بقاءَك » . وربمـا عبر «بهذه الخِدْمةُ» (١) وما أشبه ذلك ؛ ويكون التخلُّص فيه إلى المقْصِد بواو الحال، مثل أن يقال : « كتابي إليك والأمْرُ على كذا وكذا» ونحو ذلك، وربما وقع التخلُّص بخلاف ذلك . ويكون الٱختتام فيه

---

(١) أي عبر بدل كتابي اليك مثلاً بقوله «هذه الخدمة إليك» كما يؤخذ مما يأتي في الاسلوب الحادي عشر

تارةً بالسلام وتارةً بالدعاء ، وتارةً بغير ذلك . وكُتَّاب المغرب عدلُوا عن لفظ الاسم فى كتابى إلىٰ لفظ الفعل . مثل أن يقال : «كتبنا إليك» او «كتبتُ إليكَ والأمرُ علىٰ كذا، او من موْضِع كذا» .

الاســـــلوب السادس

(أن تقع المكاتبة بلفظ «كَتَب» بصيغة الفعل)

وهذه المكاتبة كان يُكْتَب بها عن الوزراء ومَنْ فى معناهم إلىٰ الخُلَفاء . فيكتب الوزير ونحوه : «كتَبَ عبدُ أمير المؤمنين» أو «كتب العبدُ من مَحلِّ خدمته بمكان كذا، والأمر علىٰ كذا وكذا» . وعلىٰ نحوٍ من ذلك يجرِى كُتَّاب المغـاربة فى الكثير من كُتُبهم، مثـل «إنا كتَبْنا إليكم من محلِّ كذا» أو «كتبتُ إليك من محَـلِّ كذا» وما أشبه ذلك . وهذه فى الأصل مأخوذةٌ من الأُسْلوب الذى قبلُ .

الأسلوب السابع

(أن يقع الافتتاحُ بالدعاء)

والأصل فى ذلك ماحكاه ابو جعفر النحاسُ : ان معاويةَ بنَ أبى سفيانَ كتب إلىٰ اميرالمؤمنينَ علىّ بن ابى طالب رضى الله عنه عند جَرَيان الخلاف ووُقُوع الحَرْب بينهما : « أما بعــدُ عافانَا اللهُ وإيَّاكَ من السُّوء » . ثم زاد الناس فى الدعاء بعـــد ذلك .

وقد اختُلِف فى جواز المكاتبة بالدُّعاء فى الجملة : فذهب ذاهبُونَ إلىٰ جواز ذلك كما يجوز الدُّعاء فى غير المكاتبَة، سواءٌ تضمن الدعاءُ معنىٰ الدّوام والبقاء ام لا . وهو

الذى رجّحه محمدُ بن عمرَ المدائنىّ فى كتاب "القلم والدواة" وإليه يَميل كلامُ غيره أيضا، وحكاه النحاسُ عن أبى جَعْفرٍ أحمدَ بن سلامة، وكلامه يَميل إلىٰ ترجيحه.

أما ما يتضمن معنىٰ الدَّوام والبقاء، فلما رُوِى أنَّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال لأبى اليَسَر كَعْب ٱبنِ عُلَيَّة (١) : "اللهم أمْتِعْنا به" قال النحاس : وذلك دليلُ الجَواز، بل حُكى عن بعضهم أنَّ الدعاء بطول البقاء أكمُل الدعاء وأفْخَمه، لأن كل نعمةٍ لا يُنْتَفَع بها إلا مع طُول البَقاء . ثم قال : والمعنىٰ فى الدُّعَاء فى المكاتبات التودُّد والتحبُّب، وقد أمر صلّى الله عليه وسلم المسلمين أن يكونُوا إخوانًا، ومن أُخُوّتهم وُدُّ بعضهم بعضا. وكذلك القولُ بما يؤكّد الأُخُوّة بينهم والمودّةَ من بعضهم لبعض، وإذا قال له ذلك، كان قد بلغ من قَلْبه نهايةَ مبلَغ مثلِه منه، ويكون مَنْ قال ذلك قد عَلِم من قَلْبه فى شأنه مايكونُ من قَلْب مثله. وقد قال الشيخ محيي الدين النووىُّ : من قال لصاحبه ـ حِفْظا لمودّةٍ ـ : «أدامَ اللهُ لك النِّعَم» ونحو ذلك فلا بأس به .

❖

واما ما لم يتضمن معنىٰ الدوام والبقاء : كالعِزّ والكَرامة ، فقد روى عن كعب ٱبن مالك رضى الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : « مَنْ رأىٰ مِنكُم مَقْتَلَ حمزةَ ؟ فقلتُ : أعزَّكَ اللهُ ! أنا رأيتُه » . وعن أنس بنِ مالك رضى الله عنه قال : دخل جريرُ بنُ عبدالله علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم، فَضَنَّ الناسُ بمَجالسهم فلم يُوسِّع له أحدٌ ، فرمىٰ له رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم ببُرْدَتِه وقال ٱجلِسْ عليها ياجريرُ، فتلقّاها بوجْهه ونَحْره فقبّلَها ثم ردّها علىٰ ظَهْره ، وقال : أكْرمكَ اللهُ

(١) سبق فى صفحة ٢٩٢ من هذا الجزء كعب بن عبيد الله والذى فى "خلاصة تذهيب تهذيب الكمال" للخزرجى ص ٣٢١ أنه كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن غزية بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الانصارى السلمى بالفتح أبو اليسر بفتح التحتانية عقبىّ بدرىّ جليل . فلعل علية ٱسم أمه .

يارسول الله كما أكرمتني» فقد دعا له صلّى الله عليه وسلم كعبُ بنُ مالك بالعز، وجريرُ ٱبنُ عبد الله بالكرامة ولم يُنْكِرْ ذلك علىٰ واحدٍ منهما .

وذهب آخرون إلىٰ أنه لاتجوزُ المكاتبة بالدُّعاء، سواء تضمَّن معنىٰ الدوام والبقاء أم لا : لأنه خلافُ ماوردَتْ به السنة وجرىٰ عليه ٱصطِلاح السَّلَف .

وفَصَّل بعضُهم فقال : إن كان الدعاء مما لايتضمَّن معنىٰ الدوام والبقاء نحو «أكرمَك اللهُ بطاعته» و «تولّاك بحِفْظه» و «أسعدك بمعرفته» و «أعزَّكَ بنَصْره» جاز، لحديثي كَعْب بن مالك وجَرِير بن عبد الله المتقدّمين . وإن كان مما يتضمَّن معنىٰ الدوام والبَقَاء، نحو «أطال الله بقاءَك» و «نَسأَ أجلَك» و «أَمْتَعَ بك» وما أشبه ذلك، لم تجز المكاتبةُ به .

وٱحتَجَّ لذلك بحديث عبدِ الله بن مسعود رضى الله عنه "أنَّ أُمّ حبيبةَ بنتَ أبي سُفْيانَ، زوجَ النبيّ صلّى الله عليه وسلم قالت : اللهُمَّ أمْتِعْني بزَوْجِي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم وبأبِي أبِي سفيانَ وبأخي مُعاوِيةَ ـ فقال لها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : لقد دعَوْتِ اللهَ لِآجالٍ مَضْروبةٍ، وأرْزاقٍ مقسومةٍ لايتقدّمُ منها شيءٌ قبلَ أجَلِه ولا يتأخّر بعد أجَله ! ولو سألْتِ اللهَ أن يَقِيَك عَذابَ النار لكان خَيْرًا لك" وبما رُوِي أن الزُّبيرَ بنَ العوّام رضى الله عنه ! قال للنّبيّ صلّى الله عليه وسلم : «جَعَلَنِي اللهُ فِدَاكَ» . فقال له النبيُّ صلّى الله عليه وسلم : «أما ترَكْتَ أعْرابِيَّتَكَ بَعْدُ؟» فقد أنكر صلّى الله عليه وسلم علىٰ أمّ حبيبة والزبير الدعاءَ بما فيه طولُ البقاء؛ وإذا ٱمتنع ذلك في مُطْلَق الدعاء، ٱمتنع في المكاتَبة من بابِ أوْلىٰ : لمخالفة طُرُقها التي وردت بها السنةُ . قال حمّادُ بن سلمة : كانت مكاتبةُ المسلمين «مِن فلانٍ إلىٰ فلانٍ، أما بعدُ سلامٌ عليك فإني أحمدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو وأسألُه

أن يصلّي على محمد عبدِه وآلِ محمد » حتّى أحدث الزنادقةُ ـ لعنهم الله ـ هذه المكاتبةَ التى أوّلها « أطال الله بقاءَكَ » .

وعن إسماعيل بن إسحاق أنّ أوّل من كتب « أطال اللهُ بقاءَك » الزنادقةُ . وقد قال الإمام الرافعىّ وغيرُه من أئمة أصحابِنا الشافعية : إن الدعاء بالطَّلْبَقَة ـ وهى أطال الله بقاءك ـ لاأصلَ له فى الشرع . قال الشيخ محيي الدين النوويُّ : وقد نصَّ السلفُ على كراهته . ونقل النحاسُ عن بعضهم : أنه آستحبَّ تقييدَه بالإضافة إلى شىء آخَر، مثل أن يكتب « أطـالَ اللهُ بقاءَك فى طاعته وكَرَامته » أو «أطال الله بقاءَك فى أَسَرّ عَيْش وأنْعَم بال» وما أشبه ذلك .

وآعلم أنّ الناس قد آختلفُوا فى صُورة الآبتداء بالدعاء : فالأوّلُون ـ لآبتداع الدُّعاء فى المكاتَبَات ـ كانوا يفتَتِحُون بطُول البَقَاء للخلفاء وغيرِهم؛ ثم توسَّعت الطبقةُ الثانيةُ من الكُتَّاب فى المكاتبــة ففتتحُوا بالدعاء للخلفاء والمُلُوك بخلود المُلْك، ودوامِ الأيامِ، ودوامِ السُّلْطان وخلوده، وما فى معنىٰ ذلك؛ ولمن دُونَهم بعد النَّصر والنُّصْرة والأنصار بدوام النِّعمة وخُلُود السَّـعادة ومَدِّ الظِّل و إسباغِ الظِّلال، وغير ذلك مما يأتى ذكرُه فى الكلام على مصطَلَح كل طبقةٍ فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

ثم للكُتَّاب فى الخِطاب(١) بالدُّعاء مذهبان :

أحدهما ـــ أن يقع الدعاءُ بلفظ الخِطَاب، نحو «أطالَ اللهُ بقاءَكَ، وأعزَّك الله، وأكْرمك اللهُ، وأدامَ كرامتَكَ وسَعادتَك» وماأشبه ذلك .

والثـانى ـــ أن يقع بلفظ الدعاء للغائب مثل : « أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين» و«أطالَ الله بقاءَ سَيِّدى» و«أطال اللهُ بقاء مَوْلانا» أو«أعز اللهُ أنصار المَقَام أو المَقَرّ»

(١) كذا فى الأصول ولعله فى الاتيان بالدعاء الخ .

أو « ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجَنَاب» أو « أدام الله نعمةَ الجَنَاب أو المجلس » وما أشبه ذلك .

قال فى " صناعة الكتاب " : وهو أجلُّ الدعاء فيما آصطلَحُوا عليه . قال : ورأيتُ علىَّ بن سليمان يُنْكِر ذلك ويقول : الدعاءُ للغائب جَهْل باللُّغة، ونحن ندعو الله عز وجل بالمخاطبة .

الأُسلُوب الثامن
(أن يُفْتَتح الكتابُ بالسلام)

ويقع التخلُّص إلى المقصود بلفظ « ونُبْدِى لعِلْمه» أونحو ذلك، ويقع الآختتام فيه بالسلام أيضا ؛ وهو منتَزَع من قولهم فى صَدْر المكاتبة فى الأسلُوب الأوّل : سلامٌ عليكَ فإنِّى أحمدُ إليك اللهَ ؛ تصرّف الكُتَّاب فيه فجعلوا السلامَ فى آبتداء المكاتبة، وصاروا يبتدئونها بنحو سلامُ اللهِ ورحمتُه وبركاتُه . وقد كانوا يبتدئُون المكاتبة إلى الخلفاء ببغداد فى الدولة الأيُّوبية بالديار المصرية بالسلام فى بعض الأحيان ، وعلىٰ ذلك آستقرّتِ المكاتبةُ عن الخليفة الآنَ . وبه يُفْتَتح بعضُ المكاتبات إلىٰ مشايخ الصُّوفيَّة ، علىٰ ما سيأتى فى الكلامِ عليه فى موضعِه إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى "صناعة الكُتَّاب" : وإنما قدّمُوا السلامَ علىٰ الرحمة لتصَرُّفه : لأنه من أسماء الله تعالىٰ أو جمعُ سلامة . قال فى " موادّ البيان " : أو آسمٌ للجَنَّة كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ثم عَقَّب ذلك بأن قال : والسلام فى هذا الموضع من السَّلَامة ، وتقديمُ السلامة التى تكونُ فى الدنيا أولىٰ من تقديم الرحمة التى تكون فى الآخرة .

الأســـلوب التاسع
(أن يُفْتَتح الكتابُ بيُقَبِّـل الأرض)

ويتخلص إلىٰ المقصود بلفظ « وينهى » ويقع الآختتام بـ«طالَع » أو «أنْهىٰ» وهذه المكاتبةُ مما هو موجودٌ فى بعض مكاتَبَات القاضى الفاضل، ولم أرها فيا قبله؛ وكأنهم لما آستعمَلُوا فى صُـدُور المكاتبات إلىٰ الخلفاء المكاتبـةَ بيقبل الأرضَ والعَتَباتِ ونحو ذلك ، آستنبَطُوا منه آبتـداءَ مكاتبةٍ وجعلُوها لمكاتبـة الرُّؤساء من السلطان ومَنْ فى معناه بالنِّسـبة إلىٰ المرْءُوس . والأصــلُ فى ذلك أن تحيَّةَ الملوك والرُّؤساء والأكابر فى الأمم الخالية كانت بالسُّجُود ، كما يُحيِّي المسلمون بعضُهم بعضا بالسلام . وقد قال قتادةُ فى قوله تعـالىٰ حكايةً عن إخْوة يوسفَ عليهم السلام : ﴿ وخَرُّوا لَهُ سُجَّدا ﴾ : كانت تحيَّـةُ الناس يومَئِذ سُجُودَ بعضهم لبعضٍ ، وعليه حُمِل قولُه تعالىٰ : ﴿ وإذْ قُلْنَا للمَلَائِكَةِ آسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ علىٰ أحد التفاسير، وهو المرَجَّح عند الإمام فخر الدين وغيره من المفسِّرين . قال الشيخ عمـادُ الدين بنُ كثير رحمه الله فى تفسيره : وكان ذلك مَشْروعًا فى الأمم المـاضيةِ ولكنه نُسِخ فى مِلَّتنا . قال معاذٌ «يارســولَ الله ! إنِّى قَدِمت الشامَ فرأيتُهمْ يَسْجُدُون لِأَسَاقِفَتِهِمْ وعلمائِهم فأنْتَ يارســولَ الله أحَقُّ أن يُسْـجَدَ لك . فقال : [لا](١) لو كنت آمرًا بَشَرا أن يَسْجُدَ لبَشرٍ لأَمَرْتُ المرأةَ أن تَسْجُد لبَعْلِها من عظم حَقِّه عليْها» . وعن صُهَيْب : «أن مُعاذًا [لمـا](٢) قَدِم من اليمن سَجَد للنبيِّ صلّى الله عليه وسلم فقال يامعاذُ [ماهذا ؟ قال](٢) إن اليهودَ تَسْجُد لعُظمائها وعُلَمائها ، و رأيتُ النصارىٰ تَسْجُد لقِسِّيسِيها وبَطَارِقَتِها ، قلتُ ماهــذا ؟ قالوا تَحِيَّةُ الأنبياء ـ فقال عليه الســلام : كَذَبُوا علىٰ أنْبِيائهم » .

(١) الزيادة عن تفسير آبن كثير .

(٢) الزيادة عن مفاتيح الغيب للفخر الرازى .

وعن سفيان الثورىّ عن سِمَاكِ بنِ هانئ قال : دخل الجَاثَلِيقُ علىٰ علىّ بن أبى طالب، فأراد أن يَسْجُدَ له، فقال له علىٌّ : اُسْجُدْ لله ولا تَسْجُدْ لِى .

فلما وردتْ شريعةُ الإسلام بنسخ التحيَّة بالسجود وغلبَ ملوكُ العَجَم علىٰ الأقطار، آستصْحَبُوا ما كان عليه الأمرُ فى الأمم الخالية، وعَبَّروا عنه بتَقْبِيل الأرض فِرارًا من آسم السُّجود ولورود الشريعةِ بالنَّهْيِ عنه ؛ وآستمر ذلك تحيةَ الملوك إلىٰ الآنَ، فاستعار الكُتَّاب ذلك ونقلُوه من الفعل إلىٰ اللَّفْظ ، فاستعملوه فى مكاتباتهم إلىٰ الخُلَفاء والملوك ؛ ثم توسَّعُوا فى ذلك فكاتَبُوا به كلَّ مَنْ له عَظَمة بالنسبة إلىٰ المكتوب عنه، ورتَّبوه مراتِبَ علىٰ ماسيأتى بيانُه فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . ولا خَفَاء فيما فى هذه المكاتَبة من الكَرَاهة .

الأُسْلوب العاشر

(أن يُفْتَتَح الكتابُ بيقبِّل اليدَ وما فى معناها من الباسِط والباسطةِ)

ويقع التخلُّص منه إلىٰ المقصود بما يقَعُ به التخلصُ فى الأسلوب الذى قبله من الإنهاء ؛ ويُخْتَمُ بالدعاء ونحوه .

والأصلُ فى هذه المكاتبة أنَّ يُقبِّل اليدَ وما فى معناها مما يُؤْذن بالتعظيم، والتبجيل والتكريم ، وعُلُوِّ القدر وزيادة الرفعة، مع أنه ليس بممنوع فى الشَّريعة . فقد ثبتَ فى الصحيحين فى حَدِيثِ الإفك : «أنه لما أنزلَ اللهُ تعالىٰ بَرَاءَةَ أمّ المؤمنين عائشةَ رضى اللهُ عنها، قال لها أبُوها : قُومى إلىٰ النَّبىّ صلىٰ الله عليه وسلم فَقَبِّلِى يَدَهُ» . ولم يكن الصدّيقُ رضى الله عنه لِيَأْمُرَها بما هو ممنوعٌ فى الشريعة . وقد نَصَّ الفقهاءُ

رحمهم الله علىٰ أنه يجوز تَقْبِيلُ يَدِ العالم والرجُلِ الصالح ونحوهما، فاستعار الكُتَّاب ذلك ونقَلُوه من الفعل إلىٰ الكتابة أيضا، كما فعَلُوا فى تَقْبِيل الأرض، ورَتَّبوه مراتبَ علىٰ ما سيأتى ذكُره فى موضعه إن شاء اللهُ تعالىٰ . علىٰ أنَّ بعض الكُتَّاب قد جعل يُقَبِّل القَدَم رتبةً بين يُقَبِّل الأرضَ ويُقَبِّل اليد وما فى معناها، وهو ظاهر لكنه لم يشتهر فى عُرْف الكُتَّاب .

الأُسْلوب الحادى عشر

(أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ « صدرتِ المكاتبةُ »)

ويتخلص فيها إلىٰ المقصود بلفظ «وتُوضِّح لعلمه» أو «مُوضِّحة لِعلْمه» وما أشبه ذلك . ويقع الاختتامُ فيها بمثل « واللهُ الموفِّق» ونحوِ ذلك . وربما قيل فيها : «أَصْدِرَتْ هذه المكاتبةُ» أو «أصدَرْناها» .

وأصل هذه المكاتبة أنه كان يُكْتَب فى الدَّوْلة السَّلْجُوقيَّة ببغداد، والدولة الأيوبيَّة بالديار المصرية « صدرت هذه الخدمة » أو « أُصْدِرَتْ هذه الخدمة » . وربما كتب « صدَرَتْ هذه الجملة » فعدل عنه كُتَّاب الزمان بالديار المصرية ومن قارَبهم إلىٰ التعبير بقولهم : « صَدَرَتْ هذه المكاتَبةُ » . علىٰ أن كُتَّاب الزمان بالديار المصرية إنما أخذُوها من صُدُور المكاتبات المفتَتَحة بالدعاء : مثل أعَزَّ الله أنصار المَقَرِّ، حيث يقال فى تصديرها « أصْدَرْناها » ومثل «ضاعفَ اللهُ نِعمةَ الجَناب» و«أدامَ اللهُ نعمةَ الجَناب أو المجلِس» وما أشبه ذلك ، حيث يقال فى تصديرها : « صدَرَتْ هذه المكاتبةُ » فجعلوا الصُّدُور ابتداء .

الأُسلُوب الثانى عشر

(أن يفتتح الكتاب بلفظ « هذه المكاتبـــة »)

ويتخلص منهـا إلىٰ المقصُود بنحو ما وقع التخَلُّص به فى الأُسْــلوب الذى قبله، ويقع الآختتامُ بمثل ما وقع به آختتامُه .

وهذه المكاتبـةُ مأخوذةٌ فى الأصـل من آبتدائهم فى الأُسْلوب الخامس بلفظ : « كتابِى إليك » وما فى معناه، علىٰ أنَّ كُتَّاب الزمان إنما أخذُوا ذلك من المكاتبة التى قبلها، فجعلوا بعضَ الصَّدْر فيها آبتداءً، كما جعلوا جميعَ الصَّــدْر آبتداءً فى الأُسلوب الذى قبلهـا .

الأسلوب الثالث عشر

(أنـ يفتتــح الكتاب بالإعلام)

كما يكتُب كُتَّاب الزمان : « يعلَمُ فلانٌ أنَّ الأمر كذا وكذا » والآختتامُ فيها بمثل الأسلوبين اللَّذين قبلها ولا تخلُّص فيها، لأن الآفتتاحَ فيها موَصِّل إلىٰ المقصود. علىٰ أن الصواب إثباتُ اللام فى أوّلها، بأن يقال : «لِيَعْلَمْ فلان» لأن لام الأمر لايجوز حذفها علىٰ ماتقرَّر فى آخر المقــالة الثالثــة . وعلىٰ ذلك كتب غازانُ أحدُ ملوك بنى جنكزخان ببغداد وما معها إلىٰ الملك النـاصر « محمد بن قلاوون » صاحبِ الديار المصرية، وكُتِب الجوابُ عن الملك الناصر إليه كذلك، علىٰ ماسيأتى ذكرُه فى موضعه إن شاء الله تعـالىٰ .

الاسلوب الرابع عشر

(أن يفتتح الكتابُ بلفظ « يَخْــدُم »)

مثل « يَخْدُم الجنابَ » أو « يخدُمُ المجلس » وما أشبه ذلك . ويكون التخلُّص منها بمثل : « ويُنْهِى » أو « ويُبْدِى » ونحو ذلك ؛ ويقع الاختتام فيها بالدعاء .

وهذه المكاتبةُ كانت مستعملةً فى مكاتبات الفاضل بقِلَّة ، وتداولها الكُتَّاب بعدَ ذلك إلى أن صارت مستعملةً بين الكُتَّاب فى المكاتبات الدائرةِ بين أهل الدَّوْلة فى زماننا ؛ ثم رُفِضَتْ بعد ذلك وتركتْ حتّى لم يستعملها منهم إلا القليلُ النادرُ .

الأسلوب الخامس عشر

(أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ الخِلَافة أو المَقَام الذى شأنُهُ كذا ، أو الإمارة التى شأنُها كذا)

مثل : « خلافة فلان » أو « مَقَام فلان » أو « إمَارَة فلان » وما أشبه ذلك . ثم يقع التخلُّص فى ذلك بمثل : « معظِّم مقامها يَخُصها بسلامٍ صِفتُه كذا ويبدى لعلمها كذا » وما أشبه ذلك . ويقع الاختتام فيها بالسلام ؛ وهذا الأسلوب مما اختص به كُتَّاب المغرب لا سيما المتأخِّرون منهم ، على ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قلت : ووراء هذه الأساليب أساليبُ أُخْرىٰ لكُتَّاب أهل الشَّرق والغَرْب بالديار المصرية فى الأزمنة المتقدّمة ، لا يأخُذُها حصر ، ولا تدخُل تحت حَدّ ، وأكثر ماتكون فى الإخوانيات ، وسيأتى ذكرُ الكثير من أنواعها فى مواضعه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــــلة الثـانية

(فى المكاتَبَات إلىٰ أهل الكُفر، وللكُتّاب فيه أُسْلوبانِ)

الأُسْلوب الأوّل

(أن تُفتَتَح المكاتبـةُ بلفظِ «من فلانٍ إلىٰ فلان»)

وعلىٰ ذلك كتب النبيّ صلّى الله عليه وسـلم إلىٰ أهل الكُفْر، وكان يكْتُب فى مكاتباته صلّى الله عليه وسـلم: «السلامُ علىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ الهُدىٰ» بدل «والسلام» ويَتخلَّص فيها بأمّا بعدُ تارةً، وبغيرها أُخْرىٰ؛ وعلىٰ ذلك جرىٰ الخلفاءُ من الصحابة رضى الله عنهم، وخلفاءُ بنى أُميَّة، وخلفاءُ بنى العَبَّاس ببغداد، ومَنْ شاركهم فى الأمر من ملوك بنى بُوَيْه وبنى سَلْجُوق ومَنْ فى معناهم. وتُخْتَتَم هـذه المكاتبة تارةً بلفظ «والسلامُ علىٰ مَنِ ٱتَّبع الهدىٰ» إن لم يذكر السلامُ فى الأوّل، وتارة بغير ذلك.

الاسلوب الثـانى

(أن تُفْتَتح المكاتبـــةُ بالدعاء)

كما يكتُبُ كُتَّاب الزمان «أطـال الله بقاء الحَضْرة الفلانية: حضرة المَلِك الفُلَانى» أو «أطال اللهُ بقاءَ الملِكِ الفلانى» وما أشبه ذلك. وقد تقدّم الخلافُ فى أصل جواز المكاتَبة بالدّعاء، وما قيل فى الدعاء بطُول البقاء وما فى معناه: من الكراهة، وأن جماعةً من العلماء والكُتّاب أجازُوه.

فإن قيل: علىٰ تقدير جواز ذلك فى حَقِّ المسلم، فكيف يجوزُ فى حَقِّ الكافر.

فالجواب أنه قد ورد «أنَّ النبيَّ صلّى الله عليه وسـلم ٱستَسْقىٰ فسقاه يهُودِىٌّ،

فقال له : جمَّلك اللهُ، فما رُؤِىَ الشَّيْبُ فى وَجْهه حتّى مات» فقد دعا صلّى الله عليه وسلم ليُهوديٍّ بالجَمَال ، وقد لا يكون فى طول بقائه علىٰ الإسلام ضَرَرٌ، بل قد يكون فيه نَفْع ، كحَمْل جِزْية ونحوه، وإنما يُمنَعُ الدعاء له بالعِزّ والنَّصر وما فى معنىٰ ذلك .

تنبيه — اعلم أن الأجوبةَ قد تُفْتَتَح بما تُفْتَتح به الابتداءاتُ من الأساليب المتقدّمة ، ثم يُؤتىٰ بالأجوبة فى أثنائها مثل أن يقال : «وقد وصل كتابُ المَجْلس أو الجَنَاب» أو «وردتْ مكاتبتُه» أو «عُرِضَتْ مكاتبته علىٰ أمير المؤمنين» أو علىٰ المَسَامع الشريفةِ» وما أشبه ذلك . وقد يُجْعَل الجوابُ ابتداءً ، فيُفْتَتَح الكتاب بنحو : «عُرِضَتْ مكاتبتك علىٰ أميرالمؤمنين» مثلا كما كان يكتب فى الزمن المتقدِّم، أو «عُرِضت المكاتبةُ الواصلةُ من جهة المَجْلِس أو الجناب الفلانى علىٰ المَسَامع الشريفة» أو « وردتْ مكاتبتُه » أو « وصلَتْ مكاتبَتُه » ونحو ذلك ، ويؤتىٰ علىٰ ما تضمَّنته المكاتبةُ وما اقتضاه الجوابُ عنه، ثم يؤتىٰ فى الاختتامِ بنظير ما يُؤْتىٰ به فى المكاتبة المبتَدَأة .

الطرف الثانى

(فى ذكر لواحق المكاتبات ولوازمها ، وفيه ستُّ جملٍ)

الجملة الأولىٰ

(فى التَّرْجمة عن المكتوب عنه)

أما التَّرجمة عن السلطان ، فقد ذكر ابن شيثٍ أنَّ مصطَلَح الدولة الأيوبيَّة أنْ يَكْتُبَ لأرباب خِدْمته العلامة فإنها أليقُ به معهم . فإن أراد تمييزَ أحدٍ منهم، كتب له بخطه شيئا مكانَ العلامة، وأن ترجمته للفقهاء والقُضاة وذَوِى التنسُّك «أخوه»

و « ولده » . وذكر أن الأحسن أن يقال فى «ولده» « محل ولده » لقوله تعالىٰ : ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ﴾ أما «أخوه» فلا حَرَج عليه فيه : لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقوله : ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وذكر أنه يتَرْجَم لهؤلاء من ولىّ الأمر أيضا : « المعترِف ببركَتِـه » و « المُتبرِّك بدعائه » و «المرْتَهِنُ بمودّته » . وذكر أن الفقهاء والقضاة وذَوِى التنسُّك يترْجِمُون عن أنفُسِهم بـ«ـالخادم» ودُونَ ذلك «خادِمُه» .

قال : وربمـا ترفَّعوا عن الترجمة بهـذه اللفظة مطلقا فقالوا : « الخادِمُ بالدُّعاء الصالح » أو « الخادِمُ بدُعائه » . قال : وأهل الوَرَع خاصةً يترجمون بـ«ـالفَقِير إلىٰ رحمةِ الله» . وربمـا رَاعَوْا المترجَمَ له مثل أن يكون ولىّ الأمر ، فيقول : «العبْدُ الفقير إلىٰ رحمة الله» ويعنى أنه عبـدُ الله ، ويحصُل بذلك المقصودُ من الأدب مع السلطان . ومنهم من يكتُب : «الدَّاعِى لدولته » و « المبتهِلُ بدعائهِ الصالح لأيَّامه» و «المواظِب علىٰ خِدْمته بالدعاء» وأمثال ذلك . قال : وأكثر الناس يرىٰ الترجمةَ لولده ، فإن ترجم له لم يسم ٱسمه لأنه ليس له والدان ، ولا أقل من أن يكون بينه وبين من يكتب بوالده غير الأب هذا الفرقُ ؛ فأما أنْ يقول : «والدُه فلانُ بن فلان» بحيث يذكر ٱسمَ أبيه فقبيحٌ . ثم قد كانُوا فى الزمن الأوّل يكتَفُون بذكر ٱسم المكتوب عنه فى صَدْر الكتاب وعُنْوانه ، نحو : « من فلانٍ إلىٰ فلان » ثم أحدث الكُتَّاب فى أيام بنى بُوَيْه وما بعدها تراجمَ رتَّبوها ، بعضُها أرفعُ من بعض .

وقد ذكر فى "ذخيرة الكُتَّاب" لذلك مراتبَ فى الصُّـدُور والعُنْوان بعضُها أعلىٰ من بعض ، فجعـل أعلاها بالنسـبة إلىٰ المكتوب عنـه أن يُكْتَبَ ٱسْمُه ، ودونه « صديقُه » ودونه « مُحِبُّه » ودُونَه « شاكِرُه » ودُونَه «المُعْتدّ به » ودونه «أخُوه» ودُونَه « وَلِيُّه » ودونه « عَبْده » ودونه « خادِمُه » ودُونَه « عبدُه وخادمُه » ودونه

«العبدُ» ودونه «العبدُ الخادمُ» ودُونَه «الصَّنيعةُ» ودونه «مملُوكُه» ودونه «المملوكُ» ودونه «المملوك الصَّنيعةُ» . وهو الأعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه . ثم قال: ويتفرّع من هذه الأصول فروعٌ كثيرة لاتحصر ممـا يختاره الكُتَّاب ويقترِحُونه ويَبْتكرونه ، ويكاتبون به أصـدقاءَهم وأَوِدَّاءهم حسبَ ما تقتضيه مَوَدّاتُهم وتُوجِبُه مصافاتهم : كصَفِيّ مَوَدّته ، والمفْتَخِر بمحبته ، والمعتَمِد علىٰ أُخُوّته ، وعَبْدِ مودّته ، وخادم مَجْده ، وشاكر أَيَادِيه ، وحامد تفَضُّله ، والمعتدّ بتَطَوُّله وما يجرى هذا المَجْرىٰ ممـا هو أوسعُ من أن يُجْمَع وأكثرُ من أن يُحْصَر ؛ ولكنه أكثرُ ما يكون بين النُّظَراء والأقران .

ورَتَّب عبدُ الرحيم بن شيث فى "معالم الكتابة" ترتيباً آخَرَ: فذكر أن الترجمة إلىٰ ديوان الخلافة من ذَوِى الولايات كلِّهم « العَبْد » ومن الملوك كُلِّهم «الخادِم» وأن الترجمة إلىٰ الملوك من الأجناد كُلِّهم «المملُوك» مع النسبة إلىٰ أشهر ألقاب الملك : كالناصِرى للناصر، والعـادِلىّ للعادل ، وما جَرىٰ مَجْرىٰ ذلك . ودُونَ المـملوك فى الخضوع : «عبدُه ، وخادمُه» ودونه «العبد» مُفْرَدة . ودُونَه «مملوكه» ودُونَه «العَبدُ الخادم» لأن الثانى كأنه ناسخٌ للأوّل ؛ ودُونَه «الخادِم» ودونه «عَبْدُه» ودونه «خادِمُه» ودونه «عبْده وأُخُوه» ودونه «أخُوه» ودونه «شاكِرُ تفَضُّـله» ودونه «شاكر إحْسانِهِ» ودونه «شاكِرُ مودّته» ودونه «وَلِيُّه وصفِيُّه» ودونه «مُحِبُّه وَوادّه وشاكره» . ودونه الآسم ، ودُونَه العَلامَةُ .

ثم قال: أما «أصغر المماليك» وما يجرى مجراها ، فلا يليق من الأجانب . ورأيت فى دُسْتورٍ صغير فى المكاتبات يعزىٰ للمقرّ الشِّهابىّ بن فضـل الله ، أن أكبر الآداب فى آسم المكتوب عنه بالنسبة إلىٰ المكتوب اليه «المملوك» ثم «المملوكُ الرِّقّ» ثم «المملوك الأصْغَر» ثم «المملوك المُحبّ» ثم «المملوك الدّاعى» ثم «مملوكُه ومحبه» ثم «الخادم»

ثم «خادمه» ثم «أخوه» ثم «مُحِبُّــه» ثم « شاكره» ثم « الفقيرُ إلىٰ الله تعــالىٰ» . ولا يخفىٰ مافى بعض هــذه التراجم من التخالُف بين ماذكره وما تقدّم ذكره عن "ذخيرة الكُتَّاب".

والذى آستقرّ عليه الحــالُ فى زماننا فى ترجمة العَلَامة بالقــلم الشريف السلطانى «أخوه» ثم «والده» ثم الأسمُ؛ وفى حق غيره «المملوك» ثم الأسم . وربمــا كتب بعضهم « العَبْد » بدل الأسم تواضُعا . علىٰ أنهم قد آختلفوا فى جواز التَّرجمة بالعَبد والمملوك : فذهب بعضُهم إلىٰ منع ذلك، محتجًّا بما رُوِى أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال : " لا يَقُولَنَّ احدُكُمْ عَبْــدِى ولا أَمَتِى ، كُلُّكم عَبِيدُ اللهِ وكلُّ نِسائكم إمَاءُ الله ولٰكنْ غُلامِى وجارِيَتِى " . والذى عليه العملُ جوازُ ذلك آحتجاجًا بقوله تعالىٰ : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَايَقْدِرُ عَلىٰ شَىْءٍ ﴾ والأستدلال به لايخلو من نزاع؛ وقُضاة القضاة يكتُبون «الدَّاعِى» .

الجمــــلة الثانية

(فى العُنْوان، وفيه ســبْعُ لغات)

حكاها صــاحبُ "ذخيرة الكُتَّاب" . وآقتصر فى " صناعة الكُتَّاب " علىٰ ذكر بعضها : إحداها عُنْوان ــ بضم العين وواو بعد النون . والثانية عُنْيان ــ بضم العين وياء تحتية بعد النُّون . والثالثة عِنْيان ــ بكسر العين . والرابعة عُلْوان ــ بضم العين ولام بدل النون . والخامسة عَلْوان ــ بفتحها . والسادســة عِلْوان ــ بكسرها . والسابعةُ عِلْيــان بالكسر مع إبدال الواو ياء ؛ ويجمع عُنْوانٌ علىٰ عَنَاوِينَ ، وعُلْوان علىٰ عَلَاوِينَ . ويقال : عَنْونْتُ الكتابَ عَنْونةً وعَلْونْتُه عَلْونة، وعَنَّنته بنونين الأولىٰ

منهما مشدّدة تَعْنِينا، وعَنَّيته بنون مشدّدة بعدها ياء تَعْنِيَةً، وعَنَوْته أَعْنُوه عَنْوا بفتح العين وسكون النون، وعُنُوّا بضمهما وتشديد الواو .

وآختلف فى آشتقاقه : فمن قال عُنْوان، جعله مأخوذًا من العُنْوان بمعنى الأثر، لأن عُنْوان الكتاب [أثر بيان] (١) ممن هو و إلى مَنْ هو . قال النحاس : وأكثر الكُتّاب لا يعرف غير هذا ؛ وآحتجُّوا لذلك بقول الشاعر يَذْكُر قتلَ أمير المؤمنين « عثمانَ بن عفّان » رضى الله عنه :

ضَحُّوا بِأَشْمَطَ عُنْوانُ السُّجُود به * يُقَطِّع الليــلَ تَسْبِيحًا وقُرْءانا

وزعم بعضُهم أن العُنْوان مأخوذ من قول العرب : عَنَتِ الأرضُ تَعْنُو إذا أخرجت النباتَ، وأعناها المَطَرُ إذا أظهرَ نباتَها . قال النحاسُ : فيكون عنوانٌ على هذا فُعْلانا ينصرف فى النَّكِرةِ ولاينْصَرِف فى المعرفة . وقيل هو مأخوذٌ من عَنَّ يَعِنُّ، إذا عَرَض وبدا . قال النحاس : فعلى هذا ينصرفُ فى النَّكِرة والمعرفة لأنه فُعْلَال .

ومن قال : عُلْوان ، أبدل من النون لاما ، كما فى صَيْدَلانِى وصَيْدَنانِى ؛ فيكون الآشتقاق واحدا . وقيل عُلْوان مشتَقٌّ من العَلَانِيَة، لأنه خطٌّ ظاهرٌ على الكتاب .

ومن قال : عُنْيان وعِنْيان، جعله من عَنَيت فلانا بكذا إذا قصدته . قال فى " موادّ البيان " : والعُنْوان كالعَلَامة ، وهو دالٌّ على مَرْتَبَة المكتوبِ إليه من المكتوبِ عنه . والأصلُ فيه الإخبار عن آسمِهما (٢) حتّى لايكون الكتابُ مجهولا، والمراد أنه يكتب فيه «من فُلان إلى فلانٍ» أو «لِفُلان من فلان» قال : ولم يزالوا يكاتِبُون بأسمائهم إلى أن وَلِيَ عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه الخلافةَ ولُقِّب بأمير المؤمنين،

(١) الزيادة من الضوء للؤلف ص ٤٤١ .

(٢) عبارة الضوء والمعنى فيه وهو مراده بما هنا .

فكتب : « مِن عَبْد الله أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب » . ثم وقع الأصطلاحُ علىٰ العَنْونة للرُّؤساء والنُّظراء والمرءُوسين والأتباع بالأسمـاء؛ ثم تغَيَّر هذا الرسمُ أيضا .

وكان المأمونُ يكتُب فى أوّل عنوانات كُتُبه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فكانت تكتَبُ قبل آسم المكتوبِ إليـه والمكتوبِ عنه . وقد ذكر أبو جعفرٍ النحاسُ أن ذلك بقِيَ إلىٰ زمانه ، وكان بعد الثلثمائة . قال فى "موادّ البيان" : ثم بطل بعد ذلك . قال : والأصـلُ فيه أن يُبتدأ بآسم المكتوب عنـه ثم بآسم المكتوب إليه وهو الترتيبُ الذى تشهدُ به العقولُ : لأن نُفوذَ الكتاب من المكتوب عنه إلىٰ المكتوب إليه كنشْءِ الشيءِ وخروجه من آبتداء إلىٰ نهاية . فابتداؤُه من المكتوب عنه ، وآنتهاؤه إلىٰ المكتوب إليه؛ ولفظ « من » يتقـدّم لفظَ «إلىٰ» بالطبع : لأن حرف «من» ينبئُ عن مَنْشإ الشيء ، و «إلىٰ» حرف يُخْبِر عن النهاية التى عندها قرارُ الشيء؛ والإبتدا آت فى الأشياء قبلَ النِّهايات .

قال : وعلىٰ هذا كانتْ كتبُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ومَنْ سلف من الأمم المـاضية ؛ ثم عَرَض للناس رأْىٌ فى تغيير هذا الرَّسْم إلىٰ غيره ، ففرّقوا بين مراتب المكاتَبِين من الرؤساء والعظماء والخَدَم والأتباع بتقديم آسمِ المكتوبِ إليه إذا قصدُوا إعظامَـه وإجلالَه وتأخير آسم المكتوبِ عنـه ، ورأَوْا أنه الصوابُ الصحيحُ . علىٰ أن كُتَّاب زماننا يقتصرون فى أكثر عُنْواناتهم علىٰ ذكر المكتوب إليه دون المكتوب عنـه ولا يذكُرون المكتوبَ عنه إلا فى مكاتَباتٍ خاصّة قليـلةٍ . قال فى "صناعة الكُتَّاب" : ولا يتكنّىٰ المكتوبُ عنه علىٰ نظيره ، بل يتسمّىٰ له ولمن فوقه ، ثم يقول : المَعْروف بأبى فلان . وإن كانت كنيتُه أشهَرَ من آسمـه وآسم

أبيه ، جاز أن يَكْتُبَ كنيته بغير ألف ويُجْرِيها (١) مُجْرىٰ الاسم . قال النحاس : وإن كان الكتابُ إلىٰ اثنين أحدُهما أكبرُ من الآخر، فيقدّم الأكبر، وكذلك لو كان إلىٰ ثلاثة . قال أبو جعفر النحاس : وقد استحسن جماعةٌ أن يصغّر اسمُ المكتوب عنه علىٰ عنوانات الكُتُب، ورأَوْا أن ذلك تواضعٌ . وماذكره هو المستعملُ فى المكاتبات الجارى عليه حكمُ الدواوين إلىٰ زماننا . والأصلُ فى ذلك ماذكره النحاسُ أن الحجاجَ ابنَ يوسفَ كتب إلىٰ عبد الملك بن مَرْوانَ وهو خليفةٌ فى طُومار : « لعبدِ الله عبدِ الملك أمير المؤمنين » ثم كتب فى طُرّته بقلمٍ ضئيل : من الحَجّاج بنِ يوسُفَ ، فجرىٰ الكُتّاب علىٰ أُسْلوبه فيما بعدُ .

قال فى "معالم الكتابة" : ولا يُكثِر النعوتَ ولا الدُّعاء علىٰ العنوان للسلطان ولا للكبراء ، أما من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ فحَسَنٌ (٢) . وقد تقدّم فى مقدّمة الكتاب أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذى يُعَنْوِن الكُتُبَ السلطانية ، وأنها كانت لاتُعَنْوَنُ قبل كتابة السلطان عليها علامته ؛ والذى استقرّ عليه الحالُ فى كُتُب السلطان وما فى معناها من المشتملةِ علىٰ الألقاب أن تُكتبَ الالقابُ فى العُنْوان ، ويُدْعىٰ فيها بدعوة واحدة وهى المفتَتَحُ بها المكاتبة .

---

(١) عبارة الضوء « جاز أن يكتب كنيته ويجريها ... ... الخ » وهى واضحة ولكن قد ورد فى مسالك الأبصار فى كتاب اقطاع النبى صلى الله عليه وسلم إلىٰ تميم الدارى وذكره المؤلف فيما تقدم أن الكنية فيه بغير ألف ونص علىٰ ذلك ، فلعل مراده أن الكنية فى هذه الكتب تكتب بغير ألف فيقال فى أبى بكر بو بكر .

(٢) لأن ذلك يؤذن بتشريف المكتوب إليه كما تقدم .

الجمـــلة الثـالثة

(فى طىّ الكـتاب وخَتْمـــه)

أما طَيُّــه فمعروف ، وهو أن يُلَفّ بعضُه علىٰ بعض لَفًّا خاصًّا . والطَّىّ فى اللغة خلافُ النَّشْر، ويقال : طوىٰ الكتاب يَطْوِيه طَيًّـا ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾. والترتيب فى ذلك أن تكون الكتابة إلىٰ داخل الكتَاب : لأن المقصودَ صَوْنُ المكتوبِ فيه .

ثم للناس فى صورة الطىّ طريقتان :

الطريقةُ الأولىٰ ــ أن يكون لفُّه مُدَوَّرا كأُنْبوبة الرُّمْح، وهى طريقة كُتَّاب الشرق من قديم الزمان وإلىٰ الآنَ .

والطريقة الثانية ــ أن يكون طيُّه مبسوطا فى قَدْر عَرْض أربعةِ أصابعَ مطبوقة، وعلىٰ ذلك كان الحال جاريا فى الدولة الأيُّوبية بالديار المصريَّة. فقد ذكر عبدالرحيم ابنُ شـيث من كُتَّاب دولتهم : أن طىّ الكُتُب السـلطانية يكونُ عَرْضَ أربعةِ أصابع، وكذلك من العِلْيَــة إلىٰ مَنْ دُونَهم ، أما الكتَابُ من الأدنىٰ إلىٰ الأعْلىٰ فلا يُتَجاوَزُ به عَرْض إصبعين، وهذا ظاهر فى أن الطَّىّ يكون عَرِيضا لا مُدَوَّرا ، وهى طريقة أهل المَغْرب والرُّوم والفَرَنْج .

* * *

وأما ختمه، فالخَتْم مصدر خَتَم، يقال : ختَم الكتَابَ يَخْتِمه خَتْما، ومعناه الطَّبْع، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ والمراد شَـدُّ رأس الكتَاب والطبْعُ عليه بالخاتَم، حتّٰى لا يطَّلِـعَ أحدٌ علىٰ ما فى باطنه حتّٰى يَفُضَّه المكتوبُ إليه، علىٰ ماسيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ . وهو أمر مطلوبٌ مُرَغَّب فيه، فمن كلام عمر

رضى الله عنه : «طِينَةٌ خيرٌ من طِنَّة» يعنى أنَّ ختْم الكتاب بطينةٍ خيرٌ من طِنَّة تقع فى الكتاب بالنظر فيه أو زيادةٍ أو نقْص، والطِّنَّة التُّهَمة . ومن كلام غيره : «اخْتِمْ تَسْلَمْ» . ومن كلام غيره : « إن طَيَّنْتَ وإلا وقَعْتَ » يعنى إن طَيَّنْت الكتاب وإلا وقَعْتَ فى المحذور . ويقال : إن فى خَتْم الكتاب تعظيماً للمكتوب إليه . قال بزرجمهر أحدِ ملوكِ الفُرْس : مَنْ لم يَخْتِم كتاباً فقد ٱستخَفَّ بصاحبه ، وجُهِّل فى رَأْيه . وقد قيل : إن أوّلَ من خَتَم الكتابَ سليمانُ عليه السلام ؛ وقد فُسِّر قوله تعالىٰ حكايةً عن بِلْقيس : ﴿ إنِّى أُلْقِىَ إلَىَّ كتابٌ كَرِيمٌ ﴾ بأنه مختومٌ . وعلىٰ نَهْجه فى ذلك جرتْ ملوكُ العَجَم . قال فى "موادّ البيان" : ولم تزل كتبُ العرب منشورةً حتّٰى كتب عمرُو بن هندٍ الصحيفةَ إلىٰ المتلمِّس ، فقرأها ولم يُوصِّلْها، فختمت العربُ الكتبَ من حِينئذٍ . وقد ورد فى الحديث « أن النبيَّ صلّى الله عليه وسلم أرادَ أنْ يَكْتُبَ إلىٰ بعض العَجَم فقيلَ له يارسول اللهِ إنهم لايقرءُون كتاباً غيرَ مختومٍ، فأمر أن يُتَّخَذَ له خاتمُ حديدٍ، فوضَعه فى إصبعه، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال له انْبِذْه مِنْ إصْبَعِك ،فنَبَذه وأمر أن يُتَّخَذَ له خاتمُ نُحاسٍ فوضَعَه فى إصْبَعِه فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال انْبِذْه من إصْبَعِك فنبَذَهُ ،ثم أمر أن يُتَّخذ له خاتمٌ،فاتُّخذ له خاتمٌ من فضة فختَم بِهِ ،وكتب إلىٰ من أراد أن يكتُبَ من الأعاجم؛ ونُقِش عليه «محمدٌ رسولُ الله» ثلاثةُ أسطر؛ وكان الخاتَم فى يَد رسول الله صلّى الله عليه وسلم حتّٰى قبضَهُ الله تعالىٰ؛ ثم تَخَتَّم به أبو بَكْر رضى الله عنه حتّٰى قُبِض ؛ ثم تختَّم به عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه حتّٰى قُتِل؛ ثم تختَّم به عثمانُ رضى الله عنه ،فبينما هو ذاتَ يومٍ علىٰ بِئْر أَرِيس(١) من بِئَار المدينة ، إذ عبَثَ بالخاتَم فسقَط من يَدِه ، فنزحَ كلَّ ما كان فى البئر

(١) قال " فى إرشاد السارى" شرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٦٢ لاينصرف علىٰ الأصح . ونقل صاحب "تاج العروس" عن ٱبن مالك جواز صرفه . وقال ٱبن فارس الهمزة والراء والسين ليست عربية .

من المـاء فلم يُوجَدْ ، فلما يَئِسَ منـه أمر أن يُصاغَ له خاتمٌ مثلُه وينقشَ عليه «محمدٌ رسولُ الله» ففُعِل ذلك وتختَّم به . هكذا أورده صاحب "ذخيرة الكتّاب" وبعضه فى الصحيح . وقيل : إن نقش الخـاتم الذى آتخذه كان « آمنْتُ بالّذِى خَلَق فَسَوّى» . وقيل : كان نَقْشه «لتَصْبِرَنَّ أو لتَنْدَمَنَّ» .

ثم كان لكلٍّ من الخلفاء بعد عثمانَ رضى الله عنـه خاتَمٌ يختِمُ به ، عليه نقشٌ مخصوصٌ : فكان نقشُ خاتمَ أميرِ المؤمنـين علىِّ بن أبى طالب رضى الله عنه "المُلْكُ لله الواحِدِ القَهّار" ونقش خاتم آبنه الحَسَن "لاإلهَ إلا اللهُ المِلكُ الحقُّ المُبِين" ونقش خاتَم معاويةَ بنِ أبى سفيان "لكلِّ عَمَلٍ ثَوابٌ" وقيـل : "لا قُوّةَ إلّا بالله" ونقش خاتَم يزيدَبن معاوية "رَبُّنا اللهُ" ونقش خاتم معاويةَ بن يزيدَ "الدُّنْيا غُرُور" ونقش خاتم مَرْوانَ بن الحكم "اللهُ ثِقتِى ورَجائى" ونقش خاتم عبدالملك بن مَرْوانَ، "آمنْتُ بالله مُخْلِصا" ونقش خاتم الوليد بن عبدالملك "ياوليدُ إنَّكَ ميِّت ومحاسَبٌ !" ونقش خاتم عمرَ بنِ عبد العزيز "عمرُ بنُ عبد العزيز يُؤْمِنُ بالله" ونقش خاتم يزيد بن عبد الملك "قِنِى السَّيِّئاتِ ياعَزيزُ" ونقش خاتم هِشَام بن عبـد الملك "الحُكْمُ للحَكَم الحكيم" ونقش خاتم الوليد بن يزيد "يا وليدُ آحذرِ الموتَ" ونقش خاتم يزيد بن الوليد "يا يزيدُ قُمْ بالحَقّ" ونقش خاتم إبراهيم بن الوليد "توكَّلْتُ علىٰ الحىّ القَيُّوم" ونقش خاتم مروان بن محمد "آذكُرِ اللهَ يا غافلُ" .

وكان نقشُ خاتم السفَّاح : أوّلِ خُلفاء بنى العبّاس "اللهُ ثقةُ عبدِالله" ونقشُ خاتم المهدىّ (١) "حَسْــبِىَ اللهُ" ونقش خاتم الرَّشـيد "العظمةُ والقُدْرةُ لله" . وقيـل : "كُنْ من الله علىٰ حَذَر" ونقش خاتم الأمين "محمدٌ واثقٌ بالله" ونقش خاتم المأمون

(١) لم يذكر نقش خاتمى المنصور والهادى .

"سَلِ اللهَ يُعْطِيك" ونقش خاتم المعتصِم "اللهُ ثقةُ أبى إسحاقَ بن الرشيد وبه يُؤمِن" ونقشُ خاتَم الواثق "اللهُ ثِقةُ الواثِق" ونقش خاتم المتوكِّل "علىٰ الحَىّ ٱتّكالِى" ونقش خاتم المنتصِر "يُؤْتىٰ الحَذِرُ من مأْمَنِه" ونقش خاتم المستعين "فى الاعتبار غَنَاء عن الاختبار" ونقش خاتم المعتز "الحمـدُ للهِ ربِّ كلِّ شىء وخالقِ كلِّ شىء" ونقش خاتم المهتدى "من تعدّى الحقَّ ضاقَتْ مَذَاهِبُه" ونقش خاتم المعتمد "السَّعيد من وُعِظَ بغيره" ونقش خاتم المعتضد "الاضْطرار يُزيل الاخْتيار" ونقش خاتم المكتفِى "باللهِ عَلِيُّ بنُ أحمدَ يَثِق" ونقش خاتَم المقْتَدِر بالله "الحمدُ للهِ الذى ليس كمثله شىءٌ وهو خالقُ كل شىءٍ" ونقش خاتم القاهر "محمَّدٌ رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم" ونقش خاتم المتَّقِى "المتَّقِى لله" كلقبه للخلافة، ونقش خاتم المستكْفِى "المستكْفِى باللهِ يَثِق" ولم أقف علىٰ نقش خاتم أحد من الخلفاء غير هؤلاء .

وٱعلم أنه كان للختم فى أيام الخُلَفاء ديوانٌ مفْرَد يعبَّر عنـه بديوان الخاتم . وقد ٱختلِف فى أوّل من ٱتَّخَذ ديوان الخاتَم : فروىٰ محمدُ بن عمر المـدائنى فى كتاب "القلم والدواة" بسنده إلىٰ ٱبن عمرَ رضى الله عنه أنه قال : لم يكُنْ أبو بكر ولا عمرُ يلْبَسُون[(1)] خواتِمَ ولا يَطْبَعون كتابا ، حتّى كتب زيادُ بنُ أبى سـفيان إلىٰ عمر بن الخطاب رضى الله عنـه : إنك تكتُبُ إلينا بأشياءَ ليستْ لهـا طوابعُ ، فاتخذَ عند ذلك عمرُ طابَعًا يطبَع به ، وخزم الكتاب ولم يكن قبـلُ يُخْزم .

ومقتضىٰ ذلك أن يكون أوّلُ من ٱتخذ الخَتْمَ عمرَ بن الخطاب رضى الله عنـه ، ويكون لبسُه خاتمَ النبىّ صلّى الله عليه وسلم لغير الخَتْم . وذكر الطبرىّ فى تاريخه : أن أوّل مَنِ ٱتخذ ذلك معاويةُ بنُ أبى سفيان فى خلافته ، وذلك أنه أمر لعمرو بن

(١) استعمل صيغة الجمع للتعظم أو أراد به مافوق الواحد .

الزبير بمـائة ألفٍ من عنـد زياد، ففتح الكُتّابَ وجعل المـائة مائتين ؛ فلما رفع زيادٌ حسابَهُ أنكر ذلك معاويةُ، وطلب عَمْرا فحبسه حتّى قضاها عنه أخوه عبدُ الله ٱبن الزُّبَيْر وٱتخـذ معاويةُ حينئذ ديوانَ الختم ، وحَزَم الكتاب ولم يكن قبل يُحْزَم .
قال القاضى «ولِىُّ الدين بن خَلْدون» فى تاريخه : وديوان الخَتْم عبارةٌ عن الكُتَّاب القائمين علىٰ إنفاذ كُتُب السـلطان . قال : وهذا الخـاتم خاصٌّ بديوان الرسائل ، وكان ذلك للوزير فى أيام الدولة العباسية . ويشهد لذلك قولُ الرشيد ليحيىٰ بن خالدٍ لمـا أراد أن يستَوْزِر جعفرًا، ويستبدل به من الفَضْل أخيه : إنى أحوّل الخاتم من يمينى إلىٰ شِمَالى، فكنىٰ بالخاتم عن الوزارة ، لأنضمام ديوان الرسائل إلىٰ الوزير إذْ ذاك . ثم ٱختلَف العُرْفُ بعد ذلك ، فصار ليس إليه الرسائل فى الدولة .

ثم للختم ثلاثُ صُـــوَر :

الصورة الأُولىٰ ــ أن يُلْصَق رأسُ الكتاب بنوع من أنواع اللِّصاق، كالكَثِيراء المُدَافة بالمـاء، والنَّشَا المطبُوخ ونحو ذلك . وهـذا هو المستعملُ بالديار المصرية وبلاد المشرِق من قـديم الزمان وهلُمَّ جَرًّا إلىٰ زماننا ؛ والمسـتعْمَل بالدواوين هو النَّشَا دونَ غيره ، لنَصَاعة بَياضه وشدّة لِصَاقه . قال فى "موادّ البيان" : ويجب أن يكون اللِّصاقُ خفيفا كالدُّهن لئلا يتكَرَّس ويكْثُف فى جانب الورق. وقد كانت عادتهم فى بلاد المشرق أيامَ الخلفاء أن يُخْتَم بخاتم الخليفة ، بأنْ يُغْمَس فى طين معدّ لذلك أحمرَ الصبغ، ويختم به علىٰ طرفِ اللِّصاق، ليقوم مَقامَ علامة الخليفة . وكان هذا الطين يجلب إليهم من سِيرافَ من بلاد فارس، وكأنَّه مخصوصٌ بها؛ وعلىٰ نهج الخلفاء جرىٰ الملوكُ حينئذ . والذى ٱستقرّ عليه الحالُ الآنَ بالديار المصرية ونحوها من البلاد الشرقية الاَقتصارُ علىٰ مجرّد اللِّصاق ٱكتفاء بمـا فيه من الضـبط وظهور

فَضِّــه إن فُضَّ . وهذه المسئلة ممـا سأله الشيخُ جمـال الديـن بن نُباتةَ كُتَّاب ديوان الإنشاء بِدَمَشْقَ مخاطبا به للشيخ جمال الدين محمود الحلبي ـ فقال : ومَنْ ختم الكتّاب بالطين ورَبَطه ؟ ومن غَيَّر الطين إلىٰ النَّشا وضَبَطه ؟ . وقد سبق الكلامُ فى النَّشا وسائرأنواع اللِّصاق فى الكلام علىٰ آلات الدواة فى المقالة الأُولىٰ .

الصورة الثانيــة ـــ أن يُخْزم الكتّابُ من وَسَطه بالأشـفار حتّٰى تنفُذَ فى بعض طَيّات الكتّاب ثم تخرج من وجه الورق أيضا ، ويدخل فيه دَسْرة(١) من الورق كالسَّيْر الصغير ويُقَطّ طَرَف الدسرة ؛ ثم يُلْصَق علىٰ ذلك بشَمَع أحمر ؛ ثم يختم عليه بخاتم يظْهَر نقشُه فيه، ويسمّٰى هذا النوع من الختم الخَزْم ـ بالخاء والزاى المعجمتين ـ أخذا من خَزْم البعير، وهو أن يُثْقَب أنفهُ ويجعَل فيه خيط أونحُوه . ولعل هذه الطريقةَ من الختم هى التى كان عليها الحالُ حين أُحْدِث الختمُ فى صَدْر الإسلام ، ويدل علىٰ ذلك قول آبن عُمَر رضى الله عنه فى رواية الطبرى(٢) المتقدّمة : ونَخَزَم الكتّاب ولم يُكُنْ قبْلُ يُخْزَم . وعلىٰ هذا الآن أهلُ المغرب والرُّوم والفَرَنْج ومَنْ فى معناهم .

الصورة الثالثــة ـــ أن يلَفّ علىٰ الكتّاب بعــد طَيِّه قُصَاصةٌ من الورق كالسَّيْر فى عرض رأس الخِنصر، وتلف علىٰ الكتّاب ثم يُلْصق رأسُها؛ ويكون ذلك فى الرِّقاع الصغيرة المتردِّدة بين الإخوان، وتسمّٰى القُصاصة التى يُلْصَق بها سَحَاءة ـ بفتح السين وبالمدّ، وتقال بكسر السين أيضا ، وربما قيل سِحَايَة؛ ويقال فيه : سَحَوتُ الكتّاب

(١) مراد المؤلف بالدسرة الدسار أى المسمار أوالخيط من الليف وجارى العامة فى تعبيرهم عنه بالدسرة .

(٢) الذى تقدم عن الطبرى أن أول من اتخذ الختم والخزم معاوية وأما رواية ابن عمر التى تفيد أن أوّل من اتخذ الختم والخزم عمر فقد رواها محمد بن عمر المدائنى ففى الكلام سهو واشتباه .

أسْحُوه سَحْوا ، وسَحَّيته بالتشديد أُسَحِّيه تَسْحِيَة فهو مَسْحوٌّ ومَسْحِيٌّ ومُسَحًّى؛ والأمر من سحوتُ الدّاب أُسْحُ، ومن سَحَّبته بالتشديد سَحِّ، وأصله من السَّحْو وهو القَشْر. يقال : سحوتُ اللحمَ عن العَظْم إذا قشرته .

الجمـــلة الرابعة
(فى حَمْـــل الكتاب وتأْدِيَتِـــه)

وهو من جملة الأمانات الداخلةِ فى عموم قوله تعالىٰ : ﴿إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤدُّوا الأَمَانَاتِ إلىٰ أهْلِها﴾. وقد رُوِى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : من أعْظَم الأمانةِ أداءُ الكتابِ إلىٰ أهْــله . قال محمد بن عمر المدائنى : حملُ الكتاب أمانةٌ ، وتركُ إيصاله خِيانة . وقد رُوِى أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال : "مَنْ بَلَّغ كتابَ غازٍ فى سبيلِ اللهِ إلىٰ أهْلِهِ أو كِتابَ أهله إليه، كانَ له بكُلِّ حرفٍ عِتْقُ رقبَةٍ وأعطاه اللهُ كِتابَهُ بيمينِهِ وكتب له براءةً من النار" . وقد نطق القرءان الكريم بتأدية الهُدْهُد كتابَ سليمان عليه السلام إلىٰ بِلْقِيسَ، حيث قال حكايةً عن سليمان :﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هٰذا فأَلْقِهْ إلَيْهِمْ﴾ إلىٰ أن قال : ﴿قالَتْ يٰأَيُّها المَلأُ إنِّي أُلْقِيَ إلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ .

وقد وردت الأحاديث بأن النبىّ صلّى الله عليــه وسلم كان يبعث كُتُبَه مع رُسُله إلىٰ الملوك : فبعثَ عبــدَ الله بنَ حُذافــة إلىٰ كِسرىٰ أبرويز ملكِ الفرس؛ وبعث دِحْيــةَ الكلبىَّ إلىٰ قَيْصَر ملك الروم؛ وبعث حاطبَ بنَ أبى بلتَعــةَ إلىٰ المُقَوْقِس صاحب مصر؛ وبعث عمرو بنَ أُميَّة الضَّمْرِىّ إلىٰ الضَّحَّاك[(١)] ملك الحبشة؛ وبعث شُجاعَ بنَ وهْب الأسدىَّ إلىٰ الحارث بن أبى شمر الغَسَّانى؛ وبعث سَليطَ بنَ عمرو

---

(١) فى الضوء "النجاشي" .

إلى هَوْذَةَ بن علىّ صاحب اليمامة ؛ وبعث العَلَاء بن الحَضْرمىّ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرَيْن؛ وبعث عمرو بنَ العاص إلى عبدٍ (١) وجَيْفَرٍ آبنَى الجُلَنْدى ملِكَىْ عُمانَ . قال آبن الجوزىّ : وبعث جريرَ بنَ عبد الله البجلىَّ إلى ذى الكَلَاع الحِميرىّ .

وآعلم أنه يجب أن يكون حاملُ الكتاب المؤدّى له عن الملك ونحوه وافِرَ العقل، شديدَ الشَّكِيمة فى الجواب، طَلْق اللسان فى المُحاوَرة، فإنه لسانُ مَلِكه، وتَرْجمانُ مُرْسِله، وربما سأله المكتوبُ إليه عن شىءٍ أو أورد عليه آعتراضًا فيكون بصدد إجابته. وقد قيل: إنه يُستَدَلُّ على عقل الرجل بكتابِهِ ورسولِهِ. ومن غريب ما يُرْوى فى ذلك ما ذكره آبنُ عبد الحَكَم : أن النبىَّ صلّى الله عليه وسلم لما بعث حاطِبَ آبنَ أبى بَلْتَعَةَ إلى المقَوْقِس صاحب مِصْر، وبلّغه كتابَ النبىّ صلّى الله عليه وسلم، قال له : مامنعه أن يَدْعُوَ علىّ فيُسَلَّطَ علىّ ؟ - قال له حاطبٌ : مامنع عيسى أن يَدْعُوَ على من أبى عليه أن يَفْعَل ويَفْعل ؟ فوجِمَ ساعةً ثم آستعادها، فأعادها عليه حاطبٌ، فسكت . ويُرْوى : أنه حين سأله عن أمْر النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى حَرْب قومه، وذكر له أنَّ الحَرْبَ تكونُ بينهم سِجَالا : تارةً له وتارةً عليه، قال له المقوقس : النَّبِىُّ يُغْلَب ! فقال له حاطب : فالإلٰهُ يُصْلَب ! - يشير بذلك إلى ماتزعُمه النصارى من أن المسيح عليه السلام صُلِب مع دعواهم فيه أنه إلٰهٌ .

وذكر السُّهَيلىّ أن دحيةَ الكَلْبىّ حين دخل على قَيْصَر بكتاب النبىّ صلّى الله عليه وسلم، قال له دحية : هل تَعْلَمُ أكان المسيحُ يُصَلِّى ؟ قال نعم، قال : فإنّى أدعوك إلى مَنْ كان المسيحُ يُصَلِّى له، وأدعوك إلى من دبَّرخلقَ السمواتِ والأرضِ والمسيحُ فى بطن أمه . فألزمه من صلاة المسيح أنه عبدٌ لله تعالى، وضَمَّن ذلك بيتًا من أبيات له فقال :

(١) كذا فى "المواهب اللدنية" أيضا . والذي فى القاموس عبد الله .

فقرّرْتُه بصــلَاة المَسيح ، * وكانتْ من الجَوْهَرِ الأحمرِ!

ويُحْكىٰ أن بعضَ ملوكِ الرُّوم كتب إلىٰ خليفةِ زمانه يَطْلُب منه مَنْ يناظر علماءَ النَّصرانية عنده فإن قَطَعهم أسلموا، فوجَّه إليه بالقاضى أبى بكْر بن الطيِّب المالكىّ، وكان من أئمة علمـاء زمانه، فلمـا حضر المجلسَ وٱجتمع لَدَيْه علماءُ النصارىٰ، قال له بعضهم : إنَّ معْتَقَدكم أن الأنبياءَ عليهم السلام معصومون فى الفِرَاش ، وقد رُميتْ عائشةُ بمـا رُمِيَتْ به : فإن كان مارُمِيتْ به حَقًّا، كان ناقضًا لأصلكم الذى أصَّلْتموه فى عِصْـمة الأنبياء فى الفِرَاش ، وإن كان غيرحقٍّ كان مؤثِّرًا فى إيمـان مَنْ وَقَع منـه . فقال القاضى أبو بكر : امرأتانِ حَصِينتانِ رُمِيَتَا بالفِرْية ، إحداهما لها زوجٌ ولاولَد لها، والأخرىٰ لها ولَدٌ ولا زَوْجَ لها ـ يشير بالأولىٰ إلىٰ عائشةَ رضى الله عنها، وبالثانية إلىٰ مريمَ عليها السلام، فسجدُوا له علىٰ عادة تحيَّتهم فىذلك، إلىٰ غير ذلك من الوقائع التى لاتُحْصىٰ كثرةً .

فإذا كان الرسول متمكِّنًا من عقله ، عالمـا بمـا يأتى وما يَذَر، كفىٰ مَلِكَه مَئُونة غيبته، وأجاب عن كل مايُسْأل عنـه، وإذا كان بخلاف ذلك ٱنعكست القضيَّة، ورجع علىٰ مُرْسِله بالوَبَال . ثم إن ٱقتضىٰ رأْيُ الملك زيادةً فى الرسالة علىٰ الرسول الواحد فعل : ليتعَاوَنَا علىٰ مافيه المصلحةُ، ويتشاورا فيما يفعلان، فقد ذكر السهيْلىّ : أن جَبْرا مولىٰ أبى ذرّ الغفارىّ (١) كان رسولا مع حاطب بن أبى بلتعة إلىٰ المقَوْقِس . وإن اقتضىٰ الحالُ إرسالَ أكثَرَ من ٱثنين أيضا فعـل ، فقد ذكر ٱبن الجوزىّ أن أبا بكر الصدّيقَ رضى الله عنه فى خلافته بعَثَ إلىٰ قَيْصَر ثلاثةَ رُسُل ، وهم : هشام ٱبن العاص، ونُعَيم بن عبد الله، ورجل آخر .

(١) فى شرح المواهب اللدنية ج ٣ ص ٣٩٨ عن السهيلى مانصه "مولى أبى رهم الغفارى وهو وهم فالذى فى الاستيعاب والاصابة وغيرهما أن جبرا كان من القبط وأنه رسول المقوقس بمارية اليه صلى الله عليه وسلم".

وممـا يجب التنبيه عليـه أنه يحرُمُ علىٰ حامل الكتاب النظرُ فيه ، والاطّلاع على ماتضمّنه . قال محمـد بن عمر المدائنى : فى فَضّ الكتاب إثمٌ وسوءُ أدبٌ ، وساق بسنده إلىٰ معاذِ بن جَبَل رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : "من اطّلع فى كِتابِ أَخيه بغَيْرِ إذْنِه ، أطْلَعه طَلْعةً فى النارِ" .

الجمـــــلة الخامسة

(فى فَضّ الكتاب وقــراءته)

أما فَضُّه فالمراد فَكُّ خَتْمه وفتحُه ، والفَضُّ فى أصل اللغة الكَسْر والتفريق ؛ ومن الأوّل ماثبت فى الصحيح من قول القائلة لابنِ عَمّها فى قِصَّة الثلاثة الذين دَعَوُا الله بأحبِّ أعمالهم : « اتّقِ الله ولا تُفضَّ الخاتَمَ إلا بحَقّه » تريد إزالة بَكَارتها . ومن الثانى ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاتُنْفِقُوا علىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى المقالة الثـانية أن الرسول أو البَرِيدىّ الواصلَ إلىٰ باب السلطان يقدِّمُه الدَّوادارُ إلىٰ السلطان ، ثم يتناولُ الكتابَ منه ويَمْسَحُ به وجه مَنْ حضر علىٰ يده ، ثم يَدْفَعُه إلىٰ السـلطان فيفُضُّ خِتامَه ، ثم يتناولُه الدَّوادارُ من السلطان ويدْفَعه إلىٰ كاتب السر ، فيقرؤه علىٰ السلطان .

واعلم أن لفض الكتاب حالتين :

الحالة الأولىٰ ـ أن يكون مختومًا باللّصاق بالنَّشا علىٰ طريقة المَشَارقة وأهل الديار المصرية ، فيشقّ ظاهره على القُرْب من محلِّ اللّصاق بسِكّين ثم يفتح .

الحالة الثانية ـ أن يكون مخزومًا مسمَّرا بدَسْرة من الورق علىٰ عادة المغاربة ومَنْ جرىٰ مَجْراهم ، فيرفع الختمُ الملْصقُ عليه من الشَّمَع ، وتُقْلَع الدَّسْرة ويفتح الكتاب .

وأما قراءة الكُتُب فإنه يجب أن يكون مَنْ يقرأ الكتبَ علىٰ المـلوك ومَنْ في معناهم ماهرًّا فى القراءة، فَصِيحَ اللسان فى النُّطْق، رقيقَ حاشية اللّسان فى حسن الإيراد، قوِىّ المَلَكة فى ٱستخراج الخطوط المختَلِفة، سريعَ الفَهْم فى إدراك المعانِى الخفِيَّة ؛ وأن تكون قراءتُه علىٰ رئيسه ـ من سلطان أو غيره ـ بحسَبِ ما يُؤْثِر ملكُه أو أميرُه سماعَه من السُّرعة والبُطْء؛ وأن يكون ذلك بصوتٍ غيرِ خَفِىّ بحيث يعْسُر سمـاعُه ، ولا مرتفع بحيثُ يُعَدُّ صاحبُه خارجا عن أدب المخاطبـة للأكابر؛ وأن يُقرِّب لمن يقرأ عليه فهمَ المقاصد التى ٱعتاصَتْ عليـه إذا سأله عنها ، أو غلب علىٰ ظنه أنها لم تَصِل إلىٰ فَهْمه، بحسن إيراد،وتلطيف عبارة يحْسُن موقِعُها فى النفوس ويجُلُ وَقْعُها فى الأذهان .

الجمـــلة السادسة

(فى كراهـــة طَرْح الكتاب بعـــد تخزيقه : وهو فَضُّـــه ، وحِفظِه بعد ذلك فى الإضْـــبارة)

أما كراهةُ طَرْحه فقد قال محمد بن عمر المدائنى فى كتاب "القلم والدواة": كَرِهوا تَخْزيق الرسائل ورمْيَها فى الطُّرُق والمَزَابل،خوفا علىٰ ٱسم الله تعالىٰ أن يُداسَ،أوتلحَقه النجاسـةُ والأدْناس . قال : وفى رَفْع ما طُرِح من الكتاب أعظمُ الرغائب وأجلُّ الثواب؛ وساق بسنده إلىٰ أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : "ما منْ كتابٍ يُلْقىٰ ببُقْعةٍ من الأرض فيه

آسمٌ من أسماءِ اللهِ إلّا بعثَ الله إليه سبعينَ ألفَ ملَكٍ يحُفُّونه بأجْنِحَتِهم ويُقَدِّسُونَه، حتّى يبعثَ اللهُ إليه وَلِيًّا من أوْليائِهِ فيرْفَعُهُ مِنَ الأرْضِ . ومَنْ رفعَ كتابًا من الأرضِ فيه آسمٌ من أسماء الله تعالى، رفع اللهُ آسمَهُ فى عِلّيِّين وخفَّف عن والِدَيْهِ العذابَ وإنْ كانَا مُشْرِكَيْنِ" . ويروى : "مَنْ رَفَع قِرْطاسًا من الأرضِ فيه مكتوبٌ «بسم الله الرحمن الرحيم» إجْلالًا له أن يُدَاسَ، أدخَلَهُ اللهُ الجنةَ وشفَّعه فى عِشرينَ من أهْلِ بيتِهِ كُلُّهُمْ قد وجَبَ له النارُ" .

⁂

وأما حفظُه فى الإضبارة فهو أمر مطلوب؛ والإضبارةُ عبارةٌ عن ورقةٍ تُلَفُّ على جملة من الكتب قد جُمعتْ فى داخلها ويُلْصَق طَرَفها بالنَّشا . والقاعدة فيها أن تُلْوى الكسرة من أسفلها، وإن طال بعضها فى طَيِّه وقَصُر بعض جعل التفاوت فى الطُّول والقِصَر من أعلاها . قال فى "صناعة الكُتَّاب" : ومعناها الجمع، لأنها يُجمَع بعضُها إلى بعض . ومنه قيل : تَضَبَّر القومُ إذا تجمَّعُوا، ورجل مضَبَّر الخَلْق أى مجتمِعُه، وناقة مضبَّرة ومَضْبُورة، وضَبَر الفرسُ إذا جمعَ قوائِمَه ووَثَب . ويقال للإضْبارة أيضا إضامةٌ(١) بكسر الهمزة وتشديد الميم لضم بعضها إلى بعض، والمعنى فيها صيانةُ الكُتُب وحفظُها عن الضَّياع . وقد جرتْ عادةُ كُتَّاب ديوان الإنشاء بالديار المصرية أن يجعلَ لكل شهر إضبارةٌ تجمع فيها الكتبُ الواردةُ على أبواب السلطان من أهل المملكة وغيرهم، ويُكْتَب عليها « شهر كذا » . وقد سبق القول فى مقدّمة الكتاب أن الديوان كان له فى زمن الفاطميين كاتبٌ يكتُب الكتب

(١) كذا فى الاصول والضوء والذى فى أمهات اللغة بهذا المعنى فى مادة ض م م « إضامة » أى بكسر الهمزة وتخفيف الميمين بينهما ألف فتنبه .

الواصلةَ ويبسُط عليها جرائدَ ، كما يكتبُ الكتبَ الصادرة عن الأبواب السـلطانية ويبْسُط عليهـا جرائد، وأن ذلك بطل فى زماننـا وصار الأمرُ قاصرًا فيها علىٰ حفظ الكتب فى الإضْبارات ، متىٰ آحتِيجَ إلىٰ الكَشْف عن كتاب منها ، أُخِذ بالحَدْس أنه ورد فى السنة الفلانية، وتُكْشَف إضباراتها واحدةً بعد واحدة حتّى يقع العُثورُ عليه، ولا خفاءَ فيما فى ذلك من المشَقَّة ، بخلاف ما إذا كان لها جرائد مبسوطة ، فإنه يسهُلُ الكشف منها ، ويستدلُّ بتاريخه علىٰ إضبارته فتُخْرَج ويقع الكشْفُ منها ، ولكن أُهْمِل ذلك فى جملةِ ما أُهْمِل .

البـاب الثـانى

من المقالة الرابعـــة

(فى مصطلَحَات المكاتبات الدائرة بين كُتَّاب أهل الشرق والغرب
والديار المصرية فى كل زَمَن من صَـــدْر الإسلام
وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا، وفيه ستة فصول)

الفصـــــل الأوّل

(فى الكُتُب الصادرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم، وفيه ثلاثةُ أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى ذكر ترتيب كُتُبه صلّى الله عليه وسلم فى الرسائل علىٰ سبيل الإجمال)

كان صلّى الله عليه وسلم يفْتَتِح أكثر كُتُبه بلفظ «من محمد رسول الله إلىٰ فلان» وربمـا آفتتحها بلفظ «أما بعد» وربما آفتتحها بلفظ «هذا كتابٌ» وربمـا آفتتحها بلفظ "سلم أنت" .

وكان يصرِّح فى الغالب بآسم المكتوب إليه فى أوّل المكاتبات، وربمـا آكتفىٰ بشهرته (١). فإن كان المكتوبُ إليه ملِكًا كتب بعد ذكره آسمه «عَظِيم القوم الفلانيين» وربمـا كتب «مَلِك القوم الفلانيين» وربمـا كتب «صاحِب مَمْلكة كذا» .

وكان يعبِّر عن نفسه صلّى الله عليه وسلم فى أثناء كُتُبه بلفظ الإفراد. مثل: «أنا» و «لِى» و «جاءنِى» و «وفد علىّ» وما أشبه ذلك ، وربمـا أتىٰ بلفظ الجمع مثـل «بلغنا» و «جاءنا» ونحو ذلك .

(١) أى بمـا آشتهر به كالقيصر ونحوه .

وكان يخاطبُ المكتوبَ إليه عند الإفراد بكاف الخطاب . مثل : «لك» و « عليك » وتاء المخاطب . مثل : « أنتَ قلتَ كذا وفعلتَ كذا » . وعند التثنية بلفظها مثل : «أنتما» و «لكما» و «عليكما» . وعند الجمع بلفظه . مثل : « أنتم » و « لكم » و «عليكم» وما أشبه ذلك .

وكان يأتى فى صدور كُتُبه بالسلام . فيقول فى خطاب المسلم « سلامٌ عليك » وربما قال : « السلامُ علىٰ مَنْ آمنَ بالله ورسولِهِ » وفى خطاب الكافر : «سلامٌ علىٰ من ٱتَّبَع الهُدىٰ » وربما أسقَط السلامَ من صَدْر الكتاب .

وكان يأتى فى صدور الكتب بالتحميد بعد السلام . فيقول : «فإنّى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو» وربما تركه، وقديأتى بعد التحميد بالتشهُّد وقد لايأتى به .

وكان يتخلَّص من صدر الكتاب إلىٰ المقصود تارةً بأما بعدُ وتارة بغيرها .

وكان يختِم كُتُبه بالسلام تارة، فيقول فى خطاب المسلم : «والسَّلامُ عليك ورحمة الله وبركاتُه» وربما ٱقتصر علىٰ السلام . ويقول فى خطاب الكافر : «والسلامُ علىٰ من ٱتَّبع الهُدىٰ» وربما أَسقَط السلام من آخرِ كُتُبه .

* * *

أما عنونةُ كتبه صلّى الله عليه وسلم، فلم أَقِفْ فيها علىٰ نَصٍّ صريح، والذى يظهر أنه صلّى الله عليه وسلم كان يُعَنْوِن كُتُبَه بلفظ : «من محمد رسول الله إلىٰ فلان» علىٰ نحو ما فى الصَّدر، وتكون كتابته « من محمد رسول الله » عن يمين الكتاب، و « إلىٰ فلان » عن يساره، وعليه يدلُّ ما تقدّم من كلام صاحب "موادِّ البيان" فى الأصل الثانى عشر من أصول المكاتبات حيثُ ذكر فى الكلام علىٰ العُنْوان أن الأصل أن يُبتَدأَ باسم المكتوب عنه ويثَنّى باسم المكتوب إليه، ثم قال : وعلىٰ هذا كانتْ كُتُب رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

الطــــرف الثـانى

(فى كتبه صلّى الله عليه وســلم إلىٰ أهل الإســلام ،

وهو علىٰ ثلاثةِ أساليبَ)

الأُسْــــلُوب الأوّل

(أن يفتَتِح الكتّابُ بلفظ «من محمد رسول الله إلىٰ فلان»)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ خالِد بنِ الوليد، فى جوابِ كتابِهِ إليه صلّى الله عليه وسلم بإسلامِ بنى الحارث وهو علىٰ ماذكره آبن إسحاق فى سيرته :

"من محمدٍ رسول اللهِ إلىٰ خالِد بنِ الوليدِ :

ســلامٌ عليك، فإنِّى أحمــدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو . أما بعــدُ فإنَّ كتابَكَ جاءنِى مَعَ رسُولِك ، يُخْبِرنِى أنَّ بَنِي الحارث قد أسْلَمُوا قَبْــلَ أن تُقاتِلَهُمْ ، وأجابُوا إلىٰ مادَعَوْتَهم إليه من الإسلامِ، وشَهِدُوا أن لا إلٰهَ إلّا الله،وأن محمدا عبدُه و رسولُه ، وأنْ قَدْ هدَاهُمُ اللهُ بهُــداه، فبَشِّرْهم وأنْذِرْهم ،وأقبِلْ ولْيُقْبِلْ معَكَ وَفْدُهُمْ، والسلامُ عليك ورحمةُ اللهِ و بركاتُه" .

⁂

ومن ذلك كتابهُ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المنذرِ بنِ ساوىٰ ملكِ البَحْرَيْنِ من جهة الفُرْس ، فى جواب كتابِهِ إليــه صلّى الله عليه وسلم . ونسخَتُه علىٰ ما ذكره السُّهَيْلىّ فى "الروض الأُنف" :

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ المُنْذِر بن سَاوىٰ .

سلامٌ عليْكَ ، فإنِّى أحمدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هُو ، وأشهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وأن محمدًا عبْدُه ورسولُه . أما بعدُ فإنِّى أذَكِّرُكَ اللهَ عزَّ وجلَّ ، فإنه من يَنْصَحْ فإنما يَنْصَحُ لنَفْسِه ، وإنه مَنْ يُطِعْ رُسُلِي ويَتَّبِعْ أمرَهُم فقد أطاعنى ، ومَنْ نَصَحَ لهم فقد نَصَحَ لِى ، وإنَّ رُسُلِي قد أثْنَوْا عليكَ خيْرًا ، وإنى قد شَفَّعتك فى قومك فاتْرُكْ للمسلِمِينَ ماأسلَمُوا عليه ، وعَفَوْتُ عن أهل الذُّنُوب فاقبَلْ لهم ، وإنك مَهْمَا تُصْلِحْ فلن نَعْزِلَكَ ، ومن أقام علىٰ مَجُوسِيَّته فعَلَيْه الجِزْيَةُ" .

* * *

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلىٰ فَرْوَةَ بن عمرو الجُذَامىّ . ونسخته علىٰ ماذكره ابن الجوزى فى "كتاب الوفاء" .

"من محمد رسول الله إلىٰ فَرْوةَ بن عَمْرو .

أما بعــدُ ، فقد قَدِم علينا رسُولُك ، وبَلَّغ ما أَرسَلْتَ به ، وخَبَّر عمَّا قِبَلَكُمْ خيْرًا ، وأتانا بإسلامك وأنَّ اللهَ هَدَاكَ بهُدَاه" .

* * *

ومن ذلك كتابه صلَّى الله عليه وسلم إلىٰ طِهْفَةَ النَّهدى وقومِه . ونسختُه فيما حكاه ابن الأثير فى "المثل السائر" :

"من محمد رسول اللهِ إلىٰ بَنى نَهْدٍ .

السلامُ علىٰ مَنْ آمنَ باللهِ ورسُوله . لَكُمْ يابَنى نَهْدٍ فى الوَظِيفَةِ الفَرِيضَــةُ ، ولكم الفارِضُ (١) والفَرِيش ، وذُو العِنَان الرَّكُوبُ والفَلُوُ الضَّبِيس ، لايُمْنَعُ سَرْحُكم ، ولايُعْضَدُ

(١) يروى بالفاء وبالعين فأما بالفاء فيكون المراد بها المريضة وأما بالعين فهى التى أصابها آفة أو كسر اهـ من شرح الزرقانى للمواهب ج ٤ ص ١٩٢ .

طَلْحكم ، ولا يُحبَس دَرُّكم مالم تُضمِرُو الإماق ، وتأكُلوا الرِّبَاق . مَنْ أقرّ [بما فى هذا الكتاب][(١)] فله [من رسول الله][(١)] الوفاءُ بالعَهْد والذِّمّة ، ومن أبىٰ فعَلَيه الرِّبْوةُ " .

وهذا الكتابُ ممايحتاج إلىٰ شَرْح غَرِيبه لِيُفْهَم . «فالوظيفة» النِّصابُ فى الزكاة وأصلُه الشيء الراتِبُ . «والفَرِيضة» الهَرِمة المُسِنّة ، والمراد أنهـا لا تؤخَذُ منهم فى الزكاة بل تكون لهم . « والفَرِيش » بالفـاء والشين المعجمة ما ٱنبسط من النبات وفَرَش علىٰ وجه الأرض ولم يَقُم علىٰ ساقٍ ، وقد يُطلَق علىٰ الفَرَس إذا حُمِل عليها بعد النّتاج أيضا . «وذوالعِنَان الرَّكوب» الفرسُ الذَّلول ، «والفَلُوّ» المُهر الصغير وقيل الفَطِيم من جميع أولاد الحافر . «والضَّبِيس» بالضاد المعجمة والباء الموحدة والسين المهملة العَسِر الصَّعْبُ الذى لم يُرَضْ . «والسَّرح» السارحة وهى المَوَاشى ، والمعنىٰ أنها لاتُمنَعُ من المَرْعىٰ . والعَضِـد القَطْع . والطَلْح شجرٌ عِظام من شجر العِضاه . والدَّرُّ اللبن ، والمراد ذوات الدَّرّ من المواشى ، أراد أنها لاتحشر إلىٰ المُصَدِّق وتُمْنَعُ المرعىٰ إلىٰ أن تجتمع الماشيةُ ثم تُعَدّ لمـا فى ذلك من الإضرار . و «الإمَاقُ» مخفّف ، من أماق الرجلُ إذا صار ذا مَأْقَة وهى ا لحَمِيَّة والأَنَفَة ، وقيل مأخوذ من المُوقِ وهو الحُمْق ، والمراد إضمـار النَّكْث والغَـدْر أو إضمـار الكُفْر . و « الرِّباق » بالراء المهملة والبـاء الموحدة والقاف جمع رِبْقَـة ، وهى فى الأصـل ٱسمٌ لعُرْوة تجعل فى الحَبْل وتكون فى عُنُق البهيمة أو يَدِها تُمْسِكها ، والمراد هنا نَقْضُ العهد وٱستعار الأَكلَ لذلك ، لأن البهيمة إذا أكلتِ الرِّبقةَ خلَصَتْ من الشدّ . و «الرِّبْوة» بكسر الراء الزيادة ، والمرادهنا الزيادة فى الفريضةِ الواجبةِ عليه كالعقوبةِ له .

(١) الزيادة من « المثل السائر » . ورواية "الشفا" كما فى الأصل .

* * *

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ أُكَيدِر دُومةَ فيما ذكره أبو عُبَيدة، وهو :

"من محمد رسولِ الله لِأُكَيْدِرِ دُومةَ حينَ أجابَ إلىٰ الإســلام ، وخَلَعَ الأَنْدادَ والأَصْنامَ، مع خالدِ بنِ الوليد سيفِ الله فى دُومة الجَنْدل وأكنافها: إنَّ لنا الضاحِيَةَ من الضَّحْل والبَوْرَ والمَعَامِىَ وأغْفالَ الأرضِ والحَلْقةَ والسِّلاحَ والحافِرَ والحِصْن . ولكم الضَّامِنةُ من النَّخل، والمَعِينُ من المَعْمُور، لاتُعْدَلُ سارِحَتكم، ولاتُعَدّ فاردَتُكم، ولا يُحْظَر عليكم النباتُ، تُقِيمُون الصلاةَ لوَقْتها، وتُؤْتُونَ الزكاةَ بحَقِّها ، عليكم بذلك عهدُ الله والميثاقُ" .

وهذا الكتاب أيضا ممــا يُحتاجُ إلىٰ معرفة غَرِيبه : فالأندادُ جمعُ نِدٍّ بكسر النون وهو ضدّ الشيءِ الذى يخالِفُه فى أموره، ويناده أى يخالفه، والمراد ما كانوا يتخذونَه آلهةً من دُونِ الله تعالىٰ. والأصنام جمع صَنَم: وهو ما اتُّخِذ إلٰهًا من دون الله، وقيل: ما كان له جسمٌ أو صــورةٌ، فإن لم يكن له جسمٌ ولا صورةٌ فهو وَثَنٌ . والأكناف بالنون جمع كَنَف بالتحريك وهو الجانبُ والناحية. والضاحِيَة بالضاد المعجمة والحاء المهملة الناحيةُ البارزَةُ التى لاحائلَ دُونَها، والمراد هنــا أطراف الأرض؛ والضَّحْل بفتح الضاد المعجمة وسكون الحاء المهملة القليلُ من المــاء ، وقيل المــاء القريب من المكان، وبالتحريك مكان الضَّحْل. والبَوْر الأرض التى لم تُزْرَع، وهو بالفتح مصدرٌ وصف به، وبالضم جمع بَوَار: وهو الأرضُ الخرابُ التى لم تُزْرَع. والمَعَامِى المجهولةُ من الأرض التى ليس فيها أثرُ عِمــارةٍ ، واحدها مَعْمًى . وأغفالُ الأرض بالغين المعجمــة والفاء الأرضُ التى ليس فيها أثرٌ يعرَف كأنها مغفول عنها. والحَلْقة بسكون اللام السِّلاح عامًّا ، وقيل الدُّروع خاصًّا ، والسلاح ما أُعدّ للحرب من آلة

الحديد ممـا يُقاتَل به ، والسَّيف وحده يسمَّى سلاحا . والضامنة من النخل بالضاد المعجمة والنون ما كان داخلا فى العِمَارة من النخيـل وتضمَّنته أمصارهُم وقُراهم ، وقيل سميت ضامنــةً لأن أربابها ضَمِنُوا عِمارتَها وحِفْظها ، فهى ذات ضَمانٍ كعِيشةٍ راضية بمعنىٰ ذاتِ رِضًا . والمَعِين من المعمور المـاءُ الذى يَنْبُعُ من العين فى العامر من الأرض . وقوله : لا تُعْـدَل سارحتُكم بالذال المعجمة(١)، أى لا تُصْرَف ماشيتكم وتمـالُ عن الرِّعْى ولا تمنَعُ . وقوله : ولا تُعـدّ فاردتُكم أى لا تُضَمُّ إلىٰ غيرها وتُحشَر إلىٰ الصدقة حتّى تعدّ مع غيرها وتحسب . والفاردة الزائدة علىٰ الفريضة . وقوله : ولا يُحْظَر عليكم النَّبات بالظـاء المعجمة ، أى لا تُمنعون من الزَّرْع والمَرْعىٰ حيث شئتم ، والحَظْر المنعُ .

* * *

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ وائل بن حُجْر وأهل حَضْرموتَ ، وهو :

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ الأقْيال العَبَاهِلَةَ من أهل حَضْرموتَ ، بإقامةِ الصَّلاة ، وإيتاء الزكاة . علىٰ التِّيعة الشاةُ ، والتِّيمةُ لصاحِبِها ، وفى السُّيوب الخُمُس ، لا خِلَاطَ ولا وِرَاطَ ولا شِنَاقَ ولا شِغَار ، ومَنْ أجبىٰ فقد أربىٰ ؛ وكلُّ مُسْكِرٍ حَرامٌ " .

وذكر القاضى عياضٌ فى " الشِّـفاء " أن كتابه لهم : « إلىٰ الأقْيـال العَبَاهِلَة ، والأرْواع المَشَابِيب . وفى التِّيعة شاةٌ ، لامُقْورَّة الألْيَاط ، ولاضِنَاكَ ، وأنْطُوا الثَّبَجة ، وفى السُّيُوب الخُمُس ، ومَنْ زَنىٰ مِمْ بكْرٍ فاصْقَعُوه مائةً وٱستَوْفِضُوه عامًا ، ومَنْ زنىٰ مِمْ ثَيِّبٍ فضَرِّجُوه بالأضاميم ، ولا تَوْصِيمَ فى الدِّين ، ولا غُمَّةَ فى فرائضِ الله تعـالىٰ ، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ ، ووائل بنُ حُجْر يترَفَّل علىٰ الأقْيال» .

(١) صوابه بالدال المهملة كما يفيده المعنى وقد أورده صاحب اللسان ج ١٣ — فى مادة ع د ل بالدال المهملة فانظره .

وهــذا الكتاب فى معنىٰ ماتقدّم من الاحتياج إلىٰ شرح غريبه . الأقيال بالقاف والياء المثناة تحتُ جمعُ قَيْل : وهو المَلِك . والعَبَاهلة الذين أُقِرُّوا علىٰ مُلْكِهم لايُزالُون عنه ، وحَضْرموتَ بلدةٌ فى اليمن فى أقصاها ، وقيــل هى أحَدُ مَخَالِيفها . والتِّيعة بالمثناة من فوقُ ثم المثناةِ من تحتُ والعينِ المهملة ٱسمٌ لأدنىٰ ماتجب فيه الزكاةُ من الحيوان : كالخَمْس من الإبل والأربعينَ من الغنَمَ . قال ٱبن الأثير : وكأنهــا الجملةُ التى للسُّعاة عليها سبيلٌ من تاعَ يَتِيعُ إذا ذهب إليه . والتِّيمةُ بالكسر الشاةُ الزائدة علىٰ الأربعــين حتّى تبلغَ الفريضةَ الأُخْرىٰ ، وقيــل هى الشاة التى تكون لصاحبها فى مَنْزِله يَحْلُبهــا وليستْ بسائمةٍ ، وهى بمعنىٰ الدَّاجِن . والسُّيُوب الرِّكَاز أخْذا من السَّيْب وهو العطاء ، قاله أبو عبيدة ؛ وقيل هى عروق الذهب والفِضّة التى تَسِيبُ فى المعدن بمعنى تتلوّن وتظهر . وقال الزمخشرىّ : هى جمع سَيْب ، يريدُ به المــالَ المدفونَ فى الجاهلية أو المعدنَ لأنه من فضل الله تعالىٰ لمن أصابه . والخِلاط بالكسر مصدر خالط ، يقال : خالَطَه يُخالِطُه خِلاطا ومخالطةً ، والمراد أن يَخْلِطَ الرجلُ إبلَه بإبل غيره أو بقرَه أو غنَمه ليمنع حَقّ الله تعالىٰ منها ، ويَبْخَس المصَدّق فيما يجبُ له . والوِرَاط بالكسر أيضا أن تُجعَــل الغنَم فى وَهْدة من الأرض لتَخْفىٰ علىٰ المَصــدِّق ، مأخوذٌ [من الوَرْطة] وهى الهُوّة من الأرض . والشِّناق بكسر الشين المُشَاركة فى الشَّنَق بفتح النون : وهو ما بين الفريضتين من كلِّ ماتجب فيــه الزكاةُ ، وهو مازاد من الإبل علىٰ الخَمْس إلىٰ التِّسع ، وما زاد علىٰ العَشْر إلىٰ أربعَ عشرةَ ، والمراد أن لاتؤخذ الزيادةُ علىٰ الفريضة . قال ٱبن الأثير : ويجوز أن يكون معناه المُشَاركة فى الشَّنَق والشَّنَقين ، وهو بمعنى الخِلاط المتقدّم ذكره ، لكن حملُه علىٰ الأوّل أولىٰ ، لتعدّد المعنىٰ . والشِّغار بكسر الشين وبالغين المعجمة نِكاحٌ معروف فى الجاهليــة ، وهو أن يُزوّج الرجل ٱبنتَه أو أخْتَــه علىٰ أن يُزَوّجه بنته أو أخته ، ويكون بُضْعُ كلٍّ

منهما صداقًا للأخرىٰ . والأرواعُ جمع رائع : وهم الحسانُ الوجوهِ من الناس .
وقيل : الذين يَرُوعونَ الناس أى يُفْزِعُونهم بشِدّة الهَيْبة . قال ٱبن الأثير : والأوّل
أوجهُ . وقوله : ومن أَجْبىٰ هو بالجيم والباء الموحدة : وهو بيع الزَّرْع قبل بُدُوّ
صَلاحه . وقيل هو أن يُغَيِّبَ إبلَه عن المُصَدِّق أخْذا من أجبأته إذا واريته .
وقيل هو أن يبيع من الرجل سِلْعةً بثمن معلوم إلىٰ أجل معلوم ثم يشْتَرِيَها منه بالنقد
بأقَلّ من الثمن الذى باعها به، ومعنىٰ أربىٰ وقع فى الربا. والمَشَابِيبُ السادةُ الرءوسُ
الزُّهْرُ الألوان الحِسَانُ المَنَاظِرِ واحدها مَشْبُوب . والمُقْوَرّة الألْياط المسترْخية
الجُلُود لهُزَالها والٱقورار الٱسترخاءُ فى الجلود . والألْياط جمعُ لِيط : وهو قِشْر العُود،
شُبِّه به الجلدُ لٱلتزاقه باللحم . والضِّنَاك بالكسر الكثيرُ اللحم، ويقال الذكر والأنثىٰ
فيه سواء، والمراد أنه لا تُؤخَذ المُفْرِطة فى السِّمَن كما لاتؤخذ الهزيلة . وقوله :
وأَنْطُوا هو بلغة أهل اليمن بمعنىٰ أعطوا، خاطبهم صلّى الله عليه وسلم بلغتهم . والثَّبَجة
بثاء مثلثة بعدها باء موحدة ثم جيم هى الوَسَط من المال التى ليست من خِياره
ولارُذَالته، أخْذًا من ثَبَجة الناقةِ وهو مابين الكاهل إلىٰ الظهر . وقوله مِمْ بِكرٍ جرىٰ
فيه علىٰ لغة أهل اليمن حيث يُبْدِلونَ لام التعريف ميما . قال ٱبن الأثير : وعلىٰ هذا
فتكون راء بكرٍ مكسورةً من غيرتنوين لأن أصله من البكر، فلما أُبْدِلت الألف واللام
ميما بقيت الحركةُ بحالها، ويكون قد ٱستُعْمِل البكر موضع الأبكار . قال : والأشبه
أن تكون بكْرٌ منوّنةً، وقد أُبْدلت نونُ مِنْ ميما، لأن النون الساكنة إذا كان بعدها باء
قلبت فى اللفظ ميما نحو عَنْبر ومِنْبر، ويكون التقدير ومَنْ زنىٰ من بكرٍ . وقوله
فاصْقَعُوه هو بالصاد المهملة والقاف أى ٱضرِبُوه، وأصل الصَّقْع الضرب علىٰ الرأس،
وقيل الضربُ ببطن الكف . وقوله : وٱستَوْفِضوه هو بالفاء والضاد المعجمة أى
ٱنفُوه، أخذا من قولهم : استوفضت الإبلُ إذا تفرّقت [فى رَعْيِها] وقوله : فضَرِّجوه ـ

بالضـاد المعجمة والجيم أى أدْمُوه بالضرب، ويطلق الضَّرْج على الشَّق أيضـا . والأضاميم بالضاد المعجمة الحجارة واحدها إضْمامةٌ، والمراد آرجُمُوه بالحجارة. والتوصيم بالصاد المهملة الفَتْرة والتَّوانى، أى لاتَفْتُروا فى إقامة الحدود ولا تَتَوانَوْا فيها . وقوله : ولاغُمَّة فى فرائض الله ـ أصل الغُمَّة السَّـتْر، أى لا تُسـتَرُ فرائضُ الله ولا تُخْفَىٰ، بل تُظْهَر ويُجْهَر بهـا وتُعلَن . وقوله : يَتَرَفَّل ـ أى يَسُودُ ويَترأَّس ، آستعارة من تَرْفِيل الثوب وهو إسباغُه وإرساله؛ والأَقْيال الملوكُ وقد تقدّم الكلامُ عليه .

الأُسْـــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ «هذا كتاب» ويُذْكر المقصد فيما بعد،

وهو قليـــل الوقوع فى المكاتبات)

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم لقَبِيلة هَمْدانَ من اليمن، فيما ذكره آبنُ هشام وهو: "هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله لِمخْلاف خَارِفٍ وأهل جِنَاب الهَضْب وحِقَاف الرِّمل، مع وافِدِها ذى المِشْعار(١)، لمـالكِ(٢) بنِ نَمَطٍ ولمنْ أسلم من قومِه، علىٰ أنَّ لهم فِرَاعَها ووِهَاطَها [وعَزازَها] ماأقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ، يأكلُون عِلاَفَها، ويَرْعَوْن عافِيَهَا، لَكُمْ بذلك عهدُ اللهِ وذِمامُ رسولِه، وشاهِدُكم المهاجِرُون والأنصارُ".

وذَكر القاضى عياضٌ فى "الشفاء" أن فى كتابه إليهم: "إنَّ لكم فِرَاعَهَا ووِهَاطَها وعَزَازَها، تأكلُون عِلاَفَهَا وتَرْعَوْنَ عَفَاءَها(٣)، لنا مِنْ دِفْئهِمْ وصِرَامِهِم ما سَلَّمُوا بالمِيثاق

---

(١) كذا فى الامهات اللغوية أيضـا وفى شرح الزرقانى على المواهب ج ٤ ص ٣٩ أنه ذوالمشـعار بالمعجمتين أو المهملتين .

(٢) فى المواهب مالك بدون لام الجر وأعربه الشارح بدلا ممـا قبله .

(٣) ضبطه صاحب اللسان بالقصر وضبطه الزرقانى وملا علىٰ قارى بالمد .

والأمانةِ، ولهم من الصَّدَقة الثِّلْب والنابُ والفَصِيلُ والفارِضُ والداجِنُ والكَبْشُ الحَوَرِىّ، وعليهم فيها الصَّالِغ والقَارِحُ» .

وهذا من نسبة ما تقدّم مما يحتاج إلىٰ شرح غريبه : فالفِرَاع بالكسر(١) جمع فَرْعة، وهو ما آرتفع من الأرض . والوِهاط جمع وَهْطة : وهى ما آطمأنّ من الأرض ؛ والعِلَاف بالكسر ـ جمع علَف كجَبَل وجِبَال، والمراد ما تعتلفه الدوابُّ من نبات الأرض؛ والعَزَاز ـ ماصَلُب من الأرض وآشتدّ وخَشُن، ويكون ذلك فى أطرافها؛ والعَفَاء العافِى ـ وهو ما ليس لأحد فيه ملكٌ ، من قولهم : عَفَا الأثَرُ إذا دَرَس، والدِّفء ـ نِتاج الإبل وما يُنْتَفَعُ به منها ، سُمِّى دِفْئًا لأنه يُتَّخذ من أوبارها ما يُستَدْفأ به ، والمراد هنا الإبل والغنَمُ . والصِّرام ـ النخل ، وأصله قَطْع الثمرة ؛ والثِّلْب من ذكور الإبل ـ الذى هَرِم وتكسَّرت أسنانه . والناب ـ المُسِنَّة من إناثها . والفَصِيل من أولاد الإبل ـ الذى فُصِل عن أمه من الرَّضاع . والفارض ـ المسنُّ من الإبل، والمراد أنه لايُؤْخَذ منهم فى الزكاة . والداجِنُ ـ الشاة التى يعلِفُها الناس فى منازلهم؛ والكَبْش الحَوَرِىّ منسوب إلىٰ الحَوَر وهى جلود تُتَّخذ من جلود الضأن.وقيل : هو مادُبِغ من الجلود بغير القَرَظ . والصالغُ بالصاد المهملة والغين المعجمة : وهو من البقر والغنم الذى كَمُل وآنتهىٰ، ويكون ذلك فى السنة السادسة، ويقال : بالسين بدل الصاد . والقارِحُ الفرس الذى دخل فى السنة الخامسة .

---

(١) فى الأصول بالفتح وهو سبق قلم .

الأســـلوب الثـالث

(أن تفتَتَح المكاتبةُ بلفظ « سَلْمٌ أنت »)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المُنْذِر بن ساوىٰ . وهو فيما ذكره أبو عبيد فى "كتاب الأموال" : « سَلْمٌ أنتَ ، فإنّى أحمَدُ إليكَ الله الذى لا إلٰهَ إلا هو . أمّا بعدُ ، فإنَّ مَنْ صلّى صلاتَنَا وٱستقبَلَ قِبْلَتَنا وأكَلَ ذَبِيحَتَنا ، فذلك المُسْلِم له ذِمَّةُ اللهِ وذِمَّةُ الرسول ؛ فَمَنْ أحَبَّ ذلك من المَجُوس فإنّه آمِنٌ ، ومَنْ أبىٰ فإنَّ عليه الجِزيَةَ» .

الطـــرف الثـالث

(فى كُتُبه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ أهل الكُفْر للدِّعاية إلىٰ الإســلام ، وهــو علىٰ ثــلاثةِ أساليبَ)

الأُسْلوب الأوّلُ

(أن يُفْتتح الكتابُ بلفظ « من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ فلان » كما فى الأسْلوب الأوّل من كُتُبه إلىٰ أهل الإسلام)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ هِرَقْلَ : وهو قَيْصَر ، وقيل نائبُه بالشام .

وهو علىٰ ما ثبت فى الصحيحين . « من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ هِرَقْلَ عظيمِ الرُّوم ، سلامٌ علىٰ مَن ٱتَّبع الهُدىٰ .

أما بعدُ، فإنّى أدْعُوكَ بدِعَايَةِ الإسْلامِ، أسْلِمْ تَسْلَمْ، أسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مرّتينِ، فإن تولّيْتَ فإنَّ عليْكَ إثْمَ الأَرِيسِيِّين، ويـٰأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُم ألَّا نَعْبُدَ إلَّا اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بعْضًا أرْبابًا مِن دُونِ اللهِ فإنْ تولَّوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بِأنّا مُسْلِمُونَ .

وذكر أبو عبيد فى "كتاب الأموال" : أنَّ كتابَه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ هِرَقْلَ كان فيـــه .

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ صاحب الروم، إنّى أدْعُوكَ إلىٰ الإسْلامِ: فإنْ أسلَمْتَ فلَكَ ما للْمُسْلِمِينَ وعَلَيْكَ ما عَلَيْهِمْ، وإن لم تَدْخُلْ فى الإسلام فأعْطِ الجِزْيَةَ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ يقول : قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ ورَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ حتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صاغِرُونَ وإلا فلا تَحُلْ بين الفَلّاحين وبين الإسلامِ أن يَدْخُلوا فيه أو يُعْطُوا الجِزْيَةَ" .

قال أبو عبيد : وأراد بالفَلّاحين أهـلَ مملكتِه ، لأن العَجَم عنـد العَرَب كُلّهم فَلّاحون لأنهم أهلُ زرعٍ وحَرْثٍ .

وفى مسند البَزّار أنه صلّى الله عليه وسـلم كتب إليه : « من محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ قَيْصَر صاحب الرُّوم » .

* * *

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ كِسْرىٰ أَبْرَوِيزَ (١) : ملك الفرس فيما ذكره ابنُ الجوزىّ ، وهو :

---

(١) بفتح الواو وكسرها ويقال له أبرواز ومعناه بالعربية المظفر — اهـ الزرقانى على المواهب ج٣ ص٣٨٩ .

" من محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ كِسْرىٰ عظيم فارِس .

سلامٌ علىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ الهُدىٰ وآمن بالله ورَسُولِه ، وأدْعُوكَ بدعايةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فَإنِّى أنا رَسُولُ اللهِ إلىٰ الناس كافَّةً ، لِأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حيًّا ويحِقَّ القولُ علىٰ الكافِرِين ، وأسْلِمْ تَسْلَمْ فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ إثْمَ المجُوسِ عَلَيْكَ " .

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المُقَوْقِسِ صاحب مِصْرَ . وهو فيما ذكره ٱبن عبد الحَكَم .

" من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ المُقَوْقِس (١) عظيم القِبْط ، سلامٌ علىٰ مَنِ ٱتبعَ الهُدىٰ .

أما بعـدُ ، فإنى أدْعُوكَ بدعايةِ الإسلامِ ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مَرَّتيْنِ ، فإن تولَّيتَ فعلَيْكَ إثْمُ القِبْط . يـٰأهْلَ الكتَابِ تَعالَوْا إلىٰ كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ ألَّا نَعْبُدَ إلَّا اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ فإن تولَّوْا فقُولُوا ٱشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ " .

وذكر الواقدىُّ أن كتَابَهُ إليه كان بخطِّ أبى بكرٍ الصدّيقِ رضى اللهُ عنه ، وأنَّ فيه

" من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ صاحب مصر .

أما بعـدُ ، فإنَّ اللهَ أرسلَنِى رسولًا وأنزلَ علَىَّ قُرْءانًا ، وأمَرَنِى بالْإعْذارِ والْإنْذارِ ومُقاتَلَةِ الكُفَّارِ حَتّٰى يَدِينُوا بِدِينِى ويَدْخُلَ الناسُ فى مِلَّتِى ، وقد دعَوْتُك إلىٰ الْإقْرارِ بوَحْدانِيَّتِهِ ، فإن فعلْتَ سَعِدْتَ ، وإن أَبَيْتَ شَقِيتَ ، والسَّلامُ " .

---

(١) ٱسمه جريج بن مينا بن قرقوب كما ذكره الزرقانى علىٰ المواهب ج ٣ ص ٣٩٧ .

*
* *

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلى النّجاشيّ : مَلِكِ الحَبَشَة . وهو فيما ذكره ابن إسحاق :

" من محمدٍ رسولِ الله إلى النجاشيّ مَلِكِ الحبَشةِ ، إنى أحمَدُ إليْكَ اللهَ الملِكَ القُدُّوسَ السَّلامَ المُؤْمِنَ المُهَيْمِنَ ، وأشهدُ أن عِيسى ابنُ مَرْيَمَ البتولِ الطَّيِّبةِ الحَصينة ، حَمَلَتْهُ من رُوحِهِ ونَفْخه ، كما خَلَقَ آدمَ بيَدِهِ . وإنّى أدْعُوك إلى الله وحْدَه لاشَريكَ لَهُ ، وأن تَتَّبِعَنِي وتُؤْمِنَ بالّذِى جاءنِى ، فإنّى رسولُ الله ، وإنّى أدْعُوكَ وجُنُودَكَ إلى الله عزّ وجلّ ، وقد بَلَّغْتُ ونَصَحْتُ ، فاقبَلُوا نُصْحِى . وقد بعَثْتُ إليكُمْ ابنَ عَمِّى جَعْفَرًا ومعه نَفَرٌ من المُسْلِمِينَ ، والسلامُ على مَنِ اتَّبع الهُدى " .

*
* *

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلى هَوْذَة(١) بنِ علىّ : صاحب اليمامة ، وكان نصرانيًّا . وهو فيما ذكره السهيلىّ .

"من محمدٍ رسولِ الله الى هَوْذَة بن علىّ .

سلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدى . واعلَمْ أنَّ دِينِي سيَظْهَرُ إلى مُنْتَهى الخُفِّ والحافِرِ ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَجْعَل لَكَ ماتَحْتَ يَدَيْكَ " .

*
* *

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلى نَصارى نَجْرانَ . وهو فيما ذكره صاحب " الهَدْيِ المحمّدِىّ " .

---

(١) هو بفتح الهاء كما فى الصحاح ونقل الدميرىّ ضمها والواو ساكنة على كل حال .

بسم الله الرحمن الرحيم ، إلٰه إبراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ .

أما بعدُ ، فإنّى أدْعُوكُم إلىٰ عبَادة اللهِ من عِبادةِ العِبَادِ ، وأدْعُوكم إلىٰ وِلايَةِ اللهِ منْ وِلَايةِ العِبَادِ ؛ فإن أبَيْتُمْ فالجِزْيةُ ؛ فإن أبيتم فقد آذَنْتُكُمْ بحَرْبِ الإسلام[1] .

ومن ذلك كتابُه صلَّى الله عليه وسلم إلىٰ جَيْفَرٍ وعَبْدٍ ٱبْنَىْ الجُلَنْدىٰ مَلِكَىْ عُمَانَ .

وهو : « من محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ جَيْفَرٍ وعَبْدٍ ٱبنَىِ الجُلَنْدىٰ ، سلامٌ علىٰ مَنِ ٱتَّبعَ الهـــدىٰ .

أما بعدُ، فإنّى أدْعُوكُمَا بدِعَايةِ الْإسْلامِ، أسْلِمَا تَسْلَمَا، فإنّى رسولُ اللهِ إلىٰ الناسِ كافَّةً لِأُنْذِرَ مَنْ كان حَيًّا ويَحِقَّ القولُ علىٰ الكافِرِينَ ، وإنَّكُمَا إنْ أقْرَرْتُمَـا بالْإسلامِ وَلَّيتُكُمَا، وإن أبَيْتُمَا أن تُقِرَّا بالإسلامِ فإنَّ مُلْكَكُمَا زائِلٌ عنْكُمَا، وخَيْلِى تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمَا، وَتَظْهَرُ نُبُوَّتِى فى مُلْكِكُمَا . وكتب أُبَىُّ بنُ كَعْب » .

وفى رواية ذكرها أبو عبيد فى "كتاب الأموال" أنه كتب إليهما .

" من محمدٍ رسولِ اللهِ لعبادِ اللهِ أسيد بن مُلُوك عُمَان ، وأسيدِ عُمَان : مَنْ كان منهم بالبَحْرِيْن، إنهم إنْ آمنُوا وأقامُوا الصــلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأطاعُوا اللهَ ورسُولَهُ وأعْطَوْا حَقَّ النبيِّ صلَّى الله عليــه وســلم ونَسَكُوا نُسُكَ المُسْلِمِين ، فإنَّهم آمِنُونَ ، وإنَّ لهم ما أسْلَمُوا عليه ، غَيْرَ أنَّ مالَ بيت النار ثُنْيَا للهِ ورَسولِه ، وإنَّ عُشُورَ التَّمْر صــدَقَةٌ ، ونِصْفَ عُشُورِ الحَبِّ ، وإنَّ للْمُسْلِمينَ نَصْرَهُمْ ونُصْحَهُمْ ، وإنَّ لَهُمْ علىٰ المُسْلِمين مِثْلَ ذلك ، وإنَّ لَهُمْ أرْحاءَ يَطْحَنُونَ بها" .

---

(١) كذا فى الأصول وفى "مفتاح الأفكار" بحرب والسلام .

قال أبو عبيد : وبعضهم يَرْويه لِعبادِ الله الأسبيين اسْمًا أعجميا نسبَهُمْ إليه . قال : وإنما سُمُّوا بذلك لأنهم نُسِبُوا إلىٰ عبادة فَرَس ، وهو بالفارسية أسب فنُسِبوا إليه ، وهم قومٌ من الفُرْس وفى رواية من العرب .

***

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّاب فى جوابِ كتابِهِ إليه صلّى الله عليه وسلم : أنه إنْ جَعَل لَهُ الأَمْرَ بعده آمَنَ به .

وهو : « من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ مُسَيْلِمة الكَذَّاب : السلامُ علىٰ من ٱتَّبَعَ الهُدىٰ أما بعدُ، فإنَّ الأرضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ والعاقِبَةُ للمتَّقِينَ .

الأسلوب الثانى

(أن يُفتتَح الكِتَابُ بلفظ « أما بعدُ » وهو أقلُّ وُقوعا مما قبله)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ أهل نَجْرانَ، ودينُهم النصرانيةُ .

وهو فيما ذكره ٱبن الجَوْزىّ .

«بسم الله الرحمن الرحيم، إلٰهِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعْقُوبَ .

أما بعدُ : فإنِّى أدْعُوكُم إلىٰ عبادةِ الله مِنْ عِبَادةِ العِبَاد ، وأَدْعُوكُمْ إلىٰ وِلَايةِ الله مِنْ وِلَايةِ العِبَاد ، فإن أَبَيْتُمْ فالجِزية، فإن أبيتم فقد آذَنْتُكُمْ بحَرْبِ الإسلام» (١) .

(١) كذا فى الأصول والمناسب لما تقدم له فى اختتام الكتب ما فى "مفتاح الأفكار" وهى "بحرب والسلام" .

الأُســـــلُوبُ الثـالث

(أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ « هذا كتاب »)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسـلم معَ رِفاعةَ بنِ زيد إلىٰ قومه . وهو فيما ذكره ابن إسحـاق .

« هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله لرِفاعةَ بنِ زيْدٍ ، إنى بعَثْتُه إلىٰ قَوْمِهِ عامَّةً ومَنْ دَخَلَ فِيهِـمْ ، يَدْعُوهُمْ إلىٰ اللهِ وإلىٰ رَسُولِه ، فمَنْ أقبلَ منهم فَفِى حِزْبِ اللهِ وحِزْبِ رسولِهِ ، ومَنْ أدْبَرَ فلَهُ أمانُ شَهْرَيْنِ» .

قلت : وقد كتبَ صلّى الله عليه وسـلم إلىٰ جماعةٍ غير مَنْ تقدّم ، لم أقِفْ علىٰ صورة ما كَتَبَ إليهم ، كجَبَلَةَ بن الأيْهَم الغَسَّانىّ ، وذِى الكَلَاع الحِمْـيَرِىّ وغيرهم ، وستأتى كُتُبهُ صلّى الله عليه وسـلم فى معنىٰ الوِلَايات والإقطاعات والهُدَن والأمانات فى مواضِعها إن شاء الله تعالىٰ .

الفصـــل الثـانى

من الباب الثـانى من المقـالة الرابعة

(فى الكُتُب الصـادرةِ عن الخلفـاء، وهى على قسمين)

القســـم الأوّل

(المكاتباتُ إلى أهل الإسلام، وفيه تسعة أطراف)

الطَّـــرَف الأوّل

(فى الكُتُب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضى الله عنهم، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى المكاتبات الصادرة عن أبى بكرٍ الصدّيق رضى الله عنه)

وكانت تُفْتتح بلفظ: «مِنْ أبى بكر خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلى فلان» وباقى الكتاب من نِسْبة كُتُب النبىّ صلى الله عليه وسلم من التصدير بالسَّلام والتَّحميد، والتَّخَلُّص بأما بعدُ، والاختتامِ بالسلام وما يَجْرِى هذا المَجْرى، مع لزوم الخِطَاب بالكاف وتاء المخاطب للواحد، وبالتثنية للاثنين، والجمع للجماعة. وعَنْوَنَتُها «من أبى بكرٍ خليفـةِ رسول الله» فى الجانب الأيْمن ثم «إلى فلان الفلانى» فى الجانب الأيْسَر على مايقتضيه الترتيب المتقدّم.

وهذه نسخةُ كتابه رضى الله عنه إلى أهل الرِّدّة حين ارتَدُّوا عن الإسـلام بعـد وفاة النبىّ صلّى الله عليه وسلم.

وهو على ما ذكره صاحب "نهاية الأرب"

"من أبي بكرٍ خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلى مَنْ بلغه كتابي هذا من عامّة وخاصّة ، أقام على الإسْلام أو رجَع عنه :

سلامٌ على مَنِ اتّبع الهدى ، ولم يَرْجع بعدَالهُدى إلى الضَّلالة والعمى ؛ فإنّي أحمَدُ إليكُمُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحْدَه لاشريكَ له وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسوله ، وأُقِرّ بما جاء بِهِ [وأُكَفِّر مَنْ أبَى وأُجاهِدُه][1] .

أما بعدُ، فإن اللهَ أرسلَ محمَّدًا بالحقِّ مِنْ عِنْده إلى خَلْقه بَشيرًا ونَذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذْنِهِ وسراجًا مُنيرًا ، لِيُنْذرَ مَنْ كانَ حَيًّا ويحِقَّ القولُ على الكافِرِين ، يَهْدى اللهُ للحَقِّ مَنْ أجابَ إليه ، وضَرب رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم بإذْنِهِ من أدبَر عنه حتّى صار إلى الإسلامِ طَوْعا وكَرْها ؛ ثم تُوفِّيَ رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم ؛ وقد نَفَّذَ لأمْرِ الله ، ونَصَح لأُمَّتِه ، وقَضَى الَّذِى عليه ؛ وكان اللهُ قد بيَّن له ذٰلكَ ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزله ، فقال : ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ وقال : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فَهُم الخَالِدُونَ﴾ وقال للمؤمنين : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ فَمَنْ كانَ يَعْبُدُ محمَّدًا فإنَّ محمَّدًا قَدْ ماتَ ، وَمَنْ كانَ يَعْبُدُ اللهَ وحْدَه لاشَرِيكَ لَهُ فإنَّ اللهَ بالمِرْصادِ ، حَىٌّ قَيُّومٌ لا يَمُوتُ ولا تَأْخُذُه سِنَةٌ ولَا نَوْم ، حافِظٌ لِأَمْرِه ، مُنْتقِمٌ مِنْ عَدُوّه بحِزْبه ، وإنِّى أُوصِيكُمْ بتَقْوَى اللهِ وحَظِّكم ونَصيبِكُم مِنَ اللهِ ، وما جاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ ، وأن تَهْتَدُوا بهَدْيِه ، وأن تَعْتَصِمُوا بدِينِ اللهِ ، فإنَّ مَنْ لم يَهْدِ اللهُ ضَلَّ ، وكُلَّ مَنْ لم يُعافِه مُبْتلًى ، وكُلَّ من لم يَنْصُرْه مَخْذُول .

---

(١) الزيادة عن العبر (بقية ج ٢ ص ٧٠) .

فَمَنْ هــداه الله كان مَهْدِيًّا ، ومَنْ أضَلَّه كان ضَالًّا : ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ ومَنْ يُضْلِلْ فلَنْ تَجِدَلَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ولم يُقْبَل منه فى الدنيا عملٌ حتّى يُقِرّبه ، ولم يُقْبَل له فى الآخرة صَرْفٌ ولا عَدْل .

وقد بلَغني رجُوعُ مَنْ رجع منكم عن دِينه بعد أنْ أقرّ بالإسلام وعَمِل به ، آغترارًا بالله وجَهالَةً بأمره ، وإجابةً للشّيْطان ، وقال الله جل ثناؤه : ﴿وَإذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَة آسْجُـدُوا لِآدَمَ فسَـجَدُوا إلّا إبْلِيسَ كانَ مِنَ الجنّ ففَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّه أفتَتَّخِذُونَه وذُرِّيّتَه أوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ . وقال جلّ ذكْرُه : ﴿ إنَّ الشّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوه عَدُوًّا إنّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أصْحابِ السَّعِيرِ﴾ وإنّى أنفذْتُ إليكم فُلانًا فى جَيْشٍ من المُهاجِرِين والأنصارِ والتابعين بإحْسانٍ ، وأمرتُه أن لا يُقاتِلَ أحدًا ولا يَقْتُلَه حتّى يَدْعوَه إلىٰ داعيــة الله ؛ فمَنِ آستجابَ له وأقرّ وكَفَّ وعَمِل صالحًا ، قَبِلَ منه وأعانَه عليه ؛ ومَنْ أبىٰ أمَرْتُه أن يُقاتِلَه علىٰ ذلك ، ولا يُبْقِيَ علىٰ أحدٍ منهم قَدَرَ عليه ، وأن يُحرِّقَهم بالنِّيران ، ويَقْتُلَهم كلَّ قِتْلة ، ويَسْبِيَ النساءَ والذَّرارِيَّ ، ولا يَقْبَلَ من أحدٍ إلا الإسلام ؛ فمن آمَنَ[(١)] فهو خَيْرٌ له ، ومَنْ تَرَكَهُ فلَنْ يُعْجِزَ اللهَ . وقد أمَرتُ رسولِي أنْ يقرأ كتابِي فى كُلِّ مَجْمَعٍ لكم ، والداعيةُ الأذانُ ، فإنْ أذّن المسلمونَ فأذّنوا ، كُفُّوا عنهــم ، وإن لم يُؤَذّنوا [عاجلوهم ، وإن أذّنوا][(٢)] سَلُوهُمْ ماعليهم ، فإنْ أبَوْا عاجِلُوهم ، وان أقَرُّوا قَبِلَ منهم وحَمَلَهُمْ علىٰ ما يَنْبغى لهمْ .

---

(١) فى العبر بقية ج ٢ ص ٧٠ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ "فمن اتبعه" .

(٢) الزيادة من رواية الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ .

الجمـــلة الثـانية

(فى المكاتبات الصادرة عن بقيّةِ الخلفاء من الصحابة رضوانُ الله عليهم)

وهى علىٰ أسلوبين :

الأســـلوب الأوّل

(أن يُفْتَتَح الكتابُ بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

يقال إن أميرَ المؤمنين عمرَ بنَ الخطاب رضى الله عنه لما صارتِ الخلافةُ اليه بعدَ أبى بكر، كان يكتُبُ فى كُتُبه : «من عُمَرَ بنِ الخطاب خليفةِ خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلىٰ فلان» فلما تلَقَّب بأمير المؤمنين علىٰ ماتقدّم فى المقالة الثالثة، أَثْبتَ هذا اللّقب فى كُتُبه، و زاد فى آبتدائها لفظَ «عبْدِ الله» قبلَ آسمِه، ليكون آسمُه نعتاً(١) له ، فكان يكتب : «من عبدِ الله عمرَ بن الخطاب أميرِ المؤمنين إلىٰ فلان» و باقِىَ الكتاب علىٰ ما مَرَّ فى كُتُب النبىّ صلّى الله عليه وسلم والصدّيقِ بعده فى التصدير والتعبير عن نَفْسه بلفظ الإفراد، مثل أنا ولى وعلىّ، وعن المكتوب له بكاف الخِطَاب : مثل لكَ وعليكَ ، وتاء المخاطب : مثل قلتَ وفعلتَ ، وتبعه الخلفاء علىٰ ذلك . وعَنْوَنَتُها « من عبدِ الله فلانٍ أمير المؤمنين » فى الجانب الأيمن ، ثم « إلىٰ فلان الفلانى » فى الجانب الأيسر كما تقدّم ترتيبه .

فمن ذلك ما كتب به أميرُ المؤمنين عمرُ رضى الله عنه إلىٰ عَمْرو بن العاص وهو يومَئــذ أميرُ مصرَ، وهو :

---

(١) لعله "تبعا له" .

« من عبدِ اللهِ عمرَ أميرِ المؤمنين إلىٰ عَمْرو بن العاص : سلامٌ عليك .

أمّا بعدُ، فقد بلَغني أنّه فشَتْ لك فاشِيَةٌ من خَيْلٍ وإبِلٍ وبقَرٍ وعَبِيدٍ، وعَهْدى بكَ قبلَ ذٰلكَ ولا مالَ لَكَ ، فاكتُبْ إلىَّ من أينَ أصْلُ هذا المـالِ » .

* * *

ومن ذلك ما كتب به معاويةُ بنُ أبى سـفيان فى خلافته إلىٰ آبنه يزِيدَ ، وقد بلغه مقارفَتُه اللذاتِ ، وآنهماكُه علىٰ الشَّهوات ، وهو :

« من معاويةَ بن أبى سُفْيانَ أميرِ المؤمنين إلىٰ يزيدَ بن مُعاويةَ .

أمّا بعدُ ، فقد أدَّتْ ألسِـنَةُ التصريح إلىٰ أُذُن العِناية بِكَ ما فَجَعَ الأَمَل فيـك ، وباعَدَ الرَّجاءَ منـك إذْ ملأْتَ العُيونَ بَهجةً ، والقُلوبَ هَيْبةً ، وترامَتْ إليك آمالُ الرَّاغِبين ، وهِمَمُ المتنافِسين ، وشَحَتْ بك فِتْيانُ قُرَيْشٍ وكُهُولُ أهلِكَ ، فما يَسُوغُ لهم ذِكْرُكَ إلا علىٰ الجِرَّة المُهَوِّعة ، والكَظِّ الجَشِيءِ . اقتحمتَ البوائق ، وانقدت للمَعايرِ ، وآعتَضْتَها من سُموّ الفضل ، ورفيعِ القَدْرِ ، فلَيْتَكَ يزيدُ إذ كنت لم تكُنْ . سَرَرْتَ يافعًا ناشِئًا ! وأثْكلْتَ كَهْلا ضالِعًا ، فَوَاحَزَناه علَيْكَ يزيدُ ! ويا حَرَّ صـدرَ المُثْكَلِ بك ! ما أشْمتَ فِتْيانَ بنى هاشِم ! وأذَلَّ فِتْيانَ بنى عبدِ شمس ! عِنْد تَفاوُضِ المَفاخرِ ودِراسة المَناقِب ! فَمَنْ لصلاح ما أفْسَدْتَ ، ورَتْقِ مافَتَقْتَ ؟ هَيْهاتَ خَمشت الدُّرْبةُ وجهَ التصَبُّرِ بك ، وأبَتِ الجِنايةُ إلا تحَـدُّرًا علىٰ الألْسُن ، وحلاوةً علىٰ المَناطِق ، ما أرْبَحَ فائدةً نالُوها ، وفُرصةً آنتَهَزُوها ! ؛ آنتَبِهْ يزِيدُ للّفظَه ، وشاوِرِ الفِكْرَ ، ولا تكُنْ إلىٰ سَمْعِك أسرَعَ من معنـاها إلىٰ عقْلِك . وآعلم أنَّ الذى وَطَّأكَ وسوسة الشَّـيْطان ، وزَخْرفة السُّلْطان ، ممـا حَسُن عندك قُبْحُه ، وآحْلَوْلىٰ عندكَ مُرُّه ، أمْرٌ شَرَكَك فيه

السّواد ونافَسكَه الأعْبُـد، لا لِأُثْرة تدّعيها أو جَبَتْها لك الإمْرة، وأضعتَ بهـا من قَدْرك، فأمكنْتَ بها من نَفْسك، فكأنك شانِئُ نَفْسك، فمن لهذا كله ؟ .

اِعلم يا يَزيدُ أنك طَرِيدُ الموتِ وأسِـيرُ الحَياة ، بلَغني أنك ٱتخَـذْت المَصانِـعَ والمجالِسَ للملَاهِي والمزَامِير كما قال تعالىٰ : ﴿أتبْنُونَ بكُلِّ رِيعٍ آيَةً تعبثُونَ وتَتّخِذُونَ مَصَانِـعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ وأجْهَرْتَ الفاحِشَةَ حتّٰى ٱتخَذْتَ سرِيرَتَها عندك جَهْرا .

اِعلم يا يزيدُ أن أوّلَ ماسَلَبَكَهُ السُّكْرُ معرفةُ مَوَاطن الشُّكر لله علىٰ نِعَمه المتظاهِره، وآلائِهِ المُتَواتره، وهى الجَرْحة العُظمىٰ، والفَجْعَةُ الكُبْرىٰ : تركُ الصَّلَواتِ المفروضاتِ فى أوقاتهـا ، وهو من أعظمِ ما يَحْدُث من آفاتِها، ثم ٱستِحْسانُ العُيوب ، ورُكُوب الذُّنوب، و إظهارُ العَوْرة، و إباحةُ السِّرِّ . فلا تَأْمَنْ نفسَـك علىٰ سِرّك ، ولا تَعْقِد علىٰ فعلك . فمـا خيرُ لذةٍ تُعْقِبُ النَدم، وتُعَفِّى الكَرَم؟ وقد توقَّف أميرُ المؤمنين بين شَطْرَيْنِ من أمْرِك ، لمـا يتوقَّعُه من غَلَبَة الآفة وٱستهلاكِ الشَّهْوة . فكن الحاكِمَ علىٰ نفسِك، وٱجعل المحكوم عليه ذِهْنَكَ تَرْشُدْ إن شاء الله تعالىٰ. وليَبْلُغَ أميرالمؤمنين ما يردُّ شارِدًا من نومه، فقد أصبح نُصْبَ الٱعتزالِ من كل مُؤَانِس، ودُرأَةَ(١) الألسن الشامتةِ ، وفَّقَك الله فأحسن .

الأســلوب الثـانى

(أن يُفْتَتح الكتَابُ بلفظ «أمّا بعد»)

وهو علىٰ ما تقدّم خلا الٱبتداءَ والتصـديرَ بالسلام والتحميد ، و يكون الٱفتتاح فيه بالمَقْصِد، كما كتب أمير المؤمنين عثمانُ بن عَفَّانَ إلىٰ علىّ بن أبى طالب كَرَّم الله وجهه حين خرج علىّ إلىٰ اليَنْبُع وٱختلف الناسُ علىٰ عثمان .

---

(١) لعله دريئة وهى الحلقة التى يتعلم عليها الطعن .

أما بعـدُ، فقد بلغ السَّيلُ الزُّبىٰ [وجاوز](١) الحِزَامُ الطُّبْيَيْن، وطَمِع فىّ كُلُّ من كان يضعف [عن الدفع](١) عن نفسه، ولم يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّب، فأقبِلْ إلىّ صديقًا كُنْتَ أو عدُوًّا :

فإنْ كُنْتُ مَأْكُولًا، فكُنْ خَيْرَ آكِلٍ * وإلا فأدْرِكْنِي ولَمَّا أُمَـزَّق

الطـــرف الثـانى

(فى الكُتُب الصادرة عن خلفاء بنى أُمَيَّة)

وهى علىٰ ماتقـدّم من الكُتُب عن الخلفاء من الصحابة فى التصدير والتعبير، إلا أنه يعـبَّر عن الخليفة بأمير المؤمنين، و ربمـا عُبِّر عنه بلفظ الإفراد . مثل : فعلْتُ وأفعَلُ وما أشـبه ذلك، أما الخطاب للمكتُوب له فبكاف الخطاب وتاء المخاطَب، مثل : إنكَ أنْتَ قلتَ كذا، وفعلتَ كذا، وماأشبه ذلك . وعنوانُها : «من عبد الله فلانٍ أمير المؤمنين» فى الجانب الأيمن، ثم «إلىٰ فلانٍ الفلانىّ» فى الجانب الأيسر.

ثم هى علىٰ أسلوبين :

الأســـلوب الأوّل

(أن يفتَتح الكتّابُ بلفظ «من عبدِ الله فلانٍ أمير المؤمنين إلىٰ فلان»)

كما كتب عبد الملك بنُ مَرْوان إلىٰ الحَجَّاج بن يوسفَ ـ وقد بلغه تعرّضُه لأنَس ابن مالك رضى الله عنه ـ «من عبدِالله عبدالملك بنِ مروانَ أمير المؤمنين إلىٰ الحَجَّاج ابن يوســـف

---

(١) الزيادة عن الضوء .

أما بعدُ، فإنَّكْ عبدٌ علَتْ(١) بك الأُمورُ فطغَيْتَ، وعلوتَ فيها حتَّى جُزْتَ حدَّ قَدْرِك، وعَدَوْتَ طَوْرَك. وآيمُ الله لأَغْمِزَنَّك كبعض غَمزاتِ اللُّيوثِ الثَّعالبَ! ولأَرْكُضَنَّك رَكْضَـةً تدخُل منهـا فى وَجْعاءِ أُمِّك، اذْكُر مكاسبَ آبائك فى الطائف، إذ كانوا يَنْقُلُون الحجارةَ علىٰ أعناقِهِم، ويَحْفِرُون الآبارَ والمناهِرَ بأيديهم! قد نَسِيتَ ما كنتَ عليـه أنت وآباؤُك من الدَّناءة واللُّؤْم والضَّراعة. وقد بلغ أميرَ المؤمنين آستطالة منك علىٰ أنسِ بنِ مالك جُرْأَةً منك علىٰ أميرالمؤمنين، وغِرَّةً بمعرفةِ غِيَرِه ونَقِماته وسَطَواته علىٰ من خالف سبيله، وعَمَدَ إلىٰ غير مَحَجَّته، ونزل عنـد سُخْطته، وأظنُّك أردتَ أن تَرُوزَه بها فتعلم ما عنـده من التغيير والتنكير فيها، فإن سُوِّغْتَها مضيتَ قُدُما، وإن غَصِصْتَ بها ولَّيت دُبُرا أيُّها(٢) العبدُ الأخفَشُ العينين، الأصَكُّ الرجلين، الممسوحُ الجاعِرَتَيْن، ولن يَخْفىٰ عن أميرالمؤمنين نَبَؤُك، ولكلِّ نَبَإٍ مستقَرٌّ وسَوفَ تعلمُون.

الأســـلوب الثانى

(أن يفتتح الكتاب بلفظ «أما بعد» ويقع الشروعُ منه فى المَقْصَد)

كما كتب يزيدُ بن معاوية إلىٰ أهل المدينة النبويَّة ـ علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام ـ وقد بلغه خلافُهم عليه.

"أما بعدُ، فإنَّ الله لا يُغَيِّر ما بِقَوْم حتَّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم، وإذا أراد الله بقوم سُوءًا فلا مَرَدَّ له وما لَهُم مِنْ دُونِه مِنْ والٍ. إنِّى والله قد لبِسْتُكم فأخْلَقْتكم! ورفَعْتكم علىٰ رأسى، ثم علىٰ عينى، ثم علىٰ فَمِى، ثم علىٰ بَطْنى؛ وآيمُ الله لئِنْ وضَعْتكم

---

(١) فى مفتاح الافكار ص ١٨١ "طمت" وهى أقرب الى المعنى وفيه فى آخر الكتاب زيادة فراجعه.

(٢) فى "مفتاح الأفكار" فعليك لعنة الله من عبد أخفش الخ.

تحتَ قدَمِى لأطأنَّكم وطأةً أُقِلّ بها عددَكُمْ ، وأترُكُكم بها أحاديثَ تُنْسَخ منها أخبارُكم كأخبارِ عادٍ وثَمُودَ" .

وكما كتب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى عَدِىّ بن أرطاةَ ، وهو عامله على بعض النَّواحى .

"أما بعدُ ، فإذا أمكنتك القُدْرةُ على المخلوق ، فاذكر قُدرةَ الخالق عليك ! وآعلم أنَّ مالَكَ عند الله مثلُ ما للرعيَّة عندك" .

وكما كتب يزيدُ بنُ الوليد المعروفُ بالناقص إلى مَرْوان بن محمد ـ وقد بلغه عنه تَلَكُّؤٌ فى بيْعته ـ .

"أما بعدُ ، فإنِّى أراكَ تُقَدِّمُ رِجْلا وتُؤَخِّر أُخرى ، فإذا أتاك كتابِى فاعتَمِدْ على أيِّهما شئتَ والسلام" .

قلت : ولم يزل الأمرُ فى المكاتبات فى الدولة الأُمويَّة جاريا على سَنَن السَّلَف ، إلى أن وَلِىَ الوليدُ بنُ عبدالملك ، فجوّد القَراطيس ، وجَلَّل الخُطُوط ، وفَخَّم المكاتباتِ ، وتبعه مَنْ بعده من الخلفاء على ذلك ، إلا عُمَرَ بن عبد العزيز ، ويزيدَ بنَ الوليد المقدّم ذكره ، فإنهما جريَا فى ذلك على طريقة السلَف ؛ ثم جرى الأمرُ بعدهما على ماسنَّه الوليدُ بن عبد الملك ، إلى أن صار الأمرُ إلى مَرْوانَ بن محمد آخرِ خلفائهم ، وكتب له عبدُالحميد بن يحيى ـ وكان من اللَّسَن والبلاغة على ما آشتهر ذكره ـ فأطال الكُتُب وأطنبَ فيها ، حيثُ آقتضى الحالُ تطويلَها والإطنابَ فيها ، حتّى يقال : إنه كتب كتابًا عن الخليفة جاء وِقْرَ جملٍ ، وآستمرّ ذلك فيما بعده .

الطـــــرف الثـالث

(فى الكتب الصـادرة عن خلفـاء بنى العبّـاس ببغـــدادَ
ووُلَاة العهدِ بالخلافة، وفيه ثلاثُ جمل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى بيان ترتيب كُتُبهم فى الرسائل علىٰ سبيل الإجمال)

كانوا يفتتحون أكثَرَ كُتُبهـم بلفظ « من فلانٍ إلىٰ فلانٍ » وتارةً بـ«أما بعـد» وربمـا ٱفتتحُوها بغـير ذلك ؛ فأما ٱفتتاحُها بلفظ من فلان إلىٰ فلان فكان يُكْتَب عنهم فى أوّل دَوْلتهم كما كان يُكْتَب عن خلفاء بنى أُمَيَّـة ، وهو «من عبد الله فلان أمير المؤمنين، سـلامٌ عليك، فإن أمير المؤمنين يحمَـدُ إليكَ اللهَ الذى لاإلٰهَ إلا هو» ثم يتخلَّص إلىٰ المقصود بلفظ أما بعـد . إلا أنهـم زادُوا بعد ٱسم الخليفـة لفظ « الإمام الفلانى » بلقب الخلافة ، فكان يقال : « من عبد الله الإمام الفلانى أمير المؤمنين » فلما صارت الخلافةُ إلىٰ الرشيد زاد بعد التحميد « ويسأله أن يصلِّىَ علىٰ محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم » فلمـا وُلِّىَ ٱبنُه الأمين ٱكتَفَىٰ فى كتبه وتبعه مَنْ بعده من الخلفاء علىٰ ذلك .

وقد ٱختُلِف فى تقديم الاسم والكُنْية واللَّقَب ، والذى رتَّبـه أبو جعفر النحاس فى "صناعة الكُتَّاب" تقديمُ الاسم علىٰ الكُنْية وتقديمُ الكُنْية علىٰ اللقب . مثـل أن يقال : « من عبـد الله فلانٍ أبى فلانٍ الإمام الفلانى أمير المؤمنين » ثم قال : وهذه المكاتبة هى التى ٱصطُلح عليها فى الأمور السلطانية التى تُنْشَأ بهـا الكُتُب من الدواويـن ، إلا أن بعض العلمـاء قد خالفهم فى هذا ، وقال : الأولىٰ أن يُبْدأ

باللقب، مثل أن يقال «من الراضى» أو «المتوكل» وما أشبه ذلك، كما قال الله جل وعز : ﴿إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسىٰ ٱبنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ﴾ وذلك لأن اللقب لايشاركه فيه غيره، فكان أولىٰ أن يُبْدَأَ به .

وترتيب المكاتبة علىٰ ماذكره فى "صناعة الكُتّاب" أن يَكْتُب : «من عبد الله فلانٍ أبى فلان الإمامِ الفلانى أميرالمؤمنين، سلامٌ عليك؛ فإن أميرالمؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لاإلٰهَ إلاهو، ويسْألُه أن يصَلِّى علىٰ محمد عبده ورسوله» . ثم يَفْصِل ببياض يسير، ويكتب «أما بعدُ فإن كذا وكذا» ؛ ثم يأتِى علىٰ المعنىٰ ، فإذا فرغ من ذلك وأراد أن يأمر بأمر، فصل ببياض يسير، ثم يكتب : «وقد أمر أميرُالمؤمنين بكذا ورأىٰ أن يُكْتَب إليك بكذا» ، فيؤمر بامتثال ما أمر به والعمل بحسَبِه؛ ثم يفصل ببياض ويكتب : فٱعلَمْ ذلك من رأى أميرالمؤمنين، وٱعمَلْ به، إن شاء الله تعالىٰ. « وكتب فلان بن فلان » باسم الوزير وٱسم أبيـه ، يوم كذا ، من شهر كذا ، من سنة كذا . وقد يكتب فى أواخر المكاتبة بعـد ٱستيفاء المَقْصِـد : « هذه مناجاةُ أمير المؤمنين لك » أو « هذه مفاوَضَةُ أمير المؤمنين لك » .

ويقال : فى السـلام علىٰ أعلىٰ الطبقات من المكتوب إليهم « والسـلامُ عليك ورحمة الله » وربمـا قيل : « ورحمة الله وبركاتُه » .

⁂

وأما افتتاحها بلفظ أما بعد، فغالبُ مايقع فى الكتب المطْلَقة : كالبُشْرىٰ بالفتوح وغيرها . ثم تارة يعقِّب البعدية بالحمدُ لله، إما مرةً أو أكثر، وغالب مايكون ثلاث، وتارة يعقِّب بغير الحمد .

***

وأما الافتتاح بغير هذين الافتتاحين، فتارةً يكونُ بالدعاء، وتارةً يكون بغيره، ويكون التعبير عن الخليفة فى كتبه الصادرة عنه « بأمير المؤمنين » علىٰ ما تقدّم فى خلافة بنى أُمَيَّة .

ثم إن كان المكتوبُ إليه معيَّنا، فالذى كان عليه الحال فى أوّل دولتهم أن يُكْتَب إليه باسمه؛ ثم لما تغلب بنو بُوَيْه علىٰ الخلفاء وغَلَبُوا عليهم، وعلت كلمتُهم فى الدولة وتلقَّبوا بفلان الدَّوْلة وفلان المِلَّة، فكان يُكْتَب إليهم بذلك فى الكتب إليهم؛ ثم لما كانت الدولة السَّلْجوقيَّةُ فى أواخر الدولة العباسية ببغداد، آستعملوا كثرةَ الألقاب للمكتوب إليه عن الخليفةِ فى صَدْر المكاتبة . قال فى "موادِّ البيان" : ولا يخاطبُ أحدٌ عن الخليفة إلا بالكاف . وقد يخاطِبُ الإمام وزيرَه فى المكاتبة الخاصةِ بما يَرْفَعهُ فيه عن خطاب المكاتبة العامَّة الديوانية، ويتصَرَّف فى ذلك ويُزاد ويُنْقَص علىٰ حسب لَطَافة محل الوزير ومنزلته من الفضل والجلالة .

قال فى "ذخيرة الكتّاب" : ويكون الدعاءُ من الخليفة لمن يكاتبه علىٰ قدر موْضِعه من خِدْمته ومحلِّه عنده؛ وقد تقدّم أن أعلىٰ الدعاء كان عندهم بإطالة البقاء؛ ولذلك كان يُدْعىٰ لملوك بنى بويه فمن بعدهم بلفظ : «أطال الله بقاءك» وقد تقدّم فى المقالة الثالثة فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق وما يناسب كلَّ قَطْع من الأقلام أنه إن كانت المكاتبةُ عن الخليفة ترك الكاتبُ من رأس الدَّرْج قدر ذراع بياضا؛ ثم يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم يكتب فى سطر ثانٍ يلاصقها ويخرج يسيرا، من عبد الله إلىٰ آخر التصدير الذى يليه أمّا بعد، وأن التصدير يكون فى سطرين

بينهما فضاءٌ قدرَ شبر، لايزيد عن ذلك ولا ينقُص؛ ثم يترك بعـد هذين السطرين فضاءً بنصـف ما بين الأولين فيما ذكره فى " موادّ البيـان " : وبقـدره فيما ذكره فى "ذخيرة الكتّاب" ثم يقول : أما بعد، ويأتى علىٰ المكاتبة إلىٰ آخرها علىٰ هذا النحو .

أما عَنْوَنَةُ كتبهم، فكانت فى أوّل دولتهم : «من عبد الله فلانٍ الإمامِ الفلانىّ أمير المؤمنين» فى الجانب الأيمن، وفى الجانب الأيسر «إلىٰ فلانِ بنِ فلان» . ثم زاد المأمونُ فى أوّل عُنْواناته «بسم الله الرحمن الرحيم» . ولمـا تكنّى الأمينُ فى كتبه بعد ذلك زيدت الكُنْية فى العنوان، فكان يكتب فى الجـانب الأيمن «بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله فلان أبى فلان الإمام الفلانى» وفى الجانب الأيسر، «إلىٰ فلان آبن فلان» . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المكاتبات أن البسملة بقيت فى العَنْونة إلىٰ زمن النحّاس فى خلافة الراضى ، وأن صاحب " موادّ البيان " ذكر أنها بطلت منه بعد ذلك .

قال النحاس : فإن كان المكتوبُ إليه من مَوَالِى بنى هاشم ، نُسِب إلىٰ ذلك ، وإن لم يكن ينسب إليهم تُرِك .

الجمـــــلة الثـانية

(فى الكُتُب العامّة ، وهى علىٰ أَسلوبين)

الأســـــلوب الأوّل

(أن يفتتح الكتابُ بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

بأن يكتب «من عبد الله فلانٍ أبى فلان الإمام الفلانىّ أمير المؤمنين» إلىٰ آخر المكاتبة علىٰ ما تقدّم ترتيبه .

وهذه نسخة كتابٍ من ذلك كتب به أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله إلىٰ صَمْصام الدولة بن عَضُد الدولة بن بويه بسبب كردويه، الخارج عن الطاعة، وليس فيه تكنية للخليفة وهو .

من عبد الله « عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين » إلىٰ صَمْصام الدولة وشمس المِلَّة أبى كالِيجار بن عَضُد الدولة وتاج المِلَّة مولىٰ أمير المؤمنين .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يَحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، ويسأله أن يصلِّى علىٰ محمد عبده ورسوله صلَّى الله عليه وسلم .

أما بعدُ ــ أطالَ الله بقاءكَ ــ فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوّأكَ المنزلة العُلْيا، وأنالك من أُثْرته الغايةَ القُصْوىٰ، وجعل لك ما كان لأبيك عضدِ الدولة وتاجِ الملة رحمةُ الله عليه من القَدْر والمَحَلّ، والموضع الأرْفَع الأجلّ، فإنه يُوجِب لك عند بَذْلِك أثَرا يكون لك فى الخِدْمه، ومقامَ حمد تقومه فى حماية البيضة، إنعاماً يظاهره، وإكراما يتابعه ويُواتره . والله يؤيِّدك من توفيقه وتسديده ، ويَمُدّك بمعونته وتأييده، ويَخير لأمير المؤمنين فيما رأيه مستمرّ عليه من مَزِيدك وتمكينك ، والإبقاء بك وتعظيمك ، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّلُ وإليه يُنيبُ .

وقد عرفتَ ــ أدام الله عزَّك ــ ما كان من أمر كردويه كافرِ نعمة أمير المؤمنين ونعمتِك، وجاحدِ صَنِيعته وصنيعتِكْ ، فى الوَثْبة التى وثبها ، والكبيرة التى ٱرتكبها ، وتقريره أن ينتهز الفُرْصة التى لم يُمَكِّنه الله منها، بل كان من وراء [ذلك] دفعُه وردُّه عنها، ومعاجلتُك إيَّاه الحربَ التى أصلاه اللهُ نارَها، وقَنَّعه عارَها وشَنَارها، حتّى ٱنهزم والأوغادَ الذين شَرِكُوه فى إثارة الفِتْنة علىٰ أقبح أحوال الذِّلة والقِلَّة ، بعدَ القتل الذَّرِيع، والإثخان الوَجيع ، فالحمد لله علىٰ هذه النعمة التى جَلَّ موقِعُها، وبانَ علىٰ

الخاصّة والعامّة أثرها، ولزِم أميرَ المؤمنين خُصوصا والمسلمين عموما نَشْرُها، والحديثُ بها، وهو المسئُول إقامتَها وإدامتَها برحمته .

وقد رأىٰ أمير المؤمنين أن يُجازِيَك عن هذا الفتح العظيم، والمقام المَجيد الكريم؛ بخِلَع تامّة، ودابّتين ومركبين ذهباً من مَرَاكبه، وسَيْف وطَوْق وسِوار مرصّع؛ فتلقَّ ذلك بالشكر عليه، والاعتداد بنعمته فيه، وٱلبَسْ خِلَع أمير المؤمنين وتَكْرِمتَه، وسِرْ من بابه علىٰ حملاته، وأظهِر ماحَباك به لأهل حضرته، ليُعِزَّ الله بذلك وليَّه ووليَّك، ويُذِلَّ عدوَّه وعَدُوَّك؛ إن شاء الله تعالىٰ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته .

(وكتب أحمدُ بن محمد لثمان إن بَقِينَ من شهر ربيع الأوّل سنة خمس وسبعين وثلثمائة)

أطال الله بقاءَك، وأدام عِزَّك، وأحسنَ حِفْظك وحياطَتَك، وأمتَع أميرَ المؤمنين بك، وبالنعمة فيكَ وعِنْدك .

***

وهذه نسخةُ كتابٍ آخرَ من ذلك أيضا، كُتِب به عن المقتفِي لأمر الله إلىٰ السلطان مسعودِ بن محمد بن مَلِكْشاه السلجوقيّ في تعزيةٍ بولدٍ مات له؛ وفيه تكنية الخليفة وتقديم الكُنْية علىٰ الاسم وكثرةُ الألقاب للمكتوب إليه وهو .

" من عبد الله أبي عبد الله محمدٍ المقتفِي لأمر الله أمير المؤمنين، إلىٰ شاهنشاه المعظَّم مولىٰ الأمم، مالكِ رِقَاب العرب والعجَم؛ جلالِ دين الله، ظَهِيرِ عبَاد الله؛ حافظ بلاد الله، مُعِينِ خليفة الله؛ غِيَاثِ الدنيا والدّين، ناصرِ الإسلام والمسلمين؛ محيي الدولة القاهره، مُعِزّ الملة الزاهره، عماد الملة الباهره، أبي الفتح «مسعود ٱبن محمد ملكشاه» قسيم أمير المؤمنين .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليــكَ اللهَ الذى لاإله إلا هو، ويسأله أن يصلِّى علىٰ محمد عبده ورسوله ويُسَلِّمَ تسليما .

أما بعدُ، أطال الله بقاءَك! وأدام عِزَّك وتأييدَك وسعادتَك ونعمتَك، وأحسَنَ حِفْظك وكَلَاءتك ورِعايَتَك؛ وأمتعَ أميرَ المؤمنيـــن بك، وبالنعمةِ الجليلةِ والمَوْهبةِ الجزيلة والمِنْحة النَّفيسةِ فيك وعندك، ولا أخلاه منك! ، فإنَّ أولىٰ من ٱدَّرع للحوادث جُبَّـة الآصْطِبار، ونَظَر أحوالَ الدنيا فى تقلُّبها بعينِ الآعتبار؛ ورجَع إلىٰ الله تعـالىٰ فى قَدَره وقضائه ، وسَلَّم لأمره الذى لارادّ له فى ٱمْتِحانه وٱبتلائه ، وعرفَ أنَّ له سبحانه فى كلِّ ما يُجْريه علىٰ عباده حِكمَةً باطنـه، ومصلحةً كامنه ؛ من خيرٍ عاجل ينشُره، وثوابٍ آجل يُؤَخِّره لهم إلىٰ يوم الجزاء ويدَّخره ؛ وفائدةٍ هو أدرىٰ بها وأعْلم، وفعلُه فيها أتقنُ وأحكَم ؛ مَنْ خَصَّه بمـا خصَّك الله به من الدين الراجح ، والخُلُق الصالح، والمعتقَـد الواضح ؛ والنِّعم التى جادكَ فى كلِّ يومٍ مُقـامِ سحابُها، وٱتسعَتْ بين يديك عند مَضايق الأمور رِحابُهـا ، وأنِسَتْ إذا ٱستوحشَتْ من العاجزين عن ٱرتباطها بالشُّكر صحابُها؛ والمناقـب التى فَرَعْتَ بها صَهَواتِ المجد، وتملَّكْت رِقَّ الثناء والحمد؛ وعلوتَ فيها عن المُساجِل والمُطاوِل، وبَعُدَ ماحضر لك منها عن أن تنالَهُ يدُ القـائم المُحاوِل. وتأدَّى إلىٰ حضرة أمير المؤمنين ـ أمتعه الله ببقائك، ودافَعَ له عن حوبائك ـ (١) نبأُ الحـادثة بسَليلك الذى ٱختار الله له كريمَ جِواره، فأحبَّ له الآنتقالَ إلىٰ محـلِّ الفوز ومَداره ، فوَجَدَ لذلك وُجوما موفَّرا ، وهمًّا للسُّكون منفِّرا ؛ وتوزُّعا تقتضيه المشاركةُ لك فيما ساويته(؟) والمساهمةُ الحاصلةُ فى كل ماحَلَا من الأمور وأمَرّ، وأمَرَ عند ورود هذا الخبر بالتصدِّى للعزاء، وإعلان مايُعْلَنُ عن مقاسمتك فى الضَّرَّاء ـ دفعها الله عنك ـ والسَّرَّاء ؛ وندَب جمْعا من الخَدَم المُطيفين بشريف سُدّته ،

(١) الحوباء النفس أنظر القاموس .

المختصين بعزيز خدمتــه ؛ بتعزّ يتصوّنه لباس التعزيه ، ويستدْنى بتقمُّصه عازب التسليه ؛ إبانةً عن انصراف الهِمَم الإماميَّة إليك فيما خصَّ وعَمَّ من حالك ، واستجلابِه لك دَواعِىَ المَسَارِّ فى حَلِّك وتَرْحالك ؛ وكونِ الأفكار الشريفةِ موكَّلةً بكل ماحمىٰ من الروائع قلْبَــك ، وأعذَبَ شِرْبك ؛ وأنت حقيقٌ بمعرفة هــذه الحال من طوِيَّته لك ونيته ، ورأيه فيك وشفقته ، ورعاية مَصْلَحتِك منه بعين كاليه ، ورُجوعِه من المحافظة فى حَقِّك إلىٰ أُلْفة بالصَّفاء حاليه ؛ وتلَقِّى الرَّزِيَّة التى أرادها اللهُ وقضاها ، وأنفذ مشيئته فيها وأمضاها ؛ بالصبرِ المأمورِ به والاحتساب ، والتسليم الموعود عليه بجزيل الثَّواب ؛ علما أن الأقدار لا تُغالَب ، وغرِيمَها لا يُطالَب ؛ وان الله تعالىٰ إذْ قال لنبيه صلىّٰ الله عليه وسـلم ـ وهو سيد البشر ـ ﴿ إنَّك ميِّتٌ وإنَّهم ميِّتُون ﴾ فلا سبيلَ لأحدٍ من خَلْقــه إلىٰ البقاء ، ولا وَجْهَ للخُلود فى دار الفَنَاء ؛ ولا دافعَ لحكمه جلَّتْ عظمتُه فيما قدّره من الآجال ، وسبق فى عِلْمه من الرَّوائع فى دار الابتــلاء والأوجال ؛ وما يزالُ التطلُّعُ واقعا إلىٰ وصــول جوابك الدالِّ علىٰ السَّلْوة التى هى الأليقُ بك ، والأدْعىٰ إلىٰ حصول بُغْيتِك من قَضاء اللهِ وأدبك ؛ لتحُطَّ الأنَسةُ مع وصــوله فى رِحالها ، وتُؤْذِنَ لِصرْف الغُمُوم الجاريةِ لأجلك بارتحالها .

هذه مناجاةُ أميرالمؤمنين لك ، أدام الله تأييدك ! وأمتع بك ! إن شاء الله تعالىٰ ، والسلام عليك ورحمة الله .

الأُسْـــلوب الثـانى

(أن يكون الاْفتتاحُ بلفظ «أما بعـــد» وهو علىٰ نوعيـــن)

النـــوع الأوّل

(أن يَعقب البعدية «الحمدُ لله» وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أن يتعدّد الحمد فى أوّل الكتاب)

ويكون ذلك فى الكتب المؤْذِنة بحصول نعمةٍ ظاهرة: كالفتوح ونحوها. ويقع التعدُّد فيها بحسَب ما تقتضيه النعمةُ؛ وغالب ما يكون ثلاث مرات، وربمـا وقع التحميدُ فى أوّل الكتاب وآخره.

وهذه نسخة كتابٍ من هذا النوع كُتِب بهـا عن المعتصم إلىٰ ملوك الآفاق من المسلمين عند قبض الأَفْشِين علىٰ بابَك ملك الروم، وهى:

أما بعدُ، فالحمدُ لله الذى جعل العاقبةَ لِدِينه، والعِصْمة لأوليائه، والعِزَّ لمن نصره، والفُلْج لمن أطاعه، والحقَّ لمن عَرَف حقَّـه؛ وجعل دائرةَ السَّوء علىٰ من عصاه وصَدَف عنه، ورَغِب عن رُبُوبيته، وٱبتغىٰ إلٰها غيره. لا إلٰهَ إلا هو وحده لاشريكَ له. يحمدُه أميرُ المؤمنين حمدَ مَنْ لايعبُد غيْرَه، ولا يتوكّلُ إلا عليه، ولايفوِّض أمْرَه إلا إليه؛ ولا يرجُو الخيرَ إلا مِن عنـده، والمزيدَ إلا من سَعَةِ فضله؛ ولا يستعين فى أحواله كلِّها إلا به. ويسألُه أن يصـلِّى علىٰ محمد عبده ورسـوله، وصَفْوته من عباده، الذى ٱرتضاه لنبوّته، وٱبتعثه بوحْيـه وٱختصَّـه بكرامته؛ فأرسـله بالحق شاهدا ومبَشِّرا ونَذيرا، وداعيًا إلىٰ الله بإذْنهِ وسِرَاجا مُنيرا. والحمد لله الذى توجه

لأمير المؤمنين بصنعه، فيسّر له أمْره، وصَدَق له ظَنَّه، وأنجح له طَلِبته، وأنفذ له حيلته، وبَلّغ له محبّتَه ، وأدرك المسلمون بثأرهم على يده ، وقتل عَدُوّهم، وأسكن رَوْعتهم ، ورحِم فاقتَهم ، وآنَس وَحْشَتهم، فأصبحوا آمنين مطمئنّين مقيمين فى ديارهم، متمكّنين فى أوطانهم، بعد القتْل والخوف والتشريد وطُول العنَاء، وتتابُع البَلَاء، منًّا من الله عز وجلّ على أمير المؤمنين بما خصَّه به، وصُنْعًا له فيما وفَّقه لطلبه، وكرامةً زادها فيما أجرى على يده، فالحمدُ لله كثيراً كما هو أهلُه ، ونَرْغَبُ إلى الله فى تمام نِعَمِه ودوام صُنْعه، وسَعةِ ماعنده بمَنّه ولُطْفه، ولا يعلَمُ أمير المؤمنين ـ مع كَثْرة أعداءِ المسلمين وتكنُّفهم إيَّاه من أقْطاره، والضغائن التى فى قلوبهم على أهله ، وما يترصَّدونه من العداوة، وينْطَوُون عليه من المُكايَدة، إذ كان هو الظاهرَ عليهم، والآخِذَ منهم ـ عَدُوًّا كان أعظم بليَّةً ، ولا أجلَّ خَطْبا ، ولا أشدّ كَلَبا ، ولا أبلغ مُكايدة ، ولا أرْمىٰ بمكروه، من هؤلاء الكَفَرة الذين يغزوهم المسلمون ، فيستعلُون عليهم، ويَضَعُون أيديَهُم حيثُ شاءوا منهم، ولايقبلُون لهم صُلْحا، ولا يَمِيلُون معهم إلى مُوادَعَة؛ وإن كان لهم على طُول الأيَّام وتصرُّف الحالات وبعض ما لا يزال يكون من فَتَرات وُلاةِ الثُّغُور أدنىٰ دَوْلة من دَوْلات الظَّفَر وخُلْسة من خُلَس الحرب ، كان بما لَهُم من خوف العاقبة فى ذلك مُنَغّصا لما تعجَّلُوا من سروره، وما يتوقعون من الدوائر بعدُ، مُكدِّرا لما وصل إليهم من فَرْحةٍ .

فأما اللعين بابك وكَفَرتُه، فإنهم كانوا يَغْزُون أكثر مما يُغْزَوْن ، وينالُون أكثَرَ مما يُنَالُ منهم؛ ومنهم المنحَرِفون عن المُوادَعة، المتوَحِّشُون عن المراسَلَة؛ ومَنْ أُديلوا من تَتابُع الدول، ولم يخافوا عاقبةً تُدْرِكهم، ولا دائرةً تَدُور عليهم . وكان مما وطَّأ ذلك ومكَّنه لهم أنهم قومٌ ٱبتدؤا أمرهم على حال تشاغُل السلطان ، وتتابُع من الفتن ، وٱضطرابٍ من الحبل ، فاستقبلوا أمرهم بعِزَّة من أنفسهم ، وضَعْف

وآستثارة ممّن باراهم ، فأجلَوْا مَنْ حولهم لتخْلُص البــلادُ لهم ؛ ثم أخربُوا البــلادَ لِيعزّ مطلَبُهم، وتَشْـتدّ المـُـونة وتعظُمَ الكُلْفة ، ويَقْوَوْا فى ذات أيديهم ؛ فلم يَتوافَ إليهم قُوّاد السلطان إلا وقد توافَتْ إليهم القُوّة من كل جانب، فآســتفحل أمرُهم، وعظُمت شوكتُهــم ، وآشتدّت ضَروراتُهــم وآستجمع لهم كيْدُهم ، وكثُر عددهم وآعْتِــدادهم ، وتمكَّنت الهيبةُ فى صدور النــاس منهم، وتحقَّق فى نفوسهم أن كلَّ مايَعِدُهم الكافرُ ويُمنِّيهم أخْذٌ باليــد . وكان الذى بقِى عندهم منــه كالذى مضىٰ، وبدون هذا مايَخْدَعُ الأريب ويُستَنْزَل العاقل ويعتَقَل الفَطِن، فكيف بمن لا فِكرةَ له، ولا رويّة عنده ؟

هذا مع كل مايقوم فىقلوبهم من حَسَد أهل النِّعم، ومنافستهم علىٰ مافى أيديهم، وتقَطُّعِهم حسراتٍ فى إثرماخُصُّوا به ، وأنهم إن لايكونُوا يَرَوْن أنفُسَهم أحقَّ بذلك ، فإنهم يَرَوْن أنَّهم فيه سَواء .

ولم يزل أمير المؤمنين قبل أن تُفْضىَ إليه الخلافةُ مادّا عُنُقه، موجِّها هِمَّته إلىٰ أن يُولِّيَه الله أمْرَ هٰؤلاء الكَفَرة ويملِّكه حربهم، ويجعله المقارع لهم عن دِينه، والمُناجِز لهم عن حَقِّه، فلم يكن يَألُو فى ذلك حِرْصا وطَلَبــا وآحتيالا ؛ فكان أمير المؤمنــين رضى الله عنــه يأبىٰ ذلك لضَنّه به ، وصِيانَتِه بقربه، مع الأمر الذى أعدّه الله له وآثره به ؛ ورأىٰ أن شيئا لايَفِى بقِوام الدين وصَلَاح الأمر .

فلمــا أفضىٰ الله إلىٰ أمير المؤمنين بخلافتــه وأطلق الأمْرَ فى يده ، لم يكن شىءٌ أحبَّ إليه ولا آخَذَ بقلبه مــن المعاجَلَة للكافر وكَفَرته ، فأعزه الله وأعانه الله ، فلله الحمدُ علىٰ ذلك وتيَسُّره، فأعدّ من أمواله أخْطَرَها ، ومن قُوّاد جيشــه أعلَمَهم بالحرب وأنهضَهم بالمُعْضلات، ومن أوليائه وأبناء دَعْوته ودَعْوة آبائه ــ صلوات الله

عليهم ـ أحسَنَهم طاعة ، وأشَدَّهم نِكاية ، وأكثرَهم عُدّة . ثم أتبع الأموال بالأموال، والرِّجالَ بالرجال ، من خاصَّة مواليه وعَدَد غِلْمانه ، وقبل ذلك ما آتكل عليه من صُنْع الله جَلَّ وعَزَّ ، ووجه إليه من رِعْيته . فكيْفَ رأى الكافرُ اللعينُ وأصحابُه الملاعين؟ ألم يُكْذِب اللهُ ظنونَهم ، ويَشْفِ صُدورَ أوليائه منهم؟ يقتُلُونهم كيف شاءُوا فى كل موطن ومعتَرَك ، مادامتْ عند أنفُسِهم مُقاومةٌ .

فلما ذَلُّوا وقَلُّوا وكَرِهوا الموت ، صاروا لايتَراءَوْن إلا فى رُءوس الجبال ومَضايِق الطُّرُق وخَلْفَ الأودِيَةِ ومن وراء الأنهار ، وحيثُ لاتنالهم الخيلُ ، حصنا للمطاولة وآنتظارًا للدوائر ، فكادهم اللهُ عند ذلك وهو خيرُ الكائدين ، وآستدْرَجهم حتّى جمعهم إلى حِصْنهم معتصِمين فيه عند أنفسهم ، فجعلوا آعتصامهم لحَيْنٍ لهم ، وصُنْعٌ لأوليائه وإحاطةٍ منه به تبارك وتعالى ، فجمعهم وحصرهم لكىْ لاتبقىٰ منهم بقيّةٌ ولا تُرْجىٰ لهم عاقبة ، ولا يكونَ الدينُ إلا لله ، ولا العاقبةُ إلا لأوليائه ، ولا التعْسُ والنَّكْس إلا لمن خذَله .

فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم وداناهم مصارِعُهم ، سلَّطهم الله عليهم كَيدٍ واحدة ، يختِطفُونهم بسُيوفهم ، وينتظمونَهُم برِماحهم ، فلا يجِدون ملْجأ ولا مَهْرَبا ؛ ثم أمْكنَهم من أهاليهم وأولادهم ونِسائِهم وحُرَمهم وصَيَّروا الدار دارَهم والمَحلة مَحلَّتهم ، والأموال قَسْما بينهم ، والأهلَ إماءً وعبيدا . وفوقَ ذلك كلِّه ما فَعَل بهؤلاء وأعطاهم من الرحمة والثواب ، وما أعَدَّ لأولئك من الخِزْى والعِقاب ؛ وصار الكافر بابك لا فيمن قتل فسَلِم من ذُلِّ الغلَبة ، ولا فيمن نَجَا فعاين فى الحياة بعض العِوَض ، ولا فيمن أُصِيب ، فيشتغل بنَفْسه عن المصيبة بما سواه ، لكنه سبحانه وتعالى أطلقه وسَدّ مذاهبه ، وتركه مُلدَّدا بين الذُّل والخَوْف ، والغُصّة والحَسْرة ، حتّى إذا ذاق

طعَم ذلك كلِّه وفَهِــمه، وعرف مَوْقِع المصيبة، وظَنَّ مع ذلك كلِّه أنه علىٰ طريق من النجاة، فأضرب الله وجهه، وأعمىٰ بصره، وسدّ سبيلَه، وأخذ بسمعه وبصره، وحازه إلىٰ مَنْ لا يَرِقُّ له، ولا يَرثِي لمَصْرَعه؛ فآمتثل ما أَمَرَ به الأَفْشِــين (حيدر بن طاوس) مولىٰ أمير المؤمنين فى أمْره؛ فبثَّ له الحبائلَ، ووضَع عليه الأرصادَ، ونَصَب له الأشراكَ حتّٰى أظفره اللهُ به أسيرا ذليلا مُوثَقا فى الحــديد، يراه فى تلك الحالة مَنْ كان يراه رَبًّا، ويرىٰ الدائرةَ عليه مَنْ كان يظُنُّ أنها ستكون له. فالحمدُ لله الذى أعزَّ دِينَه، وأظهر حُجَّته، ونَصَر أولياءَه وأهلك أعداءَه، حمدًا يُقْضٰى به الحقُّ، وتَتِمُّ به النِّعمة، وتتصــل به الزيادةُ. والحمدُ لله الذى فتح علىٰ أمير المؤمنين وحقَّق ظنَّه، وأنجح سعْيَه، وحاز له أجْرَهذا الفتح وذُخْرَه وشَرَفه، وجعله خالصا لتمــامه وكماله بأكمل الصنع وأحْسنِ الكِفاية، ولم يربوسًا فيه مايُقْذِى عينَه، ولا خَلَا من سُرور يراه، وبشارةٍ تتجدَّد له عنه، فمــا يدرى أميرُ المؤمنين مامُتِّع فيه من الأمل، أو ماخُتِم له من الظفر؛ فالحمدُ لله أوّلا! والحمد لله آخرًا! والحمد لله علىٰ عطاياه التى لاتُحصىٰ، ونِعَمه التى لاتُنْسىٰ، إن شاء الله تعالىٰ.

⁂

وهذه نسخة كتاب من هذا الضرب، كتب به أبو سعيد العلاءُ بن مُوصَلَايَا عن القائم بالله، إلىٰ عَضُد الدولة «ألْب أرسلان» إلىٰ مسعود بن محمود صاحب غَزْنَة من أوائل بلاد الهند، بالبِشارة بالنَّصْر علىٰ البَسَاسيرىّ وهو.

أما بعدُ، فالحمد لله مُنِــيرِ الحق ومُبْدِيه، ومُبِيرِ الباطل ومُرْدِيه؛ الكافِلِ بإعزاز حِزْبه، وإذلال حَرْبه، المؤيِّد فى نُصْرة دينــه خِضْبَ الدَّهْر بعــد إمحاله وجَدْبِه، الناظم شَمْلَ الشرع بعد شَتاته وتفرُّقه، الحاسم داعِيَ الفَساد بعد آستيلائه وتطرُّقه، ذى المشيئة النافذة المــاضيه، والعزّة الكاملة الوافرة والعَظَمة الظاهرة البــادية،

والبراهين الرائعة الرائقه، والدلائل الشاهدةِ بواحدانيّتــه الناطقه ؛ حمدًا لا ٱنتهـاءَ لأمَدِه، ولا إحصاءَ لعَدَده . والحمدُ لله الذى ٱختص محمدا صلّى الله عليه وسلم برسالته وحَبَاه ، وأولاه من كرامته ما حاز له به الفضــلَ وحَواه ؛ وبعثه علىٰ حين فَتْرة من الرُّسُل ، وخلاء من واضِح السُّبُل ؛ فجاهد بمن أطاعه مَنْ عَصَاه ، وبَلَغ فى الإرشاد أقصىٰ غايتِه ومَدَاه ؛ ولم يَزَلْ مُبــدِياً أعلامَ الإعجاز ، ومُلْحِقا الهوادىَ بالأَعْجـاز ؛ إلىٰ أن دخل النــاسُ فى الدين أفواجا ، وسلَكُوا فى نُصرته جَدَدا واضحًا ومِنْهاجا ؛ وغدَتْ أنوارُ الشرع ضاحكةَ المَبَاسم ، وآثارُ الشِّرك واهيةَ الدعائم ؛ ومناهلُ الهدىٰ عَذْبةً صافيه . فصــلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين ، وأصحابه المنتخَبِين وخُلَفــائه الأئمةِ الراشدين ، وسلَّم تسليما . والحمد لله الذى أصار إلىٰ أميرالمؤمنين مِن تُراثِ النبوّة ما ٱستوجبه وٱستحقَّه ، وأنار لدَيْه من مطالع الجَلَال ما تملك به الفخْرَ وٱســترَقَّه ؛ ومنحه من حُسْن التمكين والإظْفار ، وإجراء الأقضيةِ علىٰ مُراده والأقدار ؛ ماردَّ صَرْفَ الدهرِ عن حَوْزته مفْلُولَ الحَدّ ، ومَدّ باعَ مجــدِه إلىٰ أقصىٰ الغاية والحَدّ ؛ وحمىٰ سَرْبَ إمامته من دَواعِى الخوف والحَذَر ، ووقىٰ مَشْرب خلافته من عَوادِى الرَّنْق والكَدَر ؛ وجعل معالم العَدْل فى أيامه مُشْرِقة الأوضاح والحُجُول ، مفْتَرَّةَ النواجذ عن الكمال الضافى الأهــدابِ والذُّيول ؛ مُؤْذِنةً باستقرار أمداد السعاده ، وٱستمرار الأحوال علىٰ أفضــل الرَّسْم والعاده ؛ وهو يســتَدِيمه من لطيف الصُّنْع وجميــله ، ووافى الطَّوْل وجَزِيله ؛ مايَزِيدُ آراءه سَدَادا ورشادا ، وأَرُومةَ عِزِّه ٱتِّساعا وٱمتِدادا ؛ ومجارِىَ الأمور لديه ٱتساقًا علىٰ المراد واطِّرادا ؛ وماتوفيقُ أميرالمؤمنين إلا بالله عليه يتوَكَّلُ وإليه يُنِيب ! .

ومعلومٌ ما ٱعتمده شاهنشاه المعظّم بعد مَسِيره إلىٰ العراق ، فى الجيوش التى يضيق بها الفَضَاء ، ويَجْرى علىٰ مرادها القَضَاء ؛ قاصدًا تلبيةَ الدعوة ، وخاضِدًا شوكَ كلِّ

مَنْ سدّ عن[1] الدين أسباب المَضَرة والمعرّة ،ومعتمِدًا ماحمىٰ حَوْزَةَ أمير المؤمنين من الشوائب المعترِضه ، وحوىٰ أقسامَ الفخار فى آتباع شروط الخدمة الملتَزَمة المفترَضه ؛ من المبادرة للُّكَع اللعين البَسَاسيرى ولَفِيفه المخاذيل ، مدَّرِعا من الآعتضاد بالله تعالىٰ أقوىٰ الجُنَن وأسبغَ السَّرابيل ، ليطَهِّر الأرضَ من دَنَس كُفْرهم ، ويُوفِّر الجَدَّ فى فَصْم حدّهم وحَسْم كَيْدهم ؛ فأطلَّ علىٰ بلاد الشام متطلِّبًا من أجاءه حِذْرُه إلىٰ الإمعان فى الهَرَب ، وقَطْع كلِّ أَخِيَّة وسبَبْ ، ومعتزما الِائْتمامَ إلىٰمصر لآنتزاعها و بقيةِ الأعمال ، من أيدى أحلاف الغَوَاية والضَّلال ، وقَرَّب الأمرَ فيما حاولَهُ من ذلك ورامه ؛ اعتمادُه فيه صنوفَ التجدّد وأقسامه ؛ فاعترضه من عِصْيان إبراهيم اينال وعقوقه ، وخروجه عن زُمْرة أبناء الطاعة ومُرُوقه ؛ بإفساد اللَّعين إيَّاه ،و إحالته بمكره عن مَنَاهج هُدَاه ، ما أحوجه إلىٰ ترك ماهو بصَدَده واللَّحاقِ بأثره حِذَارا من آستفحال خَطْبه ، وبِدارا إلىٰ فَلِّ حَدّه وغَرْبه ؛ فعاد ذلك بتجمُّع الأعداء وآحتشادهم ، وسلوكهم المحجَّةَ التى خُصُّوا فيها بعدم توفيقهم ورَشادهم ،وإقدامِهم علىٰ فضل الإمامة المكرمة بالمحاربه ، وآطِّراحهم فى منابَذَتِها حكْمَ الآحتشام والمراقبه ؛ ووقُوع التظافُر علىٰ المجاهَرة بخلافها ، والتظاهُرُ بشِعار أشياع الغَوَاية وأحْلَافها ؛ جرأةً علىٰ الله تعالىٰ وآستِنزالًا لعقابه ، وآطِّراحا لما توجبه الجنايةُ العُظْمىٰ من توقُّع العذاب وآرتقابِه ؛ وآدِّراعا لمَلَابس الخِزْى فى الدنيا والآخره ، وآتباعًا لداعى الضَّلالة المُغوِية فى البدء والخاتمة ؛ فاقتضى حكْمُ الآستظهار الآنتقالَ من دار الخلافة ـ بمدينة السلام ـ إلىٰ (حَدِيثة عانَه) لما هى عليه من آمتناع الجانب وشِدّة الحَصَانه ؛ إلىٰ أن أسفر خَطْب شاهنشاه رُكن الدين ـ أمتع الله به ـ عن إدراك المَطَالب ،وتيَسُّر المَصَاعب ؛ فعاد بنُصْرة الدولة العباسيَّة الإمامية القائميَّة مستنفِدًا فى ذلك أقسامَ الوُسْع

(١) لعله وخاضدا شوك كل من صد عن الدين وأولاه أسباب الخ .

والاجتهاد، ومستنجدا بمعونة الله تعالى على إبادة الكفر بصنوف القِرَاع والجهاد؛ ولم يزل ساعيا فى إزالة العار، وانتزاع المغتصب وارتجاع المستعار؛ إلى أن صدّق الله تعالى الأملَ وحقّقه، وأصفى مَنْهَل العز من كل ما شابَهُ ورنّقه؛ وأطلع شمس الحقّ بعد غروبها، ومنّ بخَضْد شوكة الباطل وفلّ غروبها .

وعاد أميرُ المؤمنين إلى دار مُلْكه ومقرّ مجْده فى يوم كذا ضافيةً على راياته جَلَابيبُ النّصر والظّفر، جاريةً على إرادته تصاريفُ القضاء والقَدَر، بيُمْن نقيبة شاهنشاه الذى أدّى فى الطاعة الفَرْض الواجب، وتمسّك من المُشايَعة بأفضل ما تُضَمّ عليه الرّواجب؛ وغدا للدولة عَضُدًا مُوفيًا على الأمثال، فى دَفْعه عن الإسلام وذَبّه، ومتقمّصا للجَلَال، بحُسْن إخلاصه فى حالتَىْ بُعْده وقُرْبه؛ وما زالتْ ثِقَةُ أمير المؤمنين مستحْكِمةً بالله تعالى عند ما ألَمّ به من تلك الحال، ودَهَم من الخَطْب المحتفّ به سَطْوةُ الاشتداد والاستفحال؛ فى إجرائه على ما ألِفَه من النّصْر والإعزاز، وإظهار آلائه فى تأييده والإعجاز؛ إذ لم يكُنْ ما عَرَّاه استعادةً للحقّ المسلّم اليه، والمَوْهِبة التى ضَفَتْ جلابيبُها عليه؛ بل جعل اللهُ ذاك إلى امتحان صَبْره سبيلا، وعلى وُفُور أجره دليلا، وبإبادة كل ناعقٍ فى الفتنة كَفيلا؛ لتزدادَ أنوارُ عُلاه نَضارة وحُسْنا، وأعلامُ جَلَاله سعادةً ويُمْنا، ورباعُ عِزّه سُكُونا وأَمْنا؛ لُطْفًا منه جلّتْ آلاؤه فى ذلك ومَنًّا. وتلا هذه النعمةَ التى جدّدتْ عُهودَ الشرع وافيةَ النّضارة، وأزالتْ عن الدّين مفاسدَه العارضةَ ومَضَاره، ما سَهّله الله وهنّاه، وأجزل به صَنيعه الجزيلَ وأسناه؛ من ظَفَر السّرَايا التى تورّدها لاصطلام اللُّعَناء واجتياحهم، وحسم فسادهم وهدم عراصهم؛ وإخماد ما أضرمُوه من نار الشّرك وشَبُّوه، وإبطال ما أحدَثُوه من رسم الجَوْر وسَنُّوه؛ وأفضى الحالُ إلى النّصْر على الأعداء من كل جانب، وقَهْر كلّ منحَرِف عن الرشاد ومجانِب، وحلولِ التأييد على الرايات المنصورةِ العباسيّة التى لم تزل مَكْنوفةً

علىٰ صَرْف الدهرِ أشياعُها وأنصارُها ؛ و إجلاءِ الحرب عن قتل اللعين البَساسِيرِى وأخْذِ راسه، وتكذيبِ ظَنِّه فى ٱحترازه من طوارق الغِيَرِ وٱحتراسه، و إراحة الأرض وأهلِها من دَنَسه وعُدْوانه ؛ وكونِ من ضامَّه من طَبَقات العرب والأكراد والأتراك البغداديين والعَوامِّ بين قتيلٍ مُرَمَّلٍ[١] بدَمِه ، وأسيرٍ تلقَّى المنونَ بغُصة أسَفه ونَدَمه ، وصَرِيع فى بقيَّةٍ من ذَمَائه[٢]،وهاربٍ والطلبُ واقعٌ من ورائه . فأنجز اللهُ وعدَه فى هذا المـارق ، والعبدِ الآبق؛ الذى غرّه إمهالُ الله تعـالىٰ إيَّاه فنسِىَ عواقبَ الإهمال فى الغَوايه ، والإمهالِ فى الطُّغيان إلىٰ أقصىٰ الحَدّ والغايه؛ وحمـلَ رأسه إلىٰ الباب العزيز فتقدّم بالتَّطواف به فى جانبَىْ مدينة السـلام وشَهْرِه، إبانةً عن حاله و إيضاحا لجليَّة أمْرِه ؛ وكُفِىَ مايوجبـه إقدامُه علىٰ العظائم التى علِمَ الله تعـالىٰ سُوءَ مصيرها ومآلِها، وحُرِم الرُّشْد فى التمسُّك والتشبُّث بأذيالها؛ وتلك عاقبـةُ من بغىٰ وٱعتدىٰ، وٱتَّزَر بالغَدْر وٱرتدىٰ ، وأمعن فى الضِّلَّة وٱعتدىٰ . والجِدُّ واقع من بعدُ فى المسـير للاحتواء علىٰ بلاد المخالفين الدانيـةِ والقاصيه، والأخذِ مع مشيئة الله تعالىٰ بنواصى كل فئةٍ طاغيةٍ عاصيه .

فالحمد لله علىٰ هذه المِنْحة التى بشَّرت الإسلامَ بجَبْر كَسْره، وأنقذتِ الهُـدىٰ من ضِيق الكُفْر وأسْره ؛ وأبْدتْ نجومَ العَدْل بعـد أن أفلَتْ وغارَتْ ، وأرْدَتْ شِيعةَ الباطل بعدَ أن ٱعتدت علىٰ الحقِّ وأغارَتْ ؛ وهو المسـئول صِلتَهَا بأمْدادٍ لها تَقْضى إذ ذاك سائرَ الأغراض و بلوغها ، وتقضى بكمال رائقِ الآلاء وسُبُوغها .

---

(١) أى بالراء المهملة بمعنى ملطخ قال الشاعر :

ان بنىّ رمـلونى بالدم * شنشنة أعرفها من أخزم

(٢) الذماء بالذال المعجمة والمدّ بقية النفس .

ٱقتضىٰ مكانُك ـ أمتع الله بك ـ من رَأْى أمير المؤمنين الذى وطَّأ لك مَعاقِدَ العِزِّ وهضابَه، وكمَّل لديك دواعِىَ الفخر وأسبابَه، ونَحَلك من إيجابه الذى وصلْت به إلىٰ ذِرْوة العلاء، وصُلْت علىٰ الأمثال والنُّظَراء، إشعارَك بما جدّده اللهُ تعالىٰ من هذه النعمة التى غدَتِ السُّعود بها جَمَّةَ المَناهل، ساميةَ المراتب والمنازِل، لتأخُذَ من حظِّه بها، والشكرِ لله تعالىٰ علىٰ ماتفضَّل بهفيها بالقِسْم الأوفىٰ، كِفَاءَ مايُوجِبه وَلاؤُك الذى ٱمتطَيْتَ به كاهلَ المجْـد، وٱصطفيت به كاملَ السعد، وكونَك لدولة أمير المؤمنين شِهابَها المُشْرِق فى الحَنَادس، وصَفِيَّها الرافلَ من إخلاص مُشايَعتِها فى أفخر الحُلَل والملابس؛ والله تعـالىٰ لا يُخْليك، من كل ما تستدرُّ به أخْلافَ(١) معاليك؛ ولا يَعْدَمُ أميرُ المؤمنين منك الولِىَّ الحميدَ السِّيره، الرشيدَ العقيدةِ والسَّريره، الشَّـديدَ الشاكلةِ والوَتِيره.

هذه مناجاة أمير المؤمنين لك، أجراك فيها علىٰ ماعَوَّدك من التجمُّل والإكرام، وحَبَاك فيها بمـا هو مبَشِّر لك بالسعادة الوافية الأصنافِ والأَقْسام؛ فتلَقَّها بالجَذَل والاستبشار، وواصِـلْ شُكْرَ الله تعـالىٰ علىٰ ما تضمَّنته من حسن مَجارِى الأقضية والأقدار؛ وطالِـعْ حضرةَ أمير المؤمنين بأنبائك، وتابِـعْ إنهـاءَ ما يُتشَوَّف نحوُه من تِلْقائك؛ إن شاء الله تعالىٰ.

الضـــــرب الثـانى

(أن يتخذ التحميد فى أوّل الكتاب، وهو أقلُّ وقُوعا من الضرب الذى قبله)

وهذه نسخةُ كتاب من ذلك، كتب به أبو إسحاق الصابى عن «المطيع لله» إلىٰ بعض وُلاة الأطراف، عند طاعة عبد الملك بن نوحٍ أحدِ ملوك بنى ساسانَ، وهى :

(١) فى الأصول أعلام وهو تصحيف.

أما بعـد ، فالحمد لله الولىّ بالاستحماد ، المستحقّ لكُنْه الإعتباد ، القديرِ على تأليفِ الأجساد ، البصيرِ بسُبُل خَفَايا الأحْقاد ؛ ذى الحكمة فى تبْديل الضِّغْن والسَّخيمة ذِمَّه ، والمُنابذةِ عِصْمه ؛ والقطيعةِ وُصْله ، والشَّحْناء خُلَّه ؛ والحَرَج فَرْجه ، والشَّعَث نَضارةً وبَهْجَه . الذى جعل الصُّلْح فتحًا هَنِيًّا ، والسِّلْم مَنْجًا بَهِيًّا ، والمُوادَعة مَنًّا جَزِيلا ، والإرعاءَ أمْنًا جميلا ؛ والإقالةَ حَرَما لا يضلُّ هداه ، ولا تُحَلُّ قُواه ؛ ولا تَخِيب عواقِبُه ، ولا تخفى مآثِرُه ومناقِبُه ؛ رأفةً منه بالخلق ، وصيانةً لأهل الحَقّ ؛ وإمهالًا فى العَهْد ، ورُخصةً فى الاختصار دُونَ الحدّ ؛ لِيُقرِّب فَيْئة المتأمل ، ويُسَهِّل رَجْعة المتحصل ؛ وتُسْرع رفاهيةُ المستَبْصِر ، ويخفَّ اجتهادُ المزاول المشمِّر ؛ وقد قال الله عزّ وجلّ ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ وهو المسئول عِمارةَ الإسلام بالسّلامه ، والأنامِ بالاستقامه ؛ والسلطانِ بالطاعه ، والمُلْكِ بِبُخُوع[(١)] الجماعه ؛ حتّى لا تزالَ الفتنةُ مَهِيضة الجَنَاح ، مَرِيشةَ الاجتياح ؛ فَليلةَ الشَّباةْ ، قليلةَ الأدَوات ؛ فتكونَ النفوسُ واحده ، والأيْدى مُترافِده ؛ والمَوَدّاتُ صافِيه ، والمآرِبُ مُتكافية متضاهيه ، فى الشكر الذى يُذادُ به عن النُّفوس ، ويحمى به حريمُ الدِّين ؛ ويُرْجى معه التأييد ، ويُبتغى بوَسِيلته المَزِيد ، فقد قال الله ـ وقوله الحق ـ : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ والله سميع مجيب . وحَسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعْم الوكيلُ !

وقد علمت مافَرَط من نوح بن نصر فى السَّهو ، ونُقِم منـه فى الهَفْو ؛ الذى ألهاه عن التقوى ، وأنساه شِيمةَ الرُّقبى ، فعَدل عن سَنَن القَصْد ، وزاغ عنه على عَمْد ؛ وحال عن آدابِ آبائه رحمهم الله وهم القُـدْوه ، وسَجاياهم وبهمُ الأُسْـوه ، وما كان ينتمى به من الوَلاء ، ويَعْتزى إليه من الوفاء ؛ وصار أدنى معنًى ممن يحسُدُه على كَرَم الأصـل ، وينافسه فى شَرَف المحل ؛ ويُدْخِل على عقـله مُدَّخَل النصيحة ، ويَطَّلع

(١) أى انقيادها يقال بخع لى بالحق بخوعا انقاد وبذله .

بظاهرها على آرائه الصريحة؛ وكلُّ ذلك إلحادٌ فى أمير المؤمنين وعُهْدته، ومُرُوق عن أزِمَّته، وعقوقٌ بالبرية يَشْقَى به الباقى، ولن يَشْقَى به النازحُ الماضى. فإن أمير المؤمنين مازال واعِيًا لأوامر سَلَفه، عارفا بمآثِر خَلَفه؛ متجافِيًا لأُولئك عما آبتدعه، متنوِيا لهذا التَّجاوُزَ عَمَّا صنعه؛ فقد كان نُمِىَ إلى أميرالمؤمنين أن عبدَالملك آبنَ نوح مولى أمير المؤمنين سليمُ السَّرِيره، بَسَدِيدُ البصيره؛ يُرْجَع إلى رأيه وتَدْبِيره، ولم يَجِدْ وشمكير بن زنار، عاجله بالبوار؛ مَساغًا إلى خَتْله، ولا آحتيالا فى لَيِّه وفَتْله؛ وكان لعبد الملك ركن الدولة بن مالك مولى أمير المؤمنين ظَهِيرَ صِدْق، إن وَسِنَ أيقظَه، وإن مادأيَّده؛ خَلَّةٌ فَضْلٍ فَطرهُ اللهُ عليها، وغريزة تميز أحسن اللهُ إليه فيها؛ فإنه لو قال أميرالمؤمنين: إنه لامثِلَ له آستحقَّ هذا الوصف. ولأَمِنَ أمير المؤمنين فيه الخُلْفَ. ترك لِباسَ أبيه فنزعه، وآعتاض منه وخَلَعه؛ وتَنَصَّل مما كان منه منتهِكا، فعاد عليه محتنِكا؛ وأتى الأمرَ من طريقه، ولجأ فيه إلى فريقه؛ رُكْن الدولة أبى علىّ مولى أمير المؤمنين، أحسنَ الله وِلايته، ومُعِزِّ الدولة أبى الحسين تولّى اللهُ معونته، وآستصلحهما، وكفى، وآستخلصهما، وغنى؛ وراسل فى الإنابة وإن لم يكن حائدا، والآستقالةِ وإن لم يكن جانيا؛ فما ترك ركن الدولة ومعز الدولة — كلأهما الله — إكبارَقَدْره، وإجلالَ أمْره؛ والقيامَ بخلاصه، والنطقَ عن أميرالمؤمنين بلسان مشاركته؛ وإذكار أمير المؤمنين بما لم يَنْسَه من تلك الوثائق، التى صدّر بها كتابه، والعلائق، التى وَشَّح بها خطابه؛ إلى أن أجلَّ أبامحمد نوحا وترحم عليه، وقَبِل عبدَ الملك وأحسنَ إليه؛ وواصل رُسُله، وآستمع رسائله؛ وقَلَّده خُراسانَ ونواحِيَها، وسائرَ الأعمال الجاريةِ فيها، وعَهِد إليه فى ذلك عَهْدا ومَيَّزه باللواء، والخِلَع والحِباء؛ بعد أن كنَّاه بلسانه، ووفَّاه حُدودَ إحسانه؛ وألحقه فى ذلك بآبائه، ولم يُقَصِّر فيه بشأْوه. وكتابُ أميرالمؤمنين هذا وقد آطَّردت الحالُ وآستوثقَتْ، وآمتزجت الأهواء

وآتفقتْ ؛ وخلا المشرقُ من الآضـطراب الذى طال أمدُه ، ولم يكد يُرىٰ أثرُه ؛ وصارتِ العساكر الدانية والنائيةُ فَوْضىٰ لاتمتاز ، ولا تنْفرِد وتَنْحاز، وذلك صنعُ الله لأمير المؤمنـين فى جَمْع الشَّتَات ، وتلافى الهَنَّات ، ولَمِّ خَلَل التَّخاذُل ، ومُداواة نَغَل الدَّخائل ؛ لتتِمَّ الكلمةُ فى وِلَايتــه ، وتَعُمَّ النِّعمُ فى طاعته ، ولا يكونَ للشيطان سبيلٌ علىٰ شيعته ، ولا طريقٌ إلىٰ مَكيدةِ أبناء دَعْوته ، والله ذو الفضل العظيم .

فاحمِدالله علىٰ هذا النبإ الذى تطوّع به المِقْدار ، والخبرِ الذى دلَّتْ عليه الأخبار ، من الفتح الذى لم يُنَغِّصْه تَعَب ، ولم يكدِّره عَناء ولا نَصَب ؛ فإنه تأتّى سَهْلا ، وأتىٰ رِسْلا ، وآبتَدَأ عَفْوا ، وآنتهىٰ خالصا صَفْوا ؛ فقد قَمَع الله به العَنَـده ، وجمع بتهيئه العَبَده ؛ وآذنَ عُقْباه بالسعاده ، وبَشَّرفى سِيماه باتصال المـاده ؛ وأنزل أبا الفوارس عبـدَ الملِك بنَ نُوح مولىٰ أمير المؤمنين منزلَةَ من رآه أمير المؤمنـين أهلا للوديعه ، وآمنه علىٰ الصَّنيعه ؛ ورتَّبه مرتبة المسبحة ، وآستحفظ اللهَ حسنَ الموْهِبة به ، وما قد تجدّد بين أبى الفوارس وبينهما من الاتِحاد ، المتولد عن الآغتباط والآعتداد ؛ فقَلَّ من شاقَّهما فلم ينْدَم ، وتمرّد عليهما فلم يُكْلَم ؛ وتمسك بهما فلم يَسْـعَد ، وآرتبع أكنافهما فلم يوعد ؛ وأجب عن هذا الكتاب بوصوله إليك ، وموْقِع متضَمَّنه لَدَيْك ؛ وما يُحدِثه لك من الجَذَل ، وآنفساح الأمل ؛ موفَّقا إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الثـانى

(أن لايَعْقُب البعديةَ تحميدٌ ، بل يقع الشروع عقبها فى المقصود)

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، كَتب به أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله إلىٰ من بصُحَار وسَــوادِها ، وجبال عُمَان وأعمالهـا ، وحاضرتها و باديتها ، بالأمر بالآجتماع علىٰ الطاعة ، وهى :

أما بعدُ، فإنَّ أمير المؤمنين للذى حَمَّله اللهُ من أعباء الإمامة، وأهَّله له من شَرف الخلافة، وآستَوْدعه من الأمانة فى حِياطة المسلمين، والآجتهاد لهم فى مصالح الدنيا والدِّين، يرىٰ أن يُراعِىَ مَنْ بَعُدَ منهم ونأىٰ، كما يُراعِى من قَرُب ودَنَا، وأن يلاحظ جماعَتَهم بالعين الكاليَه، ويطْلُبهم بالعين الوافيه، ويتصَفَّح ظواهرَ أمورهم، وبواطنَ دواخلهم، فيحمَدَ مَنْ سلك نَهْج السلامه، ويُرشِدَ من عَدَل عن الآستقامه، ويَنْظِم شَمْل الجماعة على الأُلْفة التى أمر اللهُ بها وحضَّ عليها، ويزيلهم عن الفُرْقة التى ذمَّها ونهىٰ عنها، إذ يقول جلَّ من قائل : ﴿وأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ولا تَنازَعُوا فتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ : ﴿وآعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا﴾ فلا يزالُ أمير المؤمنين يُعَرِّفهم ما آفترض اللهُ عليهم من طاعة الأئمة وأُولِى الأمر الذين لاعِصمةَ لمخالِفِهم، ولا ذِمَّةَ لمُعانِدِهم ؛ ولا عُذْر لمُسْلم ولا معاهَدٍ نأىٰ بجانبه عنهم، وضَلَّ بوَجْهه عن سبيلهم ؛ إذ كان الإمامُ حجةَ الله علىٰ خلقه، وخليفتَه فى أرضه ؛ وكانت الطاعةُ واجبةً له ولمن قَلَّده أزِمَّة أموره، وآستنابه فى حَمْل الأعباء عنه ؛ فمن آنَس منه الهِدايةَ أحمده، ومن أنْكَر منه الغَوَاية أرشدَه بالوعظ ما آكْتَفىٰ به، أو بالبَسْط إن أحوج إليه . وإن أمير المؤمنين يسأل اللهَ أن يوفِّقه للرأْى السَّدِيد، ويُمِدّه بالصُّنْع والتأييد، ويتولّاه بالمَعُونة علىٰ كلِّ مالَمَّ الشعَث، وسَدَّ الخَلَل، وقوَّم الأوَدَ وعدَل المَيْل ؛ وأحسَنَ العائدَةَ علىٰ المسلمين جميعا فى شَرْق الأرض وغَرْبها، وسَهْلها وحَزْنها ؛ إنه بذلك جدير، وعليه قدير ؛ وماتوفيقُ أميرالمؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنِيب .

وقد علمتم أن أمير المؤمنين أحسن إلىٰ الرعيَّة بما كان فوضه إلىٰ عَضُد الدولة وتاج المِلَّة ــ رحمةُ الله عليه ــ من سياستهم باديًا، ثم أحسَنَ باستخلاف عَديله وسَليله صَمْصَام الدولة وشمس الملة ثانِيًا ؛ إذ كان خِيرةَ أمير المؤمنين وصَفْوتَه، وحُسَامه ومِجَنّه ؛ والمُورِد المُصْدِر عنه بالعَهْدين المستمِرّين : من أميرالمؤمنين بالنص عليه، ومن

الوالد رحمه الله بالوَصيَّة إليه . وإن هذه العقودَ المؤكَّده ، والعهود المشدَّده ؛ موجبة علىٰ الكافَّة طاعةَ مَنْ حصَلَتْ له ، أوآستقرّت بوثائقها فى يَدِه ؛ إذ لايصحُّ من حاكم حُكْم ، ولا من عاقدٍ عَقْد ، ولا من والٍ إقامةُ حدّ ، ولا من مسلمٍ تأديةُ فرضٍ حتّىٰ يكون ذلك مبنيًّا علىٰ هذا الأصل ، ومُدَارا علىٰ هذا القُطْب ، وإن كان خارج عنهما وراض بخلافهما ، خرج من دينه ، أَثِم بربه ، بَرِئ من عِصْمته ؛ وأنتم من بين الرعية فقد خصصتم سالفًا بحُسْن النظر لكم ، وعُرِفت الطاعةُ الحسنةُ منكم ؛ فتقابلت النعمةُ والشُّكر ، تقابُلًا طابَ به الذِّكر ، وآنتظم به الأمر ؛ ثم حدَثت الهفوةُ المعتَرِضة قُبَيلُ ، فكان أمير المؤمنين مُوجِبا للعاقبــة المُوجَبة علىٰ الجاهل المُوضِع فى الفِتْنه ، والمُعاتَبة المُمِضَّة علىٰ الحكيم منكم القاعد عن النُّصْره ؛ إلىٰ أن وردَتْ كُتُب أستادهرمز بن الحسن ، حاجب صَمْصام الدولة ، باستمراركم علىٰ كلمةٍ سواء ، فى نُصْرة الأولياء ، والمحاماة دُونَهم ؛ ومُدافعةِ الأعداء والمُراماة لهم ؛ فوقع ذلك من أمير المؤمنين أحسنَ مواقِعِه ، ونَزَل لديه ألطفَ منازِلِه ؛ وأوجبَ لكم به رضاه المقترنَ برضا الله سبحانه ، الموجِبَ للقربة والزُّلفىٰ عنــده ؛ وأميرُ المؤمنيـــن يأمركم بالدوام علىٰ ما أنتم ، والثباتِ علىٰ ما آســتأنفتُم ؛ والمبــادرةِ إلىٰ كلِّ ما يأمركم به فلان الوالى عليكم من صَمْصام الدولة بالآستخلاف والتفويض ، ومن أمير المؤمنين ، بالإمضاء لمــا أمضاه ، والرضا بمــا يرضاه ، فاعلموا ذلك من رأْى أمير المؤمنين وأمره ، وآنتَهُوا فيه إلىٰ حدّه ورَسْمه ؛ وكُونُوا لفلان الوالى خير رعيَّــة ، يكُنْ لكم خَيْرَ راع ؛ فقد أُمِرَ فيكم بحُسْن السِّيرة ، وإجمــال المعاملة ، وتخفيف الوطأة ، ورَفْع المئونة ؛ وجعل إليه عقابُ المُسِىء ، وثوابُ المحسن ، ومسالمــةُ المسالم ، ومحاربةُ المُحــارب ، وأمان المســتأمن ، وإقالةُ المستقيل ، وحملُ الجماعة علىٰ سواء السبيل ، إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة الثالثة

(فى الكتب الخاصة ممـا يصدر عن الخلفاء ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مايكتب عن الخلفاء إلىٰ وزرائهم)

قال فى "صناعة الكتّاب" : ويُكاتِبُ الإمامُ الوزيرَ أومَنْ حلَّ محله «أمتعنِى الله بك وبدوام النِّعمة عندى بك، وبقاءِ المَوْهِبَة لى فيك» وما جرىٰ هذا المجرىٰ .

وذكر فى "ذخيرة الكتّاب" : أن الدعاء للوزير « أمتعَنَا الله بك وبدَوام النِّعمة لنـا فيك وتجديدِ المَوْهِبة عندنا بك » . ثم قال : ودعا "المكتفى بالله" للقاسم بن عبد الله لمـا أمر بتكنيته ، وكان الكتّاب بخطه « أمتعنى اللهُ بك وبالنعمة فيك » ووقّع المستنصر إلىٰ وزيره أحمد بن الخَصِيب « مدّ اللهُ فى عُمُرِك » . وهو قريب ممـا ذكره فى "صـناعة الكتّاب" فى ذلك كله . والذى رأيتـه فى مكاتبات العلاء آبن مُوصَلَايَا عن «القائم بأمر الله» التصديرُ بما فيه تعظيم الوزير وتقريظُه، من غير ضابط فى الآبتداء، والدعاءُ فى أثناء ذلك بالحياطة ثم التوصل إلىٰ المقصد .

وهذه نسخة كتاب كتب به العلاء بن مُوصَلَايَا عن القائم إلىٰ وزيره :

لَمَّا خص الله تعالىٰ الدولةَ القاهرة العبَّاسية بآمتـداد الرُّواق ، فى العز وآتساع النطاق، وأجرىٰ لها الأقدارَ بما يجمع شمْلَ الحق ويمنعُ من نَفَاق النِّفاق، وأفرد أيَّامَها بالبهاء المُنيرِ الأعلام ، والآنتهـاء فى قوّة الأمر إلىٰ ما يُتأدّى فى طاعتها بين اليَقَظات والأحلام، وجعل الزمان واقفًا عند حدّها فى النقض والإبرام ، ومتصرِّفا علىٰ حكمها فى كلِ ما حاوَلَ من حالٍ ورام، ومكّن لها فى الأرض حتّٰى أذلَّتْ نواصىَ الأعداء قَهْرا

وقَسْرا، وحَسَرتْ عن قِنَاع القُدْرة علىٰ ردّ الطامعين فى إدراك مَدَاها ظُلَّعا حَسْرىٰ؛ فإن الله تعالىٰ لم يُخْلِها كلَّ وقتٍ من قائلٍ فى نُصْرتها فاعل، وقائم بإقامة حِشْمتها من كل حافٍ من الأنام وناعِل؛ وراغب فى الذَّبّ عن حَوْزتها سِرّا وجَهْرا، وخاطب من خِدْمتها ما يُرْجىٰ أن يكون رضا الله فى المُقابَلة عنه أغلىٰ مَهْرا؛ وناهج جَدَد الرُّشد فى المناضلة عنها بسيْفه وقلَمه، وفارجٍ للكُرَب الحادثة فيها بنُطْقِ فِيهِ وسَعْى قَدَمه .

وقد منح اللهُ أيام أمير المؤمنين ــ من كَوْنكَ الولىَّ بمواصلة المَقاماتِ الغُرِّ فيها، والخَلِىّ من كل ما يُباين صِحَّةَ الموالاةِ ويُنافيها؛ والضَّمينَ لما عاد عليها بٱستقامة النظام، والضَّنِين بما يُوجِدُ للغيْرِ الطريقَ إلىٰ وُصول الحَتْف إليها والٱهْتِضام؛ والمتجرّدَ فى إمداد عزها بالإحصاف والإمرار، والمتفرّد بإعداد أقسام المناضلة دُونَها فى الإعلانِ والإسرار؛ والباذلَ وُسْعَه فيما ثَنىٰ إليها أعِنَّة السعد ولَوَاها، والخاذلَ كلَّ مستنجدٍ بها فيما يخالف محبتها وهواها؛ ما أوفىٰ(١) علىٰ المألوف فى أمثالها من قبْل، وصار لك به علىٰ كل مَنْ سلفك من الأعضاءِ التقدُّم والفَضْل؛ فهى ــ بآثارك الحميدة فيها، وإكبارِك الجِدَّ فى تشييد مَبَانيها؛ وكونِك كافيًا أمر المحاماة من ورائها، كافًّا عنها ما يُخْشىٰ من حُدُوث أسباب الفَسَاد وٱعتِرَائها ــ مَنِيعةُ الجانب مَرِيعةُ الجَنَاب، سَرِيعةٌ فيها السُّعود إلىٰ ما يلبِّى نِداءَها بأحسن التلبية والجَوَاب .

ثم إنه وإن كانت زُلَفُك إلىٰ حضرة أمير المؤمنين بادية الحُجول والغُرَر، غيرَ محتاجة إلىٰ إقامة الدليل عليها بما ٱتَّضح من أمرها وٱشْتَهر، فإن فلانا يُعيد جِلاءَها دائما فى أبهىٰ المَلَابس وأنضرها، ويُجِيد الجِدّ فى الدِّلالة علىٰ تقابل مَخْبَرها فى الجمال ومَنْظَرها؛ ويَكْشِف من صَفَاء السرائر فيها والبواطن، وما يَطَّلع عليه منها فى كل المحال والمواطن؛ ما يُسْهِب فى وصفه ويُعْجِب سَماعُ ذكره ويُطْرب .

(١) هذا هو المفعول الثانى لمنح .

وفى هذه النَّوْبة عاد، وقد زاد، علىٰ المعهود من شُكرك وجازَه، وأبان عن صلته بالوعد فى ضمان النُّجْح منك نَجازه؛ وأوجب علىٰ نفسه أن لايَقِف عند حدّ فيما يؤدّى إلىٰ نَشْر محامدك فى الأرض ، وطَىِّ الجَوانح لكَ علىٰ الإخلاص الصادق المَحْض .

ولما مثَلَ بحضرة أمير المؤمنين علىٰ رَسْمه الذى وَسَم بالجمال جَبِينَه، وآبتسم ثغرُ التوفيق فيه عمَّا أصبح النُّجْح أليفَ سَعْيِه وقَرِينَه؛ وبحسَبِ فَوْزِه من شَرَف الحُظْوة برتبةٍ لم ينَلْها أحدُ الأقران له فى الزمان، وفَوْتِه شأْوَ أبناء جِنْسه يوم المِضْمار والرِّهان؛ كِفاءَ ما يستوجبه بغَلاء قيمته فى الكمال، والغَناء به فى كل مَقام أمِن حدُّ مَضائِه فيه الكَلال ؛ أشار بذِكْر مَقاصدك التى حُزْتَ بها من غَنائم الحَمْد الصَّفايا ، وشادَ مبانِىَ محامِدك بفَضْل الإبانَةِ عن السرائر والخَفَايا ؛ وتابعَ الثَّناء علىٰ كلٍّ من أفعالك التى أمسىٰ هلالُك فيها مُقْمِرا، ووَضَح فيها كَوْنك بشُروط الإخلاص مُحِبًّا مُضْمِرا؛ وشَرَح من توفُّرك علىٰ كلِّ قُرْبة غرّاءَ تُغْرِى الألسنةَ بحمدك، وتُنْبِئ عن حُسْن مقْصِدك برفع عِماد الحق وعَمْدك؛ ما قامتْ عليه الأدلّة ، وآستقامتْ به علىٰ سَنَن الرُّشْد الأهواءُ المُضِلّة؛ وبيَّن من إمضائك كلَّ عزم فى تهيئةِ القُرُبات إلىٰ حضرة أمير المؤمنين حالا فحالا ، وإبطائك خُطا الجِدّ فيما يُراد بزُلَفك البالغةِ أقصىٰ الغاياتِ لديْه سابقا وآتِّصالا، ما يُضاهى المظنون فى تلك العقيدةِ التى طالَما أُلفيتَ فى نُصْرة الدولة القاهرة صافيةَ المَوْرِد والمَنْهَل ، حاليةً من الحُسْن بكل حالٍ آتضح فيها ما ألهىٰ عن غيرها من الوصف وأذهَلْ؛ فقُوبلتْ بما تستحقُّه من إحمادٍ أُشِيع وأُذِيع، وآتُّبِع فيه الواجبُ وأُطِيع ؛ وتضاعَفَ الآعتدادُ بأفعالك التى أَعْنَتَ بالعُونِ منها فى الجَمالِ والأبكار، وأعدْتَ بها الأمورَ فى الصَّلاح إلىٰ ما يُؤْمَنُ إيضاحُه الجحدَ والإنكار .

ومَنْ أحقُّ منك بكلِّ فِعالٍ تُضِيء مصابيحُ الخير فيه ، ويَنْتَشِرُ جميلُ الذِّكر من مَطَاويه، وأنت للدولة الولىّ الأمين! ، وبحفظ نظامِ كلِّ أمْرٍ يختَصُّ بها الكَفيلُ

الضِّمين؟ ومن أَوْلىٰ منك بكلِّ حمْدٍ يَفِدُ إليك إمدادُه أرسالا، وتجِدُ منه ضالَّةً نَشَدتْ مثلَها آمالُ سِواكَ فآبتْ بالخَيْبةِ عِجَالًا؟ فَلَكَ من الحقوق مالا يُنْسىٰ، ومايَلْزَمُ أن يُرْعىٰ فى كل مُصْبَحٍ ومُمْسىٰ. فأحسنَ اللهُ جزاءَكَ عن كونِك فى دولته ذَابًّا عن المجد حاميا .

فأما ما تُحدِّد فى معنىٰ الأعمال علىٰ الوصف الذى قضىٰ بزوال الخُلْف وٱنْحسامِه، وٱقتضىٰ رأْيُك إجراءَ الأمرِ علىٰ ما ٱستُصْوِب من ٱتِّساقه وٱنتظامه ؛ فقد وَقَفْتُ عليه، وأُجِيزُ ما أشرْتَ إليه ؛ فأعْواضُ الدنيا تَهُون وتسْهُل فى ضِمْن ما يُلْحَظ من ٱعتناقك أحكامَ مشايعةِ الدولة التى قُمْتَ بأعبائها فى كل أَوَان ، وغَدتْ آثارُك فيها باقيةَ الذِّكْر والأجْرِ علىٰ تَقَضِّى الأزمان ؛ فأنت المرغوبُ فى الثناء ولايةً و إن شانَتْ الأحوال، والمُخْلِص الذى لاعِوَضَ عنه فى كلِّ مَقَام ومَقَال؛ فقد أحاط العلمُ بتفصيل ذلك وجُمْلته ، وتحقّق أن الخِيرة فى كل ما تُشِير إلىٰ سلوك طَرِيقه وجَدَده؛ ولذلك أُجِيب فلان إلىٰ الحضور والمستخْدَمون معه، وأُذِن فى المقابلة بالقوانين القديمة والباقى والجرائد ، والموافقة علىٰ ما رأيتَه فى البَوَادى والعوَائد ؛ والتنزُّه عن كل ماشَذَّ عن الحجة المؤكَّدة بتوفيقك وتوفُّر الموجود لهذه السَّنَة فيه عليه ، وحَسْم موادِّ ٱستِزادتِه فى كلِّ ما تمسَّك به وأشار إليه؛ والثِّقةُ من بعدُ مستحْكِمةٌ بتوفُّرِك علىٰ مايُرادِف إليك إمدادَ الحمد، وتجديدك كل قُرْبة تنضَمُّ إلىٰ سوابقها المتجاوزةِ حَدَّ الإحصاء والعدّ .

فأما ما تضمَّنْته إشارتُك فى حقِّ الستر الرفيع ، فهل الصَّلاحُ إلا من نَتائِجِ أقوالك ؟ ، وهل مَساعِيك إلا موقوفة علىٰ الخير وأفعالك ؟، وهل المُوافَقةُ إلا لك فى جميع آرائك وأبحاثك ، وبحكم ٱبتدائك لٱستقامة النِّظامِ فيما قَرُب وبَعُد ، والسُّكونِ إلىٰ إسعافك فى كلِّ أمرٍ يحْدُث ويتَجدّد ؛ ويبعثُ علىٰ مايُعِيدُ رَوْنَق الحِشْمة من الوَهَن ، ويهز طاعتَك فى كل أمرٍ يُحَقِّق التقدير فيها والظَّنّ ، فإذا

تُصُفِّحت حقوقُ الوكلاء المُجتباة وُجِدت موفَّرة على آقتناء الأجر، مصروفةً فى وُجُوه البِرِّ التى هى أنفعُ الذُّخر فى غَد . وهل الأعواضُ إلا عِند مَنْ يظُنُّ الدنيا بعينها قيمة تنافس ، وهل مَصيرها إلا إلى آنقضاء ولو أسْعفَت بالرغائب والنفائس ، غير أن الأحوال إذا كُشِف مستورُها أثبتَ مايقتضِى إسبالَ سِتْرِ الإشفاق ، والبواطِنَ متى أُعرِب عنها أَشْمتَ ذاك كلَّ مُجانِب للدولة من أهل النِّفاق ؛ وأنت المعتَمَدُ لتدبير ما يصونُ حِشمةَ الدولة عن البِذْلة والخَلَل، والمرجوعُ إليه فى تحسين الأمر فيما وقع الآجتهادُ فيه حتّى تيَسَّر قدره وتَسَهَّل ؛ ولهذا تفصيلٌ قد أُوعِز إلى فلان بآستقصاء شرحه، و إطلاعِك على حقيقة الأمر وفَصِّه ؛ فكن بحيثُ الظنُّ فيك، تجِدْ زَنْدَ جمالك بذلك أورى، وتجبْ لك به صُنُوف الشُّكْر طورا ؛ إن شاء الله تعالى .

الضـــرب الثانى

(مايكتب عن الخلفاء إلى وزراء الملوك)

وهى مما يؤتى فى صدرها بحرف النداء غالبًا . كما كُتِب عن المسترشد إلى معِزِّ الدين الفضل بن محمود ، وزير معِز الدين سنجر بن ملكشاه .

مَقامُك يامعِزَّ الدين ــ أحسَنَ الله حِياطتك وكَمَّل مَوْهِبَته عندك ــ فى خدمة الدار العزيزةِ التى مازِلْتَ لجُهْدِك فيها باذِلًا، وفى جلابيب المُناصحة رافِلا ؛ لا يقْبِضَنَّك أن تُواصِل حالًا فحالا بأنبائك ، وتستدِيمَ ماخُصِصْتَ به من شَرِيف الآداب المُوفِيَة بك على أكفائك . وعُرِض بحضرة أميرالمؤمنين ماورد منك دالًّا على طاعتك المعهوده، ومُوالاتك الرائقة المَشْهوده ؛ وآستمرارِك على الجَدَدِ والمَهْيَع فيما حازالمَراضِى

الشريفة الإماميَّة لك ، وحقَّق فى الفوز بجميل الآراء أمَلَك . وناطقًا بحـال فلان المـارقِ عن الدين، المجاهر بمعصية الله تعـالىٰ فى مخالفة أمير المؤمنين، وما ٱقتضاه الرأْىُ المعزِّىُّ بحُسْن سِفَارتك،وسَدادِ مَقْصِدك فى الطاعة وصَفَاء نيتك. وأحاط عِلْما بمضمونه الذى لاريبَ أنه ثمرةُ مناصحتك، ونتيجةُ سعيك المضاهِى نَصيحةَ عَقِيدتك؛ ومَنْ أولىٰ منك بهذه الحال ؟ وأنت الحُوَّل القُلَّب، ذو الحُنْكة المجرَّب، الذى تفرّد فى الأَنَام بكماله ،وقَصَّر أكفاؤُه عن دَرْك شَأْوِه فى الخير ومِثَالِه ؛ ومازِلْتَ حديثًا وقديمًا موسوما، بهذه المَزِيَّة مَرْقُوما ؛ وبغير شكٍّ أنك تُرَاعى مابدأْتَ به، وتُعَضِّد مَقَالك فى موارده بمـا تعمدُه فى مصادره ، وتَحْـرُس ما قدّمته من الاحتياط بتحرِّيك فى أواخره؛ وتُمْضِى العزيمةَ لإتمـام ماشرعتَ فيه، كِفاءَ ما يُوجِبه دينك ويقتضيه؛ جَرْيا علىٰ وَتيرتك فيما قضىٰ للأحوال بالانتظام والاتِّسـاق، وآذنَ لشمس الصَّلاح بالإضاءة والإشراق .

وبعدُ فقد عرفتَ ماتكرَّر إليك فى أمر هذه الطائفة الخبيثة، المكاشفة بمذهب الإلحاد ، المبـارِزةِ بسوء الاعتقاد ؛ بعثًا علىٰ جِهادها ، وكَفِّ ضَرَرها عن الإسلام وفَسَادها؛ ورَفْع سِتْر المراقبـة عنها، والانتقامِ لله ولرسولِه منهـا؛ وما يُقْنَع من همة معزِّ الدولة والدين ـ أمتع الله ببقائه ـ ومِنْ وافر عَقْلك ودينِك، وصِدْق يقينك؛ إلا بإرهاف العَزِيمة فى مُكاشَفَتِها، وخوض الغِمَار فى محاربتها؛ والقَصْد لمضايقةِ من ٱعتَصَم منها بالقِلَاع، وقَتْل كلِّ من يُظْفَر به فى سائر البِقاع؛ حميَّةً وٱمتعاضًا للدين، وأَنَفا ممـا ٱستولىٰ عليه بها من الضرر المُبِين؛ فكُنْ من وراء الحُبِّ لمعزِّ الدنيـا والدين علىٰ تَيَقُّنك هـذا المثال ، والادِّكار بمـا تفُوز به مع الامتثال له فى المـآل ، وٱنهَضْ فى تنفيذ ما يأمُرك به فى هذا الباب نَهضةَ من أُتْزِر رضا الله وأراده، وبذَلَ فى صَلاح مَعاده ٱجتهادَه ؛ فإن الله سبحانه لايرضىٰ منكما للانتصار لدينه بالتقصير،

وأميرُ المؤمنين أمركما بالجدّ فيه والتشمير، وقد شرَّفك بتُحَفَة أمر بحملها إليكَ من بين يدَىْ سُدّته، وأعربَ بها عن مكانك من حَضْرته؛ إنافةً على الأمثال بقَدْرك، وإضفاءً لملابس فَخْرك، فاعرِفْ بمكان النعمة فى ذلك، وآسْلُكْ فى القيام بشُكْرها أوضَحَ المسالك، وأدِم المواصلةَ بمطالعتك، وقدِّم التوقُّع من إجابتك، تفُزْ من المراضى الشريفة بالحظ الأسْنى، ويجتمِعْ لك منها الآسمُ والمعنى، إن شاء الله تعالى .

الطــــرف الرابع

(فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى العباس فى الديار المصرية بعــد مصير الخلافــة إليها)

وهى على ثلاثة أساليب :

الأسلوب الأوّل

(أن يُفْتتح الكتابُ بلفظ «من فلان إلى فلان»)

والحكم فيها على ما كان الأمرُ عليه فى خلافتهم ببغداد، إلا أنه زاد فيه لفظ « ووَلِيّه » بعد لفظ « عبد الله » فى أوّل الكتاب فيقال فى آفتتاحه : «من عبد الله ووَلِيِّه أبى فلانٍ فلان الإمام الفلانى» . ثم يقال : أما بعدَ حمد الله، ويؤتى على آخر الخطبة، ثم يتخلَّص منها ويختمُ بالأمر بامتثال ما أُمِر به . ويقال بعد ذلك : موفَّقا إن شاء الله تعالى . والخطاب فيه بالكاف، وربما آفتُتح الكتاب بآية من القرءان الكريم مناسبةٍ للمعنى .

وهذه نسخةُ كتابٍ كُتِب به عن الإمام المستكفِى بالله "أبى الربيع سليمان آبن الحاكم بأمر الله أحمد" إلى الملك المؤيَّد هِزَبْر الدين داود آبن الملك المظفَّر صلاح

الدين يوسف بن رسول فى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » فى سنة سبع وسبعمائة ، حين منع صاحبُ اليمن الهديَّةَ ، التى جرتِ العادةُ بإرسالها إلىٰ الأبواب الشريفة بالديار المصرية ، مفتتحا بآية من القرءان ، وهو :

﴿ يٰأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

من عبد الله ووَلِيِّه أبى الربيع سليمان .

أما بعدَ حمدِ الله مانحِ القلوب السليمةِ هُدَاها ، ومُرْشِدِ العقُول إلىٰ أمرِ معَادِها ومَبْدَاها ، ومُوَفِّق من ٱختاره إلىٰ مَحجَّةِ صوابٍ لا يَضِلُّ سالكُها ، ولا تُظْلِمُ عند إخلافِ الأُمورِ العِظامِ مَسَالِكُها ، ومُلْهِمِ من ٱصطفاه لاقتفاءِ آثارِ السُّنَنِ النبوِيَّه ، والعملِ بمُوجِبات القواعد الشرعِيَّه ، والانتظامِ فى سِلْك من طَوَّقَتْه الخلافةُ عُقودَها ، وأفاضتْ علىٰ سُدّتِه الجليلةِ بُرودَها ، وملَّكتْه أقاصِىَ البلاد ، وأناطتْ بأحكامه السديدةِ أمورَ العباد ، وسارتْ تحتَ خوافِقِ أعلامه أعلامُ المُلوك الأكاسِره ، وشُيِّدتْ بأحكامه مَنَاجِحُ الدُّنيا ومَصالِحُ الآخِره ، وتبختَرَ كُلُّ مِنْبرٍ من ذِكْره فى ثَوْبٍ من السيادة مُعْلَم ، وتهلَّلتْ من ألقابه الشريفةِ أساريرُ كلِّ دينارٍ ودِرْهم .

يَحْمَده أميرُ المؤمنين علىٰ أن جعلَ أُمورَ الخلافة ببنى العبَّاس مَنُوطه ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبه إلىٰ يوم القيامة محُوطه ، ويصَلِّى علىٰ ٱبن عمه محمدٍ الذى أخمدَ الله بمَبْعَثِه ماثَار من الفِتَن ، وأطفأ برسالته ما ٱضطرم مِنْ نار الإحَنْ ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين حَمَوْا حِمىٰ الخلافة وذادُوا عن مواردِها ، وعمدُوا إلىٰ تمهيد المَعالم الدينيَّة فأقامُوها علىٰ قواعِدِها ، صلاةً دائمةَ الغُدُوِّ والرَّواح ، متصلاً أوّلُها بطُرَّة الليل وآخرُها بجبينِ الصَّباح .

هذا و إنَّ الدين الذى فرض الله علىٰ الكافَّة الانضمام الىٰ شعَبْه، وأطْلَع فيه شموس هدايةٍ تُشْرِق من مَشْرِقه ولاتغْرُب فى غَرْبه؛ جعل الله حكمه بأمرنا مَنُوطا، وفى سلْك أحكامِنا مَخْروطا؛ وقلَّدنا من أمر الخلافة المعظَّمة سيفًا طال نِجَادُه، وكَثُر أعوانه وأنجادُه؛ وفوّض إلينا أمْرَ الممالك الإسلاميَّة و إلىٰ حَرَمنا تُجبىٰ ثمراتُها، ويُرفَع إلىٰ ديواننا العزيز نَفْيُها و إثباتُها؛ يَخْلف الأسدَ إن مضىٰ فى غابِهِ شِبْلُه، ويُلْفىٰ فى الخُبْر والخَبَر مِثْلُه .

ولما أفاض اللهُ علينا حُلَّة الخلافه، وجعل محلَّنا الشريفَ محلّ الرحمة والرافه؛ وأقعدَنا علىٰ سُدّةِ خلافةٍ طالَمَا أشرقَتْ بالخلائف من آبائنا، وٱبتهجَتْ بالسادةِ الغَطَارِيف من أسلافنا؛ وألبَسنا خِلْعةً هى من سَوَاد السُّؤدَد مصبوغَه، ومن سَواد العُيُون وسُوَيْداوات القلوب مَصُوغه؛ وأمضينَا علىٰ سُدَّتنا الشريفة أمْرَ الخاصِّ والعامّ، وقلَّدْنا كلَّ إقليم من عَمَلِنا(١) مَن يُصْلِحُ سياسَتَها علىٰ الدَّوام، وٱستكفَيْنا بالكُفَاة من عُمَّالنا علىٰ أعمالنا، وٱتخذنا مِصْرَ دارَ مُقامنا وبها سُدّة مَقامنا، لِمَا كانتْ فى هذا العصر قُبَّةَ الإسلام، وفَيْئَةَ الإمام وثانيةَ دار السلام؛ تعيَّن(٢) علينا أن نتصَفَّح جرائدَ عُمَّالنا، ونتأمَّلَ نِظامَ أعمالنا، مكاناً فمكانًا، وزمانًا فزمانا؛ فتصفَّحناها فوجدْنا قُطْر اليمن خاليًا من وِلايَتِنا فى هذا الزمن؛ عرّفنَا هذا الأمْرَ مِن ٱتخذْناه للممالك الإسلامية عَيْنا وقَلْبا، وصَدْرا ولُبّا؛ وفوّضْنا إليه أمْرَ الممالك الإسلامية فقام فيها مَقاماً أقعد الأضْداد، وأحسَنَ فى ترتيب ممالكها نهايةَ الإصدَارِ وغايةَ الإيراد، وهو السُّلْطان الأجلّ، السيدُ الملك الناصر المبجَّل؛ لازالتْ أسبابُ المصالح علىٰ يديْه جاريه، وسحابةُ الإحسان من أُفُق راحتِه سارِيه؛ فلم يُعِد جوابا لما ذكرناه، ولاعُذْرا عمّا أبديناه، إلا بتجهيز شرْذِمة من جَحَافِلِه المشهوره، وتعيين أُناسٍ من فوارسه المذكوره؛

(١) لعله أعمالنا (٢) جواب ولما أفاض .

يقتحمون الأهوال، ولا يَعْبئُون بتغيُّرات الأحوال ؛ يَرَوْن الموتَ مَغْنما إن صادفوه، وشَبَا المُرْهَفِ مَكْسَباً إن صافحُوه؛ لا يشْرَبون سِوى المُدَام[1] مُدَامه ، ولا يلْبسُون غير التَّرائك عِمامه؛ ولا يعرِفون طَرَبا إلا ماأصدره صَليلُ الحُسَام من غِنَا، ولا ينزلون قَفْرا إلا ونبَتَ ساعةَ نزولهم من قَنَا . ولما وثِقْنا منه بإنفاذهم راجعْنا رأْينا الشريف، فاقتضىٰ أن يُكاتَب مَنْ بسط يَده فى ممالكها، وآحتاطَ علىٰ جميع مَسالكها ؛ وآتخذ أهْلها خَوَلا ،وأبْدىٰ فى خِلالِ ديارها من عَدَمِ سياسته خَلَلا . بَرَز مرسومُنا الشريف النبوىّ أن يُكاتَب مَنْ قعد علىٰ تخت مملكتها ، وتصرَّف فى جميع أمور دَوْلتها ؛ وطُولع بأنَّه ولدُ السلطانِ الملك المظفر يوسُف بن عمر الذى له شُبْهة تمسُّك بأذيال المواقف المستعْصِمية وهو مستصحِبُ الحال علىٰ زعمه؛ أوَمَا علِم الفرقَ بين الأحياء والأموات ؟ أوَ ما تحقَّق الحال التى بين النفْيِ والإثبات ؟ ، أصدرناها إلىٰ الرِّحاب التَّعزِّيه، والمعالم اليمنية تُشْعِر مَنْ تولّى عنها فاستبدّ، وتولّى كِبْره فلم يُعرِّج علىٰ أحد؛ أن أمر اليمن ما برحت نُوّابُنا تحكم فيه بالآية الصحيحه ، والتَّفْويضاتِ التى هى غيرُ جريحه ؛ وما زالتْ تحمل إلى بيت المال المعمور وما تَمْشى به الجمالُ مَشْيا وَئِيدا ، وتقْذِفُه بطون الجوارى إلىٰ ظُهور اليَعْمَلات وليدا ، ويُطالِعُنا بأمر مصالحه ومفاسده، وبحال دِيارِه ومعاهِدِه ؛ ولك أُسْوة بوالِدِك فلان ، هَلَّا آقتفَيْتَ ما سَنّه من آثارِه، ونقَلْتَ ما دوَّنَتْه أيدى الزمن من أخباره .

وآتصل بمواقفنا الشريفة أمور صدرَتْ منك .

منها ــ وهى العظمىٰ التى ترتَّب عليها ما ترتب ــ قطعُ المِيرةِ عن البيت الحرام ، وقد علِمتَ أنَّه وادٍ غيرُ ذِى زَرْع، ولا يحِلُّ لأحدٍ أن يتطرَّق إليه بمَنْع .

---

(١) المدام المطر الدائم .

ومنها — انصبابُك إلىٰ تفريغ مال بيت المال فى شراء لَهْوِ الحديث، ونَقْض العُهُود القديمة بمـا تُبْديه من حَديث .

ومنها — تعطيلُ أجياد المَنَابر من عُقُود آسمنا، وخُلوّ تلك الأماكن من أمور عَقْدنا وحَلّنا؛ ولو أوضحنا لك ما آتصل بنا من أمرك لطال، ولا تّسعَتْ فيه دائرةُ المَقَال؛ رَسْمنا بهـا والسيفُ يَوَدّ لو سَبَق القَلَمَ حدُّه ، والعَلَمُ المنصورُ يودُّ لو فات العلم وآهتزّ بتلك الرَّوابى قَدُّه؛ والكتائب المنصورةُ تختار لو بدَرتْ عُنوانَ الكِتاب، وأهلُ العزم والحَزْم يودُّون إليكَ إعمالَ الرِّكاب، والجَوارِى المنشآت قد تكوّنَتْ من ليلٍ ونَهار، وبرزَتْ كصُوَر الأفيِـلة لكنَّها علىٰ وجه المـاءِ كالأطيار ؛ وما عمدنا إلىٰ مكاتبتك إلَّا للإنذار، ولا آحتجْنا إلىٰ مخاطبتك إلا للإعذار؛ فأقْلِـع عمَّـا أنت بصدَدِه من الخُيَلاء والإعجاب، وآنتظِمْ فى سِلْك من آستخلَفْناه فأخذ بيمينه ماأُعْطِىَ من كتاب؛ وصُنْ بالطاعة مَنْ زعمتَ أنهم مُقيمون تحتَ لِواءِ عَلَمك، ومنتظمونَ فى سِلْك أوامِرِ كَلِمك ، وداخلون تحت طاعةِ قَلَمك ؛ فلَسْنا نَشُنُّ الغاراتِ علىٰ مَنْ نطق بالشهادتين لسانُه وقلْبُه ، وآمتثل أوامِرَ الله المطاعةَ عقْلُه ولُبُّه ؛ ودانَ بمـا يجبُ من الدِّيانه ، وتقلَّد عقودَ الصَّلاح وآلتحفَ مَطارِفَ الأمانه ؛ ولَسْنا ممن يأمر بتجريد سَيفٍ إلا علىٰ من عَلِمْنا أنه خرج عن طاعتنا، ورفَضَ كتابَ الله ونَزَع عن مبايعتنا . فأصدرنا مرسومَنا هذا إليه نقُصُّ عليــه من أنباء حِلْمنا ما أطال مدّة دَوْلته ، وشـيَّد قواعِدَ صَوْلته؛ ونستدْعى منه رسولًا إلىٰ مَوَاقفنا الشريفه، ورحاب ممالكنا المُنِيفه؛ لينوبَ عنـه فى قَبُول الولاية منابَ نفسه ، ولْيَجْنِ بعد ذلك ثِمـارَ شفقاتنا إن غَرَس شَجَر طاعتهـا — ومن سَعادة المرء أن يَجْنِيَ ثِمارَ غَرْسه — بعد أن يُصْحِبه من ذخائر الأموال ما كَثُر قيمةً وخَفَّ حَمْلا، وتعالىٰ رتبة وحَسُن مِثلا؛ وآشْرُطْ علىٰ نفسك فى كل سنة قطيعةً ترفَعُها إلىٰ بيت المال . وإيَّاك ثم إيَّاك ! أن تكون علىٰ هذا الأمر ممن مال؛

ورتِّبْ جيشًا مقيمًا تحت عَلَم السلطان الأجلِّ الملك الناصر للقاء العدُو المخذول التّتار، ألحقَ الله أوّلهم بالهلاك وآخِرهم بالبَوَار . وقد علمتَ تفاصيلَ أحوالهم المشهوره، وتواريخَ سِيَرهم المَنْكُوره؛ فاحْرِص علىٰ أن يَخُصَّك من هـذا المَشْرَب السائغ أوفرُ نصيب ، وأن تكون ممن جَهَّز جيشا فى سبيل الله فرمىٰ بسَهْم فله أجْرُكان مُصيبا أو [غير] مُصِيب ؛ ليعودَ رسولُك من دار الخلافة بتقاليدها وتشارِيفِها حاملًا أهِلَّةَ أعلامنا المنصوره، شاكرا بِرَّ مَوَاقِفنا المَبْرُوره؛ وإن أبىٰ حالُك إلا أن ٱستمْرَيت علىٰ غيِّك، وٱستمْرَيْتَ مَرْعىٰ بَغْيك؛ فقد منعناك التصرُّفَ فى البلاد، والنظرَ فى أحكام العِبَاد؛ حتّى تطأَ خيلُنا العِتاقُ مشمَخرّاتِ حُصونك، وتعجِّل حينئذ ساعةُ مَنُونك؛ وما عَلَّمناك غيرَ ماعلمه قَلْبُك، ولا فَهَّمناكَ غيرَ ماحدسـه لُبُّـك؛ ولا تكُنْ كالصغير يزيدُه كثرةُ التحريك نَوْما ، ولا ممن غرّه الإمهالُ يوما فيَوْما . أعلمناك ذلك فاعْمَلْ بمقتضاه، موفَّقا إن شاء الله تعالىٰ .

الأُسْـــلُوب الثـانى

(أن يُفتتح الكتابُ بخطبة إما مصدّرةً بآية من القرءان الكريم أو دُونِها)

كما كُتِب عن الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس « أحمد ٱبن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان» إلىٰ السلطان الملك الناصر: أحمد ٱبن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهو بالكَرَك، يستـدْعى حُضورَه إلىٰ قلعة الجبل بالقاهرة المحروسة لتقليد السلطنة الشريفة، بعـدَ خَلْع أخيه المِلك الأشرفِ كُجُك ٱبن النـاصر محمد، وإمساك الأمير قُوصون ومَنْ معه من الأمراء .

وقد ذكر صاحب "الدرّ الملتقَط" أنه كتبه فى قَطْع البغدادىّ الكامل بين يدى الأمير قطلوبغـا الفَخْرىّ كافلِ السلطنة الشريفة . وهذه نسخته :

﴿ألم تَرَوْا أنّ الله سخّر لكُمْ ما فِى السَّمٰواتِ ومَا فِى الأَرضِ وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرةً و باطِنَةً ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلمٍ وَلَا هُدًى ولا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ .

فالحمدُ لله الذى أسبغَ نِعمَه الظاهرةَ والباطنه، وألَّف قلوبَ أوليائه المتفقةَ والمُتبايِنَه، وأخذ بنواصِى أعدائِه المُراجِعَةِ والبائنه؛ وأعلىٰ جَدّهذه الدولةِ القاهره، وأطْلَعَ فى أسِنَّة العَوالى نُجومَها الزاهره؛ وحَرَّك لها العزائمَ فملكَتْ والأمورُ ـ بحمد الله ـ ساكنه، والبلاد ـ والمنّةُ لله ـ آمنه، والرَّعايا فى مكانها قاطنه، والسيوفُ فى أغمادها مثلُ النِّيران فى قلوب حُسَّادها كامِنه . وأقام أهلَ الطاعة بالفرض، وآستوفىٰ بهم القَرْض، وقالوا الحمدُ للهِ الذى صَدَقَنَا وعْدَهُ وأورَثَنا الأرضَ؛ وأعزّ أنصار المَقامِ الشريف العالى وأعزّ نَصْره، وأعدّ لعَدُوّه حَصْره؛ وأتىٰ بدولته الغراء تسمُو شُموسها، وتُثْمِر غروسُها؛ وتَظْهر فى حُلَل الصباح المشرِق عرُوسها، وتجىءُ منه بخير راعٍ للرعية يسوسها؛ وبشّره بالمُلْك والدَّوام، وسَرّه بما آجتمعَ له من طاعة الأنام، وأقدمه علىٰ كُرْسِىّ مُلْكه تُظلُّه الغمام، وأراه يومَ أعدائه وكان لا يُظَنُّ أن يُرىٰ فى المَنَام؛ ولا يزال مؤيَّد الهِمَم، مؤكَّد الذِّمم، مجدِّدَ البَيْعة علىٰ رِقاب الأُمَم؛ ولا بَرِحَتْ أيامه المقبلةُ مُقبِلةً بالنِّعم، خُضْرَ الأكناف علىٰ رَغْم مَنْ كاد وغَيْظ من رَغِم؛ ولا فَتِئَتْ عهودُ سَلَفه الشريفةُ تُنْشأ له كما كانت، ورعاياه تَدين له بما دانَتْ، وجنودُه تُفَدِّيه من النفوس بأعزّ ما ذَخَرت وما صانَتْ؛ وسعادةُ سلطانه تَكْشِفُ الغُمَم، وتَنْشُر الذِّمَم، وتُعيد إلىٰ أُنُوف أهل الأَنَفة الشَّمَم، وتحفَظُ ما بَقِىَ لأوليائه من بَياض الوجُوه وسَوَاد اللِّمَم .

سَطَّرها وأصدرها وقد حُقِّقت بعوائد اللهِ الظُّنون، وصَدَّقت الخواطرَ العُيون؛ وأنجزَ اللهُ وعْدَه، وأتمَّ سعدَه؛ وجَمَع علىٰ مَقامه الكريم قلوبَ أوليائه،

وفرّق فِرقَ عدُوّه وأباتَهُ بدائِه ؛ ووطّد لرُقِيّه المَنابِر، ورجّل لترقّيــه العساكر، وهيّأ لمَقاتِل أعدائه فى أيْدِى أوليــائه السُّــيوفَ البَواتر. وأُخِذ قُوصونُ وأُمْسِك، ونُهِب مالُه وٱستُهْلِك ؛ وهُدِمتْ أبنيتُه ، وهُدَّتْ أفْنِيتُه ؛ وخُرِّبتْ ديارُه ، وقُلِعتْ آثارُه ؛ وأُخْلِيتْ خزائنُه، وأُخْرِجت من بُطون الأرض دفائنُه، وما مانَعت عنه تلك الربائب التى ظَنَّها قَساوِر، ولا ناضَلَتْ تلك القِسِيُّ التى طبَعَها أَسَاوِر ؛ ولا أغنىٰ عنه ذلك المــالُ الذى ذهَبْ، ولا ذلك الجوهرُ الذى كان عَرَضا لمن نَهَب . وأُعِيد إلىٰ المَهْد ذلك الطفلُ الذى أكل الدُّنيا باسمِــه، وقهر أبناءَها بحُكْمه ؛ وموَّه به علىٰ النــاس، وأخْلىٰ له الغابَ وماخرج من الكِنَاس ؛ وغالبَ به الغَلَب حتّى وَطِئ الرِّقاب، وداس الأعقاب ؛ وخادَعَ ودَلَّه الشيطانُ بغُرُوره، ودلَّس عليه عاقبةَ أُمُوره ؛ فاعتدّ بعَتاده، وٱعتزَّ بِقياده، وٱغترَّ بأنَّ الأرضَ له وماعَلِمَ أنَّ الأرضَ لله يُورِثُها مَنْ يشاءُ مِنْ عِبَاده ؛ فأُمْسِك ومعه رءُوس أشياعه ، وحَصِرت بالخوف نُفُوسُ أتباعه ـ ومنهم الطنبغا . وقد أحاط العلمُ الشريفُ بكيفيــة وُصُوله وحقيقةِ الخبر، وما قاساه فى طريقه من العِبَر، وداس عليه حتى وصل من وَخْز الإبَرْ ؛ وكذلك من جاء معه، وخَلَّف وراءه الحقَّ وتبعه، بعدَ الهزيمة التى ألجأهم إليها خوفُ العساكر المنصورةِ التى قعــدت لهم علىٰ الطريق ، وأخذت عليهم بمَدارج أنفاسهم فى فَم المَضِيق ؛ وعُبِّئت لهم صُفُوف الرجال ، وأُعِدّت لهم حُتُوف الآجال ؛ وحيَّرتْهم فى سَــعة الفِجَاج ، وأرتْهم بوارِقَ الموت فى سُحُب العَجَاج ؛ ثم لم يصلُوا إلا وهم أشْلاءٌ ممزّقه، وأعضاءٌ مفرّقه ؛ قد فَنِي تحتهم الظهر، وفَنِيَ بيومهم الدَّهْر ؛ وساقَتْهم سعادةُ سلطان المقام العالى إلىٰ شَقَاوتهم وهم رُقُود، وعُبِّئت لهم الخيل والخِلَع إلا أنهــا مَلابِسُ الذُّلِّ وهى القيود ؛ فأُخِذُوا جميعا هم ومَنْ كانوا علىٰ مُوالاتِه ، وفارقوا الجماعةَ لمُواتاته ؛ وحُمِلوا إلىٰ الحَبْس النائى المكان ؛ وأُودِعوا أحياءً فى مُلْحَده الا أنهم كالأموات ، وقد نالوا المَقْصــد إلا أنهم

ماأَمِنوا الفَوات؛ ووُكِّل بحفظهم إلىٰ أن يُشَرِّف سريرُ المُلْك بقعود مَقامه وعُقُود أيَّامه الحَوَالى، وسعود زمانه الذى لايحتم بالنجوم إلا خدم الليالى .

وهذا النصرُ إنما تهيَّأتْ ـ ولله الحمد ـ أسبابُه، وهذا الفتح إنما فُتِحتْ بمشيئة الله أبوابُه؛ بمِنَّة الله ونِيَّة المقام العالى لا بِمِنَّةِ أحد، ولا بمُنَّة بأْس من أقدر، ولا يَأْس من حجر؛ وما قضىٰ الله به من سعادة هذه الأيام، ومضىٰ به القَدَرُ السابقُ وعلىٰ الله التمام؛ و بمظَافَرة الجناب الكريم السَّيفىّ، قطلوبغا الفخرىّ الساقى الناصرىّ؛ أدام الله نُصرته لهـذه العصابة المؤيَّدة . و بمَضاء عزائمه التى ماوَنَتْ، وقضاء قواضـبه التى ماآنثنَتْ؛ و بموازَرة من التَفَّ عليه من أكابر الأمراء، و بما أجمعوا عليه من مُظافَرة الآراء؛ ونزولهم علىٰ النية لايضرُّهم مَنْ خَذَلهم، ولا يُهِنُهُـم من بذلهم؛ ولا يبالُون بعساكر دمشق المقيمةِ علىٰ حلب ومن مال إليهم، وتمالأ معهم عليهم؛ ومَن آنضاف إليهم من جنود البلاد، وجيوش العِناد؛ ولا لَوَاهُم ما كان يبعث إليهم ذلك الخائن من وعيده، ولا وَلَّاهم ما كاد يخْطَف أبصارَهم من تهديده؛ ولا بالُوا بما ألَّب عليهم من جُنْدُ الشام من كلِّ أوْب، وصبَّ عليهم سُيوله من كل صوب؛ وخادعهُم بالرسائل التى ما تزيدهم عليه إلا إبَاء، ولا تُشَكِّكُهم أن السيفَ أصدقُ منه إنْباء، حتّى ولّى لا تنفَعُه الخِدَع، ولا تنصُره البِدَع؛ فما أسعدَتْه تلك الجموعُ التى جمعها، ولا أجابَتْه تلك الجنودُ التى سارَعليها إلىٰ مَكْمَن أجلِه، ولا وَقَتْ تلك السيوفُ التى لم يظهر له من بَوَارقها إلا حمرةُ الخجَـل؛ حتى أُخِذ مع طاغيته بل طاغُوته بمصرَ ذلك الأخْذَ الوَبِيل، وقُذِف به إلىٰ مَهْوىٰ هَلَكة سَيْل ذلك السبيل؛ وقام مَنْ بالديار المصرية قيامَ رجلٍ واحد، وتظافَرُوا علىٰ إزالة ذلك الكافرِ النِّعمة الجاحِد؛ ولم يبقَ من الأمراء إلا مَنْ بذل الجُهْـد، وجمع قلوبَ الرعية والجُنْد؛ وفعـل فى الخِدمة الشريفة مالم يكُنْ منه بُدّ، حتّى حُمِد الأمر وخَمد الجَمْر؛ وتواترت الكتبُ بمـا عَمَّتْ به البُشرىٰ

من إقامة البَيْعة باسْمِه الكريم ، وأنه لم يبقَ إلا من أعطىٰ اليمينَ وأعطى اثّمين ، وأتمّ الحلِفَ إتماما لايُقدَّر معه ثمين ؛ وأقيمت له السِّكّةُ والخُطْبة فرُفِع علىٰ المنابر آسمه وتهلل به وجُوه النُّقـود ، وظَهَر علىٰ أسارير الوُجود ؛ وضُرِبت البشـائر ، ونَمت المسَرَّاتِ السَّرائر ، وتشوّقتْ أولياءُ هذه الدولة القاهرة أدام الله سلطانها إلىٰ حضور مَلِكها ، وسُفُور الصَّباح لإذهاب ماأبقتْه عقابيلُ تِلك الليلة من حَلَكها . والمقام العالى ما يزداد عِلْما ، ولا يُزادَ عَزْما ، وهو أدرىٰ بما فى التأخير ، وبما فى بُعْدِه من الضرر الكبير ؛ ومثله لايُعَلَّم ، ومنه يُتَعَلَّم ؛ فهو أعلمُ بمـا يجب من مسابقة قُدُومه للبشير ، وما سيعنّ من معاجلته لآمتطاء جواديه ظهر الجمال وبَطْن السَّرير ؛ فاللهَ اللهَ ! فى تعجيل حِفْظ هذا السَّوام المشَرَّد ، وضَمِّ هذا الشَّمْل المشتَّت ونَظْم هذا العِقْد المبَدَّد ؛ وجَمْعِ كلمة الإسلام التى طالما آفترقتْ ، وآنجاع عارِض هذه النعمة التى أبرقتْ ؛ وسرعةِ المسير فإنَّ صبيحة اليوم المبارك الذى يُعرَف من أوّله قد أشرقَتْ ؛ فمـا بَقِيَ مابه يُقتَـدَر ، ولا سِوىٰ مَقْدَمه السعيد يُنْتظَرْ .

وقد كتبناها ويَدُنا ممدودة لمبايَعته ، وقلوبُ الخلق كلُّها مستعدّة لمتابَعته ؛ وكرسىّ المُلْك قد أُزْلِف له مقـعَدُه ، ومؤمِّل الظَّفَر قد أُنْجِـزَ له موعِدُه ؛ والدهرُ مطاوِعه والزمانُ مُسْـعِدُه ، وطوائف أوليـائه ليوم لقائه تَرْصـدُه ؛ والعهد له قد كُتِب ، ولواء المُلْك عليـه قد نُصِب ؛ والمِنبرُ بآسمه عليه قد خُطِب ، والدينارُ والدرهم هذا وهذا له قد ضُرِبْ ؛ ولم يبقَ إلا أن يَقْترِب ، وترىٰ العيونُ منه ما تَرْتَقِب ؛ ويجلس علىٰ السَّرير ، ويُزْمِعَ المبشِّر ويعْزِم علىٰ المَسير ؛ وتُزَيَّن الأقاليم ، ويبيِّن لتسيير شِهابه ما كان يُقْرَأ له فى التَّقاوِيم ؛ لازال جَيْبُ مُلْكه علىٰ الأقطار مَزْرورا ، وذيل فَخَاره علىٰ السماء مجرُورا ؛ وحبلُ وَلِيِّه متَّصلا وقلبُه مسرورا ، ومقدمه يحوز له من إرث آبائه نِعمًا جمة ومُلْكا كَبِيرا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الأسلوب الثالث

(ما آستقرّ عليه الحال فى زماننا إلىٰ خلافة الإمام
المتوكل علىٰ الله خليفة العصر)

وهو أن تفتتح المكاتبةُ بالسلام، ويؤتىٰ فى ألقاب المكتوب إليه بما يُكْتَب من الألقاب عن السلطان علىٰ ماسيأتى ذكره فى المكاتبات السلطانيات فى الباب الثانى من هذه المقالة، إن شاء الله تعالىٰ.

مثال ذلك : أن تكون المكاتبةُ إلىٰ نائب الشأم مَثَلا، فالذى يكتَبُ إليه عن السلطان : «أعزَّ اللهُ تعالىٰ أنصار المَقَرّ الكريم العالى» إلىٰ آخر الألقاب الآتى ذكرها هناك؛ ويكتب عن الخليفة «سلامُ الله تعالىٰ ورحمته وبركاته يَخُصُّ المقرّ الكريم العالى» إلىٰ آخر الألقاب.

قلت : ولو سلكوا سبيلَ الخلفاء السابقين فى المكاتبات الصادرةِ عنهم : من الابتداء بلفظ «من عبدالله ووليّه أبى فلان فلان الإمام الفلانى أميرالمؤمنين إلىٰفلان علىٰ ما تقدّم» وأتوا فى ألقاب المكتوب إليه بالألقاب المستعْمَلة فى [ذلك] الزمان فى المكاتبات السلطانية : مثل أن يُكْتب عن الإمام المتوكِّل علىٰ الله محمد خليفة العصر إلىٰ نائب الشام «من عبد الله ووليّه أبى عبد الله محمدٍ الإمام المتوكِّل علىٰ الله أمير المؤمنين، إلىٰ المَقَرّ الكريم العالى الأميرىّ الكبيرىّ» إلىٰ آخر الألقاب المقدّم بيانها فى المقالة الثالثة. ثم يقال : «وسلامٌ علىٰ المَقَرّ الكريم، فإن أمير المؤمنين يَحمَدُ إليه اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ويسألُه أن يصَلِّىَ علىٰ محمد عبدِه ورسولِه صلّى الله عليه وسلم». ثم يقال : أمّا بعد، فإنَّ كذا وكذا، ويؤتىٰ علىٰ المقْصد ويُخْتَم بالدعاء وغيره لكان أذهَبَ مع الصواب، وأوفق لمكاتبةِ الخُلَفاء السابقين، وأقربَ إلىٰ آقتفاء سبيلهم.

الطـــرف الخامس

(فى الكُتُب الصادرة عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية، وفيه ثلاث جمـل)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى الكُتُب الصادرة عنهم علىٰ سبيل الإجمال)

وقد ذكر صاحب "موادّ البيان" وكان من دِبَار دولتهم فى المكاتبات الصادرة عنهم نحو المكاتبات الصادرة عن خلفاء بنى العَبَّاس ببغدادَ، فقال : وإن كانت المكاتبةُ من الخليفة فينبغى للكاتب أن يفضل من الدرج قدر ذراع ثم يستفتح ببسم الله الرحمن الرحيم فى سطر أوّل : لأنها أوْلىٰ ما يُستفْتَح به، ثم يكتب فى سطر ثانٍ يلاصقها ويخرِّج يسيرًا «من عبد الله ووليه فلانِ بن فلان إلىٰ فلان» ويبدأ بذكر نَعْته إن كان الإمام شَرَّفه بنعت: «سلامٌ عليك فإنَّ أمير المؤمنين يحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ويسألُه أن يصَلِّىَ علىٰ محمدٍ خاتم النبيين وسيِّدِ المرسلين وعلىٰ آله الأئمةِ المهديِّين ويُسلِّمَ تسليما». ويكون هذا التصدير فى سطرين، يجعل بينهما فضاء قِيسَ شِبْر، ولا يزيده عن ذلك ولا ينقصه فيخرجه عن حَدِّه؛ ثم يترك بعد هذين السطرين فضاءً نصفَ الذى بينهما. ثم يقول: أمّا بعدُ، ويقتصُّ المعانى معنًى معنًى، فإن كان أمرا أمر به الإمام قال بعد انقضاء الكلام : وأمر أمير المؤمنين بكذا . ثم يقول بعد فصلٍ أوسع من الفصل الأوّل «فاعلَمْ ذلك من أمير المؤمنين ورسمه واعمَلْ عليه بحَسَبه» . ويقول للخاطبين من الطبقة العالية : والسلامُ عليك ورحمةُ الله، ويفرد بالسلام مَنْ دونها .

وقد كانت العادة جارية أن يقال فى آخر الكتب النافذة عن الإمام «وكتب فلانُ بن فلان» باسم الوزير واسم أبيه؛ ثم بطل هذا الرسم فى الدولة العَلَوِيَّة

ولا يكتب أحدٌ بالتصدير إلا الإمامُ وولىُّ عهده . وهذه المكاتبة عامّةٌ للناس جميعا فى الأمور السلطانية التى تُنْشأ فيها الكتُب من الدواوين، ولا يخاطَبُ أحد عن الخليفة إلا بالكاف .

الجملة الثانية

(فى الكُتُب العامة؛ وهى على أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن يفتتح الكتابُ بلفظ : «من عبد الله ووليه أبى فلانٍ فلان الإمام الفلانى» على ما تقدّم ترتيبه)

وعلى هذا الأسلوب كان الحالُ فى ٱبتداء دولتهم وإلى أوساطها .

وهذه نسخة كتابٍ كتب به الإمامُ العزيزُ بالله نِزارٌ الفاطمىّ إلى عامله بمصر يبشّره بالفتح حين خرج إلى قتال القَرْمَطِىّ بالشام فى سنة سبع وستين وثلثمائةٍ، مما أورده المسبِّحىّ فى تاريخه :

من عبدِالله ووليِّه نِزارٍ أبى المنصور العزيزِ بالله أميرالمؤمنينَ، إلى حُسَينِ بن القاسم .

سلامٌ عليك، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلاهو، ويسأله أن يَصلِّىَ على جدّه محمدٍ نبيه ورسوله صلىّ الله عليه، وعلى الأئمة من عِتْرته الأبرار، الطاهرين المطهرين وسَلَّم تسليما .

أمابعدُ، فالحمدُ لله الملكِ العظيم، العليم الحليم، ذى الطَّوْل الكريم، والمَنِّ الجَسيم، والعِزِّ المَدِيد، والمحال الشَّديد؛ ولىِّ الحقِّ ونصيرِه، وماحق الباطل ومُبِيره؛ المتكفِّل بالنصر والتمكين، والتأييد والتحصين، لأوليائه المتقين، وخلفائه المصطفَيْن الدائنِّين

عن دينه ، والقائمين بحقّه ، والدالين على توحيده ؛ الحاكم بإعلاء كلمتهم ، و إفلاج حُجَجهم وظهورهم على أعدائه المشاقّين له ، الضالّين عن سبيله ، المُلحِدين فى آياته ، الجاحدين نِعمه ، المنزِّل رِجْزَه ، وقوارع بأسه على من عصاه فحادّه ، وصدّ عنه فنادّه ، القاضى بالعَواقب الحُسْنىٰ والفوز والنعماء لمن أسلم وجهه له وتوكل عليه فى أمره ، وفوّض إليه حُكْمه ؛ كلُّ ذلك فضلًا منه وعَدْلا ، وقضاءً فصلا ؛ وهو الحَكَم العَدْل الذى لا يَظْلِمُ الناسَ شَيْئا ولٰكنَّ الناسَ أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون . فتبارك اللهُ الغالبُ على أمره الفردُ فى مُلْكِهِ ؛ سبحانه وتعالىٰ عُلُوًّا كبيرا . والحمد لله الذى ٱبتعثَ عبدَه المصطفىٰ ، وأمينَهُ المرتضىٰ ؛ من أكرمِ سِنْخ ونَبْعة ، وأظهر مِلَّتَه وشرعه فى أفضل دَهْر وعَصْر ؛ وأنزل عليه كتابا من وحيه حكيماً غيرَ ذى عِوَج قَيِّمًا بديع النظام ، داخلًا فى الأفهام ، خارجا عن جميع الكَلَام ، ليس كسَجْع الكُهَّان ، ولا كتحبير ذوى اللسن والبيان ؛ وقد تفرَّقت بالأمم أهواؤُهم ، وتوزَّعَتْهم آراؤهم ، فضَلَّت أحلامُهم وعَمِيتْ أفهامُهم وٱستحوذ عليهمُ الشيطان ، فعبَدُوا الأصنام والأوثان ؛ جَهْلا بعبادة الرحمن ، فدعاهم إلىٰ الاقرار بإلٰهِهم ، وعرَّفهم وحدانية ربِّهم وكان حريصًا علىٰ إرشادهم ، جادًّا فى الاجتهاد ، هاجرًا للدَّعة والمِهاد ؛ صابرا علىٰ تكذيب المُشْركين ، وتَفْنيد المُلْحِدين ؛ ينصَحُ لهم فيستكبرون ، ويَهْديهم فيَضِلُّون ، ويحذِّرهم فيستَهْزئون ؛ حتّى ظهر دينُ الله فسَمَا ، وطُمِس الكفرُ فانمحق وعفَا ؛ وعمَّتْ بركتُه ، وفُضِّلت علىٰ الأمم أمَّتُه ، وعلَتْ علىٰ الملل مِلَّتُه ، صلَّى الله عليه أفضلَ صلاة المصلِّين ، وزاده شرفاً فى العالمين إلىٰ يوم الدين .

والحمد لله الذى حبَا أمير المؤمنين وٱنتخبه لخلافته ، وجعله صَفِيَّه من خلقه وأمينه علىٰ عبادِه وهاديًا إلىٰ سبيله ، قائمًا بحقه ، مُقْسِطا فى أرضه ؛ ذَابًّا عن دينه ، مُحْيِيا ما أماته أهلُ الكُفْر من أحكامه ؛ وأيَّده بنصره ، وأمدّه بقُوّته ؛ وتكفَّل له بالنُّجْح

فى مَسْعاه ، والظَّفَر بمُبْتغاه، ونَيْل طَلِبَتـه فيما أمَّه وآرتآه . وحَكَم بكَبْت كلّ عدوّله وخِزْيِهم ، و إذلالهم ومَحْقِهم وخَذْلهم ، و إيهان كَيْـدِهم ؛ وضَرَب الذِّلَّةَ عليهم حيثُ كانوا وأين كانُوا ؛ فلا يَنْعِق ناعقٌ منهـم بِطلَال، أو يَسْعىٰ بفِسْق وخَبَال؛ أو يُدْفَعُ إلىٰ آفتراء علىٰ الله أو مُروقٍ عن دينـه أو إذهابِ ما فرض الله عز وجل من طاعةٍ إلا آصطلَمَهُ وأخْزاه، وأ كَبَّه لوجْهِه وأرْداه، وقضىٰ عليه بالشِّقْوة فى دُنياه،وعذابِ الآخرةِ فى أُخْراه .

والحمد لله الذى مَنَح فأجمل ، وأعطىٰ فأجزل؛ من نِعَمه السابغه، وآلائِه المتتابعه؛ التى لايُوازيها شُكْر، ولايُدْرِكُ كُنْهَهَا ذكر؛ حمـدًا يُوجب منه المَزِيد ، و يستَدْعِى المِنَنَ والتَّجْديد ؛ و إليـه يرغَبُ أمير المؤمنين خاضعا و يسألُه راغبا حُسْنَ العَوْنِ علىٰ ما بَلَّغَ رِضْوانه ،وآمترىٰ فضله و إحسانَه. وتقدّم أمير المؤمنين إليك بمـا هيَّأه اللهُ من وُصوله إلىٰ مدينـة الرملة علىٰ أجمل صُنْع والطف كِفاية ، وأتمّ أمن ، وأكمل عِزٍّ وأوْطد حال، وأحْسنِ آنتظام، وأبسَطِ يد، وأظهر قُدْرة، وأشمل هَيْبة؛ و بما أولىٰ الله أميرالمؤمنـين فى حَلّه وظَعْنه ، وآرتِحاله وثَوَائِه : من نِعَمه العميمه ، ومَوَاهبه الجَسيمه؛ ومِنَحه الجليله ، ومِنَنِه الجَزيله ؛ وانه مما يستغرِق الحمد والشُّكْر، و يفوتُ الإحصاء والنَّشْر،وذكر أمير المؤمنين أمرَ اللعين التركىّ وهَرَبه من بين يديه، وأنه لم يُلْوِ علىٰ شىء إلىٰ أن بلغ طَبَرِيَّة للذى تَداخلَه من الفَرَق، وآستولىٰ عليـه من القَلَق؛ ولِمَا سكَنَ قَلْبَهُ من الرُّعْب، وحشاه من الرَّهْب؛ بقصْد أميرالمؤمنين إيَّاه و إغْذاذِه السيرَ فى طلبه ومواصَلتِه الأسْباب ، ومتابَعته الإدْآب . ووصَف أميرُالمؤمنين ماعليه عَزْمُه فى تتبُّعه وآقتفاء أثره، والحلول بعَقْوته(١) حيثُ قصَـد وَحَلّ، لِثِقَته بالله ربِّه، وتوكُّلِه عليه، وتفويضه إليـه . ولم يزَلْ جلَّ وعز يُولِى أميرَ المؤمنين ــ بعد نُفُوذ

(١) العقوة ما حول الدار والمحلة، انظر القاموس، ووقع فى الأصول بالفاء بدل القاف وهو تصحيف .

كتابه - من عزّ يؤيده، وظفر يؤكّده، ونصر يوطّئه، وآلاء يجدّدها، ومواهب يتابعها، وعدوّ يذلّه، ومناوٍ يقلّه، وشاردٍ يصرفه إلىٰ طاعته، ومارق يعيده إلىٰ موالاته، إلىٰ أن تمّ له من ذلك ماواصل به حمدَ الله عليه، وتهيأ له ما تواتر شكره له جل وعزّ فيه وكان مع ذلك مواصلاً إلىٰ اللعين الإعذار، ومتابعًا الإنذار، ومحذّرا له مايعذر، ومستدعيه إلىٰ ما يختار ويؤثر، وممنيًا له مما يمنّي به مثلُه من العفو عنه، وتغمّد ما جرىٰ منه، والإقالة لعثرته، والتجاوز عن هفوته، والآمتنان عليه بما رغب فيه من تقليده ناحيةً من نواحي الشام، وإدرار الأرزاق عليه وعلىٰ رجاله وأصحابه، وإيثاره بالفضل الجليل، وآختصاصه بالطّوْل الجزيل. فما نجح فى الفاسق وَعْد، ولا نجع فيه وَعْظ، ولاوُفّق إلىٰ قبول حظ، ولا أصغىٰ إلىٰ قبول تذكره، ولا أناب إلىٰ تبصره. وما زال جادًّا فى تهوّكه، متماديًا علىٰ تمهكه، جاريًا علىٰ ضلالته، سالكا سبيل عمايته، مترددًا فى غوايته، متلدّدًا فى جهالته، مقدّرا أن بأس الله لا يرهقه، وسطوته لا تلحقه، ورجزه لا يمحقه، وذنوبه لاتزهقه، وأجرامه لاتوبقه. وما زال اللّعينُ فى خلال ذلك يبسُط آمال العرب ويرجّيها، ويرغّبها ويمنّيها، بأقوالٍ كاذبه، وآمالٍ خائبه، ومواعيدَ باطله، حتّى أصغىٰ أكثرُها إلىٰ غروره، وقبول إفكه وزوره، وأجابته طائفةٌ طاغيه، ووصلَتْ إليه متتابعه، فتوفّر جمعُه، وكثُر عدَدُه وآشتدّ طمَعُه، وقوِىَ أملُه، وتمكن له باستدراج الله إيّاه وغضَبِه عليه أن يورّط عُصْبَتَه ومن آختدعه بغيّه وآستفزّه معه جهله، ويوردَهم جميعا ونفسه الزّلّة موردًا لاصَدر له، ولا علَلَ بعده، فخرج من طَبَرِيّة وحَلَّ بيسان، محلَّ الخزْى والهوان، فعندها آنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين خبرُه وهو يومئذ فى المَنْهل، الذى حصل فيه بعد رحيله من الرملة وهو الموضع المعروف بالطّواحين. فعند ما قَرُب آستجرارُ الفاسق اللعين، وآعتمد ما يعودُ بأطماعه، أقام فى الموضع أيامًا ناظرا فيما يحتاجُ إليه، متأهبا

لمـا يُرِيده ، وكان ذلك هو السببَ الذى أطمعه . فبَعْـد ما طَمِع قاده الحَيْنُ الغالب ، والقَدَر الجالب ، وما أراد اللهُ عز وجلّ من آستدراجه إلىٰ موضع نَكَالِه ، ومَنْهل وَبَالِه ؛ ورحَلَ من بَيْسانَ رحِيـلَ من آستعجَلَتْه البَلِيه ، وآستَدْعَتْه الرَّزِيّه ، فحَلَّ بموضع يُعْرَف بكَفْر سَلَّام ، كافِرًا بحُدُود الإسلام ، متجَرِّئا علىٰ الله محارِبًا لنجل نبِيِّه عليه السلام ، وأقام بها متلَدِّدا فى حَيْرته ، متردِّدًا فى سَكْرته ؛ ثم آستجَرَّه شُؤْمه ، وقاده حَيْنه ولُؤْمه ، إلىٰ أن رحَلَ فنزَلَ بكَفْر سَابَا البريد ، فأنبأه آسْمُها بما حَلَّ به من السَّبْي المُبِيـد والخِزْى الشديد ؛ ثم لم يَلْبَثْ أن ضَرَب مضاربَهُ المأْكوله ، ونصبَ أعلامَهُ المَخْذُوله ، وأقام صُفُوفه المَفْلُوله ، وأظهر آلةَ الحَرْب إقداما ، و[أخفىٰ] عن اللقـاء إحجـاما .

فأمر أمير المؤمنين بتربين العساكر المنصورة والجيوش المظفَّرة وتَعْبِئَتهـا علىٰ مراتبهـا ، وترتيبها علىٰ مَوَاكبهـا ؛ وتقـدّم إلىٰ قُوّادها أن لا يَمْشُوا إلا صَـفًّا ، ولا يَسِيرُوا إلا زَحْفا ، وعرّفَهُم أنه سيسيرُ بنَفْسه ، ويقصِدُ اللعينَ بمَوْكبه وجُمْهوره ومن معه من حُمَـاة رجاله ؛ وأنه لا يَثْنِيه عن الفاسق ثانٍ ولا يصْرِفُه عن الآقتحام صارِف ؛ فبَـدا من عزائمهم ، وشِدّةِ شكائمهم ، وخلوص بصائِرِهم ، وسُـكُونِ أفئدتهم ، وثبات أقْدامِهم ، ما كانتْ به دلائلُ النصر واضحه ، وشواهدُ الفُلْج لائحه ، وعلاماتُ الفَتْح ظاهره ، وآياتُ النُّجْح باهره ؛ فمَشَوْا علىٰ ما أُمِروا ، وساروا علىٰ ما سُـيِّروا ؛ فعند ما دَنَوْا من عُدوِّ الله أصابُوه للجِلَاد مُعِـدّا ، وفى المحاربة مُجِدّا ؛ وآسـتخارُوا الله عز وجلّ وتدانَوْا للتَّلاق ، والأخذِ بالنواصِى والأعْناق ؛ وقامتِ الحَرْبُ علىٰ ساق ، وتجرَّعَ منها أمَرَّ مَذَاق ؛ فاسـتطار شَرارُها ، وتأجَّجتْ نارُها ؛ وآرتفع دُخَانها ، وعَظُم شأنُهـا ، والتزم الأقْرانُ بالأقران ، وآشتدّ الضَّرْبُ والطِّعان ،

إلىٰ أن مشىٰ أمير المؤمنين بنفسه، وجُمهور موكبه، متوكلا علىٰ الله، ماتًّا إليه بجدّه محمد صلّىٰ الله عليه وسلم، متوسلًا بمتقدّم وعده، وسالف إنعامه عنده، وقصدَ اللعين غيرَ متلوّم عن مصادمته، ولا معرّج عن ملاحمته، فقويَتْ نفوسُ أوليائه وعبيده، ومن اشتملت عليه عساكرُه المنصوره، وجيوشُه المظفّره بما تبيّنوه من إقدامه، وشاهَدُوه من اعتزامه، وحملُوا علىٰ الفاسق وأحزابه، وقذف اللهُ فى قلوبهم الرُّعْبَ فتزلزلت أقدامهم، وأُرعِشَتْ أيديهم ونَخِبَتْ أفئدتُهم، وولّوا الدُّبرَ منهزمين، ومنَحُوا ظُهورَهم مُولّين، وافترقوا ثلاثَ فِرَق : فرقةٌ قُتِلَتْ فى المعْرَكه، وصُرِعتْ فى الملْحمه، فاحتُزَّت رءُوسهم، وفرقةٌ أحسَّت وقْعَ السُّيوف وإرهاقَ الحُتُوف، فاستأمنَتْ تحتَ الذِّلّة والصَّغار، والغَلَبة والاقتدار، فبُقِّيَتْ عليهم الأرواح، وحُقِنتْ منهم الدِّماء. وفرقةٌ أُسِرَتْ أَسْرا، وقُيِّدتْ قيْدا، وهرب التُّركىُّ اللعين رئيسُ ضَلَالتهم، وعَميد كُفْرهم، فى شُرَيْذمة من أصحابه، فظنَّ أن ذلك من بأس الله يُنجيه، ومن الأَخْذ بكَظَمه يُوقيه، هيهاتَ! كما قال الله عز وجل : ﴿هَيْهاتَ هَيْهاتَ لما تُوعَدُون﴾ : ﴿ إنْ كانَتْ إلا صَيْحةً واحِدَةً فإذَاهُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ ﴾ فاتّبعه سَرَعانُ الخَيْل وخِفَافُ الرِّجال، مع مفرِّج بن دَغْفَل بن جراح، فأخذه قَبْضا وأتىٰ به قَوْدا أسيرًا من غير عَهْد، وذليلًا من غير عَقد، واستولىٰ أهلُ العساكر المنصوره، والجُيوش المظفَّره، علىٰ مُناخه وسَوَاده، وما كان فيه من مال وأثاثٍ وكُرَاع وقِناع(١)، وقليل وكثير، وجليلٍ وحقير، فحازُوه واتّسَعُوا به، وأكثَرُوا من حمد الله، وانصرفُوا إلىٰ مُعَسْكَرِهم سالمين، بالمَغْنَم والظَّفَر آمنين، لم يُكْلَمْ منهم أحد، ولم ينْقُص لهم عَدَد، وكان جملة ما أتَوا به معهم من رءُوس الفَسَقة زائدًا علىٰ ألف رأس، ومن أَسْراهم ثمانمائة أسير، غير من استُؤْمِنَ وقت الإيقاع بهم، ولم يُفْلِت من الفَسَقة إلا من هَرَب

(١) القناع معانيه كثيرة ومنها السلاح وهو المراد هنا.

بُحَشَاشة نَفْسه مع مَنْ لاءَم التركىّ اللعين، وصاحبُ عقده ومُوَرِّطُه فى هَلَاكه، وقائدُه إلىٰ نَقِمَاته، وسائقُه إلىٰ مُوبِقاته، وهو كاتبه المعروف بابن الحمارة، فلحق بطَبَرِيَّةَ فقُتِل هو وجُلُّ من كان معه وآحتُزَّ رأسه وأُتِىَ به؛ فكَمُلَت النعمه، وتمتِ المَوْهِبه، وتجدّدَ حمدُ أميرالمؤمنين وآتصل شُكْره، لما أولاه من جليل عَطَائه، وكريم حِبَائه، وسَنِىّ آلائه. وكان ما آتاه الله من عظيم آياته، وأكبرِ شواهده، وآختصاصِ الله إيَّاه وآنتخابِه له؛ فالحمدُ لله! ثم الحمدُ لله! ثم الحمد لله ربّ العالمين علىٰ عطائه الهَنِىّ، وحِبَائه السَّنِىّ؛ وما أيّد أميرَالمؤمنين، وأعزَّالدين، وقمع المُشْركين؛ اذ كان الفاسقُ اللعين، التركىّ الغَوِىّ المبين؛ ثُلَّةً من ثُلَلِهم ورُكْنا من أركانهم، وحِزْبا من أحزابهم، ووَثَنا من أوثانهم، وطاغيةً من طواغيتهم؛ ولم يكن لهم فى بلد المسلمين يدٌ تَصُدّ عنهم بأسَ غيرهم، ولا عضدٌ يدفَعُون بها سواه. وأمير المؤمنين يرغبُ إلىٰ الله عز وجلّ أن يُوزِعه الشُّكرعلىٰ ما أولاه، ويُوجِده سبيلا إلىٰ بلوغ مُبْتغاه؛ من إعزاز الملّة والدِّين، وإحياء شريعة جَدّه سيد المرسلين؛ ومجاهدة التُّرْك والمشركين، وقَمْع الظالمين والقانطين والمارقين؛ حتّى يكونَ الدينُ كُلّه لله، ويَجْمَع القلوب علىٰ طاعته بإذْن الله.

أمر أميرُ المؤمنين بتعريفك ذلك، وتلخيص الكتاب إليك، لتقفَ عليه وتُذيعه، وتَشْهَره فيما قِبَلك؛ وتحمدَ الله علىٰ ما منح أميرَالمؤمنين من النصر، ومكّنه من الظَّفر. فاعلَمْه إن شاء الله تعالىٰ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته. وكتب يوم الخميس لخمس ليال بقين من المحرّم سنة سبع وستين وثلثمائة.

الأسلوب الثـانى

(أن يفتتح الكتّاب بخُطْبة مفتَتَحة بالحمد لله)

وعليه كان الحال فى أواخر دولتهم . وعليه جرىٰ فى "موادّ البيان" فى الأمثلة التى ذكرها .

وهذه نسخةُ كتاب مما اورده فى "موادّ البيان" ببشارة بفتح، وهى :

الحمد لله مُديل الحقّ ومُنـيره ، ومُذِلّ الباطل ومُبِـيره ؛ مؤيّد الإسـلام بباهر الإعجاز، وقصم (١) وَعدِه فى الإظهار بوَشِيك الإنجاز ؛ أحمدَ كلَّ دينٍ وأعْلاه، ورفَضَ كلَّ شرع وآجتباه ؛ وجعله نُورَه اللامع ، وظِله المـاتع ؛ وآبتَعَث به السراجَ المنيرَ، والبشيرَ النَّذير ؛ فأوضَح مناهجَه ، وبيّن مَدَارِجَه ؛ وأنارَ أعلامَه، وفَصّـل أحكامه ؛ وسَنّ حلالَه وحرامَه، وبيّن خاصَّه وعامّه ؛ ودعا إلىٰ الله بإذنه ، وحضّ علىٰ التمسُّك بعِصَم دِينه ؛ وشمّر فى نَصْره مجاهدا مَنْ نَدّعن سـبيله ، وعَنَد عن دليله ؛ حتّىٰ قَصَّد الأنصابَ والأصنام، وأبطل المَيْسرَ والأزلام ؛ وكَشَف غياباتِ الإظلام، وآنتعلَتْ خيلُ الله بقبائل (٢) الهام .

يحمَدُه أمير المؤمنين أن جعله من وُلَاة أمره ، ووَفّقه لاتّباع سُنّة رسولِه وآقتفاءِ أَثَرِه ؛ وأعانه علىٰ تمكين الدِّين ؛ وتَوْهين المُشْركين، وشِفاءِ صُدُور المؤمنين ؛ وأنهضه بالمُرَاماة عن المِلّة ، والمُحاماة عن الحَوْزة ؛ وإعزاز أهلِ الإيمـان ، وإذلالِ حِزْب الكُفْران . ويسألُه الصلاةَ علىٰ خِيرته المجتبىٰ، وصَفْوته المنتصىٰ، محمدٍ أفضل من ذَبَّ

---

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه بعلامة التوقف ولعله ومتم وعده الخ كما يفيده السجع .

(٢) قبائل الرأس أطباقه وفى الأصول "نبائل" بالنون وهو تصحيف يأباه المعنى.

وكافح، وجاهد ونافح، وحمى الذمار، وغزا الكفار . صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه على بن أبى طالب سيفه القاطع، ومجنه الدافع : وسهمه الصارد، وناصره العاضد، فارس الوقائع، ومغوس(؟) الجمائع، مبيد الأقران، ومبدد الشجعان . وعلى الطهرة من عترته أئمة الأزمان، وخالصة الله من الإنس والجان . وإن أولى النعم بأن يرفل فى لباسها، ويتوصل بالشكر إلى لبانها، ويتهادى طيب خبرها، ويتفاوض بحسن أثرها، نعمة الله تعالى فى التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك، وغزو أولى الباطل والإفك، والهجوم عليهم فى عقر دارهم، واجتثاث أصلهم وهدم منارهم، واستنزالهم من معاقلهم، وتشريدهم عن منازلهم، وتغميض نواظرهم الشوس، وإلباسهم لباس البوس، لما فى ذلك من ظهور التوحيد وعزه، وخمود الإلحاد وعره، وعلو ملة المسلمين، وانخفاض دولة المشركين، ووضوح محجة الحق وحجته، وفضوح برهانه وآيته .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد انكفأ عن ديار الفلانيين والمشركين إلى دست خلافته، ومقر إمامته، بعد أن غزاهم برا وبحرا، وشردهم سهلا ووعرا، وجرعهم من عواقب كفرهم مرا، وفرق جمائعهم التى تطبق سهوب الفضاء خيلا ورجلا، وتضيق بها المهامه حزنا وسهلا، ومزق كتائبهم التى تلحق الوهاد بالنجاد، وتختطف الأبصار ببوارق الأغماد، وسبى الذرارى والأطفال، وأسر البطاريق والأقيال، وافتتح المعاقل والأعمال، وحاز الأسلاب والأموال، واستولى من الحصون على حصن كذا وحصن كذا . ومحا منها رسوم الشرك وعفاها، وأثبت سنن التوحيد بها وأمضاها . وغنم أولياء أمير المؤمنين ومتطوعة المسلمين من الغنائم ما أقر العيون، وحقق الظنون، وانفصلوا وقد زادت بصائرهم نفاذا فى الدين، وسرائرهم إخلاصا فى طاعة أمير المؤمنين، بما أولاهم الله من النصر والإظفار، والإعزاز والإظهار، ووضح للمشركين بما أنزله عليهم

من الخِذْلان، وأنالهم إيّاه من الهَوَان ؛ أنّهم علىٰ مَضَلّة من الغَيّ والعمىٰ، وبُعْدٍ من الرُّشْد والهُدىٰ ؛ فضَرَعُوا إلىٰ أمير المؤمنين فى السِّلْم والموادَعَه، وتحمّلوا بَذْلا بذَلُوه تَفادِيًا من الكِفَاح والمُقَارعه ؛ فأجابهم إلىٰ ذلك متوكّلا علىٰ الله تعالىٰ، ومتمثّلا بقوله تعالىٰ إذ يقول : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وعاقَدَ طاغيتَهم علىٰ كتاب هُدْنة كتبه له، وأقرّه فى يده، حُجّةً مضمونة.

أشْعَرك أميرُ المؤمنين ذلك لتأخُذَ من هــذه النعمة بنَصيبِ مثلك من المُخْلِصين، وتَعْرِف موقِعَ ما تفضّل اللهُ تعالىٰ به علىٰ الإسلام والمسلمين ؛ فتُحْسِن ظَنّك، وتَقِرّ عَيْنَك ؛ وتَشْكُر الله تعـالىٰ شُكْر المستـمِد من فضله، المعتدّ بطَوْله ؛ وتتلو كتاب أمير المؤمنين، علىٰ كافّة مَنْ قِبَلك من المسلمين، ليعلَمُوا ما تولّاهم الله به من نَصْره وتمكينِه، وإذلال عدُوِّهم وتوْهِينه ؛ فاعلَمْ ذلك واْعمَلْ به .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى الكُتُب الخاصّة، كالمكاتبة إلىٰ الوزير ومَنْ فى معناه)

قال فى "موادّ البيان" بعــد ذكر صُورةِ المكاتبات العامّة عنهم : وقد يخاطِبُ الإمامُ وزيرَه فى المكاتبة الخاصّة بما يَرْفَعُه فيه عن خطاب المكاتبة العامّة الدِّيوانيّة، ويُتَصرَّفُ فى ذلك، ويزاد ويُنْقَص علىٰ حسَب لطافة محلّ الوزير ومنزلته من الفَضْل والجَلَالة . قال : وليس لهذه المكاتبة الخاصة حدودٌ ينْتهىٰ إليها، ولا قوانينُ يعتمَدُ عليهـا ، وطريقُها مستفيضة معلومة . وقد تقدّم فى المكاتبات الخاصة عن خلفاء بنى العبّاس أن مكاتبة الوزير «أمْتعنِى الله بك» فى أدعيةٍ أخرىٰ .

الطَّـــرَف السادس

(فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى أمية بالأندَلُس)

ولم أقِفْ علىٰ شىء من المكاتبات الصادرة عنهم ، وإن ظَفِرتُ بشىء منها بعد ذلك ألحقته إن شاء الله تعالىٰ .

الطــــرف السابع

(فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموَحِّدين، أتباع المهدىِّ بن تُومَرْت المستمرّ بقاياهم الآنَ بتُونُسَ وسائر بلاد أفرِيقِيَّة ، وهى علىٰ أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن تُفتتحَ المكاتبة بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويُدْعىٰ له بما يناسبه «إلىٰ فلان» ويُدْعىٰ له بما يليق به، ثم يؤتىٰ بالسلام، ثم يؤتىٰ بالبعدية والتحميد والصلاةِ علىٰ النبىّ صلّىٰ الله عليه وسلم ، والترضيةِ عن الصحابة ، ثم عن إمامهم المَهْدِىّ، ثم يؤتىٰ علىٰ المَقْصود، ويُختَم بالسلام . والخطاب فيه بنُون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه .

كما كُتِب عن عبد المؤمن : خليفة المهدىّ إمامِهم إلىٰ الشيخ أبى عبد الله محمد آبن سعد :

«من أمير المؤمنين أيّده الله بنَصْره، وأمدّه بمَعُونته، إلىٰ الشيخ أبى عبد الله محمد آبن سعد وفّقه الله، ويَسَّره لما يرضاه، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أما بعدُ فالحمدُ لله الذى له الاقتدار والاختيار، ومنه العَونُ لأوليـائه والإقْدار، وإليه يَرْجِع الأمر كلُّه فلا يمنعُ منه الاستبداد والاستئثار؛ والصلاةُ على محمد نبيِّـه الذى ابتعثتْ بمبْعثه الأضواءُ والأنوار، وعَمرتْ بدَعْوته الأنجادُ والأغوار، وخَصَم بحُجَّته الكُفْرَ والكُفَّار؛ وعلى آله وصحبه الذيـن هم الكِرامُ الأبرار، والمهاجرين والأنصار؛ والرِّضا عن الإمام المعصوم، المهدىّ المعلوم؛ القائم بأمر الله حينَ غيَّرتْه الأغيار، وتقدّم الامتعاض له والانتصار. وهذا كتابُنا ـ كتب الله لكم نَظَرًا يُرِيكم المَنْهَج، ويُلْفيكم الأبهجَ فالأبْهج؛ وآتاكم الله من نعمةِ الإيمـان، وعصمةِ الانقياد له والإذعان، ما تجدون به اليقينَ والثَّلج ـ من حضرة مَرَّاكُش حَرَسها الله تعالى، ولا استظهارَ إلا بقُوّته وحوله، ولا استكثارَ إلا من إحسانه وطَوْله.

ولـمـا جعل اللهُ هذا الأمر العظيم رحمةً لخلقه، ومَطِيَّة لرقيه وقرارةً لإقامة حَقِّه؛ وحَمَّل حَمَلَتَه الدعاءَ إليه، والدلالةَ به عليه، والترغيبَ فى عظيم ما عنده ونَعيم ما لَدَيْه؛ وجعل الإنذارَ والإعذارَ من فُصُوله المستَوْعبه، وأحكامه المرتَّبه؛ ومَنْجاتِه المخلِّصة من الخطوب المُهْلِكة والأحوال المُعْطِبـه ـ رأينا أن نُخاطِبكم بكتابنا هـذا أخذًا بأمر الله تعالى لرسولِه فى المَضَاء إلى سبيله، والتحريض على اغتنام النجاءِ وتَحْصيله، وإقامةِ الحُجَّة فى تبليغ القولِ وتوصيله؛ فأجيبوا ـ رفعكم الله ـ داعِىَ الله تَسْـعَدُوا، وتمسَّكُوا بأمر المهدىّ ـ رضى الله عنه ـ فى اتِّباعِ سبيلِه تهتَدُوا؛ واصرِفُوا أعِنَّـة العِنـاية إلى النظر فى المآل، والتفكُّر فى نَوَاشئ التغيُّر والزوال، وتدبَّروا جَرْىَ هذه الأمور وتصرُّفَ هـذه الأحوال؛ واعلموا أنه لا عِزَّةَ إلا بإعزاز الله تعـالى فهو ذو العِزَّة والجلال، ولا يَغُرَّنَّكُم بالله الغَرُور، فالدُّنْيا دار الغُرُور، وسوقُ المِحَال؛ وليس لكم فى قَبُولِ النصيحه، وابتداءِ التوبة الصحيحه؛ والعملِ بثُبُوت الإيمان فى هذه العاجلة الفَسِـيحه؛ إلّا ما تحِبُّونه فى ذات الله تعـالى من الأَمْنة والدَّعَه، والكرامة

المتَّسِعة والمكانة المرفَّعه، والتنعُّم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعه ؛ فنحن لا نُرِيد لكم ولسائر من نرجو إنابتَه، ونستدعِى قبولَهُ وإجابته، إلا الصَّلاحَ الأعمّ، والنجاحَ الأتمّ ؛ وتأملوا ــ سدَّدكم الله ــ مَنْ كان بتلك الجزيرة ــ حرسها الله ــ من أعيانها، وزعماء شانها ؛ هل تخلَّص منهم إلىٰ مايودُّه، وفاز بما يدَّخِره ويُعِدّه، إلا من تمسَّك بهذه العُرْوة الوُثْقىٰ، وآستبقىٰ لنفسه من هذا الخيْر الأدومَ الأبقىٰ، وتنعَّم بما لقى من هـذا النعيم المُقيم ويَلْقىٰ . وأما مَنْ أخلَدَ إلىٰ الأرض وآتَّبع هَوَاه، ورغِبَ بنَفْسه عن هذا الأمرِ العزيز إلىٰ ما سِواه ؛ فقد عُلِم بضرورتَى المشاهدة والآستفاضةِ سُوءُ منْقَلَبه، وخَسارةُ مذهبه ومُطَّلَبه، وتنَقَّل منه حادثُ الآنتقام أخسرَ ما تنقَّل به ؛ وحقَّ عليكم ــ وفقكم الله ويسَّركم لما يرضاه ــ أن تُحْسِنوا الآختيار، وتصِلُوا الآدِّكار والآعتبار، وتبْتَدِروا الآبتدار ؛ وماحقُّ مِن آنقطع إلىٰ هذا الأمر الموصول الواصل، وأزمع ماينالُه من خيره المَحُوز الحاصل ؛ أن ينالَهُ منكم شاغلٌ يشْغَله عن مقصوده، ويُحيط به ما يَصْرِفه عن محبوبه ومَوْدُوده ؛ فقد كان منكم فى أمر أهل بلَنْسِيةَ حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلُّقهم بهذا الأمر السعيد ما كان، ثم كان منكم فى عقب ذلك ما آعتمدتُمُوه فى أمر أهل لوُرْقـة ــ وفقّهم الله ــ حينَ ظهر آختصاصُهم، وبان إخلاصُهم ؛ وليس لذاك وأمثاله عاقِبةٌ تُحْمَد، فالخيرُ خيْرُ ما يُقْصَد، والنجاة فيما يُنْزِحُ عن الشر ويُبْعِد ؛ وإنا لنرجو أن يكُفَّكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالىٰ نظرٌ موفَّق، ومتاعٌ محقَّق، ويجذِبُكم إلىٰ مُوالاة هذه الطائفة المباركة جاذِبٌ يُسْعِد، وسائق يُرْشِد ؛ والله يمُنُّ عليكم بما يُنَجِّيكم، ويمكِّن لكم فى طاعته أسبابَ تأميلكم وترجِّيكم، بمنّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب فى السادسَ عشَرَ من جُمادىٰ الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

الأسلوب الثـانى

(أن تُفْتَتح المكاتبة بلفظ « أما بعـــد»)

والأمر فيه على نحو ما تقدّم فى الأُسلوب قبله بعد البعدية ، كما كتب أبو الميمون عن المستنصر بالله : أحد خلفائهم إلى بعض نُوّابه ، وقد نقض العهدَ على بعض المُهادِنين من النصارى .

"أما بعدَ حمدِ الله الآمر بالوَفَاء بالعُهود ، والصلاةِ على سيدنا محمد المصطفى الكريم سيِّد الوُجود ، وعلى آله وصحبه لُيوثِ البأس وغُيوث الجُود ، والرِّضا عن الإمام المعصوم، المَهْدِىّ المعلوم، الآتى بالنَّعْت الموجود، فى الزَّمن المحدود، وعن خلفائه الواصلين بأمْرِه إلى التَّهائم والنُّجُود، والدعاءِ لسيدنا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين بسَعْدٍ تذِلُّ له النواصِى، ويُهِدّ الأقطار القواصى؛ فكتبناه ـ كتبكم الله ممّن إذا همّ بأمر تدبَّر عواقِبَه، وإذا عَزَم على رُكُوب غَرَرٍ ألفى معاطِبَه ـ من فلانة كلأها الله تعالى . وقد بلغَنَا ما كان منكم من اكْتِساح النصارى، والزيادة على ذلك باختطاف الأُسارى؛ ونعوذُ بالله من شَهْوةٍ تغلِبُ عقلا، ونخوةٍ تُعقِب هَوَانا وذُلًّا؛ وقد أخطأتُمْ فى فَعْلتكم الشَّنعاء من ثلاثة أوجه : أحدُها أنه خلافُ ما أمر الله تعالى به من الوفاء بالعهد، والوقوفِ مع العَقْد؛ والثانى عصيانُ الأمر العزيزِ وفيه التغريرُ بالمُهَج، وتركُ السَّـعة للحَرَج؛ والثالث أنكم تُثِيرون على أنفسكم من شَرِّ عدوّكم ـ قصمه الله ـ شَرَرا يستَعِر، وضَرَرا يَعْدَم فيه المنتصِر؛ فليتكم إذ تحلَّيتم بالعِصْيان، ورَضِيتم الغَدْر المحرّمَ فى سائر الأديان؛ ثَبَتُّم للعدوّ إذا دَهَمكم ، ولقيتموه بالجانب القَوِىّ متى زَحَمكم ؛ بل تتدرَّعون له الفِرَار، وتتركُونه فى مُخَلَّفيكم وما اختار؛ وقد جرّبتم مرّاتٍ أنكم لا تَرْزءُونهم ذرّه، إلا رَزَءُوكم ألف بَدْره؛ ولا تُصيبونهم مَرَّه، إلا أصابوكم ألف مَرّه؛ وإلى متى

تُنْهَوْن فلا تنتهُون ؟ وحتَّام تُنَبَّهون فلا تَنْتَبِهون ؟ فاذا وافاكم كتابُنا هذا بحول الله وقوّته فأدُّوا مَنْ أسَرتُم إلىٰ مأْمَنِه، ورُدّوا ما آنتهبْتُم إلىٰ مَسْرَحه؛ ولا تُمْسِكوا من الأُسارىٰ بشَعْره، ولا من الماشية بوَبَره؛ ومَنْ سمِعْنا عنه ـبعد وصول هذا الكتابـ أنه تعدّى هذا الرَّسْم، وخالف هذا الحُكْم؛ أنفذْنا عليه الواجب، وحكّمنا فيه المهنّد القاضب؛ فلْتُسرِع من نومة الغَفْلة إفاقَتُكم، ولا تتعرّضوا من الشرّ لما تَعْجِزُ عنه طاقَتُكم؛ ونحن متعرِّفون مايكون منكم من تأنٍّ أو بِدَار، ومقابلونَ لكم بما يصْدُر عنكم من إقرار وإنكار؛ وهو يُرْشِدكم بمنّه. والسلامُ عليكم ورحمة الله" .

قلتِ : ثم طرأ بعد ذلك الإكثارُ من ألقاب خلفائهم فى المكاتبات الصادرة عنهم، والمبالغةِ فى مدحهم، وإطرائهم علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات الواردة من ملوك الأقطار إلىٰ الأبواب السلطانية بالديار المصرية فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الطَّرَف الثامن

(فى الأجوبة، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يُضاهِى الأجوبةَ فى الآبتداء، وهو علىٰ أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن يُفْتتح الجوابُ بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

مثل أن يكتب «من عبدالله ووليه أبى فلان فلان الإمام الفلانىّ أمير المؤمنين» إلىٰ آخر الصدر علىٰ ماتقدّم فى الآبتدا آت؛ ثم يقال : أما بعدُ، وينساق منه إلىٰ ذكر الكتاب الوارد وعَرْضه علىٰ الخليفة، وما اقتضَتْه آراء الخلافة فيه، ويُكَمَّل

علىٰ نحوِ الأبتـــداء . كما كتب عن المقتفِى لأمر الله، إلىٰ غياث الدين مســعود بن ملكشاه السَّلْجُوقىّ فى جوابِ كتابه الوارد عليه، يخبره بأن بعض مَنْ كان خرج عن طاعته دخل فيها، وآنحاز إليه، وهو :

"من عبد الله أبى عبدالله محمد الإمام المقتفى لأمر الله أمير المؤمنــين ، إلىٰ فلان بألقــابه .

أمابعدُ ــ أطال الله بقاءك ــ فإن كتابَك عُرِض بحضرة أميرالمؤمنين مُعْربا عن أخبار سعادتِك، وجَرْيِ الأمور علىٰ إرادتِك، وبُلوغ الأغراض من الوِجْهة التى توجَّهْت إليها، والأطراف التى أشرقَتْ سعادتُك عليها، بميامن ما تَثِق به من الطاعة الإمامية وتُضْمِره ، وتعتَقِده من الإخلاص وتَسْتَشعِره ؛ وأن رُكْنَ الدين محمدا ومن آنضَمَّ إلىٰ جملته وآنتظم فى سِلْك موافقته لَمَّـا ظفِرُوا منك بِذِمام آطمأَنُّوا إليه وسَكَنُوا ، وأمانٍ وثِقوا به وركَنُوا ، أبصروا الرُّشْــد فاتَّبعوه ، وآستجابوا الداعىَ إذْ سَمِعُوه ؛ وأذعَنُوا لطاعتك مسْرِعين ، وآنقادُوا إلىٰ متابعتك مُهْطِعين؛ علىٰ آستقرارِ مَسِــيرهم تحتَ لوائك إلىٰ باب هَمَذان ليكون تقريرُ القواعد الجامعةِ للصالح عند وُصُولهــا ، والتوفُّر علىٰ تحرّى ماتقرّبه الخواطرُ مع حُلُولها ؛ والآنفصالُ إلىٰ من يَفِدُ إلىٰ الأبواب العزيزة مؤتنِسا بقُرْب الدار ، ومستَسْعِدا بالخــدمة الشريفة الإمامية المؤذنةِ ببُلُوغ الأوطار . ووقف عليه وعرف مضمونَه ؛ وجدّد ذلك لدَيْه من الآبتهاج ، والآغتباط الواضح المِنْهــاج ، ما تقتضيه ثقتُه بجانبك وآعتقادُه ، وتعويلُه علىٰ جميــل معتقَدك وآعتمادُه ، وآعتضادُه من طاعتك بحبلٍ لا تَنْقُض الأيَّامُ مُبْرَمه ، وسكُونُه من وَلَائك إلىٰ وَزَرٍ لاتُرَوِّع المخاوِفُ حَرَمه ؛ وواصِلُ شكْر الله تعالىٰ علىٰ ماشهدتْ به هذه النعمةُ العميمه ، والمَوْهِبةُ الجسيمه ، من إجابة الأدعية التى مازالتْ جنودُها نحوَك مجهَّزه ، ووعودُه ــ جلَّت عظمته ــ بقبول أمثالها منَجَّزه ؛ وإمدادُك منها بأمدادٍ تســتَدْعِى

لك النصرَ وتستَنْزِله ، وتستكمِلُ الحظَّ من كلِّ خيرٍ وتَسْتَجزِله ؛ وتبلِّغُ الأملَ منك فيمن هو العُدّة للمُلِمَّات ، والحامِي لتقرير الأُنْس من روائع الشَّتات ، ومَنْ ببقائه تُكَفُّ عن الآمتداد أكُفُّ الخطوب ، وتُطْلَق وجوه المَسَارّ من عُقُل القطوب ؛ ويأبىٰ الله العادلُ فى حكمه وحِكْمته ، الرءُوف بعباده وخَليقته ؛ إلا إعلاءَ كلمةِ الحق بالهِمَم الإماميَّه ، والإجراء علىٰ عوائدِ صنيعته الخَفيه ، الكافلةِ بصلاح العِباد والرعيَّه ؛ وقد أُقيمت أسواقُ التهنئة بهذه البُشْرىٰ ، وأفادتْ جَذَلًا تتَّابع وفُودُه تَتْرىٰ ؛ لاسيَّما مع الإشارة إلىٰ قُرْب الأَوْبة التى تُدْنِى كلَّ صلاحٍ وتَجْلُبُه ، وتُزِيل كلَّ خَلَلٍ أتعبَ القلوبَ وتُذْهِبُه . وإلىٰ البارى جلَّ آسمه الرغبةُ فى آختصاصك من عنايته بأحسنِ ماعهِدتَهُ وأجملِه ، وصلةِ آخِرِ وقتِك فى نُجْح المساعى بأوّلِه ؛ وأن لا يُخْلِيَ الدار العزيزة من إخلاصك فى وَلَائها ، ورَغْبتك فى تحصيل مراضيها وشَرِيف آرائها .

هذه مناجاة أمير المؤمنين ــ أدام الله تأييدَك ــ آبتغىٰ الله جَزاءَك فيها علىٰ عادة تكْرِمته ، وأعربَ بها عن آعتقادِه فيكَ وطويّتـه ؛ ومكانِكَ الأثيل فى شريف حضرته ، وآبتهاجِه بنعمةِ الله عندك وخِيرته ؛ فتأمَّلْها تأمُّلا يشاكل طاعتَك الصافيةَ من الشَّوائبِ والأقذاء ، وتلقَّها بِصدْق الآعتماد عليها وحُسْن الإصغاء ؛ تَفُزْ بالإصابة قِدَاحُك ، ويُقرنْ بالتوفيق مَغْداك ومَرَاحُك ؛ إن شاء الله تعالىٰ ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته " .

***

وكما كتب بعض كُتَّاب الفاطميين عن الحافظ لدين الله : أحدِ خلفائهم إلىٰ شمس الدولة أبى منصور محمد بن ظَهير الدين بن نُورى بن طُغْتكين ببَعْلَبكَّ جوابا عن كتابه الوارد عنه علىٰ الخليفة ، ويذكر أنه حسَّن لفخر الملك رَوَاح ورُودَه علىٰ الخليفة بالديار المصرية ، ويذكر نُصْرته علىٰ الفَرَنْج بطَرَابُلُس ، وقتله القُومص ملكها .

«من عبدالله ووليّه عبد المجيد أبى الميمون الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ،
إلىٰ الأمير فلان .

أما بعـدُ، فإنه عُرِض بحضرة أمير المؤمنين كتابُك من يدفتاه ووزيره ، وصفيّه وظهيره، السيدِ الأجل الأفضلِ، الذى بَذَل نفْسَه فى نصرة الدين تُقًى وليَانا، وأوضح اللهُ للدولة الحـافظيّة بوزارته حُجَّة وبرهانا ، وأسبغ النعمةَ علىٰ أهلها بأنْ جعله فيهم ناظرا ولهم سلطانا، ووفّقه فى حُسْن التدبير، والعمل بما يقضى بمصالح الصغيرِ والكبير، وبما أعاد المملكةَ إلىٰ أفضل ما كانتْ عليه من النَّضْرة والبَهْجه، ولم يَخْرُج المادحون لهـا إذا آختلَفُوا عن التحقيق وصِدْق اللَّهْجه ؛ فقد ساوتْ سياستُه بين البعيد والقريب ، وأخذ كلٌّ منهما بأجزل حظٍّ وأوْفَر نصيب؛ وسارتْ سِـيرتُه الفاضلة فى الآفاق مَسـيرَ المَثَل ، وآسـتوجب من خالِقه أجْرَ من جَمَع فى طاعته بين القول والعمَلْ . وشَفَع عَرْضه من وَصْفك وشُكْرك، والثناء عليك وإطابة ذِكْرك؛ وأنهىٰ ما أنتَ عليه من الولاء، وشُكْر الآلاء؛ بما يُضاهى ماذكرتَهُ فيه مما عُلِم عند تِلاوته ، وأُصْغِى إليه عند قِراءته . وقد آسـتقرّ بحضرة أمير المؤمنين مكانُكَ من المُشايَعه ، وموقِعُك من المُخالَصـه ؛ وكونُك من ولاء الدولة علىٰ قضـية كَسبتْك(١) شرفًا تفيأْتَ ظِلالَه ، وأفاضتْ عليك مَلْبَسا جَرَرْت أذياله ؛ وسَمتْ بك إلىٰ محلٍّ لا يُبـاهىٰ مَنْ بلغـه ولا يُطاوَلُ مَنْ ناله ؛ وكنتَ فى ذلك سالكا للمَنْهَج القويم، ومعتمدا ما أهلُ بيتِك عليه فى القديم ؛ لا جَرَم أنه عاد عليك من حُسْن رأى أمير المؤمنين بمـا تقْصُر عنه كلُّ أُمْنِيّـه، ويشهد لك بمخالصةٍ جمعتَ فيهـا بين عملٍ ونيّه ؛ والله يضاعف

(١) فى المصباح فى مادة كسب ”ويتعدّى بنفسه إلىٰ مفعول ثان فيقال كسبت زيدا مالا وعلما أى أنلته . قال ثعلب وكلهم يقول كسبك فلان خيرا إلا آبن الأعرابىّ فانه يقول أكسبك بالألف“ .

أجركَ علىٰ ٱعتصامك من طاعة أمير المؤمنين ، بالحبل المَتين ، ويُوزِعُك شكر ما مَنَحك من الاِستضاءة بنُور الحق المبين .

فأما الأميـر الأسفهسلار فخر الملك رواج وبعْثك له علىٰ الوُصول إلىٰ البـاب ، وحضُّك إيَّاه علىٰ التعلُّق من الخدمة بمُحْصَـد الأسباب ؛ فما كان الإذنُ له فى ذلك إلَّا لأنَّ كتابه وصل بملْتَمَسِه ، وعَرَض فيه نفْسَه وبذَلَ المناصحة والخِدْمه ، ويسأل سؤالَ مَنْ يعرِف قدر العارفة بالإجابة إليه ومَوْقِعَ النعمه ؛ فأُجيبَ إلىٰ ذلك إسعافاً لهْ بمراده ، وعملًا برأى الدولة فيمن يرغَبُ إلىٰ التحيُّز إليها من أقطاره وبلادِه ؛ وإلا فلا حاجةَ لها إليـه ولا إلىٰ غيره ، لأن الله تعالىٰ ـ وله الحمدُ ـ وَفَّر حظَّها من الأولياء والأشياع ، والأنصار والأَتْبـاع ؛ والعساكرِ والجُيوشِ والأجناد والأَنْجاد ، والأعوانِ الأقوياء الشِّـداد ؛ وعبيدِ الطاعة الذين يتَبـارَوْن فى النُّصْح ويتنافَسُون فى الاْجتهاد والحرص ، وسَـعةِ الأموال ، وعِمارة الأعمال ، وجمع الرِّجال فى العزائم بين الأفعال والأقوال ؛ ولو وصل المذكورُ لكانت المِنَّـةُ للدولة عليه ، والحاجةُ له فى ذلك لا إليه ، قال الله عز من قائل : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَاتَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللّٰهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَـانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ .

وأمّا توجهه إلىٰ طرابُلُس وظفَرُه بقومصها وقتلُه إيَّاه مع مَنْ بهـا ، وعظيمُ أمرِه فيها ؛ فاللهُ تعالىٰ يُعِزُّ الإسـلام وينْشُر لواءه ، ويُعْلِي مَناره ويَخْذُل أعداءه ؛ وينصُر عساكِرَه وأجناده ، ويبلِّغه فى أحزاب الكُفْر والضلال مُرادَه ؛ وهو عز وجلَّ يمتِّعك من الولاء بما مَنَحك ، ويُنِيلك فى دينك ودُنْياك أَمَلك ومُقْتَرَحك ؛ فٱعلَمْ هذا وٱعمَلْ به ، إن شاء الله تعالىٰ » .

الأســـلوب الثـانى

(أن يُفتتَحَ الجواب بلفظ «أمّا بعد»)

كما كُتب عن المقتفى إلىٰ السلطان محمود بن محمد السَّلْجُوقىّ جواباً عن كتابه الوارد بإخباره باجتماعه مع عمِّه سنجر، ونسخته :

أما بعدُ فإنّ كتابك عُرِض بحضرة أمير المؤمنين ناطقًا بدَرْك الأوطار ، وحصول المَقَاصِد علىٰ الآثار ، وما أنهيته من الآجتماع بعِزِّ الدنيـا والدِّين جمع اللهُ فى طاعته شَمْلكما! ووصل بالألفة والتوادُد حَبْلكما! ومن إكرام الوِفادة الذى أنت أهلُه ووليُّه، وحقيقٌ أن يَتْبع وَسْمِيَّه لَدَيْك وِليُّـه(1)، والموافقةِ علىٰ كل حال آذنتْ ببُلُوغ الأغراض وتيسُّرِها، ونَجاز المساعِى علىٰ أتمِّ وفاق وتَقَرُّرِها، وآنتظامِ الأمور علىٰ أجمل معتـاد وأكمل مُرَاد، وأحسن آتِّساق وآطِّراد ، وآسـتقرارِ القواعد علىٰ الوصف الجـامع أشْتاتَ الآتِّفاق ، الدالِّ علىٰ صِدق المحافظة بينكما وفَرْط الإشفاق ، محفوفًا بالسعادة التى لا تزال مآثِرُك فى الطاعة الإمامية تَملِكُ قِيادَها ، وتُقلِّدك علىٰ الآتصال نِجادَها ، فتهلّلتْ بهـذا النَّبإ المُبهِج أسرّةُ البُشْرىٰ ، وأصبح الجَذَلُ بمكانه أفعم عَرْفا وأذكىٰ نَشْرا ، وقامت لأجله فى عِراص الدار العزيزة مواسِم ، أضحتِ المَسَرَّة بهـا مُفْتَرَّة الثغور ضاحكةَ المَبَاسم ؛ وجديرٌ بمن كان له من الهِمَم الشريفة مَدَدٌ وافٍ، ومُنجِدٌ يدفَعُ فى صـدر كلِّ خَطْب مُوافٍ، أن تكتنِفه الميَامِنُ والسُّعود ، ويَصْدُق(2) فى كل مَرْمًى يَنْحُوه من النُّجْح الموعود ، وتنقادَ له المصاعبُ ذُلُلا ، ويَعودَ بيُمْنِ نَقِيبته كلُّ عافٍ من الصلاح جديدًا مُقْتَبلا ، ولا ينفَكُّ صنعُ الله جلَّ آسمه لطيفـا ، وبِرِبَاعِه

---

(1) الولىّ علىٰ فعيل المطر بعد المطر وقد يخفف عن كراع أنظر اللسان ج ٢٠ مادة و ل ى .

(2) لعله ويصادف ... ... النجح .

مُحدِقا مُطِيفا ؛ والتوفيقُ مصاحِبَه أنّىٰ حلَّ وثوىٰ ، أو ثنىٰ عِنانه إلىٰ وجه ولوىٰ ؛ والله يمتّع أميرَ المؤمنين منك بالعَضُد الذى يذُبُّ عن دولته ويحامِى ، ويناضِلُ دُونَها بجنود الإخلاص ويُرامى ؛ ولا يُخْلِيك من رعايته التى لا يزال يستقر فيها إليك ، ويَرْغَبُ إليه فى إسباغ لِباسها عليك، حتّىٰ تتسنّىٰ لك المَطَالب معا ، ويَغْدُو الزمانُ فيما ينشأ متّبِعا .

هــذه مفاوضة أمير المؤمنــين إليك ، أدام الله تأييدك ، أجراك فيها علىٰ مألوف العاده ، وجدّد لك بهــا بُرودَ الفَخَار والسعاده ؛ فاجر علىٰ وتِيرتك فى إتحاف حضرته بَطيِّب أخبارك ، ومجارِى الأمورِ فى إيرادِك وإصدارِك ؛ تُهْدِ إليها ٱبتهاجًا وافِرا ، وٱبتساما يَظَلُّ لثامُه عن حمد الله المسنَدِ بها سافِرا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثــانى

(أن يكون الآفتتاحُ فى الجواب مصدَّرا بما فيه معنىٰ وصولِ المكاتبة إلىٰ الخليفة)

فقــد جرتْ عادةُ المتقدّمين من الكُتَّاب فى التعبير عن ذلك بلفظ «العَرْض علىٰ الخليفة» ويُؤتىٰ فيه علىٰ ماتضمنه الكتابُ المجابُ عنه، ثم يُخْتَم كما تُختَمَ الآبتداآت.

كما كتب العلاءُ بنُ مُوصَلايَا عن القائم بأمر الله إلىٰ «أتسز» عنــد وُرود كتابه علىٰ أبواب الخلافة يتضَمَّن ٱنتظامَه فى سِلْك الطاعة وغلَبتَه الأعداء، وهو :

عُرِضَ بحضرة أمير المؤمنين ما وَرَدَ منك دالًّا علىٰ تمسُّكك من الطاعة الإمامية بمــا لا تزال تُجِدّ فيه مَلابِسَ التوفيق حالًا بعد حال ، وتَجِدُ به مَرائرَ السعد مُحْصَفة فى كل حَلٍّ وتَرْحال ؛ مُنبِئًا عن توفُّرك علىٰ المَقَامات التى ٱنتقَمْت بهــا للهُدىٰ من الضَّلال، وٱستقَمْتَ فيها حتّىٰ أجْلَتْ عن كلِّ صَلاح ممتدِّ الظِّلال ؛ شاهدًا بما أنت

عليه من مُوالاةٍ لا تألُو جُهْدا فى ٱلتزام شُروطها بادئًا عائدا ، ولا تخلو فيها من حُسْن أثرٍ يكونُ لدعائم الصواب عامِدا ، وتُرىٰ فيه قاصدًا لٱجتلابِ الخير عائدا . ووقف عليه وقُوفَ من ٱرتضىٰ مايتوالىٰ من قُرُباتك التى لاتزال فى إعذابِ ورُودِها ساعيا . ولمـا يُفضِى إلىٰإعشابِ مَرْعاها فى طلَبِ الحمد مُراعِيًا ، وٱنتضىٰ منك للخدمة بتلك الأعمال حُسامًا باترا آجالَ بَقايَا الكُفْر هُناك ، ماضيًا فى كل ما يَقْضِى بانْفِساح مجالِ آمالك فى الدهرِ ومَبارّك ، وٱعتدّ لك بمـا أنهاه عنك رسولُ أمير المؤمنين العائدُ من قبَلك ، وأوضحه من زُلَفك التى شَفَع قولَك فيها عملُك ، وطالع به الرسولُ الذى نَفَّذتَه معه لقَصْد بابه ، والمُنَابُ فى تأكيد دَواعِى النُّجْح وتمهيد أسبابه ؛ وحلَّ كلُّ ذلك لدَيْه المحلَّ الذى ستجنِى ثمره كلّما يَطيبُ ويحلُو ، ويَسْلَمُ من كل الاستزادة(١) ويخلو ، ويعِزُّ مهرُ الفوز به علىٰ غيرك ويَغْلُو ؛ وتأثَّل لك من الرُّتْبــة بحضرته ما يُدْنِى لك كلَّ مطلب إلىٰ مُرادِك آئل ، ويُدوِى قلبَ كلِّ منحَرِف عن وفائك مائل ؛ وصِرتَ من أعيان الخلَصاء الذين وسَمت الهدىٰ أفعالَهم بالحمــد ، وسَمَتْ بالطاعة آمالُهُم إلىٰ توقُّل هِضَاب المجْد ؛ فما تَهُمُّ بك الغِيَرُ إلا وتنقطع دُونك أعناقُها ، وترجع فى جِلْباب الخَيْبة وحَيْصُها إليك وإعناقُها ؛ ولا تمتدّ نحوَك يدُ ضِدّ إلا ردّها عنك جميلُ الآراء الشريفةِ فيك وغَلَّها ، وأوجبَ نَهْلَها عن موارد القُصور وعَلَّها ؛ وكيف لايكون ذاك ولك فى الطاعة كلُّ موقِفٍ ٱغتذىٰ بلِبَانِ الحَمْد ، وٱعتنىٰ باشتهاره بلوغُ المــدىٰ فى وَصْفه والحَدّ ؛ فأحسنَ اللهُ توفيقك فيما أنت بإزائه من إخمادِ لَهَب الباطل بتلك الشِّــعاب ، وإجهادِ النَّفْس فى إخمــال المَتَاعِب وإذلال الصِّعاب ؛ وأمدّك بالعَوْن علىٰ ما بدأت له من جب ... ...(٢) فيما يليك ، وطَبِّ أدواء الفَسَاد فى نَوَاحيك . ومع

(١) كذا فى الأصول ولعله من خلل الاستزادة وفى المختار والقاموس "ٱستزاده ٱستقصره" .

(٢) بياض فى الاصول بهذا المقدار ولعله من جب أصول العناد آلخ .

مافُزْتَ به من هذه المِنْحة التي قد جاز قدرُها التقديرَ والظَّن، وجادَ لك الدهرُ فيها بما كان شَحَّ به على أمثالك وضَنّ ؛ فيجب أن تستديمها، وتُحَصِّن من النَّغَل أديمَها، بمزيدٍ من الخدمة تنتهز الفُرَصَ بالإسراع إليه والبِدَار، وتنتهج أقومَ الجُدَد[1] في مقابلة الإيرادِ منه بالإصدار، وتُنْفِد وُسْعَك في كل مسعًى ينثني إليك عِنانُ الثَّناء معه، وتُنْفِق عُمُرَك في كل أمرٍ يجمع لك مَرْأَى الرضا عنك ومَسْمعَه ؛ لتجدَ من جَدْوَى ذلك ماينظِمُ في السعادة شَمْلَك، ويضْحَى به القِيادُ فيما يصدِّق أَمَلَك أَمْلَك ؛ وأن تُحمَدَ السيرةَ في الرعايا الذين غدَوْا تحت كَنَفِك، وتجعلَ الاشتمالَ على مصالحهم مُعْرِبا عن فَضْل شَغَفِك بالخير وكَلَفِك ؛ فإنهم ودائعُ الله تعالى يلزم أن تُحمَى من ضَيَاع يتسلَّط عليها في حال، وتُحيَا من درّ الإحسان برَضاعٍ لايخطُر الفِطامُ عنه ببال ؛ فلا تقِفَنَّ عند غاية في إفاضةِ الفضل عليهم وإسباغِ ظلِّه، واعتمادهم بتخفيف ثِقْل الحَيْف عنهم أو إزالة كُلِّه ؛ ليكونوا في أفياء الأمن راتعين، ولخَرْق كل مُلِمٍّ بحُسْن ملاحظتك راقِعين ؛ فالذي يراه أميرُ المؤمنين في فرضك حتّى يزداد باعُك طُولا، ولا يتركَ لك على الزمان اقتراحا ولا سُولا ؛ يقتضي أن يُتْبِع كلَّ سابقٍ إليك من الإحسان بلاحِق، ويُمْرِعَ جَنابَ النُّعمَى لدَيْكَ عند ذَرّ كلِّ شارق . وكذلك يرى أن يجدِّد لك من تشريفه المنوِّر مطالِعَ الفجر، المنوِّه بالذِّكْر في الدهر ؛ الذي لاتزال الهِممُ العالية تصبُو إلى الفوز به وتميل، وتقِفُ عند حَدّ الرجاء والتأميل، ماأصحبَ رسولَكَ المشارَ إليه لتدَّرِع من خلاله ما الشَّرفُ الأكبرُ في مَطَاوِيه، وتمتطِيَ من صَهْوة العِزّ فيه مايَبْعُد على النظراء إدراكُ مَرَامِيه . ويجب أن تتلقّى مقدمَ ذلك عليك بما يُنْبِئُ عن اقتران النعمة الغراء فيه، واقمارأهِلَّةِ التوفيق عندك بما تَقْصِد في المعنى وتنتحيه ؛ وإذا عاد رسولُك إلى باب أمير المؤمنين حسَبَ ما ذكرت، أُصْدِر على يده من ضُروب التشريفات ما يُقِرّ

(١) في المصباح (الجدّة بالضم الطريق والجمع جدد مثل غرفة وغرف) .

فيك عُيونَ مَنْ يَوَدُّك ، ويقرّ فى مَغَانيك كلّ سـعد يُورِى فيه زَنْدُك ؛ فاسكُنْ إلىٰ حِبائك بالمَزِيد من كلّ رُتْبة أُهِّلْت لهـا ، وكن بحيث الظّنّ فيك تُوَفَّر عليـك أقسامُ الحمد كُلُّها ؛ وثِقْ بمـترادف آلاءٍ ينْضَمُّ لديك شَمْلُها ، ويُثْقِـلُ كلّ كاهلٍ حملُهـا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطــــرف التاسع

(فى الكُتُب الصادرة عن ولاة العهد بالخلافة)

لم أقِف علىٰ مكاتبـةٍ صريحةِ التصوير عن وُلَاة العهد ، غير أن الإمامَ أبا جعفرٍ النحاس فى " صناعة الكُتَّاب " بعد أن ذكر أن صورة المكاتبة عن الخليفة : «من عبد الله أبى فلانٍ فلانٍ الإمام الفلانى إلىٰ فلان » أتْبَع ذلك بأن قال : وليس أحد من الرؤساء يُكاتَب عنه بالتصدير إلا الإمامَ وولىَّ العهد، ولم يزد علىٰ ذلك. وقد فسّر ٱبنُ حاجب النعمان فى " ذخيرة الكتاب " التصديرَ بأن قال : يكتب « من عبد الله أبى فلان فلان» باسمه وكنيته ونَعْته . ويقال : أمير المؤمنين أبى فلان .

أما بعـدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو إلىٰ آخره ، علىٰ ما تقدّم بيانه .

وذكر النحاس فى الكلام علىٰ العُنْوان من الرئيس إلىٰ المرءوس أنه يُحْـذَف من الكتاب عن ولىّ العهد لَفْظ الإمام ، ولفظ أمير المؤمنين ، ويقـال فيه : ولىّ العهد . وظاهر ذلك أن المكاتبـة عن ولىّ العهد مشابِهةٌ للمكاتبـة عن الخليفة ، وأن لفَظ ولىّ العهد فى المكاتبة عنه يقومُ مَقام أمير المؤمنين فى المكاتبة عن الخليفة نفْسِه ، وحينئذ فيتجه أن تكون المكاتبة عنه «من عبدالله أبى فلانٍ فلانٍ المعتضِد بالله مثلا ولىّ عهد المسـلمين : سـلامٌ عليك فإنى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو

وأسألهُ أن يصلِّي علىٰ محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم . أمابعدُ : فإن كذا وكذا» ويؤتىٰ علىٰ المقصد إلىٰ آخره . وعلىٰ ذلك يدلُّ كلام صاحب "ذخيرة الكتّاب" . فإنه قال بعد ذكر المكاتبة عن الخليفة : وكذلك المكاتبةُ عن ولىّ العهد . علىٰ أنّ المكاتبة عن ولىّ العهد قد بطلَتْ فى زماننا جملةً .

الطـــرَف العـاشر

(من المكاتبات عن الخلفاء المكاتباتُ إلىٰ أهل الكفر)

وكان الرَّسْمُ فيها أن يُكْتَب « من فـلان إلىٰ فلان » . ويقعُ التخلُّص فيها إلىٰ المقصود بـ«أما بعدُ» . ويختم الكتابُ بلفظ «والسلامُ علىٰ من آتّبع الهدىٰ » .
فقـد حكىٰ أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" أنه كان علىٰ الروم مَلِكةٌ ، وكانتْ تُلاطِف الرشيدَ ولهـا آبنٌ صـغير ، فلمّـا نشأ فوّضت الأمْرَ إليه فعاث وأفسدَ ، فخافتْ أُمُّه علىٰ مُلْك الروم فقتَلَتْه ؛ فخرج عليهـا تقفورُ ملك الرُّوم فقتلها وآستولىٰ علىٰ مُلْكها وكتب إلىٰ الرشيد :

«أما بعدُ فإن هذه المرأةَ وضَعَتْك موضِع الشاه ، ووضعت نَفْسَها موضع الرُّخّ ، وينبغى أن تعلَمَ أنّى أنا الشاه وأنتَ الرُّخّ . فأدِّ إلىّ ما كانتِ المرأةُ تُؤدِّى إليك » .
فلما قرأ الكتاب ، قال لكُتّابه أجيبُوا عنه ، فكَتَبُوا مالم يرتَضِه ؛ فكتب هو إليه :

«من عبدِالله هارونَ أمير المؤمنين ، إلىٰ تقفور كَلْبِ الرُّوم . أما بعدُ فقد فَهِمْتُ كتابك ، والجوابُ ماتراه لا ماتسمَعُه ، والسلام علىٰ من آتبع الهدىٰ » .

ويقـال : إنه كتب « الجوابُ ما تراه لا ما تسمعه ، وسيَعْلَمُ الكافِرُ لِمَنْ عُقْبىٰ الدار» . ولا يخفىٰ ما فى ذلك من البَلَاغة مع الإيجاز .

وكما كُتب عن الحافظ لدين الله : أحد خلفاء الفاطميين بمصر إلىٰ صاحب صِقِلّيّة وما معها من مُلُوك الفَرَنْج (١) :

«من عبدالله ووليِّه عبدالمجيد أبىالمَيْمُون الإمام الحافظ لدينِ الله أمير المؤمنين، إلىٰ المَلِك بجزيرة صِقِلّيّة، وأَنْكُورِيَة وأَنطالِيَـة وقِلَّوْرِيَة وسترلو وملف وما ٱنضاف إلىٰ ذلك، وفَّقه الله فى مقاصده! وأرشده إلىٰ العمل بطاعته فى مَصادِره ومَوارِدِه؛

سلامٌ علىٰ من ٱتَّبع الهـدىٰ، وأمير المؤمنين يَحمَـدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ويسألُه أن يصلِّيَ علىٰ جدّه محمدٍ خاتَمِ النبيِّين، وسيدِ المرسلين، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين، الأئمة المَهْدِيِّين، وسَلَّم تسليما .

أما بعدُ : فإنه عُرِض بحضرة أمير المؤمنين الكتابُ الواصل من جِهَتك، ففُضَّ ختامُه وٱجتُلِي، وقُرِئَ مضمونُه وتُلِي، ووقعتِ الإصـاخةُ إلىٰ فُصوله، وحصلت الإحاطة بجُمَله وتفاصيله، والإجابةُ تأتِي علىٰ أجمعه، ولاتُخِلُّ بشيء من مستَوْدَعه؛ أما ما ٱفتتحتَهُ به من حمدِ الله تعـالىٰ علىٰ نِعَمه، وتوسـيعك القولَ فيما أولاكَ من إحسانه وكرمه، فإنَّ مواهب الله تعالىٰ ومِنَنَه التى جعل تَوالِيَهـا ٱختبار شُكر العبـدِ وٱمتحانَهُ علىٰ أنه بخائنةِ الأَعْيُن وماتُخْفِي الصدورُ عليم، وهو القائلُ فيمَنْ أثنىٰ عليهم : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ ٱمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ لَهُمْ مَغْفِرةٌ وأَجْرٌ عظِيمٌ﴾ لا يزالُ مُضاعِفَها ومُرادِفَها، ومُتْبِعا سالِفَها آنِفَها، وهو يُولِيهـا كلًّا من عبيده بقَدْر منزلتـه عِنْده، ويَخُصُّ أصـفياءه بأوفىٰ ممـا تمنَّاه الآملُ المُبالغ ووَدَّه، واللهُ تبارك وتعـالىٰ يمنحُ أميرَ المؤمنيـن، وآباءه الأئمةَ الراشدين، ماغدَتْ مستقدِماتُ الحمد والشكرِ عند لوازِمه مستأْخِره، إذكان أفردَهُمْ دون الخليقـة بأن أعطاهم الدنيـا ثم أعطاهُم معها

(١) فى التعبير تساهل والغرض معلوم .

الآخِره ، واختصَّهم من حِبَائه بما لا يُحصِيه عدد ، وخوَّلهم من آلائه بما لا يَقُوم بشُكْره أحد .

وأما ما ذكرتَه من افتتاحك الجزيرةَ المعروفةَ بجِرْبَة لما شرحته من عُدْوان أهلها ، وعُدُولهم عن طُرُق الخيرات وسُبُلها ، واجترائِهم فى الطُّغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلِها ، واستعمالهم الظُّلْمَ تمرُّدا ، وتماديهم فى الغىّ تباهياً فى الباطل وغُلُوًّا ، يَأْسًا من الجزاء لَمَّا استبطئُوه ، فإن من كانت هذه حالتُهُ حقيقٌ أن تكون الرحمة عنه نائيه ، وخليقٌ أن يأخذَه الله من مَأْمنِه أخذةً رابِيه ؛ كما أنه مَنْ كان من أهل السلامه ، وسالكًا سبيل الاستقامه ، ومُقْبِلا على صَلَاح شانه ، وغيرَ متعدّ للواجب فى سِرِّه و إعلانه ، تعين أن نوفِّر من الرعاية سَهْمَه ، ونُجْزِل من العناية نَصيبه وقِسْمه ، ويُؤَمَّن مما يُقْلِقُه ويُزْعِجه ، ويُقْصَد بما يَسُره ويُبْهِجه ، ويُصان عن أن ينالَهُ مكروه ، ويُحمىٰ من أذَى يُلِمُّ به ويَعْروه .

وأما شُكْرك لوزيرك الأميرِ تأييد الدولة وعَضُدها عزِّ الملك وفَخْرِه نظام الرِّياسة ، أميرالأمراء ، فإنَّ من تهذَّبَ بتهذيبك ، وتخلَّق بأخلاقك وتأدَّب بتأديبك ، لا يُنْكَر منه إصابةُ المَرامى ، ولا يُستَغْرَب عنده نُجح المساعى ؛ وواجبٌ عليه أن لا يجعل قلبه إلا مثوًى للنصائح ، وأن لا يزال عُمَره بين غادٍ فى المخالصة ورائح .

وأما المركب العروس ووصول كتاب وكيله ذاكرا ما اعتمده مقدَّمُ أُسْطولك من صَوْنه وحِمايته ، وحِفْظه ورِعَايته ، وإعادةِ ما كان أُخِذ منه قبل المعرفة بأنه جارٍ فى الديوان الخاص الحافظى ، ففِعْل يَجْمُل عنك صَدَره ، ويليقُ بك أن يُنْسَب إليك ذكْرُه وخَبَره ، ويدلُّ على علم أصحابك برأيك وإحكام مُعاقَدة المودّه ، ويُعرِب عن إيثارك إبرازَها كُلَّما تقادم عهدُها فى مَلَابِس بهجة مستجَدّه ، وهذا الفعلُ من

خلائقك الرضية غيرُ مستبْدَع، وقد ذَخَرْتَ منه عند أمير المؤمنين ماحصل فى أعز مقرٍّ وأكرمِ مستودع؛ لاجَرَم أن أوامره خرجت إلىٰ مقدّمى أساطيله المظفَّرة بما يُجْنِيك ثمرةَ ماغَرسْته، ويُعلِي منار ثنائك الذى قرّرته علىٰ أقوىٰ أصلٍ وأسَّسته؛ وقد نفَذَتْ مراسِيمُه بإجرائك علىٰ غلاتك المستمرّة فى المسامحة بما وجب للديوان عما وصل برسْمك علىٰ مراكِبك، وبرسم الأمير تأييد الدولة وزيرِك، والرسولين الواردين عن حق الوُرُود إلىٰ ثغر الإسكندرية حماه الله تعالىٰ، ثم إلىٰ مصر حرسها الله وحَقِّ الصدور عنهما، وكلُّ مايصل من جهتك فعلىٰ هذه القضية .

وأما شكرك علىٰ الأسْرىٰ الذين أمر أمير المؤمنين بإطلاقهم إجابةً لرَغْبتك، ورسم بتسْييرهم إليك محافظةً علىٰ مرادك وبُغْيتك؛ فأوزَعنا شِعارَهم أنهم عُتقاءُ شفاعتك، وأرِقَّاء مِنَّتك؛ فذلك من الدلائلِ علىٰ ماينطوِى عليه من جميل الرأى وكريمِ النِّيه، ومن الشواهد بأنه يُوجب لك مالا يُوجِبه لأحدٍ من ملوك النَّصْرانيه، .

وأما سؤالُك الآنَ فى إطلاق من تجدّد أسْره، وإنهاؤكَ أنَّ ذلك مما يُهِمُّك أمره؛ فقد شفَّعك أمير المؤمنين بالإجابة إليه علىٰ ماأُلِف من كريم شِيمته، وسيَّر إليك مع رسولك مَنْ تضمَّن الثبتُ ذكرَعِدّته، وقد علمتَ ما كان من أمر بهرامَ ووصوله إلىٰ الدولة الفاطمية خلَّد الله ملكَها شريدًا طريدا؛ قد نَبَتْ به أوطانُه، وقذفَتْه دياره؛ لامالَ له ولا حال، ولا عَشيرةَ ولا رِجال؛ فقبِلَتْه أحسَنَ قبول، وبلغت به فى الإحسان ما يزيد علىٰ السُّول؛ وغمَرته من الإنعام مايقْصُر عن آقتراحه كلُّ أمل، وجعلته فواضِلُها يقلِّب الطَّرْف بين الخَيل والخَوَل؛ وكانت أمورُه كلَّ يوم فى نموّ وزياده، وأحوالُه تُوفِى علىٰ البُغْية والإراده، إلىٰ أن جرتْ نوبةٌ آقتضىٰ التدبيرُ فى وقتها أن عُدقتْ به الوزاره، ونِيطت به السِّفاره؛ فوسوس له خاطرُه ما زَخرفه

البَطَر وزَيَّنَه، وصوّره الشيطانُ وحَسَّنه؛ وأظهر ماظهَرتْ أماراتُه، ووضحت أدلّتُهُ وعلاماتُه؛ فاستدعىٰ قبيلَه وأُسْرته، وجِنْسه وعَشِيرته؛ بمكاتبات منه سِرِّيَّه، وخطوط عُثِر عليها بالأرمنيه؛ فكانوا يَصِلُون أوّل أوّل، إلىٰ أن آجتمع منهم عشرون ألف رجُل من فارسٍ وراجِل، ومن جملتهم آبنا أخيه وغيرهما من أهله، فدلُّوه بالغُرور، وحَمَلُوه علىٰ ما قضىٰ بالآستيحاش منه والنُّفور؛ وقوَّوْا عزمَه فيما يؤدِّي إلىٰ آضطراب الأحوال وآختلال الأُمُور، فامتعض العساكرُ المنصورة مما أساءَ به سياسَتَهم، وأبَوُا الصبرَ علىٰ ما غَيَّر به رسْمَهم وعادتهم؛ فلما رأىٰ أمير المؤمنين ذلك آستعظم الحال فيه، وتيقَّنَ أن التغافُلَ عنه يَقْضِي بما يعْسُر آستدراكه وتَلافيه؛ فكاتب وليِّه وصفِيِّه الذى رُبِّيَ فى حَجْر الخلافه، وسما به آستحقاقُه إلىٰ أعلىٰ دَرَج الإنافه؛ وحصلتْ له الرياسة باكتسابِه وآنتسابه، وغدا النظرُ فى أمور المملكة لا يصلُح لغيره ولا يلِيق إلا به؛ السيدُ الأجلُّ الأفضل، وهو يومئذ والى الأعمال الغربية، وصدرتْ كُتُب أميرالمؤمنين تُشْعِره بهذا الأمر الصَّعْب، وتستكشِفُ به ما عَرَا الدولةَ من هذا الخَطْب؛ فأجاب دُعاءه، ولَبَّى نِداءه؛ وقام قيامَ مثلِه ممن أجزل اللهُ حظَّه من الإيمان، وجعله جلَّ وعز حسَنةَ هذا الزمان؛ وآختصَّه بعِنايةٍ قوِيَّه، وأمدّه بموادَّ عَلَوِيَّه؛ وأيَّده باعانةٍ سَماوِيَّه، تخرُج عن الآستطاعة البشَرِيَّه؛ فجمع الناسَ وقام خطيبًا فيهم، وباعثًا لهم علىٰ مايُزْلِفُهم عندالله ويُحْظِيهم؛ وموضِّحًا لهم مايُخْشَىٰ علىٰ الدولة من الأمرالمُنْكَر، فاجتمَعُوا إليه كاجتماعهم يومَ المَحْشَر، وغَصَّت النُّجودُ والأَغْوار، وآمتلأتِ السُّهول والأوعار؛ وضاقتِ الأرضُ علىٰ سَعَتها بالخَلائق، وآرتفعتْ فى توجُّهِهم لطلب المذكور الأعذارُ والعوائق؛ ولم يبق فضاءٌ إلا وهو بهم شرِق، ولا أحدٌ إلا وهو منزَعِجٌ بقَصْده وعلىٰ تأخُّر ذلك قَلِق. وكان بَهْرامُ وأصحابُه بالإضافة إليهم كالشامة فى اللَّوْن البَسِيط، وكالقَطْرة فى البحر المُحِيط؛

وساروا مع السـيّد الأجلّ الأفضـلِ نحوه مُسارِعين ، وعلىٰ الآنقِضاض عليهم متهافتين ؛ فلما شَعَر بذلك لم يبْقَ له قَرار ، ولاذَ بالهَرَب والفِرار ، يهجُرُ المناهِل ، ويَطْوِى المَرَاحِل ، ويرىٰ الشُّرود غُنْما ، ويَعُـدّ السَّلامة حِلْمـا ؛ وآستقرّت وِزارةُ أميرِ المؤمنين لهذا السيـد الأجلِّ الأفضلِ الذى لم تَزَلْ فيه راغِبـه ، وله خاطِبه ؛ ونحوَ تَولّيه إيّاها متطلِّعه ، و إلىٰ نَظَره فيها مبادِرةً متسرِّعه ، ولم تنفكَّ لِزينة دَسْتِها مستَبْطِئـه ، وفى التلهُّف علىٰ تأخُّر ذلك مُعيدةً مُبـدِئه ؛ فأحسَنَ إلىٰ الكافّة قولا وفِعْلا ، وعَمِل فى حقِّ الدولة ما لم يجعـل له فى الوُزراء شِبْها ولا فى الملوكِ العُظَماء مِثْلا ؛ وغدا لِلمِلَّةِ الحنيفيّـة حُجّةً و بُرهانا ، وأَوْلىٰ الأولياءَ إعزازًا وتكْرِيمـا والأعداءَ إذْلالا و إهْوانا ؛ وصانَ الخلافةَ عن نَفاذِ حِيلَه ، وتمام غِيلَه ؛ ومُخادَعة ماكِر ، ومخاتَلة غادِر ؛ فلذلك آنْتضاه أميرالمؤمنين حُساما باترًا ماضِىَ الغِرار ، وآجتباه هُمـامًا فى المَصالح لا يَطْعَمُ جفنُـه غيرالغِرار ؛ وآصطفاه خَليـلا وظَهِيرا لتَساوِى باطنِـه وظاهِرِه فى الصَّـفاء ، وآستخلصه لنفسه لمَفَاخِره الجَمَّـة التى ليس بهـا من خفاء ، وآنتظمت الأمورُ بكَفَالته فى سلك الوِفاق ، وعمَّت الخيراتُ بِوِزَارته عمومَ الشمس بأنوارها جميعَ الآفاق ؛ فسَعِدت بنظره الجُدُود ، وتظاهَرتْ ببركاته الميامِنُ والسُّعود ؛ وأصبح غُصْن المعالى بيُمْنِه مُورِقا ، وعلىٰ المِلَّة من يُمن آرائه تمائمُ من مَسِّ الحوادث ورُقىٰ ، فآثارُه تُوفِى علىٰ ضياء الصَّباح ، وعَزَماتُه تُزْرى بمَضاءِ المهنَّدة الصِّفاح ، ومآثِرُه تفُوتُ شأْوَ الثناء وغايةَ الآمتداح . فاللهُ تعـالىٰ يحفظُ النعمةَ علىٰ الخلافة الحافظيّه ، ويُوزِع شُكْرَه علىٰ سُبُوغِها كافّةَ البريّه ؛ بكرمه وفضله ، ومَنّه وطوله .

ولمـا أمعَنَ بهرامُ فى الهَرَب ، وجَدّت العساكرالمنصورةُ وراءه فى الطّلَب ؛ وضاقتْ عليه المَسَالك ، وتيقّنَ أنه فى كل وِجْهة يقصدُها هالك ؛ عَاد لمكارِمِ الدولة

وعواطِفِها ، وسأل أماناً على نفسه من متالِفِها ؛ فشَمِلتْه الرحمه ، وكُتب له الأمان فعاودَتْه النِّعمه ؛ وآختلَط برجال العساكر المنصوره ، وصار حظُّه بعد أن كان مبخوسا من الحُظوظ الموفُوره .

وأما آعتذار الكاتب عما وُجِّه إليه بأن من الكلام ما إذا نُقِل من لُغةٍ إلىٰ لُغةٍ أخرىٰ آضطرب مَبْناه فآختَلَّ معناه ، ولا سيما إن غُرِس فيه لفظٌ ليس فى إحدىٰ اللُّغتين سواه ؛ فقد أبان فيما نُسِب إليه السهوُ فيه عن وُضُوح سببه ، وقد قُبِل عذرُه ولم تُفَكَّ يدُه عن التمسُّك به .

وأما ما سَيَّرته إلىٰ خزائن أميرِ المؤمنين تُحفَةً وهديَّه ، وأبَنْتَ به عن هِمَّة بدَواعى المجْدِ مَليَّه ؛ فإنه وصل وتَسَلَّمَ كلَّ صِنْف منه متولِّى الخزائن المختصة به بعد عَرْضه علىٰ الثَّبَت المعطوفِ كتابُك عليه وموافَقَته ، وقد أُجْرِى رسولُك فى إكرامه ومُلاحظته علىٰ أفضل ما يعتَمَدُ مع مثله بمنزلة مَنْ ورد من جِهَته ، وعلىٰ قدر مَنْ وصل برسالته ؛ وقد سيَّر أميرُ المؤمنين من أمراء دولته ، ووجوهِ المقدَّمين بحضرته ؛ الأميرَ المؤتَمَن ، المنصور ، المنتَخَب ، مجدَ الخلافة ، تاجَ المعالى ، فخرَ المُلْك ، مُوالِىَ الدولة وشُجاعَها ، ذا النَّجابتين ، خالصةَ أمير المؤمنين ، أبا منصور جعفرا الحافظىّ رسولاً بهذه الإجابة ، لما هو معروف من سَدَاده ، وموصوفٌ من مستوفَق قَصده ومستَصْوَب آعتماده ، وأَلقِىَ إليه مايذكُره ويشْرَحه ، وعُوِّل عليه فيما يُشافِهُ به ويُوضِّحه ؛ وأصحبه من سجاياه وألطافِه ، ماتضمَّنه الثبت الواصلُ علىٰ يده ، إبانةً لمحلِّك عنده ، وموقِفِك منه ، ومكانِك لديه . وأمير المؤمنين متطلِّع إلىٰ ورود كُتُبك متضمنةً من سارّ أنبائك وطيب أخبارك ما يسْكُن إلىٰ معرفته ، ويثِقُ بعلم حقيقته ؛ فاعلَمْ هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ .

الفصـــــل الثـالث

من البـاب الثـانى من المقـالة الرابعة

(فى المكاتبات الصادرة عن الملوك ومَنْ فى معناهم ممـا الجارى عليه الحال فى زمانـنـا ، وهو علىٰ قسمين)

القســـم الأوّل

(المكاتَباتُ الصادرةُ عن الملوك إلىٰ أهل الإسلام ، وفيه أطراف)

الطــــــرف الأوّل .

(فى مكاتباتهم إلىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم، وفيه ثلاث جُمَل)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى ترتيب كتبهم إليه صلّى الله عليه وسـلم علىٰ سبيل الإجمـال)

كانتْ أُمَراء سَرَاياه صلّى الله عليه وسلم ومَنْ أسلم من الملوك تفتَتح المكاتبةَ إليه صلّى الله عليه وسلم باسمه صلّى الله عليه وسلم ، ويُثَنُّون بأنفُسِهم، ويأتُون بالتحميد والسـلامِ عليه صلّى الله عليه وسـلم، ويتخلَّصُون إلىٰ المقصود بأما بعـدُ أو بغيرها، ويختِمُون بالسلام . وملوكُ الكفر يبدءُون بأنفُسِهم ؛ وربمـا بدءوا باسمه صلّى الله عليه وسلم . وكان المكتوبُ عنه منهم يعبِّر عن نفسه بلفظ الإفراد . مثل : أنا،ولى، وقلت، وفعلت . وربما عبَّر بعضُ الملوك عن نفسه بنون الجمع . ثم إنْ كان المكتوب عنه مسـلِما ، خاطبه صلّى الله عليه وسـلم بلفظ الرِّسالة والنُّبوة مع كاف الخطاب وتاء المخاطب، وإن كان كافرا، خاطبه بالكاف والتاء المذكورتين، وربمـا خاطبه باسمه . فإن كان المكتوب عنه مسلما ختم الكتابَ بالسلام عليه صلّى الله عليه وسلم .

أما عَنْونةُ هذه الكُتُب، فيظهر أنها إن ٱفتُتِحتْ باسمه صلّى الله عليه وسلم، وثُنّى باسم المكتوب إليه عُنْوِنَتْ كذلك، فيكتب فى الجانب الأيمن «لمحمدٍ رسول الله» أو نحو ذلك، وفى الجانب الأيسر «من فلان» وإن كانتْ ممن يفتَتح المكاتبةَ باسم نفسه عُنْوِنَتْ علىٰ العكس من ذلك .

الجمـــــلة الثـانية

(فى صورة مكاتبتهم إليه صلّى الله عليه وسلم)

[وفيـــه أسلوبان :

الأســـلوب الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب اليه)](١)

كما كتب خالدُ بنُ الوليد رضى الله عنه إليه صلّى الله عليه وسلم باسلام بنى الحارث، بالكتاب الذى تقدّمت إجابتُه صلّى الله عليه وسلم عنه، وهو علىٰ ماذكره ابن هشام فى "السِّيرة" .

" لمحمدٍ النبىّ صلّى الله عليه وسلم رسولِ الله من خالدِ بنِ الوليد :

السلامُ عليك يا رسولَ الله ورحمةُ الله وبركاتُه، فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو. أما بعدُ يارسولَ الله صلّى الله عليك، فإنّك بعثتَنِى إلىٰ بنى الحارثِ بنِ كَعْب، وأمرتَنِى إذا أتيتُهم أن لّا أقاتِلَهم ثلاثةَ أيّام، وأن أدْعُوَهم إلىٰ الإسلام، فإن أسلَمُوا قبِلْتُ منهم وعلّمتهم مَعالِمَ الإسلام ثلاثة أيام وكتابَ الله وسنّةَ نبيه، وإن لم يُسْلِمُوا

---

(١) الزيادة ساقطة من الاصول وهى لازمة لانتظام الكلام واتساقه كما يظهر من الأسلوب الثانى الآتى.

قاتلتُهُم . وإنى قدِمْت إليهم فدعَوْتُهم إلىٰ الإســلام ثلاثةَ أيَّام كما أمر رســولُ الله صلّى الله عليه وســلم، وبعثتُ فيهم كتاباً (١) : يابنى الحارثِ أسْلِمُوا تَسْلَمُوا . فأسْلَمُوا ولم يُقاتِلوا وأنا مقيمٌ بين أَظْهُرِهم، آمُرُهم بما أمر اللهُ به، وأنهاهُمْ عمَّا نهاهُمُ اللهُ عنه، وأُعَلِّمُهم مَعالِمَ الإسلام وسنَّةَ النبىّ حتّى يَكْتُبَ إلىّ رسولُالله صلّى الله عليه وسلم. والسلامُ عليك يارسولَ الله ورحمةُ الله وبركاتُه ! " .

* * *

وكما كتب النجاشىُّ ملِكُ الحَبَشة إليه صلّى الله عليه وسلم فى جوابِ كتابه صلّى الله عليه وسلم إليه .

ونسختُه علىٰ ما ذكره ابن إسحاق :

" إلىٰ محمدٍ رسولِ الله، من النجاشىّ أصحمةَ ،

سلامٌ عليك يا رسولَ الله ورحمةُ الله وبركاته، الذى لا إلٰهَ إلا هو، الذى هدانِى للإســـلام .

أما بعدُ، فقد بلغنى كتابُك يارسولَ الله ؛ فما ذكَرتَ من أمر عيسى فورَبِّ السَّماءِ والأرْضِ إنَّ عيسىٰ عليه الســلام ما يَزِيدُ علىٰ ما ذكَرْتَ ثُفْرُوقا ، إنه لكما قُلْتَ ، وقد عرَفْنا ما بعَثْتَ به إلينا ، وقَدِمَ ٱبنُ عمِّك وأصحابُه (وفى رواية : وقد قَرَّبْنا ٱبنَ عمِّك وأصحابَهُ) وأشهدُ أنكَ رسولُ الله [صادقًا مصدَّقًا]، وقد بايَعْتُك وبايعتُ ٱبنَ عَمِّك، وأسلَمْتُ علىٰ يدَيْهِ للهِ ربِّ العالمين . وقد بعثْتُ إليك بِابْنِى، وإن شئتَ

---

(١) فى " مفتاح الافكار " ص ٦٦ وبعثت فيهم ركبانا قالوا يابنى الحارث . والزيادة التى فى آخر الصحيفة منه .

أتيك [بنفسى](١) فعلت يارسولَ الله ، فإنى أشهدُ أن ما تقولُه حقٌّ ، والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه " .

* * *

وكما كتب المُقَوْقِس صاحب مصر إليه صلى الله عليه وسلم جوابَ كتابِه الواردِ عليه منه فى روايةٍ ذكرها آبنُ عبد الحَكَم ، وهو :

" لمحمدِ بنِ عبدالله ، من المُقَوْقِس عظيمِ القِبْط . سلامٌ عليك .

أما بعدُ ، فقد قرأتُ كتابَكَ وفهمتُ ماذكرتَ فيه وماتَدْعُو إليه . وقد علمتُ أنّ نبيا قد بَقِيَ وكنتُ أظُنُّ أنه يخرُج بالشام ، وقد أكرمتُ رسولَكَ وبعثتُ إليك بجاريتَيْنِ لهما مكانٌ فى القبط عظيمٌ وكِسْوةٍ ، وأهديتُ إليك بغلةً لتركَبَها ، والسلامُ عليك " .

ولم يزد علىٰ هذا . وزاد غيرُه أنّ فى أوّل الكتاب بسمِ الله الرحمن الرحيم . وذكر الواقدىّ : أن فى كتابه إليه :

باسمك اللّهم ، من المُقَوْقِس إلىٰ محمدٍ .

أما بعد ، فقد بلَغَنِي كتابُك وفَهِمته وأنت تقولُ إن اللهَ أرسلَكَ رسولًا ، وفَضَّلك تفْضِيلا ، وأنزل عليك قُرْءانًا مُبِينا ، فكشَفْنا عن خبرك فوجَدْناك أقربَ داعٍ دَعَا إلىٰ الله ، وأصدَقَ مَنْ تكلَّم بالصِّدْق ، ولولا أنِّى ملَكْتُ مُلْكا عظيما ، لكُنْتُ أوّلَ من آمَنَ بك ، لعِلْمِى أنك خاتَمُ النبيين وإمامُ المرسلين . والسلامُ عليك مِنِّى إلىٰ يوم الدِّين .

---

(١) الزيادة من رواية المواهب ج ٣ ص ٣٩٥ وروايته أتيتك . قال شارحه : فى موضع المفعول أى إتيانى .

الأســـــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبــة باسم المكتوب عنه)

كما كتب مسيلمةُ الكذَّابُ إليه صلّى الله عليه وسلم الكتابَ الذى تقدّمتْ إجابته صلّى الله عليه وسلم فى المكاتبات الصادرةِ عنه، وهو :

«من مُسَيْلمةِ رسولِ الله إلىٰ محمد رسولِ الله .

أما بعدُ، فإنّى قد أُشْرِكتُ فى الأمرِ معَك، إنَّ لنا نِصْفَ الأرضِ ولقريش نِصْفَ الأرض، ولٰكنّ قُرَيْشًا قومٌ يعْتَدُون» .

الجمـــلة الثـالثــــة

(فى المكاتبَات التى كُتبت إليه قبلَ ظُهوره صلّى اللهُ عليه وسلم وبعد وَفَاته)

أما الكُتُب التى كُتبتْ إليه صلّى الله عليه وسلم قبل ظُهوره، فقد حكى "صاحب الهنـاء الدائم بمولد أبى القاسم" أن تُبَّعا الأوّلَ حين مَرَّ بموْضِع المدينة النبوِيّة، علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام والتحية والإكرام، أخبَره مَنْ معه من عُلَماء أهل الكتاب أنَّ هــذا الموضع مُهاجَرُ نبىّ يخْرُج فى آخر الزمان، فعَمَر هناك مدينةً وأسكن فيها جماعةً من العلماء، وكتب إليه كتابًا فيه :

«أما بعدُ، يا محمدُ فإنّى آمنْتُ بِكَ وبربِّكَ وربِّ كلِّ شيءٍ، وبكتابه الذى يُنْزِله عليك وأنا علىٰ دِينِك وسُنَّتك . آمنتُ بربِّكَ وربِّ كلِّ شيءٍ، وبكل ماجاء من رَبِّك من شَرَائع الإسلام والإيمان . وإنى قُلتُ ذلك، فإن أدركْتُكَ فبِها ونِعْمَتْ، وإن لم

أُدرِكْكَ فاشْفَعْ فِيّ يومَ القيامةِ ولا تنْسَني ، فإنى من أُمَّتك الأوّلين، وتابعتُك قبل مَجيئك وقبل أن يُرسِلَكَ اللهُ ، وأنا علىٰ مِلَّتك ومِلَّةِ أبيك إبراهيم » . (١)

وختم الكتّابَ . ونقش عليه « لِلهِ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ويَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ بنصر الله » .

وكتب عنوانه : «إلىٰ محمد بن عبدِ الله خاتَمِ المرسلين ورسولِ رب العالمين صلّى الله عليه، من تُبَّعٍ الأوّل حِمْير، أمانَةُ اللهِ فى يَدِ مَنْ وقع إليه أن يَدْفَعه إلىٰ صاحِبِه » .

ودفَعه إلىٰ رئيس العلماء الذين رَتَّبهم بالمدينة ، فبقِيَ عنده وعند بَنِيه يتداولُونه واحدًا بعد واحدٍ، حتّى هاجر النبيُّ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المدينة، فلقيَه الذى صار الكتّابُ إليه يومئذٍ من بَنِي ذلك العالِم فى طريق المدينة ودفع إليه الكتّابَ .

وأما الكُتُب التى تُكْتَب إليه صلّى الله عليه وسلم بعد وَفَاته ، فقد جرتْ عادةُ الأُمَّة من الملوك وغيرهم بكتابة الرسائل إليه صلّى الله عليه وسلم بعدَ وفاتِه بالسلام والتحيَّةِ والتوسُّل والتشَفُّع به إلىٰ الله تعالىٰ فى المَقاصد الدُّنْيويّة والأُخْرَويّة ، وتَسْيِيرِها إلىٰ تُرْبته صلّى الله عليه وسلم . وأكثرُ الناس معاطاةً لذلك أهلُ المغرب لبُعْد بلادهم ، ونُزُوح أقطارهم .

ومِن أحسَنِ ما رأيتُ فى هذا المعنىٰ ما كَتب به ٱبنُ الخَطيب وزيرُ ٱبن الأحمرِ بالأندُلس، وصاحبُ ديوان إنشائه عن سُلْطانه يوسفَ بن فَرَج بن نصر :

إذا فاتَني ظِلُّ الحِمىٰ ونَعِيمُه، * كَفَانِي وحَسْبِي أن يَهُبَّ نَسِيمُه!

(١) تقدم هذا الكتّاب فى ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ من هذا المؤلف .

وَيُقْنِعُـــنِي أَنِّي بِهِ متكَيِّفٌ : * فَزَمْزَمُهُ دَمْعِي، وجِسْمِي حَطِيمُهُ!
يَعُودُ فُؤادِي ذِكْرُ مَنْ سَكَنَ الغَضٰى * فيُقْعِـــدُه فَوْقَ الغَضٰى ويُقِيـــمُه!
ولَمْ أَرَ شَيْئًا كالنَّسِـــيمِ إذا سَرىٰ، * شَفىٰ سَـــقَمَ القَلْبِ المَشُوقِ سَقِيمُه!
نُعَـــلِّلُ بالتَّـــذْكَارِ نَفْسًا مَشُوقَةً * نُدِيرُ عَلَيْهـــا كَأْسَهُ ونَدِيمُـــهُ!
وَمَا شَـــفَّنِي بالْغَـــوْرِ رَنْدٌ(١) مُرَنَّحٌ، * ولا شاقَنِي من وَحْشِ وَجْرَةَ رِيمُه،
ولا سَهِرَتْ عَيْـــنِي لبَرْقٍ ثَنِيَّـــةٍ * من الثَّغْرِ يَبْـــدُو مَوْهِنًا فأَشِيمُه.
بَـــرَانِيَ شَـــوْقٌ للنَّـــبِيِّ محمدٍ * يَسُـــومُ فُؤادِي بَرْحُه مايَسُـــومُه!
أَلَا يا رَسُـــولَ اللهِ نادَاكَ ضـــارِعٌ * علىٰ البُعْـــدِ محفُوظُ الودادِ سَلِيمُه
مَشُـــوقٌ إذا ما اللَّيْـــلُ مَدَّ رِوَاقَهُ * تَهُـــمُّ به تَحْتَ الظَّلامِ هُمُـــومُه
إذا ماحَدِيثٌ عَنْكَ جاءَتْ به الصَّبَا، * شَجَاهُ من الشَّـــوْقِ الحَدِيثِ قَدِيمُـــه
أَيَجْهَـــرُ بالنَّجْوىٰ، وأنتَ سَمِيعُهـــا! * ويَشْرَحُ ما يُخْفىٰ، وأنت عَلِيمُـــه!
وتُعْوِزُه السُّـــقْيا ، وأنت غِيـــاثُه! * وتُتْلِفُه البَلْوىٰ ، وأنت رَحِيمُـــه!
بِنُورِكَ نُورِ اللهِ قد أَشْـــرقَ الهُدىٰ * فأقْمـــارُه وَضَّاحَـــةٌ ونُجُومُـــه!
بِكَ ٱنْهَلَّ فضلُ اللهِ فى الأرضِ ساكِبًا * فأنْـــواؤُه مُلْتَفَّـــــةٌ وغُيُومُـــه!
ومِنْ فَوْقِ أَطبـــاقِ السماءِ بِكَ ٱقتدىٰ * خَلِيـــلُ الَّذِى أَوطَاكَهـــا وكَلِيمُه!
لَكَ الخُلُقُ الأَرْضىٰ الَّذِى بانَ فَضْلُه * ومَجْـــدٌ فى الذِّكْرِ العَظِيمِ عَظِيمُه!
يَجِـــلُّ مَدىٰ عَلْياكَ عن مَدْحِ مادِحٍ * فمُوسِرُ دُرِّ القَـــوْلِ فيك عَدِيمُـــه!
وَلِي يا رَسُـــولَ اللهِ فِيـــكَ وِرَاثَةٌ! * ومَجْـــدُكَ لايَنْسىٰ الذِّمامَ كَرِيمُـــه،

(١) فى نفح الطيب ج ٤ ص ٥١٦ ، وريحانة الكتاب "قد" وهو الاوضح .

وعِنْـــدِى إلىٰ أنصارِ دِينِكَ نِسْبَةٌ * هِىَ الفَخْرُ لا يَخْشىٰ انتقالًا مُقِيمُه!
وكان يُوَدّى أن أَزُورَ مُبَــوَّءًا * بِكَ ٱفتخَرَتْ أَطْلَالُهُ ورُسُـــومُه!
وقد يُجْهِـدُ الإنسانُ طِرْفَ ٱعْتِزامِهِ * ويُعْوِزُه من بَعْـــدِ ذاكَ مَرُومُـه.
وعُذْرِىَ فى تَسْوِيفِ عَزْمِىَ ظاهِرٌ * إذا ضاقَ عُذْرُ العَـــزْمِ عَمَّن يَلُومُه.
عَدَتْنِي بأقْصىٰ الغَرْبِ عن تُرْبِك العِدا، * جَلالِقَـةُ الثَّغْرِ الغريبِ ورُومُـــه،
أُجاهِدُ منهــم فى سَبِيلِكَ أُمَّـــةً * هى البَحْرُ يُعْيِي أَمْرُها مَنْ يَرُومُـه!
فلولا ٱعْتِنَـاءٌ منكَ يامَلْجأَ الــوَرىٰ! * لَرِيعَ حِمَـاهُ، وٱستُبِيحَ حَرِيمُـــه!
فلَا تَقْطَعِ الحَبْلَ الذى قَدْ وَصَلْتَه، * فمَجْدُكَ مَوْفُورُ النَّــوالِ عَمِيمُـــه!
وأنتَ لنا الغَيْثُ الذى نَسْــتَدِرُّه، * وأنتَ لنا الظِّــلُّ الذى نَسْتَدِيمُه!
ولَمَّـا نأَتْ دارِى وأعْــوَزَ مَطْمَعِى * وأَقْلَقَــنِى شَــوْقٌ تُشَبُّ جَحِيمُه،
بَعَثْتُ بها جُهْــدَ المُقِــلِّ مُعَوِّلًا * علىٰ مَجْدِكَ الأَعْلىٰ الذى جَلَّ خِيمُه!
[وَكَلْتُ بها هَمِّى وِصِـدْقَ قَرِيحَتِى * فساعَدَنِى هاءُ الرَّوِىِّ ومِيمُــه(١) !]
فلا تَنْسَنِي ياخَيْرَ مَنْ وَطِئَ الــثَّرىٰ * فمِثْـلُكَ لا يُنْسىٰ لَدَيْهِ خَدِيمُـــه!
عَلَيْــكَ صَـــلاةُ اللهِ ماذَرَّ شارِقٌ، * وما راقَ من وَجْه الصَّباحِ وَسِيمُه!

إلىٰ رسولِ الحقِّ، إلىٰ كافَّةِ الخَلْق، وغَمامِ الرحمة الصادقِ البَرْق، والحائزِ فى مَيْدانِ ٱصطفاءِ الرحمن قَصَبَ السَّبْق؛ خاتمِ الأنبياء، وإمامِ ملائكةِ السماء، ومَنْ وجبَتْ له النبوة وآدمُ بين الطِّين والماء؛ شفيعِ أربابِ الذُّنوب، وطَبِيبِ أدْواء القُـلُوب، ووسيلةِ الخَلْق إلىٰ عَلَّام الغُيوب؛ نبىِّ الهُدىٰ الذى طُهِّر قلبُه، وغُفِر ذَنْبُه، وخَتَم به

(١) الزيادة من نفح الطيب "ج ٤ ص ٥١٧" وكذا هو فى ريحانة الكتاب

الرسالةَ ربُّه ، وجَرَىٰ في النُّفوس مَجرىٰ الانفاس حُبُّه ؛ [الشَّفيع](١) المشفَّع يومَ العَرْض ، المحمودِ في مَلإ السماء والأرض ؛ صاحبِ اللِّواء المنشور يومَ النُّشُور ، والمؤتَمَنِ علىٰ سَرِّ الكتاب المَسْطُور ، ومُخرِج الناسِ من الظُّلُمات إلىٰ النُّور ؛ المؤيَّد بكفايةِ الله وعِصْمته ، الموفُورِ حظُّه من عِنَايته وحُرْمته ، الظِّلِّ الخَفَّاق علىٰ أُمَّته ؛ مَنْ لو حازتِ الشمسُ بعضَ كماله ما عَدِمتْ إشْراقا ، أو كان للآباءِ رحمةُ قلبِـه ذابَتْ نفُوسُهـم إشفاقًا ؛ فائدةِ الكونِ ومَعْناه ، وسِرِّ الوُجود الذى بَهَرَ الوُجودَ سَناه ، وصَفِيِّ حَضْرة القُـدُس الذى لاينامُ قلبُه إذا نامَتْ عيناه ؛ البشيرِ الذى سبقَتْ له البُشْرىٰ ، ورأىٰ من آياتِ ربِّه الكُبْرىٰ ، ونزل فيه سبحانَ الذى أسرىٰ ؛ مَنِ الأنوارُ من عُنْصرِ نوره مستَمدّه ، والآثارُ تَخْلَقُ وآثارُه مستَجِدّه ؛ مَنْ طُوِىَ بِساطُ الوَحْى لفَقْده ، وسُدّ بابُ الرسالةِ والنُّبوّة من بعـده ، وأُوتِىَ جوامِعَ الكلمِ فوقَفَتِ البلغاءُ حَسْرىٰ دُونَ حدّه ؛ الذى آنتقـل فى الغُـرَر الكريمة نُورُه ، وأضاءتْ لميلاده مَصانِـعُ الشام وقُصُورُه ، وطَفِقت الملائكةُ تُحَيِّيه وُفُودُها وتزورُه ؛ وأخبرتِ الكتبُ المنزَّلة علىٰ الأنبياء بأسمائه وصِفَاته ، وأُخِذ عهدُ الأنبيـاءِ(٢) به علىٰ مَنِ آتصلتْ بمَبْعَثِه منهم أيامُ حياته ؛ المَفْزَعِ الأمنعِ يومَ الفَزَعِ الأكبر ، والسندِ المعتَمَدِ عليه فى أهوال المَحْشَرْ . ذى المُعْجِزات التى أثبتتها المشاهَدَةُ والحِسّ ، وأقرّ بها الجنُّ والإنس : من جمادٍ يتكَلَّم ، وجِذْعٍ لفراقه يتألَّم ، وقمرٍ له يَنْشَقّ ، وشجرٍ يشهَدُ أنَّ ماجاء به هو الحَقّ ، وشمسٍ بدعائه عن مَسيرِها تُحْبَس ، وماءٍ من بين أصابعه يتبجَّس ، وغمامٍ باستسقائه يَصُوب ، وطُوًى بَصَق فى أُجَاجِها فأصبح ماؤُها وهو العَذْبُ المَشْرُوب . المخصوصِ بمنـاقب الكمال وكمالِ المناقِبْ ، المسمّى بالحاشرِ العاقِبْ ، ذى المَجْد البعيد المَرامى والمَراقِبْ ؛ أكرِمِ من

(١) الزيادة عن نفح الطيب (ص ٥١٧ ج ٤) المطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٢٧٩ هـ . وكذا هو فى الريحانة .

(٢) فى النفح "الإيمان به" وكذا هو فى ريحانة الكتّاب .

رُفعتْ إليه وسيلةُ المعترف المغـترب، ونجحَتْ لديه قربةُ البعيد والمُقْترِب ، سيد الرُّسُل محمد بنِ عبد الله بن عبد المطلب، الذى فاز بطاعته المُحْسِنون، وآستُنْقِذ بشفاعته المُذْنِبُون، وسَـعِدَ باتِّباعه الذينَ لاخوفٌ عليهم ولاهم يَحْزَنُون . صلى الله عليه وسلم ما لَمَعَ بَرْق، وهَمَع وَدْق، وطلعتْ شمس، ونسخَ اليومُ أَمْس .

من عتيقِ شفاعته، وعبدِ طاعته، المعتصمِ بسببه، المؤمن بالله ثم به، المستشفى بذكره كلَّما تألَّم، المفتتح بالصلاةِ عليه كلَّما تكَلَّم، الذى إن ذُكِر تمثَّل طُلوعَه بين أصحابه وآله ، وإن هَبَّ النَّسيمُ العاطرُ وجد فيه طِيبَ خِلَاله، وإن سَمِع الأذانَ تذكَّر صوتَ بِلَاله . وإن ذُكِرَ القرءان آستشْعَرَ تردُّدَ جبريلَ بين مَعاهِده وحِلَاله؛ [لاثِمِ تُرْبه ومؤمِّلِ قُرْبه ، ورهين طاعتـه وحُبِّه][1] المتوسـلِ به إلىٰ رضا ربه؛ « يوسفَ بن إسماعيل بن نصر » .

كتبته [اليك][1] يا رسولَ الله والدمعُ ماح، وخيلُ الوَجْد ذاتُ جِمَاح، عن شوقٍ يزداد كلَّما نقص الصَّبْر، وآنكسارٍ لا يُتاحُ له إلا بدُنُوِّ مَزارِك الجَبْر، وكيف لا يُعْنىٰ مَشُوقُك بالأمْر ، ويُوطِئُ علىٰ كبِـده الجمر ، وقد مطَلَت الأيامُ بالقُدُوم علىٰ تُرْبَتك المقدّسةِ اللَّحْد، ووعَدتِ الآمالُ ودانَتْ بإخلاف الوَعْد، وآنصرفت الرِّفاقُ والعينُ بنُور ضَريحك ما آكتَحَلَتْ، والركائبُ إليك ما رُحِلتْ، والعزائم قالتْ وما فعلتْ؛ والنَّواظر فى تلك المشاهد الكريمة لم تَسْرَحْ، وطيورُ الآمالِ عن وُكُور العَجْز لم تَبْرَحْ؛ فيالَهَـا من معاهِدَ فاز مَنْ حيَّاها، ومشاهِدَ ما أعطرَ ريَّاها ؛ بلادٌ نِيطَتْ بها عليك التَّمائِم ، وأشرقَتْ بنُورِك منها النُّجودُ والتَّهائم ؛ ونزل فى حُجُراتها عليك المَلَكْ، وآنجلىٰ بضياء فُرْقانِك فيها الحَلَكْ ؛ مَدارس الآياتِ والسُّوَر، ومطالِـعُ المُعْجزات السافرةِ

(١) الزيادة من نفح الطيب ص ٥١٨ ج ٤ وكذا هو فى الريحانة .

الغُرَر ، حيثُ قُضِيَت الفروض وحُتِمَتْ ، وآفتُتحتْ ســورةُ الوحى وخُتِمتْ ؛ وآبتُـدِئتِ الملةُ الحنيفيَّة وتُمِّمتْ ، ونُسِخت الآياتُ وأُحْكِمَتْ . أما والذى بعثَكَ بالحق هاديا ، وأطْلعَك للخَلْق نُورا باديًا ، لايُطْفِئُ غُلَّتى إلا شِرْبُك ، ولا يُسَكِّن لَوْعتى إلا قُرْبُك ؛ فمــا أســعدَ من أفاضَ من حرمِ الله إلىٰ حَرَمِــك ، وأصبَح بعــد أداء ما فرضْتَ عن الله ضيفَ كرِمك ؛ وعَفَّر الخدّ فى مَعَاهِدك ومعاهد أُسْرَتِك ، وتردّد ما بين دارَىْ بِعْثتك وهِجْرتِك !

وإنِّى لَمَّـا عاقَتْنى عن زيارتك العوائق وإن كانَ شُغْلى عنك بك ، وعَدَتْنِى الأعداءُ فيك عن وَصْلِ سبَبِى بسبَبِك ، وأصبحتُ مابين بحرٍ تتلاطَمُ أمواجه ، وعدوٍّ تتكاثَفُ أفواجُه ، ويحجبُ الشمسَ عند الظهيرة عَجَاجُه ؛ فى طائفةٍ من المؤمنين بك وطَّنُوا علىٰ الصَّبْر نفُوسَهم ، وجعلوا التوكُّلَ علىٰ الله وعليك لَبُوسَهم ؛ ورفعُوا إلىٰ مُصارخَتك رءُوسهم ، وآستعْذَبُوا فى مَرْضاة الله تعالىٰ ومَرْضاتك بُوسهم ؛ يَطِيرونَ من هَيْعةٍ إلىٰ أُخْرىٰ ، ويتلفَّتون والمخاوِفُ يُمْنىٰ ويُسْرىٰ ، ويقارِعُون ـ وهم الفئة القليــلةُ ـ جموعًا بجموع قيصَر وكِسْرىٰ ؛ لايبْلُغون من عدوٍّ كالذَّرِّ عند آنتشارِه ، مِعْشارَ مِعْشاره ؛ قد باعُوا من الله تعالىٰ الحياةَ الدُّنيا ، لأن تكونَ كلمةُ اللهِ تعالىٰ هى العُلْيا ؛ فيالَهُ من سِرْب مَرُوع ، وصريخٍ إلا عنك مَمْنُوع ، ودعاء إلىٰ الله وإليك مَرْفوع ؛ وصِبْيةٍ حُمْر الحَوَاصِل ، تخفِقُ فوق أوكارها أجنحةُ المَنَاصِل ، والصليبُ قد تمطّى ومدَّ ذِراعَيْه ، ورَفَعتِ الأطماعُ بضَبْعَيْــه ؛ وقد حُجِبتْ بالقَتَام السَّماء ، وتلاطمتْ أمواجُ الحــديد والبأسِ الشديد فالْتَقىٰ المــاء ، ولم يبقَ إلا الدِّماء ، وعلىٰ ذلك فمــا ضَعُفت البصائر ولا ساءَتِ الظُّنون ، وما وُعِد به الشهداءُ تعتقِــدُه القلوبُ حتّى تكادَ تراه العُيون ، إلىٰ أن نَلْقاك غدًا إن شاء الله تعالىٰ وقد أبْلينَا العُــذْر ، وأرغَمْنا الكُفْر ، وأعمَلْنَا فى سبيل الله وسبيلِك البِيضَ والسُّمْر .

استنبت(١) رقعتى هذه لتطير إليك [من شوقى] بجناح خافق، وتسعد من نيتى التى تصحبها برفيق موافق؛ فتؤدى عن عبدك وتبلّغ، وتعفر الخد فى تربتك وتمرّغ؛ وتطيب بريّا معاهدك الطاهرة وبيوتك، وتقف وقوف الخشوع والخضوع تجاه تابوتك؛ وتقول بلسان التملّق، عند التشبّث بأسبابك والتعلّق، منكسرة الطّرف، حذرا بهرجها من عدم الصّرف: ياغياث الأمّه، وغمام الرحمه، ارحم غربتى وانقطاعى، وتغمّد بطولك قصر باعى، وقوّ على هيبتك خور طباعى؛ فكم جزت من لجّ مهول، وجبت من حزون وسهول؛ وقابل بالقبول نيابتى، وعجّل بالرّضا إجابتى. ومعلوم من كمال تلك الشّيم، وسجايا تيك الدّيم، أن لا تخيّب قصد من حطّ بفنائها، ولا يظمأ وارد أكبّ على إنائها.

اللهمّ يامن جعلته أوّل الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصّوره، وأعطيته لواء الحمد يسير آدم فمن دونه تحت ظلاله المنشوره؛ وملّكت أمته ما زوى له من زوايا البسيطة المعموره، وجعلتنى من أمته المجبولة على حبّه المفطوره؛ وشوّقتنى إلى معاهده المبروره، ومشاهده المزوره؛ ووكّلت لسانى بالصلاة عليه، وقلبى بالحنين إليه، ورغّبتنى بالتماس ما لديه؛ فلا تقطع عنه أسبابى، ولا تحرمنى فى حبّه أجر ثوابى، وتداركنى بشفاعته يوم أخذ كتابى.

هذه يا رسول الله وسيلة من بعدت داره، وشطّ مزاره، ولم يجعل بيده اختياره؛ فإن لم يكن للقبول أهلا فأنت للإغضاء والسّماح أهل، وإن كانت ألفاظها وعرة فجنابك للقاصدين سهل؛ وإذا كان الحبّ يتوارث كما أخبرت، والعروق تدسّ حسب ما إليه أشرت؛ فلى بانتسابى إلى (سعد) عميد أنصارك مزيّه، ووسيلة أثيرة حفيّه، وإن لم يكن لى عمل ترتضيه فلى نيّه؛ فلا تنسنى ومن بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف

(١) جواب قوله ولما عاقتنى فى أول الفقرة السابقة فى الصحيفة قبل.

كلمتك، علىٰ أيدى خِيَارِ أُمّتك؛ فإنما نحنُ بها وديعةٌ تحتَ بعضِ أقْفالك، نعوذُ بوجه رَبِّك من إغفالك، ونَستَنْشق من رِيح عِنَايتك نَفْحه، ونَرْتقِبُ من نُور مُحيًّا قَبُولك لَمْحه ؛ نُدافِع بها عَدُوّا طَغىٰ وبَغىٰ، وبَلَغ من مُضايَقتنا ما ٱبتغىٰ؛ فمواقفُ التمحيص قد أعيَتْ مَنْ كَتَبَ ووَرَّخ، والبحرُ قد أصمتَ من ٱستَصْرَخ؛ والطاغيةُ فى العُدْوان مستَبْصر، والعَدُوّ محلِّق والوَلِىّ مقَصِّر . وبجاهك نَدْفَع مالا نُطيق، وبعنايتك نُعالِجُ سقِيمَ الدِّين فيُفِيق؛ فلا تُفْرِدْنا ولا تُهْمِلْنا، ونادِ رَبَّك فينا : ربَّنَا وَلَاتُحَمِّلْنا؛ وطوائفُ أمتك حيثُ كانُوا عنايةٌ منك تَكْفِيهم، وربُّك يقول لك وقولُه الحَقُّ : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنْتَ فِيهِمْ﴾ .

والصلاةُ والسـلامُ عليكَ يا خيْرَ مَنْ طافَ وسَـعىٰ ، وأجاب داعِيـًا إذا دعَا ؛ وصـلّى الله علىٰ جميع أحزابِك وآلِك ، صـلاةً تليقُ بجَلَالك وتَحِقُّ لكَمالك ؛ وعلىٰ ضَجِيعَيْك وصدِيقَيْك، وحبِيبَيْك ورفِيقَيْك : خليفتك فى أمتك، وفارُوقك المستخْلَف بعده علىٰ جِلّتِـك ، وصِهْرِك ذى النُّورَيْن المخصوص بِبِرِّك ونِحْلتـك ، وٱبنِ عمكَ سِيفِكَ المسلولِ علىٰ حلتك، بدرِ سمائك ووالد أهِلَّتك؛ والسلامُ الكريم عليك وعليهم [كثيرا بثيرا](١) ورحمة الله وبركاته .

من حضرة جزيرة الأندلُس غَرْناطةَ صانها الله ووقَاها ، ودفع عنها ببركتك كيـدَ عـــدَاها .

---

(١) الزيادة عن "نفح الطيب" .

الطـــرف الثـانى

(فى المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمراء السرايا، إلى الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى ترتيب هذه المكاتبات على سبيل الإجمال)

كانت المكاتبةُ إليهم تُفْتَتح تارةً بلفظ «من فلان إلى فلانٍ» ويؤتى فى الصدر بالســلام والتحميدِ على نحو ما تقدّم فى المكاتبة عن الخلفاء . ويقع التخلُّص إلى المقصود بـ«أما بعدُ» وتارةً يقع الافتتاحُ بـ«أما بعدُ» ويؤتى بالمقصود تِلْوَذلك؛ ويعبِّر المكتوبُ عنـه فيها عن نَفْســه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمير المؤمنين، وتختَم بالسلام على أمير المؤمنين .

الجمـــلة الثـانيـــة

(فى صُورة هذه المكاتبات، وهى على أُسلوبيْنِ كما تقدّمت الإشارةُ إليه)

الأسلوب الأوّل

(أن تُفْتَتَح المكاتبةُ بلفظ «لفلان من فلان»)

وكان الرسم فيها أن يُكْتَب : «لعبد الله فلانٍ أمير المؤمنين، ســلامٌ عليك فإنّى أحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو أما بعدُ فإنَّ كذا» .

كما كتب عمرو بنُ العاص إلى أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فى جوابِ الكتاب منه إليه المقدّمِ ذكره فى المكاتبة عن الخلفاء من الصحابة، وهو:

«لعبدِالله عمرَ أميرِالمؤمنين، سلامٌ عليك فإنّى أحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلاهو. أما بعدُ، فإنه أتانى كتابُ أمير المؤمنين يذكُر فيه فاشيةَ مالٍ فشَالى، وانه يَعْرِفُنى قبلَ

ذلكَ ولا مالَ لِى، وإنى أَعْلِمُ أمير المؤمنين أنى ببلدٍ السعرُ فيه رَخِيص، وأنّى أُعالِجُ من الزِّراعة مايُعالِجه الناسُ، وفى رِزْق أميرالمؤمنين سَعةٌ . ووالله لو رأيتُ خيانَتك حلالًا ما خُنْتك ، فأَقصِرْ أيُّها الرجلُ فإنّ لنا أحسابًا هى خيرٌ من العملِ لكَ، إن رَجَعْنا إليها عِشْنا بها ! . ولعَمْرى إنَّ عِندك مَن لا يَذُمُّ معشيةً ولا تُذَمُّ له ، فإن كان ذلك فلم يَفْتَح قُفْلك ولم يَشْرَكْك فى عَمَلِك ؟

الأســـــلوب الثـانى

(أن تفتَتَح المكاتبةُ بلفظ «أما بعدُ» ويتَوَصَّل منه إلىٰ المقصود)

كما كتب المغـيرةُ بنُ شُعْبَةَ إلىٰ معـاويةَ ـــ وهو علىٰ بعض أعمالِه ـــ يستَعْفيه عن العمل .

أما بعدُ، فقد كَبِرسِنّى ورَقَّ عَظْمى واقترب أجَلِى وسفَّهنِى سُفَهاءُ قُرَيْش، فرأْى أمير المؤمنين فى عَمَله .

الطـــرف الثـالث

(فى المكاتبات الصادرةِ عن الأمراء من العُمّال، وأمراء السَّرايَا أيضا إلىٰ خُلَفاء بنى أُمَيَّة ، وهى فى ترتيبها علىٰ ماتقدّمَ فى المكاتبات إلىٰ الخلفاء من الصحابة رضِىَ الله عنهم . وهى علىٰ أسلوبين)

الأســــلوب الأوّل

(أن تُفْتَتَح المكاتبةُ بلفظ «من فلانٍ إلىٰ فلان» علىٰ نحو ماتقدّم فى المكاتبة عنهم إلىٰ الخُلَفاء من الصحابة مع زيادةِ الدُّعاء بطُول البقاء)

كما كتب الحجاجُ بنُ يوسُفَ إلىٰ عبدِالمَلِك بنِ مَرْوانَ فىجوابِ كتابِه الوارِدِ عليه منه، فى توبيخِه له بسبَب تعرُّضه لأنس بن مالك رضى الله عنه علىٰ ماتقدّم ذكْرُه.

«لعبدالله عبدِالملك أمير المؤمنين، [أصلح الله] (١) أميرَ المؤمنين وأبقاه، وسهّل حظّه وحاطه ولا عَدِمْناه؛ فقد وصلَنِي كتابُ أمير المؤمنين أطال الله بقَاه، وجعلنى من كل مكروهٍ فِدَاه؛ يذكر شَتْمى وتَوْبِيخى بآبائى، وتَعْيِيرى بما كان قبلَ [نُزُول النِّعمة بى] (٢) من عند أمير المؤمنين أتمَّ الله نعمتَه عليه، وإحسانَهُ إليه. ويذكر أميرُ المؤمنين ٱستطالةً منى علىٰ أنَس بن مالك، وأميرُ المؤمنين أحقُّ من أقال عَثْرتى، وعفا عن ذَنْبى وأمْهلَنِي ولم يُعْجِلْنى عند هَفْوتى؛ لِلَّذى جُبِل عليه من كريم طَبَائعه، وما قلَّده الله من أمور عِبَادِه؛ فرأْىَ أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ فى تسكينِ رَوْعتى، وإفراج كُرْبَتِي؛ فقد مُلِئْتُ رُعْبا وفرَقا من سَطَواته، وفجآت نِقْماته؛ وأميرُ المؤمنين ـ أقاله الله العَثَرات، وتجاوَز له عن السيِّئات، وضاعَف له الحَسَنات، وأعلىٰ له الدَّرَجات ـ أحقُّ مَنْ صَفَح وعفَا، وتغمَّد وأبقىٰ؛ ولم يُشْمِتْ بى عدوّا مُكِبًّا، ولا حَسُودا مُضِبّا؛ ولم يُجَرِّعْنى غُصَصا. والذى وصف أمير المؤمنين من صَنِيعته إلىَّ، وتنويهه لى بما أسند إلىّ من عمله؛ وأوطأنى من رِقَاب رعيته، فصادقٌ فيه مَجْزِىٌّ عليه بالشكر، والتوسُّلِ منِّى إليه بالوِلَايه، والتقربِ له بالكِفَايه؛ وقد خضَعْت عند كتاب أمير المؤمنين، فإن رأىٰ [أمير المؤمنين] (٣) ـ طَوَّقنى الله بشُكره، وأعاننى علىٰ تأدية حَقِّه، وبلَّغنِي إلىٰ مافيه موافقةُ مَرْضاته، ومَدَّلى فى أجله ـ أن يأمر بالكتاب إلىّ من رضاه، وسلامةِ صدره، ما يُؤَمِّننى به من سَفْك دَمِى، ويردُّ ماشَرَدَ من نومى، ويَطْمَئِنُّ به قلبى فعل، فقد ورد

(١) فى الأصل "سلام علىٰ أمير الخ" والتصحيح عن مفتاح الافكار (ص ١٨٢).

(٢) بياض بالاصول، والتصحيح عن مفتاح الأفكار. وفيه بعد لفظ أنس بن مالك مانصه.
"خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جرأة على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند خطته، وأمير المؤمنين أصلحه الله من قرابته من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الهدى وخاتم النبيين أحق الخ".

(٣) الزياده عن مفتاح الافكار.

على أمر جليلٍ خَطْبه، عظيمٍ أمرُه، شديدٍ كَرْبه . أسأل الله أن لا يُسْخِط أمير المؤمنين على، وأن يُنيلَه فى حزمه، وعزمه، وسِياسته، وفِراسته، وموَاليه، وحَشَمه، وعُمّاله، وَصَنائعه، مايحمَدُ به حسنُ رأيه، إنه ولىُّ أمير المؤمنين والذابُّ عن سلطانه، والصانعُ له فى أمره، والسلام .

الأســـلوب الثـانى

(أن يُفْتَتح الكتاب بلفظ «أما بعد» ويُتَوصَّل منه إلى المقصود)

كما كتب عبدُ الله بن عمرَ رضى الله عنهما إلى عبد الملك بن مَرْوان فى خلافته :

أما بعدُ، لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر . سلامٌ عليك فإنّى أحمدُ إليكَ الله الذى لا إلٰهَ إلا هو ، وأمرنى بالسمع والطاعةِ على كتاب الله وسُنّة نبيِّه فيما ٱستطَعْت .

الطَّـــرَف الرابع

(فى المكاتبات الصادرة عن المُلوك ومَنْ فى معناهم إلى خلفاء بنى العباس ، وفيها جملتان)

الجمـــلة الأُولى

(فى المكاتبات العامّة من الملوك إلى الخُلَفاء، ولهـا حالتان)

الحـالة الأولى

(ما كان الأمرُ عليه فى ٱبتداء دولة بنى العباس وأوساطها)

أما ٱبتداء دولتهم، فكان الأمرُ فيه على ماتقدّم فى مكاتبات العُمّال ونحوهم إلى خلفاء بنى أُميّة ، وقد تقدّم تمثيله . إلا أنه زيد فيه فى صُدُور المكاتبات سؤالُ الصلاة

علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم من حين رَتَّبه المأمون فى صُدور الكتب، وتَكْنيةُ الخليفة من حين أحدثه الأمينُ فى كُتُبه علىٰ ما تقدّم بيانه فى المكاتبات عن الخلفاء فيما سلف .

***

وأما أوساط دولتهم من حين ظهور ملوك بنى بُوَيه وغلَبَتِهم علىٰ الأمر ، فللكُتَّاب فيه أُسلُوبان :

الأسلوب الأوّل

(أن تفتَتَح المكاتبة بلفظ «لفلان من فلان» وتُصَدّرَ بالسلام والتحميد وسؤالِ الصلاة علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم، ويتخلص إلىٰ المقصود بأما بعد)

والرسمُ فيه علىٰ ماذكره قُدامةُ فى كِتاب الخَرَاج أن يُكْتَب : «لعبد الله فلان أبى فلان ــ بآسمه وكنيته ونعته ــ أمير المؤمنين، سلامٌ علىٰ أمير المؤمنين، فإنّى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو وأسأَلُه أن يصَلِّىَ علىٰ محمدٍ عبدِه ورسوله صلّى الله عليه وسلم.

أما بعدُ، أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين وأدام عِزَّه وتأييدَه وكرامتَه وحِراستَه، وأتم نِعمَتَه عليه ، وزاد فى إحسانِهِ إليه، وفَضْلِهِ عنده وجميلِ بلائه لَدَيه ، وجَزِيل عطائه له» .

وزاد فى "صناعة الكُتَّاب" : فى السلام «ورحمة الله وبركاته» . قال فى "صناعة الكتّاب" : ثم يقال : أما بعدُ فقد كان كذا وكذا ، حتّى يأتى علىٰ المعانى التى يَحْتاجُ إليها . وتكون المكاتبة : ــ وقد فعل عبد أمير المؤمنين كذا ــ فإن زادتْ حالُه لم يقل عبد أمير المؤمنين ، فإذا بلغ إلىٰ الدعاء ترك فضاءً وكتب : أتَمَّ اللهُ علىٰ أمير المؤمنين نعمتَه وهنَاءه وكرامته، وألبسه عَفْوَه وعافيتَه وأمْنه وسلامتَه : والسلام علىٰ أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . وكُتب يوم كذا وكذا من شهر كذا من سنة كذا.

وقال الفضل بن سهل: يُدْعىٰ للخليفة :

أما بعدُ، أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين، وأدام عِزَّه وتأييدَه، وأتمَّ نعمتَه وسعادتَه وتوفيقَه، وزاد فى إحسانه إليه ومَوَاهِبِه له . ولا يكتب إليـه « وجعلنى فِدَاه » ويكون أوّل فصوله : أُخْبر أميرَ المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ أن كذا وكذا. ثم يوالى الفصول بـ«أيَّده الله وأدام عزه» . ونحو هذا .

وإن شِئْت كتبت : أما بعدُ أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين، وأدام عِزَّه وتأييـده وكرامَتَه، وأتمَّ نعمتَه عليه، وزادَ فيها عنده وحاطَهُ وكفاه، وتولّٰى له ما ولَّاه .

وإن شئْتَ كتبت : أطال الله بقـاءَ أمير المؤمنين فى العِزِّ والسَّـلامة، وأدام كرامته فى السَّـعادة والزِّيادة؛ وأتمَّ نعمته فى السُّـبُوغ والغِبْطة، وأصلحه وأصلح علىٰ يدَيْه ونَصَره؛ وكان له فى الأمور كلِّها ولِيًّا وحافظا .

وإن شئت كتبتَ : أطال اللهُ بقـاءَ أمير المؤمنين فى أعَزِّ العِزِّ، وأدْوم الكَرَامة والسُّرور والغِبْطة ، وأتمَّ نِعَمَه فى عُلُوٍّ من الدرجة ، وشرفٍ من الفضـيلة ، ومُتابَعٍ من العائدة، ووهب له السلامةَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة .

والذى كانتْ عليه قاعدةُ ملوك بنى بُوَيه فمَنْ بعـدهم إن كان الكتاب فى معنىٰ حدوثِ نعمةٍ من فتح ونحوه، أُتِى بعد ذلك بالتحميد مابينَ مرَّةٍ واحدة إلىٰ ثلاث مرَّاتٍ . ويعبِّر المكتوبُ عنه عن نفسه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمير المؤمنين، ويُخْتَمُ الكتابُ بالإنهاء وما فى معناه .

وهـذه نسخةُ كتابٍ كتب به أبو إسحاق الصـابى عن عز الدولة بن بُوَيه إلىٰ المُطيع لله عند فَتْحه الموصل، وهزيمة أبى تَغْلِبَ بن حَمْدانَ صاحب حَلَبَ فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، وهى :

لعبدِ الله الفضلِ [الإمام](١) المطيع لله أميرِ المؤمنين، من عَبْده وصَنِيعته عزِّ الدولة آبن مُعزِّ الدولة مَوْلىٰ أمير المؤمنين . سلامٌ علىٰ أمير المؤمنين ورحمة الله، فإنّى أحمَدُ إلىٰ أمير المؤمنين اللهَ الذى لاإلٰهَ إلا هو، وأسأله أن يصلّىَ علىٰ محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسَلَّم .

أما بعدُ ـ أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين وأدامَ له العِزّ والتأييد، والتوفيق والتّسْديد، والعُلُوّ والقُدْره، والظُّهورَ والنُّصْره ـ فالحمدُ لله العلىّ العَظيم، الأزلىّ القديم؛ المتفرِّد بالكِبْرياء والملَكُوت، المتوحِّد بالعَظَمة والجَبَرُوت؛ الذى لا تَحُدّه الصِّفات، ولاتَحُوزُه الجهات؛ ولا تَحْصُره قَرَارةُ مكان، ولايُغَيِّره مُرورُ زمان؛ ولا تَتَمَثَّلُه العُيون بنواظِرِها، ولا تَتَخيَّله القلوبُ بخَواطِرِها . فاطِرِ السموات وما تُظِلّ، وخالقِ الأرض وما تُقِلّ؛ الذى دلَّ بلطيف صَنْعته، علىٰ جليلِ حِكْمته؛ وبَيَّنَ بجَلِىّ بُرْهانه، عن خَفِىِّ وِجْدَانه؛ وآستغنىٰ بالقُدْرة عن الأعْوان، وآستَعْلىٰ بالعِزَّة عن الأَقْران . البعيد عَن كلِّ مُعادلٍ ومُضارِع، المُمْتنِع علىٰ كلِّ مُطاوِلٍ ومُقَارِع؛ الدائم الذى لايَزُول ولايَحُول، العادِل الذى لايَظْلِم ولايَجُور؛ الكريم الذى لايَضِنُّ ولايَبْخَل، الحليم الذى لا يَعْجَل ولا يَجْهَل ؛ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاإلٰهَ إلا هو فَادْعُوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، مُنْزِلُ الرحمة علىٰ كلِّ وَلىّ توكَّل عليه، وفوَّض إليه ؛ وأْتَمر لأوامره، وآزدَجر بزَواجِره، ومُحِلّ النِّقْمة بكلِّ عدوّ صَدَّ عن سبيله وسَنَنه، وصَدَف عن فرائضه وسُنَنه، وحادّه فى مَكْسَب يده ومَسْعاة قَدَمه، وخائنة عينه وخافيةِ صَدْره؛ وهو راتعٌ رَتْعة النَّعَم السائمه، فى أكلاء النِّعَم السابغه ؛ وجاهلٌ جَهْلَهَا بشُكْر آلائها ، ذاهِلٌ ذُهولَهَا عن طُرُق آستِبْقائها؛ فلا يلبَثُ أن يُنْزَع سرابِيلَها صاغرا، ويَتَعرّىٰ منها حاسِرا؛ ويجعل

(١) الزيادة من مختارات الصابى .

اللهُ كَيْدَه فى تَضْلِيل، ويُورِدُه شَرَّ المَوْرِد الوبيل، إنَّ اللهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدين، ولا يَهْدِى كَيْدَ الخائنين .

والحمدُ لله الذى آصطفىٰ للنُّبوّة أحقَّ عباده بحَمْل أعبائها، وآرْتداءِ ردائها؛ «محمدا» صلىّٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلَّم، وعَظَّم خَطَره وكَرَّم؛ فصَدَع بالرسالَهْ، وبالَغَ فى الدِّلالَهْ؛ ودَعَا إلىٰ الهِدَايه، ونجىّٰ من الغَوَايه؛ ونقَـلَ الناسَ عن طاعةِ الشيطانِ الرجيم، إلىٰ طاعةِ الرحمن الرحيم؛ وأعْلَقَهم بحبائل خالِقِهم ورازِقِهم، وعِصْمةِ مُحْيِيهم ومُمِيتهم؛ بعـدَ آنتحالِ الأَكاذِيبِ والأَبَاطِيـل، وآستِشْعار المُحَـالات والأَضَالِيل؛ والتَّهَوُّكِ فى الآعتقـاداتِ الذائدةِ عن النَّعيم، السائقة إلىٰ العذابِ الأَلِيم؛ فصلىّٰ الله عليـه من ناطقٍ بالحق، ومُنْقِذٍ للخَلْق؛ وناصحٍ للرَّبّ، ومؤدٍّ للفرض؛ صلاةً زاكية ناميه، رائحة غَادِيه؛ تزيدُ علىٰ آختلاف الليل والنَّهار، وتعاقُبِ الأعْوام والأدوار .

والحمدُ لله الذى آنتجبَ أميرَ المؤمنين [أطال الله بقاءه][(1)] من ذلك السِّنْخ الشريف، والعُنْصرِ المُنِيف؛ والعِتْرة الثابتِ أصلُها، المُمتدِّ ظِلُّها؛ الطَّيِّبِ جَنَاها؛ الممنوعِ حِمَاها؛ وحازَ له مواريثَ آبائِه الطاهِرِين، صلواتُ الله عليهم أجمعين؛ وآختصَّه من بينهم بتطاوُلِ أَمَدِ الخلافة وآستحْصافِ حَبْلِها فى يَدِه؛ ووفَّقـه لإصابة الغَرَض من كل مَرْمًى يَرْمِيه، ومَقْصِد يَنْتَحِيه؛ وهو ـ جل ثناؤه ـ الحقيقُ بإتمـام ذلك عليـه، والزيادةِ فيـه لَدَيْه . وأحمده سبحانه حَمْـدًا أبتدئه ثم أُعيده؛ وأُكَرِّره وأستَزِيدُه؛ علىٰ أنْ أَهَّل ركنَ الدولة أبا علىّ، وعضُدَ الدولة أبا شجاع مَوْلىٰ أمير المؤمنين، وأهَّلَنى للأَثْرة عنـده التى بَذَذْنا فيها الأَكْفاء، وفُتْنا فيها القُرناء؛ وتقطَّعتْ دُونها أنفـاسُ المُنافِسِين، وتضَرَّمتْ عليها أحشاءُ الحاسـدِين. وأنْ أولانِى فى كل مَغْزًى فى خدمة

(١) الزيادة من مختارات الصابى .

أمير المؤمنين أغْزُوه، ومَنْحًى أَنْحُوه، وثَأْيٍ أرْأَبُه، وشَعَث أَلُمُّه، وعَدُوٍّ أُرْغِمه، وزائغ أُقَوِّمه، أفضلَ ما أولاه عبادَه السليمةَ غُيُوبُهم، النقيَّةَ جُيُوبهم، المأمونةَ ضمائرُهم، المشحوذَةَ بصَائِرُهم، من تمكين يَدٍ، وتثْبِيتِ قدم، ونُصرةِ راية، وإعلاء كلمة، وتقريبِ بُغْية، وإنالة أُمْنِيَّة، وكذلك يكون مَنْ إلىٰ [ولاء][1] أمير المؤمنين آعتِزاؤُه، وبِشعارِه آعتزازُه، وعن زِنَاده قَدْحُه، وفى طاعته كَدْحُه، والله ولىّ [بإدامة][1] ما خَوّلنِيه من هذه المَنْقَبه، وسوّغَنيه من هذه المَوْهِبه، وأن يتوجّه أميرُ المؤمنين فى جميع خَدَمه الذابِّين عن حَوْزَته، المنتَمين إلىٰ دعوته، بيُمْنِ الطائر، وسَعَادة الطالع، ونَجاح المَطْلَب، وإدراكِ الأَرَب، وفى أعدائه الغامِطين لِنعْمته، الناقِضين مواثِيقَ بَيْعته، بإضْراع الخَدّ، وإتعاس الجَدّ، وإخْفاق الأَمَل، وإحباطِ العمل، بقدرته.

ولم يزل مولانا أمير المؤمنين [أطال الله بقاءه][1] يُنْكِر قديمًا من "فَضْل الله" بن ناصر الدولة أحوالا حقِيقًا مثلُها بالإنكار، مستحِقًّا من آرتكبها الإعراض، وأنا أذهَبُ فى حِفْظ غَيْبه، وإجمال مَحْضَره، وتمحُّل حُجَجه وتلفيقِها، وتأليف مَعَاذِيره وتنميقِها، مَذْهبِي الذى أعُمّ به كلَّ مَنْ جرىٰ مَجْراه من ناشِئ فى دولته، ومُغْتَذٍ بنعمته، ومنتسِبٍ إلىٰ وِلَايته، ومُشْتَهِرٍ بصنيعته، وأقْدِر أن أستَصْلِحه لأمير المؤمنين ــ أطال الله بقاءه ــ وأُصْلِحَه لنفْسه بالتوقِيف علىٰ مَسَالك الرَّشاد، ومَنَاهج السَّداد، وهو يُرِينِي أنْ قد قَبِل وآرْعَوىٰ، وأبْصَرَ وآهْتَدىٰ، حتَّى رَغِبْتُ إلىٰ أمير المؤمنين فيما شَفَّعنِي متفضِّلا فيه، من تَقليده أعمالَ أبيه، والقَناعة منه فى الضَّمَان بمَيْسُورِ بَذْله، وإيثارِه به علىٰ مَنْ هو فوقَهُ من كُبَراء إخْوته وأهْله.

---

(١) الزيادة من المختارات.

فلما بَلَغ هذه الحال، أَلَظَّ بالمال، وخاسَ بالعَهْد، وطَرَّق لفَسْخ العقد؛ وأجرىٰ إلىّ أمورا كرِهْتُها، ونَفِدَ الصبرُ منّى عليها؛ وخِفْت أن أستمرَّ علىٰ الإغضاء عنها والمسامحة فيها، فيَطَّلِعَ اللهُ منى علىٰ إضاعة الآحتياط فى أمرٍ قلَّدنى أميرُ المؤمنين زِمامَهُ، وضَمَّننى دَرَكه، وإرخاءِ لَبَبِ رجلٍ قَبِل فى الآعتماد عليه رَأْيِى، وعَوَّل فى أخْذِه بما يلْزَمُه علىٰ نَظَرى وآستيفائى ـ فتناولته بأطراف العَذْل مُلَوِّحا، ثُمَّ بأَثْباجه مُفْصِحا مُصَرِّحا .

ورَسَمْتُ لعبد أمير المؤمنين الناصح أبى طاهرٍ أن يُجِدَّ به وبوُسطائه وسُفَرائه فى حال، ويَدْخُلَ عليه من طريق المَشُورة والرِّفق فى أُخْرىٰ، ويَتَنَقَّلَ معه بين الخُشُونة التى يَقْفُو فيها أثَرِى، واللِّين الذى لا يجوز أن يُحِسَّه منى، تقديراً لآنثنائه وزوال آلْتوائه؛ ففعل ذلك علىٰ رَسْمه فى التأنِّى لكلِّ فاسد حتَّى يَصْلُح، ولكلِّ آب حتَّى يَسْمَح؛ ولم يَدَعِ التناهِيَ فى وَعْظه، والتَّمادِىَ فى نُصْحه وتعريفِه سُوءَ عاقبة اللَّجَاج، ومَغَبَّةِ الإحْراج؛ وهو يزِيدُ طمعًا فى الأموال وشَرَها، وعَمًى فى الرأْىِ وعَمَها؛ إلىٰ أنْ كاد أمْرُنا معه يَخْرُج عن حدِّ الآنتظار، إلىٰ حَدِّ الرضا بالإصْرار؛ فاستأنفتُ آدِّراع الحَزْم، وآمتطاءَ العَزْم؛ ونهضتُ إلىٰ أعمال المَوْصِل وعِنْدِى أنه يُغْنِينى عن الإتمام، ويتلقَّانى بالإعْتاب وينقادُ إلىٰ المُراد، ويتَجَنَّبُ طُرُقَ العِنَاد .

فحين عَرَفَ خَبَرَ مَسِيرِى، وجِدِّى فيه وتَشْميرى؛ بَرَز بُروزَ المخالف المكاشِف، وتجرّد تجرُّدَ المُواقِع المُواقِف؛ وهو مع ذلِك إذا آزدَدْتُ منه قُرْبا، آزداد مِنِّى رُعْبا؛ وإذا دَلَفْتُ إليه ذراعا، نَكَص عَنِّى باعا .

وتوافَتْ إلىٰ حضرتى وجوهُ القبائل من عُقَيْلٍ وشَيْبانَ وغيرهما فى الجمع الكَثِيف من صَعَاليكهما ، والعــددِ الكثير من صَنادِيدِهما ؛ داخِلينَ فى الطاعة ، متصَرِّفين فى عَوَارض الخِدْمة .

فلما شارَفْتُ الحَدِيثَةَ ، ٱنتقضَتْ عزائمُ صَبْره ، وتقوّضَتْ دعائمُ أمْرِه ؛ وبطلَتْ أمانيُّه ووَساوِسُه ، وٱضمحَلَّت خَوَاطِرُه وهَوَاجِسُه ؛ وٱضطربَ عليه من ثِقاتِه وغِلْمانه مَنْ كان بهم يَعْتَضِد ، وعليهم يعْتَمِد ؛ وبدءُوا بخِذْلانه والأَخْذِ لنُفُوسهم ، ومُفارقته والطَّلبِ بحظوظهم ؛ وحصَل منهــم بحضرتى إلىٰ هذه الغــايةِ زُهاءُ خمسمائة رجل ذَوِى خَيْلٍ مختارةٍ ، وأسْلِحة شاكِيَة ؛ فصادَفُوا عندى ما أَمَّلُوا من فائضِ الإحسان ، وغامِرِ الأمْتنان ؛ وذَكَرُوا عمَّن وراءَهم من نُظَرائهم التنَزِّيَ إلىٰ الأنجذاب ، والحِرصَ علىٰ الأستِئْمان ؛ وأنهم يَرِدُون ولا يتأخَّرُون ، ويُبادِرُون ولا يتلَوَّمُون .

ولَمَّــا رأىٰ ذلك ، لم يملك نَفْسَه أنْ مضىٰ هاربًا علىٰ طريقِ سِــنْجار ، منكَشِفا عن هذه الدِّيار ؛ قانعًا من تلكَ الآمالِ الخائبه ، والظُّنون الكاذبه ؛ بسلامة حُشَاشةٍ هى رَهِينةُ غَيِّها ، وصريعةُ بَغْيِها .

وكان ٱنهزامُه بعد أنْ فعل الفِعْلَ السَّخِيف ، وكادَنَا الكيْدَ الضَّعِيف ؛ بأن أغرقَ سُفُنَ المَوْصِــل وعروبَها(١) ، وأحْرقَ جَسْرها وٱستَذَمّ(٢) إلىٰ أهلها ؛ وتزوّدَ منهم اللعْنَ المُطِيفَ به أين يَمَّ ، الكائنَ معه حيثُ خَيَّم .

ودخَلْتُها يومى هــذا ـ أيّدَ اللهُ أميرَ المؤمنــين ـ دُخولَ الغــانم الظافر ، المستَعْلِى الظاهِر ؛ فسَكَّنت نُفُوسَ سُكَّانها ، وشَرَحتُ صُدورَ قُطَّانها ؛ وأعلمتُهم ما أمرَنى

(١) نوع من السفن الرواكد كان فى دجلة ولكنه عبر عنها فى القاموس بالعربات . أى فواحدها عربة بالتحريك .

(٢) أى فعل ما يذم عليه .

به أميرُ المؤمنين ـ [أدام اللهُ عِزَّه] وأعلىٰ الله أمره ـ من تأْنِيس وحشتهم، ونَظْم أُلْفتِهم، وضَمِّ نَشَرِهم، ولَمِّ شَعَثِهم؛ وإجمالِ السِّيرة فيهم فى ضُرُوب معامَلاتِهم وعُلَقِهم، وصُنُوف متصَرَّفاتهم ومَعَايِشِهم؛ فكَثُر منهم الثنـاءُ والدعاءُ؛ والله سامعٌ ما رفَعُوا، ومُجِيبٌ ما سألوا .

وأجْلَتْ حالُ هــذا الجاهلِ ـ أيّد اللهُ أمير المؤمنين ـ عن أقْبَح هَزِيمه، وأذَلِّ هَضِيمه، وأسْوَإ رأْى، وأنكرِ آختيار؛ لأنه لم يلْقَنِى لقاءَ الباخِع بالطاعه، المعتـذِرِ من سالفِ التفريط والإضَاعه؛ ولا لِقاءَ المصدِّق لدَعْواه فى الآستقلالِ بالمُقارَعه، المحقِّق لزَعْمه فى الثبات للمُدَافَعـه؛ ولا كان فى هذين الأمرين بالبَرِّ التَّقِىّ، ولا الفاجِر الغَوِىّ، بل جمع بين نَقِيصةِ شِقاقِه وغَدْره، وفَضِيحة جُبْنه وخَوَره؛ متنكِّبا للصَّلاح، عادِلًا عن الصَّواب؛ قد ذهَبَ عنــه الرَّشاد، وضُرِبتْ بيْنَه وبيْنَه الأَسْداد، وأنزله اللهُ منزِلةَ مثْلِه ممّن أساء حِفْظ الوَدِيعــه، وجِوارَ الصَّنِيعه؛ وآستوْجبَ نَزْعَهما منه وتحويلهما عنه .

وتأمَّلْتُ ـ أيّد الله مولانا أميرَالمؤمنين ـ أمْرَه بالتَّجْريب، وتصفَّحْتُه علىٰ التقليب؛ فإذا هو الرجلُ الذى أطاعَ أبُوه فيه هَوَىٰ أمّه[(١)]، وعصَىٰ دَواعِىَ رأْيِه وحَزْمه؛ وقَدَّمَهُ من وَلَدِه علىٰ مَنْ هو آنَسُ رُشْدا، وأكبَرُ سِنًّا؛ وأثبت جأْشا، وأجرأُ جَنَانا؛ وأشجَعُ قَلْبا، وأوْسَعُ صَدْرا؛ وأجدَرُ بمخايِل النَّجابه، وشمائل اللَّبَابه .

فلما آجتمعَتْ له أسبابُ القُدْرة والثَّرْوه، وأمكنَتْه مَناهِزُ الغِرّة والفُرْصه، وثب عليه وَثْبةَ السِّرحان، فى ثُلَّة الضَّان؛ وجَزاه جَزاءَ أمِّ عامِرٍ لمُجِيرها، إذ فرَتْه بأنيابِهـا وأظافِيرِها؛ وآجتمَع [هو] وأخوه من الأمّ، المرتضِع معــه لِبَانَ الإثْم؛ المُكَنَّىٰ

(١) هى فاطمة بنت أحمد الكردية وكانت مالكة أمر ناصر الدولة . من هامش مختارات الصابى المطبوعة .

أبا البركات ـ وليس بأب لهـا ، ولا حَرِىٍّ بشيءٍ منها ـ علىٰ أن نَشَزا عنه وعَقَّاه ، وقبَضا عليه وأوْثقاه ، وأقرَّاه من قلعتهما بحيث تُقَرُّ العُتاه، وتُعاقَب الجُناه (١) ؛ ثم أتبَعا ذلك باستحلالِ دمه ، وإفاضة مُهْجته ، غيرَ راعيَيْن فيه حَقَّ الأُبُوه ، ولاحانِيَيْنِ عليه حُنُوّ البُنوه ؛ ولا متذمِّمَيْنِ من الإقدام علىٰ مِثله ممن تقدّمَتْ عنـد سلطانه قَدَمُه ، وتوكَّدت أَوَاصِرُه وعِصَمُه ؛ ولا راحِمَيْنِ له من ضَعْف شَيْخُوخته ، وذَهَل كِبْرته ؛ ولامُصْغِيَيْنِ إلىٰ وصِيَّة الله إيَّاهما به ، التى نَصَّها فى محكم كتابِهِ ، وكَرَّرها فى آيه و بيناته إذ يقول : ﴿ ٱشْكُرْ لِى ولِوَالِدَيْكَ إلَىَّ المَصِيرُ ﴾ وإذ يقول : ﴿ وقَضىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدوا إلَّا إيَّاه و بِالْوَالِدَيْن إحْساناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أحدُهُمَا أوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .

فبأىِّ وَجْهٍ يَلْقَىٰ اللهَ قاتِلُ والدٍ حَدِبٍ قد أُمِرَ أن لا يَنْهَره ؟ و بأىِّ لسانٍ يَنْطِق يوم يُسْأَل عمـا ٱستجازه فيـه وفَعَله ؟ وتالله ! لو أن بمكانه عَدُوّا لهما قد قارَضَهما الذُّحُول ، وقارَعَهما عن النُّفُوس ؛ لقَبُح بهما أنْ يَلُؤُما ذلك اللُّؤْم عنـد الظَّفَر به ، وأن يركبا تلك الخُطَّة الشَّـنْعاء فى الأخذ بناصِيته ؛ ولم يرضَ « فضـلُ الله » بمـا أتاه إليه حتّى ٱسـتوفىٰ حُدودَ قَطْع الرَّحِم ، بأن تتَبَّع أكابرَ إخْوته السالكين خلافَ

(١) فى سـنة ست وخمسين وثلثمائة قبض أبو تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان على أبيه وحبسه فى قلعة وذلك لأنه كان قد بلغ من الكبر عتيا وساءت أخلاقه وضيق علىٰ أولاده وخالفهم فى أهوائهم فضجروا منـه وكان من جملة ما خالفهم فيه أنه عند وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار عزموا على قصد العراق فمنعهم قائلا ان معز الدولة قد خلف لولده من المـال ما يتمكن معه من الظهور فاصبروا حتى يتفرق ماله فوثب عليه أبو تغلب ووضعه فى محبس فغضب بعض اخوته ووقع الخلاف بينهم وانتشر أمرهم . وكان ناصر الدولة يستنصر بابنه حمدان على أبى تغلب وأبى بركات فنقلاه الى قلعة كواشى وتوفى فى الاعتقال فى ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة اهـ من هامش المختارات المطبوعة .

سَبِيله ، المتبرِّئين إلىٰ الله من عظيم ما ٱكتَسَب ، ووَخِيم ما ٱحتقَب ، لَمَّـا غَضِـبوا لأبيهم ، وٱمتعَضُوا من المستَحِلّ فيه وفيهم : فقبض علىٰ محمد بن ناصر الدولة حيلةً وغِيـلة ، وغَدْرا ومَكِيدة ، ونابَذَ حَمْدانَ بنَ ناصر الدولة مُنابذَةً خار اللهُ له فيها ، بأن أصاره من فِنَاءِ أمير المؤمنين إلىٰ الجانب العزيز ، والحِرْز الحَرِيز ، وأن أجرىٰ اللهُ علىٰ يده الحربَ الواقعةَ بينه وبين المَعْروف بكُنْيته أبى البَركات ، التى لَقَّاه الله فيها نَحْسه ، وأتلف نَفْسه ، وصَرَعه بعُقُوقه وبَغْيه ، وقَنَّعه بعاره وخِزْيه ؛ وهو مع ذلك لا يتَّعِظ ، ولا يَنْزِع ولا يُقْلِعُ ولا يَزْدَجِر ، إصرارًا علىٰ الجرائر التى اللهُ عنها حسيبُه ، وبها طَلِيبُه ، والدُّنيا والآخرة مُرْصَدَتان له بالجزاء المحقُوق عليه ، والعقابِ المَسُوق إليه .

وأعظمُ من هذا كلِّه ـ أيد الله أمير المؤمنين ـ خَطْبا ، وأوْعَرُ مَسْلَكا ولَحْبا ، أنَّ من شرائِط العَهْد الذى كان عُهِد إليـه ، والعَقْد الذى عُقِـد له ، والضَّمانِ المُخَفَّف مَبْلَغُه عنـه ، المأخوذِ عَفْوُه منه ، أن يَتَناهىٰ فى ضَبْط الثغور وجِهـادِ الرُّوم وحِفْظ الأطراف ، ورَمِّ الأكناف ، فمـا وَفىٰ بشىءٍ من ذلك ، بل عدَلَ عنه إلىٰ الاستئثار بالأموال وٱقتطاعِها ، وإحرازِها فى مَكامِنِها وقِلَاعها ، والضَّنِّ بها دُونَ الإخراج فى وُجُوهها ، والوَضْع لها فى حُقُوقها ، وأنْ تراخىٰ فى أمرِ عظِيم الرُّوم مُهْملا ، وٱطَّرَح الفِكْر فيه مُغْفِلا ، حتّىٰ هَجَم فى الديار ، وأثَّر الآثار ، ونَكىٰ القلوب ، وأبْكىٰ العُيون ، وصَدَع الأكباد ، وأحَرَّ الصُّدور ، فما كان عنده فيه ما يكون عند المسلم القارئ لكتاب الله إذ يقول : ﴿إنَّ اللهَ ٱشْتَرىٰ مِنَ المُؤْمِنِينَ أنْفُسَهُمْ وأمْوالَهُمْ بِأنَّ لهم الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ الله فيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْه حَقًّا فى التَّوْراةِ والإنْجِيلِ والقُرْءانِ ومَنْ أوْفىٰ بِعَهْدِه مِنَ الله فٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذى بَايَعْتُمْ بِهِ وذٰلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ بل صَدَف عن ذكرِ الله لاهيا ، وعَدَل عن كتابه ساهيا ، وٱستفسَخه ذلك البَيْعَ والعَقْد ، وتنجَّزه الوَعِيدَ لا الوَعْد ، ولاطفَ طاغيـةَ الرُّوم وهاداه ، ومارَه وأعْطاه ، وصانَعه بمـال

المسلمين الذى يَلْزَمُه ـ إن سَلِم دينُه وصَحَّ يقينُه ـ أن يُنْفِقَه فى مَرابطهم، ويَذُبَّ به عن حَرِيمهم ؛ لا أن يَعْكِسَه عن جِهَته، ويُلْفِتَه عن وِجْهته ؛ بالنَّقْل إلىٰ عَدُوِّهم، وإدْخال الوَهَن بذلك عليهم. وقادَ إليه من الخيل العِتاقِ ما هو الآنَ عونٌ للكُفْر علىٰ الإيمان، ونَجْدةٌ للطاغية علىٰ السُّلْطان ؛ وكان فيما أتْحَفَه به الخمرُ التى حَظَر اللهُ عليه أن يَشْرَبها ويَسْقِيَها، وتَعبَّده بأن يجتَنِبها ويَجْتَوِيَها ؛ وصُلْبانُ ذهبٍ صاغها لَه وتقرّبَ بها إليه تقرُّبًا قد باعدَه اللهُ فيه عن الإصابة والأصاله، وأدْناه من الجَهالة والضَّلاله ؛ حتّى كأنهُ عاملٌ من عُمَّاله، أو بِطْريق من بَطارقته .

فأمَّا فشلُه عن مُكافحته، ولَهَجُه بمُلاطفته، فضدٌّ الذى أمره الله به فى قوله تعالىٰ : ﴿ يـٰأيُّها الَّذين آمنُوا قاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الكُفَّار وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظةً واْعلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾ .

وأما نَقْلُه ماَنَقل من الخيل من ديار المسلمين إلىٰ ديار أعدائهم، فنقيضُ قوله عزَّوجلَّ ﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ﴾ .

وأما إهدَاؤه الخمرَ والصُّلْبان، فخلافٌ عليه تبارك ٱسْمُه، إذ يقول : ﴿ إنَّمَا الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصابُ والأزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

كلُّ ذلك عِنادًا لرب العالمين، وطَمْسًا لأعلامِ الدِّين ؛ وضَنًّا بما يُحامِى عليه من ذلك الحُطَام، المجموعِ من الحَرام، المثمَّر من الآثام، المقتَطَع من فَىْء الإسلام ؛ وقد فعـل الآنَ بى وبالعساكر التى مَعِى ومَنْ نَضُم من أولياءِ أمير المؤمنين الذين هُمْ إخوتُه وصَحْبُه ـ إن كان مُؤْمنا، وأنصاره وحزبه ـ إن كان مُوقِنا ؛ من تَوْعِير المَسَالك وتَغْرِيق العُرُوب، وتَضْيِيق الأقوات، وٱستهلاكِ الأزْواد ؛ ليُوصِّل إلينا الضُّرَّ، ويُلْحِق بنا الجَهْد ؛ فعْـلَ العَدُوّ المبين، المخالف فى الدِّين ؛ فهل يجتـمع

[في أحدٍ من المَسَاوِي ـ أيَّد اللهُ أميرَ المؤمنين ـ ما اجتَمَع][(١)] في هذا النادِّ العائِد ، والشاذِّ الشارد ؟ ، وهل يُطْمَع مِن مِثْله في حق يَقْضِيه ، أو فَرْض يُؤَدِّيه ، أو عهد يَرْعاه ، أو ذِمام يحفَظُـه ، وهو لله عاصٍ ، ولإمامه مخـالِفٌ ، ولِوالِدِه قاتِـل ، ولِرَحِمِه قاطِع ؟ كَلَّا والله ! بل هو الحقيقُ بأنْ تُثْنىٰ إليه الأعِنَّه ، وتُشْرَعَ نحوَه الأسِنَّه ، وتُنْصَب له الأرصاد ، وتُشْحذ له السُّيوفُ الحِداد ، لِيَقْطع اللهُ بهـا دابِرَه ، ويَجُبَّ غارِبَه ، ويَصْرَعه مَصْرَع الأثيم المُلِيم ، المستحقِّ للعذاب الأليم ، أو يُفِيءَ إلىٰ الحق ، إفاءَة الداخلِ فيه بعـدَ خُرُوجه ، العائدِ إليه بعـد مُرُوقه ، التائبِ المُنِيب ، النازِع المستَقِيل ، فيكون حُكْمُه شبيهاً بحكم الراجع عن الرِّدَّة ، المحمولِ علىٰ ظاهِرِ الشريعةِ ، واللهُ يهدِى مَنْ يشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيم .

فالحمـدُ لله الذى هدانا لمَراشدنا ، ووقَفَ بنا علىٰ السبيل المُنْجِية لنا ، والمَقَاصِد المُفْضِية إلىٰ رِضاه ، البعيدةِ من سَطاه .

والحمـدُ لله الذى أعز أمير المؤمنين بالنصر ، وأعطاه لِواءَ القَهْر ، وجعلَ أولياءَه العالين الظاهرين ، وأعداءه السافِلين الهابطين ، وهَنَّاه الله هذا الفتح ولا أخلاه من أشكالٍ له تَقْفُوه وتَتْبَعه ، وأمثالٍ تتْلُوه وتَشْفَعه ، واصلًا فيها إلىٰ ماوصل فيه إليه من حِيازَتِه مُهَنَّأً ، لم يُسْفَك فيه دَمٌ ، ولم يُنْتهك محرم ، ولم يُنَلْ جَهْد ، ولم يَمْسَسْ نَصَب .

أنهيت إلىٰ أميرالمؤمنين ذلك ، لِيُضِيفَ صُنعَ الله له فيه ، إلىٰ السالِفِ من عوارِفه عنـده وأيَادِيه ، وليجَدِّدَ من شكره جَلَّ وعلا ما يكونُ داعيا إلىٰ الإدامة والمَزِيد ، مقتَضِيا للعَوْن والتأييد ، إن شاء الله تعالىٰ .

[وكتب يوم الجمعة لتسع ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وثلثمائة][(٢)]

---

(١) الزيادة عن مختارات رسائل الصابى المطبوعة (ج ١ ، ص ٩١) وهى لازمة لانتظام الكلام .

(٢) الزيادة من مختارات رسائل الصابى .

الأســـلوب الثـانى

(أن تفتتَح المكاتبة بلفظ «كتابى للخليفة والحال على كذا وكذا» ويُدْعى للخليفة بطول البقاء فى أثناء ذلك ، ويعبرِّ المِلكُ المكتوب عنه عن نفسه بلفظ الإفراد مع التصدير بالعُبودية ، ويخاطَبُ الخليفة بأمير المؤمنين ويُخْتَمُ بالدعاء ونحوه)

كما كتب أبو الفَرَج البَبَّغا عن السلطان أبى تَغْلِبَ بن ناصر الدَّولة أحدِ ملوك بنى حَمْـدان بحَلَب وما معها ، جواباً للكتاب الواردِ عليــه من الطائع أو المُطِيع بالكُنْية والخِلَع ما صُورته :

«كتابِى – أطالَ اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين – وعبدُ أمير المؤمنين مستدِيمٌ بشكرِ الله تعالىٰ مدَدَ النِّعم المتظاهرةِ عليــه ، والمِنَح المتنـاصِرةِ لدَيْه ؛ بجميـل رأيه أدامَ الله عُلُوَّه وتقديمَه – معترفٌ بمـا طَوّقتْه به السعادةُ من عَوارِف تَشْرِيفه ؛ متمسِّكٌ من الطاعة بمـا أحلَّه كَنَفَ إحسانه ، متوصِّلٌ بالطَّرَف إلىٰ الاستِزادة من طَوْله وامتنانِه .

والحمدُ لله ربِّ العالمين ، وصلَّى الله علىٰ سيد المرسلين ، محمدٍ وآله الطاهرين .

ووصــل كتابُ أمير المؤمنين – أدامَ الله نَصْره – مشتمِلًا علىٰ فوائد الإرشـاد والتوقيف ، مقْتَرِنا بخصائص التَّكْرِمة والتشريف ؛ فاقتدَيْتُ من أوامره – أعلاها الله تعالىٰ ! – بأهْدىٰ دَليل ، وسلَكْتُ فى شُكْر ما اعتمَدَنِى من إيثاره أوضَحَ سَبِيل ؛ و بَرَزْت لسائر مَنِ اختارنى – أيده الله – لسياسته من الخـاصَّة والعامّة فى الحُلَل الحالِيَة بسِمَات تشرِيفِه وإكرامه ، متدَرِّعا ثَوْبَىْ هَدْيه وسكينَته ، ومختالًا منهما بين كَنَفَىْ دفاعه ومَعُونته ؛ ومتقلِّدا عَضْــبَه الذى هَزَّ النصرُ غِرارَه ، وأطلق المَضاءُ شِفارَه ؛

وعاليًا علىٰ عُنُق الزمان، بامتطاءِ ما حبانى به من الحملان؛ مسترقَّ النية بالرَّغْبة إليه، ومستخْدِمَ النُّطْق بالثناء عليه؛ ومقتصًّا أثرَ أسلافى فى خِدْمته وخِدْمة آبائه المؤمنين، من الخلفاء الراشِدين، صلواتُ الله عليهم أجمعين؛ وٱقتفاءِ مَذْهَبهم فى الذَّب عن فِئَة الخلافة والمُراماة دُونَ المِلَّه، والٱجتهادِ فى طاعة الأئمه .

فالحمدُ لله الذى جعل صنائعَ أمير المؤمنين مستقرةً عند مَنْ يرتَبِطُها بعَلائق الشكر، ويَحْرُسها بالتوفُّر علىٰ ما أفاد الإحمادَ و جميلَ الذِّكر؛ وأدامَ علوّ أمير المؤمنين! وأيدنا بعِزِّ دولته، وبَسَط بالتمكين قُدرَته، وحَرَس من الغِيَر سلطانَه، وقَرَن بنَفَاذ الأمر يَدَه ولسانَه؛ ولا أخْلاه من ولىٍّ ينشيه ويصْنَعه، وشَكُور يُعْليه ويرفَعُه؛ وعَزْم يَحْمَدُ أثَرَه ويرتَضيه، ورأىٍ بالتوفيق يُبْرِمه ويُمْضِيه . ووفَّقنى من القيـام بحقوق خِدْمته، والتمسُّك بفرائض طاعته، والمعرفة بمواقع ٱصطِناعه وتفضُّله، والٱعتدادِ بمَنْح إنعامه وتَطَوُّله؛ لمـا يستَزيدُنى من أيادِيه وآلائِه، ويحرُسُ علىّ مَكانى من جميـل آرائه، إنه جواد كريم .

وقد آذنْتُ مَنْ بَعُـد وقَرُبَ برفع أمير المؤمنين ـ أدام اللهُ بَسْطته ـ ذِكْرِى عن تعريفِ الٱسم بنباهة الكُنْية، وإصـدار ذلك إلىٰ الأسمـاع من شَريف عبارته، والإذنِ فيه لسائر مَنْ يذكُرنى بحَضْرته، زادَ اللهُ فى جلالتها . وتقدّمتُ بإثبات ذلك علىٰ عُنْوانات الكُتُب ٱمتثالًا لأمره، وأخْذا بإذنه، ووُقُوفا عند رَسْمه؛ عارفًا قَدْرَ النعمة والمَوْهِبة فيـه . وٱعتددْتُ بمـا أعلمنيه أميرُ المؤمنين من نيابةِ فلان عبده وما توخَّاه من محمود السِّفارة، وحُسْـن الوَساطة، ووجدتُ ما يجمعُنى وإيَّاه من الإخلاص فى ولاء أمير المؤمنين أقربَ الأنسـاب، وأوكَدَ الأسـباب؛ فى تأكُّد الأُلْفة، وتثبيت قواعِدِ الطاعة؛ واللهُ يحرُسُ أمير المؤمنين فى كافَّة رعيته، وخاصَّـة أوليائه وصَنائع دولته؛ من ٱختلاف الآراء، وتشذُّب الأهواء؛ ويُعيننى من النُّهوض

بمفترَضات أياديه ، وواجبات مايُسْديه إلىّ ويُوليه ؛ [علىٰ] ماقرَّب منه وإليه ، وأزلَفَ عنده ولَدَيْه ؛ بمنه ومَشِيئته ، وحَوْله وقُوّته .

الحالة الثانية — من مكاتبات الملوك إلىٰ خُلَفاء بنى العباس ما كان عليه الأمرُ فى آخر دولتهم ببَغْداد .

والحال فيه مختلف : فتارةً يفتَتَح بالدعاء للدِّيوان العزيز، وتارةً بالدعاء لما يَعُود عليه ، وتارةً بالصلاة ، وتارةً بالسلام . وربما ٱفتُتحت المكاتبةُ بآية من القرءان الكريم مناسبة للحال .

قال المقرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى كتابه " التعريف " : والصدرُ نحو العبد أو المملوك أو الخادم يُقَبِّل الأرضَ ، أو العتباتِ ، أو مواطِئَ المواقف أو غير ذلك . ويخاطب الخليفة فى أثناء الكتاب بالدِّيوان العزيز، وبالمَوَاقف المقدّسة أو المشرَّفة ، والأبواب الشريفة ، والباب العزيز ، والمقام الأشْرف ، والجانب الأعْلىٰ أو الشريف ، وبأمير المؤمنين مجرّدةً عن سيدنا ومولانا ، ومرةً غير مجرّدةٍ مع مراعاة المناسبه والتسديد والمقاربه . ويختم الكتاب تارةً بالدعاء ، وتارةً بطالَعَ أو أنهىٰ أو غيرِهما مما فيه معنىٰ الإنهاء .

قال : وٱختُلِف فيما يخاطِبُ به المكتوب عنه عن نَفْسه : فكتب صلاحُ الدين ٱبن أيوب «الخادِم» وكتب بَنُوه والعادل أخُوه «المملوك» وكتب الكاملُ بن العادل « العبد » وجرىٰ علىٰ هذا ٱبنُه الصالح . وكتب الناصرُ بن العزيز « أقلّ المماليك » وكتب الناصر داود «أقلّ العبيد» ؛ وكان علاء الدين خوارزم شاه يكتب «الخادم المِطْواع » وتبعه علىٰ ذلك ٱبنُه جلالُ الدين ، وكانت أمُّ جلال الدين تكتب « الأمَةُ الداعية » . هذا علىٰ شَمَم أُنُوف الخوارزمية وعُلُوّ شأنهم .

وعنوان هـذه المكاتبات على آختلافها « الديوانُ العزيز، العـالى ، المَوْلوىّ ، السـيدىّ، النبوىّ ، الإمامىّ ، الفلانى (بلقب الخلافة) أدامَ الله أيَّامه ، أو خلد الله أيامه ، أو أدام الله سلطانه » على مُناسبة ما فى صَدْر الكتاب .

ثم هو على ستة أساليب :

الأســلوب الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة بالدعاء للديوان العزيز)

قال فى "التعريف" : والمرادُ بالديوان ديوانُ الإنشاء، لأنـ المكاتباتِ عنه صادرةٌ وإليـه واردةٌ . قال : وسبب مخاطَبتِهـم بالديوان الخُضْعان عن مخاطبـة الخليفة نَفْسِـه ، ويكون الدعاء للدِّيوان بمـا فيه معنىٰ دوام العِزّ والسلطان وبَسْط الظّلّ وما أشـبه ذلك . مثل : أدام الله أيامَ الديوان العزيز، أو أدام اللهُ سـلطان الديوان العزيز، أو خلَّد اللهُ أيام الديوان العزيز، أو خلَّد الله سلطان الديوان العزيز، وأدام الله ظِلَّ الديوان العزيز، وخَلَّد اللهظل الديوان العزيز، وبَسَط اللهُ ظِلَّ الديوان العزيز، وما أشبه ذلك .

وهذه نسخةُ كتابٍ كتب به القاضى الفاضلُ عن السلطانِ «صلاح الدين يوسف آبن أيوب» صاحب الديار المصرية ، إلى الناصر لدين الله الخليفةِ يومَئذ ببغداد ، بفَتْح القُدُس وما معه ، وآقتلاعِ ذلك من أيْدى الفَرَنْج وإعادته إلى ما كان عليـه من الإسلام، وهى :

«أدام اللهُ أيامَ الديوانـ العزيز النبوىّ الناصرىّ ، ولا زال مظَفَّرَ الجَدّ بكلِّ جاحد ، [غِنِيَّ](١) التوفيقِ عن رَأْى كلِّ رائد ، موقوفَ المَسَاعى على آقتنـاء مُطْلَقات

(١) بياض فى الاصول والتصحيح من رسائل القاضى الفاضل الفتوغرافية .

المَحَامد، مستيْقِظَ النَّصر والسيفُ فى جَفْنِه راقِد، واردَ الجُود والسحابُ على الأرض غيرُ وارِد، متعدِّدَ مَسَاعِى الفضـل و إن كان لا يلْقى إلا بشُكْرٍ واحد، [ماضِىَ حُكْم القول بعزم لا يمضى إلا بنَسْل غوِىٍّ و رَيْش راشـد] (١) ولا زالتْ غُيوثُ فضـله [إلى الأولياء] (١) أنواءً إلى المَرابع وأنوارًا إلى المساجد، وبُعُوث رُعْبه إلى الأعداء خَيلًا إلى المَرَاقِب وخَيَالا إلى المَرَاقد .

كتب الخادمُ هذه الخدمةَ تِلْوَماصدَر عنه ممـا كان يَجْرِى مَجْرَى التَّباشير بصُبْح هذه الخِدْمه، والعُنْوانِ لكِتَابِ وصف هذه النعمه؛ فإنهـا بَحْرٌ للأقلام فيه سَبْحٌ طويل، ولُطْفُ الحق للشُّكر فيه عِبءٌ ثَقِيل، و بُشْرى للخواطر فى شَرْحِها مآرِب، ويُسْرى للأسرار فى إظهارها مَسَارب؛ ولله فى إعادة شُكْره رِضَا، وللنعمة الراهنة به دوامٌ لايُقال معه هذا مَضى . وقد صارت أمورُ الإسلام إلى أحسن مَصَايِرها، وآستَتَبَّتْ عقائدُ أهلِه على بصائرها، وتقلّص ظلُّ رجاء الكافِر المبْسُوط، وصَدَق اللهُ أهلَ دينه فلمّـا وقع الشرط حَصَل المشرُوط، وكان الدِّين غريبًا فهو الآنَ فى وَطَنه، والفوزُ معروضا فقد بُذِلت الأنفسُ فى ثَمَنه، وأَمِرَ أمرُ الحق وكان مستضْعَفًا، وأُهِلَ رَبْعُه وكان قد عِيفَ حين عفَا؛ [وجاء أمرُ اللهِ وأُنُوف أهـل الشرك راغمه] (١) فأدْلجَت السيوفُ إلى الآجال وهى نائمه، وصَـدَق وعدُ الله فى إظهار دينـه على كلِّ دين، وآستطارتْ له أنوارٌ أبانَتْ أن الصباح عندها حِيان الحين؛ وآسـتردّ المسلمونَ تُراثا كان عنهم آبِقا، وظَفِرُوا يقظةً بما لم يُصَدِّقوا أنهم يظْفَرون به طَيْفًا على النأى طارقا؛ وآسـتقرّتْ على الأعلى أقدامُهم، وخفَقَتْ على الأقصى أعلامُهُـم، وتلاقَتْ على الصَّخْرة قُبَلُهم، وشُفِيتْ بها و إن كانت صخرةً كما تُشْفى بالمـاء غُلَلُهم .

---

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الخديوية نمرة ٢٢٩٤ أدب ص٣٥ .

ولمـا قَدِم الدينُ عليها عرف منها سُوَيْداءَ قلبه ، وهَنَّأ كفؤُها الحجرُ الأسودُ بِبَتِّ عِصْمتِها من الكافر بحَرْبه ؛ وكان الخادم لايَسْعىٰ سعْيَه إلا لهذه العُظْمىٰ ، ولا يُقاسِي تلك البُؤْسىٰ إلا رجاءَ هذه النُّعْمىٰ ؛ ولا يُنَاجز من آستمْطَله فى حَرْبه ، ولا يُعاتِب بأطراف القَنَا من تَمَادىٰ فى عَتْبه ؛ إلا لتكونَ الكلمةُ مجموعه ، والدعوةُ إلىٰ سامعها مَرْفُوعه ؛ فتكون كلمــةُ الله هى العُلْيا ، وليفوز بجوهر الآخرةِ لا بالعَرَض الأدْنىٰ من الدنيا ؛ وكانت الألسنةُ ربمـا سَلَقَتْه فأنضَجَ قُلوبَها بالآحتقار ، وكانتِ الخواطِرُ رُبَّمـا غلَتْ عليــه مَرَاجِلُها فأطفأها بالآحتمال والآصْطِبار ؛ ومَنْ طلب خطيراً خاطَرْ ، ومَنْ رام صَفْقةً رابحة تجاسَرْ ، ومَنْ سَما لأنْ يُجَلِّيَ غَمْرةً غامَرْ ؛ وإلا فإنَّ القُعود يَلِين تحت نُيُوب الأعداء المَعــاجِمَ فتعَضُّها ، ويُضْعِف فى أيديها مَهْـــر القوائم فتقُضُّها ؛ هـــذا إلىٰ كون القعُود لايَقْضِى فرضَ الله فى الجِهاد ، ولا يُرْعىٰ به حقُّ الله فى العباد ؛ ولا يُوفىٰ به واجبُ التقليد الذى تطوّقَهُ الخــادمُ من أئمــةٍ قضَوْا بالحقّ وبه كانُوا يَعْدِلُون ، وخلفاءُ الله كانُوا فى مثل هذا اليوم لله يَسْأَلون ؛ لاجَرَمَ أنهم أوْرَثُوا سُرورَهُم وسَرِيرهم خَلَفَهُم الأَطْهر ، ونَجْلَهم الأكبر ؛ وبَقِيَّتهم الشَّريفه ، وطَلْعتهم المُنِيفه ، وعُلْوانَ صحيفةِ فضلِهم لاعَدِم سوادَ العَلَمِ وبياضَ الصَّحِيفه ؛ فما غابُوا لَمَّـا حضَر ، [ولا غَضُّوا](1) لَمَّـا نَظَر ، بل وصلَهم الأجرُ لمـا كان به موصولا ، وشاطروه العملَ لمـا كان عنه منقولاً ومنه مقبولا ؛ وخَلَص إليهم إلىٰ المضاجع ما آطمأنَّتْ به جُنُوبهـا [وإلىٰ الصفائح ماعَبَقَتْ به جُيُوبها](1) وفاز منها بذِكْر لايَزَالُ الليلُ به سَمِيرا ، والنهارُ به بَصِيرا ؛ والشرقُ يهتَـدِى بأنْواره ، بل إن أبدىٰ نُورا من ذاته هتَف به الغَرْبُ بأنْ وارِه ؛ فإنَّه نور لاتُكِنُّه أغساق السُّدَف ، وذكر لاتُوارِيه أوراقُ الصُّحُف .

---

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الخديوية نمرة ٢٢٩٤ أدب ص ٣٥ . وهى لازمة كما لايخفى .

وكتابُ الخادم هذا وقد أظفر الله بالعَدُوّ الذى تشظّت قناتُه شَقَقا، وطارتْ فِرقُه فَرَقا، وفُلَّ سيفُه فصارَ عصا، وصُدِعتْ حصَاتُه وكان الأكثرَ عددًا وحصا، فكَلَّت حمَلاتُه وكانت قدرةُ الله تُصَرِّفُ فيه العِنَان بالعِيان، عقوبةً من الله ليس لصاحب يَدٍ بها يَدَان، وعثَرتْ قدمُه وكانت الأرض لها حَليفه، وغُضَّت عينُه وكانتْ عُيونُ السيوف دونها كَسِيفه، ونام جَفْنُ سيفِه وكانت يقظَتُه تُرِيق نُطَف الكرىٰ من الجُفُون، وجُدِعتْ أُنُوفُ رِمَاحه وطالمَا كانت شامخةً بالمُنىٰ أو راعِفَةً بالمَنُون، وأضحتِ الأرضُ المقدّسةُ الطاهِرةَ وكانت الطـامِثْ، والربُّ المعبودُ الواحدَ وكان عنـدهم الثالِثْ ؛ فبُيوتُ الشِّرْك مَهْدُومه، ونُيُوب الكُفْر مهْتومه، وطوائفُه المحاميه، مجتمعةً علىٰ تسليم البلاد الحامِيَه، وشُجعانُه المتوافيه، مُذْعنةً ببذل المَطَامِـع الوافِيَه ؛ لا يَرَوْن فى ماء الحَديد لهم عُصْره، ولا فى فِنَـاء الأفْنِيَةِ لهم نُصْره ؛ وقد ضُرِبَتْ عليهم الذِّلّة والمَسْـكَنه، وبدّل اللهُ مكانَ السيئةِ الحَسَـنه، ونَقَل بيتَ عبادته من أيدى أصحابِ المَشْأمةِ إلىٰ أيدى أصحاب المَيْمَنه .

وقد كان الخـادمُ لَقِيَهُـم اللّقاةَ الأُولىٰ فأمدّه الله بمداركته، وأنجده بملائكته ؛ فكسرهُمْ كَسْرةً ما بعدها جَبْر، وصَرَعهُـمْ صَرْعةً لا يَعيِش معها بمشيئة الله كُفْر ؛ وأسَرَ منهم من أُسِرَتْ به السَّـلاسِل، وقَتَـل منهم من فَتَكتْ به المَنَاصِل ؛ وأَجْلَتِ المعركةُ عن صَرْعىٰ من الخيل والسِّـلاح [والكُفَّار، وعن أنصاف محيـل فانه قتلَهم بالسـيوف الأفلاق والرِّماح الأكسار، فنيـلُوا بثأر من السـلاح ونالُوه أيضا بثـار](١) ؛ فكم أهِـلَّةِ سيوف تقارضن الضِّرابَ بهـا حتّى عادتْ كالعَرَاجين، وكَمْ أنجُم رماحٍ تبـادلَتِ الطِّعانَ حتّى صارتْ كالمَطَاعِين ؛ وكم فارسـيَّةٍ ركَضَ عليها فارسُها السَّهمَ إلىٰ أجلٍ فاختلَسه، وفغَرتْ تلك القوسُ فاهَا فإذا فُوها قدنهَش القِرْنَ

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفتوغرافية .

علىٰ بُعْد المسافة فافترسَه ، وكان اليومُ مشهودا ، وكانتِ الملائكةُ شُهودا ، وكان الكُفرُ مفقودا ، والإسلام مولودا ، وجعل اللهُ ضلوعَ الكُفَّار لنار جهنَّم وَقُودا ، وأُسِر الملِكُ وبيدِه أوثقُ وثائقِه ، وآكدُ وَصْلِه بالدِّين وعلائقِه : وهو صَليبُ الصَّلَبوت ، وقائدُ أهل الجَبَرُوت ، وما دُهِمُوا قطُّ بأمرٍ إلا وقام بين دهائِهم يَبْسُط لهم باعَهْ ، ويحرِّضُهم وكان مدُّ اليديْن فى هــذه الدَّفْعة وَدَاعه ، لا جَرَمَ أنهم تهـافَتَ علىٰ نارهم فَرَاشُهم ، وتجمَّعَ فى ظِلِّ ظَلامه خَشاشُهُم ، فيقاتلون تحت ذلك الصَّـليب أصلَبَ قتال وأصـدَقَه ، ويَرَوْنه ميثاقًا يَبْنُون عليه أشدَّ عَقْدٍ وأوثقَه ، ويَعُدّونه سُورا تَحْفِرُ حوافرُ الخيل خَنْدَقَه .

وفى هذا اليوم أُسِرتْ سَرَاتُهم ، وذهبَتْ دُهاتُهم ، ولم يُفْلِتْ معروفٌ إلا القَوْمص وكان لَعَنه الله مِليًّا يومَ الظَّفَر بالقتال ، ويومَ الخِذْلان بالاحتيَال ، فنجَا ولكن كَيْف ، وطار خَوْفا من أن يلحقه مِنْسر الرُّمْح وجَناحُ السَّيْف ، ثم أخذه اللهُ بعد أيَّام بيــده ، وأهلَكه لَمْوعده ، فكان لعِدّتهم فَذَالك ، وآنتقَل من مَلَك الموتِ إلىٰ مالِكْ .

وبعد الكَسْرةِ مرَّ الخادمُ علىٰ البِلَاد فطوَاها بما نَشَر عليها من الراية العبَّاسيَّة السوداءِ صِبْغا ، البيضاءِ صُـنْعا ، الخافقةِ هى وقلوبُ أعدائها ، الغالبةِ هى [وعزائمُ أوليائها] (١) المستضاءِ بأنوارها إذا فتح عَيْنَها البِشر ، وأشارتْ بأنامل العَـذَباتِ إلىٰ وجه النَّصْر ، فافتتح بلَدَ كذا وكذا وهــذه أمصارٌ ومُدُن ، وقد تسـمَّى البلاد بلادا وهى مَزارِعُ وفُدُن ، وكلُّ هذه ذواتُ معاقِلَ ومَعاقِر ، وبحارٍ وجَزائر ، وجَوامِعَ ومَنائر ، وجُموعٍ وعساكِر ، يتجاوزها الخادمُ بعد أن يُحْرِزَها ، ويتركُها وراءَه بعد أن يَنتهِزَها ، ويَحْصُدُ منها كُفْرا ويَزْرعَ إيمانا ، ويَحُطّ من منائرجوامِعِها صُلْبانا ويَرفَعَ أذانا ، ويُبَدِّلَ المَذَابِح

(١) الزيادة من رسائل الفاضل .

منابِر والكنائسَ مساجِد، ويُبَوِّئَ بعد أهل الصُّلْبان أهلَ القرءان للذَّبِّ عن دينِ الله مَقاعِدْ؛ ويُقِرّ عينَه وعيونَ أهل الإسلام أن تَعلَّق النصرُ منه ومن عسكره بجار ومَجْرور، وأن ظَفِر بكل سُورٍ ما كان يُخاف زِلزالُه وزِيالُه إلىٰ يوم النَّفْخ فى الصُّور. ولما لم يبقَ إلا القدسُ وقد آجتمع إليها كلُّ شريد منهم وطَرِيد، وآعتصم بمنَعَتِها كلُّ قريب منهم وبَعِيد، وظَنُّوا أنَّها من الله مانِعتُهُم، وأن كنيستَها إلىٰ الله شافِعتُهم؛ فلما (١) نازلها الخادمُ رأىٰ بلدًا كبِلَاد، وجمعًا كيوم التَّناد، وعزائمَ قد تألَّفَتْ وتألَّبت علىٰ الموت فنزلَتْ بعَرْصته، وهان عليها موردُ السيف وأن تموت بغُصَّته؛ فزاول البلَدَ من جانب فإذا أودِيَةٌ عميقه، ولُجَج وَعْرةٌ غَرِيقه، وسُورٌ قد آنعطف عَطْفَ السِّوار، وأبْرِجةٌ قد نزلَتْ مكانَ الواسطةِ من عِقْد الدار؛ فعدل إلىٰ جهةٍ أُخْرىٰ كان للمطامع عليها مُعرَّج، وللخيل فيها متوَلَّج؛ فنزل عليها، وأحاط بها وقرُب منها؛ وضُرِبت خَيْمتُه بحيث ينالُه السِّلاحُ بأطْرافه، ويزاحمُه السُّور بأكتافِه؛ وقابلها ثم قاتلها، ونزَلَها ثم نازَلها؛ وبرزَ إليها ثم بارزَها، وحاجَزَها ثم ناجَزَها؛ فضَمَّها ضَمَّةً آرتقَبَ بعدها الفَتْح، وصَدَع أهلَها فإذا هم لايَصْبِرُون علىٰ عُبُودية الجدّ عن عتق الصَّفْح؛ فراسلُوه ببَذْل قَطِيعة إلىٰ مُدَّه، وقصَدُوا نَظِرةً من شِدّة وآنتظارًا لنَجْدَه؛ فعرَفَهم فى لَحْن القَوْل، وأجابهم بلسان الطَّوْل؛ وقدّم المَنْجنيقاتِ التى تتولّى عُقوباتِ الحُصونِ عِصِيُّها وحبالُها، وأوتَرَلهم قِسيَّها التى تَضْرِب فلا تُفارِقها سِهامُها ولا يُفارِقُ سِهامَها نِصالُها؛ فصافحَتِ السُّورَ بأكافه فإذا سَهْمُها فى ثَنَايَا شُرُفاتِها سِوَاك، وقَدَّم النصرُ نَسْرا من المَنْجنيق يُخْلِد إخلادُه إلىٰ الأرض ويَعْلُو عُلُوُّه إلىٰ السِّماك؛ فشَجَّ مَرادِعَ أبراجها، وأسمعَ صوتَ عجِيجِها، ورفع مُثَار عَجاجِها، فأخلىٰ السُّور من السَّيَّاره، والحَربَ من النَّظَّاره؛ فأمكن النَّقّاب، أن يُسْفِر للحرب النِّقاب، وأن يُعِيد

(١) كذا فى الرسائل أيضا بغير ذكر جواب لما الأولى وهو مفهوم من المقام .

الحجرَ إلىٰ سِيرته من التُّراب، فتقدّم إلىٰ الصَّخر فمضغ سَرْدَه، بأنيابِ معْولِه، وحَلَّ عَقْده، بضَربِهِ الأخرقِ الدالِّ علىٰ لَطَافة أنْمُله، وأسمعَ الصخرةَ الشريفةَ حَنينَه واستغاثته إلىٰ أن كادت ترق لمُقَبِّله، وتبرَّأ بعضُ الحجارة من بعض، وأخذ الخرابُ عليها مَوْثِقا فَلَنْ تَبْرحَ الأرض، وفُتِح فى السور بابٌ سَدَّ من نَجَاتهم أبوابا، وأخذ نقْبٌ فى حجره قال عنده الكافر: يالَيْتَنِي كُنْتُ تُرابا، فحينئـذ يئس الكُفَّارُ من أصحاب الدُّور، كما يئس الكُفَّار من أصحاب القُبور، وجاء أمرُ الله وغَرَّهم باللهِ الغَرُور.

وفى الحال خرج طاغيةُ كُفْرهم وزِمامُ أمرِهم ٱبن بارزان سائلا أن يُؤخَذَ البلَدُ بالسِّلْم لا بالعَنْوه، وبالأمان لا بالسَّطْوه، وألقىٰ بيده إلىٰ التَّهْلُكه، وعَلاه ذُلُّ المَلَكة بعد عِزِّ المملَكه، وطرح جَبِينَه فى التُّراب وكان حينًا لا يتعاطاه طارِح، وبذل مَبْلَغًا من القَطِيعة لا يطمَحُ إليه طَرْفُ آملٍ طامح، وقال: ها هنا أُسارىٰ مؤمنون يتجاوزُون الألوف وقد تعاقد الفَرَنْج علىٰ أنهـم إن هُجِمت عليهم الدار، وحَمَّلت الحربُ علىٰ ظهورهم الأوزار، بُدِئ بهـم فعُجِّلوا، وثُنِّي بنساء الفَرَنْج وأطفالهم فقتِّـلوا، ثم ٱستـقتَلُوا بعـد ذلك فلم يُقْتَل خَصْم إلا بعد أن يَنتَصِف، ولم يُسَلَّ سيفٌ من يدٍ إلا بعد أن تنقطِع أو ينقَصِف، وأشار الأمراءُ بالأَخْذ بالمَيْسور، من البلد المأسُور، فإنه إن أُخِذ حَرْبا فلا بدّ أن تقْتحِم الرجالُ الأنجاد، وتبْذُل أنفُسَها فى آخر أمرٍ قد نِيل من أوّله المُراد. وكانت الجراحُ فى العساكرقد تقدّم منها ما ٱعتقل الفَتَكات، وٱعتاقَ الحَرَكات، فقُبِل منهـم المبذُولُ عن يدٍ وهم صاغِرُون، وٱنصرف أهلُ الحرب عن قُدْرة وهم ظاهِرُون، وملك الإسـلامُ خِطَّةً كان عهدُه بها دِمْنَةَ سُكَّان، فخدمها الكُفْرُ إلىٰ أن صارَتْ روضةَ جنـان، لا جرَمَ أن الله أخرجهم منها وأهبطَهم، وأرضىٰ أهل الحقّ

وأسْخطَهم، فإنَّهم ـ خذلهم الله ـ حَمَوْها بالأسَلِ والصِّفاح [وبَنَوْها بالعمَد والصُّفَّاح][1] وأوْدَعُوا الكنائسَ بها وبيوتَ الديوية والاستبارية منها كلّ غريبةٍ من الرُّخام الذى يَطَّرِد ماؤه، ولا يُطْرَد لألاؤه، قد لَطُف الحديدُ فى تجزيعه، وتفنَّن فى توْشيعه، إلىٰ أنْ صار الحديدُ، الذى فيه بأس شديدٌ، كالذهب الذى فيه نَعيم عَتيد، فما تَرىٰ إلا مقاعدَ [للرياض لها من بياض الترخيم رَقْراق، وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق][1] .

وأوزع الخادمُ بَرِّد الأقصىٰ إلىٰ عَهْده المعهود، وأقام له من الأئمة من يُوفِّيه وِرْدَه الموْرُود، وأُقيمت الخطبةُ يوم الجمعة رابعَ شهر شعبان، فكادتِ السمواتُ يتفطَّرنَ للسُّجُوم لا للوُجُوم، والكواكبُ يَنْتثِرْن للطَّرَب لا للرُّجُوم، ورُفعَتْ إلىٰ الله كلمةُ التوحيد وكانتْ طرائقُها مسدُودَه، وظهرَتْ قُبورُ الأنبياء وكانتْ بَيْنَهم بالنَّجاسات مَكْدُوده، وأُقيمت الخمسُ وكان التثليث يُقْعِدها [وجَهَرت الألسن بالله أكبر وكان سِحْرُ الكفر يَعْقِدُها][1] وجُهِر باسم أمير المؤمنين فى قُطْبه الأقرب من المِنْبر، فرُحِّب به ترحيبَ مَن بَرَّ بمن بَرّ، وخَفق عَلَماه فى حِفافيه، فلو طار به سُرورا لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مُجِدّ فى ٱستفتاح بقيَّة الثُّغور، وٱستِشْراح ما ضاق بتمادِى الحَرْب من الصُّدُور، فإنَّ قُوىٰ العساكر قد ٱستُنْفِدَتْ موارِدُها، وأيَّامَ الشتاء قد مَرَدَتْ موارِدُها، والبلاد المأخوذةُ المشارُ إليها قد جاستِ العساكرُ خلالَها، ونَهَبَتْ ذخائرَها وأكلَتْ غِلالَها . فهى بلاد تُرْفِد ولا تُسْترْفَد، وتُجَمّ ولا تستنْفَد، ويُنفَق عليها ولا يُنْفَق منها، وتُجهَّز الأساطيل لبحرها، وتقام المَرابِط لبرِّها، ويُدْأب فى عمارة أسوارها ومَرمَّات معاقلها؛ وكلُّ مشقَّة فهى بالإضافة إلىٰ نعمة الفتح

(١) الزيادة من نسخة الرسائل الفتوغرافية .

محتَمَلة ، وأطماعُ الفرنج فيما بعدَ ذلك مذاهِبُها غيرُ مُرجِئة ولا مُعتَزِله ، فلن يَدَعُوا دَعوة يرجُو الخادم من الله أنها لاتسمَع ، ولن تزولَ أيديهم من أطواق البلاد حتّى تُقْطَع .

وهذه البشائر لهـا تفاصيلُ لا تَكادُ من غير الألسنة تتشخَّص ، ولا بمـا سوىٰ المشافهة تتلخَّص . فلذلك نَفَّـذنا لسانا شارحا ، ومبَشِّرا صادحا ، ينشُر الخـبرَ علىٰ سياقته ، ويَعْرِض جيشَ المَسَرة من طَليعته إلىٰ ساقته .

الأســـلوب الثـانى

(أن يفْتَتَح الكتاب بالدعاء لغير الديوان بما فيه تعظيمُ الخليفة)

كما كتب القاضى الفاضلُ عن الملك الناصر « صلاح الدين يوسف بن أيوب » إلىٰ ديوان الخلافة ببغداد .

أسـعدَ اللهُ عظماءَ الأملاك بالانتِساب إلىٰ الخدمة الشريفةِ النبوية ، وأوزَعهم ما أمَرَهم به من طاعتها . وخَلَّد مُلْكَ الديوان العزيز النبوىّ ما دامتِ الأفلاكُ قائمه ، والنُّجومُ ناجمـه ، ونَقَع بغَمَائمها (١) غُلَلَ الآمال الحـائمه ، وفَسَّر بمكارمها حُلُمَ الأمانِىّ الحـالمه ، ورَتَق بتـدبيراتها المعصومةِ فُتوقَ النُّوَب المتعاظمه ، وأظهر علىٰ أيدى أوليـائها معجزاتِ نَصرِها ، وصَرَّف الأيَّامَ والليالىَ بين المَرْضِيَّينِ لله نهيِها وأمْرِها ، وأودَعَ بركاتِ السماء والأرض بمُودَعها ومستقَرِّها .

المملوك ــ وإن كان قد يسَّر اللهُ له مذ أُطْلِقت عذَبةُ لسانه خدمةَ الدولة العباسية ، فتفسح فى وَسِيع مآثِرِها ، وتخيَّر من بديع جواهرها ، وامتاح من نَمير زواخِرِها . فإنه لايعتذِرُ عن الحَصَر الذى اعتراه فى وَصْف المنعَم عليه به من الخطاب الشريف ،

---

(١) أى الخدمة النبوية والمراد بها الخلافة .

الذى لولا أنّ عِصْمة الموالاة تُثبِّتُ فُؤادَه الخافِق، وتَسدِّدُ لسانَهُ الناطق، لما تعاطىٰ وَصْفَ ما أعطاه من كتابِهِ المرقوم، وسَبَق إليه من سَحابه المرْكُوم، فإنه ممـا يَشِفُّ عنه الأَمَلُ ناكصا وهو كَسِير، وينْقَلِب دُونَه البصرُ خاسِئًا وهو حَسِير، إلا أن الإنعامَ الشريف يَبْدأ الأولياءَ بمالو وَكَلَهم إلىٰ أمانِيِّهم لتهيَّبت أن تتعاطىٰ حظيته، ولو فوَّضَه إلىٰ راحتِهم لنكَلَتْ عن أن ترقَّ نَصيتَه، ولا غَرْوَ للسَّحاب أن يُصافِحَ قَطْرُه الثَّرىٰ، والفَجْرِ أن يُشْرِق نورُه علىٰ عينِ الكَرىٰ والسُّرىٰ .

فالحمدُ لله الذى قرّبَ علىٰ المملوك مَنَال الآمال، وثَبَّت حَصاةَ فؤاده لما لاتستقِلُّ بحمله صُمُّ الجبال . ويستنيبُ عن جهر الشُّكر بسِرِّ الأدْعيه، ويقتَصِر علىٰ مايُفْضِى به إلىٰ المحاريب وان لم يُقَصِّر عمـا يقُصُّــه فى الأنديه ؛ ويُطالِـعُ بأن مملوك الخِدْمـة وآبن مملوكها أخذَ الكتابَ بقُوّه، وشمَّر لخدمة أشرفِ خلافةٍ لأشرفِ نُبُوَّه، وتلقَّاه تلقِّيَ أبيه الأوّلِ الكلمات ؛ ورأىٰ إطْلاعَ اللهِ لأمير المؤمنين علىٰ ما فى ضميره من طاعته إحدىٰ المعجِزات والكرامات، وسَمِع المشافهة خاشِعا متصدّعا، وآشتَمَل عليها بفهمه ساميا طَرْفُه متطلِّعا .

ولقد أشبَه هذا الكتابُ الكريم بَيْعةً أُخِذتْ عليه، مدّ إليها يَدَه آخذا بكلتا يدَيْه . والمملوك يرجو بل يتحقَّق أن هذا العبدَ المشارَ إليه سَيُوفِى علىٰ سابقه من عبيد الدولة العباسية فى الزمان، ويكون بمشيئة الله أسبقَ منهم بالإحسان .

وقد صدرَتْ خِدْمتان من جهته وبعدهما تصْدُر الخِدَم، ولا يألو جَهْدا فى الخدمتين مباشِرًا بيده السيفَ ومستنيبا عنهـا العَلَم، وله نُصْرة باقية فى الولاء وهو غَنِيٌّ بهـا عن النصير، وسريرةٌ باديةٌ فى الطاعة هو إليها أسكَنُ منهـا إلىٰ كل مُشير . يعود المملوكُ إلىٰ ما لا يزال يفتتحُ به الصلوات المفروضة، ويختَتِمُ به الختَمات المعروضه :

من الدعاء الصالح الذى [وان] أغنىٰ الله وليَّه عنه فقد أحوج ذَوِى العقائد السليمةِ إليه : لأنه مُزَكٍّ لأعمالهم، بل متمِّمٌ لإسلامهم، وكيف لايَدْعُون لمن يُدْعَون به يوم يُدْعىٰ كلُّ أناس بإمامهم، فيقول : ـ جمع اللهُ لأمير المؤمنين طاعةَ خلقه ! ، وأذلَّ رقابَ الباطل سيفُ حقه ! ، وجعل اللهُ ما هو قبضتُه فى الأخرىٰ قبضةَ أمير المؤمنين فى الأولىٰ ! من الأرض التى هى موطوءة كالسموات العُلىٰ ، وأدام نِعَمه علىٰ هذه الأمة بإمامته، وأظهر كرامة نبيِّه عليه السلام بما يُظاهره من كرامته ؛ وعَجَّل لمن لا يقومُ بفرض ولايته إقامة قيامَتِه ، وردّ بسُيُوفه التى لا تُردُّ ما الإسلام ممطولٌ به من ظُلامته ، وأقام به مَنَاهِج الدِّين لأهله ، وأظهرَه بمظاهرَته علىٰ الدِّين كلِّه ، حتّٰى يلقىٰ اللهَ وما خَلَّف فى الدنيا كافرا ، ولا ضميرًا إلا بالتوحيد عامرا ، ولا بَلَدًا إلا وقد بات الإسلام به آهلا وقد أصبح منه الكفرُ داثرًا، إن شاء الله تعالىٰ .

الأســـلوب الثـالث

(أن يبدأ بآية من كتاب الله تعالىٰ تناسب الحال)

كما كتب القاضى الفاضل ، عن السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب » إلىٰ الخليفة المستضىء ببغداد ببشرىٰ بفتح بلد من بلاد النُّوبة والنُّصْرةِ عليها :

﴿ ولقدْ كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْـدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ : ﴿ سلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيم ﴾ : ﴿ فَرَوْحٌ ورَيْحانٌ وجَنَّةُ نَعِيم ﴾ . وصلاةٌ يتبعها تسليم، وكأْسٌ يمزُجها تَسْنِيم . وذِكْرٌ من الله سبحانه فى الملإ الأعلىٰ ورحمةُ الله و بركاته معلومةٌ من النشأة الأولىٰ علىٰ مولانا الإمام « المستضىء بالله » المستضاءِ بأنواره ، المستضاف بداره ، الداعى إلىٰ الحقّ و إلىٰ طريقٍ مستقيم ، الراعى للخَلْق كما يَرْعىٰ

النسيم النَّسيم، العامِّ فضلهُ، التامِّ عدلهُ، المطروقِ مَوْرِدُ فِنائه، المصدوقِ فى مَوْرِد ثنائه، المحقوقِ من كل وَلِىٍّ بولائه، آبنِ السادة الغُرّ، والقادة الزُّهْر، والذّادةِ الحُمْس، والشادةِ للحق علىٰ الأُسّ، سُقاةِ الكَوْثرِ وزمزمَ والسَّحاب، وولاةِ الموْسِم والموْقف والكِتَاب، والموصولِ الأنساب [يومَ] إذا نُفِخ فى الصور فلا أنسابَ، والصابِرُون علىٰ حساب أنفُسِهم فهم الذين يُؤْتَوْنَ أجرَهم بغيرِ حسَاب .

مملوكُ العَتَباتِ الشريفةِ وعبْدُها، ومن آشتمل علىٰ خاطره وَلَاؤُها ووُدُّها، وكانت المشاهدةُ لأنوارِه العليـةِ التى يَوَدُّها، ومَنْ يَقْرُن بفرض الله سبحانه فَرْضها، ويُسابِقُ بطاعته إلىٰ جنةٍ وصفها الله تعالىٰ بقوله ﴿ وجَنَّةٍ عَرْضُها ﴾ : يَلْثُم وجهَ تُرابها، ويرىٰ علىٰ بُعْد دارِهَا الأنوارَ التى تُرىٰ بهـا، ويقِفُ لدَيْها وُقُوفَ الخاضِع ، ويَضَع أثقالَ الآثام عن ظهره منها بأشرف المَوَاضِع للواضِع، ويُخْبِتُ إليها إخباتَ الطائع الطائع، ويرجو فضْلَها رجاءَ الطامِح الطامِع . ولولا أنَّ الكِتَابَ حِجابٌ بينه وبينَ المَهَابة التى تحُولُ بين المرءِ وقلبِه، والجلالةِ التى هو فى تعظيمها علىٰ نُورٍ من رَبِّه، لكان خاطِرُه فى قَبْضة الهلَعِ أسِيرا، ولا نْقلَبَ إليه البصَرُ خاسِئًا حَسِيرا، ولكنَّ قلَمه قد تَشَاجَع، أن كانَ لسانهُ عن الإبانةِ قد رَاجَع . فيقول :

إنَّ اللهَ قد رَفَع مِلَّةَ الإسلام علىٰ المِلَل، وكَفَل نَصْرَها وكفىٰ ما كَفَل، وحمىٰ مُلْكَها وحَمَل ، وجعل لها الأرضَ فى أيْدى المخالِفين وَدَائع ، ومكَّن يَدَه من أعناقهم فهى إمَّا تَعْقِد الأغْلال أو تَصُوغ الصَّـنائع ، والحقُّ بها قائمُ العَمُود ، والسيفُ الكِفَايةُ لازِمُ الغُمُود، والبشائرُ تُمَسِّك الصَّـباح وتُخَلِّقُ الدُّجىٰ، والخيلُ علىٰ طُول ما تشْتَمِل الوَحَا تنتَعِل الوَجىٰ، والأيامُ زاهِره، والآياتُ باهِره، وعِزَّةُ أوليائها قاهِره، وذِلَّةُ أعدائها ظاهِره ، وعناياتُ الله لَدَيْها متوالِيَـةٌ متظاهِره . إذا تغرَّب آسمُها يوما عن

مِنْبرٍ أُعِيـد إلىٰ وَطَنِه غَدا ، وإذا أُوقِدَتْ نارُ فتنةٍ فى معصيتها أُوقِدَتْ فى طاعتها نارُ هُدىٰ .

وقد كان النيـلُ قِدْما قَرَتْ عن الفُرات أبناؤُه ، وتحصَّنت غُلَل المؤمنين عنه فلم يتغلْغَل إليها ماؤُه ، وكادتِ السماءُ لاتُعِينه بمطَرِها ، والأرضُ لا تُوشِّيه بزَهَرِها ، والأعناق قد تقاصرَ دُون الراجين بدو معصها (١) ، والقلوبُ قد لاذَتْ بأستار الجدار معضها (١) ، والأوثانُ مَنْصوبه ، والآيات مغصوبه ، والتِّيجان بغير أكفائها من الهامات مَعْصُوبه ، والدِّين أديانا ، والمذَكَّرون بالآياتِ يَخِرُّون عليها صُمًّا وعُمْيانا ؛ والعادلُونَ بالله قد وَطَّنوا ألسِـنَةً وصَرَّحوا عقائد ، والمعتدون قد أضَلُّوا فِعالا وضَلُّوا مَقاصِد ، وكراسِيُّ خلافةِ الله قد أُلْقِيَ عليها أجسادٌ كانت تَقْعُد منها مَقاعِد ، ومنابِرُ كلماتِ الله قد كاد كَيْدُهم يأتِى بُنْيانها من القواعد ، وجَرَتْ علىٰ بُنُوة النُّبُوة أشدُّ نَبْوه ، وقَصُرَت الأيدى فلاحَدٌّ سَوْط ولاحدٌّ سَطْوه ، ثم قَسَتْ قُلُوبٌ ﴿ فهى كالحجارةِ أو أشَدُّ قَسْوه ﴾ وغَرَّت الأيَّامُ وما وعدت ، وأوردتِ الهِمَمُ وما أصـدَرَتْ ، وطغىٰ طُوفان الطُّغْيان ولاعاصِمْ ، وسَما بناءُ البُهْتان ولاهادم ، وضاقتِ الصُّدُور ، ورحَلَتْ بغَليلها إلىٰ القبور ، وظُنَّ أن طيَّ دولتهـم معْدُوقٌ بالنُّشُور ؛ حتّٰى إذا جَلَّاها اللهُ لوقْتِها ، وأنجزَ جموعَ الضَّلال إلىٰ ميعاد شَتِّها ، وأراهم آيةَ مَعْدِلته ﴿ وما نُرِيهِم مِنْ آيةٍ إلّا هِيَ أكْبَرُ مِنْ أُخْتِها ﴾ ﴿ وجاء الحَقُّ وظَهر أمْرُ اللهِ وهم كارِهُونَ ﴾ : ﴿ وحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وباطِلٌ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

كانت نعمةً مِن الله يمُنُّها علىٰ المملوك أنِ انتَجبه من بينِ أهلِ أرضه ، وانتَخبه لإقامة ماأمات الباطلُ من فَرْضه ، ويَسَّره لما يَسَّره من نُصْرة الحق وأهلِه ، وبَشَّره

(١) كذا فى الاصول بهذا الرسم ولم نعثر على هذه الرسالة فى الرسائل .

بمـا بَشَّره من لواء النصر ومَدَّ من ظِلِّه ، وألهمه الهِمَّةَ التى ٱفترَعَ منها بكرا ، ومنحه النُّصرة فما يستطيع العدوُّ صَرْفا ولا نَصْرا . مكَّنه من صَيَاصِيهم فحَلَّها، ومن دِمائهم فطَلَّها ، ومن سيوفهم ففَلَّها ، ومن أقدامهم فاستَزَلَّها ، ومن منابِرِ دُعَاتهم فعجَّل تَداعِيَها ، ومن أنْفُسِ أعدائهم فأكثر تَنَاعِيَها ، وأبْرزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلىٰ مَضاجعهم ، ويَسَّر الذين كُتب لهم العفوُ إلىٰ مَنَافِعهم ، ونَثَر خَرَزاتِ المُلْك من تِيجانِهـا ، وفَضَح علىٰ يدِه وبلسانِه ما زوَّرَتْه من أنسابِها ، وحاسَبَها فأظهر زَيْفَ حِسَابِها ، ونقَلَها من ظهورِ أسِرَّتِها إلىٰ بُطُون تُرابِها ، وعمَدَ إلىٰ أهـل دَعْوتِها الذين بَسَقُوا بُسُوق النخل فأعلاهم علىٰ جُذُوعِها ، وحملتْ قلوبُهم فُوقَ الحقد فأخرجها من أكمام طُلُوعِها ، فهل ترىٰ لهم من باقِيه ، أوتَسْمَعُ لهم من لاغيه ، أو تَجِدُ إليهـم من صاخيه ، فأصبحُوا لا تُرىٰ إلا مساكِنُهم أو مساكِينُهم ، وحُصِدوا حَصْد الحشيش ثم لاتُخافُ سُيُوفهم ولا سكاكِينُهم ، وٱستُنْزِلوا من عِقاب اللُّوح ، وسُجِنوا فى الهَمِّ من طول مُداوَمة عِقاب الرُّوح ، ثم تداركُوا إلىٰ الدَّرْك ، وٱشتركُوا فى الشِّرْك ، وأقفرتْ منهم عِراص ، وزَهِدَتْ فيهم خَوَاص ، وعُلِم أنْ ليس لله غالِبْ ، وأن ليس يَفُوتُه طالِب ، وأنَّ الملكَ لله وحده ، وأن الوَيْلَ لمن تجاوز أمْره وحَدَّه .

وكان الملوكُ ممن عَطَّل من أوثانهم ، وأبْطَلَ من أديانهم ، فائزًا بحسـنة ينظُر إلىٰ حسناتِ خليلِ الله صلَّى الله عليه وسلم فى كَيْده الأصنام وتكسيرِها ، وتضليلِهِ عابِديها وتكفيرِها . وعمد الملوك إلىٰ المحاضر فجمعَها ، وإلىٰ المنـابر فرفعَها ، والجمعةِ فأطاع من شَرَعها ، وأسماءِ صَحابة رسول الله صلَّى الله عليـه وسلم فوَصَلها باسمه وما قَطَعها ، وعمومتِه رضوانُ الله عليهم فتلاها له وٱتَّبعها ، وأشاد باسم أمير المؤمنين لتكون الصلاةُ جامعه ، والذِّكْرىٰ شاملةً والإمامةُ للجماعة شارعه ، والهدايةُ للضَّلالة صارعه ، فعادتْ لِلمَّة أعياد ، وٱخضَرَّت للمنبر أعواد ، وأُنْجِز للأُمة ميعاد .

وبعد ذلك تحاشدتْ أولياء الذاهبين وتنادَتْ ، وتساعتْ نحو مستقَرِّ الملوك وتعادَتْ ﴿وإذْ زَيَّن لَهُمُ الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ وقال لا غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ من النَّاسِ وإنِّى جارٌ لَكُمْ فلَمَّـا تَراءتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلىٰ عَقِبَيْـهِ وقال إنِّى بَرِىءٌ منْكُمْ﴾ وكانوا حِمِيَّةً حامِيَةً من بنى حامٍ كالجراد أرْجُلا ، إلا أنَّ الله أصلاها بِنيرانِه ، وكالمـاء مَدًّا إلا أنَّ الله أغرقهـا بطُوفانِه ، وكالنمل لونًا وطُرُقا إلا أنَّ اللهَ حَطَمها بسُلَيْمانه ، مع مَنِ آنضمَّ إليهم من ألفافٍ وأطراف ، وأوشابٍ وأوباش : من جُندىٍّ كَسَبَه سيفُه ذُلَّه ، وطَرَده عن مواقف الكِرام وبمجـالِّ الخِزْى أحَلَّه ، ومن أرمنىٍّ كانوا يفْزَعُونـ إلىٰ نُصْرة نَصْرانيَّته ، ويعتمِدُون منه علىٰ آبن معمودِيَّته ، ومن عامّىّ أجابهم لفَرْط عَماه وتَفْرِيط عامِّيَّته ؛ فملأ العيونَ سوادُهم الأعظَم ، ووراءهم بأسُ اللهِ الذى لا يُرَدّ عمن أجْرَم ، فأمطرتهم السيوفُ مطرا كانوا غُثاءً لسيوله الجَوَارف ، وعصفَتْ بهم الأعنَّةُ عَصْفا كانوا هَبَاءً لهُوجِه العواصِف ؛ ﴿فظلَّتْ أعناقُهُم لهـا خاضِعين﴾ وعُوتبت الأنفُس والأرؤس ﴿فقالَتَا أتَيْنَا طائعِين﴾ . وظلَّتْ قِحافُ بنى حامٍ تحتَ غِرْبان الفَلاَ غِرْبانا ، وشُوهدتْ ظُلُمـاتٌ بعضُها فوق بعضٍ أفعـالا وألْوانا ؛ وصَـفَتْ مواردُ السلطان من القَذىٰ ، وطَفِئَ ذلك الفَحْمُ فلا يَجِدُ النِّفاقُ بعده ما تتعلَّق به الجُذىٰ ، وبُلِغت الغاياتُ فى كَشْف كلِّ أذىٰ ، لا بضَرْب بموعِدٍ يقال فيه إذا .

وكاتب المملوكُ ، واسمُ أمير المؤمنين قد كُتب سطرُه علىٰ جبين النقديْن ، وسُمِـع لفظُه من فَم المنبرين بالبلدين ، ومدّ كلُّ مِنْبر يدا بل يديْن ؛ فحِينَ سمع النـاسُ قالوا حقًّا ماقاله ذو اليديْن ، وصارت تلك الأسماءُ دَبْرَ الآذان ووراءَ الظُّهور ، وحصَّلت المحبَّةُ العباسية سِرًّا من أسرار القلوب إذا حُصِّل ما فى الصُّدُور ، والخلائقُ مبـايِعة متابعة وافيـةٌ بعهده متوافِيَة ، داخلون فى الحق أفواجا ، سالكونـ منه شِرْعة ومنْهـاجا .

والحمد لله الذى جعل أميرَ المؤمنين إماما لخلقه، ووارثا لأرضه ولم يذر فوق الأرض منازعًا لحقّه، ولا مناهبا لأرضه ، وآرتجع له الحقّ الذى كان نادّا ، وردّ عليه الأَمْر الذى لم يكن له غيرُ الله رادّا ، وبلّغ كلّ مؤمن من إعلاء كلمةِ الإيمان به ما كان له وادّا ، وأخذ بيد آنتقامه مَنْ كان عن سبيله صادّا ، والإسلام قد استنار كنشأته ، والزمان قد استدار كهيئته ، والحقُّ قد قرّ فى نِصَابه ، والأمر قد فرّ عن صَوَابه .

فقد وفى اللهُ القَرَار له بضمانه ، وأخذ بيده ما روىٰ عن آبن عمه صلّى الله عليه وسلم وأصفىٰ من لسانه .

فالحمدُ لله الذى صدَقَه وعْدَه، وأورثه الأرضَ وحْده ، وجدّدَ عُلاه وأعلى جَدّه ، وأسعد نجمَه وأنجمَ سَعْده، ووعده نُجْحه وأنجحَ وَعْده، وأورده وَصْفه وأصفىٰ وِرْدَه.

المملوك ينتظر الأمثلةَ ليتَمثّلها ، والأمانةَ ليتحمّلَها ، والتقليداتِ المطاعةَ ليتلُوَها ، والتشريفاتِ الشريفةَ ليَجْلُوَها، والسوادَ ليَجْلِيَ الحَلَكَ عن ضمائر المبْطلين، والسيفَ الحالِيَ لحُكْمِه فى رقاب المعطِّلين، وللآراءِ الشريفةِ فَصْل برهانِها، وفضلُ سلطانها ، وأمرها الذى لا يَخْرُج حين يخرج عن عزّ الملة وتوطيدِ بُنْيانها ، وعَزْمها الذى يَرْفَع حين يُرْفَع ظُلمةَ أدخانها . إن شاء الله تعالىٰ .

الأسلوب الرابع

(أن يبتدأ الكتابُ بالصلاة)

كما كتب القاضى الفاضل، عن الملك الناصر "صلاح الدين يوسف بن أيوب" إلىٰ الخليفة ببغدادَ ، فى البُشرىٰ بفتح بلدٍ من بلاد النُّوبة أيضا ، وانهزام مَلِكها بعساكره .

صلواتُ الله التى أعدّها لأوليـائه وذخرها ، وتحيّاتُه التى قذف بِشُهبِها شياطين أعدائه ودَحَرها ، وبركاتُه التى دعا بها كلّ موحّد فأجاب ، وانقشع بها غمامُ الغمّ وظلام الظُّلْم فانجاب عن أنجاب ، وزكاتُه التى هى للمؤمنين سَكَن ، وسلامهُ الذى لا يعترى المُوقنين فى ترديده حَصَرٌ ولا لَكَن ـ على مولانا عاقد ألْوِيةِ الإيمان ، وصاحبِ دَوْر الزمان ، وساحبِ ذَيْل الإحسان ، وغالبِ حِزْب الشيطان ، الذى زَلْزلتْ إمامتُه قدَمَ الباطل ، وحلّت خلافتُــه ترائبَ الدَّهْرِ العاطل ، واقتضتْ سيوفُهُ ديونَ الدِّين من كل غرِيمٍ ماطِل ، وأمضتْ غَرْبَ كل عزم للحقّ مفلول وأطلعت غاربَ نَجْم كلّ هُدًى آفل ، وشفَعتْ يقَظاتُ آستغفاره إلى غافرِ ذَنْبِ كلِّ غافل ؛ وعلى آبائِه الغايةِ والمفْزَع ، والمَلاذ فى وقتِ الفَزَع ، والقائمين بحقوقِ الله إذْ قعَد الناس ، والحاكمين بعَــدْل الله إذ عُدِم القِسْطاس ، والمستَضيئين بأنوار الإلهـام المورُوثةِ من الوَحْى إذا عَجَز الاقْتباس ، والصابرين فى البأْساء والضَّرَّاء وحينَ البـاسِ ؛ خُزَّانِ الحِكَم ، وحُفَّاظها ، ومَعانى النِّعَم ، وألفاظِها ، وأعلامِ العُــلُوم المنشورةِ إلى يوم القيامه ، وكالِئِى السُّروح المنتَشِرة من كلا سديد الإمامه(١) ؛ ومن لا ينفُذُ سهم عمَلٍ إلا إذا شُحِذَ بموالاتهم ، ولا يتألّقُ صبْحُ هدايةٍ إلا إذا استَصْبح السارى بدِلَالاتهم .

المملوك يقبّل الأرضَ بمَطَالع الشَّرَف ومنازِله ، ومرابع المَجْد ومعاقِله ؛ ومجالس الجُود ، ومَحالّ السجود ؛ ومختَلَف أنبـاء الرحمة المنزّله ، ومَرْسَى أطواد البسيطة المتزلْزِله ؛ ومفْترّ مبـاسم الإمامه ، ومجَرّ مساحِب الكرامه ؛ ومكانِ جُنُوح أجنحة الملائك ، ومشــتَجَرِ مناسك المناسك ، حيثُ يدخُلون من كل بابٍ مسلّمين ، ويتبعُهُم ملوكُ الأرض مستسلمين ؛ ومَشَاهد الإسلام كيومٍ أنزل فيه اليْوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ـ وينْعقِد على الوِلَاية فأما غيره فله قوله : قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ ؛ ويناجيها

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه وفى الضوء "المنتشرة بيد الامامة" .

بلسان جليّ الإخلاصُ الصادقُ عقيدتَه، وأنْشَط الولاءُ السابقُ عقيلته ؛ وأرهف الإيمانُ الناصعُ مَضَارِبَه، وفَسَّح المعتَقَد الناصحُ مذاهِبَه ؛ فأعربَ عن خاطِرٍ لم يَخْطُرْ فيه لغيرِ الولاء خَطْره، وقلبٍ أعانه علىٰ وُرُود الولاء [أن] صفاء المصافاة فيه فِطْره ـ ويخبر أنه ماوَهَن عمَّا أوجبَتْه آلاؤه ولا وَهىٰ، ولا آنْثَنىٰ عزمُه عن أن يقِفَ حيث أظلَّتْ سِدرةُ المنتهىٰ ، ووضَحتِ الآياتُ لِأُولى النُّهىٰ . والله سبحانه يزيل عنه فى شَرَف المُثُول عوائقَ القَدَر وموانِعَه، ويكشِفُ له عن قِنَاع الأنوارِالتى ليست همَّتُه بما دُونَ نظرها قانِعه ـ وكان توجَّه منصورًا بجيش دعائِه ، قَبْل جيشِ لِوائه ؛ وبعسكر إقباله، قبل عَسكرِ قِتَاله ، وبنِصَال سُلْطانه، قبل نِصَال أجفانِه ؛ لاجَرَم أنَّ كتائبَ الرُّعْب سارتْ أمامَ الكتائب، وقواضبَ الحَذَر غُمِّضتْ فى جُفُونها عيونُ القَوَاضِب ـ وسار أولياءُ أميرِ المؤمنين الذين تَجَمَّعوا من كلِّ أُمَّه، وتداعَوْا بلسان النِّعمه، وتصرَّفُوا بيد الخِدْمه، وصالوا بسَيْف العَزْمه ؛ متواخِيةً نِيَّاتُهم فى الإقدام ، متآلفةً طَوِيَّاتهم فى طاعة الإمام ؛ كالبُنْيان المرصوص آنتظَاما ، وكالغاب المُشْجِر أعلاما ؛ وكالنَّهار الماتِع حديدًا وهَّاجا، وكالليل الشامل عَجَاجا عَجَّاجا ؛ وكالنهر المتدافِع أصْحابا، وكالمُشْط المطَّرِد آصطِحابا ؛ والأرض ترجل برَجْلهم لما ترفعُه الحوافِرُ من غيومها، والسماءُ تَنْزِل نُزولَهم لما تضعه الذَّوابِلُ من نُجُومها ؛ فما آنتشرتْ رياضُها المُزْهِره، وغياضُها المُشْجِره ؛ إلا دلَّت علىٰ أن السَّحاب الذى سَقَاهم كريم، والإنعامَ الذى غَمَرهم عَظِيم ، والدُّنيا التى وَسِعتْهم من عزمتهم تَظْعَنُ وتُقِيم .

ولما عَلِم العدوّ أنَّ الخَطْب المظنونَ قد صَرَّح خِطَابُه، والأملَ المخدُوع قد صَفِر وِطَابُه ؛ راسل ورأىٰ سلَّ السُّيوف يُغْمِده، وماكَرَ وماكَرَّ لعلمه أن الحَتْف يَعْمِده، وآندفع هارِبا هائِبا، وخَضَع كائِبا كاذِبا ؛ فمضىٰ المملوك قُدُما، وحَمَّله ظُلْمَه وقد خاب مَنْ حَمَل ظُلْما ؛ وأجابه بأنه إن وَطِئ البِساطَ برِجْله وإلا وَطِئه برأسه، وإن قدم

علىٰ المملوك بأمله و إلا أقدمه بيأسه، و إن لم يُظهِر أثرَ التوبة و إلا أقام عليه الحدَّ بسَكْرة الموت من كأسه ؛ فلم يَخْرُجْ من مُراوغة تحتها مُغاوره ، ومُكاسَرة وراءها مُكاشَره؛ فٱستخار الله فى طَلَبه، وٱنتهز فيه فُرصةَ شَغْل قَلْبِه برِيبِه، ولم يَغُرّه ماأُمْلِي له فى البلاد من تَقَلُّبِه، وسار ولم يزَلْ مقتحِما، وتقدّم أوّلَ العسكر محتَدِما ؛ و إذا الدار قد ترحَّل أهلُها منها فبانُوا، وظعَنُوا عن ساحتها فكأنَّهم ما كانُوا، ولم يبقَ إلا مَواقِدُ نِيرانٍ رحلَتْ قلوبُهُم بِضرامها ، وأثافِيُّ دُهمٌ أعجلَتِ المهابةُ مارَدّ سَغَبهم عن طعامِها ؛ وغِرْبانُ بيْنٍ كأنها فى الديار ما قُطِع من رءوس بَنِي حامِها، وعَوَافِي طير كانت تنتَظِر من أشلائهم فِطْرَ صيامِها ؛ وعادتِ الرسلُ المنفَّذة لٱقتفاء آثارهم وأداءِ أخبارهم ؛ ذاكرَةً أنهم لَبِسُوا الليل حِدَادا علىٰ النعمةِ التى خُلِعت ، وغسَلُوا بماء الصبح أطماع نفسٍ كانتْ قد تطلعت ؛ وأنهم طلَعُوا الأوعارَ أوعالاً والعِقابَ عِقْبانا، وكانُوا لمَهابط الأوديةِ سُيُولا ولأعالِي الشَّجر قُضْبانا ــ فرأىٰ المملوك أن الكتّابَ فيهم قد بلَغَ أجلَه ، والعزمَ منهم قد نال أمَلَه ، والفَتْك بهم قد أعمل مُنْصُلَه ؛ وأن سيوفَ عساكر أمير المؤمنين متَنَزِّهةٌ أنْ تُرِيق إلا دماءَ أكفائها من الأبطال ،وأن تَلْقَ إلا وُجوهَ أنظارِها من الرجال؛ وأن المذكورين نَمْلٌ حَطَمه سليمانُ عليه السلام وجنودُه،ورَمْل أطاره العاصفُ الذى يَسْحَفُه[(1)] ويَقُوده ــ وأصدر هذه الخدمةَ والبلادُ من معَرَّتهم عاريه ، والكلمةُ بانخفاضهم غاليةٌ عاليه ،ويدُ الله علىٰ أعدائه عادِيه ، وأنفُسُ المَخاذيل فى وَثَاق مَهَابته العالية عانِيَه ــ فرأىٰ المملوك أنْ يُرتِّب بعده الأميرَ فلانا ليبْذُل الأمانات، لسُوقةِ أهلِ البلاد ومُزارِعيها ، ويفصل المحاكَماتِ، بينَ مُتابعى السلطنة ومُطاوِعِيها، ويُفَسِّح مَجالَ الإحسان لمُعاوِدِى المواطن ومُراجِعِيها؛ فيَعْمُر من البلاد ماقد شَغَر، ويُشْعِر بالأَمَنةِ مَنْ لاشَعَر؛ فإنَّ مُقَام المملوك ومَنْ معه من عساكر تمنَعُ الشمسَ من مَطْلَعِها،

(١) هو بالفاء من قولهم سحفت الريح السحاب اذا ذهبت به والقاف فى الأصول تصحيف .

وتردُّ جِرْيةَ البحر عن موقِعِها ؛ مما يَضُرُّ بالغلال ويَنْسِفها ، ويُجْحِف بالرَّعايا ويُعْسِفها .

فالحمد لله الذى جعل النصرَ لائذاً بأعطاف آعتزامه ، وأنامِلَ الرُّعْب السائرِ إلىٰ الأعداء محرِّكةً عَذَباتِ أعلامه ، والعساكرَ المناضلةَ بسلاح ولائه ، تُغْنِي بأسمائها عن مُرْهَفَاتها ، والكتائبَ المقاتلةَ بشعارِ علَائه ، تقرأ كُتُبَ النَّصر من حُمَاتها .

الأسلوب الخامس

(أن يبتدأ الكتاب بالسلام)

كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان "صلاح الدين" أيضا ، يعتذر له عن تأخُّر الكتب ، ويذكر له خبرَ صاحب قُسْطنْطِينِيَّة وصاحب صِقِلِّيَّة من ملوك النصرانية من الروم والفَرَنْج :

سلامُ الله الأطيب ، وبركاتُه التى يستدرُّها الخُضَّر والغُيَّب ، وزكواتُه التى ترفع أولياءه إلىٰ الدَّرج ، ونعمُه التى لم تجعَلْ علىٰ أهل طاعته فى الدين من حَرَج ـ علىٰ مولانا سيِّد الخلق ، وسادّ الخَرْق ، ومسدِّد أهل الحق ؛ ولابِسِ الشِّعار الأطهر سَوَادا ، ومستحق الطاعة التى أسعد اللهُ من خصَّه بها بدءا ومَعَادا ، ومولىٰ الأُمَّة الذى تَشابَه يومُ نَدَاه وبأسِه إن رَكَض جُوداً أو جوادا ؛ وواحدِ الدهر الذى لا يُثَنَّىٰ ، وإليه القلوب تُثْنىٰ ؛ ولا يقبَلُ الله جمعًا لا يكون لولائه جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير ، ولا آستقبالَ قبلةٍ ممن لاتكون محبَّتُه فى قلبه تُقِيم وآسمُه فى عمله إلىٰ الله يَسِير ؛ مولانا أمير المؤمنين ؛ وعلىٰ آبائه المالئى الأرض عدْلا ، الملاءِ أهلا وفَضْلا ، والضاربين فَيْصَلا والقائلين فَصْلا ، ومن تقول الجنةُ لأهلها بهم أهْلا ؛ المخصوصين بالعناية الإلٰهيَّه ،

الحاكمين فكُلُّ أمةٍ بطاعتهم مأمورةٌ وعن معصيتِهم منهيّه ، والمسَرّ فى الأسارير علىٰ أسِرَّة الشرف فكم ملأتِ البَهْوَ مناظِرُهم البهيَّه .

المملوك — يخدُم الحرمَ الشريفَ باحترامه، والفِناءَ الكريم بإعظامه، والبساطَ المقَبَّل بطُول آستلامه، والسِّتْرَ الذى أسبلَهُ اللهُ علىٰ العباد بتحيَّته وسلَامِه ؛ ويُنْهِى أنه آخرُ الخَدَمِ عن أن ينتظم الأوقاتَ المتجدِّده، ويقتضب الحالاتِ المتجرِّده؛ والرُّسُلِ عن أن تتواردَ دراكا ، وتتوالىٰ وِشاكا؛ والإنهاءات عن أن تثْبُت بالمقاماتِ الشريفةِ النبويه ، ومجالس العرض العليه ؛ ما آنتهتْ إليــه الأقدار، وما أفضىٰ إليه من كثير المَناجِح وقَليلِ الأعذار ؛ فإنَّ أدب الأمالى عن المطالعــة كالصوم لا يُفَضُّ ختامُه، ولا يُحلُّ نظامه، إلا بُعيدَ يَطْلُع هلالُه مبَشِّرا، ويُبَثُّ خبره فى الآفاق معطِّرا ؛ فلو أن متكلِّفا أفطر قبل موْعِده، وورد الماءَ قبل مَوْرِده ؛ لكان مُفْسِدا لعَقْده، ناكثا لعَهْده .

كذلك المملوك أمســكَ حين كانت الأخبــارُ بجانبه مشتَبِهه ، والحقائقُ لديه غيرَ متوَجِّهه ؛ فإنَّ طاغيتَى الكفرِ بقُسْطَنْطينِيَّةَ وصِقِلِّية كانا قد أوقدا للحرب نارا، ورفعا لها أوزارا، وآتخذا لها أُسطُولا جاريا وعَسْكرا جَرَّارا، وتباريَا ولم يَزِدِ اللهُ الظالمين إلا تَبَارا ؛ وكتبا إلىٰ الفَرَنْج بعد آنهزامهم بالنَّجْدة والنُّصْره، وتضمَّنَا لهم الخروجَ والكَرَّه، ويصفان ما آستعدَّا به بمــا لا يعبَّر عنه إلا بالكَثْره ؛ وآستطارت الشَّناعةُ وتداولتها الألْسُن، وخرجَتْ من الأفواه حتّى لقد كادت تدخُل فيما رأته الأعيُن ؛ وورد إلىٰ المملوك رسولٌ من طاغيــةِ القسطنطِينيَّة وهو أقدمُ ملوك النصرانية قدما ، وأكثرُهم مالًا متمّىٰ ؛ فعرض عليه مُوادَعةً يكون بها عسكره مُودَعا ، ويكون له بهــا مَفْزَعا ، له ولصاحب صِقِلِّيَّة الذى زعم أنه أصلٌ للشرّ يكونُ الشر منه مُفَرَّعا ؛ فلم ـَنْ ولم يُجِبْ إلىٰ السَّلْم ، ولم يَزَعْه أن عسكره خذله الله مُبارٌ فى البَرِّ وفى اليَمّ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الأسلوب السادس
(أن تُفتتح المكاتبةُ بخطبة مفتَتَحة بالحمدُ لله)

وذلك يختصُّ بالفتوح وغيره مما حدث فيه نعمة، وربما بُدِئت بآية من كتاب الله، كما كتب العمادُ الأصفهانِيُّ عن السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" إلىٰ الناصر لدين الله ببغدادَ بفتح القُدس :

﴿ ولَقَدْ كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ .

الحمدُلله علىٰ ما أنجزَ من هذا الوَعْد، علىٰ نُصْرته لهذا الدِّينِ الحنيفِ من قَبْلُ ومن بَعْد، وعلىٰ أن أجرىٰ هذه الحسنةَ التى ما ٱشتَمَلَ علىٰ شِبْهِها كرامُ الصَّحائف، ولم يُجادَلْ عن مثلها فى المواقف، فى الأيام الإمامية الناصرية زادها الله غُرَرا وأوضاحا، ووالى البشائرَ فيها بالفُتُوح غُدُوّا ورَوَاحا، ومكّن سُيوفَها فى كلِّ مارِق، من كل كافر ومارِق، ولا أخلاها من سِيرةٍ سَرِيَّة تجمع بين مصلحة مخلوقٍ وطاعةِ خالق، وأطال أيدى أوليائها لتحمِىَ بالحقيقة حِمىٰ الحقائق، وأنجزها الحَقَّ وقذَفَ به علىٰ الباطل الزاهِق، وملّكها هوادِىَ المغارِب ومرامِىَ المشارق، ولا زالت آراؤها فى الظُّلمات مَصَابِح، وسُيوفُها للبلاد مَفَاتح، وأطرافُ أسنَّتها لدماء الأعداء نَوازح .

والحمدُ لله الذى نَصَر سلطانَ الديوان العزيز وأيَّده، وأظفر جُندهُ الغالبَ وأنْجده، وجَلَا به جلابيبَ الظلماء وجدّد جُدُده، وجعل بَعد عُسرٍ يُسْرا، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا، وهوّن الأمرَ الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صَبْرا، وخُوطِب الدينُ بقوله : ﴿ ولَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرىٰ ﴾ : فالأُولىٰ فى عَصْر النبىّ صلّى الله عليه وسلم والصَّحابه، والأخرىٰ هذه التى عَتَق فيها من رِقِّ الكآبه ؛ فهو قد أصبحَ حُرّا فالزمانُ كهيئته ٱستدار، والحقُّ بِهُجَته قد ٱستَنَار، والكُفْر قد ردّما كان عنده من

المُستعار ، وغُسل ثوبُ الليل بمـا فجَّر الفجْرُ من أنهار النَّهار ؛ وأتىٰ اللهُ بنيانَ الكُفْر من القَوَاعد ، وشفىٰ غليلَ صُدورِ المؤمنين برقْراق ماء المَوْردات البَوَارِد . أنزل ملائكةً لم تظْهَر للعُيون اللّاحظـه ، ولم تَخْفَ عن القُلُوب الحـافظه ؛ عَزَّت سِيمـا الإسلام بسَوَّمها ، وترادَفَ نَصْره بمُرْدِفها ، وأُخذتِ القُرىٰ وهى ظالمةٌ فترىٰ مُتْرَفيها كأَنْ لم تُؤْوَ فيها ؛ فكَمْ أقدمَ بها حَيْزُوم ، وركَضَ فاتَّبعه سَحابُ عَجاجٍ مَرْكوم ، وضَرب فإذا ضَرْبه كتابُ جِراحٍ مَرْقوم ؛ وإلا فإنَّ الحروب إنما عُقِدت سِجَالا ، وإنما جمعَتْ رِجَالا ، وإنمـا دَعتْ خِفَافا وثِقَالا ؛ فإما سـيوفٌ تقاتِلُ سُـيُوفا ، أوزُحُوف تقاتِلُ زُحُوفا ؛ فيكون حدُّ الحديدِ بيدٍ مُذَكَّرا وبيد مؤنَّثا ، ويكون السيفُ فى اليَدِ الموحِّدة يُغْنِي بالضربة الموَحَّدة وفى اليـد المثلِّثة لا يُغْنِي بالضَّرب مثلَّثا ؛ وذلك أنه فى فِئتيْن الْتقتَا ، وعدُوَّتين لغـير مودَّة اعتنَقَتَا . وإن هذه النُّصْرة إن زُويت عن ملائكةِ الله جُحدتْ كراماتُهم ، وإن زُويتْ عن البَشر فقـد عُرِفتْ قبلها مقاماتُهم ؛ فمـا كان سيفٌ يَتيقَّظ من جَفْنه قبل أن ينبِّهه الصَّرِيخ ، ولا كان ضَرْب يُطِير الهامَ قبل ضَرْبٍ يراه الناظر ويَسْمعه المُصِيخ ، فكَمْ فَرْيةٍ كأنَّهـا هِجرةُ الموت وبها التاريخ ، وكَمْ طَعْنةٍ تَخِرّ لها هِضَابُ الحديد ولهـا شَماريخ .

والحمدُ لله الذى أعاد الإســلام جديدًا ثَوْبُه ، بعد أن كان جَدِيدًا(١) حبْلُه ، مُبْيضًّا نَصْرُه ، مُخْضَرًّا نَصْلُه ، متَّسِعا فَضْله ، مجتمِعا شَمْلُه . والخادم يشرَحُ من نبإ هذا الفتح العظيم ، والنصرِ الكرِيم ؛ مايَشْرح صُدورَ المؤمنين ، ويمْنحُ الحُبور لكافَّةِ المسلمين ، ويُكرِّر البُشرىٰ بمـا أنعم اللهُ به ـــ من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر

(١) أى مقطوعا قال الشاعر .

أبى حبى لسلمى أن يبيـدا * وأمسى حبلها خلقا جديدا

فـا فى الأصل والضوء من الحاء المهملة اهمـال من الناسخ .

إلىٰ يوم الخميس منسلَخه ـ وتلكَ سبعُ ليال وثمانيةُ أيّام حُسُومه سَخّرها الله علىٰ الكُفّار ﴿فترىٰ القَوْمَ فِيهَا صَرْعىٰ كأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ورايتُها إلىٰ الإسلامِ ضاحكةٌ كما كانت من الكُفر باكيه ؛ فيومَ الخميس الأوّل فُتحتْ طبَرِيّةُ وفاض رِیُّ النصر من بُحيْرتِها ، وقضَتْ علىٰ جَسْرها الفَرَنْجُ فقضَت نَحْبَها بِحَيْرتِها ؛ وفى يوم الجمعة والسبت كُسِر الفَرَنْجُ الكسرة التى مالهم بعدَها قائمه ، وأخذ اللهُ أعداءه بأيْدِى أوليائه أخْذ القُرىٰ وهى ظالمه . وفى يوم الخميس منسلَخ الشهر فُتحت عَكّا بالأمان ، ورُفِعت بهـا أعلام الإيمان ، وهى أمُّ البِلاد ، وأختُ إرَمَ ذاتِ العِمَاد ، وقد أصبحت كأنْ لم تَغْنَ بالكفر وكأنْ لم تفتقر من الإسلام .

وقد أصدر هذه المطالعةَ وصليبُ الصَّلَبُوت مَأْسُور ، وقلبُ ملكِ الكُفْر الأسيرِ جيشهُ المكسورُ مكسور ؛ والحـديدُ الكافرُ الذى كان فى الكفر يَضْرِب وجهَ الإسلام ، قد صار حديدا مُسْلِمـا يُفَرِّق خُطُواتِ الكُفْر عن الأقدام ؛ وأنصـارُ الصليب وكِبَاره ، وكُلُّ مَن المعموديةُ عُمدتُه والدَّيْر دارُه ، قد أحاطت به يَدُ القبضه ، وأُخِذَ رَهْنا فلا تُقْبَل فيه القناطير المقنْطَرةُ من الذهب والفِضّه ؛ وطَبرِيّةُ قد رُفِعتْ أعلامُ الإسلام عليهـا ، ونَكَصتْ من عَكّا مِلّةُ الكفر علىٰ عَقِبَيْها ، وعَمّرت إلىٰ أن شهِدَتْ يومَ الإسـلام وهو خير يومَيْها ؛ بل ليس من أيام الكُفْر يوم فيـه خَيْر ، وقد غُسِـل عن بلاد الإسلام بدماء الشِّرْك ما كان يَتخلَّلُها فلا ضَرر ولا ضَيْر ، وقد صارت البِيَعُ مساجِدَهم بها مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخِر ، وصارت المَنَاحِرُ مواقِفَ لخُطباء المَنَـابِر ، واهتزَّتْ أرضُها لوقوف المسلمين فيها وطالمَـا ارتَجّت لمَواقف الكافر ؛ والبأسُ الإماميّ الناصريُّ قد أمضىٰ مِشْكاتَهُ علىٰ يَدِ الخـادم حتّىٰ بالدَّنِّيّ فى الكنائس ، وإن عزَّ أوّل الإسـلام بحَطِّ تاج فارِس ، فكم حطَّتْ سيوفُهُ فى هذا اليوم من تاجِ فارس .

فأما القَتْلىٰ والأُسارىٰ فإنها تزيد علىٰ ثلاثين ألفا .

وأما فُرْسان الديوية والاستبارية فقــد أمضىٰ الله حُكمه فيهم وقَطَع بهم سيوفَ نار الجحيم، ووصَّل الراحلَ منهم إلىٰ الشقاء المُقِيم، وفَتَك بافرنس كافِر الكُفَّار، ومشيِّد النار، مَنْ يَدُه فى الإسلام كما كانت يَدُ الكليم؛ وآفترَّت النُّصْرة عن ثَغْرِ عَكَّا بحمد الله الذى يسَّر فَتْحَها، وتسلَّمتها الملةُ الإسلامية بالأمان وعَرَفتْ فى هذه الصَّفْقة رِبْحَهَا .

وأما طبرِيَّةُ فافترتْهـا يدُ الحربِ فأنهرت الحربُ جُرْحَها .

فالحمدُ لله حمدًا لاتُضْرَب عليه الحدود، ولا تُزَكِّى بأزْكىٰ منه العُقُود، وكأنه بالبيت المقدّس وقد دَنَا الأقصىٰ من أقصاه ، وبَلَّغ الله فيه الأمَلَ الذى علم أنْ يُحْصِيَه وأحاط بأجَلِّه وأقصاه ؛ لكلِّ أجلٍ كِتَاب، وأجلُ العــدوّ هذه الكتَّائب الجامعه ، ولكلِّ عملٍ ثواب ، وثواب مَنْ هدىٰ لطاعته جناتُ نعيمه الواسعه؛ واللهُ المشكورُ علىٰ ما وهب، والمسئُــول فى إدامة ما آستَيْقظ من جَدِّ الإسلام وَهَبّ .

وقد توجه من جانبه الأميرُ رشـيدُ الدين دام تأييده فى إهداء هذه البُشرىٰ نيابةً عن الخادم، ووصفِ مايَسَّره الله لأوليائه من العزائم . والبلادُ والمعاقِل التى فُتحتْ هى : « طَبَرِيَّةُ، عَكَّا، الناصرَة، صَفُّوريّةُ، قَيْسارِيَّة، نابُلُس، حَيْفا، مَعْلَيَا، القزله ، الطُّور، الشَّقِيف، وقِلاعٌ بين هذه كثيرة . والولدُ المظَفَّر تقِّ الدين بصُور وحِصْن تِبْنِين . والأخُ العادل سيفُ الدين نصره الله قد أوفت (؟) بالوصول مِنْ عنده مَنْ عِنْدَه من العساكر فينزل فى طريقه علىٰ غَزَّة وعَسْقلان، ويجهِّز مراكبَ الأسطول المنصور ويُكْثِر عَدَدَها ، ويَسيرُبها إلىٰ ثَغْر عكَّا المحروس ويَشْحَنها بالرجال ويُوفِّر سلاحها وعُدَدَها؛ والنهوض إلىٰ القدس فهذا أوانُ فتحه ولقد دامَ عليه ليلُ الضَّلال، وقد آنَ أن يستقِرَّ فيه الهُدىٰ مشكور الإحسان، إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــلة الثـانية

(فى المكاتبات الخاصّة، إلى خلفاء بنى العباس)

قال أبو جعفر النحّاس : وقد يكاتَبُ الإمام بغير تصدير إذا لم يكن ذلك فى شىء من الأمور التى سبيلُها أن تُنْشأ الكتبُ بها من الدواوين . كما كتب القاسمُ بن عبدِ الله إلى المكتفِى مهنّئا له بالخِلَافة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والسلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةُ الله وبركاتُه ، وأسألُ اللهَ أن يعظِّم بركةَ هذا الأمر على أمير المؤمنين وعلى الأمّة كافّةً .

قال : والمستعمَلُ فى هذا الوقت فى مكاتبة الوزير الإمامَ :

أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين! وأعزَّه وأيَّده، وأتمَّ نعمتَه عليه، وأدام كرامتَهُ له .

ثم قال : وربما آستُحسنَتْ مكاتبة المرءوس إلى الرئيس على غير ترتيب الكتّاب. كما كتب إبراهيم بن أبى يحيى إلى بعض الخلفاء يعزِّيه :

أما بعدُ فإنَّ أحقَّ من عَرَف حقَّ الله عليه فيما أَخَذ منه، مَنْ عَظَّم حقَّ الله عليه فيما أبْقاه لَهُ، وآعلم أنَّ أجر الصابرين فيما يُصابونَ أعظَمُ من النِّعمة عليهم فيما يُعافَوْن فيه .

الطـــــرف الخامس

(فى المكاتبات الصادرة إلى الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

قد ذكر فى "موادّ البيان" أن المستعْمَل فى دولتهم أن يقال بعد البسملة : أفضَلُ صلواتِ الله وبركاتِه، وأشرفُ رِضْوانِه وتحيَّاتِه، على مولانا وسيدنا الإمام الفلانى أمير المؤمنين ، وعلى آبائِه الطاهرين ، وأبنائِهِ الأكرمين ـ إن كان له أبناء ـ فإن لم

يكن له أبناء قيل مكان الأكرمين : المنتظرين . ثم يقال بعد فضاء واسع : كتب عبد المَوْقِفِ النبوىّ خَلّد الله مُلْكَه ، من مَقَرّ خِدْمته بناحية كذا ، وأمورُ ما عُدِق به ورُدّ إلىٰ نَظَره منتظمةٌ بسعادة مولانا أمير المؤمنين ـ صلواتُ الله عليه وعلىٰ جدّه ـ والحمدُ لله رب العالمين ، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله الطاهرين وسَلَّم تسليما . ثم يقال : العبد يُنْهِى كذا وكذا ينص الأغراض التى بُنِى الكتابُ علىٰ إنهائها وشَرْح حالها . قال : فإن كان الكتاب مبنيًّا علىٰ المُطالَعة ببعض الأخبار ، قيل فى آخره بعد فضاء يسير : "أنهىٰ العبدُ ذلك ليستقرّ علمُه بالموْقِف الأشرفِ" إن شاء الله تعالىٰ . وإن كان مبنيًّا علىٰ الاستئمار فى بعض الأحوال ، قيل فى هذا الموضع : "ولمولانا أميرِ المؤمنين صلّى الله عليه الرأىُ العالى فى ذلك" إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط فى جوابٍ عن كتابٍ ورد من الخليفة بالسؤال عن المكتوب عنه فى مَرَضه ، وهو :

صلواتُ الله الزّاكِيَه ، وتحيّاتُه الذّكِيَّة الذّاكِيه ، وسلامُه الذى يتنزّل علىٰ الرُّوح بالرّوح ، ويُؤْذِن مِنْ رضَا الله بأشرفِ موهوبٍ وأكرمِ ممنُوح ، وبركاتُه التى فيها للمؤمنين سَكَن ، وبشفاعتها تُتَقَبَّل أعمال المؤمن بقَبُول حَسَن ـ علىٰ إمام الحقّ المنظور المغنى عن المنتظَر ، وحجّةِ الله التى أرسلها نذيرًا للبَشَر ، وخليفةِ الله الذى نزلَتْ بمدحه مرتّلاتُ السُّوَر ، قبل مرتّبات السِّيَر ، وبعثه اللهُ بالنُّور الذى لا يُمَكَّنُ الكافرُ من إطفائه ، وبرهانِ الله الذى لا يطمَعُ الجاحد فى إخفائه ، ونائبِ النبوّة ووارثِها ، ومُحيي القلوبِ وباعِثِها ، ومفيضِ أسرار الأنوار ونافِثِها ، سيدِنا ومولانا الإمام الفلانى : ولا زالتِ الأقدارُ له جُنُودا وجُدُودا ، والجديدانِ يَسُوقان إليه من أيّامهما ولياليهما إماءً وعَبِيدا ، وعلىٰ آبائه الذين سبقَتْ لهم من ربهم الحُسْنىٰ ، ورَغِبُوا عن عَرَض هذا الأدْنىٰ ، ولا تهم وُلاتُهم علىٰ الحيان ، ولا يَتمُّ للثقلين أن ينفذُوا ما لم يكونوا منهم

بسُلْطان ـ وعلىٰ أبنائه وجوه الهدىٰ البارزةِ من الأكِنّه ، وأيْدى النّدىٰ والأعِنّة والأسِنّه .

كتب عبد الموقِف النبوىّ خلَّد الله ملكَهُ من مَقَرِّ خدمته بالمكان الفلانى ، وأمورُ ماعُدِق به ورُدّ إلىٰ نظره علىٰ أتمِّ حالٍ وأكمله ، وأحسنِ نظام وأجمله ؛ بسعادة مولانا أمير المؤمنين ، صلواتُ الله عليه وعلىٰ جدّه وآبائه الطاهرين . العبد يُنْهِى أنه لو أخَذ فى شكر المِنَن التى تُرَقِّيه فى كل يوم لِهضَابٍ بعيدةِ المرتقىٰ ، وتُورِدُه جَمَّاتٍ قريبةَ المستقىٰ ، وتوجبُ علىٰ لسانه أن يبْذُل جُهدَ من ٱسترْسَل وعلىٰ قلبه أن يبْذُل جُهْد من ٱتقىٰ ؛ لقَصُر به الوَصْف ، وأعياه من وَرَق الجنّة الخَصْف ؛ وكيف يُجارى من يده ديمةُ الله بقلمه ، أو كيف ينْزَح بحرَ الجُود الذى يمدّه سبعةُ أبحرِ نعمه ، .
ولما ورد عليه التشريف بالسؤال الذى أحياه بنَسِيم رَوْحه ، ونفخ فيه من رُوحه ؛ فوقع له ساجِدا ، وثاب إلىٰ السجود عائِدا ؛ وبَذَل مع ضَراعته الابتهالَ جاهدا ، وأخلص فَرْضَ الوَلَاء معتقِدا ورفَعَ لِواءَ الحمد عاقِدا ؛ وكُشِفَ عنه الضُّرّ ، وأُطْلِعت علىٰ وجهه النِّعَمُ الغُرّ ، وتكافَتِ الأندادُ فى محل عَيْشه لحِلِيَ الحُلْو ومرّ المُرّ ؛ وٱنتهىٰ من الدعوات إلىٰ ماٱنتهىٰ به المَرض ، وتقَلل منه الجوْهر الذى عُزِل به العرض ، وصافح بمُهجته السِّهامَ التى نفَذَ بها الغرض ؛ وكاد يشاهِدُه مرتفِعا به الضَّنىٰ والألم ، وفعلتْ أنواره فى ظلمته مالا تفعلُ الأنوار فى الظُّلَم ؛ ولم يَرِدْ قبله حُلْوُ الأوّل والآخِر ، مأمونُ المَوَارِد والمَصَادر ، مضمونُ الشِّفاءِ فى الباطن والظاهر ، عادت القلوبُ علىٰ الأجسام بفَضْله ، وسَطتِ العافيةُ علىٰ الأسقام بفَضْله بل بفَصْله ؛ والله سبحانه يملِّكه أعناق البِلَاد ، كما أجرىٰ علىٰ يديه أرزاقَ العباد ، إن شاء الله تعالىٰ . وكتب فى يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا .

الطـــــرف السادس

(فى المكاتبـات الصادرة عن المـــلوك ومَنْ فى معناهم إلىٰ خلفاء بنى أميـــة بالأندلُس)

وكانت المكاتبـة إليهم بالافتتاح بالدعاء بطول البقاء، مع الإطنـاب فى الإطراء فى شأن الخليفة ومدْحِه والثناءِ عليه والدعاءِ له ، والخطابُ فيه للخليفة بأمير المؤمنين منعوتاً بمولاى وسيدى ونحو ذلك ؛ والتعبيرُ عن المكتوب عنه بلفظ الوحدة من تاء المتكلم ونحوها . كما كتب أبو المطرِّف بن المثنّى من إنشائه عن المنصور إلىٰ هشام ابن الحكم يخبِرُه بجرَيان الصُّلْح بينه وبين الموفّق، بعد ما كان بينهما من عَداوةٍ :

أطال اللهُ بقـاءَ أمير المؤمنين ! مولاىَ وسـيدى وسيد العالمين ، وٱبن الأئمـةِ الراشـدين ؛ عزيزًا سلطانُه ، مُنيرا زمانُه ؛ ساميةً أعلامُه ، ماضيةً أحكامُه ؛ ظاهرًا علىٰ مَنْ ناواه ، قاهرا لمن عادَاه ؛ كما يُحِبُّ ـ أيد اللهُ أميرَ المؤمنين مولاىَ وسـيِّدى علىٰ أحسنِ ما يكونُ عليه .

العبـدُ المخْلِص ، والمولىٰ المتَخَصِّص ؛ الذى حَسُن مُضْـمَره ، وٱسـتوىٰ سِرُّه وجَهْره ؛ ولاح ٱستبصاره وجِدّه ، وتنـاهىٰ سعيُه وجُهْـده ؛ فى مِضْمار الجرْى إلىٰ الطاعة ، وبَذَل إذعانَهُ وٱنقيادَه ، وٱستَعْبَد إمكانَه وإجهاده ؛ فيما يَفِى بتمكين الإمامة المهديَّه ، والخلافة المَرْضِيَّه ، ويَشُدُّ مبانىَ المملكة المصدّقة لتباشير اليمن والبركه ؛ والله سبحانه ولىّ العون والتأييد ، والملىُّ بالتوفيق والتسديد ، لاربَّ غيره .

وبعد ـ أبقىٰ الله أمير المؤمنين ـ فإن كتابى إليه سَلَف مُعْرِبا عن النَّزْغة التى كانت بينى وبين الموفَّق مملوكه ، وقديما نَزَغ الشيطانُ بين المرء وصديقِه ، والأخِ وشقيقِه ؛ وضربَ ساعيا بالتَّشْتيت والتشغيب ، والتبعيد والتقريب ؛ بين الأبِ الحانِى الشفيق ،

والآبن البَرّ الرفيق ؛ ثم يَعُودُ ذَوُو البصائر والنُّهىٰ ، وأولُو الأحلام والحِجَا ؛ إلىٰ ما هو للشَّحْناء أذهَبْ ، وبالتجامل أولىٰ وأوجَبْ . وكتابى هـذا وقد نسخَ اللهُ بيننا آيةَ الآفتراق ، بالآتصال والآتفاق ، ومحاسمةِ التبايُن والخِلاف ، وبُدُوِّ التآلُف والإنصاف ، وعادت النفوسُ إلىٰ صفائها ، وآنطوتْ علىٰ وَفَائها ، وخبَتْ نارُ الفتنه ، وآمتدّ رُواقُ الهُدْنه ، وثبتَتِ الأسباب الراسخـة ، والأواصِرُ العاطفة بأزِمَّة قلوبنا إلىٰ معَاهد الخُلَّة القديمه ، ومَوَاطن العِشْرة الكريمه ، والمعروفِ من الآمتزاج فى كلِّ الأحوال والتشابُك وجِلاءِ الشك باليقين ، وقرَّتْ بالآنتظام العيونُ ، وصرنا فى القيام بدَعْوة أمير المؤمنين مولانا وسيدنا رَضِيعَىْ لِبَان ، وشريكَىْ عَنَان ، وأليفَىْ تناصُر ، وحَليفَىْ تظَافُر ؛ فنحن عن قوسٍ واحدة فى نُصْرتها نرمى ، ومِنْ ورائها نَذُودُ جاهِدِينَ ونَحْمى ؛ قد فُتْنا الجِيادَ فى السَّبْق إلىٰ الطاعه ، وأحرزْنا قَصَب السبق فى المظاهرة والمشايعة ؛ فما نَفْتأ نسعىٰ فى تمهيدها ونَذْهب ، ولا ننفكُّ نَكْدحُ لهـا ونَنْصَب ؛ والله الكفيلُ بانجـادنا بعِزَّته وقُدرته ، وحولِه وقوّته ؛ لا إلٰهَ إلا هو .

وإن الذى عَقَده الله تعالىٰ لنا ، وحَسَمه من دواعى القطيعة عنَّا ، ما آطَّرد وتأتَّى ، وسَنَح وتَهيَّأ إلا بسعدِ طائرِ أمير المؤمنين سـيدنا ومولانا أعزه الله ، ويُمْنِ نقيبته ، فمن تمسَّـك بعُرْوته وعاذَ بعِصْمته ، فقد فاز قِدْحُه ، وتبَلَّج فى ظُلَمَ الأمور صُبْحه ، وآسـتدلَّ بأوضح الدليل ، وعَرض بالرأى الأصيل ، وآستنار بأضوإِ سراج ، وسلك علىٰ أقْصدِ مِنْهاج ، ولم يُزايِل الرَّشادُ آراءه ، وصاحبَ السَّدادُ أنحاءَه . والله تقدّس آسمُه لا يزال يعرّفنا من سعادة الدعوة الزكية ما يُصْلِح به أحوالَنَا ، ويُفْسِح به آمالنا ، بمنّه .

ولمـا أتاحَ اللهُ من السِّلْمِ ما أتاحه ، وأزاح من المكْروه ما أزاحه ، لم أجد فى فُسحةٍ ولا غنًى ولا سَعةٍ ، من إطلاع أمير المؤمنين مولاىَ وسـيدى من ذلك علىٰ الجَلِيّه ،

و إعلامه بالصورة؛ فأنهضْتُ إلىٰ حضرته العالية ذا الوزارتَين عبدَ الرحمن بنَ مطروح رسولى وعَبْـدى وخاصَّتِي مملوكَه لينُهِيَ إليه الحـالَ علىٰ حقيقتها، ويُوفِّيَها بكُلِّيَّتها؛ وأقرُنُ به رسولَ الموفَّق، متحملًا مثل ما تحَمَّلَه رسولى، ومتقلِّدًا كالذى تقلَّده؛ ولأمير المؤمنين مولاى وسـيدى الفضلُ العميم فى الإصغاء إليهما، والوَعْيِ عنهما، والسماعَ منهـما جميعَ ما يُورِدانه ويُوضِّحـانه، ويستَوْفِيانه ويشْرحَانه، والتطوُّل بالمراجعة فيه، بما يستوجبُه ويقتَضِيه، واصلًا لعِزِّ مِنَنه وأياديه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطـــــرف السابع

(فى المكاتبة الصادرةِ إلىٰ خلفاء الموحِّدين بالمغرب، القائم بقاياهم الآنَ بتُونس وما معها من سائر بلاد أفريقِيَّــة . وفيه ثلاثة أساليب)

الأســـلوب الأوّل

(أن تُفْتَتَح المكاتبةُ بالدعاء، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تكون المكاتبةُ من مَلِكٍ آخَر)

والرسم فيه أن تُفْتَتح بالدعاء المناسبِ للحال، ويعبِّر المكتوب عنه عن نفسه بنون الجمع ويخاطب المكتوب إليه بأمير المؤمنين . كما كتب القاضِى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن: أحد خلفائهم فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة، يستجيشه علىٰ الروم الفَرَنج القاصدين بلاد الشام والديار المصرية، وهو :

فتح اللهُ بحضرة سيدنا أمير المؤمنين ، وسيدِ العالمين ، وقسيمِ الدنيا والدِّين ؛ أبوابَ المَيَامِن ، وأسبابَ المَحَاسِن ؛ وأحَلَّه من كفايته فى الحَرَم الآمن ، وأنجزه من نُصْرة الحق ما اللهُ له ضامن ، وأصلَح به كلَّ رَأْى عليه الهوىٰ رائن ؛ ومكّن له فى هذه البَسِيطة بَسْطه ، وزاده بالعِلم غِبْطه ؛ حتّٰى يكونَ للأنبياء بالعِلْم وللأرض بالعزم وارِثًا ، وحتّٰى يُشَيِّد بحادثٍ قديما من مجده الذى لايزال بِغَضِّ الحديث حادثا .

كان من أوائل عَزْمنا وفواتح رَأْينا عند وُرُودنا الديارَ المصريةَ مفاتحةُ دولة سيدنا ، وأن نتيمَّن بمكاتبتها ، ونتزيَّن بمخاطبتها ؛ ونُنْهِض إليها أماثِلَ الأصحاب ، ونستَسْقِى معرِفَتَها آستسقاء السَّحاب ؛ ونَنْتَجِعَها بالخواطر ونجعل الكُتبَ رسُلَها ، وأيدِىَ الرسل سُبُلَها ؛ ونُمْسِكَ طَرَفا من حَبْل الجهاد يكونُ بيد حضرة سيدنا العاليةِ طَرَفُه ، ونَمْسح غُرّة سبقٍ وارثُها ووارثُ نُورها سلَفُه ؛ ونتجاذبَ أعداء الله من الجانبين ، لاسيما بعدَ أن نُبْنا عنه نِيابتَيْنِ فى نَوْبتَيْن : فالأولىٰ تطهيرُ الأرْضَيْنِ المصريَّة واليمنيَّة من ضلالةٍ أغضَتْ عيونَ الأيَّام علىٰ قَذَاها ، وأنامَتْ عُيونَ الأنام بائعةً يقظَتَها بكَرَاها ؛ ونيابةٌ ثانية فى تطهير بيت المَقْدِس ممن كان يُعارِض بِرِجْسه تقدِيسَه ، ويُزْعِج ببناء ضَلالِه تأسيسه ؛ وما كان إلا جَنَّةَ إسلام فَخَرج منها المسلمونَ خُروجَ أبيهم آدمَ من الجَنّه ، وأعقبهم فيها إبليسُ الكفرِ وما أجارته مما أعْقَبه اللَّعنه ، وما كانتْ لنا بذلك قوّة بل لله القوه ، ولا لنا علىٰ الخلق مِنَّة بل لله المَنَّه .

ولما حُطَّتْ لِدِين الكفرِ تيجان ، وحُطِّمت لذويه صُلْبان ؛ وأَخْرَسَ الناقُوسَ الأذانُ ؛ ونَسَخَ الإنجيلَ القرءانُ ؛ وفُكّتِ الصخرةُ من أَسْرها ، وخَفَّ ما كان علىٰ قَلْب الحجر الأسود بخِفَّة ما كان علىٰ ظهرها ؛ وذلك أن يَدَ الكفر غطَّتْها وغَمرتْها . فلله الحمدُ أنْ أحرمت الصخرةُ بذلك البُنْيان المُحيط ، وطَهَّرها ماطُِرٌ من دمِ

الكُفْر وما كان لِيُطَهِّرها البحرُ المحيط ؛ فهُنـالك(١) غُلِب الشركُ وآنقلب صاغرا ، واستجاشَ كافِرٌ من أهله كافرا ، وآستَغْضَب أنفـاره النافره ، وآستصرخَ نَصْرانِيَّته المتناصره ، وتظاهَرُوا علينا و إن الله مَوْلانا ، وطاروا إلينا زُرافاتٍ ووُحْدانا ؛ فلم يبق طاغيةٌ من طواغيهم ، ولا أُثْفِيَّة من أثافِيهِم ؛ إلا ألْجَم وأَسْرج ، وأجْلَبَ وأرهج ، وخَرج وأخرج ، وجاد بنَفْسه أو بولده ، و بعَدَده وبعُدَده ؛ وبذات صـدره وبذاتِ يَدِه ، و بكتائبه بَرّا ، و بمَرَاكبه بحرا ؛ و بالأقوات للخَيْل والرِّجال ، والأسلحة والجُنَن لليمين والشِّمال ؛ و بالنقدين علىٰ آختلاف صِنْفيهما فى الجمع ، وآئتلاف وَصْفَيْهما فى النَّفْع ؛ وأنهضَ أبطالَ البـاطل ، من فارسٍ وراجل ؛ ورامح ونابِل ، وحافٍ وناعِل ، ومُواقِف ومقاتِل ؛ كلٌّ خرج متطوِّعا ، وأَهْطعَ مُسْرِعا ، وأتىٰ متبرِّعا ، ودعا نفسه قبل أن يُستَدْعىٰ ؛ وسعىٰ إلىٰ حَتْفها قبل أن يُسْتَسْعىٰ ؛ حتّٰى ظنَنَّا [أنّ] فى البحر طريقًا يبَسا ، وحتّٰى تَيقَّنَّا أن ماوراء البحر قد خَلَا وعسا ؛ وقلنا : كيف تَتْرك ، وقد علم أنه يُدْرَك ؛ وزادت هذه الحُشُود المتوافيه ، وتجافَتْ عنها الهِمَمُ المتجافيه ؛ وكَثُرت إلىٰ أن خرجَتْ من سجن حَصْرها ، ومستَقَرّ كُفْرها ، و بقِيَّة ثَغْرها ــ وهو صور ــ فنازَلَتْ ثغر عَكَّا فى أسطولٍ مَلَك بَحْره ، وجمع سَلَكَ بَرّه ــ فنهضنا إليه ، ونزَلْنا عليهم وعليه ؛ فضَرب مَعَنا مَصافّ قُتِّلَتْ فيه فُرسانُه ، وجُدِّلَتْ شُجعانُه ، وخُذلت صُلْبانه ؛ وساوىٰ الضربُ بين حاسِرِ القوم ودارعهم ، وبَرَز الذين كُتِبَ عليهم القَتْـلُ إلىٰ مَضَاجِعهِمْ ؛ فهُنالك لاذُوا بالخَنَادق يحْفِرُونها ، وإلىٰ الستائر يَنْصِبُونها ؛ وأخْلَدُوا إلىٰ الأرض متثاقِلين ، وحَمَلُوا أنفُسَهم علىٰ الموت متحاملين ، وظاهَرُوا بين الخنادق ، وراوَحُوا بين المَجانِق ؛ وكلما يُجِنُّ القتلُ من عددهم مائةً أوصلها البحر ممن يَصل وراءه بألف ، وكُلّما قلُّوا فى أعيننا فى زحف ، قد كَثُروا فيما يَليه من الزَّحْف ؛ ولو أن دُرْبة عسا كرنا فى البحر

---

(١) لعل هذا هو جواب الشرط أوّل الفقرة .

كدُرْبتها فى البر، لعجَّل الله منهم الانتصاف واستقلّ واحدُنا بالعشرة ومائتُنا بالألف؛ وقد اشتهر خروجُ ملوكِ الكُفَّار فى الجمع الجمّ، والعدد الدُّهْم، كأنَّهم إلىٰ نُصُبٍ يُوفِضُون، وعلىٰ نارٍ يُعْرَضُون، ووصولهم علىٰ جهة القسطنطينية ـ يسر الله فتحها ـ علىٰ عزم الائتمام إلىٰ الشام فى مُنْسَلَخ الشتاء ومستهَلّ الصيف، والعساكرُ الإسلامية لهم تستقبِل، وإلىٰ حربهم تنتقل؛ فلا يُؤْمَن علىٰ ثغور المسلمين أن يتطرَّق العدُوُّ إليهم وإليها، ويفْرُغ لها ويتَسَلَّط عليها؛ والله مِنْ وَرَائِهِم مُحِيط. وإذا قُسمت القوّةُ علىٰ تلقِّى القادم وتَوَقِّى المُقيم، فرُبَّما أضر بالإسلام انقسامُها، وثلَمه والعياذُ بالله انْثِلامُها.

ولما مَخَض النظرُ زُبْده، وأعطىٰ الرأْىُ حقيقةَ ماعنده؛ لم نَرَ لِمكاثَرة البحر إلا بحرًا من أساطيله المنصورة فإنّ عددَها واف، وشَطْرها كاف؛ ويمكنُه ـ أدام الله تمكينَه ـ أن يمُدّ الشامَ منه بعدٍّ كَثِيف، وحدٍّ رَهِيف، ويعهَدَ إلىٰ واليه أن يُقِيم إلىٰ أن يَرْتَبِع ويَصِيف؛ ويمكنه أن يَكُفّ شطرا لأُسْطول طاغيةِ صِقِلِّيَّة ليَحُصَّ جناحَ قُلوعه أَنْ تَطير، ويَعْقِل عُبَابَ بحرِه أن يُغير، ويعتَقِلَه فى جزيرته، ويَجْرِى إليه قَبْل جَرِيرته؛ فيَذْهَب سيدُنا وعقبُه بشَرَف ذِكْرٍ لا تُرَدُّ به المحامدُ علىٰ عَقِبها، ويُقِيمَ علىٰ الكفر قيامةً يُطْلِعُ بها شمسَ النصر من مَغْرِبها؛ فإذا نَفَذ طريقُه وعلم الناس بمَوْفِدِه، أَوْرَدُوا وأصدَرُوا فى مَوْرِده؛ وشخَص المسلِمُ والكافرُ: هذا ينتظِرُ بُشْرىٰ البِدَار، وهذا يستَطْلِع لمن تكونُ عُقْبىٰ الدار؛ وخاف وطْأَةَ مَنْ يصِلُ من رجال الماء مَنْ وصلَ من رجال النار. ولو بزَقَتْ عليهم بازقةٌ غربيّةٌ لأغرقهم طُوفانُها، ولو طلعت عليهم جاريةٌ بحرِيَّة لنعقَتْ فيهم بالشَّتات غِرْبانُها.

وما رأينا أهلًا لهذه العَزْمة إلا حضرةَ سيدنا أدام الله صِدْق محبة الخيْرِ فيه، إذ كان منحه عادة فى الرضىٰ به وقُدرةً علىٰ الإجابه، ورَغْبةً فى الإنابه(١)، وولاية لأمر

(١) كذا فى الأصول ولم نعثر عليها فى رسائل القاضى الفاضل.

المسلمين، ورياســة للدُّنيا والدين ، وقيامًا لسـلطان التوحيد القـائم بالموحِّدين ؛ وغَضَبًا لله ولدينه ، وبَذْلا لمَذْخُوره فى الذبِّ عنــه دون ما عوده ؛ والآنَ فقد خَلَا الإسلام بملائكته، لمـا خَلَا الكفرُ بشياطينه ؛ وما أُجلت السوابقُ إلا لإطلاقها، ولا أُثِّلتِ الذخائرُ إلا لإنفاقها ؛ وقد آستشرف المسلمون طُلوعَها من جهته المحروسةِ جارا من الأساطيل تغشىٰ البِحار ، وليـالِىَ من المرا كب تركَبُ من البحر النَّهار ؛ وإذا خفقَتْ قلُوعُها خَفَقت للقِلاع قُلوب، وإذا تجافَتْ جُنوبُها عن المَوْج تجافَتْ من الملاعين جُنُوب ؛ فهى بين ثَغرِ كُفْر تعتَقِله وتحصُره ، وبين ثغر إسلام تُفَرِّج عنه وتنْصُره، يكون بها مصائبُ عند المسلمين(؟) وتَظَل قلائدُ المشركين لغِرْبان بحره طَرائِد ، ويمضى سيفُ الله الذى لايَعْدَم فى كل زمان فيُعلَمُ معه أن سيف الله خالد؛ أعزَّ الله الإسـلامَ بمـا يزيد حضرةُ سـيدنا من عِزِّها ، فيما مدّ عليهـا من ظلها ، وبمـا يُسْكِنُه من حِرْزها، فيما يَبْسُط علىٰ الأعداء بهـا من بأسها ويُنْزِل بهـم من رجزها ، وبمـا يجرِّده من سيوفها التى تقطع فى الكفر قبل سَلِّها وهزها .

وقد أوفَدْناه علىٰ باب حضرة سـيدنا ، وهو الداعى المُسْمِع ، والمَبَلِّغ المُقْنِـع ، والمجمع المستجمع ؛ علمناه أمرا يسرا، وبوأناه الصدر فكان وجها ، وأودَعْناه السِّرَّ فكان صَدْرا .

الضـــرب الثـانى
(أن تكون المكاتبةُ صادرةً عن بعض الأتبـاع)

والرسم فيه أن تُفتتح المكاتبةُ بالدعاء بطول البقاء ، مثل أن يكتُبَ أحد أتباعه إليه؛ ويعبرِّ المكتوبُ عنه عن نفسه بلفظ الإفراد ، وعن الخليفـة بأمير المؤمنين . كما كتب أبو الميمون عن بعض أهل دولتهم إلىٰ بعض خُلَفائهم جوابَ كتاب ورد بالكشف عن عامل ثغر شَقُورةَ .

« أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين ، وناصرِ الدين والدنيا بفضله العَميم ؛ ولا برِحتْ مصالحُ العبـاد بباله الكَرِيم جائلةً مائله ، وسـيرتُه الحميـدةُ لدانيهم وقاصيهم شامِلةً كافِله ، ولا زالَ للهِ فى أرضه بالقِسْط قائمـا ، وعلىٰ ما ينفَعُ الناس محافظًا دائمـا .

كتبْتُه ـ أيَّد الله أمره ! صدْرَ جمادىٰ الأولىٰ ، سنةَ أربع وعشرين وخمسمائة ، بعد آمتثال ماحدّه ، والآنتهاء إلىٰ ماوجبَ الآنتهاءُ عنده ؛ من أمر ثغر شَقُورةَ حرسه الله ! علىٰ ما أنُصُّ مَنَاقله ، وأَعرِض مراتِبَه ومنازِلَه ؛ وذلك أن كتابه العزيز وافانى علىٰ يَدِ رجل من أهلها فيه فصول رفعها ، وأحاديثُ سطّرها و جمَعَها ؛ وآندرج الكتابُ المرفوعُ بذلك طَيَّه ، لينظُر إليه من آدّعىٰ عليهم رفعه ، ويستَبِينَ حقيقتَه أو وَضْعه ؛ و بإبطاء هذا الرافع سبقَتْه الأنباء ، وآستقرّت عند جمعها الأغراض والأنحاء ؛ فآجتمعُوا إلىٰ عاملهم فلانٍ وفقه الله ، وحضرهم حاكمُ الجهـة أبقاه الله ؛ وتَتَبَّعُوا تلك الوجوهَ بالردِّ لهـا ، والإنكار علىٰ القـائم بها ؛ وعقَـدُ وافى كل عقْد منها عَقْدا يناقِضُـه ، وآستظهروا بشهادات تنافيه وتعارِضُه ؛ وآندرجت العُقُود ، ثابتةً فى كتاب الحاكم علىٰ السبيل المعهود فى إثبـات العُقُود ؛ فثبتت عندى لثبوتها عنده ، وخاطَبُونى مع ذلك متبرِّين من هذا الرافع ، واضعين له فى عَقْله ودينه بأحَطِّ المواضع ؛ وصرَّحوا بآرتضائهم بسِيرة عاملهم وآغتباطهم بحمايته وسَـدَاد نَظَره ، وعلىٰ تَفِئَّة ذلك وصل هـذا الرافع بالكتاب العزيز وما آندرج طيَّه علىٰ ما قدّمت ذكره ؛ فاسـتأنفتُ النظر ، وأعدْتُ العمل ، وخاطبتُ الحاكم والأعيـان والكافَّةَ هنالك بما ورد فى أمرهم ؛ وأردفْتُ الكتاب المرفوعَ ليقِفُوا علىٰ نصِّه ، وينظروا إلىٰ شَخْصه ؛ فراجعُونِى أنّه لامَزِيد عندهم علىٰ ما قدّموه ، ولا خلافَ فيما نَقَدُوه وأحكموه ، وأحالوا علىٰ ما تَثْبُت به العُقود ، وهى من النـاس المقاطِعُ والحُدُود ؛ فآقتضىٰ النظرُ إعلامَ أميرِالمؤمنين وناصر الدين أعلىٰ الله أمره ، حسَبَ ما حدّه ، بمـا وقعَتْ عليه الحـال ، ليرتَفِـعَ الإشكال ،

ولا يتعلق بهذه الخيبةِ البال ؛ وقد أدرجتُ إلىٰ حضرته الساميةِ الكتبَ المذكورةَ لتُعرَضَ عليها، وتستقِرّ الجلِيّةُ منها لديها، إن شاء الله .

وآندرجت العقُودُ إلىٰ الفقيه فلان قاضي الحضرة وفقه الله، والله يشكُرُ لأمير المؤمنين وناصر الدين تحرِّيَه وآجتهادَه ، وتوفيقَه وسَدَاده ؛ ويُوالِي مَنْ والاه ، ويَكيد مَنْ عاداه . ولو كانت الحال بشَقُورةَ علىٰ ماصوّره هذا الرافع لما آنطوت عنّي أسرارُها ، ولا [خفِيَتْ عَلَيَّ] علىٰ البعد أخبارها ؛ وسفوف(١) إلىٰ فلانة بَيِّن ، وهو متشَرِّع متدَيِّن ، وعَضْدُه علىٰ ما هو بسبيله فى ذلك الثغر متَعيِّن ؛ والله يُيَسِّر الجميع إلىٰ ما يَقضِي حقوق النعمه ، ويُقِيم فروضَ الخدمه ، بعونه وقدرته ! .

الأسـلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبةُ بألقاب الخليفة نفسه ثم يؤتىٰ بالصدر معبِّرا عن المكتوب عنه بالعبد . ومخاطبا للخليفة بميم الجمع للتعظيم ، ويختم الكتاب بالسـلام . وهو علىٰ ضربين)

الضـرب الأوّل

(أن يُوصَف الخليفة بالمَقَام)

كما كتب أبو الميمون أيضا عن بعض أهل دولتهم إلىٰ الناصر لدين الله أحد خلفائهم :

المَقَام الأعلىٰ ، المقَدّس ، المكرّم ، الإماميّ ، الطاهر ، الزكيّ ، مَقام الخليفة المؤيَّد بنصر الله ، الإمامِ « النـاصرِ لدين الله » كَلأَ الله جَلاَلَهم ، وفَيّأَ ظلالَهُمْ ، وبَوّأ وُفُود السُّعود ووجود الظهور والصُّعود مواطئَهم المقدّسة وحِلاَلَهم .

(١) كذا فى الأصول وعليه علامة توقف ولعله وتعفف والى فلانة الخ والمراد براءته مما نسب اليه .

عبدهم المتقلّب فى نعمتهم ، المتقرّب إلى الله عز وجل بالمناصحة فى خِدْمتهم ، المتسبِّب إلى الزُّلْفى عندهم بالتزام طاعتهم ، والاعتصام بعُصْبتهم ، فلان .

كتب عبدُ المقام الأعلى ، والنّدِيّ الذى أُسِّس بنيانُه على تقوى من الله ورضوان واحتوى على الفضائل واستولى ، من موضع كذا حماه الله تعالى ، وجَنانُه لطاعتكم قُطْب ، ولسانُهُ بشكر نعمتكم رَطْب ، فبتلك رجَاءُ الفَوْز ، وبها ابتغاءُ نَيْل الآمال والحَوْز ، وكيف لايطاوعه الجَنَان ، وشكر اللسان مستَمِدّ لإدرار الإحسان ، وللمَقَام الأسنى عَوَارِف ، لايتقلّص ظلُّها الوارف ، وقطراتٌ بالرحمة مسطَّراتٌ بمِدْرار سحابها الواكف ، وقد كانتْ للعبد سِهام ، فاضتْ عليه بها من النعمة رِهَام ، ثم جَزَر الماءُ باسترجاعها الآن ، وسُقِى العبدُ بانتزاعها كأس الحُزْن مَلْآن ، وردت لك بهذه الجهة انقطاع المواساه ، وامتناع الألسن بالمكابدة لشَظَف العيش والمُقَاساه ، وإلى المقام الأعلى الأسنى نفْزَع حين نفْزَع ، ونَذْهب حين نَرجو ونرهب ، ونلجا فلا تؤخر طلباتُنا ولا تُرجا ، وخدمةُ العبد هذه تنوبُ عنه فى تقبيل ذلك المقام الأسمى ، والتعرُّض لما عهد لديه من نفحات الرضى ، والتضَرُّع فى إدرار ما جَزَر من تلك المِنَّة ، وغَيْض من فَيْض تلك النعمى ، ويُنْهِى من رغبته فى بركة تلك الأدعيه ، التى هى للخيرات كالأوعيه ، ما يرجوه بشفاعة تأكُّد الامتنان ، ومجرَّد عوارف الرأفة والحَنَان ، إن شاء الله تعالى .

والرب تعالى يُبقى المقامَ الأعلى والنصرُ له مظاهِر ، والخيرُ لديْه متظاهِر ، والسعدُ لوليِّه ناصر ، ولعدوّه قاهِر ، بحول الله تعالى وقوّته لا ربَّ غيره ، ولا خير إلا خَيْره ، والسلام .

الضــــرب الثانى

(أن يعـــبر عن الخليفة بالحضرة)

كما كتب أبو المَطَرِّف بن عميرة عن صاحب أرْغُون من الأندلُس إلىٰ المستنصر بالله أحد خلفائهم، يستأذِنُه فى وِفَادة صاحب أرغون من الأندلُس أيضا علىٰ أبواب الخلافة مُغاضِباً لأهل مملكته :

الحضرة الإماميَّـة المنصورة الأعلام ، الناصرةُ للإسلام، المخصوصة من العدل والإحسان بمـا يجلو نُورُه متراكم الإظلام ؛ حضرةُ سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين ، أبى يعقوب آبن سادتنا الخلفاء الراشدين؛ وصَل الله لها إسعادَ القَدَر، وإنجاد النصْر والظَّفَر، ولا زال مَقَامُها الأعلىٰ سامِيَ النظر، مبارَك الوِرْد والصَّدَر ، ويَفِيض منـه الجودُ ، فيضَ المَطَر ، ويحيط به السُّعود ، إحاطة الهـالَةِ بالقَمَر .

نَشْأةُ أيامها الغرّ، ورَبِيّ إنعامها المواظب علىٰ الحمد والشكر ، المشرَّف باستخدامها الذى هو نعم العون علىٰ التقوىٰ والبر، عبدُها وآبن عبدها فلان .

سلامُ الله الطيبُ المبـارَك وتحيَّاته ، تخص المقـام الأشرف الأعلىٰ ورحمةُ الله وبركاتُه . وبعـد فكتب العبدُ ــ كتب الله للقام الأعلىٰ فتوحا يعُمُّ جميع الأمصار، وسعودًا يَقْضِى بفَلِّ السُّمْر الطوال والبِيض القِصَار ــ من بَلَنْسِيَةَ، و بركاتُه تظهَر ظُهورَ النهار، وتَفِيض علىٰ البلاد والعِبَاد فَيْضَ الأنهار، فالخلقُ من واردٍ فى سَلْسالها المَعِين، وراجٍ للذى منها وهو من رجائه علىٰ أوضَح مراتبِ اليقين؛ والله يُبقى عِزَّ الإســلام ببقائه ، و يعينُنا علىٰ آمتثال أوامره المبـاركة معشر عبيده وأرقائه ! بمنه .

وقد تقرّر له من المقام الكريم ـ أدام الله عُلُوّه ، وكَبَتَ عدوّه؛ أمر بالسك (١) ـ وطال ماله فى البلاد الأرْغُونية من زَعامَةٍ فى شَأْوِها برّز ، ولغايَتِها أحرز؛ وكان قد كَفَل صاحب أرغون فى الزمان المتقدّم كفالةً دار أمرُها عليه ، وأُلْقِى زمامُها إليه ؛ وتفرّد منها بعِبْء وحَمَله ، وخُطَّة بلغ منها أمَلَه ؛ ثم إنه حطَّ من رُتْبته ، وتأكدتِ المبالغةُ فى نَكْبته ؛ لقضيّة عرضَتْ له مع أهل أرْغُون ، فلفظتـه تلك الجَنبات ، وأزعجه أمْرٌ لم يمكنه عليه الثَّبات ؛ ورأىٰ أن يلجأ بحاله إلىٰ المقام الباهر الأنوار ، العزيزِ الجِوَار ؛ فواصل هذا الموضع قبل مَقدَم العبد عليه ، مقرِّرا ما نَزَل به ، ومستأذِنًا فى الوجه الذى تعرَّض لطَلَبه ؛ فأُذِنَ له فى مَقْصده ، وآنصَرف عن التأهُّب للحركة من بلده ؛ ثم لما وصل العبدُ هذه الجهةَ وفَرَغ هو من شأنه أقبل متوجِّها إلىٰ الباب الكريم ، ومتوسِّلا بأمله إلىٰ فَضْله العميم ؛ والظاهرُ من حَنَقه علىٰ أهل أَرْغُون وشدّةِ عداوته لهم ، وما تأكّد من القطيعة بينه وبينهم ؛ أنه إن صادف وقْتَ فتنة معهم ووجد مايؤمِّله من إحسانِ الأمر العالى أيّده الله فيَنْتَهِى من نِكَايتهم والإضرار بهم إلىٰ غايةٍ غريبةِ الآثار ، مُفْضيةٍ به إلىٰ دَرْك الثـار ؛ وكثيرٌ من زعماء أَرْغُونَ ورجالها أقاربُه وفُرْسانه ، وكلُّهم فى حَبْله حاطب ، ولإنجاده متىٰ أمكنه خاطِب ؛ وللمقام الكريم أعلىٰ الرأى فيه أبقاه الله شافيا للعِلَل ، وكافياً طوارقَ الخطب الجَلَل ، مأمولا من ضروب الأمم وأصناف المِلَل ، وهو سبحانه يُديم سعادةَ جَدّه ، ويخُصُّه من البقاء الذى يَسُرُّ أهل الإيمـان ويُضَاعِف بَهجةَ الزمان بأطوله وأمـدّه ، والسـلام .

---

(١) كذا فى الأصول بالاهمال وعليه علامة التوقف ، ولم نهتد إليه .

الأســـلوب الثـالث

(أن تُفتَتح المكاتبةُ بأوصاف الخلافة والثناء عليها، والخطابُ فيه بأمير المؤمنين وعن المكتوب عنه بنون الجمـــع)

وهذه المكاتبة من المكاتبات البديعة المُسْفِرة عن صُبْح البلاغة .

ونسختُها بعـد البسـملة على ما كتب به ٱبن الخطيب عن سلطانه ٱبن الأحمر صاحبِ الأندلُس إلى المستنصِر بالله أبى إسحـاق إبراهيم خليفـةِ الموحِّدين يومئـذ بالأندلُس . والاستفتاحُ :

الخلافةُ التى ٱرتفَع عن عقائد فَضْلها الأصيلِ القواعدِ الخِلاف ، واستقلَّتْ مَبَانِى فخرِها الشائع وعِزِّها الذائع على ما أسَّسه الأسـلاف؛ ووجب لحَقِّها الجازم وفَرْضها اللازم الاعتراف؛ ووَسِعت الآملين لها الجوانبُ الرحيبةُ والأكناف، فامتزاجُنا بعلائها المُنِيف ، وولائها الشريف ، كما ٱمتزج المـاءُ والسُّلاف؛ وثناؤُنا على مجدها الكريم، وفضلِها العميم، كما تأرَّجت الرِّياضُ الأفْواف [لَمَّا زارها الغَمَامُ الوكَّاف] (١) ودُعاؤنا بطُول بقائها، وٱتِّصال علائِهـا، يَسْمُو به إلى قرع أبواب السموات العُلَا الاستشراف؛ وحِرْصُنا على تَوْفِيَة حقوقها العظيمه، وفواضِلها العَميمه، لاتحصُره الحدودُ ولا تُدْرِكه الأوصاف؛ وإن عَذَر فى التقصير، عن نَيْل ذلك المرام الكبير، الحقُّ والإنصاف. خلافةُ وِجْهةُ تعظيمنا إذا توجَّهت الوجُوه، ومَنْ نُؤْثره إذا هَمَّنا ما نرجُوه، ونُفَدِّيه ونُبَدِّيه إذا ٱستُمْنِح المحبوب وٱستُدْفِع المكروه؛ السلطانِ [الخليفة] (١) الجليل ، الكبير، الشهير، الامام، الهمام، الأعلى، الأوحد، الأصْعَد، الأسعَد، الأسمى، الأعدل، الأفضل ، الأسنى ، الأطهر، الأظهر، الأرضى ، الأحفل ، الأكمل، أمير المؤمنين أبى إسحاق

(١) الزيادة من كتاب " ريحانة الكتّاب " المخطوط المحفوظ بدار الكتب الخديوية تحت نمرة ٤ أدب ش .

آبن الخليفة الإمام البَطَل الهمام، عين الأعيان، وواحدِ الزمان، الكبير، الشهير، الطاهر، الظاهر، الأوحد، الأعلىٰ، الحسيب، الأصيل، الأسمىٰ، العادل، الحافل، الفاضل، المعظَّم، الموقَّر، الماجد، الكامل، الأرضىٰ، المقدَّس، أمير المؤمنين أبى يحيى أبى بكر، آبن السلطان الكبير، الجليل، الرفيع، الماجد، الظاهر، الطاهر، المعظَّم، الموقَّر، الأسمىٰ، المقدّس، المرحوم أبى زكريا، آبن الخليفة الإمام، المجاهد الهمام [الكبير الشهير، الخطير، بطل الميدان، مَفْخَر الزمان، الطاهر الظاهر، الأمضىٰ المقدّس الأرضىٰ أمير المؤمنين أبى إسحاق آبن الخليفة] (١) الهمام الامام ذى الشهرة الجامحه، والمَفَاخِر الواضحه، عَلَم الأعلام، نخر السُّيوف والأقلام، المعظَّم، الممجَّد، المقدّس، الأرضىٰ، أمير المؤمنين، المستنصر بالله أبى عبد الله بن أبى زكريا آبن عبد الواحد بن أبى حفص أبقاه الله. ومَقامه مقامُ إبراهيم رِزْقا وأمانا، لايخصُّ جَلْبُ الثمراتِ إليه وقْتا ولا يُعَيِّن زمانا، وكان علىٰ مَنْ يتخطَّف الناسَ مِنْ حوله مؤيَّدا بالله مُعَانا. معظِّم قدره العالى علىٰ الأقدار، ومُقَابل داعى حقّه بالآبتدار، المُثْنِي علىٰ مَعَاليه المخلَّدة الآثار، فى أصْونة النِّظام والنِّثار، ثناءَ الروضة المِعْطار علىٰ الأمطار، الداعِى إلىٰ الله بطول بقائِه فى عِصمةٍ منسدِلة الأستار، وعزّةٍ ثابتة المَرْكَز مستقيمةِ المَدَار، وأن يختِمَ له بعد بلوغ غايات الآجال ونهاياتِ الأعمار، بالزُّلفىٰ وعُقْبىٰ الدار.

سلامٌ كريمٌ كما حملَتْ نسمات الأسحار، أحاديثَ الأزهار، ورَوَتْ ثُغُورُ الأقاحِىّ والبَهار، عن مسَلْسَلات الأنهار، وتجلّى علىٰ مِنصَّة الآشتهار، وَجْه عَرُوس النَّهار، [يخصُّ خلافتكم الكريمة النِّجار] (١) العزيزةَ الجار، ورحمة الله وبركاته.

أما بعدَ حمد الله الذى أخفىٰ حكمتَه البالغةَ عن أذهان البَشَر، فعجزَتْ عن قياسها، وجعل الأرواح كما ورد فى الخبر، أجنادًا مُجنَّدة تَحِنُّ إلىٰ أجناسها. مُنْجِد هذه

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب".

الملة ، من أوليائه الجلَّة ، بمن يَرُوضُ الآمال بعد شِماسها ، ويُيَسِّر الأغراض قَبْلَ ٱلتماسها ، ويُعْنىٰ بتجديد المودَّات فى ذاته وٱبتغاءَ مَرْضاته علىٰ حينِ إخلاق لِباَسها ، الملكِ الحقِّ واصل الأسـباب بحَوْلِه بعد ٱنتكاثِ أمْراسِها ، ومُغْنِى النُّفوس بطَوْله بعد إفْلاسِها ـ حمدًا يُدِرُّ أخْلافَ النِّعم بعد إبْساسِها، ويُنْشِر رِمَمَ الآمال من أرماسها، ويُقَدِّس النفوسَ بصفات ملائكةِ السموات بعـد إبْلاسِها .

والصلاةُ والسلامُ علىٰ سـيدنا ومولانا محمدٍ رسـولِه سراجِ الهِدَاية ونِبْراسها، عند ٱقْتِناء الأنوار وٱقْتِباسها ، مطَهِّر الأرضِ من أوْضارها وأدناسها ، ومُصْطفىٰ اللهِ من بين ناسِها، وسـيدِ الرُّسُل الكِرام ما بين شِيثِها و إلْياسها ، الآتِى مُهَيْمِنا علىٰ آثارها فى حين فَتْرَتِها، ومن بعد نضْرَتِها وٱستئناسها، مُرْغِم الضَّراغم فى أخْياسها، بعد ٱفْترارِها وٱفتراسِها، ومعفِّر أجرام الأصنامِ ومُصْمِت أجراسهـا .

والرِّضا عن آله وأصحابه وعِتْرته وأحزابه حُمَاة شِرْعته البيضاءِ وحُرَّاسها ، ومُلْقِحِى غِراسها، لُيوثِ الوغىٰ عند ٱحتدامِ مِرَاسها ، ورُهْبانِ الرجاء تتكفَّلُ بمناجاة السميع العليم، فى وَحْشَـة الليل البهيم، بإيناسهـا، وتَفَاوَح نَوَاسِمُ الأسحـار عند الاستغفارِ بِطِيبِ أنفاسها .

والدعاء لخِلافتكم العلية المستنصِرِيَّة بالسعادة التى تَشعشَعُ أيدى العِزَّة القَعْسَاء من أكواسها ، ولا زالتِ العِصمةُ الإلٰهية كفيلةً باحترامها وٱحْتراسِها ، وأنباء الفُتوح ، المؤيدة بالملائكة والرُّوح، رَيحانَ جُلَّاسها، وآياتُ المفاخر،التى تركَ الأوَّلُ للآخر، مكتتبةَ الأسـطار بأطْراسها ، وميادينُ الوجود مجالًا لجيـاد جُودِها و بأسِها ، والعزُّ والعـدلُ منسو بين لفُسْـطاطِها وقِسْطاسِها ، وصَفيحةُ النصرِ العزيزِ تُفيضُ كفُّها المؤيدةُ بالله علىٰ رياسها ، عنـد ٱهتياجِ أضدادها وشِرَّة إنكاسها ، لٱنتهاب البـلاد وٱنتهاسها ، وهبوبِ رياح رِيَاحها وتمرُّد مَرْداسها .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم من كتائب نصره أمدادا تُذْعِنُ أعنـاقُ الأنام، لطاعة ملكِكُم المنصورِ الأعلامِ ، عند إحْساسها ، وآتاكم من آيات العِنايات آيةً تَضْرِب الصخرةَ الصَّماء ممن عصاها بعصاها فتُبادر بانبجاسها ـ من حمراءِ غَرْناطةَ ـ حرسها الله ـ وأيامُ الإسـلام ، بعناية الملك العَلَّام ، تحتفل وفودُ الملائكة الكرامِ لولائمهـا وأَعْراسِها ، وطواعينُ الطِّعـان ، فى عدوّ الدِّين المُعان ، تجدِّد عهـدُها بِعَامِ عِمْواسِها .

والحمدُ لله حَمْدا يُعيد شوارِدَ النِّعم ، ويستدِرُّ مواهِبَ الجُود والكَرَم، ويُؤَمِّن من ٱنتكاب الجُـدُود وٱنتِكاسِها ، وَلِىِّ الآمال ومكاسها . وخلافتُكُم هى المَثـابةُ التى يُزْهىٰ الوجودُ بمحاسن مَجْدِها زُهوَّ الرِّياض بوَرْدِها وآسها ،وتُستَمدُّ أضواءُ الفضائل من مِقْباسها ، وتَرْوى رُواةُ الإفادة والإجادة غريبَ الوِجادَة عن ضَحَّاكها وعَبَّـاسها ، وإلىٰ هذا أعلىٰ اللهُ معارِجَ قَدْرِكم وقد فَعَل،وأنطق بحُجَج فَخْرِكم من ٱحتفىٰ وٱنتعل ؛ فإنه وصلنا كتابُكم الذى حَسِبْناه علىٰ صنائع الله لنا تميمةً لاتَلْقَع بعدها عَيْن، وجعلناه علىٰ حُلَل مواهِبِه قلادةً لايُحتاج معها زَيْن،ودعَوْناه من جَيْب الكِتَابةِ آيةً بيضاءَ الكتابة لم يبق معها شكٌّ ولا مَيْن ، وقرأنا منه وثيقة ودٍّ هُضِم فيها عن غَرِيم الزمان دَيْن ؛ ورأينا منه إنشاء، خدَم اليراعُ بين يديه وَشَّاء،وٱخترع بِهِمْيان عُقْدته مَشَّاء، وسئِل عن معـانيه الاختراعُ فقال : إنَّا أنْشأْناهنّ إنْشاء، فأهْلًا به من عربىّ أتىٰ يصف السانح وألبانه (١) ، ويُبين فبحُسْن الإبانة أدّى الأمانه ، وسئل عن حَيِّه فانتمىٰ إلىٰ كِنانه ؛ وأفصحَ وهو لا يَنْبِس ، وتهلَّلَتْ قَسَماته وليلُ حِبْره يعْبِس ؛ وكأنَّ خاتَمه المُقْفَل علىٰ صِوَانه، المُتحِف بباكر الوَرْد فى غير أوانِه ، رَعُفَ مِنْ مسك عُنْوانه . ولله من قلم

(١) ضبب عليه فى الاصول بعلامة التوقف ولم نهتد الى تثقيفه .

دَبَّجَ تلك الحُلَل ، ونَقع بمُجاج الدَّواة المستَمِدّة من عين الحيـاة الغُلَل ؛ فلقد تخارق فى الجُود ، مُقْتـديًا بالخلافة التى خُلِّد فخرُها فى الوجود ؛ فجاد بسر البَيـان ولُبَابه ، وسَمح فى سبيل الكَرم حتّٰى بمـاء شَبَابه ؛ وجَمح لفرط بَشَاشته وفَهامته ، بعد شهادة السيفِ بشَهامته ، فمشىٰ من التَّرحيب فى الطِّرس الرَّحِيب علىٰ أُمِّ هامتِه .

وأكْرِمْ به من حكيم أفصحَ بمَلْغُوز الإكسير ، فى اللفظ اليَسِـير ، وشرحَ بلسانِ الخبير ، سرَّ صناعةِ التدبير ؛ كأنما خدم المَلَكة الساحرةَ بتلك البلاد ، قبـل ٱشتجار الجِلَاد ، فآثرتْه بالطارف من سِحْرها والتِّلاد ؛ أو عثر بالمعلَّقه ، وتيك القديمةِ المطلَّقه ؛ بدفينةِ دار ، أو كنز تحتَ جِدار ، أوظَفِر لبانى الحَنايا ، قبل أن تَقْطع به عن أمَانيِّه المَنَايا ، ببديعَهْ ، أوخَلَف جرجيرَ الروم ، قبل منازلة القدوم ، علىٰ وَدِيعه ؛ أو أسْهمه ٱبنُ أبى سَرْح ، فى نَشَب للفَتْح وسَرْح ؛ أو حَـتَم له رَوْح بن حاتِمٍ ببُلُوغ المَطْلَب ، أو غَلَب الحظوظَ بخدمة آل الأغْلَب ؛ أو خَصَّه زيادةُ الله بمَزِيد ، أو شارَكَ الشِّيعةَ فى أمْرِ ٱبن أبى يَزِيد ؛ أو سار علىٰ مِنْهاج ، فى مُناصَحَـة بنى صِنْهاج ، وفَضَح بتخليد أمداحهم كلَّ هاج .

وأعْجِبْ به ! وقد عُزِّز منه مُثَنّٰى البيان بثالث ، بخَلَب سحرَ الأسماع ، وٱسترقاقَ الطباع بين مَثانى الإبداع ومَثالِث . كيف ٱقتدَرَ علىٰ هـذا المُجِيد ، وناصح مع التثليث مقامَ التوحيـد ؛ نستغفرُ الله ولِىَّ العَوْن ، علىٰ الصَّمْت والصَّوْن ، فالقَلَم هو الموَحِّد قبل الكَوْن ، والمتَّصِفُ من صِفَات الساده ، أُولِى العبـاده ، بضُمور الجسم وصُفْرة اللون ؛ إنمـا هى كرامةٌ فارُوقِيّه ، وأَثَارةٌ من حدِيث سارِيَةَ وبَقِيّه ؛ سَـفَر وجْهُها فى الأعقاب ، بعـد طُول الٱنتقاب ، وتَداوُلِ الأحقاب ، ولسانٌ مُناب ، عن كريم جَنَاب ؛ وإصابةُ السَّهم لِسوَاه محسُوبه ، وإلىٰ الرامى الذى سَدّده مَنْسوبه ؛ ولا تُنْكر

علىٰ الغمام بارِقَه، ولا علىٰ المتحقِّقين بمَقَام التوحيد كرامةٌ خارِقه، فما شاءه الفضلُ من غرائبِ بِرٍّ وَجَد، ومحاريبِ خُلُقٍ كريم ركع الشُّكْرُ فيها وسَجَد. حديقةُ بيان استثارَتْ نَوَاسِمَ الإبداع من مَهَبِّها، وآستزارت غمائمَ الطِّباع من مَصَبِّها، فآتَتْ أُكُلَها مرتين بإذن رَبِّها؛ لا، بل كتيبةُ عِزٍّ طاعنَتْ بقَنا الألفات سطورُها، فلا يرُومُها النقد ولا يَطُورها، ونَزَعَتْ عن قِسيِّ النُّونات خُطوطُها، وآصطَفَّت من بياض الطِّرس وسَوَاد النِّقس بُلْقٌ تحوطُها.

فما كأسُ المُدير، علىٰ الغَدير، بين الخَورْنَق والسَّدير، تُقامِرُ بنَرد الحُبَاب، عُقولَ ذَوِي الألباب، وتُغرِق كِسْرىٰ فى العُبَاب، وتُهْدِى وهى الشَّمْطاءُ نَشاطَ الشَّباب، وقد أَسْرج ابنُ سُرَيْج وأَلْجَم، وأفصح الغَرِيضُ بعد ما جَمْجَم، وأعرب النـايُ الأعْجَم، ووَقَّع مَعْبَدٌ بالقضيب، وشرعَتْ فى حساب العُقَد بنانُ الكَفِّ الخَضِيب، وكأنَّ الأناملَ فوقَ مَثَالثِ العُود ومَثَانيه، وعند إغراء الثقيل بثانيه، وإجابةصدىٰ الغِناء بين مَغَانيه، المَرَاودُ تَشْرعُ فى الوَشْى، أو العَنَاكبُ تُسرِع فى المَشْى، وما الخَبَر بنَيْلِ الرغائب، أو قدومِ الحبيب الغائب، لا بل إشارةُ البشير، بكُمِّ المُشير علىٰ العشير ــ بأجْلَبَ للسُّرور، من زائِرِه المتلقَّى بالبُرُور، وأدْعىٰ للحبور، من سَفيره المبهج للسُّفُور، فلم نَرَ مثله من كتيبةِ كتابٍ تُجْنِبُ الجُرْدَ [تمرح][1] فى الأرسان، وتتشوَّفُ مجَالى ظهورها إلىٰ عرائس الفُرْسان، وتَهُزُّ معاطِفَ الآرتياح، من صَهِيلها الصُّراح، بالنَّغَمات الحِسَان، إذا وجدت الصريخَ نازعَتْ أثناءَ الأعِنَّه، وكاثرَتْ بأسِنة آذانها مُشْرَعة الأسِـنَّه، فإن آدّعىٰ الظليمُ أشكالَهـا فهو ظالم، أو نازعَها الظَّبْيُ هوَادِيَها وأكفالَها فهو هاذٍ أو حالِم، وإن سُئِل عن عُيوب الغُرَر والأوضاح، قال مشـيرا إلىٰ وجوهها الصِّباح، جِلْدةُ بين العينِ والأنْف سـالِم؛ من كلِّ عَبْـل الشَّوىٰ،

(١) الزيادة من "الريحانة".

مُسابِقٍ للنجم إذا هوىٰ، سامى التَّليل، عريض ما تحت الشَّليل، ممسوحةٍ أعطافه بمِنْديل النَّسيم البليل : من أحمر كالمُدَام، تُجْلىٰ علىٰ النِّـدام عَقِب الفِدَام، أَتْحِف لونُه بالوَرْد، فى زمن البَرْد، وحُيِّ أُفُقٍ مُحيَّاه بكوكب السَّعْد، وتشوَّف الواصفون إلىٰ عدّ محاسِنه فأعيَتْ علىٰ العدّ، بحرٌ يساجل البحْرَ عند المدّ، وريحٌ تبارى الرِّيحَ عند الشدّ، بالذّراع الأشدّ، حكَمَ له مدير فَلَك الكَفَل باعتدال فَصْل القَدّ، وميَّزه قَدْرُه المميَّزُ يوم الاستباق، بقَصب السباق، عند اعتبار الحدّ؛ وولَّد مختطُّ غُرَّته أشكال الجمال، علىٰ الكمال، بين البياض والحُمْرة ونقاءِ الخدّ، وحفظ روايةَ الخلْق الوجيه [عن جدّه الوجيه] [1] ولا تُنْكَر الرواية علىٰ الحافظ بن الجدّ ـ وأشقرَ أبىٰ الخلَق والوَجْه الطَّلْق أن يحقر كأنَّما صِيغَ من العَسْجد، وطُرِّف بالدُّرّ وأُنعل بالزبرْجَد، ووُسِمَ فى الحديث بسِمَة اليُمْن والبركة، واختصَّ بفَلْج الخِصام، عند اشتجار المعركة، وانفرد بمُضاعَف السِّهام [المنكسرة علىٰ الهام] [1] فى الفرائض المشتَركة، واتصفَ فلكُ كَفَله بحركَتَى الإرادة والطَّبْع من أصناف الحركة، أصغىٰ إلىٰ السماء بأُذُن المُلْهَم، وأعرب لسانُ الصَّهِيل، عند التباس مَعانى الهَمْز والتسهيل، ببيان المُبْهَم؛ وفُتِنتِ العيونُ من ذَهَب جِسْمه، وبُجَيْنِ نَجْمه بحُبِّ الدينار والدِّرهم؛ فإن انقضَّ فرجم أو ريحٌ لها هجم، وإن اعترض فشَفَق لاحَ به للنَّجْم نَجْم ـ وأصفرَ قيَّدَ الأوابِدَ الحرّه، وأمسك المحاسنَ وأطلَقَ الغُرَّه، وسُئِل مَنْ أنتَ فى قُوّاد الكتائب، وأولِى الأخبار العجائب، فقال أنا المهلَّب بن أبى صُفْره؛ نَرْجس هذه الألوانِ، فى رياض الأكوان، تحيا به وجوه الحرْبِ العَوان، أغار بنَخْوة الصائل، علىٰ مُعَصْفَرات الأصائل فارتداها؛ وعمَدَ إلىٰ خُيُوط شُعاع الشمس، عند جانحة الأمس، فألحم منها حُلَّته وأسْداها؛ واستعدَتْ عليه ملك المحَاسنِ فما أعداها، فهو أصيلٌ تمسَّك بذَيْل الليل عُرْفه

(١) الزيادة من الريحانة .

وذَيْله ، وكوكَبٌ يُطْلِعه من القتَام ليلُه ، فيَحْسُده فرْقَد الأفق وسُهَيْلُه — وأشهبَ تغَشّى من لَونه مُضاضه، وتَسربَل منه لأمَةً فَضْفَاضه، قد آحتفل زَيْنُه ، لمـا رُقِم بالنّبال لُجَيْنُه ، فهو الأشْمط ، الذى حَقُّه لا يُغْمَط ، والذّراع المُسارع، والأعزلُ الدّارع، وراقى الهِضاب الفارع، ومكتُوبُ الكتِيبة البارع ؛ وأكْرِمْ بِهِ من مُرْتاضٍ سالك ، ومجتهِدٍ علىٰ غايات السابِقِين الأوّلينَ مُتَهالِك ، وأشهبُ يَرْوِى من الخليفةِ ، ذى الشِّيَم المُنِيفة ،عن مالِكٍ — وحُبَارِىٌّ كلّما سابَقَ وبارىٰ، آستعار جَنَاحَ الحُبَارىٰ؛ فإذا أُعْمِلت هذه الحِسْبه ، قيل من هنا جاءت النِّسبه، طَرَد النَّمر، لما عَظُم أمرُه وأمِر ، فنسخ وجُودَه بعَدَمِه ، وآبتَزّه الفَرْوَةَ ثم لطّخه بدمه ، وكأن مضاعفَ الوردنُثِر عليه من طبقه، أو الفَلَك، لما ذهب الحَلَك، مُزِج فيه بياض صُبْحه بحمرة شَفَقه — وقِرْطاسىٌّ حقُّه لايجهلَ، حتّى ماترقىٰ العين فيه تَشْهَل، إن نُزِع عنه جُلُّه ، فهو نجمٌ كلُّه ، آنفرد بمـادّة الألوان ، قبل أن تشُوبها يَدُ الأ كوان ، وتمزجَها أقلامُ المَلَوان ، يتقـدّم منه الكتيبةَ المقْبِلة لواءٌ ناصع ، أو أبيضُ ممـاصع، لَبِس وَقارَ المَشيب ، فى رَيْعان العُمُر القَشِيب، وأنصتَت الآذانُ من صَهِيله المُطِيل المُطِيب، لمـا آرتدىٰ بالبياض إلىٰ نَغْمـة الخطيب ، وإنْ تَعَتَّب منـه للتأخيرِ المتعتِّب ، قلنا الواوُ لا تُرَتِّب ، ما بين لَحل وحُرّه ، وبهرمانة ودُرّه ، ويالله من آبتسامِ غُرّه ، ووضوحِ يُمْنٍ فى طُرّه ، وبهجةٍ للعين وقُرّه ، وإن وَلِـع الناس بامتداح القـديم ، وخَصُّوا الحديث بفَرْيِ الأَدِيم ، وأوجب المتعصِّب، وإن أبىٰ المَنْصِب، مرتبةَ التقديم ، وطَمحَ إلىٰ رُتْبة المخدوم طَرْفُ الخَـدِيم ، وقُرِن المُثْرِى بالعَدِيم، وبُخِس فى سُوق الحَسَد الكيل، وَدجىٰ الليل، وظهر فى فَلَك الإنصاف المَيْل، لما تُذُوكِرَت الخيـل ؛ بجَيء بالوَجيه والخَطّار، والذائِد وذِى الخمـار ، وداحِسٍ والسَّكْب ، والأبجَر وزاد الرَّكْب، والجَمُوح واليَحْمُوم، والكُمَيْت ومَكْتوم، والأعْوَج وحُلْوان،

ولاحِقٍ والغَضْبان ، وعفورُ (؟) والزَّعْفَران ، والمحبر، واللعّاب ، والأغرُّ والغُراب ، وشُـعْلة والعُقَاب ، والفيَّـاض واليَعْبُوب [والمُـذْهَب واليعسوب ، والصَّموت والقطيب ، وهيدب والصبيب وأهلوب [1]] وهَـدَّاج ، والحَرُون وخَرَّاج ، وجَلْوىٰ ، والجناح والأحْوىٰ ، ومُجاج والعَصا ، والنَّعامه ، والبَلْقاء والحَمامه ، وسَكَابِ والجَرَاده ، وحَوْصاءُ ، والعَرَاده . فكم بين الشاهدِ والغائب ، والفُرُوض والرَّغائب ؛ وفَرقُ ما بَيْنَ الأثَرِ والعِيان ، غَنِيٌّ عن البيان ؛ وشتَّانَ بين الصَّريح والمشْتَبِه ، ولله القائل فى مثلها « خُذْ ما تَراه ودَعْ شَيْئا سَمِعْتَ به » والناسخ يختلِفُ به الحكم ، وشَرُّ الدوابِّ عند التفضيل بين هذه الدوابِّ الصُّمُّ البُكْم ؛ إلا ماركبه نَبِي ، أو كان له يوم الافتخار برهان خبِي ؛ ومُفَضِّـل ما سَمِـع علىٰ ما رأىٰ غَبِي ، فلو أُنصِفَتْ محاسنُها التى وصِـفَتْ لأُقْضِمَت حَبَّ القلوب عَلَفا ، وأُورِدَتْ ماءَ الشَّبِيبَة نُطَفا ؛ واتُّخِذَت لهـا من عُذُر الخُـدود المِلاحِ عُذَر مَوْشِيّه ، وعُلِّلَتْ بصَفيرِ ألحـان القِيَانِ كلَّ عشيه ؛ وأُنْعِلتْ بالأهِلَّة ، وغُطِّيت بالرِّياض بَدَلَ الأجِلَّة .

إلىٰ الرقيق ، الخليق بالحُسْن الحَقِيق ، تسوقه إلىٰ مثوىٰ الرعاية روقة الفتيـان رعاته ويُهْـدِى عقيقُها من سَـبَجه أشكالا تَشْهَد للمخترع سبحانَه بإحكام مخترعاته ، وقَفَتْ ناظرَ الاستحسان لايَرِيم ، لمَّـا بهره مَنْظَرُها الكريم ، وتخاملَ الظليم وتضاءلَ الرِّيم ، وأخرسَ مقولُه اللسانَ وهو بملكات البيان الحفيظُ العليم ، وناب لسانُ الحال ، عن لسان المَقَال ، عند الاعتقال ، فقال يخاطبُ المقامَ الذى أطلعَتْ أزهارَها غمائمُ جوده [واقتضَّت اختيـارها بركةُ وجوده ، [1]] : لو علِمْنا أيُّها الملكُ الأصيـل ، الذى كَرُم منـه الإجمـال والتفصِيـل ؛ أنَّ الثناءَ يُوازِيها لكِلْنا لك بكَيْلِك ،

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

أو الشُّكر يُعادِلها ويُجازِيها لتعرّضنا بالوَشَل إلىٰ نَيل نَيْلك ، أو قلنا : هى التى أشار إليها مستَصْرِخ سلفك المستنصر بقوله : أدْرِك بخَيْلك ، حين شَرِق بدفعه الشَّرْق ، وآنهزم الجمعُ وآستولىٰ الفَرَق وآتسع فيه والحكْمُ لله الخَرْق ؛ ورأىٰ أن مقامَ التوحيد بالمظاهَرة علىٰ التثليث ، وحِزْبه الخَبِيث ، هو الأولىٰ والأحقّ . والآنَ قد أغنىٰ اللهُ بتلك النِّيَّه ، عن إنجاد الطِّوال الرُّدَينِيه ، وبالدعاء من تلك المَثابة الدينيه إلىٰ ربِّ البَنِيّه ، عن الأمْداد السَّنِيَّه ، والأجوادِ تخوض بحر الماء إلىٰ بحر المَنِيّه ، وعن الجُرْد العربية فى مَقاوِد الليوث الأبيّه . وجَدّد برَسْم هذه الهديَّه ، مَراسيمَ العهود الوُدِّيه ، والذِّمم الموحِّديّه ، لتكون علامةً علىٰ الأصل ، ومكَذِّبة لدعوىٰ الوَقْف والفَصْل ، وإشعارا بالأُلْفة التى لاتزال ألِفُها ألفَ الوصل ، ولامُها حرامًا علىٰ النَّصْل .

وحضر بين يدينا رسولُكم فلان فقرَّر من فضلكم ، مالايُنْكِره مَنْ عَرَف علوَّ مِقدارِكم ، وأصالةَ دارِكم ، وفَلَكَ إبدارِكم ، وقُطْبَ مَدارِكم ؛ وأجَبْناه عنه بجُهدٍ ما كُنَّا لنَقْنَع من حَناه المهتَصَر ، بالمقتَضَب المختَصَر ، ولا نُقابِل طُولَ طَوْله بالقِصَر ، لولا طُروءُ الحَصَر .

وقد كان بين الأسلاف ــ رحمةُ الله عليهم ورضوانُه ــ وُدٌّ أُبْرِمتْ من أجْلِ الله مَعاقِدهُ ، ووُثِّرت للخُلُوص ، الحَلِيّ النصوص ، مضاجِعُه القارّة ومَرَاقدُه ، وتعاهُدٌ بالجميل توجَّع لفقده فاقِدُه ؛ أبىٰ الله إلا أن يكون لكم الفضلُ فى تجديده ، والعطفُ بتوكيده ؛ فنحن الآنَ لا ندرِى أىَّ مكارمكم نذْكر ، أو أىّ فواضلكم نَشْرح أو نَشْكر ، أمفاتَحتكم التى هى عندنا فى الحقيقة فَتْح ، أم هدِيَّتكم وفى وصفها للأقلام سَبْح ، ولعدوّ الإسلام بحكمَة حكْمتها كَبْح ، إنما نَكِل الشكر لمن يُوَفِّى جزاء الأعمال

البَرَّه، ولا يَبْخَس مثقالَ الذَّرّة ولا أدنىٰ [من] مثقالِ الذَّره، ذى الرحمة الثَّرَّه، والألطافِ المتصِلة المستمرّه، لا إلٰهَ إلا هو .

وإن تَشَوّقتم إلىٰ الأحوال الراهنه، وأسباب الكُفْر الواهية بقدرة الله الواهنه؛ فنحن نُطْرِفكم بطُرَفها، ونُطْلِعكم علىٰ سبيل الإجمال بطَرَفها؛ وهو أننا لَمَّا أعاد اللهُ من التمحيص، إلىٰ مثابة التخصيص، من بعـد المَرَام العويص؛ كَحَلْنا بتوفيق الله بَصَر البصيره، ووقَفْنا علىٰ سبيله مساعِىَ الحياة القَصِيره؛ ورأينا كما نُقِل إلينا، وكُرِّر علىٰ مَنْ قَبْلنا وعلينا؛ أنَّ الدنيا ـ وإن غَرّ الغَرُور، وأنام علىٰ سُرُر الغفلة السُّرور؛ فلم ينفع الحُطور علىٰ أجداث الأحباب والمُرُور ـ جَسْر يُعْبَر، ومتاعٌ لا يُغْبَط من حُبِيَ به ولا يُحْبَر، إنمـا هو خبر يُخْبَر، وأن الحَسْرة بمقدارها علىٰ تركه تجبر؛ وأنَّ الأعمار أحلام، وأنَّ النـاس نِيَام؛ ورُبَّمـا رَحَل الراحل عن الخان، وقد جلَّله بالأذىٰ والدُّخَان، أو ترك به طِيبًا، وثناءً يقوم بعده للآتى خَطِيبا؛ فجعَلْنا العدل فى الأمور مِلَاكا، والتفقُّد للثُّغُور مِسْواكا، وضَجيعَ المِهَاد، حديثَ الجِهاد، وأحكامَه مَنَاط الآجتهاد، وقولَهُ : ﴿ يأَيُّها الذين آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ علىٰ تجارةٍ ﴾ من حُجَج الآستشهاد، وبادرنا من الحُصون المُضاعة وجنـحُ التَّقيَّة دامس، وسا كِنُها بائس، والأعصمُ فى شَعَفَاتها من العِصْـمة يائس؛ فزَيَّنَّا ببِيض الشُّرُفات، ثناياها، وأفعَمْنا بالعَذْب الفُرات، رَكَاياها؛ وغَشَّينا بالصَّفيح المُضاعَف أبوابها، وآحتسَبْنا عند مُوَفِّى الأجور ثوابَهـا، وبيَّضْنا بناصع الكِلْس أثوابها؛ فهى اليوم تُوهم حِسَّ العِيان، أنها قِطَعٌ من بِيض العَنَان، تكاد تَنَاوُلُ قُرْص البـدر بالبَنَان، متكفِّلةٌ للؤمن من فَزَع الدنيا والآخرةِ بالأَمَان؛ وأقْرَضْـنا اللهَ قَرْضا، وأوسـعْنا مَدُوّنة الجيش عَرْضا، وفرضْنا إنصافه مع الأهلة فرضا؛ وآستندْنا من التوكُّل علىٰ الله الغنىّ الحميد إلىٰ ظـلِّ لواء،

ونَبَـذْنا إلىٰ الطاغية عهـدَه علىٰ سَوَاء ؛ وقلنا : ربَّنـا أنت العزيزُ وكلُّ جَبَّار لعزِّك ذليـل ، وحِزْبُك هو الكثير وما سواه فقليل [أنت الكافى ، ووعدُك الوعدُ الوافى ، فأفض علينـا موازِعَ الصابرين] [1] وا كْتُبْنا من الفائزين بحظوظ رِضَاك الظافرين ، وثَبِّتْ أقدامَنا وٱنصُرْنَا علىٰ القوم الكافِرين .

فتحرَّكنا أُولىٰ الحَرَكات ، وفاتحـةَ مُصْحَف البركات ؛ فى خِفٍّ من الحُشُود ، وٱقتصارٍ علىٰ ما بحضرتنـا من العساكر المظَفَّرة والجُنود ؛ إلىٰ حصن آش البـازى المُطِل ، وركابِ العَدُو الضالِّ المُضِل ، ومُهْدِى نَفَثات الصِّلّ ؛ علىٰ ٱمتناعه وٱرتفاعه ، وسُمُوِّ يفَاعه ؛ وما بَذَل العدوُّ فيه من ٱستعداده ، وتوفيرِ أسلحته وأزْوادِه ، وٱنْتخاب أنجاده ؛ فصَلِينا بنفسـنا نارَهْ ، وزاحَمْنا عليـه الشهداءَ نُصابِرُ أُوَارَه ، ونَلْقىٰ بالجَوَارح العزيزةِ سهامَه المسـمومه ، وجَلَامِدَه الملمومه ، وأحجـارَه ؛ حتّىٰ فَرَعْنا بحول مَنْ لاحولَ ولاقوّةَ إلا به أبراجَه المنيعـةَ وأسوارَه ، وكفَفْنا عن العباد والبلادِ أضرارَهْ ، بعـد أن استـضَفْنا إليه حِصْنَ السهلة جارَه ؛ ورحَلْنا عنه بعد أن شحَنَّاه رابطةً وحاميه ، وأزوادا ناميَه ؛ وعَمِلْنا بيـدِنا فى رَمِّ ماثَلَم القِتال ، وبَقَرِ من بُطُون مسالحه الرجال ، وٱقتدينا بنبينا صلوات الله عليه وسلامه فى الخندق لَمَّا حَمىٰ ذلك المَجَال ، ووقع الٱرتجازُ المنقولُ خبرُه والٱرْتِجَـال ، وما كان لِيَقِرَّ للاسـلام مع تَرْكِه القَرَار ، وقد كُتِب الجوار ، وتداعى الدَّعَرَةُ وتعـاوى الشِّرار .

وكنا أغزينا الجهـةَ الغربية من المسلمين بمدينة بُرْغة التى سدّتْ بين القاعدتين : مَالَقةَ ورُنْدَةَ الطريقَ ، وألْبستْ ذُلَّ الفِراق ذلك الفَرِيق ، ومنعَتْهما أن يُسِيغا الرِّيق ؛ فلا سبيلَ إلىٰ الإلمـام ، لطَيْف المنام فى الأحلام ، ولا رِسالةَ إلا فى أجنحة

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب".

هَدىّ الحَمَام ؛ فيَسَّر اللهُ فتحها ، وعَجَّل مَنْحَها ؛ بعــد حَربٍ ٱنْبَتَّت فيها النُّحور ، وتزيَّنت الحُور ؛ وتَبِـع هذه الأمَّ بناتٌ شهيره ، وبُقَع للزَّرْع والضَّرْع خِيره ، فشُفِيَ الثَّغر من بُوسه ، وتهلَّل وجهُ الإسلام بتلك الناحية بعد عُبُوسه .

ثم أعملنا الحركَةَ إلىٰ مدينة الجزيرة علىٰ بُعْــد المَدىٰ ، وتعلُّقها علىٰ بلاد العدَا ، وٱقتحامِ هَوْل الفَلَا وغَوْل الرَّدا ؛ مدينةٌ بنتها حمص فأوسعَتِ الدار ، وأغلتِ الشِّوار ، وراعتْ الآســتكثار ، وبسَطتْ الاعتمار ؛ رَجَّح إلينا قَصْدَها علىٰ البُعْد ، والطريقِ الجَعْد ؛ ما آسفت به المسلمين ، من استِئصال طائفةٍ من أَسْراهم مَرُّوا بها آمنين ، وبطائِرِها المشـُّـوم مُتيَمِّنين ؛ قد أنهكَهُم الاعتقال ، والقُيُود الثِّقال ؛ وأضْرعَهم الإِسـار ، وجلَّلهم الانكسار ؛ فجَــدَّلُوهم فى مصرعٍ واحد ، وتركوهم عِبْرةً للرائى والمشاهد ؛ وأهْدُوا بوَقِيعتهم إلىٰ الإسلام ثُكْلَ الواحد ، وتِرَة المــاجد ؛ فكبسناها كبسا ، وفَجَأْناها بإلهــامِ من لَايضِلُّ ولايَنْسىٰ ؛ فصبَّحتْها الخيل ، ثم تلاحق الرَّجْل كما جَنَّ الليل ، وحاقَ بها الوَيْل ؛ فأُبِيح منها الذِّمَار ، وأخذها الدَّمار ، ومُحِقتْ من مَصانِعها البيضِ الأهلَّةُ وخُسِفَتِ الأقمــار ، وشُــفِيت من دِماء أهلها الضُّلوعُ الحِرَار ، وسلطَتْ علىٰ هَيَا كِلها النــار ، وٱستولىٰ علىٰ الآلاف العــديدةِ من سَبْيِها الإِسَار ، وٱنتهىٰ إلىٰ إشْبِيلِيَةَ الثَّكلىٰ المَغــار ، فجَلَّل وجوهَ مَنْ بها من كِبَار النصرانية الصَّغار ، وٱستولَتِ الأيدى علىٰ مالا يَسَعُه الوصف ولا تقلُّه الأوقار .

وعُدْنا والأرضُ تموج سَبْيا ، لم نَتْرُكْ بِعِفرِّين شِـبْلا ولا بوَجْرَة ظَبْيا ؛ والعقائلُ حَسْرىٰ ، والعيونُ تبْهَرها الصُّنْع الأسرىٰ ، وصُبحُ السُّرىٰ قد حُمِد من بَعْد بُعْد المَسْرىٰ ، فسُــبحانَ الذى أَسْرىٰ . [ولسانُ الحميَّــة يُنادِى ، فى تلك الكنائس المخرّبة والنوادى ، يا لَثَاراتِ الأَسْرىٰ] (١) .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

ولم يكن إلا أنْ نُفِّلت الأنفال ، ووُسِمَتْ بالأرضاخ الأغفال ، وتميزت الهَوادِى والأكفال ، وكان إلىٰ غزو مدينة جَيَّانَ الاحتفال ، قُدْنا إليها الجُرْدَ تُلاعِب الظِّلالَ نَشَاطا ، والأبطالَ تقتَحِم الأخطار رِضًا بما عندَ الله واغتبَاطا ، والمهنَّدَةَ الزُّرْق تَسبِق إلىٰ الرقاب استلالًا واختراطا ، والرُّدينيَّةَ السُّمْر تسترط حياة النفوس استراطا ، وأزحْنا العِلَلَ عمَّن أراد جِهادًا مُنْجِيا غُبارُه من دُخَان جهنَّمَ ورِباطًا ، وناديْنا الجهادَ الجهاد ، ياأمةَ الجهاد ، راية النبيّ الهاد ، الجَنَّة الجنة تحت ظلال السيوف الحِدَاد ، فهَزَّ النداءُ إلىٰ الله تعالىٰ كلَّ عامر وغامر ، وأتمرَ الجمُّ من دعوة الحقِّ إلىٰ أمْرِ آمر ، وأتىٰ النـاس من الفُجُوج العميقةِ رِجالًا وعلىٰ كلِّ ضَامِرْ ، وكاثرتِ الراياتُ أزهارَ البِطَاح لَوْنا وعَدّا ، وسَدّتِ الحُشُود مسالكَ الطريقِ العريضةِ سَدّا ، ومدّ بَحْرُها الزاخِرُ مدّا ، فلا يجد لها الناظرُ ولا المناظِر حَدّا .

وهذه المدينةُ هى الأُمُّ الوَلُود ، والجنةُ التى فى النار لسُكَّانها من الكُفَّار الخُلُود ، وكرسىُّ المُلْك ومجنبته الوسطىٰ من الممـالك باءَتْ بالمَزَايا العـديدة ونَجَحَتْ ، وعند الوِزان بغيرها من أُمَّات البُلْدان رَجَحتْ ، غابُ الأُسُـود ، وجُحْر الحَيَّات السُّود ، ومَنْصِب التماثيل الهائله ، ومَعْلَق النواقيس الصائله .

وأدنَيْنا إليها المَرَاحل ، وعَيَّنَّا لتُجَّار المحلات المستقلات منها الساحِلْ ، ولـما أكْثَبْنا جوارها ، وكِدْنا نلْمَح نارها ، تحرَّكنا ووِشاحُ الأُفُق المرقوم ، بزَهْرِ النجوم ، قد دار دائرُه ، والليلُ من خوف الصَّباح ، علىٰ سَرْحه المُستْباح ، قد شابت غَدائره ، والنَّسر يُرَفْرِفُ باليمن طائرُه ، والسِّماكُ الرامح يثأر ثَغْر الإسـلام ثائرُه ، والنعائمُ راعدةُ فرائص الجَسَد ، من خوف الأسَد ، والقوسُ يُرسِل سَهْم السعاده ، بوَتَر العاده ، إلىٰ أهداف النِّعَم المُعاده ، والجوزاء عابرةُ نهرَ المجَرَّه ، والزُّهَرة تَغار من الشِّعرىٰ العبُور بالضَّرَّه ،

وعُطارِد يُسْدِى فى حِيَل الحُروب علىٰ البَلَد المحروبِ ويُلْحِم ، ويناظِر علىٰ أشكالها الهَندسِيَّة فيُفْحِم ؛ والأحمر يَبْهَر ، والعَلَم الأبيضُ يَفْرى ويَنْهر ؛ والمشتري يُبدِئُ فى فضل الجهاد ويُعيد ، ويُزاحِم فى الحلقات علىٰ ماللسـعادة من الصفَات ويَزِيد ؛ وزُحَل علىٰ الطالع مترحل ، وعن العاشر مرتحل ، وفى زَلَق السُّـقُوط وحل ، والبـدرُ يُطَـارِح حَجَر المَنْجنيق ، كيف يَهوِى إلىٰ النِّيق ؛ ومطلَعُ الشمس يَرْقُب ، وجِدَار الأُفُق يكاد بالعُيون عنها يُنْقَب .

ولَمَّـا فَشَا سِرُّ الصَّباح ، وٱهتزَّت أعطافُ الرايات لتحِيَّات مبَشِّرات الرِّياح ؛ أطْلَلْنا عليها إطلالَ الأسُود علىٰ الفرائس ، والفُحولِ علىٰ العرائس ؛ فنظرنا مَنْظَرا يَرُوع بأسًا ومَنَعه ، ويروقُ وَضْعا وصَنْعه ؛ تَلَفَّعت معاقِلُه الشمُّ للسَّحاب ببرُود ، ووردَتْ من غَدِير المُزْن فى بُرُود ، وأسرعَتْ لِٱختطاف أزهارالنُّجوم والذراع بين النطاق مَعاصِمُ زُود ؛ وبلدًا يُعيِي المـاسِحَ والذارِع ، وينتظم المحانى والأجارِع ؛ فقلنا : اللهم نفِّله أيدى عبادك ، وأرِنا فيـه آيةً من آيات جِهادِك ؛ فنزلنا بساحتها العريضةِ المُتُون ، نُزولَ الغيث الهَتُون ؛ وتيمَّنَّـا من فَحْصِها الأَفْيَح بسورة التِّين والزيْتُون ، مترقبة من أمان الرحمان للبلد المَفْتُون ؛ وأعجَلنَا الناسُ بحَمِيَّة نُفوسهم النَّفِيسه ، وسَجِيَّة شجاعتهم البَئِيسه ؛ عن أن نُبَوِّئَ للقتال المَقاعد ، ونُدْنِىَ بإسماع شَهِيرِ النَّفِير منهم الأباعد ؛ وقبل أن يلتقِىَ الخديمُ بالمخدوم ، ويركَعَ المَنْجنيقُ ركعتَىِ القُدُوم ؛ فدفعوا مَنْ أصْحَر إليهم من الفُرْسان ، وسَبَق إلىٰ حَوْمة المِيدان ؛ حتّىٰ أجْحَرُوهم فى البَلَد ، وسَلَبُوهم لباسَ الجَلَد ، فى مَوْقِفٍ يُذْهِل الوالِدَ عن الوَلَد ؛ صارتِ السِّهامُ فيه غَماما ، وطارَتْ كأسرابِ الحَمَام تَهْدِى حِمَاما ؛ وأضحَتِ القَنا قِصَـدا ، بعدَ أنْ كانتْ شِهابًا رَصَدا ؛ وماجَ بحرُ القَتَام بأمواج النُصُول ، وأخذ الأرضَ الرَّجَفانُ لزِلْزَال الصِّياح الموصُـول ؛ فلا تَرىٰ إلا شهيدًا

تُظَلِّل مَصْرَعه الحُور، وصريعًا تَقْذِف به إلىٰ الساحل أمواج تِلْك البُحُور، ونَواشِبَ تَبْأىٰ بها الوُجوهُ الوجيهةُ عندَ الله والنُّحُور؛ فالمِقْضَب، فَوْدُه يُخْضَب، والأسمر، غُصْنه يستثمر؛ والمِغْفر، حِماه يَخْفِر؛ وظُهور القِسِيّ تُقْصَم، وعِصَم الجُنَد الكوافر تُفْصَم؛ وورَق اليَلَب، في المنقلب، يَسْقُط، والبُتَّر تكتب والسُّمْر تَنْقُط؛ فاقْتُحِم الرَّبَض الأعظَمُ لِحِينه، وأظهر اللهُ لعيون المُبْصِرين والمستَبْصِرين عِزَّةَ دينه، وتبرَّأ الشيطانُ من خَدِينه؛ ونُهِب الكُفَّار وخُذِلوا، وبكُلِّ مَرْصَدٍ جُدِّلُوا؛ ثم دُخِل البَلَدُ بعده غِلَابا، وجُلِّل قتْلًا واستلابا؛ فلا تَسَلْ، إلا الظُّبىٰ والأسَل، عن قيام ساعته، وهَوْلِ يومها وشَنَاعته؛ وتخريبِ المَبَائت والمَبَانى، وغِنىٰ الأيدى من خَزَائن تلك المَغَانى؛ ونَقْلِ الوُجود الأوّلِ إلىٰ الوُجُود الثانى؛ وتَخارقَ السيفُ فجاء بغير المعتاد، ونَهِلت القنَا الرُّدَيْنِيَّةُ من الدماء حتّىٰ كادت تُورِق كالأغصان المُغْتَرَسةِ والأوتاد؛ وهَمَتْ أفلاكُ القِسِيِّ وسَحَّت، وأرَنَّتْ حتّىٰ بَحَّت، ونَفِدت موادُّها فشَحَّت بمَا ألَحَّت؛ وسَدّت المسالكَ جُثَثُ القتلىٰ فمنَعت العابِر، واستأصلَ اللهُ من عدوّه الشأفَةَ وقَطَع الدابِرْ، وأَزْلَفَ الشهيدُ وأُحْسِب الصابر، وسبقَتْ رُسُلُ الفتح الذى لم يُسْمَع بمثله فى الزمن الغابِر، تَنْقُل البُشْرىٰ من أفواه المحابر، إلىٰ آذانِ المَنَابر.

أقمنا بها أيَّاما نَعقِر الأشجار، ونستأصِلُ بالتخْرِيب الوِجار، ولسانُ الانْتِقام، من عَبَدةِ الأصنام، يُنادِى يالثّاراتِ الإسكندرية تَشَفِّيا من الفُجَّار، ورَعْيًا لحقِّ الجار؛ وقفَلْنا وأجْنِحةُ الرايات، برياح العِنَايات، خافقه؛ وأوفاق التوفيق، الناشئة من خطوط الطريق، موافقه؛ وأسواقُ العِزِّ بالله نافقه، وحملاء الرفق مصاحبة ــ والحمدُ لله ــ مرافِقه؛ وقد ضاقَتْ ذُرُوعُ الجبال، عن أعناق الصُّهْبِ السِّبال؛ ورُفِعت علىٰ الاكفال، رُدَفاءُ كرائم الأنفال؛ وقُلِقلتْ من النواقيس أجرامُ

الجبال بالهنْدام والاحتيال ؛ وهلك بمَهْلك هذه الأمّ بنات كُنّ يرتضعن ثُديّها الحوافل ويستوْثِرن حِجْرها الكافل ؛ شَمِل التخريبُ أسوارَها ، وعجّلت النار بوارَها .

ثم تحرّكنا بعدها حركةَ الفتح ، وأرسلنا دِلاءَ الإدلال قبل المَتْح ، فبشّرت بالمَنْح ؛ وقصــدنا مدينةَ أُبّدَةَ وهى ثانيــة الجناحيْن ، وكُبْرى الأختيْن ، ومساهِمةُ جَيّــانَ فى حين الحَيْن ، مدينة أخذَتْ عَرْض الفضاء الأخرق ، وتمشّتْ فيه أرباضُها تَمشّى الكتابة الجـامحة فى المُهْرق ؛ المشتَمِلة علىٰ المَتاجر والمَكاسب ، والوضْع المُتَناسب ، والفَلْج المُعيي رَيْعُــه عملَ الحاسب ، وكُوارة الدّبْر اللّاسِب ، المتعـدّدة اليعَاسب ؛ فأناخ العَفَاءُ بربوعها العـامَره ، ودارتْ كُئُوس عُقَـار الحُتوف ، ببَنَان السيوف ، علىٰ متديّريها المعاقِرة ، وصَبّحتْها طـلائعُ الفاقرة ، وأُغريتْ ببُطون أســوارها عُوجُ المَعاول الباقره ، ودخلَتْ مدينتَها عَنْوةُ السـيف ، فى أسرَع من خَطْرة الطّيْف ؛ ولا تسألْ عن الكَيْف ؛ فلم يبلُغ العَفَاءُ من مدينــةٍ حافله ، وعقيلةٍ فى حُلَل المحاسن رافله ، مابلغ من هــذه البائسةِ التى سجدَتْ لآلهةِ النّيران ابراجُها ، وتضاءل بالرّغام مِعْراجُها ؛ وضــفتْ علىٰ أعطافهــا ملابِسُ الخـذْلان ، وأقفرَ من كِنَاسِها كُنّاسُ الغِزْلان .

ثم تأهبنا لغزو أمّ القُرىٰ الكافره ، وخَزائن المَزاين الوافره ، ورَبّةِ الشُّهرة السافره ؛ [والأنباء المسافره] (١) قُرْطبةَ وما أدراك ماهيه ، ذاتُ الأرجاء الحالية الكاسيَه ، والأطْوادِ الراسخة الراسيَه ، والمَبَانِى المباهية والزهراء الزاهيه ، والمحاسنِ غيرِ المُتناهيه ؛ حيثُ هالةُ بدر السماء ، قد ٱستدارَتْ من السُّور المَشيدِ البِناء ؛ ونَهْرُ المجرّة من نَهْرها الفيّاض ، المسلول حُسامُه من غُمُودِ الغِيَاض ؛ قد لَصِق بهــا جارا ، وفلكُ الدُّولاب المعتدلُ

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الانقلاب قد استقام مَدَارا، ورجّع الحنين اشتياقًا إلى الحبيب الأوّل وادّكارا؛ حيث الطَّوْدُ كالتاج، يزدان بلُجَيْن العَذْب المُجَاج؛ فيُزْرِى بتاج كسرى ودارا؛ حيثُ قِسِيُّ الجُسُور المديره، كأنها عُوجُ المطىّ الغريره، تعبُرُ النهر قطارا؛ حيثُ آثارُ العامرىّ المجاهد، تعْبَقُ بين تلك المعاهِد، شَذًى مِعْطارا؛ حيثُ كرائمُ السَّحائب، تزورُ عرائس الرياض الحبائب، فتحمِلُ لها من الدُّرِّ نِثارا؛ حيثُ شَمولُ الشَّمال تُدارعلى الأدْواح؛ بالغُدُوّ والرَّواح، فترى الغُصونَ سُكارى وما هى بسُكارى؛ حيثُ أيْدى الافتتاح، تَفْتَضُّ من شقائق البِطاح، أبكارا؛ حيثُ ثُغورُ الأَقاحِ الباسم، تقبِّلها بالسَّحَر زُوّار النَّواسم، فتَخفِق قلوبُ النُّجوم الغَيارى؛ حيثُ المصلَّى العتيقُ قد رَحُب مَجَالا وطال مَنَارا، وأزرى ببَلَاط الوليد احتِقارا؛ حيثُ الظُّهور المثارة بسلاح الفلاح تُجَبُّ عن مثل أسنمةِ المَهَارَا، والبطونُ كأنها لتَدْميث الغمائم بُطونُ العَذارى، والأدواحُ العالية تخترِقُ أعلامُها الهاديةُ بالجداول الخبَارا؛ فما شِئْت من جوٍّ صَقيل، ومُعَرَّس للحُسْن ومَقِيل، ومالكٍ للعقل وعَقِيل. وخمائلَ كَمْ فيها للبَلابل من قالٍ وقِيل، وخَفِيف يجاوَبُ بثَقِيل. وسنابِلَ تحكِى من فوق سُوقها، وقُضُب بُسُوقها، الهمزاتِ فوق الألِفات، والعصافيرُ البديعةُ الصِّفات، فوقَ القُضُب المؤتَلِفات، تَميل بهُبوب الصَّبا والجَنُوب، مائلةَ الجُيوب بدُرَر الحُبُوب. وبطاحٍ لاتعْرِف عينَ المَحْل، فتطلُبُه بالذَّحْل؛ ولاتَصْرِف فى خدمةِ بيضِ قِبابِ الأزهار، عند افتتاح السَّوْسن والبَهَار، غيرَ العُبْدان من سُودان النَّخْل، وبحرِ الفِلاحة الذى لا يُدْرَك ساحِلُه، ولا يَبْلُغُ الطِّيَّة البعيدةَ راحِلُه، إلى الوادى، وسَمَرِ النَّوادى، وقرارِ دُموع الغَوادى؛ المتجاسر على تخطِّيه، عند تمطِّيه، الجَسرُ العادى؛ والوطَنِ الذى ليس من عمرو ولا زيد،

والفَرَا الذى فى جوفه كلُّ صيد، أقلَّ كرسيَّه خلافةَ الإسلام، وأعار بالرُّصَافة والجَسْر دَارَالسلام، وماعسىٰ أن تُطْنِبَ فى وصفه ألسنةُ الأقلام، أو تُعَبِّر به عن ذلك الكَمال فُنونُ الكلام .

فأعملنا إليها السُّرىٰ والسَّيْر، وقُدْنا إليها الخيلَ وقد عَقَد اللهُ بنواصيها الخَيْر .

ولمـا وَقَفْنا بظاهِرِها المُبهِت المُعْجِب، وآصطفَفْنا بخارجها المُنْبِت المُنْجِب؛ والقلوبُ تلتمس الإعانةَ من مُنْعِمٍ مُجْزِل، وتستنزِل مَدَدَ الملائكة من مُنْجِدٍ مُنْزِل، والركائبُ واقفةٌ من خَلْفِنا بمعْزِل، نتناشَدُ فى معاهد الإسلام : قِفَا نَبْك مِن ذِكْرىٰ حَبِيبٍ ومَنْزِل – برزمن حاميتها الحامِيه، ووَقُودِ النـار الحامِيَه، وبقيةِ السيف الوافرة علىٰ الحَصَاد النامِيَه، قِطعُ الغمائم الهامِيه، وأمواجُ البُحور الطامِيَه، وآستجَنَّت بظلال أبطال المَجال أعدادُ الرجال الناشبةِ والراميه؛ وتصدَّى للنِّزال، من صَنادِيدِها الصُّهبِ السِّبال، أمثالُ الهِضاب الراسيه، تجَنُّهاجُنَنُ السَّوابغ الكاسيه؛ وقواميسُها المُفَاديةُ للصُّلْبان يوم بُوسها بنُفُوسها المُوَاسيه، وخنازيرُها التى عدَتْها عن قَبُول حُجَج الله ورسولِه سُتور الظُّلَم الغاشيه، وصُخُور القلوب القاسيه؛ فكان بين الفريقين أمامَ جَسْرها الذى فَرَق البحر، وحَلِي بلُجَينه ولآلئ زَيْنه منها النَّحْر، حربٌ لم تَنْسِجِ الأزمانُ علىٰ مِنوالها، ولا أتتِ الأيَّامُ الحَبالىٰ بمثل أجِنَّة أهوالها؛ مَنْ قاسَها بالفِجَار أفكَ وبَجَر، أومثَّلها بجفر الهباءةِ خَرِفَ وهَجَر، ومن شَبَّهها بحَرْبِ داحِسٍ والغَبْراء فمـا عَرَف الخَبَر، فليسأَلْ مَنْ جَرَّب وخَبَر؛ ومن نَظَّرها بيومِ شِعْب جَبَـلَه، فهو ذُو بَلَه؛ أو عادَلَها ببطن عاقِل، فغيرُ عاقل؛ أو آحتجَّ بيومِ ذِى قار، فهو إلىٰ المعرفة ذو آفتِقار؛ أو ناضَل بيوم الكَدِيد، فسَهْمُه [غير السَّديد،](١) إنما كان مقاما غير مُعْتاد،

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

ومَرْعى نُفوسٍ لم يَفِ بوصفه لسانُ مُرْتاد، وزَلْزالَ جبال أوتاد، ومَتْلَفَ مَذْخُور لسلطانِ الشيطان وعتاد، أُعْلِمَ فيه البطلُ الباسل، وتوردَّ الأبيضُ الباتر وتأوَّدَ الأسمرُ العاسل، ودوَّمَ الجَلْمَدُ المتكاسل، وآنبعثَ من حَدَب الحَنِيَّة إلىٰ هَدَف الرَّمية الناشرُ النَّاسِل، ورُوِيتْ لمرسَلَات السِّهام المَرَاسل؛ ثم أفضىٰ أمرُ الرِّماح إلىٰ التَّشَاجُر والاِرْتباك، ونَشِبَت الأسِنَّةُ فى الدُّروع نَشْب السَّمَك فى الشِّباك؛ ثم آختلط المَرْعىٰ بالهَمَل، وعُزِل الرُّدَيْنِيُّ عن العمل؛ وعادتِ السُّيوفُ من فوق المَفَارِق تِيجانا، بعد أن شُقَّتْ غُدُرَ السوابغ خُلْجانا؛ وآتَّحدَتْ جداوِلُ الدُّروع فصارتْ بحرا، وكان التعانُقُ فلا ترىٰ إلا نَحْرا يلازِمُ نَحْرا؛ عِناق وَدَاع، وموقِفَ شَمْل ذِى آنصداع، وإجابةَ منادٍ إلىٰ فِراق الأبدِ وَدَاعْ؛ وآستكشَفتْ مآلَ الصبر الأنفُسُ الشَّفَّافه، وهبَّتْ بريح النصر الطلائعُ المبَشِّرة الهَفَّافه؛ ثم أمدّ السيلُ ذلك العُباب، وصَقَل الآستِبْصارُ الألباب، وآستخلص العزمُ صَفْوةَ اللُّباب، وقال لسان النصر: آدْخُلُوا عليهمُ الباب؛ فأصبحَتْ طوائفُ الكُفَّار، حصائدَ مَناجل الشِّفار، فمفارِقُهم قد رَضِيتْ حُرُماتُها بالاعْفار، ورُءُوسُهم مَحْطوطة فى غير مَعالِم الآستغفار، وعلَتِ الراياتُ من فوق تلك الأبراج المستَطْرَفة والأسوار، ورَفْرَفَ علىٰ المدينة جَناح البَوار، لولا الآنتهاءُ إلىٰ الحدّ والمِقْدار، والوقوفُ عند آختفاء سِرِّ المِقْدار.

ثم عبَرْنا نهرها، وشدَدْنا بأيدى الله قَهْرها، وضَيَّقْنا حَصْرَها، وأقمنا بها أياما تَحُوم عِقْبانُ البُنُود علىٰ فرِيسَتها حِيَاما؛ وتَرْمِى الأرواحَ ببوارها، وتُسلِّط النيرانَ علىٰ أقطارها، فلولا عائقُ المطر، لحصَلْنا من فتح ذلك الوَطَن علىٰ الوَطَر؛ فرأينا أن نَروضَها بالآجتثاث والاِنْتِساف، ونُوالِىَ علىٰ زُرُوعها ورُبُوعها كَرَّاتِ رِيَاح الآعْتِساف؛ حتّى يتَهَيَّأَ للإسلام لَوْكُ طُعْمَتها، ويتهنَّأَ بفضل الله إرثُ نعمتها؛

ثم كانت عن موْقفِها الإفاضةُ من بعــد نحر النُّحُور ، وقذِف جمار الدَّمار على العَدُوّ المَدْحُور ، وتدافعت خَلْفنا السابقات المستقِلّات تَدافُعَ أمواجِ البُحور .

وبعد أن ألحَحْنا على جَنّاتها المُصحِره ، وكُرومها المشْتَجِره ، إلحاحَ الغريم ، وعوّضناها المنْظرَ الكريهَ من المَنظر الكريم ، وطاف عليها طائفٌ من رَبّنا فأصبَحتْ كالصَّريم ، وأغْرينَا حِلاقَ النار بجمِّ الجحيم ، وراكمنا فى أجواف أجوائها غمائمَ الدُّخان ، تُذَكِّر طَيِّبة البان ، بيَوْم الغَميم ، وأرسلنا رِياحَ الغارات لاتَذَر من شَيْءٍ أتتْ عليه إلا جعلَتْه كالرَّميم ، وآستقْبلْنا الوادىَ يهول مدّا ، ويَروع سيفُه الصَّقيل حدّا ، فيسّره اللهُ من بعد الإعواز ، وآنطلقَتْ على الفُرْضة [بتلك الفُرْصة] (١) أيدى الآنتهاز ، وسألْنا من ساءله أسَدُ بنُ الفُرات فأفتى بِرُجْحان الجواز فعَمّ الاكتساحُ والاستباحُ جميعَ الأحواز ، فأُديل المَصُون ، وآنتُهبت القُرى وهُدمتِ الحُصُون ، واجتُثّت الأصولُ وحُطِّمت الغُصون ، ولم نَرْفع عنها إلى اليوم غارةً تُصافِحُها بالبُوس ، وتُطْلِـع عليها غُرَرَها الضاحكةَ باليوم العَبُوس ، فهى الآنَ مَجْرى السوابق ومَجَرّ العوالى ، على التوالى ، والحسراتُ تتجدّدُ فى أطلالها البَوالى ، وكأنّ بها قَدْ صُرِعت ، وإلى الدَّعْوة المحمَّديّة قد أسْرَعتْ بقُدْرةِ من لو أنزل القرآنَ على الجبال لخَشَعتْ من خَشْية اللهِ وتصَدَّعتْ ، وعِزّةِ من أذعنَت الجبـابرةُ لعِزّه وخنَعتْ ، وعُدْنا والبُنودُ لايَعْرِف اللفُّ نَشْرها ، والوجوهُ المجاهدةُ لايخالِطُ التقطيبَ بِشْرُها ، والأيْدى بالعُرْوة الوُثْقى معتَلِقه ، والألسُنُ بشُكْرِ نعَم الله مُنطلِقه ، والسيوفُ فى مَضاجع الغُمود قَلِقه ، وسرابيلُ الدُّروع خلِقهَ ، والجيادُ من رَدّها إلى المَرابط والأَوارِى رَدَّ العَوارى حَنِقه ، وبعَبَراتِ الغَيْظ المكظومِ مختَنِقه ، تنظر إلينا نَظَر العاتِب ، وتَعودُ من ميادين المِراح والآختيالِ تحتَ حُلَل السِّلاح عَوْد

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الصِّبْيان إلىٰ المَكاتِب ، والطَّبْـل بلسان العِزّ هادر ، والعَزْم إلىٰ مُنَادِى العَوْد الحَمِيد مُبادِر، ووجودُ نوع الرِّماح، من بعد ذلك الكِفَاح، نادِر، والقاسمُ ترتَّب بين يديه من السبي النَّوادِر، ووارِدُ مَنْهل الأُجور، غير المُحَلَّإ ولا المَهْجُور، صادر، ومُناظِرُ الفضل الآتِي عقِبَهُ أُخَيُّـه الثـانى علىٰ المطلوب المُواتِى مُصادِر ؛ واللهُ علىٰ تيسير الصِّعاب وتخويل المِنَنِ الرِّغاب قادِر، لا إلٰهَ إلاهو، فما أجْمَلَ لنا صُنْعه الخفىّ! وأكرمَ بِنا لُطْفَه الحَفِىّ! اللهم لانُحْصِى ثناءً عليك ، ولا نَلْجأ مِنْك إلا إليك ، ولا نلْتَمِس خيرَ الدُّنيا والآخرة إلا لَدَيْك ، فأعِدْ علينا عوائدَ نصرِك يامُبْدِئ يامُعِيد ، وأعِنَّا من وسائل شُكْرِك علىٰ ماننال به المَزِيد ، ياحىُّ ياقيُّوم يا فعَّالا لِما يُرِيد .

وقارنَتْ رسالتُكم الميمونةُ منه لدَيْنا حدَقُ فتح بعيدٍ صِيتُه ، مشرِّبٌ لِيتُه ، ونَحْر من فوقِ النُّجوم العوَاتِم مَبِيته، عجِبْنا من تأتِّى أمله الشارد، وقلنا البركةُ فى قُدوم الوارد، وهو أنَّ ملِكَ النَّصارىٰ لا طَفَنا بجملة من الحُصُون كانت من مملكةِ الإسـلام قد غُصِبت ، والتماثِيلُ فيهـا بِبُيوتِ الله قد نُصِبت ؛ أدالَهَا اللهُ بمحاولتِنا الطيِّبَ من الخبيث، والتوحيدَ من التَّثْلِيث ؛ وعاد إليها الإسلامُ عَوْدَةَ الأبِ الغائب، إلىٰ البَنات الحبائبِ ؛ يسأَلُ عن شُـئُونها ، ويمسَحُ دُموعَ الرِّقَّة عن جُفُونها ؛ وهى للرُّوم خُطَّة خَسْفٍ قلَّما ارتكبُوها فيما نَعلمُ من العُهُود، ونادرةٌ من نَوادِر الوجود ؛ والى اللهُ علينا وعليكم عوارِفَ الجُود! ، وجعلنا فى محاريب الشُّكر من الرُّكَّع السُّجود! .

عَرَّفناكم بمجمَلاتِ أمورٍ تحتها تفسير، ويُمْنٌ من الله وتَيْسِير، إذ استيفاءُ الجزئيَّات عَسِير؛ لِنَسُرَّكم بِما منَح اللهُ دينكم، ونتوِّجَ بعزِّ المِلَّة الحنيفيَّة جَبِينَكم، ونَخْطُب بعده دعاءكم وتأمينكم ؛ فإنَّ دعاءَ المُؤمِن لِأخيه بظَهْر الغَيْب سِلَاح ماض، وكفيلٌ بالمواهب المسـُولة من المُنعِم الوَهَّاب مِيْفاض ؛ وأنتم أوْلىٰ ماساهم فى بِرّ ، وعاملَ اللهَ بخُلُوص

سِرّ ؛ وأين يذهب الفضل عن بَيْتِكم ، وهو صفة حَيِّكم وتُراث ميّتِكم ؛ ولكم مَزِيّة القِدَم ، ورسوخُ القَدَم ، والخلافةُ مقرُّها إيوانُكم ، وأصحابُ الإمام مالكٍ رضى الله عنه مستقَرُّها قَيْروانُكم ؛ وهجيرُ المنابر ذِكْرُ إمامكم ، والتوحيدُ أعلامُ أعلامكم ؛ والوقائع الشهيرةُ فى الكفر منسوبةٌ إلىٰ أيَّامكم ، والصحابةُ الكرامُ فَتَحة أوطانِكم ، وسُلالةُ الفاروق عليه السلام وَشَائِجُ سُلْطانكم ، ونحن نستكثر من بركة خِطابِكم ، ووُصْلةِ جَنَابكم ، ولولا الأعذار لوَالَيْنا بالمتزيدات تعريفَ أبوابكم .

والله عزوجل يتولّىٰ عنا من شُكْرِكم المحتوم ، ماقَصَّر المكتوب منه عن المَكْتُوم ؛ ويُبْقِيكم لإقامة الرُّسوم ، ويُحِلُّ محبّتَكم من القلوب محلَّ الأرواح من الجُسُوم ؛ وهو سبحانه يَصِل سَعْدَكم ، ويَحْرُس مَجْدَكم ، ويوالى نِعمَه عندكم .

والسلامُ الكريم ، الطَّيِّب البَرُّ العميم ؛ يخصُّكم كثيرا أثيرا ، ما أطلع الصبْحُ وجهًا مُنيرا ، بعد أن أرسل النسيمَ سَفِيرا ، وكان الوميضُ الباسم ، لأكواس الغمائم ، علىٰ أزهار الكمائم مُدِيرا ؛ ورحمة الله وبركاته ، إن شاء الله تعالىٰ .

الطـــرف الثامن

(فى المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العُمَّال وأمراء السَّرايا فى صدر الإسلام إلىٰ مَنْ فى معناهم)

وكان الغالبُ فى مكاتباتهم الافتتاحَ بأما بعد والتعبيرَ عن المكتوب عنه بلفظ الوحدة ، وخطابَ المكتوب إليه بالكاف .

كما كتب الحَجَّاج بنُ يوسف إلىٰ المهلَّب بن أبى صُفْرة ، وهو يومئذ نائبٌ عن الحَجّاج علىٰ بعض الأعمال والحُروب .

أما بعدُ، فإنَّك تتراخىٰ عن الحرب حتّى تأتِيَك رُسُلي ويَرْجِعُون بعُذْرك، وذلك أنك تُمْسِك حتّى تَبْرأ الجِرَاح وتُنْسىٰ القَتْلىٰ ويَجِمّ النـاس، ولو كنتَ تَلْقاهم بذلك الجِدّ لكان الداءُ قد حُسِم، والقَرْن قد قُصِم، ولَعَمْرِى ما أنت والقَوْم سَـوَاء، لأنَّ من ورائك رجالا، وأَمامك أموالا؛ وليس للقوم إلا ما معهم، ولا يُدْرَكُ الوجيف بالدَّبيب، ولا الظَّفَر بالتعذير.

وكما كتب المهلَّب إلىٰ الحجّاج مجيباًله عن ذلك.

أما بعدُ، فإنّى لم أُعْطِ رُسُلَك علىٰ قول الحقِّ أجرا، ولم أحتَجْ فيهم مع المشاهدة إلىٰ تَلْقِين. فذكرتَ أنى أُجِمُّ القومَ، ولا بدّ من راحة يستريحُ فيها الغالِب ويحتالُ المغلوب. وذكرت أن فى الجِمَـام تُنْسىٰ القتلىٰ وتَبْرأ الجراح، وهيهـات أن يُنْسىٰ مابيننا وبينهم، يأبىٰ ذلك قتلُ من لم يَجْنِ، وقروحٌ لم تعرق، ونحن والقومُ علىٰ حالة وهم يَرْقُبون مِنّا حالاتٍ، إن طَمِعوا حارَبُوا، وإن مَلُّوا وقَفُوا، ونطلُبُ إذا هَرَبُوا، فإن تركْتَنى فالدَّاء بإذن الله مَحْسوم، وإن أعجَلْتَنِي لم أُطِعْـك ولم أَعْص وجعلت وجْهِى إلىٰ بابِك، وأنا أعوذُ بالله من سَخَطه ومَقْتِ الناس.

الطـــــرف التـاسع

(فى المكاتباتِ الصادرة عن الملوك ومَنْ فى معناهم، إلىٰ الملوك ومَنْ فى معناهم، علىٰ ما كان عليه مصطلَحُ أهل المشرق، وهو علىٰ ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل

(أن تكون المكاتبةُ عن ملك إلىٰ غير مَلِك)

ورسمهم أن يفتَتِح الكتَابُ بلفظ «كتابُنا إليـك فى يوم كذا، ومن مكانِ كذا، والأمر علىٰ كذا وكذا» ويذكر الحال التى عليها المكتوبُ عنه حينئذ أوالتى عليهـا

الخليفةُ إن كان المكتوب عنه من أتباع الخليفة ، أوالتى عليها المَلِك إن كان من أتباع الملك ونحو ذلك ؛ ويكون التعبيرُ فى هذه المكاتبة عن المكتوب عنه بنون الجمع ، والخطابُ للمكتوب إليــه بالكاف . ولا يقال فى المكتوب إليه فى هــذه الحالة : سيِّدى ومولاىَ ، ولا سيدنا ولا مولانا . وبذلك يكتب عن الملوك ومَنْ فى معناهم من سائر الرؤساء إلىٰ المرءُوسين .

ثم هو علىٰ مرتبتين :

المرتبة الأُولىٰ — أن يُراعىٰ جانبُ المكتوبِ إليه فى الرِّفعة بعضَ المُراعاة .

كما كتب أبو إسحاق الصابى عن صَمْصام الدولة بن عضُد الدولة بن ركن الدولة آبن بُوَيه ، إلىٰ الصاحب كافى الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد وزير فخر الدولة ، فى الشفاعة فى شخص من بعضِ ألزامه :

كتابُنا — أدام الله تأييدَ الصاحب الجليل كافى الكُفَاة — وإن وَثِقْنا من المسئولين بالإيجاب والإجابه ، ومن المأمورين بالآمتثال والطاعه ؛ فإنا نَخُصُّ بكُتُبنا الصادرة عنا فى المآرب العارضــةِ لنا ، من خصتْ(١) من كلا الفريقين نهضَتُه إليها ، وظَهرتْ مثابرتُه عليها ؛ وإذا آنتهينا إليه — أدام الله عِزَّه — فى ذلك عُدِدنا مع ماقدّم الله عندنا من رتبته فى الطبقة الأولىٰ ، ومُيِّزنا مع ماوفَّر الله علينا من طاعته عن الطبقة الأخرىٰ ؛ وأنِسْنا منه عادةً مشكورة فى آتبـاع محبوبنا ، والإسـعافِ بمطلوبنا ؛ ليَسْلَس لنـا إلىٰ مخاطبته قيــادٌ يتقاعَسُ عمَّن سِواه ، وتَنْبَسِط منا فى مكاتبتــه أناملُ تتجعَّد عمن لايَجْرِي مَجْراه ؛ ولاسيما إذا كان ذلك فى مَكْرُمة يطيبُ ثناؤُها ، ومَنْقَبة يُشادُ بِناؤُها ؛ والله يَمُدّه ويمدُّنا فيه من طِيبِ السَّجايا ، وصالحِ العَطايا ؛ بما هو الولِىُّ به ، والحقيق بالشكر عليــه .

(١) لعله حصحصت أو وضحت أو نحو ذلك .

وكتابُنا هذا ــ أدام اللهُ عِزَّ الصاحب الجليل كافى الكُفَاة ــ مبنىٌّ علىٰ إذْكاره بحقّ لنا رعَيْناه ، وذِمام من أجْله أوجَبْناه ؛ وذلك أسدُّ لإحكامه وألزمُ لإيجابه ، وأوكد لأسبابه ؛ وقد عَرَف مكان أبى منصور يزداها دار بن المَرْزُبان من خِدْمتنا ، وموقِعه فى جملتنا ، وتوفُّرَ حظِّه من جميل رأينا ، وخالِص اعتقادنا ؛ ومن أوْجهِ وسائله لدينا ، التى أوجبتْ له ذلك علينا ، أنا لانزال عده عليه ، من[1] الاعتداد باحسان الصاحب الجليل كافى الكفاة إليه ، وإلىٰ أبيه من قبله ، والاعترافِ بأنه أيده الله أبو عُذْرة صنعِه ، والسابقُ إلىٰ الجذب بضَبْعه ؛ ولمن كان أقر له من ذلك معروفٌ لايُنْكر ، ودَخَل من الثناء عليه فى إجماع لايُخْرَق ؛ فقد بيَّن عن نفسه أنه ممن يُطيق حَمْل المِنَن ، ويُحسِنُ مصاحبةَ النِّعم ؛ ويستحق أن تُقرّ عنده أسلافُها ، وتُدَرَّ عليه أخلافُها ؛ إذ لم يُذْهله الرُّبُوع فيها عن التحيد من اصطرافها وانصرافها ، ولم يُلْهِه التوسُّط لها عن حياطة أطْرافها وأكنافِها ؛ ومَنْ لنا اليومَ بالشَّكور الذى لا يَغْمِط ، والذَّكور الذى لاينسىٰ ؟ والعليم بما يلزمه ، والقَوُم بما يحِقُّ عليه . وأَعْلَمنا حال قريبين له يقال لهما الفركان بن حرزاد ، ورستم بن يزد ، وأنهما تصرفا فى بعض الخِدْمة تصرُّفا تزايَلا فيه عن نَهْج السَّداد ، وسَنَن الرَّشاد ؛ واقتضىٰ ذلك أن طُلِبا بالتقويم والتهذيب ، ووَلَجَا مَضِيقَ القصاص والتأديب ؛ وأنه قد مضَتْ لهما فيه مدَّةٌ طويلة فى مثلها ما صَلُح المعاقَب ، واكتفىٰ المعاقِب ؛ وسؤالُه لهما ، ومرادنا له فيهما ، شفاعةُ الصاحب الجليل كافى الكُفَاة إلىٰ مولانا الأمير السيد شاهنشاه فخر الدولة فى أن يَسَعَهُما العفوُ ، ويدركهما العَطْفُ إما باستخدامٍ يتطوّقانِ به المِنَن ، ويأذَنُ لهما بانصراف إلىٰ الوطَنْ ؛ وقدِ استظهرنا بكتابٍ كتبناه فى أمرهما : هذا الكتاب يشتمِلُ عليه ، حتّى إذا وجب أن يجعله الصاحبُ الجليل كافى الكُفاة ذريعةً إلىٰ

(١) كذا فى الأصول ولعله أنه لايزال يعدّ ماعليه من الاعتداد الخ .

الغَرَض، ومطيَّةً إلى المقصد، أمضىٰ فى ذلك رأيه، وعقد عليه تدبيرَه . فإن رأىٰ الصاحب الجليل أن يتوصّل فى هذا الأمر إلىٰ ما يُسّا كل عادتَهُ عنـدنا فى الأمور الواردة عليـه فعل، وتوخّى فى الجواب أن يكون متضمّنا لذكر الفعل دون القول، والإنجاز دونَ الوعد، إن شاء الله تعالىٰ .

وكما كتب الصابى عن صَمْصام الدولة المقدّم ذكره، إلىٰ الصاحب بن عباد أيضا فى حالة أخرىٰ، بسبب ردّ إقطاع إلىٰ أبى جعفر محمد بن مسعود قرينَ كتابٍ إلىٰ فخر الدولة

كتابُنا والسلامةُ لدينا راهنه، وعادةُ الله لإقْرارها ضامنه، والحمدُ لله رب العالمين، والصاحبُ الجليلُ كافى الكُفاة ـ أدام الله تأييده ـ يعلم أنه لم يَزَلْ لمـالكنا أفنيةٌ تُقام بها أسواقُ المكارم، وتَحيَـا بها سُنَن المحامد، وقد جعله الله بتفضُّله الحافظَ لجمال ذلك علينا، والضارِبَ بسهمه فيه مَعنا، فالحمدُ لله علىٰ أن قَرَن الحظوظَ التى خَوَّلَنا، والمنازِلَ التى نَوَّلَنا، بالخلائقِ الخليقة بها، الداعيةِ إلىٰ آستقرارها، والطرائقِ المطَرِّقة إلىٰ ثَبَاتهـا واستمرارهـا، وأنْ زانَ أيامَنا هـذه الحاضره، بآثار الصاحب كافى الكُفَاة أدام اللهُ عزه فيها النّـاضره، ومساعيه الرّشيدة، وأفعالِه المستقيمه، وأحاديثه الجميلة، وإيّاه نسأل أن يُجْرِيَنا وكلَّ ناصح علىٰ أفضل ما عَوَّدَنا وأحسـن ما أولاه ومنحنا بقُدْرته .

وإذا كان مولانا الأميرُ السيدُ شاهنشاه فخر الدولة، وفَلَكَ الأمّة، بالمحلّ الذى أهّله الله له : من آستِعْذابِ الإحسان إلىٰ أوليائه، وآفتراض الإفضال علىٰ نُصَحائه، وكان الصاحبُ الجليلُ بالحال التى هو بهـا من القيام بمـا حمل به (١) المُنابَ فيه عنه،

(١) فى الاصل « من القيام قد كمل له والمناب الخ » وهو تخليط من الناسخ .

فقد وجب أن تكونَ الرِّعاية لِذَوِى الحُرُمات مستحْكِمَةَ الأسباب ، ثابتةَ الأطْناب ؛ واضحةَ الأعلام ، ماضِيةَ الأحكام ؛ ولا سيما فيمن تَعَلَّق مِنَّا بالعناية ، وأخذ من ذِمامِنا بالوثيقة ؛ و « أبو جعفر محمد بن مسعود » أيده الله جامعٌ لِلَوَاتِّ ، التى يستحِقُّ بها ٱجتماع العنايات ؛ سالِفًا صالحًا فى الخدمة ، وسابقةً متمكِّنة فى الجملة ؛ وٱشتمالًا علىٰ كلِّ ما وجبت به الحقوق ، ولَزِمتْ به الرعايات . وذَكَرَ أنه كانتْ له بنواحى الجبل تَسْويغاتٌ ومعايِشُ أنعم بها مولانا الأمير السيد فخر الدولة عليه فى حالٍ بعد حال ، وشَرَّفه بها فى مَقَام بعد مَقَام ؛ منها كذا وكذا ، وإذا جُمِع الجميع كان قليلا فى جَنْب ما يُفيضه مولانا الأمير السيد شاهنشاه فخر الدولة ، وفلك الأمة علىٰ خَدَمه : من جليل عوارفه الجاريةِ علىٰ يد الصاحب الجليل كافى الكُفَاة أدام الله تأييده ، والواصلةِ إلىٰ مستحِقِّيها بلطيف توصُّله ، وجميل معتَقَده . وكان موقعه جليلًا عند أبى جعفر محمد بن مسعود أيده الله فى جنب ما يُصْلِح من شأنه ، ويُقيم من جاهه ، ويرب من معايشه ، ويُلِمُّ من حاله . وقد كتبنا إلىٰ مولانا فى ذلك كتابا مجملا قَصَرناه علىٰ الرَّغْبة إليه ، فى ردّ هذه المَعَايِش عليه ؛ وعوّلْنا علىٰ الصاحب الجليل فى إخراج أمره العالى بذلك له ، وإحكامِ المناشير والوثائقِ بجميعه ، والتقدّم بمكاتَبة العُمَّال والوُلاة بتقوية أيدى أصحابه ، فى ٱستيفاء ما يجب من الأسلاف والبَقَايا ، علىٰ الأَكَرةِ والمُزارعين ، والوكلاءِ والمعاملين ، وتأكيد الكُتُب بغاية ما تؤكَّد به أمثالها ، ويبلغ به أبو جعفر مَحَابَّه كلَّها . فإن رأىٰ الصاحب الجليلُ أن يأتى فى ذلك كلِّه مايجده ويعده ويَرْعاه ويحفَظُه ، جاريا علىٰ المألوف من مُثابَرته علىٰ ما عاد علينا وعليه معنا بِطيبِ الذِّكر والبِشر ، وثَناءِ اليوم والغد ، فقد أنفذنا بهذا الكتاب ركائب لنا دِلالةً علىٰ خصوص متضمَّنه فى تعلقه بالاهتمام منا ، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

الضرب الثانى
(أن تكون المكاتبةُ من ملك إلىٰ ملك)

ورسْمُهم فى ذلك أن يُفتَتح الكتابُ بلفظ : كتابِى والأمرُ علىٰ كذا وكذا، ويُؤتىٰ بالتعبير عن المكتوب عنــه فى أثناء الكتاب بلفظ الإفراد دون الجمع ، وهنـا يَفخَّم شأنُ المكتوب إليه، فيعبَّرُ عنه بمولاى وسيدى، ومولانا وسيدنا، ونحو ذلك .

ثم هـــو علىٰ مراتب (١) :

المرتبـــــة الأولىٰ
(أن يكون المكتوب إليه مَلِكا أيضـا)

فيخاطبه علىٰ قدر مَقَامه بالسيادة أو غيرها مع الدعاء بمـا يناسبه : من طُول البقاء ونحوه؛ ثم تارة يَقَع التعرُّض فيها بذكر الطلب وبرَفْع الحال التى هو عليها، وتارة لايقع التعرُّض إلىٰ ذلك ــ كما كتب أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة ، بن مُعِز الدولة ، آبن بويه، إلىٰ عضد الدولة بن بويه فى طَلَب الصُّلْح، وقد جرىٰ بينهما آختلافٌ .

كتابى ــ أطال الله بقاءَ مولانا الملك الجليل المنصور عضــد الدولة ــ من العسكر بظاهر سُوق الأهواز ، ومولانا أمير المؤمنين مشمولٌ بالكفاية والتأييد، مخصوصٌ بالعِز والتمكين؛ يجرِى علىٰ أفضلِ ماعوّد الله خُلفاءَه فى أرضه، وأحِبَّاءَه فى رعاية خَلْقه؛ من التكفُّل لهم بالإظهار والإداله ، وتولِّيهم بالإعلاء والإنافه ؛ وأنا مستظِلٌّ بكَنَف طاعتــه، مستكِنٌّ فى حَرَم مشايعته؛ شاكرٌ لله علىٰ بَلاَئه، مُثْنٍ عليه بآلائه ؛ راغبٌ

(١) لم يذكر فى الأصول غير الأولىٰ ويظهر أن التقسيم سهو فان المقسم هو الكتابة من ملك إلىٰ ملك وهو عين المرتبة الأولىٰ فتأمل .

إليه أن يَعْصِمَنى فى مولانا الملك الجليل المنصور وفى نَفْسى من كل مكروه ومستَهْجَن، ويُوفِّقنى وإيَّاه لكل مستَحَبٍّ ومستحْسَن؛ ويُعيذَنا من المُقَام علىٰ الفُرْقه، والزَّوال عن سَنَن الأُلْفه؛ وهو المحمودُ ربُّ العالمين .

والحقوقُ بين مولانا الملك وبينى فيما قررتْه منا اللُّحمه، وأكَّدته العِصْمه، وأثَّلتْه الأسلاف، ونشأتْ عليه الأخلاف؛ حقيقةٌ بأن لاتتَسَرَّع إليها دواعى النَّقْض، ولا تَتَمكَّن منها مُلِمَّات النَّسْخ؛ ولايَتِمَّ للشيطان عليها مايحاوله بنَزْغه، ويتَوَصَّلُ إليه بكيده؛ وأن تنزاحَ العوارِضُ عنها، وتَضْمَحِلَّ دُونَ التأثير فيها؛ وأن نعتقد جميعا أنَّ بتقارُضنا رعايَتَها ثباتَ النعم المتصلة بها، فلا يستنكفُ مستنْكِفٌ مِنَّا أن يَخْفض جناحَه لأخيه، ويَغُضَّ من جِمَاحه فى مقاربة ذويه؛ إذ كان ذلك حامِياً له فى أهول الأحوال مِمَّا هو أشدُّ خَفْضا، وأبلغُ رَضّا، وأسوأُ مَغَبَّة، وأنكرُ عاقبة .

وقد علم مولانا الملك المنصور بالثاقب من تأمله، والصحيح من تمييزه وتَدَبُّره؛ أن دولتنا -حرسها الله- مبنِيَّةٌ علىٰ أُسِّ الترافُد والتعاضُد، موضوعةٌ علىٰ قاعدة التوازُر والتظَافُر؛ وأن مشْيَختنا وسادَتَنا رضوانُ الله عليهم جعلوا الآئتلاف رِتاجاً بين الأعداء وبَيْنَها؛ ثم إن مِفْتاحَه هو الخلافُ المتطرِّق لهم عليها؛ ولو حدث التنافُرُ فى أيام رياسةِ أضعفِنا مُنَّة، وأوْهَنِنا عُقْدة، وأحْدَثِنا سِنّا، وأقلِّنا حُنْكة، لكان ذلك أقلَّ فى التعجُّب من أن يَعْرِض فى رياسة أحْصَفِنا رأيا، وأسَدِّنا تَدْبيرا، وأوْفانا حِلْما، وأكملنا حَزْما . وقد تكررتْ -أيد الله مولانا- علىٰ ذاتِ بيننا قوارِصُ آحتقَرْناها حتىٰ آمتلأ الإناءمن قَطْرها، وآستقَيْنا منها علىٰ العظيمة التى لاثَوَاءَ بعدها؛ وما أعُودُ علىٰ نفسى بلَوْم فى آبتداء قبيح آبتدأته، ولا بمركب شَنِيع ركبته ولاحَقٍّ آطَّرحتُه، ولا آستصلاحٍ تركْتُه؛ ولا أدفَعُ مع ذلك أننى قابلتُ لما تَضاعَفَ بالأقل

*

الأيسر ، وجازيت لما ترادف بالأدْونِ الأنْزر ؛ إلا أنى ما آثرتُ كثيرَه ولا قليلَه ، ولا آخترتُ دقيقَه ولاجليله ؛ لكنه لم يَصْلُح فى السيرة ـ وقد أشفينا علىٰ التراحف للحرب ، والتَّدالُف للطَّعن والضرب ـ أن أستعمل ما كنتُ عليه من توفية الحقوق ، وإقامة الرسوم ، فيرانى الأولياءُ الذين بهم تُحْمىٰ البيضه ، وتُحاط الحَوْزه ؛ متناقِضَ الفعلين ، متنافِيَ المذهَبَين ؛ وكنتُ فى ذلك الفِعْل الذَّميم ، والرأيِ الذى ليس بمستقيم ؛ مقتَدِياً لا مبتدِيا ، ومُتَّبعا لا مبتَدِعا . ولو وقف بى مولانا الملك الجليل قبل أواخِرِ الجَفَاء ، وعطَفَ معى إلىٰ أوّل شرائِع الصَّفاء ، لكانت عَريكتى عليه أَلْيَن ، وطرِيقُه إلىٰ آرتباط طاعتِى وولائِى أقْصَد ؛ لكنه أيَّده الله أقام علىٰ ما لا يليق به من مجانبتى ومغالطتى ، وبَثِّ الحبائل لى ودَسِّ المكايد إلىّ ، ومتابعته الجَواسيسَ والكتب إلىٰ الأولياء فى عسكرى الذين هم أولياؤُه ، إن أنصَفَ وعَدَل ، ونصحاؤُه ، إن أحسن وأجمل .

وكان الأشبهُ بمولانا لو كنتُ الغالطَ عليه ، والباعثَ لهذه الأسباب إليه ، أن يَسُوسَنى سياسةَ الحكيم ، ويستخْلِصَنى آستخلاصَ الكريم ؛ إذ كُنَّا لم نقدِّمْه معشَرَ أهلِ البيت علينا ، ونُوَلِّه أَزِمَّةَ أمورنا ، إلا ليأسُوَ جُروحَنا ، ويَجْبُرَ كُسورَنا ، ويتعهَّدَ مُسِيئَنا ، ويستمِيلَ نافِرَنا ؛ فأما أن يُحاوِلَ منا آستباحةَ الحريم ، وإركابَ المَرْكَب العظيم ؛ فكيف يجوزُ أن تدُومَ علىٰ هذا طاعه ، أو تُصْلُحَ عليه جماعه ؛ أو يُغْضِىَ عليه مُغْضٍ ، أو يَصْفَح عنه صافِح؟ . وكان من أشدِّ هذه الجَفْوة وأفْظَعِها ، وأقساها وأغلظها ؛ أن عاد رسُولى من حضرته خاليًا من جوابٍ بما كتبت إليه ، وما أعرف له أيده الله فى ذلك عذرًا يبسُطه ، ولاسلك منه السبيل التى تشبهه ؛ وبالله جُهْدَ القَسَم ومنتهاها ، وأجَلِّها وأوفاها ؛ لقد سار مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وسرتُ إلىٰ هذا الموضع ، وآعتقادُنا لا يجاوزُ حفظَ الحُدود والأطراف ، وحياطةَ النهايات

والأكناف ؛ والأغلبُ علينا أنَّ مولانا الملك ـ أدام الله تأييده ـ لا يتجاوز معى المعاتَبةَ اللطيفة ، والمخاطبةَ الجميلة ؛ والآستدعاءَ منّى لما يَسُوغ له أن يطلُبه ولى أن أبْذُله ، من تعفية السالف ، وإصلاح المستأنَف ، وتوفِيَة للحق فى رُتْبة لا أضِنُّ بها عليه ، ولا أستكثر النُّزولَ عنها له ؛ وتقريرِ أصلٍ بيننا يكونُ أيده الله به مَعْقِلا لى ومَوْئلا ، وأكون نائبًا له ومظَفَّرا ـ إلىٰ أن بدأ الأصحابُ بالعَيْث فى هذه البلاد ؛ وألَحُّوا عليها بالغارات ، وآعتمدُوها بالنِّكايات ؛ وكان هذا كالرَّشاش الذى يُؤْذِن بالآنسكاب ، والوميض الذى يُوعِد بالآضْطِرام ـ وأوجَبْت قبل المقابلة عليه والشُّروع فى مثله فى حقِّ مولانا الملك الجليل ، الذى لا أدَعُ أن أحفَظَ منه ما دعانِى إلىٰ إضاعته ، وأتَمَسَّك بما آضطَّرَّنى إلىٰ مفارقته ؛ أن أُقَدِّم أمامَ الآلتقاء علىٰ الحرب التى هى سِجَال كما يعلَمُ ، إبلاغَ نفسى عُذْرَها وإعطاء المَقَادة منها ؛ داعيا له إلىٰ طاعة الخالق والإمام ، وصِلَةِ اللُّحَم والأرحام ، وحَقْن الدماء والمُهَج ، وتسكين الدَّهْماء والرَّهَج ؛ وثَنْى العِنَان عن المَوْرِد الذى لا يَدْرِى وارده كيف يَصْدُر عنه ، ولا يَثِق بالسَّلامة منه ؛ وتعريفى ما يريده منِّى لأتَّبِعَه ما لم يكن ثالِمًا لى ، وعائدا بالوَهَن علىَّ ؛ والله الشاهدُ علىٰ شهادةٍ قد علِمَ إخلاصى فيها ، وسماحةِ ضميرى بها ؛ وأننى أكرُه أن أنال منه ، كما أكره أن يَنَالَ منى ؛ وأتألَّمُ من أن أظْهَرَ عليه ، كما أتألَّمُ أن يظهَرَ علىَّ ؛ وأُحِبُّ أن يَرْجِع عنى وأرجع عنه ؛ وقد آلتقَتْ قلوبُنا ، وتألَّف علىٰ الجميل شملُنا ؛ وطُرِفتْ أعينُ الأعادِى عنا ، وآنحسَمَتْ مطامعهم فينا ؛ فإن فعل ذلك فحقيقٌ به الفضل ، وهو لعَمْرُ الله له أهل ؛ ولا عُذْرَ له فى أن لا يفعله ، وقد وَسَّع اللهُ ماله ، ووفَّر حالَه ، وأغناه عمَّا يلتمسه الصُّعْلوك ، ويُخاطِر له السُّبْروت ؛ وجعله فى جانب الغِنىٰ والثَّرْوه ، والحَزْم والحَيْطة ؛ وإن أبىٰ فكتابى هذا حجةٌ عندالله الذى تُسْتَنْزَل منه المعونةُ وعند الناس الذين تلتَمس منهم العَصَبِيَّة ؛ وقد أنفذت به إسفندار بن خُسْرويه وإبراهيم

آبن كالى ، وهما ثِقتاىَ وأمِيناىَ ، ليؤدِّياه ويُشافِهاه عنّى بمثـل متضمَّنه ونجْواه ؛ والله يُعِيذنا فى مولانا الملك الجليل من أن يختارَ إلا أوْلىٰ الأمرين وأليَقَهما بدِينِه ومُرُوءته ، وهو ولىٌّ ما يراه فى الأمر بتعجيل الإجابة بمـا أعمَـلُ عليه ، وأنتهِى بالتدبير إليه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الضرب الثـالث

(أن تكون المكاتبة عمَّن دُونَ الملك إليــــه)

ورسمهم فيه أن يُبْتَدأ بلفظ كتابى ، والدعاءِ للمكتوب إليه بطول البقاء ونحو ذلك ، ويخاطب فى أوّل الكتاب بمولانا الملكِ السـيدِ الأجلّ ، وفى أثناء الكتاب بالسيد والملك ونحو ذلك ؛ ويعبر عن المكتوب عنه بلفظ الإفراد :

كما كتب أبو إسحـاقَ الصابى عن الأمير نصر خُوزه فيروز بن عَضُد الدولة إلىٰ آبن عمه شرفِ الدولة يذكر له حالَه مع أخيه صَمْصام الدولة .

كتابى ــ أطال اللهُ بقاءَ مولانا الملكِ السيد الأجلِّ ، شرفِ الدوله ، وزَيْنِ المِلَّة ، والسلامةُ لى شاملةٌ بمـا مدّه الله تعالىٰ علىّ من ظِلِّه الظليل ، ورأْيِه الحسنِ الجميل ؛ والحمدُ لله رب العالمين . وقد تأدّىٰ إلىٰ مولانا الملكِ السيد من أخبارى ما أستَغْنِى به عن تطويل المفَصَّل ، وأكتفِى به عن إجمال المُجْمَل ؛ وذلك أن أسفار بن كردويه وعبد العزيز بن يرسف الكافرَيْن لنَعْماء الله ونعمة الملك السعيد عَضُـد الدولة أبينا رحمة الله عليه قَبْلنا ، الغامِطيْنِ لمـا تظَاهَرَ عليهما من إحساننا وإفضالنا ، هَجَما علينا بِخُدْعة تظافَرَا عليها ، وشُبْهة جذَبانى إليها ، وأبْرَمَا كَذِباً من القول لم أظُنّهما يُقْدِمان

علىٰ مثله، ولايتفوّهان باطِلّابه، فأصغيْتُ إليهما إصغاءَ الواثقِ بهما لا المنخَدِع لهما، فلما أنزَلانِى علىٰ حُكمِهما، وأوثقانى بحيث لا أستطيع مخالفتَهما، ظهرَتِ الحيله، ووضَحتِ الغيله، وفاتنى الاختبارُ، وغلَبَنى المِقْدار، فجرىٰ ما كانت عاقبتُهُ خِذلانَ الله إيَّاهمـا، وإنزالَهُ بأسَه ونقمتَه عليهما، وخَلاصِى بسَلَامة الصَّدْر، واتضاح الغدر، من حَبائلهما المنصوبه، وأشراكهما المبثوثه. ولمـا حصَلْتُ فى كَنَف الملكِ السيد صَمْصام الدولة أقالَنِى العَثْره، وقَبِـل منِّى المَعْـذِره، وأحلَّنِى من دراهِ وحِمَاه بحيث لم أعدم عاده، ولا انقطعت عنِّى مادّه، وكانت الحال تُوجِب مُقَـامِى فيهـا إلىٰ أن تتعفَّى آثارُ الفتنة التى أثارها ذانكما الخَبِيثان الجانيان.

ثم ورد فلان فى الرسـالة، وتمّم اللهُ علىٰ يده عقْـدَ الصلح والمسالمة، فأُخْرِجتُ عن الاحتجاب إلىٰ الظُّهور، وعن الاحتِجَار إلىٰ البرُوز، وأُنْزِلتُ من الدار المعمورةِ فى جانبٍ يَصِل إلىَّ منه سَيْب وُصُوله علىٰ العموم دون الخصوص، وعاملنى الملكُ السيدُ صَمْصام الدولة بمـا يليق بفضله متَّبِعا فى ذلك مقاطَعَة السـيف بينه وبينى، وطاعةَ مولانا الملك السيد الأجل شرف الدولة فى أمرى، وجَدّد عندى من الإنعام والتوْسِعة والإيثار والتكرمة آخرا ماشَفَع تلك الشَّـفقة أوّلا، ولَقِيَنِى فلان دَفَعات، وشـافهنى مرَّات، وتحمَّـل عنى إلىٰ مولانا الملك موالاتى الشكر كثيرا، واعتـدادًا طويلا عريضًا، ودعاءً اللهُ يَسْـمَعُ مرفوعه، ويُجِيب مسمُوعَه، بمنّـه وقُدْرته وحوله وقوّته.

والآنَ فإذ قد جمعَ اللهُ الكلمـه، ووكّد الأُلفةَ وحرَس النِّعمه، وحصّن الدولةَ وأخرج عنها مَنْ كان يَشُبُّ الفتنه، ويُسْدِى ويُنِير فى الفُرْقه، فإنِّى واثقٌ بالله جل وعز وبمـا تترقَّى الحالُ إليه فى غايةِ محبُوبِى، ونِهـاية مطْلوبى، وأقاصى ماتبلُغُه

أُمْنِيَّتِى ، وتسمُو إليه هِمَّتِى ، وتقتضيه أُخُوّتى وعِصمَتى ؛ ولله المشيئه ، ومنه المعونه ؛ فإن رأى مولانا الملكُ السيد أن يَسْكُن إلىٰ سُكونى ، ويطمئن إلىٰ طُمأْنِينتِى ، ويُجرِىَ إلىَّ غاية فضله وطَوْله فى الأمر الذى أحسَنَ فيه وأجمل : ليشْمَلَنا إنعامُه ، ويتظاهر علينا آمتنانُه ؛ وأستوفِى بَقِيَّةَ حظِّى من ثمرة ذلك وعائدته ، وجَدْواه وفائدتِه ؛ ويأمُرَ بتشريفِى بكتابه ، وتأهيلى بجليـلِ خِطابه ؛ وتَصْرِيفى بين أمره ونهيه ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

تم الجـزء السادس . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجـزء السابع

وأوله الطـــرف العـاشر

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـه والتـابعين وسـلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

" اســــتدراك لمـا فات "

نُبّه فى صفحة (٥٤) من الجزء الثالث من كتاب صبح الأعشى هــذا على بعض كلمات مطموســة بالحبر لم نهتد اليها عند طبع ذلك الجزء . أما وقد عُثِر الآن فى بعض المكتبات الأهلية على أصلٍ لذلك الجزء فرؤى تكميلا للفائدة إثبات المطموس هنا ليصلحه القارئ فى مواضعه إن أراد . وتسهيلا لمعرفة مواضع البياض من أوّل نظرة قد نقلت الصفحة بتمامها وجعل ما كان ساقطا لطمسه بين قوسين هكذا ( ) . وهى :

يجهِّز بَرِيدىّ بطلب هذه الأقلام من وُلَاة الوجه القِبلىّ ، ويُؤْتَى بها فتحفظ عند كاتب السرِّ ويُبْرَى منها مايحتاج إليه (فى كتابة السلطان و) يوضع فى دواته بقَدْر الحاجة.

قال فى "منهاج الإصابة": ولا بدّ فيه (من ثلاثة شقوق أو أكثر) بقدر مايحتاج إليه فى مَجِّ القلم الحِبْرَ فى القرطاس .

وآعلم أن للكُتّاب فيه طريقتين — إحداهما طريقةُ الثلُث، فتجرى الحال فيه على الميل إلى (التقوير — و)الثانية طريقة المُحَقَّق ، فتجرى الحال فيه على الميل إلى (البَسْط دون التقوير وسيأتى إيضاح الطر) يقتين وكيفية (تشكيل حروفهما فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر السُّرَّمَرِّىّ فى أرجوزته آختصاص قلم الطومار بأمور : أحدهـا أن مستداراتِه كلها تكون بوجه القلم، والمدّات بسِنّه، والتعاريق بوجهه منفتلا فيها على اليمين — الثانى أن الميم منه تكون مفتوحة مدوّرة) والفاء والقاف فيه (أوساطها محدّدة وجنباتها) مدوّرة — الثالث (أن يكون البياض بين الأحرف كمثله بين السطور) — الرابع أن يكون (الفضل من جانبى القرطاس متسـاويا فى المقدار — الخامس أن لايكون) فيه صاد مدوّرة (ولا) كاف مشكولة .

وذكر المولى زين الديـن شعبان الآثارىّ فى ألفيته (أنه يدخل) فيه الترويس فى الألف ، والباء ، والجيم ، والدال (والراء ، والطاء ، والكاف المجموعة) واللام والنون فى الإفراد والتركيب عنـد الآبتداء وأنه (لايجوز فيــه) الطمس فى شىء من عُقَده كالصاد، والطاء، والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف المحققة بحال، والمعنى فيه أن الطمس لايليق بالخط الجليل .

فهـــــــرس

الجـــــزء السادس

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

صفحة

المقالة الرابعة

(تم فهرس الجـــزء السادس من كتاب صبح الأعشىٰ)

صبح الأعشى

الجـــــزء السابع

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء السابع

طبـــع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الطَّرَف العاشر

فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية

(ولها حالتان)

الحالة الأولى

(ما كان الأمرُ عليه قبل دولة الخلفاء الفاطميين بها فى الدولة الأخشيدية والطُّولُونِيَّة وما قبلهما)

والذى وقفتُ عليه من رسم المكاتبة عنهم أن تُفتتَح بلفظ: «من فلان إلى فلان».

كما كتب ٱبنُ عبد كان عن أحمدَ بن طولونَ إلى ٱبنه العباس حين عصى [عليه][1] بالإسكندرية، منذِرًا له وموبِّخا له على فعله، وهو:

«من أحمدَ بنِ طولونَ مولى أمير المؤمنين، إلى الظالم لنَفْسه، العاصى لربه، المُلِمِّ بذنبِه، المُفْسِدلكَسْبه، العادى لطَوْره، الجاهلِ لقَدْره، الناكِصِ على عَقِبه، المَرْكُوس فى فتنته، المَبْخُوس [من][1] حَظِّ دنياه وآخرتِه»!

سلامٌ على كل مُنيبٍ مستَجِيب، تائبٍ من قريب؛ قبلَ الأَخْذ بالكَظَم، وحلُولِ الفَوْت والنَّدم.

---

(١) الزيادة من الضوء للمؤلف ص ٤٦٦، ٤٦٧.

وأحمَدُ الله الذى لا إلٰهَ إلا هو حمدَ معترِفٍ له بالبَلَاء الجميـل ، والطَّوْل الجليل ؛ وأسأله مسألةَ مخلِصٍ فى رجَائه ، مجتهِدٍ فى دُعائه ؛ أنـ يصلى علىٰ محمد المصطفىٰ ، وأمينه المرتضىٰ ، ورسوله المجتبىٰ ؛ صلّى الله عليه وسلم .

أما بعد ، فإن مَثَلَك مثَلُ البقرة تُثير المُدْيةَ بقرنَيْها ، والنملةِ يكون حَتْفها فى جناحَيْها ، وستعلَمُ ـ هبِلتْك الهَوَابل ! أيها الأحمقُ الجاهل ؛ الذى ثنىٰ علىٰ الغىّ عِطْفه ، واغترّ بضجَاجِ المَوَاكب خَلْفه ـ أىّ مَوْرِدةٍ هَلَكةٍ بإذن الله تورّدْت ، إذ علىٰ الله جل وعز تمرّدْت وشَرَدت ، فإنه تبارك وتعالىٰ قد ضَرَب لك فى كتابه مثلا : ﴿قَرْيةً كانَتْ آمِنةً مُطْمئِنّةً يأْتيها رِزْقُها رَغدًا مِنْ كُلِّ مَكانٍ فكَفَرتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فأَذاقَها اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخَوْفِ بمـا كانُوا يَصْنَعُون﴾ .

وإنا كُنّا نُقرِّبك إلينـا ، ونَنْسُبُك إلىٰ بُيوتنا ؛ طَمَعًا فى إنابَتِك ، وتأْمِيلا لفَيْئتِك ؛ فلَمّا طال فى الغىّ انْهِماكُك ، وفى غَمْرة الجَهْل ارتباكُك ، ولم نَرَ الموعظةَ تُلين كَبِدَك ، ولا التذْكيرَ يُقيم أوَدَك ، لم تكُنْ لهـذه النِّسبة أهلا ، ولا لإضافَتِك إلينـا موضِعا ومَحلّا ، بل لا نُكْنىٰ بأبى العبّاس إلا تكرُّهًا وطمَعًا بأنْ يَهَب الله منك خَلَفًا نقلده اسمك ونُكْنىٰ به دُونَك ، ونَعُدُّك كنتَ نِسْيا مَنْسِيّا ، ولم تَكُ شيئا مقضيًّا ؛ فانظُرْ ولا نَظَرَ بك إلىٰ عارٍ نِسبتِه تقلَّدت ، وسَخَطٍ من قِبَلِنا تعرَّضْت ؛ واعلم أن البـلاء بإذنِ الله قد أظَلَّك ، والمكروهَ إن شاء اللهُ قد أحاطَ بِك ؛ والعساكرَ بحمد الله قد أتَتْك كالسَّيْل فى الليل ، تُؤْذِنُك بحربٍ وبوَيْل ؛ فإنّا نُقْسِم ، ونرجُو أن لا نَجُورَ ونَظْلِم ؛ أن لا نَثْنِىَ عنك عِنَانًا ، ولا نُؤْثِرَ علىٰ شانِك شَانًا ؛ ولا نتوقَّلَ ذِرْوةَ جبل ، ولا نَلِجَ بطن واد ؛ إلا جعلْناك(١) بحولِ الله وقُوّتِه فيهما ، وطلبناك حيثُ أمَّمْت منهما ؛ مُنْفِقين فيك كُلَّ مالٍ خطير ، ومستَصْغِرِين بسببك كلَّ خَطْب جليل ؛ حتّى تَسْتَمِرَّ من طَعْم العيش

(١) لعله "تبعناك" والمراد اقتفاء أثره حيث يمم .

ما آستحْلَيْت، وتستَدْفِعَ من البَلَايا ما آستدْعَيْت؛ حينَ لادافِعَ بحول الله عنك، ولا مُزَحْزِحَ لنا عن ساحتِك؛ وتَعْرِفَ من قَدْر الرَّخاء ما جَهِلت، وتودَّ أنك هُبِلْتَ ولم تَكُنْ بالمعصية عَجِلْت، ولا رَأَى مَنْ أضلَّك من غُواتك قَبِلْت؛ فحينَئذ يتفرَّى(١) لكَ الليلُ عن صُبْحه، ويُسْفِر لك الحقُّ عن مَحْضِه؛ فتَنْظُر بعينين لاغشاوةَ عليهما، وتَسْمَع بأذنين لاوَقْرَ فيهما؛ وتعْلَمَ أنك كنت متمَسِّكا بحبائِل غُرُور، مُتَمادِيا فى مَقَابح أُمور: من عُقوق لاينامُ طالِبُه، وبَغْى لايَنْجُو هارِبُه؛ وغَدْر لايَنْتعِش صَرِيعه، وكُفْرانٍ لايودىٰ قتيلُه؛ وتَقِفَ علىٰ سُوءِ رَوِيَّتك، وعِظَم جَرِيرَتك؛ فى تَرْكك قَبولَ الأمان إذْ هو لك مبذُول، وأنت عليه محمول؛ وإذِ السيفُ عنك مَغْمُود، وبابُ التوبة إليك مَفْتُوح؛ ونتلهف والتلَهُّفُ غيرُ نافِعِك إلا أن تكون أجبْتَ إليه مُسْرِعا، وآنقدْتَ إليه منتصِحا.

وإنَّ مما زاد فى ذُنُوبك عِندى ماورد به كتابُك علىَّ بعد نُفُوذى علىٰ الفُسْطاط من التَّمْويهات والأعاليل، والعِدَات بالأباطيل؛ من مَصِيرك بزَعْمك إلىٰ إصلاح ماذكرتَ أنه فَسَد علىَّ، حتّى مِلْتَ إلىٰ الإسكندرية، فأقمتَ بها طُولَ هذه المدَّه. وآستظهارًا عليك بالحُجَّه؛ وقطعا لمن عسىٰ أن يتعلَّق به معذرة علم بأن الأناةَ غير صادَّة، ولا أنَّه خالجَنى شكٌّ ولا عارضنى رَيْب فى أنك إنما أردْتَ النُّزُوح والآحتيال للهَرَب، والنُّزوع إلىٰ بعض المواضع التى لعلَّ قصْدَك إيَّاها يُوديك، ولعل مَصِيرَك إليها يَكْفِينيك؛ ويُبَلِّغ إلىَّ أكثَرَ من الإرادة فيك، لأنك إن شاء الله لاتقصدُ موضعا إلا تلوَتُك، ولاتأتِى بلَدا إلا قفَوْتك، ولا تلُوذُ بعِصْمة تظُنُّ أنها تُنْجِيك إلا آستعَنْت بالله عز وجلَّ فى جدِّ حَبْلها، وفَصْم عُرْوتها؛ فإنَّ أحدًا لايُؤْوِى مثلَكَ ولا يَنْصُره إلا لأحدِ أمرين

---

(١) أى ينشق يقال فراه فانفرى وتفرّى انظر المختار.

من دِينٍ أو دُنْيا . فأما الدِّين فأنتَ خارجٌ من جملتــه لمُقَامك علىٰ العُقُوق ، ومخالفةِ ربِّك وإسْخاطِه . وأما الدُّنيا فمــا أُراه بقِيَ معك من الحُطَام الذى سَرقْتَــه وحَمَلْت نفْسَك علىٰ الإيثار به ، مايتَهيَّأ لك مكاثَرتُنا بمثلِه ، مع ما وهَب الله لنا من جَزِيل النعمة التى نستَوْدِعه تبارك وتعــالىٰ إيَّاها ، ونرغَبُ إليه فى إنمائها ، إلىٰ ماأنت مقيمٌ عليه من البغْيِ الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالِبُك .

وأمَّا مامنَّيتناه من مَصِيرك إلينا فى حُشُودك وجُمُوعك ، ومَنْ دخَل فى طاعتك ؛ لإصلاح عملنا ، ومكافحةِ أعدائنا ؛ بأمرٍ أظهَرُوا فيه الشماتة بنا ، فما كان إلا بسبَبِك فأصلِحْ أيها الصبيُّ الأخرقُ أمرَ نَفْسك قبل إصلاحك عمَلَنا ، وٱحْزِمْ فى أمرك قبلَ ٱستعمالك الحَزْمَ لنا ؛ فما أحوجَنا اللهُ وله الحمد إلىٰ نُصْرتك ومُوَازرَتِك ، ولا اضْطَرنا إلىٰ التكثر [بك] علىٰ شِقاقك ومعصيتك : ﴿وما كُنْتُ متَّخِذَ المُضِلِّين عَضُدا﴾

وليتَ شِعْرى علىٰ مَنْ تُهوِّل بالجُنود ، وتَمَخْرقُ بذكرا لجيوش ، ومَنْ هؤلاء المسخَّرُون لك ، الباذلون دِماءَهم وأموالَهم وأديانهم دُونك ؟ دُونَ رِزْق ترزقهم إيَّاه ، ولا عطاء تُدِرّه عليهم ؛ فقد علمتَ إن كانَ لك تميز ، أو عندك تَحْصيل ؛ كيف كانتْ حالُك فى الوقعة التى كانتْ بناحية أطْرابُلُس ، وكيف خَذَلك أولياؤُك والمرتزِقةُ معك حتىٰ هُزِمت ، فكيف تغترُّ بمَنْ معك من الجنود الذى لا ٱسمَ لهم معك ، ولا رِزْق يجرى لهم علىٰ يَدِك ؟ فإن كان يَدْعُوهم إلىٰ نُصْرتك هَيْبَتُك والمداراةُ لك والخوفُ من سلطانك ، فإنهم لَيجْذِبُهم أضعافُ ذلك منَّــا ، ووجودُهم من البَــذْل الكثير والعطاءِ الجزيل عندنا ما لا يجِدُونه عندك ، وإنهم لَأحرىٰ بخَذْلك ، والميــل إلينا دُونَك . ولو كانوا جميعا معك ومقيمين علىٰ نُصْرتك ، لرجَوْنا أن يمكِّن اللهُ منك ومنهم ، ويجعلَ دائرةَ السَّوْء عليك وعليهم ، ويُجْرِينَا من عادته فى النَّصْر وإعزاز الأمر علىٰ مالم يزَل . يتفضَّلُ

علينا بأمثاله، ويتطوّلُ بأشباهه. فما دعانى إلىٰ الإرجاء لك، والتسهيل من خِنَاقك، والإطالة من عِنَانك، طُولَ هذه المدّة إلا أمران: أغلَبُهما كان علىّ ٱحتقارُ أمرك وٱستصغارُه، وقلةُ الٱحتفالِ والٱكتراثِ به، وإنى ٱقتصرتُ من عُقُوبتك علىٰ ماأخلقته بنفسك من الإباق (١) إلىٰ أقاصى بلاد المَغْرب شَرِيدا عن منزلك وبَلَدك، فريدا من أهلك ووَلَدك — والآخر أنّى علمتُ أن الوَحْشةَ دعَتْك إلىٰ الٱنحياز إلىٰ حيثُ ٱنحزتَ إليه، فأردتُ التسكينَ من نِفَارك، والطمأنينةَ من جَأْشك؛ وعملتُ علىٰ أنك تَحِنُّ إلينا حَنِينَ الوَلَد، وتتُوق إلىٰ قُرْبنا تَوَقانَ ذى الرَّحِم والنَّسَب؛ فإنّ فى رِفْقنا بك ما يَعْطِفُك إلينا، وفى تآخينا إيَّاك مايردُّك علينا، ولم يَسْمَع منا سامع فى خَلاء ولا مَلإٍ ٱنتقاصًا بك، ولا غَضًّا منك، ولا قَدْحا فيك؛ رِقَّةً عليك، وٱستتماما لليَد عندك؛ وتأميلا لأن تكونَ الراجعَ من تِلْقاء نَفْسك، والموَفَّقَ بذلك لرُشْدك وحَظِّك؛ فأما الآنَ مع ٱضطرارك إيَّاىَ إلىٰ ماٱضْطَرَرْتَنى إليه من الٱنزِعاج نحوك، وحَبْسك رُسُلى النافذين بعهد كثير إلىٰ ما قِبَلك؛ وٱستعمالك المُواربةَ والخِدَاع فيما يجرى عليه تدبيرك. فما أنت بموضع للصِّيانه، ولا أهلٍ للإبقاء والمحافظه، بل اللعنةُ عليك حالَّه، والذِّمَّة منك بريَّه، والله طالبُك ومُؤاخذك بما ٱستعملتَ من العُقُوق والقطيعه، والإضاعة لرَحِم الأُبوّه — فعليك من وَلَد عاقٍّ شاقٍّ لعنةُ الله ولعنة اللاعنين، والملائكةِ والناسِ أجمعين؛ ولا قَبِل اللهُ لك صَرفا ولا عَدْلا، ولا ترك لكَ مُنْقلَبا ترجع إليه، وخَذَلك خِذْلانَ من لايُؤْبَه له، وأثْكلك ولا أمهلك، ولا حاطك ولا حفِظك. فوالله لأستعمِلَنَّ لَعْنك فى دُبُر كلّ صلاة، والدعاءَ عليك فى آناء الليل والنهار، والغُدُوّ والآصال؛ ولأكتبَنَّ إلىٰ مِصْر، وأجناد الشامات والثُّغور، وقِنَّسرِينَ، والعَواصِم، والجَزِيرة، والحِجاز، ومكّةَ، والمدينةِ كُتبا تُقْرأ علىٰ مَنَابِرها

(١) مراده على مااخترته لنفسك الخ

فيك، باللَّعْن لك، والبراءةِ منك، والدلالة علىٰ عُقُوقك وقَطِيعتك؛ يتناقَلُها آخِرٌ عن أوّل، ويأْثُرها غابِرٌ عن ماض، وتُخَلَّد فى بطون الصحائف، وتحملها الرُّكبان، ويُتحدّثُ بها فى الآفاق، وتُلْحق بك وبأعقابك عارا ما ٱطَّرد الليلُ والنهار، وٱختلَفَ الظّلامُ والأنوار.

فحينئــذٍ تعلَم أيُّها المخالفُ أمرَ أبيه، القاطعُ رحِمَه، العاصى ربَّه؛ أىَّ جناية علىٰ نَفْســك جنيت؟ وأىّ كبـيرةٍ ٱقترفت واجتنيت، وتتمنّىٰ لو كانتْ فيك مُسْـكه، أو فيك فَضْل إنسانيَّة، أنك لم تكُنْ وُلِدت، ولا فى الخلق عُرِفْت؛ الا أن تُراجِع من طاعتنــا والإسراع إلىٰ ما قِبَلَنا خاضعًا ذليــلا كما يلزمك، فنُقِيمَ الاستغفارَ مُقَام اللعنه، والرقَّة مقــامَ الغِلْظه؛ والســلامُ علىٰ من سَمِع الموعظة فوعَاهَا، وذكر الله فاتَّقاه، إن شاء الله تعالىٰ.

* * *

وكما كتب الأخشيد محمد بن طُغْج [صاحب الديار المصرية](1) وما معها من البلاد الشامية، والأعمال الحجازيَّة، إلىٰ أرمانُوس: ملكِ الروم، وقد أرسل أرمانوسُ اليه كتابا يذكُر من جملته بأنه كاتبه وإن لم تكن عادتُه أن يكاتِبَ إلا الخليفةَ، فأمر بكتابة جوابه فكتب له الكُتّاب عدّةَ أجوبة ورفعُوا نُسَخها إليه، فلم يرتضِ منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النَّجيرمِىّ وكان عالمـا بوجُوه الكتابة.

ونسختُه علىٰ ماذكره ٱبن سعيد فى كتابه "المُغْرب فى أخبار المَغْرِب":

من محمد بنِ طُغْج مولىٰ أمير المؤمنين، إلىٰ أرمانُوسَ عظيم الروم ومَنْ يليه.

سلامٌ بقدر ما أنتم له مستحِقُّون؛ فإنا نحمدُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو، ونسأله أن يصلِّى علىٰ محمد عبده ورسوله صلَّى الله عليه وسلم.

---

(١) بياض فى الاصل والتصحيح من ضوء الصبح للؤلف ص ٤٦٧.

أما بعدُ، فقد تُرْجِم لنا كتابُك الواردُ مع نُقُولا و إسحاقَ رسولَيْك ، فوجدناه مفْتَتحا بذكر فضيلةِ الرَّحْمة، وما نُمِيَ عنا إليك، وصَحَّ من شِيَمنا فيها لَدَيْك ؛ و بمـا نحن عليه من المَعْـدَلَة وحُسْن السِّيرة فى رعايانا ، وما وصلتَ به هـذا القول من ذكر الفِداء والتوصُّل إلىٰ تخليص الأسرىٰ، إلىٰ [غير] ذلك ممـا ٱشتمل عليه وتفهَّمناه .

فأما ماأطنبْتَ فيه من فضيلة الرحمة فمن سَدِيد القول، الذى يليقُ بذَوِى الفضل والنُّبْل ؛ ونحنُ بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفُون ، و إليه راغبُون ، وعليه باعثُون ، وفيه بتوفيق الله إيَّانا مُجتَهِدون، و به مُتَواصُون وعامِلون . و إيَّاه نسأل التوفيقَ لمَرَاشد الأمور وجوامع المَصَالح بمنِّه وقُدْرته .

وأما مانسبْتَه إلىٰ أخلاقنا من الرحمة والمَعْدِلة، فإنا نرغَبُ إلىٰ الله جلَّ وعلَا الذى تفرَّد بكمال هذه الفضيلة، ووهَبَها لأوليائه ثم أثابَهُم عليها، أن يُوَفِّقنا لهـا ، ويجعلَنا من أهلِها، و يُيَسِّرنا للاِجتهادِ فيهـا ، والاعتصام من زَيْغ الهوىٰ عنها، وعِزَّة القَسْوة بهـا ؛ ويجعلَ ما أودَع قلوبَنَا من ذلك موقوفًا علىٰ طاعتـه ، ومُوجِبات مَرْضاته ؛ حتّٰى نكونَ أهلًا لمـا وَصَفْتَنا به ، وأحقَّ حَقًّا بمـا دعوتَنَا إليه ؛ وممنْ يستحِقُّ الزُّلْفىٰ من الله تعالىٰ ، فإنا فُقَراءُ إلىٰ رحمتـه . وحَقٌّ لمن أنزله اللهُ بحيثُ أنزلَنَا ، وحَمَّله من جسيم الأمْرِ ما حَمَّلنَا ؛ وجمَعَ له من سَعَة الممالك ما جَمَع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه،أن يبْتَهِل إلىٰ الله تعالىٰ فى مَعُونته لذلك وتوفيقه و إرشاده، فإن ذلك إليه وبيده : ﴿ وَمَنْ لم يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَـا لَهُ مِنْ نُور ﴾ .

وأما ما وصفتَه من ٱرتفاع محلِّك عن مَرْتَبة مَنْ هو دُونَ الخليفة فى المكاتبة لمـا يقتضيه عِظَم مُلْكِكم ، وأنه المُلْك القديم الموهوبُ من الله، الباقى علىٰ الدَّهْر ، وأنك إنمـا خصَصْتنا بالمكاتبة لمَـا تحقَّقْته من حالِنا عندك ، فإنَّ ذلك لو كان حقًّا

وكانت منزلتُنا كما ذكرته تَقْصُر عن منْزلة من تُكاتِبُه ، وكان لك فى تَرْك مكاتَبتِنا غُنْم ورُشْـد ، لكان من الأمر البَيِّن أنَّ أَحظىٰ وأرشدَ وأولىٰ بمن حلَّ محلَّك أن يعمل بمـا فيه صلاحُ رعيَّته ، ولا يراه وَصْمةً ولا نَقِيصةً ولا عَيْبا ، ولا يَقَع فى معاناةِ صغيرةٍ من الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركَبُ الأخطار ، ويخُوضُ الغِمار ، ويُعَرِّض مُهْجتــه ، فيما ينفَع رعيَّته ؛ والذى تجشَّمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمرٌ سَهْل يسير ، لأَمْرٍ عظيم خطير ؛ وجُلُّ نَفْعه وصلاحِه وعائدته تخُصُّكم ، لأن مذهبنا آنتظارُ إحدىٰ الحُسنَيَيْن ، فمَنْ كان منَّا فى أيديكم فهو علىٰ بيِّنة من ربه ، وعزيمةٍ صادقةٍ من أمره ، وبصـيرةٍ فيما هو بسَـبيله ؛ وإن فى الأُسارىٰ مَنْ يُؤْثِر مكانَه من ضَنْك الأَسْر وشِدّةِ البأساء علىٰ نَعيم الدنيـا وخيرها لِحُسْن منقَلَبه ، وحميدِ عاقبته ؛ ويعلم أن الله تعـالىٰ قد أعاذه من أن يفْتِنه ، ولم يُعِذْه من أن يبْتليَه . هـذا إلىٰ أوامر الإنجيل الذى هو إمامُكم ، وماتُوجبه عليكم عزائمُ سياستكم ، والتوصـلُ إلىٰ آستنقاذ أُسَرائكم ؛ ولولا أنَّ إيضاحَ القول فى الصواب ، أولىٰ بنـا من المُسامحة فى الجواب ، لأضْربْنا عن ذلك صَفْحا . إذ رأينا أنَّ نَفْس السبب الذى من أجْله سَمَا إلىٰ مكاتبة الخلفاء عليهم السلام مَنْ كاتبهم ، أو عَدا عنهم إلىٰ مَنْ حلَّ محلَّنا فى دولتهــم ؛ بل إلىٰ من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من مَنْعه ، وردّ ملتَمَسه ممن جاوره ، فرأىٰ أن يقْصِد به الخلفاءَ الذين الشَّرفُ كلُّه فى إجابتهم ، ولا عار علىٰ أحد وإن جلَّ قدره فى ردِّهم ؛ ومن وَثِق فى نفسه ممن جاوره ، وجد قَصْده أسهلَ السبيلين عليه ، وأدناهما إلىٰ إرادته ، حسب ماتقدّم لها من تقـدّم . وكذلك كاتَب مَنْ حل محلَّك من قَصُر عن محلنا ، ولم يقرُبْ من منْزِلتنا ؛ فمالِكُكا عِدّة ، كان يتقلد فى سالف الدهر كلَّ مملكة منها ملكٌ عظيمُ الشان .

فمنها مُلْكُ مصر الذى أطغىٰ فرعونَ علىٰ خَطَر أمره، حتّى ٱدّعىٰ الإلٰهية وٱفتخر علىٰ نبيّ الله موسىٰ بذلك .

ومنها ممالكُ اليمن التى كانتْ للتبابعة، والأقيال العَبَاهِلة : ملوكِ حمير، علىٰ عظم شأنهم، وكثرة عَدَدهم .

ومنها أجنادُ الشام التى

منها جُنْدُ حِمْص، وكانت دارَهُم ودارَ هِرَقْلَ عظيمِ الروم ومَنْ قَبْله من عظمائها .

ومنها جُنْدُ دِمشْقَ علىٰ جَلَالته فى القديم والحديث، وٱختيارِ الملوك المتقدِّمين له .

ومنها جُنْد الأُرْدُنّ علىٰ جَلَالة قدره، وأنه دارُ المَسِيح صلّى الله عليه وسلم وغيرِه من الأنبياء والحواريِّين .

ومنها جُنْد فِلَسْطِينَ، وهى الأرض المقدَّسة، وبها المسجدُ الأقصىٰ، وكرسىُّ النصرانية، ومعتقَدُ غيرها، ومَحَجُّ النصارىٰ واليهود طُرًّا، ومقرّ داودَ وسليمانَ ومسجدُهما . وبها مسجدُ إبراهيم وقبرُه وقبر إسحاقَ ويعقوبَ ويُوسفَ وإخوتِه وأزواجِهم عليهم السلام، وبها مولِدُ المسيح وأمّه وقبرُها .

هذا إلىٰ ما نتقلّده من أمر مكة المحفوفةِ بالآيات الباهره، والدلالات الظاهره، فانا لو لم نتقلّد غيرها لكانت بشرَفها، وعِظَم قدرها، وما حوتْ من الفضل تُوفِى علىٰ كل مملكة، لأنها مَحَجُّ آدَم ومَحَجُّ إبراهيم وارثه ومُهاجَرُه، ومَحَجُّ سائر الأنبياء، وقبلتُنا وقبلتُهم عليهم السلام ودارُه وقــبره(١)، ومَنْبِت وَلَده، ومَحَجُّ العرب علىٰ مَرِّ الحِقَب، ومحلُّ أشرافها، وذَوِى أخطارها، علىٰ عظم شأنهم، ونَخَـامةِ أمرهم . وهو البيتُ

(١) كذا فى " المغرب " أيضا ويظهر أنه مقدم علىٰ ما بعده ويكون الضمير فيه عائدا علىٰ سيدنا إسماعيل فان مكة كانت داره ومنبته تأمل .

العتيق ، المحرّم المحجوجُ إليـه من كل فَجٍّ عميق ، الذى يعترِف بفضله وقِدَمه أهلُ الشرف، من مَضىٰ ومَنْ خَلَف ؛ وهو البيتُ المعمور، وله الفضلُ المشهور .

ومنها مدينةُ الرسول صلّى الله عليه وسلم المقدّسةُ بتُرْبته ، وانها مَهْبِطُ الوحْى ، و بيضةُ هذا الدِّين المستقيم الذى آمتدّ ظلُّه علىٰ البرِّ والبحر، والسَّهْل والوَعْر ، والشَّرْق والغَرْب ، وصَحَارىٰ العَرَب علىٰ بعـد أطرافها ، وتنـازُح أقطارها ، وكثرة سُكَّانهـا فى حاضِرَتها و بادِيَتِها ، وعظمِها فى وفودها وشدَّتها ، وصِـدْق بأسها ونَجْدتهـا ، وكبر أحلامِها ، و بُعْدمَرَامها ، وآنعقاد النصرمن عندالله براياتها . و إن الله تعالىٰ أبادَ خَضْراء كِسرىٰ ، وشَرَّد قيصرَ عن داره ومحل عِزِّه ومَجْده بطائفة منها . هـذا إلىٰ ماتعلَمُه من أعمالنا ، وتحتَ أمْرنا ونَهْينا ثلاثةُ كَراسِىَّ من أعظم كراسِيِّكم : بيتُ المَقْدِس ، وأنطاكيةُ ، والإسكندريَّةُ . مع ما إلينا من البحر وجزائره ، واستظهارنا بأتمِّ العَتَاد . واذا وفَّيت النظر حقَّه علمت أن الله تعالىٰ قد أصفانا بجُلِّ الممالك التى ينتفع الأنامُ بهـا ، و بشَرَف الأرض المخصوصة بالشَّرف كلِّه دُنْيا وآخرة ، وتحقَّقْت أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوقَ كلِّ منْزِلة . والحمد لله ولىِّ كلِّ نعمة .

وسـياستُنا لهذه الممـالك قريبِها وبعيـدِها علىٰ عِظَمها وسَعتهـا بفَضْل الله علينا و إحسانه إلينا ومَعُونته لنا وتوفيقه إيَّانا كما كتبْتَ إلينا وصَحَّ عندك من حُسْن السِّيرة ، و بمـا يؤلِّف بين قُلُوب سائر الطَّبَقات مـن الأوليـاء والرعية ويجْمَعُهم علىٰ الطاعة وآجتماع الكلمة ، و يوسعها الأمنَ والدَّعةَ فى المعيشة ويُكسِبها المودّة والمحبة .

والحمد لله ربِّ العالميـن أوّلا وآخرا علىٰ نِعَمه التى تفوتُ عندنا عَدَدَ العادِّين ، و إحصاءَ المجتهدين ، ونَشْرَ الناشرين ، وقولَ القائلين ، وشُكْرَ الشاكرين . ونسألُه أن يجعلنا ممن تحدَّث بنعمته عليه شُكْرا لها ، ونَشْرا لمـا منحه الله منها [ومَـنْ رضى

اجتهاده فى شكرها، ومن أراد الآخرة [(١)] وسعى لها سَعْيها؛ وكان سعيهُ مشكورا، إنه حميد مجيد .

وما كنت أُحبُّ أن أُباهِيَك بشىءٍ من أمر الدنيا ، ولا أتجاوزَ الاستيفاءَ لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كَرَّمه وأظهره ، ووعدنا فى عواقبه الغلبةَ الظاهره، والقُدرةَ القاهره، ثم الفوزَ الأكبر يوم الدِّين . لكنك سلكْتَ مَسْلَكا لم يحْسُن(٢) أن نَعْدِل عنه ، وقلت قولا لم يَسعْنا التقصيرُ فى جوابه ، ومع هذا فإنا لم نقْصِد بما وصفْناه من أمرنا مكاثَرتَك،ولا آعتمدْنا تعيين فضل لنا نَعُوذ به، إذ نحن نُكْرَم عن ذلك ، ونرى أن نُكْرِمك عند محلك ومنزلتك ، وما يتّصلُ بها من حُسن سياستِك ومَذْهبِك فى الخير ومحبّتِك لأهله، وإحسانِك لمن فى يَدِك من أَسْرى المسلمين ، وعَطْفِك عليهم ، وتجاوُزِك فى الإحسان إليهم، جميعَ من تقدَّمك من سَلَفك . ومن كانَ محمودًا فى أمره، رُغِب فى محبته، لأن الخيِّر أهلٌ أن يُحَبَّ حيث كان . فإن كنت إنما تُؤَهِّل لمكاتبتك ومماثلتك من آتسعَتْ مملكتُه، وعَظُمتْ دولتُه، وحَسُنت سيرتُه؛ فهذه ممالكُ عظيمةٌ ، واسعةٌ جَمَّة ؛ وهى أجلُّ الممالك التى ينتفِعُ بها الأنام ، وسِرُّ الأرض المخصوصة بالشرف . فإنَّ الله قد جمع لنا الشرف كلَّه، والولاء الذى جُعِل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مخصوصين بذلك إلى مالنا بقديمنا وحديثنا ومَوْقِعنا . والحمد لله رب العالمين الذى جمع لنا ذلك بمَنّه وإحسانه، ومنه نرجو حُسْنَ السعْيِ فيما يُرْضِيه بلطفه . ولم يَنْطوِ عنك أمرُنا فيما آعتمدناه ،

وإن [كنت] تجرى فى المكاتبة على رسم مَنْ تقدمك فإنك لو رَجَعْت إلى ديوان بلَدِك ، وجدْتَ من كان تقدّمك قد كاتب مِنْ قِبَلِنا مَن لم يحُلَّ محلّنا ، ولا أغنى

(١) الزيادة من "المغرب فى أخبار المغرب" .

(٢) فى المغرب "لم يجز لنا أن نعدل الخ" .

غَنَاءَنا ، ولا ساسَ فى الأمور سياسَتَنا ، ولا قلَّده مولانا أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلَّدنا ، ولا فوّض إليه ما فوّض إلينا ؛ وقد كُوتِب أبو الجَيْش خُمَارويه بن أحمد ابن طُولون ، وآخر من كُوتِب تِكِين مولىٰ أمـير المؤمنين ولم يكن تقلد سوىٰ مِصْرَ وأعمالِها .

ونحن نحمد الله كثيرا أوّلا وآخرا علىٰ نِعَمه التى يفوت عندنا عدَدُها عدَّ العادِّين ، ونَشْرِ الناشرين . ولم نرد بمـا ذكرناه المفاخرةَ ، ولكنّا قصدنا بمـا عدَدْنا من ذلك حالاتٍ : أوّلُها التحدُّث بنعمة الله علينا ؛ ثم الجوابُ عما تضمَّنه كتابك من ذكر المحَلِّ والمنْزِلة فى المكاتبة ، ولتعلم قَدْر مابسطه الله لنا فى هذه المَسَالك ، وعندنا قوّةٌ تامةٌ علىٰ المكافأة علىٰ جميل فِعْلك بالأُسارىٰ ، وشكرٌ وافٍ لمـا تُوليهم وتتوخَّاه من مَسَرَّتهم إن شاء الله تعـالىٰ وبه الثقة ، وفقَّك اللهُ لمواهِب خيراتِ الدنيا والآخرة ، والتوفيقِ للسَّداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يُحِبه ويرضاه ويثيب عليه ، ويرفَعُ فى الدنيا والآخرة أهلَه ، بمنّه ورحمته .

وأما المُلْك الذى ذكرت أنه باقٍ علىٰ الدهر لأنه موهوبٌ لكم من الله خاصَّة ، فإنَّ الأرض لله يُورِثُها مَنْ يشاءُ من عباده والعاقِبةُ للمتقين . وإن المُلْك كلَّه لله يُؤْتِى المُلْكَ من يَشَاء ويَنْزِع المُلْك ممن يَشَاء ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء بيَدِهِ الخير وإليه المَصِير ، وهو علىٰ كل شىءٍ قدير . وإن الله عزَّ وجل نسخَ مُلْك الملوك وجَبَرِيَّة الجبَّارين بنُبُوَّة محمد صلَّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله أجمعين ، وشَفَع نبوّتَه بالإمامة وحازها إلىٰ العِترة الطاهرة من العُنْصُر الذى منه أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءَه ، والشجرة التى منها غُصْنه ، وجعلها خالدةً فيهم يتوارَثُها منهم كابرٌ عن كابر ، ويُلْقيها ماضٍ إلىٰ غابرٍ ، حتّىٰ ينجز أمرُ الله ووعدُه ، ويبهر نصرُه وكلمته ، وأظهر حجته وأضاء عمودَ الدين بالأئمة

المهتدين ، وقَطَع دابَر الكافرين لِيُحقّ الحَقّ ويُبْطِلَ الباطِلَ ولو كَرِه المُشْرِكُون حتّى يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها وإليه يرجعون .

وإنَّ أحقَّ مُلْكٍ أن يكون من عنـد الله، وأوْلاه وأخلقَه أن يَكْنُفَه الله بحراسته وحياطته، ويَحُفَّه بعِزّه وأيْده، ويجلّله بهاءَ السكينة فى بَهْجة الكرامة ، ويجمّله بالبقاء والنَّجاء مالاحَ فجر،وكرَّ دَهر،مُلْكُ إمامةٍ عادلة خلَفَتْ نبوّةً فجَرَتْ علىٰ رَسْمها وسَنَنِها ، وآرتسمَتْ أمْرَها ، وأقامت شرائعَها ، ودعَتْ إلىٰ سُبُلها ، مستَنْصِرة بأيدها ، منتجزةً لوعدها ؛ وإنَّ يومًا واحدًا من إمامة عادلةٍ خيرٌ عند الله من عُمُر الدنيا تملُّكا وجَبَرِيَّة .

ونحن نسأل الله تعالىٰ أن يُديم نِعمَه علينا ، وإحسانَه إلينا بشَرف الولاية ، ثم بحسن العاقبـة بمـا وَفّر علينا فخْرَه وعُلاه ، ومجدَه وإحسانه إن شاء الله ، وبه الثقة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وأما الفِداء ورأيُك فى تخليص الأسرىٰ ، فإنا وإن كُنَّا واثقين لَمَنْ فى أيديكم بإحدىٰ الحسنيين ، وعلىٰ بينةٍ لهم من أمرهم ، وثَبَات من حُسْن العاقبة وعِظَم المَثُوبة ، عالمين بمـا لهم ، فإن فيهم من يُؤْثر مكانَه من ضَنْك الأَسْر وشـدّةِ البأساء علىٰ نعيم الدنيا ولَذَّتها ، سكونا إلىٰ ما يتحقَّقُه من حُسْن المنقلَب وجَزِيل الثواب . ويَعلم أن الله قد أعاذه من أن يَفْتِنَه ، ولم يُعِذْه من أن يبتليه ؛ وقد تبيَّنَّا مع ذلك فى هـذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضُون ، والسَّلَفُ الصالحون ؛ فوجدنا ذلك موافقا لمـا آلتمسته ، وغيرَ خارج عمـا أحبَبْتَه ؛ فسُرِرْنا بمـا تيَسَّر منه ، وبعثْنا الكتُبَ والرسُلَ إلىٰ عُمّالنا فى سائر أعمالنا ، وعزمنا عليهم فى جمع [كلّ من قِبلهم وأتباعهم بمـا وفر الإيمـان فى إنفاذهم ، وبذلنـا فى ذلك](١) كلَّ ممكن ، وأخَّرْنا إجابتك عن كتابك ليتقـدَّم فعلُنا

(١) الزيادة من "المغرب فى أخبار المغرب" .

قولنا ، وإنجازُنا وعْدَنا ؛ ويُوشِــك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وَقَع أحسنَ المَوْقِع منك إن شاء الله .

وأما ما ٱبتدأتنا به من المُواصلة، وٱستشعرته لنــا من المودّة والمحبة، فإنَّ عندنا من مقابلة ذلك ماتُوجبه السياسةُ التى تجمعنا علىٰ ٱختلاف المَذَاهب،وتقتضيه نسبة الشرف الذى يؤلِّفنا علىٰ تبايُنِ النحل ، فإن ذلك من الأسباب التى تخُصُّنا وإيَّاك . ورأينا من تحقيق جميل ظَنِّك بنا إيناسَ رُسُلك وبَسْطَهم، والٱستماعَ منهم والإصغاءَ إليهم والإقبال عليهم؛ وتلقينا ٱنبساطَك إلينا ،وإلطافَك إيَّانا بالقَبُول الذى يحِقُّ علينا؛ ليقع ذلك موقِعَه . وزدنا فى تَوْكِيد ما ٱعتمدته ماحَمَّلْناه رسـلك فى هذا الوقت علىٰ ٱستقلالنا إيَّاه من طرائف بَلَدِنا وما يَطْرأ من البلاد علينا؛ وإن اللهَ بعَــدْله وحكمته أودَعَ كلَّ قريةٍ صِنْفا ، ليتشَوَّف إليه من بَعُد عنه ، فيكون ذلك ســببا لعِمارَة الدنيا ومَعايِش أهلها . ونحن نفردك بمــا سلَّمناه إلىٰ رسولك لتقِفَ عليه إن شاء الله .

وأما ما أنفذْتَه للتجارة فقد أمكَنَّا أصحابَك منــه ، وأذِنَّا لهم فى البيع وفى ٱبتيــاعِ ما أرادُوه وٱختارُوه؛ لأنا وجَدْنا جميعه ممــا لايَحْظُره علينا دينٌ ولا سياسةٌ . وعندنا من بَسْطك وبَسْط مَنْ يَرِد من جِهَتك ، والحرِص علىٰ عِمَارة مابدأْتَنا به ورِعايَتِه ، ورَبِّ ما غَرسْــتَه ، أفضلُ ما يكون عند مثلنا لمثلك . والله يُعِين علىٰ ما نَنْوِيه من جميل، ونَعتَقِده من خير، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومَنِ ٱبتدأ بجميل لزمه الجرْىُ عليه والزيادة، ولاسيما إذا كان من أهله وخليقًا به . وقد ٱبتدأتنا بالمؤانَسة والمُباسَــطة ، وأنت حقيقٌ بعِمارة ما بيننا ، وبٱعتمادِنا بحوائجك وعوارضك قِبَلَنا؛ فأبْشِرْ بتيسير ذلك إن شاء الله .

والحمـــد لله أحقُّ ما ٱبْتدِئَ به ، وخُتِم بذكره ؛ وصــلَّى الله علىٰ محمد نبيّ الهدىٰ والرحمة، وعلىٰ آله وسلَّم تسليما .

الحـالة الثانيـــة

(من حالات المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ما كان الحالُ عليه بعد الدولة الفاطمية فى الدولة الأيوبية)

وقد ذكر « عبدالرحيم بن شيث » أحد كُتَّاب الدولة الأيُّوبيـة فى أواخر دولتهم مصطلَحَ ما يُكتَب عن السلطان فى خِلال كلامه، فقال : إن الناس كانوا لا يَكْتُبون « المجلس » إلا للسُّــلْطان خاصَّة، ويكتُبون لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم «الحَضْرة » ثم أفردُوا السلطان بالمَقَام والمَقَرّ، وصاروا يكتُبونَ «المجلس» لمن دُونَه، ولم يُسوِّغوا مكاتبةَ السلطان بعد ذلك بالمجلس ولا بالحَضْرة. قال: ويكْتُب السلطانُ إلىٰ ولده المستخلَف عنه «بالمجلس» دُونَ المقام. وآصطلَحُوا علىٰ الآختصار فى نُعُوت المُلُوك المكتوبِ إليهم والدعاء، بخلاف من هو تحتَ أمر السلطان وتحتَ حَوْزته، فإنه كُلَّما كثُرت النعوتُ والدعاءُ له فى مكاتبـة السلطان إليه، كان أبلغ : لأنَّ ذلك فى معنىٰ التشريف من السلطان ، وأنه لا يقال فى المقام «السامى» بل «العالى» . وأنه إذا كتب السلطانُ إلىٰ مَنْ هو دونَه من ذوى الأقدار عبّر «بالمجلس السامى» ، ولا يُزاد علىٰ ذلك ، ثم يفرد عن النَّسَب بعـد السامى ، فيقال : الأمير الأجل من غير ياء النسب . وأنه لا يقال العـالى مكانَ السامى فى الكتابة عن السلطان ، وقد يُجْمَع بينهما لذَوِى الأقدار، وأنه يُضاف فى نَعْت كل أمير« عمدةُ الملوك والسلاطين عزُّ الإسلام،أو نُصْرة الإسلام، أو فارسُ المسلمين» أو ماشابه ذلك من غير ضَبْط ولا تخصيص لأحدٍ دُونَ أحد إذا أحرزوا النعْتَ الذى آشـتهر به المكتوبُ إليه . وأنه يقال: «عمدةُ الملوك والسلاطين» و«عدّةُ الملوك والسلاطين» و«ذُخْر الملوك» ودُونَها «آختيارُ الملوك» . وللأقارب «فَخْر الملوك» و«جمالُ الملوك» و«عزُّ الملوك» و « زين الملوك » . وللأماثل «مُعين الملوك» و «نُصْرة الملوك» وما أشبه ذلك .

وأنه يكتب للأُمَراء الأعيان : «حُسَام أمير المؤمنين» و«سيفُ أمير المؤمنين» . ولكُبَراء الدولة من الكُتَّاب : « خاصَّةُ أمير المؤمنين » و« ولِيُّ أمير المؤمنين » و« صفوةُ أمير المؤمنين » . و« ثِقَةُ أمير المؤمنين » و« صَنِيعة أمير المؤمنين » علىٰ مقدار مراتبهم. وأن نعتَ الأجلِّ يذكر بعد العُلو والسُّمو بأن يقال: «المجلس العالى الأجَلّ» أو « السامى الأجلّ » وربما كان بعد ذكر الإمرة أو القضاء فيقال «الأمير الأجلُّ» أو «القاضى الأجلُّ». وأنْ السلطان لايبتدئ بالدعاء فى كتبه إلىٰ أحدٍ إلا من ماثله فى المُلْك . وأن السلطان لايكتب إلىٰ أحد ممن هو تحتَ أمره «بلا زَالَ» «ولا بَرِح» فى الدعاء، وإنما يكتب بذلك إلىٰ من ماثله من المُلُوك، أو إلىٰ ولده المستخْلَف عنه فى المُلْك. وأن الدعاءَ للملوك يكون مثل «أدام اللهُ أيَّامه» و« خَلَّد سلطانه وثَبَّت دولته » وما أشبه ذلك . وأن التحميد فى أوائل الكُتُب لايكون إلا فى الكُتُب الصادرة عن السلطان . وأنَّ غاية عَظَمة المكتوب إليه أن يكون الحمدُ ثانية وثالثة فى الكتاب، ثم يؤتىٰ بالشهادتين، ويصلِّى علىٰ النبيّ صلَّى الله عليه وسلم. وأنه يكتب فى الكتب السلطانية «صدرَتْ» و«أصدرناها» ولا يكتب «كتبت» . وأنَ الذى تُخاطَب به الخلافةُ عن السلطان : « المواقِف المقدَّسة الشريفة ، والعَتَبات العاليـة ، ومَقَرّ الرحمة ، ومحلّ الشرف » . والذى يخاطَبُ به الملوك : « المقام العالى، والمَقرّ الأشرف » ولا يقال « المَقَام السامى» . والذى يخاطب به الوزراء : «الجناب العالى، والمحَلّ السامى» . ومَنْ دون ذلك «المجلس السامى» ودونه «مجلس الحضرة». ودونه «الحَضْرة» . وأنه لايكتب عن السلطان لمن هوتحت أمره إلا بنون الجمع لدلالتها علىٰ العَظَمة، ولا يُكْتَب «تشعر» إلا عن السلطان خاصَّةً بخلاف «تعلم» وأن الكتب الصادرة عن السلطان تكون طويلة الطرّة، وتكون بقلم جليلٍ غير دقيق . وأنه يُوسَّع بين السطور حتّى يكون بين كل

سطرين ثلاث أصابع أو أربع أصابع . وأنه لايخرج عن سَمْت البسملة فى الكتابة ، ولا يحتمل ذلك إلا فى الحَمْدلة . وأنه لايكثر النقط والشكْل فى الكتب الصادرة عن السلطان لاسيَّما فى الألفاظ الظاهرة . وأن الدعاء علىٰ العدو كان محظورا فى الكتب الصادرة عن السلطان إلىٰ مَنْ دُونه ، ثم ٱستعمل ذلك . وأنه لاتترك (١) فضلة فى آخر الكتاب بياضا ، ولا يكتب فى حاشية الكتاب . وأن الترجمة عن السلطان فى كتبه لمن تحت أمره أعلاهم وأدناهم ، العلامة ؛ فان أراد تميــيز أحد منهم كتب له شيئا بخطه فى مكان العلامة . وأن العلامة تكون إلىٰ البسملة من السلطان أقرب ، وأنه لاحرجَ علىٰ السلطان أن يترْجِم للقُضاة والعلمــاء والعُبَّاد بأخيه وولده . وأن عَنْونة الكتاب وخَتْمَه مختصٌّ بصاحب ديوان الإنشاء ليدُلَّ ذلك علىٰ وقوفه علىٰ الكتاب . وأنه لا يجوز عنونةُ الكتاب قبــل أن يكْتُب عليــه السلطان ترجمتَــه أو علامته . وأن الكتبَ لاتبقىٰ مفتوحة إلا أن تكون بإطلاق مال ، لأن كرم الكِتاب ختمه ، ولا أكْرَم من كتب السلطان ؛ ويكون طَيُّ الكتاب الصادر عن السلطان عَرْضَ ثلاث أصابع .

ثم مشهور مكاتباتهم علىٰ أربعة أساليب :

الأســـــلوب الأوّل

(أن تُفتتَح المكاتبــــةُ بالدعاء للمجلس أو الجَنَاب)

مثل : أدام اللهُ أيامَ المجلس ، أو أدام الله سلطانَــ المجلس ، أو أدام الله نعمةَ المجلس ، أو أدام الله ٱقتدارَ المجلس ، أو أدام الله سعاداتِ المجلس ، أو خلَّد الله أيام المجلس أو سلْطان المجلس ، أو ثَبَّت الله دولةَ المجلس ، وما أشبه ذلك ممــا فيه معنىٰ

(١) فى الضوء " وأنه يترك " بغير لا النافية واثباتها أوضح .

الدوام، وربمـا أبدل لفظ الدوام وما فى معناه بالمُضَاعفة، مثل : ضاعفَ اللهُ نعمة المجلس . ويؤتىٰ علىٰ الألقاب إلىٰ آخرها، ثم يقـال : نُشْعِر المجلس أو الأمير بكذا ونحو ذلك، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره، ويُخْتَم بالدعاء وقد يُخْتَم بغيره .

وهـذه نسخةُ مكاتبةٍ من هذا الأسلوب بالإخبار بفَتْح غَزَّة وٱقتلاعها من الفَرَنْج الديوية، الذين كانوا مستَوْلِين عليها، وهى :

« أدامَ الله سـعاداتِ المجلس، وأحسن له التدبير، وأصفىٰ عيْشَه من التكدير، وحَقَّق له وفيه أحسنَ الرجاء والتقدير، وجعل وَجْهه من أهِلَّة الأكابر والتكبير، وأعاذ تأخيرَ أجلِه من التقديم وتقديمَ حَظِّه من التأخير .

نُشْعِر المجلس بمـا مَنَّ الله تعالىٰ به من فتح مدينة غَزَّة يوم الجمعة الجامع لشَمْل النصر، القاطع لحَبْل الكُفْر ؛ وهـذه المدينة قد علم الله أنهـا من أوسع المدائن، وأملإ الكَنَائن، وأثرىٰ المَعادِن ؛ وهى كُرسِيُّ الدِّيوِيَّة ومَهْبِط رءُوسهم، ومَحَطّ نفوسهم، وحِمىٰ كليبهم بل كِلابِهم، وظهيرُ صَـلِيبِهم بل أصـلابِهم ؛ وما كانت الأبصارُ إليها تَطْمَح، ولا الأقدارُ بها قَبْلنا تَسْمَح ؛ ولهـا قلعةٌ أنْفُها شامخ فى الهواء، وعِطْفها جامحٌ عن عطفة اللواء ؛ قد أوغلَتْ فى الجوّ مرتفِعَه، وأومضَتْ فى الليل مُلْتَمِعه، وبِرِداء السَّحاب ملتَفِعه ؛ قد صافَحَتْها أيدى الأنام بالسلامة من قَوَارِعها، وهادَنَتْها حوادثُ الأيام علىٰ الأمن من روائعها ؛ إلىٰ أن أُتِيحَ لهـا مَنْ أتاح لهـا الحَيْن، وقُيِّض لهـا مَنِ ٱقتضىٰ منهـا الدَّيْن ؛ فصَبَّحها بمـا ساء به صَبَاحُها، وزَعْزعها بالزَّئير الذى خَرِس له نُبَاحُها . وكان من خبرها أننا لمـا أطللنا عليهـا مُغِـيرين، وأطَفْنا بهـا دائرين، ولكُئُوس الحرب مُدِيرين ؛ تَغَلَّبت الأنجادُ والأبطال علىٰ الزَّحف، وأعجلَ ٱرتيـاحُ النصر عن ٱنتظام عِقْد الصَّف ؛ وٱنقَضُّوا عليها، ٱنقضاضَ البُزَاة علىٰ طرائِدها، وأسرعُوا إليها، إسراعَ العِطَاش إلىٰ مَوَارِدِها ؛

ورُفِعت الألويةُ خافقةً كذوائب الضِّرام، طالعةً برسائل الحَمام، مُشيرةً بالعَذَبات إشارةً لم يطمئِنوا إليها بالسَّلام؛ وجاءهم الموتُ من كلِّ مكان، وأُمْطِرت الشُّهُب من كل سِنَان؛ فرأَوْا مَثْواهم الحَبِيب، ومحَلَّهم الخَصِيب؛ وقد ركَضَتْ فيه خيولُ الغِيَر، واعترضَتْ فيه سُيُولُ العِبَر، وجُرِّدت فيه نُصُول القَدَر؛ والنارُ قد لَعِبتْ فيه بجِدّه، واحمرَّت فيه خدودُها مخدّه؛ وأقواتَهم المُدَّخَره، وأموالَهم المثَمَّره؛ نَفَلا مُبَاحا، وزَبَدا مُطاحا؛ ومَغْنَما مُشَاعا، ونَهْبا مُضَاعا؛ قدمُلِئت منه الرِّحال وأخصبت، واتَّسعَتْ به الأيدِى وضاقَتْ به الأرض بما رَحُبَتْ .

الأسـلوب الثـانى

(أن تُفْتتح المكاتبةُ بلفظ الإصـدار)

مثل : أصدَرْنا هذه المكاتبة، أو أُصْدِرت ، أو صدرت ؛ ويؤتىٰ علىٰ المقصود علىٰ ما تقدّم .

وهذه نسخة كتابٍ من هذا الأسلوب كتب به القاضى الفاضلُ، عن السلطان «صلاحِ الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ أخيه سيفِ الإسلام سلطانِ اليمن، يستقْدِمه إليه معاوِناً له علىٰ قتال الفَرَنْج خَذَلَهم الله! ويبَشّره بفتح كَوْكب، وصَفَد، والكَرَك فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة وهو :

«أصدرنا هذه المكاتبة إلىٰ المجلس، ومما تجدّد بحَضْرتنا فتُوحُ كَوْكب : وهى كرسىُّ الاستبارِيّة ودارُ كُفْرهم ، ومستقَرُّ صاحبِ أمرهم، وموضعُ سِلاحِهم وذُخْرهم ؛ وكان بمجمع الطُّرُق قاعدا، ولمُلْتقىٰ السُّبُل راصدا؛ فتعلَّقتْ بفتحه بلادُ الفتح واستوطَنَتْ، وسُلِكت الطُّرُقُ فيها وأمِنَت ، وعُمِرت بلادُها وسكَنَتْ ؛ ولم يبقَ فى هذا الجانب إلا صُور، ولولا أن البحر يُنجِدها، والمَراكب تَرِدها ؛ لكان قِيادُها

قد أمكن، وجِمَاحُها قد أذْعَن ؛ وما هم بحمد الله فى حِصْن يَحْميهم ، بل فى سِجْن يَحْوِيهم ؛ بلْ هم أُسارىٰ وإن كانُوا طُلَقاء ، وأمواتٌ وإن كانوا أحْياء ؛ قال الله عز وجل : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ ولكُلِّ آمرئ أجلٌ لابُدّ أن يَصْدُقه غائبُهُ، وأملٌ لابدّ أن يَكْذِبه خائبه ـ وكان نزولُنا علىٰ كَوْكبٍ بعد أن فُتِحت صَفَدُ بلدُ الديوية[(١)] ومعقِلُهم، ومشتَغَلُهم وعملُهم، ومَحَلُّهم الأحصَنُ ومنزِلُهم؛ وبعد أن فتحنا الكَرَكَ وحصونَه ؛ والمجلسُ السيفىُّ أسماه الله أعلمُ بما كان علىٰ الإسلام من مَئُونتِه المُثْقِله، وقضيّته المُشْكِله، وعلّتِه المُعْضِله ؛ وأن الفَرَنْج ـ لعنهم الله ـ كانوا يَقْعُدون منه مَقَاعِدَ للسَّمْع ، ويتبوَّءُون منه مواضِعَ للنَّفْع ؛ ويحولُون بين قات وراكبها، فيذَلِّلُون الأرضَ بما كان منه ثِقْلا علىٰ مَنَاكِبها ؛ والآنَ ماأْمَنُ بلادِ الهَرَمَيْن ، بأشدَّ من أمْنِ بلاد الحَرَمَيْن؛ فكلُّها كان مشتَرِكا فى نُصْرة المسلمين بهذه القلعةِ التى كانت تُرامِى ولا تُرام ، وتُسامِى ولا تُسَام؛ وطالَمَا آستفْرغْنا عليها بيوتَ الأموال، وأنفقْنا فيها أعمارَ الرجال، وقَرَعْنا الحديدَ بالحديد إلىٰ أن ضَجَّت النِّصالُ من النِّصال؛ والله المشكورُ علىٰ ما آنطوىٰ من كلمة الكُفْر وآنتشَرَ من كلمة الإسْلام . وإنَّ بلاد الشام اليومَ لاتَسْمَع فيها لَغْوا ولا تأثيما إلا قيلًا سَلَامًا سَلَامًا . وكان نزولُنا علىٰ كوكب والشتاءُ فى كَوْكَبه، وقد طلع يُمْن الأنواء فى مَوْكِبه ؛ والثلوجُ تَنْشُر علىٰ البلاد مُلاءَها الفَضِيض، وتكْسُو الجبالَ عمائمَها البِيض ؛ والأوديةُ قد عَجَّتْ بمائها، وفاضَتْ عند آمتلائها ؛ وشَمَخَتْ أُنُوفُها سُيُولا ، نَخرقَتِ الأرضَ وبلغَتِ الجبالَ طُولا ؛ والأوحالُ قد آعتقَلت الطُّرُقات، ومشىٰ المُطلَقُ فيها مِشْيةَ الأسيرِ فى الحَلَقَات؛ فتجشَّمْنا العَناء نحن ورجالُ العساكر، وكاثَرْنا العدوَّ والزمانَ وقد يُحْرِزُ الحظَّ المكاثِر؛ وعلِم اللهُ النيةَ فأنجَدَنا بفضلها، وضميرَ الأمانة فأعانَ علىٰ حَمْلها؛ ونزلنامنْ رُءُوس الجبال بمنازلَ كان

(١) فى "الروضتين" ج ٢ ص ١٣٦ هكذا : بلد الديوية المصونة ، وفتحنا الكرك وحصونه الخ .

الاستقرارُ عليها أصعبَ من ثِقَلها ، والوقوفُ بساحتها أهونَ من نُقَلِها ؛ ﴿وأمَّا بنِعْمَةِ رَبِّكَ فحَدِّثْ﴾ .

والحمد لله الذى ألْهَمنا بنِعْمتِهِ الحديث ، ونصَرَ بسـيف الإسلام الذى هو سيفُه وسـيفِ الاسلام الذى هو أخُونا الطيبَ علىٰ الخَبيث ؛ فمَدْحُ السـيفِ ينقَسِم علىٰ حدّيه ، ومدْحُ الكريم يتعدّى إلىٰ يدَيْه ؛ والآنَ فالمجلسُ ـ أسماه الله ـ يعْلَمَ أن الفرَنْج لايَسْلُون عما فتَحْنا ، ولا يصْبِرون علىٰ ما جرَحْنا ؛ فإنهم ـ خذلهم الله ـ أممٌ لاتُحْصىٰ ، وجيوشٌ لاتُستقْصىٰ ؛ وو راءهم من ملوكِ البحر مَنْ يأخُذُ كلَّ سفينة غَصْبا ، ويطمَعُ فى كل مدينة كَسْبا ؛ ويدُ الله فوقَ أيديهم ، واللهُ محيطٌ بأقربِيهم وأبعديهم ؛ و﴿سيجْعَلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يُسْرا﴾ ، ﴿لاتَدْرِى لعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بعدَ ذلك أمْرا﴾ .

وما هم إلا كلابٌ قد تعاوَتْ ، وشـياطينُ قد تغاوَتْ ؛ و إن لم يُقْذَفُوا من كلِّ جانب دُحُورا ، ويُتْبَعوا بكلِّ شهابٍ ثاقبٍ مَدْحورا ، آستأسَدُوا وآستكلَبُوا ، وتألَّبُوا وجلَّبُوا وأجلَبُوا ، وحاربُوا ، وحزَّبوا ؛ وكانُوا لباطِلِهم الداحض ، أنصَرَ منَّا لحقِّنا الناهض ؛ وفى ضلالِهم الفاضِح ، أبصرَ منا لهدانا الواضح . ولله درُّ جرير حيث يقول :

إنَّ الكريمةَ ينصُرُ الكَرَمَ آبْنُها ، * وآبنُ اللئيمةِ للِّئـامِ نَصُور !

فالبِدَارَ إلىٰ النَّجدة البِدَار! والمُسارعةَ إلىٰ الجنة فإنها لاتُنالُ إلا بإيقاد نارِ الحرب علىٰ أهل النَّار ؛ والهِمَّةَ الهمةَ ! فإن البحار لاتُلْقىٰ إلا بالبِحار ، والمُلوكَ الكِبار لايقِفُ فى وجوهها إلا الملوكُ الكِبار :

وما هِىَ إلا نَهْضَةٌ تُورِثُ العُلَا * ليَوْمِكَ ماحَنَّتْ رَوَازِمُ نِيبُ !

ونحْنُ فى هذه السـنة ـ إن شاء الله تعـالىٰ ـ نَنْزِل علىٰ أنطاكِيَةَ ، وينزل ولدُنا الملك المظفَّر ـ أظفره الله ـ علىٰ طَرابُلُس ؛ ويستقرُّ الركاب العادلىّ ـ أعلاه الله ـ

بمصر؛ فإنها مذكورةٌ عند العدوّ ـ خذله الله ـ بأنها تُطْرَق، وأن الطلب علىٰ الشام ومصر تفرّق؛ ولا غِنَىٰ عن أن يكُون المجلس السيفيّ ـ أسماه الله ـ بحرًا فى بلاد الساحل يزْخر سِلاحا، ويجرِّدُ سيفا يكون علىٰ مافتحْناه قُفْلا ولما لم يُفْتَح بعدُ مِفْتاحا؛ فإنه ليس لأحدٍ مااللأخ من سُمْعةٍ لهـا فى كل مَسْمع سَمْعه، وفى كل رُوع رَوْعه؛ وفى كل مَحْضَر مَحْضَر، وفى كل مسجد مِنْبر، وفى كل مَشْهدٍ مَخْبَر؛ فمـا يُدْعىٰ العظيمُ إلا للعظيم و[لايُرْجىٰ](١) لموقف الصبر الكرِيم إلا الكرِيم [هذا](١) والأقدارُ ماضيه، وبمشيئةِ الله جاريه؛ فإن يشإ اللهُ ينصر علىٰ العدوّ المضعّف، بالعدد الأضعف؛ ويُوصِّلْ إلىٰ الجوهر الأعلىٰ بالعرض الأدنىٰ؛ فإنا لانرتابُ بأن الله مافتح علينا هذه الفتوحَ ليُغْلِقَها، ولا جَمع علينا هـذه الأمَةَ ليفرِّقَها؛ وأن العـدوّ إن خرج من داره بَطَرا، ودخل إلىٰ دارنا كان فيهـا جَزَرا؛ وما بقِيَ إن شاء الله إلا أموالٌ تُساق إلىٰ ناهبها، ورقابٌ تقادُ إلىٰ ضارِبِها، وأسلحةٌ تحَمَّلُ إلىٰ كاسبها؛ وإنمـا نُؤْثِر أن لاتنطوِىَ صحائفُ الحمد خاليةً من ٱسمه، ومواقفُ الرشْد خاويةً من عَزْمه؛ ونؤثر أن يُساهِمَ آلَ أيُّوبَ فى ميراثهم منه مَوَاقعَ الصبر، ومطالع النصر؛ فوالله إنا علىٰ أن نُعْطيه عطايا الآخِرةِ الفاخره، أشدُّ مِنَّا حِرْصا علىٰ أن نُعطِيَه عطايَا الدنيا القاصره؛ وإنا لايسُرُّنا أن ينقضِيَ عمرُه فى قتالِ غيرالكافر، ونِزالِ غير الكُفْء المناظر؛ ولا شكَّ أن سيْفَه لو ٱتصل بلسانٍ ناطقٍ وفَمْ، لقال مادُمْتُ هُناك فلسْتُ ثَمّ؛ وما هو محمول علىٰ خُطَّة يَخافُها، ولا متكلِّفٌ قضيةً بحكمنا يَعافُها؛ والذى بيده لا نَستكْثره، بل نستقْصره عن حقه ونستَصْغِره؛ وما ناوَلْناه لفتح أرضه السِّلاح، ولاأعَرْناه لِملْك مركَزِه النَّجاح؛ إلا علىٰ سخاءٍ من النفْس به وبأمثاله، علىٰ علمٍ مِنَّا أنه لا يقْعُد عنَّا إذا قامتْ [الحرب] بنفسه وماله؛ فلا نكُنْ به ظَنًّا أحسنَ منه فِعْلا، ولا نَرْضىٰ وقد جعلنا الله أهلًا أن لانراه

(١) الزيادة من الروضتين ج ٢ ص ١٣٧ .

لنَصْرِنا أهلا؛ وليستَشِرْ أهلَ الرَّشاد فإنهم [لايألونه](١) حقًّا وآستِنْهاضا، ولْيَعْصِ أهلَ الغَوَاية فانهم إنما يتغالون به لمصالحهم أغراضا(٢)؛ ومن بيته يَظْعَن، وإلى بيته يَقْفُل؛ وهو يُجيبنا جوابَ مثله لمثلنا، ويَنْوِى فى هذه الزيارة جمعَ شَمْلِ الإسلام قبلَ نِيَّة جمع شملنا؛ ولا تَقْعُد به فى الله نهضةُ قائم، ولا تخذُلُه عزمةُ عازم، ولا يستفت فيها فوت طالب ولا تأخُذُه فى الله لومةُ لائم؛ فإنما هى سَفْرةٌ قاصده، وزَجْرَةٌ واحده؛ فاذا هو قد بَيَّضَ الصحيفةَ والوجهَ والذِّكْرَ والسُّمْعه، ودانَ اللهَ أحسنَ دَيْن فلا حرجَ عليه إن فاء إلى أرضه بالرَّجْعه؛ ولْيتدَبَّر ما كتبناه، وليتفَهَّم ما أردْناه؛ وليُقدِّم الآستخاره، فإنها سراجُ الآستناره [وليغضب لله ورسوله ولدينه ولأخيه فانها مكان الآستغضاب والآستشارة](٣) ولْيَحْضُر حتّى يشاهد أولادًا لأَخيه يستشْعِرون لفُرْقته غَمًّا، وقد عاشُوا ما عاشُوا لايعرِفُون أن لهم مع عمِّهم عَمًّا؛ والله سبحانه يلهمه توفيقا! ويسلُكُ به إليه طرِيقا؛ ويُنْجِدُنا به سيفًا لرقبة الكفر مَرْقًا ودمِه مُرِيقا؛ ويجعلُه فى مِضْمار الطاعات سابقًا لا مسبُوقا.

الأسلوب الثالث

(أن تُفتتح المكاتبةُ بلفظ «هذه المكاتبة إلى المجلس»)

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح أَيْلة التى تحت العَقَبة فى ممرّ حُجّاج مصر. وهى :

هذه المكاتبة إلى المجلس الفلانىّ أعلى الله سلطانَه، وعَمَر بالنجاح آمالَهُ وبالسعادة أوطانَه؛ ولا زالَتْ يدُ النصر تُصَرِّف يومَ اللِّقاء عِنانَه، ويدُ لطفِ الله تُفيض على

---

(١) فى الأصل فانهم يألوه والصواب ما أثبتناه فى الصلب.

(٢) كذا فى الأصل والمراد أنهم يجعلونه غرضا لنوال مصالحهم الذاتية.

(٣) الزيادة مما سيأتى له فى المهيع الثالث من هذا الجزء.

الخلق يومَ العلياء عَنانه، وتمكّن من هامِ الأعداءِ ونُحورِهم سيفَه وسِنانَه؛ (نُشْعِره) أنه لم تزلْ عوائدُ الله سبحانَه عندنا متكفّلةً مايُوجِب أن يُبْدَأ الحمد ويُعاد، مقرّبةً لنا من الآمال كلَّ ما كان رَهِينَ نَأْيٍ وبِعاد، موافقةً لنـا بالتوفيق فكأننا وإيّاه على ميعاد، مُعِينةً لنا على ما يعتدّه الغاشُّ معاش وعيدٍ معاد. وقد كان ماعَلِم من غزوتنا إلى أَيْلَةَ التى آتخذها العدُوّ مَعْقِلا، وتديَّرها مَنْزِلا، وعَدَّها مَوْئلا؛ وغاضَ بها رونَقُ الجمله، وفاضَ بهـا أهلُ القبله؛ وصارتْ على مَدَارج الأنفاس، وعلى مراصد الآفْتِراص والآفتِراس؛ وخصّتِ الحرمين بأعظم قادح، وآشتدّ عن حادثتها من لُطْف الله أعظمُ فاتح؛ ولمـا توجَّهنا إليها، ونزلنا عليها؛ شاهَدْنا قلعةً يحْتاجُ راميها إلى الدَّهْرِ المَديد، والأملِ البعيد، والزاد العَتِيد، والبأْسِ الشديد؛ تَنْبُو بعِطْفٍ جامح عن الخِطْبه، وتُعْرِض بذِكْرٍ مانع عن الضربه؛ وتَعْطِف بأنْفٍ على السَّحاب شامخ، وتطلُعُ فى الصَّباح بوجهٍ شادخ؛ كأنما بَيْنَها وبين الأيَّامِ ذِمام، وكأنَّ نار الحوادث إذا بلغَتْ ماءَها بردٌ وسلام؛ فأَطَفْنا بهـا متبصِّرين، ونزلنا من ناحيـةِ البَرِّ بها مفكِّرين؛ وبَيْنَا نحنُ نأمر بالحرب أن يُشَبَّ أُوارُها، وبالخيـل أن تُسير أسرارُها؛ وبنار اللِّقاء أن يسـتطير شَرارُها، وبقَناطيرِ الموت من القِسِيّ أن تُعقَّد أوتارُها؛ وبالمجـانيق أن تُعْقَد حناياها وتُحَلَّ أزرارُها، وبالكواكب أن تُذِيقهم طعمَ الصَّغار كبارُها؛ إذ نادى منادٍ من أعلى قِمَّتها، ورأس قُلَّتها؛ مُعْلِنا بالأمـان، ناسخًا لآية الكفر بآية الإيمـان؛ فأعارَتْه الأسماعُ إنصاتها، وآستحقت القلوب حَصاتَها؛ وعمدت إليـه بنت بحر، عادتْ بابَ نصر، وساعة بدهر؛ وبَشَّرنى بغلام على كِبَر، وبظَفَر فى سَـفَر على قَدَر؛ فأعطى فَرَنْجَها ما طلبوا، وأتى اللُّطْفُ للمسلمين بما لم يحتَسِبوا؛ وفى الحال رُفِعتْ عليها ألويةُ الإسلام ونُشِرت، وأوَتْ إليها فئةُ الحق وحُشِرتْ، وتظاهرت عليها أوليـاءُ الله وظهرَتْ؛ وقيل الحمدُ لله ربِّ العالمين.

الأسلوب الرابع

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : « كتابنا » وباقى الأمر على نحو ما تقدّم)

وهذه نسخة كتابٍ من هذا الأُسْلوب كتب به القاضى الفاضل عن الملك الناصر «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى بعض الأمراء بالشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود . وهى :

كتابُنا هذا إلى الأمير، معزِّين بالرُّزْء الذى كَمُلَتْ أقسامه وتمَّتْ ، ورمتْ أحداثُه القلوبَ فأصْمَتْ وطرقَتْ أحاديثُـه الأسماعَ فأصمَّتْ ، وأبى أن تعفو كُلُومُه ، وكاد لأجله الأفقُ تتكسف بُدُورُه وتنكدر نُجُومه ، وثَلم جانبَ الدِّين لِفَقْـد مَنْ لولاه لَدَرَسَت أعلامُه ولم تُدْرَسْ علومُه، وفَجَأ فاستولى على كلِّ قلبٍ وَجِيبُه وعلى كلِّ خاطرٍ وُجُومه؛ بانتقال المولى «نورالدين» إلى سُكْنى دارالسلام، وقُدومِه على ما أعدّه الله من جزاء ذَبِّه عن الإسلام؛ وبكى أهله على فَقْد عزائمه التى بها حُفِظتْ وحُرِسَتْ، وشكَت الممالكُ وحشةَ بُعْده وإن ابتهجَتِ الملائكةُ بقُرْبه وأَنِسَتْ؛ فلله هو! من مُصَابٍ أغرى العيونَ بفيضها ، والنفوسَ بفَيْظها؛ ونقَلَ الأولياءَ من ظل المَسَرَّة ونعيمها إلى هَجِير المَسَاءة وقَيْظها؛ وأوجبَ تناجِىَ الكُفَّار بالنَّجاة من تلك السَّطْوة التى لم تزل تزيدُها غَمًّا وتردُّها بغيظها .

ومهنئين بما أسَا الكَلْمَ وداواه، وحَوَى الحقَّ إلى الجانب الأمْنَع وآواه؛ من جلوس ولده «الملك الصالح» ذى التصويب والتسديد مشمولًا منّا بالعُرْف العميم، والطَّوْل الجسيم؛ جاريًا على سُنَنه المعهوده، وعادَتِه المحموده؛ فى رفع صالح أدعيته عن صفاء سريرتِه ، وخُلُوص عقيـدتِه ؛ مستمرًّا على جميـل تحيته ، فى إمدادنا ببركته ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : والمصطلح الجارى عليـه الحالُ فى المكاتبات الصادرةِ عن ملوك الديار المصرية فى زماننا مأخوذةٌ من الأساليب الثلاثة : الأوّل والثانى والثالث المقدّم ذكرها . علىٰ أن فى الدولة الأيوبيــة أساليبَ أُخْرىٰ لا يسع آستيعابها ، ويغتنىٰ عنهـا بمـا تقدّم ذكره .

الطرف الحادى عشر

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب)

وقد آنفردوا عن كُتَّاب المشْرِق وكُتَّاب الديار المصرية بأمور :

منها أنَّ المخاطبة تقَعَ للمكتوب إليــه بميم الجمع مع الآنفراد ، كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الآنفراد .

ومنها أنهم يلتزمون الدعاء بمعنىٰ الكتابة عند قولهم : كتبنا ، بأن يقال : «كتبنا إليكم كتب الله لكم كذا» .

ومنها أنهم يترضَّوْن عن الخليفة القائمين بدعوته فى كتبهم .

ومنها أنهم يذكُرون آسمَ المكتوب إليه فى أثناء الكتاب ، وباقى مكاتباتهم علىٰ نحوٍ من مكاتبات أهل الشرق والديار المصرية ؛ وكُتُبُهم تُخْتَم بالسلام غالبا ، وربما خُتِمت بالدعاء ونحوه .

ومنها أن الخطاب يقع عنــدهم بلفظ الرياسة مثل أن يقال : رِيَاستكم الكريمة ونحو ذلك . ولهـا حالتان :

الحالة الأولى

(ما كان الأمر عليه فى الزمن المتقدّم، وهو على أربعة أساليب)

الأسلوب الأوّل

(أن تُفتتحَ المكاتبةُ بلفظ "من فلان إلى فلان" ويُدْعى للمكتوب إليه، ثم يقع التخلُّص إلى المقصود بأما بعد، ويُؤْتى عليه إلى آخره، ويُختَم بالسلام)

كما كتب أبو بكر بنُ هشام عن أبى محمدِ بنِ هودٍ، فى قيامه بالدعوة العباسية ببلاد المغرب إلى أهل بلدٍ من رعيته .

"من فلان إلى أهل فلانة، أدام الله كرامَتهم وآثرهم بتقواه، وعرّفَهُم عوارفَ نُعْماه، وكنَفَهم فى حَرَمه المنيع وحِماه، وجعلهم ممن وُفِّق إلى رضاه، وحُفَّ بخَيْرِ ماقدّره وقضاه، بسلام

أما بعدَ حمد الله على مُتتابِع واسع فَضْله، هازِمِ الباطلِ وأهلِه، ومورِّطِ الجاهل فى مَهْواة جَهْله، المالئِ بدعوة الحق ما ٱتَّسع من حَزْن المعمورِ وسَهْله، والصلاةِ على سيدنا محمد نبيِّه المصطفى خاتَمِ رُسُله، المؤيدِ بالقرءان الذى عَجَزت الجنُّ والإنسُ أن يأتُوا بمثْله، وعلى آله وصحبه الجارين على قويم سُنَّته وواضح سُبُله، والرضَا عن الإمام العباسىّ أميرِ المؤمنين، الذى لا إمامَ سواه للسلمين، المفرَّعِ من مَحْتِده الكريم وأصله، المُدافِع عن حرم أمره بسَديد نَظَره وحَديد نَصْله، والدعاءِ لمقامه العلىّ، ومَكانِه السنىّ، بالسَّعْد المصاحب بمصاحبَةَ ظِلِّه، والعَضُدِ الفاتح مالم يُفْتَحْ لأحد من قبله، فإنا كتبناه لكم ـ كتبكم الله ممن ٱنتَفَع بقوله وعمله، وتوجَّه إلى رضاه بمبسوط أمله، وجَرَتْ له الأقدار بأفضل معتادٍ وأجمله ـ من فلانة، والتوكلُ على الله سبحانه نتائجُ تُبرِزُها الأيَّام، ويستنجدُها السَّعْد والحُسام، ويستدنيها التفويضُ

إلى الله سبحانه والاستسلام ؛ والدعوةُ العليةُ ـ أدام الله أيامها ، وأسعد أعلامَهَا ؛ ـ الآثار التي تجلت بها المَذَاهب ، والأنوار التي وَضَحَت بها المَسارِي والمَسارِب ، وأضاءت بها المشارق والمغارب . والحمد لله حمدا كثيرا ـ المكانُ الذي تتجدّدُ حُرْمتُه ، وتتأكّد ذِمّتُه ؛ ولا تُوضَع عن يَدِ الاعتناء والاهتمام أزِمّتُه ، وإذا أُنْهِضت العزائمُ لمصالح العباد تقدّمتْ كلَّ العَزَمات عَزْمته ؛ لأنه المكانُ الذي صرف وُجوهَ الأعداء ، وصابر مكابدةَ الإضرار والاعْتداء ؛ واحتمَلَ مكروهَ الدواء ، في مُعالجةِ الشِّفاء ومعاجَلَة حَسْم الداء ؛ فكَرُمت آثارُه ، وتعيّن تخصيصُه بالمَزِيد وإيثارُه ؛ وطابتْ أخبارُه ، وطالت في مَضَايِق مَجَال الرجال أسِنّتُه وشِفَاره ، فنحن نُوجب تكرِيمَه ، ونُؤْثر تقديمَه ، ونُتْبِع حديثَه في الاعتناء قديمَه ، والله يتولّى تكميل قصدِنا الجميلِ فيه وتتميمَه ! .

وقد بَلَغ ـ بلّغكم الله أملكم ، وأتم نعمته قِبلَكم ـ تحرُّكُ ذلكم الخائنُ للإضرار بالبلاد ، وإيثارُه دَواعِي الشر والفَسَاد ؛ ومتى احتِيج إلى إعلامِ جهة من الجهات بأحواله ، وما يتصوّره بفاسد خَيَاله ؛ وتَغلّب كِبْره المردِي واختياله ، وما يصدُر عنه من قبيح آثاره وأعماله ؛ فإنما يُستَعْلم تحقيقُها منكم ، ويُتَعرَّف تصديقها من لدنكم ؛ بِصِدْق جِوَاركم ، ودُنُوّ داركم ، وتداخُل آثارِه مع آثارِكم ؛ فأنتم أقربُ اطّلاعا على خُبْث سِرِّه ، وسُوء مَكْره ، وما يُضْمِر للمسلمين من إذايته وضُرّه ؛ فمتى انصرفَتْ وجوهُ المسلمين إلى جهادهم ، واشتغلُوا بتأمين بلادهم ؛ انتهز الفُرصةَ في فسادٍ يُحْدِثه ، وعَقْد ينكُثه ، واستعجالِ ما يعجّل عليه ولا يلبّثه ؛ ونحن نُعْرِض عنه إعراضَ من يرجُو مَتَابه ، ويرتقب رُجوعَه إلى الحق وإيَابه ؛ وهو متخبِّط في أهوائه ، مستمرٌّ على غُلَوائه ، مُصِرّ على إضراره واعتدائه ؛ لا يكُفُّ الكَفُّ عنه من استطالته ، ولا يُرِيه الاستبصارُ وِجْهةَ جهالته ؛ فوجب علينا بحكم النظَر للبلاد التي لَحِقَها عُدْوانه ، وأضرّ بها مكانُه ،

وتكرَّر عليها آمتحانهُ، أن نُعاجل حَسْم عِلَله ، ونَسُـدّ مَوَاقعَ خَلَله ، ونردّ عليـه كلّ مضَرّةٍ لاحقةٍ من قِبَله؛ حتّى يَستريح الناسُ إلىٰ أمن مبسوط، وكَنَف مضبوط ، وحَوْزٍ بالكِفاية والوِقاية مَحُوط ؛ وقد كُنَّا عند الفرَاغ من مصالح البلاد الغَرْبيـه ، وآنتهاء الفَتْح فيها إلىٰ مالم يَدُرْ بالخاطر ولم يُحْسَب بالنيه ؛ نظَرْنا فى إعداد جموعٍ من أجناد الغَرْب، وتخيَّرنا منهم كلّ من دَرِب بالطَّعْن والضَّرْب، وسَعِد لكم (؟) من جَمَاهير الأعراب وجَزُولة وسائر القبائل النازلين بالبِلاد، المتأهِّبين لمـا يُطْلَبون به من الغزو والجهاد ؛ ورسَمْنا لهم أن يلحَقُوا بنا عند الآستدعاء، علىٰ ماجدّدْنا لهم فى الآنتخـاب والآنتقاء؛ لتأخُذَ الجموعُ كلُّها من مَحْو أثَرهذا الخائن بنصيب، وتَضْرب فيه، وفى كلِّ عملٍ يعفِّيه، بسهم مُصيب؛ لكن لما تعجَّل حركتَه التى تعجّل بها الحَيْن، وساقه إليها القَدَرُ الذى أعمىٰ البصيرةَ والعَيْن؛ رأينا أن نُنْفِذ إليه قصْدَنا، وأن نعاجِلَه بما حضر عندنا ؛ متوافرةَ الأعداد، غنيَّةً عن الآستمداد ، غير مفتقرةٍ إلىٰ الآزدياد ؛ ومع هذا فقد أمرْنا أهلَ الجهات كلِّها باللَّحاق بنا، وأن يَنْهَض جميعُ أعدادهم من الخيل والبَطَل والرُّماة علىٰ سبيلنا ومذهبنا؛ لتكونَ الأيْدى فى هذه المصلحة العامَّة واحده، والعقائدُ فى دفع هذا الضرر عن الكافة متعاقِده، حتّى يذهبَ أثَرُهذه النَّكْبة وعينُها، ويزولَ عن بَهْجة الإحقاق والآتِّفاق شَيْنها ؛ وإذَا وجب علىٰ أهل هذه الجهات أن يَنْفِرُوا فى هذه الدَّعاة خِفَافا وثقالا ، ويُبادروا رُكْبانا ورِجَالا ؛ كانَ الوجوبُ فى حقِّكم وجوبين، والفرضُ عليكم فرضَيْن؛ لمـا يَخُصُّكم من هذه المصلحة التى أنتم أَوْلىٰ من يجتلى صُوَرها ، ويجتَنِى ثمَرها ، ويُجِـدّ فى حالِهِ وآستقباله إثرها ؛ فليكُن آستعدادُكم بحسَبِ ذلكم، وآستوعِبُوا جميع أنجادكم، من خَيْلكم ورُماتكم ورجالكم؛ وكونُوا واقفين على قَدَم التأهُّب إلىٰ أن يكون الآجتياز من هُنالكم؛ إن شاء الله تعالىٰ والسلام" .

الأســــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ «أما بعد» وهو علىٰ ضربين)

الضـــــرب الأوّل

(أن تُعقَّب البعديةُ بالحمد لله، ويؤتىٰ علىٰ الخطبة إلىٰ آخرها، ثم يتخلَّص إلىٰ المقصود ويختم بالسلام علىٰ نحو ما تقدّم)

كما كتب أبو عبد الله بن الجيان عن أبي عبـد الله بن هُود أيضا إلىٰ أكابر بَلَده بالرِّفْق بالرعية عند وُرود كتابهم عليه بتحصين البلد ، و بلوغه جورُ المستخْدَمين بهـا علىٰ الرعية، وهو :

أما بعدَ حمد الله تعالىٰ مُعْلِي مَنَارِ الحقّ و رافعه، ومُولى مُتوالِي الإنعام ومُتَابِعه ؛ والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد عبدِه ورسوله مشفَّع الحَشْر وشافعِه، المبعوثِ ببدائع الحِكَم وجوامِعِه ؛ وعلىٰ آله وصحبه المبادِرين إلىٰ مَقَاصِـده العلية ومَنَازِعه ، والذابِّين عن حَوْزة الإسـلام ، بمواضى الاعتزام، وقواطِعِه ؛ والرضا عن الخليفة الإمام العباسىّ أمير المؤمنين ذى المجد الذى لا يُنَال سموُّ مَطَالعه .

فإنا كتبنا إليكم ـ كتب الله لكم عِزَّةً قِدْحُها بالثبوت فائز، وسعادةً قِسْطها للنماء حائز ـ من فلانة، وكلمةُ الحق منصورةُ اللواء ، منشورةُ الأضواء، والتوكُّل علىٰ الله فى الإعادة والإبداء، والتسليمُ إليه مناطُ أمرنا فى الانتهاء والابتداء، وحمدُ الله تعالىٰ وشكرُه وَصَّلَنا إلىٰ نَيْل مزيد النَّعماء والآلاء، ومكانتُكم لدَيْنا مكانةُ السَّنِيِّ المَنَاصب، المنتمِى إلىٰ كِرام المنتَمَيات والمَنَاسب، المتحلِّى فى الغَناء والاكتفاء، والخلوص والصَّفاء، بأكرم السَّـجِيَّات والمَنَاقب؛ المعلومِ مالديه من المصالحة السالكة بأكرم السَّجيَّات فى المَنَاحى الحِسان علىٰ المَهْيَع الأوضح والسَّنَن اللّاحب .

وقد وقفْنا علىٰ كتابكم مُعْلِمــا بخبر فلانة وما رأيتُموه من المَصْلحة فى تحصينها ، والآجتهادِ فى أســبابِ تأمينها ؛ ونحن نعــلم أنكم تُريدون الإصــلاح ، ونتوخَّوْن ماتتوسَّمُون فيه النَّجاح ؛ لكن أهمَّ الأمور عندنا ، وأولىٰ مايُوافق غرَضنا وقصْدَنا ، الرفقُ بالرعيَّه ، وحملُها علىٰ قوانين الإحسان المَرْعيَّه ـ وعلىٰ أثر وُصُول كتابكم وصَلَنا كتابُ [أهل] فلانة المذكورةِ يشكُون ضرَرَ الخَدَمة المتصرِّفين فيهم ، ويتظلَّمُون من متحَيِّفيهم ومتعَسِّفيهم ؛ وفى هذا مالا يخفىٰ عليكم ، ولاتَرْضَوْن به لو آنتهىٰ إليكم ؛ فإنه إذا كان الناظرُ فى خدمةٍ ممن لا يُحْسِن سياسةَ الأمور ، ولا يعْلَم طريقةَ الرِّفْق الجــاريةَ بوَفْق الخاصة والجُمْهور ؛ أعاد التسكينَ تنفيرا ، والتيسيرَ تعســيرا ؛ وتعلمون أنا لا نُقدِّم علىٰ إيثار العــدل فى عِباد الله المســلمين عملا ، ولا نبغى لهم باطنــة بغير التخفيف عنهم والإحسانِ إليهم بَدَلا ؛ وأنتم أوْلىٰ مَنْ يُعتقَد فيــه أنه يكمِّل هذا المَقْصَد ، ويتَحرَّى فى مصالح الرَّعايا هذا السَّنَنَ الأرشَد ؛ وقد خاطبْنا أهلَ فلانة بمــا يُذْهب وَجَلهم ، ويَبْسُط أملَهم ؛ وعرّفناهم بأنكم لوعلمتم مَنْ جار عليهم من الخَدَمة لأخذتم علىٰ يَده ، وجازيتُمُوه بسُوء معتَقَــده ؛ وأشعرناهم بأنَّا قد آستوْصَيْناكم بهــم خَيْرا ، ونبَّهناكم علىٰ مايَدْفَع عنهم ضَيْمــا ويَرْفَع ضَــيْرا ؛ وأنتم ـ إن شاء الله ـ تستأنِفُون نظرا جميلا ، وتُؤخِّرون عنهم الخَــدَمَةَ الذين لايسلُكُون من السياســة سبيلا ؛ وتُقَدِّمون عليهم من تَحْسُن فيهم ســيرتُه ، وتكْرُم فى تمشيته الرِّفقَ علانِيتُه وسريرتُه ، ومِثْلكم لا يؤكَّد عليه فى مذهبٍ تحسُن عواقبُه ، وغرضٍ يُوافقه القصدُ الآحتياطىُّ ويصاحِبُه ، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

الضــــــرب الثـانى

(أن تعقّب البعديةُ بذكر المقصود من غير خُطْبة ، ثم يؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره علىٰ نحو ما تقـــدّم)

كما كتب أبو عبد الله محمد بن عبد الله القُضاعىّ ، المعروف بالأبار ، عن الأمير أبى جميل إلىٰ أهل ناحية بولايةِ والٍ عليهم وهى :

أما بعدُ ، فالكتاب ــ كتب الله لكم مِلْءَ الجوانبِ ، قَرارا ، وأرسَل عليكم سمـاءَ المواهِب ، مِدْرارا ؛ من فلانة ، وليس إلا الخيْرُ الدائم ، واليُسْر المُلازِم ؛ وقد تَوالىٰ إعلامُكم بالغرض الجميل فيكم ، والآعتناءِ المتَّصِل بتمهيد نَوَاحِيكم ؛ وأنتم اليوم بثغرٍ متحيِّف ، وجنابٍ متطرِّف ؛ يتضاعَفُ الآحتياط عليه ، ويَجِب تيسيرُ المِيَر إليه ؛ فالنظر له مُعْمَل ، والتهمُّم به لا يُهْمَل ؛ وهذه ألسُنٌ قد مُلك قِيادُها ، وأُوثر بوجوه القَرابة إمدادُهـا ، وفلان قد خاطب يستأذن فى القُدُوم علىٰ الباب الكريم ، ويؤكِّد ما عنـده فى الخِدْمة والتصـمِيم ؛ والخيراتُ بسبيل الآتصال ، والمَسرَّات واردةٌ مع البُكُور والآصال .

والحمد لله الجسيم فضلُه ، والعظيم نَيْـلُه ؛ فآحمَـدُوا الله على ما يَسَّر لنـا ولكم ، وآستَوْزِعوه شكر ما خَوّلَنا وخوّلَكُم ؛ وآعلموا أنَّا نَرْعاكم ، كما رعىٰ أوّلُنا أُولاكم ؛ وقد عُيِّن لموضعكم كذا وكذا فأنفِـذُوا إلينا بعضَكم مُعْجَلا ، وآستشعروا إنمـاءَ الأُثْرة ، وآطِّرادَ النُّصْرة ، حالّا ومستَقْبَلا ؛ والحركةُ الكبرىٰ ــ يَمَّنها الله ــ قد شُرِع فى أسبابها ، وأُتِىَ ما يُؤْتِى بمشيئة الله الفتحَ القريبْ من بابها ؛ ولا غنًى بما يُدار فى ذلك عن فلان وقد خُوطب بالوصول ، ووُجِّه إليكم فلان واليـا عليكم ، وثاويًا لدَيكم ؛ وهو ممن خُبِرَتْ كفايتُه ، وآرتضِيتْ لجبر أحوالكم سيا ستُه ، وشُكِر هنا فأُوثِرتم به هنالكم ؛ وقد فُوِّض

إليكم من نظر[1] لخاصّتكم وجُمْهوركم، وقلد بما يستقِلُّ أتمَّ الاستقلال من تدبير أموركم؛ وأُمْضِيَ معه من الأجناد طائفةٌ يحسنون الدفاع والذِّياد، ولا يفارقون الجِدّ والاجتهاد؛ ووراءَ هذا من كريم العناية وجميل النظر، مايقْضِي لكم بالفَلْج والظَّفَر، ويُدِيلكم بالأمانة الشاملة من الذُّعْر والحذَر، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

الأسلوب الثالث

(أن تفتتح المكاتبةُ بلفظ «كتابُنا إليكم من موضع كذا، والأمرُ على كذا وكذا» ويؤتىٰ على المقْصَد إلىٰ آخره ويُخْتَم بالسلام)

وربما قيل : «هذا كتابنا إليكم» وربما قيل : «كتَبْنا إليكم» ونحو ذلك .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة عن ابن هود فى البِشارة بفتح حصن، وهو :

كتابُنا إليكم ــ أطلع الله عليكم من البشائر أنْوَرها جَبِينا، وأوضَحَها صُبْحا مُبِينا ــ من فلانة فى يوم كذا .

سلامٌ عليكم فإنى أحمدُ إليكم اللهَ الذى تكفَّل بنَصْر من ينْصُره، ونصلِّى على سيدنا محمد الكريم مَحْتِدُه الزاكى عنصُره؛ ونُجَدّد مشفوعَ الصلوات، ونردّد مرفُوعَ الدعوات؛ للإمام الخليفة «المستنصر بالله أمير المؤمنين» ذى المناقب التى لاعادّ يعدُّها، ولا حاصِر يحصُرُها .

والحمدُ لله الذى أنعم علينا بتقليد إمامته، التى لا تُعقَد معها إمامه، وأقامنا لإقامة دَعْوته، التى لاتجوز علىٰ غيرها إقامه؛ وجعَلَنا نَرْمِى الغرضَ باسمه الأشرف فنُصيبه، ونستوهِبُ فضلَ الله سبحانه فيتوفّر قِبلَنا نَصيبُه؛ ونستنزِلُ بخلافته المباركةِ جوامعَ النصر، كما استنزل الفاروقُ بغُرّة جَدّه هوامِعَ القَطْر؛ فتسيرُ أمامَ رايته السَّوْداء بالأثَرِ

(١) لعله "إليه النظر الخ" .

المُبْيض ، وتُرْوِى هذه أُوامَ القلوبِ كما أَرْوىٰ ذلك أُوَامَ الأرض ؛ وما زِلْنا منذُ كان النزولُ على هذا الحصن نتعرَّف فيه من مخايل النُّجْح ، ودلائل الظَّفَر والفَتْح ؛ ما أعطانا فثَلَج اليقينُ بأنا نَفْصِم عُرْوته ، ونَفْرَع ذِرْوته ، ولم يزل العزمُ يذلِّل شِمَاسه ، ويقلِّل ناسَــه ؛ حتّى أذعنُوا لما عُرِّفْتُم به من النزول لوقتٍ معدود ، وأمدٍ محدود . ثم إنهم خامَرَهم طارقُ الوَجَل ، فعجَّلُوا أداء دَيْنِــه قبل حُلُول الأجل ؛ وأمكنَ اللهُ من هذا المَعْقِل الفَذِّ فى المَعَاقِل ، وقتلَ الظانين لأمتناعِهم والحسامُ إن شاء الله تعالىٰ فى يَدِ القاتل ؛ وقد صَعِدتْ راياتُنــا علىٰ السُّور ، وسَعِدت إدارتُنا بالعَزْم المنصور ؛ وشــيَّد اللهُ من هذا الفتح الجليل أقصىٰ الفُتُوح بعلوّ ، وأشجاها للعدوّ ، وأدلّهــا علىٰ نُجْح عملٍ مستأنفٍ و بلوغ أملٍ مرجوّ .

والحمــد لله الذى ردّ حَقَّنا المغتصَب ، وكفانا فى وَجْهنا هذا التعبَ والنَّصَب ؛ وعرّفناكم بهذا الخبر الذى هو غِذاءٌ للرُّوح ، والمنبئ عن فَتْح الفُتُوح : لتشكُروا اللهَ عليه شكرا ، وتُوَفُّوه حقَّه إذاعةً له ونَشْرا ؛ وتُجَدِّدوا بحمدالله [علىٰ] ماأوْلىٰ من خالص النِّعم ، ووافر القِسَم ؛ مايَطِيب به المُعرَّس والمَقِيــل ، ويُستقْصَر به الأَمَدُ الطويل . وآكتبُوا من خطابنا هذا نُسخًا إلىٰ الجهات ليأخذ منهــا كلٌّ بحظه ، ويَنْعَم القريبُ والبعيدُ بجَلَالة معناه وجَزَالة لفظه ؛ أعاننا اللهُ وإيَّاكم علىٰ شــكر إحسانِه الجزيل ، ولا أخلىٰ من لطفه العميم ونظره الجميل ، بمنّه والسلام .

الحالة الثانيـــة

(ما ٱلأمر مستقرّ عليه الآنَ ممـا كان عليه عَلَّامة متأخرى كُتَّاب المغرب
أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزير ٱبن الأحمر : صاحب
حمراءِ غَرْناطة من الأندَلُس)

والأمر فيها علىٰ نحو ماتقدّم فى الحالة الأولىٰ : من التعبير عن المكتوب إليه بميم الجمع وإن كان واحدا، وٱلتزام الدعاء بمعنىٰ الكتابة عند قولهم كَتَبْنا إليكم ونحو ذلك. وعادتهم أن يُكتب كتابُ السـلطان فى طُومارٍ كامل ، فإن ٱستوعب الكلامُ جميع الطومار كُتِب علىٰ حاشيته ، ويكتبُ صاحبُ العـلامة علامةَ السلطان فى آخره ، ويُطوىٰ طَيًّـا عريضا فى نحو ثلاث أصابع معترضــة ، ثم يُكْسَر ويطوىٰ نصفين ، ويكتبُ العُنْوان بالألقاب التى فى الصَّدْر ، ويُحْزَم بدَسْرة من الورق ، ثم يُخْتَم بخاتَم السلطان علىٰ شَمَع أحمر كما تقدّم بيانه .

وهى علىٰ ثلاثة أساليبَ :

الأســـلوبُ الأوّلُ

(أن تُفْتتح المكاتبةُ باللَّقَب اللائقِ بالمكتوب إليه، وهو علىٰ أضْرُب)

الضـــرب الأوّل

(أن يبتدَأَ بلفظ «المقام» وهو مختصٌّ بالكتابة إلىٰ الملوك)

والرسم فيه عندهم أن يقال : «المَقَام» ويُنْعت بما يليق به ، ثم يُقال : «محـلُّ أخينا، أو محلُّ ولدنا، أو محلُّ والدِنا السلطان» ويؤتىٰ بألقابه ثم يسمَّى ، ثم يقال : « من فلان » ويُفْعل فيــه كذلك إلىٰ منتهىٰ نَسَبه، ويُدْعىٰ له بالبقاء وما يتبعه ،

ثم يقال : معظِّم قدره أومعظِّم مَقامه، وما أشبه ذلك، ويذكر ٱسمُ المكتوب عنه؛ ثم يقال : أما بعدَ حمد الله ويُؤتىٰ بالخطبة إلىٰ آخرها؛ ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم من موضع كذا ، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره ، ويختَمُ بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب أبُو عبد الله بنُ الخطيب المقدّم ذكره عن سلطانه ٱبن الأحمر المذكور أعلاه، إلىٰ السـلطان أبى عِنانِ بنِ أبى الحسن المَرِينىّ صاحب فاس، عند موت الطاغية ملك قَشْتالة من إقليم أشْبيلِيَةَ ، وطُلَيطُلَة، وقُرْطبةَ وما معها بعد نُزُوله علىٰ جبل الفَتح من مملكة المسلمين بالأندَلُس لمحاربة المسلمين فيه، ورحيل قومِه بعـد موته به، وهو :

المقامُ الذى أنارت آياتُ سـعده، فى مسطور الوجُود ، وتبارَتْ جيادُ مَجْدِه ، فى ميدان البأس والجُود ، وضمِنَتْ إيالتُه لمن بهذه الأقطار الغربيةِ تجديدَ السُّعود ، وإعادةَ العُهُود، وٱختلفَتْ كتائبُ تأييد الله ونصره لوَقْته المشهورِ فيها ويومه المَشْهود؛ مقامُ محلِّ أخينا الذى نُعَظِّمه ونرفَعُه ، ويُوجب له الحقَّ العلىَّ موضِـعُه ؛ السلطان أبى عِنَـان ٱبن السـلطان أبى الحسن ، ابن السـلطان أبى سـعيدٍ ، ابن السلطان أبى يوسُفَ ، بن عبد الحق ـ أبقاه الله يتهلَّل للبشرىٰ جَنَابُه ، ويُفْتَح لوارِدِ الفتح الإلٰهىّ بابُه ؛ وتُعْمل فى سبيل الله مكارِمُه وعزائمُـه ورِكابُه ، ويتوفَّرُ بالجهاد فيه مجدُه وسـعدُه ونخرُه وثوابُه ؛ معَظِّم قدره الأمير عبدالله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فَرَج بن نصر، سلامٌ كريم مشفوعٌ بالبشائر والتَّهانى، محفوف [الركاب][1] ببلوغ الأمانى، ورحمة الله تعالىٰ وبركاته .

أما بعـدَ حمدِ الله مُطْلِـع أنوار الصنائع العجيبة متألِّقـةَ الغُرَر ، ومُنْشئ سحائب الألطاف، الكريمةِ الأوصاف، هاميةَ الدِّرَر، الكريمِ الذى يُجيب دعوةَ المُضْطَرِّ إذا

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

دعاه، ويكشف السوء وما أمره إلا واحدة كلمح بالبصر، حجب كامن(١) ألطافه عن قوى الفطن ومدارك الفطر، فما ﴿يعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر﴾.

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى المعجزات الباهرة والآيات الكبر، الذى بجاهه الحصين نمتنع عند استشعار الحذر، وبنور هداه نستضىء عند التباس الورد والصدر، فنحصل على الخير العاجل والمنتظر، والرضا عن آله وأصحابه الكرام الأثر، الذين جنوا من أفنان الصبر فى الله ثمار الظفر، وفازوا من إنجاز الوعد بأقصى الوطر، وانتظموا فى سلك الملة الرفيعة انتظام الدرر، والدعاء لمقامكم الأعلى باتصال المسرات وتوالى البشر، والسعد الذى تجرى بأحكامه النافذة تصاريف القدر، والصنع الذى تجلى عجائبه فى أجمل الصور - فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من حظوظ فضله وإحسانه أجزل الأقسام، وعرفكم عوارف نعمه الثرة وآلائه الجسام - من حمراء غرناطة - حرسها الله - واليسر بفضل الله طارد الأزمات بعد ماقعدت، وكاشف الشدائد بعد ما أبرقت وأرعدت. ثم ماعندنا من الاعتداد بإيالتكم التى أنجزت لنا فى الله ما وعدت، ومددنا إليها يد الانتصار على أعدائه فأسعدت، إلا الصنع العجيب، واليسر الذى أتاح ألطافه السميع المجيب، واليمن الذى رفع عماده التيسير الغريب، ومد رواقه الفرج القريب، وإلى هذا أيدكم الله على أعدائه، وأجزل لديكم مواهب آلائه، وحكم للإسلام على يديكم بظهوره واعتلائه، وعرفكم من أخبار الفتح الهنى المدفع وأنبائه كل شاهد برحمته واعتنائه. فإنا كتبناه إليكم نحقق لديكم البشرى التى بمثلها تنضى الركاب(٢)، ويخاض العباب، ونعرض عليكم ثمرة سعدكم الجديد الأثواب، المفتح للأبواب، علما بما عندكم

---

(١) فى ريحانة الكتاب "مكامن".

(٢) الركاب المطى واحدها راحلة من غير لفظها.

من فضل الأخلاق، وكرم الأعْراق ؛ وأصالةِ الأحساب ، والمعرفةِ بمَوَاقِـع نِعَم الله التى لا تجرى لخلْقه علىٰ حسـاب ، والعِنَايةِ بأمور هـذا القُطْر الذى تعلَّق بأذيال مُلْكِكم السـامى الجَنَاب . [وقد تقرر لدىٰ مقامكم الأسنىٰ ما كانت الحال آلت إليه بهـذا الطاغية](١) الذى غَرَّه الإمهـالُ والإمْلاء ، وأقدمه علىٰ الإسـلام التمحيصُ المكتوبُ والاَبتلاء؛ فتَمَلَّأَ تِيهـا وعُجْبا ، وٱرتكب من قَهْر هـذه الأمة المسلمةِ مَرْكبا صَـعْبا ؛ وسـام كلمةَ الإسـلام بأْسًا وحربا ، فكتائبُ بَرِّه تُوسِـع الأرجاءَ طَعْنا وضَرْبا ، وكتائبُ بحره تأخُذ كلَّ سفينةٍ غَصْـبا ، والمَخاوِف قد تجاوبَتْ شرقا وغَرْبا ، والقلوبُ قد بلغتِ الحناجِرَ غَمًّـا وكربا ؛ وجبلُ الفتح الذى هو بابُ هـذه الدار ، وسببُ الاَسـتعداءِ علىٰ الأعداء والاَنتصار ، ومَسْلَكُ المِلَّة الحنيفيَّة إلىٰ هـذه الأقطار ؛ قد رماه ببَوَائقه ، وصيَّر ساحتَه مَجَرَّ عَواليه ومَجْرىٰ سوابِقه ؛ وٱتَّخذه دارَ مُقامه ، وجعله شُغُلَ يَقَظته وحُلُم مَنَامه ، ويُسِّر له مايجاورُه من المعاقل إملاءً [من الله] لأيامه ؛ فاستقرّ به القَرار، وٱطمأنَّت الدار، وطال الحِصَار، وعجزتْ عن نَصْره الحيلُ والأنصار، ورَجَمتِ الظُّنونُ وساءتِ الأفكار، وشَجِر نُظَّارَ القلوب الاَضطرار، إلىٰ رحمة الله والاَفتقار، فجَبَرالله الخواطِرَلمَّـا عظُم بها الاَنكسار، ودارَ بإدالةِ الإسلام الفلَكُ الدَّوَّار ، وتَمَخَّضَ عن عجائب صُنْعِ اللهِ الليلُ والنهار، وهبَّتْ نواسِمُ الفَرَج ، عاطرةَ الأَرَج ، ممن يخلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتار ؛ لا إلٰهَ إلا هو الواحدُ القهَّار .

وبَيْنا نحن نخُوض من الشَّفَقة علىٰ ذلك المَعْقِل العزيز علىٰ الإسلام لُجَّةً مترامِيَةَ المَعَاطب، ونقْتَعِد صَـعْبا لا يليـق بالراكب؛ ولولا التعلُّق بأسـبابكم فى أنواء تلك الغَيَاهب، وما خلَصَ إلىٰ هذه البلادِ من مَوَاهِبِكم الهاميةِ المَوَاهب؛ ومواعِيدِكم الصادقةِ ومَكارِمِكم الغَرائب، وكُتُبِكم التى تقوم عند العدوِّ مَقام الكتائب؛ وإمدادِكم المتلاحق

(١) ساقط من الاصل والتصحيح من ريحـانة الكتّاب .

تلاحُقَ العظام الجنَائب، لما رَجَع الكفرُ بصَفْقة الخائب؛ إذ تجلّى نورُ الفَرَج من خلال تلك الظُّلْمه، وهَمَتْ سحائبُ الرحمةِ والنِّعمةِ علىٰ هذه الأمَّه؛ ورمىٰ اللهُ العدُوَّ بجيشٍ من جُيوش قُدْرته أغنىٰ عن العديد والعُدَّه، وأرانَا رَأْيَ العِيَان لطائفَ الفَرَج من بعد الشِّدَّه؛ وأهلك الطاغيةَ حتْفَ أنْفِه، وقَطَع به عن أمَله قاطِعُ حتفه، وغالَتْه أيدى المَنُون فى غِيلِه، وٱنتهىٰ إلىٰ حُدُود القواطع القويَّة والأشعَّة المِرِّيخيَّة نصيرُ دليله؛ فشفىٰ الله منه داء، وأخذه أشدَّ ما كان ٱعتِدادا وٱعْتِداء؛ وحمىٰ الجزيرةَ الغربية وقد صارَتْ نُهْبَةَ طُغاته، وأشرقه بِرِيقه وهى مُضْغة فى لَهَواته؛ سبحانَهُ لا مبدِّل لكلماته.

فٱنتثر سِلْكُه الذى نَظَّمه، وٱختَلَّ تدبيرُه الذى أحكمه؛ ونطَقتْ بتَبَارِ مَحَلَّاته ألسنةُ النار، وعاجلَتِ ٱنتظامَهَا أيدى الٱنْتِثار؛ وركَدتْ رِيحُه الزَّعْزَعُ من بَعْد الإعصار، وأصبح من ٱستظْهَر به من الأشياع والأنصار ﴿ يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ﴾ وولَّوْا به يَحْثُون التُّرابَ فوق المَفَارِق والتَّرائب، ويخلِطُون تِبْرَ السِّبال الصُّهْبِ بذَوْب الذَّوائب؛ قد لبِسُوا المُسُوحَ حُزْنا، وأرسلُوا الدموعَ مُزْنا؛ وشَقُّوا جُيوبَهم أسَفا، وأضرمُوا قلوبَهم تلهُّفا؛ ورأَوْا أنَّ حصنَ استطبونة(١) لايتأتَّى لهم به ٱمْتِناع، ولا يُمْكِنُهم لمن يرومُه من المسلمين دِفَاع؛ فأخْلَوْه من سُكَّانه، وعاد فيه الإسلام إلىٰ مَكانِه؛ وهو ماهو من طِيب البُقْعه، وٱنْفِساح الرُّقْعه؛ ولو تمسَّك به العدُوّ لكان ذلك الوطنُ بسُوء جواره مَكْدُودا، والمسْلَك إلىٰ الجبل ــ عصمه الله ــ مسْدُودا؛ فكان الصنيعُ فيه طرازًا علىٰ عاتق تلك الحُلَّة الضافِيَه، ومزيدًا لحُسْنىٰ العارفةِ الوافِيَه؛ فلمَّا ٱستجلينا غرّةَ هذا الفتح الهَنِيّ، والمَنْح السَّنِيّ، قابلْناه بشكر الله تعالىٰ وحمده، وضَرَعْنا إليه فى صلة نِعَمه فلا نِعْمةَ إلا من عنده؛ وعلِمنا أنه عُنوانٌ علىٰ مزيد ملككم الأعلىٰ وعلامةٌ علىٰ سَعْده، وأثرْنيتّه

(١) فى الريحانة "استبونة" ولم نعثر عليه .

للإسلام وحُسنِ قصده ، ونخرُ ذَخَره الله لأيامكم لا نهاية لحدِّه ، فإنكم صرفْتم وجه عنايتكم إلىٰ هذا القُطْر علىٰ نَأْى المحلِّ وبُعْـده ، ولم تَشْغَلْكم الشواغلُ عن إصلاح شأنِه وإجزال رِفْده .

وأما البَلَدُ المحصورُ ، فظهر فيه من عَزْمكم الأمضىٰ ما صَدَّق الآمالَ والظُّنُون ، وشَرَح الصُّدُور بمَقامِكم وأقرَّ العيون : من صِلَةَ الإمداد علىٰ الخَطَر ، وتردُّد السابلةِ البحرية علىٰ بُعْـد الوطن وتعذُّر الوَطَر ، وآختلافِ الشَّوانى التى تَسْرى إليه سُرىٰ الطَّيْف ، وتخلُّصُ سهامُها إلىٰ غَرَضه بعـد أنّى وكَيْف ؛ حتّى لم تُعْدَمْ فيه مَرْفَقةٌ يسُوء فُقْدانُها ، ولا عُدّةٌ يهُمُّ شأنُها ؛ فجزاؤكُم عندَ الله موفُور القِسَم ، وسعْيُكم لديه مشكورُ الذِّمم ؛ كافأ الله أعمالَكم العاليةَ الهِمَم ، وخلالَكم الزاكيةَ الشِّيَم ؛ فقد سَعِد الإسلامُ ــ والحمد لله ــ بمُلْككم الميمونِ الطائر ، وسَرَتْ أنباءُ عنايتكم بهذه البلاد كالمَثَل السائر ؛ وما هو إلا أن يَسْتَتِبَّ آضطراب الكُفَّار وآختلافُهم ، ويتنازَعَ الأمْرَ أصنافُهم ؛ فتغتنمون إن شاء الله فيهم الغِرّةَ التى ترتَقِبها العزائم الشريفه ، والهممُ المُنيفـه ؛ وتَجْمع شِيَمُكم العُلْيـا ، بين نخر الآخرة والدُّنيا ، وتحصُل علىٰ الكمال الذى لاشَرْطَ فيه ولا ثُنْيا ؛ فاهنَـُوا بهذه النِّعمة التى خَبأها الله إلىٰ أيَّامكم ، والتُّحفة التى بعثها السـعْدُ إلىٰ مَقامكم ؛ فإنمـا هى بتوفيق الله ثمرةُ إمدادِكُم ، وعُقْبىٰ جِهادكم ؛ أوزَعنا اللهُ وإيَّاكم شكْرَها ، وألهمَنا ذِكْرها .

عرَّفْناكم بمـا آتَّصـل لدينا ، وورَدَ من البشائر علينا ؛ عَمَلًا بمـا يجِب لمَقامكم من الإعلام بالمتزيِّدات ، والأحوال الوارِدات ؛ ووجَّهْنـا إليكم بكتابنا هـذا مَنْ ينوب عنَّا فى هذا الهَنَاء ، ويُقرِّر ماعندنا من الوَلَاء ، وما يتزيَّد لدينا بالأنباء ؛ خالصةَ إنعامِنا ، المتميِّزَ بالوسيلةِ المرعيَّـة إلىٰ مَقَامنا ، الحظِيَّ لدينا ، المقرَّبَ إلينا ؛ القائدَ الفلانيَّ أبا الحسن عبادا وصل الله عِزَّته ، ويمَّن وِجْهته ؛ ومجدُكُم ينْعِم بالإصغاء إليه ، فيما أحلْنا فيه من ذلك عليه ، والله يصل سعدكم ، ويحرُس مجْدكم ؛ والسلام .

* * *

وكما كتب عنه أيضا إلى السلطان (أبي سعيد عثمان بن يغمراسن) صاحب تِلِمْسان، عند بعْثه بطعامٍ إلى الأندَلُس، شاكرًا له على ذلك، ومخبرًا له بفتح حصنٍ من حصون الأندلس يسمّى حِصْن قنيط، وهو :

المقامُ الذى تحدّثتْ بسعادته دولةُ أسلافه ، وٱتّفق به قولُها من بعد ٱختلافه ، وعاد العِقْدُ إلى ٱنتظامه والشَّمْلُ إلى ٱئتلافه ؛ مقامُ ولِيِّنا فى الله الذى هَيَّأ الله له من جميل صُنْعه أسبابا، وفتَح به من [مُبْهَم] (١) السَّعْد أبوابا ؛ وأطلَع منه فى سماء قومه شهَابا. وصَفِيِّنا الذى نُسْهِبُ القولَ فى شُكر جَلَاله ووصْف خِلَاله إسهابا، السلطان أبو سعيد عثمانُ، ٱبنُ الأمير أبى زيد، ٱبنِ الأمير أبى زكريَّا، ٱبن السلطان أبي يحى يغمراسن ، بن زيان ؛ مع ذكر ألقاب كل منهم بحسبه ــ أبقاه اللهُ للدولة الزَّيَّانية ــ يُزَيِّن بالأعمال الصالحة أجيادَها ، ويَمْلِك بالعدْل والإحسان قِيادَها ، ويُجْرى فى ميدان النَّدىٰ والباس، ووَضْعِ العُرْف بين الله والناس، جيادَها . سلامٌ كريم كما زحفَتْ للصباح شُهْب المواكب، وتفتَّحت عن نَهَر المجرّة أزهارُ الكَوَاكب ؛ ورحمة الله تعالىٰ وبركاته .

أما بعدَ حمد الله جامعِ الشَّمْل بعد ٱنصداعه وشَتَاته، وواصلِ الحَبْل بعد ٱنقطاعه وٱنْبِتاته ؛ سبحانَه لامبدّل لكلماته، والصلاةِ على سيدنا ومولانا محمد رسولِه الصادع بآياتِه ، المؤيَّد ببيِّناتِه ؛ الذى ٱصطفاه لحمل الأمانَةِ العُظْمىٰ ، وحَباه بالقَدْر الرفيع والمحَلِّ الأسمىٰ ؛ واللهُ أعلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رسالاتِه . والرضا عن آله وصَحْبِه وأنصاره وحزبِه وحُمَاته، المتواصلين فى ذاتِ الله وذاتِه ، القائمين بنَصْر دينه وقَهْر عُدَاته . فإنَّا كتبْناه إليكم ــ كتب الله لكم سعدًا ثابتَ الأركان ، وعزًّا ساميَ المكان، ومجدًا

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب .

وَثيقَ البُنْيان، وصُنْعا كريمَ الأثَرِ والعِيان ـ من حمراءِ غَرْناطة ـ حرسها الله ـ والثقةُ بالله سبحانه أسبابُهـا وَثيقه، وأنسابُها عَتِيقه، والتوكُّلُ عليه لاتلتَبِس من سالِكه طرِيقه ولا تختلِط بالمجاز منـه حَقيقه، وعندنا من الآعتداد بكم فى الله عُقودٌ مُبْرَمه، وآىٌ فى كتابِ الإخلاص مُحْكَمَه، ولَدَيْنا من السُّرور، بما سَنَّاه الله لكم من أسباب الظُّهور، الذى حُلَلُه مُعْلَمَه، وحُجَجُه البالغةُ مسلَّمه، مالاتفِى العبارةُ ببعض حُقوقه المُلْتَزَمه؛ وإلىٰ هذا ـ أيد الله أمْرَكم ـ فإننا ورد علينا فلان وصل الله كرامَتَه، وسنّىٰ سلامتَه؛ صادرا عن جهتِكم الرفيعةِ الجانِب، الساميَة المَرَاقب؛ طَلْقَ اللسان بالثناء بما خَصَّكم الله به من فضل الشمائل وكرم المذاهِب، محدِّثًا عن بحر مكارمكم بالعَجَائب؛ فحضر بين يدينا مُلْقِيا ماشاهده من آزدياد المَشَاهد، بتلك الإياله، وآستبشارِ المعاهد، بعوْدة ذلك الملك الرفيع الجَلَاله، الشهير الأَصَاله؛ ووصل صُحْبته ماحَمَّلتم جَفْنة(١) من الطعام برسم إعانةِ هذه البلاد الأندَلُسيَّه، والإمداد الذى آفتتحتم به ديوانَ أعمالكم السنِيَّه، وأعربْتُم به عمَّا لكم فى سبيل الله من خالص النِّيَّـه؛ وأخبر أنَّ ذلك إنمـا هو رَشَّة من غَمَام، وطليعةٌ من جيشٍ لُهَام، ووَفْدٌ من عَدَد، وبعْضٌ من مَدَد، وأنَّ عزائمكم فى الإعانة والإمداد علىٰ أوّلها، ومكارمَكم يُنْسىٰ المـاضى منها بمستقبلها؛ فأثنينا علىٰ قصدكم الذى لله أخلصتموه، وبهذا العمل البِرِّ خصصْتُموه؛ وقلنا: لاينكر الفضلُ علىٰ أهله، وهذا بِرٌّ صَدَر عن محلّه؛ فليست إعانةُ هـذه البلاد الجِهاديَّة بِبِدْع من مكارِم جنابِكم الرفيع، ولاشاذَّةٍ فيما أسْدىٰ علىٰ الأيام من حُسْن الصَّنيع؛ فقـد علم الشاهدُ والغائب، ولو سكَتُوا أثْنَتْ عليها الحَقَائب، ماتقدّم لسَلَفِكم فى هـذه البلاد من الإرْفاق والإرفاد، والأَخْذ بالحظِّ الموفُور من المُدافعَة والجهاد؛ وأنتم أوْلىٰ مَنْ جدّد عُهودَ قومه، وكان غَدُه فى الفَخْر أكبرَ من يومه؛ وقد ظهرتْ لله فى حَيِّز تلك

(١) مراده سفينة أو نحو ذلك .

الإيالة الزيّانيّة نتيجةُ تلكَ المقدّمات، وعُرِفت بركةُ ماأسلفتَه من المَكْرُمات. وسنّى الله سبحانه بين يدَىْ وُصُول مابه تفضّلتم، وفى سبيله بذلتم، أن فَتَح جَيْشُنا حصنًا من الحصون المجاورة لغربىّ مالَقَةَ يُعْرَف بحِصْن قنيط من الحُصُون الشهيرة المعروفه، والبُقَع المذكورة بالخِصْب الموصُوفه؛ ودَفَع الله مضرّتَه عن الإسلام وأهله، ويَسّره بمعهودِ فضله؛ فجعَلْنا من ذلك الطعامِ الذى وجّهتم طُعْمةَ حُمَاته، ونفقاتِ رجالِه ورُمَاته، ٱختيارًا له فى أرضىٰ المَرافق من سُبُل الخير وجِهَاته. وأما نحن فإنْ ذهبْنا إلىٰ تقرير ماعندنا من الثناء، علىٰ معَالِى مُلْككم الأصيلِ البناء، والآعتدادِ بمَقامكم الرفيع العِماد، والآستنادِ إلىٰ ولائكم الثابت الإسناد؛ لم نبْلُغ بعضَ المُراد، ولاوفىٰ اللسانُ بمـا فى الفؤاد؛ فمن الله نسألُ أن يجعلَهُ فى ذاته، وذريعــةً إلىٰ مَرْضاته؛ ومرادنا من فضلكم العميم، ووُدِّكم الســليم؛ أن تَحْسِبُوا هــذه الجهة لجهتكم فيما يَعْرِض من الأغراض: لنعمل فى تَميمها بمقتضىٰ الوُدّ العَذْب المَوارد، الكريم الشّواهد؛ والله يَصِل سعْدَكم، ويَحْرُس مجدَكم، والسلام.

الضربُ الثــانى

(أنـــ يقع الآبتـــداء بالمقـــرّ)

والرسمُ فيه أن يقال: المَقرّ، ويُنْعت، ثم يقال: مَقرّ فلان، ويُنْعت بالألقاب، ثم يُذْكَر المكتوب عنه. ثم يقال: أما بعدَ حمد الله، ويُؤتىٰ على الخطبة إلىٰ آخرها؛ ثم يقال: فإنا كتَبْناه لكم من موضِع كذا، ويُتخَلّص إلىٰ المقْصد بلفظ: وإلىٰ هذا فإنّ كذا وكذا، ويؤتىٰ علىٰ المقْصِد إلىٰ آخره ويُخْتَم بالسلام.

كما كتب ٱبنُ الخطيب عن ســلطانه ٱبن الأحمر إلىٰ عَجْلانَ ســلطانِ مكةَ شرّفها الله تعالىٰ وعظّمها، وهو:

المَقَرّ الأشرفُ ، الذى فَضَل المحالَّ الدينيَّة مَحَلُّه ، وكَرُم فى بئر زمْزَمَ مُنْبَط إسماعيل صلّى الله عليه وسلم نَهَلُه وعَلُّه ، وخصّه بإمرة الحَرَم الشريف الأمينِ مَنْ بيدِه الأمرُ كلُّه ؛ فأسفَرَ عن صُبْح النصر العزيزِ فَضْـلُه ، وآشتمل علىٰ خواصّ الشَّرَف الوَضّاح جنْسُه وفَصْلُه ، وطابتْ فُرُوعه لمـا آستمدّ من ريحانَتَى الجنة أصْلُه .

مَقَرّ السلطان الجليل ، الكبيرِ ، الشريف ، الطاهرِ ، الظاهر ، الأمْجَد ، الأسعدِ ، الأوحد ، الأسمىٰ الشهيرِ البَيْت ، الكريم الحىِّ والمَيْت ، الموَقَّر ، المعظَّم ، ابن الحسين ، وحافد سيد الثَّقَلين ؛ تاجِ المعالى ، عزِّ الدنيا والدِّين ، أبِى السَّبْق عجلان ، ابن السلطان الكبير ، الشهير ، الرفيع ، الخطيرِ ، الجليلِ ، المَثيلِ ، الطاهر ، الظاهر ، الشريفِ ، الأصيلِ ، المعظَّم ، الأرضىٰ ، المقدّسِ ، المنعَّم ، أسدِ الدين ، أبى الفضل "رميثة" بن محمد بن أبى سعيد الحسنى ـ أبقاه الله ، وجعل أفئدةً من الناس تهوِى إلىٰ قاطنَىْ مَثْواه ، علىٰ بُعْدِ الدار ، وتتقرّبُ فيه إلىٰ الله بالتثام الترابِ وآستلامِ الجدار ، وتُجيب أذانَ نبيِّه إبراهيمَ بالحجّ إجابةَ الآبتِدار ؛ وهَنَاه المزيَّةَ التى خصه بها من بين مُلُوك الأقطار ، وأُولِى المراتب فى عِباده والأخْطار ؛ كما رَفَع قدْرَه علىٰ الأقدار ، وسَجَّل له بسِقَاية الحج وعمـارةِ المسجد الحرام عَقْدَ الفَخَار . ويُنْهِى إليـه أكرَمَ التحيَّات تتأرّجُ عن شَذَا الروضة المِعْطار ، عَقِبَ الأمطار ، معظِّم ماعظَّم اللهُ من شعائر مَثْواه ، وملتمسُ البركةِ من أبواب مفاتحتِـه ولكل آمرئ ما نَوَاه ؛ ومُوجِبُ حقِّـه الذى يليقُ بمَنِ البتولُ والرِّضـا أبَواه ، الشَّيِّقُ إلىٰ الوِفَادة عليه و إن مَطَله الدهرُ ولَوَاه ؛ فلان . كان الله له فى غربته وآنفرادِه ، وتولّى عَوْنَه علىٰ الجهادِ فيه حَقّ جِهادِه .

أما بعـدَ حمدِ الله وَلِىِّ الحمدِ فى الأُولىٰ والآخره ، ومَطْمَحِ النُّفوس العاليةِ والهِمَم الفاخره ؛ مؤيِّد العزائم المتعاضـدة فى سبيله المتناصره ، ومُعِزِّ الطائفة المؤمنة ومُذِلِّ

الطائفــة الكافره ، ومُنيل القياصرة الغَلَبَ والأكاسره ، وتاركِ أرضها عبْرةً للآذانِ السامعةِ والعُيون الباصِرة .

والصلاةِ علىٰ سـيدنا ومولانا محمدٍ عبـده ورسوله نبيِّ الرحمة الهـاميةِ الهامِرَه ، والبركات الباطنةِ والظاهره، المجاهدِ فى سبيل الله بالعزائم الماضيةِ والصَّوارم الباتره، مُصْمِت الشَّقاشق الهـادِرَه، ومُرْغِم الضَّلالة المكابِره، المنصورِ بالرُّعب من جنود ربِّه الناصِره، المحروسِ بحَرَس الملائكة الوافره، الموعو ملْكَ أُمَّتِه بما زُوِى له من أطراف البَسيطة العامِرَه ، حسَبَ ما ثبتَ بالدلائل المتواتره .

والرِّضا عن آلِهِ وأحزابه ، وعِترته وأصحـابِه ، المجاهـدةِ الصابِره ؛ أُولى القلوبِ المُراقِبـة والألْسُن الذاكِره ، والآداب الحَرِيصةِ علىٰ الاهتداء بهُداه المثابِره؛ الذين جاهدُوا فى الله حقَّ جِهاده يخوضُون لأن تكونَ كلمةُ الله هى العُلْيا بِحارَ الرَّوْع الزَّاخره؛ ويُقْدِمون بالجموع القليـلة علىٰ الآلافِ المتكاثره، حتّٰى قرتْ بظُهور الإسلامِ العُيُونُ النـاظره، وحَلَّت فى العدوّ الفاقِره ، فكانُوا فى الذَّبِّ عن أُمَّته كالأُسُـود الخا رَه، وفى الهِدايةِ بِسَماء مِلَّته كالنُّجوم الزاهِره .

والدعاء لشَرفكم الأَصِيل المَناسِب الطاهِره،والمَكارم الزاهيةِ ببُنوّةِ الزَّهْراء البتُول بِضْعةِ الرسولِ الزَّاهِره ، بالصُّنْع الذى يُسْفِر عن الغُرَر المشرقةِ السَّافره ، والعِزِّ الذى يَضْـفُو منه الجَنـاحُ علىٰ الوفودِ الوافره ، والفُضَلاءِ من المجاوِره ، ولا زال ذِكْركم بالجميل هِجِّيرىٰ الركائبِ الواردةِ والصادِره،والثناءُ علىٰ مكارمكم يُخْجِل أنفاسَ الرِّياض العاطره، عَقِبَ الغمائم المـاطره .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم عنايةً تحجُب الأسواءَ [بجُنَنِها][1] الساتره، ورعايةً تجمـع الأهواءَ المختلفةَ والقلوبَ المتنافِرَه ـ من حمراءِ غَرْناطة دارِ المُلْك الإسلامىّ

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب .

بالأندلس ـ حرسها الله ووفّر جموعَ حاميَتِها المُثاغِره ـ وسدّ بيد قدرتِه ماهَمّ بها من أفواه العِدىٰ الفاغِره ، ولا زالت سحائبُ رحمةِ الله الحائطةِ لهـا الغامِره ، تُظَلِّل جُموعَ جهادِها الظافره ، وتجُودُ رِمَمَ شُهدائها النـاخره ، ونِعَمُ الله تحطُّ ركائبَ المزيدِ فى نواديها الحامدةِ الشاكره .

والحمـدُ لله كما هو أهلُه ، فلا فضْلَ إلا فضْـلُه . وجانِبُكم موفًّ حقَّه من التعظيم الذى أناف وأربىٰ ، وقدرُكم يَعْرِفه مَنْ صام وصلّٰى فَضْـلًا عمن حَجَّ ولبّٰى ، ومستَنَدُ وُدِّكم ﴿قُلْ لا أسأَلُكُمْ عليه أجْرًا إلا المَوَدَّةَ فى القُرْبىٰ﴾. وإلىٰ هذا ـ حرس الله مجْدَكم ومَقرّكم الأشرف ، كما سَحَب علىٰ البيت العتيق ظِلّكم الأوْرَف ـ فإنّ الجهادَ والحجَّ أخوان ، يشْهَدُ بذلك المَلَوان ، مرتَضِعان ثَدْىَ المناسَبَه ، ويكادان يتكافآنِ فى المحاسَبَه : سَفَرًا وزادًا ، ونِيّةً وآستِعْدادا ، وإتلافًا لمَصُون المال وإنفادا ، وخروجًا إلىٰ الله لا يُؤْثِر أهْلا ولا وَلَدا وإن آفترقَا مَحلًّا فقد آجتمعا جِهادا ، ورفعا للـلة مَنارا ساميًا وعِمَادا ، ووطَنُنا ـ والحمد لله ـ علىٰ هذا العهد المخصوصُ بكمال هذه المزِيَّه ، والقيام بفرضِ كفايتِها البحرية والبرِّية عن جميع البَرِيَّه ، [السليمة من الضَلال البَرِيَّة](١) وهذا النسب واشِجةٌ عُروقُه ، صادقةٌ بُروقه ، ومتَاتُه(٢) لا يفضُله مَتَاتٌ ولا يفُوقُه . ونحن نعرّفكم بأحوالِ هـذا القطرِ المستمسكةِ فُروعه بتلك الجُرْثومة الراسِـيَه ، الممدودة أيديه إلىٰ مثابتها المتصـدّقة بالدعاء المُواسِـيه ؛ فاعلموا أن الإسـلامَ به مع الحياةِ فى سَفَط حرِجٍ ، وفى أمرٍ مَرِجٍ ؛ وطائفةُ الحق قليـلٌ عدَدُها ، منقطِع إلا من الله مدَدُها ، مستَغْرَق يومُها فى الشِّـدّة وغدُها ؛ فالطلائع فى قُنَن الجبال تَنُور ، والمُصْحِر من بيتـه مغترّ ؛ والصَّيحةُ مع الأحيانِ مسمُوعه ، والأعداء لردّ ما آستخلصـه الفتحُ الأوّلُ مجموعه ؛ والصبر قد لُبِست مَدَارِعُه ، والنصر قد آلتُمستْ مَشارِعه ؛ والشُّهداءُ تَنُوش أشلاءَهم

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" . (٢) المتات مايمت به .

القَشَاعم ، وتحتفِلُ منهـا للعوافِى الولائم والمَطاعم ؛ والصِّبيانُ تُدرَّب علىٰ العمل بالسِّلاح ، وتُعَـلَّم أحكامَ الجهادِ تعـلُّمَ القرءان فى الألواح ؛ وآذانُ الخيل مستشرِفة للصِّياح ، ومَفَارِق الطائحين فى سبيل الله تعالىٰ تَبْـلىٰ بأيدى الرياح ؛ والمآذنُ تُجيبها النواقيسُ مناقِضــه ، وتراجِعُها مُغاضِبةً معارِضــه ؛ وعددُ المسلمين لا يبلُغُ من عَدَد الكفَّار، عُشْرَ المعشار، ولا وَبَرَةً من جلود العِشَار؛ إلا أن الله عز وجلَّ حَلَّ بولَا يتنا المَخْنَق المشْدُود، وفتح إلىٰ التيْسير المَهْيَع المسدُود، وأضْفىٰ ظلال اليُمْن الممدُود، وألْهَمَ ــ وله الشكْرُ علىٰ الإلهـام، وتسـديد السِّهام . والحمدُ لله الذى يفوتُ مَداركَ الأفهام ــ إلىٰ اجْتهادٍ قُرِن به التوفيق، وجِهادٍ نُهِج به إلىٰ النجاة المُنْجِيَـة الطريق؛ سـبحانَهُ من كريم يُلْهِم العملَ ليُثيب، ويأمُرنا بالدعاء ليُجيب ؛ فتحرَّكْنا حركاتٍ ساعَدَها ــ ولله المِنةُ ــ السعد ، وتولّى أمرَها ونُصْرتَها مَنْ له الأمرُ من قبلُ ومن بعْد .

ففتحنا مدينةَ بُرْغة الفاصلةَ كانت بين البلاد المُسْلمه ، والشَّـجَا المعترِضَ فى نَحْر الكَلِمه ؛ وتبعتها بناتٌ كُنَّ يرتضعن أخْلافَ دِرَّتها، ويتعلَّقن فى الحرب والسِّلْم بأَزْرَتها .

ثم نازلنا حصنَ آش ركابَ الغارات الكافره، ومستقَرّ الشوكة الوافره؛ فرفع اللهُ إصْرَه الثقيل، وكان من عَثْرة الدّين فيه المَقيل .

ثم قصدنا مدينــةَ الجزيرة بنتَ حاضرة الكفر، وعَرِينَ الأسود الغُلْب وكِناسَ الظِّباء العُفْر؛ فاستبحناها عَنْوة أضرمت البلادَ نارًا، ودارت بأسوارها المنيعة سِوَارا، وآستأصلْنا أهلَها قتْلًا وإسـارا ؛ وملأتِ الأيدىَ من نُقَاوة سبْى تعدّدت آلافه ، وموفُور غُنْم شذَّت عن العبارة أوصافُه .

ثم كانت الحركةُ إلىٰ مدينـة جَيّان وشُهرتُها فى المعمور، وشِياعُ وصْفها المشهور، تُغْنِى عن بَسْط مالهـا من الأمور؛ ففتحها الله علىٰ يدَيْنـا عنوة وجُعلت مقاتِلتُها نَهْبا

للسيوف الرِّقاق، وسَبْيُها مَلْكَةٌ للآسترقاق، وأهِلَّةُ مبانيها البيض دَرِيئة للمِحَاق، وآستولت على جميعها أيْدى الهَدْم والإحراق؛ ثم دُكَّت الأسوار، وعُقِرت الأشجار، وآستُخْلِف على خارجها النار، فهى اليوم صَفْصف ينشأ بها الآعتبار، وتعجب الأبصار.

وغزونا بعدها مدينة أُبَّدَةَ أختها الكبرى، ولِدَتِها ذات المحل الأسرى؛ وكانت أُسْوةً لها فى التدمير، والتَّتبير والعَفاء المُبير.

ثم نازلنا مدينة قُرطبةَ وهى أمُّ هذه البلاد الكافره، ودارُ النِّعم الوافره، وذاتُ المَحاسن السافره؛ فكدْنا نستبيحُ حِماها المَنيع، ونُشَتِّت شَملها الجَميع، ونحتَفِل بفتحها الذى [هو للدين أجل] (١) صنيع، لولا عوائقُ أمطار، وأجلٌ منته إلى مِقْدار؛ فرحلنا عنها بعد آنتهاك زَلْزَلَ الطَّوْد، ووعدْناها العَوْد؛ ونؤمِّل من فضل الله إنْفاذَ البُشْرى بفتحها على بلاد الإسلام، ومُتاحَفَةَ مَنْ بها من الملوك الأعلام، بالإخبار به والإعْلام.
وبلغ [من] (١) صُنْع الله لنا وهو كافٍ من توكَّل عليه، وفوّض الأمورَ إليه؛ أن لاطَفَنا النصرُ بحُصونٍ أربعة لم نُوجِف عليها رِكابا، ولا تملَّكتْها غِلَابا؛ فطهَّرنا بيوتَ الله من دَنَس الأوثان، وعَوَّضْنا النواقيسَ بكلمةِ الإيمان. والحمد لله على مواهب الآمتنان، ومنه نستزيدُ عوائدَ الإحسان.

وهذه المُجْمَلات تحتمل شَرْحا، تسبَحُ فى بحره سِنَانُ الأقلام سَبْحا؛ من أوصافِ مَغانم شذَّتْ عن الحَصْر، ومواقِفَ لتنزُّل السكينة وهُبوبِ النَّصْر؛ وماظهر من جِدّ المسلمين فى آفتتاح تلك المَعاقل المَنيعة المُنيفه، ومقارعةِ الجموع الكَثيفه؛ وبركةُ الحرمِ الشريف فى كل حالٍ موجوده، وأقطارُ الإسلام بها مَجُوده، والوسائلُ إلى الله بأهْله فى القديم والحديث لا مُخَيَّبةٌ ولا مَرْدُوده؛ فهو الأصل، والغِمْد الذى سُلّ

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الريحانة .

منه النَّصل ، حتّى بلغ التخُومَ القاصيه ، وذلّل الممالك المتعاصيه ، وقاد مَنْ تَقاعدَ أو تقاعَس بالناصيه .

وقد ظهر لنا أن نوجّه الى المدينة المقدّسةِ صلواتُ الله على مَنْ بها وسلامُه رسالةً نعرّفه بهذه البركات الهاميةِ من سماء عِنايته المعدودِ خارقُها آيةً من آياته ، وكلُّنا جُنَاه ، وما كُنّا لنهتَدِىَ لولا أنْ هدانا اللهُ بِهُدَاه ، وأصحبْناها أشخاصًا من نوَاقيس الفرَنْج ممـا تأتّى حمله ، وأمكن نَقْلُه ، وما سواه فكانت جِبَالا ، لايقبل نقْلُها آحتيالا ، فتناولَ درعَها المَسْخ والتكسير ، وشُفِى بذَهَاب رسُومها الاقامةُ والتكْبير ، والأذانُ الجَهير ، ومرادُنا أن تُعْرَض بمجتمَع الوفُود تذْكرةً تسـتدْعى الإمْدادَ بالدعاء ، وتقتضى بتلك المَعَـاهد النَّصْر على الأعداء ، ثم تُصْحَب رِكَاب الزِّياره ، الى أبواب النبُوّة ومطَالع الإناره ، وأنتم تعملون فى توفيَة هذه الأحوال ورِعَايتها ، وإبلاغها إلى غايتِها ، مايليق بحسَبِكم الوَضّاح ، ومَجْدكم الصُّراح ، وشَرَفكم المتبلِّجةِ أنواره تبَلُّجَ الإصباح (فأنتم خيرُ من ركب المطايا وأنْدىٰ العالَمين بطُونَ راحْ) ولكم بذلك الحظُّ الرَّغيب فى هـذه الأعمال البَرَّه ، والله سبحانَهُ لايُضِيعُ مثقال الذَّرَّه ، وهو سبحانه يتولّاكم بما تولّى به من أعَزَّ شِعارَه وعظَّمها ، ورَعىٰ وسائلَهُ وآحترمهـا ، ويصِلُ أسبابَ سـعدكم ، وينَفعُكم بقَصْدِكم . والسـلامُ الكريم ، الطيِّب البَرُّ العميم ، يُحَيِّي مَعاهِدَكم الكريمـةَ علىٰ الله عُهودُها ، النامية بغمائم الرَّحَمات والبركات عُهودُها ، ورحمةُ الله وبركاته .

وربمـا قُدِّم علىٰ لفظ المقرّ صلةٌ يُعتَمَدُ عليها فى البُداءة .

كما كتب عنه أيضا فى معنىٰ ذلك إلىٰ أمير المدينة النبوية علىٰ ساكنها سيدنا محمد افضلُ الصلاة والسلام .

يعتمِد المقرُّ الأشرفُ الذى طاب بطَيْبة نَشْره ، وجَلّ بإمارتها الشريفة أمْرُه ، وقُدِّر فى الآفاقِ شَرَفُه وشَرُف قـدرُه ، وعظُم بخِدْمة ضريح سـيدِ ولدِ آدم فخْرُه ،

[أبقاه اللهُ منشرِحا بجوار روضة الجنة صدره، مُشْرقا بذلك الأفق الأعلىٰ بدره،](١) ذائعًا علىٰ الألسُن المـادحةِ، فى الأقطار النازحة، حمدُه وشُكْره، مُزْرِيًا بشَذَا المِسك الأذْفَر فى الجمـع الأوْفَرِ ذكْره، تحيـةَ مُعظِّم ما عظَّم اللهُ من دار الهجـرة دارِه، ومَطْلَع إبْدارِه، الملتَمس بركة آثاره، المتقرِّب إلىٰ الله بحبِّه وإيثاره . فلان .

أما بعدَ حمدِالله الذى فضَّل البُقَع بخصائصها الكريمة ومَزَاياها، تفْضيلَ الرِياض الوَسِمية بَرِيَّاها، وجعل منها مَثَاباتِ رحمةٍ تضرِبُ إليها العبادُ آباطَ مَطَاياها، مؤمِّلةً من الله غُفرانَ زَلَّاتها وحَطَّ خَطَاياها، وخَصَّ المدينةَ الأمينةَ بضَريح سيدِ المرسَلين فأسعَدَ منها مَمَـاتها ومَحْياها، ورفَع عُلْياها .

والصـلاةِ علىٰ سـيدنا ومولانا محمدٍ رسولِه الكريم، الرءُوف بالمؤمنينَ الرَّحيم؛ مُطْلِـعِ أوجُه السعادة ببُرُوق مُحَيَّـاها، ومُوضِّح أسرارِ النَّجاة ومبَيِّن خَفَاياها؛ الذى تَدارَكَ الخليقةَ بهَدْيه وكَشَف بَلَاياها، ورعىٰ لسُنَّةِ اللهِ رَعَاياها، وجمع بينَ صلاحِ دينِها ودُنْياها .

والرِضا عن آله وصَحْبـه، وعِتْرته وحِزْبه؛ التى كُرمتْ سَجَاياها، وعظُمَتْ ألطافُها الهـاديةُ وهَدَاياها؛ وجاهدتْ بعـده طوائفَ الكُفَّار، تُشَعْشِع لهـا فى أكْواس(٢) الشِّفَار، مَنَاياها، وتُطْلِـع عليهـا فى الليل البَهِيم، سَـنا الصَّباح الوَسِيم؛ من غُرَرِ سَرَاياها، وتَسُدّ بغَمَام الأسِنَّة ورِيَاح ذَواتِ الأعِنَّة ثناياها .

والدعاء لَمقَرّ أصالتِكم الشريفةِ حيَّاها اللهُ وبَيَّاها، كما شَرَّفها بوِلادة الوصيّ الذى قرّرَ وَصَاياها، وسُلالةِ النبيّ الذى أعظَمُ مَوَاهِب فَخْرِها منه وعَطَاياها، بالسَّعادة التى تُبْرِزُ أكفُّ الأقدار علىٰ مرور الأعصار خَبَاياها، والعِزِّ الذى يُزاحِم فرقَدَ السماء وثُرَيَّاها .

(١) الزيادة من ''ريحانة الكُتّاب'' .

(٢) كذا فى الريحانة أيضا وابن الخطيب يستعمل هـذا الجمع كثيرا ولكن الذى فى كتب اللغة أن جمع الكاس أكؤس وكئـوس وكئاس .

فانا كتبْناه إليكم ـ كتب الله لكم من مَوَاهِبِ الصُّنْع الجميل أغْياها ، كما طَيَّب بِذِكْركم أطرافَ البَسِيطة وزَوَاياها ؛ وجعلَ فَخْرَ الجوَار الكريم فى عَقِبكم كلمةَ صِدْق لاتختَلِفُ قضَاياها ، مامَرَّضتِ الرِّياضُ مُوَرَّساتِ عَشَاياها ؛ بجعلَتْ من النَواسِم مشمُومَها ومن الأزهار البَوَاسِم حَشَاياها . من حَمراءِ غَرْناطة ـ حرسها الله ـ ونِعمُ الله يَحُوكُ حُلَلَها الجِهاد ، والسيوفُ الحِدَاد ، وتلْبَسها البلادُ والعبادُ ، وتتزَيَّاها . وفُلُول الكفر ناكصةٌ علىٰ الأعقابِ ، من بعد شَدِّ الوَثَاق وضَرْب الرقاب ، خَزَايَاها ؛ وبركاتُ حَرَم النبيّ الوجيهِ علىٰ الله يستظِلُّها الإسلامُ ويتفَيَّاها ، ويَنْقع الغُلَلَ من رَوَاياها .

والحمد لله كثيرًا كما هو أهلُه ، فلا فضلَ إلا فضْلُه ؛ ولمَعَاهِدكم الكريمةِ الارتياح ، كُلَّما أوْ مَضتِ البُروقُ وخفقَت الرِّياح ؛ ولِسَنِيّ عنايتَها الالتماح ، إذا اشتجرت الرِّماح ؛ وفى تأميل المثُول بها تُعْمَل الأفكارُ وإن هِيضَ الجنَاح ، وبِهُداها الاستنارةُ اذا خَفِىَ للمَرَاشد الصَّباح ، وبالاعتمال فى مَرْضاة من ضَمَّه منها الثَّرىٰ الفَوَّاح ، والصَّفيحُ الذى تُراث ساكِنِه العواملُ المجاهدة والصِّفاح والجهادُ الصُّراح ، يَعْظُم فى الصَّدْر الانشراح ، ويَعِزُّ المَغْدىٰ فى سبيل الله والمَرَاح .

وإلىٰ هذا أجزل الله مسرّتكم بظُهور الدين ، واعتلاء صُبْحه المُبين ؛ فاننا نعرّفُكم أننا فتَح اللهُ علينا وعلىٰ إخوانكم المؤمنين بهذه الثُّغور المنقطعة الغربيَّه ، المادَّة علىٰ الآمادِ البعيدةِ بالذِّمم العربيَّة ؛ فُتوحًا حَوَّزَتْ من مملكة الكُفْر البِلاد ، ونَفَّلت الطارِفَ والتِّلاد ؛ حسَبَ ما تنُصُّه مخاطبَتُنا إلىٰ نبينا الكريم الذى شرَّفكم الله بخدْمة لحَدْه ، واستخلفَكُم علىٰ دار هِجْرته من بعدِه ؛ إذ لاحاجةَ إلىٰ التَّكْرار بعد ما شُرحت به الصُّدُور من الأخبار ، فى الإيراد والإصدار ؛ ووجَّهنا صُحبَتَها من النَّواقيس التى كانت تُشيع نِداءَ الضَّلال ، وتُعارضُ الأذانَ بجِلاد الجِدال ، وتُبادرُ أمْرَ التِّمثال

بالامتثال، مايكونُ تَذْكِرَةً تحِنُّ بها القلوبُ إلىٰ هذه الطائفة المُسلِمة إذا رأتْها، وتنتظرُ قَبولَ الدعاءِ لها من الله كُلَّمـا نظرَتْها ، ونتصوّر الأيدِىَ المجاهدةَ التى جَنَتْها من أفنانِ المستَشْرِفات العاليةِ واهتصَرَتْها إذا أبصرَتْها .

وهذا كلُّه لايتحصَّلُ علىٰ التَّمـام إلا بمشاركةٍ منكم تُسَوّغه ، وإعانةٍ تؤدِّيه وتُبَلِّغه ؛ تُشِـيع لكم عند تعرُّفها الثناءَ الدائمَ التَّرداد ، والدعاءَ بحُسن المكافأة من ربِّ العِباد ، وسَهْمَكم فى أمرِ الجهاد ؛ وأنتم تعملون فى ذلك بما يناسبُ مثلَكم من الشُّرَفاء الأمجاد ، واللهُ عز وجلَّ يواليكم بنِعَـمه الثَّرَّةِ العِهـاد ، ويعرِّفُكم عوارفَ السـعادة فى المَبْدإ والمَعَـاد ، ويختِمُ لنا ولكم بسعادةِ المَعَـاد ؛ والسـلامُ الكريم يخصُّكم عَوْدا علىٰ بَدْء ورحمةُ الله تعالىٰ وبركاتُه .

الضربُ الثـالث

(أن تُفتَتَح المكاتبـــةُ بلفظ الإمارة)

بأن يقال : الإمارةُ التى نَعْتُهـا كذا وكذا إمارةُ محـلِّ أخينا فلان ، ويُدْعىٰ له . ثم يقال : معَظِّم إمارته ، أو معظم أُخُوَّته فلان . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أمّا بعد حمد الله ، ويُؤْتىٰ بخطبة ؛ ثم يقـال : فإنا كتَبْناه إليكم كَتَب الله لكم كذا وكذا من موضع كذا ؛ ثم يُتخَلَّص إلىٰ المقصود بلفظ وإلىٰ هذا ، ويؤتىٰ علىٰ القَصْد إلىٰ آخره ، ويُختَم بالسلام علىٰ نحو ما تقـدّم فى غيره من الضروب ، وبذلك يُكْتَب إلىٰ الأمراء من أبناء الملوك وغيرهم . كما كتب ابنُ الخطيب عن ابن الأحمر إلىٰ أبى علىٍّ النـاصرِ ابن السـلطان أبى الحسن المَرِينىّ بفاس ، عنـدَ ما أرسله والدُه إلىٰ ناحيـةٍ من النَّواحى لِعمارتها وإصلاحِ حالهـا ، مهَنِّئًا له بمـا أجراه اللهُ علىٰ يديه من الصَّلاح ، وهو :

الإمارةُ التى لها المَكارمُ الراضيه، والعَزائمُ الماضيه، والجَلالةُ الراقيه، والأعمالُ الصالحةُ الباقيَه، إمارةُ محلّ أخينا الذى نُعَظّم مجدَه السامى الجَلال، ونُثْنى علىٰ شِيَمِه الطاهرةِ الخِلال، ونعتدُّ بوُدِّه الكريم الأقوال والأعمال، ونُسَرّ بما يسنِّيه الله لعزه الفسيح المجَال، من عوائد اليُمْن والإقبال .

الأميرُ الأجلّ، الأعزّ، الأسمىٰ، الأطْهر، الأظْهر، الأسْنىٰ، الأسعد، الأرْشَد، الأرضىٰ، المؤيَّد، الأمضَى، الأفضَل، الأكمل، أبو علىّ الناصر ٱبن محَلّ أبينا الذى نُعظِّمه ونُجِلُّه، ونُوجبُ له الحقَّ الذى هو أهلُه، السلطان الجليل الكذا أبو الحَسَن ٱبنُ السلطان المؤيَّدِ، المُعان المظفَّر، صاحبِ الجُود الشهيرِ فى الأقطار، والفَضْلِ المتألِّق الأنوار، والمَآثِرِ التى هى أبهىٰ من مُحَيَّا النهار، أميرِ المسلمين، وناصرِ الدين، المجاهِدِ فى سبيل ربِّ العالمين، أبى سعيد ٱبن أمير المسلمين وناصر الدين، قامعِ الكافرين، المجاهِدِ فى سبيل رب العالمين، أبى يُوسُف بن عبد الحق . أبقاه الله والسعودُ اليه مبتدِرة مستبِقه، والمَسَرّات لديه منتظمة متَّسِقه، وغُرَر أيامه واضحةٌ مُشْرِقه، والأهواءُ علىٰ محبته متَّفِقه. معظِّم إمارتِه الرفيعةِ الجانب، القائمُ من إجْلالها ونَشْرِ خِلالها بالحقِّ الواجب، المثْنِى علىٰ مالَهَا من السِّيَر الفاضلة المَذَاهب، والأصالةِ الرفيعة المَناسِب، والبَسَالةِ الماضيةِ المَضَارب، والمَكارمِ التى تشهَدُ بها مواقِفُ الجهاد، وظُهورُ الجياد، وصحائفُ الكُتُب وصَفائحُ الجِلاد، الأميرُ عبدُ الله يوسف ٱبن أمير المسلمين، أبى الوليد إسماعيلَ بن فَرَج بن نصر . سلامٌ كريم، بَرٌّ عَميم، تتأرّجُ الأرجاء من طِيب نَفْحته، ويُشْرِق نورُ الوُدِّ الأصيلِ علىٰ صفحته، يخُصُّ أُخُوّتكم الفاضله، وإمارتكم الحافِله، ورحمةُ الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى شرح بالتوكل عليـه صدورا ، و[جعل الودّ فى ذاته كنزا مذخورا](١) والأعمال التى تقرّب إليـه نورا ؛ والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى بعثـه بالحق هاديا وبالرُّعب منصورا ، ورفع لدعوته العاليـة لواءً من عنايتـه منشورا ، واختاره لإقامة دين الحق والأرض قد ملئت إفكا وزورا ، حتّى بلغ ملك أمته ما كان منها معمورا .

والرِّضا عن آله وأحزابه الذين اتّسـقوا فى قلائد ملّته الرفيعة شـذورا ، وطلعوا فى سمائها بدورا ، وبذلوا نفوسهم النفيسةَ فى نصره وإعلاء أمره فكانت شفاعته لهم جزاءً وكان سعيهم مشكورا .

والدُّعاء لإمارتكم العالية بالسعد الذى يصاحب منه ركابها مددا موفورا ، والتوفيق الذى يوسـع عملها نجحا وأملها سرورا .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم سـعدا متجدّدَ الإحكام ، وصنعا مشرق القسام وافر الأقسام ، وعرّفكم ماعوّدكم من عوارف الإنعام ، وعوائد النصر الواضح الأعلام ـ [ولازائد بفضل الله سبحانه ، ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى أوضح برهانه ، ثم بما عندنا من التشيّع فى مقام محلّ أبينا والدكم السلطان الجليل ، أسعد الله سلطانه ! ومهّد به أوطانه ! إلا مايرجى من عوائد الله الجميله ، ومننه الجزيله ، وألطافه الكافية الكفيله](١) وعندنا من التعظيم لتلك الإمارة الرفيعة ماهو أشهر من الشهير ، وأعظم من أن يحتاج إلى التفسير ، فلا نزال نعتدّ لجانب أخوّتها بالعتاد الكبير ، والذخر الخطير ، ونثنى على مكارمها بالقلم واللّسان والضّمير . وإلى هذا أيّد الله إمارتكم ، وسنّى إرادتكم ، وأسعد إدارتكم ؛ فقد علم الغائب والشاهد ، والصادر والوارد ؛ ماعندنا لكم من الحبّ الذى

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

صـفَتْ منـه الموارد ، والولاءِ الذى تضوّعَتْ من طِيبِـه المعَاهد ؛ وإننا تعرَّفْنـا ما كان من قدومكم السعيد على أحواز المَرِيَّة من تلك الأقطار، وطُلوعكم عليها بالعَزْم الماضى والجَيْش الجَرّار . وأن محـلَّ والدنا وصل الله له عُلُوّ المقدار، قدّمَ منكم بين يَدَيْه مُقدِّمة اليُمْن والاَستبشار، ورائدَ السعادة المشْرِقة الأنوار، بخلال مايتلاحقُ بها رِكابُه العالى قدْرُه على الأقدار؛ وأن مَخايِل النُّجْح لإمارتكم الرفيعة قد ظهرَتْ ، وأدلَّةَ الصُّنْع الجميل قد بهرَتْ ؛ ومَنْ بتلك الجهات ، من القبائل المختَلِفات ، بالطاعة قد ٱبتدَرَتْ ؛ وبأوامِرِها الإماريَّة قد ٱئْتمَرَتْ ؛ وأنكم قد أخذتُمْ فى تسكين الأوطان وتمهيدها ، وٱستئنافِ العزائم وتَجْديدها ، [وإطفاء نار الفتَن وإخمادها](١) وإعلاءِ أركان تلك الإيالةِ ورَفْع عِمادها ؛ فكتَبْنا إليكم هذا الكتاب نهنِّئكم بما سَنَّاه الله لمجْدكم الرفيع ، من حُسْن الصَّنيع ؛ ونُقرِّر ماعندنا من الوُدِّ الكريم ، والحُبِّ الصَّميم ، ونستفْهِم عن أحوال أُخُوّتكم لنكونَ من علمها على السَّنَن القويم ؛ وحتَّى لاتزالُ الأسبابُ متَّصله ، والمودّةُ جديدةً مقتَبِله ؛ ولولا العوائقُ المانعه ، والشُّقَّةُ البعيدةُ الشاسعه ، والامواجُ المترامِيةُ المتدافِعه ، لم نُغِبَّ المخاطَبه ، ولوصَلْنا المراسلةَ والمكاتبه ؛ ومجدُكم يقْبَل الأعذار الصحيحةَ بمقتضى كماله ، ومعْهودِ إفضاله ؛ والله تعالى يُصْلح بكم الأحوال ، ويسَكِّن الأهوال ، ويُبَلِّغكم من فضله الآمال . وغَرَضُنا أن تعرِّفونا بمـا لديكم من المتزيِّدات ، والصنائع المتجَدِّدات ، وبما عندكم من أحوال محلِّ أبينا وصَل الله عوائد النَّصر لسلطانه ، وتكَفّل بإعلاء أمره وتمهيد أوْطانه . وقد كتَبْنا إليه صحبةَ هذا كتاباً غرَضُنا من أُخُوّتكم الطاهرة ، أن يَصِـلَ إلى حضرته العلية تحتَ عِنايتكم ووصَاتكم ، والرعايةِ التى تليق بذاتكم ؛ وهو سبحانه يَصِل سعْدكم ويحرُس مجدكم ، ويحفَظ ولاءكم الكريمَ ووُدَّكم ؛ والسلامُ الكريمُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الاســـــلوب الثــانى

(أن تُفتَتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه أو المكتوب عنه، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تُفْتَتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه تعظيمًا له)

والرسم فيه أن يقال : إلىٰ فلان، ويُنْعَت بما يليق به؛ ثم يُؤتىٰ بالسلام، ويقال : أما بعد ويؤتىٰ بخطبة، ثم يقال: فإنا كتبناه إليكم كتبَ اللهُ لكم كذا وكذا، من موضع كذا، ويُتَخلَّص إلىٰ المقصود بلفظ «وإلىٰ هـذا» ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره ويُخْتم بالســـلام .

كما كتب ابنُ الخطيب عن سلطانه ابن الأحمر إلىٰ الأمير يَلْبُغا العُمَرىّ الشهير بالخاصِكىّ : أتابك العساكر بالديار المصرية فى الدولة الأشرفيَّة «شعبان بن حسين» .

إلىٰ الأمير المؤتمَن علىٰ أمر سلطان المسلمين، المقلَّد بتدبيره السديد قلادةَ الدِّين، المُثنِي علىٰ رُسوم بِرِّه المُقامةِ لسانُ الحَرَم الأمين، الآوِى من مرضاة الله تعالىٰ ورسولِهِ إلىٰ رَبْوة ذاتِ قرار ومَعين، المستعينِ من الله علىٰ ما تحمَّله وأمَّله بالقوىّ المُعين؛ سيفِ الدَّعْوه، رُكنِ الدوله، قِوَامِ المله، مؤمَّل الأمَّـه؛ تاجِ الخَوَاصّ، أسـدِ الجُيوش، كافِى الكُفاة؛ زينِ الأُمراء، عَلَم الكُبَراء؛ عَيْن الأعيان، حَسَنةِ الزمان؛ الأجَلّ، المُرفَّع، الأسنىٰ، الكبير، الأشهر، الأسمىٰ، الحافِل، الفاضِل، الكامل المعظم، الموقَّر، الأمير، الأوحد، «يَلْبُغا الخاصكى» وصل الله له سـعادةً تُشْرِقُ غُرَّتُها، وصـنائعَ تَسِحُّ فلا تَشِحُّ دِرَّتُها، وأبقىٰ تلك المثابةَ قلادةَ اللهِ وهو دُرَّتُها؛ سلام كريم، طيب عميم؛ يخص إمارتكم التى جعل الله الفضلَ علىٰ سعادتها أماره،

واليُسْرَ لهـا شاره؛ فيساعد الفلكَ الدوّارَ مهـما أعمَلَتْ إداره، وتمتثل الرسومَ كُلَّما أشارتْ إشاره .

أما بعد حَمـدِ الله الذى هو بعِلْمه فى كل مكان ، من قاصٍ ودان ، وإليه تُوجَّه الوجوهُ وإن آختلفت السِّـيرُ وتباعدتِ البُلْدان ، ومنه يُلْتَمَس الإحسان ؛ وبذكره يَنْشرح الصدرُ ويطمئنُّ القلب ويمرحُ اللِّسان .

والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا ومولانا محمد رسولِه العظيم الشان ، ونبِّيـه الصادق البَيَان، الواضحِ البُرْهان .

والرضا عن آله وأصحابه ، وأعمامه وأحزابه ، أحْلاسِ الخَيْل ، ورُهبان الليل ، وأُسُودِ المَيْدان .

والدعاءِ لإمارتِكُم السـعيدة بالعزِّ الرائق الخَبَر والعِيان ، والتوفيقِ الوثيقِ البُنْيان ؛ فإنا كتبناه إليكم ــ كتب الله لكم حَظًّا من فضله وافرًا ، وصَنيعا عن مُحَيَّا السُّرور سافِرا، وفى جَوِّ الإعلام بالنِّعم الجِسام مُسافِرا . من حمراءِ غَرْناطة ــ حرسها الله ــ دار الملك بالأندَلُس ، دافع الله عن حَوْزتها كيدَ العُدَاه ، وأتحف نصلَها ببَوا كر النَّصر المُهْداه ؛ ولا زائدَ إلا الشوقُ إلىٰ التَّعارُف بتلك الأبواب الشريفة التى أنتم عُنْوانُ كِتابِها المرقُوم ، وبيتُ قصيـدِها المنْظوم ، وآلتماسُ بركاتها الثابتة الرُّسُوم ، وتقريرُ المُثُول فى سبيلِ زيارتها بالأرواح عند تعذُّره بالجُسُوم .

وإلىٰ هذا فإنَّنا كانتْ بين سَلَفِنا ــ تقبَّلَ اللهُ جِهادَهم وقدّس نُفُوسَهم وأَمَّن مَعادَهم ــ وبَيْن تلك الأبوابِ السلطانية ــ ألقىٰ اللهُ علىٰ الإسلام والمسلمين ظِلالَها ، كما عرّفَهُم عَدْلها وإفْضالَها ــ مراسلةٌ يَنِمُّ عَرْفُ الخُلُوص من خِلالهـا ، وتسطَع أنوارُ السعادة من آفاق كَمالها ، وتُلْتَمَح من أسطار طُرُوسها محاسنُ تلك المعاهد، الزاكيةِ المَشَاهد،

وتُعْرِب عن فضل المَذاهب وكَرَم المَقاصد، آشتقْنا إلىٰ أن نُجَدِّدها بحُسْن مَنابِكم، ونَصِلَهَا بمواصلة جَنابكم، ونَغْتنِمَ فى عَوْدها الحميد مكانَكم، ونفضل لها زمانكم، بخاطبْنا الأبوابَ الشريفةَ فى هذا الغَرَض بخاطبةٍ نَجلةٍ من التقصير، وجِلةٍ من الناقد البصير؛ ونُؤمِّل الوصول فى خِفَارة يَدِكُم التى لها الأيادِى البِيض، والمَوَارِد التى لا تَغيض؛ ومِثْلُكم من لا تخيب المقاصد فى شمائله، ولا تَضْحىٰ المَآمِلُ فى ظِلِّ خَمَائله؛ فقد آشتهرَ من عظيم سِيرتِكم ماطَبَّق الآفاق، وصَحِبَ الرِّفاقَ وآستلزم الإصْفاق؛ وهذه البلادُ مباركه، ما أسْلف أحَدٌ فيها مُشَاركه؛ إلا وجَدَها فى نَفْســه وماله ودِينه وعياله، واللهُ أكرمُ مَنْ وَفَّى لآمرئٍ بمكياله؛ والله جل جلالُه يجمع القلوبَ علىٰ طاعته، وينفَعُ بوسيلة النبيِّ الذى نُعَوِّل علىٰ شـفاعته؛ ويُبقِى تلك الأبوابَ ملجأ للإسـلام والمسلمين، وظِلًّا لله علىٰ العـالَمين، وإقامةً لشـعائرالحَرَم الأمين؛ ويتولَّى إعانةَ إمارتِكم علىٰ وظائف الدِّين، ويجعَلكم ممن أنْعَمَ الله عليه من المجاهِدين؛ والسلامُ الكريمُ يخصُّكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

الضــــرب الثـانى

(أن تُفتتَح المكاتبة باسم المكتوب عنه، وهو علىٰ صنفين)

الصنف الأوّلُ

(مايُكتَب به إلىٰ بعض الملوك)

والرسمُ فيه أن يقال : من فلان إلىٰ فلان، بألقابه ونعوته ونُعُوت آبائه علىٰ ما تقـدّم؛ ثم يؤتىٰ بالسلام، ويقال أما بعـد حمد الله، ويؤتىٰ بخطبة ثم يقال فإنا كتبناه إليكم كتَب الله لكم كذا؛ ثم يقال : وإلىٰ هذا فإن كذا وكذا، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره، ويختم بالدعاء ثم بالسلام علىٰ نحو ما مَرَّ .

كما كتب ٱبن الخطيب عن ٱبن الأحمر إلى بعض مُلُوك الغَرْب يهنّئه بدخول مدينة بِجاية فى طاعته ماصورتُه :

من أمير المسلمين عبدِ الله محمد، ٱبن مولانا أميرِ المسلمين أبى الحَجَّاج، ٱبن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نَصْر أيَّد الله أمْرَه، وأعز نصره، إلى محلِّ أخينا الذى نَصِلُ له أسبابَ الإعظام والإجْلال، ونُثْنِي عليه بما لَهُ من كريم الشِّيَم وحَمِيدِ الخِلال، ونُسَرُّ له ببلوغ الآمال، ونَجَاح الأعمال، فى طاعة ذى الجَلال، السلطان فلان ٱبن السلطان فلان، بالألقاب اللائقة بكل منهم، وصَلَ الله له سعْدًا متصِلَ الدَّوام دائمَ الاتِّصال، وصُنْعا تتجلّى وجُوهُه من ثَنايَا القبول والإقبال، وعِزًّا تتفَيَّأ ظلالُه عن اليَمين والشِّمال، سلامٌ كريم، برٌّ عَمِيم، يخُصُّ سلطانكم الأسْنىٰ، ويعتمد مقامكم المخصوصَ بالزيادة والحسنىٰ، ورحمةُ الله وبركاتُه.

أما بعدَ حمدِ الله الواهبِ الفاتح، المانِع المانِح، مُظهِر عنايته بمَن خَاَّص إليه قَصْدَه، وقَصَر علىٰ مالديه صَدَره ووِرْدَه، أبْدىٰ من مُحَيَّا النهارِ الواضِح. الذى وعد مِن ٱتَّقاه حقَّ تُقَاته، علىٰ ألسِنةِ سَفَرة الوَحْى وثِقَاته، بُنجْح الخَواتم والفَواتح.

والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا ومولانا محمدٍ رسوله المبتعَث لِدَرْء المفاسد ورَعْيِ المصالح، وسعادةِ الغادى والرائح، مُنقذِ الناسِ يوم الفَزَع الأكبر وقد طاحَتْ بهم أيْدى الطَّوائح، وهاديهم إلىٰ سَوَاء السبيل بأزِمَّة النَّصائح، ومُظْفِرهم من السعادة الدائمةِ بأربَح البضائع وأسْنىٰ المنَائح.

والرضا عن آله وأصحابه، وعِتْرته وأحزابه، الذين خَلَفُوه ٱمتثالًا لأمْر الصَّحائف وإعمالًا للصَّفائح، وكانوا لأُمَّته من بعده فى الاِقتداء بسُنَّته والمحافظة على سَنَنه كالنُّجوم اللوائح.

والدعاء لسلطانكم الأسمىٰ ، بالسَّعْد الذى يَغْنىٰ بوَثاقة سببه ، ووُضُوح مذهبه ، عن زَجْر البـارِح والسانِح ، والعِزِّ البَعيــد المَطَارح ، السامى المَطَامِح ، والصــنع الجميل الباهر المَلَامِح ؛ ولا زال توفيقُ الله عائدًا علىٰ تدبيركم السعيد بالسَّعْى الناجح ، والتَّجْر الرابح .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم من فضله أوْفَر الأقسام وأوْفَاها ، وأوردكُم من موارد عنايته أعذَبَ الجِمَام وأصْفاها ، كما أســبغَ عليكم أثوابَ المواهب وأضْفاها .. [وأبدى لكم وجوهَ اللطائف الجميــلة وأحفاها] (١) من حمراءِ غَرْناطة ـ حرسها الله ـ وفضلُ الله هاميةٌ ديَمُــه ، وعوائدُ اللُّطْف يَصِلُها فضلُه وكرمُه ، والإسلام بهذا الثغرِ الجهادىّ مَرْعِيَّة ذِممه ؛ وجاهُ النبوّة المحمديَّة يَعْمَلُ بين إرغام العدُوّ الكافر ، و إهداء المَسَرَّات والبَشَائر ، سَيْفُه وقلَمُه . والسُّرور بمـا يبْلُغ من مَزِيد سَـعْدِكم وميضُـه خافِقٌ عَلَمُه ؛ وودُّكم ثابت فى مواقف الخُلُوص قَدَمُه .

وقد آتصل بنا ما كان من دخولِ حضرة بِجاية حرسها الله فى طاعتكم ، وآنتظامِها فى سِلْك جماعتِكم ؛ وآنقطاعِهـا إلىٰ عِصْمتكم ، وتمسُّكها بأزِمَّتكم ؛ وعقدِكم منهـا ومن أختهـا السابقةِ الذِّمام ، الخليقةِ بمَزِيدِ الآهتمام ؛ علىٰ عقيلَتَى الأقطار التى لايجمَع بينهما إلا مَلِك هُمَام ، وخليفةٌ إمام ؛ ومَنْ وضَحت من سـعادته أحْكام ، وشُهِّرت بعنـايةِ الله له أدلَّةٌ واضحــةٌ وأعلام ؛ ومن جَمَع الله له بين البَرِّ المتراكض الخُيول ، والجيشِ المتدافع السُّيول ، والخِصْب الذى تُنْضِى مَوَاجده المستنجزةُ ظهورَ الحُمُول ؛ و بين البحرِ الشهير بنَجْدة الأسطول ، و إنجازِ وعد النصر المَمْطُول ؛ ومَرْسىٰ السُّفُن التى تخوض أحشاءَ البِحار ، وتجلُبُ مَرَافِقَ الأمطار والأقطار ، وتُتْحِف علىٰ النَّأْى بطُرَف الأخبـار .

(١) الزيادة من الريحانة .

بجايةُ وما بجَاية ! دارُ المُلْكِ الأصـيل العتيق، وكرسيُّ العزِّ الوَثيق، والعُـدّه، إذا تُوُقِّعتِ الشِّدّه، كم ثبَتَتْ علىٰ الزِّلْزال، وصابرتْ مواقِفَ النِّزال، أمْطاكم السَّعدُ صَهْوتَها، وأحلَّكم التوفيقُ رَبْوتَها، من غير مُطاولةِ حصار، ولا آستِنْفادِ ذي وُسْعٍ وآقتدار، ولا تَسَوُّرِ جِدَار، فأصبحت دولتُكم السعيدة تتفيأ [جَنَىٰ الجنَّتين، وتختال في حُلَّتين، وتجمع بفُتْيـا(١)] السيوفِ المـالكيَّةِ بين هاتين الأختين، أوزعكم اللهُ شُكرَها من نعمةٍ جلَّت مَواهبُها، ووضَحَتْ مـذاهِبُها، وصَنيعةٍ بَهَرت عجائبُها.

وإذا كانت عقـائلُ النِّعم تَخْطُب أكفاءَهـا، وموارِدُ المِنَنِ تَعْـرِض علىٰ الوُرّاد صَفاءَها، فأنتم أهلُها الذين لكم تُذْخَر، وبِمَنْ دُونَكم تَسْخَر، فإنكم تميزْتم بخِصال العَـفَاف والبَسَاله، والحَسَب والجَلَاله، وأصـبحتُمْ في بيتِكم صَـدْرا، وفي هالَةِ قومكم بَدْرا، مَوَاقِفُكم شَهِيره، وسِيرتُكم في الفضل لا تَفْضُلها سِيره، ونحن نهنِّئكم بمـا مَنَحكم اللهُ من آنفساح الإيالة، ونُمُوِّ الجَلَاله، والنِّعَم المُنْثاله، بسـلطانٍ ألقىٰ عِنانَهُ إلىٰ مثلكم قد آختاره لِقيادِه، وآرتادَ فسَعِد في آرْتيادِه، وتكفَّل الحزمُ بحفظ بِلادِه، وصَوْنِ طارِفِه وتِلادِه، وكأنَّ به قد آسـتولىٰ علىٰ آمادِه، وتطاولَ لإرث أجدادِه. ولنا فيكم ـ علم الله ـ وُدٌّ [تأسَّسَ بناؤه، وكَرُمت أبناؤه(١)] وحُبٌّ وجب بالشرع إنفاذُه إليكم وإنهاؤه. وغرضُنا الذي نُؤْثِره علىٰ الأغراض والمَقاصد، ونقدِّمُه بمقتضىٰ الخُلُوص الذي زكَتْ منه الشَّواهد، أنْ نتصـلَ بيننا وبينكم المخاطبـه، ونتعاقَبَ المواصلةُ والمُكاتبه، واللهُ عزَّ وجلَّ المعينُ علىٰ مايجب لودِّكم من بِرٍّ تكفل واجِبُه، وتوضِّح مذاهبُه، وآعتقادٍ جميلٍ يتساوىٰ شاهدُه وغائبُه، وهو سبحانه يَصِل سعدَكم، ويحرُسُ مجْدَكم، والسلام الكريمُ يخصُّكم ورحمةُ الله وبركاته.

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

الصنف الثـانى

(ما يكتب به إلىٰ الرّعايا)

والحكم فيه علىٰ نحو ماتقدّم فى الصِّنف الذى قبله ، إلا أنه يخاطبهم بأوليائنا .

كما كتب آبنُ الخطيب عن آبن الأحمر أيضًا إلىٰ بعض رعَاياه بمدينة المَرِيَّة بالأندَلُس ، بالبشارة بموت الطاغيةِ ملِكِ قَشْتالة بجبَل الفتْح ، ورحيلِ قومه به إلىٰ بلادهم ماصورته :

من الأمير عبدِ الله يوسفَ ، آبن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيلَ بنِ فَرَج آبن نصر أيّد اللهُ أمره ، وأعز نصره ، وأسعد عَصْره ؛ إلىٰ أوليائنا فى الله تعالى الذين نُبادِر إليهم بالبشائر السافرةِ الغُرَر ، ونجلُو عليهم وجوهَ الصنائع الإلٰهيَّة كريمةَ الخُبْر والخَبَر (١) ، ونَعْلَم مالهم من الوُدّ الكريم الأَثَر : القائِد بالمَرِيَّة ، والقاضى بها ، والفقهاءِ ، والأشياخ ، والوزراءِ والأمراء والكافَّة والدَّهْماء من أهلها ؛ عَرَّفهم الله عوارفَ الأداء ، وأوزعهم شُكْرَ نِعْمَةِ هذا الفتح الرَّبَّانىّ الذى تفتّحتْ له أبوابُ السماء ، وأنْشرتْ معجزاتُه ميِّتَ الرجاءِ فى هذه الأرجاء . سلامٌ كريم ، طيبٌ بَرٌّ عميم ؛ تُنْشَقُ منه نَفَحاتُ الفرج ، عاطرةَ الأَرَج ، ورحمةُ الله وبركاتُه .

أما بعدَ حمدِ الله فاتِحِ أبوابِ الأمَلِ بعد آستِغْلاقها ، ومُتدارِك هذه الأمةِ المحمديَّةِ بالصُّنْع الذى تَجَلَّى لهـا مِلْءَ أحْدَاقها ، والرحمـةِ التى مدّتْ علىٰ النُّفُوس والأموال ، والحُرُماتِ والأحوال ، ضافِىَ رُواقِها .

والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا ومولانا محمدٍ رسوله الذى دَعْوتُه هى العُروة الوُثْقىٰ لمن تمَسك باعتِلَاقها ، وأقام علىٰ مِيثاقها ؛ ذى المعْجِزات التى بَهَرت العُقُول بائتِلاقها ،

(١) فى الريحانة ج ٢ " من وجوه الغنائم الاهلية كريم " الخ .

الذى لم تَرُعْه فى الله الشدائدُ على ٱشتدادِ وَثَاقِها، وفَظَاعةِ مَذَاقِها؛ حتّى بلغتْ كلمةُ الله ما شاءتْ من ٱنتظامها وٱتّساقِها .

والرضا عن آله وصحبه، وعِترْته وحِزْبه؛ الفائزين فى مَيْدان الدنيا والدين بِخَصْل سِبَاقِها . فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم شُكْرا لنِعَمِه، ومعرفةً بمواقع كرمه . من حمراءِ غَرْناطةَ ـ حرسها الله ـ ولا زائدَ بفضل الله سبحانه إلاما أمَّنَ الأرجاءَ ومَهَّدها، وأنشأ مَعالِمَ الإسـلام وجَدَّدَها، وأسَّس أركانَ الدين الحنيف وأقام أَوَدَها؛ وأنتم الأولياءُ، الذين نعْلَم منهم خُلوصَ الأهْواء، ونَتحقَّق ماعندهم من الخُلوص والصَّفاء. وإلىٰ هذا فقد علمتم ما كانتِ الحالُ آلتْ اليه من ضِيقة البلاد والعِباد بهذا الطاغية الذى جرىٰ فى مَيْدان الأَمَل جَرْىَ الجَمُوح، ودارتْ عليه خمرةُ النَّخْوة والخُيَلاء مع الغَبُوق والصَّبُوح؛ حتّى طَفَح بسُكْر ٱغتِراره، ومُحِّص المسلمون علىٰ يدَيْه بالوقائع التى تُجَاوِزُ منتهىٰ مِقْداره؛ وتوجَّهَت إلىٰ ٱستئصال الكلمة مَطامِعُ أفكاره، ووثِق بأنَّه [يطفئُ][^1] نورَ الله بناره، ونازل جبل الفَتْح فشدّ مُخْنَق حِصَاره، وأدارَ أشياعَهُ فى البَرّ والبحر دَوْرَ السِّوار علىٰ أسْواره؛ وانتهز الفُرصَة بانقطاع الأسباب، وٱنبهامِ الأبْواب، والأمور التى لم تجرِ للمسلمين بالعُدْوتين علىٰ مألُوفِ الحساب؛ وتكالبَ التثليثُ علىٰ التوحيـد، وساءتِ الظُّنونُ فى هـذا القُطْر الوحيـد؛ المنقطِع بين الأُمَم الكافرة، والبُحُور الزاخرة، والمَرَام البعيد . وإننا صابَرْنا بالله تيَّارَ سَيْله، وٱستضأْنا بنُور التوكُّل عليه فى جُنْح هذا الخَطْب ودُجُنَّة ليله؛ ولجأْنا إلىٰ مَنْ بيده نَواصِى الخلائق، وٱعتَلَقْنا من حبله المتين بأوْثَق العلائق، وفسَّـحْنا مَجَالَ الأمل فى ذلك المَيْدان المتضايِق؛ وأخْلَصْنا لله مُقِيلِ العِثَار، ومَوْلىٰ أُولِى الٱضطرار، قُلُوبَنا، ورفَعْنا إليه أمْرَنا، ووقَفْنا عليه مطلُوبَنا؛ ولم نُقَصِّر مع ذلك فى إبرام العَزْم، واستِشْعار الحَزْم؛ وإمداد

[^1]: (١) من "ريحانة الكتّاب" ج ٢ .

الثُّغُور بأقصىٰ الإمكان ، وبَعْث الجيوش إلىٰ ما يَلِينا من بِلاده علىٰ الأحيان ؛ فرحِمَ اللهُ ٱنقطاعَنا إلىٰ كَرَمه ، حين لجأْنَا إلىٰ حَرَمه ؛ فجلا بفضله سبحانه ظَلامَ الشِّدّه ، ومَدّ علىٰ الحريم والأطفالِ ظِلالَ رحمتـه الممتَّدّه ، وعَرَّفَنا عوارفَ الصُّنْع الذى قَدُم به العهدُ علىٰ طول المُدّه ؛ ورماه بجَيْش من جيوش قُدْرته أغنىٰ عن إيجاف الرِّكاب ، وٱحْتشاد الأحْزاب ؛ وأظهر فينا قُدرةَ مُلْكه عند انقطاع الأسـباب ، وٱستخلص العبادَ والبلاد من بين الظُّفُر والناب ؛ فقد كان سَدّ المَجازَ بأساطيله ، وكاثَرَ كلمةَ الحقِّ بأباطيله ؛ ورمىٰ الجزيرةَ الأندَلُسِيَّةَ بشُؤْبوب شَرِّه ، وصيَّرها فريسةً بين غِرْبان بحره وعِقْبان بَرِّه ؛ فلم يخلُص إلىٰ المسلمين من إخوانهم مَرْفَقةٌ إلا علىٰ الخَطَر الشديد ، والإفْلاتِ من يَدِ العدُوّ العَنيد ، مع توفُّر العزائم ـ والحمدُ لله ـ علىٰ العمل الحَميد ، والسعْيِ فيما يعودُ علىٰ الدِّين بالتأييد .

وبينما شَفَقَتُنا علىٰ جبـل الفتح تُقيم وتُقْعِد ، وكَلَبُ الأعداء عليه يُبْرِق ويُرْعِد ، واليأْسُ والرجاء خصمانِ هـذا يقرِّب وهـذا يُبْعِد ؛ إذ طَلَع علينا البشيرُ بٱنفِراج الأزْمه ، وحلِّ تلك العَزْمه ؛ وموتِ شاةِ تلك الرُّقْعه ، وإبقاءِ الله علىٰ تلك البُقْعه ؛ وأنه سـبحانه أخذ الطاغيةَ أكمَلَ ما كان ٱغتِرَارا ، وأعظَمَ أنصارا ؛ وزَلْزل أرضَ عِزِّه وقد أصـابَتْ قَرارا ؛ وأنَّ شِهابَ سـعده أصبح آفِلا ، وعَلَمَ كِبْره ٱنقلب سافِلا ؛ وأنــ من بيــده مَلَكوتُ السموات والأرض طَرَقه بحَتْفه ، وأهلكه برَغْم أنفه ؛ وأن مِحلَّته عاجلها التَّبابُ والتَّبار ، وعاثَتْ فى منازله النــار ، وتمخَّضَ عن سُوء عاقبته الليلُ والنَّهار ؛ وأن حُماتَها يُخْرِبُون بيوتَهم بأيديهم ، ويُنادِى بشَتَات الشَّمْل لسانُ مُنادِيهم ؛ وتلاحَق بنا الفُرسان من جبل الفتح : المعقلِ الذى عليه من عِنايةِ الله رُواقٌ مَضْروب ، والرِّباطِ الذى مَنْ حاربه فهو المَحْروب ؛ فأخبرَتْ بانْفِراج الضِّيق ، وٱرتفاع العائق لهـا عن الطَّريق ؛ وبُرءِ الداءِ الذى أشرق بالرِّيق . وأن

النصارىٰ دمَّرهم الله جدّتْ فى ٱرتحالها، وأسرعَتْ بجيفةِ طاغيتها إلىٰ سُوء مَـآلها، وسَمَحتْ [للسَّهْب](١) والنّهْب والنار بأسْلابها وأموالها؛ فبهرَنا هذا الصُّنعُ الإلٰهىّ الذى مهَّد الأقطار بعد رجَفَانها، وأنامَ العُيونَ بعد سُهَاد أجْفانها؛ وسألْنا الله أن يُعينَنا علىٰ شُكْر هذه النِّعمة التى إن سُلِّطت عليها قُوىٰ البشر فضَحَتْها ورجَحتها، أو قيسَتْ بالنعم فضَلَتْها؛ ورأينا سِرّ اللطائف الخفِيَّـة كيفِ سَرَيانُه فى الوجُود، وشاهدْنا بالعِيان أنوارَ اللطف الإلٰهىّ والجُود؛ وقلنا إنمـا هو الفتحُ الأوّلُ شُفِع بثان، وقواعدُ الدين الحنيفِ أُيِّدت من صُنْع الله ببيان .

اللهـم لك الحمد علىٰ نِعَمك الباطنـةِ والظاهره، ومِنَنك الوافره، أنت ولُّينـا فى الدنيـا والآخره؛ وأمَرْنا للحين فقُلِّدت لَبَّـاتُ المنابِر بهـذا الخبر، وجُلِّيت فى جمـاعات المسلمين وجوهُ هـذا الفتح الرائقِ بالغُرَر؛ وعجَّلنـا تعريفكم به ساعةَ ٱستجْلائه، وتحقُّق أنبائه؛ لتسحَبُوا له أثوابَ الجَذَل ضافيه، وتَرِدُوا به مَوارِدَ الأمل صافِيه؛ فإنمـا هو سِتْرُ الله شَمِل أنفُسكم وحَريمكم، وأمانهُ كَفَل ظاعِنَكم ومُقيمكم؛ فقرِّطُوا به الآذان [وبَشِّروا به الإقامة والأذان](١) وتملَّوْا بالعيش فى ظِلِّه، وواظِبُوا حمدَ الله ولىِّ الحمدِ وأهـلِه؛ وٱنشُرُوا فوقَ أعوادِ المَنَابر من خِطـابِه رايةً ميمونةَ الطائر، وٱجعلُوا هـذه البِشارةَ سِجِلًّا فى فُرْقان البشائر؛ فشُكْرُ الله سبحانه يستدعى المَزِيدَ من نِعَمه، ويضْمَن ٱتِّصالَ كرمه؛ وعرّفوا بذلك من يَليكم من الرعيَّة ليأخُذَ مثـلَ أخْذِكم، ويَلْحَظ هذا الأمرَ بمثل لَحْظِكم؛ فحقيقٌ عليكم أن تُشيدُوا بهـذا الخبر فى الحاضِر والبـادِ، وتجعلُوا يومَ عاشـوراءَ الذى تجلَّى فيـه هذا الصُّنعُ ثالثَ الأعياد؛ والله سبحانه يجعله للمَسَرَّات عُنْوانا، ويُطْلِـع علينا وعليكم وجوهَ صُنْعه غُرًّا حِسانا؛ والسلامُ الكريم يخصُّكم ورحمة الله وبركاتُه .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" ج ٢ .

الأســــلوبُ الثـالث

(أن تُفْتَتح المكاتبــة بلفظ «أما بعـــد»)

والرسم فيه أن يقال أما بعدَ حمدِ الله ، أو أما بعـدُ فالحمدُ لله ، ويُؤْتىٰ بخطبة . ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم من موضع كذا كتب الله لكم كذا وكذا ؛ ثم يُتَخَلَّص إلىٰ المقصود ويُؤْتىٰ عليه إلىٰ آخره، ويُخْتَم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ٱبن الخطيب عن ٱبن الأحمر من الأندلُس .

أما بعدَ حمد الله مُحْسن العَوَاقب ، ومُخلِّد المَنَاقب، ومُعْلي المَراقِي فى دَرَجٍ عَلِيَّة(١) المَرَاقب، ومسَخِّر النجم الثاقب، فى الغَسَق الواقِب، والكفيل بالحُسْنَى للمتوكِّل عليه المُراقِب، ناسخِ التمحيص، بالعناية والتخصيص، لتظهر حكمَةُ المُثيب والمعاقِب .

والصلاةِ والســلام علىٰ ســيدنا ومولانا محمد رسولِه المـاحِى الحاشر العـاقِب ، ذى القَدْر المُسامِى للزُّهْرِ المُصاقِب .

والرضا عن آله الذين كانُوا فى سمـاء ملَّته لهـداية أمته كالشُّهُب الثَّواقب ؛ فإنا كتبْنـاه إليكم ـ كتب الله لكم تَوالِيَ المَواهب ، ووضُوحَ المَذَاهب ؛ ووُقُوفَ الدهرِ لَدَيكم مَوْقِفَ التائب من القدح النائب ؛ ووالىٰ لديكم مُفاتحةَ الكتُب المهنِّئة بفُتُوح الكتائب ـ من حمراءِ غرناطة ـ حرسهـا الله ـ وفضلُ الله بتعرُّف صُنْعه لكم هامِي السَّحائب ، وكفيلٌ بنَيْل الرغائب ؛ والسرورُ بمـا سَنَّاه الله لكم من ٱستقامة أحوالكم شأنُ الشاهد والغائب، والرائح والآئب .

والحمدُ للهِ علىٰ ماتوالىٰ من الألطاف والعجائب. وقد وصل كتابُكم الذى أكَّد السُّرورَ وأصَّله ، وأجملَ مقتضىٰ البُشْرىٰ وفصَّـله ، ونَظَّم خبر الفتح ووصَّله ؛ وراش سَهْمَ

(١) فى الريحانة فى "درج عنايته والمراقب" .

السّعادة والسّداد، والعناية والإمداد، ونصّله، وأحرز حظّ السعادة وحصّله؛ تعرفون ماأتاح لكم اللطيفُ الخبير، والولىّ النصير؛ من الصُّنْع الذى اتّسق نظامه، والنصر الذى سُنّتْ فى أمّ الكتاب أحكامُه؛ والعز الذى خفقتْ أعلامُه، والتوفيق الذى قَرْطست الغرضَ سهامُه؛ وأنكم من بَعْد الكائنة التى راشَ لطفُ الله بها وجبَر، وأحسن الخير وأدال الخَبَر، وجعل العاقبةَ الحُسنىٰ لمن صَبر؛ جهزتم الجيُوش المختاره، والعساكرَ الجرّاره؛ يقودُها الخُلصان من الوزراء، وتتقدّم رايَتها ميامنُ الآراء؛ فكتب اللهُ ثباتَ أقدامها، وتولّى نَصْر أعلامها؛ ولم يكُنْ إلاأن حَمِيَ وطيسُ النّزال، ورجفت الأرضُ لهَوْل الزّلْزال، وتعُوطيت كُئوسُ الآجال، فى ضَنْك المَجال؛ ودَجا القَتام، وتُوهِّم مع فضل الله الاغتنام، وعبَسَ الوجْهُ العبّاس وضَحِك النَّصْل البسّام، وأوْرد الخيلَ موارد الطّعان الإقْدام؛ فكان لحزبكم الظهورُ الذى حكّم المهنّدة فى الرّقاب، والسُّمْرَ الطّوال فى الثُّغَر ثم فى الأعْقاب، وبَشّرت برُؤْية هلال الفتح عيونُ الارتقاب، وحطّ عن وجه الصنع الجميل ماراَن من النّقاب؛ وأن مَنْ بغىٰ عليكم حسَبَ ماقررتم، وعلىٰ نحو ما أجملتم وفسّرتم، من شيوخ الغرب المُجْلبه، ووُجُوه الخَدَم المنتمية إلىٰ حسن العهد المنتَسبه؛ تحصّل فى حُكم استرقاقكم، وتحتَ شَدّ وَثاقكم؛ وربما أسفر المكروهُ عن المحبوب، وانجلىٰ المرهوبُ عن المرغوب، والله مقلّب القُلُوب؛ وشِيَمُكم فى ائتلاف النافر، والأخذ من فضل العَفْو بالحَظّ الوافر، كفيل لكم بالصُّنع السافر؛ والله يحملُكم علىٰ مافيه رِضاه، ويَخير لكم فيما قَضاه؛

فسُررنا بما اتّصل لكم من الصُّنْع واطّرد، ورحّبنا بهذا الواردِ الكريم الذى ورد؛ وشكَرْنا فضلكم فى التعريف بخَبَره المودُود، والشرح لمَقامه المحمود؛ وكتبنا نُهنِّئكم به هنـاء مَشْفُوعا، وبالدعاء لكم متبوعا؛ والله يُطْلـع من توالى مَسرّتكم علىٰ مايَبْسُط

الآمال، ويُنْجِح الأعمال ؛ ويَفْسَح فى السعد المجَال . والذى عندنا من وُدِّكم أعظمُ من آستيفائه بالمَقَال، أو نهوضِ اليَرَاع بوظائفه الثِّقال ؛ يعلَمُ ذلك عالم الخفِيَّات ، والمجازى بالنِّيَّات ؛ سبحانه . والله يصِلُ سعدكم، ويحرُس مَجْدكم، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله و بركاته .

الطَّرَف الثـانى عَشَرَ

(فى الكتب الصادرةِ عن وُزَراء الخلفاء المنَفِّذين أمورَ الخـلافة اللاحقين بشَأْو الملوك، وفيه جملتان)

الجمـلةُ الأولىٰ

(فى الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء بنى العَبَّاس ببغداد وُوزَراء ملوكها يومَئِـذ)

أما وُزَراء إقطاعاتها، فقد ذكر أبوجعفر النحاس فى "صناعةالكُتَّاب" أن المكاتبة من الوزير إلىٰ الخليفة فى زمانه كانت : « أطالَ اللهُ بقاءَ أميرِالمؤمنين وأعَزَّه وأيَّده وأتَمَّ نعمته عليه، وأدام كرامته له» .

قال آبن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكتّاب" : وإن كانت المكاتبةُ من الوزير إلىٰ مَنْ دونَه فدعاؤه له : « أطال الله بقاءَك وأدام تأييدَك وتمهيدَك وكرامَتَك» . ودونه « أطال اللهُ بقاءك وأدام عِزَّك وحِراسَتَك » . قال : وعلىٰ مقدار المكاتَب يكونُ الدعاء . وأقسامه كثيرة. ثم ذكر الأدعيةَ العامَّةَ بعد ذلك علىٰ الترتيب، فقال : إن أعلاها يومئـذ « أطال اللهُ بقاءه وأدام تمكينَه ورِفعته وبَسْطته وعُلُوّه وسُمُوّه، وكبتَ أعداءَه وحسدَتَه» . ودونه «أطال الله بقاه، وأدام تمكينَه وارتقاه، و رفْعته

وسناه ، وتمهيده وكبت أعداه» . ودونه «أطال الله بقاه وأدام تأييده ونُعْماه وكبت أعداه» . ودونه « أطال اللهُ بقاه وأدام تأييدهَ وحرس حَوْباه»(١) . ودونه «أطال اللهُ بقاه، وأدام تأييده ونُعْماه » . ودونه «أطال الله بقاءه وأدام نعماءه » . ودونه «أطال الله بقاءه وأدام عزَّه» . ودونه « أطال اللهُ بقاءه وأدام توفيقَه وتسديده» . ودونه «أطال اللهُ بقاءه وأدام سدادَه و إرشاده» . ودونه « أطال الله بقاءه وأدام حراستَه» . ودونه « أدام الله تأييدَه وتمهيدَه » . ودونه « أدام الله توفيقَه وتسديدَه » . ودونه « أدام الله عِزَّه وسناه » . ودونه « أدام الله عِزَّه » . ودونه « أدام الله حِراستَه » . ودونه « أدام الله كرامَتَه » . ودونه «أدام الله سلامتَه » . ودونه « أدام الله رِعايتَه » . ودونه « أدام الله كِفايتَه » . ودونه « أبْقاه الله » . ودونه «حَفِظه الله » ودونه « أعَزَّه الله » . ودونه « أيَّده الله » . ودونه « حَرَسه الله » . ودونه « أكْرَمه الله » ودونه « وَفَّقه الله » . ودونه « سَلَّمه الله » . ودونه « رعَاه الله » . ودونه « عَافَاه الله » .

ثم المكاتبات الصادرة عنهم علىٰ أسلوبين :

الأسلوب الأوّل

(أن تُفتتح المكاتبة بلفظ «كتابى»)

والرسم فيه أن يقال كتابى ــ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ، أو بقاء مولانا ــ والأمرُ علىٰ كذا وكذا ، ومولانا أميرُ المؤمنين ، أو والجانبُ الأشرفُ ونحو ذلك علىٰ حال كذا ؛ ثم يتخلَّص إلىٰ المَقْصد بعد ذلك بما يقتضيه المقام ويُخْتَمُ بقوله ورَأْى حضرة سيدنا أعلىٰ .

(١) فى القاموس الحوباء النفس .

كما كتب بعض الكُتَّاب عن الوزير قوام الدين بن صَدقةَ إلىٰ بعض وُزَراء ملوك زمانه فى مَعْنىٰ أمير مكة المشرَّفة ، وما كان بينه وبين أمير الحاجِّ فى بعض السِّـنين ما صـــورته :

كتابى — أطال اللهُ بقـاء حضرة سـيدنا — ومواهِبُ الله سـبحانه فى أمر مولانا امير المؤمنين جارِيةٌ علىٰ الإراده ، مقابَلَةٌ بالشكر المؤذِنِ لها بالدوامِ والزِّياده ، والحمدُ لله ربِّ العـالمين . وقد تتابعت المكاتَباتُ فى أمر النَّوبة المكِّية تتابُعا عِلْمه السامِى به مُحِيط ، والعُـذْرُ فى الإضجار بها مع إنعام النظَر بسببها مَبْسوط ؛ وبعد ماصَـدَر آنفا فى المعنىٰ المذكور وصل كتابُ زعيمِ مكَّةَ بمـا نفذ علىٰ جهته ايُعْلَم منه ومـا لاريبَ أنه أصْدره إلىٰ الدِّيوان العالى السلطانى — أعلاه الله — حقائِق الأحوال بغير شَكٍّ : أنه قد اتضـح تفريطُ من فَرَط فى هـذه النوبة وعَجِل ، وتحقَّق المثـلُ السائرُ « رُبَّ واثِقٍ نَجِل » وأسـبابُ ثمرة الهوىٰ الذى مازال يجمَحُ برا كبه ، ويُرِيه سُوءَ عواقبه ؛ وعلِمَ أنه لم يُخْطِ فيما شَرَع فيه ، واستمرَّت علىٰ الخَطَإ أواخِرُه ومَبادِيه ، إلا بوَعْد أُخْلِف ، ومالٍ أُتْلِف ، وخَطرٍ ارتُكِب ، وصواب تُنُكِّب ، وحَزْم أُضِـيع ، وهَوًى أُطِيع ؛ حتّٰى كان قُصاراه دَفْعَ اللائمة عنه ، فإنه أوصل الحَجِيج إلىٰ مقصودِهم وأعادهم ، وأحسن التواصُلَ حتّٰى أدركُوا من أداء الفريضة مُرادَهم ؛ وهل اعترض دُونَ هذا الأمر مانع ، أو كان عنه دافع ؟ لولا ماصَوّره من الأسباب التى أفسَدَ بها الأمور ، وأوْغَر بمكانِها الصُّدُور ، وكَفَل بعـدَ ماقرّره من ذلك ومَهَّده ، ماعكسه سفَهُ الرأى عليه ، وأبعده العجزُ عن الوصول إليه ؛ وأىُّ عذر فى هذا المَقَام يُستَمع ؟ أم أىُّ لائمةٍ عنه تندَفِـع ؟ وقد جرت الحال علىٰ ما عُلِم ، وتحدَّثَ بانخراق حِجَـاب الهَيْبة كلُّ لسانٍ ناطقٍ وفَمٍ ؛ ووقع الاتفاق من كافَّة الحاجِّ علىٰ أن تَمَسُّك نائب مكةَ بطلب الرِّضا ، وتكفيل خَصْمه باستدراك ما تَلِفَ من التفريط فى مَعَايشه ومضىٰ ؛

ونظَره فى العاقبة التى يَنْظُر فيها ذوو الألباب ، وعمله بما أصدره الديوانُ العزيزُ من مكاتبةٍ أُمِر فيها بالطاعة وخِطَاب ؛ هو الذى لَأَم النوبةَ وشَعَبها ، وسَهَّل عسيرَها ومستصْعَبها ؛ ولو آفتقرت إلىٰ سَعْيِ أميرِ الحاجِّ واجتهاده ، وإبْراقه بعسكره وإرعادِه ؛ لكان الحجُّ ممتنعا والخَطَر العظيمُ متوقَّعا ؛ ولم يحصُل الوفدُ إلا علىٰ التغرير بالنفوس ، والجَوْد منها بكل مَضْنُون به مَنْفُوس ؛ ثم عَرَبُ الطريق الذى ما زال أميرُ الحاجِّ فى حقِّهم خاطبا ، ولإكرامهم بالقولِ المتكرِّر طالبا ؛ وجاعلاً مالعله يتأخَّرُ من رسم أحدهم من دَوَاعى الخطر فى سلوك [الطريق] المُرْديه ، ومُوجِبات الفَسَاد فى المَنَاهل والأوْديه ، يتلو من النَّهْب والآجتياح ، والأذىٰ العائد علىٰ فاعله بالآقتراف العظيم الوِزْر والآجتراح ، بما يُؤْلِم شجاعةَ القلوب ويحرِّقُها ، ويُبْكِى العيون ويؤرِّقها ؛ ولقد آنتهىٰ أن العسكر المنفَّذ أمامه كان يتنقَّل فى هِضَاب البرِّيَّة وغِيطانها ، ويُنَقِّب عن مَنَازل العرب وأوطانها ؛ فيستَقْرِى أحياءَهُم حَيًّا حَيًّا ، ويتخَلَّل الفِجَاج فَجًّا فَجًّا ؛ فاذا شارفُوا قبيلةً منهم طلب النجاةَ منهم بالحُشاشات رجالُها ، وأسْلَمَتْ إليهم نساؤُها وأطفالُها وأموالها ؛ فيتحكَّمون فى ذلك تَحَكُّم من آستحلَّ موْقِفَه فى إباحة مَحارِم الله ومُقامَه ، وأمِنَ مكْرَه الحائقَ بالظالمين وآنتقامَه ؛ ويستَبِيحون حريم كلِّ برِىء غافلٍ لم يُقارِفْ ذنبا ، وطائع لايستَحِقُّ غارةً ولا نَهْبا ؛ فأين كان [من] النظر عند هذا الفعل فى حِفْظ عَرَب الطريق ؟ وكيف عَزُب عنه فى هذا الرأى مَنْهَجُ التوفيق ؟ وهل تُتَصوَّر الثِّقةُ بكل قبائل العرب عن إفساد الآبارِ والمَصَانع ؟ والعبَث بكل مستطاعٍ فى المَناهل والمَشَارع ؛ خاصَّةً إذا علموا أن الذى ظلَمهم ، وأباح حُرَمهم ؛ هو السالكُ للطريق آنِفا ، والمتمكِّن فيهم من مُعاودة الأذىٰ الذى أضْحىٰ كلٌّ به عارفا ، وآستدراكُ الفارِط فى هذا الأمرِ المهِمِّ متعين ، ووجه الرأْى فيه واضحٌ متبيِّن ؛ والإشارة فى كتاب زعيم مكة ، إلىٰ ماجرىٰ من المعاهدة وآستقرّت القاعدةُ عليه [من] إعادة آرتفاعه المأخوذ

ورسومه علىٰ التمام والكمال إليــه ، أدلُّ الأدلَّة علىٰ بُعْد النوبة من الآلتئام، ودخولِ الخَلَل عليها وآنحلال النِّظام، وتعــذُّر الحجِّ فى المستقبل . علىٰ أن مَنْ أفســدها ، لم يتأمَّلْ لنفسه طريقَ الصَّدَر حين أو رَدَها، والألمعيَّةُ الساميةُ المعزِّيَّة حرس الله عزَّها اللامحةُ ببديهتها العواقب، المستشْفَعة سرائرُها بالرأى الثاقب، أهدىٰ إلىٰ تدبيرها بمـا يستدْرِك الفارط ،ويتلافىٰ غَلَط الغالِط، و يعيدُ الأحوال إلىٰ جَدَد الصلاح وسَنَنِه، ويُجْريها علىٰ أجمل قانونٍ مألوفٍ وأحسنهِ، وما أوْلاه بالتقـديم فى هــذا المهِمِّ الذى لا أحق منه بالآهتمام ، والجِــدّ الصادق التام ؛ بمـا تطْمئِنُّ به النفوس إلىٰ صَلَاحه وآنتظامه، وآرتفاع كلِّ مَخْشِىّ من الخلل الداخلِ عليه وآنحِسامه؛ والإعلامِ فى الجواب بمـا يقع السكون إلىٰ معرفته ، ويحصُل الأنس والشكر فى مقابلته ؛ ورأىُ حضرة سيدنا أعلىٰ إن شاء الله تعالىٰ .

الأســـــلوب الثـانى

(أن تُفْتَتح المكاتبــة بلفظ الإصـــدار)

مثل أن يقال : أُصْدِرت هذه المكاتبة، أو هذه الجملةُ، والأمرُ علىٰ كذا وكذا، بعد أن يُدْعىٰ للمكتوب إليه بعد لفظ الإصدار ؛ ثم يتخلَّص إلىٰ المقصود بمـا يليق بالمَقَام، ويُؤتىٰ علىٰ القصد إلىٰ آخره، ويختَمُ بقوله : ورأْىُ حضرة سيدنا أعلىٰ .

كما كُتِب عن الوزير قوام الدين بن صَدَقة أيضا إلىٰ ملك سَمَرْقند جواباً عن كتابٍ وصل منه إليه :

أُصْدِرت هــذه الجملة (١) ــ أطال الله بقاءَ حضرة مولانا ــ ومواهبُ الله سبحانه فى الجَنَـاب الأشرفِ ــ لا زالتْ مطالِـعُ سُعوده مُنـيره ، وأعوادُ عَلَائه مُورقــةً

(١) تارة يعبر بالجملة وتارة بالخدمة .

نَضيره ـ آهلةُ الرُّبُوع ، عَذْبةُ اليَنْبُوع ؛ قارَّةٌ لا يظعَنُ رَكْبها ، دارّةٌ لا يعز حَلَبها ؛ والحمدُ لله رب العالمين .

ووصل كتابه أدام الله علوّه الصادرُ على يد الشيخ الأجلّ العالِم أبى الحسن بن علمك ووقفتُ عليه وعَرَفت فَحْواه ، وتضاعَفَ الشكرُ لله سبحانه بما حَوَاه ؛ من آطِّرادِ الأمورِ وآتِّساقها ، وطلوعِ شمس النُّجْح فى سماء مَبَاغيه وإشراقها ؛ وأحدثَ آبتهاجًا بوروده متوفِّرا ، وآغتباطًا بما أولاه جلَّت آلاؤُه من صنعه الذى أصبحَ ذَنْب الأيَّام معه مغتَفَرا ؛ وعُرِضتْ خدمتُه المقترَنة به على مَجَالس العَرْض الشريفة قدّسها الله مشفوعةً بذكر ما لبيته الكريم وسلَفه الزاكى الأَرُومة من المآثِر التى أضحى بها فى الفخر عَلَما ، وعلى ناصيَة المجد محتوياً محتكما ؛ فى ضمن إيضاح المحاسن التى أصبح أيَّد اللهُ سموّه بها منفَرِدا ، ولنِجاد المحامِد بحسَبِها مقلَّدا ؛ والمواقِف فى الطاعة الإمامية التى أصبحت غُرَّة فى جَبْهة الزمان ، ولم يَسْعَ فى مثلها لغيره قدَمان ؛ وآنتهتْ فى تمكين القواعد وتَوْطِيدها ، وتأكيدِ الأحوال وتمهيدها ؛ والتجرُّدِ فى تحصيل الأَرَب ، وتيسير المَطْلَب ؛ إلى ما يُوجبه الودُّ المُحْصَف الأمْراس ، والمصافاةُ الخالصةُ من الشوائب والأَدْناس ؛ فآنَستْ فى مقابلة ذلك من الآلتفات الى ما أوردته مما يبيِّن عن لُطْف مكاتبته بالموْقِف الأشرفِ ويُعرِب ، ويصْفُو مَوْرِدُ الفَخَار بمثله ويَعْذُب ؛ وجدّد من التشريف والزيادة فيه ما يُوفِى على الذى تقدّمه قدرا ، ويَجِلُّ طَوْقُه عن أن يرضى عَمْرا ؛ وشَفَع ذلك بتنفيذ التشريفات لولده أيَّد الله علوَّه والمُطيفين بحضرته ، واللائذين بحَوْزته ؛ وآبتدائهم بالإحسان والإنعام ، والتَّكْرِمة المُوفية على المَرَام ؛ إكبارًا لشانه ، وإبانةً عن محلِّه من الآراء الشريفة ومكانِه ؛ وإيثارًا لإعظام أمره ، وإعلاءِ قَدْره ؛ ليعلَم ـ أيد الله علوّه ـ مكانَ التجرُّد فى هذه الحال ، وصدْق

السـعْيِ الذى ٱقْتَرَّت ثُغُوره عن نُجْـح الآمال ؛ وأرجو أن يصادِفَ حسنُ المَقَـام فى ذٰلك عنده مَوْقِعَه، ويَلْقىٰ لديه ٱعترافًا يُوافِق مَرْآه مَسْمَعه .

فأما الإشارةُ إلىٰ المشار إليه فى التوزُّع لتلك الهَنَات الجاريه، التى مازالت الأيامُ بمثلها جائيَه ؛ والٱستبشارِ بزوال ما عَرَض وٱضمحلاله ، وعودِ الرأْى الأشرفِ إلىٰ أكمل أحواله ؛ وقد عَرَفها بمَزِيد الٱعتداد والشكر قائلُها، ولم يكن الذى جرىٰ ممـا يُشَعِّب فِكرا ، أو يتوَزَّع سِرّا ؛ فإن الٱعتداد الأشرفَ كان بحمد الله محفوظا ، والٱجتهـادَ فى الخِـدْمة بعين الٱعتراف والرضا ملحوظا ؛ لم تُحِـلْه حالٌ متجدّده ، ولا رَتَعت الحوادِثُ مورده ؛ وما زالت ثُغورُ الأيَّامِ فى كل وقْت عن الزيادة باسمه ، وسُحُبه بنُجْح اشـتطاط الآمال ساجِمه ؛ والمندوبُ لتحمُّل المثـال وما يقترِن به من التشريف فلان، وهو من أعيان العلماء، ومَنْ له فى مَيْدان السبق شأْوُ القُرَناء ؛ وله فى الدار العزيزة مجَّدها اللهُ الخدمةُ الوافيــه ، والمكانةُ الوافِره ؛ وما زالت مذاهِبُــه فى خِدَمه حَميــده، ومقاصِدُه علىٰ تقلُّب الحالات مَرْضِيَّةً سـديده ؛ وجديرٌ بتلك الألمعيَّة الثاقبة أن تتلقَّىٰ ما يورده بالإصغاء ، وتقابل النِّعم المسداةَ إليه بالشكر المـاطر الأنواء ؛ وتُوقِظَ ناظرَ ٱهتمامه للنُّهوض بأعبـاء الخدمة الإماميَّــه ، وحيازةِ المَرَاضى المكتَرمة النبويَّه ؛ وتُمْهِى عزيمتُها فيما يكونُ بالإحماد الأشرفِ مُحْظِيا ، ولأمثال هذا العُرْف المصنوع مستَدْعِيا ؛ ولرأْىِ حضرة سيدنا فى ذلك علُوُّ رأى إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــلة الثانيـــة

(فى الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

فقد ذكر علىّ بن خَلَف من كُتَّاب دولتهم فى كتابه "موادِّ البيان" أنه إذا كانت المكاتبةُ من الوزير إلىٰ مَنْ دونه، تكون بغير تصدير، إلا أن الخطاب فيها يجب أن يُبْنىٰ علىٰ أقدار المخاطبين فى مراتبهم فى الدولة، ولم يزد علىٰ ذلك .

والذى وقفت عليه منه أسلوبٌ واحد: وهوأن يفتتح الكتاب بلفظ «كتابُنا والأمر علىٰ كذا» ويُتعرّض فيه لذكر حال الخلافة والخليفة، ثم يتخلّص إلىٰ المقصود بما يقتضيه الحال، ويؤتىٰ عليه إلىٰ آخره، ويختم بالدعاء.

كما كتب القاضى الفاضل عن بعض وزراء العاضد: آخر خلفائهم إلىٰ بعض الملوك ماصورته:

كتابُنا ـ أطال الله بقاءَ الملك ـ عن مودّةٍ ظاهرةِ الأسباب، متظاهرةِ الأنساب، ضافيةِ جِلْباب الشّباب؛ وعوائدِ عوارفَ لايتنكّر معروفها، ووفودِ فوائدَ لايتصدّع تأليفُها؛ ومَسَاعِى مَسَاعد لاينقصُ معروفها ولاينفض مَسُوفها؛ وسعادةٍ بالخلافة التى عدقَ إليه أمْرها وأوضح سِرَّها؛ وملأ سرائرها وسريرَها، وأطلع شمسها وقمرَها. بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين تتوالىٰ ميامِنُها، وتتلألأُ محاسنُها، وتَشْرُف درجاتُها، وتتضاعفُ سعادتها؛ والكلمةُ قائمة علىٰ أصولها، وأمور الخلق جاريةٌ علىٰ ماهولها، ونظامُ الإسلام بسياستها لايَهِى، وسياقةُ الدوام فى سعادتها لاتَنْتَهِى؛ والله المُوزع شكْرَ هذه المِنَن، المسئُولُ فى الإنهاض لما نَهَضت فيه النيَّةُ وقَصُرت عنه المُنَن؛ ولم نزل ـ أدام الله إقبال الملك المعظم ـ معظِّمين لأمره، عارفين نُبْلَ قدره وجليلَ فخره، مُشِيدين بجميل ذِكْره وجزيل نصره، مُعِيدين لما تتهادىٰ الألسُنُ من مستطاب نَشْره، قارئين من صَفَحات الأيام ما أمَدَّها به من بِشْره، غير مستيمنين لذكر آسمه الكريم إلا بصيامه وشكْره، مُورِدين مما هو يبلُغه من بارع ضَرائبه بالمَقَامات الشريفة من آثار سلَفِه ومآثِرهم، ومأثورِ مكارِمِهم ومَفاخِرِهم؛ وآستنادِ المكْرُمات إلىٰ أوّلهم وآخرِهم؛ ومشهورِ ذَبِّهم عن المِلَّه، ودِفاعِهم عن أهل القبله؛ وسَدَادهم فى الأمور، وسِدَادِهم الثُّغور، وسِيادتهم الجمهور؛ وآستقلالِهم بالمشَقَّات المتقدّمه، وإخمادِهم نِيرانَ الخُطوب المضطَرِمه، وكَفِّهم سيولَ السيوفِ العَرِمه؛ ومولاتِهم أمورَ الدولة

العَلَويَّة التى آشتهر بها منهم الأكابر، وورِثها كابرٌ عن كابِر؛ وحافَظُوا منها علىٰ سيرة معروفٍ لا يُنْسَخ، وعَقْد صفاءٍ لا يُفْسَخ؛ وسريرةِ صِدق تستقِرّ فى الضمائر وتَرْسَخ، وتتوضّح بها غرّةٌ فى جِباه السبْق وتَشْدَخ؛ وتستهْدِى عند إيراد هـذا الذِّكْر العَطِر، والثناء المشتَهِر؛ من الدعوات الشريفة العاضديَّة المعضودة بالنُّجح، المتوضِّحة عن مثل فَلَق الصُّبح؛ مايتهلَّل لمَساعيه بالمَيَامِن المستهِلَّه، ولمَراميه بالإصابة المتصله، بينه وبين هـذه الدولة العاليه، والخلافة الحاليَه؛ بكتاب منـه نَهَجْنا فيه طريقَها اللاحِب، وآستدْعَيْنا به إجابَتَه التى تُتَاقى بالمَرَاحب؛ وأعلمناه أنّ تمادىَ الأيام دُونَ المراسَلة وتطاوُلَهـا، وتنقُّلَ الأحوال والدُّول وتناقُلَها؛ لايزيدُ مودَّتَه إلَّا آســتحكامَ معاقِد، وآنتظام عَقائد، ووفاءَ مَواعِد، وصَــفاءَ مَوارِد؛ وأنه لاتبــاعد بين القلوب بغَرَض المَرْمىٰ المتباعِد، ولا تُفَرِّق المسافاتُ القَوَاصى مابين النِّيات القَوَاصد. فلمـا تأخرت الإجابه، تقدّمت الإستِرابه؛ وتناجَتِ الظنونُ المعتَلِجة، وتراجعت الآراءُ المختلجه؛ بأن الرسولَ عاقَتْه دُونَ المَقْصد عوائق، وتقَسَّمَتْه مِن الأحداث دُونَ الطريق طرائِق؛ فلم ترِد المكاتبةُ إلىٰ جَنَابه، ولاأسعدَ السعى بطُروق جنابه، الذى تُنالُ السعادةُ وتُجْنىٰ به؛ وإلا فلو أنه أمّ له، بلَغَ ماأمَّلَه، ولو وصله، لأجاب عما أَوْصَلَه؛ لأن مكارِم خلائقه تبعَثُ علىٰ التبرُّع بالمسنون فكيفَ بقَضاء المفروض؛ وشرائفَ طرائقِه تأبىٰ للحقوق الواجبةِ أن تَقِف لديه وقْفَ المطَّرَح المرفُوض. فجدّدنا هذه المكاتبةَ مشتملةً علىٰ ذلك المراد، وفاوَضْناه بمـا يُعيره الإصغاء، ويجنِّبه الإلغاء؛ ويُحسن له الإنصات، ولا يَحتـاجُ فيه إلىٰ الوَصَات. ورَسَمْنا أن يكتُمَه حتّى عن لسانه، وأن يَطْوِيَه حتّى عن جَنَـانه، وأن يتمسك بالأمر النبوىّ فى آستعانَتِه علىٰ أمره بكِتْمانه؛ فمن حُسْن الحزم سوءُ الظن؛ وهل لأرباب الأسرار فَرَجٌ إلا مادامتْ فى السجن؛ وقد آستلزمنا المرتَهن لمـا آستعظَمْنا الرهن؛ وفوَّضنا إلىٰ مَنْ لا يعترِينا فيه الوَهْم ولا منه الوَهْن؛

ونحن نتحبَّبُنا بما يُعلَم به حسنُ موقع رسالةِ الاسترسال، وبما يبيِّن به عن دلالة الإدلال، وبما يرحِّب بمودّته مجالُ الجمال؛ والله سبحانه يؤيِّد المَلِك بنصر تُستخْدَم له الأقدار، وسعادة لا تتصرَّف فى تصريفها أحكامُ الفلك المُدَار، وإقبالٍ يقابل آراءه وآدابَه فى فاتحة الوِرْد وعاقبة الإصْدار، وعزٍّ لا يزال منه متوقِّلا فى درجات الاقتدار إن شاء الله تعالىٰ .

الطرف الثالث عشر

(فى المكاتبات الصادرةِ عن الأتباع، إلىٰ الملوك ومَنْ فى معناهم؛ وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولىٰ

(فى المكاتبات الصادرةِ عن أتباع ملوك الشرق إليهم فى الزمن المتقدّم ، وهى علىٰ أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : «كتابى»)

ويدعىٰ للمكتوب[1] ... ... كذا وكذا، ويتخلَّص إلىٰ المقصود بما تقتضيه الحالُ، ويخاطَبُ السلطان فى أثناءِ الكتاب بمولانا أو بمولانا الملك، ويعبِّر المكتوب عنه عن نفسه بتاء المتكلم ولفظ الإفراد، ويُختَم بقوله : فإن رأىٰ أن يفعل كذا فعل إن شاء الله تعالىٰ . ويُدْعىٰ للمكتوب إليه بطول البقاء مع التعرّض لذكر الخليفة فى أثناء الكتاب .

(١) فى الاصل محو ولعله ويدعى للمكتوب اليه ثم يقال والأمر على كذا الخ .

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأُسْلوب، كتب به أبو إسحاقَ الصابى عن أبى الفضل الشِّيرازى: أحد نُوَّاب بنى بُوَيه إلىٰ عَضُد الدولة بنِ بُوَيه، فى جواب كتاب وصل منه إليه، يخبره بفتح خُراسانَ وطاعةِ صاحبها، وهو:

كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا ـ والأمورُ التى أَخْدمُ فيها جاريةٌ علىٰ السَّداد، مستمرّةٌ علىٰ الاّطراد، والنِّعمُ فى ذلك خليقةٌ بالتَّمام، مُؤْذِنةٌ بالدَّوام.

والحمدُ لله حقَّ حمده، وهو المسئُول إطالة بقاءِ مَوَالينا الأمراء، وحراسةَ ما خوّلهم من العز والعَلَاء، وأن لا يُخْلِيهم من صَلَاح(1) الشان، وسُمُوّ السلطان، وظهور الولىّ، وثُبُور العدوّ.

ووصـل كتابُ مولانا [الأمير أطال الله بقاءه](2) الصادرُ من معسكره المنصور بكازرين(3)، بتاريخ كذا، مُخْبِرا بشُمول السلامه، مبَشِّرا بعُمُوم الاِستقامه؛ موجِبا لشكر ما منح اللهُ من فضـله وأعطىٰ، مقتضيًا [نَشْر](2) ما أسبغ من طَوْله وأضفىٰ؛ مشروحًا فيه الحال فيما كان يجْرِى من الخلاف بين مولانا الأمير السيد «ركن الدولة» وبين وُلاة خُراسانَ، وجهادِه إيَّاهم فى حِياطة الدِّين، وحمايةِ حَرِيم المسلمين؛ والدعاءِ إلىٰ رضا رب العالمين، وطاعةِ مولانا أمير المؤمنين؛ وتَذَمُّمه مع ذلك من دماء كانتْ باتِّصال الحروب تُسْفَك، وحُرماتٍ باستمرار الوقائع تنتهك؛ وثغورٍ تُهْمَل بعد أن كانت ملحوظه، وحُقُوقٍ تُضاعُ بعـد أن كانت محفُوظه؛ وانه لمـا جُدِّدت العزيمةُ علىٰ قصـد جُرْجانَ ومنـازعةِ ظهير الدولة أبى منصور بن وشمكير مولىٰ

(١) فى المختارات المطبوعة ص ٩٣ من عُلُوّ الشان.

(٢) الزيادة من نسخة المختارات المطبوعة والمخطوطة.

(٣) فى المختارات «بدارزين» وكلتاهما من بلاد فارس.

أمير المؤمنين [على تلك الأعمال، ودفعه عما ولاه أمير المؤمنين](١) بوسيلة مواليِنا الأمراء أدام الله تمكينهم منها ومنازَعته ومجاذبتِه فيها، نهض مولانا [الأمير الجليل عَضُد الدولة](١) إلىٰ كَرْمان علىٰ آتفاقٍ كان بين مولانا الأمير السيد ركن الدولة و بينه فى التوجُّه إلىٰ حدود خُرَاسان . فحين عرف القومُ الجِدّ فى رَدِّهم ، والتجريدَ فى صَدّهم ؛ وأنه لامَطْمَع لهم فى جَنَبةٍ إلىٰ طاعة أمير المؤمنين آنتسابُها ، وبِذمام سادتنا الأمراءِ آعتصامُها ؛ آتَّعَظُوا وآتَّزَعوا ؛ وعرَّجوا ورجعُوا سالكين أقصَدَ مسالكهم ، منتهجين أرْشَدَ مَنَاهجهم ؛ معتمدين أعْودَ الأمور علىٰ المسلمين عمومًا وعليهم خصوصًا باجتماع الشَّمْل ، وآتصالِ الحَبْل ؛ وأمْن السِّرْب ، وعُذُوبة الشِّرب ؛ وسكون الدَّهْماء ، وشُمول النَّعْماء ؛ فخطبُوا الصُّلْحَ والوُصْله ، وجنَحُوا إلىٰ طلب السِّلْم والأُلْفه ؛ وأن مولانا [الأمير عضد الدولة](٢) آثَرَ الأحسَنَ وآختار الأجمل : فأجاب إلىٰ المرغُوب فيه إليه ، وتوسَّط مابين الأمير السيد ركن الدولة و بين تلك الجَنَبة فيه ، وتكفَّل بتقريره وتمهيده ، وتحقَّق بتوطيده وتشْييده ؛ وأخرج أبا الحَسَن عابدَ بن علىّ إلىٰ خُراسانَ حتّىٰ أحكم ذلك وأبرَمَه ، وأمضاه وتمَّمه ؛ بمجْمَع من الشيوخ والصُّلَحاء ، ومَشْهَد من القُضاة والفُقَهاء ؛ وأنَّ صاحب خُراسان عاد علىٰ يد مولانا [الأمير عضد الدولة](٢) إلىٰ طاعة مولانا أمير المؤمنين ومُشايعته ، والإمساك بعلائق وَلَائه وعِصْمته ؛ وصار وليًّا بعد العَدَاوه ، وصديقًا بعد الوَحْشه ؛ ومُصافيًا بعد العِنَاد ، ومخالِطا بعد الآنفراد ؛ وفَهِمته . وتأمَّلْت ــ أيد الله مولانا ــ مافى ذلك من ضُروب النعم المتشَعِّبه ، وصُنُوف المِنَح المتفرِّعه ؛ العائدةِ علىٰ المُلْك بالجَمَال ، وعلىٰ الرعيَّة بصلاح الحال ؛

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطيّة .

(٢) الزيادة من المختارات .

الداعيةِ إلىٰ الأئتلاف والأتفاق، المزيلةِ للخلاف والشِّقاق؛ فوجَدْت النفعَ بها عظيما، والحظَّ فيها جَسِيما؛ وحَمِدتُ اللهَ حقَّ حمده عليها، وشكرْتُه أنْ أجراهــا علىٰ يَدِ أَوْلىٰ الناس بها، وأحقِّهم بالمكارم أجمعها، وأن قرّب الله بيُمْنه [ما كان بعيدا مُعْضِلا ويَسَّر ببركته](١) ما كان ممتنِعا مشكلا . فأصلح ذاتَ البَيْن بعد فسادِها، وأخمد نِيرانَ الفِتَن بعد تلهُّبها وٱتِّقادها؛ ووافق ما بين نِيَّات القلوب، وطابق بين نخائل الصدور، وتحنَّت الضــلوع بُنْجح سعيه علىٰ التَّآلُف، وٱنضمَّت الجوانحُ بميمونــ رأْيه علىٰ التعاطُف؛ وحصــل له فى ذلك من جزيل الأجر، وجميل الذكر؛ وجليل الفَخْر، وأَرِيج النَّشْر؛ مالا تزال الرُّواة تدرُسُــه، والتواريخُ تحْرُســه؛ والقُرونُ نتوارثُه، والأزمان نتداوَلُه؛ والخاصَّة تتحلَّى بفضله، والعامَّة تأوِى إلىٰ ظله .

فالحمدُ لله كثيرا، والشكْرُ دائما علىٰ هذه الآلاء المتواتِره، والعَطَايا المتناصِره؛ والمَفَاخر السامية، والمآثِر العاليه؛ وإيَّاه أسأل أن يُعرّف مولانا الملكَ الخيرةَ فيما ٱرتآه وأمضاه، والبركَةَ فيما أوْلاه وأجراه؛ وأن يُهنِئه نِعَمه عنــده، ويظاهِرَ مواهِبَه لديه؛ ويسَهِّل عليه أســباب الصلاح، ويفتحَ أمامه أبوابَ النجاح؛ ويَعْكس إلىٰ طاعته الرقابَ الآبيه، ويذلل لموافقته النفوسَ النائيه؛ ولا يُعْدِمه وموالِيَنا الأمراءَ أجمعين المنزلةَ التى يرىٰ معها ملوكُ الأرض قاطبةً التعلُّقَ بحبلهم أمنا، والإمساكَ بذِمَامهم حِصْنا؛ والآنتماءَ إلىٰ مخالطتهم عِزّا، والاعتزاءَ إلىٰ مواصلتهم حِرْزا؛ إنه جل وعزّ علىٰ ذلك قدير، وبإجابةِ هذا الدعاء جدير .

وقد ٱجتهدت فى القيام بحقِّ هذه النعمة التى تلزمُنى، وتأدية فَرْضها الذى يجب علىّ : من الإشادة بها والإبانه، والإشاعة والإذاعه؛ حتّى ٱشتهرتْ فى أعمــاله التى

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطية وهى مناسبة .

أنافيها ، وآستوىٰ خاصَّتُها وعامَّتها فى الوقوف عليها ؛ وآنشرحَتْ صدورُ الأولياء معها ، وكَبَتَ الله الأعداءَ بها ، وآعتددت بالنعمة فى المطالعة بها والمكاتبةِ فيها ؛ وأضفْتها إلىٰ ما سبق من أخواتها وأمثالها ، وساف من أترابها وأشكالها ، فإن رأىٰ مولانا الأمير الجليل عضد الدولة أن يأمُرَ أعلىٰ الله أمره باجرائى علىٰ أ كرمِ عاداته فيها ، وآعتمادى بعَوارِض أمره ونهيه كُلِّها ؛ فإن وفور حَظِّى من الإخلاص ، يقتضى لى وفُورَ الحظ من الآستخلاص ؛ فعل . إن شاء الله تعالىٰ .

الأســــلوب الثـانى

(أن يفتتح الكتاب بالإصـــدار)

مثل : أصدر الخادمُ أو العبدُ ونحوه ، و يؤتىٰ بالصدر إلىٰ آخره ؛ ثم يتخَلَّص إلىٰ المقصود بما يقتضيه المقام ، ويختَمُ بقوله : وللرأى العالى مزيدُ العُلو ونحو ذلك .

كما كُتِب عن بعض وزراء الراشد أو المسترشد إلىٰ السلطان سَنْجَر السَّلْجوقى ، فى حق قُطْب الدين أبى منصور أزدشير العبادىّ : وقد ورد إلىٰ أبواب الخلافة ببغداد رسولًا ، وكان أبوه وخالُه وسلَفُه من أهل العلم والزُّهد ، وهو من الفُصَحاء البُلَغاء ما صورته :

أصدر خادمُ المجلس العالى هذه الخدمةَ عن ضميرٍ معمورٍ بالوَلَاء ، و إخلاصٍ دَوَاعيه متصلةٌ علىٰ الوِلَاء ، وعكوفٍ علىٰ ما يرجُو به حصولَ المَرَاضى العليه ، والتحقُّقَ لمشايعته الواضحةِ شواهدُها الجليَّه ، والحمدُ لله رب العالمين .

و بعد ، فما زال الجنابُ العالى السلطانىُّ الشاهنشاهىّ الأعظمىّ أعلاه الله لكلِّ خيرٍ مَنْبعا ، وحرمُه الآمنُ للفوائد الجَمَّة مغاثا ومَرْبعا ؛ والسعادةُ والتوفيقُ مقرونين

بسامى آرائه، مُطيفينِ به من أمامه وورائِه؛ فى كل رَأْى يرتَئيه، ومقرَّب يَصْطفيه؛ وآمرئ يتخَيَّره ويقلّده، وأمر يَحُلُّه ويَعْقِده؛ وصُنْع جميــل يُصِيب من الآستحقاق موضِعه، ويعيد طيب الذكر مجهِّزه ومُبْضَعه؛ مناقبُ تفوتُ الإحصاءَ عدّا، وتَرِدُ من مَفَاخر الوصــف مَنْهلا عَذْبا وتسـير بذكرها الرِّفاقُ غَوْرا ونَجْدا، وتُجاوزُ غاياتِ المدح عَلَاء ومجدا؛ وكفىٰ علىٰ ذلك دليلًا قاطعا، وبرهانًا ساطعا؛ ما آقتضتْه الآراءُ العلية من التعويل علىٰ فلان العبَّادىّ فى تحمُّل الرسالة الأعظميَّة التى عُدِقت منــه بالنقِىّ الجيب، البَرِىّ من العيب، العارِى من دَنَس الشكِّ والرَّيْب؛ فإن آختياره لهـذا الأمر طَبَّق مَفْصِــل الصواب، ولشاكلة رَمْى الرأى أصاب؛ إذ هو الفذُّ فى علْمه وفضله، السديدُ فى قوله وفعله؛ البارعُ فى إيجاز الخطاب وفَصْله، المُعْرِقُ فى الزَّهادة والدِّيانة المزَيِّنين لفرْعه وأصله.

ولمـا وصل إلىٰ الأبواب العزيزة الإماميَّة ـ ضاعف الله تعـالىٰ مجدها ـ مثَــلَ بالخدمة مؤدِّيا من فرضها مايلزم أمثالَه من ذوى العقائد الصحيحه، والموالاة المحضة الصريحه؛ وصادف من التَّكْرِمة والإنعــام ما يُوجِبه له محلُّه من العلم الذى لا تُكَدِّر الدِّلَاءُ بحره، ولا تُدْرِك الأرشِيَةُ بطُولهـا قعْرَه؛ فهو فيه نسيجُ وحدِه، وناسِجُ بُرْدِه؛ وناشرُ عَلَمه، ومستغزر دِيَمه. وألْقىٰ من ذلك مايقتضيه آختبارُ أحواله الشاهدةِ بأنه ممن أُصحِبَ فى يده قيادُ الفصاحة الأبِىّ، وملَّكتْه زمامَها المتنعَ علىٰ من عداه العَصِىّ؛ وجُمِــع له من الفضائل ماأصبح فى سواه متفرّقا، وخيرَله منها ماجَعَل جَفْن حاسده لفرط الكمد مؤرَّقا؛ إلىٰ مازان هذه الخصائصَ التى تفرّد فيها وبَرَع، وطال مناكبَ الأقرانِ وفَرَع : من الإخلاص الدالِّ علىٰ تمسّكه بحبل الدِّين المتين، وآستمراره علىٰ جَدَده الواضح المُبِين؛ وفَصَــل عن الأبواب العزيزةِ فائزًا من شَرَف الإرعاء، ما وفَّر الحظوظَ والأنصباء؛ حاصلًا من حميد الآراء، علىٰ أنْفَس العطاء وأجزَل الحِبــاء؛

وقد تمهّد له من الوَجَاهة والمكانةِ ما يَفْخَر بمكانه، وتنقطع دُونَ بلوغ شَأْوه أنفاسُ أقرانه؛ ورسمَ ـ أعلى الله المراسيمَ الإمامية وأمضاها ـ مطالعةَ المجلس العالى السلطانىّ أعلاه الله بهذه الحال، تقريرا لها عند العِلم الكريم، وآستمدادًا للطَّوْل والإنعام، باختصاص قطب الدِّين بالآحترام؛ الذى هو حقيقٌ بمثله، وخليقٌ أن لا يَضْحى عن وارِف ظله؛ وما يُوعَز به من ذلك يُصادِف من دَوَاعى الآستحقاق أوْفاها، ويرِدُ من مَنَاهل الذكر الجميل أعْذَبَها وأصفاها، ويُتلَقّى من شرف المحامد بألطفها وأحفاها، وللرأى العالى علوُّ رأيٍ، إن شاء الله تعالى.

الجملة الثانية

(فى المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الديار المصرية إليهم، والمختارُ منه أسلوبان)

الأسلوبُ الأوّل

(أن تفْتَتح المكاتبة بالدعاء)

مثل أن يدعى بعِزّ الأنصار، أو إدامة السلطان، أو تخليده، أو إدامة بَسْطة السلطان، أو إدامة الأيَّام ونحو ذلك. ويخاطَبُ السلطان فيه بمولانا، ويعبِّر المكتوب عنه عن نفسه بالمملوك، ويُخْتَم بالدعاء. وهى طريقة القاضى الفاضل ومَنْ تلاه من كتّاب الدولة الأيوبية بالديار المصرية.

قال آبن شيث فى "معالم الكتابة": ولا يقال فى مخاطبة السلطان: سيدنا مكانَ مولانا، وإن كان السيد من الألقاب السلطانيَّة، لأنّ لفظَ سيدنا مما آصطُلح عليه لأكابر المتعمِّمين من الفقهاء والقُضاة والكُتّاب، فآجتُنِب فى حق السلطان كى لا تقَعَ المشاركةُ بينه وبين غيره فى الخطاب.

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأسلوب كُتِب به إلىٰ الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى جواب كتابٍ ورد منه بالبشارة بفتح خِلَاط وهى :

أدام الله سلطانَ مولانا الملك العادل و زاده من فضله ! ، ومدّ علىٰ خَلْقه وارِفَ ظلّه ، وأظهر به دينَــه علىٰ الدّين كلّه ؛ وأوضح إلىٰ مَرْضاته مايَسْلُكه من سُبُله ، ولا عَدِمت يدُ الإسلام والمسلمين التعلُّقَ بوثيق حَبْله ؛ وفَرّج به الخُطَط المُطْبِقه ، وفتح به البلاد المســتغلِقه ؛ وأخضع لطاعته الأعناق ، وعمّ بفتوحه الآفاق ؛ ودَمَّر الكُفْر بمقامه ، وطوىٰ أيَّامَهم بمـا ينشُره ويُدِيمه من أيامه ، وأنزل النصرَ فى مواقف النِّزال بما ترفعه راياتُه من أعلامه .

وقف المملوكُ علىٰ ماأنعم به مولانا : من كتابِ البِشارة التى وصلَتْ إلىٰ كلِّ قلبٍ وسَمْع ، وأمَّل بها كلُّ مسلم كلَّ خيرٍ ونَفْع ؛ وعلِم ماوراءَها من جمْع شَمْلٍ كان عزيزَ الجمع ، وعلم مايتبَعُها من عواطف مولانا التى عوّدها منه أكرمُ طَبْع ؛ وتحقّق أن الله سبحانه قد قلَّد الدين منه سيفا خَلَقه للوصل وخلق السُّيوفَ للقطع .

وبالجملة إن الله سبحانه نظر إلىٰ هــذه المِلَّة بنظر مولانا لهـا ، وكَفَالته لأهلها ، وسياستهم بشَرَفِ السجيَّة وعَدْلها ؛ وإن كل ما آختَلَس الملكُ الناصرُ رحمه الله فإن الله يُتِمُّه علىٰ يديه ، ويجبُر به تارة بصَفْحه وتارة بحَدَّيه ؛ ويَهَبُ له عُمُرا نُوحِيًّـا إلىٰ أن لايَذَر علىٰ الأرض من الكافرين دَيَّارا ، وإلىٰ أن يُورِث الإســلامَ بسيفه منهم أرضًا ومالًا ودِيَارا ؛ وهذه مخايِلُ لايُخْلِف اللهُ بارقتَها ، بل يُردُّ إلىٰ جهة الكفر صاعقتَها ؛ فمـا يَحْسَب المملوك أن جانبًا يتلوّى علىٰ طاعة مولانا ولا يَنْحرِف ، ولا أنَّ كلمةً عليه بعد اليوم تختَلِف ، ولا أنَّ ممتنِعًا بالأمس يكون معــه اليومَ إلا أن يرضىٰ عنه مولانا وعليه ينْعطِف .

وعلىٰ هـذا فالشام الفَرَنْجِيُّ متأخذ بجنـاح إلىٰ الأخذ وبقية عمر المؤمن كما قال صلّى الله عليه وسلم لا ثَمَن لها، والفُرَص تمرّ مَرَّ السحاب، والمستعاذُ بالله من حَسَرات الفَوْت بعد الإمكان ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُره﴾ وما يشخص[(١)] لخطاب الله تعـالىٰ بالجهاد إلا مولانا : النيةُ خالصه، والبصيرةُ ثاقبه، والعزيمة ماضِيَه؛ والشجاعة مِنْحةٌ من الله له موهوبه؛ والسماحةُ خليقــةٌ من خلائقه الكريمــة موجوده؛ والرجالُ تَطَأ عَقِبَيْه، والملوك تُطيع أمره والشُّجعانُ تبْذُل أنفسهم بين يدَيْه، والعدوّ يَعْرِف منه خَصْما طالَمَا خاطبه بلسان السيف منه إليه . وليس كلُّ من قَدَر عليه أراده، وعكّا أقربُ من خِلَاطَ وأنفع للسلمين فَتْحا، وأعظمُ فى الكُفّار قَدْحا؛ فوالله لئن ٱنغلق بابُ الشام فى وجه الكُفْر، لتنقَطِعنَّ آمالُ أهل البحر والبَرّ؛ وما دام فى الشام بقية من الكُفْر فهو يَقْبَل الزِّياده، وينتظر النَّجْدة ويؤمِّل الاستعاده؛ وما كرر المملوك هذا الحديثَ جَهْلا بمـا يجبُ فى خدمة الملوك من الأدَب فى أن لا يتكلَّم فى القضية إلا من استُشير فيهـا، ولا يَجترئَ علىٰ الكلام إلا إذا كان مُجيبًا بمـا يؤمَرُ بالإجابة عنه، ولكن المملوك غُلِب علىٰ الصُّحْبه، وٱنقطع عن الخِدْمه؛ وعلم أنه لو كان حاضرا لكان مولانا يَبْسُطه ولا يَقْبِضه، ويستشِفُّ ماعنـده ويستعرِضُه؛ ويُشَفِّع قلبــه فى لسانه إذا هَفَا، ويحمله علىٰ صَفَاء ضميره فيما يقوله فلا يقابِلُ بالتكدير مَنْ صَـفَا؛ فقد علم الله أن المملوك يتمنّى للسلمين أن يُرَدَّ عليهم حقُّهم، وترْجِع إليهم بلادُهم؛ وأن تكون هذه الأُمنيَّةُ جاريةً علىٰ يد مولانا ومستفادةً من عزيمته، ومكتوبةً فى صحيفته؛ ومغتنَمةً فيما يَمُدّه الله فى حياته؛ فإن الأمور فيما بعدُ ملموحه، ولكن أبوابُ قدرة الله مفتوحه؛ فالله يجعل منها أن يَفْتح علىٰ مولانا فيه بلادَ الساحل، وأن يأخذَ للإسلام به أُهْبةَ المقيم وللمُقِيم أُهْبة الراحل؛ وما يخلط المملوكُ هذا المهمَّ بغيره، طالع به، ولمولانا علو الرأى .

(١) لعله وما يختص بخطاب الخ .

الأســـلوب الثـانى

(أن تُفْتَتح المكاتبة بيقبِّل الأرض مصَدَّرا بالمملوك)

وهى من مصطلحات الدولة الأيُّوبية أيضا إذا كان المكتوب عنه دُونَ من تقدّم.

كما كتب القاضى الفاضلُ عن نفسه إلىٰ السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» يهنئه بمولودٍ وُلد له:

المملوك يقبّل الأرض بالمَقام العالى الناصرىِّ نصرَ اللهُ الإسلامَ بمقامه، وأهلك أعداءَ الحقِّ بانتقامِه، ولا أعْدم الأمةَ المحمديةَ عَقْدَ اعْتزائه بكَفَالتها ومَضَاء اعتزامه.

يهنِّئُ المملوكُ المولىٰ بنعمة الله عنـده وعند الإسـلامِ وأهله بمَنْ زاده فى ولده، وكَثَّره فى عدده؛ وهو الأمير «أبو سليمان داود» أنشأه اللهُ إنْشَاء الصالِحين، ومَنَّ الله بكمال خَلْقه، ووَسَامةِ وجهه، وسَلامةِ أعضائه، وتهلُّل غُرَّته، وابتسام أَسِرَّته؛ ودل علىٰ أن هـذا البيتَ الكريم فلكُ الإسـلام لا يطْلُع فيه إلا البُدُور، كما دلَّ علىٰ عناية الله بأبيه، فإن الله تعالىٰ قال: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُور﴾ فطريقُ المولىٰ هـذه قد توالَتْ فيها البَشَائر، ونصر اللهُ فيها بألطاف أغنَتْ بلُطْف الخواطر عن قُوّة العساكر، واشتملتْ عليـه (؟) فى الغائبِ من أمره والحـاضِر ﴿وإنْ تَعُـدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها﴾ وكيف يُحْصِيها المُحْصِى ويحصُرها الحاصر، أيحيطُ ما يَفْنىٰ بمـا لا ينْفَد؟.

فالحمدُ لله الذى جعل كُتُبَ المولىٰ إلىٰ أوليـائه وكُتُبَهم إليه مبْتسِمةً عن المَسارّ، ناطقةً بأطيب الأخْبار، منكشِفةً أسرارُها عمَّـا يُروِّح الأسرار؛ وهذا الولد المبارَكُ هو المُوفِّى لاثْنَىْ عشر ولدا، بل اثْنَىْ عشَرَ نَجْما متوقِّدا؛ فقد زاد اللهُ فى أنجمه عن أنجم

يوسفَ عليه السلام نَجْمًا ، ورآهم المولى يقظةً ورأى ذلك الأنْجُمَ حُلُمًا ، ورآهم ساجدينَ له ورأينا الخَلْقَ له سُجُودا ، وهو سبحانه قادرٌ أن يزيدَ جُدودَ المولى إلى أن يراهم آباءً وجدودا .

الجملة الثالثة

(فى المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الغرب إليهم ،
والمختار منه أربعة أساليب)

الأسلوبُ الأوّل

(أن تفتتَح المكاتبة بلقب المكتوبِ إليه)

مثل : المقامُ أو الجناب ، ويُنْعت ، ثم يقال : مقام فلان ، ثم يؤتى بالسلام ثم بالبعديَّة ، ويؤتى بخطبة ، ويتخلَّص إلى المَقْصَد ، ويؤتى عليه إلى آخره ، ويختم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ٱبن البَنَّاء عن ٱبن خلاص إلى أمير المسلمين الواثقِ بالله أبى بكر بن هُود ، فى جواب كتابٍ ورد عليه منه ماصورته :

المقام العلىّ ، الواثِقىّ المعتصِمىّ ، المبارك السامى السَّنِىّ ، معْدِنُ الفضل ومَقَرّه ، ومَسْحَب ذيل الفخر ومَجَرّه ، ومَناط حمل أمانةِ المسلمين التى لا يحملها إلا أبلجُ الشَّرف أغرُّه ، ولا يتقلَّد قِلادتَها إلا تقىُّ المَنْشإ بَرُّه ، مقامُ مولانا جمالِ الملك وبهائِه ، والباعث فى مَعْطِفه أرْيَحيَّة النجابة وٱزدهائه ، الأميرِ الأجلّ المعظم ، المكَبَّر الهمامِ المكرم ، المبارَكِ الميمونِ السعيد ، الموفَّق الرشيد ، المظفَّر المؤيَّد ، المرفَّع الممَّجد ، ولىّ العهد ، وواسطةِ عِقْد المجد ، والمُلْبَس سرابيلَ اليُمْن والسعد ، الواثقِ بالله ، المعتصِم به ،

أبي بكر ابن مولانا مجدِ الإسلام، وجمالِ الأنام، ومجاهدِ الدّين، سيفِ أميرالمؤمنين، المتوكّلِ علىٰ الله تعـالىٰ أمير المسلمين . أبقاه الله واردًا من مَشارع التأييد أعذَبها، متخوّلا من صُنْع الله الجميل مايسدّد أبعدَالأمة وأقربَها، ممتدّا مدّ السعادة ماجلَتْ غرّةُ الفجرِ حِنْدس الظلماء وغَيْهبَها . عبدُ بابه الأشرف، ومملوكُ إحسانه الأسَحِّ الأذْرَف، مسترَقُّه الآوى إلىٰ ظل سلطانِه الأمدِّ الأورف، الحسن بن أحمد بن خلاص .

سلام الله الطيبُ الكريم وتحيّاته، يعتمد الواثقيَّ المعتصميَّ ورحمةُ الله وبركاتُه .

أما بعدَ حمدِ الله الذى له الأمْرُ من قبْلُ ومن بعد، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد نبيِّه الذى ترتّبَتْ علىٰ آجتنابه الشقاوةُ ووجب باتباعه السـعد، وعلىٰ آله وصحبه الذين ناضلُوا عن ديانته حتّى وضح السَّنَنُ وبان القَصْد ــ والرضا عن خليفته وآبن عمّه الإمام العباسيِّ أمير المؤمنيـــن أبى جعفر المنصور المستنْصِر بالله، وارثِ شرفه النبويِّ، ومجدِه الهاشميِّ، بخصائصه التى لاتُعَفِّى أنوارَها الأبكار(١)، ولا يَطْمِس آثارها الجِر . وعن مولانا مجد الإسلام، جمال الأنام، مجاهد الدِّين، سيف أميرالمؤمنين، المتوكل علىٰ الله تعالىٰ أمير المسلمين، ذى العَزَمات التى لا تُغْنِى غناءَها الذُّبُل(٢) التى مَنْبِتها الخَطّ، ولا القُضُب التى مَنْشؤُها الهند . والدعاء لمَقـام الثّقة والاِعتصام، ومَقرّ الإحسان والإنعام، بالنصر الذى يؤازِرُه الظَّفَر، ويظاهِره العَضد .

فكتبه عبدُ المقام الواثقيِّ المعتصميِّ ــ كتب الله له تأييدًا يحفظ علىٰ الدين نظامَه، وتخليدًا يرِثُ ليالىَ الدّهر وأيامه ــ من إشْبِيلِيَةَ حرسها الله تعالىٰ، وللبركَات المتوكّليات والواثقيّات بها آنثيالٌ كما تتابع القطر، وسطوعٌ كما آبتَسم فى مطالعه الفَجْر، وتعهُّد

(١) لعل الصواب "البكر" .

(٢) جمع الذابل ككتب وركع أنظر القاموس .

لا تزال تَقَرُّ به العينُ و ينشرح له الصدر، والخدمةُ اللازمةُ للمثابة العلية الواثقية المعتصميَّة ـ أعلى الله مكانها، وشيَّد بعَضُده أركانها ـ فرضٌ لا يسعُ تأخيره، وحقٌّ لا يَعْلَق به تفريطُ المتقلِّد له ولا تقصيره، ولازمٌ من اللوازم التى لا يُشْغَل بسواها سِرُّ المملوك ولا ضميرُه، والله يُنْجِد من ذٰلكم على ما يتسوّغُ به صفوُ المنِّ ونَميره. وإن الخطاب الكريم الواثقىّ شَرَّف الله مَنَازعه، ونوّر بأنوار السعادة مَطالعَه، ورد على العبد مُشيدا بذكره، مُعْليا من قَدْره، مُسْمِيًا لرتبة فخره، متضمِّنا من واسع الإنعام وغَمْره، مالو وُزِّع على العالَم لشمِلهم بأَسْره، وأغرقهم بفَيْض يسيرٍ من بَحْره، فتناوله المملوكُ بيمين إجلالِه وإعظامه، ووفّى الواجبَ من لَثْمه وٱستلامه، وألفى به رِيًّا ناقعًا لغَليل الشوق المبرِّح إلى ٱجتلاء غُرَّته الكريمة وأُوَامه، وجعل يتتبع سُطورَه، ويستَقْرِى فِقَره وشُذُوره، فلا يَقِف من ذٰلكم كلِّه إلا على ما يملأ حَوْباءه جَذَلا، ويخوِّله الآبتهاجَ غُنْما ونَفَلا، ويبوِّئُه أسنى مَراتبِ التشريف قُنَنا وقُلَلا، وهو على ما حكمتْ به الأقضيةُ من شَحطه عن المَثابة الواثِقيَّة شرّفها الله وشُسُوعه، وإيواء مَغَانِى أُنْسه لذلكم ورُجُوعه، لا يجد أُنْسا إلا ما يتوالى قِبَلَه من متعهّد ٱهتمامِها، وتُهْديه إليه ألسنةُ أقلامها، فكلّما وفَدَ عليه من صحائِفها المكرّمة وافِد، وورد من حضرتها المعظَّمة وارد، فقد جدّد الزمانُ عنده يَدًا غَرًّا، وأطْلع عليه بدرا، وأفاده من الآبتهاج ما يَعْمُر الخَلَد، وينْشُر نسيمَ الآستبشار إذا سَكَن وركَد، وما ينفَكُّ على نَأْيِ المكان، وبُعْدِ الأوطان، يحافظ على رَسْمه مِنْ خدَمِها، ويؤدِّى وظائف الشكر بجسيم مِنَحِها وعميم نِعَمِها، ويجعل على نفسه المتملّكة رقيبا من أن يُخِلَّ فى سرّ أو جَهْر بعهد من عهودِها أو ذِمَّة من ذِمَمِها، ومهما تجدَّد صنع يتعين إهداؤه، ويجب قضاءُ الحق بالدلالة عليه وأداؤه، لم يَصْحَبْه فى المطالعة به توَان، ولم يَعْبُرْ فى جِلَائه أَوانا إلى أَوان. وقد كان قدّم مُطالعاتِه قبلُ إلى الباب الواثقىّ

شرفه الله باسطًا لتفاصيل الأحوال ، وشارحًا لها علىٰ الآستيفاء والكمال ؛ ولم يتجدّد بعــد ذلك إلا تمكُّنُ الرجاء فى فتح لَبْــلَةَ يَسَّر الله مَرَامها عن دُنُوّ بحول الله وقُرْب ، وأنطق لسانَ الحال بتيسير كلِّ عَصِيٍّ من مُحاولاتها وصَعْب . ولو أنَّ مكانا عضَّه الدهرُ من أنياب حَوادثِه الجُونِ بما به عَضَّها ، وفَضَّ الحصارُ أقفالَها التى فَضَّها منه مافَضَّها ؛ لكان قد ذهب شميسُــه ، وخَفِىَ عن أن يُسْمَع حَسِيسُه ؛ لكن أبىٰ الشقاءُ الغالبُ علىٰ أهلها إلا أن يَمُدّ عليهم أمَدَ العذاب ، ويُرْخِى لهم طِوَلَ المُهْلة المُشْفِية بهم كلَّ يوم علىٰ مَهاوِى الخَسار والتَّبَاب ، حتّى يبلُغَ الكتابُ فيهم أجَلَه ، ويصِلَ إلىٰ الحدّ الذى شاء الله أن يَصِلَه ؛ فيأخُذَهم أخْذَ من عَمِىَ عن إدراك الحق بصَرُه وبصيرتُه ، وخَبُثَ فى معانَدَته سِرُّه وسريرتُه ؛ ويرَجّى أن الوقتَ فى ذلكم دانٍ بإمكان ، والله تعالىٰ يُدِيم للمقام الواثقىّ ماعَوّده من توالى السُّعود وآطّرادها ؛ وإصْحاب الآمال وآنقِيَادِها ؛ وسلامُ الله الطيبُ يُراوِحها ويُغادِيها ، وتحياته ، ورحَمَاته الموصولةُ وبركاته .

الأســـلوب الثـــانى

(أن تفتتح المكاتبــــة بالحَضْرة)

وتوصف ويُدْعىٰ لهـا ، ثم يقع التخلُّص إلىٰ المقصد ، ويُخْتَم بالدعاء والسلام .

كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلىٰ المتوكل بن هودٍ القـائم بالدعوة العباسـية بالأندلُس عن بعض أتباعه ، عند ورود كتابه عليه يخبره بفتح (١) ... ... من الأندلُس وقتلِ الثائر بها ، وهو :

---

(١) بياض بالأصل ولعله "بفتح المراد وهو حصن بقرطبة من اخ" كما يؤخذ من تضاعيف الجواب حيث قال (كيف لا وقد بشر خبره بالمراد فى المراد) وفى معجم "ياقوت" المراد حصن قريب من قرطبة بالأندلس .

الحضرةُ العليةُ أبقىٰ اللهُ ظلَّ مُلْكها علىٰ العباد، وعرَّفها من تأييده وإنجا ه أفضلَ المعتاد، وجعل لها من المَلْجإ إليه والتوكُّلِ عليه أكثَرَ الجُموع وأكثفَ الأعداد، ولا زالتْ أحاديثُ نَصْرها سالمةَ المُتُون صحيحةَ الإسناد، وصحائفُ فتوحها تجمَعُ صَلاحَ العباد، وتُطْلِع صَبَاحَ البشائر من ليل المُراد؛ عبدُها ومملوكُها، السالك من الخدمة والنصيحة الطريقَ التى يجب سلُوكُها، فلان .

وبعد : فكتب العبد ـ كتب الله للمقام العلىّ المجاهدىّ المتوكِّلىّ سعدا يُرُدُّ الصِّعابَ ذُلُلا، ويسُدّ من المكاره سُبُلا، وأمدّه بملائكةٍ رسله جاعلُ الملائكةِ رُسُلا ـ من فلانة وبركاته مُرْوِية للظماء، وحركاتُه مسكِّنة للدَّهْماء، وآثارُه فى يومَىْ سِلْمه وحربه آثار الأشِدّاء علىٰ الكُفَّار والرُّحماء؛ والأرضُ بوُضُوح مُحَيَّاه، وفتوح أسِنَّته وظُبَاه، تهتزُّ أعطافا، وتعتزُّ مَوَاسِطَ وأطرافا، وتبرُزُ فى أثوابها القُشُبِ فيزداد حُسْنها أضْعافا؛ والأيَّامُ بالبشائر التى فَضَّتْ ختامَهَا عَفْوا علىٰ قَدَر، وقَضَتْ مسامَهَا صفْوًا بلا كَدَر، لها أنفُ الشامخ تِيها، ووجهُ الضاحك المتهلِّل إشادةً بحالها وتَنْويها، ودلالةً علىٰ رُحْب مَجَالِها وتَنْبِيها . والحمدُ لله حمدَ من عَرَف قدرَ نَعْمائه فوَفَّى حقّ أسمائه تقديسًا وتنزيها . وإن الخطاب العلىّ الكريم وردَ راصفًا أجلَّ الدُّرَر، واصفًا أجمل الفتوح الغُرَر؛ رافلًا فى حُلَل الأيْد والقَهْر، رافعًا مِنْسأَةَ الحوادث بإحدىٰ حسنات الدهر؛ فياله من كتاب! أُودع بدائِعَ الكَلِم، وجوامعَ البيان الملتئِم المنتظِم؛ لو ٱستمدّ سَناءَه أوّلُ الفَلَقَيْنِ لم يَكُ كاذبا، ولو أُعِير محيَّاه ثانِى الشفقين كان عن ضوء النهار نائبا؛ ذكَّر بأيَّام الله المشهودة بالملائكة والرُّوح، ومدّ باعَ الكلام فى فَتْح الفُتُوح، وأطال ذُيولَ القول مِفْتاحًا منه للصَّعْب الجَمُوح؛ فكان الغَزِيرَ الصيِّب، والكثيرَ الطيِّب؛ والمتَّبَعَ إن مضىٰ بقلوب وأسماع، والمضاعَفَ حُسْنُه إن كُرِّر إلىٰ غير ٱنقطاع . كيف لا ؟ وقد بَشَّر خبرُه بالمُراد فى المُراد، وأوقع اليقينَ بما خَرَق

العاداتِ من الإسعافِ والإسعادِ، وكان من آحادِ الأخبار لا من أخبار الآحادِ؛ ومما ٱقتصّه ما جرىٰ من أوائل الحركة السعيده، وٱعترض من المَتاعِب الشديده ؛ وأن الشتاءَ كان فى ٱبتدائه ، والغيمَ ساحبٌ لردائه، ساكبٌ فضل أندائه . والمكارهُ فى طَيِّها النِّعم الجسَام ، والنفوسُ الكبارُ تتعَب فى مُرادِها الأجْسام ؛ ولذلك هانت علىٰ المَقَام العلى ــ أيده الله ــ تلك المَشَاقّ، ورجّى من عمله ونظره ما جَنىٰ من ثمرةِ العاقّ؛ فسار إليه بالجحْفَل الأحْفَل، والعزيمة الزعيمة بفَضِّ المُقْفَل،ورَضِّ الأعلىٰ والأسفَل ؛ وقد ٱعتزَّ بأجَلِّ المدائن شانا ، وأوْثقِها بُنْيانا ، وأبعدها صِيتاً ومكانا ؛ وهى التى أعيَتْ رياضَتُها كلَّ رائض، وتَحِرتْ بكلِّ قاعد بقُنُونِها(١) رابض؛ وجُمِع إليهـا مِنْ طَرد الآفاق، وأعداد الآجتماع والآتِّفاق ؛ أتباعُ كلِّ ناعق، وأشياعُ كل ما ردٍ مارق؛ فاستحَلُّوا الدماء ، وركِبُوها مَضَلَّة عَمْيـاء ، وأدرك كلٌّ منهم مما شاء للإسلام ماشاء ؛ وعدوُّ الله يَفْتِل لهم فى الذِّروة والغارِب ، ويضرِبُ لهم سُكَّانَ البلد ضَرْب الغرائب؛ حتّى أبادَ خَضْراءهم، وجعلهم شَرَّ خَلَف فيمن وراءَهم؛ غيرَ مُبالٍ بما ٱحتقَبَ من الجرائر،وٱقترفَ من إباحة الحَرائر؛ فاجترأ مدّة بالجلاء،وٱزداد إثْمـا بالإمْلاء؛ وحينئذٍ سَمَتْ إليه عساكِرُ الإسلام، وناولته بالموت الزُّؤام، ورأىٰ عِيَانا ما كان يَطيرُ إليه قلْبُه لو رآه فى المَنَام؛ وتَداولَتْه المطاولَةُ المستدْرِجه،والعاجلةُ المُزْعِجه؛ وفى كلِّ ذاقَ عذابَ الهُون ، فأحسَّ بقاصِمة المُتُون وقاضِية المَنُون ؛ وٱنقسمت شدّته إلىٰ المُهلِكَيْن : خوفٍ وإعدام،وٱستكملَتْ تسعةَ أشهر وكان الفتحُ عندها لتمـام ؛ وإنه للولد الذى هُنِّئَ به الإسلام، وضَنَّت بمثله الأيام، وٱستبشر بوجُوده

(١) القنة بالضم الجبـل الصغير أو الجبل السهل المنبسط علىٰ الأرض جمعه قنن وقنان وقنون أنظر القاموس .

الأنام ؛ فما أعلىٰ مقامَه ! وأبهج يومَهُ وأسعَدَ عامه! ؛ ولا غَرْوَ أن تكون غُرَّته أبهىٰ الغُرَر، ومفتتحه مباركا كالبُشَر، وقد أسفر عن أيْمَنِ وجه النُّجْح ، وخرج من عموم الأيام بمخصَّص هذا الفتح ؛ وآنتقم اللهُ فيه من الشقىّ الظالم، العظيمِ الجُرْأة علىٰ آرتكاب المَظَالم، فطاح بمُوبِق أعمالِه ، وعجَّل اللهُ به إلىٰ ما أُعِدّ لأمثاله ؛ وكان دَمُه شَرَّ دمٍ أُرِيق، وأدِيمُه أخبَثَ أديمٍ لاقىٰ التمزيق .

والحمدُ لله الذى نصر الرايةَ العباسيَّة وأعلاها، وأظهر آيةَ عِنايته وجَلَّاها ، وأسبغ نعمَه الجسيمةَ ووالاها . وحين ورد هذا النبأ العظيمُ [كان] أندىٰ من قَطْر النَّدىٰ علىٰ الأكباد ، وسَرىٰ فى البِلاد سَرَيانَ الأرواح فى الأجساد ؛ وكَلِفت به الأسماعُ والأسمار، وسَمَتْ به وإليه الأمصارُ والأبصار ؛ وآستقرَّ من آرتجاع البلد، وآنتزاع النفس الذاهبة إلىٰ جرى الأَبَد ؛ حُكْمان مدركهما الفِعلُ والإقرار ، وعملان تَمَّ بهما المرادُ والآختيار، فرُفِعت الأدعيةُ إلىٰ سامعها، وغَصَّت الأندية بحاضِرى مَجَامعها ؛ وذاع بالبُشرىٰ فيأحسن ذائِعها وشائِعها ، وأذعنت الآمالُ لإدناء نازِحها وشاسِعِها ؛ وأخذ العبد من المَسَرّة بحظِّ أخلص العبيد مَشْهَدا ومَغِيبا ، وأجمعِهم لمَعالى الجِدّ تطنيبا ، ولمعانِى الثناء والحمد تطييباً ؛ وجَدَّد من شُكر الواهب لجزيل هذه الهِبه ، والفاتح لأعظم المعاقل الأشبه (؟) مايستَغرِق المُدَد ، ولا يبْلُغ الأمَد ، وأنّى [لمثلى] أن يَصف البشرىٰ الواصله ، أو يُنْصِف المقالَةَ المتطاوِله ؛ ولو حَلَب أشْطُر الإحسان ، وجلب أبحُرَ البيان ؛ وكيف والفِكْر قد قَعَد حَصِرا ، والمدىٰ لايؤاخذه التقدير قسرا ، والقول لايجيب مُطوّلا ولا مُختصَرا؟ فحسبُه دعاءٌ هُوَلَهُ رافع ، ولأوقاتِ الخلَوات به قاطع ، وإلىٰ الله سبحانه فى قَبُوله ضارِع ؛ والله يجيبُ فى المقام العلىّ المتوكلىّ أفضلَ دعاء الخلق ، ويضاعفُ له مع السابقين ثوابَ السَّبْق ، ويَجْزيه خيرَ الجزاء عما أزاله

من الباطل وأداله من الحق؛ وهو تعالىٰ ينصُره يومَ الباس؛ ويعصِمُه من الناس، ويُبقِي رِفدَه للاكتساب ونُورَه للاقتباس، ويعرّفُه فى كل ما يستنبِطُه من أصل التوكل صحّةَ القياس، بمنه والسلام .

الاســـــلوب الثــالث

(أن تفتَتح المكاتبةُ بأمّا بعد، ويتخلَّص إلىٰ المقْصَد ويختَم بما يناسب المقام)

كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلىٰ المتوكِّل بن هُود المقدّم ذكره، عن نفسه، يهنِّئه بوصول هديّة الخليفة العباسىّ إليه من بَغْداد :

أما بعـد، فكتب العبدُ ــ كتب اللهُ للمقـام العلىّ الناصرىّ المتوكِّلىّ مَجْدًا يَحُلّ الكَوَاكب، وجَدّا يَفُلُّ الكتائب . مِن شاطِبَةَ، وبركاتُ دعوته السـعيدةِ قد طبَّقت البَسـيطه، وكاثَرتِ البِحارَ المُحِيطه؛ وأنجزتْ للإسلام أفضـلَ مَوَاعده، وجدّدَتْ عهـدَه لأهل بيتِ النبوّةِ الرافعةِ لقواعده؛ وفسَّحَت له مجَـالَ البُشرىٰ، وأطلعتْ عليـهِ أنوارَ العناية الكُبْرىٰ؛ فعـاد إلىٰ الوطَن، ووجد حالَ السُّهد طعْمَ الوسَن؛ وأورق عُودُه، وآتّسَـقتْ سُعُوده؛ وعاد إلىٰ صِحَّتـه بالنظر الإمامىّ الذى جاء يَعُوده . وحين صـدُور رسولِ دارِ السلام، ومَثَـابةِ أهل الإسلام؛ ومقْـعَد الجَلَاله، ومَصْـعَد إقرار الرساله؛ ومعه الكتّابُ الذى هو غَرِيب، أَنِسَ به الدِّين الغريب، وبَعِيـدُ الدار نزَلَ به النصرُ القريب؛ وآيةٌ بأدلّتهـا الصادقة لتبطيل الشُّبَه الآفكه، وسكينةٌ من ربّنا وبقِيَّة مما ترك آلُ نبِيِّنا تحملُه الملائكه ــ آطمأنَّت القلوب، وحَصَل المطلوب؛ ودرّت أخلافُ الإيناس، وآرتفع الخِلافُ بينَ الناس؛ وعلِمُوا أن السالكَ قد أضاءتْ له المَحَجّه، والحقّ لايَعْدُو مَنْ بيـده الحُجّه؛ وأن من أمَّرتْه

الخلافةُ العبّاسيّة فطاعتُه تجبُ قطعا، ومخالفتُه تحرُم شرعا؛ ولم يبْقَ إلا أن يبين للعيان شَخْصُه، ويرِدَ علىٰ الآذان نَصُّه؛ فيكون يومُه غُرَّةَ الليالى المعتكِرات، وعلَمَ الأيام المُنَكَّرات؛ واليومَ الذى به تؤرِّخ الأيامُ المستقْبَله، وتُرْفَعُ فيه الأعمال المتقبَّله. وبإقبال الركاب السعيد إلىٰ هذه يَتنْزِل به من سَمَاء العلياء محكمٌ وحكمه، ويصِلُ به إلىٰ الأنام فضلٌ من الله ونِعْمه؛ ويُقْتَضىٰ دينٌ علىٰ الأيام، لايبقىٰ معه عسره، ويوجَدُ جبرٌ للإسلام، لا يكون بعده كَسره، وشفاء لقلوب الأولياء هو للأعداء حَسْره.

الأسلوب الرابع

(أن تُفتَتح المكاتبة بالخطاب بلفظ «سيدى» أو «مولاى»
مع حرف النداء أو دونه)

كما كتب أبو عبدالله بنُ الخطيب وزيرُ ابن الأحمر صاحبِ الأندَلُس عن نفسه إلىٰ السلطان أبى عِنَان ابن السلطان أبى الحسن المَرِينىّ صاحب فاس، عند ورود كتابه إلىٰ الأندَلُس بفتح تِلِمْسان، معرّضا بأنَّ صدور كتابه من عند قبر والده السلطان أبى الحسن بالأندَلُس، ما صورته :

مَوْلاىَ! فاتح الأقطار والأمصار، فائدةُ الأزمان والأَعْصار، أثيرُ هبَاتِ الله الآمنةِ من الاعتصار[(1)]، قُدوةُ أُولى الأيْدى والأبْصار، ناصرُ الحق عند قُعود الأنْصار، مستصرخ الملك الغريب مِنْ وراء البِحَار، مصداقُ دعاءِ الأبِ المولىٰ فى الآصال والأسحار. أبقاكم الله! لاتقِفُ إيالتُكم عندحدّ، ولا تُحصىٰ فتوحاتُ الله عليكم بعدُ، ولا يُفيق أعداؤُكم من كدّ، مُيَسَّرا علىٰ مَقَامِكم الكريم ماعَسُر علىٰ كل أبٍ كريم وجَدّ.

(1) فى الأصل قصور وهو تصحيف والتصحيح من "ريحانة الكتّاب" ج ٢ ص ٣٣ .

عبدُكم الذى خَلَصَ إبْرِيزُ عبودِيّته لمُلْك ملِكِكم المنْصور، المعْتِرفُ لأدنىٰ رحمةٍ من رَحَمَاتكم بالعَجْز عن شكرها والقُصُور، الداعى إلىٰ الله سبحانَه أن يَقْصُر عليكم سعادةَ القُصُور، ويُذَلّل بعز طاعتكم أنفَ الأسَد الهَصُور، ويُبْقِيَ الملك فى عَقِبكم إلىٰ يومِ يُنْفَخُ فى الصُّور . فلان .

من الضَّرِيح المقدّس : وهو الذى تعدّدتْ علىٰ المسلمين حقوقُه، وسطع نُورُه وتلألأ شُرُوقُه، وبلغ مجدُه السماءَ لَمَّا بَسَقَتْ فروعه ورسَخَتْ عُروقُه ، وعظُمَ بتبوُّئِكم نَخْرُه فما فوقَ البسيطة فَخْر يَفُوقه؛ حيثُ الجلالُ قد رسَتْ هِضابُه، والمُلْكُ قد سُتِرتْ بأستار الكعبة الشريفةِ قِبابُه ، والبيتُ العتيقُ قد أُلْحِفت الملاحِد الإمامية(١) أثوابُه ، والقرءان العزيزُ تَرَتّل أحزابه ، والعملُ الصالحُ يرتفعُ إلىٰ الله ثوابُه ، والمستجير يخفى باطنُه سؤاله فيَجْهَر بنَعْرة العزِّ جوابُه؛ وقد تفَيَّأ من أوراق الذكر الحكيم حديقه، ونحيلةً أَنيقه، وحطَّ بجُودِيّ الحقّ نَفْسا فى طُوفانِ الضُّرِّ غَرِيقَه، وٱلْتحفَ برقَ الهيبةِ الذى لاتهتدى للنفسِ فيها إلا بِهِدايةِ الله طَرِيقه، وٱعتزَّ بعزِّ الله وقد توسّط جيشَ الحرمةِ المَرِينيَّة حقِيقه، إذ جعل المولىٰ المقدّس المرحوم أبا الحسن مقدّمه وأباه وجدّه سقاه المولى الكريمُ بهذا المَجْد سَيْب رُحْماه، وطَنَّب عليه من الرِّضا فُسْطاطا، وأعلىٰ به يَدَ العناية المَرِينيّة ٱهتماما وٱغْتباطا، وحرّر له أحكامَ الحُرْمة نصًّا جليًّا وٱستِنْباطا ، وضمِنَ له حُسْنَ العُقْبىٰ ٱلتزاما وٱشْتِراطا ؛ وقد عقَدَ البصرَ بطريق رحمتكم المنتظَرة المرتَقبه، ومدّ اليَدَ إلىٰ اللطائف بشفاعتِكم التى تتكفَّل بعِتْق المال كما تكفَّلتْ بعِتْق الرَّقَبه ، وشرع فى المراح بميدان نِعَمكم بعد ٱقتحام هذه العقَبه ؛ لما شنفت الآذانَ البشرىٰ التى لم يبقَ طائرٌ إلا سجع بها وصَدَح، ولا شِهابُ دُجُنَّة إلا ٱقتبس من نُورِها وٱقتَدَحْ، ولا صدرٌ إلا ٱنشرح، ولا غُصنُ عِطْف إلا مَرِح؛ بُشْرىٰ الفتح القريب،

(١) فى الريحانة الاماتية . تأمل .

وخبرُ النَّصر الصحيح الحَسَن الغَريب ، ونَبأُ الصُّنْع العجيب ، وهِدايةُ السميع المجيب : فتحُ تِلِمْسان الذى قلَّد المنابِرَ عقودَ الابْتهاج ، ووهب الإسلامَ مَنيحةَ النصر غنيَّةً عن الهَياج ، وألحفَ الخَلْق ظِلًّا ممدُودا ، وفتح بابَ الحجِّ وكان مسدُودا ، وأقرَّ عُيونَ أوليـاء الله الذين يَذْكُرونَ اللهَ قِياما وقُعُودا ، وأضرع بسَـيْف الحقِّ جِباهًا أبيَّـةً وخُدُودا ؛ وملَّككم حقَّ أبيكم الذى أهانَ عليـه الأموال ، وخاض من دُونه الأهوال ، وأخْلَص فى الضَّراعة والسُّؤال ؛ من غير كَدٍّ يغْمِز عِطْفَ المَسَرَّه ، ولا جَهْد يُكَدِّر صفْو النعم الثَّرَّه ؛ ولا حَصْر ينْفُض به المَنْجنِيقُ ذُؤابَتَـه ، ويُظْهِر بتكَرُّر الركوع إنابتَه .

فالحمد لله الذى أقال العِثَار ، ونَظَم بدَعْوتِكم الانْتشار ؛ وجعل مُلْككُم يجدّدُ الآثار ويأخُذُ الثار . والعبدُ يهنِّئ مَوْلاه ، بما أنعم اللهُ به عليه وأَوْلاه ؛ وما أجْدَره بالشُّكر وأَوْلاه ! فاذا أجال العبيدُ قِداحَ السُّرور فلِلْعبد المعَلَّى والرَّقيب ، وإذا آستَهَمُوا حظُوظَ الجَذَل فلِى القِسْمُ الوافرةُ والنصيب ؛ وإذا آقتسَمُوا فريضةَ شكر الله تعالى فلِيَ الحظُّ والتعْصِيب ؛ لتَضاعُف أسباب العبودية قِبَلِي ، وترادُفِ النِّعَم التى عجز عنها قَولِي وعَمَلِي ، وتقاصَرَ فى آبتغاءِ مُكافأتِها وَجْدى وإن تطاول أمَلِي ؛ فمقامُكم المقامُ الذى نَفَّس الكُرْبه ، وآنَسَ الغُرْبه ، ورعىٰ الوَسيلةَ والقُرْبه ؛ وأنعَشَ الأرماق ، وفكَّ الوَثاق ، [وأدرّ الأرْزاق ، وأخذ على الدَّهْر بالآستقالة بالعهد والميثاق](١) وان لم يباشر العبدُ اليَدَ العالية بهذا الهناء ، ويَتَمثَّلْ بين يَدِي الخلافة العظيمة السَّنا والسَّناء ، ويمُدّ بسبب البِدَار إلىٰ تلك السماء ؛ فقد باشر به اليَدَ التى يَحِنُّ مولاى لتذَكُّر تقبيلها ، ويُكَمِّل فروضَ المجد بتوفِيَةِ حقوقها الأبويَّة وتكميلها ؛ ووقفت بين يدى مَلِك الملوك الذى أجال عليها القِدَاح ، ووصل فى طلب وِصَالها المَسَاء بالصَّباح .

(١) الزيادة من الريحانة ج ٢ ص ٣٣ .

وكان فتحه إيَّاها أبَا عُذْرةِ الافتتاح ؛ وقلتُ يهنيك يامولاى ردُّ ضالَّتك المَنْشُوده، وخبرُ لُقَطَتك المعرّفة المشهُودَه ؛ [ودالتك المودودة](١) فقد آستحَقَّها وارثُك الأرضىٰ، وسيْفُك الأمْضىٰ ؛ وقاضى دَيْنك ، وقرّةُ عينِـك ؛ مستنقِذُ دارِك من يَدِ غاصبها ، ورادُّ رتبتِك إلىٰ مَناصِبها؛ وعامِرُ المَثْوىٰ الكريم، وسِتْرُ الأهل والحَرِيم .

مولاىَ ! هذه تلمسانُ قد أطاعَتْ ، وأخبارُ الفتح علىٰ وَلدِك الحبيبِ إليك قد شاعَتْ ، والأُمَمُ إلىٰ هَنَـائه قد تداعَتْ ؛ وعدُوُّك وعدُوّه قد شَرّدتْه المَخَـافه ، وآنضافَ إلىٰ عَرَب الصحراءِ نخفَضَتْه الإضافه؛ وعن قريب تتحكَّم فيه يَدُ آحتِكامه، وتُسلِمُه السلامةُ إلىٰ حِمامِه؛ فلتَطِبْ يا مولاىَ نَفْسُك، وليستبْشِرْ رَمْسُك،فقد نَمَتْ بركتُك وزكىٰ غَرْسُك . نسألُ الله أن يُورِد علىٰ ضَرِيحك من أنبـاءِ نَصْرِه ما تُفَتَّح له أبوابُ السماء قَبُولا ، ويُرادِفُ إليك مَدَدا موصُولا ، وعَدَدا آخرتُه خيرٌلك من الأُولىٰ، ويَعْترِيه بركةُ رضاك ظَعْنا وحُلُولا ، ويُضْفِى عليه منه سِترا مسدُولا .

ولم يقْنَع العبد بخدْمة النَّـثْر، حتّٰى أجهد القريحةَ التى ركَضَها الدهرُ وأنْضاها ، وآستشَـفَّها الحـادث الجَلَل وتَقاضَاها ؛ فَلَفَّق من خِدمة المنظوم ما يتغمَّد حلمُكم تقصِيرَه، ويكون إغضاؤكم إذا لِقِى مَعرّة العَتْب ولِيَّه ونَصِيره؛ وإحالة يامولاى علىٰ الله فى نفس جَبرَها، ووسيلةٍ عرفها مجدُه فـا أنكرها ، وحرمةٍ بضَرِيح مولاىَ والده شَكَرها ؛ ويطَّلع العبد منه علىٰ كمال أمله ، ونُجح عمَـله ؛ وتسويغ مقتَرَحه، وتميم مَطْمَحِه، إن شاء الله تعالىٰ :

[ياآبْنَ الخَلَائِفِ ياسَمِىَّ محمدٍ * يامَنْ عُلَاه ليس يَحْصُر حاصِرُ!
أبْشِرْ فأنتَ مجـدِّدُ المُلْك الذى * لَوْلاكَ أصبَحَ وهو رَسْمٌ داثِرُ!

---

(١) الزيادة من "الريحانة" ج ٢ ص ٣٣ .

مَنْ ذا يُعانِد منــك وارِثَهُ الذى * بسُـــعوده فَلَكُ المشـــيئة دائر!
ألقتْ إليك يَدُ الخِـــلافة أمْرَها * إذ كنتَ أنتَ لها الولىُّ الناصر!
هـــذا وبَيْنَك للصريح وبينها * حربٌ مُضَرّسَـــة وبَحْـــرٌ زاخِر!
مَنْ كان هـــذا الصُّنعُ أوّلَ أمْرِه * حَسُنَتْ له العُـــقْبىٰ وعَزَّ الآخِرُ!
مَوْلاىَ عِنْـدى فى عُلَاك محبَّـــةٌ * واللهُ يعـــلَمُ ما تُكِنُّ ضمائرُ!
قلْـــبِى يحـــدِّثُنى بأنَّـــك جابِرٌ * كَسْرى وحظِّى منـــك حَظٌّ وافِرُ!
بِثرىٰ وجودك قد حَططْتُ قَرِيحتِى * ووَســـيلتى لِعُلَاكَ نُورٌ باهِـــرُ!
وبذلْتُ سَعْيِى وٱجتهادِى مثلَ ما * يُلْقِىٰ لمُلْكك سيفُ أمرِك عامر!
وهو المـــوالىُّ الذى ٱقتحَمَ الرَّدىٰ * وقضىٰ العزيمـــةَ وهو سَيْف باتِرُ!
ووَلِىُّ جَدّك فى الشَّدائدِ عِنـــدَ مَا * خذَلَتْ عُـــلاه قبائلٌ وعشـــائرُ!
فاســـتَهْدِ منـــه النُّجْحَ وٱعلم أنَّه * فى كلِّ مُعْضِـــلةٍ طبيبٌ ماهر
إنْ كنتُ قد عَجَّلتُ بعضَ مدائِحِى * فهِىَ الرِّياضُ وللِّرياضِ بَوَاكر(١)]

الطرف الرابـــع عشر

(فيما يختص بالأجوبة الصادرة عن الملوك وإليهم)

والرسمُ فيه أنه إن كان الجواب صادرًا عن مَلِك، فالتعبير عن الملك بنون الجمع، وخطابُ المكتوب إليه بالكاف . وإن كان عن بعض أتباع الملِك إليـه ، فالتعبير عن المكتوب عنـه بالخادم، أو العبد، أو المملوك ونحو ذلك ، ومخاطبةُ الملك بما تليقُ به مخاطبـةَ الملوك . ثم الجوابُ تارةً يكون الآبتـداء [فيـه] بنفس ورود

---

(١) لم يذكر فى الأصـــل ما أشار اليه من النظم وقد عثرنا عليه فى "ريحانة الكتاب" فنقلناه منها استيفاء للفائدة فتنبه .

المكاتبة ، وقد تقدّم فى مثـل ذلك فى الكتب الصادرة عن الخلفاء أن المكاتبـة يبتدأ فيها بلفظ عُرِض . أما الأجوبة المتعلّقة بالملوك فإنه يقال فيها بدل عرض : وصل، أو ورد، أو نحو ذلك .

ثم هى علىٰ ضربين :

الضــــرب الأوّل

(الأجوبة الصادرة عن الملوك إلىٰ غيرهم،وفيه ثلاثُ جمل)

الجمــــلة الأولىٰ

(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك المَشْرِق،وفيــه أسْلوبان)

الأســـلوبُ الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ: « كتابُنا » و «وصل كتابك»)

ويذكر تاريخ الكتاب، ويشار إلىٰ ما فيه، ثم يؤتىٰ بالجواب إلىٰ آخره، ويختم باستماحة الرأى فى ذلك الأمر ؛ كما كتب أبو إسحاق الصابى عن صَمْصام الدولة إلىٰ حاجب الحُجّاب أبي القاسم سعدِ بن محمد ، وهو مقيم بنَصيبينَ علىٰ محاربة بادٍ الكُردىّ .

كتابنا ، ووصل كتابُك مؤرّخا بيوم كذا، تذكر فيه ماجرىٰ عليه أمْرُك فى الخدمة التى نِيطَتْ بِكفايَتِك وغَنَائك ، ووُكِلتْ إلىٰ تدبيرك ورأيك : من رد بادٍ الكُرْدىّ عن الأعمال التى تطرّقها ، وحدّث نفسَه بالتغلُّب عليها، وتصرُّفك فى ذلك علىٰ مُوجِبات الأوقات، والتردُّد بين أخينا وعُدّتنا أبى حَرْب زيادِ بنِ شهرا كويه وبينك من المكاتبات، وحُسْن بَلَائك فى تحيُّفه، ومقاماتك فى حَصّ جَنَاحه، وآثارك

فى الآنقضاض علىٰ فريقٍ بعدَ فريقٍ من أصحابه ؛ وآضطرارِك إيَّاه بذلك وبضُرُوب الرياضات التى آستعملتها، والسياسات التى سُسْت أمره بها، إلىٰ أن نزل عن وعُورة المعصيةِ إلىٰ سُهُولة الطاعة، وآنصرف عن مجَاهل الغَوَاية إلىٰ معَالِم الهِدَايه ؛ وتراجع عن السَّوْم إلىٰ الآقتصار وعن السَّرَف إلىٰ الآقتصاد، وعن الإباءِ إلىٰ الآنقياد ، وعن الآعتياص إلىٰ الإذعان . وأن الأمر آستقرّ علىٰ أن قَبِلتَ منه الإنابه، وبذَلْتَ له فيما طَلَب الآستجابه؛ وآستُعيد إلىٰ الطاعه، وآستضيف إلىٰ الجماعه، وتصَرَّف علىٰ أحكام الخِدْمه، وجرىٰ مَجْرَى من تضُمُّه الجمله ؛ وأُخِذت عليه بذلك العُهُود المستحكمَةُ والأيمان المغَلَّظه؛ وجُدِّدت له الولايةُ علىٰ الأعمال التى دخلَتْ فى تقليده، وضربت عليها حدوده؛ وفهمناه .

وقد كانت كتبُ أخينا وعُدّتنا أبى حَرْب [زياد بن شهراكويه][1] مولىٰ أميرالمؤمنين ترِدُ علينا، وتصِلُ إلينا، مشتملةً علىٰ كُتُبك إليه، ومطالعاتك إيَّاه؛ فنعْرِف من ذلك حُسنَ أثرِك وحزم رأيك، وسَدادَ قولك، وصوابَ آعتمادِك ؛ ووُقُوع مَضَارِبك فى مَفَاصِلها، وإصابةَ مَرامِيك أغراضَها؛ وماعَدَوْتَ فى مذاهِبك كلِّها، ومتَقَلَّباتك بأسْرها، المطابَقَةَ لإيثارنا، والموافقةَ لما أُمِرْتَ به عنَّا ؛ ولا خلَتْ كتبُ أخينا وعُدّتنا أبى حرب من شكرٍ لسَعْيك، وإحماد لأثرِك، وثناءٍ جميل عليك، وتلويح وإفصاحٍ بالمناصحة الحقيقة بك، والموالاةِ اللازمةِ لك، والوفاءِ الذى لا يُستغرَب من مثلك، ولا يُستكثَرُ ممن حَلَّ فى المعرفة مَحلَّك؛ ولئِنْ كنت قصدْتَ فى كل نهج آستمرَرْت عليه، ومَعْدِل عدلت إليه، مكافَحَةَ هذا الرجل ومراغَمَته، ومُصابرَتَه ومنازلَته ؛ والتماسَ الظهور عليه فى جميع ماتراجعتماه من قول، وتنازعتماه من حَدّ ؛

(١) الزيادة من مختارات الصابى الخطية .

فقد آجتمع لك إلىٰ إحمادنا إيَّاك ، وآرتضائنا ما كان منك ، المِنَّةُ عليــه إذ سَكَّنْت جاشَه ، وأزلْتَ آستيحاشَه ، وآستللته من دَنَس [لباس](١) المخالفه ، وكسوتَهُ من حُسْن شعار الطاعه ، وأطلت يَدَه بالولايه ، وبسطت لسانَهُ بالحُجَّه ، وأوفيت به علىٰ مراتب نُظَرائِه ، ومَنازِل قُرَنائه ، حتّٰى هابُوه هيبةَ الوُلَاه ، وآرتفع بَيْنَهم عن مطارح العُصَاه .

فالحمدُ لله علىٰ أنْ جعلك عندنا محمودا وعند أخينا وعُدّتنــا أبى حرب مشكورا ، وعلىٰ هــذا الرجل مانًّا وفى إصلاح ما أصلحْتَ من الأمر مُثَــابا مأجورا ، وإيَّاه نسأل أن يُجْرِى علينــا عادتَه الجاريةَ فى إظهار راياتنا ، ونُصْرةِ أوليائنا ، والحكمِ لنا علىٰ أعدائنا ، وإنزالهم علىٰ إرادتنا ، طَوْعا أو كرها ، وسِلْمــا أو حربا ، فلا يخلو أحدٌ منهم أن تحيط لنا بعُنُقه رِبقةُ أسر ، أو مِنَّةُ عفو ، إنه جلَّ ثناؤه بذلك جدير ، وعليه قدير . ويجب أن تُنْفَذَ إلىٰ حضرتنــا الوثيقةُ المكتتبةُ علىٰ بادٍ الكردىّ إن كنت لم تُنْفِذها إلىٰ أوانِ وصول هذا الكتاب : لتكون فى خزائننا محفوظه ، وفى دواوينِنا منسوخه ، وأن تتصرّف فى أمر رسله وفى بقية [ان كانت بقيت من أمره](١) علىٰ ما يرسُمه لك عنا أخونا وعدّتنا أبو حرب ، فرأْيَك فى العمل علىٰ ذلك ، وعلىٰ مطالعته بأخبارك وأحوالك ، وما يحتاج إلىٰ عمله من جهتك موفقا ، إن شاء الله تعالىٰ .

الاســــلوب الثــانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : «وصل كتابك»)

والأمر فى ترتيبه علىٰ نحو ما تقدّم فى الأسلوب الذى قبله .

كما كتب أبو إسحــاق الصابى عن صَمْصام الدولة أيضا إلىٰ أبى العَلَاء عبيد الله آبن الفضل فى جوابِ كتابه الواردِ عليه بالظَّفَر بأهل الآقتباس ما صورتُه :

---

(١) الزيادة من " مختارات الصابى " .

وصل كتابك ـ أدام الله عزك ـ المؤرّخ بوقت الظهر من أمسنا وهو يوم كذا، تذكُر ماسهّله الله لك، وأجراه على يدك، وبيُمْن تدبيرك، وبركة خدْمتك: من الإيقاع بالعُصَاة أهل الاقتباس، وإذاقتهم وبالَ ما كانُوا عليه: من خَلْع الطاعه، وشنّ الغارة واستباحة المَحَارم، وارتكاب العظائم؛ وإثخانك فيهم قتْلا وأسْرا، وتَشْريدا وتشتيتا؛ وفهمناه وحمِدنا الله عليه، وشكرنا ماأَوْلى فيه، وحَسُنَ منا موقعُ أثرك، وتضاعَفَ فيه جميلُ معتقَدنا فيك ولك؛ وارتضينا فعلَ الأولياء فى الخُفوف إليه، والمناصحة فيه؛ وسبيلُكَ أن تبحثَ عن أموال هؤلاء القوم وتُثَمِّرها، وتستدركها وتحصِّلَها، وتكتُبَ بما يصح منها؛ وتتقدّم بقَصّ أثَرِ الهاربين حتّى تُلْحقَهم بالهالكين، وتُشيع الرهبةَ فى سائر شِقّىِ الفُرَات، وتتوخّى طوائف الأشرار والخُرّاب، ومُخيفى السبل والساعين فى الفساد بالتتبُّع لهم ووَضْع اليد عليهم؛ فإنّ بحسب النِّكاية فى أهل الجهل والدَّعارة سُكونَ أهل السلامة والاستقامه؛ فرأيك فى العمل بذلك والمطالعة بما يوَفِّقك الله له مستأنفا من مثل هذا الفعل الرشيد، والمَقام الحميد؛ وبسائر الأمور التى تجرى عينها وتحتاج إلى معرفة مجاريها، موفَّقا إن شاء الله تعالى والسلام.

الجملة الثانية

(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك الديار المصرية من وزراء الخلفاء الفاطميين القائمين مَقَامَ الملوك الآن فمن بعدهم)

والذى وقفت عليه منه أسلوب واحد، وهو الافتتاح بلفظ: «وصل».

كما كتب بعض كُتّاب الدولة الفاطمية عن بعض وزراء الحافظ إلى امين الدولة زنكى كشنكين ماصورته:

وصل كتابك أيها الأمير الأجلّ الدالُّ علىٰ مصالحته، المُعربُ عن مناصحته، الشاهدُ له بمؤثَّل الحُظْوة والأُثْره، والموضِّح من أفعاله وخِلَاله مالم تزل قضيته مرتَسِمة فى النفوس مُصَوَّره، وعرضنا ما اقترنَ به من مطالعة المَقَام المقدَّس النبوى الحافظى - ضاعف الله أنواره، وشادَ مَنَاره، وأعز أشياعه وأنصارَه - وشَفَعناه من الثنـاء علىٰ الأمير الاسفَهْسلار بمـا لم تزل عادتُنـا جاريةً به مع مَنْ نعلم طاعتـه، ونتحقَّق مشايعته، ونرىٰ باطنه يضاهى ظاهِره، وسِرَّه يوافِقُ علانيته، ووقفْنا علىٰ ما أنهـاه من حال الفَرَنْج المشركين الملعونين، وما كان من نِعَم الله تعالىٰ من الظَّفَر بهم، والإدالةِ منهم، والخَفْض من مَنَارهم، والتقويض لعُمَارهم، والإبادة لفارسهم وراجلهم، وإرشاد السيُوفِ والسِّهام إلىٰ مَقَاتلهم، وتطهيرِ الأرض منهم بدمائهم، والإحاطة بهـم عن أيمانهم وشمائلهم، ومن أمامهم وورائِهم، فابتهجْنا بذلك الأبتهاجَ الذى يوجبه التوحيد، وانتهىٰ بنا السُّرورُ إلىٰ الحدّ الذى ما عليه مَزِيد. علىٰ أننا كنا نَوَدّ أن يكون ذلك بصِفَاحنا وأسنَّتِنا، وأن يُثْبِتَه الله لنا فى صحيفَتِنا، وإنا لراجونَ من نِعَم الله عندنا، وإحسانه إلينا كما عوَّدَنا، أن يكون من بقِيَ من المذكورين بنا مستأْصَلا، ويكون أجر هذه الخاتمة لنا حاصلاَ. وقد عزم الله لنا عند وقوفنا علىٰ كتابه، بما خرج به أمرنا إلىٰ جميع مَنْ بأعمال الدولة الحافظيَّة خلَّد الله ملكها. بعيدِها ودانِيها، وقَصِيِّها ونائيها من العساكر المظفَّرة المؤيَّده، وقبـائل العُرْبان المستخْلَصه، وكافَّة الطوائف علىٰ اختلاف أنواعها، وتباين أجناسها، وتفاوُت مَنَازلها، وتغايُرِ مراتبها، بأن يَنْفِروا خِفَافا وثِقَالا، ورُكْبانا ورِجالا، بقوَّتهـم ونَجْدتهم، ووُفُور عَدَدهم وعُدَّتهـم، وكثرة آلاتِهم وأسلِحتهم، وبالعَزَمات المـاضـية، والضمائر الخالصة، والنِّيَّات المستبَقه، والعقائد المتَّفقه، وفَسَّحنا للمتطوّعة أن يختلطوا بالمرتَزِقه، وأمرناهم بمَسيرهم متتابعين، وتوجُّههم مترادِفين، وأن يكونوا كتائبَ متناصره، وجحافلَ مُتواتره، وعساكر متواليه،

لاترى الأرضُ منها إلى العدوّ خالِيه ؛ ومن الله نطلبُ مادّةَ العون والإسعاد ، ونسأله توفيقًا لما يَقْضِى بتضاعفُ أجرنا فى العاجلة والمَعَاد . وقد شكرنا الأمير الاسفَسْهلاركونَ ما أنهـاه سببا لهـذه الغنيمة المتوقَّعة من فضل الله و إحسانه ، والنُّصرة لدينه التى نؤملها من جزيل كرمه وآمتنانِه ؛ وأضـفْنا ما آقتضته مطالعته من جَذَلنـا وغِبْطتنا ، إلى المســتَقرّ عندنا من محبته لنا ، وإيثاره الذى لايُحْتاج فيه إلى زيادةٍ على معرفتنا ؛ فليعلم هذا وليعمل به . إن شاء الله تعالى .

* * *

وكما كتب القاضى الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى صاحب مكةَ المشرّفةِ ، جوابًا عن كتابٍ ورد منه عليه فى معنى وُصُول غِلَالٍ بَعَث بها إلى مكة ماصورته :

وصـل كتابُك ، أيُّها الشريفُ مُعْرِبا عن المُشايَعة الشائعة أنباؤُها ، والمُخالَصَة الخالصةِ أسرارها الوافرةِ أنصباؤُها ؛ وحسان الخلال ، التى آقتسم طرفَى الحمد إعادتُها وإبداؤُها ، ومَكْرُمات الآل ، التى تساوى فى آقتناء المجد أبنـاؤها وآباؤُها ؛ وفضائلِ الإفضال ، التى لاتخِفُّ على غيرأهل العباَءِ صلوات الله عليهم أعباؤُها . ونَشَر كتابُك من محاسنك ما آنطوى ، ووردْنا منه مَنْهَلا أروى وارِدَه وآرتَوى ؛ ووقَفْنا منه على أثرِ فَضْل آشتمل على عين الكَرم وآحتَوى ، ووفقنا و إياه من الحمد مالا نُخْلِفه نحنُ ولا هو مكانًا سُوى ؛ فاقتضانا مزيدًا فى رفع قدرِه ، وآختصاصه من الإنعام بكلِّ غريبِ المَوْقِع نَدْرِه ، وأصرْنا كتابَه إلى مستقرّ كاتبه من قلب الوُدِّ وصَدْره ؛ وكيف لايكون ذلك وقد آشمخَرّتْ لبيَتْه الأنساب ، وخرّت الأنصاب ، وسجَدتِ الرِّقاب ، ورُدّتْ له بعد ماتوارَتْ بالحِجَاب ، وشَهِد بفَضْل توقيعهم الحربُ وبفضل ليلهم المِحْراب .

فأمَّا ما أشار إليه من الشُّكْر على ماسُيِّر من الغَلّات التى كان الوعدُ بها علينا نَذْرا ، وروّحْنا بإرسالها قَلْبا وشَرَحْنا بتسييرها صَدْرا ؛ وأنّهـا حلّت رِبْقةَ الجَدْب وفكّتْها ،

وجلَتْ هَبْوَةَ القَحْط وكفَّتْها ، وهوّنَتْ مَصاعِب المَسَاغِب ، وخلَفَتْ ســواحبَ السحائب ، وأطفأَتْ ــ ولله الحمد ــ بَوَار[1] النَّوائب ؛ فقد سُرِرْنا بحسنتنا جعله اللهُ ممن تَسُرّه الحسنه ، وقد نَبَّهنا من سنتِنا لأنْ نستَقْبِلَ بالحمد لولى الســنه ؛ وقد قوَىٰ النية وقوّمها ، وآستزاد لهم بلسان الشكرِ الفصيح ، وتناوَلَ لهم بباع التلَطُّف الفَسِيح ، وألقحَ لهم سحائبَ محلِّه منها مَحلَّ مُلْقِحِها من الرِّيح ؛ وآقتضىٰ مايعرِضُه أن خرج الأمرُ بأنْ يضاعَفَ المحمولُ فى كل عام ، ولا يُخَصَّ به خاصٌّ دُونَ عام ؛ وأمَرْنا أن يوفَّر جَلَبُ الجُلَّاب ، وتُوقَر ظهورُ الرِّكاب ، ليُجْمَع للحَرَم الشريف بين بِرِّ البر والبحر ، وبين حَمْل البَطْن والظَّهْر ؛ فتظَلُّ السنةُ وَدُودا وَلُودا ، ويُشاهَدُ المحلُّ الشريفُ وقد نأىٰ عنــه المَحْلُ شَرِيدا ، وتُحَطُّ القلوع عما يُحَطُّ عنه أمثالهــا من السحائب ، وتستريح الأنفُسُ اللواغِب ، فأما ماألقاه إلىٰ رسوله ، فقد أَسْمَعَ ماأسنده إليه ، وأُعِيدَ بما يُعِيده عليه ؛ وقد تكاثرت بولَاء الشريف الأشهاد ، فغَنِي عن الآستشهاد ، وأغنَتْه الحُظْوة بجميــل رأينا عمــا نأى أخذه لشُفْعة العطاء بل لشَفَاعة الآجتهاد ، إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــــلة الثالثـــــة

(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك الغَرْب)

وهى علىٰ النحو المتقدّم ، وربمــا صُدِّر بلفظ : «قد» ونحوها .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن بعض ملوكهم فى جواب كتابٍ ورد عليــه بطاعة بلد .

قد وصل كتابكُم ــ وصــل الله مَعُونَتكم وكَلَاءتكم ــ تذكرون ماتقَرّر عنــدكم هنالك من أحوال تلك الجهة ، وباشرتموه من أمورها ؛ وأنتم عندنا بمَحَلِّ الصِّــدْق ، ومكان الإيثار للحق . وقد رسمنا لكم أن تُثْبِتوا فى أهل تِلْكُم الجهاتِ كلِّها حميدَ الرأى

---

(١) لعله أوار .

فيهم، وحسنَ القبول لإنابتهم، وقصدَ الرِّفق بخاصَّتهم وعامَّتهم؛ وأنَّا قد تقبَّلْنا أَوْبتهم، وٱغتفَرْنا زِلّتهم؛ وأولٰئكم المتشبّثون بسبب الذِّمام، عَرِّفُوهم أنكم رَغِبتم فى شُمول الصَّفْح عنهم، والإقالةِ لما كان منهم؛ فأسْعَفْنا رغبتَكم فيهم، وأدخلْناهم فى العفْو مع غيرهم؛ وبذَلْنا لهم الأمان، وأغْضيْنا عن جميع ما كان؛ فعرِّفوهم بهذا كلِّه، وأخبروهم عنَّا بإعطاء التأمينِ لجميعهم وبَذْله؛ وإن كان أطيبَ لنفوسهم أنْ يصلَهم مكتوبٌ بذٰلك عرفتمونا، ووجَّهْناه إليكم . وأقيموا أنتم هُنالكم أيَّاما خلالَ ما يَصِلكم من مُتثاقِل الأحوال ماتُطالَعُون به، وتخاطَبُون بما تعتَمِدُونه إن شاء الله تعالىٰ . أدام الله كرامتكم .

أشرتم فى خطابكم إلىٰ أنَّ عندكم من تلك الأحوال ما تذكُرونه مشافَهةً، وربما يكون ذلك أمدا يبنىٰ عليه نظر، أو يتوجَّه بحسبه عَمَل؛ فمن الجيِّد أن تكتُبوا بشرحه، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

الضرب الثانى
(الأجوبة الواردة علىٰ الملوك)

وهى علىٰ نحو ما تقدّم فى الأجوبة الصادرة عن الملوك من الأبتداء بلفظ : «وصل» إلا فى الخطاب، فإن المكتوب عنه يقع الخطاب منه بـ«الخادم أو المملوك أو العبد» . ويخاطِبُ الملكَ المكتوب إليه بمولانا أو مولانا الملكِ أو نحو ذلك؛ وربما كتب بَدَل وصل : ورد .

كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» فى جواب كتابٍ ورد عليه مخبرا فيه بالحركة لِلقاء العدوّ ماصورتُه :

ورَدَ علىٰ المملوك ــ أدام الله أيامَ المجلس العالى المَلَكىّ الناصرىّ، ونصره علىٰ أعدائه، وملَّكه أرضَه بعَدْل حكم سمائه، ولا أخلىٰ من نعمتَىْ خيره ونَظَره قلوبَ وعيونَ

أوليـائه، وأعزَّ الإسلامَ ورفع عن أهله البَلْوىٰ بلوائه . الكتُبُ القديمة التى تسرّ الناظرين من شعارها الأصفر، وتَبَشّر الأولياءَ إن كانوا غائبين مع الغُيَّب بأنّ حظَّهم حاضر مع الحُضَّر؛ وقد كانت الفَتْرة قد طالتْ أيامُها، وآستطالتْ آلامُها، والطُّرُقات قد سبق إلىٰ الأنفُس إبهامُها .

فالحمدُ لله الذى أذهبَ عنَّـا الحَزَن، وأوْلىٰ من النعمة ما آشترىٰ الحمدَ بلا ثَمَن؛ ذٰلكَ من فَضْلِ اللهِ علينا وعلىٰ الناسِ . ووَعْدُ [الله] سبحانه منْتَظَر، إذ يقول فى كتابه : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرض كما آسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى آرْتَضَىٰ لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ وصَدَق صلّى الله عليه وسلم فى قوله : "إنَّ آخْتِيارَ اللهِ للمُؤْمِنِ خيرٌ من اختياره، وإنَّ مواضِعَ الأمَلِ للعَبْد خيرٌ منها مواقعُ أقضيةِ اللهِ وأقدارِه" . فقد كانتْ حركةً آحتاجتْ إليهـا البلاد التى آنفصل عنها، والبلادُ التى قَدِم عليها . أما المصرية منهـا فبكونها علىٰ عِدَةٍ من نَجْدته آجلا، وأما الشاميـة فبكونهـا علىٰ ثقةٍ من نصره عاجلا؛ فقد تماسكَتْ من المسلمين الأرماق، وقد آنقطعت من المشركين الأعناق :

تُهابُ بك البِلادُ تَحُـلُّ فيهـا * ولَوْلا اللَّيْثُ ماهِيبَ العَرِينُ!

وعرض المملوكُ ماوصل إليه من مكاتبات المولىٰ علىٰ العِلْم العادلىّ وأدركها تحصيلا، وأحاط بها جملةً وتفصيلا؛ والمَوْلىٰ ـ خلَّد الله ملكَه ـ فكلُّ ما أشار إليه من عزيمة أبداها، ونيـةٍ أمضاها، فهو الصوابُ الذى أوضح الله له مسالِكَه، والتوفيقُ الذى قَرَّب الله عليه مَدارِكَه؛ ومن أطاع اللهَ أطاعه كلُّ شىء، ومن استخاره بيَّن له الرُّشْدَ من الغَىّ؛ والله تعـالىٰ يجعلُ له من كلِّ حادثةٍ نَخْوه(١)، ويكتبُ أجْرَه فى كلِّ حركةٍ ونَفَس وخَطْوه . إن شاء الله تعالىٰ .

(١) النخوة العظمة

القســـــم الثـانى

(المكاتباتُ الصادرةُ عنهم إلىٰ ملوك الكُفْر، وفيه طرفان)

الطـــــرف الأول

(فى الابتداءات، وفيـــه ثلاثُ جمـــل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى المكاتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق من بنى بُوَيه فمن بعدهم)

وقد كان الرسم فيها أن تُفْتَتح المكاتبة بلفظ "كتابى أو كتابنا إلىٰ فلان" ويخاطب المكتوب إليه بملك الروم أو نحو ذلك ، ويختَم بقوله : فإن رأىٰ ذلك فعل إن شاء الله تعـالىٰ .

كما كتب أبو إسحاق الصابى عن القائد أبى الفَوَارس ختور التركى المعـزى، إلىٰ وردس بن قُنْبَر المعروف بعسقلاروس .

[كتابى إلىٰ] ملك الروم الفاضل، الجليل، النبيل، الخطير، أدام الله كفايته وسلامتَه، ونعمته وسعادته، وعافيته وحراسته . من الحضرة الجليلة بمدينة السلام لثمانِ ليالٍ خلَوْنَ من ذى الحجة ســنة تسع وسبعين وثلثمائة ، وهو اليوم التـاسع من أَدَار ، عن شمول السلامه ، وعموم الاســتقامه ، وصــلاح حالِى فى ظل الدولة المنصوره . والحمدُ لله رب العالمين وحده لاشريكَ له ، وصلّى الله علىٰ محمد وآله وسلم تسليما .

ووصل كتابُ مولانا ملكِ الروم الفاضل الجليل الصادر عن العسكر بمَرْج لارضة بتاريخ التاســع من حَزِيرَان، وفهمته وجلَّ عندى مَوْقِعُه، وعظُم فى نفسى خَطَرُه،

وَحمِدتُ الله علىٰ ماشهِدَ به من ٱنتظام أحواله ، وٱطّراد أمورِه ،وسألته أن يتمّ النعمةَ عليه ، ويزيدَ فيها لديْه ، ويُواصِل إحسانه إليه ، ويُطيلَ مدَّته ، فى أتمِّ رُشْد وهداية ، وأرفع قَدَم ومنْزِلة ، وأعلىٰ خطرٍ ورتبة ، بمنّه وطَوْله ، وجُوده ومَجْده .

فأما ماذكره سيدنا الملك الجليل : من مُقَامه علىٰ العهد ، وٱفتقاره إلىٰ الميل والوُدّ ، فذاك يوجِبُ فضلَه البارع ، وكرمه الشائع ، وخلالَ الخير التى أهلَّه الله لها ، وخصَّه الله بها ، وبالله أحلف إنّنى ماخلَوْتُ منذ ٱفترقنا من مطالَعَة أخباره ، وتَتَبُّع آثاره ، وٱستعلام مَجَارِى شُئُونه ، والسرورِ بكل ماتمَّ له ووصل إليه ؛ حتّى كأننى حاضرٌ له ، وضاربٌ بأوْفَر سهم فيه ، بل مخصوصٌ بجميعه . والله يُجْرِيه علىٰ أحسن ماأولاه وعوّده ، ولا يُخْلِيه من الصُّنْع الجميل فيما أعطاه وقلَّده ، برحمته .

وكنتُ قبل ذلك عند وُرُود رسولى فى الدَّفْعة الأولىٰ علىٰ غاية الغَمّ وشُغُل القلب بسبب الغَدْر الذى لَحِقه من عدوّه الذى أظفره الله به ؛ وأنهيتُ ذلك فى وقته إلىٰ الملك السعيد الماضى ، شرفِ الدوله ، وزينِ المله ؛ رضى الله عنه . فاشتغل قلْبُه ــ رحمه الله ــ به ، وعَمِل علىٰ إنفاذ العساكر لنُصْرته ؛ ثم أتىٰ من قضاء الله فى أمره ماقد عَرَفه .

ولما ٱنتصب فى المملكة مولانا السيدُ بهاءُ الدوله ، وضياءُ المله ــ أطال الله بقاءَه ــ شرحْتُ له ماجرىٰ قديما علىٰ سِيَاقته ، ومَهَّدت الحالَ عنده ، ووجدتُه ــ أدام الله سلطانه ــ معتقِدا لسيدنا ملك الروم الجليل ــ أدام الله عزّه ــ أفضلَ ٱعتقاد ، وسُرّ بما ٱنتهتْ إليه أمورُه ، وتنجَّزت الكتبُ إلىٰ مُوصِلها الرسول حفظه الله ؛ وسَمِعت منه ما كان تحمَّله عن سيدنا ملك الروم أدام الله تأييدَه ، وأخرجت معه صاحبى أبا القاسم الحسين بن القاسم ، وحَمَّلتهما جميعا مايُنْهِيانِه إليه فى سائر الأمور التى يرى عَرْضها ويحتاج إلىٰ معرفتها .

وأنا أسأل سيدنا الملك الجليل ـ أدام الله بركته ـ تعجيلَ ردّه إلىّ ، فانه ثقتى ، ومن أسكُنُ إليه فى أمورى ؛ وأن يتفضَّلَ ويكلِّفَنى حوائجَه ومهمَّاتِه ، وأمْرَه ونهيَه لأقوم فى ذلك بالحق الواجب له ، فان رأىٰ سيدنا ملك الروم الفاضل الجليل ، الخطير النبيل ، أن يعتمدنى من ذلك بما يتضاعف عليه شُكْرى ، وتجِلُّ النعمةُ فيه عندى ، ويشاكل الحالَ بينه وبينى ، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية إليهم)

والذى وقفْتُ عليه من ذلك أُسْلوب واحد : وهو الآبتداء بـ«أما بعد» والخطابُ فيه بالمَلك ، والآختتامُ بالدعاء .

كما كتب القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ بردويل أحد ملوك الفَرَنْج ، وهو يومئذ مستولٍ علىٰ بيت المَقْدس وما معه ، معزِّيًا له فى أبيه ومهنِّئًا له بجلوسه فى المُلْك بعده ، ماصورته :

أما بعد ـــ خصَّ الله الملك المعظَّم حافظَ بيت المقدس بالجَدِّ الصاعد ، والسَّعد الساعد ؛ والحظِّ الزائد ، والتوفيقِ الوارد ؛ وهنَّأه من ملك قومه ماوُرِّثه ، وأحسن من هداه فيما أتىٰ به الدهرُ وأحدثه ؛ فإن كتابنا صادرٌ إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوبَ الأَصَادق (١) ، والنَّعْيِ الذى وَدِدْنا أنَّ قائله غيرُ صادق ؛ بالمَلِك العادل الأعزِّ الذى لقَّاه الله خيرَ مالَقِّ مثله ، وبَلَّغ الأرضَ سعادته كما بلَّغه محلَّه ؛ مُعَزٍّ بما يجب فيه العَزاء ، ومتأسِّفٌ لفَقْده الذى عظُمت به الأَرْزاء ؛ إلا أنَّ الله سبحانه قد هوّن الحادث ، بأنْ جعل ولَدَهُ الوارث ؛ وأنسىٰ المُصاب ، بأن حفِظَ به النِّصاب ، ووهَبه

---

(١) جمع جمع لصديق مفرده أصدقاء .

النعمتين : المُلكَ والشَّبَاب؛ فهنيئًا له ماحاز، وسَقْيًا لقبر والده الذى حَقَّ له الفداء لو جاز؛ ورسولُنا الرئيسُ العميدُ مختار الدين أدام الله سلامته قائمٌ عنا بإقامة العَزَاء من لسانه، ووَصْفِ مانالنا من الوَحْشة لفِراق ذلك الصـديق وخُلُوّ مكانِه؛ وكيف لا يستَوحِشُ ربُّ الدار لفُرْقة جِيرانه . وقد آستفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، ووُدِّنا الذى هو ميراثُه عن والده من وِدَادنا؛ فلْيَلْقَ التحيَّة بمثلها، ولْيأتِ الحسـنةَ ليكون من أهلها؛ وليَعْلَمْ أنَّاله كما كنا لأبيـه : مودّةٌ صافيـه، وعَقِيدةٌ وافيـه؛ ومحبَّةٌ ثبت عَقْـدُها فى الحيـاة والوَفَاه، وسريرةٌ حَكمتْ فى الدنيا بالمُوافاه؛ مع مافى الدِّين من المخالَفَات . فليسترسِلْ إلينـا آسـترسالَ الواثِق الذى لايَخْجَل، ولْيعتمِدْ علينا آعتمادَ الولد الذى لايَحمِلُ عن والده ماتحمَّل؛ والله يُدِيم تعميره، ويحرُسُ تأميره؛ ويقضى له بموافقة التوفيق، ويُلْهِمُه تصديقَ ظنِّ الصديق .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغَرْب)

والرسم فيه أن تفتتَح المكاتبةُ بلفظ : «كتابنا» والمخاطبةُ بنونِ الجمع عن المكتوب عنه وميم الجمع عن المكتوب إليه، والآختتام بالسلام مع الدعاء بمـا يليق .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة عن أبى جَمِيـل زيَّان، إلىٰ ملك قَشْتالة من بلاد الأندَلُس فى مُراوَدة الصُّلْح :

كتابُنا إليكم ــ أسعدكم الله برضاه، وأدام عِزَّتكم وكرامتَكم بتقواه ــ من مُرْسِيَةَ، ونحن نحمَدُ اللهَ الذى لاشيءَ كمثله، ونلجأ إليه فى أمرِنا كُلِّه، ونسأله أن يُوزِعَنا شكر إحسانه وفضلِه ــ وعندنا لجنابكم المُرَفَّع تَكْرِمة نستَوْفِيها، ومبَرَّة نتنهى إلىٰ الغاية فيها، وعلْمُنا

بمحلّكم الشهير، وكتابكم الخطير، يستدعى الزيادة من ذلكم ويقتضيها؛ وقد كان من فضل الله المعتاد، وجميل صُنْعه فى ٱنتظام الكلمة فى هذه البلاد، ما ٱكتنفته العِصْمه، وكَمُلَت به النِّعمة والمِنّه؛ وتيسّر بمعونة الله فتحُ أقرّ العيون، ورضيه الإسلام والمسلمون، وكانت مطالعتكم به مما آثرْنا تقديمه، ورأينا أن نحفظ من الأسباب المرعيّة على التفصيل والجملة [حديثه وقديمه] وحين ترجّحت مخاطبتكم من هذا المكان، ومفاوضتكم فى هذا الشان؛ رأينا من تكملة المَبرَّه، وتوفية العناية البَرَّه؛ أن نُنْفِذ إليكم من يُشافِهكم فى هذا المعنىٰ، ويذكر من قَصْدنا ما نُولَع به ونُعْنىٰ؛ وهو فلان فى ذكر السِّلْم ومحاولتها، ما يتأدّى من قِبَله على الكمال بحول الله تعالىٰ. وإن رأيتم إذا ٱنصرف من عندكم، أن توجِّهوا زيادةً إلىٰ ما تُلْقُونه إليه من رجالكم وخاصّتكم، فى معنىٰ هذا العهد وإحكامه، ومحاولتِه وإبرامه؛ فعلتم من ذلك ما نرقُبُ أثره، ونصرِفُ إليه من الشكر أوفاه وأوفره، إن شاء الله تعالىٰ: وهو الموفِّق لاربَّ سواه، والسلام الأتمُّ عليكم كثيرا.

الطَّرَف الخامس عشر

(المكاتبات الصادرة إلىٰ ملوك الكفر فى الأجوبة [وهى] إما أن تصدَّر بما يصدَّر به الابتداء وقد تقدّم، وإما أن تصدَّر بلفظ وصل أو ورد)

كما كتب بعض كُتّاب الدولة الأيوبية عن الملك الجَوَاد: أحد ملوكهم، فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر، جوابَ كتابٍ ورد عليه من فرانك: أحد ملوك الفَرَنْج فى شعبان سنة ثلاثين وستمائة:

وردت المكاتبة الكريمةُ الصادرةُ عن المجلس العالى، المولى، الملك، الأجل، الأعز الكبير، المؤيّد، الخطير، العالم العامل، الظّهير، العادلِ، الأوحدِ، المجتبىٰ، شمس الملة النّصرانيــه، جلالِ الطائفة الصليبيه، عضــدِ الأمة الفَرَنْجيه، فخرِ أبناء المعموديّه، عمدةِ الممــالك ضابط العساكر المسيحيه، قيصر المعظّم فلان معزّ إمام روميه، ثبّت الله لديه نعمه، وعزّز موارد جوده ودِيَمَه، وأمضىٰ صوارمَ عزائمــه وأعلىٰ هِمَمَه، ولا بَرِحتْ أنوار سعده، تتلالا، وأخبار مجده، تُبْسَط وتتعالىٰ، وسحائبُ الألسِنة الناطقة بحمده تستهِلُّ[(١)] وتتوالىٰ، إلىٰ أن يتحلّى جيــدُ الضُّحىٰ بعُقُود الليــل، وتطْلُعَ الشعرىٰ من مَطَالع سُهَيل ـ بجَدّد الثناءَ علىٰ جَلاله، وأكّد المديحَ لإحسانه وإفضاله، وأنفَسَ أســبابَ المودّة والخَصَافه، وشدّد أواخِىَ الإخلاص والموافاة فاستبشرت النفوس بُوُروده، وسُرّت القلوبُ بوُفوده، ووُقِف منه علىٰ الإحسان الذى نعْرِفه، ووُجِد عِقْــدُه مشتملاً علىٰ جواهر الوداد الذى نألَفُه، فشُكْر الله علىٰ هــذه الأُلْفة المنتظِمه، والمحبّةِ الصادقةِ المكرّمه. والمجلس العــالى الملكُ الأجلُّ أعلىٰ الله قدره، ونشر بالخير ذكره، أولىٰ من أهدىٰ المسرّات، بوُرُود المَرَاسم والحاجات، ووصَلَ الأنس بكريم المكاتبات، مضَمّنةً السوانحَ والمُهِمّات.

فأما ماذكره المقام العالى السلطانىّ المَلَكىّ الكاملىّ الناصرىّ ـ زاده الله شرفا وعلوّا ـ من أنه لا فرق بين المملكتين، فهذا هو المعتَقَد فى صِدْق عهده، وخالص وُدّه، ولا زال ملكه عاليا، وشرفُه ناميا، إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) لعله تنهمل.

الفصـــــل الرابع

من الباب الثـانى من المقـالة الرابعة

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية، على ما ٱستقرّ عليه الحالُ من ابتداء الدولة التركية و إلى زماننا على رأس الثمانمائة، مما أكثره مأخوذٌ من ترتيب الدّوْلة الأيوبية التى هى أصـل الدّوْلة التركية، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطـــــرف الأوّل

(فى المكاتبات الصادرةِ عنهم إلى الخلفـاء من بنى العبّاس)

قد تقدّم فى الكلام على المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى خلفاء بنى العباس أنها على أساليب فى ٱبتداء المكاتبات : منها مايفتتَح بآيةٍ من القرءان الكريم ثم بالسلام؛ ومنهـا مايفتتح بالسلام ٱبتداءً؛ ومنهـا ما يفتتح بالصـلاة على الخليفة على مذهب من يرى جواز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ ومنها ما يفتتح بالدعاء لديوان الخلافة .

ولكن الذى ذكره المقر الشّهابىّ بن فضـل الله فى كتابه "التعريف بالمصـطلح الشريف" ممـا الحال مستقرٌّ به أن المكاتبة إلى ديوان الخلافة الشريفة : «أدام اللهُ أيامَ الدّيوانِ العزيز، المولوىّ، السـيّدىّ، النبوىّ، الإمامىّ، الفلانىّ» ثم الدعاء المعطوف، والصدر بالتعظيم المألوف؛ وأنها قد تفتتح بغير هذا الدعاء نحو : «أدام الله سلطان» و«خلد الله سلطان» أو «أيام» أوغير ذلك ممـا يقتضى العزّ والدّوام . وأن الصدر نحو : «العبد، أوالمملوك، أوالخادم، يقبّل الأرضَ أوالعَتَبات أومواطئَ المواقف» أوغيرذلك . وأنّ ختم الكتاب يكون تارةً بالدعاء، وتارةً بـ«طالع أوأنهى»

أو غيرهما ممـا فيه معنىٰ الإنهاء . ويخاطَب الخليفةُ فى أثناء الكتاب بالديوان العزيز، وبالمواقف المقدّســة أو المشرّفة، والأبواب الشريفة، والبـاب العزيز، والمقـام الأشرف، والجانب الأعلىٰ أو الشريف . وبأمير المؤمنين مجرّدةً عن سيدنا ومولانا، ومَرّةً غير مجرّدة، مع مراعاة المناسَبه، والتسديد والمقارَبه . وأن خطاب المكاتب عنه بحسَب من كُتِب عنه : فكتب بعضُ ملوك بنى أيوبَ بالديار الشامية «الخادم» . وبعضهم «المملوك» وبعضهم «العبـد» وبعضهم «أقلّ الممـاليك» وبعضُهم «أقلّ العبيد» . وأن علاء الدين خُوارِزْم شاه : صاحب بلاد خُوارِزْم وما معها، وآبنه جلال الدين كانا يكتبان «الخـادم المِطْواع»، وأن أمّ جلال الدين كانت تكتب «الأَمَةَ الداعية» . قال : فى "التثقيف" : وعنوانه «الديوان العزيز» إلىٰ آخر الألقاب، ثم الدعاء يعنى من نِسْبة الصدر، نحو «أدام اللهُ أيامه وخلّد الله سلطانه» وما أشــبه ذلك . قال : وعادة العلامة إليه «الخادم» أو «المملوك» أو «العبد» . وكتب بعضهم «أقلّ الممـاليك» وبعضهم «أقلّ العبيــد» . يريد أنّ العلامة تكون مطابِقة لمـا يقع في أثناء المكاتبة عن المكتوب إليــه من الخادم وغيره ممـا تقــدّم ذكره، بحسَبِ ما يُؤْثِر الملك المكتوب عنه الخطابَ به عن نفسه .

وهذه عدّة صدور مختلفاتِ الابتداءات منقولةٍ من التعريف وغيره .

أما قَطْع الورق الذى يكتب فيــه إلىٰ الخليفة، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق فى المقالة الثالثة، نقلا عن آبن عمر المدائنىّ فى "كتاب القـلم والدواة" أنه يكتب للخلفـاء فى قِرْطاس من ثُلُثَىْ طُومار ، وأن المـراد بالطُّومار الفَرْخة الكاملةُ ، وأن المراد الورق البغدادىّ ؛ وحينئذ فينبغى أن يُجْرَى الأمر علىٰ ذلك تعظيمًا للخلافة .

صدر : أدام الله أيامَ الديوان العزيز، ولا زالتْ سيوفُ أوليائه في رقابِ أعدائه مُحكَّمه، وصُنوفُ الكفَّار، في أيدي عسكره الجَرّار، بالنِّهاب مقسَّمه، وصفوفُ أهل الشرك مُزَلْزَلَة بخوافق أعلامه المطهَّرة وسَنابِكِ جيادِه المطَهَّمه، ولا برِحَتْ ملائكة النصر من أمداده، وملوكُ العصر بيضَ الوجوهِ بتعظيم شِعار سَوَادِه .

الخادم ينتهبُ ثَرَى العتبات الشريفة بالتقبيل، وينتهى فى قُصارى الطَّلبات، على الوقوف فى تلك الرُّبوع، ويكَلِّل رُبى تلكَ الساحات، هو وكلُّ آبن سبيل بلآلئ الدُّموع، خضوعًا فى ذلك المَوْقِف الذى تُنْكِر القلوبَ فيه الصُّدور، وتَلْصَق منه الترائبُ بالنُّحُور، ويُظهِر سيمَـا الجَلالةِ فى الوجود، ويُغْـدِق على الأولياء فيُعْرَفُون بِسِيماهُمْ من أَثَر السُّجود . ويُنْهِى أن وَلاءَه القديم، وبَلاءَه العظيم، وأيَّامَه السالفه، وأفعالَه التالدةَ والطارفه، وسـوابقَ خِدَمه فى آمتثال الأوامرِ الشريفـةِ التى لم يزَلْ يتسارع إليها، ويُقَارع عليها، ويُصارِع غُلْب الأُسُود على تنفيذ مَرَاسِمها، وإقامة مَوَاسِمها، وإطارة صِيتها، ودوام تثبيتها، تحمِلُ الخادم على الآسترسال، وتُجْمِل له السؤال، والذى ينهيه كذا وكذا .

٭٭٭

صدر آخر من "التعريف" : أدام الله سلطانَ الديوان العزيز، ولا زالت الخلائقُ بكَرَمه مُضَيَّفه [والكتائبُ فى هَجِـير وَطِيسـه مصيَّفه](١) . والأبصار فى نَصْر أنصاره مصَنَّفه، والمواضى بأوامره فى قَبَضات عساكره مُصَرَّفه، والنقودُ إلا ماتشرَّفَ باسمه مُزَيَّفه، والقلوبُ فى صدُور الأعداء بخَواطِف رُعْبه مُسَيَّفه، والوعودُ إلا بما تُنْجِزُه مواهِبُه مُسَوَّفه، والوغى لاتُرى إلا برماحه مثقَّفة، والسماءُ وإن علَتْ لاتكون

(١) الزيادة من "التعريف" .

إلا لأذيالِ سُيُوفه مسَحِّفه ، والمَهابةُ بسَطَاه إما لَمَعَاقل فاتحةٌ وإمّا عمّا يُطْمَع أن تنالَهُ الأيدى منهـا مُجْحِفه ، والأممُ علىٰ آختلافها تحتَ راياته المنصورة مقاتِلَةٌ وأخرىٰ له مُخَالفه ، والأعلام التى يَأْوِى إليها الإسلامُ به جِوارَ الجوزاء مُخَلِّفه ، والأبطالُ لقتال الكفر ببوارق سُيوفه ، قبْلَ مَضايق صُفُوفه ، ومَخَانِق زُحُوفه مُخَوِّفه .

الخادم يُقْبِل بوَلائه إلىٰ ذلك الجَنَاب ، ويقبّـل الأرض وكِتَابهُ يُحسن المَنَاب ، ويُقيل عثراتِهِ إذْ كانَ به قد لاَذَ ، ويُقِيم معاذيرَه إذ كان به قد عاذْ ، ويَتَسرْبَل بطاعته سَرابِيلَ تَقِيه إذا خاف من سِهام الدهر إلىٰ مُهْجته النَّفاذ ، ويَصُول بانضمامه إلىٰ تلك العِصَابة المنصورةِ لا بمـا يُطْبَع من الفُولاذ ؛ ويُحِلُّ تلك المواقفَ المقدّسةَ أن يبُـلَّ مواطِئَها بدمعه ، وأن يحُلَّ مواطِنَها بقلبه قبل أن يُعاجِل كلَّ عدوّ بقَمْعه ، ويَعُـدُّ ماهُدِى إليـه من الاعتصام بسببها سببًا لفَوْزه ، ومُوجِبا لِملْك رقِّ عنقِ كلِّ عاص وحَوْزه ، وينهى كذا وكذا .

* * *

صدر آخر : خلّد الله سلطان الديوان العزيز ! ولا زالت أيامُه شامخةَ الذّوائب ، شارخةَ الصِّـبا [حتى] حيثُ ياحَقُ الشِّيبُ الشوائب ، راسخـةَ الفَخَار فى الظُّهور بالعجائب ، نافخةً فى فَخْم الليل جَمْر الكتَائِب ، صارخةً والرعدُ تَرْتعد فرائصُه بين السَّحَائب ، ناسخةً دولةَ كلِّ علياءَ بما تأتِى به من الغرائب ، وتَبْذُله من الرَّغائب ، فاسخةً عقدَ كلِّ خالع يُرُدّه الله إليها ردّةَ خائِب ، باذخةً علىٰ ماضِى كلِّ زمانٍ ذاهبٍ من عُصُور الخُلَفاء الشرفاء وآئِب ، سالخةً لجِلْدة كلِّ أيِّم (١) ظَنَّ أنَّ فى أنياب رُمْحه النَّوائِب .

الخادم يقبّـل العَتَباتِ الشريفةَ ساجدًا بجَبِينه ، وشاهدًا يستأْديه له علىٰ يَمِينه ، وجاحدًا كلَّ وَلَاء سوىٰ وَلَائه المعقود بيَمِينه ، وعاقدًا بشَرَف الانتسابِ إليه عَقْدَ دِينه ،

(١) الأيم ككيس والايم بالكسر الحية أنظر القاموس .

وحامدًا اللهَ الذى جعله [من] (١) طاعةِ أميرِ المؤمنين عند حُسْن يَقِينه، وعائدًا بأملِهِ إلىٰ كرم تُثْمر به الآمال، وتُقمِر به اللَّيالِى لأنها شعارُه الذى تُضْرَب به الأمثال، وتُمْطِرُ به السُّحُب الجَهَام فتُمْحىٰ بها آيةُ الإمحال . ويُنْهِى وُرودَ المِثال الشريف الذى طلَعَ نَيِّره فأنار، وسطَع متضادُّه فألَّف بين الليل والنهار، وأقبَلَ فما رآه إلا كتابةُ الذى أُوتِيَه باليمين، وسحابَهُ الذى أُعطِيَه ينْدىٰ منه الجبين، ونَصَرَه أكثَرَ من الألُوف، وأنْصَفَه أعجَلَ من السيوف، وزاحَمَ به الدهْرَ فضلا عن الصُّفُوف، وزارَ به الوَغىٰ لايَهابُها وخَطِّيَّاتُ (٢) القَنا وقُوُف ، فتشرّفَ به وطار بغير جَناح، وقاتَلَ بغيرِ سلَاح، وقرأه وباتَ قِرًى له فى السَّماح، وتسلَّمه كأنما تسنم به المَعاقِلَ وتسلَّمَ منه المِفْتاح .

* * *

صدر آخر : خلَّد اللهُ أيامَ الديوان العزيزِ ! ولا زالتْ سَطَواتُه تَجْمُدُ بِرُعْبِها الأبطالُ المدَجَّجة ، وتَخْمُد بفَيْضِها النِّيرانُ المؤجَجه، وتَخْمُل بِرَكْزِ نفاذها إلى القلوب الرِّماحُ المزَجَّجه، وتبَخَّل معها بعوائد كَرَمِها السحُبُ المثَجَّجه، وتخِفُّ لديْها أوقارُ الجبال المفَجَّجه، وتخِرُّ بل تخُور خَوْفا أن تترَقَّى إليها الأصواتُ المضَجَّجه ، وتَغُصُّ بالغَرَق من خاطَرَ فى بِحارها الملَجَّجه، وتحلِفُ بسلطانها للمَوتُ أشهىٰ من البقاء إلىٰ طَرائد سُيوفِها المُهَجَّجة، وتخَلِّد النصرَ بحُجَجها القائمةِ علىٰ الخُصَماء المتحَجِّجه .

الخادمُ يقلِّب وجْهَه فى سماء الفَخَار بتقبِيل الأرض التى طالَتِ السماء، فأطالَتِ النَّعماء، وفضَلت النُّجومَ اللَّوامع، وأُوتِيَتْ بمالكها - أعزَّ الله سلطانه - كَلِمَ الفَضْل الجَوامع، وأحلَّت شَوامِخَ المجْد مَنْ حَلَّها ، وأجلَّتْ قدْرَ من جَدّ فأجَلَّها ، وأعطَتْ مَفَاتيحَ الكُنوزِ كُنوزَ الشَّرف لمن قَبَّلَها كما يقبِّل الحجيجُ الحجَرْ ، أو أمَّلها كما يؤمِّلُ السارى طُلُوعَ القمر، وينهى كذا وكذا .

---

(١) من من "التعريف" وهى لازمة لوضوح المعنىٰ .

(٢) فى التعريف "وخطار" وكل صحيح .

صدر آخر : قال فى "التعريف" : وهو غريب الأسلوب .

أدام اللهُ أيام العدلِ والإحسان، والنِّعم الحِسان، والفضلِ المشْكُور بكلِّ لسان ؛ الأيَّامَ التى أشرقَ صَبَاحها السَّافِر، وعَمَّ سَمَاحُها الوافِر، وآمَنَ بيُمْنِها كلَّ مُسْلم ضُرِب عليه سُرادقُ الليلِ الكافر، وعلَتْ شموسُها وقد جنحَتِ العُصور الذَّواهب، وقُدِحتْ أشِعَّتها فأضاءتْ بين لابَتِي الغَيَاهِب ؛ أيَّامَ الديوان [العزيز المولوى، السيدى، النبوى، الإمامى، الحاكمى،](١) لابَرِحتْ أيامُه مفنَّنه، وأحكامُه مقنَّنه، وسُحُبه على الظِّماءِ محنَّنـه، وقُرَبُه بفقد ماحوَتْه مجَنَّنه، وحقائقُه غير مظَنَّنه، وطرائقُه للخير مسَنَّنه، والخلائقُ تحتَ جنـاحِ رأفته ورُحْمـاه مكَنَّنه ؛ ولا زال ولاؤُه ضميرَ من اعتقد، ومُميرَ من أخَذَ من الدهر ماانْتقَد، ومُبيرَ الأُسُود المتضائلةِ لدَيْه كالنَّقَد، وسَمِيرَ من تَنَبَّه وضَجِيعَ مَنْ رقَد، ومُعِيرَ البَرْق نَدىٰ كَرَمه وقد وَقَد، ومُغِيرَ متعالِى الصَّباح من راياته العاليةِ بمـا عَقَد، ومُجِيرَ مَنْ لاذَ به حتّى لايضُرُّه من فَقَد، ومُبيرَ عِداه بِرَداه الذى إن تأخَّر إلىٰ حينٍ فقَدْ .

الخادمُ يَخْـدُم تلكَ العتباتِ الشريفةَ التى إن تاهَتْ علىٰ السماء فَمَـا، وإن دنَتْ للتقبيل فإنّ الثُّرَيَّا تودّ أن تكُونَ فَمَـا؛ ويَنْهَب ترابَ تلك الأرض التى هى مَسَاجِد، ويُقَبِّـل ذلك البِساطَ الذى لامَوْضِعَ فيـه إلا مَكَانُ لاثِمٍ أو ساجِد؛ وينزِّهها عن سَواكِب دمعه : لأنّ ذلك الحَرَمَ [الآمن](١) لاتُطَلُّ فيه الدماء، ويُجِلُّها عن مواقع لَثْمه لأنها لا تَلْثُمُ السماء؛ ويرفَع صالحَ الدعاء وإنمـا إلىٰ سمائها يرفَعُه، ويُنْهِى صادقَ الولاءِ وما ثَمَّ من يَدْفَعُه، ويدَّخِرُ من صحيح العُبودِيَّة مايرجو أنه ينفَعُه؛ ويطالع العلومَ الشريفة بكذا وكذا .

(١) الزيادة من "التعريف" .

صدر آخر : أدام الله النعمةَ على الدين والدنيا بإيالة الديوان العزيز! وأسبغ نِعَمه فالنِّعم فى ضِمْنها ، وملأ الآمالَ منها وأفاض من أنوارها التى علم قَرْن الشمس أنَّه غير قِرْنها ، وأدالَ دولتَه التى نزل الخلقُ من جَنَّات عَدْلها جنَّاتِ عَدْنها ؛ وأمضى سيوفَها التى تُعْرِب فيُعْرَف ضمير النصر فى لَحْنها ، وأعلى آراءها التى تلقى العُدَاة بدُرُوع يقينها ، وتلقى الغيوبَ بسَهْم ظَنِّها ؛ ولا زالت البشائر تتبارى إليه بُرُدُها ، ويضفو على أعطاف الإسلام بُرْدُها ؛ ولا بَرِحت راياتُه سُوَيْدات قلوب العساكر ، وأجنحةَ الدعاء المحلِّق إلى أفُق السماء من أُفُق المنابر ، وولاؤُها السِّرّ المُبْهَمَ الذى هو ممـا تُبْلَى به السرائر . الخادم .....

صدر آخر : أعلى الله الموحِّدين على المُلْحِدين ، وثبَّت كلمةَ المتَّقين على اليَقين ؛ بدوام أيَّام الديوان العزيز وروَّض بوُلاتِه كل ديوان ، ووَسَمَ بوَلائه كلَّ أوان ، وأنطق بحمده كلَّ لسان ، وألْهم الخلْقَ أن يَعْنوِنُوا بطاعته صحائفَ الإيمـان ، وأسعدهم بمـا يتناولُونه فى الدنيـا من كُتُب المِنَن وفى الآخرة من كُتُب الأمان ؛ فكلُّها طائرٌ فى العُنُق يكونُ بالطاعة قلائِدَ بِرّ فى الأطواق ، وبالمعصيةِ جَوامِـعَ أسْرٍ فى الأعناق .

ورد على المملوك كتابٌ إن لم يكُنْ أُنْزِل من السماء ، فهو من الذين أنزل عليهم كتاب من السماء ، وإن لم تنزل ألفاظُه بالمـاء ، فهو من الذين أنْزِلَتْ ألفاظُ دعواتهم المـاء ؛ وإن لم يكن كتابَ العمل : لأنه ليس بيوم الكتاب ، فإنه قِطٌّ عُجِّل له قبل يوم الحساب ؛ ولولا أن أُمَّ الكتاب أَعْقِمتْ لكان ابنَ أمِّ الكتاب ، وإنْ هو إلا طائر ألزم في عُنقه وما وَكْر طائره إلا المحْراب .

*
* *

صدر آخر : أتمّ الله ما أنعم به على الديوانِ العزيزِ وعلى الخَلْق، وأشرك في هذه النِّعمــةِ أهلَ الغرب والشَّرق ، ومَيَّز الحظوظَ فيهـا بحَسَبِ درجات السَّبْق . فإنه ﴿لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أنفَقَ من قَبْل الفَتْح وقاتَلَ أُولٰئِكَ أعظَمُ درجةً من الذين أنفَقُوا من بَعْدُ وقاتَلُوا وكُلًّا وعَدَ اللهُ الحُسْنىٰ﴾ والله لايخلف موعده،والديوانُ العزيزُ لايكدّر مَوْرِدَه، ولا رَفَع عن أيدى الخَلْق يَدَه؛ بل يجرى عليها ماضُمِّنه، ويمكِّنها بمـا بَسَط لها فى الأرض ومكَّنه؛ ويُرسِلُ عليها سحائبَ رحمتــه ، وينشِئُ منها ناشــئةَ نعمتِه ؛ ويوجِّه إلىٰ قَلْبها وجْهَ كلِّ أمَل،ويُفيض طُوفانُها فلايكون به للغليل قِبَل، ولا يأوى إلىٰ حَصَاة قَلْبٍ فيعصمها ولو أنه جَبَل .

قلت : ولم أقف علىٰ مكاتبة عن أحدٍ من ملوك الديار المصرية إلىٰ أبواب الخلافة مُذْ صارت دارُ الخلافة بالديار المصرية . والظاهر أنه لم تجْرِ مكاتبــةٌ عن السلطان إلىٰ الخليفة، لأنَّ الخليفةَ لايَكاد يُفارق الســلطانَ سفَرا ولا حضَرا مفارقةً تُوجِب المكاتبةَ إليه، كما أشار إليه صاحب "التثقيف" . وقد لَوَّح فى "التعريف" إلىٰ ذلك فقال : وأوّل مانبدأ بما يُكْتَب به إلىٰ الأبواب الشريفة الخليفتية (كذا) زادها الله شَرفًا، جريًا علىٰ قديم العاده، ورجاءً لملاحظة السَّعاده .

وهذه نســخةُ مكاتبةٍ من هذا النوع ممـا كتب به القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسفَ بن أيوب» رحمه الله إلىٰ ديوان الخلافة ببغدادَ فى أيام الناصر لدين الله بخَبرِ ملِك الألمـان من الفَرَنْجة والقتال معه ، فى جوابِ كتابٍ ورد عليه ، يُوضِّح فى هذا الموضع بيانَ هذا الأسلوب، ويُغْنى عن مراجعة [كثير] من الأمثلة المذكورة فى المكاتبات إلىٰ الخلفاء علىٰ ما تقدّم، وهو :

أدام اللهُ ظلَّ الديوان العزيز النبوىّ، الإمامىّ، الشريف الناصرىّ؛ ومدّه على الأمة ظليلا، وجعل الأنوارَ عليه دليلا؛ وحاطَهُ بلُطْفه وتقبَّل أعمالَهُ بقبولٍ حسنٍ وأنبتها، وأرْغَم أعداءه وكَبتها، ومسَّها بعــذابٍ من عنده وسَحتها؛ ولا زالتْ رايتُه السوداءُ بيضاءَ الخبَر، محمرّةَ المَخْبَر فى الغُداة مسْودَّة الأثَر.

ورد على الخــادم ما كُوتِب به من الديوان العزيزِ رائدًا فى آستخلاصه، مُبَرْهِنا عن آختصاصه؛ مُطْلِقا فى الشُّكْر لِلِسانِه، وفى الحَرْب لِعِنانه؛ ومقْتَضِيا لأُمْنِيَّةٍ كان يتهيَّبُها، ومُفيضًا لمَكْرُمة لو سمتْ نفسُه إليها كان يتهمها؛ فللّهِ هو! من كتابٍ كأنّه سورةٌ وكلُّ آيةٍ منه سَجْده، قابلَه بالخُشُوع كأنما قلَمُ الكِتَاب القضيبُ وطِرْسُه البُرْده؛ وتَلَاه على من قِبلَه من الأولياء مستَرْهِفًا به لعَزَائمهم، مستَجْزِلًا به لمَغَانمهم؛ مستثبتًا به للازمِهِم، مستدْعِيا به الخدمةَ للوَازِمهم؛ مُرْهِفًا به ظُبَاهم فى القتال، فاسِحًا به خُطَاهم يومَ النِّزال؛ فأثَّر فيهم كالآقتداح فى الزَّنْد، وكالآنْبجاس من الصَّلْد، وكالآستِلَال من الغِمْد؛ فشمَّر مَنْ كان قد أسْبَل، وآنتهى مَنْ كان قد أجْبَل؛ وكأنَّمــا أُعْطُوا كتابًا من الدَّهْر بالأَمَان، أو سمِعُوا منادِياً يُنادى لِلْإيمان؛ وقالوا: سَمِعْنا وأطَعْنا، وعلينا من الخِدْمة ما آستطَعْنا؛ هذا مع كونِهِم أنْضاءَ زُحُوف، وأشْلاءَ حُتُوف، وضَرائبَ سُيُوف؛ قد وسَمتْ وُجوهَهُم علاماتُ الكِفَاح، وأحالَتْ عرضهم أقلامُ الرِّماح؛ صابرين مُصابِرِين، مُكاثرين مُكابِرِين، مُناضِلين مُناظِرين؛ قد قامُوا عن المسلمين بمــا قَعَد عنه سائرُهم، ونزلُوا بقارِعة القِرَاع فلا يَسِيرُ عنها سائرُهم؛ وسَدَّسَتْ كعوبُ الرِّماح أَنملَهم، وأثبتُوا فى معتَرَكِ الموتِ أرجُلَهم؛ كلُّ ذلك طاعةٌ لله ولرسوله ولخليفتهما، وإذا رمَوْا فأصابُوا قالُوا ولٰكنَّ الله رَمىٰ.

ومن خبَرِ الكفَّار أنهم إلى الآنَ على عَكّا يُمدّهم البحْرُ بمراكبَ أكثرَ عدّةً من أمواجه، ويخرج للمسلمين منهــم أمرُّ من أُجاجه؛ قد تعاضدتْ ملوكُ الكُفْر

علىٰ أن يَنْهضُوا إليهم من كلّ فرقةٍ منهم طائفه ، ويقلّدوا لهم من كل قِرْن يُعْجِز بالكرَّة واصِــفَه ؛ فاذا قتل المسلمون واحدًا فى البَرّ بعث البحرُ عِوضَــه ألفا ، وإذا ذهب بالقتل صِــنْفٌ منهم أخلفَ بدَلَه صِنْفا ؛ فالزَّرْع أكثَرُ من الحَـداد ، والثمرةُ أنْمىٰ من الحَصاد . وهــذا العدوّ المقاتل ــ قاتله الله ــ قد زرّ عليــه من الخَنادق أدراعا متينه ، وآستجَنَّ من الجَنَوِيات بحُصُون حَصينه ؛ مصْحِراً ومُمتَنِّعا ، وحاسِراً ومتدَرِّعا ومُواصِلًا ومُنْقطعا ؛ وكُلّما أخرج رأسا قد قُطِعت منــه رءُوس ، وكُلّما كَشَف وجْها كُشِفت من غِطَاء أجسادها نُفُوس ؛ فكم من يوم أرسَلُوا أعِنَّة السوابق فَذمُّوا عُقْبىٰ إرسالهــا ، وكَمْ من ساعةٍ فَضُّوا فيهــا أقفالَ الخَنادق فأفضىٰ إليهم البَلاءُ عنــد فَضِّ أقفالِهــا ؛ إلا أنَّ عدَدَهم الجَمّ قد كاثَرَ القَتْل ، ورقابَهم الغُلْبَ قد قطَعت النَّصل لِشدّة ماقطَعها النصل . ومَنْ قِبلَ الخــادم من الأولياء قد آثّرتِ المدّة الطويله ، والكُلَف الثقيله ؛ فى آستطاعَتِهم لا فى طاعتِهم ، وفى أجوالهم لا فى شَجَـاعتهم ؛ فالبَرْك قد أنضَوْه ، والسِّــلاح قد أحفَوْه ، والدِّرهمُ قد أفْنَــوْه ؛ وكلُّ من يَعْرِفهم من أهل المَعْرِفه ، ويراهم بالعَيْن فمــا هُم مثلَ مَنْ يراهم بالصِّفَه ؛ يناشِدُ اللهَ المُناشدةَ النبوِيَّه ، فى الصَّيحة البَــدْريه ؛ أللهم إن تَهْلِكْ هــذه العِصَابه ، ويُخْلِص الدعاء ويَرْجُو علىٰ يَدِ أمير المؤمنين الإجابه . هــذا والساحلُ قد تمــاسَكَ ، وما تَهالَكَ ؛ وتجَلَّد ، وما تبَلَّد ؛ وشَجَّعته مَواعِد النَّجْدة الخارِجه ، وأسْلَتْه عن مصارع العِــدّةِ الدَّارجه ؛ فكيْفَ به إذا خرج داعيــةُ الألْمــان ، ومُلُوك الصُّلْبان ؛ وجموعُ ماوراء البحر ، وحُشُودُ أجناسِ الكُفْر ؟ وقد حَرَّم باباهم ــ لعنة الله عليهم وعليه ــ كلَّ مباح وآستخرج منهم كلَّ مذْخُور ، وأغلق دُونَهم الكنائس ، ولَبِس وألبَسَهم الحِــدَاد ، وحَكَم عليهم أن لا يزالُوا كذلك أو يستخْلِصُوا المَقْبُرة ، ويُعِيدوا القُمامة . ﴿ وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعمالَهُم وقالَ لاغَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ من النَّاس وإنِّى جارٌ لَكُمْ ﴾ .

اللهم أخفرْ جواره، واصرِف جَوْره، وأخلِف وَعْده، واكسِرْ ضَمَانَه، وأنكِصه علىٰ عَقِبه، وعَجِّل فى الدنيا والآخرة منهم تَبابَه . ومابدَأْتَنا به من نعمتك فلا تقطَعْه، وما وهبْتَنا من نَصْرك فلا تَسْلُبْه، وما سترْتَه من عَجْزنا فلا تَهْتِكه . [و]فى دُون ما الدِّينُ مستقبِلُه، وعدوُّه خذله الله يؤمِّله ؛ مايستفْرِغُ عزائمَ الرجال، ويستَنْفِدُ خزائنَ الأموال ؛ ويُوجِب لإمام هـذه الأمةِ أن يحفَظَ عليها قِبْلتها، ويُزِيحَ فى قتل عَدُوّها علّتَها ؛ ولولا أنَّ فى التصريح، مايعودُ علىٰ عدالته بالتَّجْريح، لقال مايُبكِى العينَ ويُنكِى القلوب، وتَنْشَقُّ له المرائر وتُشَقُّ له الجُيُوب ؛ ولٰكنّه صابرٌ محتَسِب، منتظِرٌ لنصر الله مُرْتَقِب، قائمٌ من نَفْسه بما يجب ؛ رَبِّ إنى لاأملك إلا نَفْسِى وأخى، وهاهو قد هاجَر إليك هجرةً يرجُوها عنـدك مقبوله ، ووُلْدِى وقد أبرزتُ لعَدُوّك صَفَحات وجوههم، وهانَ علىّ محبوبُكَ بمكروهِى فيهم ومَكْروهِهم . ونَقِف عندَ هذا الحدّ، ولله الأمرُ من قَبْلُ ومن بَعْد ؛ وإن لم يشتَكِ الدِّينُ إلىٰ «ناصره» والحقُّ إلىٰ مَنْ قام بأوّلِه وإلىٰ اليوم الآخِر يقُوم بآخِرِه ؛ فإلىٰ مَنْ يُشْتكىٰ البَثّ، وعنـد من يتفرج بالنفْث ؟ ، ومنفعةُ الغوث قبل العَطَب ، والنَّجاءِ قبل أن يَصِل الحِزامُ الطُّبْيَيْن، والبَلاغِ قبل أن يَصِل السيلُ الزُّبىٰ .

فياعَصَبةَ محمد صلّى الله عليه وسلم آخْلُفْه فى أمَّته بما تطمئن به مَضاجِعُـه ، ووَفِّه الحقَّ فينا ؛ فإنّا وإنَّ المسلمين عندك ودائعُـه، وما مثَّل الخادمُ نفسَه فى هذا القول إلا بحالةِ مَنْ وقفَ بالباب ضارعا ، وناجىٰ بالقول صادعا ؛ ولو رُفِعتْ عنه العوائقُ لهاجر ، وشافَهَ طبيبَ الإسلام بل مَسِيحَه بالداءِ الذى خامر ؛ ولو أمِنَ عدوّ الله أنْ يقول فَرَّ لسافر، وبعـدُ ففيه وإن عَضَّ الزمانُ بقيه، وقبـلَه وإن تدارَأَت الشُّهّاد دَرِيَّه ؛ فلا يَزالُ قائمـا حتّى ينْصَر أو يُعْذَر ، فلا يصل إلىٰ حُرَم ذرّية أحمدَ صلّى الله عليه وسلم ومن ذُرّيةِ أيُوبَ واحدٌ يُذْكَر .

أنجزالله لأمير المؤمنين مَوَاعِدَ نَصْره! وتمم مساعَدَةَ دهره! وأصفىٰ مَوَارِدَ إحسانه! وأرسىٰ قواعد سلطانه! وحَفِظه وحفظ به فهو خَيْرٌ حافظا ، ونَصَره ونصر علىٰ يَدَيْه فهو أقوىٰ ناصِرا ، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم ٱعلم أن المَقَرّ الشِّهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر فى "تعريفه" أيضا أنَّ المكاتبةَ إلىٰ أبواب الخلافة من الملوك والسُّوقة لا تختلف ، بل تكونُ علىٰ الأُنْموذَج المقـدّم ذكره ، وٱسـتلزم ذلك : يجرىٰ علىٰ هـذا المصطَلَح فيما كَتَب به إلىٰ الديوان العزيز الحاكمىّ ، أحمدَ بنِ أبِى الربيع سليمان : أحدِ الخلفاء العباسيِّين بالديار المصرية ، عن رُماة البُنْدُق بالشام ، جوابًا عمَّـا ورد عليه من كتابهم ، وهو متكلِّم علىٰ رُماة البندق يومئذ فى أمر ناصِر الدين بن الحِمْصىّ وهو أحدُ الرُّماة .

أدام اللهُ تعـالىٰ أيامَ الديوان العزيز ، المولوىّ ، السيدىّ ، النبوىّ ، الإمامىّ ، الحاكمىّ ؛ ونَصَر به جمعَ الإيمـان ، وبُشّر بأيَّامه الزمانــ ، ومتَّعه بالملك الذى لا يَنْبغِى لأحد مِنْ بعـده بمـا وَرِثه من سُلَيمان ؛ ولا زال يَخْضَع لمَقَامه كلُّ جليل ، ويُعْرَف لأيامه كلُّ وجه جَميـل ؛ ويعترف لشَرفه كلُّ معتَرِف بالتفضـيل ، ويشهد بنَفَاذِ أوامره من ذَوِى نسبه الشريف كلُّ أخٍ وخليل ؛ ولا كانَ إلَّا كرَمُهُ المأمول ، ودعاءَه المقبول ، وعَدُوّه المصرُوع ووليّـه المحمول ؛ ولا بَرِحتْ طاعتُه يُعْقَد عليهـا كلُّ جمع ، ومراسِمُه يُنْصِت إليها كلُّ سَمْع ، وطوائفُ الذين كَذَبُوا عليه لا تُتْلىٰ عليهم آياتُه إلا تولَّوْا وأعينُهم تَفِيض من الدَّمْع .

المـماليك يقبِّلُون الأرضَ بالأبواب العاليـة التى هى خُطَّة شَرفهم ، ومكانُ تعبُّدِ القدماء منهم ومن سَـلَفِهم ؛ ويلُوذُون بذلك المَقَـام ، ويَعُوذون بذلك الحَرَم الذى

لا يبعُد نسبهُ من البيت الحرَام؛ ويؤمِّلون ذلك الكَرَم الذى مامنهم إلا مَنْ سَعِد به طائره، وجاءته به فى وَجْه الصَّباح أشائره؛ وفى وَجْه العِشاء بشائرُه؛ فنالوا به أقصى المَرَام، وقضَوْا به من العُمُر ما إذا قالوا : ياسَـعْدُ ! لايَعْنُون به إلا ذلك الإمام؛ وينتهُون إلىٰ ما ورد به المرسـومُ الشريفُ الذى ما من المَمَاليك إلا مَنْ مَتَّ لديه بتقديم عُبوديَّتِـه ورِقِّه ، وسارع إلىٰ طائِره الميمون وحمله بسَبْقِه؛ وفتح له عينَـه وظنَّ أنَّه حاكم، وآمتثلوا أمْرَه وكيف لا تمتثل الرماةُ أمرالحاكم ؟ ، ولاسيَّما آبنُ عمِّ سيدنا رسولِ اللهصلَّى اللهعليهوسلم الامامُ الحاكم؛ وأجَلُّوه عن رَفْعه علىٰ العين إذ كانت تلك بمنْزِلة الحاجب ، وقدّموا إليـه خُفُوقَ قلوبهم الطائرة وما علموا أنْ كانوا قامُوا بالواجب؛ و وقفُوا علىٰ أحكامِ حاكِمِهِ فمـا شَكُّوا أنَّ زمان هـذا الفَنِّ بحياةِ ناصِره فى بَغدادَ قد عاد ، وأنَّ مثاله المتمثِّل فى سَواد الحَدَق ممـا حكتْه أيامُه العبَّاسيَّةُ من شِـعَار السَّواد ؛ وعلمُوا مارَسَم به فى معنىٰ محمد بن الحُمْصىّ الذى ما نُوِّرت الليـلةَ أكاريحُه، ولابَعُدتْ فى الإقعاد له تَوارِيخُه؛ بل أَخمدَتْ دمُوعُ نَدَمه نيرانَه المشتَعله ، وأصـبَحَ به لا يحمل القَوْسَ فى يده إلا أنه مَشْـغَله؛ وماكان أنهـاه الدِّيوان العزيز ممـا لم تذكر الخواطرُ الشريفـةُ بأنه قبة المفْـتَرِى ، وأنه صاحبُ القوْسِ إلا أن مالَهُ سعادةُ المشترى ؛ وأنه موّه تمويهَ الجاحد، وتلوَّن مثلَ قَوْسِ قُزَحَ وإلا فقوسُ البندُق لونٌ واحد؛ وأدْلىٰ بغروره، وعَرَض المحْضَر الذى حَمَله علىٰ تغريره؛ وذلك فى غَيْبة الأمير بهاء الدين أرسلان البُنْدُقْدارِ الحاكمى، الذى لوكان حاضرًا لكان حُجَّة عليه، ومؤكِّدا لإبطال رَمْيِـه وقوسه وبُنْدُقه فى يدَيْه؛ لمـا تضمَّنه الخطُّ الشريف المقيَّد اللفظ المكتتبُ علىٰ المصطَلَح ، الساحبُ ذيلَ فخاره علىٰ المقْتَرح؛ الذى هدىٰ إلىٰ الخير، وبدَا به ماوُهِب من الملك السليمانىّ الذى أُوتِىَ من كلِّ شىءٍ وعُلِّم منْطِق الطير؛ فإنَّه لم يُكْتب له إلا بأنْ يرمِىَ علىٰ الوجه المَرْضىّ واستيفاء شروط البنـدق،

والخروج من جميع الأشكال عملا بقواعده ؛ ويُعْلِم بأنه ما رعىٰ حقَّ قُدْمتــه ، ولا فعل فى البابِ العزيزِ مايجبُ من التحلِّى بشِعار الصِّدْق فى خِدْمته ؛ وأنه خالف عادةَ الأدَب ، وأخطأ فى الكلِّ لكنه نَدَب ؛ وذلك بعد أن عَمِل له جميعُ رُماة البندق ، وسـئل فأجاب : بأنه سالمٌ من كل إشكال يُشْكِل ، وأنه بعد أن أُقْعِد رمىٰ وحَمَل وحُمِل ؛ فشهد عليــه السادةُ الأمراءُ ولاةُ العهد إخوة أمير المؤمنــين ومن حضر ، وكتبوا خطوطَهُم فى المحضر ؛ وما حصل الآنَ عند عَرْض قصة المــاليك بالمواقف المقدَّسه ، ووضوح قضيته المدَنســه : من التعجُّب من ٱعتراف المــاليك ، لِكونهم رمَوْا معــه بعد أن رأَوُا الخطَّ الشريفَ وهو لفظ مقيَّــد ، وأمرٌ أُيِّدَ به رأىُ الإمام الحاكم بأمر الله المسترشد بالله والمؤيَّد ؛ وكُلُّ ماأمرَ به أميرُ المؤمنــين لامَعْدِل عن طُرُقه ، ولا جدالَ إلا به إذا أُلْزِم كلُّ أحد طائِرَه فى عُنُقه ، وأمير المؤمنين بحر لايرد إلا من عِلْمه ، وهو الحاكمُ ولا رادَّ لحُكْمه . وإنمــا ٱبن الحمصىّ المذكور عَدِم السَّداد ، وخالف جارىَ العادةِ فى الحِمَّص فإنه هو الذى سُلِق فى الأفتراء بألْسِــنة حِدَاد ؛ ولم يُوقِف المــاليكَ من الخط الشريف إلا علىٰ بعضه ، ولا أراهم من بَرْقِه المتهلِّل غيرَ وَمْضــه ؛ والذى أوقفهم عليه منه أن يَرْمِى محمدُ بنُ الحمصىّ ويُرْمىٰ معه ، وكلمةُ أمير المؤمنين مستَمَعه ، ومراسِيمُه متَّبَعه ؛ وإذا تقدّم كان الناس تَبَعه . غير أن المذكورَ بدَتْ منــه أمورٌ قطع بهــا الأميرُ صارمُ الدين صاروجا الحــاكم البُنْدُقْدار فى حقه ، وأقعده عن قُدْمته التى كان يمُتُّ فيها بسَبْقه ؛ وٱنتقل عنه غلْمانُه ، وثقُل عليه زمانُه ؛ ونُودِى عليه فى جمعٍ كبير يزيد علىٰ تسعين قوسا ، وجُرِح بخطإ بُنْدُقه جرحا لايُوسىٰ ؛ ثم بعــد مدّة سنين توسَّل بولد الأمير المرحوم سيف الدين تنكز إلىٰ أبيه ، وتوصَّل به إلىٰ مَرَاميه ؛ فأَمَر أن يُرْمى معه وهَدَّد المخالفَ بالضرب ، ولم يَرْمِ معه أحدٌ برضاه إلا خَوْفَ أن تُوقَد نارُ الحرب ؛ فلما مضَت تلك الأيَّام ، وٱنقضَتْ

تلك الأحْلام ، جمع مملوكُ الأبواب العالية الأميرُ علاءُ الدين بنُ الأبو بكرى الحاكم فى البندق الآنَ من رُماة البُنْدُق جمعا كبيرا ، وآهتمَّ به آهتماما كثيرا ، وذكر أمْرَ المذكور، وأحضر مَحْضَره المسطور ؛ ولم يكنْ عليه تعويل ، ولا فى حُكْم الحاكم المتقدّم تعليل ، ولا عِنْد هذا الحاكم الذى آدَّعىٰ له وآدَّعىٰ عنده تجوزُ الأباطيل ؛ وتحقَّق أنَّ الحقَّ فيما حكم به عليه فتُبِع ، وترجَّح أن لايُقامَ منه من أُقْعِد ولايُوصَل منه ماقُطِع ؛ فنفَّذ حكْمَ الحاكم المتقدّم، وآستمرّ بقُعُوده المتحتِّم ؛ ووافقه علىٰ هذا سائر الرُّماة بالبلاد الشامية وحُكَّامها ، ومن يُرْجَع إليه فى الرِّماية وإحكامها ؛ وبطلَتْ قُدْمة المذكور التى ذهَب فيها عمرُه ضائعا ، وزمانُه الذى لو آشترِيتْ منه ساعةٌ بالعُمُر لم يكن نافِعا .

ولما ورد الآنَ هـذا المرسومُ الشريفُ زاده الله شرفا قَبَّلوا الأرضَ لديه ، وأوقفوا عليه حاكِمهم المسمّى فوقَفَ له وعايه ؛ وجَمَع له جمعا لم يَدَعْ فيه من الرُّماة معتَبَرا ، ولا من يُلْقِم القوسَ وَتَرا ؛ ولا من إذا قَعَد كالعين جرىٰ ماجرىٰ ؛ ثم قرأ عليهم ماتضمَّن ، ودعَوْا لأمير المؤمنين ولم يَبْقَ منهم إلا مَنْ دعا أو أمَّن ؛ وتضاعف سرورُهم بحُكْمه الذى رفع الخَلَل ، وقطع الجَدَل ، وقالوا : لاعَدِمْنا أيامَ هـذا الحاكم الذى أنصَفَ والإمامِ الذى عَدَل ؛ وبَقِىَ آبنُ الحمصىّ مُثْله ، ونُودِى عليه إنَّه من رمىٰ معه كان مخطِئًا مثلَه ؛ ووَقرتْ هذه المناداة فى كلِّ مَسْمَع ، وقرَّت استقرارَ الفضل عليه المُجْمَع ؛ وذلك بما فُهِم من أمير المؤمنين ، وبنص كتابه المبين ، وبما قضىٰ الله به علىٰ لسان خليفته الحاكم والله أحكَمُ الحاكمين ؛ وطالعُوا بها وأنْهوْا صورةَ الحال ، وجمعوا فى إمضائه الآمال . لا زالَتْ سعادةُ أمير المؤمنين منزَّهة عن الشُّبْه ، آخذةً من خير الدارين كل آثنين فى وجه ، حتّى تحصُل كلُّ رميةٍ من كَثَب ، ولا يرْمى فى كل

أمنةٍ إلا كلُّ مصطحب ، ماغَبَّ فى السماء المِرْزَم ، ووقع العُقاب علىٰ ثَنِيَّـةٍ يَقْرَع سِـنَّه و يتندَّم ، وعلا النَّسْرُ الطائرُ والواقـع علىٰ آثاره وسائرُ طيورِ النُّجوم والحُوَّم ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وقد آعترض فى " التثقيف " كلام المقـرّ الشهابىّ بن فضـل الله فى " التعريف " فقال : وفيما ذكره فى " التعريف " من التسوية فى المكاتبة بين الملوك والسُّوقة نظر . وما أشار إليه من النظر ظاهر : فإن الذى تجب مكاتبتهم به ما يكاتب به المرءوسُ رئيسَه بحسَب ماتقتضيه الحال فى آبتداء المكاتبات مِنْ يَقَبِّل الأرض ، كما تكاتب الملوك ، بل هم بذلك أحقُّ وأجدر . ويكون الخطـاب لهم فى أثناء المكاتبة بمـا أشار إليه فى " التعريف " بالديوان العزيز، والمواقف المقدّسة أو المشرَّفة، والأبواب الشريفة، والباب العزيز، والمقام الأشرف، والجانب الأعلىٰ، ومولانا أمير المؤمنين، ونحو ذلك بحسَب ماتقتضيه الحالُ علىٰ ماتقدّم ذكره .

الطـــــرف الثـانى

(فى المكاتبــــة إلىٰ وُلَاة العهد بالخلافة)

أما علىٰ المصطلح القـديم حينَ كانت المكاتبةُ إلىٰ الخلفـاء « لفلان من فلان » فقـال فى "صـناعة الكُتَّاب" : و يكون التصـديرُ فى المكاتبة إلىٰ وَلِىّ العهد علىٰ ما تقـدّم فى المكاتبة إلىٰ الخلفاء مع تغيير الأسمـاء ، غير أنه جعل الفرقَ بين الإمام وغيره ممن يكاتَب بالتصـدير أن يقال للإمام فى التصـدير مع السـلام : وبركاته ، فى أوّل الكتاب وآخره . ومَنْ سـوىٰ الإمام تحذَف و بركاتُه من التصدير وتُثْبَت فى آخر الكتاب .

وقد تقدّم أنَّ التصدير إلىٰ الخليفة حينئذ كان " لعبدِ الله أبِي فلان فلان أميرالمؤمنين، سلام علىٰ أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فإنى أحمدُ إلىٰ أميرالمؤمنين اللهَ الذى لاإلٰه إلَّاهو، وأسألُه أن يصلِّى علىٰ محمد عبده ورسوله . أما بعدُ، أطال الله بقاء أمير المؤمنين إلىٰ آخره ، ويختم بقوله : والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته " .

وحينئذ فتكون المكاتبة إلىٰ ولىّ العهد علىٰ ما أشار إليه فى " صِنَاعة الكُتَّاب " من الآبتداء بالتصدير مع تغيير الأسماء : " لعبد الله أبى فلان فلان ولىّ عهد المسلمين ، سلامٌ علىٰ ولىّ عهد المسلمين ؛ فإنى أحمد إليه اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو ، وأسأله أن يصلِّى علىٰ رسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعدُ : أطال الله بقاء ولىِّ العهد ، ويختمه بقوله : والسلامُ علىٰ ولىّ عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته" أو نحو ذلك .

وأما علىٰ المصطلح الذى حَدَث بعد ذلك، فقد ذكر المقرّ الشهابىّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" أن رسم المكاتَبة إلىٰ ولىّ العهد بالخلافة : ضاعف اللهُ تعالىٰ جَلَال الجانب الشريف ، المَوْلَوِىّ ، السيدىّ ، النَّبَوِىّ ، الفلانىّ ؛ ثم الدعاء المعطوف . وأبدل فى " التثقيف " لفظ الجانب بالجَنَاب . والخطابُ له بمولانا وسيدنا ولىّ العهد ونحو ذلك . والتعبير عن المكتوب عنه بـ«الخادمُ يقبل العتباتِ الشريفةَ أو اليدَ الشريفةَ » أو نحو ذلك . قال فى " التثقيف " : والعلامةُ إليه «الخادم» والعُنْوان « الجناب الشريف » وبقية الألقاب المذكورة إلىٰ آخرها .

قال : وهو[١] أحسن من الجناب : لعدم آشتراك غيره معه فيه بخلاف الجناب . قال : وهذا أيضا علىٰ عادة من تقدّم من الملوك ، أما فى زماننا وقبله بمدّة مديدة،

(١) أى الجانب المذكور فى عبارة التعريف .

فلم يتفق وجودُ ولىّ عهـدٍ للخلافة ؛ وبتقدير وجوده فإذا لم يكُن الخليفـةُ يكاتَبُ في هذه الأيام فكيف بولىّ عهده .

وهذه صدور مكاتبات إليه أوردها فى "التعريف" .

صدر : ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجانب وأطلع مع وجود الشمس بَدْرَه التَّام، وأحوجَ مع زاخر البحر منـه إلىٰ مَدَد الغَمَام، وقدّمه إمامًا علىٰ الناس وأطال بقـاء سيدنا أبيه الإمام ؛ ولا عُدِم منه مع نظر والده الشريف جميـلُ النظر، ولا برِح صدْرَ دَسْته العلىّ إذا غابَ وثانِيَه إذا حضر، ولازال الزمانُ مختالًا من جُود وجودهما لاعرّف الله الأنامَ قدره إلا بالزَّهر والثَّمر، ولا زاد فيضُ كرمٍ إلا وهو من كَفِّ أبيه فاض أو مِنْ وَبْله العميم ٱنهَمَرْ .

الخادم يخدُم تلك العتباتِ الباذخةَ الشرف، الناسخةَ بما وجده من الخير فى تقبيلها قول من قال : لا خَيْرَ فى السَّرَف . وينهى ولَاءً ما عُقِد علىٰ مثله ضمير، ولا ٱنعقد شبيهه لولىِّ عهدٍ ولا أمير؛ وإخلاصه فى ٱنتماءٍ أشرق منه علىٰ الجبين ، وأشرف فرآه فرضًا عليه فيما نطق به القرءانُ ورُقِمَ فى الكتاب المُبِين .

⁂

صدر آخر : أعز الله أنصارَ الجانب الشريف، ولا حجَب منه سرَّ ذلك الجَلَال، ولا معنىٰ ذلك البدرِ المشرقِ منه فى صُورة الهلال، ولا فيضَ ذلك السحاب المُشْرَع منه هـذا الموردُ الزُّلال ، ولا تلكَ المآثرَ التى دلَّ عليهـا منه كَرَمُ الخِلال، ولا تلك الشجرة المفرّعة ولاما ٱمتدّ منها به من الغُصْن الممتدّ الظلال، ولا ذلك الإمامَ الذى هو ولىُّ عهده وهو أعظم من الاستقلال .

الخادم يقبّـل تلك اليد مُوفيًا لهـا بعهده [ومُصْفيا منها لوِرْده](١) ومُضْفيًا منهـا جَلَابيبَ الشرف على عِطْفه ، وحَسْبُه فَخَارا أن يُدْعى فى ذلك المقام بعَبْده ؛ ويترامى على تلك الأبواب ، ويَلْثِمُ ذلك الثرى ويرجُو الثواب .

✦ ✦ ✦

صدر آخر : ولا زالَتْ عهودُ وِلَايتـه منصوصه ، وإيالَتُـه بعُمُوم المصـالح مَخْصُوصه ؛ وصفوفُ جُيُوشـه كالبُنْيانِ مَرْصُوصه ، وقوادمُ أعدائه بالحَوالق مَحْصُوصه ، وبدائع أنبائه فيا حاَقَتْ إليه دعوتُه الشريفةُ مقْصُوصه [والوُفُود فى أبوابه أجنحتها بالنَّدى مَبْلُولة مقصوصة](١) .

الخادم يجدّد بتلك الأعتـابِ خِدَمه ، ويُزاحِمُ فى تلك الرِّحاب خَدَمَه ، ويقف فى تلك الصُّفوف لا تُنْقَل عن الطاعة قَدَمُه ، ويتمثَّلُ بين تلك الوقُوف ويتميز عليهم إذا ذُكِر فى السوابق قُدَمُه ، ويُدْلِى بحُجَج سيوفه [التى أشهرها ، وصروفه التى لاقى أشهَرَها ، ومواقفه](١) التى ما أنكرها الديوانُ العزيزُ مُذْ أثبتَها ، ولا حَطَّ رِماحَها مذ أنبَتَها ، ولا محا سطورها ، مذ كَتَبها ، ليَغيظ الأعداء ولا يشفى صدورها ، منذ كَبَتَها ؛ وينهى كذا وكذا .

✦ ✦ ✦

صدر آخر : ولا زالتْ مواعيدُ الظَّفَر له منصوصةً ، ورءُوس مَنْ كفر بطوارقه مَرْضُوضه ، وصحائفُ الأيام عمـا يُسَرُّ به الزمان فيه مَفْضُوضه ، وجُفونُ عِدَاه ولو آتصلت بمُقَل النجوم مَغْضُوضه ، وطوارقُ الأعداء التى تجُنُّهم منه بسُيُوفه معضوضه .

الخادم يخدُم أرضَه المقدّســةَ بترامى قُبَله ، وتقليبِ وجْهــه إلى قِبَله ؛ ويتطوّف بذلك الحَرَم ، ويتطوّل من فَوَاضِـل ذلك الكَرَم ؛ ويتطوّق بقـلائد تلك المِنَن ،

(١) الزيادة "من التعريف" .

وفرائد تلك المواهب التى إن لم تكُنْ له وإلا فمَنْ ؛ فإنه واللهُ يشهدُ له لا يعتقد بعد ولاء سيدِنا ومولانا أمير المؤمنين ، والقيّم بأمور الدنيا والدّين؛ عليه الصلاة والسلام إلّا وَلَاءَها ، ولا يؤمِّل بعد تلك الآلاءِ إلّا آلاءَها ؛ ولا يرجو من غير هذه الشجرة المباركة لأمله إثمـارا ، ولا لليله إقمارا ، ولا لأيّامه حافظا ، ولا لحال إقدامه فى قَدَم صِدْقٍ ولائه لافظا ؛ قائما فى خِدَم هذه الدولة القاهرة يجْهَد فى منافعها [ويجِدُّ فى كَبْت مُدافعها](١) ويَدّخِر شفاعتها العُظْمىٰ إذا جاءت كلُّ أمةٍ بشافعها ، وينهى كذا وكذا .

الطـــرف الثـالث

(من المصطلح المستقرّ عليه الحال ، فى المكاتبات الصادرةِ عن ملوك الديار المصرية إلىٰ أهل المملكة : من مصر والشام والحجاز ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقْصـــد الأوّل

(فى المكاتبات المفْرَدة ، وفيــه مَسْلَكان)

المسْـــلك الأوّل

(فى بيان رُتَب المكاتبات ورُتَب أهلها ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(المكاتَباتُ إلىٰ الملوك علىٰ ما كان عليه الحالُ فى الزمن المتقدّم مما لَعَلَّه يعودُ مثلُه ، وهى الدعاء للمقام ، وفيه مكاتبتان)

الأولىٰ — المكاتبة إلىٰ ولىّ العهد بالسلطنة [وهى] علىٰ ما ذكره فى "التثقيف":

أعزّ اللهُ تعالىٰ أنصارَ المقام العالى ، المَلَكىّ ، الفلانىّ ، الأَخَوِىّ ، أو الوَلَدِىّ ، إن كان أخًا أو وَلَدا . ثم الدعاءُ اللائقُ به ، ثم يقال : «أصدرناها إلىٰ المَقَام العالى

---

(١) الزيادة من "التعريف".

ويطالع علمه الشريف » والعلامة «أخوه» سواء كان أخًا أو غير أخٍ، و « والده » إن كان والدا . ولم يذكُرْ تعريفَه، والذى يظهر أنه يكتب له «ولىّ العهد بالسلطنة الشريفة» . ولم يذكر قَطْع الورق لهـذه المكاتبة، والذى يظهر أنه فى قَطْع العـادة علىٰ قاعدة المكاتبات إلىٰ أهل المملكة . قال فى "التثقيف" : ولعل هذه المكاتبةَ نظيرُ ما كُتب به إلىٰ الملكِ الصالح علاءِ الدين علىّ ولدِ المنصور قلاوون : فإنه كان ولىَّ عهد أبيه المذكور، تُوفِّىَ فى حياته . ثم قال : ورأيت أمثلةً كثيرةً صـدرت عنه بخَلَاص الحقوق، وعلامته عليها «علىّ بن قلاوون» .

الثانية — المكاتبَةُ إلىٰ صاحب حماةَ من بَقَايا الملوك الأيُّوبية قبل مصيرها نيابةً، وآخر من كان منهم فى الدولة الناصرية «محمدِ بنِ قلاوون» الملكُ الأفضلُ ناصرُ الدين محمد بن الملك المؤيَّد عماد الدين إسماعيل، لَمَّـا صارتْ إليه بعد أبيه المذكور .

ورسم المكاتبة إليـه علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى قَطْع العادة : « أعز الله تعالىٰ أنصارَ المَقَام الشريف، العـالى، السلطانى، المَلَكىّ، الأفضَلِىّ، الناصرىّ، ونحوهما » . ثم الدعاء، وبعده «أصدرناها إلىٰ المقام الشريف» والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب حماةَ» . قال فى "التثقيف" : ولم يَزل الحالُ علىٰ ذلك إلىٰ أنْ عُزِل عنها الأفضلُ المشار إليه بعد الأيام الشَّهيدية الملكِ الصالح عمادالدين إسماعيل آبن السلطان الشهيد النـاصر محمد بن قلاوون، وآستقرّ بها بعـده نائبًا الأمير طغاى الحموىّ أمير مجلس كان، فبقيتْ نيابةً بعده إلىٰ الآنَ .

الضــــرب الثـانى

(المكاتبات إلىٰ مَنْ عدا الملوك من أرباب السيوف والأقلامِ وغيرهم ممن جرت العادةُ بمكاتبته ، وفيه مَهْيَعان)

المَهْيَـــع الأوّل

(فى رُتَب المكاتبات ، وهى علىٰ عشر[1] درجات)

الدرجــــة الأولىٰ

(الدعاء للمَقرّ)

وصورته علىٰ ماذكره فى " التثقيف " : «أعزَّ اللهُ تعـالىٰ أنصارَ المَقَرّ الكريم ، العـالى ، المَوْلوِىّ ، الأميرىّ ، الكَبيرىّ ، العالِمِىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الزَّعيمىّ ، العَوْنىّ ، الغِيَاثىّ ، المُثَاغِرِىّ ، المرابِطىّ ، المُمَهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، العابِدىّ ، النـاسِكىّ ، الأتابِكىّ ، الكَفيلىّ ، الفلانىّ ؛ مُعِزّ الإسلام والمسلمين ، سـيد أمراء العالمين ، ناصرِ الغُزَاة والمجاهدين ، ملْجَإ الفقراء والمساكين ، زعيم جُيوش الموحِّدين ، أتابِك العساكر ، ممهِّد الدُّوَل ، مشيِّد الممالك ، عِمادِ الملة ، عونِ الأمة ، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، عضُد أمير المؤمنين» . ثم الدعاء المعطوف والتصدير المناسب : مثل أن يقال : « ولا زال عَزْمُه مؤيّدا ، وعِزُّه مؤبّدا ، وسعده علىٰ ممرّ الجديدين مُجَدَّدا ؛ أصدرناها إلىٰ المَقَرّ الكريم تُهْدِى إليه من السلام أتمّه ، ومن الثناء أعَمّه» . ثم يقال : «وتُبْدِى لعلمه الكريم كذا وكذا ، ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه الكريمُ بكذا وكذا ، فيحيط علمه الكريمُ بذلك ، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه » .

(١) لم يذكر غير ثمـان درجات .

الدرجة الثانية
(الدعاء للجنَاب الكريم)

وصورته على ما أورده فى "التثقيف" عما آستقر عليه الحالُ «أعزَّ الله تعالى نُصْرة الجناب الكريم، العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العالِمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، الزعيمىّ، العَوْنىّ، الغِيَاثىّ، المُثَاغِرىّ، المرَابِطىّ، الممِّهدىّ، المشيِّدىّ، الظهيرىّ، الكافلىّ، الفلانىّ؛ عزِّ الإسلام والمسلمين، سيفِ الأمراء فى العالَمين، نُصْرةِ الغُزَاة والمجاهدين، زعيمِ جيوشِ الموحِّدين، سيف أمير المؤمنين». ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل أن يقال : «ولا زالَتْ عزائمهُ مؤيَّده، وأوامِرُهُ السعيدةُ مسدَّده؛ صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدِى إليه سلامًا طيِّبا، وثناء مُطْنَبا؛ وتوضِّح لعلمه الكريم كذا . ومرسومُنا للجناب الكريم أن يتقَدّم أمْرُه الكريمُ بكذا وكذا؛ فيحيط علمه الكريمُ بذلك، والله تعالى يؤيده بمنِّه وكرمه» .

قلت : والذى فى "التعريف" : «أعز الله تعالى أنصارَ الجَنَاب الكريم، بإبدال نصرة بأنصار، وآختلاف بعض الألقاب المتقدّمة» .

الدرجة الثالثة
(الدعاء للجناب العالى بمضاعَفَة النعمة)

وصورته على ما فى "التثقيف" : «ضاعفَ اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، العَوْنىّ، الزَّعيمىّ، الممِّهدىّ، المشيِّدىّ، الظهيرىّ، الكافلىّ، الفلانىّ؛ عزِّ الإسلام والمسلمين، سيفِ الأمراء فى العالمين، نُصْرةِ الغُزَاة والمجاهدين، زعيمِ جيوش الموحدين، مُقَدّم العساكر، ممهِّد الدُّوَل، مشيِّد

الممـالك، عمادِ الملة، عونِ الأمّة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، سيفِ أمير المؤمنين» .

ثم الدعاء والتصدير المناسب ، مثل : «ولا زال قَدْرُه عاليا، ومَدْحه مُتواليا، وجيدُ الدَّهْر بمحاسنه حاليا ؛ وتوضِّح لعلمه الكريم كذا ؛ ومرسومُنا للجناب العالى أن يتقدّمَ أمرُه الكريم بكذا ؛ فيحيط علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه» .

الدرجة الرابعـــة

(الدعاء للجناب العالى بدوام النعمة)

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" : «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى، الأميرىِّ، الكبيرىِّ، العالمىِّ، العادلىِّ، المؤيدىِّ، الأوحدىِّ، النَّصيرىِّ، العَوْنىِّ، الهُمَامىِّ، المقدَّمىِّ، الظَّهيرىِّ، الفلانىِّ ؛ عزِّ الإسـلام والمسلمين، سيِّدِ الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، مقـدَّمِ العساكر، كَهْفِ المِلَّة، ذُخْر الدَّوْله ؛ عمـادِ المملكة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، حُسامِ أمير المؤمنين» والدعاء والتصـدير المناسب، مثل أن يقال : «ولا زال قدرُه رَفيعا، وعِزُّه مَنيعا، و (١) مريعا . صدرت هذه المكاتبـة إلىٰ الجناب العالى تهدى إليه سلاما طيبا، وثنـاء صيبا» ثم يقال : «وتوضِّح لعلمه المبارك كذا، فيُحيط علمُـه الكريم بذلك ؛ والله تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه» .

---

(١) بيـاض بالأصل ولعله وجنابه مريعا .

الدرجة الخامسة

(الدعاء للمجلس بدوام النعمة)

ورسمها: «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلِس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيِّدىّ، العَوْنىّ، الأوحدىّ، النَّصيرىّ، الهُمَامى، المقدَّمىّ، الظهيرىّ، الفلانىّ؛ عزّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، مقَدَّم العساكر، كَهْف الملة، ظهير الملوك والسلاطين، حسام أمير المؤمنين» ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل: «ولا زال عاليا قَدْرُه، نافذًا أمْرُه، جاريًا علىٰ الألْسِنة حمدُه وشُكْرُه. صدرت هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تُهْدِى له سَلَاما، وثَنَاءً بسَّاما» ثم يقال: «وتوضح لعلمه المبارَك كذا. ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدَّمَ أمره المبارك بكذا، فيُحيط علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنِّه وكرمه».

الدرجة السادسة

(صدرتْ والعالى، ويعبَّر عنها بالسامىّ بالياء)

وصورتها علىٰ ما فى "التثقيف": «صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العَضُدىّ، الذُّخرىّ، النَّصيرىّ، الأوحدىّ، العَوْنِىّ، الهامىّ، المقدّمىّ، الظهيرىّ، الفلانى؛ مجدِ الإسلام والمسلمين، شرفِ الأُمَراء المقدَّمين، نُصْرةِ الغُزَاة والمجاهدين، مقدَّمِ العساكر، ذُخْر الدوله، كَهْف الملة؛ ظهير الملوك والسلاطين» ثم الدعاء المناسب، مثل: «أدامَ الله سعادتَه، وأجزل من الخير بِرَّه وإفادَتَه، مُوضِّحةً لعلمه المبارَك كذا؛ ومرسومُنا للمجلس العالى أن يتقدّم بكذا، فيحيطُ علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنِّه وكرمه».

الدرجة السابعـــة

(صدرت والسامى ، و يعبر عنها بالسامى بغير ياء)

وصورتها : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامِى ، الأميرىّ ، الأجلّىّ ، الكبيرىّ ، العضدىّ ، الذُّخرىّ ، النِصيرِىّ ، الأوحدىّ ، الفلانىّ ؛ مجدِ الإسلام ، بَهَاء الأنام ، شَرَف الأمراء ، زين المجاهدين ، عضــد الملوك والسلاطين » ثم الدعاء مثل : «أدام الله سعادتَه ، وأجزل من الخير عادتَه ؛ تتضمَّن إعلامَه كذا ، ومرسومنا للمجلس السامى أن يتقدّمَ بكذا ، فلْيعلَمْ ذلك و يعتمده ، والله الموفِّق بمنِّه وكرمه» .

الدرجة الثـامنـــة

«يعلمُ مجلِس الأمير ، الأجلّ ، الكبير ، الغازى ، المجاهِد ، المؤيِّد ؛ فلان الدين ، مجد الإسلام ، بَهَاء الأنام ، شَرَف الأمراء ، زَيْن المجاهدين ، عُدّة الملوك والسلاطين» والدعاء ، مثل : « أدامَ الله سعدَه ، وأنجح قصْدَه ؛ أنَّ الأمر كذا ؛ ومرسومنا له أن يتقدّم بكذا ، فلْيعلَمْ ذلك و يعتَمِدْه ، والله الموفِّق بمنِّه وكرمه» .

قلت : وقد تقــدّم فى أوّل المكاتبات أنه يتعين أن يكون الدُّعاء للمكتوب إليــه مناسبا للحال ، مثل أن يكون موافقا لاسم المكتوب إليه أو لَقَبه أو وظيفته ، أو محلِّ نيابته ، أو الأمرِ المكتوب بسببه : من استطلاع أمر ، واستِزْهاف عَزْم ، وفَتْح وظَفَر و بشارة وغيرها وما يجرى مَجْرىٰ ذلك ، وتقــدّم هُنَاك ذكرُ جمــلة من الأدعية فى الأمور المختلفة المعانى .

ونحن نذكر هنا نُبْذة من الأدعيــة والتصديرات اللائقة المتقدّمة ، ممــا يُدْعىٰ به للنوّاب ومَنْ فى معناهم ؛ ليقرُبَ تناوُلُه باقترانه بصور المكاتبات » .

الأدعية والصـــدور لنوّاب الســـلطنة

أدعية تصلح للنائب الكافل

ولا زالتْ كَفَالَتُه تَبْسُط المَعْدَله ، وعزائمُه على الإنصافِ والإسعافِ مُشتَمِله ، وتقدماتُه تُبَلِّغ كلَّ ذى قَصْدٍ أمله . أصدرناها إلى المَقَرّ الكريم تُهْدِى إليه من السلام أكمَله، ومن الثناء الحَسَن أجزَلَه ، وتُبْدِى .

آخــر : ولا زالَتِ الممالكُ كلُّها فى كَفَالته ، والمَسالكُ على آختلاف طُرُقها آئلةً إلى إيالته ، والملائكُ محوّمةً على بنوده محتَفَّةً بِهالَتِه ، والأرائكُ لاتُثْنَى إلا على دَسْت فَخَاره ولا تُعَدّ إلا لجلالته . أصـدرناها إلى المَقَرّ الكريم تخصُّه بأفضـل السلام ، وأطيبِ الثناءِ المرقوم على أعلى الأعلام ، وتُبْدِى .

آخــر : ولا زالتْ كِفايةُ كَفَالته تزيدُ على الآمال ، وتتقرَّبُ إلى الله بصَلَاح الأعمـال ، وتكْفُل ما بين الجَنوب وأقصى الشَّمال . أصـدرناها إلى المَقَرّ الكريم وصـدْرُها بذِكْره منشرح ، وبِبِرّه فَرِح ، وبعُلُوّ قدره فى أيامنا الزاهرةِ يُسَرّ ويُؤَمَّل منه ما يَزِيد على أمل المُقْتَرِح ، وتبدى .

أدعيةٌ تصلُح لنائب الشام المحروس

و[لا زالت](١) الممالك [تؤيد] بعزمه ورأيه تأييدا ، والدول [تسدّد](١) بكفالته تسديدا و[تشيد](١) تشييدا . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُهْدِى إليه سلاما تضاعَفُ أجزاؤُه ، وثناءً يُبْهِج الخواطرَ سناؤُه ، وتُبدى لعلمه .

آخــر : ولا زالتِ النفوسُ بيُمْن كَفَالته فائقه ، والخواطِرُ فى محبّته متوافِقه ، والألسُنُ بشكر محاسنه ناطِقَه ، وقلوبُ الأعداء من بأسه ومَهَابته خافِقَه . أصدرناها

(١) الزيادة يقتضيها المقام لتمام الكلام .

إلى المَقَرّ الكريم تُهْدِى إليه أنواعَ السلام المتناسبةْ وأجناســه المتناسِقَه ، وتُثْنِي على أوصافه التى أصبَحَتِ الأفواهُ فى ذِكرها صادِقه ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت عزائمُه مُرْهَفَةَ الحَدّ ، وكَفَالتُه كفيلةً بُنجْح القَصْد ، ومَغَانِمُه فى سبيل الله تُعْرِب عن الاجتهاد فى قَهْر الأعداء والجِدّ . أصدرناها إلى المَقَرّ الكريم تُهْدِى إليه ســلاماً يفوقُ شَذَاه العَنْبَر والنَّـدّ ، وثناءً مجاوزا أبدًا الحَصْر وأمدًا العدّ ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت قلوبُ أهل الإيمـان من كَفَالته مؤتَلِفه ، وفِرَقُ أهل (١) من بأسه وخَوْفه مختَلِفه ، وأحوالُ أهـلِ العِنَاد بجميل تدبيرِه فى ٱســتطلاعها واضِحةً مُنْكشفه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُثْنِي على هِمَّته التى لم تَزل على المصالح معتَكِفَه ، وتُهْدِى إليه تحيةً شموسُها مشرقةٌ غيرُ منكَسِفه ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت سعادتُه بحكم الأقدار دائمه ، والمَعْدَلةُ بجميل حلمه وصائب رأيِه قائمه ، والعيونُ بيُمْن كَفَالته فى مِهَاد أَمْنِه نائمه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُهْدِى إليه تحيةً طيِّبة المَسْرىٰ ، وثناءً حَسُنَ وصفًا وطاب ذِكْرا ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولا زال النصرُ حِلْيَةَ أيامه ، وشامةَ شامِه ، وغَمــامةَ ما يحلِّق على بلده المُخْضَرّ منْ غمامِهْ . أصدرناها إلى المَقَرّ الكريم بسلامٍ لايَرْضىٰ حافرُ جوادِه الهلالَ نَعْلا ، ولا يَحْظىٰ به إلا بَلَدُه ونخص منه الشرفَ الأعلىٰ ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : وسقىٰ عهدُه العِهَاد ، وشفىٰ بعَـدْله العِبَاد ، وزانَ به حُسنَ بلده التى لم يُخْلَقْ مثْلُها فى البِلَاد ، وهى إرَمُ ذاتُ العِمَاد . أصدرناها إلى المقرّ الكريم بسلامٍ تُسَرُّ به النفوس ، ويطَوَّقُ به فضلُه الجامع وتتحلَّى به العَرُوس ، وتبدى لعلمه .

---

(١) بياض بالاصل ولعله الكفر .

آخـــر : ووقىٰ بسُور جُيُوشه الممتنعةِ ضررَ الضَّرَّاء، وكَسر بأسُود جُنودِه ذِئابَ الأعداء الضِّرَاء، وسبقَ دَهْماءَ الليل وشَهْباء النهار [وحمراءَ الشفَق](١) وصَفْراء الأصيل وشَـقْراء البَرْق بسابقتـه الخَضْراء . أصـدرناها إلىٰ المقرّ الكريم بسَلاَمٍ يملأُ حَدَق حدائقه نُورا، وقلْبَ عساكره سُرُورا .

أدعية وصـــــدور

(تصـــلُح لكلٍّ من النائب الكافـــل ، ونائب الشـام ، ومَنْ فى معناهمـا كالأتابك ونحوه)

دعاء من ذلك : ووَصَـل المسارّ بعِلْمه الذى لا يُنْكَر، وحِلْمه الذى يُشْكر، وحكمه الذى يأمُر بالمعروف ويَنْهىٰ عن المُنْكر . أصدرناها إلىٰ المقرّ الكريم بسلام يُسْرِع إليه ، وثناء يَرِدُ مِنّا عليه، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولا زالتِ الدُّوَلُ برأيه مُقْبِـلة السُّعود، مترقِّيةً فى الصُّـعود ، مملوءة الرِّحاب : تارةً تبعَثُ البُعوثَ وتارةً تفِد عليه الوفُود . أصـدرناها إلىٰ المَقرّ الكريم تُهْدِى إليه من السلام أشرقه نُجُوما، ومن الثناء أغْدقَه غُيُوما، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولازالت الممـالكُ بآرائه مُنيره ، و براياتِه لأعدائها وأعداءِ الله مُبِيره ، و برُؤْياه تتضاءلُ الشموسُ المُشْرِقة وتخجَلُ السُّحُب المَطِيره . أصـدرناها إلىٰ المقرّ الكريم تُهْدِى إليه من السلام دُرَره، ومن الثناء غُرَره، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولا برحتْ آراؤه كالنُّجوم بعيـدةَ المَدىٰ ، قريبـةَ الهُدىٰ ، متهلِّلة كالغمام : للأعداءِ منها الصَّواعقُ وللأولياء منها النَّدىٰ . أصدرناها إلىٰ المَقرّ الكريم بسلام حَسَن الافتتاح، وثناءٍ كما نَظْم الوِشَاح، وتبدى لعلمه الكريم .

(١) الزيادة من "التعريف"

آخـــر : ولا بَرِحتْ آراؤه تُنير غَياهِبَ الخُطُوب، وعزائمُه تُثِير سَنابِكَ الجِياد للجهاد فتظْفَر من التأييد بكلِّ مطلوب ، وصوارِمُه تَفْتِـك بالأعداء فتَهْتِك منهم كلَّ سِتْرٍ محجوب . أصدرناها إلى المَقرّ الكريم تُهْدِى إليه سلامًا أزهىٰ من الزَّهَر، وأبهىٰ من رَوْضٍ وافىٰ نَضارته النظَر ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولَا برِح التأييدُ يصْحَب رايته ، والعزم يَخْدُم عَزْمَتَه ، والرُّعب يَؤُمّ طليعته ، والظَّفَر يُحَكِّم فى العدوّ سيْفَه فلا يستَطِيعُ عاصى الحُصُون عِصْمتَه . أصدرناها إلىٰ المقرّ الكريم تُكافِي بمزيد الشُّكْر همَّتَـه ، وتُوافِي إليـه بثناءٍ وافٍ يحسُـدُ المسْكُ نَفْحَته ؛ وتنهى لعلمه .

آخـــر : ولا برِحتْ سـيُوفُه تَسِيل يوم الرَّوْع جداوِلُهـا ، وعزائمـه تُنْصر كتائبها وجحافِلُها ، ومنزلتُه علىٰ ممرّ الزمان بين السِّماكين منازِلُهـا . أصدرناها إلىٰ المقرّ الكريم تُثْنِي علىٰ محاسنه التى بَهرتْ أوصافُها ، وٱختالت فى مَلَابس الحمدِ أعطافُها ؛ وتبدى لعلمه .

أدعية وصـــــدور

(تصـلح لنائب حلب المحروســـة)

دعاء من ذلك : ولا زال يُعَـدّ ليومٍ تَشِيب منـه الوِلْدانُ ، ويُعِـدُّ دونه [كلُّ محارب][1] بيْنه وبين الشَّهباء والمَيْدان ، ويعُمُّ حَلَبَ من حِلىٰ أيامه مالا يُفْقَد معه إلا ٱسمُ ٱبن حَمْدان .

فإن كان لقبُه سيفَ الدين ، قيـل « ويعُمُّ حلبَ من حلىٰ أيامه مالا يُفْقَد معه سيفُ الدِّين إن فُقِدَ سيفُ الدولة بنُ حَمْدان . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب

---

(١) الزيادة من ''التعريف'' .

الكريم تُهْدى إليه سلامًا مامرّ على روض إلا آنتهب طِيبَه نَهْبا، وثناءً تُعقَد له أعلامُه على كتيبته الشَّهْبا، و توضِّح لعلمه» .

آخــر : وفَتح بسُيوفه الفتحَ الوَجيز، وأحلَّ عقائلَ المَعاقل منه في الكَنَف الحَرِيز، وأعادَ به رَوْنَق بلد ماجَفَّتْ بها زُبْدة حَلَبٍ وهو فيها العزيز . صدرت هذه المكاتبة إلى الجَناب الكريم بسلامٍ ذَهَبُه لايَذْهَب، وثناءٍ لاتصْلُح لغير عَقيلة الشهباء قلادةُ عنبره الأشْهَب، و توضِّح لعلمه الكريم .

آخــر : ولا زالت هِمَمُه مُطلَّة على النُّجوم في منازلها، مُطاولةً للبروق بمَنَاصِلها، قائمةً في مصالح الدوَلِ مَقَامَ جَحافِلها . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهْدى إليه سلامًا كالدُّرَر، وثناءً طويل الأوْضاحِ والغُرَر، وتبدى لعلمه .

آخــر : وأمدَّه بَعونه، وجَمَّله بصَوْنه، ولا زال رأيُه في النقيضين: لهذا سببَ فنائه ولهذا علَّة كَوْنه . صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب الكريم تُهْدى إليـه سلامًا رَطِيبا، وشُكْرا يكون على ماتُخفِى الصدورُ رَقِيبا، وتوضح لعلمه .

آخــر : وأعلى له من الأقدار قَـدْرا ، وضاعف لَدَيْه من لَدُنْه سُرورا وبِشْرا، ولا أعدمَ الممَـالكَ من عزائمه تأييدًا ونَصْرا . صدرت هـذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهْدى إليـه سلاما يفُوقُ الزَّهَر، ويسابِقُ في سَـيْره الشمسَ والقَمَر، وتبدى لعلمه .

آخــر : وخَصَّه بجميل المَنَاقب، ومنحه من المَزِيد عُلوَّ المَرَاتب، وضاعف لدَيْه من الإيثار شريفَ المَوَاهب . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريمِ تُهْدى إليه سلامًا كَرُم وُفودُه، وثناءً حَسُنَ وصفُه وعذُبَ وُرُوده، وتوضِّح لعلمه .

آخـــر : ولازالتِ الخواطرُ تَشهدُ منه صِدْقَ المحبّه ، والنفوسُ تتحقّق أنه قد جعل النصيحةَ لأيامنا الشريفة دَأْبه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهْدِى إليه سلاما زاكيةً أقسامُه ، وثناءً كُمَل عِقْدُه واتّسق نِظامُه ، وتوضح لعلمه الكريم .

آخـــر : وزاد عَزْمَه المباركَ تأييدا ، ومَنَح نِعمَه على ممرّ الأوقات مَزِيدا ، وجعل حظَّه من كلّ خير سَعِيدا ، وسعدَه بتجديد الأيام جَدِيدا . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهْدِى إليه تحيةً حسُنَ إهداؤُها إليه ، وثناء يُبْهِـج الخواطِر وُرُودُه عليه ، وتوضح لعلمه .

آخـــر : وجعل السعدَ المؤبّد من مَغَانمه ، وأقامه لإبقاء الخير فى معادِنِه وإثباتِ العزّ فى معالمه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهْدِى إليه تحيةً طاب نَشْرُها العاطر ، وثناءً أبهجَ ذِكْرُه الخاطر ، وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولا زال بالملائكة منصُورا ، و بمَزِيد النِّعم مَسْرورا ، وبكلّ لسانٍ موصوفًا مشكورا . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهْدِى إليه سلامًا يَضُوعُ نَشْرُه ، وثناءً يفُوح عِطْره ، وتوضح لعلمه .

دعاء وصـــــدر

(يصلح لنائب الســـلطنة بطرابُلُس)(١)

[وهو من هذه النِّسبة وما لايبعُد منها .

والدعاء مثل قولنا : وأطاب أيّامَه التى مارقّتْ على مثلها أسحار ، وعدّد فى مَنَاقبه العُـقولَ التى تَحَـار ، وأخذ بنواصى الأعداء بيـده لا تنأى بهـم البَرارِى المُقْفِرة ولا تحصّنُهم البِحار .

(١) ظهر من فحوى المقام أن هنا سقطا من قلم الناسخ . وقد تداركناه من "التعريف" ووضعناه بين قوسين هكذا [ ] تتميا للكلام فليتنبه .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام وفرت منه أسْهُمَه التى يدرأ بها العدا فى نحرها، وثناءٍ مُطْرِبٍ ترقُص به الخيلُ فى أعنّتها والسُّفُن فى بَحْرها .

دعاء آخر وصـــــدر

ولا زالتْ صفوفه تَشُدُّ بنيان الحرب، وسيوفه تعَدُّ للقتل وإن قيل للضرب، وسجُوفُه تُجَرُّ على بلد مامثله فى شرق ولا حصل على غير المسمّى منه غرب .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدِى إليه سلاما يزيد أُفُقَه تزيينا، وثناء يأتيه من فائق الدُّرّ بما يستهون معه بالمينا .

دعاء وصــــدر

(يصلح لنائب السلطنة بحماة)]

وأتمَّ بخِدَمه كلَّ مبَرّه، وبهِمَمه كلَّ مَسَرّه، وصانَ ماوليَه أن يكونَ به غيْرَ النهر «العاصى» أو يُنْسبَ إليه سوى البلد المعروف «معرّه» .

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى تُهْدِى إليه سلاما تُمْسَحُ أنديتُه بالسَّحائب، وثناءً يأتى به حِمَا حَمَاةَ وقرونُها المنشورةُ بألويته معقودةُ الذَّوائب .

[دعاء(١) آخر وصــــدر

وحمىٰ حَمَاه، وزان موكبه بأحسن حِمَاه، وحسَّن كائنَ سهامه التى لا يصلُح لها غيرُ بلده حَمَاه(١)] .

صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجَنَاب العالى تُهْدِى إليه سلامًا تحمِلُه إليه الركائبُ السائره، وثناءً تُشْرِق منه الكواكبُ أضعافَ ما تُرِيه أفلاكُ الدواليب الدائره؛ وتوضح لعلمه .

(١) ما بين هذين القوسين [ ] تداركناه من التعريف لينتظم به الكلام فليتأمل .

دعاء وصـــــدر

(يصـــلح لنـائب صَـــفَد)

وشَكَرِ هِمَمه التى وفتْ ، وعزَائمَـه التى كَفَتْ ، وأعلىٰ به بلَدا مُذْ وَلِيَـه قيل : صفَدُ قد صفتْ . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهْدِى إليـه سلاماً لا تَزال شـعائرهُ تُقام ، وثناءً مُذْ هَبَّ علىٰ بلده قيـل : إنَّ هواءَها يَشْفِى الأسقام ؛ وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولازالت مَسَاعيه تسوقُ إليه الحُظُوظَ [البَطِيَّة](١) وتقدِّمْ له العَلْياءَ مثلَ المطِيَّه ، وتَهَنِّيه بمـا خُصَّ به من صَـفَد وهى العَطِيـه ؛ [صـدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدِى إليه سلاما يحيِّيه فى محلِّه ، وثناءً يودع فى معْقلِه الذى لا تصل أعلىٰ الشوامخ إلا إلىٰ ماسفَل من ظلِّه](١) وتوضح لعلمه .

ادعية وصـــــــدور

(تصلُح لكلِّ من نُوَّاب طرابلُس وحماةَ وصَفَد ومَنْ فى معناهم)

دعاء وصدر من ذلك : ولا بَرِح منصـورَ العَزَمات ، مسـدَّدًا فى الآراء والحَركات ، مشيِّدا قواعدَ الممالك بمالَهُ من جميل التقدمات . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الباب العالى تُهْدِى إليه سلاما أرِجًا ، وثناءً بَهِجا ؛ وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولا زال سيفُه ماضِيا ، وجِيدُه حاليا ، وضِدُّه خاسيا . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجنـاب العالى تُهْدِى إليه سـلاما ، وتسـدِّد لرأيِهِ الصائبِ سِهاما ، وتوضح لعلمه .

---

(١) من التعريف .

آخـــر : ولا زالت آراؤُه سعيدَه ، وتأثيراتُه حَمِيده ، وسُـيوفُه لرقاب العِـدا مُبيده . صدرت هـذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى تُهْدِى إليه سلامًا يتأرَّج ، وثناءً نَشْره نَشْرُ الثوب المدبَّج ؛ وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولازالتْ آراؤه عاليه ، وأجيادُه حاليه ، ونِعَمُ الله عليه متواليه . صدرَتْ هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدى إليه السـلام التامّ ، والثناءَ الوافرَ الأقسام ؛ وتوضح لعلمه .

أدعية وصـــدور

(تصلح لنائب الكَرَك ومن فى معناه ممن رُتْبته المجلس العالى مع الدعاء)

دعاء من ذلك : وأيّد عزمَه ، وأبّد حَزْمه ، وفوّقَ إلى نحـر العِـدا سَهْمه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى تُهْدِى إليه سـلاما ، وتُسَدّد لرأيه الصائب سِهاما ، وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولا زال عاليا قدْرُه ، نافذا أمْرُه ، جاريًا على الألسنة حمدُه وشُكْرُه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى تُهْدِى إليه سلاما ، وثناءً بَسَّاما ، وتوضح لعلمه .

المَهْيَـــــع الثـانى

(فى بيـان مَرَاتب المكتوب إليهم من أهل المملكة ، وما يستحقه كلٌّ منهم من المكاتبات . وهم ثلاثة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(أرباب السيوف، وهم على ثلاثة أقسام)

القســــــم الأوّل

(من هو منهم بالديار المصرية ، وهم ستة أصـــناف)

الصـــــنف الأوّل

(نُوّاب السلطنة الشريفة، وهم أربعة نُوّاب)

الأوّل ـــ النـائب الكافل : وهو نائبُ السلطنة الشريفة بالحَضْرة . وقد تقدّم فى الكلام على المَسَالك والممـالك فى المَقَالة الثانية أنه أعلى نُوّاب السلطان رتبةً . قال فى "التثقيف" : وقلَّ أن يُكاتَب إلا إذا كان السلطان مسافرا فى غَزاةٍ أو سَرْحة للصـــيد .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" : أعزّ الله تعالى أنصار الجناب الكريم على ما تقدّم فى الدرجة الثانية من الدّرجات العَشْر(١) . قال فى "التعريف" : وقد رأيت بعضَ الكُتّاب قد كتب فى ألقابه بعـد الأميرىّ « الآمرىّ » . قال : والكاتب المذكور كاتبٌ صالحٌ فى المعرفة وليس بحجّة، وكتابته الآمِرِىّ ليست بشىء، وإنمـا حمله عليها كثرة المَلَق . وقد نقل فى "التعريف" عن هذا الكاتب أنه كتب

(١) لم يتقدم الاثنمـان فتنبه .

فى تعريفه « نائب السلطنة وكافل الممالك الشريفة الإسلامية » . قال : وهو مقبولٌ منه . ثم قال : والذى أراه أن يُجْمَع ذكر النيابة والكفالة فى تقليده، فيقال : « أن يُقَلَّد نِيابةَ السلطنة المعظَّمة ، وكفالةَ الممالك الشريفة الإسلامية » أو ما هذا معناه ، نحو : « وكفالة الممالك الشريفة : مِصْرا وشاما وسائر البلاد الإسلامية أو الممالك الإسلامية » ونحو ذلك .

فأما فى تعريف الكتب، فقد جرتْ عادة نُوّاب الشام أن تقتصر فى كُتُبها إليه علىٰ « كافل الممالك الإسلامية المحروسة » . قال : ولعَمْرى فى ذلك مَقْنَع وإنَّ فى الاقتصار عليها ما هو أكثرُ فَخَامة . وعليه عملُ أكثر الكُتَّاب بديوان مصر أيضا ، ويؤيِّده أنهم مقتصرون فيما يكتب باشارته علىٰ هذا التعريف، فاعلم ذلك .

ورسمُ المكاتبة إليه علىٰ ما استقر عليه الحالُ ، علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" : أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المَقَرّ الكريم، كما فى الدرجة الأُولىٰ من الدرجات العشر، والعلامة إليه «أخوه» . وتعريفه : «كافلُ الممالك الشريفةِ الإسلاميَّة أعلاها الله تعالىٰ» . قال فى "التثقيف" : وإنما كُتِب له أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقَرّ، وزيدت ألقابه علىٰ ما كانت عليه لَمَّا كُتِب بذلك لنائب الشام فى وِلَاية بيدمر الخُوارِزْمىّ ، وكافل المملكة يومئذ الأمير مَنْجَك ، فلزم أن يكتب له مثله لئلا يكونَ نائبُ الشام مميَّزا علىٰ كافل السلطنة، علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ مكاتبة نائب الشام .

قال فى "التعريف" : أما نائبُ الغَيْبة ، وهو الذى يُتْرَك إذا غاب السلطان والنائب الكافل وليس إلَّا لإخماد النَّوائر وخَلَاص الحقوق ، فحُكْمه كحكمه فى المكاتبة إليه .

الثانى — نائب ثَغْر الإسكندريةِ المحروسِ : وهو ممن ٱستُحِدثت نيابتهُ فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» عند طُرُوق العدوّ المخذول، فى سنة سبع وستين وسبعمائة من الفَرَنْج المخذولين .

ورسم المكاتبة إليه : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجَنَاب العالى، علىٰ ماتقدّم ذكره، إلا أنه لا يقال فى ألقابه « الكافلىّ» والعلامةُ الشريفة له « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس» .

واعلم أن بالإسكندرية حاجباً يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه : «هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلِس السامى» إن كان طبلخاناه، و « يعلَمُ مجلس الأمير » إن كان عشرةً، والعلامة الشريفة له الآسم بكل حال . وتعريفه «الحاجبُ بثغر الإسكندرية المحروس» .

الثالث — نائب الوجْه القبلى : وقد تقدّم أن مَقرّ ولايته مدينةُ أُسْيوطَ ، وأنّ ٱستحداثَ نيابته كان فى الدولة الظاهريّة «برقُوق» فى سنة ثمانين وسبعمائة .

ورسم المكاتبة إليه : « ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى » علىٰ ما تقدّم ذكره . ولا يقال فيه « الكافلىّ» أيضا ، والعلامة الشريفة « والده » وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوجه القبلى» .

الرابع — نائب الوَجْه البحرىّ : وقد تقدّم أن مَقرّ ولايته مدينة دَمَنْهور الوَحْش من أعمال البحيرة، وأن نيابتَه ٱستُحدثتْ بعد نيابة نائب الوجه القبلىّ، ولذلك لم يتعرّض له فى "التثقيف" .

ورسم المكاتبة إليه : «ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى » كما فى نائب الوجه القبلىّ . والعلامة الشريفة له «أخوه» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوَجْه البحرىّ» .

الصـــــنف الثـانى
(الكُشَّاف)

وقد تقدّم أنه كان قبـل ٱستِقْرار نيابَتِى الوجهين : القبلىّ والبحرىّ كاشـفان بالوجهين المذكورين : كاشفٌ بالوجه القبلىّ ، وكاشفٌ بالوجه البحرىّ .

فلمـا ٱستقرّ النيابتان ، ٱستقرّ بالفَيُّوم والبَهْنَساوية كاشفٌ ، وبالشرقيـة وما قاربها كاشفٌ ؛ وكل منهما أميرُ طبْلَخاناه .

ورسم المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما : « صدرتْ هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى » والعلامةُ لكلٍّ منهما الأسم الشريف ، وتعريف كاشف الفيوم « الكاشفُ بالفيُّوم والبهنساوية » وتعريف الآخر «الكاشف بالوجه البحرىّ» .

الصــــنف الثالث
(الوُلَاة بالوجهين : القبـــلى والبحرىّ)

وكلٌّ من وُلَاة الوجهين لا يخرج عن طبلخاناه أو عشرة وما فى معناها كالعشرين ونحوهـا .

فأما الوجهُ القبلى ، ففيه ستة وُلَاة ، منهم ثلاثة طبلخاناه : وهم والى قُوص وإخْمِيم . ووالى الأُشْمُونَيْنِ . ووالى البَهْنَسَا .

ومنهـم ثلاثةٌ عشرات : وهم والى الجِـيزِيَّة ، وكان قبل ذلك طَبْلَخاناه . ووالى إطْفِيح . ووالى مَنْفَلُوط . وكان قبل ذلك طبلخاناه ، وهو اليوم إمرةُ عشرين .

وأما الوجه البحرى ، ففيه سبعةُ ولاة : منهم ثلاثةٌ طبلخاناه . وهم والى الغربِيَّة . ووالى المَنُوفيَّة . ووالى الشَّرْقِيَّة . وكان بدمنهور والٍ طبلخاناه قبل ٱستقرارها نيابةً .

ومنهم أربعــةُ عشرات، وهم : والى قَلْيُوب . ووالى أُشْمُوم : وهى الدقَهْلِيَّــة والمُرْتاحِيَّة . ووالى دِمْياطَ . ووالى قَطْيَا .

ورسم المكاتبــة إلىٰ كلٍّ من ولاة الطبلخاناه منهم : « هــذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى » وإلىٰ كلٍّ من ولاة العشرات منهم « يعــلم مجلسُ الأمير» والعــلامة لكل من الطبلخاناه والعشرات الاسمُ الشريف، وتعريفُ كل منهم «والى فلانةَ» .

الصــــــنف الرابع

(من يتوجه من الأبواب السلطانية من الأمراء لبعض الأعمال المتقدّمة الذكر: لكَشْف الجسور وعمارتها أو لتخضير البلاد أو لقبض الغِلَال)

قال فى "التثقيف": فمن كان منهم طبلخاناه، فرسم المكاتبة إليه السامىّ بالياء . ومن كان منهم عشرة، فرسم المكاتبــة إليه السامى بغير ياء . والعلامةُ للجميع الاسم الشريف . قال : ولا تذكر الوظيفة التى توجّه بسببها، ولا الإقليم الذى هو به .

الصنف الخامس

(باقى الأمراء بالديار المِصْـــريّة)

وقد رتّبهم فى "التعريف" علىٰ أربع مراتبَ :

المرتبة الأولىٰ ــ مقدّمو الأُلُوف، وقد ذكر أنّ لكبارهم أسوةَ كبار النُّوّاب بالممالك الشامية، كالشام وحَلَبَ . ولأوسطهم [أسوةَ أوسطهم][1] كحَماةَ وطرابُلُس وصَفَد .

(١) الزيادة من "التعريف"، وهى ساقطة من قلم الناسخ .

ولأصغرهم أسوة أصغَرِهم، كَعَزَّة وحِمْصَ . ثم قال : فاعلم ذلك وقِسْ عليه . ثم قال بعد ذلك : والذى نقوله أن لكبار المقـدّمين بالأبواب السلطانية «الجَنَاب الكريم» [ثم الجناب العالى](١) ثم « المجلس العالى » . وهـذا علىٰ ما كان فى زمانه؛ أما علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحالُ آخرًا ، فإنه يكون لِكبَارهم « المَقَرّ الكريم» كما يُكْتَب للأتابك الآنَ ، ثم « الجناب الكريم » ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى» .

المرتبة الثانية — الطَّبْلَخانات . قد ذكر أن منهم من يُكْتَب له «المجلس العالى» كمن يكون معيَّنا للتَّقْـدِمة ، وله عدَّة ثمـانين فارسًا أو سبعين فارسا أو نحو ذلك ، وكالمقرَّبين من الخـاصِكِيَّة ، أو مَنْ له عَرَاقـةُ نَسَب كبقَايَا المـلوك ، أو أرباب وظائفَ جليلة : كحاجبٍ كبير ، أو إستَدَّار جليل ، أومدَبِّر دولة لم يصَرَّح له بالوزارة ، أودَوادار متصرِّف . ثم قال : وهؤلاء وإن كُتِب لهم بالمجلس العالى ، فإنه يكتب لهم بغير ٱفتتاح بالدعاء ، والكتابة لهم بالعالى علىٰ سبيل العرض لا الٱستحقاق ، وإلا فأجَلّ رسم مكاتبةِ أمراء الطبلخاناه «السامىّ» بالياء وجمهورهم «السامى» بغير ياء .

المرتبـة الثالثة — العشرات . وذَكَر أن لكل منهم «مجلس الأمير» ، ثم قال : فإن زِيد قدرُ أحدٍ لسببٍ مّا ، كتب له « المجلس السامى » بغير الياء .

المرتبـة الرابعة — مقدّمو الجُنْد . وقد ذكر أن لهم أُسْوَةَ أمراء العشرات فى المكاتبة . ثم قال : وأما الجُنْد ، فالأمير الأجَلّ . وأما جُنْد الأمراء فالطَّوَاشى . وكأنه يريد ما إذا كُتِب بسببهم مكاتبةٌ أوكُتِب لأحد منهم توقيع ، وإلا فالجنـد لا يكاتَبُ أحدٌ منهم عن الأبواب السلطانية حتّى ولا نُوّاب القِلَاع بالشام ، كما سيأتى ذكره هناك إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) الزيادة من "التعريف" .

الصـــنف السادس
(العُرْبان بالديار المصرية وبَرْقــة)

وقد تقدّم الكلامُ عليـه مستوفًى فى الكلام علىٰ أنساب العرب ، فيما يحتاجُ إليه الكاتب فى المقالة الأولىٰ . وقد ذكر فى "التعريف" أن العرب بمصر فى الوجهين القبلىّ والبحرىّ جماعاتٌ كثيرةٌ وشعوبٌ وقبائلُ . ثم قال : ولكنهم علىٰ كثرة أموالهم وٱتساع نطق جماعاتهم (١)، ليسوا عند السلطان فى الذّرْوة ولا السَّنام، إذ كانوا أهل حاضرةٍ وزَرْع، ليس منهم من يُنْجِد ولا يُتْهِم، ولا يُعرِق ولا يُشْئِم، ولا يخرجون عن حدود الجُدْران، وعلىٰ كل حال * فالمَنْدُل الرطب فى أرجائه حَطَب * .

ثم قد قَسَّم منازلهم إلىٰ الوجه القبلىّ والوجه البحرى، وذكر أن بكل من الوجهين مَنْ يكاتَب عن الأبواب السلطانية .

فأما عرب الوجه البَحْرىّ فعلىٰ ضربين :

الضـــرب الأوّل
(عرب البُحَيْرة)

قال فى "التعريف": وأمراؤهم عربُ الديارِ المصرية . قال : وهم أشبهُ القوم بالتخَلُّق بخَلَائق العرب فى الحَلّ والتَّرْحال، يُغْرِبون إلىٰ القَيْرَوان وقابِس، ويَفِدُون علىٰ الحضرة السلطانية وُفودَ أمثالهم من أُمَراء العرب . وذكر أن الإمرة فيهم فى زمانه، كانت فى محمد بن أبى سـليمان وفائد بن مقـدّم . وقال : إنّ رسم المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما : « هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى ، الأمير» والعلامة السلطانية « أخوه» ولم يتعرّض لتعريفهما، والذى يظهر أن تعريف كلٍّ منهما ٱسمه .

---

(١) فى الاصل : أبدالهم، وهو تصحيف والتصحيح من "التعريف" .

أما بعده ، فقد تغيَّرت تلك الأحوال ، وتناقصَتْ رتبـةُ عرب البُحَيرة ، وزالت الإمرةُ عنهم ، ولم يبقَ فيهم إلا مشاع عربان ذوو أموال جَمَّة ، كان منهم فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» رِحَاب ، وموسىٰ بن خَضِر ، وأولاد بَدْران الغَرِينى ، ومن جرىٰ مجراهم ، ثم صار اليوم بها (١) بن رِحَاب ، وخضر بن موسىٰ .

الضـــرب الثـانى
(عربُ الشَّرْقية)

وقد ذكر فى "التعريف" : أنه كان فى زمانه منهـم نَجْم بن هجل شـيخ عائد . وذكر أنه دون محمَّد بن أبى سليمان وفائد بن مقدّم : أميرَىْ عرب البُحَيرة . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه : «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى الأمير» .

قلت : ثم تغيرتِ الأحوالُ بعـد ذلك وصارت رياسةُ عرب الشرقية متداوَلةً فى جماعة ، إلىٰ أن كان منهم فى الدولة الظاهرية «برقوق» محمد بن عيسىٰ أمير (١) وأولادهم ، وكانت الإمرة فيهم أوّلا فى (١) ثم قُتِل بسيف السلطان فى الدولة الناصرية «فرج بن برقوق» وآستقرّ مكانه (٢)

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين .

* * *

وأما عرب الوجه القبليّ ، فقــد ذكر فى "التعريف" أنه كان منهم فى زمانه نَفَران : أحدُهما ناصر الدين عُمَرُ بن فَضْل . وذكر أنّ رسم المكاتبة إليه «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى» أيضا . وثانيهما سَمُرة بن مالك . قال : وهو ذو عَدَد جَمٍّ ، وشوكةٍ مُنْكِية ، يغزو الحبشة وأُمَمَ السُّودان ، ويأتى بالنِّهاب والسَّبَايا ؛ وله أثرٌ محمود ، وفعل مأثور . وفد علىٰ السلطان وأكرم مَثْواه ، وعُقِد له لواءٌ وشُرِّف بالتشريف ، وقُلِّد ذلك ، وكتب إلىٰ وُلَاة الوجه القبــليّ عن آخرهم وسائرِ العُرْبان به بمساعدته ومُعاضَــدَته ، والركوب للغَزْو معه متىٰ أراد . وكتب له منشورٌ بما يفتح من البِلاد ، وتقليدٌ بإمرة العُرْبان القبلية مما يلى قُوص إلىٰ حيثُ تصــل غايتُه . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه "السامى الأمير" كمن تقدّم .

قلت : ثم كان بعــد ذلك عدد من أمراء العربان ، كانــ آخِرَهم أبو بكر بن الأحدب . ثم لمــا آنتقلت هوّارة إلىٰ الوجه القبلى ، صارت الإمرةُ فيهم فى الصعيد الأدنىٰ ، فى بنى غَرِيب ، وأميرهم الآن (١) وفى الصعيد الأعلىٰ فى بنى عُمَر ، وأميرهم محمد بن عمر ، ورسم المكاتبة إلىٰ كل منهما (٢)

---

(١) بياض بالاصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين . والظاهر أنه بيض لهذا كما بيض لمــا قبله آنتظارا لوضع مثال المكاتبة الجارية فى زمانه فآخترمته المنية قبل أن يثبت مرغوبه ويدرك مطلوبه .

وأما عرب بَرْقة ، فقد ذكر فى "التعريف" أنه لم يبقَ منهم فى زمانه مَنْ يكاتَب إلا جَعْفرُ بنُ عمر، وأنه كان لايزال بين طاعةٍ وعِصْيان، ومخاشَنة ولِيان؛ وأن أمراء عرب البُحيرة كانتْ تُغْرِى به، وتغيّر خاطر السلطان عليه، وأنّ الجيوشَ كانت تمتدّ إليه، وقلّ أن ظَفِرتْ منه بطائل ، أو رجعت بمَغْنَم إن أصابتْه نوبةٌ من الدّهر . وكان آخِرَ أمره أنه ركب طريقَ الْواحِ حتّى خرج من الفيُّوم، وطرقَ بابَ السلطان لائذًا بالعفو، ولم يَسْبِق به خَبَر، ولم يعلم السلطانُ به حتّى آستأذن المستأذنُ عليه وهو فى جملة الوُقُوف بالباب؛ فأُكْرِم أتمَّ الكرامة، وشُرِّف بأجل التشاريف، وأقام مدّةً فى قِرىٰ الإحسان وإحسان القِرىٰ . وأهلُه لايعلمون بما جرىٰ، ولا يعرفون أينَ يَمَّ، ولا أىّ جهةٍ نَحَا ، حتّى أتتهم وافدات البشائر. وقال له السلطان : لأىّ شىءٍ ماأعلمتَ أهلَك بقصدك إلينا؟ قال : خِفتُ أن يقولوا : يَفْتِك بك السلطان، فأتثبَّط . فآستحسن قولَه، وأفاض عليه طَوْلَه، ثم أعيد إلىٰ أهله، فانقلب بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسَسْه سوء، ولا رَثىٰ له صاحب، ولا شَمِت به عَدُو .

النـــــوع الثـانى

(ممن يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية أربابُ الأقلام، وهـــم علىٰ ضربيـــن :)

الضرب الأوّل

(أرباب الدّواوينِ من الوُزَراء ومَنْ فى معناهم)

قال فى "التعريف" ولم تزل مكاتبةُ أجلّاء الوزراء بـ«المجلس العالى» . ثم كتب لآخرهم بالديار المصرية « الجنـاب العالى » . وكُتِبت بالشام للصاحب عزّ الدين

أبى يعلىٰ، حمزةَ بنِ القلاقسىّ(١) رحمه الله، لجَلَالة قَدْره، وسابقة خِدَمه، وعنايةِ مَنْ كتب إليه بها. ثم قال: والذى ٱستقرّ عليه الحال للوزير بمصر «الجَنَاب». أما من يَجرِى مَجْرىٰ الوُزراء ولا صريحَ له بهـا : مثل ناظر الخاصّ، وكاتب السِّر، وناظر الجيش، وناظر الدَّوْلة، وكُتَّاب الدَّسْت، فـ«السامىّ» بالياء، ومَنْ دون هؤلاء فبغير ياء، ثم «مجلس القاضى أوالصَّدْر».

قلت : وكأنه يريد ألقـاب هؤلاء فى الجُمْلة، إما فى مكاتبةٍ تكتب بسبب أحد منهم، وإما فى توقيع ونحوه يكتب لأحدهم؛ وإلا فَمَنْ ذكره من الأصاغر لايكاتَبُ عن الأبواب السلطانية عادةً. والذى صرح فى "التثقيف" بذكر المكاتبة إليه من هذا الضرب نفران :

الأول — كاتب السرّ إذا تخلَّف عن الرِّكاب السلطانىّ لعارض. وذكر أن رسم المكاتبة إليه : «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى» علىٰ ما تقدّم ذكره، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحبُ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة».

الثانى — ناظرالخاصّ الشريف. وذكَرَ أن رسم المكاتبة إليه علىٰ ماٱستقرّ عليه الحال فى أيّام ٱبن نقولا «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى» علىٰ ما تقدّم ذكره، والعلامة «الاسم» وتعريفه «ناظر الخواصّ الشريفة».

قلت : ولم يتعرَّض لمكاتبة الوزير، إنما ذكر ألقابه فى الألقاب العامَّة مما يكتب فى الولايات وغيرها، ولا يُستغنىٰ عن ذكر المكاتبة إليه؛ وقد تقدّم فى كلام صاحب "التعريف" أن الذى ٱستقر عليه الحال فى المكاتبة إليه «الجناب العالى» ولم يعيِّن صورة الدعاء له. والذى ذكره فى "التثقيف" فى ألقـابه أن الدعاء له «ضاعف الله

(١) فى "التعريف" القلانسى.

تعالىٰ نعمته » وحينئذ فتكون المكاتبة إليه إن كتب إليــه « ضاعف الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» بالألقاب السابقة .

الضرب الثـانى

(أرباب الوظائف الدينية والعلمـاء)

قد ذكر فى ”التعريف“ أن كلًّا من قُضاة القضــاة بمصر يكتب له « المجلس العالى» والمحتَسِب بها يكْتَب له ب«السامىّ» بالياء، ومَنْ دونَهم من أرباب الوظائف الدينية وبقية العلماء وأكابرهم ب«السامى» بغير ياء ، ومَنْ دونَهم « مجلس القاضى » او «الشيخ» بحسَبِ مايليق به . وكأنه يريد مطلقَ الألقاب كما تقدّم فى غيره، وإلا فهؤلاء لايكاتَبُون عن الأبواب السلطانية. ولم يذكر فى ”التثقيف“ مكاتبةً لأحد من أرباب الوظائف الدينية سوىٰ قاضى القُضاة تاج الدين الإخْنائى المـالكى، وقد حَجَّ فى سنة سبع وستين وسبعمائة فى الدولة الناصرية «حسن» ، جواباً عمـا ورد منه، وكتب له الدعاء و« المجلس العالى » . والعلامة الآسم . قال : وأما قاضى القضاة عزُّ الدين بن جمـاعةَ فإنه كان يُحُجُّ ويجاور كثيرا ، ولكنى لم أره كتب له قَطّ ، وأنا شاكٌّ فى أمره .

قلت : رأيت فى ”إيقاظ المتغَفِّل“ لآبن المتوَّج ، أنه كتب إليــه وهو مجاور بمكة : « أعز الله تعالىٰ أحكامَ المجلس العالى » ولم يتعرّض للعلامة ، والظاهر أن العلامة له « أخوه » ، ويكون التعريف « قاضى القضاةِ الشافعيــة أو المـالكية بالديار المصرية » .

النـــــــوع الثـالث

(ممن يُكاتَب عن الأبواب السلطانية ممَّن بالديار المصريَّة الخُوَنْدات السلطانية : من زوجات السلطان وأقاربِه ممن تَدْعُو الضرورةُ إلىٰ مكاتبته لسَفَره أو لسَــفَر السلطان)

وقد ذكر في "التثقيف" منهنَّ جماعةً، نذكرهنَّ ليكُنَّ أُنْموذَجا لمن يكون فى معناهُنَّ .

الأولىٰ ــ ابنة المقام الشريف الشهيد الناصريّ «محمد بن قلاوون» لَمَّـا كانت بحلَبَ مع زوجها أبى بكر بن أرْغُون ، كتب إليها ما صورته : « الذى يحيط به علمُ الحُرْمة الشريفــة ، العاليةِ، المصونةِ، الوَلَدية، عصمةِ الدين، جلالِ النساءِ، شَرَف الخَوَاتين، سليلةِ الملوك والسلاطين، ضاعفَ الله تعالىٰ جَلَالها» والعلامة «والدها» وتعريفها «الدار السيفيَّة بحلَب» والأسطر متقاربة كالملطف .

الثانيــة ــ طُغَاى زوجة المقــام الشريف الناصريّ المشار إليــه، المعروفة بأمّ أنوك ، كتب إليها لـمـا توجَّهت إلىٰ الحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجهةِ الشريفة، العاليةِ، المعظَّمةِ، المحجَّبة، المَصُونة الكبرىٰ خُوَنْد خاتون، جلال النساء فى العالمين، سيدةِ الخَوَاتين، قرينةِ الملوك والسلاطين» . ثم الدعاء، والعلامة الاسم الشريف ، وتعريفها «والدة المقرّ الكريم الولديّ السيفيّ أنوك» : والأسطر علىٰ ما تقدّم فى المكاتبة السابقة .

الثالثــة ــ أخت المقام الشريف النـاصر حسن جهةِ الامير طاز، كتب لهـا لما كانت بالحجاز الشريف : «ضاعفَ الله تعالىٰ جَلَالَ الجهة الشريفة العالية الكريمة المحجَّبة المصُونة الكبرىٰ الخاتون، جَلَال النساء فى العالمين، جميلة المحجَّبات، جليلة المَصُونات، كريمة الملوك والسلاطين، والعلامة «أخوها» .

الرابعة — الحاجَّة السِّتّ حَدَق . كُتِب لها وهى بالحجاز الشريف عن الناصر حسن : «ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجهة الشريفة العالية الكبيرية المحجَّبية المصُونية الحاجِّيَّة الوالدية ، جلال النساء فى العالمين ، بركةِ الدولة ، والدةِ الملوك والسلاطين» . ثم الدعاء والعلامة الاْسم الشريف ، وتعريفها «الحاجَّة ست حدق» .

الخامسة — والدة السلطان الملك الأشرف « شعبان بن حسين » . كتب إليها عند توجُّهها للحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجهة الشريفة » . ثم قال : وقد كنت أنكرت ذلك : لأنه كان يعظمها كثيرا ويقبل يديها غالبا ، فكان يمكن أن يُكْتَب لها بتقبيل اليد .

قلت : وصورة المكاتبة علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير : «ضاعف اللهُ تعالىٰ جلالَ حِجَاب الجهة الشريفة العالية الكبرىٰ ، المعظَّمة المحجَّبة العِصْمىّ الخاتُونىّ ، جلال النساء فى العالمين ، سيدةِ الخواتين ، جميلة المحجَّبات ، جليلة المَصُونات ، والدة الملوك والسلاطين » ثم الدعاء ، وكانت الكتابة لها فى ورق دِمَشْقىّ فى قطع الفَرْخة بالطول كاملةً بقلم الثلث الخفيف أو التوقيع .

القســـــم الثـانى
(مَنْ يكاتَب بالمـالك الشامية، وهم أربعة أنواع)

النـــوع الأوّل
(أربابُ السيوف من النوّاب الكُفَّال وأتباعهم، وهى ثمـانُ نيابات)

النيـــابة الأولىٰ
(نيابة دِمَشْق، المعبَّرُ عنها فى عُرْف الزمان بالمملكة الشامية)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية ضربان :

الضرب الأوّل
(مَنْ بمدينة دِمشـــقَ، وهم ثلاثة)

الأوّل ـــ كافلُ السلطنة بها، وهو من أكابر مقدَّمى الألوف . وكان رسم المكاتبة إليه علىٰ ما أورده المَقَر الشِّهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" : «أعز الله تعالىٰ نُصرةَ الجناب الكريم» . قال فى " التثقيف " : ولم تزل المكاتبةُ إليه كذلك من بعد الدولة الشَّهِيدية الناصرية محمد بن قلاوون إلىٰ آخر سنة خمس وسبعين وسبعمائة، وٱستقرّ الأميرُ بيدمر الخُوارِزْمى نائبَ السلطنة بها فى ولايته الثالثة، فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» فاستقرّ رسم المكاتبة إليه : «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم» علىٰ الرسم المتقـدّم، والعلامة الشريفة إليه «أخوه» وتعريفه «نائب الســلطنة الشريفـة بالشام المحروس» . قال فى " التثقيف " : «أو كافل المملكة الشاميـة المحروسة» ولا يقال فى نُعُوته : كافل السلطنة .

الثانى — نائب قلعة دِمَشْق . ورسْمُ المكاتبة إليه « صــدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العــالى» علىٰ ماتقدّم رسمه . والعلامة « والده » . قال فى ”التثقيف“ : ثم آستقرّت المكاتبة إليه « السامىّ » بالياء : لأنه طبلخاناه ، والعلامة الشريفة له الآسم . وتعريفه « نائب القلعة المنصورة بدمشق المحروسة » .

الثالث — حاجب الحُجّاب بها . ورسم المكاتبة إليــه : « أدام الله تعــالىٰ نعمةَ المجلس العالى » علىٰ ما تقــدّم رسْمُه ، والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه «أمير حاجب بالشام المحروس» .

الضــــرب الثــانى

(مَنْ بأعمال دمشق من نُوّاب المُدُن والقِلَاع ،وهم خمسة نوّاب)

الأوّل — نائب حِمْص ، قال فى ”التثقيف“ : كان يكتَبُ إليــه نظير نائب الكَرَك ، يعنى « أدام الله تعالىٰ نعــمةَ المجلس العالى» والعلامة الشريفة له «والده» لَمَّــا كان من مقــدّمى الألوف بالشام ، ثم آستقرّ من أمراء الطبلخاناه ، وآستقرّت مكاتبته « صــدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى» فيما أظن؛ وقد تقدّم رسمها . والعلامة الشريفة له الآسم الشريف، وتعريفه «النائب بحمص المحروسة» .

الثــانى — نائب الرَّحْبة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المَسَالك والممــالك أنه كان من حقّها أن تكون من مضافات حَلَب . ورسم المكاتبة إليه « صــدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى» علىٰ ماتقدّم رسْمُه . والعلامة الشريفة له «والده» وتعريفه «النائب بالرَّحْبة» .

الثـالث — نائبُ بَعْلَبَـكّ . قال فى "التثقيف" إن كان من أمراء الطبلخاناه فمكاتبته «صـدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى» والعلامة له الآسم الشريف . وإن كان من العَشَرات ، فالمكاتبةُ إليـه « يعلَمُ مجلسُ الأمير » والعـلامة له الآسم الشريف وتعريفه « النائب ببَعْلَبَكّ المحروسة » .

الرابع — نائب مِصْياف . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المَسَالك والممالك أنها كانتْ مُضافةً إلىٰ طرابُلُس فى جمـلة قِلاع الدَّعْوة، ثم آسـتقرّت فى مُضافاتِ الشـام . ورسم المكاتبـة إليه « هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس السـامى » والعلامة الشريفة له الآسم الشريف .

الخـامس — نائب القُـدْس الشريف . وهو ممن آستُحدِثتْ نيابتُـه فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » فى سـنة سبع وسبعين وسبعمائة ، وكانت قبل ذلك ولايةً وهو طبلخاناه، وربما أُضيف إليه نظَرُ الحرمين : حَرَم القُدْس، وحَرَم الخليل عليه السلام . ورسم المكاتبة إليه « صـدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى» . والعلامة « والده » وتعريفه «النائب بالقُدْس الشريف» .

قال فى "التثقيف" : وكان قد آستقرّ بأماكن تُذْكَر من البلاد الشامية نُوّاب، وآستقرّت مكاتبةُ كلٍّ منهم : إن كان مقـدّما « صدرتْ » و « العالى » والعلامة « والده » . وإن كان طبلخاناه « السامىّ » بالياء والعلامة الآسم الشريف . وهى تَدْمُر، والسُّخْنةُ ، والقَرْيتان ، وسَلَمْيَـةُ . قال : ثم بطل ذلك . ثم قال : ومن النُّوّاب بالقلاع الشاميَّة جمـاعةٌ لم تجرِ لهم عادةٌ بمكاتبة عن المواقف الشريفة ، ولا تصدُر ولايتُهم من الأبواب الشريفة، بل نائبُ الشام مستقلٌّ بذلك. وهم، نائب عَجْلُونَ، ونائب صَرْخَد ، ونائب الصُّبَيْبَة، ونائب شَقِيف أَرْنُون .

قال : وممن كُتِب إليه أيضا وليس بنائب ولا والٍ جمالُ الدين يوسفُ شاه الأتابك بِصْياف فى سنة أربع وسبعين وسبعمائة علىٰ يَدِ نافِع بن بَدْران . ورسم ما كتب به إليه «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى» وكُتِب فى ألقابه «الأتابِكِىّ» وكتب تعريفُه «يُوسُف شاه الأتابك» . قال : والظاهر أن العلامة «والده» .

النيابة الثانية

(نيابة حَلَب)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية أيضا علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(مَنْ بمدينة حَلَبَ ، وهم ثلاثة)

الأوّل — النائبُ بها . وهو من أكابر مقدَّمى الأُلُوف . ورسم المكاتبة إليه « أعزّ الله تعالىٰ نُصْرةَ الجناب الكريم » علىٰ ما تقدّم رسمُه . والعلامةُ الشريفة له «أخوه» وتعريفه «نائب السَّلْطنة الشريفة بحلب المحروسة» .

الثانى — نائب القَلْعة بها . ورسمُ المكاتبة إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» علىٰ ما تقدّم رسمه . والعلامة له الاسم الشريف . وتعريفُه «نائب القلعة المنصورة بحَلَبَ المحروسة» .

الثالث — حاجب الحُجّاب بها . ورسم المكاتبة إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى» . والعلامة «والده» وتعريفُه «أمير حاجب بحلَبَ المحروسة» .

الضـــــرب الثـانى

(مَنْ بأعمال حَلَبَ من النوّاب ، وهم أحد وعشرون نائبا)

الأوّل — نائب الْبِيرةِ . ورسم المكاتبة إليـه « المجلس العـالى » . والعلامة الشريفة «والده» وتعريفه «النائب بِالْبِيرة المحروسة» .

الثـانى — نائبُ قلعةِ المسلمين المعروفةِ بقلعة الرُّوم . ورسم المكاتبة إليـه والعلامة كذلك(١) . وتعريفه «النائب بقلعة المسلمين المحروسة» .

الثـالث — نائب مَلَطْيَةَ(٢) . ورسمُ المكاتبة إليه والعلامةُ الشريفة كذلك، وتعريفه «النائب بمَلَطْيَةَ المحروسة» .

الرابـع — نائب طَرَسُوس . ورسمُ المكاتبة إليه « صـدرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى» والعلامة «والده» وتعريفه «النائب بطَرَسُوسَ» .

الخامس — نائب أَذَنَةَ . ورسم المكاتبة إليـه والعلامة له كذلك ، وتعريفـه «النائب بأَذَنَةَ المحروسةِ» .

السادس — نائب الأَبُلُسْتَيْنِ . ورسمُ المكاتبة إليه والعلامة الشريفةُ له كذلك، وتعريفه « النائب بالأَبُلُسْتَيْنِ المحروسةِ » .

السابـع — نائب بَهَسْنَىٰ . ورسم المكاتبة إليه « صــدرَتْ هـذه المكاتبة إلى المجلس السامِى » والعلامة له « والده » وتعريفه « النائب ببَهَسْنَىٰ المحروسةِ » .

قال فى "التثقيف" : ولم يُعَلَّم لأحد من أرباب السيوف قديمًا « والدُه » مع «السامىّ» بالياء غيره .

---

(١) أى «المجلس العالى» و «والده» مثل الذى قبله .

(٢) صوابه بهذا الضبط قال فى المعجم « والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء » . وقال فى القاموس « وتشديده لحن » .

الثامن — نائب آيَاس (١) . وهو المعبَّر عنه بنائب الفتوحات الجَاهَانِيَّة . قال فى "التثقيف" : إن كان مقدّما فالمكاتبةُ إليه بنسبة مكاتبة نائب البِيرةِ ، فيكون رسم المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى» والعلامة «والدُه» . وإن كان طبلخاناه فيكون «صدَرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامِى» والعلامة الآسم ، وتعريفه بكل حال «النائب بآيَاس (١) » أو «النائب بالفُتُوحات الجاهانِيَّة المحروسة» .

التاسع — نائب جَعْبَر . ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" «هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» والعلامة الآسم ، وتعريفُه «النائب بقلعة جَعْبَر المحروسة» .

العاشر — نائب عَيْنتاب . ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما فى "التثقيف" «يعلَمُ مجلسُ الأمير» والعلامةُ الآسم ، وتعريفُه «النائب بعَيْنتاب المحروسة» .

قال فى "التثقيف" : ورأيت بخطِّ القاضى ناصرِ الدين بن النَّشائى أن مكاتبته الآسمُ و«السامى» بغير ياء . ثم قال : وما تقدّم هو ما آستقرّ عليه الحالُ آخرا . قال : وقد يكون ذلك لأنه كان بها أميرُ طبلخاناه ، وتعريفه «النائب بعَيْنتابَ» .

الحادى عشر — نائب دَرَنْدَة . قال فى "التثقيف" : إن كان طَبْلَخاناه فـ«السامِى» بغير ياء ، وإن كان عشرةً فـ«مجْلِس الأمير» والعلامةُ الآسمُ بكل حالٍ ، وتعريفه «النائب بدَرَنْدَة» .

الثانى عَشَر — نائب القُصَيْر . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «يعلَمُ مجلِسُ الأمير» والعلامة الآسمُ ، وتعريفه «النائب بالقُصَيْر» .

(١) تقدم للؤلف فى ص ١٣٣ ج ٤ أن قال بفتح الهمزة الممدودة . وقال صاحب القاموس «كسحاب» .

الثـالث عشر — نائب الرَّاوَنْدان . ورسم المكاتبة إليه كمثل نائب القُصَيْر، وتعريفه « النائب بالرَّاوَنْدانِ » .

الرابع عشر — نائب الرُّهَا . قال فى "التثقيف" : جرتِ العادةُ أن يكون نائبُها طَبْلَخاناه، فتكون مكاتبته « السامى » بغـير ياء، والعلامة الاسم . ثم قال : وقد استقرّ فى الأيام المنصوريّة فى سنة ثمـان وسبعين وسبعمائة مقـدَّمَ ألف، فقد يكتب إليـه نظير نائب البِيرة وقلعـةِ المسلمين، يعنى فتكون مكاتبته «صـدرتْ» و « العالى » . والعلامة « والدُه » وتعريفه بكل حال « النائب بالرُّهَا » .

الخامس عشر — نائب شَيْزَر . قد ذكر فى "التثقيف" أن مكاتبته «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس الســامى» فتكون العلامة الاسم، وتعريفه « النائب بشَيْزَر » .

السادس عشر — نائب كَرْكَر . ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التثقيف" « يعلم مجلِسُ الأمير» فتكون العلامة الاسم، وتعريفُه « النائب بكَرْكَرَ» .

الســابع عشر — نائب الكَخْتا . ورسم المكاتبة إليه كذلك، وتعريفه « النائب بالكَخْتَا » .

الثـامن عشر — نائب بغْرَاسَ . ورسم المكاتبة إليه كذلك، وتعريفه « النائب ببغْرَاس » .

التـاسع عشر — نائب الشُّغْر وبَكَاسَ . ورسم المكاتبة إليـه كذلك، وتعريفه « النائب بالشُّغْر وبَكَاس » .

العشرون — نائب الدَّرْبَسَاك . ورسم المكاتبة إليـه كذلك، وتعريفـه « النائب بالدَّرْبَساك » .

الحادى والعشرون — نائب إسفَنْدَكار . ذكر فى "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه كذلك . ثم قال فى "التثقيف" لكنِّى رأيتُ بخط القاضى ناصرِالدين بن النَّشائى أن مكاتبته الآسم و «السامى» بغير ياء، يعنى «هـذه المكاتبة إلى المجلس السامِى» . قال : وما يبعُدُ أنه كان إذ ذاك طبلخاناه . والمستقِر عليه الحال ما تقدّم .

قلت : وقد ذكر فى "التثقيف" ستَّ قِلَاع آستجدّتْ مكاتبةُ نُوّابها بعد ذلك ، ولم يذكر رسم المكاتبة إليهم : وهم نائب حَجَر شُغْلان ، ونائب كُومى ، ونائب قلعة كَوْلاك ، ونائب قلعة بَارِى كَرُوكَ ، آستجدّت مكاتبته فى سنة ستين وسبعمِائة، ونائب قلعة كاوَرَّا ، آستجدّت مكاتبتُه فى سنة تسع وستين وسبعمائة ، ونائب كِرْزَالَ ، آستجدّت مكاتبتُه فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة . ولم يذكر رسم المكاتبة إليهم . والذى يظْهَر أن رسم المكاتبة إلى كل منهم «يعلَمُ مجلسُ الأمير» والعلامة الآسم، والتعريف «النائب بفُلانةَ» . وحينئذ فيكون المكاتَبُون من نوّاب أعمال حلب سبعةً وعشرين نائبا .

النيابة الثالثة

(نيابة طرابُلُس)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية أيضا على ضربين :

الضرب الأوّل

(من بمدينة طرابُلُس ، وهم آثنان)

الأوّل — نائبُ السلطنةِ بها، ورسمُ المكاتبة إليه : «ضاعف اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى» على الرسم المتقدّم . والعلامة «والده» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بطرابُلُس المحروسة» .

الثانى — الحاجب بطَرَابُلُس . ورسم المكاتبة إليه « صدرتْ » و« العالى » . والعلامة «والدُه» وتعريفـه «امير حاجب بطرابُلُس المحروسة» . وليس بطرابُلُسَ قلعة فيكتب إلىٰ نائبها .

الضـــرب الثـانى
(مَنْ بأعمـال طرابُلُس من النوّاب، وهم صنفان)

الصــــنف الأوّل
(نُوّاب قِلاع نَفْس طرابُلُس، وهم سبعة نُوّاب)

الأوّل — نائب اللّاذِقيَّة . ورسم المكاتبة إليه « السامى » بغير ياء . والعلامة الاسم ، وتعريفه « النائب باللّاذِقيَّة » .

الثـانى — نائبُ صَهْيُون . ورسم المكاتبة إليه « يعلم مجلس الأمير » . والعلامة الاسمُ ، وتعريفه « النائب بصَهْيُونَ » .

الثـالث — نائب حِصْن الأكْرادِ . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب بحِصْن الأكْرادِ » .

الرابـع — نائب بَلَاطُنُسَ . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب ببَلَاطُنُس » .

الخامس — نائب المَرْقَب . ورسم المكاتبة إليه كذلك .

السادس — نائب حِصْـنِ عَكَّار . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب بحصن عكّار » .

الصّنف الثانى
(نُوَّاب قلاع الدَّعْوة المضافة إلىٰ طرابُلُس)

وهى : قِلاعُ الإسماعيلية الذين يُسَمُّون أنفسهم بأصحاب الدعوة الهادِيَّة . وكانت سبعَ قلاع فأضيفَتْ مِصْيافُ منها إلىٰ دِمَشْقَ علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك ؛ وبقى من مُضافات طرابُلُس ستُّ قلاع ، وهى الكَهْف ، والمَيْنَقةُ ، والعُلَّيقة ، والقَدْمُوس ، والخَوَابى ، والرُّصَافة . ومكاتبة كلٍّ منهم «يعلم مجلسُ الأمير» والعلامة الاسمُ . وتعريف كلٍّ منهم «النائبُ بفلانة» .

النيابة الرابعة
(نيابة حَمَاةَ)

والمكاتَبُون بها ضربٌ واحد بمدينة حماةَ خاصَّةً ، وهما اثنان :

الأوّل — نائبُ السلطنة بها . وقد تقدّم فى أوائل هذا الطَّرَف أنها كانت بيد بَقايَا بنى أيُّوبَ ، يطلَقُ عليهم فيها لفظ السلطنة ، يتولَّوْنها من ملوك مصر إلى أن كان آخِرَهم الأفضلُ محمد بن المؤيَّد عمادِ الدين إسماعيل فى الدولة الناصرية محمد ابن قلاوون ، ثم صارت نيابةً بعد ذلك يتداولها النوّاب نائباً بعد نائبٍ . ورسم المكاتبة إلىٰ نائبها « ضاعف الله تعالى نعمةَ الجناب العالى » والعلامة « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفةِ بحماةَ المحروسة » .

الثانى — الحاجب بها . ورسم المكاتبة إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى » . والعلامة الاسمُ ، وتعريفه « الحاجب بحماةَ المحروسة » .

قال فى "التثقيف" : ولم يكن بهـا قلعـةٌ فيُكْتَب إلىٰ نائبها . قلت : وليس بأعمالها نوابٌ فيكتب إليهم إنمـا بها وُلاةٌ يكاتَبُون عن نُوابها .

النيـابة الخامســـة
(نيابة صَــفَدَ)

والمكاتبون بها ضَرْبٌ واحد أيضا، وهم مَنْ بالمدينة خاصَّةً وهم ثلاثة :

الأوّل — نائبُ السلطنةِ بها . ورسمُ المكاتبة إليـه «ضـاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى» . والعلامة «والدُه» . وتعريفه «نائب السلطنةِ الشريفةِ بصَــفَدَ المحروســةِ» .

الثانى — الحاجبُ بها . ورسم المكاتبة إليـه « صــدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» . والعلامةُ الاسمُ . وتعريفُه «الحاجب بصَفَدَ المحروسةِ» .

الثالث — نائبُ القلعةِ بها . ورسم المكاتبـة إليه « هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» . والعلامةُ الاسم . وتعريفه «نائب القلعة المنصورةِ بصفَدَ المحروسة» .

قلت : ولم يكن بأعمالهـا نُوّاب فيكاتَبُون عن الأبواب السلطانية، بل بهـا وُلاةٌ يكاتَبُون عن نائبها خاصّةً كما تقدّم فى حَمَاةَ .

النيابة السادسة
(نيابة غَزَّةَ)

والمكاتَبُون بها أيضا ضربٌ واحدٌ، وهم مَنْ بالمدينة خاصَّةً ، وهما آثنان :

الأوّل — النائبُ بها . وقد تقدّم فى الكلام على المَسَالك والممالك أنه إن آجتمع له البلادُ الساحليَّة والجبليَّة ، عُبِّر عنـه بنائب السلطنةِ ؛ وإن قُصِرَ أمرُه على البلاد الساحلية فقط ، عُبِّر عنه بمَقَدَّم العسكر وكان تحتَ أمرِ نائب دِمَشْقَ . وبكل حال فإنّ رسم المكاتبـة إليه « أدام الله تعالى نعمةَ الجناب العالى» والعلامة «والدُه» . ثم إن أضيف له الجهتان قيل فى تعريفه « مقدّم العسكر المنصور بغَزَّةَ » .

الثـانى — الحاجب بها . ورسم المكاتبة إليه «يعلم مجلسُ الأمير» . والعلامة الآسم ، وتعريفه «الحاجبُ بغزَّة المحروسة» .

قلت : وليس بعَمَلها نُوّاب ، بل وُلاةٌ يكاتَبُون عن نائبها أو مقدّمِ العسكر بها . إلا أنه قد آستُحْدِث فى أواخر الدولة الظاهرية « برقوق » مكاتبةُ كاشـف الرَّمْلة ، وآستقرّت مكاتبته « صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى» . والعلامة الآسم ، وتعريفه «الكاشف بالرَّمْلة» .

النيابة السابعة
(نيابة الكَرَك)

والمكاتَبُون بها مَنْ بالمدينة خاصَّةً، وهما آثنان:

الأوّل — نائبُ السلطنة بها . ورسم المكاتبة إليـه «أدامَ الله تعالى نعمةَ المجلس العالى» . والعلامةُ والده» ، وتعريفه «نائبُ السلطنة الشريفة بالكَرَك» .

الثانى — والِى القلعــةِ بها . ورسمُ المكاتبــة إليه « هــذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى » . والعلامة الاسمُ ، وتعريفه «والِى القلعةِ المنصورة بالكَرَك المحروس» .

قلت : ولم يكن بها حاجبٌ يكاتَبُ ولا بأعمالهـا نُوّاب، بل وُلاةٌ يكاتَبُون عن النائب بها خاصّةً .

النيـابة الثامنـــــة
(نيـابة سِيسَ)

وقد تقــدّم فى الكلام علىٰ المَسَالك والممـالك أنها ممـا آسـتجَدّ فتحُه فىالدولة الأشرفية « شـعبان بن حسين » . وقد ذكر فى "التثقيف" أن مكاتبةَ النائب بها كانتْ «ضـاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى» كنائب طرابُلُس ومَنْ فىمعناه . ثم قال : وقد صَحّ لى بعد هــذا أنه آستقرّتْ مكاتبتُه نظيرَ غَزَّةَ . وهى « أدام الله تعـالىٰ نعمةَ الجناب العالى » . والعلامة حينئـذ « والدُه » ، وتعريفه « مقــدَّم العســكر المنصور بغزة » (١) وما ذكَره آخرًا هو المسـتقرّ عليه الحـالُ إلىٰ آخروقت . قال فى "التثقيف" : ولم أطّلِـع علىٰ مكاتبة الحاجِب بها . ثم قال : وما يبعُدُ أن يكون «مجْلس الأمير» لأنه فيما أظنّ أميرُ عَشَرة . قال : وإن كان طبلخاناه، فالاسم و«السامى» بغيرياء إن كتب إليه . ولم يكن بها نائبُ قلعة كما ذكره فى الكلام علىٰ نُوّاب القِلَاع .

قلت : وهنا أمران أشار إليهما فى "التثقيف" ينبغى التَّنَبُّــه لهما .

---

(١) لعلها بسيس لأن الكلام فيها .

أحدهما — أن القاعدةَ فيمَنْ عدا أكابِرَ النوّاب : كنُوّاب القِلاع والحجاب ونحوهم أنَّ المكتوبَ إليه إن كان مقدّما فـ«والده» و «صدرت» و «العالى» . وإن كان طبلخاناه فالاسم و «السامى» بغير ياء . وإن كان عشرةً ، فالاسم و «مجلس الأمير» . وحينئذ فلا يتوقف مع المكاتبات السابقة ، بل يُنْظَر مَنْ هو مستقرّ فى ذلك الوقت ويكتَبُ إليه بما تقتضيه رتبَتُه ، فإنه تارةً تكون عادةُ تلك النيابة طبلخاناه ثم تستقرّ عشرةً وبالعكس ، وتارة تكون طبْلَخاناه يستقِرّ فيها مقدّمُ ألف وبالعكس . والعبرة فى ذلك بحال مَنْ هو مستقرٌّ حالَ الكتابة ، خلا ماهو مستقِرّ من قديم الزمان لايتغيَّر مثل مكاتبة نائب بَهَسْنىٰ ونحوه .

وثانيهما — أنَّ نائب السلطنة بِدمَشْق ، ونائب السلطنة بحَلَبَ ، ونائب السلطنة بطرابُلُس ، ونائب السلطنة بحَمَاةَ ، ونائب السلطنة بصَفَد ، ونائب السلطنة أو مقدّم العسكر بغَزَّة ، ونائب السلطنة بالكَرَك ، ونائب السلطنة بالقُدُس الشريف يكتب إليهم فى جليلِ كلِّ أمر وحقيره من المهمات السلطانية وخَلَاص الحقوق وغيرها .

أما من عداهم من نُوّاب القلاع والنُّوّاب الصغار الذين بأعمال هذه الممالك والحُجّاب ، فإنه لا يكتب إليهم إلا فى المهمّات والأمور السلطانية : إما فى مثالٍ شريف مفردٍ لأحدهم ، أو فى مطْلَق شريفٍ عامّ لجميعهم أو لبعضهم ، وكذلك فى البُشْرىٰ بوفاء النيل ، فإنه يكتب إلىٰ كلِّ واحد منهم مثالٌ بمفرده ، خلا الحُجّاب فإنه لا يكتب إليهم بذلك .

النـــــــوع الثـانى
(ممّن يكاتَبُ بالممـالك الشاميَّة أربابُ الأقلام، وهم صنفان)

الصـــــنفُ الأوّل
(أربابُ الوظائف الدِّيوانيـــة)

والذى يكاتَبُ منهم بالبلاد الشامية الوزيرُ بدِمَشْق، أو ناظرُ النُّظّار القائمُ مَقامه، حيث لم يُصَرّح له بالوِزَارة .

أما الوزير بدِمَشْــق، فقد ذكر فى "التعريف" أنه كُتِب للصاحب عِزّ الدين أبى يعلىٰ حمزةَ بن القلاقسىّ(١) « الجَنَـاب » لجلالة قدره، وسابقة خِدَمه، وعنـاية مَنْ كَتَب إليه بذلك، وأن الذى آستقرّ عليه الحال للوزير بالشام « المجلس العالى » بالدعاء . كما كُتِبَ للصاحب « امين الدين(٢) » أمينِ الملك فى وزارته فى الأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » «ضـاعف اللهُ تعالىٰ نعمة المجلس العالى، القاضى، الوزيرىّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، الأوحدىّ، القَوَامىّ، النظامىّ، المدبِّرىّ، المـاجدىّ، الأثِيرىّ، المشِيرىّ، الفلانىّ؛ صلاح الإسلام والمسلمين، سيِّد الوزراء فى العالمين، رئيس الأمراء، كبير الرؤساء، بقيّة الأصحاب، مَلاذِ الكُتّاب، عِمَـاد المُلْك، خالصة الدوله، مُشِير الملوك والسلاطين، ولىّ أمير المؤمنين» . والدعاء، ثم « صدرَتْ » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه « مدبِّر الممـالك الشريفةِ بالشام المحروس » .

قال : ولم يكتب لأحد بذلك بعدَهُ ولا قبْلَه . ثم قال: وآستقرّ فى الدولة الناصرية حَسَنٍ، الصاحبُ فخرُ الدين بن قروينـــة وزيرًا بالشام أيضا علىٰ قاعدة جَدّه لأُمِّه، أمين الدين المذكور. ولم أعلم ما كُوتِب به : هل كما كُتِب لجدّه المذكور أودُونَه؟ .

(١) فى "التعريف" القلانسىّ .   (٢) ساقط من "التعريف" ولعله من الناسخ .

وأما ناظر النظار، فقد ذكر فى "التثقيف" أن المكاتَبة إليه «حرس الله تعالىٰ مَجْدَ المجلس العالى ، القضائِىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الكاملىّ ، الأوحدىّ ، الرئيسىّ ، الأَثيرىّ ، القَوَامىّ ، النِّظامىّ ، المنفِّذىّ ، المتصرِّفىّ ، العلَّامِىّ ؛ مجدِالإسلام والمسلمين ، سيِّد الرؤساء فى العالَمين ، أوحدِ الفضلاء ، جلال الكُبَراء ، حُجَّةالكُتَّاب ، صفوةِ الملوك والسلاطين ، خالصةِ أمير المؤمنين» . والدعاء ثم «صدرَتْ» . والعلامة الاسم ، وتعريفُه «ناظر النُّظَّار بالشام المحروس» .

قال فى "التثقيف" : وهذا هو الذى استقرّ عليه الحال إلىٰ آخرِ وقت .

الصـــــنف الثـانى
(القضاةُ والعلمـاءُ)

قد ذكر فى "التعريف" : أن المكاتبةَ لقاضى القُضَاة الشافعىّ بالشام بـ«المجلس العالى» ولم يذكُر صورتها . قال فى "التثقيف" : والذى كُوتِب به الشيخُ تقىُّ الدين السُّبْكىّ رحمه الله ، وهو قاضِى القُضاة بالشام : «أعزَّ الله تعالىٰ أحكامَ المجلس العالى ، القاضَوِىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الأفضلىّ ، الأكملىّ ، الأوحدِىّ ، البلِيغىّ ، الفَرِيدىّ ، المُفِيدِىّ ، التَّجِيدىّ ، القُدْوِىّ ، الحُجِّىّ ، المحققىّ ، الإمامىّ ، الأَصِيلىّ ، الموفَّقىّ ، الحاكِمىّ ، الفلانىّ ؛ جمـالِ الإسلام والمسلمين ، شرفِ العلماء العامِلين ، أوحدِ الفضلاء المُفِيدين ، قُدوةِ البلغاء ، حجّة الأمة ، عُمْدة المحدّثين ، فخر المدرِّسين ، مُفتِى المسـلمين ، جلالِ الحُكَّام ، حَكَم الملوك والسلاطين ، وَلىّ أمير المؤمنين » . والدعاء ثم «صدرَتْ هذه المكاتبةُ» . والعلامة «أخوه» . وتعريفُه «قاضى القضاة بالشام المحروس» .

ثم ذكر فيما بعدُ أنه كان يُكْتَب فى نُعُوته : «صدْرُ الشام، معِزُّ السنة، مؤيِّد المِلَّة» قال فى "التثقيف" وكانت مكاتبتُـه « شمسُ الشريعة ، رئيسُ الأصحاب، لسانُ المتكلمين » ، ولم يعيِّن مكانَها . قال : وكُتِب بذلك إلىٰ ولده قاضى القُضاة تاج الدين السبكىّ ، وهو قاضى القضاة بالشام غيْرَ مرَّة . ثم زيد فى ألقابِ أخيه الشيخ بهاء الدين عند ٱستقراره فى القضاء بالشام مكانَهُ بعد القاضوىّ « الشَّيْخىّ» وبعد المحقِّقىّ « الوَرَعِىّ ، الخاشِعىّ ، الناسِكىّ ، الإِمامىّ ، العَلَّامىّ ، الأَصِيلىّ ، العَرِيقىّ » . وزِيدفى تعريفه بعد جَلَال الحكام « بَرَكَةُ الدولة » .

النــــوع الثـالث
(ممن يكاتَب بالبلاد الشاميــة العُرْبان)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ أنساب العَرَب فى المقالة الأولىٰ، فيما يحتاجُ إليه الكاتبُ أنَّ عرب الشام عِدّةُ بطون من عِدّة قبائل . وقد قال فى "التعريف" : إنهم جُلُّ القوم وعينُ الناس، لاعِنايةَ للملوك إلا بهم، ولا مُبالاةَ بغيرهم .

ونحن نذكر هنا ما يتعلّق بالمكاتبات إلىٰ أُمَرائِهم ومشايخِهم خاصَّةً .

البطن الأوّل
(آلُ فَضْــل من آل رَبيعــةَ)

وقد تقدّم أنهم من طَيِّئ ، من كَهْلانَ ، من العاربة . قال فى "التعريف" : وآلُ فضْل منهم هُمُ الذين فى نَحْر العدُوّ، ولهم العَديدُ الأكثر، والمالُ الأوْفَر . قال : وقد صاروا الآنَ أهـلَ بيتين : بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ ، و بيت فَضْل بن عِيسىٰ .

قال : وهم فى جِوَار الفُرَات . ولذلك يُضاعَف إكرامُهــم ، وتُوَفَّر لهم الإقطاعاتُ وتُسْنَىٰ . والإمرةُ الآنَ منهــم فى بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ . وهو المعبَّر عنــه بأمير آل فضل . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان فى زمانه قارا بن مهنا، ثم كان فى الدولة الظاهرية «برقوق» محمدنعير بن حيار بن مُهَنَّا بن [عيسى بن مُهَنَّا(١) بن ماتــع بن حَدِيثَة آبن عُقْبَة بن فَضْل بن رَبِيعة] ، ثم آســتقرّ بعده فى الدولة الناصرية «فرج» آبنه العجل ، وهو المستقرّ إلىٰ الآنَ .

قال فى "التعريف" : ورسمُ المكاتبــةِ إلىٰ الأمير منهم «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرِىّ» بألقابٍ جليــلةٍ معظَّمة مفخَّمة . وذكر فى "التثقيف" أنّ رسم المكاتبة إليــه «أدامَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العالِى، المجاهدىّ، المؤيِّدىّ، الأوحدى، النصيرىّ، العَوْنىّ، الهُمَامىّ، المقدَّمىّ، الظهيرىّ، الأصيلىّ، الفلانىّ، عزِّ الإســلام والمسلمين، شرفِ أُمَراء العُرْبان فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، مقدَّم العساكر، كَهْف المِلَّة، ذُخْر الدولة، عمــاد العَرَب، ظهيرِ الملوك والســلاطين، حُسامِ أمير المؤمنيــن» . ثم الدعاء و«صدرَتْ هذه المكاتبةُ» . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «فُلَان بن فلان» .

قال فى "التعريف" أما من هو نظيرُه أو مُدانِيه وعَدَتْه الإمرةُ، فرسمُ المكاتبة إليه : «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى» ومَن دونه «السامىّ الأميرىّ» . قال : ولكلِّ هؤلاء العلامةُ الشريفة «أخوه» ولمَنْ دون هؤلاء «السامى الأمير» والعلامة الشريفة الآسمُ الشريف .

وقد ذكر فى "التثقيف" أسمــاءَ جماعةٍ من أكابر بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ، وبيت فَضْل بن عيسىٰ وذكر لكل منهم رسمَ مكاتبة .

---

(١) بياض بالأصل . والتصحيح مما تقدم للؤلف فى ج ٤ من هذا المطبوع ص ٢٠٨ .

فأما بيت مهنا المذكور، فهم خمسة :

الأوّل منهم — عَسَّافُ بن مُهَنَّا . ورسم المكاتبة إليه : «هــذه المكاتبةُ إلى المجلس السامي، الأميرِ، الأجلّ، الكبير، الغـازى، المجـاهِد، المؤيَّد، الأوحد، الأصيل؛ فلان الدين، مجدِ الإسلام، بهَاءِ الأنام، فَخْر القبائل، زَيْن العشائر، عماد الملوك والسلاطين» والدعاء ثم «صدرَتْ» والعلامة «والده» وتعريفه آسمه .

الثـانى — عَنْقَاء بنُ مهَنَّا أخو عَسَّاف . مثله فى المكاتبة على السواء .

الثالث — زامِلُ بن مُوسىٰ بن مُهَنَّا ، «صــدرتْ» و«السامى» . والعــلامة «والده» وتعريفه آسمهُ .

الرابع — محمد بن حيار بن مهنا : وهو نُعَيْر، مثل عَمَّيه: عَسَّاف وعَنْقاء .

الخامس — علىُّ بنُ سليمان بن مُهَنَّا . ذكر أنه كان يكاتَبُ بـ«السامىّ» بالياء . والعلامة الآسم . وذكر أنَّ أخاه عَوَّادا لم يُعْلَمْ أنه كُوتِب عن الأبواب السلطانية .

*
* *

وأمَّا بيتُ فضل، فذكر منهم مُعَيْقِل بن فَضْــل ، وقال : إن رسمَ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامة «والدُه» . ثم قال : ولم يكاتَب الآنَ من بَنى فَضْــل غيره، فإن أخويه : سَيْفًا وأبا بكر كانا يُكاتبانِ عن الأبواب الشريفة ، ثم تُوُفِّيَا إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، ولم يَبْقَ من أكابر بنى فضــل غيْرُه هو وأولاد أخَوَيْه ، لكنهم لم يكاتَبُوا بشىء . فإن آتفق أن يكاتب أحدٌ من أولاد أخويه المذكورَيْنِ أو من أولاد مُهَنَّا ، مثل أولاد فَيَّاض ، وبقيــة أولاد حيار ورُمَيثة بن عُمَر بن موسىٰ ونحوهم ، فأعلاهم الآسم و«السامى» بغير ياء، وأدناهم الآسم و«مجلسُ الأميرِ» .

البطن الثانى
(آلُ مِرا)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ أنساب العرب فيما يحتاج إليه الكاتب، فى المقالة الأُولىٰ، أنَّ مِرَا وفضلًا أخوان . قال فى "التعريف" : ومنازلهم بلاد حَوْران . وقد ذكر فى " التثقيف " أن الإمرةَ فى زمانه كانت مقسومةً نصفين بين عَنْقاء بن شَطىٰ آبن عمْرو بن نُونة ، وعَمِّه فضل بن عمرو بن نونة . ثم قال : ومكاتبةُ كلٍّ منهما «صدرتْ» و«السامى» . والعلامة «والدُه» وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الثالث
(آلُ علىٍّ)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الأنساب أنهم من آلِ فضل . قال فى "التعريف" : وإنما نَزَلُوا غُوطةَ دمشقَ حيثُ صارت الإمرةُ إلىٰ عيسىٰ بن مُهَنَّا ، وبقى عيسىٰ جارَ الفُرات فى تَلَابِيب التَّتَار . قال فى " التعريف " : ورسم المكاتبة إلىٰ أميرهم « صدرتْ هذه المكاتَبةُ إلىٰ المجلس السامىّ الأميرىّ » . والعلامةُ الشريفة « أخُوه » . وقد ذكر فى " التثقيف " أن أميرهم فى زمانه كان عيسىٰ بنَ رَمْلَة بن جَمَّاز . وقال : إن رسم المكاتبة إليه كما ذكر فى " التعريف " وهى : «صدرَتْ» و«السامى» لكنه ذكر أن العلامة «والده» . وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الرابــع
(بنو مَهْـدِىٍّ)

وقد تقـدّمَ فى الكلام علىٰ الأنساب أنَّ منازلهم البَلْقاءُ من مُضافات دِمَشْـقَ . قال فى "التعريف" : والإمرةُ فيهم فى أربعة، رسمُ المكاتبةِ إلىٰ كلٍّ منهم «مجلس الأمير» . وذكر فى "التثقيف" أنها كانت فى زمانه باسم بدرو بن ذؤيب(١) بن سعيد آبن محفُوظ العقيسى، وسعيد بن نجـرى(٢) بن حسن العقيسى، وزامِل بن عُبَيـد بن محفوظ العقيسى، ومحمد بن عَبَّاس بن قاسم بن محمد بن راشد العسرى . وأن مكاتبة كل منهــم « مجلس الأمير » كما تقدّم فى "التعريف" . ثم قال : ومَنْ كان معه نصفُ الإمرة منهم، كانتْ مكاتبتُه الأسم و «السامى» بغير ياء، وتعريفُ كلٍّ منهم «فلان بن فلان» .

البطن الخامس
(بنو عُقْبَــةَ)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الأنساب أن مَرْجِعَهم إلىٰ جُذَام، وأنَّ منازلهم الكَرَك والشَّوْبك . قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إلىٰ أميرهم مثلُ أميرِ آلِ مِرَا . وكذلك رسم المكاتبة إلىٰ أقاربه كرَسْم المكاتبة إلىٰ أقارب أميرآلِ مِرَا أيضا؛ فتكونُ مكاتبة أميرهم «صدرتْ » و «السامى» . ومكاتبة أعيان أقارِبِه « السامى الأمير » ولِمَنْ دُونَهم «مجلس الأمير» . وقد ذكر فى "التثقيف" أن إمرتهم فى زمانه كانت باسم خاطر بن أحمد بن شَطىٰ بن عبيد . وذكر أن رسم المكاتبة إليــه الأسم و «السامىّ» بالياء، وتعريفه «فلان بن فلان» ولم يتعرّض لأقربائه .

---

(١) فى ج ٤ ص ٢١٣ من هذا المطبوع «آبن ذئب بن محفوظ العنبسى» و يظهر أنها هى الصواب .

(٢) الذى تقدّم هناك «بجرى» بالباء والجاء .

البطن السادس
(جَــرْم)

وقد تقــدّمَ فى الأنساب أن مَرْجِعَهم إلىٰ طَيِّئ ، وأن منازلهم ببلاد غَزَّةَ . وقد ذكر فى "التعريف" أن إمْرتَهُم فى زمانه كانت بٱسم فَضْل بن حجيّ (١) . وذكر أن رسم المكاتبة إليه « مجلس الأمير » . والذى ذكره فى "التثقيف" أنّ لهم مُقدَّما لا أميرًا ، وأنه كان فى زمانه علىّ بن فضــل . وذكر أن رسم المكاتبة إليــه الأسم و « السامِى » بغير ياء . وهــذا عَجَبٌ فإنه إذا كان أميرا ورسمُ المكاتبة اليه « مجلس الأمير» فكيف يكون رسمُ المكاتبة إليه « السامِىَ » بغير ياء وهو مقــدّم ، والإمارة فوقَ التَّقْدمة بلا ريب .

قال فى "التعريف" : وأما بقيَّة عربِ الشام ، نحو زُبَيْد المَرْج ، وزُبَيْد حَوْرانَ ، وخالِدُ حِمْص ، والمَشَارقة ، وغَزِيَّة إذا أطاعوا ، وزُبَيْــد الأحلاف ، فأجلُّ كبرائهم وأشياخهم من يُكْتَب له «مجلس الأمير» . وذكر فى "التثقيف" نحوه ، ثم قال : هذا إن ٱنفرد أحد منهم بالمكاتَبة ، وإلا فالعادة أن يُكْتَب لكلِّ طائفــة من هؤلاء مطْلَقٌ شريف . ثم قال : علىٰ أنه لم تجر العادةُ بمكاتبــةِ أحدٍ من هؤلاء القبائل ، لاعلىٰ الأنفراد ولا علىٰ الأجتماع . وهــذا كلام متناقض ، حيث يقول : إنَّ العادة أن يُكْتَب لكل طائفةٍ منهم مطْلَقٌ شريف ، ثم يقول : إن العادة لم تَجْرِ بمكاتبــة أحدٍ منهم لاعلىٰ الأنفراد ولا علىٰ الاجتماع .

قلت : وقد تقــدّم الكلام علىٰ أنساب (٢) جميع هــذه البُطُون وأما كِنها مستوفًى فى الكلام علىٰ الأنســاب فى المقالة الأولىٰ . ووقع بَسْطُ الكلام علىٰ ذلك وغــيره فى كتابنا المسمَّى "نهاية الأَرَب فى معرفة قبائل العرب" .

---

(١) الذى فى التعريف "حمى" ولكنها وردت فى نسختنا فى مواضع كثيرة "حجى" كما هنا . انظرج ٤ ص ٢١١ ، وكذلك وردت فى الضوء للؤلف أُنظر ص ٣٢١ . (٢) تقدم فى ج ٤ من هذا المطبوع .

النـــــوع الثـالث
(ممن يكاتَبُ بالممـالك الشاميّة، التُّرْكُمان)

قد تقـدّم ذكرُ نَسَبِ التُّرْكمان فى الكلام علىٰ أنساب الأُمَم فى المقـالة الأولىٰ . وقد ذكر فى "التثقيف" أن التُّرْكُمان بهذه المملكة طوائفُ كثيرةٌ، وجماعة كبيرة . ثم قال: وغالبُهم لا يكتَبُ إليه إلا إذا ضمَّهم مطلَقٌ شريف . فإن كتب إلىٰ أحد من أعيانهم، كتب إليـه الاسم و«السامى» بغيرياء إن كان طبلخاناه؛ وإن كان عشرةً أو عشرين ، كتب إليـه الاسمُ و«مجلس الأمير» لا غيرُ، ثم أخلىٰ بياضا متّسِـعا ولم يصرّح باسم أحد منهـم . ثم ذكر فى الكلام علىٰ تُرْكُمانـ البلاد الشرقية عِدّةَ طوائف ، عدّ منهم الأوسرية ، وقال : هم تُرْكُمان حَلَبَ، والورسق . وقال : وهم تُرْكُمان طَرَسُوس ، ولم يتعرّض لمواضِع غيرهم . وسيأتى كلامُه مستوفًى عند الكلام علىٰ تُرْكُمان البلاد الشرقية إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الرابع
(ممن يكاتَبُ بالممـالك الشامية الأكرادُ)

وقد تقـدّم ذكر نَسَبهم فى الكلام علىٰ أنساب الأمم فى المقالة الأولىٰ . وقد ذكر فى "التثقيف" أن بهذه المملكة منهم طوائفَ كثيرةً كالتُّرْكُمان، وأنَّ غالبهم لا يكتب إليه إلا إذا ضمَّهم مطلقٌ شريف، وأنه إن كُتِب لأحد من أعيانهم، كُتِب له الاسم و«السامى» بغيرياء، إن كان طبلخاناه. وإن كان أميرَ عشرةٍ أو عشرين ، كتب إليه الاسم و«مجلس الأمير» كما تقدّم فى التُّرْكُمان من غير فرق .

القســـم الثـالث

(من يكاتَبُ بالبلاد الحجازية ، والمعتبر فى المكاتَبين منهم ثلاثة)

الأوّل — أمـــير مكّةَ المعظّمة .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك ذكرُ أمرائها من ٱبتداء الإمْرة وهَلُمَّ جَرًّا إلىٰ زماننا ، والقائم بها الآن [حسن بن أحمد][1] بن عَجْلان .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التعريف" : « أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ، الأميرىِّ ، الكبيرىِّ ، العالمىِّ ، العادلىِّ ، المؤيّدىّ ، العَضُدىّ ، النَّصيرىّ ، الذُّخْرىّ ، الغَوْثىّ ، المفيــدىِّ ، الأوحدىّ ، الظهيرىّ ، الزَّعيمىّ ، الكافلىّ ، الشريفىّ ، الحِسيبىّ ، النَّسِيبىّ ، الأصيلىّ ، الفلانىّ ؛ عزِّ الإســلام والمسلمين ، سيِّدِ الأمراء فى العــالمين ، جلال العِتْرة الطاهره ، كوكَبِ الأُسْرة الزاهره ؛ فرعِ الشــجرة الزَّكيّه ، طِرازِ العِصابةِ العَلَويّه ؛ ظهيرِ الملوك والســلاطين ، نسيبِ أمير المؤمنين » ثم الدعاء المعطوف . وبعده « صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى بالسلام والثناء وتوضح لعلمه الكريم كذا وكذا » .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" : «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الشريفىّ ، الحَسِيبىّ ، النَّسِيبىّ ، العالمىّ ، المُجَاهِدىّ ، المفيدىّ ، الأوحدىّ ، النصيرىّ ، العوْنىّ ، الهُمَامىّ ، المقدّمىّ ، الظَّهيرىّ ، الأصيلىّ ، العَرِيقىّ ، الفلانىّ ؛ عزِّ الإسلام والمسلمين ، شَرَف الأمراء الأشرافِ فى العالمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين ، كَهْفِ الملَّة ، عون الأمه ، فَخْر السُّلَالة الزاهره ، زَيْنِ العترة

(١) بياض بالاصل والتصحيح مما تقدم للؤلف (أنظرج ٤ ص ٢٧٥) عند ذكر أمراء مكة المكرمة .

الطاهره، بَهَاءِ العِصابة العلويّه، جمال الطائفة الهاشِمِيَّه، ظهيرِ الملوك والسلاطين، نسيبِ أميرِ المؤمنين» ثم الدعاء و«صدرَتْ» .

وهـذا دعاء وصـدر يليق به ذِكْره فى "التعريف" : « ولا زال حَرَمُه أمِينا، ومكانُه مَكِينا، وشرفه يُبيِّضُ(١) له بمجاورة الحَجَر الأسودِ عندَ اللهِ وجْها ويُضِيء جبينا . صدرت هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تحمِلُ إليـه سلامًا تَمِيل به الرَّكائب، وثناء تُثْنِي علىٰ مِسْكِهِ الحقائب ، وشوقًا أوسق قلْبَـه لمن نُسُـكُه مع الحبـائب ، وتوضِّح لعلمه الكريم» .

✤

صدر آخر : ومتَّعه بجِوار بيتِـه الكريم ، وزاد بجميـل مَسَاعِيه شرفَ نسـبه الصَّمِيم، وآنَسَه بقرب الحجر الأسود والرُّكْن والحَطِيم . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى تُهْدِى إليه سلاما، وثناء تَطِيب به الصَّبا قبل أن تحمِلَ شِيحًا أو خُزَامىٰ، وتوضح لعلمه الكريم .

✤

صدر آخر : وأراه مَنَـاسِكه ، وآنس بالتقوىٰ مَسالِكَه ، وأشهدَ علىٰ عمـله الصالِح بَطْحاءَه وما يَنْزِله [من] الملائكه . صدرتْ هذه المكاتبة بتحيَّاتها المباركه ، وأثْنِيتِها التى لا تزالُ إليه بها أفئدةٌ من الناس سالكَه، وتوضِّح لعلمه الكريم .

الثـانى ــ أميرُ المدينة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ أُمَرائها فى المسالك والممـالك من المقالة الثالثة أنـ إمارتَها مستقرّة فى بنى الحُسَيْن، وأنها الآنَ فى بنى جَمَّاز بن شِيحة ، وأن جَدَّهم كان

(١) فى التعريف "ينير" .

فقيهًا بالعراق، فقدم علىٰ السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» رحمه الله، فولَّاه المدينةَ فاستقرّت فيها قدمُه ثم قَدَمُ بنيه، وأنَّ القائم بها الآنَ [ثابت بن جمّاز ابن هبة بن جماز بن منصور بن جماز بن شيحه بن نعير] (١) .

ورسمُ المكاتبة إليه كرسم المكاتبة إلىٰ أمير مكةَ علىٰ الاختلاف السابق فى النقل عن "التعريف، والتثقيف" . فقد ذكر كلٌّ منهما رسمَ المكاتبة إلىٰ أمير مكة . ثم قال : ورسمُ المكاتبة إلىٰ أمير المدينة كذلك .

وهذا صَدْر مكاتبة يليق به، وهو : ولا زال فى جِوار اللهِ ورسولِه، ومَهْبِطِ الوَحْى ونُزُوله، ومكانٍ يُردَّد فيه من أبويه الطاهرين بين حَيْدره وبَتُوله . صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى بسلامٍ يحْدُو رِكابَها، وثناء يَزِينُ فى قُبَا قِبابَها، وشوقٍ إلىٰ رؤيته فى الروضة التى طالمَا استسقىٰ فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم سَحَابَها، وتوضح لعلمه الكريم كذا وكذا .

✣

صدر آخر : وزاده من الله ورسوله قُرْبا، وأكّد له بحماية حَرَمه حُبًّا، وأبهجه كُلَّما رأىٰ جَدَّه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقد جاور آلاً وجالس صَحْبا . صدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى مطربةً بالسلام، مُطْنِبة فى ثنائه المفَصَّل النِّظام، وتوضح لعلمه الكريم .

الثالث — النائب باليَنْبُع .

(١) بياض بالأصل، والتصحيح مما تقدم فى ص (٣٠١ ج ٤) عند الكلام علىٰ أمراء المدينة المنورة .

وقد تقـدّم فى الكلام على المسالك والممالك أنها فى بَنِى حَسَن أيضا[(١)] . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى الأمير» . والعلامة الآسم، وتعريفه «النائب باليَنْبُع» .

أما سائر العُرْبان بالحِجَاز فقد ذكر فى "التثقيف" أن لبَنِى حسن القُوّام بمكة «مجالس الأمراء» . والعلامة الآسم . ومَنْ عدا بنى حسنٍ فقد ذكر فى "التعريف" أنهم على ضربين :

الضرب الأوّل — أهل الدَّرْبيْنِ: المِصْرىّ والشامىّ . قال : وليس فيهم مَنْ هو فى عِيرٍ ولا نَفِير، ولا يَحُلُّ فى ذِرْوة ولا غارِب ؛ وأجلُّ من فيهم إذا كُتِب له « مجلس الأمير» كان كمن سُوّر وطُوّق، لابل طِيْلِس وتُوِّج .

الضرب الثانى — شُيوخ لام، وخالِد، والمُنَيفق، وعائد الحِجاز . قال : وهؤلاء من كان منهم المشارَ إليه كُتِب إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىّ الأميرىّ» والعلامة «أخوه» . ثم من يليهم بالسامى بغير ياء . ثم الأعيانُ من بقيتهم « مجلس الأمير» .

المَسْلك الثانى

(فى معرفة ترتيب المكاتَبات المقدّمة الذكر، وكيفية أوضاعها . وفيه مأْخَذَان)

المأخذ الأوّل — فى ترتيب مُتُون المكاتبات، ولا يكون إلا آبتداءً . أما الجواب فإنه لا يتأتّى فيها .

(١) أى كإمرة مكة .

ثم هى علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل — ما يكتب فى خَلَاص الحُقُوق .

وهو مايكتب فيــه لنُوّاب الإسكندرية ، ونائبِ الوجهين : القبــلىّ والبَحْرىّ من الديار المصرية ، ووُلَاتِهِما ، ونُوّاب الشام ، وحَلَب ، وطرابُلُس ، وحماةَ ، وصفدَ ، والكَرَك ، ومقدَّم العسكر بغزّة ، من المــالك الشامية علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ مكاتبة أهل المملكة .

والرسمُ فى ذلك إذا كانت المكاتبةُ إلىٰ نائب الشام مثــلًا ، بسبب قضــيَّة تتعلّق بالأمير الدَّوَادار أن يكتب : « أعزَّ الله تعــالىٰ المقرَّ الكريم » إلىٰ آخر الألقــاب والصدر ؛ ثم يكتب : «وتبدى لعلمه الكريم أن الجنابَ العالى» ويذكر ألقابَه إلىٰ آخرها « ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَــه عَرّفنا كذا وكذا» . ويذكر مافى قصته برُمّته . ثم يكتب : « ومرسومُنا للقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُهُ العالى بكذا كذا » ويأتى بمــا رُسِم له به إلىٰ آخره ؛ ثم يقول : « فيحيطُ علمُه بذلك » ويكِّمل علىٰ ماتقدّم .

وإن كان المكتوب بسببه أميرَ عشرة مثلا ، كتب بدل « عَرَّفنا» : « ذكر» .

وإن كان من آحاد الناس كتب بدل ذلك : «إن فلانا أنهىٰ» ويكمل علىٰ ماتقدّم .

وهذه نسخة مكاتبةٍ إلىٰ نائب الشام بسبب خَلَاص حقٍّ :

أعزَّالله تعالىٰ أنصار المَقَرّ الكريم ، العالى ، الأميرىِّ ، الكبيرىِّ ، العالمىِّ ، العادلىِّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنِىّ ، المُثَاغِرىّ ، المرابِطىّ ، الممهِّدىّ ، المشــيِّدىّ ، الزَّعيمى ، الظَّهيرىّ ، العابِدىّ ، الناسِكِىّ ، الأتابِكىّ ، الكَفِيلىّ ، الفلانىّ ؛ معزِّ الإِســلام والمسلمين ، سيد أمراء العالمين ، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين ، مَلْجإ الفقراء والمساكين ، أتابِكِ العساكر ، زعيم الموحِّدين ، ممهِّد الدول ، مشيِّد الممالك ، عَوْن الأمه ، كَهْف

اللّه ، عماد الدوله ، ظَهِير الملوك والسلاطين ، عَضُـد أمير المؤمنين ، ولا زال عاليًا قدْرُه ، نافذا أمْرُه ، جاريًا على الألسنة حمْدُه وشُكْرُه .

أصدرناها إلى المقرّ العالى تُهْدِى إليه من السلام أتمّه ، ومن الثناء أعمّه ، وتُبْدِى لعلمه الكريم أنّ الجنابَ العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الغَوْثِى ، الغِياثىّ ، المرابِطىّ ، الممهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الظَّهِيرىّ ، الزَّعيمىّ ، المقدَّمى ، الفلانىّ ، ظهيرَ الملوك والسلاطين ، سيفَ أمير المؤمنين ، فلان رأسَ نَوْبة الظاهرىّ ضاعف الله تعالى نعمتَه عَرَّفنا أنّ له دَعْوىٰ شرعيةً علىٰ أقوام بِدِمَشْق المحروسة ، وهم فلان وفلان . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمْرُه العالى بحَمْلهم صُحبةَ فلان قاصد المشار إليه ، إلى الأبواب الشريفةِ ، محتفظا بهم ، قولًا واحدًا ، وأمرًا جازما ، ليصل كلُّ ذى حقٍّ إلى حقه ، فيحيط علمُه بذلك ، والله تعالى يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

⁂

آخر : وتبدى لعلمه الكريم أن المجلسَ السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العَضُدىّ ، الذُّخْرِىّ ، الأوْحَدىّ ، الفلانىّ ، عمدةَ الملوك والسلاطين : فلان أدام الله سعادته ، ذكر لنا أن الصَّدَقات الشريفةَ شمِلتْه بخَلَاص حقِّه من فلان . وقد وَكَّل فى ذلك المجلس السامىَّ القضائىَّ الأجَلِّىّ فلان الدين . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه العالى بطَلَب الغريم المذكور ، وخَلَاص الحقِّ منه بتَمَامه وكماله . وإن امتنع عن ذلك يُحْمَل للأبواب الشريفة مع الوصيةّ بوكيله فى ذلك ، فيُحيط علمُه بذلك .

*
* *

آخـــر : وتبـدى لعلمه الكريم أن الأمـير ، الأجلَّ ، الكبيرَ ، فلان الدين ، فلان الفلانى ، أنهىٰ أنَّ بيده إقطاعًا بالحَلْقـة الشامية ، وأن الوزيرَ بالشام المحروس فى كلِّ وقت يتعرّضُ إلىٰ إقطاعه ، ويأخذ المُوجَب المقرر له بغير طَرِيق . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه العالى بطلب المباشِرين ، والارتجاع عليهم بما ٱلتَمَسُوه من إقطاعه ، علىٰ مايشهد به الدِّيوان المعمور ، بتَمامِه وكماله ، ويستقِرّ هـذا المثالُ الشريف بيـده بعد العمل به ، فيُحيط علمُـه الكريم بذلك ، والله تعـالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

*
* *

آخـــر : وتبدى لعلمه الكريم أن فلانا الفلانىّ أنهىٰ أنَّ شخصا يسمَّى فلانا تزوّج بأُخْته ، وهو مقيمٌ بالشام المحروس ، وتُوفيت أختُه إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، ووضَع الزوج المذكور يده علىٰ جميع مالها . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه العالى بخَلَاص الحق علىٰ حُكْم الشرع الشريف مع الوَصِيَّة به ، فيُحيط علمُه بذلك .

*
* *

آخـــر : وتبدى لعلمه الكريم أن قِصَّةً رُفعتْ إلىٰ أبوابنـا الشريفة بٱسم تُجَّار الفَرَنْج ، أنْهَوْا فيها أنهم يَبيعون ويبتاعُون البضائعَ ، ويقومون بما عليهم من المُوجَب السلطانىّ . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه بخَلَاص حُقُوقهم ممن تتعيَّن فى جهته علىٰ حُكْم الحق ، وكَفِّ أسباب الضرر عنهم ، ومنعِ من يتعرّضُ إليهم بغير حقٍّ ولا مستَنَد شرعىّ ، والوصية بهم ورعايتِهم وملاحظتِهم ، فيحيط علمه بذلك .

الضـــرب الثـانى
(مايكتب من متعلقات البَرِيد فى الأمور السلطانية، وهى صنفان)

الصنف الأوّل
(ما يُكْتَب به ٱبتــداءً)

ويختلف الحــال فيه باختلاف مقتضيه : فإن كان مقتضيه بُرُوزَ أمر السلطان بفـعل شيء أو تركه أو الحركة فى شيء، كتب : « إنّ المراسيم الشريفةَ ٱقتضتْ كذا وكذا» . أو «إن مَرَاسيمنا الشريفة ٱقتضت كذا» . أو «إن المرسومَ الشريف ٱقتضى كذا » . أو « إن مرسومَنَا الشريف ٱقتضى كذا » : فإن كان ذلك الأمر ممـا يَحْتاج إلىٰ إدارة الرأْى فيـه ، كُتِب : « إنَّ الرأْىَ الشريف ٱقتضىٰ كذا » . أو « إنَّ آراءنا الشريفةَ ٱقتضت كذا» ، وما يَجْرِي هذا المَجْرىٰ . وإن كان مقتضيه بلوغَ خبرٍ من حركة عدوٍّ أو ٱطِّلاع علىٰ أمر خفىٍّ، كتب : « إنه ٱتَّصل بالمَسَامِع الشريفة كذا وكذا » . أو «إنه ٱتصــل بمَسَامعنا الشريفة كذا وكذا » . وإن كان بسبب طلبِ مالٍ أوجِبَايةِ خَرَاجٍ ونحو ذلك، كتب : «إنَّ لديوان خاصّنا الشريف فى الجهة الفلانية كذا» . أو «إنَّ لنا فى الجهة الفُلَانية كذا». ونحو ذلك مما ينخرط فى هذا السِّلْك، ثم يكتب : «ومرسُومنا للقرّ الكريم، أو للجَنَاب الكريم، أو الجَناب العالى » علىٰ حَسَب المكاتبة « أن يتَقدّم أمره بكذا وكذا » علىٰ ما تَبْرُز به المراسيمُ السلطانية .

وهذه مكاتبات من ذلك إلىٰ نائب الشام، يُنْسَج علىٰ مِنْوالهـا .

مكاتبةٌ ــ باستقرار نائبٍ فى نيابة بعض القلاع : وتبــدى لعلمه الكريم أن المراسيمَ الشريفــة ٱقتضَت ٱستقرارَ الأمير فلان الدين فلان فى النيابة الشريفــة

وجهزنا مرسومه (١) الشريفين علىٰ يد المتوجّه بهذا المثال الشريف الأمير الأجلّ فلان الدين فلان ، أعزه الله تعالىٰ . فيتقدّم المَقرّ الكريم بتجهيزه إلىٰ جهة قصده بما علىٰ يَدِه من ذلك ، وإذا عاد ، يعيده إلىٰ الأبواب الشريفة مُكْرَما مَرْعيًّا علىٰ عوائد همّته العلية ، فيُحيط علمُه بذلك .

⁂

مكاتبة — بنقل نائبِ سلطنة من نيابةٍ إلىٰ نيابةٍ : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف ٱقتضىٰ نقلَ الجناب الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمِىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الغوثىّ ، الغياثِىّ ، المقدَّمىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ؛ ظهير الملوك والسلاطين ، سيفِ أمير المؤمنين ؛ فلان الظاهرىّ ، أعزَّ الله نُصرتَه — من نيابة السلطنة الشريفةِ بطَرَابُلُس ، إلىٰ نيابةِ السلطنةِ الشريفة بحَلَبَ المحروسةِ . والجنابِ العالى الأميرىّ الكبيرىّ الفلانىّ ، ظهيرِ الملوك والسلاطين فلان الظاهِرِىّ من نيابة السلطنة بصَفَدَ المحروسة ، إلىٰ نيابة السلطنة الشريفة بطرَابُلُس المحروسة . والجنابِ العالى الفلانىّ الظاهرىّ من تَقْدِمة العسكر المنصور بغَزَّةَ المحروسة ، إلىٰ نيابة السلطنة الشريفة بصَفَدَ المحروسة . وكتبنا لهم تقاليدَ شريفةً بذلك ، وجهَّزْنا إليهم تَشاريفَهم وهى واصلةٌ عقيبها علىٰ يد متسَفِّريهم ؛ وجَهَّزنا الأميرَ الأجلَّ الأعز فلان الدين ، مؤتَمَنَ الملوك والسلاطين ؛ فلان الخاصِكىّ الظاهرىّ أعزه الله تعالىٰ للبشارة للمشار إليهم بذلك : ليأخذوا حظَّهم من هذه البُشْرىٰ ، وتُضاعَف أدعيتُهم بدوام أيامنا الشريفة ، وآثَرْنا إعلامَ المَقرّ الكريم بذلك : ليكون علىٰ خاطره ؛ والله تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه .

---

(١) بياض بالأصل ولعله "وجهزنا مرسومه وتشريفه الشريفين" الخ .

❖

مكاتبة — بحمل شخص للأبواب السلطانية : وتُبْدى لعلمه الكريم أن مرسومَنَا الشريفَ ٱقتضىٰ تقدُّمَ المقرّ الكريم حال وُقوفه عليها، وقبـل وَضْعها من يده بطَلَب فلان الفلانى ّ وفلان الفلانى ّ، وتجهيزهمـا إلىٰ الأبوابِ الشريفـة فى أسْرَع وقت وأقربِهِ ، من غير فَتْرة ولا تَوَانٍ . ونحن نُؤكد عليـه غايةَ التأكيد فى سُرْعة تجهيزهما إلىٰ الأبواب الشريفة صحبةَ الأمير الأجل، فلان الدين فلان، إلىٰ الأبواب الشريفة محتَفَظًا بهما ، محتَرَزا عليهما ؛ ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّم أمْرُه العالى بٱعتماد ما ٱقتضاه مرسومُنا الشريف، والٱهتمامِ بذلك، والٱحتفالِ به، فيُحيط علمه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنّه وكرمه .

❖

مكاتبة — باستقرار بعض الأمراء بالقُدْس الشريف بَطَّالا : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف ٱقتضىٰ ٱستقرار الأمير فلان أحسن الله تعـالىٰ عاقبته بالقُدْسِ الشريف مُقيماً بهـا، وشَمِلته الصَّدَقات الشريفةُ أن (١) فلانة وفلانة باسمه ، بمقتضىٰ مرسومٍ شريفٍ مجهَّز صُحبةَ متسَفِّره الأمير الأجلّ الكبير الأوحد، فلان الدين فلان، البَرِيدىّ بالأبواب الشريفة، أعزَّه الله تعالىٰ، المتوجّه بهذا المثال الشريف . ومرسومُنا للمَقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بإثبات المرسومِ الشريف المـذكور بديوان الجُيُوش المنصورة بالشام المحروس علىٰ العـادة ؛ وتَجْهيز البَرِيدىِّ المذكورِ إلىٰ حدود الديار المصرية ، مُكْرَما مَرْعيًّا علىٰ العادة ؛ فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

---

(١) بياض بالأصل ولعله "أن تقطع جهة فلانة" الخ .

* * *

مكاتبة — ببيع غلّة للديوان السلطانى : وتبدى لعلمه الكريم أنَّ آراءَنا الشريفة ٱقتضت تجهيز كذا وكذا إردبًّا من القمح من ديواننا المفْرَد صُحبة فلان . ومرسومنا للمَقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه العالى بطَلَب فلانٍ الحاجبِ بالشام المحروس : ليتولّى بيعَ ذلك بسِعْر الله تعالىٰ بما فيه الغِبْطة والمصلحةُ ؛ وتجهيزَ الثمن إلىٰ الأبواب الشريفة برسالةٍ دالَّة علىٰ ذلك فى أسرعِ وقتٍ وأقربِهِ ، مع مُضاعفة الوصيّة بذلك والٱحتفالِ به ، فيُحيط علمُه بذلك .

* * *

مكاتبة — وتبدى لعلمه الكريم أنَّ آراءنا الشريفةَ ٱقتضتْ توجُّه الأمير الأجلِّ الكبير، الأوحد، فلان الدين فلان ؛ إستادار الأمير المرحوم فلان كان ، بسبب ٱستخراجِ الأموال وبَيْعِ الغِلال والأصنافِ الدِّيوانية المتحصِّلة من القُرىٰ المستأْجَرَة ، المرتَجَعة للورثة عن المشار إليه بمقتضىٰ التذْكِرة المسطَّرة علىٰ يَده . ومرسومنا للمَقرّ الكريم أن يتقـدّمَ أمْرُه بمساعدة المذكور وتقويةِ يَده علىٰ ماتضمَّنته فصولُ التذْكِرة ومراعاةِ أحواله ، وإزالةِ ضَرُوراته ، وخَلَاص الحق منه ممن يتعيَّنُ فى جِهَته ، ويشْمَله بنظره الكريم فيما تعلق بفصول التـذكرة . فإنَّ تعلُّقـاتِ الورثة المذكورين تحت نَظَرنا الشريف . فيبادر المقرّ الشريف إلىٰ ذلك وسرعةِ عَوْده بعد قضاء شُغْله ، وتجهيز المتحدِّث والمباشِرين للأبواب الشريفة ، وصُحْبَتَهم حسابُهم عند نهاية فصولِ التَّذْكرة المذكورة . ويقيمُ عنهم من يعوضهم إلىٰ حينِ عودهم من الأبواب الشريفة علىٰ ماهو المعهود من همَّته الكريمة وٱحتفاله ، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

مكاتبة — بسبب طلب عِصِىّ الجواكين والكَرَابيج والأُكَر : وتبـدى لعلمه الكريم أن المرسوم الشريف آقتضىٰ تجهـيزَ عِصِىِّ الجواكين والكَرَابيج والأُكَر إلىٰ السِّلاح خاناه من الشام المحروس، علىٰ العادة فى كل سنةٍ سريعا، وآثرْنا علمه الكريم بذلك . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّم أمرُه العـالى باعتماد ما آقتضاه مرسومُنا الشريف من ذلك كلِّه علىٰ جارى العادة فى كلِّ سنة ، والآهتمامِ بذلك ، والآحتفالِ به، بحيث لايتأخّر ذلك غيرَ مسافة الطريق ؛ فإن الآنتظار واقعٌ لذلك، وفى هِمَّتـه الكريمة مايُغْنِى عن بَسْط القول فى ذلك، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

مكاتبة — بسبب آستقرار قاضٍ بِدمَشْق عوضَ مَنْ كان بها : وتبـدى لعلمه الكريم أنَّ الصدقاتِ الشريفةَ شَمِلت المجلس العالى، القضائىَّ، الكبيرىَّ ، العالمىَّ، العلَّامىَّ ، الإمامىَّ، الفلانىّ ، الفَريدىّ، المُفيدىّ، المَجيدىّ، الأَصيلىّ، العَريقىّ، الأثيلىَّ ، الأثيرىَّ، الأوحدىّ ، الخِطيبىّ، الشَّيْخىّ، الحـاكمىّ، الفلانىّ؛ جلالَ الإسلام والمسلمين، شرفَ العلمـاء العاملين ، إمامَ البلغاء، خطيبَ الخُطَباء، شيخَ مشايخ العـارفين ، مَلَاذَ المريدين ، مُفْتِى الفِرَق، مُوضِّح الطُّرُق ، لسانَ المتكلمين ، مفيدَ الطالبين، حَكَمَ الملوك والسلاطين، ولِىَّ أمير المؤمنين، فلان الفلانىّ الشافعىّ . أعز الله تعالىٰ أحكامَه ــ بتفويض قَضاء قُضَاة الشافعية بالشام المحروس إليه؛ عوضًا عمَّن به، بحكم عَزْله مضافًا إلىٰ خَطَابة الجامع الأموىّ ، ومشيخةِ الشُّـيُوخ بالشام المحروس. وكتبنا توقيعًا شريفا له بذلك ، وجَهَّزناه إليه قَرِينَ تشريفٍ شريفٍ علىٰ يد فلان المتوجِّه بهذا المثالِ الشريـف . وآثرْنا علمه الكريم بذلك ، ليكونَ ذلك علىٰ خاطره الكريم . ومرسومُنا للمَقَرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه الكريم بتقرير القاضى

فلان الدين فلان الفلانى فيما شَمِلتْه به الصدَقاتُ الشريفةُ من ذلك كلِّه ، وتقويةِ يده فى مباشرةِ ذلك والشَّدِّ منه ، وتأييد أحكامه الشرعيةِ، وتنفيذ كلمته، ورعاية جانبه، وإكرامِهِ وآحترامه، علىٰ عادة هِمَمِه الكريمة، وتقْدِماته السعيدة ، فيُحيط علمُه بذلك .

* * *

مكاتبة — بسببِ حملِ الثَّلْج إلىٰ الأبواب السلطانية : وتُبْدى لعلمه الكريم أنَّ المرسومَ الشريف آقتضىٰ تجهيزَ نَقَلات الثلج إلىٰ الشَّرَابْ خاناه الشريفةِ علىٰ العادة . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه العالى بسُرْعة تجهيز النَّقْلة الأولىٰ، بحيث لاتتأخرُ أكثَرَ من مسافةِ الطريق علىٰ ماهو المعهود من هِمَّته العالية، وتقدِماته السعيدةِ . وقد جهَّزنا هذا المثالَ الشريف علىٰ يد الأمير الأجلّ فلان الدين فلان الفلانىّ، أعزه الله تعالىٰ، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

* * *

مكاتبة — بتمكين شخْص من الحُضور للأبواب السلطانية . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ فلانا كان قصدَ الآجتماعَ بأهله وأقاربه بالقاهرة المحروسة . ومرسُومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالى بتمكينه من الحُضور إلىٰ القاهرة المحروسة علىٰ خَيْله : ليجتمع بأهله وأقاربه . وقد جَهَّزنا بهذا المثالِ الشريفِ فلانا البَرِيدىّ بالأبواب الشريفة، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

* * *

مكاتبة — بمنع العُرْبان من الدُّخول إلىٰ البلاد قبل فَرَاغ الزَّرْع . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ المراسيمَ الشريفةَ آقتضت أنه لايدخُل أحدٌ من العُرْبان إلىٰ البلاد الشامية

المحروسة : كبيرِهم وصغيرِهم، جليلِهم وحقيرِهم، إلىٰ أن يُشال الزرعُ علىٰ العادة . ومتىٰ ــ والعياذُ بالله ــ حَصَــل منهم مخالفــةٌ لذلك، حلَّ بهم من الآنتقام الشريف مالا مَزِيدَ عليــه . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُه العالى باعتماد ما آقتضَــتْه المراسيمُ الشريفةُ من ذلك، مع الآهتمام به، والآحتفال والآجتهاد فيه، قولًا واحدا، وأمرا جازما، علىٰ عادة همَّته العالية، وتَقْدِماته المرضِيَّة، فيُحيط علمُه بذلك .

⁂

مكاتبة ــ بحفظ السواحل : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومَنَا الشريفَ آقتضىٰ الآجتهادَ فى حفظ السواحل والمَوَانى ، والآهتمامَ بأمرها ، وإقامةَ الأيْزاك والأبْدال فى أوقاتهــا علىٰ العادة ، وإلزامَ أربابها بمُواظبَتِها ، وكذلك المنوِّرون بالدَّيْدبانات والمَنَاظر والمَنَاور، فى الأماكِنِ المعروفة، وتعهُّد أحوالهــا : بحيث تقومُ أحوالُها علىٰ أحسن العوائد وأكملهــا، ولايقَعُ علىٰ أحد دَرَكٌ بسببها . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى باعتماد ما آقتضاه مرسومُنا الشريف من ذلك، مع مضاعَفَة الآحتفالِ بذلك والمبادرةِ إليه، حسَبَ ما آقتضته المراسيمُ الشريفةُ . وقد جَهَّزنا بهذا المِثالِ الشريف مجلسَ الأميرِ الأجَلِّ : فلان الدين فلان البَرِيدىّ، المقدَّم بالأبواب الشريفة، فيتقدّمُ أمر المَقرّ العالى بتجهيزه إلىٰ جِهةِ قَصْده بما علىٰ يده، وإعادته عند عوده إلىٰ الأبوابِ الشريفة، علىٰ ماهو المعهود من همَّته، فيحيط علمُه الكريمُ بذلك .

⁂

مكاتبة ــ باستعمال قُمَاش . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ آراءَنا الشريفةَ آقتضت آســتعمالَ القماش الجارى به العادة برسم الركابخاناه ، والإصطبلاتِ الشريفــة ، علىٰ ماآســتقرّ عليه الحال إلىٰ آخر السنة الخالية والتى قَبْلَها . وقد كُتِبت تَذْكِرةٌ شريفة

من ديوان ٱستيفاء الصُّحْبة الشريفة مفصَّلة بذلك ، وجهَّزناها قرينَ هذه المفاوضة لتُقْرأ علىٰ مَسَامِعِه الكريمة . ومرسومُنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بتأمُّلها، وبُرُوزُ أمره بطَلَب وزير المملكة الشريفة ، وناظر المُهِمَّات الشريفة ، وٱستعمال القُمَاش الذى تضمَّنته التذكرةُ الشريفة ، والٱهتمام بذلك ، والٱحتفال بسُرْعته .
وقد ٱكتفينا بهِمَّة المقرّ الكريم عن تجهيز أميراخورية وأوجاقية من إصْطَبْلاتنا الشريفة لٱستعمال ذلك ، لأنَّ المهماتِ الشريفةَ تحت نظره الكريم ، فيصْرِف همَّته العالية إلىٰ الإسراع فى ذلك ، والٱحتفال به والٱهتمام . وفى ٱهتمامه وتنفيذه لمراسمنا الشريفة مايُغْنِى عن التأكيد فى ذلك ، فيُحيط علمُه بذلك .

⁂

مكاتبة — بجواز . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ مرسومَنا الشريفَ ٱقتضىٰ تجهيز فلان البَرِيدىّ بالأبواب الشريفة ، أعزّه الله تعالىٰ ، إلىٰ جهة فلان بما علىٰ يَدِه وما صُحْبَتَه . ومرسومنا للقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُه العالى بإزاحة أعذارِه، وتجهيزِه إلىٰ المشار إليه فى أسرعِ وقتٍ وأقربِه . وإذا عاد يتقدّم بتجهيزه إلىٰ خدْمة الأبواب الشريفة علىٰ العادة فى ذلك ، علىٰ عادة همَّته العليَّه ، وشِيَمِه المَرْضِيَّه ، فيحيط علمُه بذلك .

⁂

مكاتبة — وتبدى لعلمه الشريف أن مرسومنا الشريف ٱقتضىٰ أن لا يُمَكَّنَ أحدٌ من نَقْل سلاح ولا عُدّةِ حربٍ إلىٰ جهة البلاد الرُّوميَّة . ومرسومُنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بأن لا يمكَّن أحد من نَقْل سلاحٍ ولا عُدّةٍ إلىٰ جهة البلاد المذكورة ، والٱحترازِ علىٰ ذلك كلَّ الٱحتِراز ، فيحيط علمُه بذلك .

مكاتبة — وتُبْدى لعلمه الكريم أنه آتصل بالمَسامع الشريفة أنَّ غالبَ البلاد بالصَّفْقة الفلانية محمِيَّة متجاهية علىٰ الكُشَّاف والرَّعايا، و يُؤْوُون المفسدين. وأنَّ يَدَ الكُشَّاف لاتصِلُ إلىٰ هذه البلاد، ولا إلىٰ النَّصَفة ممن بها من المفسدين. وحَصَل بذلك الضررُ للبِلاد والعِبَـاد. وآقتضىٰ الرأى الشريفُ الكَشْفَ عن هـذه البلاد وسائر الأعمال، والمناداةَ فى البلاد بإبطال الحِمَـاية والرِّعاية، والمساواةَ بيـن العِبَاد فى سائر البـلاد بالعَدْل والإنصاف، وَكَفَّ أكُفِّ الظلم والعُدْوان. ومرسومُنـا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه الكريم بالمناداة فى سائر البِلَاد بإبطال الحِمَـاية والرِّعاية، والمساواةِ بين الخاصِّ والعامِّ، وتطهيرِ الأرض من المفسدين؛ وأن لايُحْمىٰ أحدٌ ببلد من البلاد. ومن تظاهر بحمايةٍ أو إيواءِ مفسِدٍ ببلد من البلاد، حَلَّ مالُهُ ورُوحُه. والتأكيدِ علىٰ أهل البلاد فى ذلك، والتشديدِ والفَحْص عمَّن يَتجاهرُ بذلك ورَدْعه ونَشْر العدل والإنصاف بتلك الأقطار، والاهتمام فى ذلك كلِّه، علىٰ عادة هِمَمه الكريمة، وتَقْدِماته السعيدة، فيحيط علمُه الكريم بذلك، والله تعالىٰ يؤيِّده بالمَلَائك.

مكاتبة — وتُبْدى لعلمه الكريم أنه آتَّصل بَمَسامعنا الشريفة أن فلانا تعرّضَ للجهة الفلانيَّة الجـارِيةِ فى ديوان خاصِّـنا الشريف، وأخذ منهـا مبْلَغ كذا وكذا. ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّم أمْرُه العالى بطلَبِ الغريم المذكور، وتجهيزه إلىٰ الأبواب الشريفة، وإلزامه بمـا آستأداه من ذلك، محترزًا عليه مع مضاعفة الوصيَّة بمباشِرى الجهة المذكورة والإحسان إليهم، فيحيط علمُه بذلك.

الصـــنف الثـانى

(مايكتب فى الجواب عمَّا يرد من النوّاب وغيرهم)

والرسم فيه أن يكتب بعد التصدير : « إن مكاتبته الكريمة » أو «مكاتبته» علىٰ قدر رتبته من ذلك «وردتْ علىٰ يَدِ فلان فوقَفْنا عليها وعلمنا ماتضمَّنته علىٰ الصُّورة التى شرحها » ثم يذكر مايناسب الجواب فى ذلك من شكر الاهتمام أو غيره . ثم إن اشتملت علىٰ مقْصَد واحد، أجابَ عنه .

وهذه مكاتبةٌ يُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى : وتبدى لعلمه الكريم أنَّ مكاتبته الكريمةَ وردتْ علىٰ يد فلان فوقفْنا عليها ، وعلمنا ما أصدَرَتْه من تجهيزه إلىٰ خِدْمة أبوابنـا الشريفة بمـا علىٰ يَدِه من كتّاب مخدومه . وقد وصل، وأحاطتْ علومُنا الشريفة بمـا تضَـمَّنه ، وأعَدْناه الآن بجوابه وبهـذا الجواب الشريف، فيحيط علمُه الكريم بذلك .

وإن اشتَمَلت المكاتبةُ المجابُ عنها علىٰ عدّة فُصول، أتىٰ علىٰ فُصولها فَصْلا فصلًا، وربمـا قال : «فأماما أشار إليه من كذا» إذا كان علىّ الرتبة، كنائب الشام ونحوه ، «فقد علمناه» وصار علىٰ خاطرنا الشريف أو «فقـد رَسَمْنا به» أو «فلم نَرْسُم به» . ونحو ذلك علىٰ مايَقَع به الجوابُ السلطانىّ فى الملَخَّص المكتوب عن مكاتبـة المكتوب إليه بالجواب .

وهذه مكاتبة من هذا النمط يُنْسَج علىٰ مِنْوالها ، وهى : وتبدى لعلمه الكريم ، أنَّ مكاتبَتـه الكريمةَ وردتْ علىٰ يد مملوكه الأميرِ الأجلِّ فلان الدين فلان، أعزَّه الله تعالىٰ ، فوقَفْنا عليها ، وعلِمْنا ماتضمَّنته علىٰ الصورة التى شرحَهَا ، وشكرنا همَّته العالية، وتَقْدماته السعيدةَ ، ورأيَه السعيد، واعتمادَه الحميد .

فأما ما أشار إليـه من وصوله ومَنْ صُحْبَته ، ونائبي السـلطنةِ الشريفةِ بطرَابُلُس وصَفَدَ المحروستين، إلىٰ مَلَطْيَة المحروسةِ فى التـاريخ الفلانى ، وتلقِّ نائبَي السـلطنةِ الشريفةِ بحَلَب وحمـاةَ المحروسـتين، المَقَرّ الكريم ومَنْ معـه علىٰ ظاهر المدينـة المذكورة ، وآستمرار إقامتهم جميعًا بالمنْزِلة المذكورة إلىٰ تسطير مكاتبته المشار إليها فى آنتظار من رُسِم له بالحضور إليهم من عساكر القِلاع المنصورة وغيرهم، من أمراء التُّرْكمان والأكراد ومن معهم من أتبـاعهم وأَلْزامهم ، حسَبَ ما آقتضـتْه المراسيمُ الشريفةُ فى المهمِّ الشريف وما كُتِب به إلىٰ نائب طرابُلُس، وإلىٰ قَرَايوسُف النائب بالرُّهَا المحروسة : من الحضور إلىٰ المهمِّ الشريف، وإجابتهـما إلىٰ ذلك؛ وكذلك ما كُتِب به إلىٰ الحاكم بسِيواسَ، وإلىٰ أحمد بن طرغلى، وما أجابا به من الحُضُور إلىٰ المهمِّ الشريف، والملتقىٰ فى المكان الذى عيَّنه حاكمُ سيواسَ، إلىٰ غير ذلك ممـا بَسَـط القولَ فيه [فقد علمناه](١) علىٰ الصُّورة التى شرحها، وتضـاعف شكرنا لهمّته العلية وتَقْدماته السعيدة .

وأمّا ما أشار إليه من آعتماده ما بَرَزتْ به المراسـيمُ الشريفةُ فى الجَوَاز الشريف الواردِ إليه علىٰ يَدِ مجلس الأمير الأجلِّ فلان الدين فلان ، والمطلَق الشريف المجهَّز علىٰ يده، وآمتثالِ ماتحمَّله من المشافَهة الشريفة، وتقدُّمه بجميع نُوّاب السلطنة الشريفة المكتوب إليهم، وعَقْد المَشُورة معهم علىٰ آعتماد ماآقتضتْه المراسيمُ الشريفة؛ وتعيين جاليش العسـاكر المنصورة ونائبِ السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسـة ومَنْ معه من الأمراء المقدّمين وأتباعهم من دمشقَ وحلَب المحروستين ، ونائب السلطنة الشريفـة بحماة المحروسة، ومن معـه من العساكر المنصورة ، وسَـيْرهم فى التاريخ الفلانى ، وسـيره فى أَثَرهم بمن بقِيَ معـه من العساكر المنصورة الشاميـة الحَلَبية ؛

---

(١) الزيادة يقتضيها تصحيح الكلام ولعلها ساقطة من قلم الناسخ .

وأن سيرهم على جهة بلد كذا على الصُّورة التى شرحها لما قصده من ذلك من المصلحة ، فقد علمنا ذلك على الصُّورة التى شرحها ، وشكرنا همته العالية ، وحُسْنَ فكْرته الصحيحة .

وأمَّا ماأشار إليه من أن نائب مَلَطْية جهَّز الكتاب الواردَ عليه من آبن تمرلَنْك ، على يد قاصدٍ من جهة تلمان(١) باللسان الأعجمىّ ، وأنه عَرَّبه وفَهِم مضمونَه وجهَّزه ليُحيط العلومَ الشريفة بمضمونه ، وهى على الخواطر الشريفة ، فيكونُ ذلك على الخاطر الكريم ، وشَكَرْنا همتَه العلية .

وأمَّا ماأشار إليه من ورود كتاب تلمان(١) عليه ، وهديَّته على يد قاصده ، وأنه لم يَقْبل هديَّته وأعاد جوابَهُ ، فإنه إن كان مناصحًا فى الخدمة الشريفة وهو صادقٌ فى كلامه ، فيحضُرُ إلى المهمِّ الشريف ، وما شرح فى هذا المعنى فقد علمناه على الصورة التى شرحها ، وشكرنا جميلَ آعتماده وسعيدَ رأيه . وكذلك أحاطت العلومُ الشريفةُ بما ذكره من أمر حاكم عربركبر(؟) وما شرحه فى ذلك ، فقد عَلِمناه على الصُّورة التى شرحها .

وأما ماأشار إليه من أمرِ مَلَطْيَةَ المحروسةِ ، وأنها تحتاج إلى الفِكْر الشريف ، والنظر فى أحوالها وترتيبِ مصالحها ، وإقامة عسكر لرجال يحُمونها من طوارق الأعداء المخذُولين : إلى غير ذلك مما شرحه فى هذا المعنى ، فقد علمناه على الصُّورة التى شرحها ، وبقِيَ ذلك على خواطرنا الشريفة . وعقِيبَها إن شاء الله تعالى تبرُزُ المراسيم الشريفةُ بما فيه المصلحة للبلد المذكور على أكمل ما يكون .

وقد آستَصْوَبوا رأىَ المقرّ الكريم فى هذا الفكر الحسن ، فإنه أمر ضرورىّ . وقد شكرنا للمقرّ الكريم جميلَ آعتماده ، وحسنَ رأيه ، وبَذْلَ همته وآجتهاده فى هذا

(١) كذا فى الأصل غير واضح .

المهمِّ الشريف . والقصدُ منه الاستمرارُ علىٰ ماهو فيه من بَذْل الاجتهاد فى المهمّات الشريفة بقَلْبه وقالَبه، والعملِ علىٰ بياض وجهه عند الله تعالىٰ، من الذَّبِّ عن عباده وبِلَاده، وبَذْل المـالِ والرُّوح فى رضا الله تعالىٰ ورسولِه صلّى الله عليه وسلم فى ذلك، واستقرارِ خواطِرنا الشريفة بذلك . فإن المقرَّ الكريم يعلم ما نحنُ مُثَابرون عليــه ، ومُنْقَادون إليه ، من محبَّة رضا الله تعالىٰ فى النصيحة بصَلَاح العباد، وعِمَارة البلاد، وتَسْــطيرِ ذلك فى صحائفِ حَسَنات الدهر بين يدِي الله تعالىٰ . والمقرُّ الكريمُ يعلم أن جُلَّ اعتمادنا عليه فى أكابر دولتنا الشريفة . ونحن واثقُونَ برأيه السديد فى حَرَكاته وسَكَناته فى المهمَّات الشريفة والأشغال السلطانية . ولأجل ذلك قرّبْناه، ورَضِينا به لنا وعلينا ، وكُلَّما بلَغَنا عنــه اعتمادٌ حسنٌ تتضاعَفُ منزلتُه عندنا . والآنَ فإنَّ نوّاب السلطنة الشريفة وأمراءَ دولتنا كبيرَهُم وصغيرَهُم تحت أمره ومشورته، وما بَقِي مثلُ هــذه الأيام المباركة والأوقات السـعيدة ، ولم يبقَ سِوىٰ انتهاز الفُرَص ، واغتنامِ أوقات السعادة، وهو الحاضرُ والنائب عنَّا فى كل ما يحصلُ من المصالح العائد نفعُها علىٰ البلاد والعباد . والمبادرةِ إلىٰ عملها من غير مُعاودة الآراء الشريفة فى كل قَضِيَّة تتَّفِق له ، فإن المسافةَ بيننا وبينه بعيدةٌ ، وتَضِيعُ المصلحةُ فى وصول الخطاب وعَوْدِ الجواب . وقد فَوَّضنا إليه الرأيَ فى ذلك، والعمل بمـا تقتضيه المصلحةُ الحاضرة، فى جليلِ الأمور ودقيقِها ، فيكون ذلك علىٰ خاطرِه الكريم، ويعملُ بمقتضاه . وقد أعَدْنا مملُوكه بهذا الجواب، فيُحيط علمُه بذلك .

*
* *

وهذه نسخة مكاتبة فى معنىٰ الرضا عن ابن دلغادر التُّرْكمانى وغير ذلك :

وتبدى لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمةَ وردتْ علىٰ يدِ فلانالدين فلان مملوكه ، فوقفنا عليها وعلمنا ماتضمَّنته .

فأما ماذكره فى معنىٰ آبن دلغادر، وتكْرار كُتُبه بالتصريح والتَّرامِى عليه فى سؤال الصدقات الشريفة فى الرِّضا والعَفْو عنه ، فقد علمنا ذلك ؛ والذى نعرِّف به المقرَّ الكريم أنا كنا رَسَمْنا بأن لا يُكتبَ له جواب وردِّ كتابه وقاصِده ؛ ولما تكرر آستشفاعه بالمقرّ الكريم، ودخل دخُولَ الحَرِيم، وعرفْنا أنه ضاقتْ عليه الأرض برُحْبها وأخلص فى النَّدَم، عطفت عليه الصدقاتُ الشريفةُ بالحُنُوّ والعفو كرامةً للمقرّ الكريم ، وإعلاءً لشانه، ورفعًا لمكانته ومكانِه . ورسمنا للمقرّ الكريم أن يكاتِبَ المذكورَ بهذا المعنىٰ، ويلتزم علىٰ نفسه العفوَ الشريفَ،والصَّفْح المُنِيفَ؛ وإيصالَ أنواع الخير وفوقَ مافى خاطِره من الأمان علىٰ نفسه وماله ، وغير ذلك . والذى نعرِّفه أنه كان جرىٰ علىٰ اللسان الشريف الحلِفُ أنه لابدّ من حضوره إلىٰ الأبواب الشريفةِ ودَوْسِ البِساط الشريف ، ولا بدّ من تحقيق ذلك لحصول البِرّ والخَلَاص من الحَلِف الشريف، وقيامِ النامُوسِ عند القريب والبعيد : ليعلموا أنَّ سلطاننا غالبٌ علىٰ مَنْ تمرّد ، ومراحِمَنا شاملة لمن يلتجئ إلىٰ حَرَم عَفْونا الشريف ، وأنه قريبٌ منه .

وأما ماذكره فى معنىٰ كَشْف الصَّفْقة الفلانية ، ووقوع الآختيارِ علىٰ فلان الدين فلان، وما عَرَضه علىٰ الآراء الشريفة من تقريره فى ذلك، وبُروزِ المَراسيم الشريفة بكتابة مرسومِه وتقرير غيره (١) ، فقد علمنا ذلك ورسْمنا بتقريرِه ، وكتبنا مرسومَه الشريف ، وجهَّزناه علىٰ يد فلانٍ العائدِ بهذا الجواب الشريف .

وأما ماذكره من جهة الزاوية المستجِدّة بشَقْحَبَ وتجهيزِ قائمةٍ متضمِّنة بما تدعو الضرورةُ إليه من تقرير السِّماط وأرباب الوظائف، وما عَرَضه علىٰ الآراء الشريفة من كتابةِ مرسومٍ شريفٍ مربَّع علىٰ حُكْمِها،أو بما تقتضيه الآراءُ الشريفةُ من زيادةٍ أو نَقْص، فقد علمنا ذلك ورسَمْنا به حسَبَ ما آقتضَتْه الآراءُ الشريفةُ (٢) : من آستقرار

(١) لعله وتقريره (٢) يظهر أن فى الكلام سقطا ولعله «وما عرضه علىٰ الاراء الشريفة من اخ» .

فلان الدين فلان فى الوِلَاية فى الثَّغْر المذكور ، فقد علمنا ذلك ورَسَمْنـا به ، وكتبنا مرسومَه الشريف ، وجهَّزناه على يد العائد بهذا الجوابِ الشريف . فالمقرُّ الكريم يوصِيه بُحُسْن السِّيرة وتَرْكِ ما كان عليه .

وأما ماذكره من جهة خُفَارة الجهة الفلانية ، وما عرضه على الآراءِ الشريفة : من إمضاء القائمة المجهَّزة بأسماء مَنْ قرّره فى الخفَر المذكور، فقد علمنا ذلك ورسْمنا بإمضائه حسَبَ ماقصده المقرُّ الكريم .

وأما ماذكره من جهة فلان المعتَقل بقلعــة دِمَشْقَ، ووقوفِ أولاده وعيالِه وشكواهم حالَهُم بعد كَشْف ما نُقِل عنه وعدمِ صحَّته وما عرضه على الآراءِ الشريفة من الإفراج عنه،فقد علمنا ذلك ورسْمنا به فيتقدّم أمر المقرِّ الكريم بالإفراج عنه .

وأما ماذكره فى معنى ما ورد به كتابُ النائبِ بالرَّحْبــة المحروســة : من الأخبار والمتجدّدات، فقد علمناه وصار على خواطِرِنا الشريفة .

وأما ماذكره من وصول قاصِدَىْ حاكِم الدَّرْبَنْد وحاكم القُنَيطِرة بما على أيديهما وتجهيزِ ماورد معهما من الكُتُب وآستئذانِ الآراء الشريفة على مانعتمِدُه فى أمرهما وفيمن يحضر بعدهمــا، فقد علمنا ذلك، وكتبْنا الجوابَ عن ذلك، وجهَّزناه قَرِينَ هذا الجوابِ الشريف، فيتقدّم باعادتهما إلى مُرسِلهما . وكذلك يفعَلُ فى كلِّ من حضر من تلك النواحى إلا فى مهمٍّ شريفٍ على عوائدِ هِمَمه . وقدأعدنا مملوكَهُ إليه بهذا الجواب الشريف، فيُحيط علمُ المقرّ الكريم بذلك .

مكاتبة أخرى ـــ من هــذ النمط فى معنى أمورٍ مختلفة . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ مكاتبته الكريمةَ وردتْ على يد المجلس السامىِّ الأميرى" فلان . فوقَفْنا عليها وعلْمنا ماتضمَّنته على الصُّورة التى شرحها .

فأما ماأشار إليه : من وصوله إلى دمشقَ المحروسةِ عائدًا من الأَغْوار السعيدةِ ، وأنه وجدها وسائرَ أعمالها وضواحِيهَا والسواحلَ والمَوَانى فى حِرْز الأمْن والسلامةِ ، فقد علمنا ذلك وحَمِدْنا الله تعالىٰ وشكرناه علىٰ ذلك .

وأما ما أشار إليه : من أنه جهَّز من متحصِّل دار الضرب السعيدة بدمشقَ المحروسة كذا وكذا مثقالا بمقتضىٰ رسالة وما قصَد من إعادة رَجْعةٍ شريفةٍ بذلك ، فقد علمناه ووصل المبلغ المذكور، وكُتِب به رَجْعةٌ شريفة علىٰ العادة فى مثل ذلك ، وجُهِّزت علىٰ يدِ فلان المشار إليه ، فيكونُ ذلك علىٰ خاطرِه الكريم .

وأما ماذكره : من أمر النُّحَاس وقِلَّته من عدم وصول شيء منه ، وأنه لم يُوجَد منه بعد الجَهْد سِوىٰ مبلغ عشرين قِنطارا عند الفَرَنْج ، وأمر الفُلُوس العُتُق وبقائها ، وكثرةِ الفلوس الجُدُد ، وقلّةِ وجُود الدِّرْهم والدِّينار ، وتوقُّف المَعَايِش بسببِ ذلك ، وما عرضه علىٰ الآراء الشريفة إن اقتضت الآراءُ الشريفةُ إبطال دار الضرب نحو شَهْرين إلىٰ أن يحضُر نحاسٌ يستعْمَل ، وتخِفَّ الفلوسُ ويستصرف مافى أيْدى الناس ، فقد علمنا ذلك وأجبْنا سؤاله فيه . ومرسومُنا أن يَعْمَل فيه بما تكون [به] المصلحةُ عامَّةً للرعية ، وتَبْطيل دار الضرب مدّةً يراها المقرُّ الكريم .

وأما ما أشار إليه : من أمر الأمير فلان وما قصده من حُسْن النظر الشريف فى حاله ، وما شرحه من ذلك ، فقد علمناه علىٰ الصُّورة التى شرحها ، وصار ذلك علىٰ الخواطِرِ الشريفة .

وأما ماأشار إليه : من أمر فلان ، وما اتَّفَق من الكَشْف عليه حسَبَ ما اقتضته المراسيم الشريفة ، وما ادَّعىَ عليه من كذا وكذا ، وما كُتِب عليه من المحاضر وتجهيزها إلىٰ الأبواب الشريفة ، وتجهيز المشار إليه إلىٰ الأبواب الشريفة صُحبةَ البَرِيدىّ المجهَّز

فى طلبه فى أثناء ذلك ، فقد علمنا ذلك علىٰ الصُّورة التى شرحها ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ به جملةً وتفصيلا، وبما اشتملت عليه المحاضرُ المذكورة ، وبقى ذلك علىٰ الخواطر الشريفة، واقتضتِ الآراءُ الشريفة إعادتَهُ ومن معه للخَلَاص من شَكَاته عند المقرّ الكريم ، وقد أعَدْناهم صُحبةَ من يَحْضُربهم إلىٰ المقرّ الكريم ليُكْشَف عليه وتَنَظّم المَحَاضر وتجهّز .

وأما ما أشار إليه من تجهيز (١) وتعريف الحِسْبة بالأسعار عن البرّ الفلانى علىٰ العادة فى ذلك إلىٰ الأبواب الشريفة، فقد علمنا ذلك ووصل ماجهّزه من ذلك ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ بما اشتمل عليه ، وشكَرْنا همةَ المقرّ الكريم وسعيدَ تَقْدِماته، وجميلَ اعتماداته . وقد أعدنا الأمير فلانا بالجواب الشريف ، فيُحِيط علمهُ بذلك .

قلت : وعلىٰ ذلك يُقاس مايُكتَب به إلىٰ سائر النُّوّاب بالشام والديار المصرية فَمَنْ دُونَهم ممن جَرتِ العادة بمكاتبته من الأبواب السلطانية فى الابتداء والجواب .

المأخـــذ الثانى

(فى مَعْرِفة أوضاع هـــذه المكاتبات)

أوّلُ مايجب من ذلك معرفة قَطْع الورق الذى يُكْتَب فيه . وقد سبق فى المقالة الثالثــة فى الكلام علىٰ قَطْع الورق بيانُ مقادير قَطْعه ، وأنَّ من جملتها قَطْع العادة: وهو القَطْع الصغير . وفى هذا القطع تُكتَب عامّةُ المكاتبات المتقدّمة، مما يكتب به لأرباب السُّيوف والأقلام بمصر والشــام علىٰ اختلاف مقاديرهم ، وتبايُنِ مَراتبهم

(١) بياض فى الاصل .

فى الرِّفعة والضَّعَة، خلا ما تقدّم ذكره : من أنه كُتِب إلىٰ والدة السلطان الأشرفِ « شعبان بن حسين » فى قطع الشامىّ الكاملِ . وقد تقدّم هناك أنَّ الكتابة فى قطع العادة جملةً تكون بقَلَم الرِّقاع . فتكون كتابةُ جميع هذه المكاتبات به .

ثم أوّل مايكتُبُ الكاتب فى المكاتبة التعريفُ بالمكتوب إليه : وهو أن يكْتُب فى رأس الدَّرْج ، من وجه الوَصْل، من أوّله ، من الجانب الأيمن « إلىٰ فلان » . ويكتب علىٰ سَمْته فى الجانب الأيسر « بسبب كذا وكذا » . ويكتب فى وسَطِهما علىٰ سَمْتِهما التعريفَ بالعلامة التى تُكْتَب . فإن كانت العلامةُ الآسمَ، كتب «الآسمُ الشريفُ » . وإن كانت بالأخوّة، كُتِب «أخوه» . وإن كانت بالوالِدِية، كتب «والده» . ثم يَقْلِب الدَّرْجَ فيكتُب علىٰ ظاهره عُنْوانَ المكاتبة فى أسفل ما كتب عليه فى رأس الورق باطنا من أوّل عرض الدَّرْج إلىٰ آخر ألقابِ المكتوبِ إليه . ويقلب الدعاء المبتدأ به فى المكاتبة ، فيدعُو له به فى آخر الألقاب . ثم يخلى بياضًا ويكتب تعريف المكتوب إليه : من نيابةِ سلطنةٍ أو ولايةٍ أو آسم أو غير ذلك . وتكون الأسطر متقاربةً متلاصقةً .

فإن كان المكتوب إليه النائبَ الكافلَ مثلا، كتب فى العنوان : «المقرّ، الكريم، العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ» إلىٰ آخر ألقابه . فإذا آنتهى إلىٰ آخر الألقاب ، كتب « أعز الله تعالىٰ أنصاره » . ثم يترك بياضا ويكتب : « كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ» بحيث ينتهِى آخر كتابة ذلك إلىٰ آخرِ السطر .

وإن كان المكتوب إليه كافلَ السلطنة بالشام، كتب : «المقرّ الكريم» إلىٰ آخر الألقاب «أعز الله تعالىٰ أنصاره» ثم يَتْرُك البياضَ المذكور؛ ثم يكتب : « كافلُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس » .

وإن كان المكتوب إليه نائبَ السـلطنة بحَلَب، كتب : « الجَنَـاب الكريم » إلىٰ آخر ألقـابه « أعز الله تعـالىٰ نُصْرته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائبُ السلطنة الشريفة بحَلَب المحروسة» .

وإن كان المكتوب إليه نائب الإسكندرية ، أو نائب طرابُلُس، أو نائب حَمَـاةَ ، أو نائب صَفَد ، كتب : « الجنـاب العالى » إلىٰ آخر ألقابهم « ضاعف الله تعـالىٰ نعمته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائب السـلطنة الشريفة بثغر الإسـكندرية المحروس » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسـة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بصَفَد المحروسـة » . وكذا فى البواقى بحسَبِ تعريف كلٍّ من المكتوب إليهم علىٰ ما مر ذكره فى مواضعه .

ثم إذا كتب العنوان : فإن كان المكتوب إليه ممن يكتب له «المَقَرّ الكريم» ، أو « الجناب العـالى » ، أو « المجلس العـالى » مع الدعاء ، ترك من أعلىٰ الدرج ثلاثةَ أوصالٍ بياضا بالوصـل المكتوب فى ظاهره العُنْوان ، ثم تكتب البسـملة فى رأس الوصل الرابع بهامش من الجانب الأيمن .

وإن كان المكتوبُ إليه ممن يُكْتَب له «المجلس العالى» مع «صدرَتْ» فما دُونَ ذلك، تُرِكَ فى أعلىٰ الدرج وصلانِ بياضًا فقط . وتكتَبُ البسملة فى رأس الوصل الثالث، ثم يكتَبُ سطران من أوّل المكاتبـة تحتَ البسملة علىٰ سَمْتِها ملاصقًا لها، ثم يُخلىٰ بيتُ العلامة بياضًا ويكتب السطر الثانى علىٰ رأس(١) إصبع أو نحوه من أسفل ذلك الوصل، ثم يكتب السطر الثالث فى الوصل الذى يليه علىٰ بُعْـد ثلاثةِ أصابع معترضات من السطر الثانى، ويؤتىٰ علىٰ ذلك إلىٰ آخر المكاتبة .

(١) المراد علىٰ قدر إصبع .

وقد كانتْ أوصالُ الوَرَق فى الزمن المتقدّم طويلةً : فكان يكْتَب فى كل وَصْل ثلاثةُ أسطر ، وبين كلِّ سطرين أكثَرُ من عَرْض ثلاثة أصابعَ . أما الآن ، فقَصُرت الأوصال ، وصار كلُّ وصل لايَسَع فى الغالب أكثَرَ من سطرين . فإذا آنتهىٰ إلىٰ آخر المكاتبة ، أخْلىٰ بياضًا يسيرا ، ثم كتب فى وَسَط الوصل : « إن شاء الله تعالىٰ » ثم يكتب : « كتب فى كذا من شهر كذا » فى سطر ، وتحته سنة كذا وكذا فى سطر تحته ، بينهما قدرُ إصبعَيْنِ ؛ ثم يكتب المستنَد بعد تقدير إصبعين . فإن كان بتلَقِّى كاتب السرّ كتب « حَسَب المرسومِ الشريف » . وعلىٰ ذلك يجرى الحكم فى جميع ما يُكْتَب فى البَرِيد ، وهو المختصُّ بالأمور السلطانية .

وإن كان من دار العدل بتلقِّى كاتب السِّرّ أو أحد من كُتَّاب الدَّسْت ، كتب : «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر ، وتحته « من دار العَدْل الشريف » فى سطر آخر . وإن كان بِقصَّة مشمولة بخطِّ السلطان ، كتب : «حَسَب الخطِّ الشريف» بمقتضىٰ أعلىٰ ذلك . وإن كان بخَطِّ النائب الكافِل ، كتب : « بالإشارةِ العالية الأميريَّة العاليَّة الفلانية» فى سطر ، وتحته فى سطر آخر « كافِلِ الممالك الشريفةِ الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ » . وإن كان بأمر الوزير ، كتب « بالإشارة العالية الأميريَّة الوزيرية الفلانية » فى سطر ، وتحته فى سطر آخر « مدَبِّر الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ » . وإن كان الوزير صاحب قلم ، كتب « بالإشارة العالية الوزيريَّة الصاحبِيَّة الفلانية ، مدبِّر الممالك الشريفة الإسلامية ، أعلاها الله تعالىٰ » سطرين علىٰ نحو ما تقدّم . وإن كان برسالة الدَّوَادار : فإن كان مقدَّمَ ألف ، كتب « برسالة الجناب العالى الأميرىّ الكبيرىّ الفلانىّ » فى سطر ، وفى سطر آخر تحته «الدَّاودَار الناصرىّ أو الظاهرىّ» ونحو ذلك «ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمتَه» . وإن كان طبلخاناه ، كُتِب بدل الجنَاب «المجلس» ويدعو له «أدام الله تعالىٰ

نعمتَه» . وإن كان بأمر الإستادَار ، كتب « بالإشارة العـاليةِ الأميريّة الفلانيـة إسـتادَار الفلانية أعلاها الله تعـالىٰ » . وإن كان من ديوان الجُيُوش المنصورة ، كتب «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر، وتحته «من ديوان الجُيُوش المنصورة» فى سطر آخر. وإن كان من ديوان الخَوَاصّ الشريفـة ، كتب « حَسَب المرسوم الشريف من ديوان الخَواص الشريفـة » علىٰ ماتقـدّم . وإن كان من الدولة الشريفـة : بأن يكون بخط ناظر الدواوين وهو قليـل ، كتب « حَسَب المرسوم الشريف من الدولة الشريفة» علىٰ نحو ماتقدّم . وقد تقدّم الكلامُ علىٰ المستَنَدات فى الجملة ، فى مقدّمة الكتاب عند الكلام علىٰ ديوان الإنشاء .

المَقْصَـــد الثـانى

(فى المكاتَبَات العامّة إلىٰ أهل هذه المملكة : وهى المُطْلَقات)

قال فى "التعريف" : وأقسامُها لا تخرُج عن ثمانية أقسام : إلىٰ الوجه القبلىّ ، وإلىٰ الوجه البَحْرىّ ، وإلىٰ عامّة الدِّيار المصرية ، وإلىٰ بعض البلاد الشاميـة ، وإلىٰ البلاد المصرية والشامية ، وإلىٰ الممـالك الإسلاميّة وما جاوَرَها ، وإلىٰ بعض أوليـاء الدولة ، كالأمراء بدمشق أو حلب ، وإلىٰ قبـائل العرب ، أو التُّرْكمان ، أو الأكراد أو بعضِهم .

قلت : والقاعدة فى المطْلَقات أنه إذا آجتمع فى المُطْلَق كبارٌ وصغَار، يغلَّب حكمُ الأكبرِ منهم علىٰ الأصغر : تعظيماً لأمر الأكابر . فإن كان فى المطلَق من الألقاب ماتختصّ به الأكابر دُونَ غيرهم ، آستُوْفِى للكبير مايختَصّ به من الألقاب وأُتِى بالقدر المشتَرَك فيه بعد ذلك .

ثم المطلقات منها مايُخْتَم . قال فى "التعريف" : وهو ما كان لبعض أولياء الدولة إذا كان فى سِرٍّ يُكْتَم ولا يُرادُ إظهارُه إلا عند الوقوف عليه ، فيُخْتَم علىٰ عادة الكُتُب . وهذا يكون عنوانُه بظاهره كما فى غيره من المكاتبات المُفْرَدة .

ومنها مالايُخْتَمَ ، وهو سائر المُطْلَقات . قال فى "التعريف" : وعُنوانُها (مخالف لعنوان)[1] الكُتُب المفردة للآحاد : فإنَّ تلك فى ظاهر الوَرَق ، وهذه فى باطن الورق ، فوقَ وصلين أو ثلاثةٍ ، فوقَ البسملة . ويقال فيها : مثالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلىٰ الوُلَاة والنُّوّاب ، أو غير ذلك من نحو مافى الصدر ، فيضَمَّن العنوانُ ملخَّصَ مافيه . ثم يقال : علىٰ ماشُرِح فيه ، أو حسَبَ ما شُرِح فيه . ومن قاعدتها أن يصَرَّح بذكر المكتوب إليهم فى المطْلَق ، بخلاف غيرها من المكاتَبَات المفرَدَة . قال فى "التعريف" : ثم بعد التعريف فى المطْلَقات الدعاءُ ، ثم الإفضاء إلىٰ الكلام ؛ وفى آخرها يتعيَّن أن يقال : «فلْيَعْلَمُوا ذلك ويَعْتمِدُوه» .

وحاصل مرجوعها إلىٰ ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(المطلَقات المكبَّرة)

قال فى "التعريف" : وهى مايكتب إلىٰ سائر النُّوّاب بالممالك الشريفة ، خلا سِيسَ فإنها مستَجِدّة ، غير أنه إن رُسِم باضافته إليهم ، فيحتاج إلىٰ تحرير الحال فى أمره : هل يُكْتَب له بعدَ نائب طَرَابُلُس أو بعد نائب صَفَدَ ؟ ولا يمكن أن يكون بعد مقدَّم العسكر بغَزَّةَ ، ولا نائبِ الكَرَك ، لأن رتبته فى المكاتبة أعلىٰ منهما . فإنها نظيرُ مكاتبة نائب طرابُلُس وحماة وصفد .

(١) فى الأصل "وعنوانها كعنوان" الخ وهو خطأ والتصحيح من التعريف (ص ٨٢)

قلت : هذا علىٰ ما كان الامر آستقرّ عليه من كونها نيابةً فى أوّل الأمر ، أما بعد آستقرارها تَقْدِمةَ عسكر، فإنه يكون بعـد مقدّم العسكر بغَزَّة : لأن كُلًّا منهما مقدّم عسكر ، ومقــدّم العسكر بغَزَّة أقدمُ من مقــدَّم العسكر بسِيس . وأيضــا فإن غَزَّة مضافةٌ إلىٰ دِمشْق وسِيسَ مضافةٌ إلىٰ حَلَب ، ودِمَشْقُ أكبرُ من حَلَب .

قال فى "التثقيف" : وصورةُ هذا المطْلَق أن يكتب فى الطُّرّة : «مثالٌ شريف مطْلَق إلىٰ الجنابين الكريمين، العاليين، الأميريَّين، الكافِليَّين، الفلانيين، نائبَيِ السلطنة الشريفة بالشام وحَلَب المحروستين، أعزّ الله تعالىٰ نُصْرتهما، وإلىٰ الجنابات العاليةِ الأميريَّة الفلانية أو الفلانىّ والفلانىّ» علىٰ الترتيب . ثم يقال : «نُوّاب السلطنة الشريفة بطرَابُلُس وصَفَد وحَماةَ المحروسات . وإلىٰ الجنَاب العالى والمجلس العالى الأميرىّ الأمــيرِيَّن الفلانيين أو الفــلانى والفلانى، مقــدّم العَسْكر المنصور بغَزَّة المحروسة، ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس، أدام الله تعالىٰ نعمتَهما، بمارُسِم لهم به أن يتقــدّم أمرهم الكريم بكذا وكذا ويشرح ما رسم به إلىٰ آخره . ثم يُخْــلِي بياضًا يسيرًا . ثم يكتب «علىٰ ماشُرح فيه» ويترك ثلاثة أوصال بياضًا بالوصل الذى تُكْتَب فيه الطُّرّة . ثم تكتب البسملة فى أعلىٰ الوصل الرابع . ثم يكتب قبل آخره بإصبعين ماصورته : «أعزّ الله تعالىٰ نُصْرة الجنابين الكريمين! وضاعفَ وأدام نعمة الجناب العالى، والمجلس العالى، الأميريَّة، الكبيرية، العالمية، العادلية، المؤيِّدية، الزعيمية، الغَوْثية، الغِيَاثية، المُثَاغِريَّة، المرابطيَّة، المشيِّدية، الظهيرية، الكافلية، الفلانية أو الفلانىّ والفلانى» إلىٰ آخرهم : « أعِزَّاء الإسلام والمسلمين، سادات الأمراء فى العالمين، أنصار الغُزَاة والمجاهدين، زُعَمــاء الجيوش، مقدَّمى العسا كر، ممهِّدى الدُّوَل، مشــيِّدى المـمـالك، عمادات المِلّة ، أعوانِ الأمة ، ظهيرِى الملوك والســلاطين ، سُيوف أمير المؤمنين ، نُوّاب الســلطنة الشريفــة بالشام وحَلَب

وطَرابُلس وحَمَاة وصَفَد المحروسات، ومقدَّم العسكر المنصور بغَزّة المحروسة، ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس» ثم الدعاء لهم بصيغة الجمع . ثم يقال : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى الجَنابين الكريمين والجَنابات العالية، والمجلس العالى، تُهْدِى إليهم من السلام كذا، وتُوضِّح لعلمهم الكريم كذا وكذا، فيُحيط علمُهم الكريمُ بذلك، والله تعالى يؤيِّدهم بمنّه وكرمه» . وتكمَّل بالمشيئة وما بعدها . والعلامة «أخوهم» . قال : فى "التثقيف" : وإن أضيف إليهم نائب سِيس (١) ... ... فى الطرَّة والصدر حسب ما تقدّم ذكره .

قال فى "التثقيف" : ومما ينبَّه عليه أنه قد يُكْتَب تارة إلى بعض هؤلاء النوّاب ويُخْتَصر البعض، بحسَب ماتدعُو الحاجة إليه، فيُكْتَب كذلك ويختصر منه من رُسِم باختصاره، ويُذْكَر كلُّ واحد منهم فى محلّه ومرتبته على الصُّورة المتقدّمة من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص . ثم قال : وهذا هو الذى لم يَزَل الحالُ مستقرّا عليه حين كانت مكاتبةُ نائب الشام «الجناب الكريم» نظيرَ نائبِ حلَب . أما الآن حيث آستقرت مكاتبته «المقرّ الكريم» . فإنه لايليق أن يكتب لغيره بألقابه الخاصّة به . وإن آختُصرت الألقابُ الخاصّةُ به كان فيه نقصٌ لرتبته؛ فيلزم من ذلك أن يكتب إليه على آنفراده، ويُكْتَب المطلَقُ لمَنْ رُسِم به ممَّن عداه من النوّاب المذكورين .

قلت : وقد رأيت فى بعض الدساتير كتابة المطلقِ الشاملِ لكافل الشام وغيرِه من النوّاب بعد آستقرار مكاتبة نائبِ الشام بالمَقَرّ الكريم على صورتين :

---

(١) بياض بالأصل ولعله يضاف، أو أضيف فى الطرة الخ .

الصورة الأولى — أن تُستوفى ألقابُ المقرّ الكريم بدعائه، ويؤتى بألقابه الخاصّة به، ثم يُعْطَف عليه الجناب الكريم، والجنابات العالية، والمجلس العالى، بالألقاب المشتَرَكة؛ ويميّز مايمكن تمييزه منها، ويكمّل على نحو ما تقـدّم: وذلك بأن يكتب فى الطرّة «مثالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلى كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس، أعز الله تعالى أنصاره؛ ونُوّابِ السلطنة الشريفـة بحَلَبَ، وطرابُلُس، وحماةَ، وصَـفَدَ، ضاعف الله تعالى نعمتهم؛ ومقدّمِ العسكر المنصور بغَزَّةَ وسِيسَ المحروستين، أدام الله تعـالى نعمتهما بمـا رسم لهم به» إلى آخره. ثم يُخْلِى ثلاثة أوصال، على ماتقـدّم؛ ويُكْتب تِلْوَ البسملة فى أوّل الوصـل الرابع: «أعزّ الله تعالى أنصارَ المقرّ الكريم العالى، المَوْلَوِىّ، الأميرىّ، الكبيرىّ، العابِدِىّ، الناسِكِىّ، الأتابِكِىّ؛ ونُصرةَ الجناب الكريم، وضاعف وأدام نعمة الجنـابات، والمجالس العاليـة، الأميريّة، الكبيريّة، العالمية، العادلية، المثاغِرِيّة، المرابطيـة، العَوْنية، الذُّخْرية، الغِياثيّة، الممهِّدية، المشيِّدية، المقدَّمية، الظهيرية، الكافلية، الفلانى والفلانى» إلى آخرهم: «معزّ وعِزّ الإسلام والمسلمين، سـيِّدى الأمراء فى العـالمين، ناصِر ونُصْرة الغُزَاة والمجاهـدين، زُعَماء الجيوش أتابك ومقـدّمى العساكر، ممهِّدى الدول، مشـيِّدى الممـالك، أعوانِ الأمة، كُهُوف الملة، ظُهَراء الملوك والسلاطين، عَضُد وسيوف أمير المؤمنين، كافل السلطنة الشريفـة بالشام المحروس، ونُوّاب السلطنة الشريفة بحلب، وطرابُلُس، وحماةَ؛ ومقدّم العسكر بغَزّة وسيس؛ ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس» ولا زال إلى آخره. «أصـدرناها إلى المقرّ والجنـاب الكريم والجنابات والمجالس العالية، تُهْدِى اليهم من السلام كذا، ومن الثّناء كذا، وتُبْدِى لعلمهـم الكريم كذا وكذا. ومرسومنا للمقرّ والجنـاب الكريم والجنابات والمجالس العالية أن يتقدّمُوا بكذا وكذا، فيُحيط علمُهم بذلك».

الصورة الثانية — أن تُكتَب الطرَّة على ماتقـدّم، ثم تكتبُ ألقـابُ المقرّ إلىٰ آخرها . ثم يقال : « وتبدى لعلمه الكريم وعلم الجناب الكريم والجنابات العاليـة والمجلس العالى الأميرية الكبيرية» إلىٰ آخر الألقاب «أن الأمر كذا وكذا . ومرسومُنا للمقرّ والجنـاب الكريمين والجنابات العاليـة والمجلس العالى أن يتقدَّمُوا بكذا وكذا، فيحيط علمهُم بذلك» والعلامةُ فى هذا المطلق « أخوهم » آعتبارا بالعَلَامة إلىٰ كافل الشام ونائب السلطنة بحلَب .

الضرب الثـانى
(المطْلَقـات المصَـغَّرة)

وقد ذكر لها فى "التعريف" قواعدَ كليَّة، وأشار إلىٰ آختلاف مَقَاصِدها فى ضمن الكلام الجُمْلىّ ، فقـال : وفى كلّها يُكتَبُ : « مثالنا هـذا إلىٰ كلِّ واقف عليه من المجالس السامية ، الأمراء ، الأجلَّاء ، الأكابر، المجاهدين، المؤيدين، الأنصار ، الغُزَاة ، الأنجاد ، الأمجـاد ، أمجادِ الإسـلام ، أشرافِ الأمراء ، أعوانِ الدولة ، عُدَد الملوك والسلاطين : الوُلَاةِ، والنوّابِ ، والشادِّين، والمتصرِّفين، بالوجه الفلانى، أو بالديار المصرية ، أو بالبلاد الشامية ، [أو بالبلاد الفلانيـة ، أو بالديار المصرية والبلاد الشامية(١)] وسائر الممـالك الاسلاميـة » . قال : وقد يزاد فى هذا لمقتضـيه : «والثُّغُور والحُصُون والأطراف المحروسة» . قال : فإذا كان إلىٰ الممالك الاسلامية ، قيل «بالديار المصرية، والبلاد الشامية، وسائر الممـالك المحروسة ، وما جاوَرَها من البلاد الشَّرْقية، والممالك القانِيَّة» . وقد تكون إلىٰ جهة الرُّوم . فيقال : «وما جاوَرَها من البلاد الروميَّة ومايليها» . ثم عَقَّب ذلك بأن قال : فأما إذا كان إلىٰ بعض أولياء

(١) ساقط من قلم الناسخ والتصحيح من التعريف .

الدولة نظر : فإن كان إلىٰ عامّة أمراء دِمَشْق ، قيل : « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجالس العالية الأمراء » . وبقيــة الألقاب من نِسْبة مايكتبُ للمجلس العــالى . فإذا آنتهىٰ إلىٰ أعضاد الملوك والســلاطين ، [أو عضد الملوك والسلاطين ويجوز إطلاق هــذا الافراد علىٰ الجمع](١) قال : جماعة الأمراء مقــدّمى الألوُف ، وأمراء الطبلخاناه، وسائر[مجالس الأمراء](١) أمراء العَشَرات، ومقدّمى الحَلْقة المنصورة . وإن كان يُكتبُ إلىٰ حلَبَ أو غيرها من الممالك فبالسامِيَة . وإن كان لأمراء العُرْبان أو التُّرْكُمان أو الأكراد، كُتِب علىٰ عادة المطلَقَات بالسامِية، وكتب بعد عُدَد الملوك والسلاطين «الجماعة الفلانية» أو غير ذلك مما يقتضى التعريفَ بمن كُتِب إليه .

أما فى ”التثقيف“ فقد رتَّب المطلقات المصَغَّرة علىٰ ستة أصناف :

الصنف الأوّل — المطلقات إلىٰ جميع نُوَّاب القلاع بالمملكة الشامية، أو بالمملكة الحَلبِيَّـــة .

وصورة ما يكتب إليهم فى الطرَّة : « مثــالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلىٰ المجالس العالية والسامية الأميريَّة ، ومجالس الأمراء النُّوّاب بالقلاع الفُلَانية المحروســة ، أدام الله تعالىٰ نعمتَهم بمــا رُسِم لهم به من كذا وكذا» إلىٰ آخره.ثم يقال : علىٰ ماشُرِح فيه ؛ ثم يُخْلىٰ وصْلَان بيــاضا بوصل الطرّة؛ ثم تكتب البسملة فى أعلىٰ الوصل الثالث ؛ ثم يكتب بعــد البسملة : « صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلىٰ المجالس العاليــة والسامية الأميريَّة » وبقية ألقابهم . « ومجالِس الأمراء الأجِلَّاء، الأكابر، المجاهديـــن ، المؤيِّدين، الأنصار، أمجاد الإســلام والمسلمين ، شَرَف الأمراء فى العالمين، أنصار الغُزَاة والمجاهــدين، مقدّمى العساكر ، كُهُوف المِلّة ، أعوانِ الأمّة ، ظهيرى الملوك

(١) الزيادة من التعريف .

والسلاطين، النوّاب بالقِلَاع المنصورة بالمملكة الفلانية المحروسة». والدعاء إلى آخره «موضحة لعلمهم كذا وكذا . ومرسومُنا للمجالس العالية والسامية، ومجالس الأُمَراء أن يتقدّموا بكذا وكذا، فيُحيطُ علمُهم بذلك . والله تعالى يؤيِّدهم بمنِّه وكرمه» والعلامة «والدهم» .

الصنف الثانى — المطْلَقات إلى أصاغر نوّاب القِلَاع، ممن يكتب إليه بالسامىّ بالياء، أو بالسامى بغير ياء، أو بمجلس الأمير .

وصورة مايكتَب إليهم فى الطرَّة : «مثالٌ شريفٌ مطلَق إلى المجالس الساميَّة، ومجالس الأمراء النوّاب بالقلاع الفلانية، أو بوِلاية فلانة وفلانة، أدام الله تعالى عُلُوّهم» بما رُسِم لهم به نظير ماتقدّم . وبعد البسملة : «مثالُنا هذا إلى كلِّ واقف عليه من المجالس الساميَّة، ومجالس الأمراء، الأَجِلَّاء، الأكابر، الغُزَاة، المجاهدين، المؤيِّدين، الأنصار، أمجاد الإسلام، أشراف الأمراء، زُيُون المجاهدين، عُمَد الملوك والسلاطين، أو عُدَد الملوك والسلاطين، النُّوّاب بالقلاع الفلانية المحروسة» حَسَب ما كتب فى الطرّة، والدعاء «يتضمن إعلامهم أن الأمر كذا وكذا ومرسومنا للمجالس الساميَّة ومجالس الأمراء أن يتقدّموا بكذا وكذا، فلْيعلموا ذلك ويعتَمِدُوه ويعملوا بحَسَبه، والله الموفق بمنِّه وكرمه» والعلامةُ الآسم الشريف .

الصنف الثالث — المطلقات إلى عُرْبان الطاعة بالممالك الشاميَّة .

والأمر فيه كما فى الصنف الذى قبله . قال فى "التثقيف" : فإن كان المطْلَق إلى طائفة من العُرْبان ممن له عادةٌ بمكاتبة جليلة : بأن تكون العلامة «والده» أو نحو ذلك : كآل مُهَنَّا، وآل فَضْل، وآل علىّ، وآل مِرَا، ونحوهم، فإنه تكونُ صورة مايكتب فى الطُّرة : «مثالٌ شريفٌ مطلق إلى جماعة العُرْبان، آل فلان»

إلىٰ آخره . وفى الصدر بعد البسملة : «مثالُنا هذا إلىٰ كلِّ واقف عليه من المجالس السامية ومجالس الأمراء» وبقية الألقاب «الكُشَّاف(١) والوُلاة والنواب بالوجهين القبلى والبحرىّ» . ثم الدعاء . ثم يقال : «يتضَمَّن إعلامهم كذا وكذا» . ثم البقية من نسبة ما تقدّم .

قال فى "التثقيف" : وغالبا يُفْرَد الوجه القبلىّ بمطلقٍ شريف ، والوجه البحرىّ بمطلقٍ شريفٍ . قال : وقد تضافُ إلىٰ الوجه البحرىّ الثُّغُور . فيقال : «الكُشَّاف والوُلَاة والنُّوّاب بالوجه البحرىّ والثُّغُور المحروسة » . قال : وإضافة الثُّغُور لاتقع إلا نادرا ، لا سيما وقد صار ثغرُ الإسكندرية نيابةً لا ولايةً . ثم قال : وفى هــذا الوقت قد يتعذَّر إضافة نائب الوجه القبــلىّ مع الوُلَاة فى المطلق لآرتفاع مكاتبته عنهم بدرجات ، فيفْرَد بمثالٍ شريف ، ويُكْتَب المطلق إلىٰ بقية الكُشَّاف والوُلَاة . ثم قال : هذا الذى يظهر .

قلت : ويمكن أن يجمع معهم ، بأن يكتب : «أدام الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» إلىٰ آخره . ثم يقال : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى» إلىٰ آخره «وتُوضِّح لعلمه الكريم وعلم المجالس السامية ومجالس الأمراء» إلىٰ آخر ألقابهم «الوُلَاةِ بالوجه القبلى» أن الأمر كذا وكذا : ويكمل علىٰ ماتقدّم .

قال فى "التثقيف" : ومما جرَتِ العادةُ به أن يُكتَب مطلقٌ شريفٌ إلىٰ الأمراء بالمملكة الطرابُلُسيَّة ، أو الحَمَوية ، أو الصَّفَدية وغيرها ، عنـد ولايةِ نائب السلطنة

(١) من هنا إلىٰ قوله بعد قال فى التثقيف ومما جرت العادة به الخ لا يتعلق بالكلام على مطلقات عربان الطاعة بالممالك الشامية الذى هو موضوع الصنف الثالث كما لا يخفى ، ولعله مقدّم مما يأتى بعد فى الكلام علىٰ المطلقات بالديار المصرية فتنبه .

بتلك المملكة بإعلامهم بذلك ؛ فيكتب علىٰ هذا الحكم، ولكنه بعُنْوانٍ بغير طُرَّة .
قال : وصورته فى الصدر بعد البسملة : «مثالُنا هذا إلىٰ كلِّ واقف عليه من المجالس السامِيَّة ، ومجالس الأمراء الأجِلَّاء الأكابر» إلىٰ آخر الألقاب، والدعاء «يتضمن إعلامهم كذا وكذا» إلىٰ آخره كما تقدّم،ولكنه لايصَرَّح بذكر الوُلَاة والنوّاب كما يصَرَّح بذكر من يُكْتَب إليـه المطلقُ فى غير هذه الحـالة . والعنوان : « المجالس السامية ومجالس الأمراء الأجِلَّاء الأكابر» إلىٰ آخر الألقـاب والنُّعوت جميعها ، والدعاء ، والتعريف «أمراء الطبْلَخانات والعَشَرات بطرابلس المحروسة، أو بحماةَ، أو بصَفَد، أو بغزَّة . قال : أما مملكتا الشـام وحلب ، فإنه لم تجر العـادةُ بكتابةِ مطلق بولَاية نائبهـما، بل يُكتب إلىٰ أمير حاجب بتلك المملكة بإعلامه بذلك . وأما الكَرَك : فإنه يكتب إلىٰ والِى القلعـة به بمثـل ذلك . وكـذلك يكتب إلىٰ الحـاجب بالإسكندرية مثل ذلك .

وهذان شيئان يجب التنبه لهما .

أحدهما كلُّ ما كان من ألقاب المطْلَقات بصيغة الجمع وهو (١) كأعضاد، فإنه يجوز فيه الإفراد فيقال : فيه عَضُد، وهذا مما نَبَّه عليه فى "التعريف" فى الكلام علىٰ المطلقات .

الثانى . قال فى "التثقيف" : فإن قلت : لأىّ شيءٍ تُذْكَر أسماء الوُلَاة والنُّوّاب والعُرْبان وغيرهم فى الصَّـدْر بعد تمـام النُّعوت وقبل الدعاء، ولا تُكْتَب فى صدر المطلقات إلىٰ الأمراء بالممـالك المتقدّمة الذكر عنـد ولاية النائب بهـا أو غيره ؟

(١) بياض بالأصل . ولعله وهو فى الأصـل مصدر كأعضاد الخ كما تقدم مثله للؤلف فى الألقاب مرارا، فتنبه .

فالجواب أن ذلك فى صدر المثال الشريف هو التعريفُ الذى من عادته أن يكون فى العُنْوان ولا يُستغنىٰ عنـه فهو قائم مَقامَه، حيث لاعُنْوان لذلك المطلَق ، إنمـا هو بطرَّة لاغير ، ولهـا عُنْوانات ، والتعريف مـذكورٌ فيهـا فلا حاجة إلىٰ ذكره فى الصدر . ثم قال : ومن الجمـاعة من يُنازع فى ذلك، ويدَّعى أنَّ ذلك فى الطرَّة كافٍ ومغْنٍ عن ذكره فى الصدر، وقائمٌ مقام التعريف فى العُنْوان . ثم قال : وهو خطأ، وليس بشىءٍ . والأصح ماقلناه .

[الصـنف] (١) الرابع — قال فى "التثقيف" : إذا كان المطلق فى أمر يتعلَّق بالديار المصرية والبـلاد الشامية، تكون صـورتُه « إلىٰ الكُشَّاف والوُلَاة والنوّاب والشادِّين والمتصرفين بالطُّرُقات المصرية والبلاد الشامية . وإن كان يتعلق بالبلاد الشامية خاصة، ٱختُصِر منه ذكر الطرقات المصرية» .

[الصنف] (١) الخامس — ذكر فى "التعريف" أنه يقال فى آخر المطلقات بعـدَ فلْيَعْلَموا ذلك ويعتمِدُوه : «بعد الخط الشريف» . قال فى "التثقيف" ولعل هذا كان فى الزمن الذى كان هو مباشرا فيه، أما الآنَ فإنه لم تجر بذلك عادةٌ، ولم يكتب ذلك فى مطلق شريف مكَبَّر ولا غيره أصلا .

[الصنف] (١) السادس — ذكر فى "التثقيف" أنه رأىٰ بخط القاضى ناصر الدين ٱبن النَّشائى أنه كتب مطلقا إلىٰ المجاهدين بِمِصْـياف ؛ يعنى الفِـداوية صورته : « يعـلَمُ كلُّ واقف علىٰ مثالنا هـذا من المقدّمين الأجلاء الغُزَاة المجـاهدين المؤيِّدين الأنصار، الأتابِك فلان والأتابِك فلان جماعة المجاهدين» ثم الدعاء .

(١) زدنا هذا اللفظ توضيحا للقام وتمما لمقسم الكلام .

الضـــرب الثـانى

(من المطلقـات ، البرَالغ)

بالباء الموحدة[1] والراء المهملة والألف واللام والغين المعجمة جمع بَرْلَغ ، وهى لفظة تركيـة معناها المرسوم ؛ وعليهـا جرىٰ عُرْف كُتَّاب بلاد الشرق ، وقلَّ أن تُكْتَب بالديار المصرية ، ولذلك لم يتعرَّض لها فى "التعريف" ولا فى "التثقيف" : وهذه صورة بَرْلَغ شريف رأيتهـا فى تذكرة المَقَرّ الشهابىّ بن فضل الله فى الجزء السادس والأربعين منها ، بخط أخيه المَقَرّ العلائىّ بن فضل الله رحمهما الله تعـالىٰ ؛ كتب فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» . فى عاشِر شهر رجب الفَرْد سنةَ تسع وعشرين وسبعمائة لتمربُغَا ، الرسولِ الواصل إلىٰ الديار المصرية ، عن القانِ أبى سعيدٍ صاحب مملكة إيران بالإكرام والمساحة بمـا يلزمه . وصورته فى أوّل الدرج .

مثـالٌ شريفٌ مطلق إلىٰ كافَّة من يصل إليه ، ويقف عليـه ، للمجلس السامىّ الأميرىّ السيفىّ تمربغا الرسول ، بالطَّرْخانيَّة ، وتمكينِ أصحابه من التردُّد إلىٰ الممـالك الشريفة الإسلامية ، وإكرامِ حاشيتهم وتسهيل مَطْلَبهم ، ومسامحتِهم فى البيع والشِّراء بمـا طُلِب من الحقوق علىٰ آختلافها ، وتحذيرِ من سَمِـع هذه المراسيمَ المطاعة ثم أقْدم علىٰ خلافها . وبعد البسملة :

الحمد لله الذى بسط أيدينَا الشريفةَ بالجُود ، ونَصَب أبوابَنَا الشريفة كعبةً تهوِى إليها أفئدةُ الوُفُود ، وأطاب مَنَاهِلَها لكافَّة الأُمَم لتتَنَابَهَا فى الصُّدُور والوُرُود .

نحمَدُه علىٰ نعَمِه التى كَمْ بلَّغتْ راجيًا مايرجُوه ، ونشهد أنْ لاإلٰهَ إلا الله وحدَهُ لاشريك له شهادةً تبيضُّ بهـا الوُجوه ، ونشهد أن محمدا عبدُه ورسوله الذى نَدَب

---

(١) كتب بهامش الأصـل ما نصه « لو لم يقيـده بالباء الموحدة لكان أولى على مالا يخفى » ومراده أنه بالمثناة التحتية كما تقدم .

إلىٰ مَكَارم الاخلاق بقوله : «إذا أتاكُمْ كَرِيمُ قومٍ فأكْرِموه» ، صلىّٰ الله عليه صلاةً تزيد من يَقْرُن الثناء بهاتكريمـا ، ثم علىٰ آله وصحبه وسلّم تسليما .

وبعد : فإنه لمـا حضر المجلسُ السامىُّ الأميرىّ ، الأسفَهْسَلارىّ ، السَّـيْفىّ ، مجدُ الإسـلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، ناصحُ الدولتين ، ثقةُ المملكتَيْن ، فخرُ الخواصِّ المقرَّبين ، عضدُ الملوك والسلاطين ، تمربغا الرسول ـ أنجح الله تعالىٰ مَسَاعيه ، وأوجب الرعاية لمن يُراعِيه ـ إلىٰ أبوابنا الشريفة ونُورُ ولائه يَسْعىٰ بين يديه ، وإخلاصُ نيّته يَظْهر عليـه ، بلَّغ إلينا ماأُرسل فيه عن الحضرة الشريفة العاليــة ، السلطانيةِ ، العالميَّةِ ، العادليَّة ، الشاهنشاهية ، القانيَّة ، الأوحدية ، الوَلَدية ، العزيزية ، المعظَّمية ، المَلَكية ، العلائيــة ، أبىٰ سعيد بَهَادِر خان ـ زِيدتْ عظمتُـه ـ وظهر لنا من كمال صِـفاتِه ما رمىٰ البدْرَ التمـام بنَقْصه ، ومن حسن تأتّيــه فى خِدمةِ من أرسـله مايُعْرَف به أنه أرسل حكيما ولم يُوصِّه ، وعَرَضَ علىٰ نظرنا الشريف البرلغ الشريف المكتتَب له عن الحضرة الشريفة ، السلطان الأعظم ، الولد العزيز المعظَّم ، الملك بو سعيد ، أعز الله تعالىٰ شأنه بالطَّرْخانِيَّه ، وما نَبَّه عليــه من مكانته العليه ، ورَقَّه مطالبه من تأكيد الوصِيّه ، ثم رَغِب إلينا فى الكتابة علىٰ حُكْمِه إلىٰ كافَّة الممالك ، وأن يُسَطَّر له منها صحائفُ حَسَـنات تقضِى بها الملوكُ وترضىٰ بها المَلَائك ، فأجْرَتْه مراحمنا الشريفــةُ علىٰ كرمها المُعْتاد ، وأجارته نِعَمُنا الجزيلةُ وجاورَتْه حيث سار من الأرض أو أقام من البِلاد ، وأجابت صدقاتُنا الشريفة بتحقيق المأمول ، وأكرمت كتابَهُ بمـا يستحق أن يكرم به كتابُ الرَّسُول . ومرسومُنا إلىٰ كلِّ واقف عليه من النُّوّاب والوُلَاة والشادِّين والمتصرفين والمبـاشرين والمتحدِّثين وبقية الحكام أجمعين إلىٰ كافة الممالك الشريفة الإسلامية شرْقًا وغَرْبا ، وبُعْدا وقُرْبا ، أيَّدهم الله بالتوفيق ، ويَسَّر لهم الطريق ، وجعل حُسْن تلَقِّيهم الوفودَ يأتِى بهم من كلِّ فَجٍّ عَمِيق ، أن يُجْرىٰ

الأمير الكبير المقرَّب تمربغا الرسول علىٰ ماألِفَه فى أبوابنا الشريفة من كَرَم إكرامه، وفارقنا عليه من توقير جانبه وتَوْفير آحترامه؛ وُيُفْسَح لكلِّ من يصل من جِهَتِه فى التردُّد إلىٰ هذه المَمَالك الشريفه، والتردِّى بملابس النِّعم المُطيفه؛ وأن تُضاعَف له الإعانة والعِنَايه، والمُراعاة والرِّعايه ؛ ولا يُطْلَب أحد منهم فى البيع والشِّراء، والأَخْذ والعطاء، بشيءٍ من المَقَرَّرات الدِّيوانيه، والمُوجَبات السلطانيه؛ولا يُؤْخَذ منهم عليها شيءٌ سواء كان قليلًا أو كثيرا، جليلًا أو حَقِيرا ؛ ولا يَتَأوَّلُ عليهم أحدٌ فى هذا المرسوم الشريف ، ولا يتعدّىٰ حكمَه فى تصرُّف ولا تَصريف ؛ بل يقف كلٌّ واقف عليه عنده، ويعمَلُ به فى اليوم وما بعدَه ، ويلحَظُ منه علىٰ مَن خالفه سيفًا مسلولاً وعلىٰ مَنْ تجاوز حَدّه؛ فنحن نحذِّر ونُنْذِر من سَطَواتنا الشريفة من سمعه ثم زاغ قلبُه عنه، أو مَنْ بلغه من لايفهم مضمونَه ثم لايسأل عمَّا هو فُرُبَّ حامل كلامٍ إلىٰ مَنْ هو أوعىٰ منه؛ فلْتَكُنْ عيونُهم له مُراعِيَه، ومسامعُهم منصتةً إلىٰ سماعه بأُذُنٍ واعيه؛ والاعتماد علىٰ الخطِّ الشريف أعلاه الله تعالىٰ وشرّفه .

المقْصِـــد الثـالث

(من المكاتبات، فى أوراق الجَوَاز وبطَائق الحَمَام، وفيه جملتان)

الجمـلة الأولىٰ

(فى أوراق الجَـوَاز)

وهى المعبَّر عنه فى زماننا بأوراق الطَّريق . قال فى "التثقيف" : تكون ورقةُ الطريق فى ثلاثةِ أوصال فى قَطْع العادة، يُكْتَب فى أعلاها سطرٌ واحدٌ، صورته : «ورقةُ طريقٍ علىٰ يد فلان بن فلان الفلانى» لاغير . ثم يُخْلىٰ بيتُ العلامة تقديرَ شبر، ويكْتَب فى بقية ذلك الوصل قبل الوصل الثانى بأربعة أصابع مطبوقةٍ بغير

بسملة : « رُسِم بالامر الشريف العالى المولوىّ السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ وشرّفه ، وأنفــذه وصَرَّفه ـ أنْ يمكَّن فلان الفلانىُّ » . وتُذْكر ألقابه إن كان أميرا ، أو متعمّما كبيرا ، أو ممن له قدر ، أو له ألقاب معهودة أو غير ذلك بحسَب ما يقتضيه الحــال « من التوجه إلىٰ جهة قَصْـده والعَوْد . ويحمل علىٰ فرسٍ واحدٍ أو أكثر من خيــل البريد المنصور من مَرْكزٍ إلىٰ مَرْكز علىٰ العادة متوجّها وعائدا » فإن كان متميز المقــدار كُتِب : « ويعــامَلُ بالاكرام والاحترام ، والرِّعاية الوافرة الأقسام ؛ فليُعْتَمد ذلك ويُعْمَلْ بحسبه ، من غير عُدُول عنه بعــد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه » . قال : وما تقدّم من كتابة أنه يمكّن من التوجُّه والعَوْد ، هو فيما إذا كان عائدًا ورُسِم بتمكينــه من العَوْد ، وإلا فيكتَب « أنــ يمكّن من التوجُّه إلىٰ جهة قَصْده » . فإن كان قد حضر إلىٰ الأبواب وهو عائدٌ ، فالأحسن أن يكتب فيــه « أن يمكَّنَ من العود إلىٰ جِهَة قصده » . وكذا « ويعامل بالإكرام والاحترام » لا يكتَبُ إلا لأمير ، أوذى قَدْر كبير . فإن كان غيْرَه ، كتب [بَدَ]له « مع الوصيَّة به ورِعَايته » ونحو ذلك . وإن رسم له بنفَقَة ، كتب بعد ذكر خيل البريد : « ويُصْرَف له من النَّفَــقة فى كلِّ يومٍ كذا وكذا دِرْهمــا » خلا الأماكن المرسوم بإبطالهــا . وذلك أن بالطُّرُقات أماكن لا يُصْرَف فيها شيء الآنَ ، فيُحتاجُ إلىٰ أن تُسْتثنىٰ ، وكانت قبل ذلك تُعيَّنــ ، وهى : بُلْبيْسُ ، وطَفيس ، وأَرْبَدُ وغيرها . ثم كثُرت عن التَّعْداد ، فصار يكتب كذلك . ثم قال : وممــا ينبَّه عليه أن صاحب ورقة الطريق إنْ كانــ من ممــاليك النوّاب أو رُسُل أحدٍ من أكابر البلاد ، ذكر فيه بعد ذكر مايليق به من الألقاب : « فلانٌ مملوكُ فلان أو رسول فلان » . وتُذْكَر ألقاب مخدومه التى كوتب بها اختصــارا . والا تذكر (١) نعوته علىٰ يدِ من رسم بنفيه ،

(١) كذا فى الاصل ولعله ولا تذكر نعوته وعلىٰ يد مَنْ ، وإن رسم بنفيه كتب الخ تأمل .

كتب : «أنْ يمكَّن الأميرُ فلان الدين فلان من التوجُّه صُحبة فلان البريدىّ بالأبواب الشريفة، أو أحد النقباء بالباب الشريف ليوصِّله إلى المكان الفلانى، ويحمل على كذا وكذا فرسًا من خيل البريد المنصور» إن كان قد رُسِم له بشىء من خيل البريد «ويحمل البَرِيدى على كذا من خيل البريد المنصور» أو «ويحمل النقيبُ على فرسٍ واحدٍ من خيل الكِرَاء من ولاية إلى ولاية على العادة فى ذلك، ويمكَّن البَرِيدىّ إن كان بَرِيديًّا أو النقيبُ إن كان نقِيبًا من العود إلى الباب الشريف» . ثم يكمل بنسبة ماتقدّم . وإذا فرغ من صورته، كتب بعد ذلك «إن شاء الله تعالى» ، ثم التاريخ والمستَنَد على العـادة .

قال : فى "التثقيف" : والمستَنَد فى أوراق الطريق أحدُ ثلاثة أمور : إماخطُّ كاتب السر، وهو الغـالب . أو رسالةُ الدَّوادَار، وهو كثير أيضا . أو إشارةُ نائبِ السلطان إن كان ثَمَّ نائب، وهو نادر . فإن كان بخطّ كاتب السر، كُتِب على الهامش من الجانب الأيمن سَطْر واحد يكون آخرُه يقابل السطرَ الأوّل الذى هو رُسِم بالأمر الشريف ، وهو «حَسَبَ المرسوم الشريف» . وكذا إن كان بإشـارة النائب، كُتِب سطران على الهامش المذكور آخرهمـا أيضا يقابل أوّل السطر الأوّل «بالإشـارة العـالية» (١) كما تقدّم فى الكلام على المستَنَدات فى المقالة الثانية . قال : وفى هاتين لايُكْتَب فى ذيلهما بعد التاريخ سِوى الحَسْـبَلة لاغير . وإن كان برسالة الدَّوَادار، كتب على الهـامش «حَسَب المرسوم الشريف» فقط، وكُتِب تحت التاريخ سطران هما «رسالةُ المجلس العالى الأميرىّ الفلانىّ فلان الدَّوادار المنصورىّ أدام الله تعالى نعمته» ، ثم الحَسْبَلة .

(١) صوابه الثالثة . والذى تقدم فى ج ٦ ص ٢٦٤ «فيكتب» ــ بالاشارة العالية الأميرية الكبيرية الكافلية، كافل المـالك الشريفة الاسلامية أعلاها الله تعالى ــ سطرين ويكون آخر السطر الأوّل الكافلية الفلانيـــة .

الجمـــــلة الثانية

(فى نُسَخ البطائق، وهى علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(أن تكون البِطاقةُ بعلامةٍ شريفةٍ)

قال فى" التثقيف" : وتكونُ نحوَ ثلثَى وَصْل من ورق البَطائِق . قال : وصورتها أن يكتب فى رأس الورق المذكور فى الوسط سَواءً « الآسمُ الشريف » وتحتَه مُلْصَقا به من غير بياض سطرٌ واحدٌ كامل من يمين الورق بغير هامش بما يأتى ذكره . ثم يُخْلى بيتُ العلامة تقديرَ أربعة أصابع مطبوقةٍ، ثم تُكتَب تتمةُ الكلام أسطرا متلاصقة بنسبة الأول، بغير هامش أصلا إلىٰ آخره . والذى يكتب من يمين الورق . «الله الهادى . سُرِّح الطائرُ الميمونُ ورفيقُه، هداهما الله تعالىٰ فى الساعة الفلانية من اليوم الفلانىّ من الشهر الفلانىّ من سنة كذا وكذا، إلىٰ المجْلس الكريم، أو السامى ، الأمير فلان وَالِى فلانة ، أو نحو ذلك ، يُعْلِمه أنَّ الأمر كذا وكذا . ومرسومُنا له أنْ يتقدّم بكذا وكذا ، فلْيَعْلمْ ذلك ويعتمِدْه ، والله الموفِّق بمنِّه وكرمه إن شاء الله تعالىٰ ، حَسْبنا الله ونعم الوكيل » . والمستندُ لها « حَسَبَ المرسومِ الشريف» .

الضرب الثانى

(أن تكون بغير علامـــة)

وصورتها أن يكتب فى رأس الورقة فى الوسط موضِعَ الآسم : «الله الهادى بكرمه » ، والأسطر متلاصقةٌ بغير هامش، ولا يُخلىٰ فيها بيتُ علامة . وصورة

مايكتب فيها : «المرسوم بالأمر الشريف، العالى، المولوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ، الفلانى، أعلاه الله تعالىٰ وصَرَّفه ـ أنْ يُسَرَّح هذا الطائر الميمونُ ورفيقُه، هداهما الله تعالىٰ فى وقتِ كذا وكذا» . ويكمِّل علىٰ حَسَب ماتقدّم «والله الموفق، حَسَبَ المرسوم الشريف، إن شاء الله تعالىٰ» . قال فى "التثقيف" : وقد يقتضِى الحالُ نقلَها من مكان إلىٰ مكان آخرَ، مثل أن تنقل من بلبيس إلىٰ قَطْيَا، فيكتب بعد ذكر المرسوم به : «ويتقدّمَ بنقل هذه البِطاقةِ إلىٰ فلانٍ الفلانىّ ليعتمدَ مضمونَها ويعمَلَ بحسَبِها» . فإن كانت منقولة إلىٰ مكانٍ ثالثٍ، كتب بعد ذلك : «ثم ينقُلُها إلىٰ فلان ليعتمدَ مضمونَها أيضا ويعملَ بمقتضاها فيعلم ذلك ويعتمِده» . والتتمة حَسَب ماتقدّم .

الطـــرف الثـالث

(فى المكاتبات إلىٰ عُظَماء ملوك الإسلام، ومن ٱنطوَتْ عليه ممالكُهُم ممَّن دُونَهم من الملوك والحُكَّام المنفردين ببعض البُلْدان، والأمراءِ والوزراءِ وسائِر مَن ضَمَّه نِطاقُ كلِّ مملكة من تلك الممالك، ممَّن جرتِ العادةُ بمكاتبته عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، ممن هو مستَمِرٌّ المكاتبة أو زالت مكاتبته بزواله : ليُقاس عليه مَنْ لعله يظْهَر مَظْهَره)

وٱعلم أن كُتَّاب الديار المصرية يُراعُون فى المكاتبة إلىٰ كلِّ مملكةٍ صورةَ المكاتبة الواردة عن تلك المملكةِ فى غالب حالِها : فى الاَبتداء والخِطاب والاَختتامِ وغيرذلك .

وفيه أربعة مقاصد :

المقصـــــد الأوّل

(فى المكاتبات إلىٰ عُظَماء ملوك الشَّرْق، ومَنِ آنطوت عليه كلُّ مملكة من ممالكهم، ممن جرتِ العادةُ بمكاتبته، وفيه أربعة مَهَايِـعَ)

المَهْيَـــــع الأوّل

(فى المكاتبة إلىٰ الملوك والحُكَّام، ومَنْ جرىٰ مَجْراهم بمملكة إيرانَ، وهى مملكةُ الأكاسرةِ الصائرةُ إلىٰ بيت هُولاكُو من بنى جنكزخان)

وقد تقدّم فى المقالة الثالثة فى الكلام علىٰ المسالك والممالك ذكْرُ حدودِ هذه المملكة وقواعِدها ومُدُنها ، وإلىٰ من تُنْسَب ، ومَنْ ملكها جاهليَّـةً وإسلامًا إلىٰ زماننا . والمقصُود هنا ذكْرُ المكاتَبَات فقط، ويشتمل المقصود منها علىٰ ثلاث جُمَل .

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى رسم المكاتبة إلىٰ قانِها الأعظم الجامع لحُدُودها، علىٰ ما كان الأمرُ عليه من مَبْدَإ ملك بيتِ هُولاكُو وإلىٰ آخر دولة أبى سعيدٍ، وله حالتان)

الحـالة الأولىٰ — ما كان الأمر عليه فى رَسْم المكاتبة فى أوائل الدولة التُّرْكية ، والعداوةُ بعدُ قائمةٌ بين ملوك الديار المصرية وبين مُلُوكها . وفيه أسلوبان

الأسلوب الأوّل — أن يُكْتَب تحتَ البسملةِ من الجانب الأيمن «بقُوّة الله تعالى» ويكون "بقوة الله" سطرا و«تعالىٰ» سطرا، ثم يكتب من الجانب الأيسر : «بإقبال دولة السلطانِ الملك الفلانى» . ويكون « بإقبال دولة» سطرا، وباقى الكلام سطرا ثانيا . ثم يكتب تحتَ ذلك «كلام فلان» سطرا ثانيا « إلىٰ السلطان فلان سطرا ثالثا » . ثم يُؤْتىٰ ببَعْدِيَّة وخُطْبة ، ويُؤتىٰ بالمقصود .

وطريقُهم فيه علىٰ التكلُّم عن لسان صاحب مصر بنون الجمع ، والخطابِ لسلطان إيران بميم الجمع الغائب ، مضاهاة لمكاتبتهم الواردة عنهم فى جميع ذلك .

وهذه نسخة كتاب ، كُتِب به عن السلطان الملك المنصور قلاوون ، صاحبِ الديار المصرية ، فى جوابِ كتابٍ ورد عن السلطان أحمدَ القانِ بإيران فى زمانه . يذكر فيه أنَّه أسلم ، إذ كان أوّل من أسلم من مُلُوكهم ، ويذكر فيه أن أخاه الكبيرَ كان قد عَزَم علىٰ دخول ممالك الديار المصرية قبل مَوْته ، وأنه مَنَع ذلك ، وأنه لايحب المسارعة إلىٰ القتال ، وأن المشير بذلك الشيخُ عبدُ الرحمن : أحد صُلَحاء بلادهم ، وأنه حَرَّم علىٰ عساكره الغاراتِ علىٰ البلاد ، وتعرَّض فيه إلىٰ أمر الجَوَاسيس ، وأشار إلىٰ أنَّ الاتِّفاقَ فيه صلاحُ العالَم ، وأشار إلىٰ أشياءَ حَمَّلها لرُسُله يذكرونها مُشافهةً ، ووقع الجواب عن جميع ذلك علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكُتُب الواردة علىٰ الديار المصرية .

وكُتِب بخط ناصرِ الدين شافع بن علىّ بن عباس : أحد كُتَّاب الإنشاء ، فى رمضان سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة . والتكلُّم بنون الجمع ، والخطاب بالجمع الغائب كما تقدّم فى الأسلوب الأوّل ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوّة الله	باقبال دولة
تعالى	السلطان الملك المنصور

كلام قلاوون

إلىٰ السلطان أحمد

أما بعدَ حمدِ الله الذى أوْضَح بنا ولنا الحَقّ منْهاجا ، وجاءَ بجاء نصرُ الله والفتحُ ودخَل الناسُ فى دينِ الله أفْواجا ، والصلاةِ علىٰ سيدنا ونبيِّنا محمد الذى فَضَّله الله

علىٰ كلّ نبيٍّ نجّى به أمتَه وعلىٰ كل نبيٍّ ناجا ، صلاةً تُنير مادجَا ؛ فقد وصل الكتابُ الكريم ، المتَلَقَّى بالتكريم ، المشتملُ علىٰ النَّبإ العظيم ؛ من دُخُوله فى الدِّين ، وخُروجِه عمن سلفَ من العشـيرةِ الأقربين ؛ ولمـا فُتِح هذا الكتاب بهذا الخبر العَلَم المُعْلِم ، والحديثِ الذى صَحَّح عند أهل الإسلام إسلامَه وأصحُّ الحديث مارُوِى عن مسلم ، توجَّهت الوجوهُ بالدعاء إلىٰ الله سـبحانه فى أن يُثَبِّته علىٰ ذلك بالقول الثابت ، وأن يُنْبِت حَبَّ حُبِّ هـذا الدين فى قلبه كما أنبتَ أحْسَن النَّبْت من أخشن المَنَابت ؛ وحصل التأمُّلُ للفصل المبتدإ بذكره من حديث إخلاصه فى أوّل عُنْفُوان الصِّبا إلىٰ الإقرار بالوَحْدانيه ، ودُخُوله فى المِلَّة المحمديه ، بالقول والعمل والنيَّه ؛ فالحمدُ لله علىٰ أنْ شرح صدْرَه للإسلام ، وألهمه شريفَ هذا الإلهـام ؛ فحمِدْنا اللهَ علىٰ أنْ جعلَنا من السابقين إلىٰ هـذا المَقَالِ والمقام ، وثبّتَ أقدامنا فى كلِّ موقِفِ آجتهاد وجِهَاد تتزلزل دُونَه الأقدام .

وأمَّا إفضاءُ النَّوْبة فى المُلْك وميراثهُ بعد والده وأخيه الكبيرِ إليه ، وإفاضةُ جَلابِيبِ هذه النعمةِ العظيمة عليه ؛ وتوَقُّلُه للأسِرَّة التى طَهَّرها اللهُ بإيمانِه ، وأظهرها بسُلْطانه ؛ فلقد أورثها اللهُ مَن آصـطفاه من عباده ، وصَـدَّق المبشِّرات من كرامة أوليـاءِ الله وعُبَّاده .

وأمَّا حكاية الإخْوان والأمراء الكبارِ ومقدّمِى العسـاكر وزُعمـاء البلاد فى مجمع فوريليـاى الذى ينقدح فيــه زَنْدُ الآراء ، وأن كلمتهم آتفَقت علىٰ ماسبقتْ به كلمة أخيه الكبير فى إنفاذ العساكر إلىٰ هـذا الجانب ، وأنه قد فكَّر فيما آجتمعت عليــه آراؤهم ، وآنتهتْ إليه أهواؤهم ؛ فوجده مخالفًا لما فى ضميره : إذ قَصْـدُه الصَّلاح ، ورأيُهُ الإصلاح ؛ وأنه أطفأ تلك النائره ، وسكَّن تلك الثائره ؛ فهذا فعل المِلكِ المتَّقِى ، المُشْفِق من قومه علىٰ مَنْ بَقِى ؛ المفكِّر فى العواقب ، بالرأْى الثاقب ؛ وإلا فلو تُرِكوا

وآراءَهُم حتّىٰ تحملهم الغِرّه ، لـكانت تكون هذه هى الكَرَّه ؛ لـكن هو كمن خاف مَقامَ ربه ونَهىٰ النفس عن الهَوىٰ ، فلم يوافق قولَ مَنْ ضَلَّ ولا فِعْلَ مَنْ غَوىٰ .

وأما القول منـه إنه لايُحِبُّ المسارعه ، إلىٰ المُقارعه ؛ إلا بعد إيضاح المَحَجَّه ، وتَرْكيب الحُجَّه ؛ فبانتظامه فى سلك الإيمـان صارت حُجَّتنا وحجتـه متركِّبه ، علىٰ مَنْ غَدَت طواغيتُه عن سلوك هـذه المَحَجَّة مُتنَكِّبه ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ والناسَ كافَّةً قد علموا أنَّ قيامَنا إنما هو لنُصْرة هذه المله ، وجِهادَنا وآجتهادنا إنما هو لله ؛ وحيثُ قد دخل معنـا فى الدِّين هـذا الدُّخُول ، فقـد ذهبت الأحقادُ وزالت الذُّحُول ؛ وبارتفاع المُنافَره ، تحصُـل المُظافره ؛ فالإيمـان كالبُنْيان يُشَدّ بعضُه ببعض ، ومن أقام مَنَاره فله أهلٌ بأهل فى كل مكان وجِيران بجِيران بكلِّ أرض .

وأما ترتيبُ هذه الفوائد الجَمَّة علىٰ إذْكار شيخ الإسلام قُدْوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن ، أعاد الله تعـالىٰ من بركاته ، فلم يُراولى قبـلَه كرامةٌ كهذه الكرامه ، والرَّجاءُ ببركته وبركة الصالحين أن تُصْبِح كُلُّ دارِ إسلام دارَ إقامه ؛ حتّىٰ تتمَّ شرائطُ الإيمان ، ويعودَ شَمْلُ الإسلام مجتمِعًا كأحسنِ ما كان ؛ ولا يُنْكَر لمن بكرامته آبتداءُ هذا التمكين فى الوُجُود ، أنَّ كلَّ حقٍّ ببركته إلىٰ نِصَابه يَعُود .

وأما إنفاذُ أقضىٰ القُضاة قُطْبِ الملة والدين ، والأتابك بَهاءِ الدين ؛ الموثوقِ بنقلهما فى إبلاغ رسائلِ هذه البلاغة ، فقد حضرا وأعادا كلَّ قولٍ حسنٍ من أحوال أحواله ، وخَطَرات خاطِره ، ومسَطَّرات ناظِره ؛ ومن كلِّ مايُشْكَر ويُحمَد ، ويُعنْعَن حديثُهما فيه عن مُسنَد أحمد .

وأما الإشارة إلىٰ أنَّ النُّفُوس إن(١) كانت تتطلَّع فى إقامة دليل ، تستحكم [به] دواعى الودّ الجميـل ؛ فلينظُر إلىٰ ماظهر من مآثرِه ، فى موارد الأمر ومَصَادره : من العَدْل

(١) لعل زيادة "إن" من قلم الناسخ

والإحسان، بالقَلْب واللسان، والتقدُّم بإصلاح الأوقات ، فهذه صفاتُ من يُرِيد لمُلْكه الدوام ؛ فلما مَلَك عدل ،ولم يلتفِتْ إلىٰ لُوْم مَنْ عدا ولا لَوْم من عَذَل . علىٰ أنها وإنْ كانت من الأفعال الحسـنه ، والمَثُوبات التى تستنطق بالدعاء الألْسِـنه ؛ فهى واجبات تؤدّٰى ، وهو أكبر من أنه يؤخر غيره أوعليـه يقتصر ، أوله يدّخر ؛ إنمـا يفتخر المِلك العظيم بأن يُعطِىَ ممـالكَ وأقاليمَ وحُصُون ، أو يَبْـذُل فى تشييد مُلْكه أعزَّ مصُون .

وأما تحريمُـه علىٰ العساكر والقَراغُولات والشحانى بالأطراف التعرّضَ إلىٰ أحد بالأذى ، و[تحتيم]إصفاء مَوَارد الواردين والصادرين من القَذىٰ ؛ فمن حينَ بلغنا تقدُّمه بذلك تقدّمْنا أيضا بمثله إلىٰ سائر النُّوّاب ، بالرَّحْبة وحَلَبَ وعَيْنتاب ؛ وتقـدّمنا إلىٰ مقدَّم العساكر بأطراف تلك الممالك ، بمثل ذلك ؛ وإذا آتحد الإيمـان ، وآنعقدت الأيمـان ؛ تحتَّم إحكام هذه الأحكام ، وترتب عليه جميعُ الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذى أُمسِـك وأُطلِق وأنَّ بسبب من تزَيَّا من الجواسيس بزىّ الفقراء قُتِـل جماعةٌ من الفقراء الصُّلَحاء رجمًـا بالظن ، فهـذا باب من ذلك الجانب ستَرُوه ، وإلىٰ الآطّلاع علىٰ الأمور صَوَّروه ؛ فظفِر النوّابُ منهم بجماعةٍ فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ماغَطَّته خرقة الفقر ولا كيف .

وأما الإشارة إلىٰ أن فى آتفاق الكلمة يكونُ صَلاحُ العالم ، وينتظم شملُ بنى آدم ؛ فلا رادَّ لمن طرَق بابَ الآتِّحاد ، ومن جَنَح للسِّلم فمـا جارَ ولاحاد ؛ ومن ثنىٰ عِنَانَه عن المكافحه ، كمن يُرِيد المصافحة للمصالحَه ؛ والصُّلْح وإن كان سيدَ الأحكام فلا بدّ من أمورٍ تُبْنىٰ عليها قواعده ، وتُعلَمُ من مدلولها فوائدُه ؛ فإن الأمور المسطورةَ فى كتابه عن كُلِّيَّات لازمة ينعم بها كلُّ معنًى معلوم إن تهيأ صلح أو لم ، وثَمَّ أمورٌ لابدّ أن تُحكَم ، وفى سلْكها عقودُ العهود تُنْظَم ؛ قد تحمَّلهـا لسانُ المشافَهَة التى إذا أُوردتْ أقبلتْ

من معنىٰ دُخوله في الدين ، وآنتظام عِقْـده بسلك المؤمنين ؛ وما بَسَطه من عَدْل وإحسان، وسـيرة مشهورةٍ بكلِّ لسان ، فالمِنَّة لله في ذلك فلا يَشِيبُها منه بامْتِنان ؛ وقد أنزل اللهُ تعالىٰ علىٰ رسُوله صلَّى الله عليـه وسلم في حَقِّ من آمتَنَّ بإسلامه : ﴿قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هَدَاكُم للْإيمـان﴾ .

ومن المشافَهَة أنه قد أعطاه الله من العَطَاء ماأغْناه به عن آمتدادِ الطَّرْف إلىٰ مافي يدِ غيره من أرضٍ ومال ، فإن حصَلت الرغبةُ في الآتفاق علىٰ ذلك فالأَمْنُ حاصل؛ فالجواب أنَّ ثَمَّ أمورا متىٰ حصَلَت عليهـا الموافَقه ، تمَّت المُصاحبة والمُصادَقه ؛ ورأىٰ اللهُ تعـالىٰ والناسُ كيف يكون إذلالُ مُعادِينا ، وإعزازُ مُصافِينا ؛ فكم من صاحبٍ وُجِد حيثُ لا يُوجَد الأبُ والأخُ والقَرَابه ، وما تَمَّ أمرُ الدين المحمـديّ وآستحكم في صدر الإسلام إلا بمُظافرة الصَّحابه؛ فإن كانت له رَغْبـةٌ مصروفة إلىٰ الآتحاد، وحُسنِ الوِداد، وجميلِ الآعتضاد، وكَبْت الأعداء والأضْداد، والِاستناد إلىٰ من يشْتَدّ به الأَزْر عند الآستناد، فقد فُهِم المراد .

ومن المشافَهَة إذا كانتْ رغبَتُنا غيرَ ممتدّة إلىٰ مافي يده من أرضٍ ومال، فلا حاجةَ إلىٰ إنفاذ المُغيرين الذين يُؤْذون المسلمين بغـير فائدةٍ تعودُ؛ فالجواب أنه لو كُفَّ كَفُّ العُدْوان من هُنالك ،وخُلِّي لملوك المسلمين مالهم من مَمَالك؛ سكَنتِ الدَّهْماء ، وحُقِنت الدِّماء ؛ وما أحقَّـه بأن لاينْهى عن خلق ويأتي مِثْـلَه ، ولا يأمُرَ بشيء وينسىٰ فِعْله ؛ وقنغرطاب بالرُّوم الآنَ، وبين بلاد فيأيديكم خراجُها يُجْبىٰ إليكم، فقد سَفَك فيها وفَتَـك ، وسبىٰ وهَتَـك ؛ وباع الأحرار ، وأبىٰ إلا التمـادي علىٰ ذلك والإصْرار .

ومن المشافهة أنهإن حصَل التصميم علىٰ أن لاتُبْطَل هذه الإغارات، ولا يُقْتَصر عن هـذه الإثارات؛ فتُعَـيِّن مكانا يكون فيه اللِّقاء، ويُعْطي اللهُ النصرَلمن يشاء؛

فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى اتّفق فيهـا ملتقى الجمعـين مرّةً ومرةً ومرةً قد عافَ مواردَها من سلَفَ من أولئـك القوم ، وخافَ أن يُعَـاودها فيعاوِدهُ مصْرَعُ ذلك اليوم؛ ووقْتُ اللّقاء علمه عند الله لا يُقْدَر، وما النصر إلا من عندالله لمن أقدر لالمن قدر؛ وما نحن ممن ينتظر فَلْته ، ولا ممّن له إلى غير ذلك لَفْته، وما أمْرُ ساعةِ النصر إلّا كالساعة التى لاتأتِى إلا بَغْته؛ والله تعالى الموفِّق لما فيه صَلاحُ هذه الأمه، والقادر على إتمـام كلّ خير ونعمه ؛ إن شاء الله تعالى . مُستَهَلَّ شهر رمضان المعظم قدره، سنة إحدى وثمـانين وستمائة . الحمدُ لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه . حسبنا الله ونِعْم الوكيل .

الأسلوب الثـانى

(أن يُكْتَب تحتَ البسملة على حِيَال وَسَطها « بقُوّة الله تعـالى ومَيَامِين المـــلة المحمدية »)

ويكون « بقوّة الله تعالى » سطرا ، و« مَيَامِين الملة المحمدية » سطرا ثانيـا . ثم يؤتى ببعديّة وخُطْبة مختَصَرة ؛ ثم يُكْتب سطران ببياض من الجانبين ، فيهما : « بإقبال دولةِ السلطان الملِك الفلانى، كلام فلان بن فلان» . ويكون السطر الأوّل « باقبال دولة السلطان الملِك » وباقى الكلام فى السطر الثانى . ثم يقال : « فلْيَعْـلَمْ السلطان فلان» . ويؤتى على المقصود إلى آخره .

وهـذه نسخةُ كتاب من إنشاء القـاضى علاءِ الدين علىّ بنِ فَتْح الدين محمد بن محيِى الدين بن عبـد الظاهر، صاحبِ ديوان الإنشـاء بالديار المصرية فى جواب كتابٍ ورَدَ عن السلطان محمود غازَان، القان بمَمْلكة إيرانَ ، يذكُر فيه أنّ جماعةً من عساكر البلاد الشاميّـة أغارُوا على ماردِين ، وأن الحَمِيَّةَ اقتضت الرُّكوبَ فى مُقابلَة

ذلك . وذكر أنه قدَّم الرسُلَ بالإنْذار . ويذكر فيه أنهم صَبَرُوا علىٰ تماديهم فى غَيِّهم؛ ويذكر فيه نُصرتَه علىٰ العساكر الإسلامية فى المرَّة السابقة . ويذكر فيه أنه أقام بأطراف البلاد، ولم يدْخُلْها خَوفَ التخريب والفساد . ويذكر فيه جمعَ العساكر وتهْيئةَ المجَانيق وغير ذلك من آلة القِتال . ويذكر أنه إذا لم تجْرِ مُوجِبات الصلح كانتْ دماءُ المسلمين مطلولةً؛ ويذكر إرسال رُسُله بكتابه ويلتمس التُّحَف والهَدَايا، مما كُتِب به عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فى المحرّم سنة إحدىٰ وسبعمائة وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقُوّة الله تعالىٰ

ومَيَامِين المِلَّة المحمدية

أمَّا بعد حمدِ الله الذى جعلنا من السابِقِين الأوّلين ، الهادِين المهتَدِين ، التابعين لسُنَّة سيد المرسلين ، بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين ؛ والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصَحْبه الذين فَضَّل الله مَنْ سبق منهم إلىٰ الإيمان فى كتابه المكنون . فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ والسَّابِقُون السابقُون أُولٰئِك المُقَرَّبُون ﴾ .

بإقبال دولةِ السلطان الملك

الناصر كلام محمد بن قلاوون .

فلْيَعْلَمِ السلطانُ المعظَّم محمود غازَان أنَّ كتابه ورد ، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمِثْله من الإكرام ، ورعَيْنا له حقَّ القصد فتلقيناه منّا بسلام ؛ وتأمَّلناه تأمُّل المتفهِّم لدقائقه ، المستَكْشف عن حقائقه ؛ فألفيناه قد تضمَّن مُؤاخَذات بأمورِهم بالمؤَاخَذة

عليها أخرىٰ، معتذرا فى التعدّى بما جعله ذُنُوبا لبعضٍ طالبَ بها الكُلّ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ﴾ .

أمّا حديثُ مَنْ أغار علىٰ مارِدِينَ من رِجَالة بلادنا المتطرِّفة وما نسبُوه إليهم من الأمور البَديعه، والآثام الشَّنيعه ؛ وقولُهم : إنهم أَنِفُوا من تهجُّمِهم، وغارُوا من تقحُّمِهم ؛ وآقتضت الحميَّةُ رُكُوبَهم فى مقابلة ذلك، فقد تلمَّحْنا هذه الصورةَ التى أقامُوها عُذْرا فى العُدْوان، وجعلُوها سبباً إلىٰ ما آرتكبوه من طُغْيان ؛ والجواب عن ذلك أنَّ الغاراتِ من الطَّرَفين[و]لم يحْصُل من المُهادَنة والموادَعة مايكُفُّ يدَنا الممتدّه، ولا يُفَتِّرِ هِمَمها المستعدّه ؛ وقد كان آباؤُكم وأجدادُكم علىٰ ما علمتم من الكُفْر والشِّقاق، وعدمِ المُصافاة للإسلام والوِفَاق ؛ ولم يزل مَلِكُ مارِدِينَ ورعيَّتُه منَفِّذين ما يصدر من الأذىٰ للبلاد والعباد عنهم ، متولِّين كِبْرَ نُكرهم ؛ والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ . وحيث جعلتم هذا ذَنْبا للحميَّة الجاهليَّه، وحاملًا علىٰ الآنتصار الذى زعمتم أنَّ هِمَّتكم به مَلِيَّه ؛ فقد كان هذا القصدُ الذى ادَّعيتمُوه يتِمُّ بالآنتقام من أهل تلك الأطراف التى أوجبَ ذلك فعلُها، والآقتصارِ علىٰ أخْذ الثار ممن ثار، آتباعا لقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ لا أن تقْصِدُوا الإسلام بالجموع المَلَفَّقة علىٰ آختلافِ الأدْيان ، وتطَئُوا البِقاعَ الطاهِرةَ بعَبَدة الصُّلْبان ؛ وتنتهكُوا حرمةَ البيت المقدَّس الذى هو ثانِى بيتِ الله الحَرَام ، وشقيقُ مسجد رسول الله عليه الصلاةُ والسلام ؛ وإنِ آحتججتم بأنَّ زمامَ تلك الغارة بيدِنا، وسبب تعدِّيهم من سُنَّتنا ؛ فقد أوضحنا الجوابَ عن ذلك ، وأنَّ عدم الصُّلْح والموادَعة أوجب سلوكَ هذه المسالك .

وأما ما آدَّعَوْه من سُلوكِ سَنَن المرسلين ، وآقتفاءِ آثار المتقدّمين ، فى إنفاذ الرُّسُل أوّلا، فقد تلمحنا هذه الصُّوره، وفهِمْنا ماأورِدُوه من الآيات المسطُوره؛ والجواب

عن ذلك أنّ هؤلاء الرُّسُلَ ما وصلُوا إلينا إلا وقد دنَتِ الخِيامُ من الخِيام، وناضلتِ السهامُ السِّهام، وشارفَ القومُ القوم، ولم يَبْقَ للّقاء إلا يومٌ أو بعضُ يوم؛ وأُشْرِعت الأسِنَّةُ من الجانبَيْن، ورأىٰ كلٌّ خَصْمَه رأْيَ العين؛ وما نحن ممن لاحَتْ له رَغْبةُ راغبٍ فتشاغَلَ عنها، ولا ممن يُسالَم فيقابِلُ ذلك بجفْوة النِّفار، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾. كيف والكتاب بعُنْوانه! وأميرُ المؤمنين علىُّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه يقول: «ما أَضْمَر إنسانٌ شَيْئا إلا ظَهَر فى صَفَحاتِ وَجْهِه وفَلَتَاتِ لِسانِه». ولو كان حضور هٰؤلاء الرُّسل والسُّيوفُ وادعةٌ فى أغمادها، والأسِنَّة مستكِنَّة فى أعوادها، والسِّهامُ غيرُ مفوّقه، والأعِنَّة غير مُطْلَقه؛ لسمِعْنا خِطابَهم، وأعَدْنا جوابهم.

وأما ماأطلَقُوا به لسانَ قلَمِهم، وأبْدَوْه من غليظ كَلِمِهم؛ فى قَوْلهم: فصبَرْنا علىٰ تَمادِيكم فى غَيِّكم، وإخْلادكم إلىٰ بَغْيِكم؛ فأىُّ صَبْر ممن أرسل عِنَانه إلىٰ المكافَحه، قبل إرسال رُسُل المصالَحه؛ وجاسَ خِلالَ الدِّيار، قبل مازَعَمه من الإعْذار والإنْذار؟ وإذا فكَّروا فى هـذه الأسباب، ونظروا ما صـدَر عنهم منْ خِطاب؛ علموا العُذْر فى تأخير الجواب، وما يتذكَّرُ إلا أُولُوا الألباب.

وأمَّا ما تَبَجَّحُوا به ممـا ٱعتقَدُوه من نُصْره، وظَنُّوه من أنّ الله جعل لهم علىٰ حِزْبه الغـالبِ فى كلِّ كرَّةٍ الكَرّه؛ فلو تأمَّلُوا ما ظَنُّوه ربما لوجَدُوه هو الخُسْران المبين، ولو أنْعَمُوا النظَرَ فى ذلك لمـا كانُوا به مفتخرين؛ ولَتَحقَّقُوا أنّ الذى ٱتَّفق لهم كان غُرْمًا لاغُنْما، وتدبَّرُوا معنىٰ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾. ولم يخْفَ عنهم ما نالتْه السيوفُ الإسلامية منهم، وقد رأَوْا عَزْم مَنْ حضر من عساكرنا التى لو كانتْ مجتمعةً عنـد اللِّقـاء ماظهر خَبَرٌ عنهـم؛ فإنا كُنَّا فى مُفْتَتَح مُلْكنا، ومبتدإ أمْرِنا؛ حلَلْنا بالشأم للنظر فى امور البلاد والعِباد. فلما تحقَّقنا خبركم، وقَفَوْنا أثَركم؛

بادَرْنا نقُدّ أديمَ الأرض سَـيْرا ، وأسرعنا لندفَعَ عن المسلمين ضَررا وضَيْرا ، ونؤدّى من الجهاد السنّةَ والفَرْض ، ونعمَلَ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالأَرْضُ﴾. فاتفق اللّقاءُ بمن حضَر من عساكرنا المنصوره، وُثوقا بقوله تعالىٰ :﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَه ﴾ . وإلا فأكابرُكم يعلَمُون وقائعَ الجُيُوش الإسلاميّــة التى كم وَطِئتْ مَوْطِئًـا يَغيظ الكُفّار فكُتِب لهـا عملٌ صالح ، وسارتْ فى سبيل الله ففَتَح عليها أبوابَ المَنَاجح ، وتعدّدتْ أيامُ نُصْرتها التى لو دقَّقتم الفكر فيها لا زالَت ماحصَـل عندكم من لَبْس ، ولَـمّـا قَـدَرتم أن تُنْكروها وفى تَعَبٍ من يُنْكِر ضوْءَ الشمس، وما زالَ الله نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النصير ، وإذا راجعْتمُوهم قَصُّوا عليكم نَبأَ الاستظهار ولا ينَبِّئُك مثلُ خَبِير، وما زالت تتفَّق الوقائع بين المُلُوك والحُرُوب،وتجرِى المواقفُ التى هى بتقـديرالله فلا فَخْرَ فيهـا للغالب ولا عارَ علىٰ المغلُوب،وكم من ملِكٍ اسْتُظْهِر عليـه ثم نُصِر، وعاوَدَه التأييدُ فجُبِر بعد ما كُسِر، خصوصا ملوكَ هـذا الدِّين ، فإنَّ الله تعالىٰ تكفَّل لهم بحُسْن العُقْبىٰ فقال تعالىٰ : ﴿والعاقبةُ للمتَّقين﴾ .

وأما إقامتُهــم الحجةَ علينا ، ونِسْبتُهم التفريطَ إلينا ، فى كوننا لم نُسَيِّر إليهم رسولًا عند ماحَلُّوا بدمشق، فنحن عنــد ماوصَلْنا إلىٰ الديار المصرية لم نَزِد علىٰ أنِ اعتدَّينا وجمَعْنا جُيوشَــنا من كل مكان ، وبذَلْنا فى الاسـتعدادِ غايَةَ الجُهْـد والإمكان ؛ وأنفقْنا جزِيلَ الأموال فى العساكر والجَحَافل ، ووَثِقْنا بحُسْن الخلَف لقوله تعـالىٰ : ﴿ مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ﴾ . ولَـمَّـا خرجنا من الديار المصرية، بلَغَنا خروجُ الملك من البلاد،لأمرٍ حال بينَه وبينَ المُراد؛ فتوقَّفْنا عن المسير توقُّفَ من أغنىٰ رُعْبُه عن حَثّ الركاب،وتثَبَّتْنا تثبُّتَ الراسـيات ﴿وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ . وبعثنا طائفةً من العساكر

لمقاتَلَة من أقام بالبلاد فما لاحَ لنا منهم بارقٌ ولا ظَهَر، وتقدّمتْ فتخطَّفت من حملَه على التأخّر الغَرَر، ووصلتْ إلى الفُرات فما وقفتْ للقوم على أثَر .

وأما قولهم : إننا ألقَيْنا فى قلوب العساكر والعَوَامّ أنهم فيما بعدُ يَتَلَقَّونا على حَلَب أوالفُرَات ، وأنهم جمَعوا العساكر ورحَلُوا إلى الفُرات وإلى حلب مرتقبين ؛ فالجواب عن ذلك أنهم من حينَ بلَغنا حركتُهم جَزَمْنا ، وعلى لقائهم عزَمْنا ؛ وخرجْنا وخرج أمير المؤمنين الحاكمُ بأمر الله آبنُ عم سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم الواجبُ الطاعة على كُلِّ مُسْلِم ، المفتَرَضُ المبايعةِ والمتابعةِ على كل منازِعٍ ومسَلِّم ؛ طائعين لله ولرسوله فى أداء مُفْتَرَض الجِهاد ، باذلين فى القِيام بما أمَرَنا الله تعالى غايةَ الآجتهاد ؛ عالمين بأنه لا يتِمُّ أمرُ دينٍ ولا دُنْيا إلا بمشايعته ، ومَنْ والاه فقد حَفِظه الله تعالى وتولّاه ، ومَنْ عانده أو عاند مَنْ أقامه فقد أذلّه الله ؛ فحِينَ وصَلْنا إلى البلاد الشامية تقدّمت عساكُرنا تملأ السَّهل والجبَل ، وتُبَلِّغُ بقوّة الله تعالى فى النصر الرَّجاءَ والأَمَلْ ؛ ووصلتْ أوائلُها إلى أطراف حماةَ وتلك النواحى فلم يُقْدِم أحدٌ منهم عليها ، ولا جَسَر أن يَمُدَّ حتّى ولا الطَّرْفَ إليها ؛ فلم نزل مقيمين حتّى بلَغَنا رجوعُ الملك إلى البلاد ، وإخلافُه مَوْعِدَ اللقاء والله لا يُخْلِف المِيعاد ؛ فعُدْنا لآستعداد جُيُوشنا التى لم تزل تَنْدَفِع فى طاعتنا آنْدِفاعَ السيل ، عاملين بقوله تعالى ﴿ وأَعِدُّوا لَهُمْ ما آسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الخَيْل ﴾ .

وأمّا ماجعَلُوه عُذْرا فى الإقامة بأطراف البلاد وعَدَمِ الإقْدام عليها ، وأنهم لو فعلُوا ذلك ودخَلُوا بجُيُوشهم ربما أخْربَ البلادَ مُرورُها ، وبإقامتهم فسدَتْ أمورُها ؛ فقد فُهِم هذا المقصود . ومتى أَلِفَت العبادُ والبلادُ منهم هذا الإشفاق ؟ ومتى آتَّصفَتْ جيوشُهم بهذه الأخلاق ؟ وها آثارُهم موجودةٌ على مُلْك آل سَلْجُوق وما تعرَّضُوا

لدارٍ ولا جار، ولا عَفَّوْا أثرًا من الآثار، ولا حَصَل لمسلم منهم ضَرَر، ولا أُوذِىَ فى وِرْد ولا صَدَر، وكان أحدُهم يشـترِى قُوتَه بدِرْهمه ودِيناره، ويأبىٰ أن تمتَدَّ إلىٰ أحدٍ من المسلمين يدُ إضراره، هــذه سُنَّةُ أهل الإسلام، وفعلُ مَنْ يُرِيد لملكه الدوام .

وأما ما أرْعَدُوا به وأبْرَقُوا، وأرسـلُوا به عِنَان قلمهــم وأطْلَقُوا، وما أبدَوْا من الاهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة المجانيق إلىٰ غير ذلك مما ذكره من التهويل، فالله تعالىٰ يقول : ﴿ الَّذِينَ قالَ لَهُمُ الناسُ إنَّ النَّـاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيمَـاناً وقالوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل ﴾ .

وأما قولهم : وإلا فدِماءُ المسلمين مَطْلُوله، فمـا كانَ أغْناهم عن هذا الخِطَاب، وأوْلاهم بأنْ لا يصدُرَ إليهم عن ذلك جوَاب، ومَنْ قصَدَ الصُّلْح والإصْلاح، كيف يقول هذا القولَ الذى عليه فيــه من جهةِ الله تعالىٰ ومن جهةِ رسوله أىُّ جُنَاح ؟ وكيف يُضْمِر هذه النيه، ويتبجَّحُ بهذه الطويَّه ؟ ولم يَخَفْ مواقِعَ زَلَلِ هذا القول وخَلَلِه، والنبي صلَّى الله عليــه وسلم يقول : " نِيَّـةُ المَرْءِ أبْلَغُ من عَمَـله " وبأىّ طريق تُهْدَر دماءُ المسلمين التى من تَعرّضَ إليها يكون اللهُ له فى الدنيا والآخرة مطالبا وغَرِيمـا، ومؤاخِذًا بقوله تعالىٰ : ﴿ ومَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً متَعَمِّدًا فَجَزاؤُه جَهَنَّمُ خالِدًا فِيها وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ ولَعَنَهُ وأعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيما ﴾ ؟ وإذا كانَ الأمْرُ كذٰلك فالبُشْرىٰ لأهل الإسلامِ بمـا نحن عليــه من الهِمَم المصروفةِ إلىٰ الاستِعْداد، وجمع العساكر التى تكونُ لها الملائكةُ الكرامُ إن شاء الله تعالىٰ من الأنْجاد، والاستكثارِ من الجُيوش الإسـلاميةِ المتوفِّرة العَدَد، المتكاثِرة المَدَد، الموعُودةِ بالنصر الذى يحُفُّها فى الظَّعْن والإقامه، الواثقةِ [به](١) من قوله صلَّى الله عليه وسلم : "لا تَزالُ طائفةٌ من أُمَّتى ظاهِرِينَ

(١) أى بالنصر وزدنا الجار والمجرور لاقتضاء الكلام إياه .

علىٰ عَدُوِّهِمْ إلىٰ يوم القِيَامه" . المبلِّغةِ فى نَصْر دين الله آمالا ، المستعدّة لإجابة داعى الله إذا قال : ﴿ ٱنفِرُوا خِفَافًا وثِقَالا ﴾ .

وأما رُسُلهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا ، ووَفَدُوا علينا ، وأكرمْنا وِفَادتهم ، وعَزَّزْنا لأجل مُرْسِلهم من الإقبال مادَّتهم ، وسمِعْنا خِطابَهم ، وأعدْنا عليهم جوابَهم ؛ هـذا مع كوننا لم يَخْفَ علينا ٱنحطاطُ قَدْرِهم ، ولا ضَعْفُ أمرهم ؛ وأنهم مادُفِعوا لأفواه الخُطُوب ، إلا لِمَا ٱرتكبوه من ذُنُوب ؛ وما كان ينبغى أن يُرسَلَ مثلُ هؤلاء لمثلنا من مثله ، ولا يُنتدَبَ لمثل هذا الأمر المهمِّ إلا من يُجْمَع علىٰ فَصل خطابه وفضْله .

وأما ما ٱلتمسوه من الهَـدايا والتُّحَف ، فلو قدّموا من هَدَاياهم حسـنةً لعوّضناهم بأحسن منها ، ولو أتحفُونا بتُحْفَة ، لقابلناها بأجلِّ عوضٍ عنها . وقد كان عمُّهم الملك أحمدُ راسـلَ والدَنا الشهيد ، وناجىٰ بالهَدَايا والتُّحَف من مكانٍ بعيـد ، وتقرب إلىٰ قَلْبه بحُسْن الخطاب ، فأحسن له الجوَاب ؛ وأتىٰ البُيوتَ من أبوابها بحُسْن الأدَب ، وتمسَّك من الملاطَفَة بأقْوىٰ سبَب .

والآنَ فحيثُ ٱنتهتِ الأجوبة إلىٰ حَدّها ، وأدركتِ الأنَفةُ من مقابلة ذلك الخطاب غايةَ قَصْدها ؛ فنقول : إذا جنَح الملك للسَّـلْم جنَحْنا لهـا ، وإذا دخل فى المِلَّة المحمدية ممتثلًا ما أمر الله تعـالىٰ به مجتنبا ما عنه نهى ؛ وٱنتظَم فى سِلْك الإيمـان ، وتمسك بمُوجَبَاته تَمسُّك المتشرّف بدُخُوله فيه لا المَنَّان ؛ وتجنَّب التشبُّه بمن قال الله تعـالىٰ فى حقهم : ﴿ قُل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْـلامَكُمْ بِلِ اللهُ يَمُنُّ عليكُمْ أنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمـانِ ﴾ . وطابق فعلُه قولَه ، ورفَضَ الكُفَّارَ الذين لا يحلُّ له أن يتَّخِذَهم حَوْله ؛ وأرْسَل إلينا رسولًا من جهتـه يرتِّل آياتِ الصلح تَرْتِيلا ، ويَرُوقُ خطابُه وجوابُه حتّى يتلُوَ كلُّ أحد عنـد عوده : ﴿ ياليْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مع الرَّسُولِ سَبِيلا ﴾ .

صارتْ حجّتنا وحجّته مركبةً على مَنْ خالف ذلك ، وكلمتُنا وكلمتُه قامعةً أهلَ الشرك في سائر الممـالك ؛ ومظافرتُنا له تُكْسِب الكافرين هَوَانا ، والشاهـدُ لمصافاتنا مُفادُ قوله تعالى : ﴿ واذْكُرُوا نِعمةَ اللهِ عليكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْـبَحْتُمْ بِنِعْمتِهِ إخْوَانا ﴾ . وينتظِمُ إن شاء الله تعالى شَمْلُ المصالح أحسَنَ ٱنتظام ، ويحصُلُ التمســك من الموَادَعة والمظَافَرة بعُرْوةٍ لا ٱنفِصال لهـا ولا ٱنْفِصام ، وتستقِرُّ قواعدُ الصُّلْح على ما يُرضِى اللهَ تعالى ورسولَه عليه أفضل الصلاة والسلام .

الحـالة الثانيـــة

(ما كان عليه رسمُ المكاتبةِ في الدولة الناصريةِ "محمد بن قَلَاوون" إلى أبي سعيد بَهَادِرخان بن خدابندا : آخرِ ملوك بني هُولاكُو، ملك إيران)

قال في "التعريف" : وهو كتاب يكتب في قَطْع البغدادي الكامل؛ يبتدأ فيه بعــد البسملة وسطر من الخُطْبة الغراء(١) المكتتبة بالذهب المزَمَّك ، بألقاب سلطاننا على عادة الطغراوات ؛ ثم تكَمَّل الخطبة وتفتتح ببعْـديَّة إلى أن تُساق الألقـاب ، وهي : « الحضرةُ الشريفـةُ ، العالية ، السـلطانية ، الأعظميَّة ، الشاهنشاهيَّة ، الأوحدية ، الأخَوِيَّة ، القانية ، الفلانية » من غير أن يخلط فيها « المَلَكِيَّة » لهَوَانها عليهم وٱنحطاطها لديهم ثم يدعى له بالأدعيــة المعظَّمة المفخَّمة الملوكية : من إعزاز السلطان ونَصْر الأعوان ، وخُلُود الأيام ، ونَشْر الأعلام ، وتأييـد الجُنود ، وتكثير الوفود . وغير ذلك ممـا يجرى هذا المَجْرى . ثم يقال ما فيه التلويحُ والتصريحُ بدوام الوِدَاد ، وصفاء الاعتقاد ، ووصْف الأشـواق ، وكَثْرة الأتْواق ، وما هو من هــذه

---

(١) في التعريف ص ٤٤ "بالطغراء" وهو تصحيف .

النسبة . ثم يؤتىٰ علىٰ المَقَاصد ، ويختَمُ بدعاء جليل ، وتستعْرَض المراسيم والخِدَم[(1)]، ويُوصَف التطلع إليها ، ويُظْهر التهافُتُ عليها .

وهذا الكتاب تكتب جميع خطبته وطغراه [وعنوانه][(2)] بالذهب المزمَّك ، وكذلك كلُّ ما وقع فى أثنائه من آسمٍ جليـل ، وكلِّ ذى شأن نبيل : من آسم الله تعـالىٰ ، أو لنبينا صلّى الله عليه وسـلم ، أو لأحدٍ من الأنبياء ، أو الملائكةِ عليهم السـلام ، أو ذكرِ دين الإسلام ، أو ذكر سلطاننا ، أو السلطانِ المكتوب إليه ، أو ماهو متعلّق بهما . مثاله « عندنا وعندكم » و « لنا ولكم » و « كتابنا وكتابكم » . كلُّ هذا يكتب بالذهب ، وما سواه يُكْتَب بالسَّواد .

فأما العنوان ، فهو بهذه الألقاب إلىٰ أن ينتهى إلىٰ اللَّقب الخاص ، ثم يُدْعىٰ له بدعوة أو آثنتين ، نحو : «أعزّ الله سلطانها ، وأعلىٰ شانها» أو نحو ذلك . ثم يسمّىٰ آسمُ السلطان المكتوب إليه ، ثم يقال «خان» كما كنا نكتب ، فنقول : « بو سعيد بَهَـادِرخان » فقط . ويطمغ بالذهب بطَمَغات عليها ألقاب سلطانـنا ، تكون علىٰ الأوصال ، يبدأ بالطَّمْغة علىٰ اليمين فى أوّل وَصْل ، ثم علىٰ اليسار فى ثانِى وَصْل ، ثم علىٰ هـذا النمط إلىٰ أن ينتهىَ فى الآخر إلىٰ اليمين . ولا يطَمَّغ علىٰ الطرّة البيضاء . والكاتب يخلى لمواضع الطمغة مواضعَ الكتابة ، تارة يَمْنة ، وتارةً يَسْرة .

وأوضح ذلك فى "التثقيف" وبَيَّنه ، فقال : والمكاتبة إليه فى عَرْض البَغْدادىّ الكامل ، والطرَّة ثلاثة أوصال ، والبسملة ذهبٌ مزَمَّك بألفات طِوَال بالمِسْـطَرة بخَطِّ الذهب ، ثم الخطبـة ، وأوّلها « الحمد لله » والسطرُ الذى يلى البسملة الشريفة

(1) فى التعريف ص ٤٥ "الحوائج" .

(2) الزيادة من التعريف .

وثانيه من أوائل الورق زائدان عن بقيّة السطور التى من أوّل السطر الثالث إلىٰ آخر الكتاب . وبين هذين السطرين المذكورين ، (وهو موضعُ بيت العلامة الشريفة) طُرّةُ ذهب بالألقاب الشريفة ؛ ثم بعــد هذين السطرين الملاصقين للطُّرّة المذكورة بقيّةُ السطور بهامش جيِّد فى يمين الورق على العادة . وجميع السطور مكملة إلىٰ آخر الورق ، لا يخلى فيهــا للطَّمْغة مكان . وبعدَ الخطبة ما يناسب الآبتداء إن كان ، أو الجواب إلى أن يتصل الكلام بالألقاب ، وهى : «الحضرة ، الشريفة ، العالية ، السلطانية ، الأعظَميّة ، العالمية ، العادلية ، الأكمليّة ، القانِيّة ، الشاهنشاهية ، الوَلَديّة ، العزيزية ، المَلَكية ، الفلانية» . ثم الدعاء . وفى أثناء خطابه «الحضرة الشريفة» تارة ، وتارة « الحضرة العاليــة » والدعاء فى أوساطه نحو «زِيدتْ عظمتُه ، ودامت مَعْدَلتــه ، وأعلىٰ الله مقامه ، وأعزّ الله شانه» . والخطبة جميعها بالذهب المُزَمَّك . وبعدها بالأسود خلا ذكر اللهِ تعالىٰ أو رســولِه صلّى الله عليه وســلم ، أو ماأضيف إليهما ، أو مايُعظَّم ذكره : كالحق والعدل وأمثالها ، أو كلّ لقب أو نعت ، أو كلمةٍ مضافةٍ إلىٰ المكتوب عنــه أو المكتوبِ إليــه ، أو ضمــير فيهما ، فإنه بالذَّهَب . والعنوان بألقابه كاملة ، وفى آخرها الدعاء له من غير توقُّف .

قال : وكان قد آستقرّ من أمر العلامة الشريفة أن يكتب على جانب يمين السطرين : الثانى والثالث ، وهو مما يلى بيت العلامة « المُشْتاق محمد» . ثم قال : ورأيت بخط القاضى المرحوم ناصر الدين بن النَّشائى أنَّ ذلك نظــيرُ الكتاب الوارد منه فى رجب ســنةِ تسع وعشرين وسبعمائة . ثم قال : وقد ذكر فى "التعريف" ثلاثة أمور زائدة (١) التنبيه عليها .

(١) بياض بالاصل ولعله لابد من التنبيه .

أحدها — أنه يذكر تعريفُه فى العُنْوان . فيكتب بعد ذكر الاسم «خان» . فيقال : «بُو سعِيد بَهادِرْخان» .

ثانيها — أنه تستعمل الطَّمَغات على الأوصال .

ثالثها — أنه لايكتب فى ألقابه «المَلَكية» . وذكر أنه لَمْ يكتب لأحد بهذه المكاتبة بعد السلطان أبى سعيد، خلا ماذكر القاضى ناصر الدين بن النَّشائى أنه كتب نظير ذلك بعد أبى سعيد لطغاى تمرخان . قال : ولو كتب بالمُغْلية كتب فى القطع المذكور . أما الملطفات، ففى قَطْع الثلث .

وهذه نسخة مكاتبة كتب بها المقرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله عن السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلىٰ السلطان أبى سعيد بَهادِرخان المقدّم ذكره، وهى :

الحمدُ لله الذى جعَلَنا بنِعْمته إخْوانا، وجمَعَنا علىٰ طاعته أصولًا لاتتفرَّق أغصانا؛ نَحمده علىٰ ماأولانا، ونشكُرُه علىٰ ماوَلَّانا، ونرغَبُ إليه فى مزيد ألطافه التى شَمِلت أقصانا وأدْنانا؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلّا الله وحده لاشريكَ له، شهادةً كالشمس لاتدَع فى الأرض مكانا؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى شيَّد بِنَا لشريعته أركانا، وشدّ بعْضَنا ببعض لنكونَ كما شبَّهَنا به بنانا أو بنيانا؛ صلىّٰ الله عليه وعلىٰ آله صلاةً لاتَتَوانىٰ، ورضى الله عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان وزادهم إحسانا، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد: فإن من أعظم المُبْهِجات لدَيْنا، المُنْهِجات لطريق السُّرور إلينا، المُلْهِجات بوصفِ أكرمِ وارد علينا؛ هو الكتَابُ الشريف، بل السَّحاب المُطِيف؛ بل البحرُ الذى يَقْذِفُ دُرَرا، ويقُصُّ عن السحاب أثرا؛ ويَرْفَع سَرَرا، ويُطْلِع قمرا؛ ويطوِّلُ أوضاحًا وغُرَرا، ويحدِّث عن العجائب خَبَرا؛ بل ينشُر الروضَ حبرا، ويهُبُّ الرياح

سَحرا ، ويَبْرق ذهبُه المموَّه آصالًا وبُكَرا ؛ الصادرُ عن الحضرة الشريفة العالية السلطانيه ، الأعظمية ، العالمِيَّة ، العادلية ، الشاهِنْشاهية ، الأخَويَّة ، القانيَّه ؛ زادها الله شرَفا ، وأدام بها تُحَفا ، وصاغ بها لكلِّ سمع شَنْفا ، وأيَّدها بزائد مزيده حتَّى تقول : حَسْبي وكفىٰ ؛ فإنه وصلَ صُحْبةَ المجلس السامى الأمير ، الكبير ، المقرَّب ، المجتبىٰ ، المرتضىٰ ، المختار ، شرفِ الدين ، مجدِ الإسلام ، زينِ الأنام ، جمال المقرّبين ، مرتضىٰ الملوك والسلاطين ، الحاجِّ أحمد الأشقر ؛ والشوقُ إليه شديد ، والتطلُّع إليه كمثل العِيد ؛ فقرَّبناه إلينا نَجِيّا ، وتلقَّينا منه مَهْـدِيّا ؛ وكأنَّ السماء ألقتْ منه حُلِيّا ، أو أقلَّت كوْكبا دُرِّيّا ؛ أو مدّت من المَجَرَّة دَرْجا ، وعطَفت من مُهَنَّـدات البُروق خُلُجا ؛ وقدّتْ من سَوَاد القلوب شَطْر كلِّ سطر فيها ، وأغارتْ مُقْلةَ كلِّ رَيْم قام بسَوَاد ناظِرِه يُفَدِّيها ؛ وسرَّحْنا منه الحَدَق فى حَدَائق ، ونَفَحْنا به للحقائب حقائق ؛ وآستطْلَعْنا به شُموسَ الآفتقاد ، وآطَّلعْنا منـه علىٰ نُفُوس نفائسِ الوِدَاد ؛ وصادف مِنَّا قلبا صادِياً إلىٰ ما يروقُ من أخباره ، وشـوْقًا إلىٰ ما يَهُبُّ من نَسِيم دِيَاره ؛ وتطَلَّعْنا إلىٰ مَنْ يَرِد من رُسُـله الكِرام ، ويقُصُّ علينا مالا يُستقْصىٰ من مواقع الغَمَام ؛ وعلِمْنا منه ومما ذكره المقرَّبُ الحـاجُّ شرفُ الدين أحمدُ مالِلحضرة الشريفة عليه من نعمةٍ يلتحف بمَلَابسها ، ويقتطف من مَغَارسها ؛ وتُجْرِى فى السَّـيْف رَوْنقا ، وتُزَيِّن بالكواكب أُفُقا ، وتَجُرُّ علىٰ الكُثْبان من الشُّموس رِدَاءً مخلَّقا . وأحضَرْنا الحـاجّ شرفَ الدين أحمدَ بين أيدينا الشريفه ، وشَمِلناه بحُسْن مُلاحظَتِنا التى زادتْ تشريفَه ؛ وكان حُضُوره وركابُنا الشريف يهيجَانِ الصيدَ المحمود ، ونحن نَلْهَج بذكره عند آنتهاز كل فُرْصة فى الصُّيود ؛ وما حصلنا فيه علىٰ لَذَّة ظَفَر إلا وتمنَّينا أنْ يكونَ له فيها مشاركةُ شُهود ، أو أن يكون حاضرا يرىٰ كيف يُسَهِّل اللهُ لنا بلوغَ كلِّ مقصود ؛ وخرج معنا إلىٰ المَصايِد ، وتفرّجَ علىٰ الصائد ؛ ورأىٰ ماحَفَّ بموكبنا المنصور من ذوات الوَبَر

والجَنَاح، وما سُخِّر لنا من جياد الخيول من الرِّياح؛ فشاهد ماأوتينا من المُلْك السُّلَيمانىّ فى سُرْعة السير، وآختلافَ ماجُمِع لنا من الإنْس والوحْش والطَّيْر؛ وآستغرقتْ أوقاتُنا الشريفةُ فى السؤال عن مِزَاجه الكريم، وما هو عليه من السُّرور المستديم؛ والتأييد الذى آنقلب به أولياؤه بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمْسَسْهم سُوءٌ وآتَّبَعُوا رضوانَ الله والله ذُو فَضْلٍ عظيم؛ وتجدّدت المَسَرَّات، بهذه البشائرِ المُسِرَّات[1]؛ وأضفْنا هذه النعمةَ إلى مانحمدُ اللهَ عليه مما أيَّدَنَا به من النصر والظَّفَر والتأييد، والنعم التى توالَتْ إلينا ونحن نرجُو المَزِيد؛ ونُضاعفُ الحمدَ والشكرَ لله على هذه المواهب التى أطافَتْ بنا بِطاقاتُها الثمينة، وأنارت فى آفاقنا أقمارُها المُبِينه؛ وشمِلتْ ملوكَ الإسلام نعمُها من كل جانب، وأشرقتْ شموسُها حتّى ملأتْ بأنوارها المَشَارقَ والمَغَارب .

وأما ما أتحَفْتَ به من البلكات الشريفة فقد وصلتْ، وتُقُبِّلتْ وقُبِّلتْ؛ وأُكْرِمت لأن مُهْدِيَها كريم، وأُعْظِمت لأنها تُحَفَةٌ من عظيم؛ وأثنينا عليه بما طاب، وشكَرَ بحرُنا الزاخرُ جُودَ أخيه السَّحاب .

وأما الإشارة العالية إلىٰ تقاضى تجهيزة من الملاكمين والسوقات فقد رسمْنا بالآنتهاء إليه، لأنه لا فرقَ بيننا وبينَ أخينا فيما يخصُّ مراسِمَنا جميعًا عليه؛ وقد جُهِّز من الملاكمين والطين المختوم ما أمكنَ الآن، ومنه ما كُنَّا رسَمْنا بآستعماله من البلكات بآسمه الشريف وتأخر؛ فلما فرَغ جُهِّز معه، وبعد هذا نُجَهِّز من يتوجَّه إلىٰ حضرته العالية ليجدّدَ عَهْدا، ويؤدِّىَ إليه وُدّا؛ وما يتأخر إلا ريْثَمَا تَنْجَلِى السُّحُب المتواليه، ويمكنُ التوصُّل سالمًا إلىٰ حَضْرته العاليه .

---

(١) حقيقته السارات وإنما أتى به بهذه الصيغة على توهم أسرّه بمعنى أفرحه كما حكاه آبن سيده فى تفسير المثل «كل مجر بالخلاء مسر» انظر اللسان (ج ٦ ص ٢٦) .

وأما غير هــذا : فهو أنَّ الحاج أحمد أحضر إلينا ورقةً كريمه ، بل دُرَّةً يتيمَه ؛ بخط يد الحضرة الشريفة فأَعْجِبْنا بهـا ، ووجدْناها فى غاية الحُسْن التى لا يعدّ زَهْر الرياض لها مُشْبِها ،وما رأينا مثلَ ما كُتب فيها ، كأنّ السماء قد نظَّمت فى سُطورها النجومَ الزُّهْر من دَرَارِيها ؛ فأكرِمْ بيدٍ كتبَتْ سطورا آعترف بها الرُّمْح للقلم ! وآستمدّ السَّحابُ من طُروسها الكَرَم ! وجرتْ بجامدِ ذهبٍ وسائلِ دم ، وتنافسَتْ علىٰ إثباتها صحائفُه وأقلامُه ودُوِيُّه والحوّ والبُروقُ والدِّيَم ، وطلعتْ منها تَباشيرُ النَّجاح ، وتحاسدَ عليهـا مِسْكُ الليل وكافُورُ الصَّباح ؛ وآتفقتْ علىٰ معنًى واحد وقد تنوَّعت قسما ، وأشرقَتْ فتمنَّت السماءُ أن تكون لهـا صحيفةً والبرقُ قلَما ؛ فأرخصتْ قدرَ ياقوتٍ فى التقليب ،وحسَّنَتْ بمحاسنها هِجْرانَ حبيب ؛ لقد أُوتيتْ من الخَطِّ غايةَ الكمال ، وبسطَتْ يدَ آبن هلال فيه عن فَم آبنِ هلال ؛فأما الوَلِىُّ فإنَّه من أوليائهـا ، وأنواؤه ممـا فاض من إنائهـا ، طالمَـا حَدَّق إليه أبو علىٍّ فآختطف برقُه أباه مُقْله ، وفَطِن آبنُ أسد أنه لو أدركه أبُوه لنَسِى شِبْله ؛فسبحانَ من صرّف فى يمينه القلمَ بل الأقالِيم ، ووهبه من أفضل كلِّ شيء ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضْل العَظِيم﴾

وقد أُعِيد المقرّبُ شرفُ الدين أحمدُ ، وحَمَل من المشافَهات الشريفة ماتُفَضُّ علىٰ أخينا عقودُه ، وتُفاض برودُه ؛ والحضْرةُ الشريفةُ لاتقطع أخبارَها عنَّـا التى تَسُرُّ بأنبـائه ، وتَسَيَّر بُنُجُوم سمائه ؛ لازالت مناقبُه مسمُوعه ، والقلوبُ علىٰ مايجمع كلمةَ الإيمانِ مجموعه . إن شاء الله تعالىٰ .

تنبيه — أما الملَطَّفات التى كانت تُكتَب إلىٰ هذا القان ، فقد ذكر فى "التثقيف" أنها فى قَطْع الثلث ، وكذا مايكْتَب به بالمُغْلىّ ،فإنه يكون فى القَطْع المذكور أيضا .

الجملـــــــة الثـانية

(فى المكاتبات إلىٰ مَنْ ملكَ تَوْرِيز وبَغدادَ بعد موتِ أبى سعيد)

قد تقدّم أنه ملك تَوْرِيزَ وبغدادَ بعد السلطان أبى سعيد (موسىٰ خان) ثم محمدُ بن عدجى[(١)]، ثم الشـيخُ حَسَن الكبير، ثم ٱبنه الشيخُ أُوَيس، ثم ٱبنُه حسن، ثم أخوه أحمـد . ومنه ٱنتزعها تمرلنـك . وذكر فى "التثقيف" أنَّه ملك بعـد أبى سعيد أرفاخان، ثم موسىٰ خان، ثم طغاى تمرخان؛ بعد أنْ ذكر أنه لم يُكْتَب إلى أحدٍ بعد أبى سعيد بالمكاتبة المتقدّمة . ثم قال: ورأيت بخط القاضى ناصرالدِّين بن النَّشائى أن مكاتبة طغاى تمرخان كانت نظير مكاتبة أبى سعيد . ثم قال: وهذا يدل علىٰ أنه لم يكاتَبْ بذلك بعد أبى سعيد غير طغاى تمرخان المذكور .

قلت : وقد وقفت علىٰ مكاتَبَة عن الملك الناصر « محمد بن قلاوون » إلىٰ موسىٰ خان المقدّم ذكره من إنشـاء المَقَرّ الشهابىّ بن فضل الله، فيما ذكره صاحب "الدُّرِّ الملتقط" جوابًا عن كتابٍ ورد منـه يذكُر فيه النُّصرةَ علىٰ عدوّله ؛ والقائم بتدبير دولته يومئذ على باشا . بَدَأ فيها بعد الٱفتتاح بآيةٍ من القرءان الكريم فى معنىٰ النصر بقوله :

«إلىٰ الحضرة الشريفة» إلىٰ آخر الألقاب المناسبة «من أخيه ومحبه» ؛ ثم خطبة بعد ذلك مفتتحة بـ « الحمـد لله » . ثم « وبعـد ، فقد ورد الكتاب الشريف » . والخطاب بـ « الحضرة الشريفة » . والٱختتام بالدعاء . ولاخَفاءَ فى أن هذه نحو المكاتبـة إلى أبى سـعيد ؛ لكنى لم أقف علىٰ مقدار قَطْع الورق فيهـا ، ولاصورة الكتّاب . وهذه نسختها :

(١) كذا فى الأصل هنا وتقدم فى ج ٤ ص ٤٢٤ (غبرجى) .

﴿وقالُوا الحَمْدُ لله الّذى أذْهَبَ عَنّا الحَزَنَ إنَّ ربَّنَا لغفورٌ شَكُور﴾. ﴿ويَوْمَئذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُون بنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وهو العَزيزُ الرحيم﴾ .

إلى الحَضْرة الشريفة العاليـــة ، السلطانيّـــة ، الأعظميّة ، العـالميّة ، العادليّة ، الأوْحديّة ، الشاهنشاهيّـــة ، القانيّـــة ، الأَخَوية ، الأخ العزيزِ ، الكبير ، المعظَّم ، موسىٰ خان ، أعزّ الله سلطانه ، وثبّت بسعادة مُلْكه أوطانَه . مِنْ أخيه ومحبّـــه ، المخْلِص فى حُبِّه ، الصادقِ المودّةِ له فى بُعْده وقُرْبه .

الحمــدُ لله الذى أيّد الإسلامَ بنصره ، وضيّق علىٰ أعدائه مَجَال حَصْره ، وجدّد بتأييده فى زمانه ما تحلّىٰ به أعطافُ عَصْره . نحمَــدُه عن الدِّين الحنيف على نُصْرةٍ أضاء لهـا الوُجودُ بأَسْره ، وأوقعتْ كلَّ خارج(١) علىٰ الدِّين والمُلْك فى قَبْضة أَسْره ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُخْلِص قائلُها غايةَ ٱجتهاده ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى جاهدَ فى الله حقَّ جِهاده ، صلّىٰ الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تستقِلُّ ببشائرها أعباءُ عِباده ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فقد ورد الكتابُ الشريفُ من الحضرة الشريفة العاليــة ، السلطانيّة ، القانيّــة ، أخينا وولدنا العزيز ، المؤيَّد بالنصر على الأعداء والفتحِ الوَجيز ، لا زالتْ دولتُه الشريفة دائمةَ الإقبـال ، متزيّدةً تزيُّد الهــلال ، علىٰ يد المَجْلِسَيْن الساميَيْن ، الأميرين ، الكبيرَيْن ، عضُدَى الملوك والسلاطين : "دلنجى ، وكراى" أدام الله تعالىٰ عزَّتهما ـ بالبشائر بنُصْرة الإسلام ، وتأييد أخينا علىٰ عدُوّه الخارج(١) علىٰ الدِّين والمُلْك . وحَمِدنا اللهَ تعالىٰ علىٰ هذه النُّصره ، وتضاعفَتْ بها المَسَرَّه ، ونحن كُنَّا خارجين بجميع العساكر والجيوش المنصورة الإسلاميّة ، لنَتَساعدَ كلُّنا علىٰ نُصْرة الإسلام . وما تأخّرْنا

(١) فى الأصل "خارجى" .

إلا لَمَّا جاءتْ إلينا مماري (؟) الأخبار وما كانتحقّقْناها ثم تحقّقْنا بحمد الله تعالىٰ هذه الأخبار ؛ وضربْنا لها البشائر فى سائر الأقطار ، وعرَفْنا بها عنايةَ الله تعالىٰ بأخذ المسلمين بنَوَاصِي الكُفَّار ، وقيام الجناب الكريم العالى الأميرِ الكبيرِ النُّوَيْن العادل المعظَّم على باشا ، أعزَّ الله تعالىٰ نُصرتَه فى إعادة الحقِّ إلىٰ أهله ، وصَبْره علىٰ ما سبقَ به كلَّ أحدٍ إلىٰ جميل فِعْله ، وآجتهادِه فى هذا الأمر الآجتهادَ الذى ما كان يُطْلَب إلا من مثله ؛ وكذلك الجنابات العاليةُ الأمراءُ النُّوَيْنات الأكابر ، زِيدتْ سعادتُهم ! فإنَّهم سارعُوا إلىٰ ما كان يجب ويتعين عليهم فى خدْمة سلطانه ، ومن هو أحقُّ بهم وأولىٰ من عظيم عظم قانهم ؛ وما من الأمير النُّوَيْن العادل على باشا وبقيةِ الأمراءِ الأكابر إلا مَنْ قام بما كان عليه من العُهود ، وبذل آجتهادَه حتّى حصَل بحمد الله المقصُود ؛ وما قَصَّروا فى قيامهم حتّى تسلم المستحقُّ حقَّه وميراثَه وما هو أحقُّ به وأوْلىٰ . وهم ـ جزاهم الله الخيرَ ـ قد عمِلُوا ما يجب عليهم ، وبقِىَ ما يجب علىٰ الحضرة الشريفة من الإحسان إليهم .

وأما قولُ الحضرة الشريفة : إنه مثلُ ولدنا فهو هكذا مثل الولد وأعزُّ من الولد ، وكُلُّ أحدٍ منَّا لأخيه فى الآتِّفاق على المَصَالح الإسلامية عَضُد ويَدْ ، وذُخْر وسَنَد ؛ وقد سبَقَ من تآلُف القلوب ما آشتَدَّت به الآنَ أَوَاخيه ، وأضحىٰ له منَّا شفقةُ الوالدِ علىٰ الوَلَد وتوقيرُ الأخِ لأخيه ؛ وقد أعدنا رسُلَه الكرام وحَمَّلناهم مشافَهةً ووصيةً للحضرة الشريفة فى أمورٍ تقتضيها مصْلحتُه ، فإنه عندنا أعزُّ من الوَلَد . وما القَصْد إلّا الآتفاقُ على مصالح الإسلام ، وما فيه نظام كلمة الوفاق [والوِئَام] ، فيُديم المواصلةَ بكُتبه وأخباره السارّه ، والله تعالى يديم مَسَارّه ويضاعف مَبَارّه ؛ إن شاء الله تعالى .

ولم أقِفْ لهذه المكاتبة على قَطْع ورق ، والظاهر أنها فى قَطْع النصف لما سيأتى أنه الذى عليه الحال فى مكاتبة صاحب بَغْداد وتَوْرِيز ، فيما بعدُ إنْ شاء الله تعالى .

وآعلم أن صاحب "التثقيف" قد ذكر أن المكاتبة إلى الشيخ أُوَيْس : صاحب بغدادَ وتَوْريز، وآبنه حسَنٍ بعده فى ورَق قَطْع النصف . ورسمها : «أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المَقام الشريف العالى، الكبيرىّ ، السلطانىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، المجاهِدىّ ، المؤيدىّ ، المرابِطىّ ، المنصورىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ» بلقب السلطنة «الفلانىّ» بلقبه الخاص . والدعاء بما يناسبه « أصدْرناها إلىٰ المقام الشريف تُهْدِى وتبدى » و «القصد من المقام الشريف» . ويختم بدعاء يناسب ، مثل : «أعزّ الله أنصاره» ونحو ذلك . ومخاطبته بـ«المقام الشريف » . والعنوان «المقام الشريف» إلىٰ آخر الألقاب المذكورة . والدعاء «أعز اللهُ تعالىٰ أنصاره» . وتعريفه "فلان بهادرخان" مثل أن يقال : « الشيخ حَسَن بَهَادرخان » . والعلامة إليه « أخوه » . قال فى "التثقيف" : وكان الشيخ أُوَيْس المذكور عند آستقراره بتَوْريزَ وبغدادَ يكتب له «المقام العالى» ، ثم كُتِب له بعد ذلك «المقام الشريف» .

وهذه نسخةُ مكاتبةٍ كُتِب بها إلىٰ الشيخ أُوَيْس المقدّم ذكره ، جواباً عن كتابٍ ورد منه ، من إنشاء القاضى تقىّ الدين آبن ناظر الجيش ، حينَ كانَ يُكْتَب إليه « المقام العالى » لآبتداء أمره ، على ما تقدّم ، وهى :

أعزّ الله تعالى أنصارَ المقام العالى ، إلىٰ آخر ألقابه ، ولا زال المُلْك زاهرًا زاهيًا بشَرَف سلطانه ، والفَلَكُ يجْرِى بإعزاز قَدْره ، وإحراز نَصْره ، مدىٰ زمانه ، والفتك منه بالأعداءِ يسُرّ الأولياءَ من أهل مَوَدّته وإخوانه ، وسِلْك جواهرِ عِقْد ولائه منظّمامن الإخلاص بجُمَانه ، ولا بَرِح مؤيّدا بأنصار الإسلام وأعوانِه ، مُجدّدا سعدُه الذى يبلّغه جميلَ أوْطاره فى جميع أوْطانه .

أصدرناها إلىٰ المقام العالى تصِفُ مالدينا من المحبّة التى ظهر دليلُها بواضح بُرْهانه ، وتَبُثُّ إلينا أنباء مكنون المودّة التى تَغْنىٰ عن صريح القول وتِبْيانه ، وتُبْدِى لعلمه

الكريم أن كتابه الكريم ورد على يد فلان رسوله فأقبلنا عليه، وصرفنا وجه الكرامة إليه؛ وعلمنا ما تضمّنه من محبّته ومُوالاته، ومخالصته ومُصافاته؛ وما آشتمل عليه ضميره من صحيح الوداد، وصريح الآتحاد، وجميل الآعتقاد، وجزيل المُخالصة التى يتم بها الأملُ والمُراد . وأن المقام العالى جهز رسولَه المشارَ إليه ليُوضِّحَ إلينا ماهو عليه من ذلك، ويُنهِىَ إلينا أسباب الآئتلاف التى عَمَرت أرجاءَ الجهتين هُنا وهُنالك ؛ ويُبْدِىَ ماتحمَّلهُ عنه من المشافَهات، وتفهَّمه من الرسائل والإشارات؛ وقد أحطْنا علماً بذلك ووصل رسولهُ المذكور، وتمثَّل بموَاقِف سلطاننا المنصور؛ وشَمِلَه إقبالُنا الشريف، وإنعامُنا المُطيف؛ وسمِعْنا جميعَ كلامه، وما تحمَّله من المشافَهَة الكريمة من عالى مقامه؛ وشكَرْنا محبَّةَ المقام العالى ووُدّه الجميل ، وأثنينا على مُوالاته التى لا نَميدُ عنها ولا نَميل، وآبتهجْنا بسلامةِ مَقامِه الجليل . وقد أعدْنا فلانا رسولَه المذكور بهذا الجواب الشريف، إلى المقام العالى أعزَّ اللهُ أنصارَه، فيُتْحِف بمكاتباته ومهمَّاته ، والله تعالى يمدّه بالتأييد فى حَرَكاته وسَكَناته ، ويُعِزُّ نصرَه ويَزيد فى حياته .

❖

أما المنفرد بتَوريزَ خاصَّةً، فقد ذكر فى "التثقيف" أنَّ المكاتبة إلى الأشرف (آبن علاء الدين تمرتاش) الذى كان قدوثَب على تِبْريزَ خاصَّةً فملكها، فى قَطْع الثلُث بقلم التوقيعات «ضاعف اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى الأميرىّ الكبيرىّ» وبقية الألقاب والنُّعوت، ومنها النُّوَيْنِيّ . ثم الدعاء . «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى وتُوضِّح» والعلامة « أخوه » . وتعريفه « الأشرف بن تمرتاش » .

ثم ذكر أنَّ أخى جق الذى وَثَب عليه وقتله وآستولى على تِبْريزَ بعده آستقرّت مكاتبته كذلك، وأنه كان يُكْتَب فى تعريفه «أخى» لا غير . ثم قال: وقد ماتا وبطَلَ ذلك .

(أبو بكر بن خَوَاجا على شاه) وزير صاحب تِبْرِيزَ «الأسْمُ» و «السامى» وتعريفه أبو بكر ابن الخواجا المرحوم على شاه . قال فى "التثقيف" : ولم أعلَمْ وُزِّر فى زَمَن مَنْ من المتولِّين

(عُمَر بك) أحد أمراء الأشرف بن تمرتاش صاحب تِبْريز فى قَطْع الثلث ، الدعاء[(١)] و « العالى » والعلامة «أخوه» وتعريفه «عمر بك» . قال فى "التثقيف" : وهذا ممن بطل حكمه بزوال مخْدُومه .

الجمـــــلة الثـالثـــة

(فى رسم المكاتبة إلىٰ مَن ٱنطوتْ عليه مملكةُ إيران،ممن جَرَت عادتُه بالمكاتبة عن الأبواب السلطانية،فى أيام السلطان أبى سعيد فمَنْ بعده،وهم ثمانية أصناف)

الصنف الاول

(كُفَّال المملكة بحضرة القان ، وهم علىٰ ضربين)

الضرب الاول

(كُفَّال المملكة بالحَضْرة فى زمن القانات العِظام كابى سعيد ومَنْ قبله من ملوكهم حينَ كانتِ المملكة علىٰ أتم الأُبَّهة وأعلىٰ الترتيب)

قد تقـدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك فى المقالة الثالثـة أنَّ القائمَ بتـدبير العسكر لهذه الدولة حين كانتْ قائمَةً علىٰ نمط القانِيَّة المتقدّم إلىٰ آخر زمَنِ أبى سعيد أربعةُ أمراءَ، يعَبَّر عنهم بأُمَراء الأَلُوس، ويعبَّر عن أكبرهم بِبكْلارى بك بمعنىٰ أمير الأمراء . وربمـا أُطْلِق عليه أمير الأَلُوس أيضا . والقائمُ بتدبير الأمور العـامَّةِ هو الوزير .

---

(١) يظهر قياسا على ماقبله أنه سـقط هنا من قلم الناسخ شيء نحو والمكاتبة ضاعف الله الخ . ثم الدعاء والعـالى الخ .

فأما الأمراءُ المذكورون ، فقد كان كلٌّ من الأمراء الأربعة والوزير يكاتَب عن الأبواب الشريفة السلطانية . وقد ذكر فى "التعريف" أن المكاتبة إلىٰ بكلارى بك فى قَطْع النصف : « أعزَّ الله تعالىٰ نَصْرَ المقرّ الكريم » . وإلىٰ الثلاثة الذين دُونَه فى قطع الثلث : « أدامَ الله تعالىٰ نَصْر الجناب الكريم » . وأنَّهُ يقال لكلٍّ من الأربعة «النُّوَيْنىّ» . ثم قال : ومثلُ هذا مكاتبة أرتنا بالرُّوم، وأمير التُّومان بديار بَكْر : من سُوناى وبنيه وكذلك سائرُ الامراء النُّوَيْنات : وهم أمراءُ التَّوامين .

والذى ذكره فى "التثقيف" أن المكاتبة إلىٰ الشيخ حسن الكبير أمير الأُلُوس كانت علىٰ ما آستقرّ عليه الحال إلىٰ حين وفاتِه ببغدادَ فى قَطْع الثُّلُث بقلم التوقيعات: «أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ الجناب الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكَبيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ ، المؤيَّدىّ ، الزَّعيمىّ ، العَوْنىّ ، الغِيَاثىّ ، المُثاغرىّ ، المُرابِطىّ ، المُهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، النُّوينىّ ، الفلانىّ : عونِ الإسلام والمسلمين ، سيِّدِ الأمراء فى العالَمين ، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين ، زعيم جُيوش الموحِّدين ، ممهِّد الدُّوَل ، عمادِ الملة ، عَوْنِ الأمه ، كافى الدولة القانيَّه ، كافِل المملكة الشَّرْقيه ، آمرِ التَّوامين ، أمير الأُلُوس ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضُدِ أمير المؤمنين» . والدعاء أربع قرائن أو أكثر : « أصدَرْناها إلىٰ الجناب الكريم » و « تبدى » و « القَصْد من الجناب الكريم » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه «الشَّيْخ حسن أُلُوس بك» .

قال فى "التثقيف" : ولما تُوفِّى الشيخُ حسنٌ المذكور إلىٰ رحمة الله تعالىٰ لم يقُمْ غيره مكانَهُ فيما أظُن ، ولا كُوتِب أحدٌ بعده بهذه المكاتبة . قال : والنُّوينىّ فى ألقاب هٰؤلاء بدل «الكافِلىّ» فى ألقاب النُّوّاب ، يعنى بالمملكة المِصْريَّة والشاميَّة . ثم قال : وهو نعتٌ يُستعمَل دائمًا لأهل تلك البلاد ، ولا يُستعْمَل الكافلىّ أصلا .

وهذا عجيب منه ! فقد أثبت هو «الكافِلىّ» فى الألقاب التى أوردها فى المكاتبة إلىٰ الشيخ حَسَن الكبير .

وأما الوزير بهـذه المملكة فقد ذكر فى "التعريف" أن رسمَ المكاتَبة إليه فى قطع الثلث «ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نِعمةَ المجلس العالى الأَميرىّ الوزيرىّ» علىٰ عادة المكاتبات إلىٰ الوزراء بألقاب الوِزَارة . قال : فإن لم تكُنْ له إمْرة ، فيقال له «الوَزِيرىّ» ولا يُقال له «الصاحِبىّ» لِهَوَانها لديْهم . ولم يتعرّض فى "التثقيف" إلىٰ المكاتبة إلىٰ وزير هـذه المملكةِ ، ولا إلىٰ الأُمراءِ الثلاثة البـاقين من أُمَراء الأَلُوس ، بل عَدَل عن ذلك إلىٰ المكاتبـة إلىٰ الوزير ببلاد أزْبَك . وسيأتى ذكرها فى موضعها إن شاء اللهُ تعالىٰ .

قلت : وقد مُحِيتْ رسومُ تلك المملكة ، وعفَتْ آثارها بزَوَال ترتيبِ المملكة بموت السلطان أبى سعيد : آخر ملوك بنى جنكزخان بهذه المملكة . وإنما ذكرْنا ذلك حِفْظًا لما كان الأمرُ عليه : لاحتمال طُرُوّ مثل ذلك فيما بعد ، فيُنْسَج ما يأتى علىٰ مِنْوال ما مضىٰ ، ويُجْرىٰ فى المستقبل علىٰ مِنْهاج الماضى ؛ فالأمور ترتفِعُ ثم تنخفض ، وربما انخفَضَتْ ثم ارتفعت . والله تعالىٰ يقول : ﴿ وتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُها بيْنَ الناس ﴾ .

الضرب الثانى

(كُفَّالُ المملكة بالحضْرة بعد موت أبى سعيد)

قد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعةً : منهم محمدٌ الكازَرُونىُّ وزكَرِيًّا وزيرَا الشيخ أُوَيْس . وقد ذكر أنَّ رسم المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما فى قَطْع العـادة « صدرتْ هذه المكاتَبةُ إلىٰ المجلس السامىِّ ، الأَجلِّىّ ، الكبيرىّ ، الأوْحَدىّ ، المقدَّمىّ ، المُنْتخَبىّ ، الفلانىّ ؛ مجدِ الإسلام ، بَهاءِ الأنام ، شرفِ الرؤساء ، أوحدِ الأعيان ، صَفْوة الملوك

والسلاطين» . ثم الدعاء . والعلامة « الأسمُ الشريف » وتعريفُه «فلان وزير الشيخ أوَيْس بَهادِرْخان» .

ومنهم ـ الطَّواشى مَرْجان، نائبُ القان أُوَيْس ببغداد، ولقبه أمينُ الدين بالِس. ورسم المكاتبة إليه «والده» و«السامىّ» بالياء . وتعريفه «خَوَاجا مَرْجان» .

ومنهم ـ محمد فَلْتان، نائب الشيخ أُوَيْس أيضا . وذكر أنّ رسمَ المكاتبة إليه مثل المكاتبة إلىٰ مَرْجان . والعلامة « الأسمُ الشريف » . وتعريفه : «فَلْتان نائب الشيخ أُوَيْس» .

قلت : فإن ٱتفق أنْ أُقيم لصاحب بغدادَ: كأحمد بن أُوَيْس ومن فى معناه مثلُ هؤلاء ، كانت المكاتبةُ إلىٰ كلٍّ منهم نظيرَ مثله من المذكورين بحسَب مايقتضيه الحالُ .

الصنف الثانى

(ممَّن جرَتِ العادة بمكاتبته بمملكة إيرانَ عن الأبواب السلطانية، صِغَارُ الملوك المنفردين ببعض البُلْدان، والحُكّامُ بها ممن هو بمَمْلكة إيران)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنّ مملكة إيرانَ تشتمِلُ علىٰ عِدّة من الأقاليم داخلةٍ فى حدودها، منتظمةٍ فى سِلْكها. وقد ذكر فى "التعريف" جملةً من المكاتبات عن الأبواب السُّلْطانية إلىٰ بعض هؤلاء الملوك . وخالفه فى "التثقيف" فى بعض المواضع وزاد عليه عِدّةَ مكاتبات . وها أنا أذكُر ما ذكراه من ذلك ، وأزِيد ما ٱتَّفَق زيادتهُ مميِّزا لكلِّ إقليم من أقاليم هذه المملكة بمَنْ فيه من المُلُوك والحُكّام ومَنْ جرىٰ مجراهم .

فمّن جرتِ العادةُ بمكاتبته من الملوك والحُكّام بالجزيرة الفُراتيّة، ممـا بين دِجْلةَ والفُرَات من ديار بكر وربيعةَ ومُضَر وغيرها علىٰ ماتقدّم ذكره فى المسالك والممـالك فى المقالة الثالثة

صاحبُ مارِدِينَ — وقد تقدّم فى المَسالك والمَمَالك أنها مدينةٌ ذاتُ قَلْعة حَصِينة بديار بَكْر من هذه الجزيرة ، وأنها بيد بَقَايَا بنى أُرْتُق[1] المستقِلّين بمُلْكها من قديم الزمان وإلىٰ الآنَ .

ورسمُ المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" : «اعزّ الله تعالىٰ نُصْرة المقَرّ الكريم العالى، الكبيرىّ المَلَكى الفلانىّ الفلانى» يعنى باللَّقب الملوكى، واللَّقَب المضاف إلى الدين؛ مثل «الصّالحى الشّمْسى» وما أشبه ذلك . ثم الدعاء . قال فى "التثقيف": ثم يقال : «أصدرناها إلى المَقَرّ الكريم»، «وتُبْدى لعلمه الكريم» . «فيتقدّم أمره الكريم» . ويُخْتَم بمـا صورته «فيُحيط علمُه الكريم بذلك» . والدعاء . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «صاحب مارِدِينَ» . وورَقُه قَطْع العادة . ثم قال : ويتعيّن أن تكون ألقابُه إلى آخر اللقب الملوكىّ سَطْريْن سواءً ، وأن يكون لقبُـه العادىّ كالفَخْرىّ مثلا أوّل السطر الثالث .

وقد ذكر فى "التعريف" ثلاثةَ صُـدُور لمكاتبة تتعلّق بصاحبها فى زمانه ، وهو «الصالح شَمْس الدِّين صالح» .

أحدها — ولا زالَ مَلِكا تاجُه المَدَائح، ومِنهاجُه المَنَائح، وطريقتُه إذا وُصِفتْ قيل : هذه طريقةُ الملِك الصالح. أصدرْناها إليه وشكْرُها تَسُوقه إليه حُداةُ الركائب، وتشوقُ منـه إلىٰ لقـاء الحَبَائب ، وتُثْنى علىٰ مَكارمه التى كلّما أَقْلعتْ منهـا سحائبُ أُعْقِبتْ بسحائب، وتُوضِّح للعلم الكريم .

(١) هو بهذا الضبط كما فى ص ٨٦ ج ١ من تاريخ ابن خلكان .

الثانى — ولا زالتْ شمسُه فى قُبَّة فَلَكها ، وسَمـاءُ ممالكه مملوءةً حَرَسًا شـديدًا وشُهُبا بمَلِكها ؛ ونِعَـمُه تتعب البِحارَ إذا وقفت فى طـريقها ، والغمائمَ إذا جازت فى مَسْلَكها . أصدرناها إليه والسلامُ متنوِّع على كَرَمه ، متضوِّع بأطيبَ من أنفاسِ المِسْك فى نِعَمه ، متسرّع إليه تَسَرُّع مواهِبِه إلى وُفُود حَرَمه . وتوضِّح للعلم الكريم .

الثالث — ولا زالتِ العُفاة تلتَحِفُ بنَعْمائه ، وتنتَجع مَسَاقِطَ أنوائه ، وتستضىءُ منه بأشرقِ شمسٍ طلعت من المُلْك فى سَمَائه ؛ أصدرناها وثناؤها يسابِق عَجِلا ، ومدائحها تُجيد مَترويِّا ومُرْتَجِلا ؛ وشُكْرها لو رُصِّع مع الجواهر لأقام عُذْرَ الياقوت إذا اكْتَسى خَدُّه الحمرةَ خَجلا ، وتوضِّح للعِلْم الكريم .

قلت : وعلى نمط هـذه الصدور يجرى الكاتبُ فيما يكْتُبه إلى صاحبها مناسـبا لحاله ولقبِه بحسَبِ مايقتضيه الحال من المُناسَبات .

وهذه نسخةُ كتاب ، كُتِب به إلى الملك "الصالح شرفِ الدِّين محمود بن الصالح[(١)] صالح" ، جواباً عمّا ورد به كتابُه : من وفاةِ والده المنصور أحمد . نقلتها من مجموع بخطِّ القاضى تقىّ الدين ابن ناظر الجيش وهو :

أعزَّ الله تعالى نُصرةَ المَقرّ الكريم ، الى آخر ألقابه — ولا زال المُلْك باقيا فى بيته الكريم ، والفَلَك جاريا بإظهار شَرَفه العَميم ؛ وأعظَمَ له الأجْرَ فى أكرمِ مَلِك انتقل إلى جنّات النعيم ، وهنّاه بما أوْرثه من ذلك المحلِّ الأسنى الذى هو الأوْلى فيه بالتقْديم ؛ وضاعفَ لسلطانه الصالحِ عُلُوّ جَدّه ، بما مَنَحه من مُلْكه المَوْرُوث عن المنصور أبيه والصالح جَدّه ، وبما خَصَّه من إقبالنا الشريف وإحساننا المستديم . أصدرناها مُعْرِبةً عن الوُدّ الثابت الصَّمِيم ، مهنِّئة له بقيـامِه بأُمور مملكته التى تجمَّلت بمحمود صفاته

(١) هو على مايؤخذ من نسخة الجواب بعد : محمود بن أحمد بن صالح فنسبه إلى جدّه .

ومَنْ سلَفَ من أسلافه فى الحديث والقديم، مُبدِيَةً لعلمه الكريم أنَّ مكاتبته الكريمه، ومُخاطَبَته التى فَضَحتْ من الدُّرّ نَظِيمه، وردَتْ علىٰ أبوابنا الشريفة علىٰ يدِ فلان فأقبلْنا عليها، وألفَتْنا وجهَ الكرامة إليها؛ وعلمنا ماتضمَّنته من ٱستمْساك المقرّ الكريم بأسباب الوِداد، وٱقتفائه فى ذلك سبيلَ الآباءِ والأجْداد؛ وماشَرَحه فى معنىٰ ماقدّره الله تعالىٰ من وَفاة والده طابَ ثَراه، مستمِرّا علىٰ الإخلاص فى الطاعة الذى لم يكن شانَهُ شينٌ ولا ٱعتراه؛ وأنه مضىٰ ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ إلىٰ الجنة وقد خَلَّف من خَلَّفه، وٱرتضىٰ بما نال من الرِّضا عما قدّمه من العمل الصالح وأسْلَفه؛ وماأبداه: من أنه إن ٱقتضت مراسِمُنا الشريفة وآراؤنا العاليةُ أن يقومَ مقامه، ويَرْعىٰ فى حقوقه ومَصَالح تلك المملكةِ ذِمَامه؛ فنَرْسُمُ بإجرائه علىٰ السُّنَّة المعتاده، من إحسانِ بيتنا الشريف الذى بَدَأ به وأعاده؛ وإلا فتَبرُزُ الأوامر الشريفة بمَنْ يَسُدّ ٱختلالها، ويُسَدّد أحوالها، ويَشَيِّد مَبانِيَها ويُصْلِح أعمالها؛ ليقصِدَ المَقامَ الشريف بأبوابنا الشريفة سالكًا سبيلَ الطاعة المُبين، منتظمًا فى سِلْك أوليائنا المُقرّبين؛ إلىٰ غير ذلك مما حَمَّله لأستاد داره من مشافهته، وجميلِ مقاصده ووافِر محبَّته وطاعتِه؛ وقد أحطْنا علمًا بذلك وسمعنا المشافَهةَ المذكوره، وشكرنا محبَّتَه المأثُوره؛ وإخلاصه فى الخِدْمة الشريفه، وجميلَ الموالاة التى تمنَحُه تكريمَه وتشريفَه؛ وٱستمْساكَه بسُنَّة آبائه الكِرام، وٱجتهادَهُ فى المُناصحة والطاعة التى لاتُسَامىٰ من مثله ولا تُسَام؛ ونحن نُعترِف المقرَّ الكريم أنَّ محلَّه ومحلَّ بيته الكريم لم يزَلْ لدينا رفيعًا مِقدارُه، عاليًا مَنَاره؛ وأن مَكانَتَه من خواطرنا الشريفةِ متمكِّنه، ومنْزِلتَه قد صحَّت أحاديثُها المعَنْعَنه؛ وهو الأحقُّ بمحلِّ مُلْكه، والأولىٰ بأن يكون من نِظام عُقودِ مُلُوكه واسطةَ سِلْكه؛ وقد ٱقتضت آراؤُنا العاليةُ أن يقومَ مَقام والده المرحوم، ويحُلَّ محلَّ هذه السلطنة ليعْلوَ قدْرُه باقبالنا الشريف علىٰ زُهْر النُّجوم؛ ولْيجلِسْ بمكانه، وليَبْسُط

المَعْدِلة لتكونَ حليـةَ زمانه، وليستنْصِر علىٰ أعدائنا وأعدائه بأنصارالمَلِك وأعوانه؛ وليستقِرَّ على ماهو عليه من المحافَظة على الوِداد ، ولْيستمْسِك بعُرىٰ الإخلاص المبَرَّإ من شوائب الآنتقاد؛ وليقْتَفِ فى ذلك سبيلَ سَلَفه الكريم ، ولْيُواصِـلْ بمكاتباته وأخبارِه علىٰ سَنَنِهم القَويم؛ وقد أعدنا إستاد داره بهذا الجواب الشريف إليه .

وآعلم أنه قد ذكر فى "التثقيف" أنَّ ممن يكتَبُ إليـه عن الأبواب السلطانية من أتباع صاحب مارِدِينَ نائبُه، وذكر أنه كان آسمه فى زمنه «بَهَادِر» . وأن رسم المكاتبـة إليه الآسمُ والسامى بغير ياء؛ وكذلك نائبُ الصالحيَّـة من عَمَل مارِدِينَ؛ وأنَّ رسمَ المكاتبة إليه الآسمُ و «مجلس الأمير» . فليَجْرِ الكاتب علىٰ سَنَن ذلك إن آحتيج إلىٰ مكاتبتهما .

صاحب حِصْن كَيْفَا — وهى مدينةٌ من دِيار بكر من بِلاد الجَزِيرة، بين دِجْلةَ والفُرات . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المَسالك والممالك نقلا عن "التعريف" أن صاحبها من بقَايا الملوك الأيوبيَّة، وممن تنْظُر إليه ملوكُ مصر بعين الإجلال : لمكان وَلَائهم القديم لهم، وآستمرار الوداد الآنَ بينهم .

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" : «أدام اللهُ نعمةَ المجْلِس العالى، المَلَكى ، الفلانى» باللَّقَب الملوكى «العالِمىّ ، العادِلىّ ، المجاهِـدىّ ، المؤيَّدىّ ، المرابطىّ ، المُثَاغِرىّ ، الأوحدىّ ، الأَصِيلىّ ، الفلانى» باللقب المتعارَف «عِزِّ الإسلام والمسلمين، بقيَّةِ الملوك والسلاطين، نُصْرة الغُزاة والمجاهِدين، زَعيم جُيوش الموحِّدين ، شَرَف الدُّوَل ، ذُخْرِ الممـالك ، خليلِ أمير المؤمنين» . ورُبَّمـا قيل : «عَضُد أمير المؤمنين» إذا صُغِّر .

وذكر فى "التثقيف" مايخالِفُ فى بعض ذلك، فقـال : إنَّ مكاتبته : «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدىّ، المرابِطىّ،

المثاغرى"، الأوحدى"، الفلانى"» باللَّقب الملوكى واللَّقب المتعارف . «عِزّ الإسلام والمسلمين، زعيم جيوش الموحِّدين. ذُخْرِ الملة، سليلِ الملوك والسلاطين، عضُـدِ أمير المؤمنين» . ثم الدعاء . «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى . "والعلامة" أخوه» وتعريفه «صاحب حِصْن كَيْفا» . قال : والكتابة إليه فى قَطْع العادة .

وقد ذكر فى "التعريف" صُدورا لمكاتبته .

صدر : وآستعادَ به من الدَّهْر من عُهُود سلفه ماتسلَّف، وحاز له من مَوَارِيث المُلْك أكثر مما خَلَّى له أوَّلُه وماخَلَّف، وحطّ للرحال فى حِصْن كَيْفا به علىٰ مَلِكٍ : أما المستجيرُ به فيتحَصَّن وأما فضْلُه فلا يُكَيَّف، وأعان السحابَ الذى كَلَّ عن مجاراته ويَجْرِى هو ولا يتكلف . أُصـدِرتْ هذه المكاتبةُ إليـه ونَوْءُها يَصُوب، ولَأْلاؤها تَشُقُّ به الظلماءُ الجُيُوب، وثناؤُها على حُسْن بَلائه فى طاعة ربِّه يقول له : صَبْرا صبْرًا كما تعوّدتم يا آلَ أيُّوب .

صدر آخر : وشَدّ به بقِيَّةَ البيت ، وحَيَّـا طَلَله البـالى وأحيـا رسْمَه المَيْت، وذَكَر به من زمان سَلَفه القديم مالا يُعْرَف فيه هَيْت، وأبقىٰ منه مِلكا من بنى أيُّوبَ لا يَثْنِى وعْدَه اللَّىُّ ولا يقـال فيه لَيْت ؛ ونَوَّر الملك بغُرّته لا بمـا قَرَع السـمْعَ عن الشَّـمع ووَرَدَ المصابيحَ من الزَّيْت، وحَفِظ منه جَوَادا لو عينه(١) أخُوه السَّحابُ علىٰ السَّبْق، لقال له : هَيْهاتَ كم خَلَّفْت مثلَك خَلْفى وخَلَّيْت . أُصدِرتْ هذه المكاتبةُ إليه، أعزَّ الله جانبه والتحيَّاتُ مُوَشَّحةٌ بنُطُقها، مصبِّحةٌ لسَجاياه الكريمة بخُلُقهـا، ساحبةٌ إليه ذيْلَ خُيَلَائها : لأنها إذا آختالَتْ بهتَخْتال، وبسَبَبه علىٰ السُّرور تَخْتال .

ملوك كيلانـــ — قال فى " التعريف " : وهم جمـاعةٌ كُلٌّ منهم مسـتقِلٌّ بنَفْســه ، منفردٌ بمُلْكه، علىٰ ضِيقِ بلادهم وقُرْب مجاورةِ بعضِهم من بعض . وقد

(١) كذا بالأصل، وفى التعريف "عتبه" والاولىٰ عاتبه أنظر كتب اللغة .

تقدّم الكلامُ علىٰ بلادهم فى المسالك والممالك . قال فى " التعريف " : ورُسُلهم قليلة، وكُتُبهم أقلُّ من القليل .

ورسمُ المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهم علىٰ ماذكره فى "التعريف" نحوُ مايكْتَب إلىٰ صاحب حِصْن كَيْفا . يَعنى يكْتَب لكلٍّ منهم : « أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ المجلِس العالى المَلَكى الفلانى » إلىٰ آخر ما تقدّم هُناك . قال فى "التعريف" : إلا صاحب يُومنْ فإنه يكْتَب له بـ«ـالجناب» . وهو مثلهم فى بقِيَّة الألقاب . قال فى " التثقيف " : ولم أَرَ لهم مكاتبةً ، ولا كُتِب لهم فى مدّة مباشرتِى بديوان الإنشاء الشريف شىْءٌ ؛ غير أنى رأيت بخطِّ المولىٰ القاضى المرحوم زين الدين خَضِر، أنه كتب أمثلةً شريفةً إلىٰ جماعة، منهم «حَرَم الدين» . بيُومِنْ، ثم قال : وهذا هو الذى ذكر القاضى شهابُ الدين أنَّ مكاتبته أعلىٰ مكاتباتهم؛ وأنه يكْتَب إليه «الجناب» . قال : ومايَبْعُدُ أن الجماعة الذين كُتِبَ إليهم علىٰ ما ذكر القاضى زينُ الدين المشار إليه هم من جملة ملوك كَيْلَان . ثم عدّد مَنْ كُتِب إليه منهم فقال : وهم نُوباذ شاه، وسالوك ولده ، فى قَطْع العادة .

ورسم المكاتبة إليهما : «خلَّد الله تعالىٰ سعادةَ الجَنابين الكريمين، العالِيين، الكبيريْن، العادِليَّين، المجاهديَّيْن، المرابطيين، المَلَكيين : الشَّرَفىّ والسَّيْفىّ» . والدعاء . والعلامة «أخوهما» . والعُنْوان سطران . وتعريفهما : نُوباذ شاه وسالُوك ولده صاحبا كوحسفا (؟) .

ناصر الدّين بَهْلَوَانُ ، وشَرَفُ الدين شَرَف الدولة صاحِبَا لاهِجَان مثلُ ذلك سواءً .

فَلَك الدين صاحب دشْتَ كذلك .

حُسَام الدين صاحب يُومِنْ كذلك . ثم قال نقلا عن ابن الزَّيْنىّ خَضِر أيضا : وقيل إنَّ حُسام الدين هـذا كان صاحب يُومِن، وصاحبُها الآنَ أخُوه علىٰ ماذكره محمود بن إبراهيم بن اسفندار الكَيْلانى حين كَتَب إليهم .

قلت : وهٰؤلاء هم ملوك كَيْلان ، وهذه مُدُنهم علىٰ ما تقدّم فى المسالك والممالك . والعَجَب كيف وقع الشَّك فى ذلك من صاحب "التثقيف" حتّٰى قال : وما يَبْعُد . وأما التسويةُ فى الآخر بين صاحب يُومِنْ وغيره ، فيجوز أنَّ قدْره ٱنحطَّ بعـد زمن صاحب "التعريف" أو جَهِل الكاتب الثانى مِقدارَه .

صاحب هَرَاةَ — وهى مدينة من خُرَاسانَ . قال فى "التعريف" : ولا يَجْرِى علىٰ الألْسُن الآنَ إلا صاحب هَرىٰ . قال : وكان ملِكُها الملِكَ غياثَ الدين . ولم أسمع أعجميًّا يقول إلا قِيَاس الدين . وكان مَلِكا جليلا نَبيلا مفَخَّما معظَّما، له مَكانةٌ عند الملوك الهُولاكوهِيَّه، ومنزلةٌ رفيعة عليَّه . وكان بينه وبين النَّوَيْن جُوبان مودّةٌ أكيدة وصـداقةٌ عظيمة ؛ فلما دارتْ به دوائرُ الزمان وأفضَتْ به الحال إلىٰ الهرَب ، لجأ إلىٰ صاحب هَرىٰ هذا ، على أنه يُسَهِّل له الوُصُولَ إلىٰ صاحب الهند ؛ أو إلىٰ مَلك ماوراء النهر، فأجابه وأنزله ، وبسَـطَ أمَلَه ؛ وأسرّ له الخِدَاع حتّٰى ٱطمأنَّ إليه ، فأصـعَدَه إلىٰ قَلْعته ليُضيفه ، فصَعِد ومعه ٱبنُه جلوقان ، وهو ٱبنه من خُوَندة بنت السلطان خدابَنْدا ؛ وجُلُوقان هذا هو الذى أجيب إلىٰ تزويجه ببنت السلطان الملك النـاصر، وعلىٰ هذا تمّتْ قواعدُ الصُّلح . وبنىٰ جُوبانُ أمرَه علىٰ أنه بعدَ التزويج يأخذ له مُلكَ بيتِ هُولاكو بِشُبْهة أنه ٱبن بنْت خدابندا ؛ وأنه لم يبْقَ بعد أبى سعيد من يَرِث المُلْك سِواه . ثم يستضيف له مُلكَ مصر والشام بشُبْهة أنَّ بنتَ صاحب مصر هى التى تَرِث المُلْك من أبيها ؛ فحالت المَنَايا دُون الأمانِى .

وحالَ صُعودِ جُوبان وآبنه جلوقان القلعة أمسكهما غياثُ الدِّين وخنَقَهما ليتّخذ وجها بذلك عند أبى سعيد ،وبعثَ بذلك إلىٰ أبى سعيد، فشكَرَله إمساكَهما، وانكر عليه التعجيلَ فى قتلهما، فاعتذر بأنّى لو لم أقتُلْهما لم آمَنِ آستعدادَ مَنْ معهما لمحاصرتى؛ فقبِل عُذْره، وطلب منه إبهام(١) جُوبانَ ليعْرِف أنه قد قتله ، وكان فيــه زيادةُ سِلعة ظاهرة يُعرف بها، فجهَّزه إليه فأكرم رُسُلَه وبعث إليه بالخِلَع، وأمر بإصبَع جُوبان فطِيف بها فى الممالك. ثم سألتْ بغدادُ خاتُون بنتُ جُوبان : آمرأةُ أبى سعيد، وكان شديد الكَلَف بها، فى نقل أجسادهما فنُقلتْ، فعقَدتْ لها المآتِمَ، ثم أمَرتْ بحملهما إلىٰ مكّة المعظَّمة ، ثم إلىٰ المدينة المشرَّفة ليُدْفَنا فى التربة الجُوبانيَّة التى كان جُوبانُ أعدّها لدَفْنه فى حال حياتِه، فمُكِّنت من ذلك إلا من الدَّفْن فإنهما دُفِنــا بالبَقِيع. ثم حَضَر غياثُ الدين حضرةَ أبى سعيد ،فأُكْرِم وأُعطِىَ العطايا السنيَّة، ثم لم يلْبَثْ أن مات وولى آبنُه . قال : ولم يكن صاحبُ هذه المملكة ممن يكاتَب عن السلطان حتّى كانت واقعةُ جُوبان فكُتِب إليه .

ورسم المكاتبــة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" : «أعزَّالله تعالىٰ نَصْرالمَقرّ الكريم، العالى، العــالمىّ، العادِلىّ، المجاهِدىّ، المؤيَّدىّ، المرابِطىّ، المُثاغِرِىّ، الأوحدىّ المَلك الفلانىّ ، شَرَفِ الملوك والسلاطين، خليلِ أمير المؤمنين» . قال فى "التثقيف" : ولم أطَّلِعْ علىٰ مايكتب إليه سوىٰ ماذكره القاضى شهابُ الدِّين بعد واقعة جُوبان . قال : والذى يظهر لى أنه لم يكاتَبْ بعد ذلك هو ولا مَنْ قام مَقَامه: لأنه لم تكن له مكاتبة مشهورةٌ متداوَلَة بين الموالى الجماعة ، ولا كتب إليه فى مدّة مباشرتى شىء . علىٰ أنَّ القاضىَ شهابَ الدين لم يذكر تعريفه

(١) أى أصبعه الابهام .

الحكام بهـذه المملكة

(مَنْ جرتِ العادةُ بمكاتبته من الحُكّام بالجزيرة الفُراتيّة من هذه المملكة)

الحاكم بشِمْشاطَ — وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنّها بلدةٌ من ديار مُضَر بين آمِد وخَرْتَ بِرْتَ . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامة الاسمُ . وتعريفه «الحاكم بشِمْشَاط» .

الحاكم بميّافارِقينَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدة دِيارِ بَكْر . قال: فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامِى» بغير ياء . والعلامة الاسم . وتعريفه «الحاكم بميّافارِقينَ» .

الحاكم بِحيزانَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينة من ديارِ بكر . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامةُ الاسم . وتعريفه «الحاكم بِحيزان» وهو معدود فى "التثقيف" فى جُمْلة الأكراد .

الحاكم بجزيرة ابن عُمَر — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ صغيرةٌ علىٰ دِجْلة من غربيِّها . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامىّ» باليـاء . والعلامةُ له الاسم . وتعريفه «الحاكم بجزيرة ابن عُمَر» . وذكره فى "التثقيف" فى جملة الأكراد، وقال : كان بها عِزّ الدين أحمد اليخشى . وذكر أن رسم المكاتبة إليه الاسم و«السامى» بغير ياء . وتعريفه «أحمد بن سيف الدين اليخشى الحاكم» . واستقرّ بعد وفاته ولدُه عيسىٰ، وورد كتابه فى صَفَر سنة أربع وستين وسبعمائة، أخبر فيه بوفاة والده واستقرارِه مكانَهُ . علىٰ أنه قد ذُكر معبّرا عنه بصاحب الجزيرة، وسماه بكلمش . وذكر أن المكاتبة إليه الاسم و«السامى» بغير ياء .

الحاكم بسِنْجار — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ من ديار ربيعة . قال فى "التثقيف" : وكان قد كتب لشيخُو الحاكم بها مرسومٌ شريف بأن يكون

نائبًا بها حَسَب سؤاله فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة . قال : وكانت المكاتبةُ إليه أوّلا الاسم و « مجلس الأمير » وكُتِب له حينئذ « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتَلّ أعْفَرَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قَلْعَةٌ بين سِنْجارَ والمَوْصِل . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامة له الاسم وتعريفه « الحاكم بتَلّ أعْفَرَ » .

الحاكم بالمَوْصِل — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدةُ بلاد الجزيرة كلّها فى القديم حيث كانت بيد الجَرَامِقة . قال فى " التثقيف " : والمكاتبةُ إليه فى قَطْع العادة الاسم، و «صدرَتْ » و« السامى» . وتعريفه «الحاكم بالمَوْصِل» . ورأيت فى بعض الدساتير أن العلامة استقرّتْ له «والدُه» عند استقراره نائبَ السلطنة بها .

الحاكم بالحَدِيثة — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها بلْدة على الفُرات . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه الاسم و «السامىّ» بالياء . وتعريفُه « الحاكم بالحَدِيثة » . وهى غير حَدِيثة المَوْصِل . وهى بلدةٌ شرقىَّ دِجْلة تُعَدّ فى بلاد العراق .

الحاكم بعَانَةَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها بلدةٌ صغيرة على جزيرةٍ فى وَسَط الفُرات . قال فى " التثقيف " : ورسمُ المكاتبة إليه الاسمُ و « السامىّ » بالياء . وتعريفهُ « الحاكمُ بعانَةَ » . ورأيتُ فى بعض الدساتير أنَّ المكاتبة إليه « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتِكْريت (١) — وفى " التثقيف " صاحب تِكْريت . وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ من آخر مُدُن الجزيرة بين دِجلةَ والفُرات . قال فى "التثقيف": ورسمُ المكاتبة إليه مثلُ الحاكم بالمَوْصِل، فتكون فى قَطْع العادة . والعلامةُ الاسم . وتعريفُه « الحاكم بتِكْرِيت » .

---

(١) فى معجم ياقوت بفتح التاء والعامة يكسرونها .

الحـاكم بقَلْعة كُشَاف — وقد تقدّم فى المسالك والممـالك أنها فى الجَنُوب عن المَوْصِل بين الزَّابِ والشَّطّ ،وأنه عدّها فى "تقويم البُلْدان" من بلاد الجزيرة مرّةً ، ومن عِراق العجم أُخْرىٰ . وأنه أوردها فى "التثقيف" بإثبات الألف واللام . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه مثلُ حاكِمَيْ عانةَ والحَديثة ، فتكون المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . ورأيتُ فى بعض الدساتير أن المكاتبة إليــه «السامِى» بغير ياء . وتعريفه «الحاكم بقلعة كُشَاف» .

الحاكم بإسْعِرْد — وهى سِعِرْتُ . قد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينــةٌ من ديار رَبِيعة . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «مجلس الأمير» . وحينئذ فتكون فى قَطْع العادة . والعلامةُ الاسم . وتعريفه «الحاكم بإسْعِرْدَ» .

صاحب حَانِى — ويقال لها حَنَا . وهى مدينــةٌ من ديار بكر . وقد ذكر فى "التثقيف" أنّ صاحبها تاجُ الدين . ورسمُ المكاتبة إليه الاسم «والسامى» بغير ياء .

من جرت العادة بالمكاتبة إليه

بالجانب المختصّ ببنى جنكزخان من بلاد الرُّوم من مارِية وما معها

أرْتَنَا ، الذى كان قائما بهذه البلاد عن بَنِي هُولاكُو من التَّتَر. ورسم المكاتبة إليه فى قَطْع الثلث : « ضاعف اللهُ تعـالىٰ نِعْمةَ الجناب العالى ، الأميرىّ ، الكبيرِىّ ، العالمِىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، العَوْنىّ ، الزَّعيمىّ ، الممهّدىّ ، المشيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، النُّوَيْنىّ ، الفلانىّ ؛ عِزِّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدِ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغزاة والمجاهدين ، زعِيم الجيوش ، مقدَّم العساكر ، كهْف المِلَّة ، ذُخْر الدولة ، ظَهِير الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين » . والدعاء والسلام . والعلامة «أخوه» .

وذكر فى "التثقيف" أنه كتب إلى ولده محمد بعده كذلك فى قطع الورق والمكاتبة والعلامة . وأنه كتب إلى على بك بن محمد المذكور بعده كذلك ، إلا فى العلامة فانها آستقرّت له «والده» وكتب تعريفه : «على بك آبن أرتنا» .

من جرت العادة بمكاتبته من الحكّام ببلاد العراق

الحاكم بهيت — وعبّر عنه فى "التعريف" بصاحب هيت . وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها شمالىّ الفرات من أعمال بغداد . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه الآسم و «السامىّ» بالياء؛ وتعريفه «الحاكم بهيت» .

الحاكم بالقنيطرة — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها بلدة بالقرب من مرسى الحلّة . قال فى "التثقيف" : والمكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامة الآسم . وتعريفه «الحاكم بالقنيطرة» . ثم قال : وآخر ما آستقرّت مكاتبته عليه «السامى» بغير ياء . وعبّر عنه فى موضع آخر «بابراهيم صاحب القنيطرة» . وذكر أن المكاتبة إليه الآسم و «السامى» . وأن تعريفه آسمه خاصّةً .

من جرت العادة بمكاتبته من الحكّام ببلاد الجبل
"وهى عراق العجم"

الحاكم بإربل — وعبّر عنه فى "التثقيف" بصاحب إربل . قال فى "التثقيف" : كان بها الشريف علاء الدين على الدلقندى؛ ثم آستقرّ بها الشريف يحيى؛ ثم آستقرّ بها علىّ ولده . قال : والمستقرّ بها الآن على ماتحرّر فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة أسد الدين أسد . ورسم المكاتبة إليه الآسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه «الحاكم بإربل» .

صاحب قاشان — وسمّاها فى "التثقيف" قَيْشان. ورسم المكاتبة إليه «السامى» بغير ياء .

صاحب باب الحديد — المعروفة عنـد الترك بَتْمُرْقابُو . وهى باب الأبواب . قال فى "التثقيف": كان بها كاوُوس، وكتب إليه جوابٌ فى ثانى عشر ربيع الأول سنة ٱثْنتين وستين وسبعمائة أويس (١) فى قَطْع الثلُث ، والدعاء والعالى . وتعريفه ٱسْمُه لا غيْرُ .

مَنْ جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ، ببلاد فارِس

الحاكم بشِيرازَ — وقد تقـدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدةُ بلادِ فارس . قال فى "التثقيف": والمستقِرّ بها على ماتحرَّر فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، شاه شُجَاع ، أخو شاه ولى . وذكر أنه لم يُكْتَب إليـه فى مدّة مباشرته من ديوان الإنشاء، ولا وقف علىٰ مكاتبةٍ إليـه . ثم قال : غيْرَ أنه يمكن أن تكون المكاتبةُ إليـه نظيرَ المكاتبـة إلىٰ الأشرف تمرتاش المستولى علىٰ تِبْريزَ، فإنه قال : إنَّ شـيرازَ قدرُ تِبْريزَ ونظيرُها. فعلىٰ هذا يكون رسمُ المكاتبة إليه فى قَطْع الثلث : «ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى الأميرِىّ، الكبيرِىّ» وبقيّة الألقاب والنُّعُوت. ويكون فيها «النُّوْيِنِىّ» كما فى مكاتبة المستولِى علىٰ تِبْريزَ .

من جرت العادة بمكاتبته ببلاد كِرْمانَ

صاحب هُرْمُزَ — قد تقدّم فى المسالك والممالك أنَّ قاعدةَ كِرْمان القديمة السِّيرَجَان وأن هُرْمُزَ فُرْضَـة كِرْمان ، وأنها خَرَّبها التتر عند خُروجِهم علىٰ تلك البـلاد بكَثْرة الغارات ، وٱنتقل معظَمُ أهلها إلىٰ جزيرةٍ بجُيْرة ببحر فارس على القُرْب منها تسـمّى وَزَرُون (٢) . وقد كُتِب إلىٰ صاحبها عن سلطان العصر "الملك الناصر فرج" ٱبن الظاهر

(١) كذا فى الاصل ولعله زائد من قلم الناسخ (٢) هى بهذا الضبط فى الأصل ولم تذكر فى المعجم ولا فى التقويم

بَرْقُوق فى سنة ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة مفاتحةً فى قطع (١)

من جرتِ العادةُ بمكاتبته من بلاد إِرْمِينِيَةَ وأرّان وأَذْرَبِيجانَ

النائب بخِلَاطَ من أرْمِينِيَةَ — قد تقدّم فى المسالك والممالك أنها كانت قاعدةَ بلاد الكُرْج . قال فى "التثقيف" : ويقال إن حاكمها من الأكراد ، وٱسْمه أبو بكر بن أحمد بن أزبك . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه الآسمُ و «السامىّ» بالياء ؛ فيكون فى قَطْع العادة . وتعريفه «النائب بخِلَاطَ» .

الحاكم بحِصْن أرْزَنَ — وهى أرْزَنُ الرُّوم . قال فى "التثقيف": وهو — علىٰ ما ٱتّضح آخِرا فى رمضانَ سنةَ ستٍّ وسبعين وسبعمائة — علاءُ الدين علىّ بن قَرَا . وردت مكاتبته أن صاحب حِصْن كَيْفَا ٱبنُ خاله . ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما فى "التثقيف" مثلُ صاحب حِصْن كَيْفَا من غير زيادة ولا نَقْص . علىٰ أنه فى "التعريف" قد ذكر أنّ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . قال فى "التثقيف": والصحيح ماتقدّم،فإنى كتبتُ إليه بهذه المكاتبة مرّات، وهو المتداوَلُ بين المَوَالى الجماعةِ إلىٰ آخرِ وقْت . وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها فى آخرِ بلاد الرُّوم من جهة الشرق .

صاحب بِدْلِيسَ — قد ذكر فى "التعريف" أنه كان فى زمانه الأميرَ شرفَ الدين أبُو بكر. وقال: إنه يُتَّهم بمذهب النِّصيريّة. ثم قال: وبلده صغيرٌ، ودَخْله يسير، وعمله

---

(١) بياض بالاصل مقدار أربعة سطور .

ضيّق . وهو طريقُ المارّة وقُصّادِ الأبواب السلطانية إلىٰ الأردو إذا لم يكن بالعراق وله خِدْمة مشكوره. وعدّه فى "التثقيف" فى جملة الأكراد . قال فى "التعريف": ورسمُ المكاتبة إليه : « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامىّ الأميرىّ » أسوة الأمراء . وذكر فى "التثقيف" أنه كان بها ضياءُ الدين أبو الفَوَارس الروشكى أخو الغرس بالو، وأن المكاتبة إليه الآسم و«السامىّ» بالياء. وتعريفه «صاحب بِدْلِيسَ». وأنه آستقرّ بعده ولده الرحاح، وكوتب بمثل ذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

صاحب مُوقانَ — وهى مُوغانُ . وسمّـاها فى "التثقيف" ميوغان . قال فى "التثقيف" : وكان بها محمدُ شاه بن أميرشاه، وكتب إليه مستجدًّا فى سنة سبع وستين وسبعمائة «السامى» بغير ياء .

النائب بخَرْتَ بِرْتَ — وهى حصنُ زِياد . ذكره فى "التثقيف" من جملة تُرْكُمان البلاد الشرقية، وذكر أنّ آسمه يومئذ باليس، وأن رسم المكاتبة إليه الآسم و«السامىّ» بالياء . وتعريفه آسمه، ثم قال : وهكذا كان يكتب إلىٰ صاحب خَرْتَ بِرْتَ قبله . ثم ذكر أنه رأىٰ بخط القاضى شِهابِ الدين بن الصَّفَدىّ أنه آستقرّ بها علاءُ الدين آبنُ خالد المليكشى بعد حُسَام الدين خَرْبَنْدَة، وأن مكاتبته «السامىّ» بالياء .

الصــــنف الثالث

(ممن يكاتب بهذه المملكة العُرْبان، وهم : عبادة وخَفَاجة)

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ أنسـاب العرب أن نَسَبَهما فى عامر بن صَعْصَعة من قَيْس عَيْلان . وأجلُّ من يكتب إليه منهم رسمُه «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامِى الأمير» . علىٰ أنّ صاحب التثقيف قد ذكر أنه لم يَطّلع علىٰ مكاتبةٍ إليهم .

الصـــنف الرابع
(ممن يكاتب بهـــذه المملكة التُّرْكُمان)

قال فى "التثقيف" : والأكابرُ فى البـلاد الشرقية الذين يُكْتَب إليهم من هذه الطائفة مفردا قليلٌ . أما بقيَّتهم من تُرْكمان الطاعة الشريفة، فقد يُكْتَب إليهم عند المهمَّات مُطْلقَاتٌ شريفة، ثم ذكر جماعةً ممن يكتب إليه على ٱنفراده، ولم يعَيِّن لأحد منهم بلدا ولا رياســة قومٍ معروفين . وها أنا أذكرهم على ماذكرهم : ليقاس عليهم لدىٰ تحقُّق مَقَامهم .

منهم — مُراد خَوَاجا . ورسم المكاتبة إليه الآسم و « السـامى » بغـير ياء . وتعريفُه ٱسمه .

ومنهـم — باكيش الكبير ٱبن أخى تُوزْطُوغان . ورسمُ المكاتبـة إليـه الآسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه ٱسْمه .

ومنهم — زَيْن المُلْك تُوزْطُوغان . ورسم المكاتبة إليه الآسْمُ و«السامى» بغير ياء . وتعريفه «مُقدَّم التُّرْكُمان بالبلاد الشرقية » .

ومنهم — على بن إينَال التُّرْكمانىّ من الطائفة البُوزقية . ورسم المكاتبة إليه الآسم و «السامى» بغير ياء وتعريفه ٱسمه .

ومنهم — يعقوب بن علِى شَار . ورسم المكاتبة إليه الآسم و « السامىّ » بالياء . وتعريفُه ٱسمه . قال فى "التثقيف" : وقد ذكر القاضى ناصرُ الدين بن النَّشائى أنه كتب إليه كذلك فى سنة إحدىٰ وأربعين وسبعمِائة .

ومنهم — سالمُ الدَّلكرىّ، ورسم المكاتبة إليه الآسم و «السامىّ» بالياء، وتعريفُه ٱسمــه .

وٱعلم أنه قد تقـدّم فى الكلام علىٰ تُرْكُمان البلاد الشامية نقلا عن "التثقيف" أن من طوائف التُّرْكُمان الذين هم تحتَ الطـاعة مَنْ لم يُكْتَب إليـه بعدُ ؛ بل إذا كتِبَ فى مهمٍّ شريفٍ، كتِب إلىٰ كلّ طائفـة منهم أو إلىٰ سـائر الطوائف مطلَقٌ شريف . وعدّ منهم طوائفَ :

الأولىٰ — البُوزقية : جماعة ٱبن دلغادر وابن إينال المقدّم ذكره .

الثانيـة — أولاد رمضان : الأمريّة .

الثالثـة — الأوشَرِيَّة : تُرْكُمان حلَبَ .

الرابعة — الدلكرية : جماعة سالم الدلكرىّ .

الخامسة — الخَرْبَنْدَليَّة : جماعة مصطفىٰ .

السادسة — الأَغاجِريَّة .

السابعة — الوَرْسق : تُرْكُمان طَرَسُوس .

الثامنـة — القنقيَّة .

التاسعة — البابَنْدرِيَّة : وهم النقيبيَّة (١) .

العاشرة — البكرليّة (٢) : أولاد طشحون .

الحاديةَ عشرةَ — البَياضِيَّة .

ثم قال : وثَمَّ جمائعُ كثيرة لايمكن ٱستيعابُهم .

قلت : فإن كان من هذه الطوائف شيءٌ بهذه البلاد ، فحكمه ماتقدّم فى الكلام علىٰ تُرْكُمان البلاد الشامية .

---

(١) فى الضوء ص ٣٢٧ وهم من القنيعية .

(٢) فى الضوء ص ٣٢٧ البلولية وأولاد طسحون .

الصـــنف الخامس

(ممن يكاتب بهـذه المملكة الأكرادُ)

وقد تقـدّم الكلامُ علىٰ طوائِفهم ومنـازِلهم من بلاد الجِبَال من عِراق العَجَم . قال فى "التعريف" : وهم خلائقُ لايُحْصَوْن ، ولولا أن سيفَ الفتنة بينهم يستَحْصِدُ قائمهم ، ويُنَبِّـه نائمَهم ، لفاضوا علىٰ البلاد ، واستضافُوا إليهـم الطارفَ والتِّلاد ؛ ولكنهم رُمُوا بشَـتَات الرأْى وتفرُّق الكلمة ، لا يزال بينهم سـيفٌ مسْلُول ، ودمٌ مطلول ، وعَقْد نِظامٍ محلول ، وطرفُ باكيةٍ بالدماء مبْلُول . وهم علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(المنسوب منهم إلىٰ بلادٍ ومَقَرّاتٍ معروفة)

قال فى "التعريف" : ولهم رأسان كلٌّ منهما رجل جليل ، ولكلٍّ منهما عدد غيرقليل .

أحدهمـا — صاحبُ جُولَمَرك ، من جبال الأكراد من عِراق العَجَم . قال فى " التعريف " : وهو الكبير منهما الذى تتَّفِق طوائفُ الأكراد مع ٱختلافها علىٰ تعظيمه ، والإشارة بأنّه فيهم الملكُ المُطاع والقائدُالمتَّبع . وهو صاحب مملكةٍ متسعةٍ ومُدُن وقِلاع وحُصون ، وله قبـائلُ وعشائرُوأنفار . قال : وهم يُنْسَبُون إلىٰ عُتْبة ٱبن أبى سفيانَ بن حرب بن أُمَيَّـةَ بن عبدِ شمْس بن عبْد مَنَاف . ثم قال : وكانت الإمرةُ قد ٱنتهت فيهم إلىٰ أسد الدِّين موسىٰ بن مُجَلِّى بن موسىٰ بن منكلان . وكان رجلا كريمـا عظيما نَهَّابا وَهَّابا ، تُجِلُّه ملوكُ الممـالك الجليلة ، وتعظِّمه حُكَّام الأردو وصاحبُ مصر . وإشارتُه مقبولة عنـد الجميع . وإذا ٱقتتلَتْ طائفتان من الأكراد فتقدّم إليهما بالكَفِّ كفُّوا ، وسمعُوا له سمعَ [مُرَاع لاسمع] (١) مُطيع . وذكر أن القائم

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

فيهم إذ ذاك من بَنِيه الملكُ عمادُ الدين مجلّى : وهو رجل يحبُّ أهلَ العلم والفضل ، ويُحِلُّ منهم عنده مَنْ أتاه أعظَمَ محل . وقد مضىٰ القول علىٰ ذلك مستوفًى فى الكلام علىٰ الأكراد عند ذكر عراق العجم من المسالك والممالك ، من المقالة الثانية . قال فى "التعريف" : ورسمُ المكاتبة إليه «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرى» والألقاب التامة الكاملة .

الثانى — صاحب عقرشوش من بلاد الجزيرة . قال فى "التعريف" : ومُلُوكها الآنَ من أولاد المبارِزكَك . قال : وكان مبارِزُ الدين كَكْ هذا رجلا شجاعًا كريما تَغْلِبُ عليه [غرائب من][(1)] الهوس . فيدّعِى أنّه ولىٌّ من الأولياء يقبل النُّذُور . وكانت تُنْذَر له النذورُ تقربًّا إليه[(2)] ، فإذا أتاه النذرُ أضاف إليه مثلَهُ [من ماله][(1)] وتصدّق بهما جميعا . قال : وأهل هذا البيت يدّعُون عَراقةَ الأصل فى الإمرة وقِدمَ السُّؤدَد والحِشْمةِ . ويقولون إنهـم عُقِدت لهم ألويةُ الإمارة وتسلَّمُوا أزِمَّة هـذه البلاد وتسنَّمُوا صَهواتِ الصَّياصِى بمناشير الخُلَفاء ، وأنهم كانُوا لَهُمْ أهلَ وَفَاء . ولهم فى هذا حكاياتٌ كثيره ، وأخبـارٌ مأثُوره ، وهم أهـل تنَعُّم ورَفَاهِية ونِعْمة ظاهره ، وبِزّة فاخره ، وأدُرٍ مُزَخْرفه ، ورياض مُفَوّفه ، وخيول مسوَّمه ، وجَوارحَ معلَّمه ، وخَدَمٍ وغِلْمان ، وجَوارٍ حسان ، ومَعَازِفَ وقِيَان ، وسِمَاط ممدود وخُوَان[(3)] . قال : وموقع بلادِهم من أطرافِ بلادِنا قَرِيب ، والمدْعُوّ منهم من الرَّحْبة وماجاورها يكادُ يُجيب . ثم قال : وملُوكُنا تشْكُرلهم إخلاصَ نَصِيحه ، وصفاءَ سريرةٍ صحيحه . وذكر أن القائم فيهم فى زمانه شجاعُ الدين ابن الأمير نجم الدين خَضِربن المبارِزكَكْ ، إلا أنه

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

(٢) فى التعريف زيادة (بما تنفق عليه لا اعتقادا فيه فيسر بذلك) .

(٣) فى التعريف ص ٣٩ زيادة (وأهل عشرة واخوان) .

لم يبلُغْ مبلَغَ أبيه، بل لايُقارِبه ولا يُدانيه[(١)]؛ علىٰ أنه قد مَلَكَ مُلْكَه، ونَظَّم سِلْكَه .
وقد تقدّم الكلام علىٰ ذلك أيضا فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" مثل صاحب جُولْمَرْك، وهى :
«أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرىّ» . وذكر فى "التثقيف" أن المكاتبة كانت إلىٰ خَضِربنِ المبـارزكَكْ «صدرت» و «العـالى» . والعلامة «أخوه» .
وتعريفه «خَضِربن المبارِزكَك» . مع عدم تعريجه علىٰ ما فى "التعريف" جملة .
وقد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعةً سِوىٰ مَنْ تقدّم من هم منهم بالجزيرة، كالحاكم بجزيرة ٱبن عمر، والحاكم بحانى، وصاحب عقرشوش . ولم يذكر بلاد من ذكره منهم ممن يأتى ذكره منهم ومَنْ كان بكل بلد منهم من أكابرهم وحُكّامهـم؛ ورَسْم المكاتبة إليهم علىٰ ما ذكره، وهم قسمان :

القسم الأوّل — من عُلِمت المكاتبة إليه، وهم :

صاحبُ بَرْخُو — وهو يومئذ أمير حُسَينُ بنُ الملك أسَـد . ورسم المكاتبة إليه الآسم و «السامىّ» بالياء .

صاحب الباهِتيَّة — قال: وكان بها شمسُ الدين بن البيليق، ثم ٱستقرّ بعده أخوه أحمدُ . ورسم المكاتبة إليه الآسمُ و «السامىّ» بالياء أيضا .

صاحب الدَّرْبَنْده — وهو سيف الدين أَصْبر بن أَزْشير الحسينانى . ورسم المكاتبة إليه الآسم و«السامى» بغير ياء. وتعريفه «أمير أَزْشِير الحسينانى صاحب الدَّرْبَنْده» .

صاحب كَرْمَلَيس — وهو سحب مسعود[(٢)] . ورسم المكاتبة إليه الآسمُ و«السامى» بغـــير ياء .

---

(١) فى التعريف ولا أظنه يقاربه الخ .
(٢) لعله وهو المعروف بجت مسعود .

صاحب العِمَادِيَّة — عِمادُ الدين إسماعيلُ بن علىّ بن موسىٰ . ورسم المكاتبة إليه «السامى» بغير ياء . وتعريفه « صاحب قَلْعة العِمَادية» . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنهم بالقرب من طائفة الجُولْمَرْكية . قال فى "التثقيف" وكان بها أولادُ الحاجِّ بن عُمَرَ، وردت مطالعتُه كذلك «الحاجِّ بن عمرَ صاحب العِمَادية» فى سنة أربعين وسبعمائة .

صاحب مازكرد — حسَنُ بن إسماعيل . ورسمُ المكاتبة إليه الاسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب رِنْدَشْت — بجبال هَمَذَانَ وشَهْرزُور . وهو عبدُ الله بن حُسام الدين رَسْلان . ورسمُ المكاتبة إليه الاسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب جُرْذَقِيلَ — بهاءُ الدين عمرُ بن إبراهيم الهَكَّارىّ . ورسمُ المكاتبة إليه الاسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب سكراك — كُرْجى بك . ورسمُ المكاتبةِ إليه « مجلس الأمير» . والعلامة الاسم .

صاحب فلس (1) — سلطان شاه . ورسمُ المكاتبة إليه « مجلسُ الأمير» . والعلامةُ الاسم .

صاحب شكوش — أمير أحمد . ورسمُ المكاتبة إليه « مجلسُ الأمير » . والعلامةُ الاسمُ .

صاحب جُرْموك — «مجلسُ الأمير» . والعلامةُ الاسمُ الشريف .

(1) كذا بهذا الرسم فى الأصل ولم نعثر عليها كما لم نعثر على كثير غيرها من هذه الاسماء ويظهر أنها أسماء مدن حدثت أو تغيرت .

صاحب بَهْرَمان — عبد الصمد . ورسمُ المكاتبة إليه « مجلسُ الأمير » . والعلامةُ الاسم .

صاحب حِصْن أرَّان — وهو حِصْن الملك ـ شُجاع الدين خَضِر بن عيسى الشهرى . ورسمُ المكاتبة إليه «مجلسُ الأمير» والعلامةُ الاسم .

القسم الثانى — من ذكره فى التثقيف ولم يذكر مكاتبتَه وقال : إنه وقف عليه كذلك، وهم :

صاحب خُفْتِيَان — تاجُ الدين أخُو باشَاك .

صاحب سُوبَخ — أمير عيسى بن بَاشَاك .

صاحب أكريسنا — مَلِك بن بَاشَاك .

صاحب يزاكرد — بَهاء الدين الزّرْزارِىّ .

صاحب زابْ — فخر الدّين عثمان الزَّابِى .

صاحب العرسه (١) — شمسُ الدين بن بَهاء الدّين .

صاحب الدَّرْبَنْدات القَرَابِلية — علىّ بن كراقى ، تعريفهُ «صاحب دَرْبَنْد القَرابِلىّ» .

صاحب قلعة الجَبَلَيْن — حُسامُ الدين بنُ تاج الدين العامِلىّ .

صاحب سِيدَكان — أمير علىّ بن حسام الدين الزّرْزارىّ .

صاحب هَرُورَ — بَهاءُ الدّين حسَنُ بن عِمَاد الدين .

صاحب رَمَادَان — أميرُ عبد الله الكُرْكانىّ .

صاحب الشَّعْبانِيَّة — حُسام الدين أمير مرى السبينى .

---

(١) كذا فى الأصل بغير نقط .

صاحب نمريه — بهاء الدين .

صاحب سياح — سُنْقُر .

صاحب المحمدية — الشيخ محمد .

صاحب كزليك — .

الضـــرب الثـانى
(من لم يُصَـــرَّح له بمكان)

وقد ذكر فى " التثقيف " منهم جماعةً ممن كان فى الزمن المتقـدِّم، وصرَّح بذكر المكاتَبة إليهـم، فذكر منهـم أبُو بكر بن المبارِزكَكْ الاسمُ و « إلسامى » بغير ياء، وتعريفه ٱسمه .

مبارِزُ الدين عبد العزيز أخوه مثلُه .

علىٌّ وعمر ولدا ٱبن بروحى(١) خليل بن بروحى(١). ورسم المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما الٱسمُ و «السامى» بغير ياء .

خالدٌ المليكشِى كذلك .

أولاده : محمودٌ وأحمد «مجلس الأمير» .

بَهَاء الدين بن الغِرْس بالُو ـ الٱسم و «السامى» بغير ياء .

عبد الله الشَّهْرىّ ـ الٱسم و «السامى» بغير ياء .

شجاعُ الدين خَضِر بن عِيسىٰ الشَّهرى أخو عبدالله الشَّهرىّ ـ الٱسم و «السامى» بغـــير ياء .

---

(١) كذا بالاهمال ولم نعثر عليه بعد البحث .

مبارِز بن عيسىٰ بن حَسَن السّلَارى ـ الأسم و « السامى » بغيرياء . قال فى " التثقيف " : ومكاتبته مستجِدّة فى العشر الأوَل من شعبان سنة ثلاث وستين وسبعمائة .

خَضِر بن محمد الهَكَّارِىّ ـ الأسم و «السامى» بغيرياء. قال: وهو مستجدّ المكاتبة أيضا فى العَشْر الآخِر من صَفَر سنة تسع وستين وسبعمائة .

قلت : فإن ٱتَّفق المكاتبة إلىٰ أحد من هؤلاء المجهولى الكِتابة أو غيرِهم من الأكراد كُتِب له علىٰ قدر مقداره بالنسبة إلىٰ من عُلِمتِ المكاتبة إليه .

قال فى " التعريف " هنا : ومما يُنَبَّه عليه أنَّ فى طُرُق المـارِّين، ومسالكِ المسافرين، من بلادنا إلىٰ خُراسانَ ومنها إلينا يظهـرُ فى بعض الأحيان أهلُ فساد يعْمِدُون إلىٰ عميدٍ يقدِّمونه عليهم فيقْطعون السُّبُل ، ويُخيفون الطُّرُق ، وتطير سمعةُ عَمِيدِهم ، وتنتَشِر فى قريبِهم وبعيدِهم ؛ فيكاتَبُ ذلك العميدُ من أبواب الملوك ، ويُضْطَرُّ إليه لفتح الطريق بالسُّلُوك ،ويكون من غير بَيْتِ الإمْرة، ورُبَّما هوىٰ نجمُه، فانقطع بانقطاع عُمُرِه ٱسمُه؛ مثـل الجملوك الخارج بطريق خُراسانَ ، والغِرْس بالُو الخارج فيما يقارب بلاد شَهْرَزُور ، ومثلُ الخارجين علىٰ دَرْبَنْـد القرابلى . قال : وهؤلاء وأمثالهم يَطْلُعون طُلُوع الكَمْأة لاأصلٌ ممتدّ، ولا فَرْع مشتدّ؛ فهٰؤلاء لايعرف لأحد منهـم رُتْبة محفوظة، ولا قانونٌ فى رسم المكاتبة معروف ؛ وإنمـا الشأن فيما يكتب إلىٰ هؤلاء بحَسَبِ الٱحتياج وقَدْرِ مايُعْرَف لهم من ٱشتدادِ الساعد، وعَدَد المُسَاعد . قال : ولقد كتَبنا إلىٰ كلٍّ من الجملوك والغِرْس بالو ، بالسامىّ باليـاء ، وجُهِّزت إليهما الخِلَعُ وأُتْحِفا بالتُّحَف .

الصـــــنف السادس

(ممن يكاتَب بمملكة إيران أربابُ الأقلام)

ذكر فى "التثقيف" أنه كُتِب إلىٰ مَجْد الدين أخى الوزير غِيَاث الدين: «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العـالى ، الصاحِبىّ، الأجلِّىّ ، الكبيرىّ، العالِمىّ، الكافِلِىّ ، المـاجدىّ، الزَّيْنىّ، الأَمِيرىّ، الأوْحدىّ، المعظَّمىّ ، الذُّخْرىّ ، المجاهدىّ» . قال فى "التثقيف" : هذا ماوجدته بخطِّ القاضى ناصرالدين بن النشائى ؛ ولم يذكر تعريفه ولا العلامة إليه . وكُتِب إلىٰ عَلَاء الدين صاحب الديوان مثلُه . والعلامة إليــه « أخوه » . قال فى " التثقيف " : هكذا وجدْتُه فى خطِّ آبن النَّشائىّ ولم يذكر تعريفَه .

الوزيرُ شمس الدين ـــ قال فى "التثقيف": نقلتُ من خطِّ القاضى شهابِ الدين آبن الخَضِر أن مكاتَبَته فىقَطْع العادة الآسم و « السامىّ الأميرىّ الشريفىّ الحسيبىّ النسيبىّ» . وبقية الألقاب.ولم يُكْتَبْ له « الصاحبىّ» ولا «الوزيرىّ» . قال : ولم يذكر شيئًا غيرهــذا . ثم قال : ولا أعلم لمن وُزِّر المذكورُ، ولا من أىّ بلاد الشرق .

ضياءُ الدين صاحبُ الديوان ـــ المكاتبةإليه حسَبَ مانقله فى "التثقيف" عن خط آبن الخَضِر أيضا الآسمُ و « السامى الأميرُ الأجلُّ » . وذكر أنه كُتِب إليــه علىٰ يد سراج الدين قاضى قَيْسارِيَّةَ . قال فى " التثقيف " : وعلىٰ هذا أنَّ ضِياء الدين هذا من أهل المملكة الرُّومية .

مُعين الدين صاحبُ الديوان ـــ مثلُه .

الصنف السابع

(ممن يكاتَب بمملكة إيرانَ أكابر المشايخ والصُّلَحاء)

قد ذكر فى "التثقيف" ممن كُوتِب من مشايخ هذه البلاد ثلاثة مشايخ . فنحن نذكرهم لِيُقَاس عليهم، ولِئلَّا يهمَل شيءٌ مما أورده فى التثقيف .

الأوّل — شمسُ الدين الطُّوطىّ . قال فى "التثقيف" : وهو فيما أُظُنُّ ممن كان يُكْتَب إليه قديما، ولم يُكْتَب إليه بعد ذلك . قال: ورسمُ المكاتبة إليه حسَبَ مانقلتُه من خط القاضى ناصر الدين بن النَّشائىّ : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامىّ الشَّيْخىّ، الأجَلِّىّ، العالمىّ، العامِلىّ، الكامِلىّ، الفاضِلىّ، الزاهِدىّ، الوَرَعىّ، العابِدىّ، الخاشِعىّ، الناسِكىّ، القُدْوىّ، الأوحدىّ، الفلانى؛ مجدِ الإسلام، صدرِ الأنام، بقيَّةِ السَّلَف الكِرام؛ فخرِ العلماء، أوْحدِ الكبراء؛ زينِ الزُّهَّاد، عِماد العُبَّاد؛ قدوةِ المتورّعين، ذُخْرِ الدُّول، ركن الملوك والسلاطين» . والدعاء «وتَصف لعلمه المبارك» . والعلامةُ الآسم . قال فى "التثقيف" : هذا صورةُ ماوجدتُه من غير زيادة . ولم يذكر تعريفَه ولا محلَّه من البلاد . قال : وقد كُتِب فى نعوته : «ركن الملوك والسلاطين» . وهو غريبٌ لأنه خلافُ ماجرتْ به العادة .

الثانى — الشيخ غِياث الكَجِجى بتِبْريز . ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره المشارُ إليه : «أعادَ الله تعالىٰ من بركة المجلس السامىّ الشيخىّ» . وبقية الألقاب «الغِيَاثى» وتكملة النعوت بما يناسب . والعلامةُ الآسم، وتعريفُه «محمد الكَجَجانى» .

الثالث — الشيخُ حسنُ بنُ عبد القادر الجَيْلانىّ . وكان من المناصحين الذين يُكْتَب إليهم قديما . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه الآسم و«السامىّ» بالياء . ثم قال : ومن ألقابه : «الشيخُ العالمُ العاملُ القدوةُ المرشدُ فلان الدين» .

قلت : هذا ذُهُول منه، وإلا فمقتضىٰ هذه الألقابِ المجرّدةِ عن الياء أن تكون الكتابةُ إليه «السامى» بغير ياء .

الصـــنف الثامن

(ممن يكاتَب بمملكة إيران النِّساء)

وقد ذكر فى "التثقيف" المكاتبةَ إلىٰ أربع منهنّ (1) :

الأولىٰ — دلّ شاد زَوج الشـيخ حسن الكبير . كُتِب إليها فى قَطْع العـادة : « أدام الله تعالىٰ صَوْنَ الجهة المحجَّبة، المصونَةِ، العِصْميَّة، الخاتُونيَّة، المعظَّميَّة، سيدةِ الخواتين، زِينةِ نساء العالمين، جميلةِ المحجَّبات، جليلةِ المَصُونات، قرينةِ نُوَيْنِ الملوك والسلاطين » . والدعاء، والعلامة « أخوها » . وتعريفها « الخاتون المعظمة دل شاد» .

الثانيـة — كلمش والدة بولاد مثلها ، غير أنَّ العلامة الآسم ، وتعريفها آسْمُها المـذكور .

الثالثـة — زوجة أملكان آبن الشيخ حسن الكبير علىٰ ما آستقرّ عليه الحال عند ما كتِب جوابها علىٰ يد رسولها فى ذى القَعْدة سنةَ أربعين وسبعمائة مثل دلشاد، والعلامة «والدها» . وتعريفها سلطان بختى .

المهيـــع الثانى

من المكاتبة إلىٰ الملوك

(مملكةُ تُورَانَ ، وهى مملكةُ الخاقانيَّة)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية نَقْلا عن المقرّ الشِّهابىّ آبنِ فَضْل الله فى كتابه "التعريف" أنَّ هذه المملكةَ من نَهْر بلْخ إلىٰ مَطْلَع الشمس

(1) لم يذكر الرابعة فى الأصل .

علىٰ سَمْت الوَسَط ؛ فما أخَذَ عنها جنوبًا كان بلادَ السِّنْد ، ثم الهِنْد ؛ وما أخذ عنها شَمالًا كان بلاد الخَفْجاج وهى طائفة القَبْجاق ، وبلادَ الصَّقْلَب ، والجَهَارْكس ، والرُّوس ، والمَاجار ، وما جاوَرَهم من طوائف الأمم المختلفة سُكَّان الشَّمال .
فيدْخُل فى هذه المملكة ممالكُ كثيرةٌ وبلادٌ واسعة ، وأعمال شاسعةٌ ، وأممٌ مختلفة لا تَكادُ تُحصىٰ ؛ تشتمل علىٰ بلاد غَزْنةَ ، والباميان ، والغور ، وخُوارِزم ، ودَشْت القَبْجاق ؛ وما وراء النهر : نحو بُخَارا ، وسَمَرْقَنْد ، والصُّغْد ، والخُوجَنْد . وبلاد تُرْكُسْتان ، وأُشْرُوسنَةَ ، وفَرْغانةُ . وبلاد صاغُون ، وَطِرَاز ، وصريوم . وبلاد الخطا نحو بشمالق والمالق إلىٰ قَرَاقُوم ، وما وراء ذلك من بلاد الصِّين وصِين الصِّين ؛ فإنها كانت فى القديم بيد فرَاسْياب ، بن شنك ، بن رُسْتُم ، بن تُرْك ، بن كُومَر ، آبن يافِث ، بن نُوح عليه السلام . وهو ملكُ الترك فى زمانِ موسىٰ عليه السلام ، علىٰ خلافٍ فى نسبِه سبقَ هُناك . وأنها الآنَ بيد بنى جنكزخان من ولد طُوجى خان آبن جنكزخان .

ثم هذه المملكةُ بيد ثلاثةِ ملوكِ عِظام من بنى جنكزخان .

الأوّل — صاحبُ خُوارِزم ودَشْت القَبْجاق . وتُعَرف فى القديم بمملكة صاحب السَّرير ، ثم عُرِفت فى الدولة الجنكزخانيَّة بَبْيت بَرَكَةَ ، نسبةً إلىٰ بَرَكَةَ آبن طُوجى خان بن جنكزخان . وقاعدتُها مدينة السَّراى (١) وهى مدينةٌ علىٰ نهر إتِل ، بناها بَرَكةُ بن طُوجى خان المقدَّم ذكره . وقد تقدّم الكلام علىٰ ذلك مستوفًى فى الكلام علىٰ المسالك والممالك .

ثم فيها جملتان :

(١) هى مدينة الصراى بالصاد المهملة المتقدمة فى ج ٤ ص ٤٥٧ .

الجمـــــــلة الأولىٰ

(فى رسم المكاتبــة إلىٰ قانِهـا القائم بهـا)

قال فى "التعريف": وكان صاحبُها فى الأيام الناصريّة، (يعنى محمد بن قلاوون) «أزْبَك خان» . وقد خطَبَ إليه السلطانُ فزوّجه بنتا تَقَرُّباً إليــه . قال : ومازال بين مُلوك هذه المملكة و بين ملوكنا قديمُ آتِّحاد، وصِدْقُ وِداد، من أوّل أيام الظاهر بيبَرْس و إلىٰ آخر وقتٍ . ثم قال : والملكُ الآنَ فيهم [فى أولاد أزبك](1): إما تنى بك، و إما جانى بك ، وأظُنُّها فى تنى بك . وقد تقدّم أن المَلِك بعد أزبك كان جانِى بك لا تنى بك، علىٰ خلافِ ماظنه فى التعريف .

و رسم المكاتبــة إلىٰ قانِها الجامع لحـدودها قال فى " التعريف " : والأغلبُ أن يُكتَب إليه بالمُغْلى . وذلك مما كان يتولّاه ايتمش المحمّدى،وطايربُغَا الناصرى، وإرغدلق التَّرْجُمان . ثم صار يتولّاه قُوصُون الساقى . و رأيت فى بعض الدساتير نقلا عن القاضى علاءِ الدين بن فضل الله أنه كتب له مسودّة علىٰ أن تكتب له بالعربىّ ثم بطل وكُتِب بالمُغْلى . قال : فإن كتب له بالعربى ، فرسْمُ المكاتبة إليه مايكتب إلىٰ صاحب إيرانَ .

وقد تقــدّم نقلا عن " التعريف " أنه يكتب فى قَطْع البَغْـدادىّ الكامل ، يبتدأ فيه بعــد البسملة وسطرٍ من الخطبــة المكتتبة بالذهب المُزَمَّك ـ بألقــاب ســلطاننا علىٰ عادة الطُّغراوات ، ثم تُكمَل الخطبــة ، ويفتتح ببعدية إلىٰ أن تساق الألقاب،وهى: «الحضرةُ الشريفةُ، العالية، السلطانية، الأعظميّة،الشاهنشاهيّة، الأوْحَدية، الأخَوِية، القانية . ولايخلِطُ فيها «المَلَكِيَّة» لَهَوانها عليهم . ثم يُدْعىٰ له بالأدعية المعظَّمة المفخَّمة الملوكية : من إعزازِ السلطان ، ونَصْرِ الأعوان، وخُلُود

(1) الزيادة من "التعريف" .

الأيام، ورَفْع الأعلام، وتأييد الجُنُود، وتكثير البُنُود، وما يجرى هذا المَجْرىٰ. ثم يؤتىٰ بذكر دوام الوِدَاد والشَّوْق، ثم يذكر القَصْد، ثم يختَمُ بدعاءٍ جليل وتستعرض المراسيمُ ويوصف التطلُّع إليها والتهافُتُ عليها.

قال فى "التثقيف": وكان يُكْتَب إلىٰ أزبك فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» فى ورق عَرْض البَغْدادىّ الكامل. وبعد البسملة الشريفة سطران هكذا:

بقُوّة الله تعالىٰ

ومَيَامنِ المِلَّة المحمدية

ثم يخلى موضعُ بيت العَلَامة، ثم تكتَب الألقابُ السلطانيةُ، وهى: «السلطان الأعظم» وبقيةُ الألقاب الشريفة علىٰ العادة حسَبَ ما يأتى ذكرُه. ثم بعد الحمدلة وخطبةٍ مختصرة جدًّا: «فقد صدرَتْ هذه [المكاتبة] إلىٰ الحضرة الشريفة العالية، حضرة السلطان الكبير، الأخ، الشَّفيق، العالِم، العادلِ، القانِ الأعظم، الأوحدِ، شاهنشاه، الملك، أزبك إل خان، سلطان الإسلام والمسلمين، أوحدِ الملوك والسلاطين، عمدةِ المُلْك، سلطان المُغْل والقَبْجاق والتُّرك، جمالِ ملوك الزمان، ركنِ بيت جنكزخان، معز طُغَاج، صاحب التَّخْت والتاج، عضُد المتقين، ذُخْر المؤمنين. والدعاء بما يناسبه. «فإننا نخصُّه بالسلام وآستعلام أخباره ونُفاوِض علمَه الشريف».

قال: والكتابةُ بالذهب والأسود حسَبَ ماتقدّم فى المكاتبة إلىٰ أبى سعيد، وكذا العُنْوان. ثم قال: ولم يكاتَب أحدٌ بعده بنظير ذلك. وكان قد ورد علىٰ الأبواب الشريفة فى سـنة ست وخمسين وسبعمائة كتابُ جانى بك آبن أزبك، وكُتِب إليه الجواب الشريف بنظير الكتاب الوارد من عنـده، وهو فى ورقٍ دُونَ البغـدادىّ بثلاث أصابعَ مطبوقةٍ، والآفتتاحُ بخطبةٍ مناسبةٍ مكتتبةٍ بالذهب جميعها، ثم أما بعد

بالأسود خلا ما تقدّم ذكره فى مكاتبة أبى سعيد . والعُنْوان بالذهب . والذى كُتب إليه من الألقاب : «الحضرةُ الشريفةُ ، العاليةُ ، السلطانيّة ، الأعظميَّةُ ، العالمية ، العادليَّة ، الأكملية ، القانيّـة ، الأخويَّة ، العزيزية ، المَلَكيّة ، الشَرفيَّة زيدت عظمتها» .

قال : ولمـا كان فى العشر الآخر من ربيع الأوّل سنةَ ست وسبعين وسبعمائة ، رسم لى بالكتابة إلىٰ القان محمدٍ ببلاد أزبك ، وهو القـائمُ مَقام ازبك علىٰ ماقيل ، علىٰ يد رُسُـل الأبواب الشريفة ، بالسلام والمودَّة وآستعلامِ الأخبار ونحو ذلك فكتبْتُ إليه فى عَرْض البغدادىّ الكامل حسَبَ مارُسِم به ، بخطبة مختَصَرة بالذهب ، والبقيّة بالأسود والذهب علىٰ ما تقدّم ذكْرُه فى مكاتبــة القان أبى سـعيد . وكُتِب له من الألقاب بعد المراجعة : «المَقام العالى ، السلطانىّ ، الكبيرىّ ، المَلَكىّ ، الأكْرمىّ ، الأعْدَلىّ ، الشمْسىّ ، شمسُ الدنيا والدين ، مؤيِّد الغُزاة والمجاهدين ، قاتلُ الكفَرة والمشركين ، ولىُّ أمير المؤمنين خُلِّدت سلطنته» . والعنوان بالذهب بغير تعريف . وعلم له فى بيت العلامة الشريفة بالمَغْرة العراقيَّة «المُشْتاق شعبان» .

وهذه نسخةُ ما كتب إليه بعد البسملة الشريفة .

الحمد لله الذى وهَبنا مُلْكا دانتْ له ملوكُ الأقطار ، وآزدانَت الأَسِرّةُ والتِّيجان بما له من عظمة وفَخَار ، وأذْعنتِ العظماءُ لعِزّة سلطانه الذى شَمِل الأولياءَ وقَصم الأعداءَ ببِرِّه الجابر وقهرِه الجَبّـار ، وقاد الجيوشَ إلىٰ أن فَتح اللهُ علىٰ يديه الشريفتين معاقِلَ الكُفَّار ، بأمره الجارى علىٰ الرِّقاب وعسكره الجَرّار ، ومَنَحه خدمةَ الحرمين الشريفين اللذين لم يزَلْ لهما منه الآنتصابُ وبهما له الآنتصار . نحمده على أنْ جعل مملكتنا الشريفة هى مَحَلّ الإمامة العباسية فلا جُحودَ ولا إنكار ، ومرتبَتَنا المنيفةَ بمـا عَهِد به إلينـا أمير المؤمنين إلىٰ قيـام الساعة عليّةَ المِقْدار ؛ ونشكره علىٰ أنْ أورثَنـا مُلْك أسلافنا الشُّهداءِ فأقرّ العيونَ وسَرّ الاسرار ، وجعل السـلطنةَ المعظمة فى بيتنا المكَرَّم تنتقِلُ

تَنَقَّل البُدور فى بُروجها إلا أنها آمنةٌ من السِّرار . ونشهد ان لا إلٰه إلا اللهُ وحده لاشريك له شهادة لم نزل قائمين بنُصْرتها ، قانتين بالإخلاص فى كلمتها . لنُعَدَّ بذلك من الأبرار ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله المؤيَّدُ بملائكته ، المخصوصُ بنبوّته ورسالته ، الذى عَظَّم الله قدره على سائر الرُّسُل كما جاءت النصوصُ والأخبار . صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه أولى الفضل الدار ، صلاةً دائمةً باقية بدوام الليل والنهار ، وسَلَّم .

أما بعد ، فإنَّ قلوبَ الأولياء وإن تناءتِ الأجسامُ متعارفةٌ بالآئتلاف ، متقاربةٌ علىٰ بُعْد الديار حيثُ لاتناكُرَ بينهما ولا آختِلاف ، لاسيَّما ملوكُ الإسلام ، الذين هم متَّحِدون بالمُصافاة والآستِسْلام ؛ فإن سرائرهم لم تزل متدانيَه ، وضمائرهم متُكافِيه ؛ هذا والمحبَّةُ لبيته(١) الكريم قديمه ، والمودَّة بين الأسلاف لم تزَلْ مستَديمه ؛ فلم نكُنْ وَرِثْنا ذلك عن كَلَاله ، بل تَبِعنا فيه سبيلَ السلف الصالح علىٰ أحسنِ حاله : لما هو محكَم من عقود الآتِّحاد والوَلَاء ، حيث المحبةُ فى الآباء صلةٌ فى الأبناء ؛ وكان لنا مدّةٌ مديدةٌ وقد تأخرتْ رسلُنا عن حَضْرته ولم تصدر من جهتنا الشريفة ، كذلك ولا وردت رسل من جهته ؛ ولم يَشْغَلْنا عن ذلك إلا مواقعةُ الفَرَنْج المخذُولين أعداء الدين ، ومقارَعَتُهم فى سائر السَّواحل بشدّةِ البأس والتَّمْكين ؛ إلىٰ أن أمكنَ الله عز وجلَّ من نَواصِيهم وصَياصِيهم بنَصْرٍ من عنده ، كما قال تعالىٰ : ﴿وكانَ حَقًّا علَيْنا نَصْرُ المُومِنين﴾ .

والآنَ فقد صدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المقام العالى السلطانى ـ وبقيةُ الألقاب والنُّعوت إلىٰ آخرها حسب ماتقدّم ذكره ـ تَخُصُّ مقامه بسلامٍ أرقّ من النَّسيم ، وألطَفَ مِزاجًا من التَّسْنيم ، وثناءٍ قد ازرىٰ نَشْرُه بالعَبير ، وسَرىٰ بِشْره فغدَتْ تتهلَّل به الأَسَارير . وتُبْدى لعلم المقام العالى زيدتْ معدَلتُه أنه لما يبلغنا من عدل الحضرة الشريفه ، وإنصافه للرَّعايا وتأمين سُبُل الجَوْر المُخيفه ؛ وسُلُوكه سَنَن الإحسان ،

(١) لم يتقدم فى الكلام ما يعود عليه الضمير .

وتأكُّدِ عقُود المحبة علىٰ عادة مَنْ سلَفَ فى سالف الزمان ؛ قصَدْنا مفاتحتَه بهــذه المكاتَبه ، واردنا بُداءَته بهذه المُخاطَبه ، ليعلَمَ مانحن عليه من صَحِيح الوِدَاد ، وأكيد الاتِّحاد ، وجميلِ الاعتقاد ، وحُسنِ المُوالاة الخالصة من شَوَائب الانتقاد ، وجَهَّزنا بها رُسُلَنا فلان وفلان ومَنْ معهما نستَدْعِى وُدَّه ، ونستدْنِى وَلَاءه الذى أحكم عَقْده ؛ لتأكُّد المصافاة بين هاتين الدَّوْلتين ، والمخـالصة من كِلْتاَ الجهتين ، والمُوالاة بين المملكتَيْن ؛ ويأمر المقامُ العالى لازال عاليا بتَرَدُّد التُّجَّارِ من تِلْكُم الديار ، والمواصلة بالأخبار علىٰ حسب الاختِيار ، ومتابعةِ الرُّسُل والقُصَّاد ، علىٰ أجمل وجهٍ معتاد .

وقد وجَّهنا إلىٰ المقام العالى أعلىٰ الله شأْنه صحبةَ رُسُلنا المذكورين من الأقْمِشة السَّكَنْدرىّ وغيرها علىٰ سبيل الهَدِيَّه ، والمَوَاهبِ السنِيَّه ، ماتضمَّنَتْه الورقة المجَهَّزة طَيَّها ؛ فلْيأمُرِ المقام العالى دامت معْدَلَتُه بتسليم ذلك ، ويتيَقَّنْ وفُورَ المحبة من سلطاننا المـالك ، وتأكُّدَ أسبابِ المودّة علىٰ أجمل المَسالك ، والله تعالىٰ يجَمِّل ببقاء سُلْطانه مُلْكَ الممـالك ، ويديم عَدْلَه المبسوطَ علىٰ الأولياء ويَرْمِى ببأســه الأعداءَ فى مَهَاوِى المَهَالك ، ويخَلِّد مُلْكَه الذى تفتخِرُ بالملك من مَقَامه العالى السُّرُر والأَرائك ؛ بمنِّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

واعلم أنّ صاحب " التثقيف " قد ذكر أن المكتوب إليه بهـذه المكاتبة هو القائم مقام أزْبَك ، وأن آسمه محمد ، وأن المكاتبة إليه كانتْ فى سنة ستٍّ وسبعين وسبعمائة . وقد تقدّم ذكْرُ من وَلِىَ هذه المملكةَ بعد أزْبَك ولم يكن فيهم من آسمُه محمد . وقد كان القائمُ بهذه المملكة فى سنة ستٍّ وسبعين المذكورة آسمه " أرص " وهو الذى آنتزع المملكة من أبيك خان المقدّم ذكره ؛ وأصله من خُوارِزْم علىٰ مامرّ ذكْرُه فى الكلام علىٰ المسالك والممالك ، فيحتمل أن يكون آسمُه محمد وأَرْص لَقَب

عليه، كما كان خَدَابَنْدا والدُ أبى سعيد من ملوك إيران، آسمُه محمد، ولقبه خَدَابَنْدا. والأمر فى ذلك راجع إلىٰ النقل، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

قلت : وقد كُتِب فى الدولة الناصرية "فرج" بن الظاهر برقوق، للقان القائم بها فى سنة آثنَتَى عشرةَ وثمانِمائةٍ فى قَطْع البغدادىّ الكاملِ من الورق المِصْرىّ المعمولِ علىٰ هيئة البغدادىّ، آبتُدِئَ فيه بعد خمسة أوصالٍ بياضٍ بالبسملة فى أعلىٰ الوَصْل السادس، ببياضٍ من جانبيها عرضِ إصبعين من كل جهة، والسطر الثانى علىٰ سَمْته فى آخرِ الوَصْل، بخلو بياض من الجانبين بقَدْر السطر الأوّل، والطُّغْراة بينهما بألقاب سلطاننا علىٰ العادة ، مكتوبةٌ بالذهب بالقلم المحقّق مزمَّك بالسواد ، بأعلىٰ الطُّغْراة قدرُ عَرْض ثلاثة أصابع بياضًا، ومثل ذلك من أسفلِها، وباقى السُّطور بهامش من الجانب الأيمن علىٰ العادة، وبين كلِّ سطرين قدرُنصف ذراع بذراع القُماش القاهِرِىّ، والأسماءُ المعظَّمة : من آسم الله تعالىٰ ورسولِه صلّى الله عليه وسلم، وآسمِ سلطاننا والسلطان المكتوب إليه ، والضمير العائد علىٰ واحد منهما بالذّهب المزَمَّك كما تقدّم تقريره فى الكلام علىٰ مكاتبة صاحبِ إيرانَ فى القديم .

وهذه نسخة مما أنشأتُه، كتِبتْ بإشارة المَقر العالى الفتحىّ : صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف وهى :

الحمد لله مؤيِّد سلطانِنا «الناصِر» بعزيز نَصْره، ورافعِ قدْرِ مَقَامِنا الشريفِ بإعلاء مَنَاره وإعظامِ ذِكْره، ومُشَيِّد أركان مُلْكنا الشامِخ بإسعاد جَدِّه العالى والله غالبٌ علىٰ أمره . نحمَدُه علىٰ ماجنّب من مَوَاقع الحَرَج، وجعل أُمُورَ رعايانا بمَعْدَلتنا الشريفة بعــدَ الضِّيق إلىٰ فَرَجْ ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتوارَثُها عظماءُ الملوكِ كابِرًا عن كابِر، ويتناقَلُها منهم الخلَفُ بعد السَّلَف فيُسْنِدها الناصرُ عن

الظاهر، ونشهد أنّ سيدَنا محمدا عبدُه ورسوله أفضلُ نبيّ جمع بعموم دَعْوته مفْتَرِق الأُمم، ووفّق بحنيفيّ ملّته بين أقْيال العَرب وأَسَاوِرَة العجَم؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين آخىٰ بينهم فسَنَّ المُؤاخاه، ونَقّىٰ من نَغَل الضَّغائن صُدورَهم ففازُوا بأكمل المُصافاةِ وأتمِّ المُوافاه؛ صلاةً تَسـير بفضلها الرَّكائب، وتترنَّم بذكرها الحُـدَاة فتعُمُّ نَفَحاتُها المَشارقَ والمَغارِب، وسَلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعدُ، فإنّ الأرواحَ إذا تمازَجتْ تناجَتْ بالضَّمائر، والقلوبَ إذا تآلفت اغتَنَتْ بشَواهِدِ الحـالِ عن إبْراز مافي السَّرائر؛ والأجسادَ إذا تباعَدتْ تعلَّلتْ بالمكاتَبَات في بُلُوغ الأوْطار، والدِّيارَ إذا تناءَتِ آكتفَتْ بالمُراسَلَة عن تَقارُب الدَّار؛ والمودَّةَ إذا صَفتْ لايؤثّر فيها البِعَاد، والمحبَّةَ إذا صدَقَتْ لاتزال كلَّ يومٍ في آزْدِياد؛ (والأُذْن تَعْشَق قبْلَ العينِ أحْيانا)، والوصفُ يُحرّك من الشَّوْق أغصانًا وأفْنَانا.

هذا وإنَّ أحقَّ ما آتَّخذَتْه الملوكُ ذَرِيعةً لدَواعِي الآبتهاج، وأهَمَّ ما اهتَمَّ به مُتَخَت بتَخْت أو مُتَوَّجٌ بتاج؛ إحياءُ مَذاهِب الملوكِ السالفةِ في الوِدَاد، واقتفاءُ آثارِهم الجميلةِ في مَوارِد المكاتبات على التَّنائِي والبِعاد؛ ومن ثم صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المقام العالي، السلطانِيّ، الكبيريّ، الأخَويّ، الفلانيّ؛ ركنِ المِلَّة الإسلاميَّـه، عمـادِ المملكة الجنكزخانيَّه؛ ذخيرةِ الدين، خليلِ أمير المؤمنين -زِيدتْ عظَمَتُه، ودامَتْ مَعْدَلتُه- تخُصُّه بسلامٍ تَهُبُّ به الجَنوب فتؤثّر به في الشَّمال القَبُول، وتخُصُّ به إلى السَّراي سُرَاها ليكونَ لها ببيْت بركَةَ أشرفُ قَدَم وأكرمُ وُصُول؛ وتمُدُّ على خُوارزْمَ والدَّشْت فَضْلَ رُواقه المَدِيد؛ وتَنْشُر على مملكةِ السَّرير لواءَهُ فيعم مابين جَيْحُون وطرنا (١) ويشْمَل مابين الخِطَا (٢) والباب الحَدِيد. وتُناجِي علمَه الشريفَ بأنه غيرُ خافٍ عن شريف مَقامه

(١) لعله طَنا. أوطُرْلو.

(٢) هو بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف في الآخر كما تقدم ضبطه كذلك في ج ٤ ص ٤٨٣.

أن مَنْ سلَفَ من ملُوك مملكتنا العالية الذُّرىٰ ، والمملكةِ القانيَّة المرفوعةِ الذِّكْر رَفْعَ نارِ القِرىٰ ؛ لم تزلْ ملوكُهم مجتمعةً مع تنَائِي الدِّيار ، مؤْتلِفةً علىٰ المحبَّة وإن شَطَّ المَزار ، محافِظين علىٰ تتَابُعِ الرُّسُل وإن حالَ دُونَهُمُ الصِّفاح ، مثابِرين على توارُدِ الكُتُب ولو علىٰ أجْنحةِ الطَّـير ومُتُون الرِّياح ؛ وقد مضَتْ مدَّةٌ مديدَةٌ لم يَقْـدَم علينا من المقام الشريف ـ عَظَّم اللهُ تعالىٰ شأنه ـ رسولٌ يُطْفِئُ لَوَاعِجَ الاِشتياق ، ولا وَرَدَ عنه كتَابٌ يتعَلَّل المحبُّ بتلَقِّيه عن حَقِيقةِ التَّلاَق ؛ بل سُدّ بابُ المكاتبة حتّىٰ كأنَّ المكاتبةَ لم تُخْلَق ، وأُغْلِقَ بابُ المراسَلة وإن كان بابُ المحبَّة ـ بحمد الله ـ لم يُغْلَق ؛ فطَمَحَ بخاطِرِنا الشريفِ طامحُ الشوقِ المُتَزَايِد ، وحمَلنا موصولُ المحبَّة المستَغْنِي بمواصلَته عن الصِّـلة والعائد ، أن نُفاتِحَ المَقامَ العـالىَ دامتْ معدَلَتُه بهذه المُفاوضة : لتُجدِّد من العهود القديمة رُسومَها ، وتُطْلِـعَ من مشَارِقِ المخاطَبة نجُومَها ، وتَنْسخَ آيةَ الهِجْران وتمْحُوها ، وتَصْـقُل مِرْآةَ المُصافاةِ وتجْلُوها ، وتستَجْلِبَ الأُنْس وإن صَحَّ الميثاق ، وتُذَكِّرَ الخواطِرَ الوِدَاد وإن ثبتَتْ منـه الأُصُولُ ورَسَخت الأَعْراق ؛ وتَنوبَ عن نظرنا الشريف فى مُشاهَدة محيَّـاه الكريم ، ومُصافحةِ كَفِّه التى حديثُ وُدِّها قديم ؛ وتستَطْلِـعَ أخباره ، وتستَعرِضَ علىٰ تعاقُبِ الأزمان أوطارَه .

وقد اخترنا لتبليغ رِسَالتِها ، وأداءِ أمانتِهَا ؛ المجلسَ السامىَ المقرَّبَ الأمين خَواجا فلان أعزَّه الله تعالىٰ ، وحَمَّلْناه من السلام ما يَهتَدى بضَوْئه السارى ، ويفُوقُ بعَرْفه العَنبرَ الشِّحْرىَّ والمِسْـك الدَّارِى : ليُحكِم بحُسْنِ السِّفارة من المُخالَصـة مَبانيهَا ، ويَعْقِـدَ منها بمتابعـة الرُّسُل والقُصَّاد أَوَاخِيهَا ؛ وجهَّزنا صحبتَه كذا وكذا علىٰ سبيل الهدِيَّة المندوبِ بَذْلُها وقبُولُها ، والحاكِم بصِحَّة عقد المحبَّة كثيرُها وقليلُها ؛ والله تعالىٰ يزيدُ فى ارتفاع قَدْره الخَطِير ، ويحُوط به من ملـكه الجنكزخانى ما يُحقِّق أنه صاحبُ التاج والسَّرير .

الجمـــلة الثـالثـــة

(فى رسم المكاتبة إلىٰ مَنِ ٱنطوت عليه هذه المملكةُ من الأتباع والحُكَّام؛
وهم علىٰ [1] أصـــناف)

الصِّـــــنفُ الأوّل

(كُفَّال المملكة)

قد تقدّم أن ترتيب هــذه المملكة فى أُمَراء الأَلُوس والوزير نحوُ مملكة إيرانَ ، وإن لم يكن لأَمِيرِ الأَلُوس والوزير بهــذه المملكة من نَفَاذ الأمر نظيرُ ماهُنالِك . ومقتضىٰ ذلك أن يكونا منْحَطَّين فى الرتبة عن أُمَراء الأَلُوس بإيرانَ والوزير بهــا؛ وهذه الرسوم التى وقعَتْ فى مكاتباتهم علىٰ ما أورده فى "التثقيف" .

وأَمَراء الأَلُوس أربعة، أكبرهم يسَمَّى بكلارى بك بمعنى أميرالأمراء كماتقدّم فى مملكة إيران . فقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان منهم فى ســنة ٱثنتينِ وثمــانينَ وسبعِمائة قطلوبُغَا إيناق ، وأنه كَتَب إليه فى عاشر جمادىٰ الآخرة منها ما صورته :

«ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نِعمةَ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمى، العادلِىّ، المؤيِّدىّ، العَوْنىّ، الزَّعيمىّ، المهِّدىّ، المشيِّدىّ، الظهيرىّ، الُّنوينْىّ، السَّيْفىّ؛ عزِّ الإسلام والمسلمين، سيفِ الأمراء فى العالمين، نُصْرةِ الغُزَاة والمجاهدين، زَعيمِ الجيوش، مقدّم العساكر، كهفِ الملة، ذُخْرالدوله، ظهيرِ الملوك والسلاطيـــن، سيف أمير المؤمنين» . ثم الدعاء والعلامة «أخوه» وتعريفُه «قطلوبُغا إيناق نائب القان جانِى بك» .

---

(١) بياض فى الأصل ومع ذلك لم يذكر الا صنفين .

ثم ذكر أنَّ الأمْر كان عند القان محمدٍ بمثابةِ الأمير يلبغا العُمَرى، يعنى الخاصكىَّ بالأبواب السلطانية بالديار المصرية، وأنه آستُحدِثت المكاتبةُ إليه فى سنة ثلاثٍ وسبعين وسبعِمائة، وأنه كتب إليه فى قَطْع الثُّلُث ما صورتُه :

«أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى، الأميرِىّ، الكبِيرىّ، العالمىّ، المجاهِدىّ، المؤيِّدى، الذُّخْرىّ، النَّصيرىّ، الهُمامىّ، المقدَّمىّ، النُّوَيْنِىّ، السيْفىّ؛ عِزِّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهِدين، مقَدَّمِ العساكر، ذُخْرِ الدولة، عَضُد الملوك والسلاطين، حُسَام أمير المؤمنين» . والدعاء المناسب . والعلامة «والده» . وتعريفه «مماى» . وفى هذا نظر : لأنَّه إذا كان بمَثَابة ما كان عليه يَلْبغا بالديار المصرية، فمقتضاه أن يكونَ أكبَرَ أمرائه . وإذا كان كذلك، فكيف يكتب إليه دونَ أمراءِ الأَلُوس؟ فقد تقدّم أنه يكتَبُ إليهم : «ضاعف الله تعالىٰ نعمةَ الجَنابِ العالى» .

الوزيرُ بهذه المملكة . قد ذكر فى "التثقيف" أن الوزير بها كان آسمُه محمودا، ولقبُه حُسَام الدين، وكان يعرف بمحُمود الدِّيوان . وذكر أن رسم المكاتبة إليه فى قطع الثلث ما صورتُه :

«أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الآمِرِىّ، الكبِيرىّ، الذُّخرىّ، الأوحَدىّ، الاكملىّ، المتصرِّفىّ، العَوْنىّ، الوَزِيرىّ، الحُسَامىّ؛ مَجْدِ الإسلام والمسلمين، شَرَفِ الأمراء والوزراء فى العالَمين، جمالِ المتصرِّفين، أوحَدِ الأولياء المقرَّبين، ذُخْرِ الدولةِ، مشيرِ الملوك والسلاطين . ثم الدعاء، والعلامة «والده» . وتعريفُه «خَواجا محمود وزير المملكة القانيَّة» .

قلت : وقد علمتَ أنَّ المكاتبــةَ إلىٰ أمراء الأَلُوس والوزير بهــذه المملكة دُونَ المكاتبــة إلىٰ أمراء الألُوس والوزير بمملكة إيرانَ ؛ فقد تقدّم أن المكاتبةَ إلىٰ بكلارى بك أكبر أمراء الأَلُوس بمملكة إيران : «أعَزَّ اللهُ تعالىٰ نَصْر المَقَرّ الكريم» . وإلىٰ الثلاثة الذين دُونَه : «أدام الله تعالىٰ نَصْر الجناب الكريم» ؛ ثم آستقرّ «أعز الله تعالىٰ أنْصارَ الجناب الكريم» . وأن المكاتبة إلىٰ الوزير : «ضاعَفَ الله تعالىٰ نِعمةَ المجلِس العالى» . والمعنىٰ فى ذلك ماتقدّم من أنه ليس لِأُمراءِ الألوس والوزيرِ بهذه المملكة من التصرُّف مالأُمراء الألُوس والوزيرِ من التَّصَرّف بتلك المملكة .

قَجَا على بك بهذه المملكة . قال فى "التثقيف" : وهو ممن آستُحدِثَت المكاتبة إليه فى سنة خمس وستين وسبعمائة .

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التثقيف" الآسم و «السامىّ» بالياء وتعريفه آسمــــه .

الصــــــنف الثانى

(الحُـــكَّام بالبـــلاد بهـــذه المملكةِ)

وها أنا أذكُرُ مَنْ ذكر المكاتبةَ إليه منهم فى "التثقيف" .

الحاكم بالقِرِم : وهو إقليمٌ شمالىّ بحر نِيطِش . وقاعدتُه مدينة صُلْغَاتَ ، وهى مدينة علىٰ نصف يومٍ من البحر ، وقد غَلَب عليها آسمُ القِرم . وقد ذكر فى "التثقيف" أن الحاكم بها فى سنةِ خمسينَ وسبعمائة كان آسمُه زينَ الدين رمَضَان ؛ ثم آستقرّ بعده على بك آبن عيسى بن تلكتمر . وقــد رأيت فى بعض التواريخ أن الحــاكم بهــا فى حدود ســنة ستّ وسبعين وسبعمائة كان مَامَاى المقــدَّم ذكرُه . وقد ذكر

فى "التثقيف" أن رسمَ المكاتبة إلىٰ الحاكم بها فى قَطْع العادة، والعلامة «أخوه» و «صدرَتْ» و «العالى». والذى رأيتُه فى دُسْتُورٍ يُعْزىٰ فى الأصل للمقرّ العَلائىّ بن فضلِ الله أنه يكتَبُ إليه فى قطع الثلث وأن المكاتبةَ إليه « السامىّ » بالياء. وتعريفه «الحاكم بالقِرِم».

الحاكم بأُوزَاق: وهى مدينةٌ علىٰ بحر مانِيطش المقدَّمِ ذكره فى الكلام علىٰ المسالك والممالك. وهو المعروفُ الآنَ ببحر الأَزَق؛ وهى عن القِرِم فى جهة الجَنُوب والشرق، وبينهما نحوُ خمسَ عشرةَ مرحلةً. قال فى "التثقيف": ورسمُ المكاتبة إلىٰ الحاكم بها مثلُ الحاكم بالقِرِم علىٰ السَّواء. والذى رأيته فى الدُّستُور المقدّمِ ذكُره أنه فى قَطْع الثلث «السامىّ» بالياء كما فى الحاكم بالقِرِم.

الثــــانى

(من ملوك تُورانَ من بنى جنكزخان صاحب ماوراء النهر)

وقاعدةُ مُلْكه فى القديم بُخارا، والآنَ سَمَرْقَنْد. ومن مضافاتها غَزْنَةُ وما والاها من مُتَاخِمِ الهند. وقد تقدّم الكلامُ عليها مستوفًى فى الكلام علىٰ المسالك والمَمَالك. وقد ذكر فى "التعريف" أنَّ آخِرَ ما ٱستقرّتْ لترماشِيرِينَ، وكان حسَنَ الإسلامِ عادلَ السِّيرة، طاهرَ الذَّيْل، مُؤْثِرا للخير، محبًّا لأهلِه، مُكْرِما لمن يَرِد عليه من العلماء والصُّلَحاء، وطوائف الفُقَهاء والفقراء.

قال: وكُتِب إليه علىٰ رسم المكاتبة إلىٰ صاحبِ إيرانَ. وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتَبةِ إلىٰ صاحب إيران نَقْلا عن "التعريف" أنه يُكْتَب إليه فى قَطْع

البَغْدادىّ الكامِل ، يبتَدَأ فيه بعـد البسملة وسـطر من الخُطْبـة الغراء المكتتبة بالذهَب المزَمَّـك بألقاب سـلطاننا علىٰ عادة الطُّغْراوات ؛ ثم تكمَّل الخطبةُ ويُفْتَتح ببعدية الىٰ أنْ تُساق الألقابُ، وهى : «الحضرةُ العالية، السلطانيَّـة ، الأعظميّة، الشاهِنْشاهيّة، الأوحدية، الأَخَوِية، القانيَّة، الفلانية» . ولا يخلط بها «المَلَكِية» لهوانِها عليهم ؛ ثم يُدْعىٰ له بالأدعية المفخَّمة الملوكية : من إعزاز السُّلْطان، ونَصْر الأعْوانِ، وخُلُود الأيام، ونَشْر الأعلام، وتأييد الجُنُود، وتكثير البُنُود، وغير ذلك ممـا يَجرِى هـذا المَجْرىٰ . ثم يُقال مافيـه التصريحُ والتلويح بدَوام الوِدَاد ، وصفاءِ الاعتقاد، ووَصْف الأشواقِ، وكَثْرة الأتْواق، وما هو من هذه النسبة؛ ثم يُؤتى علىٰ المَقَاصد ،ويختَمُ بدعاءٍ جليل وتستعرض المَرَاسيم والخِدَم،ويُوصَف التطلُّع إليها، ويظهر التهافُتُ عليهـا؛ وأنه تكتَب جميع خُطبة الكِتَاب وطُغْراه بالذهب المزَمَّك، وكذلك كلُّ ما وقع فى أثنائه من آسم جليل ،وكل ذى شأنٍ نبيلٍ : من آسم الله تعالىٰ أولنبيه صلَّى الله عليه وسلم؛أو ذكرِ الإسلام،أو ذكر سلطانِنا أو السلطان المكتوبِ إليـه، أو ماهو متعلِّق بهـما ، مثـل لنا ولكم، وكتابُنا وكتابُكم، جميعُ ذلك يكتب بالذهب وما سِواه بالسَّواد . وأن العُنوانَ يكون بالألقاب إلى أن ينتهىَ إلى اللقب الخاص ؛ ثم يُدْعىٰ له بدعوةٍ أو اثنتين نحو أعزَّ الله تعـالى سلطانَها ، وأعلىٰ شأنَها؛ ونحو ذلك . ثم يسمَّى آسمُ السـلطان المكتوب إليه؛ ثم « يقال » خان : مثل أن يقال : ترماشيرين خان ، ويطْمَغُ بالذهب طَمَغات عليها ألقابُ سلطاننا تكونُ علىٰ الأوصال، يبدأ بالطَّمْغة علىٰ اليمين فى أوّل وَصْل ،وعلىٰ اليسار فى ثانِى وصْل،ثم علىٰ هذا النمط إلىٰ أن ينتهِىَ فى الآخر إلىٰ اليمين؛ ولا يُطْمَغ علىٰ الطرّة البيضاء. والكاتب يخلِى لمواضِع الطَّمْغَـة مواضعَ الكتابة تارةً يمنةً ، وتارة يَسْرةً، إلىٰ غير ذلك مما سبق القول عليه .

قلت : وآخرُ ما ٱستقرّت هذه المملكة لِتُمُرلنك ، وتُمُر ٱسمه الذى هو عَلَم عليه ، ومعناه بالتركية حديد . ولَنْك لقبٌ عليه ، ومعناه بالفارسية أعْرَج : لأنّه كان به عَرَجٌ ظاهر ، ولذلك تسمّيه التُّرك تُمُر أقصق ، إذ أقصَقْ عندهم بمعنىٰ أعرج . وهو يتسمّى فى كُتُبه تَيْمُوركوركان . ومن هذه المملكةِ ٱنسابَ علىٰ بلاد إيرانَ حتّىٰ ٱستولىٰ علىٰ جميعها ، وسار إلىٰ بلاد الهند فٱستولىٰ عليها ، ثم طاح إلىٰ الشام فى سنة ستٍّ وثمانمائة وعاثَ فسادًا ، وخَرَّب وأفسد ولقيه السلطانُ « الملك الناصر » فَرَج ٱبن الظاهر برقوق صاحب مصر والشام علىٰ دِمَشْق ، وجرت بينهما مراسَلَةٌ ، ثم طرأ للسلطان الملك الناصر ماأوجب عَوْده إلىٰ مصر لأمرٍ عرَض له من جهة بعض أمرائه ، وبقىٰ تُمُرْلنك نازلًا بالشام محاصِرًا لدمَشْق ، إلىٰ أن خدَعَ أهلَها وفتحها صُلْحا ، ثم غَدَر بهم ونهبها وسبىٰ حريمَها ، ثم حَرَّقها بعد ذلك بعد أن أسرف فى القتل وأثْخَن فى الجِراح ، وأمْعَن فى الأَسْر .

وللمكاتبة اليه حالتان :

الحالة الأولىٰ — حين كان السلطانُ الملك الناصر فرج — عزَّ نصره — بالشام محاربا له ، وكُتُبه حينئذ تَرِد فى القطع الصغير علىٰ ما سيأتى ذكره ، وكان يكتب إليه حينئذ فى قطع(١)

(١) بيض المؤلف لبقية الكلام ، وٱستدرك بعضهم له بقية وأثبتها فى النسخة الخطية بخط مغاير لخط الأصل وعنونها هكذا "مما فات المؤلف" .

ممـا فات المؤلف رحمه الله تعالىٰ

ما كُتِب عن مولانا الشهيدِ الملكِ الظاهر أبي سعيد بَرْقُوق، تغمَّده الله تعالىٰ برحمته ورِضْوانه ، فى جوابِ الأمير تمرْلَنْك المدْعُوّ تَيْمور ، عن الكُتُبِ الواردة منه قَبْـلَ ذلك ـ مِن إنشاء المرحوم المَقَرّ البَـدْرى" محمد ، آبن المرحوم المقرّ العلائىّ على" آبن المرحوم المقرّ المحْيَوى يحيى ، بن فضل الله العُمَرى العَـدَوى" القرشى" رحمهم الله تعالىٰ ـ فى سنة ست وتسعين وسبعمائة ، عند سَفَر مولانا السلطان المشار إليه إلىٰ حَلَبَ المحروسة لملتقى المذكور ، فى قطع الثلُث بغير علامة ، وسَعَةُ ما بين السطور قدر عَرْض الإصبعين . والطرّة وصلانِ ، طولُها نحو الذِّراع الهاشمى" ، وكان عُنوان كتاب تمُرْلَنْك الذى ورد آخرًا وهو الذى آقتضىٰ الحركةَ الشريفةَ والجوابَ المشارَ إليه :

سلامٌ وإهْداءُ السَّلامِ من البُعْدِ * دليلٌ علىٰ حُسْن المودّةِ والعَهْدِ

فكتب العنوان الشريف :

طَوِيلُ حياةِ المَرْءِ كاليَوْمِ فى العَدِّ * فَخِيرَتُهُ أن لَايَزِيدَ عن الحدّ !
فلابُدَّ من نَقْصٍ لكلِّ زيادةٍ * لأنَّ شديدَ البَطْش يقتصُّ للعَبْد !

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلىّ الشان ، العظيمِ السلطان ، العَمِيمِ الإحسان ، العليم بما كانَ ومايكونُ فى كل زمانٍ ومكَان ، تاهتْ فى مَيَادِين فَلَوات معرِفته سَوَابقُ جيادِ الأفهام ، وتَدَكْدَكَتْ لهَيْبة جَلَاله جبالُ العُقُول والأوهام ، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمدٍ حبيب الرحمٰن ، وسيدِ الأكوان ، وصاحبِ المعجزات والبُرْهان ، المبعوثِ الىٰ الخلق أجمعين من الإنس والجانّ ، والمنعُوتِ بالفضل العميم ، والخُلُق العظيم ، فى التَّوراةِ والإنجيل والزبور

والفُرْقان؛ وعلىٰ آله وصَحْبِـه الغُرِّ الكِرامِ الحِسان؛ وعلىٰ التابعينَ لهم بإحسان؛ وسَـلَّمَ تسليما كثيرا ماتَعاقَبَ الحَدَثان .

وبعد، فقد وصلَ إلىٰ أبوابنا الشريفةِ العاليةِ كُلُّ ماجهَّزته أوّلا وآخِرا ياأمير تَيْمور من كِتاب، وأحاطتْ علومُنا الشريفة بمـا فيها من كلامٍ وخِطاب، وقَصْدٍ وعِتاب، وإرْعادٍ وإرْغاب وإرْعاب .

فأما ما ذكرته فى أوّل كُتُبك من ألقابنا الشريفة بالتعظيم، والتَّبْجيـل والتفْخيم؛ فقد علمناه وعَرَفْناه، ولكن وجدنا الكلمتيْنِ اللتين فى الطمغات آخِرَ الكُتُب وهما راسْتِي رِسْتِي منافيتَين لذلك التعظيم، وهذا غيرُ مستقِيم؛ لأنه متناقضٌ غير متَناسِب، فعجِبْنا من هـذا التناقُض الواضح، والتخالُف الفاضح؛ وفى المثل السائر : « أصْلِحْ وقابِلْ وأفسِدْ وقابِلْ » .

وأمَّا إرسالُك السيفَ والتِّرْكاش لنـا، فقد تعجَّبْنَا منـه إلىٰ الغايه، وأنكَرْناه إلىٰ النِّهـايه : لأنك لم تَزَلْ فى كُتُبك كلِّها تستشهِد بتاريخ جنكزخان وأخبارِه وأحوالِه، وتقتَدِى به فى أقوالِه وأفعالِه؛ وما سمِعْنا فى التواريخ ولا اتّفق قطُّ من جنكزخان، ولا ممن تقدّمَه وتأخّره من ملوك مملكته فى زمنٍ من الأزمان؛ أنَّه أهْدىٰ إلىٰ خادم الحَرَمين الشريفين سَيْفا ولا تِرْكاشا؛ ما ٱختلَفَ فى ذلك ٱثنان . فإرسالُها منك إلينا هل هو من باب المحبة أولا، وإن كان تخويفا، فنحن مانخافُ من سَيْفك وتِرْكاشِك بعناية الله العظيم الأعلىٰ .

السَّيْفُ والرُّمْحُ والنُّشَّاب قد علِمَتْ * مِنَّا الحُـروبَ فسَلْها فَهْىَ تُنْبيكا!
إذا ٱلتقَيْنا تَجِـدْ هذا مُشاهَدَةً * فى الحَرْبِ، فاثْبُتْ فأمرُالله آتِيكا!
بخِدْمة الحَـرَمَيْنِ اللهُ شَـرَّفَنا * فَضْلًا ومَلَّكَنا الأمْصـارَ تَمْليكا!

وبالجميـلِ وحُلْوِ النَّصْــرعوَّدنا، * خُذِ التَّوارِيخَ وٱقْــرأْها تَلَبِّيكا!

والأنبياءُ لنا الرُّكْنُ الشَّــدِيدُ فكَمْ * بجـاهِهِمْ من عَدُوّ راحَ مَفْلُوكا!

ومَنْ يكُنْ ربه الفَتَّاحُ ناصِرَه، * ممَّنْ يَخَافُ؟ وهذا القولُ يَكْفِيكا!

وقد أجبناك عن السيف والتِّرْكاش فيما مضى قبلَ هذا الوقت وتقدّم، فاعرِفْ ذلك وٱعْلَمْ .

وأما ما ذكرتَه من قولك : إنك فتحتَ معنا بابَ المحبة والوِدَاد، والصُّحْبة والاتِّحاد، لا بابَ المخاصمةِ والمُشارَرة والعِنَاد، فقد علمنا ذلك وفهِمناه . والذى نُعَرِّفك به أنَّ الذى وقع منك بخلاف ماقلْتَ : لأنك لو كنتَ صادقا فى قولك، كنتَ لَمَّا حضر إليك شُكْر أحمد وأرْغُون السلامى اللذان همـا من بعض مماليكنا ومن جملة رَعَايانا أمسكْتَهما وجهزتهمـا إلينا بعـد أن قيَّدتَهما ؛ فمـا فعلت ذلك بل عملت بالضدّ منه لأنَّك آوَيتَهُما، وحَمَيتهما وعظَّمتهما وأكرمتهما ؛ وجعلتَهما من خواصِّك وأحبابِك، وأوليائك وأصحابِك . وأيضا توجَّه إليك صَوْلة بن حِيار (١) الذى هو قِطْعة هَجَّان من هَجَّانتنا فأكرمته، وألبسته التاجَ وعظَّمته، وبعثتَ معه خِلعةً إلىٰ نُعَيْر المذكور وإلىٰ غيره من عُرْبانه، ووعدْتَه بالتَّقْـدِمة والإماره، بالتصريح العظيم لا بالتلويح والإشاره ؛ وكتبتَ إليه كتابا ما تركتَ فيه ولا خَلَّيت، وأظهرتَ كلَّ ما كان عندك وما أبْقَيْت ؛ فجهَّزه إلينا وقُرِئَ علىٰ مسامعنا الشريفة كلمةً كلمه، وعرَفْنا واضحَ معناه ومبْهَمه ؛ وها نحن نشرَحُه لك لتعلَمَ وتُحقِّق أنه وصل إلينا، وٱطَّلعنا عليه وما خفِيَ أمره علينا . وهذا نصه :

(١) هذا الضبط من الأصل ورسم فيه تحتها حاء صغيرة إشارة إلىٰ الإهمال ولكن الذى سبق فى الأجزاء المتقدمة جبار بالجيم والباء تبعا للأصل والضوء والتعريف فحرر .

دام دولتـــه

الأمير الكبير، المعظَّم أمير نُعَير، أدام [الله] دولته شمسا. نُعْرِض لعلوّ علومه المحروسة أنه قد اتَّصل بنا طَرْدُك عن الشام، ومعاملتُهم معك غيرَ الواجب. حال وُقُوفك علىٰ هذا المثال تُسْرِع فى الوصول إلينا بحيث نُعْطيك ما أُعطِيَ المرحوم عمك أمير سليمان طابَ ثراه، ونجعلُك مقدَّم العساكر المنصورة؛ وبهذا بَرَزَ الحكمُ المطاعُ من الحضرة العاليــة؛ ففى عزم العساكر والجيوش المعظَّمة الوصولُ إلىٰ أطراف البـلاد شَرْقا وغَرْبا ورُوميًّا من سائر النواحِى والأمصار، والبلاد والأقطار؛ وإنْ أبطأ ركابُك عن الوصول، فنحن واصلُون إليكم فى طريقنا إلىٰ مِصْر وغيره، ولا يبقىٰ لطاعتك مزِيَّة ولا مِنَّــة، فيكون ذلك علىٰ الخاطر المبارَك. فينبغى أن لايكونَ جوابُ الكتَاب، إلا قُدومَ الركاب؛ ففيه لكم الفوائدُ العظيمه، والعطايا الجسيمه؛ ومعَ [ذلك] إصابةُ الرأى منكم، تُغْنى عن تأكيد الوصية إليكم؛ ومهما عُرِض من المهامِّ يقضىٰ حسَبَ المراد، ومَنْهج السَّداد؛ والله الموفق.

وبحاشية الكتَاب المذكور ما نصُّه :

وقد كتبنا إلىٰ السـلطان أحمد أنْ يصِـلَ إلينا، فانظُرْ كيف كان عاقبةُ أمره؟ فينبغى أن نتوجَّهَ أو يتوجَّه بعضُ أولادك إلينا لأجل مَصَالحك كافَّةً.

فيا أمير تَيْمُور لو كنتَ صادقًا، وكلامُك بالحق ناطِقا، ما وَقَع منك مثلُ هذا ولا صدَر، ولا اتَّفق بَلْ ولا ببالك خَطَر؛ ولكن كلُّ مايكونُ فى خاطر الإنسان يظْهَر من الكلام الذى يخْرُج من فيه، وكلُّ وعاءٍ ماينضح إلا بمـا فيه.

يافاعِلًا بالضِّــدِّ من قَوْلِهِ * فِعلُ الفتىٰ دالٌّ علىٰ باطنه،
والمَــرْء مَجْزِىٌّ بأعمـاله * إذاظْهرتْ ما كان فى كامنِه!

وأما طلبُك منّا السلطان أحمد الجَلايرى غيرَ مرَّة، فقد علمناه. ولكن عرِّفْنا يا أمير تَيمُور إيش عَمِل بك؟ حتّى حلفت له عِدَّة مرار بأيمان الله تعالىٰ العظيمة وأعطيتَه العهود والمواثيق بأنك ما تتعرض إليه ولا إلىٰ مملكته ولا توافيه ولا تشَوِّش عليه، حتّى آطمأنَّ بأيمانك، وركن إليك، وأحسن ظَنَّه فيك، ووَثِق بك، واعتمدَ عليك نُخُنتَه وغدَرْته، وأتيته بغتةً علىٰ حين غَفْلة وبَدَرته؛ وأخذت مملكتَه وبلادَه، وأموالَه وأولادَه. وأعظمُ من ذلك أنَّك أخذتَ أيضا حرِيمَه وهُنّ فى عَقْد نِكاحه وعِصْمته وأعطيتَهنّ لغيره، وقد نطق الكتابُ والسنةُ بتحريم ذلك وعُظْمِ ذَنْب فاعله وقَبِيح جُرْمه؛ ففى أىِّ مذهَب من المذاهب يحِلُّ لك أخذُ حريم المسلمين، وإعطاؤُهنّ لغير أزواجهنّ من المُفسِدين الظالمين؟ وهنّ فى عِصْمة أزواجهنّ وعَقْد نكاحِهنّ إنَّ هـذا لَهُوَ البَلاء المبين؛ وكيف تَدَّعى أنك مسلم وتفْعَل هذه الفِعَال؟ عَرِّفنا فى أىّ مذهَب لك هـذا حَلَال؟ فأعمالُك هـذه كلُّها منافيةٌ لدعواك، بل منافيةٌ لِدين الإسلام، وشرع سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. قال الله تعالىٰ: ﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فأُولٰئِكَ هُمُ الكافِرُون﴾ وقال: ﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمون﴾ وقال: ﴿ومَنْ لم يَحْكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فأُولٰئِكَ هُم الفاسِقُون﴾ وقال عز وجل: ﴿ومَنْ يَتَعدَّ حُدُودَ الله فقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه﴾ وقد بيَّن لنا الخيرَ والشر، والحلالَ والحرامَ وأهلها فقال: ﴿إنَّ اللهَ يأْمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذِى القُرْبىٰ ويَنْهىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿ولا تَقْرَبُوا الزِّنا إنَّهُ كانَ فاحِشَةً ومَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلا﴾ وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أفْلَحَ المُؤْمِنُون الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُون والَّذِينَ هُمْ لِلزَّكاة فاعِلُون والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلَّا علىٰ أزْوَاجِهِمْ أوْ ما مَلَكَتْ أيمَانُهُمْ فإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ آبْتَغىٰ وَرَاءَ ذٰلِكَ فأُولٰئِكَ هم العادُون﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ المُسْلِمِ علىٰ المُسْلِمِ

حَرامٌ دَمُه ومَالُه وعِرْضُه" . وقال عليه‌السلام : "المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ ولِسَانِهِ" . ففى أىّ مذهب من دين الإسلام تستَحِلُّ هـذه المحَّرمات العظيمة ، والمُنْكَرات القَبِيحة الشنيعَة الجَسِيمة ، التى يهتَزُّ لهـا العَرْشُ و يَغْضَبُ اللهُ عز وجلَّ لهـا و رُسُلُه والملائكةُ والنـاسُ أجمعون ؟ وما كفىٰ مافعلْتَ مع القان أحمد المشار إليه حتّى تطلُبُه منا؟ . اعلم أنَّ القانَ أحمد المشار إليه قد آستجَار بنا وقَصَدنا ، وصار ضَيْفَنا ؛ وقد ورد : مَنْ قصَـدَنا وجَبَ حقُّه علينا . وقال تعـالىٰ لسيد الخلق أجمعين فى حقِّ الكفار الذين هم أنْحَس الناس : ﴿وإنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكِينَ آسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَه﴾ فكيف بالمسلمين إذا آستجاروا بالمسلمين؟ وكيف بالمُلُوك أبناءِ ملوك المسلمين ، الذين لأسلافهم الكرام معنا ومع مُلُوك الإسلام خُدّامِ الحرمين الشريفين صُحبةٌ ومحبةٌ وأخوّة فى الله تعالىٰ ؟ ولو لم يكن ذلك كيف يجوز فى شَرع المُرُوءة والنَّخْوة والوفاء أن نُسَلِّم ضيفَنَا ونزيلَنَا والمستجيرَ بنا؟ خصوصًا وجِنْسُنا جَرْكَس جنسُ ملوك الإسـلام السالفين ، خُدّامِ الحرمين الشريفين الذين آتَّفق لهم مع التَّتار ما تشهَدُ به التواريخ ، ومن عادتنا وشأننا وطِبَاع جِنْسنا أننا لانُسَلِّم ضيفَنَا ولا نزيلَنَا ولا مَن آستجار بنا لأحدٍ . وإن كنت ماتُصدّق ذلك فعِنْدك مَنْ هم من جنسـنا ، سَلْهُم يعرِّفُوك ، فنحن لا يُضام لنا نَزِيل ، ونَقْرِى الضـيفَ ونعامِلُه بالجميل ، وهـذه جِبِلَّتنا الغريزِيَّةُ وعادةُ أصْلِنا الأصـيل ؛ فإرسالُ القان أحمد إليك أمرٌ مستحِيل .

إنَّا ذَوُو الفَضْل الغَزِيرِ الوارِف * أبوابُنَـا هِىَ مَلْجأٌ للخـائف !

نَقْرِى الضُّيوفَ ولا يُضامُ نَزِيلُنا ، * شِيَمٌ وَرِثْنـا فَضْلَها عن سالِف !

وكُلَيمةٌ تَكْفِى الذى هو عاقِلٌ ، * والرَّمْزُ تصريحًا غدَا للعـارف !

وقولك: إن العادة كانتْ جاريةً بين مَنْ سلف من ملوك الإسلام وملوك التتار، أنّه مَنْ هرب من جهةٍ إلىٰ أخرىٰ يُمْسكه الملك الذى يَهْرُب إليه ويقيِّده ويجهِّزه إلىٰ الملك الذى هَرَبَ من عِنْـده ، وأن دَمِرْداش بن جُوبان لما هَرَب فى الزمن المـاضى من مَلِكه وجاء إلىٰ سلطان مملكتِنا المعظَّمة المشرَّفة، أمسكه وقيَّده وأرسله إليه، فقد علمناه ، وليس هذا الذى قلتَه وحكيْتَه بصحيح ، لأن الذى وقع وٱتَّفق بخلافه: وهو أنَّ أميرا من أمراء السلطان الملك الناصر كان يسمّى قَراسُنْقر، هرب من عنده وراح إلىٰ أبى سعيد فقَطَع رأسَه، وجَهَّزه إلىٰ الملك الناصر. وأما دَمِرْداش المـذكور فالملك الناصر ماأرسله إلىٰ أبى سـعيد مثـل ما قلْتَ وما مات دَمِرْداش المذكور إلا فى مصر المحروسة ، فليكُنْ ذلك فى علمك ثابتًا؛ وعلىٰ كلِّ حال فكلامُك حجةٌ عليك لا لك: لأنَّك قد آويْتَ شُكْر أحمد وأرْغُون السلامى وأكرمتهما وقرَّبتهما ، وكذلك كلُّ مَنْ حضر إليـك من ممـالِيكنا ورَعايَانا وخَدَمِنا من أهـل مملكتنا، فلو أمسكْتَهم وقيَّـدتَهم وجهَّزتهـم إلينا، كنتَ تكون صـادقًا فى قولك ، وكنتَ إذا طلبتَ منـا أحدًا مأتَلام علىٰ طلبـه ، فكيف وأنت البادِى والمعتَـدِى ؟ فهـذا الكلام كلُّه شاهدٌ عليك لا لك .

وأما قولك : إنَّ صاحب تِكْريتَ كان حَرَاميًّا قاطعَ طريق، ففعلتَ معه ما فعلتَ مقابَلةً له علىٰ نجسـه وحَرَامه وقَطْعه الطُّرُقات، فقد علِمناه وسلَّمنا لك هذا الأمر، بَيَّضَ اللهُ وجهَك، وماقَصَّرت فيه، فحبّذا ماعمِلْت، ونِعم مافَعَلْت فى حقِّه من إعطائه جزاءه. أفأهلُ بغـداد كانوا حرامِيَّةً قُطَّاع طريق حتّى فعلتَ بهم مافعلتَ ، وقتلت منهم من التُّجَّار خاصَّةً ثمانمائةِ نفْسٍ فى المُصادَرة بالعقُوبة والعذاب. ففى أىِّ مذهبٍ يجوز هذا ؟ وهل يحِلُّ لمن يَدَّعى الإسلامَ أن يعمل بخَلْق الله تعالىٰ الذين أمر بالشفقة عليهـم والإحسان إليهم ونَشْر العدل فيهم هذه الفِعالَ ؟ وقد تعجَّبْنا منك

يا أمير تيمور إلى الغاية ! كيف تدّعى أنّك عادل، وتعمل بأهل بغداد المسلمين الموحِّدين وبغيرهم من المسلمين هذه العمائل؟ أما تعلم أنّ الشفقة على خلق الله تعظيمٌ لأمر الله، وأنّ الله رحيم يُحبّ من عباده الرُّحماء، وأن الظُّلْم حرام فى جميع الملل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنَّ الله تعالى يقول : ياعبادى إنِّى حرّمتُ الظُّلْم على نفسى وجعلته بينكم مُحرّمًا فلا تظّالموا" . وقال عليه السلام : "لا أحدَ أغْيَرُ من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن" . وورد : "إنْ فاتنى ظُلْم ظالمٍ فأنا الظَّالم" وحَسْبُ الظالمين ربُّ العالمين الذى قال فى حقهم ﴿ ألا لعنةُ الله على الظَّالمين ﴾ وقال ﴿ إنه لا يُفلِح الظالمون ﴾ . والباغى له مَصْرَع . ولما جاء هُولاكُو ومنكوتمر وغازان وقصَدُوا ملوكَ الإسلام خدّامَ الحرمين الشريفين، الذين كانوا من جنسنا كما ذكَرْنا لك أعلاه، اتّفق لهم ما اتّفق ممّا هو مشروح فى التواريخ ومعلوم عند الناس؛ فمهما أخذَه أولئك تأخُذْه إذا جئت .

وأما قولك فى كُتُبك : إنه إن لم نجهِّز إليك السلطانَ أحمدَ الجَلايرى مقيَّدا تجئْ فى أوّل فصل الربيع إذا نزلت الشمسُ بُرْجَ الحمل، أو لمَّا تنزِل الميزان ، وإن جَهَّزناه إليك مقيدا، نتأكد المحبةُ والصُّحْبة بيننا وبينك ، فقد علمناه ؛ والذى نعرّفك به هو أننا كنا نتوقَّع أنك تَجِيء قبل هذا الوقت، فقد أبطأْتَ كثيرا، وملوكُ الإسلام خُدّامُ الحرمين الشريفين الذين كانوا قبْلَنا ما تَصالَحُوا مع مثل هُولاكُو وغيره إلا حتّى تزاوروا وتقابَلُوا واجتَمعُوا، ونحن أيضا كذلك ما نصْطَلِح إلا بعد أن نتزاورونتقابَلَ ونجتمع . وأنت طلبت أحمد الجلايرى، وهانحنُ واصلونَ إليك به، نطلب منك أن تَشَفِّعنا فيه، وتَهَبنا ذَنْبه الذى صدر منه ، وندْخُل عليك بسببه، ونسأل إحسانك أنْ تعيِّن لنا موضعا نلْتقى معَك فيه، حتّى نأتيك بأحمد الجلايرى

المذكور فيه ، ونشْفَع فيه عندك . فعيِّن لنا الموضعَ المذكورَ علىٰ حسب ماتختار : إما من ذاك الجانبِ من الفُرات ، أو من هذا الجانب . وأيّ موضع عينْتَه وسمَّيته لنـا جئناكَ بالمشار إليه فيه ، وندخل عليك فى أمره ، ونستوْهِب ذَنْبَه منك .

وأما ما ذكرته من أمر الرسول ، فقد علمناه . والذى نُعرِّفُك به هو أن الرسولَ المذكوركان يكتُبُ المنـازلَ منزلةً منزلةً إلىٰ بلادنا المحروسـة ، وٱطَّلع عليه فى ذلك جماعةٌ من جهتنا ؛ ولمـا وصلَ إلىٰ الرَّحْبة المحروسة ، قال للنائب بها : بُسِ الأرضَ للأمير تَيْمور وٱقرأ الخُطْبَـة باسمـه . فلو كان رسـولاً مُصْلحا ما كان كتَبَ المنازل ، ولا أكثَرَ فُضُولَه ، وتحدّثَ بمـا لا ينْبغِى له ، وتكلَّمَ فيما لا يَعْنِيه ، وتعدَّى طَوْرَه : لأنه لاينبَغِى للرسول أنْ يكونَ إلا أعمىٰ أخرَسَ غزيرَ العقل ، ثقيلَ الرأس ، كما قال بعضهم :

إذا قَصَـدْتَ المُلوكَ فالْبَسْ * من التُّقىٰ والعَفَافِ مَلْبَس !
أدخُلْ إذا مادَخَلْتَ أعْمىٰ ، * وٱخْرُجْ إذا ماخَرَجْتَ أخْرَس !

وكيف يُمْكن نائبَنا الذى هو من جملة ممالِيكنا ، وجُبِل لحمُه ودمُه علىٰ أنعُمنا وصَدَقاتِنا ، وغُذِّىَ ورُبِّى بلِبَان فَضْلنا وجُودنا [أن] يبُوسَ الأرض لغيرنا ، أو يخْطُبَ باسم غيرنا؟ وكيف يترُكُ ٱسمَ خادم الحرمين الشريفين أستاذِه ، ويذكُرُ ٱسمَ غيره؟ .
فقد تكَرَّرت منك الفِعالُ القبيحة ، الموجِبَةُ لمـا يقدِّره الله تعالىٰ؟ ونحن نُقْسِم بالله تعالىٰ لولا قلت لنُعَيْر تعالَ حتّى أعملَك مقدّم العساكر ، ونَمْشى علىٰ الشام ومصر ؛ وقَرَّبْت مماليكَنا وآويتَهم ، وبدأتَ بهذا كلِّه وحصَلَ منك التعدّى ، ما كان يتفقُ لرُسُلِك ما ٱتّفق .
ولكنَّ الجزاءَ من جِنْس العمل ، والخيرُ بالخير والبادِى أكرم ، والشَّرُّ بالشر والبادى أظْلم .

وأيضا كلَّ وقت تَسأل عن ممـالكنا المصونةِ ، وكثرةِ عساكرنا المنصورة من قِلَّتها .
فلوكنتَ طالبًا المحبةَ والصحبةَ والمصادَقة ، ماوقع منك هذا .

•أما قولك إنَّ هُولا كو أخذ من كلِّ مائة رجلٍ رجلين وجاء بهـــم، وأنت قد جئتَ بالرجلَيْن و بالمــائة، وآعتمادُك علىٰ كثرة عَسْكرك علىٰ قولك فقد علمناه ، وإن كان آعتمادُك علىٰ كَثرة عسكرك فاعتمادُنا نحن علىٰ الله تعــالىٰ وآستمدادُنا من الحرمين الشريفين، ومَدَدُنا ممَّن بهما من الأنبياء، صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين، والصحابةِ والصالحين رضى الله عنهم. فاذا تلاقَيْنا يكون مايقدِّره الله تعــالىٰ و يُعْطِى الله النصْرَ لمن يَشَاء، وتَعلَمُ ذاك الوقتَ لمن العاقِبــةُ ؛ و يظهَرُ فعلُ الله الربِّ القادر تعــالىٰ ، وعوائده الجميلةُ بنــا التى لا شَكَّ عندنا فيها ولا رَيْبَ ، وقَطُّ ملوكُ التتار ما آنتصروا علىٰ ملوك الإســلام، بل ملوكُ الإسلام خدّامُ الحرمين الشريفين، هم المؤيَّدون المنصُورون المظفَّرون بعون الله تعالىٰ، وببركة سـيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، معوَّدُون من الله الكريم بالفضل والإحسان والغَنائم والفُتُوحات : لأنهم أهل الكتاب والسُّنَّة والعَدْل والخير والخَوْف من الله تعــالىٰ ، لايقعُون فى محَارِمه ، ولا يُقْدِمُون علىٰ آرتكاب مايَنْهىٰ عنه، فهم المؤمنون المتَّقُون . وقال الله تعالىٰ : ﴿وكانَ حَقًّاعَلَيْنا نَصْرُ المؤمِنِينَ﴾ وقال تعــالىٰ : ﴿ إنَّا لنَنْصُر رُسُلَنا والذينَ آمَنُوا ﴾ وقال : ﴿ والعاقِبَةُ للتَّقوىٰ ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ولقد كَتبْنَا فى الزَّبُورِ منْ بَعْد الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبَادِىَ الصَّالِحُون﴾ وسوف يُنْجِزُ الله تعالىٰ وعده، لأنه لايُخْلِف الميعاد .

وأما ماذكرته من أمر قَرا يُوسف و بير حسن وغيرهما ، وأنَّ فى معاشهم زَغَلا، وأنَّهم مفسِدُون . وجعلُك لكل واحدٍ منهم ذنبا، وأنك أنتَ العادل الخيِّر المُفْلِح ، والناس كلُّهم مناحيس وأنت الصالح، والله يعــلم المُفْسِدَ من المُصْلِح، فقد علمناه . والذى نعرّفك به هو أنَّ النُّور لايجتَمِع مع الظلام، ولا اليَقظةُ والمَنَام، ولا الخــير والشَّرُّ فى حيز واحد : لأنها متَضادّة، ليس بينها آتِّفاق ولا آلتئام ، وفعلُ المرء دالٌّ علىٰ نيته وطويَّته ، قال الله تعــالىٰ : ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ علىٰ شَاكِلَتِه ﴾ وقال :

﴿وما يَسْتَوِى الأَعمىٰ والبَصِيرُ ولا الظُّلُماتُ ولَا النُّورُ ولا الظِّلُّ ولَا الحَرُورُ وما يَسْتَوِى الأَحْياءُ ولَا الأَمْوات﴾ وقال : ﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُم﴾ وشـتَّانَ مابين أهل الخير والفَسَاد، وأهل العَـدْل وأهل البَغْى والعِناد ؛ فالخيِّرُ هو المتَّقِى ، ومن يرتكب ماحرّم الله ويعتَقِدْ أنه علىٰ الحق فهو الشَّقِى .

إذَا المَرْءُ لم يَعْرِفْ قَبِيحَ خَطِيَّتِه * ولا الذَّنْبَ منـه معْ عَظِيم بَلِيَّتِـهْ
فذٰلكَ عيْنُ الجَهْل منه مع الخَطَا * وسـوفَ يَرىٰ عُقْباه عِنْدَ مَنِيَّتِــه
ولَيْسَ يُجَـازَىٰ المرءُ إلا بفِعْـله * وما يَرْجِعُ الصَّـيَّاد إلا بنِيَّتِـه !

وأما قولُك إنَّ نُعَير العرب أرسَلَ بالخُفْية يطلُب السلطانَ أحمد، وأننا نرسُم لنوَّابنا أنْ يحترِزوا من توجُّهه إليه ولا يمكِّنُوه من ذلك، فإنه إن آتفق توجهه إليه يَكُنْ ذلك سببا لخَرَاب الدِّيار، فقد علمناه. والذى نعرّفك به هو أننا نَتَحقَّق أن مايحصُلُ خرابُ الديار والدَّمار ومحوُ الآثار إلا لمن يسعىٰ ويتكلّم بخراب الديار ﴿وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلَّا بأَهْلِهِ﴾ . وستعْلَم ديارُ مَنْ تُخَرَّب، وعُمُرُ من يَذْهَب، وعلىٰ من تكون دائرةُ السُّوء دائره، وسَطَواتُ المَنايا قاهِره؟ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ . وها نحنُ واصلون بجُيوش وجُنود وعساكر مؤيَّدة من السِّباع أسْبَع، لاترْوىٰ أسْلِحتُهم من دِماء البُغَاة ولا تَشْبع، والجواب ماتَرى لا ماتَسْمَع :

قُلْ لِلَّذى فى الوَرَىٰ أَضْحىٰ يُعادِينَا : * احْذَرْ فأمْرُكَ رَبُّ العَرْشِ يَكْفِينا !
مازَالَ يَمْنَحُنا فَضْــلا ويَكْلَؤُنا * وفى العِـدا بعظِيم النَّصْرِ يَشْفِينا !
أقامَنَا رحمــةً للنـاس أجمعِهم، * ولم يَزَلْ من جَزِيل الجُود يُعْطِينا !
بالعِزِّ والنَّصرِ والتأْيِيــدِ عوَّدَنا، * وزادَنَا فى مَـدِيد الأرض تَمْكِينا !
وللجميل وفِعْــلِ الخــيرِ وَفَّقَنا، * شُكْرًا له سِــتْرُه الأعْلىٰ يغَطِّينـا !

قَدْ أسْكَنَ الرحمةَ الحُسْنىٰ التى أَمِنَتْ * بِهَا الأنَامُ بأقْصىٰ مُلْكِنا فِينا!
فكُلَّما بالدُّعاء المُرْتضىٰ نَطَقَتْ * لنا الرَّعايَا، أجابَ الكَوْنُ آمِينَا!
اللهُ حافِظُنا، اللهُ ناصِرُنا، * مَنْ ذا يُعانِدُنا ؟ من ذا يُقاوِينَا؟

واللهُ الموفِّق بفضله العميم، والهادى إلىٰ الصراطِ المستقيم؛ بمنِّه وكرمه، وجُوده ونعمه، إن شاء الله تعالىٰ .

كتب فى ... ... من جمادىٰ الأولى سنة ست وتسعين وسبعمائة(١) .

الحالة الثانية — حين عاد السلطان من الشأم إلىٰ الديار المصرية وخرَّب هو دمشق وحَرَّقها، ثم انتقل عنها، وتردَّدت رسله بطلب أطلمش : أحدِ أمرائه الذى كان قد أُسِر فى أيام السلطان الملك الظاهر "برقوق" .

وفى هذه الحالة كان يُكْتَب له فى قطع الثُلثين، والعنوانُ بقلم جليلِ الثُّلُث بحَلِّ الذهب سطرانِ، مضمونهما « المقامُ الشريفُ العالِى، الكبيرىُّ، العالِمىُّ، العادلىُّ، المؤيَّدىّ، المظفَّرىّ، المَلْجَئىُّ، المَلاذىّ، الوالِدِىّ القُطْبِىّ، نُصْرة الدين، مَلْجأ القاصدين، ملاذُ العائذين، قطبُ الإسلام والمسلمين، دامتْ مَعْدَلته تَيْموركور كان» . والبسملة فى أوّل الوصل الرابع، والخُطبةُ جميعها بالذهب، وكذلك البَعْدِية وما يتعلَّق بالمكتوب إليه علىٰ عادة القانات، والعلامةُ بجليلِ الثُّلُث بحَلِّ الذهب بالهامش ماصورته : « المشتاقُ فرجُ بن برقوق » إلا أنه آختلفَ مكانُها فى المكاتبات علىٰ ماسيأتى ذكره . إلا أن افتتاح المكاتبة إليه فى هذه الحالة كان علىٰ ضربين بحسَب ماآقتضاه الحالُ .

(١) هنا آخر ما أضيف الى الأصل من بعضهم .

الضـــــرب الأوّل

(الافتتاح بـ«أما بعد» وذلك عند أوّل عقد الصلح)

وهـذه نسخةُ مكاتبـةٍ كُتِبت إليه جواباً عمـا ورد منه بطلب أطلمش المذكور والتماسِ الصُّلْح. جُهِّزت صحبةَ الأمير شهاب الدين أحمد بن غلبك، والأمير قانى بيه (١) صحبةَ رسوله خَواجا مسعود الكججانِىّ رسوله الوارد بكتابه، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة خمسٍ وثمـانمـائة . وعُلِّم له فيها فى الهامش بين السطرين الثانى والثالث بقلم جليل الثلث بحَلِّ الذهب « المشـتاق فرج بن برقوق » علىٰ ما تقدّم ذكره، والورق قطع الثلثين وهى :

أمَّا بعد حمدِالله الذى جعل الأرواح أجنادًا مجنَّده، ووصلَ أسباب الرُّشْد والفلاح بِمَن افتتح بابَ الإصـلاح ولم يُخْلِف مَوْعِدَه، وكَفَلَ لمن توكَّل عليه فى أموره النجاحَ يومَه وغَدَه. والشهادةِ له بأنه الله القاهرُ فوق عباده بقدرته المؤيَّده، والصلاةِ والسلام علىٰ أشرف نبىٍّ طيَّب الله عنصُرَه ومَحْتِدَه، وأصلح ببعض نَسْلِهِ الشريف بين فئتين عظيمتين بلَغَ كلٌّ منهما من الخير مَقْصِدَه . وعلىٰ آلِهِ الطاهرين، وذُرِّيته الظاهرين بالمصالح المُرْشِده، وأصحابه الذين كانتْ غالبُ قضاياهم صُلْحا بين النـاس ورسُلُهم بالاتِّفاق مردَّدة ومِنْ عدَمِ الشِّقاق غير متردِّده، صلاةً وسلاماً نَصِل بهما حبْلَ البُنُوَّة بالأُبُوَّة المتجدِّده، ونُخمِد بهما نارَ الحَرْب المتوقِّده .

فقد أصدرنا هـذه المفاوضةَ إلىٰ المقام الشريف، العـالِى، الكبيرىِّ، العالمىِّ، العـادلِىِّ، المؤيَّدىِّ، المظفَّرىِّ، المَلْجَئِىِّ، المَلَاذىِّ، الوالِدِىِّ، القُطْبِىِّ، نُصْرة الدين، مَلْجإِ القاصدين، ملاذِ العائذين، قُطْبِ الإسلام والمسلمين، تَيْمُوركوركان ، دامتْ مَعْدِلتُه . تُهْدِى إليه سلاما تُتْلىٰ سُوَره وآياتُه، وثناءً تتوالىٰ غَدَواته ورَوْحاته

(١) سيأتى قريبا قانى باى الخاصكى .

ولا تتناهىٰ غاياتُه ؛ وتبدى لشريف علمه أنَّ مفاوَضَته العالية [التى] وردَتْ أوّلا وآخِرا ، تضمنت رموزُها باطنا وظاهِرا ؛ تجهِيزَ الأمير أطلمش لَزَم المقـام الشريف إلىٰ حضرته العليَّـــة : لتنحَسِمَ مادّةُ الحركات ، وتسكُنَ القلوب والخواطرُ فى سائر الجهات ؛ وتتَّحِدَ المملكتان فى الصَّــداقة والوفاء ، والمحبّة والصَّفَاء ؛ علىٰ الصُّورة التى شَرَحها ، وبيّن مَنَاهجها ووَضَّحها ؛ خصوصا ماأشار إليه من أنَّ لجواب الكتّاب حقًّا لايَضِيع ؛ فوقَفْنا عليها وُقوفَ إجلال ، وفَهِمْنا ما تضمَّنتْه علىٰ التفصيل والإجْمال .

والذى نُبْديه إلىٰ علومه الشريفــة أنَّ ســبب تأخير أطلمش أنه لمَّـا قَدِم المقام الشريف إلىٰ حدود الممـالك الشاميَّه ، وتوجَّهْنا من الديار المصريه ؛ عرض لنـا ما أوجب العَوْدَ إليها سريعا ، وكان الحزمُ فيما فعلناه بمشيئة الله تعالىٰ . ثم تحقَّقْنا من المفاوضة الواردةِ علىٰ يد سُودُون ، وسودون (؟) والنمر ، والحاج بيسق أحد أمراء أخورية ، قَسَمَه بالله الطالب الغالب ، المُدْرِك المُهْلِك ، الحىّ الذى لاينام ولايموتُ أنه إن جُهِّز إليه أطلمش المشارُ إليه ، رجع المقام الشريف إلىٰ بلاده ، وأنه متوقِّع حُضُوره إليه بقَارَةَ ، أو سَلَمْيةَ ، أو حِمْص ،أو حماةَ . فأخذْنا فى تجهيزه إلىٰ حضرته الشريفةِ علىٰ أجمل مايكُون .

فبينَا نحنُ علىٰ ذلك إذ وردَتْ علينا الأخبارُ بما آتفق لدِمَشْقَ وأهلها : من أنواع العذابِ وتَخْرِيب قَلْعتها ودِيارِها ، وإحراقِ جامعها الذى هو الجامعُ الفَرْد فى الممالك الإسلاميَّة ، وغيرِه من المساجد والمَدَارس والمَعَاهد والمَعَابد . فلمَّا تواترتْ هذه الأخبارُ ، وتحقَّقتْ هذه المَضارّ ؛ لمحنا من عدم ترحُّلِكم عن دِمَشْقَ وهى عامرةٌ نقْضَ ما تَقرّر ، وعدمَ آلتفاتِكم إلىٰ الأمير أطلمش المذكور وتجهيزه . فلما وردتْ مفاوضتُه الشريفةُ المجهَّزةُ إلىٰ صاحب مارِدين ، أرسلها إلينا [وهى] الواصلةُ علىٰ يد المجلس السامىّ ، الشيخى ، الكَبِيرىّ ، العالِمىّ ، الناسكىّ ، الحَسِيبىّ ، النَّسيبىّ ، الشَّرَفىّ ، عبدِ المؤمن ، شـيخ

الجبال، ٱبن وليّ(١) الله، إمام العارفين، عبد القادر الكيْلانىّ، أعاد الله تعالىٰ من بركاته. والصّـدرِ الأجلّ فخر الدِّين التـاجر السَّفَّار، المؤرّخةُ بثانى عشر ذى القَعْدة الحرام من سـنة أربع وثمـانِمائة، المتضمِّنةُ وصولَ المقـام الشريف إلىٰ أَرْزَنْكان وكَماخ قاصدًا للبلاد الرُّومية، والقصدُ فيها تجهيزُ الأمير أطلمش وأن يُفْتَح بابُ المصالحه، ويُسْلكَ طريق المصادَقة؛ رعايةً لصَلَاح المملكتين، ونظرًا إلىٰ إصلاح ذاتِ البَيْن؛ وأنّه لامَطْمَعَ إلا فى صحة المودّة، وإرسالِ أطلمش صحبةَ شخص من مقرّبى حضرتنا الشريفة : لينظر ما يصـدُر بعد وُصُولها من تمهيد قواعد المجاملة، وتشييدِ مبـانى المحبة. وأنَّ المقـام الشريف ــ زِيدتْ عظمَتُه ــ أقسمَ بالله الّذى هو فى السَّماء إلٰهٌ وفى الأرضِ إلٰهٌ، أن يكون فى هذه الحياةِ محبًّا لمن يُحبُّنا، مُبْغضا لمن يبْغِضنا، وأنّا نتلَفَّظ بحضورالأمير أطلمش كما تلفَّظتم. فعند ذلك ٱجتمَعْنا مع مولانا أميرِ المؤمنين، المتوكل علىٰ الله، أدام الله تعالىٰ أيّامه، والشيخِ الإمامِ الفرد، شيخ الإسلام سراج المِلّة والدِّين عمر البُلْقَيْنىّ ــ أعاد الله تعالىٰ من بركته ــ وقُضاة القضاة ومشايخ العِلْم والصَّـلَاح، وأركان الدولة الشريفة، وقُرِئتِ المفاوضـةُ بحضورهم. فلمـا سمِعُوا ما تضمَّنَتْه من عظيم القَسم، والحَلِف ببـارئ النَّسَم، وعلموا أنَّ جُلَّ القَصْد فيها تطلُّعُ المقـام الشريف إلىٰ تجهـيز الأمير أطلمش المذكور، فٱجتمعتِ الآراءُ علىٰ إرساله إلىٰ حضرته الشريفة صحبةَ من ٱقتضَتْه الآراء الشريفة. ثم وردت بعد ذلك المفاوضةُ من المقام الشريف ــ زِيدت عظمتُه ــ علىٰ يدِ شخص من أهل أَزْمِـيرَ ــ مؤرّخةً بثانى عَشر شهر صفر المبارك سـنة تاريخه، متضمِّنةً ما حصل من النصر على ٱبن عُثْمان، والظَّفَر به، والٱستيلاء علىٰ غالب قلاعه. وزُبْدة الكلام فيها الإسراعُ بتجهيز أطلمش المذكور، ليجتمع شمْلُه بأولاده بالحَضْرة الشريفة. ثم بعد ذلك وردت

(١) يريد أنه من ذريته لان عبد القادر توفى سنة ٥٦١ .

علينا مفاوضةٌ شريفةٌ علىٰ يد المجلس الساميّ، الشيخيّ، الكبيريّ، الأوحديّ، العارفيّ، السالكيّ، المقربيّ، مسعود الكججانيّ، رسول المقام الشريف. وصحبته المجلس الساميّ، الشيخيّ، الكبيريّ، العالميّ، العامليّ، الإماميّ، القُدْويّ، الشَّمْسِيّ، شيخ القُرَّاء، إمام أئمة الكُبَرَاء، محمد بن الجَزَرِيّ أدام الله النفع به. مؤرّخةٌ بغرّة ربيع الأوّل سنة تاريخه، متضمنة معنى الكتابين المجهَّزَيْن من ماردين وأزْمير. وجُلُّ القصد فيها تجهيزُ الأمير أطلمش لتحْصل طُمَأْنينة قلوب العالمين، وإخمادُ باب الفِتَن، وأنَّ العمدة علىٰ المشافهةِ التي تحمَّلها الخَوَاجا نِظام الدين مسعودٌ المشار إليه، وأن قولَهُ قولُ المقام الشريف. ومهما عَقَد الصلح عليه والتَزَم به، كان من رأى(١) المقام الشريف وشوره، لا يخرُج عنه ولا يميل إلىٰ غيره بقول ولا فعل. فلما أحضَرْناه وأصْغَينا إلىٰ ما تحمَّله من المشافَهَة، فإذا هي مشتملةٌ علىٰ خالص المحبَّه، وأن يكون المقامُ الشريف والدَنا عوضًا عمن قدّس الله تُرْبه، وأن نُجهز الأميرَ أطلمش إليه، وتكون عمدتُنا بعدَ الله عز وجلَّ عليه، فقابلنا ذلك بالقبول والاستبشار، ومَحَونا آيةَ ليل الجَفَاء، وأثبتْنا آية نهار الوَفَاء، في الإعلان والإسرار، وقبلْنا أُبوّتَهُ الكريمةَ علىٰ مدىٰ الأزمان وتوَالِي الأعصار، وشاهَدَ الخواجا مسعودٌ حال أطلمش، وعلم اهتمامنا بتجْهيزه قبل وصوله بمُـدّةٍ اعتمادا علىٰ أَلِيَّته السابقه، ووُثُوقا بما صَرح به من الاتّحاد والمصادَقَه، وعقَدْنا الصُّلْح مع الشيخ نظام الدين مسعودٍ المذكور بطريق الوَكالة الشرعية عن المَقَام الشريف، وحَلَفْنا نظير ما حَلَف عليه، بموافقة مولانا أمير المؤمنين ــ أدام الله أيامه ــ علىٰ ذلك بمحْضَر من شيخ الإسلام، وقضاة القضاة، ومشايخ العِلْم والصَّلاح، وأركانِ الدولة الكِبَار، مع حضور الأمير أطلمش، لزَم المقام الشريف، وشهادةِ من يَضَعُ خطه علىٰ نُسَخ الصُّلْح التي

(١) كذا في الأصل وهي عامية لاأصل لها في اللغة بالمعنى المراد له اذ مراده المشورة كما لايخفى.

كتبت ، وجهّزنا منها نسختين مثْبُوتَتَيْن إلىٰ حضرته الشريفة قرينَ هـذا الجواب الشريف ، لتُحيط العلومُ الشريفـة بمضمونِهما ؛ و بأحدهما خطُّنا الشريف لتخلَّد بخزانته الشريفة ، والأُخرىٰ يشمَلُها بخطه الشريف وتُعادُ إلينا صحبةَ رسولنا : المجلس العـالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، المجاهدىّ ، المؤيدّىّ ، المقرّبىّ ، الأعَزِّىّ ، الأخَصِّىّ ، الأصيلىّ ، الشِّهابىّ ، أحمد بن أغلبك الناصرى مقَرَّبِنـا ومقرَّبِ والدنا الشهيد ـ أدام الله تعـالىٰ نعمته ـ وجهّزنا صحبتَه المجلَس السامِىَ ، الأميرَ ، الأجلَّ ، الكبير ، المقَرَّبَ ، المرتضىٰ ، الأخَصَّ ، الأكمَلَ ، سيفَ الدين ، قانِى باى الخاصكِىّ الناصرىّ ، أدام الله سعادته ، المتوجهَيْنِ بهـذا الجواب الشريف ، المجهَّزين صحبة الأمير أطلمش ، و بقية قُصَّاد المقام الشريف ورُسُلِه .

وممـا نبديه لعلومه الشريفـة أنه ممـا تضمنه الملخَّص الشريف المجهَّز عطفَ الكتاب الواصل علىٰ يد الشيخ مسعود الكجحانى مضاعفةُ الوصـية بأولاد الشـيخ شمس الدين الجَزَرىّ ورعايةِ أحوالهم وتعلُّقاتهـم . وقد قابلنا ذلك بالإقبال والقَبُول وقرّرنا لهم بالأبواب الشريفة . ونحن بشهادة الله ـ وكفىٰ به شَهِيدا ـ قد أخلَصْنا النيـة للمقـام الشريف ، وعاهدْنا اللهَ عز وجلَّ فى التعاضـــد والتناصُرِ والاجتهاد ، فى عمل المَصَالح للعباد والبلادِ ، وعدم التَّقاصُر والعمل بمـا فيه بياضُ الوجه عِنْد الله فى الدنيا والآخرةِ ، وإجراءُ الأمور علىٰ السَّداد . بتوفيق الله عز وجلَّ ، وطلباً لرحمته الباطنة والظاهرة . ثم استقبل لسان الحال يُنْشِدنا :

* يا أوّلَ الصَّفْوِ هٰذا آخِرُ الكَدَر *

فيكون ذلك فى علومه الشريفة ، والله تعالىٰ يُديم عوارفَه الوَرِيفه ، بمنّه وكرمه .

والمستند «حسَبَ المرسوم الشريف» .

الضـــــرب الثـانى
(ما صار إليه الأمر بعد وُصُول أطلمش إليه)

وهذه نسخة جواب

والعنوانُ سطران بقَلَم الثلُثِ بماء الذهَب ماصورتُه :

«المقامُ الشريفُ، العالى، الكبِيرىُّ ، العالمىُّ، العادِلىّ، المؤيَّدىّ، المظفَّرىّ ، الملجئِىّ، المَلاَذىّ ، الوالِدِىّ، القُطْبِىّ، نُصْرةُ الدين، ملجأَ القاصدين ، مَلاَذُ العائِذين، قطبُ الإسلام والمسلمين؛ تَيْمُوركوركان ـ زيدت عظمته ـ .

والطرَّةُ ثلاثة أوصال، والبسملةُ الشريفة فى أوّل الوصل الرابع . ثم « الحمدُ لله » وتمة الخُطْبـة بالذَّهب، و بيت العلامة عرضُ أربعـة أصابع مضمومةً، وما يليها من الأسطر سعةُ ثلاثةِ أصابع ، والعلامةُ الشريفة بين السطر العاشر والحادى عَشَرَ من سطور الكتابة ، موافِقا لانتهاء الخطبة عند « أما بعـد فقد صدرت هـذه المفاوضةُ» . والعلامة الشريفة بجليل الثلُث بماء الذهب «المشتاقُ فرج بن برقوق» . وهامش الكتاب أربعةُ أصابع مطبوقةً ، والخطبة وما يليها من البَعْدية وألقاب المقام القُطْبِى المركبة والمفردة الجميعُ بالذهب . ومضمونه بعد البسملة :

الحمدُ لله الذى شيَّد قواعدَ الإصلاح، ومهَّد مواطنَ الرُّشْد والنَّجاح؛ وجعل أذَانَ المؤمِن يُجيب داعِىَ الفَلاَح .

نحمـدُه علىٰ أنْ ألَّف بين القلوب بلطيف الارْتيـاح ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له إلهٌ زمَّ نفوسَ المؤمنين بحبْـل التقوىٰ من حَمِيَّة الجِمَـاح؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله الذى وَضَح من نُور رسالته فجْرُ الإيمـان وَلاح ، ونَفَح

من نَوْر معجزاته زَهَرُ الدين الحنيفيِّ وفاح ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله الذين شَـدُّوا ظهور كلمهم من الصِّدْق بأتقن وِشَاح ، وعلىٰ صَحَابته الذين بينوا من عُهُودهم(؟) بفِقْهِهم فى الدين الواجبَ والمندوبَ والمحظورَ والمُباح ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فقد صدرَتْ هذه المفاوضةُ إلىٰ المقام الشريف ، العالى ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيَّدىّ ، المظفَّرىّ ، الملجئِىّ ، المَلاذىّ ، الوالدىّ ، القُطْبىّ ، نُصْرة الدين ، ملجإ القاصدين ، ملاذِ العائذين ، قطبِ الإسلام والمسلمين :

مَلِكٌ يفُوقُ الخلْقَ طُرًّا هَيْبةً * فيـه نِهـايَةُ غايةِ التَّأْمِيـل !

تيمور كوركان — زيدَتْ عظمتُه ، ودامتْ معدِلَتُـه ؛ ولا زالتْ راياتُ نَصْره خافقةَ البُنود ؛ وآياتُ فضله متلوّةً فى التهائم والنُّجُود ؛ وسُحُبُ فضائله هاميةً بالكرم والجُود ، ومَهَـابةُ سـطوته تملأُ الوُجُود ـ تُهْدِى إليـه من السلام ماحَلا فى حالتى الصُّـدُور والورُود ، ومن الإخلاص ما صَفَا وضَفَتْ منه البُرود .

وتبـدِى لعلمه الشريف أن مفاوضتَه الشريفة وردَتْ علينا جواباً عمـا كتبناه إلىٰ حضرته الشريفة ، علىٰ يد المجلس العـالى الأميرىِّ الشهابى ، أحمـد بن غلبك وسَـيْف الدين ، قانى بيه النـاصرى ، المجهَّزين صحبةَ المجلس العـالى ، الأميرىِّ ، الجلالىِّ أطلمش ، لَزِم المقـام الشريف ، بوصول الأمير جلال الدين أطلمش إلىٰ حضرته الشريفة طيِّباً ، مبدِياً بين يديه ماحَمَّلناه من رسائل الأشواق ، مبيِّناً ماهو اللائق بخَلاله الحسـنة عن حضرتنـا مادبَّج به الأوْراق ؛ شاكرًا لإنعاماتنا التى هى فى الحقيقة من شِيَم فضلكم الخَفَّاق ، مثبِتاً منه ومن فَحوىٰ الخطاب فى نَظْم الكتاب صدقَ المَقال وصحَّةَ العهد ورسُوخَ الميثاق ؛ وأنه قد ثبتَ بما بَثَّ من غرائب المَعَانى حصولُ الأمانىّ ، وسَرىٰ بعدُ مايكون من هَدَايا التَّهانى ؛ وأن الذى آتفق الآنَ هو

المطلوب ، والمكتوبَ به إلىٰ والدنا الشهيد الطاهر أوّلا هو المرغوب ؛ وخلافُه كان موجِبًا لنقل الحركات الشريفة إلى جِهَة البلاد ، وما آتفق فيه للعباد ؛ ولكن كلٌّ بقضاء وقَدَر . ولما حصل قبولُ الإشارة بتجهيز الرُّسُل والأمير أطلمش ، صارت القلوب متَّفِقه ، والعُيونُ قارّة ؛ وصفَتْ مواردُ الصَّفاء ، وضَفَتْ بُرود الوفاء ؛ وقُطِعت حبالُ المنافاةِ والجَفاء . وأنَّ المقام الشريف كان أقسَمَ فى كتبه قسَما وأعاده ، ثم فصَّلَ مجملَه وأفاده ؛ وهو ـ واللهِ الطالب الغالِب ، المدرِك المهلِك ، الحيِّ الذى لا ينام ولا يموت ـ من يومه هذا لا يخالِفُ ماصدر من عقد الصُّلْح المسطور ، ولا يرجع عن حُكْمِه للعهد المزْبُور ؛ ويُحبُّ من يُحبُّنا ويُبغِض من يُبْغِضنا ؛ ويكون سِلْما لمسالمينا ، حَرْبا لمحارِبينا ؛ ومتىٰ آستنصَرْنا به علىٰ أحد من مخالفينا أمدَّنَا بما شئنا من العساكر ، وانه أمْرٌ مانااله أحد من الناس غيْرَنا ، وإنه لوكان القَسَم علىٰ الوجه الذى ذكره مصرَّحا مذكورا فى لفظ الكتاب ، وعبارة الخطاب ؛ لكان أوْضَح ، والتبيينُ أملَح ؛ وأنه حيث كان بأطراف ممالكه المجاورةِ لممالكنا أحدٌ من المفسدين يجهِّزه إلينا مقيَّدا . وحيث كان أحدٌ من المفسدين بممالِكنا المجاورةِ لممالكه يعرّفُنا به لنجهِّزه إليه : لآتفاق الكلمتين ، وآتحاد المملكتين ، وطمأنينةً لقلوب الرعايا والسالِكينَ من الجِهَتين ؛ وما تفضَّل به : من سؤال المقام الشريف اللهَ عزَّ وجل زيادةَ أسبابِ دولتنا ، ونُمُوَّ إيالَتِنا ؛ وأنَّ الهِلالَ إذا رأيت نموَّه ، أيقنْتَ أن سيصير بُدْرا كاملا . وأنَّا سنرىٰ ما يصنعُه المقام الشريف ، من الفضل المنيف ؛ ومن تَلافِى الأمور ، مايظهر للخاصَّة والجُمْهور ، مما يَزِيدُ بدْرَنا نُمُوًّا ، وقَدْرنا بين المُلُوك سُمُوًّا : لأنه لنا أكفىٰ كفيل ، وأشفَقُ من الوالدِ والصاحبِ والخَلِيل ؛ وإن من علامة الصفاء إظهار ماخفىٰ : وهو أن فى أطراف ممالكنا الآنَ بلادًا كانتْ داخلةً فى ممالكه ، وهى أَبُلُسْتَينُ ، ومَلَطْيَةُ ، وكَرْكَرُ ، ونَخْتَا ، وقَلْعة الرُّوم ، والبِيرةُ ؛ وأنه

كان حُمِل معناها على لسان المجلس السامى، النظامى، مسعود الكجحانى أولا، المجهَّز الآن صحبةَ الامير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قانِى بيه ، وأن القصد أن نامرَ مَنْ بها من النوّاب أن تسلِّمها لنوّابه، والمعوّل فى آنتظام الأمور على ماتحمَّله المشارُ إليه وعوّلَ عليه؛ وأنه شاكِرٌ لمرافقنا، موافِقٌ لمُوافِقنا، وأنه يصغىٰ إلىٰ مانُبْديه ، ونُتْحِف به ونُهْديه ؛ علىٰ الصورة التى أبداها ، والتحيَّةِ التى بكرِيم الشِّيَم أهْداها؛ فقد عَلِمْنا ذلك جملةً وتفصيلا ، وشكَرْنا حسنَ صنيعه إقامةً ورَحِيلا ؛ وتضاعَفَ سُرورُنا بوصول الأمير أطلمش إلىٰ الحضرة الشريفة . ووصل إلينا الأميرُ شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قانى بيه مرتِّلَيْنِ من ذكر محاسِنكم ترتيلا ، وعَرَضَا ماتفضلتم به فى حقِّنا إكراما وتوْقِيرا وتَبْجيلا؛ وأنهَيَا بين أيدينا ماعُومِلا به من الفضل الذى ماعليه مَزِيد، والبِرِّ الذى تَعْجِز الفصحاء أن تُبْدئَ بعض محَاسِنه أو تُعِيد؛ وأنهما كانَا كلَّ يوم من توَفُّر الفضل فى يومِ عِيد، وحصَلَ لهما من الإقبال مالا يُحْصىٰ بالحصر والتحديد؛ فحمِدنا للقام الشريف الوالِدِىِّ حُسنَ هذا الفَضْل العام، وشكَرْنا جميلَ تفضُّله الذى أخجل الغَمَام؛ وتزايد شوقُنا وحبُّنا حيثُ زُمْزِمتْ ألفاظُ المفاوضة الشريفة إلى ذلك المقام .

لَيْس علىٰ اللهِ بمُسْتَنْكَرٍ * أنْ يجمَعَ العالَمَ فى واحِد!

وهذا هو اللائق بالخِلَال الشريفه ، والمؤمَّل فى جَلَال صفاته المُنِيفه ؛ ووصل الخواجا نظامُ الدين صحبتهما مبدياً عن جَنابكم من رسائل المحبَّة والصَّفاء، والمَوَدّة والوفاء، مايَعْجِز عن وَصْفه الناظمُ والناثر، مُظْهِرا من حُسْن المودّة وغَزِير المعرفة مايَفْخَرُ به المُوالِى والمؤاثِر، سالكًا من تأكيد أسباب الصُّلح ماتجمَّل به مَفَارِقُ المفاخر، معتذِرًا عما تقدّم فما قُدِّر رُبَّما يكون سبباً لإصلاح الآخِر، متكفِّلا عن صفاء طويَّتكم لنا بمـا يَسُرّ السرائر . فضاعَفْنا إكرامَه، ورادَفْنا إنعـامه، ووَفَّرنا من العِزِّ

أقسامه، وأنزلناه منْزِلا يليقُ به، ووصَلْنا كلَّ خيرٍ بسَبِبه ؛ وما هوإلا مستحقٌّ لكل ما يُراد به من فيض فَضل وفَضْل .

وأمَّا ما أشار إليــه من إعادة القسم تأ كيدًا للصُّلْح ، وتوضيحا للنُّجْح ؛ ولو كان القسم الذى أقسَمْنا به مصرّحا لكان أولى ، فقــد علمنا ذلك وكتبْنا ألفاظ القَسَم فى كتاب الصُّلْح مصَرَّحةً، وأعدناه إلى حضرته ليُقْرأ علىٰ مسامعه الشريفة؛ ويَشْمَلَه الخط الشريف ويُعادَ إلينا، ونحن نكّرر القَسَم، بباريءِ النَّسَم ؛ الذى لا إلٰهَ إلا هو، الطالبُ الغالب، المدرِكُ المهلِك، الحيّ الذى لاينـام ولا يموت، أنَّا من يومنا هذا لانُخالف ماآنتظم من عَقْــد الصُّلْح المسطور، إلى يوم البعْث والنُّشور، ولا تُحَــلُّ عُراه الوثيقــةُ المشارُ إليها ، إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها ؛ ونكونُ حَرْبا لمن حارَبه، وسِــلْما لَمْنْ سالمه ، ومُبْغِضين لُمبغضيه، ومحِّبين لمحبِّيه؛ ومَنْ أشارَ بإشاره، أو شنّ علىٰ أحد من [رعاياه] غارَه، رادَفْنا إسعافَه وضاعَفْنا آستِظْهاره ؛ وأخلَصْنا القولَ والعمل فى مصافاة المقام الشريف : لأن الصلح بحمد الله قد تَمَّ وكَمَل، فيكون ذلك فى شريف علمه .

وأمَّا ما أشار إليه من أمر القُرىٰ التى قصد تسليمَها لنُوّابه، وأنَّها داخلةٌ فى حدود مملكته : كأُبُلُسْتَيْن، ومَلَطْية، وكَرْكَر، ونَخْتَا، وقَلْعة الرُّوم، والبِيرة، فقد علمنا ذلك . ونحن نُبْدِى إلى علومه الشريفة أنَّ هــذه البلادَ لايحصُــل لنا منها خَرَاج، ولا ينالُ مُلْكَنا ونُوابَنا منهـا فى كلِّ وقتٍ إلا الآنْزِعاج ؛ وإذا جهَّزنا إليها أحدًا من النُّوّاب، نتكَفَّل له غالبًا بالخيل والرَّجْل والرِّكاب ؛ وبضواحيها من سُرَّاق التُّرْكمان ، وقُطَّاع الطريق من العُرْبان ، مالا يَخْفىٰ عن مقامه . ولو كانَتْ دِمَشْقُ أو حَلَبُ، أو أكبر من ذلك مماله(؟) عن الطَّلَب، ماتوقَّفْنا فيها عن قَبُول إشارته لتأ كيد المحبه، وآتِّحاد الكلمتين من الجانبين فى أعلىٰ رُتْبه ؛ غير أنَّ لتسليمها من الوَهْن لَمْملكتنا منافاةً لـمـا

تفضَّل به المقامُ الشريف من سُؤال الله تعالىٰ فى زيادة سَلْطنتنا. خصوصًا وقد وعَدَ المقامُ الشريف الوالدىُّ بما سنرىٰ، وسوف تظهر نتيجتُه مما يتفضَّل به بين الورىٰ؛ وأنَّ الذى سمح لنا به من الآستظهار مانالَه أحدٌ من النـاس، وما حصل لنا بمـا أبداه الخواجا مسـعود بين أمراءِ دولتنـا من المشافَهَة عن مقامه الشريف من قوّة الجاش والإيناس؛ ونحن نترقَّب بيُمْن حَرَكاته، وسديدِ إشاراته؛ زيادةَ الخـير فى النَّفس والمُلْك والمال، ونتوقَّع من جميل كَفَالته السعادةَ الأبديَّةَ فى الحال والمآل؛ فيكونُ ذلك فى شريف عِلْمه.

وقد جهَّزْنا بهـذه المفاوضة المجلسَ العـالىَ، الأميرىَّ، الكبيرىَّ، الأعزىَّ، الأخَصِّىَّ، المقرَّبىَّ، المؤتَمَنىَّ، الأوحدىَّ، النَّصيرىَّ، مجدَ الإسلام والمسلمين، شرفَ الأمراء الخواصِّ فى العالمين، منتخَبَ الملوك والسـلاطين، منكلى بُغَا النـاصرى أمير حاجب، أدام الله تعـالى سعدَه، وأنجح قصْـدَه؛ وعلى يده من الهـدِيَّة المصرية ما تهيَّأَ تجهـيزُه بمقتضىٰ القـائمة الملْصَقة بذَيْلها، وأعدنا المجلسَ العـالىَ النظامىَّ: مسعودًا ومَنْ معـه إلىٰ المقـام الشريف، متحمِّلين من رسائل الأشواق والآتِّحاد، مالا يقع عليـه الحصرُ والتَّعداد؛ وماأخرنا الخواجَا نظامَ الدين مسعودا هـذه المدّةَ بالباب الشريف إلا لأمرٍ عرض من قضِيَّة السلطان أحمد بن أويس، وهربِه من بغـدادَ إلى حَلَب، وجهَّزنا من البـاب الشريف من يُحْضِره إلىٰ دمشق ليَحْصُلَ منه الأرب؛ ثم بعـدَ ذلك بأيَّام ورد الخبرُ من كافل الشام المحروس، بوصول قَرَا يوسُفَ بن قَرَا محمد إلىٰ دِمَشْـق فى نَفَر قليل. فجهَّزنا أحدَ الأمراء إلىٰ كافل الشام بمثـالٍ شريف، يتضمَّن القبض علىٰ السـلطان أحمدَ بن أويس وقَرَا يوسفَ المذكورين، وإيداعَهُما الآعتقالَ بقلعة دمشْقَ المحروسة، وفاءً

للعهد وتأكيدًا . وحمّلنا الأمير سيف الدين منكلى بغا المذكور، مشافهةً فى معناهما . والقصدُ من جميل محبّته، وجزيل أُبُوّته، قبولُ المجهّز من ذلك، وبسطُ العذر فيه إذا وصل إلىٰ حضرته هنالك : لأن الديارَ المصرية وأعمالَها حَلَّ بها من المَحْل لعدم طلوع النِّيل فى هذه السنة مالايُحْصَر ولايحصىٰ، ولاسُمِع بمثله . وشمولُ نسخةِ الصلح المعادة بالخط الشريف، ومضاعفةُ إكرام حاملها الأمير منكلى بغا بالبِرّ الوَريف، والإصغاءُ إلىٰ ماتحمَّله من المشافَهَة فى معنىٰ أحمد بن أُوَيْس وقَرا يوسف، والله تعالىٰ يشيِّد بتمهيده قواعدَ الدين الحنيف، بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

الثـــــالث

(من مُلوك تُورَانَ من بنى جنكزخان القانُ الكبير، صاحب التَّخْت، وهو صاحب الصِّين والخِطَا)

قال فى "التعريف" : وهو أكبَرُ الثلاثة، ووارثُ تَخْت جنكزخان . قال : ولم يكُنْ يكاتَبُ لترَفُّعه وإبائه، وطَيَرانه بسُمْعة آبائه، ثم تواتَرتِ [الآن] الأخبارُ بأنه قدأسْلَمَ ودانَ دِينَ الإسلام، ورَقَم كلمةَ التوحيد علىٰ ذَوائب الأعْلام . قال : وإن صَحَّ ذلك - وهو المؤمَّل - فقد ملأتِ الأمةُ المحمدية الخافقين، وعمَّت المشرقَ والمغربَ، وآمتدَّت بين ضَفَّتى المحيط . ثم قال : فإنْ صَحَّ إسلامه وقُدِّرت المكاتبةُ إليه، تكون المكاتبة إليه كالمكاتبة إلىٰ صاحب إيرانَ ومَنْ فى معناه من سائر القانات المقدَّم ذكرهم، أو أجلَّ من ذلك .

قلت : ولم يتعرّض إلى المكاتبة إليه على تقدير بقائه على الكفر، ويشبه أن تكونَ المكاتبة إليه على ذلك (١) وشدّةِ سَطْوته، فيُعطى من قَطْع الورق بقدر رُتبته . ثم يجوز أن تبتدأ المكاتبـةُ إليه كصاحب القُسْطنطينية ومَنْ فى معناه، مع مُراعاة معتقَده فى ديانته بالنسبة إلى (٢) كما يُرْعى مثلُ ذلك فى المكاتبة إلى ملوك النّصْرانية، والوقُوف فى الخطاب ومايَنْخرِط فى سلكه عنــد الحدّ اللائِق به . والأمرُ فى ذلك موكولٌ إلى ٱجتهاد الكاتب ونظرِه .

المهيـــــــع الثـــالث

(فى المكاتبات إلى مَنْ بجزيرة العرب ممـا هو خارجٌ عن مضافات الديار المصرية، وفيـــه جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى المكاتبات إلى ملوك اليمن، وهم فِرْقتان)

الفـــــرقة الأولى

(أئمـــة الزيدية)

قال المقرّ الشهابىّ بن فضــل الله فى "التعريف" : وهو من بقايا الحَسَنِيِّين القائمين بآمُل الشَّطّ من بلاد طَبَرِسْـتان، وقد كان سلَفُهم جاذبَ الدولةَ العباسية حتّى كاد يُطيح رداءها، ويُشْمِت بهـا أعداءَها . وهــذه البقية الآنَ بصَنْعاء وبلاد حَضْرَمَوْت وما والاها من بلاد اليمن . قال : والإمامة الآنَ فيهـم فى بنى المُطَهَّر، وتقدّم فى المقـالة الثانية فى الكلام على المسالك والممـالك أن أوّل مَنْ قام من هذه الأئمة باليمن الإمامُ (يحيىٰ الهـادى) بن الحُسيْن الزاهد، بن أبى محمد القاسم الرَّسّىّ،

---

(١) لعله على ذلك بنسبة قدرته وشدّة الخ تأمل .

(٢) بياض بالأصل ولعله النعوت والألقاب كما يعلم مما تقدم .

ٱبن إبراهيم طَبَاطَبا ، بن إسماعيل الدِّيباج ، بن إبراهيم الغَمْر [1] ، بن الحسن المثنّى ، ٱبن الحسن السِّبط ، ٱبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فى سنة ثمان وثمانين ومائتين فى خلافة [المعتضد] [2] ؛ وأنه كان فقيها عالما مجتهِدا فى الأحكام ، حتّى قال فيه ٱبن حزم : إنه لم يبْعُد عن الجماعة فى الفقه كلَّ البُعْد . ثم [ولى بعده ٱبنُه محمد المرتضىٰ وتمَّت له البيعةُ فاضطرب الناس عليه وٱضطُرَّ إلىٰ تجريد السيف بجرده ومات سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة لثنتين وعشرين سنة من ولايته و] [3] ولى بعده أخوه (أحمدُ الناصر) ثم أخوه (القاسمُ المختار) [4] ثم (الحُسَين المنتَجَب) . وٱطَّرد أمرهم بصنعاءَ إلى أن غلب عليهم السُّليمانيُّون أمراءُ مكة عند خُروجهم منها ، فاستقرّت بأيديهم إلى أنْ ملك اليَمَن من جهة الساحل (أحمدُ المُوطِّئُ) ٱبن الحسين المنتجَب المقدّم ذكره ، وذلك فى أيام سيف الإسلام ٱبن أيوبَ سنة خمس وأربعين وستمائة . وبقى أمر الزيديَّة هناك فى عَقِبه .

وقد ذكر المقرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله أن الإمامة فى زمانه ، فى الدولة الناصرية ٱبن قلاوون كانت فى (حَمْزة) وذكر فى "مسالك الأبصار" أنَّ يحيىٰ بنَ حمزة وُلِّى بعد أبيه ، وكان فى زمن المؤيَّد داود بن يوسف صاحب اليمن . وذكر قاضى القضاة ٱبن خَلْدون أن الإمام قبل الثمانين والسبعمائة كان (علىَّ بنَ محمد) من أعقابهم ، وتُوفِّى قبل الثمانين . وولى ٱبنه (صَلَاح) وتابعه الزيدية ، وكان بعضهم يُنكِر إمامتَه لعدم

---

(١) ذكره فيا تقدّم فى ج ٥ ص ٤٧ "عبد الله" . وقد نبهنا هناك نقلا عن "الكامل لابن الأثير" أنه إبراهيم كما هنا ، فليتنبه .

(٢) فى الاصل المأمون وهو خطأ فان المأمون توفى سنة ٢١٨ وقد تقدم الكلام على هذه الدولة فى ج ٥ ص ٤٧ وما يليها فارجع اليه .

(٣) الزيادة من جزء ٥ ص ٤٨ وهى لازمة لأن أحمد الناصر ٱبن يحيي الزاهد لا أخوه .

(٤) أخره فيا تقدّم عما بعده .

آستكمال الشروط فيه فيقول : "أنا لكم ماشئتم إمام أو سلطان". ثم مات سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وقام بعده آبنه (نجاح) فامتنع الزيديّة من بيعته فقال : أنا "محتسبٌ لله تعالى". قال فى "التعريف" : وأمراء مكة تُسِرُّ طاعته، ولا تفارق جماعته . قال : ويكون بين هذا الإمام وبين الملك الرَّسولىّ باليمن مهادنات ، ومفاسخات تارةً وتارةً. قال : وهذا الإمام وكلُّ من كان قبله على طريقة ماغيّروها، وهى إمارة أعرابية لا كِبْرَ فى صدورها، ولا شَمَم فى عَرانينها؛ وهم على مُسْكة من التقوى، وتردٍّ بشعار الزُّهْد، يجلس فى نَدِىّ قومه كواحدٍ منهم، ويتحدّث فيهم ويحكم بينهم، سواءٌ عنده المشروفُ والشريف، والقوىُّ والضعيف، وربما آشترى سِلْعته بيده ، ومشى فى أسواق بلدِه ، لا يُغلَّظ الحِجَاب ، ولا يكِلُ الأمورَ إلى الوزراء والحُجّاب، يأخُذ من بيت المال قدرَ بُلْغته من غير توسّع ، ولا تكثُّرٍ غيرِ مُشْبِع؛ هكذا هو وكل مَنْ سَلَفَ قبله مع عَدْلٍ شاملٍ، وفَضْل كاملٍ . قال : فى "مسالك الأبصار" : ولشيعة هذا الإمام فيه حُسْن الآعتقاد، حتّى إنهم يستشْفُون بدعائه ، ويُمِرُّون يَده على مَرْضاهم ، ويستَسْقُون به المطرَ إذا أجْدَبوا، ويبالغُون فى ذلك كلَّ المبالَغة . ثم قال : ولا يَكْبر لإمام هـذه سيرتُه ـ فى التواضُع لله ، وحُسْن المعاملة لخَلْقه ، وهو من ذلك الأصْل الطاهر والعُنْصُر الطَّيِّب ـ أنْ يُجاب دعاؤه ويُتقبَّل منه . قال : وزِىّ هذا الإمام وأتباعِه زِىُّ العرب فى لِباسهم والعمامةِ والحَنَك ، ويُنادىٰ عندهم بالأذان «حَىَّ علىٰ خير العَمَل» .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" : أدام الله تعالىٰ أو ضاعف الله تعالىٰ نعمةَ ، أو جلالَ الجانبِ الكريم ، العالى ، السيّدىّ ، الإمامىّ ، الشريفىّ ، النَّسيبىّ ، الحَسيبىّ ، العلّامىّ ، سليلِ الأطهار ، جَلالِ الإسلام ، شرفِ الأنام ، بقيّة البيت النبوىّ ، فخرِ النَّسَب العَلَوىّ ، مؤيِّد أمور الدِّين ، خليفةِ الأئمة ، رأْس العَلْياء ،

صالح الأولياء، عَلَم الهُداة، زَعيم المؤمنين، ذُخْر المسلمين، مُنْجِد الملوك والسلاطين. ولا زَالَ زمانُه مُرْبِعا، وغِيلُه مُسْبِعا، وقِرَاه مُشْبِعا، وكرُمه لفيض نَدَاه مَنْبَعا، وهُدَاه حيثُ أمَّ بالصُّفُوف مَتَّبَعا، ومُلْكه المجتمع باليَمَن لو أدركه سيفُ بنُ ذى يَزَن لم يكن إلا لديه منتضًى وتُبَّعٌ لم يكن له إلا تَبَعا. ولا فتِئَتْ مَعَاقِدُ شَرَفه بالجوزاء، وعقائدُ حُبِّه تُعَدُّ لحسن الجَزاء، ومعاهِدُ وطنِه آهلةً بكثرة الأعِزَّاء، ومَيَاسِمُ أهل ولائه تعزُّ إليه بالاعتزاء، ومَبَاسِم ثغور أوِدَّائه ضاحكةَ السُّيوف فى وجُوه الأرْزاء، هذه النَّجْوىٰ إلىٰ روْضِه المُمْرِع وإلا فما تُزَمُّ الرَّكائب، وإلىٰ حَوْضِه المُتْرَع وإلا فما الحاجةُ إلىٰ السَّحائب، وإلىٰ حِمَاه المُخْصِب وإلا ففِيمَ يَسْرِى الرائد، وإلىٰ مَرْماه المُطَنَّب فوق السماء وإلَّا إلىٰ أيْنَ يُرِيد الصاعد، تَسْرِى ولها من هادى وَجْهه دَلِيل، وفى نادِى كَرَمِهِ مَقِيل، وإلىٰ بادِى حَرَمه وما فيه للعاكف، وإلىٰ عالى ضَرَمه مالا ينكره العارف، وفى آثارِ قَدَمه ما يحكُم به كل عائف، وفى بدار خِدَمه مايَذَر عِداه كَرمادٍ ٱشْتَدَّتْ به الرِّيح فى يومٍ عاصف. مبديةً وأوّل ما تبدأ بسلام تُقَدِّمه علىٰ قولِ كَيْت وكَيْت، وثناءٍ ولا مثلَ قوله: ﴿إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البيْت﴾.

⁂

صدر آخر — ولا عُطِّل محراب هو إمامُه، ولا بَطَل عمَلٌ هو تمامه، ولا جَفَّ ثَرىٰ نباتٍ هو غَمَامه، ولا خَفَّ وَقَارُ ٱمرئٍ بيده المصَرِّفةِ زمامُه، ولا ٱرتدّ مَضْربُ سيفٍ رءُوسُ أعَادِيهِ كِمَامُه، ولا ٱرتأىٰ فى حصُول الخِيرة له مَنْ كان إلىٰ كَنَفه ٱنضمامُه. وأطال الله باعَ عَلْيائه، وأطابَ بأنبائه سَمَاعَ أوْليائه، وأدامَ إجماعَ السُّرور عليه، ومُصافاتَه لأصفيائه وترامِيَه إليه. صدرَتْ بها الركائبُ إليه مُخِفَّة، وسَرَتْ

بهـا النجائبُ لتقِفَ عليـه والقلوبُ بها مُحِفَّه(١)، وأهوَتْ لَدَيْه يشـمَخُ بها لوصولهـا إليه الكبر، وطوَتْ إليه البِيدَ طَيَّ الشُّقَّة تَقِيسُها المَطَايا بالأذْرُع والثُّرَيَّا بالشِّـبْر؛ تأتِى بالعَجَب إذ تَجْلُبُ إليـه المِسْكَ الأذْفَر، وتجلُو له الصَّـباحَ وما لاحَ والليلَ وما أسْفَر؛ وتحُلُّ فى مَقَرِّ إمامتـه، وتُحَلِّى العاطلَ بمـا نَثَره من الطَّلِّ صوبُ غَمَـامتِه؛ مُوصِّـلةً لعلمه مالا يُقْطَع، ومضوِّعة عنده من عَنْبَر الشِّحْر ما يُستَبْضَع، ومُعْلِمةً له كَيْت وكيت .

قلت : هــذا ما أصَّله فى "التعريف" وحاصلُه أنه يأتى بالصَّــدْر المقدَّم ذكره إلىٰ قوله : «مُنْجد الملوك والسـلاطين» ، ثم يأتى بالدعاء المناسب؛ ثم يقول : «هذه النجوىٰ» إلىٰ آخره «مبدية لعلمه» أو «معلِمة» أو «صدرتْ بها الركائب» ونحو ذلك .

ثم لم يتعرّض فى "التعريف" لقطْع الورق الذى يُكْتَب إليه فيـه، ولا للعلامة له، ولا لعُنْوان كتابه، ولا لتعريفه، ونبَّه علىٰ ذلك فى "التثقيف" وأنه أهمل ذلك ثم لم يُنَبِّه هو عليه . وقد رأيت فى دُسْتور منسوب للمقرّ العَلَائىّ بن فضـل الله بيانَ ماأهملاه من ذلك فقـال : والخطابُ له بمولانا الإمام، والطلب منه «والمسئُول» وخَتْم الكتاب بالإنهاء، والعُنْوان بالألقـاب والدعاء المقـدّم ذكره، والعلامة «الخـادم» .

وقد ذكر فى "التعريف" أنه وصل إلىٰ الديار المصرية، فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» سقىٰ الله عهده رسولٌ من هذا الإمام [ابن مطَهَّر إمام الزيدية](٢) من صَنْعاء، بكتاب منه يقتضى الاستدعاء . أطال فيه الشَّكْوىٰ من صاحب اليمن، وعدَّد قبائحه،

(١) لعله محتفة فانه ليس فى كتب اللغة التى بأيدينا أحف به ولكن حف به واحتف فتنبه .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٥ .

ونشَر علىٰ عُيون الناس فضائحه، وآستنصر بمَدَدٍ يأتى تحت الأعلام المنصورة لإجلائه عن ديارِه، وإجرائه مُجْرىٰ الذين ظلموا فى تعجيل دَماره؛ وقال: إنه إذا حضرت الجيوشُ المؤيَّدة قام معَها، وقاد إليها الأشرافَ والعَرَب أجْمَعها؛ ثم إذا آستنقذ منه مابيده أُنْعِم عليه ببعضه، وأُعطِىَ منه ماهو إلىٰ جانب أرضه. ثم قال: فكتبت إليه مُؤْذنا بالإجابه، مؤدّيا إليه ما يقتضى إعجابَه؛ وضمن الجواب أنه لارَغْبَةَ [لنا](١) فى السلَب، وأنَّ النُّصْرةَ تكون لله خالصةً وله كلُّ البلاد لاقَدْرُ ماطلَب.

وهذه نسخته:

ضاعفَ الله تعالىٰ جَلاَلَ الجانب ـ بالألقاب والنعوت ـ وأعزَّ جانبه عِزًّا تُعْقَد فواصِلُهُ بنَوَاصى الخيل، وصَياصِى المَعَاقل التى لم يطْلُع علىٰ مثلها سُهَيل؛ وأقاصى الشرف الذى طلَع منه فى الطَّوْق وتمسَّكَ سِواه بالذَّيْل؛ وقدَّمه للمتقين إماما، وجعله للمُستقِين غَماما، وشرَّفه علىٰ المرتَقِين فى عُلَا النسب العَلَوىّ ونَوّره وصَوّره تَمَاما، ومَنَّ علىٰ اليمن بيُمْنِه، وأعلَمَ بصَنْعاء حُسْنَ صنيعه وبحَضْرَمَوْتَ [حُضور](٢) موتِ أعدائه، وبعَدَنَ أنَّها مقدِّمةٌ لجنَّات عَدْنه؛ ولا زالت الآفاقُ تؤمِّل من فيضه سَحَابا دانيا، وتتهلَّل إذا شامَتْ له بَرْقًا يَمَانيا، وتتنقَّلُ فى رُتَب مَحَامده ولا تبلُغُ من المجد ما كان بانيًا.

هذه النجوىٰ وكفىٰ بها فيما يقدَّمُ بين يدَيْها، ويُقَوَّم ولا يقوم من كلِّ غالى الثمن ماعلَيْها؛ تطوِى المَرَاحِل، وتَجُوبُ البَرَّ والبَلَد الماحِل، وتثِبُ إليه البِحار وتَقذف منها العنبرَ إلىٰ الساحل؛ وتُرْسِى به سفنها، وتحط إليه بل تخط لديه مدنها، وتُؤْذِن علمه ـ سرهالله ـ بما لم يحل إليه من نظر، ولم يخل منه من سبب ألف به النَّوْم أو نَفَر؛ وُرُود وارِدِ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٥.

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ١٦.

رسوله فقال : يابُشْراى ولم يقل هذا غُلام، ووصولِه بالسلامة والسلام ؛ وماتضَمَّنه ما ٱستَصْحَب منه من صحيفة كلُّها كَرَم ، وأخبارٍ صحيحةٍ كلُّها مما لو قُذِف به الماء لٱضْطَرم ؛ذكر فيها أَمْرَ المتغلِّب العادى ، [والصاحب الذى يَفْعَل فِعْلَ الأعادى](١) ، والجار الذى جارَ والظالِم البادى ؛ وما مَدَّ الأيدىَ إليه من النِّهاب ، وما ٱختطَفَ به القلوبَ من الإرهاب ؛ وتحدَّثَ عن أخباره وعِنْدنا علمه ، وأخبر عن أفعاله ممـا له أجرُ الصبر عليه وعليه ظُلْمُه ؛ وقصَّ رسـولُه القَصَص ، وزاد الشَّجىٰ وضَيَّق مَجَالَ الغُصَص ؛ وأطار من وَكْر هذا العُـدْوان طائرا كأنمـا كان فى صَدْره ، وحَرَّك منـه لأمرٍ كان يتجرَّع له كأسَ صَبْره ؛ وقد أسمعَ الدَّاعى ، وأَسْرع الساعِى ؛ وبَلَّغ الأمانةَ حاملُها ، وأوصل الكلمةَ قائلُها ؛ ومَرْحَبًا مَرْحَبًا بداعى القيام مِنْ قِبَلِه ، وأهْلًا أهلًا بمـا بَلَّغ علىٰ ألسنة رُسُله ؛ وهَلُمَّ هَلُمَّ إلىٰ قلع هذه الشجرة التى لم يُنْجِب ظَنٌّ غارسها ، وقَطْع هذه الصَّخْرة التى لم تُنْصَبْ إلا مَزْلقةً لدائسها ؛والتعاضُدَ التعاضُدَ لِمَـا هتَفَ به هاتِفُه الصارخ ، وسمِعَه حتّىٰ الرُّمْحُ الأصَمُّ والسيفُ المُتصاوِخ ؛ فلْيأخُذْ لهذا الأمرِ الأُهْبَه ، ولْيَشُدَّ عليه فقد آنَتِ الوَثْبه ؛ فقد سُطِّرت وقد نَهَض إلىٰ الخيل مُلْجِمُها ، وبادَرَ وضْعَ السهام فى الكَنَائن مُزْحِمها ؛ وكأنَّه بأوّل الأعِنَّه ، وآذانُ الجيادِ تفوّق بين شَطْرى وجهها الأسِـنَّه ؛ وكأنه برسوله القائد وفى أعقابه الجيشُ المُطِلّ ، والألويةُ وكلُّ بَطَل باسِـل يبتدِرُ الوَغىٰ ولا يَسْتذِل ؛ ولا أربَ لنا فى ٱستِزادة بلادٍ وَسَّع الله لنا نِطاقَها ، وكثَّر بنا موادَّ أموالها وقدّر علىٰ أيدينا إنفاقَها ؛ وإنما القصْـدُ كلُّه والأربُ جميعهُ كشْفُ تلك الكُرَب ، وتدارُكُ [ذلكَ الذَّماء الذى](١) أوْ شَـك أو كَرَب ، وإن قُدِّر فُتُوح ، وتَيَسَّر ماطَرْف سِوَانا إليـه طَمُوح ؛ كان هو أَحَقَّ بسقَبِه(٢) : لأنه جارُ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح عن التعريف ص ١٧ .

(٢) فى الأصل والتعريف بسبقه وهو تصحيف مكانىّ كما لايخفىٰ .

الدار، والأوّلُ الذى كان له البِدَار؛ ويقِلُّ له لعظيم شَرفه ما نَسْمَح به وإنْ جَلّ، ومانَهَبُه منه وإن عَظُم ـ شأنُ كلِّ تَبَع وهو ببعْضه ما ٱستَقَلّ؛ وكأنّه والخيلُ قد وافته تُجِدّ فى الإحضار، وتُسْرِع إليه وتَكْفيه مئُونَةَ الانتظار؛ إن شاء الله تعالى.

الفِرْقة الثانيــــة
(أولاد رسول)

وهم المعرُوفُون بملوك اليمن عنــد الإطلاق، ومقرُّ مملكتهم حِصْنُ تَعِزّ. ورسولٌ هذا الذى كان يُنْسَب إليه ملوك هــذا النَّسَب من اليمن هو رسولٌ أمير اخُور الملك الكامِل محمدِ بن العادل أبى بكر بن أيُّوب. قال فى "التعريف": ولما بعثَ الملكُ الكامل ولدَه الملِك المسعود أطْسِز، وهو الذى تسـمِّيه العامّة أقسيس، بعثَ معه رسـولًا أميراخور فى جملة مَنْ بعثه معه. قال: ثم تنقّلت الأحوال حتّى ٱستقلّ رسول بمُلْك اليمن، وصار المُلْك فى عَقِبــه إلى الآنَ. والذى ذكره المؤيَّد صاحب حمــاة، وقاضى القُضاة ولِىُّ الدين بن خلدون فى تاريخيهما وهو الصــواب أنّ أوّلَ مَنْ ملَك اليمن علىُّ بنُ رسول، ثم ٱبنه المنصورُ عمَرُ، ثم ٱبنه المظَفَّر يوسُفُ، ثم ٱبنه الأشرفُ عمرُ، ثم أخُوه المؤيَّد هِزَبْر الدين داودُ، ثم ٱبنه المجاهدُ سيفُ الدين علىّ، وهو الذى قال المقرّ الشهابىّ بن فضــل الله فى "التعريف" إنه كان فى زمنــه، ثم المنصور أيوبُ، ثم المجاهدُ علىّ المقدّم ذكره ثانيا، ثم ٱبنُه الأفضلُ سيف الدين عَبَّاس. وهو الذى قال فى "التثقيف" إنه كان فى زمنه فى الدَّوْلة الأشرفية «شعبان ٱبن حسين» ثم ٱبنُه المنصورُ محمـد، ثم أخوه الأشرفُ إسماعيل، وهو الذى كان فى الدولة الظاهرية برقوق. ثم ٱبنه [الملك الناصر أحمد](1) وهو القائم بها الآنَ.

(1) بياض بالأصل هنا وفى ج ٥ ص ٣٣ أيضا عندالكلام على ملوك اليمن من أولاد رسول والتصحيح من بغية المستفيد لابن الديبع.

وآعلم أنّ المكاتبات بينَ صاحب مصر وصاحب اليَمَن من حين آستقرّت مملكةُ اليمن مع بنى أيُّوب ملوكِ مصر وصارت المملكتان كالمملكة الواحدةِ ، ثم تواصلت المكاتبات بين مُلُوكهما وتأكّدت المودّة إلىٰ زماننا هذا، خَلَا ماوقع فى خِلَال ذلك من حصول تباينٍ وقع بين أهل المملكتين فى بعض الأزمان، وهو علىٰ ضربين :

الضـــــرب الأوّل

(ما كان الأمرُ عليه فى الدولة الأيوبية ، وهو أن تُفْتتح المكاتبة بلفظ « أصـــدرناها »)

وهذه نسخةُ كتابٍ عن السلطان صلاح الدين يوسفَ بن أيوبَ صاحبِ مصر والشام ، إلىٰ أخيهِ سيفِ الإسلام صاحب اليمن يستقدِمُه إليه ، معاوناً له علىٰ قتال الفَرَنْج، ويُخْبِره بما وقع له من الفُتُوحات فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وهى :

أصدَرْنا هذه المكاتبةَ إلىٰالمجلس، ومما تجدّد بحضرتنا فُتُوح «كَوْكَب» وهى كرسىُّ الإِسْتبارِيَّة ودارُ كُفْرهم،ومستَقَرُّ صاحبِ أمرهم، وموضعُ سلاحهم وذُخْرهم، وكان لِمَجْمَع الطُّرُق قاعدا،ولِملْتقىٰ السُّبُل راصدا، فتعلَّقت بفتحه بلادُ الفتْح وآستُوطِنَت، وسُلِكت الطرقُ فيها وأُمِّنت، وعُمِّرَتْ بلادُها وسُكِنت، ولم يبقَ فى هـذا الجانب إلا «صُور» ولولا أنّ البحر يُنْجِدهـا والمراكب تَرِدها ، لكان قيادُها قد أمْكَن ، وجِمَاحُها قد أذْعَن ، وماهمْ بحمد الله فى حِصْن يحميهم، بل فى سِجْن يَحْوِيهم، بل هم أَسَارىٰ وإن كانوا طُلَقاء، وأمواتٌ وإنْ كانُوا أحيـاءً، قال الله عز وجلّ : ﴿ فلا تعْجَلْ عَلَيْهِمْ إنّمَـا نَعُدّ لَهُمْ عَدّا ﴾ ولكل آمْرِئٍ أجلُ لابدّ أن يَصْدُقَه غائبُه، وأملٌ لابدّ أن يَكْذبه خائبُه .

وكان نزولُنا علىٰ «كوكب» بعد أن فتحْنا «صَفَدَ» بلدَ الدِّيويّة ومَعْقِلَهم، ومُشْتَغَلَهم وعملَهم ومحَلَّهم الأحْصَنَ ومنْزِلهم؛ وبعد أن فَتحْنا «الكَرَكَ» وحصُونَه، والمجلسُ السيفى ـ أسماه الله ـ أعلَمُ بما كان على الإسلام من مَئُونَتِه المُثْقِله، وقضيّته المُشْكلة وعِلّتِه المُعْضِله؛ وأن الفَرَنْج ـ لعنهم الله ـ كانوا يقْعُدون منه مَقَاعِد للسَّمْع، ويتبوَّءُون منه مواضع للنَّفْع؛ ويحولُون بين قات (؟) وراكِبها، فيُذَلِّلون الأرضَ بما كان منه ثِقْلًا علىٰ مَنَاكبها. والآنَ ماأمْنُ بلادِ الهَرمين، بأشدَّ من بلاد الحَرَمين؛ فكُلُّها كان مشْتَرِكا فى نُصْرة المسلمين بهذه القلعة التى كانت تُرامِى ولاتُرام، وتُسَامِى ولاتسام؛ وطالَمَا آستفْرَغْنا عليها بيوتَ الأموال، وأنفَقْنا فيها أعمارَ الرجال، وقَرَعْنا الحديد بالحديد إلىٰ أن ضَجَّت النِّصالُ من النِّصال؛ والله المشكورُ علىٰ ما آنطوىٰ من كلمة الكُفْر وآنتَشَر من كلمة الإسلام. وإنَّ بلاد الشام اليومَ لاتسمَعُ فيها لغوا ولا تأْثيما إلا قيلًا سلامًا سلامًا [فادخُلُوها بسلام][1]؛ وكان نزولُنا علىٰ «كَوْكَب» والشتاءُ فى كَوْكَبه، وقد طَلع بُيْمنِ الأنْواءِ فى مَوْكبه؛ والثلُوج تنْشُر علىٰ البلاد مُلاءَها الفَضِيض، وتكْسُو الجبالَ عمائِمَها البِيض؛ والأودِيَةُ قد عَجَّت بمائها، وفاضَتْ عِنْد آمتلائها، وشمَخَتْ أُنُوفها سُيولا، نخرَقَتِ الأرضَ وبلَغتِ الجبالَ طُولا؛ والأوْحالُ قد اعْتَقَلت الطُّرُقات، ومَشْىُ المطْلَقُ فيها مِشْيَةَ الأسيرِ فى الحَلَقات؛ فتجَشَّمنا العَناءَ نحن ورجالُ العساكر، وكاثَرْنا العدوَّ والزَّمانَ وقد يُحْرِز الحظَّ المُكاثِر؛ وعلِم اللهُ النيَّةَ فأنْجدَنا بفَضْلها، وضميرَ الأمانةِ فأعانَ علىٰ حَمْلها؛ ونزلنا من رُءُوس الجبالِ بمنازِلَ كان الاستِقْرارُ عليها أصعَبَ من نَقْلِها، والوقوفُ بساحتها أهونَ من نُقَلها ﴿ وأمَّا بنِعْمَةِ ربِّك فحَدِّثْ ﴾ .

(١) الزيادة عن كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (ج ٢ ص ١٣٦).

والحمدُ لله الذى ألهمَنا بنعمَتِه الحديث ، ونَصر بسَيْف الإسلام الذى هو سيْفُه وسيْف الإسلام الذى هو أُخونا الطيِّبَ علىٰ الخَبيث ؛ فمَدْحُ السيف ينقَسِم علىٰ حَدَّيه ، ومدْحُ الكريم يتعدّى إلىٰ يدَيْه ؛ والآنَ فالمجلسُ ـ أسماه الله ـ يعلَمُ أنّ الفرنْج لايَسْلُون عما فتحنا ، ولا يَصْبِرُون علىٰ ماجَرَحْنا ؛ فإنهم ـ خذَلَهم اللهُ ـ أممٌ لا تُحْصىٰ ، وجيوشٌ لاتُستَقْصىٰ ؛ ووَراءَهم من مُلُوك البحْرِ من يأْخذ كلَّ سفينةٍ غَصْبا ، ويطْمَعُ فى كلِّ مدينةٍ كَسْبا ؛ ويَدُ الله فوْقَ أيْدِيهم ، والله محيطٌ بأقرَبِيهم وأبْعَدِيهم ؛ و﴿سيَجْعَلُ اللهُ بعْدَ عُسْرٍ يُسْرا﴾ . ﴿لا تَدْرى لعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بعْدَ ذٰلكَ أمْرا﴾ .

وماهُمْ إلا كِلابٌ قد تعاوَتْ ، وشياطينُ قد تَغاوَتْ . وإن لم يُقْذَفُوا من كلِّ جانِبٍ دُحُورا ، ويُتْبَعُوا بكلِّ شهابٍ ثاقبٍ مَدْحُورا ؛ آستأْسَدُوا وآستكْلَبُوا ، وتألَّبُوا وجَلَّبُوا وأجْلَبُوا ، وحاربُوا وحَرَّبوا ؛ وكانُوا لباطلِهم الدَّاحِض ، أنصَرَ منَّا لحقِّنا الناهِض ؛ وفى ضَلَالهم الفاضح ، أبصَرَ منَّا لهُدَانا الواضح ؛ ولله درُّ جرير حيث يقول :

إنَّ الكريمةَ يَنْصُر الكَرَمَ آبنُها * وآبنُ اللَّئيمةِ للِّئامِ نَصُورُ !

فالبِدَارَ إلىٰ النَّجْدة البِدَار ! ، والمُسارعةَ إلىٰ الجنـة فإنها لن تُنَال إلا بإيقاد نارِ الحربِ علىٰ أهلِ النَّار ، والهِمَّةَ الهمةَ ! فإن البحارَ لاتُلْقىٰ إلا بالبِحار ، والملوكَ الكبَارَ لايقِفُ فى وُجُوهها إلا الملوكُ الكِبار :

وما هِىَ إلَّا نَهْضَةٌ تُورِثُ العُلَا * ليومِك ما حَنَّت رَوازِمُ نِيبُ !

ونحنُ فى هذه السنة ـ إن شاء اللهُ تعالىٰ ـ ننزِل علىٰ أنْطاكِيَة ، وينْزِل ولدُنا الملكُ المظفَّر ـ أظفره الله ـ علىٰ طرابُلُس ؛ ويستقِرّ الرِّكابُ العادلىّ ـ أعلاه الله ـ بمصر فإنها مذكورة عند العدُوّ ـ خذله الله ـ بأنها تُطْرَق ، وأنَّ الطَّلَبَ علىٰ الشام ومِصْرَ تفرَّق ؛ ولا غنًى عن أن يكونَ المجلسُ السيفى ـ أسماه الله ـ بحراً فى بلاد الساحل

يَزْخَرُ سِلاحا، ويجرِّدُ سيفا يكونُ علىٰ مافتحناه قُفْلا ولما لم يُفْتَح بعدُ مِفْتاحا؛ فإنه ليس لأحدِما للأخِ من سُمْعةٍ لها فى كل مَسْمَع سَمْعه، وفى كلِّ رُوعٍ رَوْعه؛ وفى كل مَحْضَر مَحْضَر، وفى كل مسجِدٍ مِنْبر، وفى كل مَشْهَد مَخْبَر؛ فما يُدْعىٰ العظيمُ إلا للعظيم، ولا يُرْجىٰ لمَوْقف الصبرِ الكَرِيمِ إلا الكريم؛ والأقدارُ ماضيه، وبمشيئة الله جاريه؛ فإنْ يشإ الله يَنْصُرْ علىٰ العدوّ المضَعَّف، بالعدد الأضْعَف؛ ويُوصِّلْ إلىٰ الجوهر الأعلىٰ، بالعَرَض الأدْنىٰ؛ فإنّا لانرتابُ بأنّ الله مافتَح علينا هذه الفُتوحَ ليُغْلِقها، ولا جمعَ علينا هذه الأمة ليُفرِّقها؛ وأنَّ العدوَّ إنْ خرج من داره بَطَرا، ودخل إلىٰ دارنا كان فيها جَزَرا؛ وما بَقِىَ إن شاء الله تعالىٰ إلا أموالٌ تُساقُ إلىٰ ناهبها، ورقابٌ تُقاد إلىٰ ضاربِها، وأسلحةٌ تُحمَلُ إلىٰ كاسبها؛ وإنما نُؤْثِر أن لاتنطَوِىَ صحائفُ الحمد خاليةً من ٱسمه، ومواقفُ الرُّشْد خاويةً من عَزْمه؛ ونُؤْثِر أنْ يُساهِم آلَ أيوبَ فى ميراثِهم منه مواقِعَ الصبر، ومطالِعَ النصر؛ فوالله إنّا علىٰ أن نُعطِيَه عطايا الآخرةِ الفاخره، أشدُّ منّا حِرْصا علىٰ أن نُعْطِيَه عطايَا الدنيا القاصره، وإنّا لايَسُرُّنا أن ينقضِىَ عُمُره فى قتال غيرِ الكافر، ونِزالِ غيرِ الكُفْءِ المُناظِر؛ ولا شكَّ أنَّ سيفه لو ٱتَّصلَ بلِسانٍ ناطقٍ وفَمٍ، لقال: مادمْتُ هناكَ فلستُ ثَمّ؛ وما هو محمولٌ علىٰ خُطَّة يخافُها، ولا متكلِّفٌ قضيةً بحُكْمنا يَعافُها؛ والذى بيده لانَستكْثِره، بل نَستقْصِره عن حقِّه ونستَصْغِره؛ وما ناولْنَاه لفتْح أرضِه السِّلاح، ولا أعرْناه لمِلْك مركزِه النَّجاح؛ إلا علىٰ سَخَاءٍ من النفس به وبأمثالِه، علىٰ علمٍ منّا أنه لا يقعُدُ عنا إذا قامتْ [الحرب] بنفسه وماله؛ فلا نَكُنْ به ظنًّا أحسنَ منه فعلا، ولا نرضىٰ وقد جعلَنا الله أهلاً أنْ لانراه لنَصْرنا أهْلا؛ ولْيستَبْشِرْ أهلَ الرشاد فإنهم [لا يألُونه](1) حقًّا وٱستِنْهاضا، وليَعْضِ أهلَ الغَوَاية

(1) فى الأصل «يالوه حقا» كما تقدم أيضا فى ص ٢٧ من هذا الجزء والصواب ما أثبتناه فى الصلب كما يقتضيه المعنى وقواعد اللغة تأمل.

فإنهم إنمـا يتغالون به لمَصَالحهم أغْراضا ؛ ومن بيتِه يظْعَن و إلىٰ بيته يَقْفُل ، وهو يجيُبنا جوابَ مثـله لمثلِنا ، وينوِى فى هذه الزيارَة جمعَ شملِ الإسلامِ قبـل نِيَّة جمع شمْلِنا ؛ ولا تقْعُدُ به فى الله نهضةُ قائم ، ولا تخذُلُه عزمةُ عازم ؛ ولا يستفتِ فيها فَوْت طالب ولا تأخُذه فى الله لومةُ لائم ؛ فإنمـا هى سَفْرة قاصده ، وزَجْرة واحده ؛ فإذا هو قد بَيَّض الصحيفـةَ والوجْهَ والذِّكْر والسُّمْعه ، ودانَ الله أحسن دَيْن ولا حرجَ عليه إنْ فاء إلىٰ أرضه بالرَّجْعه ؛ وليتدبَّرْ ما كتبناه ، وليتفهَّمْ ما أردْناه ، وليُقَدِّم الآستخاره ، فإنها سِراجُ الآستناره ، ولْيغْضبْ لله ولرسولِه ولدينِه ولأخيـه فإنها مكان الآستِغْضاب والآستثاره . ولْيحضُرْ حتّى يشاهد أولادَ أخيه يستشْعِرون لفرقته غَمًّا ، وقد عاشُوا ماعاشُوا لايعرفُون أنَّ لهم مع عمِّهـم عَمًّـا ؛ والله سبحانه يُلْهِمه توفيقا ، ويسْلُك به إليـه طريقا ، ويُنْجِدُنا به سيفا لرقبة الكفر ممزقا ودَمِه مُرِيقا ، ويجعله فى مِضْمار الطاعات سابقا لا مسبُوقا . إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثـانى

(من المكاتبات إلىٰ صاحب اليمن ما الأمرُ عليه من آبتداء الدولة التركيه وهلُمَّ جرّا إلىٰ زماننا ، وهو علىٰ ثلاثة أساليب)

الأســـــلوب الأوّل

(أن تفتَتح المكاتبةُ بلفظ «أدام الله تعالىٰ نعمةَ [أيام] المقام العالى»)

وهذه نسخةُ كتاب كُتِب عن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، جوابَ كتابٍ ورد من صاحب اليمن فى مقـابلة البُشْرىٰ بدخُول العساكر المنصورة إلىٰ بلاد الأرمن ، وطلبِ سـلامش نائب التتار بالرُّوم الدخولَ فى الطاعة ؛ وذَكَر(١) أنَّ نائبًا كان لأبيـه

---

(١) أى صاحب اليمن فى كتابه الذى ورد منه فى مقابلة البشرى .

فى قلعةٍ طِمع وعصىٰ عليه فظَفِر به فبشَّر بذلك ، ويحرِّضه علىٰ الجهاد وإنفاذ الأموال، ويهدِّده، ويوجِّه به قُصَّادَه إليه . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى رحمه الله، وهى :

أدام الله تعالىٰ نعمةَ أيام المقام العالى! وأنْهَضه بفرْض الجهاد الذى بمثْله يُبْتَهَج، وأيقظه لمتعيِّن الغزو الذى ما (١) له تُدْرَك الرُّتَب وترتَفِع الدَّرج ، وأشهَده فى سبيل الله مواقِفَ النصر التى إذا أودَعْنا نَشْر بِشْرها الطروسَ عبَقت بما فيها من الأَرَج ، وأَراه مَشَاهِدَ فتوحِنا التى إذا حدّثتِ الأحلامُ عن عجائبها حدّثَتْ عن البحر ولا حَرَج ، وصانَ مجدَه عن إضاعة الوقتِ فى غيرِ حديثِ الجهادِ الذى هو أوْلىٰ مابُذِلت له الذَّخائرُ وٱبتُذِلت فيه المُهَج .

صدرتْ هذه المكاتبةُ تخصُّه بتحيةٍ تتضوَّعُ نَشْرا ، وتُتْحِفُه من متجدّدات الظَّفَر بِشْرا ، يَمْلأُ الوجودَ مَسَرَّة وبُشْرىٰ ، وتقُصُّ عليه من متجدّدات فَتْح يأتى علىٰ ماأَتْعبت فيه الأفكارُ قرائحَها من مشتهىٰ التَّهانِى فلا يَدَعُ له ذكرا ، ونتلو علىٰ من ظنَّ بعد ما سمع من البَلَاغ بلاغِ العِدا أنَّ إزالة والٍ عن مركَزه فتحٌ كبير : لقد جئتَ شيْئا نُكرا . وتُوضِّح لعلمه الكريم أنَّ مكاتبتَه الكريمة وردت مقصورةً علىٰ نَبإٍ لايُعْتَدّ بذِكْره ، محصورةً علىٰ خبرٍ لا ينبغى لمثل مَجْدِه أنْ يُمرَّه علىٰ فكْره ، مطْلقةً عِنانَ القلم فيما كان ينبغى طَىُّ خبرِه وتعفِّى أَثَره ، وإخْفاء سببِه وترْكه نَسْيا مَنْسِيًّا فضلا عن التبجُّح بذِكْره ، والتهنئة به ، إذْ فى ذلك مقابَلةُ البحر بالثِّماد ، والرُّوح بالجَماد ، والشَّمْس بالذُّبَال ، والهُدىٰ بالضَّلال ، فلم يكْمُل له فى ذلك المراد ، وأتىٰ بما قالت له التهانى : (نحنُ فى وادٍ وأنْتَ فى واد) ، وقابلْناها مع ذلك بالقَبُول الذى ٱجتلىٰ غُرَرَها ،

(١) بياض فى الاصل ولعله الذى بالقيام به تدرك الخ .

وأَحْمَدَتْ لدَيْه وِرْدَها وصَـدَرَها ؛ فأحطنا عِلْمًا بمـا تضمَّنَتْه من الأحوال التى أبداها ، وَالمتجدّدات التى عَظُم موقِـعُ نشرها عنده فأهْداها .

وأما ماذكره من أمْر القلعـةِ التى كان (١) [النائب بها] لوالده شخصا آعتمد عليه، وولّاه مستحفِظًا ظَنَّــه مع تغاير الأحوال مؤتَمَنا علىٰ مافى يدَيْه ؛ وأن ذلك الشخصَ بعد آنتقال والده رحمه الله طمِع فيما آستُودِع بجَحَدَ الوديعَة والمُوادَعه ، ورام المنازَعة والمقاطَعَه ،وخالَفَ وحالَف ، وقاربَ العِصْيان وقارَف ، وأنه فى هذا الوقت قلَعَ ذلك النائبَ ، من تلك القلعــةِ المغْتَصَبه ، وأراحَ من هَمِّه الناصِب ، أفكارَهُ و وصَبَه ، إلىٰ غير ذلك ممـا أورده علىٰ وجه البشرىٰ لهذا السبب الضَّعيف ، وأبرزَه فى مَعْرِض التهنِئةِ من هذا الأمرِ الطفيف ، وأراد أنْ يتكَثَّر فيه بما لامَدْخَل له فى كُثْره وقُلِّه ، فذكَر بُروزَه بجمعه إلىٰ شخص واحد فى قُبَالةِ ما آتصل به من نبإ كل موطِن برَزَ فيه الإسلامُ كُلُّه إلىٰ الشِّرْك كلِّه ؛ وظاهرُ الأمر أنَّ ذلك الشخص ماعصىٰ بالمكان الذى كان فيه إلا لِمَـا رأىٰ بالمملكة اليمنِيَّة من آضْطِراب الأحوال ، وأسبابِ الآختلاف والآخْتلال ، والوَهْن الذى حَسَّن له الآحتِرازَ والاِ ختِزَال ، والخَلْوةِ التى حمَلَتْـه علىٰ أنْ (طلَبَ الطعْنَ وحدَه والنِّزال) ، وآمتدادِ الأيْدى العاديَة بكلِّ جِهةٍ إلىٰ مايليها ، وضَيَاع رَعايا كلِّ ناحيــة بالاِشتغال عن آفتقادِ أحوال مَنْ يُباشِرها وآنتقاد تصرُّفَ مَنْ يليها ؛ فهو الذى أوجب طَمَعَه ، وقوّى ضِلَعه ، وحمله من مَرْكَب العناد ، وأراه نظراءه بتلكَ الجهة ممَّنْ سلَك الفساد . وهذا الأمْرُ ماخَفِىَ علينا خَبَرُه ، ولا توارىٰ عنَّا وِرْدُه ولا صَدَرُه ؛ فإن أخبار مملكة اليمن مازالتْ متواصلةً إلينا بما هى عليه من آضطرابٍ وافٍ ، وآختلافٍ غير خافٍ ، وهَيْج لايرجعُ الأمر فيه إلىٰ كافٍ كافّ ؛ وما أخَّرْنا لَحْقَ جيوشِنَا المنصوره ، وعساكِرِنا التى ممـالكُ العِـدا بمَهابتها محصُوره ،

---

(١) لم يأت لأما بجواب واضح ولكنه يدرك بالتأمل .

عن الوُصول إلىٰ المملكة اليمنيـة لتقويم أوَدِها، وتَمْكِين شـدّها، وإقامةِ أمْرِ المُلْك فيها، وحَسْم مادَّة الفَساد عن نَواحِيها، وتَطْمِين البلاد، وإنامةِ الرَّعايَا من الأمْن فى أوطإ مهاد، والاْحتراز علىٰ الخَزَائن والأموال، وصَوْنها عن الإنفاق فى غير جُنْد الله الذين منَعُوا دعوةَ الشرك أن تُقَام وكلمةَ الكُفْر أن تُقَال، إلّا لأنَّ عساكرنا كانتِ الآنَ فى الممـالك والأقاليم التى بيد الكُفْر : من التّتار المخذُولين، ومن يقُول بقَوْلهم من أعداءِ الدين، تقْتُل وتأسِرُ، وتلْقىٰ الجيوشَ الكافرةَ فتكْسِب وتَكْسِر، وتصْحَبُهم حيثُ حَلُّوا طَلائِـعُ رُعْبها، وتُصَبِّحُهم منها أين طَلُّوا ريحُ عاد التى تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بأمْرِ ربِّها .

وماسَطَّرْنا هـذه المكاتبةَ إلا وجُيوشُـنا المنصورةُ قد وَطِئت عُقْر بلادهم فأذَلَّتها وأذَالَتْها، وغيَّرت أحوالَها وحالَتَها، وقاسَمَتْهم شرَّ قسمة فلها منها الحُصُون والمصُون، والجنّاتُ الوارفة الغُصُون، ولهم منها الخَرَاب والتَّباب، والدارسُ الذى لا يحصُـل بكفِّ دارِس بيْتِه إلا التُّراب، وهاهى قادمةٌ إلينا يَقْدُمُها النصر، ويتقدّمُهَا من أسْر العـدا وغنائمهم مايُرْبِى عن الحصر، ومابيْنَها وبين رُكُوب هـذا البحرِ لمُلْك تمهِّده، وعَدْل تُجَدِّده، وبُغَاة تكُفُّ غَرْبَها، ورُعاة تؤمِّن بالمَهَابة سِرْبَها، وتُصَفِّى من أكدار الفِتَن شِرْبَها، وخزائنَ لهـا عن غيرِ الإنفاق فى سبيل الله تَصونُها إلا بمقدار ماتستقِرُّ بهـا المنازلُ استِقْرار السِّنَة بالجُفُون لا النوم (١) ، وأضرَمَتْ نواحيَها، واستاقَتْ أهلَها ومواشِيَها، وجعلتْ قُصُورَها صَعيدا، وزَرْعها حَصيدا، وعقائلَها إماء، ومعاقِلَها هبَـاء، وابتـذلَتْ مَصُونَها الذى جعله اللهُ لهـا أثقالا، واختارَتْ من حصونها لمُلْكنا ما كانتْ سيوفُنا له مَفَاتِحَ فلَمَّـا فُتِح عُدْن له أقفالا، واقتلعَتْ من القِلَاع التى كانتْ بيد الكُفْر كلَّ مَعْقِل أشِب، وحِصْنٍ شابَتْ نواصِى

(١) بياض بالأصل ولعله لاالنوم بالعيون فما من جهة للعدا إلا وأضرمت الخ تأمل .

اللَّيْل وهو لم يَشِبْ، قد صُفِّح بالصِّفَاح، وشُرِّف بأسِنَّة الرِّماح، واستَدارَ بقُنَّة قلةٍ يَنْهَب الترقِّ إليهـا هُوجَ الرِّياح؛ فطَهَّرته من النَّجَس، وعوضْـته بصوتِ الأذانِ عن صَـوْتِ الجَرَس، وأخرَسَتِ الناقوسَ بسـورةِ الفتح الذى عوَّذته نُوبُ الدهر بآياتِ الحَرَس؛ مع ماأُضِيف إلىٰ تلك القِلاع من بِلاد وتِلاد، وأغوار ونِجَـاد؛ وجَنَّاتٍ وعُيون، وأموالٍ ٱرتُجِـع بها ما كانللاسلام فىذِمَّة الكُفْر من بَقَايا الدُّيون.

وكلُّ تلك الغنائم منَحْناها جُيوشَنا المنصورة وأبَحْناها، وقوَّيناهم علىٰأمثالها من الفُتُوح برَفْع العوائق التى أزلْنَاها، بالقناطيرِ المقَنْطرة من الذهب والفِضَّـة وأزَحْناها؛ وما وصـل الآنَ قُصَّادُه إلىٰ أبوابنا العاليةِ إلا والبشائرتَنْطِق بألْسِنةِ التَّهانى، وتَخْفُقُ بمجدَّدات هذه الفتُوح فى الأقاصِى من ممالكنا والأدَانِى؛ وقد شاهَدُوا ذلك وشَهِدُوه، ورأَوْا مَا رأىٰ غيرُهم من نَوَادرِ الفُتُوح التى أربَتْ علىٰ ما ألِفوه من قبْـلُ وعَهِدوه. هـذا وما وَضَعت الحـربُ إلىٰ الآنَ أوزارَها، ولا خَمَدتْ نارُالوغىٰ التى أَعَدّتْ جيوشُنا المنصورةُ للأعداء أُوَارَها؛ وما يَمْضِى وقتٌ إلا والبشائرُمتواردةٌ علينا بفتح جديد، ونَصرٍله فى كلِّ يومٍ مُخَلَّق تخَلَّق وفى كل بَرٍّ بريد. وقُصارىٰ أمر العدوّ الآنَ أنهم ليس لهم بلَد، إلا وقد (أَخْنَىٰ عليه الذى أخْنَىٰعلىٰ لُبَد)؛ ولادارٌ إلا وقد أضحت كدارِمَيَّةَ التى (أقوتْ وطالَ عليها سالِفُ الأمَد)؛ ولا جيشٌ إلا وقد فَرَّ وأين يفرّ وهو يطْوِى فى قبْضتنا المَرَاحل؟، ولا طرائدُ بحر إلا وهى مَطْرُودة فى اللُّجَج لتيقُّنهم أن العَطَب لا السلامةَ فى الساحل.

فمن أجل ذلك رأينا أنَّ ٱشتغالَ جيشِ الإسلام بجانب الكُفْر هو المهمُّ المقدّمُعلىٰ ماسواه، والغَرَضُ الذى نيَّتُنا فيه إنقاذُ أهل الإِسلام من كلمةِ الكفر وتحكُّمه «ولكُلِّ ٱمْرِئٍ مانواه» ورأيْنا أنَّ أمر هذه الجهة مايفُوتُ بمشيئة الله وعونِه وتمكينه، وإذا كان الله قد أقام بقُدْرته منا مَلِكا لنصرة دينه فإنَّ اليَمَن وغيرَه فى يَمِينه؛ وهى محسوبةٌ

من أعداد ممالِكنا المحروسه، ومعدودةٌ من أقسام بلادنا التى هى بوُفُود الفُتُوح مأْنُوسه؛ ولا بُدّ من النظـر فى أمْرها، و إعمـال الفِكْر فى إزاحة ضُرِّها؛ وتَجْريد العساكر المنصورة إليها، و إقْدامِ الجيوش التى عادتُها الإقدامُ فى الوَغىٰ عليها؛ ليكونَ العملُ فى أمرها بمـا يُرْضى الله ورسـولَه، ويبْلُغَ مَنْ كان بتلك الجهات يروم الجهاد ولا يُطيقُه سُولَه؛ فإن المملكةَ المذكورة توالتْ عليها المُدَد، ومضىٰ عليها الأبَد؛ وهِمّةُ من فيها إلىٰ اللَّهْو مصْرُوفه، وعلىٰ اللّذات موقُوفه؛ وأحكامُ الجهادِ عندهم مرفُوضة حتى كأنَّ الجهادَ لم يبلُغْهم وغر(١)ه حلمه، ولا أحاطتْ أفكارهم بشىء من علمِه؛ بل كأنه علىٰ غيرِهم وجَب، وكأنَّ ما أعدّ اللهُ من الأجرعليـه إنمـا أُريد به الذين يَكْنِزُون الذهب؛ وتمـادَتِ الأيامُ وليس فى نِكـايَةِ أعداء الله منهـم مُصيب، وتفرّقت الأموالُ وما لجُنْد الله فيما آحتَوَوْا عليه من ذلك سهْمٌ ولا نَصيب؛ وأىُّ عذْرٍ عند الله لِمَنْ جعله مؤتَمَنا علىٰ مالِهِ فلم يكُنْ له فى سبيل الله إنْفاق؟ وأىُّ حجةٍ لمن [لم] يقِفْ موقِفَ جهاد وقد قال رسـولُ الله صلّى الله عليــه وسـلم : "مَنْ ماتَ ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ به نَفْسَه ماتَ علىٰ شُعْبة من نِفَاق" .

والآنَ فإنَّ اللهَ سبحانَه وتعالىٰ قد أقامَنَا لنُصْرةِالإسلام ورَفْع كلمةِ الإيمـان وتمهيد البلاد، وإجراء الأحوالِ فى القريب منهاوالبعيدِ علىٰ مايُرضِى الله تعالىٰ ويُرضِى رسوله عليه السلام من السَّداد؛ وأهمُّ الأمور عنـدنا أمرُ الغُزاة والمجاهدين الذين ما منهم إلا مُمْسِكٌ بعِنَان فَرَسه، مكْتَحِلٌ بسُهَاد حَرَسه؛ لايأمن العَدُوُّ مهاجمةَ خيله فى سُراه، ولا مفَاجَأة خَيَاله فى كَرَاه؛ حِصْنُه ظهْرُ حصانه، وجوابُه علىٰ لسان سِنَانه، كلّمـا سَمِـع هَيْعةً أو وَقْعةً طار علىٰ مَتْن فرسه يلتمِسُ الموتَ والقتلَ فى مظَانّه؛ وهٰؤلاءِهم جيوشُنا الذين دوّخُوا البلاد، وأذلُّوا أهلَ العناد، وطَهَّروا السَّواحل، وأجْرَوْا فى كل

(١) لعله «لم يبلغهم فرض حكمه» .

موطن من أنهار الدماء مايُروِى البلَدَ الماحل؛ وهزَمُوا جيوشَ التتار وهم فى أعْداد الكواكب، وحصَدُوهم بسُيوفهم عرورة (؟) وهم فى نحو المائة ألف راكب؛ حتّى إن ملوك التتار الآنَ ليتمنَّوْن إرضاءَنا وإغضاءَنا، ويستَدْعُون ويَدَّعُون للآباد وَلاءَنا، ويطْلبُون المسالمةَ منا، ويَودُّون نَسَمةَ قبول تصْدُر إليهم عنَّا؛ والطويلُ العُمُر منهم وممَّن والاهم هو الذى يَهْرُب من بين يدَىْ جيوشنا المنصورة ليَسْلَم بنَفْسه، وإنْ أسلَمَ ما يعِزُّ عليه من مالِه وولَده وعِرْسه. فمثلُ هؤلاء الذين يستحقُّون أموالَ الممالك الإسلامية ليستَعِينُوا بها فى جَهَازهم لجِهَادِهم، ويُنْفقُوها فى إعدادِهم لأعْدائهم؛ ويَصْرِفوها فى ذبِّهم عن دِينِ ربِّهم.

وهذه المملكة اليمنِيَّة قد آجتمع فيها من الأموال مايُرْبِى عن الحَصْر والحَدّ، ويزِيدُ علىٰ الإحصاء والعَدّ؛ لايُنْفَق منها شىءٌ فى الجِهاد، ولا يُعَدّ منها مصْرُوفٌ إلا بما لا تُحمَدُ عاقبتُه فى المَعَاد؛ قد صُدَّ عنها جندُ الله الذين ينفِقُونها سِرًّا وجَهْرا، ويستنزلون بها أرواحَ أعداءِ الله علىٰ حُكْم سُيُوفهم قَسْرا وقَهْرا؛ وأبِيحتْ لمن تأبَّى الجهادَ جانبا، ورضِى باللهو صاحبا؛ وآقتنىٰ السِّلاح لغير يوم الباس، وآعتنىٰ بارتباطِ الجِياد بَطَرا ورِئاءَ الناس.

وكان كتابنا قد تقدّم فى أمر المجاهدين وما يحتاجُونه من الإعانة بما يَحمِلُ إليهم من الأموال بالمملكة اليمنِيَّة: ليُصْرَف ذلك فى حقه، ويصل إلىٰ مستَحِقّه؛ ويكونَ قد أُعِدّ منها للإنفاق فى سبيل الله جانبٌ بحيث لا يُضَاع، ووصَل إلىٰ مجاهدى الأمة نصيبٌ من مال الله الذى هو فى يَد مَنْ وَلّاه شيئًا من أمور عِباده علىٰ حكم الإيداع؛ ويدخُل ذلك[1] فى زُمْرة الذين يكْنِزُون الذهبَ والفِضّة ولا يُنْفِقُونها؛ فحصلتِ المكابرةُ فى الجواب عن ذلك، وأىُّ عُذْر فى المكابرة عن

(١) كذا فى الأصل ولعله ويخرج بذلك من زمرة الخ تأمل.

مثل هـذا الأمر وشَغْلِ الوقت بذكره ؟ ونحن عنـدنا فى كل وقتٍ من البشـائر بمَوَاهب الفتح، وغرائب المَنْح ،ومتجدّدات الظَّفَر والنصر، ومتحلّيات التأييد التى قسَّمَتْ أعداءَ الله بين الحَصْد والحصْر، مايهُبُّ نَشْرُه هبوبَ الرِّيح فى البَرِّ والبِحار، ويَوَدُّ الدهرُ لورَقَه بذهب الأصيل على صَفَحات النَّهار ، وكلُّ ذلك فى أشدّ أعداء الله تعـالىٰ : من التتار، الذين عُرِف عَدَدُهم وجلَدُهم ، والفـرَنْج الذين طال وكثُر فى عَدَاوة الإسـلام أبَدُهم ومَدَدُهم ، والأرمن الذين هم أكثرُ الطائفتينِ فى الظاهر وِفَاقا ، وأشـدّ الفئتيْنِ فى الباطن نَفْرا ونِفَاقا ، وهم لهؤلاء وهؤُلاء مادّة تمـير وتمير، وتُغْريهم وتَغُرُّهم فتصيرهم من نارالحربِ المضَرّسةِ لسيوفنا إلىٰ جَهَنَّمَ وبِئْس المَصير، وأىُّ شيءٍ من ذلك يُذْكَر عندمواقف جيوشنا المنصورة، وظَفَرِ عساكرنا المؤيَّدة؟ ، لوكان حَصَـل عنده الفكرُ الصائب ماوردتْ مكاتَبته إلا وهى مقْترِنةٌ بما يُرضى اللهَ ورسولَه وأهلَ الإسلام : من إمداد الغُزَاة بالأموال، وإعانتِهم علىٰ الكُلَف التى كُلَّما أعد لها مال[بدتْ]حال يُلائمها الإنفاقُ فى سبيل الله ويَسْئَلُونَكَ عن الجبال ، وهاهى قادمةٌ إلينا يَقْدُمها النصر، ويتقدَّمُها من أسرىٰ العِـدا وغنائِمِهم مايُرْبِى عن الحَصْر، وما بينها وبين رُكوبِ ثَبَج هـذا البحر لمُلْك تُمَهِّـده ، وعَدْل تُجَدّده ، وبُغاة تَكُفُّ غَرْبها، ورَعايَا تُؤَمِّن بالمَهابة سِرْبَهـا، وتُصَفّى من أكدار الفِتَن شِرْبهـا ،وأموالٍ تصونها، وخزائنَ يُنزَّه عن غير الإنفاقِ فى سبيل الله مَصُونُها ، إلا بمقْدار ماتستقرُّ بها المنازل آستقرار السِّنة بالجُفُون لاالنوم، وتَأْخُذُ أُهْبةً لذلك المُهِمّ فى يومٍ أو بعضِ يَوْم .

أللهم إلا أنْ تلبِّى دَعوةُ الجهَاد من تلك الجهَة بألسِنة النَّفير، وتُعبِّى صُفُوفَ الجلَاد فى الجَوَارِى التى تكادُ بأجنحة القُلُوع تَطِـير، أو تَنُوبَ عنها خزائنُ الأموال التى تُنْفَق فى سبيل الله تعالىٰ، أو تَقُومَ مَقَامهـا النفقاتُ التى تُصْرَفُ إلىٰ جنود الله التى تَنْفِرُ فى سبيل اللهِ تعـالىٰ خِفَافا وثِقَالا ، ليكُونَ قد آسـتدرَّ ببركة ذلك الطَّلّ

أَخْلافَ الوابل ، وأنفقَ ما ٱخْتَزَنه فى سبيلِ اللهِ الذى مَثَـلُ ما يُنْفَقُ فيه كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سَنابِل ؛ وتَسْـتعدّ الجيوش المنصورةُ إلىٰ طوٍ يَصُونُ برأيه مُلْكه ويَصُول،ويستَطِيلُ علىٰ الوجُود ولوأنَّ البَرَّسُيُوف والبحْرَ نُصُول ؛ واللهُ تعالىٰ يُرْشِده إلىٰ ماهو أقرب للتقْوىٰ ، ويُمَسِّكُه من طاعتـه بالسبيلِ الأقوم والسَّبَبِ الأقْوىٰ ؛ إن شاء اللهُ تعالىٰ .

الأسلوب الثـانى

(وهو المــذكور فى "التعريف")

أن تفتَتَح المكاتبةُ بلفظ : «أعزَّ اللهُ تعالىٰ جانبَ المقام العالى» إلىٰ آخر الألْقاب، ثم الدعاء، مثل : ولا زَال يُحْسِن وِلايةَ حَسَبه ، ويَنْهَضُ بجناح نَسَبه ، ويصُونُ مُلْكَه بعَدْ له أكثَر من قُضُبه ، ويُثْبِت فى اليَمَنِ اليُمْنَ فى حالةِ إقامتِه ومنْقَلَبه .

أصدرْناها إلىٰ مَقَامه موشَّحةَ المَعَاطف بحُليِّه ، شاكرةً عُلَا عَلِيِّه ، ذاكرةً من محامده مايتَكثَّر السحابُ بوَلِيِّه ، مُبديةً لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ .

وهذه أدعيةٌ وصدُور تناسِبُ كل سلطانٍ بها :

ولا زالَ به «تَعِزُّ» تَعِزُّ وتَفُوز ببره زَبِيـدْ ، ويخْرُجُ من عَدَنَ عَدْنُ فضله المَدِيد ، وتَمْتَلِى بوُفُود البَرِّ والبحْر : هـذا تطيرُبه المَرا كِبُ وهذه الركائبُ كِلَاهما من مكانٍ بعيد ؛ ولا برِحتْ به آهلةَ الأوطان ، مشتقَّةً صفاتُ قُطْره اليَمِنِيّ من «الإيمانُ يَمانْ» ؛ محجُوبًا بالجلالة أو محْجُوجًا لمـا يُنْسَب إليه من أحدِ الأركان .

أصدرْناها والسـلام يُبارِى ماتُنْبت أرضه من نَبـاتِها الطيِّب ، ويجارى بالثَّناء ما يَنْهَلُّ فى أكنافه الجَنُوبيَّة من سَحَـابها الصيِّب ؛ وتَسْرى إليـه بتحيَّاتنا الشريفة علىٰ قادمةِ كل نَسِيم ، وفى طيِّ كلِّ عامٍ له وُقُوف علىٰ ربْعه وتَسْليم ؛ وتوضِّح لعلمه الكريم .

دعاءٌ وصدرٌ يختصُّ بالمجاهد علىّ، وهو :

ولازال أفضَلَ متوَّجٍ فى يَمَنِه، وأعلىٰ عَلِىّ إذا قِيس بابْنِ ذى يَزَنِه ، وأشجعَ مَنْ حمىٰ بعُهُوده مالا تقْدِر السُّيوف علىٰ حِمَايته من وطنه، ولا آنفكَّ الملكَ المجاهدَ عن عِرْضه المَصُون، وسيْفَ الدين الذى يقومُ فى المَفْروض من مَرَاضى الله بالمَسْنُون، وأبَا الحَسَن لما يَحْسُن فى فِطْنته الحُسْنىٰ أو فِطْرته من الظُّنون ، والعلِىَّ قدرا إذا أخذتِ الملوكُ مراتِبَها وحَدَّقت إليه العُيُون .

صدرتْ هذه المفاوضةُ إلىٰ حضرته وسلامُها يتفاوَحُ لدَيْها، ويُصافِحُ غمائِمَه فى يدَيْها ، وتجرى سفائنُ إخلاصِه حتّى تقِفَ عليها ، وتَسْرى بتحياتِنا محلِّقةً بالبُشْرىٰ فى صباح كلِّ يومٍ يقرِّب من الوصُول إليها، وتبدى لعلمه الكريم .

قلت : ولم أقف علىٰ صورة مكاتبة مفتَتَحة بلفظ «أعز الله تعالىٰ جانب المقام» كُتِب بها إلىٰ بعض ملوك اليمن فى زمنٍ من الأزمان، فأوُرِدَها آستشهاداً لهذا الأسلوب .

الأسلوب الثالث

(أن تفتَتَح المكاتبةُ بلفظ : «أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرة المقام العالى»)

وهذه نسخةُ كتاب كتب به إلىٰ صاحب اليمن أيضا، عن السلطان الملك المنصور قلاوون، مبَشِّرا بفُتُوح(1) صافِيتَا ، من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهو :

---

(١) لم نجد لفتح مصدرا على فعول فإما أن يكون جارى العرف و إما أن يكون جمع المصدر باعتبار أنواعه ووقائعه وهو بعيد تأمل .

أعَزَّ الله تعالىٰ نُصرة المَقَام العـالى، المولَوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، المظفَّرىّ، الشَّمْسىّ؛ وأشركَه فى كل بُشْرىٰ تُشَدُّ الرحالُ لاَستماعها، وتُحَلُّ الحُبىٰ لاَستِطْلاعها؛ وتتهافَتُ التواريخُ والسِّـيَرعلىٰ آستِرْفاعها، وتتنافس الأقلامُ والسـيوفُ علىٰ الأفهام بأجْناسها وأنْواعها؛ ولا خَلَا موقِفُ جهادٍ من اسمِه، ولا مصرِفُ أجرٍ من قَسْمه، ولاغَرَضُ هَناءٍ من سَهْمه، ولاأُفُق ابْتهاجٍ من بُزُوغ شمسه وطُلُوع نَجْمه. سطَّر المملوكُ هذه البُشْرىٰ والسيفُ والقَلمُ يستمدّانِ : هذا من دمٍ وهذا من نِقْس، ويَمْضيان : هذا فى رأْس وهذا فى طِرْس؛ ويتجاوَبان : هذا بالصَّليل وهذا بالصَّرير، ويتناوَبانِ : هذا يستَميلُ وهـذا يستَمير؛ وكلٌّ منهما ينافِسُ الآخَرَعلىٰ المشافهة بخبر هذا الفَتْح الذى ماسَمَتْ إليه هممُ المُلُوك الأوائِل، ولا وُسِمَتْ به سِيَرُهم التى بدَتْ أجيادُها من حِلَاه عَوَاطِل؛ ولادار فى خَلَدٍ أن مثله يتَهَيَّأ فى المُدَد الطويله، ولا تشكَّلَ فى ذهن أنه سـيُدْرَك بحوْل ولا حِيله؛ وهو النَّصْر المرتَّب علىٰ حركتنا التى طَوىٰ الله لركابنا فيهـا المَرَاحل، وألقىٰ بِدرَر عساكِرِنا من بَحْرالحديد المـالح إلىٰ الساحل؛ وهُجومنا علىٰ البلاد الفَرَنجيَّة : وهى طرابُلُس وصافِيتَا وأَنْطَرسُوس ومَرَقيَّة والمَرْقَب، كما يَهْجُمُ الغيث؛ ومُصادمتِنا صُدُورَها كما يَصْدِمُ الليثُ، وسلوكِنا منها حيثُ لم يبْقَ حيث؛ وما جرىٰ فى هـذه الوِجْهة من إغاراتٍ أحسنَتْ متقلَّبَ الأعِنّه؛ ومتعلَّق السيُوف ومُختَرَق الأسِـنَّه؛ وماتهيَّأ منها من فُتُوح صافِيتَا التى هى أمُّ البلاد، ومنتجَعُ الحاضِرِ والبـاد؛ وكونُها قدَّمت نفسَها فى جملة ما يُقْرىٰ به الضيف، وقالتْ : هـذا فتوحٌ حضَر علىٰ هـذا الفُتُوح لهذا السيف؛ وتلطَّفتْ فى مَسْح أطرافِ الأمان، وطلبَتْ شُكْرا ومنًّا شُكْران؛ وأحضرتْ إلينا من أهلها الوقت وهَدَتِ السـيوفُ فى أعناقهم فتشَبَّهتْ بها الأغلال، وأنِفَت أيمـانُ أهـلِ الإيمـان من مُصافَحَتِهم لأنَهُم أصحاب الشِّمال؛ فأطلقَهُـم سيفُنا وأمَلُه يمتدُّ إلىٰ مَنْ هو أعزُّ منهم مالا، وأكثرُ آحتِفالا،

وأبْزُماَلا ، وأهزّ سيوفًا قِصارا ورِماحًا طِوَالا ؛ وآستطار منها شَرَارُ نارِ الحرْب المُوقَدة إلىٰ غيرها من القِلاع ، وآستطال إلىٰ سِوَاها من الحُصُون منهم البـاع ؛ فلا حِصْنَ إلا وآفترّت ثنِيّتُه عن نَصْرٍ مُسَهَّل ، وفتح مُعَجل ومؤَجَّل .

فمن ذلك حصنُ الأكراد الذي تاهَ بعِطْفه علىٰ الممالك والحُصُون ، وشَمَخ بأنْفه عن أنْ تمتدَّ إلىٰ مثـلِه يَدُ الحَرْب الزَّبُون ؛ وغَدَا جاذِبًا بضَبْع الشام ، وآخذًا بمخانِق بلادِ الإسلام ؛ وشَلَلًا فى يَدِ البلاد ، وشجًا فى صَدْر العباد ؛ تنْقَضّ من عُشِّه صُقُور الأعداءِ الكاسره ، وترتاعُ من سَطْوتها قلوبُ الجُيُوش الطائره ؛ وتَرْبِضُ بأرباضه آسادُ تحمِى تلكَ الآجام ، وتُفَوَّقُ من قِسِيِّه سهامٌ تُصْمِى مُفَوَّقاتِ السِّهام ؛ تُعْطِيـه الملوكُ الجزيةَ عن يدٍ وهُمْ صاغِرُون ، ويَصْطفِى كِرامَ أموالهم وهم صابِرُون لامُصابِرُون ؛ كم شكَتْ منه حماةُ تثنى بنكرها قِلّةَ الإنصاف ، وكم خافَتْـه معرّةُ وما من مَعَرّةٍ خاف ؛ مازالتْ أيدى الممالك تمتدُّ إلىٰ الله بالدعاء عليه تشكو من جَوْر جِوَاره تلك الحصونُ والصَّيَاصى ، وتبْكِى بمدمع نَهْرِها من تأثيرِ آثارِه مع عِصيانها وناهِيك بمَدْمَعِ العاصى ؛ حتّى نَبَّه الله ألحاظَ سيوف الإسلام من جُفُونها ، ووَفّى النُّصرةَ ماوجب من دُيُونها ؛ وذاك بأنَّا قصدْنا فَسِيحَ رَبْعه ، ونزلْنا ونازَلْنا محِىّ صُقْعه ، وختَمْنا بنِصالِنا علىٰ قَلْبـه وسَمْعه ؛ وله مُدُنٌ حَوْلَه خمسٌ هو كالراحةِ وهى كالأَنامل ، وتكادُ بُرُوجُه تُرىٰ كالمطايا المُقَطَّرة وهى منها بمنْزِلة الزَّوامِل ؛ ماخيَّمْنا به حتّى آستبَحْنا محْمِىَّ تلك المدائنِ المكنِىّ عنها بالأرباض ، وأسحْنَا بساحاتها بحرًا من الحـديد ماآندفَعَ حتّى فاض ؛ وأخذنا الثُّقوبَ فى أسـوار لاتُنْقَض ولا ينقَضُّ بُنْيانها المرْصُوص ، ولا تَقْرأُ المَعـاوِلُ مالخَوَاتم أبراجِها من نُقُوش الفُصُوص ؛ ونصَبْنا عليها عِدّةَ مجانِيقَ حُمِلَتْ فى شَوَاهق الجبال ، علىٰ رُءُوس الأبطال ؛ فتغيَّظَتِ السَّمْهَرِيّة أنَّ الذى تقومُ به هـذه تِلْكَ به لاتقُوم ، وأنَّ مامنها إلا لَهُ من الأيدى والرُّءُوس مقامٌ معـلوم ؛ وصار يَرْمِى بها كلُّ

كمى مختَلِس، وأروعَ منتهِس، وكلُّ ليثِ غابةٍ يحميها وتحميه! فشُكرًا لأسود حتّى غاباتها تفترس، إلىٰ أن جثتْ أسوارُها علىٰ الرُّكَب، وكانتْ سِهامُ مجانيقِها تميلُ من العُجْب فصارتْ تَميـدُ من العَجَب، وكانتْ تطلُبُ فصارتْ تَهْرُب من الطَّلَب؛ وآشـتدّ الأمر علىٰ الكُفَّار فقاتَلُوا قتالًا أقضَّ مَضاجعَ الأسلحه، وأطار حِجارةَ مجانيقِهم بغير أجنحه، وأشجىٰ بشَـجْو النُّصول المترنّمة علىٰ غُصون السِّهام المترنّحه؛ هـذا وأهل الإيمان يتلَقَّوْن ذٰلك كلَّه بصبرٍ يستطْعِمُون منه شُهْدا، وإقدامٍ يتلقّىٰ صَدىٰ الحديد بأكبادٍ مازالتْ إلىٰ مَوارِده قَصْدا؛ يقتَحِمون نارَ الحرب التى كُلَّما أوقَدُوها أطفأها الله وقال يانارُ كُونِى بَرْدا، والبلادُ الفرَنْجيَّة قد غُضَّت منها الأبصارُ وخَشعتِ القُلُوب، وآعتقد كلٌّ منهـا فى نَفْسه أنه بعد هـذا الحصن المَطْلوب؛ فهذه تَوَدّ لو أكنَّتْها البحارُ تحتَ جَناح أمواجها، وهذه لو أسبلَتِ الرياح العواصفُ عليها ذُيولَ عَجاجِها؛ وهذه لو آجتُثَّت منْ فَوْقِ الأرضِ مالها من قَرار، وهذه لو خُسِف بها الثَّرىٰ وعَفَت منها الآثار؛ وذلك لِمَا بلغهم وشاهَدُوه من وَيْلٍ حلَّ بأهل هـذا الحِصْن المَنيع، ومن فَتْكٍ أمحلَ رَبْعه المَريع، وضَيَّق مجالَهُ الوَسيع؛ وقِراعٍ أضْجَرَ الحديدَ من الحديد والأبطالُ لم تَضْجَر، ونضالٍ أسْهرَ كلَّ جفن حتّى جفونَ السيوفِ لأنا عوَّدْناها مثلَ جفُونِنا أن تَسْهَر؛ فكم شكَت النُّقُوب من مَنَا كبِهِم زِحاما، والشُّرُفات من ترقُّبهـم آلتِزاما، والرِّقابُ من سيُوفِهم آقتِساما؛ وكم حَمِدت التجارِبُ من رأيهـم شيخا وحمِدَ الإقدامُ من ثُبُوتهم غُلاما؛ قد دَوَّخوا البـلاد فلا مَوْطِنَ إلالهم به مَعْركه، وأرملُوا الحلائلَ فلا مُشْرِكَ إلا وقد أرمَلَ من مُشْركه، وأزعَجُوا الكفرَ فلا قلْبَ إلا به منهم خوفٌ ولا سَمْع إلا لهم به حَرَكة، ومَلَئُوا الأرضَ كثرةً وكيف لايكثِّر الله جمعاً للإسلام جعل اللهُ فيه بَرَكه .

وكتابُنا هذا والمولىٰ بحمد الله أحقُّ من هُنِّئ بهـذا الفتح الذى تُثْنِى علىٰ كتاب بشائرِه الحقـائب ، وتجْرِى إلىٰ سَمَـاع أخباره الركائِب ؛ وتتَزاحمُ علىٰ المَسير تحت البُرُد الواصلةِ به متونُ الصَّـبَا وظهورُ الجنائب ؛ وإذا ذُكِرت ملاحمة ، قال كلٌّ : هذا كتابٌ أم كتيبةٌ تلوح ، وإذا شُوهِدتْ حمْرةُ طِرْسه قيل : وهذا ما صَبَغَتْه فى اليد المعلِّمة عليـه دمُ الكفر المسْـفُوح ، ويَنْعَم ـ أعز الله نصرَه ـ بالإعلان بهذا النبإ الحسن الذى تسْترْوِح إليه الأسماع ، وتُسَرّ بالإفهام به أخَواتُ هذا الحصن من مُدُنِه ومن قلاعه العظيمةِ الآمتناع ؛ فإنه ما بَرِحَ الأخُ يفْرَح بأخيه ، وإذا كان الهناء عظيما آشترك كلُّ شيءٍ فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة كتاب آخَرَ إلىٰ صاحب اليمن من هذا الأسلوب : كتب به الفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر أيضا ، عن الملك المنصور قلاوون ، جوابَ تعزيةٍ أرسلها إليه فى وَلَده الملك الصالح فى ورقٍ أزْرقَ ؛ وكانت العادة أن تكون فى ورق أصفَرَ .

ونصها بعد البسملة .

أعز الله تعـالىٰ نُصْرةَ المقام إلىٰ آخر الألقاب ، وأحسَنَ بتسليتِه الصبرَ علىٰ كل فادح ، والأجرَ علىٰ كلِّ مصابٍ قَرِح القرائح وجَرح الجَوَانح ؛ وأوفَدَ من تَعَازِيه كلَّ مسكِّن طاحتْ به من تِلقاء صنعاءِ اليمن الطَّوائح ؛ وكتَبَ له جزاءَ التصبُّر عن جارٍ من دمع طافحٍ ، علىٰ جارٍ لسُويْداء القلبِ صالح .

المملوكُ يَخْـدُم خدمةً لا يَذُود المواصـلةَ بها حادث ، ولا يؤَخِّرها عن وقتها أمْرٌ كارث ، ولا ينْتَقِضها عن تحسينها وترتيبها بواعثُ الآختلاف ولا آختلافُ البواعث ؛ ويُطْلِـع العِلْمَ الكريمَ علىٰ ورود مثـالٍ كريم ، لولا زُرْقةُ طِرْسه وزرقةُ لِبْسه لقال :

﴿وَٱبْيضَّتْ عَيْنَـاهُ من الحُزْن فهُوَ كَظِيم﴾ . تتضمّن ما كان حَدَث من رُزْء تَلافَىٰ الله بتَناسِيه ، وتوافىٰ بعَوْد الصـبر فتولّى التسليمُ تليين تَقاسِيه وتمْرِينَ قاسِـيه ؛ فشكَرْنا اللهَ تعالىٰ علىٰ ما أعطىٰ وحَمِدْناه علىٰ ماأخذ ، وما قُلْنا : هـذا جَزَع قد ٱنتَبَه إلا وقلنا هذا تثَبُّتٌ قد ٱنتَبَذ ، ولا توهَّمنا أنَّ فِلْذَةَ كبد قد ٱختُطِفتْ إلا وشـاهدْنا حولنا من ذرِّيتنا والحمدُ لله فِلَذ ؛ وأحسنَّا الاحتساب ، ودخلتِ الملائكةُ علينا من كل باب ، ووفَّانا الله عز وجلّ أجرَ الصابرين بغـيْرِ حساب ؛ ولنا ـ والشكرُ لله ـ صبرٌ جميل لانأسَفُ معه علىٰ فائت ولا نَأْسىٰ علىٰ مفْقُود ، و إذا علم الله سبحانه حُسْنَ الاستِنابة إلىٰ قضَائه ، والاستِكانة إلىٰ عطائه ، عوَّض كلَّ يوم مايقول المبَشِّر به : هـذا مَوْلًى موْلُود . وليست الإبلُ بأغلظَ أكبادًا ممن له قَلْبٌ لايُبالِى بالصَّـدَمات كثُرتْ أو قلَّت ، ولا بالتَّبـارِيح حَقُرت أو جَلَّت ، ولا بالأَزَمات إنْ هى تَوَالتْ أو تَوَلَّتْ ، ولا بالجُفُون إنْ ألقَتْ بمـا فيها من الدُّموع والهُجُوع وتخلَّتْ ؛ ويخافُ من الدَّهرِ مَنْ لاحَلَب أشْـطُرَه ، ويأسَفُ علىٰ الفـائت من لا باتَ بنبإ الخطوب الخَطِره ؛ علىٰ أنَّ الفادِح بموتِ الولد الملكِ الصالح ـ رضى الله عنـه ـ وإن كان مُنْكِيا ، والنافِحَ بشجوه و إن كان مُبْكِيا ، والنائحَ بذلك الأَسَـف و إن كان لنار الأسف مُذْكِيا ؛ فإن وراءَ ذلك من تثبيتِ الله عز وجلّ ماينْسِفُه نَسْفا ، ومن إلهامِه الصـبْرَ ما يجدّد لتمزيقِ القلوبِ أحسَنَ مابه تُرْفىٰ . وبكتاب الله تعالىٰ وبسُنَّة رسوله صلّى الله عليـه وسلم عندنَا حُسْنُ ٱقتـداءٍ يَضْرب عن كلِّ رِثاءٍ صفحًا ، وما كُنَّا مع ذلك ـ والمنةُ لله ـ نُصْغى لمن يؤنِّب ويُؤَبِّن أُذُنا ، ولا نُعـيرها لمن يَلْحا إذِ الولَدُ الذاهبُ فى رضوانِ الله تعالىٰ سالكًا طريقًا لاعِوجَ فيها ولا أَمْتا ، وٱنتقَلَ سارًّا بارًّا صالحًـا صالِحا وما هٰكذا كلُّ المَوْتىٰ نَعْيا ونَعْتا ، ولَئِـنْ كان نَفَعَنا فى الدنيا فها نحنُ بالصَّدَقات والترحُّم عليـه ننْفعُه ، و إذا كان الولَدُ عملَ أبيه وقد رَفَع الله تعالىٰ رُوحَ

ولدنا إلىٰ أعلىٰ عِلِّيِّين تحقّق أنه العمَلُ الصالحُ يرفَعُه؛ وفيما نحن بصَدَده من ٱشتغالٍ بالحروب، مايُهوِّنُ مايَهُول من الكُرُوب، وفيما نحن عاكفُون عليه من مُكافَحات الأعداءِ ما بيْنَ المرْءِ وقلْبه يحُول، بل عن تَخَيُّل أسَفٍ فى الخاطر يَجُول .

إذا ٱعْتادَ الفَتىٰ خَوْضَ المَنَايا * فأَهْونُ ماتَمُرُّ به الوُحُول!

فلنا بحمد الله تعالىٰ ذُرِّية دَرِيَّه، وعقُودٌ والشكر لله كلُّها دُرِّيَّه .

إذا سيِّدٌ منهم خَلَا قامَ سيِّدٌ * قَئُولٌ لمـا قال الكِرامُ فَعُولُ!

مامنهم إلا مَنْ نُظِر سعْدُه ومن سَعْدُه يُنْتَظر، ومَنْ يحسُن أن يكونَ المبتدأَ وأن يسُدَّ حالُه بكَفَالته وكفايَتِه مَسَدَّ الخبر، (والشمسُ طالعةٌ إن غُيِّب القمر)؛ لاسيما من الذى يراد(١) هو صلاحه أعْرَف، ومَنْ إذا قيل لبناءِ مُلْك هذا عليْه قد وَهىٰ قيل هذا خير منه من أعلىٰ بِناءِ سعدٍ أشرف . وعلىٰ كل حال لا عَدِمَ إحسانَ العمل الذى يتنوّع فى بِرِّه، ويُعاجِلُ قضاء الحقوق فيُساعِفُ مرسومَه فى توصيله طاعةَ بحره وبَرِّه؛ وله الشكرُ علىٰ مساهَمَة المولىٰ فى الفَرَح والتَّرَح ، ومشاركتِه فى الهَنَاء إذا سَنَح وفى الدمع إذا سَفَح ؛ وما مِثْلُ مَكارم المولىٰ من يعزُبُ ذلك عن عِلْمها ، ولا يُعْزىٰ إلىٰ غير حُكْمِها وحِلْمِها؛ وهو ـ أعزه الله ـ ذو التَّجارِب التى مَخَضَتْ له من هـذه وهذه الزُّبْده، وعَرَضتْ عليه منها الهَضْبةَ والوهْده . والرغبةُ إلىٰ الله تعالىٰ أن يجعَلَ تلك المصيبةَ للرَّزايَا خاتِمه ، كما لم يجعَلْها للظُّهور قاصِمَه ؛ وأن يجعلَها بعـد حَمْل هذا الهَمِّ وفِصالِه علىٰ عليِّه فاطِمَه؛ وأن يحبِّبَ إلينا كلَّ مايُلْهِى عن الأموال والأولاد، من غَزْوٍ وجِهاد ، وأن يخوّلنـا فليس يُحدّ لدينـا علىٰ مفقود تأدُّبا مع الله عز وجل غيْرُ السيوف فإنها تُعْرَفُ بالحِداد، وأن لاتُقْصَفَ رِماحُنا إلا فى فَوْد أو فؤاد، ولا تُحَوّل سروجُ خيلِنـا إلا مِن ظَهْر جَوادٍ فى السَّرايا إلىٰ ظَهْر جَواد ؛ وأن لاتُشق لدَيْنا إلا

(١) كذا فى الأصل ولم ندرك مغزاه .

أكبادُ النـادّ، ولا تُجز غيرُ شعُور ملوك التتار تُتَوَّجُ بها رُءُوس الرماح ويُصْعَد بها علىٰ قِمَم الصِّعاد ؛ والله تعالىٰ يشكُر للمولىٰ سعْىَ مَرَاثيه التى لولا لُطفُ الله بما صبَّرَنا به لأقامتِ الجنائز، وآستخفَّتِ النحائز، ولأهْوتْ بالنُّفُوس فى آستعمال الحائز من الأَسَف وغير الجائز، ولا شَغَل اللهُ لُبَّ المولىٰ بفادِحَه، ولا خاطِرَه بسانِحة من الحُزْن أو بارِحَه، ولا أسمَعَه لغير المَسَرَّات من هواتف الإبْهاج صادِحه، إن شاء الله تعالىٰ .

الأســـــلوب الرابع

(أن تفتَتَح المكاتبةُ بلفظ «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقام الشريف العالى»
وعليها كان الأمرُ فى أوّل الدولة التركية)

وهذه نسخةُ كتاب من ذلك، كُتِب بها عن الملك المظفَّرقطز ـ وصاحبُ اليمن يومئذ المنصورـ بالبِشارة بهزيمة التَّتار . وأظنها من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، وهى :

أعزَّ اللهُ تعالىٰ أنصار المقرّ الشريف العالى، المَوْلَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، المنصورىّ، وأعلىٰ مَنَارَه، وضاعف آقتِدارَه؛ تُعْلِمه أنه لما كان النِّصف من شهر رجب الفرد، فتح الله تعالىٰ بنصر المسلمين علىٰ أعداء الدين :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلَا تَسَعُّر بأْسِهِ * لَاخْضَرَّ جُودا فى يَدَيْه الأَسْمَرُ

فصدرت هذه التهنئة إليه راويةً للصدق عن اليوم المحجَّل الأغر :

يَوْمٌ غَدَا بالنَّقْع فيه يَهْتِدى * مَنْ ضَلَّ فيه بأنْجُمِ المُرّان

ففى أُذُنِ الدهر من وَقْعِه صَمَم، وفى عِرْنِين البَدْر من نقعه شَمَم؛ ترفَعُه رواةُ الأَسَل عن الأسنَّه، ويُسْنِده مَجَرُّ العوالى عن مَجَرِّ الأعِنَّه، أما النصرُ الذى شهد

الضربُ بِصحَّته ، والطعْنُ بنصيحته؛ فهو أن التتر خذلهم الله تعـالىٰ آستطالُوا علىٰ الأيام، وخاضُوا بلادَ الشام، واسْتنجَدُوا بقبائلهم علىٰ الإسلام :

سَعىٰ الطَّمعُ المُرْدِى بهم لحُتُوفهم * ومَنْ يُمْسِكنْ ذيلَ المَطامِعِ يَعْطَبِ

فاعتاضُوا عن الصحة بالمَرض ،وعن الجَوْهر بالعَرَض؛ وقد أرْختِ الغفلةُ زِمَامهم، وقاد الشيطانُ خِطَامَهم؛ وعاد كيْدُهم فى نُحورهم : ﴿ورَدَّ اللّٰهُ الَّذِينَ كفروا بِغَيْظِهِمْ لم يَنَالُوا خَيْراً وَكَفىٰ اللّٰهُ المُؤْمنِينَ القِتالَ وَكَانَ اللّٰه قَوِيّاً عَزِيزًا﴾ .

رامُوا الأَمورَ فمُــذْ لاحَتْ عَوَاقِبُها * بِضِدّ ما أمَّلُوا فى الوِرْ والصَّــدَر،

ظَلُّوا حَيَارىٰ وكأْسُ الموتِ دائرةٌ * عليْهِــمُ شَرَعًا فى الوِرْ والصَّــدَر!

وأَضْعَفَ الرُّعْبُ أيْديهِــم فطَعْنُهُمُ * بالسَّــمْهَرِيَّةِ مِثْـلُ الوَخْزِ بالإبَرِ!

لاجرمَ أنَّهم لِسنِّ النَّدم قارِعُون، وعلىٰ مقابَلَةِ إحسانِنا بالإساءة نادِمُون .

تَدرَّعُوا بِدُرُوعِ البَــغْيِ سابغة * والمَرْءُ يَحْصُدُ من دُنْياه مازَرَعا!

فأقلعَتْ بهم طَرَائقُ الضَّــلال، وسارتْ مراكبُ أمانِيِّهم فى بِحَار الآمال؛ فتلك آمالٌ خائبه ، ومراكِبُ للظُّنُون عاطِبه ؛ وأقلَعُوا فى البحر بمَرَاكبه ، والبَرِّ بمَوَاكِبِه؛ وساروا وللشَّــيطان فيهم وَسَاوِس ، تغرُّهم أُمْنِيَّــة الظُّنُون الحَوا س ؛ فمـا وَسْوَسَ الشيطانُ كُفْرًا إلا وأحرقه الإيمـانُ بكوكب (١) هذا

وعساكرُ المسلمين مســتوطِنَةٌ فى مَوَاطنها ، جاذِيَةٌ عِقْبانُها فى وُكُور ظِبَاها ،رابضَــةٌ آسادُها فى غِيل أقْناها، ماتَزَلْزَلَ لمؤْمِنٍ قدمٌ إلا وقدَم إيمـانه راسِخَه، ولاثبتَتْ لأحدٍ حجةٌ إلا وكانت الجمعةُ لهـا ناسِخه ؛ ولا عُقِد[تْ] بُرْجُمة ناقوس إلا وحَلَّها الأَذَان، ولا نَطَق كتابٌ إلا وأخرســه القُرءان؛ ولم تزَلْ أخبارُ المسلمين تنتقِلُ إلىٰ الكُفَّار،

(١) بياض بالاصل .

وأخبارُ الكُفَّار تنتقل إلىٰ المسلمين إلىٰ أنْ خَلَط الصَّباحُ فِضَّته بذَهَبِ الأَصِــيل ، وصار اليومُ كأمْس ، ونُسِخَتْ آيةُ الليل بسُورة الشمس ؛ وٱكتحَلتِ الأعينُ بمِرْوَد السُّبَات ، وخافَ كلٌّ من المسلمين إصدارَ البيَات

ينــامُ بإحــدىٰ مُقْلتَيْــهِ ويَتّقِى * بأُخْرىٰ الأَعادِى ، فهو يَقْظانُ نائمُ !

إلىٰ أن تراءتِ العينُ بالعين ، وٱضطَرمَ نار الحربِ بين الفريقَيْن ؛ فلم تَرَ إلا ضَرْبا يجعلُ البَرْقَ نِضْوا ، ويتركُ فى بطنِ كلٍّ من المشركين شِلْوا ؛ حتّٰى صارت المَفَاوِزُ دِلَاصا ، ومراتِــعُ الظِّبا لِلظُّبَا عِراصا ؛ وٱقتنصَتْ آسادُ المسلمين المشركينَ ٱقْتِناصا ، ورأىٰ المجرِمُونَ النارَ فظَنُّوا أنَّهُمْ مُواقِعُوها ولم يجِدُوا عَنْها مَنَاصا ؛ فلا رَوضَةَ إلا دِرْعٌ ولا جَدْولَ إلا حُسَام ، ولا غمــامةَ إلا نَقْعٌ ولا وَبْلَ إلا سِهَام ؛ ولا مُدَامَ إلا دِماءٌ ولا نَغَمَ إلا صَهِيل ، ولا مُعَرْبِدَ إلا قاتلٌ ولا سَكْرانَ إلا قَتِيل ؛ حتّٰى صار كافُورُ الدِّين شَقِيقا ، وتلَوَّنُ الحَصْباء من الدِّماء عَقِيقا ؛ وضَربَ النقْعُ فى السماء طَرِيقا ، وٱزدحمت الجنائبُ فى الفَضَاء فجعلَتْه مَضِيقا ؛ وقُتِل من المشركين كلُّ جَبَّار عَنِيــد ، ذلك بمــا قدّمَتْ أيْدِيهم ﴿وما رَبُّك بظَلَّام للعَبِيد﴾ .

قلت : وهذه النسخة تلقَّفْتها من أفواه بعض الناس ، ذكر أنه وجدها فى بعض المجاميع فحفِظها منــه ، وهى فى غايةٍ من البَلَاغة ، إلا أنهــا لا تخلُو من تغْيــير وقع فى بعض أماكنها ، ولعــله من الناقل لهــا ، من حيثُ إنه ليس من أهــل هــذه الصــناعة . ولم يسَعْنِى تركُ إيرادها لمــا فيها من المَحَاسن ، ولٱنفرادِها بأُسْــلوب من الأساليب التى كتب بها إلىٰ ملوكِ اليمن ؛ فأوردتُها علىٰ ماهى عليه ، وجزىٰ الله خيرا من ظَفِر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصحَّحها وأصلح مافيها .

الأسلوب الخامس

(وهو ماجرىٰ عليـــه فى "التثقيف" أن تُفْتَتَح المكاتبةُ بلفظ أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقَام العالى)

صدره علىٰ ماذكره فى "التثقيف" أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المقام العالى، السلطانىّ، المَلَكى، الفلانى، الفلانى، مثل أن يقال : الأفضلىّ السيْفىّ، ثم الدعاء، ثم يقال : أصدَرْناها وتُبْدِى لعلمه الكريم كذا وكذا . قال فى "التثقيف" والمكاتبة اليه فى قَطْع النصف والطلب منه «والقصد من المقام العالى» وخاتمة الكتاب بالدعاء، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب اليمن» . وفى دُسْتو ر المقرّ الشهابىّ بن فضـل الله أنَّ خطابَه يكون بالمقام العالى .

وهذه نسخة كتاب إليه ، ذكر المقرّ الشهابى بن فضل الله فى تذكرته أنه أنشأها جوابا عن هدِيَّتــه ولم يَكتُبْ بها إليه ، وهو يومئذ الملكُ المجاهد سيفُ الدين علىّ آبن داود .

أعَزَّ الله تعالى أنصارَ المَقَام العالى،ولا زالتْ مكارِمُه تَخُصُّ من كلِّ نوع بأَحسَنِه، وتُتْحِف بأزْيدِه وأزْيَنِــه ، وتجْلُبُ كلَّ غريبِ الديار من وَطَنه ، وتَمنَح من السَّوابق بمـا تَمتَدُّ المجرَّةُ فى رَسَنِه ، ومن المحاسن بما يُمْلِى علىٰ (علىّ) أوصاف حُسْنه، ويُعْرِب عن الفَرَس والسيف والرمح بأطْيَبِ لحَنْ فى نصبِه وجرِّه ورَفْعه .

صــدرت إلىٰ المقام العالى أعزَّ الله جانِبَه تِصِــلُ بوداده ، وتَصِـفُ حُبًّا عَلِق بفُؤاده، وتَعَرّض ببُرَحَاء يمنيَّـةٍ أحلام الكَرىٰ طَمَعًا أن يرىٰ طيفـه فى رُقَاده . وتبــدى أن كتابه الكريمَ ورد جالبا لِدَرِّ مِنَنه، جالِبًا لليُمْن من يَمَنِه، نافِحًا بالطِّيب

من عدَنه ، ناقدًا من قوة السيوف بمـا لايدَّعيه ٱبنُ ذِى يَزَنه ؛ فتؤمِّل ما حوىٰ من كَرَم لا يُجارىٰ ، ونعيم تملأ البرَّ برًّا والبِحارَ بحارا ؛ وأبدعَ فى الهبة التى قدر مُهْدِيها[(1)] ، وقدّر فيها من التُّحَف مالا يُوجَد إلا فيها ؛ وجاء بكلِّ ما يستعينُ به المُرابِط ، وتهتزُّ به الخزائنُ والمرَابط ؛ وتفتخرُ من الرِّماح بكل معتدل قاسط ، و بمـا يُرْدِى العِـدَا من أسِنَّته بكلِّ نجم هابط . كَمْ لهـا من فعلٍ جميل لايُشَارَك ، وكم قال طَعِين : إنَّ لهـا كَعْبا مُدَوَّرا وما قَدَر الطاعِنُ أن يقولَ إلا أنها كَعْبٌ مبارَك . ومن السُّـيوف بمـا لايُطْبَع النهر فى نَصْـله ، ولا يَطْمع البرق فى مناضَلَةِ مِثْـله ، ولا يطمَحُ الهلال أن يستـقيمَ علىٰ شَكْله ؛ كم أخمدتْ أنفاسا ولهـا ٱلتِهاب ، ولَمَعتْ من نواحى الغُمُود كما نصَلَتْ أنمُلٌ من خِضاب . ومن الخيل بما ترْقُص فى أعِنَّتها ، وتفتخرُ علىٰ البُدُور بأنها تدُوسُ علىٰ أهلَّتها : من كلِّ أشهبَ يُحْسِنُ ٱبتِـدارا ، ويُحْسَبُ قمرًا قد تكمَّل إبدارا ، ويُطْلِـع فى كلِّ ناحيةٍ نَهارا جِهارا . وأدهَمَ قد غَصَب الظلام ، وٱستَدَارت غُرَّتُه فأسفَر وجهُه تحتَ بُرْقُع من لِثَام . وأحْوىٰ أخضَرِ الجلدة من بيْتٍ للعرب ، قد حَوىٰ من الروض ماسَلَب . وكُمَيت ينْضُو النقْعَ وهو سَبُوق ، وتقدَّمَ فى ميادينِه فجاء مضمَّخا بالخَلُوق . وأشقَرَ قد كشَفَ البَرْق عِذاره ، وأطار الرَّكْضُ منه شَراره ؛ ومعها كلُّ فِيـلٍ كأنَّه غمـام تبدَّى ، أو مَلَكٌ مُفَدّى ؛ بخُرْطُوم يرتدُّ كالصَّوْ لجَان ، و يمتدُّ كالأُفْعُوان ؛ ويَهُولُ مَنْظَرُه كأنه من تَمـام الخَلْق بُنْيان ، و يتحرَّكُ فتحْسَبُه كُمَّ راقصةٍ تُشِير به إلىٰ النُّدْمان ؛ تقْشَعِرُّ منها الجلود ، وتقتُلُ نَفْسَها بنيرانِ الحقْد محافَظةً علىٰ عُهود الهُنُود ؛ كم أحسنَتْ بخَراطِيمها لهـا من صُـدُورها الضـيِّقة مَخْرَجا ، وأضاءتْ من فُروجها بينَ أنيابها طُرّةَ صُبْحٍ تحتَ أذيالِ الدُّجىٰ ؛ وزَرَافةٍ ، لهاإنَافةٌ ، كأنَّها شفَقٌ بينه نُجُوم ، أو بُروقٌ تكلَّلتْ بقَطْر الغُيُوم ؛ لهـا فى المَدْخَل علىٰ القُلُوب

(1) لعله التى دلت على الخ تأمل .

حذاقه، وولُوج من بابٍ ودُخُولٌ من طاقه. وحمارةٍ وحشيَّة جاءتْ بوَصْف الرَّبيع فى ٱعتِدالِ الليـل والنَّهار، وجمعتِ الهـالاتِ والأقْمـار؛ ودلَّتْ علىٰ أصلٍ كريم تفتَّحتْ فى فُروعه الأزْهار، وحكَتْ بخُطُوطها الدَّوْحَ ممـا تراكم ظِلُّه فأظلم وٱنفَرَج فأنار. ونَمِرٍ يُؤلَف علىٰ نِفَاره، ويَسْبح ليلُه فى أنهارِ نَهاره؛ يتدفَّق فى مثل أنبوب القَنَاة المضْطَمِر، ويُصَدِّق من شبَّه ركُودَ الرُّبَا علىٰ الرِّمال بقِطْعـةٍ من جِلْدة النَّمِر. وقِطِّ الزَّبَاد الذى لاتَحْكِيه الأُسُودُ فى صُوَرها، ولا تسمَحُ غِزْلانُ المِسْك بما يَخْزُنُه من عَرْفِـه الطيِّب فى سُرَرِها؛ كم تَنَقَّل فى بيوتٍ وطابَتْ مَوْطِنا، ومشىٰ من دار أصحابه فقالوا: رَبَّنَا عَجِّـلْ لنَا قِطَّنَا؛ وكذلك من الطِّيب ما يَطيب، وما يَزُور بنَفْحه الحبيب؛ قد بعثَ أكْبَرَه، وأفاد أكْثَرَه؛ وٱسـتخدم المتنعِّمون به صَـنْدَلَه وكافُورَه وعنْبَرَه. وغير هذه الأنواعِ مما جاد بإرساله، وأتىٰ من كلِّ بديع به وبأمثالِه؛ فقُوبلتْ بالقَبُول هذه التُّحَف، وأُكرِمَتْ إكرامَ مَنْ لها عَرَف و[بها] ٱعتَرَف؛ وحُمِد سحابُه الذى تسرَّعتْ مَوَاطِره، وبعثَتْ من طُرَفهـا بالروض وما تَنُوءُ عنه أزاهِرُه، وشرعت بمـا ٱتَّصلتْ بمصر أوائلُه وباليَمَن أواخِرُه؛ والله تعـالىٰ يشكُر هِمَمَه التى تعالَتْ، وشِيَمَه العَـلَوِيَّةَ التى لأجلها المحامِدُ قد توالَتْ. وقد جَهَّزنا له من التُّحَف المنعم بها ما أمكن تعجيلُ حَمْله، وجرتْ عوائدُ ملوك الأقاليم بالتشريف من خزائننا العالية بمثله؛ وحمَّلْنا رسُلَه من السلام ما تَعْبَقُ به الفِجَاج، وتعذُبُ به البحار وهى مِلْحٌ أُجَاج. والمرادُ منه أن يواصِلَ بمكاتَبَاته التى تتناوَبُ الصُّدُور، وتنوب عن لَمْحَةِ البُدُور، وتَـؤُوبُ بما تَقَدَّمَ به من السرور؛ والله تعالىٰ يُديم لسلطانه التأييد، ولمُلْكه التأبيد، ولاٱقتدارِه مابه تَعِزُّ تَعِزُّ وتَمِيدُ زَبِيد. إن شاء الله تعالىٰ.

فائدة — المكاتبـةُ إلى صاحب اليمن عن ولىّ العهد بالسلطنة كالمكاتبةَ إليـه عن السلطانِ نفسه فى جميع المكاتبة علىٰ السَّواء.

وعلىٰ ذلك كتب القـاضى محيي الدين بن عبـد الظاهر عن « الأشرف خليل آبن قلاوون» قرين كتاب أبيه المنصور قلاوون إلىٰ صاحب اليمن، بالبشرىٰ بفتح طرابُلُس .

وهذه نسخته :

أعزَّ الله تعالىٰ نُصرةَ المقام! وأوْفَدَ عليــه كلَّ بُشْرىٰ أحسَنَ من أختها ، وكلَّ تهنئةٍ لايجَلِّيها إلا هو لوَقْتِها، وكلَّ مُبْهِجةٍ يَعْجِز البنانُ والبيانُ عن ثَبْتها ونَعْتِها، وتتبلَّج فتَودُّ الدُّرَر والدَّرارِيُّ لو رَقَتْ هذه إلىٰ ترَقِّيها وسَمَتْ هذه إلىٰ سَمْتِها . وصبَّحه منهـا بكل هاتفةٍ أسْمَعَ من هَواتِف الحمائم، وبكل عارفةٍ أسْرَعَ من عَوَارِف الزَّهَر عنـد عَزَائم النَّسائم ، وبكلِّ عاطفةٍ أعِنَّـةَ الإتحاف بالإيجاف الذى شكَرَتْ الصِّفاحُ منه أعظَمَ قادرٍ والصحائفُ أكرَمَ قادِم ، والغَزْوِ الذى لا يُخُصُّ تِهـامةَ ببُشْراه بل جميعَ النُّجود والتَّهـائم ، وذَوِى الصَّوارم والصَّرائم ، وأُولِى القُوىٰ والقوائم ، وكلَّ ثغر عن آبتهاج الإسلامِ باسم ، وكلَّ بَرٍّ بَرَّ بتوصيل ماترتَّب عليه من مَلاَحم ، وكلَّ بَحْر عَذْبٍ يمونُ كلَّ غازٍ لايَحْبِس عن جِهاد الكُفَّار فىعُقْر الدَّار الشَّكائم ،وكلَّ بحرٍ مِلْح كم تَغَيَّظ من مجاورةِ أخيه لأهل الشرك ومشاركَتِهم فيه فراحَ وموجُه المتلاطِم .

المملوكُ يَخْدُم خدمةً يقتفِى فيها أثَرَوالده ، ويجْرِى فى تجميلِهـا علىٰ أجملِ عَوائده ، ويستفتِح فيها آستِفتاحًا تَحُفُّ به من هُنا ومن هُنا تُحَفُ مَحامِده ، ويصِـفُ وَلَاءً قد جعله الله أجملَ عُقُوده وأكملَ عقائده ، ويَشْفَعُها باخلاصٍ قد جعله مَيْلُه أحسن وسائِلِه وقلبُه أزينَ وسائِده ، ويُطْلِـعُ علمَه علىٰ أنَّ من سَجَايا المتعرِّضين إلىٰ الإعلان بشكرِ الله تعالىٰ فى كلِّ مايعرِضُ للمسـلمين من نصر ، ويُفْتَرَض لهم من أجر غَزْوٍ كم قَعَد عنه مَلِك فيما مضىٰ من عَصْر ، أن يَقْدُروا هذه النعمةَ حقَّ قَدْرِها من التحدُّث

بنِعْمتها ، والتنبيــه بسَماع نَغْمتِها ، وإرسال أعنَّــة الأقلام بها فى ميادين الطُّروس ، وإدارةِ حِرْباءِ وصفِ حَرِّحرب (؟) إلىٰ مُواجَهة خير الشُّموس .

ولـمّا كانتْ غَزَواتُ مولانا الســلطانِ ملكِ البسيطة الوالدِ خَلَّد الله سلطانه قد أصبحَتْ ذِكْرىٰ للبَشَر، ومواقِفُه للنصر كم جاءتْ هى والقَدَرُ علىٰ قَدَر، وقد صارت سِيَرُها وسَيْرُها هذه شَدْو فى الأسمار، وهذه جادّةٌ تَسْتَطيبُ منها حُسْنَ الحَدْو السُّفَّار، فكَمْ قاتلتْ مَنْ يليهـا من الكُفَّار، وكم جعلَتْ من يُواليهـا وهو مَنْصُورها منصورا بالمهاجِرين والأنصار .

ولـمَّا أذلَّ الله ببأسها طوايِفَ التَّتَار فى أقاصِى بلادِ العَجَم ، وجعلَ حَظَّ قلوبِهم الوَجَع من الخَوْف ونَصِيبَ وجُوهِهـم الوجَم ؛ وأخلىٰ الله من نُسُورهم الأوكارَ ومن أُسُودهم الأَجَم ، وقَصَّرتْ بهم هِممَهُـم حتّى صارُوا يخافُون الصُّبحَ إذا هَجَم ، والظَّنَّ إذا رَجَم ؛ وصارتْ رُؤْية الدماء تُفْزِعُهــم فلو ٱحتــاج أحدُهم لتنقيص دم لمرضٍ لأَجْنَح من خَوْفه وما ٱحتَجَم . وأباد اللهُ الأرمَنَ فحل بالنَّبيل منهــم الوَيْل ، وما شَمَّر أحد من الجنود الإسلاميَّــة عن ساعد إلا وشَمَّر هو من الذُّلّ الذيل ؛ ولا أثارَتِ الجيادُ من الخيــل عِثْيرًا منعَقِدا إلا وظَنُّوه مَساءً قد أقبل أو لَيْــل ، وٱنتهتْ نوبةُ القتل بهم والإسَار إلىٰ التكفور ليفون ملك الأرمن الذى كان يحمِى سَرْحَهم ، ويُمرِّدُ صَرحهــم ، ويستنطِقُ هَتْفَ التَّتار ويستَرْجِــع صَدْحَهم ؛ وتعــتَزُّ طرابُلُس الشام بأنَّه خالُ ٱبْرِنْسها الكافر، ولسان شُورته السَّفيرووجهُ تدبيره السَّافر . وطالَمَا غَرّ وأغْرىٰ ، وأجَرَّ وأجْرىٰ وضَرّ وأضْرىٰ ؛ فلمــا توكَّل مولانا السلطان وعزم فَتوكَّل ، وتحقَّق أنَّ البــلاء به قد نَزَل وما تشكَّك أنَّ ذلك فى ذِهن القَدَر قد تصوّر وتشكَّلْ ؛ وأنَّ يومَه فى الفَتْك سيكونُ أعظَمَ من أُمنِيَّته ، وأعظمُ منهما مُعاداة غَده ،

وأنَّ نصر الله لن يُخْلِفَـه صادقُ وعده، أكَلَ يَدَه ندامـةً علىٰ ما فَرَّط فى جَنْب الله وساق الحَتْفَ لنفسه بيده، فعمَر اللهُ برُوحه الخبيثة الدَّرْك الأسفلَ من النار، وسقاه الحَتْف كأسًا بعد كأس لم يكن لها غيْرُ المَلَك من خَمَّار . وكانتْ طرابلُس هى ضالَّةَ الإسلام الشَّريده، وإحدىٰ آبقاتِه من الأعوامِ العَديده، وكلما مَرَّتْ شَمَخَتْ بأنفها ، وتأنَّقتْ فى تحسِـينِ مَنَازه منازِهِها وتزيين رَيْحانهـا وعَصْفِها، ومَرَّتْ وهى لاتُغازِلُ مَلِكا بطَرْفها ، وكلَّمـا تقادَمَ عهـدُها تكثَّرت بالأفْواج والأمْواج من بين يَدَيْها ومن خَلْفِها . إذِ البحرُ لها جِلْباب والسَّحابُ لهـا خِمَار، وليس لهـا من البَرِّ إلا بمقْـدار ساحَةِ الباب من الدار، كأنها فى سِيف ذلك البحر جبَلٌ قد ٱنحَطّ، أو مَيْلُ ٱستواءٍ قد خرج عن الخَطّ، وما قصد أحدٌ شطَّها بنِكايةٍ الاشَطَّ وٱشتَطّ .

قدَر اللهُ تعالىٰ أنْ صَرفَ مولانا السلطانُ إليها العِنَان، وسبَقَ جيشُه إليها كلَّ خَبرٍ و"ليس الخَبَرُ كالعِيَان"، وجاءها بنَفْسه النفيسةِ والسعادةُ قد حرسَـتْه عيونُها وتلك المَخاوفُ كُلُّها أمان، وقد ٱتَّخذ من إقدامه عليها خير حبائِلَ ومن مُفَاجآته لها أمدَّ عِنَان، وفى خِدْمته جنودٌ لاتستبْعِدُ مفَازه، وكم راحتْ وغدَتْ وفى نفسها للأعداء حَزَازه، فامتطَوْا بخُيولهم من جبال لُبْنانَ نِجاداً لهـا صاغتْها الثُّلوج، ومَعارِجَ لامُرافِقَ بها غيْرُ الرياح الهُوج، وٱنحطَّتْ تلك الجيوشُ من تلك الجَنَـادل، ٱنحطاطَ الأجادِل، واندفعُوا فى تلك الأوْعار، اندفاعَ الأوعالِ، ولم يحْفَلْ أحدٌ منهـم بسَرْب لاصق، ولا جبَـلٍ شاهق، فقال : أهـذا منْخَفِضٌ أو عال، وشرَعُوا فى التحصـيلِ لمـا يُوهِى ذلك التحصِـين، وٱبتنىٰ كلُّ سورا أمامَ أسوارها من التـدْبير الحَسَن والرأْى الرَّصين، فمـا لَبِثُوا إلا بمقدار ماقِيـلَ لهم دُونَكُم والاختطاب ، ونَقَـلِ المَجانِيقِ علىٰ الخيـلِ وعلىٰ الرقاب، حتّى جَرُّوها بأسرَعَ من جَرِّ النَّفَس ، وأجْرَوْها علىٰ الأرض سفائِنَ وكم قالوا : السَّـفينةُ لاتَجْرِى علىٰ يَبَس، وفى الحـال نُقِلتْ إليها فرأَوْا من

متوقلها مَنْ يَمشِى بها علىٰ رجلين ومنهم مَنْ يَمْشِى علىٰ أربع ، ووجّهتْ سِهامُها وجُوهَها إلىٰ مَنَافذها فما شُوهدتْ منها عينٌ إلا وكان قُدّامَها منها إصْبَع ؛ وألقيتِ العَدَاوةُ بين الحجارةِ من المَجانِيق والحجارة من الأسوار ، فكم ثَقبت ونقبت عن فلْذة كبدها ، عن (١) وأَوقدت نيرانُ المكايد ثمَّ فكم حولَها من صافنٍ ومن صافِر ، وكم رمَتْهم بشَرَر كالقَصْر فوقَع الحافِرُ كما يقال علىٰ الحافِر ؛ وما بَرِحتْ سُوقُ أهلِ الإيمان فى نَفَاق ، علىٰ أهل النِّفاق ، وأكابِرُهم تُساقُ ، أرواحُهم الخبيثةُ إلىٰ السّاق .

وكان أهلُ عَكَّا قد أنجَدُوهم من البحر بكل برّ ، ورمَوْا الإسلام بكل شَرَر وبكلِ شَرّ ؛ فصار السهْمُ الذى يخرُجُ بها لا يَخْرج إلا مقترِنا بسِهام ، وشُرُفاتُ ذلك الثغر كالثّنايا ولكنها لكَثْرة مَنْ بها لا تفْتَرُّ عن ابتِسام .

وما زالتْ جنودُ الإسلام كذلك ، ومولانا السلطانُ لا تُرىٰ جماعةٌ مقدمة ولامتقدِّمة إلا وهو يُرىٰ بين أولئك . واستمرّ ذلك من مستهَلِّ ربيع الأوّل إلىٰ رابع ربيع الآخر ، فزحف إليها فى بُكْرة ذلك النهار وهو الثُّلاثاء زَحْفا يقتحِمُ كُلَّ هَضْبة ووَهْده ، وكلَّ صُلْبةٍ وصَلْده ؛ حتّى أنجز الله وعْدَه ، وفتحها المسلمونَ مجازًا وفى الحقيقةِ فتحها وَحْده ؛ وطلعتْ سناجِقُ الإسلام الصُّفْر علىٰ أسوارها ، ودُخِلَتْ عليهم من أقْطارها ، وجاستِ الكسابة إلىٰ دِيَارها ؛ فاحتازها مولانا السلطان لنفسه مِلْكا ، وما كان يكون له فى فَتْحِها شريكٌ وقد نَفىٰ عنها شِرْكا ؛ وكُلّما قيل هذه طرابُلُس فُتِحتْ قال النصْرُ لمن قُتِل فيها من النِّجد الواصلةِ : واكثرعَكّا وأهلَ عَكّا ؛ وأعاد الله تعالىٰ بها قوّةَ الكفر أنكاثا ، فكان أخذُها من مائة سنةٍ وثمانين سنةً فى يومِ ثُلَاثا ، واستُرِدَّت فى يوم الثُّلاثا .

(١) بياض بالاصل .

ولما عَمَّت هذه البشائر ، وكَلَ بها مولانا السلطان إلىٰ كلّ من يستجْلي حِسَان هذه العَرَائس ، ويستحْلي نَفِيس هذه النَّفائِس .

سيَّر مولانا السلطان إلىٰ المولىٰ كلَّ بشرىٰ تقعْقَع بها البريد ، لتُتْلىٰ بأمره علىٰ كلِّ من ألْقىٰ السمع وهو شَهِيد ؛ وكما عَمَّ السرورُ بذلك كلَّ قريب قصد أن يعُمَّ الهَنَاءُ كلَّ بعيد .

وأصدر المملوكُ هذه الخدمةَ يتجرّب بين يديه نَجْواها ، ويتوثَّب بعد هذه الفاتحةِ المباركةِ لكلِّ سانحةٍ يحْسُن لدىٰ المولىٰ مستَقَرُّها ومَثْواها ؛ لابَرِح المقامُ العالى يستبْشر لكُمَاة الإسلام بكلِّ فضل وبكل نُعمىٰ ، ويَفْرَح بسَرْح الكُفْر إذا انتُهِك وبسَفْح المُلْكِ إذا يُحمىٰ ، وبسَمْع الشِّرك إذا يُصَمُّ وبقلبه إذا يُصْمىٰ ؛ والله الموفق .

الجمـــــلة الثـانية

(فى المكاتبات إلىٰ عرب البحرينِ ومَنِ انضافَ إليهـم)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنَّ بلاد البحرَيْنِ لم تزل بيد العرب ، وأنها صارتِ الآنَ بيد بنى عُقَيل ـ بضم العين ـ من بنى عامر بن صَعْصَعة ، من هَوازِنَ ، من قَيْس عَيْلان ، من العَدْنانية . قال فى "التعريف" : ومنهم قومٌ يَصِلُون إلىٰ باب السلطان وُصُولَ التُّجَّار ، يجْلُبون جيادَ الخيل وكِرَام المَهَارِى واللُّؤلؤَ وأمتعةً من أمتعة العِراق والهند ، ويرجعون بأنواع الحِبَاء والإنعامِ والقُماش والسُّكَّر وغير ذلك ؛ ويُكْتَب لهم بالمسامَحة فيَرِدُون ويَصْدُرون . قال : وبلادهم بلاد زَرْع وضَرْع ، وبَرٍّ وبحر ، ولهم مَتاجِرُ مُرْبِحة ، وواصِلُهم إلىٰ الهند لاينقَطِع ، وبلادُهم مابين العِراق والحِجاز ، ولهم قُصور مبنيَّه ، وآطامٌ عليَّه ، ورِيفٌ غير متَّسِع ، إلىٰ مالهم من النَّعَم والماشِيَة ، والحاشية والغاشـية ؛ إلا أنَّ الكلمة قد صارت بينهم شَتَّى ،

والجمـاعةَ متفرِّقة . وقد سبق الكلامُ علىٰ بلادهم مستوفىً فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك .

قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إلىٰ كُبرائهم «السامىّ» بالياء . والعلامة الشريفة «أخوه» ثم مادُونَ ذلك لمن دُونَهم .

وآعلم أنه فى "التثقيف" قد جمع بين عَرَب البحرين وعربِ البصرة وما وَالىٰ ذلك ، وجعل المكاتبةَ إليهم علىٰ ثلاث مراتِبَ .

المرتبة الأولىٰ — مَنْ يكتب إليه «السامىّ» باليـاء والعلامةُ الآسم ، وذكر أنَّ بهـا يكاتب أميرهم ، وسماه حينئذ «صَدَقة بن إبراهيم بن أبى دلف» وأن تعريفه فلان بن فلان . وذكر فى رتبته فى المكاتبة يومئذ محمدَ بن مانع ، وأخوه حسين بن مانع ، وعلىّ بن منصور .

المرتبة الثانية — من يكتب إليـه «السامى» بغير ياء والعلامة الآسم . وذكر منهم بَدْرانَ بنَ مانع — رُومِىّ بن أبى دلف — زَيْن بن قاسم — يُوسُـف بن قاسم ، سَـعِيد بن مَعْدى — راشد بن مانع — عيسىٰ بن عَرَفة — ظالم بن مُجَاشع — إسماعيل آبن صوارى — كَلْبى بن ماجد بن بَدْران — مانع بن علىّ — مانع بن بَدْران .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه «مجلس الأمير» والعلامة الآسم . وعدّ منهم جماعةً ، وهم عظيم بن حسن بن مانع — موسىٰ بن أبى الحسن — سعد بن مُغَامس — زيد بن مانع — هلال بن يحيىٰ — معمر بن مانع — محمد بن خَلِيفة .

قلت : وحاصلُ ما ذكره فى "التعريف" و"التثقيف" أنَّ جملةَ المكاتبة إليهم لاتجاوِزُ المراتبَ الثلاث المذكورة ، والكاتبُ يستخبِر أخبـارَهم فى المِقْدار ، ويُنْزِل كلَّ واحد منهم علىٰ قَدْر مرتبته من ذلك كما فى الأسماء المتقدِّمة الذكر .

المَهْيَـــعُ الرابع
(فى المكاتبة إلى صاحب الهِنْد والسِّنْد)

وقد ذكر فى "التعريف" أن صاحبَـه فى زمانه كان ٱسمُه أبا المجاهـد محمدَ بن طُغْلقشاه . ثم قال : وهو أعظم ملوك الأرض شرقًا وغَرْبا وجَنُوبا وشَمَـالا ، وبَرًّا وبحرا ، وسَهْلا وقَفْرا ؛ وأن سِمَته فى بلاده « الإسكندر الثانى » ثم قال : وتالله إنه يستحِقُّ أن يسـمَّى بذلك ويُوسَم به : لاتِّساع بلاده ، وكَثْرة أعْدادِه ، وغُزْر أمداده ؛ وشَرَف مَنَابت أرضه ، ووُفُور مَعادِنه ، وما تنبتُه أرضُـه ، ويُخْرِجه بحره ، ويُجْبىٰ إليه ، ويَرِدُ من التُّجَّار عليه . وأهلُ بلاده أممٌ لاتُحصىٰ ، وطوائف لاتُعَدُّ . ثم حكىٰ عن قوم ثقات منهـم قاضى القُضاة سِراجُ الدين الهنـدىّ الحَنَفىّ ، وهو يومئـذ مدرِّس البِيدُمريَّة بالقاهرة ، والتاجُ البَزِّى ، والشيخ مبارك الأنْباتِىّ : أن عسكرَ هذا السلطان نحوُ التسعمائة ألِف فارس ، وعنده زُهَاءُ ألفَىْ فِيل يقاتِل عليها ، وخلْقٌ من العبيد تقاتِلُ رَجَّالة مع سَعَة المُلْك والحال ، وكَثْرة الدَّخْل والمال ؛ وشَرَف النَّفْس والإباء ، مع الاتِّضاع للعلمـاء والصُّلَحاء ؛ وكَثْرةِ الإنفاق ، وعَميم الإطلاق ؛ ومعامَلةِ الله تعالىٰ بالصَّدَقه ، وإخراج الكِفَاية للمرتَزِقه ؛ بمرتَّبات دائمة ، وإدْرارات متَّصِـلة ؛ بعـد أنْ حكىٰ عن رسُولَيْـه دميرخوان(1) وافتخار ما قال : إنه لو سكنتِ النفوسُ الى براءتهما من التعصب [فيه] لحكى منه العجائب ، وحدَّث عنه بالغرائب ؛ ثم ذكر أنه أرسل مَرَّة مالا برَسْم الحرمين وبيتِ المَقْـدِس ، وهديةً للسلطان تزيد علىٰ ألف ألف دينار ؛ فقُطِع عليها الطريقُ باليمن ، وقُتِـل مُحضِرُها بأيدى ممـاليك صاحب اليمن ، لأمرٍ بُيِّت بليل ؛ ثم قُتِل قاتلُوه ، وأخذ أهل اليمن المـال وأكلُوه ؛

(1) فى التعريف ص ٤٩ دفترخوان والافتخار .

وكتب عن السلطان إلى صاحب اليمن فى هذا كتاب منه « وقد عددت عليه فعلته » وقيل فيه : « وفعل مالا يليق ، وأمسى وهو يعد من الملوك فأصبح يعد من قطاع الطريق » . وقد سبق فى الكلام على المسالك والممالك من عظيم هذه المملكة وعظم قدر رجالها مافيه كفاية عن الإعادة .(١)

قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إليه رسم المكاتبة إلى القانات الكبار المقدم ذكرهم ، فى هيئة الكتاب وما يكتب به والطغراة والخطبة . وألقابه «المقام الأشرف، العالى، المولوى، السلطانى، الأعظمى، الشاهنشاهى، العالمى، المجاهدى، المرابطى، المثاغرى، المظفرى، المؤيدى، المنصورى، إسكندر الزمان، سلطان الأوان، منبع الكرم والإحسان، المعفى على ملوك آل ساسان، وبقايا أفراسياب وخاقان، ملك البسيطة، سلطان الإسلام، غياث الأنام، أوحد الملوك والسلاطين» ويدعى له . قال : ولم يكتب إليه فى ذلك الوقت لقب ينسب إلى الخلافة نحو «خليل أمير المؤمنين» ومايجرى هذا المجرى، إذ كان قد بلغنا أنه يربأ بنفسه إلى أن يدعى الخلافه، ويرى له فضل الإنافه .

قلت : مقتضى ما ذكره فى "التعريف" حيث قال : إن رسم المكاتبة إليه رسم المكاتبة إلى القانات الكبار فى هيئة الكتاب وما يكتب به، والطغراة والخطبة، أن المكاتبة إليه تفتتح بخطبة مبتدأة بـ«الحمد لله» كما تقدم فى افتتاح المكاتبات إلى القانات . والذى ذكره فى "التثقيف" أن المكاتبة إليه تكون فى قطع البغدادى الكامل بالذهب والأسود، كما جرت العادة به، يعنى فى كتب القانات، إلا أنه جعل رسم المكاتبة إليه : « أعز الله تعالى أنصار المقام ، العالى ، السلطانى ،

(١) فى الأصل وقد سبق القول فى الكلام الخ ولكن زيادة « القول » ضارة .

العالمىّ ، العادلىّ ، المَلَكىّ ،الفلانىّ » . ثم قال : وهذه الألقابُ سطران كاملان وبينهـما بيت العلامة علىٰ العادة ، وبعد السـطرين المذكورينِ فى الجانب الأيمن من غير بياض «أبو المُجاهد محمدُ ابن السلطان طغلقشاه زيدت عظمته» . ولا يذكر لقبه . والدعاء ، والعلامة « أخوه » . وتعريفـه « صاحب الهند » . وقد رأيت تصويره فى بعض الدساتير علىٰ هذه الصورة :

أعــز الله تعــالىٰ أنصـــار المقـــام العـــالى

بيت العلامـــة

الســـلطانىّ ، العـــالمىّ ، العـــادلىّ ، المـــلكىّ ، الفـــلانىّ

قال فى "التعريف" : والعُنوانُ جميعُـه بالذهب وهو سـطران ، وتعريفه « صاحب الهند » . وبقية الكتاب بالسواد والذهب أسوةَ القانات ؛ وبه يُشْـعِر كلام "التعريف" فيما تقدّم .

وهذا دعاء معطوف وصدر يليق به ، ذكره فى "التعريف" وهو :

ولا زال سلطانه للأعداء مُبِـيرا ، وزمانُه بمـا يقضى به من خُلود مُلْكه خبيرا ، وشأنه وإن عَظُم يتدفَّق بحرا ويُرْسِى ثَبِيرا ، ومكانُه ـ وإن جلَّ أن يجلِّبَه مِسْكىّ الليل ـ يملأُ الأرجاءَ أَرَجًا والوجودَ عَبِيرا ، وإمكانه يستكِين له الإسكندر خاضِعًا وإن حاز نَعِيما جَمًّـا ومُلْكا كبيرا ، ولا بَرِحَتِ الملوك بولائه تتشرَّف ، وبآلائه تتعرَّف ، وبمـا تَطْبَعُ مهابَتُه من البيض بِيضِ الهند فى المُهَج تتصرَّف . المملوكُ يخدُم بدعاء يحلِّق إلىٰ أفُقه ، [ويُحِلّ العلياءَ والمَجَرَّة فى طُرُقه](١) ، ويُهْدى منه مايعتدِلُ به التاج فَوْقَ مَفْرَقه ، ويعتدُّ له النَّجمُ ولايَثْنِيه إلَّا وسادة تحتَ مِرْفَقِه ؛ ويسمو إلىٰ مقام جَلَالِه ولا يسأمُ

(١) الزيادة من "التعريف" وهى لازمة .

من دعاء الخير، ولا يَمَلُّ له إذا ملّت النجوم عن السيْر، ولا يزال يَصِفُ ملكَه المحمّدىَّ بأكثر مما وُصف به المُلْكُ السليمانى، وقد قال: وأُوتِينَا من كلِّ شَىْء، وعُلِّمْنا مَنْطِقَ الطير.

قلت: وهذا الدعاء المعطوف مما يؤكد ٱبتداء المكاتبة بالدعاء، خلافا لما تقدّم أنه مقتضى تصوير كلامه فى "التعريف".

وٱعلم أنَّ فى هذه المكاتبة على ما ذكره فى "التعريف" شيئين قد خالف فيهما قاعدةَ المكاتبات عن الأبواب السلطانية.

أحدهما — إتيانه فى "التعريف" فى ألقابه بالمولوى. والثانى — قوله فى الصدر المتقدّم الذكر «المملوك يخدم». فقد ذكر صاحب "التعريف" فى كتابه "عرف التعريف": أن السلطان لا يكتب عنه فى العلامة «المملوك» وإنما خالف القاعدةَ فى ذلك هنا تعظيماً لمقام المكتوب إليه وإعلاءً لرتبته، حيث قال فى أوّل كلامه: إنه أعظمُ ملوك الأرض على ما تقدّم ذكره، فعبَّر عن مقامه بما يليقُ به، وخاطبه بما يليق بخِطَابه، كما تقدّم أنه كان يُكْتَب إلى أبواب الخلافة «المملوكُ» أو «الخادم ينتهِبُ ثرى الأعتاب» أو «يقبِّل الأرض» ونحو ذلك تعظيما لمحل الخلافة، لا سيما وقد تقدّم أن صاحب الهند حينئذ كان يدّعِى الخلافةَ، إلا أنَّ نظام هذا الملك قد ٱختَلَّ ونقَصَ عمَّا كان بموت السلطان محمد بن طغلقشاه حين توفى، وٱستقر مكانه ٱبن خالتِه فَيْرُوز شاه.

ولعل المكاتبةَ التى ذكرها فى "التثقيف" إنما رُتِّبت على حُكْم ما كان فى أيّامه بعدُ[1] ذكر المكاتبة المذكورة، بعد أن ذكر أنَّ محمد بن طغلقشاه مات وقام فَيْرُوز شاه

(١) لعل هذه البعدية برمتها من زيادة الناسخ أو طغيان القلم كما لا يخفى.

مَقَامه ، إلا أنه مثل المكاتبة المذكورة بمحمد بن طغلقشاه ، فاقتضىٰ أن يكون هو المعنىَّ بالمكاتبة . ثم تفرّقتِ المملكةُ بعــد ذلك فى سلطانين ، فيما اخبرنى به بعضُ أهل الهند ، ثم تزايد نقصُها بعد أن غزا[ها] تمرلنك وغَلَب عليهـا ، ثم نزح عنها . وبكل حال فلاينبغِى أن يقصّر بصاحب الهند عن رُتْبة القانات . ولم أقف علىٰ نص مكاتبةٍ كتب بها إلىٰ صاحب الهند فأذكُرَها .

المقصـــــد الثـانى

(من المصطلح المستقرّ عليه الحال من المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية فى المكاتبات إلىٰ ملوك الغرب ، وفيه أربع جمل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى المكاتبات إلىٰ صاحب أفريقيَّة ، وهو صاحب تُونُس ، وتنضم إليها بِجايةُ وقُسَنْطِينةُ تارةً ، وتنفرد عنها أخرىٰ)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ المسالك والممالك نقلا عن "التعريف" أنَّ حدّ هذه المملكة غَرْبا من جزائر بَنِى مِزْغَنَّانَ إلىٰ عَقَبــة بَرْقَة الفارقةِ بين طرابُلُس وبين بَرْقة ، وهى نهـايةُ الحدّ الشرقى ؛ ومن الشام البحرُ(١) ؛ ومن الجَنُوب آخر بلاد الجريد والأرضُ السَّوَّاخة ؛ إلىٰ ما يُقـال إنه موقعُ المدينة المسمّاة بمدينة النُّحاس . ثم قال : وهو أجلُّ ملوك الغرب مطلقا .

وقد تقدّم هُنَاك أيضا ذكر حال مملكتها ومَنْ ملكها جاهليــة وإسلاما ، وأنهـا كانت قبلَ الإسلام بيــد البَرْبَرِ حينَ كان معهم جميعُ المغرِب ، ثم آنتزعها منهم الرُّوم

---

(١) أى الرومى كما تقدم فى ج ٥ أثناء الكلام علىٰ مملكة تونس .

والفَرَنْج إلىٰ أن آنتهتْ حالَ الفتح الإسلامىِّ إلىٰ جرجيس ملك الفَرَنْج فى جملة ممالك المغرِب، ودارُ مُلْكه يومئذٍ سُبَيطَلَةُ، إلىٰ أنْ فُتِحت فى خلافة عثمان رضى الله عنه علىٰ يدِ عبدِ الله بن أبى سَرْح، وتوالتْ عليها نوّاب الخُلَفاء، وصارتْ دارُ المملكة بها القَيْروان حتّى صارَتْ منهم إلىٰ [بنى الأغلب](١) ثم إلىٰ العُبَيْديين بنى عبيد الله المهدىّ؛ ثم الموحِّدين أصحاب المهدىّ بن تُومَرْت، وهى بأيديهم إلىٰ الآنَ. وهى مستقرّة الانَ بيد الحَفْصِيِّين منهم، وهم يدَّعون النسبَ إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب رضى الله عنه فيقولون: أبو حَفْص عمرُ بن يحيىٰ بن محمد بنِ وانُّود بن علىّ بن أحمد بن والّال بن إدريس بن خالد بن اليَسَعَ بن إلياس بن عُمر بن وافتن آبن محمد بن نُجَيه بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. وباعتبار ذلك القائمُون بها من بنى أبى حفص يدَّعُون الخلافةَ، ويُدْعىٰ القائم منهم فى بلاده بأمير المؤمنين، وربّما كاتبه بها بعضُ ملُوك المغرب. قال فى "التعريف": ومن أهل النسب من يُنْكِر ذلك، ويجعلُهم تارةً بنَسبٍ إلىٰ عَدِىّ بن كعب: رهْط عمرَ بن الخطاب دُونَ بنى عمرَ. ومنهم من ينْسُبهم إلىٰ هَنْتاتَةَ من قبائل البربر بالمغرب، وهى قبيلة عظيمةٌ مشهورة.

وهى الآن (إلىٰ حدود الثمانمائة) بيد السلطان أبى فارس عَزُّوز؛ وقد دوّخ البلاد وأظهر العدلَ ورفَع مَنارَ الإسلام. وقد ذكر فى "التعريف" أنَّ السلطان بها فى زمانه كان المتوكِّل علىٰ الله أبو يحيىٰ أبو بكر.

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" أن يُكتَب بعد البسملة. «أما بعد حمدا لله» بخطبة مختَصَرة فى مقتضىٰ الحال، ثم يقول فهذه المفاوضةُ، أو النجوىٰ، أو المذاكَرة، أو المطارَحة، أو ما يجرِى مَجْرىٰ ذلك، تُهْدِى من طِيب السلام (ومن

(١) بيض له فى الاصل والتصحيح مما تقدم فى ج ٥ ص ٢٢.

هذا ومثله) إلىٰ الحضرةِ الشريفة ، العليّــة ، السنية ، السريّة ، العاليّة، العادليّة، الكامليّة ، الأوحدية ، حضرة الإمارة العدَويَّة ، ومكان الإمامة القُرَشِـيَّة، و بقية السُّلالة الطاهرة الزكيَّة، حضرة أمير المسلمين، و زعيم الموحِّدين، والقائم فى مصالح الدنيا والدين، السلطانِ السـيِّد الكبير، المجاهِد، المؤيَّد، المرابط، المثاغِر، المظفَّر المنصور، المتوكِّل على ربه، والمجاهد فى حبِّه، والمناضل عن الإســلام بذَبِّه، فلان ويُدْعىٰ له بما يناسب مختصَرا، ثم يذكر مايليق بكرم الجُدُود .

⁂

صدر آخر — من "التعريف" أيضا :

صــدرت إليه تُهدى إليه من طِيبِ السلام ما ترِقُّ فى جانبــه الغربِيِّ أصائِلُه، و يَرُوقُ فيما يَنْصَبُّ لديه من أنهار النَّهار جَداوله، ويحملُه لكلِّ غادٍ ورائح، وتجرى به السُّفُن كالمُدُن والركائبِ الطَّلائح ،وتخصُّ ذلك المقرّ منه بثناء يعِزُّ لأن يُنِيبَ لبُعْده الدار، ويستطْلِـع ليلُ العِرَاق به من فَرْق أفْرِيقيَّة النهار ، وتحامِى مِصرُ عن جارتها المَنَّعه، وتَفْخَر بجاريَتِها الشمس التى لا تُرىٰ فى أفُقِها إلا مُبرْقَعه .

ولم يذكر فى " التعريف " قَطْع الورق، ولا العُنْوان ، والخاتمة، والعلامة، ومافى معنىٰ ذلك . والذى ذكره فى " التثقيف" أنَّ رسم المكاتبة اليه فى قطع الثلث بقَلَم التوقيعات ، نظيرُ ماكُتِب به لصاحب فاس ؛ وهو أن يكتَب بعـد البسملة بحيث يكون تحتها سواءً فى الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله « عبدُ الله ووليُّه » ثم يخلّٰى مقدارُ بيت العلامة ؛ ثم تكتب الألقـابُ الشريفة من أوّل السطر مسامتًا للبسملة . وهى «السلطانُ ، الأعظمُ ، المـالكُ ، المَلِك ، الفلانىُّ ، السيدُ ، الأجلُّ ، العــالمُ ، العادلُ ، المؤيَّد ، المجاهد ، المرابِط ، المثاغِر ، المظفَّر ، الشاهنْشاه ـ وهــذه

تختصر غالبا ـ ناصرُ الدُّنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدلِ فى العالمين ، مُنْصِف المظلومين من الظالمين ، وارثُ المُلْك ، سلطانُ العرَب والعجَم والتُّرْك ، فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأقالِيم والأمْصار ، إسكَنْدَرُ الزَّمان ، مُولِى الإحسان ، جامعُ كلمة الإيمان ، مُملِّك أصحابِ المَنَابر والتُّخُوت والتِّيجان ، ملكُ البحرين ، مسَلِّك سبِيل القبلتين ، خادم الحَرَمين الشريفين ، ظلُّ الله فى أرضه ، القائم بسُنَّته وفَرْضه ، سلطان البسيطة ، مؤمِّن الأرض المُحِيطة ، سيِّدُ الملوك والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ، أبو فلان فلان ، ابن الملك الفلانى فلان الدين والدنيا » ويرفع فى نسبه إلىٰ منتهاه «خلَّد الله سلطانَهُ ، ونصَرَ جيوشَه وأعوانَه . ويجتهد أن يكون «وأعوانه» آخرَ السطر أو قريبًا من آخره . قال : والواجبُ بدل ولىّ أمير المؤمنين قَسِيم امير المؤمنين ، ثم يقول : يخُصُّ الحضرةَ ، العاليةَ ، السَّنِيَّة ، الشَّرِيفة ، الميمُونة ، المنصُورة ، المصُونَة ، حضرة الأميرِ العالم ، العادل ، العابِد ، المؤيَّد ، الأوحد ، فلان ، ذُخْر الإسلام والمسلمين ، عُدّة الدنيا والدِّين ، ناصر الغُزاة والمجاهِدين ، سيِف جماعةِ الشاكرين ، صَلَاح الدول ، والدعاء بإهداء السلام والشكر . ثم بعد حمدِ اللهِ بخُطْبة مختَصَرة جِدًا ، فإنا نوضِّح لعلمه الكريم ، وتعريفه «صاحب تونس» .

قلت : وخطابه بالإخاء .

وهذه نسخة كتاب كتب بها عن الظاهر "برقُوق" من إنشاء عَلَاء الدين ، وهى

بسم الله الرحمن الرحيم :

من عبد الله ووليِّه .

السلطانِ الأعظم المالك ، المَلِك الظاهِر ، الأجلِّ العالِم العادِل ، المجاهِد المرابِط ، المثاغر المؤيَّد ، المظفَّر ، سيفِ الدُّنْيا والدِّين ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ،

مُحيي العدْل فى العالَمين، مُنْصِف المظلومين من الظالمين، قامع الخوَارج والمتمرِّدين؛ وارث المُلْك، مَلِك ملوك العَرَب والعَجَم والتُّرْك، مُبيـد الطُّغاة والبُغاة والكُفّار، مملِّك الممالك والأقاليم والامصار؛ إسكَنْدرِ الزمان، ناشِر لواء العدْل والإحْسان؛ مليك أصحاب المَنابِرِ والأسِرَّة والتُّخُوت والتِّيجان؛ مالكِ البحرين، صاحبِ سُبُل القِبْلتين، خادمِ الحرَمين الشريفين؛ ظلِّ الله فى أرضه، القائم بسنَّته وفَرْضه، سلطانِ البسيطه، مؤمِّن الأرض المحيطه؛ سيدِ الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين؛ «أبى سـعيد بَرْقُوق» خلد الله سلطانَه، ونصر جُنُودَه وأعوانَه، وأفاض على العباد والبلاد جُودَه وإحسانَه؛ تحيـــةٌ تتأرَّج نَفْحا، وتتبلَّجُ صُبْحا؛ وتَطْوِى بعَرْفها نَشْرَ الخُزامىٰ، وتعيدُ ميِّتَ الأشواق حَيًّا إذا ما؛ تخُصُّ الحضرةَ العلية، السنيَّة السرِيّة؛ المظفَّرة الميمُونه، المنصورةَ المَصُونه؛ حضرةَ الأميرِ العالم، العادلِ، المجاهِدِ، المؤيَّد، الأوحد؛ ذُخْرِ الإسلام والمسْلمين، عُدّةِ الدنيا والدين، قدوة الموحِّدين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، سيفِ جماعةِ الشاكرين، صلاحِ الدول، المتوكِّل على اللهِ أحمد، ٱبن مولانا الأميرِ أبى عبـدِ الله محمد، ٱبن مَوْلانا أمير المؤمنـين أبى يحيىٰ أبى بكر، ٱبن الأمراء الراشـدين، أعَزَّ الله دولتـه وأذَلَّ عُدَاتَه، وأنجَزَ من صُعُود أوليـائه وسُعود آلائِه صادَق عِدَاتِه .

بعدَ حمد اللهِ جامعِ الشمل بعد تَفْريقه، راتقِ خَلَل المُلْك عند تمزيقه؛ والشهادة بأنْ لا إله إلا هو مُبيدُ الباطل بحقِّ سِرِّه وسِرِّ تحقيقه؛ والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِهِ ورسولِه موضِّح سبيلِ التوكُّل على الله وطريقه . وإهـداءِ سلامٍ ما الزَّهَرُ بأعبقَ من فَتِيقه، وثناءٍ ما الروضُ بأعطرَ من خَلُوقه؛ فإننا نُوضِّح لعلمه الكريم أنَّ كتابه الكريم ورَدَ وُرُودَ السِّنة علىٰ الجَفْن الساهر، أو المُزْنة علىٰ الروض الزَّاهر؛ أو الزُّلَال علىٰ الأُوَام؛ أو البُرْء علىٰ السِّقام؛ فمدَدْنا إليــه يَدَ القَبول، وٱرتَحْنا له ٱرتياحَ الشمائل

إلى الشَّمول، ومِلْنا إلى مُفَاكَهته مَيْلَ الغُصُون إلى الرِّياح، وامتزجنا بمُصافاتِه آمتزاجَ المـاءِ بالراح؛ وفَضَضْنا خِتامَه عن فِضِّيِّ كَلَامـه، وذهبْنا إلى ذَهَبِيِّ نِثاره ونِظَامه؛ وتأمَّلناه تأمُّلا كلُّ نَظرٍ عبـدُه وخادِمُه، ووَقَفْنا عليـه وُقُوف شَحِيحٍ ضاعَ فى التُّرْب خاتَمُهُ؛ ونظَمْنا جواهِرَ آعتباره فى قلائِدِ الأفكار، وصَبَوْنا إلى آخْتباره كما صبَتِ النُفُوسُ إلى الآدِّكار؛ وفتحْنا له جُهْد الطاقةِ بابًا من المحبة لم يُغْلَق، ونُقْسم بمَنْ خَلَقَ الإنسانَ من عَلَق أنَّها بغيرِ قُلوبِنَا لم تَعْلَق؛ فإذا سطورُه جنودٌ مُصْطَفَّه، أو قِيَانٌ بها الحِسان محتَفَّه؛ وإذا رقْمُه طِرَازُ حُلَّه، أو عَقْدٌ شدّه البَنانُ وحَلَّه؛ وإذا لفْظُه قد رَقَّ وراق، ومَرَّ بالأسمـاع فملأ بحَلَاوتِه الأوْراق؛ وإذا معنـاه ألطَفُ من النَّسِيم السارِى، وأعذَبُ مَذَاقا من المـاء الجارِى؛ وإذا سَجْعه يفوقُ سَجْع الحَمَائم، ويُزْرِى بالرَّوْض الضاحك لبُكَاء الغَمَائم؛ وإذا سلامُه قد حيَّتْه الأَزَاهِر، وطوى بعَرْفه نَشْرَ الروض الزَّاهِر؛ وإذا هَناؤُه قد ملَكَ عِنانَ التَّهانى، وآستَمْطَر عَنَانَ الأمانِ من سَمـاء الأَمَانِى؛ فعبَّر لنا لفظُ عَبِيره عن معْنى المحَبَّه، وقرَّب شاسِعَ الذِّكرِ وإنْ بعُـد المَدى بينَ الأحِبَّه؛ وأقام شاهِدَ الإخاء على دعوى الإخلاص فقبِلْناه، ونادى مُطِيعَ المودَّة فاستَجَبْنا له ولبَّيناه؛ سَقْيًا له من كتَاب غُذِّى بِلبان الفَصاحه، وجرى جوادُ التَماحه من مِضْمارِ المَلَاحه؛ لاعيبَ فيه، سِوى بلاغةٍ فيه، ولا نقْصَ يعتريه، سِوى كمالِ باريه؛ لعمرى لقد فاق الأواخِرَ والأوائل، فمـا أجدرَ كلامَه بقول القائل :

وكَلَامٍ كدَمْعِ صَبٍّ غَرِيبٍ * رَقَّ حَتّى الهواءُ يَكْثُفُ عِنْده!
راق لَفْظًا ورَقَّ معنًى فأضْحى * كُلُّ سحرٍ من البَلَاغة عَبْـدَه!

لله دَرُّه من كتَابٍ حلَب دَرَّ الأفراح، وجدّدَ من أثوابِ المَسَرَّة ما كان قد أخلقَتْه يَدُ الأتْراح؛ فَهِمْنا معناه فهِمْنا، وشرحْنـا متْنَ فَحْواه فانشَرَحْنا؛ وعلمنا ما آتَّصل

بسمعكم من خبرنا العجيب ، وحديث أمرنا القديم الغريب ، الذى أظهر فينا لله أسرارا ، وكتب لنا منه عناية كبت بها أشرارا ، جلّ جلاله خافض رافع ، معلى بحكمته واضع ، سبحانه أوجد بعد العدم وأنسى ثم أنشا ، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ ، كسر وجبر ، وقرن المبتدأ بالخبر ، وهب ما كان سلب ، وجعل لصبرنا حسن المنقلب ، أعادنا إلى الملك مع كثرة الأعداء وقلّة الأنصار ، وأظهرنا بعد الخفاء فاعتبروا يا أولى الأبصار ، وأبرز إبريزنا بعد السّبك خالصا يروق الناظر ، ويفوق رونقه وجه(١) الروض الناضر ، فاعلموا أنّ لله فى ذلك سرّا خفيا ، لم يزل ببركة رسوله صلّى الله عليه وسلم بنا حفيا ، قمتم لنا فيه بواجب الهنا ، وأحاط بنا طولكم الطويل من هاهنا وهاهنا ، فاستجلينا من كتابكم عرائس بشراه ، وحمدنا عند صباح طرسه ليل مسراه ، وشكرنا له هذه الأيادى التى تقصر عنها الأيدى المتطاوله ، وثنينا إليكم عنان الثناء الذى فاق بمخايله الروض الأريض وخمائله .

ولمّا تمثل إلينا رسولكم المكرّم ، وصاحبكم الكامل المعظّم ، ذو الأصل الطاهر ، والنسب الباهر ، والرأى السّديد ، والبأس الشديد ، فلان : لازال على مقامه حسنا ، وجفن علمه لايبعث الجهل عليه وسنا ، فأبدى إلينا مافى وطابه ، وأثلج الصّدور بحكمة فضله وفصل خطابه ، وأخذ يجاذبنا عنكم أطراف الأحاديث الطيّبه ، ويرسل علينا من سماء محبتكم مزنها الصّيّبه ، وأطربنا بسماع أخباركم ، ونصر أعوانكم وأنصاركم ، ونبّه على ما أودعه كتابكم ، وتضمّنه من النّصرة خطابكم ، ودوس جنودكم جزيرة «غودش» وعودهم بالمنّ والمنح ، وتلاوتهم عند الانتصار ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وقفولهم متفيّئين من الجهاد بظلّه ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، بعد أن نعقت منهم على الكفّار الغربان ، واقتنصت الرجال آجالهم اقتناص العقبان ، وجاءتهم كالجبال

(١) لعله "حسن الروض" .

الرَّواسى ، وظَفِرت بهــم أظافيرُ الرُّماة ومخالِبُ المَراسى ؛ وغنَّتْ عليهم أوتارُ القِسِىّ فأرقصَتْ رءوسَهم على الضَّرْب ، وسقَتْهم كُئُوسَ الرَّدىٰ مُتْرَعةً ونعم هــذا الشِّرْبُ لأولئك الشَّرْب ؛ وأعادتِ المسلمين بالغنائم إلىٰ الأوطان بعد نيل الأوْطار ، وبشَّرت الخواطرَ بما أقرّ العُيونَ من النَّجاح والنَّجاة من الأخطار ؛ هذا والعدُوّ المُلْقِى السَّلَم عند الجِهاد ، جِىءَ بهم مقَرَّنينَ فى الأصْفاد ؛ يالَهَــا غَزاةً أشرق نُورُها كالغَزاله ، وأشرق يومُ إسلامها على ليل الكُفْر فأزَالَه ؛ وتولَّدمنها الجهــادُ فلا يرىٰ بعدها إن شاء الله عقيما ، وتلَا لسانُ الشَّوقِ إليه ﴿ يالَيْتَنِى كُنْتُ معَهُمْ فأفُوزَ فوزًا عَظِيما ﴾ . لا زالتْ رقَابُ الأعداء لأسيافكُمْ قِرابا ، وغزَواتُكم الصالحةُ تُنيلكم من الله أجْرا وثوَابا .

ولمـا عُرِضتْ علينا من جُودكم عنـد العَشِىّ الصافِناتُ الجِيَـاد ، وحَلَّينا منهـا بقلائدِ مَنِّها الأجياد ؛ نُقْسم لقد حَيَّرتنا ، ألوانُها إذ خيَّرتنا .

فمن أشهَبَ ـ كأنَّ الشُّهُب له قَنِيصه ، أو الصَّباحَ ألبسه قميصَه ؛ أو كأنمـا قُلِب من اللُّجين فى قالَب البياض ، وسُقِى سوادُ أحداقِه أقداحَ الرَّباحة من غير حياض .

ومن أدهَمَ ـ كأن النِّقْس لمسه فى مِدَاده (١) ، أو الطَّرْف أمدّ طرفه بسَوَاده ؛ أو كأنما تَقَمَّص إهابَ الليل ، لَمَّـا طاع عليه بِحُرُ غُرَّته فولّى مشمِّر الذيل .

ومن آحمر ـ كأنما صِيغَ من الذهَب ، أو كُوِّن من النار واللَّهَب ؛ أو كأنَّ الشَّفَق ألقىٰ عليه قميصَه ثم أشْفق ، أو الشَّقيقَ أجرىٰ عليه دمعه دمًا وجَيْبَه شقَّق .

ومن أشْقَر ـ كأنمـا أُلْبِس ثوبَ الأصيل ، وبَشَّر السرِيَّةَ يُمْنُ طَلْعته بالنصر والتحصيل ؛ أو كأنَّ النُّضار كساه حُلَّةَ العُشَّاق ، وقد آدّرَعُوا بأسواق المحبّة مَطارِفَ الأشواق ؛

(١) لعله غمسه فتأمل .

ومن أخضرَ ـ كأنما تلفّع من الروض الأريض بأوراقه، أوصُبِغَ بالعِذار المخضرّ وقد شُقّتْ عليه مرائرُ عُشّاقه؛ أوكأنّما الزُّمُرُّد تلوينُه، أومن شاربِ الشادنِ تكوينُه؛ كلٌّ بِطرْف منها يسبِقُ الطَّرْف، ويروقُ الناظرَ بالحُسْن الناضِر والظَّرْف؛ تُقامُ به حُجّةُ الإعراض وهو باعترافِ ممتَطِيه قادرملى، وينصب إلىٰ الادراك حسنَ السير كجُلْمُود صَخْرٍ حَطّه السَّيْلُ من عَلِ ـ فأسرَجْنا[(١)] لها جواد القَبُول، وآمتطَيْنا منها صَهوةَ كلِّ مأمول؛ وأعدَدْناها مَرَاكب لمَوَاكب، ولليلِ المهمّات الواقعة بُدورًا وَكواكِب؛ وأطلَقْنا أعِنّةَ شُكْرها فى ميادينِ المَحامد، وطَفِقْنا نُرَجِّع ذكرها بين شاكرٍ وحامِد.

مكاتبة وزير تونُس

رأيت فى الدستور المنسوب للمقرّ العلائىّ بن فضل الله أنه كتب إلىٰ أبى عبد الله آبن بعلاص.

صدرَتْ هذه المكاتبةُ الى [(٢)] الشَّيْخىّ، الكبيرىّ، العالِمى، الفاضلىّ، الأوْحَدىّ، الأكْمَلىّ، الأرشَـدى، الأمجدىّ، الأثيرىّ، البليغىّ، الفلانى؛ مجدِ الإسلام، بهَاءِ الأنام، شرفِ الفضلاء، زينِ العلماء، نجل الأكابر، أوْحدِ الأعيان، بركة الدَّوْلة؛ صَفْوة الملوك والسلاطِينِ؛ (ويدعىٰ له بما يناسبه). وتوضِّح لعلمه المبارك كيت وكيت؛ ولم يذكر قطع الورق ولاالعلامة ولا التعريف. والذى يظهر أنّ قَطْع الورق العادة، والعلامة «أخوه». والتعريف «وزير تُونُس».

---

(١) الظاهر أن هذا هو جواب لما عرضت قد قرن بالفاء وهو جائز بعد لما وحتى اذا تأمل.

(٢) بياض بالأصل والظاهر أنه "إلىٰ المجلس الشيخىّ الخ".

الجملة الثانية

(فى مكاتبة صاحب الغَرْب الأوسط ، وهو صاحبُ تِلِمْسانَ)

وقد تقدّمَ فى المقالة الثانيـة فى الكلام على المَسَالك والمَمَالك الكلامُ علىٰ هـذه المملكة ومَنْ ملكها جاهليَّةً وإسـلامًا ، وهى الآنَ بيد بَنِى عبـد الوادِ من زَناتةَ من قبائل البربر ـ والقائمُ بها الآنَ منهم إلىٰ حدود الثمانمائة من الهجرة هو السلطانُ أبو زَيَّان ، ابنُ السلطانِ أبى حَمُّو : موسىٰ بن يوسُفَ ، بن عبد الرحمن ، بن يحيىٰ ، آبن يَغْمَراسِن ، بن زَيَّان ، بن ثابت ، بن محمد ، بن ركدار (1) ، بن تيدوكس ، بن طاع الله ، آبن علىّ ، بن القاسم ، بن عبد الواد .

قلت : وذكر هـذه المملكةَ فى " مسالك الأبصار " مضافةً إلىٰ مملكة فاس : لِانضمامها حينئذٍ إليها فى مملكة السلطان أبى الحسن المَرِينىّ : صاحب فاس فى زمانه ، ولذلك لم يذْكُر لصاحبها مكاتبةً فى "التعريف" . على أنِّى رأيت من صاحبها موسىٰ آبن يغمراسن مكاتبةً إلىٰ الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب مصر . وسيأتى إيرادُها فى جملة المكاتباتِ الواردةِ إلىٰ هذه المملكة . وذكر صاحب "التثقيف" أن صاحبها فى زمانه فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسـين » أى سلطانَهَا يومئذ أبو حفص عمرُ بن أبى عمران موسىٰ ، وأن المكاتبة إليه مثلُ المكاتبة إلىٰ صاحب تونُس المقدّم ذكره علىٰ السواء . وذكر أنه كتب ذلك إليه ورأىٰ جماعةَ كُتَّاب الإنشاء يكتُبونه ، وكذلك رأيته فى الدُّسْتور المنسوب إلىٰ المقرّ العلائى بن فضلِ الله ، ولم أظْفَر بصورة مكاتبةٍ فأذْكُرَها .

---

(1) فى " العبر " ج ٧ ص ٧٥ زكراز وحرر .

الجمـــلة الثـالثة

(فى المكاتبة إلىٰ صاحب الغَرْب الأقصىٰ)

وهو صاحبُ فاس، وتعرف مملكته ببَرِّ العُدْوة . وقد تقدّم الكلامُ علىٰ مملكتها وأحوالهـا ومَنْ ملَكها جاهليَّةً وإسـلامًا فى المقالة الثانيـة فى الكلام على المسالك والممالك ، وأنها الآنَ بيد بَنِى عبد الحق من بَنِى مَرِينٍ من زناتَةَ من قبائل البربر، وأنها الآنَ بيدِ السلطان أبى فارسٍ عثمانَ، ٱبنِ السلطان أبى العبّاس أحمد، ٱبنِ السلطان أبى سالِمٍ إبراهيمَ ، ٱبنِ السلطان أبى الحسن علىّ ، ٱبنِ السلطان أبى سـعيدٍ عثْمانَ ، ٱبن السلطان أبى يوسفَ يعقوبَ، ٱبن عبد الحق، بن محيُو، بن أبى بكر، بن حَمَامةَ، ٱبن محمد ، بن ورصيص(١) ، بن فكُّوس ، بن كوماط، بن مَرِيـن ، بن وَرْتاجن، ٱبن ماخُوخ، بن وحريج(٢)، بن قاتن، بن بدر، بن نجفت، بن عبد الله، بن ورتبيص، ٱبن المعز، بن إبراهيم ، بن رجيك ، بن واشين ، بن بصلتن، بن شرا(٣) ، بن أكيا ، ٱبن ورشيك، بن أديدت، بن جانا، وهو زناتة .

وقد ذكر فى "التعريف" أن السلطنة فيهم فى زمانه فى الدولة النـاصرية «محمد بن قلاوون» صاحب مصر كانت فى السلطان أبى الحَسَن علىّ بن عثمان المقدّم ذكره . ثم قال : وورِث هذا السلطانُ مُلْكَ العزفِيِّين بسَبْتةَ، وملَكَ بنى عَبْد الواد بتِلِمْسانَ ، وأطاعه ملِكُ الأندَلُس ، ودانَ له ملِكُ أفريقيَّة ، وعرض عليـه ٱبنته فتزوَّجها ، فساقها إليـه سَوْقَ الأمَة . ثم قال : وبنو مَرِينٍ رجالُ الوغىٰ وناسُها ،

(١) تقدم فى ج ٥ ص ١٤٤ "ورزيز" .
(٢) تقدم "جديج" .
(٣) تقدم "ورمشد" .

وأبطالُ الحربِ وأحلاسُها، وهم يفخَرون بغَزارة علمه وفضْل تقواه . قال: وهو اليوم ملِكُ ملوك الغرب، ومُوقدُ نار الحرب .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" بعد البسملة :

من السلطان الأعظم الملك الفلانى، إلى آخر الألقاب المذكورة فى المكاتبة لصاحب تونُس، إلى قوله ونصر جيوشَه وجنودَه وأعوانه . ثم يقول: تحيَّةٌ يفتَتِح بها الخِطاب، ويقدّم منها ما زكا وطاب؛ وتقال هنا سَجعاتٌ مختصرة نحو أربع أو خمس، يُخَصُّ بها الحضرةَ الشريفة العلية، الطاهرة الزكيَّة، حضرةَ المقام العالى، السلطان، السيد، الأجلّ، العالم، العادل، المجاهد، المرابِط، المثاغِر، المؤيَّد، المظفَّر، المنصور، الأسرى، الأسنى، الأزكى، الأتقى؛ [المجاهد فى الله](١) المؤيَّد على أعداء الله؛ أمير المسلمين، قائد الموحِّدين، مجهِّز الغُزاة والمجاهدين، مجنِّد الجنود، عاقد البُنود، مالِئ صدور البَرارِى والبحار، مُزَعْزِع أسِرَّة الكُفَّار، مؤيِّد السنة، معِزّ الملة، شَرف الملوك والسلاطين، بقِيَّة السَّلَف الكريم، والحَسب الصَّميم، رَبيبِ المُلْك القديم، أبى فلانٍ فلان بن فلان . ويرفع نسبه إلى عبد الحق وهو أول نسبه . ويقال: فى كل منهم: أمير المسلمين أبى فلان فلان؛ ثم يُدْعى له: نحو أعز الله أنصاره أو سلْطانَه أو غير ذلك من الأدعية الملوكية بدعاء مطوَّل مفخَّم .

ثم يقال: أما بعدَ حمد الله، ويخطُب خُطبة مختصرة . ثم يقال: أُصدِرتْ إليه، وسُيِّرت لتُعْرَض عليه، لتهدِىَ إليه من السلام كذا وكذا . ثم يقال: ومما تبديه كذا وكذا .

صدر: يليق بهذه المكاتبة — تُهْدى إليه من السلام مايطْلُع عليه نهاره المُشْرِق من مَشْرِقه، ويحييه به الهلالُ الطالع من جانبِه الغَرْبىّ على أُفُقه؛ وتَصِف شَوْقا أقام

(١) زدناها من "التعريف" .

بين جَفْنَيْه والكَرَىٰ الحَرْب ، ووِدَادا يَملأ برسله كلَّ بحر و يأتى بكل ضَرْب ، وثناءً يُستَرْوَح بنسيمه وإن كان لا يستَرْوَح إلا بما يَهُبُّ من الغرب ، مقدِّمةً شكْرا لما يبهَـر من عَزَماته التى أعزَّتِ الدين ، وغَزتِ المُلْحدين ، وحلَّقتْ على مَنْ جاورها من الكُفَّار [تحليق](١) صُقور الرجال علىٰ مُسِفَّة الغِرْبان ، وتُقيم عند الشجاع عُذْرَ الجبان ، وتبيِّن آثارَها فى أعناق الأعداء وللسُّيوف آثارُ بيَان ، وإن كان فعلُه أكثرَ مما طارَتْ به الأَخْبَـار ، وطافَتْ به مُخَلَّقات البشائر فى الأقطار ، وسار به الحجيجُ تعْرِف آثارَه عَرَفات ، وصارت تَستَعْلِم أخبارَه وتندُبُ قبل زمانِه مافات .

والذى ذكره فى "التثقيف" أنه كان السـلطان فى زمانه فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون» عبدالعزيز بن أبى الحَسَن علىّ المقدّم ذكره ، وذكر أنَّ المكاتبة اليه فى قطع النِّصف ، وأنه يكْتَب تحتَ البسملة فى الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله « عبْدُ الله ووَلِيُّه» ثم يخلَّى بيت العلامة ، ثم تكْتَب الألقابُ السلطانيةُ فى أوّل السطر مسامتًا للبسملة «السلطانُ الاعظمُ الملك الفلانى» إلى آخر الألقـاب السلطانية المـذكورة فى المكاتبة إلى صاحب تونس ، إلى قوله : ونصر جُيوشَه وأعوانَه . ثم يقول : تخُصُّ المقـام العالى ، السلطان ، الملك ، الأجلَّ ، الكبيرَ ، المجاهدَ ، المعاضدَ ، المرابطَ ، المثاغر ، المُكَرَّم ، المعظَّم ، المظَفَّر ، الموقَّر ، المؤيَّد ، المسَدَّد ، الأسعد ، الأصعد ، الأرشَدَ ، الأنْجَدَ ، الأوحَدَ ، الأمجد ، البَهِىّ ، الزَّكِىّ ، السَّنِىّ ، السَّرِىّ ، فلان ، أمير المسلمين ٱبن أبى فلان فلان ، إلى عبد الحق المَرِينِى . والدعاء بما يُناسب ذلك المقـام ، ثم أمَّا بعـد حمـدِ الله ، بخطبـة لطيفة ، فإنا نُفاوِضُ علمه الكريم ونحو ذلك . وأكثرُ مخاطبته بالإخاء وتُختَم بالدعاء ،

(١) زدنا هذه الكلمة وان لم تكن فى الاصل ولا فى التعريف لما لايخفى من لزومها لصحة الكلام .

والعلامة «أخوه» وتعريفه « مَلِك الغرب » . وفى الدستور العلائى أنّ الطلَب منه بالمستمدّ، ويختم باستعراض الحوائج والخِدَم مكمّلا بالدعاء .

وهذه نسخة كتابٍ من الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلى السلطان أبى الحسَن المَرينىّ، فى جوابِ كتابٍ ورد عليه منه وهى :

عبدُالله ووليّه ، السلطان الملكُ الناصر ، ناصرُ الدنيا والدين ، سلطانُ الإسلام والمسلمين ، محْيي العدل فى العالمين ، مؤمِّن أولياء الله المؤمنين ، ظلُّ الله الممدود ، ومُيَسِّر السُّبُل للوُفُود ، حامِي القبلتَيْن بحُسَامه من أهل الجحود ، وخادمُ الحرمين الشريفين متَّبِعا للسنة الإبراهيمية فى تطهير بيت الله للطائفين والعاكِفين والرُّكَّع السُّجُود، والقائم بمصالح أشرف روضة وطِيبُه يعطِّر طيبَها فى الوجود، ولىّ أمير المؤمنين جمعَ الله به كلمة الإسلام بعد الآفتراق ، وقمَع برُعْبه أهلَ العناد والشِّقاق، وأوزعه شُكْرَ نعم الله التى ألَّفتْ على وَلَائه قلوبَ ملوكِ الآفاق ، وأمْتَعه بها مِنحةً صيَّرت له الملك بالإرث والآستِحْقاق ، وسَيَّرت كواكبَ مناقبِهِ فلها بالمَغَارب إضاءةٌ و بالمشارق إشراق. ٱبن السلطانِ السعيدِ الشهيدِ الملك المنصور، سيف الدنيا والدين ، سقىٰ الله عهدَه عِهادَ الرحمة ذواتِ إغْراق، وأبقىٰ مجدَه بمحمَّده الذى للأمة المحمدية علىٰ تعظيمه إجماعٌ وعلىٰ تقديمه ٱتِّفاق ، يخُصُّ المقام العالىَ ، الملكَ الأجَلَّ الكبيرَ، المجيرَ، العاضدَ، المُثاغِر، المظاهِر، الفائز، الحائز،المنصُور، المأثور، الفاتح ، الصَّالح ، الأمْكن ، الأصْوَن ، الأشْرف ، الأعْرَف ، الكريمَ، المعظمَ، أبَا الحسن علياً أميرَ المسلمين ، ٱبنَ السلطان السعيد ، الحميد ، الطاهر، الفاخرِ، الماهِد، الزاهِد، الأورع، الأرْوَع، أمير المسلمين، أبى سعيد عثمان، ٱبن السلطان، السعيد، الرَّشيد، السابِق، الوامق، الجامِع، الصادِع، أمير المسلمين

أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، ناظم مُفَرَّق الفَخَار ، وهازِم فِرَق الفُجَّار ، والملازِم لإحياء سنَّة الجهاد المتروكةِ فى الأقطار ، حتّى يجمع فى ملكه أطرافَ الغرب الأقصىٰ للاَّستيلاء والإِستظهار ، ويُخْضِع لفَتْكه كلَّ متكبِّر جَبَّار ، ويُرصِّع فى سِلْكه ماتأبَّى وصَعُب من تلك الديار ، ويرفَع لنُسُكه أعمـالاً من الجهاد والاجتهاد تَسُرّ الحفَظةَ الأبرار ، يظْهَر فيها لبرَكة الاسم العَلَوىّ من نَشْر الهدىٰ ، وقَهْر العِدا ، أوضَحُ الأدلَّة وأبيَنُ الآثار ، ويُؤْثِر سلطانَنَا المحمدىَّ من عَلِيّ عَزْمه ، وحمِيّ حَزْمه ، بأعزّ الأعوان والأنصار ، فتَظْفَر دارُ الإسلام من قومه بمهاجرين من أبناء البلاد يَقَرُّ لهم بأمّ القُرىٰ قَرَار ، ويَسِير سِوَاهم للبيت ذِى الحَجَر والحِجْر والباب والمِيزاب والمُلْتَزَم والجدار والأستار ، بسلام مُشْرِق الغُرَر ، مُونَق الحِبَر ، وثناءٍ مع رَيَّاه لا يُعْبأ بالعَبِير مع نَشْره ولا يعتَبَر ، ووِدَاد مُخْفِيّ الخبر ، واعتـدادٍ يطُول منه فى ألسِـنَة الشكر عن إحصائه واستِقْصائه قِصَر ، وإيرادٍ لمَفَاخره التى سارتْ بها الأخبار والسِّير ، واعتقادٍ لمآثِره التى سبق عثمانُها إلى إحراز مَزَايا الفضل وجاء عَلِيُّها علىٰ الأثَر .

أما بعـــدَ حمدِ الله الذى أمر أوْلياءَه المؤمنين بالمُعاونة والمُظَافره ، ونَهىٰ عبـادَه الصالحين عن المباينةِ والمُنافَره ، ورعىٰ لحُجَّاج بيتـه حرمةَ القَصْـد وكتب لهم أجر المهاجَره ، ودعا إلى حَرَمه ، من أهَّله من خَدَمه ، فأجابه بالتلبية وأثابَهُ وآجَرَه . والشهادة له بالواحدانِيَّة التى تُسْـعِد بمصاحبة المصابره ، وتُصْـعِد إلى الدرجات الفـاخره . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذى المَنَاقب الباهره ، والمواهب الزَّاخره ، والمراتب التى منهـا النُّبوّة والرسالةُ فى الدنيا والوسـيلةُ والشفاعةُ فى الآخره ، وعلى آله وصَحْبه الذين أفنىٰ الله الشركَ بصَوَارمهم الحاصدةِ وأدْنى القَتْـلَ بعزائمهم الحاضره ، صلاةً إلىٰ مظانّ الرِّضوان متواتِره ، ماربحتْ وفودُ مكةَ البركةَ الوافره ، ووَضَحتْ لقاصدى الكعبة البيت الحرام أوجهُ القبول سافره .

فإنه ورد - أورد الله تعالى البُشرىٰ على سمعه ، وأيَّد اهتمامه بتأليف شَمْل السَّعْد وجمعه - من جانبه المُكَرَّم ومَعْهَده ورَبْعه ، كتابٌ كريم نسبُه ، فخيم أدبُه ، علىٌّ منْصبه ، مَلِىٌّ إذا أخلف السَّحابُ بما يَهَبُه ، سَرِىٌّ سَرَتْ إلىٰ بيتِ الله وحَرَم رسوله القريب قُرَبُه ، على يد رسوله : الشيخِ الأمينِ الأزكىٰ ، الأوْرَع الأتقىٰ ؛ الخطيب البليغ ، المدرِّس ، المفيد أبى إسحاق ابنِ الشيخ الصالح أبى زيد ، عبدِ الرحمن بن أبى يحيىٰ ، نَفَع الله به ؛ وحاجبه الكبيرِ المختارِ ، المرتضىٰ ، الأعزّ ، أبى زَيَّان عريف ابن الشيخ المرحوم أبى زَكَرِيَّا ، أيده الله تعالى ؛ وكاتِبِه الأمجد الأسعدِ أبى الفضل ابن الفقيه المُكَرَّم أبى عبد الله ، بن أبى مَدْيَنَ ، وفقه الله تعالىٰ وسدّده ، ومَنْ معهم من الخاصَّة والزعماء والفُرْسان الماثِلين فى خدمة الجهة المصونةِ بلَّغها الله أرَبَها ، وقَبِل قُرَبها ؛ الواصلةَ برَكْبكم المبارَكِ الرَّواح والمَغْدىٰ ، المُعَانِ على إكمال فرض الحج المؤدَّى ، المَرْحُولين بحمد العقبىٰ كما حُمِد المَبْدا ؛ ففضَضْنا خِتامه الذَّكِىّ ، وأفضْنا فى حديث شكره الزَّكِى ؛ وعرَضْنا منه بحضرتنا روْضًا يانعُ الروض به مَحْكِىّ ، وحضَضْنا نُوَّابنا على إعانة خاصَّة وفْده وعامتهم علىٰ قضاء النُّسُك بذلك الحرم المكِّىّ ؛ وتلمَّحنا فصولَه الميمونة فإذا هى مقصوراتٌ على مَثُوباتٍ محضه ، ورَغَبات تُؤَدِّى من الحج فَرْضَه ؛ وهِباتٍ يعامِلُ بها مَنْ يضاعِفُ أجرَه ويُوَفِّيه قَرْضه ، وقُرُباتٍ يَحْمَدُ فاعلُها يوم قيام الأشهاد نَشْرَه وحشْرَه وعَرْضَه .

فأمَّا ما ذكره من ورود الكاتِبين الواصلين إلىٰ حضرته صُحْبة الشيخين الأجلَّين « أبى محمدٍ عبدِ الله بن صالح ، والحاج محمد بن أبى لحان » وأنه أمضىٰ حكمهما ، وأجرىٰ رسمَهما ، فقد آثَرْنا للأجر حَوْزَه ، واخترنا بالشُّكر فوزه ؛ وقصدْنا بهما تجديد جلبَاب الودَاد ، وتأكيدَ أسباب الولاء علىٰ البِعاد ؛ وإلا فمع وجودِ إنصافه الحقوقَ

من غاصبها تُستَعاد ، والوثوقُ بنَصْره للمظلوم وقهرِه للظالم لا يختَلِف فيه اعتِقاد ؛ وقد شكرنا لكم ذلك الاحتفال ، وآثرنا حمْدكم فى المحَافل والمحال .

وأما مانعته مما أشرتم إليه مما يتعيَّن له التقديم ، ويستحِقُّ توفِيَةَ حقه من تكرير التكريم ؛ وهو تجهيزُ رَكْبِكم المحروس فى السُّرىٰ والمُقام ، فى خدمة مَنْ يقُوم مقام الوالدة المرحومة فى الاحترام ؛ سقىٰ الله صوبَ الرحمة صفيحَها ، ورَقَّى إلى الغُرُفات روْحها ؛ ومعها وجوهُ دولتكم الغُرّ ، وأعيانُ مملكتكم من سُرَاة بنى مَرِينٍ الذين تُبْهِج مرائيهم وتَسُر ؛ وما نبهتم عليــه من ارتفاع شانهم ، واجتماع فُرْسانهم ، واستِيداع أمانَتِنا نفائَس أنفُسهم وأديانِهــم ؛ فقد استقبلْناهم علىٰ بُعْدٍ بالإكرام ، وأحلَلْناهم من القُرْب فى أعلىٰ مقام ، وصرفْنا إلى تِلْقائهم وجهَ الإقبــال والاهتمام ، وعَرَّفْنا حقَّهم أهلَ الإسلام ؛ ونشَرْنا لهم بفِنائِنا الأعلام ، ويَسَّرنا لهم باعتنائنا كلَّ مَرام ؛ وأمَرْنا بتسهيلِ طريقِهم ، وتَوْصِيل البِرِّ لفريقِهم ؛ وأسدَلْنا الخلَع علىٰ جميعهم ، واحتفَلْنا بهم فى قُدومهم ومُقامهم وتَشْيِيعهم ؛ وأجزَلْنــا لهم أقسامَ الإنعام فى توجيهم ، وكذلك يكون فى رُجُوعهم ؛ وعَرَضُوا بين أيدينا ماأصْحَبْتَهم من الطُّرَف والهَدَايا ، التى لاتحملها ظهورُ البِحار فكيفَ ظُهورُ المطايا ؛ من عقُود مَنظَّمه ، وبُرودٍ مُسَهَّمه ، ومَطَارِفَ مُعْلَمه ، ولطائفَ بالإمكان والإتقان مُعْلِمه ، وصنائعَ محُكَمه ، وبدائعَ للأفهام مفْحِمه ، وذخائرَ معظَّمه ، وضرائرَ للشموس فى الكون والسِّــمه ، وبَوَاتِرَ تفرِّق بين الهــام والأجسام والهام ملحمه ، وأخايرَ بمقدار مُهْدِيها فى الجَلاَل مُفْهِمه ، وخيولٍ مُسَوَّمه بالأهــلَّة مُسْرجَة وبالنُّجوم ملْجَمه ، معوَّدةٍ نِزَال الأبطال معلَّمه ، ذواتِ صــدور مبقُورةٍ وأكفالٍ مسلَّمه ؛ تسحَبُ من الحرير أذيالا ، وتَصْحَب من الوَشْى سِرْبالا ، وتَمِيسُ بحُلَلها وحِلاَها عُجْبا واختيالا ، ويقِيسُ مشبِّهُها سُرْعتها بالبرق فلا يتغالىٰ ، عاتيات الأجْسام ، عالياتٍ كالآكام ؛ لفُحُولهــا صَهِيل يَذْعَر الأُسُود ، ولسنابِكِها

وقع يَفْطُرُ الجُلْمود، أتعبتِ الرُّوّاض ، ورُكِبَتْ منها صَهْوةُ كلِّ بحرٍ سابحٍ حيثُ لُجَجُ الموت تُخاض ، وقُرِنَتْ مرابطُها بحمايةِ جواهر النُّفُوس من الأَعْراض ، وجنيبة تُجُرُّ من ذُيولها كل فَضَّاض ، وحُسِبت لاختلاف شِيَاتها كأنها قِطَع الرِّياض : من شُهْب كأنما ٱرتدَت الأَقَاح ، أو غدَتْ رافلةً فى حُلَل الإصباح . ودُهْم نفَضَتْ عليها الليالى صِبْغَها فلا بَرَاح ، وربما أُغفِلَتْ من ذلك غُررٌ وأَوْضاح . وكُمْت كأنَّها فَتْحُ[1] صُلْب البِطاح ، تطيرُ إلىٰ الظَّفَر بجنَاح . وحُمْر كأنها خُلِقَت للنَّجاح ، وأُطْلِقتْ أعِنَّتها فقالت ألْسِنةُ أسِنَّتها للطَّرائدِ : لابَرَاح . وخُضْر كأنها البُزَاةُ الموَشَّاة الوِشَاح ، أو مشيبٌ فى الشَّبَاب قدْ لاح . وشُقْر تكْبُو فى طَلَبها الرياح ، وتخْبُو نارُ البَرْق إذا أمسٰى بسَنَا سَنابِكها ٱقْتِداح .

ووراءَها البِغال ، التى تحمِلُ الأثقال ، ولا تَزِلُّ فى الأوحال بحال ؛ وعليها الزُّنَّاريَّات الموشعه ، وحَلْيُها الجلال الملَمَّعه ؛ وهى تمشى رُوَيْدا ، وتُبْدى قوّةً وأيْدا ؛ كأن قُلَامتَها قناه عيدا (؟) وهى وافرةُ الأمداد ، فاخرةٌ علىٰ الجِياد ، باهرةُ العُدد متكاثرةُ الأعداد ، راسخاتُ القوائم كأنها أطْواد ، شامخاتُ الرءُوس حالياتُ الأجياد ، باذخاتُ الأكفال غِلاظٌ شِداد ، وسارَتْ لهـا إلىٰ رِحَابنا ٱنقياد ، وصارت من مَحَلِّ إسعاد إلىٰ مواطن إصْعاد ؛ فتقبَّلنا أجناسها وأنواعَها ، وتأمَّلْنا غَرَائبها وإبْداعها ؛ وجعَلْنا يومًا أو بعضَ يومٍ فى حَواصِلنا إيداعها ؛ ثم ٱستصفَيْنا منها نفائِسَ آثرْنا إليها إرجاعَها ، وفرَّقنا فى اوليائنا ٱجتمَاعها ؛ وقسَمْنا مُشَاعها ، وغنمنا لماَّ أفاء اللهُ صَفَاياها ومِرْباعَها ؛ فتوالتْ لكلِّ ولىٍّ منها مِنَح ، وسارتْ إلىٰ كل صَفِىّ منها مُلَح ؛ وقالت الألْسِنةُ وطالتْ فى وَصْف ما عليه به فتح ، فاستبان ووضَح ؛ وكان لأهل الإيمان بنعْته أعظمُ هَناء وأكبرُ فَرَح .

(١) من جملة معانى الفتح الماء الجارى على وجه الأرض شبهها فى جريها بالماء الجارى على البطحاء الصلبة تأمل .

وسطّرناها وركبُكم المباركُ قد رامتِ السُّرىٰ نجائبهُم ؛ وأمّت أُمَّ القُرىٰ ركائبهُم ؛ يسايرهم الأمنُ ويصاحِبهُم ، ويُظاهرهم اليُمْن ويواظِبهُم ؛ فقد أُعِدَّت لهم المِيَرُ فى جميع المَنازِل ، وشُــدّتْ لهم الهِجَانُ البَوَازِل ؛ وأُتْرِعت لهم الموارِدُ والمناهِل ، وأُمْرِعت لهم بالمِيرةِ القِفارُ والمَرَاحل ؛ ووُكِّلت بهــم الحَفَظةُ فى المَخَاوِف ونُصِبَتْ لهم الأدلَّةُ فى المَجَاهل ؛ وجُرِّد معهم الفُرْسان ، وجُدّد لهم الإحْسان ، وأُكِّد لهم حَقَّــانِ حقُّ مُرْسِلهِم وحقُّ الإيمــان ، وقُلِّد دَرَكَ حياطتهم أمراءُ العُرْبان ، وشُوهِد من تعظيمنا لهم مايَحْسُدهم عليه ملوكُ الزمان بكلِّ مكان ؛ وكتَبْنا علىٰ أيديهم إلىٰ أُمَراء الأشراف بالنُّهوض فى خدمتهم والوقوف ، وأن يُحِيط بهم كلُّ مقدّمِ طائفةٍ ويَطُوف ، يتسلَّمهم زعيمٌ من زعِيم ، إلىٰ أن تُحَطَّ رحالُهم بالحَطِيم ؛ ويَحُلَّ كلٌّ منهم بالمَقَام ويُقِيم ، وتَكْمُل مناسِكُهم بشُهُود الموقِف العظِيم .

وكذلك كتبنا إلىٰ أُمَراء المدينة المشَرَّفه ، أن نتلَقّىٰ بالقَبُول الحَسَن مُصْحفَه ؛ وتُحِلَّه بين الروضة والمِنْبر ، وتُجِلَّه فقد ربِحَ سعْيُ كاتبه وبَرّ ، وكتِبَتْ له بعدد حُروفِه أُجُور تُوَفَّر ؛ ويمكَّنَ مَنْ يرقُّ لتلاوته فى الآصالِ والبُكَر ، ويُهَيْمَنَ علىٰ ذلك فإنّه من بيتٍ هم المَلاكُ الأعلىٰ وعندهم وفيهم جاءت الآياتُ والسور .

وعمَّــا قليل يتمُّ حجُّهــم واعتِمارُهم ، ويَؤُمُّ طَيْبَةَ الطيِّبَةَ العــاطرةَ زُوّارُهم ؛ فيكْرُم جِوارُهم ويعْظُم فَخارُهم ، وتنْعَم بإشراقِ تلكَ الأنوار بصائرُهم وأبصــارُهم ؛ وتفُوحُ أرواحُ نجــد من ثِيَابهم ، وتلُوح أنوارُ القبول علىٰ شِيبِهم وشَــبَابِهم ؛ ثم يعُودُون إلينا فنُعيدُ لهم الصِّلات ، ونُفِيد كُلًّا منهم دِيَمَ النِّعم المُرْسَلات ؛ ثم يَصْدُرُونَ إن شاء الله إليكم ركائبهُم بالمنائح مُثْقَلَات ، ومطالِبهُم بالمَنَاجِح مكمَّلات ؛ ويظْفَرُون مــن الله فى الدارين بقسم النِّعم المُجْزَلات حتّىٰ يُلْقُوا برحابكم عصــا التَّسْـيار ، ويصونوا حُرَّ وجوههم بالصبر علىٰ حَرِّ الهَجير [من] لَفْحِ النار ؛ ويَدَّخروا بمــا أنفقُوا عنْد الله من

دِرْهم ودينار، أجراً جَمًّا وماعِنْدَ الله خيْرٌ للأبرار، والله تعالىٰ يقرّبه من تلك المواطن، ويُدْنيه منها بالظاهر وإنْ كان يَسْرى إليها بالباطن، ويسَهِّل[له]ذُلُلَ الحَرَم، وإن كان قد أعان القاطن والقادم، حتّى تحُلَّ ركائبُه بين المرْوَتيْنِ وتجـيز، ويكونَ له بذلك علىٰ مُلُوكِ الغَرْب تمييز، وما ذلك علىٰ الله بعزيز.

لازالتْ مقبولةً علىٰ المَدىٰ هَدَاياه، مجبولةً علىٰ النَّدىٰ سَجَاياه، مدلولةً علىٰ الهدىٰ قَضَاياه، منصورةً علىٰ العِـدَا سَرَاياه، مبرورةً أبدا تحَاياه. والسلامُ الأتمُّ الذى يعْبَق رَيَّاه، والثناء الأعَمُّ المشْرِق محيَّاه، عليكم ورحمة الله وبركاته، والخير يكون، إن شاء الله تعـالىٰ.

وهذه نسخة جوابِ الكتَابِ الوارد علىٰ الملك النـاصر «محمد بن قلاوون» من آبن أبى الحسن علىّ المَرِينِىِّ، صاحب فاس المغرِب، بالبشـارة بفتح بجايَةَ، والآنتصار علىٰ تلِمْسان.

وآستفتاحُه بعد البسملة بقوله تعالىٰ: ﴿ يأيُّها الذين آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصرْكُمْ ويُثَبِّتْ أقْدامَكُمْ والَّذِين كَفَرُوا فتَعْسًا لَهُمْ وأضَلَّ أعمـالَهُمْ ﴾.

ثم المكاتبة المعهودة: من ألقاب المَلِكين، والدعاء. والصدر:

قَهر اللهُ ببأسه مَنْ ناواه من أئمة الكُفْر وطُغَاته، ونَصَره علىٰ مَنْ لاواه من حِزْب الشيطان وحُماته. ونشَر أعلامَه بالظَّفَر بمن خالفه من عُداة اللهِ وعُدَاتِه. وأجراه من بلوغِ الوَطَر فى سُكُونه وحَركاته، علىٰ أجملِ أوضاعه وأكمل عاداتِه. ويسَّرله بدوام سُعوده فَتْح ما آستَغْلق من مَعَاقل الحائِدين عن مَرضاته. ولا زالتْ ركائبُ البشائر عنه تَسْرى وإليه من تِلْقائنا تَسِـير، ومَصيرُ الظَّفَر حيثُ يصير، ويدُورُ الفَلَكُ المستدير، بسَعْده الأثيل الأثِير، ويُنوِّر الحَلَكُ بضَوْء جبينه الذى يهتدى به الضالُّ

ويلجأ إليــه المستجير، وتغور أعينُ العــدا إن عاينوا جحفله الجرّار وناهدوا جيشــه المبير . بتحية تحكي اللّطائم(١) عرفها الشميم ، وتودّ الكمائم لو تفتّقت عن مثـل مالهـا من نضارة أو تسنيم ، ويودّ عقد الجوزاء لو انتظم في عقدها النّضيد النظيم .

وكيف لا وهي تحيّة صادرة عن مقـام شريف إلىٰ روضة غنّـاء تزري بالنّبت العميم، واردة من محلّ عظيم ، علىٰ محيّا وسيم ، منطوية علىٰ (٢) الأرض من سلامة ولملوك الإسلام من سلام سليم ، وطرفة نشرها كالمسك الذي ينبغي أن يختتم به هذا الكتاب ، وثناء يستفزّ الألباب ، ويستقرّ في حبّات قلوب الأحباب ، ويستدرّ أخلاف الودّين المتحابّين في الله فلا غرو أن دخلت عليهم ملائكة النصر من كلّ باب . يتسابقان إلىٰ ذلك المجد الأسنىٰ في أسعد مضمار ، ويتساوقان بجياز قصبات السّبق إلىٰ تلك العصبة المشرقة الأنوار ، ويزداد فيهما بالوفود عليه طيبا ، ويغدو عود الودّ بهما رطيبا ؛ حيث الرّبع مريع ، والمهيع منيع ، والعزّ مجدّد والقدر مطيع ؛ وسحب الكرم ثرّه ، ورياض الفضل مخضرّه ، وعساكر النصر تحلّ نحوه من المجرّه ؛ حيث تستعر الحرب ، ويستحرّ الضرب ، وتشرق شموس المشرفيّات لامعه (٣) .

أما بعد حمد الله مظهر دينه علىٰ كلّ دين ، ومطهّر أرجاء البسيطة من المـاردين المـارقين ؛ ومجرّد سـيف النصر علىٰ الجاحدين الحائدين ؛ وموهن كيد الكافرين ، ومجزل أجر الصابرين ، ومنجز وعد من بشّرهم في كتابه المبين بقوله : ﴿بل الله مولاكم وهو خير الناصرين﴾ .

---

(١) هي أوعية المسك أو أسواقها واحدها لطيمة وفي الأصل العظائم وهي تصحيف .

(٢) بياض بالأصل ولعله علىٰ ملء الارض .

(٣) بياض في الاصل يسير .

الذى عَصَم حِمىٰ الإسلام بكل ملك قاهر ، وفَصم عرىٰ الشِّرْك بكلّ سلطان غَدَا علىٰ عدُوِّ الله وعدُوِه بالحقِّ ظاهر ، وقَصَم كلَّ فاجرٍ بمهابة أئمة الهُدىٰ الذين مامنهم إلا مَنْ هو للمحاسن ناظِمٌ ولِقمَم العِدا ناثر ؛ ناشِرِ علَم الإيمان بحُماة الامصار ، وناصِرِ علم الإسلام بملُوك الأقطار ، وجاعِلِ كلمته العُلْيا وكلمة الذين كفَرُوا السفلىٰ ، لاجَرَم أنَّ لَهُمُ النَّار ؛ جامعِ قلوب أهل الإيمان علىٰ إعلاء عَلَم الدِّين الحنيف وإن بَعُدت بينهم شُقَّة النَّوىٰ وشَطَّ المَزَار .

والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيِّدنا محمد الذى أرسله اللهُ رحمةً للعالمين ونِقْمة علىٰ الكُفَّار ؛ ونصره بالرُّعْب مسيرةَ شهرٍ وبالملائكة الكرام فى إيراد كلِّ أمرٍ وإصدار ؛ وألانَ بَبأْسه صليبَ الصَّلَبُوت وأهانَ بالتنكيسِ عَبَدةَ الأصنام وسَدَنةَ النار ، وأيَّده بآلٍ وأَصْهار ، وأصْحابٍ وأنصار ، وجنودٍ تهون النَّقْع المُثَار ؛ وأتباعٍ ما أظلم خَطْب إلا أجالوا سُيوفَهم فبدا نَجْم الظَّفَر فى سماء الإيمان وأنار ، وأمةٍ ظاهرةٍ علىٰ من ناواها ، ظافرةٍ بمَنْ عاداها ، ما تعاقبَ الليلُ والنَّهار ، صلاةً وتسليماً يدُومان بدوام العَشِىِّ والإبكار .

فقد ورد علينا كتابٌ مختومٌ بالتكريم ، محتومٌ بالتبجيل والتقديم ؛ محتوٍ علىٰ وَصْف فضلِ الله العَمِيم ، ونصْرِه العظيم ، ومَنّه الجسيم ؛ فأكرمْنا نُزُلَه ، ونَشَرْنا حُلَله ، وتفهَّمنا تفاصيلَه وجُمَلَه ؛ فتيمَّنَّا بوصوله ، وتأَمَّلْنا مخايِلَ النصر العزيز من فُصُوله ؛ ووجدناه قد آشتمل من سعادة مُرْسِله علىٰ أنواع ، ومن وَصْف تَعْدادِ نُصْرته علىٰ عونٍ من الله ومَنْ يُعِنِ اللهُ فهو المنصورُ المُطاع .

فأما ماذكره المقامُ العالى من أمر الوالدةِ المقدَّس صَفيحها ، المغمورِ بالرحمة ضَريحُها ؛ وما كانت عزمتْ عليه من قصد مبْرور ، وتجارةٍ لن تَبُور ، وأَمٍّ إلىٰ البيت

الآمنِ والحرمِ المعمُور، وما فاجأَها من الأجَل، وعاجَلَها من أمر الله عزّ وجَلّ ؛ فالمقامُ أجزل اللهُ ثوابَه يتحقّق أنّ النيَّةَ فى الأُجُور أبلَغُ من العمل ، وأنه مَنْ أجاب داعِىَ الحِمَـام فلا تقصيرَ فى فعله ولا خَلَل ؛ والله نسْأل أن يكتُب لهـا ما نوَتْه من خير ، وأن يُطيف رُوحَها الزكية ببيتـه المعمورِ فى جَنَّـاتِ عدنٍ كما أطافَ أرْواح الشهداء فى حَوَاصل ذلك الطَّير .

وكنّا نودُّ أن لو قَدِمتْ ليتلقّاها منّا زائدُ الإكرام ، ويُوافِى مَضَاربَها وافدُ الاحتِفالِ والاهتمام ؛ ونستَجْلب دعواتِها الخالصــةَ الصالحه ، وتَظْفر هى من مشاهـدَةِ الحَرَم المعظّم والمَثْوىٰ المكرَّم والبيتِ المقدّسِ بالصَّفْقة الرابحه . علىٰ أنَّه مَنْ ورد من تلقائِكم قابَلْناه من جميل الوِفادةِ بمـا به يَليق ، وتقَدّمْنا بمعاملته بمـا هو به حَقيق ؛ ويَسَّرْنا له السبيلَ وهدَيْناه الطريق ، وأبلَغْناه فى حِرْز السلامة مع رَكْبِنا الشريف أمَلَه من قضاء المَنَاسك والتَّطْواف بالبيت العَتيق .

وأمّا ما أشار إليه من أمرِ مَنْ كان «بتلِمْسان» وأنه ممن لا يَعْرِف مواقِعَ الإحسان ، وما وصَــفَه المقامُ العالى من أحوالٍ ليس الخَـبَرُ فيها كالعِيَان ، وأنه اعتدىٰ علىٰ مَن يتاخِمُه من الملوك ، وخرج عن القَصْد فيما اعتمَدَه من ذلك السُّلُوك ، حتّى أن ملك تُونُس أرسل إلىٰ المقـامِ ابنَه ووزيرَه ، وسأله أنْ يكونَ ظهيرَه علىٰ الحق ونَصيرَه ، وأن المقامَ العالىَ أرســل إلىٰ ذلك الشّخص منْكرا اعتماده ، طالبًـا إصــلاحه لا إفسادَه ، راجيًا أن يكون ممن تنفَعهُ الذّكرىٰ ، ظانًّا أنه ممّن يأبىٰ أن يُقَـال له : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرا ﴾ وأنه بعــد ذلك تمـادىٰ علىٰ غَيِّه ، وأراد أن يذُوق طَعْمَ الموت فى حَيِّه ، وأبىٰ الظالمُ إلا نُفُورا ، وذكر الملكُ عنه أنه قَتَل أباه بعدَ أن آتاه اللهُ به نِعمةً ومُلْكا كَبِيرا . وأن المقامَ العالى أتاه نَبأٌ عن أخيـه المقيم بسِجِلْماسه ، وخَبَرٌ صِدْقٌ أوجب أن يُعامَلَ بمـا يليقُ بجميل السـياسة وحَرِيز الحراسه ؛ فجنّد المقام له

جُنودا ، وعقَـد بُنُودا ، وأضرىٰ أُسُودا اوهنت كَيْده ، وأذهبَتْ أيْدَه ، وعاجلَتْ صيْدَه، وأذالَتْ باسه، وأزالَتْ عنـه سِما المُلْك ونزعَتْ لباسَـه . وأنه فى غُضُون ذلك أتاه سلطانُ الأندَلُس يستصْرِخ به علىٰ عدُوّ الله وعدُوّ المؤمنين، ويستَعْديه علىٰ الكَفَرة المعتدين . وأنَّ المقام لبّىٰ دَعوته مسْرِعا، وأكرم نُزُلَه مُمْرِعا، ووعَدَه الجميل، وحقَّق له التأميـل . وأن صاحب تِلْمسان لمـا غَرَّه الإمهال ، وظنَّ هـذه المَهامَّ توجب للمقام بعضَ آشـتِغال، أعمل أطماعَه فى التجرّى علىٰ بعض ممـالكه المحروسة ومَدّ،وسار إلىٰ محلٍّ هو بينهما كالحَدّ.وأنَّ المقام عند ذلك صَرف اليه وجْهَ العَزْم، وأخذ فى حِفْظ شأنه بمـا لأَعلام النصرِ من نَصْب وما للاِعتداء من رَفْع وما للاهتمام من جَزْم . وأنه لم يَقدِرْ عليه إلا بعد أنْ حَذَّره من أليم العقاب حُلُولا، وتمسك فيه بقوله تعـالى : ﴿ وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتّىٰ نَبْعَثَ رَسُولا ﴾ [ولـمَّـا][1] لم ينفَـعْه الإنذار، وأبىٰ إلا المداومةَ والإصْرار ، أرسل اليه المقـامُ العالى من جيشه الخِضَمّ ، وعسكره الذى طالَمَـا تُعَضِّـده ملائكةُ السماء وإلىٰ أعداده تنْضَمّ ، كلَّ باسـل يقوم مَقامَ الكتيبه، وكلَّ مُشاهد يشاهَد منه فى العَرِين كلُّ غَريبه ، وكلَّ ضِرْغام تَعْرِف العدا مواقع ضَرْبه لكنها تجهَل نِدّه أو ضَريبـه، فأذاقُوه كأس الحِمَـام صِرْفا ، ولم يبتغُوا عن حِمَـاه بدُون نَفْسـه عَدْلا ولا صَرْفا ، إلى أنْ أخذوه فى جماعةٍ من بنى أبيـه ، وشِرْذمةٍ قليلة مِمَّن كانتْ تخالصُه فى الشدائد وتُوا فيه، وأن المقام العالى بعد ذلك سيَّر مَطارِفَ العَدْل فى الرعيَّه، وأقرَّ أحوالَهُمْ فى عدم التعرُّض إلى الأموال والذُّرّيه، على ما هو المسـنون فى قتال البُغَاة من الأمور الشرعيَّه . وفَهِمْنا جميعَ ما شرحه فى هذا الفصل، وما أخبر به من هذا الظَّفَر الذى آبيَضَّ به وجهُ الفَتْح وإن كان قد آحمرّ به صَدْرُ النصل ، والله تعالى يزيد مُلْكه رُقِيّا، ويَجْزِيه لقَبُول النِّعم لِقيّا، ويجعلهُ دائما

(١) فى الأصل "فلم ينفعه" بدون لمـا .

كوصفه مظفّرا وكاسمه عَليّا . وأن المقام العالى لمـا فرغ وجهُه من هــذه الوِجْهة، وحاز هــذا المُلْك الذى لم يحُزْ آباؤه كُنْهه، عاد إلىٰ المهــمّ الذى قَدِم فيــه سلطان الأندلُس لأنه ابدىٰ ما المسلمونَ فيه من محاورة الأذىٰ، ومجـاورة العِـدا ؛ وقُرْب المسافةِ بينَ هذين العدُوّيْن كالشّجَا . وفى عيونهم كالقذىٰ . وأنه ثوىٰ به من الطُّغَاة من أسْدل علىٰ المسلمين أردِيَةَ الرّدىٰ . وأنه علىٰ جانب البحر المعروف بالزُّقَاق، و به قُطّانٌ يمنَعُون الإرفادَ والإرْفاق، و يصُدّون عن السبيل مَنْ قصد سُلوكَه من الرفاق . وأن البرَّ أيضا مملوءٌ منهم بصُقُور صائده، وعُلُوج مُكايِده ، وكُفّار معانِده، وفُجّار علىٰ السّــوء متعاضده، والبَحْرَ مشحونٌ بغِرْبان طائرةٍ بأجنحة القــلوع طارِدَه، صادرةٍ بالموت وارده،جارِيةٍ فى فَلَك البحر كالأعلام إلا أنّها بالإعلام بالخبر شاهده، تتخَطَّف كلَّ آمٍّ وقاصد، وتقعُدُ لأهل الإيمـان بالمَرَاصد،وتُدْنِى الموتَ الأحمر، ممن ركِب البحرَ الأخْضر، وتمنَعُ الســالك، إلا أن يكونــ من أهل الضّلال الحالك، من بَنِى الأصْفَر .

وأنَّ المقام العالىَ عند ذلك قام لله وغار، وأنْجد جُنودهُ فى طلب الثار من أهل النار وأغَار، وأنجد قاصدَ حرمه ببُعُوث كرمِه وأعار، وأرسل عِقْبانَ فُرْسانه محلِّقــةً إلىٰ ذلك الجبل الشّامخ الذُّرىٰ وأطار، إلىٰ أن احاطت بهــم جنودُه إحاطةَ الآساد بالفرائس لاإحاطةَ الهالاتِ بالأقْمار، فمـا منهم إلّا مَنْ أعمل علىٰ العِدا رحىٰ المَنُون وادار، وسار وناعِى البيْن يَقْدُمه إلىٰ أيْنَ سار ؛ وقدّمَ عليهم ولَدَه الميمونَ النّقيبه، الممنوحَ غَرْبُهُ من موَاقع النصر بكلِّ غَرِيبه، الجارِيَ علىٰ ســنَن آبائه الكِرام، المظَفَّر أنّى سَرىٰ الممدوحَ حيث أقام.وأنه مَزَّق جُموعَهُم الكثيفه، وهَدَم معاقِلَهم المُنيفه ؛ وٱستذْنىٰ منهم القاصِى،وٱستنْزَل العاصِى، وأخذ بالأقْدام والنّواصى،وأحَلَّ العذابَ والنَّكال، بمن يستحقُّه من أهل الإلحاد والمَعاصى ؛ وقرن بينَ الأرواح والآجَال ،

وأذْكَرهم بهذا النصر أيَّامَ ٱبنِ نَصْر وأعاد ، وأثبت لهـذا الجبَل حقيقةَ ٱسم المدح، وٱستقرّ فى صحائف فِعْله المقام إلى آخر هذا المنح .

وعلِمْنـا أيضا ما ٱعتَمَده الطاغِى المُغْتال لعنه الله من الحضور بنَفْســه ، وجَمْعه المُلْحدين من أبناء خَدَمته والمـارِقين من جِنْسه . وأنَّه أعظَمَ هذا الأمْرَ وأكبرَ ، وأبْدىٰ الزفيرَ لهذا المُصَاب وأظهر ، وأقسَمَ بمعبُوده المُصوّر وصَلِيبه المكَسَّر ، أن لا يعُودَ إلا بعْـدَ أنْ يظْفَر بمـا سلَبَه الحقُّ إيَّاه وتبصَّر ؛ فأبىٰ اللهُ والمؤمنونَ أن تكونَ النِّيَّة إلا خائبه ، وقضت سـعادةُ الإسلام أن تكون الأيَّامُ لمـا عَقَده من الطَّوِيَّة الرَّدِيَّة نا كبه ؛ فلمَّــا طال عليه الأمَدُ وحان الحَيْن ، عاد صِـفْرَ اليدين ولٰكن بخُفَّىْ حُنَين ؛ نا كِصًا علىٰ عَقِبــه ، خاسِئًا لسُوء منْقَلَبه ، وأسرَعَ إلىٰ مقَرّ طاغُوته سُرًى وسَــيْرا ، ولو كان من ذَوِى الألباب لتعَقَّل فى أمر قول الله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بغَيْظِهِـمْ لم يَنَالُوا خَيْرا ﴾ . وأنَّ المقام العـالىَ ألزمه بعـد ذلك ما كان علىٰ أهـل «أغَرْنَاطة» له فى كلِّ عام موظَّفا ، ووُضِـع عنهم إصْر ما بَرِح كالأسر مُجْحِفا .

وهـذه عِزَّةٌ إسلاميَّة جدّد اللهُ علىٰ يد المَقَام بذلك القُطْر صـدُورَها ، وسَـطَّر فى صحائف حَسَناته أُجورَها ، وأبقىٰ له مَذْخُورها ، وأعدّها له ليوم تَجِدُ فيه كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلتْ من خيْرٍ مُحْضَرا إذا شاهدت عَرْضَها ونشرها . ومِنَّةٌ من الله أرْبَتْ علىٰ العَدّ ، وتجاوزَت الحدّ ، ومَزِيَّة لا تطمَحُ الآمال إلى مَيْلها فى جانبها ولا تَمْتَدّ ، ورُتَبُ جَدّ يَلْحق بها الولدُ الناجمُ فى سماء المعالى رُتَبَ الكِرام من أبٍ له وجَدّ ـ واللهُ يجعلُه مظَفَّرا علىٰ العِـدا ، منصُورا علىٰ مَنْ حاد عن سَــواء السبيل وٱعتَدىٰ ؛ مستحقا لمحَاسِن الأخبار علىٰ قُرْب المُدَّة وبُعْد المَدىٰ .

وقد كان أخُونا أمير المسلمين ، وسلطانُ الموحِّدين ، والدُك الشهيدُ قدّس اللهُ سِرَّه ، وبوّأه دارَ النعيم وبها أقرَّه ؛ فى كلِّ آوِنَةٍ يُخْبِرنا بمثل هـذا الفَتْح ، ويذكُر لنا

ماناله من جَزِيل المنح ؛ (فهذه شِنْشِنةٌ نَعْرِفُها من أَخْزَم)، وسُنّةٌ سلك فيها الشِّبلُ الصائدُ سَنَنَ ذلك الضَّيْغَم الأعظَم ،ونحن نحمدُالله الذى أقام المَقامَ مَقامَ أبيه لنُصْرة الإسلام وأبقىٰ، وصَدَّق بما تُنْشِئه من حُسْن أفعالك وسعيدِ آرائك أنَّك أبو الحُسيْن وأنَّ أباك أبو سعيد حَقّا .

وحيثُ سلك المقامُ سَنَنَ والده الشهيد، وأتحفَنا من أنبائه بكُلِّ جَديد؛ وقصَّ علينا أحاديثَ ذلك الجانبِ الغَرْبىِّ المُشْرِقِ بأنواره، ونَصَّ متجَدِّداته مفَصَّلةً حتىّ صِرْنا كأنَّا مشاهِدُون لذلك النصرِ ومَوَاقِعِ آثارِه، فقضَىٰ الوُدُّ أن نُتْحِفَه من أحاديث جَيْشنا الذى أشرقَتْ لَمَعاتُ سُيوفه فى الشَّرْق الأعلىٰ بما يُشَنِّف سَمْعه ،ويسُرُّ معشَر الإسلام وجَمْعه ، ومَوطِنَه ورَبْعه : ليتحقَّق أنَّ نِعَم الله لكلِّ مَنْ قام بتشييد هذا الدِّين المحمَّدىّ عامَّه ، ومِنَنه لديْهِم تامّه ، وألطافَهُ بهم حافَّه ، ومُناصَرتَه ليَد سُلطانِ الإسلام فى أعناق العِدا مُطْلَقةٌ ولأكُفِّ أهلِ الشِّرْك كافَّه ، ﴿وأمَّا بنِعْمةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

فما نُبْديه لعلمه ، ونُهْديه لسعيد فَهْمه ، أنَّ من جملة من يحمِلُ لأبوابِنا الشريفةِ من ملوكِ الكُفْر القَطِيعةَ فى كلِّ عام ، ويَرىٰ أنَّ ذلك من جملة الإفضال عليه والإنعام ؛ متملِّكَ سِيسَ ، الذى هو فى مِلَّته من ساكِنِي البَرِّ كالرَّئيس ، وبين بطارِقَته وطُغَاته كالكَنَد الأعظَم أو كالقِدِّيس النفيس ؛ وعليه مع ذلك لأبوابنا الشريفةِ من القناطيرِ المُقَنْطَرة من الذهب والفِضّة والخَيْل المُسَوَّمة مالا يَحِيد عنه ولا يَحِيس ، ومرَتَّب لايقْبَل التنقيص ولايسمَح لِخنَاقه بتنفيس ، تحمِلُه نُوَّابه إلى أبوابنا الشريفةِ عن يَدٍ وهم صاغِرون ، ويقومُون به علىٰ قَدَم العُبُوديّة وهم ضارِعُون .

ولَمَّا كان فى العام الماضى سوّفَ ببعْضه وأخَّر ، ودافَعَ عند إبَّانه وقَصَّر ، وسأل مَراحِمَنا فى تنقيص بعض ذلك المُقرَّر ، وأرسَل ضَراعاتِه إلىٰ نُوَّابنا بالممالك الشامية

فى هذا المعنىٰ وكَرَّ، وقدّر فى نَفْسه المُراوغَةَ وأسرَّ خُسْرا فى ارتعا (؟) والله أعلم بما قدّر، فاقتضَتْ آراؤُنا الشريفةُ أنْ نُرسِل إليه بعثًا يذلّل قِيَاده، ويُنكِّس صِعَاده، ويخرِّبُ بِلادَه، ويوطِئُ أطواده، ويُوهِن عِنَاده، ويُذْهِب فَسَاده، ويُفرِّق أجْناده، ويمزِّق أنْجاده، ويقلِّل اعدادَه، ويُفلِّل جموعه، ويُدَكْدِكُ رُبوعَه، ويُذْرِى علىٰ مُلْكِه دُموعَه، ويُدْنِى خُضوعَه، ويَفْصِل تلك الأبدانَ التى هى للطُّغْيان مجموعه، فأنهَضْنا إليه من الأبطال كُلَّ باسل، وأنهَدْنا إليه منهم كُلَّ ضِرْغام خادِرٍ يظُنُّ الجاهلُ أنه مُتَكاسِل، وأشهَدْنا حَرْبَه كلَّ مؤمنٍ يرىٰ الشهادة مَغْنَما، والتخلُّفَ مَأْثَمًا والتَّباطُؤَ مَغْرَما، والعُذْرَ فى هذا المُهِمِّ أمْرًا محرَّما. ويعُدُّ الرُّكوبَ إلى هذا السَّفَر قُرْبه، والرُّكُونَ إلى وَطنه غُرْبه، ويرْغَبُ فيما وعد الله به جَيْشَه المنصورَ وحِزْبَه، ويرْبَأُ بنَفْسه أن يكون من الخالفين حُبًّا لها وتكريما، ويبادِرُ إلىٰ ما أُمِرَ به رغبةً فى قوله تعالى: ﴿وفَضَّل اللهُ المجاهِدِينَ علىٰ القاعِدِينَ أجْرًا عَظِيما﴾. علىٰ صافنات جياد، ليس لها غَيْرُ الطَّيرِ فى سُرْعة المَرَام أضداد، وعاديات عادياتٍ علىٰ أهل العِنَاد، وضابِحات ذابحات لِذَوِى الفَسَاد، ومُغِيرات طالَمَا أسْفَر صُبْحُها عن النَّجاح، ومُثيرات نَقْع يتبَلَّج غيهَبُها عن تحقُّق النَّجاة وإزالة الجُنَاح. وصَوَاهِلَ عِراب، كَمْ للفضل بها من كُمُون وللموت اقتراب، وأصائلِ خَيْل، تُخَيِّل لراكبها أنها أجرىٰ من الرياح وأسرىٰ من اللَّيل، قد عُقِد الخيرُ بنَوَاصيها، وعُهِد النصْرُ من أعْرافها وصَياصيها، وتسَنَّم راكبُوها لذِرْوة العِزِّ من ظُهُورها، واحتَوَوْا علىٰ الكبير الأعلىٰ من نُصْرتها علىٰ العِدا وظُهُورها، بسُيُوف تبدِّدُ الأوهام، وتُزيل الإيهام، وتَقُدّ الهامْ، وتُدْنِى الموتَ الزُّؤام، وتُطَهِّر بمَيَامِنِها نَجَس الشرك ودَنَسه، وتَقْرَعُ أجسادَهم فتَغْدو كلُّها عُيونا ولكِنْ بالدِّماء مُنْبَجِسه، قد تَسَرْبَلَ كُلٌّ منهم من الإيمان دِرْعا حَصِينا، واتخذ لُبْسَه جُنَّةً ولكن من الذهَب والإستَبْرَق ليكون

لفضلِ الله مُظْهِراً ولإحساننا مُبِينا ، واتَّخذ لِسِهَام القِسِيِّ ليومِ اللِّقاءِ الألسُنَ الحِدَاد ، ومدّ يَدَ المُظاهَرةِ بِبِيضٍ قِصارٍ وسُمْرٍ صِعَاد .

فلمّـا جاسُوا خِلالَ تلكَ الدِّيار ، وماسُوا يَرْفُلُون فى حُلَلِ الإيمـان التى تَشْـفِى صُدورَ قومٍ مؤمنين وتَغيظُ الكُفَّار ، لم يسْلُكُوا شِعْبا إلا سلك شيطانُ الكُفْرِ شِعْبًا سواه ، ولا وطِئُوا مَوْطِئا إلّا وكُلُّ كافرٍ يَأْباه ؛ ولا نالُوا من عَدُوٍّ نَيْلا إلَّا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ كما وعدَهُم الله ؛ وما أتَوْا لهم علىٰ ضَرْعٍ حافلٍ إلا جَفّ ، ولا مَرُّوا علىٰ زَرْعٍ حاقلٍ إلا أصبح هشِيما تَذْرُوه الرِّياح أو حَطِيما تكْفِيه الكَفّ ؛ ولا هَشِيمٍ إلا حَرَّقُوه ، ولاجمعٍ إلا فَرَّقُوه ، ولا قطيعِ شاءٍ إلاقَطَّعوه ومَزَّقوه ، ولاضائِنٍ إلا ضَنُّوا عليه أن يَدْعُوه لهم أو يُطْلِقُوه ، ومابَرِحوا كذلك إلىٰ أن نازلُوا البَلَدَ المسمَّى بآيَاس ، فحصل لأهـلِهِ من مسَمّاه الاشتقاقُ الأصغر والاشـتقاق الأكبر بقَطْعِ الأمل منـه واتِّصال الإيَاس ؛ فناداهم مَنْ بذلك الحصْن من أسَارىٰ المؤمنين :

يارحمـــةَ اللهِ حُـلِّى فى مَنَـازِلِنـا * حَسْبِى برائِحـةِ الفِرْدَوْس مِنْ فِيك

ويا نَصْرَ الله انْشُر بالظَّفَر راياتِ مُوَاجِهِنا ومُنَـازِلِنا فطالَمَـا كُنَّا نؤَمِّلك ونرتجيك ؛ وياخيلَ اللهِ اركبى ، وياخَيْلَ الكُفَّار اذهبى ، ويا جُنْد إبليس ارهبى ، من جُنْدِ الله الغـالِبِين ؛ وإنْ وَجَدْتِ مناصًا فانفِرى ، ويامَا لِلإسـلام من جُنُودٍ وأنصار ، قاتِلُوا الذين يلُونَكم من الكُفَّار .

وكانتْ موافاةُ عسكرِنا المنصور إليهم عندَ الإسْفار ، فلم يملِكُوا القرار ، ولا استطاعُوا الفِرَار ، ولم يجِدُوا ملْجأً من اللهِ إلّا إليه . وقال : لاوزَرَ وكيفَ به لمن يُلَبِّى الأوْزار ، ورأوا ما أعدَدْنا لحِصارِهم من مجَانيقَ تقُدّ الصُّخُور ، وتُدكْدِك القُصور ، وتَغِيض بها مياهُ نفوسِ تلكَ الأجساد الخبيثةِ فلا يجتمعانِ إلىٰ يومِ البَعْث والنُّشور ، وأنا أمدَدْنا

جُيوشَنا بجاريات فى بحر الفُرات، مشحونة بالأموال والأقوات، والعُدَد والآلات؛ وأرفَدْناهم من الذَّهَب والفِضَّة بالقناطير المقَنْطَرات ، وأوفَدْنا عليهم من أنْجادِنا بالديار البَكْرِيَّة ، وأطراف البلاد الشامية ، جُيوشًا كالسَّحاب المتراكِمْ، وأطَرْنا عليهم عِقْبانَ اقتناصٍ من عِقْبان التَّراكِمينَ اعتادَتْ صَيْدَ الأَراقِم ، وأسْرَ الضَّراغِم ؛ فلمَّا تحقَّقُوا الدَّمار، لم يلْبثُوا إلا كما وصف الله تعالىٰ حالَ مَنْ أهلك من القَوْم الفاسقين ساعةً مِنْ نَهَار .

فعِنْد الظهيرة حَمِيَ الوَطِيس ، ونَكَص عِنْد إعلان الأذانِ علىٰ عَقِبه ابليس ؛ وشاهَدُوا(١) الموتَ عِيَانا، وتحقَّقُوا الذَّهابَ أموالًا و إخْوانا ووُلْدانا، أذعَنُوا إلىٰ السِّلْمْ، ونادَوُا الأمانَ الأمانَ ياأهل الإيمانِ والعِلْم، والكَفَّ الكَفَّ ياجُنْد الملك الموصُوف عند الشِّقَاق بالحزم ، وعند القُدْرة على العِقَاب بالحِلْم . وأرسل طاغِيتُهم الأكبَرُ ليفون، يُقْسِم بصليبه : إنَّا من القوم الذين يقُومُون بما عليهم من الجِزْية ويُوفُون ؛ ومن الرَّعِيَّة الذين يُطِيعون أمر مَلِكهم الأعظم وعن حمىٰ الإسلام يكُفُّون ؛ فعند ذلك رأىٰ نوَّابُنا بذلك العسكر أن تُكَفَّ عنهم شُقَّة الشِّقاق وتُطوىٰ ، ولانَتْ قلوبُهم لتَذْكار قوله تعالىٰ : ﴿وأَنْ تَعْفُوا أقْرَبُ للتَّقْوىٰ﴾ . وطالَعُوا علُومَنا بما سأله القومُ من الرحمة والرَّأفه، وما ضَرَعوا إليهم فيه من الأمانِ والأُلْفه، وإعطاء ما كُنَّا رَسَمْنا به من تسليم قلاعٍ معْدُوده، وتسويغ أراضٍ مَحْدوده، تستقرّ بيد نُوّابنا وتُقْطَع بالمناشير الشريفةِ لأهلِ الجِهاد من أبوابنا ، مع استقرار مارَسَمْنا به من قَطيعه، وعَقْد الهدنة على أمور هى عندنا مُحَبَّبَة ولَدَيْهم فظيعة .

هذا بعدَ أنِ آستولت عساكِرُنا علىٰ قِلاعٍ لهم وحُصُون، ومُحْرَز من أموالهم ومَصُون ؛ وطلعت أعلامنا المحمَّديَّة علىٰ قَلْعة آياس ، ونزل أهل الكُفْر على حُكْم

(١) لعله وحين شاهدوا الخ ليتعلق به أذعنوا بعد .

أهل الإيمان وزال التحفُّظُ والاِحتِراس، وأُعْلِن بالأذان فى ذلك الصَّرْح ، وظهرَتْ كلمةُ الإيمــان كما بدأَتْ أوّلَ مَرَّة وهذا يُغْنِي عن الشَّرْح ؛ وعلَت المِلَّةُ الحنيفيَّةُ بذلك القُطْر وقام أهلُها وصالُوا ، وغُلَّت أيدى الكُفَّار ولُعِنُوا بِمـا قالُوا .

وكان جيشُنا قبــلَ ذلك أخذ قلعــةً تسمَّى « بكاوَرًّا » واستنزلُوا أهلَها قَسْرا ، واستزالُوهم عنها مابينَ قتْلىٰ وأسْرىٰ؛ وهى قلعةٌ شامخةُ الذُّرىٰ، فسيحةُ العَرَا، وَثِيقــةُ العُرا، يكاد الطرفُ يرجع عنها خاسِئا .

ولمـا ٱتَّصل بأبوابنا هذا الخبرُ السَّارّ ، وشَفَع لنا مَنْ نرىٰ قبولَ شفاعتِه فى إجابة ماسأله هذا الشَّعبُ من إرجاء عذابِ أهــل الكُفْر إلىٰ نار تِلْكَ الدار ؛ مَنَنَّا عليهم بالأمان، وقابَلْناهم بعــدَ العَدْل بالإحسان؛ وتقــدّم أمرُنا إلىٰ نُوَّابنا بكفِّ السيف وإغمادِه،وإطفاءِ مُسَعَّر الحرب وإخمادِه؛وأنْ يُجرىٰ المَنُّ علىٰ مألوفِه منَّا ومعتادِه، بعــد تسليم تلكَ القِلَاع، وهَــدْم الأسوار التى كان بها لأهْــل الكُفْر الاِمْتِنــاع ؛ واستِبْقاء الرِعيَّه، واستِحْيَاء الذُّرِّيه، وإجراء الهُدْنة المسئُولة علىٰ القواعد الشرعِيَّه ؛ وعاد عســكرُنا منشُورَ الذوائِب ، مظَفَّــر الكَتائِب ، مؤيَّد المَوَاكب ، مشْــحُونا بغرائِب الرَّغائب .

وعندَوُصُولهم إلى أبوابنا فتحْنا لهم أبوابَ العطاء الأوْفَر،وبَدَّلناهم بالتى هى أحسَنُ وعوَّضْــناهم الذى هو أكْثَر؛ وأفضْنا عليهــم من خِلَع القَبُول ماأنساهم مشَقَّةَ ذلك السُّرىٰ وشُقَّةَ السَّيْر، وتلا عليهم لسانُ الإنصاف ﴿ولِبَاسُ التَّقْوىٰ ذٰلِكَ خَيرٌ﴾ .

وبعدَ ذلك ورد علينا كتابُ بعضِ نُوَّابنا بالأطرافِ من أولاد قرمان، القائمين بمَشَارق ممالكنا علىٰ وجه الأمْن وسَعَةِ الأمَان، بأنَّهم عِنْد عوْدهم من سِيس؛ ونُصْرتِهم علىٰ حزْب إبليس،استطْردُوا فأخذُوا للكُفْر تِسعَ قِلَاع ،مابرِحَتْ شديدةَ الاِمتِناع،

لا تمتدّ إليها الأطماع ؛ فتكمّل المأخوذُ فى هــذه السفرة وما قبلها خمسَ عشرةَ قلعــه ، وبدّد الله شملَ الكُفْر وفرّق جَمْعه ، وآثرنا أن نعـلِم المقامَ العالى بلَمْحة ممـا لِلّهِ لدينا من النِّعم ، ولبره من شارة يُسْتَدلّ بها على أثر أخلاف كالدِّيَم ، ونُطْلِعَه علىٰ دَرّة من سَحاب ، وغَرْفة من بحرٍ عُباب ؛ وطُرْفة نَشْرها كالمِسْـك الذى ينبغِى أن يختَتَم بها هذا الكتاب .

ونحن نرغَبُ الى المقام أن يواصلَ بكُتُبه المفتتَحةِ بالوِداد ، المشتملةِ علىٰ النُّصْرة علىٰ أهل العِناد ، المشحونةِ بمَواقع الفتح والظَّفَر التى تتضاعَفُ إنْ شاء الله وتَزْداد ؛ المحتويةِ علىٰ الطَّـارف من الإخلاص والتِّـلاد ، المتصـلِ سبَبُها بين الآباء الكِرا م ونُجَباء الأولاد ، والله تعالىٰ يجعَـلُه دائمـا لثَمرات النصر من الرماح يَجْتنِي ، ولوُجُوه الفتح من الصَّوارم يجْتَلِي ؛ ويُدِيم علىٰ الإسلام مزِيدَ العِزّ الذى يتجدَّد كلَّ آوِنةٍ من طلائِـعِ راياتِ محمدٍ وبدائع آراءِ علِي ، بمنه وكرمه .

* * *

وهذه نســخة كتاب جواب إلىٰ صاحب فاس حيثُ ورد كتابه بالتعرُّض لوقعة « تمرلَنْك » من إنشاء مؤلِّفه ، كُتِب بذلك عن الســلطان الملك الناصر « فرَج بن برقوق » وهو .

عبــد الله ووليُّه الســلطان الأعظَم (إلى آخر ألقاب سلطاننا) أجرىٰ الله تعـالىٰ الأقدار برِفْعة قَدْره ، وأدار الأفلاك بتأييده ونَصْره ، وأذلَّ رِقابَ الأعداء بسَطْوته وقَهْره ، وشَحَن الأقطارَ بسُــمْعته وملأ الآفاقَ بذِكْره ، يخُصُّ المقامَ العالى (إلىٰ آخر الألقاب) : رفع اللهُ تعالىٰ له فى مُلْكه الشامِخ مَنارا ، وجعل النصْرَ والظَّفَر له شِعارا ، وأحسن بحُسْن مُواتاتِه إلا لأهل الكفر جِوارا ، بسَلَام يفوق العبيرَ عَبِيقه ، ويزْرِى

بفَتيق المِسْك الدارىّ فَتيقُه ، ويُخْجِل الروضَ المنَمْنَم إذا تزيَّن بالبَهار خَلُوقه، وثناء تَكِلُّ الالسِنةُ البليغةُ عن وَصْفه، ويَعْجِز بُنَاةُ المجد الأثيل عن حُسْن رَصْفه، وتعترفُ الأزاهرُ بالقُصور عن طِيبِ أرَجه ومسك عَرْفه، وشُكْر يوالى الوِرْدُ فيه الصَّدَر، ويحقِّق الخُبْرُ فيه الخبَرَ، ويُشِيع فى الآفاق ذِكْرَه فتتَّخِذُه السُّمَّار حديثَ سَمَر .

أما بعدَ حمدِ اللهِ واصلِ أسبابِ المَوَدّة وحافِظِ نظامِها، ومؤَكّدِ علائِقِ المحبَّة بشِدّةِ الْتِئامها، ورابط جأشِ المُعاضَدةِ باتّحاد كلمتها وتَنَاسُب مَرَامِها، ومجدّدِ مَسَرَّات القلوب بتَوَالِى أخبارها المُبْهِجة عن عالى مقَامِها . والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد أفضلِ نبىّ رعىٰ الذِّمام علىٰ البِعَاد ، وأكرمِ رسولٍ قرَنَ صِدْقَ الإخاء منه بصِحَّة الوِدَاد ، صلاةً تبلُغ من رُتْبة الشَّرف مُنْتهاها ، وتَنْطوِى الشُّقَّة البعيدةُ دُونَ بلوغِ مَدَاها ؛ فإنه ورد علَيْنا علىٰ يدِ رسُولكم فلان كتَابٌ كريم طاب وُرُوده ، وتهلّلَتْ بالبشر سُعُودُه ؛ وشهِدَ بصِدْق المحبة الصادقةِ شُهُوده ؛ وطلَع من الجانبِ الغَرْبىِّ هلالُه فلاحَتْ بالمشرِق بحُسْن التلَقِّى سُعُوده ؛ فقرّ منه برُؤْيته الناظر، وابتهج بمُوافاتِه الخاطر، ولاحَتْ من جوانبه لوائحُ البِشْر فأحسَنَ تلقِّيَه سلطانُنا الناصر .

وقابلناه من القَبُول بما كاد باطِنُه لكمال الموافاة يكونُ عُنْوانا للظاهِر ، وفَضَضْنا ختامَه المصونَ عن بَدِيع كلامٍ مختَرَع ، وبناتِ فكرٍ قبلَه لم تُفْتَرَع ، وفصاحةٍ قد أحكم اللَّسَنُ مبانِيها ، وبلاغةٍ تناسبَتْ ألفاظُها فكانَتْ قوالِبَ لمَعَانِيها ، وبراعةٍ قد أحسنَتِ البديهةُ ترتِيبَها فجاءتْ وتواليها تتْبع هوادِيها ؛ وفهِمنا ما أظهره من كَوامِنِ المحبة التى بلَغَتْ من القلب الشِّغَاف ، وبَوَارِح الشوق الذى عِنْدنا من مثله أضْعافُ أضْعاف ؛ وانتهينا إلىٰ ما أشار إليه المقامُ العالى من التلويح إلىٰ ماطَرَق أطرافَ ممالكنا الشريفة مِنْ طارق الأعدا ، وما كانَ من الواقعةِ التى كاد خَبَرُها لفظاعته يكونُ كالمُبَتدا .

ونحن نُبْدى لعلم المقام العالى مايوضِّح له أنَّ ماوقع من هذه القِصَّة لم يكُنْ عن سُوءِ تدبير، ونُورِد عليه من بيان السبَبِ مايحقِّق عنده أنَّ ذلك لم يكُنْ لعجْز ولا تقصير، بل لأمرٍ قُدِّر فى الأزَل، ومقدُور الله تعالىٰ لايُدْفَع بالحِيَل .

وذلك أنه لما ٱتَّصل بمسامعنا الشريفة قَصْدُ العدوّ إلىٰ جِهَتنا، وتجاوُزُه حَدَّ بلاده إلىٰ أطراف مملكتنا، بادَرْنا الحرَكةَ إليه فى عَسْكرٍ لَجِب، وجُيوشٍ يضيق عن وُسْعها الفضاءُ الرَّحْب، من كل بطلٍ عرَكَتْه الحرُوب، وثقَّفته الخُطُوب، وحنَّكتْه التَّجارِب، وعَجَم عُودَه بكَثْرة المُنازلات قِراعُ الكتائب . قد ٱمتطىٰ طِرْفًا عربيَّ الأصل كريمَ الحَسَب، خالصَ العِتْق صريحَ النَّسَب، يفوتُ الطَّرْف مَدىٰ باعه المَديد، ويَسْبِقُ حافِرُه موقِعَ بصرِه الحديد . ولبس دِرْعًا قد أُحْكِم سَرْدُها، وأُبْرِم شَدُّها، وبالغَتْ فى السُّبُوغ فاتَّصفَت بصِفَات الكِرام، وضاقتْ عيُنُها فمنعَتْ شَبَحا حتَّى ذُبَابَ السِّهام . ووَضَع علىٰ رأسه بيضةً يَخْطَف الأبصارَ وميضُ بَرْقها، وتُزْلِقُ السِّهامَ الراشقةَ صلابَةُ طَرْقِها، وترفَعُها الأبطالُ علىٰ الرءوس فلا ترىٰ أنها قامتْ ببعض حقِّها . وتقلَّد سيفًا يَمْضى علىٰ الرقاب نافِذُ حكمِه، ويقْضى بانقضاء الأجلِ ٱنقضَاضُ نجمِه، لاينْبُو عن ضَرِيبة فيرُدّ، ولايقِف حدُّه فى القَطْع عند حَدّ . وٱعتقل رُمْحًا يُجْرِى الدماءَ سِنَانُه بأنابيبه، ويمدّ إلى الفارس باعَهُ الطويلَ فيأخُذُ بتَلابيبه، وتمسَّك المنَايا بأسبابه فتتعلَّق منه بالأذْيال، وتُضَرِّسُ الحربُ بزُرْق أنْيابه كأنها أنيابُ أغْوال . وتنكَّب قَوْسا مُوعِزُ الآجالِ هِلالُ هلاَلها، ومُورِد المنُونِ إرسالُ نبالها، ومُدْرِكُ الثار رَنَّةُ وَتَرِها، ومُوقِدُ نارِ الحرب قَدْحُ شَرَرِها، قد ٱقترَنَ بها سِهامٌ تُسابِقُ الريحَ فى سُرْعتها، وتُعاجِلُ الموتَ بصَرْعتها، وتختطِفُ العُيون فى ممَرِّها، وتختلِسُ النفوسَ من مَقَرِّها، تدخُل هجْمًا كُلَّ محتَجب، وتأتى الحَذرَ من حيثُ لايحتَسب . وتَناولَ عُمُودًا يهْجُم على الأضالع بأضلاعه فيفْدَغُها، ويُصافِحُ الرُّءوس بكَفِّه الملتحمةِ الأصابع

فيدمَغُها ؛ يُقرّب من الأجل كُلَّ بعيد ، ويُخْلِق من العُمُر كلَّ جديد ، ولا يُقاومه في الدِّفاع بيضةٌ وأنَّى تُقاوِمُ البيضةُ زُبْرةً من حَديد .

وتحرَّكْنا من الديار المِصْرية في جُيوش لا يأخذُها حَصْر، ولا يلحَقها هَصْر، ولا يُظَنُّ بها علىٰ كثْرةِ الأعداد كَسْر ، ولم نزل نُحُثُّ السير ، ونُسْرِع الحركةَ لِلقاء العدو إسراعَ الطير ، حتّٰى وافينا دِمَشْـق المحروسةَ فنزَلْنا بظاهرِها ، مستمْطِرِين النصْرَ في أوائل حركتِنا وأواخِرِها ، وٱنْضَمَّ إلينا من عساكر الشام وعُرْبانها ، وتُركمانها الزائدة علىٰ العَدّ وعشرانها ، مالا ينقطِع له مَـدَد ، ولا يدخُل تحتَ حَصْر ولا عدَد . وأقبــل القومُ في لفيف كالجَرَاد المنتَشِر ، وأمواجِ البحر التي لا تَنْحصر : من أجنـاسٍ مختلفــه ، وجموعٍ علىٰ تبايُنِ الأنواع مُؤْتلِفه ، وتراءىٰ الجمعانِ في أفسح مكان ، ورأىٰ كُلُّ قبيلٍ الآخَرَ رأْيَ العين وليس الخبرُ كالعِيَـان ، وٱعتدَّ الفريقانِ للنِّزال ، وٱحتفَرُوا خَنادقَ للاحتراس وتبوَّأنا مَقاعِدَ للقتال ، ولم يَبْقَ إلا المُبارَزه ، وٱلْتقاءُ الصُّفُوف والمُناجزه ، إذ ورد وارِدٌ من جهتهم بطلب الصُّلْح والمُوادَعه ، والجُنوح إلىٰ السَّلْم وقَطْع المنازَعه ؛ فأجَبْناهم بالإجابه ، ورأينا أنَّ حَقْن الدماء من الجانبين من أتمِّ مواقِع الرأى إصابَهْ ؛ وكتبنا إليهم في ضمن الجواب :

لَمَّـا أتانا مِنْـكُمُ قاصِــدٌ * يَسْأَلُ في الصُّلْح وَكَفِّ القِتَال
قُلْنـا لَهُ نِعْــمَ الَّذى قُلْتَــهُ * والصُّلْحُ خَيْرٌ وأَجَبْنَا السُّـؤَال

فبينا نحن علىٰ ذلك ، واقِفُون من المواعَدةِ علىٰ المُوادَعة علىٰ ما هنالك ، إذ بلغَنا أن طائفةً من الخَوَنة الذين ضَلَّ سعْيُهم ، وعاد عليهم بالوبالِ ولله الحمدُ بَغْيُهم ، توجَّهُوا إلىٰ الديار المصرية للاستيلاء علىٰ تَخْتِ مُلْكنا الشريف في الغَيْبه ، آملينَ مالم يحْصُلوا منه إلا علىٰ الخَيْبه ؛ فلم يسَعْ إلا الإسراعُ في طَلَبِهـم ، للقبْض عليهم وإيقاع النَّكال

بهم، وجازيناهم بما يُجازى به الملوكُ مَنْ رام مَرامهم، وظنَّ العدوُّ أن قصْدَنا الديارَ المصرية إنما كان لخوفٍ أو فَشَل، فأخذ فى خِدَاع أهل البلد حتّى سلَّموه إليه وفعل فَعْلتَه التى فعَل، لِيَقْضِىَ اللهُ أمْرا كانَ مَفْعُولا .

ثم لم نزل نَدْأَبُ فى تحصين البلادِ وتَرْويج أعمالها، وترتيب أمورِها وتعديلِ أحوالها، حائطِينَ أقطارَها المتسعةَ بجيوش لا يكِلُّ حدُّها، ولا يُعْقَب بالجَزْر مَدُّها، لِيكُونُوا للبلاد أسْوارا، وللدولةِ القاهرةِ إن شاء الله تعالىٰ أعوانًا وأنصارا؛ وأعاد الله تعالىٰ المملكةَ إلى حالها المعروف، وترتِيبِها المألوف، فاستقَرّتْ بعد الاضْطِراب، وتوطَّنت بعد الاغتراب .

وفى خلال ذلك تردّدت الرسُلُ إلينا فى عَقْد الصلح وإمْضائه، ودَفْن ما كان بين الفريقين من المباينة وإخفائه؛ فلم يسَعْنا التلكُّؤ عن المصالحة [بل سَعَيْنا] سَعْيها؛ والله تعالىٰ يقول : ﴿ وإنْ جَنحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لَهَا ﴾ . فعقَدْنا لهم عقدَ الصُّلح وأمضَيْناه، وأحكَمْنا قواعدَه تَوكُّلا علىٰ الله تعالى وأبرمْناه، وجهَّزْنا إليهم نسخةً منه طمغت بطمغة قانهم عليها، وأعيدَتْ إلينا بعد ذلك ليكونَ المْرجِعُ عنْدَ الاختلاف والعياذ بالله تعالى إليها : ﴿فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِه ومَنْ أوفىٰ بما عاهَدَ عَلَيْهُ اللّٰهَ فسيُؤْتِيهِ أجْرا عَظِيما﴾ .

والله تعالى يجنِّب إخاءكُم الكريمَ مواقع الغِيَر، ويقْرُن مَوَدّتَه الصادقة بصفاءٍ لا يَشُوبُه علىٰ ممرّ الزمان كَدَر، والسلامُ عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجمـــــــلة الرابعة

(فى مكاتبة ملك المسلمين بالأندلُس)

وهو صاحب غَرْناطةَ ، وقلعتها تسمى حَمْراء غَرْناطةَ . وقد تقـدّم فى المقالة الثانية فى المسالك والممالك ذكْرُ هذه المملكة وأحوالها ، ومَنْ مَلَكها جاهليَّة وإسلاما ، وأنها الآنَ بيَدِ بَنِي الأحمر . وقد ذكر فى "التعريف" أنهم من وَلَدِ قيس بنِ سعد ابن عُبَادة سيد الخزرج الأنصاريّ : صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلم . وهى منهم الآنَ بيد السلطان محمد بن يوسف بن محمد المخلُوع آبن يوسُفَ بن إسماعيل آبن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر، وقد أزلّ اللهُ من يجاوره من نَصارىٰ الفَرَنْج بسيفه ، وآمتنع فى أيامه ما كان يؤدِّيه مَنْ قَبْله من أواخر ملوك الأندَلُس إلى مَلِك الفَرَنج من الإتاوة فى كل سنةٍ، لآستقبال سنةِ ثنتين وسبْعِين وسبعمائة وإلى آخر وقت .

وقد ذكر فى "التعريف" أنّ سلطانها كان فى زمانه فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» أبا الفضل يوسف، ولعله يوسف بن إسماعيل المقدّم ذكره . قال : وهو شابٌّ فاضل له يدٌ فى الموشَّحات . ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" بعد البسملة "أما بعد" بخطبة مختصرة ، «فهذه المفاوضَةُ إلى الحضرة العلية ، السنيَّة ، السرِيَّة ، العالميَّة ، العادليَّة ، المجاهِدية ، المؤيَّديَّة ، المرابِطيّة ، المثاغِرية ، المظفَّرية ، المنصوريَّة ، بقيَّة شجرة الفَخَار ، وخالصةِ سَلَف الأنْصار ، المجاهد عن الدين ، والذابِّ عن حوزة المسلمين ، ناصِرِ الغُزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، خُلَاصة الخلافة المعظمة ، أثيرِ الإمامة المكَرَّمة ، ظهير أمير المؤمنين ، أبى فلان فلان . »

وهذا صدر لهذه المكاتبة ذكره فى "التعريف" وهو .

صدرت هذه المكاتبةُ إليه متكفِّلةً بالنصر علىٰ بُعْد الدار ، مجرّدةَ النصل إلا أنه الذى لا يؤخِّره البِدَار ، مُسعَدةً بالهِمَم ولولا الآشتغالُ بجهاد أعداءِ الله فيمن قَرُب لَمَا تقدّمتْ سَرْعانُ الخيل ، ولا أقبلت إلَّا وفى [أوائل] (١) طلائعِها للأعداء الوَيْل ؛ ولا كُتبَتْ إلا والعَجَاج يُتَرِّب السُّطور ، والفِجَاج تقذِفُ مافيها علىٰ ظُهور الصَّواهل إلىٰ بُطون البُحور . مبديةً ذكرَ ماعندنا بسببها لمجاورة الكُفَّار ، ومحاورة السيوف التى لاتَملُّ من النفار ، مع العلم بما لها فى ذلك من فَضِيلة الجهاد ، ومَزِيَّة الجَلَد علىٰ طول الجِلَاد ، ومصابَرةِ السهَر لأوقات منيمه ، ومكاثرةِ هذا العدوِّ بالصبر ليكونَ لها غنيمه ، ونحن علىٰ إمدادها ــ أيدها الله ــ بالنصر و بالدعاء الذى هو أخفُّ إليها من العساكر ، وأخفىٰ مسيرًا إذا قدَّر حقَّه الشاكر ؛ ثقةً بأن الله سينصُر حزْبَه الغالب ، ويكُفُّ عدوَّه المغالب ، ويصل بإمداد الملائكةِ لجُنْده ، ويأْتِى بالفتح أوْ بأمْرٍ من عنده ، لتجرى ألطافُه على ماعَوّدَتْ ، ويُؤخَذَ الأعداء بالجريرة ، ولينصرنَّ اللهُ من ينصره وينظُرُ إلى أهل هذه الجزيره .

والذى ذكره فى "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه مثل صاحب تونس فى القطع والخطابة ، والاختتام ، والعلامة ، والتعريفُ " صاحبُ حمراء غَرْناطةَ " .

وهذه نسخة جوابٍ إلى صاحب حمراء غَرْناطة . وقد ورد كتابه فى ورقٍ أحمر يتضمَّن قيامَه بأمر الجهاد فى الكُفَّار ، وما حصل من آستيلاء بعض أقاربه علىٰ مُلْكه ونَزْعه منه ، وأنه استظهر بعد ذلك علىٰ المذكور وقتَلَه ، وعاد إلىٰ مُلْكه علىٰ عادته . فى جمادىٰ الأولىٰ سنة خمس وستين وسبعمائة ، وهى :

(١) من "التعريف" زدناه .

نَخُصُّ الحضرةَ العلية، حضرة الأمير فلان، وألقابه، جعل الله له النصْرَ أينَ سارَ قرينا، والظَّفر والاستظهارَ مصاحِباً وخَدِينا، وزاد فى محلِّه الأسنىٰ تمكِينا وتأمِينا، ومَنَحَ أُفُقَه الغربىَّ من أسِرَّةِ وجهه المتلألئ الإشراق، ومَهَابةِ بطْشِه الذى يُورِد العِدا مَوَارد الرَّدىٰ بالاتِّفاق، تحسيناً وتحصينا ـ بإهداء السلام الذى يتأرَّجُ عَرْفا، ويتبلَّج وصْفا، ويكاد يمازِجُ النَّسِيم لُطْفا ـ وإبْداء الشُّكْرِ الذى جلَّلَه ملابِس الإكرام وأضْفىٰ، وأجملَ منه نفائسَ عَقْدِ المودَّة التى أظهرها فلم تكُنْ تخفىٰ .

ثم بعدَ حمدِ الله مؤكِّد أسباب عُلَاه، ومؤيِّد موجِباتِ نَصْره وما النصرُ إلا من عند الله؛ والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبده ورسوله الذى أمَدَّه بملائكته المقَرَّبين، ونصَرَه بالرُّعْب مسيرةَ شهرٍ كما ورد بالنصِّ والتعيين؛ ورفع باسمه ألْوِيةَ المؤمنين الموحِّدين، وقمع ببأسه ثائرةَ البُغاة والمتمرِّدين .

وعلى آله وصَحْبه الذين لازَمُوا التمسكَ بأسباب الدين، وجاهَدُوا فى إقامة مَنَار الإسلام لما علِمُوا مقدارَ أجرهم عِلْمَ اليقين، صلاةً متواليةً متواترةً علىٰ ممَرِّ الأحقاب والسِّنين؛ فإنا نوضِّح لعلمه الكريم أنَّ كتابه ورد علينا مشتمِلا علىٰ المحاسن الغَرَّاء، مُغْرِبا بل معرِبا لنا بحمرة لونِه أن نسبتَه إلىٰ الحمراء، مُشْبِهاً وَرْدَ الخدُود والنِّقْسُ فيه كالخال، أو شَقائقَ النُّعمان كما بدَا روضُه غِبَّ السحاب المتَوال . فوقَفْنا علىٰ مضمونه جميعِه، وتلمَّحنا بديعَ معانيه من جميل تَوْشيعِه وترصيعه، وعلِمْنا ما شرحه فيه : من آستمراره علىٰ عادة سَلَفه فى القيام بأمر الجهاد، وقَطْع دابر الكَفَرة ذوى الشِّقاق والعِناد، وتوطيدِ ما لديه من تلك البِلاد، وتطمينِ ما بها من العِباد؛ وما آتفق من قريبِه فى الصورة لا فى المعنىٰ، وكيف أساء إليه فعْلا وقد أحسَنَ به ظنَّا، وأنه رَصدَ الغفلةَ من جنابه، وأقدَمَ على ما أقدَمَ عليه من اقتراف البغْيِ والتمسُّك بأسبابه، ولم

يزلْ يُراعى غَيبةَ الرَّقيب وهُجُوعَ السامر، إلى أن تمكّن من الاستيلاء على ذلك المُلْك الذى ظنّ أنّ أمره اليه صائر، لكنه مع كونه قد اقتحم فى فَعْلته هذه الأَهْوال، وتوهّم أنه قد حصَل بمكره على بُلُوغ بعض الآمال، فإنه ماسَلِمَ ولله الحمدُ والمِنّة حتّى وَدّع، ولا أقبل سَحابُ استيلائه حتّى أقْشَع؛ بما قدّره الله تعالى لحضرة الأمير من نُصْرته، وعَوْده إلى محلّ أمْره وإمرته . وأنه آثر اطّلاع علومنا الشريفة على هذه الواقعه، لما يعلَمُ من تأكيد المودة التى غدَتْ حمائمها على أفنانِ المحبَّة ساجعه؛ وقد علمنا هذا الأمر، وشكَرْنا جميلَ محبّته التى لم يَنْسُجْ على منوالها زيدٌ ولا عمرو؛ وٱبتَهَجْنا بما يسّره الله تعالى له من ذلك، وٱنتهزْنا فُرَصَ السُّرور بما منحه الله من ظَفَره المتقارِب المتدارِك، وحمِدْنا اللهَ تعالى على تأييد هذه العِصَابة الإسلاميَّة، وما مَنَّ به من عَوْد شمس هذا الأفُقِ الغربىِّ إلى مطالعها السنيَّه؛ ولا جرمَ ان كانت له النُّصْره، والاستيلاءُ والقُدْره: لأن الله تعالى قد تكفَّل سبحانه لاوليائه بمَزيد التكريم والتعْزيز، إذ قال عز وجل : ﴿ذٰلكَ ومَنْ عاقَبَ بمِثْل ماعُوقب به ثم بُغِيَ عليه لينْصُرَنَّه الله﴾ ﴿إنَّ اللهَ لقوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ .

وأما غير ذلك، فقد وصل رسولُ الحضرةِ العلية إلينا وتمثل بمواقِفنا المعظّمه، ومحالّ مملكتِنا المكرَّمه؛ وأقبَلْنا عليه، وضاعَفْنا الإحسانَ إليه؛ وأدّى إلينا ما تحمَّله من المشافهَة الكريمه، ورسائل المحبَّة والمودَّة القديمه؛ فرسمنا باجابة قَصْده، وتوفير بِرّه ورِفْده، وقضاءِ شُغْله الذى حضر فيه، وتسْهيلِ مآربه بمَزيد التنْويل والتنْويه؛ ومسامحةِ الحضرة العلية بما يتعيَّن على ما قيمته ألفَا دينار مصرية حسَبَ ماعيَّنه رسوله المذكور، ولو كان سألَنَا أضعافَ ذلك لأجبْنا سُؤالَه من غير تروٍّ ولا فُتُور. وقد جهَّزنا إليه صُحبَتَه ماأنعمَتْ به صدَقاتُنا الشريفةُ عليه من الدّرْياق ودُهْن البَلَسان، فليتحقَّق

ماله عندنا من المكانة والمحلّ الرفيع الشان ؛ وقد أعدْنا رسـولَه المذكورَ إلى جهته الكريمة بهذا الجواب الشريف ، محترما مكرَّما مشمُولا من إحساننا بالتَّليد والطَّرِيف ؛ فيُحيط عِلمًا بذلك واللهُ تعالى يُمدُّه بمزيد التأييد ، ويمنَحُه من جميل الإقبالِ ، وجزيلِ النَّوال ، ما يُرْبى على الأمل ويَزِيد ! .

تم الجزء السابع . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن

وأوله المقصـــد الثـالث

(فى المكاتبة إلى أهل الجانب الجنوبى ممن جرتِ العادةُ بالمكاتبة إليه من العرب والسُّودان ، وفيه ثلاث جمل)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين وآله وصحبــه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الاميرية ٧٠٠٠/١٩١٤/٣٠٠٠)

فهـــــرس

الجـــــزء السـابع

من كتاب صبح الأعشىٰ للقلقشندى

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

(تم فهرس الجـــزء السابع من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجزء الثامن

دار الكتب السلطانية

كتاب
صبح الأعشى

تأليف
الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــــزء الثامن

طبـــع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

المقصد الثالث

فى المكاتبة إلىٰ أهل الجانب الجَنُوبىّ ممن جرت العادةُ بالمكاتبة إليه من العرب والسُّودان، وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولىٰ

(فى المكاتبة إلىٰ مَنْ بهذا الجانب من العُرْبان)

وقد ذكر فى "التثقيف" ممن كُوتِب منهم جماعةً بالطُّرُقات الموصِّلة من الديار المصرية إلىٰ بلاد الحَبَشة وغيرها . ثم قال : ولعلَّ هٰؤلاء أيضا من عُرْبان الممالك المحروسة ، غير أنه لا إقطاعاتِ لهم ، وعدّ منهم ثمانية أشخاص ، وذكر أنه كتب إلىٰ كل منهم الاسم ومجلس الأمير :

الأول — سَمُرة بن كاملٍ العامرىّ .

الثانى — عَبَّاد بن قاسم .

الثالث — كمال بن سِوَار . قال : وهو مستحْدَث المكاتبة فى العشر الأول من جمادىٰ الأولىٰ سنة ثلاث وستين وسبعمائة .

الرابع — جُنَيد : شيخُ الجَوَابرة من الهكارِيَّة بأبواب النُّوبة . قال : وهو مستحْدَث المكاتبة فى سنة تسع وستين وسبعمائة .

الخـامس ــ شَرِيف : شـيخ النَّمانِمَة ، بأبواب النُّوبة أيضـا ، ومكاتبتـه مستجِدّة حينئذ .

السادس ــ علىّ : شيخ دُغَيْم .

السـابع ــ زامِلٌ الثـانى .

الثـامن ــ أبو مُهَنّا العِمْرانىّ .

الجمـــلة الثـانيـــة

(فى المكاتبة إلىٰ مسلِمِى ملوكِ السُّودان ، وهم أربعة ملوك)

الاول ــ مِلك النُّوبة . وهو صاحب مدينة دُنْقُلَة : وقد تقدّم الكلامُ عليها مستوفًى فى الكلام علىٰ المقالة الثانية فى "المسالك والممـالك" . قال فى "التعريف": وهو رَعِيَّة من رَعايَا صاحبِ مصر، وعليه حِمْلٌ مقرّرٌ، يقوم به فى كل سنة، ويُخطب [ببلاده](1) لخليفة العصر، وصاحب مصر .

قلت : هذا كان فىالدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وهذه الإتاوة كانتْ مقرّرةً عليهم من زمن الفَتْح ، فى إمارة عَمْرو بن العاص رضى الله عنه ؛ ثم صارت تنقطع تارةً وتُحمَل أُخْرىٰ ، بحسَب الطاعة والعِصْيان . وهى الآنَ مملكةٌ مسـتقِلّة بذاتها ، ولذلك أوردتُ مكاتبةَ صاحبها فى جملة الملوك :

ورسم المكاتبة إليه إن كان مسلما علىٰ ماذكره فى "التعريف" :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس الجليل ، الكبير، الغازى، المجاهِد ، المؤيَّد ، الأوحدِ ، العَضُد ، مَجْدِ الإسـلام ، زينِ الأنام ، فخرِ المجاهدين ، عُمْـدةِ الملوك والسلاطين .

---

(1) الزيادة من "التعريف" .

وذكر ذلك فى « التثقيف » نقلا عنه . ثم قال : ولم أجد له مكاتبةً متداوَلةً بين الجماعة . قال : ولم يُكْتب له شيءٌ فى مدّة مباشرتى بديوان الإنشاء ، ولم يزد علىٰ ذلك .

ورأيت فى الدُّستور المنسوبِ للمقرّ العَلَائىّ بن فضل الله أنَّ مكاتبته هذه المكاتبةُ أيضا، وأنه يقال بعد عمدةِ الملوك والسلاطين : «أدام الله سعادتَه ، وبلَّغه فى الدارين إرادتَه، تتضمَّن إعلامه كَيْتَ وكَيْتَ ، فيتقدَّم بكذا وكذا، فيحيطُ علمُه بذلك» . ثم قال : والمكاتبة إليـه فى قَطْع العادة ، والعلامة « أخوه » ولا يخفىٰ أنَّ العنوان بالألقاب، ويظهر أن التعريف «صاحب دُنْقلة» .

الثـانى — ملك البَرْنُو . قال فى "التعريف": وبلاده تَحُدّ بلاد [ملك](١) التَّكرور من الشرق، ثم يكون حدّها من الشمال بلادَ [صاحب](١) أفريقيَّة، ومن الجَنُوب الهَمَج ، وقد تقدّم الكلام عليهـا مستوفًى فى المقالة الثانيـة فى الكلام على المسالك والممـالك . ولم يذكر هذه المملكة فى "مسالك الأبصار" . قلت : وملكها يزعُم أنه من ذُرّية سَيْف بن ذِى يَزَن ملك اليمن علىٰ ماورد به كتابُه فى أواخر المائة السابعة .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى " التعرِيف " :

أدام اللهُ تعـالىٰ نَصْر الجناب الكريم ، العالى ، الملكِ الجليـلِ ، الكبيرِ ، العالم ، العـادل ، الغازى ، المجاهـد ، الهُمَام ، الأوحد ، المظَفَّر ، المنصور ، عزِّ الإسلام ، (من نوع ألقاب ملك التَّكرور) : يعنى شرف ملوك الأنام ، ناصر الغُزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحِّدين ، جمال الملوك والسلاطين ، ظهير الإمام ، عضد أمير المؤمنين الملك فلان . ويدعىٰ له بمـا يناسبه ، وبعد إهداء السلام والتَّشوّق هـذه المفاوضَة تبدى ، علىٰ ماسيأتى ذكره فى مكاتبته .

(١) الزيادة من "التعريف".

وهذا صـــدر يليق به : ولا زالتْ هِمَمُ سلطانه غيرَ مُقْصَره، ووُفودُ حَجِّه غير محصَره، وسيفُه فى سَوَاد مَنْ جاوره من أعدائه الكُفَّار يقول: ﴿وجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ آيتَيْنِ فمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَة﴾ صدرَتْ، ولهامَثَلٌ مِسْكَةٌ افقه عبَق، وعنبرةُ طينَتِــه سوادٌ إلا أنّه من السَّواد اليَقَق ، وشبيبة مَلِكه الذى يُفَـدِّيه سَوادُ الحَدَق. أوجبها وُدّ أسكنه [مَسْكَنه](١) من سُوَيْداء القلب لا يَرِيم، وأراه غُرَّة الصَّباح الوَضَّاح تحتَ طُرّة الليل البَهِيم . وحكىٰ ذلك عنه فى "التثقيف" ولم يزد عليه .

ورأيت فى الدُّستور المنسوب للقرّ العلائىّ بن فضل الله أنّ مكاتبته فى قطع الثُّلُث، والعلامة « أخوه » وتعريفه « صاحب بَرْنُو » .

قلت : ووصل من هذا الملك كتاب فى الدولة الظاهرية (برقوق) يتشكّى فيه من عرب جُذَامَ المجاورين له ، ويذْكُر أنهم أخذُوا جماعةً من أقاربه باعُوهم فى الأقطار، وسأل الكَشْفَ عن خبرهم ، والمنْعَ من بَيْعهم بمصر والشام ؛ وأرسل هديّة صالحةً من زِئْبَــق وغيره . وكُتِب جوابُه بخط زين الدين طاهر : أحدِ كُتَّاب الدَّسْت .

صدره: أعزّ الله تعالىٰ جانبَ الجناب الكريم، العالى، المَلِكِ الجليلِ، العالم، العادل، الغازى، المجاهِدِ، الهمامِ، الأوحدِ، المظَفَّر، المنصور، المتوكِّل، فخر الدين أبى عمرو عثمانَ بنِ إدريس : عزّ الإســلام ، شرفِ ملوك الأنام، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين، زعيمِ جيوش الموحِّدين، جمالِ الملوك والسلاطين، سيفِ الجَلالة، ظهيرِ الإمامه .

وبُعث إليه به مع رسوله الوارد صُحْبــةَ الحجيج ، فأُعيد وقد كتب الجواب علىٰ ظهره بعد سنة أو سنتين .

الثالث ـــ ملك الكانِم . قال فى "مسالك الأبصار" : وقاعدة الملك منها بلدةٌ اسمُها « جِيمِى » ومبدأ مملكته من جهةِ مصر بلدةٌ اسمها «زَلَّا» وآخِرُها طُولا بلْدةٌ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ٢٩ .

يقال لها «كَاكَا» وبينهما نحو ثلاثة أشهر . قال : وعسكرهم يتلثَّمون، وملِكُهم علىٰ حَقَارة سلطانه، وسُوء بُقْعة مَكَانه، فى غايةٍ لاتُدْرَك من الكِبْرياء، يمسَحُ برأسه عَنَانَ السماء، مع ضَعْف أجناد، وقِلَّة متحصِّل بلاد، محجوبٌ، لا يراه أحد إلا فى يوم العيدين بُكرةً وعندَ العَصْر، وفى سائر السنة لايكلمه أحدٌ ولو كان أميرا إلّا من وراء حجاب .

وقال فى "التعريف" ملوكُها من بيتٍ قديمٍ فى الإسلام، وجاء منهم من ادَّعىٰ النسب العَلَوىَّ فى بنى الحَسَن، وهو يتمذهبُ بمذْهَب الشافعىّ. ورَسْم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" كرسم مكاتبة صاحب البَرْنُو، بدون الكريم، وتبعه علىٰ ذلك فى "التثقيف" ناقلا له عنه . ثم قال : ولم أطَّلع علىٰ مكاتبةٍ له غير الذى قد ذكره .

الرابع — ملك مالِّى . قال فى "مسالك الأبصار" وهى فى نِهاية الغَرْب متصلةٌ بالبحر المحيط ، وقاعدة المُلْك بها بَنِى . وهى أعظمُ ممالك السُّودان ؛ وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ المسالك والممالك ذكرُ أحوالها، وما تَيَسَّر من ذكر ملُوكها، وأن مالّى آسمٌ للإقليم، والتَّكْرور مدينةٌ من مُدُنه، وكان ملِكُها فى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » مَنْسا موسىٰ، ومعنىٰ مَنْسا السلطانُ .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار"[1] أنه وصل منه كتابٌ عن نفسه لنفسه فيه ناموسًا، وأنه وصل إلىٰ الديار المصرية حاجًّا، وآجتمع بالسلطان الملك الناصر، فقام له وتلقَّاه، وأكرمه وأحسن نُزُلَه، علىٰ ماهو مبسوط فى موضعه .

(1) عبارة "المسالك" فى الكلام علىٰ مملكة مالى نصها « ولقد جاء كتاب من هذا السلطان الى الحضرة السلطانية بمصر وهو بالخط المغربى فى ورق عريض، السطر الى جانب السطر وهو يمسك فيه ناموسا لنفسه» فلعل مافى الأصل هكذا « عن نفسه وهو يمسك لنفسه الخ » فتدبر .

قال فى "التعريف": وملك التَّكْرور هذا يدَّعى نَسَبا إلىٰ عبدِ الله بن صالح آبن الحسن، بن علىّ، بن أبى طالب .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" : « أدام الله تعالىٰ نصرَ المقرّ العالى، السلطانِ، الجليلِ، الكبيرِ، العالِمِ، العادلِ، المجاهِدِ، المؤيَّدِ، الأوحدِ، عزِّ الإسلام، شرفِ ملوك الأنام، ناصر الغُزاة والمجاهدين، زعيمِ جُيوش الموحِّدين، جمالِ الملوك والسلاطين، سيفِ الجَلالة، ظَهِيرِ الإمامة، عَضُد أمير المؤمنين » الملك فلان . ويُدْعىٰ له بما يناسبُ . وبعد إهداء السلام والتشوّق « هذه المفاوضة تبدى» .

قال : ولا يُعرّض له ولا يُقرّ بشىءٍ من الالقاب الدالة على النسب العَلَوىّ .

وهذا صدر لهذه المكاتبة ذكره فى "التعريف" .

ويَسَّر له القيامَ بفَرْضه، وأحسنَ له المعاملَة فى قَرْضه، وكثَّر سوادَهُ الأعظَمَ وجعلهم بِيضَ الوجوه يومَ عَرْضه، ومتَّعه بمُلْك يجد الحديدَ يَجْفَ سمائه والذهَبَ نَبَاتَ أرضه . صدرتْ هذه المفاوضةُ وصدْرُها به مملُو، وشُكْرُها عليه يحلُو، ومَزَايَا حُبِّه فى القلوب سِرُّ كلِّ فؤاد، وسبَبُ ما حَلِيَ به الطَّرْف والقلْبُ من السَّواد، تُنْزَل به سفُنُها المسيَّرةُ فى البحر وتُرْسى، وتَحُلُّ عند ملك ينقص به زائدُه وينسىٰ موسىٰ مَنْسىٰ، وتُقيمُ عليه والدهْرُ لا يطرُقُه فيما ينوب، والفكر لا يَشُوقه إلا إذا هبَّتْ صَبًا من أرضه أو جَنُوب .

والمتداوَلُ بين جماعة كُتَّاب الإنشاء أن المكاتبة إليه : « أعز الله تعالىٰ جانبَ الجناب الكريم العالى، الملكِ، الجليل، العالِم، العادلِ، المجاهد، المؤيَّد، المرابِط، المثاغر، العابد، الناسك، الأوحد، فلان، ذُخرِ الإسلام والمسلمين، نُصْرة الغُزاة

والمجاهدين، عَوْنِ جُيوش الموحِّدين، رُكْنِ الأمّة ، عماد المِلَّة ، جمال الملوك والسلاطين، ولىّ أمير المؤمنين» والدعاء .

وذكر نحو ذلك فى الدُّسْتور المنسوب للمقرّ العلائىّ بن فضل الله، ثم قال ويقال : «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى مملوءةَ الصدر بشُكْره ، باسمةَ الثغر برفعةِ قَدْره، موضِّحةً لعلمه الكريم كيْتَ وكَيْتَ . وذكر أنَّ خطابه بالجناب الكريم، والطلبَ والقصد والخَتم بالإحاطة، وذكر هو وصاحب "التثقيف" أن المكاتبة إليه فى قطع الثلث، والعلامة «أخوه»، وتعريفه «صاحب مالِّى وغانةَ» .

الجملة الثالثة

(فى المكاتبة إلىٰ ملوك المسلمين بالحَبَشة)

قد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنَّ ببلاد الحبشة سبعة ملوك مسلمين، لهم سبْعُ ممالكَ، كلُّ مملكة منفردةٌ بمِلك، وبها الجوامعُ والمساجدُ ينادىٰ فيها بالأذان ، وتُقامُ بها الجُمَعُ والجماعات ، وهم مع ذلك تحتَ أمر صاحبِ أَمْحَرا ملك ملوك الحبشة، يَخْتار لولاية ممالكهم مَنْ شاء توليتَه، ولا يَرِدُون ويَصْدُرون إلا عن أمره ، وهى مملكة أَوْفَات والزَّيْلَع ، ومملكة دَوَارُو ، ومملكة أرَابِينى، ومملكة هَدْيَة، ومملكة شَرْحا، ومملكة بالِى، ومملكة دارَة .

وقد تقدّم الكلام عليها وعلىٰ أحوالها مستوفىً عند الكلام عليها فى المقالة الثانية .
قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه الممالك تُجاور ناصِع ، وسوا كِن، ودَهْلَك، وليس بها مملكة مشهورة .

قال فى "التعريف" : ولم يَرِدْ من هــذه الملوك السـبعة كتاب ، ولا صــدَرَ إليهم خِطَاب . قال : فإن ورد منهم شيءٌ فتجرى مكاتبتُهم مثـلَ مكاتبةِ صاحب الكانم والبَرْنُو . وقد تقــدّم أنَّ رسم المكاتبة إليهما علىٰ ما ذكره فى "التعريف" : «أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ الجناب الكريم، وأعزَّ اللهُ تعالى جانب الجناب الكريم» علىٰ ما كتب به القــاضى زينُ الدين طاهر فى جواب صاحب البَرْنُو علىٰ ماهو مذكور فى موضعه .

المقصـــــد الرابع

(فى المكاتبة إلىٰ أهل الجانب الشَّمالى، وفيه ثلاثة أطراف)

الطـــــرف الأوّل

(فى المكاتبات إلىٰ أُمَراء الأتراك بالبـــلاد المعروفةِ ببـــلاد الرُّوم المسمّاة الآنَ ببلاد الدُّرُوب)

قال فى "التعريف": وهى البلاد المُنحصِرة بين بَحْرِى القِرمِ والخليج القُسْطَنْطِينىّ تنتهى فى شرقيِّها إلىٰ بحر القِرمِ المسمّٰى بحر نِيطِش، وفى الغرب إلىٰ الخليج القُسْطَنْطِينىّ وتنتهى متشاملة إلىٰ القُسْطنطينية، وتنتهِى جَنُوبا إلىٰ بلاد الأرمن، يحــدُّها البحر الشامىُّ . قال : وهــذه البلاد بلادٌ متسـعه ، وهى مفَرَّقَةٌ لملوك مجتمعه ، ولكنه لايُطْلق عليهم إلّا ٱسم الإمارة، ولا ٱنتظامَ لكلمتهم ، ولا ٱجتماعَ لجُمْلتِهم؛ ثم قال : وأكبرهم صاحب كِرْمِيان، وله بينهم وَضْع محفوظ، ونظامٌ مرعىّ .

أما ملوكها، فأجلُّ مَنْ لديهم منهم جماعةُ بنى قرْمان ، لقُرْب ديارهم ، وتَواصُـل أخبارهم، ولِنكَاياتهم فى متملّك سِيسَ وأهل بلاد الأرمن ، وٱجْتياحِهم لهم من ذلك

الجانب، مثلَ ٱجتياح عساكِرنا لهم من هذا الجانب، فمكاتبتنا إلىٰ بَنِى قرمان لاتكاد تنقطع ، وأما إلىٰ البقِيَّة فأقلُّ من القليل، وأخفىٰ من مَرْأىٰ الضئيل . ثم عدّ منهم ستةَ عشَرَ أميرا، وذكر رسمَ المكاتبة إلىٰ كلِّ واحدٍ منهم :

الأوّل — صاحب كِرْميان . قال فى "التعريف" : ولم يُكْتب إليه مُدّة مُقَامى بالأبواب السلطانية ، ويُشْبِه أن تكون المكاتبةُ إليــه بالمَقَرّ نظير صاحب مارِدِينَ، لكن بأبسطِ ألقاب : إذ هى أدْعىٰ لٱستحسانهم لقِلَّة مَعَارفهم ، وعلىٰ هذا التقدير يكون رسم المكاتبة إليــه : «أعزَّ الله تعالى نَصْرَ المقرّ الكريم ، العــالى، المَلَكىّ، الأجلّىّ، العالمىّ، العادلىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدىّ، المرابطىّ، المثاغرىّ، المظفَّرىّ، المنصورىّ، الفلانى، عونِ الأنام، شرف الملوك والسلاطين، نَصِير الغُزاة والمجاهدين، زعيم الجُيوش، مقدّمِ العساكر، ظهيرِ أمير المؤمنين» .

قال : فإن لم يُسْمَح له بكل هــذه المخاطَبَــه، ولم يؤَهَّل لنظير هــذه المكاتبه ، كتِبَتْ إليه هــذه الألقاب مع الجناب الكريم ، وخُوطب بالإمارة إن لم يسمح له بالمخاطبة بالمُلْك .

قال فى "التثقيف" ولعل مكاتبتَهُ بالجناب مع هــذه الألقاب كما ذُكِر ومخاطبتَه بالإمارة أوْلىٰ: لأنه إذا كان بنو قِرْمان أجلَّ لدىٰ ملوكنا، ومكاتباتُهم بالدعاء والمجلس العالى، فيتعين حيثُ هو أكبَرُ منهم أن يكون هو أعلىٰ منهم رتبةً فى المكاتبة بدرجتين(١) وهى : الجناب الكريم . قال : هذا هو الأولىٰ عندى .

قلت : وهذا كلُّه إنما كان قبل أن يعْلُوَ قدرُ ٱبن عثمان صاحب بُرْسَا الآتى ذكره، ويرتفعَ قَدْرُه على مَنْ بتلك البلاد جملة ؛ أما بعــدَ ٱرتفاعه وٱنحِطاطهم دُونَه فينبغى أن يُنْظَر فى قدر المكتوب إليه، ويكتب إليه بحَسَب ماتقتضيه الحالُ .

---

(١) لعله بدرجة تأمل .

الثـانى — صاحب طُنْغُزْلُو . قال فى " التعريف " ورسم المكاتبـة إليـه : «صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى الأميرى» ولم يذكر العلامةَ اليه . قال فى " التثقيف " والذى وجدتُه مسطورا فى مكاتبته الأسمُ والسامىُّ بالياء .

الثـالث — صاحب تُوَازا . قال فى " التعريف " : وهو فى المكاتبـة نظيرُ صاحب طُنْغُزْلُو، ولم يزد علىٰ ذلك، غيرَ أنه ذكر أن آسمه فى زمانه كان «على أرينه» وذكر فى "التثقيف" أنه لم يقِف له علىٰ رسم مكاتبة سِوىٰ ذلك .

الرابع — صاحب عَيْـدَلِى . قد ذكر فى " التعريف " أن آسمه فى زمانه دَنْدار أخو يونُس صاحب أنْطاليَا ، وأنه نظير صاحب تُوازَا فى المكاتبة ، فتكون المكاتبة إليه : صدرتْ والعالى . قال فى " التثقيف " ولم أقِف علىٰ رسم مكاتبة إليه سِوىٰ ذلك، إلا أنه ذكر بعد ذلك صاحب عدليو. وقال : إن المكاتبة إليه الأسمُ والسامىّ بالياء، وذكر أن المقرّ الشهابىَّ بن فضـل الله لم يتعرّض إلىٰ ذكره فى " التعريف " ثم قال : وقد تكون هى عَيْدَلِى المقدّم ذكرها، وإنمـا تكرّرتْ بتغيير الحروف . قال ولم يتحرّر هل هما آثنان أو واحد .

الخـامس — صاحب كَصْطَمُونِيَةَ وهى قَسْـطَمُونِيَة . قال فى " التعريف " وكانت آخِرَوقتٍ لسليمان باشا، وكان أميرًا كبيرًا، كثيرَ العَدَد، موفورَ المَدَد، ذاهَيْبةٍ وتمنُّع . ثم قال : وورث مُلْكَه آبنُه إبراهيم شاه ، وكان عاقًّا لأبيـه ، خارجًا عن مَرَاضيه، وكان فى حياته منفرِدا بمملكة سَنُوبَ . قال : وهى الآنَ داخلةٌ فى مُلْكه، منخرطةٌ فى سِلْكه .

وذكر أنَّ رسم المكاتبة اليه : «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرى» بأكمل الألقاب، وأتمِّ ما يُكْتَب فى هـذا الباب، وذكر فى " التثقيف " نقلًا عن القاضى ناصر الدين بن النشائى، وأمين الدين خضر مثلَ ذلك، وأن العلامة إليه «أخوه» .

السادس — صاحب فاوِيا. قال فى "التعريف" وهو (يعنى فى زمانه) مرادُ الدين حمزةُ، وهو مَلِك مضْعُوف، ورجلٌ بمجالس أُنْسِه مشْغُوف. قال: ورسم المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىّ الأميرىّ» بالياء. قال فى "التثقيف" وهو غير بعيد.

السابع — صاحب بُرْسَا. وقد ذكر فى "التعريف" انه فى زمانه أرْخَان بن عثمان. ثم قال: وهو نظير صاحب فاوِيَا فى المكاتبة، فتكون مكاتبته السامىّ بالياء. قال فى "التثقيف" ولم أطّلع على رسم للمكاتبة إليه غيرَ ذلك، إلا أنه ذكر فى الفصل الأول من الباب الرابع فى الكلام على مكاتبات الحُكّام أَرْخان بن عثمان. وقال: إنَّ لقبه سيفُ الدين. ثم قال: ويقال إنه صاحب بُرْسَا؛ وذكر أن رسم المكاتبة إليه فى قَطْع العادة والدعاء والمجلس العالى، والعلامة أخُوه، وتعريفُه اسمه.

قلت: وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك أن الأمر قد آل فى بنى عثمان إلى أرْخان بن عثمان جَق؛ ثم إلى ابنه مُرَاد بك؛ وأنه اتّسع مُلْكُه وجاوز فى الفتح الخليج القسطنطينىّ حتّى قارب خليجَ البنادقة؛ ثم إلى ابنه أبى يزيدَ فزاد فى المُلْك على ما كان بيد أبيه؛ وتزوّج فى بنى قِرْمان، ودخل بنو قِرْمان وسائر التُّرْكُمان فى طاعته، ولم يبقَ خارجًا عن مُلكه إلا سِيواسُ؛ فإنها كانتْ مع قاضيها إبراهيمَ المتغلبِ عليها، ولم يزل كذلك حتّى قصده تَمُرْلَنْك وأسَرَه، ومات فى يديه؛ وملك بعده ابنُه سليمان چَلَبى. ثم مات؛ وملك بعده أخوه محمدُ بنُ أبى يزيد بن مُرَاد بك ابن عثمان جق، وهو القائم بها إلى الآن. وكانت المكاتبة قد استقرّت إلى أبى يزيد فى الأيام الظاهرية (برقوق) (١)

(١) ترك بياضا فى الاصل لصورة المكاتبة.

الثامن — صاحب أكبرا . قد ذكر فى "التعريف"[(١)]: أنه كان فى زمانه دمرخان آبن قَرَاشِى، وذكر أن مكاتبته نظير مكاتبة صاحب بُرْسا ، يعنى السامىّ بالياء؛ وذكر فى "التثقيف" : أنه لم يقف على سوى ذلك .

التاسـع — صاحب مَرْمَرا . وقد ذكر فى " التعريف " : أنّه فى زمانه كان بَخْشِى بن قَرَاشِى . وقال : إن رسم المكاتبة إليـه : «صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» .

قلت : وقد تقـدّم فى المسالك والممـالك أن هـذه البلدة كانت جزيرةً بالخليج القسطنطينى بها مَقْطَع رُخَام، وأنّ النصارى غَلَبُوا عليها .

العـاشر — صاحب مَغْنِيسِيَا . ذكر فى " التعريف " : أن آسمه صارُوخَان . وقال : إن المكاتبة إليه السامىّ بالياء . وذكر فى "التثقيف" : أنها صارتْ بعـده إلى آبنه إسحاقَ بنِ صارُوخانَ ، وأنه كَتَب إليه فى شوّال سنةَ سبع وستين وسبعمائة بالأسمِ والسامىِّ بالياء .

الحـادى عشر — صاحب نِيفِ . ذكر فى " التعريف " : أنه فى زمانه كان على باشا أخو صارُوخانَ صاحب «مَغْنِيسيَا» المقدّم ذكره؛ وذكر أنّ رسم المكاتبة إليه مثلُ أخيه المذكور ، فتكون صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى .

الثانى عشر — صاحب بَرِكِي . ذكر فى " التعريف " : أنهـا فى زمانه كانت بيد آبن أيْدِين ولم يصرِّح باسمه . قال : وإن المكاتبةَ إليـه « أدام الله تعالى نعمةَ المجلسِ العالى» بالألقاب التامّة؛ وذكر فى "التثقيف" : أنه لم يقِفْ له على مكاتبة غير ذلك .

---

(١) هى كذلك فى كتاب "المسالك" والذى تقـدم فى ج ٥ نقلا عن "التعريف" أيضـا صاروخان ، وليست فى نسخة "التعريف" التى بأيدينا .

الثالث عشر — صاحب فُوكَه . ذكر فى "التعريف": أنه كان فى زمانه أَرْخَان آبنِ منتشا، وأنّ المكاتبة إليه نظيرُ صاحب بَرِكِى، فتكون الدعاءَ مع العالى بالألقاب التامّة أيضا، وذكر فى "التثقيف" : أنه لم يَقِف فى مكاتبته علىٰ غير ذلك .

الرابع عشر — صاحب أنطاليا . ذكر فى "التعريف" : أنه كان فى زمانه آسمه خَضِر بنُ يونُس . وقال : إن رسم المكاتبة إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» . وذكر فى "التثقيف" : أن خَضِر بنَ يونس المذكورَ كان يلقَّب سِنانَ الدين، وأنه آستقرّ بعده دادى بك، ثم آستقرّ بها آخرًا محمدٌ المعروف بكاجُوك، وذكر أن المكاتبة إليه (١) « أخوه » والدعاء والعالى . ثم قال : وهو الأصحُّ لأنه آخرُ ما آستقرّ عليه الحال فى مكاتبته وكتب به إليه .

الخامس عشر — صاحب قَرَاصار . ذكر فى "التعريف" : أنه كان فى زمانه آسمه زكَرِيًّا، وأن رسم المكاتبة إليه : هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى، بلا ياء؛ وذكر فى "التثقيف" : أنه لم يطلع علىٰ مكاتبةٍ إليه سوىٰ ذلك ؛ وأنه لم يكتب إليه شىءٌ فى مدّة مباشَرته .

السادس عشر — صاحب أَرْمِنَاكَ . ذكر فى "التعريف" : أنها كانتْ فى زمانه بيد ابن قِرْمان ولم يصرح باسمه، وذكر فى "التثقيف" : أن آسمَه عَلَاءُ الدين سُلَيمان . قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إليه : أدامَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى بأكمل الألقاب وأكبرها، وأجمعها وأكثَرِها . وذكر فى "التثقيف" أنَّ آخر مَن آستقرّ بها فى شوّالٍ سنةَ سبع وستين وسبعمائة علاءُ الدين على بك بن قِرْمان ؛ ووَافق علىٰ رسم المكاتبة المذكورة . وقال : إن العلامة إليه « أخُوه » وتعريفه «فلان بن قِرْمان» .

(١) لعله "العلامة إليه" .

قال فى "التعريف": ولإخوة صاحبِها ٱبنِ قِرْمان المذكورِ رسومٌ فى المكاتبات، فأكبرهُم قَدْرا، وأفتَكُهم نابًا وظُفُرا، الأميرُ بهاءُ الدين موسىٰ . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنّه حضر إلى الأبواب السلطانية، وحَجَّ مع الركب الشريف، ثم عاد إلىٰ الأبواب السلطانية، وأُجلِس فى المرّتين مع أُمَراء المَشُورة، وأُشْرِك فى الرأى . وسأل السلطانَ فى كتابة منشورٍ بما يَفْتَحُه من بلاد الأرمن فكُتِب له . قال فى "التعريف" : وٱستقرّتْ المكاتبةُ إليه مثلَ مكاتبة أخيه . قال : أما بقيّة بنى قِرْمان فدُونَهُما فى المكاتبة .

وٱعلم أن صاحب "التثقيف" قد زاد علىٰ ذلك من أمراء هذه البلاد ستّةَ نفر .

أحدهم — الحاكمُ بالعَلَايَا . وذكر أنه كان ٱسمُه حُسَامَ الدين محمودَ بنَ عَلَاء الدين، وأنه كتب إليه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة «أخوه» والدعاء، والعالى، فى قَطْع العادة .

الثانى — صاحب بَلَاط وريحر[1] . ذكر أنه كان بها « أمير موسىٰ » بنُ ابراهيم ٱبن مَنْتشا ، وأن المكاتبة إليه فى قَطْع العادة «والده والدعاء، والمجلس العالى» .

الثالث — صاحب أَكَرْدُور وهى أَكَرْدُون. ذكر أنه كان بها إلياسُ بنُ مصطفىٰ من بنى حُمَيد، وأن رسم المكاتبة إليه علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحالُ عند ما كُتبَ إليه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة «والده» والسامىّ بالياء .

الرابع — صاحب أَيا سُلُوق . ذكر أنه كان بها عيسىٰ بنُ أيْدِين ، وأنه كَتَبَ إليه فى شوّال من السنة المذكورة أيضا .

(١) كذا باهمال جميع حروفها نعم تقدّم فى القواعد «بلاط» فقط ولم نعثر عليها بعد البحث والتصحيف .

الخامس — صاحب يلى شَار . ذكر أنه كان بهـا الأميرُ محمدٌ ولم يذكر نِسْبته . وقال : إن المكاتبة اليه الآسمُ والسامىّ بالياء .

السادس — الأمير ذَرْوان بن كِرْمان بن مَنْتَشا . ذكر أنه ممن آستَجدّت مكاتبتُه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة .

وآعلم أنه قد زاد فى "التثقيف" ذكرَ مكاتبة جماعةٍ لم أتحقَّق هلْ هم من أهل هذه البلاد أم من غيرها .

منهم صاحب قلعة الحُنَفاء، ذكر أنه كان آسمُه سيفَ الدين قُوجِى، وأن المكاتبة اليه فى قَطْع الثلث والسامىّ بالياء .

ومنهم صاحب قلعة الجوز، فى قَطْع الثُلث الآسمُ والسامىّ بالياء، وتعريفه آسمه .

ومنهم صاحب بكجرى : آستَجَدّت الكتّابةُ إليـه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة، وكتب إليه الآسمُ والسامِى بغير ياء .

ومنهم الحاكم بقَلْعة أبْيضَ كتب اليه الآسمُ ومجلسُ الأمير .

ومنهم الحاكم بقَلْعة نِعْمة، كتب إليه الآسمُ ومجلسُ الأمير أيضا .

ومنهم الحاكم بقلعة أشْنىٰ : وهى أشْنُو كُتِب إليه كذلك .

علىٰ أنه قد ذكر منهم جماعةً أيضا ليسُوا من أهل هـذه البلاد جملةً؛ منهم نائب خِلَاط، وصاحبُ مُوغَان، وهى مُوقانُ، والحاكم بإسْعِرْدَ وهى سِعِرْت، وصاحب قَيْشان وهى قاشَانُ .

وقد تقدّم أن خِلَاط من أرمينِيَةَ، ومُوقانَ من أرمينية، وإسْعِرْدَ من ديار ربيعةَ من الجزيرة الفُراتيَّة، وقاشانَ من عِرَاق العَجَم؛ وبالجملة فقد خَلَّط فى "التثقيف" فى البُلْدان تخليطا كثيرا، وخلَط بعضَ أقاليم البلاد ببعض .

قلت : قد تقدّم فى صَــدْر الكلام على المكاتبات ذكرُ أصول يعتمِدُها الكاتب فى كتبه تعُمُّ الكتبَ السلطانيــة وغيرَها ، وأنا أذكرُ هنا ما يختَصُّ منهــا بالكتب الصادرة عن الســلطان علىٰ النمَّط الجارى عليه الاصطلاحُ الآنَ ليسْهُل القصدُ إليها لقُرْبها، ويحصلُ الغرضُ من ذٰلك، بذكر [تسعة] أمور :

أوّلُها — مقاديرُ قَطْع الورق، قد تقدّم فى الكلام علىٰ مَقَادير قطْع الورق المستعملةِ فى دواوين الإنشاء جملةً، والذى يختصّ منها بالكُتُب الصادرة عن السلطان أربعةُ مقــادير :

أحدها — قَطْع البغدادىّ الكامل ؛ وقد مرَّ أنه يكتَبُ فيه لِلْقانات .

وثانيهــا — قطْع النِّصف، وفيه يكتَبُ إلىٰ أكابر الملوك ممَّن دُونَ القَانات .

وثالثهــا — قطْع الثُّلُث، وفيه يكتَبُ إلىٰ الرتبة الثانيةِ من الملوك .

ورابعها — قَطْع العادة، وفيه يكْتَب إلىٰ أصَاغِرِ الملوك والوُلَاة وغيرهم .

الثــانى — العُنْوان، قد تقدّم فى مقدّمة الكتاب أنَّ الذى كان يَكْتُب عُنْواناتِ الكتب السلطانية فى الزمنِ المتقدّمِ هوصاحبُ دِيوان الإنشاء دُونَ غيره ؛ أما الآنَ، فإنَّ كاتب كلِّ كتاب صار هو الذى يكتب عُنْوانَه بنفسه .

وقد جرتِ العادة فى عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هى ألقاب المكتوب اليــه ونُعوتُه التى فى صــدر المكاتبة فى الباطن ؛ ثم يُدْعىٰ للمكتوب إليه فى آخر الألقاب بالدَّعوة التى صُدِّر بها الدعاء فى الصدْر مثــل : أعَزَّ الله أنصارَه ، أو ضاعَفَ الله نِعمَتَه، وما أشــبه ذلك من الأدعِيَة التى تُفْتَتح بها المكاتبات ؛ فإن كان الكتاب مفتتَحا بالحمــدلة أو بلفْظِ من فلان ، كُتِب فى العنوان الألقابُ التى فى صَــدْر الكتاب بعــد ذٰلك ؛ ثم بعد الدعاء يُخَلِّى بياضا قليــلا ؛ ثم يذكر تعريفَ

المكتوب إليه . مثل «صاحب فلانة» ونحو ذلك مما تقدّم ذكره من التعريفات . وتكون كتابة العُنْوان بنظير قلم الباطن فى الدّقة والغلَظ . وتكون أسطُره متصلةً من أوّل عَرْض الدَّرْج إلى آخره، وأسطُره متلاصقةً متتاليةً .

الثالث — الطُّرّة التى يُكْتَب فيها تعريفُ المكتوب إليه ، والعلامةُ التى يكتُبها المكتوبُ عنه، والسببُ فى كتابته .

وقد جرتِ العادةُ فى ذٰلك أنه يكتب فى رأْس الدَّرْج فى الجانب الأيمن «إلىٰ فلان» وفى الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» وفى الوسط العلامة التى يعلّمها السلطانُ مثل «أخوه» أو «والده» أو «آسمه» : لِيُنْظَر عند علامة السلطان على الكتاب فيعلَم حالُ الكِتاب، ويجرىٰ الأمرُ فى العلامة (١) على هذا الرسم، وتكون كتابتُها بقَلَم الكتاب من ثُلُث أو رقاع أو غيرهما، إلا أن يكون الكتابُ بمختصَر الطُّومار فى قطع البغدادىّ فيكون ذلك بقلم الثلث . وهذه الطرَّة تقطع بعد أن يعَلَّم علىٰ الكتاب .

الرابع — البياض فى أعلى الكِتاب ، وقد جرت العادةُ فى الكتُب السلطانية أنَّ العلامة إلى المكتوب إليه : إن كانت « أخوه» أو « والده» ترك فيه ثلاثة أوصال بياضا بما فيه من وَصْل العُنْوان، ثم تكتَبُ البسملةُ فى رأس الوصل الرابع ؛ وإن كانت العلامةُ إليه الآسم، تُرِك وَصْلان بياضًا فقط وكتبت البسملةُ فى أوّل الوصل الثالث، ثم يُكْتَب السطر الأوّل من الكتاب على سَمْت البسملة ملاصِقًا لها، ثم يخَلَّى موضع العلامة بياضا، ويكتَبُ السطر الثانى على سَمْت الأوّل فى أواخر ذلك الوصل على قدر إصبعين من آخره، ثم يُجْعَل بين كل سطْرين أربعةُ أصابعَ مطبُوقة، إن كان القطع صغيرا، وإن كان القطع كبيرا كان فيه قدرُ رُبُع ذراع أو نحوه بحسَب

(١) لعله فى الكتابة أى يكتب ماينا سب العلامة .

المناسبة ؛ فإذا ٱنتهى إلىٰ آخر الكتاب كتب «إن شاء الله تعالىٰ» فى الوَسَط علىٰ بُعْدِ قدر إصـبعين من السطر الآخر . ثم يكتب : «كُتِب فى تاريخ كذا من شهر كذا سنة كذا وكذا » ويكون إلى آخر ذكر الشهر سطر ، ومن أوّل سـنة كذا إلى آخره سطر . ثم يكتب المستنَد على نحو البُعْد المذكور : فإنْ كان بتلقِّ كاتب السِّرّ خاصَّةً كتب « حَسَب المرسوم الشريف » فقط . وإن كان بتلقِّ كاتب السر وكُتَّاب الدَّسْت من دار العَـدْل كتب « حَسَب المرسوم الشريفِ» فى سطر، وتحته بقدر إصبع « مِنْ دار العَـدْل الشريف » فى سـطر . وإن كان برسالة الدَّوَادار كتب « حَسَب المرسوم الشريف » فى سطر ، وتحته بقدر إصبع « برسالة الجنابِ العالِى الأميرىّ الفلانىّ الدَّوادار الفلانىّ » بلقب السلطان «ضاعف الله تعالى نعمتَه» . وإن كان من ديوان الخـاصِّ ، كتب « حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر وتحته «من دِيوان الخاصِّ الشريف» . وإن كان بخطِّ السلطان : بأن كُتِب علىٰ القِصَّة بالخط الشريف ، كتب « حسَبَ الخَطِّ الشريف » فى سـطر واحد . وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب «بالإشارة العالية الأميريَّة الكبيريَّة الفلانية» فى سطر، وكتب تحته بقدر إصبع « كافِلِ الممـالك الشريفة الإسلامية أعْلَاها الله تعالىٰ» . وإن كان باشارة أستاد الدار، كتب « بالإشارة العالية الأميرية الكبيرية الفلانية » فى سطر، ثم يكتب تحته بقدر إصبع «أستاد الدار العاليةِ أعلاها الله تعالى» . علىٰ أنه قد تقدّم فى الألقاب أن كتابتهم أستاد الدار هو عرف جرىٰ عليه ٱصطلاحُهم؛ وأنَّ الصواب فيه إسـتَدَّار بغـير ألف بعـد التاء . وتكون كتابة المستَنَد ببيـاض من جانبيه ، سواء كان سطرا واحدا أو سطرين ؛ ثم إذا فرغ من كتابة المستَنَد، كتب الحمدَلة والصلاةَ علىٰ النبيّ صـلّى الله عليه وسـلم فى سطر كامل علىٰ بُعْدِ قدر إصبعين من المستَنَد، ثم يكتب الحَسْبلةَ علىٰ قدر إصبعين من سطر الحمدلة والتصلية .

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ الخواتم فى المقالة الثالثة نقلاً عن عبد الرحيم بن شِيثٍ أن موضعَها من ثُلُث السطر الأخير من أوّله إلىٰ حينِ تنتَهِى كتابتُها .

الخـامس — قد ذكر ٱبن شيثٍ فى معـالم الكتابة أنه لا يُكْتَب فى حَوَاشِى الكتب السـلطانية : لأنّ فى ذلك شُحا بالورق ، وذلك ممـا لا يليق بالسلطان ؛ ولا خفاءَ فى ٱستقباح ذلك ، بل قد يُستقْبَح ذلك فى غير السلطان كما سيأتى ذكره فى الإخوانيَّـات .

السادس — العلامةُ السلطانية علىٰ المكتوب ، فى بيت العلامة من البياض السابق ذكره . قد ذكر فى "التعريف" أن أكبر مَنْ يكتب إليه من الأمراء ومماليك البيت الشريف فترجمته بالخط الشريف « والده » ومَنْ دونَ ذلك «الاسمُ الشريف» ؛ أما الغُرَباء كملوك المسلمين والعُرْبان وأكابرُ القضاة وأهْل الصَّلاح والأكابر، فترجمته بالخط الشريف «أخوه» ومَنْ دُونَ ذٰلك الاسمُ الشريف .

والذى ٱستقرّ عليـه الحالُ آخرا فى زماننا أنَّ لأكابر الأمراء من النوّاب وغيرهم «أخوه» لرفعة مكان الأخ علىٰ الولد، ولمن دُونَهم «والده» ولمَنْ دُونَ ذلك «الاسم» وباقى الحـال على ما ذكره ؛ وقد سبقَتْ ترجمة كلِّ مكتوب إليـه فى الكلام علىٰ المكاتبة إليه .

أما القانات الكِبَار فقد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتبة إليهم أنه تكتب لهم طُغْراة بالألقاب السلطانية فى موضع العلامة ؛ وأما ملوك الكُفْر، فسيأتى أنه تكتب طُغْراة بالألقاب السلطانية فوق البسملة .

السابع — طىّ الكُتُب السلطانية : قد تقـدّم فى صَدْر الكلام علىٰ المكاتبات نقلا عن ٱبن شيثٍ من كُتَّابِ الدولة الأيوبية أنّ كُتُب السـلطان يكون طيُّها

فى عَرْض أربعـة أصابع ، وأن مقتضىٰ ذلك أن كُتُبَ السـلطان بالديار المصرية كانت تُطْوىٰ على هـذه الهيئة كما فى كُتُب أهل المغرب الآنَ؛ والذى ٱستقرّ عليه الحال آخرا أنها يجعَلُ طيُّها فى صورة أُنْبُوبِ القَنَاة ولا تُضْـغَط فى طَيِّها لتكون نبيلة تعظيما لأمر السلطان وإجلالًا لقدره .

الثـامن — خَتْمُ الكتاب : قد تقدّم فى الكلام على الخَوَاتم واللَّواحق فى المقالة الثالثـة أنَّ الكتب السلطانية كانت تُخْتَم بسَحَاءة[(١)]، ويُطْبَع عليها بِطين أحمر، يُؤْتىٰ به من سِيراف ، وتُخْتَم بخاتَم كما تَخْتُمُ المغاربةُ الآنَ ؛ أما الآن فقد ٱستقرّ الحالُ على أن الكتب تُلْصَق بالنَّشَا أو ما فى معناه من الكَثِيراءِ ونحوِها ؛ وقد سأل الشيخُ جمـالُ الدين بن نُبَاتةَ فى رسالتـه التى كتبها إلىٰ الشِّهاب محمود رحمه الله حينَ بلَغَـه وقوعُ بعض كُتَّاب دِمَشْقَ فى حقه عمن غَيَّر طينَ الختم إلىٰ النَّشا ، ولم أَقِفْ علىٰ زمان تغيُّر ذلك ولا مَنْ غيَّره ، علىٰ أنى حلَلْت معظَم أَسْئُولة هذه الرسالة فى خِلَال هذا الكتاب مفرّقةً فى مواضعها .

التاسـع — أن الكتبَ الصادرةَ عن الأبواب السلطانية : إن كانت إلىٰ أحد من عُظماء المُلوك كالقانات ببلاد الشَّرْق ، أو ملوكِ بلاد المغرِب ونحوهم ممن يَتَعانىٰ البلاغةَ فى الكتب الصادرة عنـه ، كُتبت مسجوعةً كلُّها ؛ وإن كانت إلىٰ صِغَار الملوك والحُكَّام كتبت غيرَ مَسْـجوعة ؛ وإن كانت إلىٰ أحد من أهـل المملكة ؛ فإن كانت فى أمرٍ بعد وُقُوعه : كالكتابة بالبِشارة بوفَاء النيل ، أو جلوس السلطان علىٰ التَّخْت لأوّلِ أمره ، أو بُرْئِه من المرض، أو وِلادَة ولدٍ له ، أو البِشارة بفَتْح ، أو الإعلام بركوب المَيْدان ، أو الإنعام بخَيْـل أو نحوها ؛ كتبت مسجوعةً ، وإلا كتبت مُرْسَلةً غير مسجوعة .

---

(١) يريد تلف عليها سحاءة كما يؤخذ من بقية العبارة ومما تقدم فى جزء ٥

الطـــرف الثـانى

(فى المكاتبة عن ملوك الديار المصرية على المصطلح المستقر عليه الحـالُ، إلى مـلوك الكُفْر)

وآعلم أن ملوك الكفر المكاتَبين عن هذه المملكة جميعهم نصارى : من الرُّوم، والفَرَنْج، والكُرْج، والحَبَشــة وغيرهم ؛ إذ كانوا هم المستونين على أكثر الممالك ؛ أما اليهود، فإنهـم لم يبْقَ لهم مملكةٌ معروفة، بل هم تحتَ الذِّمَّــة أينَ كانوا . قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْـلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ . قال فى "التعريف" وجميعُ الكُتُب المكتوبة إلى ملوك الكُفْر لا يشْـمَلُها الخطُّ الشريف أصلًا، بل يُكْتَب فوقَ البسملة فى الكتاب بخط الكاتِبِ عِوَضَ العلامة الشريفة أسطُرٌ قصيرةٌ ببياض من الجانبين ماصورته :

« من السلطان الأعظم الملكِ الناصر ــ مثلا ــ العالم، العادلِ، المجاهِدِ، المرابِط، المُثَاغِر، المؤيَّد، المظَفَّر، المنصور، الشاهنشاه؛ فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مُحْيي العــدل فى العالمين، وارث المُلْك، مَلِك العرب والعَجَم والتُّرْك ؛ ظلّ الله فى أرضـه، القائم بسُنَّته وفَرْضـه ؛ إسكَنْدر الزمان، مملِّك أصحاب المنابر والتُّخوت والتِّيجان؛ واهبِ الأقاليم والأمصار، مُبِيد الطُّغاة والبُغَاة والكُفَّار؛ حامِى الحرمين والقِبْلتين جامع كلمة الإيمـان، ناشر لواء العدل والإحسان؛ سـيِد ملوك الزمان، إمام المتقين، قسيم أمير المؤمنين؛ أبى فلان، آبن السـلطان الشهيد الملك الفلانى فلان، خلَّدالله سلطانه، ونصر جنودَه وجيوشه وأعوانَه » .

وأوضح ذلك فى "التثقيف" فقال : ويكون فى الطرّة بعد وصْلين بياضًا من أوّل الكتّاب بهامِش جيد من الجانبين يَمْنةً ويَسْرةً، ويكونانِ فى قَدْر بياضهما سواءً

تقديرَ أربعــةِ أصابع فأكثَرَ من كل جانب، من الورق العريض؛ وفى قَطْع العــادة دُونَ ذلك . وتكون الأسطرُ متقاربةً، ما بينهما من البياض تقديرُ إبهام أو أزيدُ منه بشيءٍ يسير؛ وإذا انتهت الألقاب يَتْرُك بعــدَها وصلاً أبيض؛ ثم يكتب البسملةَ الشريفة، وبعدها رَسْم المكاتبة للمكتوب إليه .

الطـــرف الثالث

(فى المكاتبة إلى مَنْ وراءَ بحر القِرِم بالجانب الشمالىّ منه)

وهو صاحبُ البُلْغار والسِّرْب . وهى بلادٌ فى نِهَـاية الشَّمال ، متاخمةٌ لصاحب السَّرَاى ؛ وقــد ذكر فى "التعريف" المكاتبةَ إليــه فى المكاتبة إلى جمــلة ملوك المسلمين . وقال : إنَّ صاحبها يُظْهِر الانقيادَ لصاحب السَّرَاى، وإنه أرسل رسُلَه تَطْلُب له الأَلوِيَةَ من الأبواب السلطانية فجُهِّزت إليــه مع ما جرَتْ به العــادةُ من السيف والتشريف والخَيْل المُسْرَجَة المُلْجَمة . وذكر أن رسم المكاتبة إليــه على ما كُتِب إذ ذاك :

«أعزَّ الله نصْرَ الجناب الكريم، العالى، المَلَكىّ، الأَجَلِّىّ، الكبِيرِىّ، العالمىّ، العادلىّ، المجاهِدِىّ، المؤيَّدىّ، المُرابِطِىّ، المثاغِرِىّ، الأوحدىّ، سيف الإسلام والمسلمين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، زعيم الجُيوش، مقدّمِ العساكر، جمالِ الملوك والسلاطين، ذُخْر أمير المؤمنين» .

ثم هذا الطرف يشتمل على أربعةِ مقاصدَ مشتملةٍ على الجهات الأربع :

المقصـــد الأوّل

(فى المكاتبة إلى ملوك الكُفَّار ببلاد الشَّرْق ، وجملةُ مَنْ بهـا من ملوك النصارىٰ المكاتَبِين عن هـذه المملكة مملكتان)

الأولىٰ ـ مملكةُ الكُرْج من النصارىٰ المَلَكِيَّة . قال : فى "التعريف" ويقـال فى المسلمين الكُرْد، وفى النصارى الكُرْج . قال : وموقع هذه [البِلادِ] بين بلاد الرُّوم وبين بلاد أرمِينِيَـةَ . وهى بلادٌ جليـلةٌ ، ومملكةٌ مفخَّمة ، وكأنها مقتَطَعـة من البلادَيْن، ولهـا ملِك قائم، وبها مُلْك دائم؛ وأُمُّها مدينة تَفْلِيس، وسـلطانُ بيت هُولاكُو بمملكة إيرانَ يحكُم عليها، ويَرَالِغهُ تَصِلُ إليها؛ إلا أنه لا يَطْغىٰ بها سَيْلُه، ولا تجوسُ خِلالَ ديارِها للحرْب المُضْرَمِة خَيْلُه ؛ وإنمـا له بها تُومانٌ اتخذه سِدَادا لثَغْرها، وقياماً بأمْرِها؛ مَنْزِلهُم فَسِيحُ بَوَادِيها، أهـلُ حَلٍّ وتَرْحال، وتنقُّل من حال إلىٰ حال . قال : وآخِرُ مَنْ كان له فى هذه البلاد سُمْعة، وأُقِيلَتْ به للمَهَابة صَرْعه؛ الشيخُ محمودُ بنُ جُوبان، وكان باسـلًا لا يُطاق، ورجُلا مُرَّ المَذَاق ؛ ولـمَّا جرتِ الكائنةُ لأبيه، لاذَ بالسلطان (أزبك قان) ثم لم تَطُل له مُدّه، ولا ٱنفرجَتْ له حِلَقُ شِدّه؛ وأتاه أجَلُه وما ٱستطاع رَدَّه . ثم قال : وعسكرُ الكُرْج صَلِيبةُ دِين الصَّليب وأهـلُ البأْس والنَّجده ، وهم للعساكر الهُولاكُوهِيَّـة عَتَاد وذُخْر، ولهم بهم وُثُوق وعليهم ٱعْتِماد، [ولا] سِيَّمـا لأولاد جُوبَانَ وبَنِيه، وبَقَايا مُخَلَّفِيه، لسالِف إحسانِ جُوبانَ إليهم، ويدٍ مشكورةٍ كانتْ له عندهم، وكان صديقاً لمِلكهم برْطِلْما يَغْرس عنده الصَّنائع ، ويَسْتَرْعِيه الوَدَائع ؛ فكان أخصَّ خصيصٍ به ، وأصـدقَ صديقٍ له ، يدعُوه للمُهِم، ويستصْرِخ به فى المُلِم، ويَعُدُّه رِدْءاً لعسكره، ومُزِيلا لمُنْكَره .

وعقَّب ذلك بأن قال : وبرطلما المذكور عَهْدى به حَىٌّ يُرْزَقُ من أجَلِّ ملوك النَّصْرانيــه ، وأعْرَقِ أنساب بنى المعْمُوديَّه ؛ وقد كان كاتَبَ الأبوابَ السلطانية بسبب كنيسةِ المُصَلَّبه ، وأن تُرْفَعَ عنها الأيدى المتغلِّبه ؛ فبرزَتِ الأوامر المُطاعةُ بإعادتهـا عليهم وكانت قد أُخِذتْ منهم ـ وهى بظاهر القُدْس الشريفـ ـ واتُّخذتْ مسجِدا ، وعزَّ هذا علىٰ طوائِفِ العلماء والصُّلَحاء وان لم يُعْمل هذا سُدىٰ . قيل إنه كان يُحَسِّن لجُوبَانَ قصــدَ البلاد ، ويبذُل له عليه الطارِفَ والتِّلاد . وذكر أن رسم المكاتبة إليـــه : « أدام الله تعالى بهجةَ الحضرة العليــة ، حضرةِ الملك الجليل الهُمام، الباسِل، الضِّرْغام، السَّمَيْدَع الكَرَّار، الغضَنْفَر، المتخَّت، المتوَّج، العـالم فى مِلَّته، العادلِ فى رعِيَّته، بقيَّةِ الملوك الأغريقيَّة، سلطانِ الكُرْج، ذُخْر مُلْك البِحار والخُلْج ، حامى حِمىٰ الفُرْسان، وارثِ آبائه فى الأسِرّة والتِّيجان ، سِيَاج بلاد الروم وإيران، سـليلِ اليُونان، خُلَاصةِ ملوك السُّرْيان، بقيَّـة أبناء التُّخُوت والتِّيجان، مُعِزِّ النصرانيه ، مؤيِّد العيسويَّه، مَسِيح الأبطال المَسيحيه ، معظِّم البيت المقدَّس بعقد النيَّه، عمـادِ بنى المعْمُوديه، ظهير الباب پاپا رومية ، مُوادِّ المسلمين، خالصةِ الأصدقاء المقرَّبين، صديق الملوك والسلاطين" .

وهذا دعاء أورده فى " التعريف" يليق به وهو : وحَمىٰ ملكَه بوُدّه لابجُنْـده ، وبوفائه بعَهْده لا بجَيْشه ومَدِّبَنْده، وبما عندنا من سَجَايا الإحسان لا بما يَظُنُّ أنه من عِنده ، وبمـا فى رأْينا المُورِى لا بمـا يَقْدح النارَ من زَنْده ـ وربمـا قيل مُصافِى المسلمين بدلَ مُوادّ المسلمين .

أما فى " التثقيف" فقد ذكر أن للكُرْج مِلكين (أحدهما) صاحب تَفْليسَ المقدَّمُ ذكره، وذكر أنه كان آسمه إذ ذاك «داود» (الثانى) الحاكم "بسخوم" و"أبخاس" وهما مدينتان علىٰ جانب بحر القِرِم من الجانب الجَنُوبى" كما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ

المسالك والممالك فى الجانب الشمالى ، وسمى صاحبها إذ ذاك (ديادان) . قال : ورسمُ المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما فى قَطْع النصف : أطال اللهُ تعالىٰ بقاء حضرة الملك الجليل ، المكرَّم ، الخطيرِ ، الباسلِ ، الهُمَام ، المقدّس ، الرُّوحانِىّ ، فلان ، عزِّ الأمَّة المَسيحيه ، كنْزِ الطائفة الصليبيَّه ، فخرِ دينِ النَّصرانيه ، مَلِك الجِبَال والكُرْج والجُرْجان ، صديقِ الملوك والسلاطين . وتعريف كلٍّ منهما "ملِك الكُرْج" .

ثم قال : وقد ذكر القاضى المرحوم شهابُ الدين بن فضل الله فى المكاتبة المذكورة من التغييرات مالا حاجةَ إلىٰ ذكره : لأنَّ ماذكرتُه هو المستقِرُّ فى المكاتبة إليه الىٰ آخِرِ وقتٍ .

قلت : وذلك لأنه فى زمن المَقَر الشهابى بن فضل الله كان مَرْعِيَّ الجانب بمُمالأة التَّتَر وانضمامِه إلىٰ جُوبان ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه ، فكانت المكاتبةُ إليه إذ ذاك أعْلىٰ وأفخَم ، فلما زالت دولةُ التَّتَر من إيران وخَمَدت قَسْوتُهم انحطَّت رُتْبةُ المكاتبة إلىٰ ملك الكُرْج عن هذه الرتبة . ثم قد تقدّم فى المسالك والممالك فى الكلام علىٰ مدينة تَفْلِيسَ أنها من إقليم أرَّانَ ، وأنها كانت قد فتحها المسلمون . ثم غَلَبَ عليها الكُرْج وملَكُوها ، فلو عُبِّر(١) عن صاحبها بتملّك تَفْلِيس كما كان يعَبَّر عن المستولى علىٰ سِيسَ من الأرمن بتمَلُّك سيس ، وعن المستولى علىٰ قُبْرس بتملّك قُبْرس علىٰ ما سيأتى ذكره على الأثر إن شاء الله تعالىٰ .

الثانية — مملكة الأرمَنِ وقاعدتُها مدينة "سِيسَ" قبل فتحها ؛ وقد سبق فى الكلام على مدينة سِيسَ عند ذكر مُضافاتِ حَلَبَ ، فى الكلام على الممالك الشامية فى المسالك والممالك ذكرُ حدود هذه البلاد وبيانُ أحوالها ، وأنها كانت تسمى

(١) جواب لو معلوم أى لكان له وجه .

فى زمن الخُلَفاء بلادَ الثُّغور والعَوَاصم؛ وأنها كانت بأيدى المسلمين، وأهلُها نصارىٰ أرمن؛ وعليهم جِزْية مقرّرةٌ يؤدُّونها إلىٰ الملوك؛ إلىٰ أن كانت طاعتهم آخرًا لبقيّة الملوك السَّلاَجقة ببلاد الروم، والعُمَّالُ والشَّحانِى علىٰ بلادهم من جهة الملِك السَّلْجُوقىّ حتّىٰ ضُعفت تلك الدوله، وسكَنَتْ شقاشِــقُ تلك الصَّوْله، وآنتدبَ بعضُهم لقتــال بعض، وصارت الكلمةُ شُورىٰ، والرعيَّة فَوْضىٰ، وشوامخُ المعَاقل مجالًا للتخريب، والبلادُ المصونةُ قاصيةً من الغَنَم للذِّيب، وطمِع رئيسُ النصارىٰ بهذه البلاد حينئذ فيها وآستَنْسَر بُغَاثُه، وآشتدَّ إنكاثه، ورأىٰ سَوَامًا لا ذائدَ عنه فساقه، ومتاعًا لاحامِيةَ له فملأ منه أوْساقه؛ فآستولىٰ علىٰ هذه البلاد وتملَّكها، وتحَيَّف مواريثَ بنى سَلْجُوق وآستهلكها . وذكر فى "مسالك الأبصار" أن كبيرهم كان يسمّى قليج بن لاوُنْ .

قال فى "التعريف" وقد أُخذ فى أُخْريَات الأيام الناصرية، يعنى (محمد بن قلاوون) بلادُ ماوراءَ نهر جَاهانَ وأمُّها آياس، وكان قد أُخِذ بعضُ ذلك [أيام] الملكِ المنصور (لاچين) واستُنِيب به أستدُمْر الكُرْجىّ؛ ثم أُعيدت إلىٰ الأرمن بمواطأة أستدمر حين قتل لاچين وضَعُفت الدولة . وذكر أنه قُرِّر علىٰ الأرمن لملوك الديار المِصْرية قطيعةٌ مقرَّرة بلغت ألف ألف ومائتى ألف درهم مع أصــناف، ثم حُطَّ لهم منها؛ ثم صاروا بعــد ذلك بين طاعة وعِصْيان . وذكر أنه كان لملوك البيت الهُولا كُوهِىّ عليهم حكْمٌ قاهر، وله فيهم أمرٌ نافذ، قبلَ ضَعْف شوكتهم، ولِين قَسْوتهم، وخلُوّ غابِهم من قَسْوَرَتهم . ثم قال : ولو تمكّنوا من دِمَشْقَ لمَحَوْا آثارَها، وأنْسَوْا أخبارها؛ ثم أشار إلىٰ أنَّ ملِكها يومئذ صاهرَ صاحبَ قُبْرس ليتقوىٰ به، وأنه مع ذلك أوصىٰ سلطاننا صاحبَ مصر علىٰ آبنه بوصِيَّة أشهد عليها أهلَ مملكته، وجعل ذلك وسيلة لبقاء دولتــه؛ وكتب له تقليد عوضًا عن أبيه وجُهِّز إليه، وأُلْبِس التشريفَ فلبس

وقَبَّل الأرض به وخدم(١) . قال فى "التعريف" : ومَنْ ملك منهم سمِّى التَّكْفُور، سِمةٌ جرت عليهم مُنْذ كانوُا و إلىٰ الآن. قال: وملكُهم ملِك عرِيقٌ من أبناء الملوك، يزعُم أن أصله من البيت القُسْطَنْطِينىّ . قال : وعندى نَظَر فى دعواهم ذلك : إذ كان أهلُ ذلك البيتِ هم صَلِيبةُ الرُّوم ومعتَقَدُهم معتقَد المَلِكانية والبيْتُ التَّكْفُورىّ أرمَنُ ومعتقَدُهم معتقد اليَعَاقِبة أو مايُقارِبه، وبين المعتَقَدين بُعْد عظيم، وبَوْنٌ ناء .
وقد ذكر فى "التعريف" أن آسمه ليفور بن أوشير(٢) . وذكر أن رسم المكاتبة [اليه] صدَرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ حضرة الملِك، الجليلِ، البطلِ، الباسلِ، الهمامِ، السَّمَيْدع ، الضِّرْغام، الغضَنْفَر، فلان بن فلان ؛ فخرِ المِلَّة المَسِيحيَّة ، ذُخْر الأمة النَّصْرانيه، عِمَادِ بنى المعموديَّه، صديقِ الملوك والسلاطين .

وهذه أدعية ــ ذكرها فى "التعريف" تناسبه :

وفَّقه الله تعالىٰ لطاعةٍ يَكْنُفُه ذِمامُها ، ويَقِيه مَصارِعَ السُّوء الْتِزامُها ؛ وتجرِى له بالسَّلامة فى النَّفْس والمـال أحكامها .

آخــر : ولا عدِمَ من مِنَنِنـا الكَرَم الذى أجاره، والأمْنَ الذى أمَّن جاره، والأمانَ الذى وَسَّع عليه وِجَارَه ، والعفوَ الذى وَقَاه فى الدنيا قبلَ الآخرة نارًا وَقُودها الناس والحِجَـاره .

آخــر : أبقاه اللهُ لوَلَاءٍ يُبْديه، وفَرْض من الخِدْمة يُؤَدِّيه، ودَيْنٍ فى ذِمَّته من الوظيفة يقومُ به مع طَرَائِف مايُهْدِيه .

(١) فى التعريف بدون خدم .
(٢) فى التعريف المطبوع ص ٥٧ ليغون بن أوشين، ونخشى أن يكون تصحيفا .

آخـــر : أراهالله ما يستدْفِع به من مَوَاضِى السُّيوف البلاءَ إذا نَزَل، والسَّمْهَرِىّ الذى لا يُرْوِيه البحْرُ إذا نَهَل ، والسَّيْلِ الذى لا يَقِف فى طريقه شىءٌ ولا يَمْشِى علىٰ مَهَـــل .

آخـــر : صانَ اللهُ تعالىٰ بمصانَعَته من أهل مِلّته كلَّ قبيل، وأمَّن اللهُ بمُداراتِه من خَوْفِ جُيُوشِنا المنصورة كلَّ سبيل ؛ وصَدّ عنه بِصِـدْق صَدَاقته بَعْثَ جنودنا الذى لا يُرَدّ وأوّلُه بالفُرات وآخرُه بالنِّيل .

آخـــر : ولا زال يتوقَّى بطاعتــه بَوَادِر الأسِـنَّه ، وعَوادِىَ الخيـل مُوشَّحةً بالأعِنَّـه ، وعَيْث الجَيْش حيثُ لا يبقىٰ إلا أحدُ الأقسام الثلاثة : القَتْلُ أو الأَسْر أو المِنّـــه .

آخـــر : جنَّب الله رأيَهُ سُوءَ التعكيس ، وشَرَّ ما يُزَيِّن لمثله إبليس ، وأخْذَ جنائبِ قِلَاعه وأوّلُ تلك الجنائبِ سِيس .

والذى ذكره فى "التثقيف" أنه كان آسمه كستندين بن هتيوم ؛ وأنَّ رسم المكاتبة إليه علىٰ ما كان آستقرّ عليــه الحال إلىٰ حين الفُتُوح فى سنة ستٍّ وسـبعين وسبعمائة ، فى قَطْع العادة : «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة الملكِ الجليلِ ، المكَرَّم ، المبجَّل ، المعظَّم ، المعزَّز ، الهمام ، الباسل ، فلان بن فلان ؛ عزِّ دِين النصرانيه ، كبيرِ الطائفــة الصليبيَّه ، عمـادِ بنى المَعْمُوديه ، صـديقِ الملوك والسـلاطين ؛ أدام الله نعمتَه ، وحرس مُهْجتَه ، تُعْلِمه كذا وكذا» . وتعريفه «متملك سيس» قال : وكتبت أنا والجمـاعة إليه بهذه المكاتبة مرّات .

قلت : وقد بطلتْ هـذه المكاتبة بفَتْح سِيس حين فتحها قُشْـتُمر المنصورىّ نائبُ حلب فى الدولة الأشرفيـة « شعبان بن حسين » فى التاريخ المقـدّم ذكره ،

وآستقرتْ نيابةً فى رتبة نيابة طرابُلُس وما فى معناها ؛ ثم آستقرّت تَقْدِمةَ عسكر فى مُضافات حَلَب علىٰ ما تقدّم ذكره فى المسالك والممالك هناك . وإنما كان يقال له متملِّك سِيس دُونَ مَلِك سيس لما تقدّم من أنها كانتْ أوّلا بيد المسلمين، ثم وَثَب عليها رئيسُ الأرمن المقدّمُ ذكره فملكها من أيدى المسلمين ، ولله الحمد فى إعادتها إلىٰ يد المسلمين، وآستقرارها فى جملة الممالك الإسلامية .

المقْصد الثانى

(فى المكاتبة إلىٰ ملوك الكُفّار ببلاد المغْرِب من جزيرة الأنْدَلُس وما والاها مما هو شَمَالىّ الأندَلُس من الأرض الكبيرة)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك من المقالة الثانية أن المسلمين كانوا قد آفتتحُوا جزيرةَ الأندَلُس فى خِلافة أمير المؤمنين عُثْمانَ بنِ عَفّان رضى الله عنه وأنها أقامتْ بأيدى المسلمين إلىٰ رأس السِّتّمائة من الهجرة، ولم يبقَ منها بيد المسلمين إلا غَرْناطة وما معها من شَرْق الأندلس ، عَرْض ثلاثة أيام فى طُول عَشَرة أيام ؛ وباقى الجزيرة علىٰ سَعَتها بيد أهل الكُفْر من نصارىٰ الفَرَنْج ، وأن المستولىَ علىٰ ذٰلك منهم أربعة ملوك :

الأوّل — صاحبُ طُلَيْطُلة[1] وما معها، ولقَبُه الأذْفُونش : سمةٌ علىٰ كل من ملك منهم، وعامّة المغاربة يسمّونه الفُنْش، وله مملكةٌ عظيمة وعُمَالات متّسعة، تشتمل علىٰ طُلَيْطُلَةَ، وقَشْتالةَ ، وإشْبِيلِيَةَ، وبَلَنْسِيَةَ، وقَرْطَاجَنّة، وجَيّان، وجلّيقيّة، وسائر أعمالها .

---

(١) ضبطها ياقوت عن الحميدى بضم الطاءين وفتح اللامين ثم قال وأكثر ما سمعناه عن المغاربة ضم الاولى وكسر الثانية . وكذلك ضبطه المؤلف فيما تقدّم فى جزء ٥ فليتنبه .

الثـانى ــ صاحب أَشْبُونةَ وما معها، وتُسمَّى البُرْتُقال، ومملكته صغيرةٌ واقعة فى الجانب الغربىّ عَرْضا له، تشتمل على أَشْبُونةَ وغَرْب الأندلس .

الثالث ــ صاحب بَرْشَلُونة ، وأَرْغُون، وشاطِبـةَ ، وسَرَقُسْطة ، وبلَنْسِـيَةَ[(١)] ، وجزيرة دانِيَةَ، ومَيُورْقة .

الرابع ــ صاحب بِيرة : وهى بين عِمَالات قَشْتالة، وعِمَالات بَرْشَلُونَةَ، وقاعدته مدينـة يَنْبُلُونةُ ؛ ويقال لملكها ملك البشْكَنْس . ووراءَ هؤلاء بالأرض الكبيرة صاحبُ إفْرَنْسَـة التى هى أصـل مملكة الفَرَنْج كما تقـدّم فى الكلام على المسـالك والممالك ، وملِكُها يقال له الرِّيد إفرنْس . قال فى "التعريف" : وهو الملك الكَبِير المُطَاع ؛ وانمـا الأَدفُونش هو صاحب السـطوة ، وذِكْره أشهر فى المغرب لقُرْبه منهم، وبُعْد الرِّيدِ إفْرنْس .

والمكاتَبُ منهم ملكان :

الأوّل ــ الأدفونش المبَـدّأ بذكره . قال فى " التعريف " : وبيـده جُمْهور الأنْدَلُس، وبسُـيوفه فَنِيَتْ جماجِمُها الشُّمُس، وهو وارث مُلْك لذريق . ولذريق هذا الذى أشار إليه فى " التعريف" هو الذى انتزعها المسلمون من يده حينَ الفتح فى صدر الإسلام . قال صاحب "التعريف": وحدّثنى رسولُ الأدفُونش بتعريف تَرْجُمانٍ موثوقٍ به من أهـل العَدَالة يسمّى صـلاحَ الدين الترجمان الناصرى : أن الأدفونش من ولد هِرَقْل المفتَتَح منه الشام ؛ وأنَّ الكتاب الشريف النبوىَّ الواردَ علىٰ هِرَقْل متوارَثٌ عندهم مَصُون ؛ يُلَفّ بالدِّيبـاج والأطْلَس، ويُدَّخرأ كثر من ادّخار الجواهر والأعْلاق، وهو إلى الآنَ عنـدهم لا يُخرَج، ولا يُسْمَح بإخراجه،

(١) هى بلنسية المتقدمة أضيفت إلىٰ برشلونة فيما بعد .

يُنْظَر فيه بعين الإجْلال ، ويُكْرِمُونه غايةَ الكرامة ، بوصيةٍ توارثها منهم كابِرٌ عن كابِرٍ وخَلَفٌ عن سَلَف .

قال : وكان الأدفونش ممن قَوِىَ طمعُه فى بلاد مصر والشام فى أخرى ليالى الأيّام الفاطمية . ثم قال : ومكاتباتُه متواصلة ، والرُّسُـل بيننا وبينه ما تنْقَطع على سُوء مَقاصده ، وخُبْث سرِّه وعَلَانيته ؛ أهدى مرَّة إلى السلطان سيْفا طويلًا وثوبا بُنْدُقيا وطارقةً طويلةً دقيقةً ، تشبه النَّعْش ، وفى هـذا مالا يخفى من آستِفْتاح باب الشر والتصريح المعروف بالكناية ؛ فكان الجواب أن أُرْسل إليه حبل أسود وحجرٌ ، أى إنه كلب إنْ رُبِط بالحبل وإلا رُمِىَ بالحجر .

قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إليه أطال الله بقاء الحضرة السامية ، حضرةِ الملك الجليـلِ ، الهمامِ ، الأسد ، الباسلِ ، الضِّرغام ، الغضَنْفَر ، بقيَّة سلَفِ قيْصَر ، حامِى حُمَاة بنى الأصْـفَر ، الممنَّع السُّـلُوك ، وارث لذريقَ وذرارِىِّ الملوك ؛ فارس البرِّ والبحر ، ملك طُلَيْطِلة وما يليها ، بَطَل النصرانيه ، عمـادِ بنى المعمُوديه ، حامل رايةِ المَسيحيَّه ، وارث التِّيجان شَبِيه مَرْيُحنَّا المَعْمَدَان ، محبِّ المسلمين ، صـديقِ الملوك والسلاطين .

دعاء وصدر يليقان به

وكفاه شرَّ نَفْسه ، وجَنَاه ثمر غَرْسه ، ووقاه فعلَ يومٍ يجُرُّ عليه مثلَ أمسهِ ، وأراه مِقدارَ النِّعمة بالبحر الذى تمنَّع بِسُوره وتوقَّى بتُرْسه .

أصدرناها إليه وجندُ الله لايمنَعُهم مانع ، ولا يُضرُّ بهم فى الله ماهو جامِع ، ولايبالُونَ أكتائبَ يُخَلِّفُونها أم كُتُبا ، وجَداوِلُ تَعْرِض لهم أم بحارٌ لاتقطعُها إلا وَثْبا .

آخــــر : ووقَاه بتوفيقه تِلافَ المُهَج ، وكفاه بأسَ كلِّ أسدٍ لم يُهَجْ ، وحماه من شرِّ فتنهٍ لايبُلُّ البحرُ الذى تحصَّن به غُبارَها من الرَّهَج .

أصـدرناها إليه وأسِنَّتُنا لا تُرَدّ عن نَحْر ، وأعنَّتُنا لا تُصَـدُّ بسُورٍ ولو ضُرِبَ من وراء البحر .

قلت : وينبغى أن تكون فى قَطْع النِّصف .

الثانى — صاحب بَرْجَلُونة ، ووَهِم فى "التثقيف" فجعله هوالأدفونش المقدّم ذكره . وقال : إنه يلقَّب أتفونش ، دُونَ حاكم . ثم قال : وهم طائفة الكِيتْلان ورسم المكاتبة إليه فى قَطْع النصف بقلم الثُّلث الكبير (١) « أدام الله تعالىٰ بهجةَ الحضرة الموقَّرةِ ، الملك الجليلِ ، المكرَّم ، المبجَّل ، الخطير ، البَطَل ، الباسـل ، الهُمَام ، الضِّرْغام ، الرِّيدأرْغُون ، فلان ؛ نَصِير النَّصْرانيــة ، فخر الأُمَّة العِيسوِيَّه ، ذُخْر الملة المسـيحيه ، حامى الثُّغور ، متَمَلِّك السَّواحل والبُحُور ، عمـادِ المَعمُوديّة ، ظهير پاپا روميه ، ملاذِ الفُرْسان ، جَمَـالِ التُّخوت والتِّيجان ، صديق الملوك والسلاطين ، صاحب بَرْجَلُونة » .

قال فى "التعريف" : أما الرِّيد فَرَنْس فلم يرِدْ له إلا رسولٌ واحدٌ ، أبرقَ وأرْعد ، وجاء يطْلُب بيت المَقْدس علىٰ أنه يُفْتَح له ساحلُ قَيْسارِيَّة أو عَسْقَلان ، ويكون للإسلام بهما وُلَاة مع وُلَاته ، والبلادُ مُناصَفة ، ومساجدُ المسلمين قائمة ، وإدرارات قَوَمَتِها دارّة ، علىٰ أنه يبْذُل مائتىْ ألفِ دينار تُعَجَّل وتُحمَلُ فى [كل] (٢) سـنة ، نظير دَخْل [نصف] (٢) البلاد التى يتسلَّمها علىٰ معدَّل ثلاث سنين ، ويُطْرِف فى كلّ سنة بغرائب التُّحف والهَدَايا . وحَسَّن هذا كُتَّابٌ من كَتَبَة القِبط ، كانوا صاروا رُءُوسًا فى الدولة بعمائِمَ بِيضٍ وسرائرَ سُودٍ ، وهم أعداءٌ زُرْق ، يجرِّعُون الموتَ الأحمر ، وعملوا علىٰ تمشِيَة هذا القصد و[ان] (٢) سرىٰ فى البَدَن هذا السُّم ، وتُطُلِّب له الدِّرْياق فعَزَّ .

(١) مراده الثلث الثقيل .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ٦٣ .

وقالوا : هذا مالٌ جليـل معجَّل ثم ماذا عسىٰ أن يكون منهـم وهم نُقْطة فى بحر، وحصاةٌ فى دَهْناءَ .

قال : وبلغ هذا أبِي رحمه الله، فآلى أن يُجاهرَ فى هذا، ويجاهدَ بمـا أمكنه، ويدافِعَ بمهما قَدَر عليه، ولو لاوىٰ السلطانَ علىٰ رأْيه إن أصغىٰ إلىٰ أولئك الأفَكَة؛ وقال لى : تقوم معى ونتكلّم، ولو خُضبت منا ثيابُنَا بالدَّم، وراسـلْنا قاضىَ القضاة القَزْوينى الخطيب، فأجاب وأجادَ الاستعداد؛ فلمـا بكَّرنا إلىٰ الخِدْمة وحضرْنا بين يدِي السلطان بدار العَدْل، حضرت الرسـل، وكان بعضُ أولئك الكَتبة حاضِرا، فاستعدَّ لأن يتكلَّم، وكذلك آستعدَيْنا نحن : فما آستتم كلامُهُم حتّى غَضِب السلطانُ وَحمِى غضَبُه، وكاد يتضَرَّم عليهم حطَبُه، ويتعَجَّل لهم عطَبُه، وأُسْكِتَ ذلك المنافِقُ بخزْيتـه ، وسكتنا نحن اكتفاءً بمـا بلغه السلطان ممـا ردّه بخَيْبته ؛ فصُـدَّ ذٰلك الشيطانُ وكفىٰ الله المؤمنـين القِتَال، ورُدّتْ علىٰ راميها النِّصال . وكان الذى قاله السـلطان : والكم أنتم عرَفْتم مالقيتم نَوْبةَ دِمْياط من عسكر المَلِك الصالح، وكانوا جماعة أكرادٍ ملفَّقة مجمَّعه، وما كان بعدُ هؤلاء التُّرك، وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتر، ونحن اليوم بحمد الله تعالىٰ صُلْحٌ [نحن وإياهم](١) من جنسٍ واحد ما يتخلّى بعضه عن بعض، وما كنا نُريد إلا الابتـداء ؛ فأما الآنَ فتحَصَّلوا وتعالَوْا ، وإن لم تجوا فنحن نَجيكم ولو أننا نخوض البحر بالخيـل ؛ والْكُمْ صارت لكم ألسنةٌ تذكُرون بها القُدُس ؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابةً إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب ! وصرخ فيهم صَرْخةً زعزعت قُواهم، وردّهم أقبَحَ ردّ ، ولم يقرأ لهم كتابا ، ولا ردّ عليهم سوىٰ هذا جوابا .

---

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : فإن ٱتفق أن يكتب إلىٰ الرِّيد إفرنس المذكور فتكون المكاتبة إليه مثل المكاتبة إلى الأدفونش أوأجلّ من ذلك .

وٱعلم أن الريد فَرَنْس هو الذى قصد الديارَ المصريَّة بمواطأة الأدفونش : صاحب طُلَيْطِلَةَ المقــدّم ذكره ، وملكوا دِمْياطَ ، وكانت الواقعــة بينهم فى الدولة الأيوبية فى أيام الصالح أيُّوب ، وأُخِذ الرِّيد فَرَنْس وأُمسِــك وحُبِس بالدار التى كان ينزلهـا فخر الدِّين بنُ لُقْمان : صاحب ديوان الإنشاء ، بالمنصورة ، ورُسِم عليه الطَّواشى صَبِيح ، ثم نُفِّس عنه ، وأطلق لأمر قُرِّر عليه ، وقال فى ذلك جمالُ الدين بنُ مَطْروح أبياته المشهورةَ وهى :

[قُلْ للفرَنْسِيسِ اذا جئتَــه * مقالَ صِدْقٍ من قَـؤُول نَصُوحْ
أتيْتَ مِصْرًا تبتَــغِى مُلْكَها * تَحْسَبُ أنَّ الزمْرَ ياطَبْلُ رِيْح
وكلّ أصحـابِكَ أودَعْتَهُــمْ * بحسْنِ تَدْبِيرِكَ بَطْن الضَّرِيحْ
خمســينَ ألفًا لاتَرىٰ منهـمُ * غيرقَتِيــلٍ أوأسِــير جرِيحْ
وفقَّــــــكَ اللهُ لأمْثالِها * لعَـلَّ عِيسىٰ منْكُمُ يَسْــتَرِيحْ
آجَــرَكَ اللهُ علىٰ ماجَــرىٰ * أفْنيْتَ عُبَّـاد يَسُوعَ المَسِيح
فقُــلْ لهم إن أضْمَرُوا عودَةً * لأخْذ ثارٍ أو لقَصْدٍ صَحِيحْ :
دارُ ابنِ لُقْمانَ علىٰ حالِها * والقَيدُ باقٍ والطَّواشِى صَبِيح] (١)

(١) بيض لهذه الأبيات فى الاصل ونقلناها مما تقدم فى ج ٥

المقصـــد الثالث
(فى المكاتبة إلى ملوك الكفّار بالجانب الجنوبى)

والمكاتب بهذا الجانب منهم مَلِكان :

الأوّل — صاحب أمحرا : ملك ملوك الحبشة ، ولقبه عندهم حَطّى - بفتح الحاء وكسر الطاء المشدّدة المهملتين ، سِمَة على كلّ من مُلّك عليهم منهم .

قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنه نصرانىٌّ يعقوبىّ ، يحكم على تسعة وتسعين مَلِكا ، منهم سبعةٌ مسلمون ، وهم صاحب وفَاتَ ، وصاحب دَوارو ، وصاحب أرابِينِى ، وصاحب شَرْحَا ، وصاحب هَدْيَةَ ، وصاحب بَالِى ، وصاحب دارةَ ؛ وأنه لولا أنّ معتقَد دين النّصرانية لطائفة اليعَاقِبة أنه لايَصِحُّ تعمد معمودىٍّ إلا باتّصال من البَطْرِيَرك ، وأنّ كرسىّ البَطْرِيرك كنيسةُ الإسكندريّة فيحتاج إلى أخذ مَطْرانٍ بعد مِطْران من عنده ، لشَمَخَ بأنْفِه عن المكاتَبة ، لكنه مُضْطرٌّ إلى ذلك .

قال فى " التعريف " ورسم المكاتبة إليه :

أطال الله بقاءَ الحضرة العالية ، الملكِ ، الجليلِ ، الهُمامِ ، الضِّرْغام ، الأسدِ ، الغضَنْفَر ، الخطير ، الباسِلِ ، السَّمَيْدَع ، العالم فى ملّته ، العادل فى مملكته ، المنْصِف لرعيّته ، المستمع لما يجب فى أقضِيَته ، عزّ الملّة النّصْرانيه ، ناصر الملّة المسيحيّة ، رُكْنِ الأمّة العيسويّه ، عمادِ بنى المعموديّه ، حافظ البلاد الجَنُوبيّه ، متّبِع الحوارِيّين ، والأحبار الرَّبّانيين ، والبطاركة القِدّيسين ، معظّم كنيسة صِهْيَوْن ، أوحد مُلوك اليعقوبية ، صديق الملوك والسلاطين . ويدعى له دعاءً مفخّمًا يليق به .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، ذكرهما فى "التعريف" :

وأظهر فضْلَه علىٰ مَنْ يُدانيـه من كلِّ ملك هو بالتاج معْتَصِب، ولكَفِّ الَّلجاج بالعَدْل منتَصِب، ولقطع حِجَاج كلِّ معاند بالحق معتصر أو للحقِّ مغتَصِب .

صدرت هذه المُفَاوَضةُ إلىٰ حضرته العليـه ومن حضرة القُدُس مَسْراها، ومن أُسْرة المُلْك القديم سُرَاها، وعلىٰ صَـفَاء تلك السَّرِيرة الصافِيَة تَرِدُ وإن لم يكُنْ بهـا غَلِيل، وإلىٰ ذلك الصديقِ الصَّدُوق[المَسِيحِيِّ]تصل، وإن لم تكُنْ بُعِثَتْ إلا من تِلْقاء الخَلِيـــل .

ولم يذكر القطع الذى يكتب إليه فيــه . أما فى "التثقيف" : فإنه ذكر أنه يُكْتَب إليه فى قطع الثُّلُث بقلم التوقيعات مانصه :

أطال الله بقـاءَ الملِك، الجليل، المكَّرم، الخطيرِ، الأســد، الضِّرْغام، الهمامِ، الباسل، فلان بن فلان، العالِم فى مِلَّته، العادل فى مَمْلكته، حَطِّى ملك أمْحرا، أكبرِ مُلُوك الحُبْشان، نَجَاشِيّ عَصْره، سَنَدِ المِلَّة المَسِيحيه، عضُدِ دين النصرانيه، عمادبنى المعمُوديه، صديق الملوك والسلاطين، والدعاء، وتعريفه «صاحب الحَبَشة» .

قال : فإن كانت المكاتبة جوابا، صُدِّر الكتابُ إليه بما صورته : ورد كتاب الملك الجليل، ويذكر بقية المكاتبة . ثم قال: وهذه المكاتبة هى التى ٱستقرّ عليها الحال عند ماكُتِب جوابهُ فى التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

* * *

وهذه نســخة جوابِ كتابٍ ورد عن صاحب الحبشة من سَـلْطنة الملك المظَفَّر صاحب اليمن، علىٰ الملك «الظاهر بيبَرْس» رحمه الله، بطَلَب مَطْرانٍ يُقيمُه لهم البَطْرك، مما كتب به القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهى :

ورد كتابُ الملك، الجليل، الهمام، العادل فى مِلَّته، حَطِّىّ ملك أمْحَرا أكبر ملوك الحُبْشان، الحاكم علىٰ مالهم من البُلْدان، نَجَاشِىّ عصره، صديقِ الملوك والسلاطين، سلطان الأمْحَرا حَرَس الله نفسه، وبَنى علىٰ الخير أُسَّه ؛ فوقَفْنا عليه وفَهِمْنا ماتضمَّنه :

فأما طلبُ المَطْران فلم يحضُرْ من جهة الملك أحدٌ حتّى كنا نعرِف الغرَضَ المطلوب، وإنما كتابُ السلطان الملك المظفَّر صاحب اليمن ورد مضمونُه أنه وصل من جهة الملك كتابٌ وقاصد، وأنه أقام عنده حتّى يسَيِّرَ إليه الجوابُ . وأما ماذكره من كثرة عساكره ، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين ، فالله تعالىٰ يكثر فى عساكر الإسلام . وأما وَخَم بلاده فالآجالُ مقَدَّرة من الله تعالىٰ، ولا يموتُ أحدٌ إلا بأجَلِه، ومَنْ فرغ أجلُه مات .

وآعلم أنَّ العادة جرتْ أنه كلما كُتِب إليه كتابٌ عن الأبواب السلطانية كتب قرينَه كتابٌ عن البطْرِيَرْك . قال فى "التعريف" : ولأوامر البَطْرِيَرْك عنده مالشريعتــه من الحُرْمة ، وإذا كتب كتابا فأتىٰ ذلك الكتابُ أوّلَ مملكته ، خرج عَميــدُ تلك الأرض فحمل الكتابَ علىٰ رأسِ علَم، ولايزال يحمِلُه بيــده حتّى يُخْرِجه من أرضه ، وأربابُ الديانةِ فى تلك الأرض : كالقُسُوس والشَّمامِسَــةِ حولَه مُشاةٌ بالأدْخِنة ؛ فإذا خرجُوا من حَدّ أرضهم تلقَّاهم مَنْ يليهــم أبدا كذلك فى كلِّ أرض بعْدَ أرض حتّى يصلوا إلىٰ أمْحرا، فيخرج صاحبُها بنَفْسه، ويفعل مثلَ ذلك الفعلِ الأوّل؛ إلا أنَّ المَطْران هو الذى يحمل الكتابَ لعظَمته لا لتأبِّى الملك . ثم لايتصرف الملكُ فىأمرٍ ولا نَهْى، ولا قليلٍ ولا كثير، حتّى ينادى للكتاب، ويجتَمَع له يومَ الأحد فى الكنيسة، ويُقْرأُ والملك واقفٌ؛ ثم لايجلس مجلِسَه حتّى ينفِّذَ ماأمره به .

الثـانى — صاحب دُنْقُـلَة . قد تقــدّم فى الكلام علىٰ المســالك والممـالك أن دُنْقُلَة هى قاعدةُ مملكة النُّوبة، وأنها كانت فى الأصل يكونُ ملكُها من نصارىٰ

النُّو بة ، ومعتقَدُهم معتقَدُ اليَعَاقبة ، وأنه ربمـا غَلَب عليها بعضُ المسلمين من العرب فملَكَها ؛ وقد تقدّم ذكر المكاتبة إلىٰ صاحبها إذا كان مسلما ؛ أما إذا كان نصرانيا فقد ذكر فى " التثقيف " أن المكاتبة إليـه : هذه المكاتبةُ إلى النـائب ، الجليل ، المبجَّل ، الموقَّر ، الأسدِ ، الباسل ، فلان ؛ مجدِ الملّة المسيحيه ، كبيرِ الطائفة الصليبِيّه ، غرس الملوك والسلاطين ؛ والدعاء ، وتعريفه «النائب بدُنْقُله» .

المقصـــد الرابـــع

(فى المكاتبة إلىٰ ملوك الكُفّار بالجانب الشّمالِىّ من الرُّوم والفَرَنْجة علىٰ اختلاف أجناسهم ، وجميعُهم معتقَدُهم معتَقَدُ المَلِكَانيّة)

وجملة ماذكر من المكاتبات فى "التعريف" و "التثقيف" اثنتا عشرةَ مكاتبةً :

الأولىٰ — مكاتبة الباب ، وهو بَطْرِيَرْك المَلَكِيّة ، القائم عندهم مَقامَ الخليفـة ؛ والعَجَبُ من جعله فى " التثقيف " بمنْزِلة القان عند التتار ، والقان إنمـا هو بمنزلة مِلِكهم الأكبر ، والبابُ ليس من هذا القبيل ، بل إليه أمر الدِّيانة حتّى فى التحليل والتحريم .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك عند ذكر البَطَارِكة أنهم كانوا يُسَمُّون القِسِّيس ونحوَه أباً ، ويُسَمُّون البَطْرِيَرْك أباً ؛ فأحَبُّوا أن يأتُوا علىٰ (١) البطْرِيَرك بسِمَةٍ له تميِّزه عن غيره من الآباء ، فاختاروا له لفظ الْباب ؛ وأنه يقال فيه الباب والبابا ومعناه أبو الآباء ؛ ثم لمـا غلب الروم علىٰ المملكة ، وعلَتْ كلمتُهم علىٰ اليعاقِبَة ، خصُّوا اسم الباب ببَطْرِيَرْكهم ؛ فصار ذلك عَلَمًا عليـه ، ومقرُّه مدينـةُ رُومِيَةَ علىٰ ما تقدّم

(١) مراده أن يطلقوا علىٰ البطريرك سمة الخ .

هناك ، ورسْمُ المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" ضاعفَ اللهُ تعالى بهْجة الحضرة السامية ، الباب الجليل ، القدّيس ، الرُّوحانى ، الخاشع ، العاملِ ، پاپا رومية ، عظيم الملة المسيحيّه ، قُدْوة الطائفة العيسويّه ، مملّك ملوكِ النّصْرانية ، حافظ الجُسُور والخُلْجان ، ملاذِ البَطاركة والأساقفة والقُسُوس والرُّهْبان ، تالِى الإنجيل ، معرِّف طائفتِه التحريمَ والتحْليل ، صديقِ الملوك والسلاطين . والدعاء ، وصدرت هذه المكاتبة .

قال فى "التثقيف" : هذا ما وجدته مسطورا ولم يكتب إليه شىءٌ فى مدّة مباشرتى ، ولا أدرِى فى أىّ شىء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفَه . ولم يتعرّض له المقرّ الشهابىّ بنُ فضل الله فى "التعريف" جملةً ، ورأيت فى بعض الدّساتير أنه لم يكتب إليه إلا مَرَّة واحدة ، وأن الكتابة إليه فى قَطْع النصف مع المكاتبة المتقدّمة .

الثانية — المكاتبة إلىٰ ملك الروم صاحب القُسْطَنْطِينيَّة . قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنها صارتْ آخِرا إلىٰ بنى الأشكرىّ ؛ فصار الأشكرى سمةً لهم ملكا بعد ملك . قال فى "التعريف" وقد كان قبل غَلَبة الفرَنْج مَلِكا جليلا ، يرجع إليه من عُبَّاد الصَّليب سائرُ الملوك ، ويفْتقِر إليه منهم الغنِىُّ والصُّعْلوك ؛ وكتبُ التواريخ مشحونةٌ بأخْباره ، وذكرِ وقائعه وآثارِه ، وأوّلُ من ألْبَس هامتَه الذِّلَّه ، وأصار جَمْعَه إلىٰ القِلَّه ، هارونُ الرشيد حين أغزاه أبوه المهدىُّ إيَّاه ، فأزال الشَّمَم من أنْفِه ، وثنىٰ جامحَ عِطْفه . فأما غَزَوات مَسْلمةَ بنِ عبد الملك ويزيدَ بن معاوية فإنها لم تبلُغْ فيه حدَّ النِّكايه ، ولا أعظمَتْ له الشِّكَايه ؛ قال : وهذا الملك الآنَ كان السلطان (أزبك) قد كاد يبتزُّ تاجَه ، ويُعْقِم نِتَاجه ، ويُخِل من جانِب البحر المُغْلَق رِتَاجَه ؛ فآحتاج إلىٰ مُداراته وبذَل له نفائسَ المال ، وصحِب أيَّامه علىٰ مَضَض

الاَحتمال؛ وكانت له عليـه قطيعةٌ مقرَّره، وجملةُ مال مقدَّره؛ ثم عَميت علينا بعده منهم الأخبار، وتولّى بالدنيا الإدبار .

ورسم المكاتبة إليـه على ما ذكره فى " التعريف " : ضاعف اللهُ تعالى بَهْجة الحضرة العالية ، المكَّرمة ، حضرةِ الملِك ، الجليل ، الخَطير، الهُمَام ، الأسدِ ، الغضَنْفر ، الباســل ، الضِّرْغام ، المُعْرِق ، الأصـيل ، الممجَّد ، الأثيرِ ، الأثِيل ، البلالاوس ، الرِّيدأرغون ، ضابط الممالك الرُّومِيَّة ، جامع البلاد الساحِليَّة ، وارث القَياصرة القُدَماء ، مُحْيِي طُرُق الفلاسفة والحكماء ، العالم بأمور دِينِه ، العادل فى ممالكه ، مُعِزِّ النَّصرانيه ، مؤيِّد المســيحيَّه ، أوحدِ مُلُوك العِيسَويه ، مخوِّل التخوت والتِّيجان ، حامى البِحار والخُلْجان ، آخر ملوك اليُونان ، ملك ملوك السُّرْيان ، عمادِ بنى المعمُوديَّه ، رَضِيِّ الباب يابا رومية ، ثِقَة الأصدقاء ، صديقِ المسلمين ، أُسْوة الملوك والسلاطين . ثم يكتب اسمه هنا ويدعى له ؛ ولم يذكر قَطْع الورق الذى يكتب إليه فيه .

وهذا دعاء وصدر يليقان به ، أوردهما فى التعريف .

وجعل له من السَّلامة (١) يَدًا لا تُزَعْزِعه من أوطانه ، ولا تنْزِعُه من سُلْطانه ، ولا تُوجِب له إلا آستقرارًا لِتيجانه ، وآستمرارًا بمُلْكه على مادارتْ على حُصُونه مناطقُ خُلْجانه ، ولا بَرِحتْ ثمـارُ الوُدِّ تَدْنُو من أفْنانِه ، ومَوَاثيقُ العهد تُبَوِّئ له مايُسَرُّ به من إشادة معالم سَلَفِه وشَـدِّ بناء يُونانه : أصدرناها ، وشكْرُه كَحاره البحر لا يُوقَفُ له على آخِر ، ولا يُوصَف مثل عِقْده الفاخر ، ولا يكاثَر إلا قيـل : أين هذا القليل من هذا الزاخر .

---

(١) فى التعريف « مع الإسلام » .

آخـــره : ونَظَم سِلْكَه ، وحمىٰ بحُسْن تأتِّيه مُلْكَه ، وكفىٰ مُحِبَّـه هُلْكَه ، وأجرىٰ بودّه ركائبَه وفُلْكَه ، ووَقَاه كذِبَ الكاذب وكفَّ إفْكَه ، وأشهد علىٰ ودّه الليلَ والنهار وما جَنَّ كافورُ هذا كافُوره ولا مسك هذا مِسْكَه .

قلت : هــذا الدعاءُ والصدْرُ وإن أورده فى "التعريف" فى جملة الأدعية له والصدور ، فإنه منحطُّ الرتبة عن المكاتبة السابقة ؛ اللهـم إلا أن يُخَصَّ هذا بحالة منابذةٍ أو تهديدٍ ، ونحو ذلك .

وذكر فى "التثقيف" أن الذى آستقرّ عليه الحالُ فى المكاتبة إليه أنه يُكْتَب إليه فى قَطْع النِّصف ما نصــه : ضاعف الله تعالىٰ [بهجةَ](١) حضرة الملك الجليــل ، المكرَّم ، المبَجَّل ، الأسد ، الخطير ، البطَل ، الباسل ، الهُمَام ، الضِّرْغام ؛ فلان ، العالم فى مِلّته ، العادلِ فى أهل مَمْلَكته ، عزِّ الأمة المَسيحيَّه ، كبيرِ الطائفة الصَّليبيَّه ، جَمَـالِ بنى المعمُوديَّه ، صَمْصام الملوك اليُونانيَّــه ، حُسام المملكة المـاكصونيَّــه ، مالك البرغليَّـة والاملاحيـه ، صاحبِ أمصار الرُّوس والعَلَّان ، مُعِزِّ اعتقاد الكُرْج والسُّرْيان ، وارثِ الأسِرَّة والتِّيجان ، الحاكم علىٰ الثُّغور والبُحُور والخُلْجان ، الضُّوقس الأنجالُوس الكمنينُوس البـالالُوغِس ، صـديقِ الملوك والســلاطين ؛ ثم الدعاء . صدرَتْ هــذه المكاتبة إلىٰ حضرته تشْكُر مُوالاتَه ، (ومن هــذه المـادة) وتوضِّح لعلمه السعيد .

ورأيت فى بعض الدســاتير أنه يختمها بقوله : فيُحيط بذلك علمـا ، والله تعالىٰ يديم بهجتــه .

---

(١) مقتبسة من "التعريف" لصحة الكلام .

قال فى "التثقيف" : وتعريفه «ضابط مملكة الروم» وذكر أن هذه المكاتبة هى المتـداوَلَة بديوان الإنشـاء بين كُتَّابه ، وأنه هو كَتَب بهـا إليه ، ولم يتعرّض لإيراد المكاتبـة التى ذكرها فى "التعريف" بل أحال فى معرفتها لمن أرادهـا علىٰ النظر فيــه .

الثالثـة — المكاتبة إلىٰ حُكَّام جَنَوَة : وهم جمـاعة متفاوِتُو المراتب ، وهم : البُودشطا، والكَبْطان ، والمشايخ . ورسم المكاتبة إليهم علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى قطْع الثُّلُث :

صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة البودشطا والكبطان الجليلـين ، المكَرَّمين ، الموقَّرين ، المبجَّلين ، الخَطِيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكابِرِ المحترمين ، أصحـاب الرأى والمَشُورة ، الكمنون بجَنَوه[1] ، أمجـاد الأمّة المَسِيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصـدقاء الملوك والسلاطين ؛ ألهمهم الله تعالىٰ رُشْدَهم ، وقرن بالخير قَصْدَهم ، وجعـل النصيحة عِنْدهم . تتضمن إعلامهـم كذا وكذا . وتعريفهـمْ «الحُكَّام بجَنوَةَ» .

قال فى "التثقيف" والذى ٱستقرّ عليـه الحـال آخِرا فى مفتَتَح سـنة سبع وسـتين وسبعمائة إبطالُ المكاتبة إلىٰ البودشـطا والكبطان ، بحُكْم أنهـما أُبْطِلا ، وٱستقرّ [ت مكاتبة] الدُّوجِ مكانهما بمـا نصه :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الدُّوج الجليـل ، المكَرَّم، المبجَّل، الموقَّر، الخطير ، فلان، والمشايخ، والباقى علىٰ ماتقدّم ذكره .

قلت : هكذا هو فى "التثقيف" بدال وواو وجيم ، والمعروف إبدال الجيم فى آخره كافا علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ صاحب البندقية علىٰ الأثر .

---

(١) لعله الحاكمون بجنوة .

وآعلم أنه قد ذكر فى "التثقيف" أنه كان لصاحب جَنَوَة مُقَدّم علىٰ الشّوانى بقُبْرُس ، وقيل إنه كان بالماغُوصة ، وأنه كتب إليه فى رمضان جوابًا عما ورد عنه فى قَطْع العادة مانصه :

وردتْ مكاتبة المُحْتشِم ، الجليل ، المبجّل ، الموقّر ، الاسد ، الباسل ، فلان ؛ مَجْدِ الملة المَسيحيه ، كبيرِ الطائفة الصّليبيّه ، غَرْس الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء . وتعريفه «مقدّم الشّوانى الجَنَوِيّة بقُبْرُس» .

الرابعة — المكاتبة إلىٰ صاحب البُنْدُقِيّة . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما آستقرّ عليه الحال عند ما كتب إليه جوابه فى شهر رجب سنة سبع وستين وسبعمائة ، وهو يومئذ مَرْكريادُو فى قطع الثلُث :

وردتْ مكاتبة حضرة الدُّوج ، الجليل ، المكرّم ، الخطيرِ ، الباسلِ ، الموقّر ، المفخّم ، مَرْكريادو فخرِ الملة المسيحيه ؛ جمالِ الطائفة الصّليبيه ، دُوج البُنْدقِيّة والمانسية ، دوج كرال دين بنى المعموديه ، صديق الملوك والسلاطين ، والدعاء . وتعريفه «صاحب البندقية» : ثم ذكر بعد ذلك نقلا عن خط القاضى ناصر الدين آبن النشائى أنه كتب فى الجواب إلىٰ دُوكِ البنادقة :

وردتْ مطالعةُ الدُّوك الجليل ، المكرّم ، المبجّل ، الموقّر ، البَطَل ، الهمام ، الضِّرْغام ، الغَضَنْفَر ، الخطير ، مجدِ المِلة النّصْرانيه ، فخرِ الأمّة العِيسَويّه ، عِمَاد بنى المعْمُوديه ، معِزّ پَاپَا رُوميـة ، صديقِ الملوك والسلاطين ، دُوك البَنَادقة ، وديارقة ، والرُّوسَا ، والإِصْطَنْبُوليّة . ثم قال : ولم يذكر تعريفَه ولا قَطْعَ الورق الذى يُكْتَب إليه فيه ؛ ثم نقل عنه أيضا أن المكاتبة إلىٰ دُوكِ البُنْدُقِيّة : هذه المكاتبة إلىٰ حضرة المحتَشم ، الجليل ، المبجّل ، الموقّر ، المكرم ، المفخّم ، الباسل ، الضِّرْغام ، فلان ؛

عِزِّ الامة المسيحيَّه، جمالِ الطائفة العِيسَويَّه، ذُخْرِ الملة الصليبية، صـديق الملوك والسلاطين . ثم قال : هكذا رأيتـه من غير ذكر تعريفه ولا القَطْع الذى يكتب إليه فيه . قال : ومايبعُد أنه غيرُ الأول ولم يزد علىٰ ذلك .

قلت : ومقتضىٰ ما ذكره من جميع ذلك أن الدُّوكَ غيرُ الملِكِ نفْسِـه . علىٰ أن المكاتبة الأولىٰ والثانيـةَ فى الجواب متقارِبتانِ . اما المكاتبة الثالثـة فمنحطّة عن الأوْلَتَيْنِ . علىٰ أنه قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك عنـد ذكر البنْدُقِيَّـة نقلا عن ٱبن سعيد أن مَلِك البنادقة يقال له الدُّوك بضم الدال المهـملة وواو وكاف فى الآخر، وهذا ممـا يحتاج إلىٰ تحرير، فإن كان الدُّوك هو الملِكَ فتكون المكاتبةُ إليه ٱختلفَتْ باختلاف الحال، أو باختلاف غَرَض الكُتَّاب، أو عدمِ اطّلاعهم علىٰ حقيقة الأقدار والوقوف مع مايُلْقىٰ إليهم من المُزَاحمة فى كل وقتٍ وهو الظاهر .

الخامسة — المكاتبة إلىٰ صاحب سَنُوبَ، من سواحل بلاد الروم، قبل أن تُفْتَح ويستولِيَ عليها التُّرْكمان . قال فى "التعريف" وهى علىٰ ضَفَّة الخليج القُسْطَنْطِينىّ، وملكها رومىٌّ من بيت المُلْك القديم ، من أقارب صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة . قال : ويقال إن أباه أعرَقُ من آبائه فى السلطان . قال : ولكن ليس ملكُه بكَبِير، ولا عدَدُه بكثير، ويكونُ بينه وبين أُمَراء الأتراك حروب، يكون فى أكثرها المغلُوب .

وذكر أنَّ رسم المكاتبة إليه مثـلُ متَمَلِّك سيس، فتكون علىٰ ما ذكره فى مكاتبـة متملك سيس :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ حضرةِ الملِك ، الجليل، البطلِ، الباسـلِ، الهُمامِ، السَّمَيْدَع، الضِّرْغام، الغضَنْفَر، فلان، فخر الملَّة المَسِيحيه، ذُخْرِ الأمة النَّصْرانيه، عماد بنى المَعْمُوديَّه، صديق الملوك والسلاطين .

وهذا دعاء يليق به، ذكره فى "التعريف" :

وكفاه شرّ ماينُوب، وروّح خاطِره فى الشَّمال بريًّا مايَهُبُّ من الجنُوب، ووقاه سُوءَ فِعلٍ يُورِث النَّدَم وأوّلُ مايَقْرَع السِّنَّ سَنُوب .

السادسة — المكاتبةُ إلىٰ صاحب البُلْغَار والسَّرْب . قد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتبات إلىٰ ملوك الإسلام بالجانب الشَّمالىِّ نقلا عن "التعريف" ما يقتضِى أنّ ملكها مسلمٌ، وذُكِرت مكاتبتُه الإسلاميةُ هناك، وعلىٰ ذلك ٱقتصر فى "التعريف" وتقدّم النقل عن "مسالك الأبصار" أنها صارتْ إلىٰ ملوك النَّصْرانية، وعليه ٱقتصر فى "التثقيف" وهو المراد هنا .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" نقلا عن ابن النشائى فى قَطْع الثلث ما نصه :

أطال اللهُ تعالىٰ بقاءَ حضرة الملك، الجليلِ، المكَرَّم، المبجَّل، الهُمام، الضِّرْغام، الباسل، الدُّوقِس، الانجالُوس، الكمنينوس، فلان، عمادِ النَّصرانية، مالك السَّرْب والبُلْغار، فخرِ الأمّة العيسويه، ذُخْر الملة المسيحيه، فارس البُحُور، حامِى الحُصُون والثُّغور . والدعاء، أصدرنا هذه المكاتبة، وتعريفه «صاحب البُلْغار» .

وٱعلم أنه فى "التثقيف" بعد أن أورد المكاتبةَ المتقدّمةَ لصاحب السَّرْب والبُلْغار، نقلا عن ٱبن النَّشائى ذكر نَقْلا عنه أيضا أن المكاتبةَ إلىٰ صاحب السَّرْب فى قَطْع الثلث نظير متملِّك سِيسَ، فتكون المكاتبة إليه على ماتقدّم أنه الذى استقرّ عليه الحالُ فى المكاتبة لمتملِّك سيس :

صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ حضرة الملك، الجليل، المكَرَّم، المبجَّل، المعَزَّز، الهمام، الباسل، فلان، عزِّ دين النَّصْرانيه، كبيرِ الطائفة الصَّليبيَّة، عماد بنى

(١) أى البلد التى هى عاصمة ملكه .

المعمُوديَّه، صديق الملوك والسلاطين، أدام الله نعمتَه، وحَرَس مُهْجَته، تعلمه كذا وكذا؛ وتعريفه «صاحب السِّرْب» .

ثم قال : ولم أدر هل يجتمعان لشخص واحد تارةً فيكون بهما آثنان تارةً وواحدُ تارةً أم لا . ثم قال : علىٰ أنه لو كان الأمرُ كذلك لكان يتعـين أن يذكُرَ مكاتبـة صاحب البُلْغار وحده مفْردا كما ذكر مكاتبة صاحب السِّرْب وحده مفردا .

قلت : كِلَا الأمرين محتمِلٌ، فيجوز أنهـما كانا مجتمعين لواحدٍ، وأنه كتب تعريفَـه بالإضافة إلىٰ أحدهمـا آستغناءً به عن الآخر، أو أنه كتب إلىٰ صاحب السِّرْب بمفرده، ولم يحطَّ رتبتَه فى قطْع الورق عن رتْبة من اجتمعا له، ولا يلزم من ذٰلك أنه كان يكتب لصاحب البُلْغار بمفرده لآحتمال أنه لم يُكْتَب إليه شيءٌ حينئذ، وبالجملة فهذا أمر راجع إلىٰ النقل .

السابعة — المكاتبة إلىٰ ملِك رُودِس . قال فى "التعريف" وهى جزيرةٌ تقابِلُ شُطوطَ البلاد الرُّوميَّـة . قال : وأهلها فى البحر حَرَامِيَّـة، إذا ظفِرُوا بالمسـلم، أخذُوا مالَه، وأحْيَوْه، وباعُوه أو آسـتَخْدَمُوه؛ وإذا ظفروا بالفَرَنْجِيِّ، أخذوا ماله وقتَـلُوه .

ورسم المكاتبة إليه مثـلُ متملك سِيسَ، إلا أنه لا يقال فيه مُعِزّ پاپا روميـة، وتختصر بعض ألقابه لأنه دونَه، وحينئذ فيتجه أن تكون المكاتبة إليه :

صدرت هذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة الملِك الجليل، البطَل، الباسل، السَّمَيْدَع، فلان، فخر الملة المَسيحيه، ذُخْر الأمة النَّصْرانيه، صديقِ الملُوك والسلاطين، أونحو ذلك . علىٰ أنه فى "التعريف" لم يذكر فى المكاتبـة إلىٰ متملِّك سيس، معِزِّ پاپا رومية؛ فلم يكن ليحتاج أن يقولَ : إلا أنه لا يقال فيه معزِّ پاپا رومية .

وهذا دعاء يليق به، ذكره في "التعريف" وهو

قدّم الله له الأعذار، وكفاه قوامعَ الإنذار، وحذّره عاقبةَ البغي قبل أن لا ينفع الحذار.

آخـــر: فكّ الله من وَثاقه كلَّ مأسور، وأقال كلّ غرابٍ له من الرجوع وجَناحُه مكسور، وعصمه بالتَّوْبة مما اقترف، لا بالبَحْر ولو أنه سبعةُ أبحُر، وسُورِ مدينته ولو أنه مائةُ سُور.

الثامنة — المكاتبة إلى صاحبِ جزيرةِ المَصْطَكى. قال في "التعريف": وهي جزيرةٌ صغيرةٌ لا تبعُد مدًى من الإسكَنْدريّة، وصاحبها صغيرٌ لا في مالٍ ولا في رجال، وجزيرته ذاتُ قَحْط لا يَطُرّ شاربها بزَرْع، ولا يَدِرّ حالبُها بضَرْع؛ إلا أنها تُنبِت هـذه الشجرةَ فتُحْمَل منها وتُجْلَب، وتُرْسَى السفُنُ عليهـا بسببها وتُطْلَب؛ قال: وفي ملكها خدمةٌ لرُسُلنا إذا ركبُوا ثَبَج البحر، وتجهيزٌ لهم إلى حيثُ أرادُوا، وتحيزٌ لهم إذا توجَّهُوا وإذا عادُوا. ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كالمكاتبة إلى صاحب جزيرة رُودِس المتقدّمة الذكر آنفًا وهي:

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى حضرة الملك الجليل إلى آخر ما تقدّم.

وهذه أدعية تليق به ذكرها في "التعريف" دعاءٌ من ذلك، وفقّه الله لطاعته، وأنهضه من الوَلاء بقَدْر طاقته.

آخـــر: أطاب الله قلبَه، وأدام إلينا قُرْبَه.

آخـــر: لا زالَ إلى الطاعة يبُادِر، وعلى الخـدمةِ أنْهَضَ قادر، ومكانُه تُزَمّ إليه ركائبُ السُّفُن بكل واردٍ وصادر.

التاســعة — المكاتبةُ إلى متملّك قُبْرس. وإنما قيل له متملّك قُبْرس لأنها كانت قد فتحها المسلمون، ثم تغلّب عليها النصارى وملَكُوها؛ فقيل لمن غلب عليها متملّك

ولم يُقَـلْ له مَلِك ؛ وذكر فى "التثقيف" عن القاضى ناصر الدين بن النَّشائى أن المكاتبة إليه [مثل] متملك سيس ولم يَزِد علىٰ ذلك ؛ وحينئذ فتكون المكاتبة إليه مثلَ ما آستقرّ عليه الحال فى المكاتبة إلىٰ متملِّك سيس فى قَطْع العادة :

صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة الملك ، الجليلِ ، المكَرَّم ، المبجَّل ، المعزَّز ، الهمام ، الباسل ، فلان ؛ عزِّ دين النصرانيـة ، كبيرِ الطائفة الصَّليبية ، عمـاد بنى المعْمُوديَّه ؛ صديق الملوك والسلاطين ؛ أدام الله نعمتَه ، وحرس مُهْجَتَه . وتعريفه « متملك قبرس » .

قال صاحب "التثقيف" : ولم أقِفْ علىٰ مكاتبة إليـه ابتداءً ولا جواباً سوىٰ ذٰلك ، إلا أنه كتب إليه عن الأمير الجاى اليُوسفى عند وقوع الصلح فى سنة آثنتين وستين وسبعمائة ، يعنى عند ما كان الجاى أتابك العساكر المنصورة .

العاشرة ــ المكاتبـة إلىٰ ملك مُونْفُراد . ذكر فى "التثقيف" أنه كان بهـا آبن ملك إصْطَنْبُول ، وأنه كتب إليه فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة :

أصـدرناها إلىٰ حضرة الملك الجليـل ، المكَرَّم ، البَطَل ، الهمام ، الأسَـد ، الضِّرْغام ، فلان ؛ مجد النَّصْرانية ، فخر العِيسَويّه ، عمـاد بنى المعمُوديّه ، جمـال الطائفتيـن الرومية والفرَنْجيّـه ، ملك مُونْفُراد ، وارث التـاج ، مُعِزّ الباب ، ادام الله بَقـاه ، وحَفِظه ووَقَاه ، وأورثه من ابيـه تخْتَه وتاَجه ووَلاه ؛ نتضمن إعلامه كذا وكذا . ثم قال : هـذا ماوجدتُه مسطورًا فى رسم المكاتبة المذكورة ، ولم يكْتَب إليه شئٌ فى مدّة مباشرتى ، ولم أدْرِ ماتعريفه ، ولا فى أىّ قطع يكتب إليـه . قال : والذى يظهر أنه يكتب إليـه فى قَطْع العادة ، وأن يكون تعريفـه « ملك مونفراد » .

الحادية عشرةَ — المكاتبةُ إلىٰ صاحبة نابُل . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان ٱسم صاحبتها جُوانا، وأنه كُتِب إليها فى أواخر سنة ثلاثٍ وسبعين وسبعمائة ما صورته :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الملكةِ، الجليلةِ، المكرَّمة، المبَجَّلة، الموقَّرة، المفَخَّمة، المعَزَّزة، فلانة ؛ العالمةِ فى مِلَّتها، العادلة فى مَمْلكتها، كبيرةِ دين النَّصْرانية ، نصيرةِ الأمّة العِيسَويه ؛ حاميةِ الثغور، صديقةِ الملوك والسلاطين . ثم الدعاء ؛ نتضمَّن إعلامها ، وتعريفُها « صاحبة نابُل » ولم يذكر قَطْع الورق لمكاتبتها ، ولاخَفاءَ أنه يكتب إليها فى قَطْع العادة لِصغَر مَقَامها .

قلت : فإنْ ولِىَ مملكتَها رجلٌ، فينبغى أن يكْتَب إليه بهذه المكاتبة علىٰ التذكير أو أعلىٰ من ذلٰك ، لمِيزَةِ الرجال علىٰ النساء . وهٰؤلاء جملةُ من تعرَّض إلىٰ مكاتبته فى "التعريف" و"التثقيف" من ملوك الكُفْر؛ فإن ٱتفقت المكاتبةُ إلىٰ أحد سِوَاهم فلْيُقَسْ علىٰ من هو مثلُه منهم . ثم قد ذكر فى "التثقيف" القنصل بكفا؛ وذكر أنها جارية فى حكم جَنَوةَ ؛ وأنه لم يكتب إليه شىءٌ عن المواقف الشريفة، ولا خفَاءَ فى ذلك، فإن مقام القُنْصُل دُونَ أن يكاتبَ عن الأبواب السلطانية .

الفصـــل الخـامس

من البـاب الثـانى من المقـالة الرابعة

(فى الكتب الواردة علىٰ الأبواب الشريفةِ السلطانيــة بالديار المِصْرية ،
ممن جرت العادةُ بمكاتبتـه إليهـا من أهــل المملكة وغيرها من
سائرالممـالك المكاتَبةِ عن هذه المملكة ، وهى نوعان)

النـــــوع الأوّل

(المكاتباتُ الواردةُ عن ملوكـ المسلمين ، وهى علىٰ قسمين)

القسم الأوّل — فى الكُتُب الواردة عن أهل هذه المملكة ، بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، ممن يؤهّل للمكاتبةِ إلىٰ الأبواب السلطانيــة ، من النوّاب وغيرهم : من الأمراء ، وأرباب الأقلام : من الوزراء ، والعلمــاء ومَنْ فى معناهم ، وهم علىٰ ضربيـــن :

الضـــرب الأوّل

(فى المُطالَعات الواردةِ عن أكابرأهل الدولة بالديار المِصْرية
والبلاد الشامية : من النوّاب ومَنْ فى معناهم)

قد جرتْ عادةُ من يكتُبُ إلىٰ الأبواب السلطانيــة من أهل هذه المَرْتَبة ، أن يكتب جميعُهم كُتُبَهم فى قَطْع العادة ، فإن كان بالديار المصرية فمن الوَرَق البَلَدِىّ ، وإن كان بالبلاد الشامية فمن الوَرَق الشامىّ ، وجميعُ ذلك فى الورقِ الأبيض ، إلا نائبَ الشــام ونائبَ الكَرَك ، فإنهما قد جرتْ العادةُ فيهما بأنهما يكتُبان إلىٰ الأبواب السلطانية فى الورق الأحمر الشامىّ ، شيءٌ آختَصَّابه دُونَ سائرأهل المملكة .

ثم قد ذكر فى "عرف التعريف" أن الملوك لا يُكْتَب إليهم إلا «يُقَبِّل الأرض» ويُنْهِى . ويُخْتَم الكتاب بما صورته : طالع المملوكُ بذلك وللآراء العالية مَزِيدُ العُلُوّ، أو أنهىٰ المملوكُ ذلك وللآراء العالية مزيدُ العُلُوّ، والعنوان «المَلَكىّ الفلانى»، مطالعة المملوك فلان » وحينئذ فالذى جرتْ به العادةُ فى ذلك أن يبتدئ الكاتبُ فيكتب فِهْرِست الكتاب فى رأس الدَّرْج من جهةِ وجْهه، فى عَرْض إصبع، فى الجانب الأيمن « إلىٰ الأبوابَ الشريفة » وفى الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» ثم يقلِبُ الدَّرْج ويكتُب فى ظاهره، بعد تَرْك ماكُتِب الفِهْرِستُ فى باطنه، العُنوانَ ؛ فيكتب : «المَلَكِىُّ الفلانىّ» فى أوّل العُنْوان، و «مطالَعَة المملوك فلان» فى آخره . ثم بعد ذٰلك يقلِبُ الدَّرْج، ويترك وَصْلا أبيضَ، ويكتُبُ البسملة فى رأس الوصل الثانى بعد خُلُوِّ هامِشٍ من الجانب الأيمن . ثم يكتُبُ تحت البسملة ملاصقًا لها ماصورتُه «المَلَكىّ الفلانى» بحيث يكون آخر المَلَكىِّ الفلانى مسامتاً لجَلالة البسملة، بلقب السلطان، كأنه يَنْسُب نفْسَه إلىٰ سلطانه . ثم يكتب صورةَ المكاتبة علىٰ سَمْت البسملة فى سطرٍ ملاصقٍ للمَلَكىّ الفلانىّ « يقبِّلُ الأرضَ ويُنْهِى كذا وكذا » فإن كان ٱبتداءً كتب ويُنْهِى أن الأمر كذا وكذا ، ويأتى بمقاصد المكاتبة : فإن كانت فصلا واحدا ذكره وختم الكتاب بآخر كلامه ؛ وإن كان الكتاب مشتملا علىٰ فُصُول أتىٰ بالفصل الأوّل إلىٰ آخره . ثم يخلِّى بياضا قدرَ خمسةِ أسطُر . ثم يَسْرُد الفصولَ بعد ذلك فَصْلًا فصلًا : يُخَلِّى بين كل فصلين قدرَ خمسة أسطر أيضا ، ويقول فى أوّل كل فصل «المملوكُ يُنْهِى كذا وكذا » وإذا أتىٰ علىٰ ذكر السلطان ، قال : خَلَّد الله سلطانه ؛ أو خلَّد الله ظلَّه ؛ أو أتىٰ علىٰ ذكر المرسوم الشريف ، قال : شرَّفه الله وعظَّمه ونحو ذلك ؛ وإذا سأل فى أمر ، قال : والمملوكُ يَعْرِض علىٰ الآراء الشريفة كذا وكذا ، أو إن ٱقتضت الآراءُ الشريفة كذا فلها مزيدُ العُلوّ، ولا يقال : يسْألُ

الصدقات الشريفة، إلا فى أمر جليـلٍ أو شىءٍ مُهِمٍّ ، والعَرْضُ أبلغُ فى الأدب ، ولا يَلَقِّب أحدا بالجناب والمجالس ومجلس الأمير، وإذا ذكر كبيرا فى الدولة كالنائب الكافل ، ونائب الشـام ، أو نائب حَلَب ؛ أو أمير كبـير . قال : إن مملوك مولانا السـلطان خلَّد الله ملكه الأميرَ فلان الدين فلان النـاصرى مثـلا ، كافل الممـالك الشريفة، أو نائب السلطنة الشريفـة بالمملكة الشامية المحروسـة، أو كافل المملكة الشامية المحروسة، أو نائب السلطنة الشريفة بحَلَب المحروسة، أو الأمير فلان الدين فلان الناصرى مثلًا، أو القاضى فلان الدين، أو ناظِرِ الجُيوش المنصورة بالأبواب الشريفة، وما يجرى هذا المجرىٰ؛ ولا يُدْعىٰ فى المطالعة لأحد . وإذا ٱنتهت الفصول إلىٰ آخرها، قال : وقد جَهَّز المملوكُ بمطالعته هــذه مملُوكه فلانا السيْفِىَّ مثلا المـاثِلَ بها . وإن كان ثَمَّ مشافهة، قال : وقد حَمَّله مشافَهَةً يسأل المَسامِعَ الشريفة سَمَاعها إن ٱقتضت ذلك، أو يُنْهِيها إلىٰ المسامع الشريفةِ إذا رُسِم له بإنهائها، طالع بذٰلك، أو أنهىٰ ذٰلك .

ثم قد جرت عادة النُّوّاب بالبلاد الشامية أن يُقَدّموا فى صـدر المكاتبة ما ٱشتمل علىٰ أخبـار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاوِرة لأَواخِرِ هذه المملكة : من تجَدُّد أمر ، أو حركة عدُو، أو حكايةِ حالٍ مُهِمَّة من أحوال تلك البلاد ؛ مثل أن يقال فى أوّل المكاتبة، ويُنْهِى أنَّ قُصَّاده عادُوا من البلاد الشرقيـة مخبِرين بكذا وكذا ، ويشرح الحال التى أخبر بها قُصَّادُه .

وإن كان الخـبر نقلا عن نائبٍ من نُوَّاب الأطراف كالرُّهَا ونحوها ، قال : إن مطالعة نائب فلانة وردتْ بكذا وكذا ، ويذكر ما تضـمّنته ملخَّصا ـ وإن كانت المطالعـةُ جواب مثـالٍ شريف ورد فقط ، قال : وينهى أن المرسومَ الشريفَ

شرّفه الله تعالىٰ وعظّمه ورد علىٰ المملوك علىٰ يد فلانِ الدين فلان البَرِيدىّ بالأبواب الشريفة يتضَمَّن ما ٱقتضتْه المراسيمُ الشريفة ، أو ما ٱقتضَتْه الآراءُ الشريفة شَرَّفها الله تعالىٰ وعظّمها : من كذا وكذا ، ويذكُرُ نصَّ المثالِ الشريفِ حرفًا حرفًا . ثم يقال : وتفهَّم المملوكُ ما رُسِم له به ، وقابل المراسيمَ الشريفةَ ـ زادالله تعالىٰ شرَفَها ـ بتَكْرارِ تقبيل الأرض والآمتثال ، وتقدّم بكذا ، ان كان الأمر مما نفذ ، أو والذى ينهيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقَّف .

ثم إن كان النائب عظيمَ القَدْر كنائب السلطنة الشريفة بالشام أو حَلَبَ ، جعل بُعْدَ ما بين كل سطرين تقديرَ رأسِ إصبع ؛ وإن كان دُونَ ذلك جعل ما بينهما أقلَّ من ذلك حتّٰى ينتهى فى أقل الرتب إلىٰ ملاصقة السطور بعضِها ببعضٍ .

وإن كانت المطالعة فى أمر مُهِمٍّ كٱستقرار نائبٍ أو بشارةٍ بفتح أو نحو ذلك ، أتىٰ بجميع الكتاب مسَجَّعا وإلا فلا .

وهذه نسخةُ مطالعة عن نائب الشام ٱبتداءً .

يقبِّل الأرضَ ، ويُنْهِى أنه ورد علىٰ المملوك مكاتبةُ نائب السلطنة الشريفةِ بحَلَبَ المحروسة ، يذكر فيها أن قُصَّاده عادُوا من جهة بلاد الشرق ، وأخبروا أن العدُوَّ المخذُولَ فلانا قد خرج عليه عدوٌّ من ورائه وقصد بلاده فكَرَّ راجعا إليه بعد أن كان قاصدًا هذه الجهةَ ، وأحبَّ المملوكُ إحاطة الخواطرِ الشريفة بذلك .

المملوك يُنْهِى أنَّ مطالعة نائب الرَّحْبة المحروسة وردت علىٰ المملوك يخبر فيها أن فلانا التُّرْكُمانىَّ قد عاد إلىٰ الطاعة الشريفة ، ولاذَ بمَراحم الأبواب العالية ، وأنه ما كان حمله علىٰ ماوَقَع منه من عَدَم المقابلة إلا الخوفُ من السَّطَوات الشريفة ، وأنه يسأل كتابة أمانٍ شريفٍ له ولجماعته ومَنْ يليه بأن يكونوا آمِنين علىٰ أنفسهم ،

وأموالهم، وسائر ذات يَدِهم، وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية، وتمثل بالمواقف الشريفة، وآمتثل ما تبرز به الأوامر المطاعةُ فى أمره وأمر جماعته. والمملوك ينظر ما يردُ به الجوابُ الشريف فى أمره لكاتبِ نائب الرَّحبة المحروسة بما يعتَمِده فى امره .

المملوكُ يُنْهِى أنه قد بلغ المملوكَ أنَّ البحر مشـغولٌ بمراكب الفَرَنْج، ولم يعلم إلىٰ أىِّ مكان يقْصِـدون ، وقد أخذ المملوك فى الآحتراز علىٰ السواحل المذكورة بإقامة المركَّزين، وأمَرَهم بالآحتراز والآحتفاظ، وقد عرض المملوكُ ذٰلك علىٰ الآراء العالية ليكونَ ذٰلك علىٰ الخواطر الشريفة، ويكاتِب به النوّابَ بالبلاد المجاورة للبحر .

المملوك يُنْهِى أن الأمير فلانا الفلانىَّ : أحد أمراء الطبلخاناه بِدِمَشْقَ المحروسـةِ قد تُوُفِّى إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، والمملوك يسأل الصَّدقات الشريفةَ فى آستقرار إمْرته بآسم مملوكِ مولانا السلطان عز نصره، ولد المملوك فلان، إعانةً له علىٰ الخدمة الشريفة، وجَبْرًا لخاطر المملوك، فإن حَسُن ذٰلك بالآراء الشريفة، وإلا فالرأى العالى مَزِيدُ العُلُوّ .

المملوكُ يُنْهِى أن الأمير فلان الدين فلانا : أمير حاجب بالشام المحروس ، كان قد برزَتِ المراسيمُ الشريفةُ باستقراره فى نيابة صَفَدَ المحروسة ، وقد توجَّه إلىٰ محلِّ نيابَتِه، والمملوك يَعْرِضُ علىٰ الآراء الشريفة إنْ حَسُن بالرأى الشريف أن يستقِرَّ فى الوظيفـة المذكورة الأميرُ فلان الدين فلان : أحدُ الأمراء الطبلخاناه بدمشـق المحروسة ، فإنه كُفْءٌ لذٰلك، أو يستقرّ من تبرُز به الآراءُ الشريفة .

المملوك ينهى أن فلانا : أحد رجال الحَلْقة المنصورة بدِمَشْقَ المحروسة، قد دَرَج بالوَفَاة ، وقد كتب المملوكُ مربَّعةً باسم فلان الدين فلانٍ باستقراره علىٰ إقطاعه ، وجَهَّزها إلىٰ الأبواب الشريفة لتُعْرضَ علىٰ الآراء العالية، فإنْ حَسُن بالرأى الشريف

إمضاؤُها وإلا فيستقرّ علىٰ إقطاعه مَنْ تبرُزُ المراسيمُ الشريفةُ باستقراره، وقد جَهَّز المملوك هذه المطالعةَ علىٰ يدِ مملوكه فلان إلىٰ الأبواب الشريفة .

طالع بذلك، إن شاء الله تعالىٰ ثم يكمل .

⁂

وهــذه نسخة مطالعةٍ عن نائب الشام أيضا ، فى جواب مكاتبةٍ شريفةٍ وردتْ عليـــه وهى :

يقبِّل الأرض ويُنْهِى أن المرسوم الشريفَ ـ شرَّفه الله تعالىٰ وعَظَّمه ـ ورَدَ علىٰ المملوك علىٰ يدِ فلانِ الدين فلان البريدىّ، بالأبواب الشريفة ، يتضمَّن أنَّ المرسوم الشريفَ ٱقتضىٰ الاجتهادَ والاهتمام فى حِفْظ السواحل والمَوَانِى ، وإقامة الأَيْزاك والأبدال فى أوقاتها علىٰ العادة، وإلزام أربابها بمواظبتها؛ وإلزام المنوِّرين بالدَّيْدَبَانات والمَناظِر والمَناور فى الأماكن المعروفة ، وتعهُّد أحوالها وتفقُّدها ، وتقويم أحوالها بحيث تُقومُ أحوالُهـا علىٰ أحسن العوائد وأكملها؛ ولا يقعُ علىٰ أحدٍ دَرَك بسببها . وأنَّ المملوك يتقدّم باعتماد ماٱقتضاه المرسومُ الشريفُ من ذلك مع مُضاعفةِ الاحتفال بذلك والمُبادرةِ إليه . فوقف المملوكُ علىٰ المرسوم الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه، وتَفَهَّم مارُسِم له به، وقابل المراسِيمَ الشريفةَ زاد الله تعالىٰ شَرفَها بالامتثال؛ وتقدّم باعتمادِ ما ٱقتضَـتْه المراسيمُ الشريفة من ذلك، وأخذَ فى حِفْظ السواحل والمَوَانِى، وإقامة الأيزاك والأبدال، وإلزام أربابها بمواظَبَتِها، وإلزام المنوِّريــن بالدَّيْدَبَانات والمناظر [فقامت الأحوال] علىٰ أحسن العوائد ، وجرتْ علىٰ أكملِ القَواعِد ، ولم يُكُنْ عند المملوك غفْلةٌ عما هو بصَدَده من ذلك ؛ وقد أعاد المملوكُ فلانَ الدين فلاناً البريدى المذكورَ بهذه المطالعة : ليحصُل الوقوفُ عليها . طالع بذلك ... ...

وهذه نسخة مطالعـة تشتمل علىٰ ابتداءٍ وجواب : يقبّـل الأرض وينهى أنه قد حضر رسولٌ من القـانِ فلانٍ بالمملكة الفُلَانية [وقصـدُه التوجه] إلىٰ الأبواب الشريفة، والمملوكُ يَعْرِض علىٰ الآراء العالية أمْرَه، فإن أذِنَ له فى التوجُّه إلىٰ أبوابه الشريفة، جَهَّزه المملوك إليها علىٰ العادة .

المملوك يُنْهِى أن المرسوم الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه ورد علىٰ المـلوك على يَد فلان الدِّينِ فلان المُسَـفَّر من الأبواب الشريفـة ، يتضَمَّن طَلَب فلانٍ الفلانىّ ، وحمْلَه إلىٰ الأبواب الشريفة محتَفَظًا به ، فبادر المملوكُ ما برزَتْ به المراسيمُ الشريفةُ بالامتثال ، وتقدّم بطاب فلانٍ المذكور وسَلَّمه إلىٰ فلان الدين المسَـفَّر المذكور ، وبعث معه من يحتَفِظ به فى الطريق إلىٰ حينِ وصولِه إلىٰ الأبواب الشريفة .

صورة وضع المطالعة من نوّاب السلطنة ومن فى معناهم ، إلى الأبواب الشريفة

الجانب الأيمن	الطـــرة	الجانب الأيسر
إلى الأبواب الشريفة		بسبب كذا

العنوان

الملكى الفلانى	مطالعة المملوك فلان

الصـــدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكى الظـاهرى مثلا

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف شرّفه الله تعـالىٰ وعظّمه ، ورد علىٰ المملوك، علىٰ يد فلان الدين فلان البريدى، ويكمل عليه إلىٰ آخره .

الضـــــرب الثـانى

(من المطالعات الواردة إلىٰ الأبواب السلطانية عن أهل المملكة)

المطالعات الواردة من الوُلَاة ومن في معناهم .[1]

(١) بيض له فى الأصل بقدر صفحة

القسم الثانى — فى الكتب الواردة على الأبواب السلطانية، عن أهل الممالك الإسـلامية المكاتبةِ عن هـذه المملكة . وحالهـا مختلِفٌ باختـلاف حال مصْطَلَح أهل البلاد وحالِ المكتوبِ عنه فى رِفْعة القَدْر . وفائدةُ معرفة ذٰلك أنه إذا عَـرَفَ الكاتبُ مصطَلَح كلِّ مملكة فى الكتابة ، ظهر له ما هو واردٌ عن مَلِكها حقيقةً وما هو مفتعَل عليه ، ولا يخفىٰ مافى ذٰلك من كبير الفائدةِ ، وعظيم النَّفْع ، وآرتفاعِ قَدْر الكاتب عند مَلِكه بإظهار الزَّيْف بمَحَكِّ المعرِفة .

ومن غريب ماوقع فى هذا المعنىٰ أنه وردَ رسولٌ من الشرق، فى الأيام الظاهرية الشهيديَّة بَرْقُوق سقىٰ الله تعالى عهده ، وأظهر لأهـل الطُّرُقات أنه رسولٌ من عند طقتمش صـاحب بلاد أزْبَك، ورُفِعتْ بِطاقَتُـه بالقلعة المحروسـة بذلك ؛ فأمر السلطانُ النائبَ الكافلَ وأكابر الأمراء بالخُروج لمُلاقاته علىٰ القُرْب من القاهرة، فخرجوا وتلقَّوْه بالتعظـيم ، علىٰ أنه رسـولُ طقتمش خان المقـدّم ذِكْرُه ؛ وأُنْزِل بالمَيْدان الكبير تعظيماً لأمره؛ فلمـا عُرِض كتابُهُ نظر فيه المَقَرّ البدرىُّ بنُ فضـل الله، تغمَّده الله تعالىٰ برحمته، وهو يومَئذٍ صاحب دِيوان الإنشاء الشريف، فوجده غيرَ جارٍ علىٰ مصطَلَح كتب القانات فى الورق والكِتابة؛ فاستُفْسِر الرسولُ المذكورُ عن ذٰلك ونُوقِشَ فى قضيته؛ فأخبر أنه عن الحاكم بالقِرِم من أتْباع طَقْتُمش خان، فأنكر عليـه ذلك ، وحَطَّ رُتْبته عند السلطان وأهلِ دولته عمـا كان عليـه ، وعَلَا بذلك مقـدار المقرّ البـدرىّ بن فضـل الله المشار إليه عنـد السلطان ، وشَكَر له ما كان من ذلك .

ويشتمل علىٰ أربعة مقاصد :

المقصـــــد الأوّل

(فى الكتب الواردة عن أهل الشرق؛ وفيه أطراف)

الطـــــرف الأوّل

(الكتبُ الواردةُ عن القانات العِظَام من بنى جَنْكِزخان؛ ولهـا حالان)

الحال الأُولىٰ — ما كان الأمر عليه قبْل دُخُولهم فى دين الإسلام .

وكان الأمر يجْرِى فى كتابتهـم مجْرىٰ المُخَاشنة ، والتصريح بالعَدَاوة ، ولم أقِفْ علىٰ مقادير قَطْع ورق كُتُبهم يومئذٍ ولا ترتيبِ كتابتها .

وهذه نسخة كتابٍ كتَب به هُولاكُو بن طوجِى، بن جَنْكِزخان، المنتزِعِ العِراقَ من أيْدِى الخلفاء العباسيين . كتب به إلىٰ الملك المظَفَّر قُطُز فى سنة ثمـان وخمسين وسبعمائة، وهو :

من ملِك الملوك شَرْقًا وغَرْبا القانِ الأعظم :

بٱسمك اللهمَّ باسطَ الأرض ورافِعَ السماء .

يعلم الملِك المظفَّر قُطُز الذى هو من جنس الممـاليك الذين هَرَبُوا من سُيُوفنا إلىٰ هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفَّر وسائرُ أمراءِ دولتــه وأهلِ مملكته بالديار المصرية وما حَوْلهَـا من الأعمــال ، أننا جُنْدُ الله فى أرضــه ، خَلَقنا من سَخَطه ، وسلَّطنا علىٰ مَنْ أحَلَّ عليه غضَــبَه ، فسلِّموا إلينا أُمورَكم تَسْلَمُوا ، قبــل أن ينْكشِفَ الغِطاءُ فتنْدَمُوا ، وقد عرفْتُمْ أنَّا خَرَّبنا البِلاد ، وقتَلْنا العباد ، فلكم منَّا الهرَب ، ولنا خلْفَكم الطَّلَب ؛

فمـا لكم من سُيُوفنا خَلَاص : خُيولُنا سَوَابق، وسُيوفُنا قوَاطِع، وقلُوبُنا كالجبال، وعدَدُنا كالرِّمال ، ومَنْ طلَبَ حَرْبَنا نَدِم، ومَنْ قصـد أمانَنَا سَلِم ؛ فإنْ أنتم لشَرْطنا وأوامِرِنا أطعتم فلَكُم مالنا ، وعليْكم ماعلينا ؛ فقد أعْذَر مَنْ أنْذَر . وقد ثبت عندكم أنَّنَا كَفَره، وثبَتَ عندنا أنكُم الفَجَره، فأسرِعُوا إلينا بالجواب قبلَ أن تُضْرِم الحربُ نارَها ، وتَرْميكم بشَرارِها ، فلا يَبْقىٰ لكم جاهٌ ولا عِزّ ، ولا يعصِمُكم مِنَّا جَبَـل ولا حِرْز، فمـا بقِيَ لنا مقْصِد سِوَاكم ، والسـلامُ علينا وعليكم ، وعلىٰ مَنِ آتَّبع الهدىٰ ، وخشِيَ عواقِبَ الرَّدىٰ، وأطاع الملِكَ الأعلىٰ .

الحال الثانية ـــ ماكان الأمرُ عليه بعدَ دُخُولهم فى دين الإسلام معَ قِيام العَدَاوة بين الدولتيـــن .

وكان عادتهم فى الكتابة أن يُكْتَب بعد البسملة « بقوّة الله تعـالىٰ » ثم يُكْتَب بعد ذلك « بإقبال قان فَرمان فلان» يعنى كلام فلان .

ولهم فى ذلك طريقتـان .

إحداهمـا ـــ أن يُكْتَب بسم الله سـطرا ، ويُكْتب « الرحمن الرحيم » سطرا تحتها، ويكتب « بقوّة الله » سَطْرا « وتعالىٰ » سطرا آخر تحته ؛ ثم يكتب تحت ذلك فى الوسط بهامش من الجانبين « بإقبالِ قان » سطرا ، وتحته « فَرَمان فلان » باسم السلطان المكتوب عنه سطرا آخر .

والطريقة الثانية ـــ أن تُكتَب البسملةُ جميعُها سطرًا واحدًا، ثم يكتب تحت وَسَطِ البسملة « بقوّة الله تعـالى » سطرا « ومَيَامِينِ الملّة المحمّدية » سطرا آخَر؛ ثم يكتب تحت ذلك سطر آخر بزيادة يسيرة من الجانبين « فَرَمان السلطان فلان » يعنى كلام السلطان فلان .

ولم أقِفْ علىٰ قَطْع الورق الذى كُتِب فيــه حينئذ ، والظاهرُ أنه فى البَغْدادِىّ الكامل تعظيمًا لشأن المكتوب عنه عندهم . وبالجملة فإنّ الظاهر أنّ الكتبَ الواردةَ عنهم علىٰ نَمَطِ الكتب الواردة من هــذه المملكة إليهــم ، جَرْيا علىٰ قاعدة كُتَّاب هــذه المملكة من أنّ الغالب مضاهاتُهــم لأكابر الملوك فى كتُبهم فى الهيئة والترتيب شَرْقا وغَرْبا .

وهذه نسخةُ كتاب علىٰ الطريقة الأُولىٰ ، ورد عن السلطان « أحمد » صاحب مملكة إيران ، من بنى هُولَاكُو المقدّم ذكره ؛ وهو أوّلُ من أسلم منهم ، كتب به إلىٰ الملك المنصور « قلاوون » صاحبِ الديار المصرية ، تغمّده اللهُ تعالىٰ بِرِضْوانه ؛ ورد مؤرّخا بأوسط جُمَادىٰ الأولىٰ سنة إحدىٰ وثمــانين وستمائة ، ورأيت فى بعض الدساتير أنه من إنشاء الفَخْر بن عيسىٰ المَوْصلىّ ، وورد بخطه وهو :

بسم الله — بقوّة الله

الرحمن الرحيم — تعالىٰ

بإقبال قان .

فرمان أحمد .

إلىٰ سلطان مصر ، أما بعدُ ، فإنّ الله سبحانه وتعالىٰ بسابق عِنَايته ، ونُور هِدَايته ، قد كان أرشدَنَا فى عُنْفُوان الصِّبا ، ورَيْعان الحَدَاثة ، إلىٰ الإقرار بِرُبُوبيّته ، والاعتراف بوَحْدَانيتّه ، والشهادة لمحمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، بِصِدْق نُبُوّته ، وحُسْن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبَرِيّته ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام﴾ فلم نَزَلْ نميلُ إلىٰ إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلامِ والمسلمين ، إلىٰ أنْ أفضىٰ إلينا بعدَ أبِينا الجليل ، وأخِينا الكبير ، نَوْبةُ المُلْك ، فأضفىٰ علينا من

جَلَابِيبِ أَلْطافه ولَطَائفه ، ماحَقَّق به آمالَنَـا فى جَزِيل آلَائِهِ وعَوَارفه ، وجَلَّى هذه المملكةَ علينا ، وأهدىٰ عَقِيلَتَهَا إلينا ، فاجتمع عندَنا فى قُورِيلْيَان المبارك ـ وهو المجتمع الذى تُقْدَحُ فيه الآراءُ ـ جميعُ الإخوان والأَوْلاد والأمراء الكبار ، ومقدَّمو العساكر ، وزعماءُ البلاد ، وٱتَّفقتْ كلمتُهم علىٰ تنفيذ ماسبَقَ به حُكْم أخينا الكبير ، فى إنفاذ الجمّ الغفير ، من عساكرنا التى ضاقَتْ الأرض برُحْبها من كَثْرتِها ، وٱمتلأت الأرضُ رُعْبا من عظيم صَوْلتها ، وشَدِيد بَطْشتها ، إلىٰ تلك الجهة بهمةٍ تخضع لهـا صُمُّ الأطواد ، وعزمةٍ تلين لها الصُّمُّ الصِّلاد ، ففكَّرنا فيما تمخَّضت زُبَدُ عزائمهم عنه ، وٱجتمعت أهواؤُهم عليه ، فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من ٱقتفاء الخير العام ، الذى هو عبارة عن تَقْوِية شِعَار الإسلام ، وأن لايصْدُرَ عن أوامرنا ما أمكننا إلَّا مايُوجِب حَقْنَ الدِّماء ، وتسكِينَ الدَّهْمَـاء ، وتَجْرِى به فى الأقطار ، رُخَاءُ نَسائِم الأَمْن والأَمَان ، ويستريحُ به المسلمونَ فى سائر الأمصار ، فى مِهَاد الشَّفَقة والإحسان ، تعظيماً لأَمْرِ الله ، وشفَقةً علىٰ خَلْق الله ، فألهَمنَا الله تعالى إطفاءَ تلك النائره ، وتسكِينَ الفِتَن الثائره ، وإعلامَ مَنْ أشار بذلك الرأْى بما أرشَدَنا الله إليه : من تقديم مايُرْجىٰ به شفاءُ مِزَاج ١

العالَم من الأدواء ، وتأخيرِ ما يجبُ أن يكونَ آخِرَ الدواء ، وأننـا لا نحِبُّ المسارَعة إلىٰ هزِّ النِّصال للنِّضَال إلا بعدَ إيضاح المَحجَّه ، ولا نُبادِرُ لهـا إلا بعد تَبْيين الحق وتركِيبِ الحُجَّه ، وقوَّىٰ عزْمَنا علىٰ مارأيناه من دَوَاعى الصَّلاح ، وتنفيذِ ماظهر لنا به وجْهُ النَّجاح ، إذ كان ، الشيخُ قدوةُ العارفين «كمال الدين عبد الرحمن» الذى هو نِعمَ العونُ لنا فى أمور الدين ، فأرسَلْناه رحمةً من الله لمن [لبّىٰ] دُعَاه ، ونِقْمةً علىٰ مَنْ أعرَضَ عنه وعَصَاه ، وأنفَذْنا أقضى القُضاة قطبَ الملة والدِّين ، والأتابكَ بهـاءَ الدين ، اللَّذَيْنِ هما من ثِقاتِ هذه الدولةِ الزاهرةِ ليُعرِّفُوهم طرِيقَتَنَا ، ويتحقَّقَ عِنْدهم ماتَنْطوِى عليه لعُمُوم المسلمين جميـلُ نِيَّتِنا ، وبيَّنَّا لهم أنَّا من الله تعالىٰ علىٰ بصيرة ، وأنَّ الإسلامَ

يجُبُّ ماقبـله، وأنه تعالىٰ ألقىٰ فى قلوبِنا أنْ نَتّبع الحقّ وأهـلَه، ونُشاهِدَ أنَّ عظيم نعمة الله للكافَّة بمـا دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان، أنْ لا يُحْرَمُوها بالنظر إلىٰ سائر الأحوال فكُلَّ يوم هُوَ فى شَان؛ فإنْ تطلَّعتْ نفوسُهُم إلىٰ دليـلٍ تستَحْكِمُ بسَبَبه دَواعِى الاعتِماد، وحُجَّـةٍ يثِقُون بها من بُلُوغ المُرَاد؛ فلينظُروا إلىٰ ما ظَهَر من أمْرِنا ممـا آشتَهَر خـبَرُه، وعَمّ أثرُه، فإنا آبتـدَأْنا بتوفِيقِ الله بإعْلاء أعلامِ الدِّين وإظْهاره، فى إيرادِ كلِّ أمْرٍ وإصْـداره، تقديمًـا لنَامُوسِ الشرع المحمَّدىّ، علىٰ مقتضىٰ قانُون العَـدْل الأحْمَدىّ، إجلالًا وتعظيمًا؛ وأدخَلْنا السرور، علىٰ قلوب الجُمْهُور، وعفَوْنا عن كل من اجْتَرَح سيِّئةً وآقترف، وقابلْناه بالصَّفْح وقُلْنا عفَا اللهُ عمَّا سَلَفْ؛ وتقدّمنا بإصلاح أمورِ أوقافِ المسلمين من المَساجِد والمَشَاهد والمَدَارس، وعِمارةِ بِقاعِ الدِّين والرُّبُط الدَّوَارس؛ وإيصالِ حاصلِها بمُوجِـبِ عوائدها القائمة إلىٰ مستحَقِّيها بشُروط واقِفِيها؛ ومنَعْنا أن يُلتَمَس شئٌ مما آستُحْدِث عليها؛ وأنْ لا يغيِّر أحدٌ شَيْئا ممـا قُرِّر أوّلا؛ وأمرْنا بتعظيم أمر الحُجَّاج وتجهيز وَفْدِها، وتأمين سُبُلِها، وتسْيِيرِ قَوافِلِها؛ وإنَّا أطلَقْنا سبِيلَ التِّجَار المتردّدينَ إلىٰ تلكَ البلادِ ليُسافِرُوا بحسَبِ آختيـارهم علىٰ أحْسنِ قَواعِدِهم؛ وحَرَّمْنـا علىٰ العساكر والقَراغُولاتِ والشَّحانِى فى الأطراف التَّعَرُّضَ لهم فى مَصَادرهم ومَوارِدِهم؛ وقد كان قَراغُول صادفَ جاسُوسا فى زِىِّ الفُقَراء كان سبِيلُه أن يُهْلَك، فلم نُهرِقْ دَمَه: لحُرْمة ماحَرَّمه الله تعالىٰ وأعذَنْاه إليهم. ولا يخفىٰ عنهـم ما كان فى إنفاذ الجَوَاسيس من الضرر العامِّ للمسلمين؛ فإنَّ عساكِرَنا طالمَـا رأَوْهم فى زِىِّ الفقراء والنُّسَّاك وأهـلِ الصَّلَاح، فساءتْ ظُنُونُهـم فى تلك الطَّوائف، فقتَلُوا منهم مَنْ قتـلوا، وفَعَلُوا بهم مافعلُوا، وآرتفعتِ الحاجةُ بحمد الله إلىٰ ذلك بما صدر إذْنُنَا بِه من فَتْح الطريق وتَرَدُّد التُّجّار؛ فإذا أمعنُوا الفِكْر فى هـذه الأُمُور وأمثالهـا لا يخفىٰ عنهم أنها أخلاقٌ جِبِلِّيّة طِبيعيّـه، وعن شوائب

التَّكلُّف والتصَنُّع عَرِيَّه . وإذا كانت الحال علىٰ ذٰلك فقد ٱرتفعتْ دَواعِي المَضَرَّة التى كانت مُوجِبَة للمخالفة، فإنها إن كانتْ طريقًا للذَّبّ والذود عن حَوْزة الإسلام، فقد ظهر بفضل الله تعالىٰ فى دَوْلتنا النُّورُ المبِين، وإن كانتْ لما سَبَق من الأسباب، فَمَنْ يتحرّىٰ الآنَ طريقَ الصَّواب، فإنَّ له عِنْـدنا لَزُلْفىٰ وحُسْنَ مآب . وقد رفَعْنا الحجاب، وأتَيْنا بفَصْل الخِطاب، وعَرَّفناهم [طريقتنا و]مَا عزمنا بنِيَّةٍ خالصةٍ لله تعالىٰ علىٰ ٱستِئْنافها، وحَرَّمْنـا علىٰ جميع العساكر العملَ بخِلافها، لنُرْضِيَ اللهَ والرسُول، ويلُوحَ علىٰ صَـفَحاتها آثارُ الإقبالِ والقَبُول، وتَسـتريحَ من ٱختلاف الكلمة هـذه الأمَّة، وتَنْجلِيَ بنُور الاِئتِلاف، ظُلمةُ الاِختلاف، والغُمَّه، ويَشْكُر سابغَ ظلِّهـا البَوادى والحَواضِر، وتقرَّ القلوبُ التى بلَغتْ من الجهل الحَناجر. ويُعْفىٰ عن سالف الجرائر، فإن وفَّق الله سلطانَ مصر إلىٰ ما فيه صلاحُ العالَم، وٱنتظامُ أمور بنى آدَمَ، فقد وجب عليه التَّمسكُ بالعُروة الوُثقىٰ، وسُلوكُ الطريقة المُثْلىٰ، بفتْح أبواب الطاعة والاِتِّحاد، وبَذْل الإخلاص بحيثُ تعمُر تلكَ الممـالك وتِيك البلاد، وتَسْكُنُ الفِتنةُ الثائره، وتُغْمَدُ السُّـيوف البـاتِره، وتَحُلُّ العامَّةُ أرضَ الهُوَيْنىٰ وروضَ الهُدُون، وتخلُصُ رِقابُ المسلمين من أغلال الذُّلّ والهُون . وإن غلب سُوءُ الظن بما تفضَّل به واهبُ الرحمه، ومَنَع معرفةَ هـذه النعمه، فقـد شكر اللهُ مساعِيَنا وأبلىٰ عُذْرنا، ﴿وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ واللهُ تعالىٰ الموفِّق للرَّشاد والسَّداد، وهو المُهيْمِن علىٰ البِلاد والعِباد، إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهـذه نسخةُ كتابٍ علىٰ الطريقة الثانية، كُتِب به عن السلطان «محمود غازان» صاحبِ إيران أيضا، إلىٰ السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب الديار المصريَّة وما معها من البلاد الشامية، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقُوّة الله تعـالىٰ

ومَيامين المِلَّة المحمَّدية

فرمان السـلطان محمود غازان

ليَعلم السلطانُ الملكُ الناصر، أنه فى العام الماضى، بعضُ عساكرهم المُفْسِدة دخلُوا أطرافَ بلادِنا، وأفسدُوا فيها لعِناد الله وعِنـادِنا، كماردِينَ ونَواحِيها، وجاهَرُوا الله بالمعـاصى فيمَنْ ظَفِروا به من أهليهـا، وأقْدَمُوا علىٰ أمورٍ بَديعـه، وآرتكبوا آثامًا شَنيعه، من مُحاربةِ الله وخَرْق ناموس الشَّريعه، فأَنِفْنا من تهجُّمِهم، وغِرْنا من تَقحُّمِهم، وأخذَتْنا الحَمِيَّـة الإسلاميةُ بجذبَتْنا إلىٰ دُخول بلادهم، ومقابلتِهم علىٰ فَسَادهم، فركِبْنا بمن كان لدَيْنـا من العساكر، وتوجَّهْنا بمِن اتَّفق منهم أنَّه حاضر، وقبل وُقُوع الفِعل منا، وآشتهارِ الفَتْك عنا، سلَكْنا سَنَن سيِّد المرسلِين، وآقتفَيْنا آثارَ المتقدِّمين، وآقتدينا بقول الله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل﴾ وأنفَذْنا صُحْبَةَ يعقوبَ السكرجى جمـاعةً من القُضاة، والأئمة الثِّقات، وقلنا ﴿هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولىٰ أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَـا مِنْ دُونِ اللهِ كاشِفَةٌ﴾ فقابلتم ذٰلك بالإِصرار، وحكَمْتم عليكم وعلىٰ المسلمين بالإضْرار، وخالفْتُم سَـنَنَ الملوك، فى حُسْن السُّلوك، وصبرْنا علىٰ تمـادِيكم فى غَيِّكم، وخُلودِكم إلىٰ بَغْيِكم، إلىٰ أنْ نصَرَنا الله، وأراكم فى أنفُسِكم قضاه ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ﴾ وظَنَّنا أنهم حيثُ تحقَّقُوا كُنْهَ الحال، وآل بهم الأمْرُ إلىٰ ماآل، أنهم تداركُوا الفارِطَ من أمْرِهم، ورتَقُوا مافتَقُوا بغَدْرهم، ووُجِّه إلينا وجهُ عُذْرهم، فإنهم ربمـا سَيَّروا إلينا حالَ دُخُولهم إلىٰ الدِّيار المصريه، رُسُلا لإصلاح تلك القَضِيه، فبقِينا بدِمَشْقَ غير متحشحين، وتَثَبَّطْنا تَثَبُّطَ المتمكِّنين، فصدَّهم عن السعْى فى صَلَاح حالهم التَّوانِى، وعَلَّقوا نُفوسَهم عن اليقين

بالأَمانِى، ثم بلَغَنا بعد عَوْدِنا إلىٰ بلادنا أنهم ألقَوْا فى قلوب العساكر والعَوَامّ، وراموا جَبْرَ ما أوْهَنُوا من الإسلام ، أنهم فيما بَعْـد يلْقُونَنا علىٰ حَلَبَ والفُراه، وأنَّ عزْمَهم مُصِرٌّ علىٰ ذلك لاسِواه؛ فجَمَعْنا العساكر وتوجهْنا لِلقَاهم ، ووصَلْنا الفُرات مرتقِبِين ثُبوتَ دَعْواهم، وقلنا لعلَّ وعَسَاهم ، فمـا لَمَع لهم بارِق، ولا ذَرّ شارِق، فقدِمْنا إلىٰ أطرافِ حَلَب، وعجِبْنا من تبَطِّيهم غايةَ العَجَب، وفكَّرنا فى أنه متىٰ تقدّمْنا بعساكرنا الباهِره، وجموعِنا العظيمةِ القاهِره، رُبَّمـا أخربَ البلادَ مرورُها، وبإقامتهم فيها فسدَتْ أمورُها، وعمّ الضررُ العِباد، والخرابُ البِلاد، فعُدْنا بُقْيَا عليها، ونَظْرةَ لُطْف من الله إليها . وهـا نحنُ الآنَ مهتمُّون بجمع العساكر المنصوره، ومُشْحِذُون(١) غِرَارَ عزائمنا المشْهُوره ، ومشـتَغلُون بصُنْع المَجَانِيق وآلاتِ الحِصَار ، وعازمُون بعـد الإنذار ﴿ وما كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . وقد سيَّرنا حامِلَىْ هـذا الكتاب الأميرَ الكبيرَ ناصرَ الدين على خواجَا ، والإمامَ العالمَ ملِكَ القُضاة جمال الدين موسىٰ ٱبن يوسف ، وقد حَمَّلناهما كلاما شافهناهما به ، فلْتثِقوا بمـا تقدّمنا به إليهما فإنهما من الأعيـان ، المعتمد عليهـما فى الديوان ، كما قال الله تعالىٰ ﴿ فَلِلّٰهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ فلَوْ شاءَ لَهَدَاكُمْ أجْمَعِين ﴾ فلْتعُدُّوا لنا الهدَايَا والتُّحَف ، فمـا بعد الإنذار من عاذِر ، وإنلم تتداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالُهم مطْلولةٌ بتدبيرهم، ومطلوبةٌ عند الله فى طُول تقصيرهم .

فليُمْعِن السلطان لرعيّته النظرَ فى أمره . فقد قال صلىّ الله عليه وسلم « مَنْ وَلَّاه اللهُ أمْرًا من أُمُور هـذه الأُمَّة فاحتَجَبَ دُونَ حاجتِهم وخَلَّتِهـم ، ٱحتَجَبَ دُونَ حاجَته وخَلَّته وفَقْره» . وقد أعْذَرَ من أنْذَر، وأنصفَ من حَذَّر، والسلامُ علىٰ من

---

(١) شحذ السكين كمنع حدّها كأشحذها أنظر القاموس .

أتّبع الهدىٰ ـ فى العشر الأوسط (١) من شهر رمضان سـنة سبعمائة ـ بجبال الأكراد ، والحمدُ لله ربّ العالمين ، والصّلاةُ والسـلامُ علىٰ سيدنا [محمد] المصطفىٰ وآله وصَحْبه وعِتْرته الطاهرين .

قلت : وقد تقدّم جواب هذين الكتابين فى الكلام علىٰ المكاتبات إلىٰ القاناتِ ببلاد الشَّرْق من بَنِي جَنْكزخان فلْيُنْظَرْ هناك .

الطـــــــرف الثـانى

(فى المطالعات الواردة إلىٰ الأبواب السلطانية عن أهل الشرق : من الملوك والحُكَّام بابلاد أتباعِ القانات ومَنْ فى معناهم) (٢)

---

(١) تقدم له أنه لا يقال العشر الاوســط بل العشر الوسطى أو الوســط قال وبعض النحو يين أجازه فـا فى الجواب على ذلك الرأى .

(٢) ترك فى الأصل باقى الصفحة بياضا ولم يكتب عن هذا الطرف شيئا .

الطـــــرف الثـالث

(فى رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليَمَن إلىٰ هذه المملكة)

وعادةُ مكاتبتِه أن يحْـذُوَ حَذْوَ الديار المصرية ، فيما يُكْتَب إليـه عنها ، فيبتَدِئ المكاتبةَ بلفظ : أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقام الشريف، العالى، المولوىّ، السلطانى، الفلانى بلقب السلطنة؛ ثم يقول أصدرها من مكان كذا ، ويذكر المقْصَد، ويختم بالدعاء ونحوه، ويكتبون فى قَطْع الشامىّ الكامل بقلم الثلُث .

وهذه نسخة كتابٍ عنِ الملك الأشْرَف « إسمـاعيل » صاحب اليمن ، إلىٰ الملك الظاهر « برقوق» صاحب الديار المصرية، فى شهور سنة ثمـانٍ وتسعين وسبعمائة، علىٰ يَدِ القاضى بُرْهان الدين المحـلِّى ، تاجر الخـاص ، والطواشى آفتخار الدين فاخر دوَادار الملك الأشرف صاحب اليمن المذكور، وهو :

أعزَّ الله تعـالىٰ أنصارَ المَقَامِ الشريف العالى السـلطانى الظاهرىّ ، وزاده فى البَسْطة والقُدْرة، وضاعف له موادَّ الآستظهار والنَّظر العزيز، وجعل الظَّفَر مقرونا براياته أيْنَمَا يمَّمتْ ما بينهـما تمْييز، ومحبوباً إلىٰ عساكره المنصورةِ حيثُ توجَّهت وفَتح ببركة أيَّامــه كلَّ مُقْفَل ممتنِعٍ بأمرٍ وَجيز؛ ولا زال ممْتَثَلَ الأوامر والمَرَاسِم ، رافِلًا فى أرْدان العِزِّ والمَكَارم، ممدُودًا علىٰ الأمة [منه] ظلُّ المراحم، بمنِّه وكرمه .

أصدرها إليه من زُبْدة زَبِيــدَ المحروسةِ مُعْرِبةً عن صِدْق وَلَائه، متمسِّكةً بوَثِيق أسبابِ آلائِه، ناشرةً طِيبَ ثَنَـائه، مترْجِمةً ناظمةً لمنثورِ الكتابِ الكريم الظاهرىّ الوارِدِ علىٰ يد المجلس العـالى البُرْهانِىّ ، بتاريخ ذى الحِجَّة عظَّم الله بَرَكاتِهـا؛ سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، أحسنَ الله خاتِمتَها ؛ فتلقَّيناه باليدَيْن ، ووضَعْناه علىٰ الرأس والعين، وآستَدْلَلْنا به علىٰ شريف همَّته، وصفاء مَوَدّته، وتأكيد أُخُوَّته، وسألْنا الله

تعالىٰ أن يمتعنا ببقاء دولته القاهره، وينشر فى المشارق والمغارب أقلامهُ الزاهره؛ ففضضنا ختامه، فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه، ومن أنوار ما مجّه القلمُ الشريفُ ما يخجل منه نوّارُ الربيع وبهاه، فانشرحت به الصدور، وتزايد به السرور، وقرّت به الأعين، وكثر التهجد به لمّا استعذبته الألسن، وامتثلنا المرسومَ الشريفَ فى تعظيم المجلس العالى ذى الجلالتين، برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلّى، ومراعاته فى جميع أموره وسرعة تجهيزه، علىٰ أنا نجلّه ونبجّله، ونوجب حقّه ولا نجهله، فهو عندنا كما كان فى عهد الوالد المرحوم الملك الأفضل، بل أمكن وأفضل، فهو لدينا المكين الأمين، وجهّزنا له المتجر السعيدَ الظاهرىّ، وبرزت مراسيمُنا إلىٰ النوّاب بثغر عدن المحروس أن لا يعترض فى عشور ونول، وحملناه علىٰ ظهور مراكبنا عزيزا مكرّما، وعرّفناه أن لا يصرف علىٰ الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد، وذلك قليلٌ منّا لأجل غلمان بابكم الشريف شرّفه الله تعالىٰ وعظّمه، وجهّزنا الهديّة السعيدة المباركة المتقبّلة، صحبته هو والأمير الأجلُّ الكبير الافتخارى : افتخار الدين فاخر الدوادار، وصارت بأيديهما بأوراق مفصّلة، للمقام الشريف والأمراء الأجلّاء الكبراء، وصحبتهما نفر من المعلّمين البازداريّة، برسم حمل الطيور للصيد السعيد، والمهتاريّة للصافنات الجياد. علىٰ أنّا لو أهدينا إلىٰ جلال المقام الشريف الظاهرىّ أعزّ الله أنصاره بمقدار همّته الشريفة العاليه، ورتبته المنيفة الساميه، لاستصغرت الأفلاكُ الدائره، والشّهب السائره، واستقلّت السبعةُ الأقاليم تحفه، والأرضُ وما أقلّته طرفه، ولم نرض أن نبعث إليه الأنامَ مماليكَ وخولا، ونجبى إليه ثمرات كلّ شىء قبلا، ولو رام محبُّ المقام هذه القضية، لقصر عنه حوله، ولم يصل إليه طوله، ولكنه يرجع إلىٰ المشهور، بين الجمهور، فوجدنا العمل يقوم مقام الاعتقاد(١)، وليس علىٰ المستمرّ

(١) لعله "الاعتقاد يقوم مقام العمل" أو "العمل يقوم مقامه الاعتقاد" تأمل .

علىٰ الطاعة سِوىٰ الاجتهـاد ، والمخْلِص فى الوَلَاء محمولٌ علىٰ قُدْرته لا علىٰ ما أراد ؛ فوثِقَ بهذه القضِيَّه ، وأنفذَ إلىٰ المقام الشريف علىٰ يَدِ مُوصِّلها هـذه الهدِيّه ، راغبًا إلىٰ إنعامه فى بَسْط عُذْره ، وحَمْله علىٰ شُروط المحبَّـة طُولَ دهره ، وتصريفـه بيْنَ أوامره الممتثَله ، ومَرَاسيمه المتقبَّله . والمسئولُ الإتحاف بالمهمّات والمراسيم الشريفة شرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها .

ونوضِّح لعلمه الكريم ما أفاء اللهُ به علينا من النَّصْر الذى خفَقَتْ بنُوده ، وأشرقَتْ سُعُوده ، وبَرَقَتْ سُيوفُه فى رقاب المارقين ، واطَّردت فى راياته المآربُ فتناولَها باليمين ﴿ نَصْرٌ من اللهِ وفَتْحٌ قَرِيبٌ و بَشِّرِ المُؤْمِنِين﴾ وفَتْح القِلَاع والمَصَانع ، والاستيلاءِ علىٰ المَرَابِـع والمَزَارِع ، واستئصالِنَا شأْفَةَ المارقين ، واسترْجاع حِصْن قاف المحروس بعد طُول مُكْثه تحتَ يَدِ العرب ، فكم من كَمِيٍّ مقْتول ، وأَسيرٍ مَكْبُول ، وحَصَانٍ تُرِك سبيلُها ، ورُبَّ حَصَانٍ كَثُرَعليه عوِيلُها ، فخرَّبْنا المَعَاقل ، وأطلَقْنا العقائل ، وأوْطَنَّاهم الجحيم ﴿ وما جَعَلَه اللهُ إلَّا بُشْرىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكم بِهِ وما النَّصْرُ إلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم ﴾ وغيْرُ ذلك ما أرسَـلْنا علىٰ يد المجلس البرهانى والأمير افتخار الدين : فاخرِ الدَّوادار ، لقَضَاء بعضِ الحَوَائج الطارئة من الديار المصرية « ألفٌ وأربُعمِائة وسبعُون قِطعةً من أصـناف البَهَار ، وسبْعُ قِطَع حرير » والمستمَدُّ من إحسان المقام الشريف العالى ، بُرُوزُ أمره الأشرفِ العزيزِ النافذ المُطَاع ، أنفذه الله تعالىٰ شَرْقا وغربا ، وأمضاه بُعْدًا وقُرْبا ، فى قضاء حوائِجِهما وسُرْعة تجهيزهما وقُفُولهما إلىٰ يُمْنِ اليَمَن ، وعِزِّ تَعِزّ قريبا .

وبعــدُ ، فإنَّ الجـلالةَ والاحترام بهـما دوامُ المُوالاة ، وتوفير الحُرُمات ، بل هى أعظمُ الكَرَامات ، والمسئول من المقـام الشريف الظاهرىّ أعز الله تعـالىٰ أنصاره ، وضاعفَ اقتِدَاره ، بُرُوزُ أمره الأشرف إلىٰ النُّوَّاب بمصر المحروسـة ،

وثغر الإسكندريةِ ، والشامِ، بالجلالةِ والاحترام ، لكافّة غلمـانتا الواردين إلىٰ الديار المصريّة، ومن انتسب إلينا من تاجرٍ وغيره، مسافرًا كان أو مقيما، وأن يُعارَ في مُهمّاته ، جلالةً تفيأُ ظلالهـا ، ويشمله إقبالهـا ، كما سبق للوالد المرحوم المقدّس الملك المجاهد، تغشّاه الله برحمته، بل نرجو فوقَ ذلك مَظْهرا، إن شاء الله، فثَمَّ خُطوط ناصريّة من السلطان حسن والملك الصالح لخُدّامنا القدماء ، لمّـا أُرْسلوا إلىٰ الإسكندرية ودِمَشْق ، كُتِب لهم مربّعاتٌ ومثالاتٌ شريفة، ولا غَرْوَ أن يُبْدِى المستعْطى مافى ضَميره إلىٰ المُعْطِى ، والاشتهارُ بما بيننا وبين المقام الشريف من الأُخوّة المهّـده ، والمصافاة المؤكّده ، والمَودّات المُحْكَمَة ، والأسباب الثابتـة ، أوجب ذلك، وحُسْنُ الظنِّ الجميـل نطَقَ به لسانُ الحال، فى هذا الاسترْسال، ولم يخْفَ عن المقام الشريف أنَّ لِله عَوارِفَ يجذِبُ بها القلوبَ إليـه، ولطائفَ خفيَّةً يستَدِلُّ بها المحبُّ عليه ؛ وتعاطِى كأْس الوِداد ، يَدُلُّ علىٰ حُسْن الاعتقاد ؛ ولذلك نطَقَ اللِّسان، وكتب البَنَان ، بمـا افترض علىٰ عبادِه الرحمن ؛ فقـال فى محكم كتابه المبين ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ . ومحبُّ المقام الشريف يقدّم الكتّاب ، ويسأل الجوابَ ، بالإذْن الشريف : ليعتَمدَ بعدَ الله عليه فى حَجِّ البيت الحرام، عند تَيْسير الله تعالىٰ لذلك ، فقد حَسَّن ظَنَّه بذلك ، وركَن إليه لقضاء الفَرْض والتبرُّك بالمَشَاعِر العِظام ، فلا زالتْ أيّام المقام الشريف علىٰ مَنابِر الدنيا تُتْلىٰ ، وآياتُ الشكر لله سبحانَهُ علىٰ استقراره فى المُلْكِ العَقيم تُمْلىٰ . جميعُ هذا الخطاب مقدّمةُ الإيجاب بالإذْن بالحج ، وتسفيرِ المَحْمَل فى كل عام، إلىٰ بيت الله الحرام، فحاجُّ اليمن تعذرتْ عليه الطُّرُقات، ولم يُطِق حَمْلَ النَّفَقات ، ونرجو من الله تعالىٰ أن يفتَحَ ببركة أيامه الشريفـة ، وشُمُول الفكر الشريف، بحَلِّ عُقْدة هذه الأسباب، إنه هو الكريمُ الوَهّاب، بمنّه وكرمه .

واما ما نعتقــده من أمانة المجلس البرهانىّ فإنهـا مَتِينه ، وشواهِـدُها من أقواله وأفعاله مُبِينه ، خصوصًا فى المقام الشريف ، وٱستمـالَتِه للقلوب بالعبارات اللطيفة ؛ فقد نَظَم مَعاقِدَ الٱئتلاف ، وتزايد بشَرْحِه الأُنْسُ فى محـاورته والٱخْتِلاف ؛ ولولا المُهِمُّ الشريف لاستوْقَفْناه عندنا عامًا كاملا من بعد هذا التاريخ : يُمْلِيَ علينا آياتِ المقام الشريف ؛ شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه . وعلىٰ لسانه مايُبْدِيه فى المَوَاقف الشريفة شِفَاها إن شاء الله تعالىٰ .

فى سابع جمادىٰ الآخرة سَنَةَ ثمـانٍ وتسعين وسبعمائة ، أحسن الله تعالىٰ ختامَها ، والحمدُ لله أوّلا وآخرا ، وباطِنًا وظاهِرا .

قلت : أما إمامُ الزيدية باليمن فلم أَقِفْ له علىٰ مكاتَبـة ، وإن كان المقرّ الشهابىُّ ٱبن فضـل الله قد أشار فى كتابه "التعريف" إلىٰ أنه ورد عنه مكاتَبَةٌ إلىٰ الأبواب السـلطانية الناصرية (محمد بن قلاوون) يستجيشُه علىٰ صاحب اليمن ، والغالبُ علىٰ الظنّ أنّ مكاتبتـه أعْرابية ، كما أن إمارته أعرابِيَّة : إذ لا ٱعْتِنَاء لأهـل البادية وعُرْبان الوادى بفَنِّ الإنشاء جملةً ؛ وإنمـا يكتَبُ عنهم بحسَبِ مايقتضيه حالُهم ، علىٰ أن فيما يأتون به مَقْنَعا من الفصاحة والبَلاغةِ بكل حال ، إذ عنهم قد عُلِم اللسان وعليهم فيه يُعَوّل .

الطـــــرف الرابع

(فى الكتب الواردة إلىٰ الأبواب السلطانية عن ملوك الهند)

قد تقدّم أن المكاتبة إلىٰ صاحب الهند تُشْبِه المكاتبةَ إلىٰ القانات العِظَام بإيرانَ وتُورانَ . وتقدّم أن الكُتُبَ الواردةَ عن القانات المذكورين تكون فى معنىٰ الكُتُب الصادرة إليهـم فى قَطْع الورق والترتيب ، من حيثُ إن الغالبَ جَرَيانُ العادة

فى الأجوبة بأن تكونَ علىٰ نَمَط الكُتُب الواردة ، وحينئـذ فيكون مقتضىٰ ذلك أن الكتُب الواردة من صاحب الهند فى هيئـة الكُتب الصادرة إليـه فى قطع الورق وغيره ، فتكون فى البَغْدادىّ الكامل بقلم مختَصَر الطُّومار بالطُّغراء والخطبة المكتَتَبتين بالذهب ، إلىٰ ما يجرِى مجْرَى ذلك مما تقدّم ذكره فى المكاتبات إلىٰ القانات .

قلت : ولم أقِفْ علىٰ صورة مكاتبةٍ من ذلك ولا علىٰ نسخةِ شىء ورد، لكن قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن من جملة ممالك الهند مملكةً تُعْرَف بالسَّيلان، وقد رأيتُ فى تذكرة (محمد بن مكَرَّم) التى جَمَعها فى وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية؛ أنه فى سنة آثنتين وثمانين وستمائة، وصل كتابٌ من صاحب السَّيلان هذه فى صَفيحة ذهب رقيقةٍ ، عَرْض ثلاثة أصابع ؛ فى طُول نِصْف ذراع ، وحولَه مدوّرة (حَلقة) داخلَها شبيهٌ بالخُوص أخضَرُ، عليه كتابة تُشْبِه الخط الرومىَّ أو القِبْطىّ ، فطُلِب من يقرؤه فلم يُوجَد ؛ فسُئِل الرسُل عما هو مكتوب فيها . فقيل : إنه سَيَّر رسولَهُ رومانَ ورفيقَه، وقصَد أن يسيِّر معهما الهدِيَّةَ إلىٰ الباب الشريف، فقيل له : مالهم طريقٌ . فقال لهم : سافروا إلىٰ (هُرْمُز) لحضروا إليها، وذكروا أنَّ مضمون الكتاب السلامُ، والدعاء للسلطان، وأنَّ بلادَ السَّيلان مِصْرٌ ، وبلادَ مِصْرَ السَّيلان؛ وأنه ترك صحبةَ صاحب اليمن مرَّةً واحدةً، وتعلق بمحبة مولانا السلطان خلَّد الله ملكه ؛ وسأل أن يَحْضُر رسولٌ من عند مولانا السلطان إلىٰ عنده صحبَةَ رُسُله ، ورسولٌ آخَرُ إلىٰ عدَنَ ينتظر حضورَهم من تلك الجهة علىٰ تلك الطريق، وأن عنده الجواهِرَ واللّآلِئَ والفِيَلَةَ والقُمَاش الكثيرَ من البزِّ وغيره، وكذلك البَقَّم والقِرْفة وجميعَ ما يطلُب الكارِم؛ وأن عنده فى كل سنة عشرينَ مَرْكبا يسيِّرها إليه ، فيُطْلق مولانا السلطان التُّجّارَ إلىٰ

البلاد ، وأن رسول صاحب اليمن حضر فى هـذه السنة يتسلم التَّقادِمَ والفِيلَةَ حتّٰى يسافروا إلىٰ اليمن فردّه، ولم يُعْطِه شيئا، وأنه يُعبِّي التَّقادِمَ والفيلةَ إلىٰ أبواب مولانا السلطان ، وأنّ بمملكة سَيَلان سبعًا وعشرين قلعةً ، وبها معادنُ الجَوْهر والياقوت ومَغَاص اللؤلؤ . ولم يزد علىٰ ذلك . ورأيت فى كتاب "الذيل" علىٰ تاريخ ابن الأثير نحو ذلك، وفيه ذكر البلاد التى مرّت عليها رسلُ صاحب السَّيَلان فى طُرُقها .

المقصـــد الثـانى

(فى المكاتبات الواردةِ عن ملُوك الغَرْب)

والعادةُ الجاريةُ فى الكتب الواردة عنهم أن تكونَ علىٰ نَمَط واحدٍ فى الورق، مع تقارُب الحال فى الترتيب، وتكونُ كُتُبهم فى طُومارٍ واحدٍ، فى عَرْض نحو شِبْرين، فى طُول نحو ثلاثةِ أشبار، والبسملةُ بعد بياضٍ نَحوِ شبر وثلاثةِ أصابعَ مطبوقة من أعلىٰ الطُّومار، وعَرْض سبعة أصابع مطبوقة عن يمين البسملة؛ والسُّطور منحَطَّةُ الأوائل مرتفعةُ الأواخر حتّٰى يصيرَ البياضُ الذى فى أعلاها فى آخر سَطْرِ البسملة قدرَ شِبْر فقط، وبين كلّ سطرينِ قدرُ عَرْض إصبع ونِصْـفِ إصبع؛ وكلُّ سطر ينقص عن الذى فوقه قليـلاً من جهة اليمين علىٰ التدريج ، حتّٰى يكون السطرُ الآخِر قطعةً لطيفة فى زاوية الطُّومار التى علىٰ اليسار من أسفلُ؛ ثم يكتب بحاشية الطُّومار من أسفله آخذا من آخر السطر الأخير، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدرُ رأس خِنْصَر، ويبتدئ السطرَ الأوّل منها بقِطْعةٍ لطيفةٍ منحَطَّةِ الأوّلِ مرتفعةِ الآخِر ثم السطر الثانى قطعـةٌ أطولُ من ذلك، ولا يزال كذلك حتّٰى يكمل السطر فيكتُب أسطرا كاملةً، إلا أنه فى أوّل كلّ سطر ينقصه قليلًا عن الذى قبله حتّٰى يكونَ السطرُ

الأخير قدر الأنملة فى زاوية الطومار من جهة البسملة ؛ ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدرُ إصبعين بياضًا إلى سَمْت البسملة ، أسطرًا متضايقةً حتّى ينتهِيَ إلى آخر الكلام ؛ ويكتب فى آخره بقلم الثلث : وكتب فى التاريخ المؤرّخ، ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلى الخلف . وفيه جمل :

الجملة الأولى

(فى المكاتبة الواردة عن صاحب تُونُس)

وعادة مكاتبته أن تُفتَتَح بلفظ : «من عبدالله الفلانى» بلقب الخلافة الخاصّ به ، «أمير المؤمنين ابن فلان» . ويقال : فى كل من آبائه أمير المؤمنين إن كان قد وَلِيَ الخلافةَ ويُدْعَىٰ له « إلى أخينا فلان » ويُؤْتَىٰ بالسلام والتحية ؛ ثم يتخلص بالبَعْدِيَّة إلى المقصد، ويختم الكتاب .

وهذه نسخةُ كتاب عن المتوكل على الله أحمدَ بنِ أبى عبدالله بن أبى بكر، إلى السلطان الملكِ الظاهر (برقوق) صاحب مصر، جوابًا عن كتابه إليه . وهو :

من عبد اللهِ ، المتوكلِ على الله ، أمير المؤمنين « أحمدَ » ابنِ مولانا الأمير أبى عبد الله، ابن مولانا أمير المؤمنين أبى يحيىٰ أبى بَكْر ، ابن الأُمَراء الراشدين ؛ أعلى اللهُ به كلمة الإسلام، وضاعفَ نَوَافِلَ سيْفِه من عَبَدَة الأصنام ، وغَضَّ عن جانب عِزِّه عُيونَ حوادث الأيّام .

إلى أخينا الذى لم نَزَلْ نُشاهِدُ من إخائِهِ الكريم ، فى ذات الرَّبِّ الرحيم، قِبْلَةَ صفاءٍ لم تُغَيِّرها يَدُ بِعادٍ ولا انتِزاح، ونُثابِرُ من حِفْظ عهده ، والقيام بحقِّ وُدِّه ، على ما يؤكِّد معرفةَ الخُلُوص من لَدُن تعارُفِ الأرْواح ؛ ونُبادِرُ لما يبعَثُ القلوبَ على الإِئْتلاف، والأَمْن بفضل الله من عوائق الإخْتِلاف ؛ وإن شَحَطت الدارُ وتناءَتِ

الصُّور والأشْباح . ونَعْترِفُ بما له من مَزِيدِ الإعظام، بمجاورة البيتِ الحَرَام، والقيامِ بما هُنَا لك من مَطَالـِع الوَحْيِ الكريم ومَشَاعِرِ الصَّلاح، ونجتَلِي من أنوائهِ الكريمةِ الشريفه، ومَطالعِهِ العاليةِ المُنيفه، وجُوهَ البشائر رائقةَ الغُررَ والأوْضاح . ونَستَهْدِى مايسُرُّنا من أنبائه، ممَّن يَرِدُ من تِلْقائه، حتَّى من أنوار الصَّباح وسُفَراء الرِّياح، ونَبْتَهِلُ إلىٰ الله بالدعاء أن يُخْبِرنا عنه، ويُطْلِعنا منه، علىٰ مايُقِرُّ عيونَ الفَوْز ويشْرَحُ صدُورَ النجاح ـ السلطانِ الجليلِ الطاهر، الملكِ الأعظم «الظاهر»، جمالِ الدين والدنيا، مؤيِّدِ كلمة الله العُلْيا، سيفِ المِلَّة المرهوبِ المَضاء، بيد القضاء، ورُكْنِها الباسق العَلاء، فى أَوْج عِزِّها المُنْداح للفضاء، المشهودِ له من لَدُنْ حلِّ التمائم، ولَوْث العمائم، بالشَّهامة التى تُرْعِبُ الأُسْدَ فى أَجَمِها، وتستَخْدِم له سائرَ الأمم : تُرْكِها وعَرَبِها وعَجَمِها، المختارِ للقيام بحقِّه بين عباده، فى أرضِه وبِلادِه، الفائزِ من جِوَار بيتِ الله ومَقَامِ خليله، ومَشْرَعِ الحجيج إليه وتيسيرِ سَبِيله، بمـا أحْرَز له سعادةَ الدارين، وعِزَّ المقامينِ، كَوْكبِ السعد الذى شقِيَتْ به أعداؤه، وبدرِ الدين الذى استضاءَتْ به أنحاؤه، ميزانِ العـدلِ لإنصاف الحقوق، وشمسِ الهداية النيِّرة الغُروب والشُّروق، (أبي سعيد برقوق) وصل الله له رتبةً راقية يتبوَّأ محلَّها، ونعمةً باقيةً يتفيأ ظلَّها، وعِزَّة واقية تَسِم وُجوهَ أعدائه خَسْفَها وذُلَّها، بمنِّه وكرمه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد حمدِ الله ناظِمِ الشَّمل وقد رابَ نَثْرُه وشَتاتُه، وجابرِ الصَّدْع وقد اتسعَتْ عن الجَبْرِ جهاتُه، ورادِّ الأمر وقد أعْيَا ذَهابُهُ وفَوَاتُه، وواصلِ الحبل وقد استوْلىٰ انْقِطاعُه وانْبِتاتُه، العالِمِ الذى لايَعْزُب عنـه مثقالُ ذَرّة ممـا تُكِنُّه أرضُه وسَمٰواتُه، الذى قَرَن بالْعُسْر يُسْرا، وجعل لكل شيءٍ قَدْرا، فلا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلا بإذنه ولا يكون فى مُلْكِه إلا ماتُنَفِّذه أحكامُه وإراداتُه .

والصلاةِ والسلامِ الأكملين ، على سيدنا ومولانا محمدٍ رسوله الذى صدَعت بالحق آياتُه ، وقامتْ بحُجّة دَعْواه مُعجزاتُه ، ونطقَتْ بأنه رسولُ الله على لسان وحيه الصادقِ الأمينِ كلماتُه ، المبعوثِ بالملّة السَّمْحة ، ومن أزكاها حَجُّ بيت الله المقدّسةِ أركانُه وحُجُراتُه ، المعظَّمةِ عند الله حُرُماتُه ، المَغْفُورةِ لمن سبَقَتْ له الحُسنىٰ بحجّه سيِّئاتُه ، وعلىٰ آله وأصحابه الذين قَضَوْا رضِىَ الله عنهم وهم أولياءُ دِينه الكريمِ ووُلاتُه ، وأنصارُ حزبِهِ المُفْلِح وحُماتُه ، ولُيُوثُ دِفَاعه فى صدُور الأعداء وكُماتُه .

والرضا عن الإمام المهدىّ القائم بهذه الدعوة الموحِّديَّة قِيامَ من خَلَصتْ لله نيَّاتُه ، وصدَقَتْ فى ذاته دَعَواتُه ، وصَمَّمت لإظهار دينِه القويم عَزَماتُه ؛ وصلةَ الدعاء لهذا المَقَام الأحمدىِّ المتوكِّلِ الفاروقِىِّ ، بنَصْرٍ تمضِى به فى صُدُور أعدائه شَبَاتُه ، وعزٍّ يطَّرِدُ به استقلالُه وثَباتُه ، وسعْدٍ تطيبُ به أيامُه المتصلةُ وأوقاتُه ، وتطول به حَيَاتُه .

فإننا كتبنا لسُلْطانكم ـ كتبَ الله لكم من إسعاده مايتكَفَّل بعِزّه ونَصْره ، ويتضمّن إطالَة زَمَنه المبارَك وعَصْره ، ويقوم بحِفْظ قُطره الشريف ومِصْره ـ من حَضْرتنا العلية "تُونُس" كَلأها اللهُ تعالىٰ ، ووُجوهُ نصرِ الله العزيزِ لدَيْنا وَضّاحةُ الأَسِرَّة متبلِّجة الصُّوَر ، وآياتُ فتحه المبينِ ولله المِنَّةُ مُحكَمَة السُّوَر ، وأحاديثُ الشُّكْرِ علىٰ نِعَمه سبحانه مُسَلْسَلةُ الخبَر ، وبِشْرُنا بما مَنّ اللهُ به عليكم قد عَمِل بمقتضاه مَنْ تحت إيَالتِنا(١) الكريمةِ من البَشَر . وإلىٰ هذا فمُوجِبه إليكم بعد تقريبِ حُبٍّ شُرِعت فى ملَّة الوفاء قواعِدُه ، وقُبِل فى عَقْد الصَّفاء شاهدُه ، واستقَلّ بصلة الخُلُوص عائدُه ، وثبتَ فى مَرْسوم الصَّداقة الصادقةِ زائدُه ؛ إعلامُكُم أنَّا علِم اللهُ من حِينَ اتّصل بنا خبرُكُم الذى جَرّه القَدَر المقدُور ، وجرىٰ به فى أُمِّ الكتاب الحُكْمُ المَسْطُور ، لم نزل نتوجّه إلىٰ

(١) مراده من تحت حكمنا وسياستنا .

الله تعالىٰ فى مَظَانِّ قُبول الدّعاء، ورَفْع النِّداء، بأن يجبركم بفضله من حيثُ صَدَع، ويصلكُمْ بخيره إثْرَ ماقَطَع، ويُعطيكم من نعمتـه أضعافَ مامَنَع، إلىٰ أن داركَ اللهُ بلُطْفه وأجاب، وتأذّن بفضـله فى قبُول الدعاء بظَهْر الغيبِ وهو مُستَجَاب، فردَّ عليكم مُلْككُم، وصَرَف إليكم مِلْككم، فأخذ القوْسَ باريها، وفوّق السهمَ مُقرطِسُها وراميها، وأنفذ القَضايَا حَكَمُها ومُفتيها، وإذا كان العَويلُ يُفْضِى إلىٰ النَّجْده، والبِلا يَقْضِى بالجِدّه، والفرجُ يُدافع فى صَدْر الشِّدّه، فلا جرمَ غفرَ اللهُ للأَيَّام ما ٱقترفتْ، لَمَّا أنابتْ وٱعترفتْ، وهل هو إلا التمحيصُ الإلٰهىُّ أراكم اللهُ من باطن الضَّرَّاء سَرَّاءَكم، وأجزل من جانبِ الغَمَّاء(١) نَعْماءَكم، والتِّبْر بعد السَّبْك يَرُوق النواظِرَ خُلاصةُ نُضَاره، والبدرُ بعد السِّرار تتألَّق أشعَّةُ أنوارِه .

ولما جاءنا بنَصْركم البَشِير، وطلَع من ثَنِيَّة الهَنَاء بأكْمام السُّرور إلينا يُشِير، هزَزْنا له أعطافَ الارْتياح، وتلقَّينا منه واردَ التَّهانِى والأَفْراح، وحَمِدْنا اللهَ لكم علىٰ مامَنّ به من الفَوْز والنَّجاح، ورأينا أنَّ تهنِئَتكُمْ به من فُروضِـنا المؤكَّده، وعُهودِنا المجَدَّده، وأنه لايقومُ به عنَّا هُنالِكم، ويؤدِّى مايجبُ منه بين يدَىْ كُرْسىّ جلالِكم، إلا مَنْ له من ديار المُلُوك، قربُ الأدَب والسُّلوك، فاقتضىٰ نظرُنا الجميلُ أنْ عيَّنا له شيخَ دولتنا المستَشَار، وعَلَمَها الذى فى مُهِمَّاتها إليه يُشَار، فلان .

وقد كان منذُ أعوام يتطارَحُ علينا فى أن نُخَلِّىَ للحجِّ سبِيلَه، ونُبلِّغَه من ذلك مأْمُولَه، ويَدُ الضِّنَّة لاتسمَحُ به طَرْفةَ عين، ونفسُ الاغتباط لا تُجيب فيه دَواعِىَ البَيْن، إلىٰ أن تعيّن من تهنِئَتكم الكريمةِ ماعَيَّنَه، وسَهَّل شأنَه علينا وهَوَّنه، فوجَّهناه واللهُ تعالىٰ يُسْعِد وِجْهَته، ويجعلُ حَجَّته لقَبُول الأعمـال حُجَّته . وحَمَّلناه من أمانة الحُبِّ مايأْتِى إليكم، ومن حديث الشَّوْق ما يقُصُّ أخبارَه عليكم، ومن طَيِّب الثَّناءِ مايفُضُّ خِتامَه

(١) الغم والغماء والغمة الكرب والشدّة . أنظر القاموس .

بين يديكم، وأصحبناه برسم إصطبلاتكم الشريفة مايسّر الحبُّ سبيلها، وأوضح الخلوص دليلها، ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها، إذ لو كانت الملوك تهادى على قدر جلالها، لما ٱتّسعت لذلك خزائن أموالها، لكنّها عنوان الحبّ السليم، حسب ما ٱقتضاه الحديث النبوى الكريم.

وفى أثناء شروعنا فى ذلك، وسلوكنا منه أيمن المسالك، وصل إلينا كتابكم الكريم، تعرف النواظر فى وجوه بشائره نضرة النّعيم، فٱطّلعنا منه على ما راق العيون وصفا ونعتا، وعبّر للخلوص سبيلا لا ترى القلوب فيها عوجا ولا أمتا، ولله هو من كتاب كتب من البيان كتائب، وٱستأثر بفلك الإجادة فأحرز به سعادة الكاتب، فقسما بالقلم وما سطّر! والحبر وما حبّر! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد، أو بصر به لبيد لأعاده فى مقام بليد، ولو قصّ على قسّ إياد فصاحته لنزّله عن منبر خطابته بعكاظ، أو سحب على سحبان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولّد السّحر الحلال بين المعانى الرائقة والألفاظ.

ولما ٱستقرينا من فحواه، وخطابه الكريم ونجواه، تشوّقكم لأخبار جهادنا، وسروركم بما يسنّيه الله من ذلك ببلادنا، رأينا أن نتحف أسماعكم منه بما قرّت به أعين الإسلام، وأثلج صدور اللّيالى والأيّام. وذلك أنّا من حين صدر من عدوّ الملّة فى الجزيرة ماصدر، حسب ماجرّه محتوم القدر، لم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حرمه وحماه، ونطرق طروق الغارة الشّعواء بلاده وقراه، ونكتسح بأيدى الاستلاب ماجمعت بها يداه، إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم، وتعرّفوا عاقبة مكرهم.

وكان من جزائرهم المعترضة شجّا فى حلوق الخطّار، ومتجشّمى الأخطار، وركّاب البحار: من الحجّاج والتّجّار، جزيرة "غودش" وبها من أعداء الله جمّ كثير، وجمع

كبير، فأرسلنا عليهم من أُسْطولنا المنصور غرْبانا نعقَتْ عليهم بالمَنُون ، وعَرَّفت المسلمين بركةَ هذا الطائرِ المَيْمُون، وشَحَنَّاها عَدَدًا وعُدَدا، وآستَمْدَدْنا لها من الله ملائكةَ سمائه مَدَدا ، فسارتْ تحت أجْنِحة النَّجاح إليها ، وتحُوم إلىٰ أنْ رَمتْ مَخالِبَ مَرَاسيها عليها؛ فلما نَزَلُوا بساحتها ، وكَبَّرُوا تكبيرةَ الإسلام لإباحتها، بُهِت الذى كَفَر، ووَدَّ الفِرارَ والحَيْنُ يناديه أيْنَ المَفَر؛ فلمَّا قضىٰ السيفُ منهم أوْطارَه، وشفىٰ الدِّينُ من دمائهم أُوارَه ، وشكَرَ اللهُ من المسلمين أنْصارَه، عَمَدُوا إلىٰ ماتخَطَّاه السيفُ مِنْ والِدٍ ووَلَد ، ومَنْ أَخْلَدَ إلىٰ الأرض مِن رجالهم عن المُدافَعة فلم يعترِضْه بالقتل منهم أحَد، فجَمَعُوا منهم عَدَدا يُنِيف بعدَ الأرْبعمائة علىٰ الأربعين ، وجاءُوا بهم فى الأصفاد مقَرَّنين ، وآمتلأتْ بغنائمِهم والحمدُ لله أيْدى المسلمين ، وآنقلَبُوا فَرِحين بما آتاهُمُ اللهُ مستبْشِرين ، إلىٰ أنْ دخَلُوا حضرتَنَا العليَّةَ بسلامٍ آمنين .

فعرّفنا كم بهذا الفتح : لتأخُذُوا بحَظِّكم من شُكْر الله عليه، ونتوجَّهوا فى مثلِه بصالح أدْعِيَتكم إليه ، وهو سبْحانَه وتعالىٰ يُطْلِعنا ويطلعُكُم علىٰ مايسُرُّ النفوسَ ويهَنِّيها ، ويجلو وُجوهَ البشائر ويُبْدِيها ، بمَنِّه وكرمه ، والسلامُ العَطِر المحيا الجميلُ المُحَيَّا عائدٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

الجمـــلة الثـانية

(فى المكاتبات الواردة عن صاحب "تِلْمسانَ" من بَنِي عبد الواد)

ورسمُ مكاتبته فيما وقفْتُ عليه فى المكاتبة الواردةِ علىٰ صاحب الديار المصرية أن يبتدأ الكتّابُ بقوله : إلىٰ الحضرة الفلانيةِ حضرةِ فلان ــ بالألقاب المعظَّمة المفخَّمة ثم يُدْعىٰ له بما يناسب الحال، ويؤتىٰ بخُطبةٍ، ثم بالسلام؛ ويقَع الخطاب فى أثناء الكتّاب بالإخاء بلفظ الجمع ، ويُختَمُ بالدعاء المناسب .

كما كتب عبدُ الرحمن بنُ أبى موسى بن يَغْمَراسن ، إلى السلطان الملك الناصر (محمد بن قلاوون) فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة :

إلى الحضرةِ العاليةِ الساميَة ، السنيَّة ، الماجدةِ ، المُحْسِنَة ، الفاضلةِ ، المؤيَّدة ، المظفَّرة ، المنصورةِ ، المالكةِ ، حضرةِ السلطان ، الملكِ ، الجليلِ ، الفاضلِ ، المؤيَّد ، المنصور ، المظَفَّر ، المعظَّم ، ناصرِ الإسلام ، ومُذِلِّ عَبَدة الأصنام ؛ الذى أيَّده الله بالبراهينِ القاطعه ، والأنوارِ المُنيرةِ الساطعه ، الأعلى ، الأوْحَد ، الأكمل ، الأرْفَع ، الأمْجَد ، الأسمى ، الأسْرى ، ذِى المجدِ الظاهر ، والشَّرَف الباهر ، الملكِ الناصر ، ابن السلطان ، الملكِ ، الجليلِ ، العادل ، الفاضلِ ، المؤيَّد ، المظفَّر ، الأعْلى ، الأوْحد ، الأكمل ، الأرْفع ، الأمْجد ، الأسنى ، الأسْمى ، ناصر الإسلام والمسلمين ، ومُعْلِى كلمة الموحِّدين ، المقدّس ، المرحوم ، ذى المجدِ المشهور ، والفَخْر المنْشُور ، والذكر المَذْخُور ، الملك المنصور ؛ أدام الله علُوَّ قدره فى الدُّنْيا والآخره ، وأسبغ عليه نعَمه باطنةً وظاهِره ، وجعل وُجوهَ محاسِنِهم فى صَفَحات الدهر سارَّة سافره ، وصَفْقةَ أعدائهم خائبةً خاسِره .

وبعدَ حمدِ الله الذى أظهر الأمْرَ العلىَّ الناصرىَّ وأيّده ، وبَسَط فى قولِ الحق وفعلِه لسانَه ويدَه ، وسدّدَ نحوَ الصَّواب مَنْحاه كُلَّه ومَقْصِدَه ، والصلاةِ التامّة المباركَة على سيدِنا محمدٍ رسولِه المصطفى ، الذى خصَّه اللهُ بعُمُوم الدَّعْوة وأفردَه ، وقَرَنَ ذِكْرَه بذِكْره فأبقاهُ أبدَ الدَّهر وخَلَّده . والرِّضا عن آلهِ الكرام ، وصحابتهِ الأعلام ، الذين حَفِظُوا بالتوقير والتعزيرِ مَغيبَه ومَشْهده ؛ وكانُوا عند استِلالِ السُّيُوف ، ومَجَال الحُتُوف ، عَدَده المظَفَّر وعُدَده . والدعاءِ لذلكم المقامِ الشريفِ بسعْدٍ يُطِيل فى شرف الدين والدنيا مُدَده وأَمَده .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، من أخيكم، البَرِّ بكم، الحريص على تَصَافيكم، عبـدِ الرحمن بن أبى موسىٰ بن يغمراســن . وإنا كتَبْناه إليكم كتبَ اللهُ لكم أنجحَ المقاصِد وأرجَحَهـا، وأثبتَها عِزًّا وأوْضَحَها، من حصن "تلمسان" حَرَسها الله تعالىٰ، ولا ناشِئ بفضْل اللهِ تعالىٰ إلا ما عَوّد من بشائرَ تُحَثُّ جيادُها، ومَسارَّ يتطاولُ إلىٰ المَزِيد ٱعتِيادُها ـ وإلىٰ هـذا أعلىٰ اللهُ كلمتكم، وأمتَع المسلمين بطول بقائكم، فإنا نعرِّفكم بوصول كتَابِكم الخطيرِ الأَثير، فتلقيناه بمـا يجب من التكريم والتعظيم، وتَتَبَّعنا فُصولَه، وٱســتوعَبْنا فُروعَه وأُصُوله، وتحقَّقْنا مقتضاه ومَحْصُولَه، وعلمنا ما ٱنْطوىٰ عليه من المِنَن والإفضال، وٱشتمل عليه من التفصيل والإجمال، ومِن أعظمِ ذٰلك إذْنُكم لنا فى أداء فرض الحجِّ المبرور وزيارةِ ســيد البَشَر، الشفيعِ فى المَحْشَر، الذى وجبتْ له نبوَّته، ومُثِّل الغيبِ عليه مُنْسدِل، وآدمُ صلواتُ الله عليه فى طِينتِه مُنْجَدِل، وعلِم اللهُ أننا لم تزلْ آمالُنا متعلقةً بتِلْكُم المَشاعِرِ الكريمه، وقلوبُنا متشوِّقةً إلىٰ تِلْكُم المشاهِـدِ العظيمه، فلنا فى ذلك نيَّات صادقةُ التَّحْوِيم، وعَزَماتٌ داعيةُ التصْمِيم، وكان بوُدِّنا لو ساعدَنا المِقْدار، وجرىٰ الأمرُ علىٰ ما نُحِبُّه من ذلك ونَخْتار، أن نُمتَّع برؤية المواطن التى تُقِرّ أبصارا، ويُتَشَفّىٰ بها إيرادًا وإصـدارا، ولعلَّ اللهَ تعالىٰ ينفَعُنا بخالص نِيَّاتنا، وصادق طَوِيَّاتنا، بمنه وكرمه .

وقد وجبَ شُكْرُكم علينا من كلِّ الجهات، وٱتَّصلت المحبةُ والمودّةُ طُولَ الحياة، غير أنَّ فى قلوبنا شيئًا من مَيْلكم إلىٰ غيرنا وٱستِئْناسكم، ونحنُ والحمدُ لله أعلمُ النـاس بمـا يجب من حقوقِ ذٰلكُم المقامِ الشريف، ولنا القُدْرة علىٰ القيام بواجِبكم، والوفاءِ بكريم حقكم، وليس بيْنَنا وبين بلادكم مَنْ يُخْشىٰ والحمدُ لله من كيده، ولا يُبَالىٰ بهَزْله ولا جِدِّه، وقد توجَّه إلىٰ بابكم الشريف قرابَتُنا الشــيخُ الصالحُ الحسيبُ الأوْرعُ الأكمل الزاهدُ أبو زكرِيًّا يحيي ابنُ الشيخ الصالح المرابط المقدَّس المرحومِ أبى عبدالله

محمد، بن جرار الوادىّ، وهو من أهل الدِّين والخير، وقد شافَهْناه بما يُلْقِيه إلىٰ ذلكم المقام الشريف من تقرير الوُدِّ والإخاء، والمحبَّةِ والصَّفاء، مما يَعْجِز عنه الكتاب؛ فالمقام الشريف يَثِق إلىٰ قولِهِ ويعامله بما يليق ببَيْتِه ودِينه. وغرضُنا أنْ تعرِّفوه بجميع مايصلُح لذلكم المقام الشريف مما فى بلادنا، ويصِلُكم إن شاء اللهُ فى أقْرب الأوقات، علىٰ أحْسَن الحالات، ولكم بذلك علينا المِنَّةُ العُظْمىٰ، والمزِيَّة القُصْوىٰ، والله تعالىٰ يُبْقِي ذلكم المقام الشريف محروسَ المَذَاهب، مشكورَ المَنَاقب؛ إن شاء الله تعالىٰ.

الجملة الثالثة

(فى المكاتبات الواردة عن صاحب "فاس" إلى الأبواب السلطانية، بالديار المصرية)

وعادة كتبهم أن تفتتح بلفظ «من عبد الله فلان أمير المسلمين». وأوّلُ مَنْ كتب منهم أمير المسلمين «يوسفُ بن تاشفين» حينَ آستولىٰ علىٰ المغرب، قبل بَنى مَرِينٍ، خضوعًا أن يتلقّب بأمير المؤمنين مُضاهاةً للخلفاء. وهو:

من عبدِ الله علىٍّ أمير المسلمين، وناصر الدِّين، المجاهِد فى سبيل ربِّ العالمين، مَلِك البَرَّيْن، ومالك العُدْوتيْن، أبى سعيد[1]، آبن مولانا أمير المسلمين، المجاهِد فى سبيل ربِّ العالمين، ملكِ البرَّين، وسلطان العُدْوتين، أبى سعيد آبن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ملك البرَّين، وسلطان العُدْوتين، القائم لله بإعلاء

---

(١) كذا فى الأصل الوحيد وصوابه "أبى الحسن" كما يؤخذ مما تقدم فى الكلام علىٰ ملوك فاس من أن عليا هذا يكنىٰ أبا الحسن وأنه آبن السلطان أبى سعيد عثمان آبن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق فلعل ما فى الاصل من أعمال النساخ فتنبه.

دين الحقِّ ، أبي يوسفَ يعقوبَ بنِ عبد الحق ، منح اللهُ التأييدَ مَقامه ، وفَسَّح لفتح مَعَاقِل الكفر وكَسْر جَحافل الصُّفْر أيَّامَه .

إلىٰ السلطانِ ، الجليلِ ، الكبيرِ ، الشهيرِ ، العادلِ ، الفاضلِ ، الكاملِ ، الحافِل ، الملكِ ، الناصرِ ، المجاهِدِ ، المُرابِطِ ، المُثاغِرِ ، المؤيَّد ، المظَفَّر ، المنصور ، الأسْعَد ، الأصْعَد ، الأرقىٰ ، الأوْقىٰ ، ناصر الدنيا والدين ، وقامع البُغَاة والمعتَدين ، مُفِيد الأوطار ، مُبِيد الكُفَّار ، هازِمِ جيوش الأرمن والفَرَنْج والكُرْج والتَّتار ، مالِئ صـدُور البرارِيِّ والبِحار ، حامى القِبْلتين ، خَديم الحرمين ، غيثِ العُـفَاه ، عونِ العُنَاه ، مُصَرِّف الكتائب ، مُشرِّف المَواكب ، ناصر الإسلام ، ناشرِ الأعلام ، فَخْرِ الأنام ، ذُخْرِ الأيَّام ، قائد الجُنُود ، عاقد البُنُود ، حافظ الثُّغور ، حامى الجُمْهور ، نِظامِ المَصالح ، بقيَّة السَّلف الصالح ، ظهيرِ الخلافة وعَضُدِها ، ولِيِّ الإمامة وسنَدها ، عاضِدِ كلمةِ الموحِّدين ، ولِيِّ أمير المؤمنين ، أبى المَعَالى (محمد) ابن السلطان ، الكبير ، الجليل ، الشهير ، الشهيد ، الخَطير ، العادلِ ، الفـاضلِ ، الكاملِ ، الحافظ ، الحافل ، المؤيَّد ، المظفَّر ، المعظَّم المبجَّل ، المكبَّر ، الموقَّر ، المعزَّز ، المجاهِد ، المرابِط ، المثاغِر ، الأوحد ، سيفِ الدين (قلاوون) أدام اللهُ فضلَ عزمه المـاضى بتأييـده ، وأدار الأفلاكَ بتشْيِيد مُلْكه الشامِخِ وتمهيده ، وطَهَّر أرجاءه من أرْجاس المنافقين ، وأدْناس المـارِقين ، بما يُرِيق عليها من دِمائهم ، فمـا كلُّ متطهرٍ يُجْزِئُ عنه غَسْلُ مائه أو تيمُّمُ صعيده .

سلامٌ كريم ، طيِّب عميم ، أَرِج الشَّميم ، متضَوِّع النَّسِيم ، تستمِدُّ الشمسُ باهِرَ سَـنَاه ، ويسـتعيرُ المسكُ عاطِرَ شَـذاه ، يَخُصُّ إخاءكم العَلِيّ ، ووَفَاءكم الوَفِيّ ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعـدَ حمدِ الله الذى أيَّد المؤمنين ، علىٰ عَدُوِّهم فأصْبَحُوا ظاهِرِين ، وعرَّف الإسلامَ وأهلَه من السِّرِّ العجيب ، والصُّنع الغريب ، مافيه عِبْرةٌ للسامعين والنَّاظِرين ؛

حكمةٌ عجزَتْ عن فَهْم سِرِّها المكتوم ، وقَصُرتْ عن كُنْهها المختوم، ألبابُ عبيده القاصِرين. والصَّلاةِ والسلام علىٰ سيدِنا ومولانا محمدٍ رسوله الذى أرشد به الحائدين الحائرين ، وأرسله بالهُدىٰ ودِين الحقِّ ليُظْهِرَه علىٰ الدِّين كلِّه برَغْم الجاحدين الكافرين، وعلىٰ آلِه وصَحْبه الذين هاجَرُوا إليه و بلادَهُم هجَروا، والذين آووْا من أوىٰ إليهم ونَصرُوا ،والذين جاهَدُوا فى الله فصَبَرُوا ، ففازُوا بذكر المهاجِرين والأنصار وأجر المجاهِدين الصابِرِين ، وصِلةِ الدعاء لحزْب الإسلام فى مَشَارق الأرض ومَغَاربها بفضلٍ لا يزالُون معه لأعدائهم قاهِرين ، وسعدٍ لا ينْفَكُّون له بآمالهم ظافِرِين ، ونصرٍ من عند الله وما النَّصْر إلَّا من عند الله وهو خَيْرُ الناصرين .

فإنا كتَبْنا لكم ـ كتب اللهُ لكم مَجْدا مَديدَ الظِّلال ، وعَضُدًا حَدِيدَ الإِلَال(١) ، وسعْدًا جَديدَ السِّرْبال ـ من منصورة "تِلِمْسان" حرسها اللهُ تعالىٰ ، والصنائعُ الرَّبَّانيَّة تُكَيِّف العجائب ، وتُعرِّف العَوارِفَ الرغائب ، وتَشَنِّفُ الأسماعَ بما تُسْمِعُها من إجزال المُنُوح والمَوَاهب ، وتُفَوِّفُ الرِّقاعَ بما تُودعُها من أحاديث الفُتُوح الغرائب ، والحمدُلله علىٰ مايَسَّرَ من المآرب ، وسهَّل من المَوَاهب . و إخَاؤُكم الصادقُ مَبْرورُ الجوانب ، مأثور المَنَاقب ، مُشْرِقُ الكَوَاكب ، مُغْدِقُ السَّحائب ، نامى المَرَاتب ، سامِى المَرَاقب ، واللهُ تعالىٰ يُبْقيه فى ذاتِه ، ويَقِيه من صَرْف الدهر وأَذَاته . وإلىٰ هذا وصلَ الله لكم سعْدًا جديدا ، وجَدّا سعيدا ، ومَجْدًا حميدا ، وحَمْدا مَجيدا ، فقد وصل كتابُكم الأَثِير ، المُزْرى بالمسك النَّثِير ، فاجتَلَيْنا منه روْضةً جادَهَا البيانُ فأمْرَعها ، ورادها البَنَانُ فوشَّعها ، واجتنَيْنَا من غُصون سُطوره ثمرات وِدادٍ ما أيْنَعها ، إنباءً عما تلقَّاه الإخاءُ الكريم من قِبَل الشيخ الأجلّ ، أبى عبدالله محمد بن الجَرَّاح مما عنَّا تحمَّل ، وفى إلقائه

---

(١) جمع ألَّة بمعنى الحربة .

وأدائه بحضْرتكم الكريمة أحسَنَ وأجمَـل ، وهو ما كان عليـه عزْمُ مَوْلاتِنا الوالدة ألحقها الله تعالىٰ رضْوانَه ، وبوّأها جِنانه : من حَجّ البيت المحرَّم ، وزيارة [القبر] المعظّم المكرَّم ، والصلاةِ بالمسجد الحَرَام ومسْجِد النبيّ صلىّٰ الله عليه وسلم ، وثالثِهما فى شَدّ الرحال المسجِد الأقصىٰ ونِعْم المغْتَنَم ، وقضاءِ النُّسُك بتلك المَناسك والمَشاهد ، والتبرُّك بتلك المعالم المُنِيفة والمَعاهِد ، وما وَصَف مع ذلك بهذا الجانب الغَرْبى ، ووَصَف من أمْر قِتالنا لكلّ مارِقٍ أبيّ وكافرٍ حَرْبِىّ ، وما منَحنا الله من تدْبيرٍ لقـلوب أهـل الإيمـان مُبْهِج ، ولصُدور عَبَدة الصُّلْبان مُحْرِج ، وأن الإخاءَ الكريمَ حصل له بذلك أبْهىٰ ٱبتهاج ، وحلَّ منه محَلَّ القَبُول الذى ٱنتهج له من ٱقتفىٰ سبيلَ القصـد أنهىٰ ٱنتهاج ؛ فعقَد العزْمَ علىٰ تلقّى الوافد من تِلْقائنا ، والوارِد رجاءَ أداء فرْض الحجّ من أرجائنا ، بتسهيل سَبِيله ، وتيسيرِ ٱرتحاله إلىٰ بيتِ اللهِ ورسوله ، وأنه متىٰ وقع الشُّعور بمَقْدَم المولاة رحمها الله تعالىٰ علىٰ بِلاده ، وقُرْبها من جهاته المَحُودةِ من جَوْد جُوده بعِهاده ، يقدّم للخروج مَنْ يتلقّ رِكابها ، ويعتَمِدُ بالبِرّ والتكريم جَنابها ، حتّى تحمَدَ وِجْهتَها الشريفةَ بجمِيل نظرِه وإيابَها ، وقام عنّا بما نَوَدُّه من بِرِّها ، وساهَمَ فيما تُقَدّمه إلىٰ الله عزّ وجلّ من صالِح أجْرِها . وقد قابلْنا هذا الفضلَ من الشُّكر بأجْزِلِه ، ومن البِرّ بأحْفاه وأحفلِه ، وحصل لدَيْنا بإزائه سليمُ وُدِّه وكريمُ إخائه ، من تخليص وَلائه ، وتمحيص صَفَائه ، مَنّاً لايزال عهدُه الأنيق فى نمائه ، وعقْدُه الوثيقُ فى ٱزدياده ونمـائه ، وغُصْنه الوريقُ فى رَوْنَق غُلَوائه ؛ ولئن كانتِ المولاةُ الوالدةُ قدّس الله رُوحَها ، وبَرَّد ضريحَها ، قد وافتْ بمـا قدَّمت عندَ الله من صالح العمل ، وماتَتْ علىٰ ما أبْرَمَتْه فى قصْد البيت الشريف من نِيَّة وأمَلْ ، اذ كانتْ رحمةُ الله تعالىٰ عليها قد تأهّبت لذلك ، واعتدّتْ لسُلُوك تلك المَسالك ، وأداءِ ما فرض اللهُ من السِّعاية والمَناسك ، وعلىٰ الله إجزالُ ثوابِها ؛ وعنده نحتَسب ما ألَمَّ فآلَمَ من مُصابها ـ فإنّ لدينا ممّن يُمتُّ بحُرْمة المَحْرَم إلينا ،

و يلزم بحقِّ التربية علينا ، من يقومُ عندنا مقامَها ، و يرومُ من ذلك المقْصَد الشريف مَرَامَها ، وسنُوردها إن شاء الله تعالىٰ علىٰ تِلْكُم البِقَاع ، ونُورِدها من تلكم الأقطارِ والأصْقَاع ، ما يَجْمُل بحُسْن نظَرِكم مورِدُه ومصْدَرُه ، ويطَّابق فى جميل آعتنائكم وحَفِيل آحتفالِكم خَبَره ومَخْبَرُه ، بفضل الله وعونه .

وأما تشوُّقُ ذلكم الإخاء ، لمواصلة الكتُب بسارِّ الأنباء ، فإنَّ من أقربِها عهْدا ، وأعْذبِها حديثًا يُهادىٰ ويُهْدىٰ ، ما كان من أمرِ العاقِّ قاتلِ أبيــه ، الحالِّ من إقليم تِلِمْسانَ وممالكها بالمحلِّ النَّبِيه ، وذلك أنَّ أسلافَه بنى زَيَّان ، كانوا قد آستوْلَوْا علىٰ هذه المملكة فى سالف الزَّمان ، ولم يزلْ بينهم وبين أسلافى المحتوِين علىٰ مُلْك المغرب الأقصىٰ وقائعُ تُورِدهم الحِمَام ، وتذِيقُهم الموتَ الزُّؤام ، فيدَعُون المنازَعه ، و يعُودُون للموادعه ، ثم لم يلْبَثُوا ، أن ينْكُثوا ، ولم يصْبِروا ، أن يغْدِروا ، إلىٰ أن كان من حِصَار عمِّنا المقدَّس المرحومِ أبى يعقوبَ قدّس الله تُربتَه إيَّاهم ، فأكثر موْتَهم وكدَّر مَحْيَاهم ، وتمادىٰ بهم الحصارُ تسعَ سنين ، وما كانُوا غيرَ شِرْذِمةٍ قليلين ، وهُنالكم آتصلَتْ بينكما المُراسَله ، وحصلت الصَّداقةُ والمُواصَله ، ثم حُمَّ موتُه ، وتَمَّ فَوْتُه ، رحمة الله تؤمُّه ، ورضوانه يشمَلُه و يعُمُّه ، فنُفِّس خِناقُهم ، وعاد إلىٰ الإبدار مِحَاقُهم ، وصرفَ القائمُ بعده عنهم الحيْن ، عما كان هو رحمه الله قد طوّعه من بلاد مَغْراوة وتجين ، فاتَّسعتْ عليهم المسالك ، وملَكُوا مالم يكن فيه لأوائلهم طمَعٌ من الممالك ، لكنَّ هذا الخائن وعمّه كانا ممن أسأرته الفِتَن ، وعم به فيها غوامرُ المِحَن ، فسلكا مسْلَكَ أسلافهما فى إذاعة المُهادنه ، والرَّوغان عن الإعلان بالمُفاتنه .

ولما سوّل الشيطانُ لهٰذا العاقِّ قتلَ والده ، والاستيلاءَ علىٰ طارفه وتالدِه ، لم يقَدّم(١) عملًا علىٰ إشخاص إرساله بحضرة مولانا المقدّس أبى سعيد ، قدّس الله

(١) مراده أنه بدأ أوّل كل شىء باشخاص الخ .

مَثْواه ، وجعل الجنةَ مَأواه ، فى السِّلْم راغبا ، وللحُكْم بموادعته طالبا ، فاقتضى النظر المَصْلحىُّ حينَئذٍ موافقتَه فى غرضه ، وإن كان باطنُه على مَرَضه ، فقوِىَ أمرُه ، وضَرِىَ ضُرُّه ، وشَرِىَ شرُّه ، ووَقَد تحتَ الرَّماد جمْرُه ، وسرى إلى بلادِ جيرانه الموحِّدين داؤُه ، وطال عليهم تضييقُه واعتداؤه ، واستشعر ضعْفَهم عن مدافعته ، ووَهْنَهم عن مقاومته ومنازعته ، فبغى وطغى ، ولم يَدْرِ أنَّ مِنْ فوقه سَقْبَ السماء رَغَا ، وباطَنَ جماعةً من عَرب أفريقيَّة المفْسِدين وجَرُّوه بحبل الأطماعِ إليها ، وأقام على بجاية عشرين سنة يشدّ على بجاية الحِصار ، ويشُنُّ على أحوازتونُس الغَار (١) ، حتّى كان من هزيمة جيشه لصاحبها ما كان ، بمالأةٍ منهم ومن غيرِهم من وراتيه (؟) كابن اللِّحيانى ، وابن الشهيد ، وابن عِمْران ، فأدّى ذلك صاحبَها السلطانَ أبا يحيى أعزَّه الله تعالى أنْ بعَثَ إلينا وزيرَه فى طَلَب النُّصرة رسولا ، وأوْفَد علينا أعزَّ ولدِه أبا زكريّا فى إذهاب المضَرَّة عنه دَخيلا ، فخاطبْنا إذ ذاك هذا الخائن العاقَّ مبصِّرين ، وبقوله تعالى ﴿ وإنْ طائفتَانِ من المُؤمنينَ اقتَتلُوا فأَصْلِحُوا بَيْنَهما ﴾ مذكِّرين ، فما زادتْه الموعظةُ الاأشَرا ، ولاأفادتْه التذكرةُ إلّا بطَرا ، وحينَ ذُكِّر فلم تنفَعْه الذِّكرى ، وفُكِّر فلم يتَيسَّرْ لليُسْرى ، امتثلْنا فيه أمرَ الله تعالى المرتبَ على قوله ﴿ فإن بَغَتْ إحداهُما على الأُخرى ﴾ فأزمعْنا قَدْعه ، وأجْمَعْنا رَدّه ورَدْعه . وفى أثناءِ ذلكم وصل إلينا أيضا سلطانُ الأندُلس مستغيثًا على النصارى أعداءِ الله جيرانِه على طاغيتهم ، المُصرِّ على عداوته وعداوتهم ، فجهَّزنا معه ولَدَنا عبدَ الواحد فى أربعةِ آلافٍ من الأبطال ، وأمدَدْناهم بما كفاهم من الطعام والعُدَّة والمال ، فأجاز من سَبْتةَ إلى الخضراء عَجِلا ، ولم يُقدّم على منازلة جَبَل الفتح عملا ، وكان هذا الجبل الخطيرُ شأنُه منذ استولى عليه العدوُّ قصَمه الله فى سنة تسع وستين شَجًا فى لَهَوات أهل العُدْوتَيْن ، وغُصَّةً لنُفُوس الساكنين بالجِهَتيْن ،

(١) المقام للاضمار .

لإطْلالِه عليهما، وإرسالِه جوارحَ جَوارِيه إليهما، تَخْطَف مَنْ رام العُبور بحر الزُّقاق، وما يقرب الملجأ إلىٰ هذا المعْقِل المستقِرّ من اللَّحاق، فكَمْ أرمَلَ وأيْتَم، وأثْكل وأيَّم - فأحاطَتْ به العادِياتُ السوابِحُ برًّا وبَحْرا، وأذاقتْ مَنْ به مِنْ أهْمـاج الأعْلاج شَرًّا وحَصْرا، إلىٰ أنْ أسلَمُوه للسلمين قَهْرا وقَسْرا، ومنحَ اللهُ حِزْبَه المؤمنين فتْحا ونَصْرا، وسمِع الطاغيةُ الغادر إجابةَ اللهِ تعالى بأمْره، فطار بما قَدَر عليه من حُشُوده وجُنُوده إلىٰ إغاثَتِه ونَصْره، فوصَله بعدَ ثمانيةِ أيام، من تسليمه للإسلام، فنزل بخَيْله ورَجْله إزاءَه، وأقسم بمعْبُوده لايَبْرَح فِناءَه، حتّٰى يُعيـد إليه دينَـه، أو يلْقىٰ مَنُونَه دُونَه، فأكْذبَ اللهُ زَعْمه، وأوْهن عَزْمه، وأحنث يَمِينَه، وأقاع بعد شَهْرين وأيام مُدْلجا، وأسرع العَوْدَ إلىٰ مستقرّه وآسألُه كيْفَ نَجَا، وكان ذلك سبَبَ إنابتِه للسِّلم وآنْقِياده، وإجابتِه لتَرْك ما كان له علىٰ أصحاب "غَرْناطَة" من مُعْتاده، وكانوا يُعْطُونه مايُنِيفُ علىٰ الأربعين ألفًا من الذهب فى العام، ضريبةً ألزمهم الطاغيةُ أداءَها فى عَقْد مصالحتِه أيَّ إلزام، فسُمْناه تركَها وإسقاطَها، وألزمْناه فيما عقَـدْناه له من السِّلْم أن يَدَع آشْتِراطَها، والحمْدُ لله الذى أعزَّ بنا دِينَ الإسلام، وأذلَّ رقابَ عَبَدةِ الأصنام، وقد آعتنَينا بتحصين حِصْن هذا الجبل تتميًّا لها وتكميلا، وآبتدأْنا من تحصين أسْواره وأبراجه بمـا يَغْدُو علىٰ جبينِه تاجًا وإكْليلا . وكنّا فى هذه المدّةِ التى جَرَتْ بها هذه الأحوال، وعرَتْ فيها هذه الأهواءُ والأهْوال، منازلِينَ أخانا المتنعَ "بسِجِلْماسة" من بعضِ بلاد القِبْلة، ومحاولين من إزاحة ضُرِّه، والإراحة من شَرِّه، مافيه الصلاحُ والفلاحُ علىٰ التفصيل والجمله، لعِثايتـه فى الفساد، ودِعَايته إلىٰ العِناد، ومعاضَدته صاحب "تِلمْسان"، ومساعَدتِه علىٰ البغْى والعُدْوان، فسهَّل اللهُ آفتتاحَها، وعجَّـل من صنائعه الجميلةِ منها مُباحَها، وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونِصْف، ويَسَّر اللهُ تعالىٰ فى ذٰلك من بدائع الصنائع ما يقْصُر عنـه كلُّ نعْت ووَصْف .

وفى خِلالِ تلكُم المنازَله ، وحال تِلْكم المحاوَله ، لاحتْ للخائن التِّلمْسانىِّ فُرصه ، جُرِّع منها غُصَّه ، إذ ظنَّ أنا عنه مشْغُولون ، وفى أمْرِ ماعرض من سِجِلْماسة وجَبَل الفَتْح معتَمِلُون ، فخرج من بلَده علىٰ حينِ غَفْلة بالعزيمة والجِدّ ، إلىٰ حِصْن ماور برت (١) الذى هو بين بلاده و بلادنا كالحدّ ؛ فوجد هُنالك وَلَدنا الأسـعَد تاشفين ، فى ثُلَّة من بنى مَرِين ، آسادِ العَرِين ، فلما نَذِرُوا به ثارُوا إليه مُسْرِعِين ؛ فنكَص علىٰ عَقِبـه ، ولم يَرَ له جُنَّة أوقىٰ من هَرَبه ، وعاد لذلك ثانيَه ، فلم تكن عساكِرُنا عن طَرْده وانِيَه ، بل ردَّته فى الحافِرَه ، وأنشدتْه بلسان حالِها الساخِره :

إنْ عادتِ العقربُ عُدْنَا لها * وكانَت النعْلُ لهـا حاضِرَه

ولـما فرغنا والحمدُ لله من تِلكم الشَّواغل ، وأرَغْنا من الخائن التِّلمسانى تَركَ ماهو فيه من إثارة الفِتَن واغِل ؛ فأعرضَ وأشَاح ، وما لاحت عليه مَخِيلةُ فَلَاح ؛ نهَدْنا نحوَ أرضِـه ، لنَجْزِيه بقَرْضِـه ؛ بجُيوش يَضِيق عنها فَسيح كلِّ مدىٰ ، وخيولٍ تَذَر الأَكَم للحوافر سُجَّـدا ؛ تنقضُّ على الأقرانِ أمثـالَ الأَجادِل ، وتَقُضُّ الجنادِلَ من حوافِرِها بأصْلَبَ من الجَنَادل ؛ فكَافَنا بتَسلُّم مَنازِله مَنْزِلا فَمَنْزِلا ، وتَسَنُّمُ معَاقله مَعْقِلا فمَعْقِلا ؛ وجُلُّ رعاياه تُقِرُّ بفضلنا ، وتَفِرُّ من جَوْره إلىٰ عَدْلنا ؛ ومَنْ تمسَّك منهم بحَبْله ، أو سَلَك من الغَيِّ فى سُبْله ؛ قادهُ السيفُ برَغْمه ، وٱستنزلَهُ علىٰ حُكْمه ؛ والعفوُ مع ذلك يؤمُّهم ، والإحسانُ يشْمَلُهم و يعُمُّهم ؛ حتّىٰ لم يبْقَ إلَّا مَعْقِلُه الأَشِب ، ومنْزِلُهُ الذى رأىٰ أنه عن عين الشَّوائب محتَجِب ؛ قد شَمَخ أنْفا حَمِيًّا ، وصافحَ كَفًّا للثُّرَيَّا ؛ ولم يرض لهامنه عَمائِمَ إلَّا الغمائم ، ولا لأناملِ شُرُفاته خَواتِم ، الا النُّجومَ العوَاتم ؛ فنزلْنا بساحه ، وأقبلْنا علىٰ كِفَاحه ؛ وجعلنا نقذِفُهم من حجارة المَجَانيق ، بأمثال النِّيق ؛ ومن كِيزان النِّفْط المُوقَدَه ، بأمثال الشُّهُب المُرْصده ، ومن السِّهام العَقّـاره ، بأمثال العَقارب

(١) كذا فى الأصل باهمال الحروف ولعله مصحف عن بنزرت تأمل

الجَرَّاره ؛ حتّٰى غدَتْ جُدْرانُهم مهْـدُومَه ، وجُسُومهم مَكْلُومه ؛ وثُغُور شُرُفاتهم فى أفواه أبراجهم مَهْتُومه ؛ وظلّت الفَعَلة تُشَيِّد إزاءَ أبْراجهم أبْراجا ، وتُمَهِّد منهـا لتسوير أسوارهم أدْرَاجا ؛ وللمَعاوِل فى أسافلها إعْوال ، وللعَواسِل علىٰ أعاليها أعْمال ، وللأشْقِياء مع ذٰلك شدّةٌ وجَلَد ، وعُدَّة وعَدَد ، وحِدَّة ولَدَد ، يقاتِلُون حميَّة ، وينازِلُون بنفوسٍ أبِيَّه ، وحجارةُ المَجانِيق تشْدَخُ هامَهُم ، وبَناتُ الكَنَائِن تُزَلْزِلُ أقدامهم ؛ وهم فى مثل ذٰلك لازِمُونَ إقْدامهم ، إلىٰ أن آشـتَدَّت أزْمَتُهم فلم يَجِدُوا لهـا من فارِج ، وأحاطتْ بهم الأوجالُ من خارج ؛ وهُدِمتْ أبراجُهم الشَّواهق ، ورُدِمت حفائِرُهم والخنادِق ؛ وأخذَت الكُماةُ ، فى العُروج ، إلىٰ البُروج ، والحُماةُ ، فى السِّباق ، إلىٰ الأنْفاق ، والرماة ، فى النِّضال ، بالنِّصال ، فمن مُرْتقٍ سُلَّما ، غير مُتَّقٍ مؤْلِما ، ومشتَغِل بالنَّقْب ، غير محتفِلٍ بشابُور الحجارة المنصَبّ ؛ وأفْرِج المَضِيق ، وآنتَهج الطَّرِيق ؛ وآقتحمَتْه أطلابُ الأبطال ، و وجَتْه أقيال القبائل وولّى الأشـقياء الأدْبار ، وعاذُوا بالفِرَار ، وبدَتْ عليهم علاماتُ الإدْبار ؛ وسابَقُوا إلىٰ الأبواب ، فكان مَجيئُهم من أقوىٰ الأسـباب ، وقتَل منهم الزِّحام ، من أسأره الهَدْم والحُسام ؛ فتملَّكنا مادارتْ عليه الأسوار الخارجة : كفرار السبع والملعب ، وجميع الجِنان والعُروش التى ما آنفكَّ الشقىُّ يجتهد فى عِمارتها ويَتْعَب ؛ وأعلَنَّا بالنِّداء أن كُلَّ من جاءنا هاربا ، ووصلَ إلينا تائبا ، منحْناه العَفْو ، ومحَوْنا عنه الهَفْو ؛ وأوردْناه من إحساننا الصَّفْو ؛ فتبادَرُوا عند ذلك يتساقَطُون من الأسوار ، تَسَاقُطَ جَنِيَّات الثِّمار ؛ فُرادىٰ ومَثْنىٰ ، آئبين إلىٰ الحُسْنىٰ ؛ فيسَعُهم الصَّفْح ، ويُحْسِبُهم المَنُّ والمِنَح .

ولمـا رأىٰ الخائن قلّةَ من بَقِي معه ، وشاهد تفرُّق مَنْ ذلك الموقفُ جَمَعَه ؛ أمر بسَرَاح مَنْ فى قبضته وسِجْنه ، وآعتقدَهم عَوْناً له فكانوا أعونَ شيءٍ علىٰ وَهْيِه ووَهْنه ، وآعتمد النـاسُ فى بقيَّة يومهم السُّورَ نتوسَّع أنقابُه ، ونتخرّق أبوابُه ؛ إلىٰ أنْ جَنَّهم

الليل، وحاقَ منهم بالأعداءِ الوَيْل؛ ولزِمَ كلٌّ مَرْكزه، ولم يكُنِ الليلُ ليَحْجُبه من عَمَله ولايَحْجُزَه؛ و بات الفُرَّار إلينا يَهرُبُون ، ومن كل نَفَق يتَسَرَّبُون؛ فلما ٱرتفعَ الضِّياء، ومَتَع الضَّحاء ، أمرنا ولدَيْنا : يعقوبَ وعبدَ الواحد ، ووزيرَنا القاعدَله بالمَراصد، بأنْ زحَفُوا إليها، مع أطلائِنا تحتَ راياتِنا المنصُورة عليها؛ فرجفَتْ قلوُبهُم، ووجبَتْ جُنوبُهم ؛ ولم يكنْ إلا كَلَا حتّٰى ٱمتُطِيَتْ تلك الصَّهوه ، وتُسُنِّمت فيها الذِّروه ، وتُسُلِّمت بيـد العَنوه ، وفُصِمتْ عُراها عُرْوةً عُرْوه ، وأُنْزِلُوا من صَياصِـيهم ؛ وتمكَّنتْ يدُ القهر من نَواصيهم، وحقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب من معَاصِيهم؛ وفرّ الشَّقِيُّ إلىٰ فِناء داره، فى نَفَر من ذَوِيه وأنصاره؛ وفيهم ولدَاه مسعودٌ وعُثْمان، ووزيرُه موسىٰ ابنُ علىّ معينُه علىٰ البغْيِ والعِصيان؛ وعبدُ الحق بن عثمانَ الخائنُ الغادر، وٱبنُ أخيه العاملُ بعمله ثابتُ بنُ عامر، فتكنَّفَهم هنالك أولياءُ دولتنا العليه، فأوردُوهم ويوسفَ ولدَ الشقِّ السالِبِ حِياضَ المنيَّه، ونُبِذتْ بالعَراء أجسامُهم، وتقدّمْنا للحِين، بأن يُمَدّ علىٰ الرعيَّـة ظلُّ التأمين ، ويُوطَّأَ لهم كنَفُ التهـدِئة والتسكين ، ويُوطَّدَ لهم مِهادُ العافيه، وتُكفَّ عنهم الأكُفُّ العاديه، حتّٰى لاتمتَدَّ إليهم كفُّ منتهِب، ولايلتفِتَ نحوَهم طَرْفُ مستلِب ؛ ومَنِ ٱنتهبَ شَيْئا أُمِرَ بردّه ، وصُـدَّ عن قَصْده ـ وكَمُلَ لنا والحمدُ لله بالٱستيلاء علىٰ هذا القُطْر جميعُ البلاد ، الداخلةِ فى وِلَاية بني عبد الواد ؛ ونُسِختْ منها دولَتُهم، ومُحِيَتْ من صَحِيفتِها دَعْوتُهم؛ وعُوِّض الرَّعايا من خَوْفهم أَمْنا، ومن شُؤْمهم يُمْنا؛ وشَمِلتهم كلمتُنا الراقية، المنصورةُ بكلمةِ الله الباقية؛ وفى ذلك معتَبَرٌ لأهـل اليقين، والأرضُ لله يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقين .

والحمدُ لله علىٰ هذه النعمة التى أفاضَتْ علىٰ النِّعم جِلالا ، والصَّنيعة التى بَهَرت الصنائِعَ جَمالا ؛ وأَضْفَتْ علىٰ المسلمين من الصَّلاح والعافية سِرْبالا . وقد رأينـا من حَقِّ هذا الإنعام الجَسيم، والصُّنْع الرائِقِ الوسيم؛ أن نتبِـع العفوَ بعد المقْدُره،

بالإحسان لمن أسلَفَ لنا غَمْطَه أو شُكْره ؛ [فمَننَّا] (١) علىٰ قبائل بَنِي عبد الوادِ، وأضْفَينا عليهِم صُنوفَ المَلابس نِساءً ورِجالا، وأوسَعْنا لهم في العطَاء مجَالا، وأفعَمْنا لهم من الحِبَاء سِجَالا، وأقْطَعْنا لهم من بلاد المَغْرِب حاطَها الله تعالىٰ ماهو خَيْر من بلادهم، وحَبَوْناهم منها بما كَفَل بإحسابِ مُرادهم، وإخْصابِ مَرادِهم، وخَلَطْناهم بقبائل بني مَرِين، وحُطْناهم باتِّحاد الكلمة من تقوُّل المتقوِّلين، وتزوير المزوِّرين، وأعدَدْنا منهم لأوَان الجهاد أوفَرَ عَدَد، وأعتَدْنا من فُرْسانهم ورجالهم لِطعَان الأَعادِي أكْبَرَ مَدَد، وأزِيل عن الرَّعايا بهذه البلاد الشَّرْقيَّة إصْرُهم، وأزِيح عنهم بتوَخِّي العدل فيهم جَوْرُهم ووِزْرُهم، وخفَّفْنا عنهم ما آد من المَغَارم، وهادَ من المكَارم، فانشرحَتْ صُدُورهم، وصَلَحت أُمُورُهم.

والحمدُ لله الذي ثَلَّ محالَّ الباغين ومَجَالَهم، وأوْرَثَنا أرضَهم ودِيَارَهم وأموالَهُم، وأخَذَهم بما احتَقَبُوا من المَآثم، واكتسَبُوا من الجَرائم واستَحلُّوا من المَحَارم، وأباحُوا من المُسْكِرَات، وأذاعُوا من المُنْكَرَات، وطالَمَا أصبح رَبْعُهم معدِنَ الفُسوق، ومَوْطِنَ العُقُوق، ومَقْطَنَ إضاعة الحقُوق، لاسيَّما في أيام المَسْرور بهَنَاته، المَغْرورِ بما سَوَّلَ له الشيطانُ وأملىٰ له من تُرَّهاتِه، المشْهورِ بقتْل أبيه، المأثُورِ من مَثالبه ومَعَايبه بما لم يأتِ الدَّهْرُ له بشَبِيه، ولقد طبَّقَتِ الآفاقَ مَعاصِيه، وبلغَتْ أخبارُ خِيانَتِه مَنْ بأطراف المَعْمور وأقاصِيه، ولكنَّ الله تعالىٰ أملىٰ له لِيُكَثِّرَ مآثِمَه، حتّىٰ إذا شاء أخَذَه أخْذَ القُرىٰ وهيَ ظالِمه.

والحمدُ لله الذي طهَّر بأيدينا هذه الأرجاءَ من أرجاسه، ورَحَضَ عنها بأيْدِينا أوْضارَ أدناسِه وأنْجاسِه، وأتاح لأهلها بهلاك هذا المَرِيد المُرادَ، وأراحَ منه ومن شِيعتِه

(١) بيض في الأصل لهذه الكلمة وقد اقتبسناها من المقام

البـلادَ والعباد ؛ ولو لم يَكُنْ إلا مانال الحُجَّاجَ من تعنيــه وتعدِّيه (١) ، وطالَ عليهم من تَعرُّضـه لهم وتَصدِّيه ؛ حتَّى حجَزَ عن الحِجاز الشريف قُصَّادَه ، وحجرَ بقَطْع السبيل عن بيتِ الله الحرام مَنْ أراده ؛ فكم سلَبَ الحُجَّاج ، وسَدَّ عليهم المَسَالك والفِجَاج ؛ وفَرَّق فريقَهـم ، وعوَّق طريقَهم . والآنَ بحمـد الله حقَّت الحقَائق ، وآرتفَعتِ العَوائِق ؛ وصَحَّ العَليل ، ووَضَح السبيل ؛ وتَسَهَّل المَرَام ، وتيَسَّر القصـدُ إلىٰ البيتِ الحَرَام ؛ مكانٌ تَرِدُه الزُّوَّار عليكم أرسالا ، ووفودُ الأبرارِ للسَّلْم خِفَافاً وثِقَالا ؛ يأتُونَ من كلِّ فَجٍّ عميق ، ويقْضُون ما يقضون من مَنَاسكهم ، آمِنِين فى مسالكهم ، إلىٰ البيت العَتيق ؛ وهكذا أيضـا خَلَا وجْهُنا لِجهاد الرُّوم ، ولإعدادِ مَن يغزونهم فى عُقْر دارِهِم للقَصْدالمَرُوم ؛ وأن نجَدِّد من هذا العمل بجزيرة الأنْدَلُس حماها اللهُ تعالىٰ ما لِسَلَفنا بها سَلَف ، ونبَدِّد من شمل عُبَّاد الصليب ما نخلَفهم بفَضْل الله تعالىٰ خيْرُ خَلَف ؛ فعَمَلُ الجهاد ، بهذه البِلاد ، هو الفضيلةُ التى لنا اللهُ سبحانه ذَخَرها ، والحسنةُ التى فى صحائف أعمالنا سَطَرها ، وبجيوشِنا المنصورة عزَّ دينُ الإسلام بهذا المغرب الغريب ، وبسُيوفِنا المشـكورةِ والله المشكور ذَلَّ بها الصَّليب ، أوْزعَنا اللهُ تعالىٰ شُكْرَ آلائِه ، وأمتَعَنا بتواتُرِ نَعْمائه ، بمَنِّه وفضله .

وأنهيْنا لِعلْمِكم الكريم هذه الأنباءَ السارّه ، والآلاءَ الدَّارّه : لمـا ذكَرْتم من تَشَوُّفكم لِآستِطْلاعِها ، وسـطَّرتم من تشوُّقِكم لِآستماعها ، ولِعلْمِنا أنكم تُسَرُّون بقَطْع دابر الباغين ، وتستَبْشِرُون بحَسْم أدْواءِ الطاغين ؛ وتُؤْثِرُون الإخبارَ بِآئتِلاف الكلمة علىٰ أعداء الله الكافرين إيثارَ الحـامدين لفِعْل الله تعالىٰ فى إظهار دِينِـه الشاكِرِين . لازِلْتم تُشْرَعُ نَحْوَكم البشائر ، وتُفْرَع بِذِكْرِكم المَنَابر ، وتُرْفَع لآجتلاء آثار أمركم الستائر ،

(١) لم يذكر فى الكلام جواب لو ، ولكنه معلوم أى تكفى تأمل .

وٱستِجْلَاء أخبارِ سِيرَكم الباهرةِ النَّواظِر، وتُجْمَعُ لسجَاياكم السنيَّةِ العَلَاء، ومَزَاياكم العليَّة السَّناء، ثواقبُ المناقِب وقولُ خيرِ المَفَاخر، إن شاء الله . والسلام الأتم، الأضْوَع الأنَمّ، يخُصُّ إخاءَكم الأوْفىٰ، ورحمةُ الله و بركاتُه .

قلت : جواب هذا الكتاب [تقدّم] فى الكلام علىٰ المكاتبات عن الأبواب السلطانية فى المكاتبات إلىٰ الملوك .

*
* *

وهذه نسخةُ كتابٍ ورد من أبى الحَسَن المَرِينِيّ صحبةَ الهَدَايا ،والحُرَّةِ الحاجَّة فى شهر رمضانَ المعظَّم سنةَ ثمان وثلاثين وسبعمائة، ونصُّه بعد البسملة :

من عبدِ الله علىٍّ أميرِ المسلمين ، ناصرِ الدين ، المجاهِدِ فى سبيلِ ربِّ العالمين، ملِكِ البرَّيْن ، مالكِ العُدْوتَيْن ، ٱبنِ مولانا أميرِ المسلمين ، المجاهدِ فى سبيل رب العالمين ، ملِكِ البرَّيْن ، وسُلْطان العدوتين ، أبى سعيد ، ٱبنِ مولانا أمير المسلمين ، المجاهِدِ فى سبيل رب العالمين ، ملكِ البرَّيْن ، وسلطانِ العُدْوتين ، أبى سعيدٍ(١) ، ٱبنِ مولانا أميرِ المسلمين ، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ملكِ البرَّين، وسلطان العُدْوتين ، أبى يوسُفَ يعقوبَ بن عبدِ الحق ، منَح الله التأييدَ مَقامَه ، وفسَح لفتْح مَعَاقِل الكُفْر وكَسْر جَحافِل الصُّفْر أيَّامه .

إلىٰ السلطان الجليلِ ، الكبيرِ ، الشهيرِ ، العادلِ، الفاضلِ، الكاملِ، الكافلِ، الملكِ، الناصرِ، المجاهدِ،المُرابطِ، المؤيَّدِ، المنصورِ، الأسعدِ، الأصْعَدِ، الأرْقىٰ ، الأوْقىٰ ، الأمجَدِ، الأنْجَد، الأفْخَم، الأضْخَم ، الأوحد، الأوْفىٰ، ناصر الدين، عاضد كلمة المسلمين ، مُحْيِي العدلِ فى العالمين، فاتِح الأمصار ، حائز مُلْك الأقطار ، مُفِيد

---

(١) تقدم فى ص ٨٧ من هذا الجزء التنبيه علىٰ سلسلة نسب أبى الحسن فتنبه .

الأَوْطار، مُبيد الكُفَّار، هازِم جُيوش الأرْمَن والفَرَنْج والكُرْج والتَّتار، خادِم الحرمين، غَيْث العُفَاه، غَوْث العُنَاه، مُصَرِّف الكتائب، مُشَرِّف المواكب، ناصر الإسْلام، ناشِر الأعْلام، فَخْرِ الأنام، ذُخْرِ الأيَّام، قائِد الجُنُود، عاقد البُنُود، حافظ الثُّغُور، حائط الجُمْهور، حامِي كلمةِ الموحِّدين، أبي المَعَالى، محمدِ بنِ السلطان؛ الجليل، الكبيرِ، الشهيرِ، الشهيدِ، الخطيرِ، العادل، الفاضِل، الكافل، الكامِل، الحافِظ، الحافِل، المؤيَّد، المكرَّم، المبَجَّل، المكَبَّر، الموقَّر، المعزَّر، المعزَّز، المجاهد، المرابط، المُثاغر، الأوحِد، الأسعِد، الأصْعِد، الأوفى، الأفْخَم، الأضْخَم، المقدَّس، المرحوم، الملكِ المنصور، سيفِ الدنيا والدِّين، قَسِيم أمير المؤمنين. أبقى اللهُ مُلْكُه موصولَ الصَّوْلة والاقتِدار، مَحْمِيّ الحَوْزة حامياً للدِّيار، حميدَ المآثِرِ المأثُورة والآثار، عزيزَ الأولياءِ فى كلِّ مَوْطِن والأنصار.

سلامٌ كريم، زاكٍ عَمِيم، تُشْرِقُ إشراقَ النهار صَفَحاتُه، وتَعْبَقُ عن شَذا الروض المِعْطار نَفَحاتُه، يَخُصُّ إخاءكم العَلِيّ، ورحمة الله وبركاته.

أما بعـد حمد الله الذى وَسِع العبادَ مَنًّا جَسِيما، وفَضْلا جَزِيلا، وألهمهم الرَّشادَ بأنْ أبدى لهم من آثار قدرته، على مقْـدار وَحْدته، بُرهاناً واضِحاً ودليلا، وألزمَ أُمَّة الإسلام، حَجَّ بيتِه الحرام، من استطاعَ إليه سبيلا؛ وجعل تَعظيمَ شَعائِره من تَقْوى القلوب، ومَثَاباتِ مَحَطِّ الأوزار والذُّنُوب؛ فما أجزَلَ نعمَتَه مَنِيلا، وأجملَ رحمةَ ربِّه مَقِيلا؛ والصلاةِ والسلامِ على سـيدنا ومولانا محمدٍ المصطفى من أفضـل العرب فَصِيلةً، فى أكمل بِقَاع الأرض فضيلة، وأكْرمِها جملةً وتَفْصِيلا، المجتبى لخَتْم الرساله، وحَسْم أدواء الضَّلاله، فأحسَبَ اللهُ به النبوّةَ تتميما والرسالةَ تكميلا، المخصُوص بالحوض المَوْرُود، والمَقَامِ المحمود، يومَ يقولُ الظالم ﴿ياوَيْلَتى لَيْتَنِي لَمْ أتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلا﴾ المبوَّإ

من دار هجرته، ومقرّ نُصْرته، مَحلًّا مابين بيته ومِنْبره فيه روضةٌ من رياض الجنّة لم يزلْ بها نَزِيلا ؛ والرضا عن آله الأبْرار، وأصحـابِه الأخْيار، الّذين فضَّـلتَهْم سابقةُ السعادة تفضيلا، وأهَّلَتْهم العنايةُ [بأمرِ الدّين إلىٰ أنْ يوسِعُوا الأحكامَ بُرْهانا ودليلا، فإنا نحيط علم] (١) الإخاءِ الأعزِّ ماكان من عَزْم مولاتنا الوالدةِ قدّس اللهُ رُوحَها، ونوّر ضَرِيحَها، علىٰ أداء فريضة الحجِّ الواجِبه، وتوفيَةِ مَناسكه اللازِبَهْ؛ فاعترض الحِمَـام، دُونَ ذلك المَرَام، وعاقَ القَـدَر، عن بلوغ ذٰلك الوطَر، فطُوِي كتابُها، وعُجِّل إلىٰ مَقرِّ الرحمة بفضل الله مآبُها، وعلىٰ الله أجرُها، وعنـده يُحتَسَبُ ذُخْرها، وإنَّ لدينا مَنْ نُوجب إعظامَها، ونُقيمها بحكم البِرّ مَقامَها، وعزْمُها إلىٰ ما أمَّلتْـه مصروف، وأملُها إلىٰ ما كانت أمَّتْه موقُوف؛ وهى محلُّ والدتنا المُكَرَّمة، المبرورةُ، الأثيرةُ، الموقَّرة، المبجَّلة، المفضَّـلة، المعزَّزة، المعزَّرة، المعظَّمة، المطهَّرة؛ أسنىٰ اللهُ مكانَتَها، وسَنَّى من هـذا القصـد الشريف لُبانَتَها؛ وقد شيَّعناها إلىٰ حجِّ بيت الله الحرام، والمُثُولِ بحولِ الله تعـالىٰ مابينَ زمْزَمَ والمَقَام؛ والفوزِ من السلام، علىٰ ضَرِيح الرساله، ومَثابة الجَلاله، بِنَيْل السُّول والمَرَام: لتظفَرَ بأملها المَرْغُوب، وتَنْفر بعد أداء فَرْضها لأكرم الوُجُوب.

وحينَ شَخَصَ لذٰلكم الغرضِ الكريم، مَوْكِبُها، وخلَص إلىٰ قَصْد الحَرَم العظيم، مَذْهَبُـا؛ والكرامةُ تُلْحِفها، والسـلامةُ إن شاء الله تكْنُفُها؛ أصحَبْناها من حُور دولتنا وأحْظيائها، ووجُوه دعوتنا العليَّـة وأوليائها؛ مَنِ اخترناه لهذه الوِجْهة الحميدة الأثر، والرِّحْلة السعيدة الوِرْد إن شاء الله تعالىٰ والصَّدَر؛ من أعيانِ بنى مَرِينٍ أعزَّهم الله تعالىٰ والعربِ، وأولادِ المشايخ أُولى الديانة والتقوىٰ المـالئين دِلاءَ القُرَب، إلىٰ

(١) فى الأصـل وأهلتهم العناية الاخاء الخ ولايخفى ما فيه . ولعله سقط من قلم الناسخ شىء فزدنا مابين الترييعين لا على أنه هو الساقط بل ليرتبط الكلام نوع ارتباط تأمل .

عَقْـد الكَرْب، وكلِّ من له أثرة مشهوره، وشُهْرةٌ بالمَزايَا الراجحة والسَّجَايا الصالحةِ مأْثُوره، وقصدُهم من أداء فرضِ الحجِّ قَصْـدُها، ووِرْدُهم إن شاء اللهُ تعـالىٰ من مَنْهل بركاتِه الجمَّة وِرْدُها، وهكذا سيَّرنا من تُحَفِ هذه البلاد إليكم ماتيَسَّر فى الوقت تَسْيِيرُه، وإن تعذَّر فى كثيرٍ ممـا قصدناه ولهذا الغرض أردناه تَيْسِيرُه، لطُول المَغيب عن الحضره، والشُّـغُل بتمهيد البلادِ التى فتحها اللهُ علينا فى هـذه السَّفْره، وعَيَّنَّا لإيرادها لدَيْكم، و إيفادِها عليكم، أبا إسحاقَ ٱبنَ الشـيخ أبى زكريَّا يحيىٰ بنِ عثمانَ السُّوَيْدى، وأميرَ الركب الحسنَ بن عِمْران وغيْرَهم، كتب الله سـلامَتَهم، ويَمَّن ظعنَهم و إقامتَهم. ومَقامُ ذلك الإخاءِ الكريم يُسَنِّى لهم من اليُسْرىٰ والتسهيل القصدَ والسُّول، ويأمُر نُوَّاب مالَهُ من الممالك، وقُوَّامَ مابها من المَسَالك، لتكْمُلَ العناية بهم فى المَمَرّ والقُفُول. ومعظَمُ قَصْدِنا من هذه الوِجْهة المباركة إيصالُ المُصْحَف العزيز الذى خَطَطْناه بيَدِنا، وجعلناه ذخيرةَ يومِنا لغَدِنا، إلىٰ مسجد سيدنا ومولانا، وعصمةِ دِيننا ودُنْيانا، محمدٍ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم بطَيْبةَ زادها اللهُ تشريفا، وأبقىٰ علىٰ الأيام فَخْرَها مُنيفا، رغبـةً فى الثواب، وحِرْصا علىٰ الفَوْز بحَظٍّ من أجر التـلاوة فيه يومَ المآب.

وقد عيَّنَّا بيَدِ محلِّ الوالدة المذكورة فيــه، كَرَّم الله جَبْهَتَها، ويَمَّن وِجْهَتَها، من المـال مايُشْـتَرىٰ به فى تِلْكم البلادِ المَحُوطةِ من المستَغَلَّات ما يكون وقْفا علىٰ القَرَأة فيه، مؤبَّدا عليهم وعلىٰ غيرهم من المـالكيَّة فوائدُه ومجَانِيــه. والإخاء الكريم يتلقَّى من الرُّسُل المذكورين ما إليهم فى هذه الأغراض ألقيناه [ويأمر] باحضارهم لأدائهم بالمشافهة ما لدَيْهم أو عَيْناه، ويُوعِز بإعانتهم علىٰ هذا الغَرَض المطلوب، ويُيَسِّر لهم أسبابَ التوصل إلىٰ الأَمَل والمرغوب، وشأنُهُ العونُ علىٰ الأعمال الصالحه، ولا سيما

ما كان من أمثال هذا إلىٰ مثل هذه السُّبُل الواضحه، وشكْرُ بادِراتكم موطَّد الأسَاس، مطَّرِد القياس، متجدِّدٌ مع اللَّحَظات والأنفاس؛ والله يَصِل للإخاء العلِّى نُصْرةَ أيامه، ويوالى نُصْرة أعلامه؛ ويُبْقِى الثُّغورَ القصِيَّه، والسُّبُل السَّرِيَّه، منوطةً بنَقْضه وإبرامه، محُوطةً بمعاضدةِ أسيافِه وأقلامِه، والسلامُ الكريمُ العميم، يخصُّ إخاءكم الأعزّ، ورحمةُ الله وبركاته ـ وكتب فى يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين من ربيع الأوّل عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة .

⁂

وهذه نسخةُ كتابٍ عن السلطان عثمانَ بن أبى العباس المَرِينِىّ، فى العشر الأوسط (١) من شعبانَ سنةَ أربع وثمانمائة، وهو :

من عبدِالله ووَلِيِّه : عثمانَ أميرِ المسلمين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين، سلطانِ الإسلام والمسلمين، ناشرِ بِسَاط العدل فى العالَمين، المقتدى بآثارِ آبائه الكِرام، المقتَفِى سُنَنَهم الحميدةَ فى نُصرة الإسلام، المُعْمِل نفسَه العزيزةَ فى التهمُّم بما قلّده اللهُ من أمور عِباده، وحِياطة ثُغُوره وبِلاده، سيفِ الله المسْلُول علىٰ أعدائه، المنتشرِ عَدْلُه على أقطار المعمُور وأنحائِه، ظلِّ الله تعالىٰ فى أرضه، القائم بسُنَّته وفَرْضه، عمادِ الدنيا والدِّين، علم الأئمة المهتَدِين، ابنِ مولانا السلطانِ المظفَّر القان الخليفة الإمام، ملكِ الملوك الأعلام، فاتحِ البُلْدان والأقطار، ممهِّد الأقاليم والأمصار، جامِعِ أشْتات المَحامِد، مَلْجَإِ الصادرِ والوارِد، الملكِ الجَوَاد، الذى حلَّتْ محبته فى الصدُور محلَّ الأرواح فى الأجساد، أميرِ المسلمين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين، أبى العبَّاس ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين، أبى سالِمٍ، ابن مولانا

(١) جرى على طريقة بعض النحاة وان كان الأكثر أنه يقال العشر الوسطى أو الوسط .

أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، أبى الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل ربِّ العالمين، أبى سعيد، ابن مولانا أميرالمسلمين، المجاهد فى سبيل ربِّ العالمين، أبى يوسُف يعقوبَ بن عبد الحق؛ وصلَ اللهُ تعالىٰ أسبابَ تأييده وعَضْدِه، وقضىٰ باتصال عُرْف تجديدِ سَعْدِه، وأناله من جميل صُنْعه ما يتكفَّل بتيسيرِ أمْره و بلُوغ قَصْده.

إلىٰ محلِّ أخِينا الذى نُؤْثِر حَقَّ إخائه الكريم، ونُثْنى علىٰ سلطانه السعيد ثَناءَ الولىِّ الحميم، ونشكر ماله فينا من الحُبِّ السليم، والوُدِّ الثابتِ المُقِيم، السلطانِ الجليل، المـاجدِ الأصيل، الأعزِّ الخطيرِ المَثِيل، الشهيرِ الأمْجَد الأرفعِ، الهمامِ الأمْنَع؛ السَّرِىِّ الأرضىٰ؛ المجـاهدِ الأمْضىٰ؛ الأوحدِ الأسْنىٰ، المكين الأحْمىٰ؛ خَديم الحرمين الشَّريفيْن، حائز الفَخْرينِ المُنيفيْن؛ ناصرِ الدُّنيا والدِّين، مُحيِي العدلِ فى العالمين؛ الأجَدّ، الأوَدّ، المَكِين، الأخلص، الأفضل، الأكمل، أبى السَّعادات فَرَج، ابن السلطان الجليل، الأعَزّ المَثِيل، الخطير الأَصِيل، الأرفَع، الأمجد، الشهير، الهُمَام، الأوحد، الأسمىٰ، الأسْرىٰ، الأرضىٰ، المجاهد، الأمضىٰ، خَديم الحرمين الشريفين، حائز الفَخْرين المُنيفين، الافضلِ، الأكمل، المبرُور، المقدَّم، المرحوم، أبى سعيد (برقوق) بن أَنَص؛ وصل اللهُ تعالىٰ لسلطانه المؤيَّد جَدًّا لا يُعْجَم عُودُه، وعِزًّا لا يَمِيلُ عَمُوده، ونصرا يملأ قُطْرَه بما يَغَصُّ به حَسُودُه، وعَضُدا يأخُذ بزِمَام أملِه السنىِّ فيسُوقُه ويقُودُه.

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله و بركاته.

أما بعدَ حمدِ الله علىٰ سُبوغ نعمائه، وترادُفِ لُطْفه وآلائه؛ الذى عَرَّفنا من وَلَائكم الكريم ما سَرَّنا من اطِّراد اعتِنائه، وأبْهج النُّفُوسَ والأسماعَ من صَفَاء وَلَائه،

ومواصلة صَفائه ، والصلاةِ والسلامِ الأكملين على سيدنا ومولانا محمد خاتَمِ رُسُله وأنبيائه ، ومبلِّغ رسالاتِه وأنبائِه ، صاحبِ المقامِ المحمُود ، والحوضِ المورُود ، واللِّواء المعقُود ، فأكْرِمْ بمَقَامه وحَوْضه ولِوائِه ؛ والرضا عن آله وصحبه وأوْليائه ، الذين هم للدِّين بدورُ اهتدائِه ونُجُوم اقتدائِه ؛ وصلةِ الدعاء لمقامكم الكريم بدَوام عزِّه واعتِلائه ، واقتِبال النصرِ المبالِغ فى احتفالِه واحتفائه ، وحياطةِ أنحائِه وأرجائِه ، وتأييدِ عَزَماتِه وآرائه .

فإنا كتبْنا إليكم كتب الله لكم سَعْدا سافِرا ، وعَزْما ظافِرا ، من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاءِ كَلَأَها الله تعالى وحَرَسها ، ونِعَمُ الله سبحانَهُ لدينا واكفة السِّجال ، وولاؤُه جلَّ جلالُه سابغُ الأذيال ، وخلافتكم التى نَرْعَى بعين البِرِّ جوانِبَها ، ونقتَفِى فى كل مَنْقَبة كريمةٍ سِيَرَها الحميدةَ ومَذَاهِبَها - وإلى هذا وصلَ الله سعدكم ووالى عَضْدكم ، وكتابُنا هذا يُقرِّر لكم من وِدادِنا ماشاع وذاع ، ويؤكِّد من إخلاصِنا إليكم ما تحدَّثُ به السُّمَّار فتُوعِيه جميعَ الأسماع ؛ وقد كان انتهى إلينا حركةُ عدُوِّ الله وعدُوِّ الإسلام ، الباغى بالاجتراء على عباده سبحانَه بالبُؤْس والانتِقام ، الآخذِ فيهم بالعَيْث والفَساد ، الساعى بجَهْده فى تَهْديم الحُصُون وتخرِيب البِلاد ، وتَعرَّفْنا أنه كان يعلِّق أملَه الخائبَ بالوُصُول إلى أطرافِ بلادكم المِصْريه ، وانتهازِ الفُرصة على حينِ غَفْلة من خلافتِكم العليه ، والحمدُ لله الذى كفى بفضله شرَّه ، ودفع نِقْمته وضُرَّه ، وانصرف ناكِصًا على عَقِبِه ، خائبًا من نَيْل أرَبِه . ولقد كُنَّا حينَ سمِعْنا بسُوء رأْيِه الذى غلبه اللهُ عليه ؛ وما أضمر لخلقِ الله من الشرِّ الذى يجِدُه فى أخراه ظلَّه يسعى بين يدَيْه [عزمنا على] أنْ نُمِدّكم من عساكرنا المظفَّرة بما يَضيق عنه الفَضا ، ونجهِّز لجهتِكم من أساطيلنا المنصورة مايُحْمَد فى إمداد المناصَرةِ ويُرتضى ؛

فالحمدُ لله علىٰ أنْ كفىٰ المؤمنين القِتَال ، وأذهبَ عنهم الأَوْجال ، ويَسَّر لهم الأعمال ، وهَيَّأ لخلافتكم السنِيَّة وللسلمين ، هناءً يتضمَّن السلامةَ لكم ولهم علىٰ تعاقُبِ الأعوام والسِّنين .

وبحسَبِ مالنا فيكم من الوُدِّ الذى أَسَّستِ المُصافاةُ بُنْيانَه ، والحُبِّ الذى أوضَحَ الإخلاصُ بُرْهانَه ، وقع تخَيُّرنا فيمن يتوجَّه من بابنا الكريم لتفصيل مُجْمَلَه ، وتقريرِ مالدَيْنا فيه علىٰ أتَمِّ وجه الاعتقادِ وأكمله ؛ علىٰ الشيخ ، الأجل ، الشريف ، المبارَك ، الأصيل ، الأسنىٰ ، الحَظِىّ ، الأعز ، الحاج ، المبرور ، الأمين ، الأحفل ، الأفضل ، الأكمل ؛ أبى عبدِ الله محمد ، ابن الشيخ الأجلّ ، الأعزِّ ، الأسنىٰ ، الأوجه ، الأنْوَه ، الأرفَع ، الأمجد ، الآثَر ، الأزهىٰ ، الشريفِ ، الأصيل ، المعَظَّم المَثِيل ، الأشْهَر ، الأخْطَر ، الأمْثَل ، الأجمل ، الأفضل ، الأكمل ، المرضِىّ ، المقَدَّس ، المرحوم أبِى عبدِ الله محمد ، بن أبى القاسم ، ابن نفيس الحَسَنى العراقى ؛ وصل الله تعالىٰ سعادتَه ، وأحمد علىٰ حضرتِكم السنِيَّة وِفادَتَه ، حسَبَ ما يفِى بشَرْح ماحَمَّلناه نقْلَه ، ويكمُلُ بإيضاحه لدَيْكم يقظَتَه ونُبْله ، إن شاء الله تعالىٰ ، وهو سبحانه وتعالى يُديم سعادتكم ، ويحفَظُ مَجادَتكم ، ويُسْنِى من كل خير إرادتكم ، والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

الجمـــــــلة الرابعة

(فى عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلُس)

والرسم فى ذٰلك أن يكْتُب «الأبوابُ الشريفة» ويصفها ، ثم يقول : «أبواب السلطان الفلانى» ويصفُه ، ويذكر ألقابَه ، ثم يدعُو له ، ثم يقول : «سلام كريم» ويَصفُه . من فلان ، ويذكر السلطان المكتوب عنه ، ثم يقول : أما بعدَ حمد الله ،

ويأتى بخُطْبة فى المغنىٰ تشتمل علىٰ التحميد، والتصلية علىٰ النبى صلّى الله عليه وسلم، والرِّضا عن الصحابة رضى الله عنهم؛ ثم يقول : فإنا كتبنا اليكم، ويأتى علىٰ ما يناسب المقام، ثم ينخرط فى سِلْك المقصُود إلى آخره ويختِم بالدعاء .

وهـذه نسخةُ كتاب كُتِب به عن أمير المسلمين السـلطان أبى عبدِ الله محمدِ بن أبى الحَجّاج يوسفَ بن نصرِ بن الأحمر، صاحب غَرْناطة — من الأندلُس، إلىٰ السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حُسَين" آبن الملك الناصر محمد بن قلاوون، إنشاء الوزير أبى عبد الله بن الخطيب، صاحبِ ديوان إنشائه، يشير فيه إلىٰ حادثة الفَرَنْج بالإسكندرية، الواقعةِ فى سنة سبع وستين وسبعمائة، إلا أنه وهِم فى لقبه الملوكىّ فلقبه المنصور . وهى :

الأبوابُ الشريفـةُ التى تعنو (١) لعزَّة قَدْرِها الأبواب، وتعتَزِى إلىٰ نَسَب عَذْبها الحِكمةُ والصَّواب، وتُناديها الأقطارُ البعيدةُ مفتخِرةً بوَلائها، واصلةَ السبب بعَلائها، فيَصْدُر بمـا يَشْفِى الجَوىٰ منها الجَوَاب، فإذا حَسُن منابٌ عن أئمة الهدىٰ، وسُبَّاق المَدىٰ، كان منهـا عن عُمومة النبوّة النُّوّاب؛ وإذا ضفَتْ علىٰ العُفَاة بغيرها أثوابُ الصِّلات، ضفَتْ منها علىٰ الكعبة المقدَّسـةِ الأثواب — أبوابُ السلطانِ الكبير، الجليلِ الشهير، الطاهرِ، الظاهر، الأوْحد، الأسْعد، الأصعد، الأمجد، الأعْلىٰ، العادلِ، العـالِم العَامل، الكامل، الفاضِل، الكافِل؛ سلطانِ الإسلام والمسلمين، رافع ظِلَال العـدْل علىٰ العالمين، جمالِ الإسلام، عَلَم الأعْلام، فخرِ الليالِى والأيَّام، ملِكِ البرين والبحرين، إمام الحرمين، مؤمِّل الأمصار والأقطار، وعاصبِ تاج الفَخَار، هازِم الفَرَنْج والتُّرك والتتار، الملكِ المنصور أبى الفُتُوح شَعْبان، آبنِ الأمير،

(١) فى الريحانة ج ١ ص ١٠٣ "تفتح" .

الرفيع المَجَاده ، الكريم البنُوَّة والوِلَاده ، الطاهِر الظاهِر ، الكبير ، الشَّهِير، المعظَّم ، الممجَّد ، الأسمىٰ ، الموقَّر ، الأعْلىٰ ، فخْرِ الملَّة ، سَـيْفِ الأُمَّة ، تاجِ الإمارة ، عِزِّ الإسلام ، جمالِ الأيَّام ، قَمَرِ المَيادين ، أسَـدِ أجَمَة الدين ، سِمَام الطُّغاة والمعتدين ، المقـدَّس ، المظفَّر ، الأمير أبي علىّ حسـين ، ٱبن السـلطان الكبيرِ ، الشهيرِ ، ملِكِ الإسلام والمسلمين ، والد السلاطين ، [سـيفِ خلافة الله فى العـالمين ، ولِىِّ أمير المؤمنـين ، وظهير الدين] (١) سلطانِ الحجِّ والجهاد ، وكاسى الحَرَم الأمِيـن ، قامِع المعتدين ، قاهِرِ الخَوَارج والمتمرِّدين ، ناصر السـنَّه ، محيي المِلَّة ، ملك البرَّين والبحرين ، مقِيم رُسُوم الحرمين الشريفـين ، العادِل ، العالم ، العامل ، الطاهر ، الظاهِر ، الأسعدِ ، الأصعدِ ، الأوحد ، الأعلى ، المنصور ، المؤيَّد المُعَان ، المرفَّع ، المعظَّم ، المبجَّل ، المؤمَّل ، المجاهد ، المُرابِط ، الغازى ، أبى عبد الله محمد بن قلاوون ، الصالحىّ أبقاه الله ، وفَلَقُ الصبـاح يشهَدُ بكماله ، وخدمةُ الحرمين الشريفين طرازٌ مُذْهَبٌ علىٰ حُلَّة أعماله ، ومُسَوَّراتُ الإسلام ، آمنةٌ علىٰ طول الأيام ، من إهماله ، ولا زال ركْنًا للدِّين الحنيف ، تتزاحَمُ علىٰ مستلَمه الشريف ، شفاه أمّالِه .

سلامٌ كريم ، بَرٌّ عميم ، كما ٱستودعتِ الرياضُ أسرارَها ، صَدْرَ النسيم ، وأرسلَتْ مطالعُ الفجر أنهـارَها ، من بحر الصَّباح الوَسِيم ، يَسْرى من الطِّيب ، والحمد المُطِيل المُطِيب ، فى الصَّوان الكريم ، ويقِفُ موقِفَ الأدَب والفهامه ، بمـا ٱسـتُحْفِظ من الأمانة إلىٰ محل الإمامه ، وقوفَ الحفيظِ العليم ، يعتمِدُ مَشارِعَ تلك الأبواب الشارِعة إلىٰ الفضل العَمِيم ، المقابِلة لِذِمام وسائل الإسلام بالصَّدْر المشْروح ، والبرّ الممنُوح ، والقَلْب السليم ـــ من معظِّم سلطانه ، ومُجِلّ شانه ، المفتخِر بالٱنتظام فى سِلْك

(١) الزيادة من "الريحانة" ج ١ ص ١٠٤ .

خُلْصانه، أمير المسلمين بالأندَلُس، عبدِالله الغالبِ بالله، محمدِ بن يوسفَ بن إسماعيل آبن فرج بن نصر، بلَّغه الله من رضاه أقصىٰ سُولِه، وأعانه علىٰ جهاد عدوِّ الله وعَدُوِّ رسولِه .

أما بعدَ حمدالله جاعِلِ قِلادةِ الإسلام، علىٰ الدوام، آمنةً من الآنخرام، والآنتثار، مفصَّلةَ النِّظام، بخَرَز المآثِرِ العِظام، والآثار . معرّف أهلِها، فى حَزْن البسيطة وسَهْلها عَوارِفَ الصُّنْع المُثار، وإقالةَ العِثَار . القويِّ العزيز الذى لايغالَبُ قَدَرُه بالإحتشاد والآستِكْثار، ولا يبدِّل غَيْبُه المحجُوب، بعدَ ماعيَّن حكْمَه الوُجُوب، فى خزائن الآستئثار، حتّٰى تظهرَ خبيئةُ عِنايتِه بأوليائه، المعترفين بآلائه، باديةً للأبصار، فيما قَرُب وبَعُد من الأعصار، ورحمتُه عند الآستغاثةِ به والآنتصار، فى مختلِف الأقطار والأمصار . الولىِّ الذى لاتُكَدِّر هِبَاتِ فضـله شروطُ الآعتصار، ولاتَشِين خُطبَ حمده ضرائرُ الآقتصار والآختِصار .

والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمد رسوله نُخْبة الاكوان، وسِرِّ الدُّهُور والأزمان، وفائدةِ الأدوار . نورِ الله المتميِّز باختصاصه، وآستِصْفائه واستِخْلاصه، قبل خَلْق الظُّلُمات والأنوار . ورحمتِه الوارِفةِ الشامله، الهامية الهامِلَه، علىٰ الهِضَاب والوِهَاد والنِّجاد والأغْوار. أقربِ عَوالم الشَّهادة والخَلْق، إلىٰ حضرة الحَقّ، علىٰ تعدُّد الرُّتَب وتَفاضُل الأطوار . منقِذِ النـاس من البَوار، ومُبَوِّئِهم من جِوار الله خيرَ الجِوار . نبِّىِ الرحمة والجِهاد والغِوَار . المنصورِ علىٰ الأحزاب عند ماآستداروُا بمثْوىٰ نُبوَّته علىٰ الأُطُم والأسْوار دَوْرَ السِّوار . الواعدِ عن ربه بظُهور دينه الحَقِّ علىٰ الأديان فَمَهْما أوقَدُوا نارَ الحرب تكفَّلَ الله لهم بإطفاء النار وإخماد الأُوَار .

والرِّضا عن آله وأصحابه حُماةِ الذِّمار، ومقتَحِمِى الغِمَار، وباذِلِى كرائم الأموال من دونِه ونَفائِسَ الأعمار، القائمين فى سَماء ملَّته للاهتداء بسُنَنِهم، والآقتداء بسَنَنِهم،

مَقامَ النجوم الهادِية والأقمـار ، ماصقلَتْ مَداوِسُ النَّسِيم سُـيوفَ الأنهار ، ونَجِل الوَرْدُ من تَبَسُّم البَهار ، وغازلتْ عيونُ زهَر المجرَّة عُيونَ الأزهار ، وطرَدَ أدهَمُ الليل أشهَبَ النهار .

والدُّعاءِ لتلك الأبْواب ، المتعدِّدة الحِجَاب ، المعوَّدة بآجْتلاء غُرَر الفتوح ، والمَطَالع المشيدة المَصَانع علىٰ العزِّ الممنوح ، والأَوَاوِينِ ، المؤيَّدة الدَّواوين ، بالملائكة والرُّوح ، بإعلاء المَظَاهِر والصُّروح ، وإنارة الله تعـالىٰ بأهِلَّة تلك السُّروج ساحاتِ تلكَ السُّروح ، ولا زالتْ أقلامُ بشائرها تأتِى علىٰ سُورة الفتح بأكمل الشُّروح .

فإنا كتبناه لمَثَابتكم السـلطانية دارِ العِـزِّ الأحمىٰ ، والمُلْك الأشرفِ الأسمىٰ ، والصِّيتِ البعيد المَرْمىٰ ، كتب اللهُ لها من عِنَايته ــ وقد فعل ــ أوفَرَ مقَاسِم النُّعمىٰ ، وجعل غيثَ نوالِها الأهمىٰ ، وحَظَّ جَلَالها من الله الأنْمىٰ ، ودامتْ كواكبُ سُعودها تمزِّق جلابِيبَ الظَّلْما ، وأخبارَ بأْسِها وَجُودِها ، وسعادةَ وُجُودها ، تَهْديها علىٰ البُعْد ركائبُ الدَّأْما ، وترفْـرِفُ برِيَاح آرتياحها أجنحةُ بنَـات المـا ، من منزلنا المحْبُور ، بسعادة سلطانكم المنصور ، وخِزْى عدوِّه المدْحُور ، بحمراءِ غَرْناطةَ : دارِ ملك الجهاد بجزيرة ثغر الأندلس ، وَالىٰ اللهُ عنها الدِّفاع ، وأنارَ بمشْكاة نُوره الذى وعد بإتمامه الأعلامَ منها والأيفاع ، ووصل لها بشَرَفِ مخاطبتكم الآرتفاعَ والآنتِفاع ، حتّٰى تَشْفَع بتَهَانِيكم الأوتارَ وتُوتِرَ الأشْـفَاع ، وآلاءُ الله لَدَيْنا ، بنِعْمةِ دينِ الإسلام علينا ، قد أنْجَلت اللسانَ الشَّكُور ، وإن آستنفدت الرَّواحَ والبُكُور ، والثِّقةُ بالله فى هذا الثغر الغريب قد كَثَّرت العدَدَ المَنْزُور ، والحقُّ الصَّرِيحُ قد كافَحَ الزُّور ، والتَّوطِينُ علىٰ الشهادة قد شَرَح الصُّدور ، وآقْتطَع فى الجنـة المَنازِلَ والدُّور ، والمعرِفةُ بمَقَام تلك الأبواب الشريفةِ عقيـدةٌ لاتُبدَّل ، وأدْواحُ عَلَائها حمائمُ الحَمْد بها تتهدَّل ، ومَحافِلُ

ثنائها تتراكم فى سمائها الألوّة والمندل ؛ [والحال ماعلمتم : بحرٌ زاخرُ الأمواج ، وعدوٌّ وافرُ الأفواج] وحرمٌ لولا اتّقاءُ الله مقتحم السّياج ، وجيادٌ ضمّرتها مصابرةُ الهياج ، وداءٌ على الأيّام متوقّع الاهتياج ، وعددٌ إلى الإصراخ والإنجاد عظيمُ الاحتياج ؛ فالنفوسُ إلى الله تُجهّز وتُسلّم ، والصّبيانُ فى المكاتب تُدرَّب على مواقف الشهادة وتُعلَّم ، والألسنةُ بغير شعار الإسلام لاتتنبس غالبًا ولا تتكلّم ، إلا أنّ عادةَ الخبير اللّطيف ، تخفيفُ الذُّعر المُطيف ، ونصرُ النّزر الضعيف ، على عدد التضعيف ؛ والحالُ تُزجى بين الحرب والسّلْم ، والمكالمة والكَلْم ، وتأميل الجَبْر ، وارتقابِ عاقبةِ الصَّبْر ، على حماة الدَّبْر .

وإلى هذا فإننا اتّصل بنا مارامت الرّوم من المكيدة التى كان دِفاعُ الله من دونها سدًّا ، والملائكةُ جُنْدا ، والعِصْمة سُورا ، والرّوحُ الأمينُ مَدَدا منصورا ، وأنها استنفدتِ الوُسْعَ فى احتشادها ، حتّى ضاقتِ اللُّجج عن أعوادِها ، وبلغتِ المجهودَ فى استنفادها ، حتّى غصّ كافرُ البحر بكُفّارها ، يَصيحُ بهم التأليب ، ويُذمِّرهم الصليب ، وقد سوّل لهم الشيطانُ كِيادَ ثغر الإسكندرية شجا صُدورهم ، ومرمى آمالِ غُرورهم ، ومُحوّم قديمهم ، ومتعلّل غريمهم ، ليهتِموا ثغر الإسلامِ بصدمتها ، ويقودُوا جنائبَ الساحل فى رُمّتها ، ويرفعُوا عن دينهم المعرّه ، ويتلقّفُوا فى القُدْس كُرَة الكرّة ، ويقلّصوا ما امتدّ من ظِلال الإسلام ، ويَشِيمُوا[2] سُيوفَ التغلّب على الشام ، ويحُولوا بينَ المسلمين وبين مَحطّ أوزارهم ، وحجّهم ومزارهم ، وبيتِ ربّهم الذى يقصِدُونه من كل فجٍّ عميق ، ويركبُون اليه نهجَ كلِّ طريق ، وقبرِ نبيّهم الذى يُطْفِئون بزيارته من الشّوق كلَّ حريق ، ويكْحلُون الجُفونَ بمشاهدةِ آثاره عن بُكاء

(١) الزيادة من الريحانة وهى لازمة كما لايخفى .

(٢) شام السيف غمده واستله ضدّ . والمراد هنا المعنى الثانى كما لايخفى .

وشَهِيق، وشوقٍ بذٰلك الحبيبِ خَليق . ويقْطَعوا حبلَ المسلمين حتّى لايتأتّى بلوغُ فريق ولا غَرضُ تشْرِيق، واللهُ مِنْ ورائهم مُحِيط، وبدِمَائهم مُشِيط، وبعِباده بَصير، ولِدينه الحقّ ولِيٌّ ونَصِير، ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَه بِالْهُدىٰ ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَه عَلىٰ الدِّين كُلِّه ولَوْ كَرِهَ المُشْرِكُون ﴾. فما هو إلّا أنْ صَمأَ(١) جرادُهم، وخَلَص إليها مُرادُهم، وفاض عليها بَحْرُهم، وعظُم من المحاولة أمْرُهم، حتّى آشْتَرَكَ الشّركُ بعضَ أسْوارِها، ونال النهبُ مستَطْرَف دِيَارها، وظُنَّت أنها الوَهْيةُ التى لاتُرْقع، والمُصيبةُ التى غُلّتها لاتُنْقَع، وآشْتَعل الباس، وذُعِرَ الناس، وأَرىٰ الشِّدّة مَنْ تدارك بالفَرَج، وأعادَ إلىٰ السَّعة من الحَرَج، وأنْشأ ريحَ النَّصْر عاطِرةَ الأَرَج، ونَصَر حزبَ الإسلامِ مَنْ لاغالِبَ لمن ينْصُره، وحصَر العدُوَّ من كان العدُوُّ يحصُره، وظهر الحقُّ علىٰ الباطل، والحالِى بزينةِ اللهِ علىٰ العاطل، فخرج العدُوُّ الخاسر عما حازه والسُّيوفُ تُرْهِقُه حيثُ تُلْفِيه، والسِّهام تُثْبِته وتَنْفيه، وغُرماءُ كَرَّة الإسلام تستَقْضِى منه دينَها وتستَوْفيه، والخِزْىُ قد جلَّل سِبَالَه الصُّهْب، وحِنَّاءُ الدِّماء قد خضَبَتْ مَشْيَختَه الشُّهب، والغَلَبُ قد أخْضعَ رِقابَه الغُلْب، فكَمْ من غريقٍ أرْدَتْه دُروعه، لَمَّا حُشِى بالرَّوع رُوعُه، وطَعِينٍ نُظِمتْ بالسَّمْهَرِىّ ضُلُوعه، فغُلِبوا هُنالِكَ وآنْقَلَبُوا صاغِرِين، وأَحَقَّ اللهُ الحقَّ بكلماته وقَطَع دابِرَ الكافِرِين، و﴿ كَمْ مِن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كثيرةً بإذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِين ﴾ . فأىُّ رحمةٍ منشورةٍ ضفَتْ علىٰ الإسلام ظِلالُها، وخِطَّة نعمةٍ آتَّسع نِطاقُها ورَحُبُ مَجَالُها، ومَجْلىٰ صَنِيعةٍ راق عُيونَ المؤمنين جمالُها، فاهتزَّتْ بها الأرضُ وربَتْ، وبِشُكْر الله جلَّ جلالُه أعْرَبَتْ، وآستَبْشَرت النُّفُوس، وذهَبَ البُوس، وضَفَا بمِنَّة الله اللَّبُوس، وظهرتْ عنايةُ الله بمَقَامكم، وإقالةِ عَثْرةِ الإسلام فى أيَّامكم، فما كانَ اللهُ سبحانَه لِيُضيع لكم خِدمةَ

(١) صمأ عليهم كمنع طلع أنظر القاموس فى باب المهموز .

الحرمين، وإنَّها للوسيلة الكُبْرىٰ، والذَّريعةُ إلىٰ سعادة الدنيا والأُخْرىٰ؛ وهى عُهدةُ اللهِ التى يصُونُها من كل اهْتِضام، وقِلادتُه التى ما كان يتْرُكُها بغير نِظَام. وكان من لطائفِ هذا الفَتْح الذى أجزَلَ البُشْرىٰ، وأوسَعَ أعلامَ الإسلامِ نَشْرا، ورُودُه بعد أنْ شُفِيت العِلَّه، ونُصِرت المِلَّه، وبعْدَ أن جَفَا الدهرُ وتجافىٰ، وعادىٰ ثُمَّ صافىٰ، وهجَر ووَافىٰ، وأمْرَضَ ثم عافىٰ؛ فلو ورد مُقدَّمه قبل تاليه، ونَقْدُه متأخِّرا عن كالِيه، أو كانتْ أواخِرُه بعيدًا ما بينَها وبَيْنَ أَوَاليه، لأَوْحَشَت الظُّنونُ وساءَتْ، وبلغتِ الهمومُ من النُّفوس ماشاءَتْ؛ فإنَّ الإسلامَ كالجسد يتَداعىٰ كلُّه لتألُّم بعْضِه، ويتَساهَمُ إخوانُه فى بَسْطه وقَبْضه، وسَماؤُه مرتبِطةٌ بأرْضه، ونَفْلُه متعلِّق بفَرْضه؛ فالحمدُ لله الذى خفَّف الأثقال، وألْهم حالَ الضُّرِّ الانتقال، وسوَّغ فى الشُّكرالمَقَال، وزاروأ قال، وجمع بينَ إيقاظ القلوب، وإنالة المطلُوب، وأنْ وجد العدوُّ طعمَ الإسلامِ مُرًّا فما ذاقَه، وعُودَه صُلْبا فما أطاقه، ورفَع عن طريقِ بيتِ الله ماعاقَه، وقاد إليكم فى بُيوتِكم فَضْلَ الجهادِ وساقَه [وردَّ المكر السَّيِّءَ علىٰ العدوِّ وأحاقه][(١)] فما كانتْ هذه المَكِيدةُ إلا داهيةً للكفر طارِقه، ونَكْبةً لعَصَب التثليث عارِقه، ومُعْجِزَةً من آثار النبيِّ الشريف لهذا الدين المنيف خارِقَه؛ واستأصلَتْ للعدوِّ المال، وقطَعَت الآمال، وأوهنَت اليمينَ والشِّمال. فبادَرْنا عند تعَرُّفِ الخبَر، المختال من أثواب المَسَرَّة فى أبْهىٰ الحِبَر، المُهْدى أعظَمَ العِبَر، إلىٰ تهنئتكم تطيرُ بنا أجنحةُ الارتياح، مُبارِيةً للرِّياح، وتستفِزُّنا دَواعِى الأفراح، بحَسَبِ الوُدِّ الصُّراح؛ وكيفَ لايُسَرُّ اليَسَار بيمينه [والوجهُ بجَبِينه، والمسلمُ بدِينه، وخاطبنا كم مهنئين ولولا العوائقُ][(١)] التى لاتبرَح، والموانعُ التى وضَحَتْ حتّى لاتُشْرَح، ومكايدةُ هذا العدوِّ الذى يأْسُو به الدَّهرُ ويَجْرَح، لم نَجْتَزِ بإعلامِ القلَم، عن إعمال القَدَم، حتّى نتشرفَ [بالوُرود علىٰ

(١) الزيادة من "الريحانة".

تلكَ المَثابةِ الشريفه، ونمتازَ بزيارةِ الأبواب المنيفه، فنقضى] (١) الفَرْض تحت رَعْيِها، وبركةِ سَعْيِها، لكن المرءُ جَنِيبُ أَملِه، ونيَّةُ المؤمن أبلغُ من عَمِله؛ فهنيئًا بما خوَّلكم الله من ظَفَرٍ شهِدتْ بِرِضَا الله مراسِمُه، وٱفترَّت عن ثُغور العناية الربَّانيَّـة مَباسِمُه، وتوفَّرتْ لديكم مَواهِبُـه ومَقاسِمُه، ويُهنِّئُ البيتُ المقدّسُ مكانُ فضلِ الله ومَنِّـه، وسلامةِ مِجَنِّه، ويهنِّئُ الإسلامُ عِصمةَ ثغره المُؤْشَر، وطهارةَ كتابه المُنْشَر، وجمالَ عُنْوانه، وقُفْـلِ صِوانه، وبابَ إيوانِه: مَرْفَأ الفُسْـطاط، ومَركَزَ لِواء الرِّباط، ومَحطَّ رحال الاْغتباط، ومتخيَّرَ الإسْكَنْدَر عند البِنَاء والاْختطاط. ومما زادنا بَجَحا بهـذا الفتْح، وسُرُورا زائدا بهذا المَنْح، ما تحقَّقْنا أنه يثير من شَفَقة المسلمين لهذا القُطْر الذى لا يزالُ يَطْرُقُه ما طرق الإسكندريةَ علىٰ مَرِّ الأيام، وتُجْلِب عليه بَرًّا وبحرًا عَبَدَةُ الأصنام، بحيثُ البَرُّ موصُول، والكُفرُ بكثرة العَـدَد يَصُول، ونيرانُ الجِوَار [متراَئيةٌ للْعِيان، والفَراسِخ القليلة] (١) متوسِّطةٌ بين مختَلِف النِّحل والأديان، والعدد لايُنْسَب، والصَّرِيخ إلّا من عند الله لايُحْسَب، فتُنْجِدُنا بالدعاء ألسِـنةُ فُضلائه، وتُسْهِمنا خواطرُ صالِحِيه وأوليائه، واللهُ لايقطَع عن الجميع عوائدَ آلائِه، ويُعرِّفنـا بركةَ أنْبيائه، وينصُرنا فى أرضِه بملائكة سَمَائه.

وقد كانــ ٱتَّصل بنا فى هــذه الأيامِ الفارطة الذُّخْرُ الذى مَلأَ اليد ٱستكثارا، والخَلَدَ اعْتِدادًا واستظْهارا، والهِمَمَ فَخارا، وأضاءَ القُطْرَ أنوارا: جوابُكم الكريمُ يُتَنَسَّم من نَفَحاته شَذَا الإذْخِر والجَلِيل، وتُلْتَمس من خِلال حافَاتِه بركاتُ الخليل، وتقرىٰ الوُجُوه به آثارَ المَعاهد، وتُلْتَمَح من ثنايا وِفادته بوارِقُ الفوائد، فأَكْرِمْ به من وافدٍ مَخْطوب، وزائرٍ مَرْقُوب، صَـدَعْنابه فى حَفْل الجِهاد انتحاء وٱفتِخارا، ثم صُنَّاه

(١) الزيادة من الريحانة .

فى كرائِمِ الخَزَائن ٱقتناءً لِخَلَف وادِّخارا ، وجعلْنا قِرَاه شُكْرا مِعْطارا ، وثناءً يبقىٰ فى الخافقين مُطَارا ، ودعاءً يُعْلِى اللهُ به لمقامكم السنِيِّ فى أوليائه مِقْدارا ، ويجهِّزُ به لِمُلْكِكم كما فَعَل أنصارا ، ويثيبُكم الجنةَ التى لا يَرْضىٰ السعداءُ بغيرها قَرَارا ، والله تعالىٰ يجعلُ لأفلاك الهَنَاء علىٰ مخاطَبةِ مقامِكم الرفيعِ العلاءِ مَدَارا ، ويُقِيمُ الشكرَ أَلزَمَ الوظائِف لحقِّكم ٱبتِدارا ، والثناء أَولىٰ ماتحلّىٰ به مجدكم شعارا ، ويُبْقِيكم للإسلام رُكْنًا شديدا ، وظلًّا مَدِيدا ، وسماءً مِدْرارا ، مااستأنفتِ البدورُ إِبْدارا ، وعاقَبَ الليلُ نهارا ، والسلام .

المقصـــد الثـالث

(فى رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السُّودان ، وفيه ثلاثة أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى المكاتَبات إلىٰ(١) صاحب مالّى)

وهو المستولِى علىٰ التَّكْرور وغانةَ وغيرهما ، وهى أعظمُ ممالك السُّودان المسلمين مملكَةً ، ولم أَقِفْ لأحدٍ منهم علىٰ صُورةِ مكاتبة إلىٰ الأبواب السلطانية ، إلا أنَّ المقرّ الشهابىَّ بنَ فَضل الله فى كتابه "مسالك الأبصار" عند الكلام علىٰ هذه المملكةِ تعرّض لذِكر سُلْطانها فى زمان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» وهو مَنْسىٰ موسىٰ ؛ وذكر أنه ورد منه كتاب يُمْسِك لنفسه فيه ناموسًا ولم يورد نسختَه .

---

(١) كذا فى الأصل ولعله « المكاتبات الواردة من صاحب مالى » كما يقتضيه التقسيم فتنبه .

الطــــرف الثـانى

(فى المكاتبات الصادرة عن صاحب البَرْنُو)

ورسم مكاتبته أن تُكتَب فى ورق مربَّع بخطٍّ كخط المغاربة : فإن فضل من المكاتبة شىء كُتِب بظاهرها، وتُفْتَتح المكاتبة بخُطْبة مفتَتَحة بالحمد، ثم يتخَلَّص إلىٰ المقْصَد ببَعدِيَّة، ويأتى علىٰ المقصد إلىٰ آخره، ورأيته قد ختَم مكاتبته إلىٰ الأبواب السلطانية بقوله : والسلامُ علىٰ من اتَّبع الهدىٰ . وكأنّ ذلك جهلٌ من الكاتب بمقاصد صناعةِ الإنشاء، إذ لايهتدُون إلىٰ حقائقها .

وهذه نسخةُ كتابٍ ورد علىٰ الملك الظاهر « أبى سعيد برقوق » ووصل فى شُهور سنة أربع وتسعين وسبعمائة، صحبةَ ابن عمه، مع هدِيَّةٍ بعث بها إلىٰ السلطان بسببِ مايذْكُر فيه من أمر عَرَب جُذَام المجاورةِ لهم، وهى فى ورق مربَّع، السطرُ إلىٰ جانب السَّطْر، بخطٍّ مَغْرِبىّ، وليس له هامشٌ فى أعلاه ولا جانِبِه، وتَتِمَّةُ الكتاب فى ظهره من ذيل الكتاب وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم، صلّىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

الحمدُ لله الذى جعل الخطَّ تَراسُلا بين الأَبَاعد، وتَرْجُمانا بين الأقارب، ومُصافَحَةً بينَ الأحباب، ومُؤْنِسا بين العلماء، ومُوحِشا بيـن الجُهَّال، ولولا ذٰلك لبطلَتِ الكلمات، وفَسَدت الحاجات. وصلواتُ الله علىٰ نبينا المصطفىٰ، ورسُولنا المُرْتضىٰ، الذى أَغْلَق الله به بابَ النبوّة وخَتَم، وجعله آخرَ المرسلين بشيرا ونَذِيرا، وداعياً إلىٰ الله بإذنه وسِراجًا مُنِيرا، ماناحتِ الوُرْق، وما عاقبَ الشُّروقَ الأَصِيل . ثم بعـدَ ذٰلك أبو بكر وعُمَر وعثمانُ وعلىّ، رضى اللهُ عنهم أجمعين .

من المتوكّل علىٰ الله تعالىٰ، الملِك، الأجل، سيف الإسلام، ورَبيع الأيْتام، الملِك المِقْـدام، القائم بأمْرِ الرحمٰن، المستنصِر بالله المنصـورِ فى كلِّ حينٍ وأوَانٍ، ودهْرٍ وزَمَان: الملِك، العادلِ، الزاهِد، التقىّ، النقىّ، الأنْجَد، الأمْجَد، الغَشَمْشَم، فخرِالدين، زيْن الإسلام، قُطْب الجلالة، سُلَالةِ الكرماء، كَهْف الصُّدور، مِصباح الظلام، أبى عَمْرو عثمان الملك، آبن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرم الله ضريحه، وأدام ذرّية هذا بملكه ـ هذا اللفظ وارد علىٰ [لسان] كاتبنا لآلنا ولا نخرـ

إلىٰ مَلِك المِصْر الجليل، أرض الله المبـارَكة أمِّ الدنيا .

سلامٌ عليكم أعطرُ من المِسْك الأذْفَر، وأعذَبُ من ماءِ الغَمَام والْيَمّ، زاد اللهُ مُلْكَكم وسلطانَكُم؛ والسلام علىٰ جلسائكم وفُقَهائكم وعُلَمائكم، الذين يدْرُسُون القرءان والعلوم، وجماعتِكم، وأهل طاعتكم، أجمعين .

وبعدَ ذاك، فإنا قد أرسلنا إليكم رسولَنا؛ وهو ابن عمِّى، آسمه إدريس بن محمد من أجل الجائحةِ الَّتى وجدْناها، وملوكَنا، فإنّ الأعرابَ [الذين] يُسـمَّوْن جُذَاما وغيْرَهم قد سبَوْا أحرَارَنا : من النساء والصِّبيان، وضُعَفاء الرجال، وقَرَابتِنا، وغيرهم من المسلمين . ومنهم مَنْ يشرِكُون بالله، يُمـارقُون للدين، فغارُوا علىٰ المسلمين فقتَلُوهم قتْلا شـديدا؛ لفتنةٍ وقعتْ بينَنا وبين أعدائنا، فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا مَلِكَنا، عمرو بن إدريس الشهيد، وهو أخونا آبن أبينا إدريس الحاج، بن إبراهيم الحاج؛ ونحن بنُو سَيْف بن ذى يَزَن ، و[الد] قبيلتنا، العربىّ القُرشىّ، كذا ضـبَطْناه عن شيوخنا، وهؤلاء الأعراب قد أفسدُوا أرضَنا كلَّها، فى بلد بَرْنُو كافَّةً حتّى الآنَ، وسبَوْا أحرارنا وقرابتَنا من المسلمين، ويبيعُونَهم لجُلَّاب مصرَ والشـامِ وغيرهم، ويختدِمُون ببعضهم؛ فإنَّ حكم مصرَ قد جعله الله فى أيديكم من البحر إلىٰ أُسْوان، فإنهم قد آتخذُوا مَتْجرا؛ فتبعَثُوا الرسـل إلىٰ جميـع أرضكم، وأمرائِكم،

ووُزَرائكم، وقُضاتكم، وحُكّامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظُرون ويحثون ويَكْشِفُون، فإذا وجدُوهم فلينْزِعُوهم من أيديهم، ولْيَبْتَلُوهم، فإنْ قالوا نحن أحرارٌ ونحن مسلمون فصدّقُوهم ولا تكذّبوهم، فإذا تبين ذٰلك لكم فأطلِقُوهم ورُدُّوهم إلىٰ حرّيتهم وإسلامهم، فإن بعضَ الأعراب يُفْسِدون فى أرضنا ولا يُصْلِحون، فإنهم الجاهلون كتابَ الله وسنة رسولنا، فإنهم يزيّنون الباطل، فاتقُوا الله واخْشَوْه ولا تَخْذُلُوهم يُسْتَرَقُّوا ويُبَاعوا. قال الله تعالىٰ ﴿والمؤمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بعضُهم أوْلِياءُ بعضٍ يأمُرُون بالمَعْروف وينْهَوْنَ عن المُنْكر﴾. وقال الله تعالىٰ لنبيه عليه السلام ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُـم بمـا أنْزَل اللهُ ولا تَتَّبِـعْ أهْواءَهم﴾. وقال الله تعالىٰ ﴿ولَوْلا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ ببَعْضٍ لَفَسَدَت الأرْضُ﴾. وكان عليه السلام يقول: «السلطانُ ظِلُّ الله فى الأرض يَأوِى إليـه كلُّ مَظْلوم». وقال: «المُؤْمِنُون كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعْضُهم بعْضًا إلىٰ يومِ القيامةِ». وقال: «المُؤْمِنُ أخُو المؤمِن لايَظْلِمه ولا يُسْلِمُه» إلىٰ آخره. وفى الحكمة: ومن الفرائض الأمرُ بالمعروف علىٰ كلِّ من بُسِطتْ يدُه فى الأرض (أراد به السلاطين) وعلىٰ من تَصِل يدُه الىٰ ذلك (أراد بذلك القضـاةَ والحكّامَ والأمراءَ) فإن لم يقدر فبلسانه، (أراد بذلك الفقهاءَ والعلمـاءَ) وان لم يقـدر فبقلبه، (أراد بذلك عامّةَ المسلمين) أطال الله بقاءكم فى أرضكم. فازْجُروا الأعراب المفسدين عن دَعَرِهم، قال الله تعالىٰ ﴿والَّذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وإنَّ اللهَلَمَعَ المُحْسِنين﴾ وقال عليه السلام: «كُلُّكم راعٍ وكُلُّكم مَسْئُول عن رَعِيَّته». وقال فى الحكمة: لولا السلطانُ لأكل بعْضُهم بعضا. وقال تعالىٰ لنبيه داود عليه السلام ﴿يادَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خليفةً فى الْأرضِ فاحْكُمْ بينَ الناسِ بالحقِّ ولا تَتَّبع الهوىٰ فيُضِلَّكَ عن سبيلِ اللهِ إنَّ الذين يَضِلُّونَ عنْ سَبِيلِ الله لَهُمْ عذابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾ والسلام علىٰ من اتبع الهدىٰ ــ ولم يؤرّخ.

الطـــــرف الثـالث

(فى المكاتبات الصادرة عن مِلك "الكانِم" ولم أقِفْ له علىٰ مكاتبةٍ إلا أنه
يُشْبِه أن تكون المكاتبةُ عنه نظيرَ المكاتبة عن صاحب "البَرْنُوِ"
فإنه علىٰ قُرْب من مملكته والله أعلم

المقصـــد الرابع

(فى الكتُب الواردة من الجانب الشَّمالىّ، وهى بلاد الروم)

قد تقدّم ذِكْرُ المكاتبة إلىٰ أُمَرائها ، وأنَّ كبيرهم الذى صار أمْرُهم إليه وآنقادُوا إلىٰ طاعته الآنَ هو آبنُ عثمانَ صاحبُ بُرُسا(١) .

القســم الثـالث

(من المكاتبات الواردة إلىٰ هذه المملكة الكتبُ الواردةُ عن ملوك الكُفَّار،
وهى علىٰ أربعة أضرب)

الضرب الأوّل

(الكتبُ الواردة عن ملوك الكُرْج(٢))

الضرب الثـانى

(الكتبُ الواردةُ عن ملوك الحَبَشة)

والعادةُ فيها أنْ تَرِد فى قَطْع (٣) باللسان (٣) ولم أظْفَر بصورة مكاتبة فى هذا المعنىٰ إلّا مكاتبةً واحدةً وردَتْ علىٰ الملك الظاهر بِيبَرْس، ضِمْنَ كتابٍ إلىٰ صاحبِ اليمن، وصاحبُ اليمن أرسله إلىٰ هنا فيما وقفْتُ عليه فى بعض المصنَّفات، وهو :

(١) لم يذكر فى الأصل نموذجا من المكاتبة ولا ترك لها بياضا كالعادة فتنبه .

(٢) لم يذكر لها نموذجا ولم يتكلم على رسمها كغيرها . (٣) بياض فى الأصل .

أقلُّ المـاليك يقَبِّل الأرض، ويُنْهِى بين يَدِى السلطان الملكِ الظاهر، خَلَّد الله مُلْكَه ، أنَّ رسولًا وصلَ إلىّ مِنْ والِى قُوص، بسبَبِ الراهب الذى جاءَنا ، فنحن ما جاءنا مِطْرانُ مولانا السلطانِ ونحن عبيدُه ، فيرسُمُ مولانا السلطانُ للبَطْرِيَرْك [أن] يجهِّز لنا مَطْرانا يكونُ رجلا جيِّدا عالمـا ، لا يَجْنِى ذهَبا ولا فِضّة ، ويُرْسِله إلىٰ مدينة "عوَان" . وأقلُّ المماليك يُسَيِّر إلىٰ نُوَّاب مولانا الملك المظفَّر : صاحب اليَمَن ما يلزمه ، وهو يُسَيِّره إلىٰ نُوَّاب مولانا السلطان ، وما كان سببُ تأخير الرُّسُل عن الحضور إلىٰ [ما] بين يدى مولانا السـلطانِ إلا أننى كنتُ فى سكار (؟) والملكُ داودُ قد تُوُفِّى، وقد مُلِّك موضعه ولَدُه، وعِنْدِى فى عسكرى مائةُ ألفِ فارس مسلمين؛ وأما النصارىٰ فكثير لايُحْصَوْن، والكلُّ غِلْمانُك وتحتَ أمْرِك،والمَطْران الكبيرُ يدعُو لك والخلْقُ كلُّهـم يقولون آمين ؛ وكلُّ من يصل من المسلمين إلىٰ بلادنا نكونُ له أقلَّ المـاليك ، ونحفَظُهم ونسَـفِّرهم كما يحبُّون ويختـارُون ؛ وأما الرسولُ الذى سفَّروه فهو مريض ، وبلادُنا وخِمة . أىُّ مَنْ مَرِض لا يقدرُ أحد يدخُل إليه ، وأىُّ من شَمَّ رائحته فيمْرَض فيموت . ونحن نحفَظُ كلَّ من يأتى من بلاد المسلمين ، فسيِّروا مَطْرانا يحفظهم .

قلت : وقد تقـدّم الجوابُ عن هـذا الكتاب من كلام القاضى محيي الدين بن عبد الظـاهر، فى الكلام علىٰ الكتُب الصادرة عن الأبواب السلطانيـة إلىٰ أهل الجانب الجنوبى من أهل الكُفْر، ولكن الكتابُ المذكور يخالف ما تقـدّم هناك من ادِّعائه العظمة، وأنه لولا اَضطِرارُه إلىٰ أخْذالمَطْران من بَطْرِيَرْك الديار المصرية لكان يَشْمَخُ بنَفْسه عن المكاتبة، ولعلَّ ذلك كان فى الزمن المتقدّم .

الضـــــرب الثـالث

(الكُتُبُ الواردةُ عن ملوكِ الرُّوم، و رأسُ الكلِّ صاحبُ القُسْطَنْطِينِيَّة)

وقد وقفْتُ علىٰ كتابٍ ورد منه فى السابع والعشرين من صَفَر سـنةَ أربعَ عشرةَ وثمانمائة فى دَرْج ورق فَرَنْجِيٍّ فى نحو عشرين وَصْلا قَطْع النصف، والبياضُ فى أعلاه وصلٌ واحد، وفى أسـفلِه وَصْلانِ، وله هامشٌ عن يمينه وهامشٌ عن يساره، كلٌّ منهما تقديرُ إصبعين، ومقدارُ ما بين السُّطور متفاوتٌ : فأعلاه بينَ كلِّ سـطرين أربعةُ أصابع مطبُوقة، ثم بعد تقدير ثلُث الكتاب بين كلِّ سـطرين قدرُ ثلاثة أصابعَ، ثم بعد ذلك بين كل سطرين قدرُ إصبعين، ثم بعد ذلك بين كل سطرين قـدرُ ثلاثة أصابعَ إلىٰ آخر الكتاب، والقـلم فى غاية [الدقة بـ]قلم الرِّقاع الدقيق، وفى آخره ثلاثة أسطر وقطعةٌ بالحمرة بقلم أجلَّ من الأوّل قليلا .

وهـذه نسخةُ كتاب معرَّبةٌ بترجمة بَطْرَكِ المَلِكانية، بحضور سيفِ الدين سَيْف(١) الترَّجُمان، وهى :

المعظَّم، المجَّد، المبجَّل، الضابط، السلطانُ، الكبيرُ، سلطان مصرَ ودِمَشْق وحَلَبَ وغيرها، الملكُ الناصر (فرج) ٱبن السلطانِ الكبيرِ المرحومِ الظاهرِ (برقوق) المحبوبُ إلىّ العزيزُ أكثر من أولاد مملكتى .

يُحيطُ علمه أننى ومملكتى طيِّبُون بنعمة الله تعالىٰ، وكذلك تكونُ ـ انْ شاء الله تعالى ـ سلطنَتُك المجَّدةُ طيبةً فى خير، وأنَّ المحبةَ والمودّة لم تزلْ بين والدك المرحوم وبين والدى إلىٰ آخر وقتٍ . ونحن بحمد الله قد تزايدت محبَّتُنا علىٰ ذلك وتكاثرتْ ،

(١) لعله سودون الآتى بعد فى الضرب الرابع .

ونتوكَّد أيضا المحبـةُ بيننـا وبين سلطَنتك المعظَّمة إلىٰ الأبد ، فإنّ ذٰلك واجبٌ ، وتتردّد رُسُلُكم بكُتُبكم إلينا ، وكذلك رسلُنا بكتُبِنا إلىٰ مُلْككم ؛ وكان قصْدُنا أن نجهِّز إليكم رســولا لكنَّ الفِتَنَ فى بلادنا ، وما بلَغَنا من ســفَر مولانا السلطان من تحتِ مملكته ، ولم نعرف إلىٰ أىِّ مكانٍ توجَّه ، أوجب تأخيرَ ذٰلك ؛ وأنَّ حاملَ هذا الكتاب المتوجهَ به إلىٰ السلطان المعظم المسمّٰى (سورمش) التاجرمن اسطنبول هو من جِهتَنا ، وله عادَة بالتردُّد إلىٰ مملكتكم المعظَّمة ، ونحن نعلم أنَّ سلطنتك تُحِبُّ الطيورَ الكَوَاهِى ؛ فجهَّزنا لكم صحبــةَ المذكور خَمْس كواهي وبازْدَار ، ليكونَ نظرُكم الشريف عليهم ، وكذلك علىٰ البطاركة والنصارىٰ والكَنَائس علىٰ حُكْم مَعْدَلة السلطان ومحبّته ، والوصيةُ بهــم ، ومعاونَتُهم ورعايتُهم وإجراؤُهم علىٰ جارى عوائدهم ، من غير تشــويشٍ علىٰ ماألِفُوه من إنصافكم أوّلا وآخرا لأجل محبتكم لنـا ومحبتنا ، وآستمْرار العناية بهــم ، مع أنَّ البطاركة عَرَّفونا أنَّ مولانا الســلطان يُبْرز مرسومه بمراعاتِهم ، والإحسانِ إليهــم ، ولم يزالوا داعِينَ له شاكرِينَ من مَعْدَلته ، ونُضاعفُ شكرنا من إحسانكم علىٰ ذلك ، وتكونوا انــ شاء الله تعالىٰ طيبين ، والمحبة متزايدة فى أيَّامكم وأيَّامنا ، ومهما كان لمولانا السلطان بمملكتنا من أطواع (١) ، فيرسمُ يعرّفُنا بهـا ونبادِرُ بذٰلك .

والذى بآخره بالحمرة علامةُ الملك مضمونهـا (مانويك المســيحى بنعمة الله ، ضابط مملكة الروم البَلَاَلُوغس) .

---

(١) كذا فى الأصل ومراده من خدم أو حاجات .

الضـــــرب الرابع

(الكتبُ الواردةُ من جهة ملوك الفَرَنْج بالأنْدَلُس، والجهاتِ الشَّمالية، وما والىٰ ذلك)

والعادة فيها أن تكتب باللســان الفَرَنْجِى، وعادةُ الكتب الواردةِ عنهم جملةً أن تكتب فى فَرْخةِ ورقٍ فَرَنْجِىٍّ مربَّعة علىٰ نحو مقدار الفَرْخة البلدى أو دُونَها، بأسطر متقاربةٍ، باللسان الفَرَنْجِىّ وقلمه، ثم يُطْوىٰ طيًّا مسطَّحا ويُعَنْون فى وَسَطه، ويطوىٰ من جهتى الأوّل والآخِر حتّى يصير العنوانُ ظاهرا من الطىِّ، ثم يُخْرَز ويُخْتَم بسَحَاءة، ويختم عليه بطَمْغة فى شَمَع أحمر علىٰ نحو ماتقدّم فى الكتب الواردة عن ملوك الغرب؛ فاذا ورد علىٰ الأبواب السلطانية فُكَّ ختمُه، وتُرْجِم بترجمة التَّرْجُمان بالأبواب السلطانية وكُتب تعــريبُه فى ورقة مفردةٍ وأُلْصِقت به بعــد كتابةِ الجواب من التعريب علىٰ ما تقدّم ذكره فى مقدّمة الكتاب .

وهذه نسخة كتابٍ واردٍ من دُوج البَنَادقة ميكائيلَ، علىٰ يد قاصده نُقُولا البندُقىّ فى سادس عشر صَفَر المباركِ سنة أربعَ عشرةَ وثمانمائة ، ترجمةُ شمس الدين سُنْقُر، وسيفِ الدِّين سُودُون ، التراجمة بالأبواب الشريفة، فى فرخةِ ورَق فَرَنْجِىٍّ مربعةٍ متقاربةِ السطور، وهو :

السلطانُ المعظَّم، ملكُ الملوك «فرجُ الله» ناصرُالملة الإسلامية، خَلَّد الله سلطانَه .

يقبِّل الأرضَ بين يديه نُقُولا[1] دُوج البَنَادقة ، ويسألُ الله أن يزيد عظَمَته : لأنه ناصرالحق ومؤيِّدُه ، ومَوْئل الممـالك الإسلامية كلِّها . ويُنْهِى ما عنده من الشَّوْق

(١) تقدم قبل بأسطر أن آسمه ميكائيل وأن اسم رسوله نقولا . فتنبه

والمحبة لمولانا السلطان، وأنه لم تَزل أكابر التجّار والمحتَشِـمين والمتردِّدين من الفَرَنْج إلىٰ الممـالك الإسلامية شاكِرِين من عَدْل مولانا السلطان وعلوِّ مجده، وتُزايِدُ الدعاءَ ببقاء دولته، وقد رغِب التُّجّار بالتَّرداد إلىٰ مملكته الشريفة بواسطةِ ذلك، ولأجل الصُّلْح المتصل الآنَ بيننا والمحبةِ .

وأما غيرُ ذلك، فإنه بلغنا ما اتَّفق فى العام الماضى من حَبْس العسر فى ثَغْر دِمْياط المحروس، وأن مولانا السلطان مَسَك قُنْصـل البنادقة والمحتشِـمين من التجّار بثغر الإسكندرية المحروس، وزَنْجرهم بالحديد، وأحضرهم إلىٰ القاهرة، وحصلت لهم البهدلةُ بين جُنُوسهم والضَّرر والقهْر الزائد، وكسر حرمَتَنا بين أهل طائفَتنا، فإن الذى فُعِل مع المذكورين إنما فُعِل معنا، وتعجَّبْنا من ذلك: لأنَّ طائفتنا لم يكن لهم ذَنْب، وهذا مع كثرةِ عدْل مولانا السلطان فى مملكته، ومحبَّتنا له، ومناداتنا فى جميع مملكتِنا بكثرة عدْله، وبمحبتِـه لطائفتنا، وإقبالِه عليهم، وقولِنا لجميع نُوّابنا: إنهم يُكْرِمون من يجِدُونه من مَمْلكة مولانا السلطان ويُراعُونه ويُحسِنون إليه، والمسئُول من إحسانه الوصيةُ بالقُنْصل والتجّار وغيرهم من البنادقة، ومراعاتُهم وإكرامهم والإقبالُ عليهم، والنظرُ فى أمورهم اذا حصل مايُشْبِه هذا الأمر، ومنعُ من يشا كلهم لتحصُلَ بذلك الطُّمأنينةُ للتُّجّار، ويتردَّدوا إلىٰ مملكته .

***

وهذه نسخة كتاب ورد من كَبْطان المـاغُوصة والمستشارِين بها، فى ثامن عشر صفر المباركِ سنةَ أربعَ عشرةَ وثمـانمـائة، ترجمة شمس الدين سُنْقُر وسيفِ الدين سودون التَّرجُمَانَين بالأبواب الشريفة، وهو:

الملك المعظَّم، ملكُ الملوك، صاحبُ مصر المحروسة، الملك النـاصر، عظَّم الله شأنه .

يقبِّل الأرض بين أياديه الكبطانُ والمستشارون، ويُنْهُون أنهم آناءَ الليل داعُونَ بطول بقائه، مجتهدون فى ٱستمرار الصُّلْح والمودّة التى لايشوبُها كَدَر بين القومون(؟) وبين مولانا السلطان، وأنَّ فى هذا الوقت ثَمَّ حراميَّة غراب يتحرَّمون بأطراف هذه البلاد، والمِينِ الإسلامية؛ ونحن لم نزل نُشْحِطهم بالمراكب والأغربة، ونمنَعُهم من ذلك جُهْـدَنا وقُدرتَنَا، حتّٰى إن أحدًا صار لا يَجْسُر علىٰ الدخول إلىٰ مِينَا المـاغُوصة جملةً كافيةً، مع أننا كنّا خلَّصْنا فى المدّة الماضيَة من الحراميَّة المذكورين خمسةً وعشرين نفَرا من المسلمين، وأكرْمناهم وأطلَقْنا سبيلَهم [وعزُمنا أنْ](١) نجهِّزهم إلىٰ دِمْياط أو إلىٰ ثغر الإسكندرية .

وأما غير ذلك، فقد بلَغَنا أن برطلما أوْسَقَ للمواقف الشريفةِ صابُونًا فى مرَاكبه، وكان قصــده أن يَهْرُب بذلك، فللحال عَمَّرنا مركبا كبيرا، وأخذنا برطلما المذكور بالمحاربة، وأحضرناه إلى المـاغُوصة، وعَهِدنا بطروق المركب إلى شخص يسمّٰى (أرمان سليوريون) وهو رجلٌ مشكور السِّيرة، وقلنا له إنه يتوجَّهُ إلى خازن الصابون المذكور ويستشيره إن كان يُوسِقُ شيئا من الأصناف لمولانا السلطان، ويجهِّزه إلى أيِّ مكان اختاره ليسلمه ليد من تبرُزُ له المراسيمُ الشريفة بتسليمه، فليفعل، وهذا القول كلُّه يكون دليلًا عنـد مولانا السلطان علىٰ صِـدْق الولاء والتمسكِ بالصُّلح، والمسئول من الصدقات الشريفة الإقبالُ علىٰ التُّجّار الجَنَويَّة الذين عنـد مملكته، وكفُّ أسباب الضرر عنهم، وينشر مَعْدلته عليهم، والله تعالى يديم بقاءه بمنِّه وكرمه.

---

(١) فى الأصل « وعقيبها نجهزهم » .

الفصـــــل السادس

[من البـاب الثـانى] من المقـالة الرابعة

(فى رسوم المكاتَبات الإخْوانِيَّات ـ وهى جمعُ إخوانيَّة، نسبةٌ إلى الإخوان، جمعِ أخٍ ـ والمرادُ المكاتبات الدائرةُ بين الأصدقاء . وفيه طَرَفان)

الطرف الأوّل

(فى رسوم إخوانِيَّات السَّلَف من الصَّحابة رضوانُ الله عليهم والتابعين؛ وهى فى الغالب لا تخرج عن ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تُفتتَح المكاتبةُ باسم المكتوبِ عنه)

وكان رسمُهم فيه أن تفْتتَح المكاتبة بلفظ «من فلانٍ إلى فلان، سـلامٌ عليك، إنِّى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو» فلمـا كانتْ خلافةُ الرشـيد وأمر أن يُزاد هنـا فى السلطانيات «وأسألُه أن يصَلِّى علىٰ سـيدنا محمدٍ عبدِه ورسوله» كما تقدّم فى موضـعه، جرىٰ الكُتّاب فى الإخوانيات علىٰ ذلك أيضا، وكان الخِطابُ يجرى بينهـم فى ذلك بأَنا، وأنتَ، ولِى، ولَك، وعِنْدى، وعِنْدك؛ وما أشـبه ذلك من ألفاظ الخِطاب، وكانت خاتمةُ الكتب عندهم بالسَّلام .

الضـــرب الثانى

(أن تفتَتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه : تفخيماً لأمره، وتعظيماً لشأنه)

وكان رسمُهم فى ذلك أن يفتَتِحوا المكاتبةَ بلفظ « إلىٰ فلانٍ من فلان، سلامٌ عليك، فإنّى أحمدُ اليك الله الذى لا إلٰه إلا هو» وباقى الكتاب على ماتقدّم فى الضرب الأوّل فى الخطاب والختام وغيرهما .

الطـــرف الثانى

(فى رسوم الإخوانيّات المحدَثة بعد السَّلَف ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصـــد الأوّل

(فى رسوم إخوانيّات أهل المَشْرِق، وفيه أربعة مَهَايِعَ)

المهيــع الأوّل

(فى صدور الابتدا آت، وهى علىٰ أساليب[(١)])

الأَسلوب الأوّلُ ـ أن تفتتح المكاتبةُ بالدعاء، وعليـه ٱقتصر أبو جَعْفر النّحاسُ فى كتابه "صـناعة الكتّاب" وكان علىٰ رأس الثّلثمائة فى خلافة الراضى ؛ وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدّمات المكاتبات نقْلًا عن "موادّ البيـان" أنّ الأدعيـة كانت فى الزمن الأوّل تُستعمَل فيما يتعلّق بأمر الدِّين: مثل قولك: أكرمه الله، وحَفِظه الله ووَفَّقه، وحاطَه، وماأشـبه ذلك ؛ فعُدِل عنها قَصْدا للإجلال والإعظام إلى الدعاء بإطالة البَقاء ، وإدامةِ العِزّ، وإسباغ النِّعمة، ونحو ذلك : ممـا يتنافَسُ فيه أبناءُ

---

(١) لم يذكر منها الا الأسلوب الاوّل ونبه على أن النحاس ٱقتصر عليه فتنبه .

الدنيـا، جَرْيا علىٰ عادة الفُرْس . ثم رتّبوا الدعاءَ علىٰ مراتِب : فجعلُوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء ، ثم بإطالة العُمُرِ ، ثم بالمَدّ فى العمر ، وكذلك سائرُ المكاتبات علىٰ ما تقدّم بيانه هُناك .

ثم هو علىٰ ســتة أضرب :

الضـــرب الأوّل

(المكاتبة من المرءوس إلىٰ الرئيس ؛ وهو علىٰ صنفين)

الصــــنف الأوّلُ

(المكاتبةُ إلىٰ الأمراء)

قد ذكر النحّاسُ أنه يقال فى ٱفتتاح مكاتَبَاتهم : أطال الله بقاءَ الأمير، فإذا أردت أجلَّ ذلك كلِّه، كتبت : أطال اللهُ بقاءَ الأمير فى أعَزِّ العِزِّ وأدْومِ الكرامة والسُّرور والغِبْطة، وأتمَّ عليه نِعَمَه فى علوّ الدَّرَجة، وشرفٍ من الفضيلة، وتتابُعٍ من الفائدة، ووهبَ له السلامةَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة ؛ وبلَغ بالأمير أفضــلَ ما تجرى إليــه هِمّتُه ، وتسمُو إليه أُمْنِيَّته ، أو بلَغ بالأمير أفضلَ شَرفِ العاجل والآجل، وأجزل له ثواب الآخرة .

ثم قال : ومن الدعاء له : أطال الله بقاءَ الأمير فى عِزٍّ قاهر ، وكرامةٍ دائمــة ، ونِعْمةٍ سابغة ، وزاد فى إحسانِهِ إليه ، والفضيلةِ لَدَيْه ، ولاأخلىٰ مكانَهُ منه .

قال : ومنــه أطال اللهُ بقــاء الأمير ، وأدام عِزّه وتأييــدَه ، وعُلُوّه وتمكينَه ، وكَبَت عَدُوّه .

ثم ذكر أدعيةً أُخْرىٰ للأمراء عن الفضل بن سهل . منها ـ أطال الله بقاءَ الأمير، ومكَّن له فى البَسْــطة وتزايُد النِّعمة ، وزاده من الكرامة والفَضيلة ؛ والمواهب

الجليله ، فى أعَزِّ عِزٍّ وأدْوَم سلامة ، وأسبَل عافية ـ ومنها ـ أطال الله بقاءَ الأمير ، وأدام له الكرامةَ مرغوبًا إليه ، وزاد فى إحسانه لَدَيْه ، وأتمَّ نعمته عليه ، ووصل له خيْرَ العاجِل بجزيل الآجل .

الصنف الثانى

(المكاتبة إلىٰ القُضاة)

وقد قال النحاس : إنه يُدْعىٰ للقاضى بمثل مايُدْعىٰ به للأمير ، غير أنه يجعل مكانَ الأمير القاضى ، إلا أنَّ الفضل بن سهل قال : يدعىٰ لقاضى القُضاة : أطال اللهُ بقاء القاضى ، وأدام عِزَّه وكرامتَه ، ونِعمتَه وسلامَتَه ، وأحسن من كلِّ جميل زيادتَه ، وألبسه عَفْوه وعافِيتَه . وإنه يدعىٰ له أيضا : أطال الله بقاءَ القاضى فى عزٍّ وسعادة ، وأدام كرامته ، وأحسَن زيادَتَه ، وأتمَّ نعمته عليه فى أسبَغ عافية ، وأشْمَل سلامة . قال : وقال غيرُ الفضل : إن الكُفْء يكاتب كُفْأه ومَنْ كان خارجا من نعمته : أدام الله بقاءَكَ أيُّها القاضى .

الضرب الثانى

(المكاتبةُ من الرئيس إلىٰ المرءوس : كالمكاتبة عن الوزير وقاضى القُضاة وغيرهما ، والخطاب فى جميعها بالكاف)

قال النحاس : وهى علىٰ مَراتب ، أعلاها فى حق المكتوب اليه أطال اللهُ بقاءَك وأدامَ عِزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمتَه عليك ، وإحسانَه إليك وعندك . ودُونه «أطال اللهُ بقاءَك ، وأعزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمتَه عليك وعندك» . ودونه « أدام الله عزَّك ، وأطال بقاءَك ، وأدام كرامَتَك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وأدامها لك» .

ودونه « أعزَّك الله، ومدّ فى عُمُرك، وأتمّ نعمتَه عليك، ومابعــده علىٰ توَالى(١) الدعاء الذى تقدّم » . ودونه « أكرمكَ الله وأبقاك ، وأتمّ نعمتَه عليك، وأدامَها لك » . ودونه « أن تُسْقِط وأدامها لك » . ودونه «أبقاكَ الله وحَفِظك وأتمّ نعمتَه عليك، وأدامها لك» . ودونه « أن تُسْقط وأدامها لك » . ودونه « حَفِظك اللهُ وأبقاك، وأمْتَع بك» . ودونه « عافانَا اللهُ وإيَّاك من السُّوء » .

قال فى "صناعة الكتّاب" : هذا إذا جرىٰ الأمرُ علىٰ نِسْبتــه ولم تتغيّر الرسومُ، وإلّا فقد يَعْرِض أن يكون فى الدولة من هو مقــدَّم علىٰ الوزير أو مساوٍ به فتتغير المكاتبة، فقد كان عبدُ الله بن سليمان (يعنى وزير المعتضد) يكاتِبُ أبا الجيش (يعنى خُمَارَوَيْه بنَ أحمدَ بنِ طُولُون) : أطال اللهُ يا أخى بَقَاك إلىٰ آخر الصــدر، للصاهَرَة التى كانت بين أبى الجَيْش وبين المعتضد ولأنّ المعتضد كَنَّاه . ثم قال : فإن كان الرئيسُ غيرَ الوزير، فربمــا زاد فى مكاتبته زيادةً لمن له محَلّ : فيزيده ويكاتِبُه بزيادة التأييــد ودَوامِ العِزّ . قال : ويُدْعىٰ للفقهاء : أدام اللهُ بقاءَك فى طاعته وسلامتِــه وكِفَايتِــه، وأعلىٰ جَدَّك وصان قَدْرَك، وكان لك ومعك حيثُ لا تكونُ لنفسك . أو : أدام الله بقاءَكَ فى أسَرِّ عَيْش وأنعَم بال، وخصَّك بالتوفيق لما يُحِبُّ ويرضىٰ ، وحَبَاك بُرشْده، وقطَع بينك وبينَ مَعَاصيه . أو : أطال الله بقاءكَ بمــا أطال به بقاءَ المُطيعين ، وأعطاك من العَطَاء ماأعطىٰ الصالحين . أو : أكرمكَ الله بطاعتــه ، وتولّاك بحِفْظه ، وأسعدكَ بعَوْنه ، وأيّدك بنصره ، وجمع لك خَيْرَ الدنيا والآخرة برحمتِــه، إنه سميعٌ قريب . أو : تولّاك مَنْ يُمْسِكُ السماءَ أن تَقَع علىٰ الأرض إلّا بإذنه ، وكان لك مَنْ هو بالمُؤْمنين رءُوفٌ رحيم . أو : أكرم اللهُ عن النــار وَجْهَك، وزيّن بالتقوىٰ تجمُّلَك . أو : أكرمك اللهُ بكرامةٍ تكون لك فى الدنيا عِزّا، وفى الآخرة من النار حِرْزا .

(١) لعله على منوال .

الضـــرب الثـالث

(المكاتبة إلى النظراء، والمخاطبةُ فيه بالكاف)

قال فى "صناعة الكُتَّاب" وأعلى مايكتب فى ذلك (يعنى بالنسبة إلى المكتوب إليه) ياسيِّدى «أطال اللهُ بقاءك وأدام عِزَّك وتأييدَك إلى آخر الصدر» . ودونه «أطال اللهُ ياسيدى بقاءَك» . ودونه «ياسيِّدى وأخِى أطال اللهُ بقـاءَك» . ودونه «أدام اللهُ يا أخِى بقاءَك» .

الضـــرب الرابع

(المكاتبة إلى الأبناء، والخطابُ فيه بالكاف)

قال فى "صـناعة الكتّاب" يكتُب الرجل إلى ابنـه : بأبِى أنْت ، أو : فداك أبوك . أو : ماتَ قَبْلك . أو : أسألُ اللهَ عزّ وجلّ حِفْظَك وحِياطَتَك ورعايتَك . أو : أرشدكَ الله أمْرَك . أو : أحسَن البَلَاغ بكَ . أو : بلَّغ الله بكَ أفضلَ الأمل، وأتمَّ السرورَ بك، وجعلك خَلَفًا صالحا، وبقيَّةً زاكية .

الضـــرب الخـامس

(المكاتبة إلى الفِتْيان، والخطاب فيه بالكاف)

قال النحاس : يُدْعىٰ لهم : صرف اللهُ السوءَ عنك، وعن حَظِّى منـك . أو : أطال الله بقاءَ النعمةِ عليـك وعلىّ فيك . أو : جُعلت أنا وطارِفى وتالِدى فِدَاك . أو : مَلّانى الله إخاءَك، وأدامَ بقاءَك . أو : أستودعُ الله عزّ وجلّ ما وهَبَ لى من خُلَّتك، ومَنحنِى من أُخُوَّتك، وأعزَّنى به من مَوَدّتك . أو : حاطَ اللهُ حظِّى منك،

وأحسن المدافعةَ عنك . أو : ببقائك مُتِّعت ، وفَقْدك مُنِعت . أو : نَفْسى تَفْديك ، واللهُ يُبْقِيك ، ويقِينِى الأسواءَ فيك . أو : ملأنى اللهُ النعمةَ ببقائك ، وهَنأنى مامنحنى من إخَائِك . أو : أبقى اللهُ النعمةَ لى ببَقَائها لك ، وبُلِّغْتُها بك . أو : وفَّر اللهُ حظِّى منك ، كما وَفَّر من المكارم حَظَّك . أو : مَلَّأنِى اللهُ ببقَاك ، كما منَحنِى إخَاك . أو : دافعَ اللهُ لى وللمكارم عن حَوْبائِك ، وأمتَعنِى ببقائِك ، وجمعَ أملِى فيك بجمْعه المكارِمَ لك . أو : زادكَ اللهُ من النِّعم حسَبَ تزيُّدك فى البِرِّ لإخْوانك ، وبلَّغ بك أمَلَهم كما بلَّغَ بهم آمالَهُم فيك .

الضـــــرب السادس
(المكاتبة إلى النساء)

قد ذكر النحاس أنهنّ يُكاتَبْن على نظير ما تقـدّم من مكاتبـة الرئيس والمرءُوس والنظير ، غيرَ أنه قد وقع فى الاصطلاح من بعضهم أنه لا يقال فى مكاتبتهن وكَرامتِك ولا وأتمّ نعمتَه عليكِ ، ولكن وأتم نعمتَه لَدَيْكِ ، ولا فَضْلَه عندك ، ولا سَعادَتَك ، ولا فَعَلْت ولا أن تَفْعَلِى ، ولكن يقال : إن رأيتِ أن تَمُنِّى بذلكِ مَنَنْت به ، وما أشـبه ذلك ، وقد تقدّم فى الكلام على مقدِّمات المكاتبات بيانُ كراهتهن لذلك .

قلت : ثم راعى الكُتَّاب فى تعظيم المكتوبِ إليـه أنْ عَدَلُوا عن خِطَابه بالكاف عن نظير (١) خطاب المواجهة إلى معنى الغَيْبة ، فقالوا : له ، وإليه ، وعنده ، ونحو ذلك وخصُّوا الخطاب بالكاف بأدنى المَراتبِ فى حقِّ المكتوب إليه . على أنه قد تقدّم من كلام النحاس إنكارُ ذلك على من اعتمده محتجًّا عليه بأنه لا أعظَمَ من الله تعالى مع أنه يقال فى الدعاء يا أللهُ ونحو ذلك .

---

(١) كذا فى الأصل ولعل مراده وغير الكاف من ضمير خطاب المواجهة إلى الخ .

وقد ذكر ٱبن حاجب النُّعمان فى كتابه "ذخيرة الكتّاب" أدعيةً مرتَّبة علىٰ الغَيْبة، وقال: أعلاها «أطال اللهُ بقاءَه، وأدام تمكينه وٱرتقاءَه، ورِفْعتَه وسَناءَه، وكبت عدُوَّه». ودونه «أطال اللهُ بقاه، وأدام تأييدَه، وعُلَاه وتمهيدَه، وكبَت عِداه». ودونه «أطال الله بَقَاءَه، وأدام تأييدَه وحَرس حَوْباءه». ودونه «أطال الله بَقَاه، وأدام تأييدَه ونُعْماه». ودونه «أطال اللهُ بقَاه، وأدام نُعْماه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام عِزَّه». ودونه «أطال اللهُ بقاه، وأدام توفيقَه وتسديدَه». ودونه «أطال اللهُ بقاه، وأدام سَدَاده وإرشادَه». ودونه «أطال الله بَقَاه، وأدام حِرَاسته». ودونه «أدامَ اللهُ تأييدَه». ودونه «أدام الله توفيقَه». ودونه «أدام الله عِزَّهُ وسَنَاءه». ودونه «أدام الله عِزَّه». ودونه «أدام اللهُ حِرَاستَه». ودونه «أدام اللهُ كرامتَه». ودونه «أدام الله سَلامتَه». ودونه «أدام الله رِعايتَه». ودونه «أدام الله كِفَايتَه». ودونه «أبقاه اللهُ». ودونه «حَفِظه الله». ودونه «أعزَّه الله». ودونه «أيَّده الله». ودونه «حَرَسَهُ الله». ودونه «أكرمه الله». ودونه «وفَّقه الله». ودونه «سلَّمه الله». ودُونَه «رَعَاه الله». ودونه «عافاه اللهُ».

وعلىٰ معنىٰ الغَيْبة يقال فى الدُّعاء أطال الله بقاءَ الأمير. أو بقاء القاضى. أو بقاءَ سيِّدى. أو بقاءَ مولاىَ، وما أشبه ذٰلك فى كلِّ رتبة بحسَبِها.

وٱعلم أن الذاهبين من الكُتَّاب إلىٰ إجراء المخاطبة فى المكاتبة علىٰ معنىٰ الغَيْبة كما هو طريقةُ ٱبن حاجب النُّعمان وغيره، يعبِّرون عن المكتوب إليه بلَقَبه الخاص: كالوَزِير، والأَمير، والحاجِب، والقاضى، وما أشبه ذلك؛ وذِكْرِه بالسيادة وما فى معناها، مفضِّلين لفظَ الجمع، كسيِّدنا ومولانا علىٰ لَفْظ الإفراد كسيِّدى ومَوْلاى؛ ويَنْعَتُون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجِب الجَليل(١)، ويجعلون الإفراد دُونَ ذلك فى الرتبةفيقولون: سيِّدى، أومولاىَ الأميرِ الجليل، أو الحاجب الجليل،

(١) لعله كالحاجب الجليل. ان لم يكن زائدا من قلم الناسخ.

ونحو ذلك . ثم توسّعوا فى ذلك فجعلوا الدّعاءَ متوسّطا كلامَ الصدر علىٰ القُرْب من الابتداء، مقدّمِينَ بعضَ كلام الصدر عليه، ومؤخّرين بعضَه عنه . مثل أن يقالَ فى المكاتبة بشُكْر : إذا كان الشُّكْرُ ـ أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان ـ ترجمانَ النّيّه ، ولسانَ الطويّه ، وشاهدَ الإخلاص ، وعُنْوانَ الاختصاص ، وسبَبًا إلىٰ الزّياده ، وطريقًا إلىٰ السّعاده، وكانت معارفُه قد أحاطتْ بمعادنه، واستولَتْ علىٰ محاسنه، فألْسُنُ آثارِها مع الصَّمْت أفصحُ من لسانِه، وبيانُها مع الجُحُود أبلغُ من بَيَانه ، ونحو ذلك . ثم أحدثُوا اصطِلاحا آخَرَ أضافوه إلىٰ الاصطلاح الأوّل، فقدّموا علىٰ الدعاء لفظ «كتابُنا» أو لفظ «كتابِى» رُتبةً دونَ رُتْبة، مثل أن كتبوا : كتابُنا ـ أطال الله بقاءَ الأمير ـ ونحنُ علىٰ أفضلِ ماعوّدَنا اللهُ من انتظام الأمور وسَدَادها، واستقامتِها بحضْرتنا واطّرادها . أو كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ مولاىَ الحاجب ـ عن سلامةٍ ينَغّصها فقدُك، وينتَقِصُها فِراقُك، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك . وربما أبدلوا لفظ كتابُنا أو كتابِى بلفظ كتبتُ بصيغة الفِعْل، وربما ابتدَءُوا بلفظ أنا ونحوه . ثم خرج بهم الاختيار إلىٰ مصطلَحاتٍ اصطلحُوا عليها مع بقاء بعض المصْطَلَح القديم : فخاطبوا بالحَضْرة تارةً، وبالخِدْمة تارةً، وبالمجلس أُخْرىٰ، فكتبوا : كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ حضرةِ سيّدنا الوزير، أو سيّدنا الأمير، ونحو ذلك، أو أسعد اللهُ الحضرةَ، أو أسعدَ الله الخِدْمة ، أو ضاعف اللهُ جَلالَ الخِدْمة، أو أعزّ الله أنصارَ الخِدْمة . وربما كتبُوا : صدرَتْ هذه الخِدْمة إلىٰ فلان . وقد يكتُبون : صدرتْ هذه الجملةُ ، إلىٰ غير ذلك من تفنّناتهم التى لا يسَع استيعابُها، ولا يمكنُ اجتماعُ متفرِّقها .

قلت : وبالجملة فضَبْط صدورِ الإخوانيّات وابتداءاتِها علىٰ هذا المصطلَح غيرُ ممكن لاختلاف مَذاهبهم فى ذلك ، والذى تحصَّلَ لى من كلام النحاس

وابن حاجب النعمانِ، وترسُّل أبي إسحاق الصابي، والعَلاءِ بن مُوصَلايا، وأبي الفَرَج البَبَّغاء، وغيرهم من الكُتَّاب المُجيدين أنَّ الغالب في المكاتبات الدائِرة بين أعيانِ الدول على سبعةِ أساليبَ :

الأسلوب الأوّل

أنْ تفتَتحَ المكاتبةُ بالدعاء

كما كتب أبو إسحاق الصابي إلى الصاحِبِ إسمعيل بن عَبَّاد بالشكر والتشوُّق .

أطالَ اللهُ بقاءَ سيدنا الصاحبِ الجليل، في سلامةِ دُنْيَا ودِين، ونَفَاذِ أمْرٍ وتمكين، وتمامِ عِزٍّ وتأييد، وثَبَاتِ وَطْأة وتَمْهيد، وعُلُوِّ قَدْر وسُلْطان، وتعاظُم خَطَرٍ وشان، وتولَّاه في نَفْسه وأوليائه بأحسن ما عُرِفَ وأُلِف، من نِعَم دارَّةِ الحَلَب، متفرّعة الشُّعَب، محميَّة الجهات والجَوَانب، محجوبةٍ عن النوائب والشَّوائب، وأراه في حُسَّاد فضائله، وكُفَّار فَوَاضِله، ماعَوّدَه فيهم من شَقاءِ جُدُودهم، وفُلُول حُدُودهم، وحُلُول النَّكَال بهم، وإثباتِ العِصْمة منهم. وجعل حُكْمَه قُطْبا لمَدَار الأفلاك، ونَهْجا لمَجارِي الأقدار، فلا يَنْزِل منها محبوبٌ مطلوبٌ إلا توجَّه إليه ونَحَاه، ولا محذورٌ إلا أعْرض عنه وتَحَاماه، ثم كان برُءُوس معانِديه حلولُه، وبرِقابهم إحاطَتُه، وفوق ظُهورهم مَحْمَلُه، وعلى صُدُورهم مَجْثَمُه، أمرًا جَزْما قضاه اللهُ له وخَصَّه به، وأعطَتْه الأيامُ عليه عهْدَ أمانِها، وأمرَّتْ له به عَقْدَ ضَمَانِها، عاطفةً عليه بطاعتها ومُوَاتاتِها، مُغْضيةً له عن نوائبها ونَبَواتِها، وحقيقٌ عليه جلَّ اسمُه أن يفعل ذلك به، ويسمَعَ هذا الدعاءَ فيه، إذ كان مرفوعاً إليه في أوفَرِ عِبَاده فَضْلا، وأغْمَرهم نَيْلا، وأجْزَلِهم أدَبا، وأكثرهم حَسَبا، وأعمَلِهم بطاعته، وأوْلاهم بإحسانه ومَعُونَته،

كتبت هذا الكتاب أطال اللهُ بقاءَ سيدنا الصاحبِ الجليل ؛ ثم آنخرط فى سلك مقصده إلىٰ آخره .

الأســـــلوب الثـانى

أن يتوسَّط الدعاءُ صدرَ الكتاب بعد الآبتداءِ بكلامٍ مناسبٍ للحال .

كما كتب أبو إسحاق الصابى أيضًا عن بعض الأمراء إلىٰ أمير آخرَ، مبشِّرا بفتح :

ومن أعْظَمِ النِّعَم ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا الأميرِ الجليلِ ـ خَطَرا ، وأحسنها أثَرا ، نعمةٌ سكَّنَتْ ثَوْره ، وأطفأتْ فَوْره ، وعادتْ علىٰ الناس بجميل الصُّنْع ، وجليل النَّفْع ، ونِظامِ الأمور ، وصَلَاحِ الجُمْهور ، فتلك التى يجبُ أن يكونَ الشكرُ عليهـا متَرادِفا ، والآعتـــدادُ بها متضاعِفًا ، بحسَبِ ما أزالتْ من المَضَرَّه ، وجَدَّدتْ من المَسَرَّه ، وأماطَتْ من المحذُور ، ونشَرتْ من المأمُول . وحقيقٌ علىٰ الناس أنْ يعْرِفوا حَقَّها ، ويُوفُوها من حمد الله قِسْطَها ، ويَتَنجَّزُوه وعدَه الحقَّ فى أدائها ، وإطالةِ الإمتاعِ بها ، والحمـــدُ لله علىٰ أنْ جعلَنا ممن يعرفُ ذٰلك ويهتَدِى إليه ، ويعتقدُه وينْطوِى عليــه ، ويُؤَدِّى فرضَ الآجتهاد فى الآستدامةِ والِآستزادة منه ، وأن خصَّنا من هــذه النِّعم بذواتِ الفضل السابغ ، والظِّلِّ الماتِـع ، الجامعةِ لكَبْت العدوّ ومَسَاءته ، وابتهاج الوَلِىِّ ومَسَرَّته ، وهو المسئُول جلَّ آسْمُه وعزَّ ذِكْره ، أنْ لَايسْلُبنا ماألبَسَناه من سَرَابيلها ، وأَجَرَّناه من فَضْل ذُيُولها ، وعوَّدَناه من جَلَالة أقدارها ، وتعاظُم أخْطارها ، ولايُعْدِمنا مَعُونةً منــه علىٰ بُلُوغ أقصىٰ الوُسْع فى الِآعتدادِ بها ، ومُنْتَهىٰ الطَّوْق فى البِشْر لهـا ، بمنِّه وطَوْله ، وقوّته وحَوْله .

وقد عرفَ مولانَا الأميرُ فلان ما كان من كذا وكذا ؛ ثم أتىٰ علىٰ ذكر الفتح إلى آخره .

الأسلوب الثالث

أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ « كتابى » كما كتب الصابى عن الوزير أبى عبد الله الحَسَن بن سَعْدان، إلىٰ فخر الدولة بن بُوَيْه فى بِشارةِ فتح .

كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا الأمير الجليل فخر الدولة ـ ومولانا الملكُ السيِّدُ صَمْصام الدولة وشَمْس المِلّة ، جارٍ علىٰ أفضلِ حال ، جمع اللهُ بينهما فى تمام عزٍّ ونَصْر، ونفاذِ أمْرٍ ونَهْى ، وعُلُوِّ كلمةٍ ورأيٍ ، وسُبُوغ مَوْهِبةٍ ونِعْمَه ، وشُكْرُ الله يَستزِيدُ من فضله ، ويستَدِرّ المادَّة من طَوْله ؛ وأنا جارٍ فيما أُحَمَّلُه من أعباءِخِدْمتهما ، وأتَوَلّاه من تعاظم شُئُونهما ، علىٰ أجمل ماعَوَّد الله وُزَراء هذه المملكة المُناصِحِين لها ، وأوليائها المُحامِين عنها ، من هِدايةٍ إلى مَراشد الأمور ، وتوفيقٍ لصَوابِ التدبير ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، وقد كان كذا وكذا .

الأسلوب الرابع

أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ «كتبتُ» كما كتب الصابى إلىٰ صاحب الجيش فى تعزيةٍ :

كتبتُ ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدنا صاحب الجيش ـ والعينُ عَبْرىٰ ، والكَبِد حَرّىٰ ، والصبر مسْلُوب ، والعَزاءُ مَغْلوب ، بالفَجِيعة فى سيِّدى فلان نَضَّر الله وجهَه ، وكَرَّم مُنْقلَبه ، التى هدَّت الجَلَد ، وفتَّتْ فى العَضُد ، وبسَطَتْ عُذْر الجَزُوع ، وهجَّنتْ حِلْم الحليم ، فإنا لله وإنا إليه راجِعُون ، وإلى أمْرِه صائرُون ، وعند الله نحتَسِبه غُصْنا ذَوىٰ ، وشِهابًا خَبا ، وعِلْقَ مَضِنَّة عَلِقتْ به أيْدى النَّوائب ، وتخَيَّرتْه سِهامُ المَصائب ، وقارنتْ بين قلوبِ الأباعدِ والأقارِب ، والخواصِّ والعوامِّ فى التألم لفقده والاَستيحاش لَمصْرَعه ، والكآبةِ لوُقُوع المحذُورِ به ، وعزَّ علَىَّ أن يجرىَ لسانِى بهذا القول ، ويَدِى بهذا الخطّ ، إلى آخر المكاتبة .

الأســــلوب الخـامس

أن يُفْتَتح الكتابُ بالخطاب : كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء فى زمن المسترشِد عن نفسه ، إلىٰ شُجاع الدولة وزيرِ دِمَشْق ، بعد هَلاك زَنْكِى بن آقْسُنْقُر .

أيها السيدُ الرئيسُ المحامِي عن سِرْبه ، والذى قَصَّر إلا فى المَعَالى ، رُبَّ ناءٍ بجِسمه وهو دانٍ بقلْبه ، وغريب إذا نسبتَ وأَمِير علىٰ دِمَشْقَ مطاع فى صَحْبه ، وله بالعِراق إخوانٌ من حِزْبه ، إلىٰ آخر المكاتبة .

الأســــلوب السادسُ

أن تُفْتَتَح المكاتبةُ بلفظ : «أنا» كما كتب الصابى عن نَفْسه إلىٰ الأَثِير أبى الحَسَن يهنِّئه بِعيد .

أنا ــ أطال اللهُ بقاء سيِّدنا الأستاذ الأثير ــ أُحاوِلُ الخِـدمةَ له والقُربةَ منه منْـذُ وصَلْت إلىٰ العَسْكر المنصور ، فيعترِضُ دُونَ ذٰلك عَوارِضُ يجرى بها المَقْدور ، إلىٰ الحِين المَوقَّت المسطور ؛ وقد عُلِم منِّى وشُهِر عنى كذا وكذا ، إلىٰ آخر الكتاب .

الأســــلوب السابع

أن تفْتتح المكاتبةُ بلفظ « صدَرَت » أو «أُصْدِرت» كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء فى زمن المسترشِد عن نَفْسه إلى أبى الفَرَج سَعْد بن محمد تشَوُّقا .

صدَرَتْ هذه الجملةُ إلىٰ فلان ، ولواعجُ الأشواقِ إليه متضاعِفةَ مترادِفه ، وآستمْرار الصَّبْر علىٰ البُعْدعنه قد رَثَّ قُواه ، ووهن عُرَاه ، وأعْوَزنا وِجْدانُه إذ عنَّت ذِكْراه ،

وإن كان ذِكرُه سَميرَ الخاطر، ونُجاه الناظر، والغريمَ المُلازِم، الذى يستحق غالبَهُ اللبيبُ الحازم، إلىٰ آخر الكتاب .

المَهْيَــــع الثـانى

(فى الأجوبة علىٰ هـذا المصطَلح ، وهى علىٰ ضربين)

الضــــرب الأوّل

أن يُفتتح الجواب بما يُفْتَتح به الابتداء ثم يقع التعرُّض بعد ذلك لوُصُول الكتاب والجوابِ عنه : إما ملاصِقًا لأوّلِ الابتداء ؛ وإما بعدَ كلامٍ طويل .

فأما ماهو متصِل بأوّل الابتداء، فكما كتب الصابى .

كتابِى — ووصل كتابُ مولاىَ وفهِمْته ، وجلَّ عِنْدى قَدْره ومَوْقِعه ، وسكنْتُ إلىٰ مادلَّ عليه من سلَامتِه ، وسألتُ اللهَ أن يُسْبِـغَ عليه ظِلَّها، ويُلِّيه نِعمَه كلَّها ؛ فأما ماذكره من كذا وكذا، إلىٰ آخر الكتاب .

وأمَّا ماهو بعدكلام طويل ، فكما كتب الصابى أيضا عن نَفْسه إلىٰ الصاحب ابن عَبَّـاد .

كتابِى — أطال اللهُ بقاء مولانا الصاحبِ الجليلِ كافى الكُفَاه — وليس من جارحةٍ إلا ناطقةٌ بشُكْره وحَمْده، ولافى الدّهْرِ جِراحةٌ إلا عافِيةٌ بفضله ورِفْده، وأنامستمرٌّ له علىٰ دعاءٍ: إنْ خلَوْتُ من أن يكونَ عائدًا لصَلَاحى، ورائِشًا لجَناحى، لألْتزِمنَّه عن الأحرارِ العائِشين فى نَدَاه، المستظِلِّين بِذَرَاه (١) ، فكيف وأنا أوّلُ ساهرٍ فى مَرَابعه،

(١) الذرى مايستكن فيه الانسان والظل راجع ج ١٨ من اللسان .

ووارِدٍ لشرائعه، وأحوالى جاريةٌ علىٰ آستقامةٍ أقوىٰ أسبابِها تصرُّفُ الأيام علىٰ آرائه، وآتباعُهـا إيثارَهُ فى أوليائه وأعدائِه ؛ والحمدُ لله رب العـالمين، قضاءً لحقِّه وآقتضاءً لمَزيده، وآستدامةً للنِّعمة عنده، التى استحْصفَتْ فى أيدينا سَعَتُها، وسالتْ علينـا شِعَابُها، وغَمَرتْنا سِجالُها، وتفيَّأت لنا ظلالُها، وما يزالُ بين رغبةِ مولانا الصاحب الجليل كافِى الكُفَاة ـ أدام الله عُلُوَّه، وكبت عدُوَّه، فى عبده ورَغْبةِ عبدِه إليه سِرٌّ مكنونٌ فى الصُّـدور، ومستورٌ تحت الضُّلُوع ، فهما يتناجَيَان به علىٰ بُعْد الدار ، ويلتقِيانِ عليه بالأفْكار ، فإنْ تطلَّع من حِجَاب القلُوب ؛ وشذَّ من ظُهور الغيوب ، فإنَّ ظهورَه يكون من جِهَته فى نَفَحات الإنْعام ؛ ومن جِهتِى فى ثَمَرات الكلام . وقد وصل كتابُه المخطوطُ بكَرَمه لا بقلَمه ، إلىٰ صنيعتِه المـاثِلِ بين يدَيْه بِهِمَمه لا بقَدَمه ، فلم يستطِعْ أن يَنْهَض من الفِكْر ، إلَّا بقدْر ما يبرِّئُ ساحته من الكُفْر ، ويبلِّغُه إلىٰ آخِر الآجتهاد والعُذْر ؛ وأسألُ الله أن يطِيلَ بقاءه للإفضال المأخوذ منه ، والفَضْل المأْخُوذِ عنه ، والعِلْمِ الذى يَزْخُرُبه بحرُه ؛ والفخْرِ الذى يُسْحبُ له ذيله ، والعز الذى ضُرِب عليه رُواقُه ، والسـلطانِ الذى أُلْقِىَ إليه آستحقاقُه ، والأمرِ والنهى اللذين يَحْوِيهما تُرَاثا وآكتِسابا، إذا حَوَاهما غيرُه غُلُولا وآغتصابا، بمنِّه وطَوْله ؛ وقد كان كذا وكذا .

الضــــرب الثـانى

(أن يُفتتح الجوابُ بلفظ «ورد أو وصل» ونحوهما)

كما كتب الصابى عن الوزير أبى عبد الله بن سَعْدان فى جوابِ كتابٍ ورد عليه .

وصل كتابُك ـ أطال اللهُ بقاءك ـ وَفهِمتُه ، وأدّى فلانٌ ما تحمّله عنك ووَعَيْتُه ، وآزددْتُ به بصيرةً فى سَدَادك ومَعْرِفَتك ، وفَضْلِك وحَصَافتك ، واجتماع الأدَواتِ الجميلةِ فيك، الداعية إلى إعلاء مَحَلّك ، وحَمِيد حالِك، والثِّقةِ بك، والاِستنامة إليك ،

وأنهيتُ ذٰلك إلىٰ مولانا الملكِ فلان ، فأصغىٰ إليه مستَمِعا ، وأوجبَ لك به حَقًّا متضاعِفا ، وأمرنِى بكذا وكذا إلى آخر مراده .

وكما كتب أبو الفَرَج البَبَّغاء فى جواب كتاب :

ورد كتابُك مُشَافِها من البِرِّ ، ومؤدِّيا من الفضل ، ومتحَمِّلا من المِنَن ، ماتجاوَز الإنصافَ إلىٰ الإسراف ، وقرَن الإكرامَ بالإنعام ؛ ولم أدرِ أىَّ المِنَح به أشْكُر ، ولا بأىِّ العَوَارف له أعترف : أبما تحمَّله من جميل نِيَّته ، أم ماأدَّى من جليل مخاطَبته ، أم ماناجتْنى به فوائدُ ملاطَفته ، أم ما آعتمَدَنِى من حَلَاوة مُفاوَضَته ، إلىٰ غير ذلك من الوُصول إلىٰ النعمةِ التى لا أُطاولها بشُكْر ، ولا أُقاوِمها بِمنَّة آعتداد : وهو ابتداؤُه إيَّاىَ من المكاتبة بمـا أحْرز به علىٰ عادته قَصَبَ السَّبْق ، وزاد علىٰ الرَّغْبة مبرْهِنا وبصادق الوُدِّ مُخْبِرا ، وإلى البَسْط دليلا ، وعلىٰ مستأنَف الخِدْمة بالمُواصلة باعثا ، ووجدْتُه أيده الله قد فَعَل كذا وكذا .

المَهْيَـــع الثـالث
(فى خَوَاتم الإخوانِيَّات علىٰ هذا المصطَلح)

وآعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختتامات ، ولا ما يقتضى ملازمةَ آختتامٍ معينٍ لصدرٍ معيَّنٍ ، بل ذٰلك موكولٌ إلىٰ رأْى الكاتب لايراعى فيه غير علوّ الرتبةِ وهُبُوطها ، حيثُ تفاوتَتْ رُتَب الاختتامات عندهم .

ثم الاختتاماتُ لدَيْهم علىٰ أنواع شتَّى .

منها — الاختتامُ باسْتِماحة الرَّأْى ، وهو علىٰ مراتب : أعلاها «ولمولانا علُوُّ الرأْى فى ذٰلك» كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب : ولمولانا علُوُّ الرأْىِ فى تشريف خادمه

بالقَبُول، والتَقدّمِ بإعلامه بالوُصول، وآستخدامِه بمـا يتعلق بآرابه وأوطاره ـ ومن نظائر ذلك وأشكاله ـ إن شاء الله تعالى .

ودُونَ ذلك ـ الآختتامُ بلفظ « فإن رأىٰ كذا وكذا فعل » كما كتب الصابى فى خاتمة كتابِ بشارةٍ بفتح ، فإنْ رأىٰ سيِّدى أن يعرِّفنِى موقِـعَ هذه البُشْرىٰ منه ، ومقابلتَها بالشكر الواجبِ عليها ، ويتقدّم بإشاعتها فى نواحيه وأعمالِه ، ليكْبِتَ الله به عدُوّه وعدُوَّنا ، ويُكاتبنى بمـا أتطَلّعُـه من أحواله وأخبـاره ، وأتعمَّد إسـعافَه به من مآرِبِه وأوطاره ، فإنّى أعتـدُّه شريكًا لنا مساهِمًـا ، وخلِيطا مُفـاوِضا ، فعـلَ إن شاء الله تعالىٰ .

ودونه « فرَأْيَكَ فى كذا وكذا » كما كتب أبو الفرج الببَّغاء فى خاتمة كتابٍ فى الحَثّ علىٰ مواصـلة الكُتُب ، فرَأْيَكَ فى إيناسِنا بكُتُبك متضمنةً مانُؤْثره من آنبساطك ، ونعلمه من أخبارك ، موَفّقا إن شاء الله تعالىٰ .

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ أصول المكاتبـات لأىِّ معنًى كان فرأْيَك دُونَ فإن رأيتَ .

وذكر آبن حاجب النُّعمان أنَّ أعلىٰ المراتب « وللآراء العالية فضلُ السمُوّ ومزيد القُدْرة » . ودونه « ولرأْى المجلس الفلانىِّ فضْلُ وسُمُـوّه » . ودونه « ولرأْى الحَضْرة الفلانية فضلُه » . ودونه « ورأْىُ حضرة مولانا أسْمىٰ » . ودونه « ورأْىُ حضْرةِ مولاى العـالى » . ودونه « ورأْيُه موَفّقا » . ودونه « ورأْيُه السديدُ » . ودونه « ورأْيُه الأرشَد » . ودونه « والمُؤْثَر كذا » . ودونه « فأحِب أن يفعلَ كذا » . ودونه « ويجبُ أن يفْعل كذا » . ودونه « فافْعل كذا من غير مخالَفَة » . ودونه « واحْذَر المخالفةَ » .

ومنها — الاختتام بالدعاء، كما كتب الصابى خاتمة كتاب «وأسأل الله أن يطيل بقاءه، ويصل إخاءه، ويحفظه بعيدا وقريبا، ويرعاه غائبا وحاضرا».

ومنها — الاختتام بطلب مواصلة الكتب، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب: وأنا أسأله أن يواصلنى بكتبه، مضمنة أخباره الطيبة، وأمره الممتثل، وأوطاره ومهماته، معتمدا بذلك، إن شاء الله تعالى.

ومنها — الاختتام بترك التكليف بالمكاتبة فى غير الضرورى، كما كتب الصابى فى آخر مكاتبة، وما أطالب سيدى بالمكاتبة إلا عند الحاجة العارضة؛ فإنه يفيدنى بها جميلا أشكره، ويستفيد منى سعيا يحمده، فأما ماعدا ذلك مما يشغل أوقات راحته، ويسد فرج خلوته، فإنى أستعفى منها استعفاء المتقرب إليه، المؤثر لما خف عليه؛ وله فيما سألت فضل النظر فيه، والإسعاف به، إن شاء الله تعالى.

ومنها — الاختتام بالتحذير من المخالفة، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب إلى جماعة بتحصيل قوم: وليكتب كل واحد منهم بخبر من عسى أن يظفر به من هؤلاء، أو يقف على موضعه، أو ينتهى إليه شىء من خبره، وليحذر من التقصير فى ذلك. إلى غير ذلك من الاختتامات التى لا تحصى كثرة.

وقد ذهب كثير من الكتاب [إلى عدم تفضيل بعض الاختتامات على بعض] (١) على أن ابن حاجب النعمان قد قال فى "ذخيرة الكتاب" إن أعلى ذلك بالنسبة إلى المكتوب إليه: وللآراء الفلانية فضل السمو ومزيد القدرة. ودونه «ولرأى المجلس الفلانى فضله وسموه». ودونه «ولرأى الحضرة الفلانية فضله». ودونه «ورأى حضرة سيدنا أسمى». ودونه «ورأى حضرة مولاى العالى». ودونه «ورأيه

(١) اقتبسنا هذه الجملة من المقام وأضفناها لتتميم الكلام وعبارة ابن حاجب النعمان تقدمت فى الصفحة قبل فتنبه.

موَفَّقا » . ودونه « ورأْيُه السَّدِيد » . ودونه « ورأْيُه الأَرشَدُ » . ودونه « والمُؤْثَر كذا » . ودونه «فأُحِبُّ كذا» . ودونه «ويجبُ أن يفْعَل كذا» . ودونه «وسبيلُه أن يعتَمِد كذا » . ودونه « فافعلْ كذا » . ودونه « فافعَلْ كذا من غير مخالَفَة » . ودونه «وآحذَرِ المخالفة» .

المَهْيَــــع الرابع

(فى عُنْوانات الكتب علىٰ هذا المصطَلَح، وفيها أربعة أحوال)

الحالة الأولىٰ — أن يكون العنوانُ من الرئيس إلىٰ المرْءُوس ، قد ذكر فى ”صناعة الكتّاب“ أنَّ العُنْوانات من الوزير والقاضى وغيرهما من الرؤَساء علىٰ تِسْع مراتبَ :

(الأولىٰ) أن يكتَبَ فى الجانب الأيمن « لأبى فلانٍ أطال الله بقاءه وأعزه» ، وفى الجانب الأيسر «من فلان بن فلان» باسم الوزير وآسم أبيه إن لم يكَنِّه الإمام؛ فإن كَنَّاه، كتب «من أبى فلان» ، والقاضى فى معنىٰ ذلك .

(الثـانية) أن يُكْتَب فى الجـانب الأيمن «لأبى فلانٍ أطال اللهُ بقاءه» فقط ، ويُكْتب الآسم(١) ولا يُكْتَب وأعزّه .

(الثالثــة) أن يكتب فى الدعاء للمكتوب إليه، أدام اللهُ عِزَّه .

(الرابعــة) أن يكتب أعَزَّه الله .

(الخامسة) أن يُكْتب أكْرَمه اللهُ وأدام كرامَته .

(١) أى آسم الوزير فى الجانب الأيسر وقوله ولا يكتب وأعزهُ أى فى الدعاء للمكتوب إليــه الذى هو فى الجانب الايمن فتنبه .

(السادسة) أن يُكْتبَ أكرمه اللهُ، وفى ذلك يكتَبُ ٱسمُ الوزير فى الجانب الأيسر.

(السابعة) أن يُكتبَ أبقاه اللهُ، ولا يذكَرُ ٱسمُ الوزير فى هذه المرتبةِ ومابعدها .

(الثامنة) أن يكتب حفِظَه الله ولا يكتَبُ ٱسم الوزير.

(التاسعة) أن يكتب عافاه الله .

وعلىٰ نحو ذلك جرىٰ ٱبنُ حاجب النُّعمان فى "ذخيرة الكتّاب" فقال : إنه يُبْدأ فى الجانب الأيمن بذكر المكتوب إليه ونُعُوتِه وكنيتِه وٱسمِه وٱسمِ أبيه ونَسبِه المشهورِ من ناحيتِه أو قبيلتِه أو بَلدِه؛ ثم يذكر المكتوب عنه فى الجانب الأيْسَر بٱسمه وٱسمِ أبيه؛ فإن كان الكتّابُ عن الوزير، ذكر كُنْيته فى الجانب الأيسر، إن كان الإمام أمره أن يكاتِب متكَنّيًا أو متلَقّبا .

وقد سبق فى الكلام علىٰ أصول المكاتبات فى أوّل الباب الثانى من هـذه المقالة أنَّ من السَّلَف من كَرِه لأبِى فلانٍ وقال : الصواب أن يكْتَبَ إلىٰ أبِى فلان . قال فى "صناعة الكتّاب" ويكْتَب : لأبى الحسن، فإن أعَدْت الكنيةَ فى الناحية الأخرىٰ رفعْتَ فقلت أبُو الحسن علىّ بنُ فلانٍ علىٰ المبتدإ والخبر أو علىٰ إضمار مبتدإ، وإن شئت خفضْتَ علىٰ البدل ، فإن لم تُعد الكنيةَ كان الخفض أحسنَ فقلت لأبى الحَسَن؛ ثم قال : وإن كتبتَ إلىٰ رجلين كنيةُ كلٍّ منهما أبو الحسن، كتبت لأبَوَى الحسَن إذا لم يكن لهما ولَدٌ يقال له الحسَن، فإن كان لكل منهما ولد يقال له الحسن، جاز أن يكتب لأبَوَى الحَسَنَيْنِ . قال : والاختيارُ أن يكتب لأبوِى الحسن أيضا، لأنَّ المعنىٰ للَّذيْنِ يقال لكلِّ واحدٍ منهما أبو الحسن . ويجوز أن يكتَبَ إلىٰ الرجلين اللَّذيْن يكَنَّيان بأبى الحسن: لأَبِى الحسن بفتح البـاء وكسر الياء علىٰ لغة

من قال جاءنى أَبُكَ ، والأصل فيه لأَبَيْنِ الحَسَن سقطت النون للإضافة ، ويكتب فى الجميع لأَبِى الحَسَن بكسر البـاء ، الأصل لأَبِين بكسرها أيضا ، سقطت النونُ للإضافة علىٰ لغة من قال : جاءنى أبوكَ(١) يعنى بضم الواو ، ويجوز أن يكتب لرجل كنيتُه أُبو الحسنِ لأَبَا الحسن علىٰ لغة القصر ، كما يقال لِفَتىٰ الحَسَن .

قال فى "ذخيرة الكتّاب" وإن كان الكتّاب إلىٰ آثنين وكنايتُهما(٢) مختلِفـة : كأبى جعفر ، وأبى منصور ، وأبى بَكْر ، كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر . وإن كانت كنايتهم متفِقة مثل أن تكون كنيةُ كُلٍّ منهم أبو جعفر كتبت آباءُ جعفر .

الحالة الثانية — أن يكون العُنوانُ من المرْءُوس إلىٰ الرَّئيس . قدذكر «النحاس» عن الفضل بن سَهْل أنه إذا خُوطب الكُفْء بجعلَنِى الله فِدَاءك بالصدر الكامل ، فأحسنُ دُعائه للعُنْوان ، أعزَّه الله وأطال بقاءَه ، وذكر أنه إذا كوتب بأعَزَّه الله فأجملُ العنوان مدّالله فى عُمُره . قال فى "صناعة الكتّاب" ولا يتكنَّى الرجل فى كُتُبه ، إلا أن تكون كنيتُه أشهرَ من آسمه فيتكنَّى علىٰ نظيره ، ويتسمَّى لمن فوقه ؛ ثم يُلْحِق المعروفُ أبَا فلان ، أو المعْرُوف بأبى فلان . قال : ويكتب : من أخيه ، إن كانت الحال بينهما تُوجِب ذلك .

الحالة الثالثة — أن يكون العنوانُ من الرجل إلىٰ آبنه ومَنْ فى معناه ، قد ذكر النحاسُ أنه يُعَنْوَن إليه من فُلان بن فلان إلىٰ فلان بن فلان ، ثم قال : وكذا كبير الإخوةِ والرجلُ إلىٰ أهل بيته .

---

(١) كذا فى الأصل ولم نعثر فى كتب النحو علىٰ هذه اللغة ولعله تحريف من الناسخ والأصل جاءنى أبك يعنى بضم الباء فتأمل .

(٢) لعله الى آثنين فأكثر وكنايتهم ... ... تأمل .

الحالة الرابعة — أن يكونَ المكتوبُ إليه آمرأةً . قال فى "صناعة الكُتَّاب" : إن كان المكتوبُ إليه أمَّ الخليفة ، كتب : للسيدة أمّ فلانٍ أمير المؤمنين ، وإن كانت آمرأة الخليفة وكان ابنُها معهودًا إليه بالخلافة ، كتب للسيدة أمّ فلان ولىِّ عهد المسلمين ، وإن كانتْ آمرأةَ رجل جليلٍ ، كتب للحرَّة أمِّ فلان ، ولا يكتب آسمُها ، ويدعُو لها بالدعاء الذى يكونُ خِطابُها به .

هذا ما كان الحالُ عليه فى زمن النحاس فى خلافة الراضى وما حَوْلَهَا .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" أنَّ الحالَ تغيَّر عن ذلك عند تغيُّر المكاتَبَات إلى المجلس العالى ، والحضرةِ السامية ، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك ، ثم قال : فعلىٰ هـذا إذا كتب إلىٰ المكتوب إليه بالمجلس العالى أو السامى ونعوته ، فيجب أن يكنِّىَ عن نَفْسه بالمملوكِ أو مملوكِه أو العبدِ أو الخادِم . وإذا كتب : الحَضْرة السامية أو العاليةَ ونُعوتَها ، فيجب أن يكنِّى عن نفسه الخادِمُ أو خادِمُها أو عبْدُها . وإذا كتب : حضرة سيدنا ونُعُوتها ، فيجب أن يكنِّىَ عن نَفْسه خادمُها أو خادمُه وعبدُها أو عَبْده . وإذا كتب : حَضْرة مولانا ونُعوته ، فيجوز أن يكنِّى عن نَفْسه ماشاء من ذلك . قال : وفى الكتابة إلىٰ النظير لا ضابطَ لعنوانه كما لا ضابِطَ لمكاتَبته ، بل له أنْ يكَنِّى عن نفسه بما شاء مما تقدّم ذكره .

ثم قال : وان كانت المكاتبةُ من الرئيس إلىٰ المرءوس ، فيجب أن يكنِّى : حضرة الفلانى بغير مولاى — ودونه : الفُلانى بغير حضرة ، وكنيتُه ونُعوته وآسمُه وآسمُ أبيه ، ويكنِّى عن نَفْسه مايختار أن يكْتُبه الرئيس إلىٰ المرءوس مما هو معروفٌ مشهور ، ويزيد فى آسمه وآسم أبيه ألفًا ولاما ، ان كانا مما يجوز أن يُزادا [فيهما] ، واذا كتب المرءوس إلىٰ الرئيس وكنّى عن نفسه بما كَنّى ، فيجب أن يحذِفَ من آسمه وآسمِ أبيه الألفَ

واللام . قال : وللرئيس أن يكتُبَ عن نفسه بما شاء من الكِنايات التى تليق بمَنْصِبه وٱسمِه وٱسمِ أبيــه ونعتِه المقْتَرِن بأمير المؤمنين ، مثــل ناصر أمير المؤمنين ، وحُسَام أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك .

المقصـــــد الثـانى

(فى [رسوم] إخوانيات أهلْ المغـــرب)

وعادتُهم فيهـا أن يكون الخطابُ فيها خطابَ المُواجَهة ، مثل : أنتَ ، وأنَا ، ولك ، وعندى ، وعندك . وربَّمـا خاطبُوا الواحد بميم الجمع تعظيما للمكتوب إليه ، كما يعبِّرعَن المتكلِّم الواحدِ بنُون الجمع تعظيمًا له . قال ابن شيث فى "معالم الكتَابة" ولا يُعـرفَ ذلك لغـيرهم ، وربَّمـا وقع الخطابُ عنـدهم علىٰ الغَيْبـة أيضـا ، وفيه جملتانـــ :

[الجمـــلة الأولىٰ

(فى مفْتَتحات المكاتَباتِ علىٰ ٱصطلاحهم ، وفيها مَهْيعان)

المهيـــع الأوّل

(فى ٱبتداء المكاتَبَات ، وهى علىٰ طرق)] (١)

منها — أن تُفتتَح المكاتبةُ بالدعاء : إمَّا بطُول البقاء كما كتب عبدُ الله بنُ طاهر : أطال اللهُ بقاءَ سـيدى الأعْلىٰ ، ومَفْزَعِى فى الجُلَّى ، متَمِّمةً عليـه النِّعم ، ميَسَّرة لديْه الهِمَم ، أقول بَدْءًا أيَّدك الله : لقد أعْشىٰ الناظِرين سَنَاك ، كما أعْيَا الطالبين مَسْعَاك ، ولئِنْ فُتَّ الجميع ، لقد أبْدعْتَ الصَّنِيع ، فلا غايةَ لمَجْدٍ إلا وأنتَ آتِيها ، ولا ذِرْوةَ لعزٍّ

---

(١) بيض لذلك فى الأصل و زدناها من نظيرتها الآتية .

إلّا ومن ظُبَاك بَانِيها، لكَ الهُدىٰ والناسُ ضُلَّال، وفى يديْكَ الضوءُ والكُلّ أغفال؛ وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرِّف بن عمـيرة : أطال اللهُ بقاءَ الأخ السرِيّ الكريم، الحرِيّ بالتَّقديم والتعظيم؛ أوحدِ فُرْسانِ الإحسان، وواحدِ عِقْبان البَيَان؛ ولا زال قلمُه جالىَ بدائع السِّحر، جالبَ بَضَائع الشِّحْر، مغبوطَ السَّبْق، عند كَلَال جِيادِ الكَلَام، مبْسُوطَ الرِّزق، فى حال إمْلاق الأَقْلام ، إنْ ذُكِرتْ ـ أبقاك الله ـ البلاغةُ فمن علىٰ مَوْرِدها يُسَاجِلك، أو قيـل فى شَرِيعتها بُنِيتْ علىٰ خمس فإنمـا هى أناملُك ، صَفْوُها متفجِّر من مَعِينك ، وَشَأْوُها لا مطمَعَ فيـه لغير يَمِينك، وشأوها تستوفيه فى هيئة متمَهِّل، وجَنَاها ترعاهُ بعِزَّة أنِحى مُهَلْهِل، فقد صرتَ أمامَ أُمَّتِها، لا بل إمامَ أئمتها ، والراضعَ لرِسْلها، بل الواضعَ لأصلها . فهنيئًا لها أن كنتَ سابِقَ غايَتِها، وسائقَ رايتِها، وبُشْرىٰ لمُهْرِقٍ وشَّـتْه يراعَتُك ، ومَشَّته براعتُك، لقد أُوتِىَ من الحُسْن ما تشْـترِيه القلوبُ بحَبَّاتها، وتشْتَهِيه النفوسُ أكثرَ من حَيَاتها؛ وإن الأمر كذا وكذا .

وإما بالبقاء المجرَّد .

كما كتب أبو محمدِ بنِ عبد البَرّ، إلىٰ بعض أرباب الأقلام :

أبقىٰ اللهُ الشيخَ فى عِزّةٍ تالدةٍ طارِفه ، وسعادةٍ لاتزالُ طارقةً بكلِّ عارفه ؛ ولا زالَ قاصـدُه مخيِّما من رِفْده برَوْضٍ ناضِر ، ومُحَوِّما من مَجْده علىٰ مَسَرَّةِ سَمْع وقُرَّة ناظر ؛ والأمر كذا وكذا .

وإما بالدعاء للحضرة .

كما كتب أبو زيد الفازازى :

أبقىٰ اللهُ حضرةَ السيد ناضِرةَ أدْواحِ السَّـعْد، عاطِرةَ أفْواحِ المَجْد، ساكبةَ أنواعِ الجَدّ، صائبةَ سِهام الجِدّ، ولا زالتْ مَغْشيَّةَ الجَنَاب، بوفْد الحمْد، مَوْشِيَّةَ الإهاب، بُسودَد الحَفْـد . الظِّلُّ إذا رَحُب ، ازدحم عليه الضَّاحُون ، والوِرْدُ إذا عَذُب ، ازدَلَفَ إليه المُتْاحُون، وظِلُّ الحَضرة المكرَّمة كثيفُ الأفياء، ووِرْدُها مُغْنٍ عن وسائطِ الأرْشيَةِ والدِّلاء، فلا غَرْوَ أن تُضْربَ إليها أكبادُ الإبل، وتَغَصَّ بالوُفُود عليها أفواهُ السُّبُل ، واللهُ تعالىٰ يُعين الحضرة المـكرَّمة علىٰ الأيادى تُسَوِّغُها ، والآمال تبلِّغُها ، بمَنِّه . وإن الأمر كذا وكذا .

وإما بالدُّعاء للمحلِّ .

كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة فى صدر شَفَاعة .

أبقىٰ اللهُ المحلَّ الأعلىٰ حَرمًا يَتَحاماه الأنام ، وعَلَما تَتضاءلُ له الأعْلام ؛ ولا زالتْ آراؤه النـاجحةُ ، تستمِدّها العقولُ والأفهام ، ومَسَاعِيـه الصالحة ، يشْـكُرها الله والإسلام . إنَّ مجْدا سامىٰ الكواكبَ بمَثْواه ، وسارىٰ الغُرَّ السواكِبَ فى جَدْواه ؛ لداعٍ إلىٰ آستلام كَفِّه العليه ، والِاستِهامِ علىٰ وَصْفه الذى له حقيقةُ الأوَّليَّه ؛ وكيف لا وقد أجار من الدهر المُخيف ، وصار قِبْلةَ كلِّ داخلٍ تحتَ التكْليف ؛ يُعيدُ متىٰ أخطأها صَلاةَ الأمل ، ويرىٰ الآجتهادَ فى طلبِها من راحة العَـمَل ؛ وإنَّ الأمر كذا وكذا ــ إلىٰ غير ذلك من أنواع الدعاء .

ومنها ـــ أن تفتتح المكاتبة بلفظ « كتابى » كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلىٰ بعض العلمـاء .

كتابى إلىٰ سيدى ـ حفِظه اللهُ مُقيما وسائرا ، وأبقـاهُ لغُرَر البيان ساحِرًا ، وعن وجْه الإحسان سافِرا ، ولا زالتْ آدابُه تُشرِق وتروق ساهِرا ، ومحاسنُه كالشمس إذا لم

يَلْقَ نورُها ساتِرا ـ من فلانة ـ والوُدّ روضةٌ مَطْلوله ، ورحِمٌ موصوله ؛ خَلَص من القلب إلىٰ حَبَّته ، واْختصَّ منه بما ليس لأحدٍ من أحِبّته ؛ وأثَارَ شَوْقا علىٰ قَدْره ، وهَوًى ثوىٰ فى صَدْره ؛ وأسفًا علىٰ عهْدٍ أصبو إلىٰ ذكره ؛ فات ، وردُّ الفائت يعْسُر ، وقَصُر ، وأيامُ السُّرور تقْصُر ؛ كأنما كان قراءةَ سطْر ، أو إغفاءَةَ فَجْر ؛ أو زيارةَ مُجْتاز ، أو عبارَةَ ذى إيجاز . فمَنْ لنا بذلك الأرج الذكى ، والأرْيَحِىّ يرتاحُ لما يخْترع أو يحْكى ، ومتىٰ نفُوزُ بمن ينحت من صَخْر ، ويُزْرِى بأبى صَخْر ، ويَغْرف من بحر ، ويجْرِى مع أبى بَحْر ؛ ويجمَعُ إسنادُه بين الجامع والمُسْنَد ، ويُنْشِد من بدائع حفْظِه ما يُؤْثَر يد المسند ، شجرةُ علم تُؤْتِى كلَّ حينٍ أُكُلَها ، ومُزْنةُ فضل تجودُ ما نَخْشىٰ بُخْلَها ، وضالَّة أدبٍ يقِلُّ لها أن يُجْعل القارِتُ[1] جُعْلَها ، فات عَنَّا ، فأتعبَ وعَنّىٰ ، فهل معينٌ علىٰ دواء إن نحن لُسِعْنا ، أوسبيلٌ إلىٰ ما يفيدنا من الكلام فنحنُ فى حروف تجِيءُ بغير معْنىٰ ، وإن الأمر كذا وكذا .

ومنها ــ أن تفتَتَح المكاتبة بلفظ : كتبت .

كما كتب أبو زيد الفازازى .

كتبتُ ــ كتب الله للأخ الأبَرّ الأوفىٰ ، والفاضلِ الذى آثارُ مآثِرِه لاتَخْفىٰ ، مجدًا هامِىَ الرَّبابه ، سامِىَ الرابَهْ ، وذكرا متحَلّا بالإطالة والإطابه ، وقَرَن أعمالَه بالقَبُول ودَعَواتِه بالاْستجابه ــ من مكانِ كذا ، ولا جديدَ بُمْن الله تعالىٰ إلّا صُنْعُه الجميل ، ولُطْفُه العريضُ الطويل ، والحمدُ لله ربِّ العالمين ، حمدًا يؤمِّن آلاءَه من التغيير والتبديل ، والأمرُ علىٰ كذا وكذا .

---

(١) القارت أجف المسك وأجوده .

ومنها — أن تفتتح المكاتبةُ بكنايةٍ عن المكتوب إليه من لقب ونحوه .

كما كتب أبو المطرّف بنُ عميرة لبعض الرؤساء .

الجنابُ الرِّياسِىُّ أدام الله اعتلاءه، وحرَس مَجْده وسَنَاءه .

صدرت هذه الخدمةُ إليه من فلانة، ولا مَزِيدَ على ما يَجِبُ لجَلاله من التعظيم، ولفَضْله من التقديم، ولآلائِه من الشُّكْر العميم؛ وإنَّ الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو بكر بنُ عيسى شافِعًا فى أنصارىّ .

السيدُ العِمَاد، والمـاجِدُ الجَوَاد، والمَلْجأ المَنيع المَرِيعُ لمن يَرْتاعُ أو يَرْتاد، أدام الله عَلاءَه، وضاعف عنـدَهُ آلاءَه، بدْرُ الجمـلة الشريفه، وفَرْع الدَّوْحة المُنِيفه، من آل قَيْسِ الجُود، وقَيْلُ بَنِى قَيْـلةَ الباذلين الموجُود، أولئـك الذين عزَّ المهاجُرون بإخائهم وسَخَائهم، فلا غرْوَ أن تَكْلَف الألسِـنةُ بمَدْحه، وتُمَـدَّ الأيْدى إلى مَنْحه، ويُصَدَّر بٱسمِه تاريخُ الأجداد فهو أحَقُّ مفْتَتِحه، والأمرُ كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرِّف بنُ عميرة، عن الأمير أبى جَمِيـل زَيَّان، إلى الأمير أبى زكريَّا بن إسحاق .

الأميرُ الأجلُّ الهمامُ الأعلى حرسَ الله مَقَامه، وأسـعد أيَّامه، وظـاهَرَ بالنُّصْرة مَضَاءَه وٱعتزامه، راسخُ شَرفِ النِّجار، ثابتُ أصـلِ الفَخَار، مستَهَلُّ آلاءِ السُّحُب الغِزَار، والعُيُون إليه سامِيَه، والهِمَم إلى مالدَيْه متَرامِيَه، والصدورُ بالأمل فيه تُشْرَح، والنفوسُ الحُـرَّة إلى ٱسـترقاقِه تَطْمَح، ولا غرْوَ ـ والكرمُ من بعض شِيَمِه، والغِنَى من فضلِ دِيَمِه ـ أن يَسِيرَ إليـه فى البر والبحْرِ كلُّ ذى رَغْبه، وتترامى نحوَه ركائبُ الرَّجَاء من كل تُرْبه . ومخاطَبَتُنا هـذه إلى مجلِسه أيده الله عمَّا نعلَمُه من كبير قَدْره، ونُوجِبُه لعالى أمْرِه، ونُبِيح به من طَيِّب خبَرِه، وجميلِ ذِكْره؛ والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو الحسن بن شَلْبون :

العِمَاد المذخر، والمَلاذُ الذى بولائه أفْخَر، جعل الله قَدْره عاليا، ودهْرَه بمحاسنه حالِيَا، ولا زال للنِّعم قابِلا وللأ[سواء] قاليا ، كتبتُ من مكان كذا ، والوُدُّ حِلْيةٌ يتألَّقُ رَوْنَقُها ، وشجرةٌ لا يسقُط ورقُها ، وإنها مغروسة ، لاتقبل بَذْرَ العَوادِى ، ومحروسةٌ، لايَقَع عليها من يَقَع فى شجر الوادى ؛ والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلىٰ بعض الفقهاء شافعا مُوصِيًا :

المحلُّ الأعلىٰ ــ ضاعفَ اللهُ أنوارَ هِدايَتِه، وأبقىٰ علىٰ الجميع آثارَ عِنَايَتِه ــ مستودَعُ الكَمَال ، ومَشْرَعُ الآمال ؛ ومَقْعد أربابِ السُّؤال، ومَصْعَد الصالح من الأعمال، وإن فلانا من أمره كذا وكذا .

وكما كتب ابن أبى الخِصَال :

الشيخُ الأجَلُّ أدام الله عِزَّه ونُعْماه ، ووصل رِفْعته وعُلَاه بتَقْواه ؛ مُجِلُّ قدْركم، وملتَزِم بِرِّكم وشُكْرِكم ؛ العارفُ بحقِّكم ، فلان ؛ فكتب يعظِّمكم كتبَ اللهُ لكم خيرا مستَمِرّا ، ورِضًا علىٰ ماتَرْضَوْنه ثابِتًا مستَقِرّا ، من مكان كذا ، علىٰ الرسم الملتَزَم من توفير عَلَائك ، والشُّكْر لآلائك ، والربُّ تعالىٰ يُنْهِضُ بحقكم اللازمِ الألْزَم، ويصلُ حِراسةَ مَجْدِكم الأتْلدِ الأقدم؛ بمنِّه وفَضْله، وإنَّ الأمر كذا وكذا .

واعلم أنه ربَّمـا أُتِى بعد ذكر النُّعوت بالسلام، ثم بحمدِ الله تعالىٰ والصلاة علىٰ النبى صلىّ الله عليه وسلم وعلىٰ آله ؛ ثم الرِّضا عن الخلفاء المـاضين والخليفةِ القائم .
وعلىٰ ذلك كانتْ طريقةُ كُتَّاب دولة الموحِّدين أتباع «المهدىِّ بنِ تُومَرْت» كما كتب أبو محمد بنُ عبد البرّ :

الشيخ الأجلّ، أدام الله عِزّته، ووصلَ كرامتَه ورِفْعته . مُجِلُّ قدْره، وملتزم بِرِّه وشُكْرِه، المسرورُ بما يُجْرِيه إحسانُه من طَيِّب ذكره .

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعدَ حمدِ الله العظيم ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد رسولِه الكريم ، وعلىٰ آله ـ والرِّضَا عن الإمام المعصُوم مَهْدِيِّه ، وعن خلفائه الأئمة الراشدين ـ والدعاءِ لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين ، ٱبن الأئمة الخُلَفاء أمراء المؤمنين ، بالنَّصْر الأعَزّ ، والفتح الأتَمِّ الأوْفىٰ ، فكتَب كتب الله لكم مجدًا لا يَبِى شرَفُه ، وسعدا لا يَنِى طرفه ، من فلانة ـ حرسها الله ـ ولا ناشِئَ عن الله تعالىٰ وعميم لُطْفه إلّا الخيرُ الأكمل، والصُّنع الأجْمَلُ، والحمد لله رب العالمين كثيرا، وإنَّ الأمر كذا وكذا .

قلت : وعلىٰ هذه الطريقةِ كانتْ كتَابةُ أبى عبد الله بن الخطيب : كاتبِ ٱبن الأحمر بالأندَلُس علىٰ القُرْب من زماننا .

ومنها ـــ أن تفْتَتح المكاتبةُ بالخطاب، إما مع حذف ياء النَّسَب أو مع إثباتها .

أما مع حذفها، فكما كتب أبو المطرّف بن المثنّى :

سيِّدى ومَفْخَرى ، وعِصْمتى ووَزَرى ، ورُكْنى وعمادى ، وذَخِيرتى وعَتَادى ، أبقاك الله ناهِجًا سُبُل المكارم والمَعَالِى ، مُوَقًّى حوادِثَ الأيَّام واللَّيالِى . كُتُبِى أعزَّك الله عن عهدٍ حَسَنٍ لك قد أُحْكِمَتْ معاقِدُه، ووُدٍّ مَحْضٍ فيك قد صفَتْ مَوارِدُه، ونفسٍ ترتاح لذِكْراك ، ولسانٍ لاهٍ بين مَحَاسنك وعُلَاك، قد ٱنفَسح فى نَشْر فضائلك مَيْدانُها، وفاق فى وَصْف فَوَاضلك بيانُها ، فهى تَنْظِم عُقُودَ مَجْدك، علىٰ أجياد شُكْرِك ، وتَحُوك من بُرُود تَقْرِيظك وثَنَائك ، خِلَعًا لمجْدك وسَنَائك، وشْيُها الذِّكْر الخَطِير، وطِرازُها الترفيع والتَّوقِير، تكسر عَصْب عَدَن ، وتُعَفِّى علىٰ وَشْى اليَمَن ؛

وتُطْلعُ من رِيَاض أخلاقِك ، في مَنَابت أعْراقِك ، ما يُزْرِى بنَسِيم المِسْك تَضَوُّعُ عَرْفه وانتشاره ، ويُربِى على حُسْن النجوم الزاهرة طوالِعُ أزهاره وأنْواره ، وأخْلِقْ بمَنْ جمع اللهُ العالَمَ فيه ، وحَرَس مَعاهِدَ البِرِّ بكريم مَسَاعيه ، أنْ لا تُعْزَىٰ خَلَّةٌ نَبِيلَةٌ إلّا إليه ، ولا تُقْصَر مَنْقَبة جليلةٌ إلّا عليه ، ولا تُؤْثَر مَأْثُرةٌ نَفِيسة إلّا عنه ، ولا تُقْتَبَس سِيرةٌ جميلة إلّا منه ، والله تقدّسَ اسْمُه يَحْمِى هذه الأوصافَ البديعه ، والجلالَ الرفيعه ، من طوارِقِ الدَّهر ونَوَازِل الغيَر ، ويجعلُ عليها يَدَه ، ويَصْرِف عنها مَعَرَّة كل خطب وشدّه ، بحَوْله وطَوْله ؛ ويكون الأمرُ كذا وكذا .

وأمّا مع إثبات ياء النَّسَب (١) ، فكما كتب أبو المطرّف بن الدبّاغ إلىٰ بعض الأُدَباء عند وروده إلىٰ بلاده :

يامَوْلاىَ ، وسيِّدى ، العظيمَ شأنُه وأمْرُه ، العالىَ صِيتُه وذِكْره ؛ ومَنْ أبقاه الله فى عِزٍّ لا تنْفَصِم عُرَاه ، وحِرْز لا يُسْتَباح حِمَاه ، لم أزَلْ ـ أبقىٰ الله سيِّدى ومَوْلاىَ ـ تسمُو بى إلىٰ الكِتَابة هِمَّه ، وتترامىٰ بى إلىٰ البَلَاغة عَزْمه ، حتّى تذلَّلَتْ لى صِعابُها فامتطَيْت ، وتسَهَّلَتْ لى حُزُونهـا فارتَقَيْت . ولَمّا رُفعتْ لى عن غَرَائِبها الأسْتار ، وعلِمْتُ من غوامضها الأَسْرار ، وفُزْتُ بالمُعَلّى من سِهَامها ، والمَوْفُور من أقسامها ، جعلت بأَىِّ أئمتها أَأْتَمُّ وأهتَدِى ، وإلىٰ أى رُؤسائها أنتَسِب وأعتَزِى ، ناظرًا فى ذلك إلىٰ شائع الأخبار ، ومُتَدَاوَل الآثار ، فوجَدتُ الألْسِنةَ إذا تناولَتْ صِفةَ سِوَاه ، تحلَّتْ بعضَ حِلَاه ، أو أرْقَتْه إلىٰ رُتْبَـةٍ من العَلْياء ، تمثَّلتْ به فى الرِّفْعة والسَّناء ، ثم تُفْرِده أعزَّه الله دُونَها بالفَهْم المَتِين ، والعِلْم المَشْهُور ، والحِلْم المتعارَف ، والفضل المُتواصَف ، والرُّتْبَـة الساميَه ، والجَلَالة المتناهيه . فكُلَّما رأيْتُ محاسنَ مَجْده تُجْلَىٰ ، وسُوَرَ فضله

(١) لم تثبت فيه ياء النسب كما هو ظاهر فتأمل .

تُتْلىٰ، هَمَمت أنْ أطيرَ إلىٰ حَضْرته بجَنَاح الِٱرْتياح، وأرْكَبَ إلىٰ أُفُقه نَوّره اللهُ أعناقَ الرِّياح، والأيَّامُ تقْطَعُنِي بمَصَائِبها، وتقَيِّدُنى بأحداثها و بَحوائِبها، حتّٰى قضىٰ اللهُ أنْ يَرِدَ هذا الأُفُقَ فأفرخَ الأمل بغير نَصَب، وأنَال البُغْيَةَ بغير طَلَب :

ولَيْسَ الَّذِى يَتَّبِعُ الوَبْلَ رائدًا * كمَن جاءه فى دَارِه رائدُ الوَبْلِ

ومنها ــ أنْ تُفْتتَحَ المكاتبةُ بالتحيَّة والسلام .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة :

تَخُصُّ الآبنَ محبَّةً ومِقَه، والعبادَ ٱعتِدَادا بجانبه وثِقَه، حفظ اللهُ نَجابته ؛ وجعل لِدَاعِى السِّيادة تلْبِيتَه و إجابَتَه، تحيَّةُ الإجلال والتَّكْرِمه، والمَوَدّةِ الخالصةِ المتحَكِّمه، ورحمةُ الله تعالىٰ وبركاتُه، من مكان كذا، والوُدُّ كلف، والعهدُ بالصَّوْن من جميع جَوَانِبه مكتنف، وتِلكم الذات السنِيَّة ذخيرة جليلة، وأمل لاتُخْطِى منه مَخِيله، وهِبةٌ يكْذِب معهـا أن يُقال الأيَّامُ بخِيله . وكُنَّا نَظُنُّ أنَّ بِنـاءَ الكَرَم صَمَّ صَداه، ومَرْبَعَ الفضل عاصِبٌ برداه، وغائِبٌ عن الرُّشْـد أداه، ونقول : ما كُلُّ مَنْ أقعدتْه العَيْلةُ عُمَيله، ومتىٰ يفطن عمير عمر وبحيله، فكفا بكفاتها(١)، وهل سِوىٰ قيسٍ لرحىٰ العجُوز عَدِمَتْ جداتها، حتّٰى تمثَّل هذا المجاهدُ من طَرَفيه، المستقبِل آثار سلفَيْه، حفظ اللهُ الألفاظ والألْسِنه، وحمَلَةَ الأقلام والأَسِنَّه .

وكما كتب أبو زيد الفازازى .

السـلامُ الكريمُ العميم، علىٰ الشيخ الذى أَثْبُتُ علىٰ وُدِّه فلا أتحَوَّل، وأُطْنِبُ فى حَمْده فلا أستَعِيرُ ولا أتأَوَّل، وأتعَلَّل بذِكْره عنـد عَدَم مَرْآته ولأمرٍمَّا أتعَلَّل ؛ فلان ــ أدام اللهُ رِفْعته، وحَرَسَ من الأَسْواء مُهْجَته . كتب أخُوكم، البَرُّ بكم، الشَّيِّق

(١) كذا فى الأصل ولم نقف عليه فى غيره بعد البحث .

إليكم، الشاكرُ لمحَاسِنكم، المسرورُ بما سَمِعه من صَلَاح أحوالكم، فلان، ولا جَدِيدَ بمَنِّ الله تعالىٰ إلا الخيرُ والحمدُ لله كثيرا والأمرُ كذا وكذا .

ومنها — أن تُفتتَح المكاتبةُ بالكناية عن المكتوب عنه .

كما كتب ٱبنُ أبِي الخِصَال إلىٰ بعض الكُتَّاب يسأله حاجةً :

معَظِّم الشيخ الأجلِّ أبي فلان، ومُجِلُّه المكبِّر له فلان، أعلىٰ اللهُ قدْرَكم، وأوزَعَ أوْليـاءَكم شُكْرَكم، أيَادِيكم أدام اللهُ كرامَتكم أوْكَفُ من الغَمَام، ونِعَمُكم ألْزَمُ للأعناق من أطْواقِ الحَمَام، وإنَّ وَلِيَّكم ومعَظِّمَكم يحتاجُ إلىٰ كذا وكذا .

ومنها — أن تُفْتتَح المكاتبةُ بلفظِ من فلان .

كما كتب [بعضهم] من فلان، إلىٰ الشيخِ الحافِظِ الأكرمِ أبي فلان : أدامَ اللهُ كرامَته بتَقْواه، فالكتابُ إليكم كتب اللهُ لكم أحوالًا صالحه، وخَيراتٍ عليكم غاديةً رائحه، من موضعِ كذا، والبركاتُ متوافِره، والخيراتُ متظاهِره، والحمدُ لله تعالىٰ، وإنَّ الأمرَ كذا وكذا .

ومنها — أن تفتتح المكاتبة بلفظ إلىٰ فلان .

كما كتب بعضهم إلىٰ والده .

إلىٰ مَوْلاىَ المعَظَّم وأبِي، المتكَفِّلِ بتعْلِيمِي وحُسْنِ أدَبِي، أبقـاهُ الله ناظرًا إلىَّ بعينِ رِضَاه، وأعانَنِي علىٰ الجَرْى فى بِرِّه علىٰ حُكْمِ الشَّرْع القويم ومُقْتَضاه؛ من ٱبنك المعَظِّم لك، بلْ عَبْدِك، المتطَلِّع إلىٰ مايَصل من الأنباء الكريمةِ من عِنْدِك، المُواصِلِ المَسْعىٰ فى شكرك وحَمْـدِك، فلان : بأبِي كتبْتُه كتب اللهُ لكم لَيـانا من العَيْش وخَفْضا، وجمعَ بعـد الافتراقِ بعْضًا مِنّا وبعضا؛ ويَسَّر لى بطَوْله ومنّته أن يصْفَح عنِّي وأن يَرْضىٰ، من موضع كذا، ولا جَديدَ إلا نِعمٌ من الله عزَّ وجلَّ تُراوِح

وتُغادِي، وتَجْرِى الخواتِمُ منها علىٰ حُكْمِ المَبَادِى، وشوقٌ إليكم يَعْمُر أحناءَ ضُلُوعى وفُؤادِى، ويَحْسِم عنّى قَطِيعَىْ دَمْعِى الهَتُونِ وسُهَادِى؛ واللهُ جلَّ وعزَّ ييَسِّر ٱنقضاب غُربة النَّوىٰ، ويُرِيح النفُوسَ من مُحْرِق اللَّوْعة ولاعِج الجَوىٰ؛ والأمر كذا وكذا .

المَهْيَــــــع الثـانى

(فى الأجْوبة)

(وهى علىٰ ما تقدّم فى أجْوِبة المَشَارقة من أنها علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(أن يفتَتَح الجوابُ بمـا يُفْتَتح به الآبتداءُ، ثم يقع التعرّض إلىٰ وُصُول الكتاب، وذكر الجواب عنه)

كما كتب أبو عمرو الباجى :

وَعْدُك الكريمُ - أدام الله عزَّك - دينٌ، وقَضاؤه شَرَف وزَيْن، ومِثْلُك من تَحلّىٰ بمَحاسِنِ الشِّيَم، وزاحَمَ فى السِّيادة بالمَنْكِب العَمَم؛ وحفِظَ العهدَ لِمَـا أُضِيع، وآشترىٰ المَجْد بمـا بِيع؛ والتزمَ للوفاء شَرْطا لايُفْسَخ، ورآه شَرْعا لايُنْسَخ؛ ووصل كتابُك العزيزُ فى معنىٰ كذا وكذا .

الضـــرب الثـانى

(أن يُفتتح الجوابُ بوُرُود الكتاب ووُصوله آبتداء)

كما كتب آبن أبى الخصال :

ورَدَ كتابُك فى أمر فلان يَفْرِضُ الحملَ عليه فى النُّفوذ لِوجْهته، والتقدُّم إلىٰ رُتْبته، وليس عندى إلا عَوْنٌ وإنْجاد، وطاعةٌ وآنقياد، غيرَ أنَّ فى الأمر كذا وكذا .

الجملة الثانية

(فى خواتم المكاتبات على اصطلاحهم ، وهى على أساليبَ)

منها — أن يُختم الكتابُ بالسلام المجرَّد عن الدعاء .

كما كتب أبو عمرو الباجى فى خاتمة كتاب :

وأقْرَأُ عليك سيِّدى ، وأسْنىٰ عُدَدى ، أجزَلَ السلام وأحْفلَه ، وأتمّه وأكملَه .

ومنها — أن يُخْتَم بالدعاء .

كما كتب أبو المطرِّف بنُ الدبَّاغ فى خاتمةِ كتاب :

والله لايُخْلى مولاىَ من عبدٍ يسترِقُّه ، ومنْعم يُنْعِم عليه [بما] يستحقُّه ، وجميل يُولِيه ، وصُنْع يُسْدِيه ، بمنّه وجميل صُنْعه .

ومنها — أن يختم بذكر التودُّد والمحبَّة .

كما كتب أبو جعفر الكاتب فى آخرِ كتاب :

وإن لم يكُنْ لى من الحقِّ ما لا أتبسَّط به عليه ، فَلِى من الوُدِّ ما أَمُتُّ به إليه ، فحَسْبى به سُلَّما إلىٰ فَضْلك ، وذرِيعةً إلىٰ مَجْدِك ، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

ومنها — أن يخْتَم باستماحةِ النظر فى أمْرِ المكتوبِ عنه .

كما كتب أبو المطرِّف بن المثَنّى فى خاتمة كتاب :

ولكَ الطَّوْل العامّ ، والفَضْل الزاهِر ، فى اعتبار أمْرِى ، وتحقيق خبَرى ، والسلام ؛

إلىٰ غير ذلك من الخَواتِم التى تستدعيها المكاتبَةُ وتستوجبُها المَقاصد ، وفيما ذُكر من الصُّدور والخواتِم ابتداءً وجواباً مَقْنَع لمن تأمّل ، والله المستعان فى الأمر كلِّه .

المقصـــــد الثـالث

(فى الإخوانيّات المستعملةِ بالديار المصرية، وفيه ثلاثةُ مصطَلَحات)

المصـــطلح الأوّل

(ما كان الأمرُ عليه فى الدولة الطُّولونيّة وماقاربَها مما جَرىٰ
عليـه آبنُ عبدِ كان وغيرُه، وفيـه ثلاثة مَهَايِـعَ)

المَهْيَـــعُ الأوّل

(فى الصُّدور، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الآبتـداآت، ولهم فيـه أسـاليبُ)

الأُسْـــلوب الأوّل

(أن تفْتَتَح المكاتبةُ بالدعاء، وعليه غالبُ كتابتهم، وهى علىٰ أنماط)

منها — الدعاءُ بطُول البقاء وما فى معناه .

كما كتب آبنُ عبدِ كان فى صَــدْر مكاتبةٍ : أطال اللهُ بَقَاءَك ، ففى إطالَتِه حياةُ الأنَام وأُنْس الأيام والليالى ،وأدام عِزَّك ،ففى إدامته دوامُ الشَّرف ونُمُوُّ المَعَالى؛ وأتم نعمتَه عليك فإنهـا نعمةٌ حلَّت محلَّ الآستحقاقِ، ونزلَتْ منزلَةَ الآستيجاب،ووقفَتْ علىٰ مَنْ لاتكرَهُ الآلاءُ مكانَه، ولا تُنْكِرُ الفواضل محلَّه .

وكما كتب : عَمَرَ اللهُ بك الأزمِنـةَ والدُّهور، وآنَسَ ببقائك الأيَّامَ والشُّهور، وأمتَعَ بدَوام عِزِّك السُّعداءَ بحظِّهم منك .

ومنها — الدعاء بدوام النِّعمة .

كما كتب : أسبغ اللهُ عليك نِعَمه الراهنة بنِعْمة المستَظْفِر، وصانها لَدَيْك بإيزاع الشُّكْر عليها ، فلم أرَ ولله الحمدُ نعمةً قصدَتْ مستقرّها ، وتوخَّت وليَّها ، وتمنَّتْ كُفُؤها، إلا نعمتَك أكسبَتْ أولياءَها عِزًّا ونَضْرة، وملأتْ أعداءها ذِلَّة وغَضاضة، وتمكَّنتْ بمحلِّ الصِّيانة والرِّعاية، وخيَّمتْ بمستَقَرِّ الشُّكْر والحمد .

ومنها — اطِّراح الدعاء بدَوام النعمةِ لتقييدها بموجباتها منها .

كما كتب : قد كفىٰ الله عزَّ وجلَّ مَئُونَةَ الدعاء، لنِعْمَتك بالنَّماء : لأنها توخَّتْ لدَيْكَ محلَّها، فحلَّت بفِنَائك سارّه، مطمئنَّة قارّه، تستَوْثِر مِهادَها قِبَلَك ، وتستَهْنِئ مَوارِدَها عِنْدك، ولم تزل تائقةً إليك ، متطلِّعةً نحوَك بما آستجمع لها فيك : من لطيف السِّياسة وحُسْن الآحتمال لأعباء المَغارم ، فهَنأ كها الله متصلةَ البَقاء بطُول مُدّةِ بقائك، ومتحلِّيةً بحسن فِنائك، فلا زِلْتَ لعَوارف النعم مستَدْعِيا ، وللشكر بالزيادة فيها ممتَرِيا، وبدوام الحمد لرَدْفِها مستَمْرِيا .

ومنها — الدعاء بجُعلت فِداك .

كما كتب : جعلَنِي اللهُ فِداك، فإنَّ فى ذٰلك شرَفًا فى العاجل ، وذُخْرَ العُقْبىٰ فى الآجل، وخَيْرَ تُراثٍ لمخَلَّفِي من بعدى . دعاءٌ أخلصَتْه النيه، وصدَّقَتْه الطويَّه .

ومنها — آستكراه الدعاء بالتفدية .

كما كتب : إن قلتُ فى كُتُبِى إليك : جعلَنى اللهُ فِداك، فأكونَ قد بَخَسْتُك حظَّ إحسانِكَ إلىّ، وحقَّ مفترَضِك علَىّ : لأنها نَفْسٌ لا تُوازنُ ساعةً من يومك ، ولا تُوازِى طَرْفَةً من دَهْرِك ، وإنما يُفدىٰ مثلُك بالأنفُس التى هى أنْفَسُ من الدنيا وأعرَضُ من أقطار الأرض .

ومنها — تَفْدِيَةُ النِّعمة إعظاما لها :

كما كتب : جعلنى اللهُ فِدَاءَ نعـمَتِك التى علَتْ ذِرْوةُ سَـنَامها ، وفاضَتْ دِرَّةُ سمائها ؛ فعمَّرتْ أقطارَ الآملين ، ونَضَّرت جَنابَ ناحيةِ المعتَمِدين .

ومنها — الدعاء بصَلَاح الدنيا وغِبْطة الآخرة :

كما كتب : أسعَدَك الله بعواقِبِ قَضَائه وقَدَرِه ، ووهَبَ لك الصَّلَاحَ فى دِينك والسلامةَ فى دُنْياك .

ومنهـا — الدعاء بكَبْت العَدُوّ :

كما كتب : مكَّن اللهُ يَدَكَ من ناصيةِ عَدُوّك بالصَّوْلة عليه ، ومن زِمَامِ وَلِيِّك بالإحسان إليْه ، وبلَّغَك من كِلْتا الحالتَيْن مايَنْمِى علىٰ تأمِيلك ، ويُوفِى علىٰ تمنِّيك .

ومنها — الدعاء المشتَرَك بين المكتوب عنه والمكتوب إليه :

كما كتب : أدام اللهُ أُنْسِى بحَيَاتك ، وحَرَسنِى من الغِيَرِ فى نِعْـمَتك ، وأكرَمَنِى بصِيانَةِ أيَّامِكَ ولَيَاليك ، وأعزَّنى بذُلِّ عدُوّك وقَمْع حاسِدِيك .

ومنها — الدعاء بِطِيبِ الحياة :

كما كتب : عِشْ أطيَبَ الأعمـار ، مُوَقًّى من سُوء الأقْدار ، مبلَّغا نِهايةَ الآمال ، مغبوطًا فى كلِّ الأحْوال ، لا ينقَضِى عنك حقُّ عارفةٍ حتَّى تُجَـدِّد لك أُخْرىٰ أجَلَّ منها ، ولا يمرُّ بك يومٌ من الأيَّام إلَّا كان مؤمِّنًا (١) علىٰ أمْسه مقصِّرا عن فضـلةِ غَدِه .

(١) لعله موفيا تأمل .

ومنها — الدعاء باقتضاء العَدْل والإنصاف :

كما كتب : جعلك اللهُ ممَّن ينظُر بعَيْن العَـدْل ، ويَنْطِق بلسان القِسْـط ، ويَزِنُ بِقِسْطاس الحقِّ ، و يَكيل بمِعْيار الإنْصاف .

ومنها — الدعاء بإيزاعِ الشُّكْر .

كما كتب : وصـلَ اللهُ لكَ كلَّ نِعْمة يُنْعِمُها عليـك من الشُّكْر بمـا يكون لحَقِّها قاضِيا ، وللمَزِيد إليهـا داعِيا ، ومن الغِيَر مؤَمِّنا ، وللسَّلامة مُوجِبا .

ومنها — الدعاء للحاجِّ بالبَلَاغ .

كما كتب : أوْطأكَ اللهُ فى مَسِيرِكَ أوْثَرَ المَطَايا ، وخَوَّلك فيما نويْتَه أسبغَ العَطَايا ، وأوردَكَ الهِدايةَ إلىٰ كرِيم المُشاهَدة وزَكِّى المواقِف وأوْلاها بالزُّلْفة المقْبُوله ، والقُرْبة المأْموله .

ومنها — الدعاء للمسافر .

كما كتب : جعلكَ اللهُ فى حِفْظه وكَنَفِه ، وأحاطَكَ بحَيْطَتِه ، وجعل سَـفَرك أيمَنَ سفَرٍ عليك ، ورجع لك بدَرْك الحاجة ، وبُلُوغ الأمَلِ ، ونُجْح الطَّلِبة ، ونَيْل السُّـول .

ومنها — الدعاء بالعافِيَة من المَرَض .

كما كتب : مسَحَ اللهُ مابِك ، وعاد بالبِرِّ عليك ، وعجَّل الشِّفاءَ لك ، ومحَّص بَلْواك .

ومنها — الدعاء للوُلَاة .

كما كتب : أجرىٰ اللهُ بالخير يَدَك ، وسَمَـا (؟) بالعِزِّ طَرْفك ، وأوطأَ كُلَّ مَكْرُمة قَدَمَك ، وأطال إلىٰ كلِّ غاية هِمَمَك ، وبلَّغَك أقصىٰ محبَّتك .

ومنها — الدعاء فى الأُضْحِيَة بقَبُول النُّسُك .

كما كتب : جعلك الله بقَبُول النَّسِيكة والقُرْبان، فائزًا بالأَجْر والرِّضْوان ، مُخْلِصا لله بالإيمان، فى السِّر والإعْلان، مؤدِّيًا لما افترَضَ عليك، شاكِرًا لإحْسانه إليك .

ومنها — الدعاء بالهَنَاء فى الأعياد .

كما كتب : عَرَّفَكَ اللهُ فى هـذا العيدِ المبـارَكِ من السَّلامة وعُمومِها ، والعافيـةِ وشُمُولها ، والعارِفةِ وسُبُوغها ، والحِيَاطة وكمالها ، والحِمَـاية وجَمَالِها ؛ أفضلَ ماعَرَّفك فى ماضِى أعيادِك، وسالِفِ أعْوامك .

ومنها — الدعاء بدَفْع النوائب .

كما كتب : كان اللهُ جارَكَ من فَجَائع الدَّهْر ونُوَبه ، ووَلِىَّ إنعامِ النِّعمة فيما آتاك من فَضْله ، وتطَوَّل عليك من حُسن الحِيَاطة لما تولَّاك والذَّبِّ عمَّا أفادَك .

الأســـــلوب الثانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : كتابى أو كتبت)

فأمَّا كتابى ، فكما كَتَبَ ٱبنُ عبدكان : كتابِى إليك ، وأنا أستَعْتِب الأيَّام فِيك، وأُصَانِـعُ الزَّمان فى تَقْريبـك ، وربْعُ الجوار الذى كنا نَسْكُن تحتَ ظِلَاله ، ونتفَيَّأُ برَوْنَق جَماله ، بأجلِّ تُحَفه ، وأيْسَر أُلْفه ، وأعذَبِ مُشَاهدة ، وأصدَقِ مُشافَهَة ، ولعل أن يرتاحَ فيَشْعَبَ صَدْعا ، ويُؤلِّف جَمْعا .

وأما كتبت ، فكما كتبَ ٱبنُ عبْـدكان أيضا ؛ كتبْتُ وأنا من حَنِين الصَّبابة إلَيْك، وإرْزام الشَّوْق نَحْوك ، وألِيم التشوق إليك ،ولاعِج اللَّوْعة بك ، على ماأسأَلُ اللهَ أنْ يرحَم ضَعْفى ويتصَدَّق عَلَىّ برؤيتك ، ويَهَب لى النظَر إلى وَجْهك وجمـالِ غُرَّتك ، التى هى حَلِيفُ الجَذَل ، ونُزْهة الأمَل .

الأسلوب الثـالث

(أن تُفتتَح المكاتبةُ بالخِطاب بأنا)

كما كتب : أنا من جُمْلة صَنائِعك ، وحَفَظة وَدَائعك ، وشَكَرة إحْسانك ، متىٰ تصرَّفتُ فى البـلاد ، فأنَا المعروفُ بمعروفِك ، والعائشُ بجَـدْواك ، وأنت مَنْزَع هِمَّتى وقُرَّة عَيْنى ، ومَدَار أملِي ، ومحَلُّ رَجائِى .

الضـــــرب الثـانى

(الأجــوبةُ)

وٱبتداؤها إما كما فى الصُّدور الاَبتداآت كما تقدّم ثم يقع التعرُّض لوُصُول الكتاب ؛ و إما بأن تُصَدَّر بوصُوله وهو الأكثر .

كما كتب ٱبن عبدِ كانَ : وصلَ كتابُك فدَفَع تبَاريحَ الشَّوق ، وقَمَع كآبَةَ البَيْن ، وأطفأَ لَهِيبَ الحُرْقة ، و بَرَّدَ حَرَّ الصَّبابة .

وكما كتب : وصل كتابُكَ مشتَمِلا من أنواع البِرِّ ، علىٰ ما يقصُرُ فى جَنْب أيْسَرِه أعظَمُ الشُّكْر .

وكما كتب : وصلَ كتابُك المصَدَّرُ بجواهرِ لفْظك ، وبدائع مَعَانِيك ، ومحاسِنِ نَظْمِك ؛ مسـتودِعًا ما لا يُقْدَر علىٰ حمده وشُكْره إلّا بالاَعتراف بالعجْز عنـه ؛ وما أشبه ذلك .

المهْيَـــــع الثـانى
(فى خواتم الكتب)

وكانَ ٱختتامُ المكاتَبات عند أهل هـذا المصطَلَح علىٰ ماتقدّم فى مكاتبات أهـل المَشْرق من ٱستماحة الرأى : إما بلفظ فإن رأَيْتَ :

كما كتب ٱبن عبدكان : فإنْ رأيتَ أن تأْتِىَ فيه مُؤْتَنِفا ، مالم تزَلْ تأتيه سَلَفا ، فعلتَ .

و إما بلفظ فرأْيَك .

كما كتب : فرَأْيَك فيه بمـا أنت أهلُه ، فإن الرأى [الذى] أنتَ أهلُه ، فوقَ ما يلتمسه المُسْرِف فى هِمَّته ، والمَتَبَسِّط فى أُمنِيَّته .

وكما كتب : فرأْيَك فى ذلك بمـا تقْضى به الحقَّ وتَصل به الذِّمامَ ، وتحفَظُ به الحُرمةَ وتُصدِّق به الأمل ، وتقْتَعِد به الصَّنِيعةَ ، وتستَوْجب به الشُّكر .

المَهيَـــــعُ الثـالث
(فى عُنوانات الكُتُب)

ومصطلَحُهم فيه علىٰ نحو ماتقدّم فى مكاتَبات أهل المَشْرق : من كتابة إلىٰ فلان من فلان ، أو من فلان إلىٰ فلان .

فأمَّا مايُكْتب إلىٰ فلان من فلان . فكما كتب ٱبنُ عبدكان : للسيِّد الذى ٱستَعْبد الأحرار بفَضْله .

وكما كتب : لمَنْ قُرْبه يُمْن وسعادةٌ ، ونأْيُه نَكَد ومِحْنة .

وأما ما يكتب من فلان . فكما كتب : من صَريع الشَّوقِ إليه ، وأَسِيرالرِّقْبة عليه .

وكما كتب : ممَّنْ لا يتَمنّٰى الخيرَ إلَّا له ، إذكان لا يناله إلَّا به .

المصــــطلَحُ الثــانى

(من مصطلَحات الديار المصرية ما كان عليه الحالُ فى الدولة الأيُّوبِيَّة مما جرىٰ عليه القاضى الفاضلُ ومن بعده . وهو علىٰ قسمين)

القسم الأوّلُ — الآبتداءُ : وليس لمصطلَحهم ضابطٌ فى الآبتداء ولا فى الترتيب فى الرِّفْعة والضَّعَة، بل ٱفتتاحاتُهم فى ذٰلك متبايِنَةٌ .

فمن ذلك الآفتتاح بالدعاء ، وهو أكثر ما يقَع فى مكاتباتهم ، والغالبُ فى ذٰلك الدعاءُ للمجْلِس ، كما كتب القاضى الفاضلُ إلىٰ العِمَاد الأَصْفَهانِىّ : أدام اللهُ أيامَ المجلس التى لحَسَناتِ المُدِلِّ مُديله ، ولعَثَرات المُقِلِّ مُقيله ، ولمَعَاطف العِزِّ مُميله ، ولمَقَاطِف الفَوز مُنيله ، ولقِدَاح الجَدْوىٰ مُجيله ، ولا زالت الآرابُ بمكارِمه ناجِحَةْ ، والآراءُ بمَراسمه ناجِحةْ ، ومَتَاجِرُ المَفاخر بمُوالاته رابِحَةْ ، وأيدى الآمالِ لأَيَاديه بمُصافاته مُصافِحَةْ ، وأرْواحُ أوليائه برَوْح آلائِه فى مُواطاةِ أعْطياته عابقةً فائحه ، وأدعيةُ الداعين لأَيَامِن أيَّامِهِ ، المُذْعِنِين لعُهُود إنعامه ، طيِّبةً صالحه .

ومن ذلك ٱفتتاحُ العِمَاد الأصْفَهانِىِّ فى ٱعتِذار تأَخُّر المكاتَبات : إنْ تأَخَّرتْ مكاتَباتِى ، فإنَّ العُذْر معلُوم ، والأَجَرُ محتُوم ؛ والقَلَم مصْدُود ، واللَّقَم مَسْدُود ، والبَلَد محصُور .

إلىٰ غير ذلك من أساليبهم المشهورة التى لا يَسَعُ ٱستيعابُها ، ولا حاجةَ إلىٰ الإمعان فى ذكرها (١) .

---

(١) لم يذكر القسم الثانى وهو قسم الكلام علىٰ الخواتم ولم يترك له بياضا نعم يفهم ذلك مما تقدّم فى الكلام على الخواتم العمومية فتنبه .

المصـــــطلح الثـالث

(من مصطلحات الديار المِصْرِيّة فى الإخوانِيّات، ماجرىٰ عليه الاصطلاحُ فى الدولة التُّركيّة، مما رتّبه القاضى محى الدّين بنُ عبد الظاهر، والشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبِىّ، والمقرّ الشّهابىُّ بنُ فضل الله، ومن جرىٰ مَجْراهم: من فُضَلاء الكُتّاب إلىٰ زماننا، ممـا هو دائرٌ بين أعيانِ المملكةِ وأكابرِ أهل الدولة: من نُوّاب السَّلْطنة وسائرِ الأُمَراء والوُزَراء، ومَنْ فى معناهم: من أعيان الكُتّاب ومَنْ نَهَج نَهْجَهم من أرباب الوظائف)

وفيـــه مَهْيعانِ :

المهيَـــعُ الأوّل

(فى رُتَب المكاتبات المصطلَح عليها)

وقد آختلفَتْ مقاصـدُهم فى ترتيبها آختلافًا متقَارِبا فى الزيادة والنقْص والتقدِيم والتأخير، مع مراعاةِ أُصول المَرَاتب . وها أنا أذكُر ما آستقرّ عليه الحالُ من ذلك، وأُنَبّهُ علىٰ ماخالفه من ترتيبهم المتقدِّم الذِّكر: لتحْصُلَ الإحاطةُ به، ويُعلَمَ ماجرىٰ عليه أهلُ كلِّ عصرٍ منهم مما لعَلَّ مختارا يَختارُه، أو ينْسُجُ علىٰ مِنْواله؛ منبّها علىٰ وَهَم من وَهِمَ فى شيءٍ من ذلك .

وآعلم أنهم قد بنَوْا هذا النوعَ من الإخوانِيّات علىٰ قاعدتين، تتعيّن معرفتهما قبل الخَوْض فى رُتَب المكاتبات :

القاعدة الأُولىٰ — فيما يتعلّق بورق هذه المكاتباتِ .

قد جرتِ العادةُ أن تكونَ جميعُ هذه المكاتباتِ : من الأعلىٰ إلى الأدنىٰ ، ومن الأدْنىٰ إلى الأعلىٰ، ومن النظير إلىٰ النّظير، فى ورَق قَطْع العادة دُونَ مافوْقه من مَقَادير

قَطْع الورق المتقدّمةِ الذكر ، غير أنَّ أعيانَ أهـلِ الديار المصرية يُكاتَبُون في الورق المِصْرِيّ ، وأعيانَ أهـل الشأم يُكاتَبُون في الورق الشامِيّ : لكثرةِ وُجوده عندهم ، والمعنىٰ في ذٰلك أنَّ كُتُبَ السلطان الصادرةَ عنـه إلىٰ جميع أهل المملكةِ من النُّوّاب وغيرهم في هذا القطع ، فلا جائزٌ أن تعلُوَ مكاتبةُ أحدٍ منهم علىٰ مكاتبةِ السلطان في ذلك .

ثم قد اصطلَحُوا علىٰ أنْ يكونَ في أعلىٰ المكاتَبـة عن كلِّ أحدٍ من أعيـان الدولة قبلَ البسملة وصـلٌ واحدٌ بياضا ، إذ كان أقلُّ ما يُجْعَـل بياضا في كُتُبِ السلطان وصلين فاقتصَرُوا علىٰ وصـلٍ واحد، كي لايُساويَهُ غيرُه في ذلك . واصطلَحُوا أيضا علىٰ أنْ لا تنقُصَ المكاتباتُ المذكورةُ عن ثلاثة أوصال : الوصلُ الأبيضُ في أعلىٰ المكاتبة علىٰ ما تقدّم ، ووصلانِ مكتوبانِ : إذ لو نقَص عن ذلك، لخَرج الكتّابُ في القِصَرعن الحدِّ فيُزْدرىٰ ، أما لو دَعتِ الضرورةُ إلىٰ الزيادة علىٰ الثـلاثة لزيادةِ الكلام فلا مانِـعَ منه . واصطلَحُوا علىٰ أن يُتْرك للكتّاب حاشيةٌ بيضاءُ تكونُ بقدر رُبُع الدَّرْج علىٰ ما تقدّم ذكره في غيرهذا الموضع .

القاعدة الثانية — فيما يتعلّق بخطِّ هذه المكاتباتِ، وكيفيَّة أوضاعِها .

قد اصطلَحُوا علىٰ أنَّ جميعَ هذه المكاتَبات تُكتَب بقلَم الرِّقاع علىٰ ما تقدّم ذكره في الكلام علىٰ قَطْع الورق [من] أنَّ لِقَطْع العـادة قَلَمَ الرِّقاع .واصطلَحُوا أيضـا علىٰ أنْ تكونَ كتابةُ البسملة في أوّل الوَصْـل الثاني من المكاتَبة ، وأن يكون تحتَ الجَلالة من البسـملة لَقَبُ المكتوبِ عنـه المضافُ إلىٰ مَلِكه أو أميره ؛ فإن كان المكتوب عنه من أتباع السلطان كنُوّاب السلْطَنة وغيرِهم مـن الأمراء والوُزَراء ومَنْ في معناهم من رُؤَساء الكُتّاب السلطانية، كتب المَلَكيّ الفلانِيّ ــ بلقَب مَلِكه السلْطان، مثل المَلَكيّ الظاهريّ ونحو ذلك كما في هذه الصورة :

بسم الله الرحمٰن الرحيم

المَلَكى الظاهرىّ

وإن كان المكتوبُ عنه من أتباع الأمَراء كإستَدّار أميرٍ ونحوه، ٱنتَسَب في كتابته إلىٰ لَقَب أميره الخاصّ مما يُضَاف في التلقيب إلىٰ الدِّين ؛ فإنْ كان أميرُه لقبُه سيفُ الدين مثلًا، كتَب بدَلَ المَلَكى الفلانىّ : السيفىّ؛ وإن كان لقبُ أميره ناصِرالدِّين كتب الناصِرىّ؛ وإن كان لقبُه علَاءَ الدين كتب العَلَائىّ؛ ونحو ذلك.
وإذا كتب تحتَ الجَلَالة من البسملة المَلَكى الفلانِىّ ونحو ذلك، جعل ما قبله في السطر بياضًا وما بعده بياضًا، ويكون ذلك قطعةً من سطر مفردةً بِذَاتها.
وٱصطلَحُوا علىٰ أنه كلّما دقّ القلمُ وتقاربَتِ الأسطُرُ، كان أعلىٰ في رُتْبة المكتوبِ إليه، وكلما غَلُظَ القلمُ وتباعدتِ الأسطُرُ كان أنْزَلَ في رُتْبة المكتوب إليه. وٱصطلَحُوا علىٰ أن في الرتبة العليّةِ من المكاتبات يكون السطرُ الأوّلُ من المكاتبة تِلْوَ المَلَكِىّ الفلانىّ وما في معناه ملاصِقًا له، وفيما دُونَ ذلك من المكاتبات يُتْرَك بياضٌ يسير، ولا يكتَبُ فيه شيءٌ، وكأن المكتوبَ عنه يقولُ للمكتوب إليه هذا محلُّ العلامة، ولكنِّى قد تركت الكتابةَ فيه وكتبت بحاشية الكتَاب تأدُّبا معك ورِفْعةً لقَدْرك؛ وفيما دُونَ ذلك يُتْرَك بياضٌ أوسعُ من ذلك ويكتُبُ فيه المكتوبُ عنه علامتَه علىٰ ما سيأتى بيانُه في مواضعه إن شاء الله تعالىٰ. وٱصطلحُوا علىٰ أنه بعد ٱنتهاء الكلام في المكاتبَة يكتبُ "إن شاء الله تعالىٰ" في خَطّه، ثم يكتَبُ التاريخُ في سطْرَيْن: اليومُ والشهرُ في سطر، والسنةُ في سطْر، ثم تكتَب الحمدلةُ والصلاةُ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم في سَطْر، ثم الحَسْبَلةُ في سطر علىٰ ماتقدّم بيانُه في الكلام علىٰ الفَوَاتح والخَوَاتم في المقالة الثالثة.

ولْيُعْلَمْ أنَّ هذه المكاتَبات علىٰ قسمين :

القسم الأوّل — الآبتداءاتُ ، وهو علىٰ أربع درجاتٍ سبق توجيهُ ترتيبها فى الكلام علىٰ أُصُول المكاتبات ، فى أوّل هذه المقالة

الدرجة الأُولىٰ — [المكاتبة] بتقبيل الأرض، وهى أعلاها رتبةً بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه .

وآعلم أنَّ كثيرًا من كُتَّاب الزمان يظُنُّون أن المكاتبة بيقَبِّل الأرضَ من مختَرَعات كُتَّاب الدولة التركية ، بل بعضهم يظُنُّ أنها من مختَرَعات المقَرِّ الشهابىِّ بنِ فضل الله وليس كذلك ، بل المكاتَبةُ بذلك كانتْ موجودةً فى أواخر الدولة العباسيَّة ببغدَادَ ، ثم سَرَتْ إلىٰ الديار المصرية فى أوائل الدولة الأيُّوبيَّة، فاستُعْمِلتْ بعضَ الآستعمال، والمكاتبةُ بذلك موجودةٌ فى كلام القاضى الفاضِل فى بعض المكاتَبات الملوكية ؛ ومن ذلك ما كَتَب به عن نَفْسه إلى السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب» فى صدر كتابِ تهنئةٍ بمولود :

المملوكُ يقبِّل الأرضَ بالمَقَام العالى الناصِرِىّ ، نصَّرَ الله الإسلامَ بمَقَامه، وأهلك أعداءَ الحقِّ بآنتقامه ، ولا أعدَمَ الأُمةَ المحمديَّةَ عَقْد التِزامه ، بكَفَالتها ومَضَاء اعتِزامه . ثم تَوسَّع فيه الكُتَّاب بعد ذلك حتّٰى كاتب به الآحادُ بعضُهم بعضا،

وقد رتَّبوا المكاتبةَ بتقْبِيل الأرض فى المصطَلَح المستَقِرِّ عليه الحالُ علىٰ خمس مراتب :

المرتبة الأولىٰ — الإتيان بالإنهاءِ بعد يُقبِّل الأرضَ من غير تعرُّض لذكْرِ دعاء ولاثَنَاء، مع مراعاة الآختصار وعدم السَّجْع وتقارُب السُّطور، مثل أن يكْتُب بعد البسملة ولقَبِ المكتوب عنه الذى تحت البسملة :

يُقَبل الأرضَ ويُنْهى كيتَ وكَيْتَ ، وسؤالُ المملوك من الصَّدقات العميمة بُروز الاوامر العالية بكَيْتَ وكيْتَ ؛ أو والمملوكُ يَعْرِض على الآراء العاليـةِ كيتَ وكيتَ ، ونحو ذلك . ويختِمُ الكتّابَ بقوله : أنهىٰ ذلك ، أو طالَعَ بذلك ، وللآراء العاليةِ مزيدُ العلُوّ ؛ ويعبِّر عن المكتوب عنه فى خِلَال المكاتبَة بالمملوك . ويختلفُ الحال فى خطاب المكتوبِ إليه : فإن كان من أرباب السُّـيوف وهو نائبُ سـلطنةٍ خُوطِب بمولانا ملكِ الأمراء عَزَّ نصرُه أو أعزّ الله أنصارَه ؛ وإنْ كان أمــيرًا غيرَ نائب سلْطنةٍ ، خُوطِبَ بمولانا المخْدُومِ ونحو ذلك مما يقتضيه الحالُ ؛ وإن كان وزيرًا ربَّ سيف خُوطِب بمولانا الوزير ؛ وإن كان وزيرًا ربَّ قلَمٍ ، خُوطب بمولانا الصاحب ، وربمَّـا قيل مولانا الوزير ؛ وإن كان قاضيا خُوطِب بمولانا قاضى القُضاة ؛ وإن كان عالمًـا كبيرا ، خُوطب بمولانا شيخ الإسلام ؛ وإن كان من مشايخ الصُّوفية ، خُوطِب بمولانا شـيخ الشُّيوخ ؛ وعلىٰ ذلك بحسَبَ المراتب والوَظَائف علىٰ ما يقتضيه رأْىُ الكاتب بمـا يُناسب الحالَ .

والعنوانُ فى هذه المكاتبة : الفُلانِىّ مطالعةُ المملوك فُلَان ، ويعبَّر عن ذلك : بالفُلانىّ بمطالَعة . وقد يعبَّر عن ذلك عن نفس المكاتبة.(١) وصورته : أن يكتب فى رَأْس ظاهر المكاتَبة من الجانبِ الأيمن «الفلانىّ» باللَّقب الخاص بالمكتوب إليه ، كالسَّيفىّ ، والناصِرِىّ ، والشَّمْسِىّ ، وما أشبه ذلك ؛ ويكون ذلك ممتدّا إلىٰ نحو رُبُع عَرْض الدَّرْج ، وتحته فلان بما يقتضِى تعريفَه من وظيفةٍ أو شُهْرة . فإن كان نائبَ سلطنةٍ كتب تحت الفلانىّ : مولانا مَلِك الأمراء بالمكان الفلانِىّ . وإنْ كان وزيرًا كتب : مولانا الوزير بالمكان الفلانى . وإن كان قاضِىَ قُضاة ، كتب : مولانا قاضى القُضَاة

---

(١) لعله وقد يعبر بذلك عن نفس الخ تأمل .

بالمكان الفلانى، ونحو ذلك، و يعبَّر عن ذلك بالتعريف، ويُكْتَب فى الجانب الأيسَر من رأسِ ظاهِرِ المكاتبةِ مقابِلَ ما كتبَهُ فى الأُولىٰ ماصورتُه «مطالعة المملوك فلان» باسم المكتوب عنه ويكون لفظ المملوك تحتَ ذلك، وفلان تحته عن بُعْد ثلاثةِ أسطر، وتكون لطيفةَ القدِّ غيرَ ممْشُوقة علىٰ الضدّ من المكتوب إليه . وهذا مثال عنوانٍ إلىٰ نائبِ سلطنة بالشام لقبُه سيفُ الدين، عمّن اسْمُه يلْبُغا .

السـيفى مطالعة

مولانا ملكُ الأمراء بالشام المحروسِ عزَّ نصْرُه المملوك

يلْبُغا

وعلىٰ ذلك يُقاس سائرُ العُنْوانات من هذه المرتبة ، والأصلُ فى ذلك أنَّ الحجّاجَ آبنَ يوسُفَ كتب كتابا إلىٰ عبدِ الملك بن مَرْوان ، فكتب فى عُنْوانه بقَلَمٍ جليلٍ لعبدالله عبدالملك أمير المؤمنين، وفى الجانب الأيسر بقلم ضئيل من الحجّاج بن يوسف، كما حكاه أبوجعفر النحاس فى "صِناعة الكتّاب" فتبعه الناسُ علىٰ ذلك فى تعظيمِ آسمِ المكتوبِ إليه، وتلطيفِ آسم المكتوبِ عنه، والعلامةُ فى هذه المكاتبة «المملوك فلان» باسم المكتوب عنه بقلم ضئيلٍ بحاشية الكتّاب سطرينِ : المملوكُ [سطر] والاسم سطر تحته علىٰ هذه الصورة : المملوك

فلان

ويكونُ ذلك مقابلَ «يقبِّل» ملاصقًا له بحيث تكونُ جَرَّةُ الكافِ من المملوك تحتَ الياءِ من يقبِّل، فكأنَّهم راعَوْا فى ذلك صورةَ مايكتَبُ فى القِصَص التى تُرفَع إلىٰ الأكابر لآستِماحةِ الحوائج ونحوها من حيثُ إنها يكتب فيها «المملوكُ فلان يقبِّل الأرض ويُنْهِى كيت وكيت» لما فى ذلك من إظهار الخُضُوع والتواضع .

المرتبـة الثـانية ــ أن يأتىَ بعد « يقبِّل الأرض » بذكر الدعاء دُونَ الثنـاء مع تقارُب الأسطر أيضا وٱجتناب السَّجْع . وقد ٱصطلَحُوا فى هـذه المكاتبَة علىٰ أنْ يكتُبُوا تحتَ البسملة مع لَقَب المكتوب عنه الذى هو المَلَكِىّ الفُلَانِىّ ونحوه لقبَ المكتوب إليه : كالسـيفىِّ ونحوه ، علىٰ سَمْت المَلَكِىِّ الفلانى من الجهة اليمنىٰ مع بياضٍ بينهـما ، بحيث يقَعُ بعضُ اللقب فى حاشـيةِ الكِتاب ، و بعضه تحتَ أوّل البسملة علىٰ هذه الصُّورة :

بسم الله الرحمن الرحيم

السـيفى الملكى الظاهرى

ثم يأتى بصورة المكاتبة بعد ذلك . ويختلف الحال فى هذه المكاتبة بٱختلافِ حالِ المكتوب إليه ؛ فإن كان نائبَ سلطنةٍ ، كتب « يقبِّل الأرضَ و يُنْهِى بعدَ رفْعِ الأدْعية الصالحة ، أو بعد ٱبتهالِهِ إلىٰ الله تعالىٰ بالأدْعية الصالحة ، تقبَّلها الله تعالىٰ من المملوك ومن كلِّ داعٍ مخلِصٍ ، ببقاء مولانا ملكِ الأُمَراء ، أو بدَوَام أيام مولانا ملِكِ الأمراء ، وخُلُود سعادته ، ومزيدِ تأْييـدِه ، وعلُوِّ درَجاته فى الدنيـا والآخرة ؛ بمحمَّد وآله : أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ ، والمملوك يسأل الصَّدَقاتِ العميمة ، أوالصدقات الكريمة ، أعزَّ اللهُ تعـالىٰ أنصارها بُروزَ الأوامرِ المطاعةِ بكَيْتَ وكَيْتَ . ثم يقول : والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأمراء وعبـدُ بابه ونَشْءُ إحسـانه ، ويسأل تشريفَه بمراسيمِه وخِدَمه ، أو والمملوك يستعرِضُ المَرَاسِيمَ الكريمة ، والخِدَم العالية ، ليُبادرَ إلىٰ امتثالها ، والفَوْزِ بقضائها ؛ أو والمملوك مملوكُ الأبوابِ العالية ونشْؤُها وغلامُها ، ويسأل دوامَ النظَر الكريم عليه فى أحواله كلِّها ، ونحو ذلك ممـا يقتضيه الحال ؛ وقد جهَّز المملوكُ

بهذه المكاتبة فلانًا أو مملوكه فلانا . فإن كان قد حمّله كلامَ مشافَهةٍ ، قال : وحمّله من المشافَهة ما يسأل الصدقةَ عليه بسماعه والإصغاءِ إليه ونحو ذلك . ثم يقول : طالع بذلك والرأىُ العالى أعلاه الله تعالى أعلى . وإن كان المكتوب إليه أميرا غيرَ نائبِ سلطنة ، كتب « بدوام أيام مولانا المخدُوم » بدل مولانا ملك الأمراء . وإن كان قاضيا ، كتب « ببقاء مولانا قاضِى القضاة ، أو بدَوام أيّام مولانا قاضى القضاة» . وإنْ كان من مشايخ الصُّوفيّة ، كتب «ببقاء موْلانا شيخِ الشيوخ» ونحو ذلك ، وباقى المكاتبة على ما تقدّم بحسَب ما يقتضيه الحال . والعنوانُ فى هذه المكاتبة « الأبوابُ الفُلانيّة ، مطالعةُ المملوك فلان » ويعبر عن ذلك بالأبواب بمُطالعة ، ويختلف الحال فى ذلك باختلافِ حالِ المكتوب إليه : فإن كان المكتوب إليه نائبَ سلطنةٍ ، كتب : الأبوابُ الكريمةُ ، العالية ، المْولَويّة ، الأميرية ، الكبيرية ، المالكيّة ، المخدوميّة ، الكافلية ، بلقبه الخاص كالسيفية ونحوها ، أعلاها الله تعالى فلان الفلانى ، باسمه وشهرته . وإنْ كان المكتُوب إليه أميرًا غيرنائبِ سلطنة أسقط منه الكافلية . وإنْ كان وزيرًا ربَّ سيفٍ ، كتب بعد الأميرية : الوَزِيريّة . وإن كان وزيرًا ربَّ قلم ، أسقط الأميرية ، وكتب قبل الفلانية الصاحِبيّة . وإن كان من رؤساء الكُتّاب ممن فى معنى الوُزَراء : ككاتب السرّ ، وناظر الخاصّ ، وناظر الجَيْش ، ونحوهم ، أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقاضَويّة . وإن كان قاضِىَ حُكْمٍ ، أتى مع القاضَوِيّة قبل الفلانية بالحاكِميّة . وان كان من مشايخ الصُّوفيّة أبدل القاضَوِيّة بالشّيْخيّة ونحو ذلك .

وصورته أن يكتب الألقاب من أوّل عَرْض الدَّرْج سطرا إلى آخر المالِكيّة ، ويخَلِّى بياضًا فى آخر السطر بقدْر رُبُع الدَّرْج ، ثم يكتب المخدومِيّة الفلانية فى أول

السطر الثانى مُلَاصقًا للأوّل ، ثم يُخلِّى بياضًا يسيرا ، ثم يكتبُ : أعلاها الله تعالىٰ ، ثم يخلّى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتبُ «فلان الفلانى» تحت آخر السطر الأوّل ، ثم يكتب فى آخر الدَّرْج من الجهة اليُسْرىٰ بعد خلُوِّ بياض «مطالعة المملوك فلان» ثلاثة أسطر علىٰ ماتقدّم فى العنونة بالفلانى بمطالعة كما فى هذه الصورة :

الأبوابُ الكريمةُ ، العاليةُ ، المَوْلويَّة ، الأميريَّةُ ، الكبيريةُ ، المالكية ،			مطالعة
المخدومية ، السيفيَّة	أعلاها الله تعالىٰ	أمر دَوادار الظاهرى	المملوك
			فلان

والعلامة «المملوك فلان» بقلم ضئيلٍ مُسامِت يقَبِّل كما فى المكاتبة قبلها .

قال فى "التثقيف" : وبهــذه المكاتبة يُكْتَب عن أكابر أمراء الديار المِصْريَّة إلىٰ نائب الشام وحلب فيما أظُنُّ .

قال : وكذلك كان يكْتُب المقرُّ العلائىُّ بن فضلِ الله كاتب السرِّ الشريف إلىٰ المشار إليــه ، يعنى نائبَ حلَبَ ، إلا أنه كان يكتب له العلامة أسفلَ الكتاب دُونَ أعلاه .

قلت : وعلىٰ هذا يكون للعلامة فى هــذه المكاتبة رُتْبتان ، إن عظَّمه ، كتب له العلامة علىٰ سَمْت يقَبِّل ، وإلا ففى أسفَلِ الكتاب ، ومن ثم ذكرت قولَ صاحب "التثقيف" هنـا وإن كان محلُّه رُتَب المتكاتِبِين علىٰ ما سيأتى ذِكْره فى موضـعه إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبــة الثـالثة — أن لايَكْتُب فى أوّل المكاتبة عن يمين أسفل البسملة الفُلانىّ ويأتِىَ بذكر الدُّعاء والثناء مسجُوعا ؛ مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذى هو المَلَكى الفلانى : يقَبِّل الأرضَ ، ويُنْهِى بعــدَ رَفْع دعائِه ، وإخلاصه فى محبَّته ووَلَائه ، وآعترافِه بإحسان مَوْلانا وجَزِيل آلائِه ؛ أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ ؛

والمملوك يسألُ إحسانَ مَوْلانا ، أو صَدَقاتِ مولانا ، أو إحسان المخدُوم ، أو صدقاتِه فى كَيْتَ وكَيْتَ ؛ ثم يقول : والمملوكُ فهو مملُوك مولانا ومُحِبُّه ، والداعِى لإحسانه ، ويسأل تشريفَه بمراسِيمه وخِدَمه ؛ وقد جهَّز المملوكُ بهذه العُبُوديَّة فلانا ، أو مملُوكَه فلانا ، وحَمَّله من الدُّعاء والوَلَاء مايُنْهِيه من لسانه ، ويُعْرِب عنه ببَيَانِه ؛ أو وقد حَمَّله المملوكُ مايقومُ عنــه به فى إنهائه ، من رَصْف الأدعِيَــة ، ووَصْف الأثنِية ؛ والمملوكُ يسألُ الإصغاءَ إليــه ، والتشريفَ بالمَرَاسِيم العاليةوالخِدَم الكريمة : ليَفُوزَ بإقْبالها ، ويُبادِرَ إلىٰ آمتثالهــا . طالَعَ بذٰلك ، أو أنهىٰ ذلك ؛ أو والمملوكُ يستعْرِضُ المراسِيمَ العاليه ، والخِدَم الكريمة المتَوَالِيه : ليتَشَرَّف بقضائها ، ويتشَوَّف إلىٰ إمضائها .

صــــدر آخر : ويُنْهِى بعــد رَفْع الأدْعيه ، وبثّ المَحَامد والأثْنِيه ، والمُوالاة التى يَحمِلُ منها عالِىَ الألْوِيه ، أنّ الأمر كيتَ .

آخـــــر : ويُنْهِى بعد رَفْع دعائه الذى لايفْتُر لسانُه عن رَفْعه ، ولايخفىٰ إن شاء الله إبَّانُ نَفْعه ، وآبتهالِه الذى يرفَعُ السُّحُب ، وشَوْقِه الذى يَهْــدِى النُّجُب ؛ أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

آخـــــر : ويُنْهِى بعــد دُعائه المقبول ، وشَوْقه الذى لا يَحُولُ عنــه ولا يَزُول ؛ وسلامِهِ الذى يَعْجِز عن شرحه القلَمَ ويَضْعُفُ عن حمله الرَّسُول .

آخـــــر : ويُنْهِى بعــدَ دُعاءٍ يرفَعُه بالغُدُوّ والآصــال ، ووَلاءٍ لايتغَيَّر ما دامَتِ الأيَّامُ واللَّيال ، وثناءٍ أطْيبَ من عَرْف الرَّوْض إذا مَرَّ عليه نَسِيمُ الشَّمال ، أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

آخـــــر : ويُنْهِى بعــد رَفْع الدعاء ، ونَصْب لِواء الوَلَاء ، وجَرّ ذُيُول الفَخْر بالآنتساب إلىٰ عبُودية مولانا والآعتِزَاء ، أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

آخـــر : ويُنْهِى بعدَ دعائه المرفُوع، وثنائِهِ الذى هو كالمسك يَضُوع، وشُكْرِه الذى يُسْمَع منه ويُسْمَع أطْيَبُ مسمُوع، أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

والعُنوانُ لهذه المكاتبة «الأبواب الفلانية» بغير مطالعة، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوبُ إليــه من أرباب السُّيوف وهو نائبُ سلطنةٍ، كتب «الأبوابُ الكريمةُ، العاليةُ، المَوْلَوِيَّة، الأميريَّة، الكبيريَّة، السيِّديَّة، المـالكيَّة، المخدوميَّة، الكافلية، الفلانية، أعلاها الله تعالىٰ» ثم يقال : نائبُ السلطنة الشريفة المحروسة؛ أو كافل المملكة الفلانية المحروسة؛ وباقى عُنْوانات أرباب الوظائف : من أرباب السيوف والأقلام علىٰ ما تقدّم فى العَنْونة بالأبواب بمطالعة .

وصورة وَضْعه أن يكتب « الأبواب الكريمة إلىٰ آخر الكافليــة » مثلا ســطرا واحدا من أوّل عَرْض الدَّرْج إلىٰ آخره ؛ ثم يكتب « الفُلَانيَّة أعلاها الله تعالىٰ » فى أوّل الســطر الثانى ملاصِقًا له ؛ ثم يترك بياضا قدرَ رأس إبهـام ؛ ثم يكتب فى آخِرِ السطر الثانى «كافل المَمَالك الشريفة الفلانية المحروسة» كما فى هذه الصورة :

الأبواب الكريمة، العالية، المولوية، الأميرية، الكبيرية، السيدية، المالكية، المخدومية، الكافلية،

السيفية؛ أعلاها الله تعالىٰ كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس

والعلامة فى ذيل الكتّاب مقابل تحت البسملة بقلم الرقاع «المملوك فلان» وكأنّهم لمـا ٱنحَطَّت رُتْبة المكتوب إليه عن أن تُكتب العلامةُ إليــه علىٰ سَمْت « يقبِّل » ليكون فى معنىٰ القِصَّة كما تقدّم، أخذ المكتوب عنه فى التنازُل إلىٰ آخِرِ المكاتبــة تواضُعًا للمكتوب إليه وتأدُّبا معه .

قال فى ” التثقيف “ وبذٰلك كان يُكْتَب عن الأمير يلْبُغا العُمَرىّ : يعنى الخاصكىّ وهو أتابِك العساكر المنصورة بالديار المصرية إلىٰ نائبَىِ الشام وحلَبَ .

قال : وكذلك كتبَ بعده إلىٰ المذكورَيْن : الأميرِ منكلى بغا ، والأمير الجاى ، ونُوّاب السلطنة بالديار المصرية .

المرتبــة الرابعة — أن يأتى بصدر المكاتبة علىٰ ماتقدّم فى المكاتَبَة قبلَها من الاْبتداء بيُقَبِّل الأرض ويُنْهى بعد رَفْع دعائه ومافى معناه علىٰ ماتقدّم من غير فَرْق : ولايختلف الحال فى الصدر ولافى مَتْن الكتاب ، والعنوانُ «الباب الكريم» ولايكون إلا بغير مطالَعة . فإن كان المكتوبُ إليــه من أرباب السُّيوف ، كتب « البــابُ الكريم ، العــالى ، المولوىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العــالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، المالكىّ ، المخدومىّ ، الفلانى ؛ أعلاه الله تعالىٰ ، فلان الفلانى ـ باسم المكتوب إليه . وإن كان من أرباب الأقلام أوغيرهم فعلىٰ ماتقدّم فى «الأبواب بمطالعة» من إبدال الأميرىّ بالقَضَائى ، أو الشَّيخىّ ، وزيادة قاضى الحُكم الحاكِمىّ قبل الفلانى .

وصورة وضــعه : البــابُ الكريم ـ بالألقاب المتقدّمة إلىٰ آخر المــالكىّ سطرا واحدا من أوّل عَرْض الدَّرج إلىٰ آخره ، ثم يكتب المخدُومىّ الفلانىّ أعلاه الله تعالىٰ فى أوّل السطر الثانى ، ويترك بياضا ، ثم يكتب فلان الفلانى بٱسم المكتوب إليــه أو شهرته كما فى هذه الصورة :

الباب الكريم العالى ، المولَوِىّ ، الأَمِيرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدى ، المــالكىّ .

المخدومىّ ، السَّيفىّ ، أعلاه الله تعالىٰ   بَهَادر أميراخور الأشْرَفِىّ .

تنبيه — كلُّ ما كان العُنوانُ فيه البابُ الكريم ، كان العُنْوان فيه للمسافر «المخيَّم» بدلَ الباب ، وباقى الألقاب علىٰ حالها كما نبَّه عليه فى ”التثقيف“ وغيره ؛ والعلامة فى آخر المكاتبــة مقابل حَسْبى الله ؛ إذ لَمَّــا كانت العلامة فى أسفل الكتاب مقابِلَ

تحتِ الحَسْـبلة كانت العـلامةُ فيما فَوْقَ ذلك أنزلَ فى رُتْبَـة المكتوب إليـه وأعلىٰ فى رُتْبة المكتوب عنه .

المرتبة الخامسـة — يُقَبِّل الأرض بالمَقَر الشريف . والرسمُ فيـه أن يَتْرك بعد البسملة وما تحتها من المَلَكى الفلانى قدرَ سطر أو سطرين بياضًا ، ثم يكتب يقَبِّل الأرض بالمَقَر الشريف ، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُّيوف ، كتب « يقبِّـل الأرضَ بالمقَر الشريف ، العـالى ، المَوْلِوىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الذُّخرىّ ، الظَّهيرىّ ، المسْندىّ ، الزَّعيمىّ ، المالكى ، المخدُومىّ ، الفلانى ، أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَه ، وأعلىٰ مَنَاره ، وضاعف مبَاره ، ويُنْهِى بعـد وصْف محبَّته ، وبَثِّ أثْنيتـه ، كيت وكيت ، والمسئولُ من إحسانه كيتَ وكيتَ » وربمـا كتب : « والممـلوكُ يسأل كيتَ وكيتَ » كما فى المكاتبات السابقـة ، أو « والمملوك يسألُ تشريفـه بمراسمه وخِدَمه ، والله تعـالىٰ يُديم عليه سوابِـغَ نِعَمِه » .

دعاء آخر لهذه المكاتبة : أعزَّ الله تعـالىٰ أنصارَه ، وأدامَ ٱنْتِصارَه ، وجعل علىٰ غايات النُّجوم ٱقتصارَه ، ويُنْهِى .

آخــــر : لازالتِ الرِّقابُ لمَهَابته خاضِعه ، والرِّكابُ به فَوْق النُّجوم واضِعه ، وأجِنّة السيوفِ بمَضَارِبه منْ ماءِ الأعداءِ راضِعه ، ويُنْهِى .

آخــــر : لا زالتْ أعلامُه مُشَرَّفه ، وأقلامُه مُصَرَّفه ، وأيامُه بِطِيبِ ثنائه بين الخافِقَيْنِ مُعَرَّفة .

آخــــر : لا زالتِ الدنيـا ببقائه مُجَمَّـله ، والعَلْيـاءُ لِٱرتقائه مُؤَمّله ، والنِّعَمُ علىٰ ٱختلافها جواهِرَ مكَمّله ، ويُنْهِى .

قلت وربما أُتِى بصورة الإنهاء مسجُوعة أيضا، مثل أن يكتب : ويُنْهِى بعد تعبُّده بِوَلَائه، وقيامِه بحقُوق آلائِه. أو ويُنْهِى بعد دعاء يقوم بوظائِفه، وولاءٍ يتردّى بمَطَارفه. أو ويُنْهِى بعد رَفْع أدعِيَته، وقَطْع العُمُر فى مُوالاته وعُبُوديَّته، ونحو ذلك.

وعلى ذلك جرى فى "عرف التعريف" إلا أنَّ الغـالب فى كتابة أهـلِ الزمان إهمـالُه. والعُنْوان إن قُصِـد تعظيمه : البابُ العالى ـ بألقـاب الباب الكريم فى المكاتَبة قبلَها، إلا أنه يُحْذَف منها الكريم. وإن لم يُقْصد تعظيمُه فالمقرُّ الشريف بالألقاب التى فى صَـدْر الكتاب. وصورة وضـعه فى الباب العـالى على ما تقـدّم فى الباب الكريم : أنْ يأتى به فى سطرَيْنِ كاملين من أوّل عَرْض الدَّرْج إلى آخره، كما فى هذه الصورة :

المقرُّالشريف، العالى، المولوىُّ، الأميرىُّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، الذُّخْرى، الظَّهيرىّ، المسنَدِىّ، الزَّعيمىّ، المالكىّ، المخدومىّ، السيفىّ، أعزَّ الله تعالى أنصاره أمير حاجب بالشام المحروس

والعلامة فى هذه المكاتبة «المملوك فلان» بقلم الرقاع، بأسافل الكتاب، مقابِلَ إن شاء الله تعالى.

وٱعلم أنَّ هذه المراتبَ الخمسَ هى الدائرةُ فى المكاتبات بين كُتَّاب زماننا بمملكة الديار المِصْريَّة وما جرى على نَهْجها، والمعنى فى ترتيبها على هذا الترتيب أنه فى المرتَبَة الأولى منها حُذِف الدعاءُ والثناءُ المقتضِيان للدَّالَّة من المكتوب عنه على المكتوب إليـه، وٱقتُصِر على اليسير من الكلام دُونَ الكثير الذى فيه سآمةُ المكتوب إليه وإضْجارُه، عند قراءة الكتَاب، وعُنْوِنت بالفـلانى كالسَّـيْفىّ ونحوه، من حيثُ إنه لقَبٌ مؤدّ إلى رِفْعة، وأُتِى فيه بمطالعة المملوك فلان، إشارةً إلى التصريح بالرِّقِّ والعبوديَّة من المكتوب عنـه للمكتوبِ إليـه مع إقامته فى مَقَام الرِّفعة بذكر لَقَبـه المؤدّى إلى رفعة قدره ـ وفى المرتبة الثـانية أُتِىَ فيها بالفُلانىّ داخلَ المكاتبةِ دُونَ

العُنْوان فكانت أنزلَ ممـا قبلها : من حيثُ إنَّ العُنْوانَ ظاهِرٌ وباطِنَ المكاتبةِ خفِيٌّ والظاهِرِ المؤدِّى إلىٰ الرفعـة أعلىٰ من الخفيِّ من ذلك ، وأُتِى بالدعاء فكانت أنزلَ رتبةً من التى قبلها لما تقدّم من أنَّ الدعاء فيه معنىٰ الدالَّة ، وٱجتنب فيه السجعُ من حيثُ إنَّ فى الإتْيان به تفاصُحًا علىٰ المكتوب إليه ، وعُنْوِنَ بالأبواب إشارةً إلىٰ شَرَف محلِّ المكتوبِ إليه من حيثُ الإشعارُ بأن له أبواباً يُوقَف عليها ؛ وجُعِلتْ دُونَ المرتبةِ الثانية[1] من حيثُ إنَّ العَنْونة فى المرتبة الأولىٰ باللَّقَب المؤدّى إلىٰ الرِّفْعة مع دِلَالته علىٰ الذات . وفى الثانية عُنْوِن بالأبواب المُوصِّلة إلىٰ محلِّ الشخص ؛ ولايخفىٰ أنَّ مادلَّ علىٰ نفس الشَّخْص أعلىٰ ممـا هو مُوَصِّل إلىٰ محلِّه ؛ وأُتِى فيها بمطالَعةِ المملوكِ فلانٍ إشارةً إلىٰ التصريح للمكتوبِ إليـه بالرِّقِّ والعبُوديَّة كما تقدّم فى المرْتَبة الأُولىٰ ـ وفى المرتبـة الثالثة حُذِف منها الفلانى المؤدّى إلىٰ الرِّفْعة من داخل المكاتَبة فكانت أنزلَ من التى قبلها فأُتِىَ فيها بذلك ؛ وأُتِىَ بالدعاء مسـجوعاً فكانَ أنزلَ ممـا قبلَهُ لمـا فى السجع من التفَاصُح علىٰ المكتوب إليـه ، وأُسْقِط من عنوانه مطالعةُ المملوك فلان فكانَ أنزلَ من حيثُ إنَّه لم يقَعْ فيه تصريحٌ برِقٍّ وعبوديَّة كما فى المرتَبَـة الأُولىٰ والثانية ـ وفى المرتبة الرابعة بقِى الصَّدْرُ علىٰ حاله وعُنْوِن فيها بالباب بلَفْظ الإفراد ، فكانت أنزلَ ممـا قبلها ، من حيثُ إنَّ الإفرادَ دُونَ الجمع بدليلِ أنه بعضٌ من أبعاضه ـ وفى المرْتَبة الخامسة قيل يُقَبِّل الأرضَ بالمقَرّ ؛ يعنى مَقَرّ المكتوب إليه ، فكانتْ أنزلَ ممـا قبلها من حيثُ إشعارُ ذلك بالقُرْب من محلِّه بخلاف يقَبِّل مطلق[2] الأرض فإنه لا يَنْحصِر فى ذلك ، ثم إنْ عُنوِنَتْ بالباب العالى مجرَّدا عن الكريم ، كانت أنزل ممـا عُنْوِنَ فيه بالكريم لمـا جرىٰ عليه الأصطلاح من رفعـةِ رُتْبة الكريم العالى

(١) لعله دون المرتبة الأولىٰ ، ومراده أن العنونة بالأبواب أقل من العنونة بالألقاب للعلة التى ذكرها .

(٢) مراده : يقبل الأرض بغيرأن تقيد بالمقر .

على العالى المجرّد عن الكريم ، على ما تقدّم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة ، وإنْ عُنْونت بالمَقرّ الشريف فهى على ٱنحطاطِ الرتبة عمّا قبلَها من حيثُ إشعارُه بقُرْب المحلّ من المكتوب إليه . على أنّ فى عنْونَة هذه المكاتبة بالمقرّ الشريف نظرا ، فإنّ أعلى مَرَاتِبِ الأبتداء فى المكاتبة بالدعاء هى الدعاء للمَقرّالشريف ،وهو بعد تقبيل الباسطِ والباسطةِ واليدِ على ما سيأتى ذكرُه فى الدّرجة الثالثة فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

فرُبّما ٱلْتبَسَ عنوانُ هذه بعُنْوان تلكَ قبل فَضِّها ، والوقوفِ على صَدْرها هل هو مفْتَتَح بيُقَبِّل الأرضَ بالمقرّ أو بالدعاء للمَقرّ ، إلّا أنّ كُتّاب الزمان قد رفَضُوا المكاتبةَ بالدعاء للمَقرّ الشريف وٱقتصَرُوا على الدعاء للمَقرّ الكريم ، إذ كان هو أعْلى ما يُكْتَب به عن السلطان لأكابر أُمَراء المملكة على ماتقدّم ذِكرُه فى الكلام على مكاتَبَات السلطانِ إلى أهل المملكةِ فى المقالة الرابعة .

قلت : وفى الدساتير المؤلّفة فى الإخوانيّات فى الدولة التُّرْكية فى الزمنِ السابِقِ ما يخالِفُ بعضَ هذا الترتيب ، فجعل فى "عُرْف التعريف" أعلى المراتب يقَبِّل الأرضَ ويُنْهِى كيتَ وكيتَ ،والعنوانُ «الفلانى بمطالعة» على ماتقدّم ذكرُه فى الترتيب السابق . ودونه : الصدر بعيْنه ، والعنوان «الأبوابُ بمطالَعَة» . ودونه : كذلك والعُنْوان «الأبوابُ» بغير مطالعة . ودُونه : « يقبِّل الأرضَ بالمقرّ الشريف ، والعُنْوان إما البابُ العالى أو المقرُّ الشريف» .

وفى دُسْتورٍ يُعْزىٰ لبعض بنى الأثيرِ أنّ أعلى المراتب يقَبِّل الأرض ويُنْهِى كيتَ وكيتَ على ما تقدّم . ودُونَه : «يقبِّل الأرض ويدعو مثلُ يقَبِّل الأرض ويُنْهِى بعد رفع دعائه الذى لايفترُ لسانُه عن رَفْعه ، ولا يخفى إن شاء اللهُ إبّانُ

نَفْعه » . ودونه : « يَقبِّـل الأرض ويَدْعُو لها ، مثـل : يقبِّل الأرضَ حماها الله تعالىٰ من غِيَرِ الزَّمان ، وٱكتنفها بالأَمَان ، من صُرُوف الحَدَثان ، ولا زالتْ محطَّ وُفُود الجَدَا ، وكعبةَ قُصَّاد النَّدا ، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ » . ودونه « يقبِّل الأرضَ ويصِفُها ، مثل أن يكتب : يقبِّل الأرضَ التى هى ملْجأُ العُفَاه ، ومَلْثَم الشِّفاه ، ومحلُّ الكَرم الذى لايَخِيبُ مَنِ اقتفَاه ، ومقصِدُ الراجى الذى إذا عَوَّل عليـه كَفَاه ، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ » . ودونه « يقبِّل الأرضَ ويدعو لهـا (١) ، مثل أن يكتب : يُقَبِّـل الأرضَ لازالَتْ محروسةَ الرِّحاب ، هامِيَـةَ السَّحاب ، فَسِيحَة الجَناب ، لمَنْ أناب ، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ » .

وجرىٰ فى "التثقيف" علىٰ الترتيب المتقدّم فى المرتبة الأولىٰ والثـانية والثالثة والرابعة علىٰ ماتقدّم فى المراتب الخمس السابقةِ ، وجعل المرتبةَ الخامسة يقبِّل الأرضَ مع وَصْفها علىٰ ماتقدّم فى الدُّسْـتُور المنْسوب لبعض بنى الأثير مع العَنْونة بالبـاب العالى ، وجعل يقبِّلُ الأرضَ بالمَقرّ الشريف مرتبةً سادسةً مع العَنْونة بالباب العالى أو المَقرّ الشريف .

وفى غير هـــذه الدَّساتير ما يخالفُ بعضَ ذلك فى الترتيب والتقــديم والتأخير ؛ وفى بعض الدَّساتير بعـد تقبيلِ الأرض تقبيلُ العَتَبات ، مثل أن يكتب : يُقَبِّـل العَتَباتِ الكريمة ، لابَرِحَتْ مَطْلَعَ السُّعود ، ومَنْبَع الجُود ، ومَهْيَعًا للمقـام المحمُود . أو : يقبِّل العَتَبات الكريمة ، لازالَتِ الأفلاكُ تتَمَنَّى أنها بهـا تَحُفّ ، وأنها لنجومها إليها بحوض الوالدين (؟) تزف . أو : يُقَبِّل العَتَبات الكريمة ، لا زالَتِ الآمالُ بها مُطِيفه ، والسُّعُود لها حَليفه ، وسعادتُها لٱستخدامِ كلِّ ذى إلْمـام مُضِيفه .

---

(١) هذه المرتبة تقدمت قبل بأسطر الا أن يكون انحطاطها من حيث صيغة الدعاء تأمل .

ولا يخفىٰ أنَّ بعض هذه الآختيارات غيرُ مُحْكَمِ الأَسَاس، ولا موضوعٍ علىٰ أصل يقتضِى صحةَ الترتيب فيه، بل الكثير من ذلك راجعٌ إلىٰ التشهِّى، كلَّما تقدّم متقدّم فى دولةٍ من الدُّوَل أحبَّ أن يُؤْثِر مخالفةَ غيره، ويجعل له شيئا يُحْدِثه لِيُنْسَب إليه ولا يُبالى وافق فى ذلك غرضًا صحيحًا أم لا، وقَلَّ مَنْ يصيب الغَرَضَ فى ذلك. علىٰ أنَّ تقديمَ بعض هذه المراتب علىٰ بعضٍ فى العُلُوِّ والهُبُوط إنما هو من جهة آستحسانه، لو تكلَّف المتكلِّف تأخيرَ ما تقدّم فيها أو تقديمَ ما أخَّر، لأمكنه ذلك.

الدرجة الثانيـــــة

(المكاتبة بتَقْبِيل اليد، وقد رتَّبُوا ذلك علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبــة الأولىٰ — يُقَبِّل الباسِطَ الشريف، وهى الأعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه. والرسمُ فيها أن يترك الكاتبُ تحتَ المَلَكِىّ الفلانىّ بعد البسملة قدرَ سطرَيْنِ بياضا كما فى المسألة قبلها[(١)]، ويختلف الحــال فى ذلك: فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيوف، كتب: يقبِّل الباسطَ الشريفَ، العالىَ، المَوْلوِىَّ، الأميرىَّ، الكبيرىَّ، العالمىَّ، العــادلىّ، المؤيّدىّ، السيدىّ، المالكىَّ، المخدومىّ، المُحْسِنىّ، الفلانى، لا زالت ساحتُه مقبَّــله، وسَمَاحتُه مؤمَّله، ويُنْهِى بعــد وصف خِدَمه، وثُبوتِ قيامِه فيها علىٰ قَدَمه، أنَّ الأمر كيت وكيت، والمسئولُ من إحسانه كيتَ وكيتَ، والله تعالىٰ يحرُسُه بمنِّه وكرمه.

دعاء آخــــر: يليق بهذه المكاتبة، يقال بعد تكملة الألقاب: لا زالتْ نِعمُه باسطه، وأيَّامه لعُقود الأيام واسِطَه، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ.

---

(١) يعنى المرتبة الخامسة.

آخـــر : لازال جَنَـاحُ كَرَمه مبْسوطا ، وجَنَـابُ حَرَمه من المَخَاوِف محُوطا ، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ .

آخـــر : لا زال يُصَرِّف الأعِنَّـة والأسِـنَّه ، ويقلِّد أعنـاقَ أَعدائِه كُلَّ أجَلٍ وأعناقَ أوِدّائِه كلَّ مِنَّه ، ويُنْهِى .

آخـــر : لا زالتْ حمائلُ السُّيوف تتسابَقُ إلىٰ بَنَـانه ، وأعقابُ الرِّماح تَأْوِى إلىٰ أنامله : ليُمكِّنَها من قلُوب أعداءِ الله يَومَ طِعَانه ، ومُتونُ الخيل متحصِّنةً بعزائمه فيقْوىٰ جَنانُها بجَنَانِه .

آخـــر : لا زالتْ رَحىٰ حُروبِه علىٰ أعدائه تُدَار ، وأسِنَّةُ رِمَاحه تُنادِى الأعداءَ البِدَارَ البِدَار ، وجُنودُه تقاتِلُ سَـفَرَةَ الوجُوه إذا قاتل الأعداءُ فى قُرًى محصَّنةٍ أو مِنْ وَراءِ جِدَار .

آخـــر : لازالتْ أعلامُ النصر معقودةً بأعلامه ، وجَوارِى اليَمِّ السعيدِ معدُودةً من خُدَّامه ، وسُـطورُ البأس والكرمِ مُثْبَتةً إما بأقلام الخطِّ من رِمَاحه وإمَّا بِرِمَاح الخط من أقلامه .

آخـــر : لازالتِ الأعنَّةُ والأسِـنَّة طوعَ يَمينِه وشِمـاله ، والآمالُ والأحوالُ تحت ظِلاَل كرمه وكَرَم ظِلاَله ، والسُيُوفُ والأقلامُ : هـذه جاريةٌ بعوائد بَأْسه ، وهذه جاريةٌ بعوائد نَوَاله .

آخـــر : ولازالتْ وجوهُ النصر تُتَراءىٰ فى مِرْءَاة صِفَاحه ، وثمـارُ النَّصْر تُجْتنىٰ من أغصان رِمَاحِه ، ولا بَرِح السيفُ والقلَم يتَبَارَيَانِ فى ضَرِّ الأعداء ببَأْسه ونَفْع الأولياء بسَماحه — وان كان المكتوب إليه وزيرًا ربَّ سيفٍ ، كتب بعد الأميرىّ «الوزيرى» — وإن كان وزيرًا ربَّ قلم ، كتب قبل الفلانى أيضا الصاحِبىّ —

وإن كان من أعيان الكُتَّاب: ككاتب السِّرّ وناظر الخاصّ وناظر الجيش وناظر الدَّوْلة وكُتَّاب الدَّسْت ونحوهم، كتب بدل الأمِيرى القَضَائىّ؛ ثم يكتب للجميع بعد الوزيرى أو القضائى؛ العالمىّ، العادلىّ، الممهِّدى، المشيِّدىّ، المالكىّ، المخدومىّ، المحسنىّ، الفلانى؛ أسبغ الله تعالىٰ ظِلالَه ومَدَّها، وشيَّد به مبانِىَ المُلْك وشَدَّها، ووهَبَ الأيامَ منه هِبةً لا تستطِيعُ الليالِى رَدَّها؛ وينهى كيتَ وكيتَ.

دعاء آخر يليق بهذه المكاتبة، يقال بعد تكملة الألقاب، ولا زالتْ أقلامُه تُرَوِّع الأُسْدَ فى آجامِها، وتَزيد علىٰ الغُيُوث فى ٱنْسِجامها، وتُعَلِّم الرِّماحَ الإقدامَ إذا نَكَصَتْ لإحْجامها، ويُنْهى.

آخر: ولازالتِ الدُّوَل مشَيَّدةً بتصريفه، مجدَّدةً لتشريفه، مؤيَّدة بين صرير القلم وصَريفه.

آخر: ولا زالتْ أقلامُه تَهْزَأ بالغيوث الهامِيَه، وأنعامُه تفُوقُ علىٰ البِحَار الطامِيَه، وموارِدُ إحسانه تأْوِى إليها الوفُودُ الظامِيَهْ.

آخر: وأدام القَصْدَ لِبَابه، ونزُولَ الآمالِ برِحَابه، وصُعودَها إلىٰ سَحابه.

آخر: لازال فَسِيحا للقَاصد جَنابُه، مُجَرَّبا للمَنَاجِح بابُه، صريحًا فى ٱبتغاءِ خير الدنيا والآخرة طِلابُه — وإن كان من القضاة الحُكَّام، كتب: يُقَبِّل الباسطَ الشريف، العالى، المولوىّ، القَضَائى، العالمىّ، الإمَامىّ، العَلَّامى، السيِّدىّ، المالكىّ، المخدومىّ، المُحْسِنىّ، الحاكمىّ، الفلانىّ؛ أعزَّ الله تعالىٰ أحكامَه، وجَمَّل به الدهْرَ وحُكَّامه، وثبَّت به الأمْرَ وزاد إحْكامه، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ.

دعاء آخر يناسبه: يقال بعد تكملة الألقاب: أعزَّ الله تعالىٰ أحكامَه وأنفذَها، وتَدارك به الأُمَّة وأنقَذَها، وأسعَفَ به المِلَّة الإسلاميَّة وأسعدَها، وينهى.

آخـــر : نَضَّر اللهُ الدِّينَ بنُوره ، وسـقىٰ الغَمَام باقِىَ سُوره ، وحَمىٰ حِمىٰ الشرع الشريف بمـا ضَرَبَ عليه من سُورِه .

آخـــر : وجَمَّل الدهرَ بمَنَاقِبـه، وزيَّن سماءَ العلم بكَوَاكبه ، ولا زالَ الزمانُ يقول لمنْصِب الشرع الشريف بشخْصه ورأْيه : * عِزٌّ يدُومُ وإقبالٌ لِصَاحِبه * .

آخـــر : وأمضىٰ بيده سُيوفَ الشَّرْع التى هى أقلامُه ، وأعلىٰ طُروسَ العَدْل والحقِّ فإنها أعلامُه، ولا زالتْ يدُ القَصْد مُشيرةً إليه، ولا ينعقد إلا علىٰ ثنائه خِنْصِرٌ ولا يَنْجلى إلا بِهُداه إبْهام .

آخـــر : وسَـدَّد سِهامَ الحقِّ بأقْضِيَتِه، وشَـيَّد أركانَ الشَّرْع بأبْنِيَته ، وأيَّد الإسلامَ بأقلام سِجِلَّاته القائمـةِ للنَّصر مَقـامَ ألْوِيَتِه — وإن كان المكتوب إليـه من مشايخ الصُّوفيَّة، كتب : يُقَبِّل الباسطَ الشريفَ، العالىَ، المَوْلَوِىَّ ، الشيخىَّ، الإمامىَّ ، العالِمىّ، العامِلِىّ، الخاشِعِىّ، الناسِكِىّ، السيِّدىّ، المـالِكىّ، المخدُومىّ، المُحْسِنىّ، الفلانىّ؛ لا زال يقاتِلُ بِسِلاحه، ويُقابَل فسادُ الدَّهْر بصَلَاحه، ويجلُو دُجىٰ الظَّلْماء بصَبَاحه، ويُنْهِى .

آخـــر : ونفعَ ببركَاته فى الرَّوْحات والغَدَوات، وجَمَّل ببقائِه المحافلَ والمَلَوات، وبَسَط فى صالح الدُّوَل [يَدَه] : إمَّا فى مبـاشَرته بصالح التـدْبير وإمَّا فى ٱنقطاعِه بصالح الدَّعَوات .

والعنوان فى هـذه المكاتبة «الباسطُ الشريف» بالألقاب التى فى صَدْر المكاتبة علىٰ السَّواء، والدعاءُ له بأوّل سَجْعةٍ من دعاء الصَّدْر أونحوها، بحسَبِ حال المكتوب إليه ، مثل أن يكتب لمن هو من أرباب السيوف ، أعَزَّ الله تعالىٰ نصْرَه، أو عَزَّ

نَصْرَه . ولمن هو من رُؤَساء الكُتَّاب : أسبغ اللهُ ظِلالَه . ولمن هو قاضى حُكْم : أعزَّ الله أحكامَه . ولمن هو من مشايخ الصوفية : أعادَ اللهُ من بَرَكاته .

وصورة وضْعه فى الوَرَق أن تكتَبَ الألقابُ والدعاءُ والتعريفُ فى سطرين كاملين من أوّل عَرْض الورق إلىٰ آخره ، إلا أنه يُفْصَل بين الألقاب والدعاء ببياض لطيف ، وبين الدعاء والتعريف ببياضٍ لطيف كما فى هذه الصورة .

الباسطُ الشريف ، العالى ، المْوَلوِىّ ، الأمِيرِىّ ، الكَبِيرِىّ ، العالِمىّ ، العادِلِىّ ، المؤيِّدِىّ ، السيِّدِىّ ، المالِكِىّ ، المخدُومِىّ المحسِنِىّ ، الفلانىّ   أعزَّ الله أنصارَه   أمير حاجب بحَلَب المحروسة

وقد ذكر فى "عرف التعريف" : أنه إن قَصَد تعظيمَه ، عنونه بالمَقرّ الشريف بالألقاب المتقدّمة علىٰ السَّواء ، ولا تخفىٰ صورةُ وضعه بعد ما تقدّم ، والعلامة «المملوك فلان» بقَلَم الرِّقاع مقابلَ إن شاء الله كالمكاتبة بالمَقرّ الشريف المتقدّمة .

المرتَبة الثانية — [يُقَبِّل الباسطةَ الشريفةَ](١) والرسم فيها أن يَتْرك تحت المَلَكِىّ الفلانى قَدْر سطرين بياضًا كما فى المكاتبة قبْلَها ؛ ثم يكتُب يقَبِّل الباسطةَ الشريفةَ بالتأنيث ، ويجرى الحالُ فى ذلك كما فى الباسط — فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السيوف ، كتب : يقَبِّل الباسطةَ الشريفةَ ، العاليةَ ، المْوَلوِيَّة ، الأميريَّة ، الكبيريّة ، العالِمِيَّة ، العادليَّة ، المؤيّدية الذُّخْرِيَّة ، المالِكية ، المحسِنِيَّة ، الفلانية ، لازالتْ سحائبُها مستَهِلَّه ، ومواهِبُها للبِحَار مستقِلَّه ، ويُنْهى كيتَ وكيتَ ؛ والمستمَدُّ من محبّته كيت وكيتَ . وربما قيل والمسئُولُ ، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

دعاء آخر يليق بذلك : لا زالتْ سُيُولُها تملأ الرِّحاب ، وسُيوفُها تُسْرع السَّلّ إلىٰ الرِّقاب .

---

(١) زدنا هذه العبارة أخذا مما سيأتى علىٰ الأثر ولعلها سقطت من قلم الناسخ تأمل .

آخـــر : لا زالتْ خَناصِرُ الحمْدِ علىٰ فَضْل بَنانِها معْقُوده، ومآثِرُ البأْس والكَرِم لهـا ومنها شاهـدَةً ومَشْهُوده ، وبَوَاتِرُ السُّـيوف مُسَيَّرَةَ القصد إلىٰ مُناصَرةِ أقلامِها المنْضُوده .

آخـــر : ضاعف اللهُ تعـالىٰ مَوادَّ نِعَمِها، وجَوادَّ كَرَمِها ، واتِّصـالَ الآمال بمَسَاقِط دِيَمِها .

آخـــر : لا زالَتِ الآمالُ لائذةً بكَرَمِها ، عائذةً بحَرَمِها ، مستَنْجِدةً علىٰ جَدْب الأيَّام بسَقْيِ دِيَمِها .

آخـــر : لازالتْ لرُسُوم الكرم مُقيمه ، ولصَـنائع المعْرُوف مُديمه ، ولأَيادِي الإحْسان متابِعةً إذا قَصَّرتْ عن البرُوقِ دِيمَه — و إن كان المكتوب إليه من رءوس الكُتَّاب كتِب بدل الأميرىّ القضائىّ ، والباقى علىٰ ماتقدّم، ثم يُدْعىٰ له بما يناسبه .

دعاء يناسب ذلك : لا زالتِ السـيوفُ خاضِعةً لأقلامِها ، والنجومُ خاشِعةً لكَلاَمِها، والجبالُ متواضعةً لإعلاءِ أعلامِها .

آخـــر : لا زالتْ مُوالاتُها فرِيضَه ، وأجنِحةُ أعدائِها مَهِيضه ، ومُقَلُ الأَسِنَّة إذا خاصمَتْها ألسنةُ أقلامها غَضِيضه .

آخـــر : أسبغ اللهُ ظِلَّها، وهَنَّأ بهـا أُمَّةً قَرُبَ مبعَثُ زمانها وأظَلَّها، وهَـدىٰ الآمالَ وقد حَيَّرها الحرمانُ وأضَلَّها .

آخـــر : لازال قلَمُها مِفْتاحَ الرِّزق لطالبه ، والجاه لكاسِبِه ، والنصْر لمستَنِيب كُتُبِها عن كتائبه .

آخـــر : لا زال رِفْدُهـا المطْلُوب ، وسَـعْدُها المكتوب ، وقلَمُها المُخاطب فى مصالح الدول والمَخْطُوب .

آخـــر : بَسَط اللهُ ظِلَّها ولا قَلَّصها، وزادها من فَضْله ولا نَقَصها ، ولا جَرَّع كَبِدَ حاسدِها الظامِيةَ إلا غُصَصَها .

آخـــر : ولازال عمِيماً إنعامُها ، قديمـا وحديثا دِيَمُها و إكرامُها ، قاضيةً بسَعْدها النجُومُ التى هى خُدَّامها .

آخـــر : لا زالتْ بَسيطًا ظِلُّها ، مديدًا فضْلُها ، سريعًا إلىٰ داعى النَّدىٰ والرَّدىٰ قلَمُها فى المِهمَّات ونَصْلُها ـ و إن كان من قُضَاة الحُكم زاد مع القاضَوىّ قبل الفلانى الحاكِمىّ ودعا بمـا يُناسب .

دعاء : أعزَّالله شانَها ، وأذلَّ مَنْ شانَها ، وأغصَّ بأدْمُع أعدائها الضَّريجة شأنَها(١) .

دعاء آخـــر يليق بذلك : ولا زالت الآمالُ إليها وافِده ، والصِّلاتُ عائِده ، ومعانى الفضل عن أخبار مَعْنِها زائِده .

آخـــر : لازالتْ خناصِرُ الحمد معقودةً علىٰ فضل بَنَانها ، وَفَصْل بيَانها ، وعوائدُ الفضل والكَرَم شاهدةً بالحسنَيَيْن من فَضْلهـا وآمتنانِها ـ و إن كان مِن مشـايخ الصُّوفِيَّة أبدل القَضَائيَّـة بالشيخِيَّة وأسقط العادليَّة والحاكميَّة ودعا له نحو قوله : ومَتَّع الإسلامَ ببقِيَّته الصالحه ، وبَيَّض صحائفَ أعماله التى لأيْدى الملائكةِ الكرام مُصافِحه .

آخـــر : لا أخْلىٰ اللهُ من بركات خَلَواته ، وأعادَ من نَوَامى دَعَواته ، وسَوَامى دَرَجاته وتوجُّهاته ، ونحو ذلك .

والعنوان الألقـابُ التى فى صَدْر المكاتبـة ، والدعاءُ بالسَّجْعة الأولىٰ من الدُّعاء باطنَه أو نحوها .

---

(١) الشأن مجرى الدمع الى العين . قاموس .

وصورة وَضْعه أن تكتَب الألقـابُ والدعاء والتعريف فى سطرين كما تقدّم فى الباسط كما فى هذه الصورة .

البـاسطة ، الشريفة ، العالية ، المولَوِيَّة ، الأميريَّة ، الكبيريَّة ، العالمِّية ، العادلِّية ، الذُّخْرية ، السنَدِيَّة ، الكامليَّة ، المحسِنيَّة أعزَّالله تعالىٰ أنصارها أميرحاجب بحماة المحروسة .

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الرِّقاع فى أوَّل الوصل الثالث علىٰ القُرْب من اللِّصَـاق .

المرتبة الثالثة — يقبِّل اليدَ الشريفةَ بألقابِ الباسطةِ المتقدّمة ؛ ثم اليَدَ الكريمة ؛ ثم اليدَ العـاليةَ مع حذف الكريمة رُتبـةً بعد رُتْبــة ، والألقابُ بحالها ويُدْعىٰ له ؛ ثم يقال والمستمَدُّ من محبَّته كيْتَ وكيْتَ ؛ والله تعـالىٰ يؤيِّده . والحالُ فى ٱختلاف بعض ألقابها بالنِّسبةِ إلىٰ أرباب السيوف وغيرهم علىٰ ماتقدّم فى الباسطة .

وهذه أدعية لأرباب السُّيوف فى هذه المكاتبة

دعاء من ذلك : يقال بعد ٱستكمال الألقاب : لازالتْ مقبَّلةَ البَنَانِ ، مؤمَّلةَ الإحسانِ ، مفضَّلةً علىٰ أنواء السُّحُب بكل لِسان ، ويُنْهِى .

آخـــر : لا زالت تَرُدّ بالسـيف صُدورَ الكتائب ، وتَرِد الظُّماةُ منهـا مَوارِدَ السحائب ، وتُحدِّث عن البحر وكم فى البحر من العَجَائب .

آخـــر : لا زالتْ برِّبها مأمونَه ، وبذَبِّها ممنونه ، وأيامُها تصَبِّح الأعداءَ بأسنَّتها الزُّرْق المسنُونه .

آخـــر : لا أخلىٰ اللهُ من وُدّها ، ولا قطع وظائفَ حَمْـدها ، ولا قضىٰ مَغيبَها إلّا جعل لهـا ذِكرىٰ بُعْدها .

آخـــر : لازالتْ مصالحها تظْفَر بالمُنىٰ ، وتحصُــل علىٰ الغِنىٰ ، وتُطلِق لسانه بعاطر الثَّنَا .

آخـــر : لا زالَتْ لتقليد المِنَـــن سابقةً فى الجُود العَذَل ، مقَسَّمةً فى مكارم التكريم : باطِنُها للنَّدىٰ وظاهرُها للقُبَل .

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام

يقال بعــد ٱستيفاء الألقاب : لازالت مستهِلَّة بالنَّدا ، مستقِلَّةً بكَبْت العِــدا ، مُطِلَّةً علىٰ النجوم علىٰ بُعْد ما بينهما من المَدىٰ .

آخـــر : لا برِحَتْ مفاخِرُها مفَصَّــله ، ومَحَبَّتُها فى الخواطر ممَثَّله ، والكواكبُ تَوَدّ لو فارقَتْ فلَكَهَا وأصبحتْ لدَيْها مسبله .

آخـــر : لا زالتْ لصحائف الإحسان مسَــطِّره ، ولقلوب الأعداءِ مُفَطِّره ، ولصنائع المعروفِ إذا أمسكَتِ الأنواءُ مُمْطِره .

آخـــر : أعلىٰ الله تعالىٰ شانَها ، وضاعف إحسانَها .

والعنوان . اليدُ الشريفة ، أو اليد الكريمة ، أو اليد العاليةُ ، بالألقاب التى فى صَدْر الكتاب من غير زيادةٍ ولا نقص ؛ والدعاء بأوّل سَجْعة من المدعُوِّ به فى صدر الكتاب أو نحوها ؛ والتعريف بعد ذلك .

وصورة وضعه فى الكتابة أن يكتب سطران علىٰ ما تقدّم فى الباسط والباسطة كما فى هذه الصورة :

اليد الشريفة ، العالية ، المولويّة ، الأميريَّةُ ، الكبيريَّة ، العالمية ، العادليَّة ، الذُّخرية ، المــالكيَّة ، المحسنيَّة ، الفلانية . أعلىٰ الله تعالىٰ شأنها نائبُ ملَطْيَةَ المحروسة

والعلامة «المملوك فلان» بقلم التوقيعات، فى آخر الوصل الثانى من الكتاب، على القُرْب من موضع لِصاقه[(١)] .

وٱعلم أنه ربمـا وُصِف التقبيل فى هذه المراتب بعد الدُّعاء بالأوصاف الدالَّة على زيادة التأدُّب ورِفْعة قَدْر المكتوب إليه، وعلى ذلك جرى فى "عُرْف التعريف". وقد يستعملُه بعضُ كُتَّاب الزمان، وذلك مثل أن يقول فى تقبيل الباسط بعدَ ٱستعمال الدعاء : تقبيلًا يَحُوم على مَناهله، ويحلِّق نَسْرُ السماء على مَنازِله ؛ أو يقول : تقْبِيلَ محبٍّ أخلَص ولاءَه، ومَحَّص الصِّـدقُ وفاءَه ـ أو تقبيلًا يُواليـه، ويُنَظِّم لآليه ـ أو تقبيلا يُواصِل به الخِدَم، ويَوَدّ لو سعى لأدائه على الرأْس إن لم تُسْعِف القَدَم ـ أو تقبيلًا لا يُروى الكرمُ إلَّا عنه، ولا تُستفاد المكارمُ إلَّا منه ـ أو تقبيلَ واردٍ على ذلك الزُّلال، رائدٍ فى ذلك الروض الممتدّ الظِّلال ـ أو تقبيلَ مُسارعٍ إليها، مزاحِمٍ عليها .

وربمـا أتى فى الإنهاء بمـا يلائم المَقَام، مثل أن يقول : ويُنْهِى بعـد وَصْف خِدَمه، وتمنِّيه لو وقَف فى صَفِّ خَدَمه ؛ وما أشبه ذلك .

قلت : وفى بعض الدَّساتير بعد تقبيل اليد العاليـةِ، يُقبِّل يدَ الجناب الكريم، العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العالمىّ، المؤيّدىّ، النصيرىّ، الزَّعيمىّ، الفلانىّ ؛ وبعد ذلك : يخدُم الجنابَ الكريم بنحو هذه الألقاب ؛ وفى "التثقيف" يقبِّل يد الجناب العالى، ويخدم الجنابَ العـالى، بدُون الكريم ؛ ثم يقال بعد ذلك ويُبْدى لعلمه كيتَ وكيتَ، والقَصْد من محبَّته كيت وكيت ؛ فيُحيط علمًا بذلك . وبعضُ الكُتَّاب يستعمل ذلك إلى الآنَ، وهو ذُهُول، إذ سـيأتى فى أوّل الدرجة الثالثةِ أنَّ أعلى المراتب المفتتحةِ بالدعاء الدعاءُ للمَقرّ الشريف على المصطَلَح الأول، وللمَقرّ الكريم على ما ٱستقرّ عليه الحالُ الآنَ، وإذا كان كذلك فكيف يتأتّى أن تكون مرتبـةٌ من مراتبِ الجنابِ الكريم أو الجناب العالى قبل المقرّ الشريف أو المَقرّ الكريم .

---

(١) الأظهر من موضع لصقه .

الدرجة الثالثة

(المكاتبة بالدعاء)

وقد رتَّبوا المكاتبةَ بالدعاء على [ثلاث](١) مراتب :

المرتبة الأولى — الدعاء للمقرّ ، والرسمُ فيه أن يُتْرك بعد «الملكى الفلانى» قدر عَرْض ثلاثة أصابعَ بياضًا ، ثم يؤتى بصَدْر المكاتبة على سَمْت البسملة .

ويختلف الحالُ فى ذلك : فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيوف ، كتب أعَزَّ الله تعالى أنصارَ المَقَرّ الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ ، العَوْنىّ ، النِّصيرىّ ، الفلانىّ ؛ ثم يُدْعى له بما يُناسب ، نحو : ولا زالَتْ جُيوشُه جائلَهْ ، وجنودُه بين الأعداء وبين مَطَالبها حائله ، وأولياؤه على صَهَوات خَيْلها لَدَيْه قائله ؛ أصدرناها إلى المَقَرّ الكريم ، تُهْدى إليه من السَّلام أطيَبَه ، ومن الثَّناء أطْنَبه ، وتُبْدى لعلمه الكريم أنَّ الأمرَ كَيْتَ وكَيْتَ ؛ والقصدَ من اهتمامه كيتَ وكيتَ ؛ فيُحيط علمُه بذلك ، والله تعالى يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

وهذه أدعيةٌ تُناسِب ذلك :

دعاء يليق بذلك : يقال بعد تكملة الألقاب : وأيَّد عزائمَه ونَصَرها ، وأعلى أعلامَه ونَشَرها ، ودقَّق فى مَقَاتل الأعداء حيثُ تَزُورُ الأسِنَّةُ نظَرَها ، ويُنْهِى .

آخــر : ولا بَرِحَتِ الآمالُ بكرمه تعترِفُ ، وبَوارِق صَوارِمه لأبصار الأعداءِ تختَطِف .

---

(١) بياض فى الأصل .

آخـــر : وأعلىٰ قَدْره ، وأنفَذَ أمْره ، أصدَرْناها .

وإن كان من رؤساء الكُتّاب، كتب : بسطَ اللهُ ظِلَّ المقرّ . أو أسبَغَ اللهُ ظِلَال المَقرّ الكريم ، العـالى ، القَضَائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادِلىّ ، المؤيّدىّ ، السيّدىّ ، السَّـنَدِىّ ، المـالِكِىّ ، المخدُومِىّ ، المُحْسِنىّ ، الفلانىّ ؛ وباقى المكاتبة كما فى أرباب السيوف .

وهـــذه أدعيةٌ تنـاسب ذلك :

دعاءٌ يليق به : ولا زالتِ الأمورُ إليه مفَوَّضه، ومَضَارِبُ العِزّ إلا عنه مُقَوّضَه، وصحائفُ الحَسَنات بتسويده علىٰ أثناء الدَّهْرِ مُبيَّضه؛ أصدرناها .

آخـــر : وصَرَّفَ لسانَ قلمه ، وشَرَّف مكانَ قَدَمه ، وعَرَّف من كان يُناوِيه أنَّه أصبحَ لا يُعدّ من خَدَمه .

قلت : وقد ذكر فى "عرف التعريف" أنـ القُضاة والحُكّام لامَدْخَل لهم فى المكاتبة بالمَقرّ، وعلىٰ ذلك جرىٰ فى مشايخ الصوفِيّة . علىٰ أنه قد كُوتب بذلك . وقد رأيتُ المكاتبـةَ بذلك فى بعض الدساتير؛ وحينئذ فيُكْتَبُ : أعَزَّ اللهُ تعـالىٰ أحكامَ المَقرّ العالى، القضائىّ، الكبيرىّ ، العالمىّ، العَلّامىّ، الإمامىّ، المالكىّ، المحْسِنىّ، الحاكمىّ، الفلانىّ؛ ويُدْعىٰ له بمـا يناسب . مثل : وجدّد له إقبـالا، و بلَّغه من الدَّارَيْنِ آمالا ، وأحسَنَ إليه مَبْدَأ ومآلا ، ونحو ذلك . والباقى علىٰ نحو ما تقـــدّم .

وهـــذه أدعيةٌ تناسب ذلك:

لا برِحت الشريعةُ مَحُوطَةً بأقلامه، مضبوطةً بأحكامه، مَنُوطةً بمـا يُشَيِّد مَبَانِيهَا ومَثَانِيهَا من أحكامه، مؤرّخةً أيامَ سُعودها بأيامه .

آخـــر : حرس اللهُ بأحكامه سَرْحَ المَدىٰ ، ولا برِحَتْ فتَاوِيه بهـا يُقْتدىٰ ، ويُظْهِر علىٰ المُناوِين والمبتَدِعين من تجريدها مُهَنَّدا مُهَنَّدا .

آخـــر : لابَرِحَتْ أنوارُ فتاويه لامِعَه ، وسيُوفُ أقْلامِها بها قاطِعه ، وحُدودُها إلىٰ [مَوَارد] أحكام الشريعة المحمَّدية شارعه .

والعنوانـــ لهذه المكاتبة المقرّ الكريم بنظير ما فى الصَّـدْر ، والدعاء بأوّل سجعةٍ فى الصدر من الدعاء .

وصـــورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقـاب والدعاء والتعريف كما فى هذه الصورة :

المَقَرّ الكريم ، العالى ، الأمِيرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ ، العَوْنىّ ، النِّصيرىّ ، الفلانىّ ؛ أعزّ الله تعالىٰ أنصارَه . فلان الفلانىّ

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى من المكاتبة .

المرتبة الثانية : الدعاءُ للجناب ، وهو علىٰ ثلاث طَبَقات :

الطبقة الأولىٰ — أعزَّ الله تعـالىٰ نُصْرةَ الجناب الكريم . والرسمُ فيـه أن يُتْرك تحتَ « المَلَكىّ الناصرىّ » عَرْض ثلاثة أصابع بياضا كما فى المسئلة قبلها .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السُّـيوف ، كتب : أعَزَّ الله تعالىٰ نُصْرة الجناب الكريم ، العـالى ، الأميرىّ ، الكبِيرىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، العَوْنىّ ، الذُّخْرىّ ، العَضُدىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدعىٰ له ، نحو : وأعلىٰ قَدْره ، وأنفَذَ أمْرَه ، صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب الكريم ، تُهْدِى إليه سلاماً رائقا ، وثناءً عابِقا ، وتُوضِّح لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ ، والقَصْد من آهتمامه كيتَ وكيتَ ؛ فيُحيط علمهُ بذلك ، والله تعالىٰ يحرُسُه بمنّه وكرمه .

وهـــذه أدعية تُنَاسِبُ ذلك .

دعاء منـــه : ولا زالتْ عزائِمه تُعِير السُّـيوفَ المَضَاء ، وتُعَـلِّم السِّهامَ النُّفُوذَ في القَضَاء .

آخـــر : ولا زال جنَـابُه مَرْتَعا ، وسحابُه مَرْبَعا ، ورُعْبُـه لايَدَع من قلوب الأعداء مَوْضِعا .

آخـــر : ولا زالتْ عزائمُه تُبَـارِي السُّـيوف ، وتَشُقُّ الصُّفُوف ، وتُجارِي إلىٰ مَقَاتِلِ الأعداء الحُتُوف ، صدرت .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : أدام الله تعالىٰ جَلَال الجناب الكريم ، العالى ، القضائِىّ ، الكبيرىّ ، الصَّدْرِىّ ، الرَّئيسىّ ، العَوْنِىّ ، الغِيَاثى ، المَلَاذىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدْعىٰ له بمـا يناسبه ، والباقى من نِسْبة أرباب السُّيوف .

دعاء يناسبه : وحرَس سماءَه التى تَغْنىٰ عن المَصَابيح ، ونَعْماءه التى هى للنِّعَمِ مَفَـاتِيح .

آخـــر : وبلَّغَهُ أشرفَ الرُّتَب ، ومَلَأَ به قُلوبَ الأعداءِ غايةَ الرَّهَب ، وشَـكَر نَدىٰ قلمه الذى لم يدَعْ للغَمَام إلا فَضْلَ ماوَهَب ، صدرت .

وإن كان قاضـيًا ، كَتَبَ : أعزَّ الله تعـالىٰ أحكامَ الجناب الكرِيم العـالِى ، القَضَائى ، الإمامِىّ ، العالمىّ ، العَلَّامىّ ، الأوْحَدىّ ، الفلانىّ . ويدعو له ، نحو : ونَوَّر بعِلْمِه البصائر ، وسَرَّ بحُكْمه السَّرائر ، وجعل فَيْض يَمِّه ممـا لا تُودَع دُرَرُه إلا فى الضمائر . والباقى من نِسْبة ما تقدّم .

وإن كان من مشايخ الصُّوفيَّـة ، كَتَبَ : أعاد اللهُ تعـالىٰ من بَرَكَات الجناب الكريم ، العالى ، الشَّيْخِىّ ، الإمَامِىّ ، العالمىّ ، العامِلِىّ ، الوَرِعىّ ، الزاهِدِىّ ، الفلانىّ .

ويُدْعىٰ له ، نحو : ولا زال يُقاتَلُ بسِلَاحه ، ويُقابَل فَسادُ الدَّهْرِ بصَلَاحه ، وتُجْلىٰ دُجىٰ الظَّلْمـاء بصَبَاحه ؛ صدرت هذه المكاتبةُ إلىٰ الجنـاب الكريم تُهْدِى إليـه سلامًا يزدان بعَرْضِ بخِدْمته ، ويزدَادُ نَضْرةُ بنَظْرته .

والعنوان لكلٍّ منهم بألقاب الصدر، والدعاء بأوّل سَجْعة من دعائه أو نحو ذلك.

وصورة وَضْعه أن يكتب فى سطرين ألقابَه ودعاءَه وتعريفَه كما فى هذه الصُّورة:

الجناب الكريم ، العـالِى ، الأَمِيرىّ ، الكَبِيرىّ ، العالمىّ ، العادِلىّ ،

النَّصِيرىّ ، الفلانىّ ، أعز الله تعالىٰ نُصْرته فلان الفلانىّ

والعـلامة « المملوك فلان » بقـلم الثلث مقابِلَ السطر الثـانى كما فى المكاتبـة التى قبلها .

الطبقة الثانيـة — من المرتبة الثانية : ضاعفَ اللّٰهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى . والرسمُ فيه أن يترك تحتَ المَلَكىّ الفلانىّ قدر أربعةِ أصابعَ بياضًا . ثم يختلف الحال فى ذلك .

فإن كان المكتوبُ إليـه من أرباب السُّـيوف ، كُتِبَ : ضاعفَ اللّٰهُ تعـالىٰ نعمةَ الجناب العالى، الأميرِىّ، الكَبيرىّ، العالمىّ، العادِلىّ، المؤيِّدىّ، العَوْنىّ، النَّصـيرىّ، الذُّخْرىّ ، الفـلانىّ ؛ ثم يدعىٰ له ، نحو : ونَصَره فى جِلَاده ، وأيَّده فى مَواقِف جِهَاده ؛ صدرتْ هذه المكاتبـةُ إلىٰ الجناب العالى تُهْدِى إليـه سلامًا يَشُوق، وثناءً يَرُوق، وتُوضِّح لعلمـه كيتَ وكيتَ ؛ فالجناب العـالى، يتقدّمُ بكيتَ وكيتَ ؛ فيُحيط علمُه بذلك، واللّٰهُ تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكَرَمه .

دعاء آخر يناسب هــذه المكاتبة : يقال بعـد ٱستيفاء الألقاب، ولازالَ عَزْمه مؤيَّدا، وعِزُّه مؤبَّدا، وٱجتهادُه وجِهاده: هذا يسُرُّ الأولياءَ وهذا يَسُوء العِدَا ؛

صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العــالى تخُصُّه بالسَّــلام، والثناءِ الوافرِ الأقْسام، وتُوضِّح لعلمهٖ كيتَ وكيتَ .

آخـــر : ولا زالتْ آراؤُه كواكبَ يُهتَــدىٰ بلوامِعِها ، وتُقْــرأ سُــورةُ النصر فى جَوامعها ، وتَسِير كالسُّحُب فترْمِى الأعداءَ بصَواعِقِها وتأتِى الأوْلياءَ بهَوامِعِها .

وإن كان من الكُتَّاب، كتب : ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى، القَضائىّ، الكبِيرىّ، الصَّدْرىّ، الرَّئيسىّ، القَوَامىّ، النِّظامىّ، الفلانىّ ؛ ثم يُدْعىٰ له نحو : ولا زال يُرْجىٰ لكلِّ جَلِيل ، ويُؤَمَّل لكلِّ جميل ، ويُؤَهَّل لكلِّ منتَهًى تقصُر دُونَه أصابعُ النِّيل ؛ صدرتْ هذه المكاتبةُ، والباقى علىٰ ماتقدّم فى أرباب السيوف .

وإن كان من القُضاة، كتب : ضاعف الله تعالىٰ نِعمةَ الجناب العالى، القَضَائىّ، العالِمىّ، الفاضلىّ، الأوْحدِىّ، الصَّــدْرىّ، الرَّئيسىّ، الفلانىّ ؛ ويُدعىٰ له نحو : ودَفَع عنه الأبَاطِيل، وأرشدَ بِهُداه من الأضَالِيل .

وإن كان من مشايخ الصُّوفيَّة، كتب : أعاد اللهُ تعالىٰ من بَرَكة الجناب العالِى، الشَّيْخىّ، الإمامِىّ، العالِمىّ، الكامِلىّ، الوَرَعىّ، الزاهِدىّ؛ ويُدْعىٰ له، نحو: ولا زال تُكْشَفُ به اللَّأْواء، وتُطَبُّ به الأدْواء . صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليه سلامًا، وتُفَضُّ عن مِثْل المِسْك ختاما، وتوضِّح لعلمه .

دعاء آخر : نفَع اللهُ بدَعَواتِه التى لاحاجبَ لها عن الإجَابه، ولا عارضَ يمنَعُها عن الإصابه، وأمتع ببرَكَاته التى هى أَمْنٌ للناس ومَثَابه . صدرت .

والعنوانُ الألقاب التى فى صــدر المكاتبة . والدعاءُ : ضاعف الله تعالىٰ نِعمَتَه ؛ ثم التعريف .

وصورة وضعه فى الورَق أن يُكْتَب فى سطرين ألقابه ودعاؤه وتعريفه كما فى هذه الصــــورة :

الجنـاب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، العونىّ، النّصيرىّ، الذُّخْرِىّ، الفلانىّ . ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه فلان الفلانىّ والعلامة «المملوك فلان» بقلم الثلث الثقيل مقابِلَ السطر الأوّل من المكاتبة .

الطبقة الثالثـة — أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ومافى معنىٰ ذلك . والرسمُ فيه أن يُتْرك تحتَ المَلَكى الفلانى بحيثُ يبقىٰ من الوصـل الذى فيـه البسملةُ مايسَعُ سطرين فقَطْ . ثم يختلف الحال فيه .

فإن كان المكتوب إليـه من أرباب السـيوف ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى ، الأميرىّ ، الكبِيرىّ ، العالِمِىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، العوْنِى ، النّصِـيرىّ ، الذُّخْرىّ ، الفلانى . ويُدْعىٰ له ، نحو : وأيَّد عزْمَه وأظهَرَه ، وكبَتَ عدوَّه وقَهَره ؛ صدرتْ هذه المكاتبَة إلىٰ الجناب العالى تُهْدِى إليه سلاما طيِّبا ، وثناءً مُطْنَبًا ، وتوضِّح لعلمه كيتَ وكيتَ ؛ فالجناب العالى يتقـدّم بكيْتَ وكيْتَ ؛ فيحيطُ علمُه بذلك ، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه .

دعاء آخر يناسبه : وموّه بجهاده كُلَّ سِنَان ، ونَبَّـه بجِلاده جَفْنَ كلِّ سيـفٍ وَسْنَان . صدرتْ هـذه المكاتبةُ تحيّه بسلامٍ يَطِيب ، وثناءٍ يهتزُّ غُصْنُه الرَّطيب ، وتوضِّح لعلمه .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالِى ، القضائى . والألقابُ من نِسبة ما تقدّم فى ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العـالى . والدعاء ، نحو : ولا زال قلمُه لِأبوابِ الأرْزاق فاتِحا ، ونَجْمُ رِفْده [لأنواء الفضـل مانحا](١) صـــدرتْ .

(١) بيض فى الاصل لبقية هذه السجعة فاثبتناها ليلتئم الكلام .

وإن كان من القُضاة ، كتب : أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، والألقابُ من نِسْـبة ما تقـدّم فى ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجنابِ العـالى . والدعاءُ ، نحو : ولا أخلىٰ اللهُ أفُقَ الفضل من كَوْكبِه ، ولا مجالَ الجدال من مَرْكَبِه . صدرت .

وإن كان من مشـايخ الصوفية ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ الجنـاب العالى الشيخىّ . وبقيَّةُ الألقاب من نِسْبة ما تقدّم مع ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب . والدعاء، نحو : نفعَ الله ببركات خَلَواته التى كَم ٱنجلتْ عن الرَّشَاد، وبان فى مِرْءاتِها نُورُ الهدىٰ للعِباد، وأنارَتْ إنارَة الشمس لَاإنَارَةَ الزِّناد .

والعنوانُ بنظير الألقاب التى فى صَدْر المكاتبة ؛ والدعاء أدام الله تعالىٰ نعمتَهُ .

وصورة وضعه فى الورق أن يُكْتَب فى سطرين الألقابُ والدعاءُ والتعريفُ كما فى هذه الصورة :

الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمى، المجاهدىّ، المؤيّدى ، العَوْنى ،

النَّصِيرى ، الذُّخْرى ، الفلانى؛ أدام الله نعمتَه فلان الفلانىّ

والعلامة «المملوك فلان» تحت البسملة بقَلَم مختصرِ الطُّومار .

المرتبة الثالثة ــ الدعاءُ للمجلس ، ويختَصُّ بالمجلس العالى ، والبياضُ فيه تحتَ المَلَكى الفلانى بحيث يبقىٰ من الوصـل قدرُ سطرين كما تقدّم فى الجناب العـالى. ويختلف الحال فيه .

فإنْ كان من أرباب السُّـيوف، كتب : أدام اللهُ تعـالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيّدى ، الذُّخْرىّ، العَوْنى، الفلانى؛ ويدعىٰ له ، نحو : وأيَّد عَزْمه، ووَفَّر من الخيرات قِسْمَه ؛ صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تُهْدى إليه سَلَاما، وتُوفِّر له من الخير أقْساماً، وتوضح لعلمه المبارَك

كيتَ وكيتَ ، فالمجلسُ يتقــدَّم بكيتَ وكيتَ ، فيحيط بِذلك عِلْمــا . والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

وهـــذه أدعية تليق بهذه المكاتبة .

دعاء من ذلك : ولا زالَ مَشْكورَ الاهْتِمام ، موصوفَ المحَاسن وَصْفَ البَـدْر التَّـام ، معروفًا بجميل الأَثَر مثلَ ما تُعْرف مواقِعُ الغَمَام . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى تُهْـدى إليه سـلاما ، وتُسَـدّد لرأيه الصـائِبِ سِهَاما ، وتوضِّح لِعلْمه الكريم .

آخـــر : ولا زال سَيْفًا يُدْفَع بحَدِّه ، ويَجْرِى ماءُ النصر من فِرِنْده ، ويتنوّعُ به الظَّفَر فيَقْتُل بتجريده ويُخافُ وهو فى غِمْده .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ، القَضَائى ، الأجَلِّ ، الكبيرى ، الرئيسى ، المـاجِدى ، الأوحَدى ، الأَثِيرى ، الفـلانى ؛ ويُدْعىٰ له ، نحو : وسدّدَ رأْيَه ووَفَّقه ، وصَدَّق فيــه الظَّنَّ وحقَّقه ، وجمع له شَمْلَ السعادةِ ثم لافَرَّقه . صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى تَشْكُر مَسَاعيه ، واهتمامَهُ الذى باتَ طَرْفُ النَّجْم وهو يُرَاعِيه ، وتُوَضِّح لعلمه الكريم .

آخـــر : ولا نَزَع عنه ثوبَ سَعاده ، ولا غَيَّر منه جميلَ عادَه ، ولا عُرِف سِوىٰ بابه الذى لو كان له الحقُّ فى جَبْهةِ الأسـدِ لاستعادَه . صدرتْ هــذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تُهْدِى إليه الســلام ، والثَّناءَ الذى تَنْطِق به أَلْسِــنَةُ الأقلام ، وتوضح لعلمـــه .

وإن كان من القُضاة ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ، القَضَائِى ، الكبيرى ، العــالمى ، العاملى ، الفاضــلى ، الأوْحَدى ، الفلانى ؛ ويُدْعىٰ له ،

نحو : ولا بَرِحتْ طُلْبته[(١)] مفيدةَ المَطالب، مُورِيَةَ الهُـدىٰ فى الغَياهب، قائمةً أقلامُ هدايَتِها فى ليالى الحَيْرة مَقامَ الكواكب .

آخـــر : ولا بَرِحتِ الدنيا ممطورةً بغَمامِه، محبورةً بدخُولها تحت ذِمامه .

وإن كان من مشايخ الصوفيـة، كتب : أدام الله تعـالىٰ بركَةَ المجلس العالى ، الشَّيْخىّ، الإمَامىّ، العالمىّ، العامِلىّ، العابِدىّ، الوَرَعىّ، الزاهِدىّ، الأوْحدِىّ، الفلانىّ، ويدعىٰ له نحو : ولا زال نُورُه يسْعىٰ بين يديه، ويُدْعىٰ باسمه إليه .

آخـــر : أعاد اللهُ من بركاته علىٰ الراعى والرَّعِيَّـه ، وجعل خَلَواته خلواتِ كلِّ نفسٍ راضيةٍ مَرْضِيَّه؛ والباقى علىٰ ماتقدّم .

والعنوانُ الألقاب التى فى الصَّدْر ؛ والدعاءُ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه. ثم التعريف.

وصورة وضعه فى الورق أن تُكتب ألقابُه والدعاءُ والتعريفُ كما فى هذه الصورة :

المجلس العـالى ، الأميرِىّ، الكبيرىّ، العـالمىّ، المجاهـدىّ، المؤيَّدىّ ، الذُّخْرىّ، العوْنىّ، الفلانىّ ؛ أدام الله تعالىٰ نعمتَه فلان الفلانىّ

والعلامة « المملوك فلان » بقلم مختَصر الطُّومار تحت المَلَكى الفلانى، علىٰ ماتقدّم فى المكاتبة قبلها .

وآعلم أنّ ترتيبَ هذه الدرجة علىٰ هذه المراتب : من الدُّعاء بأعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم؛ ثم أعزّ الله تعـالىٰ نُصرةَ الجناب الكريم؛ ثم ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العـالى ؛ ثم أدام الله تعـالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، ثم أدام الله تعالىٰ نِعمةَ المجلس العالى ــ هو المستقرُّ عليه الحال بين كتَّاب الزمان بالديار المصرية . وجعـل فى "عُرْف التعريف" أعلىٰ المراتب فى الدعاء : أعزّ الله تعالىٰ أنصار المَقرّ الكريم؛

(١) الطلبة من معانيها السفرة البعيدة ولعلها المرادة إن لم تكن مصحفة عن طلعته .

ثم أعزّ الله تعالىٰ نُصْرة المَقر الكريم ؛ ثم أعزّ الله تعالىٰ نَصْرَ المَقَرِّ الكريم ؛ ثم أدام الله تعالىٰ نُصْرَةَ الجناب الشريف ؛ ثم أدام الله نُصْرة الجناب الكريم ؛ ثم ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، وحرَس الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، مع آختصار الألقاب وحَذْف بعضها ؛ ثم أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجْلس العالى . وعلىٰ كثيرٍ من ذلك كان الحال جاريا إلىٰ آخر الدولة الأشرفيّـة «شعبان بن حسين» ثم أخذ الناس فى التغيير إلىٰ أن صار الأمرُ علىٰ ماهو عليه الآن .

قلت : وكانوا فى الزّمَن السالف فى الدولة الناصرية «محمدِ بن قلاوُون» وما والاها لايأْتُون مع المَقرّ الشريف ، والمَقرّ الكريم ، والمَقرّ العالى ، والجناب الشريف ، بأصدرناها ولا بصدرتْ هذه المكاتبةُ كما هو الآن ؛ بل بعد الدعاء يقولون مع «أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الشريف» : المملوكُ يقبِّل الباسطةَ . ثم يأتى بالإنهاء بعد ذلك مثل أن يقولَ : المملوكُ يُقبِّل الباسطةَ الكريمةَ التى هى مَعْدِن السَّماح ، ومَوْطِن مايُوهِن العِدَا من صدور الصِّفَاح ، وينهى . أو يقول : يُقبِّل الباسـطةَ الكريمه ، ويرْتع منها فى كلِّ دِيمه ؛ ويُنْهى . أو والمملوك يقبِّل اليد الشريفَه ، ويلْجأ إلىٰ ظِلَالها الوَرِيفَه ، وينْهِى . ومع «الجناب الشريف» لفظُ «المملوك يخْدُم» . ثم يقول : ويُبْدى مثـل أن يكتُب : المملوك يَخْدُم بأثْنِيَته ، ويفُضّ عقودَ الشُّكر علىٰ أنديَته ، ويبدِى لعلمه الكريم . أو المملوكُ يخدُم بأثْنِيته التى تزِيدُ الطِّيب طِيبا ، وتَسْرى سُرىٰ السُّحُب فلاتدَعُ فى الأرض جَرِيبا ؛ ويبدى لعلمه الكريم . وربما أعاض ذلك بقوله : صدرتْ هـذه الخدمةُ ، مثل أن يقول : صدرتْ هـذه الخدمةُ وسلامُها يتضوّع ، وثناؤُها السافرُ لايتَـبَرقَع .

الدرجة الرابعـــة

(الأبتداءُ بِصِيَغ مُخْتَرَعة من صدُور مكاتباتِ الأدعية)

اعلم أن صُــدورَ المكاتبات المفتتحةِ بالأدعية يقال فيها بعــد الدُّعاء المعطوف : أصدرناها أو صدرَتْ هــذه المكاتبة ، ثم يقال : وتُبْدِى لعلمه أو وتوضِّح لعلمه . ومن أجل ذلك جُعِلتْ هــذه الدرجةُ دونَ درجة الأفتتاح بالدعاء ، لأنَّ هــذه فرعٌ من فروع تلكَ ، وحينئذٍ فيكون الصدر مُشْتَمِلا بعد الدعاء على ثلاثة أشياءَ .

أحدهــا ــ [أفتتاح] صدور المكاتبة بقوله : أصدرْناها أو صدرتْ .

والثـانى ــ الإشارةُ إلى المكاتبة بقوله : هذه المكاتبةُ .

والثالث ــ الإعلامُ بما صدرتْ بسببه المكاتبةُ . فأنتظم من ذلك ثلاثُ مراتِبَ .

المرتبة الأولى ــ الأفتتاحُ بصدور المكاتبة ، وفيها طبقتان .

الطبقة الأولى ــ صدرتْ والعالى ، وهى أن تُفْتَتَح المكاتبةُ ، بأن يقال : صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى . ويختلف الحال فيها .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُّيوف ، كتب : صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى ، الأميرىِّ ، الكبيرىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، الذُّخْرىّ ، الأوحَدىّ ، الفلانىّ ، ويدعى له نحو : أدام الله تعالى نعمتَه ، ووَفَّر من الخير قِسْمتَه ، تتضمَّن إعلامَه كيتَ وكيتَ . فالمجلس العــالى يتقدّمُ بكيتَ وكيتَ ، فيعْــلَم ذلك ويعتمِدُه والله الموفِّق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى ، القضــائىّ ، الكبِيرىّ ، الرئيسىّ ، الكاملىّ ، المــاجدىّ ، الأثيرىّ ، الأوحَدِىّ ، الفلانىّ ، ويدعى له ، نحو : حرَسَ الله مَجْده ، وأنجح قَصْده ، والباقى على ماتقدّم .

وإن كان من القُضاة ، كُتِبَ : صدرَتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى ، القَضائىّ ، الأجَلّىّ ، الإمامِىّ ، الصَّدْرىّ ، الفَقِيهىّ ، الكاملىّ ، الفاضِلىّ ، الفلانىّ ؛ ويدعىٰ له ، نحو : أيّد الله أحكامَه ، ووفَّر من الخير أقسامَه ؛ والباقى علىٰ ماتقدّم .

وإن كان من مشايخ الصوفيَّة ، كتب : صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى ، الشَّيْخىّ ، الإمامىّ ، العالمىّ ، العامِلىّ ، الزاهِدىّ ، العابدىّ ، الوَرِعىّ ، الأوحَدىّ ؛ ويدعىٰ له نحو : أعاد اللهُ من بركَتِه ، ونفَعَ المسلمين بصالح أدْعِيَتِهِ ؛ والباقى علىٰ ماتقدّم .

والعنوان بالألقاب التى فى الصَّدْر وأوّلِ سَجْعةٍ من الدعاء فيه . وتكون الألقابُ والدعاء والتعريف فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، المجاهدىّ ، المؤيّدىّ ، الذُّخْرى ،
الأوحدىّ ، الفلانىّ أدام الله رِفْعَتَه فلان الفلانىّ

والعلامة « المملوك فلان » تحت « المَلَكىّ الفلانى » بقلم مختصر الطُّومار الثقيل ، وربما جعل بعضُهم العلامةَ « أخوه » .

الطبقة الثانية — صدرَتْ والسامى . وهى أن تُفتَتح المكاتبةُ بأن يقال : صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامىّ ، والبياض فيها تحت المَلَكِىّ الفلانىّ كما فى المكاتبة التى قبلها : بحيث لا يبقىٰ من الوَصْل إلّا ما يسَعُ سطرين فقط علىٰ ماتقدّم .

ثم إن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيوف ، كتب : صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامِى ، الأَميرىّ ، الكَبِيرىّ ، المجاهِدىّ ، العَضُدىّ ، الذُّخْرىّ ، الأوحَدىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدعىٰ له نحو : أدامَ الله سعْدَه ، وأنجح قَصْده . ثم يقال :

تتضمَّن إعلامَه كيتَ وكيتَ . فالمجلس السامى يتقـدّم بكيتَ وكيتَ؛ فيعلَمُ ذلك ويعتَمِدُه ويبادِرُ إليه، والله الموفِّق .

وإن كان من الكُتّاب، كُتِب : صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى القضائىّ، الأجَلّىّ، الكبيرىّ، الزَّينىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، الأوْحَدىّ، الفلانىّ؛ ويدعىٰ له، نحو : ضاعفَ الله تعالىٰ إقبالَه، أو أدام الله سعادَتَه، وبلَّغه إرادتَه؛ والباقى علىٰ ماتقدّم .

وإن كان من القُضاة، كُتِب : صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى، القضائىّ، الصَّدْرىّ، الفَقيهىّ، الإمامىّ، العالمىّ، الفاضِلِىّ، الكامِلىّ، الأوْحَدِىّ، فلان الدين . والباقى من نسبة ماتقدّم .

وإن كان من مشايخ الصوفيـة، كُتِب : صدَرتْ هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى، الشَّيْخِىّ، العالِمِىّ، العامِلىّ، الوَرَعىّ، الزاهِدِىّ، الأوحَدِىّ، الفلانىّ؛ ويدعىٰ له، نحو : لا أخْلاه الله من أُنْسِه، ولا أبعدَهُ من حَضْرة قُدْسه . والبـاقى علىٰ نحو ماتقدّم .

والعُنوانُ الألقابُ التى فى صَـدْر المكاتبة بالسَّجْعة الأولىٰ ممـا فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه فى الورَق أن يكتَب فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى، الأَميرىّ، الكبيرىّ، المجاهِدِىّ، العضُدىّ، الذُّخْرىّ، الأوحدىّ، الفلانىّ .   أدام الله سعدَه   فلان الفلانى

والعلامة «أخوه فلان» تحت المَلَكِىّ الفلانىّ، بقلم مختصر الطُّومار الثقيل .

المرتبة الثانية — الآفتتاح بالإشارة إلىٰ المكاتبة ، وهى أن يُكْتَب : هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامِى بغير ياء فى ألقابه ، ويعبَّر عنه بالسامى بغير ياء؛ والبياض فيها تحت المَلَكِىّ الفلانىّ متَّسِع أيضا : بحيث لا يبقىٰ من الوصل إلا ما يَسَع سطرين فقط .

ثم إن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيوف ، كُتِبَ : هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى ، الأميرِ ، الأجَلِّ ، الكبيرِ ، المجاهِد ، المؤيَّد ، الأوحدِ ، الذُّخْر ، فلان الدين ؛ ويُدعىٰ له نحو : أدامَ الله إقبالَه ، وبلَّغه آمالَه ؛ أو أنجحَ الله قَصْدَه ، وأعْذَبَ وِرْدَه ، تُعْلِمه كيتَ وكيتَ : فالمجلس يتقـدّمُ بكيتَ وكيتَ : فيعلَمُ ذلك ويعتَمِده ويبادر إليه ، والله الموفِّق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِب : هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى ، القاضِى ، الأجَلّ ، الكبيرِ ، الصَّدْر ، الرئيس ، الأَوْحد ؛ ويدعىٰ له ، نحو : أدام الله سعادَتَه ، وبلغه من الخير إرادَتَه ؛ تُعلمه كيتَ وكيتَ . والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كان من القُضاة ، كُتِب : هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامِى ، القاضِى ، الأجَلّ ، الكبيرِ ، العالم ، الفاضِلِ ، الكامِلِ ، الأوحدِ ، فلان الدين . والباقى من نسبة ماتقـدّم .

وإن كان من مشايخ الصُّوفية ، كتب : هـذه المكاتبة الى المجلس السامى الشيخ ، الصالح ، الوَرِع ، الزاهِد ، فلان الدين ، نفع الله تعـالىٰ ببركتِه ، ولا أخلىٰ مجالِسَ الذِّكر من محاسن سَمْتِه وسَمَتِه . والباقى من نِسْبة ما تقدّم .

والعُنْوان الألقـاب التى فى صَدْر الكتاب ، وأوّلُ سَجْعةٍ من الدعاء الذى فيه وتعريفُه ، ويكون فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيّد ، الأوحَد ،
الذُّخْر ، فلان الدين .   أدام الله إقبـالَه   فلان الفلانىّ

المرتبـة الثـالثة — الافتتاحُ بالإعلام بالقَصْد ، وهو أن يكتب : يعلَمْ فلان ، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدّمة المكاتبات من هـذه المقالة أنّ الصوابَ فيها لِيَعْلَمْ بإثبات لام الأمْر فى أوّله ، فحذَف كتَّابُ الزمان منهـا اللامَ اللازم إثباتها وأجرَوْها مُجْرىٰ الخبر. والرسمُ فيه أن يُترك تحت المَلَكىّ الفلانىّ بياضٌ : بحيثُ لايبقىٰ من الوَصْل إلّا ما يسَعُ سطرين كما فى المكاتبة قبلَها وما قَبْل ذلك .

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السُّيوف ، كُتِب : يعْلَمْ الأمـير، الأجلُّ، الكبيرُ، المؤيَّد، الذُّخْر، المُرْتَضىٰ ، المختارُ، فلان الدين، ويدعىٰ له ، نحو : أدام الله عزَّه ، ووَفَّر من الخير كَنْزَه ، كَيْتَ وكيتَ ؛ فمجلس الأمير يتقـدّمُ بكيتَ وكيتَ ، فيعلَمْ ذلك و يعتَمِدهُ ويبادِر إليه ، والله الموفِّق بمنِّه وكرمه .

و إن كان من الكُتَّاب ، كُتِب : يعلم مجلسُ القاضى ، الأجلّ ،الكبيرِ، العالِم، الفاضـِلِ ، الكامل ، الأوحدِ ، فلان الدين ، كيتَ وكيتَ ؛ والبـاقى من نسـبة ما تقـــدّم .

وإن كان من القُضَاة ، كتب : يعلَم مجلس القاضى، الأجلّ، الكبيرِ، العـالم، الفاضـِلِ ، الكاملِ ، الأوحد ، فلان الدين ؛ كيتَ وكيتَ ؛ والبـاقى من نسـبة ما تقـــدّم .

و إن كان من مشايخ الصُّوفية ، كتب : يعلم مجلِسُ الشيخ ، الصالح ، الوَرِع ، الزاهِـدِ ، الأوحدِ ، الكامل ، فلان الدين ، كيتَ وكيتَ ؛ والبـاقى من نسـبة ما تقـــدّم .

والعُنْوان لهذه المكاتبـة الألقابُ التى فى الصَّدر والدعاء بأوّل سَجْعة ممـا فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب ذلك فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس الأمير ، الأجلّ ، الكبير ، المؤيّد ، الذخر ، المرتضى ، المختار ،

فلان الدين . أدام الله عزّه فلان الفلانىّ

والعلامةُ تحت البسملة الاسمُ بقلم مختصر الطُّومار الثقيل .

قلت : ومما يجبُ التنبيهُ عليه أنَّ الألقاب المذكورةَ فى صُدور المكاتبات وعُنواناتِها ليست موقُوفا عندها ، بل لكلِّ واحد فيها اختيارٌ من تقديم وتأخير ، وتبديل لقَبٍ بلقَبٍ ، وزيادةٍ ونَقْص ؛ إلا أن الزيادةَ والنقصَ يكونان على المُقارَبة ، مثل زيادة لقبٍ ولقبيْنِ وثلاثة ، ونَقْصِها . على أنهم فى الزمن السابق كانوا يتعاطَوْن فى الإخوانِيَّات الألقابَ المركَّبة فى الصُّدور والعنْوانات فيما يُبْدأ فيه بالدعاء وما بعد ذلك إلى آخر المراتب كما هو فى السُّلْطانيَّات .

فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للمَقَرّ الشريف لأرباب السُّيوف بعد استيفاءِ الألقابِ المفْرَدة : عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأُمَراء فى العالَمين ، زعيمُ الجيوش ، مقدَّمُ العساكر ، عَوْنُ الأمة ، غِيَاثُ الملة ، ممهِّدُ الدُّوَل ، مشَيِّدُ الممالك ، ظهيرُ الملوك والسلاطينِ ، عضُدُ أمير المؤمنين . ومع الدعاء للمقرّ الكريم : عزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالَمين ، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحِّدين ، عمادُ الدولة ، عونُ الأُمّة ، ذُخْر الملة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسَبِها .

وإن كان من رُؤساء الكُتّاب ، قيل : جَلالُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الكُبَراء فى العالمين ، رئيسُ الأصحاب ، قِوَامُ الأمة ، نِظَامُ المِلّة ، مدبِّر الدولة ، ذُخْرُ الممالك ، ظَهيرُ الملوك والسلاطين ، وكذلك إلى آخر المراتب كُلُّ مرتبَةٍ بحسَبِها . وكذلك القولُ

فى القُضاة ومشايخ الصُّوفية كلٌّ أحد منهم بمـا يناسِبُه من الألقاب لوظيفته ورُتْبته . ثم آقتصروا بعد ذلك علىٰ آستعمال اللَّقَبِ المضافِ إلىٰ الملوك والسلاطِين، مثل ظَهِير الملوك والسلاطين ونحو ذلك ؛ فحذف كُتَّاب الزمان هذه الألقابَ المركَّبَة جملةً آختصارًا، وهو مستحْسَن : لمـا فى ذلك من مَيْل النُّفُوس إلىٰ الآختصار، ولتُخالف المكاتَباتِ الصادرةَ عن السلطان ، فتكون مختصَّةً بالألقاب المركَّبة دُونَ غيرها .

القســـم الثـانى

(من المكاتبات الإخوانيَّات الدائرةِ بين أعيان المملكة وأكابر
أهل الدولة، الأجوبةُ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يُفْتتَح من ذلك بمـا تُفْتتح به الآبتداءاتُ المتقدّمةُ الذّكر)

والرسم فيها أن يكتَبَ صدرُ الكتاب كما يُكْتَب أنْ لَوْ كان آبتداءً، ثم يذكر وُرودُ الكتاب المجاوَب عنه، ويُؤْتىٰ بالجواب عما تضمَّنه، وهو علىٰ أربع مراتب :

المرتبـةُ الأولىٰ — وهى أعلاها فى تعظيم الكتابِ الوارِد، أن يعبَّر عنه بالمِثَال . وذلك مع الآبتداء بلفظ يقبِّل الأرض وينْهى كيتَ وكيتَ . وصورتُه أن يقول بعد كمال الصَّــدْر : ورودُ(١) المثالِ الكريمِ العالى أعْلاه الله تعالىٰ علىٰ المملوكِ علىٰ يد فلان، ويذكُر ما يليق به من المجلس العالى أو المجلِس السامى أو غيرهما ؛ ثم يقول : فقَبَّـل المملوكُ لورودِه الأرْض، وأدّىٰ من واجبـه الفرْض، وتضاعَف دعاءُ المملوك لتأْهيلِه لغِلْمانية الأبواب الكريمة ، وآبتهج بوُرُوده،وحَمِد اللهَ وشكَرَه علىٰ ما دل عليـه : من عافيةِ مَوْلانا ملِكِ الأمراء أعزَّالله أنصاره ـ إن كان المثال قد ورد من نائب سلطنة ـ أو من عافيةِ مَوْلانا قاضِى القُضاة ـ إن كان قاضيا ـ أو من عافية المخدُوم وصحَّة مِزَاجه

(١) أى الذى منه و ينهى ورود المثال الخ وهكذا فى الآتى .

المحروس . وقَابَلَ المملوكُ المراسيمَ الكريمةَ بالامتثال ؛ ففَهِم مارُسِم له به من كَيْتَ وكَيْت ؛ والمملوكُ لم يكن عنده غَفْلةٌ ولا إهمالٌ فيما رُسِم له به . وإن كان ثَمَّ فصولٌ كثيرةٌ ، قال : فأما مارُسِم له به من كَيْتَ وكَيْتَ فقد امتثَله المملوكُ ؛ ويُجاوبُ عنه . ثم يقول : وأما مارُسِم له به من كيتَ وكيتَ ، فالأمرُ فيه كيتَ وكيتَ ، حتّى يأتِيَ علىٰ آخر الفُصُول ؛ فإذا انتهىٰ إلىٰ آخرها ، قال : وسؤالُهُ من الصَّدَقات العَميمة ، إمدادُه بمراسِيمِه الكريمة وخِدَمِه ، ليفُوزَ بقضائها ، ويُبادِرَ إلىٰ امتثالها ؛ والمملوكُ مملوكه وعبدُ بابِه الشريف .

المرتبة الثانية — أن يعبِّر عن الكتاب الوارد بالمثال العالى بدُون الكريم ، وذلك مع الابتداء بلفظ يُقبِّل الأرضَ ويُنْهِى بعد ابتهالِه إلىٰ الله تعالىٰ ؛ والابتداءِ بيقبِّل الأرضَ بعد رَفْع دُعائه ؛ ويقبِّل الأرضَ بالمَقرّ الشريف ؛ ويُقَبِّل الباسطَ الشريف . فأما مع يُقَبِّل الأرضَ بعد ابتهاله ، فالأمرُ علىٰ ما تقدّمَ فى جواب المكاتَبة قبلها ، إلا أنه يقتصر علىٰ المثالِ العالى دُونَ الكريم كما تقدّمت الإشارةُ إليه . وأما مع يُقَبِّل الأرض بعد رَفْع دعائه ، فإنه يقول بعد تكملة الصَّدْر : ورودَ المثالِ العالى أعلاه اللهُ تعالىٰ علىٰ يد فلان ، فقبّله حينَ قابَلَه ، ووقَفَ علىٰ ما تضمّنه من كيتَ وكيتَ ، وفَرِح بما دَلَّ عليه من عافيةِ المَخْدُوم ، وحمِدَ اللهَ تعالىٰ وشكَرَه علىٰ ذلك ، وفَهِمَ ما أشار إليه من كيتَ وكيتَ ؛ ويجاوب عنه ، ثم يقول : والمملوكُ يسأل إحسانَ المخدوم بتشريف المملوكِ بمهمّاته ومَرَاسِيمِه ليفُوزَ بقضائها ، فإنّ المملوكَ وقْفُ المالك ؛ طالعَ بذلك ، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه ، أو نحو ذلك . وأما مع يُقبِّل الأرضَ بالمَقرّ الشريف ، ويُقَبِّل الباسطَ الشريف ؛ فإنه يُقال وُرُودَ المثال العالى أيضا ، وربما قيل ورودَ مثالِه العالى . وقد يقال المشرِّف الكريم العالى علىٰ ماتقتضيه رتبةُ المكتوب إليه ، ويرتَضيه المكتوبُ عنه ؛ والباقى علىٰ نحو ماتقدّم .

المرتبة الثالثة — أن يعبَّر عن الكتاب الوارد بالمُشَرِّفة، على التأنيث؛ وذلك مع يقَبِّل الباسطةَ ويقبِّل اليـدَ. ويختلف الحال فى ذلك بحسَب المراتب. فيقال: يقبِّل الباسطةَ ويُنْهِى وُرودَ المشَرِّفة الكريمة، ومع اليدِ الشريفةِ، والكريمةِ، والعاليةِ؛ وفى معنىٰ ذلك يخدُم إذا كتب بها؛ وكذلك أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقرّ الكريم، وإن كان المكتوبُ عنـه يكنِّى عن نَفْسه بنون الجمع المقتضيةِ للتعظيم. ثم يقول: فى كلٍّ منها فقبَّلها المملوكُ حينَ قابَلَها، ووَقَفَ علىٰ ماتضمَّنَتْه من محبته ومودّته؛ وفَهِم ما شرحه من أمر كيتَ وكيتَ، ويجاوب عنـه؛ ثم يقول: والمستَمَدُّ من محبَّتـه تشريفُ المملوك بمَراسيمه ومُشَرِّفاته وخِدَمه: ليفُوزَ بقضائها، ويُبادِرَ إلىٰ آمتثالِها؛ فإن المملوكَ ماعنده غَفْلَةٌ فيما يَقْتضيه رأيُه العالى، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه.

المرتبة الرابعة — أن يعبَّر عن الكتاب الوارد بالمكاتبة. وذلك مع الآبتداء بالدعاء بلفظ: ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى؛ وأدامَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلِس العالى؛ وصدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلِس العـالى، أو المجلس السامِى؛ أو هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى؛ أو يعْـلَم مجلِس. فيقال: وتُوضِّح لعلمه، أو موضِّحةً لعلمـه، أوتتضَمَّن إعلامَه، أو تُعْلِمُه، أو يعلم علىٰ حَسَب المراتب المتقدّمة، وُرودَ مكاتبته، فوقَفْنا عليها، وأحَطْنا علمًا بما تضمَّنَتْه من كيتَ وكيتَ، ويجاوِبُ عنه؛ ثم يقول: فيتقدّمُ الجناب أو المجلس أو مجلسُ الأمير ونحو ذلك ممـا يقتضيه الحال، بإعلامنا بأخباره وضروراته وحوائجه.

وآعلم أنَّ لكاتب السرِّ أجوبةً لنُوّاب السَّلْطنة وغيرِهم ممن تَرِدُ عليـه مكاتباتُهم بطَلَب الملاحظةِ عنـد عَرْض مكاتَباتهم علىٰ الحضرة السُّلْطانية؛ وتحسينِ السِّفَارة فى ذلك؛ ويقعُ الخطابُ فى جواب كلٍّ منهم علىٰ حسَب رُتْبته.

ففى جوابِ نائبِ السلطان بالشام المحرُوس يُكْتب ما صورته : ويُنْهِى بعد رَفْع أدعِيَته الصالحةِ تقبَّلها اللهُ تعالىٰ من المملوك ومن كلّ داعٍ مُخْلِص، بدَوَام أيام مولانا ملكِ الأمراء، أعَزَّ الله تعالىٰ أنصارَه ، وخُلُودِ سعادته عليه ، أنَّ المثالَ الكريمَ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يَدِ فلان ؛ فنَهَض له المملوكُ ، وأجمل فى تلقِّيه السُّلُوك ؛ وفَضَّه عن صَدَقاتٍ عميمه ، وتفَضُّلاتٍ جسيمه ؛ وفَرِح بما دَلَّ عليه من سلامةِ مولانا ملكِ الأمراء ـ أعزّ الله أنصاره ـ وعافيَته ، وصحّة مِزَاجه المحروس ؛ وتضاعَفَ سرورُ المملوك بذٰلك ، وتزايَدَ ٱبتهاجُه به ، وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُدِيم حياةَ مولانا ملكِ الأمراء ، أعز الله أنصاره ، ويُبْقِيَه ؛ وٱنتهىٰ إلىٰ ماتضمَّنته الإشارةُ الكريمةُ فى معنىٰ تجهيز المشارِ إليه إلىٰ خِدْمة الأبواب الشريفةِ بما علىٰ يَده من المكاتبة الكريمة ، وما رَسَم به من القيام فى خِدْمتها وعَرْضها بين يَدَىِ المَواقف الشريفة شرَّفها اللهُ تعالىٰ وعظَّمها ؛ وقابَلَ المملوكُ الإشارةَ الكريمةَ بالٱمتثال بالسَّمْع والطاعة ، وبادَرَ إلىٰ ما رَسَم به ؛ وقد عَرَض المملوكُ المكاتبةَ الكريمةَ علىٰ المَسَامع الشريفة ، وكُتِب الجوابُ الشريفُ عن ذلك بما ستُحِيط به العلومُ الكريمة ؛ وعادَ بذلك إلىٰ خِدْمة مولانا ملك الأمراء أعَزَّ الله أنصاره . والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأمراء عزّ نصرُه ، ومُحِبُّه القديم ، والمعترفُ بإحسانه وصَدَقاته ؛ ويسأل تشريفَه بالمهمَّات والخِدَم ، أنهىٰ ذلك ، إن شاء الله تعالىٰ .

وفى جواب بقيَّة النُّوَّاب بالممالك الشامية : كنُوَّاب السلطنة بحَمَاة وطَرَابُلُس وصَفَد والكَرَك ، ومقدّمِ العسكر بغزَّة ، يكتب : ويُنْهِى بعد رَفْع دُعائه ، وإخلاصه فى محبَّته ووَلَائه ، وٱعترافِه بإحسانِ مولانا وآلائه ، أنَّ المثالَ العالى ـ أعلاه الله تعالىٰ ـ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يَدِ فلان ، فقبَّله المملوك ، وأحسن فى تلَقِّيه السُّلُوك ؛ وفَرِح بما دَلَّ عليه من عَافِيةِ مولانا وسلامته ، وصِحَّة مِزَاجه المحروس ، وحَمِدَ اللهَ تعالىٰ علىٰ ذلك ،

وآنتهى إلىٰ ما أشارَ إليه : من تجهيز المطالعةِ الكريمةِ إلىٰ الأبوابِ الشريفةِ ، شرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها ،وفهِمَ المملوكُ ذلك ، وآمتثل ماأشار إليه بالسَّمْع والطاعة ؛ ووَقَفَ فى خدمَتِها عند العَرْض علىٰ المَسَامع الشريفة ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ بمضمونها ؛ وكتبَ الجوابَ الشريفَ عن ذلك بمـا سَيُحيط به علمُ مولانا ؛ وقد عاد فلان بالجواب الشريف وبهـذه الخدمة ، وحمَّـله المملوكُ من السـلام والشوقِ والدعاءِ والوَلَاءِ وتَقْبيل الأرضِ ما يُبْديه لمَسَامع مولانا . والمملوكُ يسأل إحسانَه الإصـغاءَ إلىٰ ذلك ، والتشريفَ بمراسيمه وخِدَمه : ليبادِرَ إلىٰ قبُولهـا . والله تعـالىٰ يؤيِّده ويحرُسُه بمنِّه وكَرَمه .

وعلىٰ قياس ذلك فى غير هـذه من المكاتبات بحسبِ ما تقتضيه رُتبةُ كلِّ واحدٍ من أصحابها .

الضـــرب الثـانى

(من الأجوبة مايفتتَح بوُرُود المكاتبة مصَدّرا بلفظ : وردَتْ أو وصلَتْ أو وقفْتُ علىٰ المكاتَبة ، وما أشبه ذلك)

مثل أن يكتب : ورد المثالُ الكريمُ الفلانىّ ، وذِكْرُ سَلَامته أحلىٰ من ذِكْر الأوائل ، وقد تطَرَّز منه طِرازا أشرفَ من طِراز الغلَائل ؛ وما سَكَن القلبُ إلىٰ شىءٍ كسُكُونه إليه ، ولا رأىٰ واردًا أكرمَ منه عليـه ؛ فقابل نِعمةَ قُدُومه بدوام شُكْرها ، وطوىٰ صحائفَ الآمالِ إلّا من نَشْرها ؛ وإذا كان وجه الأيّام مُقطَّبا اسـتغْنىٰ ببِشْرِ وجْهِه المَيْمُون عن بِشْرِها ؛ فإنْ حسُنَ فى رأيه الإجراءُ علىٰ عوائد إحسانه [من التشريف بمراسيمه وخِدَمه] (١) والمواصلةِ بها ، [نالتِ] (١) النفسُ من وُرُودها نِهايةَ أرَبِها .

---

(١) بياض فى الأصل قليل ، وما أثبتناه مأخوذ من المقام .

قلت : أما الأجوبةُ المطلَقة : وهى الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكُتَّاب ، وعيون أهل الأدَبِ ، ممن له مَلَكةٌ فى الإنشاء ، وقُوَّة فى النظم والنثر ؛ فإنها لا تتوقَّف علىٰ ٱبتداءٍ مخصوصٍ ، ٱبتداءً ولا جوابا ؛ بل قد تكون مبتدأة بما تقدّم من الأبتداءات ، وقد تكون بغير ذلك من الأفتتاحات التى يختارُها صاحبُ الرسالة ، بل أكثرها مفتَتَح بالشعر المناسبِ للحال المكتوبِ فيها ، بل رُبَّما ٱقتُصِر فيها علىٰ الشعر خاصَّةً دونَ النثر .

المَهْيَـــعُ الثانى

(فى بيان رُتَب المكتوب عنهم والمكتوبِ إليهم : من أعيـان الدَّوْلة بمملكة الديار المصرية ، وما يَسْتَحِقُّه كلٌّ منهم من رُتَب المكاتبات السابقةِ علىٰ ما ٱلحال مستقِرٌّ عليه فى زماننا)

اِعلم أنَّ المكتوبَ عنهـم من أعيان الدولة علىٰ طَبَقات ، لكلٍّ منهـم مكاتبات بصَدْر يختصُّ به ، إلىٰ مَنْ فوقَ رُتْبته أو مساوٍ له فى الرتبة أو دُونَه فيهـا ، مُرتَّبةٌ علىٰ ترتيب المكاتبات الصادرةِ عن الأبواب السلطانية إلىٰ أهل الدولة :

الطبقة الأولىٰ — مِن المكتوبِ عنهم مَنْ يكْتَب إليه عن السلطان «أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المقرِّ الكريم» ككَافِلِ السلطنة : وهو نائبُ السُّلطان بالحضرة ، وأتابِك العساكر ، ونائبِ السلطنة بالشام . والمكتوبُ إليهم عن هذه الطبقة علىٰ مراتبَ :

المرتبة الأولىٰ — من يكتب له عن هـذه الطبقة « الفـلانىّ بمطالعة » ، وممن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام فيما رأيته — أتابِكُ العساكر بالأبواب الشريفة ؛ وكان ما كتب له «المخدُومىّ الأتابِكىّ فلان الفلانى» باللَّقب المضافِ إلىٰ لَقَب السلطان ، «أتابك العساكر المنصُورة» .

المرتبة الثانية — من يُكْتب إليه « الأبواب بمطالعة » وممن يُكْتَب إليه بذلك عن النائبِ الكافلِ بالحضرة، والأتابِك ـ نائبُ السلطنة بالشام. فقد قال فى "التثقيف": إنَّ بهــذه المكاتبة يكتَبُ عن أكابر أُمَراء الديار المصرية إلىٰ نائبِ الشام وحَلَبَ فيما أظُنُّ؛ وممن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام ـ الدَّوادَارُ، وأميراخُورُ، ومقدَّمُو الألوفِ بالديار المصرية، وأكابرُ الأمراء مقــدَّمِى الألوف بالشام، وكافلُ المملكة الشريفة الحَلَبية .

المرتبة الثالثة — من يُكتَب له عن هذه الطبقة «الأبوابُ بغير مطالعة» وبذلك يكتَبُ عن كافل السلطنة بالحَضْرة إلىٰ نائب السلطنة بحَلَب . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان يكتَب بذلك عن الأمير يَلْبُغا العُمَرى (يعنى الخـاصِكىّ) وهو أتابِكُ الديار المصرية، إلىٰ نائب الشام أيضا . ثم قال: وكذلك كُتِب بعده إلىٰ نائبَىِ الشام وحلَبَ، الأميرِ منكلى بُغا، والأمير الجاى؛ ونُوّابِ السلطنة بالديار المِصْرِيَّة؛ وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ كلٍّ من قُضاة القُضاة الأربعة بالديار المصرية؛ وكذلك الوزيرُ وكاتبُ السِّربها .

المرتبة الرابعة — من يكتَبُ له عن هذه الطبقة «البابُ الكريم والبابُ العالى» أما الباب الكريم، فإنه يكتَبُ بذلك عن النائب الكافل والأتابِك (١)

وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ الأُمَراء الطبلخاناه بالديار المصرية، وإسْتَادار الأملاك الشريفة، وناظرِ الجُيوش المنصورة بالأبواب السلطانية، وناظرِ الخوَاصّ، وناظرِ الدَّوْلة، وحاجب الحُجّــاب بالشام، وقاضى القُضاة الشافعىّ بالشام، وكاتبِ

(١) بياض فى الأصل بقدر سطر والساقط هو المكتوب إليهم . ولعله الى نائب الشام ونائب طرابلس الى آخر ما يأتى بعد . وحرر .

السِّرِّ به، ونائبِ السلطنة بطرَابُلُس، ونائب السلطنة بحَماة، ونائب السلطنة بصَفَد، ونائب السلطنة بالكَرَك .

أمّا مَن يكتب له عن نائب الشام البابُ العالى بدُون الكريم ، فمقدَّمُ العسكر المنصور بغَزَّة ، والقُضاةُ الثلاثةُ بالشام، ما خلَا الشافعىَّ المقدّم ذكرُه ؛ والوزيرَ بالشـام .

المرتبة الخامسة — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة «يقَبِّل الأرضَ بالمَقَرِّ الشريف» وبذلك يكتَبُ عن النائب الكافل والأتَابِك ، إلىٰ نائبِ طرابُلُس ، ونائب حَماة، ونائب صفَد، ونائب الإسكَنْدريَّة، وأُمَراء الأُلوف بالديار المِصريَّة ؛ وبه يُكتَب عن نائب الشام .

المرتبة السادسة — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة «الباسِطُ الشريف» وبذلك يكتب عن النائب الكافِلِ والأَتابك، إلىٰ مقدَّم العسكر بغَزَّة، ومقدَّمِ العسكر بِسِيسَ، ونائبِ السلطنة بالكَرَك، وحاجبِ الحُجَّاب بالشام، وحاجب الحُجَّاب بحلَب .

المرتبة السابعة — من يكتَبُ له عن هذه الطبقة «الباسِطَة الشَّريفة» وممن يكتب له بذلك عن نائب الشام قاضِى القُضاة الشافعىّ بحَلَب .

المرتبة الثامنة — مَنْ يكتَب له عن هذه الطبقة «اليَدُ الشريفة» أو «اليَدُ الكريمة» أو «اليَدُ العالية» . وبذلك يكْتَب عن النائب الكافل والأتابك، إلىٰ نائبَىِ الوجه القِبْلىّ والوجه البَحْرىّ بالديار المصرية ؛ ونائب القُدْس، ونائب حِمْص، ونائب الرَّحْبة، ونائب البِيرَة، ونائب قَلْعة المسلمين، ونائب مَلَطْية، ونائب دَبْركى، ونائب الأَبُلُسْتَيْنِ، ونائب طَرَسُوس، ونائب أذَنَة، ونائب بَهَسْنىٰ ؛ وأُمراء الألوف بالشـام وحَلَب . وبذلك يُكْتَب [أيضا] عن نائب الشام إلىٰ أُمَراء العشَرات بالديار المِصريَّة، وقُضاة

العسكر بهـا ، وحاجب الحُجّاب بحَلَب ، والقُضَاة الثلاثة : الحنفيّ ، والمـالكي ، والحنْبَليّ ، بها .

المرتَبة التاسعة ـــ مَنْ يكتَبُ له عن هـذه الطبقة « أعزّ اللهُ تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم » . وبذلك يكتب عن نائب الشام إلىٰ كاشف الصَّفْقةِ القِبْلِيَّة ، وإلىٰ الأُمَراء مقدّمِي الأُلُوف بالشام ، وناظر الجيش به ، وأمير آلِ فَضْل ، ونائب حِمْص ، وكاتب السرّ بحَلَب ، ونائب المملكة بها ، ونائب دَوْرَكى ، ونائب دَرَنْدة .

المرتبة العاشرة ـــ مَنْ يُكتب له عن هـذه الطبقة «أعزّ الله تعـالىٰ نُصْرة المقرّ الكريم» . وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ نائب قلْعة دِمَشْق ، والحاجبِ الثاني بها ، ووكيلِ بيتِ المال بها ، ومقدّمِي الأُلُوف بحَلَب ، ونائب الجيش بها ، ونائب الرَّحْبة ، ونائب الأَبُلُسْتَيْن ، ونائب ملَطْيَة ، ونائب قلعة المسلِمين ، ونائب بَهَسْنىٰ ، ونائب البِيرةِ ، ونائب جَعْبر ، ونائب الرُّها ، ونائب حُسْبَان .

المرتبة الحادية عشرةَ ـــ مَنْ يُكتَب له عن هـذه الطبقة «أعزّ الله تعالىٰ نُصرةَ الجناب الكريم» . وبذلك يُكْتَب عن نائب الشام إلىٰ أمراء الطَّبْلخاناه بالشام ، ونائب القُدس ، ونائب بَعْلَبَكّ ، ومتولّي صَـيْدا ، وأمراء الطَّبْلخاناه بحَلَب ، ووكيل بيت المـال بها ، والمحتَسِب بها ، وناظرِ خاصّ البريد بها ، وأمير حاجب بصَفَد .

المرتبة الثانيةَ عشْرةَ ـــ مَنْ يكتَب إليه عن هذه الطبقة : « ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى» . وبذلك يُكْتَب عن نائب الشام ، إلىٰ والى قَطْيا ، ورُبَّمـا زيد فيه الكَريم .

المرتبة الثالثةَ عشْرةَ ـــ مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة : «أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى» . وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ أُمَراء العشَرات بمصر ، وأمراء

العِشْرينات بالشام، والمحتَسِب بها، والحاجبِ الكبير بغَزَّة، ومقدَّمِ عَرَب بنى عُقْبة، وأكابِرِ عَرَب آلِ فَضْل، وأميرِ عَرَب آلِ على، وأمير آلِ مُوسٰى، ونائب مِصْيَاف، ومتولِّى بَيْرُوت .

المرتبة الرابعةَ عشْرَةَ — مَنْ يكتب إليه عن هذه الطبقة : «المجلس العالى مع الدُّعاء». وبذلك يُكْتَب عن نائب الشام إلىٰ العَشَرات بدِمَشْق، ووالى المَدِينة، ووالى البَرِّبها، والحاجِب الثانِى بغَزَّة، وأميرِ آلِ مِرَا، ومقدّمِ عَرَب جَرْم، ومقدّم بنى مَهْدِىّ، وأمراء العِشْرينات بحَلَب .

المرتبة الخامسةَ عَشْرَةَ — مَنْ يكتب إليه عن هذه الطبقة : «صدَرَتْ والعالى» . وبذلك يكتَبُ عن النائب الكافل والأتَابِك، إلىٰ كاشف الوجْه البحْرِىّ من الديار المِصْرِيَّة، وكاشِف الفَيُّوم والبَهْنَساوِيَّة، ووالِى أُسْوان، وكُشَّاف الجُسُور من أمراء الطَّبْلَخاناه بالوجهين : القبلىّ والبحْرِىّ بالديار المصرية، ونائب قَلْعة حَلَب، ونائب آيَاس، ونائب جَعْبَر، ونائب دَرَنْدَة، وحاجِب الحُجَّاب بطرَابُلُس، وحاجب الحُجَّاب بحَمَاة، وحاجب الحُجَّاب بصَفَد، وبذلك يُكْتَب [أيضا] عن نائب الشام إلىٰ أجناد الحَلْقة بمصر، والحاجب الكبير بِحِمْص، وأمراء العَشَرات بحَلَب .

المرتبة السادسةَ عَشْرَةَ — مَنْ يُكتَب إليه عن هذه الطبقة : «صدرَتْ والسامى» . وبذلك يكتب عن النائب الكافِل والأتابِك، إلىٰ والى قُوص، ووالى مَنْفَلُوط، ووالى الأُشْمُونَيْنِ، ووالِى البَهْنَسىٰ، ووالى مَنُوف، ووالِى الغَرْبية، ووالِى الشَّرقِيَّة، ووالى قَطْيَا، ونائب مِصْياف، ونائب بَعْلَبَكّ، ونائب قلعة صَفَد، ونائب عَيْنتَاب، والحاجب الكبير بغَزَّة. وبذلك يُكْتَب [أيضا] عن نائب الشام إلىٰ مقدّم الحَلْقة بالشام، وأعيان الجُنْد بها، ومقدّمِ بنى مَهْدِىّ، ومتولِّى الصَّلْت وعَجْلُونَ، ومتولى صَرْخَد،

والحاجب الصغير بحمْص، ووالى تَدْمُر، ومقدّم إقليم الخَرُّوب بِصَيْدا، ومقدّم إقليم النِّعَاج، ووالِي البِقَاعَين، ووالِي بُلُنْيَاس.

المرتبة السابعةَ عَشْرةَ — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة «هذه المكاتبةُ» وبذلك يكتَبُ عن النائبِ الكافل والأتابِك، إلىٰ والِي الجيزِيَّة، ووالى إطْفِيح، ووالِي قَلْيُوب، ووالى أُشْمُوم الرُّمَّان بالديار المصرية. وبذلك يكتَبُ أيضا إلىٰ نائب الكَخْتَا، ونائب كَرْكَر، ونائب حَجَر شُغْلان، ونائب سِرْفَنْدكَار، ونائب القُصَيْر، ونائب بَغْراس، ونائب الرَّاوَنْدان، ونائب الشُّغْر وبكَاس، ونائب الرُّها، ونائب الدَّرْبَسَاك، ونائب شَيْزَر بالمملكة الحلبية؛ وإلىٰ نائب اللَّاذِقِيَّة، ونائب صَهْيُون، ونائبِ حِصْن الأَكْراد، ونائبِ حِمْص، ونائبِ المَرْقَب، ونائبِ بَلَاطُنُس، ونائبِ الكَهْف، ونائبِ القَدْمُوس، ونائب الخَوَابِي، ونائب العُلَيْقة؛ ونائب المَيْنَقة: من أعمال طرابُلُس، ونائبِ شَقِيف تِبْرُونَ من معاملة صَفَد. وبذلك يكتَبُ [أيضا] عن نائب الشام إلىٰ صِغار الأجناد بمصر، وإلىٰ كاشِف الرَّمْلة، ومتولِّي حُسْبانَ، وحامى الخَرِبَة.

المرتبة الثامنةَ عَشْرةَ — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة «يَعْلَم». وبذلك يكتَب عن نائب الشام إلىٰ صِغَار الأجناد بالشَّام.

وآعلم أنَّ وراءَ ماتقدّم من المكاتبات عن نائب الشام مكاتَباتٍ أخرىٰ إلىٰ مَنْ هو خارجٌ عن المملكة؛ وهم علىٰ مراتب.

المرتبـــةُ الأولىٰ — من يكتب له عنه: «يقبِّل الأرض» ـ صاحبُ بَغْدادَ: كما كان يُكْتَب للقان أحمدَ بنِ أُوَيْس، كان يُكْتَبُ إليه فى ورَق قَطْع نصف الحموىّ بقلم الثلث الصغير: يقبِّل الأرضَ لدىٰ الحضرة الشريفة، العاليـة، المَوْلَوِيَّة،

السلطانية، العالمَّة، العادليَّة، المؤيَّدية، المالكية، القانيَّة ؛ ولا زالت عَزَماتها مؤيَّده، وآراؤها مسَدَّده، ويُنْهِى إلى العِلْم الكريم — صاحبُ السَّراى : ودَشْت القَبْجاق مثله بأبسطِ ألقابٍ .

المرتبة الثانية — مَنْ يكتب إليه : « أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرّ الشريف » ابنُ السلطان أحمدَ بنِ أُوَيْس المذكور . وورقُه نظيرُ ورق والده، وقلَمُه نظير قلمه — صاحب هَراة : مثلُه .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه : «أعزَّ الله أنصارَ المقرّ الكريم» — صاحبُ مارِدِينَ : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرّ الكريم العالى، المولوىّ، الكبيرىّ، العادلىّ، السلطانىّ، المَلَكِىّ، الفلانىّ؛ ورَفَع مِقْداره، وأجزل مَبارّه . المملوك يجدّد الخدْمة العاليه، ويصِفُ أشواقَهُ المتواليَه؛ ويُنْهِى لعلمه الكريم — صاحب بُرْصا : من بلاد الروم، وهو ابن عُثْمان . والرسم فيه على ما كان يكتب لأبى يَزِيدَ بن مراد بك بن عثمان : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المَقرّ الكريم ، العالى، المَوْلَوىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، العَوْنىّ، الغِيَاثىّ ، المهِّدىّ، المشَيِّدىّ، الزَّعيمىّ، الغازى ، المجاهِدىّ، المثاغِرِىّ، المرابطىّ، العابِدِىّ، الناسِكِىّ، الزاهِدِىّ ، المقدَّمىّ، الأَتابَكىّ، المحْسنىّ، الظهيرىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ ؛ مُعزِّ الإسلام والمسلمين، سيدِ الأمراءِ فى العالمين، ناصر الغُزَاة والمجاهدين ، زعيم جُيُوش الموحِّدين ، مُبيد المشركين ، قامعِ أعداء الدين، مقتلِع الحُصُون من الكافرين؛ عونِ الأمّة ، عِمَادِ الملة، ذُخْرِ الدولة، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، حاكم البلاد الرُّوميَّة ، صاحب بُرْصا وقَيْسَرِية ؛ سيفِ أمير المؤمنين؛ قَهر [الله] أعداء الدين الحنيفىّ بعزائمه وسَطَواتِه، وجعله مؤيَّدا فى حركاتِهِ وسَكَناته ، وأيَّده فى جِهَاده واجتهاده بالنصر الذى لا يُفارق ألوِيَةَ أعلامه وراياتِه،

ولا زالتْ رعاياه مجبُوره ، وعساكِرُه منصوره ؛ هؤلاء بجُودِه [وهِبَاتِه] ، وهؤلاء بُوجُوده وحَيَاتِه . المملوكُ يقبِّل اليدَ التى لازال القصْدُ بها يَزِيد ، وبحْرُ البِرِّ من أناملها مَدِيد ، ونوالُها ينالُه الوافدُون حيثُ أَمُّوه من قريبٍ وبَعِيد ؛ ويَصِف صَفاءَ محبَّةٍ يتضاعفُ نَمَاؤها كلَّ يوم جدِيد ، وتترادَفُ تحيَّاتُ أشـواقِها بالمُوالاةِ والتحْمِيد ، ويُتَؤَامَر بهادِى رسائِلها بِصدْقِ المودّةِ الدائمةِ علىٰ التأبيد ؛ ويُبْدِى إلىٰ العِلم الكريم .

قلت : كذا رأيته فى دُسْـتور بخطِّ القاضى ناصر الدين بن أبى الطيِّب : كاتب سرِّ الشأم كان . وفيه ٱضطرابٌ وتخليطٌ من نَعْته فى ألقابه [بقوله] المَلَكِىّ الفلانىّ ؛ وقوله سـيد الأمراء فى العـالمين ، حيث وصَفَه أوّلا بأوصاف الملوك ، ثم وصـفه بأوصاف الأمراء ؛ إلىٰ غير ذلك من الخَبْط الذى لايخفىٰ علىٰ متأمل .

المرتبة الرابعة — « أعز الله أنصـار المقرّ العالى » — وزير صاحب بَغْداد ، وورقُه فى قَطْع الحموىّ بقلم الثُّلُث الخفيف — قاضى بَغْداد : مثله سواء — صاحب لارندا : من بلاد الروم بمملكة بنى قرمان . ويقال فى ألقابه : الأصيلىّ نُوَيْن التَّوامين ، مجهزُ المقانب ، ذُخْرُ القانات — صاحب سِيوَاس : من البلاد الرومية أيضا — صاحب آيَاس لوق : من البلاد الرُّومِيَّة — صاحب جُولَمَرك : من بلاد الأكراد .

المرتبة الخامسة — « الجناب الكريم » — صاحب حِصْن كَيْفا : من بلاد الجزيرة ، ويقال فيه : المَلَكِىّ الفلانىّ — مقدّم التُّرْكُمان البياضية .

المرتبة السادسة — « الجناب العالى» — صاحب أَرْزَنْجَان — صاحب جزيرة آبن عُمر من بلاد الجزيرة — صاحب أَنْطَالِيَا من بلاد الروم — إبن الشـيخ عبد القادر الكِيلانى شيخُ الجبال .

المرتبــة السابعة — « المجلس العـالى » — صاحب مَيَّافَارِقِينَ : من بلاد الجَزِيرة — صاحب أَكِلّ : من الجزيرة أيضـا — صاحب أَرْقَنِينَ — صاحب قَلْعَة الجَوْزِ — صاحب جرموك — صاحب أَمَاسِيَا : من بلاد الروم — نائب مَارِدِينَ — خادم صـاحب مَارِدِينَ — صاحب بُطْنَانَ — صاحب سِنْجَارَ : من بلاد الجزيرة — صاحب حاسك(؟) — صاحب أَزْبَك — صاحب المَوْصل — صاحب سَنُوبَ — صاحب بوشاظ — صاحب الدَّرْبَنْد — صاحب عَيْنِ دَارَا — صاحب الحَمَّة — صاحب خِلَاطَ — صاحب طلان — صاحب تاخ — صاحب جمشكزاك — نائب كربزاك — صاحب القَنْطَرَة — نائب خَرْتْ بِرْتْ — صاحب البَارِعِيَّة — صاحب حَرَّانَ — صاحب العِمَادِية — صاحب حَانِى — نائب مازكرد — نائب صالحية مَارِدِينَ — أمير التركمان الشهرية — صاحب أشنو .

الطبقة الثـانية — ممن يكتب عنهم من أعيان الدولة بالديار المصرية، مَنْ يُكْتب إليه عن السـلطان : « أعزّ الله تعـالىٰ نُصْرة الجناب الكريم » وهو نائب السلطنة بحَلَبَ .

والكتابة عنه علىٰ مراتب :

المرتبة الأولىٰ — « الفلانىّ بمطالعة » وهو النَّائب الكَافِلُ بالحضرة السلطانية ، وأتَابِكُ العساكر المنْصُورة .

المرتبة الثانية — «الأبواب بمطالعة» وهو نائب السَّلْطَنَة بالشام، والامير الدَّوَادَارُ بالأبواب السلطانية، واسْتَادُ الدَّارِ بها، وأكابِرُ الأمراء المقدَّمين الخَاصِكيَّة .

المرتبة الثالثة — «الأبواب بغير مطالعة» . وبذلك يكتب إلىٰ نائب الشَّام .

المرتبة الرابعة — «البَابُ الكريم» . وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطَرَابُلُس ، ونائبِ السلطنة بِحَمَاةَ ، ونائب السَّلطنة بصَفَدَ ، وكذلك يكتب به إلىٰ الطبقة الثـانية من الأمراء المقدّمين بالحَضْرة ممن دون الخَاصِكية ؛ وفى معنىٰ ذلك الوزيرُ ، وكاتبُ السِّرّ ، وناظرُ الخَاصّ ، ونَاظِرُ الجَيْش ، ومَنْ فى معناهم .

المرتبة الخامسة — «يُقَبِّلُ الأرضَ بالمَقَرّ الشريف» . وبذلك يُكْتب إلىٰ حاجب الحُجَّاب بالشأْم .

المرتبة السادسة — «يُقَبِّلُ البَاسِطةَ» وبذلك يُكْتب إلىٰ الحاجب الثانى بالشأْم ، وحاجِبِ الحُجَّابِ بحَلَبَ ، وحاجِبِ الحُجَّاب بحَمَـاةَ ، وحاجِبِ الحُجَّاب بطَرَابُلُس ، وقاضى القُضَاة الشافعىّ بحَلَبَ ، وكاتِبِ السِّرّ بها .

المرتبة السابعة — «يقبلُ اليدَ الشريفة» . وبذلك يُكْتب إلىٰ نائبِ البِيرَة ، ونائبِ مَلَطْيَةَ ، ونائبِ قَلْعَةِ المسلمين ، ونائبِ جَعْبَرَ ، ونائبِ الرُّهَا ، ونائبِ الأَبُلُسْتَيْن ، ونائبِ حِمْصَ ، وأمراءِ الطَّبْلَخَانَاه بدمَشْقَ .

المرتبة الثامنة — «أعز الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم» . وبذلك يكتب إلىٰ نائب طَرَسُوسَ ، ونائب الرَّحْبَة ، والحاجبِ الثانى بطَرَابُلُس ، ومقـدّمى الألوف بهـا ، والقضاةِ الثلاثة : المـالكىّ ، والحَنَفىّ ، والحَنْبلىّ بحَلَبَ . إلا أنه يقال : «أعز الله تعالىٰ أحكام المقرّ» .

المرتبة التاسعة — «أعز الله تعـالىٰ أنصار المَقَرّ الكريم العالى» وبذلك يُكْتب إلىٰ نائب بَهَسْنىٰ ، ونائب الرَّحْبَةِ ، وأكابر الطبلخاناه بالشام ، ومن تولّى الإمرةَ من عرب آل فَضْـلٍ ثم عُزِل ؛ وقضاةِ العساكر المنصورة بحَلَبَ ، وناظرِ المملكة بها ، وأمير آل علىّ .

المرتبة العاشرة — «أعز الله تعالىٰ نُصْرَةَ الجناب الكريم». وبذلك يُكْتب إلىٰ أعيان أمراء الطبلخاناه بحَلَب، والحاجبِ الثالث والرابع بها، وأكابر أولاد أمراء عرب آل فَضْلٍ.

المرتبة الحادية عشرةَ — «ضَاعَفَ الله تعالىٰ نِعْمَةَ الجناب العالى» وما فى معناه مما يُكْتب به إلىٰ أرباب الأقلام وغيرهم. وبذلك يكتب إلىٰ نائب شَيْزَر، وأمراء الطبلخاناه بحَلَب، غير الأعيان، وناظر الأملاك الشريفة بحَلَبَ، وناظر خاصِّ البريد ومُوقِّعى الدَّسْتِ بها.

المرتبة الثانيةَ عشرةَ — «صَدَرَتْ والعالى». وبذلك يُكْتب إلىٰ نائب عَيْنتَابَ، ونائبِ الرَّاوَنْدانِ، ونائبِ الكَخْتَا، ونائبِ كَرْكَرَ، ونائبِ بَغْرَاس، ونائبِ الدَّرْبَسَاك، ونائب الشُّغْرِ وبَكَاسَ، ونائب القُصَيْر، وأمراءِ العِشْرِيناتِ بحَلَبَ، وأعيان العَشَرَات بها.

المرتبة الثالثةَ عشرةَ — «صدَرتْ والسامى». وبذلك يُكْتب إلىٰ مُقَدَّمى الحَلْقَة بحَلَبَ، ومقدّمى البَرِيدِيَّة بِها، وأعيانهم.

المرتبة الرابعةَ عشرةَ — «السامى» بغير ياء. وبذلك يُكْتب إلىٰ والى سَرْمِينَ، ووَالِى البَابِ، ووالى عَزَازَ، ووالى أَنْطاكِيَةَ، ووالى حَارِم، ووالى كَفْر طَاب، ووالى الجَبُّولِ، ووالى مَنْبِج، ووالى تَلّ بَاشِر، وأجنادِ الحَلْقَةِ بحَلَبَ، وصغار البريدية بها، وعِدَاد التركمان وعِدَادِ الأكراد.

وآعلم أن وراء ما تقدّم من المكاتبات الصادرة عن نائب حَلَبَ [مكاتبات أخرى] إلىٰ من هو خارج عن المملكة، كما تقدّم فى المكاتبات الصادرة عن نائب الشام؛ وهى علىٰ مراتب:

المرتبة الأولى — المكاتبة بـ«يُقَبِّلُ الأرضَ» — القان صاحب بَغْدَادَ : كما كان يُكْتب إلىٰ القَانِ أُوَيْسٍ ، وٱبْنِه أحمدَ : يُقَبِّـلُ الأرضَ بالمقام الشريف العـالى ، المَوْلَوِىّ ، السُّلْطانىّ ، الأعْظَمِىّ الأوْحَدِىّ ، الملاذىّ ، العَطُوفِىّ ، المُحْسِنِىّ ، القَانىّ ، المَلَكِىّ الفلانىّ ، الجَلَالىّ ؛ أعلىٰ الله تعالىٰ شانه ، وأعز سلطانه ، وأمكن من رِقاب الأعداء مكانه ؛ ولا زال لِوَاؤه يَتَأَزَّرُ بالنصر ويَرْتَدِى ، وقَنَاؤه يَرُوحُ إليــه العِزُّ ويَغْتَدِى ، وعَزْمُه يُثَقِّفُ صرفَ الزَّمان فلا يعتاد أنْ يَعْتَدِى ؛ ولا بَرِحَ محموداً فى مَوْقِفِ النصْرِ موقفُه ، مَاضياً فى هامات أعدائه مُرْهَفُه . ويُنْهِى بعد أدْعِيَةٍ رفعها إلىٰ مواطن الإجَابة ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَـا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ومُوَالاةٍ شَفَعَها بالإخلاص ، فعجَزَ عن وصفها ذَوُو البلاغة واللَّسَن ، وأَثْنِيَةٍ جمعها فَلَذَّتْ بها الأسماعُ لَذَاذَةَ الأَعْيُنِ الساهرة بالوَسَن ؛ أن الأمر كَيْتَ وكَيْتَ .

المرتبة الثانية — من يُكْتب له «أعزّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرِّ الشريف» — صاحب مَارِدِين . والرسم أن يُكْتب إليه : أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرِّ الشريف ، العـالى ، المَوْلَوِىّ ، الكبيرىّ ، العالِمِىّ ، العَادِلىّ ، السُّلْطانِىّ ، المَلَكِىّ ، الفلانىّ ؛ ويدعىٰ له ، نحو : لازَالَتْ أيامُه مَسْـعُوده ، وأبوابه مقصُوده ، وألْوِيَةُ النَّصر بنواصى خَيْـله معقوده ؛ المملوكُ يُقَبل اليَدَ الشريفه ، ويقوم من الخِدْمَة بأكمل وَظِيفَه ؛ ويُنْهِى لعلمه الكريم بعـد السلام الزكىّ ، والثناء المِسْـكِىّ ؛ كيت وكيت ، فيحيط بذلك علمـه الكريم ، ويُتْحِفُ بالمُشَرِّفات علىٰ عادة فضله العميم .

المرتبة الثالثة — «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم» . وبذلك يكتب إلىٰ ٱبن قرمَانَ نائبِ السلطنة بالبلاد القَرْمَانِيَّة — حاكم جولمرك — صاحب بُرْصا وهو ٱبن عثمان — صاحب آيَاس لوق .

المرتبـة الرابعة — « المَقَرُّ العـالى » وبذلك يكتب إلىٰ صاحب حِصْنِ كَيْفا، والوزيرِ بالممـالك القانية وقاضيها .

المرتبـة الخامسة — « أعز الله تعالىٰ نُصْرَةَ الجناب الكريم » . وبذلك يكتب إلىٰ صاحب أَنْطَاليا من بلاد الروم .

المرتبـة السادسة — «ضاعف الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» . وبذلك يُكْتب إلىٰ نائب كربزاك ، وحاكم جمشكزاك ، وحاكم سِيوَاس ، وحاكم أَمَاسِـيَا ، وحاكم سَنُوبَ ، والحاكم بخَرْتْ بِرْتْ .

المرتبة السابعة — «أدام الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» . وبذلك يكتب إلىٰ نائب صاحب مَارِدِينَ، ونائب الصَّالِحِيَّة، وبعض خدّام صاحب مَارِدِينَ .

المرتبة الثامنة — «صَدَرَتْ والعالى» . وبذلك يكتب إلىٰ حاكم حَرَّانَ ، ونائب ماز كرد، وحاكم قَلْعَة الجَوْزِ .

الطبقة الثالثة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية — مَنْ يكتب إليه عن السلطان : «ضاعف الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» كوزير المملكة بالديار المصرية ، ونَاظر الخَاصّ ، علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحال آخرا ؛ وأرباب الوظائف من الأمراء المقدّمين بها : كأمير سِلاح ، وأمير مَجْلِس ، وأميراخُور ، والدَّوَادَار ، وإسْـتَادَار ، وحاجب الحُجّـاب ، ونائب الإسكندرية ؛ وكذلك نوّاب السلطنة بطَرَابُلُس ، وحَمَاةَ ، وصَفَدَ ، من الممـالك الشامية .

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة علىٰ [تسع] مراتب :

المرتبة الأولىٰ — «الفلانىّ بمطالعة» وهم : النّائب الكَافِل ، وأتَابِكُ العساكر ، ونائب الشأم .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب حَلَبَ .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائب طَرَابُلُس، ونائبِ حَمَاةَ، ونائبِ صَفَدَ، ونائب الكَرَك، وأمير سلاح وغيره مِنْ سائر مَنْ فى هذه الطبقـــة .

المرتبة الرابعة — « الباب الكريم » . وبذلك يكتب إلى نَائِبَيِ الوجهين القِبْـلىّ والبَحْرىّ بالديار المصرية ، ومقدّمى العسكر بغَزَّةَ وسِيسَ ، والأمراءِ المقدّمين المتوجهين من الأبواب السلطانية لكَشْفِ الجُسُور والمساحة وقَبْضِ الغِلَال .

المرتبة الخامسة — «يُقَبِّل الأرضَ بالمقرّ الشريف» إن قُصِدَ تعظيمُه ، أو الباسِط الشريف إن لم يُقْصَد ، وبذلك يكتب إلى (١)

المرتبة السادسة — «يُقَبِّل اليَـدَ العاليَةَ» . وبذلك يكتب إلى أمراء الطبلخاناه المتوجِّهين من الأبواب السلطانيـة لكَشْفِ الجسور والمساحة والقَبْض . وربمـا انْحَطَّتْ رتبةُ أحد هؤلاء فكُتِب إليه : أعزَّ الله تعالى أنصار المقرّ الكريم ، أونُصْرَةَ الجناب الكريم ؛ أو ضاعف الله تعالى نِعْمَةَ الجَنَاب العالى .

المرتبة السابعة — «ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى» . وبذلك يُكْتب إلى كَاشِفِ الوجه البحْرىّ وكاشف الفَيُّوم والبَهْنَساوِيَّة .

المرتبة الثامنة — «أدام الله تعالى نِعْمَةَ المَجْلِسِ العالى» . وبذلك يكتب إلى الولاة الطبلخاناه بالوجهين القبلىّ والبحْرىّ بالديار المصرية : كقُوص والمَحَلَّة ، وغيرهما . وربمـا كُتب "صدرت والعالى" لأحدهم .

---

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

المرتبة التاسعة — « صَدَرَتْ والسامى » . وبذلك يكتب إلىٰ وُلاة العشرات بالوجهين القبلىّ والبحْرىّ بالديار المصرية .

الطبقة الرابعة — ممن يكتب عنه من أعيان الدَّوْلة بمملكة الديار المصرية ، من يكتب إليه عن السلطان « أدام الله تعالىٰ نعمة المجلس العالى » . ككاتب السرّ وناظر الجَيْش ، وكذلك الحُجَّاب الطبلخاناه بالديار المصرية . وعلىٰ ذلك كان ناظر الخاصّ فى الزمن المتقدّم . فلما جُمِعَ للصاحب شَمْس الدِّين المقسى بين الوِزَارَة ونظر الخاصّ ، كان يُكْتب عنه بما يُكْتب به عن الوزراء كما تقدّم . فلما آنفصل الخاصّ عن الوزارة رُوعِىَ فى الخاصّ ذلك القَدْرُ ، فكُتِب عن ناظر الخاص كما كتب عن الوزير ، والأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

والمكاتبات الصادرة عن هذه الطبقة علىٰ مراتب :

المرتبة الأولىٰ — «الفلانىّ بمطالعة» . وبذلك يُكْتب إلىٰ النّائِب الكَافل ، والأتَابِك ، ونائب الشَّام ، وألحقوا بهذه الرتبة نائبَ حَلَبَ ، فكتبوا إليه الفلانىّ .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب عن هذه الطبقة إلىٰ نوّاب السلطنة بطَرَابُلُس ، وحَمَاة ، وصَفَد ، وثَغْرِ الإسْكَنْدَرِيَّة .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة» وبذلك يكتب إلىٰ نَائِبَى الوجهين القبلىِّ والبحْرىّ بالديار المصرية ، ومُقَدَّمى العسكر بغَزَّة وسِيس ؛ وربما كُتِب إلىٰ أحدهم «الباب الكريم» .

المرتبة الرابعة — «الباسط الشريف» . وبذلك يكتب إلىٰ نائب الكَرَك .

المرتبة الخامسة — «يُقَبِّل الباسطة» . وبذلك يكتب إلىٰ نائب القُدْس الشريف ، ونائب الرَّحْبَة ، وكاشف الوجه البحْرىّ ، وكاشِف الفَيُّوم بالديار المصرية .

المرتبة السادسة — «يقبل اليَدَ العالية». وبذلك يكتب إلىٰ الولاة الطبلخاناه، بالوجهين القِبلىّ والبَحْرىّ، بالديار المصرية .

المرتبة السابعة — «يخدم الجناب العالى». وبذلك يكتب إلىٰ الولاة العشرات بالوجهين القبلىّ والبَحْرىّ أيضا .

قلتُ : وعلىٰ هــذه الطبقات الأربــع يُقَاس مَنْ دونهم ممن يكتب إليه عن السلطان، صدرت والعــالى، كنائِبِ القُدْسِ والرَّحْبَةِ؛ ومَنْ يُكْتب له : صدرت والسامى، كالكاشف بالوجه البَحْرىّ، وكاشِفِ الفَيُّوم؛ ومن يكتب له : هــذه المكاتبة، كالولاة الطبلخاناه بالوجهين القبلىّ والبَحْرىّ؛ ومن يكتب له : «يعلَم» كالولاة العشرات بالوجهين أيضا . علىٰ أن الغالب فى مثل هؤلاء أن تكونَ الكتابةُ عنهم لأعيــان الدولة «الفلانىّ بمطالعــة» وفيمن هو مثلهم أو دونهــم يقاس علىٰ ما تقـــدّم .

وٱعلم أن هــذه المراتبَ المُضَمَّنَةَ للطبقات ليست علىٰ سبيل اللُّزوم فى الوقوف عنــد حدّها، بحيثُ لا يجوز تَجَاوُزُها بزيادة ولا التأخُّرُعنها بنقص، بل هى علىٰ سبيل التقريب؛ والأمرُ فى زيادة رتبــة المكتوب إليــه زيادةً لا تُخْرِجُه عن حدّه فى المقــدار مَوْكولٌ إلىٰ ٱختيار الكاتب، يزيد فى ذلك وينقص، بحسب مايقتضيه الحــال: من رفعة قدر المكتوب إليه، لمزيد رفعته عن نوعه، أو محاباته لٱستِمَالته إلىٰ القصد المطلوب منه، أو الغَضِّ منه بحَطيطَة رُتْبته أو نحو ذلك .

الفصل السابع

من الباب الثانى من المقالة الرابعة

(فى مقاصد المكاتبات ، وهى الأمور التى تكتب المكاتبات بسببها)

وهى الجزء الأعظم من صِناعة التَّرَسُّل ، وعليها مَدَارُ صنعة الكتابة ، إذ الولايات من مقاصد المكاتبات ، وهى أَهَمُّ ما تَضَلَّعَ به الكاتبُ ، وأَلْزَمُ ما مَهَرَ فيه ؛ وهى قسمان :

القسم الأوّل

(مقاصد المكاتبات السلطانيات ، وهى على نوعين)

النوع الأوّل

(ما يُكْتَب عن الخلفاء والملوك ، وهو على ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل

(ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضَاهَاهُم)

مما هو مستعمل الآنَ مِمَّا كان عليه الحال فى الزمن القديم مما يَقِلُّ ويَكْثُرُ ، ويَتَكَرَّر تَدَاوُلُه فى الكتابة وسائر المكاتبات فى الحوادث المألوفة التى يكثر تداولها ، وتتكرر الكتابة فيها بتكرر وقائعها ؛ وما رَسْمُ الكتابة به بَاقٍ إلى زماننا ، وإن تغير مصطلح الابتداء والخطاب وغيرِهما من رسوم المكاتبات . وهو على أصناف :

الصنف الأوّل

(الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة)

قال فى "موادّ البيان" : جرت العادة أن تُنَفَّذَ الكتبُ إلى وُلاة الأعمال فى مثل هذه الحالة ، مُتَضَمِّنةً ما جرى عليه الأمر بالحَضْرة : من ٱنْقِيَاد الأولياء والرعايا

إلىٰ الطاعة، ودُخولِهم فى البَيْعَةِ بصدورٍ مُنْشَرِحة، وحَضِّ مَنْ بالأعمـال من رجال السلطان ورعيته علىٰ الدخول فيما دخل فيه أمثالُهم، وإِعطاءَ الرَّعايا علىٰ ذلك صَفْقَةَ أيمـانهم .

وقد كان الرسمُ فيها أن تُصدّر بحمد الله تعالىٰ علىٰ عَوَارِفِهِ التى لم تَزَلْ تَكْشِفُ الخَطْب ، وتَرْأَبُ الشَّعْب ، وتدفع المُهِمّ ، وترفع المُلِمّ ، وتجبر الوَهْن ، وتُسْبِـغُ الأَمْن ؛ والصَّلاةِ علىٰ سـيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، وذِكْرِ خصائصه ومناقبه، وتشريف الله تعالىٰ له بإقرار الإمامة فى أقاربه، وتخصيصها ببنى عَمِّه الذين هم أَحَقُّ الناس به ؛ وما أمر به الله تعـالىٰ رسولَه صلّى الله عليه وسلم من طَلَب مودّتهم من الأمة بقوله جَلَّ من قائل : ﴿ قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ . وما أشار إليـه صلّى الله عليه وسـلم من بقاء الخلافة فيهم بقوله لعَمِّه العباس : «أَلَا أُبَشِّرُك ياعَمّ ، بِي خُتِمَتْ النُّبُوَّةُ وبولدك تختم الخِلَافَة » وما يجرى مجرىٰ ذلك . ثم يتـلو ذلك بالإفصاح عن شرف الخلافة وفضلها، والإبانَةِ عن رفيع مكانهـا ومَحَلِّها ؛ وأنها ظِلُّ الله الممدود، وحَبْلُه المشدود، ومِسَاكُ الدِّين ونظامُه ، ومِلَاكُ الحق وقِوامُه . وآمْتِنَانَ الله تعـالىٰ علىٰ العباد بأن جعل فيهم أئمة يُقْسِطُونَ(١) العدلَ عليهم ، ويُقِيمُونَ الحدودَ فيهم ؛ ويُقَوِّمُون أديانهم ، ويُهَذِّبون إيمانهم ؛ ويُرْهِفُون بصائرَهم ، ويَهْدُونَ حائرَهم ؛ ويَكُفُّونَ ظَلُومَهُم ، ويُنْصِفُون مظلومَهُم ، ويجمعون كَلِمَتَهم ؛ ويَحْمُون ذِمَارَهم ، ويَحُوطُونَ ديارَهُم ؛ وما يجرى مجرىٰ ذلك . ثم يذكر ما أوجبه الله تعـالىٰ علىٰ أهل الإسـلام للإمام من الطاعة وحسن التِّباعة أيام حيـاته ، والآنقيادِ لأمره فى طاعة من يَنُصُّ عليـه فى القيام مقامه بعد وفاته : ليتَّصِلَ حَبْلُ الإمامة بينهم، ويمتدَّ ظِلُّ الخلافة عليهم . فإن كان قد تَلَقَّ الخلافة بعهد عن خليفة قد مات : من أب أو غيره ، أتىٰ بمقدّمة فى ذكر الموت ، وأن الله تعـالىٰ سوّى فيه بين بَرِيَّتِهِ ، وجعل فى تطرّقه

(١) لعله يفيضون العدل .

إلىٰ رسوله أُسْوَةً لخليقته، وتفرّد بالبقاء، وآمتنع عن الفناء. ثم يقال : وإن الله تعالىٰ لما آختار لعبده ووليه فلان النُّقْلَةَ إلىٰ دار كرامته ، والحُلُولَ بفناء طاعته، وأعانه علىٰ سياسة بريته ، وأنهضه بما حَمَّلَه ، وأيده فيما كَفَّلَه، من الذبّ عن المسلمين، والمراماةِ عن الدِّين ، والعملِ بكتابه وسنّته فى القول والفعل ، وآستشعارِ خيفَتِه ومُرَاقبتِه فى السرّ والجهر ، وما يليق بهذا ـ استخلص عبدَه ووليَّهُ فلاناً الإمامَ الفلانىَّ لخلافته، وأهمىٰ سماءَ الرحمة بإمامته، وأحَلَّ عزيزَ النصر بولايته، وألقىٰ فى نفيس رَأْيه النصَّ عليه ، والتفويضَ إليه ، لِمَا علم سبحانه فى ذلك من شمول المصلحة للعباد، وعموم الأَمَنَةِ للبلاد، فأمضىٰ ـ قدس الله رُوحَه ـ ما أُلْهِمَه، وكَمَّلَه قبل خروجه من دار الدنيا وتممه، عالمًا بفضل آختياره ، وأنه لم يَمِلْ به الهوىٰ فى إيثاره، فقام أمير المؤمنين الإمامُ الفلانىّ مقامه، وحَفِظ نِظَامَه، وسدّ ثُلْمَتَه، وعفّى رَزِيَّتَه، وأقرالله تعالىٰ الإمامة به فى نِصَابها ومقرّها، وزاد باستخلافه فى صِيتِ الخلافة وقَدْرها .

وأميرُ المؤمنين يسأل الله تعالىٰ أن يخص وَلِيَّه السعيدَ بقُرْبِه بأفضل صلواته، وأشرفِ تحياته، ويُحْسِنَ جزاءه فى سعيه فى صلاح العباد، وسِدادِ البلاد، وأن يُلْهِم أميرَالمؤمنين الصبر علىٰ تجرُّع الرَّزِيَّةِ فيه[ويجزيه]أفضل ماجزىٰ به صابرا مُحْتَسبا، وأن يَجْبُرَ كَسْره فى فقده، ويُوَفِّقه لجميل العزاء من بعده، ويُسَدِّده فى مصادره وموارده، ويَهْدِيَه لما يُرْضيه فى جميع مقاصده ، ويُعِينَه علىٰ تأليف الأهواء ، وجَمْع الآراء ، ونَظْم الشَّمْل ، وكَفِّ القتل ، وإرخاء الظل .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد آجتمع مَنْ بحضرته، من ذَوِى جهته وأمراء دولته ، وكافَّة جُنْده وجماعة حَوْزَته علىٰ بيعته ، وإعطائه صَفْقَةَ أيمانهم علىٰ طاعته

ومشايعته ، عن صدور مُخْلِصة نَقيَّة ، وسَرائِرَصافية سليمة ، وعقائد مشتملة علىٰ الوفاء بمـا عَقَدُوا عليـه ، وٱنقادوا مختارين إليه ، وشَمِلتهم بذلك الرحمه ، وضَفَتْ عليهم النعمه ، فمـا بَرِحُوا الرَّزِيَّه ، حتّٰى فَرِحُوا بالعطيه ، ولا وَجَمُوا للمصيبه ، حتّٰى بَسَمُوا للرغيبه ، ولا أظلموا لفقد المـاضى ، حتّٰى أضاء الوجود بالآتى .

فلله الحمد علىٰ هذه النعمة التى جبَرَتِ الوَهْن ، وحققت فى فضله المَنّ ، حمدا يَسْتَدِرّ أخلاف فَضْله ، ويستدعى سابغ طَوْله ، وصلّٰى الله علىٰ محمد وآله . وأميرُ المؤمنين يراك من أهل مخالصته ، والمتحققين بطاعته ، وهو يأمرك أن تأخذ البَيْعَةَ له علىٰ نفسك ، وعلىٰ جميع أوليـائه المقيمين قِبَلك ، وكافّة رعاياه الذين هم فى عملك ، وتُشْعِرَهم بمـا عنده للسارعين لطاعته ، المبادرين إلىٰ ٱتّباعه ، من تيسير الإنصاف والعدل ، وإفاضة الإحسان والفَضْل ، وما لمن نَكَبَ عن الطريقة المُثْلىٰ ، وحادَ عن الأوْلىٰ ، من الكَفِّ الرَّادِع ، والأَدَب الوَازِع ، ويَتَوَسَّعُ فى هذا المعنىٰ توسُّعاً يشرحُ صدورَ أهلِ السـلامه ، المستمرِّين علىٰ نَهْج الاستقامه ، ويَرْدَعُ أهـلَ الفساد ، ويَغُضُّ من نواظر ذَوِى العِنَاد . ويُحَلِّى الكتاب بآيات من القرءان الكريم تَحْسُنُ ٱستعارتها فى باب العَزَاء ، ويليق ذكرها فى باب الإشادة بالخلافة والخُلَفَاء . فان كان الكتاب ممـا يقرأ بالحَضْرة . قال فى موضـع «وكتاب أمير المؤمنين إليك» : «وأنتم معاشرَ أقارب أمير المؤمنين : من إخوته وبنى عمـه وخَوَاصِّ الدولة وأمرائهـا وأجنادها وكُتَّابِها وقُضَاتها وكافّة رعيتها ، ومن ٱشتمل عليه ظل مملكتها — أحَقُّ مَنْ حافظ علىٰ عوارف أمير المؤمنين وٱعتدّ بلطائفه ، وقام بشكر نعمته ، وسارَع إلىٰ ٱتباعه وٱعتصم بحبـل دعوته ، فَأَجْمِعُوا علىٰ متابعته ، وإعطائه صَفْقَةَ أيمـانكم علىٰ مبايعته ، ليجمعَ الله علىٰ التأليف كلمتكم ، ويحمِىَ بالتّآزُرِ بَيْضَتكم » ويُتْبِـعُ ذلك من وعد أهل الطاعة

بمـا يضاعف جُدُودهم ، ومن وعيد أهل المعصية بمـا يُصَفِّرُ خُدودهم ؛ علىٰ نسق ما سبق فى الترتيب .

وهـذه نسخة كتاب فى المعنىٰ ، كُتِب به عن الآمر بأحكام الله تعالىٰ عنـد ٱستقراره فى الخلافة بعد أبيه المسْتَعْلِي بالله ، والدَّولةُ مشتملة علىٰ وزير ، من إنشاء ٱبن الصَّيْرَفىّ ، وهى :

الحمد لله المتوحِّد بالبقاء ، القاضى علىٰ عباده بالفَنَاء ، الذى تَمَجَّد بالأزلِيَّة والقِدَم ، وتفرَّد بالوجود وتَنَزَّه عن العَدَم ، وجعل الموت حَتْمًا مقضيًّا علىٰ جميع الأمم .

يحمده أمير المؤمنين علىٰ ماخصَّه به من الإمامة التى قَمَّصَه سِرْبالَهَا ، ووَرّثه فخرهَا وجمَالهَا ، حمدَ شاكرٍ علىٰ جزيل العطيَّه ، صابرٍ علىٰ جليل الرَّزيَّه ، مُسَلِّمٍ إليه فى الحُكْم والقضيـه ، ويسأله أن يصـلىَ علىٰ جدّه محمد الذى ثبتت حجتُه ، ووضَحت مَحَجَّتُه ، وعَلَتْ كلمته ، وأنافت علىٰ دَرَجِ الأنبياء دَرَجتُه ، صلّى الله عليه وعلى أخيه وٱبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى جعل [الله] الإمامةَ كلمةً فى عقبه باقيـه ، وحُبَّه جُنَّةً يوم الفَزَعِ الأكبر واقيـه ، وعلىٰ الأئمة من ذرّيتهما الطاهرين ، صلاة دائمة إلىٰ يوم الدِّين .

وإن الإمام المستعلىَ بالله أميرَ المؤمنين قدّس الله رُوحَه وصلّى عليـه ، كان من أوليائه الذين ٱصطفاهم لخلافتـه فى الأرض ، وجعل إليهم أَزِمَّة البَسْط والقَبْض ، وقام بمـا حُمِّـلَه من أَوْقِ الإمامه (١) ، ولم يزلْ عاملًا بمرْضاة الله إلىٰ أن نقـله إلىٰ دار المُقَامه ؛ فإنا لله وإنا إليـه راجعون ، رِضًا بقضائه ، وصبرا علىٰ بلَائه ؛ وإلىٰ الله يرغبُ أميرُ المؤمنين فى إلهـامه حُسْنَ الصبر علىٰ هـذا المُصَاب ، وإجزال حَظِّه عليه من الأَجر والثواب ، وإمدادِه فى خلافته بموادّ الإرشاد والصواب ، بكرمه .

(١) الأوق الثقل . قاموس .

وكتاب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلانىّ من سـنة كذا؛ بعـد أن جلس للحاضرين بحضرته من الأمراء: عُمُومَتِه وأوليائه وخَدَمِ دولته، وسائرِ أجناده وعبيدِ مملكته، وعامةِ شيعته، وأصنافِ رَعِيَّته؛ وأنوارُ الخلافة عليـه مُشْرِقه، وأغصانُ الإمامـة مُثْمِرةٌ مُورِقه؛ والسـيد الأجلُّ الأفضـلُ الذى أمدَّه الله فى نُصْرة الدولة العلوية بالتأييد والإظهار، وأبان به برهانَ الإمامة الآمرية فوضَحَتْ أنوارُها للبصائر والأبصـار، وشَهَر له من المناقب ما سار مَسِـيرَ الشمس فى جميع الأقطار؛ يتولَّى الأمرَ بحضرته تَوَلِّىَ الكافلِ الزَّعيم، ويباشرُ النظرَ فى بَيْعَتِه مُبـاشرة القَسِيم الحَميم؛ والناس داخلون فى البَيْعَة بانشراح صدور، وإظهار ابتهاجٍ وسرور؛ يُعْطُون صَفْقة أيمـانهم، ويعلمون مالهم من الحَظِّ فى طاعة إمام زمانهم؛ قد تحققوا شُمُول السَّعد وعُمُوم الرشاد، وتيقنوا الخِيَرة لهم فى العاجلة والمَعَاد؛ وأمير المؤمنين يُعَزِّيك ومن قِبلَك من أولياء دولته، وسائر رعيته؛ عن المصيبة فى الإمام المستعلِى بالله ـ صلى الله عليه ـ التى قطعت من النفوس أملَها، وأسكنت الألباب جَزَعا ووَلَهـا، ويُهَنِّيك وإياهم بمُتَجَدِّد دولته التى تَهَلَّلَ لها وجهُ الزمان، واستهلت بها سحائبُ الفَضْلِ والإحسان. وأمير المؤمنين يحمـد الله الذى أَقَرَّ الحقَّ فى مَنْصِـبِه، وأفرده بمـا كان والدُه الإمامُ المستعلى بالله أُفْرِدَ به.

فاعلم ما أعلَمَكَ أميرُ المؤمنين من هـذا الخَطْب الجسيم، والنَّبَإ العظيم؛ واشكر الله علىٰ ما جدّده لك ولكافَّة المسلمين، من النعمة بامامة أمير المؤمنين؛ التى أَوْفَتْ باساءة الزمان وجِنَايته، وشَفَتْ من داء كَلْمه ونِكَايته؛ وتَقَدَّم إلىٰ الدعاء(؟) قِبلَكَ بأخذ البيعة علىٰ نفسك وعلىٰ كافَّة مَنْ فى وِلايتك، واستحمد إلىٰ أمير المؤمنـين أنت وهم بالإخلاصِ فى طاعتـه، والاجْتِهاد فى مُنَاصَحته، والتَّمَسُّك بعِصَمِ مشايعتـه؛ لتنالوا

فى العاجلة حَظًّا جسيما، وتُحرِزُوا فى الآجلة أجرًا كريما : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وطالعْ بالكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين على الحاضرين قِبَلَك، وإذاعته فى الواردين عليك والمستوطنين عَمَلَك؛ ليحْمَدُوا الله على ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصُّنْع العائد على العباد، وصلاح البلاد — وكتب فى اليوم المذكور .

***

وهــذه نسخة كتاب عن الآمر بأحكام الله المقــدّم ذكره، كُتِبَ به إلى وُلاة الأطراف بعد قراءة عهده، مهنئا بخلافته، وتجديد ولايته؛ من إنشاء آبن الصَّيْرَفِىّ أيضا، وهى .

أما بعــدُ، فالحمد لله مُولِى المنائح من نِعَمِه، ومُجْزِل العطايا من مواهبه وقِسَمِه، ومُعَوِّد الصُّنْع الجميــل من لُطْفه وكَرَمه، الذى له الحكم الظاهر عَدْلُه، ولَدَيْه الطَّوْل الفائض فَضْلُه، وعنده مفَاتِحُ الغيب وإليه يَرْجِعُ الأمرُ كُلُّه .

يحمده أميرالمؤمنين على ما أفرده به من سَنِىّ المواهب، ونَظَمَه له من عُقُود المناقب؛ ونَقَلَه إليــه من تُرَاث آبائه الكِرام الذين جلَا ضياؤُهم ظلامَ الغَيَاهِب؛ وتزينت بهم الأرضُ تَزَيُّنَ السماء الدنيا بِزِينَةِ الكواكب؛ ويسأله أن يصــلِّىَ على جدّه محمد الذى نشر الله به الرحمه، وكشف الغُمَّه، وأنقذ الأمَّه؛ صلّى الله عليه وعلى أخيه وآبن عَمِّه علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين، والمذكور فى زُبُرِ الأوّلين، وعلى الصَّفْوَة من ذُرِّيتهما الهُدَاة الراشدين، صلاةً باقيةً إلى يوم الدين .

وإن النِّعَم تتفاضل أقدارُها بحسب مواقِعِها، وتتفاوت أَخْطَارُها بقَدْر مواضعها؛ ومِنْ أَلطَفها مكانا، وأشرفِها مَحَلًّا وشانا، وأولاها بأن تُسْتَنْطَقَ به الأقلام، وأحَقِّها بأن يتناقلَ ذكرها الخاصُّ والعام؛ ما خصَّ الله به أميرَ المؤمنين من المِنَنِ الظاهره،

وتولّاه من المِنَح المتظاهره ، وأصارَه إليه من الخلافة فى أرضـه ، وٱسْتخلفه عليه من القيام بسُنَن دِينه وفَرْضه ، وٱسترعاه إيَّاه من حِياطَة بلاده ، وأوجبه من طاعته علىٰ كافَّة خلقه وعباده ، وذَخَره لدولته من كفيله وخليله ، ومقيم أدِلَّة حقه ومُوضِّح سبيله ، السيِّد الأجلّ الأفضلِ الذى ٱرتضاه الله للذَّبِّ عن الإسلام ، وٱنتضاه لنُصْرة إمام بعد إمام ، وشهر مناقبَه فى كُلِّ مَوْقِف ومقام ، وخصَّـه بفضائلَ لم تُرَ مجتمعةً لملِك من ملوك الإسلام ، لاجَرَم أنَّ أمير المؤمنين قد أحَلَّه منـه محَلَّ الرُّوح من الجَسَـد ، والوالد من الوَلَد ، وفوَّض الأمور إليه تفويضَ معوّل علىٰ يُمْن نقيبته معتمد ، مبالِـغٍ فى حسن الاختيار للأمة مُجتهد ، والله تعالىٰ يُمَتِّع أمير المؤمنين ببقائه الكافل ببلوغ الأمل ، ويجازيه عن تشييد مملكته أحسنَ ما جزىٰ به مُخْلصا جَمَعَ فى الإيمان بين القَوْل والعمل ، بكرمه .

ولما وقف أميرُ المؤمنين بما طالعه به السيدُ الأجلُّ الأفضلُ عند مثوله بحَضْرته ، وإنهائه أمورَ دولتـه وأحوال مملكته ، علىٰ أمرك الذى ٱستحمده فى الخدمه ، وٱستحققْتَ به إفاضةَ الإحسان وإسباغَ النعمه ، وأن لك فى الدولتين : المُسْتَنْصِرِيَّة والمُسْتَعْلِيَّةِ من الخدم المشكوره ، والمساعى المبروره ، ما يدلُّ علىٰ مُنَاصَحَتك وإخلاصك ، ويبعثُ علىٰ ٱصطناعك وٱستخلاصك ـ أمَرَ بكَتْبِ هذا السِّجلّ لك مؤكِّدًا لأواخيك ، ومُعْرِبا عن رأيه الجميل فيك ، ومجدّدا من ولايتك ، ومُجْرِيا لك فيهـا علىٰ مُسْتَمرِّ رسمك ومستقرّ عادتك . فقابلْ نعمة أمير المؤمنين من الإخلاص فى طاعته بمـا يرتبطها ، ووَفِّها من حَقِّ الاجتهاد مايُقِرُّها عندك ويُثَبِّطُها ، وٱجعلْ تقوىٰ الله تعالىٰ عِمَادك ، وٱطْوِ عليها طَوِيَّتك وٱعتقادَك ، ومَكِّنْ فى نفوس الأولياء جميلَ رأْيِ أمير المؤمنين فيهم ، وإحْمَادَه لمواقفهم فى الخدمة ومساعيهم ، وحَقِّقْ عند كافَّة المُسْتَقِرِّين لديك ، والواردين عليك ، ما يُكْتَفُون به من الأمر الشامل ،

ويغمرُون به من حُسْنِ النظر المتواصل؛ وٱجْرِ علىٰ العادة المألوفة فى إفاضة العدل والإنصاف، وتَنَكَّبْ سبيلَ الجَوْرِ والإجْحَاف؛ ومَهِّد السُّبُلَ قِبلَك، وٱحْمِ من أسباب الفساد ولايَتَكَ وعَمَلك؛ وٱخْصُصْ مُتَوَلِّى الحكم والدعوة الهادية ـ ثبتها الله تعالىٰ ـ بالإعْزاز والرعايه، ووَفِّرْ حَظَّهم من الملاحظة والعنايه؛ وخُذ المُسْتَخْدَم فى الخطبة العَلَوِيَّة باقامتها فى أوقاتها، علىٰ أفضل قوانينها وواجباتها؛ مُعْلِناً فيها بذكر أمير المؤمنين الذى يُتَوِّجُ فرُوقَ المنابر، ويُشَنِّفُ أسماع البوادى والحواضر؛ وتَوَفَّرْ علىٰ ما ثَمَّرَ الأموال وأنْمَاها، وغزَّرها ورخَّاها، وقضىٰ بوُفُورها وحصولها، ودعا إلىٰ دُرُورها ومواصلة حُمُولها؛ وٱنظر فى أمر الرجال المستَخْدَمين معك نظرا يؤدّى إلىٰ مصلحتهم. فٱعلم هـذا من أمير المؤمنين، وٱغتبط بما أَصاره الله إليه ٱغتباط أمثالِك من المخلصين، وٱعتقدْ طاعَتَه ٱعتقادَ مَنْ يجاريك من أهل اليقين، وٱعمل بوصاياه ومراشده تَحْظَ فى الدنيا والدين؛ وطالعْ بالكائن منك بعد قراءة هذا السِّجِلّ علىٰ كافة الناس أجمعين؛ وكُتب فى كذا وكذا.

وٱعلم أن العادة جارية بينهم أنه إذا كتب كتاب عن الخليفة بانتقال الخلافة إليه، يُكْتب ملطف عن الوزير، يُلَفُّ كتاب الخليفة ضِمْنَه، ويُوجَّه به إلىٰ حَيْثُ المَقْصِد:

***

وهـذه نسخة مُلَطِّف فى هذا المعنىٰ، كُتِبَ به عن وزيرٍ فى الدولة الفاطمية، ليُلَفَّ كتابُ الخليفة طيَّه؛ وهو:

ينْطَوِى هـذا الأمرُ الوارد علىٰ الأمير، علىٰ كتاب مولانا وسيدنا الإمامِ الفلانىّ لدين الله، أميرِ المؤمنين؛ صلواتُ الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، أو أبنائه المنْتَظَرِينَ، إن كان لا ولد له ـ بما أصاره إليه من شَرَف

الإمامه، وبَوَّأه إيَّاه من مقام العظمة والكرامه؛ إثر آنتقالِ الإمامِ فلانٍ أمير المؤمنين ـ قدَّس الله رُوحَه ـ إلىٰ جِوارِ ربِّه . فاعتَمِد العملَ بمضمونه فى أخذ البَيْعـةِ علىٰ نفسك ومن يَلِيكَ، وتلاوته علىٰ رءوس الأشهاد، وإذاعة مكنونه فى الحَاضِر والبَاد، علىٰ الرسم المعتاد؛ فآعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وهذا المعنىٰ فى الكتابة بانتقال الخلافة إلىٰ الخليفةِ جارٍ فى زماننا بانتقال السَّلْطَنة إلىٰ السلطان؛ ويعبَّر عن ذلك بجلوسه علىٰ تَخْت الملك، والأمر علىٰ ماتقدّم فى الخلافة من التعزية بالماضى، والتهنئة بالمُسْتَقِر، ونحو ذلك ممـا يجرى مجراه .

* * *

وهذه نسخةُ مكاتبــة بالبشارة بجلوس الملك الصالح صالح آبن الملك الناصر محمد آبن قلاوون علىٰ التخت، فى شهر رجب الفرد ســنة آثنتين وخمسين وسبعمائة، بعد خَلْعِ أخيه الملك الناصر [حسن] . وصورتها بعد الصَّدْر والألقاب :

وأوردَ عليه من البشائر أسْنىٰ البُشَرْ، وأسمعه من التَّهَانِى ما آنتشىٰ حديثُــه بين البرايا وآنتَشَرْ، وحَفِظَ عليــه وعلىٰ الأمة ما أراد لهم من الخــيْرِ وَوَلَّى عليهم خِيَارَهُم وجعل مليكهم صالِــحَ البَشَر .

صدرت هذه المكاتبة إلىٰ فلانـــ ونصرها(١) مقدمًا بالظَّفَر، وذكرها قد ملأ الأقطار فَجَمعَ عليه كُلَّ قلبٍ كان قد نَفَر؛ تُهْدى إليه سلاما عن وجه الشُّكْر سَفَر، وثَنَاءً يحصُــل منه علىٰ النَّصيبِ الأوفر؛ وتُوَضِّح لعلمه أن الجنابات العــالية الأمراءَ الأكابرَ، أمراءَ الدولة الشريفــة، ضاعف الله نِعْمــتَهم ؛ كانوا قد عَظَّمُوا أخانا الناصرَ، وحَكَّمُوه، ومَشَوْا إلىٰ خِدْمته علىٰ أحسن سَــنَن؛ وما أبْقَوْا فى خدمته مُمْكِنًا من التعظيم، والإجلال والتحكيم، وآمتثالِ الأمر فى كل جليلٍ وحقير؛ فلم يَرْعَ لهم

(١) كذا بالأصل على هذه الصورة .

ذلك، ولا ٱلتفت إلىٰ مالهم عليــه من حقوق الخدمة ؛ وٱتفق مع الصبيان، وأراد القَبْض علىٰ الأمراء ، وإمساكَ الجنابات العـالية الأمراءِ الأكابرِ والإيقاعَ بهم . فلمـا تحققوا منه ذلك ، ٱجتمعت الأمراء ، وٱتفقت الكلمة علىٰ خَلْعه من الملك الشريف وإقامتِنا . فخلع المشارُ إليه ؛ وكان جلوسُنا علىٰ تخت المُلْك الشريف وكرسيّ السَّلْطنة المعظمة فى يوم الاثنين المبارك ، بحضور الإمام المعتَضِد بالله أميرِ المؤمنين أبى الفتح أبى بكر، ٱبن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبى الرَّبيع سليمان المُسْتَكْفِى بالله، ومبايعته لنـا ، وحضورِ المجالس العالية قُضَاةِ القضاة بالأبواب الشريفة ، أعز الله تعالىٰ أحكامهم ؛ وحَلَفَ لنـا أمراءُ الدولة الشريفة علىٰ جارى العـادة فى ذلك ؛ وضُرِبَتْ عند ذلك البشائر، وشهد هـذا الهناءَ كلُّ بادٍ وحاضر، وتَشَنَّفَتِ الأسماعُ وقرَّتِ العيون وٱستقرّت الخواطر، وٱبتهجت بذلك الأمم، وتباشرت بهذا السَّعْدِ الذى كُتِبَ لنا من القِدَم، وأصبح كُلٌّ من أنصار دولتنا الشريفة مبتهلا بالدعاء مبتهجا .

فليأخُذِ المَقَرُّ حظَّه من هذه التهنيه، وليُذِعْ خَبَرَها لتكون المسارُّ مُعيدة ومُبْديَه ؛ و يتحققْ ماله عندنا من المكانه، والمحلِّ الذى زان بالإقبال الشريف زَمَانَه ؛ و يتقدّمْ أمرُه الكريمُ بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالمملكة الفلانية، و يتقدّمْ أيضا بضَرْب البشائر و بالزينة علىٰ العادة .

وقد تَجَهَّز إلىٰ الجناب العالى نسخةُ يمين شريفة يحلف عليهـا ، و يكتُب خَطَّه، و يجهزها إلينا صُحْبَةَ المجلس السامى، الأميرِ، الأجلّ ، الكبيرِ، العَضُد، الذُّخرىّ، النَّصيرىّ، الأوحدىّ، عَضُد الملوك والسلاطين، يلبغا الحَمَوِىّ الصالحىّ، أدام الله عُلُوَّه، المتوجِّهِ بهذا المثال الشريف . وقد جهزنا نسـخةَ يمين شريفة ليحلف عليها لنا الأمراءُ بطَرابُلُسَ ويكتبوا خطوطهم، و يجهزها إلينا علىٰ العادة صُحْبَةَ المشار إليه .

وقد جهزنا للجناب العالى صحبة المشار إليه تَشْرِيفًا شريفا كاملا؛ فيتقدّم الجنابُ العـالى بتسلمه منه ولُبْسِه ، و يتحقق ماله عندنا من المكانة والمَنْزِلة ، و يُعِيدُ الأميرَ سيفَ الدِّين يلبغا المشار إليه إلىٰ الباب الشريف، فيحيط علمه بذلك .

الصـــــنف الثـانى

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فى الدعاء إلىٰ الدِّين ، وهو من أَهَمِّ المهمات)

قال فى "موادّ البيان" : أشرف ما يُنْشِئُه الكاتبُ الدعاءُ إلىٰ دِينِ الإسلام الذى أظهره الله تعالىٰ علىٰ كُلِّ دِينٍ ، وأعزّه علىٰ كُرْهِ المشركين ، وآسْتِجْرَارُ مُخَالفيه إليه ، وآجتذابُ الخارجين عن دائرته إلىٰ الدخول فيـه ؛ عملا بمـا كان عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم والخلفاءُ من بعده ، لأنه قِوَامُ الملك ونِظَامُ السلطان اللَّذَان لايَصِحَّان إلا به .

قال : والكاتب يحتاج فى إنشاء هذه الكُتُب إلىٰ عِلْمِ التوحيد و براهينه، وشَرْعِ الرسول صلّى الله عليه وسلم خاصِّه وعامِّه، ومعجزاتِه، وآياتِ نُبُوّته : ليتوسَّعَ فى الإبانة من ظهور حجته ، ووضوح مَحَجَّته .

ثم قال: والرسم فيها أن تُفْتَتَح بحمدِ الله الذى آختار دينَ الإسلام فأعلاه وأظهره، وقدّسه وطَهَّره ، وجعله سبيلا إلىٰ رِضَاه وكرامته ، وطريقـا إلىٰ الزُّلْفىٰ فى جَنَّته ؛ وشفيعا لا يُقْبَلُ عملُ عاملٍ إلا به ، وبَابًا لا يَصِلُ واصلٌ إلا منه؛ فلا تُغْفَرُ السيئاتُ إلا لمن آعتَصَم بِحَبْلِه ، ولا تُتَقَبَّلُ الحسناتُ إلا من أهله . وشُكْرِه تعالىٰ علىٰ الهداية إليه، والتوقيف عليه؛ و ذِيَادَته عن مجاهلِ الضلالة بمـا أوضحه من برهانه، ونَوَّره من تِبْيَانه. وتَمْجِيـده من تعظيم آياته ، و باهرِ مُعْجِزاته؛ وحكيم صَنْعَتِـه، وبديع فِطْرَتِه . وتَنْزِيهِه عما لا يليق بسُلْطانه ، ولا تجوز إضافته إلىٰ عظيم شَانِه . وتَسْبِيحه

عما يَصفُه به المُلحِدون، ويَختلِقه الجاحدون، والصَّلاة على رسوله محمد صلّى الله عليه وسلم، والإفصاح عن دلائل نُبُوّته، وبَراهِين رسالته، وما خصَّه الله تعالى به من إعلاء ذكره وإمداده بالمعجزات الباهره، والآيات الظاهره .

ثم يُتْبِع ذلك بالدعاء إلى الدِّين والحَضِّ عليه . وإيضاح ما في التَّمسُّك به من الرَّشَاد في دَارَيِ المَبْدَإ والمَعَاد . والتَّبشيرِ بما وعد الله به المستجيبين له، والداخلين فيه؛ من تَمْحِيص السَّيِّئات، ومُضَاعَفة الحسنات، وعِزِّ الدنيا وفَوْزِ الآخرة . والإنذارِ بما أوعد الله به النَّاكِبِين عن سبيله، العَادِلين عن دَلِيله؛ من الإذْلَال في هذه الدار، والتَّخْليد بعد العَرْض عليه في النار؛ وتَصْرِيف المُخَالفين بين الرَّغْبة والرَّهْبة، في العاجل والمَغَبَّة .

قال : وينبغى أن يَتأنَّى الكاتبُ فيما يُورِدُه من هذه الأغراض، ليَقَعَ في المواقع اللَّائقة به، ويَجْلُوَ الحِجَجَ في أحسن المعاريض، ويُفْصِحَ عنها بأقرب الألفاظ من النفوس . فإنه إذا وُفِّقَ لذلك، ناب كِتَابُه مَنَابَ الجُيُوش والأجناد، وأقرَّ السيوفَ في الأغماد . ثم قال : ومن صَدَقَتْ في هذا الفَنِّ رغبَتُه، أيد الله تعالى غريزته، وعَضَّدَ بَدِيهته ورَوِيَّتَه .

قلت : وهذا الصِّنْف من المكاتبات السلطانية قد بَطَلَ في زماننا، فلم يُعْهَدْ أنَّ مَلِكًا من الملوك كَتَب إلى بلاد الكُفْر بالدِّعاية إلى الدين . إذ مثل ذلك إنما يصدر مع الغَلَبَة والقُوَّة والقَهْر . كما كان الخلفاء في الزمن المتقدّم، والكُفْر مقهور معهم، مذلول لديهم . أما الآنَ فلولا ما أخبر به صلّى الله عليه وسلم بقوله : «ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» وفي رواية «ونُصِرَتْ أُمَّتِي» لاَجْتَاحَ أهلُ الكُفْر الإسلامَ؛ ولكن الله وعد دينه أن لا يُخْذَلَ .

الصــــنف الثـالث

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ بالحثّ علىٰ الجهَاد)

قال فى " موادّ البيان " : كما أن الدّين يَنْتَظِم بالدعاء إليه والترغيب فيه ، كذلك يَنْتَظِم بصيَانة حَوْزَتِه ، وما دخل فى مملكته ، وكَفِّ أعدائه عن تَنَقُّص أطرافه ، والتَّغَلُّب علىٰ بلاده . ولهـذا فرض اللهُ تعالىٰ الجهادَ وأوجبه ، وأكَّدَ الأمرَ فيه وشدّده ، والسلطانُ يحتاجُ عند الحوادث التى تَحْدُثُ من تَطَرُّقِ المخالفين إلىٰ بعض الثُّغُور ، أو شَنِّ الغَارَةِ علىٰ أهْل الإسلام ، ان يَدْعُوَ إلىٰ الجِهَاد ومُقَارعَةِ الأعداء ، وصَوْنِ حريم الملة ، وحِفْظِ نظام الدوله .

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالىٰ علىٰ جَميل صُنْعِهِ : علىٰ إعزاز الكَلمة ، وإسْبَاغ النِّعْمة باظهار هذه الملة ، وما وعد الله به من نصر أوليائه ، وخِذْلانِ اعدائه ، وإدالة الموحدين ، وإذَالة المُلْحدين ، والصلاةِ علىٰ رسوله صلّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله ، وذِكْرِ طَرَفٍ من مواقفه فى الجهادِ ، ومُقَارعتِه لشِيَعِ الإلحاد ، وتأييد الله تعالىٰ أنصارَه علىٰ أهْلِ العِنَاد . ثم يذكر الحادثة بنَصِّها ، ويشرح القصة علىٰ فَصِّها ، ويَنْدُبُ من جاوره ودانَاه من أهل المِلَّة أجمعين ، ويخاطبُهم بما يُرْهِفُ عَزَائمَهم فى نُصْرة الدين وكَافَّةِ المسلمين ، واتِّبَاع سبيل السَّلَف الصالحين ، الذين خَصَّهم الله تعالىٰ بِصِدْقِ الضَّمائر ، ونَفَاذِ البَصَائر ، وصِحّة الدين ، ووَثَاقَةِ اليقين ، فلم يكونوا لِيَرُومُوا مَرَامًا إلا سَهَّل لهم ماتوعَّر ، ويَسَّرَ عليهم ما تعسَّر ، وسما بهم إلىٰ ماهو أقصىٰ منه مَرْمًى وأبعدُ مَدًى ، رغبةً فيما رغَّبَهم فيه من نُصْرته ، وتَعَرُّضًا لما عرَّضهم له من جزِيل مَثُوبَتِه ، وأن يَحُضَّهم علىٰ التمسك بعزائم الدين ، والعملِ علىٰ بصائر المخلصين ، وافتراض مافرضَ اللهُ عليهم من جِهَاد أعدائه ، وتنجيزِ ماوَعَدَهم به

من الإظفار بهم والإظهار عليهم ؛ وأن يجاهدوا مُسْتَنْصِرين ، ويُؤَدُّوا الحَقَّ مُحْتَسِبِين ، ويُقدِموا رسلًا لا ناكصين ولا شاكِّين ولامُرْتابِين ؛ مُتَّبِعين الحَقّ حَيْثُ يمم وقصد ، ومضار بين دونه من صدّ عنه وعنَد ؛ ويُبَالِغ في تَنْخِيَة أهل البسالة والنَّجْده ، والبَأْس والشِّدّه ؛ ويبعثهم على نَصْر حَقِّهم وطاعةِ خالقهم ؛ والفوز بِدَرْك الثواب والرِّضْوان ، وتَنَوُّر البصائر في الإيمـان ؛ وفضيلةِ الأَنَف من الضَّيْم ، والبُعْد من الذَّيْم ؛ إلى غير هذا ممـا يَعْدِل الأرواحَ والمُهَج ، والإقدامِ على مصارع التَّلَف . فإن الملوكَ الماضين ـ لعلمهم بأن الناس إنما يَجُودون بذلك للفوائد التي تُوجِبُه ـ كانوا يبذُلُون لمن يدعونه إلى المكافحه ، ويُعَرِّضُونَه للمذابحه ؛ الرغائبَ التي تُهَوِّن عليهم إلقاء نفوسهم في المهالك تارة ، ويُذَكِّرُونهم الأحقاد والضغائن ويخوّفونهم من الوقوع في المَذَلَّةِ أخرى .

ثم قال : وينبغي للكاتب أن يُقَدِّم في هذه الكُتُب مُقَدِّمات ، يرتبها على ترتيب يَهُزُّ الأَرْيَحِيَّات ، ويُشْحِذُ العزائم ؛ ليَجْمَعَ بين خِدْمة سلطانه والفوزِ بنصيب من الأجر .

قلت : وهذا الصِّنْف من المكاتبات السلطانيات مستمرّ الحكم إلى زماننا . فما زالت الملوكَ يَكْتُبون إلى ما يليهم بالحَثّ على الجِهَاد ، والقيامِ بأوامره ، والحضّ على مُلَاقاة العَدُوّ ، والأخذِ بنُصْرة الدين . وقد تقدّم في الكلام على مقدّمات المكاتبات في أوّل هذه المقالة : أن الشَّيخَ شهابَ الدين محمودًا الحلبي ذكر في "حُسْنِ التوسل" أنه إذا كُتِبَ عن الملك في أوقات حركات العدوّ إلى أهل الثغور ، يُعْلِمُهُم بالحركةِ للقاء عَدُوّهم ـ أنّه يبسُط القولَ في وَصْفِ العَزَائم ، وقُوّةِ الهِمَم ، وشِدَّة الحَمِيَّـةِ للدِّين ، وكثرةِ العساكر والجيوش ، وسُرْعَةِ الحركة ، وطَيِّ المراحل ، ومُعَاجلةِ العدوّ ، وتَخَيُّلِ أسبابِ النَّصْر ، والوُثُوقِ بعوائد الله في الظَّفَر ، وتقويةِ القلوب منهم ، وبسط آمالهم ، وحَثِّهم على التَّيَقُّظ ، وحَضِّهم على حِفظ ما بأيديهم من ذلك وما أشبهه . وأنه يُبرِزُ

ذلك فى أبْيَنِ كلام وأجَلِّه ، وأمْكَنِه وأقربِه من القوّة والبسالة ، وأبعـده من اللِّين والرِّقَّة ؛ ويبالغُ فى وصف الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ وٱستنزالِ نَصْرِه وتأييده ، والرجوعِ إليه فى تَثْبِيتِ الأقدام ، والاعتصامِ به فى الصَّبْر ، والاستعانة به علىٰ العَدُوّ ، والرَّغْبَة إليه فى خِذْلَانِهم ، وزَلْزَلَةِ أقدامهم ، وجَعْلِ الدائرة عليهم ؛ دون التصريح بسؤال بُطْلان حَرَكَتِهم ، ورَجَاءِ تأخيرهم ، وٱنْتِظَارِ العَرَضِيَّات فى تَخَلُّفهم ، لِمَا فى ذلك من إيهام الضَّعْفِ عن لِقَائِهم ، وٱستشعار الوَهْنِ والخَوْفِ منهم ؛ وأن زيادةَ البَسْطِ ونقصَها فى ذلك بحسب المكتوب إليه .

وهـذه نسخةُ مُكَاتبة من ذلك عن السلطان إلىٰ بعض نوّاب الثُّغُور ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبِيّ ، أوردها فى "حسن التوسل" وهى :

أصدرناها ومُنَادِى النَّصْر(١) قد أعلن بيا خَيْلَ الله ٱرْكَبِي ، ويا ملائكةَ الرحمن ٱصْحَبِي ، ويا وُفُودَ الظَّفَرِ والتأييد ٱقْرُبِي ؛ والعَزَائِمُ قد رَكَضَتْ علىٰ سوابق الرَّكْض إلىٰ العِـدا ، والهمم قد نَهَضَت إلىٰ عَدُوِّ الإسـلام فلو كان فى مَطْلَعِ الشمس لاَسْتَقْرَبَتْ ما بينها وبينه من المَدىٰ ؛ والسُّيُوفُ قد أَنِفَتْ من الغُمُودِ فكادت تَنْفِرُ من قُرُبِها ، والأسِنَّةُ قد ظَمِئَتْ إلىٰ موارد القلوب فتشوّفت إلىٰ الارتواء من قُلُبِها ؛ والكُمَاةُ قد زَأَرَتْ كاللُّيُوثِ إذا دَنَتْ فرائسُها ، والجيـادُ قد مَرِحَتْ لِمَا عَوَّدَتْها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسُها ؛ والجيوشُ قـد كَاثَرَتِ النجومَ أعْدَادُها ، وسار بهـا للهجوم علىٰ أعداء الله من الملائكة الكرام أمْدَادُهـا ؛ والنفوسُ قد أضْرَمَتِ الحَمِيَّةُ للدِّين نارَ غَضَبِهـا ، وعدَاها حَرُّ الإشـفاق علىٰ ثُغُور المسلمين عن بَرْدِ الثغور وطِيبِ شَنَبِها ؛ والنَّصْرُ قد أشْرَقَت فى الوجود دلائلُه ، والتأييـدُ قد ظهرت علىٰ الوجوه مَخَايِلُه ؛ وحُسْنُ اليقين بالله فى إعزاز دينه قد أنْبَأَتْ بحسْن المآل أَوَائِلُه ؛ والألْسُنُ باستنزال

(١) فى حسن التوسل (ص ٩٤) "النفير" .

نَصْرِ الله لَهِجَه ، والأرجاءُ بأرواح القَبُول أَرِجَه ، والقُلُوب بعوائد لُطْفِ الله بهذه الأمة مبتهجه ، والحُمَاةُ وما منهم إلا من آستظهر بإمكان قُوّتِه وقُوّة إمكانه ، والأبطالُ وليس فيهم من يسأل عن عَدَدِ عَدُوِّه بل عن مَكَانِه ، والنِّيَّاتُ علىٰ طَلَب عدوّ الله حيث كان مُجْتَمِعه ، والخواطرُ مطمئنةٌ بكونها مع الله بصدقها و «مَنْ كان مَعَ الله كَانَ الله مَعَه» ، وما بَقِيَ إلا طَيُّ المراحل ، والنزولُ علىٰ أطراف الثُّغُور نزولَ الغَيْث علىٰ البَلَد الماحِل ، والإحاطةُ بعَدُوّ الله من كل جانب ، وإنزالُ نفوسهم علىٰ [حُكْمِ] الأمرين [الآخرين](١) : من عذابٍ وَاصِب وهَمٍّ نَاصِب ، وإحالةُ وجودهم إلىٰ العَدَم ، وإجالة السُّيوف التى إن أنكرتها أعناقُهم فما بالعَهْد من قِدَم ، وآصطلامُهم علىٰ ما بأيدى العِصَابَة المؤيَّدَة بنصر الله فى حربها ، وآبتلاؤهم من حَمَلَاتها برِيحِ عَادٍ التى تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بأمْرِ رَبِّها ، فلْيَكُنْ مُتَرَقِّباً طلوعَ طلائعها عليه ، مُتَيَقِّناً من كَرَم الله آستئصالَ عدوّه الذى إن فرّ أدْرَكَتْه من ورائه وإن ثبت أَخَذَتْه من بين يديه ، ولْيَجْتَهِدْ فى حِفْظ ماقِبَلَه من الأطراف وضَمِّها ، وجَمْعِ سَوَائم الرعايا من الأماكن المَخُوفَة ولَمِّها ، وإصلاحِ مايُحْتَاجُ إلىٰ إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرِّفة ورَمِّها ، فإن الآحتياط علىٰ كل حال من آكَدِ المصالح الإسلامية وأهمها ، فكأنَّه بالعَدُوّ وقد زال طَمَعُه ، وزاد ظَلْعُه ، وذَمَّ عُقْبىٰ مسيره ، وتَحَقَّقَ سُوءَ مُنْقَلَبِه ومصيره ، وتبرأ منه الشيطانُ الذى دَلَّاهُ بغُرُورِه ، وأصبح لحمُه مُوَزَّعاً بين ذِئَاب الفَلَا وضِبَاعِها وبين عِقْبَانِ الجَوِّ ونُسُورِه ، ثِقَةً من وعد الله وتَمَسُّكاً منه باليقين ، وتحققا أن الله يَنْصُرُ من يَنْصُرُه والعاقبةُ للمتقين .

* * *

وهذه نسخة مَرْسُوم كريم فى المعنىٰ ، بل هو أصرحُ فى ذلك ممَّا قبله ، كُتِبَ به عند ظهور الفرنْجِ اللوسارية والشوانِى بالبحر : من إنشاء الشيخ بدر الدين حبيب

(١) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ٩٤) .

الحَلَبِيّ؛ وهو وإن لم يكن عن السـلطان فإنه فى معناه، لقيام النائب بالمملكة قيـامَ السلطان الذى آستنابه ، وهو :

المرسوم بالأمر العالى أعلاه الله تعالىٰ، لازالت مراسمُه النافذة تُبَلِّـغُ أهلَ العِصَابة المُحَمَّدية غَايَةَ الآمال ، وأوامرُه المُطَاعَةُ تَقْضِى بكسر اللُّوسَارِيَّة وشَيْنِ الشوال، أن تتقدّم العساكرُ المنصورةُ بالمملكة الطَّرَابُلُسِيَّة أيد الله تعالىٰ عزائمهم القاهره، وأَذَلَّ بسيوفهم الطائِفَةَ الكافره ، بارتداء ملابس الجهاد، والتَّحَلِّى بمرارة الصَّبْرعلىٰ آجتلاء الجِلَاد،وأن يجيبوا داعِيَ الدِّين، ويَكُفُّوا أيدى المُعْتَدِين، ويُفَوِّقُوا سِهَامَهُم، ويجعلوا التَّقْوىٰ أمَامَهم، ويُشْرِعُوا رماحَهُم، ويَحْمِلُوا سلاحَهُم، ويُومِضُوا بروقَ السيوف، ويرسلوا نِبَالَ الحُتُوف، ويَهْدِمُوا بُنْيَانَ الكُفَّار، ويُطْلِعُوا أَهِلَّةَ القِسِيِّ بمَدِّ الأوتار، ويَهْضِمُوا جانبَ أهلِ العِنَاد، ويقابلوا البحْرَ بملْءِ بَحْرٍ من الجِياد، ويناظروا أمْوَاجَه بأمواج النِّصَال، ويقاتلوا الفِرْقَةَ الفَرَنْجِيَّةَ أشدّ القتال، ولايهملوهم بالنهار ولا بالليل، ويُعِدُّوا لهم ما آسْـتَطَاعُوا من قُوَّةٍ ومن رِبَاطِ الخَيْل، ويُنَوِّرُوا بمصابيح الرِّبَاطِ فى سبيل الله ظَـلَامَ الدُّجُنَّة، وأن يُصَابِرُوا ويَصْـبِرُوا ، فإذا استُنْفِرُوا فَلْيَنْفِرُوا، ويبـالغوا فى الغُـدُوِّ والرَّوَاح لِيُبَلِّغُوا الرَّعِيَّـةَ من الأمْنِ أمانيها . فقد قال صلّى الله عليه وسلم : «لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدنيا ومَا فِيهَا» . ويعتمدوا علىٰ القريب المجيب، ويجتهدوا فى كَسْرِ أصْلَابِ أهل الصَّلِيب، ويتنافسوا فى أمر الآخرة ويَدَعُوا الدنيـا ، ويقاتلوا لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هى العُلْيَا ، ويَشْهَدُوا المَوَاقِفَ، ويَبْذُلوا التَّـالِدَ والطَّارِف ، ولْيَبْرُز الفارسُ والراجل، ويظهر الرَّامحُ والنَّابِل ، فإنَ الجِهَاد ، سَـطْوة الله تعـالىٰ علىٰ ذَوِى الفَسَاد ، ونقْمَتُه القـائمة علىٰ أهْلِ الشِّرْكِ والعِنَاد ، وهو من الفُرُوض الواجبه ، التى لم تَزَلْ سِهَام أصحابه صَائِبَه ، فواظِبُوا علىٰ فعله ،

ولاتذهبوا عن مذاهبه وسُبُله ؛ وٱطلبوا أعداءَ الله بَرًّا و بحْرا ، وقَسِّمُوا بينهم الفَتَكاتِ قَتْلًا وأسْرا ؛ وفاجئوهم بمكروه الحَرْب ، ونَاجُوهُم برسائل الطَّعْنِ والضَّرْب ؛ وخُذُوا من الكُفَّار باليَمين ، وجِدُّوا فى تحصيل الرِّبْح الثَّمين ؛ ولازِمُوا النزولَ بساحل البحر لمنازلة الطُّغاةِ والمشركين ﴿ يأَيُّها الَّذينَ آمنُوا قَاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ ولْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وٱعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾ وسابقوا الأَعِنَّه ، وهُزُّوا أعْطَافَ الأسِنَّه ؛ وشَمِّرُوا عن سَاقِ العزائم ، ولا تَأْخُذْكُمْ فى الله لَوْمَةُ لائم ؛ وٱتَّخِذُوا الخيامَ مَسَاكِن ، وٱجعلوا ظُهورَ الخَيْـل لكم مَوَاطِن ؛ وٱنْصِـبوا الألْوِيَةَ والأعلام ، وأطْفِئُوا جَمْرَة الشِّرْذِمةِ الغـائِظَة للإسلام ؛ ولا تَخْشَوْا من جمعهـم الآئِلِ إلىٰ التَّفْرِيق ، وحَشْدِهم الذى هو عَمَّا قَلِيلٍ إن شاء الله تعـالىٰ غرِيق ؛ ولاتَعْبَـئُوا بسُـفُنِهم البَحْرِية ، فإن سـفنكم الخيـلُ المخلوقة من الرِّياح ؛ ولا تنظروا إلىٰ مَجَادِيفِهم الخَشَبِيَّة ، فإن مجاديفكم السـيوفُ والرماح ؛ فٱقلَعُوا قُلُوعَهم ، وشَتِّتُوا جُمُوعَهم ؛ وأذْهِبُوا الحَنَف والحَيْف ، وخاطبوهم بألسِـنَةِ السَّيْف ؛ وأوْقِدُوا فى قُلُوبِهم بالتَّحْصِـين والاحتراز نارا ، وٱدعوا الله أن لايَذَرَ علىٰ الأرض من الكافرين دَيَّارَا ؛ ونَكِّسُوا صليبَهم المنصوب ، وبادروا إلىٰ حرب حِزْبِهم المغلوب ؛ وٱرفعوا باليقين شَكَّ هذه المِحْنَه ، وقاتلوهم حتّٰى لا تَكُونَ فِتْنَه ؛ وٱهجروا فى ذات الله طِيبَ المنام ، وٱنقُلُوا الأقدام إلىٰ الاقدام ؛ وٱكشِفُوا عنكم أستارَ المَلَالِ والمَلَام ، وٱهتموا بما يُعْلِى كلمةَ الإسلام والسلام ؛ فَلَيَرفَعَنَّكُم الله إلىٰ منازل العِزِّ والتميز ، ﴿ ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

الصِّـــنْفُ الرابع

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فى الحَثِّ علىٰ لزوم الطاعة وذَمِّ الخِلَاف)

قال فى "موادّ البيان" : طاعةُ السـلطان والاْنقيادُ إليـه ، والرجوعُ إلىٰ رأْيه والاْعتمادُ عليه ، أبْدىٰ الأسباب ، فى آستمرارِ الاْتِّساقِ والاْستِتْبَاب ؛ وهى فرضٌ أوجبه الله تعـالىٰ . فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ولا تصح مملكةٌ ولاتدوم دَوْلَةٌ إلا بأمرين : أحدهما عدلُ السلطان ، والآخر طاعة الرَّعِيَّةِ له ؛ فمتىٰ آرتفع أحدهما ، فَسَدَ السَّائس والمَسُوسُ . ولم تزل ملوك الأزمنة يقـدّمون إلىٰ الرعايا لُزُومَ الطاعه ، والاْعتصامَ بحَبْلِ الشريعـة والنَّهْىَ عن مفارقة الجماعه .

قال : والرسم فيهـا أن تفتتح بالحمد لله علىٰ النِّعَم فى تأليف قلوب أهـل الدِّين ، وجَمْعِ كلمة المُوَحِّدين ، و رِعَايَةِ أهوائهم إلىٰ الاْتِّفاق ، وصِيَانة عَصَاهم عن الاْنشقاق ؛ والصلاةِ علىٰ رسولِه صلّى الله عليه وسلم ، والتنبيهِ علىٰ فضائل الطاعة ، فإنهـا العُرْوَةُ الوُثْقىٰ ، والمَعْقِلُ الذى لا يُرْقىٰ ، والحِصْن الحصين ، والكَنَف الأمين ، والحِمىٰ الأَمنع ، والمَرْقَب الأرفع ؛ وأنَّ مَنْ حافَظَ عليها فاز وسَلِمَ ، ورَبِحَ وغَنِم ، ومَنْ فارَقَها خَسِرَ وخَاب ، ونَكَبَ عن سبيل الصَّواب ؛ وإيضاحِ مافى سبيل الطاعة من آتِّفَاق الكلمه ، وآنتظامِ شَمْلِ الأمه ، وشُمُولِ الخيرات ، وعمومِ البركات ، وعِمَـارةِ البلاد ، وصَلَاحِ العباد ؛ وما فى المُشَاقَقَة من الفساد العـام ، العائد بآنْتِثَارِ النِّظَام ، وآنْبِتَاتِ الحَبْل ، وتَفَرُّق الشَّمْل ، وآجْتِثَاث الأصْل ، وطُمُوس الديار ، وصِيَال الأشرار ، وآنْقِمَاع الأخيار ، وتوالى الفِتَنِ التى لاتُصِيبُ الظالمَ خاصَّةً دون العادل ، ولا المُشَاقِقَ دون الموافق ؛ وحلولِ النَّوائب المُزِيلَةِ للنعم ، وإتباعِ ذلك بمـا يجب من إعذار وإنذار ، وترهيب وترغيب ، وتذكير وتبصير ، ووَعْظٍ وتخويف ؛ وبَعْث العُلَمَـاءِ

الحُصَفَاء، على رَدْعِ الجُهلاء السُّخَفَاء، وتنبيهِ أهلِ السلامة والصلاح، على كَفِّ ذوى العيْثِ والطَّلَاح، إلى نحو هـذا ممـا يجاريه. وأن يبالغ فيما يُورِدُه من هـذه المعانى، فإن هـذه الكتبَ إذا كانت بليغة مُسْتَوْفاة جيِّـدة العبارة، أخذت بمجامع القلوب، وأغنَتْ عن الكَتَائِبِ فى إدراك المطلوب.

***

وهذه [مكاتبات] فى معنىٰ ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد فى تَرَسُّلِه، وهى:

أما بعد، فإن الله ٱفترض الطاعة وأوجبها، وأمر بها ورَغَّب فيها، وجعلها عِصْمَةً من كل فِتْنَه، وضياء من كل شُبْهَه، وسَلَامة من كل هَلَكَه، وسببا للظَّفر بخير الدنيا والآخره، من أراد الله به خيرا وفَّقه لهـا، وألزمه المحافظةَ عليها والٱعتصامَ بحَبْلها، فتَعَجَّل عزَّها وشرفَها، وسَعَتَها وأمْنَها، وٱستحق السعادة فى الدار الآخرة بهـا، والمَثُوبَةَ عليها.

آخـــر: وقد علمتم ما جعل الله فى الطاعة ولزومِها، والمحافظةِ عليها: من العز والمَنَعَةِ والأَيْد والقُوَّةِ والفَوْزِ بخير الدنيـا والآخرة [وما] فى خلافها من صُنُوف المَخَاوِف، وأنواع المَتَالِف.

آخـــر: وقد كانت الطاعة أنَافَتْ بك علىٰ كُلِّ ظَلِيـل، وأَفْضَتْ بك إلىٰ لِينِ مِهَادٍ عند إقْضَاضِ المضاجع، وصفاء المشارب عنـد تكَدُّر المناهل، وٱتصال أَمَنَةٍ عند حدوث المخاوف، حتّى فعلت كذا وكذا.

آخـــر: فلم يَمْرُق من طاعتـه مَارِق، ولا فارقها مُفَارِق، إلا صَرَعَ الله خَدَّه، وأتعَسَ جَدَّه، وخَضَد شَوْكَته، وأكذب ظَنَّه وأُمْنِيَّتَه، وجعله لسيوف الله غَرَضا، ولأوليائه غنيمة.

آخـــر : والطـاعة هى العُرْوَةُ الوُثْقىٰ ، والطريقـة المُثْـلىٰ ، والغنيمة لاهلها فى الأُخْرىٰ والأولىٰ .

«عبد الحميد» : ـ فان الفِتْنة تتشوّف لأهلها بآنَقِ مَنْظَرٍ ، وأزْيَنِ مَلْبَسٍ ؛ تَجُرُّ لهم أذْيالَها ، وتَعِدُهم تتابع لَذّاتها ، حتّى تَرْمِىَ بهم فى حَوْماتِ أمواجها ؛ مُسَلِّمَةً لهم : تَعِدُهم الكَذِبَ وتُمَنِّيهم الخُـدَع ؛ فاذا لَزِمَهم عِضَاضُها ، ونَفَر بهم شِمَـاسُها ؛ تَخَلَّتْ عنهم خاذلةً لهم ، وتبرأت منهم مُعْرِضَة ؛ قد سُلِبوا أجمل لِبَاسِ دِينِهم ، وٱسْتُنْزِلوا عن أحْصَنِ معاقل دُنْياهم : من الغَنَاءِ البَهِىِّ مَنْظَرُه ، الجميـل أَثَرُه ؛ حتّى تَطْرَحهم فى فضائح أعمالهم ، والإيجاف فى التّعب ، وسوء المُنْقَلَب ؛ فمن آثر دينَه علىٰ دنياه تمسك بطاعة وُلَاته ، وتَحَرَّز بالدخول فى الجماعة ، تارِكًا لأثقل الأمرين ، وأوْبَلِ الحالَين .

« ابن عبد كان» فى ذَمِّ الخلاف : ـ وإن فلانا كان عبدا من عبيدنا ، ٱعْتَوَرَه إنعامنا ، ونوّه به إكرامنا ، وشرّفه وَلَاؤنا ، وحسن عنده بَلَاؤنا ؛ وٱبتنينا له الأموال ، وأسنينا له الأعمال ، وأوْطَأْنا عَقِبَه الرجال ؛ فلم تقع النِّعَمُ منه عند شاكر ، ولا الصنيعة عنـد مُحْتَمِل ؛ فلما رفع الله بمكاننا خَسِيسَتَه ، وبلَّغه من شَرَف الذِّكر ونباهة القَدْر وٱنبساط يَده ما كانت هِمَّتُه تَعْجِزُ عنه ، وآماله تَقْصُر دونه ؛ أضْراه ذلك وأبْطَرَه ، وأطْغَاه وأكْفَره ؛ فٱخْتَال زاهِيًا ، وٱستكبر عَالِيًـا ، وغَدَر باغيا ، وشَاقَّ عَاصِيًا ؛ وأوضع فى الفِتْنَةِ لنا حَرْبا ، ولأعدائنا حِزْبا ؛ ولمن ٱنْحَرَفَ عنا يدًا ، ولمن مال إلينا ضِـدًّا ؛ من غير سَبَبٍ أوجبه ، ولا أمر دعاه إليه ؛ فكان كما قال الله عَزَّ وجلَّ فى كتابه : ﴿كَلَّا إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ وكقوله : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ﴾ فلما ورده الخبر بمـا هَيَّأَ الله لنا من الرجوع إلىٰ الفُسْطَاط علىٰ الحال السارّة لأوليائنا ، الغائظة لأعدائنا ، سُقِطَ فى يده ، وفكَّر فى غليظ جُرْمِه

وخيانته ؛ فأدّاه الخوفُ الذى ٱستشعره ، والإشْفاقُ الذى خَامَرَه ؛ إلىٰ أن رَكِبَ عظيما من الأمور، وكاشف بالعَصَبِيَّة والغُرور، مُكاتفًا أعداء (١) ، ومواليا ذوى العداوة والشَّنَارَه، ونرجو بحَوْل الله وقُوَّته، وإرَادَته ومشيئته، وما لم يَزَلِ اللهُ ـ تقدّس ٱسمه ـ يُجْرِيه عندنا من جميل عاداته فِيمَنْ سَفِهَ الحق، وزَاغَ عن القَصْد، أن يُبْسِلَ هذا الخائنَ بخَبائِثِ أعماله، ويُسْلِمَه لقبائح أفعاله، وأن يَصْرَعه بأسوإ مصارع أمثاله ؛ فإنَّ أحدًا لم يَحْمَد النعمه، إلا ٱستدعىٰ النِّقْمَه، ولم يُدِع الشكر، ويستعمل الكفر، إلا كانت العَثْرَة منه قريبه، والبلايا محيطه؛ قولا لا يُبَدَّل رسمه ولا يُحَوَّل .

من كتاب موسىٰ بن عيسىٰ .

أما بعـد، فإن ٱمرأ لو خَلَص من فَلَتَاتِ الخطإ وخُطُوَاتِ الملإ (٢) ، بفضيلة رأيٍ ولطافة بَصَر بالأمور، كُنْتَ أَحْجىٰ بذٰلك دون أهل زمانك، للذى جَرَتْ لك عليه تصاريف التبـع ، وتعرَّضَتْ لك به وجوهُ العِبَر ؛ ولِمَا ٱستقبلتَ من موارد أمور نفسك ، وتَعَقَّبْتَ من مصادر أمور غيرك ؛ ولٰكنَّ الله إذا أراد أمرا جعل له من قضائه سببا ، ومن مقاديره عِلَلا ؛ فمن مقادير عِلَل البلاء تضييع المعرفه ، وإلغاء ما تُفيـدُه التَّجْرِبَه ؛ ومن أسباب السَّلامة الأنْتِبَاهُ بالعِبَر، والأسـتدلال بمـا كان علىٰ ما يكون . وأنت ٱمرؤ جَرَتْ لك وعليك أنحاء من النعم ، وأنحـاء من الحِجَج ، عرفْتَ بها مالك وعليك : فان تأخُذْ بها، عرفتَ كيف تَسْلُكُ مسالكه ، وإن تَدَع الأخذ بذلك، تَدَعْه علىٰ عِلْم . وقد رأيتَ الذى ٱنقادتْ لك به النِّعْمَة، ووهبت لك به العافية؛ فيما ألهمك الله من طاعة وُلَاة أمورك، والصبرِ لها علىٰ مواطن الحَقِّ التى رَفَع الله بهـا ذِكْرَك ، وأحسن عليهـا عُقْباك وذُخْرَك ؛ فلم تَمْضِ بك فى طاعتهـم رُتْبَه ، إلا قرَّبَكَ الله بها فى الخير عَقَبَه ، ولا تَبْذل من نفسك نُصْحًا ، إلا أوجب

(١) بياض فى الأصل ولعله الامارة .
(٢) الملأ هنا معناه الظن والطمع .

لك به نُجحا ؛ ولم تَفْتأْ تُواتِرُ ذلك : من مناصحتك وحُسْنِ طاعتك ، حَتّٰى طُلْتَ بها علىٰ من طاولك ، وفَضَلت بها من فاضلك ؛ وجريت ممدودا عِنانُكَ إلىٰ قُصْوىٰ غايات أملك ، فأصبَحْتَ قَريعَ المسلمين ، بعد خليفة الله أمير المؤمنين ، وخِيرَتَه من خَلْقِه ، بعد ذَوِى الفَضْل من أهل بيتـه ؛ حتّٰى مَالَكَ من رِجَالاتِ العرب نظير فى مَنْزِلَةٍ ، ولا نَدِيدٌ فى حال ولا رُتْبة ؛ بل هم فيك رجلان : إما رَاهِبٌ منك ، وإما راغب فيك .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمرّ الكتابة إلىٰ زماننا . فما زالت الملوك يكتبون إلىٰ من يَتَخَيَّلُونَ منه خَلْعَ الطاعة من النوّاب ومن فى معناهم ، ويَحُثُّونَهم علىٰ لزوم الطاعة ، ويُحَذِّرُونهم المخالفةَ والخروجَ عن الجماعة .

***

ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهـاب الدين محمود الحَلَبى إلىٰ متملك سِيسَ عند كَسْرَةِ التتار ، بعد قيامه معهم فى المَصَافِّ ، ومساعَدَتِه إياهم ، وهو :

بَصَّرَه الله بُرُشْـدِه ، وأراه مواقع غَيِّه فى الإصرار علىٰ مخـالفته ونَقْض عهده ، وأَسْلاَهُ بسلامة نفسه عمن رَوَّعَتْه السيوفُ الإسلامية بفَقْدِه .

صـدرت تُعَرِّفُه أنه قد تُحُقِّقَ ما كان من أمر العَدُوّ الذى دَلَّاه بغُرُورِه ، وحمَلَه التمسك بِخِدَاعِه علىٰ مجانبة الصواب فى أموره ؛ وأنهم آستنجدوا بكل طائفه ، وأقدموا علىٰ البلاد الإسلامية بنفوسٍ طامعة وقلوب خائفه ؛ وذلك بعد أن أقاموا مدّة يَشْتَرُون المخادعة بالموادعة ، ويُسِرُّون المُصَارَمة فى المسالمه ؛ ويُظْهِرون فى الظاهر امورا ، [ويُدَبِّرون فى الباطن أمورا](١) ويَعِدُونَ كُلَّ طائفة من أعداء الدين ويُمَنُّونَهم وما يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلَّا غُرُورًا ؛ وكُنَّا بمكْرِهم عالمين ، وعلىٰ معاجلتهم عاملين ؛ وحين

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩٧) .

تَبَيَّن مرادُهم، وتَكَمَّل احتشادُهم، استدرجناهم إلى مصارعهم، واستجررناهم ليَقْرُبوا في القتل من مضاجعهم، ويبعدوا في الهرب عن مواضعهم؛ وصدمناهم بقوّة الله صَدْمة لم يكن لهم بها قِبَل، وحملنا عليهم حَمْلةً ألجأهم طُوفانُها إلى ذلك الجبل: وهل يَعْصِمُ من أمر الله جَبَل؟ فحصرناهم في ذلك الفضاء المتّسع، وضايقناهم كما قد رُؤِى ومزّقناهم كما قد سمع؛ وأنزلناهم على حُكْم السَّيف الذى نَهِل من دمائهم حتّى رَوِى وأَكَل من لُحُومهم حتّى شَبِع؛ وتَبِعتْهم جيوشنا المنصورة تَتَخطّفهم رِماحُها، وتتلقّفهم صِفَاحُها، ويُبدّدهم في الفَلَوات رُعْبها، ويُفرّقهم في القفار طَعْنُها المُتَدارِكُ وضَرْبها؛ ويَقْتُل مَنْ فات السيوفَ منهم العَطَشُ والجوع، ويُخَيَّل للحىِّ منهم أنَّ موضعه كالدنيا التى ليس للميِّت إليها رجوع؛ ولعله قد رأى من ذلك فوق ماوصف عِيَانا، وتحقّق من كُلِّ ما جرى مالا يحتاج أن نَزيده به عِلْمًا ولا نُقيم عليه بُرْهانا.

وقد عَلِمَ أن أمر هذا العدوّ المخذول ما زال معنا على هذه الوتيره، وأنهم ما أَقْدَمُوا إلا ونَصَرنا الله عليهم في مَوَاطِنَ كثيره؛ وماساقتهم الأَطْماعُ في وقت مّا إلا إلى حُتُوفِهم، ولا عَادَمِنْهُم قَطُّ في وقعة إلا آحادٌ تُخْبِر عن مصارع ألوفهم؛ ولقد أضاعَ الحَزْمَ من حَيْثُ لم يَسْتَدِمْ نعمة الله عليه [بطاعتنا][1] التى كان في مِهَادِ أَمْنِها، ووِهَادِ يُمْنِها؛ وحِمَايةِ عَفْوِها، وبَرْدِ رأفتها التى كدّرها بالمخالفة بعد صَفْوِها؛ يَصُونُ رَعَاياه بالطاعة عن القتل والإسَار، ويَحْمى أهلَ مِلّته [بالحَذَر عن الحركات][1] التى ما نَهَضُوا إليها إلا وجَرُّوا ذُيُول الخَسَار؛ ولقد عَرَّض نفسَه وأصحابَه لسيوفنا التى كان من سَطَوَاتها في أمان، ووَثِق بما ضَمِن له التّتَار من نَصْره وقد رأى ماآل إليه [أمر] ذلك الضمان؛ وجَرّ لنفسه بموالاة التَّتار عَنَاءً كان عنه في غِنىً، وأوقع رُوحه بمظافرة المُغْل في حَوْمَة السيوف التى تَخَطَّفَتْ

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ٩٨).

أولياءه من هنا ومن هنا، وآقتحم بنفسه مَوَارِدَ هَلَاكٍ سلبَتْ رداءَ الأمْنِ عن مَنْكِبَيْه، وآغْتَرَّ هو وقومه بما زَيَّنَ لهم الشيطانُ من غروره ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وما هو والوقوفَ فى هذه المَوَاطِنِ التى تَتَزَلْزَلُ فيها أقدام الملوك الأكاسره؟ وأنّى لِضِعَافِ النُّقَّادِ قُدْرَةٌ علىٰ الثبات لِوَثَبَاتِ الأسود الضّارِيَة واللُّيُوث الكاسره؟ لقد آعترض بين السَّهْم والهَدَفِ بنَحْرِه، وتعرَّض للوقوف بين نَاب الأسدِ وظُفْره؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعىٰ له حقوقَ طاعة أَسْلَافِه التى ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التى بذلوا نفوسهم ونفائسهم فى التَّوَصُّل إليها؛ ونُجْرِيه وأهْلَ بلاده مُجْرىٰ أهل ذمتنا الذين لانُؤْيِسُهم من عَفْوِنا ما آستقاموا، ونَسْلُكُ فيهم حُكْمَ مَنْ فى أطراف البلاد من رعايانا الذين هم فى قبضتنا: نَزَحُوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقق أنه ما بقى ينسىٰ ملازمةَ رِبْقَةِ الحَتْفِ خُنَاقَه، ولا يرجع يُورِد نفسَه فى موارد الهلاك وهل يَرْجِعُ إلىٰ الموت مَنْ ذَاقَه؟ فَيَسْتَدرك باب الإنابة قبل أن يُغْلَقَ دونه، ويصون نفسه وأهله قبل أن تَبْتَذِلَ السيوفُ الإسلاميةُ مَصُونَه؛ ويبادر إلىٰ الطاعة قبل أن يَبْذُلَها فلا تُقْبَل، ويتمسَّك بأذيال العَفْوِ قبل أن تُرْفَعَ دونَه فلا تُسْبَل؛ ويُعَجِّل بحَمْلِ أموال القطيعة وإلا كان أهله وأولاده فى جملة مايحمل منها إلينا، ويُسَلِّم مفَاتِحَ ما عَدَا عليه من فتوحنا وإلا فهو يعلم أنها وجَمِيعَ ما تَأَخَّر من بلاده بين يدينا؛ ويكون هو السببَ فى تَمَزُّقِ شَمْلِه، وتفَرُّقِ أهله، وقَلْعِ بَيْتِهِ من أصله؛ وهَدْمِ كنائسه، وآبتذال نفسه ونفائسه، وآسترقاق حُرَمِه، وآستخدام أولاده قبل خَدَمِه؛ وآستقلاع قِلَاعِه، وإحراق رُبُوعِه ورِبَاعِه، وتعجيلِ رؤية ما وُعِدَ به قبل سماعه. ومَنْ لغازان أن يُجَابَ إلىٰ مثل ذلك، أو يُسْمَحَ له مع الأمْنِ من سيوفنا ببعض مافى يده من المَمَالك، لينتفع بما أبْقَتْ جيوشنا المؤيدة فى يده من الخَيْلِ والخَوَل، ويعيش

فى الأمْنِ ببعض ما نسمح له به ومَنْ للعُورِ بالحَوَل ؛ والسيوف الآن مُصْغية إلىٰ جوابه لتَكُفَّ إن أبصر سبيل الرشاد، أو تَتَعوَّض برءوس حُماته وكُماته عن الإغماد إن أصَرَّ علىٰ العِناد، والخير يكون إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الخامس

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ إلىٰ مَنْ نَكَثَ العهدَ من المخالِفين)

قال فى "موادّ البيان" : إذا نقض مُعَاهَدٌ عهده ، أو نَفَضَ من شروط الهُدْنَةِ يَدَه ؛ فالرسم أن يصدِّر ما يكاتَبُ به بالحمد لله تعالىٰ علىٰ مَوْهِبته فى إظهار الدين، وإعزاز المسلمين ؛ وما تكفَّلَه من النصر علىٰ الباغين ، ووعد به أهلَ العدل من الإدالة والتَّمْكين؛ والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد النبىّ صلّى الله عليه وعلىٰ آله أجمعين؛ وإيرادِ طَرَف من معجزاته وفضائله ، وآياته ومناقبه ؛ التى تنخرط فى هذا النظام ، وتليق بهذا النَّمَط من الكلام؛ ثم يُتْبِع ذلك بمقدّمة تدلُّ علىٰ متانة البصائر فى الدين ، وَوَثاقَةِ العقائد فى إذالة المُحَادِّين ؛ ومَضاءِ العزائم فى مجاهدة المُعْتَدِين ، والآستطالةِ علىٰ المعاندين ؛ مع ما تَضَمَّنه الله تعالىٰ من نَصْره وإظْفَاره ، ووَعَدَ به من تأييده وإقراره ؛ وسَهَّلَه من إهواء الأَهْوِيَة إليه ، وجَمْع الكلمة عليه ؛ بما خوّله من بَأْسٍ وشِدَّه ، وعديد وعُدّة . وما يليق بذلك مما يُعْرِب به عن عُلُو السلطان ، ووُفُور الإخوان ؛ وآتّساع القُوَّة والأيْد ، وصدقِ العَزْم والجِدّ . ثم يذكر الحال التى آنعقدت الهُدْنَةُ عليها ، وأن الإجابة إليها لم تقع قصورا عن غَزْوِهم فى عُقْر دارهم ، وتَشْرِيدِهم بالغارات المبثوثة بَرًّا وبحرا عن قرارهم ؛ وإنما قبُولًا لمساءَلتهم، وآمتثالًا لأمر الله تعالىٰ فى مُسَالمتهم . ويأخذ فى تعديد الوقائع التى أوقعها أهل الإسلام بهم؛ والمشاهد التى نصر الله تعالىٰ فيها عليهم، والمَعَاقل المُنْتَزَعَة من أيديهم؛

وأن تِلْكَ العزائم مُضْطَرِمة متوقده ، وتلك السيوف مُشْحَذَةٌ مُهَنَّده ؛ وأن الله تعالىٰ قد أباح حَرَمَ مَنْ نقض عهدَه ، ونَفَض من الذِّمام يَدَه ؛ وأن كتائب الله مُوجِفَةٌ وراء هذا الكتاب ، فى جيش يُلحق الخَبْتَ بالهِضَاب ؛ مالم يكن منهم مبادرة إلىٰ الإقلاع والإنابه ، ومكاتبةٌ فى الصَّفح والآستتابه ؛ وأنه قد قَدَّم الأعذار ، وبدأ قبل الإقدام بالإنذار ؛ وما يقتضيه الحال من هذا ومثله .

قال : فإن كان الكتاب جوابا عن كتاب وَرَدَ ، أجيب بما ينقضه ، وبُنِي الأمرُ فيــه علىٰ مايبسط الهَيْبَة ، ويدعو إلىٰ النزول علىٰ أحكام الطاعة . ويختلف الحــال فى ذلك بآختلاف الأمور الحادثة ، والأسباب العارضة ؛ فينبغى للكاتب أن يَحْتَاطَ فيما يطلق به قَلَمَه من هذه المعانى الخطيرة : لأنهــا مزاحمة بالدُّوَل والملك ، وحُجَجٌ تحصُلُ من كل دولة عند الآخرين ؛ ودَرَكُ ما يقع فيها عائدٌ عليه ، ومنسوب إليه .

⁂

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن الحافظ لدين الله الخليفة الفَاطِمىّ بالديار المصرية ، إلىٰ بَهْرَام النَّصرانِىّ الأَرْمَنِىّ الذى كان آستوزره ، ثم خرج عليه رِضْوَان بن ولخشى ، آرتغاما للديــن ، لتحَكُّم نَصْرانِىّ فى أهل الملة ، وَوَلِىَ الوزارةَ مكانه ؛ فَفَرَّ هاربًا إلىٰ الشام ناقضا للعهد ، وكتب إلىٰ الحافظ يطلبُ أهلَه وجماعتَه من الأَرْمَنِ الذين كانوا معه فى جملة جُنْدِ الديار المصرية ، مظهرًا للطاعة والرغبة إلىٰ التَّخَلِّى عن الدنيا ، والآنقطاع فى بعض الدِّيَرَةِ للتَّعبُّد مَكْرًا وخديعة ؛ فكَتب له بذلك جوابا عن كتابه الوارد منه . ونَصُّ ما كتب إليه :

عُرِضَ بحَضْرة أمير المؤمنين الكتابُ الواردُ منك أيهــا الأمير، المقدَّم، المؤيد، المنصور ، عِزُّ الخلافة وشَمْسُها ، تاجُ المملكة ونِظَامُها ، فَخْرُ الأمراء ، شيخ الدَّوْلة

وعمادها، ذُو المَجْدَيْنِ، مصطفىٰ أمير المؤمنين . ووقف علىٰ جميعه، وٱستولىٰ بحكمه علىٰ مضمونه .

فأما ماوَسَّعْتَ القولَ فيه وبسطتَه، وتَفَسَّحْتَ فيما أوردتَه منه وذَكَرْتَه؛ ممَّا فحواه ومحصوله ما أنت عليه من الطاعه، والولاء والمشايعه؛ والأعْتِرافِ بنِعَم الدولة عليك، والإقرار بإحسانها إليك؛ فَلَعَمْرُ أمير المؤمنين إن هذا الذى يليق بك ويَحْسُن منك، ويَحْسُن أن يَرِدَ عنك، ويجب أن يعرف لك؛ وقد كانت الدولة أسْلَفَتْكَ من حُسْنِ الظَّنِّ قديما، ونقلتك فى درجة التَّنْوِيهِ حديثا؛ حتّٰى رفعتْك إلىٰ أعلىٰ المراتب، وبلَّغَتْك مالم تَسْمُ إليه هِمَّةُ طالب؛ وأوْطَأَتِ الرِّجالَ عَقِبَك، وجعلت جميع أهل الدولة تَبَعَك؛ ممَّا أغنىٰ ٱعترافُك به عن الإطالة بشرحه، والإطناب فى ذِكْرِه .

وأما ماذكرتَه مما كان أمير المؤمنين أعطاك التَّوْثِقَةَ عليه، فأجابك منه إلىٰ مارغبت فيه، فاستَقَرَّ بينه وبينك فى معناه ما ٱطمأننت إليه؛ فلم يزل أمير المؤمنين علىٰ الوفاء باطنا وظاهرا، ونية وعَلَانِيَة؛ وٱعتقادُه أن لا يَرْجِعَ عنه، ولا يُغَيِّرَ ما أحكمه منه؛ وإنما حال بينه وبين هذا المراد أن كَافَّةَ المسلمين فى البُعْد والقرب غَضِبُوا لِمِلَّتِهم، وٱمتَعَضُوا ممَّا لم تَجْرِ به عادةٌ فى شريعتهم؛ ونَفَرَتْ نفوسُهم ممَّا يعتقدون أن الصَّبْر عليه قَادِحٌ فى دينهم، ومضاعِف لآلامهم؛ وأنه ذَنْبٌ لا يُغْفَر، ووِزْر لا يُتَجاوَزُ ولا يُصْفح [عنه] حتّٰى إن أهلَ المَشْرِقِ أخذوا فى ذلك وأعْطَوْا، وعزموا علىٰ ما ٱتفقوا عليه ممَّا صرفه الله وكفىٰ مئونتَه والآشْتِغَالَ به .

وأما ما ٱلتمستَه من تَسْيِيرِ مَنْ بالباب من طائفتك إليك، فهذا أمرٌ لا يسوغُ ولا يمكن فعله، ولو جاز أن يُؤْمَرَ به لمنعَ المسلمون منه فلم يَفْسَحُوا فيه . والآن فلن

يَخْلُو حالُك من أحد قسمين : إما أن تكون مُتَعَلِّقا بأمور الدنيا وغيرَ منفصل عنها، فأمير المؤمنين يُخَيِّرك فى ولاية أحد ثلاثة مواضع : إما قُوص، أو إخْمِيم، أو أَسْيُوط؛ فأيّها آخترت ولَّاكَ إيَّاه، وردّ أمرَه والنظرَ فيه إليك؛ علىٰ أن تقتصر من الذين معك علىٰ خمسين أو ستين فارسا، وتُسَيِّرَ الباقينَ إلىٰ الباب ليُجْرَوْا علىٰ عاداتهم، ورسومهم فى واجباتهم وإقطاعاتهم؛ إذْ كانوا عبيدَ الدولة ومتقلبين فى فَضْلها، وأكثرهم متولِّدون فى ظِلِّها . وإما أن تكون علىٰ القضية التى ما زِلْتَ تَذْكر رغبتَك فيها وإيثارَك لها : من التَّخَلِّى عن الدنيا ولزومِ أحد الدِّيَرَةِ، والآنقطاعِ إلىٰ العبادة؛ فإن كنتَ مقيما علىٰ ذلك فتَخَيَّرْ ضَيْعَةً من أىّ الضِّياع شِئْتَ يكون فيها دَيْرٌ تقيم فيه وتنقطع إليه؛ فتُعَيِّن الضيعة ليجعلَها أمير المؤمنين تسويغا لك مُؤَبَّدا، وإقطاعا دائما مُخَلَّدا؛ وتَجْرى مجرىٰ المِلْك، ويُكْتب لك بذلك ماجرت العادة بمثله، مما تطمئن إليه وتستحكم ثِقَتُك به . وإن أَبَيْتَ القِسْمَيْنِ المذكورَيْنِ ولم يُرْضِكَ الأوّلُ منهما، ولا رَغِبْتَ فى الثانى، فتَحَقَّقْ أن المسلمين بأجمعهم، وكافَّتَهم وأَسْرهم؛ وكُلّ من يقول بالشهادتين : من قاصٍ ودانٍ، وقريبٍ وبعيدٍ، وكبيرٍ وصغيرٍ، يَنْفِرُونَ إليك، ويتَّفِقون علىٰ القصد لك، ولا يختلفون فى التوجُّهِ نَحْوَك؛ وهو عمل دِينِىٌّ، لا يُرَيِّثُه أمرٌ دُنْيَوِىٌّ؛ فتأمَّل ماتضمنته هذه الإجابة من الأقسام، وطالِعْ بما عندك فى ذلك .

قلتُ : وهذا الصِّنْف من المكاتبات السلطانية لا وجود له فى زماننا لعدم وقوع الهُدَنِ المترتب عليها هذا الصِّنف من المكاتبات؛ فإن آحتيج إلىٰ ذلك مَشَّاه الكاتبُ علىٰ القاعدة القديمة المتقدّمة .

الصنف السادس

(من الكتب السلطانية ، الكتب إلىٰ مَنْ خَلَع الطاعة)

قال فى "موادّالبيان" : وهذه الكتب تختلف رسومُها بحَسَبِ ٱختلاف أقدار المُكَاتَبِين وأحوالِهم فى الخروج عن الطاعة . قال : وجَمْعُ أوضاعِها كلِّها فى قانون كلِّىّ عسيرُ المرام ، إلا أننا نَرْسُمُ فيها رسومًا يمكن الزيادة فيها والنقص منها . ثم قال : والعادة أن تنفذ هذه الكتبُ إلىٰ من تُرْجىٰ إنابتُه ، وتُؤْمَل مراجعته . فأمّا مَنْ وقع الإياسُ من ٱستصلاحه ، ودعَت الضرورةُ إلىٰ كِفَاحِه ، فلا حاجَةَ إلىٰ معاتبته ، ولا وجه لمكاتبته .

قال : والرسم فيها أن تفْتَتَح بالتحميد المناسب لمعنىٰ الكتاب ، والصلاةِ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، بما يَدْعُو إلىٰ إيناسه ، ويزيلُ أسبابَ اسْتِيحَاشِه ، ويعودُ بثَبَاتِ جَاشِه ، ويبْعثُه علىٰ مراجعةِ فِكْرِه ، ومعاودة النَّظَر فى أمره ، ويُذَكِّرُه ما أُسْدِىَ من العوارف إليه ، وأُفِيضَ من النِّعم عليه ، وأنه لايُنَفِّرُ سِرْبَها بجَحْدِها وكُفْرِها ، ويُوحِشُ رَبْعَهَا بإهْمال حَمْدِها وشُكْرِها ، ويَرْبِطُها بحسن الطاعه ، ويسترْهِنُها بالتأدّب فى التِّبَاعه ، ولا يجُرّ الوبالَ إلىٰ نفسه بالخروج عن العِصْمه ، فى عَاجِل ذميم الوَصْمة وفى آجل أَلِيم النِّقْمَه . ويُبَصِّرُه بعاقبته ومن يَلِيه من ذَوِى الجُنْد بما يقتضى رَبَّ الإنعامِ لديهم ، وإقرار الفَضْل عليهم ، وأن يَسْلُبَهم مَلْبَس الظِّل الظليل ، وأن يُعَطِّلَهم من حَلْىِ الرَّأْىِ الجميل ، ويَتَدَرَّعَ فى أثناء ذلك بشِعَارِ النِّفاق ، ويَتَّسِم بميسَمِ الشِّقَاق ، ويتَعَجَّل إزعاجَه من داره ، وبُعْدَه من قَرارِه ، وهَدْمَ ماشَيَّدَه الإخلاصُ من ذِكْرِه ، وتَقْوِيضَ ما رَفَعَتْهُ الطاعة من قَدْره ، ويعود بعد أن كان مُجاهدا عن الحوزة مُجَاهَدا بمجتدِّها ، وبعد أن كان مُرامِيًا عن السُّدَّةِ مَرْمِيًّا بيَدِّها ، ويضيع

ماأسْدِىَ إليه، وأُفِيضَ من الإحسان عليه، وماذَهَبَ من اليقين فى تدريجه إلىٰ مَرَاقى السياده، ومن الرغائب فى إلحاقه بأهل السعاده، ولا يغترّ بمن يُزَيِّنُ له عاجلَ الآجل، ويَتَقَرَّبُ إليه بخِدَعِ الباطل، ويجعلُ أقوالَهم دَبْرَ سَمْعِه، ويُبْعد أشخاصَهم عن نَظَره، ناظِرًا فى عاقبته، وحارسًا مُهْجَته، وراغبا فى حَقْنِ دمه، وصِيَانَةِ حُرَمه، ولْيَرْجِعْ إلىٰ الفِنَاء الذى لم يَزَلْ يُحْرِزُه، والكَنَف الذى لم يَزَلْ يُعِزُّه، ولا يجعل مُسالَمَه بالعُنود منازعا، ومُوَاصِلَه بالجُحُود مقاطعا، وواهِبَـه بالكُفْر سَالبا، ومَطْلَعَ النعمة بضَيَاعِه حَقَّها مَغْرِبًا، وقد بَقِىَ فى الحَبْل مُمْسك، وفى الأمر مستدرَك، لأن يَهُبَّ من رَقْدَتِه، ويستبدل من لقاء أمير المؤمنين بلقَاءِ حَضْرَتِه . ثم يقول : فإن كان ماجَنَاه قد هَـدَّ سِرْبَه، وكَدَّر شِرْبَه، وأحس فى نفسه سُوءَ الظن، وأخافَه بعـد الأَمْن، فَلْيَبْعَثْ رسولَه يَسْـتَوْثِق ويُعَاقِدْ، ويَتَوَكَّدْ ويُعَاهِـد، فإذا عاد إليه بمـا يَملأُ فؤادَه أَمْنًا، ويكُون عليه حِصْنا، سارَع إلىٰ ٱمتثال المَرَاسِم، وجرىٰ فى الطاعة علىٰ سَنَنِه المُتَقادِم، ولا يستمرّ علىٰ المُدَافَعة والمطاوله، ويقتصر علىٰ المُغايَظَة والمُمَـاطله .

ثم يقال بعد هذا : وقد قَدَّمَ أميرُ المؤمنين كتابَه هذا إليك نَائِبًا عنه فى ٱستصْلاَحِك، وقائدًا يَقُودُك إلىٰ طريق نَجَاحِك، قبل تجريد مَوَاضيه، وإلحاق مُسْتَأْنَفِه فى الحرب بمَـاضيه، وخُيُولُه تُجَاذِبُ الأعِنَّه، وذَوابِلُه مُشْرَعَةُ الأَسِنَّه، ولم يَبْقَ إلا قَصْـدُك فى عُقْر دارك التى بَوَّأَكها، وٱنتزاعُ نعمته التى أَعْطَاكها، لتذوقَ مَرَارَةَ المخالفه، وتَرَنَهـا بحلاوة الموافقه، فكُنْ علىٰ نفسك لنفسك حَاكِمًا، ولا تَكُنْ لهـا ظالمـا، ونحو ذلك ممّـا يليق به .

وإن كانت المكاتبةُ إلىٰ رجلٍ قد سَبَقَتْ له سابقةٌ بخَلْع الطاعة، ثم سأل الإقالَةَ فأُقيلَ بعـد مُشَارَفَة الإحاطة به والنِّكَاية فيه، ثم راجع العصيان، فالرسم أن تُفْتَتَح

بحمد الله جاعلِ العاقبة للمتقين، والعُدْوانِ على الظالمين، والعِزّة لحزبه، والذِّلّة لحربه، والإظهارِ لأهل طاعته، والخَسَارِ لأهل معصيته، ودائرةِ السَّوء على الخالعين طاعة خُلَفائه، القائمين بحُجّته. ثم يقال: أمير المؤمنين على ما يراك تَخَوَّلُه به مِنْ تصديق آماله، وتوفيق أفعاله، وتسديد مَرَاميه، وهداية مساعيه، وإجابة دَعْوَته، وتحقيق رَغْبَته، بإدَالَة مُوَاليه، وإذَالَة مُعَاديه، ومَعُونته على ما والَاه، وتمكينه ممن ناواه، ويسأله الصلاةَ على سيدنا محمد نبيه صلّى الله عليه وعلى آله وسلم.

ثم يؤتى بمقدّمة تدل على جميل عاقبة الطاعه، وذَمِيم مَغَبّة المعصيه، يبسط القول عليها، ويتوسع فيها، لتكون فِرَاشا لما يتلوها. ثم يقال بعدها: وإنما يَحْمِلُ ذلك أهل الغَرَارَةِ الذين لم يَلُوكُوا شكائم التَّجارِب، ولم يُمَارِسُوا ضرائم النوائب، وأنت فقد تَذَوَّقْتَ من كراهة المعصية ومرارتها، وعُذُوبَة الطاعة وحلاوتها، ما يرجو أميرُ المؤمنين أن يكونَ قد وَعَظَك وأدَّبك، وقَوَّمَك وهَذَّبك، وكَشَفَ لك عن عاقبتهما، وعَرَّفك بغايتهما، فدَعَتْك الطاعةُ إليها بما أَسْبَغَتْه عليك من لِبَاس شَرَفها ومَجْدِها، واسْتَخْدَمَتْه لك من أنصار إقبالها وسَعْدِها، ونَهَتْك المعصيةُ عنها بما أَبْلَتْه من نوائبها وصنائعها، وجَرَّبْتَه من مرمض مراميها ومواقعها، لأنها أقلَّتْ عَدَدَك، ومزّقت مُطْرِفَك ومُتْلَدك، حتّى تداركَكَ من عَطْف أمير المؤمنين ما أنبتك بعد الحَصْد، وراشَك بعد الحَصّ، وانتهى إلى أمير المؤمنين أنك حَنَيْتَ إلى أتباع الضلالة الذين غَرُّوك، ومِلْتَ إلى أشياع الفِتْنَة الذين اسْتَهْوَوك، فأَصْغَيْتَ إلى أقوالهم التي ظاهرها نُصْحٌ وباطنها غِشّ، وآرائهم التي مواردها صَلَاحٌ ومصادرها فساد، ومِلْتَ إلى معاودة الشِّقاق والارتكاس في العِصْيان، ومُقَابَلة النُّعْمَى بالكُفْران، فقدّم كتابَه إليك مُذَكِّرا، ومَنَحَك خطابه مُعْذِرًا مُنْذِرا، ليُعَرِّفك حَظَّك، ويَهْدِيك رُشْدَك، [ويَدُلَّك] على الأحسن لك في مَبْدَئك وعاقبتك، ويُحَذِّرك من مراجعة

ماقارفته ، وأن تنزِلَ عن المنزلة التى رقَّاك إليها ، وتُجْدبَ رِباعَك من النعمة التى أرتعك فيها ، وتتخلَّى عن مرابع الدَّعةِ التى أوْرَدك عليها ، فانظر لنفسك حَسَنا ، وكُن إليها مُحْسِنا ، وآنتفعْ بمراشد أمير المؤمنين ، ولا تُفْسِدَنَّ بخلافك عن أمره نَصيبك من الدُّنيا والدِّين ، فارجعْ إليه مسترغِماً فإنه يَقْتَدى بالله فى الرحمة للمحسنين ، مادام مُؤْثِرًا لربِّ النعمة لديك ، وإقْرارِها عليك . فاعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ .

قال : وإن كانت المكاتبة إلىٰ رَعِيَّةٍ قد خرجت عن الطاعة كَتَبَ إليها بما مثاله :

أما بعد ، وَفَّقَكُم الله لطَاعَتِه ، وعَصَمَكم من معصيته ، فإنَّ الشيطانَ يُدْلِى الإنسان بغُرُوره ، ويقيم له الضلال فى صورة الهدىٰ ببُهْتَانِه وزُورِه ، مُسْتَخِفًّا لطَائِشِي الألباب ، ومُسْتَزِلًّا للأقدام عن مَوْقِفِ الصواب ، مُحَسِّنًا بكيده لآعتقاد الأباطيل ، مُزَيِّنًا بغَيِّه آتِّبَاعَ الأضاليل ، صارفا بمَكْرِه عن سواء السبيل ، مُصَوِّرًا للحق فى صورة المَيْن ، مُغَطِّياً علىٰ القلوب بشِغَافِ الرَّيْن ، والحَازِمُ اليَقِظُ من تحرَّزَ من أَشْراكه وحَبَائِله ، وتحفَّظَ من مَخَايِله وغوائله ، وآتَّهَم هَوَاجِس فِكْره ، وآسْتَرَابَ بوساوس صَدْره ، وعرض مايَعْرِضُ له علىٰ عَقْله ، وكَرَّر فيه النظر مُتَحَرِّزاً من مكْر الشيطان وخَتْله ، فإن ألْفَاه عَادِلا عن الهوىٰ ، مائلا إلىٰ التقوىٰ ، بريئا من خُدَعِ الشيطان ، آمنا من عوادى الأفْتِتَان ، أمضاه وَاثِقًا بسلامة مَغَبَّته وعاقبته ، وشُمُول الأمْنِ فى أُولَاه وأُخراه .

وآنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين أن الشيطان المَرِيد آسْتَخَفَّ أحلامَ جماعة من جُهَّالِكم ، وآستولىٰ علىٰ أَفهام عِدَّة من أَرَاذِلِكم ، وحَسَّن لهم شَقَّ عصا الإسلام ، ومَعْصِيةَ الإمام ، ومفارقةَ الجماعه ، والآنْسِلَاخَ من الطاعه ، التى فرضها الله تعالىٰ علىٰ الجمهور ، وجعلها نظامَ الأمور ، فقال جَلَّ قائلا : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وآختيارَ الفُرْقَة التى نهىٰ الله عنها . فقال :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ ﴾ ومُجَانَبَـةَ الأُلْفَة التى عدّها فى جلائل نِعَمِه ، فقال مُمْتَنًّا بهـا علىٰ عباده : ﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ وسَوَّل لهم التَّعَرِّى من آداب الدين ، والمُجَاهَرَةَ بالخلاف علىٰ أمير المؤمنين ؛ فنَبَذُوا ما بأيديهم من بَيْعَته ، وسُلِبوا من ظِلِّ دَعْوته ؛ ورَكِبُوا من ذلك أَوْعَرَ المراكب ، وسلكوا أخْشَنَ المسارب ؛ وسَعَوْا فى البـلاد بالفَسَاد ، وقاموا فى وَجْه الحَقِّ بالعِنَاد ، وٱسْتَخَفُّوا بحَمْـل الآثام ، وبَسَطُوا أيديهم إلىٰ الدِّماء الحرام ، وشَنُّوا الغَارَاتِ علىٰ أهل الإسلام .

وقد عَلِمْتم أن من أَقْدَمَ علىٰ تأثير مثل هذه الآثار ، فقد ٱستنزل فى هذه الدار سُخْطَ الجَبَّار ، وتبوّأ فى الآخرة مَقْعَدَه من النار ؛ وجَرىٰ علىٰ غير الواجب فى إقامة الفروض والصَّـلَوَات ، وتَأْدِيَةِ العبادات والزَّكَوَات ، وعَقْد العقود والمناكحات ؛ لأن هـذه الأحوال إنَّمـا تُرْضىٰ وتُرْفَع ، وتُجَاب وتُسْمَع ؛ إذا تَوَلَّاها أمير المؤمنيـن ، أو مَنْ يَسْتَخْلِفُه من صُلَحاء المسلمين ؛ فأما إذا ٱستَبْدَدْتُم فيهـا بأنفسكم ، وٱقتديتم فى تأديتها بناكِبٍ عن سبيله ، مُجَانِبٍ لدليله ؛ فقد تَسَكَّعْتم فى الضلاله ، وتطابقتم علىٰ الجهاله ؛ وكُلُّ رَاضٍ منكم بذلك ، عَاصٍ لله ورسوله وللإمام .

ولمـا ٱطَّلَع أميرُ المؤمنين علىٰ ماذهبتم إليه بسُوءِ الاختيار ، ورَكِبْتُمُوه من مَرَاكب الاغْتِرار ، لم يَرَ أن يُلْغِيَكم ويَهْجُرَكم ، ويُغْفِلَكم ولا يُبَصِّرَكم ؛ فقـدَّم مكاتَبَتَكم مُعْـذِرًا مُنْذِرا ، ومُخَوِّفًا مُحَذِّرا ؛ وبدأكم بوَعْظه مُشْفِقًا عليكم من زَلَّةِ القَدَم ، ومَوْقِف النَّدَم ؛ وجَاذِبًا لكم عن مَضَالِّ الغَوَايَه ، إلىٰ مَرَاشد الهِـدَايه ؛ وٱفتتحكم باللَّفْظ الأحسن ، والقَوْلِ الألين ؛ وهداكم إلىٰ السبيل الأوضح ، والمَتْجَر الأرْبَح ؛ وٱختار أن يَهْـدِيَكم الله تعالىٰ إلىٰ طريق الرشاد ، ويَدُلَّكم علىٰ مقاصـد السَّداد ، ويُعيدَكم إلىٰ الأَوْلىٰ ،

وَيَبْعَثَكُم علىٰ الطريقة المُثْلىٰ ؛ وأن تَعرِفُوا الحَقّ فتعتصموا فى أيديكم من بَيْعَتِه ، وتقوموا بما فرض عليكم من طاعته ؛ وتَرْجِعوا إلىٰ إجماع المسلمين ، وما ٱتفقت عليه كلمة إخوانكم فى الدِّين ؛ وتَتَّبِعوا مذاهبَ أهل السلامه ، وأُولى الاستقامه ؛ فإن وقع ما ألقاه إليكم المَوْقِعَ الذى قَـدَّرَه فيكم ، وسألتم الإِقالَةَ ، فالتَّوْبة تنفعكم ، والعَفْوُ يَسَعكم ؛ وإن تمـاديتم فى غَيِّكم وباطِلكم ، وغُرُورِكم وجَهْلكم ؛ تقدّمت إليكم جيوش أميرِ المؤمنين مُقَوِّمَه ، ومن عُصَاتكم منتقمه ؛ وذلك مَقَامٌ لا يتميز فيه البَرِىءُ من السقيم ، ولا الجاهل من العليم ؛ ألا تسمعون الله تعالىٰ يقول : ﴿وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾؟ وأىّ فِتْنة أشدُّ من طاعة الشيطان ، ومعصيةِ السلطان ؛ وشَقِّ العصا ، وإراقة الدِّما ، وإثارة الدهما ؟ فاتّقوا الله وٱرجعوا ، وتأملوا وراجعوا ؛ وتَبَصَّروا وٱستَبْصِروا ؛ وقد أوضح لكم أميرُ المؤمنين المَحَجَّه ، وبدأكم بالحُجَّه ؛ فأوجِدُوه السبيلَ إلىٰ ماينْوِيه لكم ولكافة أهل الإسلام : من حَقْنِ الدماء ، وصيانة الحَريم ، وتحصين الأموال ، وشمول الأَمنِ والأمان ؛ وأجيبوا عن كتابه هذا بمـا يُوَفِّقكم الله تعالىٰ [إليه] : من إجابة دعائه والعَمَلِ برأيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه نسخة ماكتب به عبدالحميد إلىٰ بعض مَنْ خَرجَ عن الطاعة ، وهو :

أما بعد : بلغنى كتابك تذكر أنك تَحْمِلُ المُرْدَ علىٰ الجُرْد ؛ فستَرِدُ عليك جنودُ الله المقرّبون ، وأولياؤه الغالبون ؛ ويَرِدُ عليك مع ذلك حِزْبُه المنصور من الكهول ، علىٰ الفحول ؛ كأنّها الوُعول ، تخوض الوُحول ؛ طِوَالُ السِّبال ، تختضب بالجِرْيال ، رجال هم الرجال ؛ بين رامح وناشب ، ليس معهم إلا كَلِبٌ محارب ؛ ولا ينْكُلُون عن الأصحاب . قد ضَرُوا بضَرْب الهَام ، وٱعتادُوا الكَرّ والإقدام ؛ ليسوا بذَوِى هِينَة ولا إحجـام ؛ يَقْضُون بالسيوف ، ويخالطون الزُّحُوف ، فى أعنتهم الحُتُوف ؛ يَزْأَرُونَ زئيرَ الأسود ،

ويَثِبُون وُثوب الفُهُود؛ ليس فيهم إلا شَاكٍ مُحْتَبِكٌ، فى الحَرْب مُجَرَّب؛ قد شَرِب علىٰ نَاجِذِ الحرب وأكل، ذو شِقْشِقَةٍ وكَلْكَل؛ كأنَّما أُشْرِبَ وجْهُه نَقِيعَ الحِنَّاء؛ قد رَئِمَ الحربَ ورَضَعها، وغَذَّته وأَلِفَها؛ فهى أُمُّه وهو ابنها، يَسْكُن إليها ويَأْنَس بقُرْبها؛ فهو بطلبها أَرِب، وعلىٰ أهلها حَرِب؛ لا يروعه مايروع، ولا يزيغه ما يزيغ الغُمْر الجَبَان؛ حين يَشْتَدُّ الوَغىٰ، وتخطر القَنَا، وتُقَلَّص الشِّفَاه، وتُسْفِرُ الكُماه؛ فعند ذلك تُسْلِمُك المُرْد، وتُكْشَفُ عن الجُرْد. فتأهبْ لذلك أُهْبَتَك، واخْطُب له خِطْبَتَك، من المساكين والحَوَكة؛ ثم كِيدُونِى جَميعًا فلا تُنْظِرُون؛ فما أَسرنَا إِكْثَارُك الجموع، وحَشْدُك الخيول؛ فإنك لا تُكَثِّفُ جَمْعا، ولا تُسَرِّبُ خَيْلا؛ إلا وَثِقْنَا بأن سَيَمُدُّنا الله من ملائكته، ويزيدنا من نَصْره؛ بما قد جَرَتْ به سُنَّتُه، وسلفت به عادته؛ ونحن نجرى من ذلك علىٰ نقمات من الله ونَكال وسَطَوات مُهْلِكة؛ فرأيتم ذلك فى المنازل، وعرفتموه فى المواطن التى يجمعها الحق والباطل؛ فأَبْشِرْ منا بما سَاءك صَحِرا، ومشَّاك تُقَادُ كما يُقَادُ الجَمَل المخشوش.

❖

ومن أحسن الكُتُب المكتتبة فى هذا الباب ما كَتَب به قِوَام الدِّين (يحيىٰ بن زيادة) وزير أمير المؤمنين الناصر لدين الله الخليفةِ ببَغْدَادَ إلىٰ (طغرل) مُقْطَع البَصْرَة بأمر الخليفة له فى ذلك، وقد بلغه أنه نَزَح عنها، قاصدًا بعض الأَطراف، مفارقا لطاعة الخليفة، عند ما طُلِبَ من ديوانه شئٌ من المال، فأوجب ذلك انْثناءه عن عَزْمه وتوجُّهه إلىٰ بَغْدَادَ داخلا تحت الطاعة، ومُقَابَلَته بالصَّفْح وتَلَقِّيه بالقَبول. وهذه نسخته:

أصدرْتُ هذه الخدمة إلىٰ الجناب الكريم، الأميرىّ، الاسفَهْسَلارِىّ، الأجلِّىّ، الكَبِيرِىّ، السَّيِّدِىّ، العِمَادِىّ، الرُّكْنِىّ، الظَّهِيرِىّ، المُحْتَرَمِىّ، العِزِّىّ، الجَمَالِىّ، أميرِ الجُيُوش؛ أطال الله بقاءه، وأدام عُلُوَّه ونِعْمَته؛ وأنا أوقع الأقوال المتواتره،

والأموال المتناصره، مُسْتَغْرِبًا لها، مُتَعَجِّبًا منها، كأنى أسمعها فى المنام، وتخاطِبُنى بها أَضْغَاثُ أحلام؛ فلولا أن الأيام صَحَائِفُ العجائب، ولا يأنس بمُتَجَدِّدَاتِهـا إلا مَن حَنَّكَتْه التَّجَارِب ؛ لم أُصَدِّق هـذه الحركةَ المباركةَ التى وقعت منه بسعادته ؛ فإنى ما أراها إلا عَثْرَةً من جَوَاد، وعورة علىٰ كماله ؛ و إلا فمِنْ أَيْنَ يدخل الزَّلَلُ علىٰ ذلك الرَّأْيِ السديد، والعقل الراجح، والفكر الصائب؟ الذى يُعَلِّمُ الآرَاءَ كَيْفَ تُنِير، ويُعَرِّف النجومَ كَيْفَ تَسِير، ويهدى غيره فى المُشْكلَات إلىٰ صواب التدبير. والفائتُ لا كَلَامَ فيه، غير أن العَقْلَ يقضِى بٱستدراكِ المُمْكِن وتَلَافِيه؛ بالٱنحراف عن الهوىٰ إلىٰ الرَّأْيِ الصادق، والرُّجوع عن تأويل النفس إلىٰ مراجعة الفِكْرِ النـاصِح؛ فالعَوْدُ إلىٰ الحق أولىٰ من التَّمَادى علىٰ الباطل، وأُحِبُّ أن تسمعَ ما أقولُ بأُذُنٍ واعية وقَلْب حاضر؛ وحُوشِيَ أن تَسْتدفعَهُ الكواذبُ عن تَدَبُّرِ الحقائق، وعِرْفَانِ النصائح؛ فإن من القول ما بُرْهانُه لايحتاج إلىٰ شاهد من غيره .

قبل كُلِّ شَيْءٍ: ما الَّذى أحوجَ إلىٰ هذه الحال القبيحة السُّمْعَه، ورُكوبِ الخَطَر فى هذه الحَرَكه ،وٱحتِمَال هذه المَشَاقّ ، والٱنزعاج من غير أن تَدْعُوَ إليـــه حاجة ؟ هَلْ هو إلاشيءٌ جَرَت العادة بمثله ، و بمطالبة ديوانه بمـا كان يَنْدَفِع الأمر ببعضه؟ كما جَرَتْ عادةُ الدواوين ، وخِدَمُ السلاطين ؛ ثم إنَّه عَمَدـ أدام الله نِعْمَتَه ـ بأول خاطره ، وبادئ رأيه فى هذه العَجَلة ، من غير تثبت ولا رَوِيَّة . لِمَ لَا راجعَ فكْرَه الكريمَ ، ويقول لنفسه : إلىٰ أين أمْضِى ؟ ولمن أَخْدُم ؟ وعلىٰ أىّ باب أَقِف ؟ وتَحْتَ أىِّ لِوَاءٍ أَسِـير؟ وبأىّ غُبَـارٍ أَكْتَحِل؟ وفَضْلَ مَنْ أطلُب ؟ وعلىٰ حُكْم مَنْ أنْزِل ؟ بعـد أن رُبِّيتُ فى عَرْصَـةِ الخِـلَافة ، ودار النبوّة ، وحِضْـنِ المملكة ؛ أنْشَأَنِى نعيمُها صـغيرا، وقَدَّمَنِى كبيرا؛ وكُنْتُ مأمورا فجعلنى أميرا، وطار صيتِى فى الدنيا ولم أكن شيئا مذكورا ؛ فأنا خَيْرٌ من مَلِكٍ أقصده، وأمثَلُ من كُلِّ

مَنْ أرجوه وأستنجدُه، أفأَنْزِلُ من السَّماء إلى الحَضِيض، وأهْدِمُ ما بَنىٰ الإنعامُ عندى فى الزمن الطويل العريض؟ ! هذا هو المكروه الأعظم، الذى تعوَّذ منه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم، حين قال : "اللّٰهُمَّ إنِّى أَعُوذُ بِكَ من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ" ومن يكون حَضِينَ خلافة كيف يرضىٰ أن يكون تَابِعَ إمارة؟ ولو لم يكن ماهجم عليه إلا هذا لَكَفَىٰ . ثم لِمَ لايَلْتفِتُ فى هذه الحال التى هو عليها، التى صَحِبَتْه بوفائها، ويَسْمَع خطابها بلسان حالها ثَمَّ؟ تقول له : ياعماد الدين! أمَا هذه خِيَام الإنْعَامِ عليك ؟ أمَا هذه الخَيْلُ المُسَوَّمَةُ تحتك؟ أمَا هذه ملابسه الفاخرة مُفَاضَةٌ عليك ؟ أمَا هذه مماليكه حَافَّةٌ بك ؟ أليس الاصطنَاعُ رَفَع قدرَك إلىٰ المنزلة التى ثَقُل عليك بعضُ الانحطاط عنها، ووهبَ لك الهمةَ التى أبَيْتَ الضَّيْم بها؟ فخُوشِيتَ أن تكون مِمَّنْ تواترتْ عليه النعم فَمَلَّهَا، وتكاثَرَتْ عليه فضَعُفَ عن حملها؛ فياليت شعرى! ماذا يكون جوابها؟ والله إنى أقول له بسعادته ولا أُعَقِّبُ : ولو أنه قد تَحَقَّق ـ والعِيَاذُ بالله ـ وقوعَ كُلِّ محذور، وحُلُولَ كُلِّ مكروه؛ لم يكن فى هذه الحركة معذورا، فكيف بظَنٍّ مُرَجَّم، وقول مُسَوِّفٍ مُتَوَهَّم؛ ورَأْيٍ فَطِيرٍ غيرِ مُخْتَمِر. ولقد كان استسلامُه لمالك الرِّقِّ ـ صلوات الله عليه وسلامُه ـ أحْسَنَ فى الدنيا وأحْمَدَ فى العُقْبىٰ؛ واقعا ذلك من أحواله حيثُ وقع. والآن فالوقت ضَاقَ فى إصْدَار هذه المُكَاتبه، عن استِقْصَاء العِتَاب والمُحَاققه؛ وإيراد كُلِّ ماتلزم به الحُجَّة، لٰكِنِّى أقول علىٰ سبيل الجملة :

إنى أخاف علىٰ سديد ذلك الرَّأْيِ إجَابَةَ داعِى الهوىٰ، فإنَّ اللَّجَاجَ من أوسع مَدَاخِل الشَّيْطان علىٰ الإنسان، وحُوشِىَ كَمَالُه من هذا القِسْم .

والثانى استِشْعَارُه بسعادته من بَادِرَتِه، واستِيحَاشُه من عَجَلَتِه؛ وهذا أيضا من أدَقِّ مكَايِدِ النَّفْسِ الأَمَّارَة بالسُّوء، فإنها تُؤَمِّنُ من المَخُوفِ، وتُخَوِّفُ من المأْمُون،

وتَسْحَرُ العَقْل بالتحيرِ والشَّــك ، فلا تَصِحُّ له عَزِيمه ، ولا تَصْفُو له فِكْره ؛ وهـذا النَّوْعُ إذا عَرِضَ فى الصَّدْر يجب دفعه بالنَّظَر إلىٰ الحَقِّ وشجاعةِ القلب ، والإخلادِ إلىٰ مُناظَرة النَّفْس ؛ فإنّ الإنسان ليس بمعصوم ، والزَّلَلُ فى الرَّأْى ليس من أوصاف الجَمَاد ، بل من الأوصاف اللّازِمَة للبَشَرِيَّة ؛ وليس الكمال لأحد إلا للواحِدِ الصَّمَد ، فإذا عَرَض له بسَعَادَتِه هذا الاستشعار ، فيدفعه عن نَفْسِه ؛ فليس سُلْطَان الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ ، إلا فى صــدور النَّاسِ ؛ فلهــذا لا ينبغى لمُذْنِبٍ أن يَقْنَط ، ولا لمُسيءٍ أن يَسْتَوْحِش ؛ لاسِيَّمَا إذا أتبعَ الذَّنْبَ بالاستقالة والاستغفار ، والاعتذار والإقلاع ؛ وعلىٰ الخصوص إذا كانت الخيانة عنــد من لا يَتَعاظَمُه عَفْوُها ، ولا يَضِيقُ حِلْمُه عنها ؛ فإن كُلَّ كبــيرة تُوجِبُ المخافه ، تَغْرَقُ فى بَحْر عَفْوِ الخلافه ؛ فيجب أن يُقَرِّر بسعادته ذلك فى نفســه ، ويُخْرِجَ سوءَ الظَّنِّ والاستِشْعَارَ من خَيَاله ؛ فإن مثله من خُلْصَانِ المماليك لا يُسْمَحُ به ، ولا يُشْغَبُ عليه عند هَفْوَةٍ بادرَة .

والثـالث الانقباض والحياء ، فانه رُبَّمَا يقول فى نفسه : بأىِّ وَجْهٍ ألقىٰ مولاى ؟ وبأىِّ عَيْنٍ أُبصر مواطن الدَّارِ العزيزة ؟ رَبَّانِى وأنشانى ! . وهذا أيضا لا يَصْلُحُ خُطُوره ببَالِه فى هذا المقام ، فإنَّه من ضَعْفِ النَّحِيزَة ، والمَيْلِ مع خَوَادِعِ الطَّبْع ، عن نصائح العَقْل والشَّرْع ؛ فإن الحَيَاء إتباعُ زَلَّة القدَم بالنَّدَم والاعتذار ، لا (١) التَّهَوُّكُ فى اللَّجَاج والإصرار . فقد قال بعض الملوك لخصيصٍ من خَوَاصِّه ، عصاه فى شَىْءٍ من أمره : «بأىِّ عينٍ تلْقَانِى وقد عصيتَ أمرى ؟» فقال : «بالعَيْنِ التى ألقىٰ بها رَبِّى فى الصَّلوات الخَمْسِ ، وهو سبحانه يرانى علىٰ فَوَاضِحِ المعاصِى» . وقد أثنىٰ الله سبحانه علىٰ من أذنَبَ ثم تَاب ، وشَرَدَ عن طاعتــه ثم أنَاب . وبحمــد الله تعــالىٰ ما جرىٰ ما يقتَضِى فَرْطَ الاستشعار . هل هو إلا عَبْدٌ خاف بادِرَة مَوْلاه ، فتنحّى من مكانه إلىٰ أن يَعطِفَ

(١) فى الأصل "بل" ولا معنىٰ لها .

عليه برَحْمَتِه؟ وليس هذا ببديع، ولا من الصَّفْحِ ببَعِيد. علىٰ أنه بسعادته لو أنْصَفَ من نفسه لَمَا ٱسْتَشْعَر. فكم أخرجت الخزائنُ الشريفة عليه من الأموال حَتَّىٰ نَبَتَ عِرْقُه، وأورق غُصْنُه، وكَبُرَ شَأْنُه، وجميع ضمانِ البَصْرَةِ عُشْرِ معشار ذلك.

والرابع إصْغَاؤه ـ والعياذ بالله ـ إلىٰ قَوْلِ مَنْ لاينصَحُه، ويُغْوِيه ولا يُرْشِـدُه، ويتقرَّب إليه بمتابعةِ هواه. وهذا مالايخفىٰ عن لَمْحَةِ النَّاقث، ولا يحتاج فى الإعراض عنه إلىٰ باعث، فقديما قيل: «صَدِيقُكَ مَنْ نَهَاكَ، وعَدُوُّكَ مَنْ أغْرَاكَ» والله تعالىٰ يوفِّقه لتحقيقه النَّظَر فى هـذه الأقسام الأربعة، التى أُحْذَرُها عليه، وأُحَذِّرُه منها، ويُيَسِّرُه لليسرىٰ.

وبعـد ذلك فأنا أُنْصِفُه من نفسى، وأقول الحقَّ: إن نَفْسًا رَبَّاهَا خليفةُ الله فى أرضه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ بإنعامه، وأعلىٰ هِمَّتَهَا بٱختصاصه، وشرَّفها بنَسَبِ عُبُودِيَّتِـه، لا تحتمل الهَوَان، ولا تَقِرُّ علىٰ الاَبْتِذَال، فغالبُ ظَنِّى أنَّ نُفُورَهُ بسعادته إنما هو من ديوان الزِّمَامِ المعمور. والآن فأنا وهو بسعادته عَبْدَانِ، ولٰكِنِّى أنْفَرِدُ عنه بالسِّنِ والتَّجْرِيب، وطريقتى هو بسعادته يعرفها، وإنى لاأدَّخِرُ عن أحد نُصْحا. فالصواب أن يَقْبَلَ قَوْلِى، ويتحقق صِحَّةَ مَقْصَدِى فى نصيحته ومَقْصَده، فإنى أُوجِبُ ذلك له علىٰ نفسى، وأَرَاهُ من واجبات خِدَمِ مالك الرِّق ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ أيضا.

وقد علم الله تعالىٰ أنى قد أوضَحْتُ من عُذْره، وأحْسَنْتُ المَنَاب عنه بسعادته، مالو حَضَره وتَوَلَّاه بنفسه لَمَا زاد عليـه، ورأيتُ الإنْعَامَ يسـتغنِى عن كُلِّ شرط ولا يحتاج إليـه، وتقرّرت قاعدتُه بسعادته أن لا يكونَ له مع ديوان الزِّمَام المعمور حديث، ولا مع غيره ممَّنْ لا يَعْرِف حَقَّه، ولا يُوَفِّيه من الاَحترام واَجبَه؛ فإن أمر

أن أَتَوَلَّى وَسَاطَتَه فأنا أعتمد ذلك فى مَرَاضيه، وتَمْشِيَة أمره أكثر ممَّـا فى نفسه . وإن ٱختار بسـعادته أن يَكُونَ غيرى وَسِيطَهُ وسفيره، فُيَعين مَنْ يختاره : ليكونَ حديثُه معه. وقد أسْلَفْتُ من وظائف إحسان المَنَابِ أننى تَنجَّزْتُ له بسعادته أمَانًا مُتَوَّجًا بالقَلَمِ الأشرف المقدّس، علىٰ نفسه الكريمة ومَالِه وأوْلادِه ـ والأمان المذكور طَيَّ كتابى هذا ـ مَقْرُونًا بخَاتَمِ أمَانٍ ثان ؛ فيجب أن يكون هو بسعادته جوابَ ذلك . إذ لا يجوز أن يكونَ الجوابُ إلا هُوَ بنفسه الكريمة ؛ فلا يَشْـعُر به أحَدٌ إلا وهو مُقَابِل التَّـاجِ الشريف، مُلْقِيًا نفسه بين يَدَىْ مالكها الذى هو أرْحَمُ لها، وأَلْطَفُ بها، وأشْفَقُ عليها منها ؛ تَالِيًا ماحكاه القرءان المجيد عن يُونُسَ عليه السلام، إذْ نَادىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ : ﴿ سُـبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنَّه يرىٰ ـ بمشيئة الله تعالىٰ وتوفيقه ـ كُلَّ مايُحِبُّ، ويَأْمَنُ كُلَّ مايَحْذَر . وأنا أسْتَسْرِعُ وُصولَه عن ٱستعراض مُهِمَّاتِه، ولرأيه كَرَمُه، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : فإن ٱتفقَتِ المكاتبة فى معنىٰ ذلك فى زماننا، راعىٰ الكاتبُ فيه صُورةَ الحال، وجَرىٰ فى ذلك علىٰ ما يلائم حاله، ويناسب ما هو فيه ؛ مع النظر فى كلام مَنْ سَبَقَه إلىٰ شىء من ذلك ؛ والنَّسْجِ علىٰ مِنْوَالِ المُجِيد، والٱقتداء بالمُحْسِن فى إيراده وإصـــداره .

الصِّـــنفُ السابع

(الكُتُب فى الفُتُوحات والظَّفَـر بأعداء الدَّولة وأعداء المِـلة، وٱسترجاع المعاقل والحُصُون، والٱستيلاء علىٰ المُدُن)

وأصلها من فَتْح الأقفـال ودُخُول الأبواب . كأَنَّ المدينَة أو الحِصْنَ كان مُقْفَلًا مُمْتَنِعا بالأغلاق علىٰ قاصـده حتّٰى يُفْتَح له فيدخل .

قال فى "مواد البيان": وهو من أعظم المكاتبات خطرا، وأجلّها قدرا؛ لاشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى الذى وعد به أهل الطاعة فى إظهار دينهم على كل دين، وتوفير حظهم من التأييد والتمكين، وما يمرّ فيها من الأساليب المختلفة التى يشتمل هذا القانون عليها .

قال : والكاتبُ يحتاج إلى تصريف فِكْرِه فيها، وتهذيب معانيها : لأنها تُتْلى من فوق المنابر على أسماع السامعين، وتُجْعَلُ نُصْبَ عيون المُتَصَفِّحين .

ثم قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله العَفُوّ الحليم، الغَفُورِ الرحيم، العليم الحكيم؛ ذى البُرْهان المُبين والفضل الجسيم، والقوةِ المَتينِ والعقاب الأليم؛ مُبِيدِ الظالمين، ومُبِيرِ القَاسِطين؛ ومؤيِّد العادلين، وجاعلِ العاقبة للمُتَّقين؛ المُمْلى إمهالا وإنْذارا، والمُعَاقِب تنبيها وإذكارا؛ الذى لا يُنْجِى منه مَهْرَبٌ، ولا يبعد عليه مَطْلَب؛ وكَيْفَ يُعْتَصَم منه وهو أقرب من حَبْل الوَرِيد، وله على كل لافِظٍ رقيبٌ وعَتِيد ؟ . والصلاة على رسوله الأمين، الذى خَتَم به النَّبِيِّين؛ وفَضَّله على المرسلين، وأيده بأوليائه التَّائبين؛ الذين قاموا فى نُصْرَتِه، وإعزاز رَايَتِه؛ المَقَامَ الذى فَازوا فيه بالخَصْل، فاستَوْلَوْا به على قَصَبات الفَضْل؛ فشركهم معه فى الوَصْف والثناء، فقال جَلَّ قائِلًا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم يُؤتى بمُقَدِّمَة تشتمل على التَّحَدُّث بنِعْمَة الله فى شَحْذ العزائم لنُصْرَتِه، وتثبيت الأقدام فى لِقاء عَدُوِّه ومجاهدته؛ وإنْجازه وَعْدَه فى الإعزاز والإظهار، والظَّفَر والإظْفَار؛ والاسْتِبْشَار بمَوْقِع النِّعْمة فى الفَتْح الجليل، والإشادَة بإبقاءِ هذا الأَثَرِ الجَمِيل . ثم يفيض بما جرت العادة به فى مُقَارَبة العَدُوّ ومُدَانَاته، وبَثّ الطَّلَائِع لتنفيذ السَّرَايَا فى مَبَادى مُلَاقاته؛ وما أفْضَى إليه الأمر فى التَّقَابل

والمُواثَبه ، والتَّوَاشُجِ فى المُطَاعنة والمُضَارَبه ؛ وذِكْرِ مواقف الشُّجْعَان فى الكِفَاح والمُجَاهَده ، والذَّبِّ والمُجَالَده ، وثبوت الأقدام ، والجَوْدِ بالنُّفُوس ، وٱشْتِدَاد الأيدى ؛ وقُوَّةِ الشَّكَائِم ، وٱسْتِصْحَاب العَزَائِم ، وتَفْخِيم أَمْرِ العَدُوّ : بوصــفه بكَثْرة الرِّجال والأَجْنَاد ، والقُوَّة والاستعداد : لأنّ تَوَقُّعَ الظَّفَر بمَنْ هذه صِفَتُه أعظمُ خَطَرا ، وأوقع فى النفوس أثرا .

ثم يذكر ماجَالَ بين الفريقين من قِرَاع ومِصَاع ، ومُضَــارَبَة ودِفَاع ؛ ومُصَاوَلة ومناضله ، ومُنَاهَدَة ومُكَافَحَه ، وحِمَايةٍ ومُنَاخَه ، وثَبَات ومُصَافَفَه ؛ ومُقَاوَمَة ومُوَاقفه ، ومُخَادَعَة ومطامعــه ؛ وينعت المَوَاكِب والكَتَائِب ، والخيول والأَسْلِحة ؛ والجَرْحَىٰ والمُجَدَّلين ، والأسرىٰ والمُقَتَّلين . وٱستعمال التشبيهات الفَائِقَه ، والاستعارات الرَّائِقَه ؛ وإرْدَافِ المَعَانِى فى الإبانة عن لَمَعَانِ أَسِــنَّة الذَّوابل ، وبَرِيقِ صَفَحَات المَنَاصِل ؛ وإعمال المَقَاصِلِ فى القِمَم ، وظهور نجوم السُّيُوف من لَيْلِ الحرب فى دَيَاجِى الظُّلَم ؛ وينعت الدماء المُنْبَعِثَةِ من الجراح ، علىٰ متون الرِّماح والصِّفاح .

ويذكر ما أظهره الله تعالىٰ : من تَكَامُلِ النَّصْر ودلائل الظَّفَر ، وما ٱنجلت عنه الحرب : من قَتْلِ من قُتِــل وأَسْرِ من أُسِر ، وهَزِيمة من هُزِم ؛ وما فاز به الرجال من الأَسْلَاب والأموال ، والدَّوابِّ والرِّجَال ؛ وما جَرَتْ عليه الحالُ من ٱنْفِلال العدوّ عند المقاتلة ، أو أَسْرِ العَدُوّ إن أسر ، أو ٱعتصامه بمَعْقِلٍ لايُحَصِّنُه ، أو ٱمْتِنَاعه بحَيْثُ يحتاج إلىٰ مُنَازَلته باستنزاله قَسْرًا ، أو حِيَازَةِ المعقل الذى كان بيَدِه ، وما ٱعتمد فيه : من حُسْن السِّيره ، وتَخْفِيف الوَطْأَة عن الرَّعِيَّــة وحَسْم أســباب الفتنة ؛ أو رَغْبَتِه فى المُسَالمه ، وسُؤاله فى المُهَادَنه ؛ لخَوْفٍ أظَلَّه ، وهلَعٍ ٱحْتَلَّه ؛ وما تردّد من رسائل ، وتَقَرَّر من شروط وعُقُود ؛ وإنفــاذِ الأمر فى ذلك كما أوجبــه الحَزْم ، وٱقتضاه صَوَابُ الرأى .

وإن كان السِّلْم قد وقع، والتَّنَازُع قد ٱرتفع؛ ذكر ٱتِّفـاقَ الحِزْبَيْن(١)، وٱتِّحَادَ الكَلِمه، وشُمُول النعمه .

وإن كان لم يجبه إلىٰ المهادنه ، حَذَرًا من المَكْر والمخادعَه، ذكَرَ ما مَرَّ فى ذلك من رَأْيٍ وتدبير، وتسديدٍ وتقْرير .

وإن كان طلب المهادنة ليَجِدَ فُسْحَةَ المَهْلِ فيُكَثِّرعدده، ويُجِمّ عُدَدَه، وتَتِمّ حِيلَتُه؛ فٱطَّلعَ منه علىٰ ذلك، فبَادرَهُ مُفَلِّلًا لكَيْده ومكْره، مُذِيقًا له وبَالَ أمْرِه؛ شَرحَ الحالَ علىٰ نَصِّها وما ٱنتهىٰ إليه آخرها .

قال : وقد يَقَع من هذه الأمور مالا يُحْتَسَبُ، وسبيلُ جميعه هذا السبيل .

ثم قال : ويُخْتَم الكتابُ بحمـد الله القَاضِى لأوليائه بالإداله، ولأعدائه بالإذَالَه؛ الذى يستَدْرِج بحِلْمِه إمْهَالا؛ ولا يَلْقىٰ العادلُ عن حكمه إهْمَالا؛ والصلاةِ علىٰ رسوله صلّى الله عليه وسلم وعلى آله .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدّمة المكاتبات فى أوائل المقالة الرابعة من الكِتَاب، أن هـذه الكُتُب ممـا يجب بَسْطُها والإطنابُ فيها ؛ وأن ماوقع فى كِتَابِ المُهَلَّب ٱبن أبى صُفْرَةَ، من كِتَابه إلىٰ الحَجَّاج فى فَتْح الأَزَارِقَةِ من الخوارج، علىٰ عِظَم الفَتْح وبُعْد صِيتِه ، علىٰ سبيل الإيجاز والٱختصار، حيث قال فيه :

أما بعد ، فالحمد لله الذى لا تَنْقَطِعُ موادّ نِعَمه عن خَلْقِه حَتّى تنقطعَ منهم موادّ الشُّكْر . وإنا وعَدُوّنا كُنَّا علىٰ حال يسرّنا منهم أكثر ممَّـا يَسُوءُنا، ويَسُوءُهم منَّا أكثر ممـا يَسُرُّهم ؛ ولم يزل الله جل ثنـاؤه يَزِيدُنا ويَنْقُصُهم ، ويُعِزُّنا ويُذِلُّهم، ويُؤَيِّدُنا ويَخْذُلُهم ، ويُمَحِّصُـنا ويَمْحَقُهم ؛ حَتّى بلغَ الكتابُ أجلَه . ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ

(١) فى الاصل "ٱتساع الحربين" وهو غير مناسب .

ظَلَمُوا وَالْحَمْـدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَـالَمِين ﴾ فإنّمـا سَلَك فيه سبيلَ الإيجازِ، لكونه من التابع إلىٰ المتبوع ؛ إذ الحَجّاجُ كان هو القائمَ بأمْرِ العِرَاقِ وما وَالَاه لعَبْد المَلِكِ بن مَرْوان، علىٰ شدّة سَطْوَتِه، وما كان عليه من قوّة الشَّكِيمة وشِـدَّةِ البَأْسِ؛ مع كون الأدَبِ فى مكاتبة المرءوسِ الرئيسَ الإتْيانَ بقليـل اللفظ الدال علىٰ المَقْصَدِ؛ حتّىٰ لا يكون فيه شَغْلٌ للرئيس بطول الكلام وبَسْـط القول، علىٰ ما تقدّم بيانه فى موضعه .

وٱعلم أن الكتابة فى فتوحات بلادِ الكُفْر ومَعَاقِلِهم والٱسـتيلاءِ علىٰ بلاد البُغَاةِ تَكَادُ أن تكون فى الكتابة (١) علىٰ نَسَقٍ واحد ؛ إلا أنَّ مجَـال الكاتب فى فتوحات بلاد الكُفْر أوسع ،من حيثُ عِزَّةُ الإسلام علىٰ الكفر،وظهورُ دينِه علىٰ سائرِ الأديان .

وهذه نسخة كتاب بفتحٍ فتَحَه الخليفة وعاد منه ، وهى :

الحمـد لله مُديلِ الحَقِّ ومُنـيرِه ، ومُذِلِّ الباطل ومُبيرِه؛ مُؤَيِّد الإسـلام بباهر الإعْجاز، ومُتمِّ (٢) وعْدِه فى الإظهار بوَشِيك الإنجاز؛ وأخْمَدَ كُلَّ دين وأعْلَاه ، ورفض كُلَّ شرع وٱجْتَباه؛ وجعله نُورَه اللّامع ، وظِلَّه المَـاتِـع ؛ وٱبْتَعَثَ به السراجَ المُنِير، والبَشِيرَ النَّذِير؛ فأوضح مَنَاهِجَه ، وبيّنَ مَدَارِجَه ؛ وأنارَ أعلامه ، وفَصَّـلَ أحكامَه ؛ وسَنَّ حَلَالَه وحَرَامَه ، وبيّنَ خاصَّه وعامَّه ؛ ودَعَا إلىٰ الله بإذنه ، وحَضَّ علىٰ التَّمَسُّك بعِصَمِ دينه ؛ وشَمَّرَ فى نَصْره مُجَاهدا مَنْ نَدَّ عن سبيله ، وعَنَدَ عن دَلِيلِه؛ حتّىٰ قَصَّدَ الأنْصابَ والأصنام ، وأبطل المَيْسرَ والأزلام؛ وكَشَفَ غَيَابَاتِ الإظلام ، وٱنْتَعَلَتْ خَيْلُ الله بقبائل الهَـام (٣) .

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

(٢) يؤيد ماورد هنا التصحيحَ الذى أوردناه بهـامش (١) من (ج ٦ ص ٤٤٠) من هـذا المطبوع فليراجع هناك .

(٣) يؤيد ماورد هنا أيضا التصحيحَ الذى أوردناه بهامش (٢) من (ج ٦ ص ٤٤٠) .

يحمده أميرُ المؤمنين أنْ [جَعَله مِن وُلاة أمرِه، ووَفَّقَه لاتِّباع سُنَّة رسوله واقْتِفاءِ أَثَرِه،وأعانه علىٰ تمْكِين الدين،وتوْهِين المشركين، وشِفاء صدور المؤمنين و] (١) أنهضه بالمُرامَاةِ عن المِلَّه ، والمحاماة عن الحَوْزَه، وإعزازِ أهْلِ الإيمان، وإذلالِ حِزْبِ الكُفْران ؛ ويسأله الصلاةَ علىٰ خِيرَتِه المُجْتَبىٰ ؛ وصَفْوَتِه المنْتَضىٰ، محمد أفضلِ من ذَبَّ وكافَحَ، وجاهد ونافحَ، وحمىٰ الذِّمار، وغَزَا الكُفَّار ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ أخيه وابن عمه أمير المؤمنين عَلِيِّ بن أبي طالبٍ سَيْفِه القاطع، ومِجَنِّه المُدَافِع ؛ وسَهْمِه الصَّارِد، ونَاصِره المُعَاضد، فارِسِ الوقائع، ومُفَرِّق (٢) الجمائع ؛ مُبِيد الأقران، ومُبَدِّد الشُّجْعَان، وعلىٰ الطَّهَرَة من عِتْرَتِه أئمةِ الأزمان، وخالصة الله من الإِنْس والجَان .

وإنَّ أَوْلىٰ النِّعَم بأن يُرْفَلَ فى لِبَاسِها ، ويُتَوَصَّلَ بالشُّكْرِ إلىٰ إينَاسِها (٣) ؛ ويُتَهَادىٰ طِيبُ خَبَرِها ، ويُتَفَاوَضَ بحسْنِ أثَرِها ؛ نِعْمَةُ الله تعالىٰ فى التوفيق لِمُجَاهَدة أهل الإلْحَادِ والشِّرك ، وغَزْوِ أُولِى البَاطل والإفْك ؛ والهُجُومِ عليهم فى عُقْر دارهم ، واجْتِثَاث أصْلِهم والجِدّ فى دَمَارِهم ؛ واستنزالهم من مَعَاقلهم ، وتَشْريدِهم عن منازلهم ؛ وتَغْمِيض نواظرهم الشُّوسِ [وإلْبَاسِهم لِبَاسَ البُوس (٤)] لما فى ذلك من ظهور التوحيد وعِزِّه، وخُمود الإلحاد وعَرِّه ؛ وعُلُوّ ملة المسلمين ، وانخفاض دَوْلَةِ المشركين ؛ ووضوح [مَحَجَّة] (٤) الحَقِّ وحُجَّته، وصُدُوع بُرْهَانه وآيته .

وكتاب أميرالمؤمنين هذا إليك وقد انْكفأ عن ديار الفلانيِّين المشركين إلىٰ دَسْتِ خِلافته، ومَقَرِّ إمامته ؛ بعد أَنْ غَزاهم بَرًّا وبَحْرا، وشَرَّدَهم سَهْلًا ووَعْرا، وجَرَّعَهم

(١) الزيادة عما تقدم (ج ٦ ص ٤٤٠) .

(٢) ورد بدل هذه الكلمة فى (ج ٦ ص ٤٤١) "معبوس" وقد وضع بجانبها هناك علامة توقف لعدم ظهور معناها .

(٣) كذا هنا ، والذى فى (ج ٦ ص ٤٤١) "لباثها" .

(٤) الزيادة عما تقدم فى (ج ٦ ص ٤٤١) .

من عواقب كُفْرهم مُرًّا ؛ وفرّق جَمَائِعهم التى تُطَبِّقُ سهوبِ الفَضَاءِ [خيلا ورَجْلا، وتضيق بها المَهَامه حَزْنًا وسَهلًا، ومزّق كَتَائبهم التى تُلْحِق الوِهَاد بالنِّجَاد، وتختطف الأبصـار ببوارق الأغمـاد] (١) وتجعـل رعود سنابكها فى السماء، وسَـبِيَ الذَّرَارِيَّ والأطفال، وأسَرَ البَطَارِيقَ والأقْيَال، وٱفتتح المَعَاقِلَ والأعمـال، وحَازَ الأسلابَ والأموال، وٱستولىٰ من الحُصُون علىٰ حِصْن كذا وحِصن كذا، ومَحَا منها رُسُومَ الشِّرْك وعَفَّاهَا، وأثبت سُنَنَ التوحيد بها وأمْضَاها، وغَنِمَ أولياءُ أمير المؤمنـين، ومُتَطَوِّعَةُ المسلمين [من الغنائم] (١) ماأقرَّ العيون، وحَقَّقَ الظُّنُون، وٱنفصلوا وقد زادت بصائرهم نَفَاذًا فى الدِّين، وسرائرُهم إخْلاصًا فى طاعة أمير المؤمنين، بمـا أولاهُم الله من النَّصْر والإظْفَار، والإعزاز والإظهار، ووَضَحَ للمشركين بمـا أنزل الله عليهم من الخِذْلَان، وأنالهم إيّاه من الهوان، أنهم علىٰ مَضَلَّة من الغَيِّ والعَمىٰ، ومَنْحَاةٍ (٢) من الرُّشْد والهُدىٰ، فضَرَعُوا إلىٰ أمير المؤمنين فى السِّلم والموادعه، وتحمّلوا بَذْلًا بَذَلُوه [تفاديا] (٣) من الكِفَاح والمقـارعه، فأجابهم إلىٰ ذلك مُتَوَكِّلًا علىٰ الله تعـالىٰ، وٱمتثالًا لقوله إذ يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلىٰ اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ وعاقد طاغيتهم علىٰ كتاب هُدْنَةٍ كتبه له، وأقره فى يده، حُجَّةً بمضمونه.

أشعرك أمير المؤمنين ذلك: لتَأْخُذَ من هذه النِّعْمَةِ بنصيبِ مِثْلك من المُخْلِصين، وتَعرفَ مَوْقِعَ ما تفضّـلَ الله تعـالىٰ به علىٰ الإسلام والمسلمين؛ فيحسنَ ظَنُّك، وتَقَرَّ عينُك، وتشكُرَ الله تعالىٰ شُكْرَ المُسْتَمِدِّ من فضله، المُعْتَدِّ بطَوْله، وتَتْلُوَ كتاب

(١) الزيادة عما تقدم فى (ج ٦ ص ٤٤١).

(٢) فى (ج ٦ ص ٤٤٢) من هذا المطبوع "وبُعْد".

(٣) الزيادة عما تقدم فى (ج ٦ ص ٤٤٢).

أمير المؤمنين، على كَافَّة مَنْ قِبَلَك من المسلمين : ليعلموا ما تولاهم الله به من نَصْرِه وتمكينه ، و إذْلالِ عَدُوّهم وتَوْهِينه ؛ فآعلم ذلك وآعمل به، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم الفتوح إما فتح لبعض بلاد الكُفْر ، و إما فتح لِمَا استولىٰ عليه البُغَاةُ من المسلمين .

فأما فَتْح بلاد الكُفَّار فكان سبيلهم فيه أن يُصَدَّرَ الكتاب بحمد الله تعالىٰ على عُلُوِّ دين الإسلام ورِفْعَتِه، و إظهاره علىٰ كل دين؛ ثم علىٰ بَعْث النبيّ صلّى الله عليه وسلم بالهِدَايَة إلىٰ الدِّين القويم ، والصِّراطِ المُسْتقيم ؛ ويذكَرَ ما كان من أمره صلّى الله عليه وسلم من جِهَاد الكُفَّار . ثم علىٰ إقامة الخُلَفَاء فى الأرض حِفْظًا للرَّعِيَّه ، وحِيَاطة للبريّه ، وصَوْنا للبَيْضَه ؛ ويخصّ خليفة زَمانِه من ذلك بما فيه تفضيلُه ورفعةُ شأنه؛ ثم يؤخذ فى تعظيم شأن العدوّ وتَهويل أمره، وكثرة عَدَدِه، ووُفُور مَدَدِه؛ ثم فى وصف جيوش المسلمين بالقوّة والآستعداد، والآشْتِدَاد فى الله تعالىٰ، والقِيَام فى نُصْرة دينه؛ ثم تذكر المَلْحَمَة وما كان من الوَقِيعَة وآلْتِحَام القِتَال ، وما آنْجَلَتْ عنه المَلْحَمَةُ من النُّصْرَة علىٰ عَدُوِّ الدين وخِذْلانِه، والإمكان منه، وقَتْل من قُتِل منهم ، وأسر من أُسِر ، وتفريق شَمْلِهم ، وآنتظام كلمة الإسلام ، وطَمَاعِيَتِهم بهَلاكِ عَدُوّهم ، وما فى معنىٰ ذلك .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به إلىٰ الدِّيوان العزيز، أيام الناصر لدين الله، عن السلطان صَلاَح الدِّين يُوسُفَ بن أيُّوبَ، بفتح القُدُس الشريف ، و إنْقَاذه من يدِ الكُفْر، فى آخر شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، من إنشاء القَاضى الفَاضل ، وهو :

أدام الله أيام الدِّيوان العزيز النَّبوِيِّ الناصِرِيِّ، ولا زال مظَفَّر الجدِّ بكُلِّ جاحِد، غَنِيَّ التَّوفيق (١) عن رَأْيِ كُلِّ رَائِد ؛ موقوفَ المساعِى علىٰ ٱقْتِنَـاءِ مُطْلَقَاتِ المحـامد؛ مُسْتَيقِظَ النَّصرِ والسيفُ فى جَفْنِه رَاقِد، وَارِدَ الجُودِ والسَّحابُ علىٰ الأرض غيرُ وَارِد؛ متعدّدَ مساعى الفَضْل وإن كان لايُلْقىٰ إلابشُكْرٍ واحد ، مَاضِىَ [حُكْمِ القَوْلِ] (٢) بعزْم لايمضى إلابنَسْل غَوِىٍّ ورَيْش رَاشِد ، ولا زالت غيوث فضله [إلىٰ الأوليـاء] (٢) أنْوَاءً إلىٰ المَرَابع وأنوارًا إلىٰ المساجد؛ وبُعوثُ رُعْبِه إلىٰ الأعداء خَيْلًا إلىٰ المَرَاقِب وخَيَالًا إلىٰ المراقد .

كَتَبَ الخادِمُ هذه الخِدْمَةَ تِلْوَ مَاصدر عنه ممَّـا كان يجرى مجرىٰ التباشـير لصُبْح هـذه الخِدْمه، والعُنْوانِ لكتَّاب وَصْفِ هذه النعمه ، فإنهـا بَحْرٌ للأقلامِ فيه سَبْحٌ طويل ، ولُطْف تحمُّل الشكر فيه عِبْءٌ ثقيل ؛ وبُشْرىٰ للخواطر فى شَرْحِها مآرِب، ويُسْرىٰ للأسرار فى إظهـارها مَسَارِب؛ ولله فى إعادة شكره رِضَا ، وللنعمة الرَّاهنة به دَوَامٌ لايُقَال معه: هذا مَضىٰ؛ وقد صارَتْ أمورُ الإسلام إلىٰ أحْسَنِ مصايِرِها، وٱسْتَتَبَّتْ عقـائدُ أهـله علىٰ أبيَنِ بصَائِرِها ؛ وتَقَلَّص ظِلُّ رجَاءِ الكافر المبسوط، وصَدَقَ اللهُ أهلَ دِينِـه فلمَّا وقع الشرطُ حَصَلَ المشروط ؛ وكان الدِّينُ غَريباً فهو الآنَ فى وَطَنِه، والفَوْزُ مَعْروضًا فقد بُذِلَتِ الأنفسُ فى ثَمَنِه ؛ وأَمِرَ أمْرُ الحَقِّ وكان مُسْتَضْعَفًا، وأُهِلَ رَبْعُهُ وكان قد عِيفَ حين عَفَا ؛ وجاء أمرُ اللهِ وأُنُوفُ أهلِ الشِّرْك رَاغِمَه ، فَأَدْلَجَتِ السيوفُ إلىٰ الآجال وهى نَائِمَه ؛ وصدَقَ وعدُ الله فى إظهار دينه

(١) كذا هنـا وفيما تقـدم ، والذى فى وفيات الأعيـان لأبن خلكان (ج ٢ ص ٥٨٤) "غَنِيًّا بالتوفيق" .

(٢) الزيادة عن رسائل القـاضى الفاضل الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب السـلطانية نمرة ٢٢٩٤ أدب .

علىٰ كُلّ دِين ، وآسْتَطَارَتْ له أنوارٌ أبَانَتْ أنَّ الصَّباح عندها حِيَانُ الحين[1] ؛ وآستردَّ المسلمون تُرَاثًا كان عنهم آبِقًا ، وظَفِروا يَقَظَةً بِمَا لم يُصَدِّقُوا أنهم يَظْفَرُونَ به طَيْفًا علىٰ النَّأْيِ طَارِقًا ، وآسْتَقَرَّتْ علىٰ الأَعلىٰ أقدامُهم ، وخفَقَتْ علىٰ الأقصىٰ أعْلامهم ، وتلاقَتْ علىٰ الصَّخْرَةِ قُبَلُهُم ، وشُفِيَتْ بها وإن كانت صَخْرة [قُلُوبُهم][2] كما تُشْفىٰ بالمَاء غُلَلُهُم .

ولما قَدِم الدِّين عليها عَرَفَ منها سُوَيْدَاءَ قَلْبِه ، وهَنَّأَ كُفُؤُهَا الحَجَرُ الأَسْوَدُ بَبَتِّ عِصْمَتِها من الكافر بِحَرْبِه ، وكان الخادمُ لا يسعىٰ سَعْيَه إلا لهذه العُظْمىٰ ، ولا يقاسى تلك البُؤْسىٰ إلّا رجَاءَ هذه النُّعْمىٰ ، ولا يُنَاجِزُ من يَسْتَمْطِلُه فى حَرْبِه ، ولا يُعَاتِب بأطراف القَنَا مَنْ يَتَمادىٰ فى عَتْبِه ، إلا لتكونَ الكلمةُ مجموعه ، والدَّعْوَة إلىٰ سامعها مرفوعه ، فتكون كلمةُ الله هى العُلْيا ، وليفُوزَ بجَوْهَرِ الآخرة لا بالعَرَض الأدْنىٰ من الدُّنيا ، وكانت الألْسِنَةُ رُبَّمَا سَلَقَتْه فأَنْضَج قُلُوبَها بالآحتقار ، وكانت الخواطر ربَّمَا غَلَتْ عليه مَرَاجِلُها فأطْفَأَها بالآحتمال والآصطِبَار ، ومَنْ طَلَبَ خَطِيرًا خاطَرَ ، ومن رَامَ صَفْقَة رابحةً تجَاسَر ، ومَنْ سَمَا لأَنْ يُجَلِّيَ غَمْرَةً غَامَرَ ، وإلَّا فإنّ القُعُود يُلِينُ تَحْتَ نُيُوبِ الأعداء المعَاجِمَ فَتَعَضُّها ، ويُضْعِفُ بأيديها مَهز القوائم فَتَقُضُّها ، هذا إلىٰ كَوْنِ القُعُود لا يَقْضِى فرضَ الله فى الجِهَاد ، ولا يُرْعىٰ به حَقُّ الله فى العِبَاد ، ولا يُوفىٰ به واجبُ التقليد الذى تَطَوَّقَه الخادمُ من أئِمَّة قَضَوْا بالحَقّ وبه كانوا يَعْدِلُون ، وخُلَفَاءُ الله كانوا فى مثل هذا اليوم لله يسألون ؛ لاجَرَمَ أنهم أورثوا سِرَّهم وسَرِيرَهم خَلَفَهُمْ الأطهر ، ونَجْلَهُم الأكبر ، وبَقِيَّتَهم الشريفه ، وطَلْعَتَهم المُنِيفه ، وعُنْوَانَ صحيفة فَضْلهم لا عَدِمَ سَوادَ العَلَمِ وبَيَاضَ الصحِيفه ؛ فما غابوا

(١) كذا فيما تقدم أيضا (ج ٦ ص ٤٩٧) وفى وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) "عند حسان الجبين" .

(٢) الزيادة عن وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) .

لَمَّا حضر، ولاغَضُّوا لَمَّا نَظَر؛ بل وصَلَهُم الأجْرُ لِمَا كان به موصولا، وشاطروه العَمَلَ لِمَا كان عنه منقولا ومِنْه مقبولا؛ وخلَص إليهم إلىٰ المضاجع ما اطْمَأَنَّتْ به جُنُوبُها، وإلىٰ الصحائف ماعَبَقَتْ به جُيُوبُها؛ وفاز منها بذِكْرٍ لا يزالُ اللَّيلُ به سميرا، والنهارُ به بصيرا؛ والشَّرْقُ يهتدى بأنْوارِه، بل إن أبدىٰ نُوراً من ذَاتِه هتف به الغَرْبُ بأَنْ وَارِه؛ فإنّه نُورٌ لاتُكِنُّه أغْسَاق السُّدَف، وذِكْرٌ لاتُوَاريه أوْرَاقُ الصُّحُف .

وكتّاب الخادم هذا، وقد أظفر اللهُ بالعَـدُوّ الذى تَشَظَّتْ قَنَاتُه شَفَقا، وطارت فِرَقُه فِرَقا؛ وفُلَّ سَيفُه فصار عَصًا، وصُدِعَتْ حَصَاتُه وكان الأَكْثَرَ عَدَدًاوحَصَا؛ وكَلَّتْ حَمَلاَتُه وكانت قدرة الله تُصَرِّفُ فيه العِيانَ بالعِنَان، عقُوبَةً من الله ليس لصاحب يَدٍ بهـا يَدَان؛ وعثَرَتْ قَدَمُه وكانت الأرض لهـا حَلِيفَه، وغُضَّتْ عَيْنُه وكانت [عُيونُ](١) السيوف دونها كَسِيفَه؛ ونام جَفْنُ سَيْفه وكانت يَقَظَتُه تُرِيقُ نُطَفَ الكَرىٰ من الجُفُون، وجُدِعَتْ أُنُوفُ رِمَاحِه وطالَمَا كانت شامِخَـةً بالمُنىٰ أو رَاعِفَة بالمَنُون؛ وأضْحتِ الأرض المقدّسة الطاهرةَ وكانت الطَّامث، والرَّبُّ المعبودُ الواحدَ وكان عندهم الثالث؛ فبيُوت الشِّرْكِ مهدومه [ونُيُوبُ الكُفْرِ مهْتُومَــه](٢) وطوائفه المُحَامِيَه، مُجْتَمِعةٌ علىٰ تسليم البلاد الحاميه، وشُجْعَانُه المتوافيه، مُذْعِنَةٌ(٣) لبَذْل المطامع الوافيه؛ لايَرَوْنَ فى مَاءِ الحديد لهم عُصْرَه، ولافى فِنَاءِ الأفنية لهم نُصْرَه؛ وقد ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّة والمَسْكَنَه، وبَدَّل الله مكانَ السَّيئة الحَسَنَه؛ ونَقَل بيْتَ عبادته من أَيْدى أصحاب المَشْأَمَة إلىٰ أيدى أصحـاب المَيْمَنَه .

---

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

(٢) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل .

(٣) فى وفيات الأعيان "القلاع" .

وقد كان الخادم لَقِيَهُم اللّقاةَ الأولىٰ فأمدّه الله بمُدارَكته، وأنجده بملائكته، فكسرهم كَسْرَةً مابعدها جبْر، وصرعهم صَرْعَةً لاينْتَعِش بعدها بمشيئة الله كُفر، وأسر منهم من أُسِرَت به السلاسل، وقتَل منهم من فَتَكَتْ به المَنَاصِل، وأَجْلَت المَعْرَكَةُ عن صَرْعىٰ من الخَيْلِ والسِّلاح [والكُفّار، وعن أنصاف محيل فإنّه قتلَهُم بالسُّيوف الأفْلاقِ والرِّماحِ الأكْسَار، فنِيلُوا بثأْرٍ من السِّلاح ونالوه أيضا بثار (١)] فكَمْ أَهِـلَّة سيوفٍ تَقارَضَ الضِّرَابُ بها حتّى صارت كالعَرَاجين، وكم أَنْجُم أسِـنَّةٍ (٢) تبادلت الطِّعَانَ حتّى صارت كالمَطَاعين، وكَمْ فَارِسِـيَّةٍ ركض عليها فارسُها الشَّهْمُ إلىٰ أجَلٍ فَاخْتَلَسه، وفَغَرَتْ تلك القَوْسُ فاهَا فإذا فُوهَا قد نَهَشَ القِرْنَ علىٰ بُعْدِ المسافة فَافْتَرَسه، وكان اليَوْمُ مَشْهُودا، وكانت الملائكة شُهُودا، وكان الكُفْر مفْقُودا والإسلام مَوْلُودا، وجعل الله ضُلُوعَ الكُفّار لنارِ جَهَنّم وَقُودا، وأُسِرَ المَلِكُ وبيده أوْثَقُ وَثائِقِه، وآكَدُ وَصْلِه بالدِّين وعَلائِقِه، وهو صَلِيبُ الصَّلبُوت، وقائد أهل الجَبَرُوت، وما دُهِمُوا قطُّ بأمْرٍ إلّا وقَامَ بين دَهْمائهم يَبْسُط لهم بَاعَه، ويُحَرِّضُهم وكان مدُّ اليَدَيْنِ فى هذه الدَّفْعَة وَدَاعَه، لاجَرَمَ أنّهم يَتَهَافَتُ علىٰ ناره فَرَاشُهم، ويَجْتَمِعُ فى ظِلِّ ظَلامه خَشَاشُهم، ويُقاتلون تحت ذلك الصَّلِيبِ أصْلَبَ قِتَالٍ وأصْدَقَه، ويَرَوْنَه ميثاقاً يَبْنُونَ عليه أشَدَّ عَقْدٍ وأوْثَقَه، ويَعُدُّونَه سُورًا تَحْفِرُ حَوافِرُ الخَيْل خَنْدَقَه .

وفى هذا اليوم أُسِرَتْ سَرَاتُهم، وذَهَبَتْ دُهَاتُهم [ولم يُفْلِتْ منهم معروف إلا القَوْمَص، وكان لعنه الله مَلِيًّا يوم الظَّفَر بالقتَال، ومَلِيًّا يَوْمَ الخِذْلَانِ (٣)] بالاحتِيَال، فنجا ولٰكِنْ كَيْفَ، وطار خَوْفًا من أن يَلْحَقَه مِنْسَرُ الرُّمْح أو جَنَاح السَّيْف،

(١) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل .

(٢) فى وفيات الأعيان وفى رسائل القاضى الفاضل الفتوغرافية "قنًا" .

(٣) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ومن وفيات الأعيان .

ثم أخذه الله تعالىٰ بعد أيامٍ بيَدِه، وأهلكه لمَوْعِدِه؛ فكان لِعِدَّتِهم فَذَالِك، وٱنْتَقَل من مَلَكِ المَوْتِ إلىٰ مالك .

وبعد الكَسْرَة مرّ الخادِمُ علىٰ البلاد فطَوَاهَا بما نَشَر عليها من الرَّاية العباسية السَّوداء صِبْغا، البَيْضاء صُنْعا، الخافِقَةِ هى وقلوبُ أعدائها، الغالبةِ هى [وعزائم أوليائها](١) المُسْتَضَاءِ بأنوارها إذا فتَح عينَهَا البِشْر، وأشارَتْ بأَنَامِل العَذَبَاتِ إلىٰ وَجْه النَّصْر؛ فافتتح بلد كذا وكذا وهذه [كُلُّها](١) أمْصَارٌ ومُدُن، وقد تُسَمَّى البلادُ بِلَادًا وهى مَزَارِعُ وفُدُن؛ وكل هذه ذَوَاتُ مَعَاقِلَ ومعَاقِر، وبِحَارٍ وجَزَائِر، وجَوَامِعَ ومَنَائِر، وجُمُوعٍ وعساكِر؛ يتجاوزها الخادِمُ بعد أن يُحْرِزَها، ويتركها وراءه بعد أن يَنْتَهِزَها؛ ويَحْصُدَ منها كُفْرا ويَزْرَعَ إيمَانًا، ويَحُطَّ من منائر جوامعها صلبانا ويَرْفَعَ أَذَانًا؛ ويُبَدِّلَ المذابِحَ منابِرَ والكَنَائِسَ مساجد، ويُبَوِّئَ بعد أهل الصُّلْبَان أهْلَ القُرْءان للذَّبِّ عن دين الله مَقَاعِدَ . ويُقِرُّ عَيْنَه وعُيُونَ أهل الإسلام أنْ تَعَلَّق النَّصْرُ منه ومن عسكره بِجَارٍّ ومجرور، وأنْ ظَفِرَ بكُلِّ سُورٍ ما كان يُخَافُ زِلْزَالُه وزِيَالُه إلىٰ يوم النَّفْخ فى الصُّور . ولَمَّا لم يَبْقَ إلا القُدْسُ وقد ٱجْتَمَع إليها كُلُّ شَرِيدٍ منهم وطَرِيد، وٱعتصم بمَنَعَتِها كُلُّ قريب منهم وبَعِيد؛ وظَنُّوا أنها من الله ما نِعَتُهم، وأن كَنِيسَتَها إلىٰ الله شافِعَتُهم؛(٢) فلمَّا نازَلَها الخادم رَأىٰ بَلَدًا كبِلَاد، وجَمْعًا كيوم التَّناد؛ وعَزائِمَ قد تألَّبَتْ وتَأَلَّفَتْ علىٰ المَوْت فنزلت بعَرْصَتِه، وهَانَ عليها مَوْرِدُ السَّيْف وأنْ تَمُوتَ بغُصَّتِه؛ فزاوَلَ البَلَدَ من جانبٍ فإذا أَوْدِيَةٌ عميقه، ولُجَجٌ وَعْرَةٌ غَرِيقه؛ وسُورٌ قد ٱنْعَطَفَ عَطْفَ السِّوَار، وأبْرِجَةٌ قد نزلت مكان الواسطة من عِقْدِ الدار؛ فعَدَلَ إلىٰ جِهَة أخرىٰ

(١) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) جواب لما الأولىٰ مفهوم من المقام . أنظر ما كتبناه عند الكلام علىٰ هذه الرسالة فيا تقدم (ج ٦ ص ٥٠١) .

كان للطامع عليها مُعَرَّج، وللخَيْلِ فيها مُتَوَلَّج ؛ فنزل عليها، وأحاط بهـا وقَرُبَ منها؛ وضَرب خَيْمَتَه بحَيْثُ ينـاله السِّـلَاح بأطرافـه ، ويُزَاحِمه السُّور بأكْتَافه ؛ وقابلها ثم قاتَلها، ونزلهـا ثم نازَلها، وبرز إليها ثم بارزَها، وحاجَزها ثم ناجَزها ؛ فضَمَّها ضَمَّةً ٱرْتَقَبَ بعدها الفَتْح، وصَدَعَ أهْلَها فإذا هُمْ لايَصْبِرُون ـ علىٰ عُبُودِيَّة الحَدِّ ـ عن عِتْقِ الصَّفْح؛ فراسلوه ببَذْلِ قَطِيعَةٍ إلىٰ مُدَّه ، وقصدوا نَظْرَةً من شِدَّةٍ وٱنتِظَارًا لِنَجْده؛ فعرَفَهُم الخادِمُ فى لَحْنِ القَوْل ، وأجابهم بلِسَان الطَّوْل؛ وقدّم المَنْجَنِيقَات التى تَتَولّىٰ عُقُوبات الحُصُون عِصِيُّها وحِبَالُها ، وأَوْتَرلهم قِسِيَّها التى تَضْرِب فلا تُفَارِقُها سِهَامُها ولا يفارق سِهَامَها نِصَالُها؛ فصافَحَتِ السُّورَ بأَكنافه فإذا سَهْمُها فى ثَنَايا شُرُفَاتِها سِوَاكُ، وقـدَّم النَّصْرُ نَسْرًا من المَنْجَنِيقِ يُخْلِدُ إخْلَادَه إلىٰ الأرض ويَعْلُو عُلُوَّه إلىٰ السِّمَاك؛ فشَجَّ مرادِعَ أبراجِها، وأَسْمَعَ صَوْتُ عَجِيجِها [صُمَّ أعْلَاجِها] (١) ورفع مُثَارَ عَجَاجِها؛ فأخلىٰ السُّورَ من السَّيَّاره، والحَرْبَ من النَّظّاره؛ فأمكن النَّقَّابُ، أن يُسْفِر للحرب النِّقَاب، وأن يعيد الحَجَر إلىٰ سِيرتِه [الأُولىٰ] (١) من التُّراب؛ فتقـدّم إلىٰ الصَّخْر فَمَضَغَ سَرْدَه بأنياب مِعْوَلِه، وحَلَّ عَقْدَهُ بضَرْبِه الأخْرَقِ الدَّالِّ علىٰ لَطَافَة أَنْمُلِه، وأسمع الصَّخْرة الشريفةَ حَنِينَه وٱسـتغاثته إلىٰ أن كادت تَرِقُّ لمُقَبِّلِه؛ وتَبَرَّأ بعضُ الحِجَارة من بَعْض، وأخذ الخَرَابُ عليها مَوْثِقًا فلَنْ تَبْرَحَ الأرْض، وفتح فى السُّور بابا سَـدَّ من نَجَاتِهم أبوابا، وأخذَ ينقب فى حَجَره فقال عنده الكافر : ﴿يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرابا﴾ فحينئذ يَئِسَ الكفار من أصحاب الدُّور، كما يَئِسَ الكُفَّارُ مِن أَصْحَابِ القُبُور، وَجَاءَ أَمْرُ اللهِ وغَرَّهُمْ باللهِ الغَرُورُ .

وفى الحـال خرج طاغيـة كُفْرهم، وزِمَامُ أمْرِهم، ٱبن بارزان سائلا أن يُؤْخَذَ البَلَد بالسَّلام لا بالعَنْوه، وبالأمان لا بالسَّطْوَه؛ وألقىٰ بيَـده إلىٰ التَّهْلُكه، وعلَاه ذُلُّ

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

المَلْكَةِ بعد عِزِّ المملكه؛ وطرح جَبِينَه فى التراب وكان جَبِينًا لا يَتَعَاطَاه طَارِح، وبذل مَبْلَغًا من القطيعـة لا يَطْمَحُ إليـه طَرْفُ آمِلٍ طَامِح؛ وقال : هاهنا أُسَارَىٰ مؤمنون يتجاوزون الألوف، وقد تعاقد الفَرَنْج علىٰ أنهـم إن هُجِمَتْ عليهم الدار، وحَمَّلت الحَرْبُ علىٰ ظهورهم الأوزار؛ بُدِئَ بهم فعُجِّلُوا، وثُنِّيَ بنساء الفَرَنْج وأطفالهم فقُتِّلُوا؛ ثم ٱستقْتَلُوا بعد ذلك فلم يُقْتَلْ خَصْمٌ إلا بعد أن يَنْتَصِف، ولم يُسَلَّ[(١)] سيفٌ من يدٍ إلا بعد أن تنقطِعَ أو ينْقَصِف؛ وأشار الأمراءُ بالأخذ بالميسور، من البَلَد المأسور؛ فإنّه إن أُخِذَ حَرْبًا فلا بُدَّ أن تقتحِمَ الرجالُ الأنجاد، وتَبْـذُل أنفُسَها فى آخر أمرٍ قد نِيلَ من أوَّلِه المُراد؛ وكانت الجِراحُ فى العساكر قد تقدّم منها ما ٱعتقَل الفَتَكَات، وٱعْتَاقَ الحَرَكَات؛ فقُبِلَ منهم المَبْذُولُ عن يَدٍ وهم صَاغِرُون، وٱنصَرَفَ أهلُ الحَرْب عن قُدْرَةٍ وهم ظاهرون؛ ومَلَكَ الإسلامُ خِطَّةً كان عهدُه بها دِمْنَةَ سُكَّان، نخدمها الكُفْرُ إلىٰ أن صـارت رَوضَــةَ جِنَان؛ لا جَرَمَ أنَّ الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضىٰ أهلَ الحَقِّ وأسخطهم؛ فإنّهم خَذَلَهم الله حَمَوْها بالأَسَـلِ والصِّفَاح [وبَنَوْها بالعَمَدِ والصُّفَّاح[(٢)]] وأودعوا الكنائس بهاوبيُوت الدّيوية والأستبارية منها كُلَّ غريبةٍ من الرُّخَام الذى يَطَّرِدُ ماؤه، ولا يُطْرَدُ لألاؤه؛ قد لَطُفَ الحديدُ فى تجزيعه، وتَفَنَّنَ فى تَوْشِيعه؛ إلىٰ أن صار الحديدُ، الذى فيه بَأْسٌ شـديد، كالذّهَبِ الذى فيه نَعِيمٌ عَتِيد؛ فما ترىٰ إلا مقاعدَ كالرِّيَاض[(٣)] لها من بَيَاض الترخيم رَقْرَاق؛ [وعَمَدًا كالأشجار لها من التَّنْبِيتِ أوراق[(٤)]] .

(١) فى وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٨) ورسائل القاضى الفاضل "يفلك" .

(٢) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ووفيات الأعيان وأنظر ما تقدم من هـذا المطبوع (ج ٦ ص ٥٠٣) .

(٣) فى الأصل "كالأسمار" وفى رسائل القاضى الفاضل "للرياض" والتصحيح من وفيات الأعيان .

(٤) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ووفيات الأعيان .

وأوعَزَ الخادمُ بردّ الأقصىٰ إلىٰ عَهْدِه المعهود، وأقام له مِنَ الأَئِمّة مَنْ يُوَفّيه وِرْدَه المورود؛ وأقيمت الخُطْبة يوم الجمعـة رابعَ شهر شعبان فكادت السموات يَتَفَطَّرْنَ للسُّجُوم لا للوُجُوم، والكواكبُ [منها] يَنْتَثِرْنَ للطَّرَب لاللرُّجُوم؛ ورُفعت إلىٰ الله كَلِمَةُ التوحيـد وكانت طَرَائِقُها مسدوده، وظهرت قُبُور الأنبياء وكانت بالنَّجَاسات مكدوده؛ وأقيمت الخَمْسُ وكان التثليث يُقْعِدُها[وجَهَرَتْ الألْسُنُ بالله أكبرُ وكان سِحْرُ الكُفْر يَعقِدُها](١) وجُهِرَ بٱسم أمير المؤمنين فى وَطَنِه الأَشْرَف من المِنْبَر، فرُحِّبَ به تَرْحِيبَ مَنْ بَرَّ بمَنْ بَرّ؛ وخَفَقَ عَلَماه فى حِفَافَيْه، فلو طار به سُرُورا لَطَارَ بجَنَاحَيْه .

وكتَابُ الخادمِ وهو مُجِدٌّ فى ٱستفتاح بَقِيَّـة الثُّغُور، وٱستشراح ما ضَاقَ بتَمَـادِى الحَرْبِ من الصُّـدُور؛ فإنَّ قُوىٰ العساكر قد ٱستُنْفِدَتْ مَوارِدُها [وأيامَ الشِّتاء قد مَرَدَتْ مواردُها](١) والبلادُ المأخوذة المشارُ إليها قد جَاسَت العساكرُ خلَالَهَا، ونَهَبَتْ ذَخَائِرَها وأكلت غِلَالَهَا؛ فهى بِلَادٌ تُرْفَد ولاتُسْتَرْفَد، وتُجَمُّ ولاتُسْتَنْفَد؛ ويُنْفَقُ عليها، ولا يُنْفَقُ منها؛ وتُجَهَّزُ الأساطِيلُ لبَحْرها، وتُقَامُ المرابِطُ لِبَرِّها، ويُدْأَبُ فى عِمَـارة أسوارها، ومَرَمَّاتِ مَعَاقِلِها؛ وكُلُّ مَشَقَّةٍ فهى بالإضافة إلىٰ نِعْمَـةِ الفَتْح مُحْتَمَلَه، وأَطْماعُ الفَرَنْج [فيما بعد ذلك مَذاهِبُها غيرُ مُرْجِئَةٍ ولا مُعْتَزِله ؛ فلن يَدْعُوا دَعْوَةً يرجو الخادمُ من الله أنَّها لاتُسْمَع، ولَنْ تزولَ أيديهم](٢) من أطواق البِلَادِ حتّٰى تُقْطَع .

وهذه البشائرُ لهـا تفاصيلُ لاتكادُ من غير الألسـنة تَتَشَخَّص، ولا بِمَـا سِوَى المُشَافَهَةِ تَتَلَخَّص؛ فلذلك نَفَّـذْنَا لِسَاناً شَارِحا، ومُبَشِّرًا صَا حا؛ يَنْشُر الخـبرَ علىٰ سِياقته، ويَعْرِضُ جَيْشَ المَسَرَّة من طَليعته إلىٰ سَاقته .

---

(١) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ورسائل القاضى الفاضل "ولن يفكّوا" .

قلتُ : وقد وقَفْتُ علىٰ نسـخة كتاب كُتِبَ به عن المُكْتَفِى بالله، عند ما بَعَثَ محمدَ بن سليمان الكاتبَ إلىٰ الديار المصرية، فانتزعها من يد بنى طُولون وٱسْتَولىٰ عليها للخليفة، فى نحو كُرَّاسَةٍ، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين، أوّلها : أما بعدُ فالحمد لله العَلِيِّ الكبير، العزيز القدير؛ أضْرَبْتُ عن ذكرها لطولها .

الصـــــنف الثامن

(المكاتبة بالاعتذار عن السلطان فى الهزيمة)

قال فى "موادّ البيان" : من أخلاق العامّة تقبيحُ سِيرَةِ السلطان إذا زَلَّ فى بعض آرائه ، والإزْرَاءُ علىٰ تدبيره فى جَيْشٍ يُجَهِّزه فيُكْسَر، ونحو ذلك : ممـا لا يسْلَمُ من مثله ، والإفاضة فيــه والتشنيع به . فيحتاج إلىٰ مكاتبتهم بمـا يَتَلَافىٰ الوَهْنَ ويقيم العُــذْر، كما يكاتبهم بتفخيم المِنَح، وتعظيم الفُتُوحات، والتَّحَدُّث بمواقع المواهب. وشكر الله تعـالىٰ علىٰ إسـباغ النِّعَم ، والإظْفَارِ بأعداء الدين والدَّوْلة : ليُقَوِّىَ بذلك مُنَّتَهم، ويُرْهِفَ بَصَـائِرَهم ويَسْتَخْلِصَ طاعتهم، ويملأ صـدورَهم رَهْبَة . قال : وليست لهــذه الكُتُب رسومٌ ينتظم كُلَّ ما وقع فيهـا : لاختلاف ما يلام فيــه ويعتـــذر .

ثم قال : ونحن نَرْسُم فى أصوله قولا وجيزا : وهو أن يَقْتَضِبَ الكاتبُ له المعاذيرَ التى تُحَسِّن أُحْدُوثَته ، وتستر زَلَّته ؛ والحُجَج التى تُعِيدُ اللَّائم عاذرا ، والذَّامَّ شاكرا ؛ وتُوجِبُ التقريظ من حَيْثُ يجب التأنيب، والإحْمَادَ من حيث يُسْتَحَقُّ التَّذْنِيب. مِثْلُ أن يعتذرَ عن هزيمة جَيْشٍ، فيقول : وقد علِمْتم أن الحَرْب سِجَـال ، والدنيا دُوَلٌ تُدَال ؛ وقد تَهُبُّ رِيحُ النَّصْر للقَاسِطِين علىٰ المُقْسِطِين ٱمتحانًا من الله وبَلْوىٰ،

ليَجزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ويَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنىٰ ــ من غير أن يُصَرِّحَ بباطِلٍ، ولا يُطْلِقَ كذبا مَحْضًا، ولا يَخْتَلِقَ زُوراً يعلم الناسُ خِلافَه؛ فتتضاعَفُ الهُجْنه، وتتكاثَفُ المِحْنَة؛ فإنه لاشَىْءَ أقبحُ علىٰ السلطان، وأقْدَحُ فى جَلاَلَةِ الشان؛ من أن يُعْثَرَ فى كُتُبه علىٰ إفْكٍ قد يعلمه بَعْضُ مَنْ يَقِفُ عليه؛ بل ينبغى أن يعتمدَ فى ذلك حُسْنَ التَّخَلُّصِ والتَّوْرِيَةَ عن الغَرَض، وآستعمالَ الألفاظ التى تَدُلُّ علىٰ أطراف الحال ولا تُفْصِح بحقائقها.

وهذه نُسْخَةُ كتاب من ذٰلك.

الحمد لله الذى سَاسَ الأمورَ بحِكْمَتِه، وأبان فيها مَوَاقِعَ قُدْرَته؛ وسلك فيها طريقَ مَشِيئَته، وصَرَّفها علىٰ مارآه عَدْلًا بين العباد فى أقسام نِعْمَتِه ومِحْنَتِه، وأحوال بَلْوَاه وعافيته؛ وجعلَ الأيامَ فيهم نُوَبا، والأحوالَ بينهم عُقَبا؛ فخصَّ أولياءَه وأهلَ طاعته بالنَّصر فى المُحَاكَمه، والصُّلْح عند المُخَاصمه؛ والظُّهور علىٰ من شَاقَّهُم وعاداهم، والقَهْر لمن ضَادَّهم ونَاوَاهُم؛ إنجازا لما وَعَدبه الصابرين المُحْتَسبين، وإعزازا للدِّين وأنصاره من المؤمنين؛ ولم يُخْلِ أعداءَه من دَوْلَةٍ أدالها لهم، وجَوْلَةٍ علىٰ الحق زادها فى طُغْيانهم؛ ووصل الإمْلَاءَ لهم فيها بخِذْلانهم: لِيَجِبَ الثوابُ للمحسنين، ويَحِقَّ العذابُ علىٰ الكافرين. فقال فى مُحْكَم كتابه ــ وقد ظهر المشركون علىٰ المسلمين ــ ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾. وقال: ﴿ لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ وناوب بين الفريقين فى المصائب، والمواهب، والمسارّ، والمَضارّ؛ ليَشْفِىَ الله صدورَ المؤمنين، ولِيُمَحِّص مافى قلوبهم؛ ويوجبَ لهم إخلاصُ السرائر فى طاعته، والجهادِ فى سبيله، والنُّصْرَةِ

لرسوله ، والمُرَاماةِ عن دينه ، والمدافعةِ عن حريمه ؛ ضِعْفَ الثَّواب وحُسْنَ المآب ، ويُحِلَّ بالمشركين ماأعدّ لهم فى دار الجزاء من أليم العذاب .

و إذا كان الحـال بين الفَريقَيْن المُتلاقِيَيْن ، والفِئَتَيْن المُتجاوِرَتين ، والحِزْبَيْن المُتَحاكَيْن ؛ فى تَعَاوُر الغَلَبَه ، وتَعَاقُب الدَّوْله ؛ جاريا علىٰ تقديرالله ومتصرفا علىٰ حُكْمِه ، ومُسْتَوسِقًا علىٰ ماسَبَق فى عِلْمه ؛ فليس يُغْنِى فى ذٰلك زيادةُ عَدَد ، ولا آتصال مَدَد ، ولا قُوَّةُ أيْد ، ولا لُطْفُ كَيْـد ، ولا آختيارُ وَقْتٍ مَحْمُودٍ للقتال ، ولا الآنْتِخَابُ لأهل البَسَالَة والنَّجْدَةِ من الرجال ؛ ولا يجبُ أن يَسْتَرِيثَ النَّصرَ مَنْ أبْطَأَ عنه ، ويَسْتَشْعِرَ الجَزَعَ من نَالَ خَصْمُه منه ؛ بعد تحصيلِه السلامةَ فى نفسه ، وقِيامِ العُذْرله بعنايته وجِدِّه ؛ وقد جمع الله للأمير من المناقبِ ـ التى وَرِثها عن آبائه ، وحازها فى صدره ؛ والحيازَة فيما بَانَ من فَضْل بَأْسه ، وثبات جَأْشه ؛ وأَصَالَةِ رَأْيه ، وصِحَّة تدبيره ؛ وإيفائه الحَرْبَ شروطها ، والهَيْجاءَ حُقُوقَها : من الحَزْمِ والتُّؤَده ، والإقْدامِ عنـد الفُرْصَه ؛ والإصابةِ فى التَّقْدير والتَّعْبِير ، والآحتياط فى سـدِّ مواقع الخَلَلِ والعَوْره ، وإعمـالِ النَّظَر والرَّوِيَّه ؛ لولا آعتراض القَضَاء الذى هو مَالِكُ نَوَاصِى العبـاد ، وغيرُ مدفوعٍ بمِحَالٍ ولا جِلَاد ، ولا قُوَّةٍ ولا عُدَّةٍ ولا عَتَـاد ـ ما أوفىٰ حُسْنُهُ علىٰ مَزِيَّة الظَّفَر ، وزاد عُظْمُه فى السَّنَاءِ والخَطَر ؛ إلىٰ ماشَمِلَ عَسْكَرَه فى مُنْقَلَبه بمراعَاتِه لهم ، ومُدَافَعَته من ورائهم ؛ حتّى تَوَافىٰ الجَمْعُ مَوْفُورِين ، وآبُوا سالمـين غانمين ؛ و بالله الحَوْلُ والقُوَّةُ وعليـه ضَمَانُ الإدالة علىٰ ما جرى به وَعْدُه الصادق ، وأخبر عنه كِتَابُه الناطق ؛ وهو حَسْبُ أمير المؤمنين وكَافِيه ، ونَاصِرُه ووَالِيـه ، ونِعْمَ الوَكِيلُ والظَّهِير ، والمَوْلىٰ والنَّصِير ؛ وصلّى الله علىٰ سـيدنا محمد سَـيِّد المرسلين ، و إمام المتَّقين ، وآله الطيبين أجمعين ؛ وسَلَّم تسليما .

***

وفى مثله من إنشاء أحمد بن سعيد .

احكام الله جَلَّ جَلَاله جاريةٌ علىٰ سُبُلٍ جامعةٍ لوجوه الحِكْمه ، منْتَظِمَةٍ لأسباب الصلاح والمَعْدَله . فمنها ما عَرَّف الله أوْلِيـاءَه والمندوبين بطاعتـه ، والمجموعين بِهِدَايَته ، طَريقَ المُرَادِ منه ، وسَبَبَ الدَّاعِى إليه ، والعِلَّةَ فيما قُضِى من ذٰلك لِحِينه ، والصُّورَةَ المقتضية له . ومنها ما ٱسْتَأْثَرَ بعِلْمِه ، وطَوىٰ عن الخَلْقِ معرفةَ حالِه ؛ فهو ـ وإن أشكل عليهم مَوْضعُ الحاجة إليه ، ومَوْقِـعُ العائدة به ، ورؤِىَ بهم ٱضطِّرَاباً فى ظاهِرِه عند تَأَمُّلِهِم إياه بمقادير عقولهم ، ومَبَالِـغِ أفهامهم ـ مَبْنِىٌّ علىٰ أوْثَقِ آساس الحِكْمه ، وأثْبَتِ أركان الصَّوابِ علىٰ الجمـله ؛ وكيف لايكون كذلك ؟ والله خالق الأشياء كُلِّها ، وعالم بها قبل كَوْنِها ؛ فى أحوال تَكْوِينِه إياها وبَعْـدَه فى منزع غاياتها ومَقْضِىِّ عواقبها ؛ فليس تَخْفىٰ عليه خَافِيَه ، ولاتَعْزُبُ عنه دَانِيَةٌ ولاقَاصِيَه ؛ ولايسقط عن معرفته فَضْلُ مابين الخَاطِرَيْن والوَهْمَيْن فى الخير والشَّر ، ومابين الجَبَلَيْنِ والذَّرَّتَيْن فى الوُفُور والغمور ، فكيف بما يبرزه الظهور ، ويُخْبِرُ فيه عن موضع التدبير ، المُحْتَاجِ فيه إلىٰ إحكام الصَّنْعَة وإتْقَان التقدير ؛ ومَنْ ظَنَّ أنَّ شيئا من ذلك يخرج عن نَهْجِ الصواب ، ويخـالف طَريقَ الصَّلاح ؛ فقد ضَلَّ من حَيْثُ ضَلَّل ، وغَلِط من حيثُ غَلَّط ، وٱتَّصَـل سُوءُ ظَنِّه ، وفساد فِكْرِه ، بالزِّرَايَةِ علىٰ فِعْلِ رَبِّه ، تعالىٰ عن قَوْلِ المُبْطِلِين ، ورَجْمِ الشَّياطين .

ثم إن لله جَلَّ جَلَالُه عادةً فى الجَيْشَـيْن المتحاربين ، والحِزْبَيْن المتحاكمين : من عباده المؤمنـين ، وأضْدَادِهم المفسدين المُلْحِدين ؛ فى المُدَاوَلَة بينهما ، والمُعَاقَبَة بين الفِئَتَيْنِ منهـما ؛ فى العَجْز والظُّهور ، والوفَاء والقُصُور ، والمُعَافاة والآمْتِحَان ،

والنَّصر والخِـذْلَان ؛ والإعلاء لِرَايَةِ الحَقِّ فى حال ، والإمْلَاء للبـاطل فى أخرىٰ ؛ بتضْـمين الخِـيَرةِ لأوليـائه ، والدائرة علىٰ أعدائه ؛ عاجلا بالتَّمْحِيص لهؤلاء ، وبالمَحْقِ لأولٰئك ؛ بما يَصِلُ إليهم من مُصِيبَتِه ، وينُوبُهم فى حاضر الدنيا من رَغْبَته ؛ ويُحِلُّ العَادِين من المشركين دَارَ الفَاسِقِين ، ويَجْعَلُ العَاقِبَةَ لُلْمتقِيـــن ؛ ومن سَعِدَ بِقسْمٍ من التوفيق ، وحَظٍّ من فائدة الإرشاد ؛ فليس (١) فى هذه الحالة بزيادة أنْصَارٍ وعِدَّه ، وفضل عَتَادٍ وعُدَّه ؛ وبَسَالَةٍ ونَجْدَه ، وأَيْدٍ وقُوَّه ، وسَـعَةٍ وبَسْطَه ؛ ولا يَعْدُو أن يُسَـلِّمَ لله تعالىٰ قَاضيًا له وعليـه ، ويُوفَّى بإحدىٰ الحُسْنَيَيْنِ من عُلُوِّه ، أو غَلَبَـةِ عَدُوِّه ، أو يتوكل عليـه ؛ وهو حَسْبُه مُنْعِمًا ، ومُمْتَحِنا ومُعَافِياً ومُسَلِّمـا ؛ ونِعْمَ الوكيل .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مُسْتَعْمَلٌ بين الكُتَّاب ، دائر فى مُصْطَلَحَاتِهم إلىٰ الآن . وللشَّيْخ شِهَـابِ الدين محمود الحَـلَبِيّ فى ذلك تَفَنُّنَاتٌ كثيرةٌ ، أورد بعضَها فى كتابه "حُسْن التَّوَسُّل" .

فمن ذلك ماأنشأه فيمن هُزِمَ هو وجيْشُه ، يتَضَمَّنُ إقامة عُذْرِه ، ووَصْفَ آجْتِهَادِه ؛ ويَحُثُّ علىٰ معاودة عدوّه ، والطَّلَبِ بثَارِه ؛ وهو :

هـذه المكاتبة إلىٰ فلان : لازَالَ مأْمُونَ الغِرَّه ، مَأْمُولَ الكَرَّه ، مُجْتَنِيًا حُلْوَ الظَّفَرِ من أكْمَامِ تلك المَرَّةِ المُرَّه ، راجيا من عواقب الصَّبْر أن يُسْفِرَ له مَسَاءُ تلك المَسَاءَة عن صُبْحِ المَسَرَّه ، واثقا من عوائد نَصْر الله بإعادته ومن معه فى [القُوَّةِ و] (٢) الآستظهار كما بدأهم أوّل مَرَّه .

(١) بياض فى الأصل ولعله "فليس آنتصاره" تأمل .

(٢) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

أصدرناها وقد ٱتَّصل بنا نَبأُ ذلك المقام الذى أوضَحتْ فيه السيوفُ عُذْرَهَا ، وأبْدَتْ به الكُمَاةُ صَبْرَها ، وأظْهَرتْ فيه الحُمَاةُ من الوَثَبَاتِ والثَّبَات ما يَجب عليها ، وبَذَلَتْ فيه الأبْطَالُ من الجِلاَد جُهْدَها ولٰكِنْ لم يَكُن الظَّفَرُ إليها ، وكَان عليهم الإقْدَامُ علىٰ غَمَرَاتِ المَنُون ، والاْصْطِلاَءُ بجَمَرَاتِ الحَرْب الزَّبُون ، ولم يَكُنْ عليهم إتْمَامُ ماقُدِّر أنَّه لايكون ؛ فكابرتْ رِقَابُ الأعداء فى ذلك الموْقِف السُّيُوف ، وكَاثَرتْ أعْدَادُهم الحُتُوف ، وتدفَّقَتْ بِحَارُهم علىٰ جَدَاوِلِ مَنْ معه ولولا حُكْمُ القَدرِ لاَنْتَصَفَتْ تلك الآحاد من تِلْكَ الألوف ؛ فضَاقَ بٱزدِحَام الصفوف علىٰ رجاله المَجَالَ ، و زاد العدد علىٰ الجَلَد فلم يُفِد له الإقدام علىٰ الأوجال مع قُدُوم الآجال ؛ وأُمْلِي للكافرين بما قُدِّر لهم من الإنْظار ، وحصَلَ لهم من الاْستظهار ، وعُوِّضُوا بما لم يَعْرِفوه من الإقْدَام عَمَّا أَلِفوه من الفِرَار . ﴿ ولَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ وقد و رد أنهم يُنْصَرُون كما نُنْصَر ، وإذا كانت الحُرُوب سِجَالاً فلا يُنْسَبُ إلىٰ مَنْ كانت عليه [وَبَالا] (١) إذا ٱجتهد ولم يُسَاعِدْه القَدَرُ أنه قَصَّر . مع أنه قد ٱشتهر بما فعله فى مَجَالِه ، من الذَّبِّ عن رِجَاله ؛ وما أبداه فى قِتَالِه ، من الضَّرْب الذى ما تَرَوَّى فيه خَصْمُه إلا بَدَرَه بارتجاله ؛ وأن الرِّمَاحَ التى ٱمتدّت إليه أخْرَسَ سَيْفُه ألْسِنَةَ أسِنَّتِها ، والجِيَادَ التى أقدَمت عليه جعل طَعْنَةَ أكْفَالها مكانَ أَعِنَّتِها ؛ فأثبت فى مُسْتَنْقَعِ الموت رِجْلَه ، ووقف وما فى الموت شَكٌّ لواقِفٍ لِيَحْمِيَ خَيْله ورَجْلَه ؛ حَتَّى تَحيَّزَ أصحابُه إلىٰ فِئَةِ مَأْمَنِهم ، وأقام نَفْسَه دونهم دريئَةً لمن بَدَر من سَرَعَان القوم أو ظهر من مَكْمَنِهم ؛ وهذا هو المَوْقِفُ الذى قام له مَقَام النّصر ، إذ فاته النُّصراء وفاته النَّصر ، والمَقَامُ الذى أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أَدْنىٰ العَدَد وفُقِد

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

فيه من اعدائه مع ظهورهم ألوفٌ لايدركهم الحَصْر، [وكذا فليكن قَلْب] (١) الجيش كالقَلْب يَقْوىٰ بقُوَّتِهِ الجَسَد، وإذا حقَّ اللِّقاءُ فلا يَفِرُّ عن كِنَاسِه إلا الظَّبْيُ ولا يَحْمِى [عَرِينَه] (١) إلا الأَسَد؛ وما بَقِيَ إلا أن تَعْفُوَ الكُلُوم، وتَثُوبَ الحُلُوم؛ وتَنْدَمِلَ الجِرَاح، وتَبْرَأَ من فُلُول المَضارِب صُدُورُ الصِّفَاح؛ وتنهضَ لاقتضاء دَيْنِ الدِّين، من غُرَمائه المُعْتَدِين؛ وتُبَادِرَ إلىٰ آستنجاز وعد الله بأن الله يُمَحِّصُ المؤمنين، ويَمْحَقُ الكافرين؛ واللَّيْثُ إذا جُرِحَ كان أشَدَّ لثَبَاتِه، وأمَدَّ لوَثَبَاتِه؛ والمَوْتُورلا يُصْطَلىٰ بناره، والثَّائرُلا يَرْهَبُ الإقدامَ علىٰ المَنُونِ فى طلب ثَاره؛ والدهر ذُو دُوَلٍ، والزمان مُتَلَوِّنٌ إن دَجَتْ عليكم منه بالقَهْرِ ليلةٌ واحدةٌ فقد أشْرَقت لكم منه بالنَّصرِ لَيَالٍ أُوَل، فالمَوْلىٰ لا يلتفت إلىٰ مافات، ويُقْبِلُ بفكْرِه علىٰ تدبير ما هو آت؛ ويُعِدُّ للحرب عُدَّته، ويعجل أَمَدَ الاستظهار ومُدَّته؛ ولا يؤخرفُرْصَةَ الإمكان، ولا يعيد ذِكْرَ مامَضىٰ فإنه دخل فى خَبَرِكان؛ ولا يُظْهِرُ (٢) بما جَرىٰ عَجْزًا، فإن العاجزمَنْ ظَنَّ أنه يُصِيب ولا يُصَاب، ولا يَتَّخِذْ غيرظَهْرِ حِصَانه حِصْنًا فلا حِرْزَ أمنعُ من صَهْوَةِ الجَوَاد ولا سُلَّمَ أَسْلَمُ من الرِّكَاب؛ ولْيَعْلَم أن العاقبة للمتقين، ويَدَّرِعْ جُنَّةَ الصَّبر ليكون من النَّصْرعلىٰ ثِقَةٍ ومن الظَّفَرعلىٰ يَقِين، فإن الله مع الصابرين؛ ومن كان الله معه كانت يَدُه الطُّولىٰ، وإذا لقى عَدُوَّ الله وعَدُوَّه فلْيَصْبِرْ لحَمْلَته فإنَّ الصبرَ عند الصَّدْمَةِ الأُولىٰ؛ والله تعالىٰ يَكْلَؤُه بعَيْنه، ويُمِدُّه بعَوْنه، ويجعلُ الظَّفَر بعدُوِّه موقوفا علىٰ مطالبته له بدَيْنه .

---

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) "حسن التوسل" ولا يظن ماجرىٰ الخ .

* * *

ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار، ويصف الاحتفال بأخذ الثار.

هذه المكاتبة إلى فلان: أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدوّ بما يسرّه، وبلّغه عنّا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصّفاح وألسنة الرّماح سرّه، وأراه من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقّق به أنّ كسوف الشمس لا ينال طلعتها وان سرار القمر لا يضرّه. توضح لعلمه أنه ربما اتّصل به خبر تلك الوقعة التى صدقنا فيها اللّقاء، وصدمنا العدو صدمة من لا يحبّ البقاء، وأريناه حربا لو أعانها التأييد فلّت جموعه، وأذقناه ضربا لو أنّ حكم النّصر فيه إلى النّصل أوجده مصارعه وأعدمه رجوعه. وحين شرعت رياح النّصر تهبّ، وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوب وتصب، وكرعت الصّفاح فى موارد نحورهم، وكشفت الرّماح خبايا صدورهم، وما بقى إلا أن تستكمل سيوفنا الرّى من دمائهم، وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم، وتقبض بالكفّ من صفحت الصّفاح عن دمه، وتكفّ بالقبض يد من ألبسته الجراح حلّة عندمه، أظهروا الجزع فى عزائمهم، وحكّموا الطّمع فى غنائمهم، فحصل لجندنا عجب أعجل سيوفنا أن تتمّ هدم بنائهم، وطمع منع جيوشنا أن تكفّ عن النّهب إلى أن تصير من ورائهم، فاغتنم العدوّ تلك الغفلة (١) التى ساقها المهلكان، العجب والطّمع، وانتهز فرصة الإمكان (٢)، التى أعانه عليها [المطمعان] (٣) إبداء الهلع، وتخلية ما جمع،

(١) كذا فى حسن التوسل وفى الأصل "الفقرة" ولعلها مصحفة عن «الغفوة».

(٢) فى حسن التوسل "فرصة "الكرة".

(٣) الزيادة عن حسن التوسل (ص ١١٩).

فانتثر [من جَمْعِنا](١) بعضُ ذلك العِقْدِ المُنَظَّم، وٱنتقض من حِزْبنا رُكْنُ ذلك الصَّفِّ الذى أخذ فيه الزِّحامُ بالكَظَم؛ وثبت الخادم فى طائفة من ذَوِى القُوّةِ فى يَقينهم، وأرباب البصائر فى دِينِهم؛ فكسَّرنا جُفُون السُّيوف، وحطَّمْنَا صُدُور الرِّماح فى صدور الصفوف، وأرَيْنا تلك الألوفَ كيف تُعَدّ الآحاد بالألوف؛ وحُلْنَا بين العَدُوِّ وبين أصحابِنا بضَرْبٍ يَكُفُّ أطْماعَهم، ويَرُدّ سِرَاعَهُم، ويُعْمِى ويُصِمُّ عن الآثار والأخبار أبْصَارَهم وأسْمَـاعَهم؛ إلىٰ أن نَفَّسْنَا للمنهزم عن خِنَاقه، وآيَسْنَا طالِبَـه عن لَحَاقه، ورَدَدْناه عنه خَائباً بعد أن كادَتْ يَدُه تَعْتَلِق بأطواقه؛ وأحْجَمَ العدُوُّ مع ما يرىٰ من قِلَّتِنا عن الإقدام علينا، ورأىٰ منا جِدًّا كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا؛ وعادوا ولنا فى قلوبهم رُعْبٌ يَثْنِيهم وهم الغالبون، [ويُدْرِكهم وهم الطالبون](١) ويَسْلُبُهم رداء الأمْنِ وهم السالبون؛ وقد لَمَّ الخادم شَعَثَ رجاله، وضم فِرَقهم(٢) بذخائر ماله؛ وأمَدَّهم بنفَقَات أصلحت أحوالهم، وأطلقت فى طلب عَدُوِّ الله أقوالهم؛ وسِلَاحٍ جَدَّدَ ٱستِطَاعَتهم، وأعَانَ شَجَاعَتَهم؛ وخُيُولٍ تكاد تسابِقُهم إلىٰ طَلَبِ عَدُوِّهم، وتَحُضُّهم علىٰ أخذ حَظِّهم من اللقاء كأنَّهـا تساهمهم فى أجْرِ رَوَاحِهم وغُدُوِّهم؛ وقد نَضُوا رِدَاءَ الإعجـاب عن أكتافهم، وٱعتَصَمُوا بعوْن الله وتأييده لا بِقُوَّةِ جَلَدِهم ولا بحِدَّةِ أسيافهم؛ وسَيُعْجِلُون العدوَ ـ إن شاء الله تعـالىٰ ـ عن ٱندمَال جِرَاحه، ويَتَعجَّلون إليه بجيوش تسوءه طَلَائِعُها فى مَسَائِه وتُصَبِّحُه كَتَائبها فى صَبَاحه؛ والله تعالىٰ لا يَكِلُنا إلىٰ جَلَدِنا، ولا يَنْزِع أعِنَّة نَصْره من يَدِنا .

---

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩١٩) .

(٢) الأصـل "وضربهم" والتصحيح عن حسن التوسل .

الصنف التاسع
(المكاتبة بتوبيخ المهزوم وتقريعه والتهكم به)

وهذا النوع من المكاتبات قليل الوقوع، ولذلك لم يتعرَّض إليه فى "موادّ البيان". والذى ينبغى أن تُبْنىٰ المكاتبة فيه عليه ذِكْرُ هزيمة المهزوم وما استولىٰ عليه من الغَلَبَة والقَهْر، وصورةِ الحال فى النُّصْرَةِ عليه، والاستيلاء علىٰ بلادِه وأموالِه وسائر ذات يَدِه؛ وأسْرِ رجاله، واسترقاق ذراريِّهم ونِسائهم؛ ومايجرى مجرىٰ ذلك : ممَّا فيه إيلام خَاطِرِه، وتقطيعُ قَلْبِه حَسَراتٍ علىٰ ما نَالَه؛ ونحو ذلك ممَّا يدعو المكتوبَ إليه إلىٰ الطاعة، ويوجب الانقياد.

وهذه نسخة كتاب من هذا النَّمَط : كتَبَ به القاضى مُحْيِي الدِّين بن عبد الظاهر رحمه الله، إلىٰ البولس بمد(1) ملك الفرنج، المستولى علىٰ طَرَابُلُس من الشام، وأَنْطَاكِيَة من بلاد العَوَاصم حين غَزَاه المَلِك (2) فى طَرَابُلُس، ثم قصد أنْطَاكِيَة فأخذها من عانه(3)، وهى :

قد علم القُومَصُ الجليل المُنْتَقِلَةُ مخاطَبَتُه ـ بأخْذِ أَنْطَاكِيَةَ منه ـ من البُولسية إلىٰ القومصية؛ ألهمه الله رُشْدَه، وقَرَنَ بالخير قَصْدَه، وجعل النَّصيحةَ محفوظة عنده؛ ما كان من قَصْـدِنا طَرَابُلُسَ وغَزْوِنا له فى عُقْرِ الدار، وماشاهده بعـد رَحِيلنا من إخراب العمائر وهَدْمِ الأعمار؛ وكيف كُنِسَتْ تلك الكنائس من علىٰ بساط الأرض ودَارَتِ الدَّوائرُ علىٰ كُلِّ دائر، وكيف جُعلَتْ تلك الجزائرُ من الأجساد علىٰ ساحل البَحْر كالجزائر، وكيف قُطِّرتِ الرجال واستُخْدِمَت الأولادُ وتُمُلِّكَتِ الحَرائر، وكيف قُطِّعَت الأشجار ولم يُتْرَك إلا مايَصْلُحُ لأعواد المَجَانِيق ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ والستائر؛

(١) كذا بالأصل باهمال النقط وفى "الكامل" لابن الأثير (ج ١٠، ص ٢٥٤) "بيمند".
(٢) بياض بالأصل مقدار كلمة. (٣) كذا بالأصل ولعله "منه عنوة".

وكيف نُهِبَتْ لك ولرعيَّتِكَ الأموالِ والحريمُ والأولادُ والحواشي ، وكيف آستغنى الفقيرُ وتأهّلَ العازب وآستخدم الحَرِيمَ ورَكِبَ المَاشي ؛ هذا وأنت تَنْظُرُ نظَرَ المَغْشِيِّ عليه من المَوْت ، وإذا سَمِعتَ صوْتا قلتَ فَزَعًا : عَلَيَّ هذا الصَّوْت ؛ وكيف رَحَلْنا عنك رَحيل من يَعُود ، وأَخَّرْناك وما كان تَأْخِيرُك إلا لأَجَلٍ مَعْدُود ؛ وكيف فَارَقْنا بلادَك وما بَقِيَتْ فيها مَاشِيَه ، إلا وهي لدينا ماشيه ؛ ولا جَارِيه ، إلا وهي في مِلْكنا جَارِيه ؛ ولا سَارِيه ، إلا وهي بين أيدي المَعَاوِلِ سَارِيَه ؛ ولا زَرْعٌ إلا وهو محصود ، ولا موجودٌ إلا وهو منك مفقود ؛ ومامَنَعَتْ تلك المَغَايِر(١) التي هي في رُءُوس الجبال الشَّاهِقه ، ولا تلك الأَوْدِيَةُ التي في التُّخُوم مُخْتَرِقَةٌ وللعقول خَارِقَه ؛ وكيف سُقْنَا عنك ولم يَسْبِقْنا إلىٰ مَدِينَتِك أنْطَاكِيَةَ خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تُصَدِّقُ أننا نَبْعُد عنك وإن بَعُدْنا فسَنَعُود علىٰ الأَثَر ؛ وها نَحْنُ نُعلِمُك بما تَمّ ، ونُفْهِمُك بالبلاء الذي عَمّ .

كان رَحِيلُنا عنك من طَرَابُلُس يوم الأربعاء ، ونُزُولُنَا أَنْطَاكِيَةَ في شهر رَمَضَان ؛ وفي حال النُّزُول خرجت عَسَاكِرُك للمُبَارَزَة وتَنَاصَرُوا فما نُصِرُوا ، وأُسِرَ من بينهم كند اسطمل(٢) فسأل في مراجعة أصحابك ، فدخل إلىٰ المدينة ، فخرج هو وجماعة من رُهْبَانِك : وإن رَأْيَهم في الخَيْرِ مُخْتَلِف ، وقَوْلَهم في الشَّرِّ واحد ؛ فلما رأيناهم قد فات فيهم الفَوْت ، وأنّهم قد قدّر الله عليهم المَوْت ؛ رَدَدْناهم وقُلْنا : نحن السَّاعَةَ لكم نُحَاصِر ، وهذا هو الأوَّلُ في الإنذار والآخر ؛ فرجعوا به مُتَشَبِّهِين بفِعْلِك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخَيْلِك ورَجْلِك ؛ ففي بعض ساعة مَرَّشان المرشان ، وداخَلَ الرَّهَبُ الرُّهْبَان ، ولَانَ للبلاء القَسْطَلَان ، وجاءهم المَوْت من كُلِّ مكان ؛ وفتحناها بالسَّيْفِ

(١) لم يرد في كتب اللغة جمع المغارة على مغاير ، وإنما جمعه مغارات .

(٢) كذا في الأصل باهمال جميع الحروف .

فى الساعة الرابعة من يوم السبت رَابِع شَهْر رَمَضَان، وقَتَلْنا كُلّ من ٱخترتَه لِحفْظها والُمحَامَاة عنها، وما كان أحدٌ منهم إلا وعنده شَىْءٌ من الدنيا فما بقى أحدٌ مِنّا إلا وعنده شَىْءٌ منهم ومنهـا؛ فلو رأيتَ خَيَّالتَـكَ وهى صَرْعىٰ تحت أرجل الخُيُول، و دِيَارَك والنَّهَّابَةُ فيهـا تَصُول والكَسَّابَةُ فيها تَجُول؛ وأَمْوَالَك وهى تُوزَنُ بالقِنْطَار، و إِمَاءَك وكُلُّ أَرْبَعٍ منها تُبَاع فَتُشْترىٰ من مَالِكَ بدينار، ولو رأيت كَنَائِسَك وصُلْبَانُها قد كُسِّرَتْ ونُثِرَتْ، وصُحُفُها من الأناجيل المُزَوَّرة قد نُشِرَتْ، وقُبُورَ البَطَارِقَة وقد تغيرت؛ ولو رَأَيْتَ عدوّك المُسْـلِمَ وقد دَاسَ مكان القدَّاس، والمَذْبَحَ وقد ذُبِحَ فيه الرَّاهِبُ والقِسِّيسُ والشَّمَّاس؛ والبَطَـارِقَةَ وقد دُهِمُوا بِطَارِقَه، وأبناء المَمْلَكَةِ وقد دخلوا فى المَمْلَكه؛ ولو شاهدتَ النِّيرانَ وهى فى قُصُورِك تَخْتَرِق، والقتلىٰ بنَارِ الدنيا قبل نَارِ الآخرة تَحْتَرِق؛ وقُصُورَك وأحوالُها قد حَالَت، وكَنِيسةَ بونصر وكَنِيسةَ القُسَّـيَّان وقد زَلَّت كُلٌّ منهما وزَالت ــ لكُنْتَ تقول: يالَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابًا، ويالبتنى لم أُوتَ بهذا الخَبَرِ كِتَابا؛ ولكانت نَفْسُك تذهب من حَسْرَتِك، ولَكُنْتَ تُطْفِئُ تلك النيرانَ بمَـاءِ عَبْرتك؛ ولو رَأَيْتَ مَغَانِيَك وقد أقفرت، ومَرَاكِبَك وقد أُخِذَت فى السُّوَيْدِيَّة بمَراكِبك، لصارت شَوَانِيك من شَوانِيك؛ ولتيَـقَّنْتَ أن الإلٰه الذى أَنْطَاكَ أَنْطَاكِيَةَ منك ٱسترجعها، والرَّبَّ الذى أعطاك قَلْعتَها منك قَلَعها ومن الأرض ٱقْتَلَعَهَا. ولْتَعْلم أَنَّا قد أخذنا ــ بحمد الله ــ منك ما كُنْتَ أخذتَه من حُصُون الإسلام، وهو دَرْكُوشُ، وشَقِيفُ تَلِّ مَنَّس[1]، وشقيف كَفْردُبِّين، و جميعُ ما كان لك فى بلاد أنطـاكِيَـة فى هذه المدّة إقامة(؟) وكونك ما كُنْتَ بها، فيكون إما قَتِيلًا و إما أَسِيرًا، و إما جَرِيحًا

(١) فى الاصل "تلميس" ولم نعثر عليه فى المعاجم والذى فى معجم البلدان لياقوت أن تَلّ مَنّس حِصْن قرب معرَّة النعمان بالشام.

وإما كسيراً ؛ وسلامة النفس هى التى يفرح بها الحَىُّ إذا شاهد الأموات ، ولعلَّ الله إنّمـا أخَّرَكَ لأنْ تَسْتَدْرِكَ من الطاعة والخِدْمَةِ ما فات ؛ ولمّـا لم يَسْـلَمْ أحدٌ يخبرك بما جَرىٰ خبَّرْناك ، ولمّـا لم يَقْدِرْ أحدٌ [أن] يُبَاشِرَك بالبُشْرىٰ بسلامة نفسك وهَلَاكِ ماسِوَاها بَاشَرْناكَ بهذه المفاوضة وبَشَّرْنَاكَ ، لتتحقّق الأمرَ علىٰ ماجرىٰ ، وبعد هذه المكاتبة لا ينبغى لك أن تُكَذِّبَ لنا خبرا ، كما أنّ بُعَيد هذه المخاطبة يجب أن لاتَسْأَلَ عمّـا جرىٰ .

⁂

وهذه نسخة فى هذا المعنىٰ ، من إنشاء الشيخ شِهَاب الدِّين محمود الحَلَبىّ ، وهى :

هذه المكاتبة إلىٰ فلان أقَالَه اللهُ عَثْرَةَ زَلَّتِه ، وأقامه من حُفْرَة ذِلَّتِـه ، وتجاوز له عن كبيرة فِرارِه من جَمْع عَدُوِّه علىٰ قِلّتِه .

بلغنا أمرُ الواقعة التى لَقِىَ فيها [العَدُوَّ](١) بجَمْعٍ قليلٍ غَناؤُه ، ضَعِيفٍ بِنَاؤُه ؛ كثيف فى رَأْىِ العين جَمْعُه ، خفيف فى المعنىٰ وَقْعُه ونَفْعُه ؛ أسْرَعُ فى مفارقة المَجَال ، من الظِّلِّ فى الانتقال ، وأشْبَه فى مُمَـاثَلَة الوجود بالعدم من طَيْفِ الخَيَال ؛ يَمْشُونَ(٢) إليـه بقَلْبٍ واجب ، ويهتدون من تَخَرُّصه(٣) برَأْيٍ بينه وبين الصَّواب ألْفُ حَاجِب ؛ ويأتَمُّون منه بمقدّم يَرىٰ الواحدَ من عَدُوِّه كَأَلْف ، ويَتَسَرَّعُون منه وراء مقْدَامٍ يمشى إلىٰ الزَّحْفِ ولٰكِن إلىٰ خَلْف ؛ جَنَاحُ جَيْشِه مَهِيض ، وطَرْفُ سِـنَانه غَضِيض ؛ وسَاقَةُ عَسْكَره طالعـه ، وطَلَائِعُه كالنُّجُوم ولٰكِنْ فى حال كونهـا راجعه ؛ تَأْسَفُ السيوفُ بيمينه علىٰ ضارب ، وتأسىٰ الجَنَائِبُ حوله إذ تُعَـدُّ لمُحَارِب فتُعَدُّ لهَارِب ؛

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) فى الأصل "يحفون عنه" والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٣) كذا فى "حسن التوسل" والذى فى الأصل "ويهتدون من تجريبه وتهذيبه بينه" الخ ، ولامعنىٰ له .

وأنه حين وقعت العَيْنُ علىٰ العيَنْ ، وأيقَنَ عدوّه لِمَـا رأىٰ[1] من عَدَده وعُدَده مُعاجلَةَ الحَيْن ؛ أعجلَ نُصول العِدَا عن وُصولهـا ، وترك غنيمة الظَّفَر لِعدَاه بعد أن أشرف علىٰ حُصُولهـا ؛ تُنَاديه ألْسِنَةُ أَسِنَّته : الكَرَّةَ الكَرَّة فلا يَلْوِى إلىٰ نِدَائها ، وتَشْكُو إليـه سيوفُه الظَّمأَ وقد رأتْ مواردَ الوَرِيد فيردُّها إلىٰ الغُمُود بِدَائهـا ؛ فمنح عَدُوّه مَقَاتل رجاله ، وأباحهم كَرَائِمَ مال جُنْده ومَاله ؛ وخلّىٰ لهم خزائنَ سِلَاحه التى أعدّها لقتالهم فأصبحت مُعَدَّةً لِقتَاله ؛ فنجا مَنْجَى الحارث بن هِشَام ، وآب بسلامةٍ أعْذَبُ منها ــلو عَقَلَــ شُرْبُ كأس الحِمَام ؛ وآتَّسَم بين أوليائه وأعدائه بِسِمَةِ الفِرَار ، وكان يقال : النَّار ولا العـار ، فجمع له فِرارُه من الزَّحْف بين النَّار والعَار ؛ وعاد بجَمْع موفورٍ من الجِرَاح ، مُوقَرٍ من الإثْم والآجترَاح ؛ لا عِلْم بمـا جرىٰ عند أسيافهم ، ولا شَاهد بمشاهدتهم الوَغىٰ غير مواقع الظُّبا فى أكتافهم ؛ فبأىّ جَنَانٍ يَطْمَعُ فى معاودة عَدُوّه مَنْ هذا قَلْبُه ، وهؤلاء حِزْبُه ، [وذلك القتال قِتَالُه وتلك الحَرْبُ حَرْبه][2] .

وبعـد فإن كانت له حَمِيَّةٌ فستظهرُ آثارُها ، أو أَرْيَحيَّةٌ فَستَشِبُّ نَارُها ؛ أو أَنَفَةٌ فَستَحْمله علىٰ غَسْلِ هـذه الدَّنيَّه ، وتبعثه علىٰ طَلَب غَايَتَيْنِ : إما شهادةٌ مُرِيحـةٌ أو حياة هَنِيَّه ؛ والله تعالىٰ يُوقِظُ عَزْمَه من سِنَتِه ، ويعجل له الآنتِصَاف من عَدُوّه قبل إكمال سَنَته .

الصـــــنف العـاشر

(فى المكاتبات بالتضييق علىٰ أَهْلِ الجرائم)

قال فى "موادّ البيان" : لم يَزَل السلطان يكتب إلىٰ الوُلَاة ــعند ماينْتَهِى [إليه] من إقدام الرَّعَايا علىٰ آرتكاب الجرائم ، وآستباحة المحـارم ، وآقتراف المـآثم ؛ كالزِّنا

---

(١) فى "حسن التوسل" «ولا يلتفت» .

(٢) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٩) .

واللِّوَاط، وشُرْب الخَمْر، وقَطْع الطُّرُق، والغَصْب والتَّظَالُم، وما يجرى هذا المجرىٰ ـ بالتضييق عليهم، وإقامة حدود الله تعالىٰ فيهم .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله البادئ بنعمته قَبْل ٱفتراض طاعته، المُمْتَنّ بفَضْله قبل إيجاب شُكْرِه، خالقِ الخلائق جُودًا وكَرَما، ومُوسِعِهم منًّا ونِعَماً، الذى ٱختار دِينَ الإسلام وطَهَّره من الأرجاس، ونَزَّهَه عن الأدناس، وٱختصَّ به صَفْوَتَه من النـاس، وٱبتعث به محمدا سـيِّدَ المرسلين : ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴾ . يحمده أمير المؤمنين أن فَوَّض إليه إيَالَةَ خَلْقه، وأقدره علىٰ القيام بخِدْمَتِه، ونصبه لإعزاز دينه، والمُحَافظةِ علىٰ مَفْرُوضـه ومَسْنُونه، وذِيَادَة العباد عن محارِمه التى نَهىٰ عن التعدّى إليها، وإقامة الحدود عليهم فيها، ويسأله الصلاة علىٰ محمد صلَّى الله عليه وسلم .

ثم يقال : وإنَّ أميرَ المؤمنين يرىٰ أنَّ مِنْ أعظم نِعَم الله تعالىٰ عليه تَوْفِيقَه لحِفْظ ما ٱسْتَحْفَظَه من شريعته، ورعايةِ ما ٱسترعاه من بَرِيَّته، وَتَوفيرَ القيام علىٰ مَنْ قَلَّده النَّظَرَ فيهم، وٱعتمادَ ما يعود بالصَّلَاح فى الدِّين والدُّنيا عليهم، ومُسَاواته بين قريبهم وبعيدهم فى تَفَقدِه، ومُمَاثَلَتَه بين قَاصِيهم ودَانِيهم فى تَعَهُّدِه، فلاينال القريب [فقط] نصيبا من رِعَايَته ويُعَلِّم جاهِلَهم، ويَهْدِى حَائِرَهم، ويُشْحِذُ بصائِرَهم، ويُثَقِّفُ مَائِدَهم، ويُصْلِحُ فاسِدَهم، ويَتَخَوَّلُهم من مَوَاعِظه بمـا يُبَرِّد الغُلَل، ويَشْفِى العِلَل، ويَنْسَخ الشَّك باليقين، ويُقْبِسُ مَقَابِس النُّور المبين [فمن] أصغىٰ إلىٰ إرشاده سَعِد جَدُّه، ووَرىٰ زَنْدُه، وأُحْمِد يَوْمُه وغَدُه، ومن خالف عن أمره ضَلَّ مَسْعاه، وخَسِر آخِرَتَه ودُنْياه، ودعا إلىٰ ٱتباع أمر الله تعالىٰ فى تقويمه وإصلاحه، والكَفِّ بإقامة الحُدُود عليه من جِماحه .

وٱنتهى إلى أمير المؤمنين ماأقدم عليه الأحداثُ وأهْلُ الدَّعارة قِبَلَكم من ٱحْتِقاب الآثام، وٱسْتِدْماثِ مَراكب الحرام، والاستهتارِ بمحظُورِ اللَّذَّات، والإكْبَاب على دنِيءِ الشَّهوات؛ التي تَسلُخ من الدِّين، وتُخرِجُ عن دائرة المسلمين؛ وتَدْفَع عن تأدية العبادات، وإقامة الصَّلوَات؛ وتَنْظِمُ في سِلْكِ البهائم المُرْسَلَه، والسوائم المُهْمَلَه. وتقصيرُ مشايخهم وعُلَمائهم عن كَفِّهم، والأخْذ على أكُفِّهم؛ وتعريفِهم وجوهَ مراشِدِهم وتقويم أَوَدِهم؛ فٱمتَعَضَ من ذلك، وأشفقَ من نزول القَوارِع والمَثُلات، وحُلُول البَلِيَّات والآيات؛ وٱرتجاع ما أودعكم الله تعالى من نِعْمَته، وٱنتزاع ما ألبسكم من رَحْمَته؛ وبادر بكتابه مُوقِظًا لغافلكم، ومُبَصِّرًا لذَاهِلكم؛ وباعثًا لكم على مَراضيه الأولى، ومعاودةِ الطريقة المُثْلى؛ ومبادرةِ آجالكم بأعمالكم، والأخذ لأُخراكم من أُولاكم، ولسَقَمِكم من صحّتكم، ولنَوْمكم من يقظَتِكم؛ عالمين بأن الدنيا لَعِبٌ ولَهْو، وأن الآخرة هي دار القَرار، وأنكم فيها كسَفْرٍ شارفوا المنزل. فٱجهدوا عبادَ الله وٱحْتَشِدُوا، وأقلِعُوا وٱرجِعُوا، وٱسمعُوا وعُوا؛ فكأنكم والله وقد توضَّحت خُدَعُها، وتَصَرَّم متاعها، وحلّ متوقَّعها؛ والسعيد من وَثِقَ بما قدّم لنفسه بعد نَفَادِ أيّامه، ووُرُودِ حِمَامه؛ والشَّقِيُّ من أفرط وفرَّط، ونَدِمَ حيث لامَنْدَم. وأوعز إلى والي الحرب فلان بقراءة مانَصَّ فيه عليكم، وٱختبارِ سِيَرِكم بعد مروره على أسماعكم؛ فمن رغِبَ في التَّقْوى، وآثَرَ الآخرةَ على الدنيا؛ عرف ذلك وتوخَّاه بتَكْرِمَته وتَخَوّله، ومَنْ أبى إلا غَوَايَةً وضلالا، وبِطَالَةً ومحَالا؛ أقام حدّ الله تعالى عليه غيرَ مراقَب فيه. فرحم الله عبدا صَانَ نفسَه في هذه الدار عن العَار، وحماها في الآخرة من عذاب النَّار؛ وأميرُ المؤمنين يَرْجُو أن يَنْفَعَكم الله بهدايته، ويَشْفِيَ صُدُورَكم بمَوْعِظَته، ويُرْشِدَكم إلى مايُفْضِي بكم إلى الكِفَايَة والحِمَايَة. فَلْيَعْلَمْ فلان بن فلان ذلك من أمير المؤمنين ورَسْمِه، وليَعْمَلْ عليه بجُمْلته؛ إن شاء الله تعالى.

الصنف الحادى عَشَر
(الكُتُبُ فى النَّهْيِ عن التَّنازُع فى الدِّين)

قال فى "موادّ البيان" : من أهَمِّ ماصَرَفَ إليـه السلطانُ تَفَقُّدَه، ووقف عليه [تَعَهُّده] أمْرَ الرعايا فى أعماله ، وتنفيذُ الكُتُب إليهم بالنَّهْيِ عن التنازع فى الدين، وحَسْمِ أسباب المُجَادَلة والمِراء، والتَّحْذِيرِ من آتِّبَاع البِدَعِ والأَهْواء، والإخْلَادِ إلىٰ مُضِلِّ النِّحَل والآراء: لأنه متىٰ فَسَّح لهم فى هذا الباب صاروا شِيَعًا مُتبَايِنين، وفِرَقًا مُتَحَاربين، وآنْشَقَّت عَصَاهم، وآنقضت حيلُهم، وخرجوا عن أحكام أهل السلامة إلىٰ أحكام أهـل الفِتْنَة، وعاد ضَرَرُ ذلك علىٰ الدِّينِ والسُّلْطان . ولهذا صرف إليه السَّاسَةُ الحَزَمَةُ من الملوك الآهتمام، ولم يَخْلُوا بحَسْم مادَّته علىٰ تغايُرِ الأيام .

ثم قال : والرسم فيها أن تُصَدَّر بحمد الله تعـالىٰ علىٰ نِعَمه فى تأليف كلمة أهـل الإسـلام، ومامَنّ به عليهم من الآتفاق والآلتئام، وشُكْرِه علىٰ مَوْهِبَته فى نَزْعِ الغِلِّ من صُدُورهم، والتأليف بين قلوبهم، وتَصْيِيرِهِم إخوانا مُتَصافِين، وخُلَّانًا مُتَوَافِين، وعَوْنِهِم بمـا وفَّقَهم له من إظْهَارِهِم علىٰ مَنْ شَقَّ عصاهم ، وإقـدارِهم بمـا مَنَحَهم من الأُلْفَةِ علىٰ مُرَامَاة من رَامَاهم، والصلاةِ علىٰ سـيدنا محمد صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وسلم . ثم يَشْفَعُ هذا بأن أمير المؤمنين بمـا مَكَّنه الله تعالىٰ من مَرَاضِيه، ووَفَّقَه له من القيام بفَرْضه، والنُّهُوض بحقوق طاعته ، والعَمَلِ بكتابه وسُنَّته ، ورَغْبَته فى الخير العـام، وشُمُول الصَّـلاح لكافَّةِ الأنام ـ لا يزال يَحُضُّ رَعِيَّته علىٰ مايقضى بسَـدَاد دُنْيَاهم، وحُسْن المُنْقَلَب فى أُخْرَاهم، و يرىٰ أن أنفع ذلك عَائِده ، وأجْزَلَه فائده، ما رفع عنهم أسـبابَ التَّنافُر، ودعاهم إلىٰ التَّعاضُـد والتَّظافُر، وحال بينهم و بين الخَوْض فى مُحْدَث النِّحَل والآراء، والإصغاء إلىٰ مُضِلِّ البِدَعِ والأَهْوَاء، التى

تَصُدُّ عن سَنَنِ الهُدىٰ، وتُلقِي فى مَهاوِى الرَّدىٰ، وتدعو إلىٰ شَـقِّ العصا، وتقضى بانتثار النِّظام، وآختلاف الأنام، وآنْفِصَام عُرىٰ الإسـلام . وكَفِّهِم عن المُمَـارَاة فى الدِّين ، والإصْغَاء إلىٰ سُـنَّة المُضِلِّين، المُعَطِّلَة للسُّنَن ، القَادِحَةِ للفِتَن، الداعية إلىٰ آحْتِقَاب الآثام، و إراقة الدِّماء الحرام، ونحو هذا ممـا يضاهيه .

ثم يقول : وآنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين آلتفاتُكم عن معايشكم التى جَعلَها الله لدُنْيَاكم قِوَاما، وعبادتكم التى صَيَّرها لآخِرَتكم نِظاما، و إقبالُكم علىٰ المُمَارَاة والمنازعه، والمُنَاظرة والمجادله، إلىٰ شُكُوك يُقيمها مَنْ يرغَبُ فى الرِّياسة والتَّقَدُّم : ليفوزَ بخبيث المَطْعَم، الذى يُعْمِى البصائر، ويُفسِـدُ السرائر، ويَقْدَح زَنْدَ الضَّلال ، ويشُبُّ نَارَ المِحَال والآنتحال، فآمْتَعَضَ أميرُ المؤمنين من ذلك وخاف عليكم أليمَ عاجلته، وذَميمَ آجلته، وبَادَرَكم بكتابه هـذا مُنَبِّها لغافلكم، ومُرْشِدًا لجاهلكم، وباعِثًا لكم علىٰ التَّشَاغُل بما أَطَابَ أخبارَكم، وحَسَّن آثارَكم : من تلاوة كتاب الله الذى آثَرَكُم بتلاوته ، و زِيارَةِ بُيُوت عبادته، والتأدّبِ بأَدَبِ نَبِيِّه وعِتْرَتِه ، وأَوْعَزَ إلىٰ النائب فى الحَرْب بتقْويم مَنْ خرج عن أمره، وتثقيف من أَصَرَّ علىٰ غَيِّه ، وأن يَحْسِمَ الداءَ قبل آسْتِشْرَائه، ويَسْتَدْرِكَه دُوَيْنَ آستفحاله ، فآصْـغَوْا إلىٰ زَوَاجِرِ أمير المؤمنين ومَوَاعِظِه ، وآقْتَدُّوا بِهَدْيِه ومَرَاشِده، لتَفُوزوا بطاعته ، وتَسْعَدوا بِرِضَاه، وتَسْلَمُوا فى الحـاضر، من مَهَانَةٍ أنتم بغيرها أَوْلىٰ، إن سلكتم الطريقة المُثْلىٰ، وفى الغابر مما أعدّه الله لمَنْ خالف عن أمره من العقاب فى الدار الأُخرىٰ، فآعلموا هذا وآعملوا به إن شاء الله تعالىٰ .

قال : وقد يَكْتُب السـلطان إلىٰ الرَّعِيَّـة بالنَّهْيِ عن التَّفَاخُر بالبـادِيةِ والتنازع فى العَصَبِيَّة . ثم قال : والطريقة فى هذا المعنىٰ مشتقة من طريقة هذا الرسم .

الصنف الثانى عَشَرَ

(المكاتبــة بالأوامر والنــواهى)

قال فى " موادّ البيان " : علىٰ هــذه الكُتُب مَدَارُ أشغال السلطان فى أعماله ، لأنها النافذة فى تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم وِلَايَةً وعُمَالة .

قال : وليس لهذا أمثلة فنُورِدَها ، لٰكنّه ينبغى للكاتب أن يؤكِّد القول بها ، فإن الأمرَ فيها والنَّهْىَ ـ وإن ٱختلف نَظْمُهُما ـ نوعٌ واحد : لأن كُلَّ مأمورٍ به مَنْهِىٌّ عن ضِــدّه ، وكُلَّ مَنْهِىٍّ عنــه مأمورٌ بضِدِّه ؛ فينبغى له أن يؤكِّدَ القولَ فى ٱمتثال ما أمَرَ ، والعملِ عليه والإنْفَاذله ، والٱنتهاء عمانهىٰ عنه ، والحَذَرِ من الإلمام به . ويجزم الأمر فى العبارة عنهما جَزْمًا تاما لا يُتَمَكَّن معه من الإخلال ببعضهما والنَّقْصِ فيهما لِهَوًى ؛ ويأتى من المبالغة بما يُضَيِّقُ العُذْرَ ، ومتىٰ وقع تقصيرٌ أوتَثَاقُلٌ عما حُدّد فيهما ، فإنّمــا يُمَثِّلُ ذلك بمُثُلٍ جامعة مع تَفَنُّنِ المعانى التى يأمر بها وينهىٰ عنها .

ثم قال : والكاتب إذا عرف الترتيب الواقعَ فى هذيــن الغَرَضَين علىٰ طريق الإجمال ، أمْكَنَه أن يَبْسُطَه إذا ٱحتاج إلىٰ التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالىٰ .

وٱعلم أنه كان للخُلَفَاء والملوك وَوُلَاةِ الأمور فى قديم الزمان عنايةٌ بالكتابة إلىٰ الرعايا بالأوامر والنَّوَاهِى المتعلقة بالدِّين : من الأمْرِ بالمعروف ، والنَّهْىِ عن المُنْكَر ، وما يجرى مجرىٰ ذلك ؛ وإلىٰ العُمَّال بالوَصِيَّة بالرعايا ، والٱجتهادِ فيما لَدَيْهم من جِبَايَة الخَرَاج ، والٱهتمام بأمر الدَّواوِين ، وما أشبه ذلك .

فأما الأوامرُ والنواهِى المتعلقةُ بالدِّين ، فقد تقــدّم فى الكلام علىٰ مُصْطَلَح أهل الغَرْبِ فى أوائل هــذه المَقَالَة من إنشاء أبى زيد الفازازى ما أغنىٰ ذِكْرُه هناك عن إعادته هنا أو ذكر غيره .

وأما الأوامرُ والنواهِى المتعلقةُ بأمور السَّلْطَنة، فمن ذلك ما كَتَب به أبو عبد الله آبن الحنان، عن الأمير أبى عبدالله بن هُودٍ أحَدِ ملوك الطوائف بالأَندَلُس فى الرِّفْق بالرَّعِيَّة، وهو :

أما بعد حمد الله تعالىٰ مُعْلِى مَنَارِ الحَقِّ ورافِعه، ومُولِى مُتَوالِى الإنعام ومُتَتَابِعه ؛ والصلاةِ علىٰ سـيدنا محمد رسولِه مُشَفَّع الحَشْرِ وشَافِعِـه ، المبعوث ببدائع الحِكَم وَجوامِعِه؛ وعلىٰ آله وصحبه المُبَادِرِين إلىٰ مقاصده العَلِيَّة ومَنَازِعِه، والذَّابِّينَ عن حَوْزَةِ الإسلام بمَوَاضِى الآعتزام وقواطعه؛ والرِّضا عن الخليفة الإمام العباسىّ أمير المؤمنين ذى المجد الذى لا يُنَالُ سُمُوُّ مطالعه .

فإنا كتبنا إليكم ، كتب الله لكم عِزَّةً قِدْحُها بالثبوت فائز، وسعادةً قِسْطُها للنَّماءِ حائز؛ من فلانة : وكلمة الحَقِّ منصورةُ اللِّواء، منشورةُ الأضواء، والتوكُّلُ علىٰ الله فى الإعادة والإبداء، والتسليمُ إليه مَنَاطُ أمرِنا فى الآنتهاء والآبتداء؛ وحمدُ الله تعالىٰ وشُكْرُه وُصْلَتُنا إلىٰ نَيْلِ مَزِيد النَّعْماء والآلاء؛ ومكانَتُكم لدَيْنا مكانَةُ السَّنِىّ المَناصِب، المُنْتَمِى إلىٰ كِرَام المُنْتَميات والمَنَـاسب، المُتَحَلِّى فى الغَنَـاء والآكتفَاء، والخلوص والصفاء، بأكرم السَّجِيَّات والمناقب، المعلومِ مالَدَيْه من المُنَاصَحة السَّالكةِ بأكرم السَّجِيَّات فى المَنَاحِى الحِسَانِ علىٰ المَهْيَعِ الأوضح والسَّنَنِ اللَّاحب .

وقد وقفنا علىٰ كتابكم مُعْلِما بخبر فُلَانة وبمـا رأيتموه من المصلحة فى تَحْصِينها، والآجتهادِ فى سَبَب تأمينها، ونحن نَعْلم أنكم تُرِيدُون الإصلاح، وتَتَوخَّوْنَ ماتَتَوسَّمون فيـه النَّجاح ؛ لٰكنْ أهَمُّ الأمور عندنا، وأَوْلىٰ ما يوافق غَرضَنا وقَصْـدنا ؛ الرِّفْقُ بالرَّعِيَّـه، وحَمْلُها علىٰ قوانين الإحسان المَرْعِيَّه ؛ وعلىٰ أَثَرِ وصولِ كتابكم وَصَلَنا كتابُ [أهْـلِ] فلانة المذكورة يَشْكُونَ ضَرر الخَدَمَة المتصَرِّفين فيهـم، ويَتَظَلَّمون من مُتَحَيِّفِيهم ومُتَعَسِّفِيهم ؛ وفى هـذا مالا يخفىٰ عليكم، ولا تَرْضَوْن به لو آنتهىٰ إليكم ؛

فإنه إذا كان الناظر فى خِدْمةٍ مِمَّنْ لا يُحْسِن سِيَاسَةَ الأمور ، ولا يعـلم طريقَ الرِّفْقِ الحـاوِيَةَ لِرِفْقِ الخاصَّة والجمهور، أعاد التَّسْكِينَ تنفيرا ، والتَّيْسِيرَ تعسيرا، وتعلمون أنا لا نقـدّم علىٰ إيثـار العَدْلِ فى عباد الله المسلمين عَمَلَا ، ولا نَبْغِى لهم بَاطِنَةً بغير التخفيف عنهم والإحسان إليهم بَدَلَا، وأنتم أوّلُ وأَوْلىٰ من يُعْتَقَدُ فيه أنه يُكَمِّل هذا المَقْصَد ، ويَتَحَرّىٰ فى مصالح الرعايا هذا السَّنَنَ الأرشد، وقد خاطبنا أهْلَ فُلَانَة بمـا يُذْهِبُ وَجَلَهم ، ويَبْسُط أَمَلَهم، وعَرَّفْناهم بأنكم لو علمتم ماهو جَارٍ عليهم من [بَعْض] الخَدَمَةِ لأخَذْتم علىٰ يَدِه، وجازيتموه بسُوءِ معتمده ؛ وأشعَرْنَاهم بأنَّا قد آستوصينا كم بهم خَيْرا ، ونَبَّهْنا كم علىٰ ما يدفع عنهم ضَيْماً ويَرْفع ضَيْرا ؛ وأنتم ــ إن شاء الله ــ تستأنفون نَظَرًا جميلا، وتؤخرون عنهم الخَدَمَة الذين لا يَسْلُكون من السِّياسة سبيلا؛ وتقـدّمون عليهم مَنْ تَحْسُنُ فيهم سـيرَتُه، وتكْرُم فى تَمْشِيَةِ الرِّفْقِ عَلَانِيَتُه وسريرته؛ ومثْلُكم لا يُؤَكَّد عليه فى مَذْهبٍ تحسن عواقبُه، وغَرَضٍ يوافقه القَصْدُ الآحتياطىّ ويُصَاحِبه، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثالث عَشَر

(المكاتباتُ عند حدوث الآيات السَّمَاوِيَّة)

قال فى " موادّ البيان " : جرت العـادة أن يَكْتُبَ السلطان إلىٰ الرعايا ــ عنـد حدوث الآيات المُهَوِّلة التى يريد الله تعـالىٰ بهـا إرشادَ عباده إلىٰ الإقـلاع عن معصيته، والإقبال علىٰ طاعته، كالرِّياح العواصف، والزَّلازل والصواعق، وآحتباس القَطْر وخروجه فى التَّسْكَاب عمَّـا جرت به العادة ــ كُتُباً يُضَمِّنها من الوَعْظ الشافى الرَّقيق ما يأخذ بمجامع القلوب ، ويُشْعِرُها التَّقوىٰ والرَّهبـة ، ويبعث علىٰ المراقبة والنَّظَر فى العاقبة .

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطَّف فى الموْعظة، ويبالغَ فى الذِّكرىٰ التى تُخْطِر الخواطرَ وتَقْدَح الأنفس، وتُحرِّك العزائم نحوَ الإخلاص؛ فإنه إذا أبرز هذه المعانِىَ فى صُوَرٍ [تُشْعِر](١) الخِيفَةَ من غَضَب الله تعالىٰ وعِقابه، وتُرَغِّبُ فى عفوه وثَوابه؛ نفع الله بذلك (؟) من رَغِبَ عن الهوىٰ، ورَغِبَ فى التقوىٰ بكتابه .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالىٰ علىٰ آلائه التى يُفيضها آبتلاء وآختبارا، وآياته التى يُرْسِلها تَخْوِيفا وإنذارا؛ ومَوْهِبَته فى التَّوْقِيف بسابغ نِعْمَتِه علىٰ طاعته، والتحذير بدافع نِقْمَتِه من معصيته . والصلاة علىٰ رسوله الذى أنقذ بشفاعته، وعَصَم من نُزُول القوارع بنُبُوَّته . ثم يقدِّم مُقَدِّمة تتضمن أن الله تعالىٰ يقدِّم الإعْذار أمام سُخْطه وعذابه، ويبدأ بالإنذار قبل غَضَبِه وعِقَابه؛ فمن آستيقظ من سِنَتِه، ونظر لعاقبته [ونَهَض](١) إلىٰ طاعته، وأقلَع عن معصيته، كشف الرَّيْنَ عن قلبه، وضاعف أجْرَه؛ ومن أضرب عن موْعِظَتِه، وتَعامىٰ عن تبصيره وتذكيره، أخذه علىٰ غِرَّته، وسَلَبه سِرْبَالَ نعْمَتِه .

ثم يأخذ فى حَثِّ الأمة علىٰ الفَزَعِ إلىٰ الصَّلَوَات، والمسارعةِ إلىٰ بُيُوت العبادات؛ والإكثارِ من التَّضَرُّع والخشوع، والآستكانةِ والخُنُوع، بإذراء سَحَائِبِ الدموع؛ وإخلاصِ التَّوْبَةِ عن مُحْتَقَب الآثام ومُخْتَرَع الأوزار، والتَّوَسُّلِ إلىٰ الله تعالىٰ فى قبول الإنابة بقلوب نَقِيَّه، وطَوِيَّات علىٰ الطهارة مَطْوِيَّه، وسرائرَ صريحه، ونيَّاتٍ صحيحه؛ يُصَدِّقُها النَّدَمُ علىٰ الماضى، وعَقْدُ العَزْمِ علىٰ الإقلاع فى الآتى؛ والرَّغبةُ إليه فى رَفْع سُخْطه وإنزال رحمته، وما يجارى هذا .

قلت : وهذا الصِّنْف من المكاتبات قد تُرِك فى زماننا فلا عِنَايَةَ لأحد به أصلا، وإن كان مما يجب الآهتمام به وتقديمه .

(١) بياض بالأصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

الصّـــنْف الرابع عَشَرَ

(المكاتباتُ فى التنبيه علىٰ شَرَفِ مواسم العبادة وشريف الأزمنة)

قال فى "موادّ البيان": إن الله وَقَّتَ لعباده أوقاتا عَظَّم شانها، ورفع مَكَانَها؛ وأمرهم أن يتقرّبوا فيها إليه بتأدية مافرضه عليهم لُطْفًا بهم ورَأْفَه، وحَنَانًا ورَحْمَه.

قال: ولم يزل السلطان يكتب إلىٰ عُمَّـالِه بتنبيه الرعايا عليها، وتَعْرِيفِهِم فضلَ العبادة فيهـا: ليستقبلوها بالإخْبَـاتِ والخُشُوع، ويَتَلَقَّوْها بالتَّضَرُّع والخضوع؛ ويتوسلوا فى قَبُول التَّوْبات، وغُفْرَان الخَطِيَّات؛ حِفْظًا لنظام الدين، وتَفَقُّدا لمصالح المسلمين.

قال: وينبغى للكاتب أن يحسن التَّأَتِّى فى هذه الكتب (١) ويُذَكِّر النَّاسِىَ وينبـه الغَافِلَ اللَّاهى، والمُهْمِل السَّـاهى؛ ويُحَرِّك النفوس نحو مصالحها، ويبعثها علىٰ الأخذ بفاضِلِ الأعمال وصَالِحِها.

قال: والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالىٰ علىٰ أن وهب لعباده أوقاتا يتقبلُ فيها قُرَبَهُم وأعمـالهم، ويُخَفِّفُ بالإنابة إليـه عند حلولهـا أوْزَارَهم وأثقالهم؛ فيغفر لمُسْتَغْفِرِهم، ويَعْفُو عن مُسِيئِهم؛ ويتقبل التَّوْبَةَ عن تائبهم. والصـلاةِ علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله. ثم يقدّم مقدّمة مبنية علىٰ تعظيم هذه الأوقات، والإبانةِ عمـا فى قَصْرِها على العبادات، والمسابقة إلىٰ الخيرات، من عظيم الثواب. ويَشْفَعُ بَبَعْثِ الوُلَاة علىٰ أخذ الرعايا بالمحافظة علىٰ السُّنَن، وتَعَهُّدِ حَقِّ الله تعالىٰ فيها، والتَّوَسُّع فى توكيد الحُجَّه، ونَفْى الشبهه؛ وإيراد المواعظ الرادعه، والزواجر الوازعه؛ التى تَعُود بَشَحْذِ البصائر، وصفَاءِ الضَّمائر؛ والإتْيَان بحقوق هذه الأوقات وواجباتها،

(١) بياض بالاصل مقدار كلمة.

والفَوْزِ بمـا يُوَفِّرُه من جَزِيل بركاتها ، والتَّوفُّر على حُسْنِ مجاورتها ، والتَّقرُّب إلى الله تعالى ببَذْل الصَّدَقات ، والإقبال على الصَّلَوات وزيارة بيوت العبادات ، ومُذَاكرة أهل الدِّين ، والسَّعْيِ فى مصالح المسلمين ، ونحو ذلك مما يناسبه .

ثم قال : فإن كان الكتاب مقصورا على الدعاء إلى الحَجِّ ، ٱفتتح بالحمـد لله على أَنْ جعَـلَ لعباده حَرَمًا آمنًا يُمَحِّص ذنوبَهم بزيارته ، ويَمْحُو آثامَهم بحَجِّه ووِفَادَتِه ، ويلى ذلك مايليق بهمن الحَثِّ على تأدية المَنَاسِك ، وتكميل الفرائض والسُّنَن ، وزيارة قَبْر النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، وكذلك الحكم فى سائر الأبواب الدِّينية .

الصنف الخامس عَشَرَ

(المكاتبةُ بالسلامة فى الركوب فى المواسم والأعياد وما ينخرط فى سِلْكِها من المواكب الجامعة)

قال فى " موادّ البيان " : جَرَت العادة أن يكاتِبَ السلطانُ عُمَّالَه ووُلَاتَه بسلامة المواسم الإسلامية كُلِّها : لأنهـا تُشَاهَدُ لجميع أصنـاف الرَّعايا وذَوِى الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة ، والقلوب المتعادية والمتصاحبة فى أمر الدين والدنيا ، وكُلّ مُتَرَبِّصٍ لِفتْنَةٍ ينتهز فُرْصَتَها . فلاتكاد هذه المَشَاهِدُ تخلو من ثَوْرَةٍ وحدوث أحداث مُنْكَرَة تُفْضِى إلى الفِتَنِ التى لاتُرْفَع . فإذا أنعم الله تعالى بالسلامة منها ، وجب التَّحَدُّثُ بنِعْمَتِه ، والشُّـكْرُ لمشيئته ؛ وأن يكتب أمير المؤمنين بسلامة ما قِبَلَهُ إلى عُمَّالِه ، لتَسْكُنَ الكَافَّةُ إلى ذلك ، ويشتركوا فى حَمْد الله تعالى عليه .

وٱعلم أنـ المواسمَ التى كان يعتاد الخُلَفَاءُ الركوبَ فيها والكتَابةَ بالسلامة منهـا هى : عِيدُ الفطْر ، وعِيد النَّحْر . وكان الخلفاء الفاطِمِيُّون بالديار المصرية يَعْتَادون

مع ذلك الركوبَ فى غُرَّةِ السَّـنَة ، وفى أوّل رَمَضان ، وفى الجمعة الأولىٰ ، والجمعة الثانية ، والجمعة الثالثة منه ، علىٰ ماتقدّم ذِكْرُه فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى المقالة الثانية . وكذلك "عيد الغَدير" : وهو عِيدٌ من أعياد الشِّيعَة كما سيأتى ذكره . ونحن نُشِير إلىٰ ذِكْر مَوَاكبها مَوْكِبًا مَوْكِبًا ، ونذكُر ما جرت به العادة فى الكتابة فى البشارة بالسلامة فى ركوب كُلِّ مَوْكب منها .

الأوّل — البِشَارَة بالسلامة فى الركوب فى غُرَّة السـنة . وقد تقدّم الكلام علىٰ صُـورَة المَوْكب فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدَّوْلة الفاطميـة بالديار المصرية فى المقالة الثانية .

وهذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك ، أورده أبو الفَضْل الصُّورِىّ فى تذكرته ، وهى :

الحمد لله الذى لم يَزَلْ يُولِى إحسانا وإنعاما ، وإذا أبلىٰ عبيدُه عَاماً أجدَّلهم بفضله عَامًا ؛ فقد أمدّكم معاشر [الخلفـاء](1) كَرَما ومَنًّا ، وآتاكم من جُودِه أكثر ممَّـا يُتَمَنّىٰ ؛ ومنحكم من عطائه ما يُوفِى علىٰ ما أردتموه ، ﴿وسَخَّر لكم اللَّيْـلَ والنَّهارَ وآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ﴾ وقد ٱستقبلتم هذه السَّنَة السعيده ، وإذا عَمِلْتم بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراضَ البعيده .

وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد نَبِيِّه الذى غدتِ الجنة مُدَّخَرَةً لمن عَمِل بهُدَاه لَمَّـا سَمِعَه ، ومُهَيَّأة لمن آمن به وٱتَّبع النُّورَ الذى أُنْزِل مَعَه ؛ وبيَّنَ بإرشاده ماتَجْرِى أمورُ السِّنين عليه فى العَدَد والحِسَاب ، ونسخ ما كانت الجاهليةُ [تفعله] فيه زِيَادَةً فى الكُفْر وضَلَالًا عن الصَّوَاب ؛ وعلىٰ أخيه وٱبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى كَمَّلَ الله الإسـلامَ بإمامته ، وضاعف الأجْرَ لأهْلِ وِلايتـه ، ومنح شِيعَتَه مَقْبُولَ شفاعته ؛

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

وعلىٰ الأئمة من ذرّيتهما خُلَفَاءِ الله علىٰ خلقه ، والقائمين بواجب حَقِّه ، والعاملين فى سياسة الكافَّةِ بما يُرضيه سبحانه ، ويَضْمَنُ غُفرانه ورِضْوانَه ، وسلَّم عليهم أجمعين ، سلامًا باقيًا إلىٰ يَوْم الدِّين .

وإنَّ أحق النِّعَم بنَشْر الذِّكْر ، وأوجبَها للوَصْف وإعمال الفِكْر ، نِعْمةٌ رفعت الشَّكَّ وأزالت اللَّبْس ، ووَضَح ضياؤُها لأُولِي الألباب وُضُوحَ الشمس ، وٱشترك الناسُ فتضاعفت الفائدة لديهم ، وٱنتفعُوا بذلك فى تَوَارِيخهم ومُعَامَلاتهم ومالَهُم وعليهم ؛ وتلك [هى] المعرفةُ باليوم الذى هو مَطْلَعُ السَّنَة وأوّلها ، ومَبْدَؤُها ومُسْتَقْبلها ؛ وحقيقة ذلك ظُهُورُ إمام كُلِّ زمان . وكان ظهورُ إمام زماننا مولانا وسَيِّدنا الإمام فلان ــ ليتساوىٰ فى الشرف برؤيته العامَّةُ والخاصَّةُ ، فيكون ٱستقلال رِكَابِه إشعارًا بأن اليوم الذى تَجَلَّىٰ فيه لأوليائه ، ولِرَعَاياه المُتَفَيِّئِينَ ظِلَّ لِوَائه ، هو ٱفتتاح السنة وأوّلُ مُحَرَّمها ، وعليه المُعْتَمَد فى عَدَدِ تَامِّ الشهور ونَاقِصِها من مُفْتَتَحِها إلىٰ مُخْتَتَمِها ــ يَوْمَ كذا غُرَّةَ المحرّم من سنة كذا ، فى عساكِرَ لايُحْصَر عَدَدُها ، وقبائِلَ لاينقطع مَدَدُها ، وإذا ٱضطرمت نار الكُفْر وٱلتَهَبَتْ ، طَفِئَت بأنوارهم وخَبَتْ ؛ وقد تقلَّدَتْ هِنْدِيَّةً تَرُوعُ إذا أشرقت وسكنت ، فما الظَّنُّ إذا ٱصْطُحِبَت ؛ والأرض بمرورها عليها مُبْهَجَةٌ مُونِقَه ، وملائكة الله عَزَّ وجَلَّ حافَّةٌ به مُحْدِقه ؛ فآذَنَ بأن اليومَ المذكورَ هو غُرَّة السَّنة المعيَّنه ، وأن اليومَ الفُلانِيَّ أَمْسُه ٱنسِلَاخ كذا سنة كذا المتقدّمة : لتستقيمَ أمورُهُم علىٰ أعدل نُهُوجِهِم ؛ وليُحفظ نظام دينهم فى صَوْمِهم وفِطْرِهم وحَجِّهم ؛ وكذلك أصدر هذا الكتاب لِيَتْلُوَه الأميرُ علىٰ مَنْ يسكن عَمَلَه ، وجميعِ مَنْ قِبَلَه ؛ ويتماثلوا فى معرفته ، ويحمِلَ كُلٌّ منهم الأمْرَ عليه فى مُعْتَقَدِه وأسباب معاملاته ؛ ويشكروا الله علىٰ النِّعْمة عليهم بهدايته . وهو يعتمد ذلك ويُطَالِعُ بكائِنِه فيه إن شاء الله تعالىٰ ، وكُتِبَ فى اليوم المذكور .

الثـانى — البِشَارَةُ بالسَّـلامة فى الرُّكوب فى أوّلِ شَهْر رَمَضَان ، وهى علىٰ نَحْوٍ ممـا تقدّم فى الركوب فى غُرَّة السَّنة .

وهذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك ، من إنشاء ٱبن الصَّيْرَفِىّ ، وهو :

الحمد لله كَالِئِ خلقـه فى اليَقَظَة والمَنَـام ، والكَافِلِ لهم بمضاعفة الأجر فى شهر الصِّيَام ؛ وصلّى الله علىٰ سـيدنا محمد الذى بعثه رحْمَةً للأنام ، وعلىٰ أخيه وٱبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِبٍ أخلص وَلِىٍّ ، وأشْرَفِ وَصِىٍّ ، وأفْضَلِ إمام ؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهما الدَّاعِينَ إلىٰ دار السلام ؛ صلاةً دائمـةَ الاتِّصَال ، مستمرّةً فى الغُدُوِّ والآصَال .

وإن من المَسَرَّة التى تُتَهَادىٰ : والنِّعْمَة الشاملة للخلق جميعا وفُرَادىٰ ؛ ما مَنّ الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان ، صلوات الله عليـه وعلىٰ آبائه الطَّاهِرِين ، وأبنائه الأكرمين ؛ يومَ كذا غُرَّةَ شهر رَمَضَان من سـنة كذا ، إعلاما بأوّل الشَّهر وافْتِتَاحه ، وأن الصيامَ الأوّلَ من فَجْرِه الأوّلِ قبلَ تَنَفُّسِ صَبَاحِه ؛ وتَوَجُّهِهِ إلىٰ ظاهر المُعِزِّيَّةِ القاهرة المحروسة فى عساكِرِه المُظَفَّرَة وجنودِه ، وأوليائه وأنصارِه وعبيدِه ؛ والمِنَّةُ بِرُؤْيته قد تساوىٰ فيها الكَافَّه ، وملائكة الله مُطِيفَةٌ حَافَّه ، وعَوْدِه إلىٰ قُصُوره الزاهِرِه ، وقد شمل المستظلين بأفْيَائِه بسعادَتَىِ الدنيا والآخره .

أُصْدِرَ إليك هذا الأمرُ لتَقِفَ علىٰ الجمله ، وتشكُرَ النِّعْمَةَ السابغةَ علىٰ أهل المِلَّه ؛ وَتَتْلُوَها علىٰ أهل عَمَلِك ، وتطـالع بكائِنِك فى ذلك ؛ فٱعْلَم هذا وٱعمل به ؛ إن شاء الله تعـالىٰ .

الثالث — الكِتَابَةُ بالبشارة بالسلامة فى ركوب الجمعة الأولىٰ من شهر رَمَضَان .

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، من إنشاء ٱبن الصَّيْرَفِىّ أيضا ، وهى :

أفضل ما سُيِّر ذِكْرُه، ووجب حَمْدُالله تعالى عليه وشُكْرُه، ما عَادَ على الشريعة بالجَمَال والبَهْجَه، وأضحى واصِـفُه صحيح المَقَـالِ صَادِقَ اللَّهْجَه؛ فضاعف حَسَنَة ومَحَّص سَيِّئَه، وجعل أسباب السعادة مُتَسَهِّلَةً مُتَهَيِّئَه؛ وذلك ما يَسَّره الله تعالى من آستقلال رِكَاب سيِّدنا ومولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، يوم الجمعة من شهر رَمَضَان من سنة كذا: مُؤَدِّيا خُطْبَتَها وصَلَاتها، وضامنا لأُمَّةٍ آئْتَمَّتْ به خَلاصَها يوم الفَزَع الأكبر ونَجَاتَها؛ فى وَقَارِ النبوّة وسكينة الرِّسَالَه، والهَيْبَة المُسْتَوْلية على العَظَمَة والجَلَالَه؛ والعساكر الجَمَّـةِ التى تُقْلِقُ بمهابَتِها وتُزْعِج، وتُظَنُّ لكَثْرَتِهـا واقِفَـةً والرِّكَاب يُهَمْلِج؛ ولمـا آنتهى إليه، خَطَبَ ووَعَظَ ففتح أبوابَ التَّوْبَه، وآب إلى الطاعات مَنْ لم يُطْمَعْ منـه بالأَوْبَه؛ وصلّى صلاةً تَقَبَّلَها جَلَّ وعَزَّ بقَبُولٍ حَسَنْ، وقَصَّرَ فى وَصْفِها ذَوُو الفَصَاحةِ واللَّسَن؛ وعاد إلى مُسْتَقَرّ الخلافه، ومَثْوَى الرحمـة والرافه؛ وعَيْنُ الله له مُلَاحِظَه، وملائكته له حَافِظَه. أُعْلِمْتَ ذلك لتُذيعه فى أهل عملك، وتطالع بكائنك.

الرابع — المكاتبة بالبِشَارَة بالسَّلامة فى ركوب الجمعة الثانية من شهر رَمَضَان.

قد تقـدّم فى الكلام على ترتيب المملكة بالديار المِصْرِيَّة فى الدَّوْلة الفَـاطِمِيَّة، فى المقالة الثانية: أن الخليفة كان يركب فى الجمعة الثانية من شهر رَمَضَان إلى الجامع الأنور، وهو جامعُ بابِ البَحْرِ، الذى عَمَرَه الحـاكمُ بأمر الله، وجدّده الصَّاحبُ شمس الدين المَقسِيُّ.

وهذه نسخة كتاب فى المعنى، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِىّ أيضا، وهى:

لم يَزَلْ غَامِرُ كَرَم الله وفَضْلِه، يَفُوقُ حاضِرُه ما كان من قَبْلِه؛ فنعمة الله تعـالى سابغه، ومِنَنُه مُتَتَابِعَه، ومَلَابِسها ضافِيَه، ومَغَارِسُها نَامِيَه، وسَحَائِبُها هَامِيَه؛ وهو جَلَّ

وعَزَّ يضاعفها علىٰ مَنْ صَلَّى وصام، ويُوَاليها عند من تَمسَّك بالعُرْوَةِ الوُثْقىٰ التى لا آنفصال لها ولا آنْفِصَام ؛ وتجدّد من ذلك ما كان من بُرُوزِ مولانا وسيدنا الإمام فلان : صَلَوَاتُ الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكْرَمين؛ يوم الجمعـة من شهر رَمَضَان من سنة كذا : فى شامخ عِزِّه، وبَاذِخ مَجْده؛ وتَوَجُّهه إلىٰ الجامع الأنْوَرِ المنسوب إلىٰ مولانا الإمام الحاكم بأمر الله جدّه ؛ سلام الله عليه وصَلَوَاتُه، وبركاته وتَحِيَّـاته ؛ وعساكره قد تجاوزت الحَدّ، وكَثُرت عن الإحصاء والعَدّ، فإذا تأملها الطَّرْفُ آنْقَلَب عنها خاسِئًا وآرْتَدّ .

ولمـا وصل إلىٰ الجامع المذكور خَطَب فأوْرَدَ من القَوْل أحْسَنَه، ووعَظَ فأسمع من الوَعْظِ أوضَحه وأبْيَنَه ؛ وصلّى صلاةً جَهَر بالقراءة فيها ورَتَّلَها، وعاد إلىٰ قُصُوره الشريفة وقد شملت البَرَكات برؤيته، ووُفِّقَ مَنْ عَمِلَ بمَوْعِظَتِه، ونَجَا مَن آقتدىٰ به فى صلاته، وآستولىٰ علىٰ السَّعْد من جميع أرْجائِه وجِهَاته . أعلمناك ذلك لتعرف قَدْرَ النِّعْمة به، فآشكر الله سبحانه بمقتضاه، وآعتمد تلاوة هـذا الأمر علىٰ رُءُوس الأشهاد؛ فآعلم ذلك .

الخامس ــ المكاتبة بالسَّلامة فى الرُّكوب فى الجمعة الثالثة من شهر رَمَضَان .

قد تقـدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى المقالة الثانيـة أن الخليفة كان يركب فى الجمعة الثالثة منه إلىٰ الجامع العَتِيقِ (١) بمصْر، فيخطب فيه ويعود إلىٰ قصره .

وهذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِىّ، وهى :

---

(١) ما تقدم فى (ج ٣ ص ٥١١) من هذا المطبوع صريح فى أنه كان يركب فى الجمعة الثالثة من رمضان إلىٰ الجامع الأزهر، وأنه لا يركب إلىٰ الجامع العتيق إلا فى الجمعة الرابعـة، التى أهمل هنا ركوبه إليها وحاصل ما تقدّم أنه يركب فى جمع رمضان ماعدا الأولىٰ .

من عوائد الله ـ سبحانه ـ الإحْسَانُ إلىٰ عَبِيده ، وتَعْوِيضُهم للشُّكْرِ عليه بِنُمُوِّه ومَزِيدِه، والامْتِنَانُ بتيسير عَصِيِّه، وتعجيل قَصِيِّه، وتقريب بعيده؛ فهو لا يُخْلِيهم من نَوَاجِمِه، ولا يُعْفيهم من هَوَاجِمِه .

ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عُمُوم بركاته، وشُمُول خَيْرَاته؛ أن مولانا وسيدَنا الإمامَ الفلانيَّ صَلَواتُ الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين؛ والىٰ فيه بَرَكَاتِه، وزَكّىٰ أعمالَ المؤمنين فى آستماع آخْتِطَابه والآئْتمام بصَلاته؛ وفى هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رَمَضَان، أعمل ركابه إلىٰ الجامع العتيق بمصر لِيُسْهِمَ لهذه المدينة من حَظَّيِ الدنيا والآخرة، مثْل ما أسْهَمَه وعَجَّلَه لأهْلِ المُعِزِّيَّة القاهرة . فكانت هيبَتُه يُعْجِزُ وصفُها كُلَّ لِسان، وظهر ـ عليه السلام ـ فى الرِّدَاءَيْنِ : السَّيْفِ والطَّيْلَسَان ؛ والجيوشُ قد آنبسطت وآنتشرت ، والنفوسُ قد آبْتَهَجت وآستبشرت، والألسنة قد عكفت علىٰ الدعاء بتَخْلِيد مُلْكِه وتوفَّرت . وعند وُصُوله خَطَبَ فأحسنَ فى الألفاظ والمعانِى ، وحَذَّرَ من تأخير التَّوْبَة والتَّضْجيع فيها والتَّوَانى؛ وصلّىٰ صلاةً شرَّفها الله وفَضَّلها، ورَضِيَها تبارك وتعالىٰ وتَقَبَّلها؛ وآنْكَفأ عائدا إلىٰ قُصُوره ومنازله المعظمة : ضاعف الله له ثَوَابَه وأجْرَه، وأوجب شُكْرَه ورفع ذِكْرَه؛ ويجبُ أن تعتَمِد إذَاعَةَ ذلك لِيُبَالِغَ الكافَّةُ فى الآعتراف بالنِّعْمَة فيه، ويُوَاصِلُوا شكْرَ الله تعالىٰ عليه، والمُطَالعَةَ بما آعتمد فيه .

السادس ــ ما يكتب بالبشارة بالسَّلامة فى رُكُوب عيد الفِطْر .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الدَّولة الفاطمية فى المَقالة الثانية : أن الخليفة كان يركبُ لصَلاة عِيدِ الفِطْر صبيحةَ العِيدِ ، ويخرج من باب العيد من أبواب

القَصْر، ويتوجه إلىٰ [المُصَلَّى](١) فيُصَلِّي ويَخْطُب، ثم يعود إلىٰ قصوره، ويكتب بذلك إلىٰ أعمال المَمْلَكة، تارةً مع خُلُوّ الدَّوْلَة عن وَزِيرٍ، وتارةً مع ٱشتمالها علىٰ وَزِيرٍ .

وهذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك، مع خُلُوّ الدولة عن وزير، من إنشاء ٱبن الصَّيْرَفِيّ، وهو :

الحمدُ لله نَاشِرِ لِوَائِه فى الأقطار، ومُعَوِّض المُطيعين من جَزَائِه ببُلُوغ الأوطار، الذى نَسَخَ الإفطارَ بالصِّيَام ونسخ الصِّيام بالإفطار، وكَلَّف عباده ما يُطِيقُونَه ووعد عليه جَزِيلَ أجْرِه، وأسْبَغَ من نِعَمِه مالا يطمع [فى القِيَام] بواجب حَمْدِه عليه وشُكْرِه، وصلَّى الله علىٰ سيدنا محمد نَبِيِّه الذى أعْلَنَ بالإيمان وبَاح، وبَيَّنَ المَحْظُور فى الشَّريعة والمُبَاح، وأرشد إلىٰ ما حَرَّمَه الإسلام وحَلَّلَه، ومَهَّدَ سُبُلَ الهُدىٰ لمن ٱستَغْوَاه الشَّيطان وضَلَّلَه، وأوضح مَرَاتِبَ الأوقات ومَنازِلَها، وعَرَّف تَفَاوُتَ الأيام وتَفاضُلَها، وعلىٰ أخيه وٱبن عَمِّه أمير المؤمنين عَلِيّ بن أبى طَالِبٍ الذى مضت فى الله عَزَمَاتُه، وبَيَّضَتْ وجهَ الدِّينِ الحَنِيف مَوَاقِفُه ومقَامَاتُه، وعلىٰ الأئمة من ذرّيّتهما الذين تكَفَّلُوا أمرَ الأمة نَصًّا، وٱمتَطَوْا علىٰ مَنارها فلم يألوا جُهْدا ولم يتركوا حِرْصا، فالحاضر منهم يُوفِى علىٰ مَنْ كان [مِنْ] قَبْلِه، وأحزابُ الحَقِّ فَرِحُون بما آتاهم الله من فَضْلِه، وسلم عليهم أجمعين سلاما لا ٱنقطاع لدَوَامه، وشَرَّفَهم تشريفًا لا ٱنفصام لإبرامه، وأسْنىٰ ومَجَّد، وتَابع وجَدَّد .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عِيد الفِطْر من سنة كذا : بعد أن وَفّىٰ الصِّيامَ حَقَّه، وحاز أجْرَ مَنْ جعل الله علىٰ خزائنه رِزْقَه، وبعد أن أفطر بحَضْرَته الأولياء من آله وأُسْرَتِه، والمُقَدَّمُون من رُؤَسَاء دَوْلَتِه، والمُتَمَيِّزُون من أوليائه

---

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدّم فى هذا المطبوع (ج ٣ ص ٥١٣) .

وشيعته . وكان من نبإ هذا اليوم أن أمير المؤمنين لما ٱرتقب بروزه من قصوره، وتجلى فأشرقت الأرض بنوره ، توجه إلى المصلى قاضيا لسنة العيد ، فكانت نعمة ظهوره بالنظر [للحاضر] وبالخبر للبعيد، وٱستقل ركابه بالعساكر المنصورة التى أبدت منظرا مفتنا معجبا، وجعلت أديم الأرض بالخيل والرجل محتجبا، وذخرت الانتقام ممن شق العصا، وتجاوزت فى الكثرة عدد الرمل والحصا، وزينت الفضاء بهيئتها، وروعت الأعداء بهيبتها ، وجمعت بين الطاعة وشدة البأس، وٱدرعت من التقوى أمنع جنة وأحصن لباس ، ولم يزل سائرا فى السكينة والوقار ، ناظرا للدنيا بعين الاحتقار ، والثرى بالجباه والشفاه مصافح ملثوم، فهما موسومتان به وهو بهما موسوم ، إلى أن وصل إلى مقر الصلاه، ومحل المناجاه، فصلى أتم صلاة وأكملها، وأداها أحسن تأدية وأفضلها ، وأخلص فى التكبير والتهليل إخلاص من لم يفت أمرا ويخشى الله ويتقيه ونصح فى إرشاده ووعظه ، وأعرب ببديع معناه وفصيح لفظه ، وعاد إلى مثوى كرامته ، وفلك إمامته ، محمود المقام، مشمولا بالتوفيق فى النقض والإبرام . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتذيعه فيمن قبلك ، وتشكروا الله على النعمة الشاملة لهم ولك ، فٱعلم هذا وٱعمل به ، إن شاء الله تعالى . وكتب فى اليوم المذكور .

⁂

وهذه نسخة كتاب فى معنى ذلك، والدولة مشتملة على وزير، عن الحافظ لدين الله العلوى خليفة الديار المصرية، فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وهى :

الحمد لله الذى أعز الإسلام وشيد مناره ، وأيد أولياءه ونصر أنصاره ، وأظهر فى مواسمه قوته وٱستظهاره، وختم الشرائع بشرف أبدى فكان حظها منه إيثاره،

وحَظُّ الإسلام ٱستِبْدادَه به وٱستئثارَه؛ وصلّى الله علىٰ جدّنا محمد الذى كَرَّمه باصْطِفَائه، وأسْعَدَ من حَافَظَ علىٰ ٱتّبَاع نَهْجِه وٱقْتِفَائِه؛ وبَيَّن بشَرْعِه ما حَلَّلَه وحَرَّمَه، ودعا الأمة بإرساله إلىٰ دِينٍ قَيِّمٍ أعلىٰ بِنَاءَه وأحْكَمَه؛ ووعدهم علىٰ مَفْرُوضه ومَسْنُونه جَزِيلَ الأَجْر، وأمر فى ٱعتقاد خِلَافه بالدَّفْع والمَنْع والزَّجْر؛ وعلىٰ أخيـه وٱبن عَمِّه أبينا أميرِ المؤمنينَ عَلِيِّ بن أبى طَالِبٍ أوّلِ الأئمة الخُلَفَاء، والمُشْتَهِرة فضائِلُه ٱشتهارا ليس به من خَفَاء؛ ومَنْ حَبَاه الله المَحَلَّ الرفِيعَ والمَنَّ الجَزِيل، وخَصَّه من الشَّرَف بما جاء فيه من مُحْكَم التَّنْزِيل؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهِما القائمين بفرض الله والمؤدِّينَ لحُقُوقِه، والذين كَفَلَتْ أمانَتُهم بٱنبساط نُورِ الحَقِّ وٱنتشارِ لِوَائِه وخُفُوقه؛ وسَلَّمَ وكَرَّم، ومَجَّدَ وعَظَّم.

وكتاب أمير المؤمنين إليك يوم كذا عِيدِ الفِطْرِ من سنة إحدىٰ وثلاثين وخمسمائة، الذى أمر الله فيه بما نَهىٰ عنه من قَبْلِه، وضاعف الأجْر بكَرَمِه وفَضْله؛ فرفع تكاليفَ الصَّوْم، وأوجَبَ الإفطارَ فى هذا اليوم؛ وساوىٰ فى ذلك [بين] كُلِّ مُتْهِم ومُنْجِد، وأمر بَنِى آدَمَ فيه بأخْذِ الزِّينةِ عند كُلِّ مَسْجِد؛ وكان من خَبَره أن الفَجْر لمّا طلع مُبَشِّرًا بالشمس، ومُؤْذِنًا ببَعْثِها من الرَّمْس؛ تتابعت الجُيُوش المَوْفُوره، والعساكر المنصوره؛ إلىٰ أبواب القُصُور الزاهِرة تَوَكُّفًا لأنوار أمير المؤمنين، وتَرَقُّباً لظهوره قاضيًا حَقَّ الدِّين؛ فلما أسفر الصُّبْحُ وأضاء، وملأت الخلائِقُ الفَضَاء؛ تَجَلّى من أفْلاك إمامته، وبَرَزَ فأُغْبِطَ كُلُّ مُؤْمِنٍ بثَبَاتِه علىٰ المُشَايَعَـة وإقَامَته؛ وكان ظاهرًا وهو مُحْتَجِبٌ بالأنوار، ومُمْتَنعا وهو مُنْتَهَبٌ بالأبصار؛ والكَافَّةُ يُصَافِحُون الأرض ويجْتَهِـدون فى الدعاء بإخلاص نِيَّاتِهـم، والعساكر المؤيدة لَوْ أنَّهـا عَمَّت الأرضَ بتَطْبِيقِها، وساوت بين قَرِيبِها وسَحِيقِها؛ وصارت كالجبال الرَّوَاسِى فيهـا، لكانت قد تزلزلت ومَادَتْ بأهْلِيها، وهى مع تَبَـايُنِ أجناسها وطَوَائِفِها مُتَظَافِرة علىٰ مُعَانِدى

الدَّوْلة ومُخَالِفيها ؛ متلائِمَةٌ على الوَلَاء ، مُتَمَالِئَةٌ على الأعداء ، تَتَلَفَّتُ إلى المُجَاهَدة كأنها الأُسُودُ إقْدامًا و بَاسًا ، وكأنَّما فُصِّلت جوامدُ الغُدْرانِ سِلَاحا لها ولِبَاسًا ؛ والسيِّدُ الأجَلُّ الأفضلُ التى عَظُمَت به المواهب وجَلَّت ، وذهبت بوِزَارَتِه الغَيَاهِبُ وتجلَّت ؛ وتهلَّل بنظره وَجْهُ المِلَّة وكان عَابِسا ، وأعاد الدَّوْلةَ مُعْصِرًا وقد كانت قبله عَانِسا ؛ وحَسُنَت الدُّنيا بأيامه إذ ليس فيها مَنْ يُضَاهِيه ، وآنتظَمَت أمورها على الإرادة بصدورها عن أوامره ونواهيه ؛ تُرتَّبُ المواكبُ بمَهَابَتِه ، ويُسْتَغْنَى بتوَغُّلِها فى القلوب عن إيمائِه وإشارَتِه ؛ وكُلُّ طائفة مُقْبِلَةٌ على شانها ، لَازِمَةٌ لمكانها ؛ مُتَصَرِّفَةٌ على تهذيبه وتقريره ، عاملةٌ بآدابه : فوُقُوفُها بوُقُوفه ومَسِيرُها بمَسِيرِه .

وتوجه أمير المؤمنين إلى المُصَلَّى محفوفا بأنوار تُجَلِّى ما أنشأَتْه سَنَابِكُ الخَيْل ، وتَمْحُو آيَةَ نَقْعٍ قام مُثَارُهَا مقام ظَلَام اللَّيل ؛ وعليه من وَقَارِ الإمامة ، وسَكِينة الخلافة ؛ ما خَصَّه الله تعالى به دون البَرِيَّة وحده ، لأنه مما وَرِث أميةُ(١) رسول الله صلّى الله عليه وسلم وآله وجدّه ؛ ولما آنتهى إليه قَصَد [المِحْرَاب](٢) وأمّه ، وأدّى الصَّلَاة أكْمَلَ أداءٍ وأتَمَّه ؛ ثم آنتهى إلى المِنْبَر(٣) فعلاه ، ومجَّد الله تعالى وحَمِدَه على ما أولاه ؛ ووَعَظ وَعْظًا خَوَّف عاقِبَةَ المعاصى والذُّنُوب ، وحَلَّ وِكاءَ العُيُون وداوى مَرَضَ القُلُوب ؛ وأمر بسُلُوك سبيل الطَّاعات وأفعالِ البِر ، وحَثَّ على التَّوَفُّر عليها فى الجَهْر والسِّر ؛ وعاد إلى قُصُوره المكرمه ، ومَوَاطِنِه المُقَدَّسه ؛ وقد بذل فى نُصْحه لله ولرسوله وللمؤمنين جُهْدَه ، وفعَل فى الإرشاد والهِدَايَة ما لاغَايَةَ بعْدَه .

(١) كذا بالأصل .

(٢) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٣) فى الأصل «إلى المحراب فصلاه» ولا معنى لها .

أنبأك أمير المؤمنين خبرَ هذا اليَوْم لتَشْكُرَ الله علىٰ النِّعْمَة فيه، وتُذِيعَه قِبَلَك علىٰ الرسم فيما يُجَاريه؛ فاْعلم هذا وٱعمل به إن شاء الله تعالىٰ.

السابع — مايكتب بالبشارة بالسلامة فى ركوب عِيدِ النَّحْر.

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب دولة الفاطِميِّين فى المقالة الثانيــة أن الخليفة كان يركب لصَلَاة عيـدِ النَّحْر كما يركب لصلاة عيد الفِطْر، تارَةً مع ٱشتمـال الدَّوْلَة علىٰ وزير، وتارَةً مع عَدَم ٱشتمالها علىٰ وزير.

وهذه نسخة كتاب فى معنى ذلك، من إنشاء ٱبن الصَّيْرِفِيّ، وهى :

أما بعـد، فالحمد لله الذى أعلىٰ مَنَارَ المِلَّه، وشرَّفَ مَوَاسِمَ أهل القِبْلَه؛ وكَفَّل أمير المؤمنين أمْرَ الأيَّام، كما كَفَّلَه أمْرَ الأنام، فرأىٰ النّاسُ من حُسْن سِيرَتِه أيْقَاظًا مالايَرَوْنَه مجَازا فى المَنَام؛ وصلّى الله علىٰ جَدِّنا محمد نبيِّه الذى أرسله إلىٰ الناس كافَّه، وجعل العِصْمَةَ مُحِيطَةً به حَافَّه؛ فأطلع فى ظـلام الشِّرْك شَمْسَ التوحيـد وبَدْرَه، وآمن به مَنْ شرح الله للإسلام صَدْرَه، وعصاه من تمرّد فأثقل الوِزْرُ ظَهْرَه؛ وبَيَّن عبادات كَرُم أجْرُهـا وعَظُم ثوابُها، وألْزَمَ طاعاتٍ جعل الجَنَّـة للعاملين بها مُفَتَّحَةً أبوابُها؛ وعلىٰ أخيه وٱبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِب مُظَافِرِه ومُظَاهِرِه، والمساوِى فى حُكْمه بين باطنه وظَاهِرِه؛ ولم يَزَلْ حاملًا علىٰ المَحَجَّةِ البيضاء جاعلًا ذلك من قُرَبه وذَخَائِره، قائمـا بحقوق الله جَاهِدًا فى تعظيم حُرُمَاتِه وشعائره؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتهما نُجُوم الأرض وهُدَاةِ أهلها، والواجبةِ طَاعَتُهم علىٰ مَنْ فى وَعْرِها وسَهْلِها؛ والذَّابِّين بالمَشْرَفِيَّة عن حِمىٰ الشريعه، والَّذين مُتَابَعَتُهم من أوْجَه ذَرِيعَه.

وكتاب أمير المؤمنين هـذا إليك يوم كذا عِيدِ النَّحْر سنة كذا وكذا : وهو يومٌ أظهر الله فيه قُوَّة الدَّوْلَة وٱقْتِدارَها، وأوجب فيه ـ رَغْبَةً ورَهْبَةً ـ مسارعةَ النفوس

المخالِفَة إلىٰ الطاعة وٱبتدَارَها ؛ وذلك أن عساكرَ أمير المؤمنين توجهت إلىٰ قُصُوره الزاهرة عند ٱنْفِجَار الفَجْر ، وحافظت علىٰ ماتُحْرِزُه من كريم الثَّواب وجَزِيل الأجْر ، وٱستنزلت الرَّحْمَةَ برُؤْيَة إمام الأمَّه ، وأعَدَّتِ الإخلاصَ فى خِدْمَتِه من أوفى الحُرُماتِ وأقوىٰ الأذِمَّه ؛ وأقامت إلىٰ أن بَرَز أميرُ المؤمنين والأنوارُ الساطعةُ طَوَالِعُه ، ومهابَتُه تمنع كُلَّ طَرْفٍ من ٱستقصاء تَأَمُّلِه وتُدَافِعُه ؛ وقَصَدَ المُصَلَّى فى كَتَائِب لَجِبَه ، ومواكِبَ للتعظيم مُسْتَوْجِبَه ؛ وعِزَّةٍ تتبين فى الشَّمائِل والصَّفَحَات ، وقُوَّةٍ يشهدُ بطيبِ وَصْفِها أَرَجُ النَّفَحَات ؛ قد غَدَت عُدَدُها مُحْكَمَه ؛ وخيولها مُطَهَّمه ؛ وذوابِلُها إذا ظَمِئَتْ كانت مُقَوَّمه ، وإذا رَوِيَتْ عادت مُحَطَّمه ؛ تتقلَّدُ صفائحَ متىٰ ٱنْتُضِيَتْ أنصفَتْ من الجَائِر الحَائِف ، ومتىٰ ٱقتَضَبَت عَمَلًا كان ٱقتِضَابُها مُبَيِّضًا للصَّحَائف ؛ وفى ظِلِّها مَعَاقِلُ لِلآئذين ، وبِحَدِّها مَصَارِعُ لِلْمُنَابِذين ؛ وهى للدِّماء هَوَارِق ، وللهَامَات فَوَالِق ، ولِمُسْتَغْلَق البلاد مفاتح ولِمُسْتَفْتَحها مَغَالِق .

ولما ٱنتهىٰ إلىٰ المُصَلَّى قضىٰ الصلاةَ أحْسَنَ قضَاءٍ وأدَّاها أفْضَلَ تأديه ، وٱستنزل رَحْمَةً لم تَزَلْ بصلاته مُتَمَادِيَه ؛ وٱنتهىٰ إلىٰ المِنبَر فرقِيَه ، وخطب خطبةَ مَنِ ٱسْتَخْلَفَه الله فكان مُرَاقِبَه ومُتَّقِيَه ؛ ووَعَظَ أبلغ وَعْظ ، وأبان عَمَّا للعامل بنُصْحِه فى الدُّنيا والآخرة من فائدةٍ وَحَظّ . وعطف علىٰ الأضَاحِى المُعَدَّة له فنحَرَها جَرْيا فى الطاعات علىٰ فِعْلِها المُتَمَادِى ، وأضْحَتْ تتوقع التَّكْمِيل بإنجازه وَعِيدَه فى الأعادى ؛ فالله يَقْضى بتصديقه ، ويَمُنُّ بتَخَيُّلِه وتحقيقه ؛ وعاد إلىٰ قُصُوره المُكَرَّمة مشكُوراً سَعْيُه ، مضموناً نَفْعُه ، مرضيًّا فعله ، مشمولاً عبيدُه منه بما هو أهْلُه . أعلمك أمير المؤمنين ذلك فاعلم هذا وٱعمل به . وكُتِب فى اليوم المذكور .

⁂

وهـذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك، والدولة مشـتملة علىٰ وزير، من إنشاء ٱبن قادوس، وهى :

أما بعـد ، فالحمد لله مَاحِى دَنَس الآثام بالحَجِّ إلىٰ بَيْتِه الحَرَام ، ومُوجِبِ الفَوْزِ فى المَعَادِ لمن عَمِل بمراشد أئمة الهُدىٰ الكِرَام، ومُضَاعِفِ الثَّواب لَمن ٱجتهد فيما أمر الله به من التَّلْبِيَة والإِحْرَام ، ومُخَوِّلِ الغُفْرَانِ لمن كان بفرائض الحَجِّ ونَوَافِلِه شَـدِيدَ الوَلُوعِ والغَرَام؛ وصلَّى الله علىٰ جدّنا محمد الذى لبّىٰ وأحرم، وبيَّن ما أحَلَّ اللهُ وحَرَّم؛ وعلىٰ أخيه أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِبٍ الذى ضَرَب وكَبَّر، وحَقَّر من طَغىٰ وتَجَبَّر؛ وعلىٰ الأئمة من ذرّيّتِهِما أعلامِ الدِّيـــن ، وحُتُوف المُعْتَدِين؛ وسَلَّم وكَرَّم، وشَرَّف وعَظَّم .

وإنَّ من الأيام التى كَمُلَت محاسِنُهـا وتمّت ، وكَثُرت فضائلُها وجَمَّت ؛ ووجب تخليدُ عِزِّ صِفَاتِها، وتَعَيَّن تسْطِيرُ تأثيراتِها ؛ يَوْمَ عِيدِ النَّحْر من سنة كذا : وكان من قَصَصِه أن الفَجْر لمـا سَـلَّ حُسَامَه، وأبْدىٰ الصَّباحُ ٱبْتِسَامَه؛ نَهَض عبيد الدَّوْلة فى جموع الأولياء والأنصار ، وأُولِى العَزِيمَـة والاستبصار؛ مُيَمِّمِينَ القُصُور الزاهرة مُتَـبَرِّكين بأفْنِيَتِها، ومُسْتَمْلِين بسعادتها؛ وتألَّفُوا صفوفًا تَبْهَرُ النواظر، ويُخْجِلُ تَألُّفُها تَألُّفَ زَهْرِ الرَّوْض الناضر؛ مُسْتَصْحِبِين فُنُونا من الأزْيَاءِ تَرُوق، ومُسْتَتْبِعِين أصنافاً من الأسلحة يَغُضُّ لَمْعُها من لَمْعِ اللَّهَب والبُرُوق؛ والأعلام خافقه، والرَّايات بألْسِنَة النَّصر، علىٰ الإخلاص لإمام العَصْر، مُتَوَافقه؛ فأقاموا علىٰ تَشَوُّفٍ لظهوره، وتَطَلُّعٍ للتَّبرُّك بلامِع نوره .

ولما بزغت شمس سعادته، وجرت الأمور على إيثاره وإرادته؛ وبدت أنوار الإمامة الجليّه، وظهرت طلعتها المعظّمة البهيّه؛ خرّ الأنام سجودا بالدعاء والتمجيد، والاعتراف بأنّهم العبيدُ بنو العبيد؛ واستقلّ ركاب أمير المؤمنين، ووزيره السيّد الأجلّ الذى قام بنصر الله فى إنجاد أوليائه، وتكفّل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه؛ وناضل عن حوزة الدين وجاهد، وناصل أحزاب الكفّار وناهد؛ يقوم بأحكام الوزاره، وتدبير الدولة تدبير أولى الإخلاص والطّهاره؛ ويتّبع آراء أمير المؤمنين فيما تنفذ به أوامره، ويعمل بأحكام الصّواب فيما تقتضيه موارده ومصادره؛ ويحسن السّياسة والتدبير، ويتوخّى الإصابة فى كلّ صغير من أمور الدّولة العلويّة وكبير؛ ويخلص لله جلّ وعزّ وللإمامه، ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد فى إعمال لهذمه وحسامه؛ وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة فى أثره، متوافقةً على امتثال أمره؛ قد رفعت السّنابك من العجاج سحابا، وخيّلت جنن الجند للناظرين فى البرّ عبابا؛ والجياد المسوّمة تموج فى أعنّتها، وتختال فى مراكبها وأجلّتها؛ وتسرع فتكسب الرّياح نشاطا، وتفيد المتعرّض لوصفها إفراطا، وتهدى لمن يحاول مماثلتها غلوّا واشتطاطا؛ وأصواتٌ مرتفعةٌ بالتهليل، وأصوات الحديد تسمع بشائر النّصر بترجمة الصّليل؛ ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصّهيل، وترضّ سنابكها الهضاب وتغدو صلابها كالكثيب المهيل.

ولما انتهى ركاب أمير المؤمنين إلى المصلّى والتوفيق يكتنفه، والسعادة تصرّفه؛ قصد المحراب فأقام الصلاه، ونحا المنبر فشرّفه إذ علاه؛ وأدّى الصّلاة على أكمل الأوضاع وأتمّها، وأجمع [الأحوال] لمراضى الله وأعمّها؛ وانثنى للبدن المعدّة فنحر ماحضر تقرّبا لخالقه، وأجرى القانون على حقائقه؛ وعاد إلى قصوره الزاهرة وقد غفر الله بسعيه الذّنوب، وطهّر برؤيته القلوب، وبلّغ الأمم من المراشد نهاية المطلوب.

أعلمك أمير المؤمنين نبأَ هذا اليوم الّذى تشتمل المَسَارُّ على جميعه أوّلا وآخِرا، وباطِنًا وظاهِرا؛ لتُذيعَ نبأه فى عَمَل وِلَايَتك، وتُشِيعَ خَبَره فى الرعايا على جارِى عَادَتك؛ فاعْلَم هذا وآعمل به، وطالع مَجْلِس النَّظَر السيدىّ الأجلىّ بما آعتمدْتَه فى ذلك، إن شاء الله تعالى. وكُتِب فى اليوم المذكور.

قلتُ: وهـذا الصنف من المكاتبات قد رُفِضَ وتُرِكَ آستعمالُه بديوانِ الإنشاء فى زَمَاننـا.

الصنف السادس عَشَر

(المكاتبة بالبِشَارة بوفَاءِ النِّيل والبِشَارة بالسَّلامة فى الركوب لفَتْح الخَلِيج)

وهـذه المكاتبة من خصائص الديار المِصْرِيَّة، لايشاركها فيها غيرُها من الممالك.
ولم يَزَل القائمون بالأمر بالديار المِصْرِيَّة من قديم الزمان وهَلُمَّ جَرًّا يكتبون بالبِشَارة بذلك إلى وُلَاة الأعمال، آهتمامًا بشَأْن النِّيل، وإظهارا للسُّرور بوفَائِه، الّذى يترتب عليه الخِصْبُ المُؤَدّى إلى العِمَارَة وقِوَامِ المملَكة، وآنتظام أمر الرَّعِيَّة. وقد كان للخلفاء الفاطِمِيِّين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبيرُ العنـاية ووَافِرُ الاهتمام؛ وكانت عادتُهم فى ذلك أنّهـم يكتبون بالبِشَـارة بوفاء النِّيـلِ كُتُبا مُفْرَدة، وبفَتْح الخَلِيج وهو المعبر عنه فى زماننا بالكَسْر كُتُبًا مفردة. ولعلّ فتحَ الخليج كان يتراخى فى زمنهم عن يوم الوَفَاء، فيُفْرِدُون كُلَّ واحد منهما بكُتُب.

فأما وفاء النِّيـل المبارك فهـذه نسخة كتاب بالبِشَارَة به فى الأيام الفـاطِمِيَّة، من إنشاء آبن قَادُوس، وهى:

النِّعَمُ وإن كانت شاملةً للأمم، فإنّها مُتَفَاضلة الأقدار والقِيَم؛ فأَوْلاها بشُكْر تُنْشَرُ فى الآفاق أعلامُه، وآعْتِدَادٍ تُحْكِمُ بإدراك الغايات أحكامُه؛ نِعْمَةٌ يشترك فى النَّفْع بها

العباد، وتَبْدُو بركتُها علىٰ النَّاطق والصَّامت الجَمَاد، وتلك النِّعْمَة النيل المِصْرِىُّ الذى تبرز به الأرض الجُرُز فى أحسن الملابس، وتظهر حُلَلُ الرِّيَاض علىٰ القِيعَانِ والبَسَابِس، وتُرىٰ الكُنُوزُ ظاهِرةً للعيَان، مُتَبَرِّجَةً بالجواهر واللُّجَيْنِ والعِقْيَان، فسُبْحان مَنْ جعله سَبَبًا لإنشار المَوَات، وتعالىٰ مَنْ ضَاعَفَ به ضُرُوب البَرَكات، ووَفَّر به موادَّ الأرزاق والأقْوَات، وهذا الأمر صادِرٌ إلىٰ الأمير، وقد مَنَّ الله جَلَّ وعَلَا بوفاء النِّيل المُبَارَك، وخُلِعَ علىٰ القاضى فلان بن أبى الرَّدَّادِ فى يوم كذا وكذا، وطاف بالخِلَع والتشريفات، والمَوَاهب المُضَاعَفَات، بالقاهرة المحروسة ومصر علىٰ جَارِى عَادَتِه، وقديم سِيرَتِه، ونُودِىَ علىٰ المَاء بوَفَائه ستةَ عشَرَ ذِرَاعا وإِصْبَعًا من سبعة عشر ذراعا، وآستبشر بالنِّعْمة بذلك الخَلَائق، ووَاصَلُوا بالشُّكْر مواصَلَةً لاتَسْتَوْقِفُهم عنها العَوَائِق، وبَدَا من مَسَرَّات الأُمَم وآبتهاجهم مايَضْمَنُ لهم من الله المَزِيد، ويُنِيلُهم المَنَال السعيد، ويقضى لهم بالمآل الحَمِيد. ومُوَصِّلُ هذا الأمر إليك فلان، فاعتمدْ عند وُصُوله إليك إكرامَه وإعزَازَه، وإجمال تَلَقِّيه وإفضَالَه، إلىٰ ماجرت به عادة مثْلِه من رَجَاءٍ، وتَنْوِيه وآحتفاء، وإكرام وآعتناء، ليَعُود شاكرا. فاعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ.

⁂

وهذه نسخة أخرىٰ من ذلك، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِىِّ، وهى :

أَوْلىٰ ما تَحَدَّث به نَاقِلُه وَرَاوِيه، وتَعَجَّلَ المَسَرَّة به حَاضِرُه ورَائِيه، ما كانت الفائدةُ به شائِعَةً لاتَتَحَيَّز، والنِّعمةُ به ذائعةً لايَتَخَصَّص أحدٌ بشُمُولها ولا يتميز، إذ كان عِلَّةً لتَكَاثُر الأقوات، وبها يكون التَّمَاثُل فى البَقَاء والتساوِى فى الحيات، وذلك ما مَنَّ الله تعالىٰ به من وَفَاء النِّيلِ المُبَارك : فإنه آنتهىٰ فى يوم كذا من سنة كذا، إلىٰ ستة عشر ذراعا وزاد إصبعا من سبعة عَشَرَ ذرَاعا ؛ وقد سَيَّرْنا أيُّها الأمير فلانا

بهـذه البُشْرىٰ إليك، وخَصَّصْناه بالوُرُود بها عليك ؛ فتَلَقَّها من الشُّكْر بمُسْتَوْجبها، وٱسْتَقْبِلْهَا من الٱبتهاج والٱغتباط بمـا يليق بهـا ؛ وٱجعل الرُّسُومَ التى جَرَت العادة بتوظيفها لفلان بن أبى الرَّدَّادِ محمولَةً من جهتك إلىٰ حَضْرَتنا، لتُولىٰ إليه من جِهَتِنا؛ فاعلم هذا وٱعمل به إن شاء الله تعالىٰ، وكُتِب فى اليوم المذكور .

وهذا الصِّنف من المكاتبات مُتَدَاوَلٌ بالديار المِصْرِيَّة إلىٰ آخر وقت ، يُكْتَبُ به فى كُلِّ سـنة عن الأبواب السلطانية إلىٰ نُوَّابِ السَّلْطَنَة بالممـالك الشاميّة عند وَفَاء النِّيل ، وتسيرُ به البَرِيدِيَّة ؛ ورُبَّمـا جُبِى للبَرِيدِىِّ من الممـالك شىءٌ بسبب ذلك . وإذا كانت الدَّوْلَة عادلَةً ضُمِّن الكتابُ أنه لايُجْبىٰ للبَرِيدِىِّ شىءٌ بسبب ذلك .

⁂

وهذه نسخةُ مِثَالٍ شريف فى معنىٰ ذلك .

ولا زال يُرْوىٰ عنـه وإليه حَدِيثُ الوَفَاءِ والنَّـدَا ، ويُورَدُ علىٰ سَمْعِه الكريم نَبَأُ الخِصْبِ الذى صَـفَا موْرِدَا ؛ ويُهنَّى بكُلِّ نِعْمَةٍ تكفَّلَت للرعايا بمضاعفـة الجُود ومُرَادفة الجَدَا، ويُخَصُّ بكُلِّ مِنَّةٍ عَمَّتْ مواهبُها الأنامَ فلن تَنْسىٰ أحدَا .

صَدَرت هـذه المكاتبة إلىٰ الجناب العـالى : وبَحْرُكَرَمِها لاينتهى إلى مَدىٰ ، وبِشْرُ بُشْراها دائمٌ أبدَا ؛ تُهدى إليـه سلاما مُؤَكَّدا ، وثناء أضحىٰ به الشُّكْرُ مُرَدَّدَا؛ وتُوَضِّح لِعِلْمِه الكريم أن الله تعالىٰ قد أجرىٰ علىٰ جمِيلِ عاداته، وأراد بالأُمَّة من الخَيْر ماهو المألوف من إراداته؛ ومَنَحَ مزيدَ النِّعَم التى لم تَزَلْ تُعْهَدُ من زِيَادَاته؛ فأسدىٰ معروفَه المعروفَ إلىٰ خَلْقِه ، وأيَّدَهم بمـا يكون سببا لمَـادَّة عَطَائه ورِزْقه؛ فبَلَّغهم تأميلَهم ، وأجرىٰ نِيلَهُم؛ وزادهم بَسْطَةً فى الأرض ، وملأ به الملاَ وطبَّق به البلادَ طُولَهـا والعَرْض؛ ونَشَر علىٰ الخَافقَيْنِ لِوَاءَ خِصْبه ، وأتىٰ بعسْـكَرِ رِيِّه لقتْل المَحْل

وجَذْبِه، وبينما هو فى القَـاعِ إذ بلغ بإذْن رَبِّه ؛ فجعل من الذَّهَب لِبَاسَــه ، وعَطَّر بالشَّذا أَنفاسَه ؛ ولم يترك خِلَالَ قُطْر إلا جاءه بخَاسَه ، ونَصَّ السَّيْر فسَيَّر نَصَّ مجيئه فى الأرض لَمَّـا صَحَّح بالوفاء قِيَاسَه ، وغازَلَتْه الشمسُ فكَسَتْه حُمْرة أَصِيلِها لما غَدَت له بمشاهدتها مَاسَه ؛ ولم يكن فى هذا العام إلا بمقدار ماقِيلَ : أَقْبَلَ إذ قِيلَ : وَفَّى ، ومدّ فى الزيادة بَاعًا وبَسَطَ ذِراعا ، وأطلق بمَوَاهِب أصابعه كَفًّا ، وعاجلَ إدراكُ الهَرَمِ فى ٱبتداء أمْرِه مطال شَبَابِه ، ومَرَّ علىٰ الأرض فَحَلا فى الأفواه لَمَّـا ساغ شُكْر سائِـغِ شَرَابِه ، وٱعتمد علىٰ نَصِّ الكِتَابِ العزيزِ فكاد أن يَدْخُلَ كُلَّ بَيْتٍ من بَابِه .

ولمـا كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القِبْط بادرَتْ إلىٰ الوفَاء شِيَمُه ، وأغْنَتْ أمواجُه عن مِنَّة السُّحُب فذُمَّتْ عندها دِيَمُه ؛ وزار البلادَ منه أَجَلُّ ضَيْفٍ فرشَتْ له صَفْحَةَ خَدِّها للقِرىٰ فعَمَّهَا كَرَمُه ؛ وبلغ من الأَذْرُع ستة عشر ذراعا ورفع لِوَاءَه بالمزيد ونَشَر ، وجاء للبَشَرِ بأنواع البُشَر ؛ فرَسَمْنا بتعليق سِــتْر مِقْيَاسه ، وتَخْلِيقه وتَضْويع أنْفَاسِــه ؛ وفى صبيحة اليوم المذكور كُسِر سَدُّ خَلِيجه علىٰ العاده ، وبلغ الانام أقصىٰ الإراده ؛ وتباشر بذلك العَـامُّ والخاصّ ، وأعلنت الألْسِنَةُ بحمـد رَبِّهـا بالإخلاص ؛ وسَطَّرَها وهو بفضــل الله ورحمتــه مُتَتَابِع المزيد ، بَسِيط بَحْره المديد ، مُتَجَدِّدُ النُّمُوِّ فى كُلِّ يَوْم من أَيَّام الزِّيادة جديد . فالجناب العـالى يأخذ من هذه البُشْرىٰ بأوْفَر نَصِيب ، ويشكر نِعْمَةَ الله علىٰ ما مَنَح ـ إن شاء الله ـ هذا العامَ الخَصِيب ؛ ويُذِيعُ لها خَبَرا وذِكْرًا ، ويُضَوِّع بطَيِّ هَنَائِها نَشْرا ؛ ويتقدّم بأن لا يُجْبىٰ عن ذلك بشارة بالجُمْـلة الكافيه ، لتَغْدُوَ المِنَّةُ تامةً والمَسَرَّةُ وافيه ؛ وقد جهزنا بهــذه المكاتبة فلانا ، وكتبنا علىٰ يده أمثلة شريفة إلىٰ نُوَّاب القِلَاع الفلانية [جَرْيًا](١) علىٰ العادة ، فيتقدّم بتجهيزه بذلك علىٰ عادة هِمَّتِه ، فيُحِيطُ عِلْمُه بذلك .

(١) بياض بالأصل مقدار كلمة والتصحيح يقتضيه المقام .

وهذه نسخة أخرىٰ فى معنىٰ ذلك، كُتِبَ بها فى سابع عَشْرِ ذى القَعْدَة سنة ست وستين وسبعمائة، وصورتها بعد الصَّدْر :

وبَشَّره بأخْصَبِ عام ، وأخَصِّ مَسَرَّةٍ هَنَاؤُها للوُجُودِ عامّ، وأكملِ نِعْـمةٍ تُقَابِلُ العام من عيون الأرض بمزيد الإنعام .

صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدِى إليه أتمَّ سَـلَام ، وأعمَّ ثَنَاء تَام؛ وتُوَضِح لعلمِه الكريم : أن الله تعالىٰ ــ وله الحمد ــ قد جرىٰ فى أمْرِ النيل المُبَارك علىٰ عوائد أَلْطَافِه ، ومَنَحَ عبادَه وبِلَادَه من مديد نِعَمِه مَزِيدَ إسْعَافِه ؛ وأوردَ الآمال من جُودِه مَنْهَلًا عَذْبا ، وملأها به إقبالا وخِصْبا ؛ وأحْيَا به من مَوَاتِ الأرض فاهْتَزَّتْ ورَبَت ، وأنبتت كُلَّ بَهِيج وأنْجبَت ؛ وأَيْنَعَت الرِّياضُ بجرت فيها الرُّوحُ ودَبَّت ، وٱمتلأت الحياضُ ففاضت بالمِيَاهِ وٱنْصَبَّت ؛ وطلع كالبَـدْر فى ٱزدياده ، وتَوالىٰ علىٰ مديد الأرض بأمْدادِه ؛ إلىٰ أن بلغ حَدَّه، ووَصَّل الفَرَجَ ومَنع الشِّدَّه ؛ وفى يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور القِبْط ؛ وفَّاه الله سـتة عَشَر ذراعا فَاهَ فيها بالنُّجْح ، وعم ثَرَاهُ الأرضَ فأشرق بعد لَيْلِ الجَدْبِ بالرَّخاءِ أَضْوَأُ صُبْح ؛ وفى ذلك اليوم عُلِّق سِتْره، وخُلِّق مِقْيَاسُه فاشتهر ذِكْرُه، وكُسِرَ سَدُّه، وتوالىٰ مَدُّه، ونَجَزَ من الخِصْبِ وعْدُه؛ وعلا التُّرَعَ والجُرُوف ، وقطع الطريق فأَمَّنَ من الجَدْبِ المَخُوف؛ وأقبـل بوجهه الطَّلْق المُحَيَّا، وأسْبَلَ علىٰ الأرض لِبَاس النَّفْع فبدَّلهـا بعد الظَّمَإ رِيًّا ؛ فحمِدْنا الله تعالىٰ علىٰ هذه النِّعَم ، ورأينا أن يكون للجناب العـالى أوفَرُ نصيب من هذا الهَنَاءِ الأَعَم؛ وآثرنا إعلامَه بذلك : ليكون فى شُكْرِ هذه النِّعْمة أكبر مشارك؛ فالجناب العالى يأخذ حَظَّه من هـذه البُشْرىٰ ، ويتحققُ ماله عنـدنا من

المكانة التى خَصَّتْه فى كُلِّ مُبْهِجَةٍ بالذِّكْرىٰ؛ ويتقدّم أمْرُه الكريم بأن لا يُجْبىٰ عن ذلك حَقّ بِشَاره، ولا يتعرّض إلىٰ أحَدٍ بخَسَاره؛ وقد جَهَّزنا بذلك فلانا .

الصنف السابع عَشَرَ

(فيما يكتَب فى البِشَارَة بركوب المَيْدَانِ الكبير بخطّ اللُّوقِ عند وَفَاء النِّيل فى كُلِّ سنة)

وهو ممـا يتكرر فى كُلِّ سنة عند ركوب المَيْدَان، ويكتب به إلىٰ جميع النوّاب الأكابر والأصاغر؛ وتجهّز إلىٰ أكابر النوّاب خُيُولُ صُحْبَةَ المثال الشريف، ويُرْسَم لهم بالركوب فى ميادين الممـالك لِلَعِبِ الكُرَة، تأسِّـيًا بالسلطان؛ فيركبون ويلعبون الكُرَة . والعادة فى مثل ذلك أن تُنْشَأَ نسـخةُ كتاب من ديوان الإنشاء الشريف، ويكتَبَ بهـا إلىٰ جميع النيابات، لايختلف فيها سوىٰ صَدْرِها، بحسب مايقتضيه حالُ ذلك النائب .

وهــذه نسخة مثال شريف فى معنىٰ ذلك، كُتِبَ به فى ذى القَعْدَةِ سنة ستين وسبعمائة لنائب طَرَابُلُس، وصورته بعد الصَّدْر :

ولا زَالَ تُحْمَلُ إليه أنْبَاءُ مايبرد غُلَّتَه من مُضَاعَفَة السُّرور، وتُبَثُّ له أقوال الهَنَاء بمـا يَجُبُّ علتــه من النَّصْر الموفور، ونَخُصُّه من إقبالنا الشريف بأكمل تكريم وأتمّ حُبُور .

صدرت هذه المكاتبة تُهْدى إليه من السلام والثناء كذا وكذا، وتُوَضِّح لِعلْمه الكريم أننا نَتَحَقَّقُ مَضاءَ عَزَائِمِه حَرْباً وسِلْما، واعْتِلاءَ هِمَمِه التى تُحْرَسُ بها الممالك وتُحمىٰ؛

وأن صَوافنه تُرتَبَط لتَركُض ، وتُحبَس لتَنهَض ؛ فلذلك نُعلِمُه من أنبـاء آستظهارنا مايُبهِجُ خاطِرَه، ويُقِرُّ ناظِرَه ؛ وهو أنَّنا لما كان فى يوم السبت المبارك خامِسِ شوّال، توَجَّه رِكابُنـا الشريفُ إلىٰ المَيْدانِ السـعيد وفاض به جُودُنا فآخضَرَّت مُرُوجُه ، وظهربه نَـيِّرُنا الأعظمُ فأشرقت آفاقُه وتشرَّفت بُروجُه، وأَقرَّ العيونَ مُنيرُ وجْهِنا المبارك وبَهيجُه؛ وغدا كُلُّ وَلِيّ بموالاة إنْعَامنا مَشْمُولا، وبمنَالَات إكرامنا موصولا ؛ ورَكَضَ الأَولياءُ بين أيدينا جياداً أَلِفت نِزالاً وعرَفَتْ طِرَادًا، وآنعطفت لِيناً وآنْقِيادًا ؛ وعُدْنا إلىٰ مُسْتَقَرِّ مُلْكِنا الشريف وقد جَدّدَ الله تعالىٰ لنا إسعادا، وأيّدَ لعَزْمنا المُعانِ مَبْدَأً ومَعَادا ؛ وآثرنا إعلام الجناب العالى بهذه الوِجْهَةِ الميمونه ، والحَرَكَة التى هى بالبَرَكَة مقرونه : ليأخذحَظَّه من السُّرور بذلك والهنا، ويتحقق من إقبالنا الشريف عليه مايبلغ به المُنىٰ .

✥

وهـذه نسخة مثالٍ شريفٍ فى المغنىٰ ، كُتِبَ به فى العشرين من شعبان، سنة أربعٍ وخمسين وسبعمائة . وصورته بعد الصَّدْر :

ولا زالت مَيَادِينُ سَعْده لاتَتَناهىٰ إلىٰ مَدىٰ، وكُرَات كَرَّاته فى رِحَاب النَّصْر تَلْمَع كنَجْمِ الهُـدىٰ ؛ ومُدَوَّرُ صَوالِجهِ كشَوَاجِرِ المُرَّانِ تَحْلُو بتأييدها للأوليـاء وتَغْـدُو مَرِيرَةً للعِدَا .

صدرت هذه المكاتبةُ وظَفَرُها لايزال مؤيَّدا، ونَصْرُها لابَرِحَ مُؤَبَّدا ؛ تُهْدى إليه سلاما مؤكَّدا، وثَنَاءً كَنَشْرِ الأرض بالنَّدىٰ؛ وتُوَضِّح لعلمه أننا لم نَزَلْ بحمد الله نَتَّبِـعُ سَنَنَ سَلَفنا الشريف ، ونُجْرى الأمورَ علىٰ عوائد جميلهم المُنِيف ؛ ونرىٰ تَمْرِين الأولياء علىٰ مُمَـارَسَة الحروب ، ونُؤْثِرُ إبقاء آثار الجِهَاد فيهم علىٰ أحسن أُسْلُوب ؛

فلذلك لا نُخِلُّ فى كُلِّ عام بالتَّعاهُد إلىٰ المَيْدان السعيد، والركوب إليه فى أسْعَدِ طَالِعٍ يُبْدِئُ النَّصر ويُعِيد : لِمَا فى ذلك من ٱبتهاجٍ يَتَجَدَّد ، وأسباب مَسَرَّة لِكافَّة الأنام تتأكَّد، ودعوات ألْسِنَتُها تتضاعف من الرعية وتَتَرَدَّد .

ولما كان فى يوم السبت المبارك سادس عشر شهر رَجَب الفَرْد، ركبنا إلىٰ المَيْدان السعيد فى أتَمِّ وقت أَخَذ من السَّعْد بِمَجْمُوعه، وأظهر فى أُفُقِ العساكر من وَجْهِنا الشريف البَدْرَ عند طُلُوعه، ولم نَبْرَح يومَنا المذكور فى عطَاءٍ نُجِيدُه، وإنعام نُفِيدُه، وإطلاق نُبْدِئه ونُعِيدُه، والأولياء بين أيدينا الشريفة يَمْرَحُون، وفى بِحَارِ كَرَمِنا المُنِيف يَسْبَحُون، وفى مَيْدَانِ تأييدنا المُطِيف يَسِيحُون، والكُرَات كالشمس تَجْنَحُ تارة وتَغِيب، وتَخْشىٰ من وَقْعِ الصَّوالِجَة فتقابلها بوَجْهٍ مُصْفَرٍّ مُرِيب، ثم عُدْنا إلىٰ القَلْعة المنصورة علىٰ أتَمِّ حال، وأسْعَدِ طالع بَلَّغ الأنام الأمانَ والآمالَ، والعساكر بخدمتنا الشريفة مُحْدِقُون، ومماليكنا بعُقُود وَلائنا مُطَوَّقُون، والرَّعَايا قد ألبسها السُّرُورُ أثوابا، وفَتَحَ لها من الاْبتِهاج أبوابا، وقد آثرنا إعلامَ الجناب بذلك ليأخذ حَظَّه من هذه المَسَرَّة والبُشْرىٰ، ويَشْتَرِكَ هو والأنام فى هذه النِّعْمَة الكُبْرىٰ، ومَرْسُومُنا للجناب أن يتقدّم بالركوب بِمَنْ عنده من الأمراء فى مَيْدان طَرَابُلُس المحروسة، ويَلْعَبَ بالكُرَةِ علىٰ جارى العادة فى ذلك، لِيُسَاهِمَ أولياء دولتنا القاهرة فى ذلك، ويسلك من طُرُقِهم الجميلة أجْمَل المَسَالِك .

قلت : وهذا الصِّنْفُ من المكاتبات السلطانية لم يَزَلْ مستعملا بديوانِ الإنشاء، يُكْتَبُ به كُلَّما ركب السلطان إلىٰ المَيْدَانِ الصَّالِحىّ بخطِّ اللُّوق، إلىٰ أن عُطِّلَ جِيدُه من الركوب فى أواخر الدَّوْلة الظاهرية «برقوق» وٱقْتُصِر علىٰ لِعْبِ الكُرَةِ فى المَيْدَان الذى جرت به العادة، فتركت المكاتبة بذلك من دِيوَانِ الإنشاء ورُفِضَ ٱستعمالُها .

الصنف الثامن عَشَرَ

(المكاتبـــة بالبِشَارَة بحجِّ الخليفـــة)

لـما كانت الأسفار، مَحَلَّ الأخطار، ومَوْقِعَ الآختـلاف وحدوث الفتن؛ كانت الخلفاء يكتبون الكُتُبَ إلىٰ عُمَّالِهم بالسلامة عند الإيَابِ من السَّـفَر للحَجِّ وغيره . والرَّسْم فيهـا أن يذكر أن الحَجَّ من أجَلِّ العبادات ، وأن من النعمة [أنْ يمنَّ](١) الله تعالىٰ بقضاء المناسك، والوُقُوفِ بالمَشْعَرِ الحَرَام، والطَّوافِ بالبَيْتِ العَتِيق، والسَّعْيِ بين الصَّفَا والمَرْوَةِ، وما يجرى مجرىٰ ذلك من شعائرِ الحَجِّ؛ ثم بَعْدُ بزيارة النبيّ صلّى الله عليه وسـلم، وآتفاقِ الكَلِمَةِ فى جميع هـذه الأحوال، علىٰ كَثْرَة الخلائق ومزيد الجيوش والعساكر .

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سَفَرِ الحَجِّ، وهى :

الحمـد لله الذى جعل بيته مَثَابَةً للناس وأمْنَاً، وحَرَماً مَنْ دخله كان آمِنا؛ الذى آختار دِينَ الإسلام علىٰ الأديان، وآبْتَعَثَ به صَفْوَتَه من الإنْسِ والجَان؛ محمدا أكرم بَنِي مَعَدّ بن عَدْنَان .

يحمده أميرالمؤمنين أن أعَانَه علىٰ تأدية حَقِّه، ونَصَبَه لكَفَالة خَلْقِه؛ ووَفَّقه للعمل بمـا يُرْضيه ويُدْنِي إليه . ويسأله أن يُصَلِّيَ علىٰ خير من غَارَ وأنْجَد، وصَدَر ووَرَد؛ وركع وسجد، ووَحَّد ومَجَّد، وصَلّى وعبد؛ وحَلَّ وأحرم، وحَجَّ الحَرَمَ؛ وأتى المُسْتَجَار والمُلْتَزَم، والحَطِيمَ وزَمْزَم، محمد سَيِّدِ ولد آدَم؛ وعلىٰ أخيه وآبن عَمِّه مِصْبَاح الدِّلاله، ومِجَاب الرِّساله؛ إمام الأمَّه، وبَابِ الحِكْمَه؛ أمير المؤمنين عَلِيّ بن أبى طَـالِب ،

---

(١) بياض بالاصل والتصحيح مما يقتضيه المقام .

مُمَزِّق الكتائب، ومُفَرِّق المواكب؛ ومُحَطِّم القواضب، فى القُلَلِ والمنَاكِب؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهما الهادين، صلاةً باقيةً فى العالمين.

وإنَّ أوْلىٰ النِّعَم بأن يُسْتَعْذَب ذِكْرُها، ويُسْتَعطر نَشْرُها؛ وتتحدَّث بها الألْسنَه، وتُعَدَّ فى مواهب الله الحَسَنَه؛ نِعَمُ الله تعالىٰ فى التوفيق لحَجِّ بَيْتِه الذى جعله مَثَابَةً لزَائِرِيه، والإطَافَةِ بحَرَمِه الذى يُوجِب المَغْفِرَةَ لقَاصِدِيه؛ والنُّزُولِ بأفْنِيَتِه التى من يَحْدُم بها فقد آنسلخ من السَّيِّئات، وتَلَبَّس بالحَسَنَات؛ وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم النَّفْرِ الأوّل: وقد قضىٰ بحمد الله تَفَثَه، ووَفَّىٰ نَذْرَه؛ وتَمَّمَ حَجَّه، وكَمَّل طَوَافَه؛ وشَهِدَ مَنَافِعَه، وأدَّى مَنَاسِكَه؛ ووقف المَوْقِفَ بين يدى رَبِّه قَانِتًا داعيا، وراغِبًا رَاجِيًا؛ وعَرَّفه بعرفَاتٍ إعلامَه قَبُولَ سَعْيِه، وإجابةَ تَلْبِيَتِه، وبلَّغه فى مِنًى أَمَانِيَّه من رَأْفَتِه؛ وأراه من مَخَايِلِ الرَّحمه، ودلائل المَغْفِره؛ ماتلألأت أنوارُه، وتَوَضَّحت آثارُه؛ وأجراه علىٰ تفصيل العبارة فى شُمُول السَّلامة لِكُلِّ مَنْ حَجَّ بحَجِّه، ووقف مَوْقِفَه من أوليائه وخاصَّته، وعامَّتِه ورَعِيَّته؛ وأنعم باتفاق كلمتهم، وآجتماعِ أهْوِيَتِهِم؛ وآكتنافِ الدَّعَةِ والسُّكون لهم، وزوالِ الآختلاف والمُبَايَنَة بينهم.

فان أراد زيارة قبر النبيّ صلّى الله عليه وسلم، قال: وهو يَصْدُرُ بإذن الله تعالىٰ عن مَوْقِفِه هذا من البيت الحرام، إلىٰ زيارة قَبْرِ النَّبيّ عليه السلام.

فان أزْمعَ الآنكفاءَ إلىٰ مَقرِّه، قال:

وأشعرك أميرُ المؤمنين ذلك وهو عَائِدٌ بمشيئة الله تعالىٰ إلىٰ مَقرِّ خلافَتِه، فى عزٍّ من قُدْرَته، وعُلُوٍّ من كَلِمَتِه؛ وآمتداد من سُلْطَانِه، وتَضَاعُفٍ من جُنْدِه وأعْوَانِه: لتأخذ بحَظِّكَ من الآبتهاج والجَذَل، وتُذِيعَه بين أهل العَمَل: ليشاركك العامَّة فى العلم بهذه النِّعْمَة فيُخْلِصُوا لله الشُّكْرَ عليها، ويرْغَبُوا إليه فى الزيادة منها؛ إن شاء الله تعالىٰ.

* * *

وهذه نسخة كتاب بسلامة الخليفة من سَفَرٍ فى الجُمْلة .

والرسم فيــه أن تُذْكر نِعْمَةُ الله تعالىٰ بمــا منح أميرَ المؤمنين فى سَفَرِه ذلك : من بُلُوغ المآرب، وتسهيلِ المقاصــد ، وإدراكِ الأَوْطَار، وشُمُول النِّعْـمَة فى الذَّهَاب والإيَابِ ، وما يجرى مجرىٰ ذلك ممّـا ينخرط فى هذا السِّلْك، وهذه نسخته :

الحمد لله ذى الطَّوْلِ والإنْعَـام ، والفَضْـلِ والإكرام ، والمِنَنِ العِظَام ، والأيادى الجِسَام ، الذى أرْعىٰ أميرَ المؤمنين من حِيَاطَتِه عَيْنًا لا تَنَـام ، وٱستخدم لِحَرَاسَـتِه والمُرَامَاة دونه اللَّيالِىَ والأيام ، وقَضىٰ له بالتوفيق والسَّعادة فى الظَّعْنِ والمُقَام .

يحمَدُه أميرُ المؤمنين أنــ ٱستخلصه لإمامة الأنام ، وعَدَق به أسَاليبَ النَّقْض والإبرام ، ويسألُه الصلاةَ علىٰ مَنِ ٱخْتَصَّه بشَرَف المَقَام ، وٱبتعثه بدِينِ الإسـلام ، وجَلَا به حَنَادِسَ الظَّلام ، محمد خَاتَمِ الأنبيـاء الكِرَام ، وعلىٰ أخيه وٱبن عَمِّه الهُمَامِ الضِّرْغَامِ ، أميرِ المؤمنين علىّ بن أبِى طَالِبٍ مُكَسِّرِ الأصنام ، وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهما أعْلَامِ الأحكام ، وأدِلَّةِ الحَلَال والحَرَام .

وإن أميرَ المؤمنين لايزال يتحدّث بنِعَم الله مُسْـتَدِرًّا لأخْلَافها ، منتَصِباً لِقطَافِها ، ويُفِيضُ فى ذِكْرها ، مُسْتَدْعِيًا للزيادة بشُكْرِها ، ويُطْلِـعُ خُلَصَاءَه علىٰ حُسْنِ آثارها لَدَيْه : وسُـبُوغِ مَلَابِسِها عليـه ، ليأخذوا بحَظٍّ من الغِبْطَة والٱستبشار ، ويَسْرَحوا فى مَسارح المَبَاهِج والمَسَارّ ، وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك حين ٱستقرّ رِكَابُه بناحية كذا ، مبشرا لك بنِعْمَةِ الله فى حِيَاطَتِه ، ومَوْهِبَتِه فى سَلَامَتِه ، وما أولاه من انارة (؟) الدَّليل ، وتسهِيلِ السَّبِيل ، وطَىِّ المَجَاهِل ، وتَقْرِيب المَنَازِل ، وإعْذَابِ المَناهل ، وإنَالَة الأوطار ، وتَدْمِيث الأَوْعَار ، وبركَة المُتَصَرَّف ، وسعادة المُنْصَرف ، ووُصُوله إلىٰ مَقْصَده

قَرِيرَ العَيْن ، قليلَ الأَيْن ، محفوظا سَارِيًا وآيِبا ، مَكْلُوءا عَائِدا وذَاهِبا ، مُشَرَّدَ النَّصَب مسرورا ، مَوْفُورَ النَّصيب مَحْبُورا ، فى آجتماع من كلمة أوليائه على طاعته ، ونُفُوذ بصائرهم فى نَصْرِ رَايَتِه ، وإعَانَتِه على ما آستَحْفَظَه من عباده ، وآسترعاه من بلاده : ليأخذ بالحَظِّ الأَجْزَل ، من الآبتهاج والجَذَل ؛ ويشكر الله تعالى على هذه النِّعْمَة المُتَجَدِّده ، ويضيفها إلى سَوَالِف نِعَمِه التَّالِدَه ؛ ويُذِيعَها بين رَعِيَّته ، وأنصار دَعْوَته ؛ ليشتركوا فى آرتشاف لُعَابِها ، وآلتِحَافِ أثوابها ؛ فاعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالى .

قلت : وهذا الصِّنْفُ من المكاتبات السلطانية قليلُ الوُقُوع ، فإن وقع مثله للكاتب فى زماننا ، خرّجه على نِسْبَةِ الأسلوب المتقدّم .

الصنف التاسع عَشَر

(الكتابة بالإنعام بالتشاريف والخِلَع)

وهذا الصِّنْفُ ممّا أغفله صاحبُ "موادّ البيان" ولا بدّ منه .

والرسم فيه أن يكتب عن الخليفة أو السلطان إلى مَن أخلص فى الطاعة ، أو ظهرت له آثار كِفَايَة : كفَتْح أو كَسْر عَدُوّ ، وما يجرى مجرى ذلك .

وهذه نسخة كتاب كَتَب به أبو إسحاق الصَّابِى عن الطائع لله ، إلى صَمْصَامِ الدَّوْلَة آبن عَضُدِ الدَّوْلَة بن بُوَيْه ، قرينَ خِلْعَةٍ وفَرَسَيْنِ بمَرْكَبَيْنِ من ذَهَب وسَيْف وطَوْقٍ ، وهى :

من عَبْد الله عَبْد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى صَمْصَامِ الدَّوْلَة وشمس الملة أبى كَالِيجار بن عَضُد الدَّوْلَة وتاج المِلَّة مولى أمير المؤمنين .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنـين يَحْمَد إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو، ويسأله أن يُصَلِّيَ علىٰ جده محمد عبده ورسوله صلَّى الله عليه وسلم .

أما بعـد، أطال الله بقاءك : فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوَّأَكَ المنزلة العُلْيا، وأنالك من أُثْرَتِه الغايةَ القُصْوىٰ ؛ وجعل لك ما كان لأبيك عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلَّة ـ رحمة الله عليه ـ من القَدْر والمَحَلّ، والمَوْضِع الأرفعِ الأجَلّ ؛ فإنه يُوجِبُ لك عند كلِّ أثر(١) يكون منك فى الخدمه ، ومَقَامِ حَمْدٍ تَقُومه فى حِمَاية البَيْضه، إنعاما يُظَاهِرُه، وإكراما يُتابِعه ويُوَاتِره؛ والله يَزِيدُك(٢) من توفيقه وتسديده، ويَمُدُّك بمَعُونَتِه وتأييده؛ ويَخِيرُ لأمير المؤمنين فيما رَأْيُه مُسْتَمِرٌّ عليه من مَزِيدك وتمكينك ، والإبْقَاءِ بك وتعظيمك؛ وما تَوْفِيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يَتَوَكَّلُ وإليه يُنِيب .

وقد عرفتَ ـ أدام الله عِزَّك ـ ما كان من [أمر كردويه](٣) كافر نِعْمَة أمير المؤمنين ونِعْمَتِك ، وجَاحِد صَنِيعَته وصَنِيعَتِك ؛ فى الوَثْبَةِ التى وَثَبها ، والكبيرة التى ٱرتكبها ؛ وتَقْدِيرِه أن يَنْتَهِزَ الفُرْصَــةَ التى لم يمكِّنْه الله منها ، بل كان من وراء [ذلك] دَفْعُــه ورَدُّه عنها ؛ ومعاجَلَتِك إياه الحَرْبَ التى أصلاه الله نَارَها، وقَنَّعه عارَها وشَنَارَها ؛ حتّٰى ٱنهزم والأوْغَادَ الذين شَرِكُوه فى إثَارَة الفِتْنَه ، علىٰ أقبـح أحوال الذِّلَّة والقِلَّه ؛ بعد القَتْل الذَّرِيع، والإثْخَان الوجيع . فالحمد لله علىٰ هذه النعمة التى جَلَّ مَوْقِعُها ، وبانَ علىٰ الخاصَّة والعامَّة أثرُها؛ ولَزِم أميرَ المؤمنين خصوصا والمسلمين عموما نَشْرُها والحديثُ بها ، وهو المسئُول إقامتَها وإدامتَها برحْمَتِه .

---

(١) تقدم فى هذا المطبوع (ج ٦ ص ٣٩٦) عند بذلك أثرا .

(٢) الذى تقدّم « يؤيدك » وما هنا أوضح .

(٣) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدّم .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يُجازِيَك عن هذا الفتح العظيم، والمَقامِ المَجيد الكريم؛ بخِلَع تامّة، ودابَّتَين بمَرْكَبَيْن من ذَهَبٍ من مراكبه، وسَيْفٍ وطَوْقٍ وسِوارٍ مُرَصَّع. فتَلَقَّ ذلك بشُكْر الله تعالىٰ عليه، والاعتدادِ بنعْمَته فيه؛ وآلبَسْ خِلَعَ أميرِ المؤمنين وتَكْرِمَته، وسِرْ [من بابه](١) علىٰ حَمَلاته، وأظهر ما حَبَاك به لأهل حَضْرَتِه، لِيُعِزَّ الله بذلك وَلِيَّه ووَلِيَّك، ويُذِلَّ عَدُوّه وعَدُوّك؛ إن شاء الله تعالىٰ، والسلام عليك ورحمته وبركاته. وكَتَبَ فلان لثَمَانٍ(٢) بَقِينَ من شهر ربيع الأوّل سنة خمس وسبعين وثلثمائة: أطال الله بقاءك، وأدام عِزّك، وأجزل حِفْظَك وحِيَاطَتَك، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة فيك وعندك.

قلتُ: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية باقٍ علىٰ الاستعمال، متىٰ أنعم السلطانُ علىٰ نائبِ سَلْطَنَةٍ أو أميرٍ أو وزيرٍ أو غيره بخِلْعَةٍ بعث بها إليه وكُتِب قرينها مثالٌ شريف بذكر ذلك؛ إلا أنه أهمل فى ذلك السَّجْعُ والازدواج، واقتصر فيه علىٰ الكلام المحلول كما فى غيره من المكاتبات، إلا فى النادر المُعْتَنىٰ بشأنه.

الصنف العشرون

(المكاتبة بالتَّنْويهِ والتلقيب)

قال فى "مواد البيان": جرت عادة الخُلَفَاءِ بالكتابة بالتلقيب، لأن اللَّقَبَ مَوْهِبَةٌ من مواهب الإمام: أمضاها وأجازها؛ فإذا جرت عليه كانت كغيرها من نِعَمِه التى يَمْنَحُها علىٰ عبيده؛ والكُنْيَةُ تَكْرِمَةٌ يَسْتعملها الناس فيما بينهم، فليس حُكْمُها حُكْمَ اللَّقَب.

---

(١) بياض بالاصل والتصحيح عما تقدم (ج ٦، ص ٣٩٧).

(٢) سماه فيما تقدم «أحمد بن محمد».

قال : والرسم فى هـذه الكتب أن تفتتح بحمد الله علىٰ نِعَمِه السَّابِغَـة الضَّافِيَه، ومَوَاهِبِه الزَّاهية الناميه، وعَوَارِفه التى جعلها جَزَاءً للمحسنين، وزيادةً للشَّاكِرين؛ ونحوِ هذا ممـا يليق أن يفتَتَح به هذا الغَرَض؛ والصَّلاة علىٰ سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلم . ثم يقال :

وإنَّ أميرَ المؤمنين بمـا خوّله الله تعالىٰ من نِعَمِه، وبوّأه من قِسَمِه؛ وخَصَّه به من التمكين فى أرْضِــه، والمَعُونَةِ علىٰ القيام بفَرْضِــه، يرىٰ المَنَّ علىٰ خُلَصَائِه، وإسْبَاغَ النِّعَم علىٰ أوليائه؛ وٱخْتِصاصَهم بالنَّصيب الأوفر من حِبَائِه؛ والإمالةَ بهم إلىٰ المنازل البَاذِخَه، والرُّتَب الشَّامِخَه . وإن أحقَّ من وَفَرَ قِسْمُه من مواهبه، وغَزُر سَهْمُه من عَطَاياه ورَغَائِبِه، مَنْ تَمَيَّزَ بمـا تميزت به من إخْلاَصٍ ومُطَاوَعَه، ووَلاَءٍ ومُشَايَعَه، وٱنْقِيَاد ومُتابَعَه، وصَفَاءِ عقيدة وسَرِيرَه، وحُسْنِ مَذْهَبٍ وسِيرَه؛ ولذلك رأىٰ أمير المؤمنين أن يَنْعَتَك بكذا لٱشتقاقه هذا النَّعْتَ من سِمَاتك، وٱسْتِنْبَاطه إياه من صِفَاتِك ؛ وشرَّفَكَ من ملابسه بكذا ، وطَوَّقَك بطَوْقٍ أو بعِقْدٍ ، وقَلَّدك بسَيْفٍ من سيوفه ، وعَقَد لك لِواءً من ألْوِيَتِه ، وحَمَلك علىٰ كذا من خَيْـله وكذا من مَرَاكِبِـه . وبحُسْنِ الوَصْف فى كُلِّ نَوْعٍ من هـذه الأنواع وٱشتقاق الألفاظ من معانيه، يعرب عن قَدْرِ الموهِبَة فيه. ثم يقال : إبانَةً لك عن مكانك من حَضْرَتِه، وإثَابَةً علىٰ تشميرك فى خِدْمَتِه؛ فالْبَسْ تَشْرِيفَه وتَطَوَّقْ، وتَقَلَّدْ ماقلَّدك به؛ وٱركب حُمُولاته ، وٱبْرُزْ للخاصَّـة والعامَّة فى ملابس نعمائه ، وٱرْفُلْ فى حُلَلِ آلائه ، وزَيِّنْ موكِبَك بلوائه؛ وقُلْ ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ وأعِنِّى علىٰ ما يَسْتَرْهِنُها لَدَىَّ؛ وخاطِبْ أميرَ المؤمنين متلقبا بسِمَتِك ، مُتَنَعِّتاً بنَعْتِك .

وهذه نسخة مكاتبة إلىٰ الأفضل بن ولخشى، وزيرِ الحافظ لدين الله الفاطمىّ، أحد خلفاء الفاطميين بالديار المِصْرِيَّة، حين قَرَّر الحافظُ نُعُوتَه : السيدُ، الأجلُّ،

الأفضلُ، أميرُ الجيوش ، سَيْفُ الإسـلام ، نَاصِرُ الأنام ، كَافِلُ قُضَاة المسلمين ، وهادى دُعَاة المؤمنين ، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله الذى تَفَرَّد بالإلٰهيه ، وتَوَحَّد بالقِدَمِ والأَزَلِيَّه ؛ وأبدع مَنْ بَرَأَ وخَلَق ، وأنشأهم من غير مِثالٍ سَبَق ؛ وآصطَفىٰ لتدبيرِهم فى أرضه مَنْ بَعَثَه برِسَالته ، وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أَمَارةِ لُطْفه بهم ودلالتِه ؛ وصلّى الله علىٰ جدّنا محمد رسوله الذى جعل رُتْبَتَه اخيرا ونُبَوَّته أُولىٰ ، فكان أفضلَ مَنْ تقدّمه نَبِيًّا وسَبَقَه رسولا ؛ وعلىٰ أخيه وآبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِبٍ الذى ذَخَرَه لِخلافَتِه ، وأيَّده بوِزَارَتِه ؛ مع كَوْنِه من منزلة الاصطفاء ، وتأييد الوَحْيِ الظاهرِ من غير خَفَاء ؛ بحيثُ لايَفْتَقِرُ إلىٰ وَزِير ، ولا يحتاج إلىٰ ظَهِير ؛ وإنما جعل ذلك تعليما لمن يَسْتَخْلِفُه فى الأرض من عباده ، وتمثيلاً نَصَّ – جَلَّ وعَزَّ – إلىٰ قَصْدِه وآعتمادِه ؛ لِمَا فيه من ضَمِّ النَّشَر ، وصلاح البَشَر ، وشُمُول المنافع ، وعُمُوم الخيرات التى أُمِنَ فيها من مُدَافِع ؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهِما العاملين بمَرْضَاتِه ، والمُتَّقِينَ له حَقَّ تُقَاتِه ، والكافلين لكُلِّ مُؤْمِنٍ بأَمَانِه يوم الفَزَعِ الأكبر ونَجَاته ؛ وسلَّمَ عليهم أجمعين ، سلامًا متصلا إلىٰ يوم الدِّين .

والحمد لله الذى جعل النِّعَم التى أَسْبَغَها علىٰ أمير المؤمنين ، بِحَسَبِ ما آختصَّه به من مَنْزِلته التى فَضَّله بها علىٰ جميع العالمين ؛ بجعله خليفةً فى الأرض ، والشَّفِيعَ لمَنْ شايعه يوم الحساب والعَرْض ؛ وأجزل له من مِنَنِه مالا يُنَاهِضُه شُكْرٌ إلا كان ظالعا ، ولا يُقَابِلُه آعتدادٌ إلا آستولىٰ عليه العَجْز فلم يكن بما يجب له طامعا ؛ وإنَّ من أرْفَعِها مكانا ، وأَعْظَمِها شانا ، وأنْخمها قَدْرا ، وأَنْبَهِهَا ذِكْرا ، وأَعَمِّها نَفْعا ، وأَحْسَنِها صُنْعا ، وأَغْزَرِها مادَّه ، وأَثْبَتِها قاعدة إذا غدت النِّعَمُ شاردةً نادَّه ، وأعودها فائدةً

على الخاصّ والعام ، وأضمنها للسّـعْد المُساعِد والحظّ الوافر التّام ـ ما كان من المِنّة الشامخة الذُّرى ، والمِنْحَة الشاملة لجميع الورى ؛ والعارفة التى ٱعترف بها التوحيـد والإسلام ، والمَوْهِبَة التى [إذا] أنفق كُلّ أحدٍ عمره فى وَصْفها وشُكْرِها فما يُعْذَل ولا يُلام ؛ والآية التى أظهرها الله للمِلّة الحنيفيّة على فَتْرةٍ من الرُّسُل ، والمُعْجِزَة التى هدى أهْلَه لها دون كافّة الأمّة إلى أعدل السُّـبُل ؛ والبُرْهان الذى خصّ به أمير المؤمنين وأظهره فى دَوْلَته ، والفَضيلة التى أبانت مَكانه من الله وكريمَ مَنْزِلَته ؛ وذلك ما منّ الله به على الشريعة الهَاديَه ، والكلمة البَاقيَه ؛ والخلافة النّبويّه ، والإمامة الحَافِظيّه ؛ منك أيُّها السيدُ الأجلُّ الأفضلُ : ولقد طال قَدْرُك فى حُلَلِ الثّناء ، وجَلّ ٱستِحْقاقُك عن كُلّ عِوَضٍ وجَزاء ، وغَدَت أوْصَافُك مسألةَ ٱجتماع وٱئتلاف ، فلو كانت مَقَالةً لم يَقَعْ بين أرباب المِلَلِ شىءٌ من التّناقُض فيها والاختلاف ؛ وأين يبلغ أمَدُ ٱستِيجَابِك من مُنْتَحِيه ، أو يَتَسهّلُ إدراكُ شَأْوِه على طالبه ومُبْتَغيه؟ ؛ والإيمان لو تجسّم لكان على السّعْي على شُكْرِك أعظم مُثَابِر ، والإسلامُ لو أمكنه النُّطْق لقام بالدعاء لك خطيبا على المَنَابِر ؛ فأما الشِّرْكُ فلو أبقيته حَيًّا لتَصـدّى وتعرّض ، لٰكنّك أنحيتَ عليـه وأدَلْتَ التوحيـد منه فانهدّ بناؤه بحمد الله وتَقَوّض ؛ فكان لك فى حقّ الله الغضبَ الذى تقرّبْتَ به إليه فأرْضَيْتَه ، والعَزْمَ الذى صَمّمْتَ عليه فى نُصْرَةِ الحَقّ فأمْضَيْتَه ؛ والباطنَ الذى ٱطّلَعَ عليه منك فنصرك ولم تُرِقْ دمًا ، ولا رَوّعْتَ مُسْلما ، ولا أقْلَقْتَ أحدًا ولا أزعجْتَـه ، ولا عَدَلْتَ عن مَنْهَج صَوابٍ لـمَا ٱنتهجْتَه ؛ وذلك ممـا ٱشترك الكَافّةُ فى معرفته ، وتساوَوْا فى عِلْمِ حقيقته ؛ مع ما كان من تسييرك العساكر المُظَفّرَة صُحْبَةَ أخيك الأجَلّ الأوحَد : أدام الله به الإمْتاع وعَضّده ، وأحسن عنـه الدِّفاع وأيّده ؛ مما جَرت الحالُ فيه بحُسْنِ سياستك ، وفَضْلِ سِيَادَتك ؛ على أفْضَلِ ما عوّدك الله من بلوغ آمالك ، من غير أذًى لَحِقَ أحدًا من رجالك ؛ والأمر فى ذلك أشهر من

الإيضاح ، وأبْيَنُ من ضِياءِ فَلَقِ الصَّباح ؛ وهذا إذا تأمَّلَه أميرُ المؤمنين أوجب عليه أن يُقَابِلَك من إحسانه ، بغاية ما فى إمكانه ؛ وأن يُولِيَك من مِنَّتِه ، أقصىٰ مافى آستطاعته وقُدْرَتِه ؛ ولم يَرَ أحضرَ من أن قرَّر نُعُوتَك «السيِّدُ، الأجلُّ، الأفضلُ، أميرُ الجيوش ، سيفُ الإسلام ، ناصرُ الأنام ، كافلُ قُضَاة المسلمين، وهادى دُعَاة المؤمنين ، أبو الفَتْح رِضْوان الحافظىّ» إذلا أولىٰ منك بكَفَالَة قُضَاة دَوْلَته و إرشادِهم ، وهِدَايَة دُعَاتِها إلىٰ مافيه نَجَاةُ المستجيبين فى مَعَادِهم ؛ وجدّد لك ما كان قَدَّمَه : من تكفيلك أمْرَ مَمْلَكَتِه ، وإعادةِ القَوْل فيما أسلفه من ردِّه إليك تَدْبيرَ ما وراءَ سَرِيرِ خلافته ؛ التِذاذا بتَكْرار ذلك وترديده ، وآبتهاجًا بتطْرِيَةِ ذكره وتَجْديده ؛ فأمورُ المِلَّة والدَّوْلَة مَعْدُوقَةٌ بتدبيرك ، وأحوالُ الأدانِى والأقَاصِى موكولةٌ إلىٰ تقريرك ؛ وقد جمع لك أميرُ المؤمنين من آستخدامِ الأقلام ، وجَعَلَ السيادةَ لك علىٰ سائرِ القُضَاة والدُّعاة والحُكَّام ؛ وأسجل لك بالآختصاص بالمَعَالِى والآنفراد ، والتَّوَحُّد بأنواع الرِّياسات والآستبداد ؛ ولك الإبرَامُ والنَّقْض ، والرَّفْع والخَفْض ؛ والوِلَايَةُ والعَزْل ، والتقديم والتأخير ، والتَّنْوِيهُ والتأمير ؛ فالمُقَدَّم من قَدَّمْتَه ، والمحمود من حَمِدْتَه ؛ والمُؤَخَّر من أخَّرْتَه ، والمذموم من ذَمَمْتَه ؛ فلا مخالفةَ لما أحْبَبْتَه ، ولا مَعْدِلَةَ عما أرَدْتَه ؛ ولا تَجَاوُزَ لما حدّدته ، ولا خُرُوجَ عمَّا دَبَّرْتَه ؛ وأين ذلك مما يُضْمِرُه لك أميرُ المؤمنين ويَنْوِيه ، و يعتقدُه فيك فلا يزال مدىٰ الدَّهر يُعِيدُه ويُبْدِيه ؟ ولو لم يكن من بركاتك علىٰ دَوْلَةِ أمير المؤمنين ، ويُمْنِ تدبيرك العائد علىٰ الإسلام والمسلمين ، إلا أنَّ أوَّلَ عَسْكرٍ جَهَّزته إلىٰ جِهاد الكَفَرَةِ المَلَاعِين : وكان له النَّصْرُ العزيز الذى تَبَلَّج بَحْرُه ، والفَتْحُ المُبين الذى جَلَّ قَدْرُه وآنتشر ذِكْرُه ، والظَّفَرُ المُبْهِجُ للدِّين ـ العَسْكَرُ المنصور علىٰ الطائفة الكافرة : قَتْلًا لأبطالها ، وأسْرًا لأعناق رِجَالها ، وأخذًا لقِلاعِ المَلَسرة(١)

(١) كذا بالأصل ، وقد وضع فوقها علامة توقف لعدم ظهور معناها ، ولعلها مصحفة عن "الكَفَرَة" .

منها، وأنه لم يُفْلِتْ من جماعتها إلا مَنْ يُخْبِر عنها؛ ولو عَلِمَ أمير المؤمنين تعظيمًا يخرج عمــا تَضَمَّنَه هــذا السِّجِلُّ لمــا ٱقتصر عليــه ، إلا أنه عَاجَلَه ما يَسُرُّه بجاهر(١) لك بمــا هو مُسْتَقِرٌّ لديه ؛ والله عَزَّ وجَلَّ يُخْدِمُك السُّعُود ، ويَخُصُّك من مَوَاهِبه بمــا يتجاوز المعهود ؛ ويَمُدُّك بموادّ التوفيق والتأييد ، ويقضى لك فى كُلِّ أمورك بمــا لامَوْضِعَ فيه لِلمَزيد، إن شاء الله تعالىٰ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قلتُ : وهذا الصِّنْف من الكُتُب السلطانية قد رُفِضَ وتُرِكَ ٱستعماله فى زماننا فلا معوّلَ عليه أصلا .

الصـــنف الحادى والعشرون

(المكاتبةُ بالإحماد والإذمام)

قال فى "مواد البيان" : السلطان محتــاجٌ إلىٰ مكاتبة مَنْ يَقِفُ منه علىٰ طاعة وٱجتهاد، ومُنَاصَحَةٍ وإخلاص ، بالشُّكْرِ والإحماد، والبَعْث علىٰ الٱزدياد من المُخَالَصــة وحُسْنِ السَّعْيِ فى الخِدْمة وغيرها ؛ مما يرتبط به النِّعْمَه ، ويَسْتَوْجِبُ معه حِفْظَ الرُّتبه. ومُكَاتبــةِ من يَعْثُر منه علىٰ تقصــير وتَضْجِيع ، وتفريط وتضييع ؛ بالذَّمِّ والتقريع والتَّأْنيب : لأنه لايَخْلُو أعوانُ السلطان من كُفَاة يســتديم كِفَايَتَهم بتصويب مراميهــم ، وٱستحسان مَسَاعِيهــم ؛ وإحْمَــادِهم علىٰ تشميرهم ، وشَرْحِ صُدُورهم بِبَسْــط آمالهم ؛ والعِدَةِ برفع منــازلهم ومحَالِّهم ، وتمييزهم علىٰ نُظَرَائِهــم وأشْكَالِهم ؛ وتحذيرِهم من التوبيخ وتقــديم الأعذار ، والتخويف من سقوط المراتب ، وقُبْح المصاير والعواقب .

---

(١) فى الأصـــل "وشاهد" .

قال : وينبغى للكاتب أن ينتهىَ فى خطاب مَن ٱنتهىٰ فى الحالين إلىٰ غايتيهما ، إلىٰ المعانى الناجعة فى الغَرضَيْن ، ويتوسط فيهما سِيَّما التوسط الذى يقتضيه الحال المُفَاضُ فيها : لأن فى ذلك تقريرا للمُحْسِن علىٰ إحسانه ، ونَقْلًا للمُسِىءِ عن إساءته : لأنه إذا علم النَّاهِضُ أنه مُثَاب علىٰ نَهْضَتِه ، والْوَانِى أنه مُعَاقَبٌ علىٰ وَنْيَتِه ؛ ٱجتهد هـذا فى الٱستظهار بخِدْمَتِه بمـا يزيد فى رُتْبَتِه ، وخاف هذا من حَطِّ منزلته وتَغَيُّرِ حالته . ثم قال : والرسوم فى هذه المكاتبات تختلف بحسب ٱختلاف أغراضها ، وتتشعب بتَشَعُّبِ معانيها ؛ والأمر فى ذلك مَوْكُولٌ إلىٰ نظر الكاتب العارف الكامل ، ووضعه كُلَّ شَىْءٍ فى موضعه ، وترتيبه إياه فى مرتبته .

فأمَّا المكاتبة بالإحماد ، فكما كُتِبَ عن صَمْصَامِ الدولة بن عَضُدِ الدَّوْلة بن بُوَيْه ، إلىٰ حاجب الحُجَّاب أبى القاسم سـعد بن محمد وهو مقيم بنَصِيبِينَ علىٰ مُحَارَبَةِ باد الكردىّ .

كتابنا ، ووصل كتابُك مُؤَرَّخا بيوم كذا ، تذكُرُ فيه ماجرىٰ عليه أمْرُك فى الخِدْمَةِ التى نِيطَتْ بكِفَايَتِك وغَنَائِك ، ووُكِلَت إلىٰ تدبيرك ووَفَائك : من ردّ باد الكُرْدِىّ عن الأعمال التى تَطَرَّقَها ، وحَدَّثَ نفسَه بالتَّغَلُّبِ عليها ؛ وتَصَرُّفك فى ذلك علىٰ مُوجِبَات الأوقات ، والتَّرَدُّدِ بين أخينا وعُدَّتِنـا أبى حَرْب : زياد بن شهرا كويه وبينك من المكاتبات ؛ وحُسْنِ بَلَائِك فى تَحَيُّفِـه ، ومَقَامَاتك فى حَصِّ جَنَاحِه ، وآثَارِك فى الٱنقضاض علىٰ فَرِيقٍ بعد فَرِيقٍ من أصحابه ؛ وٱضطرارك إيَّاه بذلك وبضُرُوبِ الرياضات التى ٱستعملْتَها ، والسِّيَاسَاتِ التى سُسْتَ أمرَه بها ؛ إلىٰ أن نزل عن وُعُورَةِ المَعْصِيَةِ إلىٰ سُهُولة الطاعه ، وٱنصرف عن مَجَاهِل الغَوَايةِ إلىٰ مَعَالِمِ الهِدَايه ؛ وتراجع عن السَّوْمِ إلىٰ الٱقتصار ، وعن السَّرَفِ إلىٰ الٱقتصاد ؛ وعن الإبَاءِ إلىٰ الٱنقيـاد ،

وعن الآعتياص إلىٰ الإذعان؛ وأن الأمر آستقرّ علىٰ أن قَبِلْتَ منه الإنابه، وبَذَلْتَ له فيما طلب الآستجابه؛ وآستُعِيدَ إلىٰ الطاعه، وآسْتُضِيفَ إلىٰ الجماعه؛ وتَصَرَّفَ علىٰ أحكام الخِدْمه، وجرىٰ مَجْرىٰ مَنْ تَضُمُّه الجمله؛ وأُخِذَتْ عليه بذلك العُهُود المستحْكِمه، والأَيْمَانُ المُغَلَّظه؛ وجدّدت له الولاية علىٰ الأعمال التى دخلت فى تقليده، وضُرِبَتْ عليها حُدُودُه، وفهمناه .

وقد كانت كُتُبُ أخينا وعُدَّتِنَا أبى حَرْبٍ [زياد بن شهراكويه](١) مولىٰ أمير المؤمنين تَرِدُ علينا، وتَصِلُ إلينا، مشتملة علىٰ كُتُبِك إليه، ومُطَالَعَاتك إياه؛ فنعرفُ من ذلك حُسْنَ أَثَرِك [وحَزْمَ رَأْيِك](١) وسَدَادَ قَوْلك، وصوابَ آعتمادك؛ ووُقُوعَ مَضَارِبِك فى مَفَاصِلها، وإصَابَةَ مَرَامِيك أغْرَاضَها، وماعَدَوْتَ فى مذاهبك كُلِّها، ومُتَقَلَّباتك بأسْرِها؛ المُطَابَقَةَ لإيثارنا، والمُوَافَقَة لما أمرتَ بِهِ عنا؛ ولا خَلَتْ كُتُبُ أخينا وعُدَّتِنَا أبى حَرْبٍ من شُكْرٍ لسَعْيِك، وإحماد لأَثَرِك، وثناء جميلٍ عليك، وتَلْوِيحٍ وإفصاحٍ بالمناصحة الحقيقة بك، والمُوَالاة اللّازمة لك؛ والوَفَاء الذى لا يُسْتَغْرَبُ من مِثْلِك، ولا يستكثر مِمَّنْ حَلَّ فى المعرفة مَحَلَّك؛ ولَئِنْ كُنْتَ قصدتَ فى كُلِّ نَهْج آستمررت عليه، ومَعْدِلٍ عدلت إليه؛ مُكَافَحَةَ هذا الرجل ومُرَاغمته، ومُصَابَرَتَهُ ومُنَازَلَتَه؛ وآلتماسَ الظُّهُور عليه فى جميع ماتراجَعْتُمَاه من قَوْل، وتنازعتماه من حَدّ؛ فقد آجتمع لك إلىٰ إحمادنا إياك، وآرتضائنا ما كان منك؛ المنةُ عليه إذ سَكَّنْتَ جاشه، وأزلت آستِيحَاشَه؛ وآسْتَلَلْتَه من دَنَس لِبَاس المُخَالَفه، وكَسَوْتَه حُسْنَ شِعَارِ الطاعه؛ وأطَلْتَ يَدَه بالوِلَايه، وبسطت لِسَانَه بالحُجّه؛ وأوفَيْتَ به علىٰ مراتب نُظَرَائِه، ومَنَازِل قُرَنَائِه؛ حتّىٰ هَابُوه هَيْبَةَ الوُلاه، وآرتفع بينهم عن مَطَارِح العُصَاه .

---

(١) الزيادة عن رسائل الصابى المخطوطة .

فالحمد لله علىٰ أن جعلك عندنا محمودا، وعنـد أخينا وعدّتنا أبى حَرْبٍ مَشْكُورا؛ وعلىٰ هـذا الرَّجُل مَانًّا، وفى إصلاح ما أصلحتَ من الأمر مُثَابًا مأجورا؛ وإياه نسأل أن يُجْرِىَ علينا عَادَتَه الجارية فى إظهار آياتنا، ونُصْرَةِ أوليائنا، والحُكْم لنا علىٰ أعدائنـا، وإنزالهم علىٰ إرادتِنَا؛ طَوْعًا أو كَرْها، وسِلْمًا أو حَرْبا؛ فلا يخلو أحدٌ منهم من أن تحيط لنا بعُنُقِه رِبْقَةُ أسْر، أو مِنَّـةُ عَفْو؛ إنه جَلَّ ثناؤه بذلك جَدير، وعليه قَدِير.

ويجب أن تُنَفِّذَ إلىٰ حَضْرَتِنا الوَثِيقَةَ المُكْتَتَبَة علىٰ باد الكُرْدِى إن كُنْتَ لم تُنَفِّذْها إلىٰ أوَانِ وُصُولِ هذا الكتاب: لتكونَ فى خزائننا محفوظه، وفى دَوَاوِينِنَا منسوخه؛ وأن تتصرّف فى أمْرِ رُسُلِه وفى بَقِيَّةٍ - إن كانت بَقِيَتْ من أمره - علىٰ ما يَرْسُمُه لك عَنَّا أخونا وعُدَّتُنـا أبو حَرْبٍ، فرأْيك فى العمل علىٰ ذلك، وعلىٰ مطالعتنا بأخبارك وأحوالك، وما يُحْتَاجُ إلىٰ عِلْمِه من جهتك، مُوَفَّقا إن شاء الله تعالىٰ.

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه بآختلاف المَلُومِ فيه والمذْمُوم بسببه. فمن ذلك الذمّ علىٰ [ترك] الطاعة وشَقّ العَصَا.

كما كتب عِمَـارَةُ يَصِـفُ شخصا بأنه لمَّـا آرتفع مَكَانُه، وعَلَا قَـدْرُه؛ بَطِرَ معيشتَه، وخرج عن طاعة الخليفة: وأن فلانا كان ممَّن عُرِفَت حاله: فى غُمُوض أمْرِه، وخُمُولِ ذِكْره؛ وضِيقِ مَعِيشَـتِه، وقِلَّة عَدَدِه وناهضَتِه؛ ولا تُجَـاوِزُ حياته ما يقوله، ولا يتعاطىٰ ماوراء ذلك ولا يرومه؛ ولا يُمَنِّيه نَفْسَه، ولا يدفع يَدَ لَامِسٍ عنه بقوّة تَنُوءُ بمَلَإٍ، ولا عِزٍّ يلجأ إليـه. فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشَرَّفَه، وبلغ به الغَايَةَ التى لم يكن يرجوها ولا تُرْجىٰ له؛ وبسـط له من الدُّنيا، وآتاه من غَضَارَتِها ونِعْمَتِها، وعِزِّها وسُلْطَانِها، مالم يُؤْتِ أحدًا من أهل زمانه. فلما مَكَّن الله

له فى الدنيا طَغىٰ وتَجَبَّر، وعَلَا وتكَبَّر، وظَنَّ أن الذى كان فيه شيءٌ قاده إلىٰ نفسه بحَوْلِه وقُوَّته : تَهْويلا من الشَّيْطان، وآستدراجًا منه له .

وكما كَتَبَ عَبْدُالحميد فى مثله :

أما بعد ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمْرٌ لم يَحْتَمِلْه لك ، إلا ما أَحَبَّ من رَبِّ صَنيعته قِبَلَك ، وآسْتِتْمامِ مَعْروفه إليك ؛ وكان أميرُ المؤمنين أحَقَّ مَنْ أصلح ما فَسَد منك ؛ و إنَّك إن عُدْتَ لمثل مقالتك ، وما بلغ أميرَ المؤمنين عنك ؛ رَأىٰ فى مُعاجَلَتك رَأْيَه ؛ فإن النِّعْمَة إذا طالت بالعبـد مُمْتَدَّةً أبْطَرَتْه : فأساء حَمْلَ الكرامه ، وآستثقل العافيه ؛ ونسب ماهو فيه إلىٰ حِيلَته ، وحُسْنِ نَبْتِـه ورَهْطِه وعَشيرَته . و إذا نزلت به الغِيَر ، وآنكشفت عَمايَةُ العَشىٰ عنه ؛ ذَلَّ مُنقادًا ، ونَدِمَ حسيرا ؛ وتَمَكَّن منه عَدُوُّه : قادرا عليـه ، وقاهِرًا له . ولو أراد أمير المؤمنين مُكافأَتك بلَفْظِك ، ومُعاجَلَة إفْسادِك ، جمع بينه وبين من شَهِد فَلَتاتِ خَطَئك وعَظِيمَ زَلَّتك ؛ ولعمرى لوحَاوَلَ أميرُ المؤمنين مكافأَتك بلفظك فى مَجْلِسك ، وجُحُودِك فَضْلَه عليك ، لردّك إلىٰ ما كُنت عليه ، ولكُنْتَ مُسْتَحِقًّا .

وفى مِثْله :

فإن صَاحِبَ البَرِيد كَتَبَ إلىَّ عن أصحابك بكذا ، فقلتُ : إنهـم لم يُقْدِموا علىٰ ما أقدموا عليـه حَتَّى عَجَمُوكَ ، فعَرَفوا خَوَرَ عُودِك ، وضَعْفَ مَكْسِرِك ، ومَهَـانَة نَفْسِك ، وأنَّه لاغَيْرَ عندك ولا نَكِير .

ومن ذلك الذَّمُّ علىٰ الخطإ ، كما كتب أحمد بن يوسف :

كأن البُخْلَ والشُّؤْمَ صارا معـا فى سَهْمِه ، وكانا قبـل ذلك فى قِسْمِه ؛ لحازهمـا بالوِرَاثَه ، وآسـتحقَّ ما آستملك منهما بالشُّـفْعَه ؛ وأشهد علىٰ حِيازَتِهما أهْلَ الدِّين

والأمانة حتّى خلصا له من كُلّ ممانِـع، وسَلِمَا له من تَبِعَة كُلّ مُنَازِع؛ فهو لا يُصيب إلا مُخْطِئا، ولا يُحْسِنُ إلا نَاسِيا، ولا يُنْفِقُ إلا كَارِها، ولا يُنْصِفُ إلا صَاغِرا.

قلت: وهذا الصِّنْف من المكاتبات السلطانية لا يمتنع وُقُوعُه فى وَقْتٍ من الأوقات. فإن عَرَضَ له مُوجِبٌ، راعىٰ الكاتبُ فيه صورة الحال، وكتب علىٰ مايوجبه المقام، وتَقْتَضِيه تلك الوَقْعَةُ.

الصنف الثانى والعشرون

(ما يُكْتَب مع الإنعام لِنُوَّاب السَّلْطَنة بالخَيْل والجَوَارِح

وغيرها من أنواع الإنعامات) وهذا الصِّنْفُ من المستعمل فى زماننا كُلَّ وَقْت

فأما مايُكْتَبُ مع الإنعام بالخَيْلِ، فقد جرت العادة أن السلطان يُنْعِمُ بالخَيْلِ علىٰ نوّاب السلطنة بالشام، ويُكْتَب بذلك مِثَالات شريفة إليهم. ورُبَّمَا أنعم بالخيل وكُتِب بها فى غير ذلك.

وهذه نُسْخة مِثَالٍ شريف من ذلك:

ضاعف الله تعالىٰ نِعْمَةَ الجناب وخَصَّه من النِّعَم بما لا تُحْصىٰ له آثار، ولا يُتَعَلَّقُ له بِغُبَار، ولا يوصف بحالٍ واحدة: لأنه إن جرىٰ فبَحْرٌ وإن وقَفَ فَنار.

صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى بكُلّ سلام لا تُدْرَك لسوابقه غايه، ولا تُحْصىٰ له نِهَايه، ولا يردّ منه كل ماجاء وله فى وجهه كفَلَقِ الصُّبْحِ آيه، ولا يَتَقَدَّم فى مَيْدَان إلا وقد حُمِلَ له فى كُلّ مكانٍ رَايَه. وتُوَضِّح لعلمه الكريم أنه قد جُهِّزَ له قرينَها ماجرت به عادته من الحُصُنِ التى لا يَدَّعِى البَرْقُ أنه لها نَظِير، ولا تُجَارِى الرِّيَاحُ من سوابقها مايَطِير؛ كم لها فى مَيْدَانٍ مَجَال، وكم لها فى رؤية دَوِيَّة ٱرتجال؛

وكم دُعِيَ الوغىٰ بها علىٰ كُلِّ ضَامرٍ فأتت رجالا تَقْدَحُ سَنَابِكُها نارا ،وتَفِيضُ جَوانِبُها من الرَّكْضِ عَقارا ؛ و يتكفَّل بَديعُها بكُلِّ مَرام ، وتُعطِى مافى يديها لأنها من الكرام ؛ وقد تشرَّفت من نِعمِنَا الشريفةِ بالسُّروج والنُّجُم والعِدَّة المُكمَّله ، وتَحلَّت من الذَّهَب والفِضَّة مايُغْنِي بجملته المُفَصَّله ؛ وأرسلناها إليه تَرْقُصُ فى أعِنَّتِها زَهْوا ، وتَتْرُكُ بِطِيبِ صَهِيلِها كُلَّ بَحْرٍ تَخُوضُه إلىٰ المنايا رَهْوَا ؛ وتوجَّه بها فلان كالعرائس المَجْلُوَّةِ فى حُلَلِها ، والنُّجُومِ لولا ماتميزت به من حَلْيِ عَطَلِها ؛ والسَّحابِ إلا أنهـا لا تحتاج مِنَّةَ الرِّياح فى تَنَقُّلِها .

فلْيَقَابِلْ هـذه النِّعْمةَ الشريفةَ بشُكْرِها ، ولِيتَسـلَّم هذه الصَّدَقاتِ العميمة التى تعـتَرِفُ كُلُّ نِعْمَةٍ بقَدْرِها ؛ وليحمد الله من تَفَقُّداتنـا الشريفةِ علىٰ كَرَمِ فَرَسٍ جاء وهو سَابِق ، وجُودِ جَوادٍ لايدور معـه السَّحاب فى طَابِق ؛ و يعتمدها لارتقاء كُلِّ صَهْوَةٍ مُنيفه ، وجِهادِ أعداء الله عليها بين أيدينا الشريفه ؛ و يعيد الواصـل بها إلىٰ خِدْمَةِ أبوابنا العاليه ، والله تعالىٰ يديم عليه بنا النِّعَمَ المُتَواليَه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

آخـــر : ولا زال إقبالنا يُمِدُّه من الصَّافِنَاتِ الجِيَادِ بما يُبَارِى الرِّياح ، وَيَتَيَمَّنُ بغُرَرِها الصِّبَاح ، و يطلق أَعِنَّتَها فى حَلْبَـةِ السِّبَاقِ فتسبق بِرَكْضِهـا ذَوَاتِ الجَنَاح ؛ ولا برح إنعامنا يُتْحِفُه بكُلِّ طِرْفٍ يُبْهِجُ الطَّرْف ، ويَثْلَجُ الصَّدْرُ بمـا آستمدّ عليه من المَلاحَة التى تَرُوق العَيْنَ وتَفُوق الوَصْف ، ويُفْرِدُه بما آجتمع فيه من الحُسْنِ واليُمْنِ : إذ هو وَاحِدٌ كالألف ــ تُهْدِى إليه سلاما تَعْبَقُ بِطِيبِ نَشْرِه أرْجاؤُه ، وثناءً يُعْرِبُ عما فى ضميره من عُلُوّ قَدْرِه وسُمُوِّ ذِكْرِه فيُشرِق سَنَاؤُه ويُضَاعَفُ ثَنَاؤُه ؛ وتوضِّح لعلمه الكريم أنه غير خَاف عنه ما يَصِل إلىٰ أبوابنا الشريفة من الخيول البَرْقِيَّةِ فى كُلِّ عام ،

وما نخصّه منها بكلّ ميمون الغرّة مبارك الطّلعة هنيء السّير على الإنعام؛ وقد أرسلنا إلى جنابه الكريم من ذلك سهمه، وأضفنا إلى ذلك ما آستصلحناه من الخيل العربيّة الغريبه والعتاق العجيبة العربيه (؟) مما الخير معقودٌ بنواصيها، فترهق على صهواتها نفوس الأعداء وتستنزلها من صياصيها؛ فيأخذ الجناب العالى ما يخصّه من ذلك، ويفرّق الباقى على من رسمنا له به بيمن رأيه المبارك الذى لا يساهمه فيه أحدٌ ولا يشارك؛ ويجهّز الخيل المخصوصة بفلان إليه، والله تعالى يضاعف عزّ ظهورها عند آمتطائها لديه .

وأما مايكتب مع الإنعام بالجوارح [فمما يكتب][1] مع إرسال سنقر .

وقد بعثنا إليه بسنقرٍ كأنّه ملكٌ متوّج، ورزقٌ مروّج؛ تجرّأ على سفك الدّماء، وأبى أن يطلب رزقه إلا من السماء؛ يودّ الكركىّ لو خلص من مخاليبه، ويخاف أن يسلم من خرط الشّبكة[2] ويقع فى كلاليبه؛ يدرك الصّيد ولا يؤجّله، ويرفع صدره ثم يومى إليه برأسه كأنّه يستعجله؛ قد جمع من المحاسن كلّ الصّنوف، وكتبت عليه أسطرٌ تقرأ بما تقرى به الضّيوف .

ومما يكتب مع إرسال صقر .

وقد وجّهنا إليه بصقرٍ لا تؤسى له من الصّيد جراح، ولا يدع من وحشٍ يسرح ولا طائرٍ يطير بجناح؛ أينما توجّه لا يأت إلا بخير، وحيثما أطلق كان حتف الوحش والطّير؛ يدع أقطار الفلاة مجزره، أو روضةً بالدماء مزهره؛ يجدّ إلى الطير فى عنقه، ويحلّق إلى السماء فيرجع وطائره فى عنقه؛ تخافه العفر على نفوسها، وتخضع له ولأمثاله فما تخرج إلا والطّير على رءوسها؛ يزيد خبره فى مظانّ الصّيد على الخبر،

(١) بياض بالأصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

(٢) كذا فى الأصل و "التعريف" .

وتخرج الظِّبَاءُ وقد تَسَجَّتْ خَوْفًا منه فى مُلَاءَةٍ من العَجَاج مَخِيطَةٍ من قرونها بالإِبَر؛ شَدِيدِ الأَيْدِ ، قد بنيٰ عليٰ الكَسْر حُرُوفَ الصَّيْد؛ يَحْمَد مُقْتَنِيه أيامَه الغُرّ؛ ويقول له إذا تَلَفَّت إلىٰ الصيد : إن جَلَبْتَ ضَبُعًا فأنْتَ حر؛ لايَصْحَبُ مُسْتَصْحِبُه معه إلا مَزَادَه، وأينما سار حَامِلُه ــ وهو معه ــ كان معه زَاده .

وممـا يكتب مع إرسال شَاهِينٍ .

وقد وُجِّه إليه بشَاهِينٍ إذا حَلَّق وراء الطَّيْرِ شاهَتْ به الوُجُوه، وشاهدت الآمالُ به ماترجوه؛ قد أصبح كُلُّ مُحَلِّق الجَنَاح رَهِينَ يَدِه، وكُلُّ سارب من الوَحْش طَعَام يَوْمِهِ أو غَدِه؛ لايُتْعِبُه خَلْفَ الطَّريدة بُعْدُ المَدَىٰ، ولا يَرُدُّه خوفُ مَسَافَةٍ ولا تَقَحُّمُ رَدىٰ؛ رِبِيَّةُ عام لم يُمَتَّع بطُولِ مادَهْر، وممتدَّة منه فى الطَّلَق مثل ريح سُلَيْمانَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورَوَاحُها شَهر .

وممـا يكتب مع إرسال كوهِيَّة .

وقد جَهَّزْنا إليه كُوهِيَّه، هى بالمحـاسن حَرِيَّه ، ولكثرة الإقْدَامِ جَرِيَّه ؛ يَكِلُ بها صاحِبُها أمرَ مَطْبَخه ، ويمدّها من الطيرمَنْ ليس بمُصْرِخه؛ لا تَعِفُّ عن دمٍ، ولا تُرىٰ أطرافُها إلا مُثْمِـرة[1] بعُنَّـابٍ أو مُخَضَّبَة بعَنْـدَم؛ قد أَخْلَتْ من كُلِّ سانحٍ[2]، ولَبِسَتْ زِىَّ الرَّاهِبِ المُتَعَبِّد وفتكت بكُلِّ سائح .

وممـا يكتب مع سقاوة .

وقد جهزنا إليه بسقاوه ، مَخَالِبُها علىٰ الطَّيْر كالحديد أو أَشَدُّ قَسَاوَه؛ تُسِيلُ دِمَاءَ الصيد كالمَذَانِب[3]، وتَكْسُو الأرض حِبَراً من رِيَاشِ الحُبَارىٰ وفِرَاءً من جُلُود الأرانب؛

(١) كذا فى "التعريف" (ص ٢٢٥) وفى الأصل «مسمرة» .
(٢) فى الأصل «قد أحلت من كل شامخ» والتصحيح عن "التعريف" .
(٣) كذا فى "التعريف" وفى الأصل « كالدايب » .

وجَعلتْ فى قَبْضةِ الكَفِّ ما كانت العين عليه تَدُور ، وتكفَّلتْ بِكفايةِ المَطْبَخ وملأتِ القُدُور .

ومما يُكْتَبُ مع إرسال باز .

وقد بعثنا إليه ببَازٍ مهما لَقِيَ لَقِف، ومهما خطَا لَدَيْه خَطِف ، كأنّما خُطَّ جَوْهَرُه بقلم ، أو رِيشَ عليه من الصَّباح والظَّلَم ، قد أُعِدَّ للطوارق ، وأُدْرِأَ بِمثْلِ الطَّوارِق ، قد دَحَضَ حُجَج الحَجَل، وكسرها حتّى أبان عليها حُمْرةَ الخَجَل ، لا يُسْأل فى الصيد عمّا نَهَب، ولا تُعْرَف له قِيمَةٌ إلا أنّ له عَيْناً من الذَّهَب .

ومما يُكْتَب مع الفَهْد .

وقد أنعمنا عليه بفَهْدٍ أهْرَتِ الشِّدْق ، ظاهر الحِذْق ، بادِى العُبُوس ، مُدَنَّر الملبوس ، شَثْنِ البَرَاثِن ، ذى أنْيابٍ كالمُدىٰ ومَخالِبَ كالمَحَاجن ، قد أخذ من الفَلَقِ والغَسَقِ إهابا ، وتقَمَّصَ من نُجْلِ الحَدَقِ جِلْبَابا ، يُضْرَبُ المَثَلُ فى سُرْعَةِ وُثُوب الأجل به وبشِبْهِه ، وتكاد الشَّمْسُ مُذْ لَقَّبُوهَا بالغزالة لا تَطْلُع من الوَجَلِ علىٰ وَجْهِهِ ، يَسْبِقُ إلىٰ الصيد مَرَامِىَ طَرْفه ، ويَفُوتُ لَحْظَ مُرْسِلِه إليه فلا يستكمل النظرَ إلا وهو فى كَفِّه ، وتَتَقَدَّمُه الضَّوَارِى إلىٰ الوَحْشِ فإذا وَثَبَ له تعثَّرَتْ من خَلْفِه (١) .

وأما ما يُكْتَبُ مع الإنعام بالسلاح .

فمن ذلك — وقد جهزنا إليه سَيْفًا تَلْمَعُ مَخَايِلُ النَّصْرِ من غِمْدِه ، وتُشْرِقُ جواهر الفَتْحِ فى فِرِنْدِه ، وإذا سابق الأَجَلَ إلىٰ قَبْضِ النُّفُوس ، عَرَفَ الأَجَلُ قَدْره فوقف عند حَدِّه ، ومتىٰ جُرِّد علىٰ مَلِكٍ من مُلُوكِ العِدا وَهَتْ عَزَائِمُه ، وعجز جَنَاحُ جَيْشِه

(١) وقع فى هذه الرسالة تحريف كثير فى الأصل ، فصححناها من "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

أن تَنْهَضَ به قَوادِمُه، وعلم أنه سَيْفُنا الذى علىٰ عَاتِقِ المَلِكِ [الأعز](١) نِجادُه وفى يَدِ جَبَّار السموات قائمه .

الصنف الثالث والعشرون

(المكاتبة بالبِشَارَة عن الخليفة بوَلَدٍ رُزِقَه)

والرسم فيها أن يذكر شَرَف الخلافة وعُلُوّ رُتْبَتِها، ويشير إلىٰ تخصيص الخلافة بمصيرها إليه دون سائر البَرِيَّة، وآنتقالها إليه بالتَّوارُث من آبائه الطاهرين كابِرًا عن كابِرٍ، وبقائها فى عَقِبِه إلىٰ الأبَد . ثم يتخلص إلىٰ ذكر النِّعْمَة علىٰ أمير المؤمنين التى أنعمها الله تعالىٰ عليه، وأنَّ مِنْ أعظمها نِعْمَةً أنْ رَزَقه الله تعالىٰ ولدا، ويذكر آسمه وكُنْيَته، ويَصِفُه بما يناسبه .

وهذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك، وهى :

الحمد لله مُؤَيِّد الإسلام بخُلَفائه الراشدين، ومُظْهِرِ الإيمان بأوليائه الهادين، الذى جعل الإمامة كَلِمَةً باقية فيهم إلىٰ يوم الدِّين، وأقام منهم الحاضِرَ المُتَّبَع، والمَرْجُوَّ المُتوقَّع، وأطلع منهم فى سماء الهِدَايةِ شُهُباً لايَخْبُو منها شِهَابٌ حتّىٰ يتوقَّدَ شِهَاب، وفتح بهم للإرشاد أبوابا لايُرْتَجُ منها بابٌ حتّىٰ يُفْتَحَ باب .

يحمده أمير المؤمنين أن فوّض إليه مَنَازِلَ آبائه، ووفّقه (؟) بانتقال ماوَرِثَه من آبائه إلىٰ أبنائه، ويسأله أن يُصَلِّىَ علىٰ من كَرَّمه بوِلَادته وشَرَّفه بالآنتساب إلىٰ شجرة سيدنا محمد خاتَمِ رُسُلِه، المُتَرجِمِ عن توحيده وعَدْلِه ، وعلىٰ أخيه وآبن عَمِّه علىّ بن أبى طالبٍ قَسِيمِه فى فَضْلِه، ووَصِيِّه علىٰ أُمَّته وأهله .

---

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وإن أولى النعم بأن يُفاضَ فى شُكْرِها، وتُعطَّر المحافلُ بنَشْرِها؛ نِعْمةٌ حاطت دعائمَ الدِّين، وأمرّت حبلَ المسلمين، وتساوى فى [تناوُلِ] (١) قِطافِها الكافه، وآذنت بشُيوع الرَّحْمة والرافه، وأضحت بها النُّبُوّة مُشْرِقَةَ الأنوار، والإمامةُ عاليةَ المنَار، والخلافةُ مُخْتَالَةَ المِنْبَرِ والسَّرير، رافِلَةً فى حُلَلِ الابتهاج والسُّرور .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد رزقه الله تعالى وَلَدا ذَكَرًا مُبارَكًا رَضيًّا، سمّاه فلانا، وكنّاه أبا فلان، بجلا بنَهارِ غُرَّتِه الدَّامس، وافْتَرَّ بمَقْدَمه العَابِس، واخْضَرَّ بيُمن [نَقيبَتِه] (١) اليَابِس، ووَثِقَتْ الآمال بسعادة مَقْدَمه، وتَطَلَّعت الأعناقُ إلى جُوده وكَرَمه؛ مُبَشِّرا لك بهذه النُّعمى الحَسَنَة الأثَر، القليلة الخطَر، عِلْمًا بمكانك من وَلائه ومُخَالَصَتِه، وسُرُورِك بما يُفيضُه الله عليه من شآبيبِ نِعْمَتِه : لتأخذ من المَسَرَّة والجَذَل بحَظِّ المَوْلَى المُخْلِص، والعبد المُتَخَصِّص؛ ولتُشيعَ مَضْمُونَ كتابه فيمن قِبَلَك من الأولياء، ليُشَارِكُونا فى الشُّكْر والثَّناء؛ فاعلم هذا واعمل به، إن شاء الله تعالى .

[قلتُ] (١) وهذا الصِّنف من المكاتبات السلطانية مستعمَلٌ فى البِشَارَة عن السلطان إذا حدث له وَلَدٌ، فيُكْتَبُ بالبِشَارة به إلى نوّاب السلطنة وأهل المملكة .

الصنف الرابع والعشرون

(ما يُكْتَب عن السلطان بالبِشَارَة بعافيته من مَرَضٍ)

وهـذه نسخة كتاب بعافيـة المَلِك النَّاصر « محمد بن قلاوون » من مَرَضٍ، إلى صاحب مَارِدِينَ، وهو :

---

(١) بياض بالاصل والتصحيح من المقام .

ولا زالت البشائر على سَمْعِـه الكريم مُتَوَاتِرَه ، والمَسَارُّ إلى مقـام مُلْكِه سائره ؛ والتَّهَـانِى، ببُلُوغ الأمانِى، من كمال شـفائنا تجعل ثغور الثُّغُور باسِمَةً ووُجُوهَ الدُّهور نَاضِرَه ؛ ونِعَمُ الله تعـالى مُقَابَلَةً بالشُّكْر الجزيل على أن أجَدَّ ملك الإسلام بٱفْتِقادِه، وأبقى للدّين المحمدىّ نَاصِرَه . أصدرناها إلى المقام العالى ومَوَارِدُنا من الصِّحَّة حُلْوَةٌ فى الأفواه، وألْسِنَتُنا شاكِرَةٌ لنِعَمِ الله؛ وعافيتنا تُجَدِّدُ فى كُلِّ جديد، وصِحَّتُنا قد بلغت من المَزِيدِ مانُرِيد؛ وقد ألبَسَنا الله تعالى من الشِّفَاءِ ثَوْباً قَشِيباً، ونَصَرنا نَصْرًا عَزِيزا وفَتَحَ لنا فَتْحًا مُبِينَا ـ تُهْدِى إليه سلاما تتأرّج به أرجاء مُلْكِه ،.وثَنَاءً تنتظم الأثنيـة فى سِلْكِه ؛ وتُوَضِّح لعلمه الكريم ما حصل من عافيتنا التى تضاعف بها فَرَحُ الإسلام والمسلمين، ووجب الشُّكْر عليهم والحمد لله رَبِّ العالمين .

الضــــرب الثـانى

(من مقاصد المكاتبات السلطانية مايُكْتَبُ عن السلطان فى الجَوَاب)

وكُلُّ معنى من المعانى الوارِدِ بها الكتَابُ إليه يُشْتَقُّ جوابه منها ، وغالب مايُعْتَنى به من ذلك جوابُ مايرد من المكاتبات بالتَّقادم والهدايا، وما فى معنى ذلك .

وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها فى أوائل الأجوبة عن المعانى التى تَرِدُ فيها .

جواب سُلْطانِىٌّ عن وصول خَيْل : ـ ولا زال يُتْحَفُ بكُلِّ صَاهِلٍ فى الجَحْفَل ، وجَمَـال فى المَحْفِل؛ وأجْرَدَ إذا أمَّ غَايَةً لمعتْ فى أثره البُرُوق تتطفَّل، ومُسَوَّمٍ يلتزم جَلَاله بمـزيد جلَالِه ، وكيف لا وهى إذا أُسْدِلَتْ عليه يتكفَّل ! . أصدرناها والعِطْر يَضُوعُ من سلامها، والمِسْكُ يَفُوح من خِتَامها، وآثار الندى تَحْكى آثارَ أقلامها .

آخر في المعنى : ولا زال مُحتفلًا بالجياد وإرسالها، ومُهديًا لِركابنا الشَّريف السَّوابِق التي إذا لم يسابقها شيءٌ منا لحيوان تجلَّت في مُسابقة ظِلالها، ويَنتقي لمواكبنا الخُيولَ التي إذا أصبحت في مَدًى أصبحت الرياحُ تتعلق بأذيالها . أصدرناها .

آخر في مثله : ولا زال يُهْدِى إلينا من الجيادِ بحْرا، ويقُود من العِرابِ ماتملأ غُرَّتُه المَواكِبَ بِشرا، وإذا طلع في الكَتيبة يزيدها عِزًّا ونَصْرا ، من كُلِّ طِرْفٍ تأصَّلَ حُسْنا وحَسُنَ إهابًا وجلَّ قَدْرا .

آخر في مثله : وأعلى له على صَهَوات العِتاقِ مُرْتَقى ، وخصَّه بكُلِّ جَوادٍ وهو مُنْتَقِلٌ إليه مُنْتَقى ، وأطلع عليه نَواصِيَ الصَّوافِنِ التي عُقِد الخَيْرُ بها عَقْدا مُوثَقًا . أصدرناها ونُورُ التَّحايا من أرجائها يُنير، ومَفاخِرُها تشرَّف بها كُلُّ مِنبرٍ وسَرير ، وركائب أثْنِيَتِها تسير إلى مقامه فتَطيبُ راحلةً في ذلك المَسير .

آخر في مثله : ولازال يُهْدى من الجيادِ المُسَوَّمة أصائلها، ويُتْحِفُ مما يحبيه عند الوِفادَةِ عليه صاهلها ، ويقابل أكْرَم غُرَّةٍ : الخَيْرُ معقودٌ بناصيتها واليُمْنُ يُقابِلها، ويُمتِّع بأعزّ جَوادٍ حِلْيَةُ الشَّفَقِ دون إهابه إذ يُماثلها ، وسُرْعَةُ البرْقِ خِفَّتُه إذ يُساجِلُها .

الضرب الثالث

(من الكتب السلطانية الكُتُب الصادرة عن نوّاب السلطنة إلى النوّاب بسبب مايرد عليهم من المثالات السلطانية)

اِعلم أنه قد جرت العادة بأنّه إذا ورد على نائب السلطنة بالشَّام مِثَالٌ شريفٌ من الأبواب السلطانية، يأمرهم (١) كَتَبَ نائب الشَّام إلى نُوَّاب السلطنة بورود

---

(١) بياض بالأصل ولعله بأمر .

المثـال الشريف مُبَشِّرًا بذلك ، ويجهز إلىٰ كُلٍّ منهم مع المثال الوارد إلىٰ كُلِّ نائب من نوّاب السلطان مَعنىٰ المثال الوارد من الأبواب السلطانية بذلك . إلا أنه يكون حاكيا لصُورَة المِثال الوارد بذلك ، لاأنَّه مُبْتَدِئُه ، ويشتمل ذلك علىٰ عدّة أمور .

فمن ذلك جلوس السلطان علىٰ تخت المُلْك ، فيخبر نائبُ الشَّام فى الكتاب الصادر عنـه إلىٰ بعض النوّاب بأنَّ المِثَالَ الشريف ورد عليه بذلك ، وأنه ورد كتاب إلىٰ المكتوب إليه فجهزه إليه .

[وهذه نسخة كتاب من ذلك] كُتِب به عن نائب الشَّام إلىٰ بعض نُوَّاب السلطنة ، بالبِشَارَةِ بسلطنة السلطان الملك الصَّالِح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، وقد ورد علىٰ يَدِ بعض الحُجَّاب . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة ، فى سـنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وهى بعد الصدر :

أمتعه [الله] من البشائر بمـا يَتَوضَّحُ علىٰ جَبِينِ الصَّباح بِشْره ، وبمـا يَترَجَّحُ علىٰ مِيزَانِ الكواكب قَدْرُه ، وبما يَنْفَسِحُ من أوقات أَمْنٍ لايَخْتَصِمُ فى ظِلِّها زيدٌ وعمرٌو حتّىٰ يقال : ولا زَيْدُ النَّحْوِ وعَمْرُه . ويُنْهِى بعد دعاء يَتبَلَّجُ فى الليل فَجْرُه ، وثناء يَتَأَرَّجُ فى طَيِّ النَّسيم نَشْرُه ، ووَلَاءٍ يتساوىٰ فى درجات الصَّفَاءِ سِرُّه وجَهْرُه ـ أنَّ خَيْرَ البشائر ماخَصَّ أولياءَ الدَّوْلَةِ الشريفة وعَمَّ الرعايا ، وسَمَا إلىٰ ثُغُور الإسلام خَبَرُه الجَلِيّ فقال : «أنا ٱبْنُ جَلَا وطَلَّاع الثَّنَايَا» وقُسِمَت مَسَرَّته علىٰ كَافِلِي الممالك فقالت مملكة مولانا : « لَنَا المِرْبَاعُ مِنْهَـا والصَّفَايَا » وسلك المملوكُ من الإسراع بإشاعته الحَقَّ الواجب ، وجَهَّز خِدْمَته بين يَدَيِ المثالِ الشريف الذى سبق طائرُ يُمْنِـه ولٰكنَّه جاء وفى خدمته حاجب ، وهى البُشْرىٰ الواردةُ فى الأمثلة الشريفـة السلطانيه ، المالكية المَلَكيه ، الصالحية العِمَاديه ، العريقة فى نَسَب النَّصْر بالأنساب النَّاصِرِيَّة المنصورة ، أعلىٰ الله

تعالىٰ أبدًا علىٰ قواعد المُلْكِ عِمَادَها، وصَرَّفَ بها الأَعِنَّةَ لِمَا سَرَّ وصَرَفَها عَمَّا دهىٰ؛ بجلوسه علىٰ كُرْسِيّ المملكة الذى هو آية سَعْدِه الكُبْرىٰ، وتَخْتِ السَّلْطَنَة الذى عاينه مَلِكُ الجُودِ والعِلْمِ فقال: السَّلَامُ عليك بَحْرا؛ وإجماع الأمة علىٰ أنه صَالِحُ المؤمنين، وكُفَاةِ الحَلِّ والعَقْد علىٰ أنه سُلْطان الإسلام والمسلمين؛ وأركانِ البيْتِ النَّاصرىّ علىٰ أنه عِمَادُه، وعلىٰ أنه سَنَدُه المُكَمَّلُ وإذا انقضَّ بيتٌ سِنَادُه؛ فياله جُلُوسًا قامت فيه كواكب السَّعْدِ مشدودةَ المَنَاطِق، ويا له إجْمَاعًا آتفق فيه - حَتّىٰ من تصميم السيوف وتعبير الأقلام - كُلُّ صَامِتٍ ونَاطِق؛ ويا له بَيْتَ مُلْكٍ أبىٰ الله إلا أن يقيم وَزْنَهُ أفْضَلُ الأفاعيل، ويَالَهُ مَلِكًا قال الدَّهْرُ الطويلُ آنتظاره: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَىٰ الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ﴾. ويَالَهُ أمرا بلَّغ خُبْرُه وخَبَرُه الأوْطَار والأوطان، ونفذت بُرُدُه المِصْرِيّة علىٰ حِينِ فَتْرَةٍ تَالِيَةً له السُّعُود: ﴿فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ وحُشِرَ الناسُ ضُحًى ليوم الزِّينَه، وجاءوا إليها مستبشرين من أدْنىٰ وأقصىٰ كُلُّ مَنْ فى المَدِينَه؛ وضُرِبَت البشائرُ ويا عَجَبًا! أنَّها تُضْرب ومَكَانَتُها من القلوب مكينه. حتّىٰ إذا أخذت مِصْرُ حَظَّها من الهَنَاءِ قُسِّمَتْ علىٰ الأمصار، وأضاء بَارِقُ نَشْرِها من كُلِّ وَجْهٍ فسمت بالشَّامَاتِ غُرَّةَ الابصار؛ ورَكَضَ بَرِيدُ الخير بمُبَارَكِ باب البريد، ووصل نَيْلُ النِّيلِ إلىٰ أنهار دِمَشْق فبَرَدَىٰ علىٰ الشُّكْرِ ثَابتٌ ويَزِيد؛ وبُشِّرَ الإسلامُ من وجه الخَلَفِ الصَّالِحِ بأكرم مَنْ بَرّ، وآستفاض الآسم الشريف: فلو كُلِّفَ مُشْتَاقٌ فوق وُسْعِهِ لسَعىٰ إليه المِنْبَر.

فالحمد لله علىٰ أن سُرّ البيتُ الشريفُ النَّاصِرىّ بجمْعِ شَمْلِه، وعلىٰ أن أتىٰ المُلْكَ العقيمَ الصَّالِحُ من أهْلِه؛ وقد جَهَّزَ المملوكُ المِثالَ الشريفَ المختصّ بمَوْلَانا: ومَوْلَانا أوْلىٰ من آنتظمت لديه دُرَرُ هذه الأخبار الثَّمِينَه، وعُظِّمَت بنَاحِيَتِه شعائرُ هذه الدَّوْلَة المَكِينَه، وكَانَ لخيرِ حَماه خَيْرَ قَرِينه؛ والله تعالىٰ يُعِزُّ الإسلامَ بعَزْمِه، ويُمْضِى الآجالَ

والأرزاقَ علىٰ يَدَىْ حَرْبِه وسِلْمِه ؛ ويُنْجِزُ لرَأْيِهِ ورَايَتِهِ النَّصْرَ قبل أن يطوف الأولياء بعَلَمِه، وقبل أن يُحِيطَ الأذكياء بعِلْمِه .

ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعَافِيَةِ السلطان الملك الصالح عِمَادِ الدِّين إسماعيل ، بن الناصر محمد بن قلاوون، فى خلافة المعتضد بالله أبى الرَّبيع سليمان ؛ من إنشاء الشيخ جمال الدِّين بن نُبَاتَةَ ، وهى بعد الألقاب :

أورد الله عليه من الهَنَاءِ كُلَّ سَرِىٍّ يَسُرُّه، وكُلَّ سَنِيٍّ يَقَرُّ أمام ناظره الكريم ويُقِرُّه، وكُلَّ وفىّ إذا طلع فى آفاق حَلَبَ قيل : لله دَرُّه ؛ ولا زالت البشائر تلقاه بكل وَجْه جميل ، وبكُلِّ جَلِيٍّ جليل ، وبكُلِّ خَبَرٍ تَصِحُّ الدنيا بِصِحَّتِهِ فليس بها غيرَ النسيم عليـل ؛ تَقْبيلاً يُزَاحِمُ عُقُود الثُّغُور ، ويكاد يمنـع ضَمَّ الشَّفَتَيْنِ لِلَّثْمِ طُولُ الابتسام للسُّرُور؛ ويُنْهِى بعد رَفْع اليَد بدُعَائِه، وضَمِّ الجوانح علىٰ وَلَائِه ؛ وجَزْمِ الهَنَاءِ المشترك بمَسَرَّةِ مولانا وهَنَائِه ؛ أن المثال الشريف زاده الله شَرَفا ، وزاد فَضْـل سلطانه علىٰ العباد سَرَفا ؛ ورد بالبِشَارَة العُظْمىٰ ، والنَّعْمَاءِ التى ماضاهتها الأيام قَبْلُ بنُعْمىٰ ؛ والمَسَرَّة التى يأكُلُ حديثُها أحاديثَ المَسَرَّات أكْلًا لَمًّـا ، ويُحِبُّها الإسلامُ والمسلمون حُبًّا جَمًّا ؛ بسلامة جَوْهَرِ الجسد الشريف من ذلك العَرَض، وشفَائِه الذى فى عيون الأعداء منـه شِفَارٌ تَطْعُنُ وفى قلوبهـم مَرَض ؛ وأَن مَادَّةَ الأدواء بحمد الله قد ٱنْحَسَمَت ، والواردةَ مِنَ الٱفْتِقَادِ بالأجرِ والعافية قد ٱبتسمت ؛ وأن ظُنُون الإشفاق قد ٱضْمَحَلَّت ، ونَسَماتِ الرَّوْض قد فَدَتِ الجِسْمَ الشَّرِيفَ فٱعْتَلَّت ، وأخْبَارَ الهَنَاء يُعَيِّنُهَـا كُلُّ بَرِيدٍ نَشْوَانَ من الفَرَحِ [ينشدُ] أُسَائِلُها أىّ المَوَاطِنِ حَلَّت ؛ فيالَهَا بِشَارَةً خَصَّت الإسلام وعَمَّت بَنِيه ، وسارت فوق الأرض وسَرَتْ تحتها أسْلَافُ المُلْك ومُبْتَنِيه ؛ وشَمِلَت البِلَاد وعِبَادَها ، والسَّلْطَنَة وقد حجب الله عِمَادَها عَمَّا دهىٰ ، والمُلْكَ السليمانىّ وقد ثَبَّتَ الله

به علىٰ الدنيا من السماء خَيْمتَها ومن الجبال أوْتادَها، والطّيْرَ وقد حملت وُرقُه أوْرَاق السُّرور، والوَحْش وقد قالت مهاهُ : علىٰ عَيْنِي أتحمَّلُ ذلك السِّقامَ أو ذلك الفُتور، ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وكَفىٰ بِاللهِ عَلِيما ﴾ والألطافُ الرَّاحِمُ بها المؤمنين من خَلْقه ﴿ وكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً ﴾ .

وكان وُرُودُ هذا المثال الشَّريف علىٰ يد فلان ، فيالَهَ من وَارِدٍ لمَشَارِعِ الأَمْنِ أوْرَد، ولِرَوائِعِ الناس عن القلوب حَجَبَ أوْرَدّ، وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف المُخْتَصِّ بمولانا وهذه الخِدْمَة بعد أن ضربت البشائرُ مُسَوّغَةً فى كُلِّ ضَرْبٍ من التهانى ، وزُيِّنَت البَلَد زِينَـةً مانَظَمَتْ فيها غَيْرَ العقود أيْدى الغَوانِى ؛ فيأخذ حَظَّه من هذه البُشْرىٰ، ونَصِيبَه من هذا الوجه الذى ملأ الوجود بِشْرا، وشَطْرَه من الهَناءِ المخصوص الذى تَعجَّلَ منه المملوك شَطْرا؛ والله تعالىٰ يَسُرُّه بكُلِّ خير تُشْرِقُ زواهره، وتَعْبَقُ فى كمائم الدُّرُوج أزاهِرُه، ويَتَألَّقُ علىٰ يَدِ بَرِيدِه من المخلقات كُلُّ كَوْكَبِ صُبْحٍ تملأ الدنيا بَشَائِرُه .

ومن ذلك المكاتبة بورود المثال الشريف بوَفَاءِ النِّيل .

إذا ورد علىٰ نائب الشام بوَفَاء النِّيل المُبَارَك ، كَتَبَ نائبُ الشَّام عن نفسه إلىٰ نائب حَلَبَ وغيره ، من نوّاب السلطنة بالممالك الشامية ، بُورُودِ المِثَال الشريف عليه بذلك، ويُكْتَب عنه كما يُكْتَب عن السلطان: من السَّجْع، وإيراده مَوْرِدَ البِشَارَة ، وإظهارِ الفرح والسرور بذلك، لايكاد يُخَالِفُه إلا فى كونه وَارِدًا مورد الحكاية لمِثال السلطان، ومثالُ السلطان مُخْبِرٌ بذلك ٱبتداء .

وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشَّام ، من إنشاء الشيخ جَمالِ الدِّين ٱبن نُبَاتَةَ، كُتِبَ به لسَنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، وهى بعد الصدر :

لا زالت مُبَشِّرَةً بكُلِّ مُبْهِجَه، مُغَطِّرَةَ الأرجاء بكُلِّ سائرة أَرِجَه، مُيَسِّرَةَ الأوقات بمَقْدَمَتَيْ سَمـاعٍ وعِيانٍ : كلاهما للسارّ مُنْتِجَه، مُسْتَحْضِرَةً فى معالى الكَرَمِ كُلَّ دقيقةٍ تَشهدُ بَسْطَةُ النِّيلِ أنها أَرْفَعُ منه دَرَجَه، ويُنْهِى بعد دعاءٍ ماالرَّوْضُ أعطَرَ من شَذَاه، ولا ماءُ النِّيل وإن كَرُمَ وَفاءً بأوفىٰ من جَداه، أن المرسوم الشريف زاده الله تعالىٰ شَرَفا، ورد بوَفَاء النِّيـل المبارك وحَبَّـذَا هو من وَفِيٍّ مُوَافِي، ومُتَغيِّرِ المَجْرىٰ وعَيْشُ البِلَادِ به العَيْشُ الصَّافِي، وحَسَنِ الزِّيَارة والرَّحِيل ماضَاهَتْه الغُيُوثُ فِى ولافِى، وَوارِدٍ من مَعَبَّد بعيد، وحَمِيلٍ لا جَرَمَ أن مَدَّه[1] ثابِتٌ ويَزِيد، وجَائِدٍ إذا تتابع خَيْثُ تَيَّارُه يُقَلِّدُ بِرُّهُ ودُرُّه من الأرض وسَاكِنِها كُلَّ جِيـد، وإذا ذُكِرَ الخِصْب لمكان عِيـدِه المشهود ألقىٰ السَّمْعَ وهو شهيـد، وذلك فى يوم كذا، وأن البـلاد جُبِرَتْ بكَسْر خَلِيجه، وآستقامت أحوالُها بتَفْرِيجِه: وأثْنَتْ عليه بآلائه، ووَسَمَتْ لَوْنَه الأَصْهَبَ علىٰ رَغْمِ الصَّهْباءِ بأَحْسَنِ أسمائه، وخُلِّق فملأت الدُّنيـا بَشَائِرُ مُخَلَّقِه، وعُلِّق سِـتْرُه المِصرىّ التِّبْرِىّ فزكا علىٰ مُعَلَّقِه، وحَلَّقَ مسير تِرَاعِه علىٰ القُرىٰ فبات علىٰ النَّدَا ضَيْفُ مُحَلِّقِه، وحَدِّثْ عن البحرِ ولا حَرَج، وآنعرج علىٰ البِقَاعِ يَلْوِى مِعْصَمَه فلله أوقات ذلك اللِّوىٰ والمُنْعَرَج، وآسـتقرّت الرعايا آمنين آملين، وقُطِع دابر الجَدْبِ بسُعُود هذه الدَّوْلة القَاهِرَة ﴿ وقيل الحمد لله رَبِّ العَالَمين ﴾ ورُسِمَ أن لا يُجْبىٰ حَقُّ بِشَارَة، ولا تَعْبَثَ يَدُ التنقيص منها ليزدادَ الخَبَرُ نُورًا علىٰ نُور، ويكون فى إيثاره وحُسْنِه الخَبَرَ الحَسَـنَ المأثور؛ ووصل بهـذا الخبر فلان وعلىٰ يده مثـال شريف يختص بمولانا وقد جهز به؛ فيأخذ مولانا حَظَّه من هـذه البُشْرىٰ، ويُوَضِّح بهـا علىٰ كُلِّ الوجوه

(١) فى الاصل "لاجرم أن يده".

بِشْرا، والله تعالىٰ يملأ له بالمَسَرّات صَدْرا، ويضع بعدلِهِ عن الرعية إصْرا، ويَسُرُّهم فى أيامه بكُلِّ واردٍ يقول الإحسان لمُتَحَمِّله : ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة كتاب آخر فى المعنىٰ إلىٰ بعض النوّاب، من إنشاء الشيخ جَمَال الدِّين ٱبن نُبَاتَةَ أيضا، وهى بعد الصدر :

وضاعف موادّ نِعَمه ونَعْمائِه ، ومَسَرَّتِه وهَنَائه ، وحَفِظَ عليه ما وُهِبَه من المناقب التى يَرْوِى النِّيلُ عن كَرَمِه ووَفَائه ، وشَرَّفَ السُّيُوفَ لكونها من سِمَاتِ كَرَمِه والسُّيُولَ لكونها من سمائه .

المملوك يُجَدِّد الخِدْمَةَ بنَفَحات سلامه وثَنَائِه ، ويَصِفُ وَلَاءً لو تجسَّم لٱستمدّت عَيْنُ الشمس من سَنَائه ، ويُنْهِى أن المرسومَ الشريفَ زاده الله تعالىٰ شرفا، وَرَدَ مُبَشِّرا بوفاء النيل المبارك فى يوم كذا ، فياله ربيعًا جاء فى ربيع ، وحاملًا فى مُفْرَدِه الفَضْل الجميع ، وداعِيًا بالخِصْبِ ينشد كُلَّ ثَانِيَةِ ٱثنين رَيْحَانَةَ الدَّاعى السميع ، ومتغنِّيًا علىٰ مِنَصَّةِ المِقْيَاسِ عِرْسه يُجْلىٰ عليه من شِبَاكِها السِّتْر الرفيع ، وأنه أقبل والبلادُ أشهىٰ ماتكون لِلُقْيَاه ، وأشْوَقُ ماترىٰ لمباشرة رِيِّه ورَيَّاه ، وقد ٱمتدّت أيدى الجُسُور لفَمه ، وٱستعدّت شِفَاهُ الجُرُوف اللُّعْسُ لِلَثْمه ، فكَرُم عليها زائره ، وصَحِبَها بالنُّجْح ساريه وسائره ، ودارت علىٰ الجَدْبِ من خطوط الأمواج دَوَائِرُه ، وعَمَّت المنافع ، وتلقت عيون الفلا ناهِلَةً بالأصابع ، وفاض البَحْر ببره ، ونشر رِدَاءَه علىٰ الأرض وسَيَضوعُ رَوْضُها بنَشْره ، وخُلِّق المقياس فيالك من قياس بُشْرىٰ غير ممنوع ، وكُسِرَ الخليجُ فياله غُصْن قلم علىٰ النيل وطائِرُ سَجْعِه علىٰ الفُرَاتِ مسموع ، ورُسِمَ أن

لايُجبيٰ حَقٌّ بشاره ، ولا يدخلَ فيها التنقيصُ لدَارٍ ولا التنغيصُ لدَارَه ؛ ووصل بهذا الأمر فلان وقد جُهِّز بما علىٰ يَدِه،والله تعالىٰ يُمَتِّعُ مولانا من أقسام المسارِّ بصُنُوف، ويدفع عن حُصُون الإسلام بيُمْنِه أيْدِىَ الصُّرُوف،وينفعها بِظِلَالِه التى آواها مُلْكُه الكريمُ إلىٰ جَنَّةٍ : وكذلك الجَنَّة تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوف .

الضـــــرب الرابع

(من المُكَاتبات السُّلْطانية مايُكْتَب عن النُّوّاب والأتباع إلىٰ الخليفة أو السلطان ، وفيـــه مهيعانــــ)

المهيـــــع الأوّل

(فى الأجوبة عن الكُتُب السلطانية السابقةِ فى الضَّرْب الأوّل)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدّمة المكاتبات فى أوّل هـــذه المقالة ذِكْرُ الخِلَاف : هل الكُتُب الآبتدائية [أعلىٰ رُتْبَةً](1) فى الإتيان بها أم الجوابية، وذِكْرُ الاَحْتِجَاج لِكُلٍّ من المذْهَبَيْن ، وذِكْرُ التحقيق فى ذلك ؛ فليراجع من مَوْضِـعِه هُنَاك . ونحن نذكر الكلام علىٰ أجوبة الكُتُبِ السابقة علىٰ الترتيب المتقدّم، جَارِين فى ذلك علىٰ ماقرّره فى "موادّ البيان" .

فأما الجواب عن الكتَاب الوارد بانتقال الخلافة إلىٰ الخليفـــة، فإنَّ الكتَاب إن كان متضمنا التعزية فى سَلَفِه ، والهَنَاءَ بتَجَدُّد النِّعْمَة عنــده فى آنتقــال الخِلَافَة إليــه ، فارْسُم فيما يُكَاتَب به عن الخليفة أنْ يُبْنىٰ علىٰ الاَستبشار بالنِّعْمَة فى خِلَافته،

---

(١) بياض بالأصل . والتصحيح عما تقدم فى (ج ٦ ص ٣٢٣) .

والمُسَارَعة بإخلاص الضمير إلى الدُّخول فى طَاعَتِه وبَيْعَته ، وٱنْفِسَاح الآمال فى دَوْلَتِه ، والشُّكْرِ لله تعالى على جَبْرِ الوَهْنِ وعُلُوّ كلمة الإسلام والمسلمين بدَعْوَته ، وتَعْزِيَتِه عن أبيه ، بما يُوجِبُه مَحَلُّ المِحْنَة ويقتضيه ، يعنى إن كان الخليفةُ المَيِّتُ أباه ، فالدعاء له بأن يُنْهِضَه الله تعالى بما حَمَّلَه ، ويُعِينَه على ما كَفَّلَه ، ويَقْرِنَ مُلْكَه بالجَدِّ السعيد ، والخُلُود والتأييد ، وإدَالَة الأولياء ، وإذَالَة الأعداء ، ونحو هذا مما يُجَارِيه .

وإن كان الكتاب الوارد بٱنتقال الخِلَافَة إليه عن أبيه ، ومَنْ فى معناه ممَّن يُوَالِيه فى المَحَبَّة ، فإنَّ الكاتب يَحُوم فى الجواب على ما حصل بذلك من صلاح حال الأمَّة ، وٱستقامة أمر الرَّعِيَّة بانتقال الخلافة إليه ، من غير أن يُصَرِّح بذَمِّ الذاهب قَبْله . ولا يخفى أن الجواب عن ورود الكتاب بانتقال السلطنة إلى السلطان وجُلُوسه على تَخْتِ المُلْك فى معنى الجواب فى ٱنتقال الخلافة إلى الخليفة ، لا يكاد يُفَرَّق بينهما ، على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالدعاء إلى الدِّين ، فإنما يتكَلَّفُهَا كُتَّاب مُخَالِفِى المِلَّة ، لأنها إنما تصدر إليهم . قال فى "موادّ البيان" : إلا أنه لا غِنًى لكُتَّاب الإسلام عن عِلْم ما يقع فيها ، لتتقدَّم عندهم المَعْرِفَة بما يُجِيبُ به المخالفون ، فيأخذوا عليهم بأطراف الحُجَّة إذا كاتبوهم ٱبتداء أو جوابا .

قال : ولا تَخْلُو أجوبة هذه الكُتُب من أربعة مَعَانٍ :

أحدها — إجَابَةُ الدعاء إلى الدِّين ، وقَبُولُ الإرشاد والهُدى ، والنُّزُوعُ عن الغَيِّ ، والإقْبَالُ على التَّبْصِرَة والتذكرة ، بعقائدَ خالصةٍ ، ونيَّاتٍ صريحة .

والثانى — الإصرارُ على ما هُم مُتَمَسِّكُونَ به ، وتَمَحُّلُ الشُّبهَة فى نُصْرَتِه ، وٱدِّعاءُ الحقِّ فيما يعتقدونه ، والمُغَالَطة عن الإجابة إلى قَبُول ما دُعُوا إليه .

والثالث — بَذْلُ الجِزْيَةِ والمُصَالحه، والجُنُوحُ إلىٰ السِّلم والمُوَادَعه .

والرابع — إظهار الحَمِيَّة ، والقيامُ فى دفاع مَنْ يَرُومُ ٱقْتِسَارَهم علىٰ مفارقة شرائعهم وأديانهم ، وبَذْلُ الأنفس فى مُقَارَعَتِه .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالحَثّ علىٰ الجِهَاد، فقد ذكر فى "موادّالبيان" أنها لا تخرج عن معنيين :

أحدهما — إجَابَةُ الصَّرِيخ، والمُبَادَرَةُ إلىٰ التَّشْمِير فى الجِهَاد ، والقِيَامُ فى مَعُونَة الأولياء، علىٰ كِفَاح الأعداء .

والثـانى — الاعْتِذارُ والتَّعَلُّلُ والتَّثَاقُل .

هذا إن كانت الكُتُب صادرةً إلىٰ القُوّادِ والمُقَدَّمين . أما إذا كانت مقصورةً علىٰ الاستنفار، فلا جوابَ لها إلا النُّفُور أو الإمساك . قال فى "موادّ البيـــان" : والطريق إلىٰ إقامة العُذْر للمُسْتَصْرَخ فى التأخُّر عن مُسْتَصْرِخه متىٰ أراد الاعتذار عنه صَعْبٌ علىٰ الكاتب، ولا سِيَّما إذا كانت الأعذار مُتَكَلَّفَة غير صحيحة .

قال : وينبغى أن يتأنَّى لذلك ويُحْسِنَ التلطُّف فيـه ، ولا يَعْتَلّ بكذب صُرَاحٍ ينكشف للمُعْتَذَرِ إليه .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالحَثّ علىٰ لُزُومِ الطاعة ، إذا وردت علىٰ النوّاب والوُلَاة وأُمِرُوا بقراءتها فى أعمالهم علىٰ الرَّعَايَا ، فإنه يكون : إما بانقياد الرَّعَايَا إلىٰ مادُعُوا إليه، أو ٱستدامتهم لمَرْكَبِ النِّفَاق، وٱسْتِدْعَاءِ مَادَّة لتقويمهم .

وأما الجواب عن الكتب إلىٰ مَنْ نَكَثَ عَهْدَه من المُعَاهَدين ، فقـد ذكر فى "موادِّ البيان" أنها لا تخلو من أحد أربعة مَعَان .

أوَّلُهـا — الاعتذارُ والاستقالة من مراجعـة النَّكْثِ، والرغبةُ فى الصفحِ عن النَّبْوَةِ، والمُسَامحَةِ بالهَفْوَة .

والثانى — المغالطة والمراوغه، واستعمالُ المُداهَنَةِ والمُخَادَعه .

والثالث — التَّجْلِيحُ والمُكَاشَفَة .

والرابع — إيجاب الحُجَّةِ علىٰ المجوب (؟) عنه فى أنه المبتدئ بفسخ ماعَاقَدَ عليه .

قال : والكاتب إذا كان ماهرا كسا كُلَّ معنًى من هذه المعانى الغَرَضَ اللَّائِقَ به فى الصناعة .

وأما الجواب عن الكُتُبِ إلىٰ مَنْ خَلَعَ الطاعة ، فقـد قال فى "موادّ البيان": إنها تحتمل معنيين : أحدهما الاعتذار، والآخر الإصرار ؛ وكُلٌّ واحدٍ منهما محتاجٌ إلىٰ عبارةٍ لائقةٍ به . ثم قال : والكاتب إذا كان حاذقا، عَرَفَ سبيلَ التَّخَلُّصِ فيها بمشيئة الله تعالىٰ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردةِ بالفُتُوح، فإنَّهـا إن صدرت من السلطان إلىٰ وُلَاته، فينبغى أن يُبْنىٰ جَوابُها علىٰ الاستبشار بمَوْقِعِ النِّعَم فى الظَّفَرِ بالعَدُوّ، والجَذَلِ بمُتَجَدِّدِ الفَتْحِ؛ وأنَّ ذلك إنَّمـا تَهيَّأَ بسعادته، وعُلُوِّ رأْيِه وانبساط هَيْبَتِه ؛ وما عَوَّده من إظهار أوليائه ، وخِذْلَانِ أعدائه ؛ وأنَّهم قد أشاعوا هذا النَّبأ فى الخاصَّة والعامَّة من رعاياه فابْتَهَجُوا به، وشكروا الله تعالى عليه ودَعَوْا له بصالح الدُّعاء . وإن صدرت من وُلَاةِ الحَرْبِ إلىٰ السلطان، فينبغى أن يكون مايجيبُهم به مَبنيًّا علىٰ حمد الله تعالىٰ علىٰ عَوارِفِه، والرَّغْبَةِ فى مُضَاعَفَةِ لَطَائِفِه؛ وشُكْرِه علىٰ إنجاز وَعْدِهِ فى الإظفار بأعداء المِلَّةِ والدَّوْلةِ ونحو هـذا . ومُخَاطَبَةِ أهل الطـاعة بمـا يُرْهِفُ عَزائِمَهم ، ويُقَوِّى شَوْكَتَهُم ؛ وتَقْرِيظ وَالِى الحَرْبِ ووَصْفه بمـا يُشْحِذُ بَصِيرَتَه فى الخِدْمة، والثَّناء علىٰ

الأجْنَاد ، ووَعْدِهِم بجزيل الجَـزَاءِ علىٰ الجِهَاد والإبلاء ؛ إلىٰ غير هذا ممـا يقتضيه الحال ، ويُوجِبُه تدبير الأمر الحاضر .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالاعتذار عن السلطان عند ما يَحْصُلُ له زَلَلٌ فى التدبير أو [فى] الظَّفَرِ بقبض الأعداء علىٰ جَيْشٍ من جُيُوشِه ، فإنمـا تقع الإجابة عنها إذا نُفِّذَتْ إلىٰ أحد العُمَّالِ خصوصا . قال فى "موادّ البيان" : وحينئذ فينبغى أن يكون الجوابُ عنها مَبْنِيًّا علىٰ تَقْوِيَةِ نفس السـلطان وتوثيقه بالأدِلَّة، وأن ماناله لا يَتَوَجَّه كثيرا علىٰ ذَوِى الحُرَمِ، إلا أن عواقب الفَلْج والظَّفَـرِ والإصَابَةِ فى الرَّأْيِ والتدبير تكون لهم، ونحو هذا ممـا يُجَارِيه ويليق به .

قال : أما إذا كانت المكاتبة فى ذلك إلىٰ الكَافَّة، مُمَهِّدَةً لعُذْرِ السلطان، قَاطِعَةً قَالَةَ الرَّعِيَّة عنه، فإنه لاجواب عنها: لأنها إذا لم تُوَجَّهْ إلىٰ واحدٍ بعَيْنِه لاتَسْتَدْعِى خِطَابا.

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن السلطان بالنَّهْيِ عن التَّنَازُعِ فى الدِّين، إذا صـدرت إلىٰ العُمَّال ، وأُمِرُوا بقراءتها علىٰ الرَّعَايَا علىٰ منابر أعمالهم ، فإنه يُبْنَىٰ الأمر فيها علىٰ آمتثال الأمْرِ، والمطالعةِ بآرتسام القوم مارُسِمَ لهم فيها . أما إذا كانت صَادِرَةً لتقرأ علىٰ العامَّة لِيُبْصِرُوا ما فيها ويعملوا عليه، فإنه لاجواب عنها، لأنها إنما تشتمل علىٰ مَوَاعِظَ ومَرَاشِدَ تَتَخَوَّلُ بها الأئمة رَعَايَاهُم .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأوامر والنَّوَاهِى ، فقد ذكر فى "موادّ البيان" أن الكتّاب الوارد فى ذلك : إن كان شيئا قد جزم المتبوعُ فيه الأمْرَ ، وضَيَّقَ علىٰ التَّابِعِ فى إيثاره سبيلَ المُرَاجَعَةِ فيه، فإن الجواب عنه سَهْلٌ: لأنه إنمـا يُجِيبُ بجواب جامع، وهو وُقُوفُه علىٰ ما أُمِرَ به وإنْفَاذُه له . وإن كان الوارد أمْرًا محتملا للمراجعة ، من حَيْثُ إنَّ فى إمضائه إذا أُمْضِىَ إفسادًا للعَمَل ، وإخلالا بأسـباب

المُلْكِ والسلطان، فالجواب عنه شَاقٌّ صَعْبٌ : لأنه ينبغى أن يُبْنَىٰ علىٰ تَلَطُّفٍ شديدٍ فى الإبانة عما يُنْتِجه ذلك المأمور به إذا أُنْفِذَ علىٰ وجهه من فَتْقٍ وخَلَلٍ ؛ ومَوْرِدُ المراجعة فى ألفاظه لا يَتَبَيَّنُ فيه إزْرَاء علىٰ رَأْيِ الرئيس ولا طَعْنٌ فى تدبيره : بأن تكون نَاطِقَةً بأنَّ رَأْيه الأعلىٰ، وتدبيره الأصْوَب ؛ فيكون باطنُ الكلام توقيفا علىٰ الصَّواب، وظاهِرُه تَصْوِيبا وتقريظا : لأن كثيرا من الرؤساء والمُلُوك يُعْجَبُون بآرائهم، ويُنْزِلُون أنفسهم بحُكْم الرياسة فى منزلة من لا يُرَاجَعُ ولا يُعَارَضُ فيما يأمر به .

قال : وقد تأتى من كُتُب الأوامر كُتُبٌ يأمر الرئيس فيها المرءوسَ بشَرْح حال وٱقتصاص أمور . ثم قال : وأجوبة هذه الكُتُب يجب أن تكون مُسْتَقْصِيَةً للمعنىٰ المُنْشَرِح، مُسْتَوْلِيَةً علىٰ حَوَاشِيه، غير مُخِلَّة بشىءٍ مما يحتاج إلىٰ تَعَرُّفه منه .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام عند حُدُوث الآيات السماويّة، وهى مشتملة علىٰ مَوَاعِظَ ومَرَاشِدَ يتخوَّلُ بها الأئمة رَعَايَاهُم ؛ فإذا صدرت إلىٰ العُمَّال وأُمِرُوا بقراءتها علىٰ الرَّعَايَا، فأجوبتها إنما تُبْنَىٰ علىٰ ٱمتثال الأمر والمطالعة بٱرتسام القوم ما رُسِمَ لهم فيها . أما إذا كانت صادرةً لتُقْرَأَ علىٰ العَامَّة ليَتَبَصَّروا بما فيها ويعملوا عليه، فإنه لا جواب عنها .

وأما الجواب عن التَّنْبِيهِ علىٰ مواسم العبادة، فإنه يصدر عمَّن وَرَدَ عنه إلىٰ الإمام بعد شُهُود ذلك المَوْسِم، والٱنْفِصَالِ عنه علىٰ حال السلامة، كما فى صلاة العيد ونحوها . قال فى «موادّ البيان» : وأجْوِبَتُها تصدر إلىٰ الخلفاء مقصورةً علىٰ ذِكْرِ ما مَنَّ الله تعالىٰ به من قَضَاءِ الفريضة علىٰ حَالِ الٱئْتِلافِ والٱتِّفاق، وشُمُول الأَمْنِ والهَدْيِ والسُّكون، وسُبُوغِ النِّعْمَةِ علىٰ الكَافَّة ؛ وأن ذلك بسعادة وعِنَايَةِ الله تعالىٰ بدَوْلَتِه وبرَعِيَّتِه، ونحوها مما يقتضيه المعنىٰ .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام إلىٰ وُلَاةِ أمْرِه بالسلامة فى ركوب اوّل العـام وغُرَّة رَمَضَان ، والجمعة الأولىٰ والثانيـة والثالثة منه ، وعِيدَىِ الفِطْر والأضْحىٰ ، وفَتْح الخَليج بعد وفاء النيل ، فقد قال فى "موادّ البيان" : إنَّه إن كان الكتاب عن السلامة فى صلاة العِيدَيْنِ أو جُمَع رَمَضَان ، فينبغى أن يكون مَبْنِياً علىٰ وُرُود كُتُبِه متضمنةً ما أعان الله تعالىٰ عليه أميرَ المؤمنين من تَأْدِيَةِ فريضته ، والجَمْع فى صلاة عِيدِ كذا بَرَعِيَّته ؛ وما ألبسه الله تعـالىٰ من الهَدْيِ والوَقَار ، وأفاضه عليه من البَهَاءِ والأنوار ؛ وبُرُوزه فى خَاصَّتِه وعَامَّتِه إلىٰ مُصَـلَّاه ، وسماعِ خُطْبَتِه وعَوْدِه إلىٰ قَصْرِه الزاهر ، وعليه تلألُأ القَبُول لصَلَاته ودُعَائه ، مما أجراه الله تعالىٰ فيه علىٰ عادة آلائه ؛ ووقف عليه وقابله بالشكر والإحماد ، والاعتراف والاعتداد ، وٱقْتَصَّه علىٰ رءوس الأشهاد ؛ فأغْرَقُوا فى شُكْرِ الله تعالىٰ علىٰ المَوْهِبَةِ فى أمير المؤمنين ، ورَغِبُوا إليه فى إطالة بَقَائِه مُرَامِيًا عن الإسلام والمسلمين ؛ ونحو هذا ممـا يُجَارِيه .

ثم قال : فإذا نُفِّذَتْ هذه الكتب من العُمَّالِ إلىٰ أمير المؤمنين مُبَشِّرَةً بٱجتماع رعاياه لتأدية فريضتهم ، وعَوْدِهم إلىٰ منازلهم سالمين ، فينبغى أن يكون الجواب عنهـا : «وصل كتابك مُتَضَمِّنًا مالا يزالُ الله تعالىٰ يُولِيه لأمير المؤمنين فى رَعِيَّته ، وخاصَّتِه وعَامَّتِه : من ٱتفاق كلمتهم ، وٱئتلاف أفْئِدَتِهم وسـلامة كَافَّتِهم ؛ ومامَنّ الله به عليه وعليهم من ٱجتماعهم لتأدية فريضتهم ، وعَوْدِهِم إلىٰ منازلهم ؛ علىٰ السَّلَامة من ضمائرهم ، والطَّهَارَة من سرائرهم ؛ فَحَمِدَ أمير المؤمنين الله تعالىٰ علىٰ ذلك وسأله مَزِيدَهُم منه ، وتَوْفِيقَهُم لمـا يُرْضِيه عنهم ؛ وشكر مَسْعَاكَ فى سياستهم ، وٱمْتِدَادَ يَدِك فى إيَالَتِهم ؛ وهو يأمرك أن تَجْرِيَ علىٰ عادتك ، وتسير فيهم بجميل سيرَتِك» وما يليق بهذا .

ثم بَنَىٰ علىٰ ذلك سائرَ كُتُب السلامة، وقال: ينبغى أن يُسْتَنْبَطَ من نَفْسِ كُلِّ كتاب منهـا المعنىٰ الذى تجب الإجابة به، مثـل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلىٰ أحد عُمَّالِهِ، مُبَشِّرًا بسلامته من سَفَرِه، فينبغى أن يُبْنَىٰ جوابُه علىٰ ما صُورَتُه: «ورد كتاب أمير المؤمنين مُبَشِّرًا عبده بما هَيَّأه الله تعالىٰ له من السلامة ويُمْنِ الوِجْهَه، مع تقريب الشُّقَّه، وإنالة المَسَارّ، وتسهيل الأوطار، وإدناء الدار، فوقف العبد عليه، وآمتثل المرسوم فى إطلاع الأولياء علىٰ ما نُصَّ فيه من هـذه البُشْرىٰ؛ فعَظُمَتْ المِنْحَةُ لديهم، وجَلَّت النِّعْمَةُ عندهم، وآنشرحت صُدُورهم، وآنفسحت آمالُهم، ووفقُوا بصُنْع الله تعالىٰ لهم، وآرتفعت أيديهم إلىٰ الله سبحانه بالرغبة فى حِيَاطَةِ أمير المؤمنين قَاطِنًا وظَاعِنًا، وحُسْنِ صَحَابَتِه حَالًّا وراحلا، وجميـل الخلافة علىٰ مَنْ خَلفَه من حامتَّـه وعَامَّته، وأهـل دَعْوَتِه وخاصَّة دَوْلَتِه، والله تعـالىٰ يجيب فى أمير المؤمنين صَالِحَ الدُّعاء، ويَمُدُّه بطُولِ البَقَاء» وما ينتظم فى سِلْكِ هـذا الكلام ويُضَاهِيه.

قلت: وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتبة السلطانيـة الأبتدائية: أن المكاتبـة بالبِشَارَة بالسلامة فى رُكُوب العِيدَيْنِ وما فى معناهما من قدوم السَّفرِ وغيره، قد ترك آستعماله بديوان الإنشاء فى زماننا. فإن قُدِّرَ مِثْلُه فى هذه الأيام، أجراه الكاتبُ علىٰ نَحْوٍ مِمّـا تقدّم، علىٰ مايقتضيه مصطلَح الزمان فى المكاتبات السلطانية.

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخِلَع وما فى معنىٰ ذلك، فينبغى أن يكون مَبْنِيًّا علىٰ تعظيم المِنَّه، والآعتراف بجَزَالَة المِنْحَه، وجميل العطية، وزائد الفَضْل، وأن ما أُسْدِىَ إليه من ذلك تَفَضُّلٌ عليـه، وتَطَوُّلٌ من غير آستحقاق لذلك، بل فَائِضُ فَضْلٍ، وجزيل آمتنان، وأنه عاجز عن شُكْرِ هذه النِّعْمَة والقيامِ بواجبها، لا يَسْتَطِيع

لهـا مكافأةً غير الرَّغْبَـةِ إلىٰ الله تعالىٰ بالأدْعِيَـةِ لهذه الدَّوْلَة . وما يناسب ذلك من الكلام ويُلَائِمه .

وأما الجواب عن الكُتُب بالتَّنْوِيهِ والتلقيب إذا صـدرت إلىٰ نواب المملكة ، فالذى ذكره فى "موادّ البيان" أن المُنَوَّه به يُجِيبُ عَمَّا يَصِلُه من ذلك بوُصُولِ الكتاب إليه ، ووُقُوفه عليه ، ومَعْرِفَته بقَدْرِ العَارِفَةِ مما تضمنته الرَّغْبَةُ إلىٰ الله تعالىٰ فى إيزَاعِه الشُّكْرَ ، ومَعُونَتِه علىٰ مقابلة النِّعْمَة بالإخلاص والطـاعة . أما إذا كُتِبت بالتَّنْوِيهِ والتلقيب لأَحَدٍ من المقيمين بحَضْرَةِ الخلافة ، فإنه لاجواب لها .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالإحماد والإذمام ، فيختلف الحال فيه : فإن كان الكتاب الوارد بالإحماد والتَّقْرِيظ ، فجوابه مقصور علىٰ الشُّكْر الدال علىٰ وقوع ذلك الإحمـاد مَوْقِعَه من المحمود ، ومُطَالَبَتِه لنفسه بالخروج من حَقِّه باستفراغ الوُسْع فى الأسباب المُوجِبَةِ للزيادة منه . وإن كان الكتاب بالإذمام : فان كان ذلك لمَوْجِدَةٍ بسبب أمْرٍ بلغه عنه من عَدُوٍّ أو حاسِـدِ نِعْمَةٍ أو منزلة هو مَخْصُوصٌ بهـا من رئيسه ، كان الجواب بالتَّنَصُّلِ والمقابلة بمـا يُبَرِّئُ سَاحَتَه ، ويَدُلُّ علىٰ سلامة نَاحِيَتِه ، وأن يُورِدَ ذلك بصيغةٍ تُزِيلُ عن النفس ما سبق إليها ، وتَبْعَثُ علىٰ الرِّضا . وكذلك فى كل واقعة بحسبها ، ممـا يحصل به التَّنَصُّلُ والاسترضاء ونحو ذلك .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة مع الإنعام السلطانىّ ، فعلىٰ نحو ماسبق فى الخِلَع : من تعظيم المِنَّة ، والاعتراف [بجَزَالَة المِنْحة](١) وجميل العطية ، وزيادة الفَضْل ، وما فى معنىٰ ذلك ممـا تقدّم ذكره .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الخليفة أو السلطان بتجدّد وَلَدٍ ، فإنه يكون بإظهار السرور والاغتباط ، وزِيَادَةِ الفَرَح والسُّرُور بمـا منّ الله تعالىٰ به من تكثير

(١) بياض بالاصل والتصحيح عما تقدّم قريبا فى الجواب عن الخلع .

العَدَد، وزيادة المَـدَدِ، والرَّغْبة إلىٰ الله تعالىٰ فى أن يُوَالِىَ هـذا المَزِيدَ ويُضاعِفَه. ونحو ذلك ممـا يجرى هذا المجرىٰ .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بعافية الخليفــة أو السـلطان من مَرَضٍ كان قد عَرَضَ له ، فطريقه حَمْـدُالله تعالىٰ وشُكْرُه علىٰ مامَنَّ الله تعالىٰ به من العافية ، وتَفَضَّـلَ به من إزاحة المَرَضِ ، ووِقَايَةِ المَكْرُوه ، وإظْهَارُ الفَرَحِ والسرور بذلك . وما ينخرط فى هذا السِّلْك .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالتعزية بوَلَدٍ أو قَرِيبٍ ، فإنه يظهر فيــه الغَمَّ(١) والحُزْنَ والكَآبَةَ ، وحَمْدَ الله تعالى علىٰ سلامة نَفْسه ، والرَّغْبَةَ إلىٰ الله تعالىٰ فى الخَلَفِ عليه ، إن كان المَيِّتُ وَلَدًا ، مع الدعاء بطُولِ البَقَاءِ وخُلُودِ الدَّوْلَةِ ، وما يجرى هذا المجرىٰ .

وهـذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية ، ممَّـا يكْثُرُ وقوعه ، ويتَعَدَّدُ تكْرَارُه ، يَسْتَضِىءُ بها الكاتب فى كتابة الأجوبة ، ويَنْسُجُ علىٰ مِنْوالها .

❖

نسخة جواب عن كِتَابٍ وصـل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه ، كُتِب به إلىٰ أمير الأمراء ، قَرِينَ خِلْعَةٍ وسَيْفٍ وتَاجٍ وسِوَارَيْنِ ، من إنشاء أبى الحسين بن سعد ، وهو :

فإن كان سَيِّدُنا أميرُ المؤمنين ، بمـا أعلم من فَضْل مُرَاعَاتِه لأمور الدِّين ، وصِدْق عِنَايَتِه بمصالح المسلمين ، وأُفيضَ له(؟) من مَوَاهِبِ الله عندهم ، وصُنُوفِ نِعَمِه عليهم ، فيما هداه من طُرُقِ الرَّشَاد ، وبَصَّرَه إياه من مَنَاهِجِ الصَّوَاب ، وقَرَنَه به من التَّوْفيق فى عَزَائِمِه ، والجِدِّ فى مَرَاسِمِه ، وتَوَعَّدَه فيه بالخيرات التَّامَّه ، والكِفَايَةِ العامَّه ، فى كُلِّ

(١) فى الاصل "التغمم" ولم نعثر عليه فى كتب اللغة .

أمْرٍ يُمْضِيه، ورأْيٍ يَرْتَئِيه؛ ٱعتمادًا له بحُسْنِ المَعُونة علىٰ ما ٱسترعاه، ووَصْلِهِ بالمَزِيدِ فيما خوّله وأعطاه، وحِرَاسَةِ ماساقه إليه من إرْثِ النُّبُوّه، وحَمَّلَه إياه من ثِقْلِ الإمامه؛ لمـا عَرَفَه من نُهُوضِه بالعِبْء، وقيامه بالحَقِّ فيما نَاطَه وأسنده إليه؛ وتأمُّلِه ماتأَمَّله من حال عبــده الذى لم يزل لِطَاعَتِه مُعْتَقِدًا، وبعِصْمَةِ وِلَايَتِـه مُعْتَضِدًا؛ ولوَقْتٍ يُبَلِّغُه منزلة الإحماد، ويحوز له عَائِدَةَ الٱجتهاد، فيما أرضاه مُرْتَصِدًا؛ ولسَعْيِه وَنِيَّتِه، وظاهِرِه وطَوِيَّتِه، معتمدا؛ ووُجُودِه أيَّدَه الله فى يسير ما ٱمتحن به بَلَاءه، وعرف فيه غَنَاءه، مَوْضِعًا للصَّنِيعَه، مُحْتَمِلًا للعارفه، مُقِرًّا بحَقِّ النِّعْمَه، عارفا بقَدْرِالمَوْهِبَه؛ وتَرَقُّبِهِ فُرْصَةً ينتهزها فى إبداء عَزْمِه، وإمضاء رأْيِه؛ وأنّه [وَاثِقٌ] بالٱستظهار بمكانه، والإسْهَامِ له فى عِزِّ سُلْطَانه؛ حتّى أسفرت رَوِيَّتُـه، وٱستقرّت عَزِيمته؛ فٱختصّ عبده بجميــل الأَثَر، وٱصطفاه بلطيف الحُظْوة، وٱعتمد عليــه فى إمَارة الأمراء، مُوفِيًا به علىٰ رُتْبَةِ النُّظَراء، وكَاسِيًا له حُلَّةَ المَجْد والسَّنَاء؛ وردّ إليــه تدبير الرجال، وتقدير أمور العُمَّال؛ وشَــفَعَ ذلك بالتَّكْنِيَةِ والتَّلْقِيبِ فى مَشَاهِدِ حَفْلَتِــه، ومجالس خَلْوَتِه؛ وأكمل الصُّــنْعَ عنده بإلحاق عبــده فيما قَسَم لكُلِّ واحدٍ منهما من شريف حِبَائِه، وسَنِيِّ عَطَائِه؛ وتجاوز فى التَّكْرِمَةِ له إلىٰ أعلىٰ الأحوال، وأرْفَعِ الرُّتَبِ والمَحَالّ؛ فيما أمَرَ ــ أعلىٰ الله أمره ــ بحَمْلِه إليه من الخِلْعَةِ التى يَبْقَىٰ شَرَفُ لِبَاسِها [على] الأيّام، ويُخَلَّدُ ذِكْرُها علىٰ الدُّهُورِ والأعوام؛ والسَّيْفِ الذى تَفَاءَل لعبده فيه بمـا يرجو مِنْ مولاه وسَعَادَة جَدِّه : أن يُحَقِّقَه الله فى الٱعتماد به علىٰ أعدائه، وغَمْدِهِ فى نُحُورِ مُشَاقِّيهِ وغَامِصِى نَعْمَائِه؛ والتَّاجِ المُرَصَّعِ الذى نَظَم له جَوَامِعَ الفَخْر، والوِشَاحِ المُوَشَّى الذى وشَّحه حِلْيَةَ الجمال مدىٰ الدهر؛ والطَّوْقِ الذى طوّقه قلائد المَجْد، والسِّوَارَيْنِ اللَّذين آذناه بقوّة العَضُدِ وبَسْطَةِ اليَد؛ واللِّواءِ المعقودِ به مَفَاتِحُ العِزِّ فى طاعته، المرفوعِ به معالم النَّصْرِ علىٰ شَانِئِ دَوْلَتِه؛ ووصل إلىّ وفهمته .

وسيِّدُنا أمير المؤمنين ـ فيما أكرمه الله به من خِلَافَتِه ، وأَتْمَنَه من الحُكْمِ علىٰ بَرِيَّتِه ، ووَكَلَه إليه من حُقُوق الدِّين ، وحِيَاطَتِه كَرَم المسلمين ، وإحياء السِّيَرِ الرَّضِيَّه ، والسُّنَنِ الحميده ، وإماطة الأحكام الجائره ، والمَظَالِم الظاهره ، وتقويم أَوَدِ المملكة بعد تَزَعْزُعِ أركانها ، وتَصَدُّعِ بُنْيَانِها ، وإعْزَازِ الأمة وإيناسها ، بعد أن آشتملت [الذِّلَّة](١) عليها وتمكنت الوَحْشَةُ فيها ، وحَكَمَ اليَأْسُ فى آمالها ، وغلب القُنُوطُ علىٰ أطماعها ، وتَفَاءل بما آعتمده له ، وفوّضه إلىٰ نَظَرِه : من الحِلْيَة بحقائقه ، والتوكيد بما لم تزل المَخَايِل فيه لائحه ، والأمارات منه واضحه ، والشَّوَاهِدُ به صادقه ، والدَّلَائِلُ عليه ناطقه ، حَتّىٰ تدارك بنعمة الله الدِّينَ بعد أن طُمِسَ مَنَارُه ، وتَعَفَّتْ آثارُه ، ودَرَسَتْ رُسُومُه ، وغَارَتْ نُجُومُه ، وأَنْحَىٰ الشَّيطانُ بجرانه ، وآشْرَأَبَّ لتبديله بعُدْوَانِه ، وآنتَدب لنُصْرَةِ الإسلام بَرأْيٍ يستغرق آراء الرِّجال ، وحِلْمٍ يَسْتَخِفُّ رَوَاسِىَ الجِبَال ، ورَوِيَّةٍ تستخرج كَوَامِنَ الغُيُوب ، وتَكْشِفُ عنها حَنَادِسَ الشكوك ، وبَاعٍ لَمَا يمتدُّ إليه بَسِيط ، وذِرَاعٍ لما ينتظم عليه رَحِيب ، وصَدْرٍ يَتَّسِعُ لمُعْضِلَاتِ الأمور ، ويُشْرِقُ فى مُدْلَهِمَّاتِ الحوادث ، فشَرَّدَ أعداء الله بعد أن آتصلت بهم مُهْلَةُ الآغترار ، وتَطَاوَلَتْ بهم مدّة الإصرار ، ومَدَّ رِوَاقَ المُلْك وضرب قِبَابَه ، وثَبَّتَ أَوَاخِيَهُ وأَحْصَد(٢) أسْبَابَه ، وقطع أطْمَاعَ المُلْحِدين ، وأبْطَلَ كَيْدَ الكافرين ، وفَتَّ فى أعضاد المُنَابِذِين ، فتَحَصَّنَت البَيْضَه ، وآجتمعت الكَلِمَه ، وآتَّفَقَت الأهواء المُتَفَرِّقَه ، وآنتظمت الآراء المُتَشَعِّبَه ، وسَكَنَتْ الدَّهْمَاءُ المُضْطَرِبه ، وقَرَّتِ القلوبُ المُنْزَعِجَه ، وصَدَقَتْ خواطر الصُّدور المُثْلَجَه ، وظهر الحَقُّ ورَسَخَ عَمُودُه ، وبَهَرَ جَمَالُه ونَضُرَ عُودُه ، ونُشِرَتْ أعْلَامُه وطلعت سُعُوده ، وعَزَّ أوْلِيَاؤُه ونُصِرَتْ جُنُوده ، وسَاخ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٢) فى الأصل «أخضد» وهو تصحيف .

بالباطل قَدَمُه، وآنقطعت وَصَائِلُه وعِصَمُه، وآنبَتَّتْ حِبَالُه ورُمَمُه، وآنحلّت أسبابه وذِمَمُهُ ـ حَقِيقٌ بما بَانَ من فَضْلِه ، وآسْتَفَاضَ فى الأمّة من عَدْلِه ، وعَمَّ كافّةَ الرّعِيَّة من طَوْلِه ؛ ووصلت إلىٰ المِلّىّ والذمىّ والدّانى والقَاصى عَائدَةُ الخَيْرِ فى أيامه، وفائدة الأَمْنِ بمملكته وسُلْطَانه؛ ومأْمُولٌ لأفْضَلِ مابدا لعَبْدِه من ثَمَرَةِ آجتبائه وآصْطِفَائِه، وما تَغَمَّدَه به من النِّعَمِ العظيمه، والمَوَاهِبِ الجسيمه؛ وأسْبَغَه عليه من العوارف السَّنِيَّه، ورَفَعَهُ إليه من المنازل العَلِيَّه، التى تَقْصُر عنها هِمَمُ ذَوِى الأقدار، وتَقِفُ دونها آمَالُ أُولِى الأخْطَار، مُقَدِّمًا له علىٰ أهل السَّوَابِقِ من أنصار دَوْلَتِه، وأشياع دَعْوتِه .

فلو ترادفت أَلْسُنُ العبـاد ـ أيّدَ اللهُ أميرَ المؤمنين ـ علىٰ آختلاف لُغَاتِهم، وتَبَايُنِ طَبَقَاتِهم، وتَفَاوُتِ حالاتهم، فى مقابلة نِعْمَةِ سَيِّدنا التى أعْشىٰ العُيُونَ بَهَاؤُها، وتأدية حقوقه التى أعيا المجتهدين قَضَاؤُها ؛ لكانت ـ حَيْثُ آنتهَتْ، وأنّىٰ تَصَرَّفَتْ ؛ علىٰ آستفراغ القُدْرة وآستِنفاد الطاعة ـ غيرَ مُقَارِبَةٍ حَدًّا من حدودِها، ولا مُؤَدِّيَةٍ فَرْضًا من فُرُوضها ؛ وإذا كان الأمر علىٰ ذلك ـ أيّدَ اللهُ أميرَ المؤمنــين ـ فى فَوْتِ الإحسان مقادير الشُّكْر ، وإيفائه علىٰ مَبَالِـغِ الوُسْع ؛ فقصدُ عبده فى جَبْرِ النَّقِيصَه، وسدّ الخَلَّه ؛ الآزدِيادُ فى الطَّاعَه، والإخْلَاصُ فى المُوَالَاة والمُشَايَعه ؛ وإدامةُ الآبْتِهَالِ إلىٰ الله تعـالىٰ ، ورَفْعُ الرَّغْبَةِ فى مَعُونَةِ عبد أمير المؤمنين علىٰ مُجَافَاة(١) بَلَائِه، والتَّفَرُّدُ بجَزَائِه، وتجديدُ المسألة فى إطالة بَقَائِه : فى عِزٍّ لاتَبْلىٰ جِدَّتُه، وسُلْطَانٍ لاتنتهى مُدَّتُه ؛ ومَوَادَّ من مَنَـائِحِه ومَوَائِدِه ، ورَوَادِفَ من عَوَائِدِه ؛ مُتَظَاهِرَةٍ لاينقطع منها أَوَّلٌ حَتّىٰ يلحق تاليه، ولا يَنْصَرِمُ سَالِفُه حَتّىٰ يَنْصَرِفَ آتيه ؛ ويكون المآل بعد آستيفاء شُرُوطِ الأمل، وتَقَضِّى حُدُود المَهَل ؛ إلىٰ النَّعِيم المُقِيم ، فى جِوَارِ العزيز الكريم .

(١) فى الأصل «مصافاة» وهو تصحيف .

ومن تَمَامِ إفضال سَيِّدنا على عبده، ونِظَامِ مَعْرُوفه عنده ؛ بَدْؤُه إيَّاه بمـا يمتحن به خِفَّـةَ نَهْضَتِه ، وسُرْعَةَ حَرَكَتِه ؛ وقُعُودَه لأمره بجَدٍّ حَديد ، وبعَيْشٍ عَتِيـد ؛ وصَمْدَهُ لمـا يُحْظِيه لذلك مَوْلاه ، ويحوز له حَمْدَه ورِضَاه ؛ بِصِدْقِ بَصيرَه ، وخلوص سَرِيرَه ؛ وآستسهالٍ لكُلِّ خُطَّه ، وتجَشُّمٍ لكُلِّ مَشَـقَّه ؛ دَنَت المسافةُ أم شَسَعَتْ ، قَرُبَت الطِّيَّةُ أم نَزَحَتْ ؛ وسَيِّدُنا أهْلٌ لآستتمام يدٍ آبْتَدَاها ، وإكْمَالِ عارِفَة أنشأهـا وكرامة آبتناها ؛ باستعمال عَبْدِه بأمْرِه ونَهْيِـه ، وآعتماده لمُهِمَّاتِه بحَضْرَتِه وفى أطراف مَمْلَكَتِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

قلت : وهذه نسخة كتاب أنشأتُه : ليُكْتَبَ به إلىٰ أمير المؤمنين المستعين بالله ، أبى الفَضْـلِ العَبَّاس خليفة العَصْر ، عن نائب الغَيْبَة بالديار المِصْرِيَّة ، حين وَرَدَتْ كُتُبُه الشريفـةُ من الشَّأم إلىٰ الديار المِصْرِيَّة بالقَبْض علىٰ النَّـاصِرِ فَرَج بن الظاهر برقوق بالشَّأم ، وآسْتِبْدَادِه بالأمر دون سـلطانٍ معه ، فى أوائل سـنة خَمْس عَشْرَة وثمـانمـائة ، مُفْتَتِحًا له بـ«يُقَبِّلُ الأرضَ» التى يُكَاتَبُ بها الملوك . وإن كان قد تقدّم من كلام المقرّ الشِّهابِىِّ بن فضـل الله أن المكاتبـة إلىٰ أبواب الخلافة بالدعاء للديوان ، لا يختلف فيه مَلِكٌ ولا سُوقَةٌ ، وهو :

يُقَبِّلُ الأرضَ ويُنْهِى وُرُودَ المثال الأشْرَفِ المَيْمُون طَائِرُه ، المَرْقُومِ علىٰ صَفَحَاتِ الأفلاك تَهـانِيـه المَحْمُول علىٰ مَتْنِ السَّحَابِ بَشَـائِره ، الشَّاهدِ بالفَتْحِ المُبِينِ أَوَائِلُه وبالنَّصْرِ العَزِيزِ أَوَاخِرُه ؛ مُتَضَمِّنًا ما مَنَّ الله تعالىٰ به من جميل الصُّنْع الذى وَكَفَتْ بالخَيْرِ سَحَائِبُـه ، وخَفِىِّ اللُّطْف الذى بَهَرَت العُقُولَ عَجَائِبُه ؛ بمـا منح الله تعالىٰ به مولانا أميرَ المؤمنين مدّ الله تعالىٰ علىٰ الإسـلام وَارِفَ ظِلِّه ، وأَنَامَ الأَنَامَ بمَدّ رِوَاقِ

الإمامة المعظمة فى مِهادِ عَدْلِه ، ومكَّن له فى الأرض كما مكَّن لآبائه الخُلَفاءِ الراشدين من قَبْلِه : من جُلُوسِه علىٰ سُدَّةِ الخلافة المُقَدَّسة التى وُصِلَ مُنْقَطِع حديثِها بإسناده ، وحازَمِنها بأشْرَفِ مَقْعَدٍ تُراثَ آبائه الكِرامِ وأجْدادِه ؛ وٱبتسم ثَغْرُ الخلافة بعبَّاسِـه ، وتآنَسَ منها جانب الدِّينِ بعد الاستيحاش بإينَاسِه ؛ فقبَّلَ الملوكُ له الأرضَ خاضعا ، ولَبَّى أوامِـرَه الشَّرِيفَةَ ضارِعا ، وأجاب داعِيَه بالامتثال سَامِعًا طَائِعا ؛ وسَجَـدَ سُجُودَ الشُّكْرِ لذلك فعُرِفَ بسِـيماه ، وٱنتسب إلىٰ الوَلاءِ الشَّرِيفِ الإمامِيِّ ٱنتساباً شاملاً لٱسمه ومَعْناه ؛ وأَعْلَمَ مَنْ قِبَلَهُ من الأمراء والأجناد بذلك فقابلوه بالاستبشار طُرًّا ، وتلقوها تَلَقِّيًا يليق بمِثْلِها وإن كان لا مِثْل لهذه البُشْرىٰ ؛ وقُرِئَتْ المُطْلَقَاتُ الشريفة علىٰ المنابر فسَكَنَتِ الدَّهْماء وقَرَّتْ ، وسَرَتْ ألفاظُها إلىٰ الأسمـاع الشَّيِّقَةِ فسُرَّتْ ، وكُرِّرَتْ ألفاظُها العَذْبَةُ مِرارًا فحَلَتْ لدىٰ النفوس إذ مَرَّت ؛ وٱرتفعت الأصوات بالدعاء بَدَوامِ هذه الدَّوْلَةِ النَّبوِيَّةِ دَوامًا لا يَسْتَشْعِرُ مُسْتَشْعِرٌ خِلافَه ، فحَقِيقُ ظُهُورُ مُعْجِزَةِ أكْرَمِ مُرْسَلٍ بعد الثمانمائة بقوله لعَمِّه العباس : "ألَا أُبَشِّرُكَ ياعَمِّ : بِى خُتِمَتِ النُّبُوَّةُ وبولَدِكَ تُخْتَمُ الخلافه" .

***

وهـذه نسخة جواب عن نائب طَرابُلُس عن مِثَالٍ شريف ورد بوفاة السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » وٱستقرارِ وَلَدِه السلطان الملك المنصور «أبى بكر» مكانه فى المُلْكِ بعَهْدٍ من أبيه . من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارىّ ، بعد التَّعْزِيَةِ بأبيه السلطان الملك الناصر، وهى :

ويُنْهِى وُرُودَ المرسوم الشريف شَرَّفَه الله تعالىٰ وعَظَّمَه ، يتضمن أمْرَ المُصابِ الذى كادَتْ لوُقُوعه الأرْضُ تتزلزل بأهْلِها ، والعُقُول تَتَزَيَّلُ عن محلِّها ؛ وبلَغَت القُلُوبُ

الحَنَاجِر، وآستوحَشَتِ القُصورُ وآستأنست المَقَابِر، وتَصَدَّعَتْ له صُدُورُ السيوف ورُءوسُ المَنَابِر، وقَصَمَ الظُّهور، وشَيَّبَ السُّودَ من الشُّعُور، وجَرَّعَ كُئُوسَه، وصَدَّعَ الحَوْزَةَ المحروسه، وذلك بماقدّر الله تعالىٰ من آنتقال مولانا السلطان السعيد، الشهيد، والدمولانا السلطان - خَلَّدَ الله مُلْكَه - إلىٰ رَحْمَتِه ورِضْوَانه: فأجرىٰ المملوكُ عِوَضَ الدُّموعِ دمًا، وأقام الإسلامُ والمسلمون عليه مَأْتَمًا، وتغير البَدْرُ المُنِيرُ لفَقْده فأمسىٰ مُظْلِمًا، ونَدَبَهُ الإسلام فى سائر مَحَارِيبِه ومُصَلَّاه، وأَسِفَ عليه البَيْتُ الحَرَامُ و رُكْنَاه ﴿إنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

لمّا دخل النبيّ صلّى الله عليه وسَلَّم المدينة، أشرق منها ذَلك اليَوْمَ كُلُّ شَيْء، ويَوْمَ قُبِضَ أظلم منها كُلُّ شَيْء؛ وكان أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضى الله عنه أثْبَتَ النَّاسِ يوم وَفَاتِه صلّى الله عليه وسلّم، وهو الخليفة من بَعْده؛ ومولانا السلطان الشهيد - قدّس الله رُوحَه - كان مُتَشَرِّفًا بآسم نَبِيِّه، ومُتَبَرِّكًا فى ذُرِّيَّتِه الشريفة بذِكْرِ سَمِيِّه[1]؛ ولو ذَابَتِ المُهَجُ أَسَفًا عليه لَمَا أنْصَفَتْ، وقد أَسِفَتْ عليه الأُمَمُ بأسْرِهَا وحَقَّ لها أنْ أَسِفَت؛ نَبَتَتْ لُحُومُنَا من صَدَقَاتِه، وغَمَرَتِ المُلُوكَ والمَمَالِكَ مجزلاتُ هِبَاتِه؛ وما نُقِلَ من قَصْرِهِ إلَّا إلىٰ جَنَّاتِ النَّعِيم، وما فَارَقَ مُلْكَه إلا وبَاتَ فى جِوَارِ اللهِ الكَرِيم؛ وكان سُلْطَانَنَا وهو اليوم عند الله سُلْطَان، فسقىٰ الله عَهْدَهُ صَوْبَ الرَّحْمَةِ والرِّضْوَان.

وبحمد الله قد جُبِرَت القُلُوبُ المُنْصَدِعَةُ بجلوس مولانا السلطان - خَلَّدَ الله مُلْكَه - علىٰ تَخْتِ السَّلْطَنَة المعظمة والله مَعَه، وماجَلَسَ علىٰ كُرْسِيّ الملك إلا أهْلُه، ولا قام بأمْرِ المسلمين إلا مَنْ عُلِمَ فَضْلُه؛ ومولانا السلطان وَارِثُ المُلْكِ الناصريّ المنصور

(١) أى أبى بكر.

حقًا ، والقائمُ بشأنِ السلطنة غربًا وشرقًا ؛ وخُلاصةُ هذا البيْتِ الشريف زاده الله نصرا ، وأدام ملْكهُ دوامًا مُسْتمرًا ؛ والعيُون الباكية قد قرَّتِ الآن بهــذه البُشْرىٰ ، والقلُوبُ الثاكلةُ قد ملِئتْ بهْجةً : ﴿إنَّ معَ العُسْرِ يُسْرا﴾ وٱستَقرَّ الإسلام بعد قلَقه ، ونامَ علىٰ جَفْنِه بعد أرَقه ، وٱستقبلت الأمّة عامًا جديدا ، وسلطانا منْصُوراً سعيدا ؛ وٱستبشرت القبْلتَان ، وتنَاجىٰ بالمسَرَّة الثَّقلاَن ، والذين كفروا أمْسَوْا خائِبين ، والذين آمنوا أضْحَوْا فرِحين ﴿هُوَ الَّذِى أيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ومَوْلانَا السلطان هو العرِيقُ فى سلطنة الإســلام ، والإمَامُ الأعظم ٱبن الإمام ؛ خلَّد الله مُلْكه مادامتِ الأيام ، وأحسن عَزاءَهُ فى خَيْرِ سلطان الأنام ؛ وٱبتهلت الألسنة بالترَحُّم علىٰ مولانا السلطان الشهيد ـ قدَّسَ اللهُ رُوحه ـ بدُمُوعٍ سائله ، وقلُوبٍ موجوعة بجِرَاحاتِ النِّيَاحاتِ ثم عُوِّضُوا بالمسَرَّاتِ الكَامِلَه ؛ والدعاء مرفوع لمولانا السلطان ـ خلَّد الله مُلْكه ـ برًّا وبحْرا ، والبــلاد مُطْمَئِنَّةٌ والعساكر علىٰ مايجِبُ من التَّمَسُّــكِ بالطاعة الشريفة ، والتشريف بإقبال دوْلةِ سلطانهم ، ووارث سلطانهم ؛ وكان المملوك يَوَدُّ لو شاهد مولانا السلطان ـ خلَّدَ اللهُ مُلْكه ـ علىٰ ذلك السَّريرِ والمِنبَر ، وقبَّلَ الأرضَ بين يدَيِ المَوَاقِفِ المُعظَّمَة والمَقامِ الأكْبَر ، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة جَوَابٍ عن وُرُودِ المثال الشريف برُكُوبِ السلطان بالمَيْدان ، والإذن للنوّاب فى لِعْبِ الكُرَة ، وهى :

وينْهِى وُرُودَ المثال الشريف شرَّفَه الله تعــالىٰ وعَظَّمَهُ ، يتضمن الصَّــدقَةَ التى أجْرتْ أوْلِيَاءَها علىٰ أجمل عادةٍ من الاحْتِفَال ، والمَرَاحِمَ الشاملَة التى وَسَّعتْ لهم كَرَمَها سَافرَةً عن أوْجُه الإقبال ، والبُشْرىٰ التى جمَعتْ من أنواع المَسَرَّاتِ ما بلغتــه

الآمال ؛ وهو أنَّ الرِّكَابَ الشريف ٱسْتَقَلَّ إلىٰ المَيْدَانِ السعيد نَهار السَّبْتِ فى كذا من شهر كذا : فى أسْعَدِ طَالِـع ، وأيْمَنِ وَقْتٍ مُطَاوِع ؛ وفى الخِدْمَة الشريفة من الأمراء ــ كَثَّرَهُم الله تعالىٰ ــ مَنْ جَرَت العادة بهم من كُلِّ كَمِىٍّ مُقَنَّع ، قد لبس من الطاعة بُرْداً وبالإخلاص تَدَرَّع ؛ وٱمْتَطىٰ من فَائِضِ الصَّدَقاتِ الشريفة صَهْوَةَ سَابِقٍ قَدْ شَمَّر للسَّبْقِ ذَيْلا ، وفَرَّ كَبَرْقٍ لَمَعَ لَيْلا .

وأَنَّ مولانا السلطان ــ خلَّد الله مُلْكَه ــ طلع عليهم طُلُوعَ البَدْرِ عند الكَمَال ، وحَوْلَه المماليك الشريفة كالأنْجُمِ الزاهرة التى لا تُعَدُّ ولا تُشَبَّهُ بمِثَال ؛ والجِيَادُ لا يُرىٰ لها أَثَرٌ من الرَّكْض ، والكُرَةُ تتشرَّف بالصَّوْلَجَانِ كما تَتَشَرَّفُ بالتقبيل الأرض ؛ وعاد الرِّكَابُ الشريف ــ زاده الله شَرَفاً وعَظَّمَه ــ إلى القَلْعَةِ المنصورة ، إلى مَحَلِّ المملكة الشريفه ، وفى دست السلطنة المُعَظَّمَه ؛ محفوفا من الله تعالى بلُطْفِه ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِه﴾ .

وما ٱقْتَضَتْه الآراء الشريفه ، والمَرَاحِمُ المُطِيفَه ؛ وآثرتْ به إعلامَ المملوك بذلك ، والمرسوم الشريف ــ شَرَّفَه الله تعالى وعَظَّمَه ــ أن يتقدّمَ المملوكُ بالنُّزُولِ إلىٰ مَيْدَانِ فُلَانَة المحروسة ، ومعه مماليك مولانا السُّلْطَان ــ خَلَّدَ الله تعالىٰ مُلْكَه ــ والأمراء ؛ فقابل المملوك هذه الصَّدَقَات ، بتَقْبِيلِ الأرض ورَفْعِ الدَّعَوَات ؛ وجمعوا بين الكُرَة والصَّوْلَجَان ، وحصل لهم من المَسَرَّاتِ مالا يَحْصُرُه بيَان ؛ وٱنبَسَطَتْ نفوسُهم إذ أصبحوا فى أمْنٍ وأَمَان ، وٱبتهلوا إلى الله تعالىٰ بدوام هذه الأيام التى نَوَّعَتْهُم بأنواع الإحسان ؛ وضَجُّوا بالأدْعِيَةِ لمولانا السلطان ــ خَلَّدَ الله مُلْكَه ــ التى عَمَّتْ مَوَاهِبُه وفاق بمَكَارِمِه المَاضِين ، وأرْبىٰ علىٰ سَلَفِه الشريف بالعطَاءِ والتَّمْكِين ، جعل الله أعْدَاءَه تَحْتَ قَهْرِه إلىٰ يوم الدِّين ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة جواب بوَفَاءِ النِّيل المُبارَك، كتب به عن نائب طَرَابُلُس، وهى :

ويُنْهِى وُرُودَ المثـال الشريف ـ شَرَّفَه الله تعالىٰ وعَظَّمه ـ الذى أشرقت أنوارُ تَهَانيه، وتألَّقَتْ بُرُوقُ ألفاظه ومَعَانيه؛ فبَشَّرَتْ بفَيْض فَضْل الرَّحْمه، وعموم الرعايا بتَوَاتُرِ عَمِـيم النِّعْمه؛ ووَفَاء النِّيلِ المبارك الذى ما بَرِحَ فى هــذه الأيام الزاهرة يَفِى بعَهْده ، ويَسُلُّ سَيْفَ الخِصْبِ من غِمْده، ويَقْتُلُ المَحْلَ بحُمْرَة مَتْنه وجَوْهَرِ حَدِّه؛ مُهَنِّئًا للأولياء بهذه الدَّوْلَة التى أصبحت قُلُوبُهم مُطْمَئِنَّةً بالأَمْنِ والرَّخَاء، مَسْرُورَةً بمـا مَنَّ الله به من تَرَادُفِ الآلاء وعُمُوم النَّعْماء؛ وحَالَ ماورد المرسوم الشريف ـ شَرَّفه الله تعالىٰ وعَظَّمه ـ بادَرَ المملوك إلى آمتثال المَرْسُومِ الشريف بتقبيل الأرض والسَّمْع والطَّاعة، وأَخَذَ كُلٌّ حَظَّهُ من هذه البُشْرىٰ، التى عَمَّتْ تَهَانِيها بَرًّا وبَحْرًا؛ وجَعَلَتْ أُمورَ هــذه الأمة بيُمْنِ بَرَكَةِ هــذه الأيام الشريفة بعد عُسْرٍ يُسْرا؛ وقد عاد فلان البَرِيدِىُّ ومَنْ معه إلىٰ الأبواب الشريفة بالجواب الشريف، طالع بذلك إن شاء الله تعالىٰ .

آخر فى المعنىٰ :

ويُنْهِى ورود المثال الشريف زاده الله عُلُوًّا وشَرَفا ، وبَيَّضَ له فى القِيَامَة صُحُفا؛ يتضمَّن أَنْوَاعَ الإنعام الجزيل ، و إبْدَاءَ آثار السُّرُور بمـا يَسَّرَ اللهُ من وَفَاءِ النِّيــل؛ فأشْرَقَتْ أنوارُ تَهانيه، وتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ ألفاظه ومعَانيه؛ فبَشَّر بفَيْض فَضْل الرَّحْمَه، وعموم الرعايا بتَوَاتُرِ عموم النِّعْمَه؛ إذ جاء مُحَيَّاهُ فى هذا العام طَلْقًا، وسَلَكَ فى عوائد البِرِّ والإحسان طُرُقَا؛ وآذن ببلوغ المَرَامِ والمُرَاد ، وكُسِرَ سَـدُّ خَلِيجِهِ جَبْرًا للعبـاد

والبلاد ، حيث ملأ الأرض رِيًّا ، وأهدى من نفحاتِ الأمنِ والمنِّ رَيًّا ، والمرسوم الشريف – شرَّفه الله وعظَّمه – بأن لا يُجْبىٰ علىٰ ذلك حقُّ بِشَارَه ، ولا يُتعرّض إلىٰ أحدٍ بخسارَه ، فقابل المملوكُ المثالَ الشريفَ والمرْسُومَ الشريفَ بتقبيل الأرض والسَّمْع والطَّاعة ، وبادَرَ المملوكُ إلىٰ إذاعةِ هذه البُشْرىٰ ، التى عمَّتْ تهانيها برًّا وبحْرا ، وجعلت أُمورَ هذه الأمَّة بيُمْنِ بركةِ هذه الأيام الشريفة بعد عُسْرٍ يُسْرا ، واستنطق الألسِنةَ بالدُّعاء لهذه الدَّوْلةِ القاهره ، وجلا وتلا صُوَرَ الهَنَاءِ وسُوَرَ الآلاءِ بهذه النِّعْمة الوَافيةِ والمِنَّةِ الوَافِرَه ، وسأل الله تعالىٰ أن يُخلِّد مُلْكَ مولانا السلطان ، ويُوالِى أنْباءَ البشائر فى أيَّامه الشريفة مَرْويَّةً بالأسانيد الحِسَان ، وقد عاد فلان البريدىّ بالأبواب الشريفة – شرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها – بهذا الجواب الشريف ، وقد عايَنَ ابْتِهالَ أَهْل هذه المملكة الفُلَانية بالدعاء بدوام هذه الأيام الزَّاهرةِ السَّارّة بهذه البشائر بخلوّها من الكُلَفِ والخسارَة ، طالع بذلك . إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة جَوَابٍ عن مثال شريف بوصُول فَرَس إنعام ، كُتِبَ به عن نائب طرابُلُس ، وهى :

يُقبِّلُ الأرضَ ويُنْهِى وُرُودَ المرسوم الشريف أعلاه الله تعالىٰ وشرَّفه ، يتضمن ما اقتضته الآراء الشريفةُ من الخَيْرِ التَّامّ ، والإنعام العامّ ، والصَّدَقة الوَافِيَة الوافرة الأقسام ، التى ما برِحتْ مماليك هذه الدَّوْلةِ الشريفة فى إنعامها العميم تتقلَّب ، والخَيْلُ السَّوَابِقُ بسعادتها الأبديَّة تُجْلَبُ وتُجْنَبُ وتُرْكَب : من تجهيز الحِصَانِ البَرْقِىّ بسَرْجِه ولجامِه وعُدَّته الكامله ، وشُمُولِ المملوك بالصَّدقات التى ما برِحتْ مُترادِفةً مُتَواصله ، ولعَبْدِ هذا البيْت الشريف شامله ، وقبَّلَ المملوكُ الأرضَ وقبَّلَ حَوافرَه ، واعتَدَّ

بهذه النِّعْمَةِ الباطنة والظَّاهِرَه؛ وأعدَّه ليومَىْ تجمُّلٍ وجِهَاد، ولِقَاءِ عَدُوٍّ وطِرَاد؛ والله تعالىٰ يُخَلِّدُ هذه الصَّدَقَاتِ الشريفةَ التى ما بَرِحَتْ تشمل القَرِيبَ والبَعِيد، والموَالِىَ من أولياء هذه الدَّوْلَةِ الشريفة والعَبِيد؛ طالع بذلك، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهــذه نسخة جَوَابٍ عن وُصُولِ خَيْل من الإنعام السُّلْطَانِىِّ ، من إنشاء الشيخ شِهَابِ الدِّين محمود الحَلَبِىِّ .

ويُنْهِى وُصُولَ ما أَنْعَمَ به من الخَيْـلِ التى وُجِدَ الخَيْرُ فى نوَاصِيها، وتُتَّخَذُ(1) صَهَوَاتُها حُصُونًا يُعْتَصَمُ فى الوَغىٰ بصَيَاصِيهَا .

فِمنْ أشْهَبَ غطَّاهُ النَّهار بحُلَّتِه، وأوطأه اللَّيْلُ علىٰ أَهِلَّتِه؛ يتَمَوَّجُ أَدِيمُهُ رِيًّا، ويَتَأَرَّجُ رَيًّا، ويقول مَن ٱسْتَقْبَلَه فى حُلِىِّ لجَامِه : هذا الفَجْرُ قد طلع بالثُّرَيَّا؛ إن ٱنْفَلَتَ(2) فى المَضَايِقِ ٱنْسَابَ ٱنْسِيَابَ الأَيْم، وإن ٱنفرجت المَسَالِكُ مَرَّ مُرُورَ الغَيْم؛ كَمْ أَبْصَرَ فَارِسُه يَوْمًا أبيضَ بطَلْعَتِه، وكَمْ عايَنَ [طَرْفُ](3) السِّنَانِ مَقَاتِلَ العَدُوِّ فى ظلام النَّقْعِ بنُورِ أَشِعَّتِه؛ لا يَسْتَنُّ دَاحِسٌ فى مِضْمَارِه، ولا تَطْمَعُ الغَبْرَاءُ فى شَقِّ غُبَارِه، ولا يَظْفَرُ لَاحِقٌ من لَحَاقِه بسِوىٰ آثاره؛ تُسَابِقُ يداه مَرَامِىَ طَرْفِهِ، ويُدْرِكُ شَوَارِدَ البُرُوقِ ثانيًا من [عِطْفِه](3) .

ومِنْ أَدْهَمَ حَالِكِ الأديم، حَالِى الشَّكِيم، له مُقْلَةُ غَانِيَــةٍ وسَالِفَةُ رِيم؛ قد ألبسه اللَّيْلُ بُرْدَه، وأَطْلَعَ بين عَيْنَيْه سَعْدَه؛ يَظُنُّ مَنْ نَظَر إلىٰ سَوَادِ طُرَّتِه، وبَيَاضِ حُجُولِه

(1) فى ’’حسن التوسل‘‘ (ص ٩٩) «وأدخرت» .

(2) فى ’’حسن التوسل‘‘ (ص ٩٩) إن «ٱلتفَّت المضايق» وهى أوضح .

(3) بياض بالأصل والتصحيح من ’’حسن التوسل‘‘ (ص ٩٩) .

وغُرَّته؛ أنه توهَّم النَّهارَ نهرًا فخاضه، وألقىٰ بين عينيه نُقْطةً من رَشاش تلك المخاضه؛ لَيِّنُ الأعطاف، سريعُ الانعطاف؛ يُقبِلُ كاللَّيْل، ويمرُّ كجُلْمُودِ [صخرٍ] (١) حطَّه السَّيْل؛ يكادُ يَسْبِقُ ظِلَّه، ومتىٰ جارىٰ السَّهْمَ إلىٰ غَرَضٍ بلغه قبْله.

ومن أشْقر: وَشَّاهُ البَرْقُ بلهَبه، وغشَّاهُ الأصيلُ بذَهبه؛ يتوجَّسُ (٢) مالديْه بدَقيقتيْن، وينفُضُ وفْرَتيه عن عَقيقتيْن، ويَنْزِلُ عِذارُ لجامه من سالِفَتيْه علىٰ شَقيقتيْن؛ له من الرَّاحِ لَوْنُها، ومن الرِّياح لِينُها؛ إن جرىٰ فبرْقٌ خفَق، وإن أسْرَعَ فهلالٌ علىٰ شفَق؛ لو أدْرَك أوائلُ حرْب بني وائِلٍ لم يكن للوَجيه وجاهه، ولا للنَّعامة نباهه، ولكان تَرْكُ إغارة [سكَاب لؤمًا وتحريمُ بيْعِها سفاهه] (٣) يرْكُضُ ماوجَدَ أرْضًا، وإذا اعترض به راكبُه بحرًا وثَبَ عرْضًا.

ومن كُميْتٍ نَهْد، كأنَّ راكبَه في مَهْد؛ عَنْدَميّ الإهاب، شَمَاليّ الذَّهاب؛ يزِلُّ [الغلام] (٤) الخفُّ عن صهَواته، وكأنَّ نغَمَ الغريض ومَعْبَد (٥) في لهَواته؛ قصير المَطا، فسيح (٦) الخُطا؛ إن رُكِبَ لصَيْدٍ قيَّدَ الأوابِد، وأعْجَلَ عن الوُثُوب الوحْشَ اللَّوابد؛ وإن جُنِّبَ إلىٰ حرْبٍ لم يَزْوَرَّ من وقْعِ القَنا بلَبانه، ولم يَشْكُ لو علِمَ الكلامَ بلِسانه، ولم يُرَدْ دون بُلُوغ الغاية -وهي ظَفَرُ راكبه- ثانيًا من عِنانه؛ وإن سار في سهْلٍ اختالَ بصاحِبه كالثَّمِل، وإن أصْعَدَ في جبَلٍ طار في عِقابِه كالعُقاب وانْحطَّ في مجاريه

(١) بياض بالأصل، والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩).

(٢) في "حسن التوسل" «يتوخش».

(٣) بياض بالأصل، والتصحيح من "حسن التوسل".

(٤) الزيادة عن "حسن التوسل".

(٥) في الأصل «ومقبل» والتصحيح عن "حسن التوسل".

(٦) في الأصل «سريع» والتصحيح عن " « ".

كالْوعل ؛ مَتىٰ ما تَرَقَّ العَيْنُ فيــه تَسَهَّل ، ومَتىٰ أراد البَرْقُ مُجارَاتَهُ قال له الوُقُوفُ عند قَدْرِهِ : ماأنْتَ هُناكَ فتمَهَّل .

ومن حَبَشِيٍّ أصْــفَرَ يَرُوقُ العَيْنَ ، ويَشُوقُ القَلْبَ(١) بمشابهته العَين ؛ كأن الشَّمْسَ ألْقَتْ عليه من أَشِعَّتِها جِلالَا ، وكأنَّه نفرَ من الدُّجىٰ فٱعْتَنَقَ منه عُرْفًا وٱعْتَلَقَ أحْجالَا ؛ ذى كَفَلٍ يَزِينُ سَرْجَه ، وذَيْلٍ يَسُدُّ إذا ٱستدبرته منــه فَرْجَه ؛ قد أطْلَعَتْه الرِّيَاضَةُ علىٰ مُرَادِ فارِسه ، وأغناه نُضارُ لَوْنِه ونَضارَتُه عن ترصيع قَلَائِده وتَوْشِيع مَلَابِسِه ؛ له من البَرْقِ خِفَّةُ وَطْئِــه وخَطْفُه ، ومن النَّسِيم لِينُ مُرُورِه(٢) ولُطْفُه ، ومن الرِّيح هَزِيزُها إذا ما جَرىٰ شَأْوَيْنِ وٱبْتَــلَّ عِطْفُه ؛ يطير بالغَمْز ، ويُدْرِكُ بالرِّيَاضَةِ مَواقِعَ الرَّمْز ، ويَعْدُو كَأَلِف الوَصْلِ فى ٱستغناء مِثْلِها عن الهَمْز .

ومِنْ أخْضَرَ حَكَاهُ من الرَّوْضِ تَفْوِيفُه ، ومن الوَشْيِ تَقْسِيمُه وتَأْلِيفُه ؛ قد كَسَاهُ النَّهارُ واللَّيْلُ حُلَّتَيْ وَقَارٍ وسَنًا ، وٱجتمع فيه من السَّوَادِ والبَيَاضِ ضِدَّانِ لَمَّا ٱسْتَجْمعا حَسُنَا ؛ ومنَحهُ البَازِى حُلَّةَ وَشْيِه ، ونَحَلَتْه الرِّيَاحُ ونَمَاتُها قُوَّةَ رَكْضِه وخِفَّةَ مَشْيِه ؛ يُعْطِيكَ أَفَانِينَ الجَرْى قبل سؤاله ، ولَمَّــا لم يُسَابِقْهُ شَىْءٌ من الخَيْلِ أغراه حُبُّ الظَّفَرِ بمُسابَقَةِ خيَالِه ؛ كأنه [تَفَارِيقُ](٣) شَيْبٍ فى سَوَادِ عِذَار ، أو طَلَائِــعُ فَجْر خالط بَيَاضُه الدُّجىٰ ، فمــا سَجىٰ ، ومَازَجَ ظَلَامُه النهار ، فما أنار ؛ يَخْتَالُ لمشاركة ٱسم الجَرْى بينه وبين المَــاءِ فى السَّيْرِ كالسَّيْل ، ويُدِلُّ بسَبْقِه علىٰ المعنى المُشْتَرَكِ بين البُرُوقِ اللَّوامِعِ

---

(١) فى الأصل « العين » والتصحيح عن ”حسن التوسل“ .

(٢) فى الأصل «طروقه» والتصحيح عن ” « “ .

(٣) الزيادة عن ”حسن التوسل“ .

وبين البَرْقِيَّة من الخَيْل ؛ ويكذب [المَانَوِيَّة](١) لتَوَلُّد اليُمْنِ فيه بين إضاءة النَّهار وظُلْمَةِ اللَّيْل .

ومِنْ أبْلَقَ ظَهْرُه حَرَم ، وجَرْيُه ضَرَم ؛ إن قصد غايَةً فوجود الفضاء بينه وبينها عَدَم ، وإن صُرِّف فى حَرْبٍ فعمَلُه ما يشاء البَنَانُ والعِنَانُ وفِعْلُه ما تُرِيد الكَفُّ والقَدَم ؛ قد طابق الحُسْنُ البَدِيعُ بين ضِدَّى لَوْنِه ، ودَلَّتْ على اجتماع النَّقِيضَيْنِ عِلَّةُ كَوْنِه ؛ وأشبه زَمَنَ الرَّبِيعِ باعتدال اللَّيْلِ فيه والنَّهار ، وأخذ وَصْفَ حُلَّتَى الدُّجَى فى حَالَتَيِ الإبدار والسِّرار ؛ لاتكِلُّ مَنَاكِبُه ، ولا يَضِلُّ فى حَجَرات الجُيُوش رَاكِبُه ، ولا يحتاج لَيْلُه المُشْرِقُ بمجاورة نَهارِه إلى أن تسترسِلَ فيه كَوَاكِبُه ؛ ولا يُجَارِيه الخَيَالُ فَضْلًا عن الخَيْل ، ولا يَمَلُّ السُّرى إلا إذا مَلَّه مُشْبِهَاه : النَّهارُ واللَّيْل ؛ ولا تَتَمَسَّكُ البُرُوق اللَّوامعُ من لَحَاقه بسِوى الأثَرِ فإن جهدت فبالذَّيْل ؛ فهو الأبْلَقُ الفَرْد ، والجَوَادُ الذى لُمحَارِبِه العَكْسُ وله الطَّرْد ؛ قد أغْنَتْه شُهْرَةُ نَوْعِهِ فى جِنْسِه عن الأوصاف ، وعدَلَ بالرِّياح عن مُبَارَاتِه لسُلُوكِها له فى الاعْتِراف جادَّة الإنصاف .

فترَقَّى الملوكُ إلى رُتَبِ العِزِّ من ظُهُورِها ، وأعدّها لِخطْبَةِ الجِنَانِ إذ الجِهَادُ عليها من أنْفَسِ مُهُورِها ؛ وكَلِف برُكُوبِها فكُلَّما أكمله عاد ، وكلما أَمَلَّه شَرِهَ إليه فلو أنَّه زَيْدُ الخَيْلِ(٢) لَمَا زاد ؛ ورأى من آدابِها مادَلَّ على أنها من أكْرَمِ الأصَائِل ، وعَلِمَ أنَّها لِيَوْمى سِلْمِه وحَرْبِه جُنَّةُ الصَّائِدِ وجُنَّةُ الصَّائِل(٣) ؛ وقَابَلَ إحْسَانَ مُهْدِيها(٤) بثنائه ودُعَائه ،

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) كذا فى "حسن التوسل" وفى الأصل «زبد البحر والخيل» .

(٣) كذا فى "حسن التوسل" وفى الاصل «جنة للصائل وجنة للصائل» .

(٤) فى الأصل «الصدقات الشريفة» والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وأعَدّهَا فى الجِهَادِ لمُقَـارَعَةِ أعداء الله وأعدائه [والله تعـالىٰ يَشْـكُر بِرَّه الذى أفرده فى النَّدىٰ بمَذَاهِبِه، وجَعَل الصَّافِنَاتِ الجِيَادَ من بعض مَوَاهبه] (١) .

المهيـــــــع الثـانى

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ به عن نُوَّاب السلطان والأتباع إلىٰ السلطان ٱبتـــداء)

وهو علىٰ أنواع كثيرة، نذكر منها ما يَسْتَضِىء به الكاتب فى مثله .

فمن ذلك ما يُكْتَبُ عن نائب كُلِّ مملكة إذا وصل إلىٰ مَحَلِّ وِلَايَته .

قد جرت العادة أن النائب إذا وصل إلىٰ مَمْلَكَتِه ومَقَرِّ وِلَايَتِه، كَتَب إلىٰ السُّلطان يُخْبِرُه بذلك و بمـا المملكة عليه .

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك، كُتِبَ بها عن نائب حَلَبَ فى معنىٰ ذلك، وهى:

يُقَبِّلُ الأرضَ ويُنْهِى أن المملوك وَصَلَ إلىٰ المملكة الفلانية المحروسه، وحَلَّ محَالَّها المَأْنُوسَه؛ التى شَمِلَتْه الصَّدَقَاتُ الشريفة بكَفَالَتِها، وأَهَّلَتْـهُ المَرَاحِمُ المُنِيفَةُ لإيَالَتِها؛ رَافِلًا فى حُلَلِ الإنعـام الشريف، مُتَفَيِّئًا ظِلَّ العِزِّ الوَرِيف؛ صُحْبَةَ فُلَان مُسَفِّرِه، ودخلها يوم كذا من شهر كذا لَابِسًا تَشْرِيفَه الشريف المُنْعَم به عَلَيْه، مَاشِيًا لِمَحَلِّ الكَرَامَةِ الذى سار إليـه؛ [بحضور مَنْ جَرت العـادة بحُضُوره] (٢) من قُضَاةِ القُضَاةِ والأمراء والحُجَّـاب، والعَسَاكِرِ المنصورة والأَصْحَاب؛ علىٰ أَجْمَـل العوائد، وأكمل

---

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) الزيادة مأخوذة من نسخة الكتّاب التالية وهى من سقط الناسخ .

القَوَاعِد، وقَبَّلَ الأرضَ ببَابِ القَلْعَة المنصوره، ودخل دَارَ العَدْلِ الشريف وَقُطُوفُ الأَمَانِىّ له مَهْصُوره، وقُرِئ بها بحَضْرَةِ أولياء الدَّوْلَة تَقْلِيدُه، وعَظَّمَ المَرَاسِمَ الشريفةَ تَأْيِيدُه، وتَصَدَّى لِمَا نَصَبَتْه له المراسم الشريفة من إنْصَافِ المظلوم، وتَنْفِيذِ كُلِّ مُهِمٍّ شريفٍ ومَرْسُوم، وتَصَفَّحَ أَحوال المملكه، وسَلَكَ كُلُّ أَحدٍ مَسْلَكَه، وٱستَجْلَبت الأدعيةُ لمولانا السلطان ، وٱجتهد فى حِيَاطَة البلاد ممَّن يمدّ إليه شَيْطَانُ المُفْسِدين بأَشْطَان، وٱنتظم له أمر المملكة بالمَهَابَةِ الشريفة أَحْسَنَ ٱنتظام ، وبلغ به كُلُّ وَلِىٍّ من قَهرِ العَدُوِّ غايَةَ المَرَام، وقد أعاد المَمْلُوكُ فلاناً مُسَفَّرَه إلىٰ خِدْمَةِ الأبواب الشريفة مُزَاحَ الأعذار، مُبَلَّغَ الأوطار، علىٰ العادة ـ طالع بذلك ـ ولا زال منه مَزِيدُ الشَّرَفِ والعُلُوّ، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة كتاب فى المعنىٰ إلىٰ الأبواب السلطانية عن نائب طَرَابُلُس، وهى :

يُقَبِّلُ الأرضَ وينهى أنَّه وصَلَ إلىٰ طَرَابُلُس المَحْرُوسَةِ مَغْمُورًا بالصَّدَقَات الشريفه ، والإنعامات المُطِيفَه ، صُحْبَةَ مملوك مولانا السلطان فلان خَلَّدَ اللهُ تعالىٰ مُلْكَه ، وأُلْبِسَ تَشْرِيفَه الشَّرِيف ، وقُرِئَ تقليدُه الشريفُ بدار العَدْلِ ، وقَبَّلَ الأرضَ مِرارًا علىٰ العادة . وتقدّم المملوكُ بالحَلِفِ الشَّرِيف علىٰ النُّسْخَة المُجَهَّزَة صُحْبَةَ المُشَار إليه من الأبواب الشريفة عظَّمَها الله تعالىٰ ، بحُضُورِ مَنْ جَرَت العادة بحُضُوره : من قُضَاةِ القُضَاة والأمراء ، وكَتَبَ خَطَّه عليها ، وٱنتصب المَمْلُوك لخَلَاصِ الحقوق ، وإزالة المَظَالم ، ونَشْرِ لِوَاءِ العَدْلِ الشريف ، لِيَنْتَصِفَ المَشْرُوفُ من الشريف ، ويَنْزَجِرَ القَوِىُّ عن الضَّعِيف ، وٱتِّبَاعِ الحَقِّ فى القَضَايَا ، وٱستجلاب الأدعية بدوام هذه الدَّوْلَة العادلة من الرَّعَايا ، ورَتَّبَ أمور الآزاك المنصورة علىٰ أَكْمَلِ عَادَةٍ وأَجْمَل

قاعدة؛ وقد عاد فلان إلى الأبواب الشريفة، شرَّفها الله تعالى وعظَّمها، ليُنْهِيَ بين يَدَى الأيادى المُعَظَّمة ماعَايَنَه من المملوك من إخْلَاصِه فى الطاعة الشريفة ومُغَالَاتِه . طالع بذلك . إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك مايكتب به فى التَّهْنِئَة بالخلافة :

أما التهنئة بالخلافة، فقد قال فى "مَوادّ البيان" : من الأَدَبِ المُسْتَفِيض تَرْفِيهُ الخلفاء عن الهَنَاءِ والعَزَاءِ، إكْبَارًا لهم وتعظيما . إلا أنَّنا رأينا ذَوِى الأخْطَار من القُدَماءِ قد شَافَهُوهُم بالعَزَاءِ مُسَلِّين، وبالهَنَاءِ دَاعِين؛ وربَّما دُفِعَ الكاتبُ إلى صُحْبَة رئيس يَقْتَضِى مَحَلُّه أن يُهَنِّئَ الخليفةَ بتجدّد النِّعَم لَدَيه، ويُعَزِّيَه لتطَرّق النوائب إليه؛ فاحْتِيجَ إلى أن يُرْسَم فى هَنَاءِ الخُلَفَاءِ وعَزَائِهم ما يُحْتَذَى عليه، عند الحاجة إلى آستعمال مِثْله .

وهذه نسخة تَهْنِئَةٍ بالخلافة، أوْرَدَها فى "مَوَادِّ البيان" وهى :

أوْلَى النِّعَم - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَ مولانا أمير المؤمنين - بأن تَنْطِقَ بها أَلْسُنُ الذَّاكِرِين يَضُوعُ عِطْرُها، وتَتَنَاقَلَها أفْوَاهُ الشَّاكِرِين يَفُوحُ نَشْرُها - نعمةُ إيلَائه فى خِلَافَتِه التى جعلها ذُخْرًا للأنام، وعِصْمَةً للإسلام، وحَاجِزًا بين الحَلَال والحَرَام؛ وقِوَامًا للائتلاف والاتِّفَاق، وزِمَامًا عن الاختلاف والافتراق؛ ونِظَامًا لصَلَاح الخَاصَّة والعامه، وسبيلا إلى آجْتِمَاع الكَلِمَة وسُكُون الأمه؛ وسَبَبًا لحَقْنِ الدِّمَاء، ودَعَةِ الدَّهْمَاء، ومُجَاهَدَة الأعداء؛ وإقامة الصَّلَوَات، وإيتاء الزَّكَوَات؛ والعَمَلِ بالفرائض والسُّنَن، وحَسْمِ البِدَع والفِتَن؛ وعَدْقِها بالأخْيَار وَرَثَةِ نَبِيِّه وعِتْرَتِه، والأبرار الطَّهَرَة من أَرُومَةِ رسوله وشَجَرَتِه؛ الَّذِين نَصَبَهم دُعَاةً إلى طاعته، وهُدَاةً لبَرِيَّتِه، وأعلامًا لشريعته؛ يأمرون بالمعروف ويأْتَمِرُون، ويَنْهَوْنَ عن المُنْكَر ويَنْتَهُون، ويَقْضُونَ

بالحَقِّ وبه يَعْـدِلُون ، وكُلَّمَا لَحِقَ منهم سَلَفٌ بمَقَرِّ أَوَّلِيَّتِه ، أقام خَلَفًا يَخْتَصُّه بانتخابه وتكْرِمَتِـــه .

والحمد لله الذى قَصَرَ خِلَافَتَه علىٰ أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم المَاضِىَ الَّذى كانت مُفَوَّضَةً إليه ، والآتِىَ الَّذى أُقِرَّتْ عليه ، وأنجز لهم ماوَعَدَهُم من إبقاء الإمامه ، فى عَقِبِهِم إلىٰ يَوْمِ القِيَامَه ، وٱسْتَخْلَصَ لهـا فى عَصْرِنَا هـذا وَلِيَّها الحَامِىَ لحقيقتها ، المُرَامِىَ عن حَوْزَتِها ، المُعِزَّ لكلمتها ، الرَّافِعَ لرايتها ، المُحَدِّدَ لحُدُودِها ، الحافظَ لعُقُودِها ، وسَـلَّمَ قوْسًا منه إلىٰ بَارِيهَـا ، ونَاطَهَا بكُفْئِهَا وكَافِيهَا ، وأفضىٰ إليـه بشَرَفِ الوِلَادَة والأُبُوَّه ، وميراثِ الإمامة والنُّبُوَّه ، وأَلَّفَ به بين القُلُوب الآبِيَه ، وجَمَع عليه النفوسَ النَّائِيَه ، وٱتَّفَقَت الآراء بعد تَبَايُنِها وتنافيها ، وتطابقت الأهْوَاء علىٰ ٱختلافها وتَعَادِيها ، وٱسْتَدَّتْ ثُلْمَةُ الدِّين بعد ٱنثغارِهَا ، وٱطْمَأَنَّت الدَّهْماء بعد نِفَارِهَا ، حَمْدًا يكون لنِعْمَتِه كِفاء ، ولمَوْهِبَتِه جزاء .

وخلافة الله وإن كانت الغَايَةَ التى لاتَنْزِع الهِمَمُ إليها ، ولا تَتَطَلَّع الأمانى عليها : لٱختصاص الله بها صَفْوَتَه من بَرِيَّتِه ، وخَالِصَتَه من أهل بَيْتِ نَبِيِّه وعِتْرَتِه ؛ فإنَّ أميرَ المؤمنين يَتَعَاظَمُ عن تَهْنِئَتِه بوُصُولها إليه ، وسُبُوغِ ملابسها عليه ؛ إذ لايَسُوغُ أن يُهَنَّأَ بإدراك ما كَتَبَ الله له أن يُدْرِكَهُ بأقلام الأقدار ، علىٰ صَفَحَاتِ اللَّيْلِ والنَّهار ؛ والعَبْدُ يسأل الله تعالىٰ ضَارِعًا إليه فى إنهاض أمير المؤمنين بمـا حَمَّـلَه وكَلَّفَه ، وتَوْفِيقَه فيما كَفَّلَه وٱستخلفه ، وأن يُمَكِّنَ له فى الأرض ، ويُعْلِىَ يَدَه بالبَسْطِ والقَبْض ، ويُمِدَّه بعِزِّ السلطان ، وعُلُوِّ الشَّان ، وظُهُور الأولياء ، وثُبُور الأعداء ، وإعْزَازِ الدِّين ، وٱبتزاز المُلْحِدِين ، وتَقْوِيَةِ يَدِه فى نُصْرَةِ الإسلام ، وسِـياسَة الأنام ، ويُعَرِّفَ رَعِيَّتَه من يُمْنِ دَوْلَتِه ، وسعادة وِلَايَتِه ، ما يَجْمَعُهم علىٰ الطاعة والمُوَافَقَه ، ويَعْصِمهم من المَعْصِيَة والمُفَارَقَه ،

*

ويُوَفِّقهم من الإخلاص فى مُوَالَاته، لمـا يُوَفِّر حَظَّهم من مَرْضَاته؛ ويجْعَل وِلَايَته هذه مقرونةً بٱنفساح المُدَّة والأجَل، وبُلُوغ المُنَىٰ والأمَل، وصَالِح القوْلِ والعمَل؛ ويُبَلِّغَه فى مملكته ودَوْلَتِه أفْضَل ما بَلَّغه خَلِيفَةً منْ خلفائه، ووَلِيًّا من أوليائه .

ومن ذلك ما يكتب فى البِشَارة بالفُتُوح .

قد جرت العـادة أن السلطان إذا وجه جيشا لِفَتح قَلْعَـةٍ أو قُطْرٍ من الأقطـار وحصل الفَتْحُ علىٰ يديه أن يكتب إلىٰ السـلطان مُبَشِّرًا بذلك الفَتْح، مُنَوِّهًا بقَدْره، معظما لأمره؛ وما كان فيه: من عزيز النَّصْر وقوة الظَّفَر .

[فمن مكاتبة فى البشارة بفتح حِصْنِ المَرْقَب، وهى] (١) :

قد أسـفر عن الفَتْحِ المُبِينِ صَبَاحُه، والتَّأْيِيـد وقد طَارَ بِه مُحَلِّقُ التباشـير نخفَقَ فى الخَافِقَيْن جَنَاحُه؛ والإسـلام وقد وَطِئَ هَامَةَ الكُفْرِ بقَدَمِه، والدِّينِ وقد عَزَّ بفَتَكَاتِ سَيْفِهِ المَنْصُورِ فأَنِفَ أن يكونَ الشِّرْكُ من خَدَمِه؛ والأفلاكِ وقد علمت أنَّه لهـذا الفَتْحِ القريب كان ٱجْتِمَاعُ كَوَاكِبِهـا، والأملاكِ وقد نَزَلَتْ لتَشْهَدَ أحْمَدَ النُّصْرَةِ البَـدْرِيَّة فى صُفُوفِها ومَوَاكِبِها؛ وحِصْنِ المَرْقَبِ وقد ألْقَتْ عليه المِلَّةُ الإسلامية أَشِعَّةَ سَعْدِهَا، وأنْجَزَتْ له الأيام من الشَّرَفِ بها آمَالَهُ بعد ماطال ٱنتظارُه لوَعْدِهَا، وأمَّنَتْه الأقدارُ التى ذَلَّلَتْه للإسلام أن تَطَاوَلَ إليه الحَوَادِثُ من بعـدها؛ وقد أحاطت العُلُوم بأن هـذا الحِصْنَ طَالَمَـا شَحَت الأحْلَام، أن تُخَيِّلَ فَتْحَهُ لِمَنْ سَلَفَ من الأنام، فما حَدَّثَتِ الملوكُ أنْفُسَها بقَصْدِه إلا وَثَنَاها الخَجَل، ولاخَطَبَتْه ببَذْلِ

---

(١) لم يذكر المؤلف عنوانا لهـذه المكاتبة، فذكرنا عنوانها بحسب ما يقتضيه المقام ليلتئم الكلام . وقد بحثنا عن هـذه المكاتبة فى الكتب التى بأيدينا فلم نهتد إليها، غير أن الشيخ شهاب الدين محمودا الحلبى قد ذكر فقرات منها فى "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

النَّفائس والنُّفُوس إلا وكانت من الحِرْمَانِ علىٰ ثِقَةٍ ومن مُعَاجَلةِ الأَجَلِ وَقْتَه علىٰ وَجَل ؛ وحَوْلَهُ من الجبـال كُلُّ شَاخٍ تَتَهيَّبُ عُقَابُ الجَوِّ قَطْعَ عِقَابِه ، وتَقِفُ الرِّياح خَدَمًا دون التَّوقُّلِ فى هِضَابِه ؛ [وحَوْلَهُ من](١) الأَوْدِيَةِ خَنَادِقُ لا تَعْلم منها الشُّهور إلا بأنصافها ، ولا تُعْرَفُ فيهـا الأَهِلَّة إلا بأوصافها ؛ وهو مع ذلك قد تَقَرَّطَ بالنُّجُوم ، وتَقَرْطَقَ بالغُيُوم ، وسَمَا فَرْعُه إلىٰ السَّماء ورَسَا أَصْلُه فى التُّخُوم ؛ تُخَالُ الشَّمسُ إذا عَلَتْ أنَّهـا تَتَنقَّلُ فى أبراجه ، ويَظُنُّ مَنْ سَمَا إلىٰ السُّهَا أنَّه ذُبَالَةٌ فى سِرَاجِه ؛ فكم من ذِى جُيُوشٍ قد مات بِغُصَّهْ ، وذِى سَطَوَاتٍ أَعْمَـلَ الحِيَلَ فَلَمْ يَفُزْ من نَظَرِه علىٰ البُعْد بِفُرْصَهْ ؛ لا يَعْلُوه من مُسَمَّى الطيرِ سوىٰ نَسْرِ الفَلَكِ ومِرْزَمِه ، ولا يَرْمُقُ مُتَبَرِّجَاتِ أبراجه غَيْرُ عَيْنِ شَمْسِه والمُقَلِ التى تَطْرِفُ من أَنْجُمِه ؛ وقد كان نُصِبَ عليه من المجانيق ما سِهَامُه أَنْفَذُ من سِهَامِ الجُفُون ، وخَطَرَاتُه أَسْرَعُ من لَحَظَاتِ العُيُون ؛ لا يُخَاطَبُ إلا بِوَسَاطَة رُسُلِه بضمير الطِّلَاب ، ولا يُرىٰ لِسَانُ سَهْمِه إلا كما تُرىٰ خَطَفَاتُ البَرْقِ إذَا تَأَلَّقَ فى عُلُوِّ السَّحَاب ؛ فنَزَلَتْ عليـه الجُيُوش نُزُول القَضَاء ، وصَدَمَتْه بِهِمَمِهَا التى تستعير منها الصَّوارِمُ سُرْعَةَ المَضَاء ورَوْعَةَ الأنْتِضَاء ؛ فنَظَرَتْ منه حِصْنًا قد زَرَّرَ عليه الجَوُّ جَيْبَ غَمَامِه ، وٱفْتَرَّ ثَغْرُه كُلَّمَـا جَذَبَ عنه البَرْقُ فَاضِلَ لِثَـامِه ؛ فتذَلَّلَتْ صِعَابُه ، وسَهُلَت عِقَابُه ، ورُكِزَتْ للجنوبات(؟) فى سَفْحِه وَطالَمَا رَامَتِ الطَّيْرُ أدْنَاه فلم تَقْوَ عليه القَوادِمُ ، وكم هَمَّتِ العَوَاصِفُ بتَنَسُّم رُبَاه فأصبحت مُخَلَّفَةً تبكى عليها الغمائمِ ؛ فضُرِبَ بينها وبين الحِصْنِ بسُورٍ بَاطِنُه فيه الرَّحْمَةُ وظَاهِرُه من قِبَلِه العَذَاب ، ونُصِبَتْ فوقه من الأَسِنَّةِ ثُغُور بَرَّاقَةُ الثَّنَايَا ولٰكنَّها غيرِ عِذَاب ؛ فعَادَ ذلك السَّفْحُ مُصَفَّحًا بِصِفَاحِها ،

(١) فى الأصل «ففى الأدوية» والتصحيح من ”حسن التوسل“ .

مُشْرِقًا بأعلام أَسِنَّة رِمَاحِها، فأرْسَلَت إلىٰ أرْجَائِها مَاأَرْبىٰ علىٰ الغَمَائِم، وزاد فى نفحه (١) علىٰ التَّمَـائِم .

وكَانَ بِهَا مِثْلُ الجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * ومِنْ جُثَثِ القَتْلىٰ عَلَيْهَا تَمَائِمُ!

ونُصِبَتْ عليها المَجَانِيقُ فلم تَرْعَ حَقَّ جِنْسِها، وسَطَتْ عليها فأصْبَحَ غَدُها فى التَّحامُلِ أبْعَدَ من أمْسِها، وٱستنهضتها العِدَا فأعْلَمَتْهم أنَّها لا تُطِيقُ الدِّفَاعَ عن غيرها بعد أن عَجَزَتْ عن نَفْسِها، وبسطت أَنْفَهَا أَمَارَةً علىٰ الإذعان، ورَفَعتْ أصابِعَهَا: إما إجابَةً أن تَذِلَّ للتَّشَهُّد وإما إنَابَةً إلىٰ طَلَب الأَمَان، نخاف العِدَا من ظُهُور هذا الٱستظهار، وعَلِمُوا أن المَجَانيق تَحُولُ لاتثبت لها الإنَاثُ التى عَرِيَتْ من النَّفْع بأيديهم نٱستعانوا عليهن مَعَ العِدَا بطُولِ الجِدَار، فعند ذلك غَدَتْ تَكْمُنُ كُمُون الأساوِدِ وتَثِبُ وُثُوبَ الأُسُود، وتُبَارِى بها الحُصُونُ السَّمَاءَ فكُلَّما قَذَفَتْ هـذه بكواكبها النَّيِّرة قَذَفَ هذا بكَوَاكِبِه السُّـود، ولم يُكْسَرْ لهم مَنْجَنِيقٌ إلّا ونَصبوا آخرَ بمَكَانِه، ولاقُطِعَتْ لأحَدٍ إصْبَعٌ إلاوصل الآخرُ ببنَانِه، فظَلَّت تحارَبُ مِثْلَ الكُمَاة، وتَتَحامَلُ تَحَامُلَ الرُّماة، حتّى لَقِحَتْ وفَسَحَتْ للرِّضَا مَجَالًا، ومَالَتْ ومِيلَ فيها وكذلك الحَرْبُ تكون سِجَالًا .

هذا والنُّقُوبُ قد دَبَّتْ فى باطنه دَبِيبَ السِّقَام، وتَمَشَّتْ فى مَفَاصِـلِه كما تتمشّى فى مَفَاصِـلِ شَارِبِها المُدَام، وحَشَتْ أَضَالِعَه نَارًا تُشْبِهُ نَارَ الهَوىٰ: تُحْرِقُ الأحشاءَ ولا يَبْدُو لها ضِرَام، قد داخلت مرسـلة الوَجَل، فتحققوا حُلُولَ الأَجَل، وعَلِمُوا أن هذا الفَتْحَ الذى تَمَادَتْ عليه الأيام قد جاء يَسْعىٰ إلىٰ مابين يدَيْه علىٰ عَجَل، وأيقَنَ الحِصْنُ بالٱنتظام فى سِلْكِ الممالك الشريفة فكاد يُرْقِصُه بمَنْ فيه فَرْطُ الجَذَل، وزاد

(١) كذا بالأصل ولعله فى نفعه .

شَوْقُه إلىٰ التشريف ويا صبابةً لوسمها وآسمها مشتاق لكنهم أظهروا الجَلَد ، وأخْفَوْا ضِرَامَ نَارِ الجَزعِ وكَيْف تَخْفىٰ وقْدَ وقْدْ ؛ وتَدَفَّقَتْ إليهـم الجُيُوش فملأت الأُفُق ، وأحَاطَتْ بهم إحاطَةَ الطَّوْقِ بالعُنُق ؛ ونهضت إليهم مُسْتَمِدَّةً من عزَماتِ سُلْطَانِها ، مُسْتَعِدَّةً لآنتزاع أرواح العِدَا علىٰ يَدَيْها من أوْطَانِها ؛ فانقطعت بهـم الظُّنُون ، ودارت عليهـم رَحىٰ المَنُون ، وأمطرت عليهم المَجَانِيقُ أحْجَـارَهَا ﴿فوقَعَ الحَقُّ وبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾ وحَطَّتْ بسَاحَتِها عِقْبَانُ تِلْكَ الأحجار ، فهدَمَتِ العَمَائرَ والأعْمَار ، وأجْرَتْ فى أرجائها أنهار الدِّمَاء فهَلَكُوا بالسَّيْف والنَّبْلِ والنَّار ؛ وتحكّمت هذه الثلاثة فى أهل التَّثْلِيثِ فبُدِّلُوا بالخوف من أمْنِهِم ، وهَرَبُوا منها إلىٰ مَخَايل حِصْنِهم .

ولمـا ركب الأوّلُ للزَّحْفِ فى جُيُوشِـه التى كَاثَرَتِ البَحْرَ بأمواجه ، تزلزل الحِصْنُ لِشدَّةِ رَكْضه ، وتَضَعْضَعَ من خَوْفِ عِصْيَانه فلَحِقَتْ سَمَاؤه بأرْضه ؛ وتَحَلَّلَت قَوَاعِدُ ماشُيِّد من أركانه فانحلت ، وألْقَتِ الأرْضُ ما فيها وتَخَلَّتْ ؛ ومَشَتِ النَّار من تحتهم وهم لا يَشْـعُرُون ، ونُفِخَ فى الصُّورِ بل فى السُّـورِ فإذا هم قِيَامٌ يَنْظُرُون ؛ وما كان إلا أن قابلت العساكرُ ذلك البُرْجَ حَتّىٰ أهوىٰ يَلْثِمُ التُّراب ، وتأدَّبَ بآداب الطـاعة فَخَرَّ راكعًا وأنَاب ؛ فهاجمتهم الجُيُوش مُهَاجَمَةَ الحُتُوف ، وأسرعت المَضَاء والآنتضاءَ فلم تَدْرِ العِدَا : أهُمْ أم الَّذين فى أيمـانهم السُّيُوف التى تَسْبِقُ العَـذَل . وثَبَتَ منهم من لم يجِد وراءه مجالًا فَلَجَئُوا إلىٰ الأمَان ، وتَمَسَّـك دَنِيءُ كُفْرهم بعِزَّة الإيمـان ، وتَشَبَّثُوا بسـاحل العَفْوِ حتّىٰ ظَنُّوا أنَّهُـم أُحِيطَ بهم وجَاءَهُم المَوْج من كُلِّ مَكَان ؛ وسألونا أن يكونوا لنا من جُمْلَةِ الصَّنَائـع ، وتَضَرَّعوا فى أن نَجْعَلَ أرْوَاحَهم لسُيُوفنا من جملة الودائـع فنتصدّق عليهم بأرواحهم كَرَمًا ، وظَلُّوا علىٰ مَعْنىٰ الحديث النَّبَوِيّ :

يَرَوْنَ المَمَات يَقظَةً والحَيَاةَ حُلمًا وأطلقتهم اليد التى لايَخيبُ لديْها الآمل، وأعْتَقَتْهم اليُمْنىٰ التى فِجَاجُ الأرض فى قَبْضَتِها : فمتىٰ تشاء تَجْمَعُ عليهم الأنامِل؛ وخَرَجُوا بنُفُوسٍ قد تجرّدت حَتّى من الأجسام، ومُقَلٍ طَلَّقَتِ الكَرا خَوْفاً من الصَّـوارِمِ التى تَسُلُّها عليهم الأحْلَام؛ وسُطِّرَتْ والمدينةُ قدتُسُنِّمَ أعلاها، وشِعَارُ الإيمان قد جَرَّدها من لِبَاسِ الكُفْر وأعراها؛ والأعلام قد سَلَكَتْ إلىٰ ذلك الحِصْـنِ أعلىٰ مَرْقىٰ، والسَّـعَادَةُ قد بَدَّلَت بِيَعَهُ مَسَاجِدَ ومَحَارِيبَهُ قِبْلَةً وكانت شَرْقَا؛ فأصبح يَرْفُلُ فى حُلَلِ الإيمان، وأذْعَنَ بالطاعة فأخرس جَرْسَ الجَرَسِ به صَوْتُ الأذَان، إن شاء الله تعالىٰ .

[ومن ذلك] مايكتب به فى التَّعَازِى إلىٰ الخلفاء .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ التَّهْنِئَة بوِلَايَةِ الخلافة، أنه كما ينبغى أن لايُهَنَّأَ الخليفة بالخلافة إعظاما، فكذلك ينبغى أن لايُعَزّىٰ فى مُصَابِه . إلا أنه رُبَّما دَعَتْ ضرورةُ الكاتبَ إلىٰ ذلك : لإكرام بعض أخصاء الخليفة إياه بالكتابة بذلك إلىٰ الخليفة . ولايخفىٰ أن الحال فى ذلك تختلف باختلاف المعزّى : من وَالِدٍ أو وَلَدٍ أو غيرهما .

[وهذه نسخة مكاتبة فى معنىٰ ذلك] (١) ذكرها فى "مَوَادِّ البيان" وهى :

أما بَعْدُ، فإن الله تعـالىٰ جعل خِلَافته لخَلْقِه قِوَامًا، ولبَرِيَّتِهِ نِظَامًا؛ وجعـل له خُلَفَاء يَدَّخِرُهم لميراثها، ويَخْتَصُّهم بتُرَاثِها؛ فإذا انقضت مدّة مَاضِيهم : لِمَـا يريده الله من استدنائه إلىٰ مَقَرّ خُلَصَائِه، نَقَلَها إلىٰ نُورِه باصطناعه واصطفائه .

والحمـد لله الذى قَصَرَ خِلَافَتَه علىٰ أمير المؤمنين وآبائه، وجعـل منهم زَعِيمَهُم المَـاضِىَ الذى كانت بيديه مَوَارِيثُها، والآتِىَ الذى صار إليه [تُرَاثُها] .

---

(١) بياض بالأصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

والحمد لله الذى ختم لأمير المؤمنين المُنْتَقِل إلىٰ دار الكَرَامة بأفضل الخَاتِمَه، وأحْسَنَ له الجَزاءَ عن السَّعْيِ فى الأمَّه، وأنْعَمَ بآستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خَلِيقته، وحِيَاطَة شريعته، وحِمَايَة بِلاده، وسِيَاسَة عِباده، ولِوِرَاثَة تُرَاثِ آبائه وأجداده، وجعل المَاضِى منهم مَرْضِيًّا عنه، والآتِى مَرْضِيًّا به، وأعْتَدَت الرَّعِيَّةُ من عَدْلِ أمير المؤمنين ما جَبَر كَسْرَها فى خَلِيفَتِه، وصَبْرَهَا فى رَزِيَّتِهِ، وهو المسئول أن يُلْهِمَه علىٰ المصيبة فى سَلَفِه الطاهر صَبْرًا، وعلىٰ ما أخلفه عليه فى تأهيله لخلافته التى لا كِفَاءَ لها شُكْرًا، بمَنِّه وفَضْلِه إن شاء الله تعالىٰ.

⁂

[وهذه نسخة كتاب فى التَّعْزِيَة أيضا](1) وهى :

إنَّ الله خصَّ أميرَ المؤمنين بما هو أهْلُه من خِلافَتِه، وعَظَّمَ مَحَلَّه بما نَصَبه له من إمامة بَرِيَّتِه، وجعله عِمَادًا لأهل الإسلام تَجْتَمِعُ عليه أهْوَاؤُهم، وتَسْكُنُ إليه أمْلاَؤُهم، ويصلحُ به دِينُهم ودُنْيَاهم، ويستقيم به أمْرُ أُولاَهُم وأُخْرَاهم، فإذا أسبغ نِعْمَةً من نِعَمِهِ عليه، وظَاهَرَ مَوْهِبَةً من مَوَاهِبِه لَدَيْه، شَرِكُوه فيها، ونَهَضُوا معه علىٰ الشُّكْر عليها، وإذا آبتلاه ببَلِيَّه، وآمْتَحَنَ صَبْرَه برَزِيَّه، أخذوا بالنَّصيب العظيم من الحَادِث، والحَظِّ الجَسِيم من الكَارِث، [و] ما أفرَدُوه بثَوابِ الله فيها وما جعله جَزاءً من الأَجْرِ عليها.

وإن الله تعالىٰ كان أعَارَ أمير المؤمنين من وَلَدِه فلان ـ رضى الله عنه ـ عَارِيَةً من عَوَارِيه، وبَلَّغَه من الآستمتاع بها ما آحْتَسَبَ من أمَانِيه، ثم آسترجعها لِيُثَقِّلَ بها مِيزَانَه، ويُضَاعِفَ إحسانه، ويجعلها له ذُخْرًا، ونُورًا يَسْعىٰ بين يَدَيْه وأجْرا، فعَظُمَ

(1) بياض بالاصل، والتصحيح يقتضيه المقام.

بذلك المُصَابُ علىٰ رعيَّته، وكَبُرَ الرُّزْءُ على أهل دَعْوَته، لما كانوا يرجونه من سُكُون القُلُوب، ونَقْعِ الخُطُوب، وٱستقرارِ قَوَاعِدِ الخلَافَه، وشُمُول الرَّحْمَة والرَّافه؛ وقد حصل أميرالمؤمنين علىٰ نِعَمٍ كثيرة من مَوْهِبَتِـه وثَوابِه فى ٱستعادته، وحَصَلَ كَافَّةَ خاصَّته علىٰ القَلَقِ لفَقْدِه، والأسىٰ من بعده؛ وقد جعله الله تعالىٰ صَلَاحَ كُلِّ فَسَاد، وثِقَافَ كُلِّ مَيَّاد؛ ومَهْبِطَ كُلِّ رَحْمَــه، وطَرِيقَ كُلِّ نِعْمَه؛ وهو خليق بأن يُظْهِرَ من صَـبْرِه، ورِضَاهُ بقضاء الله وتسليمه لأَمْرِه؛ مايَبْعَثُ علىٰ التَّأَسِّي به، والتَّأَدُّب بأَدَبِه؛ والله تعالىٰ يُحْسِنُ لأميرالمؤمنين الخَلَف، ويُعَوِّضُهُ أَحْسَنَ العِوَضِ فى المُؤْتَنَف؛ ويُوَفِّرُ حَظَّهُ من الثَّوَاب، ويُعْظِمُ له الأجرعلىٰ المُصَاب؛ ويُرِيهِ فى أوليائه وأحبابه، أعظم مَحَابِّه وغَايَةَ آرابه؛ وينقل المَنْقُول إلىٰ إيوان الكَرَامَة والاحتفاء، بأفاضل الأجداد والآباء؛ بفَضْلِهِ ورَحْمَتِه، إن شاء الله تعالىٰ.

[وهــذه] نسخة كتاب: كُتِبَ به إلىٰ الأبواب السلطانية عنــد فَتْحِ (آيَاس) قاعدةِ بلاد الأَرْمَنِ وٱنتزاعها من أيديهم (١)، وهى:

يُقَبِّلُ الأرضَ ويُنْهِى أن لَيْلَةَ الانتظار أَطْلَعَتْ صَبَاحَهَا، ومَوَاعِيدَ الآمَال بعثت علىٰ يَدِ الإقبال نَجَاحَهَا؛ والعَسَاكِرَ المنصورةَ جَرَّدَتْ رَابِـعَ رَبِيـعِ الأوّل بمدينة آيَاسَ صِفَاحَهَا، وأوردت إلىٰ الصُّدُورِ رِمَاحَهَا؛ فلم يَكُنْ إلا كَلَمْحِ البَصَر، ولِسَانُ صِدْقِ القِتالِ قَائِلٌ: بأنَّ الجَيْشَ النَّاصِرِيَّ قد ٱنتصر، وٱنقضىٰ ذلك النَّهار، بإيقاد نار حَرْبِ الحِصَار، علىٰ أَبْرَاجٍ وأَسْوَار، أُدِيرَتْ علىٰ المِينَا كما أُدِيرَ المِعْصَمُ علىٰ السِّوَار؛ فما أشرق

(١) كان الأولىٰ ذكر هذه المكاتبة مع المكاتبات التى ذكرت فى البشارة بالفتوح، إذ لامناسبة فى ذكرها هنا، تأمل.

صَباحُ الصِّفَاحِ ولَاح ، إلّا والأعلام النَّاصِريَّة على قُلَّةِ القَلْعَةِ مائِسَةُ الأعطاف من الارْتِيَاح ، مُعْلِنَةٌ أَلْسِنَتُها بحَيَّ على الفَلاح وحَيَّ على النَّجاح ، وعِزُّ الإسلام يُقابِلُ ذُلَّ الكُفْر : بهذا النَّصْرُ وهذا الافْتِتَاح ، وجَمْعُ الأرْمَنِ المَلَا تفرقَ ما بين قَتْلٍ وأَسْرٍ وانْتِزَاح ، ولَعِبَتْ أيدى النِّيران فى القَلْعَةِ وجَوانِبِها ، وتفرَّقت من الأسوار أعضاء مَنا كِبِها ، ونَطَقَ بالأقْدَارِ لِسَانُ النَّار : هٰذِى مَنَازِلُ أهْلِ النَّار فى النَّار .

ثم انتقلت المُحاصَرَةُ إلى قَلْعَةِ البَحْر ، وضَمَّ الأرْمَنَ المَلَا إليها سَيْفُ القُدْرَةِ والقَهْر ، وهذه القَلْعَةُ عَرُوسٌ بِكْرٌ فى سماء العِزّ شاهِقَه ، لم يَسْبِقْ لأحَدٍ من الملوك الأوائِلِ إلى خِطْبَتِها سابِقَه ، قد شَمَخَتْ بأنفِها ، ونأت بعِطْفِها ، وتَاهَتْ على وامِقِها ، وغَضَّتْ عَيْنَ رَامِقِها ، فهى فى عُقابِ لَوحِ الجوِّ كالطائر ، وسَوَّرَها البَحْرُ والحَجَر فلا يكاد يَصِلُ إلى وَكْرِها النَّاظِر ، وقد أُوثِقَتْ بحَلَقَاتِ الحَدِيد ، وقُيِّدَتْ كأنّها عاصِيَةٌ تُساقُ بالأصفاد إلى يَوْمِ الوَعِيد ، فأرْسَل عليها المَنْجَنِيقُ عُقَابَه ، وأَعْلَقَ بها ظُفْرَه ونَابَه ، فكشف من شُرُفَاتِها شَنَبَ ثَغْرِها ، وسَقَاهَا بأكُفِّ أَسْهُمِه كُئُوسَ حِجَارَةٍ فتَمَايَلَتْ من شِدَّةِ سُكْرِها ، وفَضَّ من أبراجها الصَّنادِيقَ المُقْفَلَه ، وفَصَّلَ من أسوارها الأعضاء المُتَّصِلَه ، فتَزَلْزَلَ عَمَدُهَا ، وزِيلَ عن مكانه جَلْمَدُها ، وعلت الأيْدى المُرَامِيَة بها ، وغُلَّت الأيدى المُحامِيَةُ عنها ، واشْتَدَّ مَرَضُها من حرارة وَهَجِ الحِصَار ، وضَعُفَتْ قُوَّتُها عن مقاومة تلك الأحجار ، ولم يَبْقَ على سُورِها من يَفْتَحُ له جَفْنًا ، وشَنَّ المَنْجَنِيقُ عليها غارَتَه إلى أنْ صارَتْ شَنًّا ، فأرْسَلَ إليها من سَماءِ غَضَبِه رُجُومًا ، ووَالَى ذلك عليها سَبْعَ ليال وثَمَانِيَةَ أيّام حُسُومًا ، فبادرت إلى الطّاعَةِ واستسلمت ، وكَرَّرَ نَحْوَها رُكُوعه فسَجَدت ، ورَكِبَتْ الجيوشُ المنصورة عِوَضَ الصَّافِنَاتِ اللُّجَج ، وسَمَحَتْ فى سبيل الله عَزَّ وجَلَّ بالمُهَج ، فعند ذلك سَارَعَ أهْلُها إلى التَّعَلُّق بأسباب الهَرَب ،

وكان خَرَابُ قَلْعَةِ المِينَا هٰذِى لخَرَابِ قَلْعَتِهِم من الحرب، وأحرقوا كَبِدَها من أيديهم بنـار الغَضَب، وٱنْتَزَحُوا منها لَيْلا، وجَرُّوا من الهَزِيمَةِ ذَيْلًا، وتَسَلَّمَهَا المسلمون، وتحسَّر عليها الحَسْرَةَ الكُبْرىٰ الكَافِرُون، وهُدِمَتْ حَجرًا حَجرا، وصَافَحَتْ بِجَبْهَتِهَا وَجْهَ الثَّرىٰ، وأُعْدِمَتْ من الوُجُود عَيْنًا وأَثَرا، فما أَعْجَبَ هذا الفُتُوح وأغْرَب!، وما أحلىٰ ذِكْرَه فِي الأَفْوَاه وما أَعْذَب!!، وما أَلَذَّ حَدِيثَه فى الأسماع وما أَطْرَب!!، وما أَسْعَدَ هذا الجَيْشَ النَّاصِرِىّ وما أَنْجَب!!!.

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ هٰذا النَّصْرُ والظَّفَرُ * هذا الفُتُوحُ الَّذى قد كان يُنْتَظَرُ!
فَتْحٌ مُبِينٌ ونَصْرٌ جَلَّ مَوْقِعُه * سَارَتْ بِهِ ولَه الأملاكُ والبَشَرُ!
عَجَائِبٌ ظهرت فى فَتْحِهِ بَهَرَتْ * لم تَأْتِ أَمْثَالَهَا الأيام والسِّيَرُ!
لو كان فى زَمَنٍ ماضٍ به نَزَلَتْ * فى وَصْفِ وَقْعَتِهِ الآيَاتُ والسُّوَرُ!
هٰذِى أَيَاسُ الَّتِى قد عَزّ جانِبُها * وعَزّ خَاطِبُهَا حَتّى أتىٰ القَدَرُ!
جاءت إليها جُيُوشٌ كَمْ بها أُسُدٌ * بِيضُ الصِّفَاحِ لها الأَنْيَابُ والظُّفُرُ
جَيْشٌ لُهَامٌ كَبَحْرٍ زَاخِرٍ لَجِبٍ * إذا سَرىٰ لا يُرىٰ شَمْسٌ ولا قَمَرُ!
يَسِيرُ بالنَّصْرِ أَنَّى سار مُتَّجِهًا * ما زال يَقْدُمُه التَّأْيِيدُ والظَّفَرُ.
جَيْشٌ له اللهُ والأملاكُ نَاصِرَةٌ، * مَلِيكُه نَاصِرٌ للدِّين مُنْتَصِرُ!
يَوْمَ الخَمِيسِ رأيتُ الخَيْلَ حَامِلَةً * علىٰ رُءُوس عُدَاةٍ هَامُهَا أُكَرُ،
وقَلْعَةُ البَحْرِ كانت آيَةً لَهُمُ * فَعَنْ يَسِيرٍ فأَضْحَتْ للورىٰ عِبَرًا!
كانت بأُفْقِ سَمَاءِ العِزِّ شَاهِقَةً * أَبْرَاجُهَا بَاسِقَاتٌ خَرْتُهَا خَطِرُ!

فَرَكِبَ المُسْلِمُونَ البَحْرَ بَاذِلَةً * أرْوَاحَهَا فى سبيـــل اللهِ تَدَّخِرُ،
لم يَبْقَ منهـــم أَميرٌ لَا ولَا مَلِكٌ * يَأْوِى مَقَرًّا إلىٰ أن مُدَّتِ الجُسُرُ!
وعَجَّـلَ اللهُ بالفَتْحِ المُبِينِ لَهُم * هٰـذَا الفُتُوحُ الَّذى تُوفِىٰ له النُّذُرُ
يَرْضىٰ به اللهُ والإسْـلَامُ قَاطِبَةً * وشَاهِدُ القَوْلِ فيه العَيْنُ والأَثَرُ!

تم الجزء الثـامن . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء التـاسع

وأوّله القســـم الثـانى

(من مقاصـــد المكاتبـات الإخوانيات)

والحمد لله رَبِّ العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خَاتَم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـــه والتـابعين ، وسلامُه

وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل

فهـــــرس

الجـــــزء الثامن

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

(تم فهرس الجـــزء الثامن من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجـــزء التاسع

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء التاسع

طبـع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثانى

من مقاصد المكاتَبات، الإخوانيَّاتُ

(مما يَكْتُب به الرئيسُ إلىٰ المرءوس والمرءوسُ إلىٰ الرئيس والنظيرُ إلىٰ النظير)

قال فى "موادّ البيان": ولها مَوْقِع خَطِير من حيثُ تشترِك الكافَّةُ فى الحاجة إليها. قال: والكاتبُ إذا كان ماهرا، أغربَ معانِيَهَا، ولَطَّف مبانِيَهَا، وتسهَّلَ له فيها مالايكادُ أن يتَسَهَّل فى الكُتُب التى لها أمثلةٌ ورسومٌ لاتتغيَّر ولا تُجاوَزُ، وهى علىٰ سبعةَ عشرَ نوعا:

النوع الأوّل

(التَّهانِى)

قال فى "موادّ البيان": كُتُب التَّهانِى من الكُتُب التى تظهَرُ فيها مقاديرُ أفهامِ الكُتَّاب، ومنازِلُهم من الصِّناعة، ومواقِعُهم من البلاغة. وهى من ضُروب الكتابة الجليلةِ النفيسةِ، لما فى التهنئة البليغةِ من الإفصاح بقَدْر النعمة، والإبانةِ عن مَوْقِع المَوْهِبة، وتَضاعُفِ السُّرور بالعطيَّة. وأغراضُها ومعانيها متشعِّبة لاتقف عندَ حدّ، وإنما نذكر منها الأصولَ التى تفرَّعتْ منها فروعٌ رجعَتْ إليها، وحُمِلتْ عليها.

قال : ويجب على الكاتب أن يراعِىَ فيها مرتَبَةَ المكتوبِ إليه والمكتوبِ عنه فى الرسالة اللائقةِ بهما ممـا لا يُتَسَامَحُ بمثله .

ثم التهانى على أحَدَ عشَرَ ضربا :

الضـــــرب الأوّل

(التهنئةُ بالوِلَايات ، وهى على تسعةِ أصناف)

الصنف الأوّل ـــ التهنئةُ بوِلَاية الوِزَارة :

قد تقدّم فى المقالةِ الثانيةِ فى الكلام على ترتيب المملكةِ أنَّ الوِزارةَ كانت فى الزمن المتقدّمِ هى أرفَعُ وظائفِ المملكة وأعلاها رُتْبةً ، وأنَّها الرتبةُ الثانية بعــدَ الخلَافة . وكانتْ فى زمن الخُلَفاء تكادُ أنْ تكونَ كالسلطنة الآنَ ، فهى(١) من الأتباع ومَنْ فى معناهم على نحو ما كانتْ فى الزَّمَن المتقــدّم بينَ الرُّؤَساء والأكابر ، ومن الرؤساء والأكابر بحسبِ ماتقتضيه رتبةُ المهنَّإِ .

وهذه نُسَخُ تهانٍ من ذلك على ما كان عليه الحال فى الزَّمَن القدِيم .

تهنئةٌ بوِزَارة : من إنشاء أبى الحسين بن سَعْد ، كَتَب بها إلى الوزير محمدِ بن القاسم بن عُبَيد رحمه الله ، وهى :

مَنْ كانتِ النعمةُ ـ أيد اللهُ الوزيرَ ـ نافرةً عنه وبِفنائِه غَرِيبة ، فهى تَأْوِى من الوزير إلى مَثْوًى معهود ، وكَنَفٍ محمود ، وتُجاوِرُ منــه من يُوَفِّيها حقَّها ، ويُقابِلها بحُسْن الصُّحْبة لها ، ويَجْرِى فى الشكر لمـا يُوَلَّاه ، والرِّعاية لمـا يُسْتَرْعاه ، على شاكلةٍ مضى عليها السَّلَفُ من أهله ، ونشأ فى مثلِها الخَلَف ، مقتدِيًا بالأوّل الآخِر ، وبالماضى

(١) أى التهنئة من الأتباع الخ .

الغابِر، تَشَابُهاً فى كَرَم الأفعـال ، ورِعايةً لحُقُوق الآمال ، وآعتماداً للرأفة والرَّحْمه ، وعُمُوما بالإنْصاف والمَعْدِله ، إلىٰ ما خَصَّ اللهُ به أهلَ البيت رضىَ اللهُ عن المـاضين منهم وأقام عِزَّ الباقِين وحِراستَهم : من العلم بالسياسة والدِّرَاية(١) بتدبير المَمْلكة ورِعاية الأُمَّة ، والهداية فيهم لطُرُق الحَيْطة ونَهْج المصلحة .

والحمدُ لله علىٰ ماخَصَّ به الوزيرَ من فضـله الذى رفع قَدْرَه فيه عن مُساماة ومشاكلة المُقَادر(٢) والشَّبيه ، وجعله فيما حباه به نَسِيجَ وَحْده ، وقَرِيعَ دَهْرِه ، وجمَعَ له من مَوَاهِب الخيرِ ، وخَصائِص الفَضْل ما أبانَ به مَوْقِعَه فى الدِّين ، وأعطاه معه الوِلايَةَ من جميع المسلِمين .

والحمدُ لله حمدًا مجَدَّدا علىٰ ما جَدّده له من رَأْيِ أمير المؤمنين وآجْتِبائه ، ومحَـلِّه من آخْتِيارِه وآصطِفائه .

والحمدُ لله علىٰ مامَنَحه من كرامته ، وجدّد له من نِعْمته ، فيما أعاد إلىٰ تدبيرِه من وِزَارَتِه ، وأشركَه فيه من أمانَتِه ، آحتياطًا منه للمُلْكة ، ونظرًا للخاصَّة والعامَّة ، فإنَّ عائِدَةَ رأْيِه سَوَّتْ بينَ الضَّعِيف والقَوِىّ ، ووصلَتْ إلىٰ الدَّانِى والقَصِىّ ، وأعادت إلىٰ المُلْك بَهاءَه ، وإلىٰ الإسـلام نُورَه وضِياءَه ، فاكتستِ الدنيـا من الجِدَّة بعد الإخْلاق ، والنَّضارة بعد الإنْهاج(٣) ، مالم يكُنْ يوجَدُ مثلُه إلَّا بالوزيرِ فى شَرَفِ مَنْصِبه ، وكَرَم مُرَكَّبه ، فهنَّأَ اللهُ الوزيرَ ما آتاه وتابَعَ له قَسْمه ، ووصلَ له ماجدّد له بالسَّعاده ، وأمدَّه فيه بالزِّياده ، وأعطاه من كلِّ مأمُول أعظَمَ حظّ وأوفَرَ نصيبٍ وقِسْم ، تراخيًا

(١) فى الأصل والوراثة لتدبير وهو تصحيف سخيف .

(٢) فى القاموس ”قادرته قايسته وفعلت مثل فعله“ .

(٣) الإنهاج البلىٰ ، أنظر القاموس فى مادة (ن هـ ج) .

فى مُدّة العُمُر، وتناهِيًا فى درَجة العِزّ، وآحتياطًا بالمَوْهِبَةِ فى العاجِله، وفَوْزا بالكرامة فى الآجِله؛ إنه فَعَّال لمـا يشاء .

تهنئة أُخْرىٰ فى مثل ذلك : أوردها فى ترَسُّله ، وهى :

التهنئةُ بالوَزير للزَّمان وأهلِه بمـا جَمَّلَهم به، وجدّد لهم من مِيسَم العِزّ، وسَرْبَلَهم إيَّاه من حُلَّة الأمْنِ بوِلَايتـه، والنعمةُ علىٰ أوليائه ورعَاياه علىٰ حَسَب مواقِعِهم من مشاركتـه وحُظُوظِهم من مَعْدِلَتِـه ظاهِرةٌ، ولله علىٰ ذلك الحمْدُ الفاضل ، والشكر الكامِل. وللوزير من هذه النعمةِ الجليلةِ ، والدولةِ السعيدةِ، أهْنَاها مَوْقِعا، وأسْرَاها مَلْبَسا ، وأدْوَمُها مُدّه ، وأجملها نَغْيـه، وأثْراهَا مُبوّءا ، وأسلَمُها عُقْبىٰ ؛ فتولّاه الله بالمَعُونة والحِرَاسه، وأيّده الله بالنصر والكِفَايه، وأنْهضَه بمـا قلَّده وآسترْعاه، وبلَّغه مَحابَّه ومُنَاه، وأرجو أنْ يكونَ مَوْقِعِى من ثِقة الوزير يُلْحِقُنى عنده بمن مَكَّنتْه الأيامُ من قَضاءِ الحقِّ فى التلَقِّ والإبْعاد، ويُعوِّضُنى بتفْضِيله ممـا حُرِمتُه منها مَحَلَّ ذوى الإخْلاص والاعْتِدَاد .

تهنئةٌ أُخْرىٰ فى مثل ذلك : أوردها فى ترَسُّله أيضا، وهى :

وهــذا أوَّلُ يتْلُوه مابعــده بلا تَناهٍ ولا نَقْص بإذنِ اللهِ ومَشيئته ، بل يكون موصُولا لاتُبْلَغُ منه غايةٌ إلا شفعتْها درجةٌ تُرْقىٰ، تكْنُفُ ذلك كِفايةٌ من الله شاملةٌ كاملةٌ ، وغِبطةٌ فى البَـدْء والعاقبَة بلاَ آنْقِطاع ، ولا آرْتِجَاع ؛ حتّى يكونَ المُنْقَلَبُ منه بعد بُلُوغ العُمُر منتهاه، إلىٰ فَوْزٍ برحمةِ الله ورضاه . فهنيئًا للوزير بما لايَقْدِر أحدٌ أنْ يَدَّعِىَ فيه مُساعفَةَ المِقْدار، ولا ينَالَه بغير آستِحْقاق؛ إذ لامثلَ ولا نظيرَ للوزير : فَضْـلا ظاهِرا، وعلمـا علىٰ العلوم مُوفيا، وسابقةً فى تقليب الخلافة ظهرًا لبطْن، وحَلْب الدَّهْرِ شَطْرا بعد شَطْر، وجَمْعًا من مال السلطان لمـا كان متفرِّقا، وحفْظًا

لما كانَ ضائعا ، وحمايةً لبَيْضةِ المُلْك ، وضَبْطا للثُّغور ، وتلقِّيًا للخُطوب بما يَفُلُّ حدَّها ، ويُطفِئ نارَها ولَهبَها ويُقيم أوَدَها ؛ وما وهَبَ اللهُ فى رَأْيه من فَتْح البلاد المُرْتَجَة ، وقَمْع الأعداء المتغلِّبة ، وسُكُون الدَّهْماء ، وشُمُول الأمْن ، وعُمُوم العَدْل ؛ واللهُ يَصِل ذلك بأحسَنِه .

تهنئةٌ أُخرى فى مثل ذلك : من إنشاء علىّ بن خلف فى "موادّ البيان" وهى :

أطال اللهُ بقاءَ حضرةِ الوِزَارة السامية ، فارِعةً من المَعَالِى أَسْمَقَها نُجُودا ، كارِعةً من المِنَنِ أعذَبَها وُرُودا ، ساحِبةً من المَيَامِن أرَقَّها بُرُودا ؛ ممتَّعةً بالنِّعَم التى يُرامِى الشُّكْر عن حَوْزَتِها ، ويُحامِى البِشْرُ عن حَوْمَتِها ؛ مبلِّغةً فى أوليائِها وأعدائِها ، قاضيةً ماترتمى إليه رِحَابُها ؛ فلا ترىٰ لها ولِيًّا إلَّا لاحِبَ المَذْهَب ، ثاقِبَ الكَوْكَب ، سامِىَ الطَّرْف ، حامِىَ الأَنْف ؛ ولا عدُوًّا إلا ضَيِّق المَطْرَح ، وَعِرَ المَسْرَح ، صالِدَ الزَّنْد ، مفَلَّل الحَدّ ، راغِمَ العِرْنِين ، مَتْلُولًا للجَبِين . ولازالتْ أزِمَّةُ الدنيا بيَدِها حتّى تَبْلُغ بآمالها مُنْتَهاها ، وتَجْرِىَ بأيَّامها إلىٰ أقْصىٰ مَدَاها ؛ [فهى] من أعظَم النِّعَم خَطَرا ، وأحسَنِها علىٰ الكافَّة أَثَرا ، وأوْلَاها بأن يُفَاضَ فى شكرِها ، وتتعطَّرَ الآفاقُ بذِكْرِها . ولسيدنا الوزيرِ الأجلِّ يَرَاعٌ يستَيْقِظُ فى صلاحهم وهم هاجِعُون ، ويَنْصَبُ فى الذَّبِّ عنهم وهم وادِعُون ؛ وكَلَ تدبيرَهُم فيه ، إلىٰ مدَبِّر يخافُ اللهَ ويتَّقِيه ، ويعمَلُ فيمَنِ ٱسترْعاه بما يرتَضِيه ؛ ولا يَمُدّ يَدَ الاقتدار عليهم متسلِّطا ، ولا يتَّبِع دَوَاعِىَ الهَوىٰ فيهم مُتَسَقِّطا ؛ واضعًا الأشياءَ فى حقائِقِها ، سالِكًا بها أمثَلَ طرائِقِها ، مُلَايِنًا من غير ضَعْف ، مُخاشِنًا من غير عُنْف ؛ قريبًا من غيرِ صِغَر ، بَعِيدًا من غيرِ كِبْر ، مُرَغِّبا بلا إسْراف ، مُرْهِبًا بإنصاف ؛ ناظرًا إلىٰ محقَّرات الأمور وأطرافِها ، كما ينْظُر فى مَعاظِمِها وأشرافِها ؛ آخِذًا بوَثائِق الحَزْم ، متمسِّكا بعَلَائق العَزْم ؛ رامِيًا بفِكْرته من وراءِ العَوَاقب ، خاطِمًا بآرائه أُنُوفَ المَصَاعب ؛

ناظمًا بإيالَتِه عُقود المَصالح، مُوَطّئا برِياضَتِه ظُهور الجَوامح؛ إن ثَقَّفَ ذَا النَّبْوة الفَريده، والهَفْوة الوحيده؛ اقتصر علىٰ مايُوافِقُه الوالدُ الحَدِب، من مُقَوّم الأدب [وإنْ قَبَضَ](١) علىٰ المرتَكِس فى غَوَايته، المُفْلِس فى عِنَايته؛ ضَيّق عليه مجَالَ العَفْو، وأحاق به أَلِيمَ العذاب والسَّطْو؛ فقد سكنَتِ الرعيَّةُ فى عَدْله، وأوَتْ حَرَما مَنيعا من ظِلّه؛ ووَثِقتْ أنَّ الحق بنظره شامِخٌ شاهِق، والباطلَ سائخ زاهِق؛ والإنصافَ مبْسُوط منْشُور، والإجحافَ محْطُوط مبْتُور؛ والشَّمْل منْظُوم، والشَّرّ مضْمُوم. فنطقَتْ ألسِنَتُها بإحْماده، واشتملَتْ أفئِدتُها علىٰ وِدَاده؛ واتفقَتْ أهواؤُها علىٰ رِياسـتِه، وتطابقَتْ آراؤُها المسابِقةُ علىٰ دَوامِ سِيادَتِه؛ وعرفَ أميرُ المؤمنين عَدْقَ النظر فى دَوْلته؛ وسلَّم أمورَ مملكته إلىٰ النَّصِيح المأمُون، والنَّجيح الميْمُون؛ الذى وفّقه اللهُ تعالىٰ لاختياره، ويَسَّره لاصطِفائه وإيثارِه؛ وأنَّه قد نَاط أُمورَه بمن لم يستخِفَّ ثَقِيلَ حِمْلها، وينُوءُ بباهِظِ ثِقْلها؛ فتمتّع بلَذِيذ الكَرىٰ، وتَوَدّع بعـدَ السَّيْر والسُّرىٰ؛ وأَمِن من إلمـامِ مُلِمٍّ مُعْضِل، وحُدوث حَدَثٍ مُشْكِل . وهـذه نعمةٌ تعُمُّ الخاصَّة والعامَّة عُمومَ الغيثِ إذا هَمَع وتدفَّق، وتشْـمَلُهم شُمولَ النهـار إذا لَمَع وتألَّق؛ وهم أَوْلىٰ بالتهنئة فيهـا وشكْرِ الله تعالىٰ عليها .

وسيدُنا الوزيرُ حقيقٌ بأن يُهْدىٰ إليـه الدعاءُ المرفُوع، والتضَرُّع المسمُوع؛ بأن يُنْهِضَه الله تعالىٰ بمـا حَمَّله، ويُعِينَه علىٰ ما كَفَّله؛ ويتولَّاه بتوفيق يثقبُ أنوارَه، وتأييـدٍ يُطَبِّق غِرارَه، وتسـديدٍ يحَسِّن آثارَه؛ وإجراءِ ما يتولَّاه علىٰ أوْضح سبِيلٍ وأقصَدِه، وأرجحِ دليلٍ وأرشَدِه؛ إذ لا يجوز أن يَهْنأ بمـاله عياؤُه وكَلُّه، ولمذْعِنيه صلاحُه كلُّه . والعبـد يسألُ اللهَ ضارعاً لديْه، باسطا يده إليه؛ فى أن يَقْبَـل صالحَ أدعيَته لحضرة الوزارة الساميَة؛ وأن يجعل ماأحلَّه فى محلّه من رياستها، وأوقعه

(١) الزيادة يقتضيها المقام كما لايخفى .

فى مَوْقِعه من سياستها؛ دائبًا لاينْتَزَع ،وخالدا لا يرتَجَع ، وأن يؤيِّدها فيه بما يقضى له بالإِحْراز والتَّخْويل ، ويحْمِيه من الابتزاز والتحويل ؛ إنَّه سميعُ الدعاء ، فعَّالٌ لما يشاء؛ إنْ شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى – التهنئة بكَفَالة السلطنة :

وهذه نسخةٌ من ذلك ، كُتِب بها عن نائب الشام ، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُبَاتة ، وهى بعد الألقاب :

لا زالَ دائرًا بهنائِه الفَلَك ، مُنِيرا بضِيَاء عَدْله وبِشْره الحَلَك ؛ قريرًا بحُسْن كَفَالته المُلْكُ شاهدًا بفضل أسمائِه وسِمَاته المَلَك ، مقْسُوما بأمر الله نَدَاه وبأْسُه ليَحْيا مَنْ حَىَّ ويَهْلِكَ مَنْ هَلَك ؛ تقبيلًا يُشافِهُ به التُّراب ، ويُشاهِدُ شَرَفُ مَطْلَعه علىٰ السَّحاب . ويُنهِى قيامَهُ علىٰ قَدَمِ وَلاءٍ ودعاء : هذا يَنزِلُ القلبَ وهذا يَصْعَد إلىٰ الأُفُق ، ومُقامَه علىٰ بُشرىٰ وحمدٍ منهما الأمنُ يحلِّى بوصْفِه النُّطْقَ كما تُحَلِّى الأعطافُ بالنُّطُق ؛ وأنه ورَدَ مثالٌ شريفٌ علىٰ يَد فلانٍ يتضمَّن البِشارةَ العامَّه ، والمَسَرَّة التامَّه ، والنعمةَ التى يُعوِّذُ سَنَا جَبِينها من كل عينٍ لامَّه ؛ وخبرَ الخيرِ الذى حَيَّت أزهارُه المتضوِّعةُ نَدَّ مِصْرَ فأوّلُ ما بلَّغه مَنافِسَ الشام شامَّه ؛ بأنَّ المواقفَ الشريفةَ – أعزَّ الله تعالىٰ سلطانَها – قد فوّضَتْ إلىٰ مولانا كَفالةَ الإسلام وبَنِيه ، وكِفايةَ المُلْك بصالِح مُؤْمِنيه ؛ ونيابةَ السلطنة الشريفة وما نَسقَتْ ، وتدبيرَ الممالك وما وسَقَتْ ؛ فيالها بُشرىٰ آبتسمَتْ لها ثغورُ البَشَر ، ومسَرَّةً آستجلىٰ سَنَاها مَنْ آمَنَ وبُهِتَ الذى كَفَر ، وخبرًا تلقَّت الأسماعُ بَرِيدَه منشدة : قُلْ وأعِدْ بأطْيَبِ الخَبَر ؛ هُنالك أخذ المملوكُ حَظَّه من خيرِ بُشْرىٰ ، ونصيبَه من مَسَرَّةٍ حُمِد بصَباح طِرْسِها المَسْرىٰ ، وحمِدَ الله تعالىٰ علىٰ أن أقام لسلطانِ البسيطة من يَبْسُط العدْلَ والإحسانَ لمَنَابه ، ويقلِّد رعيَّته

عقودَالنِّعم إذا تقلَّد ماوراءَ سَريره و بابِه ، ومَنْ إذا كَفَل سيفُه ممَالكَ الإسلام وثِقَتْ بالمَغْنَم والسَّلامه ، و إذا كتب قلمُــه قالتْ ولا سِيَّمـا أخبارُ جند المسلمين : هكذا تكونُ العلَامه ؛ وجهَّز المملوكُ هـــذه الخدمةَ نائبةً عنه فى تقبيل الأرض ، وعَرْض الهناء بين يَدَىْ من يُسَرُّ المملوكُ بوَلَائه اليومَ ويرجُو أن يُسَرَّ به يوْمَ العَرْض ،ولو وصفَ المملوكُ ماعنـــدَه من السُّرور والشَّوْق لضاق الورقُ عن تسطير الواجب منه وضاقَ الوقتُ عن أداء الفَرْض ؛ واللّه تعـالىٰ يجدِّدُ لمولانا ثمراتِ الفضلِ الواضِح ، والرأى الراجِح ، والقَــدْر الذى هو علىٰ مِيزان الكواكِب راجِح ، ويمتِّعنا كافَّةَ الممـاليك بدَوْلة سلطانه الذى علم البيتُ الشريفُ أنه علىٰ الحقيقةِ الخلَفُ الصَّالِح .

وهذه نسخة تهنئةٍ لأمير جانْدار بولاية إمْرةِ جاندار، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُباتةَ، وهى بعد الألقاب :

أعلىٰ اللّهُ منَارَها ومَنالَها ، وخَلَّد قبُولَهـا وإقبالَها ، وأجزل من الغَضِّ الذى تناولَتْه ثَمَرها وأسبَغَ به ظِلالَها ؛ ولا زال فى سَيْفها وعَصَاها مآربُ للْمُلْك ، وفى بأْسِها ونَدَاها مواقعُ للنَّجاة والهُلْك ؛ ولا بَرِحتِ القُضُب من سُيُوف وغُصون : هــذه حاكمةٌ بسَعْدها حُكْمَ الملك ؛ وهذه مُسخَّرة فى تجريدها تسخيرَ الفُلْك ؛ تقبيلَ مخلِصٍ فى وَلَائه ودُعائه ، مُهَنًّا القلبِ مسرورٍ بمـا يتجدّدُ من مَسَرَّات مولانا وهَنائه ؛ ويُنْهِى أنه بلغه ماأفاضتْه الصدقاتُ الشريفةُ علىٰ مولانا من المَبرَّات ،وما جَدّدتْ له من المَسَرَّات ؛ وأنها ضاعفَتْ مزيَد الإحسانِ إليه ، ودعَتْه أميرَ جاندار وَدَّت العِصِىُّ النُّجوميَّة لو قدّمتْ نفْسَها بين يَدَيْه ؛ وأنَّ المواقفَ الشريفةَ قرَّتْ به عينا وأقرَّتْ ، وأنَّ الدولة القاهِرةَ ألقَتْ عصاها إليه وآستقرّتْ ؛ وكما سَلَّمت إليــه العَصَا فى السِّلْم سَلَّمت إليه السـيفَ فى الحَرْب ، وكما قرَّبَتْــه فى مواقف العَدْل والإحسان قرَّبتْــه فى مواقف الطَّعْن والضَّرْب ؛ فأخذ المملوكُ حظَّه من البُشْرىٰ ، وأوجب علىٰ نَفْســه الفــرَح

وسجدَ للهِ شُكرا ؛ وودَّ لو حضَرَ يُشافِه بهـذا الهَناء الشامِل ، ومَثَل قائمًـا لديْهِ بحقِّ التهنئة القيامَ الحقيقيَّ الكامل ؛ وحيثُ بعُـدَتْ دارُه ، ونأتْ عن العِيَان أخبارُه ؛ فقد علِم الله تعالىٰ مُواصلَتَه بالأدعية الصالحةِ ليْلا ونَهارا ، والموالاةِ والمحبَّة التى يشْهَد بها الخاطرُ الكريمُ سِرًّا وجِهارا ؛ واللهُ تعـالىٰ المسئُول أنْ يزيدَ مولانا من فضله ، ويُسِرَّه بمتجدِّداتِ الخير الذى هو من أهلِه ؛ ويمتِّعنا كافَّةَ المماليك بدوام سلطانِ هذه الدولة الذى شَمِل بظله ، وغَنِى بنَصْره عن نَصْله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثـالث ــ التهنئـــة بالإمارة .

من كلام الأقدمين :

تهنئـــة من ذلك ، أوردها أبو الحسين بن سَعْد فى ترسُّله ، وهى :

وهَنَأ اللهُ الأميرَ مواهِبَه الهنيَّــه ، وعطاياه السَّوِيَّه ؛ وأدام تمكينَه وقُدْرتَه ، وثَبَّت وَطْأته ، وحَرَس ماخَوّله ؛ وجعـل مَاهيًّأ له من مُؤْتَنَف الكرامة أيْمَنَ الأمُور فاتحـةً وأسعَدَها عاقِبه ؛ ووصل أيَّامَه بأجمل الوِلَايه ، وأجَلِّ الكِفَايه ؛ حتَّى ينتهِى [من] ٱستِيفاءِ سعاداتِ الحُظُوظ وحَوْز القِسَم والآمال ، [إلىٰ] الدرجةِ التى تليقُ بما أفرده اللهُ به من الكمال ، وخَصَّه به من الفضل فى جميع الخِصَال . ومن أفضلِ ماأعتَدَّ به من نِعَم اللهِ علَىَّ بالأمير وبجميل رَأيه ، ومَحَلِّى من طاعتِه وخِدْمته ؛ أنِّى لا أخْلُو فى كل وَقْت وحالٍ من بَهْجةٍ تتجدَّدُ لى ، ومسرَّةٍ تصِلُ إلىَّ ، وتتوفَّرُ علَىَّ ، بمـا يُسَهِّله الأمير علىٰ يده من مستصْعَبِ الأمور ، ومستَغْلَق الخُطوب ؛ التى تبْعُد عَمَّن يُزاوِلُهـا ، ويجعل اللهُ بطَوْله وحَوْله للأمِير القُدرةَ عليها ، ويتوحَّد بالكِفَاية فيها ؛ فينْمُو بجميل تدبيره ولَطِيف نَظَره ، ويَطَّرِدُ بصاعِدِ نَجْمـه ويُمْن نَقِيبته وعِزِّ دَوْلتـه ؛ وذلك من فَضْل الله ونِعْمته ، يُؤْتِى فَضْلَه مَنْ يَشاء وهو ذُو الفَضْل العَظِيم .

الصنف الرابع — التهنئـــة بولاية الحجابة .

وقد كانَ لها فى الزَّمنِ القديم المحلُّ الوافرُ فى الدولة وعُلُوّ الرتبة فيها .

من كلام الأقدمين :

تهنئـــةٌ من إنشاء أبى الحُسَين بنِ سعد، كُتِب بها إلىٰ أبى بكر بن ياقوت حين وَلِىَ الحِجَابةَ بعد نَكْبةٍ أصابته، وهى بعد الصدر :

وقد كانتْ أنفُسنا مَعْشَرَ عبيدِ سيدِنا وحَمَلةِ إنعامه، ومؤمِّلى أيامه، فى هذه الأحوال التى نقد سـيدنا منها فيما آبتلاه صَبْرَه، وأبانَ فيه قَدْرَه؛ وزاد العارفَ بفضله نفوذا فى البَصيره، وأعاد ذَوِى الآرتياب فيه إلىٰ الثِّقَة؛ فآستوىٰ المنازع والمُسَلِّم، وآستوىٰ العالمُ والمُعَانِد — نعمةٌ منه تعالىٰ ذكره خَصَّه بها وصانَهُ عن مُشاكَلة النظير، ومُزاحمةِ الأَكْفاء — علىٰ سبيل من القَلَق والآرْتِماض، والسُّقُوط والآنْخِفاض؛ جَزَعا من تِلْكَ الحـال الغَلِيظه، وإشفاقًا علىٰ تلكَ النَّفْس النَّفِيســه؛ وخوفًا علىٰ مَعَالِم البِرِّ والتُّقىٰ، وبَقِيَّة العلم والحِجَا، وتاريخ الكَرَم والنَّدىٰ؛ أن يَدْرُسَ مَنَارُها، وتُطْمَسَ آثارُها؛ ولولا مامنَّ اللهُ به من الخَلَاص منها وما مَنَح بكرمــه فى عاقِبَتِها، لأوْشَكَتْ أن تأتِيَ عليها وتُعْجِلَها عن مَوَاقِيتِ آجالها؛ لكنه عَظُمت آلاؤُه، وتقدّسَتْ أسماؤُه؛ أَتىٰ بالأَمْن والفَرَج، بعد آستيلاء الكَرْب والوَجَل، وآنْبِتات أسـبابِ الرَّجاء والأملْ؛ فعَرَف سيدُنا مَوْقِعَ الخِيرَةِ فيما قَضاه، ومُيِّزَ له الخبيثُ من الطيِّب ممَّنْ عاداه وتَولَّاه؛ وجعل النعمةَ التى جدّدَها له فيما ردّه أميرُ المؤمنين إلىٰ تدبيرِه من أمْر دارِه ومملكته، وحِرَاسة بيضــة رعيَّته، مشتركَةَ النفْع والفائده، مقسومةَ الخَيْر والعائده؛ بينَ كافَّة الأمّة فيما عَمَّ من المَعْدِله، وشمِل من المَصْلحه . ولاحَ من تَبَاشِـير الخير، وأماراتِ البركة؛ فى آستقامة أمور البِلاد، وصلاح أحوالِ العباد؛ وأفرد اللهُ سيدَنا بحَظٍّ من

الموْهبَـة وفَّانِى فيه علىٰ حُظُوظ الأولياء، و زادنِى علىٰ سِهَام الشُّركاء . وأنا أرغَبُ إلىٰ الله فى إسعاد سيدنا بما جدّدهُ له ، وتَعْرِيفه بركةَ مُفْتَتَحه ويُمْنَ خاتِمَته. والحمد لله فى مُبْتَـداه، والسلامةِ فى عُقْباه ؛ وتبليغه من حَظٍّ مأمول ، وخيرٍ مَطْلوب ، وحالٍ عَلِيَّـه، ورُتْبة سَنِيَّه ، أفضلَ ما بَلَّغ أحدا ٱختصَّه بفضله ، وٱصطفاه من خَلْقه ، إنه جَوَاد ماجِد . فإنْ رأىٰ سـيدُنا أن يتطوّل بإجراء عبدِه علىٰ كريم عادتِه فى تشريفه بمكاتبتِه ، وتصريفِه فى أمره ونهيه ، محقِّقا بذلك أمَلَه ، و زائدًا فى نِعَمه عنده ، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

تهنئةٌ أخرى من ذلك ، من إنشاء علىّ بن خَلَف أوردها فى "موادّ البيان" وهى :

إنمـا يُهَنَّأ بالوِلَاية ـ أطال الله بقـاءَ الحاجب الجليل سـيِّدى ومولاى ـ مَنِ ٱنْبَسطتْ إليها يدُه بعد ٱنقِبَاض ، وٱرتَفَع لها قَدْرُه مِنَ ٱنْخِفاض ؛ وأوجدَتْه الطريقَ إلىٰ إحراز جزيل الأجْر والجزاء ، وٱكتنازِ جميـل البركة والثَّنـاء ؛ وأفضَتْ به إلىٰ ٱتِّساع السُّلْطان ، وٱنتِفَاع الأعْوان ؛ فأمَّا من جعل الله يَدَه الطُّولىٰ ، وقَدْرَه الأعْلىٰ ، ورِيَاستَهُ حاصلةً فى نفسه وجوهره ، وسِيادتُهُ مُجتناةً من سِنْخه وعُنْصُره ؛ فالأَوْلىٰ ـ إذا ٱسْتُكْفِىَ رَغْبـةً فى إنصافه وعَدْله ، وحاجةً إلىٰ سَـدَاده وفَضْله ، وٱفْتقارًا إلىٰ فَضْل سِيرته ، وٱضْطِرارا إلىٰ فاضل سِياسَتِه ـ أن تُهنَّأَ الرعيَّةُ بوِلَايته ، وتُسَرَّ الخاصَّة والعامَّة بمـا عُدِقَ من أمورها بكِفَايته ؛ وغيربِدْعٍ رَبْطُ(١) أمير المؤمنين بالحاجب الجليل أمْرَ حِجابته ، ونَصْبُه لِلزَّحمة(٢) عن حَضْرته ، وجعلُه الوَسِيطَ والسفيرَ بينَه وبيْنَ خَواصِّ دَوْلته ، وقد وَثِقَ بيُمْنِ نَقِيبته ، وٱطَّلع علىٰ خُلُوص نِيَّته ، وسكَنَ إلىٰ صِدْق طاعتِـه ، وعَرَفَ طهارةَ جَيْبه ، وسلامةَ غَيْبه ، وصِدْقَ لَهْجته ، وحَصافَةَ أمانَته ؛

(١) فى الأصول اربـاط ولم نقف على فعله فيا بأيدينا من كتب اللغة .

(٢) أى الدفع والذب يقال زحمته عنه أى دفعته انظر المصباح .

واعتمادَه للحقِّ فيما يُورِد ويُصْـدِر ، ويَنْهى ويُجيب ؛ وٱبتلاه فعَرَف طِيبَ طُعْمته ، وخِفَّة وَطْأته ؛ ورأْفَتَه بالضَّعِيف المَهْضُوم ، وغِلْظَته على العَسُوف الظَّلُوم ؛ [فرأى] أن يُحِلَّه محلّ مَنْ لا يَغِيب عمَّا شَهِده ، ولا يرتابُ بمـا سمعه ، على أنَّني المهنَّأ بكل نعمةٍ يجدّدها الله لدَيْه ، وسعادةٍ يُسْبِغُها عليه ؛ [ولو أنصفت] لسلَكْتُ من الصَّواب سَنَنا ، وٱعتقَدْتُ جميلًا حَسَنا : لٱستشعارى بالأنْفَس من لَبُوس سِيادَته ، وتَحَلِّى بالأنْصَع من عُقُود رِيَاسته ؛ وإذا كانت رعِيَّته أجدَرَ أن تُهَنَّأ بوِلَايته ، وتَعرِفَ قَدْر مالها من الحَظِّ فى نظـره ؛ فأنا أعْدِلُ من هنائه إلى الدُّعاء له بأن يبارِكَ اللهُ تعالى له فيما قَلَّده ، ويُوفِّقَه فيما وَلَّاه ويُسَدِّدَه ؛ ويُلْهِمَه ٱدِّخارَ الثوابِ والأجْر ، وٱكتنازَ الحمد والشكر ، والهدايةَ إلى سَنَن الٱسـتقامه ، وما عاد بمَحبَّة الخاصَّـة والعامه ؛ وإنهاضَه فى خِدْمة أمير المؤمنين ، والعَمَل من طاعته بما يُزْلِفُ فى الدنيا والدين ؛ واللهُ يستجيبُ فى الحاجب الجليل هذا الدعاءَ ويَسْمَعُه ، ويتقبَّلُه ويرفَعُه ؛ إن شاء الله تعالى .

الصنف الخامس — التهنئـــة بولاية القَضاء .

التهنئة بذلك من كلام الأقدميـــن :

تهنئة من ذلك : من إنشاء علىّ بن خلف ، أوردها فى "موادّ البيان" وهى :

أَوْلى المِنَح أن يُتفاوض شكْرُها والتحدّثُ بها ، ويُتقارَضَ حمدُها والقيامُ بواجبها ؛ نعمـــةٌ شَمِلَ عِطَافُها ، وعَمَّت ألطافُها ؛ وٱشتركَ الناسُ فيها ٱشتراكَ العُموم ، وحلَّتْ منهم فى النفع محـلَّ الغيث السَّجُوم . وهــذه صورةُ النعمة فى ولاية قاضى القُضاة — أطال الله بقاءه — لمـا تتضمَّنه من إثبات العَـدْل والإنصاف ، وٱنْحِسار الجَوْر والإجْحاف ؛ وٱعْتِلاء الحقِّ وظُهُوره ، وٱخْتِلاءِ الباطل وثُبُوره ؛ وعِزِّ المظلوم وإدالتِه ، وذُلِّ الظَّلُوم وإذالَتِـه ؛ وتمكين المضْعُوف وٱقتدارِه ، وٱنْخِزال العَسُوف وٱقْتِساره .

وإنْ هَنَّأتُه حرس الله عُلَاه بموْهِبَة أتىٰ بارقُها بجميل الثَّناء ، وجزيل الجَزَاء ؛ قد ناء من تحمَّلَها بباهظ الشيء ومتعبه ، وقام من سئلها بكل الأدب ومنصبه ، عدلت عن الأمثل وضَلَلْتُ عن الطريقة المُثْلىٰ ؛ لكنِّى أهنِّئه خُصوصًا بالمَواهِب المختصَّة به ٱختصاصَ أطواقِ الحمائم بأعناقِها ــ والمناقِبِ المُطيفةِ به إطافَةَ كواكب السَّماء بنِطَاقها ، فى أنْ ألَّف اللهُ القلوبَ المتباينةَ علىٰ الإقرار بفَضْله ، وجمعَ الأفئدةَ المتنافِيَة علىٰ الٱعتراف بقُصُور كلِّ محلٍّ عن محلِّه ، وجعل كلَّ نعمةٍ تُسْبَغ عليه ، ومِنَّة تُسْدىٰ إليه ؛ موافقةَ الآمالِ والأمانِى ، مُفْضِيَةً للبشائر والتَّهانِى : لأنَّ مَنْ أحبَّ الحقَّ وآثره ، ولبِسَ الصِّدْق وٱستشْعره ؛ ينْطِقُ بلسان الإرادةِ والٱختِيَار ، ومَنْ تركهُما وقلَاهما ، وخلعَهُما وألْقاهما ، ينطِقُ بلسانِ الٱفتقار والٱضْطِرار ــ والخصائِص التى هو فيها نَسِيجُ وَحْدِه ، وعِطْرُ يومِه وغدِه ــ والمحاسِنِ التى هى أَنَاسِىُّ عيونِ الزَّمان ، ومَصابِيحُ أعيانِ الحُسْن والإحْسان . ثم أعُودُ فأُهنِّئُه عمومًا بالنِّعم المشتَركةِ الشُّمُول ، الفَضْفاضة الذُّيول ؛ التى أقرَّتِ القَضاءَ فى نِصَابه ، وأعادتِ الحكَمَ إلىٰ وطَنِه بعد نُجْعتِه وٱغْترابه ؛ وأعلَتْهما فى الرُّتْبة الفاضله ، وقَدَعتْ بهما أنْفَ الذِّروة العالِيَه . وأرفَعُ يدى إلىٰ الله تعالىٰ داعيًا فى إمداد قاضِى القُضاة بتوفيقٍ يُسَدِّدُ مَرامِيَه ، ويُرْشِد مَساعِيَه ؛ ويهَذِّب آراءه ويصَحِّحها ، ويُبْلِج أحكامَه ويُوضِّحها (١) ؛ ويخَلِّد عليه النعمةَ خُلودَها علىٰ الشاكرين ، ويُبَصِّره بحُسْن العقبىٰ فى الدنيا والدِّين ؛ وهو سبحانه يتقبَّل ذلك ويرفَعُه ، إن شاء الله تعالىٰ .

التهنئة بذلك ، من كلام أهل العصر :

تهنئة من ذلك : أوردها الشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ فى كتابه "زَهْر الربيع فى الترسُّل البديع" وهى :

(١) فى الأصل ويفخمها وهى تصحيف لا يناسب المقام .

أنفَذ اللهُ تعالىٰ أحكامَه، وشكر إحسانَهُ و إنعامَه ؛ وخلَّده ناصرًا للشريعة المطَهَّرة وأَدَامه، وجدّد سَعْدَه وأسعد أيَّامَه ؛ وجعله المسترشِدَ والمقتفِيَ بأمر الله والرَّاشدَ والمستَنْجِد والمستَنْصِر والنـاصِر والعاضِـد، والحـاكم القـائم بأمر الله (١) من القُضاة الثلاثة الواحِد .

المملوكُ يقبِّل اليدَ العاليــة تبرُّكا بتَقْبِيلها، وأداءً لواجب تعظِيمها وتَبْجِيلها؛ ويهنِّئُ المَوْلىٰ بمـا خصَّهُ الله تعالىٰ من مُضاعفة نَفَاذ كلمته ورَفْع منزلته ، وإمضاءِ أحكامه الشريفةِ وأقضِيَته؛ وتقليده أمورَ الإسلام، وتنفيذِ أوامره فى الخاصِّ والعام؛ ويهنِّئُ بالمَوْلىٰ مَنْ رُدَّت أمورُه إليــه، وعُوِّل فى ملاحظةِ مصالِحه عليه؛ فإنَّ مَوْلانا مازال بالعِـلْم والعَمَل مشهورا ، وسعْيُه فى الدنيـا والآخرةِ سَعْيا مشكُورا؛ ويقظةُ مولانا جديرةٌ بزيادةِ الآهتمام، والآحتياطِ التامّ؛ بملاحظةِ طلبةِ العلم والمشتَغِلين، والفُقَهاءِ والمدرِّسين ؛ وسَــبْر أحوال النُّوّاب ، وأنْ لايكفِيَهُ الآعتمادُ علىٰ حسن البِزّة وطهارة الأثواب؛ بل يُمْعِنُ فى الآطّلاع علىٰ مايعتمِدُونه النَّظَر، ويُلاحِظ كُلًّا منهم إن غاب عن مجْلِسه أو حضَر؛ فمَنْ رآه يَهْدِى إلىٰ الحقِّ وإلىٰ الطريق المســتَقِيم، ولا يَقْرَب إلا بالتى هى أحسَنُ مالَ اليَتِيم ؛ فيحقِّق له من العِنَـاية أمَلا ، ولا يُضِيع أجْرَمَنْ أحسَنَ عملا ؛ حرس اللهُ المولىٰ ومتَّع بحياته ، وأعاد علىٰ الكافَّة بركةَ صِيامِه المقبُول وصَلَاته؛ ونفع الإسلامَ بمستجاب دَعَواتِه، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف السادس ــ التهنئة بوِلَاية الدعوة علىٰ مذهب الشِّيعة .

وقد تقــدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدَّولة الفاطميَّة، بالديار المِصْرية، ذِكْرُ موضُوعها وعُلُوِّ رُتْبتها عندهم؛ وإنمـا ذكرناها حِفْظا للأصل ولآحتمال وُقُوعها.

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله حتى يكون من القضاة الخ .

تهنئةٌ من ذلك : من إنشاء علىّ بن خَلَف، أوردها فى "موادّ البيان" وهى :

أطال اللهُ بقاءَ داعِى الدُّعاة لصَبَاح من الرحمة يُبْلِجه، وطريقٍ من الحكمة يُظْهِر بيانَه، وليلٍ من السُّنَّة يَنْزِع طَيْلسانَه؛ وحَرسه علىٰ الإيمان يُجَدّدُ ماأخلَقَ من بُرُوده، ويُنَظِّم ماوَهىٰ من عُقُوده؛ وعلىٰ المؤمنين يفتَحُ لهم أبواب الرَّشاد، ويُهْمِى إليهم سَماءَ الإفادة والإمْداد . ولا زالت الحقائقُ مقصودةً منه بالمِيزَة التى رشَّحتْه لِحفْظ مبانِيها، وأهَّلته للعِبارة عن مَعانِيها؛ حتّى يرقُمَها فى الأَخْلاد، ويَمْحُوَ بهارُسومَ العِناد، ويَنْشُر بُشَرَها فى الآفاق والبِــلاد . أنا أعْدِلُ عن هَنـاءِ داعِى الدُّعاة ـ أطال الله بقاءه ـ بماعُدِق به من أمرِ الدَّعْوة الهادِيَّة العَلَوِيَّه، ونُصِب له من فَرِّ مَضاحك المُشْكلات عن أسرار الحقائق الإلٰهِيّــه، والترجمةِ عن غوامض الحِكَم الشَّرْعيَّه؛ والتوقيف علىٰ مَوارد الهُــدىٰ ومَشارعه، والإرشادِ إلىٰ مَشارق الحق ومَطالِعه؛ إلىٰ هَنـاءِ الدَّعْوة وأهلِها بمـا قيَّضه الله تعالىٰ لهم من مَحلّه الرفيع الذى ألحقه العقلُ نحوَ هذا الكمال، ووطَّأ له مَدارجَ الترقِّى والاِتِّصال؛ فشَفَّتْ نفسُه وشَرُفَتْ، وتطلَّعتْ علىٰ عالَمِ المَلَكُوت وأشرفَتْ؛ وجَنىٰ بيَدِ التَّبصِرَة ثِمـارَ الحِكْمه، وٱستنْزلَ بمَنْزِل المُوادّ غُيوثَ النِّعمه؛ وجَرَّد الضِّــياء من الظلام، تجريدَ الأرواح من الأجسام إلىٰ دار السلام؛ وٱستمَدّ بلطِيفته موائدَ علوم عالَمِ اللَّطافه؛ وأمدّ بمرَكَّب ألفاظها تحا كم الكافَه، وحَلَّ فى الغَبْراء محلَّ الغَرَّاء فى الخَضْراء، إنْ أوضَحتْ سبِيلَ سائرٍ بجنب طريقٍ جائرٍ تُوَصِّل بنزوعها غاشية إظلام، حُسِر عن الحق قِناعُ إبهـام، أوفعلَتْ(١) فى الجواهرِ زيادة وثمرة (؟) أخذت تعاديا(؟)فأذْلَته للهمم العاملة شَرَفًا وسُمُوّا : لما أعلىٰ بذلك من قَدْرها وقَدْرِهم، وطيَّب من ذِكْرها وذِكْرهم؛ وأعطِف إلىٰ الدعاء لداعِى الدُّعاة بأن يجعل اللهُ تعالىٰ

(١) كذا فى الأصلين ولم نهتد الى تثقيفه تأمل .

ماخُوّله من هذه الرِّياسة راهنًا لا يُرتَجع، وما نُوّله من هذه السيادةِ مستقِرًا لاُيُنتَزع؛ وأن يؤيِّده بالتوفيق، ويُعبِّد لهمَنَاهِج التحقيق؛ ويُطْلِق لسانَه بالبيان، ويُمِدّه بُروح منه فى نُصْرة الإيمــان؛ وقد حتَم الله تعالىٰ باجابة داعيه، ولا سيمــا داعى الدُّعاة [فإنه] جدير بأن يُجاب الدعاءُ فيه، إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى " موادّ البيان " : وإنمــا أوردت هذا المثال بهذه الألفاظ، لأن ألفاظ هذا الدّاعى يجب أن تكون مشتقّة من ألفاظ الدعوة، مناسبةً لمَذْهبها؛ ولولا ذلك لأُغنِىٰ عنــه مثالُ تهنئة قاضى القضاة؛ ومن تأملهما عرفَ ما بينهما من الفُرْقان .

الصنف السابع ــ التهنئــة بالتقدمة علىٰ الرجال .

رُقعةٌ من ذلك :

[من حلّ] محــلّ سيدى ــ أطال الله بقاءه ــ من السُّؤْدَد الناطقِ الشَّواهــد، المنتظِم المَعَاقِد، المُتضارِع الطارِف والتالِد، المنتقِل فى الوَلَد عن الوالدــ والمجدِ الذى قَصُر عن مُطاوَلَتِه الطِّرازُ الأوّل، وتَطاطأً له الإنعامُ المخوّل؛ وحاز ماحازه من شَرَف الرِّياسه، وفَضْل السِّياسه، والاْستقلالِ بحقُوق ماتولّاه، وتَسْديد مانوّله وآستكْفاه؛ فتشوّفَتْ إليــه أعالى الرُّتَب، وتشوّقَتْ إليه المنازلُ السنيَّة من كَثَبــ خطبَتْه العُلَا سائقة عنه مَهْرَها، وتَطامنَتْ له مُوَطِّئةً ظَهْرَها؛ فلم يَكْثُرْ له أن يتقدّم علىٰ [أهل] عَصْره فَضْلا عن قبيلته، ويتأمّر علىٰ جميع نَوْعه فضلا عن طائفته : لأنه المقدّمُ عليهم بالرُّتْبة والطَّبْع، لا بالاْصطلاح والوَضْع؛ فشكَر المملوكُ اللهَ تعــالىٰ علىٰ بُزُوغ هِلَاله وإبْراقه، وطُلوعه لميقات العز وتنفاقه؛ وسأله أنْ يجعلَ ماأقرَّ العيونَ من سيادته، وحَقَّق الظنونَ فى سعادته؛ خالدًا راهنــا، ومُقِيمًا قاطِنا؛ وأن يَزِيده من السعاده، ويُرَقِّيَه كلَّ يوم فى دَرَج السياده : لتكونَ هــذه الرتبةُ علىٰ آمتناعِ مَرْقَبها، وآرتِفاع

مَرْكَبها ؛ أوّلَ درجة تخطَّاها ، ومنزلةٍ فرَعَها وعَلاها ؛ ثم لايزالُ راقيا فيما يتلوها حتّى يحتَذِى بكواكب الجَوْزاء ، ويطْحُودارةً على الخُلَفاء ، مُهنَّأً غيرَ منغَّص ، ومُزيَّدا غير منقَّص ؛ والله تعالىٰ يجيب هذه الأدعيةَ الواقعةَ مواقِعَها ، والمستحَقّات الموضوعةَ مواضِعَها .

الصنف الثامن — التهنئةُ بولاية الديوان .

رُقعةٌ من ذلك :

ويُنْهِى أنَّ من حلَّ محلَّ مولانا — أطال اللهُ بقاءه رافلًا فى لَبُوس السَّعاده ، متحَفِّلا بسُلُوس السِّياده ؛ متنقِّلا فى رُتَب المَجْد ، متوقِّلا إلىٰ غَدَنِ(١) الجَدّ ؛ مستوْليا علىٰ شِعَاب العُلَا ، متمكِّنا من رِقاب الأعداء — فى الاستقلال والاضْطِلاع ، والمعرفةِ بحقُوق الاصْطفاء والاصْطِناع ؛ ورفْعة مذهَبِه علىٰ الكِفَاية والغَناء ، والنهوض بثقيل الأعباء ، خطبَتْه التصرُّفات حاملةً عنه صداقَها ، وتشوَّفتْه الولاياتُ مادَّةً إليه أعناقَها ؛ وقد اتَّصل بالمملُوك ماجدّده الله تعالىٰ من سعادتِه ، وأنجزه من موَاعيد سيادتِه ، التى كانت واضحةً فى مَخَايِل فضله ، لائحةً فى دلائل نُبْله ، مكتُوبةً فى صَفَحات الأقدار ، مرقومةً بسَواد اللّيْلِ علىٰ بيَاضِ النهار ؛ فَجذِل المملوكُ بذلك ، جذَلَ الحَمِيم المُشارِك ، وسُرّ به سرورَ الخليطِ المُشَابِك ؛ وليس ذلك لأنَّ الذى تولَّاه موْلانا وجدَ [فيه] خَلَلا فرَقَعه ، وخُمولا فرفَعه ؛ بل لأنَّ الحقَّ غالَبَ الحظَّ فغلَبَه ، والواجبَ سالَبَ المُمْكِنَ فسلَبَه ؛ وأناخَ رِكابَ الرِّياسة فى المحلِّ الخِصْب الذى يحمَدُه و يرتَضيه ، واللهُ تعالىٰ يتفضَّل علىٰ رعيَّته ، المتوطِّنين بفاضل سياسته ، من حِبائِه ولطفه ، ورأفته وعَطْفه ، بما يُسْبِغ عليهم ظلالَ العَدْل ، ويقلِّص عنهم سُدُولَ الجور والحَيْف ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) فى " اللسان " الغدن سعة العيش والنعمة .

قلت : وكتبتُ للمَقرّ البَدْرىّ محمودٍ الكلستانى الشهير بالسَّراى مهنِّئًا له باستقراره فى كتابة السِّرِّ الشريف بالديار المصرية فى الدولة الظاهرية «برقوق» فى سلطنته الأُولىٰ :

رَفَعتَ للمَجْدِ مُــذْ وُلِّيتَ بُنْيـانَا * وشِدْتَ للفَضْل بَعد الوَهْن أركانَا !
وأصـبحَ المُلْكُ فى زَهْوٍ، ومالِكُه * يَمِيسُ عُجْبًا، وهَنَّا التَّخْتُ إيوانَا !
قدِمْتَ مِصْرا فأمسَتْ مِنْكَ فى فَرَحٍ * تَهُـزُّ بالبِشْرِ من لُقْياكَ أرْدَانا !
وغُودِرَ النِّيـلُ مُذْ وَافَيْتَ مُبْتَهِجًا * وقد رَمىٰ الصَّـدُّ والإبعادُ جَيْحانا !
ألفاظُكَ الغُرُّ صارَتْ لِلْوَرىٰ مَثَلا * وكُتْبُكَ الزُّهْرُ بَعْـدَ اللَّثْمِ تِيجانَا !
تَفُوقُ قُسًّـا إذا تَبْـدُو فصاحَتُها * وَتَفْضَحُ المِصْـقَعَ المَلّاقَ سَحْبانَا !
قد أَفْحَمَتْ فى مجَـازاتٍ بلاغَتُهـا * تُرْكًا ورُومًا وبعد الفُرْس عُرْبانا !
كلُّ المَوَالى إذا وَلَّوْا فلا أسَــفٌ * إذ أنْتَ باقٍ، ويُبْـقِى اللهُ مَوْلانا !
مولًى به قــدْ تَشَرَّفْنـا وجَمَّلنَـا * بوجهـــه، ولذِكْرِ القومِ أنْسانَا !

الصنف التــاسع ــ التهنئـــةُ بولاية عمل .

أبو الفَرَج البَبَّغاء :

عَرَّف الله سيدى بركةَ هـذا العملِ الجَليل، بنبيلِ نَظَره الجميل، وحَميدِ أثَرِه المحروس؛ وتناصُر سياسته الشريفة بسِمَةِ رياسته؛ ووفَّق رعيَّتَه لشُكْرِ ماوَلِيَها من فائض عَدْله ومحمودِ فِعْله؛ فالأعمالُ منه ـ أيده الله تعالىٰ ـ بالتهنئة أَوْلىٰ، وبالتَّطاوُل بمـا شَمِلَها من بركات تدبيره أَحْرىٰ؛ والله بكَرَمه يسمَعُ فيه صالحَ الدعاء، ويبلِّغُه أبلغَ مُدَد البقاء، فى أسبَغ نِعْمه، وأرفعِ مَنْزِله، وأصدَق أُمْنيَّه، وأنجح طَلِبَه؛ بمَنِّه .

وله فى مثـــله :

لولا ما يَشْرَكُ التَّهـانِىَ من بركات الدُّعاء الذى أرجُو أنْ يسمعَ اللهُ فيك صالِحَه، ويُجيبَ أحسَنَه، لأجلَلْناك عن التَّهنئة بمستَجِدِّ الأعمـال، ومستَحْدَث الوِلَايات، لقُصُورها عن ٱستِحْقاقِك، وٱنحطاطِها وإن جلَّتْ عن أيْسَرِ واجِبـاتك، وتعجُّلها بمأْثُورِ كِفَايتك، وبركاتِ نَظَرك، ومواقِع إنصافِك. فهنَّأك اللهُ نِعمةَ الفَضْل التى الولايةُ أصغَرُ آلاتها، والرِّياسةُ بعضُ صِـفاتها، ولا أخْلاكَ من مَوْهِبَةٍ مُجَدَّده، ومِنْحةٍ مُؤَبَّده.

وله فى مثـــله :

سيدى ـ أيده الله ـ أرفَعُ قَدْرا، وأنْبَهُ ذِكْرا، وأعظَمُ نُبْلًا، وأشهَرُ فَضْلا، مِنْ أنْ نُهَنِّئَه بوِلَاية وإنَّ جَلَّ خَطَرها، وعَظُم قَدْرها، لأنَّ الواجبَ تهنِئةُ الأعمال بفائِض عَدْله، والرَّعِيّة بمحْمُودِ فِعْـله، والأقاليم بآثارِ رِيَاستِه، والولايا تِ بسِمَات سِيَاستِه، فعرَّفه اللهُ يُمْنَ ماتولَّاه، ورعَاه فى سائر ما ٱسْتَرْعاه، ولا أخْلاه من التوفيق فيما يُعانيه، والتسديد فيما يُبْرِمه ويُمْضِيه.

الإجوبة عن التَّهانِى بالوِلَايات

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكُتُب إذا ورَدَتْ، وجبَ علىٰ المُجيب أن يستَنْبِط من كل كَتَاب منها المعنىٰ الذى يُجيب به. قال : والطريقةُ المستعملةُ فيها أنَّ كتابَ المجيب يجب أنْ يبنىٰ علىٰ أن المهَنِّىَ قسيمٌ فى النِّعمـة المتجدّده، وشريكٌ فى المنْزِلة المســتَحْدَثة، وأن الحظَّ الأوفَرَ فيما ناله المهَنَّى للمهَنِّى وببركةِ دُعائه، وتوقعه لمـا يَرِدُ

من حاجاته وتَبِعاته لينفِّـذَها ، نازلا علىٰ أخلص مخالصته ، وعاملا بشُروط مَوَدّته ؛ ونحو هــذا ممـا يضارعه . فإن كان المجِيبُ رئيسا أو مرءُوسا ، وجب أن يرتّب الخطاب علىٰ ماتقتضيه رتبةُ كلِّ واحد منهما .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع :

وردَتِ المُشرِّفةُ الكريمـةُ ، أتمّ اللهُ علىٰ مُرْسِلِها نعمتَه ، وأعلىٰ قدْرَه ومنزِلتَـه ؛ وجعل جَناحَ العِـدا مخفوضا ، وعَيْشَـه فى دَعَةٍ وخَفْض ، وقدْرَه للتمييزِ مرفوعا ، وعدُوَّه للتقصير فى ٱنحطاط وخَفْض ؛ فتلقّاها باليمين ، وظنّها الريحَ الجنوب لما تحمّلتْه من رِقّة الحَنين ؛ وعلِمَ ما أبْداه فيها من تفضُّلاته ، وٱعترَف بالتقصير عن مُجاراته ومُجازَاته ؛ فشنّفَ سْمعَـه بألفاظٍ كأنّهنّ اللُّؤلؤ والمَرْجان ، وبيَّنتِ البَوْنَ الذى بيْنَه وبَيْن غيرِه تلكَ الفصاحةُ والبَيَان ؛ وقابل أياديَهُ بشُكْرِ لسانه ، وجازاه بحُسْن الدُّعاء عن إحْسانه ؛ ولا يقومُ بشُـكْر فضـلِه اللسانُ ولا الجُثمان ، وهلْ جَزاءُ الإحْسانِ إلّا الإحْسان؟ .

فأمّا ماأشار إليه من الهَنَاء بالمكان الذى تولّاه ، وأبداه من المحبّـةِ التى اوجبَتْ عليه أن يتَوالاه ؛ فاللهُ تعالىٰ يُعينه علىٰ ماهو بصَـدَدِه ، ويجعلُ الحقّ والخير جاريَيْنِ علىٰ لسانه ويَدِه ؛ ويرزُقه ٱتباعَ محكَم كتابِه وسنّةِ رَسولِه ؛ ويُحصِّلُ له من الرُّشْد غايةَ سُوله ومأْمُوله ؛ فإن هـذه الولايةَ صَـعْبةُ المِراس ، وجَوادَها كثيرُ الشِّماس ؛ لٰكن ببركات المَوْلىٰ يحصُل من الله الأَرَب ، ويَسْهُل لأوليائه القصدُ والإسعادُ والطّلَب ؛ أدام اللهُ ظلّ المولىٰ وأسـعَدَه ، وأوضح لَدَيْه طريقَ السـعادةِ ومهّـده ؛ ومنَحَه من الألطاف الخفيّة أفضلَ ماعوّده ؛ بمنّه وكَرَمه .

الضـــرب الثـانى

(التهنئـــةُ بكرامة السلطانـــ وأجوبتُهـا)

وفيـــه ثلاثة أصـــناف :

الصنف الاوّل — التهنئةُ بالإنعام والمَزِيد ولُبْس الخلعَ وغير ذلك .

من كلام الأقدمينــــ :

ويُنْهِى أنه ٱتَّصــل بالمملوك ماأهَّل مولانا السلطانُ مَوْلانا لَهُ : من المحلِّ السَّنِىّ، والمكانِ العَلِىّ، الذى لم يزَلْ موقُوفًا عليه، متشَوّفا إليه؛ نافِرًا عن كلِّ خاطبٍ سِواه، جامِحًا علىٰ كلِّ راكبٍ إلَّا إيَّاه؛ فأقرّ اللهُ عينَ المملُوك بذٰلك لِصِـدْق ظنه، وعلم أنَّ ماأصاره اللهُ تعالىٰ إليـــه من هذهِ المنْزِلة المُنِيفه، والرُّتبة الشريفـه، مَدْرَجةٌ تُفْضِى إلىٰ مَدَارج، ومَعْرَجة تنْتِهى إلىٰ مَعَارِج؛ والله تعالىٰ يَزِيدُ مَعالِيَه عُلُوًّا، ويُضاعف محلَّه سُمُوًّا، بمنِّه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنه — ويُنْهِى أنه ٱتّصـل بالمملوك نَبأُ المَوْهِبَة المتجَدِّدة لديْه، والنعمةِ المُسْبَغةِ عليه؛ وما ٱختَصَّه به مولانا السلطانُ من الاصْطِفاء والإيثار، والاجتِباء والاخْتِيار، وتقديمِه للرُّتْبة الأَثِيره، والإنافةِ إلىٰ المَنْزِلة الخَطِيره؛ فسُرَّ المملوكُ للرِّياســة إذْ أحلَّها الله تعالىٰ فى محلِّها، وأنزَلَها علىٰ أهلِها، ووصَلَها بكُفْئِها وكافِيها، وسَلَّم قوْسَها إلىٰ رَامِيها؛ والله تعالىٰ يجعلُ هذه الرتبةَ أوّلَ مِرْقاة من مَرَاقِى الآمال، ومكبِرَ الرُّتَب التى يَفْرَعُها من رُتَب الجَلَال، إن شاء الله تعالىٰ .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

أدامَ اللهُ أنصارَه، وجعل التَّقْوىٰ شِعَارَه، وألْبَسه من المَحامِد أكرمَ حُلَّة، ونوّلَه من المَكارم أحْمَدَ خَلَّه، ولا زالتِ الخِلَع تتَشرَّف إذا أُفيضتْ عليه، والمدائحُ تُسْتطاب بذكره لاسِيَّما إذا أُنْشِدتْ بيْنَ يَدَيْه .

الخادمُ يُنْهِى إلىٰ عِلْمِ المَوْلىٰ أنه اتَّصل به خَبرٌ أهْدىٰ إليه سُرورا، ومَنَحه بَهْجَةً وحُبُورا : وهو ما أنعم به المولىٰ السلطانُ خلَّد الله سلطانَه، وضاعفَ إحسانَه : من تشريفه بخِلْعته، وما أسْبغَهُ عليه من وَارِف ظِلّه ووافِرِ نِعْمته، وأبداه من عِنايَتِه بالمولىٰ ومحبَّتِه، وقد حصَلَ له من المَسَرَّة ما أجْذَله، وبَسَط فى مُضاعفةِ سَعْدِ المولىٰ أمَلَه، فإنه بلَغه أنَّ هذه الخِلعةَ كالرِّياض فى نَضَارتِها، وحُسْن بَهْجتِها، وأنها كُلَّما بَرَقتْ بَرِقَ لها البصَرُ، وظَنَّها لحُسْنها حديقةً وقد حَدّقَ إليها النظَر، وقد جمعَتْ ألوانَ الأزهار، وأرْبىٰ ناسجُها فى اللُّطْف علىٰ نَسَمة الأسحار، وأسكنَتْ حُبَّها حبَّاتِ القلوب التى فى الصُّدور، وسمَتْ عن المَدْح برائقِ المنظُومِ وفائقِ المنْثُور، وأن ٱبنَ سُلَيْمانَ(١) لو رآها، لٱعترف بأنَّ فى لُبْسها لكلِّ فتًى شرفًا لاريْبَ فيه، ونَسَب البيتَ المنسوبَ إليه إلىٰ أعادِيه، وأنَّه لو نظَر نَضْرةَ نُضارِها لما جعل لها فى الحُسْن نَظِيرا، ولو ألْقاها علىٰ وَجْهه لٱرْتَدَّ لوَقْته بَصِيرا، فلِذٰلك أصدر هذه الخدمةَ مهنِّيَه، ومُعْرِبةً عما حصل له من الفَرَح ومُنبِّيَه، ولجِيدِ مَدْحه العاطلِ من مثل هذه الألفاظ مُحَلِّيَه، نوّلَهُ اللهُ فى كلِّ يوم مَسرّةً وبُشْرىٰ، وأجرىٰ له علىٰ الألْسُن حمدًا وشُكْرا، وجعله لكلِّ خيرٍ أهلا، وشَكرله تفضُّلا شاملًا وفَضْلا، ومتَّعه من العافية بلباسٍ لايَبْلىٰ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) مراده أبو العلاء المعرى أحمد بن سليمان .

الصنف الثـانى ــ التهنئةُ بِرضا السلطان بعد غَضَبه .

فمن ذلك :

وتُنْهِى أنه آتَّصـل بى ماجَدّده اللهُ تعالىٰ لمولاى ــ أطال الله بقاءه ــ من حُسْن عاطفة مولانا أميرِ المؤمنين ــ خلَّد الله ملكه ــ وآنعطافه عليه بعْـدَ آنْصرافه؛ وإعادتِه إلىٰ رُتْبته التى نَشَزتْ عنه دَلَالا لا مَلالا ، وهجرْته هَجْر المستصْلِح المستعْتِب ، لا هَجْرَ القالِى المتجنِّب ؛ وكيْفَ تَقْـلاه ، وهى لا تجِـدُ لهـا كُفُؤًا سِواه ؛ ولتوقُّع المملوك بما وقع من هذه الحال ، وعلْمِه أنَّ عَوْدها إليه كعودة المُودَع [إلىٰ مُودِعه ،] لاعَوْدةِ المنتَجِع إلىٰ مَرْبَعه ؛ وأنَّ الذى وقَع من الآنْحراف إصلاحٌ باديه تهـذيبٌ وتَقْوِيم ، وخافِيه توقيرٌ وتعظيم : لِمَـا فى عِتَاب أمير المؤمنين من شَرَف الرُّتْبـه ، والدِّلالةِ علىٰ آسـتِقْرار الأَثْرة والقُرْبه ؛ وحُلولِه مَحلَّ الصِّقال ، من أبْيض النِّصال ، والثِّقَاف من العَسَّال ؛ ولا سِيَّما ورياسَـتهُ محفُوظه ، وسِـيادتُه ملْحُوظه ؛ وهيبتُه فى النُّفُوس ماثِلَه ، وجَلَالته فى القلوب حاصِـلَهْ ؛ ولم يرِ(١) المملوكُ أجلَّ مَوْهِبَةً من الله سبحانه من شكر يستَرْهِنُ هـذه النعمةَ ويخلِّدها ، وحمدٍ يرتَبِطُها ويقَيِّدها ؛ ورغبتُ إلىٰ الله سبحانَه أنْ يجعلَ هـذا العِزَّ الحادثَ لابِثًا لا يتحوّل ، والسعدَ الطارِف ماكِثًا لا ينتَقَّل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنَّ من عادةِ الزمان أن يَكِفَ سَحـابُه ثم يَكُفّ ، ويَرِفَ نَبـاتُه ثم يجِفّ ؛ ويَدِرَّ حَلَبُه ثم ينْقَطِع ، ويُقْبِـلَ خَيْرُه ثم يرتَجِـع ؛ إلا أنَّه إذا سلَبَ النعمةَ ممن يَسْـتوجِب إمرارَها عليه ، وآنتزع المَوْهِبَة ممن يستَحِقُّ آستِمْرارَها لَديْه ؛

(١) لعل الواو زائدة و يكون متعلق اللام فى قوله «ولتوقع» الخ تأمل .

كانَ كالغالِط الذى يُراجع نفْسَه فيندَمُ علىٰ مافرَط، ولا يلبثُ أن يستَدْرِك الغَلَط؛ مُعقبا نَبْوته بإنابَته، متعقِّبا هفوته باستِقالَته؛ ماحِيا إساءته برَأْب ماثَلم، وأَسْوِ ماكَلَمْ؛ وإصْلاحِ ما أفْسد، وتأليفِ ماشَرَّد . فلا جَرَم أنَّ النفُوسَ بإقبالِه علىٰ مَنْ هذه صِفَتُه واثِقه، والآمالَ لِانصرافه إلىٰ مَنْ هذه صورتُه متحَقِّقه؛ وإذا سَلَبها هَرْولَ فى إيداعها لديْه، وأخذ [فى] إفاضَتِها عليه . وما زال المملوكُ ـ مُذْ عاملَ الزمانُ مولانا بسُوءِ أدَبِه، ونأىٰ عنه بجانبِه؛ وقبَضَ بنانَه، وغَيَّر عليه سُلطانَه ـ عارفاً أنَّ هذه الفَعْلة فَلْتةٌ من فلتَاته التى يتوقّٰى شَرَّها، ولا يرجعُ إلىٰ مثلها؛ وأنَّ الاسْتِبْصار، يقُودُه إلىٰ الاعْتِذار، والاضْطِرار، يحْدُوه علىٰ ردِّ ما انتزعه بالإجْبار : لأنه لا يجِدُ من يحُلّ محلَّ مولانا فى ارتباطه بإيناسه، وتعهُّده بسَقْى أغْراسه؛ وقيامِه بشُكْره، وتزكيته ببِرِّه ـ متوقِّعا لأن تتيَقَّظ عينُه، وينْكشِفَ رَيْنُه؛ فيرىٰ ماصنعَتْ يَدَاه، ويبادِرُ لاستقالة ماجَنَاه؛ حتّٰى طرق البشيرُ بما سَهَّله الله تعالىٰ مِنَ انحِسار الكُرْبه، وعَوْد مولانا إلىٰ شَرَف الرُّتْبه؛ وصلاحِ مافَسَد، وعَوْدِ السلطان أعزَّ الله نصره إلىٰ ماعَهِد؛ ورُكُونه إلىٰ حضرته، وانْقِلابِه عنه رافلاً فى تشريفِه ومكْرُمته؛ فكانَ معتقَدُ المملوكِ فيه هِلالاً فى السِّرار فأهَلّ، وجَنِينا فى الحَشَا فاستهَلّ؛ فاستَوْلىٰ علىٰ المملوكِ من السُّرور ما عَمّ جَوارِحَه، وعَمَر جَوانِحه؛ وأطار بجَنَاح المَرَح، وألبس حُلَّة الفَرَح؛ إذ ما جَدَّده الله تعالىٰ له من السعادة يحُلُّ به فى العُموم، محَلَّ الغيثِ السَّجُوم؛ لأنَّه حرَسَ الله عزَّه لايستأثِرُ بعَوارِف الله عنده، ولا يكُزُّ علىٰ عطاياه يَدَه؛ بل يمنَح ممّا مُنِح، ويُولى ممّا تَولّٰى، ولا يَضِنُّ بمالٍ ولا جاهٍ، ولا يقْعُد عمن أمَّله ورَجَاه؛ والله تعالىٰ يجعلُ ذٰلك ممّا أقرَّبه العُيون، وصدَّق فيه الظُّنون؛ لاتُخْلِقُه الأيام ولا تُبْليه، ولا تَزْويه الحوادثُ ولا تؤثِّر فيه؛ إن شاءالله تعالىٰ .

الصنف الثالث ــ التهنئة بالخلاص من الاعتقال .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

جدّد اللهُ سعدَه، وضاعف جَدّه، وأنْجح قَصْدَه، وأعذَب مَنْهلَه ووِرْدَه، ولا انفكَّت الأيَّامُ زاهيةً ببَقائِه، والأنْفُس مسرورةً بِارتِقائه إلىٰ رُتَب عَلْيائه . أصدرها تُفْصِح عن شَوْقٍ يَعْجِز عن سَوْقِه الجَنَان، ويقْصُر عن طُوله اللِّسان، وسُرورٍ تزايَد حتّى أبكاه، ولاعج بمشاهَدةِ طَلْعتِه السعيدةِ أغْراه، وتُهنِّيه بما جدّد الله له بعد الاعتقالِ من الفَرَج والفَرَح ، ومَنَّ به بعدَ ضِيقِ الخَواطِر من الابتهاج والمَرَح؛ فهذه المسرّةُ ماءٌ زُلالٌ بَرَد بها الأُوَام ، وإنعامٌ عامّ، حمِد اللهَ عليها الخاصُّ والعامّ؛ فالحمدُلله الذى عوّضه عن مَأْتَم الحُزْن بما تَمَّ من السرور، و[عن] الهَمِّ المانِع عن الوُرُود والصُّدور بانْشِراح الصُّدُور؛ فإنَّ القلوبَ شَعَفَها حبُّه وشغَفَها ، وضاعَفَ لتعويقه أسَاهَا وأسَفَها؛ بحيث اعترىٰ المَناطِقَ قلقٌ وعلاها اصْفِرار، وعُطِّلت يدُ كل غانية من الحُلِيِّ فما ضمَّها قُلْبٌ ولا سِوَار ؛ ولبِس الخُطباء حزنا وأُلْبِسَتْه المحابِر، وكادت لغَيْبَتِه وفقْد اسمِه تندُبُه الجوامعُ وتَبْكيه المَنَابر؛ خلَّد الله سعادتَه، وسهّل له من خيْرى الدنيا والآخرة قَصْده وإرادتَه؛ بمنِّه وكرمه .

الأجوبة عن التهنئة بكرامة السلطان ورضاه بعد غضبه

قال فى "مواد البيان" : يجب أن تكون أجوبةُ هذه الرِّقاع مُودَعةً من الثناء علىٰ المهنِّى ــ لمحافظته علىٰ رُسوم المَودّة وقيامِه بشُروط الخُلَّة ــ ماتقتَضيه رتبتُه ورُتبةُ المُجيب ، وأنّه مشاركٌ له فى متجدّدِ النعمة ، مُفاوِضٌ فى حديث المَسَرَّة ؛ والتيمُّن بالدعاء، ونحو هذا مما يحسُن موقِعُه عند المبتدئ بالهناء؛ ويضَعُه بحيثُ وضَع نفسَه من الاختصاص بمَنْ كاتَبه .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع : [جواب] هناء بخِلْعة :

أدام اللهُ عَلاءه ، وشَكَر آلاءه ، وضاعف سَـناءه ؛ وحمِد مِنَنه التى أثقلتْ لكلّ مُعتفٍ ظَهْرا وخففتْ هَمّا ، وأنالتْ لكلّ ولىٍّ نصيباً من عوارفها وقِسْما . المملوكُ يُنْهِى إلىٰ العلم الكريم وُرودَ المكاتبة التى كَسَـتْها يدُه حُلّةَ جَمَال ، وألبسَـتْها ثوبَ إفْضال ، وأعَـدَّتْها بكَرَمهـا ، وحسَّنتْ وجْهَها بلِسان قلمِها ؛ فأمطرَتْه سَحاب جُودٍ أرْبىٰ علىٰ السَّحاب الهَتُون ، وأوقفَتْه منها علىٰ ألفاظٍ كأمثالِ اللُّؤْلؤ المكْنُون ؛ فآجتنىٰ ثِمـارَ الفضائلِ من أغصانِها ، وآجتلىٰ عَرُوسَ مَحَاسنها وإحْسانِها ؛ وفهِمَ ماأشار إليه من التهنئـةِ بالخِلْعة التى أنعم المولىٰ بها علىٰ خادمه (١) وتَصدّق ، وحقّق الأمَلَ فى مكارمه وصَدَّق ، وإنعامُه خلَّد اللهُ دولتَه ، وأعزَّ نُصْرته ، قد كَثُر حتّىٰ أخجله ، وميَّزه علىٰ كثيرٍ من مماليكِ بيتهِ العالِى وفَضَّله ؛ وأنالَهُ من المَنْزِلة ماسَمَابها علىٰ أمثالِه ، ورَقِىَ بها بعدَ رِقَّةِ حاله ؛ فاللهُ يخلِّد سـلطانَه ، ويثبِّت بالسعادة أركانَه ؛ وهذا بسعادةِ مولانا ومُساعدتِه ، ومعاوَنتِه ومعاضَدتِه : فإنه كان السببَ فى الاتِّصال ببابه أوّلًا وآخِرا ، وممَّن أغاثَهُ بذٰلك وأعانَه عليه باطِنًا وظاهِرا .

وكلُّ خيرٍ توخَّانِى الزَّمانُ به * فأنتَ باعثُـهُ لِى او مسبِّبُهُ

---

(١) فى الأصول أتم الله بها مخدومه ، ولا معنى له تأمل .

الضـــرب الثالث

(من التهانى التهنئـــة بالعَوْد من الحجّ)

وهذه نسخ من ذلك يُنْسَج علىٰ مِنْوالها .

فمن ذلك :

ويُنْهِى أنه طرقَ المملوكَ البشـيرُ بِعَوْد مولانا ـ أطال الله بقاءه ـ من مَقَام الطائفين ، إلىٰ مَقَام المعتَفِين ؛ وأوْبتِـه من كَعْبة الإحرام ، إلىٰ كَعْبـة الإكرام ؛ وتنقُّلِه من مَوْقِف الحُجَّاج ، إلىٰ موْقِف المحتاج ؛ وحُلُوله بمنزله الذى هو قبلةُ ذَوِى الآمال ، ومحطُّ الرِّحال ؛ بالسَّـعْى المشكور ، والحجِّ المبرُور ؛ والنُّسُك المقبُول ، والأجْرِ المكتُوب ؛ فحمِدتُ الله تعالىٰ علىٰ موْهبتِه ، وسألتُه زيادتَه من مَكْرُمتِـه ؛ وآستنجَحْت هـذه المكاتبةَ أمامَ ما أرومُه من مشاهَدتِه ، وأرجُوه من الاستِسْعاد بملاحَظَتِه ؛ وبَرْد أُوَار الشوق بمحاضَرَته ، ومجدِّدًا عُهودَ التيمُّن بمباسَمَته ؛ فإن آقتضىٰ رأيُه العـالى أن يُعرِّف المملوكَ جملةً من خبره فى بَدْئِه وعَوْده ؛ ومنقَلبِه ومتوَجَّهه ؛ وما تفضَّل اللهُ تعـالىٰ به من أمانِ سبيله ، وهِدايةِ دليله ؛ وتخفيفِ وَعْثاء سـفرِه ، وتسْهيل وَطَرِه : لِأسْكُنَ إلىٰ ذلك إلىٰ حِينِ التمثُّل بنَظَره ، فله الفضـلُ فى ذلك . والله تعالىٰ يبلِّغه سُوله ، ويوَصِّله مرادَه ومأمُولَه ؛ بمنِّه وكرمه .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنَّ مولانا لايزال حاجًّا إلىٰ كعبة الحرَم ، أو كعبَةِ الكَرَم ؛ وطائفاً بشـعائر الوُفُود ، أو بشَعائر الجُود ؛ وواقفًا بموقِف الاِسـتِفْتاح ، أو موقِف السَّماح ؛ وناحِرَ البُدْن بِمَنى ، أوناثِرَالبِدَر للُنَىٰ ؛ فلا يرتفِع فى حالٍ من الأحوال بِرُّه ، ولا ينقطِعُ عن الله

تعالىٰ ذِكْرُه ؛ ومَنْ كان بهذه المَثَابه، فى إحراز الأَجْرِ والإنَابه ؛ فهو حقيقٌ أن تُعْمَر بالتهنئـةِ أوقاتُه وأزمانُه ، كما عَمَرها سـعيُه وإحسانُه ؛ وقد عرَف المملوكُ ٱنْكِفاءه ـ أدام الله علُوَّه ـ عن مَقام الطائفين والعاكفين ، إلىٰ مَقام القاصدِين والمعتَفِين ، وعوْدَه إلىٰ منْزِله المعمُور، بعد قَضائه فريضةَ السَّعْيِ المشكُور؛ فعدَلْتُ فى مخاطَبته عن الهناء إلىٰ الدعاء بأن يتقبَّل اللهُ تعـالىٰ نُسُكَه ويثَقِّل ميزانَه ، ويُطْلِق فى حَلْبـةِ الخيرات عِنَانَه؛ ويُحْيِيَه لأجرٍ يُحْرِزه، وثواب يكْنِزُه؛ والله تعـالىٰ يُجِيبُ ذٰلك فيه، ويُرِيه فى نَفْسه وأحِبَّته مايرتَضِيه .

ومن ذلك :

وتُنْهِى أنَّه قد طرَقَنِي البشير بٱنكفَاء مولانا إلىٰ مَقرّ علَائه ، وٱنفِصاله عن مَلَاذِ النُّسَّاك والعُبَّاد، إلىٰ مَعَاذِ الزُّوَّار والقُصَّاد؛ فعرفْتُ أنَّ ذلك النسيمَ العليلَ من تِلْقائه ، وذٰلك النُّورَ الصادِعَ من آلائه ؛ وذٰلك الأَفْترارَ من أَسِرَّته ومخَايِله ، وتِلكَ العُذُوبةَ من شِيَمِه وشمائله ؛ فكاد المملوكُ يطير ـ لو طار قَبْلِي غيرُ ذِى مَطار ـ فرَحا، وأَخْرِقُ الأرض وأَبْلُغُ الجبالَ لو أمكن ذلك مَرَحا ؛ وٱنفتَحَ قلبى حتّٰى كادت مهجَتُه تَفيضُ سُرُورا ، وطاشَ حِلْمِي حتّٰى تفرّق مجموعُه بَهْجَةً وحُبورا ؛ والله تعالىٰ يجعل نِعمَـه موصولةَ الحبل، مجموعةَ الشَّمْل؛ بمنِّه وكرمه .

أبو الفرج الببَّغاء :

جعل اللهُ سَعْيك مشكورا، وحجَّك مبْرورا؛ ونُسُكَك مقبُولا، وأجْرك مكتُوبا؛ وأجزَلَ من المَثُوبة جزاءَك،ومِنْ عاجلِ الأجْرِوآجِله عطاءَك؛وقَرَن بالطاعاتِ عَزَماتِك، وبالسَّعْيِ إلىٰ الخير نَهضاتِك؛ ووَفَّقك من صالحِ الأعمال، وزَكِيّ الأفْعال، لمـا يجْمَعُ كلَّ خيرِ الدارين . ولمـَّا طرقَتْنى البشارةُ بقُدومك ، بدأتُ بإهداء الدعاء ، وتجديدِ

الشكر لله تعالىٰ والثَّناء، وٱستنبْتُ فى ذلك المكاتَبَه، أمامَ ما أنا [عازم] عليه: من المُشافَهَة والمُخاطَبه؛ ولن أتأخَّرعن حظِّى من المسير إليْك للتيمُّن بالنظر إلىٰ غُرَّتك، ومداواة ماعانيتُه من ألَم الشوقِ بمُشاهدَتِك.

الضـــرب الرابع
(من التهانى، التهنئةُ بالقُـــدُوم من السَّفَر)

من كلام المتقدّمين :

علىّ بن خلف :

ويُنْهِى أنَّه ٱتَّصـل بالمملوك خبرُ توَجُّهه[1] إلىٰ الناحية الفلانيـة، فعرَفَ المملوكُ أنه قصَـدَها لِيخُصَّ قاطِنيها، بنصيبٍ من مَوَاهِبـه؛ ويُفِيضَ علىٰ ساكنيها، سِجالًا من رَغَائِبه؛ ويَسَوِّىَ بينهم وبين مَنْ راشَه بِحِبَائه، وجَبَرَه بنوافله وآلائه؛ فسألتُ الله تعـالىٰ أن يُطيلَ عُمُر المَكارِم بإطالة بَقائِه، ويجمَعَ شَمْلَ السُّؤدَد بدَوام عَلَائه؛ ثم ٱتَّصل بى عودُه إلىٰ مَقَرّه، خَفيفَ الحقائِب من وَفْره، ثقيلَها من ثَنائِه وشُكْره؛ فحمِد المملوكُ اللهَ تعالىٰ علىٰ إسْفارِ سَفَرِه عن بُلُوغ الأوْطار، وٱنحسارِ أُمنِيَّته عن أذْيال المَسَارّ؛ وما خصَّه به من السَّـيْر الشَّحِيح، والسَّعْى النَّجِيح؛ والسَّلامةِ المفرَّقة علىٰ الوِجْهة والمنقَلَب، والمفتَتَح والمعتقَب؛ ولمَّـا عرض للمملوك ماقطَعه عن مُشافَهته بالدعاء، رفعَ يَدَه إلىٰ الله تعالىٰ ضارعًا لدَيْه فى أن يتولَّاه فى هــذا المَقْدَم الميمون، بالسعْد المَضْمُون؛ وإنالة الأمانِىّ المُقِرّة للعُيُون؛ وأن يمنحَه فى الحِـلِّ والتَّرْحال، والقَطْن[2] والاْنتِقال، توفيقًا يقارِنُ ويُصاحِبُ، ويُسايِرُ ويُواكِب؛ وأنْ يجعلَ ماخَوَّله من نعمة راهنًا خالدا، وما أوْلاه من مَوَاهِبه بادِئًا عائِدا؛ إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) فى الأصل وجهته وهو تصحيف إذ الوجهة الناحية والجهة وهو غير مراد كما لا يخفى .

(٢) مصدر قطن فى كتب اللغة التى بأيدينا علىٰ فعول لا علىٰ فعل .

وله أيضـــا :

ويُنْهِى أنه طَلَع عليه البَشير، طُلوعَ القمر المُنير ؛ مُؤْذِنا بمَقْدَم حضرته ، ومُعْلِما بظُهور طَلْعتـه ؛ وحُلُوله فى مَعَانه(١) الذى هو مَعَان الإقبـال ، وعَوْن الرجال؛ وقرارة الأقْيال، ومَحَطُّ الرِّحال ؛ وقبلةُ الجُود، ومُعرَّس الوُفُود ؛ فسألتُ الله تعالىٰ أن يُبقيه جمالًا للأيَّام ، وثِمـالًا للأنام ؛ وعِمادًا للقُصَّاد، ومَرادا للرُّوَّاد؛ والله تعالىٰ لا يُخْليه فى تصرُّفاته، وجميع حركاته وسكَناته؛ من سَعْى سعيد، وعيشٍ رَغِيد؛ بمَنِّه وكرمه .

أبو الفرج الببَّغاء :

مَن كانتْ غَيبـةُ المكارم مقْرونةً بغَيْبتِه ، وأَوْبَةُ النِّعم موصولةً بأَوْبته ؛ سافرتِ الأنفُس حيثُ كانَ إليـه ، وقَدِمتِ الآمالُ عند قُدُومه عليـه ؛ وما زالتِ الأنفُس إلىٰ الأُمْنِيَّة بقُرْبه متطَلِّعـه ، ولوُرُود السُّرور بوُرُوده متوقِّعه ؛ إلىٰ أنْ أنِسَتْ بعد الوحشة بِلقائه، وتَنَسَّمَتْ أرَجَ مَنِّه ونَعْمائه؛ فوصلَ اللهُ قُدومَه من الكَرامه، بأضعاف ما قَرَن به مَسِيرَه من السَّلامه ؛ محروسًا من طَوارِقِ الغِيَر ، مبلَّغا أبعَدَ العُمُر .

وله فى مثـــله :

مَنْ كانت مادَّةُ سُرُوره، بمَغيبه وحُضُوره ؛ لم يجِدْ مع بُعْدك مُؤْنِسا يسْكُن إليه، ولا عِوَضا يعوِّلُ فى السَّلْوة عليـه؛ وما زلتُ أيامَ غَيْبتك ـ لا أوحشَ اللهُ منـك ـ بالوَحْدة مستأْنِسا، وبالشَّوق إليكَ مُجالِسا ؛ أُلاقيك بالفِكْر، وأشاهِدُك باتِّصال الذِّكْر؛ إلىٰ أنْ منَّ الله مِنْ أَوْبتك بمـا عَظُمت به النعمه ، وجَلَّت لدَىَّ معه المَوْهِبَه؛ فوصـلَ اللهُ بالسلامة نَهَضاتِك، وبالسعادة حَركاتِك، وبالتوفيق آراءَك وعَزَماتِك؛ وحرسَنِي ببقائك وبقاءِ النعمة عِنْدك، وهَنَأنى النعمةَ الجليلةَ بقُرْبك .

---

(١) فى القاموس واللسان «المعان المباءة والمنزل» وأورداه فى مادة م ع ن .

وله فى مثـــله :

مَنْ كنتَ نِهـايةَ أمنيَّته ، وقُطْبَ مَسَرَّته ؛ كان من نَفْسه مستوحِشا مع بُعْدِك ، وبدَهْرِه مســتَأْنِسا مع قُرْبك ؛ وما زِلْتُ معــك بالنِّيَّة مُسافِرا ، وبالشَّوق سائِرا ؛ وبالفِكْرِ ملاقِيـا ، وبالأمانِيِّ مُناجِيا ؛ إلىٰ أن جمعَ اللهُ شملَ سُرورِى بأَوْبتِـك ، وسَكَّن نافِرَ قلَقِى بعَوْدتِك ؛ علىٰ الحـال السارّة من كمال السَّـلامه ، ووُفُور الكُلْفه ؛ فأسـعدكَ اللهُ بمَقْدَمكَ سـعادةً تكونُ بها من الزمان محْروسا ، وللإقبال مُقابِلا ، وبالأمانِيِّ ظافرا ؛ ولا أوحش اللهُ منـك أوطانَ الفضل ، وعَضَّد إخوانَك ببقائِك وبقاء النعمة عندك .

وله فى مثـــله :

لوكان القلبُ يجِدُ عنــك مُنْصَرَفا ، أو يرىٰ منــك فى ٱكتسابِ المسَرَّة خلَفا ؛ لٱستراحَ إليه من ألَمِ بُعْدك ، وٱستنْجدَه علىٰ مَرارة فِراقك ؛ لٰكنَّك أيَّدكَ الله جملةُ مسَرَّته ، ونهايةُ أُمنِيَّته ، فليس تتوجَّه أمانِيُّه إلَّا إليك ، ولا تَقِفُ آمالُه إلَّا عليك ؛ فالحمدُ لله الذى أقرّ بفَيْئَتك أعيُنَ إخوانك وأوِدَّائك ؛ وافَاكَ اللهُ من السَّعادة فى أَوْبتك أضْعاف ما ٱكتنفَكَ من الكِفَاية فى ظَعْنك .

اِبن أبى الخِصال :

سَرّ اللهُ مولاى ورَئِيسى ، ورَبَّ تشريفى وأَنِيسِى ؛ بلِقَـاء الأحْباب ، وٱتِّصال الأسْـباب ، وأَوْبةِ الغُيَّاب ؛ ولا زالتِ الأيامُ تتصنَّع لإقْباله ، وتُقَبِّـله أوجُهَ العِزِّ فى ٱقتباله ؛ وتُوفيه علىٰ رغم الحاسد حَقَّ جَلَاله .

البُشْرىٰ ــ أدام الله ٱعتزازه ــ بمَقْدَم الوزير فلان قد أوضعَتْ ركابُها ، وٱتَّصل بالنفوس أعْلاقُها وأسبابُها ؛ فهنيئًا مَعْشَرَ الأولياء بسُبُوغ هذه النعمة الجليله ، والمِنْحة

الجزيله، ولا أستوفى شكْرَ مابه أتىٰ مُعَظِّم قَدْره، وملتزِمُ بِرِّه؛ من ثناءٍ كعَرْفِ الطيب يُهْدىٰ، ومَذْهَب فى الإنهاض لا يُقْضىٰ واجبُه ولا يؤدّى ؛ ولا زالتْ حياةُ مولاىَ تُفَدّىٰ، وأفعالُ بِرِّه تتعدّى؛ وقد لثَمْتُ مواقِعَ أناملِه وُدًّا، ووردْتُ من محَاسن بيانِه مَنْهَلا عَذْبا [ووِردا] فأمتعنِي اللهُ بحياته العزيزةِ الأيَّام، الطيِّبة الإلمـام، الموصولةِ العهدِ والذِّمام؛ وأقرأُ علىٰ سيدى من سَلَامى مايلثِمُ يدَه، ويقضى حقَّ اليراع [الذى] أنشأ به البر وولَّده، والسلامُ المعادُ عليه وعلىٰ جملته ورحمة الله وبركاته .

الشيخ جمال الدين بن نُبَاتَةَ عن نائب الشام إلىٰ القاضى عَلاءِ الدين بن فضل الله كاتب السرّ الشريف ، بالأبواب الشريفـة بالديار المصرية ، عند عَوْده من الكَرَك إلىٰ الديار المصرية ، فى سـنةِ ثلاثٍ وأربعين وسـبْعِمائة ، مهنِّئا له بعوده إلىٰ مَنْزِله بالديار المصرية ، وآسـتِقْراره وعوْدِه إلىٰ كتابة السرّ الشريف بالأبواب الشريفـة السلطانية، وهى :

تُقَبِّل الباسطةَ الشريفةَ ـ إلىٰ آخر الألقاب ـ لازالَتْ خناصِرُ الحمد علىٰ فَضْل بَنانِها معْقُوده، ومآثِرُ البأس والكرم لهـا ومنها شاهدةً ومشْهُوده، وبَواتِرُ السُّيوف مسَـيَّرَةَ القصد إلىٰ مُناظرةِ أقلامها المقْصُوده ؛ تقبيلاً يودُّ لو شافَهَ بشِفاهه موْرِدَ الجُود من الأنامل، وكاثر بثَغْره عند المُثُول للتقبيل ثُغورَ الأَماثِل ؛ فكان يُشافِهُ بشَوْقه مَوْرِدا كثيرَ الزِّحام ، وكان يُكاثِرُ بعِقْد قُبَله علىٰ يد الفضـل عُقُودا جزِيلةَ الآنتظام ، وكان يُحاكم جَوْرَ الضَّيْم إلىٰ مَنْ أبىٰ اللهُ لجار مشاهدته أنْ يُضَام . ويُنْهِى ماوصـل إليه وإلىٰ الأولياء من السُّرور، وما رُفِـع بينهم وبين الآبْتِهاج من الشُّرور، وما طُولِـع فى أخبار المَسَرّة من السُّطور؛ بوُصُول مولانا ومَنْ معه إلىٰ مَساكِن العزّ ساكِنين، ودُخُولهم كدُخُول يوسُفَ عليه السـلام ومَنْ معَه إلىٰ مِصْرَ آمنين ؛ وآستقْراره

فى أشرفِ مكانٍ ومَكانَه ، واستِنْصار مصرَ بأقلامه علىٰ العادة فإنَّ هـذه سِهامُ وهذه كِنَانه ؛ وإسفارِ غَمام السَّفْرة عن كَوْكبٍ عُلّا طالمَـا حَرَس بيَمينه أُفُقَ المُلْكِ وهداه وزانَه ؛ وما كانتْ إلا غيبةً أحمدَ اللهُ عُقْباها ، وغَيابةَ بُعْدٍ مَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ وجَلَّاها ؛ وفترةً ثنىٰ اللهُ فتْرتَها فتنفَّس خِناقُ المَنْصب المشتاقِ لوجهه الكريم ، وهِجْرةً صرَفَ اللهُ هَجِيرهَا فسَـقىٰ طِرْسَ الإنشاء الذى ٱبيضَّتْ عَيْناه من الحُزْن فهُوَ كَظِيم ؛ وما محَاسِن مولانا إلَّا زينةٌ من زِينَ الدنيا فعليها يتَشاكَسُ المتشا كِسُون ، وما مزاجُ كلماتِه إلَّا من تسنيم ﴿ وفى ذٰلِك فَلْيَتَنَافَسِ المُتنا فسُون ﴾ .

فالحمدُ للهِ علىٰ أنْ أقرَّ العُيونَ بمُعاودة ظِلِّه الوَرِيف ، وعلىٰ أنْ شَـفىٰ الصُّدُورَ بقُرْبه وأوّلُهـا وأَوْلاها صَدْرُ السرِّ الشريف ؛ وعلىٰ أنْ أجزَلَ الهَناء وقد شَمِلَ ظِلُّه ، وقد كَمُل بابْنِ الفضل فَضْـلُه ؛ وقد بهر سَناؤه وسَناه ، وقد تسعَّب القريبُ والبعيدُ فإنْ أجدىٰ علىٰ مِصرَ مَوْرِدُه فقد جادَتْ علىٰ الشام سَماه . وقد أخذ المملوكُ حظَّه من هذه البُشْرىٰ ، ووالىٰ السُّجود للهِ شُكْرا ، وجَهَّز خِدْمَته هذه نائبةً عنه فى تقْبِيلِ بنَان إنْ سَمَّـاه مَوْلىٰ الكَرَم بحرا ، فقد سَمَّاه مربِّى الملك برًّا ، لازالتِ المـمالكُ متْحَفَة بيُمْنِ مولانا ظاعِنًا ومُقِيا ، متَّصفةً بحمده وحمدِ سَلَفه الكريم حديثًا وقديما ، تاليةً علىٰ مُهِمَّات المُلكِ بصُحْبة بيتِه الشريف ﴿ وكان فَضْلُ اللهِ علَيْكَ عَظِيما ﴾ .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى تهنئة بقدوم من سفر :

أدام اللهُ ظِلَّه ، ورفَعَ محَـلَّه ، وشكَرَ إنعامَهُ وفضْـلَه ؛ وأعزَّ أنصارَه ، وضاعفَ ٱقْتِدارَه ؛ ولا زال مؤيَّدا فى حركاتِه ، مسَدَّدا فى سائرِ فَعَلاتِه ؛ مصحُوبًا بالسـلامة فى المَهامِه والقِفَار ، مخصوصًا من الله تعالىٰ بالأعوان والأَنْصار .

الملوكُ يُنْهِى بعد تقبيلِ الأرض ، والقيام بمـا يَجِب من سُنَنِه والفَرْض ؛ عِلْمَه بحلُول ركابِه العالى بمَغْناه ، واستقرارِ خاطِرِه الشريف فى مَحَلِّه ومَثْواه ؛ وجَمْعِ الشَّمْل بالأهل بعد طُول الغَيْبه ، وبَعْد القُفُول والأَوْبه ؛ فتضاعف لذٰلك فَرَحُه وسُرورُه ، وزال عن قَلْبِه قليلُ الهمِّ وكثيرُه ؛ فالله يمنَحُ المولىٰ أطيبَ المَنازِل ، وأسَرّ الرَّواحِل ؛ ويجعلُ تجارةَ مَجْدِه رابِحه ، وأوامِرَ دوامِ عِزِّه لائِحـه ، حتّٰى تُنْشِد نفسُه الكريمـة قولَ أبى الطيِّب :

أَنَا من جَمِيع النَّاسِ أطْيبُ مَنْزِلًا * وأَسَرُّ راحِـلةً وأَرْبَحُ مَتْجَـرَا !

لازالتِ الأعْيُن قريرةً برُؤْيتِه ، وقلوبُ الإخوان قارّةً بمشاهَدَتِه ؛ والأوجهُ وَسِيمَه ، والنِّعم الظاعِنةُ مُقِيمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالقدوم من السفر

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تُبْنىٰ علىٰ الاَعتراف للمُهَنِّئ بحقِّ تعهُّده ، وكرمِ تفَقُّده ، وإطْلاعه علىٰ الحالِ فى السَّـفَر ، وما أفضتْ إليـه من السـلامة ، والتأَسُّف علىٰ ماتقضّٰى من الأيّام فى مُباعدَتِه ، والتخلُّف عن مُباسَمَتِـه ؛ وأنه لم يزَلْ يدَّرِع الإدْلاج ، ويَقْطَع الفِجَاج ؛ رغبةً فى القُدوم إليه ، والوفادةِ عليه ؛ وبلِّ الغُلَّة برُؤْيته ، وترويح النفس بمحاضرته ؛ وما يليقُ بهذا النَّمَط من الكلام .

الضـــرب الخامس

(من التهانئ التهنئةُ بالشهور والمواسِم والأعياد)

وهى على ثمـانية أصـــناف :

الصنف الأوّل — التهنئــةُ بأوّل العامِ وغُرّة السَّنة .

من كلام المتقدّمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء أبى مسلم محمد بن بحر :

أســعدَ اللهُ سـيِّدى بِعامِه ، والفضل منه وما حَوىٰ من الأعياد والأيَّام الخَطِيرة وسائر شُهوره وأيَّامه ، ومتصَرِّف أحواله ، و بمـا يأتى و يكُرُّ عليه من زمَانه ، سعادةً تَسُوقُ إليه حظُوظَ الدِّين والدنيا كامله ، وتجمَعُ له فوائدَ الأمَدَيْن تامَّة وافِيَـه ، وترتَهِنُ إليــه النِّعَم فلا تزالُ لَدَيْه زائدةً نامِيه ، وبلَّغه بهـا الأمَلْ ، ومدّ له فى البقاء إلىٰ أنْفَس المُهَل .

ولأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ علىٰ مَوْلاىَ بركةَ الشهر والسنةِ المتجدِّدَيْن ، ووهَبَ له فيهما وفيما يتلُوهُما من أيام عُمُره ، وأزمان دَهْره ، سعادةً تجمع له أشْتاتَ الحُظُوظ ، وتصل لَدَيْه مَوادَّ المَزِيد ، وتُيَسِّر له بُلوغَ الأمـل فى كلِّ ما يُطالع ويُنـازِع ، والأَمْن من كلِّ ما يُراقِبُ ويُحـاذر .

وله فى مثـــله :

عَظَّم اللهُ علىٰ سيِّدى بركة الشهر والسَّنة ، وأعاشَهُ لأمثالها مُدَّةَ آختلافِ الجديدَيْن ، وتَجاوُر الفَرْقَدَيْن ، ممتَّعا بالنِّعم السابِغـه ، والمَواهب المتَرادفه ، والسَّـعادة والغِبْطه ، والعزِّ والمَسَرَّه .

وله فى معناه :

جدّد اللهُ لسيِّدى فى الأيَّام الحاضرة والمستَقْبَله[(1)]، والأحوال الراهِنَة والمُتنقِّــله ؛ حظُوظًا من السَّــعادات ، وأقسامًا من الخَيْرات ؛ لايُحْصىٰ عدَدُها ، ولا يَنقَضِى مَدَدُها .

وله فى مثـــله :

عَظَّم الله [علىٰ مولاى] بركَةَ الشهر والســنة المَتجدّدين علَيْــه ، وعَرَّفه فيهما وفى الأيَّامِ بعدَهما من حادث صُنْعه ، ولطيف كِفَايته ؛ ماتَدُوم فيه السعاده ، وتَعْظُم به المِنّه ، وتحسُن فيه العاقِبَه .

وله فى مثـــله :

عظَّم الله علىٰ مَوْلاىَ بركةَ هــذا الشهر : المــاضِى [من] أيَّامه وباقِيها ، وهــذه السنَةَ ، وجعلها أيمَن سنةٍ حالَتْ عليه وأسعَدَها .

ومنه : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ يُهَنِّئُ غُرَّة الأيَّام ، بغُرَّة الأنَام ؛ وصــدْرَ العام ، بصَدْر الكِرام ؛ بل يَهَنِّئُ الزمن كلَّه نعَمْ وأهلَه بالحَضْرة التى واسَتِ المَعَالِى .

الصنف الثــانى ـــ التهنئـــةُ بشهر رمضانَ .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحُسَيْن بن سعد :

جمع اللهُ لمولاىَ فى هذا الشهر الشريف شُروطَ آماله وأحكامَ أمانيه ، فى حاضِرِ أمرِه وعاقِبته ، وعاجِلِ دُنْيــاه وآخرتِه ؛ وأبْقاه لأمثاله بقاءً لايتناهىٰ أمَدُه ، فى ظِلِّ عيش يرضاه ويَحمَدُه .

(١) فى الأصول المـاضية تأمل .

وله فى مثـــله :

عرَّف الله سيدى بركةَ هذا الشهر الشريف وأعاشَهُ لأمثاله ، ما كرَّ الجَديدان، وآختلف العَصْران، ممتَّعا بسَوابغ النِّعم، محروسًا من حَوادِث الغِيَر، ومُوَفَّقا فى شَهْره، وأزمان دَهْره، لأزكىٰ الأعمال، وأرضىٰ الأحوال، ومقبُولًا منه مايُؤدِّيه من فَرْضه، ويتنفَّل به قُرْبةً إلىٰ ربِّه .

وله فى مثـــله :

عرَّفه الله بركةَ إهْلالِه ، وأبقاه طويلًا لأمثالِه ، موفَّقا فيه من عمل الخـير، ومُراعاةِ الحقِّ، وتأديةِ الفَرْض، والتنفُّل بالبِرِّ، لمـا يُرْضِيه، ويستحِقُّ جزيلَ المَثُوبة عليه، ممتَّعا بعده بسَنِيِّ المَواهِب، وجَسِيم الفوائد، مع آتصالِ مُدّة العُمُر، وآجتماع أُمْنِيَّات الأمل .

وله فى مثـــله :

عَرَّف اللهُ مولانا بركةَ هذا الشهر الشريف وأيَّامِه، وأعانَك علىٰ صيامِه وقِيَامه، ووصــل لك مايزيدُ من فَضْله وإنعامه، وتابع لك المزيدَ من مَنَائحه وأنْعامه، وختَمَ لك بالسعادة العُظْمىٰ بعد الآنتقال [فى الجاه والرياسة إلىٰ] أبعد المدىٰ، وفى العزِّ والثَّروة إلىٰ أقْصىٰ المُنَىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

جعلَ اللهُ ماأظلَّه من هذا الصيامِ مقرُونًا بأفْضل قَبُول، مُؤْذِنا بإدراك البُغْيةِ ونُجْح المأمُول، ووفَّقه فيه وفى سائرِ أيَّامه، ومستأْنِف شُهوره وأعوامِه، لِأشْرَف الأعمال وأفضَلِها، وأزْكىٰ الأفعال وأكَمَلِها، ولا أخْلاه من بِرٍّ مَرْفُوع، ودعاءٍ مسمُوع، وسَعْى مشْكُور، وأمرٍ مَبْرور، إلىٰ أن يَقْطَع فى أجملِ غِبْطةٍ وأتَمِّ مسرَّةٍ أمثالَه .

وله فى مثـــله :

عرَّفكَ اللهُ بركةَ هـذا الشهر المعظَّم قَدْره ، المشرَّف ذِكْرُه ، ووفَّقكَ فيـه لصالح الأعمال ، وزَكِّ الأفعال ، وقابَلَ بالقَبُول صِيامَك ، وبتعظيم المَثُوبة تهجُّدَك وقِيامَك ، ولا أخلاك فى سائر ما يَتْبعـُه من الشُّهور ، ويَلِيه من الأزمِنَـةِ والدُّهور ، من أجْرٍ تَذْخره ، وأثَرٍ تَشْكُره .

قلت : وممـا كتبتُ به تهنئـةً بالصوم للمَقرّ الأشرفِ الناصرىّ محمدِ بن البارزىّ كاتبِ السرّ الشريف المؤيَّدىّ بالممالك الإسلاميةِ ، فى سنة ستَّ عشْرةَ وثمانِمائة نَظْمًا :

أَيَا كاتبَ السِّرِّ الشَّرِيفِ ومَنْ بِهِ * تَمِيسُ نَواحِى مِصْرَ تِيهًا مع الشَّامِ!
ومَنْ جَلَتِ الحُلَّى كَتائبُ كُتْبِـه ، * ومَنْ نابَ عن وَقْعِ السُّيُوفِ بأقْلامِ!
تَهَنَّ بِهٰذَا الصَّوْمِ والعِيدِ بَعْـدَه ، * ومِنْ بَعْدِه بالعِيدِ والْعـامِ فالْعامِ!
وتَرْقَ رُقِىَّ الشَّمس فى أَوْجِ سَعْدِها * وتَبْقَ بَقاءَ الدَّهرِ فى فَيْضِ إنْعامِ!

الصنف الثـالث — ما يصلُح تهنئةً لكلِّ شهرٍ من سائر الشُّهور .

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم الله بركةَ إهْلَاله ، وأعاشه لأمْثاله ، أطْولَ المُدَة ، ممتَّعا بأَدْومِ النِّعمة ، ومشَفَّعا(؟) بأفضل الأَمل والأُمْنيَّه .

وله : أسـعد اللهُ سيِّدى بانْصِرامِه وإهْلالِ ما بعـده ، وأبقاه ما بَقِىَ الزمان ممتَّعا بالعِزِّ والنِّعمه ، محروسًا من الآفات المَخُوفة ، والحوادث المَحْذُوره .

وله : عَظَّم اللهُ علىٰ سيدى بركةَ الماضِى والمستقْبَلِ من الأيام والشُّهور [والأعوامِ] والدُّهُور ، ووصلَ له السعادةَ باتِّصالها ، وجدّدَ له النِّعمةَ بتَجدُّدِها .

وله : عظَّم الله بركةَ انْسِلاخه ، و إهْلالِ مايتلوه ؛ مُجَدِّدا لك بتجَدُّدِه فوائدَ الخيرات ، وأقْسامَ البركات ؛ تدُوم فيها المُدّه ، وتطُولُ بها النِّعمه .

وله : أسعَدَك اللهُ بإهْلاله ، وأعاشك أبدًا لأمْثالِه ؛ ممتَّعا بدَوامِ العِزِّ والنعمه ، واجتماعِ أسبابِ الرَّخاء وشُروط المحبَّه ؛ إنَّه جَوادٌ كريم .

[وله : عَظَّم اللهُ علىٰ مولاىَ بركاتِ هذا الشَّهْر ومايتلُوه ، و بلَّغه مايُحاوِله ويَنْحُوه ؛ فى مستَأْنَفِ الشُّهور ، ومؤتَنَف الدُّهور ؛ مُضاعَفًا له العِزُّ والتأْيِيد ، ومَوْصولًا له أصلُ النعمةِ بحُسْنِ المَزِيد] (١) .

وله : عَظَّم اللهُ علىٰ مولاىَ بركةَ الشَّهر ، وأدامَ له سَلامةَ الدَّهْر ؛ مَوْفُورا من العِزِّ والسلطان ، غيرَ مذْعُور بنَوائِبِ الزَّمان .

وله : عظَّم الله علىٰ سيدى بركةَ الأيَّامِ والشُّهور ، والسِّنِينَ والأحْقَاب ؛ و جمع له المواهِبَ كامِلَه ، والفَوائد فاضِلَه ؛ دِينًا ودُنْيا ، وحاضِرةً وعُقْبىٰ .

وله : عظَّم اللهُ عليكَ بركَتَه ، وعَرَّفَك يُمْنَه وسَعادتَه ؛ وجدّدَ لك الخَيْرات ، بتَجْدِيد الأوقاتِ والسَّاعات ؛ حتّى تحُوزَ منها أسْنىٰ الحُظُوظ وتبلُغَ مما تمَنَّاه أقصىٰ الغايات .

الصنف الرابع — التهنئة بعيد الفطر .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ علىٰ سيِّدى بركةَ هذا العيد ، واعاشَه لأمْثاله ؛ من الأعْيادِ المَشْهُوده ، والأيَّام الجَدِيده ، [فى] أهنإ عيشٍ وأرْغَدِه ، وأطْوَلِ مدًى وأبْعَدِه .

(١) الزيادة فى بعض النسخ .

أبو الفرج الببغاء :

أسعدكَ الله بهــذا الفِطْرِ الجَديد ، والعِيد السَّعيد ؛ ووَصَــل أيَّامَك بعدَهُ بأكملِ السَّــعادات ، وأجْمَل البَرَكات ؛ وجعل ما أسلَفْتَه من الدُّعاء مقْبُولا مسْمُوعا ، ومن التَهجُّد زاكِيًا مَرْفوعا ؛ ولا أخلاك من نِعمةٍ يحرُسُ الشكْرُ مُدَّتَهـا ، ولا يُخْلِقُ الدَّهْرُ جِدَّتَها .

من كلام المتأخريـــن :

الشيخ شهابِ الدين محمود الحلبي :

المولىٰ أدامَ الله نِعمَه ، وحرَس شِيَمَــه ، هو سيِّدُ الأفاضل ، ورئيسُ الأَمَاثِل ؛ وحَسَنَةُ الزَّمان ، ولَيْث الأقْران ؛ وهو فى الأَنَام ، كالأعيادِ فى الأَيَّام ، فإنَّ الأنامَ ليلٌ والمولىٰ المِصْباح بل الصَّبَاح ، وسائرَ الأيَّام أجسادٌ وسائرَ الأعيادِ هى الأَرْواح ؛ فإذا كان المولىٰ قد زُهِىَ علىٰ أبناءِ جِنْسِه ، ويومُ العِيــد علىٰ غَدِه وأمسه ؛ فقد صار كلٌّ منكما إلىٰ صاحبه يتقَرَّب ، ويلْزَم ويَلْزَب ، وهو أحقُّ الناسِ بأن يُبْهِجَه مَقْدَمُه ، وأن يُهَنَّى بيَومِه الذى هو مَجْمَعُ السُّرور ومَوْسِمُه .

والخادم يُهَنِّئ المولىٰ بهذا العيد ، واليومِ السَّعيد ؛ فإنه وافىٰ فى أَوانِ الرَّبيع وزمانِه ، لِيُبَاهِيَ بغُصْن قَدِّه أغصانَ بَانِه ؛ ويَسْتَنْشِقَ فى صَدَرِه ووِرْدِه ، رائحةَ رَيْحانه ووَرْدِه ؛ ويختالَ فى رِيَاضه وحَدائقه ، ويُلاحِظَ بَهجةَ أزْهارِه وشَقائقه ؛ والعيدُ والرَّبيعُ ضَيفانِ ومكارِمُ المولىٰ جَديرةٌ بإكرام الضيف ، والتمتُّع بالمَلاذِّ فيهما قبلَ رَحِيلهما وقُدُوم حَرِّ الصَّيْف ؛ وأنْ يُحَسِّنَ وجْهَ عِيــده ، بحُلُوله فى مَغْناه ووُجُوده ؛ بمـا يُولِيه لعُفَاته من إنعامِه وجُوده ؛ لازالتِ الأعيادُ تُهَنَّى ببَقائِه ، وألســنةُ الأيام تَشْكُر سوابِــغَ نَعْمائه ؛ وتَحمَدُ جزِيلَ عَطائِه ، وتَنْطِق بوَلائه وثنائه ، أبدًا ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت: ومما كتبتُ به مهنئًا للمقرّ الأشرف الناصِرِىّ محمد بن البارزى صاحب دَواوِين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية فى الدولة المؤيَّدِيَّة «شيخ» بعيد الفِطْر نظمًا، بعد أن سألتُه حاجةً فقضاها، وأسنىٰ لى الجائزةَ علىٰ نَثْرٍ كتبْتُه له.

سأَلْتُ نِظـامَ المُلْكِ كاتِبَ سِرِّه * إزالَةَ ضَنْك أرهَفَ الدَّهرُ حَدَّه!

فمَنَّ بجاهٍ زَعْزَعَ الأرْضَ وَقْعُه، * وجادَ بمـالٍ لايُرىٰ الفَقْرُ بَعْدَه.

وبالبارِزِىِّ آزدانَ وصْفُ مَكارِمٍ * فأشْـبَهَ فى فَضْـلٍ أباه وجَدَّه!

فَيَهْنَاهُ صَـوْمٌ ثُمَّ عِيـدُ مَسَرّةٍ * وطالِـعُ إقْبالٍ يُقارِنُ سَـعْدَه!

ورَفْـعُ دُعاءٍ لايُغِبُّ تَتَـابُعًا، * وطِيبُ ثَناءٍ خامَرَ المِسْكُ نَدَّه!

الصنف الخامس — التهنئة بعيد الأضحى.

من كلام المتقدّمين:

أبو الحسين بن سـعد:

كتابى والنحر — نحرَ اللهُ أعداءَ مَوْلاىَ وحُسَّادَ نعمتِه، وأمْتَعَه بمَوَاهِبه عنْـده، وبارك لَهُ فى أعيادِهِ ومتجَدِّد أيَّامه، بركةً تَنْتَظِم السَّعادات، وتتضمَّن الخَيْرات؛ متصلةً غيرَ مُنْقَطعه، وراهنةً غيرَ فانيَه.

من كلام المتأخرين:

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى:

تَهَنَّ فأيَّامُ السُّرورِ أواهِـلُ * وكُلُّ مَخُوفٍ عن جَنَـابِك راحِلُ!

ونَجْمُك من فَوْقِ الكَواكب طالِـعٌ، * ونَجْمُ آمرئٍ يَشْـنَا سُمُوّكَ آفِـلُ!

أَلَا أيُّهــا المَوْلىٰ الَّذِى عَمَّ جُودُه: * فَدَتْكَ العَوالِى والجِيادُ الصَّواهِلُ!
تمتَّعْ بِعِيدِ النَّحْرِ، وافاكَ خاضِــعًا * يُحَقِّقُ مِنْ دُنْيَــاكَ ما أنْتَ آمِـلُ!
ودُمْ كابِتَ الأَعْداءِ وٱبْقَ مُخَــلَّدًا * علىٰ المـالِ عا ٍ، بالرعيَّـــةِ عادِلُ!
لَقَدْ راقَ مَدْحِى فى مَعَالِيكَ مِثْلَما * صَفَتْ منكَ أوْصافٌ ورَقَّت شَمائِلُ!

جعلَه اللهُ أبركَ الأعياد وأسْعدَها، وأيْمَنَ الأيَّام وأمْجدَها، وأجْملَ الأوقاتِ وألَذَّها وأرْغدَها، ولا بَرِحَ مَسْرُورا مسْتَبْشِرا، مَنْصُورا علىٰ الأعداء مقْتَدِرا، مسْعُودا محْمُودا، مُعَانًا بملائكة السماء مَعْضُودا، مُهَنًّا بالسُّعود الجَدِيده، والجُدُود السَّـعِيده، والقُوَّةِ والناصِر، والعُمُر الطويلِ الوافِر:

ولا زالَتِ الأعيــادُ لِبْسَكَ بَعْــدَه * [فتخْلَع](١) مَخْرُوقًا وتُعْطىٰ مُجَـدَّدا،
فذَا اليومُ فى الأيَّامِ مِثْلُكَ فى الوَرىٰ * كما كُنْتَ فِيهِمْ أوْحَدًا كانَ أوْحَدَا!

وأعاده علىٰ المولىٰ فى صِحَّةٍ دائِمه، وسلامةٍ مُلازِمه؛ وأصار عِيدَه مُطِيعا لأوامِرِه كسائرِ العَبِيد، وعَبِيدَه فى كلِّ يوم من المَسَرّة ببقائِه لها كالعِيد، والأيَّامَ به ضاحِكةَ المَبَاسم، والأعوامَ جميلةَ المَوَاسم؛ ومتَّعَنا بدَوامِ حَياته، وٱستِجْلاء جميلِ صِــفَاته، وٱستِحلاءِ مدائِحِه بإنْشادِ عُفَاته؛ وأراهُ نَحْرَ أعادِيه، بين يَدَيْه كأضاحِيه، وأصار الحجَّ إلىٰ بابه غافِرًا سَيِّئاتِ الإفْلاسِ والإعْدام، ومُبِيحًا لُبْسَ المَخِيــطِ من إنعامِهِ العـامّ؛ ألبسهُ اللهُ من السعادةَ أجملَ حُلَّه، ومَنَحه من المكارِمِ أحْسَنَ خَلَّه.

الصنف السادس ــ التهنئة بعِيد الغَدِير من أعياد الشِّيعة:

وكان لهم به ٱهتِمامٌ فى الدولة الفاطميَّــة بالديار المِصْريَّة. والطريقُ فى التهنئةِ به علىٰ نحو غيرِه من الأعياد.

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام.

مايصلح تهنئةً لكلِّ عيد .

أبو الفرج الببغاء :

لولا العادةُ المَشْهوره، والسُّنَّةُ المأْثُوره ، بالإفاضةِ فى الُّدعاء ، والمشافهةِ بالتهنئةِ والثَّناء، فى مثلِ هذا اليومِ الشريف قَدْرُه، الرفيع ذِكْرُه، لكان أيَّده الله دُونَ رُؤَساء الدَّهْر، وملُوكِ العَصْر يجِلُّ عن التهنِئَةِ : إذ كانتْ سائرُ أيَّامه بما يُودِعُها من أفعال الخير مُعَظَّمه ، وبما يَبُثُّها من المَحَاسِن مُكَرَّمه، فبلَّغه اللهُ أمثالَه محرُوسًا فى نَفْسه ونِعمته، محفُوظا فى سُلْطانه ودَوْلته، مُوفِيًا علىٰ أبْعد أمَانيه، مُدْرِكا غايَتها فيما يؤمِّلُه ويَرْتَجيه .

وله فى مثله :

عرَّفكَ الله يُمْنَ هذاالعيدِ وبركَته،وضاعفَ لك إقبالَه وسعادَتَه؛ وأحْياكَ لأمثاله فى أسبَغ النِّعم وأكملِها ، وأفسحِ المُدَد وأطْوَلِها ؛ وأشرفِ الرُّتَب وأرفَعِها ، وأعزِّ المَنازل وأيْفَعها؛ وحرَسَ مِنْحَتك من المحذُور، ووَقىٰ نِعمتَك من عَثَرات الدُّهُور .

الصنف السابع — التهنئة بالنَّيْرُوز .

وهو من أجلِّ أعيادِ الفُرْس، علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ أعياد الأمَم ، فى المقالة الأولىٰ . وكان للكُتَّاب به اهتمامٌ فى أوائل الدَّوْلة العبَّاسية بالعِراق، جَرْيا علىٰ ما كان عليه الفُرْس من قَدِيم الزمان .

وفيه لأبى الحسين بن سعد :

هذا يومٌ شَرَّفَتْه العجم ، ورَعىٰ ذِمَامَه الكَرَم ؛ وهو من أسلافِ سيِّدى ذَوِى النَّباهة، وأخلافه ذَوِى الطَّهارة؛ بين مُنْشِئٍ رَسْمه، ومؤدِّى حقِّه ؛ وكاسٍ له بقَبُول

آنتسابه إليه جمالًا يبقىٰ علىٰ الأيام، وحالًا يَنْفَق بهـا لدىٰ الأنام ؛ فليس أحدٌ أحقّ بالتهنئة [به] ممن سَنَّه آباؤه ، وشـيَّدته آلاؤه ؛ فصارتْ إلىٰ أوَّلِيّتـه نِسبَتُه ، وبكرم سَجِيّتِه عِصْمتُه .

وفيـه له : هـٰذا ـ أيد الله سيِّدى ـ يومٌ عظَّمه السَّلَف من العَجَم ، وسيِّدى وارِثُ سُـنَّة الكَرَم ؛ وللسادةِ علىٰ العَبِيد فى هذا اليوم رَسْم فى الإلطاف ، وعليها لهمْ حقٌّ فى القَبُول والإسعاف ؛ وقد بعثْتُ بمـا حضَر جارِياً علىٰ سُنَّة الخِدْمه ، وعادِلًا عن طريق الحِشْمه ؛ ومقتَصِرا علىٰ ما آتَّسعتْ له الحال ، وما يُوجِبُـه قَدْرُ سيِّدى من المبالَغةِ فى الآحتفال ، فإنْ رأىٰ أنْ يُشَرِّف عبده بالآحتمال إليه ، وإجرائه مُجْرىٰ الأُنْس عنده ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

وفيه للكرجىّ :

هـذا يومٌ تَسْمُو له العَجَم ، ويُسْتَعجِم[1] فى العَرَب ، تشريفًا له وآعترافًا بفضـله ، وآقتداءً بأهله ، وأخْذا بسُنَّتهم فيه ، فلْيهْن[2] لإحْراز الدولة فى العِزِّ [منزلا] بحيثُ لا يُرام ، ولا يُضَام ، ولا تَرْقىٰ إليه الأمانِى ، ولا يطْمَع فى مساواته المُساوِى ؛ وإنَّهم بعد تَصَرُّم الدولةِ علىٰ حَمِيـدِ آثارها ، وجميلِ الذِّكر فيها ، أعلامٌ تُضرَب بهم الأمثـال ، وتَزْهو بأيَّامهم الأيَّام ، وآثارُهم تُقْتفىٰ ، وأعيادُهم تُنْتظَر ، يُتأهَّب لها قبْلَ الأَوان ، ويُعْرَف فيها أثَرُ الزمان ؛ وإنَّك منهم فى الذِّرْوة الساميَه ، والرُّتْبة العالِيه ؛ وبمحلٍّ لا عارَ معـه علىٰ حُرَّة فى الخُشُوع لك ، والتعلُّقِ بحبلك . وقد وجَدتُ الأتباعَ عند ساداتِها فى مثل هـذا اليومِ علىٰ عادةٍ فى الإلطاف جسَّمَتْها ، وسيَّرتْ بهـا علىٰ أقوام منحَتْهم ظُهورَ الدَّعْوىٰ فيها ، فأقبـل قائلهم يقول : « لو كان بابُ الإهداء مفْتُوحا غيرَ مسْدُود ،

(١) مراده أن العرب آتبعت العجم فى تعظيمه تأمل . (٢) قد بلغ التحريف من هذا مبلغه حتى لا يكاد يفهم والمراد أن دولة الفرس أحرزت من العز منزلا بحيث إلخ تأمل .

ومُباحًا غير ممنوع ؛ لأتحفْتُ بالغُرَاب الأعْصَم ، والكِبْريت الأحمر، والأبْلَقِ العَقُوق، وبَيْض الأَنُوق» . وقد بعثتُ بهدِيَّة لا تُرَدُّ (يعنى الدعاء) .

وفيه : من كان مَحَلّك من العِزّ ، ونَبَاهةِ الذِّكْر، وٱرتفاعِ الدَّرَجه، وعُلُوّ المَنْزِله ؛ وسَعة البَلَد ، وبُعْد الأمَد ؛ لم يتَقربْ متَحلٍّ بالعلم والأدَبِ إليه فى يومٍ جديدٍ إلّا بصالح الدُّعاء، وحُسْن الثناء .

وفيه : لو أَخَّرْنا هذا ٱنتظارًا لوُجود ماتستَحِقُّه ، لٱنقضَتْ أيّامُنا ، بل أعمارُنا ، قبل أنْ نقضِيَ لك حَقّا ، أو نُؤَدِّيَ عن أنفُسنا فرضا : لٱرتفاعِ قَدْرك عمّا تحويه أيدينا ، وعُلُوّ حالك عما تبْلُغه آمالُنا ؛ وقد ٱقتديتُ بسُنَّة الخَدَم والأوْلياءِ فى الأعياد، وأوضَحْتُ العُذْر فى ترك الٱجتهاد ؛ وبعثْتُ فى هذا اليوم، الذى أسألُ اللهَ أن يُعيده عليك أَلْفَ عام ، فى نَمَاء من العِز، وعُلُو من القَدْر، وتمامٍ من السُّرور، ومزيدٍ من النِّعمة ... ...

الصنف الثامن — التهنئة بالمِهْرجان .

وهو أحدُ أعيادِ الفُرْس، علىٰ ماتقدّم ذكره فى المقالة الأُولىٰ، فى الكلام علىٰ أعياد الأُمم . وكان للكُتَّاب من الٱحتفالِ بالتهنئةِ به فى أوائل الدولة العبَّاسِيَّة مالهم بالنَّيْروز.

فيه — لأبى الحسين بن سعد :

لسيِّدى علىَّ فى الأعياد المَشْهُورة، والأيَّام الجَدِيدة ؛ عادةٌ ٱختَرَلَنِى عن بَعْضها فى هذا الفصل ، كَلالُ الطَّبْع عن البَعْض؛ ووقُوعُ الخطر (؟) بعرضه من الثناء نَظْما ونَثْرا ، ومن الإهداء عرضا وبرا؛ دعاءٌ تزيد قيمتُه علىٰ الأعلاقِ الثَّمينه، وموقِعُه علىٰ الذخائر النَّفيسه، ولُطْفُه علىٰ التُّحَف البديعه ؛ فأسعَدَ اللهُ سيدى بهذا اليوم سعادةً تُقِيم ، ولا تَرِيم؛ وتَزِيد، ولا تَبِيد ؛ وتتوطَّن ، ولا تَظْعَن ؛ وتجمع حظُوظًا من

الخيرات، وفوائدَ من البركات؛ يتَّصِلُ سندُها، ولا ينتهى أمَدُها؛ وأبقاه فى أسبغ عِزٍّ وأرفع رُتْبــة وأرغَدِ عِيشة، مكنوفًا بحراسةٍ تَقِيه [وآلَه] عَوادِىَ الزمان، وتصرِفُ عنهما طوارِقَ الحَدَثان؛ ما طَرد الليلُ النَّهار، وطلَع نَجْم وغَار؛ وعلىٰ ذلك ـ أيد الله سيدى ـ فإنَّ الحِرْص علىٰ إقامة الرَّسم والتَطَيُّر من إضاعةِ الحقِّ بعثانِى علىٰ مُراجعة القَرِيحه، وآستِكْداد الرَّوِيّه؛ فأسعفا بمـا قَبِلتْه الضرورة؛ ولم أُطِعْ فى إهدائه سُلطانَ الحِشْمه؛ وفضلُ سـيدى يتَّسِع لقَبُول الميْسُور، وتحسينِ القَبِيح؛ والله المعينُ علىٰ تأدية حقِّه، والقيامِ بواجب فرْضِه .

وله فيه أيضا، إلىٰ مَن منع أن تُهْدىٰ إليه فيه هدية .

لو كنتَ فتحْتَ باب الإلطاف، ونَهجْتَ إليــه سَبِيلا ؛ لتنازعَ أوْلياؤك قصَبَ السَّبْق وتنافَسُوا فى السَّرَف؛ فبان للمجتهِد فضْلُه، وآلتمس العذْرَ فى التقصير ملتَمِسُه؛ وعمَّت المنحةُ كافَّتَهم بمـا يظْهَر من مَوَاقعهم، وينكَشِف من أحوالهم؛ لٰكنَّك حظَرْت ذٰلك حَظْرا آستوىٰ فيــه الفريقان فى الحُكْم، وآمتـدّ فيه علىٰ ذَوِى الخَلَل السِّــتْر؛ ولم تحظُر الدُّعاء، إذ حظَرْتَ الإهداء؛ فأنا أُهْـدِيه ضَرورةً وآختِيارا، وإعلانًا وإسْرارا؛ فأسعَدَكَ الله بهذا العيد الجديد، الذى زادَ بك فى قَدْره، وشَرَّفه بأن جعلك من أرْبابه ووُلاة أمْرِه .

أبو الفَرَج البَبَّغاء :

هذا اليومُ من غُرَر الدُّهُور المشهُوره، وفضائِل الأزْمنَــة المذْكُوره؛ معَظَّمٌ فى العَهْد الكِسْرَوِىّ، مستطْرَفٌ فى العَصْر العَرَبِىّ؛ باعثٌ علىٰ عِمـارة المَوَدّات، مخصوص بالآنْبِساط فى الملاطَفَات، ولستُ أسـتَزِيدُه ـ أيَّده الله ـ من بِرٍّ يُولِيه، ولا تَطَوُّلٍ إلىّ يُسْـدِيه؛ غيرَ إدخالى فى جُمْلة من بَسَطَتْه الأَنَســه، وثَقَّفَتْه المحبَّه؛

وتَقَرَّبتُ منه بوكيد الخِدْمه، فى قَبُول ما إن شَرَّف بقَبُوله، كان كثيرًا مع قِلَّته، جليلًا مع نَزَارته؛ فإنْ رأىٰ أنْ يقَوِّىَ منه ثِقَتِى، ويُقابِلَ بقَبُولٍ ما أنفَذْته رَغْبتِى، فعل، إن شاء الله تعالىٰ.

وله فى مثله:

قد أطعْتُ فى الآنْبِساط إليكَ دَواعِىَ الثِّقه، وسلَكْتُ فى التَحَرُّم بك سُبُل الأَنَسه، وتوصَّلْت بملاطَفتِك إلىٰ حَسْم مَوادِّ الحِشْمه؛ فاستشْهَدْتُ علىٰ ثِقَتى بك فيما أنفَذْته بمُفارقة الحَفْله(١)، وكُلَف المكاثره؛ فإنْ رأيتَ أن تَكلَنِى فى تقَبُّله إلىٰ سَعَة أخْلاقك، وتَسْلُكَ فى ذٰلك أخصَرَ طريقٍ إلىٰ ما أخطُبُه من مَوَدّتك، وأزاحِمُ عليه فى إخائك؛ فعلتَ، إن شاء الله تعالىٰ.

وله فى مثله:

هذا اليومُ - أيَّد اللهُ سيدى - من أعياد المُرُوّه، ومَواسِم الفُتُوَّه، وأوطانِ السرور، ومَحاسِن الأزْمِنة والدُّهُور؛ بَلَّغه [اللهُ] أمثالَهُ فى أنْضَر عيْش وأسبغ سَلَامه؛ وأبْسَط قُدْره، وأكمل مَسَرَّه؛ وقد توثَّبْت إلىٰ الآقتداء فيه بأدَبِه، والأخْذ بمعرفة فُروضِه بمَذْهَبه؛ وأطعْتُ فى الآنبساطِ إليه دَواعِىَ الثِّقة، وأنفَذْت ما آعتمَدْتُ فى قَبُوله علىٰ مكانى منه، عائذًا بالتقليل من كُلَف المُكاثَره، ومستَثْقل الكُلفه؛ فإن رأىٰ أن يأتِىَ فيما آلتمسته ما يُناسِبُ شَرَفَ طبعه، وسَعَة أخلاقه؛ فعل، إن شاء الله تعالىٰ.

وله فى مثله:

لو كانت المُلاطَفَات بحسَبِ الرُّتَب وقَدْر المَنازِل، لما آنبَسطتْ قُدرةٌ ولا آتَّسع إمكانٌ لِمَا يستَحِقُّه نُبُل محلّه؛ وواجباتُ رِياستِه؛ ولكُنْتُ من بين خَدَمه ضعيفَ المُنَّة عن خِدْمته فى هذا اليومِ السعيد؛ بلَّغه اللهُ أمثالَه فى أفسح أجَل، وأنجح أمَل،

(١) كذا فى الأصل ولعله «الكلفة».

بما يَخْدُمُه به ذَوُو الخِدمات الوكيدةِ عنده، المَكِينةِ لديْه ؛ غير أنِّى أثِقُ منه ـ أيده الله ـ بحَمْل قليلى علىٰ عِلمْه بإخلاصِى فى وَلَائه، وٱنتسابِى إلىٰ جُمْلته، وٱختِلاطِى بأنْسابه ؛ فإنْ رأىٰ أن يُجرِيَنى فى قَبُول ذلك علىٰ سُـنَّة أمثاله من ذَوِى الجَلَالة ، عند أمثالى من الأولياءِ والحاشيةِ، فعل .

وله فى مثـــله :

لو كانَتِ الهَدايَا لا تُتَقَبَّل مالم تُناسِبْ فى نَفَاسة القَدْر، وجَلَالة الذكر، مَحلَّ من يُتقَرَّبُ بها إليه، ومنزلةَ من أهداها إليه علَيْه، لمَـا سمَتْ هِمَّة، ولا ٱتَّسعتْ قُدْرة، لِمَـا يستَحِقُّه ـ أيده الله ـ بأيْسَرِ واجِباته ، وأصغَرِ مفْتَرَضاته، غير أنَّ الأَنَسةَ بتَفَضُّـله، والٱعتدادَ بسالف تَطَوُّله ؛ والتحقُّق بخِدْمته ، والٱنتسابَ إلىٰ جُمْلتـه ؛ بَسَطَنى إلىٰ إنفاذ ما إن شرَّفنى بقَبُوله كان مع قِلَّتـه كثيرا ، ومع نَزَارتِه جليلاً ؛ فإنْ رأىٰ أن يقوِّى بذلك منه ثِقَتِى، ويحسِمَ مادَّة ٱحتشامى، فعل .

أجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكتُبُ والرِّقاع مضمُونُها الهَناءُ بالمَوْسِم الجديد، والدعاء للهنإ فيه بتَمَلِّيه . قال : وهذا المعنىٰ مُفَاوَض بين المهنِّى والمهنَّى، وينبغى أن تكون أجوبَتُها مشتقَّةً منها . ثم قال : وقد يتصَرَّف الكُتَّاب فيها إذا كاتبوا الرُّؤساء تصَرُّفا يخرج عن هذا الحكم .

وهــــذه أمثلة من ذلك :

أبو الفرج الببغاء :

سَمِـع الله دُعاءَك، وبَدَأ فى تقبُّل المسألة بِك، وأجْزل من أقْسامِه حظَّك، وبلَّغك أمثـالَه فى أفسح مُدَد البقاء ، وزاد فيما خوّلكَ من المواهب والنَّعْماء ؛ ولا أخْلانِى من بِرِّك، وأنهضَنِى بواجِبَاتِك .

وله فى مثـــله :

كُلُّ يوم أسعَدُ فيه بمشاهَدَتِك، وأقطَعُه فى ظلِّ مودّتِك، حقيقٌ بالإحْماد، مُوفٍ علىٰ محاسن الأعياد، فسمِعَ اللهُ دُعاءَك، وأطال ماشئْتَ البَقاء بَقاءَك، وجعل سائرَ أيّامِك مقرونةً بالسَّعادات، موصولَةً بتَناصُرِ البَرَكات .

من زهر الربيع :

يخدُم المجلِسَ العالىَ جعــل الله قَدْره علىٰ الأقدار سامِياً ، وجزِيلَ نَوَاله علىٰ مَنْ هامَ به من العُفَاة هامِياً ، ونصَره نَصْرا عزِيزا ، وأســكنه من حِراسَتِهِ حِصْنا حَصِينا وحِرْزا حرِيزا ، ولا زالتِ الأيَّام حاليــةَ الجِيد بوُجُوده ، والأيْدى تَهَشُّ إلىٰ تَنــاوُل أياديه وَجُودِه ، وأخبارُ المَكارمِ عنه مَرْوِيَّة وإليــه مَعْزوّه ، وآياتُ فضله وفضائله بكلِّ لسانٍ متْلُوّه .

ويُنْهِى إلىٰ علمه وُرُودَ مشرِّفته التى حلَّتِ الأسمــاعَ عند ماحَلَّت ، وسَمَتْ عن الرِّياض لَمَّــا جُلِّيَتْ عَروسُ فضلها وجَلَّتْ ، وزهَتْ علىٰ زُهورِها ، برَقْمِ سُطُورِها ، وطِيب عَرْفها ونَشْرها ، بمــا فاحَ من طَيِّها عِنْد نَشْرها ، وفائِق حُسْنها وبَهْجَتِها ، برائق بَراعةِ عبارَتِها ، ومعامَلتَها بمــا يجِبُ من فُروض إكرامها والسُّنَن ، والمشْيِ فى تبجِيلها علىٰ الطريقِ المألُوف من مُوالاته والسَّنَن ، وعِلْمَه بمــا أشار إليه من الهَنَاء بالعيد ، واليوْمِ السعيد ، وقد تحقَّق بذٰلك إحسانَه الذى ما بَرِح متَحقِّقا بجميــله وجزِيلِه ، وشاكِرًا لكثيره وقليلِه ، وحصلَتْ له البُشرىٰ ، والمسَرّةُ الكُبْرىٰ ، ليس للعِيد بمُفْرَدِه ، ولا لهٰذا الهناءِ بمجرَّدِه ، بل لبقاءِ المَوْلىٰ ودَوامِ ســعادَتِه ، وتخليدِ سيادَته ، فإنَّه لكلِّ إنسانٍ عينٌ ولكلِّ عين إنْسان ، وهو رُوحٌ والأيَّام والأنَامُ جُثْمان ، فالملوكُ ببقائه كلَّ

يومٍ يتجدَّدُ له عيدٌ جديد ، ويتضاعَفُ له جَدٌّ سَعِيد ، حرَسَ اللهُ شرَفَه الرفيعَ من الأذىٰ ، وأراه فى عَيْنِ أعاديه جِذْعا ناتئًا وسلَّم لحظَه المحروسَ من القَذىٰ ؛ وأصار أيَّامَه كلَّها أيامَ هَناء ، وبِدايَةَ سعادتِهِ بغير حدٍّ وآنتهاء .

الضرب السادس

(التهنئـــة بالزواج والتســرّى)

من كلام المتقدّمين :

أبو الفرج الببغاء :

وصلَ اللهُ هــذا الاتِّصال السعيد ، والعَقْد الحَميـد ، بأحمدِ العَواقِب ، وأجملِ المِنَح والمَواهِب ؛ وجعل شَمْـلَ مَسَرَّتك به ملتئِما ، وسبَبَ أُنْسِك بإقبـاله منتَظِما ؛ وعرَّفك به تعجُّلَ البركات ، وتناصُرَ الخيْرات ؛ ولا أخلاكَ فيـه من التَّهانِى بنُجَبـاء الأوْلاد ، وكبَتَ بكَثْرة عدَدِك سـائِرَ الحُسَّاد ؛ وهنَأنِى النعمـةَ الجليلةَ بإخائك ، وعضَّدنِى وسائرَ إخوانك ببَقائك .

وله فى مثـــله :

قرنَ الله بالخيرِة ما عقَدْتَ ، وبالسـعادةِ ماجَدَّدْت ، وبجميلِ العاقِبةِ ما أفدْت ، وعرَّفك بَركاتِ هذا الاتِّصال ، ولا أخلاكَ فيه من مَوَادِّ السعادةِ والإقْبال ؛ وعضَّدك بالبَرَرة من عَقِبك ، والسادة من ذُرِّيَّتك .

وله فى مثـــله :

إنِّى وإن كنتُ ملْتحِفا بلُحف مودَّتك ، ومتمِّسكا بعِصَم أُخُوَّتِك ، أَوْلىٰ بالتهنئـة بمـا يَحْدُث لك من وُرودِ نِعْمه ، وآتصالِ مَوْهِبــه ؛ فإنِّى ماأجِدُ فرضَ الدعاءِ لك

ساقِطا، ولا واجِبَ الشكر لله تعالىٰ علىٰ ما أوْلانِى فيك زائِلا ؛ فعرَّفك اللهُ بركةَ هذا الاّتصالِ الحميد، والاّقترانِ السَّعيد؛ وجعله للسُّرور مُكَثِّرا، وباليمن مبَشِّرا؛ وأحْياكَ للتهانى بمثلِه فى السادةِ من وَلَدك، والنُّجباء من ذرّيَّتك .

وله فى مثــله :

وصل اللهُ هذا الاّتصالَ الميْمُون بأرْجَح البركات وأفضَلِها ، وأنْجَح الطَّلبات وأ كمَلِها ؛ وأحمدَ بدْأَه وعُقْباه، وبلَّغك الآمالَ فى سائِرِ ما تَهْواه ؛ وأحياكَ للتَّهانِى بأمثاله فى البَرَرة من وَلَدك، والنُّجباء من عَقِبك .

من كلام المتأخرين :

للشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

جعلَ الله الخِيرَةَ له فيما يَذَرُه ويأْتِيه، والنجاحَ مقْروناً بما يُعِيده من الأوامر ويُبْدِيه، والألسنةَ شاكرةً مايُولِيه من الإنعامِ ويُسْدِيه . صدرَتْ هذه الخدمةُ معْرِبةً عن ثناءٍ تأرَّج عَرْفُه ، وولاءٍ أعجزَ الألسِنةَ شرْحُه ووَصْفُه ؛ وتهنئةٍ بهذه الوُصْلة المباركةِ جعلها الله للاّتصال بالسعادةِ سَبَبا ، ومحصِّلةً من الخيراتِ مَراما وافِرًا وأرَبا ؛ وعَرَّفه بركةَ هذا العُرْس الذى أصبحَ الخيرُ بفِنائِه مُعَرِّسا، ونُورُ الشمسِ من ضياء بهجَتِه مقتَبِسا ؛ فنحمدُ اللهَ علىٰ هذه الوُصْلة سِرًّا وجَهْرا ، ونشكُره أنْ جعلَ بينه وبينَ السَّعْد نَسَبا وصِهْرا ؛ منحَ اللهُ المولىٰ الرِّفاءَ والبَنِين ، والعُمُر الذى يُفْنِى الأيامَ والسِّنين ، ورَزَقه إسعافاً دائِمًا وإسْعادا ، وأراه أولادَ أولاده آباءً بل أجْدادًا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالزَّواج والتسَرّى

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجب أن تكون شكرا للمهـنِّى علىٰ العِناية والآهتمام، و[مشتملة علىٰ] الإبانة عن موْقِع دعائه من التبرُّك والتيمُّن به ، إلا أن تكون البِدايةُ بمعنًى يخرُج عما هذا جوابُه، فينبغى أن يُجابَ عنه بمـا يقتضى الإجابةَ عن ذٰلك .

الضــــرب السابع

(من التَّهانِى التهنئةُ بالأولاد، وهو علىٰ ثلاثة أصناف)

الصنف الأوّل ــ التهنئـــةُ بالبنيـــن .

ممـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

إنَّه ليس من نِعَم الله وفَرائدِ قِسَـمه وإن حسُنَ موقِعُها، ولَطُف محلُّها، نعمـةٌ تَعْدِل النعمةَ فى الوَلَد، لنَمائِها فى العَدَد، وزيادَتِها فى قُوّة العَضُـد ؛ وما يُتَعَجَّل من عظيم بَهْجتِها، ويُرْجىٰ من باقِى ذِكْرها فى الخُلُوف والأعقـاب، ولا حق بركتِها فى الدعاء والآستِغْفار .

ومنـه : إنَّه ليس من النِّعَم نعمةٌ تُشْبِه النعمةَ فى الولد، لزيادَتِها فى قُوّة العَضُد، وحُسْن موقعها فى الخَلَف والعَقِب ؛ وآتصلَ بى خَبرُ مولودٍ فسَرَّنى ماوصـلَ اللهُ به من العارِفةِ إليك، وشَرِكتُك فى جميل المَوْهِبَة فيه شَرِكةَ مَنْ له مالَكَ وعليه ماعلَيْك؛ وسألتُ اللهَ أن يُوزِعَك شُكْرَ النِّعمة ويُؤْنِسَ بهذا المولُود رَبْعك، ويُكَثِّر به عدَدَك؛ ويعَظِّم بركتَه ويُمْنَ طائره علَيْـك، ويَزِيدَ به فى النعمـة كذلك، ويفْعل اللهُ ذٰلك، بمنِّه وطَوْله .

وفيه لابى الحسين بن سعد إلى أبى مُسْلِم بن بحر يهنئه بابنٍ حدث له :

فأمّا ماجدّد اللهُ من النعمة فى القادم والموهوبِ لك وَلَدا وأُنْسا، ولنا سَنَدًا وذُخْرا، فقد جلَّ قدرُ هذه المَوْهِبَة عن أن يُحاط لها بوَصْف، أو يُوفى لها بشُكْر.

وفيه لعلى بن خلف :

ويُنْهِى أنه آتّصل بالمملوك بُزُوغُ نَجْمِ سعدٍ فى مَشارِق إقْباله، مُؤْذِنٍ باتِّساق سُمُوّه وجَلَاله ؛ فأحدَثَ من الجَلَال والآستبشار بمَقْـدَمه، والتبرُّك والتيمُّن بقدمه، ماتلألأَتْ على المملوكِ أنوارُه، وحسُنَتْ عنـده آثارُه ؛ وسألتُ اللهَ تعالى راغباً إليه فى أنْ يُعرِّفَه سـعادَةَ مَوْلده، ويُمْنَ مَوْفِدِه، ويجعلَه شادّا لعَضُده، ومُورِيا لزَنْده، ويَشْفَعه والسادةَ السابقين، بنُجباءَ مُتلاحِقين، يتَبَلَّجُون فى نِطَاق سعادتِه، ويُتَوسَّمُون فى آفاق سِيادتِه ؛ ويَصُونَ سِلْكَهم من الآنفصام، وشَمْلَهم من الآنْهدَام ؛ ويُبقِيهم غُرَرا فى وُجُوه الأيّام، وأقمارا فى صَفَحات الظَّلام ؛ بمنِّه وفَضْله، إن شاء الله تعالى.

وفيه له : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ يشْكُر اللهَ تعالى على ما أنزلَهُ عِنْد مَوْلانا من عَوارِفه، وآختصَّه به من لطائِفه ؛ شُكْرَ مَنْ شارَكَه فى النعمة المُسْبَغَة عليه، وآنتهى إلىَّ خبرُ السَّنَد المتجدّد لمَوْلانا، فطار المملوكُ بخَوافِى السُّرور ومَقادِمه، وأخذَ من الآبْتهاج بأوْفى قِسَمه ؛ وسأل اللهَ تعالى أنْ يُبارِكَ له فى عطِيَّته، ويُرْدِفَه بزيادتِه ؛ ويُوفِّر عدَدَه، ويشُدَّ بصالح الوَلَد عَضُده ؛ ويُجْنِيَه من هذا القادِم ثِمـارَ المَسرّه، ويُرِىَ عينَه منه أقرَّ قُرّه، ويَشْفَع المِنْحة فى مَوْهبَته بإطالة مُدّتِه .

وفيه : ويُنْهِى أنَّ أفضلَ النِّعم مَوْقعا، وأشرفَها خَطَرا ومَوْضعا، نِعمةُ الله تعالى فى الولد : لزيادتها فى العَدَد وقُوّة العَضُـد، وما يُتعَجَّل من عِظَم جَمالهـا وزينَتها، ويُرْجىٰ من حُسْن مآلهـا وعاقِبَتها، فى حفْظ النَّسب والأصْل، وحُسْن الخِلافةِ على

الأهل؛ وجميلِ الذِّكْر والثَّناء، ومتقَبَّل الاْستِغْفارِ والدُّعَاء؛ وقد اتصل بالمملوك بُزُوغُ هلال سمـاءِ المَجْد ، ومتعلَّق الإقبال والسَّـعْد ؛ فأشرقَتِ الأيامُ بإشْراقه ، ووَثِقَتِ الآمالُ باجتلائِه واتِّساقه ؛ فقـام المملوكُ عن مولانا بشُكْر هـذه النعمة المتجدِّده ، والمَوْهِبة الراهنة الخالدَه؛ وهنَّأْتُ نفْسِي بها، وأخذت بحظِّي منها؛ والله تعالىٰ يعرِّفُه يُمْنَ المولودِ من أطهر والدة وأطيبِ والد؛ ويُعمِّر به منْزِله، ويُؤْنس ببقائه رَحْلَه؛ ويبلِّغ محبِّيه، من الآمال فيه، مابَلَّغهم فى المـاجد أبِيه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وفيه : ويُنْهِى أنَّ نِعمَ الله تعالىٰ وإن كانتْ علىٰ مولانا متظاهِره، ولديه مُتناصِرَه؛ فقد كان المملوك يرغَبُ إلىٰ الله تعالىٰ فى أن يُجمِّل الأيامَ من نَسْـله ، بمَنْ يحفَظُ عليها شرفَ أصْلِه ، ويَخْلُفُه بعد العُمُر الطويل فى نُبْله وكَرَم فِعْله؛ ولَمَّـا اتَّصـل بالمملوك نبأُ هـذا الهلال البازغ فى سَمَـائه ، المُقِرّ لعُيون أوْليـائِه ، المخيِّب لظُنُون أعدائه ؛ حَمِدتُ الله تعالىٰ علىٰ مَوْهِبَته، وسألتُه إقرار نِعْمته ؛ وأن يُعرِّف مولانا برَكةَ قَدمه ، ويُمْن مَقْدَمه؛ ويوفِّر حظَّه من زيادَتِه، وسعادةِ وِفَادته، وأن يجعلَه بَرًّا تقيّاً، مباركا رَضِيّا؛ ويُفَسِّح فى أجَلِه ، ويُبَلِّغه فيه أمَلَه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

من كلام المتأخريـــن :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

هُنِّئْتَ بالإسْـعافِ والإسْعادِ * ونَفَـاذِ أمْـرٍ فى العِــدَا بنَفَادِ!
وبَقِيتَ ما بقِيَ الزمانُ مَهنَّأً * ووُقِيتَ شَرَّ شَمَـاتةِ الحُسَّـاد!
يا مالِكَ الرِّقِّ الَّذِى أضْحىٰ لنـا * من جُودِه الأطْواقُ فى الأجْياد!
خُلِّدتَ فى عَيْش هَنِيٍّ أخضَرٍ * يَسْطُو ببِيضِ ظُبًا وسُمْرِ صِعَاد،
حَتّىٰ يخاطبَك الزمانُ مُبَشِّرا : * مُتِّعتَ بالإخْوانِ والأوْلاد!

جدّدَ اللهُ فى كلّ يوم له مَسَرّةً وبُشْرىٰ ، وأطابَ لعُرْفه عَرْفا ونَشْرا ، وشَدّ له بولده السعيدِ الطلعةِ أَزْرا وأَسْرا ، وسَرّىٰ به الهُمومَ عن القلوب وأصارَها لدَيْه أَسْرىٰ ، ورفَع درجَتَه إلىٰ سماء المَعالى ليُقال : سُبْحانَ الذى بعَبْدِه أَسْرىٰ .

المملوك يَخْـدُم المولىٰ ويهَنّيه ويشْكُره ، ويُطْلِعه علىٰ ماحصل له من الاَبتهاج للسبَبِ الذى يُنْهِيه ويذْكُره ؛ وهو أنه اتّصـل به قُدومُ المسافِر بل إسفارُ البَـدْر ، وظهورُ مَيْمُونِ الغرّة الذى جاء لأهـله بأمانٍ من صُروف الدَّهْر ؛ وهو الولدُ العزيز الموَفّق النَّجيب ، فلان ، أبقاه اللهُ تعالىٰ ليَحْيا مشكُورًا محْمُودا ، منْصُورا بسَيْف مجْدِه وسِنَان سعدِه مَسْعُودا ، وأدام عِزَّه وعُلاه ، وأعلىٰ نجْمه وخلّد شرَفَه وبَهَاه ، وضاعف سَناءَه وسَنَاه ، وأرانا منه ماأرانَا من السعادة فى أبيه ، فسُرَّ وابتَهج بهذه النعمةِ غاية السُّرور والاَبْتهاج ، واتّضح له فى شُكْرِ إحسانِ المولىٰ وحُسْنِ ولدِه كلُّ طريقٍ ومنْهاج ؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُطَوّل له عُمُرا ، ويجعلَه لإسعادِ والدِه وإسعافِه ذُخْرا ، ليَرْتَعا فى رِياض الدَّعَة فى صِحَّة وسلامه ، ويَحْعلا فى فِناء العُلا لهما دارَ إقامه ؛ ويبْلُغا من السـعادة درجةً لا تَرِيم عاليةً ولا تُرام ، وتَخْضعَ لهما الليالِى والأيّام ؛ ويرشُقاهما بِسِهام الصُّروف ويَطْعَناهما بأسنّتِها ، ويَفْهما دعاءَ الأيام لهما من صدورها ويسْمَعاه من ألسِنَتِها ، مخاطِبةً لأبيه ، ومنشدةً لسائرِ أهلِه ومحبّيه :

مَدَّ لكَ اللهُ الحياةَ مَـدّا ، * حتّىٰ ترىٰ نَجْلكَ هذا جَدّا

الصنف الثـانى ـــ التهنئـــةُ بالبَنَات .

من كلام المتقدّمين :

أبو الحسين بن سعد :

النِّعمةُ نِعْمتان : إحداهُما تُعجّل الأُنْس ، والأُخْرىٰ تدّخِر الأجر ؛ وعلىٰ حَسَب

ماتُتَلَقّ به من الشُّكر على ظاهر المحبوب، والتّسليم فيما يَجْرِى مَجْرَى بعضِ المكْرُوه؛ يكون المتاعُ عاجِلا ، والثوابُ آجِلا ؛ وما قَدَّمتُ القولَ [إلَّا] لِمَا ظننته يَعْرِض لك من الوُجُوم فى هذه المَوْهِبَة، فى المولُودةِ التى أرجُو أن يعظِّم اللهُ بركتها، ويجعلها أيْمَنَ مولُودٍ فى عصرها، ودالَّةً على سعادةِ أبيها وجَدِّها؛ و[لَئِنْ] كان فى الطبع حُبُّ الذُّكور والشَّغف بالبَنِين، فإنَّ البنينَ من البَنَات، وهُنَّ باليُمْن معْرُوفات؛ وبالبَرَكات مَوْصُوفات، وبالذُّكور فى أثَرِهنَّ مُبَشِّرات؛ فهَنأك اللهُ النعمةَ فيها تهْنِئةً لاتنْقِضى سعادتُها، ولا يعترِضُ النقصُ والتقدير(١) شيئًا منها؛ وابقَى هذه الصبِيَّةَ ممتَّعا أبُوها بها، ومُنْشأً له الحظُّ من حَدَاثتها؛ وبلَّغها أفضلَ مَبالِـغ الصالحاتِ القانِتات من أُمَّهاتها؛ وجعلَ فى مَوْلِدها أصدقَ دليل على طُول عُمُر أبيها وسَعادة جَدِّه، وتضاعُف نِعَم الله عِنْده؛ إنه لطيفٌ جَوَاد .

أبو مسلم محمد بن بحر :

مَرْحبًا بِبِكْر النِّساء، وبِكْر الأوْلاد ، وعَقِيلة الِخباء ، والمأمُولةِ للبركة، والمشْهورةِ باليُمْن ؛ وقد جرَّبنـاه فوجدْناه معْهُودًا مسْعودا؛ والله يعرِّفُك أضـعافَ ماعَرَّف مَنْ قَبْلك ، ويُبـاركُ لك فيما رزَقَك ؛ ويُثَـنِّى لك بأخٍ للولودةِ ويجعَـلُه رديفَها، وفى الخير قرينَها وشريكَها .

علىّ بن خلف :

ويُنْهِى أنَّ المملوكَ اتَّصل به ارْتِمـاضُ(٢) مولانا بمَقْدَم الكريمـةِ الوافِده، بطـالع السـعادةِ المتجدِّدَه؛ فعجِبَ المملوكُ من وُقُوع ذلك من مثل مَولانا مع كمال نُبْله،

(١) المراد به التضييق انظر القاموس .

(٢) يريد قلقه وعدم انبساطه .

وشرَف عَقْله وعلمه ؛ فإنَّ الله تعالىٰ جلَّ ٱسْمُه يقول : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ وإن ما جدّده اللهُ تعالىٰ من مَواهِبه جدِيرٌ أن يُتَلقّى بالسُّرور والفَرَح، لا بالاستياءِ والترَّح؛ لاسيَّما والذَّكَرُ إنما يتفَضَّل علىٰ الأنثىٰ بنَجَابتِه، لا بحِليته وصُـورته ؛ وقد يَقَع فى الإناثِ مَنْ هو أشرَفُ من الذكور طَبْعا ، وأجزَلُ عائدةً ونَفْعا؛ وقد رُوِى أنَّ رسولَ الله صلّىٰ الله عليه وسلم قال : " إذَا رُزِقَ العَبْـدُ الأُنْثىٰ نادىٰ مُنادٍ من السماء : ياأهْـلَ الدار أبْشِروا بالرِّزْق ؛ وإذا رُزِق ذكَرًا نادىٰ منـادٍ من السماء : ياأهل الدار أبْشِروا بالعِزِّ" فليستقبل مولانا الرِّزْقَ بالشُّكْر فإنَّ العِزَّ يَتْبَعه، ولا يعارِضُ اللهَ تعالىٰ فى إرادتِه ؛ ولا يستَقِلُّ شيئا من هِبَته ؛ والله تعالىٰ يُعرِّفه يُمْنَ عُهُودها، وسعادةَ قُدُومها؛ وأن يَسُرَّه بعـدها بإخوةٍ متَتابعين متَلاحقين ؛ يُؤَيِّدُون أمْرَه، ويُحيُون بعد العُمُر الأطولِ ذِكْرَه .

أبو الفرج الببغاء :

لو كان الإنسـانُ متصرِّفًا فى أمره بإرادته ، قادِرًا علىٰ إدراك مَشيئته ؛ لبطَلَتْ دلائلُ القُدْره، وٱستحالَتْ حقائقُ الصَّنْعه؛ ودَرَسَتْ معالِمُ الآمال، وتساوىٰ الناسُ ببلُوغ الأحوال؛ غيرَ أنَّ الأمر لَمَّـا كان بغير مشيئته مَصْنُوعا، وعلىٰ ماعَنَه ظهَر فى الآبتداء مَطْبوعا؛ كان المُخْرِجُ له إلىٰ الوُجود من العدم، فيما ٱرتَضَاه له غيرَ متَّهَم؛ ومولانا ـ أيده الله ـ مع كمالِ فضْلِه ، وتناهِي عَقْله ؛ وحِدَّة فِطْنته ، وثاقب معْرفته؛ أجلُّ من أن يجهَـلَ مواقِعَ النِّعم الواردةِ من الله تعـالىٰ عليه ، أو يتسَخَّط مَواهِبَـه الصادِرةَ إليه؛ فيرمُقَها بنواظِر الكُفْر ، ويسْلُكَ بها غيرَ مذاهِبِ الشكر .

وقد ٱتَّصل بالمملوكِ خبرُ المولودة كرَّم الله غُرَّتها ، وأطال مُدّتها ؛ وعَرَّفَ مولانا البَرَكةَ بها، وبلَّغه أملَهُ فيها؛ وما كان من تغيُّره عند ٱتِّضاح الخبَر، وإنكارِ ما ٱختارَه

له سابِقُ القَدَر، فعجِبَ المملوكُ من ذلك وٱستنكره، من مَوْلانا وأنْكَره؛ لِضيق العُذْر في مثله عليــه . وقد علِمَ مولانا أنَّهُنَّ أقربُ إلىٰ القُــلوب ، وأنَّ الله تعالىٰ بدأ بِهِنّ في الترتيب فقــال جلَّ من قائل : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وما سَمَّــاه الله هبةً فهو بالشُّكر أولىٰ، وبحُسْن التقبُّــل أَحْرىٰ ؛ ولَكَمْ نَسَبٍ أفدْن ، وشرَف ٱستَحْدَثْن ؛ من طُرُق الأصْهار ، والاتِّصال بالأَخْيار . والملتمسُ من الذكَر نجابَتُه ، لاصُورتُه وولادته ؛ ولَكَمْ ذكَرٍ الأُنْثىٰ أكرمُ منه طَبْعا ، وأظهرُ منه نَفْعا ؛ فمولانا يُصوِّر الحالَ بصُورتها ، ويجدِّدُ الشُّكر علىٰ ماوُهِبَ منها ؛ ويستأْنِف الاعترافَ له تعالىٰ بمــا هو الأشْبَهُ ببصيرته ، والاولىٰ بمثله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثــالث ـــ التهنئـــةُ بالتَّوْءَم .

أحْسَنُ ما رأيتُ من ذلك قولُ بعض الشُّعراء ممــا كَتَب به إلىٰ بعض أصحابِه ، وقد وُلِد له ذكَرٌ وأُنْثىٰ من جاريةٍ سوداء، وهو قوله :

وخَصَّكَ رَبُّ العَرْشِ منها بتَوْءَمٍ * ومِنْ ظُلُماتِ البَحْرِ تُستَخْرَجُ الدُّرَرْ!
واركَ أضحىٰ وارِثًا عِــلْمَ جابِرٍ * فأعطاكَ من ألْقابه الشَّمْسَ والقَمَرْ!

الأجوبة عن التهنئةِ بالأولاد

قال في "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع يجبُ أن تُبْنىٰ على شُكْر ٱهتمامِ المُهَنِّئ ورعايَتِه، والاعتدادِ بعِنايتِه؛ وأنَّ الزيادة في تجدّد المهنَّى [به] زيادةٌ في عَدَده، وأن نصيبَه من تحرُّك السرور فيما يخلُص إليه من المَوَاهب كنصيبه : لتناسُبِهما في الإخاء، وتَوافِيهما في الصَّفاء، وأن تراعىٰ مع ذلك مرتبة المَهَنِّي والمَهَنَّى، ويبنىٰ الخطاب علىٰ ما يقتضيه كلٌّ منهما .

وهـــذا مثالٌ من ذلك :

زهر الربيـــع :

ويُنْهِى ورودَ الكتابِ الذى تَشرَّف المـــلوكُ بُورُوده ، وأشرقَتِ الأَيَّام بكمالِ سُعُوده ، وأرغَمَ ببلاغته مَعْطِسَ مُناوِيه وحَسُوده ؛ فشكَرَ أيادِىَ من أنْعم بإرساله ، وٱكتسىٰ بالوُقُوف عليه حُلَّةً من حُلَل نَخْره وجَمـاله ، وبالغَ فى إكماله ، حتّى وقف إجلالًا له بين يَدَيْه ، ثم تَلَا آياتِ حُسْـنِهِ على أُذُنَيْه ، فوجده مشتمِلا علىٰ إحسانٍ لم يَسْبِقْه إلىٰ مثلِه أحَد ، ومِنَنٍ أوْدَعها فيه فلا يُحصِيها حَصْر ولا عَدَد ، فهَيَّج بُورُوده رَسِيسَ الأشْواق ، وتقلَّد بإنعامِ مُرْسِـله كما قُلِّدت الحمـائمُ بالأطْواق ، ووجدَ لَوْعةً لا يُحْسِـن وصفَها لسانُ اليَراع فى الأوْراق ، وعلم ما أشارَ إليـه المَوْلىٰ من التهنئة بالوَلَد الجديد ، بل بأصْغَر الخَـدَم والعَبيد ، وما أبداه منَ الاْبتهاج لِميلادِه ، وأظهره من التفَضُّـــل المعروفِ من آبائه الكرامِ وأجْداده ؛ ولِمَ لا يكونُ الأمرُ كذلك والوالدُ مملوكُه ، وهو مملوكُ السادةِ الأجِلّاء أولادِه ؛ حَرَس الله مَجـدَه ومتَّعه بثَوْب مكارِمه ، وخَفَض قدْرَ مُحـارِبه ورفَع كلمةَ مُسالِمه ؛ ولا زال ممـاليكُه تتزيَّد تزَيُّد الأيَّام ، وسـعادتُه باقيةً بقاءَ الأعوام ، وعينُ العنايةِ تحرُسه فى حالَتَىِ السفرِ والمُقَام ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــرب الثامن

(من التهانى التهنئةُ بالإبْلال من المَرَض والعافيةِ من السَّقَم)

فمن ذلك :

ويُنْهِى أنه مازالَتْ أجسامُ أهلِ التَّصافِى ، تشتَرِكُ فى الأَسْقام والعوَافِى ، كما تَشْتَرِكُ أنفُسُهم فى التخالُص والتَّوافى ؛ ولمَّـا أَلَمَّ بمولانا هـذا الأَلَمُ الذى تفضَّل الله تعـالىٰ

بإماطته، ومَنَّ فيه علىٰ السُّؤدد بحراسة مولانا وحياطَته ؛ فرأيْتُه حالًّا فى جَوارِحى، مُحْرِقًا لجوانِحى ؛ ممازِجا لأعْضائى، متَمَلِّكا لأنوائى(١) ؛ ولئن كنتُ قد تحمَّلْت من ذٰلك عِبـا، وآرتقَيْت من تحمُّله مُرْتقًى صَعْبا ؛ فلقد نَخَرتُ بمماسَّته، وأحمَدْتُ طَبْعى علىٰ مُشَاكلته ؛ وشكَرْت الله تعالى إذْ جعَلَنى شُعْبة من سَرْحته، وجبِلّةً من طينَته ؛ وعلىٰ ماسَرَّ به من إقالتِه وإنعاشِه، ومُصافاته وإبْشاشِه ؛ وسألتُ الله تعالى أنْ يبقيَه نُورا يُوضِّح مَغْرِبَ الدَّهر ومَشْرِقه ، ودُرًّا يُرصِّع فَوْد المجْد ومَفْرِقه ؛ ويُحْسن الدِّفاعَ عن حَوْبائه، وهو سبحانهُ يُجيب ذلك ويتقَبّله، ويرفَعُه ويسْمَعُه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

المملوكُ يُهَنِّئُ مولاه خاصَّةً إذ جعله الله تعالىٰ من صَفْوةِ أوليائه، وخالِصة أحبَّائه ؛ الذين يبتليهم آختبارا، وينْتابُهـم آختيارا : ليجمع لهم بين تمحيص وِزْرِهم، ومضاعَفَة أجْرِهم ؛ والحضِّ علىٰ طاعته، والآنصراف عن معْصيته ؛ ويُهَنِّئُ الكافَّة عامَّة بالمَوْهبة فى نُوره المُطلِعـةِ لأمَلِ الإقبال ، المُرْوِيَة لِمَـاحِل الآمال ؛ ثم أعطفُ علىٰ حمْد الله علىٰ مامَنَّ به من إبْلالِه ، ويَسَّره من آستِقْلاله ؛ والرَّغبة إليه فى أن يمنَحَه صحةً تُخَلَّد وتُقِيم، وعافيَة تَرْهَن ولا تَرِيم ؛ وأن يحمِيَه من عَوارض الأسْقام، ويصُونه من حوادثِ الأيَّام ؛ بفَضْله وجُوده، إن شاء الله تعالىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

أفضلُ مايَفْزَع إليه العبدُ المخْلِص، والمَوْلىٰ المتخصِّص ؛ فيما ينوبُ سـيِّدَه ويُهِمُّ وَلِيَّ نعمتِه، الدعاءُ المقتَرِن بصدْق النيه، وصَفَاء الطوِيَّه [فالحمد لله الذى منَّ بالصحَّة] وتصدَّق بالإقالة، وتدارك بجميل المُدافعة ؛ وعَمَّ سائرَ خدَمِه أيَّده الله بالنِّعمه، وأعاده

(١) كذا فى الأصل ولعله لأحشائى أو نحو ذلك .

إلى أجمل عاداته من السلامة والصحه، فائزا بمدّخر الأجر، متعبدا بمستأنف الشكر، فلا أخلاه الله من زيادة فيما يوليه، ولا قصدنا بسماع سوء فيه؛ وحرس من الغير مهجته، ومن المحذور نعمته.

وله فى مثـــله :

ما كنت أعلم أن عافيتى مقرونة بعافيتك، ولا سلامتى مضافة لسلامتك، إلى أن تحققت ذلك من مشاركتى إياك فى حالتى الألم والصحه، والمرض والمحنه؛ فالحمد لله الذى شرف طبعى بمناسبتك، وجمّل خلقى بملاءمتك؛ فيما ساء وسرّ، وإياه تعالى أشكر على ما خصّنى به من كمال عافيتك، وسبوغ سلامتك وسرعة إقالتك؛ وبه ـ جلّ آسمه ـ أثق فى مزيدك من تظاهر النعم، وتوفر القسم.

وله فى مثـــله :

ولولا أنّ متضمّن كتابك قرن ذكر المرض الهاجم عليك، بذكر ما وهبه الله لك من عود السلامة إليك، لما آقتصر بى القلق على [ما] دون المسير نحوك، والمبادرة لمشاهدتك؛ غير أن السكون إلى ما أدّاه كتابك سابق الجزع، والطمأنينة إلى ما وهبه الله من كفايتك حالت دون الهلع؛ فالحمد لله الذى منّ بالإقالة، وتصدّق بالسلامة وعمّ بالكفايه؛ وهو ولىّ حراستك وحراستى فيك.

وله فى مثـــله :

سيّدنا فى سائر ما يذكّره الله من هجوم ألم مؤذن بصحّه، وآعتراض محنة مؤدّية إلى منحه، مرموق بالعافيه، محروس من الله جلّ آسمه بالحفظ والكلاءة؛ فهو مع العلة فائز بذخائر الأجر، ومع العافية موفّق لآستزادة الشكر، فالحمد لله الذى عقد الكرم ببقائه، وشفى مرض الآمال بشفائه؛ وكفاه آعتراض المخوف، وعوارض الصروف.

وله فى مثـــله :

ما ٱنْفردَ جِسْمُك بالعِـلَّة دُونَ قَلْبى ، ولا ٱختصَّت نفْسك - حرسها الله تعالىٰ - بمُعاناةِ المَرَض دُون نَفْسى ؛ ولم أزلْ بالقَلْب تالِيا ، وفى سائر ماشكوتَهُ بالنِّية مُساوِيا ؛ إلىٰ أنْ كشفَ الله الغُمَّه ، وأقال العَثْره ، ونَفَّس الكُرْبه ؛ ومَنَّ بالسلامه ، وتصدّق بالكِفايه ؛ وأوجبَ بالعـافيةِ علينا جميعًا فُروضَ الشكر ، بعد ما ادَّخره لك بالألَمَ من كثْرة الأجر ؛ فالحمـد لله علىٰ ذٰلك حمدًا يؤدّى إلىٰ حِراسة ماخوّلك ، ويُؤْذِن بالمَزِيد فيما منحك .

ومن كلام المتأخريـــن :

أعْلىٰ الله قدرَ الجناب الفُلَانِى ، ولا زالتْ شُموسُ أيامه لاتخَافُ كُسُوفا ولا أُفُولا ، وأقمارُ لياليه تَغْرِس فى قلُوب أوليائه ومحِبِّيه فُروعًا وأُصُولا .

المملوكُ يَخْدُم خدمةَ مَنْ تحمَّل جميلا ، ونال من تَفَضُّل الجناب الكريم جزِيلا .

ويُنْهِى ما حصل له من السُّرور بعافيـةِ مولانا ، فالشكرُ لله علىٰ ماجَدّد من النِّعمة التامَّه ، وسَمَح به من الكرامة العامَّه ؛ حين أعاد البـدْر إلىٰ كَماله ، والسُّرورَ إلىٰ أَتَمِّ أحواله ؛ وما كانتْ إلا غَلْطةٌ من الدَّهر فاستَدْركها ، وصَفْقةٌ خارجةٌ عن يدهِ فمُلِّكها ؛ فقرَّتْ بذٰلك العُيون ، وتحقَّقت فى بُلوغ الأمل الظُّنون ؛ وٱنجبَر قلبُـه بعدما وهَن ، وعاد جَفْنُه بعد الأرَق إلىٰ الوسَن ؛ وقال : ﴿ الحمدُ للهِ الَّذى أذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ ﴾ . ولقد كان يتمنّى المملوك لو فازَ من الرُّؤْية الشريفةِ بحظِّ السمع والبَصَر ، وتملّى بمشاهدة وجْهه الكريم فإنَّ فيه البُغْيةَ والوَطَر .

والمملوكُ فمـا يُعدّ نفْسَه إلا من المحبين الذين بذَلُوا نُفوسَهم لمحبته وأعَدُّوها ؛ والله تعالىٰ يسُرّ الأولياء بتضاعُف سُعُوده ، ويُديم بهجةَ الأيَّام بميمُون وُجُوده ؛ ويُطيل

فى مدّته ويحرُسها من الغِيَر، ويحرُس أحوالَ مِزاجه الكريم علىٰ القانُون المعتَبَر، ويَكْفِى أولياءَه ومحبِّيه فيه كلَّ مكروهٍ وحَذَر، إن شاء الله تعالىٰ .

من زهر الربيع :

ولَمَّا شَكَوْتَ، آشْتكىٰ كُلُّ ما * علىٰ الأرضِ وآهتزَّ شرقٌ وغَرْبُ!
لِأنَّك قَلْبٌ لِجسْم الزَّمان * وماصَحَّ جِسْمٌ إذا آعتَلَّ قَلْبُ!

حرَس الله جَنابَه، وأسبَلَ عليه رِداءَ السعد وأثوابَه، ومتَّعه بِبُرود العافية وجِلْبابِها، وفتح له إلىٰ نَيْل السعادة سائرَ أبوابِها، ومنَحه الكِفايَة والأمْنَ فى سِرْبه، والعافيةَ فى جِسْمه من قَلَق كلِّ مرَضٍ وكَرْبه، وجمع له بين الثَّواب والأجْر، وجازاه بجزيل الغُفْران عن جميلِ الصَّبْر .

المملوك يبَشِّر نفْسَه ومولاه بما مَنّ الله به من صِحَّةِ مِزاجه الكَرِيم، والإبلالِ من مرَضٍ كاد يُدِير كُئُوس الحِمَام علىٰ كلِّ صديقٍ حَمِيم، ويحمدُ الله علىٰ عافيتِه حمدًا جزيلا، ويشْكُره عليها بُكرةً وأصِيلا، فإنَّه قد عُوفِى لعافيتِه المجدُ والكَرم، وزالَ عنه إلىٰ أعدائه الأَلَم، فالمولىٰ حفِظ الله (١) صِحَّته من السَّقَم، وحَماهُ من ألَمَ ألَمّ، وجعل سعادَتَه تتزايَدُ علىٰ مَمَرّ الأنفاس، وجسَدَه سالما من الأذىٰ كسلامةِ عِرْضه من الأدْناس، إن شاء الله تعالىٰ .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وقىٰ اللهُ من الأسواء شَخْصَه الكريم، وشَمْلَه النَّظِيم، وقلْبَ محبِّه الذى هو فى كلِّ وادٍ من أوديةِ الإشفاقِ يَهِيم .

---

(١) لعله حفظ الله على المولىٰ صحته الخ .

ولا زالتِ الصحةُ قرينَه حتّى لا يعتَلَّ فى منازله غيرُ مُرور النَّسيم . ويصفُ شوقا يَزِيد بالأنفاسِ وَقْدا، ويجدّد للأحشاءِ وَجْدا، ويباشِرُ القلبَ المُغْرَم فيَمُدّ له من عذاب الآنتظارِ مَدّا .

وينهى أنه جهَّز هذه الخدمةَ نائبةً عنه فى آستجْلاءِ وجه أكرمِ الأحِبَّه، وتُصافِحُ اليدَ التى أقلامُ كُتُبها فى شكوىٰ البِعادِ أطِبَّه؛ مبديةً إلىٰ العلم الكريم أنَّه معَ ما كان يكابِدُه من الأشواق، ويعالِجُه من خَوَاطر الإشْفاق، بلَغه ضَعْفُ الجسد الموَقَّى، وعارِضُ الألم الذى آستطار من جَوانِح المحبِّين بَرْقا؛ فلا يَسْأَلُ الجنابُ الكريمُ عن قلْبٍ تألَّم، وصدْرٍ صامتٍ بالهُموم ولكنَّه بجراح الأشجان تكَلَّم، ولسانٍ أنشد :

ألَا لَيْتَنِى حُمِّلْتُ ما بِكَ من ضَنًى * علىٰ أنَّ لى منه الأذىٰ ولكَ الأجْرُ!

ثم لَطَف اللهُ تعالىٰ وعجَّل خَبَرَ العافية المأمُوله، والصحةِ المُقْبِلة عَقِيبَ الدَّعَوات المقبوله؛ فيالها مسَرَّة شَمِلتْ، ومَبَرَّة كَمُلت؛ وتهنئة جمعتْ قلوبَ الأودّاء وجَمَلتْ، وأعضاء فَدَتْها(١) عُيونُ المَهَا فنقلَتْ عنها صِفاتِ السِّقام وحَمَلَتْ؛ وعافيَة حوَّلتْ إلىٰ قلوب الأعداء المَرَض، وجَوْهَر جسدٍ طاهرٍ زال [عنه] بأسُ العَرَض؛ فهنيئاً له بهذه الصحةِ المتَوافِرة الوافيه، والحمدُ لله ثم الحمدُ لله علىٰ أنْ جمع بين حُصُول الأجْرِ ووُصُول العافيه، وعلىٰ أن حفِظ ذاتَه الكريمة وحفْظُها هو المقدّمةُ الكافيةُ الشافيه :

وتقاسمَ الناسُ المسرَّةَ بينهم * قِسَمًا فكانَ أجلَّهم قِسْما أنا!

واللهُ تعالىٰ يُسْبغ عليه ظِلَال نِعَمِه، ويحفَظُه حيثُ كان فى نَفْسِه وأهلِه وخَدَمِه؛ وكما سرّ الأحبابَ بخبرِ عافيَته كذلك يسُرُّهم بعِيَان مَقْدَمه .

---

(١) فى الأصل قيدتها ولا معنى له .

أجوبة التهنئة بالإبلال من المرض والعافية

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هــذه الرِّقاع يجبُ أن تكونَ مبنيَّةً علىٰ وصف الألَمِ وصُورته وما تفضَّــل الله تعالىٰ به من إمَاطتِه ، وشكرِ المهنِّى بٱهتمامه وعِنايتِه .

وهذه أمثلة من ذٰلك :

من زهر الربيع :

أدام اللهُ نعمتَه ، وشكرَ مِنَّته ، وأدالَ دَوْلتَــه ؛ وأعلىٰ قدْرَه وكلمتَــه ، وحتَّم علىٰ الألسنة شُكْرَه والقلوبِ محبَّتَه . ولا زالتِ التهانِى من جِهته وافِده ، والبشائرُ وارِدَه .

ويُنْهِى وُرودَ الكتاب الذى أعدّتْه يدُ المَعالى فعادَ كَرِيمـا ، وشاهدَ حُسْنَ منْظَرِه فصار وجْهُه وَسِيما ؛ وأنه وقَفَ عليه ، وأحاط عِلْما بكلِّ ماأشار المَوْلىٰ إليه ؛ فذكَّره أُنْسا كان بخِدْمتِه لم يَنْسَه ، وجدَّد له وَجْدا ما زال يَجِدُ فى قلبه ونَفْسِه عينَه ونفسه ؛ ونَشَر من مآثِرِه المأثُوره ، وفضائله المرقومةِ فى صَــفَائح الصَّحائِف المسطُوره ؛ ماشنَّف به وشَرَّف ، وشوَّق إلىٰ لِقــائِه وشَوَّف ؛ وأقامَ البُرهانَ علىٰ ذَكِيّ فِطْنته ، وزَكِى فِطْرته ؛ وعلِمَ ماأنعَم به وتفضَّل ، وأحسَنَ وتطَوّل : من تهنئة المملوكِ بالإبْلال من مَرَضه ، والبُرء من سَقَمه ، والتخلُّص من يدَىْ وجَعِه وألَمِه ؛ وسُرَّ بوُرودِ كريم مُشَرّفته ، أعظَمَ من سُرورِه بلِباس ثَوبِ عافيتِه ؛ وبدَوامِ مَجْده وسعادتِه ، أكثرَ من صِحَّةِ مِزاجه وٱستِقامتِه : فإنَّ مكارمَ المَوْلىٰ كالحدائقِ النَّاضِره ، ومنْزلتــه أعز فى القلوبِ من الأحداقِ الناظِره .

فالحمدُ لله الذى مَنّ بالعافية من ذلك المَرَض ، والداءِ الذى ألَمَّ بعرضَيْه فاحتوىٰ منهما علىٰ الجوْهَر والعَرَض ؛ وطالَ حتّى أسأمَهُ من نَفْسه وعُوّاده ، وآيَسه من الحياة

لولا لطفُ اللهِ واللهُ لَطِيفٌ بعِبَاده ؛ وهـذا ببركةِ المولىٰ ودعائِه الذى كان يرْفَعُـه ، والخواطِرُ والأسمـاعُ مع بُعْد الشُّقَّة تشْهَد به وتسْمَعُه ؛ جعل الله التهانِىَ مع الأبد واردةً منه و إليه، وشكَرَ إنعامَه وأَتَمَّ نعمتَه عليه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وكتبتُ للمقرّ العلائىّ علاءِ الدين الكَرَكىّ وهو يومَئِذ كاتبُ السِّرّ الشريف فى الدولة الظاهريّة «برقوق» فى سلْطنته الثانيةِ، وقد برَأ من مرض نظما :

أَفْدِيه مِنْ جَسَــدٍ قدْ صَحَّ مِن سَقَم * فبَاتَ جَوْهَرُه خالٍ من العَرَض !
فاستَبْشَرتْ بعَـلىّ القَوْمِ شِـيعَتُه * وماتَ حاسـدُه بالسُّقْمِ والمَرَض !

الضرب التـاسع
(التهنئـــةُ بقُرْب المَـــزار)

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

قَرَّب اللهُ مَزَاره ، وأدْنىٰ جِوَارَه ، وأعانَـ أعوانَه ونَصَر أنصارَه . ولا زالتِ الأنفُسُ لقُرْبه مَسْروره ، وراياتُ مجْدِه فى الملإ الأعلىٰ وأحزاب الإسلام بهيبَتِه علىٰ اعداء الدِّين مَنْصُوره .

المملوكُ يقبِّل الباسطةَ العاليةَ بسَطَ اللهُ ظِلَّها ، وشكَرَ علىٰ الأولياء فَضْلَها . ويُنْهِى أنه ٱتّصل به طَيِّب أخباره ؛ وقُرْبُ مَزَاره ؛ فتَضاعفَ شَوْقه ، وتَزايد توَقُّه ؛ وهيَّجتْ صَبَابتُه لاعِجَه ، وسَهَّلتْ إلىٰ نَيْل المَسَرَّة طُرُقَه ومَنَاهِجَه :

وأَبْرَحُ مايَكُونُ الشَّوقُ يَوْمًا * إذا دَنَتِ الدِّيارُ مِنَ الدِّيَارِ !

فاللهُ يقرّبُ من أمَدِ التَّلاقِى بَعِيدا ، ويجعَلُ رِداءَ الاجتماع بخِدْمته قَشِيبا جَدِيدا .

الضـــرب العـاشر
(التهنئــةُ بنزول المَنـازل المستَجدّة)

فمن ذلك [من إنشاء] علىّ بن خلف :

أشرَفُ المَنازل رُقْعه ، وأتْرَفُها بُقْعه ، وأرفَعُها رفعـه ؛ ما ٱتَّخذه مولانا لنفســه موْطِنَا ، وجَعله بنزُوله فيه حرمًا آمِنا ؛ وصيرّه بمُخْصِب مكارمه للعُفَاة مَرادًا ومَقْصدا ، وبمُعْذِبِ نوافِـله للظُّماة مَشْرَعا ومَوْردا ؛ وللسُّؤدَد بمجده مَعْقِلا ، وللرِّياســة بشَرفه مَنْزِلا ؛ والله تعالىٰ يجعلُ هذه الدارَ التى تديَّرها وحلَّها ، وحطَّ بها رحْلَه ونزلها ؛ مأهولةً ببقائه ، آنسةً بسُبُوغ نَعْمائه ؛ عامِرةً بسعادته ، مَشِيدةً بتناصُرِ عِزِّه وزيادته ؛ لاتُخْطِئُها حوائِمُ الآمال ؛ ولا تتخطّاها دِيَمُ الإقبال ؛ ويُعرِّفُه من بركتها ، ويُمْنِ عَتَبتِها ، مايقضى بامتدادِ الاجل ، وٱنْفِساح الأَمل ؛ وبلوغِ الأمانِى ، وٱتِّصال التَّهانى ؛ بمنِّـه وكرمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنه قد ٱتَّصل بالمملوك تحوُّلُ مولانا إلىٰ المنْزِل المنْشَإ الجَديد ، ذى الطالِع السـعِيد ، والطائرِ الحميد ؛ فسألتُ اللهَ تعالىٰ أن يبوِّئَه منه المُبوّأَ الكرِيم ، ويمتِّعه فيــه بالدَّعَة والنَّعيم ؛ والنَّمـاء والمَزيد ، والعَيْش الرَّغيــد ؛ ويجعَلَه واصــلًا لحبْله ، مأهولًا بأهله ؛ ويعرِّفَه بركَةَ عتَبتِه ، ويُمَلِّيه ببهائِه ونَضارته ؛ وحصل للمملوك السُّرورُ بأن بلَّغه الله الوَطَر ، فى سُكْنىٰ ماعَمَر ؛ وأنالَه الأمَل والالْتذاذ بخِدْمته ، والسُّرورَ بافْتِضاض عُذْرته ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

مولانا ــ أمتع الله بوجوده ــ غنىٌّ عن الهَناء بمنْزِلٍ ينْزِله ومحلٍّ يحُلُّه ، إذِ الله سـبحانَه وتعالىٰ قد كثَّر أوطانَه وآدُره ، وبلَّغه فى تمـامِ عِمارتِها وٱنفِساحها وطَرَه ؛

وخصَّه بأفضلِها معَانا ، وأشرفها مَكَانا ؛ والمستوجبُ فى الحقيقـة للهَنَاء هو الموضِعُ الذى آختاره دَارًا ، وآرْتضاه مستقَرّا ؛ وعرَفَ الملوكَ آنتقالَه ـ لازال يتنقَّلُ فى بُروج السَّعْد ، ويأْوِى إلىٰ ظلٍّ ظلِيلٍ من المجْد ـ إلىٰ الدار الفلانية لا زالتْ جامعةً لشَمْله ، مأنوسةً بأهْله ؛ فعدَلَ عن خِدْمته بالهناء ، إلىٰ إخْلاص الدُّعاء ، بأن يعرِّفَه الله تعالىٰ يُمْنَها و بركَتَها ، ويُرِيه إقبالَهـا وسـعادَتَها ، و يَقْرُنَ تحوُّله إليهـا بأيْمنِ طائِرٍ ، وأبركِ طالِـعٍ ؛ فإنَّ للحرَكَات أوقاتاً محمودةً ومَذْمومة : فإذا آعْتنىٰ اللهُ تعالىٰ بعَبْد من عَبِيده ، وفَرَضَ له نصيبًا من تأييدِه ؛ وفَّقه للحركَة فى الزَّمَن السعيد ، والوقتِ الحميد ؛ لتكُونَ مَصَايِرُه مُشاكلةً لَمبادِيه ، وأعجازُه مشابِهـةً لهَوَادِيه ؛ واللهُ تعـالىٰ يجعَـل بابَها محطًّا للقُصَّاد ، ومناخًا للوُفّاد ، ومَزَارا للعُفَاه ، وملاذا [للعُنَاه](١) ويصلُ بها حَبْله ، ويُنْشِى بها طِفْله ؛ ويضاعِفُ بآستيطانِها أُنْسه ، ويسر بتَبَوُّئِها نَفْسَه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

أسـعدُ المنـازِل وأشرفُ المواطِن ماآسـتَوْطنه أيَّده الله وتبوّاه ، وتخيَّره لنَفْسـه وآرتضاه ؛ فغدا بشَخْصِه وطَنَ الإقْبال ، وبفائِض كَرَمه حَرَمَ الآمال ؛ وبشَرَفه للسُّؤدَد مَعْقِلا ، و بنُبْـله للرِّياسة مَنْزِلا ؛ فعرَّفه الله يُمنَ هـذه الدارِ المعمورة بحُلُول البركات ، المحفوفةِ بتَنَاصُر السَّـعادات ؛ وجعلها وكلَّ رَبْع يقْطُنُه ، ومحلٍّ يسكُنه ، مبَشِّرا بآمتدادِ بقائِه ، وآهِلاً بالزِّيادة فى نَعْمائه .

وله فى مثـــله :

كلُّ وطن يحُلُّه ـ أيده الله ـ ويقْطُنه ، ومحـلٍّ يتخَيَّره ويسْكُنه ؛ مقصودٌ بالشُّكر والثناء ، آهِلٌ بالحمدِ والدُّعاء ، لا يتخطاه مُتوارِدُ الآمال ، ولا تنْقطِع عنه موادُّ الإقبال ؛

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ولذلك صار هذا المنزلُ السعيدُ من فضائلِ الأرض ومحاسِنِها، ونُجَع الآمال ومَعادِنِها؛ فعرَّفه الله يُمْنَه وبركتَه، وإقبالَه وسعادَتَه؛ وقرن آنتقالَه إليــه بأسبَغ نِعْمة، وأكمل سَلَامة وأبسط قُدرةٍ وأعلىٰ رُتْبه .

وله فى مثـــله :

عرَّفه الله [من] بركةِ هذا المنزِل المَوْرود، والفِناء المقصُود، ما يُوفِى علىٰ سالف ماأولاه من تكامُل البركات، وتناصُر السَّــعادات؛ وجعل مستقَرَّه فيــه مقرونًا بُنُمّو الحال، وتتابُع الإقبال؛ فى أفسَحِ المُدَد وأطولها، وأنجَح المطالِب وأفضَلِها؛ وعمَّر أوطانَ المكارم بإقباله، وعَضَّد الأمانِىَّ بآتِّساع نَعْمائه (١) .

أجوبة التهنئة بقُرْب المَزار، ونُزولِ المنازل المستجدّة

قال فى "مواد البيان" : أجوبةُ هــذه الرِّقاع يجب أن تُبْنىٰ علىٰ الآعتداد للمهنِّئ بتعهُّده، والشكر له علىٰ تَوَدُّده؛ والآبتهاج بِهَنائه، والتبرُّك بدعائه؛ وأن المستجدّ غير مبايِنٍ لمنْزِله، ولا خارجٍ عن أحكام محله؛ وأنَّ تمـامَ بركته، أن يُؤْنِس فيه بزيارتِه؛ وما يشابه هذا .

الضرب الحادى عشر

(نَوادِر التَّهانِى، وهى خمســـةُ أصـــناف)

الصنفُ الأوّل — تهنئـــةُ الذِّمىّ بإسلامه .

فمن ذٰلك ماأورده أبو الحُسَين بن سعد فى ترسُّله، وهو :

وما زالتْ حالُك ممثِّــلةً لنا جميلَ ما وهبَ اللهُ فيك حتّى كأنَّك لم تَزَل بالإســلام مَوْسُوما، وإن كنتَ علىٰ غيرِه مُقيما؛ وقد كُنَّا مؤمِّلين لِمَـا صِرْتَ اليه، ومُشْفقين لك

---

(١) لعله بيقائه ليناسب السجع الذى بعده .

مما كُنْتَ عليه ؛ حتّى إذا كادَ إشفاقُنا يستَعْلى علىٰ رجَائنا ، أتتِ السعادةُ فيكَ بما لم تزلِ الأنفُسُ تَعِدُ منك ، ونسأَلُ اللهَ الذى نوّرَ لكَ فى رأْيِك ، وأضاءَ لك سبيلَ رُشْدِك ، أنْ يؤهِّلك لصالحِ الأعمال ، وأنْ يؤتيَك فى الدنيا حسنةً ويَقيَك عذابَ النار .

ومن ذٰلك ، من كلام أبى العَيْناء :

ولتَهْنِئْكَ نِعمةُ اللهِ عليك فى أُخُوّة المهاجِرِين والأنصارِ والتابعين بإحْسان ؛ والحمدُ لله الذى فَوّزَ قِدْحَك [وأ] علىٰ كَعْبك ، وأنقذَ من النار شِلْوَك ، وخلّصَك من لَبْس الشّك ، وحَيْرة الشِّرْك ؛ فأصبحت قد آستبدلت بالأدْيارِ المساجد ، وبالآحادِ الجُمَع ؛ وبقِبْلة الشام ، البيتَ الحَرَام ؛ وبتَحْرِيف الإنجيل ، صِحّةَ التنزيل ؛ وبأوْثانِ المشركين ، قبْلَة الموحِّدين ؛ وبحُكْم الأُسْقُفّ رأسِ المُلْحِدين [حكم] أميرِ المؤمنين وسيِّدِ المرسلين ؛ فهنَأك الله ماأنعَم به عليك ، وأحسَنَ فيه إليك ؛ وذكّرك شُكْرَه ، وزادك بالشُّكْر من فَضْله .

أجوبة التهنئة بإسلام ذمّى

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تكونَ مبنيّة علىٰ شكر المهَنِّئ للهَنِّئ ، وآعترافِه بنعمةِ الله تعالىٰ عنده ، وآبتهاجِه بممازَجتِه فى الدِّين ، الذى جعل اللهُ أهلَه إخوانًا متَصافين ، وخُلّانًا متوافِين ، ومَنَّ عليهم به ، وبإماطةِ الحسائِف(١) من قلوبهم ، ونحو هذا .

الصنف الثانى — التهنئة بالخِتَان وخروج اللِّحية .

فمن ذلك تهنئةٌ لأميرٍ بخِتَان ولدَيْن له :

فمن خَصائصِ ما حَباه اللهُ بعدَ الذى قدّم له فى نَفْسه — نفّس الله مُدّتَها ؛ ووسّع له مُهلتَها ، وأفنىٰ الأعدادَ دُونَ فَنائِها ، والأعمارَ دُونَ تصرُّمها وآنتهائِها : [من] الفَضَائل

(١) الحسائف جمع حسيفة وهى الضغينة والسخيمة أُنظر اللسان فى ج ١٠ مادة ح س ف .

المشهوره، والمحاسن المذكوره، والمَناقِب المأثوره، وأقسامِ الفضل الذى يَنْقضى دُونَ تصرُّم(؟) منازِله وصْفُ الواصف إذا أفرطْ، وينتهِى دون أيْسرها أملُ الآملِ إذا آشتطّ - ما وهبَ اللهُ له من أولادٍ سادةٍ فضّلهم فى الأخلاق والصُّوَر، وأكملهم فى الأجْسام والمِرَر، وقدّمهم فى العُقُول والأفهام، والقرائح والألباب، ولم يجعل للمَعايب فيهم سيمه، ولا للإناثِ بينهم شركه؛ حتّى يكون مسلّما لهم قصبَ العُلا والمَفاخر، وصدُورَ الأسِرّة والمَنابر؛ من غير منازِع، ولا مُقارع، ولا مُساهِم، ولا مُقاسِم، وزادهم من النَّماء فى النَّشْء والبركة واليمن بما يُؤذِن الحاضرُ منه بالغابر، ويدلُّ البادِى علىٰ الآخِر، وعْدًا من الله تعالىٰ ذكره لهم بأوْفىٰ السعادات، وأكمل الخيراتِ وأعْلىٰ الدَّرجات؛ أرجو أن يجعل اللهُ النُّجْحَ قرينه، والنجاةَ ذَريعتَه؛ وما أوْلاه فيهم فى هذه الحال الحادثةِ التى يَعْدق الله بها أداءَ الفريضة، وكمالَ الشريعه، ويقع التطيُّر بالخِتَان، الذى جعله الله من شُروط الإيمان، وفرَضه علىٰ جميع الأدْيان: من السَّلامة علىٰ عِظَم الخطَر، وشِدّة الغرَر، فى إمضاءِ الحديد علىٰ أعضاءٍ ناعمه، وإيصال الألَمِ إلىٰ قلُوبٍ وادِعة، لم تُقارِعْ نَصَبا، ولم تُعانِ وَصَبا، وآجتمع فيه إلىٰ رقّة الصِّبا، وضَعْف الأَسْر والقُوىٰ، آعتيادُ الرحه، ومخالفةُ الترفُّه والتنقُّل بين الشهوات، علىٰ أن كلَّ واحد من الأميرين شَهِد المعْركة أعزَلَ حاسِرا، وباشر الحرْبَ مغرّرا مُخاطرا، فثبت لوَقْع السِّلاح، وصَبَر علىٰ ألَمِ الجِراح، وأبلىٰ بَلاءَ الفارس المُدَجَّج، والكَمِىّ المقنَّع، ثم خرجَ خُروجَ شِبْل الليْث، وفرخ العُقاب، كالقِدْح المُعلّى والشِّهاب الساطع، والنَّجْم الثاقب، وكان فلان أكثرَهما تغيُّرا فى وجْه قِرْنه، وسطْوةً علىٰ مُنازِله، وكلٌّ قد حصَّل فوق الخَصْل، وحوىٰ فضيلةَ السَّبْق، وآستحقّ آسمَ البأْسِ والشِّدّه، وحِلْيةَ البَسالة والنَّجْده.

ومن ذلك ماأورده أبو الحسين بن سعد فى كتابه :

الحمدُ لله الذى كَساك باللِّحيــة حُلَّةَ الوَقار، وردَّاك رِداءَ ذِى السَّمْتِ من الأبرار والأخْيار؛ وصانَكَ عن مِيسَم الصِّبا، ومطامع أهــل الهوىٰ؛ بمـا جَلَّلك من اللحية البهِيَّه، وألبَسك من لِباسِ ذَوِى اللُّبِّ والرَّوِيَّه؛ وألحقَك فى متصرَّفاته بمن يسـتقِلُّ بنفسه ساعِيا، ويستغْنِى عمَّن صحِبه حافِظا؛ وجعل ماجَمَّل من صُورتك، وكمَّل من أداتِك وآلَتِك؛ قِرْنًا لمن جاذَبك، وخَصْمًا لمن نازَعك؛ ونفىٰ عنك ذِلَّةَ الاِحتِقار، من أهل المَراتِب والأخْطار؛ تَسْتوِى [بهم] فى المجالس الحافِله، وتجرِى مَجْراهم فى المَشاهد الجامعــه؛ مسمُوعا قولُك إذا قُلْت، ومُصْغًى إليك إذا نطَقْت؛ آمنًا من آنصراف الأبصار عنك لقُرْبِ وِلَادك، ومن [عدم] الاَستِماع لحديثك لقِلَّة الثِّقة بسَدادك؛ وجاريًا مَجْرىٰ كَمَلة الرجال علىٰ الجمله، إلىٰ أن يكشفَ اللهُ مَخابِرَك بالمِحْنه؛ وتعطىٰ المَهَابةَ من الدّاعِر العادِى، ومن السَّبُع الضارى؛ ولو كان عاريًا من هذه الكُسْوة الشريفه، والحِلْية الملحُوظه؛ لسِيقَتْ إلىٰ الاَزدراء بالأعين، والاَستِصغارِ بالقلوب والألْسُن؛ أصنافُ الحيوان : من البهيمة والإنسان؛ ثم لا يُحِسُّ من نفسه قوّةً علىٰ الدَّفْع عنها، ولا من صرعته ثباتا(؟)علىٰ يدها فيه. وتلك نعمةٌ من الله جل وعَزَّ حَبَاك بمرتبتها فى جَمَالِ غَشَاك(١)، وكمالٍ أتاك؛ فلَيُصدّق بها آعترافُك وشكْرُك، وليحْسُن ثناؤُك ونَشْرُك؛ قضاءً لحق الله عليك، وآستِدْرارا فى المزِيد من إحسانِه إليك.

الصنف الثالث ــ التهنئـــة بالمـــرض.

أبو الفرج الببغاء :

فى ذِكْر الله سيدى بهذا العارض ــ أماطه اللهُ وصَرَفه، وجعل صحةَ الأبَد خَلَفه ــ مادَلَّ علىٰ ملاحظته إيَّاه بالعناية، إيقاظًا له من سِـنَة الغفْلة؛ إذ كان تعالىٰ لايُذَكِّر

(١) غشى فلان فلانا أتاه كغشاه يغشوه . قاموس .

بطُرُوق الآلام، وتَنْبيه العِظَات ، غَيْرَ الصَّفْوة من عِبَاده، الخِيرَةِ من أولِيائه ؛ فهَنَأه الله الفوزَ بأجْرِ مايُعانيه ، وحَمَلَ عنــه بألْطافه ثِقْلَ ماهُو فيــه ؛ وأعقَبَ ما آختَصَّه من ذَخائر المثُوبةِ والأَجْرِ بعافيةٍ تقْتَضِيه؛ ولاسلَبَ الدنْيا جمالَ بَقائِه، ولا نقَلَ ظِلَّه عن كافَّة خَدَمِه وأوْليائه .

الصنف الرابع — التهنئة بالصَّرْف عن الوِلَاية .

أبو الفرج الببغاء :

مَنْ حَلَّ مَحَلَّه ـ أيده الله تعالىٰ ـ من رُتَب الرِّياسة والنُّبْل ، كان معَظَّما فى حالَتِى الولاية والعَزْل ؛ لايقْدَح فى قَدْره تغيُّر الأحوال، ولا ينْقُله عن موْضِعِه من الفضل تَنَقُّل الأعمـال ؛ إذ كان آستِيحاشها للفـائت مِنْ بَركات نَظَره، بحسَبِ أُنْسها كان بمـا أفادَتْه من محُمود أَثَرِه . فهَنَأه الله نعمةَ الكِفاية ، وأوزَعَه شكْرَ ما آحتـازه من النَّزاهــة والصِّـيانه ؛ ولا أَخْلاه من التوفيق فى سائرِ متَصَرَّفاته ، والخِيرةِ الضامنــةِ لعَوَاقب إراداته .

وله فى مثـــله :

لَو كانــ لمستَحْدَث الأعمال ومســتَجِدّ الولايات زيادةٌ علىٰ ما آختصَّـك به من كمال الفَضْل، ومأْثُور النُّبْل؛ لحاذرنا آنتقالَ ذٰلك بآنتقالِ ما كُنْتَ نتوَلَّاه بمحمود كِفايَتِك ، وتحوُطُه بنواظر نَزاهتِك وصِيانَتِك ؛ غير أنَّ الله تعـالىٰ جعلك بالفضــل متَقَمِّصا، وبالمحامِدِ متَخَصِّصا ؛ فالأَسَفُ فيما تَنْظر فيه عليك لامِنْك، والفـائدةُ فيما تتقلَّده بك لالك ؛ ولذٰلك كُنْتَ بالصَّرف مهَنَّأً مسْرورا، كما كُنْتَ فى الولاية محمودًا مشكورا ؛ فلا أخْلاكَ اللهُ من تَواصُــل آلائه، وتظـاهُرِ نَعْمائه ؛ فى سائرِما تُبْرِمه وتُمْضِيه، وتعتَمده وترتَئِيه .

أبو الحسين بن سعد ـ عمّن تولّى عملًا إلىٰ من صُرف عنه :

قدقُلِّدتُ العمَلَ بناحيَتِك ، فهنأك الله تجديدَ ولايتك ، وأنفذْتُ خليفتي لخلافتك ؛ فلا تُخْلِه من تبصيرك وهدايتك ، إلىٰ أن يمُنَّ اللهُ بزيارَتِك .

تهنئة بصرف عن ولاية :

لو كانتْ رِياسةُ سيِّدى مجنيَّةً من عُرُوش الوِلَايات ، وسيادَتُه خارجةً عن سانِح التصرُّفات ، لأشفقَ أولياؤُه من زوالها بمزايلتِهِما ، وحَذِرُوا من ٱنتِقالها بنَقْلهما ؛ لٰكن ماوُسِم به من الكمال ، وعَلَا به من رُتَب الجَلَال ؛ موجُودٌ فى غريزته وُجودَ الفِرِنْد فى السيفِ المأْثُور ، واللَّألاء فى النور ؛ وإذا تَصرَّف ، أورد الله الرعيَّةَ من مَشارِعها نِطَافا ، وأسبغ عليهم من ظِلِّها عِطَافا ؛ وإذا ٱنصرف تخيرٌ مُسْبَلٌ تقلَّص ، وعيشٌ رائعٌ تنغَّص ، والأسفُ علىٰ العمل السَّلِيب من حُلَل سياستِه الفاضله ، العاطِل من حِلىٰ سيرتِه العادِله ؛ ولهذا أصبح ـ أيَّده الله ـ بالعزْل مبتهِجا مسْرُورا ، كما كان فىالولاية محُوداً مشْكُورا ، وٱنْطلقتْ ألسِنةُ أوليائه ، فى هَنَائه ، بما وَهَبه الله من الرَّفاهِيَة والدَّعه ، وحطَّه عنه من الأثْقال المُقْلقه ؛ ولا سِيَّما وقد علِمَ الخاصُّ والعامُّ أنَّ الأعمال إذا رُدَّت إليه ، وعُوِّل فيها علَيْه ؛ تَسلَّم المودع ودِيعتَه ، والناشدُ ضالَّتَه ؛ وإذا عُدِل فيها إلىٰ غيره تناولها تناوُلَ الغاصب ، وٱستولىٰ عليها ٱستِيلاءَ السَّالِب ؛ فلا تزال نازعةً إلىٰ رَبِّها ، متطلِّعَةً إلىٰ خِطْبِها ؛ حتّى تعودَ إلىٰ محلِّها ، وتَرجِعَ إلىٰ نَصْلِها ؛ واللهَ تعالىٰ أسأل أن يقْضِيَ لمولانا ببُلُوغ الأوطار ، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالصرف عن الولايةِ والخِدْمة

قال فى "موادِّ البيان" : يجب أن تكون أجوبتُها مبنيَّة علىٰ شُكر الٱهتمام والٱعتِداد بالمشاركة فى الأحوال ، مع وُقُوع ما ورَد من الخطاب المَوْقِعَ اللطيف ، وما ينتظم فى هذا السلك .

جوابُ مَنْ ورد عليه كتابٌ من وَلِي مكانه فى معنىٰ ذلك .

فمن ذلك :

ما ٱنصرفَتْ عنِّى نعمةٌ أُهدِيتْ إليك، ولا خلَوْتُ من كرامةٍ ٱشتملتْ عليك؛ وإنِّى لأجِدُ صَرْفِى بكَ ولايةً ثانيه، وحُلَّةً من الوِزْر واقِيه؛ لما آمُلُه بمكانك من حميد العاقِبة وحُسْن الخاتمه .

الصنف الخامس — تهنئةُ من تزوّجتْ أمُّه بزواجها .

قد تقدّم فى أوّل المقالة الأُولىٰ فى حكاية حائِك الكلام مع عمرو بن مَسْعدةَ وزير المأمون(١)، أنه قال يُكْتَب إليه :

أما بعدُ، فإنَّ الأمور تجرِى علىٰ خلافِ محَابِّ المخلوقين [واللهُ يختار لعباده](٢)، خارَ الله لك فى قَبْضِها [إليه، فإن القبور أكرم الأكفاء](٢) والسلام .

أبو الفرج الببغاء: وقد أمره سيفُ الدولة ٱبنُ حَمْدانَ بالكتابة فى معنىٰ ذلك ٱمتحاناً له :

مَنْ سلَك إليك — أعزَّك الله — سبيلَ الاِنْبِساط، لم يستَوْعِرْ مَسْلَكا من المخاطَبة فيما يحسُنُ الاِنقباضُ عن ذِكْر مثله . وٱتَّصل بى ما كانَ من خبَرِ الواجبةِ الحقِّ عليك، المنْسُوبة بعد نِسْبتِك إليها إلَيْك — وَفَّر الله صيانَتَها — فى ٱختيارِها ما لَوْلا أنَّ الأنفُسَ تتناكَرُه، وشرْعَ المُروءة يَحْظُره؛ لكنتَ فى مثله بالرضا أوْلىٰ، وبالاعتداد بما جدّده الله فى صِيانتِها أحْرىٰ؛ فلا يُسْخِطَنَّك من ذلك ما رضِيَه وجوبُ الشَّرْع، وحسَّنه أدبُ الدِّيانة؛ ومُباحُ الله أحقُّ أن يتَّبع، وإيَّاك أن تكونَ ممن لمَّا عدِم ٱختياره تسَخَّط ٱختيار القَدَر له، والسلام .

(١) تقدم فى ج ١ ص ١٤٢ "وزير المعتصم" .

(٢) الزيادة مما تقدم فى ج ١ ص ١٤٥ .

النـــوع الثـانى
(من مقاصـــد المكاتبات التَّعازى)

قال فى "مواد البيان": المكاتبةُ فى التعزيَة بالأحداث العارضةِ فى هذه الدنيا واسعةُ المَجَال: لما تتضمَّنهُ من الإرشاد إلىٰ الصَّبْر، والتسليم إلىٰ الله جلّت قدرتهُ، وتسلِيَةِ المعزّى عما يُسْلَبه بمشاركة السابقين فيه، ووعدِه بحُسْن العِوَض فى الجزاء عنه؛ إلىٰ غير ذلك مما ينتظم فى هذا المعنىٰ . قال : والكاتبُ إذا كان جيِّدَ الغَريزة حسنَ التأتِّى فيها، بلغ المراد . ثم قال : وحكمُها حكم التَّهانِى من الرئيس إلىٰ المرءُوس ومن المرءوس إلىٰ الرئيس ومن النظير إلىٰ النظير .

ثم التعـــزيةُ علىٰ أضْرُب :

الضـــــرب الأوّل
(التعـــزِيَةُ بالآبن)

أبلَغُ ماكُتِب به فى ذلك ما كتب به النبيُّ صلّى الله عليـه وسلم ، إلىٰ مُعاذِ بن جَبَل، معزِّيًا له بابنٍ له مات، فيما ذكره أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله، وأبو جعفر النحّاس فى صناعة الكُتّاب، وهو :

«من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ مُعـاذِ بْنِ جَبَـــل :

«سـلامٌ عليكَ، فإنّى أحمَـــدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو »

«أما بعـــد، فعظَّم اللهُ لكَ الأجْر، وألهمَكَ الصَّبْر، ورزَقَنا وإيَّاكَ»

«الشُّكْر . ثم إنَّ أنفُسَنا وأهلِينا ومَوَالِيَنا من مَوَاهِبِ الله السنِيَّة، وعَوارِفِه(١)»

---

(١) فى أصولنا بالفاء ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية .

«المســتَوْدَعة، تمتَّـع بها إلىٰ أجلٍ معدود، وتُقْبَضُ لوقْتٍ معلوم؛»
«ثم آفترَض علينا الشُّكْرَ إذا أعْطىٰ، والصبرَ إذا آبتَلىٰ؛ وكان آبنُك من»
«مَواهِبِ اللهِ الهنِيَّة، وعَوارِفه(١) المستَوْدَعة؛ متَّعكَ به فى غِبْطةٍ وسُرور،»
«وقَبَضَه منْكَ بأجْرٍ كثير: الصــلاةِ والرحمةِ والهُدىٰ إن صبَرْتَ»
«وآحتَسَبْت؛ فلا تجْمَعَنَّ عليكَ يامُعــاذُ خَصْــلتَين(٢) إنْ يُحْبِط جَزَعُك»
«صَبْرَكَ فتنْدَمَ علىٰ مافاتَك؛فلو قَدِمْتَ علىٰ ثوابِ مُصيبتِك قد أطعْتَ»
«ربَّك وتنجَّزْتَ موعُودَه، عرفْتَ أنَّ المصيبةَ قد قَصُرت عنه. وآعلَمْ»
«أنَّ الجَزَعَ لايَرُدُّ ميّتا، ولا يَدْفَع حزنا؛ فأَحْسِن الجزاءَ وتنَجَّزِ الموعُودَ؛»
«وليُذْهِب أسَفَكَ ماهو نازلٌ بك فكأنْ قَدْ.»

من كلام المتأخريــن:

تعزيةٌ بولد. من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتَة، وهى بعد الألقاب.

وأحسَنَ عَزَاءه بأعَزِّ فَقِيد، وأحبِّ حبيبٍ ووَلِيد، وعوّضَ بجميلِ الصبرِ جوانِحه التى سُئلت عن الأَسىٰ فقالت: ثابتٌ ويَزِيد. صدرَتْ هــذه المفاوضةُ تُهْدى إليه سلاما يَعِزُّ عليه أن يُتْبَع بالتعزيه، وثناءً يشُقُّ عليــه أنْ يطارِحَ حمائم سَجْعه المُطْربَة بحمائم الشَّجْوِ المُبْكِية المُنْكيه؛ وتوضِّح لعلمه ورُودَ مكاتبته المؤْلمة، فوقفْنا عليها إلا أنَّ الدَّمْعة ماوقفَتْ، وخواطِرَ الإشفاق عليه وعلىٰ مَنْ عنده طفَت حُرَقُها وما آنطفَتْ؛

(١) فى أصولنا بالفاء ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية.

(٢) أى فقد الثواب وفقد الولد. وإليه يشير من عزىٰ عمر بن عبد العزيز بابنه فقال:

وعوّضت أجرا من فقيد فلا يكن * فقيدك لا يأتى وأجرك يذهب

وعلمنا ماشرَحه ولم يَشْرح الصَّدْر علىٰ العادة ـ مِنْ وفاة الولد فلان، سقىٰ اللهُ عهدَه ولَحْدَه، ونَضَّر وجهــه وتغمَّد بالرِّضوان خالَه وخَدّه؛ ومابقى إلّا التمسُّكُ بأسـباب الصـبر، والتفويضُ إلىٰ مَنْ له الأمر؛ والدُّنْيا طريقٌ والآخرةُ دارٌ ودِهْليزها القَبْر؛ وللمرءِ من تثَبُّته وازع، والاجتماعُ بالأحِبَّــة الراحلِينَ واقِع؛ إن لم يَصِيرُوا إلينا صِرْنا إليهم، وإن لم يَقْدَمُوا فى الدار الفانيــة علينا قدِمْنا فى الدار الباقيةِ عليهم؛ نسألُ اللهَ تعالىٰ أن يجمَعَنا فى مستقرّ رحمتِه، ويُحِضرَنا مع الأطفال أو مع المتطفِّلين ولائِمَ جَنَّته؛ والله تعالىٰ يُدارِكُ بالصبر الجميل قلْبَه، ولا يجمعُ عليه فقْدَ الثواب وفقْدَ الأحِبَّه .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

رزقه الله تعالىٰ ثَبَاتا علىٰ رَزِيَّته وصَـبْرا ، وجعلَ له مع كلِّ عُسْرٍ يُسْرا ؛ وأبقاه مُفَدًّى بالأنفُس والنَّفائس، وكان له أعظَمَ حافظٍ من نُوَبِ الدهر وأجلَّ حارس .

المملوك يُنْهِى علمَه بهــذه النازلة التى فتَّتتِ القلوبَ والأكباد، وكادَتْ أن تُفرّق بين الأرواح والأجْساد، وأذالَتْ ذخائرَ العيُون، وآبتَذلَتْ من المَدامِع كلَّ مَصُون؛ وأذابتِ المُهَج تحرُّقًا وتلهُّبا، وجعلت كلَّ قلْب فى نارَىِ الأسىٰ والأسفِ متقلِّبـا؛ وهى وفاةُ ولده الذى صَغُر سِنُّه، وتزايَدَ لفَقْده همُّ المملوك وحُزْنُه :

ونَجْلُك لا يُبْكىٰ علىٰ قَدْرِ سِــنِّه * ولٰكنْ علىٰ قَدْر المَخِيلة والأَصل !

وكان الأمَلُ يحدّث بأنه يَشُدّ للولىٰ أزْرَه، ويشرَح ببِرّه صـدْرَه، ويؤثّل مجدَه، ويُبقى الذكْرَ الجميل بعــدَه؛ ففُقِد من بين أترابه، وذَوىٰ عند ما أينَعَ غُصْنُ شَبابه؛ وغُيِّب مَنْظَرُه الوسيمُ فى لحده وتُرابه؛ وسيِّدُنا يعلم أنَّ الموتَ مَنْهَل لابدّ من وُرْده (١)، وابنَ آدم زَرْع لابدّ من حَصْده، وأنَّ المنية تشمَلُ الصغيرَ والكبير، والجليلَ والحقير،

(١) هو مصدر كالورود عن ابن سيده أنظر اللسان (ج ٤ ص ٤٧١) .

والغنيّ والفقير ؛ فينبغي له آستعمالُ صَبْره ، والآستبْشار بمضاعَفةِ أَجْره ؛ والله يمتّعه بأهلِه وطُول عُمُره .

وله :

لَهْفِي وما لَهْفِي عليكَ بنافِعٍ ! * كَلَّا ولا وَجْدِى ولا حُرُقاتِى !
يامَنْ قَضىٰ فقضىٰ سُرورِىَ بعْدَه * وتحدّرَتْ أَسَفًا له عبرَاتِى !
عُقَدُ التجلُّدِ حَلَّها فَرْطُ الأسىٰ * والقلْبُ موقوفٌ علىٰ الحَسَرات !
لو كُنْتَ ممَّن يُشْترىٰ أو يُفْتَدىٰ * لفُديتَ بالأرواح والمُهجاتِ !
كُنْتَ المُعَدَّ لنُصْرتِى فى شِدَّتى * فقَضىٰ الحِمامُ بفُرقةٍ وشَتَاتِ !
واللهِ لا أُنْسيتُ نَدْبَك والبُكا * أبدًا مَدىٰ الأنفاس واللَّحَظاتِ !
ويَسُوءنى أنْ عِشْتُ بعْدَك ساعة * أَسَفا لفَقْدِك ميِّتًا وحَياتِى .

أعظم اللهُ أجْرَ مولانا ومَنحه صَبْرا جميلا ، وأجرا جزيلا ، وثناءً عريضَ الشُّقّة لثَبَاته علىٰ هذه الفادحة طَويلا ؛ وجعل هذه الرزِيَّةَ خاتمةَ الرَّزايَا ، وممحِّصةً جميعَ الذنوب والخَطَايا ؛ ولا فجعَه بعدها فى قُرَّة عين ، ولا أورد محْبوبًا شُغِف به قلبُه الكريمُ مَنْهلَ الحِمَام ولا سقاه كأسَ الحَيْن .

المملوك يقبِّل البِساطَ الذى مافتِئَ لنَشْر المَعْدَلة مبْسُوطا ، وكُلُّ أمل ببِرِّه مَنُوطا .

ويُنْهِى إلىٰ العلم الشريف علْمَه بهذه المُصيبة التى أصابتْ فُؤادكلِّ محبٍّ فأصْمَته ، وطرقَتْ سمعَ كلِّ ولىّ فأصَمَّته ؛ وولجَتْ كلَّ قلبٍ فأحرقَتْه صَبابةً وحُزْنا ، ومرّت علىٰ الصَّلْد فصَدَّعته ولو كان حَزْنا ؛ وهى وفاةُ فلان سقىٰ الله عهْدَه ، وأسكنَ الرحمةَ ثَراه ولَحْده ؛ فشَقّ أسفًا علىٰ المفقُود جيبَ كلِّ جَنان وطوىٰ الأكبادَ علىٰ جِراحها ، وحَسَّر الأجساد علىٰ أرواحها :

ومَا هِيَ إلّا نَكْبَةٌ أيُّ نَكْبةٍ * أهاجَتْ سَـعِيرًا فى الحَشَا يتلَهَّب !
فَلا جِسْـــمَ إلّا بالتحـرُّق ذائبٌ * ولا قَلْبَ إلّا فى الأَسىٰ يتقَلَّب !
بَكىٰ كُلُّ جَفْنٍ مَصْرَعَ السيف فٱغتدَتْ * عيونٌ علَيْه فى الأَباطِح تَسْكُب !
لقَـــدْ هال عُـــذَّالى بُكائِى تعجُّبا * وإنَّ بكائِى بَعْـد فَقْـدِيه أعْجَبُ !
فلورَامَ قُسٌّ وَصْـفَ حُزْنِى ولَوْعتِى * لقَصَّر فى أوصافه حِين يُسْهِبُ !
فَوالله لا جَفَّتْ جُفُونِى من البُكَا * وإنْ زادَ عُذَّالِى العِتابَ وأطْنَبُوا !

ولهذا أصدر المملوك هذه المطالعةَ يدعُو لمولانا فيها ويُعزِّيه، ويَنْدُب فقيدَه بألسِنَة الأقلام ويَبْكِيه؛ ويُبَشِّره بما وعدَ الله الصابِرِينَ علىٰ مثل هـذه الرَّزِيَّة ويُسَلِّيه؛ فيالها نازِلةٌ فجعَتْ بغُصْنٍ رَطِيب، وقمرٍ يَرْفُل من الشَّبِيبة فى ثوبٍ قَشِيب، وصدَعتِ القلُوبَ بفَقْدِ حبيبٍ وأىّ حَبِيب :

والمـــوتُ نَقَّادٌ علىٰ كَفِّه * جَواهِرٌ يختارمِنْها الجِياد !

وبعدُ، فللمملوك فى هـذه الرزِيّة مشاركَة كادَتْ تُبايِن بينَ رُوحه والجسَـد، وهو المُصِيب لهذه المصيبةِ ماتجِدُه الوالِهةُ علىٰ فَقْد الولَد؛ لايَستقِرُّ به قرار، ولا يُنْجيه من يَدِ الحُزْن فِرَار؛ دأبُه البُكاء والعَوِيل، وحُزْنه العريضُ الطَّويل؛ فوا ضَـعْفَاه عن حمل هذا المُصَاب، ووا أَسَفاه علىٰ مُسافِرٍ لا يُنْتظَر له قدُومٌ ولا إيَاب؛ وواعَجَباه لِضِدّين ٱجتمعا لوالده الكريم الجنَاب !

تَخُونُ المَنَايا عَهْـدَه فى سَـلِيلِه * وتَنْصُره بيْنَ الفَوَارس والرَّجْل !

وعلىٰ كُلِّ حال فهو أجْدَر من ٱستعانَ علىٰ هذه الحادثة بصَبْره، وشرحَ لما قد قُدِّر فَسِيحَ صَـدْره، وشكَر الله علىٰ حُلْو القضاء ومُرِّه؛ فما كان إلا أحدَ العُمَرين فُقِد فخلفه عُمَر، وثانِىَ القَمَرين أفَلَ فقام مقَامه هلالٌ قَدِم من سَـفَر؛ وفى بقاءِ المولىٰ

مايُوجب التسليم للقَدَر والقَضَاء، والشكْرَ لله تعالىٰ فى حالتى الشِّدّة والرَّخاء؛ جعله الله فى حِرْز لايزالُ حَرِيزا مَكِينا ، وحِصْن علىٰ ممّرِ الأيام حَصِينا .

وله : أعظَمَ اللهُ أجره ، وأطال عُمُره؛ وشرح صَدْره ، وأجزل صبره ، وسَخَّر له دَهْره .

المملوك يُنْهِى أنه اتَّصل به خَبَرٌ صدَع قَلْبه ، وسَرَقَ رُقادَه ولُبَّه ، وضاعف أسَفَه وكَرْبه؛ وهو [موت] فلان تغمَّده الله برحمته ، وأهمىٰ عليه سحائِبَ مَغْفرته ؛ وعامله بلُطْفه، وجعل الخِيرَة له فى حَتْفه؛ فشَقَّ ذٰلك قَلْبَه وعَظُم عليه ، وقارب لشديد حُزْنه أنْ يَصِل إلىٰ ماوصَل المرحومُ إليه ؛ لٰكنَّه ثبَّت نفْسَــه وثبَّطها ، ورفع يَدَه بالدعاء للمولىٰ وبَسَطها ؛ وسأل الله أن يُطِيلَ بقاءه ، ويُحْسِن عزَاءَه ، ويَحْرُسه من أزَمَات الزمان، فإنه إذا سلِمَ كان الناسُ فى السَّلامة والأمان؛ ويجعَلَه عن كل فائتٍ عِوَضا ، كما أصاره جَوْهرا وجعل غيْرَه من الأنام عَرَضا ؛ ولقد جلَّت هــذه الرزيَّةُ علىٰ كلِّ جَنَاب ، ودخَل حُزْنُها إلىٰ كلِّ قلبٍ من كلِّ باب ؛ جعل اللهُ أجره للمولىٰ من أعظَم الذَّخائر، ومنَحه الحياةَ الأبدِيَّةَ التى لا تَنْتهِى إلىٰ أمدٍ ولا آخِر، إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثـانى
(التعـــزية بالبنت)

من كلام المتقدّمين :

ابن أبى الخصال المغربى :

الشيخ فلان عَزَّاه الله علىٰ احتِسابه ، وجعــل الثوابَ المرتقَبَ أفضــلَ اقتنائه واكْتِسابه ، مُعزِّيه عن فِلْذةِ كَبِده، ومساهِمُه فى أرَقِه وسُهْده ، والفاتُّ فى عَضُــد صــبْرِه الجميــلِ وجَلَده؛ فلان . فإنِّى كتبتُه ـ كتب اللهُ لكم خَيْرا يُذْهِب جَزَعكم ،

وحَسَّن مَنْجاكم بالتفدّى الجميل ومَنْزَعكم عند ماوصَلَنِي وفاةُ آبنتِكم المرحومة نفعها الله بإيمـانها، وتلقّاها بَرْوح الجنَّـةِ ورَيْحانها؛ وهى ـ أعزَّك الله ـ وإن آلمَكَ فقدُها، وأوجعكَ أنِ آستأثَرَبها لَحْدُها ؛ فليُعزّك عنها مُصابُنا بنبينا عليه السلام، وعلمُك بأنّا جميعًا بمَدْرَجة الحِمَام؛ أفتَجد علىٰ الأرض خالدا ، وقديمـًا ثَكِلْنا وليدًا نجيبا ووالدا ، فمَنْ خُلِق للفَناء، وآختُلِس بمَرّ الساعاتِ والآناء، جديرٌ أن يتّعظ بنَفْسه ، ولا يَحْزَن لذَهاب من ذهب من ذَوِى أُنْسه ؛فاحمدِ الله عزّ وجلَّ إذ رَجَّحتْ مِيزانَك،وضَمِنت لك يومَ المَعَادِ جِنانَك؛ والله عز وجل يرزُقنا آحتِسابا جميلًا وصبْرا ، ويُؤنسك وقد آختار لك الصِّهْر قَبْرا ، ويعظّم لك ثوابا جزيلًا علىٰ مُصابك وأجْرا ؛ ويعُمُّ فقيـدَتَك بالرُّحمىٰ، ويسْكُب علىٰ جَدَثها مُزْنَها الأوْكفَ الأهْمىٰ، ويُؤْوِيك إلىٰ كَنَفه الأعظم الأحْمىٰ، بمَنّه ورحمته، لا ربَّ غيره ؛ والسلام عليك ورحمةُ الله وبركاته .

الضـــــرب الثـالث

(التعـــزية بالأب)

من كلام المتقدّمين :

ابن أبِي الخصال معزّيا بوزير :

يا سيِّدى وواحدى، ومَحلَّ الابن المبْرور، والأخِ المشْكُور، عندى؛ أعزَّك الله بالتقْوىٰ،ورَضَّاك بما قضىٰ، وأمَدَّك بالنُّعمىٰ،وشَملك بالحُسْنىٰ؛ كتبته ـ أعزك الله ـ وقد وصلَ كتابُك الكريم بما نفذ به القَدَر الذى هو فى العِباد حَتْم، وله فى كلِّ عُنُق خَتْم؛ فى الوزير الفقيهِ الشهيد أبيك كان، رحمه الله وأكرم مَثْواه، وجعل الحُسنىٰ التى أعدّها لأوليائه مَقرّه ومأْواه؛فأسِفْتُ كلَّ الأسَف لِفِقْدانه، وقد كان عينَ زمانه،

وعُمدَةَ إخْوانه ؛ تغمَّده الله بغُفْرانه ، ونقـله إلىٰ رِضْوانه ؛ وتلك ـ أعزك الله ـ غايةُ الأحْياء، وسبيلُ الأعداء والأحِبَّاء ؛ كان علىٰ ربِّنا ـ جلّ وعلا ـ حَتْما مقْضِيًّا، ووَعْدا مَأْتِيًّا ؛ والأسوةُ ـ أعزَّك الله ـ فى غَمْره الفَضْفاض ، وبِرِّه الفَيَّاض ، وأنه خُتِم له بالخير والاَنْقباض ؛ وكان آخرَ ذٰلك [الحسب] القَدِيم ، والجيلِ الكريم ؛ وقد أمرَكَ الخير فافعَلْ ما أُمِرت به وكُنْ كما ظَنَّك وقَدَّرك وتَرَكك ؛ وإنك بفضل الله تَسُـدّ مَسَدّه ، وتبلُغ فى كل فضيلةٍ حُضْرَه السابقَ وشَدَّه ، وتُعِدُّ للأيام من الجِدِّ والاَعتِزام ماأعدّه ؛ وإخْوتُك ـ أعزك الله ـ لك أظْهـارٌ وأعْضاد ، وفيهـم غَزْوُمُضَـادّ ؛ فاَشْتَمِلْ عليهم ، واَرْفُق بهم ؛ فإنهـم يُنْزِلُونك منزلةَ أبِيهم ، وتَجِدُ أخلاقَه وعَوْنَه فيهم ؛ وأما ماأعتقِدُه من تكريمك ، وأَراه من تفضـيلك وتقديمك ؛ فشىء تَشْهَدُ به نفْسُـك ، ويُدْرِكه يقينك وحَدْسُك ؛ أشدّ به اَعتناء ، وأجمـلُ له اَستواء ، وأوفى عنك رداءا وغَنَاء ؛ جعلنـا الله من المتحابِّين فى خلَاله ، والمتقلِّبين فى ظِلَاله ، وأمَّنَنا من الزمان واَختلافِ أحوالِه ؛ بمنِّه والسلام .

الضـــــــرب الرابع

(التعـــزيةُ بالأم)

أبو محمد بن عبد البر المغربى :

مَا ماتَ مَنْ أنْتَ بعْـدَه خَلَفٌ * والكُلُّ فى البعضِ غيرُ ممتَنِـع !

كتب عبدُه القِنّ ، من الأسىٰ لأجله بعضَ ما يُجِنّ ؛ المُنْطوِى علىٰ قلبٍ تطْمَئِن القلوبُ سُلُوًّا ولا يطْمَئِن ؛ فلان : بعدَ وصول كتابِه الكريم بصَدْعٍ يُصْمِى القُلُوب ، ويَقُدُّ أقوياء الجُيُوب ، ويترُكُ الأحبابَ مصَرَّعين علىٰ الجُنُوب ، فوقَفَ العبدُ عليه مترقْرِقَ المَدَامع ، متحَرِّق الأضَالِـع ، رائيًا سامِعًا شَجَا الأبصارِ وأسىٰ المسامع ؛ فيا أسفِى

لخَطْب ضَعْضَع رُكْن الجدِّ وكان وَثِيقا ، وصَوَّح روضَ الفضـل وكان وَرِيقـا ؛ ونغَّص حَسَنَ الصبر ولم يزَلْ صَدِيقا ، وترك العبدَ خليقًا بهذا القول ومثلِه معَه حَقِيقا ؛ فآهٍ لدينٍ ومروءة فُقِدا فى قرَن ، وعلىٰ صونٍ وعفَاف أُدْرِجَا فى كَفَن ، وحَصَانٍ رَزَانٍ لا تُعرفُ بوَصْمة ولا تُزَنّ ؛ لقد أصَمَّ بها النـاعِى وإن كان أسْمَع ، وأرّق ماشاء الفُؤادَ وأراقَ المدْمَع ؛ ولم يُبْقِ قلبا للصبْر إلا صَدَعه ، ولا أنْفا للسُّلُوّ إلا جَدَعه ؛ ولا بابا للتعزِّى إلّا أَرتجه ، ولا عَقِيما للتأسُّـف إلا أنْتجَه ؛ ولو قُبِـل فى الموتِ فِدًا وصَحَّ أن يؤخَذَ فيه فِداءٌ لمـا خَلَص إليكم ولا ألَمّ ، ولا عَدَاكُمْ فى صُروف المَنـَايَا المخيفـةِ سَـلَمْ ؛ لكن أبىٰ الله إلا أن تَعُمَّ الحُرْقه ، وتستولِىَ علىٰ الوقْت الفُرْقه .

الضـــــرب الخامس

(التعـــزية بالأخ)

أبو محمد بن عبد البر :

وكتبتُ والأنفُس مرتَمِضه ، والعينُ غيرُ مغتمِضَه ؛ والانفاسُ تتصعَّد ، والأحزانُ تتأكَّد ؛ أسَـفًا للمُصاب الذى عَمّ وغَمّ ، وأسمَعَ نعيُه فأصَمّ ؛ وقال للفرح : كُفَّ من عِنَانك ، وللتَّرح انتظِرْ لأوَانِك ؛ بوَفَاة [الفرد] الذى فى رأسه نُور ، وسَدَاد الآراء المختلفةِ وسِـدَاد الثُّغُور ؛ والفَـذِّ الذى شَهِد الرجالُ بفضله ؛ وعَقِم النساءُ فمـا تَجىء بمثله ؛ أبى فلان صِنوِكم ، السابِق الذى لايُجارىٰ ، والشارِق الذى لايُسارىٰ ؛ والغيثِ الذى عَمَّ المُنِيـل والمستَنِيل ، والليثِ الذى وردَ الفُراتَ زئيرُه والنِّيل ، فإنّا لله وإنّا إليـه راجِعُون ! تسليماً للقَدَر وإنْ ساء ، وشَمِلَ المرءُوسِين والرُّؤَساء ؛ فيالَهُ مُصاباً ترك كلَّ رأس أَمِيا ، وأودَعَ صميمَ كلِّ فؤاد ثُكلا صَمِيا ؛ لقـد أنصَلَ السُّمْرَ اللّهاذِم ، وأغمدَ البِيضَ الصَّوارِم ؛ وعطَّلَ الكتائبَ والمَقَانِب ، وأوحشَ المَفاوزَ والسَّباسِب ؛ ولم يُبْقِ مَشِيدَ

عُلًّا إلا هَدَّه، ولا مَديدَ ثناء إلا صَدّه؛ ولِمَ لا وهو الشخص يموت بموته بشر كثير، ويبكيه قلمٌ وحُسام ومِنبَر وسَرير؛ وعندَ الله نحتَسِبه جميعا، ونُوسِعُه بمحْض الصَّفاءِ وصَفْو الثناء تنْويعا وتشْيِيعا؛ ونُفارِقُه فِراقَ الصَّدْر خَلَدَه، والمُصاب جَلَده؛ فوَاأسفَىٰ لرُزئِه ما أفْظعَه مَوْقِعا! وواحَرَبا ليومه ما أظلَمَه مَطْلَعا! وواحَزَنا لنَعْيِه ما أشْنعَه مَرْأًى ومسْمَعا!!! فلئن جَرَتِ الدموعُ له دِما، وأضْمرت الضلُوعُ به مُضْطَرِما؛ لما أدّت حقَّهَ ولا كَرَبَتْ، ولا دانتْ بعضَ الواجب فيه ولا آقترَبَتْ؛ ولولا أنَّ المنيَّةَ مَنْهَلٌ لا يُحَلّأُ وارِدُه، ومَعْلَم يُهْدىٰ إليه علىٰ أهدىٰ سَمْتٍ مُباعِدُه؛ لم يبقَ فى أُنْسٍ مَطْمَع، ولا لحُزْن مستَدْفَع، ولكان الثاكل غيرما ترىٰ وتَسْمَع؛ وما أنتم أيُّها الشيخ المكَرَّم ممن يُنَبَّه علىٰ ذُخْر من العمل الصالح، يكْتَسِبُه، وصبْرٍ فى الرُّزْء الفادح، يحتَسِبُه، فصبْرًا فالمَنُون غايةُ المُمْسين والمُصبِحين، والنبأ الذى يُعْلَمَ ذَوْقًا ولو بعد حين؛ وهو تعالىٰ المسئُول أن يرْقَع بمكانِكم هذا الخَرْق المتَّسِع، ويصل بجنابِكم ذٰلك الشَّمْل المنْصَدِع.

ابن أبى الخصال:

الشيخ فلانٌ أبقاه الله يتلَقَّى الأرزاء بحُسْن الصبرِ، وجميلِ الآحْتِساب، ويتقاضىٰ بالتعزى مرتَقَبَ الأجر، ومُنْتَظَر الثَّواب، مُعَزِّيه فى أخيه الكريم علينا، العظيم مُصابُهُ الفادحُ لدَيْنا؛ فلان: فإنى كتبْتُه ـ كتبَ الله لكم صَبْرا تجِدُون ذُخْره، وأوجب لكم عَزاء تَحْمَدُون يوم القيامةِ شأْنَه وأمْرَه ـ عنْدَ ما وصل من وفاة الشيخ أبى فلانٍ أخيكم رحمه الله تعالىٰ ما كدَّر العيشَ ونغَّصه، وجَشَّم جُرَعَ الحِمام المَقْطُوعَة وغُصَصَه؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون!! آستِسْلامًا لقَدَره وقضائه، وأخْذًا فيما يُدْنِى ويقَرِّب من إرْضائه؛ وما نحْنُ إلا بَنُو الأمواتِ الذين دَرَجُوا، وسَنَخْرُج من الدُّنيا كما قبْلَنا خَرَجُوا؛ جعلنا الله جميعًا ممن ينظُر لمَعاده، ويجعَلُ التقوىٰ خيرَ ما أوْعاه بجداده؛

وسلك بنا نهج هدايته وطريق رشاده . وهو جلّ وعلا يجزل لكم على مصابكم ثوابا عميا موفورا، ويجعل فقيدكم بين أيديكم فى يوم القيامة نورا، ويلقيه فى دار الفردوس ملكا كبيرا وحبورا، ولولا كذا لسرت إليكم لأعزيكم شفاها، وأحدثكم عن ضلوع أحرق هذا المصاب حشاها، لكن امتثال أمره المطاع، حمل على البدار إلى ماأمر به والإسراع، والله عز وجل يديم لنا بكم الإمتاع، بمنه وكرمه، والسلام .

الضـــــرب السـادس

(التعـــزية بالزوجة)

من كلام المتقدمين :

أبو محمد بن عبد البر :

وقد تقرر عند ذوى الألباب، وثبت ثبوتا لا يعلل بالارتياب، أن الدنيا قنطرة دائره، ومعبرة إلى الآخره، وأن ساكنها وإن طال عمره، وطار فى الخافقين أمره، لديغ سمها، وصريع سهمها، فما تضحك إلا لتبكى، ولا تؤنس إلا لتنكى، وقد نفذ القدر الذى ماله رد، ولا منه بد، بوفاة فلانة ألحقها الله رضوانه، وأسكنها بفضله المرجو جنانه، فإنا لله وإنا إليه راجعون ! ! تأسيا بالسلف الصالح، وتسليا عن ماء الدمع السافح، وزند القلب القادح . وعند الله نحتسبها عقيلة معدومة المثيل، مفقودة الدين والعفة فى هذا الجيل، متحلية من دعاء الفقراء، وثناء الصلحاء، بالغرة الشادخة والتحجيل، لقد ذهب لذهابها الرفق والحنان، وعدم لعدمها الشيم البرة والأخلاق الحسان، وإن فقدها لخرق لا يرفع، وغلة لا تنقع، وخطب لايزال الدهر يتذكر فيصدع، ولولا العلم بأن اللحاق بها أمر كائن، وأن المخلف فى الدنيا لا محالة عنها

بائِن ؛ وأن التنقُّلَ للآخرة مالاانفكاكَ نسمعُه ونُعاين، لَمَا بقِيتْ صُبابةُ دمْع إلا ٱرفضَّتْ، ولا دِعامةُ صَبْر إلا ٱنقضَّت ؛ ولكانَ الحُزْن غيرماتَسْمع وترىٰ، والوجدُ فوقَ مايَجْرِي وجرىٰ، لٰكنْ لامعنىٰ لحُزْن لمـا يقعُ فيه الاشتراك، ولا وجْهَ لأسَف علىٰ مالايصِـحُّ فيـه الاستِدْراك . وما أنتمْ بحمدِ الله ممن يُذَكَّر بمـا هو فيه أذْكَر، ولا ممن يُنَبَّه علىٰ ما هو بالتنبيه عليه أخلَقُ وأجْدَر ؛ ولولا أنَّ التَّعازِيَ ممـا اطَّرد به العمَل ، وسَنَّه الصالحُونَ الأُوَل ، لمـا سُلِك سبيلُه معكم وأنتم ممن قَدَر الأُمورَ قَدْرَها، وعلِم أنَّ الحياةَ ولو طالت فالموتُ أثرَها ؛ وإذا لم يكُنْ من الموت بُدٌّ، ولم يَمْنَع منه صَدٌّ ولا سَدّ ؛ فالصبر خيْرٌ من الجزَع، وأدلُّ علىٰ كرم المَنْحىٰ والمَنْزَع، وأحْرىٰ بأن يكون الثوابُ جَزِيلا، والجزاء حَسَـنا جميـلا ؛ والله يبقيكم أتمَّ البقاء، ويرَقِّيكم أتم الارتقاء .

ابن أبي الخصال :

الشيخ الأجلُّ فلان ـ آنسَ اللهُ وَحْشَتَه، وجدّد علىٰ فَقِيدته رحمتَه . معَزِّيه عن أهله الهالكةِ وسَكَنه ؛ ومساهِمه بأوجَبِ حُزْنٍ فى القلوب وأسْكَنِه . فلان : فإنا كتبْناه عن دُمُوع تَصُوب وتَنْسَرِب ، وضُـلوع تخْفق من وَجِيبِها وتضْطَرب ، وأنْس يشْرُدُ منا ويحتَجِب، بموت فلانة رحمها الله التى أودعَتْ فى جَوانِحنا من الثُّكْل ماأودعَتْ، ورضَّتْ أكبادَنا بمُصابِها وصدَعت، عَزَّانا الله جميعًا فيها، وأوْلاها نعيمًا فى الفِردوسِ الأعلىٰ وترْفيهـا، وأعقَبنا من الوَحْشة أُنْسا، وعَمر بالرُّحْمىٰ جَدَثاً مباركا ورَمْسا ؛ وجعلَنا كُلًّا ممن يَرْدَع عن الانحطاط إلىٰ الدنيا نَفْسا، بمنِّه وكرمه .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

لَمَّـا علم مملوكُ المجلس السامى أطال اللهُ بقاءَه، وأعظَم أجْرَه وأحسن عَزاءه، وفاةَ السيدة المرحومةِ سَقىٰ الله عَهْدَها عَهْدا يبُلُّ الثّرىٰ ، وجعل الرحمـةَ لمن نزلَتْ به لها القِرىٰ، تألَّمَ لفقْدها غايةَ الألَمْ، ووجد حُرْقةً كَستْه ثوبَىْ ضَنًى وسَقَم، وحُزْنا لا يعبِّر عنه بعبارةِ بَيانِه، ولا يستوعِبُ وصفَه بلسانِ قلمِه وبَنانِه :

ولَوْ كانَ النِّساءُ كَمَنْ فقَدْنا * لفُضِّلتِ النِّساءُ علىٰ الرِّجال!

والمَوْلىٰ أوْلىٰ من عَزّىٰ نَفْسـه، وٱستَحسَن رِداءَ الصبرِ ولُبْسه؛ وعلِمَ أنَّ الموت غريم لا يُنْجِى منه كثْرةُ المِطَال، ولا يُدافَع بالأطلاب والأبْطـال؛ وأنه إذا طالب بذِمَّة كان ألدَّ الخِصام، و إذا حارب فعلَ بيدِه مالا تَفعَلُه الكُماةُ بحَدّ الحُسَام .

الضـــــرب السـابع
(التَّعازِى المطلَقةُ ممـا يصلُح إيرادُه فى كلِّ صِنْف)

من ذلك، من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

مَن صَحِب الأيامَ وتقلَّب فى آنائها، ٱعتوَرتْه أحداثُها، وٱختلَفتْ عليه أحكامُها: بين مَسَرَّة ومَساءة يعتقِبان، وفَرْحةٍ وتَرْحة يتَناوبانِ [وكان] فيما تأتيه من محبُوبها علىٰ غير ثِقَةٍ من دوامه وٱتِّصاله، ولا أمْنٍ من تغيره وٱنتقاله؛ حتّى تعقُب السلامةَ حَسْرة، وتستحيلَ النعمةُ مِحْنـة؛ والسعيدُ مَنْ وُفِّق فى كلِّ حال لحظِّـه، وأُعِينَ علىٰ مافيه سَلامةُ دِينه : من الشُّكْرِعلىٰ المَوْهِبة، والصبرِ علىٰ النازِلة، وتقديم حقِّ الله تعـالىٰ

فى حال الغِبْطـة والرَّزِيَّة . ولم تكن بالفَجِيعَة به مُفْرَدا عنِّى وإن كان النَّسَبُ يقرِّبه منك، والرَّحِم تَصِلُه بك : لمـا كنتُ أُوجِبه من حقِّه، وأرعاه من موَدّته، وأختَصُّه بالاعتداد فيه دُون أدانِى أهْلِى والثِّقَـة من إخْوانى ؛ فمضىٰ رحمهُ الله أقوىٰ ما كان الأملُ فيه، وأكملَ ما كان عليه فى لُبِّه وأدَبه، واجتماع فَهْمه وكمال هَدْيه، وانتظام أسبابِ الخير وأدَوات الفضْل فيه .

ومنـــه : لايُنْكَر للعبد أن يتناوَل مولاه عند وُقُوع المِحنة فى أهل خاصَّته، وتَخَوُّن رَيْب المُنون من حاشيته، بالتَّعْزِية عن مُصِيبته، والإخبار عما يَخُصُّه من ألَم فَجِيعته وعُظْم رَزِيَّته، لاسِيَّما إذا كانَ بحيثُ لايُرىٰ شخصُه فى البا كين، ولا تُسمَع صَرْخَتُه بين المتفَجِّعين، ولو سعَيت علىٰ حَدَقتِى .

ومن ذلك :

إنَّ الله تعالىٰ أمرَ أهلَ طاعته، بتنزيل هذه الدنيا بمنْزلتها من إهانته، وسوّىٰ بين البَرِّ والفاجر فى رغائبها ومَصَائبها، ولم يجعل العطيَّةَ دليلًا علىٰ رِضاه، ولا الرزِيَّةَ دليلًا علىٰ سُخْطه ، ولكنَّه ألزمَ كلَّ واحد من أهـلِ الرِّضا والسُّخْط من نِعَمِها بنَصِيب ، وسقاهم من حوادِثها بذَنُوب : ليبتلِىَ أهلَ رِضاه فى أهْون الدارَيْن عليــه، ويُحْسن لهم الجَزاءَ فى أكْرمِهما لديْه ، ولذٰلك حبَّب إليهم الزَّهادةَ فى زَهِيد فائدَتِها، وممنُوح زَهْرتها ، وسمَّاها لَعِبا ولَهْوا : لئلَّا يَعْتَقُوا بحُطَامها ، وينغَمِسُوا فى آثامها ، وختَمها بالموت الذى كتَبه علىٰ خَلِيقته ، وسوّى بينهم فى سَكْرَته : ﴿ لِيَجْزِىَ الّذِينَ أساءُوا بمـا عَمِلُوا ويَجْزِىَ الَّذِينَ أحْسَنُوا بالحُسْنىٰ ﴾ . ويُقرِّبَهم بدار يَفْنىٰ الموتُ ويبقَوْنَ فيها بعْده ، كما فَنُوا فى هــذه الدار وبقِىَ الموتُ بعدَهم ؛ فإن تأخَّر الأجل فإلىٰ غايه ، وإن تطاوَلَ الأمَدُ فإلىٰ نِهَايه؛ ولابُدَّ أن يَلْحَق التالِى المـاضِى، والآنِفُ بالسالِف، وهذه حالُ نُصْبَ الأفكار، وتِلقاءَ الأبصار، لاتحتاج أن يرتاض الصبرُ علىٰ آلامها،

والتحمل لمُعْضِلات سِهامِها ، والجزَعُ عند وقُوعِها قادحٌ فى البصائروالأفهام، دالٌّ على الجهـل بالليالِى والأيَّام؛ وقد طرق المملوكَ ناعِى فلان فهدَّ جلَدى ، وفتَّتَ كَبِدى ، لا ٱرتياعا للحادثةِ : لأنّها لولم تكُن فيه لكانتْ فى المملوك، ولو لم تتطرّقْ إليه لتطرّقت إلى المدرك (؟) ولكن الأسفُ على عَطَل الزمان من حِلْية فضلِه ؛ وتعرّيه من حُلّة نُبْله ، وخلُوِّ عِراصه من الأُنْس بمثله ، وما نالَ سيِّدى لفقْده ، وتحمَّلَه من بُعْده؛ و إلى الله تعـالى يرغَبُ المملوك أن يَرْبُطَ على قلْبـه بالصبر، و يوفِّقه لتنجُّز ماوعد به الصابرين من الأجْر، إن شاء الله تعالى .

على بن خلف :

رقعـــة : ليس عند المُصيبةِ ـ أطال اللهُ بقاء سيدى ـ خيرٌ من التسليم إلى الله والرِّضا بقضائه ، والصبرِ على بَلَائه ؛ فإنه تعـالى مَدَح الصابرين فى كتابه ، ووعدَهُم بصَلَواته . فقال جل قائلا : ﴿ ٱلَّذِينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالُوا إنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ راجِعُون أُولٰئِكَ عليهِمْ صَلَواتٌ من رَبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُولٰئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ ﴾ . وقال جل قائلا : ﴿ وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهـم والصَّابِرِينَ على مَاأصابَهُـمْ ﴾ . ولم تزل الأولياءُ من القُدَماء يَحُضُّون على الصـبْر وهم لا يَرْجُون عليه ثوابا ؛ ويَنْهَوْن عن الجَزَع ولا يَخافُون عليه عِقَابا ؛ ومَنْ عرفَ الأيَّام وتداوُلَها ، والأحوالَ وتحوُّلَها ، وسَّع صدْرَه للنوائبِ ، وصبَرَ على تجرُّع المصائِب ، ومن ٱغترَّ (١) بطول السَّلامه ، وطَمِع فى الٱستمرار والإقامه .

رُقعـــة : وقد ٱتَّصـلَ بالمملوكِ خبرُ الفَجِيعـة بفلانـــ ، فأُفِيضتِ المَدَامع ، وتضَعْضَعت الأضَالِـع ؛ وزَفَرت الأنفـاس ، وهَمَدت الحَوَاسّ ؛ وأذابَ الطرفُ

(١) لم يذكر فى الاصل لهذا الشرط جوابا ويمكن أخذه من المقام أى «فقد حاول محالا ، وضل فى سعيه ضلالا» أو نحو ذلك .

سَوادُهُ علىٰ الوَجَنَات بدَلًا من الأنقاس، وخلعَتِ القلوبُ سُوَيداءَها علىٰ الأجساد، عِوضًا عن جلابِيبِ الحِدَاد؛ وعُضَّت الأناملُ جَزَعا، ومُزِّقت الثيابُ تفجُّعا وتوجُّعا؛ وكل هذا وإنْ فارقَ حميدَ التَّماسُك، ووافق ذَميم التَّهالُك، غيرُ مُوفٍ بحقِّ ذٰلك الدارج الذى بلغ المَعالِيَ وهو فى مَهْده، وشدّ دَعائم الفضل ولم يبلغ أوانَ رُشْده؛ وعلِمَ سيدى أنَّ غايةَ الجازِع وإن صدَعتِ المصيبةُ قلْبَه، وأطاشَتِ الفجيعَةُ لُبَّه، الصبْرُ والسُّلُوّ؛ وأنَّ نِهايةَ القَلِقِ وإن هجَمَتْ عليه الحُرْقة بما لاتتوفَّر عليه الأضالِع، ولا تَتماسَكُ معه المَدامِع، القَرَارُ والهُدُوّ؛ واللهُ تعالىٰ لايُرِيه بعدَ هذا الرُّزْء رُزْءا بفِنائه، وينقل ذٰلك عنه إلىٰ حاسِديه وأعدائه.

رقعة: مَنْ علِمَ أنَّ الأقضِيَةَ لاتُخْطِئ سِهامُها، والأقدارَ لاتُرَدُّ أحكامُها، سلَّم الأمرَ فى السَّرَّاء والضَّرَّاء، ورَضِى بما مَناه فى البَلَاء والاِبتلاء؛ ولا سيَّما فى مُصيبةِ الموت التى سوّى بين الخليقة فى تجْرِيع صَابِها، واقتِحامِ عِقَابها؛ وقد اتَّصل بالمملوك خبرُ الحادثِ الفاصِم لعُرىٰ الجَلَد، البارح(١) فى الجلد. فاستحالَتْ فى عين المملُوكِ الأحوال، ومالَتْ عنه الآمال، ورأىٰ السماءَ وقد تكدَّر جوّها، والشمسَ وقد تعكَّر ضَوُّها، والسَّحائبَ وقد أخلف نوُّها، والنَّهارَ وقد اظلم، والليلَ وقد ادْلَهَمّ، والنسيمَ وقد ركَد، والمَعِينَ وقد جَمَد، والزمانَ وقد سُهِمَتْ وجنته، وسُلِبتْ حِلْيَتُه، وأفْرِجت قبضَتُه عن التماسُك، وقبَضَتْ علىٰ التهالُك، وعدلَتْ عن التجلُّد، إلىٰ التبلُّد؛ ثم أفاقَ من غَمْرة فَجيعتِه، وهَيِب سِنَة رويّته، فسلَّم لله راضيا بأقضيتِه، راغبًا فى مثُوبتِه.

(١) لعله البادح والبفح والبدح بالاهمال والاعجام الشق والمراد ظاهر.

أبو الفرج الببغاء :

إذا كان أيَّده الله أَهْدىٰ فى النِّعم إلىٰ سُبُل الشكر، وأعرفَ فى المِحَن بطُرُق الصبر، فكيف نُحاذِرُ عليــه من المَصائِب ، ونذَكِّره التسليمَ لمحتوم النَّوائِب، والمصيبةُ بفلانٍ أعظمُ من أن نهتدى فيها إلىٰ سَلْوةٍ غيرِ مستفادةٍ منه ، أو نقتدَى فى العَزاء بغير ماناُخُذُه عنــه، إذ كانتْ قلوبنا تَبَع قلْبــه ــ سَرَّه الله ــ فى طُرُوق السَّراء والضَّرَّاء، وحالَتِي الشِّــدّة والرَّخاء . وأحسن [الله] عن الفَجِيعة عَزاءه، وأجزلَ من المَثُوبةِ عطَاءه، ولا شغَلَه عن حَلاوة شكر النِّعم بمَرارة الصبرِ علىٰ وُرُود المِحَن، وجعل مانقَلَ المــاضِى إليه، أنفعَ له ولسيِّدى من الجَزَع عليه .

وله فى مثـــله :

ٱتَّصل بى خَبَرُ المصيبةِ فجدّدَ الحَسْره، وسكَبَ العَبْره، وأضرَمَ الحُرْقة، وضاعَفَ اللَّوْعة، وكان الأســفُ عليه، بقَدْر تشوُّف الآمالِ كانتْ إليه : فإنَّا لله وإنَّا إليــه راجعُون ! ! أخْذًا بأمْره، وتسليماً لحُكْمه، ورِضًا بمَواقع أقضيَتِه، وأحسَنَ الله فى العَزاء هِدَايته، وحرَسَ من فِتَن المَصائب بَصيرتَه، وحَمَل عن قَلْبه ماأظلَّه من ثِقَل المصيبة وعِظَم الرزِيَّة .

ولا أزالُ علىٰ جمــلةٍ من القَلَق إلىٰ أن يَرِدَ علىّ كتابُه ــ أيده الله ــ بما أكونُ فيه بأدَبِه مقْتدِيا ، وبهدايتــهِ إلىٰ سَبِيل العَزاء والصــبْرِ مُهْتدِيا ؛ فإن رأىٰ إجرائى من تشريفه بذٰلك علىٰ مشكُور العادة، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

ٱشتراكُ القلوبِ فيما ألَمَّ بقلْب سيِّدى بحسَبِ تَساوِيها فى المَسرّةِ بما سَرَّه ، إذ كان لايختَصُّ دُونَ أوليائِه بِنعْمه، ولا ينفرِدُ دُونَ مؤمِّليه بحلُول مَوْهِبه، والمصيبةُ بفلان

ـ وإن جَلَّ موقِعُها وعظُمت الفَجيعة [بهـا] ـ جَلَلٌ (١) مع سُقُوط الأقدارِ دُونَه ، وتجاوُزِها عنه ، ومُسامحَتِها به ، فلا شغَلَ الله قلبه بعْدَها بمَرارة الصبْرِ عمَّا تُوجبه النِّعم من حَلاوةِ الشُّكر، ولا جاوره برزِيَّة فى حميم ولا نعمه .

وله فى مثـــله :

بصيرتُك إلىٰ العَزاء تَهْديك ، وٱغتباطُك بثَواب الله يُسلِّيك ، وعلمُك بقِلَّة الغَنـاء عن الجَزَع يَثْنِيك ، وجمْعُنا بك فى الصبْر مقتدُون ، ولرأيك فى الرِّضا بمـا ٱختاره الله تعالىٰ متَّبِعُون ؛ فحَمَلَ الله عن قلبك ثِقْلَ المُصيبة ، وحرسَ يَقينَـك من ٱعتراض الشبهة ، وأحسن إلىٰ جميل الصبر هِدايَتَك ، وتولَّى من فِتَنِ المِحَن رِعايَتَك ، وجعل ماتَقَل المـاضى إليه ، أنفعَ لك وله من الأسَفِ عليه .

وله فى مثـــله :

اتَّصل بى خبَرُ المصيبةِ فأضْرمَ الحَسْره ، وسكَبَ العَبْره ، وقَدَح اللَّوْعه ، وٱمترىٰ (٢) الدَّمْعه ، وكانتْ مُشاركَتِى إيَّاك فى المُصيبة به ، والفَجيعةِ لفقْده ، بحسَبِ ٱختصاصى بمواهِب الله عِنْدك ، وٱغتباطِى بِمنَحه لديْك ؛ فإنَّا لله وإنَّا إليـه راجِعُون ! ! تسليماً لأمْره ، وٱنقيـادًا لحُكْمه ، ورضًا بمَواقع أقْدارِه ، وأحسن اللهُ علىٰ العَزاء توفيقَك ، وإلىٰ السَّلْوة إرشادَك ، ولا أخْلاك فيما تطْرُقك به مصيبةٌ من مصاحَبةِ الصبر ، وفيما تَفِد به عليك نعمةٌ من الٱستزادةِ بالشكر ؛ وحَرَسك فى نفْسك وأحبَّتِك ، وذَوِى عنَايَتِك ونِعمَتِك .

(١) أى يسير هين على حدّ قول امرئ القيس لمـا قتل أبوه :

بقتل بنى أســد ربهم * ألا كل شىء سواه جلل

(٢) فى القاموس « ومرىٰ الشىء ٱستخرجه كامتراه » .

وله فى مثـــله :

قدرُك أكبَرُ، وبصيرتُك أنْوَر، وثقتُك بالله تعـالىٰ أعظَمُ من آعتراض الشُّكُوك عليك فيما يَطْرُقُك من عِظَاته بالحوادث وإن عظُمتْ، والمِحَنِ وإن جَلَّتْ؛ آختِبارا بالمَصائب لصَبْرِك، وبما يُظاهِرُه عليك من النِّعم لشُكْرِك، ومثلُك أيَّدك الله مَنْ قابَلَ الفجيعةَ بفلان ـ إذ كانتْ من الواجب المحتُوم ـ بأحسَنِ عَزاءٍ وأفضل تسليم، غيْرَ مرتابٍ بما آختاره اللهُ له ولَكَ فيه، فعَظَّم الله به أجْرَك وحَرَسك وحَرَس فيك .

الأجوبةُ عن التَّعازِى

قال فى "موادّ البيـان" : أجوبة التَّعازى يجبُ أن تُبْنىٰ علىٰ وُقُوف المُعزّىٰ علىٰ كتاب المعزِّى ، وأنَّ إرشاده نقع غُلَّته، ووعْظه نفَع عِلَّته ، وتبصيـره سكَّن أُوَاره، وتذكيرَه أخمدَ نارَه، وتنبيهه أيقَظَ منه بحُسْن العَزاء غافلا، وهدىٰ إلىٰ الصبر ذاهِلاً، وحسَّن عنده الرزِيَّةَ بعد جَهامتها، ودمَّث نفْسه للمصيبة بعد فدَامتها، فسلَّم لله تعالىٰ متأدِّبا بأدَبه، وعَمِل بالحُكْم مقتدِيا بمذْهبه ، وغالَبَ الرُّزْء بالعَزْم، وأخذَ فيه بالحَزْم؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُحْسِن له العِوضَ فى رَدّه ، ويجعلَه له خَلَفا ممن أُصِيب بفَقْده؛ ونحو هذا ممـا ينخرط فى سِلْكه .

جواب عن تعزية : من زهر الربيع :

أعزَّ الله سيدَنا وأسعدَه ، وسهَّلَ له طريقَ المَسرَّة ومهَّدَه ، وصانَ عن حوادث الأيّام حِجابَه، وعن طوارِقِ الحَـدَثان جَنـابَه؛ وجعـله فى حِمىً عن عوارض الغِيَرَ والغَرَر، وأصار أيّامه محسَّنةً لوجُوه الأيَّام كالغُرَر .

ورد الكتابُ الذى أنعَمَ بإرساله ، بل المَشرِّف الذى كَسته اليدُ العاليةُ حُلَّةً من حُلَل جَماله ، فوقَفَ عليه وفهِمَه وتذكَّر به إحسانَهُ الذى لايَنْساه ، وتفضُّلَه الذى لايَعْرف سِواه ؛ فأما التعزِيَةُ بفلان، فإنه ردّبعَذْبِ لفظها قُوّتَه ، وبَلَّ بماء حُسْنها غُلَّتَه ؛ وصَبَّره علىٰ حادثته بفلان بعد أنْ عزَّ عليه العَزاءُ وأعوزَه ، وطلَبَ وعْدَه من صَبْره فما أنجَزه : لأنه كان وَجَد لِموْتِ المذكُور حُزْنًا ما ٱستطاعَ له تَرْكا، وفقَدَ لموته خِلًّا مثلُه يُناحُ عليه ويُبْكىٰ ؛ وفى بقاءِ مولانا مسرَّةٌ تطْرُد كلَّ حَزَن ، وفى بهاء طَلْعته عوضٌ عن كل منْظَر حَسَن ، جعله اللهُ سامِيًا علىٰ أتْرابه ، مقدَّما علىٰ أضْرابه ؛ ماسَمتِ الأسماءُ علىٰ الأفعال، وتقدّم الحالُ علىٰ الآستِقْبال .

آخـر : ضاعَفَ اللهُ بقاءه وأطال عُمُره، وشرَحَ لإسْداء المَكارِم صَدْرَه، وأنفَذَ نَهْيَه وأمْرَه ، ولازالَ إلىٰ أوليائه مُحْسِنا، وفضلُه يحصِّل لمحِبِّيه غايةَ السُّول والمُنىٰ ؛ ورد مشَرِّفُه المعزِّى بوفاة فلان سقىٰ الله عهدَه عِهادَ رِضْوانه ، وأسكنه فى غُرَف غُفْرانه ؛ بخبرٍ مُصابا، وفَتح إلىٰ الصَّبْر أبْوابا؛ وهدىٰ إلىٰ طريقِ الخير وقال صوَابا ؛ وسكَّن نَفْسَه ، وذكَّره إحسانَهُ الذى لم يَنْسَه ، وأزال الوَحْشَةَ وزاد أُنْسَه، بعد أنْ كان فَقْدُ المذكور قد هَدّ رُكْنَه وفتَّ عَضُدَه ، وأوصله إلىٰ أمَدِ الحُزْن وضاعف علىٰ الأيام أَمدَه ؛ وألبسه رِداءَ الآكتئاب ، علىٰ تِرْبه الذى أصبح تحتَ التُّراب ، وصديقِه الموصوفِ بالصدق ، الذى فاق سناه ذٰلك الأُفْق ؛ جعله الله أصْلًا فى تحصيل المَسَرَّة إذا ذوَتِ الفُرُوع ، وسيفًا يقْهَر به ولِيُّه الحوادثَ التى ترُوع ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخـر : جعل الله أجْره عظيما كقَدْره ، والقلوبَ مجمعةً علىٰ حُبِّه كإجماع الألْسنة علىٰ شُكْره .

المملوك يُعْلِمه بوُرُود كتابه الكريم المعزِّى بفلان ـ قدَّس الله رُوحَه، وأمطر سحائبَ الرحمة ضَرِيحه ـ عليه، وعِنْده من شديد الحَزَن، ماأعدمه لَذيذَ الوَسَن؛ ومن زائدِ الاكتئاب، ما كاد يَحْرِمُه التقمُّصَ بثوب الثَّواب؛ بحيث إنَّه عُوِّض بالزَّمن الأسودِ عن العيشِ الأخْضَر، وذاق من موجب لُبْس الأبيض طَعْمَ الموتِ الأحْمَر، وأنه ضَمَّه إليـه ضَمَّ المحبُوب، وٱبتَهَج به ٱبتِهـاجَ من ظَفِر بغايةِ السُّول والمطْلُوب؛ فأغمدَتِ الكآبةُ خوْفًا من قَلَمه سَـيْفَها، وأزالتِ الدنيا الدنِيَّةُ عنه حَيْفَها؛ وعزَّى نَفْسَـه وسَلَّاها، وشغله إحسانُه عن مَحاسِنَ محا الموتُ سَنَاها؛ فرفَضَ من توجُّعه مافرضَتْه حادِثتُه، وسلَكَ مَنْهَجا غيرَ المَنْهج الذى فُتِّت فيه حَشَاه ومُهْجَته؛ فالله تعالى يَكْفينا مانحاذِرُه فى المجلس ويحْرُس سَناه، ويُديم سعْدَه وعُلَاه .

النـــوع الثـالث

(من مَقاصد المكاتَبات التَّهادِى والمُلاطَفة)

قال فى ”مواد البيان“ : رِقاعُ التَّهادى يجب أن تُودَع من الألفاظ المستحْسَنة مايُمَهِّد لقَبُول الملاطَفة والمَبَرَّة التى تميز فى المودّة. قال : وينبغى أن يُطْرِف الكاتبُ إذا كان مُهْدِيا أو مستَهْدِيا؛ وقد جرتِ العـادةُ أن تُودَع هـذه الرقاعُ من أوصاف الشيء المُهْدَىٰ مايحسِّـنه فى نَفْس المُهْدَىٰ إليه . قال : وينبغى لمن ذَهَب هـذا المذهَبَ أن لايعتمِدَ تفخِيمَ هدِيَّته، ولا الإشارةَ إلىٰ جَلَالة خَطَرها، فإنَّ ذلك يُخِلُّ بشروطِ المُرُوءَة ويتحاماه الكُرَماء .

ثم هى علىٰ ثلاثة أضــرب :

الضـــــرب الأوّل

(مايُكْتَب مع التَّقادم إلىٰ المُلُوك من أهل مملكَتِهم إلىٰ القائمين بإيصال التَّقْـدِمة إلىٰ المَلِك وكاتبِ السِّرِّ ونحوهما)

الشيخ جمال الدين بن نباتة : إلىٰ كاتبِ السِّرِّ بالأبواب السلطانية صحبَةَ تَقْدِمة من نائب الشام إلىٰ السلطان :

لازالتْ أقلامُها لنَتائج الفَضْل مُقدِّمه، ولمَرَاكض الكَرَم والبَأْس جيادًا مُسوَّمه؛ ولكَتائب المَلِك من كُتُبه أعلامًا بشِعارها العبَّاسِيِّ مُعْلَمه، وفي يد صاحبها من أصحاب المَيْمَنة، والذين كَفَروا بآياتِ الله ونِعَمِها من أصحاب المَشْأَمه؛ تقبيلَ مُحِبٍّ لاتُفْسَخُ عقُودُ وَلَائه المُحْكَمه، ولا تُنْسَخ إلَّا في الكُتُب عقودُ ثَنَائه المنظَّمه، ولا تطوفُ الأشواقُ ببيْتِ قلبه إلَّا وهي من مَلَابس السُّلْوان المحرَّم مُحْرِمه .

ويُنْهِي أنه قد آختارَ من عِنَاية مَوْلانا بمَقَاصِده أحسَنَ الخِيَرِ، وبُورِكَ له في قَصْدها (ومَنْ بُورِكَ لَهُ في شَيْءٍ فَلْيَلْزَمْه) كما جاء الخبَرِ، وقد جَهَّز فلانا إلىٰ الأبواب الشريفةِ خَلَّد اللهُ سلطانَها بتَقْدِمته علىٰ العادةِ في كلِّ سنة، وآتَّبع سِفَارةَ مَوْلانا بين يدَيِ المواقِفِ الشريفة فاتَّبَع من القَوْل أحْسَنه؛ وسأل حُسْنَ نظر مولانا الذي إذا لاحظَ قَصْدا أعْلَنَه وسَعْدا عيَّنه، وقد جهَّز المملوكُ برَسْم مولانا ماهو بمقتضىٰ الوَرَقة المجهَّزة عطْفها، المؤمِّلة وإن كانتْ ورَقةً قَطْفَها، وسأل مقابلتَها بالجَبْر الذي يَحْسُب الأمَلُ حِسَابَه، ويستفْتحُ ببنانِ القَلَمِ بابَه، والإصغاءَ لما يُملىٰ من رَسائل الشَّوْق فإنَّها من رسائل إخْوان الصَّفا المستطابَه، لابَرِح القاصدُون مَرِحينَ بأيَّام مولانا وحَقَّ لهم أن يَمْرَحُوا، تالينَ نسبة بيته ورُحْمىٰ الله علىٰ يَدِه: ﴿قُلْ بفَضْل الله وبرَحْمَتِه فَبِذلِكَ فَلْيفْرَحُوا﴾ .

وله إليه أيضا مع الجهاز الشريف السلطانى :

أمتعها الله من خيرى الدنيا والآخرة بكَرَم الأمرين ، وبشرف الذكرين ، وسرّها بما يجهّز فى الثّناء والثّواب من الوفرين ، وأعلىٰ منارها المحلّق إلىٰ السماء علىٰ وكر النّسرين . ولا زالت الآمال لاتبرح حتّى تبلغ من تلك اليدين مجمع البحرين؛ تقبيل مخلص فى الولاء والدّعاء، مستشهد بالخواطر الكريمة علىٰ ثبوت الادّعاء، وارد لموارد النّعم قبل صدور بل قبل ورود الرّعاء .

وينهى أنه ليس للملوك فيما يؤمّله ويتأمّله ، ويفصّله من عقود المطالب ويجمله ؛ غيرُ إحسان مولانا الذى لا يملّ علىٰ طول الإيناس والإلباس ، وعوارف بيته المستجدة تالية : ﴿ إنّ الله لذو فضل علىٰ النّاس ﴾ . وقد جهّز المملوكُ الولدَ فلانا بالجهاز المبارك إلىٰ الأبواب الشريفة خلّد الله سلطانها ، وملأ به جواهر حبّات القلوب وريحانها، وهو علىٰ قدْر المملوك ومقداره، لاعلىٰ قدْر مراده واختياره؛ ولو أن المُرادَ مما يحمله العبدُ إلىٰ سيّده ، ويقدّمه من سبد الحال ولبده ، علىٰ قدر المحمول إليه ، والمقدّم بين يديه، لضعفت قوىٰ أكثر العبيد عن ذلك، ويئس من الرّضوان جهدهم المالك ؛ وإنما علىٰ العبيد أن تنصب علىٰ قدرتها الحال ، وعلىٰ الساداتِ أن تصرّف بعوامل الخبر مستقبلَ الأفعال . وعلمُ مولانا الكريم محيط بتنقّل المملوك فى هذه السّنينَ من بلد إلىٰ بلد، ومن أمد كلّفه إلىٰ أمد، وبما حصل فى ذلك من التمحّق فى إقطاعات كاد أنْ يخْنِى عليها الّذى أخنىٰ علىٰ لُبَد . وكان المملوك يودّ لو كان هذا المحمولُ من الجهاز من جواهر النّجوم المنثوره ، وأخبية السّعود المأثوره ، وجميع ما زُيّن للناس من الشّهوات المذكوره ، أضعافَ أضعافه الآن، بل أضعاف أضعاف ما حمل الأوّلون من فلان وفلان؛ كالحسن بن سهل مع الجهة المأمونيّة التى حلا ذكرها، وابن طولونَ مع المعتضديّة التى كاثر هذا الغيث قطرُها ، والسّامانىّ

وما أدراك، والسَّلْجُوقىّ وما أسْراك، وجميع ماتضمَّنته التواريخُ التى لو عاينَتْ تاريخَ هذه الدولةِ الشريفةِ عنَتْ فى الحال لمَجْدِه، وكان كلُّ مجلَّد منها يموتُ للهَيْبة فى جِلْدِه : لما خلَّدته أيامُها الشريفةُ من أخبار حُكْمها وخَيْرها، وكَرَمها و بِرِّها، وعَطْفها علىٰ مماليك بيتِها الشريف: تتقبَّلُ ميْسُورَهم، وتُكمِّل سُرورَهم؛ وتملأ بجُيُوش الإنْشراح صُدورَهم، وتبلِّغُهم من هِمَم مطْلُوبهم؛ وتُقْبِل علىٰ زاهرات نَجَايَاهم ورياحِينِ قلوبِهم :

ولو لم تُطِعْه نِيَاتُ القلُوب ﴿ لَمَا قَبِلَ اللهُ أعمالَهَا.

والمملوك يسأل من إحسانِ مولانا الذى أَلِفَه، ومعروفِه الذِى عَرَفه، ملاحظةَ الولد فلان بين يدَىِ المواقِف الشريفة خلَّد الله سلطانها، و إقامةَ عُذْر المملوك بعبارتِهِ التى أحلَّ اللهُ سِحْرَها وبيانَها ؛ فما للمملوك فى مَقاصِده مثلُ مودّةِ مولانا الوافيةِ المُتَوافيه ، ومقدّمةِ عبارتِهِ الكافيةِ الشافِيَه ؛ والله تعالىٰ يُعين علىٰ شُكْر مِننه ، والقيامِ بفرائض حَمْده وسُنَنه ؛ والنهوضِ بأوصاف أياديه التى يُغرّد بها قلَمُ الكُتَّاب كما يُغرِّد القُمرِىُّ علىٰ فَنَنِه .

الضرب الثانى

(ما يكتب مع الهدِيَّة عند بعْثها)

وهو علىٰ عَشَرة أصناف :

الصنف الأوّل — مايكتَبُ مع إهداء الخيل .

على بن خَلَف : فى إهداء جَوادٍ أدْهَم أغَرَّ محجَّل .

وقد خدم المملوكُ رِكابَه الأكْرَم ، بجوادٍ أدْهَم مُطَهَّم ، قد سَلَبَ الليلَ غَياهبَه وَكَوا كبَه ، فاشْتَمَلَ بأديمه ، وتحلَّىٰ بنُجُومه ، وأَطْلَع من غُرَّته السَّاذَجة قمرًا متّصلا

بالمجرّه ، وتحلّى من رُثْمته[1] بالثُّريَّا أو النَّثْره ، صافِي القَميص ، ممحُوض الفُصُوص ، حديد الناظِر ، صليبِ الحافِر ، وَثِيق القَصَب ، نقِيِّ العَصَب ، قَصِير المَطا ، جَعْد النَّسا ، كأنما ٱنتعلَتْ بالرِّيَاح الأرْبعِ أرْبعُه ، وأصْغىٰ لٱستراق السَّمْع مَسْمَعُه ، إنْ تُرِكَ سارْ ، وإن غُمز طَارْ ، وإن ثُنِيَ ٱنْحَرف ، وإن ٱسْتُوقِفَ وقَفْ ، أديب نَجِيب ، مَتِينٍ صَلِيب ، صَبُورٍ شَكُور ، والله تعالىٰ يجعلُ السعادةَ مطلعَ غُرَّته ، والإقبالَ مَعْقِدَ ناصيتِه .

من كلام المتأخرين :

كتاب عن نائب الشام إلىٰ الملِك الصالح : شمس الدين صاحب مارِدِينَ قرِينَ خيل مُنْعَم بها إليـه ، عن السلطانِ الملِك الصالح : عمادِ الدين إسمـاعيل بن الناصر محمد ٱبن قلاوُون ــ من إنشاء الشيخ جمال الدين بْن نُباتةَ ، وهو بعد الألقاب .

وأجْرى بالنَّصْر جِيادَه ، وبالظَّفَر مُرادَه ، وعلىٰ عوائِد السَّعْد مَطالِعَ شمسِه التى يُسَمِّيها عُرْفُ المملكةِ بلادَه ، ولا زالتْ مُنيرةً بسعادةِ شمسِه الأحْلاك ، نَظِيمةً بدُرِّ مَحامِده الأسْلاك ، مائلةً خيولُ سعدِهِ حتّٰى حُمْر السَّوابق من البُروق والشُّهُب السَّوانح فى الأفلاك .

المملوكُ يقَبِّل اليدَ التى إذا بُسِطتْ فلِأَن تجُودَ وتُسْتَلَم ، وإذا قُبِضت فعلىٰ سَيْف أو قَــلَم .

ويُنْهِى بعدَولاءٍ وثناء للإخلاص شارحَيْن ، وفى الضمائرِ والآفاقِ سانِحيْن ، وٱشتياقٍ وعهدٍ كانا أحقَّ بالٱنتمـاءِ لٱسمه ونَعْتِه وكان أبواهما صالحَيْن ؛ أنَّ المرسومَ الشريـف زاده الله تعالىٰ شَرَفا ، وردَ يتضَمَّن تشريـفَ مولانا علىٰ العادةِ وإعظَامَه ، وٱستقْرارَ مكانته من الخواطرِ الشريفـةِ فى دار مُقَامه ، وٱستمرارَ كرامتِه من الآراء المعظَّمة

(١) هى بالضم بياض فى طرف أنف الفرس . قاموس .

ولا يُنكَر بين الصالح والصَّالح استمرارُ الكَرامه ، وأنَّ الصَّدَقاتِ الشريفةَ أنعمتْ علىٰ مَوْلانا بثلاثةِ أرْؤُس من الخيل كثلاثة الراح ، إلا أنَّ حَبَابها عرَقُ سبْقها ، وثلاثة الشجر (؟) كما قال الطائى تساوى شَرَف ثَمرها وزَهَرها وعَرْفها ؛ مامنها إلا من(١) تقْصُر الرِّياح أن تَسْلُك بَخَّه ، والبرُوقُ أن تتْبَع نَهْجَه . ومَنْ تودُّ الثُّرَيَّا أن تكونَ لجامَه والهلالُ أن يكونَ سَرْجَه . ومَنْ يَتمَطَّر(٢) كالغَمَام و يركُض كالسَّيل . ومَنْ كَمُلت حِلاه ولبِس حُلَّة الفَخَار فمشىٰ علىٰ الحالتين فى الحُلَّتين مُسْبِلَ الذَّيْل . ومَنْ عُقِد بناصيَته كلُّ الخير وعُقِـد له لواءُ الفَخَار علىٰ كلِّ الخَيْل : من كلِّ خَضراءَ مُعْجِبة فهى علىٰ المجاز حَديقه ، وكل أحمرَ سابقٍ فهو البرْقُّ علىٰ الحَقيقه ، وكلِّ أصفرَ شَفَقِيٍّ إلا أنَّ الرياحَ من مُجاراته علىٰ نَفْسها شفِيقه . وكيف لا يُشَبَّه بالشَّفَق وهو من الأصائِل ، وكيف لايفتَخر العسكرىُّ بهذه الخيلِ وخَناصِرُ عَدَدها فى الحُسْن أوائِل ، قد صُرِفَتْ وجوهُها المقبَّله ، لبابِ مولانا أحسنَ المَصارف ، وكُتِبتْ عوارفُ الفضل فى مَعارفه المُسْبَله ، فناهيك منها بكتاب عَوَارف المَعارف ؛ ووصل لمولانا بذلك مثـالٌ شريف ؛ ورسم للملوك بتجهيزها مع مَنْ يراه ؛ وقد جهَّز المملوك لخدمةِ مولانا الخيلَ المذكورةَ مع المثال الشريف صحبةَ فلانـــ ، ومولانا أدرىٰ بنفَحَات رياض الحمدِ بهذه الدِّيَم المُطلَّه ؛ وبالتقبيل فى الأرض التى هى سَمـاءُ حوافِرِ هـذه الخيل التى هى أهلَّه ؛ وأولىٰ أن يَشَرِّف المملوكَ بمُهِمَّاته ، ويؤنِسَ لحظَه بطيف اليَقَظـة من مشرِّفاته ، والله تعـالىٰ يجدِّد لمعاليه فى كل قصـد نُجْحا ، ويعلى لمجده(٣) فى كل حال قِدْحا ؛ ويُروِّع الأعداءَ

(١) كذا فى الأصل باستعمال من فى غير العاقل .

(٢) فى الأصـل يخطر كالغمام ولعله مصحف عمـا أثبتناه يقال تمطرت الخيـل إذا جاءت مسرعة يسبق بعضها بعضا تأمل .

(٣) فى الاصل وجاد مجده تأمل .

من خَطَوات خيْله فى بلادهم بالمُغيرات صُبْحا ، ومن خَطَرات ذكْره فى قلوبهم بالمُورِياتِ قَدْحا .

وفى معنـاه :

يقبِّل الباسطةَ الشريفة أعلىٰ اللهُ شأنَها ، وجمَّـل ببقائها زَمانَهـا ، وضاعفَ علىٰ الأولياء بِرَّها وإحسانها .

وينهِى : أنه ٱبتاع جَوَادًا أعجبه ، وطِرْفا ٱنتخبَه ، وقدْ قدّمه لوَلِيِّ نِعْمتِه ، ومالك عُهْدته : لأنَّ الكِرامَ لا تكونُ إلا عند سـيِّد الكِرام ، والذى يصلُحُ للولىٰ علىٰ العبـد حَرَام ، فالله تعالىٰ يجعَلُ التوفيقَ ضِياءَ غُرَّته ، واليُمْنَ مَعْقِدَ ناصيَته ، والإقبالَ تحجيل أوْظفَته ، والسعادةَ موضِعَ الجلوس من صَهْوته ؛ والمملوكُ يسأل الإنعامَ بقَبُوله ، و[أن] يبَلِّغه من ذلك [غاية] مأمُوله ؛ مضافًا إلىٰ ماسَبَق به سابقُ إحسانه العميم ، وفضلِه الجَسِيم ؛ والله تعالىٰ يحرُسه بعينه التى لا تَنام ، آمين .

الأجوبة بوصول الخيـــل

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ أميراخور بالأبواب الشريفـةِ ، عن وصُول خيـلٍ إليـه من الإنعـام الشريف ـ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعـد الألقـاب :

لا زالَتْ مبَشِّرةً بأعظَم الخير وكِرام الخيل ، ميَسِّرة النعماء (١) بسوابِق السَّـيْر كدوافق السيل ؛ مُسْفِرةً عن إيجاد سوابِجَ إلا أنهـا فى الفَخَار والشِّيَة ضافِيةُ الذَّيْل ، سـفيرة فى الجَوَادّ بكلِّ جَوَادٍ تبتسمُ غُرَّتُه ٱبتسامَ النهار ويُدرِك طَلَبه إدْراكَ الليل ؛ تقبيلًا يستَبِقُ ٱستِباقَ الجِياد ، ويتَّسِق علىٰ الدَّرج ٱتِّساقَ العُقُود علىٰ الأَجْياد .

(١) النعيم والنعمة والنعمى والنعماء ماينعم به فلعل الصواب الانعام .

ويُنْهِى بعد ثناءٍ وولاءٍ : هذا يَهِيمُ فى كل واد، وهـذا يَهِيم بمثله كلُّ وادّ؛ وُرُودَ مشرِّفةِ مولانا الكريمةِ بما ملأ القلْبَ مَسَرَّه، والعينَ قُرَّه، ودرَجَ عامَ الفيل من نُجُب الخيل السيارة مستَهَلّ وغُرَّه؛ فقابلها المملوكُ بتقبيله ، وقام لهـا علىٰ قَدَم تبْجِيله ؛ ثم قام إلىٰ الخيل الشريفة المنعَم بهـا عليه فقبَّـل من حوافرها أهِلَّةً ثم من غُرَرِها نُجُوما، وتأمّلَ شِياتِها البرقِيَّةَ وآستمطر من السُّعود غُيُوما ؛ فأدْنَتْ له من الإقبال أمَدَ قاصيها، وظلَّ بمنزله الخيرُ المعقُودُ بنواصيها ؛ وتضاعفتْ أدعيتُه الصالحةُ لهذه الدولة القاهرة الصالحيَّة زادها اللهُ من فضــله ، والوقتِ الذى ملأَ الدنيا بسَحَاب جُوده ورياحِ جِيَـاده ورِياضِ عَدْله ؛ والملكِ الذى لاينبَغِى لأحدٍ من بعدِه، ولولا شُهودُ العهد الشهيدىِّ لقال ولا لأحدٍ من قَبْله ؛ وأعدَّ المملوكُ هذه الثلاثةَ من الخيل ليُفْنِيَ عليهـا بالقتال أهلَ التعطيلِ والتَّثْليث ، ويستَخِفَّ بهـا آجالَ الأعداء بين يدَىْ مالكه : فإنها من ذَواتِ العِزِّ والعزم الحَثِيث ؛ وما هى إلّا كواكِبُ سَعْد تمددها أسِنَّتها الوَقّاده ، وزَهَراتُ حسن حيَّتْ بها علىٰ البُعْد سِفارتُه المعتاده ؛ لابَرِح مولانا يقلِّد بعِنايتـه وإعانتِه المِنَنَ الجسام، وينصُر بعزائمِه القاطعة، وكيف لاينصُرُ ويقْطَع وهو الحُسَام ؟ .

وله فى جواب وصُول أكديش وبازٍ [وكوهية] :

لا زالَ جزيلًا سَمَـاحُه ، جميلًا من الحمد رَبَاحُه ، جليلًا بِرُّه الذى يشْهَد به طائرُ الخير ويمنُه وطائلُ الخيل ونَجاحُه . هذه المفاوضة تُهدِى إليه سلامًا يخْفِقُ جَنَاحُه، وثناءً تُشْرِق غُرَره وأوضاحُه ؛ وتوَضِّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبتِه سريعةَ الآحْتِثاث، طائرةً بِيُمْن طِرْسها وهـدِيَّتها بأجْنِحةٍ مَثْنَى وثُلَاث؛ فحصَـل الوُقوفُ عليها ، وتجدَّدَ عهدُ الآرتياحِ لدَيْها؛ وفَهِمْنا ما لم نَزَلْ نفهَمُه من وُدِّ الجناب العالى، وبِرِّه المُتعالِى؛

ووفاءِ عَهْده الذى تتلقَّاه المحامدُ بأمالِى المحبِّ لا بأَمَالِى القَالِى ؛ ووصل الأكديش الايكر ظاهِرًا حُسْنُه ، سافِرا عن وَفْق المُراد يُمْنُه ؛ تتجمَّل به المَوَاكِب ، وتُماشيه الرِّياحُ وبعضُها من خَلْفِه جَنائِب ؛ وكذٰلك وصل البازى والكُوهيَّة ، وكلاهما بديعُ الأوصاف ، سريعُ الاقْتِطاف لأزاهِرِ الطيرِ والاخْتِطاف ، يَسْبِقُ الطَّرْفَ بجناحه اللَّمُوح ، ويستَعْجِل من الأُفُق وارِدَ الرِّزْق الممنُوح ؛ ويُواصِلُ الخيرَ والمَيْرَ إلىٰ المَطْبَخ ، فكأنَّ حوائج كاش تغْدُو إليه وتروح ؛ لا برِحَ إحسانُ الجناب العالى واصِلا ، وذِكْرُه فى ضمير الاعتداد حاصِلا ؛ وحكْمُ سماحتِه وشجاعتِه باستِحْقاق الثناءِ فاصِلا .

جواب بوصول جَوَارح :

كُتِب به عن نائب الشام ، جوابًا لمطالَعَةٍ وردَتْ علىٰ نائب الشام من الصالح صاحبِ مارِدِينَ من بَقَايا بنى أُرْتُق ، صحبةَ سَناقِرَ ، هديَّةٍ للصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون : صاحب الديار المصرية . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة :

وأيّد هِمَمه السَّوابح ، ونِعمَه السوابغ ، وشِيَمه التى تنتظم منها عليه دُرَرُ المحامد والمَدائح ؛ وشكر هَدَاياه التى منها جَوارِحُ طير تخْفُق لفَرْط استِحْسانها الجَوارِح .
ولا زال من أجْنحة نَصْره حتّى السِّماك الرامح ؛ ومن جُنُود سعدِه للأولياء سعْدُ السُّعود ، وفى الأعداء سَعْدُ الذابح ؛ ومن جِياد رِكابه الشُّهبُ إلا أنها شُهبُ الأفلاك السَّوابِح ؛ ولا برِح سلطانُ البسيطةِ مكافِئًا عملَ قلبِه الوفِىِّ ، ولا يُنْكَر العملُ بالقلوب بينَ الصالح والصَّالح .

المملوك يقبِّل الأرضَ التى تستمِدُّ السُّحُبُ من سَمائها ، وتستعِدُّ منازِلُ الأنجُم للتعلُّم من أنوائها ؛ تقبيلًا يُودِع ورَقَ الرسائل أزاهِرَه ، ويُطْلِع فى ليالى السُّطور زَواهِرَه ، ويدَّخِرُ فى أيدى الحُروف إلىٰ أن تَصِلَ إلىٰ أجياد المَنابر جَواهِرَهْ .

ويُنْهِى – بعد دعاءٍ صالحٍ، إذا جُدِّد تجدَّد، وولاءٍ ناجحٍ، إذا آنعطف تأكَّد، وثناءٍ سانحٍ، إذا سرىٰ لا يتوقَّف إلا أنَّ نَسيمه فى الآفاقِ يتردَّد، وآرتياحٍ لما يَرِدُ من أخبار دياره السارّة إذا شافَهَ سرورُه سَمْعَ الولِىِّ شهِد وسَمْعَ الحاسـدِ تشَهَّد، حيثُ يتَلَقَّ ببلاده النُّجْح والمَقاصد، وصِلاتِ البِرِّ والعوائد، ووُفُودَ الآمال من كل أَوْب:

فديارُ بكرٍ ديارُ زَيْدٍ وعَمْرو وخالد – وُرودَ المشرِّف الكريم، بل الغيثِ السائرِ بخِصْب المُقيم، علىٰ يَدِ فلان ونِعْمَ اليـدُ العائلةُ لأيَادِى البِرِّ العَميم، ونِعم المشرِّفُ الوارد عن مَقَرٍّ: هذا للأمَل كَهْف وهذا للتأميل رَقيم؛ ففَضَّه المملوك عن علامةٍ آسم لحُسْنها وُسُوم، ولها رُسُوم، وآستجلىٰ مواقِعَ تلك الأنامِلِ المُضِـيَّة وأقسمَ علىٰ فَضْلها بمَوَاقِع النُّجوم؛ وآنتهىٰ إلىٰ الإشاراتِ العاليـه، وعلِمَ ما كان القلبُ يعلَمُهُ من ضمائرِ الوُدِّ الحاليَّـة لا الخالية، وقابل كلَّ أمْرٍ حسنٍ بما يجب من مَذاهب الوُدِّ المُتواليـه، ووصلت السَّناقِرُ المُنيرُ سَـنَا فضلها، المُبِيرِ فى مَعارك الصيد شَـبَا نَصْلها، القـائمةُ فى كَواسِر الطـير مقَامَ الملوك الأكاسرةِ إلَّا فى حُكْمها وعَدْلها؛ لا جرمَ أنها إذا دخَلَتْ آفاقَ طيْرٍ أفسـدَتْها وجعلت أعِزَّة أهلِها أذِلَّه؛ وإذا آنقضَّتْ علىٰ سِرْبِ وحْشٍ جذَبَتْها من دَمِ الأوْرِدة بأرسانٍ حيثُ كَسَتْها من قَوَادِمِ الأجْنحة أجِلَّه؛ لايُسْأَلُ كاسِرُها فى الطُّيور بأىِّ ذَنْب قُتِلتْ، ولا يحمِلُها جانب الطـيرِ والوَحْش إذا عانَدَتْه فياعَجَبا لها علىٰ أيْدى البَشَر كيف حُمِلَتْ؛ تُظِلُّ الصيدَ فلا عَجَبَ أن يَفْزَع بها من ظِلِّه، وتكتُبُ علائِمَ اليُمْن والظَّفَر بما فى لَوْنها من شَـبَه الخَطِّ وشَكْله، نِعْمَ الجالبـةُ للخَيْرِ والمَيْر، والسائرةُ بما يُخيف المتصَيِّدات وكيفَ لا؟ وعلىٰ رُءوسها الطير، أزاهِرُ حُسْنٍ لابِدْعَ أن يكونَ لهـا كمَائِم، وبوَارِقُ العزم لاجَرَم أنَّ أجنحتَها غَمـائِم؛ ونواقِلُ البأس والكَرَم عن مُرْسِلها فهما جمَعتْه الشَّجاعةُ فرَّقتْه المَكَارِم. آستَجْلاها المملوكُ بعد ألفاظ المشرِّف الكريم فقال: (تلكَ الرياضُ وهذه السُّحُب،

وتلكَ الأنوارُ الهاديَةُ وهذه فى أُفُقِ مَطَارها الشُّهُب) ؛ وجهَّز المملوك المطالعةَ المُحضَرة للأبواب الشريفة أعلاها اللهُ وشرَّفها علىٰ يد فلان المذكور فقُوبِل بالإكْرام والكَرَم، ومَثَل بالمَوَاقف الشريفـة مُثُولا رقىٰ بهِمَّتـه إلىٰ الكَواكب لا جَرَم ؛ وذَكَّر بصالح بيتِ الآرتقاء صالحَ بيتِ أُرْتُق حتّٰى أنشد :

فَهَلْ دَرىٰ البيتُ أنّى بعْدَ فُرْقتِهِ * ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلّا إلىٰ حَرَم!

وقد عاد مُعْلَما مُعْلَما من البِشْر بما يَراه مولانا عليه ، مُعْلِما بمـا تقدّمَ من نجوىٰ الإنعَام بين يدَيْه ؛ حاملًا من كَرَمٍ وجاهٍ يُعَدّان للأولياء فى يومِ نُزُل وللأعداء فى يَوْمِ نِزَال ، قائلا برجاء سَعْيه المؤمّن : (يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) ولن تَزَال ؛ والله تعالىٰ يُجرى كَرَمَ مولانا علىٰ عوائدِ إسعادِه ، ويَحْرُس بعَيْنِه وملائكته نَفَاسة نَفْسه وبِلادِه ؛ ويُدْخِله بآسْمِه ومُسَمَّاه لدىٰ الدُّنيا والآخرةِ فى الصَّالِحين من عِبَاده .

وله جوابٌ بوصول بازِيَيْنِ :

ولا زالَتْ بُزاةُ كرمه علىٰ الحمد مُطِلَّه ، وسحائبُه مسْتهِلَّه ، وهِممُه مسـتقِلَّةً بأعباء المكارم وإن كانتْ لكثيرِ مايُهْدِيه مستقِلّه . هذه المفاوضة تُهدى إليه من السلام أجلَّه ، وتُوضِّح لعلمه الكريم وُصولَ مكاتبته العاليةِ فوقَفْنا عليها ، وعوَّذناها بكلماتِ الثناء التـامَّة من خَلْفِها ومن بين يديْهـا ؛ وعلمنا مالم نزل نَعْلَمُه من مُوالاته وآلائه المُسْنَدَ فى الشكر عنها والمستندَ فى الوَلاَء إليها ؛ ووصل كِلاَ البازِيَيْنِ الحسَنَين المُحسِنَين كأنَّهما فرقَدَا سماءٍ قد آجتَمعا ، وقمرَا حُسْنٍ طَلَعا ، وعلىٰ مَحاسن الصيد آطَّلَعا ؛ يَسُرَّان القلوبَ والأبصار ، ويُحْمَلُ كُلٌّ منهما علىٰ اليمين فيحْصُـل به اليَسَار ؛ وما هما بأوّل إحسانِه الأسْنىٰ ، وبِرِّه الأهْنىٰ ؛ وأياديه التى أبىٰ الكرمُ إلا أن تَرِد مَثْنىٰ مَثْنىٰ . وعلِم آعتِذارُه عن الكُوهِيَّة التى كان آدَّخَرها فنفَقَتْ ، ولو أُقيمتْ بها أسواقُ الصيد

نَفَقَت، وأرسل برواياتها تحقيقًا لدَعْوى المكارم التى من زمانٍ تحقّقتْ ؛ واللهُ تعالىٰ يشكُر بِرَّه، ويملأ بذِكْره بحرَ الثناء وبَرَّه .

وله جوابٌ بوُصول كُوهِيَّتين علىٰ يدِ شخصٍ ٱسْمه باشَق :

لازالتِ المحامدُ من مَصايِد إنعامه، وفوائدِ أيَّامه؛ وثمراتُ البأسِ والكَرم من قُضُب سُيوفه وأقلامِه؛ تقبيلَ معترِفٍ بإحْسانها، مغترِفٍ من مَوَارد ٱمْتِنانها؛ متحَفٍ منها بعالِي تُحَفٍ تدُلُّ علىٰ مكانِها فى الفضل وإمْكانِها .

ويُنْهِى ورُودَ مشرِّف مولانا الكريم علىٰ يدِ الولد « باشَـق » فياله باشَـقٌ جاء بكُوهِيَّتين جميلتيْن، وطار للسُّرْعة وهو حاملٌ مِنَّتيْن جليلتَيْن؛ وقد وصلَتَا و[كِلْتا] هما حسنةُ الخُبْرِ والخَبَر، حميدةُ الوِرْد والصَّدَر، يحْسُن مَسْرىٰ كلٍّ منهما وسَيْره، ويَتجمَّلُ بهما بابُ الشُّكْر خاناه وصدْرُها ويكْثُر خيْرُ المَطْبَخ ومَيْرُه، فمدّ المملوكُ إليهما اليَدَ المتحمِّلة الحـامِلَه، وإلىٰ المشرِّف الكريم اليدَ المتولِّيَـةَ المُتناوِله؛ وعلم ماتضمنه من الحُسْن والإحسان، وذِكْرِ الموالاة التى يحكُم بها القلب العالِمُ قبـل شَهادةِ اللِّسان؛ وٱعتِذارِ مَوْلانا عن تعـذُّر وُجُودِ الشاهين؛ وكلُّ إحسـانِ مولانا شهِىٌّ كافٍ، وكلُّ مَوَارد نِعَمه هَنِىٌّ صافٍ؛ ومافات مَقْصَدٌ وإنعامُ مولانا وراءَ طَلَبه وإنْ طال الأمَد، ولاقرَّ مطلوبٌ حتّى يأتِىَ به سعْدُ مولانا مقْرُونا فى صَفَد؛ والله تعالىٰ يشكُر عوائدَ فضـله، ولا يُضْحِى (١) الآمال الملتجئة [إليه] من ظِلِّه .

جواب بوصول طيور، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وشكَرَ هدَاياه المتقبَّله، وسَجايَاه التى هى بأفْواه المحامد مُقَبَّله؛ ولا زال بدرَ سعادتِه المأمولةِ وطائرُ هدِيتّه المتأمَّله .

---

(١) مراده لا يحرمها ولا يخليها .

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهدى إليه من السلام أتمَّه، ومن الثناء أنمَّه؛ وتوضِّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبَته الكريمه، ومكارمِه العَميمه؛ وطُيورِ هديَّته التى كلٌّ منها فى الحُسْن بدرُ تمّ، وظهرتْ ظُهورَ البدْرِ لتَمامه فأبتْ محاسِنُها أنْ تنكتِم، لحُسْنَ ورُودُها، ورُعِى بفضـل التلطُّف والتودُّد مقصودُها؛ وأقبلت تلكَ الطيورُ التِّمِّيَة تامَّة الإنعام، دالَّةً بيُمْن طائِرها علىٰ بَركة عامَّة وكيف لا؟ وقد جاءتْ ببضاءَ عددَ شهور العام؛ واللهُ تعالىٰ يزيده من فضله، ويُجْرِى الأقدار بالسُّعود الشاملة لجمعه الجامعةِ لشَمْله؛ إن شاء الله تعالىٰ.

جواب فى المعنىٰ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتَةَ أيضا:

لازالتِ الجَوارحُ شاهدةً ببِرِّه، والجوانحُ حائمةَ الجَناح علىٰ شَريفِ ذِكْره؛ والمحامد من مَصايدِ أقلامِه ورِماحه فى السِّـلْم والحْرب: فإمَّا بقَوادم سُمْره، وإما بمَنـاسِر حُمْره؛ تقبيلًا يبعثُه علىٰ أجنحةِ أوراقِ الرَّسائل، ويتصـيَّدُ به علىٰ البُعْـد مشافهةَ تلك الأنامل الجَلَائِل.

ويُنْهِى بعـد دعاءٍ، تُحلِّق إلىٰ السماء كلماتُه الحَسَنه، ووَلاءٍ وثنـاءٍ: هذا تَخفِق بتشوّقه أجنحةُ القلوب، وهذا تخفِقُ بذِكْره أجنحةُ الألْسِنه ـ أنَّ كتابَ مولانا وردَ علىٰ المملوك فأوردَ عليه المَسارّ، و[ملأ] يده بالمَبَار، ومصايدَه بالمَيْر، ومنازِلَه بالخَيْر؛ وآماله بأمالِى الكَرَم لذى السرحات المنشرح بآيةِ ﴿وعُلِّمْنا مَنْطقَ الطَّيْر﴾ فقابله المملوك بتقبيلِه؛ وواصلَ فضْلَ الآعتِدادِ بتفْضيله، وحصل من هدَاياها وهُداها علىٰ جملة الإحسانِ وتفصِـيله؛ وآنتهىٰ إلىٰ الإشارات العاليــة التى زكتْ علىٰ العِيان وتأمُّله وأربتْ علىٰ الجَنَان وتأْميله.

فأمّا الإنعـام بالكُوهِيَّتين اللتين ماقَذَف البحرُ إلىٰ الساحِلِ أبهىٰ من دُرَرِهما المكْنُونه ، وأزْهَر من وُجوهِهما المباركةِ الميمُونه ، فقد وصل كلا الطائرَيْنِ بِيُمْنه ، والسابقين بِمَنِّه ، والغائبين فى جَوّ السماء الآتيَيْنِ من الصُّيُود بأوْفىٰ من قَطَرات مَوْنه ، وٱستقبل الملوكُ منهـما وُجوهَ المَسارّ ، وحملَتْ يمينُـه الثَّروةَ وحملَتْ علىٰ اليَسَار ، وتناولتْ يُده يدَىْ إحسانٍ يَسُرُّ الناظرين والسامعين ، وٱستُخْدِمَا للشِّكْرخاناه ولِحفْظ مِطْبَخ يملأ عُيونَ المُشْبِعين والجائِعين ، وقال صُنْعُ الله لِصناعتهما : ائْتِيَا بصُيُود السَّماء طَوْعا أو كَرْها ﴿قالَتَا أتَيْنا طائِعِين﴾ . قد كتبَتْ باليُمْن فى مَطَاوِى رِيشِها أشباهَ الحُروف ، وقضىٰ الجُودُ لتلكَ الأحْرُف أن تَقْرِىَ ماتقترِى عَوَاصى الطَـير له بطاقةٍ تقيِّد السابِحَ فى طَلَقه ، و يعودُ مُطْلِقُها وقد ألزمَ نَجاحَ الطير طائرَه فى عُنُقه ، فشكر الله إحسانَ مولانا الذى ألْحَفَ الأملَ جَناحه ، والقصـدَ نَجاحه ، و بِرَّه الذى أحمدَ فى سوانِح الطيرِ وبَوَارِحه مَسَاءه وصَبَاحه ، وعلِمَ ما أشارَ مولانا إليـه فى أمر فلان وأمْرُهُ علم الله تعـالىٰ فى الخاطِرِ حاضر ، وما يؤخِّرُ شُـغْلَه عن إهمالٍ وعائبُ الإمْهال غادِر ، وما أشار إليـه فى أمْر فلان أمير شكَاره وأمير شكر الملوك ، وتقدَّمَ بخَلَاص حقِّه ، وٱستنزل بهدِيَّته قضاءَ الشُّغُل من أُفُقه ، لابَرِح مولانا ممتثَلَ الأوامِر ، هامِىَ سُحُب البِرِّ الهَوَامِر ، مجدِّدا فى كل وقْتٍ نُعْمىٰ ، مالئًا بهداياه قلُوبَ[1] محبيِّه و بيُوتَهم شَحْما ولَحْما ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله جواب فى وُصُول طُيُور العَقْعَق :

لا زالتْ متَّصِـلةً مِنَنُ إرفا ها و إرْفاقِهـا ، نازلةً علىٰ حُكْمِها [الأشـياءُ] حتَّى الطَّيْرُ العاقَّة من آفاقِها ، خافقةً أعلامُ نصرها بالأجنحة مؤمِّنةً لظُنُون القاصدين من

(١) لعل المناسب « بطون » .

إخْفاقِها، تقبيلَ مُطْلِقٍ لسانَ الحمدِ علىٰ عوائِدِ إطْلاقِها ، مُجْتَنٍ لثَمَرات الإحسان من غُصُون أقلامِها وغُصُون أوْراقِها .

ويُنْهِى وُرُودَ مشرِّف مولانا العالى علىٰ يَدِ الولد فلانٍ فوقَفَ المملوكُ عليـه ، وعلم من جميل الآحتفالِ ماأشار إليه ، وأنه موقِّع علىٰ المقْصود من طُيور العقْعق فأوقعها من مَطَارها ، وآستنزلهـا من أوكار أُفُقها وأُفُق أوْكارِها ، وأرسلَها قرِينَ مشرِّفه الكريم ، وقلد عُنُقَ الأمل بعِقْدها النَّظِيم ؛ ووصلتْ سبعةً كعَدَد أيام الجُمُعة الكامله ، والكواكِبِ المـائله ؛ والسَّمٰواتِ لاجَرَمَ أن سُحُبَ يُمْنِها هامله ، حسـنةَ الشَّكْل الموصوف والوَصْـف و إن كان مع عُقُوقه المألُوف ، طائعةً لأوامِر توقيعه فمـا عَقَّ منها شيءٌ غير تضَعُّف آسمِها المَعْروف ، لابرِحَ إحسانُ مولانا متنوِّعا ، وبِرُّه الجزيلُ متَبَرِّعا ، وغُصنُ قلمه بأنواع المكارِمِ متفرِّعا .

وله جواب بوصول تِمَـاتٍ ، و إوزٍّ صِينِيٍّ ، وطلبِ إمرةِ عشرة :

حمىٰ اللهُ تلك النِّعمةَ من الغِـيَر ، وأطلَعها عليه بأَيْمن الغُرَر ، ولا بَرِح طائرُ مَنِّـه كوصفه أبيضَ الخُبْر والخَبَر . هذه المفاوضةُ إلىٰ الجناب الكريم تُهْدِى إليه سـلامًا يَشُوق الصَّـبَاح ، وثناءً خَفَّاق الجَنَاح ؛ وتُوَضِّح لعلمه الكريم ورُودَ مكاتبتـه الكريمة جميلةَ الفَوائد ، جليلةَ المَصَايد ، تِمِّيّة البُدُور المتناوَلةِ من مَنَال الفَراقِد ، فوقفْنا بالأشواق عليها ، وعطَفْنا علىٰ العادة بتأكيد الوَلَاءِ إليها ؛ ووصلتْ تلك التِّمَّاتُ واضحةَ الأنوار ، لائحةً كبياض النُّوَّار ، تامّةً تمـامَ مِيقاتِ مُوسىٰ عليه السلام إلا أنَّها لبياضِها كأربعينَ نهار ؛ وكذلك البَطُّ الصِّينيّ كأيَّام الحجِّ عشرةٌ كامله ، مفتَرَضا علىٰ عَشَرتها ولاءُ القلوب المتأمِّلة الآمِلَه ؛ صِـينِيَّةٌ مملوءةٌ بمَحَاسن الألوان التى هى بغير مَثَـل ماثله ؛ وحصل الآعتدادُ ببِرِّه ، والآزدياد لحمده وشُكْره ، وفهِمْنا ماذكره من إمرة العَشَرة التى آنحلَّت

عن فلان، وقد طالَعْنا بأمرها، وعجَّلنا بذِكْرِها، ونرجُو أن يعَجِّل بأمانِيِّها المنتظَره، وأن يقابلَ بخَوافِق أعلامها خَوافِقُ بَطِّـه فتقابلَ عشَرةٌ بعَشَره، والله تعـالىٰ يعجِّل لَمَعاليه الصُّعود، ويؤكِّد لمَساعيه السُّعُود، إن شاء الله تعالىٰ .

الأجوبة عن وصول الصُّيود ولحومها

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ نائبِ حلَب بوصول [لحم] طير صـيد قَديد وصحبته بِطِّيخ أخضَرُ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتَةَ . وهو بعد الألقاب :

لازالتْ تُقتَنَصُ المحامدُ بعَطاياه المكرَّره، وأوابِدُ الصـيْد برَماياه المُقتَرة، ورِقابُ الإنس والوَحش : إمَّا بسهام نِعَمه المتوَاترة، وإمَّا بسِهام قِسِيِّه المُوتَّره؛ ولا بَرِحتْ نَفحَات مكارمه، تشهَدُ أنَّ المِسْكَ بعضُ دَمِ الغزال، وسَرَحات عزائِمه، تمتدّ فى صَيْد الوَحْش لِقرىٰ نَزِيل أو فى صيد الأعداء لتقرِير نَزال؛ تقبيلًا تنعطِف أجيادُ الظِّباء لمحاولةِ عُقُوده، وتزدَحِمُ أفواهُ الأولياء علىٰ مشافهة وُرُوده .

ويُنْهِى بعد ولَاءٍ تقومُ الخواطرُ الكريمةُ فى دَعْواه مقامَ شُهوده، وشوقٍ لا تزال النَّسَماتُ الشَّماليَّة قاضـيةً باستمرارِ وُفُوده ـ أنّ مشرِّف مولانا الكريمَ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يد فلان وصُحبَتَه الإنعامُ المتجدّد، وإن كان قديمـا فى المعنىٰ، واللحم القـديد، وإن كان أطرىٰ من الروض النَّضِير حُسْنا، والسَّمين المحبوب وإن كان كحال عِداه الذين تُقدَّد جسومهـم فى الحياة قبل الممـات حُزْنا، فقابل المملوكُ المشرِّفَ الكريمَ، بتقبيل أحْرُفه، والإنعامَ العميم، بقَبُول مُسْعده ومُسْعِفه؛ وعانقهما بجَوانح آماله، وأخذ الكتَابَ والبِرَّ كما يقال بيمينـه وشِمـاله، فيالَهَـا من ظباءٍ تُعْشَـق وإن بليَتْ محاسنُها، وغِزلانٍ تُغازَل وإن بادَتْ عيونُها إلا أنه ماباد حُبٌّ من يعايِنُها، وصُيودٍ تُوصَف وإن قصدَتْها قِصَـدُ السِّهام بطَعْن، ويُتَّقى بقُرونها القتالُ والقسىُّ تاليـة :

﴿كَمْ أهلَكْنَا من قَبْلِهِم مِنْ قَرْن﴾ . سلكَتْ خيولُ مولانا لقَنْصِها المَصَاعِبَ وٱتَّخَذها الآكِلُون سهْلا ، وتَصَيَّدها من الفَلاة وٱصطادَها القاعدُون من المِقْلىٰ ؛ ووصلَ معه البِطِّيخ الأخضرُ فشبهه بثمار الجنة المشبَّهُون ؛ وقيل : هكذا ترتيبُ ماكِلِ الجنةِ لهم فيها فاكهةٌ ولحمُ طيْرٍ مما يَشْتَهُون ؛ لا زالت مِنَنُ مولانا مشرُوحة مشْرُوعه ، وثمراتُ نِعَمه من الدنيا كثمَرات أهلِ الجنة غيْرَ مقْطوعة ولا ممنُوعه ؛ بمنّه وكَرَمه .

أجوبة هَدايا الفَواكه وما فى معناها

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

جوابُ وُصُول مشْمِش لُؤلؤىّ ودَغْمِيشىّ من حَماة .

بَسطَ الله ظِلَّها ونَدَاها ، وأطلع باليُمْن نُجومَ هديّتها وهُدَاها ؛ ولا زالتْ مواهِبُ بحرِها لُؤْلُؤِيَّه ، وشواهد يُمْنِها كَوكَبِيّه ، وثمراتُ جُودها فضِّيةَ الأعيان ذَهبِيّه ، تقبيلًا حلَتْ مواقعه ، وجلَّت مَطالِعُه .

وينهى بعد ولاءٍ وحمدٍ : هذا قد ثَبَتَتْ فى القلب شريعتُه وهذا قد عذُبَتْ فى السمع مشارعه ، أنّ مشرِّفة مولانا الكريمةَ وردَتْ علىٰ المملوك تتضمَّن الحُسن والإحْسان ، ويَمِينَ الْبِرِّ الشامل لكلِّ إنسان ؛ وعَهْدَ المحَبَّة التى حكمتْ فيه بعِلْمها القلوب فما تحتاج إلىٰ بَيِّنةٍ لِسان ؛ فقابلها المملوكُ مقبِّلا ، وٱستجْلىٰ وجهَ الوُدّ والإحسان مُقْبِلا ؛ ووصل المِشْمِشُ الذى شفىٰ لُؤْلؤِيُّه نظَرَ الناظرين ، ونوعُه الآخَرُ الدغميشى الذى هو الشهد بحسنه ولا يُدَغْمَش باسمه علىٰ الحاضرين ، فتناوَلَ المملوك عوارِفَ بِرّه المعروفِ والمبتكَر ، وٱستضاء نُجومَه المتردِّدةَ مُنْشِدا قولَ المعَرّىّ : (كَمْ دُرَرٍ ، وكم دُرَرٍ هٰذه الأُكَر) ، وقال : شكَرَ اللهُ هذه المِنَنَ الحُلْوةَ الثمرات ، المتَّصلة

الخَطَرات ، وهذه المَجَانِى التى طابَتْ أصولُها وفروعُها فلا أبعَدَهنَّ اللهُ من شَجرات، وحَيَّا حمــاةَ وما جلَبت، وجَنَبَاتِ ذلك الوادى وما أنجبَتْ ؛ وحدائقَ ذلك العاصى الذى أطاع ببركة مولانا فأنبَت أحْلىٰ وأحَلّ ما نبَتْ ؛ وقد جهَّز المملوكُ هذه الخدمةَ منْطويةً علىٰ وظائف الحمدِ المُســتَجاده، ولطائفِ الحُبِّ المستفاده، وحَمْد المِنَنِ التى لاتزال من مولانا عادَة ومن المحبِّين شَهادَه . لابرِحتْ يدُ مولانا الكريمةُ إن بُسطت فبِعوائد إنْعـامها ، وإن قُبِضتْ فعلىٰ سُيوفِها لمَصَالح الدُّول وأقلامِها ، وإن زهَتْ (١) فروع المكارم ، تساقطتْ ثمراتُ بِرِّها من زَهَرات أكمامِها .

جواب بوصول مِشْمِش وبِطِّيخ حلَبِىّ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة .

ويُنْهِى بعد ولاءٍ وثناء : لهذا فى الأسماع أزهىٰ وأزهَرُ ثَمَره، ولهــذا فى القلُوب أرْسىٰ وأرسَخُ شَجره ـ وُرودَ المشرِّف الكريم علىٰ يدِ فلان بمـا ملأَ السَّــمْعَ من أخبار مولانا المرتقَبة سُرورا ، والعينَ من آثارِ يدَه الكريمةِ نُورا ؛ والفَمَ من هَدَايَا المشمِش الحَمَوىِّ كُئُوس لَذَّة كان مِزاجُها كافُورا ؛ فقبَّــل المملوكُ أســطُرَه مستحلياً مَواقِعَ رَشَــفَاته ، وقابله بعَوائد المحامد مســتَجْلِيًا عوائدَ آفتِقاداتِه وصِلَاته ؛ ومدّ يدَه وفكْرَه فالتقَط النُّجومَ المُشْرِقةَ من هَدَاياه وكلماتِه ، وتقلَّد جواهِرَ المَبَرَّات الحسنةِ المُحَسَّنه ، والثمراتِ التى جاءت بدْرِيَّةَ القُدُوم وإن كانتْ نُجومِيَّةَ الهيئاتِ المكَوَّنه ؛ وآستَصْوب نتائجَ الغيث فقــال : لعَلَّ هــذه بنادِقُ قَوْس السماء المُلَوَّنة ، وصَفَا وطاب ظاهِرُها وقَلْبُهـا وكذا تكونُ صِفاتُ ذَوِى القلوبِ المُؤْمنه ؛ والمُؤْمِنُ حَلَوِىٌّ لاجَرَم ، والحَمَوِىُّ علىٰ عَجَمِه الخُراسانِىِّ أوْلىٰ بفَصَاحة الفَخَار والكَرَم ؛ لا زالتْ فَعَلَات مِنَنِ مولانا مستَجادَه ، ونِعَمُه لاسيَّـا المِشْمِشيَّة مستزاده ؛ وآفتِقاداتُه المشهورةُ لدىٰ ممـاليـكه

(١) لعل الصواب وان هزت ، كما لايخفى .

ومحبيه منه عادةً ومنهم شهادة، وجاءتْ فاكهةُ البِطِّيخ الحلبيِّ وقد رَضَع حَلَب الغَمَام فأنْجَب، وٱستوىٰ باطنُه وظاهِرُه فى الحُسْن فأَعْجَبَ من حينَ أعْشَب، وٱستطاب الذوقُ والشمُّ مَطعَمه وأنفاســه، ووُصِف بالرُّءوس فضَمَّه كلُّ متلقٍّ وقَبَّل راسَه؛ وقال : نِعْمَ الهديَّة السرِيَّه، والفاكهةُ التى طَاَعَتْ حُزَ[ها] هلالِيَّة وثمرتها بَدْريه .

جوابٌ عن وصول بِطِّيخ حلبِىّ، من إنشائه أيضا، [وهو] بعد الألقاب :

وشكَر سَجَاياه التى عَلَتْ، وهداياهُ التى تكَرَّرتْ فحَلَتْ، وٱفتقاداتِه التى طابَ ظاهِرُها وباطنُها فكأنهــا من أخلاقه الجميــلةِ نُقلَتْ؛ أصدرناها تُهدِى إليــه سلامًا يتقدّم كهديته نَسيمُه العاطِر، وثناءً يُنْتِج أطايِبَ الثَّمَر مقدِّماتُ غيثِه الماطِرْ، وتُوضِّح لعلمه الكريم أنَّ مكاتبتَه الكريمة وردَتْ فحَسُنتْ بالوُدِّ مشافهَتها، وأقرّتْ فى الأسماع فاكهتَها ومفاكهتَها؛ ووصل البِطِّيخ فلله درُّ حَلَبــه ودُرُّ جلَبِه، لقد حسُنَت فى مَلاذِّ المَطاعم طريقتُه المرضِــيّه، ولقد أشبه القناديلَ بتكوينِه وفتيــلةِ عِرْقِه فلا جرمَ أنَّ قناديلَه عند الشُّكْر مُضِيَّه، ولقد ملأ خَبَره وخُبْرُه عينَ البصر وأُذُنَ المُصِيخ، ولقد خُلِقَ دواءً للأجسام حتّى صحَّ قولُ الحلَبِيين للأرمَدِ : دَواؤُك البِطِّيخ؛ فشكَر اللهُ إحسانَ الجناب العالى، وبِرَّه المُتوالِى؛ وعلىٰ الوَالد والولد ومن عِنْدَهمــا سلامُ المحبِّ المتغالِى، والله تعالىٰ يحفَظُ عليهم من الفَضل ماوَهَب، ويرزُقُهم بغيــر حساب ويَرْزُقُ الظنَّ فيهم ماحسِبَ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله أيضا جواب بوصول بِطِّيخ حلبىّ، وهو بعد الالقاب :

وشكر إحسانَه الذى حلَا مَذَاقُه، وزكَتْ أعراقُه، وحيَّا علىٰ البُعْد تحيّــةً طيِّبةً نَفَحَتْ بها أزهارُ الكتاب وأثمرَتْ أوراقُه؛ هــذه المفاوضة تُهدِى إليه سلامًا طيِّبا كهديَّته، وثناءً زاكيًا كطَويَّته، وتوضِّح لعلمه الكريم ورُودَ مكاتبتــه الجامعة حَسَن

الأقوال والأفعال، المطلعةِ بوارِدِ غَمامها أطيبَ الثمر فى الحال؛ فأحيَتْ وَلاءً حاشىٰ لوجوده من العَدَم، وجدَّدت عهد البِشر ـ وما بالعَهْد من قِدَم ـ ووصل البِطِّيخ الحَلَبيُّ أصلُه، الحموىّ فصْلُه، الدِّمَشْقِيُّ ضَمُّه وشَمُّه وأكْلُه، الفلَكِيُّ ولا سِيَّما من الأهلَّة المجتمعةِ شَكْلُه؛ فكَرُم مَطْلَعا، وحَسُنَ من الأفواهِ مَوْقعا؛ وعَمّ الحاضرين نوَالا، وآشتملهم بعَطْف الإحسان آشتِمالا، وأخذ الغلامُ السِّكِّين :

فقطَّع بالبَرْقِ شَمْسَ الضُّحىٰ * وناولَ كُلَّ هلالٍ هلالا

لابَلْ أهلَّة كثَّر تَعْدادَها، وكَرَّر تَرْدادَها، ورَصَد قُرْبَها ولا نقول كما يقول أصحابُ الهيئة أبْعادَها؛ فشكَر اللهُ إحسانَ الجناب العالى حاضِرًا وغائبا، وبِرَّه الذى يُطْلِع كلَّ وقت من هَدَاياه وكُتُبه أهِلَّةً وكَواكِبا، ومَرْباه الذى نقل عن ملوكٍ كانتْ منازِلُهم للمحامد رَوْضا وكانتْ أيديهم للكرم سَحائِبا؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله جوابٌ بوصول قَصَب سُكَّر وأُتْرُجٍّ وقُلْقاس :

لازالَتْ أوصافُ شِيَمِها، تُطْرب كما يُطْرِب القَصَب، وألطافُ كَرَمها، ممـا يغَذِّى الجسَـدَ ويُنْعِش الرُّوحَ ويَشْفِي الوَصَب، وأصـنافُ نِعَمِها من الحُلْو إلىٰ الحامِض ممـا يُعْدِى الأيدىَ المتناوِلة فهى علىٰ الأعداء تَنْتَصِب؛ تقبيـلَ مُحِبٍّ حلَتْ له المِنَنُ فتناوَلَها، ومواقِعُ اللَّثْم فعاجَ إليها وعاجَلَها .

ويُنْهِى ورُودَ مشرِّف مولانا الكريم، علىٰ يَدِ فلانٍ يتضمَّن الحُسْن والإحْسان، والبِرَّ المأثُور بكلِّ فَمٍ المشكُورَ بكلِّ لسان، فقابله المملوكُ بـما يجب من الخِدْمة لمثْله، ولاقاه بعوائِدَ تحمَدُ عوائدَ فضْـلِه، ووصل قرِينَه الإنعامُ الذى تنوَّع فُنونا وأفنـانا، وملأَ فَمَ الشراب خاناه سُكَّرا ويدَ المَطْبَخ إحسانا؛ وذكَّر نباتُه الطرابُلُسىُّ عُهُودَ الديار المصْريه، وأوقاتَ الأُنس بخِدْمة مولانا السنِيّه؛ سَقْيًا لها من أوقاتٍ وعُهُود، وشُكْرا

لِجُود مَوْلانا الذى هو فى كلِّ وادٍ موجُود ؛ ولتدبيره الشمسِىِّ الذى احْيا اللهُ به علىٰ عباده عناصِرَ هذا الوُجُود، ولا بِرِحتْ مكارِمُه متنوِّعه، ونِعَم أياديه متفرِّعه : فمنها ماحَلَا فرعُه فأصبح لكلِّ حُلْو أصلا ؛ ومنها ماطاب رِيحه وطَعْمُه فكان للمؤمن مِثْلا ؛ ومنها مالَذَّ طعامُه الشهِىُّ فما هو مما يُهْجَر وإن كان مما يُقْلىٰ .

وله جواب بوصول باكُورة خِيَار ومُلُوخِيَّة :

لازالتْ تَشْرَح بمكارمها الصُّـدور، وتفْتَح بركاتِ الأعوامِ والشُّهور، وتمنَحُ من لَطائِفِ مِنَنِها كلَّ جماعةٍ السُّرور، وتلْمَح فى هَـدَاياها المستبقةِ إلىٰ الأولياء خيارَ الأمور؛ تقبيـلَ مُحِبٍّ لاتُغيِّر ولاءَه الدُّهور، ماشٍ من طريقِ المُصافاة والمُـوافاة فى نُورٍ علىٰ نُور .

ويُنْهِى وُرودَ مشرِّفةِ مولانا علىٰ يدِ فـلانٍ تتضمَّن المَعْهُودَ من وَلَائه وآلائه ؛ والمشهودَ المشهورَ من إحسانِ نَدَاه قبْلَ نِدائه؛ فقابلها المملوكُ مقابَلةَ الشَّيِّق إلىٰ قُرْب الديار ،المُمْضِى فى المحبَّةِ قَلْبَـه لمولاه قَبْل شَرْط الخِيار ، ووصلَتْ لطائفُ هدِيَّتـه الخَضِرة النَّضِره ، وطَرائفُ الفضـل الباكرةُ كمَعَانِى اللفظ المبتكَره ؛ فتنجَّز المملوكُ الفاكهةَ قبـلَ أوانِها البَدِيع ، ورصَـدَ من أفلاكِ العُلَب فى ذى الحِجَّة غُرَّةَ رَبِيع ؛ وتفاءَلَ بالهدِيَّة المجَمِّعة الأحباب فى أن يَعُودَ الشَّمْلُ وهو جَمِيع ؛وقد عاد فلانٌ حاملًا من رسائِلِ الشوق والشُّكر مايُؤدّيه بينْ أيْدِى مولانا الكريمه، ويجَـدِّدُ بذِكْراه عُهودَ الأُنْسِ القدِيمه؛ لابَرِحَ مولانا سابقَ الكَرَم، مُخْضَرَّ المَرَابع بِبِيضِ النِّعم .

قلت : وكتبت جوابًا لبعض الأصحاب وقد أهدىٰ لى سَمَكا :

أَهْدىٰ لنَا سَمَكًا قَدْ طابَ مَطْعَمُه * أَكْرِمْ به سَمَكًا لم يَسْكُنِ البِرَكا !
لا شَكَّ أنَّ له بالبَحْرِ شاكلةً * والبَحْرُ عادتُه أنْ يُهْدِىَ السَّمكا!

الضـــرب الثـانى
(من كُتُب التهـادى الآستِهْداء)

وآعلم أنَّ كلَّ ما يُكْتَب مع إهدائه قد يُكْتَب مع آستِهْدائه، إلا أنَّ الغالب ممـا جَرَتْ به عادةُ الكُتَّاب فى الآِستهداء طلبُ الأشـياء المستظْرَفة الخفيفةِ المِنَّـة دُونَ ما يعظُمُ خَطَرُه ، أللهـم إلا أنْ يكونَ الآستهداءُ من المـلوك ونحوِهم فيطْلَب فيـه ماجلَّ وعظُم .

والذى جرت عادة الكُتَّاب بالكتابة فى آستهدائِه علىٰ أصناف :

الصنف الأوّل ــ آلاتُ الكِتابة : من الأدْوِيَة(١) والمِدَاد والأقْلام :

ممـا تقدّم ذكره فى الإهداء .

أبو الفَرَج الببَّغاء فى آستهداء دواة :

أنفَسُ الذَّخائرِ وأشرفُ الآمال ما كان للفَضْل نَسَبا ، وللصِّناعة والحُظْوة سببَا ؛ وبالدُّوِىِّ تجتنىٰ ثمرةُ الصِّناعة، ويحتَلَبُ درُّ الكتابة، وقد أوحَشَ الملوكَ الدَّهْرُ ممـا كنتُ أقْتَنِيه من نفائِسها، وضايَقَه فى وُجود الرِّضِىِّ علىٰ الحقيقةِ منها، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُمِيطَ ببعض مايستخْدِمه من حالِيها أو عاطِلها سِمَةَ عُطْلة المملوك، ويَسْمَحَ بإهدائِها إلىٰ أهلِ تصْرِيفه ويقابِلَ بالنُّجح والتقبُّل رغبَتَه، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى آستهداءِ مِدَاد :

التَّنـافُسُ ــ أيدك الله ــ فى أدَوات الكتابة وآلاتِ الصِّـناعة بحسَب التَّفـاخُر فى ظُهُور النعمة، والتخيُّرُ لبيانِ الإمكان والقُدْرة، وإلا فسائرُ الدُّوِىِّ سَواءٌ فيما تُصْدِره

(١) لعل الصواب من الدوىّ انظر القاموس .

الأقلام عنها ، وتستَمدُّه بُطونُ الكتُب منها؛ وأَوْلىٰ آلاتها بأن تتوفَّر العنايةُ عليـه، وينْصرف التَّخيرُّ بالضَّرُورة إليـه؛ المِدادُ الذى هو يَنْبُوعُ الآداب، وعَتَادُ الكُتَّاب، ومادّةُ الأفْهام، وشِرْب الأقْلام؛ لجعلَها اللهُ بواجب القضيَّة والحُكْم، فى حَيِّز وصْفه من الحمد والذَّم؛ ومازِلْتَ لنفائس الأخْلاق موْطِنا، ولنُجَع الإخْوان فى المَحْلِ مَعْدِنا؛ ولا مَعْدِلَ بى عن ٱستماحةِ خزائنك عَمَرها اللهُ المُمْكنَ من جَيِّده، فإن رأيتَ أن تستَنْقِذ دَواتِى من خُمُول العُطْلة ، وتُنَزِّه قلَمِى عن ظمإ الغُلَّة ، وتكْشِفَ عنها سِمةَ النُّقْصان والخَلَّة، فعلتَ، إن شاء الله تعالىٰ .

علىّ بن خلف، فى مثله :

أوْلىٰ ما أنْبسِط فى ٱستِهْدائه، وتسمَحُ [نفسى] فى ٱستِماحتِه وٱستِجْدائِه، ما كان ناقِعًا لغُلَّة الأقلام ، مقيِّـدًا لشَوَارد الأفْهام ، مَحبِّرا لبرُود البَيَان ، حاليًـا فى معَارض الحُسْن والإحسان، وكتبتُ هذه الشَّكْوىٰ أطال الله بقاء سيدى :

الصنف الثـانى ــ الشَّراب .

فى ٱستهداء مشروب .

أبو الفـــرج الببغاء :

أنا ــ أيدَ اللهُ سيدِّى ــ ومن سامَحَنِي الدَّهْر بزِيارتِه من إخوانى وأوْليائه، عضَّداللهُ جمْعَنا ببقائه، وُقُوف بحيث يَقِف بنا ٱختِيارُه : من القَبُول والاِنْبساط، ويرتَضِيه لنا إيثارُه: من الهَمِّ والسُّرور، لأنَّ الأمرَ فى ذٰلك ممـا يُولِيناهُ من المساعدةِ بالمُمْكِن من المشْرُوب إليه، والاعتمادَ دُونَ كلِّ أحد فى ٱجتماع شمْلِ المسَرَّة لَنَا بِهِ عليه، فإن رأىٰ أن يَكِلَنِي إلىٰ أوْلىٰ الظَّنيْن به وأحقِّهما بمأثُور فُتُوَّته، فعل .

وله فى مثـــله :

ألطَفُ المِنَن موْضِعا ، وأجَلُّها من الأنفُسِ مَوْقِعا ، ماعَمَر أوطان المَسرّه ، وطَرَد عوارِضَ الهَمِّ والفِكْره ، وجمعَ شَمْل المَودَّة والأُلْفــة ، وأدّى إلىٰ اجتناء ثمرة اللّذَّة ؛ وبذخائِرك من المشْرُوب مع هــذه الأوصاف [ما] يسترِقُّ حُرَّ الشكر، ويُحْرِز قصَبَ السَّبْق إلىٰ الثناءِ وجميـلِ الذِّكْر ؛ فإنْ رأيتَ أن تُنْجِد بالممكن منه مُرُوّتى، علىٰ قضاءِ حقِّ من أوجبَ المنَّةَ علىّ بزِيارتِى، فعلْتَ .

وله فى مثـــله :

مَنْ كان للفضل نَسَبا ، ولفَلَك الفُتُوّة قُطْبا ، لم تَفْزَع القلوبُ من الهَمِّ إلّا إليه ، ولم تُعوّلِ الأنفُسُ فى استِمـاحة المَسارّ إلّا عليـه ؛ وقد طَرَقنِي من إخوانِى مَنْ كان الدَّهرُ يُمـاطِلُنى بزِيارَته ، ويَنْفَسُ(١) علَىّ بقُرْبه ومُشاهَدته ؛ فصادَفنِى من المشْرُوب مُعْسِرا ، ووجدتُ الانْبِساط فى التِمـاسه من غيْرِك علَىّ متعـذِّرا ، وإلىٰ تفضُّلك تَفْزَع مُرُوءتى فى الإسعافِ منه بمـا يَلُمُّ شعثَ الأُلْفة ، ويجمع شَمْل المَسرّة؛ ويجعلنا لك فى رِقِّ الاعتدادِ بالمِنّة، ويقضِى عنى بتفَضُّلك حقُوقَ المودّة .

علىّ بن خلف :

قد انتظَم لنا ـ أطال الله بقاءَ سيدى ـ مجلِسٌ واقِفٌ بينَ النَّشاط والفُتُور، والكآبة والسُّرور : لغُرُوب نُجوم الخَمْر عن سَمائه، وعَطَله من حُلِىّ نُورِه ولألائه؛ وقد عوّلْنا فى إطلاقه إلىٰ إحدىٰ الجهتين عليه، وجعَلْنا زِمامَه بيدَيْه، فإن رأىٰ أنْ يُروّحَ أفكارَنا بشىءٍ من راحِه المُشابِهةِ عَبَقا وعِتْقا لأخلاقِه وأعْراقه؛ فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى "القاموس" مادة ن ف س « ونفس به كفرح ضن وعليه بخير حسد» .

وله فى مثـــله :

أفضلُ ماأهْدىٰ سيدى ماأهْدىٰ السرُورَ إلىٰ أحِبَّته، ونظَمَ شَمْلَ المتحقّقين بخِدْمته، وحَسَم عنهــم هواجِسَ الفِكْر، وأعْداهم علىٰ الدَّهْر؛ وقد جمَعَنا مجلسٌ وهَبْناه للثناء عليــه، وزُفَّتْ عرائسُ الخمر إليه، فإنْ رأىٰ إيثارَنا بمـا يُكَمِّل نَشاطَنا، ويتِمُّ ٱنْبِساطَنا، فليَعْقِرْ همُومَنا بشيءٍ من عُقَاره، ويَنْظِمْ [جمعَنا] فى سِلْك أياديه ومَباره؛ إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الرابع

(الشّـــفاعات والعِنَـــايات)

قال فى "موادّ البيان" : وهذه الكتُب إنما تَصْدُر عن ذَوِى الرُّتَب والأخْطار، والمَنازل والأقْدار، الذينَ يُتوسَّل بجاههم إلىٰ نَيْل المطْلُوب ودَرْك الرغائب .

قال : والملتَمَس فيها ممن تُنَفَّذُ إليه أحدُ ثلاثةِ أنواع : إمَّا بَذْل مالِه ولا يَبْـذُل مالَهُ إلا ذُو مرُوءة يَفرِض علىٰ نَفْسه حقًّا فيــه لقاصِديه؛ وإما بذْل جاهِه وفى بَذْل الجاه إراقةُ ماء الوجه والتعرُّضُ لمَوْقِف الرَّدّ؛ وإمَّا الاسْـتِنْزالُ عن سَخِيمةٍ ومَوْجِدة فى النزول عنهما كفُّ حَدّ الغضَب وغَضُّ طَرْف الحَنَق، وهما صَعْبان إلَّا علىٰ من فَضَل حِلْمُه، ولَطُف فهْمُه .

ثم قال : والكاتبُ يحتاجُ إلىٰ التلَطُّف فيهما وإيداعِهما من الخطاب ما يَخْرُج به الشافِعُ عن صُورة المثقِّل علىٰ المشفُوع إليه بماكَلَّفه إيَّاه، ويؤدِّى إلىٰ بلوغ غَرض المشفُوع له ونجاح مَطْلَبه؛ ثم أتبع ذلك أن قال: وسبيلُ ما كان فى ٱستِماحة المـال، أن يُبْنى علىٰ الإبانة عن مَوْقِع الإفضال، وفضيلة النَّوال؛ وٱغتنامِ فُرَص الاقْتِدار،

فى مَعُونة الأحْرار، وما جارىٰ هذا ـ وسبيلُ ما كان منهما فى طلبِ الانتفاعِ بالجاه أن يُبْنىٰ علىٰ هزِّ الأريحيَّة لاصطِناع الصَّنائع، وتحمُّل المَشاقِّ فى تقليدِ المِنَن، وادّخارِ الفِعل الحَسَن، واغتنامِ الأجرِ والشُّكْر ـ وسبيل ما كان منهما فى الاستنْزال عن السَّخائم أن يُبْنىٰ علىٰ الملاطَفَة، والإشارةِ إلىٰ فضيلة الحِلْم والصَّفْح عن الخاطِئ، وما فى ذٰلك من حُسْن السُّمْعة فى العاجله، ومتوفّر المَثُوبة فى الآجله، ونحو ذٰلك .

وذكر أنَّ أحسن ماقُصِد فى هذا الفنِّ مَسْلَكَ الإيجاز والاختصار، وأن يُسْلَك به مَسْلَكَ الرِّقاع القِصَار المجمَله، لاالكُتبِ الطِّوال المفَصَّله، وأنْ يُرْجَع فيما يُودَعه إلىٰ قَدْر الشافع والمشفُوع فيه، والكاتبُ إذا كان مُرتاضا ماهِرا لم يضِلَّ عن تَنْزيلِ كلِّ شيء [فى] منزلته، وترتيبه فى مرتبته .

قلتُ : ومن أحسن مايطابِقُ هذا النوعَ مارأيتُه فى بعض المصنَّفات : أنَّ عمرو ابنَ مَسْعدةَ وزيرَ المأمون كتب إلىٰ المأمون فى رُقْعة :

أما بعدُ، فإنَّ فلانا سألَنِى أنْ أشفَع له إلىٰ أميرِ المؤمنين، فأخبَرْته أنِّى لم أبْلُغ عند أميرِ المؤمنين مَبْلغَ الشَّفاعة ـ فلمَّا وصلَتِ الرُّقعة إلىٰ المأمون وَقَّع عليها بخطِّه : قد فَهِمْنا تصريحَك به وتعْريضَك بنَفْسِك، وأَجبْناك إليهما وأتحفْناك بهما .

من كلام المتقدمين :

الحسن بن سهل :

كتابى إليك كتابُ معتنٍ بمن كَتَب له واثقٍ بمَنْ كَتبَ إليه، ولن يَضيعَ حامله بين عنَاية وثِقةٍ، والسلام .

أبو الحَسَيْن بن سَعْد :

وقد توجَّه إليك فلانٌ بقَصْدٍ فيهِ مستَجْمِع ، وأملٍ فيما قِبلَك مُنْبَسِط ، وايس بعدَ إصابتك عنده مَوْضِعا وعندَنا متحمَّلا لليَدِ الحسَنَة إلا ٱفتراضُ ذلك مِنْه ومِنَّا فى أمره علىٰ يُسْرفى حاجتِه ، وتخفيفٍ من مَئُونتِه ؛ فإنْ رأيتَ أنْ تأتِىَ فى ذلك بما يشبه أملَه وظَنَّه ، وتُوجِب عليه الحقَّ به ، ونشكرلك منه مايبقىٰ عندنا ، بأنك بحيثُ تأتى الفضل وتتوخَّى الصِّلَة ؛ [فعلت] إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : معْرفتى بأنك لا تتجاوَزُ فى العُقُوبة سبيلَها من مَوَاقع الأدب ، تَحْمِلنى علىٰ مُساءَلَتِك ماأنت مُوجِبٌ له والذِّكْرىٰ تنفَعُ المؤمنِين ، ولولا ذٰلِك لٱستغنىٰ صاحبُ كتابى عنه ؛ فإن كان ذَنْبُه صغيرا فالصغيرُ يُخْرِجه من حَبْسه ، وإنْ كان كبيرا فالعفو يسَعُه . وكتابى متقاضٍ لك تقديمَ العَفْو علىٰ العُقُوبة ، والحسنةِ علىٰ السيِّئة ، والٱستصلاحِ علىٰ القُوّة فى التأديب .

طِفَال بن شَـــبَّة :

وأحقُّ من يَعْطِف علىٰ أهلِ البُيوتات ، ويجُودُ لهم بما يَبْقىٰ ذكْره ، ويَحْسُن به ذُخْره ، مثْلُك ؛ وقد وجَّهت إليكَ فلانا ، وهو من ذَوى قَراباتى ، وذَوِى الهيئة من أُسْرتى ، وعَرَّضْته لمعْروفك ، وأحببْتُ أن تُلْبِسه نعمتَك وتَصْرِفَه إلىّ وقد أودعْتَنى وإيّاه ماتجدُه باقيًا علىٰ البشر (١) الجميل فى الغَيْب والحَضَر .

ولغـــيره :

وقدجعلكَ اللهُ غِياثًا ، وجعل عِنْدكَ لمؤمِّليك وراجى رِفْدك ، أبلغَ ذَرِيعةٍ من كرمك وفَضْلك ؛ وقد أصبحْتَ مفْزَعَ كلِّ ذى هَمٍّ ، ومَلْجأَ كلِّ ذِى أرَبٍ ، وموضِعَ كلِّ أمل ، وأصبحتَ ملتقىٰ السُّبُل ، ومجمعَ الأصناف المختلِفةِ ، والطوائفِ المتصرِّفة .

(١) لعله على نشر الجميل الخ .

أبو مسلم محمد بن بحر :

قد شَهَّرتَنِي باصطناعك [حتّى] تكافأَ فى معرفة خبرها أهلُ بُلْدان المَشْرِق والمَغْرِب . والذين عرفُونى فصديقى منهم مُغتبِط بذٰلك لِى ، وشريكٌ فى النعمةِ به عَلَىَّ ، وقوىُّ الظهر بما مَنَحَنيه اللهُ من رَأْيك ؛ وإذا نابتْ بعضَهم نائبةٌ يرجُوك لكَشْفها ولم يَكُنْ له إليك طريقٌ يُدْنِيه ولا حرمةٌ تقربه وتَعْطِفك عليه ، سألنى الشفاعةَ له إليك ؛ ففعلْتُ ذٰلك مُدِلًّا بما أعتقده من الشُّكْرعلىٰ نعمتك عِنْدى ، والإخلاص فى طاعتِك المفروضةِ علىّ ؛ واثقًا بتَسْويغك إياىَّ مارُقِّيتُ إليه من درجة الشافع لغيره ، والسائل (؟) فى طريقه وذَوِى الحقِّ عليه : لتكونَ قد أكملْتَ علىّ النِّعمةَ ، ووكّدت لَدَىّ العارِفة ، وآستمَمْت عندِى الصَّنيعة .

أبو الخَطَّاب بن الصابى :

أبْسطُ الشفاعة وَجْها ، وأقربُها نُجْحا ، وأوْقَعُها فى القلوب ، وأسرعُها إلىٰ القَبُول ، ماوقَعَ من أقسام ثلاثة : من إدلال السائِل بحُسْن الظنّ ، وآرتياح المسئُول إلىٰ فعل الخَيْر ، وآستحقاقِ المسئول فيه لقَضاء الحقِّ ؛ فإذا آجتمع لها ذٰلك كانت الثِّقةُ بها زائده ، والفُتُوّة لها رائده ، والفضلُ عليها قائما ، والنُّجْح بهاقادِما ؛ وكان الشُّكْر من أقلِّ موجُوداتها ، والمِنَّةُ من أجلِّ مَذْخُوراتها .

وله : إنْ دَلَّ المملوك فبِصِدْق المودّة ، أو عَوَّل فعلى حُسْن النيَّة ، أو آستظهر فبقديم الحُرْمة ، أو آستنْصَر فبكريم الرِّعاية ، ووراءَ ذٰلك هِمّةٌ من مولانا بعيدةُ المَرامِى ، طويلةُ المساعى ، شامخةُ الأَنْف ، سابقةُ الطَّرْف ، تُوجد الآمال سِراحا ، وتُوسِعُها نَجاحا ، وتأخُذُها خِماصا ، وتَرُدُّها بِطانا ، وتُورِدُها هِزالا(١) وتُصْدِرها سِمانا ؛ وثِقةٌ منِّى

(١) لم يرد هذا الجمع فى كتب اللغة التى بأيدينا والقياس على بطان وسمان لا يأباه .

قد أحكم عَقْدَها الزَّمان، وأوثق شَدَّها الاَمتِحان، فصارتْ لأعراض المملوك رائِده، وفى قُوّة نَفْســه زائده؛ فالمملوكُ من اجتماع هذه الأقْسام، ووُجُوب ماتقتضِـيه من الأحكام، بين ظَنٍّ جميلٍ لامجالَ للشكِّ عليه، ويقينٍ صحيح لاوُصولَ للاَرتياب إليه .

آخـــر : ولئن كانَ المملوكُ أسْرف فى مَجارِى التثقيل علىٰ مولانا ، فإنَّ المملوك لم يردّ بعضا من دواعى الأمل فيه، فإنَّ المظنونَ من فُتُوّة مولانا رائدُ الثِّقة بجميلِ نيّته، ولن يعدَمَ النجاحَ من اعتمدَ علىٰ الفُتوّة والثِّقة .

آخـــر : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ إن أدَلَّ، فبحقٍّ لدىٰ مولانا أكّده، أو استَرْسَل، فبفضْلٍ منه عَوَّده، وبين الدالَّة من المملوك والعادة من مولانا موضِعٌ لنَجَاح الحاجة، وبلوغِ الإفادة، وقد فعــل المملوكُ ماتعلَّق به واثقًا بالكرم من مولانا؛ فليَفْعَل مولانا مايتعلَّق به محقِّقا للأمَل فيه .

اخـــر : وينهِى أنَّ المملوك إن انْبَســط، فمُدِلٌّ بالحرمة الوكيدة، ومعَوِّل علىٰ النية الكريمة، أو انقبض، فلهَيْبة الإقدامِ علىٰ مولانا ومُراعاةِ التخفيف عنه، ولفضله فيما بيـــن ذٰلك مَسْلَك وغلبة تسلُّطٍ يَدْعُوان إلىٰ حُسْن الظن بمولانا، ويُوثِّقان من وُجُود النجاح لديْه .

آخـــر : بذْلُ الجـاه فى إعانةِ الضـعيف ، وإغاثة المَلْهُوف ، والترويح عن المضْغُوط، والتفريج عن المَكْروب المكْدود، كبَذْل المـال فى إسعاف المُعْسر، وإسعاد المُقْتر، ومُواساةِ المحروم، والتعطُّف علىٰ المَرْحوم، وما فى الحالتين إلّا ماالدِّيانةُ له ضامِنه، والمُروءة له قائمة؛ والحقُّ به مستَوْجَب، والأجْرُ به مكتَسَب، والصنيعةُ به معتَقَده، والمَثُوبة به مُدَّخَره .

آخـــر : وينهى أنّ حُرْمة الجوار من أوْجب الحُرُمات حقّا، وأحكَمِها عقْدا، وأخَصِّها بالعِنايه، وأحقِّها بالرِّعايه، وما رعَاها إلا ذُو قـدْرٍ عظيم، وخُلُقٍ كريم، وأصلٍ عريق، وعَهْدٍ وَثيق. وفلان ممن يَضرِب بدَالَّتها، ويَمُتُّ بوسيلتِها، ويتخفَّر بذِمّتها، ويتعلَّق بعِصْمتِها، ويعتدّها وَزَرا مانعا، وذُخْرا نافعا، وعُدّةً موجودةً عند الحاجة؛ وله أمْرٌ يذكره مشافَهَة، فإن رأىٰ مولانا أن يحقّق من ظَنِّه ما كان جميلا، ويصـدّقَ من أمله ما كان فَضْلُ مولانا إليـه سَبِيلا، فهو المعهُود من إحسانه، والمؤمَّل من فَضْله.

آخـــر : مَنْ سافَر إلىٰ سيِّدى بأمله ورَغْبتـه، ومَتَّ إلىٰ حضرته بوِفَادتِه وهِجْرته، فقد آستغنىٰ عن الشافع، وكُفِيَ أمْرَ الوسائِل والذَّرائع؛ وحاملُ كتابِى هذا قد تجشَّم القُدُومَ إليه، وتمسَّك بذِمام(١) الوِفَادةِ عليه؛ مع مايتَحقَّقُ به من حَقِّ المشاركة فى الصِّناعة، ويستوجبُه بفضيلة الكِفَاية والأمانة؛ وإنَّما أصدر المملوكُ هذه الخدمةَ علىٰ يده ممهِّدة لأُنْسه، ومقوِّيةً لنفْسـه؛ وإذا مَثَل بحضرتِه، ونظَره بعَيْن نَبَاهته؛ فقد غَنِيَ عن الشفاعة وبلَغ الإرادة.

آخـــر : ويُنْهِى أنّ مايَفْرِضه مولانا لمن أمَّه بالرجاء، ومَتَّ له بإخلاص الحمد والثناء: من إدْرار أخْلاف الإفضال، وتحقيق الرَّغَبات والآمال، يُغْنِي قاصـديه عن الشَّفاعات والوسائل، ويكفى آمليه تحمُّلَ الذَّرائع والمَسائِل؛ والواصلُ إليه بهذه الرُّقْعـة فلانٌ؛ ومولانا يعْرِف حقَّه علىٰ المملوك وماله من المَواتِّ لديه؛ وقد توجَّه إلىٰ حضرته، راجيًا أن يُلْحِفه من ظلّ سـعادتِه مايتكفَّل بمصلحته، ويقضى علىٰ الزمن بإعْدائه ومعُونته؛ ومولانا أحقُّ من توَلَّاه بحسن خلافتِه فيه، والتفضُّل علىٰ المملوك بتحقيق ما يُرجِّيه.

(١) الذمام بالذال المعجمة الحق والحرمة.

آخر فى معتقل : عِلْمُ المملوكِ بأنَّ مولانا لا يتعدّى فى العِقاب موضِعَ الإصلاح والتأديب ، ولا يتجاوَزُ فى الغَضَب موقِعَ التقْويم والتهذيب ؛ عملًا بالعَدْل ، وتمسُّكا بالفضــل ؛ يبعَثُــه علىٰ تنبيهِه لمـا أغْفَله ، وٱنقيادِه لمـا أَصَّــله ؛ وفلانٌ قد تطاوَلَ ٱعتقالُه : فإن كان جُرْمه صغيرًا فقد ظُلِم فى القِصاص ، وإن كان كبيرًا فقد ٱستحَقَّ الخَلَاص ؛ والمسئُول من إحسانه أنْ يُعاوِدَ جميــل عادتِه ، ويُراجِعَ كريمَ شيمتِــه ؛ فيَعْمَلَ فى أمرِه بالعَدْل ، إذا لم يَرَه أهْلا للفضْــل ؛ وإنْ كانت حقوقُه متأكِّده ، وحرمته مؤكده ؛ فلا يحسن أن يُضاعَ ويُخْفَر ، ولاينبغى أن يُجْحَد ويُنْكَر ؛ وهو حَرِيٌّ أن يحَقِّق الظنَّ فيه ، ويقابل هذا السُّؤال بمـا يقْتضيه .

آخـــر : علىٰ حَسَب أخطار الودائع يكونُ الإشفاقُ عليها ، والشكر ممن صرف رعايَتَــه إليها ؛ وقد كان المملوكُ أودَعَ كَنَفَ مُروءَته ، وفِناءَ هِمَّته ، فلان ؛ وهو دُرَّة المَحاسن الفريده ، ونادِرةُ الدَّهْر الشريده ؛ والجامعُ لأسبابِ المَحامِدِ بفضائله ومَناقِبه ، والناظمُ لِنثَار المآثر بخُلُقه وأَدَبه ؛ مع ماخُصَّ به من المعرفة بقَدْر الصنيعة ، والتعويض بالشُّكرِ عن قليــل العارفة ؛ والمملوك يرجُو أن يكونَ مولانا قد أحسَن خِلافَتَه فيه ، ونَزَّله من حياطتِه وتولِّيه ، بما يُوجبه مكانُه من المملوك ويقتضيه ؛ متعوّضا من شكر المملوك وشُكْره بمـا هو خليقٌ أن يطَوّق أجيادَ مَعَاليه ، وينتظِمَ فى سِلْك مَساعيه .

رقعـــة — وينْهِى أن الأيَّام ، إذا قعدَتْ بالكِرام ، فأنزلَتْهم بعد السَّعة ضيقا ، أوجَدَتْهم إلىٰ التثقيل علىٰ من يمُتُّون إليه بسالف الخِدْمة طَرِيقا ؛ وممن تحَدَّاه الزمن بنَكَده ، وعوَّضه ببُؤْســه من رَغَده ، فلان ؛ وكان قد فَزِع إلىٰ جماعة من الخُلَّان ، واثقًا منهم بالٱمتنان والإحسان ، فألفىٰ وَعْدا جميــلا ، ومَطْلا طويلا ؛ فعدَلَ عنهم

إلىٰ سيدى وعزل عَنْهم إليـه، وتوجَّه إليه معتمدًا بعـدَ الله فى مَقْصده عليه، ثقةً بفَضْـل غَيْره(١)، وحُسْن أثَرِه، وتحمَّلَ عبودِيَّةَ المملوك هذه ذريعةً تبْسُط له من مولانا مُحَيَّاه، وتوصِّـله إلىٰ مايرجُوه من معروفِـه ونَدَاه . وما أوْلىٰ مولانا بأن يحقِّق ظنَّ المملوك وظَنَّه، ويحوز شُكْره وشُكْره، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعــة — وينْهِى أنَّ رَغْبة سـيدى فى إسْداء المعروف، وغَوْث المَلْهُوف، تبعَثُ علىٰ السَّـفَر إليه، والتقدُّمِ بالرَّغَبَات عليـه، واللهُ تعالىٰ يواصل المِنَح لديْه، كما وصَـلَها من يدَيْه، وقد سـبقتْ له عَوَارِفُ لاينْساها المملوك، ولا يؤمِّل جزاءَها إلا بمرفُوع الدعاء، وكريم الثَّناء، حتّى تقتضى ضَرائِرَها، وتستدْعِى نظائِرَها، وحاملُ عبوديَّتى هـذه، فلان، والمملوك يَرْضىٰ لمولانا لسانَ شُكْره، كما يَرْضاه لتحمُّل بِرِّه، وقد رَكَض ظهْرَ الأمَلِ إلىٰ حَضْرته، ووَثِق ببُلُوغ الوَطَر من جِهَتـه، وأن يُنْظَم فى سِلْكِ من أُسْبِغتْ عليه عَوارِفُه، وعمَّتْه لطائفُه، وعزَّز ذلك بٱستِصحاب كتاب المملوكِ إلىٰ بابِه، وتقديمِه ذريعةً فى التزامِ حقِّه وإيجابِه .

رُقْعــة — مَنْ كان سيدى شافِعَه ٱنْبَسَط فى المُنَىٰ، ولم يَرْضَ بغيرِ العُلا، وقد علم مولانا أنَّ للشَّـفاعة أحوالًا ثلاثا، حالًا تَخُصُّ الشافعَ، وحالا تَخُصُّ المستشْفع، وحالا تخص [المشفُوع إليه](٢) ولكلٍّ حدّ يجب الٱنتهاءُ إليه، ولا يجوز التقصير فيه، فعلىٰ المستَشْفِع ٱرْتيادُ أخصبِ جَناب، وأسْكَبِ سَحَاب، وقَصْدُ الجِهةِ التى لا تصُدُّ عن البُغْية سائِلا، ولا تردُّ عن الأمَلِ آمِلا، وأن ينْهض بالشُّكر علىٰ العارفه، ويُحدِّث بالنِّعم عنـه فى الأحوالِ الطارِفه، وعلىٰ الشافعِ أن يُهَرِيق ماءَ وجْهِـه فى السُّؤال،

---

(١) غار الرجل يغوره و يغيره نفعه فالمراد بفضل نفعه تأمل .

(٢) فى الاصل الشفيع وهو غير مناسب .

ويجرِّدَ رَغْبَته فى تسهيل المَنَـال ، ويعتقدَ أنّ ذلك من الدَّين المقترَض، والدَّين المفْتَرض ؛ ويتكفَّلَ بالقيام بمـا يستدْعى منه من المكافاه ، ويُلْتمَس من العوض والمجازاه . وعلىٰ المشفُوع إليه أن يعْلم أنَّ الشافعَ والمستَشْفِع ما قصَدَاه إلَّا بعدَ الثِّقة بأحَدِيَّتــه ، ولا آعتمَدَاه إلَّا بعــد السُّكون إلىٰ أرْيَحِيَّتــه ؛ وأنه لاينبَغِى أن يُخْسر مَتْجَرهما، ولا يُضِيع سَفَرهمـا ، وقد آجتمعتْ هـذه الأحوالُ الثلاثُ للرئيس المشفُوع إليه، ولسيِّدى الشافع، ولخادمه المستَشْفِع به ؛ ولم يبقَ إلا عَزْمةٌ منه تَهُزُّ أفنانَ الإقبال فتَسَّاقطُ أثمـارُها، وتُنْشِئُ عَوارِضَ الآمالِ فيَتَهافتُ قِطارُها .

أبو الفـــرج الببغاء :

ومُوصِّل كتَابِى هــذا غَنِيٌّ عن شفاعتى له بمـا يَمُتُّ من حُرُمات الرَّغْبــة إليك، والوقُوفِ دُونَ كلِّ مَقْصدٍ عليك، وبما يشْفَع ذلك من التقدُّم فى الصِّناعة، والتوصُّل بوجِيه الكفاية؛ وإنمـا زوّدْتُه هذه الأحْرُفَ لأفْتَح له باب الأَنَسة، وأُسَهِّل السُّبُل إلىٰ التعلّق بالخُلَّة ؛ وأدُلَّ بها علىٰ ما تكْشِف منه المُطاوَلة والخِبرة ؛ وأنتَ أيدَّك الله ولِىُّ التطوُّل بالتقدّم فى إينَاسِه وبَسْطِه فى الخِدْمة بمـا يستَزِيد له محمودَ الأثَر فيها من حُسْن النظَر وجميلِ الرأى .

وله فى مثـــله :

ومُوصِّل كتَابى فيما يؤمِّله منك ويبلُغُه بك متَمَسِّكٌ من رجائِك بأوكَدِ ذمَّه ، ومن شفاعَتِى بأوجَبِ حُرْمه، ومهما مَتَّ به بعدَ ذلك من ظهُورِكفَاية أو تقدُّم فى صناعةٍ كان غيْرَ ضائع عنــد رِعايَتِك ، ولا مجهولٍ مع تيَقُّظ عِنَايتك ؛ وأرجو أن يحُلَّ من تقَبُّلك، بحيث أحَلَّه حسْنُ النظر تطَوُّلك .

وله فى مثـــله :

وفى عِلْمِك ماآخُذ به نفْسى ، وأَرُوض به أخلاقِى : من الآنقباضِ عن التَسَرُّع إلىٰ مسألةٍ ، والآحتشام من الآنبساط فى حاجةٍ ، مادَلَّك علىٰ موضع فلانٍ ومكَانِه من إيثارى بواجباتِ حُقُوقه، وسالفِ مَوَاتِّه؛ ولذٰلك سمحْتُ بالكتاب له إليك؛ وفارقْتُ رَسْمى بالتثقيل فى قَضاء حقِّه عليـك؛ وقد قصــد نَحْوَك بأملِه ، وآختارك لرجائه؛ وقدّرَ بك بلُوغَ البُغْية، وآختصر بشــفاعَتِى إلىٰ تفضُّلك السبيلَ إلىٰ إدراك المحبَّـــة (١) ؛ فإنْ رأيت أن تأتِىَ فى بابه مايُشْـبِه فضلَكَ ، ويُناسِب وَكِيدَ ثِقَتِه بك ؛ وأنى أشْرَكُه فى الشكر وأساهِمُه فى الآعتداد، فعلتَ .

آخـــر :

رأَيْتُ المَساكِينَ قد أجْمَعُوا * علىٰ أنَّكَ الوَزَرُ المعتَمَد !

فأنْتَ لِطِفْلِهِـمُ والِـــدٌ * وأنْتَ لشَيْخِهِمُ كالوَلَد !

السلامُ العَمِيمُ ورحمةُ الله و بركاتُه علىٰ مَنْ جعله اللهُ للمساكينِ ظِلًّا يقِيهم، وطَلًّا يَسْقِيهم، ونِعمةً تعُمُّهم، ورحمةً تضُمُّهم؛ أبوفلان، أبقاه الله فى عِزَّةٍ تالدةٍ طارِفه، وسعادةٍ لاتَزال طارقةً بكلِّ عارِفه .

مَنْ أقامه اللهُ مُقَامَك أيُّها الشيخُ المبرور بالترفُّق بالفُقَراء، والإحسانِ إلىٰ الضُّعفاء، لم يَعْدَمْ مَرِيضا يقْصِدُه فى الشِّفاء ، ولا يَعْدَم قَيْضا يعتَمِده للآكتفاء، لاسيَّـما إذا توسَّل وَحْده، وتَشَفَّع بمن لايَضِـيع عملُ عاملٍ عِنْده ، ومتحمِّلُها فلان قَصَّ الفَقْرُ جَناحَه، وأخنىٰ عليه الدَّهْرُ وآجْتاحَه؛ ولمـا رأىٰ الفُقَراء بِبِرِّكـم مرتفِقين، وعلىٰ

(١) لعله الطَّلِبـــه .

شكركم متّفقين؛ أمّكم حسنَ الظنّ بالمَنّ، ولم يُقدِّم شفيعًا دُنيويًا، ولا طريقًا واضحا سَوِيّا؛ وأنتم أيها الشيخُ الموقَّر تُنْزِلونه منْزلة سِـواه، ممّن ثوىٰ مَثْواه؛ ونَوىٰ فيكم من الأجْرِ والشُّكر ما نَوَاه؛ إنْ شاء الله تعالىٰ، والسلام الكريمُ العميمُ، يخصُّ جنابكم ورحمةُ الله وبركاتُه :

فاللهُ سُبْحانَه يُبْقِيــكَ فى دَعَةٍ * وحُسْنِ حالٍ وتيْسيرٍ وإقْبالِ !

مُقَــدَّم المجـد فى عِزٍّ وفى كَرَم * مؤمَّل النَّفْع من جاهٍ ومن مالِ !

الشفاعات من كلام المتأخريـــن :

الشيخُ شهاب الدين محمود الحلبي :

شـــفاعةٌ فى آسـتخدامِ كاتبِ دَرْج :

جعلَ اللهُ تعالىٰ دُورَه رَحْبَة العِراص، وسعادَته فى الازدياد وأعادِيَه فى الانْتِقاص؛ والدعاءَ لإحسانه مقرُونًا بِصدْق النيَّة والإخْلاص :

وهـــذا دعاءٌ لو سَكَتُّ كُفِيتُه * فإنِّى سألْتُ اللهَ فيكَ وقدْ فعَل !

صدرَتْ هذه الخِدْمةُ تستَمْطِر سَحابَ كَرَمه، وهامِيَ دِيَمِه، وتسألُ جميلَ شِيَمِه، فى معْنىٰ مملوكِ المَوْلىٰ وداعِيه، والشاكِرِ لأيَادِيه، والمُلازم علىٰ رِوايةِ أخبـارِ فضائله وبَثِّها؛ ونَشْر تفضُّـلاته وَنَثِّها؛ فإنَّه من بيتٍ كريم النِّجار، زائد الفَخَار؛ وله علىٰ مولانا حَقُّ خِدْمة؛ وهو يمُتُّ بسالف مَعْرفة؛ ومحبةُ المملوك له شَديده، والصُّحبةُ بينهما قديمةٌ وشُقَّة المَوَدّة جَديده؛ ولولا ذٰلك ماتَقّل علىٰ خِدْمته، وتهجَّم علىٰ المولىٰ بمكاتَبته، وقد توجَّه إلىٰ بابه العالى مُهاجِرا، وناداه لسانُ جُوده فلَبَّاه وأجابه مبادرا؛ وغرضُه أن يكونَ كاتبًا بين يدَيْه، ومملوكًا تقع عينُ العِناية عليــه؛ وهو من الكِرَام

الكاتبين، والراغبين فى الانتظام فى سلك خدمه والمؤثرين، وصفاته بالجميل موصوفه، وفصاحته معروفه، وقلمه الذى يقلم ظفر المهمات ويكف كف الحدثان، ولسانه الذى يغنى بشباته عن حد السنان، ورأيه المقدم فى الهيجاء على شجاعة الشجعان، فإذا أنعم المولى باستخدامه، وتحقيق مرامه، كان قد وضع الشىء فى محله، وصنع المعروف مع أهله، وبيض وجه المملوك وشفاعته، وصدق الأمل فى إحسانه ومروءته، ورأيه العالى، إن شاء الله تعالى.

وله شفاعة فى استخدام جندى :

لازال بره مطلوبا، وجوده مخطوبا، وذكر إحسانه فى الملإ الأعلى مكتوبا، ولا برحت رياض جوده أزهر وأنضر من روض الربا، ويده البيضاء ترقم له فى سواد القلوب سطور حمد أحسن من نور تفتحه الصبا. هذه الخدمة صدرت على يد فلان تهدى إلى المولى سلام المملوك وتحيته، ودعاءه الصالح الذى أخلص فيه نيته، وتشفع إليه فى تنزيله فى الحلقة المنصورة واستخدامه، وترتيبه فى سلك جيشه المؤيد وانتظامه، فإنه من الأجناد الجياد، وذوى الجلد على الجلاد، وهو الغشمشم الذى لايرد، والشهم الذى لايصد، والباسل الذى لاتحصر بسالته بوصف ولا تحد، والنقيب الميمون الغرة والنقيبه، الموصوف فى الهيجاء بحزم الكهول وجهل ذوى الشبيبه. والمولى وإن كان بحمد الله غير محتاج إلى مساعد، ولا مفتقر إلى معاضد، فإن أسنته لاتحتجب عن روح محتجب، ونفسه الشريفة تقوم وحدها يوم الكفاح مقام عسكر لجب، وقلبه يغنيه عن الأطلاب والأبطال، وجيوش سطوته لاتكلفه المقام فى منازل النزال، فإن المملوك يعلم أن نفسه الشريفة تهوى تزيد عسكره وجنده، وترعى حرمة قاصده وقصده، فلهذا توسل بشفع وتر الشفاعه، وتوصل إلى إزالة

ضَرَع حالِه بكَثْرة الضَّرَاعه؛ فإذا أنعَمَ المولىٰ بقَبُول شفاعة المملوك فيه، وحقَّق له من العِنَاية ما يؤمِّله و يَرْتَجِيه؛ كان قد شَـدّ للمشار إليه ما أضعَفَتْه العُطْلة من مُنَّته، وقلَّد المملوكَ للمولىٰ جميلَ مِنَّته .

شفاعة فى ردّ معزول إلىٰ وِلَايته :

يَقبَل اليدَ العالية لازالتْ مقبَّله، ولإسداءِ الخـير إلىٰ أهله مؤهَّله، و بأياديها علىٰ الكافَّة متفضِّله .

وينهِى ملازمتَه علىٰ شُكْر مواهِبِه، ونشْرِ فضائله الجسيمة ومَناقِبِه؛ وحمْدِه كريم شِيَمِه، والاعتذارِ من تثْقيله علىٰ خِدْمة المولى بخِدَمِه، وسؤالِ إنعامِه بوجُوه مكاتَبتِه ولِسانِ قلَمِه؛ وما ذاكَ إلا لِمـا يتحقَّقُه من كريم نِجاره، وشدّة تطَلُّبه لإسداء العَوارِف و إيثارِه؛ والموجبُ لهذه الوسيلةِ وسُؤالِ مكارمه، واستمطارِ سحائبِ مَراحِمه، مابلَغَه من عَزْل مملوكِ المولىٰ وعبْدِه، وواصِفِ جميلِ أوصافه بلسانِ شُكْرِه وحمْدِه، فلان؛ أفاض اللهُ عليـه إحسانَ المولىٰ و إنعامَه، وخلَّد لنا وله دَوْلته وأيَّامَه؛ فإنه صاحبُ المملوكِ وصـديقُه، وشريكُه فى الدُّعاء لمولانا و رَفيقُه؛ وهو من العُـدُول الأُمَناء، والثِّقَات الأتقِياء، وهو قليلُ الجِدَة كثيرُ العِيال، لايَجِد حِيلةً إذا بَطَلَ بخلاف مايُحكىٰ عن البَطَّال؛ وقد تشفَّع بالمملوك ومكاتبتِه فى ملاحظةِ المولىٰ له بعيْنِ عِنَايته، والتقدُّمِ بردِّه إلىٰ جِهـةِ وِلَايته؛ فلهذا كتَبَ إليه وأكَّد فى معناه السُّؤال، وعلَّق بتحصـيل أملِه الآمال؛ يعلم ذٰلك موفَّقا .

شفاعة فى خلاص مسجون :

فَسَّح اللهُ فى مُدّتِه، وسهَّل أداءَ مايجِبُ من شُكْر نِعْمتـه؛ وألزم الألْسِـنةَ بحمْدِه والقلوبَ بمحبَّته؛ وجعله مفَرِّجا كلَّ كرب، ومسهِّلا من المقاصد كُلَّ صَعْب .

وبعـد، فإنَّ كافَّة الأُمَّة قد تحقَّقت رحمةَ قلبِ المولىٰ ورأفتَه، وتيقَّنتْ إحسانه ومُرُوءتَه، وأنه يُؤْثِر إعانةَ كلِّ عانٍ وإغاثَةَ كلِّ ملْهوف، وأنه لايُمْسك إلَّا بالإِحسانِ ولا يُسَرِّح إلَّا بالمعْروف، بحيثُ سارتْ بحُسْن سِـيرتِه الرِّكَاب عوضًا عن الرُّكْبان، ودرأتْ مكارِمُه(١) عن الأولياءِ نُوَبَ الزَّمان؛ وعَلَا علىٰ حاتِمٍ فلو تَشَبَّه بكَرَمه لقُلْنا له: (مَرْعًى ولا كالسَّعْدان). وللمملوكِ من إحسانِه أوفَرُ نَصِيب، وهو يَرْفُـل من جُودِه فى ثَوْبٍ قَشِيب؛ وقد ٱشتَهَر مايُعامَلُ به من الإِكْرام، وأنَّ قِسْمه من العِنَاية أوفَرُ الأقسامِ؛ وكان يُعدُّ من جملة العَبِيد فأصبحَ مُضَافا إلىٰ الأَلْزام؛ وهذا ممـا يُوجِب علىٰ المملوك أنْ يبتَهِل إلىٰ الله فى تخليد دَوْلتِه ويتضَرَّع، وعلىٰ حِلْم مولانا أنه إذا شَفَع إليه فى مُذْنب أن يُشَفَّع؛ وهو يَشْفَع إليه فى مملوكه وعَبْدِه، والملازمِ علىٰ رفْع راياتِ مجده وتِلَاوةِ آياتِ حَمْده، فلان؛ رزقَه اللهُ رضا الخواطِرِ الشريفه، وأسبلَ عليـه حُلَّةَ عفوِه المُنيفة علىٰ الحُلَل بظِلَالها الكَثِيفه؛ فإنه قد طالَتْ مدّةُ حَبْسه، وٱعترف بأنه الجانِى علىٰ نَفْسه؛ والمعترِفُ بذَنْبه كمَن لاأذْنَب، والمغْترِفُ من بحرِ جُودِه يَرْوىٰ دُونَ أن يَشْرَب؛ والطالبُ لبِرِّه ينال سُؤْله والمَطْلَب؛ فإنْ حَسُن فى رأْيه العالى زاده اللهُ عَلاء، وضاعَفَ له سَناء، المشىُ علىٰ مَنارِ جُوده ومِنْهاجِه، وبُروزُ أمرِه المُطَاع بإطْلاقه وإخْراجه، ٱغتَنَم أجرَه، وجبرَ كَسْره، ورَبِح فى هـذا الشهر المبارَك دُعاءه الصالِحَ وشُكْرَه؛ وكان قد أنعَم علىٰ المملوك بقَبُول شفاعتِه إليـه، وفعلَ مايُوجِب علىٰ كلِّ مسلِم الثناءَ عليه؛ واللهُ الموفِّق.

شفاعة بسبب خلاصِ حقّ:

يخدُمُ المجلسَ السامِيَ لافتِيءَ بالتحيات مَخْدُوما، وحبلُ سَعده مَبْروما، ودُرُّ المَدائِح لجِيـد جُودِه منظُوما، وعدلُه بين الأخصام قاضِـيًا فمـا يَتْرُك ظالمـًا ولا مظْلُوما.

---

(١) فى الأصلين «ودارت مكارمه على الأولياء» ويظهر أنه تصحيف من الناسخ.

ولا زالتِ الآمالُ متعلِّقةً بهِمّته ، مَنُوطةً بسعيد عَزْمَتِه ؛ راجيةً خَلاصَ كلِّ حقٍّ ممن هو فى جِهتِه . وتُوضِّح لعلمه أنَّ فلانا أدام اللهُ سعادتَه ، وخلَّد سِيادتَه ، ذكر أنَّ له دَيْنًا فى جهةِ غريم مُمَاطِلٍ مُدافِع ، وخَصْم مُمانِع ؛ وقد جعل هذه الخدمةَ ذريعةً إلىٰ خَلَاص حقِّه ، وخالهَا إلىٰ الوصُول إلىٰ عِنَاية المولىٰ أقْربَ طُرُقه ؛ وهو جديرٌ بالتقــدُّم بإحضار غَريمه ومحاققتِــه ، وأخْذِ ماالمملوك فى ذِمَّتــه ، وأن لا يُفْسَح له فى تأخِيره ، ولا يُسْمَح بقليلِ الصبْرِ ولا كثِيره ؛ فإنه يعلم أنَّ المولىٰ المشارَ إليه واجِبُ الخِدْمه ، وافِرُ الحُرْمه ، وقد تعلَّق أملُه فى خَلَاص حقِّه بالمولىٰ ، ولا يُجاوِبُ عن هذه الخِدْمة بلَوْ ولَوْلا ، بل يبْـذُل جُهْدَه ، ويُطلِقُ فى تحصيل الغَرَض لسانَ الاجتهاد ويَدَه ، ويعتَمِد من الاهتمام مايليقُ بأمثاله ، ويبيِّض وجْهَ الشافع وسُؤاله ، موفَّقا . شعر :

وَلَوْ كانَ [لى] فى حاجَتِى ألْفُ شافِع * لَمَـا كانَ فِيهِمْ مِثْلُ جُودِكَ شافِـعُ

شفاعة فيمن ٱسمه سراجُ الدِّين إلىٰ من ٱسمه جمالُ الدين :

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وينهِى بعدَ ولاءٍ يحكُم علىٰ القُلوب شافِعُ جَمالِه ، وثناءٍ يجُرُّ علىٰ أكمامِ الزَّهْرِ فضْلَ أذْيالِه : أنَّ العلومَ الكريمةَ مُحيطةٌ بإيجابِ حقِّ منْ هاجرَ إلىٰ بابها ، وشكَا غُلَّةَ الفاقةِ إلىٰ مَنْهَلِ مُنْهَلِّ سَحابِها ؛ وأنَّ المـاثِلَ بهذه الخدمة ، فلان ، ذكر ٱحتياجَه إلىٰ عاطفةٍ من عَواطِفِ مولانا التى شَمِلَتْ ، وعارفةٍ من عَوَارفه التى لو ٱستمدّتْ من غُررها الليالى لمـا أظلمتْ ولا ظلَمتْ ؛ وأنَّ بيده وظيفةَ شَهَادةِ بيتِ لَحْم بتواقيعَ شريفةٍ نظرَتْ فى حاله ، ونشرَتْ حالَ عيالِه وأطفاله ، وأنَّ ثَمَّ من يُنازعه فى جِهَته المعتاده ،

ويقصد نزعه والنزع عن تلك الشهادة المسطرة أخف من نزع الشهاده(١) ، ومولانا أولى من رحم منبه ضعفا ، واشتمل عليه عطفا ؛ ودارك بكرمه هذا السراج قبل أن يطفى ؛ ورعى سيرة مباشرته الحسنة الآثار ، واغتنم أدعيته وأدعية أولاده الذين هم كقطع الشطرنج صغار وكبار ؛ وكف يد التعرض إليه فى أيام عدله فإنها أيام لاضرر فيها ولا ضرار ؛ وعلى الجملة فقد تركته الأيام قطعة لحم ، فمباشرة بيت لحم أولى به ، ورجاله فرجانية وأخواتها أحق أن يتعلق سببها بأسبابه ، والله تعالى ينير بمن مولانا أحوال المضرورين فإنها ظلام ، وينصرهم على حرب الأيام بسيوفه التى هى أقلام ، ويمتع بأيام عدله وإحسانه التى تتنافس فيها أعمار الرعايا فإنهم يتبعون أياما بأعوام .

وله إلى شخص اسمه شمس الدين :

وينهى بعد قيام بوظائف ثناء يتمسك بنفحاته [المتواليه] ، وولاء يتمسك بحباله المتينة وما كل شمس حبالها واهيه : أنه يرتاد الأوقات لخطاب مولانا بالأقلام ، حيث حبس البعد خطاب الكلام ، ويتخير حملة رسائل الشوق ، وإن أضعف عطف النسيم رسائل السلام . ولما حضر من مكان كذا ، عارض هذه الخدمة فلان ، وذكر توجهه إلى حمى حماة المحروسه ، وقصد كتابا يكون فى وحشة الاغتراب أنيسه ، فوافق ذلك غرض المملوك ، وسلك طريق مراده ولا ينكر من جهة هذا الرجل الصالح السلوك ، فأعلمته أن المكارم الحمادية لاتحتاج غير الحمد والأجر شافعا إليها ، والمنازل الشمسية لاتفتقر إلى دليل ينبه عليها ، وطالما جمعت لقاصدها الفعل والقول السخى ، وطالما قال يوسف رحمه الله أخو مولانا أبقاه الله للقاصد : أنا يوسف وهذا أخى ، ولكن المملوك يذكر الخاطر الكريم بهذا القادم فإنه من

(١) فى الاصل عند وهو تحريف من الناسخ .

أهله ، ويلقاه قبـلَ ذلك بالبِشْر المنشد * أُضَاحِكُ ضَيْفِى قَبْـلَ إنْزالِ رَحْلِه * فإنَّه من أصحا بِ ولِىٍّ لله طالمَـا فاضَ وَلِىُّ معرُوفِه ، وآسـتفاضتْ نِسبَتُه المُرْشِديّة فكان ولِيًّا مُرْشِـدا قامتْ صفتُه مَقامَ موصوفِه ؛ وإنَّ آثارَ هذِه البركات علىٰ هـذا القادمِ لائِحه ، وإن علىٰ يده تجارةَ ذكر وأجروهى فى سُوقِ هِمَمِ مولانا تجارةٌ رابِحه ، والله تعالىٰ يجعل له فى كلِّ ثناءٍ وثواب نَصِيبا ، ويُدِيم قلَمَه الكريمَ مَقْصِدَ رِفْد وجاهٍ (فَطوْرًا رِشاءً وطَوْرا قَلِيبا) .

وله : عن نائبِ الشامِ إلىٰ نائبِ حماةَ شفاعةٌ فى شخصٍ آسمه شهاب الدين، وهو بعد الألقاب :

لازالتِ الأقدارُ تُسْعِده، والملائكةُ تُنْجِده، ومَواطِنُ النصر تجرِّدُ حدَّ بأسه ومَوَاطنُ الحلْم تُغْمِده، والجُناةُ تلُوذُ بظلِّه : فأىُّ جانِى ذَنْبٍ مايعفو عنه ، وأىُّ جانى بِرّ مايَرِقُّ عليه ويَرْفِده، تقبيلًا يترادَفُ مَدَدُه، ولا تنتهِى فى القُرْب والبُعْد مُدَده .

وينهى بعــد ولاءٍ وثناء : هــذا لا يَبْلىٰ جَدِيدُه وهــذا لا تخفىٰ جدده ؛ وشوق وآرتياحٍ كلاهمـا يُرْوىٰ عن آبن شِهَاب توقُّدُه ، ويحمل علىٰ يد شِهاب سـنَدُه : أنَّ العلوم الكريمة محيطةٌ بمقدار الحِلْم وفضـله ، والعَفْو ومحلِّه ، والتجاوُزِ عن هَفَوات المخطئين من القوم، وطلبِ العفْو من الله غدًا بالعفو عن عباده اليَوْم، قال الله تعالىٰ : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ . ولمَّـا سَمِـع الصدّيقُ رضى الله عنه هــذه الآيةَ ، قال : (بلىٰ واللهِ إنِّى لَأُحِبُّ أن يغْفِرَ اللهُ لِى) ثم عَفَا عمن نزلَتْ بسببه ، ومملوكُ مولانا أعزَّ الله أنصاره فلان ، قد آعترف بهَفْوةٍ بدَتْ منــه، وزلَّة نُقلتْ عنه؛ ما يسَعُها إلَّا عفْوُ مولانا ومَرَاحِمُه ؛ وقَدِم علىٰ المملوك فكأنَّه ماخرجَ عن ظلِّ مولانا ولا فارَقَتْـه معالِمُهُ؛ وسأل سُؤالَ مولانا أن يشْـمَله بالعفْو، ويتجاوَزَ له

عن السَّهْو ؛ ويَرْحَم كِبَرَسِنِّه وكبيرةَ جَهْله ؛ ويرعىٰ قِدَمَ هجرته لخدْمة هـذا الباب الذى نشَأ عُمُرا طويلا فى ظلِّه ، أهْلا لأن تشملَه عواطفُ أهله ؛ وهو ـ كما عرَف المملوكُ واطَّلع عليـه حيثُ كان فى نيابة حمـاة ـ مشكورُ السِّيرة بالٱعتبار ، ناهضُ الخدمة بالٱختبار ؛ ملازمٌ لثرىٰ الباب بعزْمٍ ماعليـه غُبَار ؛ وله علىٰ المملوك بالأمْس حَقُّ خِدْمـة وباليوم حقُّ سؤال يشفَعُ بهما فى القلوب وهى كِبَار ؛ والمسئُول من صَدَقات مولانا تجاوُزُه عن هَفْوته ، وردُّه إلىٰ أَمْنـه ووظيفته ؛ وإجراؤُه علىٰ عادة إقطاعه ، وحاشاه فى أيَّام مولانا أن يُقْطَع ، بل حاشىٰ المذكورَ أن لايستخبرَ وأن لايُقْطَع ؛ وٱسـتقرارُه فى مكان خِدْمته ، وإجابةُ سؤالِ المملوك فى كل مايتعلق بنجاح هِجْرته وعَزْمته ؛ لابَرِح مولانا مأمولَ المِنَن الغائبـة والحاضره ، والمقيمةِ والسائره ؛ مأهُولَ الخواطر برَفْع ذكره وقَدْره فى الدنيا والآخره .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

لا زالتِ المحامدُ بذِكْرها مُتَوَجِّه ، ومقدِّماتُ الفضـل والفضائِل من تِلْقاء شِيَمِها مُنْتِجه ؛ ومَطالعُ الكرِم والإكرامِ هاديةً إلىٰ حَرَمِها من ٱتَّجَه ؛ تقبيلَ مواظِبٍ علىٰ الدعاء يرفَعُـه ، والولاء يجْمَعُـه ؛ والثناء يقول بَضَّاعُ أرَجه لا ممـا نُضَيِّعه بل ممـا نُضَوِّعه ؛ [وينهى] أن عارضَ هذه الخدْمةِ علىٰ عارضِ كَرَم مولانا المُمْطِر ، وبابِه الذى هو لكَبِد الحاسد وفَم الوارِدِ مُفَطِّر ، فلان ؛ لقضاء تعلُّقاتٍ له أوّلُها التعلُّق بحبل رجائه المُحْصَد ، وٱنتمائِه المُرْصَد ، والتجمُّل بقصد بابِ مولانا الذى هو المُهِمُّ المقدّم علىٰ كل مَقْصَد ؛ وهو من الفضلاء الذين يعرفُهم ٱنتقادُ مولانا معرفةَ الخبير ، وله ٱتصالٌ بالأكابر الذين سُلِّم منهم زِمامَ المفاخر كُلُّ كبير ؛ وقصَدَ من المملوك هذه الخدمةَ لمولانا تُؤْنِسُ ٱغترابه ، وتنشد المَقَرّ الذى ماقَرَع سنَّ الندامة مَنْ قَرَع بابَه :

يا غَرِيبَ الصِّفاتِ حَقٌّ لمنْ كا * نَ غَرِيبًا أنْ يَرْحَمَ الغُرباء!

والمملوكُ يسأل من إحسان مولانا مُلاحظةَ المـذكور بعيْن عِنايَتِـه التى ما أغفَتْ عن القاصدين ولا غَفَلَتْ ، وعَواطِفِه التى طالمَا فتحَتْ أبوابَهَا فأثنَتْ عليها الركائبُ التى قفَلَتْ ؛ والله تعالىٰ يُديم تقليـدَ الأعناقِ بكَلمه وبِرِّه ، ويمتِّع الممـالكَ الساحليَّةَ بمـا قذَفَ لها من دُرَرِ بَحْرِه .

النـــوع الخـامس

(التشـــوّق)

قال فى "موادّ البيان" : وينبغِى للكاتب أن يجمَع لها فِكْرَه ، ويُظهِر فيها صناعَتَه ، ويأخُذَ فى نظمها مَأْخذا من اللَّطافـة والرِّقَّة يَدُل علىٰ تَمـازُج الأرواح ، وأْتِـلاف القلوب ، وما يَجرِى هـذا المَجْرىٰ ؛ وأن يستخدِمَ لهـا أعذَبَ لفظٍ وألطفَ معنًى ؛ ويذْهبَ فيها مَذْهب الإيجاز والآختصار ، ويعدِلَ عن سُبُل الإطناب والإكثار ؛ لئلا يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب فيُمِلَّ ويُضْجِر ، وينتظِم فى سِلْك المَلَق والتكلُّف اللذيْنِ لايعتادُهما المُتصافُون من الأصدقاء .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفـــرج الببغاء :

شوْقُ المملوكِ إلىٰ مَوْلانا بحسب مَكانِه من تفَضُّـله ، وحظّه من جميـلِ نَظَره ، وآخْتِصاصِه بإنعامه ، وآغْتِباطه بشَرَف خِدْمتِه ، ومكانِه من إيثاره ؛ والله يجمَعُ للمملوك شَمْلَ السـعادةِ بمُشاهدة حَضْرته ، ويسابه (١) من الدَّهْر بالنظر إلىٰ غُرَّته ، علىٰ الحـال السارّة فيه وبه .

(١) كذا فى الأصلين بإهمال النقط والمراد أنه يمتعه بالنظر إلخ تأمل .

وله : شَوْق المملوك إليه شوقُ الظَّمآن إلىٰ القَطْر، والسَّارِى إلىٰ غُرَّة الفَجر .

وله : شوْقِى إليـه شوْقُ مَنْ لم يَجِدْ مع بُعْدِه عِوَضًا منه، فتقودُه الزيادةُ إلىٰ الانصراف بالرَّغبة عنه .

وله : شوْقِى إليه شوْقُ من فقَد بالكُرْه سَكَنه، وفارقَ بالضَّرورة وطَنَه .

وله : لو كان مايُصْدِره من خِطاب ، ويُناجِيـه به من متَضَمَّن كتَاب، بقـدر ماأُعانيه من ألَم الشوق إلىٰ غُرَّته، ومَضَض الفائتِ من مشاهَـدَتِه، لَمَا أحاطتْ بذِكْره بَسْطَةُ لسان، ولا نابَ فى إثباتِه ٱستِخدامُ بنَان .

وله : أمَّا الدهرُ فما يَستحِقُّ من إبعاد المملوك عنـه عَتْبا ، ولا يُعدّ ماجَنَاه من ذٰلك ذَنْبا، إذ كان إنما نَقَلَ من حِشْمة المخاطَبه، إلىٰ ٱنْبِساط المُكاتَبه .

وله : وقَدْره ـ أبقاه اللهُ تعالىٰ ـ يرتَفِـع عن ذكر الشَّوْق إليه ، فالمملوكُ يعبِّر عنه بذكر الشوق إلىٰ مافارقه من تفَضُّله، و بعُدَ عنه من أوطان تطَوُّله .

وله : ولولا أنَّ المملوكَ يُخْمِد نارَ الاشتياق ، و يبَرِّد أُوَار الفِراق ، بالتخَيُّل المَمثِّـل لَمَنْ نأتْ مَحَلَّته، والتفكُّر المصوّر لمن بَعُدتْ شُـقَّته ، لأُلْهِبَتْ أنفاسُـه ، وأُسْعِرت حَوَاسُّه، وهَمَت دمُوعُه، وأنقَضَتْ ضُلُوعُه، واللهُ المحمودُ علىٰ ماوَفَّق له من تمَازُج الأرواح ، عند تبَايُنِ الأشْباح .

وله : ولا بُدَّ أن يكُفَّ بالمكاتبات، من غَرْب الاِشتِياق ، ويستعين بأُنْس المُراسَلات، علىٰ وَحْشة الفِرَاق، فإنها ألْسُنٌ ناطقه، وعُيونٌ علىٰ البُعْد رامقه .

وله : عِنْـد المملوكِ لمولانا خَيَالٌ مُقيم ، لا يبرَح ولا يَرِيم ، يجْلُو عليـه صُورَته ، ويُطْلِـع علىٰ عينِ فكْرته طَلْعتَـه ، إن سَهِر المملوكُ سامَر مُعينًا علىٰ السُّهاد، أو رقَدَ

تصوّر مُعْذِبا طَعْمَ الرُّقاد، لا يَمْطُله بزِيارته، ولا يُوحِشُه بغَيْبَته، كأنما تَصَوّر بصُورته في الوَفَاء، وتخَلّق بخُلُقه في المحافظة علىٰ الإخاء .

وله : إنْ تزايلَتِ الأشْباح، فقد تواصَلَتِ الأرْواح؛ وإن نَزَحتِ الأشخاصُ وبعُدتْ، فقد دَنَت الأنفُس وتقاربَتْ؛ فلا تُمِضُّ الفُرْقةُ وتُؤْلِم، وتُنَغِّصُ النَّوىٰ وتَكْلِم؛ وقد يُنالُ بتَناجِى الضَّمائر، وتَحَاوُرِ السَّرائر، مالا تَصِلُ إليه الإشاره، ولا تَدُلُّ عليه العِباره؛ إذ الأنْفُس البسيطةُ أرقُّ مَسْرًى، وأبعَدُ من الألْسنة مَرْمًى .

التشوّق من كلام المتأخرين :

نسخة كتاب من ذلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة؛ وهو بعد الصدر:

لازالَ الدَّهْرُ يَقْضِى خِدَمَه، ويُمْضِى رأْيَه وسيْفَه وقَلَمَه، ويُرْضِى الدُّولَ الشاكرةَ تقْديمَه فِيها وقَدَمَه؛ ولا بَرِحت الأقدارُ المُعْرِبةُ تجزِم أمْرَه وتَكْسِرُ ضِدّه وترفع عَلَمَه؛ تقبيلًا إذا لَثَم التُّربَ التثَمَه، وإذا أُودِع القلْبُ فى ذلك التُّرْب خَتَمه .

ويُنهِى مواظَبَتَه علىٰ وَلاءٍ لايَنْسَخ البُعْدُ مُحكَمَه، ودُعاءٍ يقابِلُ النُّجومَ ولا تَنْقَطِع من القَبُول إدْراراتُه المنجَّمَه .

ويُنْهِى أنه سَطَّرها عن شوقٍ يَعِزُّ عليه أنيَنُوبَ فيه سَعْىُ القلم، عن سَعْىِ القَدَم، وٱرْتياحٍ إلىٰ القُرْب الذى بأنسه يُؤْنِسُه أنوارا علىٰ أعْلىٰ عَلَم؛ وتطَلُّعٍ لمعاوَدةِ الأخبار أوْفىٰ من تطَلُّع العامرىّ إلىٰ مُعاوَدةِ أيَّام ذِى سَلَم؛ وتعَلُّلٍ بقول القائل :

بعثْتُ لَكُمْ سَوادًا فى بيَاضٍ * لِأَنْظُركم بشَىْءٍ مِثْلِ عيْنِى !

وهيهاتَ! أينَ نظراتُ الحُروف المرْقُومة من نَظَرات العُيُون الرامِقه، وأينَ مَنالُ السُّلُوّ من شَجْوٍ يقول : * أُعيذُها نَظَرات منْك صادقه *

ما يحْسُبُ المملوكُ من النظر إلّا ما يَمْلأُ العينَ من ذٰلك الوجهِ الكريم ، ولا يَلْبَس من خِلَع الأيّام إلا ماتَخيط الأهْدابُ علىٰ شَبَا ذٰلك القُرْب الرَّقِيم ؛ وعلىٰ ذٰلك فقد جَهَّزها المملوكُ علىٰ يَدِ فلان ، وحَمَّله من رسائل الشَّوْق مايَرْجُو أنْ يَنْهض فيه بأعباءِ الرِّساله ، ويَسْأَلُ الإصْغاء والمُلاحظةَ فيما توجَّه فيه وإنْ أدّتِ الأمَالِي إلىٰ المَلاله ؛ واللهُ تعالىٰ المسئُول أن يبلِّغ فى آمتِدادها مولانَا الأُمْنِيَّه ، ويمتِّعَ الدُّولَ منه بهذه البقِيَّة النقِيَّه ، إن شاء الله تعالىٰ .

نسخة كتاب فى المعنىٰ عن نائب الشام ، إلىٰ القاضى عَلَاء الدين بن فضلِ الله ؛ كاتبِ السِّرِّ بالأبواب السلطانية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ أيضا ؛ وهو بعد الألْقاب .

لازال قَلَمُها مِفْتاحَ الرِّزْق لطالِبِه ، والجاهِ لكاسِبِه ، والظَّفَرِ لمستَنِيب كُتُبِها عن كَتائبه ، والنُّجْحِ لرائِدِ مُطالبةِ الدَّهْر بعد المَطالِ به ، ولا بَرِح البأسُ والكَرَم يتحدّثانِ عن بَحْرِها ولا حَرَجَ عن عَجائِبِه ؛ تقبيلًا تغْبِطُه فى مَرابِعِها ، ثُغُورُ الأزاهِر ، لابل تحْسُدُه فى مَطالِعِها ، ثُغُور الزَّواهِر .

وينْهِى بعدَ دعاء أحسنَتْ فيه الألسنةُ وأخلصَتِ الضَّمائر ، ووَلاء وثناء لهما مَصاعدُ النَّجْمَيْنِ إلّا أنَّ هٰذا فى القلُوبِ واقعٌ وهٰذا فى الآفاقِ طائِر ــ أنه جهَّزَ هٰذه الخِدْمةَ مُعرِبةً عن شوقٍ يتجدَّد ، وآرتياحٍ لايتعدّىٰ ولا يتعَدَّد ، ساعيةً عنه بخَطَوات الأقلام ، أنْ منَع الوقتُ خَطَواتِ الأقدام ، نائبةً فى تقبيلِ الأناملِ التى تُستَسْقىٰ دِيَمُها علىٰ القُرْب والبُعْد ولا كَيْدَ ولا كَرامةَ للغَمام ؛ وجهَّزها علىٰ يدِ فلان بعْدَ أنْ حَمَّله من رسائل الشوقِ ماإنَّ حِمْلنا من إحسانه ليُنْضِى عقُودَ الأنجم لو تعدّدت ، ومفاتيحَ أبوابه لتنُوءُ بالعُصْبة أُولِى القوّة لو تجسَّدتْ ؛ وهو بين يدَيْه يقدِّمُ نَجْواها ، ويستشْهِد

بالخاطرِ الكريم قبْـلَ حضُور دَعْواها ، والمسئُول إصـغاءُ السَّمْع الكريم إليـه ، والملاحظةُ فيما توجَّهَ فيـه متَّكِلًا علىٰ اللهِ وعليـه ؛ وإذا عادَ مشـمُولا بعنايةِ مولانا المعهُودَه، مكفُولاً برِعَايته المقْصُورةِ علىٰ نُجْح الآمالِ الممْدُوده، فلْيُنْعِم علىٰ المملوكِ من المشرِّفاتِ الكريمة بما يسكِّن علىٰ جَوْر البُعْد خواطِرَه الدَّهشه، ويُعِينُه علىٰ الوَحْشة التى حرَّكها نحوه البِعَاد فهى الوَحْشَه ، واللهُ تعالىٰ يشكُر هِمَم مولانا غائبًـا وحاضرا ؛ وشافِعًا لرسائل خَدَمه وناظِرا ؛ ويَخُصُّ بابَه العَلَوىَّ بسلام كسلامِ سَقِيط الطَّلّ عن ورَق الغُصْن ناضِرا .

آخَر من كلامه : كتب به إلىٰ بعض رؤساءِ مصر .

ويُنْهِى أنه سَطَّرها مُعْرِبةً عن شوقٍ مُقِيم ، وعهدٍ لا يَبْرَحُ علىٰ صِراطِه المستَقِيم ؛ وآرتياحٍ لجَنابِه، أو لكتابه، ليتْلُو لإنصات نَجْوه : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِـيمِ﴾ . متطلِّعا لمـا يَرِد من أخبار مولانا السارّةِ البارّه، مرتقِباً لأنبائه آرتقابَ الزُّهَيْرة الفاغِرةِ إلىٰ ضَرْع الغَمام الدَّارّه، ولو أنَّ كلَّ مايتمنَّىٰ المرءُ يدْرِكه، وكلَّ مايقْتَرِح علىٰ الدَّهْرِ يمْلِكه، لغَنِيَ بقُرب المخاطبه، عن بُعْد المكاتَبه، وآستجلىٰ كوكبَ الجمال المُشْرِقَ وأقصَرَ فى ليالى الآنتظارِ عن المراقَبه . وقد جهَّزها علىٰ يدِ فلان، وحمَّله من رسائل الشوق أوْفىٰ وأوفرَ من رسائل الصَّـفا، وسأَلَ الإصغاءَ والملاحظةَ من مولىً بحَارِه النيلِ معْروفِ المَنَافع والوَفَا ؛ ولآمالِ المملوك بمشرِّفاته وأوامِره جَمَالٌ حينَ يُرِيح وحِينَ يَسْرَح،وحينَ يَقْتصِر علىٰ مقْتَرَحات الأيامِ حينَ يشْرَح ؛ فيُنْعِم مولانا بمواصَلتِها علىٰ هذه المقدَّمه، ويجعلُ ذٰلك من إدرارات صِـلاته المنجَّمَه ؛ واللهُ تعالىٰ لايُعْدِم المملوكَ فى حال كَرَمه : إما أن يُفيض فى القُرب بَحْرَه وإما أن يبعَثَ علىٰ البُعْد ديمَه .

وله إلىٰ كاتب السر :

أعلىٰ اللهُ أمْرَ قلمها علىٰ الأقْلام، وأدام بفيْض أنامِله عليه بَسْط كلمةِ الإسـلام، وراع بكتائب كُتُبه العِدَا إذا ٱنتبهُوا، فإذا أغْفَوْا «سلَّتْ عليهم سُيوفَها الأحلام» .

ولا زالتْ تلكَ الأقلامُ العاليةُ فى تلك اليدِ الكريمةِ إن لم تكُنْ من المنِشئات فإنّهـا من المُنْشَآتِ فى البحر كالأعْلام ؛ تقبيلَ مُواظِب علىٰ دُعاء يطلعُ طُلوعَ طُرَّة الصبح تحتَ ذٰلِك الظلام ، وولاءٍ إذا ٱعتـبر الخاطرُ الكريمُ مَسْعاه وخِدْمتَه : ﴿ قال يابُشْراىَ هذا غُلَام ﴾ .

وينهى أنه جَهَّز هـذه الخدمةَ مقصورةً علىٰ وصْف الأشواق الممْدُودة، وجَوانح الشَّـجْو المعهوده ؛ وأنفاسِ التذَكُّر التى لولا شَرفُ مذكُورها لم تكُنْ عنده من الأنفاس المَعْدُوده ؛ فيالها مقصورةً علىٰ شوقٍ مافيها غيرَ طيور الجوانح خَفَّاقةُ الجَنَاح، سَبَّاقةُ الاٰرتياح ؛ ويالهَـا أنفاسَ ذكـر أغنَتْ منادمتُها عن كَيْس كأس وٱقتراحِ وقتِ رَاح ؛ ويالهـا ورقةً فازتْ بمشافَهةِ لثْم اليـد الشريفةِ فكرُمتْ وَصْفا، ونأتْ عن نَحَار الروض عِطْفا ؛ وٱستطابتْ بشِفاه السُّطُور علىٰ تِلك البَنانِ رَشْفا :

وسَطَّرتُها والجِسْمُ أنحلُ مايُرىٰ * فيالَيْتِنى أصبحْتُ فى طَيِّها حَرْفا

واصلةً إلىٰ البابِ الكريم بسلام وصلَ عبَقُه قبْلَ ماوصلَتْ، وواردةً علىٰ يد فلان وقد حمَلَ من رسائلِ الصَّـفاء والوُدّ مثْلَ ماحمَلَتْ، وحصلَتْ علىٰ القُرب وياأسَفىٰ علىٰ ماحصَل وحصَلَتْ . والمملوكُ يسألُ الإصغاءَ إليها وإليه بفضل النظر والسَّمْع، والإنعامَ علىٰ المُحِبّ المفارِق بمشرِّفاتٍ تجلُو عليه أيامَ جَمْع ؛ وتُعينه علىٰ أوقاتِ وَحْشةٍ إذا وصفها المشتاقُون وأقلامُهم ولَّوْا وأعيُنُهم تَفِيضُ من الدَّمْع ؛ لابَرِح ذكْرُ مولانا عليّا، وبِرُّه بمَلْء الآمال مليّا، ووصفُه بالتُّقىٰ وسحاب الجُود علىٰ الحالين وليّا :

* * *

يامُنْيـــةَ النَّفْس ويا مَالِكِى * مُذْ غِبْتَ عَنِّى لم تَـنَمْ مُقْلتِي!
إنْ بِنْتَ عن عَيْنى بِرَغْمِى فقَدْ * سَكَنْتَ فى قلْبى وفِى مُهْجَتِي!

لا أوحشَ اللهُ من طَلْعتــه، ولا أخْلىٰ من كريم مساعدَتِه، وجمعَ شَمْـل الأُنْس بخِدْمتـــه.

المملوك يشكُو من المولىٰ فِراقًا أوجب له علىٰ نَفْســه فرَقا، وجيْش صُـدُود منَحَه من العَزائم طوَائفَ وفِرَقا، وداءَ صَبابةٍ كلَّمـا ترجّى الإفْراقَ(١) منه ٱزْداد تلَهُّبا وحَرَقا، ووجُوبَ قلبٍ تحتَّم لغَيْبتــه ووجَب، ودَمْعَ عينٍ يمحو مهْما عَبَّر عنه لسانُ قلمه أو كتَبْ، وقد أطال الهَجْرُ تألُّمَه وعَتْبَه، وأطار سِنَتَه ولُبَّــه؛ مُذْ وصل المولىٰ غيْرَه وقَطَع عنــه كُتْبه، والمولىٰ يعلمُ أنَّ المملوكَ لفظٌ والمولىٰ معناه، وسعْدَه شخص وأنت وجْهُــه الميمُونُ ويُمْناه؛ فيُواتر إرسالَ مكاتبَاته، ويُتْحِف بمأثُورِه ولُبَاناته؛ ويُعَطِّر بذكرِه الجميـلِ الأماكِنَ ويُشَـنِّف المَسامع، كما شَرَّف بحُلُوله فيها الأضالِـع؛ واللهُ يُديمه ويُمِدّه بالإسْعاف والإسْعاد، وينصُره علىٰ الأضداد والحُسَّاد:

* * *

أُقاسِى منْ بِعَـادِكَ ما أُقاسِى * وقَلْبُـكَ راحِمٌ وعَلَىَّ قاسِى!
وأحْمِلُ مِن نَوَاكَ بضَعْفِ نفْسٍ * عَنَاءً يُعجِز الشُّمَّ الرَّوا سِى!
وتُبْعِـدُنِى وأمْرُك إنْ أتَانِى * جعلْتُ مَحَـلَّه عيْنِى ورَاسِى!

(١) أى البرء مصدر أفرق العليل إفراقا اذا برأ من علته. انظر اللسان ج ١٢ مادة ف رق.

قَرّب اللهُ أوْبته، وعجّل رُؤْيَتَه؛ وحرَس نَفْسه من الغِيَر والحادثات، وصان حِجابه المنيعَ عن الملِمّات المُؤْلِمات؛ وجمّل الأيامَ بوجُوده، والأنامَ بجُوده. ولا زالتِ الدنيا به مجمّله، وأعناقُ أبنائها لمِنَنه متحمِّله.

صدرتْ هذه الخدمةُ إلىٰ خِدْمته متضمِّنةً إهداء سلامه، وشاكِيةً لغَيْبته جَوْرَ أيّامه؛ ومُنْهِيةً شِدّةَ أشواقه التى أفْنَتْ بالصَّبابة قَلْبَه، وأذهبَتْ حُشَاشَتَه ولُبَّه؛ وهى فى ذلك نائبةٌ مَنابَ سائرِ الخَدَم، ومعبِّرةٌ عن ألْسِنَة الأقاليم بلِسانِ القلَم؛ فإنّ الأعيُنَ متطلِّعة إلىٰ رُؤْيته، والقُلوبَ متعطِّشة إلىٰ قُفُوله ورَجْعته؛ كما تتطلَّع إلىٰ السماء عُيونُ النَّرجس، وتتعطَّش الرِّياضُ إلىٰ الوابل الغَدَق بعد اليوم المُحِرِّ المُشْمِس؛ فالمولىٰ يجعلُ مواصلَته بأخباره فَرْضًا لازما، ويمتنِع من إغفاله كما يمتنِع من لَذّة الطعام إذا كان صائِمًا؛ فإنّ المَوْلىٰ هو صورةُ الجُود ومعْناه، وبيتَه الكريمَ فِناءُ الخير ومَغْناه؛ والناسُ مالم يرَوْك أشْباه، حرسه الله وتولّاه، وضاعفَ عُلَاه، والسلام.

* * *

يا أجْملَ الناس سَناءً وسَنَا * جفتْ جُفُونِى لجَفَاك الوَسَنَا!

ثِمارَ آلامٍ إلامَ أجْتنِى؟ * ياليْتنِى أعلمُ خَطِّى ما جَنَا؟

وأنتمُ ياأهْلَ بانِ لَعْلعٍ * مُذْ بِنْتُمُ لم أرَ شَيْئًا حَسَنا!

أقمْتُمُ بمُنْحنىٰ أضالِعى * وسِرْتُمُ ياأهلَ وادِى المُنْحَنا!

فى بُعْدِكم مَنِيّتِى لاتَبْعُدُوا * وقُرْبُكم غايةُ سُؤْلِى والمُنَا!

خلّد الله سعادته، وبلّغه من العَلْياء إرادتَه؛ وأثّل مَجْده، وأدام سعْدَه؛ وأعذبَ مَنْهَله ووِرْدَه.

الملوكُ يتشَوّقُ إلىٰ لِقائه، و يتشوّف إلىٰ أنْبائه، و يصِفُ شديدَ اشواقه وصَبَابته، وحنينَه إلىٰ مشاهدةِ المَوْلىٰ ومشافَهتِه، وما يجِدُه لذٰلك من ألَمٍ فى جَوَارحه الجَرِيحه، وسَــقَمٍ فى جَوَانِحِه الصحِيحه، و يلتَمِس مواصلَتَه بكُتُبه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار، وأخبارِه السارّةِ ليتضاعفَ له مزِيدُ الاِستبْشار، فإنّ القلْب بنَار الصَّـبابة قَدْ وَقَدْ، وأما صبْرُه علىٰ [بُعْدِه] فقَدْ فَقَدْ، ومتىٰ ورد كتابُ المولىٰ شُفِى الغَلِيل، وأبَلَّ العَلِيل، ونجع طعْمُ الحياة ونَجَح التأْميل، فليصَيِّرْ وَتْر مكاتبَاتِه شَفْعا، ولا يجعَلْ لوصْلِهنّ قطْعا، والله يمَنح عيشَه خَفْضا ومكانَه رَفْعا، والسلام.

* * *

شعر فى معنىٰ التشوّق:

قد كانَ لى شَرَفٌ يصْفُو برُؤْيتِكم * فكَدَّرَتْه يدُ الأيّامِ حينَ صَفَا

غـــيره:

كتَبْتُ (١) للكتّابِ مجَـلِّدٌ * علىٰ أنَّه قبْــلِى بلُقْياكَ يسْـــعَدُ

النـــوع السادس

(فى الاِســـتِزارة)

قال فى "مواد البيـان": رِقاعُ الاِستزارةِ إنمـا تشتَمِلُ علىٰ وصْفِ حالاتِ (٢) الأُنْس ومجالِس اللَّذّات، ومَشَاهِد المَسَرّات. قال: و يجِبُ علىٰ الكاتب أن يُودِعَها حُلْوَ الألفاظ، ومُؤْنِقَ المَعانِى وبارِعَ التشبيهات، و يُبالِـغ فى تشويق المســتَزَار إلىٰ الحضُور، و يتلطَّف فيه أحسنَ تلطُّف.

(١) بياض فى الاصل ولعله "وشوقى للكتّاب الخ".

(٢) لعله مجالات كما لا يخفى.

وهذه نسخ من ذلك :

على بن خلف :

رُقْعتى ــ أطال الله بقاءَ سيدى ــ ومجلِسى بمَنْ حلَّه من خَدَمه ، ونزلَهُ من صَنائع كرمه ، فلَكٌ مُزَيَّنٌ بأنجُمه ، فإنْ رأىٰ أن يُطْلِع فيه بَدْرا بطُلُوعه وينقل قَدَمه إليهم ، ويُكمِّل نقْصَهم بتَمامِه ، ويُضيف ذٰلك إلىٰ تَليد إنعامه ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثــله :

قد ٱنْتظَمَ لنا ــ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ــ مجلِسٌ رقَّتْ حَواشِيه ، وتبَسَّمتْ راحُه عن حَبَب ، كلآَّلِئَ علىٰ ذَهَب ، وقامتْ فيـه سُوقُ السُّرور ، لا يُكْسِدُها إلا تخلُّفُهُ عن الحضُور ، فإنْ رأىٰ أن يُكمِّل جذَلَنا بإطْلاع طَلْعتِه علينا ، ويصَدِّق ظَنَّنا بنَقْل قدمه إلينا ، سَرَّ وأبْهج ، وتَمَّم من الإحسان ماأخْدجَ ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله : هذا ــ أطال اللهُ بقاءَ مولانا ــ يومٌ صَــفِيق الظِّلّ ، رقيقُ غِلالةِ الطَّلّ ، قد ترفَّعتْ شمسُــه ببُرْج أُنْسه(١) ، وٱفتَرَّ جَذَلا عن مَضاحك بَرْقه ، وترنَّمَ طَرَبا بزَمجرةِ رعده ، ووَشَتْ مَدارِجُ نَسيمه ، بأرَجِ شَمِيمه ، وقام علىٰ مَنَابِرِ السُّرور يخطُب ٱبنةَ الكَرْم لأبناءِ الكِرام ، وينادِى بأعْلىٰ صَوْته : حَىَّ علىٰ المُــدَام ، فقد وجَبَ علىٰ كلِّ موفَّقٍ لٱجتناءِ ثِمَــار السُّرور ، والْتحافِ عِطَاف الحُبُور ، أنْ يلَبِّىَ دعْوتَه ، وينتَهِز فُرْصــتَه ، ويُعوِّضَه من شمسِه الآفِله ، براحٍ لإظهارِ ما ٱخْتفىٰ من شُــعاعها كافلَه ، ويقِفَه علىٰ التَّملِّى بالكاس والنُّدْمان ، ويجعلَه سِلْكا ينتَظِمُ فيه الإخْوان . ورُقْعتى هذه صادرةٌ إلىٰ مولاى وقد تهيَّأ لنا مجلِسٌ من مجالس الأُنْس ، يَبْسُط تجعُّدَ النفس

(١) لعله "افقه" .

فيه بَغْم ونَغْم ، ومِزْهر وزَهْر ، وخُلّان قد تراضَعُوا لِبانَ العُقار ، وتساهموا نَقْل (١) الوَقار ، وشُجُعوا فى مَعارِك الخَمّار ، وأَدْمَنُوا على المُماساة والاَبْتِكار ، إلّا أنّ هذا المجْلس مع تَمامه مُخْدَج ، وعلى كمالِه مختلَج ، لبُعْد مولاى الحالّ منه مَحلّ الواسطة من النِّظام ، والأرْواح من الأجْسام ، فإن رأى أن يُكمّل منه مانَقَص ، ويُميط عنه [مانغَّص] فلْيَجمِّلْنا بالمَصير إلينا ، والطُّلوع علينا ، وإعفائنا من إضْجار الاَنْتظار ، معتدًّا بذٰلك فى كريم الأيادِى والمَبارّ ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

هـذا اليومُ ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ـ يومٌ أعْرس فيه الجَوُّ بالجارِيَة البيضاء نَخدّرها ، وحَجَبها بسَجْف الغَمام وستَّرها ، واَختالَ اَختيالَ المعرِّس فى مُعرَّسه ، بمُصَنْدَله ومُمَسَّكه ومُورَّسه ، واَتّخذ من ذَهَب البَوارق نِثارا ، واَستنْطَق من زُنّار الرّواعد أوتارًا ، ودعا إلىٰ حُضُور وليمته ، والسُّرور بمَسَرَّته ، فإنْ رأىٰ أن يلَبِّيَ (٢) طلب هذا اليومِ الصَّفيق ، ويتمتَّع بعيْشه الرافِغ الرَّفيق ، فلْيُطْلِع علينا طَلعتَه التى تَبْهَرُ القمرَ المُزهِر ، وتَصْدَعُ الليلَ المعتكِر : ليُنْهِض غُرَّة الإصباح ، بغُرّة الراح ، ويَقْطِف ثِمارَ الأُنْس والمحاضرة ، ويتملّى بالسَّماع والمُذاكرة ، ويأخُذ بحظٍّ من لَذاذة الفَيْخة الشبيهة بشمائله ، ويعُدَّ ذٰلك من مبارِّه وفواضِله ، [فعل] إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى الاَستزارة فى بُسْتان :

كتبتُ ـ أطال الله بقاءَ سيِّدى ـ وقد غدوْتُ فى هذا اليومِ [إلىٰ] بُستانِى والطَّيْرُ فى الأوْكار ، والأنداءُ تَهْبِط كالنِّثار ، والليلُ مشتَمِلٌ على الصَّباح ، اَشتِمال الأدْهَم

---

(١) هو بالفتح و بالضم و بالتحريك ما يتناقل به على الشراب . أنظر اللسان ج ١٤ .

(٢) فى الأصل « أبطل » ولعله من تصحيف الناسخ .

علىٰ الأَوْضاح، عازمًا علىٰ مشارَفَته ومُشارَفَة ما آستَمدَدْتُ من عِمارته، لا للخَلْوة فيه بمُعاطاةِ المُدَام، ومؤانَسةِ النِّدام، فحين سَرَّحتُ الطَّرْف فى مَيادينه وجَداوِله، وأقبَلْتُ علىٰ تصَفُّح حلَاه وحُلَله، رأيتُ مَنَاظِرَهُ تعتلِقُ القلوبَ آعتلاقَ الأشْراك، وتعتاقُ المستَوْفِزَ عن الحَراك، وتُقِيم قاعِدَ المِزَاج والنَّشاط، وتُوقظ هاجِدَ الفَرَح والاِنْبساط: فمِنْ أشجارٍ كالأَوانِسِ، فى رَيْحانِيِّ المَلَابس، حالِيَةٍ من مُوَشَّعِ الزَّهَرِ والثمر، بأنْصَعَ من الياقُوت والجَوْهر، كأنما تحفَّلتْ لاجتلاءِ عَرُوس، أو مُعاطاةِ كُئُوس، مابين نَخِيلٍ قد نشَرَتْ عَذَبَ السُّنْدس علىٰ ذُرَاها، وأطلعَتْ طَلْعا كالخَناجر غَشِيَها صَدَاها، ونارَنْج يحمِلُ أكبَرَ العِقْيان، أو وجَنَات القِيَان، وأُتْرُجٍّ قد آستعار ثمرَةَ أشْواق العُشَّاق، إذا صالتْ عليهم يَدُ الفِراق. ومن رِيضَان[1] زاهيةٍ بنَشْرها، وقُضُبُها مختالةٌ فى مَلَابِسِ زَهْرِها، ونَرْجِسُها كعينِ محبٍّ حَدَّق إلىٰ الحبِيب، وثنَىٰ جِيدَه خوفَ الرَّقيب، إذا عبَثَ به النَّسِيمُ جمعَ بينَ كلِّ قَضِيب وإِلْفِه، وسَعىٰ بالاعتناقِ من شَوْقه وكَلَفه، ووَرْدُها كمَدَاهِنِ ياقوتٍ فيها نُضَار، وشقيقُها كمُدامات عقيقٍ فيها صُوَار[2]، وبَنَفْسَجُها نِقَدٌ تَمضى فيه من القَرْص آثار، أو جامُ لُجَيْنٍ عليه من النَّدىٰ نِثَار. ومن أنْهار قُدَّتْ حافاتُها قَدّ الأدِيم، وخُدَّتْ علىٰ صراطٍ مستقِيم، بحرة مَسْجوره، كالسُّيوف المشْهُورة أو المَهارِق المنْشُوره، إذا خَمَشَها الهوىٰ خلَع عليها مُتونَ المَبَارِد، أو سُلُوخَ الأَساوِد، يتخَرَّق ذٰلك كلَّه نسِيمٌ رقيقُ الغَلائل، حُلْوُ الشمائل، يسعىٰ بالنَّمِيم، فى المَعَاطس والشَّمِيم، انْصَبَّتْ إلىٰ مجلسٍ فَسِيحِ البِناء، ضيِّق الأفْناء، مُوَشّىٰ الجُدْران والسَّماء، فى صَدْره شاذَرْوان يَرْمِى بكِسَر البَلُّور، وفى وسَطه نَهَر ينْسابُ ماؤُه آنسِياب

(١) الريضان والرياض جمع الروضة .

(٢) الصوار والصوار « أى بالضم والكسر» الرائحة الطيبة والقليل من المسك أنظرج ٦ ــ ص ١٤٧ من اللسان .

الشُّجَاع المَذْعُور ، وتتوسَّطُه بِرْكَةٌ مُنَمْنَمَةٌ ينصَبُّ الماء إليها بالدَّوالِي إلىٰ أربع شاذَرْوانات ، ويَخْرُج عنها من أربع فطيمات ؛ يحتَفُّها كلُّ شجرٍ مُثْمِر ، وروْضٍ مُزْهِر. فقلت : هـذا المَرادُ الذى يحُطُّ به الرائدُ رَحْلَه ، ويُوفِدُ إليـه أهْـلَه ؛ ويدْعُو إلىٰ آختيار مَنْ يهُبُّ إلىٰ السُّرور ، ويُساعِد علىٰ الحضُـور ، للمشاركة فى التملِّى ببَهْجتِه ، والتمتُّع بنَضْرته ؛ فكان مولاى أوّلَ مَنْ جرىٰ إليه ذِكْرى ، ووقَع عليه طَرْفُ فِكْرى : لأنه الساكنُ فى فُؤادِى ، الحالُّ فى مَحَلِّ رُقَادى ؛ فإنْ رأىٰ أراه الله ما يُقِرُّ العينَ أن يُكَمِّل مسرَّتِى بنَقْل قَدَمِه إلىّ ، وإطْلاع سعدِ طَلْعته علَىّ : ليتَمِّم محاسِنَ ماوصَفْته ، ويكمل الآلتذاذ بمـا شرحْتُه ؛ فعل إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة رقاع الآســـتِزارة

قال فى "موادّ البيان" : لايخلُو المستَزَار من الإجابة إلىٰ الحضُور أو التثاقُلِ عنه ، فإنْ حضَر علىٰ الفَوْر ، فلا جوابَ لمـا نَفَذ إليـه ، وإن وعَد الحضُورَ وتلَوَّم ليقْضِىَ شُغُلا ويحضر ، فينبغى أن يَبْنِى الجوابَ علىٰ سُروره بمـا دُعِى إليه ، وحُسْنِ مَوْقِعِه منه ؛ وأنَّ تَلوُّمه للعائق الذى قَطَعه عن أن يكون جوابًا عما وردَ عليه ، وأن حضُوره يَشْفَع رُقْعته . وإن أَيِس من الحضور ، وجبَ أن يبنىَ الجوابُ علىٰ مايمهِّد عُذْرَه ، ويقرِّرُ فى نفس مستَزِيره أنه لم يتأخَّر عن المساعدة علىٰ الأنس إلاقَواطِعَ صدَّت عنه ، يعْلَم المعتذَرُ إليه صِحَّتها لينحرس ما بينَهما من المودّة ، فإنَّ كثيرا ماتتفاسدُ الخُلَّانُ من مثل هذه الأحوال .

النـــــوع السابع

(فى ٱخْتِطاب المَودّة وٱفتتاح المكاتبــة)

قال فى " موادّ البيان " : الرِّقاع الدائرةُ بين الإخْوان فى ٱختطابِ المُعاشَره، وٱنماء المكاثره، وطلبِ الخُلْطة والمؤانَسة، يجب أن يقَدَّر الخطابُ فيها علىٰ أن يَصل المرغوبُ فى عِشْرته إلىٰ الٱنخراط فى سلك أحبائه، والٱنحياز إلىٰ أهل وَلَائه، ويبعَث علىٰ قَصْــده، فى الٱلتحاق بوُدّه، ويُدلّ علىٰ المـاحصه، والصَّـفاء والمخالَصه، وما جرىٰ هذا المَجْرىٰ ممـا يتعامل به أخِلَّاء الصِّدق، ويجعلونه مَهْرا لمـا يلتَمسُونه من الممـازَجه، ويرُومُونه من الٱختلاط والمواشَجَه.

قال : وينبغى أن يذهب الكاتبُ فى هذه الرِّقاع مَذْهبا لطيفا، ويُحْسِنَ التوصُّلَ إلىٰ الإفصاح عن أغراضها : ليأخُذَ بَمجامِـع القُلوب، ويُعِين علىٰ نَيْل المطْلُوب.

وهذه نسخ من ذٰلك :

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ لم يزَلْ مُذْ وقع طَرْفُه علىٰ صُورتِه، وولَجَ سَمْعَـه بعْدُ شِيمتِه، يُناجِى نَفْسَه بافتتاح مكاتَبتِه ومراسلَتِه، وٱخْتِطاب ممازَجتِه ومواصَلتِه، رغبةً فى الٱعتقاد بإخائه، والٱرتشاف من مَشارِع صَفَائه، والمقاديرُ تَطْوِى الطَّويَّة علىٰ ما فيهـا، والعوائقُ تمْطُل النيَّــةَ بَنجاز ماتَنْويه وتَلْويها، إلىٰ أنْ أذِنَ الله تعـالىٰ بإعْراضِ الأعْراض، وٱنقباض أســبابِ الٱنقباض، فأظهر المملوكُ مافى القُوَّه، واثقا من مَوْلانا بحُسْن المُرُوَّه، وأنه يوجب القَبُول بإجابته، ويُجِيب إلىٰ مساعدته، ويرضىٰ المملوكَ أهلا لٱصطفائه، ومحلًّا لإخائه، عالمًا بإيجابه للحقّ، والمعرفة بالسَّبْق، وأن تُلقىٰ هذه الرغبةُ بالقَبُول، ويسَلَّم إليها مفتاحُ المأمُول.

رقعـــة : لو كانتِ المودّةُ لا تحصُـل إلّا عن أُلْفة تالِدَة ، ومُواصلةٍ سالفة ؛ لم يستَطْرِف المرءُ صفيّا ، ولم يستحْدِث وَلِيّا . وما زال البُعَداءُ يتقارَبُون، والمتنا كِرُون يتعارَفُون ؛ ولمّـا نُمِيَ إلىٰ المملوك من أنبـاء مولانا ماتضَوَّع عِطْره ، وطاب نَشْرُه؛ سافرَ بالأمَلِ إليه، وقَدِم بالرَّغبة عليه؛ طالبًا الآنخراطَ فى سلك أوْليائه، والآختلاطَ بخاصَّــته وخُلَصائه؛ ومثلُ مولانا مَنْ أجاب السُّول ، وصَـدَّق المأمول ؛ والمملوكُ يرجُو أن تكْشف الأيامُ لمولانا منه عن خُلَّة صادقة ، ومَودّةٍ صحيحة، لا تضِيعُ معها إجابتُه، ولا تخسر صَفْقتُه .

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ مازال مُذْ وقع طَرْفُهُ علىٰ صُورته البَدْرِيّه ، وأحاط علمًا بخلائِقِه المَرْضِيَّه، راغبًا فى مُواشَجَته، باعثًا نَفْسه علىٰ آختطاب مودّته، وإكبارُه يُقْعِده ، وإعظامُه يُبْعِده ؛ فلَمَّـا تطاوَلَ يراعُ هِمَّتــه ، شجعَتْ علىٰ إنفاذ عَزْمتِـه ؛ فقدّم مكاتَبَته أمامَ مشافهتِه ؛ فإن حظِىَ بالإجابة وتنويل الطَّلِبَة ؛ فقدْ فاز قِدْحُه ، وتبَلَّج صُبْحُه؛ ونال مُنَاه، وبلغ رِضَاه، وصادَفَ هَناه، وَدِيدا موثُوقا بُوِدّه، مسكونا إلىٰ عَقْــده وعَهْده ؛ يحمَدُه عنــد الآختِبار، ويعرِفُ به صحّةَ رأيه عند الآختيار ؛ والمملوك يرجو أن يصِحَّ ماسأله وكفَله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ منْ عَمرَ اللهُ تعالىٰ بثَنائه المحَافل، وعَطَّر بأنبائِه الفَضائل؛ وأقام من مَسَاعِيه الكِرامِ خطيبًا يخْطُب بسُودَده وفَضْلِه ، ويُعْرِب عن شرف محْتِده وأُصْــله ؛ تطلَّعتِ الآمالُ للآنتظام فى سِلْك أحبَّائه ، وتشوّفت الهِممُ إلىٰ الآمتزاج بخُلَصائه وأوْليائه : لمـا يَضْفُو علىٰ المعتَصِم بعُرىٰ مُصافاته من لِباس جَمَـاله ، ويُحَلِّى المعتَـرِى إلىٰ وَلَائه من حِلىٰ جَلَاله ؛ وأحقُّ مَنْ أسـعَفَه مولانا بالمودّة إذا خَطَبها ،

وأجابه إلىٰ المُصافاةِ إذا طَلَبها ؛ مَنْ بدأه بالرَّغْبه ، ومَتَّ إليه بالمحبَّه ، لا لمُرْغِب ولا مُرْهِب ، وٱختاره لنَفْسه علىٰ عِلْم بكماله ، ومعرفةٍ بشَرفِ خِلاله .

وما زال المملوكُ مُذْ أطلعه اللهُ علىٰ ماخُصَّ به مَوْلانا من المحاسن المتعذِّرة إلَّا لديْه ، والفضائل المتَنِعة إلَّا عليه ؛ يَحُومُ علىٰ مَشارِعِ ممازَجتِه ولا يَرِدُها ، ويَرُومُ مواقِعَ مُواشَجتِه ولا يعتمِدُها ، إكبارا لقدره ، وإعظامًا لخَطَره ، وخوْفًا من تصَفُّحه ونَقْده ، وإبقاءً علىٰ ماءِ وجْهِه من رَدِّه ؛ والمملوكُ وإن كان عالمًا بأنَّ كَرمَ مولانا يَرْقَعُ الخَلَل ، وفضْلَه يُصَدِّق الأَمَل ؛ فإنه لا يَعْدَم مذ رَغِب فى قُرْب مولانا مالعَلَّه يجِدُه فيه ، ممَّا يُخالِفُ مذْهَبه ويُنافِيه ؛ إذ كان لا يبْلغُ تَضاهيه فى التَّمام وتَوافِيه ، إلىٰ أنْ أذِنَ الله تعالىٰ بأن أبلغ نَفْسه الأُمنِيَّه ، وأظْهر ماطُوِيَتْ عليه الطَّوِيَّه ؛ فكتب هذه الرُّقعةَ وجعلها فيما رامَهُ من الٱعتِلاقِ بحبْل مَوَدّته سَفِيرا ، وعلىٰ ماٱلتَمَسه من الٱنْضِمام إلىٰ جُمْلته ظَهِيرا ؛ وقَدِم بها عليه وظَنُّه يترجَّحُ من الإعراض إلىٰ القَبُول ، ثقةً بقُرْب نَيْل المأْمول ؛ فإن رأىٰ أن يُجيبه إلىٰ ماسأله ، ويَسُرَّه بتنويل ماٱقترَحَه ، فعل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

اختطاب المودّة ومفاتحة المكاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ :

وضاعفَ للممالكِ ببقائِه الٱنتِفاع ، وبٱرتقائِه الٱرتِفاع ؛ وسَرَّ بمحاسن نظره وخَبَره العِيانَ والسَّماع .

ولا زال للمحبِّين من وُدِّه عَطْفُ المتلَطِّف وللأعداء من بأْسِه خَطْفُ الشُّجاع .
أصدرها المملوكُ منْطويةً علىٰ ماعَهِد من صِدْق المحبَّه ، ووفاءِ العهُود المستَتِبَّه ، ودُرَر

المحامد التى لا تَسْوىٰ[1] لديْها دُرَرُ العُقُود حَبَّه ، مُبْـديةً لعلمه الكريم أنَّ المودَّات إذا صفَتْ ، والقلوبَ إذا تجنَّدتْ وتعارفَتْ ، حثَّت المحبِّين فى البِعاد علىٰ المفاتَحة بكُتُبهم ورسائِلهم ، والمخاطبةِ فى ظِلال الأوراق بألْسِنة أقلامهم من لَهَوَاتِ أنامِلهم ، إيثارًا لتجديد الأُنْس و إنْ صَحَّ المِيثاق ، وتذْكارا لخَوَاطِر الوُدِّ . وإن رسَخَتْ منه الأُصُولُ ونَمتِ الأَعْراق ، ولذٰلك فاتَحَ بها مخاطِبا ، وٱرتقَبَ لُمناديها بالأخبارِ السارَّة مُجَاوِبا ، نائبةً عنه فى مشاهدةِ الوَجْه الكريم ، ومصافَحَة اليَدِ فى حديثِ بِرِّها القدِيم ، تستطلع أخبارَه ، وتستعرِض أوطارَه ، وتُحيِّي بالسلامِ وجهَه وعَهْدَه ودِيارَه ، علىٰ يد فلان ، وقد حَمَل من المودَّات والمشافَهَات مايُعيـده علىٰ السَّـمْع الكريم المُنْعِم بإصْـغائه ، المُصْغِي بنَعْمائه ، المتْحِف بالمهِمَّات التى يحصُـل فوزُ القِيام بها ، والمشرِّفات التى كلُّ أسبابِ السُّرور متصلٌ بسببها ، والله تعالىٰ يُبْهِج من تِلْقائه سَمْعا ونظَرا ، ويُبْقِي عيشَ حاسده هَشِيما وعيشَ محبِّيه نَضِرا ، ويُدِيم رياضَ ذكره تاليةً علىٰ المسامع : ﴿فأخرَجْنا مِنْــه خَضِرا﴾ .

أجوبةُ ٱختطـابِ المَوَدّة

قال فى " موادّ البيان " : لايخلُو مَنْ يُرام ذٰلك منه من أن يُجِيب أو يعتَلّ ، فإنْ اجاب بنىٰ الجواب علىٰ وُقُوع رَغْبة المختَطِب أحسنَ مواقِعِها ، وٱبتهاج المختَطَب بها ، ومعرفتِه بقَـدْر ماراٰه أهلًا له ومسارعتِـه إليه ، و إن ٱعتلّ بنىٰ الجواب علىٰ أنه قد عَرَض له مايقصر عنه ، ولا ترضى نفسُه به ، وأنَّ العذر [ليس] بعادةٍ له فى المُزَايلة ، وطريقةٍ فى الٱنفراد والمجانَبَة .

---

(١) أى لاتساوى يقال سوى درهما يسوىٰ من باب تعب ومنعها أبو زيد . أنظر المصباح .

النـــــوع الثـامن

(فى خِطْبــة النِّســاء)

قال فى "مواد البيـان" : الرِّقاع فى ٱلتمـاس الصِّهْر والمواصَلة يجبُ أن تكونَ مبنيَّةً علىٰ وصْف المخْطُوب إليه بمـا يقتضِى الرَّغْبة ، ويدل الخاطب عن نفسه بمـا يؤدِّى إلىٰ الكِفَاية والإسعاف بالطَّلِبة .

قال : وينبغى للكاتب أن يُودِعَها من ألفـاظ المعانى المنتظِمة فى هـذا البابِ أوْقَعَها فى النُّفوس ، وأعودَها بتقريب المَرَام ، وأدَلَّـا علىٰ صِدْق القول فيما تكفَّله من حسن معاشرةٍ ، ولينِ معاملة ، وأنْ يذهب بها إلىٰ الٱختصار والإيجاز .

وهذه نسَخٌ من ذٰلك :

ممـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

وأفضلُ تِلكَ المواهبِ مَوْقِعًا وألطَفُها وأحمدُها عاقبةً ، وأرهنُها يدًا ، مايؤلِّفُ اللهُ به القُرُبات ، ويؤكِّد به الحُرُمات ، ويوجِبُ به الصِّلات ، ويجدِّدُ به المَكْرُمات ، ويُحْدِثُ به الأنْساب ، ويقوِّى به الأسْـباب ، ويكثِّر به من القِـلَّة ، ويجمَعُ به من الفُرْقة ، ويؤْنِسُ به من الوَحْشة ، ويُزادُ به فى الحُقوق وجُوبا ، وفى المودّات ثُبُوتا ، ثم لامثلَ لمـا كان لله طاعةً ورِضاء ، وبأمره أخذًا وٱقتداء ، وبكتابه قُدْوة وٱحتِذاء ، فاللهَ نسألُ الخِيَرَةَ فى قضائه ، والبركةَ فيما يقوم (١) بناؤك عليه .

(١) فى الاصل فيما يعزم .

ومنـــه : تصِلُ رَحِما، وتعْقِد سبَبا، وتُحدِث نَسَبا، وتُجدِّد وُصْلة، وتؤكِّد أُلْفة .

رقعـــة : مَنْ خصَّه الله تعالىٰ بمـا خَصَّ به سـيِّدى : من طَهارة الأعْراقِ والأنسـاب ، وشَرفِ الأخْلاق والآدابِ ؛ وأفردَه باجتِماع خِلَال الخـير المتفرِّقة فى الأنَام، وعطَّر بثنائه مَلَابسِ الأيَّام؛ رغِبَ الأحرارُ فى مُواصَلته، وهانَ عليهم بذْلُ الوجه فى آختِطاب ممازَجَته، وآلتمـاس مُواشَجته ومناسبَتِه؛ وجديرٌ من رُغِب إليه، وطُلب مالديْه؛ وآخْتِير للشابكَةَ فى الولَد واللُّحْمه، والمشاركةِ فى المـال والنِّعمه ـ أنْ يجيبَ ولا يمَنع ، ويصِـلَ ولا يقْطَع ؛ مصدِّقًا لأملِ من أفرده بآرتِيَاده ، وتوحَّده بآعتماده ؛ عارفًا له حقَّ آبتـدائه بالثِّقة التى لايجُوز ردُّ من آعتقَـدَها، ولا صَدُّ من حسَّن ظَنَّها؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أن [مضىٰ] للملوك مدّة طويلة [وهو يَبْحَثُ] متطلِّبا مَرْبَعا للتأهُّـل، مُؤْثِرا لِعمَارة المنْزِل، راغبًا فى سَكَنٍ تطْمئِنُّ النفسُ إليـه ، وتعتمِدُ فى الفَواتِح والمَصايِر عليه؛ وكُلَّمـا عُرِض للملوك بيتٌ أبَاه ، أو ذُكِر له جَنابٌ قطَع عنه رَجَاه : لعدم بعضِ الشروط التى يُرِيدُها فيه ، وتعذُّرها عليه ؛ فلمـا قَرَع سَمْعَه ذِكْرُ سيِدى، علِم أنَّه الغايةُ التى لامَرْقىٰ بعدها ، والنهايةُ التى لامَطْمَحَ وراءَها، وأنه قد ظَفِر بالثِّقة، ووصـل إلىٰ الأُمْنِيَّـة ، ووجد من يجمَع الخِلَال المرضِـيّة ويزيد؛ ويحُوز من الفضـل الشأْوَ البَعِيد ، وكتب المملوك هـذه الرقعةَ خاطبا كريمتَه فلانة [ليكون لهـا] كالغِمْد الضامِنِ للمهنَّد ، والجِلْد الحافظ للمجلَّد؛ ويكونَ لمولانا كالولَد البَرِّ بأبِيه ، ولأخيها كالصِّنو الشفيق علىٰ أخِيـه ؛ فإنْ رأىٰ سيدى أن يتدبَّر ما كتبه المملوكُ ويتَسَمَّعَ من توكيد رُقْعته ماحمَلَتْه، ويجيبَه إلىٰ ماسأله فله عُلُوُّ الرأْيِ فى ذلك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رُقْعــة : ويُنْهِى أنَّ مَوْلانا بمـا تمَّم اللهُ تعالىٰ من محَاسـنه ومنَاقِبه، جديرٌ أن يَلْقىٰ مَنْ خَطَب الاعتصامَ بعُرىٰ ممازجَتِه، وسعىٰ فى نَيْل عُلَقه من مُواشجته، بالقَبُول، القاضى بنَيْـل المأمُول، ودَرْكِ الرَّغَب والسُّول؛ ولا سِيَّمـا إذا كان عارفًا من سُمُوِّ خَطَره، واعتلاءِ قَدْره، مايقْضِى عليـه بخَفْض الجَنَاح فى معاشَرته، وغَضِّ الطَّرْف فى معامَلتِـه، والوُقُوف دُونَ درَجة المساواةِ والممـاثَلهْ، والتزَحْزُح عن رُتْبَة المُبـاراة والمُطاوَله؛ والانتظامِ فى سِلْك الأتباع والحاشيه، والخُدَّام والغاشيه؛ وكثيرًا ماوجد المملوكُ البركَةَ فى مشاركةِ مَنْ هذه صفَتُه أوفَرَ منها فى مشاركةِ النُّظَراء، وكانت العاقبةُ فى مشابَكَة مَنْ هذه حالُه أجملَ منها فى مشابَكَة الأَكْفاء؛ الذين يُصادِفُون فى الحقُوق شَطَطا، ولا يغُضُّون عن يسـيرِ الواجباتِ تبَسُّطا : لأنهم يرَوْن أنَّ الوُصْـلة ممَّنْ داناهم فى الرُّتْبــة والمنْزِلة ليستْ عائدةً عليهــم بشَرَف، ولا مُظْهِرةً لهم من خُمُول. ولأَنْ يَستخْلِصَ مثْلُ سـيِّدى من الرؤَساء، مثلَ المملوكِ من الأوْلياء، ويختَصَّه بأَثْرة الاجتباء والاصْطِفاء؛ فيكُونَ مَفْخَرُه إليه منْسُوبا، وما يرقِّيه الله تعالىٰ إليه ببركَته من دَرَج الفضل فى نفسه محسُوبا؛ أوْلىٰ من طلَبِ مُمـاثِل يُناوِئُ بقَدْره ويُطاوِل. علىٰ أنه لو طلَبَ ذٰلك لطَلَب مُعْوِزا، ورام مُعْجِزا : لمـا أفرده اللهُ تعـالىٰ به من السِّـيادة التى لايُترامىٰ إلىٰ منْزِلتها، ولا يُتَسامىٰ إلىٰ مُطاوَلتِها؛ وإذا كان النظيرُ معْدُوما، والكُفُؤ مفقُودا؛ ولو وُجِد لمَـال متسلِّطا، ووقَع سومُه (١) منبَسِطا؛ ومَوْلانا يُطْلَبُ إليــه ولا يَطْلُب، ويُرْغَب فيما عنـده ولا يَرْغَب، فقد سَهُلت السبيلُ إلىٰ ما يرُومُه المملوكُ من جِهَتِه؛ ويؤْثِرُه من مُواصَلته؛ واتَّسع المجَال فيما يُقْدِم عليـه من الرَّغْبــة فى تقليده شَرَف مُصاهَرَته، وإضافَتِه بذٰلك إلىٰ بِطَانته وأهل خاصَّـته؛ ويُخْرِجه علىٰ ما يُخْرِج عليــه الوالدُ ولده، والسيِّدُ عبَـدَه؛ وقد حَمَّل المملوكُ موصِّلَ

(١) لعله يشير إلى المثل العربى «عرض عليه سوم عالة» يضرب لمن يعرض عليك ماأنت عنه غنىّ تأمل.

مطالعته هذه مالم تسعْ إيداعَه المكاتبة، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُصْغِيَ إليه ويُجيبَ عبْدَه بمـا يعتَمِدُه المملوكُ فى ذلك فله الفضْل، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعــة : ويُنْهِى أنــ لذوِى المَناجب الطيِّبةِ الأنساب، والمَناحت الزَّكيَّـة الأحســاب ، والأخلاقِ الكريمةِ والآداب ، بين الأنام لِسانَ صِـدق يخطب لهم بالمَحاسن والمَحامد، ويُعَطِّر بثنائهم الصادرَ والوارِد، ويدْعُو القلوبَ إلىٰ نَيْل عُلَقه من ممـازَجَتِهم، والتمسُّـكِ بطَرَف من مُواصـلتهم؛ وقد جمعَ اللهُ لمولانا من كريم المُتْلَد(١) والمُطْرَف، وقَدِيم وحديثِ الفضـل والشَّرَف ، ماتفرَّق فى السِّيادات، وتوزَّع علىٰ أهل الرياسات؛ وجعله فى طَهَارة المَوْلِد، وطِيبة المَحْتِد، واستكمالِ المآثِر، واستِتْمامِ المَفَاخِر، عَلَمـا ظاهِرا ، ونجْما زاهِرا؛ فمـا مِنْ رئيس سِوىٰ مولانا تُعْجِزه خَلَّة من خِلَال الرياسة إلا وجدَها لديْه ، ولا نفيسٍ تُعْوِزُه خَصْـلةٌ من خِصال النَّفاسة إلَّا استماحها من يدَيْه ؛ ولذلك امتدّتِ الأعناقُ إلىٰ التمسُّك بحبْله ، وتطلَّعتِ الهِمَمُ إلىٰ مُواشَجتِه فى كريمِ أصْله ؛ وصار مرْغُوبا إليه لاراغِبا ، ومطلوبًا لدَيْه لاطالِبا ؛ وهو جديرٌ بما وهبَهُ الله من هذا الفضل الذَّائع، والنُّبْل الشائع، أن يُجِيب سائلَه ، ويصَدِّق آملَه، ولا يتجَهَّمَ فى وَجْه قاصِده، ولا يرُدَّه عن مَقْصَده؛ ولا سيَّما إذا كان قد أسلَفَه الظنَّ الجميل، وبدأه بالثِّقةِ والتأميل؛ وتعذَّر عليه قدرُ العارف بقَدْره، العالِم بخَطَره؛ المرتضى بشرائِطه، النازل علىٰ حكمه، المتدَبِّر برأيه؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ المملوكَ مُذْ نشأ وصَلَح للتأهُّل مرغوبٌ فيه، مخطوبٌ إليه؛ من عِدّةِ جهاتٍ جليلة ، وجَنَباتٍ رئيسة ؛ والمملوكُ صادٌّ عن الإجابة ، صارفٌ عن المطاوعَة : لشُذُوذ بعض الشُّروط التى يرُومُ أن يَكون مجتمعةً فى النَّسب ، الذى أَعُـدّه شريكًا فى الوَلَد والنَّشَب ؛

(١) المتلد (أى كمكرم) ماولد عندك من مالك أو نتج ومال متلد قديم .

ومُفاوضًا فى الحال والسَّبَب، مرتادُ من يقْنَع بالموافقه، ويرتضِ بالعِشْرة والمرافَقَه؛ حتَّى أفضىٰ فى الِانتقاد إلىٰ مولانا فوجد المُرادَ علىٰ آشتراط، وألفىٰ المقصودَ علىٰ آشتطاط؛ فدعاه ذٰلك إلىٰ التهَجُّم بعد الإحْجام، وحمله علىٰ التجاسُر والإقْدام؛ والتوسُّلِ إلىٰ مولانا بما يتوسَّل به الأحرار، إلىٰ الأخيار، وأمَّه بصادِقِ الرغبة وصميم المحبة والانبساط، فى خِطْبة كريمته فلانة؛ علىٰ أنْ يعاشِرَها بغاية الأُنْس، ويَصْحَبَها صُحبةَ الجسَد للنَّفْس؛ ويَعْرِفَ لها من قَدْر أبوَّتها وأُمومتها ماتستحِقُّ برياستها، وقد أصدر هذه الرقعةَ نائبةً عنه فى ذٰلك؛ فإنْ رأىٰ مولانا أن يُتْحِفَه بالقَبُول، ويجعله أهلا لإجابة السُّول، فله الفضل فى ذٰلك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن النادر الغريب ماذكره الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبي فى "حُسْن التوسُّل" فى الكتابة إلىٰ شخص فى تزويج أمه، وهو :

هذه المكاتبة إلىٰ فلانٍ ـ جعله الله ممن يُؤْثِر دينَه علىٰ الهْوىٰ، ويَنْوِى بأفعاله الوقُوفَ مع أحكامِ الله تعالىٰ فإنما لكُلِّ آمرِئٍ ما نوىٰ؛ ويعلَمُ أنَّ الخَيْر والخِيرَةَ فيما يسَّره الله من سُنَّة نبيه صلَّى الله عليه وسلم وأنَّ الشرَّ والمكروهَ فيما طوىٰ؛ نُعَرِّض له بأمرٍ لاحرجَ عليه فى الإجابة إليه؛ ولا خَللَ يلْحَقُه به فى المُروءة وهل أخَلَّ بالمُروءة مَنْ فعل ماحَضَّ الشرْعُ المطَهَّرعليه؟ وأظهَرُ الناس مُروءةً من أبلغَ النفْسَ فى مَصالح حُرَمه عُذْرَها، ووَفَّى من حقُوق أخصِّهنَّ ببِرِّه كلَّ ماعلم أنَّ فيه بِرَّها؛ وإذا كانت المرأة عَوْرة، فإنَّ كمالَ صَوْنها فيما جعل اللهُ فيه سَتْرَها، وصَلاحَ حالها فيما أصلحَ اللهُ به فى الحياة أمْرَها، وإذا كانتِ النساءُ شقائقَ الرجال فى باطن أمرِ البشَرِيَّة وظاهِره، وكان الأولىٰ تعجيلَ أسبابِ العِصْمة فلا فرقَ بين أوْقِ [وقت](١) الاحتياج [إلىٰ ذلك](٢)

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٦ .

وآخره ؛ وما جدَع الحلالُ أنْفَ الغيْرة إلّا ليزُولَ شَممُ الحَميَّه ، وتنْزِلَ علىٰ حكم اللهِ فيما شرَعَ لعباده النُّفوسُ الأبِيّه ، ويُعْلَم أنَّ الفضلَ فى الآنقياد لأمرِ اللهِ لافى آتِّباع الهوىٰ بعَضْلِ الوليِّه ، وإذا كان بِرُّ الوالدة أتمّ ، وحقُّها أعمّ ، والنظرُ فى صَلاح حالها أهمّ ، تعيَّنت الإجابةُ إلىٰ مايصْلُح به حالُها ، ويسكُنُ إليه بالُها ، ويتوفَّر به مالُها ، ويعمُر به فنَاؤُها ، ويحصُل به عن تقلُّد المِنَن آستِغْناؤُها ، وتحمُلُ به كُلْفَـةَ خَدَمِها عنها ، وتُدفَع به ضَروراتٌ لابُدّ لذَوات الحِجابِ والحِجالِ منها ، ويَضْـفُو به سِـتْرُ الإحصانِ والحَصَانة عليها ، ويظْهَرُ به سرُّ ماأوجبه الله لها من تتبُّع مَواقِعِ الإحسانِ إليها .

وقد تقدّمَ من ساداتِ السَّلَف مَنْ تولّىٰ ذٰلك لوالدته بنَفْسه ، وآعتدَّه من أسباب بِرِّ يومِه الذى قابل به ماأسلفَتْه إليه فى أمْسِه ؛ عِلْمـا منهم أنَّ آستكمال البِرِّ ممـا يُعْلى قدْرَ المرءِ ويُغْـلى ؛ وقد أجاب زيدُ بنُ زينِ العابدين هِشامًا لَمَّـا سأله : لِمَ زوّجت أمَّك بعدَ أبيك؟ فقال : لتبشّر بآخَرَ مِثْلى ، لاسِيَّمـا والراغبُ [إلىٰ المولى] (1) فى ذٰلك ممن يُرْغب فى قُربه ، ويُغْبَط علىٰ مالَدَيْه من نِعَم ربِّه ، ويعظُم لِاَجتماعِ دُنْياه ودِينه ، ويُكْرَم ليُمْن نَقِيبتِه وجُود يمينِه ؛ ويعْـلَمُ أنَّ العقيلة تَحُلُّ منه فى أمْنَع حَرَم ، وتستظلُّ من ذَرَاه بأضفىٰ سُتور الكَرَم ، مع آرتفاعِ حَسَـبه ، وآشتهارِ نَسَبه ، وعلُوِّ قدْره فى مَنْصِبه وحالِه وسبَبِه ، وأنه ممن يُحْسِنُ أن يحُلَّ من المولىٰ محَلَّ والِدِه ، وأنْ يتجمَّل من ذُرِّيته بمن يكون فى الملمَّات بَنَانًا ليَدِه وعَضُدا لساعِدِه ؛ فإنَّ المرءَ كثيرٌ بأخِيه ، وإذا أُطْلِق عليه بحكم المَجاز لفظُ العُمُومة ، فإنَّ عمّ الرجل صِنْوُ أبِيـه ؛ وأنا أتوقَّع من المولىٰ الجوابَ بمـا يجْمَع شَمْل التُّقىٰ ، ويُعْـلَم به أنه تَخَيَّر من البِرِّ أفضلَ مايُنْتقىٰ ؛ ويتحقَّقُ بفعْله أنَّ مثلَهُ لايُهمِل واجِبًا ؛ ولأمرٍ مّا قال الأحنفُ وقد وُصِف بالأناة : لكِنّى أتعجَّلُ أنْ لا أردَّ كُفُؤا خاطِبًا .

---

(1) الزيادة من "حسن التوسل" .

النــــوعُ التـاسعُ

(فى الاِستِرضاء والاِستعطاف والاِعتِذار)

قال فى " موادّ البيان " : المكاتبةُ فى آستِعْطافِ الرُّؤساء ، ومُلاطَفة الكبراء ، تحتاج إلىٰ حُسْن تأتٍّ : لمـا تشتمِلُ عليـه من إيجاب حُقُوق الخدمة ، وما أسلَفُوه من مَرْعِىّ الخِدَم ، وما يَتْبع هـذا من التنَصُّل والاعتِذار الذى يسُلُّ السخائمَ من القُلوب ، ويستنزِلُ الأَوْغار من الصُّدور ، ويُطْلِـع الأُنْس وقد غَرَب ، ولها موْقع فى تأليف الكلام .

قال : وينبغى للكاتبِ أنْ يستعمِلَ فيها فِكْرَه ، ويُوفِّيَها حقَّها من جَوْدة الترتيب ، وآستيفاءِ المعانى ، وأنْ يذهبَ إلىٰ آستعمالِ الألفاظ الجامعـةِ لمعانى العُذْر ، الملَوِّحة بالبَراءة ممـا قُرِف به (١) ، ولا يُخْرِج لفظَه مُخْرَج من يُقِيم الحجـةَ علىٰ براءةِ الساحة ممـا رُمِى به ، فإنَّ ذٰلك ممـا يَكْرهه الرؤساء : لأنَّ عادتَهـم جاريةٌ بإيثار آعترافِ الخُدَّام لهم بالتقصير والتفريط والإخلالِ بالفُروض : ليكونَ لهم فى العَفْو عند الإقرار عارفةٌ توجبُ شكرا مستأْنَفا ، فأما إذا أقام التابعُ الحجةَ علىٰ براءتِه وسلامتِه ممـا رُفِع عنه ، فلا يُوضَع الإحسان إلا إليه (٢) فى إقراره علىٰ منْزِلته ، والرِّضا عنه والاِستعطاف ، بل ذٰلك واجبٌ له ، فى منْعِه منه ظُلْمٌ .

---

(١) فى الاصلين «ممـا قرب منه» وهو تصحيف من الناسخ .

(٢) المراد أن إقراره والرضا عنه ليس من الاحسان بل من الواجب تأمل .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

لأبى الحســين بن سعد :

فإن رأيتَ أن تنْظرَ فى أمرى نظَرا يُشْبِه أخلاقَك المرضِيَّة ويكونُ لحسن ظَنِّى بك مصَدِّقا، ولعظيمِ أمَلِي [فيك] محققا، ولِمَـا لم تزل تَعِـدُنيه مُنْجزا، ولِحقِّ حُرْمتِي بك وقديم ٱتِّصالى بأسبابك قاضِياً، فعلت ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومنـــه : لسليمانَ بنِ وَهْب .

مَنِ ٱنصرَفَ فى الٱحتجاجِ إلىٰ الإقرار بمـا يَلْزَمه و إن لم يكن لازما، فقد لَطَّف الٱستعْطاف، وٱستوجب المسامحةَ والإنْصاف .

ومنـــه : وقد نالَنِي من جَفْوة الأمير بعـدَ الذى كنْتُ أتعَرَّف من بِرِّه وألطافه أمْرٌ أحلَّنِي مَحَلَّ المُذْنِب فى نَفْسى مع البَراءة من الذَّنْب ، وألزَمنِي الإساءةَ مع الخُروج من التقصـير، وزاده عِنْدى عِظَما وشِدّة أنِّى حاولْت الخُروجَ منـه بالٱعتِذار، فلم أجِدْلى إلىٰ الأمير ذَنْبا أعتذر منـه ، ولا علَىَّ فيما ألزمَنِي من مَعْتَبَته حجةٌ أُحاوِلُ دَفْعها والتخلُّصَ منها؛ فأصبحْتُ أُعالِجُ من ذٰلك داءً قد خَفِىَ دَواؤُه، وأُحاوِلُ صلاحَ أمْرٍ لم أَجْنِ فَسادَه؛ فإن رأيتَ أن تفْـعل كذا وكذا فتصِـلَ قَدِيم مااصبَحَ عنـدى من معْروفِك بحديثه ، فليس عِنْدى فى مطالبةٍ حجّةٌ أنجَحُ من التوجُّه إلىٰ الأمير بنَفْسه ، والثقةِ عنده بفَضْله، فإن كنتُ مُذْنِبا عَفَا، وإن كنتُ بَرِيئًا راجع .

ومنـــه : لأبى علىّ البصير .

وأنا أحدُ منْ أسكنْتَه ظِلَّك، وأعلَقْتَــه حَبْلك ، وحبَوْتَه بلطيف بِرِّك ، وخاصِّ عنايَتِك، وٱنتصفَ بك من الزَّمان، وٱستغنىٰ بإخائِك عن الإخْوان ؛ فهو لا يَرْغَبُ

إلّا إليك ، ولا يعتمد إلّا عليك ، ولا يستنجح طلبه إلّا بك ؛ وقد كان فرط منّى قولٌ : إن تأوّلته لى ، أراك أوجه عذرى ، وقام عندك بحجّتى ، فأغنانى عن توكيد الأيمان على حسن نيّتى ، وإن تأوّلته علىّ ، أحاق بى لائمتك وحبسنى على [أسوإ](١) حال عندك ؛ وقد أتيتك معترفا بالزّلة ، مستكينا للموجدة ؛ عائذًا بالصّفح والإقالة ، فإن رأيت أن تقرّ عينًا قرّت بنعمتك عندى ، ولا تسلبنى منها ماألبستنى ، وأن تقتصر من عقوبتى على المكروه الذى نالنى بسبب عتبك علىّ ، وتأمر بتعريفى رأيك بما يطامن هلعى ؛ وتسكن إليه نفسى ، ويأمن به روعى ، فعلت ؛ إن شاء الله تعالى .

ومنــه : لابى الحسين بن أبى البغل .

نبوّ الطّرف من الوزير دليلٌ على تغيّر الحال عنده ، والجفاءُ ممن عوّد اللهُ البرّ منه شديدٌ ؛ وقد آستدللتُ بإزالة الوزير إيّاى النّحل الذى كان نحلنيه بتطوّله ، على ما سُؤت له ظنّا بنفسى ؛ وما أخاف عتبا : لأنى لم أجن ذنبا ؛ فإن رأى الوزيرُ أن يقوّمنى لنفسى ، ويدلّنى على مايريده منّى ، فعل ؛ إن شاء الله تعالى .

ومنــه : لأبى الرّبيع .

أصدقُ المقال ، ماحقّقه الفعال ، وأفضلُ الخبر ، ماصدّقه الأثر .

ومنــه : لمولانا سيرةٌ فى الفضل والإحسان ما أمّلها آمل إلّا جادت وسخت ومنحت ، وعوائدُ فى العفو مارجاها راجٍ إلّا صفحت وسمحت ؛ وأحقُّ من تلقّاه عند العثار ، بالإقالة والاغتفار ، ووقف به عند حدّ التقويم والإصلاح ، ولم يعرّضه

(١) فى الاصل "على ماأحاق" تأمل .

لنَقيصــة الإقْصاء والاطِّراح، مَنْ شفَع الهَفْوةَ بالاعتِذار، وخطبَ التغَمُّد بلسان الإقْرار، ودلّت التجارِبُ منه علىٰ حَسْم الأضْرار، وكان له من سالف الخدَم وسائلُ وذَرائع، ومن صَحيح الإخلاصِ ممهِّد وشافِـع؛ فلا عَجَبَ أنَّ المملوكَ يَهْفُو فيعْفُو، ويَظْلِم فيكْظِم، ويجهَل فيَحْلُم، ويُخْطِئ فيُصيب، ويدْعُو متنصِّلا فيُجيب؛ وقد جعلِ الله سَهْمَه المعَلَّى، ويَده الطُّولى، وألهمه التفضُّـلَ بالإنْعام، والتغميضَ عن زَلَّات الكِرام؛ وقد حصل للمملوكِ فى هــذه النَّبوة من إزْرائِه علىٰ عقْله، وتقْبِيحه لفِعْله؛ أعظمُ تجْرِبه، وأكبرُ مأْدَبه؛ والمملوكُ يسألُ إحسانَ سـيِّدى أن يُعيــدَه إلىٰ رضاه ولُطْفه، ويؤْنِس منه مستَوْحِشَ إقبالِه وعَطْفه؛ ويصَــدِّقَ رجاءَه فيــه، ويُجْزِلَ ثوابَ وِفادتِه عليه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : المملوكُ يخْطُب صَفْحَ سـيِّده وإقالَتَه بلسانِ الاغتفار، ويسـتَعيدُ ماعَرَف من رِضاه وعاطِفَتِــه بوَسائِل الاعتِذار: ليكونَ المتفضِّلَ فى كلِّ الحالات، والمنعِمَ من كلِّ الجِهات؛ وقد عرفَ السَّهْوَ والنِّسيان، المعْتَرِضين للإنسان؛ وأنَّهما يَحُولانِ بينَهُ وبينَ قَلْبه، ويُزَوِّرانِ عليه خَطَأه فى صُورةِ صوابِه؛ فيتورّطُ فى السَّقَط غيْرَ عامد، ويتهوَّرُ فى الغَلَط غيْرَ قاصد، وقد قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَـانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَـا عَقَّـدْتُمُ الْأَيْمَـانَ ﴾ . وما أوْلىٰ موْلانا بأن يحْفَظَ علىٰ المملوكِ جميــلَ آرائه، ولا يَسْلُبَه ماشَمَله من ظلِّ آلائه؛ ولا يَسِمَه بمِيسَمِ العُقُوق فإنه يجدُ نفْسَه بخلاف ذٰلك فى طاعَتِه، ومرتَبَتَها بغير هذه الرتبةِ فى خِدْمته .

فصـــل : وقد آوىٰ سـيدى المملوكَ من ظله، وأعْلَقَه من حَبْله، وأسبغ عليه من فَضْله، ماأنْصفَه به من الزَّمان، وأغْناه عن الإخْوان، ووَقَفَ رَغَباتِه عليــه، وصَرَف آمالَهُ إليه، ونَزَّله مَنْزِلةَ مَنْ لايشُكُّ فى اعتقاده، ولا يستَرِيبُ بوِدَاده؛ وكان

المملوكُ أرسل لَفْظا علىٰ سبيلِ الإشْـفاق ذهَبَ به الحاسدُ إلىٰ غير معْناه ، وخالف فى تفسيرِه حقيقةَ مَغْزاه، وأحاله عن بِنْيته، وعرَضه عليه علىٰ غيْر صُورَته : لِيُوحِشَ محلَّ المملوك المأنوسَ من رِعايَتِـه، ويُنَفِّر سِرْبَه المطمئنَّ بملاحظتِه وعِنَايتِـه ؛ وقد أرسل المملوكُ هذه العُبوديَّةَ سائلا فى مَحْو إظلام مَوْجِدته، وأن يُعيدَ المملوك إلىٰ مَكانه من حَضْرته، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

لا أتوَسَّلُ إلَيْك إلّا بك، ولا آتيكَ إلا مِنْ بابِك، ولا أستشْفِـعُ إليك بسِوَاك، ولا أَكِلُ رَجْعةَ هوَاك إلّا إلىٰ هوَاك، ولا أنتظِرُ إلّا عَطْفَتَك التى لاتقُودُها زخارِفُ الأموال، ولا تُعيدُها شفاعاتُ الرجال :

إذا أنْتَ لم تَعْطِفْكَ إلَّاشفاعةٌ * فلا خَيْرَ فى وُدّ يكونُ بشَافِعِ

شعر فى معنىٰ ذلك :

هَبْـنِى تخطَّيتُ إلىٰ زَلَّـةٍ * ولم أكُنْ اذنَبْتُ فيما مَضىٰ!
ألَيْسَ لِى مِنْ قَبْلِها خِدْمةٌ * تُوجِبُ لى منْكَ سَبِيلَ الرِّضىٰ!

غـيره :

وَحَقِّـكَ ما هَجَرْتُكَ مِنْ مَلَالٍ * وَلَا أَعْرَضْتُ إلَّاخوفَ مَقْتِ!
لِأنَّ طَبَائِـعَ الإنْسـانِ ليْسَتْ * علىٰ وَفْقِ الإرادَة كُلَّ وَقْتِ!

اعتذار عن التأخر، من ترسل أبى الحسين بن سعد .

إنْ لم يكُنْ فى تأخُّرِى عنْك عُذْرٌ تقبَلُه، فاجعَلْه ذَنْبا تَغْفره .

علی بن خلف :

الأعذارُ ـ أطال اللهُ بقاء سيِّدى ـ تنْأىٰ علىٰ الآمتناع ، وتضيق علىٰ الآتِّساع ؛ وذٰلك بحسَبِ ماتُصادِفُه من قبُول وردّ ، ومسامحةٍ ونقْـد ؛ وأنا أحمـدُ اللهَ علىٰ أن جعلَ عُذْرى إلىٰ من يتَمَحَّل العُذْر للمُعتَذِر ، ويصْفَح صَفْح المـالك المقْتَدِر ، كأنَّمـا ائْتَمَّ بقول الشاعر :

إذَا ماأتَتْ من صاحِبٍ لك زلَّةٌ * فكُنْ أنتَ مُحتالًا لزَلَّتِـــه عُذْرا

ولم يجعَـلْه إلىٰ من يُغَلِّب هاجِسَ الظُّنون ، علىٰ واضِح الحُجَّـة ، ومعتَلَّ الشكِّ علىٰ صحيح اليَقِـين . ونُمِيَ إلىّ أنَّ غابطا لمكَانى من حَضْرته ، حسـدَنِى علىٰ محلِّ من مودّتِه ، وزوّر ماينْكَشِفُ عن الإفك والبُهْتان ، ودلَّس الكذِبَ فى صُورة البُرْهان ؛ فلمـا جَلَّاه فى مَعارِض زَخارِفِه أظهر لسيدى عُوارَه ، وأبدىٰ لطَرْفه شُوَارَه (١) ؛ فشَلَّ سمْعَه عن وَعْيِـه ، وطَرَف طَرْفَه عن رَعْيِـه ، وآستنَمَّ عَلَائِمَ شيمتِه ، فى حُسْن الظنِّ بأحبَّته ؛ فقدَّمتُ من الآعتذار مايُقدِّمُه المذنبُ نُزُولا علىٰ طاعتِه ، وتأدُّباً فى خِدْمته ، وشفعْتُه من الشُّكْر بمـا يقتضيه إحسانُه ويوجبه .

أبو الفـــرج الببغاء :

أحقُّ المَعاذير بالتقبُّل وأوْلاها بسعَة القلُوب ماصدَرَ عن آستِكانةِ الأقْدار ، ودَلَّ علىٰ حَسْم موادّ الأضْرار ، وصَفَا من كَدَر الآحتِجاجات ، وتنزَّه عن تمَحُّل الشُّبُهَات : ليَخْلُص به مِلْكُ العفْو ، وتتكامَلَ نِعمةُ التَّجَاوُز . ولستُ أكْرَه شرَفَ تأْديبه ، ونُبْلَ تثقيفه وتهذِيبه ؛ مالم يتجاوَزْ فى العـقُوبة والتقويمِ إلىٰ مُؤْلِمِ الإعْراض ، ومَضيض

---

(١) أى عيبه وشل سمعه أى طرده والمراد أنه لم يصغ اليه .

التنكُّر والاْنقباض؛ ولا أخطُبُ الإقالةَ من تفضُّله إلاَّ بلسانِ الّثقة وشافعِ الخِدْمة ، هارباً إلىٰ سَعَة كرمه مما دفعتْنِي المحبَّةُ إليه، وأشفىٰ بى عدَمُ التوفيقِ عليه؛ فإنْ رأىٰ أنْ يكونَ عِنْدَ أحسنِ ظنِّى به فى الصَّفْح، كما هو عِنْد أصدقِ أملى فيه بالإنعام، فَعَل .

وله فى مثـــله :

ليس يَخْلُو الإغْراقُ فى التنصُّـل والمبالَغةُ فى الاْعتذار من إقامةِ لحُجَّة، أو تمسُّك باعتراضِ شُـبْهة، وأنا أُجِلُّ ما أخْطُبــه من عظيم عَفْوِه ، وأُكْبِر ما أُحاوِلُه من نِعمةِ تجَاوُزه، عن المقابلةِ بعينِ الاْعتراف بالزَّلَل و بعدالاْستحقاق من الصَّفْح، مالم يُوجِبْ لى بَسَـعَة تأوُّله ، ويَعُدْ علىّ فيه بعاداتِ تفضُّله : لتصْفُوَ منه الأعْضاء، وتلْزَمَنى واجباتُ الشكر والثَّناء؛ غيْرَ ممتنِـعٍ معَ ذٰلك من التبَرِّى إليه مما أَنْكَره من تجَاوُزِ السَّهْو إلىٰ العـمَل، والتوجُّه إلىٰ مافَرَط بالاْختيار والقَصْـد اللذيْنِ يُغْفَر بتجنُّبهـما مذْمومُ الأفعال، ويُتَغمَّدُ سَيِّءُ الأعمال؛ فإنْ رأىٰ أن يحمِلَ أمْرِى فيما قصدَتْنِى الأيامُ بتوجُّه الظُّنُون فيـه علىٰ غيْرِ النية لاظاهرِ الفعل، إذ كانتْ صـفاتُ الإنسانِ بالأشْهر من أخلاقه والأكْثرِ من أفعاله، ولا صِـفةَ لى أعْرَفُ بها وأُنْسَب إليها غيْرَ الاْعترافِ بإنعامه ، والتَّطاوُلِ من اصــطناعه، آخذًا من كلِّ حال بالفَضْـل ، ومشَفَّعا بَسْطة الرياسة والنُّبْل .

وله فى مثــله :

لستُ أخلُو فى المُدّة التى تجاوَزَ الدهرُ لِى عَنْها فى خِدْمتِـه من توصُّـلٍ بفَرْط الاْجتهاد ، إلىٰ ماوَصَل من رَأْيه إلىٰ رُتْبَة التقبُّل والإحْماد ؛ وليس يَحْبَطُ ماأَتيْتُه من مرضىِّ الخدمة بالنيَّة والعمْد بما لعَلَّه فَرطَ من غيرمُراد؛ إذ كان ــ أيده الله بفائض

طَوْله، ومأثور فَضْله ـ آخذًا من آداب الله بما أحاكمه منه (١) : ﴿ إنَّ الحَسَنات يُذْهِبْنَ السَّيِّئات ﴾ . و [لو] لا إيثارى (٢) مفترَض الطاعة وآستِكانةَ الاعتداد، وأن لا أخْطُب رضاه بلِسَان الاحتجاج، ولا ألْتمِس عفْوَه بوجُوب الاستحقاق : لتسْلَم له صِفاتُ التفضُّل، ولى موَاتُّ الاعترافِ بسالِف التطَوُّل؛ لبرهَنْتُ علىٰ سَلَامتى مما قُصِر علىّ بتوجُّه الظُّنون وآعتراضِ الأوهام؛ ولا أقول بشعَثِ النيَّـة وفَساد الرأْى؛ فإن رأىٰ أن يحفَظَ ما آبتدأه مُخْتارا من آصْطِناعى بمـا يصُونُه عن التنكُّر، ويَصُونَ عادتى فى شكرِ ذٰلك والاعتدادِ به عن الفُتُور والتغيُّر، فعل .

أجوبة الآسترضاء والآستعطاف

قال فى "موادّ البيان" : لايخلُو المعتذَرُ إليــه من أمرين : أحدُهمــا أن يقْبَل العذْرَ، والآخر أنْ يستمِرَّ علىٰ المَوْجِدَة و يرفُض مايأتى به من حُجَّة؛ فإن كان قد قبِل العُذْرَ، وجب أن يبنىٰ الجوابُ علىٰ وُصُول الكتاب، والوُقُوف عليه، والتقبُّل لمـا تضمَّنه ، وتبرئةِ المعتــذِر عن الحاجة إلىٰ الاعتِذار ، والانقياد إلىٰ الاعتراف بالجُرْم والإقْرار، إكرامًا لخُلَّتــه عن التُّهَمة، وللمودّةِ عن الظِّنَّـــة : فإن الأمر الذى أوجب العُـــذرَ لو صدر منــه ، لاقتضىٰ ودادُه التأوّلَ له بأنَّه ما صــدر إلا عن باطِنٍ سليم ومصلحةٍ أوجبتــه . قال : وليس هــذا المعنىٰ هو الذى يُجاب به مَنْ قُبِل عُذْره فقط : لأنه يجوز أن يجيب بأنه قد قَبِل العُذْر، وصفَح عن الجُرْم، علىٰ أنْ لايعودَ إلىٰ مثله . وإن آستمرَّ علىٰ القصــد (٣) ، بنى الجوابُ علىٰ إبطال العُذْر ومعارضتِه بمـا

(١) كذا فى الاصل ولعله « إليه » .

(٢) فى الأصول «ولا ايثارى على مفترض .... ألا أخطب الخ» .

(٣) أى قصد الصدّ وبقى على هجره ولم يقبل الاعتذار .

يقتضيه ؛ والدلالة علىٰ خطإ المعتَذِر، وأنه مما لايسُوغُ الصفحُ عنه، ولا يليق بالحَزْم إقالتُه .

قال : وهذانِ معنيانِ يَحْملان من العبارة مالا يكادُ ينْحصر فى قول مشْرُوح مبسوط؛ فضلا عن قولٍ مجمَلٍ مُوجَز، إلّا أن المتدرِّب بالصناعة إذا مَرَّت به هذه الأصول أمكنه التفريعُ عليها .

النوع العاشر

(فى الشكوىٰ ـ أعاذنا الله تعالىٰ منها)

قال فى "موادّ البيان" : رِقاعُ الشَّكْوىٰ ـ عصَمَنا الله من مُوجِباتها ـ يجبُ أن تكون مبنيَّةً من صِفَة الحال المُشْكِية، علىٰ مايُوجب المشاركة فيها ويقْضى بالمساعَدَة إن آستُدْعِيتْ عليها، من غير إغْراقٍ يُفْضى إلىٰ تَظْليم الأقْدار وإحْباط الأَجْر، وشَكْوىٰ المبتَلِى بالخيْر والشرِّ سبحانه وتعالىٰ، ويدلُّ علىٰ التهالك بالجَزَع، وضعف التماسُك وقُوّة الهَلَع؛ بآستيلاء القُنُوط والإيَاس، وأن يشْفَع الشكْوىٰ بذِكْر الثقة بالله سبحانه، والتسليم إليه، والرِّضا بأحكامه، وتوَقُّع الفَرَج من عِنْده، وتلَقِّى آختبارِه بالصبر، كما نتلَقَّى نعمُه بالشكر؛ ونحو هذا مما يليق به ويجرى مَجْراه . قال : وقد يكتُبُ الأتباعُ للرؤساء رِقاعاً بشِكاية الأحوال ومساءَلة النظر؛ ثم ذكر أنَّ سبيل هذه الرِّقاع أن يُعْدَل بها عن التصريح بالشَّكوىٰ إلىٰ لَفْظ الشُّكر ومَعْناه، وطلب الزيادةِ والإلحاق بالنُّظَراء فى الإحسان : لما فى إطْلاق الشكاية، والتصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمُه النظرُ فيه من أحوال خاصَّتهم وتعهُّد مَرافِقِهم من الكفاية .

وهذه نسخٌ من ذلك :

رُقْعـــة شكوىٰ هُموم :

كتب المملوكُ هذا الكتابَ وهو رَهينُ فِكْرٍ وغَمّ، وقَلَقٍ وهَمّ، وحَلِيفُ جَوًى قد سكَنَ القلب، وخوفٍ قد أطار اللُّبّ؛ وباللهِ العِياذ، وهو المَلاذ، وبيــده تُحَلُّ العُقَده، وبأمره تَزُول الشِّدّه؛ وقد ألهم اللهُ سبحانَه المملوكَ صَبْرا يَسَّر أمْرَه، وأمَلًا فى الفَرَج خفَّف ضُرَّه، وليس بآئِسٍ من عَطْفته، ولا قانِطٍ من نِعْمتِه .

رقعـــة فى معنىٰ ذلك :

كتب المملوكُ وهو شاكٍ لتجاهُل الأيام، وَقِيذٌ من مواقِع سِهامها الرَّغِيبة الكِلَام؛ مَنْهومٌ بهُمُوم تُضْعِف الجَلِيد، وتَسُوء الوَدِيد، وتَسُرّ الحسُود، لاقٍ من قَسْوة الدهر وفَظَاظتــه، ونَبْوة العَيْش ونُفْرته، ما يردُّ الجفُونَ عن الهُجُوع، ويُغْـرق العيونَ بالدُّمُوع، ولله تعالىٰ فى عباده أقضــيةٌ يَقْضِيها، وأقدارٌ يُمْضِيها؛ واللهَ أسألُ حسنَ العاقبة والِختَام، وتمحيصَ الأوزارِ والآثام .

رقعـــة : كتبَ المملوكُ وجِسْــمُه صَحِيح، وقلْبُــه قَرِيح، وجَنَانُه سَلِيم، وجَنَابه سَقِيم : لمــا يَتَبادر إليه من نِكَاياتٍ تقْدَح وتَقْرَح، وحادثاتٍ تَكْلِم وتَجْرَح، ونُوَبٍ تَهُضّ، وتَهْدِم وتَرُضّ، وخطوبٍ تُخاطِب شِفَاها، وتُوصَّل من اليَد إلىٰ اليد أذَاها؛ إلّا أنَّ الله يُهِبُّ رِيحَ المِنَح، وقد تداكت المِحَنُ فينْشِفُها، ويشقُّ عمودَ الفَرَح، وقد آدْلهمَّت فيَكْشِفُها؛ وظنُّ المملوكِ بالله تعالىٰ جميل، وله فى صُنْعه ولُطْفه تأْمِيل .

رقعـــة : ويُنْهِى أنه قد كتب هذه العُبُودِيَّة بيدٍ قد أرعشَتْها الآلام، يُمْلى عليها قلْبٌ قد قلَبَته الأسْــقام؛ فجِسمُه ناحل، وجَسَده بعـد النَّضْرة قاحل؛ وقُواه قد

وهَنَتْ ، وجَلَادتُه قد وهتْ ؛ وصبره قد تخَلّى وٱضْطَرب ، وتحمُّله قد نأىٰ وٱقترَبْ ؛ وعاد شَبَحا من الأشْباح ، وهَباءً تَذْرُوه الرِّياح ؛ فلو ٱعتلَق بشَعْرة لم تَنْصَرِم ، أو وَلَج خَرْتَ إبرةِ خيَّاط لم تنْفَصِم ؛ ولولَا الثِّقةُ بالله وأنه يُتْبِـع السُّقْمَ بالصِّحَّه ، ويَشْفَع المِحْنَة بالمِنْحه ؛ لذَهَب مابَقِيَ من ذَمَائه ، وأطَلَّ علىٰ شَـفَا شَقَائه ؛ والمملوكُ يستشرِف منه تعالىٰ لُطْفا يُعيد الكَليل حَدِيدا ، والمُخْلَقَ جَدِيدا .

رقعـــة : ويُنْهِى أنه قد كَتَب هـذه الرُّقْعة ، وقد ساءَ أثَرُ الأيَّام عليـه ، وقَبُح صُنْعُها لدَيْه ؛ وٱبتلَتْه بمُؤْلِم البَلْوىٰ ، وأنطقَتْه بلسان الشَّكْوىٰ ؛ فهو محترِقٌ بنارِ الغَيْظ ، يدْعُو علىٰ نَفْسه بالفَيْظ ؛ إن لم يكن فَرَجٌ يفرِّجُ بين الأضْداد ، ولُطفٌ يُرِيح من هذا الجِهَاد ؛ وكُلَّما طلبَ المُزايلةَ عوِّق ، أو طلَبَ الفِكَاكَ ٱعتلَقْ ؛ فهو قاطِنٌ فى صُـورة الظَّاعِن ، وحالٌّ فى حالِ الراحِل ، والله يمنُّ بالمَخْرَج ، ويأتِى بالفَرَج .

رقعـــة : وقد سَطَّر المملوكُ هذه العبُودِيَّة ، وقد ٱنجلَتْ هذه النَّبْوه ، عن البَلَاء والشِّقْوه ، ونَفَادِ المَـال ، وٱستِحالَةِ الحال ، وٱستيلاءِ العدُوّ ، وٱستِعْلاء السُّو ، وكذا الدهْرُ خَدُوع غَرُور ، خَئُون غَدُور ؛ إنْ وهبَ ٱرتَجع ، وإنْ ألبَسَ ٱنتزَع ؛ وإن أعْطىٰ أعطىٰ قَليلا وقَلَع ؛ وإنْ أحْلىٰ أمرّ ، وإن نَفَع ضَرّ ؛ وإن أبْرَم نقَض ، وإنْ رفَع خفَض ؛ وإن أقبَـلَ أعْرَض ، وإن وعَدَ أمْرَض ؛ فنِعَمُه مقرونةٌ بالزَّوال ، ومِنَحُه معرَّضة للٱنتقال ؛ وصفْوُه مَشُوبٌ بالكَدَر ، وعيْشُـه ممْزُوجٌ بالغِيَر ؛ ما أجَنَّ الا أوجدَ خَللَا ، ولا أَمَّن إلا أتْبَع الأَمْن جَللَا ؛ والمملوكُ يحمَدُ الله تعالىٰ علىٰ أن أوسَعه فى حال البَلَاء شُكْرا ، وفى حال الٱبتلاء صَبْرا .

أجوبةُ رِقاع الشـــكوىٰ

قال فى "مواد البيان" : يجبُ أن تبنىٰ أجوبةُ هذه الرِّقاع علىٰ الآرتمـاض فى الحـال المُشْكِيةِ ، والتوجُّع منها ، وبَذْلِ الوُسْع فى المعُونة عليها ، والمشاركةِ فيها ؛ وما يجْرِى هذا المَجْرىٰ ممـا يلِيقُ به .

النـــــوع الحـادى عَشَر

(فى آستمـاحةِ الحـــوائج)

قال فى " مواد البيان " : ورقاعُ الآستماحةِ يُخْتار أن تكونَ مُودَعةً من الألفاظ ما يُحرِّك قُوىٰ السَّماح ، ويبعثُ دَواعِىَ الآرتياح ؛ ويُوجِب حُرمةَ الفضـل المسهِّلةَ بَذْلَ المـال الصَّعْبِ بذْلُه ، إلَّا علىٰ من وَفَّر اللهُ مُروءَته ، وأرخص عليه أثمانَ المحامِد وإن غلَتْ .

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطَّف فيها التلطُّفَ الذى يعُود بنَجَاح المَرَام ، ويؤمِّنُ من الحصُول علىٰ إراقة [ماء] الوجْه ، والخيبةِ بالردّ عن البُغْية ، ويعْدِلَ عن التثقيل والإلحافِ المُضْجِرِيْن ولا يضَيِّق العُـذْرعلىٰ السَّماح إلا أن يتمكَّن للثقة به ، ويعلَم المشاركةَ فى الحال .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

من كتاب [أبى] الحسين بن سعد .

أفضلُ القول أصدَقُه ، وأهنىٰ المعروفِ أعجَلُه ، وأبلغُ الشُّكْر أظهَرُه .

ومنـــه : إن حضرَتْك نيَّةٌ فى قضاء حاجةٍ فعجِّلْها ، فإنَّ أهنىٰ المعروفِ ماعُجِّل ، وأنْكَدَه ماتنازعته العِلل ، وآعترضتْه كثرةُ الاِقتِضاء .

ومنـــه : أنتَ أعزَّك اللهُ واجدُ السبيلِ إلىٰ آصْطِناع المعروفِ وآكتسابِ الثَّواب ، وأنتَ أعرَفُ بمـا فى آستِنْقاذِ أسيرٍ من أسْرىٰ المسلمين ، من واردِ الأَسْر ، وعَرْصة الكُفْر ، وآنتياشِه من الذِّلَّة والفاقة ، والبَلاءِ والمشَقَّة ، من جزيلِ ثوابِ الله وكريم جزائِه [وأجَلُّ] من أنْ تُخاطَب فى ذٰلك مخاطبَةَ من يَحتاجُ إلىٰ زيادةٍ فى بصيرته ، وتقويةٍ لنيَّته ؛ وبالله توفيقُك وعَوْنُك .

علىّ بن خلف :

قد تَمسَّكَ أَملِي بضَمانك ، وتطلَّع رجائِي إلىٰ إحْسانك ، وكَفَل لى النجاحَ مشهورُ كرمِك ، ورَغْبَتُك فى رَبِّ نِعَمِك ، ولِى من فضْلك نَسيب أعتزِى إليه ، ومن شُكْرى شفيعٌ أعتمِدُ عليه .

وله : المَوَاعيدُ ـ أطال اللهُ بقاءَ مولاىَ ـ غُرُوس ، حُلْو ثمرِها الإنجازُ والتعْجيل ، ومُرُّه المَطْلُ والتطويل ؛ وقد شامَ أمَلى من سَحائبِ فضْـله ، حقيقًا بأنْ ينْهمِر ويَهْمِى ، وآرتاد من روضِ نُبْـله ، جديرًا بأن يَزِيدَ ويَنْمِى ، فإن كانتْ هـذه المَخِيلة صادِقَه ، فلْتكُنْ منه هِمَّةٌ للرجاء محقِّقه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله : هَمَمتُ أنْ أستصْحِب إلىٰ مولاى ذَريعةً تحجُبُ مَطَلى ، وتكونُ حِجَـابا علىٰ وَجْهِى فى المطالعة بأَرَبِى ، فَلاحَ لى من أسارِيرِه بَرْقٌ أوضح مَقْصـدى ، ومن أخلاقِهِ آنبساطُ أمَالَ تجعُّدِى ، ولسْتُ مع معرِفَتِه بحَقِّ نعمة الله تعالىٰ وحقِّ مؤمِّله ، محتاجًا عنده إلىٰ ذَريعة ولا مفتقرًا إلىٰ وَسيلة .

وله : ولا يحملُني مولاَىَ علىٰ ظاهرِ تجمُّلى ، وجميلِ توكُّلى ، علىٰ حالٍ قد أحالَتْهـا العُطْلة ، وتخلَّلتها الخَلَّة(١) ؛ وإنما أُبْقِى بالتجمُّل علىٰ دِيباجة هِمَّتى ، وأصونُ بالتخْفيف عن الصديق مُروّتى ؛ ولولا أنَّ الشكوىٰ تخفِّف متحمِّل البَلْوىٰ ، لأضرَبْت عن مُساءلتِه ، وأمسكْتُ عن تذْكيره ، ولٰكنْ لابدَّ للوَصيب الشاكى ، من ذِكْر حاله للطبيب الشافِى ؛ وقد كان بَرَق لى من سَحَاب وَعْده ما هو جَدِيرٌ بالانْهمار ، وأوْرقَ من نَمـائه ما هو حقِيقٌ بالإثْمـار ؛ فإنْ رأىٰ أن يَسِمَ وجْهَ التأْميل ، بعد الإنجازِ والتعْجِيل ، فعل .

وله : ما حامَتْ آمالِى ــ أطال الله بقاءه ــ إلّا وقعتْ بحضْرته ، ولا صَعُبتْ علَىّ جوانِبُ الرَّجاء إلا سَهُلتْ من جِهَتِه ؛ ولا كَذَبَتْنِي الظُّنونُ إلَّا صدَقَهـا بعُلُوِّ هِمَّتِه ؛ فلذٰلك أعْتلِقُ فى المُهِمّ بحبْلِه ، وأعتَصِم فى المُلِمِّ بظِلِّه ؛ وقد عَرَض لى كذا وعليه فيه المُعَوَّل ، وهوالمرجُوُّ والمؤمَّل ؛ وما أوْلاه بالجَرْيِ علىٰ عادته فى رَيْش جَنَاحى ، والمَعُونةِ علىٰ صَلَاحى .

فى طلب كسوة ، من كلام المتأخرين :

أَلَا أَيُّهـا المَوْلىٰ الَّذِى نَهْرُ جُودِه * يَزِيدُ وعَاصِى أَمْرِه الدَّهْرَ ينْقُص!

إلَيْكَ ٱشْتِكائِى من دِمَشْقَ وبَرْدِها * وما أَنَا فِيهِ مِنْ أُمُورٍ تُنَغِّص!

وإنِّى فى عُرْسٍ من البَرْدِ دائِم * تُصَـفِّقُ أسْـنانِى وقَلْبِى يَرْقُص!

المملوكُ يُنْهِى بعـــد الابْتِهال إلىٰ اللهِ تعـالىٰ فى إدامة نِعْمتِه ، وإدالة دَوْلتِـه ، أنَّه ماأَلِفَ من إحسانِهِ إلا أنَّه يُضاعِفُ رَسْم الإنْعام ، ويُواتِرُ إرْسالَهُ علىٰ مَمَرِّ الأيَّام والأعوام ؛ وللمملوكِ فى خِزَانته الشريفةِ فى كلِّ عامٍ تشْرِيفٌ يُفِيضه علىٰ جَسَـده ،

(١) كذا فى الأصول والظاهر "بل أنا على" الخ .

ويُسَرّ به قلوبَ أوليائه ويفُتُّ أكبادَ حُسَّده، ويتّقِي به سَوْرة الشتاء وقُرّه، ويجعله قُرّة ويحمِلُ به من الدَّعَة وِقْرَه ، وقد دَرَس رسمُه ، وفُقِد من الدِّيوان المعمورِ اسْمُه، وهو يسألُ بُروزَ الأمرِ العالى بإجرائه على عادتِه المستمرّه، وقاعدتِه السالفةِ المستقرّه، بتشريفِه بأخْذ التشريف ولُبْسه : ليدْفع بذلك شِدّةَ البَرْد وأليمَ مَسِّه، ويتذكَّر بها فى يومه مايُوجِب حمدَ المولى وذَمَّ أمْسِه، ورأيُه العالى .

وله فى طلب ورق :

يا أسْمحَ الناسِ ويامَنْ غدَا * جَبِينُه يُخْجِل ضَوْءَ الشَّفَق!

جُودُك بالوَرْقِ(١) عمِيمٌ [فلِمْ] * أخَّرتَ يامَوْلاىَ بَعْثَ الوَرَق؟

وله فى طلب رَسْم :

رَسْمِى يامَوْلاىَ غدَا * مؤخّرًا ولو حَضَرْ!

ولَوْ أرادَ سيِّدِى * إحْضارَه، كانَ أمَرْ!

فقَدْ مَضَى مُحَرَّمٌ * وراحَتِى مِنْه صَفَرْ!

وكتب كاتبٌ إلى مَخْدومه، وقد تأخَّر صرفُ معلومه :

وتَعْلَمُ أنِّى كثيرُ العيَال * قَلِيلُ الجِرايةِ والواجِبِ!

فلَسْتُ على ظَمَإ قانِعًا * بوِرْدٍ من الوَشَلِ الناضِبِ!

ولا شَكَّ فى أنَّنِى هارِبٌ * [فـ]ـقَدِّر لنفْسك فى كاتِبِ!

(١) الورق مثلثة وككتف وجبل الدراهم المضروبة اهـ من القاموس .

قلت : وكتبتُ نظمًا لأمير المؤمنين المستعينِ بالله أبي الفضل العبَّاس : خليفة العَصْر، أستميحه حاجةً فى مجلس كان فيــه هو وولَدُه يحيىٰ وأخَواه داودُ ويعقوبُ ماصـــورته :

إذا رُمْتَ أن تَحْظىٰ بنَيْــل مآربٍ * فبادِرْ إلىٰ العَبَّاس مِنْ آلِ عبَّاس !

إمامٌ به ثَغْــرُ الخِــلافة باسِــمٌ * وعِرْنِينُها يَسْمُو علىٰ قِمَّــة الراسِ !

أَبىٰ الفضْــلُ إلاَّ أنْ يكُونَ لِأهْلِهِ * [دواما] وأنْ يُدْعىٰ أبا الفَضْل فى الناسِ !

فلْلمستَعينِ اقْصِــدْ تَجِدْ خَيْرَ مُنْجِدٍ * حريصٍ علىٰ المَعْرُوف بَرًّا بإيناسِ !

فيَحْيا له يَحْــيىٰ وداودُ صِــنْوُه * ويعقوبُ أعْضادًا وحِصْنًا من البَاسِ !

وكتبت لقاضى القُضاة شيخِ الإسلام جلالِ الدِّين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلامِ عُمر البُلْقِينِيّ أستميحُه حاجة أيضا :

أَيا شَيْخَ إسْــلامٍ وقاضِى قُضاتِهِ * ومَنْ قد سَما فى الناسِ عِلْمًا ومَنْصِبا !

لقَــدْ عَمَّ نَوْءٌ منكَ كلَّ مُؤمِّلٍ * وحاشىٰ لبَرْقٍ شِمْتُ يظْهرُ خُلَّبا !

أَأُحْرَمُ معْرُوفًا له كُنْتُ أرْتجِى * ويَحْجُبُ ذُو بُعْدٍ من القومِ أقْربَا !

وما زِلْتُ أرجُو فى زَمانِك رِفْعةً * ولٰكِنْ جَوادُ الحَظِّ بالبُعْدِ قدْ كَبَا !

ولَنْ يَسْتعِيضَ الخَفْضَ بالرَّفْع ماجدٌ * خُصوصًا ومَنْ أخَّرْتَ ما نَالَ مَطْلَبا !

ولَسْتَ تَرىٰ مِنِّى إلَيْكَ وَسِيلَةً * سِواكَ وحَسْبِى بِاعْتِلاك تَقَرُّبَا !

❖

وكتبت لقاضى القُضاة جمالِ الدين محمود القَيْسَرانى (١)، وهو يومئذٍ قاضى قُضَاة الحنفيــة وناظِرُ الجُيُوش المنصورة ، أذكُرُ بِطَالةً عرضَتْ لى من وظيفةِ مباشرةٍ كانتْ بيدى :

إلىٰ اللهِ أشْـكُو مِنْ زَمانِى بَوَارَهُ * فأمسَيْتُ فى الحِرْمانِ بِى يُضْرَبُ المَثَلْ !

تَمادَيْتُ بَطَّالًا وأَعْوَزْتُ حِيــلةً * ولم يَبْرَحِ البَطَّالُ تُعْرَفُ له الحِيَــلْ !

فلا مُلْتَجىٰ جاهٍ ولا عِزُّ صاحِبٍ * ولا مالِكٌ يَحْنُو فيــاقَوْمِ ما ٱلعَمَلْ؟

ولٰكِنَّ (محمــودَ) العَواقِب أرْتَجِى * ومَنْ يَحْمَدُ العُقْبىٰ علىٰ القَصْدِ قد حَصَلْ !

❖

وكتبت للقاضى شمسِ الدين العُمَرِىّ كاتب الدَّسْت الشريف فى حاجةٍ نَجَّزها :

إنْ لَّا أرىٰ عُمَرًا حَتَّىٰ أُلِــمَّ بِهِ * أَلفيْتُ من نَسْلِهِ مَنْ كانَ لِى عُمَرا .

لم يَغْفُ عن حاجَتِى حتّىٰ أُنَبِّهَـــه * وكيْفَ يَغْفُو وفى المَعْروفِ كَمْ سَهِرا؟

جَعَلْتُه مبتَـــدًا فى رَفْعِــه خَبَرِى * وعادةُ المبتَـــدَا أنْ يَرْفَعَ الخبَرا!

أجوبة ٱستماحة الحوائج

قال فى "موادّ البيان" : لايخلُو المستماح والمكلَّف حاجةً من أن يُسْعِف أو يمنعَ ، فإن أسعَفَ فقد غَنِيَ عن الجواب ، وربما أجاب المُسْعِفُ بجواب مبنىٍّ علىٰ حُسْن موْقِعِ ٱنبِساطِ المستميح ، والاعتذار عن التقصيرِ فى حَقِّه وإن كان قد بلَغَ به فوق

---

(١) نسبة إلى قيسارية على غير قياس .

ما يجِبُ له ـ تكرُّما وتفضُّلا ، وإن منع فربَّما أجاب بعُذْر فى الوقت الحاضِر أو عُذْر فى المستأْنِف، وربما أخَلَّ بالجواب تغافُلًا .

⁂

وهــذه نسخة جواب بالإسعاف بالمقصود ، كُتِب بها فى جوابٍ لكاتبِ السِّر عن نائب الشام ، فى طَلَبِ إقطاع ، من إنشاء الشيخ جمـالِ الدين بن نُباتة إجابةً للمطلوب، وهى :

لازال قلَمُها يَمُدُّ علىٰ الإسلامِ ظِلًّا ظَليلا ، ويستَجِدُّ صُنْعا جميلا ، ويأخُذُ بأمْرِ الله أعداءَ دِينِه أخْذًا وَبِيلا ، ويقومُ باجتهادِه فى مَصالح المُلْك النَّهارَ كُلَّه والليلَ إلَّاقليلا ؛ تقبيــلَ مُواظِبٍ علىٰ ولاءٍ لا يجِدُ له تبْـديلا ، وثناءٍ لو سمِعَه المُحِبُّ فشَافَهَ الأحبابَ إذًا لاتَّخذُوه خَليلا .

ويُنهِى ورُودَ مشرِّفة مولانا القديم فضْلُها، الكريم وصلُها وأصلها؛ فوقف المملوكُ عليها، وأصْغىٰ بجملتِه إليْها؛ وعلِم مارَسَم به مولانا، وأشار إليــه تِبْيانا ؛ وكذٰلك بلَّغه مملوكُه الولدُ فلان المشافهة الكريمة خَبَرًا من صاحب السِّرِّ إسرارا وإعلانا ؛ وشكر لها مشَرِّفةً ومشافهةً أوردا الإحسانَ مَثْنَى مَثْنىٰ، وسِرًّا سمعه المملوكُ لفْظا وآستهداه مَعْنىٰ ؛ فما مِنْهما فى الإحسان إلَّا زائده ، ولا فى الصِّلات إلا عائِدَه ؛ لا جَرَمَ أنَّ المملوك أقبل علىٰ قَبِيلهما بسمْعِه وناظِره ، وقلْبِه وخاطِرِه، وجُمْلتِه وسائِرِه؛ وآمتثل الإشارةَ العاليةَ التى من حقِّها أن تُقدَّمَ علىٰ كلِّ مهِمٍّ يرِدُ عليه، وأمرٍ يتوجَّه إليــه، ويدُ الزمان مشكورةٌ يأخُذُها منه بكلْتا يديْه؛ وعيَّن المملوكُ لوقته الإقطاعَ المطلُوب، وتقدّم بكِتابةِ مربَّعته حَسَب مارَسَم مَنْ تجرى السعادةُ مِنْ سَطْره تحتَ مكتُوب؛ وجهَّزها قرينَ هــذه الخدمة ومَنْ ذا يُقارِنُ سبْقَ ذٰلك البِرِّ المــديد، وكيف تُوازى

المربَّعة كتابا هو بالإحسان للعُنُق تقْليد، لابرِحتْ مراسِمُ مولانا معدودةً من رُسُوم نِعَمه، ومشرِّفاتُه محسوبةً من تشريفاتِهِ التى يَخْلَعُها علىٰ أبناءِ محبِّيه وخَدَمِه .

النـــــوع الثـانى عشر

(فى الشـــكر)

قال فى "موادّ البيان" : رقاعُ الشُّكر يجبُ أن تكونَ مُودَعةً من الآعتراف بأقْدار المَوَاهب، وكِفاية الآستقلال بحُقُوق النعم، والآضْطِلاع بحَمْلِ الأيادى ، والنُّهوض بأعباء الصنائع ، مايَشْحَذ الهِمَمَ فى الزيادة منها، ويُوثِّق المصطَنِع بإفاضة الصُّـنْع ؛ ويعربُ عن كريم سَجِيَّةِ المحسِنِ إليه .

قال : وينبغى للكاتب أن يفتَنَّ فيها، ويقرّب مَعَانيها، وينتحلَ لهـا من ألفاظ الشكر أنْوطَها بالقلوب : لتستيْقِنَ نفسُ المتفضِّل أنه قد آجتنىٰ ثمرةَ تفضُّله ، وحصل من الشكر علىٰ أضعافِ مابذَلَه من مالِه أوجاهِه، إلَّا أنَّه ينبغى أنها إذا كانتْ صادرةً من الأتباع إلىٰ رُؤسائهم ، ومَنْ يرجع إلىٰ آختصاصٍ وأُثْرة، أنْ لاتبنىٰ علىٰ الإغراق فى الشكر : لأن الإغراق فى الشكر يحمل هذه الطبقةَ علىٰ التملُّق الذى لايليقُ إلَّا بالأباعد الذين يقصِدُون الدِّلالةَ علىٰ آستقلالهم بحقُوق ما أُسْدِىَ إليهم ؛ فأما من ضَفَا عليـه من النعم مايدْفَع الشكَّ فى آعترافه بالذّل لديه ، فإنه يَغْنىٰ عن المبـالغة فى الشكر والآعتداد ؛ ثم قال : وإنمـا يجب أن يذهبَ فيما يكتب عن هٰؤلاء من هذا الفنِّ مذْهَبَ الآِختصار، والإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمعَانى الشكر، دون مذْهَب الغُلُوِّ والإفْراط، وذُو الطبع السليم ، والفكر المستقِيم ؛ يكتفى بيسيرِ التمثيل .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفرج الببغاء، فى شكر تابع لمتبوع :

أنا فى شُكْرِه ـ أيده الله ـ مُبَرْهِنٌ عن مَواقِـعِ إحسانِه إلىّ، وتظاهُرِ إنعامه علىّ، لامقـدّرٌ أنّى مع المبالغةِ والإسْهاب، والإطالةِ والإطْناب؛ أجازى عفْوَ تفضُّله، ولا أجامِلُ أيسَرَ تطوُّله؛ وقد وَسَمنى أيده الله من شَرَف ٱصْطِناعه، بمـا بوَّأنى به أرفَعَ منازِل خَدَمه وأتْباعه؛ وإلى اللهِ أرغبُ فى توفيقٍ من مقابلة ذلك بالاجتهـاد فى خِدْمته، والمبالغةِ فى طاعتِه ـ لِمَـا أكونُ به للمزيد مستوْجِبا، وللحُظْوة مستحِقّا .

وله فى شكر قريب :

فرْضُ الشكر ـ أعزّك الله ـ لايَسْقُط بقرب الأنساب، ولذلك لا أستجيزُ إغفالَ الواجبِ علىّ منه، ولا أجدُ عُدُولا فى التسامح فيـه والإضرابِ عنـه، وإن كنتَ غنِيًّا عن الإفاضة فيما أعتقدُه من ذلك وأُضْمِره، وأُبْدِيه وأُظْهِره؛ بالمتعالَم من خُلُوص النيةِ وصحة الاعتقاد، فلا أخلاكَ [الله] من جميلٍ تُسْدِيه، وتفضُّلٍ تُولِيه؛ يمترِى لك المزِيدَ من سوابِـغ النِّعم وفوائِدِ الشكر .

وله : قد ٱستنفَد مادّةَ شُكْرى، ووُسْعَ ٱعتِـدادِى ونَشْرى؛ تتابعُ تفضُّـلِك، وتوالِى تَطوُّلِك؛ ولستُ أقـدِرُ على النُّهوض بشكر مِنَّـةٍ حتّى تطرُقَنى منك مِنَّـه، ولا أُحاوِل مجازاةَ نِعمَةٍ حتّى تَفِدَ علىّ منْـك نعمه؛ فبأىِّ عَوارِفك أعترِف، أم بأىِّ أياديك بالثَّناء أنتَصِف؛ فقـد فزِعتُ إلى الإقْرار بالعجْز عمّـا يلزَم من فُروضك، وواجباتِ حقُوقِك، وٱنصرفتُ إلى سُؤال الله جلّ ٱسمه بإيزاعى شُكْرَ ماوهبَ منك، والتَّجاوُز للمكارم والفضل عَنْك .

وله : وقد شكرتُ بِرَّكَ الجليلَ موْقِعه ، اللطيفَ موْضِعه ، الخفيفَ مَحْمَلُه ، العَذْبَ مَنْهَلُه ، وشافهتُكَ من ذٰلك بما ٱتَّسعتْ له القُدْرةُ لا ما تقتضيه حقُوقُ المِنَّة .

وله : أنا فى الشكر بين نعمةٍ تُنْطقنِي ، وعَجْزٍ عما يجِبُ لك يُخْرِسُنى ؛ ولستُ أفْزَعُ إلىٰ غير تجاوُزِك ، ولا أعتمِدُ علىٰ غير مسامَحَتِك ، ولا أتطاوَلُ إلا بمَكانِى منك ، ولا أُفاخِر إلا بمَوْقِعى من إيثارك ؛ فالحمدُ لله الذى جعلَنِي بوَلَائك مشهُورا ، وفى شكرك مقْصُورا .

على بن خلف :

رقعة : وينهِى أنَّ الله تعالىٰ لَمَّا ألْهَم مولانا البِرَّ ، ألهم المملوكَ الشُّكْر ؛ فهو لايَزالُ يُوسِع فى البِرِّ ويَزِيد ، والمملوكُ لايَزالُ يُبْدى فى الشكر ويُعيد ، ولٰكِنْ شتَّانَ بين فاعلٍ وقائل ، ومُعْطٍ وقابِل ، وواهبٍ وسائِل ، ورافِد وحامِد ، وشاكر وشاكِد ؛ وٱلمملوك يحمَدُ الله تعالىٰ إذ جعل يدَه الطُّولى ، وحظَّه الأعلىٰ .

رقعة : وصل بِرُّ مولانا وقد أحالت الخَلَّةُ من المملوك حالَه ، وأمالَتْ آمالَه ؛ فلأَمَتْ ماصَدَعه الدهرُ من مَرْوَته ، وجدّدَتْ ما أخلقه من فَرْوته ، فكفَّ المملوك يديه [عن] ٱمتحان الخُلَّان ، وقبضَ لسانَه عن شِكاية الزَّمان ؛ وأقَرَّ ماءَ وجْهِه فى قَرَارته ، وحفِظ علىٰ جاهِه لِباسَ وَجاهتِه ؛ فيالَهُ من بِرٍّ وقَع من الفقْر ، مَوْقِعَ القَطْر من القَفْر ؛ ولم يتقدّمْه من قدامة الوَعْد ، ما يتقدّم القَطْرَ من جَهامة الرَّعْد ؛ وكلُّ مَعْروفٍ وإن فاضتْ ينابِيعُه ، وطالتْ فُروعه ، قاصرٌ عن الأمل فى كرمه ، واقعٌ دُونَ غاياتِ هممه ؛ كما أنَّ الشكرَ ولو وَاكبَ النَّجْم ، وساكبَ السَّجْم ؛ قاصرٌ عن مكافاة تفضُّله ، ومُجازاة تطَوُّله ؛ والمملوكُ يسأل اللهَ تعالىٰ الذى جعله قُدْوةَ

الكرام، وحسنَةَ الأيَّام، ورَبَّ الإنعام، وواحدَ الأَنَام؛ أن يُلْهِم المملوكَ من حَمْدِه، بقدر ما أسبغه عليه من رِفْده .

رقعـــة شكر : عِنْـد المملوك لسـيِّدى أيادٍ وصلَتْ سابقـةٌ هَوَاديها ، وظلَّتْ لاحِقةً تَوَاليها ؛ فصارتْ صُـدورُها نسـبا أعتزِى إليـه ، وأعجـازُها [سَبَبًا أُعَوّل فى الملمَّـات عليه] .

رقعـــة : لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ جعل الشُّـكر ثمرةَ البِرّ، والحمـدَ جزاءَ الرِّفْد، وأراد إقرارَهُما علىٰ أهلِهما من الغابِرِين ، وأن يجعَـلَ لهم مِنَّا لسانَ صِـدْق فى الآخِرِين ؛ لكان الذى غَمَر به موْلانا من الإنْعام ، يُحـدِّثُ عنـه تحَدُّثَ الرِّياح بآثارِ الغَمَام ؛ ويُكْفىٰ المملوكُ بالإشاره، مَئُونةَ العباره؛ والمملوكُ وإنْ رام تأديةَ ما يلزَمُه من شُكره، قاصرٌ عن غاية بِرِّه؛ ولو آستَخْدَم ألسِـنةَ الأقلام ، وآستغْرقَ أمَدَى النِّثار والنِّظام؛ وموْلانا جديرٌ بقَبُول اليَسِـير، الذى لا تُمكِنُ الزِّيادة عليه؛ والصَّفْحِ عن التقصِـير، الذى تَقُودُ الضرورةُ إليه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : لو أنَّ هذه العارفةَ بِكْرُ عَوارِفه ، وباكُورةُ لطائِفه ؛ لعجَزْتُ عن شُكْرها ، وقَصَّرت عن نَشْرها ؛ فكيفَ وقد سـبَقَها قرائنُ ونظائر، وتقدّمَها أترابٌ وضَرائِر؛[ممـا]أثقَلَ من المملوك كاهلَه ،وبَسَط به يدَىْ أملِه ؛فما يَعْدَم شيئًا فيُرَجِّيه، ولا يَفْقِده فيَرْغَب فيــه ؛ والذى تَرُبُّه من المملوك جوارِحُه، وتَحْوِيه جوانِحُه؛ علمُه بأنه لايُجارِى أياديه ، ولا يُجازى مَسَاعِيه ؛ واللهُ تعـالىٰ يخصُّه من الفضائل ، بمثل ماتبرَّع به من الفَواضل .

رقعــة : ومِثْلُ مَوْلانا من [ذوى الشَّرَف](١) والسُّودد من حَسُن مَحْضَره، وطاب مَخْبَره، وكَرُم غيبُه ومَشْهده، وصحَّ علىٰ تغايُرِ الأحوال عَقْدُه ووُدُّه، وقد ٱتَّصل بالمملوك ماأعاره له مَوْلانا من أوْصافه، وجرىٰ فيه علىٰ عادةِ فضْله وإنصافِه، فطَفِق لفضله شاكرا، ولطَوْله ناشِرا، وأضاف ذٰلك إلىٰ تَوَالِدِ إحسانه، ونَظْمِه فى عِقْد ٱمتِنانِه .

رقعــة : قد طَوّقَ مولانا [مملوكَهُ] من فضله طَوقا كأطواق الحمائِم لايُنْزَع ، وألبسه بُرْدا من بِرِّه لا يُخْلَع ، وأولاه من مَزِيده ما قَصَّرت الهِمَّة عن تَمَنِّيه، ولم تهتدِ القريحةُ إليــه فتستَدْعِيه، ولو وجد المملوكُ جزاءً علىٰ عارِفَته ، وكِفَــاءً لَمثُوبته ، غيرَ المُوالاة الصَّرِيحَه، وعَقْــدِ الضمائر علىٰ المودّةِ الصحيحه ، واللَّهَج بالشُّــكر، فى السِّر والجَهْر، لرمىٰ مِن وراء عنايته، ولا استَبْعَدَ طُولَ شُــقَّته ، ولكنِ المملوكُ عادمٌ لمــا يقابِلُ به يَدَه الغَرّاء ، عاجزٌ عمَّا يقضِى به حَقَّ مَوهِبتِه الزَّهْراء، مالم يُحْسن كرمُه أمْرَه، ويَقْبَلْ منه علىٰ التقصير شُكْرَه، ويُضِفْ ذٰلك إلىٰ لطائفه، وينْظِمه فى سلْك عَوَارفه، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعــة : وٱجتهادُ المملوكِ فى نَشْر أياديه وشُــكْرِها ، كٱجتهادِ مولانا فى كِتْمانها وسَتْرِها، فكُلَّما أبديتُها بالثَّناء أخْفاها، أو نشَرْتُها بالإشادة طَوَاها، وهيهاتَ أن يخفىٰ عُرْفٌ كعَرْف المِسْك نَشْرا ، ومَنٌّ كالروضة نَوْرا والغَزالة نُورا ، ولو كان المملوك والعياذُ بالله ستَرَ هــذا العُرْفَ بكُفْر ، وٱغْتمصه مانعاً لشُــكْر ، لَنَمَّ عليه حسنهُ نُمُومَ الصَّباح ، وتَوَقَّدَ توقُّدَ المِصْباح ، فكيفَ وللمملوكِ مِقْوَل لايُسامىٰ [يُعْجِم(٢) سَــوَادَ] الليالى بالإخماد ، ويَرْقُم صَفَحاتِ النهار بالٱعْتِداد .

(١) بياض فى الاصول والتصحيح من المقام .

(٢) فى الاصول « ولا يسامى الليالى » الخ وزدنا مايقتضيه المقام ويتم الكلام تأمل .

الأجوبة عن رقاع الشـــكر

قال فى "مواد البيان" : [ان كانَتْ] هــذه الرِّقاع من المرءُوسين إلىٰ الرُّؤساء فلا جوابَ لهـا . و إن كانتْ من النَّظير فالواجبُ أن يُسْتعمل فى أجوبتها مندُوبُ التناصُف والتفاوض .

جواب عن فعل المعروف والشكر عليه من كلام المتأخرين :

من ذٰلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الصدر :

خَلَّد اللهُ علىٰ الممالك نِعَمَه ، وعلىٰ المـاليك ديَمَه ، وحَرَّم ببقائه ذَمَّ الزمان وأوجَبَ ذممــه ، ولا بَرِح نحوُ المحامد يُنـادِى يومَ الكَرم مُفْرَده ويومَ الهِيـاج عَلَمَه . تقبيلا يسحَبُ فى الفَخار بُرودَه المُعْلَمه ، ويتذكَّر بالقرب فلايزال الشوقُ يُنْتِجه حيثُ كَلا التَّذْكارِ والعهد مُقَدِّمه .

وينهِى ورُودَ المثال العالى بمـا مَلَأَ القلبَ خيْرا واليَدَ بِرّا ، والسمْعَ بِشارةً والوجهَ بِشْرا ، حتّٰى تَنافسَتِ الأعضاءُ علىٰ تقْبِيله ، والجَوَارِحُ علىٰ تأميله ؛ فاليَـدُ تسابق إلىٰ مِنَنه بالآمتِداد ، والقلبُ يسابِقُ إلىٰ كَرَم عَهْده بالآعْتِداد ، والوجهُ يقلِّب ناظِرَه فى سماء مَوَاقِع القلَمَ ، والسمعُ يَنْعَم بمـا تقُصُّ عليه المَسَارُّ من أخْبارِ جيرة العَلَم ؛ حتّٰى كاد المملوكُ يمحُو بالتقبيـل أسْطُرَه ، ويشتَغِلُ بذٰلك عن آستجلاءِ ماذكره المُنْعِم لاعدِم المملوكُ فى مصر والشام تكَرُّره ؛ وفهِم ما أشار مولانا إليه من الفضـلِ الذى مولانا أهْلُه ، وكرمِ العهد الذى لا يُنكَرُ من مثلِه وأين مِثْلُه ؛ وقابل المملوكُ جميعَ ذٰلك بجَهْده من الأدْعِيَـة الصالحِه ، وبسَاحةِ الحمدِ المُتفاوِحه ؛ والآعتـدادِ بنعمة مولانا الّتى لولا [مُوالاتُها](١) كلَّ وقتٍ لقيلَ فيهـا «ما أشبَهَ الليـلةَ بالبارِحه» وتَضاعَفَ

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المقـام .

نُهوضَ المملوك علىٰ قَدَم المُوالاة التى [يستشهِد] فى دَعْواها بشَهادة الخاطر الشريف ، ويتقدَّم بها تقدُّما تحتَ لواء الولاءِ وتأتِى بقيَّة الأولياء فى اللَّفيف ، والله تعالىٰ يُوزِع المملوكَ شُكرَ هذه النِّعَم المتصلِ مدَدُها ، والمِنَنِ التى لا يَعْدَمُها ولا يعُدُّها ، ويطيلُ بقاء مولانا لحمدٍ يَجْتلِيه ويجتَنِيه ، وشرفِ دنيا وأخرىٰ يهدِمُ وَفْره وعُمُره ويبتَنِيه .

النـــوع الثالث عشر

(العِتَـاب)

قال فى "موادّ البيان" : المكاتبــةُ بالمعاتَبة علىٰ التحوُّل عن المودّة والاستخفاف بحقوق الخُلَّة من المكاتبات التى يجبُ أن تُستوفىٰ شروطُهَا ، وتكمَّل أقسامُها : لأن ترخيصَ الصَّديق لصَدِيقه فى المقاطَعَة والمُصارَمة دالٌّ علىٰ ضَعْف الاعتِقاد ، واستحالة الوِداد .

من كلام المتقدّمين :

إنِّى ما أحدثتُ نَبْوه ، إلَّا بعد أن أحدَثْتَ جَفْوه ، ولا أبديتُ هَجْرا ، إلَّا بعدَ أن أبديْتَ غَدْرا ، ولا لَوَيْتُ وَجْها عن الصِّلة ، إلَّا بعد أن ثَنَيْت عِطْفا إلىٰ القَطيعة ، والأوّلُ مِنَّا جان ، والثانى حانٍ ، والمتقدِّمُ مُؤْثِر ، والمتأخِّرُ مُضْطَّر ، وكم بين فعل المختارِ والمُكْرَه ، والمبتَدِع والمتَّبِـع .

آخـــر : إنْ أمْسكْتُ ياسيدى عن عِتَابِك ، مُرْخِيا من عِنَانك ، كنتُ بين قَطْع لحَبْلك ، ورِضًا بفِعْلك ، أو اقتصرتُ فيــه علىٰ التَّلْويح به لم يُغْنِ ذاكَ مع كثرة جُمُوحك ، وشدّة جُنُوحك ، وما ارتكبْته من رائك ، واستخرجْتَه من جَفَائك .

رقعـــة عتاب : لمولانا لدىٰ المملوك عَوارِفُ لا يهتدى إلىٰ معرفتها فيوُفِّيها كُنْـهَ المُراد، وأيادٍ لا يبْلُغ ماتستحقُّه من الإحماد ؛ ولو عَضَّدتْه خُطبـاءُ إيَاد ، أجلُّها فى نَفْســه خَطَرا ، وأحسَنُها عليــه أَثَرا ؛ ما يَفْرِضُــه له من بِرِّه و إكْرامه ، وتعهُّـدِه وآهتمامِه ؛ وقد غيَّر مولانا عادَتَه ، ونقَضَ شِيمَتَــه ؛ وبَدَّل المـــلوكَ من الٱنعطاف بالإعراض ، ومن الٱنْبِساط بالٱنقباض ؛ وحَمَّـله من ذٰلك ما أوْهىٰ قُوىٰ صَبْره ، وأظْلَمَ بصائِرَ فِكْره ؛ فإنْ يكُنْ ذٰلك لخطَإ واقَعَــه المملوكُ ساهِيًا ، وجُرْم ٱجتَرَمه لاهِيًا ؛ فمِثْــلُ مولانا لايُطالِب إلَّا بالقَصْد ، ولا يُعاقِب إلَّا علىٰ العَمْد ؛ إذ كانـــ المملوكُ لا يُعْصَم من زَلَل ، ولا يَسْـلَم من خَلَل ؛ اللَّهمَّ إلا أن يكونَ مولانا أرادَ من المملوك تَقْوِيمَه وتأديبَــه ، وإصلاحَه وتهذِيبَه : ليُحْسِنَ أثَرَه فى خِدْمته ، ويَسْلُكَ السبيلَ الواضِحَ فى تِبَاعته ، فلا أعدَمَ اللهُ المملوكَ تثقيفَه ، ولاسلَبَه تبْصيره وتعْرِيفَه ؛ وإنْ كان ذٰلك لشَكٍّ عَرَضَ من المملوك فى وِدَاده(١) ، وٱرتيابٍ خامَرَ فى حُسْن ٱعتقاده ؛ فأُعيذُه بالله من القَطْع بالشُّبُهات ، والعمــلِ بمُنْغِلِ(٢) السِّعايات ؛ ومولانا خليقٌ بأن يُطْلِـع من أُنْس المملوك ماغَرَب ، ويُنْبِط من سُرورِه مانَضَب ، ويُعِيــدَه لِرِضاه ، ويُجْرِيَه علىٰ ما أحمدُه منه وأرْضاه .

رقعـــة : ليس المملوكُ يرْفَع مَوْلانا فى إعراضه ، إلَّا إلىٰ فَضْله ، ولا يُحاكِمُه علىٰ ٱنْقباضه ، إلَّا إلىٰ عَدْله ، ولا يَستعِينُ عليــه إلَّا بمـا يستَمْليه من آدابِه ، ولا يناظِرُه إلا بمـا أخذه عنه من محافظتِه و إيجابِه ؛ إذ كان المملوكُ مُذْ وصلَتْه السعادةُ بحباله ، ناسِجًـا علىٰ مِنْواله ؛ متقبِّلا شرائفَ خِلَاله . وما عهِــدْتُه عَمَر اللهُ مَعَاهِدَه ، وكَبَتَ

---

(١) لعـــله للولىٰ .

(٢) يقال أنغلهم حديثا سمعه ثم إليهم به أنظر اللسان ج ١٤ ص ١٩٤ .

حاسـدَه ؛ يغضَبُ تقليدًا قبـل الاختبار، ويُحْوِج البرِىءَ إلىٰ مَوْقِف الاعتذار ؛ ولا سِيَّما إذا كان المظنُونُ به عالِمًا بشرُوط الكرم ، عارفًا بمواقِـع النِّعم ؛ لايَنْسَخ الشكرَ بالكُفْر، ولا يتعوَّضُ عن الحَمْد، بالجَحْد؛ وقد عرِفَ مولانا ثَناءَ المملوك علىٰ تَفَضاله ، ووقف علىٰ بَلائه لأعمـاله ؛ وهو وفىٌّ برَبِّ عوارِفه وصنائِعه ، وتثمير مارَهَن لدَيْه من وَدائعه ؛ وتنزيهِ سَمْعِه عن الإصغاءِ إلىٰ مايختلِقُه حاسِـد ، ويصُوغُه كائد ؛ وقد حكَّم المملوكُ علىٰ نفسه نَقْـدَه الذى لايُبَهْرَجُ عليـه ولا يدَلَّس ، وكَشْفَه الذى لايُغَطَّى عليـه ولا يُلبَّس ؛ فليَحُكَّ أفعـالَ المملوك علىٰ مَحَكِّ بصـيرتِه ، وليُجِلْ فى تأمُّل مقَاصِده طَرْفَ فكْرته ؛ فإنه ممن لاتُحِيلُه الأحوال ولا تُحَوِّله ، ولا تُغيِّره الغِيَرُ ولا تُبدِّله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : أفعالُ شكرِ(١) المملوكِ فى الحِلْم والغَضَب ، والرِّضا والسَّخَط ، إذا لم يقْتضِ الحزمُ إيقاعهـا مَوْقِع الفضل ، واقعــةٌ موْقِعَ الإنصاف والعَـدْل ؛ ولا يُغَلِّبُ هواه علىٰ رأْيه ، ولا بادرتَه علىٰ أناته ؛ وقد جانَبَ مع المملوك عادتَه ، وبايَنَ فيـه شِيمتَه ؛ ونالَهُ من إعْراضه ، وجَفَائِه وانْقباضه ، وتغيُّر رأْيه ، ما وَسَمَ المملوكَ فيـه بالذَّنْب ولم يُذْنِبه ، وحمله علىٰ الجُرْم ولم يَجْتَقِبْه ؛ وأوقفه لدَيْه مَوْقِفَ الاعتذار ، وأحْوَجه إلىٰ الاستقالةِ والاستغفار ؛ وليس المملوكُ يُحاكِمُه إلّا إليه ، ولا يُعوِّل فى الانتصاف إلّا عليـه ؛ وما أوْلاه بأن يُعيد المملوكَ إلىٰ محلِّه من رضاه ، فإنه لم يُواقِعْ فى خدْمته إلا مايَرْضاه ؛ وحسـبُه شاهدًا بذٰلك مايعلَمُ من المملوك من سَـلامةِ غَيْبه ، وطهارةِ جَيْبه ؛ وفَضْل وُدِّه ، وصحَّة معتقَدِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

(١) كذا فى غير أصل ولعله " أفعال شيمِ المولىٰ " ليستقيم الكلام بعد .

رقعـــة بمعاتبةٍ علىٰ (١) :

كلُّ مانعٍ مالَدَيْه مَنْ رَغِبه ، دافعٍ عمَّا عنده مَنْ طَلَبه ؛ فمستغنًى عنه إلَّا الله تعالىٰ المُبتـدِئ بالنِّعم ، العوَّادُ بالكَرَم ؛ ولو عَرَف مولانا بطَعْم شجرةِ المعْرُوف (٢) ، لأسرعَ إلىٰ آحتِـذائِها ، ولو علم مالله تعالىٰ عليــه من الحُقُوق فى مالِه وجاهِه ، لم يُقَصِّر عن أدائِها ؛ غيرَ أنه ظَنَّ أنَّ الفوزَ بالوُجْد ، غايةُ المَجْـد ، وأنه إذا أحْمَدَ النَّسَبَ غَنِيٌّ عن الحَمْـد ، وأنَّ النعمةَ تُرتَبَطُ بالرَّبْط علَيْها ، وتَنْصرِف بالتَّصَرُّف فيها ؛ وما ساء المملوكَ أن تنَزَّه عن تقَلُّد مِنَّـة لئيم ، وحُرِم مَحْمَدَةً من كريم ؛ وهـذا الحِرمانُ أحسَنُ واللهِ فى عين المملُوك من النَّوال ، وهذا الإكْداءُ أبَرُّلديْه من بُلُوغ الآمَال ؛ وسيَنْشُر المملوكُ مَذْهَبه فى كلِّ نادٍ ، ويكُفُّ عنه أمانِيَّ القُصَّاد ، ويكفيه مَئُونَةَ الاعتذار ، ويصُونُه عن أن تُبْذَل إليه وُجُوهُ الأحْرار : ليعـلَمَ أنَّ المملوكَ علىٰ مَنْعه لم يُقَصِّر فى بُلُوغ أوْطارِه ، والسَّعيِ فى إيثارِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة فى المعنىٰ : ماردّ المملوكُ بِرَّمولانا مستَنْزِرا لقليلِه ، ولا لائِمًـا لنفْسه علىٰ تأميـله ؛ لٰكنّه آنتَجعه آنتِجاعَ من ظَنَّه عارفًا بقَدْره ، راغبًـا فى شُكْره ؛ فلو أغضىٰ المملوكُ منـه علىٰ الآطِّراح لأمْرِه ، لآستدلَّ منـه علىٰ قِصَر الهِمَّة ، وظَنَّ أنه قَوَّمه بدُونِ القِيمة ؛ لا سيَّما وهو يَفْرِض لمن لا يُجارِى المملوكَ فى مِضْمار ، ولا يُساويه فى مِقْدار ؛ من غير قَصْدٍ بتأميلٍ ورجَاء ، وتقديم ذريعةٍ من تَقْريظ وثَنَاء ، ماتَضيق عنه الهِمَمُ الفِسَاح ، ولا يَصِل إليه الآقتِراح .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله « على منع عطاء » .

(٢) لعله « ثمرة المعروف ... ... الى اجتنائها » تأمل .

رقعةُ عِتاب، علىٰ تقصير فى خطاب :

حُوشِىَ مولاىَ أن يجُرَّ الذَّيْلَ علىٰ آثارِ فَضْـلِه ، ويُمِيتَ من غُرُوس إحسانه ماهو جديرٌ أن يَتعهَّده بوَبْله ؛ ويُعَفِّيَ مِنِّى رُسُومَ كَرَمه، ويَصْدَعَ بمجانبة الإنْصاف صَفاةَ صِفاته وصفَائه، ويُنْطِقَ الألْسُنَ بعتابه؛ ويُصْلِتَ سيفَ التأنِيبِ من قِرابه؛ بمـا ٱستحسَنَه من مستقْبَح المُصارمَة فى المخاطبه، وٱستَوْطاه من جامح التَّرْيِيثِ فى المُكَاتَبه ؛ ولا سِيَّما وهو يعـلَمُ أنَّ موْقِع الإكرام من الكِرام ، ألطفُ من مَوْقع الإنْعام ؛ وأن مَحَلَّ القال، أفضلُ من محلِّ النَّوال، وأن تغيُّر العادة فى البِرّ، مُقَوِّض لمَعَاهِد الشُّكْر، وسبيح (؟) السنة فى الإنْصاف، قاضٍ بالإِنْصراف بعد الإِنْعطاف، وقد كان المملوكُ أزمعَ أن يتحَمَّل تقصِــيرَه به ، وأن يفُــلَّ من غَرْبه ، غير مطاوِعٍ للحميَّه ، ولا مُنْقادٍ لنفس العَصَبية، ولا يَقْرَعَ سَمْعــه بعِتَاب ، ولا يُورِدَ عليه مُمِضَّ خِطاب ؛ ثم رأىٰ المملوكُ أن يُرْشِــدَه إلىٰ الأَزْيَن ، ويبعَثَــه علىٰ ٱعتمادِ الأحْسَن ؛ ويَحُضَّه علىٰ مُرَاجعةِ الأفضل، ومُعاودة الأجْمَــل : ليتحَفَّظ مع سِواه، ولا يجْرِىَ مَجْراه ؛ فليس كلُّ أحدٍ يتحَمَّله، ويرضىٰ رِضَا المملوكِ بمـا يفْعَلُه ؛ فمولانا حبَّب اللهُ إليه الرَّشَد، ووفَّقه إلىٰ المَنْهَج الأسَدّ؛ هل هو من شىءٍ سوىٰ بَشَر ؛ فمـا هذا التِّيهُ والبَطَر ؟ ولِمَ هــذا الأزْلُ والأَشَر ؟ وما فِعـلُ الرئيس إلى مايصْغُر عنــه قَدر ؛ ولا يَيْأَس من نَيْله عمر؛ ولا مضَتْ أقلامُك فى الأقاليم ، ولا أُشِــيرَ إليك ببَنَــان التعظيم ؛ ولا فُوِّضتْ إليك الوزارةُ والرِّدافَهْ ، ولا تأمَّرْتَ علىٰ الـكافَه؛ ولا طاوَلْتَ الأكفاءَ فطُلْت، ولا ناضَلْت القُرناءَ فنضَلْت؛ وإنمـا سَرَق إليك الحظُّ من ثِمَــاده وَشَــلا مُصَرَّدا ، وأدَرَّ لك الدَّهْرُ من أخلافه مُجَدَّدا، فافتتحتَ المعامَلَة بظُلْمِ الإخْوان، ونَسْخ شرائِــع الإحْسان؛ كذَبَتْكَ نفْسُك، وغَرَّكَ حَدْسُك؛ كيف بك غدًا إذا ٱسـتَرَدَّ الزمَنُ ماخَوَّلَك ، وٱســترجَعَ مانَوَّلَك ؛ وصَحَوْتَ بالعزل من سَكْرة

الوِلَايه، وتقرقرت(١) بعـد طَلَب الغايه ؛ وعُدْتَ إلىٰ إخوانك فوجدْتَ أوطانَ أُنْسهم بك نابِيَه ، ونُفُوسَهم للإقبال عليك آبِيَه ؛ ولو كان الزمنُ أمكَنَك من رَقَبتى ، وطرّقَ لك الطريقَ إلىٰ إيداع عُرْفك فى جِهَتى ؛ لقَبُح بك أن تَطُول بطَوْلك ، وتدَّعى الفضلَ بفَضْلِك ، ولم يحسُنْ أن تُبَدِّل الإنْعام ، وتَضِنَّ بالآلتزام ؛ فإن كنت تفْخَر بسَلَفك وأُبُوَّتك ، وتُطاوِلُ بأوَّلِيَّتك وأُسْرتك ؛ فلو كان أبوك كِسْرىٰ ، لمـا جَبَر منك كَسْرا ، ولو كان جَدُّك بُخْتَ نَصَّر ، لمـا آنتفعت به فى مُظـاهَرة ولا نَصْر ، فدَعْ أكثَرَ مافات ، ولا تُعَوِّلْ علىٰ العِظَام الرُّفَات ؛ فمـا آستنَدَ إليها إلَّا عارٍ من الفضـل عاطِلٍ من الحِلىٰ . علىٰ أنَّك لو فاخَرْتَنا بها لفخَرْناك ، وتقدَّمْنا وأخَّرْناك ؛ وإن كنتَ تستَنِد إلىٰ ديانَتِـك ، وتعتمِدُ علىٰ نُسُكك وأمانَتِك ؛ فهـذه خالصُ حالٍ لا تخْلُص مرتَبتُهـا ولا تتِمُّ فضـيلتُها إلا بآستِشْعار التَّواضُـع ، والأخْذِ بمكارم الأخلاق لدىٰ التنازُع ؛ فارْجِعْ هِذْيَتَك(٢) إلىٰ الأجَلّ ، وآعمَلْ بالأفضَـل ، وقِفْ بحيثُ رُتْبَتِك ؛ ولا تتشـوّفْ إلىٰ غير دَرَجَتِـك ؛ وإن أبيتَ ذاكَ فآقطَع المراسَـلَه ، وأعْفِهـا من المواصَله ، والسلام .

رقعة عتاب علىٰ تأخر المكاتبة :

من حُكْم الوِدَاد ــ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ــ الزيارةُ عند المُقَاربة ، والمكاتبةُ عند المُبَاعدة ؛ وإن كانت المودّةُ الصريحةُ لايُغيِّرها آجْتِناب ، إلا أنَّ الكُتُبَ ألسُنُ البِعَاد ، والأعيُنُ التى تنظُر حقائِقَ الوِدَاد ، ولها فى القُلُوب تأْثير ، وموقِعُها فيها أَثِير ؛ وحُوشِىَ مولانا أن أَهُزَّ أرْيَحيَّته لمـا يؤَكِّد الثقةَ بإخائه ؛ ويشْهَد بوَفَائه ؛ ولا سِيَّما وهو يَفْرِضُ ذلك لأحِبَّته ، وقولُه واجبٌ فى شرع مَوَدّته .

(١) لعـله « وتقهقرت » . (٢) فى الأصل « عديتك » .

رقعـــة فى معنـاه :

إنِ ٱبتـدأ المملوكُ مولانا لم يُجِب ، وإنْ سأله الٱبتـداءَ لم يوجِب ؛ فلا حَقّ الإجابة تُؤدِّيه ، ولا ناجِزَ المسـألة تَقْضـيه ؛ فإنْ كان إذا شَخَصَ غابَتْ عن فِكْره أشخاصُ أحبّتِه ، وإذا بَعُدَ عامَلَهم بتجافيه وجَفْوتِه ؛ فقد كان ينبغى أن يتكَلّف ويتجمَّل ، ويتصَنَّع ويتعمَّل : فإنه لو علَّل مشُوبا بالٱنتظار ، أو ٱعتـذر ممرِّضًا بالٱعتذار ؛ لأقمتُ ذٰلك مُقامَ المُكاتبه ، وصُنْته عن مَحْض المُعاتبه ؛ لٰكنّه مال مع المَلال ، ورضِىَ الٱطِّراحَ والإهمـال ؛ ودلَّ علىٰ أنه مستقِلٌّ بالإخوان ، متنَقِّلٌ مع الزمان ؛ وأرجو أن تَصْدُقَ المَخيله ، ويَرْجعَ إلىٰ العادةِ الجميله .

رقعة معاتبةِ رجل كريمِ الأصل لئيمِ الفعل :

قد عَرَف مولانا وَفّقه الله ووقفَه علىٰ مَنْهج الرَّشاد ، أنَّ جنايةَ الغضَب الذَّميم ، تقْـدَح فى كَرَم الِجنْثِ(١) الكريم ؛ وأنَّ قَبيحَ الصَّلَف ، ينْسَخ تَليـدَ الشَّرَف ، وخبيثَ الذِّريه ، يُعَفِّى علىٰ طِيبِ المَناحِتِ الزَّكيَّـه ؛ وأنه ليس لمن تحَلّىٰ بالظُّـلم والجَوْر ، وتلبَّس بالنَّكْث والغَـدْر ، وسامح نفْسَه باطِّراح الحُقُوق ، وٱستِيطاء العُقُوق ؛ إلّا إضاعةُ الحُرَم ، وإخْفارُ الذِّمم .

المعاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخُ شِهاب الدين محمود الحلبى :

يُقَبِّل الأرضَ ويُنْهِى أنه قد صار يَرىٰ قُرْبَه ٱزْوِرَارا ، وطويلَ سَلامه ٱختِصارا ؛ ويُغالِطُ فى ذٰلك حتّىٰ شاهده عِيـانًا مِرَارا ؛ هـذا وبِكْر الوَلَاء ، صَقيلةُ الِجلْباب ،

(١) جنث الانسان أصله . ووقع فى الأصل "الحديث" وهو تصحيف .

وعَروسُ الثناء، جميلةُ البِزّة حسنةُ الشَّباب، وهو لايفْتأ من المُوالاة فى صَعَد وقَدْره فى صَبَب ؛ فكُلّما مَكّن وَتَدَ الاِستِعْطاف يرجُو عدَمَ تخلْخُله فُصل بأيْسَرِ سَبَب ؛ بحيثُ أطفأ الإهمالُ نارَ المُساعَفَة والمُساعَدَه، وآنتقل تَوَهُّمُ عدمِ العِناية إلىٰ تيَقُّن وُجودِه بالمشاهَدَه ؛ وقد كان يُرْفَع قدرُه نخُفِض، وعُوِّض فى الحال عن الرَّفْع بالاِبتداء، أنه مُفْرَد ويُنْصَب كالنكِرة فى النِّداء، وأُهْمل حتّٰى صار كالحُروف لا تُسْنَد ولا يُسْنَد إليها ، وأُلْغِيَ حتّٰى شابَهَ ظننْتُ إذا وقعتْ متأخِّرةً عن مفعُولَيْها ؛ ومتىٰ يَقْلَقْ لأمرٍ، أنشد نفسه * ما فِي وُقُوفِكَ ساعةً من باسِ *

وكان يَغْشىٰ مجْلِسَه الكريمَ خِدمةً وأداءً للواجب ، وطلبًا لعادةٍ أكّدها إحسانُه حتّٰى صارتْ ضربَةَ لازِب ؛ فلا يخلُو مجلِسٌ من إظهار تغَيُّرِ عادةٍ وَطّد الجُودُ أساسَها، وآنتقاضِ قاعدةٍ أبْرَم الكَرَمُ أمْرَاسَها ؛ فينقَطِع سُلوكًا للأدب وتخفِيفًا عن الخَوَاطِر ، ويتلقّٰى مايصْدُرُ بقلبٍ شاكٍ ولسانٍ شاكِر ؛ فإنْ كان قد عَزَم مولاه علىٰ طَرْده، وعوَّضه عن مِنْحة القُرْب المِحنَةَ ببُعْدِه ؛ فإنه يأبىٰ ذٰلك جُودُه ولُطْفُه، ومعرفه يشْكُر و يزيدُ لا يمكِنُ صَرْفُه ؛ ولو جاز الصَّرفُ لمجرّد (١) بالعُبُودية لمَنَعَه العذْلُ من سيِّده، والحِلمُ الذى عُرِفَ من كريم مَحْتِده ؛ فكان الملوكُ يستحْسَن فى حِبْرِه وسِبْرِه ، ويَعوَّضُ عن مقابلته بجَبْره ؛ فقد صار سمينُه غَثًّا وشحمُه ورَمًا، وحديثُه رَثًّا وسهله عَلَمًا :

وعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عيبٍ كَليلةٌ * كما أنَّ عينَ السُّخْط تُبْدى المَساوِيَا

وما ثَمَّ بحمدِ الله مايُوجِب ذٰلك ولا بعضَه ، ولا يُحْدِثُ ذَمَّ المملوك و بُغْضَه ؛ ولو بَدَا منه زَلَل، أو لَمَح منه خَطَل ؛ فمكارمُ مولانا أوسَعُ من إبقاء ذٰلك فى صُدُور الصُّدور، و[أحرىٰ بـ]ـمَحْوِ آياتِ السيِّئات فإنه لَمِنْ عَزْمِ الأُمُور .

(١) بياض بالأصل ولعله « لمجرد الشك بالعبودية » .

* * *

وله : يخـدُم بدُعائه، وصادِق وَلائه؛ ويُنْهِى أنه ٱنكَسَر خاطِرُه، وأرِق جَفْنه وناظِرُه؛ وتَضاعف بَلْبالُه، وتزايدَتْ فى النَّقْص أحوالُه؛ منذ تأخَّرت الأمثِلةُ الكِرام، وٱنقطعَتْ عنه بانقطاعها المِنَنُ الجِسام؛ وهو يسأل العفْوَ عن ذَنْبٍ وَقَع، وتشريفه بمثال يَرْفَع من قَدْره ما وَضَع؛ وٱستعمالَ الصَّفْح عنـه كسائر عاداتِه، وإجراءَه علىٰ اللُّطْف الذى أَلِفَه من تفضُّلاته؛ فقد ضَعُفَ صبرُ المملوك وجَنَانُه، وتفرّقَ للفِرَاق جَفْنُه وإنسانُه؛ وصَغُر قدْرُه، وأُهْمِل جانِبُه وممَّن أمَرَ بإهانته نَفْره، ولهذا ضاقَتْ عليه المَسَالك، وكان لسانُ حاله [ينشد] فى ذلك :

وأهَنْتَنِى فأهَنْتُ نَفْسِىَ عامِدًا * ما مَنْ يَهُونُ عَلَيْـكَ مِمَّنْ يُكْرَمُ!

والمملوك معترِفٌ بأنه مازال يجهَلُ مايجب عليه من الخِدَم، ومُقِرّ بتقصيره عن القِيَام بحَمْل مايُواصَـلُ به من النِّعم؛ لٰكنّه أَلِفَ من مولانا أن يقابِل إساءتَهُ بالإحسان، وجَهْلَه بصَفْح لايقُومُ بشُـكره اللِّسَان، بل جميعُ الجُثْمان؛ فإن كان ذَنْب من المملوك هو الذى أوجَبَ ٱطِّراحَه، وأوجَدَ أسَفَه وأذهب أفْراحَه؛ وكان أيْسَرَ ممـا تقدّمه من جَهْـله وإساءتِه، فحِلْمُك جديرٌ أن يُلْحِقَه بإخوته؛ وإنْ كان قد تزايدَ مِقْدارُه، فالمولىٰ قد تضاعَفَ علىٰ العَفْو ٱقتِدارُه؛ وإذا كَبِرت الخطيئةُ كَثُرُ أجرُ غُفْرانها، وَعلَت المجاوزَةُ عنها علىٰ أقْرانها؛ وعلىٰ كِلَا الأمرين فقد ٱستحَقَّ المملوكُ المَغْفِرة بكلِّ طريق، وأنْ يُقابَلَ رجاؤه بالتحقيق، وأمَلُه بالتصديق .

* * *

وله : ويُنْهِى أنه ما زالَ يتْـلُو آياتِ مَحاسِـنِه وحَمْده، ويرفَعُ راياتِ إحسـانه ومَجْـده؛ ويتولّاه ولا يتولّى عن محبَّته، ويُكْثِر الثنـاءَ علىٰ ألْمعِىِّ فِطْنتـه وجَزِيل

مُرُوءته ؛ وقد صار يُشَاهد من المولى مَلالًا وصُدُودا ، وإعراضًا يَغيظ به صـديقًا وَيَسُرُّ به حَسُودا ؛ وٱطّراحا أَوْهمه أنه أَلِفُ وَصْلٍ دُرِجتْ ، أو لفظةُ هُجْرٍ لُفِظت ؛ ولا يَعْرِف له ذَنْبا يُوجِب إبْعـاده ، ولا جُرْمًا يستوجِبُ به أن ينقضَ حبلَ وَصْـله ويرْفُض وِدَادَه ؛ ولا يعلَمُ سببا يُوجِب سَبَّه ، ولا شَيْئا يُحْدِث عَتْبه ؛ مع أنَّ المملوكَ أحقُّ أن يَبْدَأَ بالإعْراض ، ويَرْفُلَ من إغفال مَوَدّته فى الثَّوب الفَضْفاض ؛ فإنَّ المولىٰ آلَمَـه بالقَوْل مِرارا ، وجعل سَحابةَ حَيْفه تَهْمِى عليـه مِدْرارا ؛ وهو يحتمل الأَذىٰ ، ويُغْضِى علىٰ القَـذىٰ ؛ ولا يُظْهِر إلا محبَّـة ، ولا يُبْطِن له إلا مَوَدّة ؛ فإن شاهد المولىٰ بعد إعراضِه إعراضا فليَلُمْ نفْسَه ، أو أحْرقه لَهَبُ نار الجَفَاء فلا يشكُو مَسَّه ؛ يُحِيطُ بذٰلك علما ، ورأيه العالى .

شـــعر فى العِتاب :

مَوْلاىَ قَدْ طالَ التَّبـاعُدُ بَيْنَنا * أَوَما سَئِمتَ قَطِيعَتِي ومَـلالِى!
إنْ لَمْ تَرِقَّ لِحالَتِي ياهَاجِرِى * مَوْلاى قُلْ لِى مَنْ يَرِقُّ لِحالِى!

غـــيره :

يُباعِدُنِى عَنْ قُرْبِهِ ولِقَائِهِ * فلَمَّا أذابَ الجِسْمَ مِنِّى تعطَّفَا

غـــيره :

إنْ كانَ هِجْرانُنَا يَطِيبُ لَكُمْ * فلَيْسَ للوَصْل عنْدَنَا ثَمَنُ

غـــيره :

شَمَّتَّ بِى الأعْداءَ حينَ هَجَرْتَنِي * والمَوْتُ دُونَ شَماتَةِ الأَعْداء!

غـــيره :

تَنـامُ عَيْناكَ وتَشْـكُو الهَوىٰ * لَوْكُنْتَ صَبًّا لم تَكُنْ نائِمـا!

ولبعضهم : سيدى بادأنى(١) بلطف من غير خبره، وأعقبنى جفاء من غير ذنب؛ فأطمعنى أوله فى إخائه، وآيسنى آخره من وفائه ؛ فسبحان من لو شاء لكشف بإيضاح المبهم عن عزيمة الرأى فيه؛ والمملوك يقول :

عجبت لقلبك كيف انقلب * وصفو ودادك أنى ذهب
وأعجب من ذا وذا أننى * أراك بعين الرضا فى الغضب

أجوبة رقاع العتاب

قال فى "مواد البيان" : حكم أجوبة هذه الرقاع حكم رقاع أجوبة الاعتذار إلا أنها لا تخلو من الإجابة بالإعتاب أو الإصرار على العتاب . قال : ويجب أن يسلك فيها المجيب مذهب المجيب عن رقاع الاعتذار .

زهر الآداب :

فى جواب العتب على تأخر مكاتبة .

وعلم المملوك ما أشار به من العتب بسبب تأخر خدمه عن جنابه ، وما توهمه من اشتغال المملوك بأهله وأصحابه ؛ وحاشاه أن يتوهم فى المملوك غير الولاء، والملازمة على الحمد والثناء ؛ فهو لا يعتمد ذلك إلا تخفيفا عن خاطره ، ووثوقا بما يتحققه المولى من خالص مودته فى باطنه وظاهره ؛ حرسه الله ووفقه ،وفتح له باب السعادة ولا أغلقه ، بمنه وكرمه .

(١) ضمنه جواب عبد الله بن معاوية فى العتاب .

زهر الربيـــع :

جواب عِتَاب :

زاد اللهُ جَنَابه حَنَانا ، وأسبغَ عليه إنعامًا و إحْسانا ، وخلّد له علىٰ كلِّ عدوٍّ سلطانًا .

ولا زالت همَّتُه سماءً لمَناكِبِ الكَوَاكب ، وأياديه تُفيضُ علىٰ الأوليـاءِ غَرائبَ الرَّغائب ، ولا بَرِحَتْ سحائبُ إنعامه هامِيه ، وقُطوفُ إحسانِه دائمةً دانِيَه ، وشرائعُ مِياه جُودِه تُجَفِّف جُفُونا من الفاقةِ دَامِيه .

المملوكُ يجدِّدُ خِدْمته ، ويُواتِرُ للمولىٰ أدْعِيَتَه ، ويعترِف بِمِنَنِه التى أقرّتْ بها ألسِنةُ جوارِحِه فلا يَستطِيعُ أن يُنْكِرَها ، ويغترِفُ بيد تضرُّعه من بِحار جُوده التى تَثْعَبُ الوَلِيّ من سَحَابها إلىٰ كل وَلِيّ وتَقْذف له جَواهِرَها .

وينهى وُرودَ المكاتبــة والعلْمَ بمضْمُونها ، والآحتِواءَ علىٰ سائر مَعانِى فُنُونِهـا ، وما أشار إليــه من العَتْب الذى يرجُو به بَقاءَ الوِدَاد ، وآستِصحابَ حالِ التَّواصُل من غيرِ نَفَاد ، والمملوكُ فلا يُنْكِرُ ذَنْبه ، ولا يتنصَّل ولا يتوصَّل بل يعترِفُ بجُرْمه وقِلَّة خِدَمِه ، ويَستمْسِك بالعُرْوة الوُثْقىٰ من إحسانه وحِلْمِه ، ويسألُ مَكارمَه إجراءَه علىٰ عادته بالصَّفْح عنه ورَسْمِه ، وهو يرجُو أنَّ أمَّ هذه الهَفْوةِ لاتَلِد لهـا أُخْتا ، وأنه لايعتمِدُ إلَّا مايَزِيدُه إلىٰ المَوْلىٰ مِقةً ويُزِيل مَقْتا ، فإنَّ معاتبَــةَ مولانا قد وَعَتْها أُذُنٌ واعيه ، ومَراضِيَه لاتَخفىٰ علىٰ المملوك بعدَ ذٰلك منها خافِيَه ، إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : أسعدَ اللهُ المجلسَ وعَطَف للأولياءِ قلْبَه ، ونَصرَ ءَايَه وأنفذَ كُتْبه ، وأَرْهَفَ فى نُصرة الإسلام سِنانَهُ وعَضْبه ، وألْهَمَ حبَّــةَ قلب الزمان حُبَّه ، وأقْدَره علىٰ الحِلْم الزائد حتّىٰ يغفرَ به لكلِّ مُذْنِب ذَنْبه .

[وينهى] ورودَ الكتابِ الذى أعدَّتْه يدُ مولانا فصار كريما، وكسَته عبارتُه ثوبَ بَرَاعتِه فأصبحَ مَنْظَرُه وَسِيما ، وآستنْشَق عَرْفَ نَسِيمه المبارك فطاب شَميا ؛ وعلم المملوكُ منه شِدّةَ عَتْبه ، ومُرَّ التجنِّى الذى ظَهر من حُلو لفْظه وعَذْبه ؛ ولم يَعرف لعَتْبه مُوجِبا ، ولا لتغيُّر مَوَدّته سَبَبا ؛ فإنه ماحادَ عن طريقِ وَلَائِه ولا حال ، ولا زَلَّت قدَمُه عنه ولا زال ؛ ولا مادَ عن مَنْهَج المودّةِ ولا مال ؛ وما فَتِئَ لمحاسنِه ناشِرا ، ولإحسانِه شاكرا ؛ فإن كان قد نُقِل عنه إلىٰ مولانا شيءٌ أزْعَجَه ، وأخرجه عن عادةِ حِلْمه وأحْرَجه ؛ فإن الوُشاةَ قد آختلَقُوا قولَهم ونَقْلهم ، وقصَدُوا تشتيتَ المُصاحبةِ شتَّت اللهُ شَمْلهم :

وقد نَقَلوا عَنِّى الَّذِى لَمْ أَفُهْ بِهِ * وَما آفَةُ الأَخْبارِ إِلَّا رُواتُها !

آخر : وردت المشرَّفة العاليــة أعلىٰ اللهُ نَجْمَ مُرْسِلها ؛ وأسبغَ أيادِيَه وشكر جسِيمَ تفضُّلِها ؛ فابتهجتِ الأنفُس بحُلُولها وحُلَل جَمالها ، وعوملتْ بما يَجب من إكرامِها وإجلالِها ، وفُضَّ خِتامُها ففاحَ منها أرجُ العَبِير والعَنْبَر ، وتُليتْ ألفاظُها التى هى أبهىٰ من الرِّياض وأحلىٰ من السُّكَّر ؛ فأغنَتْ كُئُوسُ فَصَاحتِها عن المُدام ، وأزال ماؤُها الزُّلالُ الباردُ حَرَّ الأُوَام ؛ وأعربَ مُنْشِيها عمَّا فى ضميره من العَتْب ، والضيقِ الذى حَصَل فى ذٰلك الصَّدرِ الرَّحْب ؛ وهو يُقْسِم بنِعْمته ، وبصادِقِ محبَّته ؛ أنه لم يَبْدُ منه مايُوجب عليه عَتْبا ، ولا آنثَنىٰ عن الثَّناء علىٰ [مَحَاسِنه](١) التى شغَفَتْه حُبّا ؛ فإن كان المَوْلىٰ قد توهَّم شيئا أحْرَجَه وأقلَقَه ، وإلىٰ أليم العَتْب شَوَّقه ؛ فليُزِل ذٰلك الوَهْمَ من خاطِرِه ، ولْيَثِق بما تحقَّق من مُوالاته فى باطِنه وظاهِرِه ؛ ورأيه العالى .

---

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المقام .

آخـــر : أعزّ الله عَزَماته، وشكَرَ جسِيمَ تفضُّلاته .

ولا زالتْ نِعمتُه باقِيـه، وقدَمُه إلىٰ دَرَج المَعَالى راقِيـه؛ وهِمَّتُه إلىٰ السُّموِّ علىٰ الكَوا كِب ساميه ، وسماءُ جُوده علىٰ العُفَاة هاميَه؛ وعَزْمتُه لثُغُور الإسلامِ حاميَه، عبْدُ نِعَمه، وغَرْسُ كَرَمه، يُعلِمُه بِصدْق وُدّه، والمداومةِ علىٰ شُكْره وَحْمـده؛ وأنه وقَفَ علىٰ مُشَرِّفه وفَهمه، وشاهَدَ منه عَتْبه وعِلمَــه؛ وهو لا يشْكُو من المولىٰ جَفَاءً ولا يَعيب، و [عن] طريق المُصافاةِ والمُخالَصةِ فلا يغيب؛ بل يقول :

أنْتَ البَرِيءُ مِنَ الإسَاءةِ كُلِّها * ولَكَ الرِّضَا وأنا المُسِيءُ المُذْنِبُ

والمرجوُّ من لَطَافة أخلاقه، وطَهارةِ أعْرَاقه ، أنْ يصْفَح عن زَلَّته، ويعْفُوَ عن ذنبه وإساءته :

فأنْتَ الَّذِى تُرجىٰ لتَخْفِيف زَلَّتِي * وتَحْقِيق آمالِي ونَيْــل مَآرِبِي!

وقُرْبُك مقْصُودِى وبابُكَ كَعْبتِي * ورُؤْيَاكَ ياسُــؤْلِي أعَزُّ مَطَالِبِي!

قلت : وكتبتُ إلىٰ المولىٰ شِهاب الدين الدُّنَيْسرى" وقد بلغَنِى عنه مُساعدةُ بعضِ الجُهَّال علىّ فى بعض الأمور :

عَهِدْتُ شِهابَ الفَضْل يَرْمِي بِسَهْمِهِ * شَيَاطِينَ جَهْلٍ أنْ تُدانِى جَنابَه!

فَمَا بالُ مولانَا علىٰ فَرْط فَضْـلِه * يُعَرِّفُ شَـيطانَ الجَهَـالةِ بَابَهُ ؟

النـــوع الرابع عشر
(العِيادةُ والسُّؤال عن حالِ المريض)

رُقْعـــة عيادة :

ويُنْهِى أنه ٱتَّصـل بالمملوك مِنْ ألِمَ مَوْلانا ـ أطال اللهُ بقاءه ، وحرس حَوْباءه ـ ما أهْمىٰ مَدَامِعَه ، وأحْمىٰ أضالِعَـه ، ومَزَّق جِلْده ، وحَرَّق خَلَده ، وأطار الوَسَن عن عَيْنِه ، ونَفَّر الهُدُوءَ عن مَضْجَعِه ؛ حتّٰى تداركَ اللهُ تعالىٰ بكتابِه الناطِق بإقْلاع الُملِمّ ، المعْرب عن دِفَاع الُمهِمّ ؛ فرَقَأَ من دُمُوعى ما ٱرفَضّ ، وجَبَرَ من ضُـلُوعِ المملوك ما ٱرتَضّ ، والتأم من جِلْده ماتفطَّر ، وبَرُد من خَلَده ماتوَقَّد[1] ، وجَثَم ماطار من وَسَنه وآنَسَ من الهُدُوء مانفَر عنه ، والتأمتِ الآمالُ بعد ٱنْثِلامِها ، وبرزَتْ ثِمـارُ الأمانِىّ من أكمامِها ؛ وطَلَع من الرجاء آفلُه ، ورَوِى من السُّرور ماحِلُه ؛ وتجدَّد من السُّؤدَد طامِسُه ، وضَحِك من الزمان عابِسُه ؛ والله تعالىٰ يغُضُّ طَرْفَ الحَدَثانِ ، عن مُهْجَتِه ، ويَصْرِف صُروفَ الزمان ، عن ساحَتِه ؛ ويهنِّيه بمـا أعاده إليه من الإبْلال ، ويُمَلِّيه بمـا أفاضه عليه من الٱستِقْلال ، بمنّه وكرمِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أن ماخامَرَه من قَلَق وجَزَع ، وفَرَقٍ وهَلَع ، بسبَب مابلَغَه من شَـكْوىٰ مولانا لاتَحْصُره الأوْهام ، ولا تُسَطِّره الأقْلام ؛ ولولا ثِقةُ المملوكِ باللهِ تعالىٰ لَوهَتْ عُقَد صَـبْره ، ولَا نْخلعَ فُؤادُه من صَدْره ؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ هـذا الأَلَم لو نُقِل إلىٰ المملوك لَمَـا ثقُل عليـه ، وكيف يستثْقِل مايخَفِّف عن مولانا وَصَبَه ويحْسِـمُه ، ويُعَجِّل له سِـلْكَ الشِّفاء ويَنْظِمُه ؛ والله تعـالىٰ يجعَلُه فى أمانٍ من كِفَايته ، وضَمانٍ من حِياَطتِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى الاصل "توفر" بالفاء والراء وهو لايناسب المعنى .

أجوبة كتب الشفاعات(١) والعنايات

قال فى "مواد البيان" : هذه الكتب إذا أجيب الملتمس إلى حاجتـه فينبغى أن تبنى أجوبتها على شكر مقصد الشافع ، والإدلال والآسترسال و إنالة المشفوع له وطره إيجابا لحق الشافع ، و إن وقع الآمتناع والتوقف عن الإجابة إلى الملتمس، فالواجب أن تبنى على إقامة العذر لاغير .

زهر الربيـــع :

جوابُ شفاعةٍ فى حقِّ كاتب :

جدّدَ الله [له] السعادةَ وخلّدها ، وأصارها له شعارًا وأبّدها ، ووطّد به الممـالكَ ومهّدها ، وعضّد به طائفةَ الإسلام وأيّدها ، وشـكَرله صنائعَ يعُدُّ منها وَلِىٌّ ولا كُلُّ يستطيعُ أن يعدِّدها .

المملوكُ يقبِّل اليـدَ الشريفةَ أداءً للفرضِ اللازِم ، وشُـكرًا لمـا أولته من الأيادِى والمَكارم، وحمدًا لألطافِهِ التى أطمعَتْه بالتميز فأصبحَ برَفْع قدرِه كالجازِم .

و ينهى ورُودَ المشرِّف الذى نَزَّه ناظِرَه ، وجبرقلبَـــه بحُسْن ألفاظه وخاطِرَه، والعلْمَ بمـا أمَرَ به ، وشَـفَع إلى المملوكِ بسبَبه ، وهو الكاتبُ الذى أشارَ إليه ، وقد رَكَن إلى ما شكَرَه به المَوْلىٰ وأثنىٰ به عليه، وآعتَقَد يُمْـن(٢) إغارة الشافِع فعقَـدَ علىٰ المشفُوع فيه خِنصِرَه ، وتقَدّم بترتيبه فى ديوان إنْشائه ، وجعله من جُمْـلة خَواصِّه وخُلَصائِه ، وفعل ذٰلك كلَّه آتِّباعًا لإشارتِه ، وقَبُولا لشَفَاعته ، فالمولىٰ يواصل بمراسِمِه وأمثلتِه ، فإنّها تَرِدُ علىٰ مُرْتَسِم ممتَثِل .

---

(١) حق هذه الأجوبة أن تكون تابعة للنوع الرابع فهى مؤخرة من تقديم فتنبه .

(٢) لعله إشارة الشافع .

ومنـــه : جواب شفاعةٍ فى آستخدام جُنْدِىٍّ :

ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نِعَمَه ، وأرْهفَ فى نُصْرة الإسـلام سَيْفه وقلَمه ، ولا بَرِحتْ أَلْسِنةُ الأنام ناطقةً بولائه ، وأيْدِى ذَوِى الرجاء مملوءةً من فَوَاضل نَعْمائه .

المملوكُ يُواصل بأدْعِيَتِه الصالحه ، ويستَنْشِق رُوحانِىَّ رِيحِكم فيسْكُن منـه بلَذيذ تلكَ الرائحـه ؛ ويشْكُرُله مامنَحَه من المَكارم ، ويباهى بعَزَماته اللُّيوثَ الضَّرَاغم ؛ فلا يجد مُضاهِيًا لتلكَ العَزائم .

ويُنهِى ورُودَ المِثَـال الذى أشرقَتِ الوجُوه بنوره ، وٱبتهجت الأنفُس ببـلاغة مُنْشيه ووَشْيِ سُطُوره ، وعلم إشارةَ المولىٰ فى مَعنىٰ فلان : أدام اللهُ سعدَه ، وأعذَبَ مَنْهَلَه ووِرْدَه ، والتوصِيَةَ بأمرِه ، وما أبداه من حَمْده وشُكْرِه ، وأن يُقْطع إقطاعًا يليق بأمثاله ، ويتَفَيَّأَ من خراجها ضافِىَ ظِلاله ، وعند مُثول مِثاله العـالِى آمتُثِلَ وٱلتثِمْ ، وٱستخْدَمَ المشارَ إليه لإشارته وخَدَم ، وهذا بعضُ مايجب من قَبُول أمره ، وتعظيم كتابه وتَبْجيل قَدْرِه ، فيواصلُ بمراسِمِه فإنهـا تُقابَل بالآرتِسَام ، ومشرِّفاتِه فإنها تُعاملُ بوَافِرِ الإكرام .

جوابُ شـــفاعة فى الجمـــلة :

قُلْ ما تَشاءُ فإنَّنِى لَكَ طائـعٌ * ماأنْتَ عِنْدى شافِعٌ بل آمِرُ !

جعله اللهُ لكلِّ خيرٍ سبَبَا ، وحقَّق به لأوليائِهِ ظُنُونا وحَصَّل أَرَبا ، ووَفَّر له من أجرِشفاعتِه الحسَنةِ نَصِيبا ، وأدامه عن كلِّ شرٍّ بعيدًا وإلىٰ كلِّ خيرٍ قريبا .

المملوكُ ينهِى تألُّمَـه لِفراقه ، وما يجِدُه من صَبَابتِه وشِدّةِ أشْواقه ، ويُعانيه من حَنِينه وأَتْواقه ، وأنه ورَد عليه كتابُه فاستَلَمه ولَثَمه ، وبجَّله وعَظَّمه ؛ وعلِم ما أشار

إليه، وأخَذَ أمْرَ المشفُوع فيه بكلْتا يدَيْه ، وجعل قَضاءَ أرَبِه أمرًا لازِما ، وما فتِئَ علىٰ ساقِ الاَجتهادِ قائمـا ، إلىٰ أنْ حصَّلَ غرَضَه ، وأدّىٰ من حُسْن القيـام بأمره ما أوْجبَه مُشرِّفُه العالى وآفترَضه ؛ والمَوْلىٰ آمِرٌ غيرُ شـفِيع ، ومَهْما ورَدَ من جِهَتِـه علىٰ المملُوك فواردٌ علىٰ سَمِيع مُطِيع ؛ فيوَاصل من مَرَاسِمه بما سَنَح ، ومن أخباره بمـا تأرَّج طِيبُ عَرْفه ونَفَح ؛ ورأيُه فى ذلك العالى .

آخــر : شـكَرَ اللهُ عوَارِفَها ، وتالِدَ جُودِها وطارِفَهَا ، ووافِرَ ظِلَالهـا ووارِفَها ؛ وينهى ثناءَه علىٰ مَعَاليه ، وملازَمتَه ومُداومتَه علىٰ بَثِّ محـاسنِه ونَثِّ أياديه ؛ وحمـدِ عواقِبِ إحسانه ومَبَاديه ، وشِـدّةَ أشواقِه إلىٰ جَنَـابه ، ولذيذِ مشاهدتِه وخِطابِه ؛ وما يُعانيه من غَرامٍ لازَمه مُلازمةَ الغَرِيم ، وداءِ صـبابةٍ يُضاعِفُ شَوْقَه إلىٰ رؤية وجْهه الوَسِـيم ؛ ومُداومتَهُ علىٰ التعوُّض بشُكْر محاسِـنِه عن المُدامة والنَّـدِيم ؛ ونَظْمِ جواهرِ مَدْحه بِجِيد جُوده ، وحمْـدِ المولىٰ علىٰ ذٰلك التنظيم ؛ وأنه ورد عليه مشرِّفُه العالى فقَبَّله ، ودعا لمُرْسله دُعاءً يرجُو من الله تعالىٰ أن يستجيبَه ويتقَبَّله ؛ وحصَلَ له بوصولِه آبتهاجٌ عظيم ، وقال لمن حضر وُروده ﴿ يأيُّها المَلَأُ إنِّى أُلْقِيَ إلَىَّ كتابٌ كَرِيم ﴾ وفَهِم مضمُونَه وفَحْواه ، وعلم معْناه وما أظهره فيــه وأبْداه : من الوصيَّة بفلان وما يُؤْثِره من تسهيل مَطَالبه ، وتيْسيرِ مآرِبِه ؛ ووصـل المشارُ إليه وحصَلَ الأُنْس برُؤْيته ، وتمتَّعت النَّواظِرُ والمَسامعُ بمشاهَدَته ومشافَهتِه ؛ وقام المملوكُ فى أمْره قيامًا تامًّا ، وجعـل عينَ آجتهادِه فى مصلَحته متيقِّظةً لاتعْرِف مَنَاما ؛ وشمَّر عن ساق الاَجتهاد ، فى تحصيلِ المَرَام والمُراد ، إلىٰ أنْ حصَل له الفوْزُ بنَيْل أمَلِه ، وعاد راتِعًا من العَيْش فى أخْضَره وأخْضَـله ؛ رافلاً من السُّرور فى أبْهىٰ حُلَله ، فيُحيط علمُه بذٰلك ، والله تعالىٰ يعضِّدُ به الدُّولَ والممـالك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخــر : جعلــه اللهُ مِفْتاحا لكلِّ بابٍ مُرْتَجْ، وصَــدَّق به [أمَلَ] كلِّ آمل وحقَّق رجاءَ كلِّ مُرْتَجْ ، ولا زالتْ سحائبُ جُودِه هاميــةً بالوَسْمِىّ والوَلىّ(١) ، ماطرةً بوَبْلها وطَلِّها علىٰ الوَلِىّ .

المملوكُ يَخْدُم بتحيَّة أرَقَّ من النَّسيم ، وسلامٍ أطْيبَ عَرْفا من بانِ النَّقا إذا تحمَّلتْ عَرْفَه رِيحُ الصَّرِيم .

وينهِى إلىٰ علمِــه الكريمِ ورُودَ مشرِّفته وأنه أحاطَ بمضْمُونها عِلْما ، وشاهدَ منها فى حال طَيِّها مَكارِمَ أصارَتْ تفضيلَه علىٰ حاتمٍ الطائىِّ حَتْما ؛ ووقَفَ منها علىٰ دُرِّ لفْظ قذَفَه بحرُ خاطِرِه نَثْرا ونَظْما ؛ وبراعةِ عبارةٍ زادتْ قَلْبَ مُواليه غَراما وأنْفَ مُناوِيه رَغْمــا ؛ وفصاحةٍ عرَّفتْه قولَه صلَّى الله عليه وسلم « إنَّ مِنَ الْبَيانِ لَسِحْرًا وإنَّ من الشِّــعر لَحُكْمًا(٢) » وفَهِم عنايتَه بفلان نفَع اللهُ بعلمه وعَمَله ، وقرَّب له من الخــير مالا يُطْمِعُه به بعيدُ أمَلِه ؛ وإشارتَه بسبَب التنبيه والإرشادِ علىٰ جُمَل فضائله ، ومفَصَّل مناقبِه المشهورةِ فى البِلاد ، وإيضاحِ كفايتِه فى وَجِيز تلك الفُصُول الصِّحاحِ الإسْناد ، فحــالَ قُدومِ المذكــورِ وحلُولِه ، ووُرودِ مشَرِّفه ووُصوله ؛ أنهىٰ المملوكُ أمْرَه إلىٰ مخْدُومِه ، وطالع به شريفَ عُلُومه ؛ ولا زال يُحْسِن سعْيَه ، ويَعتمِدُ علىٰ مشيئةِ الله ولا يتْرُك حِرْصَه ومَشْيَه ؛ إلىٰ أنْ حقَّق قصــدَه بقضاء شُغْله ، وقرَّب له أمَدَ أمَلِه ، وكتبَ توقيعَــه ولم يُرِد الله تَعْويقه ، ونجَع طعمُ قصده وأنْجحَ اللهُ طريقَه ؛ وقد عاد مصحُوبًا بالسَّلامه ، معروفًا بتحصيل هذا القَصْد بأنه (طَلَّاع الثَّنايا) من غيرِ وضْع العِمامه ، حسَبَ إشارةِ المولىٰ وأمْرِه ، والله تعالىٰ يُمِدُّه بصوْنِه ونَصْره .

---

(١) الولى المطر الذى يأتى بعد الوسمىّ ووقع فى الأصول ''الوبل'' وهو تحريف واضح .

(٢) هو بضم الحاء وسكون الكاف العلم والفقه أى إن فى الشعر كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه ...... ويروى إن من الشعر لحكمة وهو بمعنى الحكم . انظر اللسان ج ١٥ ص ٣٠ .

آخـــر : فى آستخلاص حقّ .

شكَرَ اللهُ إحسانَه وإنعامَه ، وحَصَّل به لكل وَلِيٍّ مَرامه ، وحَمِدَ تطوُّلَه وتفضُّله ، وأنال به لكلِّ آملٍ أمله ، وخلَّد دولتَه ، وأدام نِعْمتَه ، وأنفذ كلِمتَه ؛ ولا زال فضلُه كاملا ، وإحسانُه إلىٰ الأولياء واصِلًا ؛ ونوالُه لبنِي الآمالِ شامِلا .

المملوكُ يخدُمُ بدعاءٍ أحسنَ من نَوْر الرُّبا ، وثناءٍ ألطفَ من ريح الصَّبَا ؛ وسلامٍ أطيبَ بمُروره من تذكُّرِ أيَّام الصِّبا .

وينهى وُرُودَ الكتابِ الذى طابَ بالمولىٰ مَحْتِدُه ونِجارُه ، وزاد علىٰ كتائبِ الكُتُب نَخَارُه ، وأنه وقَف عليــه وُقُوفَ مشتاقٍ إلىٰ مُرْسِلِه ، شاكرٍ أنعُمَ فضلِه وجسيمَ تفضُّلِه ؛ فأسكرَتْه تلكَ الفَصاحةُ بشَذَاها الأَرِجْ ، ونزَّهتْ لحْظَه فى دُرِّ لفظِها البَهِج ؛ فظنَّها لَمَّا آستنْشَق رائحتَها راحًا قَرْقَفَا ، ولمَّا أبْهجَه لفظُها بألفاظ تُزْهِى علىٰ الرِّياض رَوْضةً أُنُفا ؛ وعلِمَ الإشارةَ الكريمةَ فى معنىٰ فلان والوصيَّةَ بخِدْمته ، وما أمَرَ به من مُساعدتِه ومُساعَفَتِه ؛ وعنــد وُصُول مشرِّف المولىٰ وقَبْـل وَضْعه من يَده ، نوىٰ المملوكُ مساعدةَ المذكورِ علىٰ مَقْصَده ، فتقــدّم بإحضار غريمه فوجده عن البــلد غائبًا ، فانتظَره إلىٰ أن عادَ آئبا ؛ فعند وصوله طلَبَــه وأحضَرَه ، وسأله عمَّــا يدَّعيه عليه خصْمُه فأنْكَرَه ؛ وطلب الحضُورَ إلىٰ القاضى ، وحَثَّ علىٰ ذٰلك حتّٰى أوْهمَ أنه المُتقاضِى ؛ فلَمَّــا رأىٰ المملوكُ أنّ حُجَّة المشفُوع فيه لاتقُوم بصدْق دعواه وحُجج ، ولا يظهَر بها علىٰ غريمه إلا من طريقٍ حَرِج ؛ بذَلَ فى مُصالحتهما جُهْدَ الآجتهاد ، وما زال يُرشِدُهما إلىٰ طريقِ الرَّشاد ، ويدُلُّهما علىٰ سبيل السَّداد ، ويعرِّفهُما أنــ التضارُرضَيْر ، وأنَّ الصُّلح خَيْر ؛ فكل منهما يَهِيم فى وادْ ، ويسْلُق خصْمَه بألسـنةٍ حداد ؛ إلىٰ أنْــ تراضَيا وتوافقا ، وسلَكا طريقَ الرِّفق وترافقا ؛ وصــدَّق الخصمُ

خَصْمَه فتصادَقَا ، وٱنفصلَا وكلٌّ منهما قد أرْضىٰ خِدْنه ، وعن المحاكمة والمحاققة أغْضىٰ جَفْنه .

آخــر : أيدَّ اللهُ سعدَ المولىٰ وأبَّده ، وأثّل مجْـدَه ومجَّده ، وأعانه علىٰ إسْـداء العَوارِف وعَضَّده ، وأمدَّه من المَسَرَّات بما يُزِيل عن الأيَّام أبدَه(١) ، وأناله سَعْدا لاتبلُغ الأنامُ أمَدَه ، ولا زال بُرْدُ جَدِّه من السعادة جَدِيدا ، ونجْمُ عدُوِّه آفِلًا ونجمه سَعِيدا .

الذى نُحيط به علْمَه الكريم أنَّ كتابه ورد فسَرَّى همَّ الأنفُس وسَرَّها ، وضاعفَ بمـا ضاعَ من نَشْره بِشْرَها ، وفاحَ منه شَذًا عند إقْباله ، فقيل : قد هبَّتِ القَبُول ، ورَنَّح الأولياءَ ، فقيــل : قد هَبَّتْ ريحُ الشَّمال وأُديرتِ الرَّاحُ الشَّمُول ؛ وأنَّ المملوكَ وقَفَ منه علىٰ ألفاظٍ سقَتْه كُئُوسَ سُرُورٍ لا كُئوسَ مُدَام ، وروَتْ له أخبارَ حِلْم لو أُسنِدَتْ إلىٰ سِواه لتُوهِّمتْ أضـغَاثَ أحْلام ؛ وروَتْ أكبادًا أضرَّ بها لغَيْبته حَرُّ ظَمَإٍ وأُوَام ، وبيَّنتْ سِحْرَ البَيَان ، وأعرَبَتْ بلسان حُسْنها عمَّا لمُنْشِيها بل مُوَشِّيها من الإحْسان ، وأغربَتْ فى الفَصَاحة فخِلْنا كلَّ كلمة تنْطِقُ عن سَحْبانَ بلِسَان ؛ وزهتْ بيانِـعِ ثِمَـارِ فضْلِها فتزَّهتْ كلَّ عينٍ فى بُسْتان ؛ وعلم إشارةَ المولىٰ فى معَنىٰ فلان ، وما أبداه من العِنَاية فى حقِّه ، والإيثـار لِصِـلةِ رِزْقه ؛ وأنه من الألْزام ؛ والذين تَجِب معاملتُهم بالإكرامِ والاحترام التـام ؛ وعنـد ماشاهدَ المملوكُ كتابَ من شَرَّفه ، وسَمِـع ألفاظَه التى بلُطْفها أتحفَه ؛ بل بِردائها علىٰ البَرْد ألحفه ، تقدّم بإجابة سُؤاله ، وترتيبِه فى جهةٍ تليق بأمثالِه ؛ وقمَّصه من العناية قميصًا لايبْلىٰ ، وجمع لخاطِره والدَّعة شَمْلا ؛ وهذا حسَب إشارةِ المولىٰ التى لاتُخَالف ، وأمرِه الذى يقِفُ كلُّ أحدٍ عنده ولا يستَوْقِفُ ولا يُواقِف(٢) .

(١) أى غضبه فهو مصدر أبد عليه كفرح اذا غضب .

(٢) هذا آخر ماحقه التقديم بعد النوع الرابع وقبل الخامس فتنبه .

كتاب إلى مريض بالسؤال عنه من كلام المتأخرين :

حَاشىٰ مِزَاجَكَ مِنْ أذًى * وكرِيمَ جِسْمِكَ من وَصَبْ!
يَا غَايَةَ المَـأْمُـولِ والْـ * ـمَرْجُوِّيا كُلَّ الطَّلَبْ!
مُذْ غِبْتَ عَـنِّىَ لَمْ أزَلْ * مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ فى نَصَبْ!
جَفْـنِى غَرِيقٌ بالدُّمُـو * عِ وماءُ صَبْرِى قد نَضَبْ!
واللهِ مَـالِى فى البَقَـا * ءِ وأنْتَ ناءٍ مِنْ أرَبْ!
فـتَرىٰ أُبَشَّرُ[1] سـيِّدِى * أنَّ اللِّقـاءَ قَدِ اقْـتَرَبْ!

حرَسَ اللهُ مِزَاجَ المَوْلىٰ! وأصار العافِيَةَ له شِعَارا، والصِّحَّةَ له دِثَارا، ولا زالَتْ ساكنةً فى جَوانِحِه، مقيمةً حَشْوَ أعضائِه المباركةِ وجَوارِحه .

أصدرها المملوكُ تُعْرِب عن شوْقٍ يكِلُّ عن وصْفِه اللِّسان، وتَوْقٍ لايُحْسِن وَصْفَه البَنَان، ولاعجٍ يَعْجز عن حمِلِ بعضِه الجَنَان، ملتَمِسا المواصلةَ بأخْباره، وواصفًا مايجِدُه القلبُ من ألَمِ الشوقِ وناره، وشاكِيًا من جَوْر أيَّام الفِرَاق، وراجيًا أن يُبَشَّر بالإبْلال من مَرَضِه والإفْراق، وداعيًا إلىٰ اللهِ بتعجِيلِ أيَّام التَّلاق . ومع ذٰلك فلو رُمت أنْ أشرَحَ كلَّ ماأجِدُه من الصَّبابة لأسأَمْتُ وأسْهَبْتُ، بل لو ذكرتُ ماأُعانيه لألَمِـه لثقَّلتُ علىٰ خاطِرِه وشَوَّشْتُ[2]، لكن خاطِرُ المَوْلىٰ شاهدٌ بوَجْدِى، وعارِفٌ بمـا تحمَّلتُه من الكآبة التى لم يحمِلْها أحدٌ قَبْلى ولا تُحمَلُ بَعْـدِى، فيُواصِلُ بأخبارِه، واللهُ يحرُسُه آناءَ لَيلِه وأطرافَ نهارِه، إن شاء اللهُ تعالىٰ .

---

(١) مراده فتى أبشر . ولعله تصحيف من الكاتب .

(٢) نقل هـذا الفعل الفارابى وتبعه الجوهرى واستعمله كاتب هذه الرسالة وأنكره بعض الحذاق وقال الصواب هوّشت .

فى معنـــاه :

يامَنْ شَكَا فَشَكَا فُؤادِى حُرْقــةً * لاتَنْطفِى وصَــبابةٌ لا تَبْرَحُ !
وغَدَا سَقِيمَ الجسْمِ يَوْمًا واحِدًا * فنَزَحْتُ دمْعا للمَدَامِـعِ يجْرَحُ !
وٱزْدادَ شَوْقى نَحْوَ طلعتِــه الَّتِى * أبدًا بِيُمْـنِ بَهائها أسْتَنْجِح !
لا زِلْتَ فى عِزٍّ وسَــعْدٍ دائمٍ * أيَّامُنـــا ببقَـــائِهِ تَتَبَجَّح !
وبَقِيتَ ما بَقِىَ الزَّمانُ مُؤيَّدا * تُمْسِى قَرِيرَ العيْنِ فيه وتُصْبِح !

كَمَّل اللهُ عافِيَــةَ المَوْلىٰ وحَرَسَــه ، ولا سَلَبَه ثَوبَ الصِّحَّة بل قَمَّصَه إيَّاه وألْبَسه ؛ وأخدَمَه الأيَّامَ فلا تستَطِيعُ مخالَفَــةَ أمْره ولا الخُروجَ عن حُكْمه ، ورزَقَه أن يَمْلِكَ الدُّنيا بحذَافيرِها وهذا يحْصُلُ بعافِيَةِ جِسْمِه .

المملوكُ ينهِى أنه ٱتَّصل به تألُّمُه فشَقَّ ذٰلك عليه، ووصلَ مِن القَلَق إلىٰ حَدٍّ لم يَصِـلِ المَوْلىٰ والحمدُ للهِ إليه؛ وٱبتهلَ إلىٰ اللهِ فى مُعافاة جَسَدِه، وأن يُعضِّدَه ببَقاء والدِه وولَدِه؛ ويُضاعفَ تسهيلَ مآربِه ومَقاصِــدِه ، ويرفَعَ كلمتَه وقدْرَه علىٰ رَغْم مَعْطِس شانيهِ الأبْترِ وحاسدِه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

جوابٌ إلىٰ من قَنْطره فرسُه (١) :

ثَبَّت اللهُ قواعِدَ مَجْدِه، وبلَّغه سَــعْدا لاتبْلُغه الآمالُ لبُعْــده ؛ وأهمىٰ علىٰ محبِّيه سحائبَ جُودِه ورِفْده .

(١) جارىٰ فى هذا الفعل اللغة العامية والصواب قطره قال الشاعر :

قد علمت سلمى وجاراتها * ماقطر الفارس الا أنا

أنظر اللسان ج ٦ ص ٤١٨ .

الملوكُ يخْدُم بتحيَّة أرقَّ من النَّسِـيم ، و يشْكُر مواهبَه التى مازالتْ تَحنُو عليه حُنُوَّ المُرْضعات علىٰ الفَطِيم .

ويُنْهِى ورُودَ الخبر بأنه كَبَابِه جوادُه عنـد مازَلَّت قوائمُه ، وأثقلَتْه فضائلُ المولىٰ ومكارِمُه ، فٱنْزعَجَ لذلك وتألَّم ، وكاد قَلْبُـه لولا المبَشِّر بسلَامتِـه أنْ يتَكلَّم ؛ وجوادُ المَوْلىٰ لاسبِيلَ إلىٰ ذَمِّه ، فإنه أسْمحُ جَواد ، ولا ٱتِّهـامِه بالعَجْز ، فإنَّه عُرِفَ بإتْهام وإنْجـاد :

لٰكِنَّه نَظَر الأفلاكَ ساجدةً * إلىٰ عُلَاك فلَمْ تَثْبُتْ قوائِمه !

والمَوْلىٰ أولىٰ مَنْ قابل عُذْر طِرفه بطَرْف القَبُول ، وٱعتمد عليـه دُونَ سائِرِ الخُيُول : فإنَّ المولىٰ ولله الحمدُ فى صحةٍ دائمه ، وسـلامةٍ ملازمه ؛ وهـذا هو القَصْدُ والمُراد ، والٱستبشارُ الذى تفْتَرُّله ثُغورُ الثُّغور وتعْمُر به البِلاد ؛ جعله اللهُ فى سعدٍ ماله فَراغٌ ولا نَفَاد ، ورزقه مادعا به العِمادُ الفاضل والفاضِلُ العِماد ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة كُتُب العيـادة

قال فى " موادّ البيان " : يجب أن تبنىٰ هذه الأجوبةُ علىٰ وُصُول الرُّقعـة ، وما صادفت المريضَ عليه من المَرَض ، وأنها أهدَتْ رَوْحَ الهُدُوء ، وأركَدت رِياحَ السُّوء ، وأقبلتْ بنَسيم الإبلال ، وتضوعَتْ بأرَجِ الٱسـتقْلال ، و بَشَّرت بالعـافيةِ والسَّلامه ، وآذنَتْ بالصَّلاح والٱستِقامه ، وأشباه هذا .

ابن نباتة المِصْرى :

شكَر اللهُ ٱفتِقـادَها وأُنْسَها ، وقلَمَها وطِرْسَها ؛ وحمىٰ مِنْ عارض الخَطْبِ لامِنْ عارض الخِصْب شَمْسَها ؛ ولا أعدمَ الأولياءَ قصْدَها الجميل ، ووُدَّها الجليل ، و إحسانَ

رسائلها التى كَرُمَتْ فما صَوْبُ الغَمَام لها رَسِيل ؛ وأَمْتع الممالك يُمْنها التى صحَّت بتدبيره فليس غَيْرَ النَّسِيم عَلِيل .

ويُنْهِى وُرُودَ المشرِّف الكريم فتلقَّاه المملوكُ حَبِيبا وارِدًا، وطبِيبًا بإحسانِه وللجسدِ عائدا ؛ وفَهِم المملوك ما انْطوىٰ عليه من الصَّدَقات التى ما زالَتْ فى فَهْمه ، والمحبةِ الصادقةِ التى ما عَزَبتْ عن عِلْمه ؛ وما تضَمَّن من فصولٍ كانَتْ أنفعَ من فُصُول أَبِقْراط لمعالجة جِسْمِه ؛ وأينَ أَبِقْراطُ من بركاتِ كتابِ مولانا الذى طالَعَ منه كتابَ الشِّفاء علىٰ الحقيقه ، والنَّجاةَ من عُرْوة البأس الوَثِيقه ؛ وأدْنىٰ وَرَقَته الحمراءَ لرأسه تبرُّكا وإكْراما وقال : نِعْمَ الجُلَّنارةُ المُعوِّذَةُ من الشَّقِيقه ، واَستطَبَّ حُروفَها فإنها عن أَيْدِى الكريم والكَرَامات ، ولَثَمَ العلامةَ وتمسَّك بالسُّطور فإنها من أسبابِ الصِّحَّة والعَلَامات ؛ ووافقتْ عيادةُ مولانا مبادِىَ العافيةِ وآذنَتْ بالزِّياده ، وصلَح خطُّه الكريمُ عائدا وما كلُّ خطٍّ يصلُحُ للعِيَاده ؛ وما تِلكَ الجارحةُ المتألِّمةُ إلا يَدٌ أثقلَتْها مِنَنُ مولانا فأعْيَتْ وتألَّمت ؛ ثم أعانَتْها برَكتُه هى والقدَمُ بالحمل العظيم وتقدَّمتْ ؛ وما بقِيَّة الجَوارِح إلا عيونٌ كانتْ تنتظِر لُطْفَ الله تعالىٰ وبركته وقد قَدِمَتْ ، فشُكْرا لها من بركاتٍ تَنْعَمُ بها قبلَ الجُسُوم أرواحُها ، وأدويةٍ قلبيَّة تُعالَجُ بها ذواتُ النُّفُوس فكيف أشباحُها ؛ لا بَرِح جوْهَرُ كلماتِ مولانا يُؤْذِن بالشِّفاء من العَرَض ، وسِهام أقلامه إذا كتبَتْ عائدةً أو جائدةً أصابت الغرَضَ وفوْقَ الغرَض .

وله : تقبَّلَ اللهُ منه وفيه صالحَ الأدْعِيه ، وملأ بمحاسِن ذكره وبِرِّه الآفاقَ والأنْدِيه ، وشكر هِبَاتِه وبركاتِه التى تَنْزِل بعارِض الغيثِ قبل الاسْتمطار وترفَعُ عارضَ الألَم قبلَ الأدْويه ؛ تقبيلَ معترفٍ بسابق النِّعم ، مقيمٍ علىٰ صحَّة العُبُودية والولاء فى حالَتَى الصِّحَّة والسَّقَم .

وينهى وُرُودَ مشرِّف مولانا الكريم علىٰ يدِ فلان عائدًا من جِهة العِياده ، وعائدًا من جِهةِ الصِّـلات المعتاده ؛ ومُفْتقِدًا لاعَدِم الأولياءُ فى الشِّـدّة والرَّخاء آفتقادَه ، ما كان إلَّا رَيْثَماَ نَشِق العليـلُ نَسماتِه الصحِيحه ، وتناوَلَ كأسَ ألفاظه الصَّريحه ؛ وإذا بقانُون المِزَاج قد هَمَّ باعتِدَاله ، وكِتابِ الشفاءِ والنجاةِ قد تسنَّتْ فوائدُ إقْبالِه ؛ فتميَّز حال الصحَّة من المَرَض ؛ وآستعمل جَوْهَرَ الألفاظ فعَزَم علىٰ زَواله العَرَض ؛ وبلَّغ الولدُ فلان المشافَهة وكلُّ مَقاصِد مولانا مبتَدَأة مبْتدَعة ، والمملوكُ(١) جوابَها وكلُّ أجوبته مُنوَّلةٌ منوَّعه ؛ شكر اللهُ عوارِفَ مولانا المتِّصِـله ، ورُسَلَ آفتقاده التى منها العائدُ ومنها الصِّله .

وله : فى جواب كتاب عِيادة وارد فى يومِ عِيد علىٰ يد من آسمه جمال الدين محمود.

شـكَر اللهُ مِنَنَهـا التى إذا أبْدتْ أعادَتْ ، وإذا جادَتْ أجادت ؛ وإذا كَرَّرتْ الآفتقـادَ حَلَا وإذا تصـدَّتْ لمَوَدّاتِ القلوب صادَتْ ؛ تقبيـلَ مخلِصٍ فى وَلَائه وآبتهاله ، مُقِيم علىٰ صحة العهدِ والحمد فى صِحَّته وآعتِلاله .

وينهِى ورُودَ مشرِّفة مولانا الكريمة علىٰ يدِ الولدِ جمـال الدين محمود متفقِّدا علىٰ العـاده ، مكرِّرا لعيادة الإحسانِ وإحسانِ العِياده ؛ فقابل المملوكُ بالحمد وارِدَها ، وبعوائد الآعتِدادِ عائدَها ؛ وفهِم ماتضمَّنته من تألُّم قلب المـالك علىٰ ضَعْف المملُوك ، وقَلَقِ خاطره علىٰ بَدَن كَبِيْتَ(٢) العَرُوض مَنْهُوك ؛ وأنه كان آبتدأ ضَعْفُ المملوكِ فتألَّم ، ثم تَلَا خبَرُ الصحة فتـلَا : ولكنَّ اللهَ سَـلَّم ؛ ثم بلغه أنَّ آلامًا تراجعَتْ ، ومَوادَّ واصلَتْ بعد ما قاطعَتْ ؛ فحملَتْه خواطِرُ الإشفاقِ علىٰ على تكريرِ العِيَاده ، وارتقاب فَعلَات الشفاء المستَجاده ؛ جاريًا من إحسانه وآفتقادِه علىٰ أجمل معْهُود ، باعثا مشرِّفته

(١) مراده وناول أى أوصل المملوك الخ تأمل .

(٢) فى الأصول ''كئيب'' وهو تصحيف من الناسخ .

وحاملَها وكلاهُما حسَنُ الحال محمود ، فعند ماوصَلاَ أوصَلاَ كمالَ العافيه ، وحقَّقتُ أخْيِلَةَ البُرْءِ الشافيه ، وما كان المشكُوُّ إلا مادَّة يسيرةً و زالتْ ، وبقِيَّةَ ضَعْف تولَّت بحمد الله و بركة مولانا وما توالَتْ ، وما عيَّدَ المملوكُ إلا وشــفاءُ الجسد فى ٱزْدِياد ، والنفس بالوقت و بالمشرَّفة فى عيدَيْن قائمَيْنِ بأعياد ، لا زالتْ مِنَنُ مولانا إزاءَ اللَّحْظ حيثُ دار ، ووُدُّه وحِماه جامعين فَضْلَ الجارِ والدَّار .

زهر الربيــع :

لازالَ محروسَ الشِّيَم ، هاطِلةً سحائِبُه بالدِّيَم ، مشكورًا بلسانَيِ الإنسانِ والقلَم .

المملوك يقبِّل يدَه الشريفــةَ مُؤدِّيا للواجب ، ويواصِلُ بدعاءٍ صالِح أصاره إنعامُه ضَرْبَةَ لازِب .

وينهى إلىٰ كريم علمــه وُرُودَ مشرِّفه الذى أبهجَ الأنفُس وضاعفَ الصَّبَابه ، وأفنىٰ الصــبْرَ عن مُحيَّاه و إنْ كان ماأفناه أيْسَرَ صُبَابه ، وأنَّه عَلِم منــه إنعامَه وتشوُّفَه إلىٰ المملوك و إلىٰ سَمَــاعِ أخبارِه ، وما أبْداه من شَفَقةٍ أُلِفَت من إحسانه وعُرِفتْ من كريم نِجَاره ، وتُحُقِّقتْ من شِيمَه علىٰ من ينْأىٰ عن بابه العالى وداره ، فاللهُ يحرُس هٰــذه الأخلاقَ التى هى أرقُّ من المــاء الزُّلاَل ، والشمائلَ التى تفعَل بلُطْفها فِعــلَ الجِرْيال ، والمملوكُ فواللهِ لايُحْصى شَوْقَه إلىٰ الخدْمة العاليــة ولا يَحْصُرُه ، ولا يَقْدِر علىٰ وصف مايُسِرُّه من الأَتْواق ويُظْهِره ، إنمــا الاعتمادُ فى ذٰلك علىٰ شاهِدَىْ عدْلٍ من خاطِره وقَلْبه ، وهما يُغْنِيان المملوكَ عن شَرْح وَلاَئه بألسنةِ أقلامِه ووُجُوه كُتْبه ، وأما السؤال عن أخبــار مِزَاج المملوك فإنه كان فى ألَمٍ دائِم ، وسُقْمٍ مُلازِم : لشــدّة المَرَض ، الذى كاذ يحتوى علىٰ جَوْهَر جســمه والعَرَض ، فمُــذْ وردَ كتابُ المولىٰ ٱنتعشَتْ قُوّته ، وٱشْتدّتْ مُنَّته ، وصدَقَتْ فى طلب تنــاوُل الغذاء شَهْوتُه ، وترجّى

الشفاءَ بعدَ أن كان علىٰ شَفَا التَّلَف ، وكان له كالطبيبِ الآسِى فى إزالة مَرَض الأَسَا والأَسَفْ . وقد حصلت للملوك مَسَرَّتان بكتاب المولىٰ وعافِيَتِه ، وفَرْحتانِ بمـا أهداه إليه من عَفْوِ إنعامه ومَحْوِ أثَرِ الألَم وتعْفِيَتِهِ ؛ وكلُّ ذٰلكَ بسعادَتِه .

ومنــه : ورد المُشَرَّفُ العالى لا زال قَدْرُ مُرْسِله شريفا ، وشَرَفُه الباذِخُ يجعل كلَّ شريفٍ مشْرُوفا ؛ وسحائبُ جُوده تُهْدِى إلىٰ الأولياءِ من مكارمه تَلِيدا وطَرِيفا ؛ وقواضِبُه تَرُدّ [طَرْف] حوادثِ الأيَّام عنه مَطْرُوفا ؛ وأياديه تبعثُ لمحبيه تُحَفا ، وهيبتُه تُهْدِى إلىٰ الأعداء خَوْفا ، والدهْرُ بخدمةِ جَنَابه العالى مشْغُوفَا ؛ فوقفَ عليه وُقوفَ مشتاقٍ إلىٰ مُسَطِّرِه ، متنَزِّه فى ربيع ألفاظِهِ وحُسْن أسْطُرِه ؛ وعَرفَ منه إحسانًا ماقَتِئَ يعْرِفه ، وتفضُّلا مازال المَوْلىٰ بمثله يُتْحِفُه ؛ وما أشار إليه من شِدّة إيثارِهِ ، لرُؤْية المملوك وسماعِ أخباره ؛ والذى يُنْهِيه أنَّ جسده كان قد تَضَاعف ضَعْفُه ، حتَّى أتعبَ الألسِــنةَ وصْفُه ؛ فلمـا وَقَفَ من مشَرِّف المولىٰ علىٰ خَطٍّ هو الوَشْىُ المنَمْنَم ، وألفـاظٍ هى الرَّحِيق المُخَتَّم بل الدُّرُّ المنَظَّم ؛ وسحرٍ هو محلَّل وكلُّ سحرٍ مُحرَّم ؛ أبَلَّ المملوكُ وبَرَدتْ غُلتُــه ، وبَرَأَتْ عِلَّتُــه ؛ وكان كمن ٱستوفىٰ نصيبَه من النَّصَب ، وأخذ قِسْمَه من السُّقْم والوَصَب ؛ فسقَاه مشَرِّفُه الصحةَ فى كاس ، وأفاضَ عليه من العافية أفخرَ لباس .

آخــر :

وَرَدَ الكتابُ فَعمَّتِ الأفْراحُ * وأضَاءَ فى لَيْل الأَسَا الإصْباحُ !

وٱفْـترَّ ثغرُ للزَّمانِ بفَرْحةٍ * ولِلفْظه طَرِبَتْ رُبًى وبِطاحُ !

وتَضَوَّعَتْ أرْواحُ طِيبِ عَرْفُها * تَحْيـا بِهِ الأجْسامُ والأرْواحُ !

وسَقىٰ سُلَافَ فَصاحةٍ وبَلَاغةٍ * ما ٱلمِسْكُ عندَ شَمِيمِهَا ما ٱلرَّاحُ !

شكر اللهُ مِننَه، وأخدمه زَمَنَه، ومنَحَه من العَيْش أغَضَّه وأحْسَنه؛ وشَرَّف ببقائه الدهْر وشَنَّف بمَدْحه أُذُنَه .

المملوك يُنْهِى إلىٰ علمه وُصـول مشرِّفه الذى تنزَّهت الأعيُنُ فى حُسْـن مَنْظَره، ويانِـع ثمـارِ لفظه البديع ووَشْيِ أسْـطُره؛ وأنه آستَنْشق من رِيحه أطيَبَ نَفْحه، وتقَمَّص منه ثَوْبَى دَعةٍ وصِحَّه؛ فشفىٰ داءً شَفَّ منه جِسْمُه، وزاد لوُروده سُروره وزال هَمُّه؛ وعلم إنعامَ المولىٰ الذى لا يَشُكُّ فيـه، وإحسانَه الذى لا يحْصُره لسانُ مادح ولا يُحْصيه؛ وما ذكره من الألَم المُلِمِّ به وآشتغالِ خاطرِه الكريم لما ألَمَّ بجِسْمه، والمرضُ بسعادة المَوْلىٰ قد بَقِىَ منه قُلُّه، وتقلَّص بعدَ ما آمتدّ ظلُّه؛ والعافيةُ تتكمَّل إن شاء الله تعالىٰ برُؤْية مُحيَّاه الكريم ومشاهـدَته، والمُثُولِ بين يديْه العاليتين فى خدْمتـه .

النـوع الخامس عشر
(فى الذَّمّ)

ذَمُّ بخيل : لأحمد بن يوسف :

كأنَّ البُخْلَ والشُّؤْم صارا معًا فى سَهْمه، وكانا قبْـلَ ذلك فى قِسْـمه، فحازَهُمـا بالوِراثه، وآستحَقَّ ما آستَمْلك منهما بالشُّفْعة ، وأشهَدَ علىٰ حِيازتِهما أهلَ الدِّين والأمانة، حتّٰى خَلَصا له من كلِّ مانع، وسَلِما له من تَبِعةِ كلِّ مُنازع؛ فهو لا يُصيب إلَّا مُخطيا، ولا يُحْسِن إلَّا ناسِيا؛ ولا يُنْفِق إلَّا كارِها، ولا يُنْصِف إلَّا صاغرا .

وفى مثـله : وصلَ كتابُك فرأيْنـاك قد حَلَّيته بزَخارف أوْصافك ، وأخليْتَه من حقَائِقِ إنْصافك ؛ وأكثَرْتَ فيـه الدَّعاوىٰ علىٰ خَصْمك ، من غير بُرْهانٍ أتيتَ به علىٰ دَعْواك وزَعْمِك .

ومنـــه : ولو أراد غيرَ ذلك من الأخلاقِ السَّنِيَّه ، الشريفةِ الهَنِيَّه ، لاستَوْحَش فى سُبُلهـا ، ووقَع فى مَضَّة منها ، ولن يجِدَ من سَلَفِه ولا نَفْسه دليلًا عليهـا ، ولا هاديًا إليها .

ومنـــه : لأبى العَيْناء :

أما بعـــدُ ، فلا أعلَمُ للمعروف طريقًا أحْذَرَ ولا أوْعَرَ من طَرِيقه إليـك ، ولا مستَوْدَعا أقَلَّ زكاءً ولا أبعَـدَ ثمرةَ خيْرٍ من مكانه عِنْـدك : لأنه يحصُلُ منك فى حَسبٍ دَنِىّ ، ولسان بَذِىّ ، ونَسَبٍ قَصِىّ ، وجهْلٍ قد ملَكَ طِباعَك ، فالمعروفُ لديْك ضائـع ، والشُّكْرعِنْـدك مَهْجور ، وإنمـا غايتُكَ فى المعروف [أنْ] تُحْرِزه ، وفى وَلِيِّه أن تكفُرَ به .

ومنـــه : لمحمد بن الليث :

بكم عَلَنَ الظُّـلمُ ، وظهَرتِ البِدَع ، وآندفَنَ الحقُّ ، وعَزَّ الفاجِر ، وظَهَر الكافِر ، وفَشَتِ الآثام ، ونُقِضَت الأحْكام ، وآتُّخِذ عبـادُ الله خَوَلا ، وأموالُه دُوَلا ، ودِينُه دَخَلا .

ومنـــه : لأبى علىّ البصير :

عَدُوُّك مُنْعزِل عَنْك ، وصديقُك على وَجَل منك ؛ إن شاهدْتَه عاقَّك ، وإن غِبتَ عنه حاقَّك ؛ تسألُه فوقَ الطاقه ، وترْهَقُه عنـد الفاقه ، وإن آعتذَرَ إليكَ لم تَعْذِرْه ، وإن آستَنْصَرَك لم تَنْصُره ، وإنْ أنعَمَ عليك لم تَشْكُره ، ولا يزِيدُك السِّنُّ إلا نَقْصا ، ولا يُفيدك الغِنىٰ إلا حِرْصا ، تَسْمُو إلىٰ الكبير ، بقَـدْر الصغير ، وتسِفُّ للتَّطْفيف لا للتخْفيف ؛ تعتَرِض الناس بالسُّؤال ، غيرمُحْتَشِم من الإمْلال ، ولا كارِهٍ لأن يُنْظَر إليكَ بعين الاِسْتقلال ؛ حتّى لقد أخرجْتَ الأضْغان ، وقَبَّحْتَ الإحْسان ، وزهّدتَ

فى ٱصطِناعِ المعرُوف، و إغاثةِ الملْهُوف، والنـاسُ منك بينَ أسرارٍ تُفْشىٰ، وبوائقَ تُخشىٰ، وشَناعاتٍ وارِدَه، ونَوادِرَ بارِدَه، وُدُّك تَخَلُّق، وشكْرُك تَمَلُّق .

ومنـــه : لسعيد بن حميد :

رجلٌ يَعنُف بالنِّعَم عُنْفَ من قد ساءَتْه مُجاوَرَتها، ويستَخِفُّ بحقِّها ٱستِخْفافَ من لايَخِفُّ عليه مَحْمَلُها، ويُقَصِّر فى شُكْرها تقصيرَ مَنْ لا يعلَمُ أنَّ الشكر يرتَبِطُها، ومن كانتْ هذه حالَهُ فى ٱختيارِه لنَفْسه، فكيف أرجو حُسْنَ ٱختيـارِه لى ؟ ومَنْ كان فى مُدّة من ٱبتلاءِ الله بعيدةِ مابينَ الطَّرَفَيْن لاأدرى أينفُـذُ بى الأجلُ إلىٰ أقصاها، أم يُقَصِّر بى فى أدْناها، فكيف يتَّسع الصـدْرُ للصبْر عليه ، إنَّ اللهَ لايَخافُ الفوتَ فهو يُمْهِله ، وإنه إنْ ماتَ لم يخرُجْ من سـلطان الله جلَّ وعزَّ إلىٰ سلطان غيره فيعُاجِلَه، وأنا علىٰ خوفٍ من إعجال المَدىٰ عن بلُوغ [مناى فأذهب] (١) حرِجًا صدْرى، وعلىٰ ثقةٍ منْ الشُّغُلُ فى الآخرة بنَفْسى عن التَّشفِّى من أهل عدَاوتى وترَتى ؛ وأحمدُ الله علىٰ المِحْنة ، وأسأله تعجِيلَ رَوْح النِّعمة، وفُسحةَ العافية .

النـــــوع السـادس عشر
(فى الأخبـــار)

قال فى "موادّ البيان" : كُتُب الأخبار وإن كانت من الكُتُب الكثيرة الدَّوَرانِ فى الاستعمال فليسَتْ ممـا يُمْكِن تمثيلُه ، ولا حصْرُ المعانى الوامقة (٢) فيه برُسُوم تشتمل عليها، نعَمْ ولا أن نقدِّم له مقدّمةً تكون توطئةً لمـا بعدها، كما يجرِى الأمْرُ فى سائر فُنون المكاتبات الأُخَر التى لاتخْلُو من مقدّمات تحُلُّ منها محلَّ الأَساس من البُنْيان،

---

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام .

(٢) مراده الواقعة فيه ولعله مصحف عنه تأمل .

والرأس من الجُثمان ؛ لكن المقدِّماتُ التى تُوضَعُ فى الكتب من شَرْطها أن تكون مشتقَّةً من نفس معنىٰ الكتاب، ومُنْهِى الخبر لايمكنه أن يَسْتنبط من كل خبرٍ ينهيه مقدّمةً تكون بساطا له ؛ وإنما يقول : كتبت من موضع كذا يومَ كذا، والذى أنهيه كذا؛ بل الذى يلزمه أن يتحدّاه بطاقتِه، ويتحرّاه بجهده، أن يبيِّنَ مايطالِعُ به من الأخبار؛ ويكشِفَه ويوضِّحَه ويُفْصِح عنه ، ولا يقِفَ منه إلّا عند الشفاء والإقناع لتتقرَّر صورتُه فى نفس من يُنْهِيه إليه؛ اللهم إلا أن يكون الخبر مما يوجب الأدبُ العُدولَ عن لفظه الخاصِّ به، والإخبارَ عنه بألفاظٍ تؤدِّى معناه، ولا يهجُم علىٰ المُخْبَر بما يَسُوء سماعُه ، كأن يكون خبرا يرفَعُه إلىٰ سلطانٍ عن عبدٍ له قد أَطْلَق فيه ما يَضَع منه ويُسْقِط مَهَابته ، أو نحو من ذٰلك مما يثْقُل علىٰ السلطان المنغص منه ؛فإنه ينبغِى أنْ يُعدَل فىهذا وأمثاله عن التصريح إلىٰ التعريض، ومن التصحيح إلىٰ التَّمْريض، وعن المكاشَفَة إلىٰ التَّوْرِية، وأن يأتِىَ بألفاظ تَدُلُّ علىٰ معانِى مايَرُوم إبداءه، ويحْرِص [علىٰ] صورة منْزِلة السلطان وتوقيره عن قَرْع سمعه بما يكْرَهه ولا تجوزُ مقابلَتُه به ؛ وأن يقصِد إلىٰ آستعمال الإيجاز والإطناب فى المواضع التى تحتمل كلًّا منهما، فهذا ما يمكن أن يُتعرَّف من رسوم هذا الباب .

قال : ومن نَفَذ فهمُه وخاطرُه فى الصناعة وتدرَّب فيها ، يكتفِى بهذه اللُّمْعة ولا يَحتاج إلىٰ زيادةٍ عليها .

فى الإخبار بوُقُوع مطر وسَيْل

من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

فالماءُ منه يَفِيضُ علىٰ العُمْران،بعد أنْ ضاقَتْ به المَغَايِضُ والغُدْران؛ فأَتَىٰ علىٰ كثير من التِّلال والرَّوابِى ، فضْلا عن الرَّساتِيقِ والقُرىٰ ؛ وصار الوادى علىٰ آتِّساع

عَرْضه، وآمتدادِ طُوله، وَسَعة مَصَبّه، وفُسْحة مَغيضه، لايَفِى بهَضْمه، ولا يقوم بحَمْله؛ ففاضَ منه ماعطَّل العُمْران ونَسَف الدُّور ومَحَق الزُّروع، فعَظُم به البَلَاء، وكَثُر له الجَلَاء، وشمِل الفَساد، وعَظُم الخراب .

صدر كتاب بإخبارٍ عن الخليفة :

كتبتُ، ومولانا أميرُ المؤمنين فى توطُّد من خِلَافته، وتمهُّدٍ من دَوْلته، وعُلُوٍّ من رَأْيه، ونَفاذٍ من كلمته، وعِزٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ مِنْ شَانه؛ ونِعَم سابغةٍ عليه وعلىٰ أهل طاعته؛ قالصةٍ عن أعدائه وأهل مخالَفته، وآستقامةٍ من أطرافِه وثُغُوره، وآسْتِتبابٍ من أحوالِه وأُموره؛ والحمدُ لله علىٰ إحسانه حمدًا لايَقِف دُونَ رضاه، ولا يُحِيط بمقداره سِواه .

صدر بإخبار عن الوزير :

كتبتُ، وحضرةُ الوِزَارةِ الساميةِ فى نِعَمٍ مُخْصِبةُ الأَكْناف، بَعيدةُ الأطْراف، سادِرةُ الوَيْل، ساحِبةُ الذَّيْل؛ وما أنظُرُ فيه من أمرِ دَوْلته منتظِم، وأُراعِيه من أحوال رَعِيَّته ملْتئِم؛ وقد وَطَّأ اللهُ له أوْعارَ السِّياسة والتَّدْبير، ووَقَفه علىٰ جَوَادِّ المصلحة فى التقديم والتأْخير؛ والحمدُ لله حمدًا يستقِلُّ بحقِّه فيَقْضيه، وبواجبه فيؤدِّيه، ويَنْتهِى إليه عزُّ سلطانه فيُرْضِيه .

صدر بإخبارٍ عن أمير :

كتبتُ، والأميرُ فى عُلُوٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ من شانِه، وظَفَرٍ يُواكِبُ ألوِيَتَه، ونصْرٍ يُصاحِب دَوْلَتَه؛ ووافىٰ علىَّ من ظِلِّه، وشَمِلنى من فَضْله، ماسَبَغ لباسُه، وطابتْ أغْراسُه؛ والحمدُ لله آعترافًا بنعمتِه، حمدًا يُوجب شُمولَ منَّته؛ ويستدْعى الشكرَ عليها؛ ويقْضى بمَزيد منها .

صدر باخبـارٍ عن عافيةِ المـكتوب عنه :

كتبتُ ، وأنا صالحُ الحال ، وقد مَنّ اللهُ تعـالىٰ بالعافيةِ والإنعاش ، والإقالة والا (١) اش ، وأعاد إلىَّ الصحةَ بعد نَبْوِها وذَهَابها ، والسلامةَ بعد نَجْعِها وإغْرابِها ؛ وأسبَلَ النِّعمةَ بعـد الإنْذار ، والتحذيرِ من الاغْترار ؛ ممحِّصًا بمـا ألَمَّ من الآلام عَصبَ الأيَّام ؛ والحمـدُ لله أولىٰ ماتُليتْ به النِّعم ، وطُرِّز به المفتتَح والمختتَم ؛ حمـدًا يؤمِّن من التغيير والتبديل ، ويُعيذ من الانتقال والتَّحْويل .

ابن أبى الخصال ، فى الإخبار عن زَلْزَلَة عظيمةٍ وقعتْ بمدينةِ قُرْطُبة من الأنْدَلُس .

الشيخُ الأجَلّ ، الولىُّ الأكرمُ الأفضل ؛ أبو فلان ، الذى أطْرفَهُ اللهُ تعـالىٰ بعَجَائِب الأخبار ، وأذْهَبَ به فى مَسْلَك الاتِّعاظ ومَنْهَج الادِّكار ؛ أبقاه الله آخِذًا فى سَنَن الانْزِعاج ونَهْجِ الازْدِجار . المخلِصُ له المَحْضَ الناصِحَ من الوَلاء ، ومعْرفة غَريبِ الآثار وعَجِيبِ الأنْباء ؛ فلان .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله و بركاتُه .

أمَّا بعدَ حمـدِ الله الذى جعـل عِبَرَه أنْواعا متلَوِّنةً وصُـنُوفا ، وأرسـلَ الآياتِ ﴿وما نُرْسِـلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفا﴾ . والصلاةِ علىٰ سيدِنا محمدٍ المصطفىٰ صلاةً طيِّبةً تعْبق تأَرِيجًا وتَضُوعُ تَعْرِيفا ؛ وعلىٰ آله وأصحـابِه الطاهرين الذين حَضَرُوا حُرُوبا وشَهِدُوا زُحُوفا ؛ والدعاءِ لسيدنا الإمامِ أمير المؤمنـين فى نَصْرٍ عزيزٍ يُؤَنِّس مَذْعورا ويُؤَمِّن مَخُوفا ، فإنى كتبتُه ـ كتبَ اللهُ لكم دَعةً حافظةً وأمَانا ، وتصديقًا بآياتِ الله البيِّنة و بُرْهانا ـ من موضع كذا ، عنْدَ ماطرَأَ علينا ما كَحَلَ العُيونَ بقَذَاها ، ومَنَعها لَذِيذَ كَرَاها ، وأخْفَق الضُّلوعَ الحانيـةَ وأقْلَق مَصَارِينَ حَشَاها : وهو أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ

(١) بيض فى الأصول لهذا الحرف .

ذَكَّر عباده إنْ نفَعت الذِّكرىٰ، ونَبَّههم إنْ تنبَّهُوا ولم يأمَنُوا منه كيْدًا مُبِيرا ولا مكْرا، وذٰلك بزَلْزَال قَضىٰ به علىٰ قُرْطُبَةَ وبعضِ أعمالها، وملأ نُفُوس ساكِنيها من رَوْعاتها وأَوْجالها، وحالَتْ لذٰلك فى الخَوْف(١) والارْتِفاع أقْبَح حالِها، حتّىٰ نحَوْا إلىٰ الاستِكانة والضَّراعه، وأطاعَ اللهَ مَنْ لم يكُنْ له قبْلَ ذٰلك طاعَهْ، وخَشُوا بل كانُوا يُوقِنُون أنَّها زَلزلَةُ الساعه. وكان من عظيم آثارها، وكَرِيهِ إيرادِها وإصْدارِها، انْهِدامُ القُبَّة العُظْمىٰ فى المسجد الجامع صانَهُ الله، وكانتْ قُبَّةً أُسِّس علىٰ التَّقْوىٰ بِناؤُها، وذهبَ فى المَشارق والمَغارب ذِكْرها العاطرُ وثَناؤُها، وتهدّمَتْ بسبَب ذٰلك الهَدْم دِيارٌ كثِيره، وحدَثَ به حوادثُ مُبِيره. وأما تلوكة من أعمالها، وكان فيها مَبْنًى من مَبانِى الرُّوم، فإنه غادَرَها قاعًا صَفْصَفا، وقَرًّا نَفْنَفا، واضْطَرَّ ذٰلك الخَطبُ الفادِح، والرِّيحُ القادح، إلىٰ أنْ خرج السيِّدُ أبو إسحاق وكافَّةُ أهل قُرطُبَةَ من دِيارهم، وفَرُّوا من الموت بأقْواتِهِم وأصحابِهِم؛ ثم إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ تَدارَكَ بالرُّحْمىٰ، وكشَفَ تِلكَ الغُمّى، جعل الله ذٰلِك صَقْلا لقُلُوبنا، وتَوبةً عما سبَقَ من ذُنُوبنا؛ وعَصَمنا من جُرْمنا المُوبِق وحُوبِنا، وأَوْلانا وإيَّاكم أمْنًا من الغِيَر، وازْدجاراً بما ظَهر من العِبَرْ؛ وجعل كِلَانَا(٢) جميلَ الحوادثِ طيِّبَ الخبَرِ، بمَنِّه؛ والسلامُ الطيبُ المبارَك ورحمةُ الله وبركاتُه.

من كلام المتأخرين فى الإخبار بقدوم نائبٍ إلىٰ نيابةٍ.

من ذٰلك نسخة كتاب عن نائب الشام إلىٰ كافل المَمالك الإسلامية مُخْبِرًا له بوُصُوله إلىٰ دِمَشْق، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة. وهو بعد الألقاب:

(١) لعله فى الخفض.

(٢) جرى الكاتب فى كلا على لغة من يعربها اعراب المقصور على حد قوله:

نعم الفتى عمدت إليه مطيتى * فى حين جدّ بنا المسير كلانا — شرح الأشمونى

لا زالتْ آفاقُ المَمَالك مُضيَّةً بأنْوارِ شمْسِه، هَنِيَّةً بأُنْس سعادتِهِ وسَعادةِ أُنْسِــه؛ سَنِيَّةَ المَقاصد التي قام في كَفَالتِها بنَفَاسة نَفْسه؛ ولا بَرِح يستَثْمِر من خَيْرِ الدُّنيا والآخرةِ ماقَدَّم صُــنْعُه الجميلُ من غَرْسه. تقبيلًا يُشافِه به القلَمُ القِرْطاس، ويَودّ المملوكُ لو شافَه به الخِدَم ساعِيًا سعْيَ القَلَمِ علىٰ الرَّاس. ويُنهِي قيامَه بوظائِفِ دُعاء يُنِــير الحَلَك، ووَلَاءٍ يدُورُ بكَواكــب الإخْلاص إدارةَ الفَلَك؛ وحَمْــدٍ تَذْهب به صَفَحاتُ الصُّحُف حيثُ ذَهَب وتَسْــلُك عُقُودُ الأفلاك حيث سَلَك، وأنَّه خدم بهــذه العُبُوديَّة عند وُرُوده إلىٰ دِمَشْق المحروسةِ لنيابةٍ كانتْ عنــايةُ مولانا ســفيرةَ أمْرِها، ومميِّزَةَ بِرِّها، يوم كذا؛ وســعادةُ مولانا السلطان ـ خلَّد اللهُ مُلْكَه ـ تعلِّمه وتُعْلِمه، والغيثُ ببركاتِ الدولة القــاهرة يُسايِره ويَقْدُمه؛ وثَغْرُ المطر يسابِقُ ثغرَ المملوكِ إلىٰ مشافَهــةِ الثَّرىٰ ويَلْثِمُه؛ والرعيَّة منه آمنــةٌ في سِرْبِهــا، وادعةٌ بِظلَال الأبواب الشريفةِ مع بُعْــدها دَعَةَ الصَّوارِم في قُرُبِها، وباكر المملوكُ يومَ الآثنين الذي بُورِك فيه: في الخَميســيْنِ من يوم وجَيْش، وآنتصب لمُهِــمَّاتٍ علىٰ مثلها في الخِــدْمة يَطِيب أن يَرْفُغ لِينُ العَيْش؛ مجتَهِدا فيما هو بصَدَدِه، مستمِدًّا من رَبِّه عزّ وجل وسعادةِ سلطانه برَشَدِه، معتَدًّا نِعَمَ مولانا فيما يأتِي[في] ذلك من أوفىٰ وأوفرِ عُدَده ومَدَدِه، والله تعــالىٰ يُعِين المَمــلوكَ علىٰ شُكْرِ مِنَن مولانا الباطنــةِ والظاهره، والغائبةِ والحاضره، والمُقيمةِ والمسافره، ويصِلُ نفْع المملوك بوَلَائِه في الدنيا والآخره؛ ويُقِيم الرَّعايا بالأمْن في كَفَالته التي مابَرِحتْ بعُيُون الأعداء فإذاهُمْ بالسَّاهره.

الأجوبة عن كتب الأخبار

قال في "موادّ البيان": الأخبارُ علىٰ أكثر الأحوال لاأجْوِبةَ لهــا، وإنمــا هي مُطالَعاتٌ بأمور يُنْهِيها الخُــدَّام، وأصحابُ البُرُد إلىٰ السلاطين، ممــا تخْرُج أوامِرُهم

إلىٰ الوُلاة بما تضَمَّنته : مما يقتضيه كلُّ خبرٍ ينهىٰ من سياسةٍ عامَّة ، أو مصلحة تامّة . قال : فأما ما يستعمِله الإخوانُ فى المكاتبة بالأخبار التى يكِلُ بعضُهم إلىٰ بعض الإخبارَ بها ، فمنها مايقتضِى الجوابَ ، ومنها ما لا يقتَضِيه . قال : وأجوبةُ مايقتضى الجوابَ منها تُفْتَنُّ بحسَبِ آفتنان الأخبار والأغراض التى يجيب المُجيبُ بها ، وهو أيضا مما لا يعبَّر عنه بقولٍ جامعٍ ولا برَسْم رَسْمٍ كُلّىّ ، و إنما يرجَعُ فيه إلىٰ الأمور التى يبتدأُ بها ويُجابُ عنها .

النـــوع السابع عشر
(المُداعبـــةُ)

قال فى "موادّ البيان" : ومعانِى المُدَاعبَاتِ التىيستعْمِلها الإخوانُ غيرُ متناهِيَه ، والأغراضُ التى ينْتظِمُها المِزاح وتُعَدُّ من طَلَاقة النفس لا تَقِف عند قاصِيه : لِأنها مستَمْلاةٌ من أحوالٍ متباينه ؛ ومأخوذَةٌ من أُمُور غير معيَّنه ، وحصْرُها فى رُسومٍ جامعةٍ يستحيلُ ، وتمثيلُها غير مُفِيد : لأنه لا تعلُّق لبعضها ببعْض ، ولا نِسبةَ بينَ الواحِد والآخَر ؛ ثم قال : والأحسَنُ بأهل الوِدَاد والصَّفاء ، والأليَقُ بذَوِى المخالَصَة والوَفَاء ، أن يتنَزَّهوا فى المُداعَبة الدائرةِ بينَهُم عن بَذِىء اللفظ ومُفْحَشه ، ومؤلِمِ الخطاب ومُقْذِعه ؛ ويكُفُّوا اللسانَ واليَدَ عن الآنطلاقِ بما يدُل علىٰ خفَّة الأحلام ، والرِّضا بالرَّذْل من الكلام اللائِقِ بسُفَهاء العَوامّ ؛ ويتحرَّجُوا من إرسالِ قولٍ يبْقىٰ وَصْمةً علىٰ [مَدىٰ الأيَّام] إذْ لافرقَ بين جَرْح اللسانِ وجَرْح اليَد ، وقد نطَقَ بهذا المَثَلُ : لما فى ذلك من الترفُّع عن دَنَايَا الأُمُور التى لايتنازَلُ إليها الكُرماء ، والتنَزُّه عن المَسَاقط التى لايستعْمِلُها الأُدَباء ، وصيانةِ المُروءة عما يَشينها ويَخْدشُها ، وتَوْقيرها

عما يَنْقُصها ، والأَمْنِ من الجواب الذى رُبَّما قَدَح فى النفس وأثَّر ، وأحمىٰ الصدْر وأوْغَر ؛ ونَقَل عن التَّوادُد إلىٰ التَّضادُد ، وعن التَّـدانِى إلىٰ التَّبَاعُد ؛ وقد أشارَ إلىٰ ذٰلك أميرُ المؤمنين علىٌّ كَرَّم اللهُ وجْهَه بقوله من أبياته المنسوبة إليه :

فَــرُبَّ كَلَامٍ يُمِضُّ الحَشَــا * وَفِيهِ من الضِّحْك ما يُستَطابُ

مع مُراعاةِ السلامةِ من المُداخَلة المُنْطوِيَةِ علىٰ الغِلّ ، والمُراآةِ المبنِيَّة علىٰ المكْر ؛ إذا لم يكُنْ للمقابَلَةِ علىٰ الابتـداء المُمِضّ بالجواب المريض ، وغير ذٰلك مما لا تُؤْمَن عاقبتُه ، ولا تَحْسُن عائدتُه . قال : ويكون المستعْمَل فى هذا الفَنِّ ماخَفَّ موْقِعُه ؛ ولَطُف مَوْضِـعُه ، وهَشَّ له سامِعُه ؛ وتلَقَّاه الواردُ عليه مستَحْلِيا لِثمـارِه ، مستَدْعِياً لأنْظاره ، ولا يُعـدَل به عن سَمْت الصِّدْق ، وطريق الحَقّ ، ومَذْهب التحرُّز من المَذْق ؛ ويُقتَصَر فيه علىٰ النادِرة المستَطْرَفه ، والنُّكتة المُستَظْرَفه ؛ واللُّمْعة المستحْسَنَة ، والفِقْرة المستَغْربة ؛ دُونَ الإطالة المُمِلَّة ، ولا يجعل المَزْحَ غالباً علىٰ الكلام ، مُداخِلًا لجميع الأقسام : فإنَّ ذٰلك يُفْسِد معانِىَ المكاتبـه ، ويُحِيل نِظامَ المخاطَبـه ، ويَضَع من مَعْناها وإنْ كانَ شَرِيفا ، ويُوخِمُ لَفْظَها وإن كان لَطِيفا ؛ ويَذْهَبُ بجِـدِّها فى مَذْهب الهَزْل ويُميله عن القَصْد ؛ وإلىٰ ذٰلك يُشِير بعضُهم بقوله :

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالجِدِّ راحةً * بلَهْوٍ وعَلِّلْهُ بِشَىْءٍ مِنَ المَزْحِ!

ولٰكِنْ إذا أعْطَيْتَهُ المَزْحَ فلْيَكُنْ * بمِقْدارِ مايُعْطىٰ الطَّعامُ مِن المِلْحِ!

وأنْ يَقْتَصِد مع ذٰلك . ثم قال : وينبغى أن يَقْصد إلىٰ استِعْمال الدَّعَابةِ فى المواضع اللائقةِ بهـا ، والأحوالِ المشابِهةِ لهـا ؛ ولا يُودِعَ باباً من الأبواب ، مالا يحتَمِلُه من الخطاب : فإنَّ القصْدَ فى هذا النَّوْع من المكاتبات إنمـا هو الإعْرابُ عن الظَّرْف والبَرَاعة ، والإبانَةُ عن طَلَاقة النَّفْس ؛ والانسـلاخُ من تعبيس الفَـدَامة

والجَهَامة ؛ ثم عَقَّب ذلك بأن قال : ومَنْ وَقَف من ذلك عند الحدّ الكافِي ، ولَزِم فيه الأدَبَ اللائق بأهْلِ التَّصافِي ، دلَّ علىٰ ما ذكرناه ، وشهد لمستعْمله بإحراز ما وصَفْناه ؛ ومَنْ تعدّىٰ ذلك عُدّ من المُجُون والمُلَاعبة ، وحُسِب من رَذَالة الطبع ونَذَالة الخِيم وسَفَه اللسان ، وغير ذلك من الأمور التى لاتليقُ بالكاتبين الكِرام ، الذين هم خِيَارُ الأَنَام ، ووُلاةُ النقض والإبْرام . وختم ذلك بأن قال : والكاتب إذا كان مهيَّأً الطبع للانطباع برسوم الصِّناعة ومُناسبةِ أوضاعها ، أغناه الوُقُوفُ علىٰ هذا القول المجمَل فى آستعمال مايقَع فى هذا البابِ عن تمثيلٍ مفصَّل . ولم يذكر له مِثَالا .

ابن أبى الخصال :

سيِّدى وواحِدى الذى أَجمِّل ذِكْرَه ، وأُوالِى شُكْره ؛ لا زال مَغْناكَ رَحِيبا ، وزَمانُك خَصيبا ، ولا زِلْتَ تأخُذ لِأُخْراك نصيبا ؛ عبدُك فلان مؤدِّيها ينتجع الكِرام ، ويُبارِى فى جَرْيِها الأيّام : فتارة يجْمَع ، وأخرىٰ يفرِّق ؛ وطورًا يُغَرِّب ، وطورًا يُشَرِّق ؛ وأَمَّ الحضْرة ــ وصلَ اللهُ حِراسَتَها ، وأدام بهْجَتها ونَفاسَتها ــ والمُلْك بها غَضُّ الشَّباب ، أخضَرُ الجِلْباب ؛ وإحسانُك إحسانُك ، ومكانُكَ من المُرُوءة مكانُك ؛ فأَوْسِعه قِرًى ، وآمْلأ عينَيْه علىٰ الشِّبَع كَرىٰ ، أستَغْفِر الله ، بل أَمْجِدْه تِبْنا وعَلَفا ، وأَرْكِبْه حَزْنا من الأرض ظَلَفا (١) ؛ ودُونَكَه لم يقلِّب أرضَه بَيْطار ، ولا لجِنايةِ به جَبَّار ، وجُرْحُه جُبَار ؛ وعنده كما علمت دعاءٌ مُبَاح ، وثناءٌ فى الشكر مَساءً وصَباح ؛ والسلام .

(١) الظلف بالتحريك ماغلظ من الارض فلم يؤدّ [أى لم يظهر] أثرا . انظر اللسان ج ١١ ص ١٣٤ .

من كلام المتأخريـــن :

كتب بعضُهم إلىٰ كمال الدِّين بنِ الأثير ، وقد جاء إليــه فى بُســتانه فلم يجِدْه ولا وجد مَنْ أنْصفَه .

حضَر المملوكُ البُسْـتان، مسـتَدْنياً قُطوفَ الْإنعامِ والإحْسان، وآسْتَمْطر سحائبَ فضله، وهزّ إليه بجِذْع نَخْلِه، فلم تَتَساقَطْ عليـه رُطَباً جَنِيّا، فعلِم أنه قد جاءَ شَيْئاً فَرِيّا، فثبّت نَفْسَه مع تَصاعُد الأنفاس، والطمعُ ينشده :

* مافى وُقُوفِك ساعةً من بَاس *

فانطلق حتّى أتىٰ القريةَ مستطْعِما أهلَها فأبَوْا أن يُضَيِّفُوه، مستعْطِفا حاشِيَتَه الرقيقَـة فأبوْا(١) حاشِيتُه أن يستَعْطِفُوه، وقال كلُّ منهم : تُطالِبُ بالقِرىٰ كما تُطالِبُ بدَيْنك! آرجِعْ حيثُ شِئْتَ هـذا فراقُ بَيْنِي وبَيْنِك! وعلِمَ أنه لو أقامَ بها جِدَارا لَمَـا أُعْطِىَ عليه أجْرا، ولو حاول قِرًى لسَمِع من التوبيخ مالم يَسْتَطِعْ عليه صَبْرا، فرجع بخُفَّىْ حنين، بعْدَ مَشَاقّ جرَّعتْ كاساتِ الحَيْن، فأينَ هـذه المعاملة ممـا نُشِيعه عنه من كريم الخِلَال، وكيف نَشْكُو نَقْصَ حظٍّ وله كمالُ الإحسان وإحْسانُ الكمَال .

الأجوبةُ عن رِقَاع المُدَاعبــــة

قال فى "موادّ البيان" : ينبغِى للمُجيب عن المُداعبة أن يشْتَقَّ من نفس الآبتداء جواباً مناسِبًا لهـا ، وأن يَبْنِيَه متىٰ أحبَّ الأخْذَ بالفضـل علىٰ المُسامحة ، وآطِّراح المناقشة، والإغضاءِ عمّـا يُمضُّ إبقاءً علىٰ المودّة، وتحسيناً لقُبْح الصَّديق ، وتعوُّدا لعادةِ الحلم والآحتِمال، وأن يَذْهَبَ فى الجواب مَذْهبَ الآختصار ، وإيرادِ النُّكَت الرائعة كما فى الآبتداء، علىٰ ما تقدّم .

(١) كذا فى النسخ وهو على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة .

الفصل الثامن (١)

(فى إخفاء ما فى الكُتُب من السِّرّ)

وهو مما تَمَسُّ الحاجةُ إليه عند آعتراض معترِض من عدوّ ونحوه يحُولُ بين المكتوبِ عنه والمكتوبِ إليه : من مَلِكين أو غيرهما حيث لم تُفِد الملَطّفات لضرر الرَّصْد وزيادة الفَحْص عن الكُتُب الواردةِ من الجانِبَيْن، وهو علىٰ نوعين :

النوع الأوّل

(مايتعلّق بالكتابة، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يتعلّق بالمكتوب به)

وذٰلك بأنْ يُكتَب بشئ لايظْهَر فى الحال، فإذا وصل إلىٰ المكتوب إليه فعل فيه فِعْلا يكونُ مقرّرا بين المتكاتبين من إلقاء شئ علىٰ الكتابة، أو مَسْحه بشئ، أو عَرْضِه علىٰ النار ونحو ذٰلك .

وقد ذكروا لذٰلك طُرُقا :

منها — أن يُكْتَب فى الوَرَق بلَبَنٍ حلِيبٍ قد خُلِط به نُوشَادِر فإنه لاتُرىٰ فيه صورةُ الكتابة، فإذا قُرِّب من النار ظهَرتِ الكتابةُ .

ومنها — أن يُكتَب فى الورق أيضا بماءِ البَصَل المعْتَصَر منه فلا تُرىٰ الكتابةُ فإذا قُرِّب من النار أيضا ظَهَرت الكتابةُ .

(١) أى من الباب الثانى من المقالة الرابعة وهو آخر فصولها فهى ثمانية لاستة وتقدم فى ج ٦ ص ٣٦٥ أنها ستة موافقة للأصول فتنبه .

ومنها — انه يَكتُب فيما أراد من وَرَق او غيره بماءٍ قد خُلِط فيه زاجٌ، فلا تظْهَر الكتابةُ، فإذا مُسِح بمـاءٍ قد خُلِط فيه العَفْص المدقُوق، ظهرتِ الكتابةُ .

ومنها — أن يَكْتُب فى الورق غيرِ المُنَشّى بالشَّبِّ المحلُول بمـاء المطر، ثم يُلْقيه فى المـاء أو يَمْسَحُه به، فإنه إذا جَفَّ ظهرتْ فيه الكتابةُ .

ومنها — أن يكتُبَ بمَرَارة السُّلَحْفاة فإنَّ الكتابة بهـا تُرىٰ فى الليـل ولا تُرىٰ فى النهـار .

ومنها — أن تأخُذَ الليمونَ الأسـودَ وعُروقَ الحَنْظل المقْلُوَّةَ بزيتِ الزيتونِ جزأين مُتساوِيَيْنِ وتَسْحَقَهما ناعِمًا، ثم تُضيفَ إليهما دُهْنَ صَفار البَيْض وتكتُبَ به علىٰ جسد من شئْتَ، فإنه ينْبُت الشَّعرُ مكانَ الكتابة، وهو من الأسْرار العَجيبة؛ فإذا أُريد إرسالُ شخصٍ بكتابٍ إلىٰ مكانٍ بعيدٍ، فُعِل به ذٰلك، فإنه إذا نبتَ الشَّعر قُرئت الكتابةُ .

الضـــرب الثـانى
(ما يتعـلق بالخَـطِّ المكتُوب)

بأن تكون الكتابةُ بقَلَمٍ اصطَلَح عليه المُرسِلُ والمُرْسَـل إليـه لايعرِفُه غيرُهمـا ممن لعَلَّه يقِف عليه، ويسمَّى التعمية، وأهـلُ زمانِنا يعبِّرون عنه بحَلِّ المَتَرْجَم، وفيه نظر: فإنَّ الترجمةَ عبارةٌ عن كَشْف المُعمَّى، ومنه سُمِّى المعَبِّر لغيره عن لُغَة لايعرِفُها بلُغةٍ يَعْرِفُها بالتَّرْجُمان، وإليـه يَنْحَلُّ لفظُ الحلِّ أيضا؛ إذ المرادُ من الحلِّ إزالةُ العَقْد فيصيرُ المرادُ بحلِّ المَتَرْجَم ترجمـةَ المَتَرْجَم أو حَلَّ الحل، ولو عُبِّر عنه بكَشْف المُعمَّى لكان أوفقَ للغرض المطلُوب .

ثم مبنىٰ ذلك علىٰ قاعدتين :

القاعدةُ الأُولىٰ — كيفية التعمية .

اِعلَم أنَّ التعميةَ بالنِّسبة إلىٰ كلِّ واحد من الناس باعتبار ما يجهَلُه من الخُطُوط ، فيعَمَّى علىٰ العربىِّ فى اللغـةِ العربيَّة بالخُطُوط غير العربيـة ، كالرُّوميَّة والعِبْرانيَّـة ونحوهما ، إذا كانت حروفُ تلكَ اللغةِ تُوافِقُ لغةَ العرب ، أو بقلَمٍ مصطلَح عليه علىٰ وَفْق حُروف العربيـة ؛ وكذٰلك يعمَّى علىٰ غير العربىِّ من الرُّومى ونحوه ممن يجهلُ الخطَّ العربىَّ بالقلم العربىّ ، وعلىٰ ذٰلك .

ثم للناس فى التعمية مَذْهبانِ :

المَذْهَبُ الأوّلُ — أن يُكتَبَ بالأقلام القديمة التى ليستْ بمتداوَلةٍ بين النـاس ممـا لا يعْرِفُه إلَّا الآحادُ ، إذا وافق ذٰلك القلَمُ اللغةَ التى تُرِيد الكتابة [بها] .

وقد ذكر ابن الدُّرَيْهِم أنَّ أقلَّ اللُّغات المُغْل وهو سـبعَةَ عشَرَ حرفا ، وأطولَهَـا الأرْمنِىُّ ، وهو ستةٌ وثلاثون (١) حرفا . ثم قال : والتركىُّ عشرون (٢) حرفاً ، وكذٰلك الفارسىّ إلا أنَّ فى الفارسىّ ثلاثةَ أحرف ليستْ فى التُّركى ، وهى الهاءُ والفاءُ والدالُ . وفى التركىّ ثلاثة ليست فى الفارسى : وهى الصادُ والطاءُ المهملتانِ والقافُ ، والعِبْرانىّ والسُّريانىّ آثنان وعشرون حرفا [من أوّل أبجد إلىٰ آخر قرَشَتْ . واليُونانِىُّ والرومىّ القديم أربعةٌ وعشرون حرفا] (٣) ولهم قلَمٌ آخر ثلاثون حَرْفا ، والقِبْطىُّ آثنان وثلاثون حَرْفا ؛ وذكر أنَّ جميع الأقلام مقطَّعةُ الحروف علىٰ آصطلاح أبجـد ، خلا العربِىَّ والمُغْلىّ

(١) فى هذا الحصر مخالفة لمـا تقدّم فى ج ٣ ص ١٩ من هذا المؤلف فراجعه وحرر .

(٢) قد تقدّم أنه من أربعة وعشرين الى ستة وعشرين حرفا فتنبه .

(٣) زائد فى بعض النسخ .

والسُّريانىّ فإنّ حروفها توصَل وتُقْطَع، وقطع السريانى كالعربى، وأقلامُ المتقدّمين المُقرّرة : كالرُّومىّ والفَرَنْجىّ وغيرهما معلومةٌ لاحاجة إلىٰ التمثيل بشىءٍ منها.

المذهب الثانى — أنْ يَصْطَلِح الإنسانُ مع نَفْسه علىٰ قلم يبْتكِره وحُروف يُصَوّرها، وقد ذكر ٱبن الدُّرَيْهِم أنّ الناس ٱختلفَتْ مقاصِدُهم فى ذلك :

فمنهم — من يصطلِح علىٰ إبدال حرفٍ معيّن بحرفٍ آخَرمعيّن حيثُ وقع فى القلم المعروف بالقُمّى، وهو أنهم جعلُوا مكان كلّ حرف من حروف العربية حرفًا آخر من حروفها، فجعلوا الكافَ ميما وبالعكس، والألفَ واوًا وبالعكس، والدَّال المهملة راءً مهملة وبالعكس، والسينَ المهملةَ عينا مهملة وبالعكس، والفاءَ ياءً مثناة تحتيةً وبالعكس، فيكتب محمد «كطكر» وعلى «سهف» ومسعود «كعسار» وعلىٰ ذلك، وقد نظم بعضهم ذلك فى بيتٍ واحد ذكر فيه كلّ حرف تلو مايُبْدَل به، وهو :

كَمْ أَوْ حَطٍ صِلاَ لَهُ دَرْ سَعُ * فى بَزْ خَشٍ غَضٌّ ثَجٍ تَدَفق

قال : ومنهم — مَنْ يعكِسُ حروفَ الكلمة فيكتُب محمد «دمحم» وعلى «يلع».

ومنهـم — من يبُـدِل الحرفَ الأوّلَ من الكلمـة بثانِيه مُطْلَقا فى سائرالكلام فيكتب محمد أخو على «حمدم خا عويل» إلىٰ غير ذلك من التمييزات.

ومنهـم — مَنْ يُبْـدِل الحروفَ بأعدادها فى الجُمّـل؛ فيكْتب محمد أربعون، وثمـانية، وأربعون، وأربعة، وتعمل التعميةُ صفةَ محاسَبة.

ومنهـم — من يكتُب عِوضَ عدَد الحرف حُرُوفا وهو ابلغُ فى التعْمِيَة؛ فيكتب محمد «لى بو لى اج» لأنّ اللام واليـاء بأربعين وهى عدد ماللِيم الأولىٰ، والبـاء

والواو بثمانية وهى عدد ما للحاء، واللام والياء أيضا بأربعين وهى عدد ما للميم الثانية، والألف والجيم بأربعة وهى عدد ماللدال، فكأنه قال : م ح م د . وإن شاء أتىٰ بغير هذه الحروف مما يتضمن هذه الأعداد .

ومنهم — من يجعَل لكلِّ حرفٍ ٱسمَ رجل أو غيره .

ومنهم — من يَضَع الحروفَ علىٰ منازل القمر الثمانيـة والعشرين علىٰ ترتيبها علىٰ حروف أبجد : فيجعل الألف للشَّرَطين ، والباء للبَطِين، والجيم للثُّرَيَّا ، وهكذا إلىٰ آخرها ، فيكون بطنُ الحوت للغين من ضظغ . وربما ٱصطُلِح علىٰ الترتيب علىٰ أسماء البُلْدان أو الفواكه أو الأشجار أو غير ذٰلك ، أو صُوَر الطير وغيره من الحيوانات، إلىٰ غير ذٰلك من ضروب التَّعامِى التى لايأخُذُها حَصْر. وأكثَرُ أهل هذا الفنّ علىٰ أن يرْسُم الحروفَ أشكالا يختَرِعها قلَما له مقطَّعة علىٰ ترتيب حروف المعجم . والطريق فى ذٰلك أن يُثْبِت حروف المعجم ثم يُرتِّب تحتَ كل واحد شَكْلا لايماثِلُ الآخَرَ، فكلما جاءه فى اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لايقَعُ عليه غلطٌ؛ ثم يفصل بين كلِّ كلمتين : إما بخط أو بنقط أو ببياض أو دائرة أو غير ذلك؛ وأكثَرُ المتقدِّمين يجعلون الحرفَ المشدّدَ بحرفين، والمتأخرون يجعلونه حرْفًا واحدا، وهذه صور حروفِ مترْجَمٍ كان قد وصل إلىٰ الأبوابِ السلطانية من مُناصحِينَ فى بغداد يُقَاس عليه

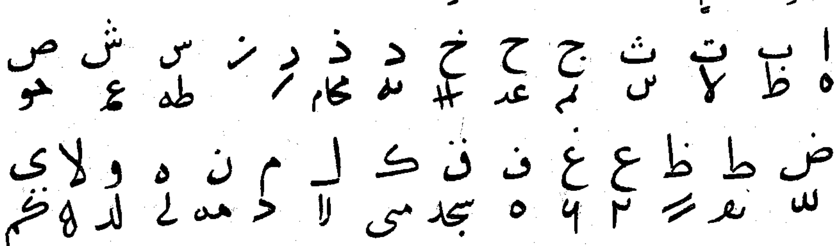

القاعدة الثانية — حلُّ المعمّى، وهو مقصودُ الباب ونتيجتُه .

ويحتاج المتصدِّى لذلك مع جَوْدة الحَدْس وذَكاء الفطرة أن يعرفَ اللغـةَ التى يروم حلَّ مترْجَمِها مما وَقع به التعميةُ فيها، ومِقدارَ عدد حُروفِها؛ ولا خفَاءَ فى أن حروفَ العربية ثمـانيةٌ وعِشْرون حرفًا، ويجب أنْ يعرِفَ الحروفَ التى تدخُل كلَّ لغة والحُروفَ الممتنعةَ الوقُوعِ فيها كما تقدّم .

ثم المعَوَّل عليـه، والمنصَبُّ القول إليـه، فيما هو متَعارَف فى هذه المملكة لغـةُ العرب التى [هى] أشرفُ اللغات وأبْذَخُها .

والناظِرُ فى حَلِّ مترجَمِها يحتاجُ إلىٰ أصلين :

الأصلُ الأوّلُ — معرفة الأُسّ الذى يترتَّب عليه الحَلُّ ؛ والذى تمسُّ إليـه الحاجةُ من ذٰلك سبعةُ أُمُور :

أحدها — أن يعرف مَقَادير الحروفِ التى تتركَّب منها الكلمة .

واَعلَمْ أنّ كلام العرب منـه ما يُبْنىٰ علىٰ حرفٍ واحدٍ مثـل «ق» من الامر بالوِقَاية، و «ع» من الأمر بالوَعْيِ؛ ومنه مايبنىٰ علىٰ حرفَيْنِ من الأفعال مثل «قُمْ» فى الأمر بالقيام ، و «كُلْ» فى الأمر بالأَكْل؛ ومن الحروف نحو : مِنْ فِي رُبَّ هَـلْ بَلْ وما أشـبه ذٰلك ؛ ومن الأسمـاءِ المبنيَّة نحو : ذِي ذَا مَنْ كَمْ ؛ ومن الضـمير مع حروف الجرّ نحو : بِكَ لَهُ ؛ ومنـه ما يُبنىٰ علىٰ ثلاثةِ أحرُفٍ وأربعـةٍ وخمسـةٍ فى الحُروف والأفعـال والأسمـاء ، ثم تدْخُل فيه أحرف الزيادةِ العشرةِ ، وهى « هَوِيتـه السِّمانَ » وثلاثةُ أحْرُف أُخَر، وهى الفاءُ وباءُ الجرِّ وكافُ التشبيه

وكافُ الخطـاب إلىٰ أنْ تبلُغَ الكلمةُ علىٰ اصطِلاحِ الكُتَّاب [أربعةَ] عشَرَ حرْفا ، كقولك مخاطبًا لرجلين [أنْشَآ] جُنَينةً : أَفَلَمُسْتَتْزهاتِكُمَا أعددتمـاها .

قال ابن الدُّرَيْهِم : وليس فى كلامِ العربِ كلمةٌ رُبَاعيَّة الأصل أو خُماسيَّةُ الأصل ليس فيهـا حَرْف من الحُروف الذَّلَقِيَّة كاللام والنون والواو، والشَّفوِية كالفاءِ والميم والباء إلا ماشَذَّ مثل «عَسْجَد» من أسماء الذَّهَب .

قال : ونهايةُ الأسماءِ العربيَّة قبل الزِّيادة خمسةٌ، وشَذَّ (؟) مثلُ عَنْدَلِيب ؛ والأفعالِ قبل الزيادةِ أربعةٌ؛ وليس فى القرءان كلمة خُماسِيَّةُ الأصل سِوىٰ الأسمـاءِ الأعْجَمِية مثل إبْراهِيم ، ولا يمكنُ أن يتكرَّر حرْفٌ [فى] كلمةٍ واحدةٍ أكثرَ من خمسة كقول القائل مارأينا [كُكَكَا كَكُكَكَكَكُمْ] (١) جمع كُكَّة وهو المركب الكبير مثل عُكَّة وعكَك، وأربع كافات فى قولك (٢) وكَكَعْكَك .

الثـانى — أن يعرِفَ الحروفَ التى لا يُقاربُ بعضُها بعضا بمعنَى أنهـا لا تجتمع فى كلمةٍ واحـــدة .

واعلم أنَّ فى الأحرف مالا يُقارب بعضُــه بعضا مطلقا بتقْـدِيم ولا تأخير كالثـاء المثلَّثة ، فإنها لاتقارِب الذالَ المعجمةَ والزاىَ المعجمةَ والسينَ والصادَ المهملتين والضاد المعجمةَ، وكذلك الجيم لاتُقارب الطاء المهملة ولا الظاءَ المعجمة ولا الغينَ

(١) بيض له فى الاصول وقد صححناه من المقام ، ولكن لم نعثر علىٰ هـذا البناء فى كتب اللغــة ولعله عامىّ تأمــل .

(٢) بياض فى الاصل .

المعجمةَ ولا القافَ ولا الكافَ، وما وقع من ذلك فى الكلام نحو : نُغْجَة وبَرْجَق وجُرْمُوق وجَوْلَق وجُلَاهِق ومَنْجَنِيق وجَوْقة وجَوْسَق وصَنْجَق وسَنْجَق وجَرْدَق ونحو ذلك فليست عربيــةً : لأنه لا يجتمع فى كلام العرب جيم وقاف فى كلمةٍ واحدة ؛ وكذٰلك الدال المهـملةُ لا تقارِنُ الظـاءَ المعجمة والذالُ المعجمة لا تُقارن الزاى المعَجمةَ والصادَ والضادَ والطاءَ والظـاءَ ، وما وقع فى الكلام من ذٰلك فليس بعربىٍّ، مثل طبرزد فارسىٌّ والزُّطُّ نبطىٌّ ، ولا تقارن السينُ المهملةُ الصادَ المهملةَ والضادَ المعجمةَ والظاء المعجمةَ؛ ولا تقارن الصادُ المهملة الضادَ المعجمةَ ولا الظاء المعجمةَ ؛ ولا تقارن الضادُ المعجمةُ الشـينَ والظاء المعجمتين؛ ولا تقارن الطـاءُ المهملةُ الظاء المعجمةَ؛ ولا تقارن القاف الغين المعجمةَ (١) ولا الكافَ فى كلمةٍ أصلية، وشــذَّ نَغق الغُرابُ وناقة نَغيق ؛ ولا تقارن الكافُ الخاءَ المعجمةَ فى كلمة أصلية، ولا تقارن الميمُ البـاءَ الموحَّدة والفاءَ فى كلمة أصليَّة إلا فى فَمٍ وأصـله فوَه، وأما بَمٌّ لأحدِ أوتار العُود فليس بعربىٍّ ؛ والحروفُ الحَلْقيَّة لا يُقارن بعضُها بعضًا خَلَا الهاءَ فإنها تَعْقُبها زائدة ، كهاءِ الضمير وهاء التأنيثِ، وتعقب العيْنَ أصليةً كالعَهْد والعَهْر وعَهِر؛ وليس فى كلمةٍ أصلية حرفانِ حلْقيَّان سِوىٰ ما تقدّم من الهـاء، وقد تعقُب بواسـطةٍ كغَيْهَب وعَبْهر؛ أما حَيْهل فمركَّبة، ولا يجتمع حرفان من هـذه الخمسة : وهى الهاءُ والطاءُ المهملة(؟) والعينُ والغينُ والخاء المعجمةُ فى أوّل كلمة سِوىٰ ما ذكر، ولا فى أثناء الكلمةِ إلَّا الهاء مع العين كهَلعَ والهاء مع الغين كأَهْيَغ ، والخاء مع الغين كأخْيغ (٢)، والهاء مع الخـاء المعجمة فى كلمة واحدة وهى هَبَيَّخَة ؛ ولا تجتمع الهـاءُ

---

(١) فى الأصول العين المهملة وهوغير مستقيم . وفى كتب اللغة ناقة نغيق «أى باعجام الغين» اذا كانت تبغم مرة بعد مرة .

(٢) لم توجد فى كتب اللغة التى بأيدينا .

الأصليةُ مع الخاءِ المعجمةِ ، ولا الحاءُ المهملةُ والعـينُ المهملةُ إلا أن تكون مركّبة مثل هرقصع (؟) والحَيْعَلة .

الثـالث — أن يعرِف الحُروفَ التى لا تُقارن بعضَ الحروف فى الكلمات إلّا قلِيلا، كمقارنة السِّين المهملة للشِّين المعجمة فى شِسْع والشين مع الزاى كشَزْر والراء مع اللام كورَل .

[واعلم] أنَّ الحرفَ الواحدَ يتكرر فى الكلمة الواحدةِ كثيرًا مثل دَهْدَه وتَهْتَه ونَهْنَه وحَصْحَص وحَبْحَب وحَمْحَم وجَلْجَل وخَلْخَال وشَـعْشَعة وزَعْزَع ودَغْدَغ وبَغْبَغ ونَعْنَع وعَسْعَس وزُعَازِع وغَوْغاء وضَحْضاح وخَوْخ وما أشبه ذلك .

الرابع — أن يعرف ما يجوز تقـديمُه علىٰ غيره من الحروف وما يمتَنِـع ، فالثـاء لا تتقـدّم الشِّـينَ المعجمة ، والدالُ المهـملة لا تتقدّم علىٰ زاى (١) ولا صادٍ مهـملة ولا طاءٍ مهملة بدليـل أنهم لمـا عَرَّبوا مُهَنْدِز ، أبدلوا الزاى سينا فقالوا مُهَنْدِس وهَنْدَسة ، والذالُ المعجمة لا تتقـدّم الجيمَ ولا السِّينَ المهملةَ ولا الشينَ المعجمةَ ولا العينَ المهملةَ ، ومن هنا لَمَّـا عرَّبوا الفالُوذَج من الفارِسىِّ قالوا فالُوذَق ، والشين المعجمة لاتتقدّمُها الزاىُ المعجمةُ ولا السينُ المهملةُ ولا الصادُ المهملةُ ، والطاء المهملةُ لا تتقدّم الكافَ فى كلمة أصلية ، والسين المهملة لاتتقدّم علىٰ الدال المهملة إلّا قليلا كسَدَاب (٢) ، والذالُ المعجمة لا تتقـدّم علىٰ الدال المهملة إلا قليلا كقولك فى الأمر ذُدِ الغَنَم .

---

(١) فى الأصل "علىٰ نون" وهو غير مستقيم كما لايخفى .

(٢) أورده القـاموس بالذال المعجمـة وتكلم عليـه شارحه ثم قال ويوجد فى بعض كتب النبات بالدال المهملة .

الخـامس ــ أن يَعْرِف ما لايقَع فى أوّل الكلمات من الحروف كالجيم لا تقع بعدها التـاء المثناةُ فوق ولا الصادُ المهملة ولا الضادُ المعجمةُ ولا الغين المعجمةُ؛ أما الجِصّ فمعَرَّب .

السادس ــ أن يعرِفَ أنه لايتكَّرر حرفٌ فى أوّل كلمة إلاّ من هذه العَشْرة الأحرفِ وهى: الكافُ واللامُ والميمُ والنونُ والتـاءُ المثناة فوقُ والألفُ والبـاءُ الموحَّدة والواوُ والقافُ واليـاءُ المثناة تحتُ ويجمعها قولك «كُلُّ مَنْ تابَ وُقِى» وأقلُّها وقوعا كذٰلك الياءُ .

السابع ــ أن يعرِف أكثرَ الحروف دَوَرانا فى اللُّغة، ثم الذى يليه من الحُروف فى الكَثْرة إلىٰ أقلّها دَوَرانا .

وٱعلم أنَّ كلامَ العرب أكثرُ مايقَع فيـه علىٰ ما دلَّ عليـه ٱستقراءُ القرءانِ الكريم الألِفُ ثم اللامُ ثم الميُم ثم اليـاءُ المثناة تحتُ ثم الواوُ ثم النُّون ثم الهـاءُ ثم الراءُ المهـملةُ ثم الفـاءُ ثم القافُ ثم الدالُ المهـملةُ ثم الذالُ المعجمةُ ثم اللامُ ألف ثم الحاء المهملةُ ثم الجيمُ ثم الصادُ المهملة ثم الخـاء المعجمةُ ثم الشـينُ المعجمة ثم الضادُ المعجمة ثم الزايُ المعجمة ثم الثـاءُ المثلَّثة ثم الطاءُ المهملة ثم الغينُ المعجمةُ ثم الظاء المعجمةُ؛ وقد جمع بعضهم أحرفَ الكَثْرة فىقوله (اليمونه) وبعضهم يجمعها فى قوله (اليوم هن) وجمع الحروفَ المتوسطةَ فى قوله (رعفت بكدس نخج)(١) وجمع أحرفَ القلّة فى قوله (ططغ صخذز قش) .

(١) تأمل هذا المثال وما بعده وحررهما .

قال ٱبن الدُّرَيْهِم : وقد يقع فى لَفْظ غير القُرءان علىٰ خلاف ذٰلك كما يتعمَّدُون النَّظْم والنثر بغير ألف أو بغير نقط أو بغير عاطل الحروف أو ألفاظ قليلة، وقد يكون الكلام ألفاظا قلائلَ لاتستوعِبُ الحروف .

الأصل الثانى – كيفيةُ التوصُّل بالحَدْس إلىٰ حَلِّ المتَرْجَم :

قال ٱبن الدُّرَيْهِم : إذا أردْتَ حلَّ ماتُرْجِم لك، فٱبدَأْ أوّلا بعدد الحروف، وكم تكَرَّر كلُّ شكلٍ منها مرةً فأثبِتْه أوّلا فأوّلا . قال : وأوّلُ ماتستخرج الفاصلَةُ إن كان الذى عمّىٰ قد بالغ فى التعمِيَة، يعنى بإخفاء الفاصلةِ فى ضِمْن الحروف؛ وذٰلك أنك تأخذ حرفا فتظُنُّ أنّ الفاصلةَ تكون الثانى فتُجْريه علىٰ ماتقرّر من الكلمات من المقادير علىٰ ماتقدّم؛ فإنْ وافق وإلا أخذتَ الثالثَ ، فإن وافقَ وإلّا الرابع وهكذا حتّىٰ يصحَّ لك انفصالُ الكلماتِ، ثم تنظر أكثَرَ الحروف دَوَرانا فى الكلام فتُقاربُه من الترتيب المتقدّم فى أكثر الحُرُوف دَوَرانا علىٰ ماتقدّم، فإذا رأيت حرفًا قد وقع فى الكلام أكثَرَ من سائر الحروف فتظنُّ أنه الألف؛ ثم الأكثر وقُوعا بعده فتظُنُّ أنه اللام؛ ويؤيد صحةَ ظنك أن اللام يُدَار فى أكثر ٱستعمالاته تابعًا للالف؛ ثم تنظر إن كان فى الكلام حرف مفرد فتظن أنه اللام ألف؛ ثم أوّل ماتلَفِّق من الكلام الثنائيةَ بتقريب حُرُوفها حتّىٰ يصحَّ معك شىءٌ منها فتنظر أشكالَها وترقُمُ عليها، وتُجْرِى الكلامَ فى الثُّلاثيَّات حتّىٰ يصحَّ معك شىءٌ منها فترقُم نظائره؛ ثم يجرى الكلام فى الرُّباعيَّات والخُمَاسيَّات علىٰ الوزن المتقدّم؛ وكلُّ ماٱشتبه فاحتمل ٱحتمالين أو ثلاثةً أو أكثر تُثْبِتُه إلىٰ حين يتعيَّن من كلمةٍ أخرىٰ ؛ فما ٱنتظم لك من ذٰلك

فتُثْبِت الباقِيَ عليـه، و إذا رأيت حرفًا قد تقدّم الألف واللام فى أوّل الكلمة فتظن أنه إما باء واحدة و إما فاء و إما كاف غالبا .

قال : وينبغى أن يكتب للبتدئ أوّلا كلّ كلمة علىٰ حدتها منفصلةً، وأن يكتب له الشِّـعْر دُون النثر، فإنّ الوزن يساعده علىٰ ظُهور بعض الحُروف، كهاء التأنيث وتاء التأنيث الساكنة وتاء المتكلِّم والساكن الذى لا يمكن أن يكونَ إلا أحد حروف العلةِ الدائرةِ فى الكلام وأمثـالِ ذٰلك، ثم ضرب لذٰلك مثلا بأنك إذا رأيت هـذه الأسطر مكتوبةً بهذا القلم

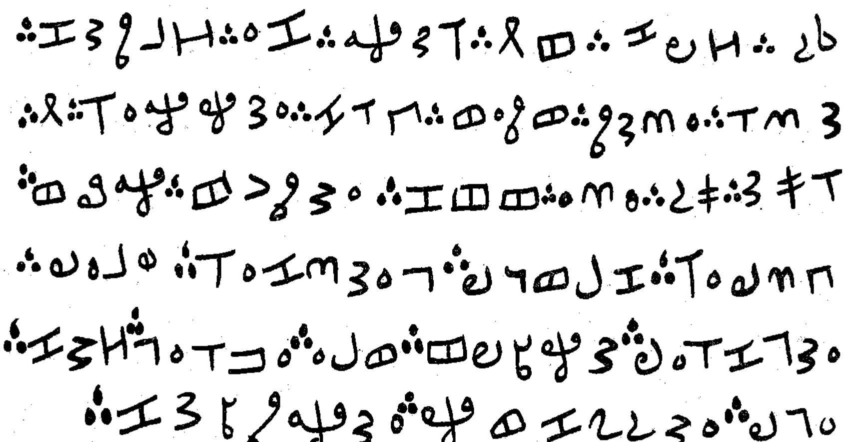

قال : فينبغى قبلَ كلِّ شيءٍ أن يبدأ فيرقُمَ تحت كلِّ شكلٍ من هذه الأشكال كم تكرر مرّة أوّلًا فأوّلًا علىٰ هذا المثَال

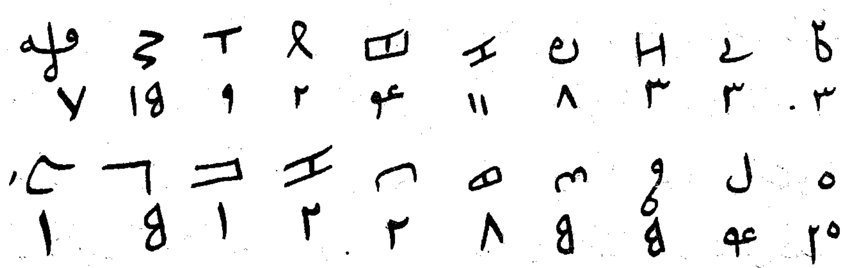

فيجد قد تكَرَّر معه هذا الشكل ه أكثر من كلِّ الأشكال بكثيرٍ، فيعلم أنَّه الألفُ فيرقُمُ عليه فى مواضعه، ثم المكَرَّر بعده أكثَرَ من باقى الأشكال هـذا الشكل 3 فيظُنُّ أنه اللامُ ويحقِّق ظنَّه كونُه تابعًا للألف فى سبعةِ مواضِعَ من الكلام؛ ثم ينظُر فيجِدُ فيـه حرفًا واحدا كلمةً فيظُنُّ أنهـا اللامُ ألف؛ ثم يجد الكلمة الثالثـةَ ثُنائيَّة ثانيها اللام ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه : بلا تلا جلا حلا خلا سلا علا غلا فلا كلا هلا ولا؛ ثم يجد هذا الشكل الذى مع اللام ألف قد ورد مكررا فى أوّل كلمـة آمتنع أن يكون جيا أو حاء أو خاء أو سينا أو عينا أو غينا أو هاء فلم يبق معنا سوىٰ بلا تلا فلا كلا ولا ؛ ثم يجد الكلمةَ الخامسةَ ثُنائيَّة ثانيها ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه با جا دا ذا سا شا ضا فا ما نا يا، ثم يترجَّح أنهـا ما أو يا لأن هذا الشكل قد تكرر أكثر من باقى الحروف فيكون إمَّا الميمَ أو اليـاء وإن قاربهما النون لكِنْ ما ويا أكثر وقْعا فى الكلام من نا فإنها غريبةُ الوقوع، ثم رأينا هـذا الشكلَ المتقدّم قد تلا الشكلَ الذى مع اللام ألف الذى ظننـا أنه أحد هـذه ه ب ت ف ك وفى الكلمة الثلاثيـة المكرر أوّلهـا فجـرَّبنا الحروف مع المـيم فظهر منهـا لفظة «ففى» لاغير؛ ثم نظرنا هذا الحرف فوجدناه وقع فى أربعة مواضع فى الكلام لاغير، فقلنا إنه الفاءُ : لأن الياء بنسبة هذا الكلام تقع أكثَرَ من ذلك غالبا، فصَحَّ معنا أنَّ الكلمة الثالثـةَ «فلا» والكلمة الخامسة «يا» والحرفَ المفرد «لا» والكلمة الخامسة منـه هى رايد ذلك أننا وجدْنا الكلمةَ الحـاديةَ عشرةَ قد تكرر [فيها] بعد الألف واللام حرفان تلاهما ألف بعده حرف آخر، ولا يمكن أن يتكَرَّر حرف فى مثل هذا المكان سوىٰ الميم إذا جَرَّبته علىٰ جميع الحروف، فقلنا : المَمَات

المَاح المَار المَاس المَاع ؛ ورأينا هذا الشكل الذى هو آخر الكلمة قد تكرر أكثَرَ من باقى الحروف بعد الألف واللام والباء ، فبقى أن تكون هـــذه ر س ت ع لأن الميم قد صح معنـا ولم يكن النونَ فعلَّمنا علىٰ الميم فى مواضـعه ؛ ونظرنا فرأينا هـذا الشكل أولَ الكلمة الرابعـة الثُّلاثيَّة وقد صح ثانيها اللام وثالثها الميم فجـرَّبناها علىٰ هذه الحروف فسقطتِ الراءُ وبقى أحد هذه : سلم تلم علم ؛ ثم نظرنا الكلمة المجارِية للمات المماع المماس ، فرأينا قبـل الألف واللام حرفا يكون أحد هذه ب ل و : لأن الفاء علَّمناها ؛ ونظرنا هذا الحرف قد تبع الألف واللام قبلَ الياء ، ووجدناه بين البين فى كلمة ثلاثية تكون إحدىٰ هـذه أبا أذا أسا أنا ، فجرَّبنـا الكلمة علىٰ البـاء والدال والســين والنون علىٰ أن يكون الحرف الآخر السين فلم يتفق منه لفظ فسقط « ســلم » ثم جَرَّبناها علىٰ أن تكون العين فحصل منه بعدَ الحرف الأوّل البياع ؛ ثم علىٰ أن تكون تاء فحصل منه الثبات السيات فسقط وبقى أبا أسا أنا ؛ ثم نظرنا الكلمة السابعة وهى ثلاثية أوّلُها اللامُ وثانيها هـذا الحرف الذى قبل الياء وثالثها هذا الدائر بين العين والتاء قلنا يقوم منها « لست » وسقط الباء والنون ، وإنمـا لم يقم منه « كسع » لأنه لـما سقطت البـاء سقطت العين من البياع ، فصح أنْ تلك « السيئات » ونظيرها « الممـات » والثلاثية « تلم » وســقط علم ، فرقمنا علىٰ التاء فى مواضعها وعلىٰ السين فى مواضعها ، فصارت الثلاثية « أسا » فقد صح معنا من الكلمات : « فلا تَلُمْ يا لسْتُ الممـاتِ لا أَسَا ففى » وبقِيَ الحرف الذى قبلَ السيئات ؛ ثم نظرنا الكلمة العاشرة الثُّلاثية فيها ت ى فجرَّبناها علىٰ الحروف فظهر منها « حتّى » لايشارِكُها شىء فعلَّمنا علىٰ الحاء فى مواضـعها ؛ ثم نظرنا كلمـةً خماسيةً قد بقى منهـا الحرفُ

الوسطُ، بجرَّبناها علىٰ الحروف فقام من ذلك : « حَسَرات حسكات حَسَنات » فعلمنا أنه حسنات : لأن هـذا الشكل تكرر أكثرَ من باقى الحروف بعـد الألِفِ واللامِ واليـاء والتاء، وقد صَحَّ الميم فأثبتنا النُّون فى موضعها؛ ثم نظرنا هذا الشكل فى أوّل كلمتين ثُلاثِيَّتين وقد صح من إحداهما ن ى ومن الأُخْرىٰ ل ى، بجرَّبنا الحرف فوجدناه إمَّا عينا أو واوا، فيقوم منهما عنى على وبى ولى فتعين أن يكون عينا لقلة الحرف عن مرتبـة الواو ؛ ثم نظرنا كلمة سُباعِيَّة قد بقى منها حرف مجهول، جَرَّبناها علىٰ الحروف فصحت «البيَانُ» لايشاركها لفظةٌ أخرىٰ، وللحرف هذا الشكل الذى قبلَ السيِّئات فتعيَّنت الباء فى مواضعها؛ ثم نظرنا كلمةً سُداسِيَّة ثالثُها حرفٌ مجهول، بجرَّبناها فظهر منها «الكتّاب»؛ ثم نظرنا كلمة خُماسِيَّةقبل التى قبل «هذه» قد بقىَ حرفُ الوَسَط [منها] مجهولا، بجرَّبناها علىٰ الحروف فقـام لمحيف لمدنف لمصنف فتعينت « لمصنف » بسبب سياق الكلام بلفظ « الكتّاب » ورقمنا علىٰ الصاد؛ ثم نظرنا الكلمة الأخيرة قد بقِىَ منها رابعُها مجهولا، بجرّبناها علىٰ الحروف فصَحَّت «المَوْصِل» وصحَّت الكلمة التى بعد لست أنها «أسلو» فرقمنا علىٰ الواو؛ ثم نظرنا الكلمة الأولىٰ وهى ثنائيـة أوّلها ص بجرّبناها فصحت صَدَّ، وإنما كنا أخَّرناها لقِلَّة وَقْع حروفها، ثم علَّمنا علىٰ الدال فوجدنا كلمةً ثنائية آخرها «د» بجرَّبناها علىٰ باقى الحروف التى لم تظهر، فقام منها جد حد قد هد؛ ثم نظرنا كلمة ثلاثية فصح أوّلها ت وآخرها ل وسطها هذا الحرف الذى قبل الدال فى الثُّنائيـة، بجرَّبناها علىٰ الجيم والحاء والقاف والهاء، فسقطت الهـاء وبقى تجل تقل تحل؛ ونظرنا فرأينا سياق الكلام يدل علىٰ أن الكلمة قبل أسا «قد» والثلاثية « تَقُلْ » فانتظم الكلام « لاتَقُلْ قَدْ أَسَا » ثم نظرنا الكلمة السادسة قد بقى منهـا

ثانيها مجهُولا ، بجرّبناها علىٰ باقى الحـروف فصحت « عَذُولى » ، فرقمنا علىٰ الذال فى مواضعه؛ ثم نظرنا الكلمة الثلاثية التى بين «لمصنف» وبين «الكتاب» أوّلها هذا الشكل ꝏ وقدصح منها «ذا» فعلِمْنا أنّها «هذا» ورقمنا علىٰ الهاء؛ ثم نظرنا الكلمة الخُمَاسِيَّة التى بين «ففِى» وبين «منه» قد بقى رابعُها ، بجرّبناها علىٰ باقى الحروف فصحت « الوجه» ؛ ثم نظرنا الكلمة السباعية التى قبل الأخيرة وقد بقى منها رابعُها مجهولًا، بجرّبناها فظهر منها الدُّرَيْهِم، فتكمل الحلُّ وظهر الكلام :

صُـدَّ عَنِّى فلا تَـلُمْ يا عَذُولِى * لَسْتُ أسْلُو هواهُ حتَّى المَمَات

لا تَقُلْ قَدْ أسا فَفِى الوَجْهِ منه * حَسَناتٌ يُذْهِبْنَ بالسَّيِّئات

هذا البيانُ لمصَنِّف هذا الكتابِ، عَلِيّ بن الدُّرَيْهِم المَوْصِلىّ .

وعلىٰ مثل هـــذا المِنوال يَجْرِى الحلُّ ؛ ثم ٱنظر إلىٰ حروف هـذا الكلامِ كيف جاءَتْ أحدًا وعِشْرين حرفًا ، ونقص منه ثمـانيةٌ لم تُوجَد فيـه ، فإذا نظرتَ إلىٰ ما قرّرتُ لك من ترتيب وَقْع الحروف كما جاءت فى الكتاب العزيز، رأيتَ الثمـانية الناقصة هى آخِرُ الترتيب سواء لم يختلط منها شىء بتقديم أو تأخير، وهـذا ٱتفاقٌ : لأنه قد يَقَع الحرف قريبا من رُتْبته كما تقدّم ؛ وكما تقدّمت الياء علىٰ الميم فى هـذا الكِلام، والفاءُ علىٰ الميم والنُّون، وتقدّمت الهاءُ علىٰ الميم أيضا؛ لكن الأصل معرِفةُ وَقْع الحروف بالتقريب وتجربةُ الكلمات ، ومقارَبةُ ما دَلَّ عليه سِياقُ الكلام .

ولْنَضْرب مثالا آخَر : لتتضِحَ أنواعُ الحَلِّ .

وهذا مثال آخر أورده ابن الدُّرَيْهِم ، وهو :

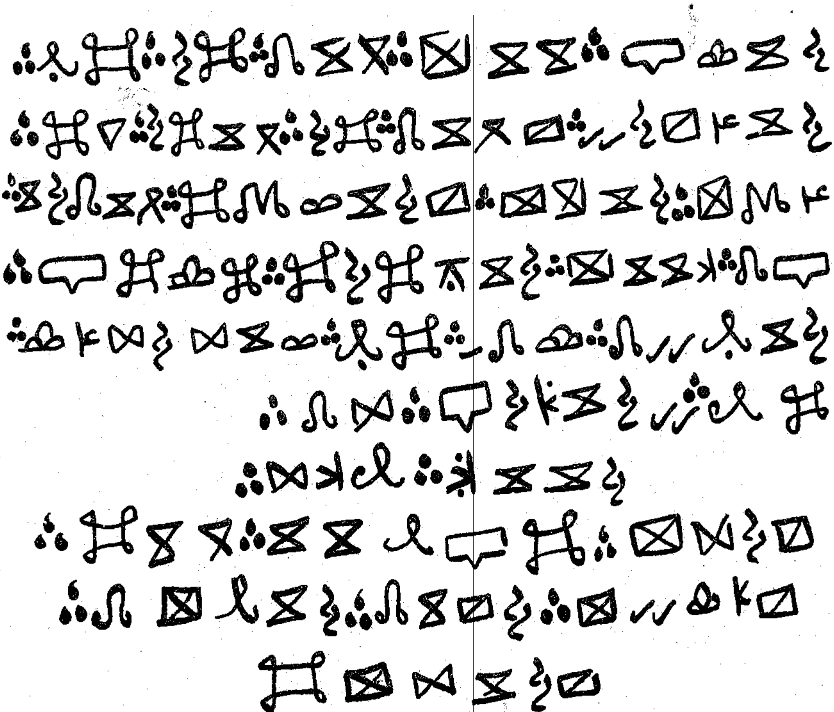

فتعدد المكررات من الأشكال كما مرّ وترقمها على هذه الصفة .

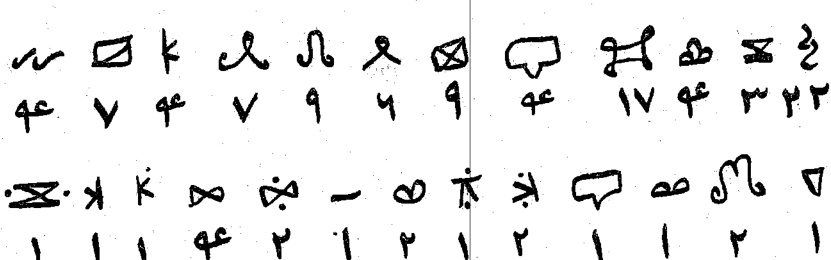

فتنظر فإذا أكثرها وقعا ثم ثم ثم هذين ثم هذين ثم هذا ثم هذه فتظن أن هذا الشكل الألف ، وهذا اللام : لكونهما أكثر وقعا

من الجميع فلم يوافق : لأنه قد تقرر أن اللام تكون تابعــة للألف فى أكثر المواضع ولم نجده تبعه البتة ، بل وجدنا العكس فعلمنا أن هــذا هو الألف وهــذا 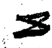 هو اللام ، ورقمنا عليهــما فى مواضعهــما فإذا الكلمة الثانيــة الثُّلاثية فيها لامان، بقى حرف آخِرها مجهول، فجربناها علىٰ الحروف فظهرت الهــاء لايمكن غيرها، فعلمنا أنها « لِلّهِ » ورقَمْنا علىٰ الهاء فى مواضعها، ثم وجدنا الكلمة الخُماسِــيَّة قد بقِىَ رابعُها مجهُولا ، فجرَّبناها فظهر الهما ألهجا ألها الهنــا ، ووجدنا الحرف قد تكرر أكثر من كلِّ الحروفِ بعــدَ الألِف واللام ، فظننا أنه الميمُ ، لكنه يحتمل أن يكون النون ، وسقط البــاء والجيم فوجدناه فى الثنائيات فى كلمتين قبــل الألف ، فعلمنا أنهــا « ما » فرقمنا علىٰ الميم فى مواضــعها ، ثم رأينــا الميم قد تبعــه فى الثُّنائيَّات حرف يحتمل أن يكون مد مر مس مض مط مع من ، ورأينــا الحرف كثير الوقوع ، وقد تكررتْ ثلاث لفظات ، فعلمنــا أنها « مــن » ورقمنا علىٰ النون فى مواضعه ، ثم رأينا هذا الشكل أكثر من غيره وهو قبل الألف واللام وفى أوائل الكلمات فقلنــا إنه الواو ، ثم رأينا آخر كلمــة قد بقى منها رابعها مجهولا ، فجرَّبنــاها فظهر والبهم والتهــم والجهم والدهم والسهم والشهم والفهم واليهم ؛ ثم وجدنا هــذا الحرف الذى فيها قد جاء قبل حرف فى الثُّنائيَّات وذلك أكثرُ ما وقع بعــد الألف واللام والميم ، فيحتمل أن يكون اليــاء ، ووجدنا قد بقى من كلمةٍ هذا الحرف فصَحَّ أن يكون النُّهىٰ وأُخرىٰ أُولِى ، فعلمنا أنها الياء ، فجربنــا الحرف معها ، فظهر بى نى ، ووجدنا كلمة خُماسِيَّة هــذا الحرف رابعُها وبعدُ حرفٌ آخر ، جربناها علىٰ الياء والفاء فظهر اللبث اللبــد اللبس اللبط اللبك اللفت اللفج اللفح اللفظ اللفق ، ثم وجدنا هذا الحرفَ الآخر إذ أوّل كلمة بعده لامان وهاء ، فجربناها فظهر منهــا الحرف الثالث مجهولا ، جَرَّبناها ظهر

التّمام الحَمَام الذِّمام الشمام الغمَام الكمام؛ فرأينا سياق الكلام يدُلُّ علىٰ أنه «ظَلَّل الغَمَام» وتعينت تلك اللفظة والأخرى الفَهْم والثنائيــة، فرقمنا علىٰ الفــاء؛ ثم رأينا الكلمة الثالثة الثُّلاثيَّة ثانيها لام وآخرُها ياءٌ وبعدها «ما ألْهمَا» فدل سياقُ الكلام علىٰ أنها «علىٰ» فرقمنا علىٰ العين، فرأينا الرُّباعِيَّة التى بعـد «وآله» قد بقى ثالثُها مجهولا؛ فجَرَّبناها فظهرتْ مَعِجن مَعْدِن فتعين مَعْدِن والثنائية التى بعدها؛ وقيل «علم كل» فرقمنـا علىٰ الدال فى مواضعه ورأينا الكلمة الأولىٰ قد بقى وسطها مجهُولا؛ فجَرَّبناها وظهرت الثمد الحمد الصمد، فدلَّ سياقُ الكلام أنها الحمْدُ : لأن بعدها «لله علىٰ ما ألهما» فرقمنا علىٰ الحـاء فى مواضعها، ورأينا الثالث من الرُّباعِيَّة التى بين علىٰ وظَلَّلَه، فجَرَّبناها فظهرت « الذى » ورأينا الكلمة الخُماسِيَّة التى بعد «مُحَمَّد» قد بقى رابعها [مجهولا] ، فجَرَّبناها فظهرت «النبى» فرقمناعلىٰ الياء فى مواضعها ورأينا قد بقى ثالثُ السُّداســيَّة التى بعدَ «من» هــذا الشكل ـــ وهو ثالثُ رُباعيَّــة أوّلهــا الألفُ وثانيها فاء وآخرها حاء، وثانِى خماسيَّة أوّلُها واو وثالثُها حاء ورابعها باء وخامسها هاء؛ فتعينت الصاد، فالأولىٰ « الصَّواب » والأُخْرىٰ «أفصح» والأخرىٰ «وصَحْبه» وتعينت الثنائيــة التى هى أوّل البيت الثــانى بعدَ الســطر الأوّلِ « ثم » والتى تليها « صلاة » وتعين السين فى الســلام ؛ فصار، «ثُمَّ صلاةُ اللهِ والسَّلامُ» وكلمــا تمرّن الإنسان فى ذٰلك ظهر له أسْرَع بكثرة المباشرة، ثم تعين رابع السُّداسِيَّة التى بعد أفصح مَنْ أنه الضاد، وتعين بسياق الكلام أن بعد بالضاد « فى اللَّفْظ نَطَق » فرقمنا علىٰ القاف فرأينا مجاريها الثلاثية من رأس المِصْراع « خَلَق » فرقمنا علىٰ الخاء، وتعينت الكلمة التى قبــل « مَنْ خُلِق » أنها « خير » فتكملت الأبياتُ وظهر أنهــا :

الحَمْـــــدُ للهِ علىٰ ما أَلْهَـــما * مِنَ الصَّوابِ وعلىٰ ما عَلَّما
ثُمَّ صـــلاةُ اللهِ والسَّـــلامُ * علىٰ الَّذِى ظَلَّلَــــه الغَمامُ
محمدِ النبيِّ خَـــيْرِ مَنْ خَلَقْ * أفْصَحِ مَنْ بالضادِ فى اللَّفظ نَطَقْ
وآلهِ مَعْدِنِ كلِّ عِـلْمِ * وَصَحْبِـهِ أُولِى النُّهىٰ والفَهْمِ

قلت : ومما يلتحق بتعمية الخَطِّ المتقـدّمةِ الذِّكرِ ماحكاه ٱبنُ شيثٍ فى معالِمِ الكِتابة : أنَّ بعض الملوك أمر كاتِبَـه أن يكتُب عنه كِتاباً إلىٰ بعض أتْباعه يُطَمِّنه فيه لِيَقْبِضَ عليه عند ٱنتهازِ فُرْصةٍ له فى ذٰلك ؛ وكان بينَ الكاتِب والمكتوبِ إليه صَداقةٌ فكتب الكِتابَ علىٰ ما أَمَر به من غير خُروج عن شَيءٍ من رَسْمه، إلا أنه حين كتب فى آخِرِه « إنْ شاء الله تعالىٰ » جعل علىٰ النُّون صورةَ شَـدّة ، فلما قرأه المكتوبُ إليه، عَرَف أنَّ ذٰلك لم يكن سُدًى من الكاتب فأخذ فى التأويل والحَدْس فوقع فى ذِهْنه أنه يُشِير بذٰلك إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿إنَّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ . فأخذ حِذْره، وٱحترز علىٰ نَفْسه، وبلغ المَلِكَ ٱحترازُه علىٰ نفْسه فاتَّهم الكاتبَ فى أنه ألحَقَ فى الكِتابِ شيئا نَبَّهه به علىٰ قَصْـد المَلِك ، فأحضره وسأله عن ذٰلك، وأمره بأن يكتُبَ الكِتابَ علىٰ صُـورة ما كَتَبَ به من غير خُروج عن شيءٍ منـه ، فكتبه ولم يغـيِّر شيئا من رَسْمه حتّى إنه أثبتَ صُورةَ الشدّة علىٰ النُّون ؛ فلمـا قرأه المَلِكُ ونظر إلىٰ صورة الشـدّة أنكرها عليه، وقال : ما الَّذِى أردْتَ بذٰلك ؟ قال : أردت قوله تعالىٰ : ﴿إنّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ . فأُعْجِب بذلك وعفا عنـه لِصِـدْقه إيَّاه .

النـــوع الثانى

(الرُّموزُ والإشاراتُ التى لاتعلُّق لها بالخطِّ والكتابة)

وهى التى يعبّر عنها أهلُ المَعانى والبيان بالاستعارة بالكِنايَةِ «بالنون بعد الكاف» وقد يعَبَّر عنها بالوحْيِ والإشارة .

ومن غريبِ ما وقع فى ذلك ما حكاه العَسْكرىّ فى "الصناعتين": أنَّ رجلا من بَنِي العَنْبر أُسِرَ فى بَنِي حَنْظَلةَ، وفَهِم عنهم أنهم يَقْصِدون الغارةَ علىٰ قومه بَنى العَنْبرِ، فقال لبنى حنْظلةَ : إنَّ لى حاجةً عنــد أَهلى وأُرِيد رسولًا من قومكم أُرْسِــله فيها، فأجابُوه إلىٰ ذلك بشرْط أنْ يخاطِبَه فى حاجتــه بحُضُورهم؛ فأحضروا له رجُلا فى الليل وقدْ أوقدتِ العربُ نِيرانَهــا، فأقبل علىٰ الذى أتَوْه به وقال له : أتَعْقِل؟ قال : إنِّى لعاقلٌ . فقــال : آنظُر إلىٰ السماء ونجومِها، فنَظَر؛ ثم قال : آنظُرْ إلىٰ نِيرانِ العرب، فنظر؛ فقال له : ماأَكْثَرُ؟ نجومُ السماء أو نيران العرب؟ فقال : إنَّ كُلًّا منها لكثير؛ قال : إنك إذًا لعاقِل، ثم دفع إليــه حنظلةً وصُرّةً فيها رَمْل وصُرّةً فيها شَــوْك ، وقال آذهبْ إلىٰ قومى فادفَعْ إليهم هــذه الحنظلةَ وهاتَيْنِ الصُّرَّتَيْن، وقُلْ لهم يُعْرُوا ناقتِي الحَمْراء، ويُرْحِلوا جَمَلِى الأوْرَق، وسَلُوا أخِى الأعورَ يُخْبِرْكم الخَبَر . فقال الحاضرون : ليس فى هــذا مايُنْكَر، آذهَبْ فى حاجته؛ فذهب إلىٰ بنى العَنْبر ودفع إليهم ذلك وقَصَّ عليهم القِصَّــةَ ورجع، فبعث القومُ إلىٰ أخيه الأعورِ فحضر، فأخبروه الخَبَرَ . فقــال إنه يقول : أتاكُمْ بنُو حنظَلَةَ فى عَدّ الشَّوْك والرَّمْل، وإنَّ نِيرانَ العرب تُعادُّ نُجُومَ السماء، ويأمُرُكم أن تَرْحَلُوا عن الدَّهْناء وانْزِلُوا مكان كذا؛ ففعلوا ورحَلُوا لوقتهم فصَبَّحهم بنُو حنظلَةَ فلم يُدْركوا منهم أحدا .

وفى معنىٰ ذٰلك ماحكاه المَقَـرّ الشّهابىّ بنُ فضـل الله فى كتابه "التعريف" : فى الكلام علىٰ المكاتبة إلىٰ الأدفونش مَلِك الفَرَنج بطُلَيْطُلَة من بلاد الأندَلُس، كان خبيثَ النيـةِ، سَيِّئَ المقاصد لأهل الإسلام؛ وأنه أرسل مَرَّة إلىٰ الملك النـاصر محمدِ بن قلاوون : صاحب الديار المِصْرية هـديةً فيها سَيْفٌ وثوبُ بُنْدُقِىٍّ وطارقةٌ مستَطِيلة تُشْبِه النَّعش كأنه يقول : أقتُلُك بهذا السَّيف، وأُكَفِّنك فى هذا الثوب، وأحمِلُك علىٰ هذا النَّعْش . قال : وكان الجوابُ أنْ أرسل إليه حَبْلا أسودَ وحَجَرا، أى إنه كلب يُرمىٰ بهذا الحَجَر أو يُربَط فى هذا الحبل .

قلت : ومما وقع من ذٰلك فى زماننا أنه فى الدولةِ الظاهِرِيَّةِ «بَرْقوق» وتمرلنك يومئذ ببلاد العِراق يُغَاوِر الممالكَ الشامية لقصد الاستيلاء عليها ورَدَ عليه كتابٌ من المملكة الحلَبِية فيـه : أنه وقع بتلك البلادِ سَيْلٌ عظيم ساقَ جملةً من الأُسْد والنُّمورة والحَيَّات، وأنه دَفَع حيَّة عظيمةً سَـعةُ رأسها بقَدْر قَوْس، وقرئَ الكتابُ بحضرة السلطان، وحملُوا ذٰلك علىٰ ظاهره : من أنَّ المراد حقيقةُ السيل، وأنه لقوَّته ساقَ تلكَ الحيَّةَ والسِّباع وغيرها، وشاع ذٰلك بينَ الكافَّة من الأمراء وأهل الدولةِ وسائر الرعِيَّـة، ومضىٰ الأمر علىٰ ذٰلك؛ ثم ظهر أنَّ المقصودَ بذٰلك السيلِ وما فيـه هو تُمُرلَنْك وعساكره؛ وأنه كُنِيَ بالحيـة العظيمة عنه نَفْسِـه، وبالسِّباع والحيَّات عن عساكره .

ومن لطيف ماوقع فى ذٰلك أنه ورد علىٰ السلطان الملكِ الناصر «فَرَج بن بَرْقُوق» فى أواخر دولته كتابٌ عن صاحب تُونُس من بلاد المَغرِب فى آخره خطابا للسلطان (وعلىٰ إحسانِكم المُعَوّل، وبيتُ الطُّغرائِىِّ فى لاميَّـة العجم لايُتأوّل) فسألنى بعضُ أعيان ديوان الإنشاء عن المراد من ذٰلك ولم يكن الكتاب متضمنًا لغير الوصية

علىٰ حُجَّاج المَغَـاربة ، وكان رَكْب المغاربة قبلَ تلك الحَجَّـة قد عرضَ لهم عارضٌ من عَرَب دَرْب الحجاز ٱجتاحُوهم فيه ، وقتلوا منهم خَلْقا كثيرا ، ونهبُوا منهم أموالا جَمَّةً ، فعرضتُ ذٰلك علىٰ أبيات اللامية ، فلاح لى أنه يُشِير إلىٰ قوله فيها :

فقُلْتُ أرْجُوكَ للجُلّٰى لتَنْصُرَنِى * وأنتَ تَخْذُلُنِى فى الحادثِ الجَلَلِ

والجُلّٰى بضم الجيم هى الأمرُ الجليل العظيمُ ، والجَلَل بفتح الجيم فى اللُّغة من أسماء الأضـدادِ ، يقع علىٰ الشىء الجليل وعلىٰ الشىء الحقير ، كأنه يقول : أنا كنتُ أرجُوك للأمور العِظام لتنصُرَنى فيها فخذَلْتنى فى هـذا الأمر الحَسِيس ، وهو الأخذُ بثأر حُجَّـاج بِلَادى ممن ٱعتَدىٰ عليهـم من عرب بِلادِك : فخاب ظَنِّى فيما كنتُ أرجُوه فيـك ، وأؤمِّله منـك ، وأشار بقوله لايُتأَوَّلُ إلىٰ أنه لايحملُ الجَلَل فى قول الطُّغرائىّ علىٰ الشىء الجليل كما قال الصَّـلاحُ الصفدِىُّ فى شرح اللاميـة ، بل علىٰ الأمر الحَسِيس : لأنه هو اللائقُ بالمَقَام .

وٱعلم أنَّ مثل هذه الأمورِ تحتاجُ إلىٰ قوّة ذكاء وٱحتـدام قريحة من الذى يَقَع مِنـه الرمزُ ، وإلىٰ قوّة حَدْس من الذى يحاوِلُ إدراكَ المَقْصَد من تلك [المَعَامِى] كما يقع فى الألغاز والأحاجىّ للُغز ، والمتصدّى لحَلِّ ألغازه والجواب عنه ، والله تعالىٰ هو الهادى إلىٰ سبيل الصَّواب .

المقـالة الخـامســـة

فى الوِلَايات ، وفيهـا [أربعـــة](١) أبوابٍ

البـاب الأوّل

فى بيـان طَبَقاتها وما يقعُ به التفاوُتُ ، وفيــه ثلاثةُ فصول

الفصـــــل الأوّل

فى بيان طَبَقات الوِلَايات ، وهى علىٰ ثلاثِ طَبَقات

الطبقةُ الأُولىٰ — الخلَافة ، ولِمَا يكتب فى وِلَايتها طريقان : إمَّا عهدٌ من الخليفة الأوّل ، وإما بَيْعةٌ من أهْل الحَلِّ والعَقْد إن لم يُوجَدْ عهـدٌ من الخليفة قَبْلَه علىٰ ماسيأْتى بيانُه إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثانية — السَّلْطنة ، ولِمَا يكتَبُ فى ولايتها طريقان : أحدُهما العهْـدُ من الخليفة ، والثانى العهْدُ من السلطان قَبْلَه . قال فى "التعريف" : أمَّا مَنْ قام من المُلُوك بغيْر عهْد ، فلم تجر العادةُ أن تُكتَبَ له مبايَعةٌ .

الطبقة الثالثةُ — الولاياتُ عن الخلفاء والمُلُوك وما يُكتَبُ عن السلطان بالديار المصريّة فى أقطار المملكةِ بمصرَ والشامِ والحِجازِ : ممـا يكتَبُ مِن ديوان الإنشاء الشريفِ بالأبواب السلطانية .

وهى علىٰ خمســـة أنواع :

---

(١) بياض فى الأصل والتصحيح ممـا تقدم فى ج ١ ص ٢٤ من هذا المؤلف .

النـــــوع الأوّلُ

(ولاياتُ أربابِ السُّيوف ؛ وهم علىٰ ثلاثة أصناف)

الصِّنف الأوّل — النُّوّاب من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف ، وغالِبُ مَنْ يكتَب له منهم بالبلاد الشاميـةِ ومُضافاتِها ؛ كنُوّابِ السلطنةِ بدِمَشْقَ وحَلَب وطَرابُلُس وحَماةَ وصَـفَدَ والكَرَك ، ومُقَدَّمى العسـكر بغَزَّةَ وسِيسَ ؛ ونُوّابِ القِلاع بالمُدُن العِظام ذواتِ القِلاع الرفيعةِ القَـدْر : كالنائبِ بقلعة دِمَشْقَ ، والنائبِ بقَلْعة حَلَبَ ، والنائبِ بقَلْعة صـفَدَ . أمَّا طرابُلُسُ وحَمَـاةُ ، فليس بهما قلعـة ؛ وكذٰلك النِّيابات الصِّغارُ المُضافةُ إلىٰ القواعد الكِبَار : كالقُدْس الشريف وحِمْص ومِصْياف من مُضَافات دِمَشْقَ ، وقلعةِ المسلمين والرَّحبة والبِـيرةِ والرُّها وشَيْزَر وعَيْنتاب وبَهَسْنىٰ ومَلَطْيَةَ وآياس والأَبُلُسْتَيْن وأَذَنة وطَرَسُوسَ من مضافات حلَبَ ، واللَّاذِقِيَّة وحِصْـن عَكّار من مضافات طرابُلُس وما يجرى مَجْرىٰ ذلك ، علىٰ ما سـيأتى بيانُه مفصلا فى مواضِعه ، إن شاء الله تعالىٰ .

أمَّا مادُونَها من النِّيابات فإنَّ نُوّاب السلطنة بالمملكة يستقِلُّون بالتولية فيها .

قلت : والضابِطُ فى ذٰلك أنَّ كلَّ نيابةٍ كان نائبُها تَقْدِمةَ ألْف فوِلايتُها عن السلطان بمرسوم شريفٍ من ديوان الإنشاء بالأبواب السـلطانية ، وكلَّ وِلايةٍ كان نائبُها جُنْديًّا أو مقـدَّمَ حَلْقة فوِلايتها عن نائب السلطنة بالمملكة التى هى مُضافةٌ إليها بتوقيع كريم من ديوان الإنشاء بهـا ، وكلَّ نيابةٍ كان نائبُها أميرَ طَبْلخاناه أو عشرة ربَّمـا وَلَّى فيها السلطانُ وربما ولَّى فيها نائبُ السلطنة ، إلا أنَّ توليةَ السلطان لنُوّاب الطبلخاناه أغلَبُ ، وتوليةَ نُوّاب السلطنة لنُوّاب العشرةِ أغلَبُ .

أمّا الديارُ المِصريةُ فإنه كان يُكتَبُ فيها أوّلًا لوُلاة الوجهين : القبـلىِّ والبَحْرىّ جَرْيا علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى زمَن الخُلَفاء الفاطميِّين، وكذٰلك والى الإسكَنْدريّة قبل أن تستقِرّ نيابةً ، ووالِيَا الوُلاة بالوجهين قبل أن يستقِرّا نيابتَيْن ، فى جماعةٍ أُخرىٰ من أرباب الوظائف : كالنائب الكافل وأتابك الجُيُوش كإسْتادَار وأميراخُور ومقدَّم المماليك ووالِي مصرَ والقاهرةِ؛ ثم صارت الكتابةُ لذَوِى الوظائِف من أرباب السُّـيوف قاصرةً علىٰ النـائب الكافل إذا كان موجُودا والنُّوّاب المستَجدّين بالإسكندرية والوجهين : القبلىّ والبحرىّ؛ وبطل ماعَدَا ذٰلك ممـا كان يُكْتَب ، وكأنّ المعنىٰ فيه القُربُ من مَقَرّة السلطان؛ والكتابةُ إنمـا تقَع فى الغالب مع البُعْد : لتكونَ حجـةً للتولىِّ علىٰ بُعْـد المَدىٰ ، ولا ينتقضُ ذٰلك بمـا يُكتَب للخلفاء والملُوك فى الحضرة، فإنّ ذٰلك من الأمور العامّة التى يُخافُ ٱنتقاضُها أو جُحودُها، إذ مثـلُ ذٰلك لايجوز فى الولايات عن السلطان : لأنه متىٰ شاء عزَلَ مَنْ ولّاه .

الصِّنف الثـانى ــ ولايةُ أُمَراء العُرْبان، وهٰؤُلاء لاحظَّ لهم فى الكتابة بالولاية بالديارالمِصريّة الآنَ؛ وربّمـا يُكْتَب لأمرائهم بالمملكة الشامية : كأميرِ آلِ فَضْل، وأميرآلِ مِرا ، وأمـيرآل عَلِىّ ، ومُقـدَّم جَرْم ، وكذٰلك أمـيرُ مكةَ المشرَّفـة ، وأميرُ المدينـة النبويّة علىٰ ساكنهـا أفضلُ الصلاة والسـلام ، والتحية والإكرام ، والنـائبُ باليَنْبُع من البلاد الحجازيّة . والمعنىٰ فى ٱختصاص مَنْ بَعُـد منهم ماتقدّم فى الكلام علىٰ أرباب السُّـيوف مع ضَـعْف شأن عَرَب الديار المِصْريّة وعـدمِ الٱهتمام بأمْرهم .

الصنف الثالث ــ ولاية المُقدَّمين علىٰ الطَّوائف : كمقدَّمى التّرْكُمان، والأكْراد، والجَبليَّة بالبلاد الشاميــة، وأتابكِ طائفةِ الإسماعيلية بقِلاع الدَّعْوة ، وحاكم البُنْدُق

ونحوهم؛ وهذه الطوائفُ ممّن يكتَبُ له إلىٰ الانَ؛ أما حاكم البُنْدُق، فإنه لم يُعْهَد له كتابةٌ من ديوان الإنشاء بمصر والشام . علىٰ أنَّ المقَرّ الشهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر وصيَّته فى "التعريف" ولعلَّه ممن كان يكتَب [له] فى زمانه أو قبْلَه ثم تُرِك، وإنما يكون ذٰلك بحسَب آعتِناءِ السلطان بشأْن البُنْدُق وعدمِه كما فى لباس الفُتوَّة، وأنه رُبَّما آعتنىٰ به بعضُ الملوك فكتب له ثم تُرِك .

النـــــوع الثانى

(ولايةُ أرباب الأقلام، وهم صنفان)

الصِّـــــنف الأوّل

(أربابُ الوظائف الدينيَّـــة، وهم علىٰ ثمانيةِ أضْرُب)

الضرب الأول — أكابِرُ القُضاة بأقطار المملكة : كقُضَاة القُضَاة بالحَضْرة السلطانيـــة بالدِّيار المِصرية وثَغْر الإسكَنْدرية، وكذلك قُضاة القُضاة بِدِمَشْق وحَلَبَ وطرابُلُس وحَمَاةَ وصَفَد والكَرَك، وقُضاةُ العَسْكر بالديار المِصْرية؛ أما القُضَاة بالنِّيابات الصِّغار المضافاتِ إلىٰ دمشْقَ وحلَبَ ونحوهما فولايتُهم إلىٰ قُضاة القُضاة بها، وقُضاةُ العسكر بدِمَشْق وحلَبَ ومافى معناهما إلىٰ النُّوّاب بتلك الممالك .

الضرب الثانى — المُفْتُون بدار العَدْل بالديار المصرية؛ أما المُفْتُون بدار العدل بالممالك الشاميَّة فولايتُهم إلىٰ نائبِها .

الضرب الثـالث — أكابِرُ المحتَسِبين : كمحتَسِبَيْ مصر والقاهرةِ ؛ أما الممـالك الشاميَّةُ فلا يُولَّى فيها إلا نُوّابُها .

الضرب الرابـع — أكابر المدَرِّسين فى عامَّة العُلُوم بأماكِنَ مخصوصةٍ : كالزَّاوية الخَشَّابِيَّة بالجامع العَتِيق بمصر، والمدرسةِ الصَّلاحية بتُرْبة الإمام الشافعىّ بالقَرافة، ونحو ذٰلك بأقطار المملكةِ من مُدَرِّسى الفِقْه والحديثِ والتفسيرِ وغير ذٰلك من العلوم الدِّينيَّـــة .

الضرب الخامس — أكابرُ الخُطَبـاء بجوامِعَ مخصوصـةٍ بأقطار المملكة : كجامع الناصِرِىّ بقلعة الجَبَل، والجامع الأُمَوىّ بالشام ونحوِهما .

الضرب السادس — وُكَلاءُ بيتِ المـال بالدِّيار المِصرية وغيرها .

الضرب السابـع — المتحدِّثُون علىٰ الوظائف المعتَبَرة : كنِقَابة الأشْراف، ومَشْيَخة الشُّـيوخ، فمـا كان بالدِّيار المِصربة فولايتُه من السـلطان ، وتوقيعُه من ديوان الإنشاء، وما كان منها بالممـالك الشاميَّة فوِلايَتُها إلىٰ نُوّاب السَّلْطنة بها .

الضرب الثـامن — المتحدِّثون علىٰ جِهات البِرِّ العامَّة المصلحةِ: كنظر الأَحْباس وأنظار البِيمارِسْتَانات ونحوها : فمـا كان منها بالدِّيار المصرِيَّة : كنَظَر الأحْبـاس والبِيمارِسْتانِ المنصُورىّ وما أشبه ذٰلك فتوليتُه (١) إلىٰ نُوّابها ، مالم يكن لها ناظرٌ خاصٌّ فيكون ذٰلك مختصًّا به .

---

(١) لعله فتوليته من السلطان ، وتوقيعه من ديوان الانشاء ، وما كان منها بالممالك الشامية فتوليته الخ كما لايخفى تأمل .

الصـــنف الثاني

(أرباب الوظائف الدِّيوانيـــة)

ودَواوِينُها علىٰ ثلاثة أضْــرُب :

الضرب الأوّل — دَواوينُ المـال؛ وأربابُ الخِدَم بها ممن تُكتَب وِلاياتُهم من ديوان الإنشاء : إمَّا ناظِر، أو وَزِير، أو صاحبُ دِيوان، أو شهادةٌ، أو آستيفاءٌ؛ فأمَّا الوِزارة فلا يُصَرَّح بها إلَّا للوزِير بالأبواب السُّلطانية، وربمـا صُرِّح بهـا لوَزِير دمشْقَ إذا وِليهَا من آرتفعَتْ مرتَبَتُه، وإلَّا عُبِّر عنه بناظِرِ المملكة .

وأما النَّظَر، فكنظر الدَّواوين المعبَّر عنــه بنظَر الدَّوْلة، ونظَر الخـاصّ، ونَظَر الخِزَانة الكُبرىٰ، ونظَر البُيُوت « الحاشِيَة » ونظر بيْتِ المـال، ونظر الإصْطَبْلات السلطانية ، ونظرِ دار الضِّـيافة والأَسْواق ، ونظر خَزائنِ السِّــلاح ، ونظر البَهَـار والكارِمِيّ ، ونظَــر الأَهْراء، ونظر المَوَاريث الحَشْريَّة، ونظر ثَغْر الإســكَنْدريَّة المحروسِ؛ وغير ذٰلك من وظائف الأنظار بالديار المصرية . وكذلك نظرُ المملكة بِدِمَشْقَ إذا لم يُصَرَّح لمتولِّيه بالوِزَارة، ونظر المَلَكة بحلَبَ، ونظر المملكة بطَرَابُلُسَ، ونظر المملكةِ بحَمَاةَ ، ونظر المملكةِ بصَفَد ، ونظر المملكة بِسيسَ، ونظر المملكة بغَزَّة، ونظر المملكة بالكَرَك .

وأمَّا صَحَابةُ الدِّيوان، فكصَحَابة دِيوان الجَيْش وصَحابة ديوان الخاصّ ، ونحو ذٰلك .

وأمَّا الشَّهادة ، فكشَهادة الخِزَانة الكُبرىٰ، وشهادة خِزانة الخاصّ ونحوهما .

وأمّا الاستيفاء ، فكاستيفاء الصُّحبة ، واستيفاء الدَّولة ، واستيفاء الخاصّ ، ونحو ذلك . ولاحَظّ لغير النُّظّار من دَواوين الأموال بالممالك الشاميّة : من صاحب ديوانٍ ولا شاهدٍ ولا مستَوْفٍ ، فى الكتابة بالوِلاية من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ، بل وِلايتُها من نُوّاب الممالك الشامية بتواقيعَ من دَواوين الإنشاءِ بها .

الضرب الثانى — دَواوينُ الجُيوش بالديار المصرية وغيرِها من الممالك الشاميّة . وأربابُ الخِدَم بها لايخْرُجُون عن ناظرٍ ، وصاحبِ ديوانٍ ، وشاهدٍ ، ومستَوْفٍ .

والذين يُوَلَّوْنَ عن السلطان منهم [و] تُكْتَبُ تَوَاقِيعُهم من ديوان الإنشاءِ الشريف ناظِرُ الجيش بالأبوابِ السلطانية ، وناظِرُ الجيش بِدمَشْقَ ، وناظرُ الجيش بحلَبَ ، وناظرُ الجيش بطرابُلُسَ ، وناظرُ الجيش بحَمَاةَ ، وناظرُ الجيش بصَفَدَ ، وناظرِ الجيش بغَزَّةَ ، وناظرُ الجيش بسِيسَ ، وناظرُ الجيش بالكَرَك ، وصاحبُ ديوان الجيش بالأبواب السلطانية ، والشُّهودُ ، والمستوفُون بها ؛ أمّا مَنْ عدَا هؤلاء : من نُظّار الجيش وأصحابِ الدواوين والشُّهود بالممالك الشامية ، فوِلايتُهم إلى نوّاب السلطنة بها .

الضرب الثالثُ — دَواوينُ الإنشاء ؛ وأربابُ الخِدَم بها لايخرُجُون عن كاتبِ سِرٍّ ، وكاتب دَسْتٍ ، وكاتبِ دَرْج .

والذين يُوَلَّوْن عن السلطان من كُتّاب هذه الدَّواوين وتكْتَب تواقيعُهم من ديوان الإنشاء السلطانِىّ صاحبُ ديوانِ الإنشاء بالأبوابِ السلطانية ، وصاحبُ دِيوان الإنشاء بِدمَشْقَ ، وصاحبُ ديوان المكاتبات بحلَبَ ، وصاحبُ ديوان المكاتَبَات

بطرابُلُس ، وصاحب ديوان المكاتَبَاتِ بحَماةَ ، وصاحبُ ديوان المُكاتَبات بصَفَد ، وكاتبُ الدَّرْج بِسِيس ، وكاتبُ الدَّرْج بغَزَّة ، وكاتبُ الدَّرْج بالكَرَك ، وكاتبُ الدَّرْج بالإسكَنْدريَّة ، وكُتَّابُ الدَّسْت وكُتَّاب الدرج بالأبواب السلطانيـة ؛ أما كُتَّاب الدَّسْت وكُتَّاب الدَّرْج بالممالك الشامية فإلىٰ نُوّابها بتواقِيعَ من دَواوين الإنشاءِ بها .

النـــوع الثالث

(وِلاياتُ أربابِ الوظائف الصِّناعيَّة)

كالأَطِبَّاء ، والكَحَّالين ، والجرَائِحيَّة ، ومَنْ جرىٰ مَجْراهم من سائرِ أربابِ الوظائف التى هى من تَتِمَّة نظام المُلْك ؛ فما كان منها بالأبوابِ السلطانية فوِلايتُه عن السلطان بتَوْقيع من ديوان الإنشاءِ السلطانى ؛ وما كان منها بالممالك الشامية فولايته إلىٰ نُوّاب السلطنة بها .

النـــوع الرابع

(ولاياتُ زُعَماء أهل الذِّمَّة . وهى ضربان)

الضرب الأوّلُ — وِلايةُ بَطَاركة النَّصارىٰ من اليَعاقِبة والمَلِكانيَّة [(١)] .

الضرب الثانى — وِلايةُ رئِيسِ اليهُود الحاكم علىٰ طوائِفِهم .

---

(١) لم ينص على من له توليتهما .

النـــــوع الخامس

(ما لا يختَصُّ بطائفة ولا يندرِج تحت نَوْع)

كصغار الأُمُور التى يُكتَب فيهـا لكلِّ فَرْدٍ فَرْد : إما ٱبتـداءً ، وإما بالحمل علىٰ ما بِيَدِه من ولايةٍ سابقةٍ : من نائبٍ أو قاضٍ أو ناظرِ وقْف أو غير ذٰلك ؛ ممـا لا ينحصِرُ كثْرةً .

قلت : وربمّـا وَلَّىٰ السـلطان فى بعض الوظائف بالممالك الشاميَّة ممـا تختصُّ توليتُه بنُوّاب السلطنة إذا كانتِ الوظيفةُ وضـيعةَ المنْزِلة وأدركتِ المُوَلَّىٰ عِنـايَتُه ، وربّما ولّى بعضُ نُوّابِ السلطنة ما تَختصُّ توليتُه بالسلطان إذا عظُمتْ رتبةُ النائب وٱرتفعتْ منْزِلتُه ، خصوصًا إذا كان نِظامُ المملكة محلُولا وأمرُها مضْطَرِبا .

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الأول من المقـالة الخامسة

(فى بيان ماتجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كتابة الوِلايات علىٰ سبِيل الإجْمال)

قال الشيخ شِهابُ الدين محمودُ الحلبيّ رحمه الله فى "حُسْن التوسل": يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى ذلك أمورًا .

منها — بَرَاعةُ الاستهلال بذكر الرُّتبـــة ، أو الحـالِ ، أو قدرِ النِّعمة ، أو لَقَب صاحب الولاية ، أو اسْمِه ، بحيثُ لايكونُ المطَّلِـع أجنبيًّا من هذه الأحوال ، ولا بعيدًا منها ، ولا مباينًا لهـا ؛ ثم يستصحِبُ ماينـاسب الغرضَ و يوافق القَصْـد من أوّل الخُطْبة إلىٰ آخرها .

ومنها — أن يراعِىَ المناسَبة وما تقتضيه الحـالُ : فلا يُعْطِى أحدا فوقَ حَقِّه ، ولا يصِفُه بأكثَرَ مما يُراد من مثله ؛ و يراعى أيضا مقدارَ النعمة والرُّتبة فيكون وصْفُ المِنَّة بها علىٰ مِقْدار ذلك .

ومنهـا — أن لا يصفَ المتولِّىَ بمـا [يكون(١)] فيـه تعريضٌ بذَمِّ المعْزُول [وتَنْقيصٌ(١) له] ؛ فإنّ ذلك ممـا يُوغِر الصُّـدور، و يُورِث الضَّغائن فى القلوب، ويدلُّ علىٰ ضَعْف الآراء فى اختيار الأوّل ، مع إمكانِ وصْف الثانى بمـا يحصُل به المقصُود من غير تعريض بالأوّل .

ومنها — أن يتخيَّر الكلامَ والمعانِىَ فإنه ممـا يَشِيع ويَذِيع ، ولا يُعْـذَر المقصِّر فى ذلك بعَجَلة ولا ضِيقِ وقت ، فإنّ مَجَال الكلام متَّسع ، والبـلاغة تظْهَر فى القليل والكثير .

---

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٠ .

قلت : ومنها أن يَحْرِص الكاتبُ علىٰ أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى السَّـطْر الأوّل أو الثانى ولا يُؤَخِّرُها عن ذٰلك . وممـا كان يراعىٰ فى ذٰلك أن تكون الخطبةُ من أوّلها إلىٰ آخرها علىٰ رَوِىّ واحدٍ فى السَّجْع ، وكذٰلك الدعاءُ فى أوّل صِغَار التواقيع والمَراسِيم المبتدأةِ بلفظ « رُسِم » بخلاف مابعد ذٰلك إلىٰ آخر ما يكتب ، فإنه يتّفق فيه روىُّ السجعتين والثَّلاثِ فمـا حولَها ، ثم يخالَفُ رويُّها إلىٰ غيره ؛ ولا يكَلَّف الكاتبُ الإتيانَ بجميعها علىٰ روىٍّ واحد ؛ وعلىٰ ذٰلك كانت طريقــة فُحُول الكُتَّاب بالدولة التركية ، كالقاضى محيي الدِّين بن عبد الظاهر ، والشـيخ شهابِ الدين محمود الحلبي ، والمقرِّ الشهابىِّ بن فضل الله ، ومَنْ عاصرهم إلّا فى القليل النادر ؛ فإنه رُبَّمـا وقع لبعضهم مخالفةُ رَوِىّ الخطبة ؛ وإلىٰ هذا قد جنَح غالب كُتَّاب ديوان الإنشاء فى زماننا ومالُوا إليه : لمـا فى ٱلتِزام الرَّوِىِّ الواحد فى جميع الخُطْبــة من التكلُّف وعُسْر التلفيق علىٰ مَنْ يتعاناه .

ثُمَّ الكلامُ فيما يُكتَب فى الولاية قد يكون جميعُه بلفْظِ الغَيْبــة ، مثل أن يقال : عَهِـد إليه بكذا ، أو قَلَّده كذا ، أو فَوّضَ إليه كذا ، أو أنْ يستقِرَّ فى كذا ، ونحو ذلك ، ثم يقال : وأَمْره بكذا ، أو ونحن نُوصِـيه بكذا ، أو فعلَيْه بكذا ، وما أشبه ذٰلك ؛ وقد يكون جميعُه بلفظ الخِطاب ، مثــل أن يقال : وقد عهِـدَ إليكَ بكذا ، أو قلَّدك كذا ، أو فوّضَ إليك كذا ثم يقال : ونحن نُوصيكَ بكذا ، أو فعليكَ بكذا ، ونحوه ؛ وقد يُصَـدَّر بلفظ الغَيْبة ثم يُلتفَت منها إلىٰ الخطاب ؛ وقد يُصَـدّر بلفظ الخطاب ثم يلْتفَتُ منه إلىٰ الغيبــة بحسَبِ مايُؤْثِره الكاتب وتُؤَدِّى إليه بلاغتُه ممـا ستَقِفُ علىٰ تنويعه فى خِلَال كلامهم فى أصناف الوِلَايات الآتية فى هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالىٰ .

الفصـــــل الثـالث

من البـابِ الأوّلِ من المقالة الخامسة

(فى بيان مايقَعُ به التفاوُتُ فى رُتَب الولايات، وذٰلك من سبعةِ أوجُه)

الوجـــــه الأوّل

(الألقـابُ، وهى عـــلىٰ ثلاثة أنواع)

النــــــوع الأوّل

(ألقابُ الخُلَفـــاء)

وسبيلُها الاِختصارُ دُونَ البَسْط، اكتفاءً بمـا هو ظاهِرٌ من أُبَّهة الخِلافة، وعُلوّ مَقام الإمامة، إذ هى الزَّعامة العُظْمىٰ، والرتبةُ التى هى أعلىٰ الرُّتَب وأسْمىٰ .

وهى صنفـان :

الصنفُ الأوّل — ألقابُ الخلفاء أنفُسهم، وغايةُ مايُنعَتُ به الإمام وأميرُ المؤمنين.

الصنف الثانى — ألقابُ أوليـاءِ العَهْد بالخلافة، وألقابُهم نحوُ السـيِّد الجليل وذَخيرة الدِّين، ونحو ذٰلك علىٰ ماسيأتى بيانُه فى عهُود الخلفاء عن الخُلَفاء .

النــــوع الثـانى

(ألقابُ المُلُوك، وهى صنفـان أيضا)

الصنفُ الأوّلُ — ألقابُ السلطان نفْسِه، والكُتَّابُ تارة يبتدئُونَها بالسلطان، وتارة يبتدئُونها بالمَقَام، ولكلٍّ منهما نعوتٌ تخصُّه، وسيأتى الكلامُ علىٰ ذٰلك مستوفًى فى الكلام علىٰ عُهُود الملوك عن الخلفاء، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — ألقابُ أولياء العهْد بالمُلْك ، والملوكِ المنفَردين بولايةِ صِغَار البُلْدان عن السلطان الأعظم ، وهى لاتُفْتَتَح إلّا بالمَقَام ليس إلّا ؛ ولها نعوتٌ تخصُّها يأتى الكلامُ عليها فى الكلام علىٰ عهُودهم أيضا .

النــوع الثـالث

(ألقـابُ ذَوى الولاياتِ الصادرات عن السلطان : من أرباب الوظائفِ الواقعةِ فى هــذه المملكة)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ الألقـاب فى مقدّمة الكِتاب أنّ أصولَ الألقاب المستعملةِ فى ذٰلك خمسةُ ألقاب علىٰ الترتيب : وهى المَقَرّ، ثم الجَنَاب، ثم المَجْلِس، ثم مجْلس مضـافا : كمجلس الأمير، ومجلِس القاضى ، ومجلِس الشـيخ ، ومجلس الصَّدْر، ثم الاقتصارُ علىٰ المضاف إليه وحذفُ المضاف : كالأميرِ والقاضى والشيخِ والصَّــدْر ؛ ويلتحق بذٰلك لأهل الذِّمّة الحَضْرة ، وحَضْرة الشـيخ ، والشيخ مجرّدًا عن حَضْرة ، وتقدّم فى الفصل الأوّل من هــذا الباب أنّ أربابَ الولايات خمسةُ أنواع : أربابُ السُّيوف ، وأربابُ الأقلام ، وأربابُ الوظائف الصِّناعية ، وزُعَماء أهل الذمّة ، ومَنْ لايختص بطائفةٍ لِصغَرهم . وجميعُ هــذه الأنواع علىٰ اختلاف أصنافهم لا يخرُجُون عن الألقاب المتقدّمة ؛ وقد تقدّم الكلامُ علىٰ هــذه الألقاب ونُعوتِها لمن يُكاتَب عن الأبواب الشريفة السلطانية من أرباب الوظائف مستوفىً فى المكاتَبَات ، إلّا أنه قد يُولىٰ عن السـلطان مَنْ لم يؤهَّل للمكاتبة عنــه ، كأكثرِ أرباب الوظائف من حَمَلة الأقلام وغيرهم ، فاحْتِيج إلىٰ تعريف مراتبِ الألقاب لكلِّ نوع من أرباب الولايات .

فأما أربابُ السُّيوف، فأعلىٰ ألقابِهم المَقرّ، وأدناها مجلِسُ الأمير، ثم الأمير مجرّدا عن مجلس .

وأمَّا أرباب الوظائف الصِّناعيَّة، فأعلىٰ ألقابِهم المجلسُ وأدناها مجاِسُ الصَّـدْر، ثم الصَّدرُ مجرَّدا عن مجلس .

وأما من لايختص بطائفة لصغره، فيقتَصَر فيه علىٰ لقب التعريف وهو فلانُ الدِّين إن عُظِّم و إلَّا ٱقتُصِر علىٰ ٱسمه خاصَّة .

وأما زعماء أهل الذِّمَّة، فأعلىٰ ألقابهم الحَضْرة، ثم حَضْرة الشيخ، ثم الشيخ مجرَّدًا عن حَضْرة .

وٱعلم أنَّ كلَّ مَنْ كانت له مكاتبـةٌ عن الأبواب السلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم، فلقَبُ وِلايتِـه ونُعوتُه كما فى مكاتبته، غير أنه يُزادُ فى آخر النُّعوت المركَّبـة ذكرُ ٱسمِه العلم، ونسبتُه إلىٰ السلطان: كالناصِرىّ، والظاهِرىّ، ونحوهما إن كان ممن يَنْتَسب إليه بنيابةٍ ونحوها؛ ثم إن كانت مكاتَبتُه تُفْتَتَح بالدعاء نُقِل ذٰلك الدعاء من أوّل المكاتبة إلىٰ مابعد ٱسمه والنسبة إلىٰ السلطان فى الولاية، كما إذا كانت مكاتبتُه : أعَزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرّ الكريم، فإنه يُدْعىٰ له عقِيبَ ٱسمه والنسبةِ إلىٰ السلطان ـ إن كانت ـ بأعَزّ الله تعالىٰ أنصارَه، وكذٰلك فى البواقى .

وإن كانت مكاتبتُه تُفْتَتَح بغير الدعاء : كصدرَتْ هذه المكاتبةُ ونحو ذلك، فإنه يدعىٰ له فى الولاية عقِبَ الأسم والنسبةِ إلىٰ السلطان ـ إن كانت ـ بمـا يُدْعىٰ له فى مكاتبتـه فى آخِرِ الألقاب، كما إذا كان من أرباب السُّـيوف ومكاتبتُه صدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى أو المجلِس السامىّ باليَاء فإنه يُدْعىٰ له بمثل: أدامَ اللهُ سعادتَه، وأدام اللهُ رفعتَه، ونحو ذلك؛ وإن لم تكن له مكاتَبةٌ عن الأبواب السُّلْطانية

كُتِب له فى الولاية مايُناسِبُه من اللَّقب والنُّعوت، ثم يذكر ٱسْمه والدعاءُ له إن كان مستحِقًّا للدعاء؛ وسيأتى لقَبُ كلِّ ذِى وِلاية من الأنواع الخمسةِ المتقدّمةِ الذِّكرِ ونعوتُهُ عند ذكر وِلَايته فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم للألقاب فى الولايات محَلَّان :

أحدهما ــ الطُّرَّة . ويُقتَصَر فيها علىٰ اللَّقب : من المقرّ أو الجَناب أو المَجْلِس أو مجالِس مضافا وما بعده من النعوت إلىٰ اللَّقب المميِّز للوظيفة كالأَمِيرىّ والقَضَائىّ ونحوهما، ثم يُذكر لقَبُه الخاصُّ به وهو الفُلانىّ أو فُلان الدين، ثم يذكر ٱسْمُه وٱنتسابُه إلىٰ السلطان إن كان، علىٰ ماسيأتى بيانُه مفصَّلا، إن شاء الله تعالىٰ .

الثانى ــ فى أثناء الوِلَاية . وهُناك تستوفىٰ النُّعوتُ ويُؤْتىٰ بما فى الطُّرَّة فى ضِمْنه إلا أنه يُجعَلُ لقبُ التعريف ــ وهو الفلانىُّ أو فلانُ الدِّين ــ بين النعوت المفردة والمركَّبة فاصلا بينهما .

الوجـــــه الثانى

(ألفاظ إسناد الوِلَاية إلىٰ صاحب الوظيفة؛ ولها سِتُّ مراتِبَ)

الأولىٰ ــ لفظُ العَهْد، مثل أن يقال : أنْ يُعْهَد إليه، وهى خاصّةٌ بالخلفاء والمُلُوك .

الثانية ــ لفظ التَّقْليد، مثل أن يقال : أن يُقلَّد كذا، ويكون مع المَقرّ الكريم والجَنَاب الكريم .

الثالثة ــ لفظ التَّفويض، مثل أن يُقَال : أنْ يفوَّض إليه كذا، ويختصُّ بالجناب لأرباب السيوف، وكذٰلك الجنابُ والمجلسُ العالى لأرباب الأقْلام .

قلت : وكُتَّابُ زماننا يستعمِلونهـا (١) مع المَقَرّ أيضا ، ولا يسـتعْمِلون لفظَ يُقلَّد فى التقاليـد لتوهُّمهم الاِكتفاءَ بلفظ تقليدٍ عنها ، ولم يعْلَمُوا أنَّ يقلَّد فوق يُفَوّض كما تقدّم . علىٰ أنَّ المَقرّ الشهابىَّ بنَ فضل الله قد صرَّح بذلك فى "التعريف" كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

الرابعـة — لفظ الاِستِقرار والاِستمْرار، مثل أن يقال أنْ يستقِرَّ فى كذا ، أو يستَمِرّ فى كذا . ولفظ يستقرّ مختصٌّ بالمستَجِدّ ، ولفظ يستمرّ مختصٌّ بالمستَقِرّ ؛ ويكونان مع المجلِس السامىّ باليـاء ، والمجلس السامِى بغـير ياء لأرباب السـيوف والأقلام وغيرهم ؛ أما المجلسُ العالى فإن كانت مكاتبتُه تُفْتتح بالدعاء ، مثل : أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى كنائب السلطنة بالكَرَك ، فإنه يقال فيه أن يُفوَّض إليه ، وإن كانتْ مكاتبتُه تُفتَتَحُ بصدرَتْ هـذه المكاتبة كنائب القُدْس ونحوه ، فإنه يقال فيه أن يستَقِرّ .

الخامسة — لفظ الترتيب ، مثل أن يقال : أن يُرَتَّب فى كذا ، ويكون مع مجلس مضافا ، مثل مجلِس الأميرِ ومجلِس القاضى ونحوهما ، وربَّـما ٱستُعْمِلت مع السامى بغـــير ياء .

السادسة — لفظ التقدّم ، مثـل أن يقال أن يُقدَّم فلانٌ علىٰ الطائفة الفلانيَّة ونحو ذلك .

قلت : وهاتان المرتبتان أعني السادسةَ والخـامسةَ قد ذكرهما المقرُّ الشهابىُّ بن فضل الله فى "التعريف" فقال : وقد يقال أن يُرتَّب وأنْ يُقدَّم . وهما موجودان فى كتابة مُعاصِريه بمصر والشام ؛ أمَّا كُتَّاب زمانِنـا فقد رفضُوهُمـا جملةً وأضْربُوا عن ٱسـتعمالهما بكلِّ حال ، وٱكتفَوْا عنهما بالمَرْتبة الرابعـة وهى لفظُ الاِستِقْرار ،

(١) أى لفظة "يفوّض" .

والواجب إثباتُهما لتفاوُتِ ما بين المَرَاتب . علىٰ أنَّ آستعمال لفظ يُرتَّب موجودٌ في كلامهم بكَثْرة، ولفظ يُقدّم لم يستعمِلوه إلا في النَّزْر اليسير، والله أعلم . وهـذه الألفاظُ تقَع في الطُّرَّة وفي أثناءِ الكلام علىٰ حدّ واحدٍ .

الوجـــــه الثـالث

(الآفتِتاحاتُ ، وهي راجعةٌ إلىٰ أربعِ مراتِبَ)

المرتبة الأُولىٰ — الآفتتاحُ بلفظ : هـذه بَيْعة ، أو هذا ما عَهِـد ، ونحو ذٰلك في البَيْعات والعُهُود علىٰ المذهَب القديم ؛ أو بالحمدُ لله . ويقَعُ الآبتداء به في العُهُود والبَيْعات إذا آبتُدِئَ العهدُ أو البيعةُ بخُطْبة علىٰ ما عليه آستعمالُ أهل زمانِنا؛ وكذٰلك في التقاليد لأربابِ السيوف والأقلامِ، والمَراسيم المكَبَّرة لأرباب السيوف؛ والتواقيع الكِبَار لأربابِ الأقلام .

المرتبة الثانية — الآفتتاحُ بأمَّا بعدَ حمدِ الله . ويقَعُ الآبتداءُ به في المَرْتبة الثانية من أرباب المراسيم المكَبَّرة من أصحاب السُّيوف؛ والمرتبةِ الثانية من أرباب التَّواقيع من أصحابِ الأقلام .

المرتبة الثـالثةُ — الآفتتاحُ برُسِمَ بالأمرِ الشريفِ، ويقع الآفتتاحُ به في المرتبـة الثالثة لأرباب التَّواقِيع والمَرَاسِيم من سائرِ أربابِ الوِلَايات .

المرتبة الرابعةُ — ما كان يُستعْمَلُ من الآفتتاح بأما بعدُ فإنَّ كذا . أومَنْ حَسُنَتْ طَرائقُه،وحُمِدت خَلائِقُه، فإنه احَقُّ،وما أشبهَ ذٰلك؛ كما أشار إليه في "التعريف" إذ كانَ الآنَ قد رُفِض وتُرِك علىٰ ما سيأتي بيـانُه في موضعه إن شاء الله تعـالىٰ؛ وقد كان ذلك يُستَعْمَل فيما تقدّم لأرباب السُّيوف والأقلامِ جميعاً .

الوجـــــه الرابع

(تعدُّدُ التحميد فى الخُطْبة أو فى أثناء الكلام وآتحادُه)

فقد قال فى "التعريف" فى الكلام علىٰ عُهُود المُلُوك للمُلُوك : وكُلَّما كَثُرت التحميداتُ فى الخُطَب، كان أكْبَرَ: لأنها تدلُّ علىٰ عِظَم قَدْر النِّعمة ؛ وذكر فى الكلام علىٰ عُهود الخلفاء عن الخُلَفاء أنه يُنْتَهىٰ فى التحميد إلىٰ سَبْعة .

الوجـــه الخامس

(الدعاءُ . وله ثلاثة مواضـــع)

الموضع الأوّل — فى طُرّة الوِلَاية بعــد ذكر ما يُكْتَب فى الطُّرّة من ألقــابه ، ولا يُزاد فيه علىٰ دَعْوة واحدة تناسبه .

الموضع الثــانى — فى أثنــاءِ الولايةِ بعد آستيفاء الألقابِ وذكرِ الأسمِ ؛ وهو ما فى الطُّرّة من الدعوة المناسبة له بغيرْ زائدٍ علىٰ ذٰلك .

الموضع الثالث — [فى] آخِر الولاية بالإعانة ونحوها . قال فى "التثقيف": وأقلُّها دعوتان ، وأكثرُها أربعٌ . قال فى "التعريف" : ومَن آستُصْغِر من المُوَلَّين لايُدْعىٰ له فى آخرِ ولايته .

ثم قد تقدّم فى المكاتَبَات أنَّ الدعاءَ مع تنزيه الله تعالىٰ : كأعَزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ، وضاعف الله [تعــالىٰ] نعمةَ الجناب ونحو ذٰلك أعْلىٰ من حذْفه[(١)] ؛ كأدام اللهُ سعدَه، وأعزّه الله ونحو ذلك؛ ولا شكَّ أنه فى الولايات كذٰلك .

---

(١) أى حذف التنزيه وفى الأصل حذفها أى جملة التنزيه .

الوجـــــه السادس
(طُولُ الكلام وقِصرُه ، فكُلَّما عظُمت الوظيفةُ وآرتفعَ قدْرُ صاحبها كان الكلام فيهـا أبسَـطَ)

قال فى "حُسْن التوسل" : ويحسُن أنْ يكونَ الكلامُ فى التقاليد منقَسِما أربعةَ أقسام متقارِبة المَقادير، فالرُّبعُ الأوّل فى الخُطْبة ؛ والرُّبُعُ الثانى فى ذكر مَوْقِع الإنعام فى حق المُقلَّد ، وذكر الرتبـة وتَفْخِيم أمرها ؛ والربعُ الثـالثُ فى أوصاف المُوَلَّى (١) ، وذكرِ ما يناسبُ تلك الرتبةَ ويُناسبُ حالَه من عَدْل وسياسةٍ ومَهَابة وبُعْدِ صيتٍ وسُمْعة وشجاعةٍ إن كان نائبا ؛ ووَصفِ الرأى والعَـدْل وحُسْن التدبير والمعرفةِ بوُجُوه الأموال ، وعِمـارة البلاد ، وصَلاح الأحوال ، وما يناسبُ ذٰلك إنْ كان وزيرا ؛ وكذلك فى كلِّ رتبة بحسَبِها ؛ والربع الرابع فى الوَصايَا .

قال فى "التعريف" : والذى أختـارُه آختصارُ مِقْـدار التحميدة [التى] (٢) فى الخُطْبة والخُطَب مطلقا وإطالةُ ما بعـد ذٰلك ؛ والإطنابُ فى الوصايَا [اللهم] (٢) إلا لمن جَلَّ قدْرُه [وعظُم أمره] (٢) فإن الأولىٰ الآقتصارُ فى الوصايا علىٰ أهَمِّ الجُمْليَّات ، ويعتذِرُ فى الآقتصار بما يُعْرَف من فضله ، ويُعْلَم من عِلْمه ، ويُوثَق به من تجرْبته ومن هذا ومثله . قال : والكاتب فى هـذا [كلِّه] (٢) بحسَبِ ما يراه ، ولكلِّ واقعةٍ مَقَال يليقُ بها ، ولمَلْبَس كلِّ رجل قدْرٌ معروف لايليقُ به غيرُه ؛ وفى هـذا غِنًى لمن عَرَف ، وكفايةٌ لمن عَلِم ؛ علىٰ أن المقرّ الشهابىَّ تابع فى ذلك القاضى « محيي الدين آبن عبـد الظاهر» رحمه الله، فإنك إذا تأملْتَ تقاليـدَه وتواقيعَـه ، وجدتَها كلَّها

(١) فى حسن التوسل ص ١١٠ «المقلد» وهى بمعناها .

(٢) الزيادة من التعريف ص ٨٨ .

كذلك ، ولكلٍّ وجهٌ ظاهر ؛ فإنَّ المطوّل للخطبة لا يُخْليها من بَراعةِ الاستهلال ، المناسبةِ للحال؛ والمقَصِّر لها مُراعٍ لزيادة الإطناب فى الوَصْف .

قلت : ولا يخفىٰ أن ما ذكراه فى التقاليد يجىءُ مثلُه فى العُهُود لجرْيها علىٰ مُوجبها من مُولٍّ ومُولًّى .

أما إذا كانت الولايةُ بَيْعةً فإنه يجعَـلُ موضِعَ الوَصَـايا ذكْرَ ٱلتزام الخليفــةِ البِرَّ والإحسانَ للخلق ، ووَعْدَ النظر فى أُمور الرعية ، وصلاحِ أحْوالهم ؛ وذكر التحليف للخليفة ، أوله وللسلطان إن كان معه سـلطان قام بعقْد البَيْعــة له علىٰ الوَفَاء بالعَهْد والدُّخُول تحت الطاعة . قال فى "حسن التوسـل" : والأمْرُ الجارى فى ذٰلك علىٰ العادة معروفٌ لٰكنه قد تَقَع أشياءُ خارجةٌ عن العادة فيحتاجُ الكاتبُ فيها إلىٰ حُسْن التصرُّف علىٰ مايقتضيه الحالُ؛ وذكر من ذلك تقليدًا أنشأه لمتملّك سِيسَ ، وتقليدًا كتبه بالفُتُوَّة؛ وسيأتى ذكر ذٰلك مع ماشاكله فى مواضعه إن شاء اللهُ تعالىٰ .

الوجـــــــه السـابع

(قطــع الورق)

وٱعلم أنَّ الولاياتِ من ديوان الإنشـاءِ بالأبواب السـلطانية بجملتها يَنْحصِر قَطْعُ الورَق فيها فى خمسة مَقادِيرَ لا يتعدَّاها :

أحدها ــ قَطْع البغـدادىِّ الكاملِ ؛ وهو مختصٌّ بالبَيْعات والعُهُود مُطْلَقا علىٰ أىِّ الٱفتتاحات كان .

الثـانى ـــ قَطْع الثلثَيْن من المنصورىّ، وهو لأجل الوِلاياتِ السُّلطانياتِ لأرباب السُّيوف و بعضِ أرباب الأقلام، ولا يُفْتَتَح فيها إلّا بالحمد .

الثالث ـــ قطع النِّصف منه،وهو لما دُونَ ذٰلك،ولا يفتَتَح فيه إلّا بالحمد أيضا :

الرابع ـــ قطع الثُّلُث منه ، وهو لمـا دُونَ ذلك .

وٱعلم أنه إذا وُلِّىَ صاحبُ وظيفـةٍ تستحِقُّ قطعَ النصف وظيفةً أُخْرىٰ تستحق قَطْع العـادة ، فإنه يُراعىٰ مقدارُ صاحبِها ويُزادُ علىٰ مِقْـدار العادة ؛ إلا أنه لا يَبْلُغ مَبْلَغَ رتبة وظيفَتِه العُلْيـا ، بل ينبغِى أن يتُوَسَّط بينهما ؛ فيكتب له فى قَطْع الثلث لتكون رتبة بين رُتْبَتين فتحصُل مراعاةُ تعظيمه من حيث الزيادةُ علىٰ قَطْع العادة ، ومراعاةُ قدر الوظيفة من حيثُ إنها لم تَبْلُغ شَأْوَ وظيفتِه العُلْيا ؛ أما إذا وُلِّىَ منحطُّ القدْر وظيفةً تستحق القَطْع الكبير، فإنه يكتَبُ له فيه ، وتكون توليتُه لهـا رَفْعًا إلىٰ درجَتِها .

الخامس ـــ قطعُ العـادة، وهو أصغَرُها؛ والأصلُ أن يفتَتَح فيـه بلفظ «رُسِم بالأمر الشريفِ » وربمـا علتْ رتبـةُ صاحبِ الوِلاية ولم يؤهَّـلْ للكتابة فى قطع الثلث فيُكْتَب له فيه : أما بعدَ حمد الله، وهو قليلُ الٱستعمال، فإن ٱستُعْمِل أما بعدُ فإنَّ كذا ، أو إنَّ أوْلىٰ ، أو إن أَحَقَّ ونحو ذلك كُتِب فى قَطْع العادة أيضا .

الباب الثانى

من المقالة الخامسة فى البيعات، وفيه فصلان

الفصل الأول

(فى معناها)

البَيْعات جمع بَيْعة، وهى مصدرُ(١) بايَعَ فلانٌ الخليفةَ يُبايِعه مُبايعةً؛ ومعناها المعاقَدةُ والمُعاهَدةُ، وهى مُشَبَّهة بالبَيْع الحقيقىّ . قال أبو السَّعادات بنُ الأثير فى نهايته فى غريب الحديث : كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما باعَ ماعِنْدَه من صاحبِه وأعطاه خالصةَ نَفْسه وطاعَتَه ودَخيلةَ أمْرِه . ويقال : بايَعَه، وأعطاه صَفْقةَ يدِه؛ والأصلُ فى ذٰلك أنه كان من عادةِ العربِ أنه إذا تَبايَعَ ٱثنانِ صَفَقَ أحدُهما بيده علىٰ يَدِ صاحبِه .

وقد عَظَّم الله تعالىٰ شأْنَ البيعةِ وحَذَّر من نَكْثِها بقوله خطابا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّٰهَ يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّٰهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وأمر بمبايعة المُؤْمنات فى قوله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّها النَّبىُّ إذَا جَاءَكَ المُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلىٰ أنْ لايُشْرِكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللّٰهَ إنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وبايع النبىُّ صلى الله عليه وسلم الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهم بَيْعَتَيْنِ .

---

(١) ليس مراده المصدر الصناعى كما لايخفى والأوضح "وهى آسم مصدر لبايع" الخ تأمل .

الفصــــــــل الثـانى

(فى ذكر تنويع البَيْعات ، وهى نوعان)

النـــــوع الأوّل

(بَيْعـاتُ الْخُلفَــاء، وفيهــا سبعة مقـاصِــدَ)

المقصــــــــد الأوّل

(فى أصل مشروعيتها)

فالأصْل فى ذٰلك بعد الإجماع ماثَبَت فى الصحيحين من حَديث عائشة رضى الله عنها "أنَّه لمـا تُوُفِّىَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم ، ٱجتَمَعتِ الأنصارُ إلىٰ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فى سَقِيفَةِ بَنِى ساعِدَةَ ، فقالُوا : مِنَّا أميرٌ ومِنْكُمْ أميرٌ ، فذهب إليهم أبُو بَكْرٍ وعُمَرُ وأبُو عُبَيْــدَةَ بْنُ الجَرَّاح ، فذهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فأسْـكَتَهُ أبُو بَكْرٍ ؛ وكان عُمَرُ يقُول : ما أرَدْتُ بذٰلك إلَّا أنِّى قد هَيَّأتُ كَلامًا أعْجَبَنِى خَشِيتُ أن لَّايَبْلُغَهُ أبُو بَكْرٍ ؛ ثم تَكَلَّمَ أبو بَكْرٍ فتكَلَّمَ أبلغَ النـاسِ . فقال فى كلامِه : نَحْنُ الأُمَرَاءُ وأنْتُمُ الوُزَراء . فقال الحُبَـابُ بنُ المُنْذِر : لَا واللهِ لانَفْعَلُ ! مِنَّا أميرٌ ومِنْكُمْ أَمِير . فقال أبو بَكْرٍ : لَا ولٰكِنَّا الأُمَراءُ وأنْتمُ الوُزَراءُ . فبايِعُوا عُمَرَ أَوْ أبَا عُبَيدةَ . فقال عمرُ : بَلْ نُبَايِعُكَ فأَنْتَ سيِّدُنا وخَيْرُنا وأَحَبُّنا إلىٰ رسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلم ، فأخذ عُمَرُ بيدِه فبايَعَه وبايَعَ النّاسُ" .

وهــذه أوّلُ بيعةٍ بالخلافَةِ كانتْ فى الإسلام ؛ ولكن لم يُنْقَل أنه رضى الله عنه كُتِبَ له مبايعةٌ بذٰلك ، ولعلَّ ذٰلك لأنَّ الصحابةَ رِضوانُ الله عليهم كانوا إذا بايَعُوا لايَجْحَدُون البَيْعةَ بعد صُدُورها ، بخلاف مابعد ذٰلك .

المقصـــــد الثـانى

(فى بيانِ أسبابِ البَيْعة المُوجبة لأخْذها علىٰ الرَّعيَّة)

وهى خمســـة أسباب :

السببُ الأوّل — موتُ الخليفة المنتصبِ من غير عَهْد بالخلافة لأحدٍ بعــده ، كما فى قِصَّة الصِّـدِّيق المتقدِّمة بعد وَفَاة النبىّ صلّى الله عليه وسلم؛ أو بتَرْكها شُورىٰ فى جماعة معيَّنة، كما فعل عمُر رضى الله عنه عند وَفَاته حيثُ تَركها شُورىٰ فى ستة: علىّ بنِ أبى طالب، والزُّبَير بن العَوَّام، وعُثْمانَ بنِ عفَّان ، وعبدِ الرحْمٰن بنِ عَوْف ، وطلحةَ، وسعدِ بنِ أبى وَقَّاص، رضى اللهُ عنهم .

السبب الثـانى — خَلْع الخليفةِ المنتصبِ لمُوجِب يقتضِى الخَلْع، فتحتاجُ الأمةُ [إلىٰ] مبايعةِ إمام يقُوم بأمورها، ويتحمَّل بأعبائها .

السبب الثالث — أن يتوَهَّم الخليفةُ خُروجَ ناحيةٍ من النَّواحِى عن الطاعة فيُوجِّه إليهم من يأخُذ البيعةَ له عليهم : لينقادُوا لِأمْرِه، ويدخُلوا تحتَ طاعتِه .

السبب الرابع — أن تُؤْخَذَ البيعةُ للخليفة المعهودِ إليه بعدَ وَفَاة العاهد ، كما كانتِ الخلفاءُ الفاطميُّون تفعَلُ فى خِلَافتهم بمصر، وكانوا يُسَمُّون البيعةَ سِجِلًّا كما كانوا يُسَمُّون غيْرَها بذلك .

السبب الخـامس — أن يأخُذَ الخليفةُ المنتصبُ البيعةَ علىٰ الناس لولِىّ عهـدِه بالخلافة بأن يكونَ خليفةً بعدَه إمضاءً لعَهْده، كما فعل معاويةُ رضى الله عنه فى أخذه البيعةَ لولده يَزِيدَ .

المقصـــــد الثـالث

(فى بيان ما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كتابة البَيْعة)

وٱعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة البَيْعة أمورا :

منها — أن يأتِىَ فى بَراعة الِاستهلال بما يتهيَّأ له من ٱسم الخليفة أو لَقَبه : كفلانِ الدِّين، أولقَبِ الخلافة : كالمتوكِّل أو المستكْفِى، أومقتضىٰ الحال المُوجِب للبَيْعة من موتٍ أو خَلْع ونحوهما، أو غير ذٰلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ شَرَف رُتْبة الخلافة وعُلُوّ قدْرها ورِفْعة شأنها، وأنها الغايةُ التى لافَوْقَها، والدرجةُ التى لابَعْدَها؛ وأن كلَّ رُتْبة دُونَ رُتْبتها، وكلَّ مَنْصِب فرعٌ عن مَنْصِبها .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ مَسِيس الحاجةِ إلىٰ الإمام، ودِعايَة الضَّرورةِ إليه، وأنه لايستقيمُ أمْرُ الوجود وحالُ الرعِيَّة إلَّا به، ضرورةَ وُجوبِ نصبِ الإمام بالإجماع، وإن شذَّ عنه الأصمُّ نخالف ذٰلك .

ومنها — أنْ يُشِيرَ إلىٰ أنَّ صاحبَ البَيْعة ٱستوعبَ شُروطَ الإمامةِ وٱجتمعتْ فيه، ويصِفَه منها بما يَعِزُّ وجُودُه، ويُتَمدّحُ بحصوله : كالعِلْم والشَّجاعة والرأْى والكفاية؛ بخلاف مالا يعِزُّ وجودُه ولا يُتَمَدَّحُ به وإن كان من الشروط : كالحُرِّية والذُّكورة والسمْع والبصَر ونحو ذٰلك؛ فإنَّ الوصف بذٰلك لا وجْهَ له .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ أفضليةِ صاحبِ البيْعة وتقدُّمه فى الفضل وٱستيفاءِ الشُّروط علىٰ غيره : ليخْرُج من الخلاف فى جَواز توليِةِ المفضُول مع وجُود الفاضل .

ومنها — أن ينبّه علىٰ أنَّ المختارين لصاحب البيْعة ممن يُعْتَبَر آختيارُه من أهل الحَلِّ والعَقْد : من العلماء والرُّؤساء ووجُوه النـاس الذين يتيسّر حضُورُهم علىٰ الوجه المعتَبَر .

ومنها — أن ينَبّه علىٰ تعيين المختارِين للبَيْعة ، إن كان الإمامُ الأوّلُ نصَّ عليهم ؛ إذ لا يصِحُّ الاختيار [من] غير من نَصَّ عليه ، كما لا يصحُّ إلا تقليدُ من عَهِد إليه .

ومنها — أن ينَبّـه علىٰ جَرَيان عَقْـد البيْعةِ من المختارين ، ضرورةَ أنه إن آنفردَ شَخْصٌ بشروط الإمامة فى وَقْته لم يَصِرْ إماما بمجرّد ذٰلك .

ومنها — أن ينَبّه علىٰ سبب خَلْع الخليفة الأوّلِ إن كانت البيعةُ مترتّبة علىٰ خَلْع ، إذ لا يصح خَلْع الإمام القائِم بلا سبَب .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ قَبُول صاحب البيعةِ العقدَ وإجابته إليه إذ لابُدّ من قَبُوله .

ومنها — أن ينبّه علىٰ أنَّ القَبُول وقع منـه بالآخْتِيار : لأنه لا يصِحُّ الإجبارُ علىٰ قَبُولها ؛ أللهم إلَّا إن كان بحيثُ لا يصلُح للإمامة غيْرُه فإنه يجبَرُ عليها بلا خِلَاف .

ومنها — أن ينبّـه علىٰ وُقُوع الشهادة علىٰ البَيْعة ، خروجًا من الخلاف فى أنه هل يُشْتَرَط الإشهادُ علىٰ البيعة أم لا ؟ .

ومنها — أن ينبّه علىٰ أنها لم تقْترن ببَيْعةٍ فى الحالِ ولا مسبُوقةٍ بأُخْرىٰ ، إذ لا يجوز نَصْبُ إمامَيْن فى وقتٍ واحدٍ وإنْ تباعَدَ إقْليماهُما ، خلافا للأُسـتاذ أبى إسحاق الأَسْفَرايِينِى حيثُ جوّز نصْبَ إمامين فى إقليمَيْن .

ومنها — أن ينَبّـهَ علىٰ أنه بمجرّد البَيْعـة تجبُ الطاعةُ والآنقيادُ إليـه ، ويجب علىٰ كافّة الأمة تفويضُ الأمور العامّة إليـه ، وطاعتُـه فيما وافَقَ حكمَ الشرع وإنْ كان جائِرا .

ومنها — أن يعزِّىَ فى الخليفة الميت ويُهَنِّئَ بالمستَقِر إن كانت البيعةُ مبنيَّةً علىٰ موتِ خليفةٍ، وأن يبيِّن سببَ خلْع الخليفة الأول إن كانت مرتَّبةً علىٰ خَلْع .[1]

أما التَّعزيَةُ والتهنئــةُ بموت الأوّل، فعليــه جرىٰ عامَّة الكُتَّاب ؛ إلَّا أنه يختصُّ فى عُرْفهم بمـا إذا كان الخليفةُ الأوّلُ شـديدَ القُرْب من الثانى؛ كأبيه وأخيه وابن عمِّـــه .

وكان الأوّلونَ يتعَاَنْون ذٰلك فى خطاب الخلَفاء بالتهنئــة بالخلافة بعدَ أقارِبهم ، وقد رُوِى أنَّ عطاءَ بنَ أبى صَــيْفِىّ دخل علىٰ يَزِيدَ بن معاويةَ فهنَّاه بالخلافة وعزَّاه فى أبيه فقال :

رُزِئْتَ بأمير المؤمنــين خليفــةِ الله، وأُعْطِيتَ خِلافةَ الله؛ قضىٰ معاويةُ نَحْبَــه، فغفرَ اللهُ ذَنْبه؛ ووُلِّيت الرِّياسه، وكنتَ أحقَّ بالسِّياسه؛ فٱحتَسِبْ عندَ اللهِ جليلَ الرَّزِيَّه، وٱشكُرْه علىٰ جَزِيل العطِيَّــه ؛ وعَظَّم اللهُ فى معـاويةَ أجْرَك، وأحسنَ علىٰ الخلافة عَوْنَك .

وتعرَّضتْ أعرابيَّة للنصور فى طريق مكَّةَ بعد وفَاة أبى العَبَّاس السَّفَّاح، فقالت :

ياأميرَ المؤمنين ٱحتَسب الصَّبر، وقدِّمِ الشُّــكْر؛ فقد أجزلَ اللهُ لك الثَّواب فى الحالين، وأعظَمَ عليك المِنَّةَ فى الحادثَيْن؛ سَلَبَكَ خليفةَ الله، وأفادكَ خِلافَةَ الله؛ فسَلِّم فيما سَلَبك، وٱشــكر فيما مَنَحك؛ وتجاوزَ اللهُ عن أمير المؤمنين، وخارَ لَكَ فيما ملَّكك من أمرِ الدُّنيا والدِّين .

وأما التعريف بسبب الخَلْع[1]، فلأنه لا يصِحُّ خلْعُ الإمام بغير مُوجِب للخَلْع .

ومنها — أن يشير إلىٰ ذكر السلطان القائِم بالبَيْعة إن كان القائمُ بهـا سلطاناً علىٰ ما ٱستقرّت عليه قاعدةُ الكُتَّاب فى ذٰلك .

(١) سبق التنبيه على هذا فى الصفحة قبل .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أنَّ من ٱستُحْلِف فى البَيْعة من وُجُوه الدولة وأعيان المملكة إن جرىٰ حَلِفٌ، ويذكر صفةَ حلِفِهم وما ٱلتزمُوه من الأيمان المؤكَّدة، والمَوَاثيق المغلَّظة .

المقصد الرابع

(فى بيان مواضع الخلافة التى يستَدْعِى الحالُ كتابةَ المبايَعات فيها)

وهى أربعة أمور :

أحدها — موتُ الخليفة المتقدِّم عن غير عهدٍ لخليفةٍ بعده ، وهو موضوعها الأصلىّ الذى عليه بُنِيتْ .

الثانى — أن يَعْهَد الخليفةُ إلىٰ خليفةٍ بعدَه ، ثم يموتَ العاهِد ويستقرّ المَعْهود إليه بالخلافة بالعَهْد بعده، فتؤخَذَله البَيْعةُ العامَّة علىٰ الرَّعية، إظهاراً لوقُوع الإجماع علىٰ خلافته، والاتِّفاق علىٰ إمامتِه .

الثالث — أن تؤْخَذ البيعةُ للخليفة بحضْرة وِلَايته ، ثم تُنَفَّذ الكتُبُ إلىٰ الأعمال لأخْذ البَيْعة علىٰ أهلها، فيأخذُ كلُّ صاحب عملٍ له البيعةَ علىٰ أهل عَمَله .

الرابع — أن يَعْرِض للخليفة خَلَلٌ فى حال خلافته : من ظهور مخالِف أو خُرُوج خارجىّ، فيحتاج إلىٰ تجديد البَيْعة له حيثُ وَقَع الخلافُ .

ولكلٍّ من هذه الأحوال ضَرْبٌ من الكتابة يُحتاجُ فيه إلىٰ بيان السبَب الموجب لأخْذ تلك البيعةِ .

المقصـــــد الخـامس

(فى بيـان صورة مايُكْتَب فى بَيْعات الخلفاء، وفيها أربعة مذاهب)

المـــــذهب الأوّل

(أن تُفتتحَ المبايعةُ بلفظ «تُبَايع فلانا أمـيرَ المؤمنين»
خطاباً لمن تُؤْخَذ عليـــه البَيْعة)

ويذكر ما يقعُ عليـه عقدُ المُبايعة، ويأتى بمـا سَنَح من أمر البَيْعـة، ثم يذكر الحلِفَ عليها، وعلىٰ ذٰلك جرىٰ مصطَلَح كُتَّاب خلفاء بنى أُمَيَّة، ثم خلفاءِ بنى العبَّاس بعدهم ببغدَادَ .

وٱعلَمْ أنه قد تَقَـدّم فى المَقْصد الأوّل من هـذا الفصل أنه لم يُنْقَـل أنه كُتِب للصدّيق رضى الله عنه ولا لمن وَلِىَ الخلافةَ بعــده من الصَّحابة من غير عهدٍ بيعةٌ . ولمـا كانتْ خلافةُ بنى أُمَيَّة، وآلَ الأمْرُ إلىٰ عَبْد الملِكِ بنِ مَرْوان، وأقام الحَجَّاج ٱبنَ يوسُفَ علىٰ إمَارة العِراق، وأخذ فى أخْذ البيعة لعبد الملك بالعِراق، رَتَّب أيمانا مَغَلَّظةً تشتمل علىٰ الحَلِف بالله تعالىٰ والطَّلاقِ والعَتَاق والأيمان المُحْرِجات يُحْلَف بها علىٰ البَيْعة، وٱشتهرَتْ بين الفُقَهاء بأيمـانِ البيعةِ، وٱطَّرد أمْرُها فى الدولة العبَّاسيَّة بعد ذٰلك . وجرىٰ مصطلَحُهم فى ذٰلك علىٰ هذا الأُسْلوب .

وهــذه نسخةُ مبايعـــةٍ، ذكرها أبو الحُسيْـن بن إسحـاقَ الصـابِى فى كتابه "غُرَرِ البَلَاغة" وهى :

تُبَايع عبـدَ الله أمير المؤمنين فلانا بَيعةَ طَوْع وٱخْتيار، وتَبَرُّع وإيثار، وإعلانٍ وإسْرار، وإظْهارٍ وإضْمار، وصِحّة من نَغَل، وسلامة من غير دَغَل، وثباتٍ من غير

تبديل، ووقار من غير تأويل؛ واعتراف بما فيها من اجتماع الشَّمْل، واتِّصال الحَبْل؛ وانتظامِ الأمور، وصَلاح الجُمْهور؛ وحَقْن الدِّماء، وسُكُون الدَّهْماء؛ وسعادةِ الخاصَّة والعامَّه، وحُسْن العائدة على أهل المِلَّة والذِّمَّه ـ على أنَّ عبدَالله فلانا أمير المؤمنين عبدُالله، الذى اصطفاه، وخليفتُه الذى جعل طاعتَه جاريةً بالحق، ومُوجَبَةً على الخَلْق؛ ومُورِدةً لهم مَوَارِدَ الأَمْن، وعاقدةً لهم مَعاقِدَ اليُمْن؛ وولايتَه مُؤْذِنةً لهم بجميل الصُّنْع، ومؤدِّيةً بهم إلى جزيل النَّفْع؛ وإمامتَه الإمامةُ التى اقترَنَ بها الخيرُ والبَرَكه، والمصلحةُ العامّةُ المشترَكه؛ وأمَّل فيها قمعَ المُلْحد الجاحد، وردَّ الجائرِ الحائد؛ ووَقْم العاصى الخالع، وعَطْف الغازِى المُنازِع ـ وعلى أنَّك ولِىُّ أوليائه، وعدُوُّ أعدائه: من كلِّ داخِلٍ فى الجُمْله، وخارجٍ عن المِلَّه، وحائدٍ عن الدَّعْوه. ومتمسِّكٌ بما يدليه، عن إخلاصٍ من رَأْيك، وحقيقةٍ من وَفَائك؛ لا تنقُضُ ولا تَنْكُث ولا تُخْلِف ولا تُوارى ولا تُخادِع، ولا تُداجِى ولا تُخاتِل؛ علانيتُك مثلُ نِيَّتك، وقولُك مثلُ طَوِيَّتك ـ وعلى أن لا ترْجِع عن شىءٍ من حُقُوق هذه البيعةِ وشرائطِها على مَرِّ الأيام وتَطاوُلها، وتغيُّر الأحوال وتنقُّلِها، واختلافِ الأزمانِ وتقلُّبها ـ على أنَّك فى كلِّ ذلك من أهل المِلَّة الإسلامية ودُعاتِها، وأعوانِ الدولة العبَّاسيَّة ورُعاتِها؛ لا يُداخِل قولَك مُواربةٌ ولا مُداهَنه، ولا تعترِضُه مغالَطةٌ ولا تتعقَّبُه مخالَفه؛ ولا تَخِيس به أمانه، ولا تَغُلُّه خِيانه؛ حتَّى تلقَى الله تعالى مقيماً على أمرِك، وَفِيًّا بعهْدك؛ إذ كان مُبايِعو وُلاة الأمور وخلفاءِ الله تعالى فى الأرض ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

عليكَ بهذه البيعةِ ـ التى أعطَيْت بها صَفْقة يَدِك، وأصْفيْتَ فيها سَرِيرةَ قلْبك؛ والتزمتَ القيامَ بها ماطالَ عُمُرك، وامتدَّ أجَلُك ـ عهدُ اللهِ إنَّ عهدَ الله كانَ

مسْئُولا ؛ وما أخذه علىٰ أنبيائِه ورُسُله وملائكتِه وحَمَلةِ عَرْشِــه من أيمـانٍ مغلَّظةٍ وعُهُودٍ مؤكَّده، ومَواثِيقَ مشَــدَّده ، علىٰ أنك تسْمَع وتُصْغِى، وتُطِيع ولا تَعْصِى؛ وتعتَدلُ ولا تَمِـيل، وتسـتَقِيم ولا تَحِيد ؛ وتَفِي ولا تَغْدِر، وتثبُتُ ولا تتغَيَّر؛ فمتىٰ زِلْتَ عن هذه المَحَجَّة حاقرا لأمَانتِك، ورافِعًا لدِيانَتِك؛ فجحدْتَ اللهَ تعالىٰ رُبُوبِيَّته، وأنكَرْتَه وَحْدانِيَّته ؛ وقطعْتَ عِصْمةَ محمدٍ صلَّى الله عليه وسـلم وجذَذْتَها، ورميْتَ طاعَتَــه وراءَ ظهرِك ونبَذْتَها ؛ ولَقِيتَ اللهَ يومَ الحشر إليه، والعَرْض عليــه، مُخالِفًا لأمْره، وخائنًا لعَهْده؛ ومقيماً علىٰ الإنكارِ له ؛ ومُصِرًّا علىٰ الإشراكِ به؛ وكُلُّ ماحالَّه الله لك محرّمٌ عليــك، وكلُّ ماتملكه يومَ رُجُوعك عن بذٰلِك، وآرتجاعك ما أعطَيْتَه فى قولك : من مالٍ موجودٍ ومَذْخُور، ومَصُــوغ ومَضْروب، وسارِحٍ ومَرْبوط، وسائِم ومعقُول ؛ وأرضٍ وضَــيْعه، وعَقَار وعُقْــده، ومملوكٍ وأَمَه، صــدقةٌ علىٰ المَسَاكين ، محرَّمةٌ علىٰ مرّ السِّنين ؛ وكلُّ آمرأةٍ لك تملكُ شَعَرها وبَشَرها ، وأُخرىٰ تتزوَّجُها بعدها، طالقٌ ثلاثًا بتاتًا ، طلاقَ الحَرَج والسُّنَّة لارجْعةَ فيــه ولا مَثْنوِيَّة؛ وعليك الحجُّ إلىٰ بيتِ الله الحرامِ الذى بمكَّةَ ثلاثين دَفْعــة حاسِرًا حافِيــا ، راجِلًا ماشِــيا ، نَذْرا لازما ، ووَعْدا صادقا ؛ لايبرِّئُك منها إلا القضاءُ لهــا ، والوفاءُ بها؛ ولا قَبِلَ اللهُ منك تَوْبةً ولا رَجْعةً؛ وخذَلَك يومَ الآستنصار بحَوْله ، وأسلَمَك عنــد الآعتصام بحبْله ؛ وهذه اليمينُ قولُك قلتَها قَوْلا فَصِيحا ، وسرَدْتَها سَرْدا صحيحا ؛ وأخلصْتَ فيها سِرَّك إخلاصًا مُبِينا ، وصدَقْتَ فيها عَزْمَك صِدْقا يَقِينا؛ والنيةُ فيها نيةُ فلان أميرِ المؤمنين دُونَ نِيَّتك، والطَّوِيَّةُ [فيها طوِيَّتُه] دُونَ طوِيَّتك؛ وأشهدتَ اللهَ علىٰ نَفْسك بذٰلك وكفىٰ باللهِ شَهِيدا، يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نفس عليها حافظًا ورَقِيبا .

وهـذه نسخةُ بَيْعةٍ أُخْرىٰ من هذا الأُسْلوب ، أوردها آبنُ حَمْدُونَ فى تَذْكِرته ، وربَّمـا وافقَ فيها بعضَ ألفاظ البيعة السابقةِ، وهى :

تُبايعُ الإمامَ أميرَ المؤمنين فلانا بيعةَ طَوْع وإيثـار ، وآعتِقادٍ وإضمار ، وإعلان وإسْرار ؛ وإخلاصٍ من طوِيَّتك، وصِـدْقٍ من نِيَّتك ؛ وآنشراحِ صـدرِك وصِحَّة عزيمتك؛ طائعًا غيرَ مُكْرَه، ومُنْقادا غيرَ مُجْبَر ؛ مُقِرًّا بفضلها، مُذْعِنـا بحقِّها؛ معترِفا ببركتها، ومعتـدًّا بحُسْن عائدتها؛ وعالمـًا بمـا فيها وفى تَوْكيدهامن صَلَاحِ الكافَّة، وآجتماعِ الكلمـة [من] الخـاصَّة والعامَّه؛ ولَمِّ الشَّعَث، وأَمْن العَواقِب؛ وسُكُونِ الدَّهْماء، وعِزِّ الأوليـاء ، وقَمْع الأعداء ـ علىٰ أنَّ فلانا عبدُ الله وخليفتُه، المفترَضُ طاعتُه، والواجبُ علىٰ الأمة إقامتُه وولايتُه؛ اللازمُ لهم القيامُ بحقِّه، والوفاءُ بعهْده؛ لاتشُكُّ فيـه ، ولا ترتابُ به ، ولا تُداهِن فى أمره ولا تَمِيل . وأنك وَلِىُّ وليِّـه ، وعدُوُّ عدوّه: من خاصٍّ وعامّ، وقريبٍ وبعيـدٍ، وحاضِرٍ وغائب؛ متمسِّكٌ فى بيْعته بوَفَاء العهْد، وذِمَّة العَقْد؛ سريرتُك مثـلُ علانِيَتِك ، وظاهرُك فيه وَفْقُ باطنِك ـ علىٰ أنْ أعطيتَ الله هـذه البَيعةَ من نَفْسـك ، وتوكيدَك إيَّاها فى عُنُقـك ، لفلانٍ أمير المؤمنين عن سلامةٍ من قَلْبك ، وآسـتِقامةٍ من عَزْمك ؛ وآستمرارٍ من هَوَاك ورَأْيك ـ علىٰ أن لاتتأوَّل عليـه فيها ، ولا تَسْـعىٰ فى نَقْض شىءٍ منها؛ ولا تقْـعدَ عن نَصْره فى الرَّخاء والشِّـدّة ، ولا تَدَعَ النصرَله فى كلِّ حالٍ راهنةٍ وحادثة ؛ حتّىٰ تلقىٰ الله مُؤْذِنا بهـا ، مُؤدِّيا للأمانةِ فيها ؛ إذكان الذين يُبـايعونَ وُلاةَ الأمرِ ، وخلفاءَ الله فى الأرض ﴿ إِنَّمـا يُبايِعُـونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْديهِـمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَـا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسه ﴾ .

عليـكَ بهذه البيعـة - التى طوّقتها عُنُقَك ، وبَسَطْتَ لهـا يَدَك ، وأعطيْتَ فيها صَفْقتك ؛ وما شُرِط عليكَ فيها : من وفاءٍ ومُوالاة ، ونُصْح ومشايَعه ، وطاعةٍ وموافقـة واجتهاد ومتابعه - عهـدُ الله إنَّ عهـدَ الله كان مَسْئُولا . وما أخذ اللهُ تعالىٰ علىٰ أنبيائه ورُسُـلِه عليهم السلام ، وعلىٰ مَنْ أخَذَ من عبـاده ، وَكِيدات مَوَاثِيقه ومُحْكَمَات عُهُوده ؛ وعلىٰ أن تَتمسَّكَ بها ولا تُبَدِّل ، وتستقيمَ ولا تَميل ؛ وإن نكثْتَ هـذه البيعةَ أو بدَّلت شرْطا من شُرُوطها ، أو عفَّيْت رسْمـا من رُسُومها ، أو غَيَّرت حكْما من أحكامها ؛ معْلِناً أو مُسِرًّا أو مُحتالا أو مُتأوِّلًا ؛ أو زِغْتَ عن السبيل التى يَسْلُكُها من لا يُحقِّر الأمانه ، ولا يستحِلُّ الغَدْر والخيانه ، ولا يستجيزُ حَلَّ العقود ، فكلُّ ماتملِكه من عينٍ أو وَرِق أو آنيـه ، أو عَقَار أو سائِمة ، أو زَرْع ، أو ضَرْع ؛ أوغير ذلك من صُنُوف الأملاك المعتدَّه ، والأموال المُدَّخَره ؛ صدقةٌ علىٰ المساكين ، محرَّمٌ عليك أن ترجع من ذٰلك إلىٰ شىء من مالك بحيلةٍ من الحِيَل ، علىٰ وَجْه من الوجوه ، وسببٍ من الأسْباب ، أو مَخْرَج من مَخارج الأَيمـان ؛ وكلُّ ماتعتدّه فى بقِيَّـة عمرك من مالٍ يقِلُّ خَطَرُه أو يجِـلُّ فتلك سـبيلُه إلىٰ أن تتوفَّاك منيَّتُك أو يأتيك أجلُك ؛ وكلُّ امرأةٍ لكَ اليومَ (١) : وأخرىٰ تتزوّجها بعدها مدّةَ بقـائك طالقٌ ثلاثًا بتاًّا ، طلاقَ الحَرَج والسُّـنَّة لامَثْنوِيَّةَ فيه ولا رجْعَـة ؛ وعليك المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام ثلاثين حَجَّة حافيا ، حاسِرًا راجلا ؛ لايَرْضىٰ اللهُ منك إلَّا بالوفاء بهـا ، ولا يقبَـلُ اللهُ منـك صَرْفا ولا عَدْلا ؛ وخَذَلك يوم تحتاجُ إليـه ؛ وبرَّأك من حَوْله وقُوَّته ، وألجاكَ إلىٰ حَوْلك وقُوَّتك ، والله عزَّ وجل بذٰلك شهيدٌ ، وكفىٰ به شَهيدا .

---

(١) فى الأصول "وكل مملوك لك اليوم من ذكر وأنثى مدة" الخ وهو غير مناسب كما لايخفى .

وهـذه نسخة أُخرىٰ من هـذا الأسـلوب ، أوردها أبو الحسين الصابى فى "غُرَر البلاغة" وهى :

تُبايِعُ أميرَ المؤمنين بقُوّةٍ من بَصيرتك، وصِحّة من سَريرتك، وصَفاءٍ من عَقيدتك، وصِدْقٍ من عَزيمتك، علىٰ الرِّضا [به] والوَفاء له، والإخلاص فى طاعته، والاجتهاد فى مُناصحته، وعَقد النيّة علىٰ مُوالاته، وبَذْل القُدْرة فى ممالاته، وأن تكونَ لأنصاره عَوْنا، ولأوْليـائه حِزْبا، ولأعدائه حَرْبا، عارفين بمـا فى ذلك من الحَظّ، ومعترِفين بمـا يلزَمُ فيه من الحقّ، ومحافِظين علىٰ ما حَرَس المِلّة الإسلاميّة، والدولةَ العبّاسيه، ثبّت الله قواعِدَها، وأحكم مَعاقِدَها، وزادها آستمرارا علىٰ مَرّ الدُّهور، وآستقرارا علىٰ كَرّ العُصُور، وعِزّا علىٰ تنقُّل الأمور، وآشتدادا علىٰ تغلُّب المَقْدور، فإن خالفْتُ ذلك مُسِرّا أو مُعلِنا، وحُلْتُ عنه مُظْهِرا أو مُبْطِنا، وحَلَلْتُ عقُودَه ناكِثًا أو ناقِضا، وتأوّلتُ فيه مُحاوِلا للخُروج منه، وآستثنيْتُ عليه طالبًا للرّجوع عنه، فبرِئَني اللهُ من حوله وقُوّته، وسلَبني ماوَهبَ من فضْله ونِعمته، ومنعني ماوعدَ من رأفته ورحمته، وخَلّانى من يَدَيْه، يومَ الفَزَع الأكبر لدَيْه، وحنث كلّ يمين حلَفها المسلمُون علىٰ قديم الأيّام وحديثها، والتّناهى فى تأكيدها وتشديدها، وأعرَوْها من لباس الشُّبْهه، وأخْلَوْها من دَواعِى المخاتَله، وهذه اليمينُ يمينى : أوردتُها علىٰ صِدْق من نِيّتى، وصِحّـةٍ من عزيمتى، وآتّفـاقٍ من سرّى وعَلانِيَتى، وسَرَدْتُها سرْدا متتابِعا من غير فَصْـل، وتلفظت بها تلفُّظا من غير قطع، والنيّةُ فيها نيّةُ فلان : علىٰ حُضُور منـه وغَيْب، وبُعْـد وقُرْب، وأُشْهِد الله تعالىٰ بمـا عقدْتُه علىٰ نفسى منها، وكفىٰ بالله شهيدا علىٰ من أشهده، وحسيبًا علىٰ من آجترأ علىٰ إخفار عهْده، ونقض عقده .

قلت : فإن كان من تؤخذ عليــه المبايعة آثنين ، أُتِى فى المبايعة بِصيغة التثنية؛ أو ثلاثة فأكثر، أُتِى بصيغة الجمع . ولم أقِف علىٰ كيفية وضْعِهم لذٰلك فى الكتابة، والذى يظهر أن المبايعة كانتْ تكتَبُ علىٰ الصورة المتقــدّمة ، ثم يكتُب المبايِعُون خطوطهم بصُدُورها عنهم؛ كما يفعل الآنَ فى تحليف من يحَلَّف من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف بالمملكة المصرية والممـالك الشامية ، أو يُشْهَد عليهــم فى آخر البيعة بمعاقَدتِهم عليها ورضاهُم بها ونحو ذٰلك .

المـــــذهب الثـانى
(ممـا يكتب فى بَيْعـات الخلفـــاء)

أن تُفْتتح المبـايعةُ بلفظ « من عبْدِ الله ووليِّــه فلانٍ أبى فلان الإمام الفُلَانى » إلىٰ أهل دَوْلته، ونحو ذٰلك[(١)] بالسّلام عليهم، ويُؤْتىٰ بما سَنَح من الكلام؛ ثم يُقال : أمّا بعدُ، فالحمدُ لله ؛ ويؤتىٰ علىٰ وصْــفِه بشريـفِ المَنَـاقِب، وآستحقاقِه للخِلافة ، وآسـتجْماعه لشُرُوطها، وما يجْرِى هذا المَجْرىٰ؛ ثم يَنْخرِطُ فى سِلْك البيعة ، ويذكُر القـائِمَ بأخذها علىٰ الناس من سُلْطانٍ أو وزيرٍ عظـيم أو نحو ذٰلك؛ ويذكُر من أمْر ولايةِ الخليفةِ ما فيــه آسـتجلابُ قلُوبِ الرعية والأخذُ بخواطرهم وما يَنْخـرط فى هذا السِّلْك .

وهذه نسخةُ بَيْعةٍ من هذا الأُسْــلوب ، لولىِّ عهْد بعد موْتِ العاهد ، كُتِب بها لبعضِ خُلَفاء الفاطميين ، ليس فيها تعرُّض لذكر الوزير القائِم بها، وهى :

---

(١) لعله ونحو ذلك ويتبع ذلك الخ تأمل .

من عبدِ الله ووليِّه «أبى فلان فلان بن فلان» الإمامِ الفلانىّ، بأمْرِ الله تعالىٰ أميرِ المؤمنين، إلىٰ من يضُمُّه نِطاقُ الدولة العلَوية : من أُمَرائها وأعيانِها، وكُبَرائها وأوليائها؛ علىٰ ٱتِّساع شُعُوبهم ، وعساكِرِها علىٰ ٱختلاف ضُرُوبهم ؛ وقبائِل عَرَبِها القَيْسيَّة واليَمَنيَّة ، وكافَّةِ من تشمَلُه قطارُها من أجناس الرعيَّة : الأميرِ منهم والمأْمُور، والمشهورِ منهم والمَغْمُور ؛ والأَسْودِ والأحمر، والأصْغَر والأكْبر؛ وفَّقهُم الله وبارَكَ فيهم .

سلامٌ عليكم ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليكُمُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو ، ويسأَلُه أن يُصَلِّى علىٰ محمدٍ خاتَمِ النبيِّين، وسيِّدِ المرسَلين، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله الطاهِرِين، الأئمة المَهْديِّين ، وسلَّم تسليما .

أما بعدُ، فالحمدُ لله مُولِى المَنِّ الجَسيم، ومُبْدِى الطَّوْل العَمِيم، ومانِح جزيلِ الأجْر بالصَّبْر العظيم؛ مُفِيدِ النعم المتشَعِّبة الفُنُون، ومُدْنِى المُهَج المتعالية لتناوُلِ المَنُون؛ ومُبِيدِ الأعمارِ ومُفْنِيها ، وناشرِ الأمْواتِ ومُحْيِيها؛ والفاتِح إذا ٱستَغْلَقَتِ الأَبْواب، والقائلِ : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب ﴾ الذى لايغيِّر مُلْكه مُرورُ الغِيَر، ولا يَصْرِف سلطانَهُ تصَرُّفُ القَدَر؛ ولا يُدْرَكُ قِدَمُه وأزليَّته، ولا يَنْفَدُ بقاؤُه وسَرْمديَّتُه؛ مُسْلِمِ الأنامِ للحِمَام ، ومُصْمِى الأنفُسِ بسِهامِ الآخْتِرام ؛ ومُورِدِ البَشَر من المنيَّة مَنْهَلا ما بَرِحُوا فى رَنْقِه يكْرَعُون، ولمُرِّه المُشْرِق يتجرَّعُون؛ ومعزز ذلك بقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقَةُ المَوْتِ ونَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنةً وإلَيْنا تُرْجَعُونَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى نَصَب الأنبياءَ لمَرَاشِده أعلاما، وحَفِظ ببَعْثِهم من الحقِّ والهُدىٰ نِظَاما؛ وجعل نُبوّةَ جَدِّنا محمدٍ صلّى الله عليه وسلم لنُبوّاتِهم خِتَاما، وعَضَد بوَصِيِّه أبينا

امير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كمالا للدّين وإتمـاما ، وٱستخلص من ذُرّيتهما أئمة هادين إتقانًا لصـنعته وإحكاما ، وأقام الحُجّـــة على الأُمَم بأنْ أقام لكلّ زمانٍ منهم إمامًا ، وعاقب بين أنوار الإمامة فإذا ٱنقبض نورٌ ٱنبسط نور ، وتابـع ظُهورَ بُدُوره لِيُشرق طالعٌ إثر غاربٍ يغور ، رحمـةً شاملةً للعـالَمين ، وحكمةً تامّةً حتّى يرث الله الأرضَ ومَنْ عليها وهو خيرُ الوارثين ، ولم يُخْلِ نَبيًّا مع ما شرّفه [به] من تناوُلِ وَحْيه وتلَقّيه ، ولا عَصَم إماما مع ٱختصاصـه بفُروع مَنْصِب الإمامة وترَقّيه ، من لِقـاء المنيّه ، ووَدَاع الأَمنيّه ، بل أجّل لكلٍّ منهم أجَلًا مكتُوبا ، وفَسَّح له أمَدًا محصُورا محسوبا ، لا يَصْرِفُه عن وُصوله نَضيله ، ولا يَصِل إلىٰ تجاوُزه بقُوّةٍ ولا حِيله ، قُدْرةٌ محكمة الأسـباب ، وعِبْرةٌ واضحةٌ لأُولى الألباب ، وقضـيّةٌ أوضحها فُرقانُه الذى أقرّ بإعجازه الجاحِدُون ، إذ يقول مخاطبا لنبيه : ﴿ وما جَعلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفإنْ مِتَّ فَهُمُ الخَـالِدُونَ ﴾ .

والحمـدُ لله الذى مَنَـح أميرَ المؤمنين من خَصائص الإمامةِ وأنْوارِها ، وحازَ له من ذَخائِرِها وأودعَه من أَسْرارها ، ماخوّلَهُ فاخرَ تُراثِها ، وأصار له شَرفَ ميراثِها ، وجعله القائمَ بحقّه ، والمرشدَ لخلقه ، والماحىَ بهُدَاه لَيْلًا من الضّلال بهيا ، والحاوِىَ بخلافته مجدًا لا يزالُ ثناؤه عظِيما : ﴿ ذٰلك الفضْلُ مِنَ اللهِ وكَفىٰ بِاللهِ عَلِيما ﴾ .

يحمَدُه أميرُ المؤمنـين علىٰ أنْ أوضَحَ بآبائه الأئمـةِ سُبُلَ الحقـائق ، فأصبحُوا خلفاءَ الخـالِق وأئمّـةَ الخـلائق ، وخوّلَهُ ما ٱختصّهم به من الإمامه ، ورفَعَـه بها إلىٰ أشْمَخ منـازِلِ العُلَا وأرفَع مَواطِن الكَرامه ، ويستمِدُّه شُـكْرا يُوازِى النِّعَمَ التى أثبتَتْ [له] علىٰ سرير الخلافة وسِرّها قَدَما ، وصَبْرا يُوازِنُ الفجيعةَ التى قَلَّ لها فيضُ المَـــدَامع دَمَا .

ويسأله أن يصلّي على جدّه محمد الذي فضّ بجهاده جُموعَ الإلحاد، وحصدَ باجتهاده مَنْ مال عن الهُدى وحاد؛ وصدَع بما أُمِر به حتّى عمّ التوحيد، ودانَتْ لمُعجزاته الأممُ وقد دعَاها وهو المُفردُ الوحيد؛ ولم يزلْ مبالغًا في مَرْضاة ربّه، حريصًا على إظهار دينه بيده ولسانه وقلبه؛ حتّى ٱستأثَر به وقَبَضه، وبدَّله من الدنيا شرفَ جِواره وعوّضَهْ؛ وأصاره إليه أفضلَ نبيّ بصّر وبَشَّر، وأحيا دينَ الله وأنشَر؛ وعلى أبيه أميرِ المؤمنين عليّ بن أبي طالب إمامِ الأمّه، وأبي الأئمّه؛ وقُدوةِ السعداء، وسيِّد الشُّهداء؛ وعاضدِ الدّين بذى الفقَار، ومَنْ لم يزلِ الحقُّ إلى ذَبّه شديدَ الافتِقار؛ صلّى الله عليه وعلى آبائه والأئمّةِ من ذرّيتهما الذين أيقظُوا العُقولَ بإرشادِهم من السِّنَه، وأفاضُوا من العَدْل والإحسان ما ألْهَجَ بتمْجيدهم الألسِنَه.

وإنَّ الإمامَ الفلانيَّ لدين الله أميرَ المؤمنين كان وليًّا لله شرَّفه الله وٱستخْلَصه، وأفردَه بإمامة عَصْره وخَصَّصه؛ وفوّض إليه أمْرَ خلافته، وأحلّه محلًّا تقَعُ مَطارحُ الهِمَمِ دُونَ علُوّه وإنافَتِه؛ نقام بحقِّ الله ونَهَض، وعمِل بأمره فيما سَنَّ وفَرَض؛ وقَهَرَ الأعداءَ بسَطَواته وعَزَائمه، وصَرَّف الأمورَ بأزِمَّة التدْبير وخَزَائمه؛ وبالغ في الذَّبِّ عن أشْياع المِلَّه، وٱجتهَدَ في جِهَاد أعداءِ القِبله؛ ووقف على مصلحةِ العِباد والبلادِ أمَلَه، ووَفَّر على ما يُحْظِي عنْدَ الله قولَهُ وعمَلَه؛ ولم يتْرُك في مَرْضاة خالقِه مشَقَّة إلا ٱحتمَلَها، ولا رويَّةً إلا صَرَّفها في إرشادِ خلْقه وأعمَلَها؛ حتّى بلغ الغايةَ المحدُوده، وٱستكمَلَ الأنفاسَ المعدُودَه؛ وأحسنَ اللهُ له الاختِيار، وآثرله النُّقلةَ من هذه الدار والزُّلفَى بسُكْنَى دار القَرار، والفوزَ بمصاحبةِ الأنبياءِ الأبرار، والحُلولَ في حظائرِ قُدُسه مع آبائه الأئمّةِ الأطهار؛ فسار إليه طاهرَ السَّريره، جميلَ المَذْهَب والصُّوره؛ مستوجبًا بسَعْيه أفضلَ رضوانِه، ممهِّدا بالتقْوى لتَدْبيره أكْنافَ جنانه.

وأمير المؤمنين[يحتسب]عندَ اللهِ هذه الرَّزِيَّةَ التى عظُمَ بها المُصاب، وعظم عند تجرّعها الصَّاب، وأضرمت القلوبَ نارا، وأجرت الآماقَ دَمًا مُمَـارا (١)، وأطاشَتْ بهَوْلِها الأكبادَ بالحَرَق، وكَحَلت الأجفانَ بالأَرَق، وكادتْ لهُجُومها الصدورُ تَقْذِف أفئدَتَها، والدنيا تَنْزِع نَضْرتها وبهجَتَها؛ وقواعدُ المِلَّة تضْعُف وتَهِى، والخطوبُ الكارثةُ تُصِرّ (٢) ولا تنتَهِى، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون!! تسليماً لأمْرِه الذى لا يُدْفَع، وإذعاناً لقضائه الذى لا يُصَدّ ولا يُمْنَع .

وكان الإمام الفلانىّ لدين اللهِ أميرُ المؤمنين عند نُقْلته جعل لِى عَقْدَ الخلافه، ونصَّ علىَّ بارتقاءِ مَنْصِبها المخصوصِ بالإنافه؛ وأفضىٰ إلىَّ بِسِرِّها المكْنُون، وأودعَنِى غامضَ عِلْمها المَصُون؛ وعَهِد إلىَّ أن أشمَلَكُمْ بالعَدْل والإحسان، والعَطْف والحَنَان؛ والرحمةِ والغُفْران، والمَنِّ الرائقِ الذى لا يكدِّره آمتِنان؛ وأنْ أكونَ لأعلام الهُدىٰ ناشِرا، وبما أرضىٰ اللهَ مُجَاهِرا، ولأحزابِ القبلة مُظافِرا مُظاهِرا، ولأعداء الملةِ مُرْغِما قاهِرا؛ ولِمَنار التوحيد رافعا، وعن حَوْزة الإسلام بغاية الإمكان دافِعا؛ مع علمه بما خُصِصْتُ به من كَرَم الشِّيَم، وفُطِرتُ عليه من الخِلال القاضيةِ مصالحَ الأُمَم؛ وأُوتيتُه من آستحقاق الإمامة وآستيجابها، ومُنِحتُه من الخصائص المُبْرِمة لأسبابها .

فتعَزَّوْا جميعَ الأولياء، وكافَّةَ الأُمَراء، وجميعَ الأجناد، والحاضِرِ من الرَّعايا والْباد، عن إمامِكم المنقُول إلىٰ دار الكَرامه، بإمامكم الحاضِرِ الموجودِ الذى أوْرثه الله مَقامَه؛ وآدخُلُوا فى بَيْعته بصُدُورٍ مشروحةٍ نَقِيَّه، وقلوبٍ علىٰ محْض الطاعة مطْوِيَّه؛ ونيَّات

(١) مار الدم سال وأماره أساله . انظر القاموس .

(٢) أى تدوم من قولهم أصر علىٰ الأمر داوم عليه .

فى الوَلاء والمشايَعة مَرْضيَّه ، وبصائرَ لاتزال بنُور الهُدى والاستبصار مُضيَّه ؛ وأميرُ المؤمنين يسألُ اللهَ أن يجعل إمامَته محظُوظةً بالإقبال ، دائمةَ الكمال ، صافيةً من الأكدار ، معضُودةً بمُواتاة الأقدار ؛ ويوالى حَمْدَه على مامَنَحه من الاصطفاء الذى جعله لأمور الدِّين والدنيا قِوَاما ، وأقامه للبريَّة سيِّدا وإماما ؛ فاعلمُوا هذا واعملُوا به ، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

وكتب فى يوم كذا من شهر كذا سنة كذا .

وهذه نسخة بيعة : كتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمىّ بعد وفاة ابن عمه الآمرِ بأحكام الله ، قام بعَقْدها الوزيرُ أبو الفتح يانِس الحافظى ؛ اقتَصَر فيها على تحميدةٍ واحدةٍ ، وعَزَّى بالخليفة الميِّت ؛ ثم انتقل إلى مقصُود البَيْعة ، وهى :

من عبدِ الله ووليِّه عبدِ المجيد أبى الميْمُون ، الحافظ لدينِ الله أميرِ المؤمنين ، إلى كافَّة أهل الدولة شريفِهم ومشْرُوفِهم ، وأميرِهم ومأمُورِهم ، وكبيرِهم وصغيرِهم ؛ وأحمَرِهم وأسْوَدِهم ، وفَّقهم الله وبارك فيهم .

سلامٌ عليكم ، فإنّ أميرَ المؤمنين يحمَد إليكم اللهَ الذى لا إله إلّا هو ؛ ويسألهُ أن يصلى على جدّه محمدٍ خاتمَ النبيين وسيِّد المرسَلين ، صلَّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهْديِّين ، وسلَّم تسليما كثيرًا .

أما بعد ، فالحمدُ لله اللطيفِ بعبادِه وبَرِيَّته ، الرَّءُوف فى أقداره وأقضيتِه ، المُهيْمن فلا يخرج شىءٌ عن إرادتهِ ومَشيئته ؛ ذى النِّعم الفائضة الغامِره ، والمِنَن المتتابِعة

المتظاهِرَهْ، والآلاءِ المتواليــةِ المُتَناصِرَه ، القائل فى محكم كتابه : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ فى الحياةِ الدُّنْيا وفِى الْآخِرَهْ ﴾ . مدَبِّرِ أرضه بخُلَفائه، الذين هم زينةٌ للدنيا وبَهْجَه، وهادى خَلْقِه بأوْليائه، لئلا يكونَ للنَّاس علىٰ اللهِ حُجَّه ؛ فسُبْحانَ الذى هو للنعم مُسْبِـغ وبالكرم جَدِير، و ﴿ تَبَـارَكَ الَّذِى بِيَـدِهِ الْمُلْكُ وهُوَ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِير ﴾ .

يحمَدُه أميرُ المؤمنين أنْ جعَلَه خليفةً دُونَ أهل زَمانِه، وأوجبَ ثوابَ المستَجيبين له بكَفَالتــه وضَمانه، وجعلهم يوْمَ الفَزَعِ الأكْبرِ مكْنُوفِينَ بحِفْظه مشمُولِينَ بأَمَانه ؛ وأوْزَعَه الشُّـكْرَ علىٰ ما ٱسترعاه إيّاه من أمرِ هذه الأُمَّه ، ونَقَله إليْه من تُرَاث آبائه الهُداةِ الأئمَّه، وكشفه بإمامته من أفجع نائبةٍ وأفظع مُلِمَّه .

وصلَّى اللهُ علىٰ جدِّنا محمدٍ رسولِه الذى أخبر الأنبيــاءُ المرسَلُونَ بصفتِه ونَعْته، وتَدَاولُوا البُشْرىٰ بمـا يُســتقْبَلُ من زمانِه وبعْثِه ؛ وذكَرُوه فيما أتَوْا به من كلِّ كتاب أوحاه اللهُ وأنزَلَه ، وٱعترفُوا بأنه أفضَلُ من كلِّ من نَبَّأه اللهُ وأرسَله ؛ فيَسَّر اللهُ سبحانَهُ ما كان مُرْتقبًا من ظُهُوره، وأَذِن فى إشراقِ الأرض بمـا ٱنتشَر فى آفاقها من نُورِه ؛ وبعَثَهُ ـ جلَّتْ قُدرتُه ـ إلىٰ الأُمَّة بأَسْرِها قاطِبَـه ، وجعل ألْسِـنةَ الأغمادِ مجادِلةً لمن خالف شَرْعَه مخاطِبَه ؛ فكان لآيةِ الكُفْر ماحِيا، وفى مصالح البَرِيَّة ساعِيًا، وإلىٰ سبيلِ ربِّه بالحِكْمة والمَوْعظة الحَسَـنَةِ داعِيًا ؛ إلىٰ أن لَمَعَتْ آياتُ الحقِّ وسطَعَتْ، وٱنحسمتْ مادّةُ الباطلِ وٱنقطعَتْ ؛ وظَهَر من آياته ما كَبُر له المُخْبِتُون، وٱشتَهَر من مُعْجِزاته ما خُصِم به المتعَنِّتُون ، وخاطبه اللهُ فيما أنزَلَ عليه بقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُمْ ميِّتُون ﴾ . فحينئذ نقلهُ اللهُ إلىٰ ما أعدّ له من جنّاته، وخصَّه بشرفِ الشَّفاعة

فى يوم مُجازاته، وصدَقه وعْده فيما بوّأه من النعيم المُقيم : ﴿ ذٰلكَ فَضْـلُ اللهِ يُؤتيه مَنْ يشاءُ واللهُ ذُو الفَضْل العَظِيم ﴾ .

وعلىٰ أبينا أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب أَوْلىٰ الناس بالنَّبىّ، وأوّلُ من ٱتّبعـه من ذَوِى قرابةٍ وأجنَبِىّ؛ وٱبنِ عمِّه الذى ٱختصَّه بمُؤاخاته، وجعله خليفةً علىٰ كافّةِ الناس بعدَ وفَاته؛ وتحمَّل بأمر الله، فيما ولّاه وأوْلاه، وخطبَ الناسَ فى حَجّة الوَداع فقال : «من كُنتُ مَوْلاه فَعَلِىٌّ مَوْلاه»، وعلىٰ آلهما الكِرَام الأبْرار، وعِتْرتِهما المصطَفَيْن الأخْيار؛ وهُداةِ المسلمين وقُدْوتِهم، وأمراءِ المؤمنين وأئمّتهم؛ الذين حكَمُوا فأقْسَطُوا وما قَسَطُوا، وسلك الحضِرُون منهم سَنَنَ أسلافهم الذين فَرَطُوا، وٱقْتفَوْا آثارَهم فى السِّـياسة فمـا قَصَّروا ولا فرّطُوا ؛ ولم يزلْ كلٌّ منهم دامِلاً من ذٰلك بمـا حَسّن أيامَه، فاعلاً فى أمر الدِّين ما رفَع منَـاره ونَشرأعلامَه ، حتّى ٱختار اللهُ له ماعنـده فنَصَّ علىٰ مَنْ أقامه الاستحقاقُ مُقَامه ؛ وسَـلَّم عليهم أجمعيـن سلامًا لا ٱنقِضاء لأَمَدِه، ولا ٱنْقِطاعَ لمَدَده؛ فنيل المطالب بكرمه ومَلَكُوتُ كل شىءٍ بيَدِه .

وإنَّ الحقَّ إن خَفِىَ حِيناً فلا بُدَّ لهِلاَله من الإبْدار وٱنْبِساطِ النُّور، وإن الشمسَ إن توارتْ بالحِجاب فما أوْشَكَ عَوْدَتَها إلىٰ البُزُوغ والظُّهور ؛ وإنَّ حسنَ الصبر إلىٰ أن يبلُغَ الكتابُ أجلَه يُؤمِّن من تَدْلِيَـة الشيطانِ بالغُرور ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ فى كتابه، الذى هَدَانَا به، : ﴿ وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإنَّ ذٰلكَ مِن عَزْمِ الأُمُور ﴾ .

وإنَّ الله تعالىٰ لرأْفتِه بمَن أبْدَعَهُ من خَلْقه وأنْشاه ، ولسابِق عِلْمه فى عِمَارة هـذه الدار علىٰ ماأراده عزَّ وجَلَّ وشَاه؛ لا يُخْلِى الأرضَ من نُورٍ يستَضِىءُ به السارى فى الليلِ البَهِـيم ، ولا يَدَعُ الأمَّةَ بلا إمام يَهْدِى إلىٰ الحَقِّ وإلىٰ طَرِيقٍ مُسْـتَقِيم ؛ فهو جَلَّ وعَلَا أعدَلُ من أن يجعَل جِيـدَ الإيمـانِ من حلىٰ الإمامة عاطلا، أو يَترُكَ

الخلق هَمَلا وقد قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وما بَيْنَهما باطِلًا ﴾ . بل يقْطَعُ أعذارَ العِبَادِ فيما خَلَقهم له ووقَفَهم، ويَهْدِيهم بالأئمة إلىٰ التوفُّر علىٰ عَمَل ماألزمهم وكَلَّفهم ؛ فالأمورُ محروسةُ الترتيبِ محفُوظةُ النِّظام، والأرضُ إذا أظلمَتْ لفَقْد إمامٍ، أضاءتْ وأشرقتْ لقِيام إمَام . وقد علِمَ الكافَّةُ أنَّ حجةَ الله فى أرضه، والمجتَنِبَ من الأعمـال مالم يُرْضِـه، والمحسِنَ إلىٰ البريَّة ببعثِه علىٰ المصالح وحَضِّه؛ الإمامَ الآمِرَ بأحكام الله أميرَ المؤمنين الذى آتاه اللهُ الحُكْمَ صبِيًّا، ورَفَعه من إرْث النبُّوة مكانًا عليًّا ؛ وٱستَخْلفه علىٰ خلْقِه فكان للفضل باسِطًا ولرايةِ العَدْل ناشِرا، وجعله لشَمْل المحاسن جامِعًا ولأئمة الخُلَفاء الراشدين عاشِرا؛ لم يزلْ ناظرًا فى البعيد والقَريب ، عاملًا فى سياسة الأُمَّة عمَلَ المجتهِد المُصيب ؛ مستقْصِيًا حِرْصَه فى المحافظة علىٰ إعزاز المِلَّه ، مستنفِدًا جُهْدَه فى الجِهَاد فيمن خالَفَ أهل القِبْلَه، باذلًا من جزيل العَطاء وكثيرِه ما لا يُعرَفُ معه أحدٌ من خاصَّته بالفَقْر ولا يُنْسَب معه إلىٰ القِلَّه ؛ حتّى ٱستوفىٰ مُدَّتَهُ المَوْهوبه ، وٱستوعَبَ غايتَه المكتُوبه ؛ وناله من القَضَاء ما أخرجه من الدُّنيا سَعِيدا، وأقدَمَه علىٰ الله شَهِيدا، وأصارَهُ إلىٰ ماأعَدّ له من نَعِيم لايُرِيد به بَدِيلا ولايطْلُب عليه مَزِيدا؛ وكان ٱنتقالُه إلىٰ جِوار ربِّه تبارك وتعالىٰ، كٱنتقال أبيه أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب بَغْيًا من الكافرين وٱغْتيالا . وقد كان يَذْكُر مايعلَمُه من حقِّ أمير المؤمنين (١) تارةً مُجاهِرا وتارة مُخافِتا ، إلىٰ أنْ صار علىٰ بَسْط القول فى ذٰلك وتبيينِه مُثابِرا مُتهافِتا؛ وأفصح بمـا كان مستَبهِما مستعْجِما، وصَرَّح بمـا لم يزَلْ فى كَشْفه ممرِّضًا وعن إفصاحه مُحْجِما؛ وذٰلك لمَّا ألفاه أشْرفَ فَرْع من سِنْخ النبوّه، ورآه أكْرَم فى نَجَارة الأُبُوَّه ؛ وعلمه من أباه الأمير أبَا (٢) القاسم

(١) المراد به الحافظ لدين الله صاحب هذه البيعة .

(٢) جرىٰ الكاتب علىٰ لغة القصر .

عَمّه سلامُ الله عليه الذى هو سَلِيلُ الإمامة القلِيلُ المِثْـل، ونجلُ الخلافة المخصوصُ من الفَخْر بأجزل حظّ وأوْفَر كِفْل؛ كان المستنصرُ بالله أميرُ المؤمنين سمّاه ولىَّ عهْد المسلمين، وتضمّن ذلك ما خرجَتْ به توقيعاتُه وتسويغاتُه إلى الدواوين، وثُبّت فى طُرُز الأبْنيه، وكُتبِ الابتياعات والأشْريَه، وعلمته الكافّةُ علمًا يقينا ظلّت فيه غيرَ مُرْتابةٍ ولا ممترِيَه، وفى ضمن ذلك باطنٌ لايعقلهُ إلا العالمُون، ولا يُنْكِره إلا من قال فيهم: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾. وذلك أنَّ أميرَ المؤمنين الغرضُ والمَقْصَد، والبُغيةُ والمَطْلَب؛ وله عَهْد بالتلْوِيح والإشارَه، وإليْه أوحىٰ بالنَّصّ وإن لم يُفْصِح فيه بالعبـاره؛ وكان والدُه الأميرُ أبو القاسم ـ قدّس الله رُوحَه ـ بمنزلة الأشجار التى يُتأنّى بهـا إلىٰ أنْ يَظْهر زَهَرُها، والأكمامِ التى يُنْتَظَر بها إلىٰ أن يخرج ثَمرُها؛ والزَّرَجُونة التى نَقَلتِ المـاءَ إلىٰ العُنقود، والسَّحابةِ التى حَملتِ الغيثَ فعمّ نفعُه أهلَ السُّهول والنُّجود؛ وممـا يبيّن ذلك ويُوضّحه، ويحقّقه ويصحّحه، وتَثلَج به للمؤمنين صُدُور وتَقْوىٰ أفْئِـده؛ وتَشْهد البصائرُ أنَّ النعمةَ به علىٰ الإسلام متتابعةٌ متجدّدَه، أنَّ الأمرَيْنِ إذا تشابهَا من كلّ الجهات، وكانتْ بينهما مُدَد مُتطاولاتٌ متباعدَات؛ فالسابقُ منهما يُمَهّد للتـالِى، والأوّلُ أبدًا رمْزٌ علىٰ الثانى؛ ولا خِلافَ بين كافّة المسلمين فى أنَّ اللهَ تعـالىٰ أمر جدَّنَا محمدًا صلىّ الله عليه وسـلم بعقْد ولايةِ أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب صلىّ اللهُ عليه فعقَدها له يومَ غَديرخُمّ، وأميرالمؤمنين علىٌّ ٱبنُ عمّـه وكان له حينئذ عَمٌّ حاضر، وأمضىٰ ما أُمِر به والإسلامُ يومئذٍ غَضٌّ وعُودُه ناضِر؛ وكذلك أنَّ أمير المؤمنين، هو ٱبنُ عمّ الإمام الآمرِ بأحكام الله أميرِ المؤمنين؛ وقد نصّ مع حضور عُمُومته عليـه، وفعل مافَعَل جدُّه رسـولُ الله ٱقتداءً به وٱنتهاءً إليه؛ وكان أبو علىّ المنصورُ الإمامُ الحـاكمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين صلواتُ الله عليه، جعل ٱبنَه عبدَ الرَّحيم إليـاسَ ولِىَّ عهد المسلمين، ومَيّزه بذلك

علىٰ كافَّة الناس أجمعين؛ ونقَش اسمَه فى السِّكَّه، وأمر بالدعاء له علىٰ المنابر وبمكّه؛ وألْبَسه شَدّةَ الوَقار المرصَّعةَ بالجوهر، وآستنابهُ عنه إمامَ الأعيادِ فى الصلاة وفى رُقىّ المِنْبَر، وأقامه مُقام نَفْسه فى الاستغفار لمن يُتوفّى من خواصّ أوليائه، وفى الشَّفاعة لهم بتَقبّلِ مُناجاتِه ومَسْمُوع دُعائِه، مع عِلْمِـه أنه لايَنالُ رُتبـةَ الخلافه، ولا يبلغ درجةَ الإمامه؛ وأن الإمام الظاهرَ لإعزاز دِينِ الله ـ صلى الله عليـه ـ هو الذى خُلِقَ لها، وحِينَ حُمِّل أعباءَها أقلَّها وما آستثقلَها؛ وإنمـا تحتَ ذٰلك معنًى لطيفٌ غامض، وسرٌّ عن جُمْهور الناس مستترٌ وبرقُه لأُولى البصائر وامِض: وهو أنَّ مكْنُون الحِكْمه، ومكتُومَ علْم الأمـه؛ يدُلَّان علىٰ أنَّ الإمامَ المنصورَ أبا علىّ، سيَفْعل فيمن يستخلِفُه بعده مثلَ فِعْل النبىّ؛ وقد علم الإمام الحاكم ـ عليه الســلام ـ أنَّ المرادَ بذٰلك مَنْ يأتى بعده ممن أَوْلده أو أنْسَله، لأنَّ ولَدَه حاضرٌ والمقصودُ مَنْ لاوَلَدَ له؛ فجعل وِلايةَ عبد الرحيم العهْدَ تأْسيسا لمـا سيكون، وتَنْلا للنُّفُوس من الانزعاج إلىٰ أن تشمَلَها الطُّمأْنينة والسُّكُون؛ فلمَّا أفضىٰ اللهُ إلىٰ الإمام المنصور أبى علىّ الإمامِ الآمرِ بأحكامِ اللهِ أميرِ المؤمنين بالخلافة التى جعلها واجِبًا له حقًّا، ووافقَ جَدّه ـ عليه الســلام ـ وكان لقَبُه من لقَبِـه مشتَقًّا، ظهر المنكَتِم، ووَضَح المستَتِر، وعاد التعريضُ تَصْريحا، والتمريضُ تَصْحيحا، والرَّمزُ إبَانَه، والنصُّ علىٰ أمير المؤمنــين أمانه؛ فاقتدىٰ بجـدّه رسولِ الله صلَّى الله عليه وسـلم فى آســتخلاف أمير المؤمنين مع حُضُور عُمُومته، وفَعَـل فى ذٰلك فَعْلتَه وجرىٰ علىٰ قضيَّته؛ وكَشَف عمَّا أبْهمَهُ الإمامُ الحاكُم بأمر الله قَدّس الله لطيفَتَه فتَساوىٰ الخاصُّ والعامُّ فى معْرِفته؛ ثم حَلَّه أميرُ المؤمنين محلَّ نفْسه فى الجُلُوس علىٰ الأَسْمطه، وعَمِـل لأوليائه ورعيَّته فى ذٰلك بالقَضَايا المُحيطه؛ ونَصَبه منْصِبَه فى الصلاة علىٰ مَنْ جرتْ عادتُه بالصلاة علىٰ مِثْله؛ وجمع فى اعتمادِ ذٰلك بيْنَ إحسانه وفَضْــله وبينَ امتنانه وعَدْله؛ وإذ قد تبيَّن هــذا

الأمرُ الواضحُ الجَلِىّ ، وتساوىٰ فى علمه الشانئُ والولِىّ ؛ وعلم هو ماخَصَّ الله به أميرَ المؤمنين من الإمامه ، وأزاله عن العُقُول من ضَبابٍ متكاثِف وغَمامه ؛ وشَمِله به من فَضْله ورافته ، ونصَبَه فيه من مَنْصِب خلافته ، التى أيَّدها بوليِّه ووزيره ، وعضَّدها بصفِيِّه وظهيرِه ، السيد الأجل أبى الفتح يانس الحافظىّ الذى جعله الله علىٰ اعتنائه بدَوْلة أمير المؤمنين من أوْضَح الشواهد والدلائل ، وصَرَف به عن مملكته محذُورَ الصُّروف والغَوائل ؛ وأقام منه لمُناصحةِ الخلافة مُخْلِصا جمعَ فيه أسبابَ المَناقب والفَضائل ، وأيده بالتوفيقِ فى قوله وفِعْله فأربىٰ علىٰ الأواخِر والأوائل ؛ ودلَّت سيرتُه الفاضلةُ علىٰ أنه قد عَمَر مابينَ الله وبيْنَه ، وحكمَتْ سُنَّته العادلةُ أن كلَّ مدْح لا يبلُغ ثناءَه وكلَّ وصف لايقعَ إلَّا دُونه ، والله يضاعف نِعَمه عنده ولديْه ، ويفتَحُ لأمير المؤمنين مشارِقَ الأرض ومَغاربَها علىٰ يدَيْه ؛ وهذا يحقِّق أنَّ الإسلام قد أحدثَ له قُوَّةً وتمكينا ، وأن ذَوِى الإيمان قد ازدادُوا إيمانا واستِبْصارا ويقِينا ؛ فيجبُ(1) عليكم لأمير المؤمنين أن تدخُلوا فى بَيْعته مُنشرحةً صُدُورُكم ، طيِّبةً نفوسُكم ؛ مجتهدِين له فى خدْمة تُقابِلون بها إحسانَه ، متقرّبين إليه بمناصحة تُحْظيكم عندَ الله سبحانَه ؛ عاملين بشرائط البَيْعة المأخُوذةِ علىٰ أمثالكم الذين يُتَّبعون فى فعلهم ، ويقعُ الإجماع بِمِثْلهم ؛ ولكم علىٰ أمير المؤمنين أن يكون بكم رَحِيما ، وعن الصغائر مُتجاوِزا كريما ، وبالكافَّة رءُوفا رفيقا ، وعلىٰ الرَّعايا عَطُوفا شفيقا ، وأن يصفح عن المسىء مالم يأتِ كبيره ، ويُبالغَ فى الإحسان إلىٰ مَنْ أحسن السِّيره ؛ ويُولِىَ من الإفضال مايستخلِصُ الضمائر ، ويُسبِغَ من الإنعام مايقتضى نَقاءَ السرائر ؛ وأمير المؤمنين يسألُ اللهَ أن يعرِّفكم بركَةَ إمامته ، ويُمْنَ خلافته ؛ وأن يجعلها ضامنةً بلُوغَ المطالِب ، كافلةً لكافَّتكم بسعادة المَبادئ والعَواقب ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(1) هذا متعلق إذ قد تبين كما لايخفىٰ .

المـــــذهب الثـالث

(أن تُفْتَتح البيعةُ بعدَ البسملة بخُطبة مفتَتَحة بالحمدُ لله،
ثم يؤتىٰ بالبعديّة ويُتَخَلَّص إلىٰ المقصُود، وقد يُذْكَر السـلطان القائمُ بهـا
وقد لايُذْكَر . وعلىٰ ذٰلك كانتْ تكتَبُ بيعاتُ خُلَفاء بني أُمَيَّة
بالأنْدَلُس، ومن ٱدَّعىٰ الخلافة ببلاد المَغْرِب)

وهٰذه نسخةُ بيْعةٍ كتب بهـا طاهرُ الأنْدَلُسىّ، فى أخذ البيعة علىٰ أهل دانيَـةَ من الأندَلُس، للرشيد بن المأمُون الأُمَوِىّ، وهو منتصِبٌ فى الخلافة : تَخلُّف توهَّمه من الرعية . ٱقتصر فيهـا علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ، وليس فيها تعرُّض لسلطانٍ قائم بعقْدها، وهى :

الحمدُ للهِ الذى أسبَغَ إنعامَه باطنًا وظاهِرا، وسوَّغَ إفضاله هامِلًا وهامِرا، وأعْجز عن وصْف إحسانه ناظِما وناثِرا، وقَهر الخلقَ ناهيًا وآمِرا، وتعـالىٰ جَدُّه فلا ترىٰ له مُضاهِيًا ولا مُظاهِرًا، ولا مُوازيا ولا مُوازِرا، ونصر الحقَّ وكفىٰ به وليًّـا وكفىٰ به ناصِرا، وجعل جَدّ المطيع صاعِدًا وجَدّ العَصِىّ عاثِرا، وحَذَّر من الخلاف باديًا وحاضِرا، وماضِيًا وغابِرا .

نحمدُه سبحانَه علىٰ نِعَمه حمدَ من أصبح لعُلَق الحمد ذاخِرا، ونشكُره علىٰ مِنَنه ولن يُعْـدِم المزيدَ منه شاكِرا، ونَضْرَع إليه أن يجعل حظَّنا من بركة الاعتصام وافِرا، ووجْهَ نِيَّتنا فى الانتظامِ سافِرا، وأن يمنَحَ أولياءَه النصرَ ظاهِرًا والفتحَ باهِرا، وأعداءَه الرُّعْب شاجِيًا والرُّمْح شاجِرا، ونشهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ شهادةَ من أقرّ له بالوَحْدانيّـة صاغِرا، وأضْحىٰ لأوامره ممتثِلًا ولنواهيه مُحاذرا، ونسأله أن يجعلَ حزْبَ الإيمـان

ظافرا ، ويمدّه بنصره طالبًا للثار ثائرا ؛ وصلّى الله على سيدنا محمد رسوله الذى انتخبه من صفوة الصّفوة كابرًا فكابرا ، وجعله بالفضيلة أوّلا وبالرّسالة آخرا ؛ فأيقظ بالدّعاية ساهيًا وناسيًا وسكّن بعد الإبانة منافيا ومنافرا ، وأذهب بنوره ليلا من الجهالة ساترا ؛ وقام بجهاد الكفرة ليثا خادرا ، وباشر بنفسه المكاره دارعا وحاسرا ؛ وشهد بدرا مبادرا ، وحنينا منذرًا بالخبر نادرا ؛ وظهر عليهم فى كلّ المشاهد غالبا وما ظهروا نادرا ؛ وعلى آله وأصحابه الذين منهم صاحبه وخليفته ، المعلومة رأفته ، أبو بكر الذى اقتحم لهول الرّدّة مصابرا ، وسلّ فى قتال الرّوم أهل الجلد والشّدّة سيفا باترا ؛ ومنهم القوىّ فى ذات الله عمر الذى أصبح به ربع الإسلام عامرا ، ولم يخش فى الله عاذلا ولم يرج غادرا ؛(١) ومنهم الأصدق حياءً عثمان ملاقى البلوى صابرا ، والخفر الذى لم ير للأذمّة خافرا ؛ ومنهم أقضاهم علىّ الذى قاتل باغيًا وكافرا ، وبات لخوف الله ساهرا ؛ ورضى الله عن الإمام المهدىّ الذى أطلعه نورا باهرا ، وبحرًا للعلم زاخرا ، وأتى به والضّلال يجرّ رسنه سادرا ، والباطل يثبت وينفى واردا وصادرا ؛ فجدّد رسم الحقّ وكان داثرا ، وقام بآرائه علما هاديا وقرما هادرا ؛ وعن الخلفاء الراشدين المرشدين من أصبح حائدًا عن الحقّ جائرا ، المجاهدين خاتلا بالعهد خاترا .

أما بعد ، فإنّ الله سبحانه جعل الإمامة للناس عصمه ، ومنجاةً من ريب الالتباس ونعمه ، بها تتمهّد عمارة الأرض ، ويتجدّد صلاح الكلّ والبعض ؛ ولولاها ظهر الخلل ، واختلط المرعىّ والهمل ؛ وارتكبت المآثم ، واستبيحت المحارم ؛ واستحلّت المظالم ، وانتقم من المظلوم الظالم ؛ وفسد الائتلاف وافترق النّظام ؛ وتساوى الحلال والحرام ؛ فاختار لأمرهم رعاةً أمرهم بالعدل فعدلوا ، وبالتواصل

(١) أى لم يخف وفى بعض النسخ «ولا يبرح غادرا» وهو غير مناسب .

فى ذات الله والتّقـاطُع فقَطَعوا فى ذاتِ اللهِ ووصَلُوا ، وعدَلُوا بين أهْلِيهم وأقْرَبِيهم فيما وُلُّوا ، ونَهَضُوا بأعباء الكِفايةِ والحِماية وآستقَلُّوا ، وألزمهم الإتّفاقَ والإنقياد ، وحظَر عليهم الإنشِقاق والعِناد ؛ فملَكُو بأزِمَّة العقل قِيادَ الأُمُور ، وأشرقَتْ بسِيَرتهم المباركةِ أقاصِى المعْمُور ، وشاهد الناسُ فواضِلَ إمامهم ، وتبيَّنُوا من سيرتِهم العادلة عُلُوّ محلِّهم فى الخلائِف ومَقَامِهم ؛ ولم يُطْرَقْ فى مُدّتهم للإسلامِ جَنَاب ، ولا آقْتُحِم له باب ؛ وأنّى وسُيُوفُهم تقْطُر من دِمَاء الأعداء ، وبلادُهم ساكنةُ الدَّهْماء ، والكَفَرةُ بالرُّعب المُخامِر والداءِ العَياء ، وأهلُ الإيمان ، يَجُرُّون ذُيولَ العَزائم ، وعَبدةُ الصُّلْبان ، يعْثُرون فى ذَيْل الهَوَان الدائم ؛ إلىٰ أنْ عَدِمتِ الأرضُ منهم بِحارَها الزَّواخِر ، وأنوارَها البَوَاهِر ، ورأتْ بعدَهم العُيونَ الفواقِئَ والمُتُونَ الفواقِر ؛ وآكْفَهَرّ وجهُ اللّأْواء ، وتفرّقت الفِرقُ بحَسَب الأَهْواء ، وسُفِكت الدِّماء ، ورُكِبتِ المَضَلّةُ العَمْياء ، وآحتُقِبتِ الجَوَائِر ، وأُهْمِل الشرْعُ والشَّعائِر ، ثم إنّ الله تعالىٰ أذِنَ فى كشْف الكُرَب ، وأطلَع بالغَرْب نُورا مَلاَ الدَّلْوَ إلىٰ عَقْد الكَرَب ، وهو النُّور الذى أضاء للبَصَائر والأَبْصار ، وطلع علىٰ الآفاق طُلُوعَ النَّهار ، وذُخِرتْ أيّامُه السعيدةُ لدَرْك الثار ، وكَلِفتْ به الخلافةُ وطال بها كَلَفُهُ ، وقام بالإمامة مثلَ ما قام بها الخلفاء الراشدون سَلَفُه ، وذٰلك هو الخليفةُ الإمامُ أميرُ المؤمنين الرشيدُ بالله آبنُ الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين ، وخَلَّد فى عَقِبهم الإمامةَ إلىٰ يوم الدِّين ، وهو الأسَدُ الهَصُور ، ومَنْ أبُوه المأمونُ وجدّه المنْصُور ، العريقُ فى الخلافه ، والحقيقُ بالإمامة والإنافه ، فجمَع ما آفترَق ، ونظَّم الأمورَ ونَسَّق ، ومنَع الحَوْزةَ أن تُطْرق والملّةَ أن تَفْترِق أو تُفَرّق .

وهذه نسخةُ بيعةٍ كتبَ بها أبو المطَرِّف بنُ عُميرةَ الأندَلُسىّ بأخْذ البيعة علىٰ أهل شاطِبةَ من الأندَلُس لأبى جعفر المستَنْصِر بالله العبَّاسِىّ ، قام بعَقْـدها أبُو عبدِ الله محمد بنُ يوسفَ بنِ هُودٍ صاحبُ الأندلس ، ثم أخذ البيعةَ بعد ذٰلك عليهم لنَفْسه ، وأن يكون ٱبنُه ولىَّ عهْده بعدَه ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعَلَ الأرضَ قرارا ، وأرسـلَ السَّماء مِدْرارا ، وسَخَّر ليْلا ونَهارا ، وقدَّر آجالًا وأعْمارا ، وخلَق الخَلْق أطْوارا ، وجعل لهم إرادةً وٱخْتِيارا ، وأوجَدَ لهم تفكُّرا وٱعتبارا ، وتعاهَدَهم برحمتِه صِغَارا وكِبَارا .

نَحْمَدُه حمَدَ من يَرْجُو له وَقَارا ، ونَبْرَأُ ممن عانَدَه ٱستِكْبارا ، وألْحَدَ فى آياته سَفَاهةً وٱغْتِرارا ، وصـلَّى الله علىٰ سيدِنا محمد الشريف نِجَارا ، السامِى نَخَـارا ؛ فرفع اللهُ (١) من شريعتِه للأُمَّة مَنَارا ، وأطْفأ برسالته للشِّرْك نارا ، حتّى عَلَا الإسلامُ مِقْدارا ، وعَزَّ جارًا ودارًا ، وأذعنَ الكُفْرُ ٱضْطِرارا ، وٱستَسْلَمَ ذِلَّةً وصَغَارا ، فمضىٰ وقد ملأَ البسيطَةَ أنْوارا ، وعمَّها بدَعْوته أنجادًا وأغْوارا ، وأوجب لوُلَاة العَهْد بعـدَه طاعةً وأئِتمارا ، فجزاه اللهُ أفضـلَ ماجزىٰ نبيًّا مختارا ، ورسولًا ٱجتباه ٱختِصاصًا وإيثارا ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله الطيبين آثارًا وٱختِبارا ، وعلىٰ أصحابه الكِرامِ مهاجِرِين وأنصارا ، صلاةً نُوالِيها إعْلانا وإسْرارا ، ونرجُو بها مغْفِرةَ ربِّنا إنَّه كانَ غفَّارا .

أما بعـدُ ، فإنَّ المستأْثِر بالدَّوام ، اللَّطيفَ بالأَنَام ، أنشأَهُمْ علىٰ التغايُرِ والتبايُن ، وٱضـطرهم إلىٰ التَّجاوُرِ والتعاوُن ، وجعل لهم مصلَحةَ الاِشْتراك ، ومنفعةَ الاِلتحامِ

(١) لعله " الذى رفع الله به من " الخ . تأمل .

والاشتباك ؛ طريقًا إلى الأفضل فى حياتهم ، والأسعد لغاياتهم ؛ و بعث النبيين مرغّبين ومحذّرين ، ومبشّرين ومنذرين ؛ فأدّوا عنه ما حمّل ، و بيّنوا ما حرّم وحلّل ؛ وكان أعمّهم دعوه ، وأوثقهم عروه ؛ وأعلاهم فى المنزلة عنده ذروه ، وأعطفهم للقلوب وهى كالحجارة أو أشدّ قسوه ؛ المخصوصُ بالمقام المحمود ، والحوض المورود ، وشفاعةِ اليومِ المشهود ، ولواءِ الحمدِ المعقود ، صلّى الله عليه وعلى آله وسلم أفضل صلاة تفضى إلى الظلّ الممدود ، وتبلغنا من شفاعته أفضل موعود ؛ بعثه الله للأحمر والأسود ، والأدنى والأبعد ؛ فصدع بأمره وظلامُ الليلِ غيرُ منجاب ، والدّاعى إلى الله غيرُ مجاب ؛ وأهلُ الجاهليّة كثيرٌ عددهم ، شديدٌ جلدهم ، بعيدٌ فى الضّلالة والغواية أمدهم ؛ فسلك من هدايتهم سبيلا ، وصبر لهم صبرًا جميلا ، يحبّ صلاحهم وهم العدوّ ، ويلين لهم إذا جدّ بهم العتوّ ، ويجهد فى إظهار دينه ولدين الله الظهورُ والعلوّ ؛ حتّى انقادوا بين سابقٍ سبقت له السّعاده ، ولاحق تداركته المشيئة والإراده ؛ ولما رفعت رايةُ الإسلام ، وشفعت حجّةَ الكتاب حجّةُ الإسلام (١) ، ودُعى الناس إلى التزامِ الأحكام ، ونُهوا عن الاستقسام بالأزلام ، أخبتوا إلى الربِّ المعبود ، وأشفقوا من تعدّى الحدود ، ووعظوا فى الأيمان والعهود ؛ فأتمروا للشرع حين أمر ، وخافوا وخامة من إذا عاهد غدر ؛ فكان الرجلُ يدعُ الخوضَ فيما لا يعلمه ، ويترك حقّه لأجل يمين تلزمه ، وشرعت الأيمانُ فى كلّ فنٍّ بحسب المحلوف عليه ، وعلى قدر الحاجةِ إليه ؛ فواحدةٌ فى المال لحقّ الأداء ، وأربعٌ مخمّسةٌ عند ملاعنةِ النّساء ، وخمسون انتُهى إليها فى أحكام الدّماء ، فتُوثّق للحدود على مقاديرها ، وجرت أمور العبادات والمعاملات على أفضل تقديرها ؛ وقبض رسول الله صلّى الله عليه وسلم والعدلُ قائم ، والشرعُ على القوى والضعيف حاكم ، والربّ

(١) لعل المراد بالأول الدين وبالثانى الانقياد إن لم يكن مصحفا عن الاستسلام .

جلّ جلالُه بما تُخفى الصدُورُ عالم ؛ وقام بعده الخلفاءُ الأربعة أركانُ الدِّين ، وأعضادُ الحقّ المبين ؛ يحملون الناسَ علىٰ سَنَنِه الواضح ، وينفّذون أمورَ المَصالح ، ويتفقّهون فى الأحكام وُقوفًا مع الظاهر وترجيحًا للراجح ؛ وكانوا يتوقّفون فى بعض الأحيان ، ويطلُبون للشُّبَه وجْهَ البيان ، ويستظْهرون علىٰ تحقيقِ كثيرٍ من الوقائع بالأيمان ؛ حتّى كان علىٌّ كرم الله وجهه يستثْبِتُ فى الدِّرايه ، ويستحْلِفُ الراوِىَ علىٰ الرِّوايه ؛ وما أنكر ذٰلك أحدٌ ، ولا أعْوزه من الشرع مستَنَد ؛ رضى الله عنهم أئمّةً بالعَدْل قَضَوْا ، وعلىٰ سبيله مَضَوْا ، والسِّيرةَ الجليلةَ تخيَّروا وٱرتضَوْا ؛ وعن سيدِ الأنَام ، ومستنْزِل دَرّ الغَمَام ، عمّ نبيِّنا عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ الحامى الحَدب ، والمَعْقِل الأشَب ؛ والغيثِ الهاملِ المُنْسكِب ، أبى الفضْل العبّاس بنِ عبدالمطّلب ؛ وعن الفائزين بالرُّتْبة الكريمه ، والصُّحْبة القديمه ، والمَناقب العظيمه ؛ بُدُورِ الظّلام وبُحُورِ الحِكَم ، وصُدُورِ أنْدِيَة الفضلِ والكَرَم ؛ وسائرِ صحابتِه عليهم السلامُ الذين أسلموا علىٰ عُمْره(١) ، وأسلفُوا جِدّا فى نَصْره ، وأدركُوا من بركةِ عِيانه وزمانِه مالامُدْرِكَ لحصره ؛ كرّم الله مآبَهُم ، وأجزَل ثوابَهُم ، وشكر لهم صَبْرَهم وٱحتِسابَهم ؛ فلقد عقَدُوا نيّةَ الصِّدق عند قِيامِهم لأداء فريضةِ الإطاقَهْ ، وٱستباحُوا صلاةَ الشكر حينَ رفَعُوا حدَثَ الرِّدّة وأراقُوا سُؤْر الشِّرك وقد ٱستحَقَّ بنجاستِه الإراقَهْ ، وٱبتزُّوا كسرىٰ زِينَته فأبرزُوها علىٰ سُراقَه ؛ فرأَوْا عِيانًا ما أخبر به سيدُ المرسَلِين ، وملَكُوا ما زُوِىَ له منها فاطّلع عليه بحقّه المبين ؛ وذهبُوا فأظلَمَت الأرض من بعْدِهم ، وتنكّرت المَعارِفُ لفَقْدهم ، وٱختلط الهَمَل والمَرْعِىّ ، وتشابَهَ الصَّريحُ والدَّعِىّ ؛ وثارت الفتَنُ من كل جانِب ، وصارت الحقوقُ نُهبةَ [كل] ناهِب ؛ ولَمّا بَرِحَتِ(٢) العُهود ، وتُعدِّيت

---

(١) مراده على عهد النبي وفى زمنه .

(٢) لعله ولما تركت العهود . تأمل .

الحُدُود، بلَغ الوقتُ المحدُود، وطلعتْ ببياضِ العَدْل الراياتُ السُّود، تحتَها ساداتُ النـاس، وذَادَةُ مَوقِف البأس، وشُهُبُ اليومِ العَمَاس، ونُجُبُ البيت الكريم من بنى العَبَّاس، فأعادُوا إلىٰ الأمرِ رونَقَـه، ونفَوْا عن الصَّفو رَنْقَه، وحَمَوْا حُرَمَ المسلمين، وأحيَوْا سُـنَّةَ ٱبن عمِّهم سـيِّدِ المرسَلين، فأصبحَتِ الأمورُ مضبُوطه، والثُّغُور محُوطه، والسُّبُل آمنه، والرعيَّةُ فى ظلِّ العَدْل والأمْن ساكِنَه، وكان الناسُ قبْلَهم قد رَكِبُوا الصَّعْبَ والذَّلُول، وٱمتَطُوا الحَزْنَ والسُّهول، فوثِقُوا منهم بطاعتِهِم، وٱستحْلَفُوهم علىٰ بَيْعاتِهِـم، ذٰلك بأنهم ألزمُوهم منهـا واجباً علىٰ القَطْع، لازماً بإلزام الشَّرْع، ووجَدُوا لِمَصْلَحةِ الٱرتباط بالأَيْمـان شواهِدَ من الآثار المنقُوله، والأُصُول المقْبُوله، ومَنْ أعطىٰ من نَفْسه كلَّ ما عليها، وراعىٰ جمـلةَ المصالح وكلَّ ما تطَرَّق إليها، فكيف لا يكونُ فى سَعةٍ من هـذا التكليف المستَنِد إلىٰ الآثار الشرعيَّة، الداخلِ فى أقسام المَصالح المرْعِيَّة، كما سلَفَ من الأئمة المُهتَدِين، آباءِ أميرِ المؤمنين وخليفةِ ربِّ العالمين، ٱبن عمِّ سيِّدنا وسيِّد المرسَلين، صلواتُ الله عليهم أجمعين.

لمَّـا دعا الناسَ بالمملكة الفُلانيةِ حَماها اللهُ إلىٰ حُجَّتِهم القَوِيَّه، وإمْرَتِهم الهاشميَّه، مجاهِدُ الدين، بسيْفِ أمير المؤمنين، جمـالُ الإسـلام، مجْدُ الأَنَام، تاجُ خَوَاصِّ الإمَام، فَخْرُ مُلُوكه، شرفُ أُمَرائه، المتوكِّلُ علىٰ الله تعالىٰ أميرُ المسلمين أبوعبدِ الله محمدُ بْنُ يوسُفَ بن هود، أسـعَدَ الله أيَّامه، ونصَرَ أعلامَه، وقام لذٰلك متوحِّدا المَقَام الكريم، مشمِّرا عن ساعِدِ التَّصْمِيم، ماضـيًا إلىٰ الهَوْل مَضَاءَ الحُسَام القاضِب، غاضبًّا لأمر الله ورضاه علىٰ غاية هـذا الغاضب، مالَتْ إليه الأجياد، وٱنثالت عليه البِلَاد، فانتظَمَها مَدِينةً مَدِينه، وجعل التوكُّلَ علىٰ الله سبحانه شريعةً مَنِيعة وذريعةً مُعِينه، وتقَـدّمَ ـ أيده الله ـ بأخْذ البيعة علىٰ نَفْسه وعلىٰ أهـل المِلَّة قاطبـةً للقائِم بأمْرِ الله سـيِّدنا ومولانا الخليفـــة الإمامِ المستنصِرِ بالله أبى جعْفر

أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين ؛ وكان له فى ذلك المرامُ السَّعيد، والمقامُ الحميد، والقَدَمُ(١) الذى رضِىَ إبْداءه وإعادتَه المُبْدِئُ المُعيد؛ وخاطب الدِّيوانَ العزيز النبوىَّ ـ خلَّد الله شرفه ـ متضرِّعا لوسائِل خِدْمته، متعرِّضا لعواطِف رحْمتِه ؛ وبعث رسُولَه على أصْدق رجاءٍ فى القَبُول ، وأثْبتِ أملٍ فى الإسْعاف بالمأمُول ؛ وأثْناءَ هذه الإرادةِ القويمه، والسَّعادةِ الكريمه ؛ تفاوضَ أهلُ البِلاد فى توثِيقِ عَقْدهم للسلطان فلان المشارِ إليه الذى هو حُكْم من أحكام الإجْماع المنعَقِد ، وأصلٌ أفضى إليه نظَرُ الناظِرِ واجتِهادُ المجتَهِد ؛ إذ أجالُوا الأمْرَ فيما يَزِيدهُ وَثاقَهْ، ويكْسُو وجْهَه على الأيَّام بِشْرا وطَلاَقه ؛ ويجعل القلوبَ مطمئِنَّةً برُسُوخه فى الأعْقاب، وثُبُوتِه على الأَحْقاب؛ فلم يَرَوْا رأْيا أسَدّ، ولا عَملاً أحْصَفَ وأشَدّ، من أن يطْلُبُوه بعقْد البيعة لِابْنِه الواثِق بالله المعتصِم به أبى بكرٍمحمد بنِ مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين ، علىٰ أن يكونَ ولِىَّ عهدِهم مُدّةَ والدِه مَدّ اللهُ فى حَياته، وأميرَهُم عند الأجَل الذى لابُدَّ من مُوافاتِه ؛ فأمضىٰ لهم ذٰلك من اتِّفاقِهم ، وأثْبتُوا علىٰ ماشرَطَتْه بيعتُه فى أعناقهم ؛ وبعد ذلك أتىٰ صولةُ الإسلام ، وصِلةُ دار السلام؛ وورد رسول مَثابَةِ الجلاله ، ونِيَابَةِ الرِّساله؛ ومُلْتزَم المَلائك ، ومُعْتَصَم المَمالك؛ ومعه الكتابُ الذى هو نصٌّ أغنىٰ عن القِياس ، بل هو نورٌ يَمْشِى به فى الناس ؛ وأدّىٰ إلىٰ السلطان فلان المشارِ إليه من تشريف الدِّيوان العزيز النبوىِّ ماوَسَمه من الفَخار بأجَلِّ وَسْمِه، وقلَّده السيْفَ الصارمَ وسَمَّاه بِاسْمِه؛ فَتلاقىٰ السيْفان المضْرُوبُ والضارِب ، واشْتَبه الوَصْفانِ الماضى والقاضِبْ ؛ وبرزَتْ تلكَ الخِلَعُ فابيَضَّ وجْهُ الإسلام من سَوادها، ووُضِع الكتابُ فكادتِ المَنابِرُ تَسْعىٰ إليه شوْقًا من أعْوادها ؛ وقُرِئت وَصايَا الإمام ، علىٰ الأنام ؛ فعلمُوا أنها من تُراثِ الرِّساله ،

(١) ذكر القدم لأنه بمعنى السبق تأمل .

وقالوا : كافِلُ الإسلام جدّدَ له بهذا الصُّقْع الغربِيِّ حُكْمَ الكَفَالَه ؛ وسَمِعُوا من التقدُّم بإنصافهم، والتهمُّم بمواسطهم وأطرافهم ؛ جُمَلًا عفّروا لها الجِبَاهَ جُودًا بالجهد، وسجَدُوا للشُّكر والحمد ؛ فأدركوا من بركة المَشَاهِد أثبتَ شَرَفٍ وأبقاه ، ورأَوْا حقيقةَ ما كادتِ الأوهامُ تزُولُ عن مَرْقاه ؛ وآزدادوا يقينًا بفضل ماصارُوا إليه ، ورأَوْا عِيانًا يُمْنَ ما بايَعُوا عليه ؛ فتوافَتْ طوائِفُهم المتبُوعه ، وجماهيرُهُم المجمُوعه ؛ بِدَارًا إلىٰ المَرَاضِى الشَّرِيفه ، وبناءً علىٰ وَصايَا عَهْدِ الخَلِيفه ، أن يُجَدِّدوا البَيْعةَ لمجاهِدِ الدِّين ، سيفِ أميرِ المؤمنين ؛ تولَّى الله عَضْدَه ؛ ولابنِه الواثِق بالله المعتصِمِ به أنهضه اللهُ بإمْرته بعْدَه ؛ ولم تَعْدُ أن تكونَ الزِّيادةُ الطارئةُ شَرْطا فى تقرير الإمْرة المؤدَّاة وإثْباتِها ، أو جاريةً مجْرىٰ السُّنَن التى يُؤْمَرُ المصَلِّى بالإعادة عِنْد فَوَاتِها ؛ فأعادوا بَيْعته أداءً للفَرِيضة ورجاءً للفَضِيله ؛ وآستنَدُوا إلىٰ الإشارات الجليله ، بعْدَ الاستِخارات الطويله ؛ ورأَوْا أنْ يأخُذوا بها عادةَ البَيْعات العبَّاسيَّه ، واتخاذُ حُكْم الأصل طرِيقُ الإلْحاقات القِياسِيَّه ؛ فبايَعُوا علىٰ تذكُّرٍ بيعةً أكَّدوها بالعُهُود المستحْفَظه ، ووثَّقوها بالأيمانِ المغَلَّظَه ؛ وبادَرُوا بها نِداءَ مُنادِيهم ، وأعطَوْا علىٰ الإصْفاقِ بها صَفْقةَ أيْدِيهم .

ولمَّا آنتهىٰ ذلك إلىٰ المَلَإ من أهل فلانةَ وجِهاتِها ، رأَوْا أن يحْلِفَ من سَبَقْ ، ويَصْدُقُوا النِّيَّة مع مَنْ صدَق ، ويعقِدُوا ما عقَدُوه علىٰ ماصَرَّح به العهْدُ الشريف ونَطَق ؛ فحضر منهم العلماءُ والصُّلحاءُ ، والأجنادُ والوُزَراءُ والفُقهاءُ ، والكافَّةُ علىٰ تبايُنِهِم فى المَرَاتب ، وتفاوُتِهم فى المَنَاصِب ، وآختِلافِهم فى المَوَاطن والمَكَاسب ؛ فأمْضَوْها بيعةً كريمةَ المَقَاصِد ، سليمةَ المَعَاقِد ؛ عَهْدُها مُحْكَم ، وعَقْدُها مُبْرَم ؛ ومُوجَبُها طاعةٌ وسَمْع ، والتقيُّد بها سُنَّة وشَرْع ؛ ويَعْمُرونَ بها أسْرارَهُم ، ويُفْنُون عليها أعمارَهُم ؛ ويَدِينُون بها فى عُسْر ويُسْر ، وربْح وخُسْر ؛ وضيق ورَفاهيَه ، ومحبَّة

وكَرَاهِيَه؛ تبرَّعُوا بذلك كلِّه طَوْعا، وٱستوْفَوْه فصْلًا فَصْلًا ونَوْعا نَوْعا؛ وعاهدُوا عليها الذى يعلم السِّرَّ وأخفىٰ، وأضمَرُوا منها علىٰ ما أَبَرَّ علىٰ الظاهر وأَوْفىٰ؛ وتقبَّلُوا من الوَفَاء به ماوصف الله به خليلَه إذ قال : ﴿و إبْراهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾؛ وأقسموا بالله الذى لاإلٰهَ إلا هو عالمُ الغيب والشهادة العزيزُ الرحِيم، وبما أَخَذَه علىٰ أنبيائه الكِرام من العُهُود المؤكَّده، والمَوَاثيقِ المُشَدَّده، علىٰ أنهم إن حادُوا عن هذه السبيل، وٱنقادُوا لداعِي التَّحْريف والتَّبْديل؛ فهُم بُرَآءُ من حول الله وقوّته إلىٰ حَوْلهم وقُوَّتهم، تاركون ذِمَّته الوافيةَ لذِمَّتهم؛ والأيْمانُ كلها لازمةٌ لهم علىٰ مذهب إمامِ دار الهجرة، وطلاقُ كل ٱمرأةٍ فى مِلْكِ كل واحدٍ منهم لازمٌ لهم ثلاثا، وأيُّما ٱمرأةٍ تزوّجَها فى البلاد الفلانيـة فطلاقُها لازمٌ له، كلَّما تزوّجَ واحدٌ منهن واحدةً خرجتْ طالقا ثلاثا؛ وعلىٰ كلِّ واحدٍ منهم المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام علىٰ قدمَيْه، مُحْرِمًا من مَنْزِله بحَجَّةٍ كفَّارةً لاتُجْزِئُ عن حَجَّة الإسلام؛ وعبيدهُم وأرِقَّاؤُهم عُتَقاءُ لاحقُونَ بأحرار المسلمين، وجميعُ أموالِهم عَيْنا وعَرْضا، حَيوانًا وأرْضا، وسائرُ مايَحْوِيه المُتملِّكُ كُلًّا وبعضا، صدقةٌ لبيتِ مال المسلمين؛ حاشىٰ عَشَرَة دنانِير . كُلُّ ذٰلك علىٰ أشدّ مذاهب الفَتْوىٰ، وألزمها لكلمةِ التَّقْوىٰ؛ وأبْعـدها من مخالَفةِ الهَوىٰ والظاهرِ والفَحْوىٰ؛ أرادُوا بذٰلك رضا الخلافة الفلانيـة والفلانية (بلقبي السلطنة) للسلطان وولده المأخُوذِ لهما البيعةُ بعد بيْعته، وأشهدُوا اللهَ علىٰ أنفسهم، وكفىٰ بذلك ٱعْتِزاما وٱلْتِزاما، وشَدّا لما أَمَر به وإحْكاما : وَ﴿مَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِـه﴾ ﴿ومَنْ يفْـعَلْ ذٰلكَ يَلْقَ أَثَاما﴾ . وهم يرفعُون دعاءهم إلىٰ الله تضَرُّعا وٱستِسْلاما، ويسألُونه عِصمةً وكفايةً ٱفْتِتاحا وٱخْتِتاما؛ اللهم إنَّا قد أنفَذْنا هـذا العقْد ٱقتِـداءً وٱهْتِماما، وقضَيْنا حقَّه إكْمالًا وإتمامًا، وأسلَمْنا وجْهنا إليـك إسْلاما؛ فعَرِّفْنـا من خيره وبركتِـه نَمَاءً ودوَاما، وٱكْلأْنا بعينك حركةً وسُكُونا ويقْظَةً ومَنَاما :

و﴿ هَبْ لَنَـا مِنْ أزْواجِنَا وذُرِّيّاتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ وٱجْعَلْنَا للمُتَّقِينَ إماما ﴾ إنك أنتَ اللهُ منتهىٰ الرَّغَبات، ومجيبُ الدَّعَوات، وإلٰهُ الأرض والسَّمٰوات .

وهــذه نسخةُ بيعة مرتَّبة علىٰ موتِ خليفة، أنشأتُها علىٰ هــذه الطريقة لموافقتها رَأْى كُتَّاب الزمان فى ٱفتتاح عُهُود الملوك عن الخلفاء بالحمــدُ لله كما سيأتى بيانه فى موضــعه إن شاء الله تعالىٰ ؛ وتعرّضت فيها إلىٰ قيامِ ســلطانٍ بعقْدِها : لمطابقة ذٰلك لحال الزَّمان، وهى :

الحمدُ للهِ الذى جعَــلَ الأُمَّةَ المحمدية أبذَخَ الأُمَمِ شرَفا ، وأكْرَمها نِجارًا وأفضَلَها سَلَفا، وجعل رُتْبة الخلافة أعلىٰ الرُّتَب رتبةً وأعزَّها كَنَفا ، وخصَّ الشجرةَ الطيِّبة من قريش بأنْ جعــل منهم الأئِمــةَ الخُلَفا، وآثر الأُسْرةَ العبَّاسيَّة منها بذٰلك ، دعوةً سبقَتْ من ٱبن عمِّهم المُصْطفىٰ ، وحفِظ بهم نِظامَها علىٰ الدَّوام فجعــل ممن سلَفَ منهم خَلَفا .

نحمَدُه علىٰ أنْ هيَّأ من مقدِّمات الرَّشَد ماطاب الزَّمانُ به وصَفَا، وجدّدَ من رُسُوم الإمامة بخــير إمامٍ مادَرَس منها وعفَا، وأقام للسلمين إمامًا تأرَّج الجوُّ بنَشْره فأصبح الوجُودُ بعَرْفه معترِفا .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ الّا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ مخلِص تمسَّــكَ بعهْدها فوفىٰ، وأعطاها صَــفْقةَ يده للمبايَعــةِ فلا يَبْغِى عنها مَصْرِفا، وأنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه الذى تداركَ اللهُ به العالَمَ بعد أنْ أشْفىٰ فشَفىٰ، ونَسخَتْ آيةُ دينــه الأديانَ وجَلاَ بشِرْعته المُنيرة من ظُلْمة الجهل سَدَفا ، وجَعَل مُبايعه مبايِعا للهِ يأخُذُه بالنَّكْث ويُوفِّيه أجْرَه علىٰ الوَفَا، صلّى الله عليــه وعلىٰ آلهِ الأطهار وعِتْرتِه الشُّرفا، ورضى اللهُ عن أصحــابه

الذين لَيس منهم مَنْ عاهد اللهَ فَغَدر ولا وَادَّ فى الله بَخفَا، خصوصًا مَنْ جاء بالصِّدْق وَصَدَّق به فكان له قرابةٌ وصَفْوَةَ الصَّفا، والمرجوعَ إليه فى البَيْعة يوم السَّقيفة بعدما آشرأَبَّت نحوَها نفُوسٌ كادتْ تذُوبُ عليها أسَفَا، والقائمَ فى قتال أهلِ الرِّدّة من بنى حنيفةَ حتَّى آستقامُوا على الحنيفيَّة السَّمْحةِ حُنَفا. ومَنِ آستحالَ دَلْوُ الخلافة فى يَدِه غَرْبا فكان أفيَدَ عبقَرِىّ قامَ بأمرِها فكَفىٰ، وعمَّتْ فتوحُه الأمصارَ وحُمِلَتْ إليه أموالُها فلم يُمْسِكها إقتارًا ولم يُبَذِّر فيها سَرَفا. ومَنْ كان فضْلُه لسَهْم الآختِيار من بيْنِ أصحابِ الشُّورىٰ هَدَفا، وجمع الناسَ فى القُرءان علىٰ صَحِيفةٍ واحدةٍ وكانتْ قبْلَ ذلك صُحُفا. ومَنْ سرىٰ إليه سِرٌّ: "أمَا تَرْضىٰ أنْ تكُونَ مِنِّى بمنزلة هارُونَ من مُوسىٰ" فغَدَا يجُرّ من ذَيْل الفَخَار سَجْفا، وآستولىٰ علىٰ المَكارم من كلِّ جانبٍ فحازَ أطْرافَها طَرَفًا طَرَفا، وعلىٰ سائر الخلفاء الراشدين بعدهم ممَّن سلَك سبيلَ الحق ولطرِيق الهُدىٰ آقْتفىٰ؛ صلاةً ورِضْوانًا يُذْهِبان الداءَ العُضَالَ من وَخامة الغَدْر ويَجْلُبان الشِّفا، ويرفَعان قدْرَ صاحبِهما فى الدنيا ويُبَوِّئانِ منتحِلَهما من جنَّات النعيم غُرَفا.

أمَّا بعدُ، فإنَّ عَقْد الإمامة لمن يقُومُ بأمْرِ الأمَّة واجبٌ بالإجماع، مستنِدٌ لأقْوىٰ دليلٍ تنقَطِع دُونَ نقْضِه الأطْماع، وتنبُو عن سَمَاع ما يخالِفُه الأسْماع؛ إذ العبادُ مجبولون علىٰ التبايُنِ والتغايُر، مطبُوعون علىٰ التحالُف والتناصُر؛ [مضطَرُّون إلىٰ التَّعاوُنِ والتَّجاوُر، مفْتقرُون إلىٰ التعاضُد والتَّوازُر][(1)]؛ فلا بُدَّ من زعيم يمنعُهم من التظالُم، ويحمِلُهم علىٰ التناصُف فى التداعى والتحاكُم؛ ويُقيم الحُدودَ فتُصانُ المحارمُ عن الآنتِهاك، وتُحْفَظ الأنساب عن الآختلاطِ والآشتِراك؛ ويَحْمِى بيضةَ

(١) زائد فى بعض النسخ.

الإسـلام فيَمْنعُ أن تُطْرَق ، ويصونُ الثُّغورَ أن يتوصَّل إليها أو يتطرَّق : ليعزَّ الإسلامُ دارا ، ويَطْمئِنَّ المستخْفِي ليـلا ويأْمَنَ الساربُ نهارا ، ويَذُبُّ عن الحُرَم فتُحتَرَم ، ويَذُودُ عن المنْكَرات فلا تُغْشَىٰ بل تُصْطَلَم ، ويُجهِّز الجيوش فتَنْكَأُ العدُوّ ، وتُغير علىٰ بلاد الكُفْر فتمنَعُهم القَرار والهُدُوّ ، ويُرْغِمُ أَنْفَ الفِئـة الباغيةِ ويَقْمَعُها ، ويُدْغِمُ الطائفةَ المبتـدِعةَ ويردَعُها ، ويأخُذُ أموالَ بيتِ المـال بحقِّها فيُطـاوَع ، ويصرفها إلىٰ مستحقِّها فلا يُنـازَع ـ لاجَرَم آعتُـبرَ للقيام بهـا أكمُل الشُّروط وأتَمُّ الصِّفات ، وأكرُمُ الشِّيَم وأحسَنُ السِّمات .

وكان السـيدُ الأعظمُ الإمامُ النبوِيّ ، سليلُ الخلافه ، ووَلِيُّ الإمامه ، أبو فلان فلان العبَّاسِيّ المتوكِّل علىٰ الله « مثلا » أميرُ المؤمنين ، سَلَكَ الله تعالىٰ به جَدَدَ آبائه الراشدين ، هو الذى جمع شُروطَها فوَفَّاها ، وأحاطَ منها بصفاتِ الكمالِ وآستَوْفاها ، ورامَتْ به أدْنىٰ مَراتِبِها فبلغَتْ إلىٰ أَعْلاها ، وتَسوّر مَعَالِيَها فرقِيَ إلىٰ أعلاها ، وآتَّحدَ بهـا فكان صُورتَها ومَعْناها ـ وكانتِ الإمامةُ قد تأيَّمت ممن يقُومُ بأعبائها ، وعَزَّتْ خُطَّابُها لقِلَّة أكفائِها ، فلم تُلفِ لهـا بَعْلا يكونُ لها قَرِينا ، ولا كُفْـئًا تخْطُبه يكونُ لديْها مَكِينا ، إلَّا الإمامَ الفلانيَّ المشار إليه ، فدعَتْـه لخِطْبتها وهى بيتُ عِرْسِـه : ﴿ وراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِه ﴾ فأجاب خِطْبَتَها ، ولَبَّى دَعْوتَها : لتحقُّقه رَغْبَتَها إليـه ، وعِلْمِه بوجُوب إجابَتِها عليـه ، إذ هو شِـبْلُها النـاشئُ بِغابِها ، وغَيْثُها المستَمْطَر من سَحابها ، بلْ هو أسَـدُها الهَصُور ، وقُطْب فَلَكِها الذى عليه تدُور ، ومَعْقِلُها الأمنَعُ الحَصِين ، وعِقْدُها الأنْفَس الثَّمين ، وفارِسُها الأرْوعُ ولَيْثُها الشَّهِير ، وآبنُ بَجْدَتِها الساقطةُ منه علىٰ الخَبِير ، وتِلادُها العليمُ بأحْوالها ، والجَدِيرُ بمعرفة أقْوالِها وأفْعالها ، وتَرْجُمانُها المتكلِّم بلِسانِها ، وعالِمُها المتفنِّن فى أفْنانها ، وطَبِيبُها العارفُ بطِبِّها ، ومُنْجِدُها الكاشِفُ لكَرْبِها .

وحين بلغت من القصد سولها، ونالت بالإجابة منه مأمولها، وحرم على غيره أن يسومها لذلك تلويحا، أو يعرج على خطبتها تعريضا وتصريحا، احتاجت إلى ولي يوجب عقدها، وشهود تحفظ عهدها، فعندها قام السلطان الأعظم الملك الفلاني (بالألقاب السلطانية إلى آخرها) خلد الله سلطانه، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه، فانتصب لها وليا، وأقام يفكر في أمرها مليا، فلم يجد أحق بها منه فتجنب عضلها، فلم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها، فجمع أهل الحل والعقد، المعتبرين للاعتبار والعارفين بالنقد: من القضاة والعلماء، وأهل الخير والصلحاء، وأرباب الرأي والنصحاء، فاستشارهم في ذلك فصوبوه، ولم يروا العدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه، فاستخار الله تعالى وبايعه، فتبعه أهل الاختيار فبايعوا، وانقادوا لحكمه وطاوعوا، فقابل عقدها بالقبول بمحضر من القضاة والشهود فلزمت، ومضى حكمها على الصحة وانبرمت. ولما تم عقدها، وطلع بصبح اليمن سعدها، التمس المقام الشريف السلطاني الملكي الفلاني المشار إليه أعلى الله شرف سلطانه ورفع محله، وقرن بالتوفيق في كل أمر عقده وحله، أن يناله عهدها الوفي، ويرد منها موردها الصفي: ليرفع بذلك عن أهل الدين حجبا، ويزداد من البيت النبوي قربا، فتعرض لنفحاتها من مقراتها، وتطلب بركاتها من مظناتها، ورغب إلى أمير المؤمنين، وابن عم سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، أن يجدد له بعهد السلطنة الشريفة عقدا، ويأخذ له على أهل البيعة بذلك عهدا، ويستحلفهم على الوفاء لها بما عاهدوا، والوقوف عند مابايعوا عليه وعاقدوا: ليقترن السعدان فيعم نوءهما، ويجتمع النيران فيبهر ضوءهما، فلباه تلبية راغب، وأجابه إجابة مطلوب وإن كان هو الطالب، وعهد إليه في كل ما تقتضيه أحكام إمامته في الأمة عموما وشيوعا، وفوض له حكم الممالك الإسلامية جميعا، وجعل إليه أمر السلطنة المعظمة بكل

نِطَاق، وألقىٰ إليه مَقاليدَها وصَرَّفه فيها علىٰ الإطْلاق ؛ وأقامه فى الأمة لعَهْد الخلافة وَصِيًّا، وجعله للإمامة بتَفْويض الأمْرِ إليه وليًا؛ ونَشَر عليه لواءَ المُلْك وقلَّده سيْفَه العَضْب ، وألبَسَـه الخلعةَ السَّوداء فابيَضَّ من سَوادِها وجْهُ الشرقِ والغَرْب ؛ وكَتَبَ له بذٰلك عهْـدًا كَبَتَ عدُوَّه، وزاد شَرَفه وضاعَفَ سُمُوّه ؛ وطُولِب أهـلُ البيعة بالتَّوثيق علىٰ البَيْعتين بالأيْمـانِ فأذعَنُوا ، وآستُحْلِفُوا علىٰ الوَفَاء فبـالَغُوا فى الأيمـانِ وأمْعَنُوا ؛ وأقسـمُوا باللهِ جَهْد أيمـانهم ، بعـد أن أشْهدُوا اللهَ عليهم فى إسْرارِهم وإعْلانِهـم ؛ وأعطَوُا المواثيـقَ المغَلَّظةَ المشـدَّده ، وحَلَفوا بالأيمـانِ المُؤكَّدة المعَقَّده، علىٰ أنهم إن أعْرضُوا عن ذٰلك أو أدْبرُوا، وبَدَّلوا فيه أو غيَّرُوا؛ أو عَرَّجُوا عن سبِيله أو حادُوا، أو نَقَصُوا منه أو زادُوا؛ فكُلٌّ منهم بَرِىء من حَوْل الله وقوّتِه إلىٰ حوْلِ نفْسِه وقوّته، وخارجٌ من ذِمّته الحصينةِ إلىٰ ذِمّته؛ وكلُّ آمرأةٍ فى نكاحِه أو يتَزوّجُها فى المستقْبَل فهى طالقٌ ثلاثا بَتاتًا، وكُلّما راجعها فهى طالِقٌ طلاقا لايقْتضِى إقامة ولا ثَبَاتًا ؛ وكلُّ ممـلوكٍ فى مِلْكه أو يملِكُه فى المسـتقبل حُرٌّ لاحِقٌ بأحْرار المسـلمين، وكلُّ ما مَلَكه أو يَمْلِكُه من جَمَاد وحيوانٍ صـدقةٌ عليه للفُقَراء والمساكين؛ وعليه الحجُّ إلىٰ بيتِ اللهِ الحَرَام، والوقوفُ بعرفَةَ وسائرِ المَشَاعِرِ العِظَام؛ مُحرِمًا من دُوَيْرِةِ أهـلِه ماشِيا، حاسِرًا عن رأسِه وإن كان به أذًى حافيا؛ يأتِى بذٰلك فى ثلاثينَ حَجَّة متتابعةً علىٰ التمام، لاتُجْزِئه واحدةٌ منها عن حَجّة الإسلام؛ وإهـداءُ مائةِ بدنةٍ للبيت العَتيق كلَّ سنةٍ علىٰ الدَّوام، وعليه صومُ جميع الدَّهْرِ إلَّا المَنْهِىَّ عنـه من الأيَّام، وأنْ يفُكَّ ألفَ رقبـةٍ مؤمنةٍ من أَسْرِ الكفرِ فى كلِّ عام ؛ يمينُ كلٍّ منهم فى ذٰلك علىٰ نيَّـةِ أميرِ المؤمنين ، وسلطانِ المسلمين ، فى سِرِّه وجَهْره وأوّلِهِ وآخِرِه، لانيَّـةَ للحـالف فى ذلك فى باطنِ الأمرِ ولا فى ظاهِرِه؛ لا يُورِّى فى ذٰلك ولا يستَثْنِى ، ولا يتأوّلُ ولا يستفْتِى ؛ ولا يَسْعىٰ فى نَقْضها، ولا يخالِفُ فيها

ولا فى بعْضِها؛ متىٰ جَنَح إلىٰ شيءٍ من ذلك كان آثِما، وما تقدّم من تعْقِيد الأيمان له لازِمًا؛ لا يقبلُ اللهُ منه صَرْفا ولا عَدْلا، ولا يُجْزئُه عن ذلك كفَّارةٌ أصْلا؛ كلُّ ذلك علىٰ أشدّ المذاهبِ بالتخصيص، وأبعدِها عن التساهل والتَّرْخيص؛ وأَمْضَوْها بيعةً ميْمُونه، باليُمن مبتدأةً بالنُّجْح مقْرونه؛ وأشهدُوا عليهم بذلك مَنْ حضر مجلِسَ العقد من الأئمةِ الأعلام، والشُّهود والحُكَّام؛ وجعلُوا اللهَ تعالىٰ علىٰ مايقُولُون وكِيلا، فٱستَحَقَّ عليهم الوفاءُ بقوله عزَّت قدرتُه: ﴿وأَوْفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ ولا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدها وقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عليْكُم كَفِيلا﴾. وهم يرغَبُون إلىٰ الله تعالىٰ أن يُضاعِفَ لهم بحُسْن نِيَّتِهم الأُجُور، ويلجئُون إليه أن يجعَلَ أئمتَهم ممَّن أشار تعالىٰ إليه بقوله: ﴿الَّذينَ إنْ مَكَّنَّاهمْ فى الأرضِ أقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ وأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ ونَهَوْا عن المُنْكرِ ولله عاقِبَةُ الأُمُور﴾. إن شاء الله تعالىٰ.

* * *

وهذه نسخةُ بيعةٍ مرتَّبة علىٰ خَلْع خليفةٍ، أنشأْتُها علىٰ هذه الطريقةِ أيضا، وتعرَّضْت فيها لذِكر السلطان القائم بها، علىٰ ماتقدّم فى البَيْعة المرتَّبة علىٰ موتِ خليفةٍ، وهى:

الحمدُ لله الذى جعل بيتَ الخلافة مَثابةً للناس وأَمْنا، وأقام سُورَ الإمامةِ وِقايةً للأنامِ وحِصْنا، وشَدّ لها بالعِصَابة القُرَشيَّة أَزْرا وشادَ منها بالعُصْبة العبَّاسيَّة رُكْنا، وأغاثَ الخلْقَ بإمامِ هُدًى حَسُنَ سِيرةً وصفَا سريرةً فراقَ صُورةً ورَقَّ معْنىٰ، وجمع قلُوبَهم عليه فلم يستنْكِفْ عن الانقيادِ إليه أعلىٰ ولا أدْنىٰ؛ ونزع جِلْبابَها عمَّنْ شُغل بغيرها فلم يُعِرْها نَظَرا ولم يُصْغِ لها أُذُنا، وصَرَفَ وجْهَها عمَّن أساء فيها تصرُّفا فلم يرْفَع بها رَأْسا ولم يَعْمُرْ لها مَغْنىٰ.

نحمــدُه على نِعَمٍ حَلَت للنفوس حين حلَّت ، ومِنَنٍ جلَتِ الخُطوبَ حين جَلَّت ؛ ومسارَّ سَرَتْ إلى القُلوب فسَرَّت ، ومبـارَّ أقرّتِ العُيون فقرَّتْ ؛ وعوارِفَ أمَّتِ الخليقةَ فتوالتْ وما وَلَّت ، وقدمِ صِـدْقٍ ثبتَتْ إن شاء الله فى الخلافة فمـا تزلْزَلَتْ ولا زَلَّتْ .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تكونُ لنـا من دَرَكِ الشُّكُوك كالئـه، ولمهَاوِى الشُّبَه دارئه، وللمَقاصد الجميـلةِ حاوِيه، ولشُقَّة الزَّيْغ والاْرتيابِ طاوِيه ؛ وأنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه الذى نَصَح الأمَّة إذ بلَّغ فشفَىٰ عَليلَها، وأوردَها من مَنَاهِل الرَّشَــد ماأطفأ وَهَجَها و بَرَّد غَلِيلَها ؛ وأوضح لهم مَناهِجَ الحقِّ ودعاهُمْ إليها ، وأبانَ لهم سُــبُل الهِدايةِ : ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَـا يَهْتَدِى لِنَفْسِــهِ وَمَنْ ضَــلَّ فَإِنَّمَـا يَضِلُّ عليها﴾ صلَّى الله عليه وعلى آلِهِ أئمة الخير وخَيرِ الأئمَّه، ورضى عن أصْحابه أولياءِ العَدْل وعُدُولِ الأُمَّه ؛ صلاةً ورِضْوانا يَعُمَّان سائرَهم، ويشْمَلان أولَهم وآخرَهم ؛ سِيَّما الصديقِ الفائزِ بأعلىٰ الرُّتبتين صِدْقا وتَصْديقا ، والحائزِ قَصَبَ السبق فى الفضيلتَيْن عِلْما وتحقِيقا، ومَنْ عدلَ الأنصارُ إليه عن سَعْد بن عُبادةَ بعد ماأجمَعُوا علىٰ تَقْديمه ، وبادَرَ المهاجِرُون إلىٰ بَيْعته ٱعترافا بتَفْضيله وتكرِيمه . والفارُوقِ الشديدِ فى الله بأْسا واللَّيِّنِ فى اللهِ جانبا، والمُوفِى للخلافة حَقًّا والمؤدّى للإمامةِ واجِبـا ؛ والقائمِ فى نُصْرة الدِّين حَقَّ القيـام حتّى عمَّت فتُوحُه الأمصار مشارقَ ومَغَاربا، وأطاعتْـه العناصرُ الأربعة : إذْ كان لله طائعاً ومنَ الله خائفاً و إلىٰ الله راغِبا . وذِى النُّورَيْن المعوَّل عليــه من بينِ سائرِ أصحاب الشُّورى تَنْوِيهـا بقَــدْره، والمخصوص بالاْختيار تفخيماً لأمْرِه، من حُصِر فى بَيْتِــه فلم يمنَعْه ذٰلك عن تِلاوةِ كتاب الله وذِكْرِه، وشاهد سُيوفَ قاتليهِ عِيانًا فقابَلَ فَتَكاتِها بجميلِ صَـبْرِه . وأبى الحسَن الذى أعْرَضَ عن الخلافة حينَ سُئِلَها، وٱستعفىٰ منها بعْدَ ما ٱضْطُرَّ إليها وقَبِلَها ؛ وكُشِف له عن حقيقة

الدنيا فما أمَّ قِبلتها بقلبه ولا ولّى وجهه قِبلَها، وصرَّح بمقاطعتها بقوله : « ياصفراءُ غُرِّى غيرى يابيضاءُ غُرِّى غيرى » لمَّا وصلها من وصلها ؛ وسائرِ الخلفاء الراشدين بعدهم، الناهجين نهجَهم والوارِدِينَ وِرْدَهم .

أما بعد، فإنَّ للإمامة شروطًا يجبُ آعتبارُها فى الإمام، ولوازِمَ لايُغْتفر فواتُها فى الآبتداء ولا فى الدَّوام، وأوصافاً يتعيَّن إعمالُها، وآداباً لايسَعُ إهمالُها ؛ من أهمِّها العَدالةُ التى مِلاكُها التقْوىٰ ، وأساسُها مراقبةُ الله تعالىٰ فى السِّرِّ والنَّجْوىٰ ؛ وبها تقعُ الهَيْبةُ لصاحبها فيُجَلّ ، وتميلُ النُّفُوس إليها فلا تمل ؛ فهى المَلَكةُ الداعيةُ إلىٰ تَرْك الكبائر وآجتنابها ، والزاجِرةُ عن الإصْرار علىٰ الصَّغائر وآرْتكابها ؛ والباعثةُ علىٰ مُخالَفة النفس ونَهْيِها عن الشَّهوات ، والصارِفةُ عن آنْتِهاك حُرُماتِ الله التى هى أعظَمُ الحُرُمات ؛ والموجبةُ للتعفُّف عن المَحَارِم، والحاملةُ علىٰ تجنُّب الظُّلامات وردّ المَظَالم. والشَّجاعةُ التى بها حِمايةُ البَيْضة والذَّبُّ عنها، والآستظهارُ بالغزْو علىٰ نِكايةِ الطائفة الكافرةِ والغَضِّ منها؛ والقُوَّةُ بالشوكةِ علىٰ تنفيذِ الأوامِرِ وإمضائِها، وإقامةِ الحدودِ وآستيفائِها، ونَشْرِ كلمة الحق وإعلائِها، ودَحْضِ كلمةِ الباطل وإخفائِها ، وقطْعِ مادّةِ الفسادِ وحسْمِ أدوائِها؛ والرأْىُ المؤدِّى إلىٰ السياسةِ وحُسْنِ التدبير، والمُغْنِى فى كثيرٍ من الأماكن عن مَزِيد الجِدّ والتشمير؛ والمعينُ فى خُدَع الحرب ومَكايده، والمُسْعِف فى مَصادر كلّ أمرٍ ومَوارِدِه .

هذا وقد جعلَنا اللهُ أمّةً وسَطا ، ووعَظَنا بمن سَلَف من الأُمَم ممن تمرَّد وعَتا أو تجبَّر وسَطَا؛ وعصَم أُمَّتنا أن تجتمعَ علىٰ الضَّلال، وصانَ جَمْعنا عن الخَطَل فى الفِعال والمَقَال؛ وندَبنا إلىٰ الأَمْر بالمعرُوف والنَّهْىِ عن المنكر، وسوّغَ لأئمّتنا الآجتهادَ فى النَّوازل والأحكام فاجْتِهادُهم لايُنْكَر، خصوصًا فى شأن الإمامةِ التى هى

آكدُ أسباب المَعَالم الدينيَّة وأقواها ، وأرفعُ المناصبِ الدُّنيويَّة وأعْلاها ، وأعزُّ الرُّتَب رُتْبةً وأغلاها ، وأحقُّها بالنظر فى أمْرِها وأوْلاها . وكان القائمُ بأمر المسلمين الآنَ فلانُ بنُ فلان الفلانىّ ممَّن حادَ عن الصِّراط المستقيم ، وسلَكَ غيرَ النَّهْج القويم ؛ ومالَ عن سَنَن الخُلفاء الراشدين فأدْرَكه الزَّلَل ، وقارفَ المآثمَ فعادَ بالخَلَل ؛ فعاثَ فى الأرض فَسَادا ، وخالفَ الرَّشد عِنَادا ، ومالَ إلىٰ الغَىِّ آعْتمادا ، وأسلَمَ إلىٰ الهوىٰ قِيَادا ؛ قد آنتقلَ عن طَوْر الخلافه ، وعزيزِ الإنَافه ، إلىٰ طَوْر العامَّة فاتَّصف بصِفَاتهم ، وآتَّسم بسِمَاتهم ؛ فمُنكَرٌ يجبُ عليه إنكارُه قد باشَرَه ، وصديقُ سَوْء يتعيَّن عليه إبعادُه قد وازَرَه وظاهَرَهْ ؛ إنْ سلك فسبيلَ التُّهمة والآرتياب ، أو قصدَ أمْرا نَحَا فيه غيْرَ الصَّواب ؛ منهمِكٌ علىٰ شَهَواته ، منعكِفٌ علىٰ لَذَّاته ، متشاغلٌ عن أمر الأمّة بأمْرِ بَنِيه وبَنَاته ؛ الجُبْنُ رأسُ ماله ، وعدَمُ الرأْى قرينُــه فى أفْعاله وأقْواله ؛ قد قَنِـع من الخلافة بآسْمِها ، ورضِىَ من الإمامة بوَسْمِها ؛ وظَنَّ أنَّ السُّودَد فى لُبْس السَّواد فمال إلىٰ الحَيْف ، وتوَهَّم أنَّ القاطعَ الغِمْدُ فقطعَ النظَر عن السَّيْف .

ولـمَّـا آطَّلع الناسُ منه علىٰ هذه المنْكَرات ، وعرَفُوه بهذه السِّمَات ، وتحقَّقُوا فيه هذه الوَصَمَات ؛ رغِبُوا فى آستِبْداله ، وأجمعُوا علىٰ خَلْعه وزَوَاله ؛ فلَجَـُوا إلىٰ السلطان الأعظَمِ الملك الفلانى (بالألقـاب السلطانية إلىٰ آخرها) نصر الله جُنودَه ، وأسْمىٰ جُدُودَه ، وأرْهَف علىٰ عُدَاة الله حُدُودَه ؛ ففوَّضُوا أمْرَهم فى ذلك إلَيْـه ، وألقَوْا كَلَّهم عليه ؛ بجمع أهلَ الحلِّ والعَقْد منهم ، ومَنْ تصْدُر إليهم الأمورُ وتَرِدُ عنهم ؛ فآستخارُوا الله تعالىٰ وخلَعُوه من وِلَايته ، وخرجُوا عن بَيْعته ، وآنسلَخُوا عن طاعته ؛ وجَرَّدُوه من خِلافتِه ، تجريدَ السَّيْف من القِرَاب ، وطَوَوْا حكمَ إمامتِه ، كطَىِّ السِّجلِّ للكِتَاب . وعند ماتمَّ هــذا الخَلْع ، وآنطوىٰ حكمُه علىٰ البَتِّ والقَطْع ، آلتمس الناسُ إماما يقُوم بأمور الإمامة فيُوفيها ، ويجمع شُروطَها ويستوْفِيها ؛ فلم يجِدُوا لهـا أهلا ،

ولا بِهَا أحقّ وأَوْلىٰ ، وأوفىٰ بها وأَمْلىٰ ، من السيِّد الأعظم الإمام النبوى سليلِ الخلافة، ووليِّ الإمامة أبى فلانٍ فلان العباسىّ الطائع لله « مثلا » أمير المؤمنين . لازال شرفُه باذِخا ، وعِرْنينُه الشريفُ شامِخا ؛ وعهْدُ ولايتِه لعهدِ كلِّ ولايةٍ ناسِخا ، فساموه بيْعَتها فلَبّى ، وشامُوا بَرْقَه لولايتها فأجابَ وما تأبّى ؛ عِلْمًا منه بأنها تعيَّنتْ عليه ، وآنحصرتْ فيه فلم تَجِدْ أعلىٰ منه فتَعدِلَ إليه ؛ إذ هو ٱبْنُ بَجْدتها ، وفارسُ نَجْدتها ، ومُزِيلُ غُمّتها ، وكاشفُ كُرْبتها ؛ ومُجْلِي غَيَاهِبِها ، ومُحْمِدُ عواقبها ، ومُوَضِّحُ مذاهبها ؛ وحاكمُها المَكين ، بل رشيدُها الأَمين ؛ فنهضَ المقامُ الشريفُ السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ المشارُ إليه : قَرَنَ اللهُ مقاصِدَه الشريفةَ بالنَّجاح ، وأعمالَه الصالحةَ بالفَلاح ؛ وبَدَر إلىٰ بيعته فبايَعْ ، وأُتَمَّ به مَنْ حَضَر من أهل الحَلِّ والعَقْد فتابَعْ ، وقابل عَقْدَها بالقَبُول فمضىٰ ، ولزِم حُكْمُها وآنقضىٰ ؛ وآتَّصل ذٰلك بسائر الرعيَّة فآنْقادُوا ، وعلِمُوا صوابَهُ فمَشَوْا علىٰ سَنَنِه وما حادُوا ؛ وشاع خبرُ ذٰلك فى الأمصار ، وطارتْ به مُحَلِّقاتُ البشائر إلىٰ سائر الأَقْطار ؛ فتعرّفُوا منه اليُمْنَ فسارَعُوا إلىٰ آمتثاله ، وتحقَّقُوا صِحَّتَه وثباتَه بعد آضْطِرابه وآعتِلاله ؛ وآستعاذُوا من نَقْصٍ يُصيبه بعد تمامه لهذا الخليفةِ وكماله ؛ فعندها أبانت الخلافةُ العبَّاسيةُ عن طِيبِ عُنْصُرِها ، وجميلِ وفائِها وكريم مَظْهَرِها ؛ وجادَتْ بجزيل الآمْتِنان ، وتلا لسانُ كَرَمِها الوَفِىّ علىٰ وَلِيِّها الصادق : ﴿ هَلْ جزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسان ﴾ فجدّد له بالسَّلْطنة الشريفةِ عَهْدا ، وطوّقَ جِيدَه بتفويضها إليه عِقْدا ؛ وجعله وَصِيَّه فى الدِّين ، وَوَلِيَّه فى أمرِ المسلمين ؛ وقلّده أمْرَ الممالك الإسلامية وألقىٰ إليه مَقالِيدَها ، وملّكه أزِمَّتها وحقّق له مَوَاعِيدَها ؛ وعَقَد له لِواءَها ونَشَر عليه أعلامَهَا ، وصَرّفه فيها علىٰ الإطْلاق وفوّضَ إليه أحْكامَها ؛ وألبسه الخِلْعَةَ السَّوْداء فكانت لسُؤدده شِعارا ، وأسبغ عليه رداءَها فكان له دِثَارا ؛ وكَتَبَ له العهدَ فسقىٰ المَعاهدَ صَوْبُ العِهاد ، ولَهِجَ الأنامُ

بذكره فاطمأنّتِ العِبادُ والبِلاد ؛ وعِنْـد ماتمّ هذا الفَصْل ، وتقرّر هـذا الأَصْل ، وأمْستِ الرَّعايا بمـا آتاهمُ اللهُ من فضـله فَرِحين ، وبنعمتِـه مستبْشِرين ، طُولِبَ أهلُ البَيْعة بمـا يحمِلُهم علىٰ الوَفَاء ، ويمنَعُ بَيْعتَهم من التكدّر بعد الصَّفاء : من تَوْثيق عَقْـدها بمؤكّد أيمـانها ، والإقامة علىٰ الطاعة لخليفتها وسُلْطانها ؛ فبادَرُوا إلىٰ ذٰلك مُسْرِعين ، وإلىٰ داعِيـه مُهْطِعين ؛ وبالغُوا فى المَواثيـق وأكّدُوها ، وشـدَّدُوا فى الأَيمـان وعَقَّدُوها ؛ وأقسمُوا بالله الذى لا إلٰهَ إلّا هو عالمُ الغَيْب والشَّهاده ، عالِمُ خائنةِ الأعْيُن وما تُخْفِى الصُّدور فى البَدْء والإعادَهْ ، علىٰ الوَفَاءِ لها والمُوَالاه ، والنُّصْح والمُصافاه ؛ والمُوافَقة والمُشايَعه ، والطاعة والمُتابَعَهْ ؛ يُوالُون مَنْ والاهما ، ويُعادُون مَنْ عاداهمـا ؛ لا يَقْعُدون عن مُناصَرتِهما عند إلْمـامِ مُلِمَّه ، ولا يَرْقُبُون فى عدُوّهما إلّا ولا ذِمّه ؛ جارِينَ فى ذٰلك علىٰ سَنَن الدَّوام والاْستمرار ، والثُّبوت واللُّزوم والاْستِقْرار ؛ علىٰ أنّ من بدّلَ منهم من ذٰلك شَرْطا أو عَفّىٰ له رَسْمـا ، أو حادَ عن طريقِـه أو غيّرله حُكما ؛ أو سَـلَك فى ذٰلك غيرَ سبيل الأمانَه ، أو اْستحلّ الغَـدْر وأظهَرَ الخِيانه ، مُعلِنا أو مُسِرًّا فى كلّه أو بعْضه ، متأوِّلًا أو مُحْتالا لإبْطاله أو نقْضه ؛ فقد بَرِئَ من حولِ الله المتينِ وقُوّته الواقيه ، ورُكْنه الشـديد وذِمّته الوافيه ، إلىٰ حول نَفْسه وقُوّته ، ورُكْنه وذِمّتـه ؛ وكُلُّ آمرأةٍ فى عِصْمته الآنَ أو يتزوّجُها مدّةَ حياته طالِقٌ ثلاثا بصريح لَفْظ لايتوقّف علىٰ نِيّه ، ولا يُفرَقُ فيه بين سُـنّة ولا بِدْعة ولا رَجْعةَ فيـه ولا مَثْنَويّه ؛ وكلُّ مملوك فى مِلْكه أو يمْلِكه فى بقيّـة عُمُره من ذكرٍ أو أُنْثىٰ حُرٌّ من أحرار المسلمين ؛ وكلُّ ما هو علىٰ مِلْكه أو يملِكُه فى بقِيّـة عُمُره إلىٰ آخرأيّامه من عينٍ أو عَرْض صدقةٌ للفُقَراء والمساكين ؛ وعليه الحجُّ إلىٰ بيتِ الله الحرام ثلاثين حَجّةً بثلاثين عُمْرةً راجلًا حافيًا حاسِرا ، لايقبلُ الله منه غيرَ الوفاء بها باطنًا ولا ظاهِرا ؛ وإهْداءُ مائةِ بدنةٍ فى كل حَجّـة منها فى عُسْرته ويُسْرته ، لاتُجْزئُه

واحدةٌ منها عن حَجَّة الإسلام وعُمْرته ؛ وصومُ الدهر خلَا المنهِيّ عنه من أيَّام السَّنه ، وصلاةُ ألفِ ركعةٍ فى كل ليلةٍ لا يُباح له دُونَ أدائها غَمْض ولا سِنَه ؛ لا يقبلُ الله منه صَرْفًا ولا عَدْلا ، ولا يُؤْجَر علىٰ شيءٍ من ذٰلك قَوْلا ولا فِعْلا ؛ متىٰ ورّىٰ فى ذلك أو ٱستثنىٰ ، أو تأوّلَ أو ٱستفتىٰ ، كان الحنثُ عليه عائدا ،وله إلىٰ دار البَوَار قائدَا ، معتمِدًا فى ذٰلك أشدَّ المَذاهب فى سِرِّه وَعلانِيَتِه ، علىٰ نِيَّة المستحْلِف له دُونَ نِيَّته ؛ وأمضَوْها بيعةً محكمةَ المَبَانى ثابتةَ القَواعد ، كريمةَ المَساعِى جميلةَ المقاصِد ؛ طيِّبةَ الجَنَى جليلةَ العَوائد ، قاطعةَ البراهين ظاهرةَ الشَّواهد ؛ وأشهَدُوا علىٰ أنفُسِهم بذٰلك مَنْ حضر مجلِسَ هذا العَقْد من قُضاة الإسلام وعُلَمائه ، وأئمة الدِّين وفُقَهائه ؛ بعد أن أشهَدُوا الله عليهم وكفىٰ باللهِ شهيدا ، وكفىٰ به للخائنين خَصِيما : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِهِ ومَنْ أَوْفىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيما ﴾ . والله تعالىٰ يجعلُ ٱنتقالَهم من أدنىٰ إلىٰ أعلىٰ ، ومن يُسْرىٰ إلىٰ يُمْنىٰ ؛ ويحقِّق لهم بمَن ٱستخلَفه عليهم وَعْدَه الصادقَ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا ٱستَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ٱرْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنا ﴾ . إن شاء الله تعالىٰ .

المـــــذهب الرابع

(ممـا يُكْتَب فى بَيْعات الخلفاء أن يفْتَتح البيعةَ بلفظ : هذه بيعة ،
ويَصِفَها ويذكُر ماينا سِبُ ، ثم يعزِّى بالخليفة الميِّت ، ويهنِّى بالخليفة المستقرّ،
ويذكر فى حقِّ كلٍّ منهما مايَليق به من الوَصْف علىٰ نحوٍ مما تقدّم)

وهذه نسخةُ بيعةٍ أنشأها المَقَرّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله ، علىٰ مارأيته فى "الجواهر المتقَطة" المجموعةِ من كلامه ، للإمام الحاكم بأمر الله «أبى العبّاس» «أحمد بن أبى الرَّبيع سُلَيمان» [المستكفى بالله] (١) ابنِ الإمام الحاكم بأمر الله ، بعد موتِ أبيه .

وذكر القاضى تقىُّ الدين بن ناظِرِ الجيش فى "دُسْتُوره" أنه إنمـا عَمِلها تجربةً (٢) لخاطره ، وهى مُرتَّبة علىٰ موتِ خليفة .

ونصها بعد البسملة الشريفة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

هـذِه بيعةُ رِضْوان وبَيْعةُ إحْسان ، وبيعةُ رِضًا تَشْهَدُها الجمـاعة ويَشْهد عليها الرحْمٰن ؛ بيعـةٌ يلزَمُ طائرُها العُنُق ، وتَحُوم بشائرُها علىٰ الأُفُق ، وتحمِلُ أنْباءَها البَرارِىُّ والبِحارُ مشحونَةَ الطُّرُق ؛ بيعةٌ تصْلُح لِنَسبها الأُمَّه ، وتُمْنَح بسَبَبها النِّعمه ، وتُؤلِّف بهـا الأسْباب وتجعل بيْنَهْم مودّةً ورَحْمـه ؛ بيعةٌ تَجْرى بهـا الرِّفاق ، وتتزاحمُ زُمَرُ

---

(١) كذا فى تاريخ أبى الفداء، وابن إياس والعبر أيضا ووقع فى ج ٣ ص ٢٦٥ من هذا المؤلف أن لقبه المستعصم والصواب ماهنا .

(٢) أى امتحانا لفكره .

الكواكب على حوض المجرّة للوفاق ؛ بيعة سعيدة ميمونه ، بيعة شريفة بها السلامة فى الدِّين والدنيا مضمونه ؛ بيعة صحيحة شرعيّه ، بيعة ملحوظة مرعيّه ؛ بيعة تسابق إليها كلُّ نيّة وتطاوع كلُّ طويّه ، وتجمع عليها أشتاتُ البريّه ؛ بيعة يستهلّ بها الغمام ، ويتهلّل البدر التّمام ؛ بيعة متّفق على الإجماع عليها ، والاجتماع لبسط الأيدى إليها ؛ انعقد عليها الإجماع ، وانعقدت صحّتها بمن سمع لله وأطاع ، وبذل فى تمامها كلُّ امرئ ما استطاع ، وحصل عليها اتفاقُ الأبصار والأسماع ، ووصل بها الحقُّ إلى مستحقّه وأقرّ الخصمُ وانقطع النّزاع ؛ وتضمّنها كتابٌ كريم يشهده المقرَّبون ، ويتلقّاه الأئمة الأقربون .

﴿ الحمدُ لله الّذى هدانا لهذا وما كُنّا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾ : ﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى النّاس ﴾ . وإلينا ولله الحمدُ وإلى بنى العبّاس . أجمع على هذه البيعة أربابُ العقد والحلّ ، وأصحابُ الكلام فيما قلّ وجلّ ؛ وولاةُ الأمور والأحكام ، وأربابُ المناصب والحُكّام ؛ وحملةُ العلم والأعلام ، وحماةُ السّيوف والأقلام ، وأكابرُ بنى عبد مناف ، ومن انخفض قدرُه وأناف ؛ وسرواتُ قريش ووجوه بنى هاشم والبقيّةُ الطاهرةُ من بنى العباس ، وخاصّةُ الأئمة وعامّةُ الناس ؛ بيعةٌ ترسى(١) بالحرمين خيامُها ، وتخفق على المأزمين أعلامُها ، وتتعرّف عرفاتُ ببركاتها وتُعرَفُ بمنًى أيّامُها ؛ ويؤمّن عليها يومَ الحجِّ الأكبر ، وتؤمُّ ما بين الرُّكن والمقام والمنبر ؛ ولا يُبتغى بها إلا وجهُ الله الكريم ، وفضلُه العميم ؛ لم يبق صاحبُ سنجق(٢) ولا علَم ، ولا ضاربٌ بسيف ولا كاتبٌ بقلم ؛ ولا ربُّ حكم ولا قضاء ، ولا من يُرجع إليه فى اتفاقٍ ولا إمضاء ؛ ولا إمامُ مسجد ولا خطيب ، ولا ذو فتيا يُسأل

(١) لعله ترى بالحرمين تأمل .

(٢) فى الأصل سيف وهى تصحيف .

فيُجِيب، ولا مَنْ بينَ جَنَبَتِي المساجد ولا من تضُمُّهم اجنِحةُ المَحارِيب، ولا مَنْ يجتَهِد فى رأيٍ فيُخْطِئُ أو يُصِيب؛ ولامتحدِّثٌ بحديث، ولا متكلِّم بقديم وحديث؛ ولا معروفٌ بدِينٍ وصَلَاح، ولا فُرسانُ حربٍ وكِفَاح؛ ولا راشِقٌ بسِهَام ولا طاعِنٌ برِماح، ولا ضاربٌ بصِفَاح، ولا ساعٍ علىٰ قدَم ولا طائرٌ بغيرْ جَنَاح؛ ولا مخالِطٌ للناس ولا قاعدٌ فى عُزْله، ولا جمعُ كَثْرة ولا قِلَّه؛ ولا مَنْ يستقِلُّ بالجَوْزاء لِوأُوه، ولا يقِلُّ فوْقَ الفرقد ثَواؤُه؛ ولا بادٍ ولا حاضِر، ولا مُقِيمٌ ولا سائر؛ ولا أوَّلٌ ولا آخِر، ولا مُسِرٌّ فى باطن ولا مُعْلِنٌ فى ظاهِر؛ ولا عربٌ ولا عَجَم، ولا راعِى إبل ولا غَنَم؛ ولا صاحبُ أناةٍ ولا إبْدار، ولا ساكنٌ فى حضَر وباديةٍ بِدَار؛ ولا صاحبُ عَمَـد ولا جِدَار، ولا ملجِّجٌ فى البِحار الزاخرةِ والبرَارِىِّ القِـفَار؛ ولا من يتوَقَّلُ صَهَواتِ الخيل، ولا مَنْ يُسْبِل علىٰ العَجَاجة الذيل، ولا من تطْلُع عليـه شمسُ النهار ونُجُوم الليل؛ ولا من تُظِلُّه السماء وتُقِلُّه الأرض، ولا مَنْ تدُلُّ عليه الأسماء علىٰ آختلافها وترتِفعُ درجاتُ بعضِهم علىٰ بعض؛ حتّٰى آمَنَ بهذه البَيْعة وأمّنَ عليها، ومَنّ اللهُ عليه وهداه إليها؛ وأقرّ بها وصدّق، وغَضّ لهـا بصَره خاشـعًا وأطْرق؛ ومدّ إليها يَدَه بالمُبَايَعَه، ومُعتَقَده بالمُتَابعه؛ رضِىَ بها وآرْتضاها، وأجاز حُكْمَها علىٰ نَفْسه وأمضاها؛ ودخل تحتَ طاعتِهـا وعَمِـل بمقتضاها: ﴿ وقُضِىَ بَيْنَهُـمْ بِالْحَقِّ وَقِيـلَ الحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العالَمِينَ ﴾.

والحمدُ لله الذى نصب الحاكم ليَحْكُم بين عِبَاده وهو أحكَمُ الحاكِمين، والحمدُ لله الذى أخَذَ حقَّ آلِ بيتِ نبيِّه من أيْدى الظالمين؛ والحمدُ لله ربِّ العالمين، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين، والحمدُ لله رب العالمين.

وإنه لمَّـا آستأثر اللهُ بعبْدِه سُليمانَ أبِى الرَّبيع الإمامِ المستكْفى بالله أمير المؤمنين ــ كَرَّم اللهُ مثواه ــ وعَوَّضه عن دار السَّلام بدار السَّـلَام، ونقله فزَكّٰى بدنَهُ عن

شهادة السَّـلام بشهادة الإسْـلام؛ حيثُ آثَره ربُّه بقُرْبه، ومَهَّد بجنبه وأقْدمه علىٰ ماأقدمه مَنْ يرجُوه لعمَله وكَسْـبه، وخار له فى جِوَاره رَفِيقا، وجعل له علىٰ صالح سَـلَفِه طرِيقَا؛ وأنزله ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقا﴾. اللهُ أكبَرُ ليومه لولا مخلَّفه كادَتْ تَضِيقُ الأرضُ بمـا رَحُبَت، وتُجْزىٰ كلُّ نفس بمـا كَسَبَتْ؛ وتُنْبِئُ كلُّ سريرةٍ بمـا أدَّخرتْ وما خَبَّتْ؛ لقـد ٱضْطَرم سعيرٌ، إلا أنَّه فى الجَوانح، لقد ٱضْطربَ مِنْبرٌ وسريرٌ، لولا خَلَفُه الصالح، لقدٱضْطَرب مأمورٌ وأميرٌ، لولا الفكْرُ بعْدهُ فى عاقِبة المَصَـالح؛ لقد غاضَتِ البِحار، لقد غابَتِ الأَنْوار، لقـد غالب البُـدُور ما يلْحَقُ الأهِـلَّةَ من المِحَاق ويُدْرِكُ البَـدْرَ من السِّرار؛ نُسِفتِ الجبالُ نَسْفا، وخبَتْ مَصابِيحُ النُّجوم وكَادَتْ تُطْفىٰ: ﴿وجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾. لقـد جَمعتِ الدنيـا أطرافَهَا وأزمَعَتْ علىٰ المَسِير، وجُمعت الأُمَّةُ لهَوْل المَصِير، وزاغَتْ يومَ موْتِه الأبْصـار: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِير﴾. وبقِيَت الألبابُ حَيارىٰ، ووقَفَتْ تارةً تُصَـدِّق وتارةً تُمَارىٰ؛ لا تَعرِف قرَارا، ولا علىٰ الأرض ٱستِقْرارا: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيْءٌ عَظِيم يَوْم تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعةٍ عَمَّا أرضعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذات حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرَىٰ النَّاسَ سُكَارىٰ وما هُمْ بِسُكَارىٰ﴾.

ولم يكن فى النَّسَب العباسىّ ولا فى جميع من فى الوُجُود، لا فى البيتِ المسترْشِدِىِّ ولا فى غيره من بيوت الخلفاء من بَقايَا آباء لهم وجُدُود، ولا مَنْ تلِدُه أُخْرىٰ الليالى وهى عاقِرٌ غير وَلُود؛ من تسَلِّمُ إليه أُمَّةُ محمد صلىٰ الله عليه وسلم عَقْدَ نِيَّاتها، وسِرَّ طوِيَّاتها؛ إلا واحدٌ وأين ذلك الواحد؟ هو والله من ٱنْحَصَر فيه ٱستحقاقُ مِيراث آبائه الأطهار، وتُراثِ أجداده ولا شئَ هو إلا ما ٱشتمل عليـه رِداءُ الليل والنَّهار؛ وهو ٱبنُ المنتقل إلىٰ ربِّه، وولَدُ الإمام الذاهِبِ لصُلْبـه؛ المجمَعُ علىٰ أنه فى الأَنَام،

فردُ الأيّام، وواحدٌ وهكذا فى الوُجود الإمام ؛ وأنه الحائزُ لِما زُرِّرَتْ عليه جُيوبُ المَشارِق والمَغارِب، والفائزُ بِملك مابين الشارق والغارب ؛ الراقى فى صَفِيح السماء هذه الذِّرْوَةَ المنيفه، الباقى بعدَ الأئمةِ الماضينَ رضى الله عنهم ونِعْم الخَليفه ؛ المجتمعُ فيه شروطُ الإمامه ، المتَّضع لله وهو من بيتٍ لا يزال المُلْك فيهم إلىٰ يومِ القيامه ؛ الذى تَصفَّح السَّحابَ نائلُه ، والذى لا يغُرُّه عاذرُه ولا يُغَيِّره عاذِلُه ؛ والذى :

تعوَّدَ بَسْطَ الكفِّ حتّى لو آنَّه * ثَنَاها لقَبْضٍ لم تُطِعْه أناملُه

والذى :

لا هُوَ فى الدُّنيا مُضِيعٌ نصيبَه * ولا وَرَقُ الدُّنْيا عن الدِّين شاغِلُه

والذى ما آرتقىٰ صَهْوة المِنْبَر بحضرة سلطان زمانِه إلّا قال ناصرُه وقام قائمه ؛ ولا قعَدَ علىٰ سرير الخلافة إلّا وعُرِفَ بأنَّه ما خاب مستكْفِيه ولا غاب حاكِمُه ؛ نائبُ الله فى أرضه، والقائمُ بمَقَام رسول الله صلّى الله عليه وسلم وخليفتُه وآبن عمِّه، وتابِعُ عملِه الصالح ووارثُ عِلْمه، سيدنا ومولانا عبدُالله ووليُّه «أحمد أبو العَبَّاس» الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، أيَّدَ الله تعالىٰ ببقائه الدِّين، وطوّق بسَيْفه [رقاب] المُلْحدين ، وكبتَ تحتَ لِوائِه المعتَدين ؛ وكتَب له النصرَ إلىٰ يوم الدين ؛ وكَفَّ بجِهَاده طوائفَ المُفْسدين، وأعاذَ به الأرضَ ممَّن لا يَدين بِدِين ؛ وأعاد بعَدْله أيامَ آبائه الخلفاءِ الراشدين والأئمة المَهْديين؛ الذين قضَوْا بالحق وبه كانُوا يَعْدِلون، وعليه كانُوا يعمَلُون ؛ ونَصر أنصارَه، وقدَّر آقتِداره ؛ وأسكن فى قلوب الرعيَّة سكِينَتَه ووَقَارَه ، ومكَّن له فى الوُجُود وجمعَ له أقْطارَه .

ولمَّا آنتقل إلىٰ الله ذٰلك السيدُ ولحِق بدار الحقِّ أسْلافَه، ونُقِل إلىٰ سرير الجنة عن سَرير الخلَافه ؛ وخَلَا العصْرُ من إمام يُمْسِك ما بقِىَ من نَهاره ، وخليفة يُغالب

مُرْبَدَّ الليل بأنْواره ، ووارثِ بنى بمثله ومثلِ أبيه ٱستغنىٰ الوجُود بعد ابن عمه خاتَم الأنبياء صلّى الله عليه وسلم عن نبيٍّ مقتَفٍ علىٰ آثارِه؛ ونَسِيَ ولم يعْهَدْ فلم يبقَ إذ لم يُوجَد النصُّ إلّا الإجماع ، وعليه كانت الخلافةُ بعدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا نِزَاع ، ٱقتضتِ المصلحةُ الجامعةُ عَقْدَ مجلسٍ كلُّ طَرْف به معْقُود ، وعَقْدَ بيعةٍ عليها اللهُ والملائكةُ شهُود ، وجُمِع النـاسُ له ﴿ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ له النَّاسُ وذٰلِكَ يومٌ مَشْهُود ﴾ . فحضَرَ من لم يُعبأ بعده بمن تخلَّف، ولم يُرْبأْ(١) معـه وقد مدّ يدَه طائعا بمن مَدَّها وقد تكلَّف ؛ وٱجتمعُوا علىٰ رأْيٍ واحدٍ وٱستخارُوا الله تعالىٰ فيه فخَـار، وناهيكَ بذٰلك من مُخْتار ؛ وأُخذتْ يمينٌ تُمَـدُّ إليها الأَيْمـان ، ويُشَدّ بها الإيمـان؛ وتعطىٰ عليها المَوَاثِيق، وتُعرَض أماناتُهـا علىٰ كلِّ فريق ؛ حتّى تقـلَّدَ كلُّ من حضر فى عُنُقه هـذه الأمانَهْ ، وحطَّ يدَه علىٰ المصـحف الكريم وحَلَفَ بالله العظيم وأتَمَّ أيمـانَه ؛ ولم يَقْطَع ولم يستثْن ولم يتردَّد، ومن قَطَع من غير قصدٍ أعاد وجَدّد؛ وقد نَوىٰ كلُّ مَنْ حلف أنَّ النيةَ فى يمينه نيّةُ من عُقِدت هذه البيعةُ له ونيةُ من حَلَفَ له ، وتذمَّم بالوفَاء فى ذمّته وتكفَّله ؛ علىٰ عادةِ أيمـان البيعة بشُروطها وأحكامِها المردَّده، وأقسامِها المؤكَّده؛ بأن يبذُل لهذا الإمام المفترضة طاعتُه الطاعه، ولايُفارقَ الجمهورَ ولا يُظْهِرَ عن الجماعة ٱنْجِياعَه؛ وغير ذٰلك مما تضمَّنته نُسَخُ الأيمـان المكتتَبُ فيها أسمـاءُ من حلف عليها مما هو مكتوبٌ بخُطوط من يكتُب منهم ، وخطوط العُدُول الثِّقات عمَّن لم يكْتُبْ وأذنوا لمن يكتب عنهم ؛ حسَبَ مايشهَدُ به بعضُهم علىٰ بعض ، ويتصادقُ عليـه أهلُ السماء والأرض ؛ بيعةٌ تمَّ بمشيئة الله تمـامُها ، وعَمَّ بٱصَّوْب الغَدَق غَمَامُها؛ ﴿ وقالوا الحمدُ لِلهِ الذى أَذْهَبَ عنَّا الحَزَن ﴾ . ووهبَ لنا الحسَن؛ ثم الحمدُ لله الكافى عبْـدَه ، الوافِى وَعْدَه، المُوافى لمن يُضاعِفُ علىٰ كل

(١) أى لم يبال به ولم يكترث . انظر اللسان والقاموس .

مَوْهِبة حَمْدَه، ثم الحمدُ لله علىٰ نِعمٍ يرغَبُ أميرُ المؤمنين فى ٱزْدِيادها، ويرهَبُ إلَّا أن يقاتِلَ أعداءَ الله بأمْدادها، ويرْأَبُ بها ماآثر فيما أثر ممـاليكه (؟) مابانَ من مُباينةِ أضـــدادِها .

نحمُده والحمد لله، ثم الحمدُ لله كلمةً لا نَمَلُّ من تَرْدادها، ولا نَبْخَل بمـا يُفوِّق السِّهامَ من سَدَادها، ولا نَظَلُّ إلَّا علىٰ مايوجب كثرةَ أعْدادِها، وتيسير إقرار علىٰ أورادِها؛ ونشهدُ أنْ لاإلٰه إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً يتقايسُ دَمُ الشهداء ومَدُّ مِدادها، وتتنافَسُ طُرَرُ الشَّـباب وغُرَرُ السَّحاب علىٰ ٱستمدادها؛ وتجانَسُ رُقومُها المدَبَّجــة وما تلْبَسه الدولةُ العباسيَّة من شِعَارها، والليالى من دِثَارِها، والأعداءُ من حِدَادها؛ ونشهدُ أنَّ ســيدنا محمدا عبدُه ورسولُه صلَّى الله عليه وسـلم وعلىٰ جماعةِ آلِهِ مَنْ سَفَل من أبنائها ومن سَـلَف من أجدادِها؛ ورضى اللهُ عن الصحابة أجمعين، والتابعين لهم باحسانٍ إلىٰ يوم الدين .

وبعــدُ، فإنَّ أميرَ المؤمنين لِمَـا أكْسبه الله تعالىٰ من ميراث النُّبوّة ما كان لجَدّه، ووَهَبه من الملك السُّلَيْمانىّ عن أبيه مالا ينْبغى لأحدٍ من بعده؛ وعَلَّمه مَنْطِقَ الطيرِ بمـا تحمَّلُه حمائمُ البطائقِ من بَدَائع البيــان، وسَخَّر له من البَريد علىٰ مُتُون الخيـل ماسَخَّر من الرِّيح لسليمان؛ وآتاه من خاتَم الأنبيــاء ماأمدّه به أبُوه سـليمان وتَصَرَّف، وأعطاه من الفَخَار ماأطاعه به كلُّ مخلوق ولم يتَخلَّف؛ وجعل له من لِبَاس بنى العبَّاس مايقضِى له سوادُه بسُؤْدَد الأجداد، وينفُضُ علىٰ كُحْل الهُدْب مافضَل عن سُوَيْداء القلب وسَوَاد البصر من السَّوَاد؛ ويَمُدُّ ظلَّه علىٰ الأرض فكلُّ مَكانٍ حَلَّه دارُ مُلْك وكلُّ مدينــةٍ بَغْداد؛ وهو فى لَيْــله السَّجَّاد، وفى نهــاره العَسْكرِىُّ وفى كرمه جَعْفَر الجَوَاد ــ يُدِيم الأبتهالَ إلىٰ الله تعالىٰ فى توفيقه، والأبتهاجَ بما يُغصُّ كلَّ عدُوٍّ بريقه؛ ويَبْدَأ يومَ هذه المُبايعةِ بما هو الأهَمُّ من مَصَالح الإسلام، وصالح الأعمال ممـا يتَحلَّى

به الإمام؛ ويُقدِّمُ التقوىٰ أمامَه ، ويقْرن عليها أحكامَه ؛ ويتّبع الشرعَ الشريفَ ويَقف عنده ويُوقِفُ الناس، ومَنْ لايحْمِلُ أمرَه طائعًا علىٰ العين حملَهُ بالسَّيف غَصْبا علىٰ الرَّاس ؛ ويعجِّلُ أميرُ المؤمنين بما يَشْفِي به النُّفوس، ويُزِيل به كَيْدَ الشيطان إنه يَئُوس ، ويأخُذُ بقلوب الرَّعايا وهو غنيٌّ عن هذا ولٰكِنْ يَسُوس ؛ وأميرُ المؤمنين يُشْهِد الله وخليقَتَه عليه أنه أقرَّ كلَّ آمْرِئٍ من وُلاة الأمور الإسلاميَّة علىٰ حاله ، وآستَمَرّ به فى مَقِيله تحتَ كَنَف ظِلَاله ؛ علىٰ آختِلاف طبَقَات وُلَاة الأمور، وتفرُّقِهم فى الممالك والثُّغُور ؛ برًّا وبَحْرا، سَهْلا ووَعْرا، وشَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا، وكُلِّ جليلٍ وحَقِير، وقَليلٍ وكثِير؛ وصَغيرٍ وكبِير، ومَلِك ومملُوك وأمير، وجُنْدىٍّ يَبْرُق له سيْفٌ شَهِير، ورُمْحٌ طَرِير؛ ومَنْ معَ هٰؤلاء من وُزَراءَ وقضاةٍ وكُتَّاب ، ومَنْ له يدٌ تبقىٰ فى إنشاءٍ وتحقيقِ حِساب ؛ ومَنْ يتحدّثُ فى بَرِيد وخَرَاج، ومن يُحتاجُ إليه ومن لا يُحْتاج ؛ ومَنْ فى الدُّروس والمَدَارس والرُّبُط والزَّوَايا والخَوَانق، ومَنْ له أعظَمُ التعلُّقات وأدْنىٰ العلائق؛ وسائرَ أربابِ المراتب، وأصْحابِ الرَّواتب؛ ومَنْ له فى مال الله رِزْقٌ مقْسوم، وحقٌّ مجهولٌ أو معْلُوم ؛ وآستِمْرارَ كلِّ أمرٍ علىٰ ماهو عليه ، حتّىٰ يستخيرَ اللهَ ويتبيَّنَ له مابين يدَيْه ؛ فما زاد تأهيلُه ، زاد تفضيلُه ؛ وإلَّا فأميرُ المؤمنين لايُرِيد سِوىٰ وجْهِ الله، ولا يُحابِى أحدًا فى دِين، ولا يُحامى [عن] أحد فى حقّ ؛ فإن المُحاماةَ فى الحقِّ مداجاةٌ علىٰ المسلمين ؛ وكلُّ ما هو مستمِرٌّ إلىٰ الآنَ، مستقِرٌّ علىٰ حُكْم الله مما فَهّمه الله له وفَهَّمه سليمان ، لا يغيرُ أميرُ المؤمنين فى ذٰلك ولا فى بعضه ، معتبر مستمرٌّ بما شكَرَ اللهَ علىٰ نعمه وهكذا يُجازِىٓ من شَكَر، ولا يكدِّر علىٰ أحدٍ موْرِدا نَزَّهَ اللهُ به نِعمَه الصافيةَ عن الكَدَر، ولا يتأوّلُ فى ذٰلك متأوّلٌ ولا من بَخَر النعمةَ أو كَفَر، ولا يتعلَّل متعلِّل فإنَّ أميرَ المؤمنين يعُوذُ بالله ويُعيذ أيَّامه من الغيَر، وأمَرَ أميرُ المؤمنين ـ أعلىٰ اللهُ أمرَه ـ

أن يُعْلِنَ الخطبـاءُ بذكرِه وذكرِ سـلطان زمانه علىٰ المَنـابر فى الآفاق، وأن تُضْرَب باسمهما النُّقُودُ المتعامَلُ بها علىٰ الإطْلاق؛ ويُبْتَهج بالدعاء لهما عطْف الليل والنهار، ويُصَرَّح منه بمـا يُشْرِق به وجهُ الدِّرْهم والدِّينار؛ وتُباهِى به المنابرُ ودورُ الضرب: هاتيك ترفعُ آسمَهما علىٰ أسرَّة مُهُودها، وهذه علىٰ أسارِيرِ نُقُودها؛ وهذه تقامُ بسببها الصَّلاة، وتلك تُدامُ بها الصِّلات؛ وكِلاهما تُستمالُ به القلُوب، ولا يُلام علىٰ ماتَعِيه الآذانُ وتُوعِيه الجُيُوب؛ وما منهما إلَّا من تُحَدِّق بجواره الأحْداق، وتميلُ إليه الأعناق؛ وتُبْلَغ به المقاصد، ويقْوىٰ بهما المُعاضِد؛ وكلاهمـا أمرُه مطاعٌ، من غير نزاع، وإذا لمعَتْ أزِمَّةُ الخُطَب طار للذَّهب شُـعَاع؛ ولولاهمـا ما آجتمع جمعٌ ولا آنضمّ، ولا عرفَ الأنَامُ بمَنْ تأتَمّ؛ فالخُطَب والذهبُ معناهمـا واحد، وبهما يذكُر اللهَ قِيَاءُ (١) المساجِد؛ ولَوْلا الأعمال، مابُذِلت الأَمْوال، ولوْلا الأمْوال، ماوُلِّيت الأعمال؛ ولأَجْل ما بينهما من هذه النِّسبه، قيل إنَّ الملكَ له السِّكَّة والخُطْبه؛ وقد أسمع أميرُ المؤمنين فى هذا الجمع المشْهُود مايتناقَلُه كلُّ خطِيب، ويتداوَلُه كلُّ بعيد وقريب، وإنَّ الله أمر بأوامر ونهىٰ عن نَواهٍ وهو رقِيب؛ وتستفْزِعُ الأولياءُ لهـا السَّجايا، وتتضَرَّعُ الخطباءُ فيها بنُعوت الوَصايا؛ وتكْمُلُ بها المَزَايا، ويتكلَّم بها الواعظُ ويُخْرِج من المشايخ الخَبَايا من الزَّوايا؛ وتَسْـمُرُ بها السُّمَّار ويترنَّم الحادِى والمَلَّاح، ويُروق شَجْوُها فى الليل المُقْمِر ويُرَقِّمُ علىٰ جَنْب الصَّـباح؛ وتُعَطَّر بها مكةُ بطْحاءَها وتحيا بحديثِها قُباه، ويلقِّنُها كلُّ أبٍ فَهْم آبنِه ويسأل كلَّ آبنٍ أن يُجِيب أباه؛ وهو لكم أيُّها الناسُ من أمير المؤمنين رُشْـد وعليكم بيِّنه، وإليكم مادعَاكُمْ به إلىٰ سبيل ربِّه من الحِكْمة والمَوْعِظة الحَسَنه؛ ولأمير المؤمنين عليكم الطاعةُ ولولا قيامُ الرَّعايا بها ما قَبِل اللهُ أعمالها، ولا أمسَكَ بها البحر ودحا الأرْضَ وأرْسىٰ جبالَهَا؛ ولا آتفقَتِ

(١) كذا ضبط فى بعض النسخ ولعل الصواب قيَّام، أو قوَّام. تأمل.

الآراءُ على من يستحق وجاءتْ إليه الخلافَةُ تجرّ أذيالَها ، وأخذها دُونَ بني أبيه ولم تكُنْ تصلُح إلّا له ولم يكُنْ يصْلح إلّا لها ؛ وقد كَفَاكم أميرُ المؤمنين السُّؤال بما فَتح لكم من أبواب الأرزاق ، وأسبابِ الارْتِفاق ؛ وأحسن لكم على وِفاقكم وعَلّمكم مَكارِمَ الأخْلاق ، وأجراكم على عوائِدِكم ولم يُمْسِكْ خَشْيةَ الإمْلاق ؛ ولم يَبْقَ على أمير المؤمنين إلّا أن يسِيرَ فيكم بكتابِ اللهِ وسنةِ رسوله صلّى الله عليه وسلم ، ويعمَلَ بما ينتفِعُ به مَنْ يجيء ـ أطال الله بقاء أمير المؤمنين ـ من بعده ، ويَزِيدَ على كل من تقدَّمَ ، ويُقِيمَ فروضَ الحج والجهاد ، ويُنِيمَ الرعايا بعَدْله الشامل فى مِهاد ؛ وأمير المؤمنين يُقِيمُ على عباده مَوْسِمَ الحجِّ فى كل عام ، ويشمَلُ سُكّان الحرمين الشريفين وسَدَنةَ بيتِ الله الحرام ؛ ويجهِّزُ السبيل على عادته ويرجُو أن يعُودَ إلى حاله الأوّل فى سالف الأيّام ، ويتدَفَّق فى هذين المسْجدين بحرُه الزاخر ويُرسِلَ إلى ثالثهما البيتِ المقدَّس ساكِبَ الغمام ؛ ويقُومَ بقَوَمة قُبُور الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ أينَ كانُوا وأكثَرُهم فى الشام ؛ والجُمَعُ والجماعاتُ هى فيكم على قَديم سُنَنِها ، وقَوِيم سَنَنها ؛ وستَزِيدُ فى أيّام أمير المؤمنين بمن انضمّ إليه ، وبما يتسلَّمُه من بلاد الكُفّار ويُسْلِم على يديه .

وأمّا الجِهاد ، فيكْتفِي باجتهاد القائم عن أمير المؤمنين بأُمُوره ، المقلَّدِ عنه جميعَ ماوراء سَريرِه ؛ وأمير المؤمنين قد وكَل إليه ـ خلد الله سلطانه ـ عَناءَ الأيّام ، وقلَّده سيفَه الراعب بَوارِقه ليَسُلَّه واجِدُه على الأعداء [و إلّا] سَلَّ خَيالَهُ عليهم فى الأحْلام ؛ ويؤكِّد أمير المؤمنين فى ارتجاع ماغلَب عليه العِدا ، وانتزاع [ما بأ] يْدِيهم من بلاد الإسلام فإنّه حَقُّه وإنْ طال عليه المَدى ؛ وقد قدّم الوصية بأنْ يُوالِي غزْوَ العَدُوّ المخذول بَرًّا وبحرا ، ولا يَكُفَّ عمّن يَظْفَر به منهم قتْلا وأسْرا ، ولا يَفُكَّ أغلالا ولا إصْرا ؛ ولا ينْفَكّ يرسل عليهم فى البحر غِرْبانًا ، وفى البرّ من الخيل عقْبانا ؛ يحْمل

فيهما كلَّ فارسٍ صَقْرا، ويحمِى المَمالكَ ممن يحوزُ أطرافها بإقدام، ويَتخوّلُ أكنافَهَا الأقْدام؛ وينظُر فى مصالحِ القِلَاع والحُصُون والثُّغور، وما يُحتاج إليه من آلاتِ القتَال، وما تُجْتاح به الأعداءُ ويعجِزُ عنه المُحْتال، وأُمَّهاتِ الممالك التى هى مَرابِطُ البُنُود، ومَرَابِضُ الأُسُود، والجَنَاحُ الممدود؛ ويتفقَّدُ أحوالَهُمْ بالعَرْض، بما لهم من خَيْل تعْقِد [بالعجاج] ما بين السماء والأرض؛ ومالهم من زَرَد مصُون، وبَيْض مَسَّها ذائبُ ذهبٍ فكانتْ كأنَّها بَيْضٌ مكْنون؛ وسيوفٍ قَوَاضِب، ورِماحٍ لكثْرة طعنِها من الدِّماء خَواضِب، وسِهام تُواصِل القِسِيَّ وتفارقُها فتحِنُّ حنِينَ مفارِقٍ وتُزجِرُ القوس زجْرةَ مُغَاضِب .

وهــذه جملةٌ أرادَ أميرُ المؤمنين بها تَطْييبَ قلوبِكم، وإطالةَ ذَيْل التطويلِ علىٰ مطْلوبكم؛ وماؤكم وأموالُكم وأعراضُكم فى حِمَايةٍ إلا ماأباح الشرعُ المطَهَّر، ومَزِيدُ الإحسان إليكم علىٰ مِقْدار مايخفىٰ منكم ويَظْهر .

وأما جُزْئِيَّات الأمور، فقد علِمْتم بأنَّ فِيمن تقلَّد عن أمير المؤمنين غِنىً عن مثل هـذه الذِّكْرىٰ، وفتىٰ حقٍّ لا يَشْـغَل بطلب شيءٍ فكرا؛ وفى وُلَاة الأمور، ورُعاة الجُمْهور؛ ومَنْ هو سِدَاد عمله، ومِدَادُ أمـله، ومُرادُ من هو منكم معشر الرعايا من قِبَله؛ وأنتم علىٰ تَفاوُتِ مقاديرِكم وديعةُ أمير المؤمنين ومَنْ خَوّلكم وأنتم وهم فما مِنْكم إلَّا من ٱسـتعرف أمير المؤمنين وتمشى فى مَراضى الله علىٰ خُلُقه، وينظر ما هو عليه ويسير بسـيرته المُثْلىٰ فى طاعة الله فى خلقه؛ وكلُّكم سواء فى الحق عند أمير المؤمنين وله عليـكم أداءُ النَّصيحه، وإبداء الطاعة بسَريرةٍ صحيحه؛ وقد دخل كلٌّ منكم فى كَنَف أمير المؤمنين وتحت رأْفتِـه، ولزِمَ حُكْمَ بيعته؛ وأُلْزِم طائِرَه فى عُنُقه، ويستعمل كلٌّ منـكم فى الوفاء ما أصبحَ به عليما : ﴿ ومَنْ أَوْفىٰ بما عاهَدَ عليهُ اللهَ فسَيُؤْتِيهِ أجْرا عظيما ﴾ .

هذا قولُ أميرِ المؤمنين، وعلىٰ هذا عُهِد إليه وبه يَعْهَد، وماسوىٰ هذا فهو فُجُور لا يُشْهَد به عليه ولا يَشْهَد؛ وهو يعملُ فى ذلك كلِّه ما تُحْمَد عاقبتُه من الأعمال، ويحمِلُ منه ما يصْلُح به الحال والمآل؛ وأميرُ المؤمنين يستغفرُ اللهَ علىٰ كل حال، ويستعيذُ بالله من الإهْمال؛ ويَخْتِمُ أمير المؤمنين قولَه بما أمر اللهُ به من العدل والإحسان، ويَحْمَدُ الله وهو من الخلق «أحمد» وقد آتاه اللهُ مُلْكَ سليمان؛ والله تعالىٰ يمتِّع أميرَ المؤمنين بما وَهَبه، ويملِّكه أقطارَ الأرض ويُورِثه بعد العُمُر الطويل عقِبَه؛ ولا يزال علىٰ أَسِرَّة العَلْياء قُعودُه، ولباسُ الخلافة به أبَّهة الجلالة كأنَّه ماءات منصورُه ولا رَدَى مَهْدِيُّه ولا ذهب رَشِيدُه (١) .

المقصد السادس

(فيما يكتب فى آخر البَيْعة)

إذا ٱنتهىٰ إلىٰ آخر البَيْعة، شرع فى كتابة الخَوَاتم علىٰ ما تقدّم، فيكتُب: "إن شاء الله تعالىٰ" ثم يكتب التاريخ. ثم الذى يقتضيه قياسُ العُهُود أنه يكتب المستَنَد عن الخليفة فيكتب «بالإذنِ العالى المولَوِىّ الإمامىّ النبوىّ المتوكِّلىّ - مثلا - أعلاه الله تعالىٰ» وكأنَّ الخليفة الذى عُقدت له البيعةُ هو الذى أذِن فى كتابتها .

قلت: ولو أُسقِط المستَنَد فى البيعات فلا حرج بخلاف العُهُود: لأنها صادرة عن مُولٍّ وهو العاهد، فحُسن إضافة المستَنَد إليه، بخلاف البيعة فإنها إنما تصْدُر عن أهل الحَلِّ والعَقْد كما تقدّم. ويُكتفىٰ فى المستَنَد عنهم بكتابة خُطُوطهم فى آخر

(١) هذه المعاهدة من قلم القاضى الفاضل ليست لابسة حلل بلاغته ولا متسربلة جلابيب فصاحته فهى تجربة لم تنقح ومسودة لم تصحح كما أشار إليه ٱبن ناظر الجيوش فليتنبه .

البيعة كما سيأتى ؛ ثم بعـد كتابة المستَنَد ـ إن كُتِب ـ تُكتَب الحمدلةُ والصلاةُ علىٰ النبيّ صلىّ الله عليه وسـلم والحَسْبلة ، علىٰ ماتقـدّم فى الكلام علىٰ الفَوَاتح والخَوَاتم فى مقدّمة الكتاب .

ثم يكْتُب مَنْ بايع من أهل الحلِّ والعقْد والشهود علىٰ البَيْعة .

فأما منْ تَولّى عقْـدَ البيعة من أهل الحلِّ والعقْد فيكتب : « بايعتُه علىٰ ذٰلك ، وكتب فلانُ بنُ فلان» ويدعو فى خلال ذٰلك قبل ٱسمه بمـا يناسب : مثل أن يقال « بايعتُــه علىٰ ذٰلك قدّس الله خلافَتَه » أو « زاد الله فى شَرَفه » أو « زاد الله فى ٱعْتِلائه» وما أشبه ذٰلك .

وأما الشهود علىٰ البَيْعة فالواجب أن يكتُب كلُّ منهـم : «حضَرْتُ جَرَيانَ عقد البَيْعــة المذكورة ، وكتب فلانُ بنُ فلان» كما يكتب الشاهد بجَرَيان عقْـدِ النكاح ونحوه ؛ ولا بأس أن يدعُوَ فى رسم شهادته قبل كتابة ٱسمه بما يناسب : مثل « قَرَنَها اللهُ تعالىٰ باليُمْن أو بالسداد » أو « عَرَّف الله المسلمين بركَتَها » وما أشبه ذٰلك .

المقصـــــد السابع

(فى قَطْع الورق الذى تُكتَب فيه البيعةُ ، والقلمِ الذى تُكتَب به ، وكيفيَّـــةِ كتابتها ، وصورةِ وضْــعها)

وٱعلم أنَّ البَيْعاتِ لم تكن متدَاوَلةَ الاِستعمال لقلَّة وُقُوعها ، فلم يكن لها قَطْع ورق ، ولا تصويرٌ متعارَفٌ فيتبع ؛ ولٰكنه يُؤْخَذ فيها بالقياس وعمومِ الألفاظ .

فأمَّا قَطْع ورَقها ، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق نَقْلا عن محمد بن عمر المدائنىّ فى كتاب ”القَلَم والدَّواة“ أنَّ قطع البغدادىّ الكامل للخُلَفاء والملُوك . ومقتضىٰ

ذلك أنَّ البيعات تُكتَب فيه ، وهو قياسُ ماذكره المقرّ الشّهابىّ بنُ فضل الله فى "التعريف" من أنّ للعهود قطعَ البغدادىّ الكامل على ماسيأتى ذكره .

قلت : لكن سيأتى فى الكلام على عُهود الخلفاء أنها الآنَ قد صارتْ تكتَبُ فى قطع الشامى الكامل ، وبينهما فى العَرْض والطُّول بَوْن كبير على ما تقدّم بيانُه فى الكلام على قَطْع الورق ؛ وحينئذٍ فينبَغِى أن تكونَ كتابةُ البَيْعات فى قَطْع الشامىّ مناسبةً لما تُكتبُ فيه عهودُ الخلفاء الآنَ .

وأمّا القلم الذى يُكتب به فبِحَسَب الورق الذى يُكتَب فيه : فإن كُتبتِ البيعةُ فى قطع البَغْدادىّ ، كانت الكتابةُ بقلَمِ مختَصر الطُّومار إذْ هو المناسبُ له ؛ وإن كُتِبتْ فى قطع الشامىّ ، كانت الكتابةُ بقلَمِ الثلُث الثقيلِ إذ هو المناسبُ له .

وأما كيفيّة الكتابة وصورةُ وضعها ، فقياسُ ماهو متداوَل فى كتابة العُهُود وغيرها ، أنه يبتدأُ بكتابة الطُّرّة فى أوّل الدَّرْج بالقلم الذى تُكتَب به البيعةُ سُطورا متلاصقةً لا خُلُوّ بينها ، ممتدّةً فى عَرْض الدَّرْج من أوّله إلى آخره من غير هامشٍ . ثم إن كانت الكتابة فى قطع البغدادىّ الكاملِ ، جرى فيه على القاعدة المتداوَلَة فى عُهُود الملوك عن الخلفاء على ماسيأتى ذكره ؛ ويتْرُكُ بعد الوصل الذى فيه الطُّرّةُ ستة أوصال بياضًا من غير كتابة : لتصير بوصل الطرّة سبعةَ أوصال ؛ ثم يكتُب البسملة فى أوّل الوصل الثامن بحيث تكون أعالى ألِفاته تكاد تلحقُ الوصل الذى فوْقه بهامشٍ عريضٍ عن يمينه قدرَ أربعة أصابعَ أو خمسةٍ مطبوقةً ؛ ثم يكتُب تحتَ البسملة سطرا من أوّل البيعة ملاصقًا لها ؛ ثم يخلّى مكانَ بيت العلامة قدرَ شبرٍ جَرْيا على قاعدة العُهُود وإن لم تكن علامةٌ تُكتب ، كما يخلّى بيتُ العلامة فى بعض المكاتبات ولا يكتَبُ فيه شىء ؛ ثم يكتب السطر الثانى تحت بيت العلامة على

سَمْت السـطر الذى تحتَ البسملة فى بقيّـة الوصل الذى فيـه البسملةُ ؛ ويحْرِص أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى أثناء السطر الأوّل أو الثانى ؛ ثم يسترسل فى كتابة بقيّـة البيعة ويجعل بين كل سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُماش كما سـيأتى فى العهود ؛ ويستصْحِب ذٰلك إلىٰ آخر البيعـةِ ، فإذا آنتهىٰ إلىٰ آخرها كتب "إن شاء الله تعالىٰ" ثم التاريخ ، ثم المستند ، ثم الحَمْدلةَ والصلاةَ علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والحَسْبلةَ ، علىٰ ما تقدّم بيانه فى الفواتح والخواتم فى مقـدّمة الكتاب ؛ ثم يكْتُبُ من بايعَ من أهل الحَلِّ والعقد خُطوطَهم ، ثم الشهودُ علىٰ البيعة بعدهم .

وإن كانت الكتابة فى القطع الشامىّ ، فينبغى أن ينقُصَ عددُ أوصـال البياض الذى بين الطرّة والبسملة وصلين فتكون خمسة ، وينقص الهامش فيكون قدْرَ ثلاثة أصابع علىٰ ما يقتضيه قانونُ الكتابة .

وهذه صورة وضعه فى الورق ممثّلا لهـا بالطرّة التى أنشأتُها لذٰلك ، والبيعة الثانية من البيعتين اللتين أنشأتُهما

بياض بأعلىٰ الدرج بقـــدر إصـــبع

هذه بَيْعةٌ ميمُونه ، باليُمْن مبتَدَاة بالسـعد مَقْرونه ؛ لمولانا السـيدِ الجليل الإمام النبوىّ المتوكّل علىٰ الله أبى عبـدِ الله محمدٍ أمير المؤمنين ، آبن الإمام المعتضِـدِ بالله أبى الفتح أبى بَكْر العبّاسىّ : زاد اللهُ تعالىٰ شرفَه علُوّا ، ونخاره سُمُوّا . قام بعَـقْدها السلطانُ السيدُ الأعظم ، والشاهنشاه المعظَّم ، الملكُ الظاهر أبو سعيد برقُوق ، خلّد الله تعالىٰ سـلطانَه ، ونصر جُيُوشَه وأعوانه ؛ بمجمَعٍ من أهـل الحلِّ والعَقْد ، والاَعتِبار والنقد : من القُضَاة والعلماء والأمراء ، ووجوه الناس والوزراء والصُّلَحاء والنُّصَحاء ، وإمضائها علىٰ السَّداد ، والنُّجْح والرشاد . علىٰ ماشرح فيه

الطرة

ابتداء العرض

انتهاء العرض

بياض ستة أوصال

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش الحمدُ لله الذى جعلَ بيتَ الخلافة مَثَابةً للناس وأمْنا وأقام

بيت العلامة

تقدير شبر

سُورَ الإمامة وِقَايةً للأنام وحِصْنا ، وشدّ منها بالعِصَابة

تقدير ربع ذراع

القُرشيَّة أزْرا وشاد منها بالعُصْبة العبَّاسيّة رُكْنا . وأغاث

تقدير ربع ذراع

الخلقَ بإمامِ هُدًى حَسُن سِيرةً وصَفَا سريرةً فراقَ صورةً ورقَّ معنى .

ثم يأتى على الكلام إلى آخر البيعة على هذا النَّمط إلى أن ينتهِىَ إلى

قوله : والله تعالى يجعَلُ انتقالهم من أدْنى إلى أعلى ومن يُسْرى إلى يمنى ،

ويحقِّق لهم بمن استخلَفَه عليهم وعْدَه الصادقَ بقوله تعالى : ﴿ وعَدَ اللهُ

هامش الَّذين آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كما ٱسْتَخْلَفَ

الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهُمُ الَّذِي ٱرْتَضَى لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنا ﴾ .

إن شاء الله تعـالىٰ

كتب فى الثانى من جمادىٰ الأولىٰ مثــلا

سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة

بالإذْن العالى المَوْلَوِىّ الإمامى النبوىّ المتوكلى مثــلا

أعــــلاه الله تعـالى

الحمدُ لله وحدَه ، وصلواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبِه وسلامُه

حسبُنا اللهُ ونِعم الوكِيل

صورة خط المبايعين للخليفة من أهل الحل والعقد

بايعته علىٰ ذلك	بايعته علىٰ ذلك	بايعته علىٰ ذلك
قدّس الله تعالىٰ خلافته	زاد الله تعالىٰ فى شرفه	زاد الله تعالىٰ فى آعتلائه
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

صـــورة خط الشـــهود على البيعـــة

حضرت	حضرت	حضرت
جَرَيان عقد	جَريان عقد	جَرَيان عقد
البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة
قرنَهـــا الله تعالىٰ	قـــرَنَها الله تعالىٰ	عَرَّف اللهُ المسلمين
باليُمْن والبركة	بالسَّـــداد	بركتَهـــا
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

النـــوع الثـانى

(من البَيْعات ، بيعاتُ المـــلوك)

وآعلم أنَّ المقرّ الشِّهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر فى "التعريف" : أنَّ مَنْ قام من الملوك بغير عهد ممن قَبْـله لم تجر العادةُ بأن تُكتَب لهم مبايعةٌ ؛ وكأنَّه يريد آصطلاحَ بلاد المَشْرِق والديار المِصْرية ؛ أما بلادُ المغرب فقد جرتْ عادة مصطَلَحهم بكتابة البَيْعات لملُوكهم ، وذٰلك أنه ليس عندهم خليفةٌ يَدِينون له ، يتقلَّدون المُلْكَ بالعـهد منه . بل جُلُّهم أو كلُّهم يدَّعى الخلافةَ فهم يكتُبون البيعاتِ لهذا المعنىٰ .

وهذه نسخةُ بيعةٍ من هـذا النوع ، كُتِب بها للسـلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان أبى الحَجّاج بن نَصْربن الأحمر الأنصارىّ ، صاحبِ حمراء غَرْناطةَ من الأندَلُس ، مفتتحةٌ بخُطبة علىٰ قاعدتهم فى بَيْعات الخلفاء علىٰ ماتقدّم ذكره ؛ وربمـا تكرَّر الحمدُ فيها دلالةً علىٰ عِظَم النعمة . من إنشاء الوزير أبى عبدالله محمدِ بنِ الخطيب صاحب ديوان إنشائه ، علىٰ مارأيتُه فى ديوان ترسُّله ، وهى :

الحمدُ لله الذى جلّ شانا، وعزّ سُلطانا ؛ وأقام علىٰ رُبُوبِيّته الواجبةِ فى كلّ شىء خَلَقه بُرهانا، الواجبِ الوجودِ ضرورةً إذ كان وُجودُ ماسِـواه إمْكانا؛ الحىِّ القَيُّومِ حياةً أبديّةً سَرْمدِيّةً منزّهة عن الابتداء والانتهاء [فلا تَعْرِف وَقْتا ولا تستَدْعِى زمَانا؛ العلـيم الذى يعْـلَمَ السِّرَّ وأخفىٰ] (١) فلا يعزُبُ عن عِلْمه مِثقـالُ ذَرَّة فى الأرض ولا فى السماء إلّا أحاط بها عِلْمـا وأدركها عِيَانا؛ القـديرِ الذى ألْقتِ الموجُوداتُ كلُّها إلىٰ عَظَمتـه يَدَ الخُضُوع آستِسْلاما له وإذْعانا . المُريدِ الذى بمشـيئته تصريفُ الأقدار، وآختلافُ الليلِ والنَّهار ، فإن منع مَنَع عَدْلا وإن مَنَح مَنَح إحسانا ؛ شَهِد تداوُلُ المُلوك بدَوَام مُلْكه ودلّ حدُوثُ ماسِـواه علىٰ قِدَمه ، وأثنتْ أَلْسِـنَةُ الحىّ والجمـادِ علىٰ مَواهبه وقِسَـمه ، وفاضَ علىٰ عَوَالم السماء والأرض بحرُ جُوده العميم النَّوال من قَبْل السؤال وكَرمه ، وإنْ مِنْ شَىْء إلا يُسَبِّح بحمده ويُثْنِى علىٰ نِعَمه سرا وإعلانا . فهو اللهُ الذى لاإلٰهَ إلّا هو ليس فى الوجود إلّا فعلُه ، ألَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ وإليه يَرْجِعُ الأمْرُ كُلُّه، وَسِعَ الأكوانَ علىٰ تباينها فَضْلُه ، وقَدَّر المواهِبَ والمقاسِمَ عدلُه ، مَنْعا ومَنْحا وزيادةً ونُقصانا .

والحمدُ لله الذى بيده الآختراعُ والإنشاء ، مالكِ الملك يُؤتِى المُلْكَ مَنْ يَشَاء ويَنْزِع الملك ممَّن يَشَاء، سبَقَ فى مكنُون غيبه القَضاء، وخَفِيتْ عن خلقه الأسبابُ وعَمِيتْ عليهم الأنباء، وعجزَتْ عقولُهم أن تُدْرِك منها كُنْهًا أو تَكْشِف منها بيَانا .

والحمدُ لله الذى رفَعَ قُبَّة السماء ما آتَّخذ لها عِمَادا ، وجعل الأرضَ فِراشًا ومِهَادا، وخلق الجبالَ الراسِـيَةَ أوْتادا ، ورتَّب أوضاعَها أجنـاسا متفاضلة، وأنواعًا متباينةً مُتقابِلة : لحيوَانًا ونباتًا وجمادًا ، وأقام فيها علىٰ حكمة الإبداع دلائلَ باهرةَ الشُّعَاع

---

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب لابن الخطيب (ص ٤٨ ج ١) .

وأشهادا ، وجعل الليل والنهار خِلفةً والشمسَ والقمر حُسْبانا . وقدّر السياسةَ سياجا لعالَمِ الإنسان يضُمُّ منه ما آنتشَر ، ويَطْوِى من تعدِّيه ما نشر ، ويحمِلُه على الآداب التى تُرشِدُه إذا ضَلَّ وتُقِيمه إذا عثَر ، وتجبُرُه على أن يلتزم السُّنَن ويتَّبع الأَثَر ، لُطْفا منه شَمِلَ البَشَر وحَنَانا .

ولما عَمَر الأرضَ بهذا الجنس الذى فضَّله وشرَّفه ، ووَهَب له العقْلَ الذى تفكَّر به فى حكمته حتّى عَرَفه ، وبما يجبُ لرُبُوبيَّته الواجبةِ وصَفَه ، جعلهم درجاتٍ بعضُها فوقَ بعض فَقْرا وغِنًى وطاعةً وعِصْيانا . وآختار منهم سَفَرةَ الوحْى وحملةَ الآيات ، وأرسل فيهم الرُّسُل بالمعْجِزات ، وعَرَّفهم بما كلَّفهم من الأعمال المفْتَرَضات : ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ . يومَ آعتِبار الأعمالِ وآعتِبار الحَسَنات ، ونَصَب العدْلَ والمجازاةَ فى يوم العَرْض عليه قِسْطاسًا ومِيزَانا .

نحمَدُه وله الحمدُ فى الأُولىٰ والآخِره ، ونُثْنِى على مَوَاهبه الجَمَّة وآلائِه الوافِره ، ونَمُدّ يدَ الضَّراعة ، فى موْقِف الرَّجاء والطَّاعة ، إلى المَزِيد من مِنَنه الهامِيَة الهامِرَهْ ، ونسألُه دَوامَ أَلْطافِه الخافِيَةِ وعِصَمِه الظاهِره ، وآتِّصالَ نِعمِه التى لا نَزالُ نتعرَّفُها مَثْنَى وَوُحْدانًا . ونشهدُ أنَّه اللهُ الذى لا إلٰهَ إلّا هو وحدَه لا شريكَ له . [شهادةً نجِدُها فى المَعاد عُدّةً واقيه ، ووسيلةً للأعمال الصالحة إليه راقِيَه ، وذخيرةً صالحةً باقيه ، ونُورا يَسعىٰ بين أيْدينا ويكونُ على الرضا والقبول فينا عُنْوانًا[1]] . ونشهد أنَّ سيدنا ومولانا محمدًا النبيَّ العربيَّ القرشيَّ الهاشميَّ عبدُه ورسوله الذى آصطفاه وآختاره ، ورَفَع بين النبيِّين والمرسلين مِقْداره ، وطهَّر قلبه وقدَّس أسراره ، وبلَّغه

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب ص ٤٩ .

من رِضَـاه اختيارَه، وأعطاه لِواءَ الشفاعة يَقْفُو آدمُ ومَنْ بعـده من الأنبياءِ الكِرام آثارَه، وجعله أقْربَ الرُّسُل مكانةً وأرفعَهم مكانَا . رسولُ الرحـمه، ونُورُ الظُّلْمه، وإمامُ الرسُل الأئمَّـه، الذى جمع له بين مَزِيَّة السَّبْق ومزية التَّتِمَّه؛ وجعل طاعته من العذابِ المقِيم أمانَا . صاحبُ الشَّفاعة التى تؤَمَّل، والوسـيلةِ التى إلىٰ الله بهـا يُتَوسَّل، والدرجةِ التى لم يُؤْتَها الملَكُ المقرَّب ولا النبيُّ المُرْسَل، والرتبةِ التى لم يُعْطِها اللهُ سواه إنسانَا . انتخَبَه من أشرفِ العَرَب أمًّا وأبَا، وأزكىٰ البريَّة طينـةً وأرفعها نسبَا، وابتعَثَه إلىٰ كافَّة الخلق عجَمًا وعرَبا، وملَأَ بنُور دعوتِه البسيطة جنُوبا وشَمالا ومَشْرِقا ومَغرِبا، وأنزل عليه كتابَهُ الذى آمنتْ به الجنُّ لمَّـا سمِعَتْه وقالوا ﴿إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبا﴾ . تمامًا علىٰ الذى أحسَنَ وتفصيلاً لكلِّ شيء وتِبْيانا . فصدَعَ صلَّى الله عليه وسـلم بأمْرِ من اختار ذاتَهُ الطاهِرةَ واصـطَفَاها ، وأدَّى أمانَةَ الله ووفَّاها ، ورأىٰ الخلائقَ علىٰ شفىٰ المَتَالف فتلافَاها، وتتَبَّع أدواءَ الضَّلال فشَفَاها ، ومحَا معالِمَ الجهـل وعفَّاها ، وشادَ للخلقِ فى الحقِّ بُنْيانا . مؤيَّدا بالمُعْجِزات التى حُجَجُها تُقْبَل وتُسَـلَّم : فمن جذْع لِفراقِه يتألَّم، وجَمَـادٍ بِصدْق نُبُوّتِه يتكلَّم، وجيشٍ شَكَا الظَّمأَ ففجَّر لدَيْه المَعين منه بنَـانا . وأىُّ مُعْجِزةٍ ككتاب الله الذى لاتنقضِى عجائبُه ، فهو اليَمُّ والعُلومُ النافعةُ كلُّها مَذَانِبُه، وأُفُق الحق الذى تهْدِى فى ظُلُمات البرِّ والبحر كواكِبُه، والحُجَّةُ البالغةُ التى أصبحَتْ بين الحق والباطل فُرْقانا . فأَشْرقتِ الأرضُ بنُور ربِّها وآياتِه ، وتمَّت كلمةُ الله صِدْقًا وعَدْلا لامُبَدِّلَ لكلماته ، وبلغ مُلْكُ أُمَّتــه مازُوِى له من أقْطار المعمُور وجهاتِه ، حتّٰى عَمَر من أكناف البسـيطةِ ، وأرياف البِحار المحيطة، وِهادا وكُثْبانا . ونُقِلَتْ كنوزُ كِسْرىٰ بعِزِّ دعوته الغالبـه ، وظَفِرتْ بفَلْج الخصام أيْدى عزائِمها المُطالِبه، وأصـبح إيوانُ فارسَ مجَرَّ رِماح العَرَب العاربه، وقَذَفَتْ جُنودَ قيصَر من ذوابِلها بالشُّهُب الثاقبه، حتّٰى فرّ عن مَدَرتِه الطيِّبة

آئبا بالصَّفْقة الخائبه، وخلصت إلى فُسْطاطِ مصر بكتائبها المتعاقبه، فلا تسمعُ الآذانُ فى إقامتِهم إلّا إقامةً وأذانا . ولا دليلَ أظهرُ من هـذا القُطرِ الأندلسيّ الغريبِ الذى خلَّصتْ إليه سيوفُها أثباجَ البِحار، علىٰ بُعْد المَراحل ونُزُوح الدِّيار، وتكاثُفِ العمالات وآختلافِ الأَمْصار، ومُنْقَطَع العِمارة بأقصىٰ الشَّمال ومَحَطّ السُّفَّار، طلعتْ عليه كلمةُ الله طُلُوعَ النهار، وآستوطنَتْه قبائلُ العرب الأحرار، وأرغمتْ فيه أُنوفَ الكُفَّار، ضِراباً فى سبيلِ اللهِ وطِعانا .

ولمَّا آستقام الدِّين، وتمّ معالمَ الإيمان الرسولُ الأمين، وظَهر الحقُّ المبِين، وراقَ من وَجه المِلَّة الحنيفيَّة السَّمْحةِ الجَبِين، وأخذ المَسالكَ والمآخذَ الإفصاحُ والتبيين، وتقرّرتِ المستَنَداتُ المعتَمَداتُ سُنَّةً وقرآنا ، أشعره الوحْىُ بالرِّحْلة عن هذه الدار، والآنتقالِ إلىٰ محلّ الكرامة ودارِ القَرار، وخَيَّره المَلَكُ فاختار الرَّفيقَ الأعلىٰ مُوَفَّقا إلىٰ كرم الآختيار، [و]وجَدَ صَحْبُه رضى الله عنهم فى الآستِخْلاف بعده والإيثارِ حُجَجا مُشْرِقةَ الأنوار، أطلَقتْ بالحقِّ يدًا وأنطقَتْ بالصِّدْق لسانا . صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحابته، وأُسْرته الطاهرةِ وعِصابته، وأنصارِه وأصهارِه وقَرابتِه، الذين كانوا فى مُعاضَدَتِه إخْوانا ، وعلىٰ إعْلاء إمْرة الحقّ أَعْوانا . نُجومِ المِلَّة وأقمارِها، وغُيوثِها الهاميةِ وبِحارِها، وسُيوفِ الله التى لاتَنْبُو شِفارُها، وأعلامِ الهدىٰ التى لاتَبْلىٰ آثارُها، ودَعائم الدِّين التى رَفعَتْ منه علىٰ البِرِّ والتقوىٰ أركانا .

وحَيَّا اللهُ وُجوهَ حَىّ الأنصار بالنعيم والنَّضْره، أُولى البأْس عند الحَفيظة والعَفْو عند القُدْره، الراضُون أن يذهَبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ ويذْهَبُوا برسولِ الله صلّى الله عليه وسلم فنِعْمَتِ المَنْقبةُ والأُثْره، الحائزُون ببيعةِ الرِّضوان فضْلًا من الله ورضوانا . وُزَراؤُه وظُهراؤُه فى كل أمر، وخالصتُه يومَ أُحُد وبَدْر، لم يزالوا صدْرا فى كلّ

قَلْب وقَلْبـا فى كلِّ صدر، يَصْلَوْن دُونَه كلَّ جمر، ويَفْـدُونَه بنُفُوسهم فى كلِّ سِرّ وجهر، ويعمَلُون فى إعلاء دينِـه بِيضًا عِضَابًا وسُمْرا لِدَانا . صلاةً لا تزالُ سحـائبُها ثَرّه، وتحيةً دائمةً مستمِرّه، ما لَهِجت الألسُنُ بثنائهم، ووقفَت المَفاخِرُ علىٰ عَلْيائهم، وتُعُلِّمت المواهِبُ من آلائِهم، وقَصُرت المحامِدُ علىٰ مُسمَّياتهم وأَسْمـائهم، وكان حُبُّهم علىٰ الفَوْز بالجنةِ ضَمَـانا .

ونسألك اللهم لهـذا الأمْرِ النَّصْرِىِّ الذى سَـبَبُه بسببِهم موْصُول، وهم لفُرُوعه السامِيةِ أُصُول، فيالَهَا من نُصُول خلَفَتها نُصُول، أنجزَتْ وعْدَ النصر وهو ممْطُول، وأحيت رُبُوعَ الإيمانِ وهى طُلُول، نَصْرا عزيزًا وفَتْحا مبينا، وتأْييدًا علىٰ أعدائِك وتمكِينا، ومُلْكا يبقىٰ فى الأعقـابِ وأعقابِ الأعقابِ وسُـلطانا . وأعِنَّا اللهمَّ علىٰ ما أوجبْتَ له من مفرُوض الطـاعه، وتأديةِ الحقِّ بجَهْد الاِسـتِطاعه، وٱعْصِمْنا بإيالتِه العادلةِ من الإضَاعه، وٱحمِلْنا من مَرْضاته علىٰ سَنَنِ السُّنَّة والجماعه، وٱجعَلْها كلمةً باقيةً إلىٰ قيام الساعه ﴿ وٱعفُ عنَّا وٱغفِرْ لَنَا وٱرْحَمْنا أنْتَ مَوْلانا ﴾ .

أما بعدَ ما ٱفْتُتِح به من تحميدِ الله وتمجيدِه، والثناء الذى تتعطَّرُ الأنْدِيةُ بتَرْدِيده؛ فإنَّ من المشهور الذى يعَضِّـده الوجودُ ويؤيِّده، والمعلومِ الذى هو كالشمس ضَلَّ من يُنْكِره أو يجْحَدُه، والذائع بكلِّ قُطْر تَرْويه رُواةُ الأنبـاءِ وتُسْنِده؛ ماعليه هـذا المُلْك النَّصْرىُّ الحِمىٰ ، الأنصارىُّ المُنْتمىٰ ؛ الذى يُصيبُ شاكلةَ الحقِّ إذا رمىٰ ، ويَعُمُّ العبـادَ والبلادَ غيْثُه مَهْما هَمىٰ : من أَصالةِ الأَعْراق ، وكَرَم الأخْلاق؛ والفضل الباهرِ الإشْراق، والجهادِ الذى هو سَمَر الرَّكْب وحديثُ الرِّفَاق؛ وأنَّ قوْمه الملوكَ الكِرام إن فُوخِروا بنسبٍ ذكَرُوا سعدَ بن عُبادةَ ومجْدَه، أو كُوثِرُوا بعددٍ غَلَبوا بالله وحْدَه ، أو ٱستُنْصِروا فرَجُوا كلَّ شدّه ، وٱستظْهَرُوا من [عِزِّهم][1] المَوْهُوب،

(١) من ريحانة الكتاب .

وصَبْرهم علىٰ الخطوب، بكلِّ عَدَد وعُدّه ؛ دارهم الثغرُ الأقصىٰ ونعمتِ الدّار ، وشِعَارُهم «لا غالِبَ إلّا اللّهُ» ونِعْم الشِّعار ؛ زُهّادٌ إذا ذُكِر الدِّين ، أُسودٌ إذا حَمِيت المَيَادين؛ جبالٌ إذا زحفَت الصُّفوف ، بُدورٌ إذا أظلَمتِ الزُّحُوف ؛ غيوثٌ إذا مُنِع المعرُوف، أفرادٌ إذا ذُكِرت الأُلوف؛ إنْ بُويِعوا فالملائكةُ وُفُود [وحملةُ العِلْم](١) وحملةُ السِّلاح شُهُود ، وإن وَلَدُوا فالسُّيوفُ تمائِمُ والسُّروج مُهُود، وإن أَصْحَرُوا للعدُوّ فالظِّلال بُنُود ، وجُنودُ السبع الطِّباقِ جُنُود، وإن أظلم الليلُ أسهَرُوا جُفُونَهم فى حياطة المسلمين والجُفُونُ رُقُود .

وإنَّ هذا القُطرَ الذى آنتهىٰ سَيْلُ الفتح الأوّلِ إلىٰ ناحيتِه، وأُجِيلتْ قِداحُ الفوز بالدَّعوة الحنيفيَّة علىٰ الأقطار فأخذ الإسلامُ بناصِيتَه؛ كان من فَتْحه الأوّل ماقد عُلِم، حَسَبَ ماسُطِّر ورُسِم؛ وإنَّ موسىٰ بنَ نُصَير وفتَاه، حَلَّ من فُرْضَةِ مَجَازه مَحَلَّ موسىٰ وفتَاه؛ وحلَّ الإسلامُ منه دارَ قَرار، وخِطَّةً خليقةً بارْتيادٍ وآختيار؛ وبلدًا لايُحصىٰ خَيْره، ولا يَفْضُلُه بشيءٍ من المزِيَّة ماعدا الحَرَمين غَيْرُه؛ وآمتدّتِ الأيَّامُ حتّىٰ تأنّس العدُوّ لرَوْعتِه، وخَفَّ عليه ما كان من صَرْعته؛ وقدَحَ فأوْرىٰ، وأعضل داؤه وآسْتَشْرىٰ، وصارتِ الصُّغْرىٰ التى كانت الكُبْرىٰ؛ فلولا أنَّ الله عَمَدَ الدِّين منهم بالعُمْدة الوَثِيقه، حُماةِ الحقِيقه، وأئمةِ الخليقَهْ، وسُلالةِ مفتَتِحى اليمامةِ ومفتَتِحى الحَدِيقه ، لأجهز النصل، وآجتُثَّ من الدِّين الفرْعُ والأصْل؛ لٰكنَّهم آنتَدبوا إلىٰ إمساكِ الدِّين بها آنتِدابا ، ووصَلُوا للإسلام أسْبابًا ؛ وتناولَها منهم صَقْرُ قَبِيلِ الخَزْرَجْ، ذُو الحُسام المُضَرّج، والثناء المؤرّج؛ أبو عبد الله الغالب بالله محمدُ آبن يوسف بن نصر أميرالمسلمين، المنتَدَب لإقامة سنَّة سيد المرسلين، قُدوةُ الملوك المجاهدين : نَضَّرالله وجهه وتقَبَّل جِهاده ، وشَكَردفاعَه عن حوزة الإسلام

(١) من ريحانة الكتاب .

[وجلاده ؛ فأقشعت الظلمه ، وتماسكت الأمه ؛ وكف العدو وأقصر ، ورأى الإسلام بمن آستنصر ، وآستبصر فى الطاعة](١) من آستبصر ؛ وهبّت بنصر الله العزائم ، وكثرت على العدو الهزائم ؛ وتوارثوا مُلكها ولدا عن أب ، مستندين إلى عدل وبذل وبسالة وجلالة وحسب ؛ تتضح فى أفق الجلال نجوم سيرهم هادية للسائرين ، وتفرق من سطواتهم فى الله أسود العرين ؛ إلى أن قام بالأمر وسطى سلكهم ، وبركة ملكهم ؛ الخليفة الواجب الطاعة بالحق على الخلق ، الشهير الجلالة والبسالة فى الغرب والشرق ، أمير المسلمين بواجب الحق ؛ ساحب أذيال العفاف والطهاره ، السعيد الإيالة والإماره ، البعيد الغاره ؛ من ذعر العدو لبأس حسامه ، وذخر الفتح الهنى لأيامه ؛ صدر الملوك المجاهدين ، وكبير الخلفاء العادلين ، البعيد المدى فى حماية الدين ؛ السعيد الشهيد ، أبو الوليد ، آبن المولى الهمام الأوحد ، الرفيع الممجد ، الطاهر الظاهر الأعلى ، الرئيس الكبير الجليل المقدس الأرضى ، « أبى سعيد » بن أبى الوليد ، بن نصر . فأحيا رحمه الله معالم الكتاب والسنة ، وجلى بنور عدله غياهب الدجنه ، وأعز الإسلام وحماه ، ورمى ثغرة الكفر فأصماه ؛ قدس الله روحه الطيب ، وسقى لحده من الرحمة الغمام الصيب ؛ وأورث الملك الجهادى من ولده خير ملك قبلت منه كف ، وآستدار به موكب للجهاد ملتف ؛ وشمخ بخدمته أنف ، وسما إلى مشاهدته طرف ؛ وتأرج من ذكره عرف ، وجرى إلى بابه حرف ؛ مولانا الملك الهمام ، الخليفة الإمام ، من أشرق بنور إيالته الإسلام ، وتشرفت بوجوده الليالى والأيام ؛ بدر الملك وشمسه ، وسر الزمان الذى قصر عن يومه أمسه ؛ الذى آشتهر عدله ، وبهر فضله ، وظهرت عليه عناية ربه ، وكان الخضوع له فى سلمه وحربه ؛ مولانا أمير المسلمين ، وقدوة الملوك المجاهدين والأئمة

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لآبن الخطيب وهى لازمة لاستقامة الكلام .

العارفين ؛ السعيدُ ، الشهيدُ ؛ الطاهرُ ، الظاهِر ؛ الأوحدُ الهُمام ، الخليفة الإمام (أبو الحَجّاج) رفعَ الله درجتَه فى أوليائه ، وحَشَره مع الذين أنْعم عليهم من أنبيائه وشُهَدائه ؛ فوضَحت المَسالكُ وبانَتْ ، وأشرقتِ المعاهدُ وآزْدانتْ ؛ وشَمِل الصُّنعُ الإلٰهىّ واللُّطف الخفىّ أقطارَ هذه الأمة حيث كانَتْ . ولما آختار الله له ماعنده ، وبلَغَ الأمدَ الذى قدّره سبحانه لحياته وَحَدَّه ؛ وقبَضه إليه مستغفِرا لذنبه ، مطمئنًّا فى الحالة التى أقربُ ما يكون العبدُ فيها من رَبِّه ؛ كأنما تأهّب للشهادة [فاختار] مكانَها وزمانَها ، وطهّر بالصوم نَفْسه التى كَرّم اللهُ شانها ، وطيّب رَوْحها ورَيْحانَها ؛ فوقعت آراءُ أرباب الشُّورىٰ التى تِصحُّ الإمامة باتِّفاقها ، وتنعقدُ بعَقْد ميثاقِها : من أعلام العلم بقاعدة [مُلْكه] غَرْناطة حرسها اللهُ تعالىٰ التى غيرُها لها تَبَع ، وحُماةِ الإسلام الذين فى آرائهم للدين والدنيا منْتفَع ؛ وخُلْصانِ الثِّقات ، ووُجوه الطَّبقات ، علىٰ مبايعة وارثِ مُلْكه بحقِّه ، الحائز فى مَيْدان الكمال وإحراز ماللإمامة من الشروط وإ[ك]لال خَصْل سَبْقه ؛ كبيرِ وَلَده ، وسابقِ أَمَده ؛ ووارثِ مُلْكه ، ووُسْطىٰ سِلْكه ؛ وعِمَادِ فُسْطاطه ، وبَدْرِ الهالة من بِسَاطه ؛ مولانا قمرِ العَلْياء ، ودُرّةِ الخُلَفاء ، وفَرْعِ الشجرة التى أصلُها ثابِتٌ وفَرْعُها فى السماء ؛ الذى ظهرَتْ عليه مخايِلُ المُلْكِ ناشِئا ووليدا ، وآستشْعرتِ الأقطارُ به وهو فى المَهْد أماناً وتمهيدا ؛ وآستشرف الدِّينُ الحنيفُ فأَتلعَ جِيدا ، وآستأنَفَ شباباً جديدا ؛ ناصرِ الحقِّ ، وغِياثِ الخلْق ؛ الذى تميَّز بالسكينة والوَقار ، والحياءِ المُنْسدِل الأسْتار ، والبَسالةِ المرهُوبةِ الشِّفار ؛ والجُود المُنْسكب الأمطار ، والعدلِ المُشْرِق الأنوار ؛ وجمَعَ الله فيه شُروطَ الملك والآختيار ، مولانا ، وعُمْدة ديننا ودُنْيانا ؛ السلطان الفاضل ، والإمامِ العادِل ؛ والهمامِ الباسل ، الكريمِ الشمائل ؛ شمسِ الملك وبَدْرِه ، وعَيْنِ الزمانِ وصَدْرِه ؛ أميرِ المسلمين ، وقُرّة أعينِ المؤمنين ، أبُو عَبْد الله : وصلَ الله أسبابَ سَعْده ، كما حَلّى أجيادَ

المنابر بالدّعاء لمَجْده، وجعل جُنودَ السماء من جُنْده، ونَصَره بنَصْره العزيز فما النَّصرُ إلا مِن عِنـده، ورأَوْا أن قد ظَفِرتْ بالعُروة الوُثْقىٰ أيديهم، وأمِنَ فى ظلّ الله رائحُهم وغادِيهم، ودلّت علىٰ حُسْن الخواتم مَبادِيهم؛ فتبادَرُوا وآنثالُوا، وتبخْـتَرُوا فى ملابِس الأَمْن وآختـالُوا؛ وهَبُّوا إلىٰ بَيْعتِهِ تطـيرُ بهم أجنِحةُ السُّرور، ويُعْلِن آنطلاقُ وُجُوهِهم بانْشِراح الصُّـدور؛ وآجتمع منهم طوائفُ الخـاصّة والجُمْهور: ما بين الشريف والمَشْروف، والرُّؤساءِ أُولى المَنْصب المعْروف؛ وحَمَلةِ العـلم وحملةِ السُّـيوف، والأُمَناء ومَن لَدَيْهم من الأُلُوف، وسائرِ الكافّة أُولِى البِـدَار لمثْلِها والخُفُوف؛ فعقَدُوا له البيعةَ الوثيقةَ الأَسَاس، السعيدةَ بفضلِ اللهِ علىٰ النـاس، البرىءَ عهْدُها من الآرتيابِ والآلتِباس؛ الحائزةَ شُروطَ الكمال، الماحيةَ بنُور البيان ظُلَمَ الإشْكال؛ الضّمينةَ حُسن العُقْبىٰ ونُجْحَ المآل، علىٰ ما بُويِـع عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم ومَنْ له من الصّحابة والآل؛ وعلىٰ السَّمْع والطـاعه، ومُلازَمة السنّة والجَمَاعه؛ فأيديهم فى السِّلْم والحَرْب رِدْءٌ لِيَده، وطاعتُهم إليه خالصةٌ فى يومِهِ وغَدِه؛ وأهواؤُهم متّفِقة فى حالَىِ الشِّدّة والرَّخاء، وعقُودهم محفوظةٌ علىٰ تداوُلِ السَّرّاء والضَّرّاء؛ أشهَدُوا عليها اللهَ وكفىٰ باللهِ شهيدا، وأعطَوْا صَفَقات أيمانهم تثْبيتا للوفاء بها وتأْكِيدا، وجعلوا منها فى أعناقهم ميثاقًا وثيقًا وعهدًا شـديدا؛ والله عز وجل يقول: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فإنّما ينْكُثُ علىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسيُؤْتِيه أجْرا عَظِيما﴾. ومن أصْدَقُ من اللهِ وَعْدا أو وَعِيـدا. وهم قد بسَطُوا أيديَهـم يستنْزِلُون رحمةَ الله بالإخلاصِ والإنَابه، وصرَفُوا وجُوهَهـم إلىٰ من أمَرَهم بالدعاء ووعدَهم بالإجابَه؛ يسألُونه خيْرَ مايقْضِيه، والسيْرَ علىٰ ما يُرْضِيه.

اللهمَّ بابَكَ عنـد تقلُّب الأحوالِ عَرَفْنـا، ومن بحرِ نعَمك العميمةِ آغْترفْنـا، وعفْوُكَ ستَرَ من عيُوبنا كلَّ ما آجترَحْنا وآقترَفْنا؛ ومن فَضْلك أغنَيْتَنا، وبعينك التى

لاتنام حرستنا وحميتنا [فانصر حينا وارحم ميتنا](١) وأوزعنا شكر ما أوليتنا، واجعل لنا الخير والخيرة فيما إليه هديتنا .

اللهم إن قطرنا من مادة الإسلام بعيد، وقد أحدق بنا بحر زاخر وعدو شديد، وفينا أيم وضعيف وهرم ووليد [وأنت مولانا ونحن عبيد .

اللهم من بايعنا فى هذا العقد](١) فأسعدنا بمبايعته وطاعته، وكن له حيث لا يكون لنفسه بعد استنفاد جهده فى التحفظ واستطاعته؛ وكف عنه كف عدوك وعدوه كلما هبت به رياح طماعته، يامن يفرده العبد بضراعته، ويعوذ بحفظه من إضاعته .

اللهم أدعنا حقه فإنا لانقوى على ادائه، وتول عنا شكر ماحمدناه من سيرته وسيرة آبائه، واحمله من توفيقك على سوائه .

اللهم إنا إليه ناظرون، وعن أمره صادرون، ولإنجاز وعدك فى نصر من ينصرك منتظرون؛ فأعنه على ماقلدته، وأنجز لدينا على يديه ماوعدته؛ فما فقد شيئا من وجدك، ولا خاب من قصدك، ولا ضل من اعتمدك، آمين آمين يارب العالمين .

وكتب الملأ المذكورون أسماءهم بخطوط أيديهم فى هذا الكتاب، شاهدة عليهم بما التزموه دنيا ودينا، وسلكوا [منه] سبيلا مبينا؛ وذلك فى الثانى والعشرين لشوال من عام خمس وخمسين وسبعمائة .

قلت : وقد أخبر آخر هذه البيعة بأن المبايعين للسلطان تؤخذ خطوط أيديهم فى كتاب البيعة شاهدة عليهم بما بايعوا عليه . والظاهر أن كتابة البيعة عندهم كما فى مكاتباتهم فى طومار واحد كبير متضايق السطور، وأنه ليس له طرة بأعلاه كما فى كتابة المصريين .

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لابن الخطيب .

البـاب الثـالث

من المقـالة الخامسة فى العُهُود، وفيه فصلان

الفصـــــل الأوّلُ

(فى معنىٰ العَهْد)

العهْدُ لفظٌ مشتَرَك يقع فى اللغة علىٰ ستة مَعانٍ :

أحدها — الأمَانُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ .

الثـانى — اليَمينُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وأَوْفُوا بِعَهْـدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ ﴾ .

الثالث — الحِفَاظ . ومنه قولُه صـلّى الله عليه وسـلم : "حُسْنُ العَـهْدِ مِنَ الإيمـان" .

الرابع — الذِّمّة . ومنه قولُه صـلّى الله عليه وسـلم "لا يُقْتَل مُسْـلِمٌ بكافر ولا ذُو عَهْدٍ فى عَهْده" .

الخامس — الزّمان . ومنه قولهم : "كان ذٰلك علىٰ عَهْدِ فلان" .

السادس — الوَصِـيَّة . ومنه قوله تعـالىٰ : ﴿ ولَقَدْ عَهِدْنَا إلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْـلُ فَنَسِيَ ﴾ وهو المراد هنا .

قال الجَوْهرىّ : ومنه اشْتُقّ العهدُ الذى يُكْتَب للوُلَاة (١) .

(١) بهامش الاصل هنا حاشية نصها «ولهم سابع ، وهو قولهم فى الدعاء للملك بعد موته : سقى الله عهده برحمته أى مكانه المدفون فيه يسق بالرحمة . فصح أن يطلق على الزمان والمكان» .

الفصـــل الثـانى
(فى بيانِ أنواعِ العُهُـــود، وهى ثلاثةُ أنواع)

النـــوعُ الأوّل
(عهودُ الخُلَفاء عن الخُلَفاء، ويتعلَّق النظرُ به من ثمـانيةِ أوجه)

الوجــــهُ الأوّل
(فى أصـــل مشروعِيَّتهـا)

والأصـلُ فى ذلك ماثبت فى الصحيحين من حديثِ ٱبنِ عمرَ رضى الله عنهما، أنه قيل لِعُمَرَ عِنْدَ موته "ألا تَعْهَدُ؟ فقال: أأتحمَّلُ أمْرَكُمْ حيًّا وميّتًا؟ إنْ أَستخْلِفْ فقد ٱستَخْلَفَ مَنْ هو خيْرٌ مِنِّى، [يعنى أبا بكر](١): وإنْ أتْرُكْ فقد تَرَكَ مَنْ هُو خيْرٌ منِّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم". فأثبتَ ٱستخلافَ أبى بكر رضىَ الله عنه بذلك، مشيرًا إلى ما رُوِى: "أنَّه لما ٱشتدَّ بأبى بكر الصدّيقِ رضى الله عنه الوَجَعُ، أرسلَ إلى علىّ وعُثْمانَ ورجالٍ من المهاجِرين والأنصارِ، فقال: قد حَضَرما تَرَوْن، ولا بُدّ من قائمٍ بأمْرِكم، فإن شِئْتم ٱستَخَرْتُم لأنفُسكم، وإن شِئْتم ٱستخَرْتُ لكم. قالوا: بل ٱخترْ لنا، فأمَرَ عثمانَ فكتبَ عهْدَ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه (على ماسيأتى ذكره) ـفقال عمر: لا أُطِيقُ القِيامَ بأمور الناسـ فقال أبو بكر هاتُوا سَيْفِى! وتهدّدَه فانقاد عمرُ، ثم دخل عليه طلحةُ فعاتَبه على ٱستخلافِ عُمَرَ. فقال: إنَّ عُمَرَ واللهِ خيْرٌ لكم وأنتم شَرٌّ له، واللهِ لو وَلَّيتُك لجعلْتَ أَنْفَكَ فى قفَاك، ولرفَعْتَ نفْسَك فوقَ قَدْرِها حتّى يكونَ اللهُ هو الذى يَضَعُها. أتيتَنِى وقد وَكَفَتْ عيْنُك، تريدُ أن تَفْتِنَنى عن دينى

(١) الزيادة من صحيح مسلم (ج ٢ ص ٨٠).

وتَرُدَّنِى عن رأْيى، قُمْ لاأقامَ اللهُ رِجْلَك، واللهِ لئِن بلغَنِى أنك غَمَصْتَه وذكرتَه بسُوءٍ لأُلحِقنَّك بحَمَضات قُنَّةٍ حيثُ كنتُم تُسقَوْن ولا تَروَوْن، وتَرْعَوْن ولا تَشْبعون، وأنتم بذلك بَجِحُون راضُون، فقام طلحةُ نخرج ".

قال العسكرىّ : الحَمَضات جمع حَمْضة ضَرْبٌ من النَّبْت، والقُنَّة أعلىٰ الجبل .

قال الماوردىّ : وكان آستخلافُ أبى بكر رضى الله عنه عُمَرَ بآتِّفاقٍ من الصحابة من غير نكيرٍ فكان إجماعا .

وقد عهِدَ عمرُ رضى الله عنه إلىٰ ستةٍ، وهم عثمانُ، وعلىٌّ، وطلحةُ، والزُّبيْرُ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف، وسعدُ بن أبى وَقَّاص؛ وتركها شُورىٰ بينهم، فدخَلُوا فيها وهم أعيانُ العصر وأشرافُ الصَّحابة رِضوانُ الله عليهم .

الوجـــــه الثـانى

(فى معـــنىٰ الاِســـتخلاف)

قال البغَوىّ رحمه الله فى كتابه "التهذيب" فى الفقه : الآستخْلافُ أن يجعلَه خليفةً فى حيـاته ثم يخْلُفَه بعده . قال : ولو أوصىٰ بالإمامةِ فوجهانِ (١) : لأنَّه يخْرُج بالموت عن الوِلَاية فلا يصِحُّ منه توليـةُ الغير . وآستشكَلَ الرافعىُّ رحمه الله هـذا التوجيهَ بكلّ وصـية؛ وبأنَّ ماذكره من جعله خليفةً بعده : إن أُرِيد به آستنابتُه فلا يكون ذلك عَهْدا إليه بالإمامة . وإن أُرِيد جعلُه إماما فى الحـال، فهو : إمَّا خلْعُ نفس العاهد، وإمَّا آجتماع إمامين فى وقت واحد . وإن أريد جعله خليفة أو إماما بعد موته فهو الوصية من غير فرق .

---

(١) أى وأصحهما عنده عدم الجواز . بدليل التعليل .

قلت : وهـذا جُنوحٌ من الرافعىّ رحمه الله إلىٰ صِحّة الخلافة بالوصـيّة أيضا ، كما تصح بالاستخلاف[(١)] .

الوجـــــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه)

وآعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة العهد بالخلافة أمُورا :

منهـا — بَراعةُ الاستهلال بذكر مايتَّفِق له : من معنىٰ الخلافة والإمامة وآشتقاقِهما، وحالِ الوِلاية ، ولقبِ العاهِد والمعهُود إليه، ولقبِ الخلافة ، إلىٰ غير ذٰلك ممـا سبق بيانُه فى الكلام علىٰ البَيْعات .

ومنها — أن يُنبِّه علىٰ شَرَف رُتْبة الخلافة، وعُلُوّ قدرها، ورِفعة شأنها، ومَسِيس الحاجةِ إلىٰ الإمام، ودِعَاية الضرورة إليه، ونحو ذلك ممـا سبق فى البيعات أيضا .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ آجتماعِ شروطِ الإمامة فى المعهُود إليــه من حِينِ صـدور العهد بهـا من العاهد ، فقد قال المـاوردىّ : إنه تُعتبَر شروط الإمامة فى المعهُود إليه من وَقْت العهد، حتّىٰ لو كان المعهودُ إليـه صغيراً أو فاسقًا وقْتَ العهد و بالغًا [عَدْلا] عند الموت ، لم تَصِحّ خلافتُـه حتّىٰ يستـأنِفَ أهلُ الآختيارِ بَيْعتَه . قال الرافعىّ رحمه الله : وقد يُتَوقَّف فى هذا . قال النووىّ رحمه الله فى "الروضة" : لاتَوقُّفَ . والصواب ماقاله المـاوردىّ .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ آجتهاد العاهِد وتروِّى نظره فى حقِّيَّة المعهود إليــه : فقد قال الماوردىّ : وإذا أراد الإمامُ أن يَعْهَد بالإمامة، فعليه أن يُجْهِد رأيَهُ فى الأحَقّ بها، والأقْومِ بشُروطها؛ فإذا تعيَّن له الآجتهاد فى أحد، عَهِد إليه .

(١) فى الأصول كما لاتصح الخ والظاهر أن « لا » زائدة من الناسخ تأمل .

ومنها — أن يُشير إلىٰ تقدُّم الاستخارة علىٰ العهْد ، وأنَّ استخارتَه أدّتْه إلىٰ المعهود إليه ؛ فإنَّ الاستخارةَ أمرٌ مطلوب فى كل أمر، خصوصًا أمْرَ المسلمين وعُمومَ الولايةِ عليهم ، فإنَّ اختيارَ الله للخلق خيرٌ من اختيارهم لأنفُسِهم، والله يَقُولُ الحقَّ وهو يَهْدِى السَّبِيل .

ومنها — أن ينَبِّه على أنَّ عهدَه إليـه بعد مَشُورة أهل الاختيار ومراجَعَتِهِم فى ذٰلك، وتصويبِهم له ، خروجًا من الخلاف . فقد حكىٰ الرافعىُّ رحمه الله وجهين فيما إذا كان المعهودُ إليه أجنبيًّا من العاهد ليس بوَلَد ولا والِدٍ : هل يجوزُ أن يَنْفَرِد بعقْد البيعةِ له وتفويضِ العهْدِ إليه ولا يستشِيرَ فيه أحدا؟ أصحُّهما الجوازُ: لأنَّ العهدَ إلىٰ عمر رضى الله عنه لم يُوَقَفْ علىٰ رضا الصحابة رضوان الله عليهم ، ولأنَّ الإمام أحقُّ بها، فكان اختيارُه فيها أمْضىٰ، وقولُه فيها أنفَذ .

وحكىٰ المـاوردىّ فى جواز انفراد العاهدِ بالبيعة فيما إذا كان المعهودُ إليه والدًا أو ولدا ثلاثَةَ مذاهب :

أحدهـا — ما اقتصر الرافعىُّ رحمـه الله علىٰ نسبتِه إلىٰ المـاوردِّى، ومقتضىٰ كلامه ترجيحُه : أنه يجوزُ الانفرادُ بعقْدِها للوَلَد والوالد جميعا : لأنه أميرٌ للأمة نافذُ الأمر لهم وعليهم؛ فغُلِّب حكمُ المَنْصِب علىٰ حكم النسب ؛ ولم يجعلْ للتُّهَمة طريقًا علىٰ أمانته، ولا سبيلًا إلىٰ معارَضَته .

والثـانى — أنه لايجوزُ انفرادُه بها لوَلَد ولا والد حتّى يُشاوِرَ فيه أهلَ الاختيار فيرَوْنه أهْلا لها ، فيصحُّ منه حينئذ عَقْدُ البيعة : لأن ذٰلك [منه] تزكيةٌ [له] تجرِى مَجْرىٰ الشهادة، وتقليدُه علىٰ الأمة يجرى مَجْرىٰ الحكم؛ والشهادةُ والحكمُ ممتنِعان من الولد والوالد للتُّهَمة، لمـا جُبِل عليه من المَيْل إليهما .

والثالث — أنه يجوز أنْ ينفرِد بعقْد البيعة لوالده دُونَ وَلَده : لأنَّ الطبع إلىٰ الوَلَد أميل ؛ فأما عقْدُها لأخيه وغيره من الأقارِب والمناسِبين فكعَقْدها للأجانب فى جواز الآنفِرادِ بها .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ العلم بحياة المَعْهُود إليه ووجُوده إن كان غائبا . فقد قال الماوردىّ : إنه لو عَهِد إلىٰ غائبٍ مجهولِ الحياةِ لم يصِحّ عهدُه، وإن كان معلومَ الحياة صح، ويكونُ موقُوفا علىٰ قُدُومه .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ أن المَعْهُود إليه منصوصٌ عليه بمُفْرده، أو وقع العهْدُ شُورىٰ فى جماعةٍ وأفضتِ الخلافةُ إلىٰ واحدٍ منهم بإخراج الباقين أنفُسَهم منها ، أو آختيارِ أهل الحَلّ والعقْد أحدَهُم : إذ يجوز للخليفة أن يَعْهَد إلىٰ آثنين فأكثر من غير تقديم البعضِ علىٰ البعض، ويختارُ أهلُ الآختيارِ بعد موته واحدًا ممن عهد إليه : فإنَّ عمرَ آبن الخطاب رضى الله عنه جعلها شُورىٰ فى ستة، فقال : الأمْرُ إلىٰ علىّ وبإزائه الزُّبيرُ بنُ العوّام، وإلىٰ عُثمانَ وبإزائه عبدُ الرحمٰن بنُ عوف ؛ وإلىٰ طَلْحةَ وبإزائه سعدُ بن أبى وَقّاص . فلما تُوفِّى عمرُ رضى الله عنه، جعل الزبيرُ أمْرَه إلىٰ علىّ ، وجعل طلحةُ أمْرَه إلىٰ عثمانَ، وجعل سعدٌ أمره إلىٰ عبد الرحمن بنِ عَوْف؛ فخرج منها ثلاثةٌ (١)، وبقيت شُورىٰ فى عُثْمان وعلىّ؛ ثم بايَعَ علىٌّ عثمانَ . والمعنىٰ فى الشُّورىٰ انه لايجوز أن تُجعلَ الإمامةُ بعد العاهد فى غير المعهودِ إليهم .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ عَدَد المعهود إليهم وترتيبهم إن كان قد رَتَّب الخلافةَ فى أكثَرَ من واحد ، إذ يجوز أن يَعْهَد إلىٰ آثنين فأكثَر علىٰ الترتيب . فلو رَتَّب

(١) أى بعد أن أخرج عبد الرحمن منها نفسه . وفى كتاب الأحكام السلطانية للماوردى فصارت الشورى بعد الستة فى هؤلاء الثلاثة وخرج منها أولئك الثلاثة ... ... ثم بعد الثلاثة فى آثنين علىّ وعثمان .

الخلافةَ فى ثلاثة مثلا ـ فقال : الخليفةُ بعدى فلان، فاذا مات، فالخليفةُ بعدَه فلان؛ [فإذا مات فالخليفة بعده فلان] (١) كانت الخلافة منتقلة إليهم علىٰ مارتَّبها . ففى صحيح البخارىّ من رواية ٱبنِ عمرَ رضى الله عنهما "أنَّ رسـولَ الله صلّى الله عليه وسـلم ٱستَخْلَفَ علىٰ جَيْشِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بنَ حارثَةَ ـ وقال: إن أُصيبَ فجَعْفَرُ بن أبى طالِب، فإن أُصيبَ فعبدُ الله بنُ رَوَاحَةَ، فإن أُصيبَ فلْيَرْتَضِ المسلمون رجُلا، فتقدّم زيدٌ فقُتِل، فأخذَ الرايةَ جعفرٌ وتقدّم فقُتِل، فأخذَ الرايةَ عبدُالله بنُ رَوَاحةَ وتقدّم فَقُتِل، فٱختار المسلمونَ بعـده خالدَ بنَ الوليد" . قال المـاوردىّ : وإذا جاز ذٰلك فى الإمارة جاز مثلُه فى الخلافة . قال : وقد عَمِل بذٰلك فى الدولتين مَنْ لم يُنْكِر عليه أحدٌ من علماء العصر :

فعهد سليمانُ بنُ عبد الملك إلىٰ عمرَ بنِ عبد العزيز؛ ثم بعـده إلىٰ يَزِيدَ بن عبد الملك، وأقرّه عليه مَنْ عاصره من الناس، ومَنْ لاتأخذُه فى الله لومةُ لائم .

ورتَّبها الرشـيدُ فى ثلاثةٍ من بَنِيه : الأمينِ، ثم المأمون، ثم المؤتَمَن، من غير (٢) مَشُورةِ من عاصره من فُضَلاء العلماء .

ولو قال العاهد : عهِدْتُ إلىٰ فلان، فإن مات فلانٌ بعد إفضاء الخلافةِ إليـه، فالخليفةُ بعده فلان، لم تصحّ خلافةُ الثانى، ولم ينعقِدْ عهْدُه بها : لأنه لم يَعْهَدْ إليه فى الحال، وإنما جعله ولىَّ عهده بعد إفضاء الخلافةِ إلىٰ الأوّل، وقد يموت قبل إفضائها إليه فلا يكون عهدُ الثانى بها مُنْبِرما .

ومنها ـ أن يُنَبِّهَ علىٰ أنَّ صدُورَ العهد فى حال نُفُوذ أمر العاهد وجَوَازِ تَصَرُّفه، فإنه لو أراد ولىُّ العهد قبـل موت العـاهد أن يُرِدَّ ما إليه من وِلَاية العهْدِ إلىٰ غيره

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٠ ويظهر أنها سقطت من قلم الناسخ .

(٢) فى "الأحكام السلطانية" عن مشورة الخ حرر .

لم يُجزْ : لأنَّ الخلافة لا تستقرُّ إلا بعدَ موت المستخْلِف . وكذا لوقال : جعلتُه ولىّ عهدٍ إذا أفضتِ الخلافةُ إلىّ لم يُجْز: لأنه ليس فى الحال بخليفة، فلم يصحّ عهْدُه بالخلافة .

ومنها — أن يُنَبَّه علىٰ قَبُول المعهود إليه العَهْدَ، فإنه إذا عَهِد الإمامُ بالخلافة إلىٰ مَنْ يصِحُّ العهدُ إليه علىٰ الشُّروط المعتَبَرة فيه، كان العهدُ موْقُوفا علىٰ قَبُول المعهُودِ إليه : فإن قَبِل صَحّ العهدُ وإلّا فلا، حتّى لو ٱمتنَع من القَبُول بُويِع غيره . والعبرةُ فى زمَن القَبُول بما بين عَهْد العاهد ومَوْتِه علىٰ الأصح، لتنتقلَ عنه الإمامةُ إلىٰ المعهُود إليه مستقرّةً بالقَبُولِ المتقدِمِ . وقيل : إنما يكون القَبُول بعد موتِ العاهِد : لأنه الوقتُ الذى يَصِحُّ فيه نظَرُ المعهودِ إليه .

ومنها — أنْ يُورِد من وَصايَا العاهِد للعهود إليه ما يَليق به . وقد ذكر المـاوردىُّ أنَّ الذى يلزَمُه من أمور الأمّة عَشَرةُ أشياءَ :

أحدها — حِفْظُ الدِّين علىٰ أصوله المستقِرّة، وما أجمع عليه سلَفُ الأمّة، وأنه إن نَجَم مبتَدِعٌ أو زاغَ ذُو شُبْهة عنه، أوْضَح له الحُجّةَ، وبيَّن له الصَّواب، وأخذه بما يلزمه من الحُقُوق والحدُود : ليكون الدِّين محروسًا من الخَلَل، والأمّةُ ممنوعةً من الزَّلَل .

الثانى — تنفيذُ الأحكام، بين المَتشاجِرين، وقطْعُ الخِصام، بين المتنازعين، حتّى تعُمَّ النَّصَفَةُ فلا يتعدّى ظالم ولا يَضْعُف مظلُوم .

الثالث — حمايةُ البَيْضَة، والذَّبُّ عن الحُرَم : ليتصرَّفَ الناسُ فى المَعَايش، وينتشِرُوا فى الأسْفار آمنين من تغْرير بنفْس أو مال .

الرابـع ــ إقامةُ الحُـدود لتُصانَ محارِمُ الله تعالىٰ عن الانْتهاك ، وتُحْفَظَ حقُوق عباده من الإتْلاف والاسْتِهْلاك .

الخامس ــ تحصينُ الثُّغُور بالعُدّة المانِعه ، والقُوّة الدافِعه ، حتّى لا يظْفَر الأعداءُ بِغِرَّة ينتهِكُون بها محْرما ، أو يَسْفِكُون فيها لمسلِمٍ أو معاهَدٍ دماً .

السادس ــ جِهادُ مَنْ عانَدَ الإسلامَ بعد الدَّعوة حتّى يُسْلِم أو يدْخُلَ فى الذِّمَّة : ليقام بحقِّ الله تعالىٰ فى إظهارِه علىٰ الدِّين كلِّه .

السـابع ــ جِبَايةُ الفَىْء[1] والصَّدَقاتِ علىٰ ما أوجبه الشرْعُ نصًّا واجتهادا من غير حَيْف ولا عَسف .

الثـامن ــ تقدير العطاء وما يُستَحَقُّ فى بيتِ المـال من غير سَرَف ولا تقْتير ، ودفعُه فى وقت لا تقديمَ فيه ولا تأْخِير .

التـاسع ــ استِكفاءُ الأُمَنـاء ، وتقليدُ النُّصحاء ، فيما يفَوِّضه [إليهم من الأعمال][2] ويكلُه إليهم من الأموال : لتكونَ الأعمالُ بالكُفَاةِ مضبُوطة ، والأموالُ بالأُمَناءِ محفُوظة .

العـاشر ــ أن يُباشِرَ بنَفْسه مُشَارَفَةَ الأمور وتصَفُّحَ الأحوال : لِيَنْهض بسياسة الأُمَّة ، وحِراسـة المِلَّة ؛ ولا يُعَوِّل علىٰ التفويض تشاغُلاً بلذّةٍ أو عبادة ، فقد يخونُ الأمينُ ويغُشُّ الناصحُ . وقد قال تعـالىٰ : ﴿ يا دَاوُدُ إنَّا جعلْنَاكَ خَلِيفةً فى الأَرْض فاحْكُمْ بيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِـعِ الهَوىٰ فيُضِلَّكَ عن سَبِيل اللهِ ﴾ . فلم يقتَصر اللهُ

(١) يطلق الفىء على الغنيمة والخراج والمراد هنا الثانى .

(٢) الزيادة من "الأحكام" .

تعالىٰ علىٰ التفويض دُونَ المُبَاشَرة ، بل أَمَرَه بمباشَرةِ الحُكْم بين الخَلْق بنفسه . وقد قال صلّى الله عليه وسلم : " كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكم مَسْئُولٌ عن رَعِيَّته " ولله درُّ محمدِ بنِ يَزْدادَ وزيرِ المأمون، حيثُ قال مخاطبا له :

مَنْ كانَ حارِسَ دُنْيـا إنَّهُ قَمِنٌ * أنْ لاينامَ وكُلُّ الناس نُوَّامُ!

وكيْفَ ترقُدُ عَيْنَا مَنْ تَضَيِّفه * هَمَّانِ مِن أمْرِه : حَلٌّ وإبْرامُ!

وحينئـذ فيجب علىٰ الكاتب أن يضَمِّن هـذه الأمورَ العشرةَ فى وصاياَ المعهُود إليه . وقد ذكر المَقَرّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله فى " التعريف " فى وصيَّة ولىِّ العهد بالخلافة ومَنْ فى معناه من الملوك ووُلاة عهْدِهم هـذه الأمورَ ممتزِجةً بأمور أخرىٰ من مُهِمَّات الملك وحُسْن تدبيره وسياسته .

قلت : إنما يحسُن إيراد هذا كلِّه فى وصايا وُلَاة العهد إذا كان الأمرُ علىٰ ما كانت الخلافةُ عليه أوّلا من عُموم التصرُّف؛ أما الآنَ فالواجبُ أن يُقْتَصر فى وصاياهم علىٰ حُسْن التأتِّى فى العهد بالسلطنة لمن يقُوم بأعبائهـا، وأن يكونَ ماتقـدّم مختصًّا بوصايا المُلوك فى العهُود عن الخلفاء .

الوجـــه الرابع

(فيما يُكتَب فى الطُّرّة، وهو تلخيصُ مايتضمَّنُه العهدُ)

وهذه نسخة طُرَّة أنشأتُها لِيُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى :

هذا عهدٌ إمامىٌّ قد علَتْ جُدُوده ، وزادَ فى الإرتقاء فى العَلْياء صُعُودُه، وفُصِّلت بالجواهرِ قلائدُه ونُظِّمتْ بنفيس الدُّرّ عقُودُه . من عبدِ الله ووليِّه الإمام المتوكِّل

علىٰ الله أبي عبد الله محمدِ بن الإمام المعتضـدِ بالله أبي الفتح أبي بكر، بالخلافة المقدَّسة، لولده السيِّد الجليـل ذخيرةِ الدِّين، وولىِّ عهد المسلمين؛ أبي الفضـل العباس : بلَّغه الله فيه غايةَ الأمل ، وأقرّ به عينَ الأمة كما أقرّ به عيْنَ أمير المؤمنين وقد فَعَل علىٰ ماشُرِح فيه .

الوجـــه الخامس

(فيما يُكتَب لأولياءِ العهــد من الألقـاب)

[وهو] كما سيأتى فى الطريقة الثانيــة من المَذْهب الأول ممـا يُكتَب فى مَتْن العهد من كلام المقرّ الشهابىّ بن فضـلِ الله فى "التعريف" أنه يقال فيه : الأمير السِّيِّد الجليل، ذخِيرة الدِّين، وولىّ عهد المسلمين؛ أبى فلان فلان . وفى المَذْهَب الثالث فيما كتب به للمستوثِق بنِ المستكفى ما يوافِقُه؛ وقد تقـدّم أنه لا يَقَع فى ألقابهم إطنابٌ، ولا تعدُّدُ ألقاب، فليقتَصَرْ علىٰ ذلك أو مايشابهه .

الوجـــه السادس

(فيما يكتب فى مَتْن العهـد ، وفيه ثلاثة مذاهبَ)

المـــذهب الأوّل

(أن يفتَتَح العهدُ بعد البسملة بلفظ « هذا »)

مثل : «هذا ماعَهِد به فلان لفلان» أو « هذا عهدٌ من فلان لفلان» أو «هذا كتابٌ اكتَتَبه فلان لفلان» ونحو ذلك .

وللكُتَّاب فيه طريقتان :

الطريقـــة الأُولىٰ
(طريقـــةُ المتقدِّمين)

وهى أنْ لا يأتى بخُطْبة فى أثناءِ العَهْـد ، ولا يتَعَرَّض إلىٰ ذكرِ أوصافِ المعهود إليه والثناءِ عليه ، أو يتعرَّض لذلك باختصار ؛ ثم يأْتِى بالوصايا ؛ ثم يختِمُه بالسلام أو بالدعاءِ أو بغيرِ ذٰلك ممـا يُناسِب . وعلىٰ ذٰلك كانتْ عهودُ السَّلَف من الصَّحابة والتابعين فَمَنْ بعدَهم ، آتِّباعاً للصِّدِّيق رضى الله عنه فيما كَتَب به لعُمَرَ بنِ الخطَّاب ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الاستشهاد .

ونسختُه فيما رواه البيهقىُّ فى "السُّنَن" وآقتصر عليـه الشيخُ شهاب الدِّين محمود الحلبىّ فى "حسن التوسُّل" .

«هذا ماعهِدَ أبو بكرٍ خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم آخِرَ عهْدِه بالدنيا وأوّلَ عهدِه بالآخرة : إنى آستخلفْتُ عليكم عمرَ بنَ الخطاب فإنْ بَرَّ وعدَلَ فذٰلك ظنِّى به ، وإن بدّلَ أو غيَّرَ فلا عِلْمَ لى بالغَيْب ، والخيْرَ أردتُ بكم ، ولكلِّ آمرئٍ ما آكتسبَ مِنَ الإثْم : ﴿ وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ » .

وذكر أبو هلال العسـكرىّ فى كتابه "الأوائل" عن المدائنىِّ أنه حِينَ دعا عثمانَ آبنَ عفَّانَ رضى الله عنه لكتابة العهْد بالخلافة بعـده قال : آكتُبْ « هذا ماعَهِدَ أبو بكرِ بنُ أبى قُحافةَ فى آخرِ عهدِه بالدنيا [نازحا عنها] (١) وأوّلِ عهـدِه بالآخرة داخلًا فيهـا حيثُ يتوبُ الفاجِرُ ، ويُؤْمِن الكافر ، ويَصْـدُق الكاذِب ؛ وهو يشهَدُ أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا عبـدُه ورسوله ، وقد آستَخْلَف» ـ ثم دهَمتْه غَشْيةٌ فكتب عثمان : « عُمَرَ بنَ الخطَّاب » . فلمَّـا أفاق ، قال : أ كتبْتَ شيئا ؟ قال نعمْ عُمَرَ

(١) الزيادة من كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

ابن الخطاب . قال : « رحمك اللهُ ، أمَا إنّك لو كتبْتَ نفسَك لكنْتَ أهلًا لها، اكتُبْ قد استخلَف عمرَ بن الخطاب ورضيه لكم ، فإنْ عدَل فذلك ظنِّي به ورأْيي فيه، وإنْ بدّلَ فلِكُلِّ نفْسٍ ما كسَبَتْ وعليها ما اكتسبَتْ ، والخيرَ أردتُ ، ولا أعلَمُ الْغيبَ : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ » .

وعلى هذه الطريقةِ كُتِب عهدُ عمرَ بنِ عبد العزيز بالخلافةِ عن سُلَيمانَ بن عبد الملك، ثم مِنْ بعده إلى أخيه يزِيدَ بنِ عبد الملك .

وهذه نسختهُ فيما ذكره ابنُ قُتَيبةَ فى تاريخ الخُلَفاء :

هـذا ما عَهِدَ به عبدُ اللهِ سليمانُ بنُ عبد الملك أميرُ المؤمنين وخليفةُ المسلمين . عَهِدَ أنه يَشْهَدُ للهِ عز وجل بالرُّبُوبيَّة والوَحْدانيَّة، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى الله عليه وسلم، بعثه إلى مُحْسِنِي عبادِه بَشِيرا، وإلى مُذْنِبِيهم نَذِيرا . وأنَّ الجنةَ والنارَ مخلوقَتان حَقًّا : خلقَ الجنةَ رحمةً وجزاءً لمن أطاعه، والنارَ نِقْمة وجزاءً لمَنْ عَصاه، وأوْجبَ العفْوَ جُودًا وكرمًا لمَنْ عَفا عنه . وأنَّ سليمانَ مُقِرٌّ على نَفْسه بما يعلَمُ اللهُ من ذُنُوبه ، وبما تعلَمُه نَفْسُه من معصيةِ ربِّه، مُوجِبا (١) على نفسِه استحقاقَ ما خَلَق من النِّقْمة ، راجيا لنفسه ما خَلَق من الرحمة ووَعَد من العفو والمغفِرة، وأن المقادِيرَ كلَّها خيرَها وشَرَّها مقدُورة (٢) بإرادته ، مكوَّنةٌ بتكْوِينه، وأنه الهادِى فلا مُغْوِىَ ولا مُضِلَّ لمن هَدَاه وخلَقَه لرحمتِه، وأنه يُفْتَن الميت فى قَبْره بالسؤال عن دِينه ونبيِّه الذى أُرْسِل إلى أمّتِه ، لا مَنْجىً لمن خرج من الدنيا إلى الآخرة من هذه المسألة إلا لمن استثناه عز وجلَّ فى علمه . وسليمانُ يسألُ اللهَ الكريمَ بواسع فَضْله، وعظيم مَنِّه ، الثباتَ على ما أسَرّ وأعلَنَ من معرفة حقِّه وحقِّ نبيه عند

(١) كذا فى الأصول بالنصب وكذلك وقع فى كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

(٢) فى كتاب الامام والسياسة لابن قتيبة «خيرها وشرها من الله وأنه هو الهادى الخ » .

مَسْأَلة رُسُله ، والنَّجاةَ من هَوْل فتنة فَتَّانيه . ويشْهَدُ أنَّ الميزان يومَ القيامة حقٌّ يقين ، يزِنُ سيئاتِ المسيئين ، وحسَناتِ المحسنين : ليُرِيَ عبادَه من عظيم قُدْرته ، ماأراده من [الخير] لعباده بما لم يكونُوا يحتسبُون ؛ وأنَّ من ثقُلَتْ موازِينُه فأولٰئِكَ هم المُفْلِحُون ، ومَنْ خَفَّتْ موازِينُه يومَئِذٍ فأولٰئك هم الخاسِرُون . وأنَّ حوضَ محمدٍ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم يومَ المَحْشَر والمَوْقف للعرْض حقٌّ ، وأنَّ عدَدَ آنيتِه كنُجُوم السماء ، من شَرِبَ منه لم يظْمأْ أبدا ، وسليمان يسألُ الله بواسع رحمتِه أن لا يُرِدَّه عن حوض نبيِّه عطشان . وأنَّ أبا بكر وعمرَ خيرُ هذه الأمة بعد نبينا ، والله يعلمُ بعدَهما حيثُ الخيْرُ وفيمن الخَيْرُ من هذه الأمة . وأنَّ هذه الشهادةَ كلَّها المذكورةَ فى عهدِه هذا يعلمُها الله من سِرّه وإعلانه وعَقْد ضميره ، وأنه بها عبَدَ ربه فى سالفِ أيّامه وماضِى عُمُره ، وعليها أتاه يقينُ ربه ، وتوفَّاه أجَلُه ، وعليها يُبْعَثُ بعد موتِه إن شاء الله . وأن سليمان كانت له بينَ هذه الشهادة بَلَايَا وسيِّئاتٌ (١) لم يكُنْ له عنها مَحِيد ولابُدّ ، جرىٰ بها المقدور من الرَّبِّ النافِذُ إلىٰ إتمام ماحَدّ ؛ فإن يعْفُ ويصْفَحْ فذاك ماعُرِف منه قديمًا ونُسِب إليه حَديثا ، وتلك صِفَتُه التى وَصَف بها نفسه فى كتابه الصادِق ، وكلامه الناطق ؛ وإنْ يُعاقِبْ وينْتَقِم فبما قدّمتْ يَداه ، وما اللهُ بظَلَّام للعبيد . وأن سليمان يُحَرِّج علىٰ مَنْ قرَأ عهدَه هذا وسمِعَ ما فيه من حكمة أن ينْتهِيَ إليه فى أمْره ونَهْيه ، باللهِ العظيم ، ومحمدٍ رسولِه الكريم ؛ وأن يَدَع الإحَنَ المُضْغَنه ، ويأخُذَ بالمكارم المُدْجَنه ؛ ويرفَعَ يديه إلىٰ الله بالضمير النَّصُوح والدُّعاءِ الصحيح ، والصَّفْح الصَّريح ؛ يسأله العفْوَ عنِّى ، والمغفرةَ لى ، والنجاةَ من فَزَعى والمسألةِ فى قَبْرى ، لعلَّ الودُودَ ، أن يجعَلَ منكم مُجابَ الدعوة بما منَ اللهِ علَىَّ

(١) فى كتاب الامامة والسياسة « لم يكن له عنها محيص ولا دونها مقصر بالقدر السابق والعلم النافذ فى محكم الوحى فان يعف » الخ .

من صَفْحه يعود، إن شاء اللهُ . وأنَّ ولىّ عهدِ سليمان بنِ عبد الملك أميرِ المؤمنين، وصاحبَ أمْره بعد موتِهِ، فى جُنْـده ورعِيَّته وخاصَّته وعامته؛ وكلِّ من آستخْلَفنى الله عليه، وآستَرْعانِى النظرَ فيه، الرجلُ الصالح «عمرُ بن عبد العزيز» بنِ مَرْوان آبنُ عمِّى، لمـا بلَوْتُ من باطن أمْره وظاهِرِه، ورجوتُ الله بذلك [وأردت] رِضاه ورحمتَـه إن شاء الله . ثم من بعده تُسـلَّمُ إلىٰ يَزِيدَ بنِ عبد الملك بن مَرْوان إن بقى بعْدَه، فإنِّى مارأيتُ منه إلّا خيرا ولا آطَّلعتُ له علىٰ مكْروه . وصِغار ولَدى وكبارُهم إلىٰ عُمَر، إذ رجوتُ أن لايألُوَهم رَشَدا وصَلاحا؛ والله خليفتِي عليهم وعلىٰ جماعةِ المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين؛ وآقرءُوا عهْدى عليكم السلام ورحمة الله. ومن أبىٰ أمْرِى هذا أو خالَفَ عهْدى هذا ـ وأرجو أن لايخالفه أحدٌ من أمة محمد ـ فهو ضالٌّ مضِلٌّ يُستعْتَب، فإنْ أَعتبَ وإلَّا فإنى لمن صاحب(؟) (١) عهدى فيهم بالسـيف السيف والقتلِ القتل، فانهم مستوجبون لهم، وهم لهيبته ملقحون، والله المستعان، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله القديم الإحسان .

تم ذلك والحمدُ لله وحده، وصلواته علىٰ سيدنا محمد وآله .

❖

وعلىٰ نحوٍ من ذلك كتب المأمونُ العباسيُّ عهدَ علىّ بن موسى العَلَوىّ (المعروف بالرِّضيِّ) بالخلافة بعده .

وهذه نسخته فيما ذكر صاحب العِقْد :

هذا كتابٌ كتبه عبدُ الله بن هارونَ الرشيد أميرُ المؤمنين بيده، لعلىّ بنِ موسىٰ بن جعفر ولىِّ عهْده .

---

(١) فى كتاب الامامة والسياسة « والا فالسيف والله المستعان » وهى واضحة .

أما بعدُ، فإنّ الله عز وجلّ اصطفىٰ الإسلامَ دينا، واصطفىٰ له من عباده رُسُلا دالِّين عليه، وهادين إليه، يبَشّر أوّلُهم بآخِرِهم، ويصدِّق تاليِهم ماضِيَهم؛ حتّى انتهت نبوّةُ الله إلىٰ محمدٍ صلّى الله عليه وسلم علىٰ فَتْرةٍ من الرُّسُل، ودُرُوس من العلم، وانقطاعٍ من الوَحْى، واقترابٍ من الساعةِ؛ نختم اللهُ به النبيِّين وجعله شاهِدًا لهم، ومُهَيْمنا عليهم؛ وأنزل عليه كتابَه العزيز الذى ﴿ لايأْتيِه الباطِلُ من بيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفه تَنْزِيلٌ من حَكيمٍ حَمِيدٍ ﴾. فأحَلّ وحَرّم، ووعَدَ وأوْعَد، وحَذَّر وأنْذَر، وأمَر به ونَهىٰ عنه: لتكونَ له الحجةُ البالغة علىٰ خَلْقه: و﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنةٍ، ويَحيَا مَنْ حَىَّ عن بيِّنةٍ وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عَليم ﴾. فبلّغَ عن الله رسالتَه، ودعا إلىٰ سبيله بما أمره به من الحِكْمة والموْعِظة الحَسَنة، والمجادلةِ بالتى هى أحسَن، ثم بالجهاد والغِلْظة حتّى قبَضه اللهُ إليه، واختار له ماعِنْده صلّى اللهُ عليه؛ فلمّا انقضتِ النبوّةُ وخَتَمَ الله بمحمد صلّى الله عليه وسلم الوَحْىَ والرسالة، جعلَ قِوَامَ الدين، ونِظامَ أمر المسلمين، بالخلافةِ وإتمامِها وعِزِّها، والقيامِ بحق الله فيها بالطاعةِ التى تُقَام بها فرائضُ الله وحُدُوده، وشرائعُ الإسلام وسُنَنُه، ويُجاهَد بها عدُوُّه. فعلىٰ خُلَفاء الله طاعتُه فيما استحْفَظهم واسترْعاهم من دِينه وعبادِه، وعلىٰ المسلمين طاعةُ خُلَفائهم ومُعاونَتُهم علىٰ إقامةِ حقِّ الله وعَدْله، وأَمْنِ السُّبُل وحَقْن الدِّماء، وصلاحِ ذاتِ البيْن، وجَمْع الألفة؛ وفى إخْلال ذلك اضطِرابُ حَبْل المسلمين واختلالُهم، واختلافُ مِلّتهم، وقَهْرُ دِينهم، واستعلاءُ عدُوِّهم، وتفَرُّقُ الكلمة، وخُسرانُ الدنيا والآخرة. فحقٌّ علىٰ من استخْلَفه اللهُ فى أرضه، وأَتْمنه علىٰ خَلْقه [أنْ] يُؤْثِر مافيه رضا اللهِ وطاعتُه ويعْد[ل] فيما اللهُ واقفُه عليه وسائلُه عنه، ويحْكُمَ بالحق ويعْمَل بالعدل فيما حَمّله الله وقلّده؛ فإن الله عز وجل يقول لنبيه داود عليه السلام:

(١) لعل الجار والمجرور فى المحلين زائد من قلم الناسخ.

﴿يٰداوُدُ إنّا جعلْناكَ خليفةً فى الأرض فاحْكُمْ بينَ الناس بالحقِّ ولا تتّبِعِ الهوىٰ فَيُضِلَّكَ عن سَبِيلِ اللهِ إنَّ الّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عذابٌ شديدٌ بمـا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾ . وقال عز وجل : ﴿فوربِّكَ لنسْئلنّهُمْ أجمعِينَ عمّا كانُوا يعْمَلُون﴾ . وبلَغنا أنَّ عمـرَ بنَ الخطّاب قال : « لو ضاعَتْ سَخْلةٌ بجانِبِ الفُراتِ لتخوّفْتُ أن يسألَنِي اللهُ عنها » . وآيْمُ اللهِ إنَّ المسئُول عن خاصّةِ نفْسـه ، الموقُوفَ علىٰ عمله ، فيما بيْنَ الله وبيْنه ، لَمُتعرِّضٌ لأمرٍ كبيرٍ ، وعلىٰ خَطَرٍ عظِـيم ، فكيف بالمسئُول عن رعاية الأُمّة ؛ وبالله الثِّقةُ ، وإليه المَفْزَع والرَّغْبة فى التوفيق مع العِصْمة ، والتّسْديد والهـدايةِ إلىٰ مافيه ثُبوتُ الحُجّة ، والفوزُ من الله بالرِّضوان والرحْمـة . وأنظَرُ الأئمة لنفسه ، وأنصَحُهم فى دِينـهِ وعبادِه وخلافتِه فى أرضه ، مَنْ عمِل بطاعة الله وكتابه وسنّة نبيه عليه السلام فى مدّة أيّامه ، وآجتهَدَ وأجهَدَ رأْيَه ونظَرَه فيمن يُولِّيه عهْدَه ، ويختارُه لإمامة المسلمين ورِعايَتِهم بعدَه ، ويَنْصِبُه عَلَما لهم ، ومَفْزَعا فى جَمْع أُلْفتهم ، ولَمِّ شَعَثِهم ، وحَقْن دمائِهم ، والأمْنِ بإذْن الله من فُرْقتهـم ، وفسادِ ذاتِ بينِهم واختلافِهم ، ورَفْع نَزْغ الشـيطان وكيده عنهـم ؛ فإن الله عز وجل جعل العهْـدَ بالخلافة من تمام أمرِ الإسلام وكمالِه وعِزّه وصَلاحِ أهله ؛ وألْهم خلفاءَه من تَوْسِيده لمن يختارُونه له من بعدهم ماعظُمتْ به النِّعمة ، وشَمِلَت منه العافيـة ، ونقَضَ اللهُ بذٰلك مَرَّ(١) أهل الشِّقاق والعَدَاوة والسعْيِ فى الفُرْقة والرَّفْض(٢) للفتنـة ؛ ولم يزَلْ أمـيرُ المؤمنين منذُ أفضَتْ إليه الخلافةُ فاختَبَر بَشَاعةَ مَذَاقِها ، وثِقَلَ مَحْمِلها وشدّةَ مَئُونتِها ؛ وما يجب علىٰ من تقلّدها من آرتباط طاعةِ الله ومراقبتـه فيما حَمَّـلَه منها(٣) ؛ فأنْصَبَ

(١) فى اللسان ج ٧ ص ١٥ « المر بفتح الميم الحبل » .

(٢) أى تركها تسـير فى الناس ، ففى اللسان الرفض أن يطرد الرجل غنمه وإبله إلى حيث يهوى فاذا بلغت لهـا عنها وتركها .

(٣) لعله ناظرا فيها بمـا يقتضيه منصبها وما يجب الخ وبه يستقيم الكلام بعد تأمل .

بدَنَه، وأسهر عينَه؛ وأطال فِكْرَه فيما فيه عِزُّ الدين، وقمعُ المشركين؛ وصلاح الأُمّة، ونشْرُ العدل، وإقامةُ الكتاب والسُّنَّة؛ ومَنَعه ذلك من الخفْض والدَّعة بهَنِيّ العيش: علْما بما اللهُ سائلُه عنه، ومحبّةً أن يلْقىٰ الله مُناصِحَه فى دِينه وعبادِه، ومختارا لوِلَاية عهْدِه، ورعايةِ الأمّة من بعده، أفضلَ مَنْ يقدِر عليه فى دِينه ووَرَعه وعِلْمه، وأرجاهم للقيام بأمْرِ الله وحقِّه؛ مناجِيًا للهِ بالاستخارة فى ذلك، ويسأله إلهامَهُ مافيه رضاه وطاعتُه فى ليله ونهارِه، ومُعْمِلا فى طلَبه والتماسه من أهل بيتِه من وَلَد عبد الله ابن العباس وعلىّ بن أبى طالب فِكْرَه ونَظَره، ومقتَصِرا فيمن عِلِمَ حالَه ومذْهَبَه منهم علىٰ علمه، وبالغًا فى المسألة عمّن خَفِيَ عليه أمرُهُ جُهْدَه وطاقَتَه، حتّٰى استقْصىٰ أُمُورَهم بمعرفتـه، وابتلىٰ أخْبارَهم مشاهَدَة، وكشَفَ ماعندهم مُسَاءلة؛ فكانت خِيرتُه بعد استخارته للهِ وإجهاده نفْسَـه فى قضاء حقِّه وبلاده، من البيتين جميعًا «علِيَّ بنَ موسىٰ بن جعفر» بن محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب: لمـا رأىٰ [من] فضْلِه البارع، وعلمِه الناصع؛ وورَعِه الظاهر، وزُهْدِه الخالص، وتخَلِّيه من الدنيا، وتسلُّمَه من الناس؛ وقد استبان له مالم تَزِلِ الأخبارُ عليه متَواطِئه، والألسُنُ عليـه متفقةً والكلمةُ فيـه جامعه؛ ولمـا لم يَزَلْ يعرِفُه به من الفضل يافِعًا وناشِئا، وحدَثا ومُكْتَهِلا؛ فعقَد له بالعقْد والخلافة إيثارًا لله والدِّين، ونظَرًا للسلمين، وطلَبًا للسلامة وثباتِ الحجّة والنجاة فى اليوم الذى يقُومُ الناس فيه لربِّ العالمين.

ودعا أميرُ المؤمنين وَلَده، وأهلَ بيتـه، وخاصّـتَه، وقُوّادَه، وخَدَمَه، فبايَعُوه مُسْرِعين مسْرُورِين، عالمين بإيثارِ أمير المؤمنين طاعةَ الله علىٰ الهوىٰ فى وَلَده وغيرِهم ممن هو أشْـبَكُ به رَحِمًا وأقرب قرابة، وسمّـاه «الرِّضىَّ» إذ كان رَضيًّا عند أمير المؤمنين.

فبايِعُوا مَعْشَرَ بيتِ أمير المؤمنين ومَنْ بالمدينة المحروسة من قُوَّاده وجُنْده، وعامة المسلمين « الرِّضىَّ » من بعده، علىٰ آسم اللهِ و بركته وحُسْن قضائِه لدينه وعبادِه؛ بيعةً مبسوطةً إليها أيْديكم، منشرِحةً لهـا صدُورُكم، عالمين بمـا أراد أميرُ المؤمنين بها، وآثَرَ طاعةَ الله والنظرَ لنفْسه ولكم فيهـا، شاكرينَ لله علىٰ ماألْهَم أميرَ المؤمنين من نَصَاحتِه فى رِعَايتكم، وحِرْصــه علىٰ رُشْـدِكم وصَلَاحكم، راجينَ عائدَه فى ذلك فى جمع أُلْفتِكم، وحقْن دِمائِكم، ولَمِّ شَعَثِكم، وســدِّ ثُغُوركم، وقُوَةِ دينكم، ورغْم عدوِّكم، وآستقامةِ أموركم . وسارِعُوا إلىٰ طاعة الله وطاعةِ أميرالمؤمنين، فإنَّه الأمْرُ إن سارعْتُم إليه، وحمِدتُم اللهَ عليه؛ عرَفْتُم الحظَّ فيه . إنْ شاء الله تعالىٰ .

* * *

وعلىٰ هــذه الطريقةِ كتب الوزيرُ أبو حفْص بنُ بُرْد عهْدَ النـاصر لدين الله عبـدِ الرحمن بنِ المنصور بنِ أبى عامرٍ العـامرِىّ، عن المؤيَّد بالله هشام بن الحكم الأُمَوىّ، الخليفةِ بالأنْدَلُس . وهذه نسخته :

هذا ماعَهِدَ هشامٌ المؤيَّدُ بالله أمير المؤمنــين إلىٰ الناس عامَّه، وعاهدَ اللهَ عليــه من نَفْسه خاصَّــة وأعطىٰ به صَفْقةَ يمينِه بيعةً تامَّه؛ بعد أنْ أنْعمَ النظرَ وأطال الآستخارةَ وأهمَّه ماجعل اللهُ إليه من الإمامة، وعَصَب بهمن أمرِ المؤمنين، واتَّقىٰ حُلُولَ القَدَرِ بمـا لايُؤْمَن، وخافَ نُزولَ القضاء بما لايُصْرَف، وخَشِىَ إنْ هَجَم محتومُ ذٰلك عليه، ونزلَ مقْدُورُه به، ولم يرفَعْ لهذه الأُمَّة عَلَما تأْوِى إليه، ومَلْجأ تنْعطِف عليــه، أنْ يكونَ يلقىٰ ربَّه تبارك وتعـالىٰ مفرِّطا ساهياً عن أداء الحق إليها؛ ويُغْمِض عنــد ذٰلك من أحيــاء قُرَيش وغيرها من يستَحِقُّ أن يُسْنَدَ هــذا الأمْرُ إليــه، ويُعوَّل فى القيام به عليــه؛ ويســتوجبُه بدِينه وأمانتِه، وهَدْيه وصيانتِه؛

بعدَ ٱطِّراح الهوىٰ والتحرِّى للحق ، والتزلُّف إلىٰ الله جلَّ جلاله بما يُرْضيه . وبعدَ أنْ قَطَع الأواصرَ، وأسْخط الأقارِبَ؛ فلم يجِدْ أحدًا أجْدَرَ أن يولِّيه عهْدَه ، ويفوِّضَ إليه الخلافةَ بعْدَه : لفضلِ نَفْسه ، وكَرم خِيمه، وشرفِ مَرْتبته ، وعُلُوّ مَنْصِبه؛ مع تُقَاه وعَفَافه ، ومَعْرفته وحَزْمه ونَقَاوتِه ؛ من المأمُونِ العَيْب، الناصِح الجَيْب «أبى المطرِّف عبد الرحمن بن المنصور» أبى عامر محمد بن أبى عامر وفَّقه الله ؛ إذ كان أميرُ المؤمنين ــ أيده الله ــ ٱبْتلاه وٱختَبَره، ونظَر فى شأنه وٱعتبَره؛ فرآه مُسارِعا فى الخيْرات، سابقًا فى الحَلَبات؛ مستولِيًا علىٰ الغايَات، جامعا للمَأْثُرات؛ ومَنْ كان المنصورُ أباه، والمظَفَّرُ أخاه؛ فلا غَرْوَ أن يبْلُغَ من سبيل البرّ مَدَاه، ويَحْوِىَ من خِلَال الخير ماحَوَاه؛ مع أنَّ أمير المؤمنين ــ أيده الله ــ بما طالَعه من مكنُون العِلم ، ووَعَاه من مخْزُون الأَثَر؛ يرىٰ أن يكونَ ولِىُّ عهدِه القَحْطانِىَّ الذى حدّث عنه عبدُ الله بن عَمْرو بن العاص وأبو هريرةَ : أنَّ النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم قال : "لاتَقُومُ الساعةُ حتّى يَخْرُجَ رجُلٌ من قَحْطانَ يَسُوقُ الناسَ بعَصَاه" فلما ٱستَوىٰ له الاختِيار، وتقابلَتْ عنْدَه فيه الآثار؛ [و]لم يجِدْ عنه مَذْهبا، ولا إلىٰ غيره مَعْدِلا، صرَّح إليه فى تدبير الأُمور فى حياته، وفوّض إليه الخلافةَ بعد وَفَاته؛ طائعا راضيًا مجتهِدا، وأمضىٰ أميرُ المؤمنين هذا وأجازه وأنْفذه، ولم يشترط فيه مَثْنوِيَّةً ولا خِيارا ؛ وأعطىٰ علىٰ الوَفَاء به فى سِرّه وجهره وقولِه وفِعْلِه عَهْدَ الله وميثاقَه ، وذِمة نبيه محمد صلىٰ الله عليه وسلم ، وذِمَمَ الخلفاء الراشدين من آبائه ؛ وذِمَّةَ نَفْسه : أن لايُبَدِّل ، ولا يغيِّر ، ولا يَحُول ، ولا يَزُول ؛ وأشهد الله علىٰ ذٰلك والملائكةَ ﴿ وكَفىٰ بِاللهِ شَهِيدا ﴾ . وأشهد من أوقعَ ٱسْمَه فى هذا ، وهو جائز الأمر، ماضِى القولِ والفِعل، بمَحْضَرِ من ولِىِّ عهدِه المأمونِ أبى المطرف عبدالرحمن بن المنصور وفَّقه الله، وقبُوله ما قلَّده، وإلزامه نفْسَه ما ألزمه ؛ وذٰلك فى شهر ربيع الأوّل

سنة ثمـان وتسعين وثلثمائة . وكتَبَ الوزراءُ والقضاةُ وسائرُ الناس شهاداتِهم بخطوط أيديهـــم بذلك .

الطريقة الثـانيـــة
(طريقـــة المتأخّرين من الكُتَّاب)

أن يأتى بالتحميد فى أثناء العَهْد، ويأتِىَ من ألقاب ولىِّ العهد بمـا يناسب علىٰ الآختصار، وعليها آقتصر المَقَرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى "التعريف" فقال : وآعلم أنَّ عهُودَ الخلفاء عن الخلفاء لم تَجْرِ عادةُ مَنْ سلَف من الكُتَّاب أن يستفْتِحها إلا بمـا يذكر، وهو :

«هـذا ماعَهِد[به] عبدُ الله ووليُّه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىّ أميرُ المؤمنين، عهد إلىٰ ولَده، أو [إلىٰ] أخيـه الأميرِ السيد الجليل، ذَخيرةِ الدِّين ، وولىِّ عهد المسلمين أبى فلان فلان، أيّده الله بالتمكين، وأمدَّه بالنصر المُبِين ، وأقرّ به عيْنَ أمير المؤمنين» . ثم يُنْفِق كلُّ كاتبٍ بعد هذا علىٰ قَدْر سَعَته، ثم يقول :

« أما بعدُ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو، ويصلِّى علىٰ نبيه محمدٍ صلّى الله عليه وسـلم » ويخطُبُ فى ذٰلك خُطْبة يُكْثِر فيها التحميدَ ويَنْتَهى فيه إلىٰ سبعة، ثم يأتى بعد ذلك بمـا يُناسِب من القول : يصِف فكر الذى يَعْهَـد فيمن بعْـدَه، ويصِفُ المعهودَ إليه بمـا يليق من الصِّفات الجليـلة . ثم يقول : «عهد إليـه وقلَّده بعـدَه جميع ماهو مقلَّده، لمـا رآه من صَلَاح الأمةِ، أو صَلَاح الخلق، بعـدَ أنِ استخارَ اللهَ تعـالىٰ فى ذٰلك، ومكَثَ مدّةً يتدبَّر ذٰلك ويُرَوِّى فيه فكْره وخاطِرَه، ويستشيرُ أهـلَ الرأْى والنظر، فلم يَرَ أقوَمَ منه بأمور الأمة ومَصَالح

الدنيا والدِّين» ومن هذا ومثله ؛ ثم يقال : «إنَّ المعهودَ إليه قَبلَ ذلك منه» ويأتى فى ذلك بمـا يليقُ من محَاسن العبارة وأحاسِنِ الكلام .

قلت : ولم أظْفَر بنسخة عهدٍ علىٰ هذا الأُسْلوب الذى ذكره المقرُّ الشِّهابىّ ؛ وقد أنشأت عهدًا علىٰ الطريقـةِ التى أشار إليها ، آمتحاناً لخاطر : لأنْ يكونَ عن الإمام المتوكِّل علىٰ الله أبى عبـدِ الله محمدِ بن المعتضِد أبى الفتح أبى بكر ، خليفـةِ العصر ، لوَلَده العباس : ليكون أُنْموذَجا يُنْسَج علىٰ مِنْواله .

ومن غريبِ الاّتفاق أنِّى أنشأْته فى شُهُور سنةِ إحدىٰ وثمـانمائة آمتحانا للخاطر كما تقدّم ، وضَّمته هـذا الكتابَ وتمـادىٰ الحالُ علىٰ ذٰلك إلىٰ أن قبَضَ اللهُ تعـالىٰ الإمامَ المتوكِّل ـ قدّس الله تعالىٰ رُوحَه ـ فى سـنة ثمـان وثمانمـائة ؛ فأجمع أهلُ الحلِّ والعَقْد علىٰ مبايعته بالخلافة ؛ فبايَعُوه وحقَّق الله تعالىٰ ما أجراه علىٰ اللِّسان من إنْشاء العهد باسمه فى الزَّمن السابق ؛ ثم دعَتْنِى داعيةٌ إلىٰ التمثُّل بين يديه الشريفتين فى مستَهلِّ شهر ذِى القَعْدة الحرام سـنةَ تسع وثمـانمائة ، فقرأته عليه من أوّله إلىٰ آخره ، وهو مُصْغٍ له مظهرٌ الاّبتهاجَ به ؛ وأجاز عليـه الجائزةَ السنية . ثم أنشأتُ له رسالةً وضمنتُه إيَّاها وأُوعِتْ بخِزانته العالية عَمَرها اللهُ بطُول بقائه .

وهـــذه نسخته :

هذا عهدٌ سعيدُ الطالع ميمونُ الطائر ، مبارَكُ الأول جميلُ الأوسط حميدُ الآخر ؛ تَشْهد به حضَراتُ الأمْلاك ، وترقُمُه كَفُّ الثُّريَّا بأقلام القَبُول فى صحائِف الأفْلاك ؛ وتُباهِى به مُلُوكُ الأرض ملائكَةَ السما ، وتَسْرِى بنَشْره القَبُولُ إلىٰ الأقطار فتنْشُر له بكلِّ ناحيةٍ علَما ، وتُطْلِـعُ به سعادةُ الجَدِّ من ملُوك العَدْل فى كلِّ أُفُق نَجْما ، وترقُص من فرحها الأنهار فتنَقِّطها شمسُ النَّهار بذَهَب الأصيل علىٰ صَفَحات المْـا ؛ عهِدَ به

عبدُ الله ووليُّه أبو عبد الله محمدٌ المتوكِّل على الله أميرُ المؤمنين إلىٰ وَلَده السيد الجليل عُدَّة الدِّين وذَخِيرته ، وصَفِيِّ أمير المؤمنين من وَلَده وخِيرتِه ؛ المستعينِ بالله أبي الفضل العَبَّاس بلَّغ الله فيه أميرَ المؤمنـين غايةَ الأمَل ، وأقرّ به عيْنَ الخلافة العبَّاسيَّة كما أقرّ به عينَ أبيه وقد فَعَلْ .

أما بعــدُ ، فالحمدُ لله حافِظِ نِظام الإسـلام وواصِلِ سَبَبه ، ورافِعِ بيتِ الخلافة ومادّ طُنُبه ، وناظِمِ عِقْد الإمامة المعظَّمة فى سِــلْك بَنِى العباس وجاعِلِها كلمةً باقيةً فى عَقِبِـــه .

والحمـــدُ لله الذى عَدَق أمْرَ الأمة منهم بأعظَمِهم خَطَرا ، وأرفَعِهم قَـدْرا ؛ وأرجَحِهم عَقْلا وأوسَعِهم صَدْرا ، وأجزلِهم رأْيا وأسلَمِهم فِكْرا .

والحمــدُ لله الذى أقرّ عيْنَ أمير المؤمنين بخيْرِ وَلِىّ وأفضَلِ وَلَد ، وشدّ أزْرَه بأكرم سـيد وأعزِّ سَنَد ، وصرَفَ ٱختيارَه إلىٰ مَنْ إذا قام بالأمر بعـدَه قيل هذا الشِّبْلُ من ذاكَ الأسَد .

والحمـــدُ لله الذى جمعَ الآراءَ علىٰ ٱختيار العاهد فمـا قَلَوْه ولا رفَضُوه ، وجبَل القلوبَ علىٰ حُبِّ المعهود إليه فلم يَرَوُا العُدُولَ عنه إلىٰ غيره بوجه من الوُجُوه .

والحمـدُ لله الذى جدّدَ للرعيَّة نِعمةً مع بَقاء النِّعمة الأُولىٰ ، وأقام لأمْرِ الأمّة من بَنِى عمِّ نبيِّه المصطفىٰ الأوْلىٰ بذٰلك فالأَوْلى ، وٱختار لعهد المسلمين مَنْ سبقَتْ إليه فى الأزَلِ إرادتُه فأصبح فى النُّفُوس معظَّما وفى القلوب مَقْبُولا .

والحمـدُ لله الذى أضحك الخلافةَ العبَّاسية بوجُود عبَّاسها ، وأطاب بذِكْره ريَّاها فتعطَّر الوجودُ بطيبِ أنفاسِهـا ؛ ورفع قَدْرَه بالعهد إليـه إلىٰ أعلىٰ رُتْبـة مُنِيفه ،

وَخَصَّه بمشاركة جَدّه العبَّاسِ فى الاْسم والكُنْية ففاز بما لم يَفُزْ به قبْلَه منهم ست (١) وأربعون خَليفه .

والحمـــدُ للهِ الذى أوْجبَ علىٰ الكافَّة طاعةَ أُولِى الأمْر من الأئمَّـه ، وألزَمَهم الدُّخولَ فى بَيْعَــة الإمامِ والاْنقيادَ إليه ولو كان عبْدًا أسْودَ فكَيْف بمن أجْمع علىٰ سُؤْدَده الأُمّه ، وأوضَح السبيلَ فى التعريف بمَقام الآلِ والعِتْرة النبويَّة ﴿فلا يَكُنْ أمْرُكُم عليكُمْ غُمَّه﴾ .

يحمَــدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ما مَنَحه من طِيبِ أُرُومةٍ سَمَتْ أصــلا وزَكَتْ فَرْعا ، وحَبَاه من شَرَفِ مَحْتِدٍ راقَ نظَرا وشاق سَمْعا ، ووصله به من نِعَم آثرتْ نَفَّاعا وأثَّرتْ نَفْعا ؛ ويشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتوارَثُونها كالخلافة كابِرًا عن كابر ، ويُوصِّى بها أبَدًا الأوّلُ منهم الآخِر ، ويُؤْذِن قيامُهم بنُصْرتها أنَّهم مَعْـدن جوهرِها النَّفيسِ ونِظامُ عِقْدِها الفــاخِر ؛ ويشهَدُ أنَّ سيِّدنا محمدًا عبدُه ورسولُه ، الذى خصَّ عمَّه العباسَ بكريم الحِبَاء وشريفِ الإنافَهْ ، ونَبَّه علىٰ بَقاء الأمرِ فى بَنِيه بقوىٍ ضَلَّ مَنْ أظهر عِنادَه أو أضمر خِلافَه ؛ حيثُ أسَرَّ إليــه : "ألاَ أُبَشِّرُكَ يا عَمِّ بِى خُتِمتِ النبوَّةُ وبولَدِك تُخْتَم الخِلاَفه" صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تعم بركَتُها الوَلَدَ والوالِد ، ويشْمَل معروفُها المعهودَ إليه ويَعْرِفُ شرَفَها العاهد ، ويعترِف بفضلها المُقِرُّ ولا يَسَــعُ إنكارُها الجاحد ؛ ما نُوِّهَ بذِكرِ الخلافة العباسـيَّة علىٰ أعواد المَنابِر ، وخَفَقتِ الراياتُ السُّود علىٰ عساكرِ المَوَاكب ومَوَاكب العساكر ؛ وسلَّمَ تسليما كثيرا .

---

(١) ذكَّر اسم العدد علىٰ حد ما أنشده الفراء .

أبوك خليفة ولدته أخرى ✻ وأنت خليفة ذاك الكمال

هـذا وكلُّ راعٍ مسئول عن رعيَّته، وكلُّ آمْرِئ محمولٌ علىٰ نِيَّته ، مخبِرٌ بظاهره عن جميلِ ما أكنَّه فى صَدْره وما أسَرَّه فى طَوِيَّته ؛ والإمامُ منصوبٌ للقِيام بأمر الله تعالىٰ فى عِباده ، مأمورٌ بالنصيحة لهم جُهْدَ طاقته وطاقَةَ آجْتِهاده ، مطلوبٌ بالنظر فى مَصَالحهم فى حاضِرِ وقتِهم ومستقبله وبَدْءِ أمرِهم ومَعَاده؛ ومِن ثَمَّ آختلفَتْ آراءُ الخلفاء الراشدين فى العهد بالخلافة وتباينَتْ مقاصِدُهم ، وتنوّعَتِ آختياراتُهم بحسَب الآجتهاد وآختلفتْ مواردُهم ؛ فعهِد الصــدِّيقُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه متثبِّتا، وتركَها عمرُ شُورىٰ فى ســتَّة وقال : « أتحمَّــل أمرَكُم حَيًّا وميِّتا ! » وأتىٰ رضى الله عنه لكلٍّ من المذهبين بما أذْعن له الخَصْمُ وسلَّم، فقال : «إنْ أعهَدْ فقد عَهِد مَنْ هُو خَيْرٌ منِّى أبو بكر، وإنْ أتْرُكْ فقد تَرَكَ مَنْ هو خيرٌ منِّى رسولُ الله صلَّى الله عليه وســلم » فأخذ الخلفاءُ فى ذٰلك بسنَّتهما، ومشَوْا فيــه علىٰ طريقتهما؛ فمن راغبٍ عن العهد وراغبٍ فيه، وعاهدٍ إلىٰ بعيــدٍ منه وآخَرَ إلىٰ آبْنِه أو أخيه ؛ كلٌّ منهم بحسَبِ مايؤدِّى إليه آجتهادُه، وتقْوىٰ عليه عزيمتُه ويترجَّحُ لدَيْه آعتمادُه .

ولمَّــا كان أميرُ المؤمنين ــ أحسنَ الله مآبه ــ قد نَوّر اللهُ عيْن بصيرتِه، وخَصَّــه بطهارةِ سِرِّه وصفاء سريرتِه؛ وآتاهُ الله المُلْك والحِكْمه، وأقامه لِمَصالح الرعيَّة وصلاحِ أمرِ الأُمَّه؛ وعلَّمه ممَّــا يشَاء فكان له من عِلْم الفِراســة أوْفَرُ قِسْم ، وآصطفاه علىٰ أهلِ عصْره وزاده بَسْطةً فى العِلْم والجِسْم؛ فلا يَعْزِمُ أمْرا إلَّا كان رَشَادا، ولا يعتَمِد فِعْلا إلا ظهرَ سَــدَادا ؛ ولا يرتَئِى رأْيا إلا أُلْفِى صَوَابَا، ولا يُشير بشىْء إلا حُمِدت آثارُه بِدايةً ونِهايةً وآستِصْحابا ؛ ومع ذٰلك فقــد بَلَا الناسَ وخَبَرَهم ، وعلم بالتجْرِبة حالَهُم وخَبَرهم ، وآطَّلع بحُسْن النظر علىٰ خَفَايا أمورهم ، وما به مصْلحةُ خاصَّتهم وجُمْهورهم ؛ وترجَّح عنده جانبُ العهدِ علىٰ جانبِ الإهمال، ورأىٰ المبادرةَ إليه أَوْلىٰ من الإمْهال ؛ ولم يزلْ يُروِّى فكرتَه ، ويُعْمل رَوِيَّتــه؛ فيمن يصْلُح لهــذا الأمر

بعْدَه ، وينْهَض بأعبائه الثقيلةِ وَحْده ؛ ويتّبِـع فيه سُبُلَه ويسْلُك طرائقه ، ويقتفى فى السِّيرة الحسـنةِ أثره ويَشيم فى العـدل بوارِقَه ؛ ويُقْبِل علىٰ الأمْرِ بكلِّيّته ويقْطع النظر عمّـا سواه ، ويتفرّغ له من كلّ شاغلٍ فلا يخلِطُه بمـا عدَاه .

وقد علم أنَّ الأحقّ بأن يكونَ لهـا حَلِيفًا من كان بها خَلِيقا ، والأَوْلىٰ بأن يكُونَ لها قَرِينا مَنْ كان بوَصْلها حَقِيقا ، والأجدَر أنْ يكُونَ لديها مكِينًا من آتخذ معَها يَدًا وإلىٰ مَرْضاتِها طَرِيقا ؛ والألْيَق بمنْصِبها الشريـف مَنْ كان بمطْلُوبها مَلِيًّا ، والأَحْرىٰ بمكَانِها الرفيع مَنْ كان بمقصُودها وَفِيًّا ، والأَوْفَق لمَقَامها العـالِى مَنْ كان خَيْرا مقَامًا وأحسَنَ نَدِيًّا ؛ وكان ولَدُه السـيدُ الأجلُّ أبو الفضـل المشارُ إليه هو الذى وجّهتِ الخلافةُ وجْهَها إلىٰ قِبْلته ، وبالغَتْ فى طَلَبه وألحّتْ فى خِطْبته ؛ علىٰ أنه قد أُرْضِع بلِبَانِها ورُبِّى فى حِجْرِها ، وآنتسب إليها بالبُنُوّة فضمّته إلىٰ صَدْرها ؛ وكيف لا تتشَبّث بحِباله ، وتتعلّق بأذياله ؛ وتطمَعُ فى قُرْبه ، وتتغالىٰ فى حُبِّه ؛ وتَميلُ إلىٰ أُنْسه ، وتُراودُه عن نَفْسه ، وهو كُفْؤُها المستجْمِعُ لشرائِطِها المتّصِفُ بصفاتِها ، ونَسِيبُها السامى إلىٰ أعَالِيها الراقِى علىٰ شُرُفَاتها ؛ إذ هو شِبْلها الناشِئُ فى آجامها ، بل أَسَدُها الحامى لحِمَاها ومُجِيرُها الوافِى بِذِمَامها ؛ وفارِسُها المقـدَّم فى حَلْبَة سِبَاقِها ووارِثُها الحائزُ لجميع سهامِها ؛ وحاكِمُها الطائـعُ لأمْرِها ، ورشِيدُها المأمونُ علىٰ سِرِّها ؛ وناصِرُها القـائمُ بواجِبها ، ومَهْدِيُّها الهادى إلىٰ أفضل مَذَاهِبها ؟ قد آلتحَفَ من الخلافة بِرِدَائها ، وسَكَن من القُلُوب فى سُوَيْدائِها ، وتوسّمت الآفاقُ تَفْوِيضَ الأمرِ إليه بعد أبِيـه فظهَر الخُلُوق فى أَرْجائِها ؛ وآتّبع سِيرةَ أبيه فى المعرُوف وآقتفىٰ أَثَرَه فى الكَرَم ، وتشبّه به فى المَفَاخر (وَمَنْ يُشَابِهْ أَبَهُ فَمَـا ظَلَمْ) وتقبَّل الله دُعاء أبِيه فوهَبَ له من لَدُنْه وليًّا ، وأجاب نِداءَه فيه فمَكَّن له فى الأرض وآتاه الحُكْمَ صَبِيًّا ؛ فاستوجبَ أن يكونَ حينئذٍ للسلمين ولِىَّ عهْدهم ، واليًا علىٰ أُمورهم فى حَلِّهم وعَقْدهم ؛ متكفِّلا بالأمْرِ فى قُرْبه وبُعْدِه ،

مُعِينًا لأبِيــه فى حياتِه خليفةً له من بعْـدِه، وأن يصرِّحَ له بالاِستخلافِ ويُوضِّح، ويتلُوَ عليه بلسان التفويض ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾ .

وٱقتضتْ شفَقةُ أميرِ المؤمنين ورأفتُــه، ورِفْقُه بالأمة ورحمتُه؛ أن ينْصب لهم ولِيَّ عهدٍ يكونُ بهذه الصِّفات متَّصِفا، ومن بحْره الكريم مغْتَرِفا، ومن ثِمـار معروفِه المعروفِ مقتَطِفا؛ ولمنْهَـله العَذْب وارِدا، وعلىٰ بيتِـه الشريفِ وسائِر الأمَّة بالخير عائِدا؛ فلم يجِدْ من هو مستكمِلٌ لجميعها، مستوعبٌ لأصُولها وفُروعِها؛ وهو بمطْلُوبها أملىٰ، وعلىٰ قلوب الرعيَّــة أحلىٰ؛ وللغَليل أشْـفىٰ، وبالعهدِ الجميلِ أوْفىٰ؛ من ولده المشارِ إليه . فاستشار فى ذٰلك أهلَ الحَلِّ والعقْد من قُضاتِه وعلمائِه، وأُمرائه ووُزَرائه، وخاصَّته وذَويه، وأقاربه وبَنِيه، وأعيانِ أهل العصر وعامَّته، وجُمْهوره وكافَّته؛ فرأَوْه صوابًا، ولم يَعْرُهم فيه ظِنَّةٌ ولا مُسْترابا(١)، ولا وجَد أحدٌ منهم إلىٰ باب غيره طريقًا ولا إلىٰ طريقِ غيرِه بابًا؛ فاستخارَ الله تعالىٰ فيه فأقبلَ خاطرُه الشريفُ عليه، وكَرَّر الاَستخارَةَ فلم يجِدْ عنه مَحِيدًا إلَّا إليه .

فلمَّـا رأىٰ أنَّ ذٰلك أمرٌ قد ٱنعقد عليه الإجماعُ قوْلا وفِعلا، وعُدِم فيه المخالِفُ بل لم يكُنْ أصْلا؛ حمِدَ الله تعـالىٰ وأثْنىٰ عليه، وسأله التوفيقَ ورَغِب إليه؛ وجَدَّد الاَستخارةَ وعَهِد إليه بأمْر الأمَّة، وقلَّده ما هو متقلِّده من الخلافة المقدَّســة بعْده علىٰ عادةِ مَنْ تقدَّمه من الخُلَفاء المـاضين، وقاعدةِ مَنْ سلَف من الأئمة المهْدِيِّين؛ وفوّض إليه ماهو من أحْكامهـا ولَوازِمها، وأُصولهـا ومَعالِمها : من عَهْدٍ ووِصَايه، وعَزْل ووِلَايه؛ وتفْويضٍ وتَقْليــد، وٱنتِزاعٍ وتَخْليــد؛ وتفْريقٍ وجَمْــع، وإعطاءٍ ومَنْع، ووَصْــل وقَطْع؛ وصِلة وإدْرار، وتقْليــلٍ وإكْثار؛ جُزْئِيِّها وكلِّيِّها، وخفيِّها

(١) اضطره السجع إلىٰ نصب المرفوع .

وجَلِيِّها، ودانيها وقاصِيها، وطائعها وعاصِيها؛ تفويضًا شرْعِيًّا، تامًّا مَرْضِيًّا، جامعًا لأحكامِ الوِلَاية جَمْعا يعمُّ كلَّ نِطاق، ويَسْرِى حكمُه فى جميع الآفاق، ويدخلُ تحْتَه سائرُ الأقالِيم والأمصارِ على الإطْلاق؛ لايغيَّر حكمُه، ولا يُمْحىٰ رسْمُه، ولا يَطِيشُ سَهْمه، ولا يأفِلُ نجْمه.

قبِلَ المعهودُ إليه ــ أعلىٰ الله مَقامَه ــ ذلك بمحْضَر من القُضاة والحُكَّام، والعلماء الأعْلام؛ ولزِمَ حكمُه وٱنْبرَمْ، وكُتِب فى سِجِلَّات الأفلاك وٱرْتَسَم، وحُمِلت رسائلُه مع بُرُد السَّحاب فطافَتْ به علىٰ سائرِ الأُمَم؛ وهو ــ أبقاه الله ــ مع ماطُبِعت عليه طِباعُه السليمه، وجُبِلت عليه سَجايَاه الشريفةُ وأخلاقُه الكَرِيمه؛ قد تلقّىٰ عن أميرِ المؤمنين من شريفِ الآدابِ ماغُذِّى به فى مَهْده، وتلقَّف منه من حُسْن الأَدَوات مايَرْوِيه بالسَّنَد عن أبيه وجَدِّه؛ ممـا ٱنْطَبع فى صَفاء ذِهْنه الصَّقيل وٱنتقَش فى فَهْمِه، وٱختلَط من حال طُفُوليَّته بدَمِه ولَحْمِه وعَظْمِه؛ حتّىٰ صار طبْعا ثانيا، وخُلُقا علىٰ ممَرّ الزمان باقِيا؛ وٱجتمع لدَيْه الغَرِيزىُّ فكان أصْلا ثابِتا، وفَرْعا علىٰ ذٰلك الأصلِ القوىِّ نابِتا؛ لكنْ أميرُ المؤمنين يُوصِيه تبرُّكا، ويشْرَح له مايكونُ به ــ إن شاء الله ــ متَمَسِّكا؛ والمرءُ إلىٰ الأَمْر بالخير مَنْدُوب، ووصيَّةُ الرجل لبَنِيه مطلوبةٌ فقد قال تعالىٰ: ﴿ووَصَّى بِهَا إبْراهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ﴾.

فعليكَ بمراقبةِ الله تعالىٰ فَمَنْ راقبَ اللهَ نَجَا، و[اجعل] التَّقْوىٰ رأسَ مالك: ﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وٱلجأْ إلىٰ الحق فقد فازَ مَنْ إلىٰ الحق لجَا؛ وكتابُ الله هو الحبلُ المتين، والكتابُ المُبين، والمَنْهَج القوِيم، والسبيلُ الواضِحُ والصِّراطُ المستقيم؛ فتمَسَّكْ منه بالعُروة الوثقىٰ، وٱسْلُكْ طريقتَه المُثْلىٰ وٱهتَدِ بهَدْيِه فلا تَضلّ ولا تَشْقىٰ؛ وسُنَّة نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم عليك بالاِقْتداءِ بأفْعالها الواضِحه، والإصغاءِ لآثار أقوالها الشارحه؛ عالمـًا بأنَّ الكتاب والسنة أخوَان لا يفْتَرِقان،

ومُتلازمانِ بحبْل التبايُن لا يعتَاقان ؛ والبِلادَ والرَّعايا حُطْهما بنَظَرك ما آستطعْت ، وتثبّت فى كل قَطْع ووَصْل فأنتَ مسْئُول عن كل ما وصَلْتَ وقطَعت ؛ والآلَ والعِتْرَةَ النبويَّة فَفِيهِمَا حقُّ القرابة منك ومنْ رسـولِ الله صلىّ الله عليه وسـلم الذى أشرقَتْ به ؛ وآعلم أنك إذا أكرمْتَ أحدا منهم فإنما أكرمتَه بسَببِه ؛ وآتَّبع فى السِّيرة سِـيرةَ آبائك الخلفاء الراشدين لاتَزِغْ عنها ، ولا تعمَلْ إلّا بها و بمـا هو ــ إن آستطعتَ ــ خيرٌ منها ؛ وآقْفُ فى المعروف آثارَهم المقدّسَةَ لتحْوِىَ من المآثِرِ ماحَوَوْا ، وآحْذُ حَذْوَهم فى طريقِهم المباركةِ وآبنِ المجدَ كما بنَوْا ؛ وأَحْيِ من العمل سنّةَ سلَفِك المصطفَيْنَ الأخيار ، وآحرِصْ أن تكونَ من الأئمة الذين يُظِلُّهم الله تحتَ عرشه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ يَوْمَ لايَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ولَهُمُ اللَّعْنَـةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّار ﴾ . وأسْلِف خيرًا تُذْكَرُ به علىٰ مَرِّ اللَّيالى ، وينتظِمُ ذِكرُه فى عُقُود الأيّام كما تنتَظم فى السِّلْكِ اللّآلِى ؛ ولْيكُنْ قصْدُك وجهَ الله ليكونَ فى نُصْرتك فإنَّ مَنْ كان الله تعالىٰ فى نُصْرته لايُبالِى ؛ ولْتعْـلَمْ حقَّ اليقينِ أنَّ حسنَةَ الإمام تُضاعَفُ بحَسَبِ ما يترتَّب عليهـا من المَصالح أو يتجدّدُ بسببها ، وسيِّئته كذٰلك فمن سَنّ سيئةً كان عليه إثمُها وإثمُ مَنْ عمِـل بها ؛ ودُرْ مع الحقِّ كيفَ دارَ ومِلْ معـه حيثُ مال ، وآعلَمْ بأنَّ اللهَ لا يُغيِّر مابقَوْم حتّى يغيِّروا مابأنفُسِهم وإذا أرادَ الله بقوم سُوءًا فلا مَرَدَّ لَهُ وما لهم مِنْ دُونِه مِن وال ؛ ولا تُخطِرْ ببالك أنَّ هذا الأمْرَ آنتهىٰ إليكَ بقُوه ، أو يَغُرَّكَ ما قدّمناه من الثناء عليـك فالتأثّر بالمَدْح يُخِـلُّ بالمُرُوه ؛ ولا تتّكِلْ علىٰ نَسبك فَمَنْ أطاعَ اللهَ أدخلَه الجنةَ ولوكان عبْدا حبشيّا ، ومَنْ عصاه أدخلَهُ النارَ ولوكان هاشِميًّا قُرشيًا ، وآستنْصِر اللهَ ينصُرْك وآستعِنْ به يكُنْ لك عَوْنا وظَهِيرا ، وآستَهْدِه يَهدِكَ ﴿ وَكَفىٰ بِرَبِّكَ هادِيًا وَنَصِـيرا ﴾ وكُنْ [من] الله خائفًا ومن مكره من المُشْفقِين ، فإنَّ الأرضَ لِلهِ يُورِثُها من يَشَاءُ من عباده والعاقبةُ للمتّقين .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، ووصيّته تُملىٰ عليك ؛ ﴿ وذَكِّر فإنّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِين ﴾ والله تعالىٰ يبلِّغُه منك أملاً ، ويحقِّق فيك عِلْماً ويزكّي بك عملا ؛ والاعتمادُ علىٰ الخطّ المقدّس الإمامىّ المتوكلىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ ـ أعلاه ، حجةٌ فيه إن شاء الله تعالىٰ .

المــــذهب الثـانى

(أن يَفْتتحَ العهدَ بعد البسملة بلفظ «من فلان إلىٰ فلان» كما يُكْتَب فى المكاتبات ثم يأتِيَ بالبعدية ويأتِيَ بما يُناسِبه مما يقتضيه الحالُ من ذكر الوِلاية ، ووصْف المتولِّى ، وآختيار المُوَلِّى له ونحو ذلك)

ثم قاعدة كُتَّابهم أنهم يأتُون بعد ذٰلك بالتحميد فى أثناء العَهْد .

وهـذه نسخةُ عهدٍ من ذٰلك ، كُتِب بهـا عن الحافظ لدين الله الفاطمىّ ، لولَدِه حَيْدرةَ بأن يكونَ ولىَّ عهد الخلافة بعده ؛ وليس فيها تعرُّض لتحميد أصلا ، وهو .

مِنْ عبدِ الله ووليّه عبدِ المجيد أبى المَيْمُون الحافظِ لدِين الله أمير المؤمنين ، إلىٰ وَلَده ونَجْله ، وسُلالته الطاهرةِ ونَسْله ، والمُجْمَع علىٰ شَرَفه والعامل بمرضاةِ الله فى قوله وفعله ، وعَقْده وحلّه ؛ الأمينِ أبى تُراب حَيْدَرةَ ، ولىّ عهد أمير المؤمنين ، عليه السلامُ .

سلامٌ عليك : فإنّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو ، ويسألُه أن يصَلِّىَ علىٰ جَدّه محمدٍ خاتمَ النبيين ، وسيِّد المرسلين ، صلّى الله عليه وعلىٰ آلِه الطاهرين ، الأئمة المهديِّين ؛ وسلَّم تسليما .

أما بعدُ ، فإنّ اللهَ تعالىٰ لبَديع حِكْمته ، ووَسِيع رحْمته ، استَوْدَع خُلفاءه مَنْ خَلَقه وبَرَأه ، وآستكفىٰ أُمناءَه مَنْ صوّره وذَرَأه ؛ ورتّبهم مَرْتَبةَ النفُوس من الأجساد ،

ونزَّلهم بمنزلة الضِّـياء من الأزْناد ؛ وجعلهم مستخْدِمين لأفكارهم فى مصالح البريَّة التى غدَتْ فى أمَانِهم ، وحصلَتْ فى ضَمَانِهم ؛ فظلَّت فى ذِمَامهم ، وسَعِدت فى عِزِّ مَقَامِهم وظلِّ أيَّامهم : لأنَّهم نُصِـبوا للنظر فيما جَلَّ ودَقّ ، وتَعِبُوا لراحة الكافَّة تَعَبا صَعُب وعَظُم وشَقّ ؛ وكان ذٰلك سِرًّا من أسرار الحِكْمه، وضَرْبا من أفضـل تدْبير الأُمّه ؛ إذ لو ساوىٰ بينَ الرئيس والمرءُوس ، والسائس والمَسُوس ؛ لٱختلطَ الخُصُوص بالعُمُوم، ولم يبقَ فرقٌ بين الإمامِ والمأمُوم .

وقد ٱستخلص اللهُ أميرَ المؤمنين منْ أشرَفِ أُسْرة وأكرمِ عِصَابه ، وأيَّده فى جميع آرائه بالحَزَامة والجَزَالة والأَصالة والإصابَهْ ؛ وقَضىٰ لأغْراضِه أن يكونَ السعدُ لها خادِما، وحَتَمَ لمقاصِدِه أن يُصاحِبهَا التوفيقُ ولا يَنْفَكَّ لها مُلازِما ؛ وجمع له ما تفرّقَ فى الخليقة من المَفَاخر والمَنَاقِب، وألهمه النظَرَ فى حُسْن الخواتم وحميدِ العَوَاقب .

ولمـا كان ولِىُّ عهْـدِ أمير المؤمنين أكبرَ أبناءِ أميرِ المؤمنـين، والمنتَهِى لأشرف المراتِبِ من تقادُم السِّنين؛ وقد ٱستولىٰ علىٰ الفَخْر باكتِسابه وٱنْتِسابه، وتصدَّت له مخطوباتُ الرُّتَبِ ليحُوزَها باستحقاقه وٱستِيجَابه ؛ وله من فضـيلةِ ذاتِه ما يدُلُّ علىٰ النبإِ العظِيم، وعليه من أنوار النبوّةِ ما يهْتدِى به السارِى فى الليل البَهِيم؛ وحِينَ حوىٰ تالدَ الفَخْر وطارِفَه ولم يستَغْنِ بالقـديم عن الحديث ولا بالحَدِيث عن القَدِيم ؛ والصِّفاتُ إذا ٱختلفَتْ أربابُهـا لا تقَع إلا دُونَه ، والثوابُ الجزيلُ ممـا أعدّه الله للذين يُخْلِصُون فيه ويتولَّوْنه ،وليفخَرْ بأنْ خُصَّ من العِنايةِ الملكُوتيَّة بالحظِّ الأجْزَل، ولْيتسَمَّحْ علىٰ البَرَايا ليكُونَ ممدُوحًا بالكتاب المنَزَّل ؛ ولْيَبْذَخْ فإنَّ وصْفَه لا تُبْلَغ غايتُه وإن ٱستُخْدِمت فيه الفِكَر،ولْيَبْجَحْ فإن فضله لايُدْرك حقيقةً إلا إذا تُلِيت السُّوَر، فأمتَعه اللهُ بمَواهبه لدَيْه وأمتَع أميرَ المؤمنين به، وأجْرىٰ أمورَه عاجلا وآجلا بسَبَبه .

رأى أميرُ المؤمنين أن يختصّه (١) بولاية عهد أمير المؤمنين تميزاً له بهذا النعت الشريف، وسُمُوًّا به إلى مايجب لمجده الشامخ ومحلّه المُنيف؛ واقتداءً بأسلافه الأئمة الأطهار فيما يُشرِّفون به أبناءهم الأكرمين، وتخصيصًا له بما يبقى فخره على متجدّد الأزمان ومُتطاوِل السنين. وأمر أمير المؤمنين أن يُتخيَّر من رجال دولته، ووُجوه أجناده وشيعته، طائفةٌ يكونُ إليه انتماؤُها، وإلى شَرف هذا النعت انتسابُها واعتزاؤُها، فتُوسَم بالطائفة العَهْديَّه، وتَحْظى إذا أخلصَتْ في الولاية بالسّعادة الدائمة الأبديَّه، وتظلّ موقُوفةً على خِدْمته، متصرِّفةً على أوامِرِه وأمْثِلته، منتهيةً في طاعته إلى أغراضه ومآربِه، ملازمةً لِلّازم المتعيَّن من مُلازمة الخِدْمة في مواكبِه؛ والله تعالى يجعلُ ماراه أميرُ المؤمنين من ذلك كافلًا بالخيرات، ضامنًا لشُمول المنافع وعمومِ البركات، إن شاء الله تعالى: والسلامُ على وليّ عهد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتُه.

* * *

وهذه نسخةٌ بولايةِ العهد من خليفةٍ لولده بالخلافة على هذه الطريقة، من إنشاء القاضي الفاضلِ، أتى فيها بالتحميد بعد التصدير ثلاثَ مرَّات، وهي:

من عبدِ الله ووليّه فلان أبي فلان الإمام الفلانيّ إلى فلانٍ الفلاني، والصلاة والسلام على النبيّ صلّى الله عليه وسلم على نحو ماتقدّم في العهد قبله.

أما بعدُ، فالحمدُ لله الذي استحقّ الحمدَ بفَضْله، وأجرى القضَاءَ [على ماأراده] (٢) ووَسِعَ الجَرائمَ بعفوه وعدْله، وصرَّف المَراحِمَ بين قوْله وفِعْله، وأعلى مَنارَ الحق

(١) لعل هذا جواب الشرط في أول الفقرة قبل ويكون العامل في حين بعده محذوفا دل هذا عليه. تأمل.

(٢) بياض في الأصل والتصحيح من المقام.

وأرشَدَ إلىٰ أهله ؛ واختارَ الإسلامَ دِيناً وعَصَم المعْتلِقِين بحَبْله ، وأوضح سُبُل النَّجاة بمـا أوْضَح لسالِكيه من سُبْله ؛ وتعالىٰ عُلاه إلىٰ الصِّفات ، فلم يُوصَفْ بمثل قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِه ﴾ وتنزَّه عن ٱشـتراك التشبيهات ، فى كلِّ جليل الوصف مستقِلّه وغيرِ مستَقِلِّه ؛ عِلِمَ ما ٱشتَمَلَتْ عليه خَطَراتُ الأَسْرار ، وأشارتْ إليه نَظَراتُ الأبْصار ، وٱنْفَرجَتْ عنـه غَمَراتُ الأخطار ، وأخفَتْه سَتَراتُ الظلمـاء و باحتْ به جَهَراتُ الأنْوار : ﴿ سَـوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ به ومَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وساربٌ بِالنَّهار ﴾ .

والحمدُ لله الذى جعل الدِّين عِنْده الإسلام ، فمن ٱبتغىٰ غيرَه ضَلَّ المَنْهج ، وأبْعَدَ المَعْرَج ، وٱستَلْقح المُخْدَج ، وغَلِط المَخْرَج ، وفارقَ النُّورَ الأبْلَجْ ، وركِبَ الطريقَ الأعْوَجْ ، وأتىٰ يومَ القيـامة باللِّسان المُلَجْلَج ؛ ومَنْ أسْـلَمَ وجْهَـه إليه فاز بالسَّعْيِ النَّجِيح ، وحاز المَتْجَرَ الرَّبِيح ؛ ووَرد المَوْرِدَ الأحْمَد ، ويَمَّ القَصْد الأقْصَد ، ووجد الجَـدَّ الأسْـعد ، وسلك المَنْهَج الأرْشَـد ؛ فهو العُرْوة الوُثْقىٰ ، والطريقةُ المُثْلىٰ ، والدرَجةُ العُلْيا ؛ وأُمِر به خيرُ المرسَلين ، المنعوتُ فى سِـيَر الأوّلين ، المبعُوثُ بالحق المُبِين ، والقائمُ رسولًا فى الأُمِّيين ، والهـادى إلىٰ الحقِّ و إلىٰ طريقٍ مستقيم ؛ والداعِى الذى مَنْ أجابه وآمَنَ به غُفِر له ما تقدَّم من ذَنْبه وأُجِيرَ من عذابٍ ألـيم ، والمستقِلُّ [بالعِبْء] (١) العظيم ، بفَضْـل مامُنِح من الخُلُق العظيم ، والمَمْدُوحُ بقوله : ﴿ لَقَـدْ جَاءَكُـمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْـهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمدُ لله الذى وَصَل النبوّةَ بالإمامَهْ ، وجعلَها كلمةً باقيةً فى عَقِبه إلىٰ يومِ القِيامه ، وخصَّها بالخَصَائص التى لاتَنْبغِى إلا لتـامِّ الكَرَامه ، وأجار بها خَلْقَـه من مَتالِف

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام . تأمل .

الطامّةِ وبوادِى النّدامه، وهدىٰ بشرف مَقامه إلىٰ دار المُقامه، وٱستردّ بأنوار تدبيرِه من ظَلَام الباطِلِ الظُّلَامه، وأحسَنَ بما أجراه من نَظَره النظرَ للخاصّة والعامهْ، ﴿ إنّ هٰذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِين ﴾ .

يحمَدُه أميرالمؤمنين أنْ رَفَعه إلىٰ ذلك المحلّ المُنِيف، وٱستعْمَر به المَقامَ الشريف، وأظهرَ كلمةَ الدِّين الحنيف، ونفىٰ عنه تَغَالِىَ التعمُّق وتَجْديفَ التحريف، وبَيَّن بموافَقة تَوْفِيق هَدْيه طريقَ التكليف، وأمدّه بمَوادَّ إلٰهيّةٍ تشتهر فتستغْنِى عن التعريف، وتتّصِل فتقْطَع مَوادّ التكْييف .

ويسألُه أن يصلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ الذى نَسَخ بشريعتِه الشرائع، وهذّب بهِدَايته المَشَارع، وأيّده بالحُجَج القواطِع، والأنوارِ السّواطع، وجعل من ذُرِّيّته جبالَ اللهِ القَوَارع، ومن مِشْكاته نُجومَ الهُدىٰ الطَّوَالع، وعُدِقتْ صنائعُه بالله إذا ٱفتخَرت المُنْعمون بالصّنائع؛ وعلىٰ أخِيه وأبِينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب المخصوصِ بأُخُوّته، وأبى الثقلَيْنِ من عِتْرته، والسابقِ إلىٰ الإسلام فهو بعْده أبو عُذْرتِه؛ وإلى تفريج الكَرْب عن وجْهه فى الحَرْب فهو ٱبنُ بَجْدَتِه . وعلىٰ الأئمةِ من ذرّيتهما مَصابِيح الظُّلُمات، ومَفاتيحِ الشُّكوك المُبْهَمات، والممنوحين من شَرف السِّمات، ماجَلّ عن المُسامَات، والممدوحينَ بفضْل الجاه فى الأرَضين والسّمٰوات .

وإن الله بحكمته البَديعه، ورحمتِه الوَسِيعه؛ أقام الخلفاء لخلقه قِواما وبحَقِّه قُوّاما، وجعل نارَ الحوادثِ بنُورهم بَرْدا وسَلَاما، وجعل لهم الهداية بأمره لِزاما، وٱستَصْرَف بهم عن الخَلْق عذابَ جَهَنَّم ﴿ إنَّ عَذَابَها كانَ غَرَاما ﴾؛ فهم أرواحٌ والخلائقُ أجسام، وصَبَاحٌ والمَسَالكُ أَظْلام، وثمراتٌ والوجُودُ أكمام، وحُكّام والحقائقُ أحْكام، يَسْهَرُون فى منافع الأنَام وهم نِيَام، وينفرِدُون بوَصَب النَّصَب

ويُفرِدُونهم بلذّات الجَمام ، ويهتَدُون بهِدَاياتهم إلىٰ ماتَدِقُّ عنـه حوائطُ الأفْهام ، ولا يُدْرَك إلّا بوسائِط إلهام . وقد ٱصطفىٰ اللهُ الأميرَ من تلك الأُسْره، ورقّاه شرفَ تلكَ المنـابِرِ ومُلْك تِلكَ الأسِرَّه، وأنار بمَقامه نُجومَ السـعادة المستَسِرَّه، وٱستخْدَم العالَمَ لأغْراضه ، وسدّدَ كلَّ سهْمٍ فى رَمْيه إلىٰ أغراضه، وأقرضَ اللهَ قرْضًا حسَنا فهو واثقٌ بحُسْن عواقب إقراضه ، وٱفترضَ طاعتَه فى خَلْقه فالسعيدُ من تلقّىٰ طاعة أميرِ المؤمنين بٱفْتِراضــه ، وأمضىٰ أوامِرَهُ علىٰ الأيّامِ فمـا يقابِلُها صَرْفٌ من صُروفها باعْتِراضه، وأدار الحقَّ معه حيثُ دار، وكشَفَ له ما ٱستجَنَّ تحتَ أستارِ الأقْدار، ووقَفَ الخِيرةَ والنُّصْرة علىٰ آرائِهِ و راياتِهِ فهو المستَشَار والمستَخَار، وألهمه أن يحفَظَ للأمة غَدَها كما حَفِظ لهـا يوْمَها ، وأن يُجْرِىَ لهـا مَوارِدَ توفيقِ الٱرتيادِ ولا يُطِيلَ حَوْمَها، وأن يجعل المؤمِنَ علىٰ ثَلَج من الصُّدور، وفَلَج من الظُّهور، ويُودِعَ عندها بَرْدَ اليقينِ بالإشارةِ إلىٰ مستَوْدَع النُّور، ويجعلَها علىٰ شريعـةٍ من الأمر فتتَّبِعها ، ويُحِلَّها بمنزلة الخِصْب فترتَبِعها ، ويُعـلِم نَدىً خَيْره ليكونَ غايتَها ومَفْزَعها ، ويُعرِّفها من تنتظِرُه فتتَّخذه مآلهَا ومَرْجِعَها، ويقتَدى فى ذٰلك بسيد المرسَلين فى يومِ الغَدير، ويُشير إلىٰ مَنْ يقُوم به المشيرُ مقام البشير .

ولمـا كنتَ حافظَ عهد أمير المؤمنين والسـيِّدَ الذى لا بُدّ أن يتَوّجَ به السَّرير، والنَّجْمَ الذى لابُدّ أن نستطِيلَ إلىٰ أنْواره ونستَطير، والذَّخيرة التى ادَّخَرها اللهُ لِنَيْل كل خَطَر ودَفْع كلِّ خَطِير، والسَّحابَ الذى فيه الثَّجُّ المَطِير، والنَّجمُ المُنِير، والرَّجْمُ المُبِير، وقد تجلَّتْ لكَ أوجُهُ الكرامات وتبدّتْ ، وتبرَّجَتْ لك مخطُوبات المَقَامات وتصـدّتْ ، وطلبَتْك كُفئًـا لنيْلِ عَقيلتها وسُكْنىٰ مَعْقِلها فمـا تعدّتْ ، وأدّت إليك لطائِفُ فَهْمِكَ من أسرار الحقائقِ ما أدّتْ ؛ وعرَفتَ من سِيمـاكَ هَـدْىَ النبوّه ، وٱجتمع لكَ مزِيّةُ الشرفين من الطَّرَفيْنِ الأُبُوّة والبُنُوّه ، وأخذتَ كتابَ الحكمة

ومَصُون العِصْمة بقُوه ، وأَجْرَتَ القلوبَ التى بعوارض الشَّكِّ ممْنُوه، وآثرْتَ العقائدَ التى بنواقِض العقْد مملُوه، وغدَتْ وُجُوه الأنام بأيَّامك مجلُوه، وتوافقت الألْسُنُ علىٰ مَدْحك ولا مِثْـلَ ما مُدِحْتَ من الآيات المتلُوَّه ، وكنتَ بحيثُ تَذْهبُ بالأهوال المسْلُوه ، وتُقْبِـل بالآمالِ المرْجُوه ؛ ولو أنَّ ربّما ضلَّ لَهداهُ نورُك فى الليـلِ البَهيم ، ولو أنَّ ذِكْرَك شذَّ لتبـدّى فى الآياتِ والذِّكرِ الحكيم ، ولو أنَّك طلَعْتَ علىٰ الأوّلين لمـا تساءَلُوا ولا ٱختلَفُوا فى النَّبإ العظيم ، ولوأنَّ قديمًا علا فوق كلِّ حديثٍ لقام لكَ الحديثُ مَقامَ القديم ، ولو أنَّ جميعَ الأنام فى صـعيدٍ واحدٍ لصَعِدتَ دُونَهم المقَـامَ الكريم ،ولو أنَّ يدَكَ البيضاء تجَسَّمتْ للناظرين لأعدَتْ آيةَ موسىٰ الكليم ، ولو أنَّ هِدايتَكَ الغرَّاء تنسَّمتْ للذا كرين لأحيَيْتَ بهـا العِظامَ وهى رَميم ، ولو أنَّ عُلومَكَ ٱنتشرتْ بينَ العلَماء لتلَوْا : ﴿وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾ ولو أنَّ ليلةَ وِلادتِك رصدَتْها البصائرُ، رأت كيف يُفْرَقُ فيها كلُّ أمْرٍ حكيم ،والصِّفاتُ إذا ٱحتفل أربابُها وقفَتْ لك عبيـدا ، والأيامُ إذا كانتْ ظُروفًا لفضائلكَ كانَ كلُّ يوم منها للعبيدِ عيدا ، والأنسابُ إذا عددْتَها كان الجَدُّ سعيدا ؛ فلْتفخَرْ قبْلَ السيرِ بأن أمليْت عليها السُّوَر ، وأبشِرْ بأن المنتَظَر من فضل الله لكَ فوْقَ ما تعَجَّله النظَر ، وٱشمَخْ بأنَّ سادةَ القبائل مُضَرُ وأنك بعـد أمير المؤمنين سـيِّدُ مُضَرْ ، وٱبذَخْ بأنك عِوَضٌ من كلِّ مَنْ غاب وماعنك عِوضٌ فى كل مَنْ حضَر ، وٱبجَحْ بأنك قد أُهِّلْتَ لأمرٍ أبىٰ الله له إلا أُولِى العَزْم والخَطَر ، وٱشكرِ اللهَ علىٰ نعمة خلقَكَ لها بِقدَرْ ، ومزيَّةٍ لا يُوفِّى حقَّها من أضمر فأغرَقَ أو نطق فشكَر : وقُلِ ﴿ الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ : ﴿ وقُـلْ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلىٰ وَالِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاه ﴾ .

فإليك هــذا الأمرُ يَصير، وأنت لَهُ واللهُ لك نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النَّصير؛ وتأهَّبْ له في درجته التي لايَنـالُها باعٌ قصير، ولا يمتطيها إلَّا من آختارهُ اللهُ علىٰ عِلْمٍ من أهل الثقلين ولو أنَّ بعضَهم لبعضٍ ظَهير، ولا نرىٰ لها أهلا إلَّا مَنْ أراه الله من آياتِه أنه هو السَّمِيع البصير، وفاوِضْ أميرَ المؤمنين في مُشْكِلات الأمر ولا يُنَبِّئُك مثلُ خَبير، وآقْتَدِ منه بمن هو [في] أهل دهره وَصِيُّ الوصِيّ ونظيرُ النَّذِير، وآهتَدِ بنُوره الذي هو بالنُّور البائنِ دُونَ الخلق بشِير، وسِرْ إذا آستعْمَلك اللهُ فيهم بما رأيتَ أميرَ المؤمنين به فيهم يَسِير، وآدْعُ اللهَ بأن يُيَسِّرَ علىٰ يَدِك مَناجِحَهم إنَّ ذٰلك علىٰ الله يَسِير، وآعرِف ما آثَرَك اللهُ به من أنه لم يجعل لِيَدِك كُفُؤًا إلا ذا الفَقَار ولا لقَدَمك كفُؤًا إلا المِنْبَر والسرير، وتحدّثْ بنعمة الله وإجرائِها فأميرُ المؤمنين اليومَ عليك أميرٌ وأنت غدًا علىٰ المؤمنين أمير: ﴿هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ومَنْ شَكَرَ فَإنَّما يَشْكُرُ لنفســـه﴾.

وأما العــدْلُ وإفاضَتُه، والجَوْرُ وإغاضَـتُه، والصَّعْبُ ورِياضَـتُه؛ والجَذب وترويِضُه، والخَطْب وتَفْويضه؛ والجهادُ ورَفْع عَلَمه، والذبُّ عن دِينِ الله وحِفْظُ حُرَمه؛ والأمْرُ بالمعروف ونَشْر رِدَائه، والنهيُ عن المنـكر وطَيُّ آعتِدَائه؛ وإقامةُ الحدّ بالصَّفح والحَــدّ، والمُساواةُ في الحقِّ بين المَوْلىٰ والعَبْد، وبثُّ دعوة الله في كل غَوْرٍ من البلاد ونَجْد، وأمرُ عباد الله إن عباد الله في زمنك الرغد؛ فذٰلك عهدُ الأئمة الراشدين، وهو إليك من أمير المؤمنين، عَهْدٌ مؤكَّد العَقْد: وهو سُنَّة فضل الخلفاء التي لاتَجِـدُ لهـا تَحْويلا، ومعنىٰ العـهدِ الذى أمرَ اللهُ بالوفاء به فقـال: ﴿إنَّ العَهْدَ كان مَسْئُولا﴾.

وهل يُوصىٰ البحرُ بتلاطُم أمْواجه؟ وتَدَافُع أفْواجِه؟ وبتَزَاخُر عَجَاجِه؟ وهل يُحَضُّ البدرُ المنيرُ علىٰ أن يُنِير سِراجُهْ، ويَطْلُعَ ليتَّضِح للسالك مِنْهاجُه؟ أو يُنَبَّهُ علىٰ هدايته

إذا تهادَتْه أبراجُه ؟ وعليكَ من سرائرِ أنوار الله مايُغنيك أن تُوصَى ، ولدَيْكَ من ظواهر لطائفِ اللهِ ماتَمَيَّز به عن الخلقِ إذ أضحيْتَ به مخصُوصا ، ومن شواهدِ آختيار الله ماتظاهرتْ عليك آياتُه نُصُوصا ، فبِسَلام الله يُحَيِّيك المؤمنُون ، وبالآعتلاق بعِصْمة ولائِك فى يوم الفَزَع الأكبر يَأْمنُون ، واللهُ منجِزٌ لك وعدَه كما أنجزه لمن جعلهم أئمةً لَمَّا صَبَرُوا وكانوا بآياتنا يُوقِنُون ، والله سبحانَهُ يُهْدِى إليك تحيةً من عندِه مباركَةً طيِّبه ، ويُسْدِى إلىٰ مَقام شرَفِك سَحابةَ رحمةٍ غَدِقةً صَيِّبه ، ويجعل مارآه أميرُ المؤمنين من وِلايَتِك عهْدَه ، وكَفَالَتِك للأمَّة بعده ، للمَسَرَّات ناظِما ، وللمَساءات حاسِما ، وللبركات جامعا ، وللباطل خافِضًا وللحق رافِعًا . وأمَرَ أميرُالمؤمنين أن يعيِّن علىٰ رجال من أولياء دَوْلتِه ، ووجوه شِيعتِه ، وأنصار سَرِيَّتِه ، عِدّةٌ يكون إليك آعتزاؤُها وبِكَ آعْتِزازُها ، وببابك العالى إقامتُها وإلىٰ جَنابك آنحِيازُها ، فتكونُ موْسُومةً بالعُبُوديَّه ، ومتعرِّضةً بالوَلَاء للسعادة الأَبَدِيَّه ، فتمْتَثِل[(١)] علىٰ ماتُمَثِّله من المراسم ، وتتصَرَّف علىٰ ماتُصَرِّفُها عليه من العَزَائم ، وتكونُ أبدًا لما يَنْفُذ عنك من أحكام الهبَات والمكَارم ، وتقُومُ من ملازمة الخدْمة فى مَوَاكِبك بما هو لكل خادِمٍ فرضٌ لازِم ، وتُسارِع فى مَطَالِبك إلىٰ مايُسارع إليه الحازِم ، وتجُودُ بأسماءَ الإنْعام بالغَدق الساجِم . وتُقَدّر لها من الواجبات والزِّيادات ماتقتضيه هِمَمُ المَكارم ، تبذُل فى الخدْمة الآجتهاد ، وتُنافِسُ فيما تَسْتَمِدُّ [به] الحُظوةَ بحَضْرته والإحْماد ، وعَرِّضْها من الإحسان الجَمِّ للآزْدِياد ، وبَلِّغها المُراد بما تَبْلُغ بها من المُرَاد : لتَتَشَرَّف بأن تكونَ تحتَ رِكابه العالى متصرِّفه ، وتفتخرَ بأن تكون أنسابُها باسمه العالى متَشَرِّفه ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله فتتمشّى على .

المـــذهب الثـالث

(أن يَفْتَتِح العهدَ بعد البسملة بخطبة مفتتحة بـ«الحمد لله» ثم يأتِىَ بالبعديَّة، ويأتى بما يُناسبُ الحالَ علىٰ نحو ماتقدّم؛ وعليه عمل أهل زماننا مع الاقتصار علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ، والاختصارِ فى القول)

وهذه نسخةٌ أوردها علىّ بنُ خلَف من إنشائه فى كتابه "موادّ البيان" لترتيب الكتابة فى زمن الفاطميين، وهى :

الحمد لله مُعِزِّ دينِه بخُلَفائه الراشدين، ومرتِّبِ حقِّه بأوليائِهِ الهادين؛ الذى آختار دِينَ الإسلام لصَفْوته من برِيَّته، وخَصَّ به من آستخْلَصَه من أهل طاعتِه؛ وجعله حَبْلَه المَتِين، ودينَه الذى أظهَرَه علىٰ كلِّ دِين؛ وسبِيلَه الأفْسح، وطريقَه الأَوْضَح؛ وآبتعثَ به نبِيَّه محمدًا صلّى الله عليه فصدَعَ بأمْره، وأعْلَنَ بذِكْره؛ والناسُ فى فَتْرة الضَّلاله، وغَمْرة الجَهاله؛ فلما أنجز فى نُصْرة حَقِّه، وتأييده لسُعَداء خَلْقه [قبضه][(1)] إليه محمودَ الأثَر، طَيِّبَ الخَبَر [وقام][(1)] بخلافتِه، مَن آنتخَبه من طَهَرة عِتْرته؛ وأوْدَعَهم حكمَتَه، وكفَّلَهم شريعتَه؛ فآقتفَوْا سبِيلَه، وآتبعُوا دلِيلَهْ؛ كُلَّما قَبَضَ منهم سَلَفا إلىٰ مَقَرِّ مَجْده، آصطفىٰ خَلَفا للإمامة من بَعْدِه .

يحمَدُه أمير المؤمنين أن أفْضىٰ إليـه بتُرَاث الإمامةِ والرِّساله، وهَدىٰ به كما هدىٰ بجَدّه من الزَّيْغ والضَّلاله؛ وآختَصّه بمِيراث النبُوَّة والخلافه، ونصَبَه رحمةً للكافهْ؛ وأتَمّ نعمتَه [عليه] كما أتمّها علىٰ آبائه، وأجزَلَ حظَّه من حُسْن بَلاَئه؛ وأعانَهُ علىٰ ما آسترْعاه، ووفَّقه فيما وَلَّاه؛ وأنهضَـه بإعْزاز المِلَّه، وإكرام الأُمَّه؛ وإماتةِ البِدَع، وإبطال

(1) بياض بالأصل، والتصحيح مما يقتضيه المقام .

المَذْهَبِ المخترَع ؛ وإحْياءِ السُّنَن ، والاستقامة على لاحِبِ السَّنَن ؛ ووَهبه من بَنِيه وذُرّيَّتِهِ ، مُؤَازِرِين على ماحمَّله من أعباء خِلافته ، ومُظاهِرِين على ما كلَّفه من إمعان النظر في بَرِيَّته .

ويسألُه الصلاةَ على محمدٍ خاتمَ أنبيائه ، والخِيرةِ من خُلَصائه ؛ الذي شرَّفه بختام رُسُله ، وإقرار نِيَابته في أهله ؛ صلَّى الله عليه وعلى أخيه وابنِ عمِّه وباب حِكْمته ، عليِّ بن أبي طالب وَصِيِّه في أُمَّته ؛ وعلى الأئمة الطَّهَرة من ذرّيَّته ، مَنَاهِجِ رحمتِه ، وسُرُج هِدايته ، وسلَّم تسليما .

وإنَّ الله تعالى جعل الخلافةَ للكافَّةِ عِصْمه ، ولأهْلِ الإيمان رَحْمه ، تجمَعُ كَلِمَتَهم ، وتحفَظُ أُلْفَتَهم ؛ وتُصْلِح عامَّتَهم ، وتُقِيم فرائضَه وسُنَنَه فيهم ، وتمُدُّ رُواقَ العدل والأَمَنَة عليهم ؛ وتحسِمُ أسبابَ الكُفْر والنِّفاق ، وتقْمَع أهلَ العِناد والشِّقاق ؛ ولذلك وصلَ اللهُ حبْل الإمامه ، وجعلها كلمةً باقيةً في عَقِب أوليائه إلى يومِ القيامه .

ولما نظرَ أميرُ المؤمنين بعين اليَقين ، واقتبَس من الحقيقة قَبَس [الحق] المُبِين ، عَرَف مابُنِيَتْ عليه الدنيا من سُرْعة الزَّوال ، ووَشْك التحوُّلِ والانْتِقال ؛ وأنَّ مافَوَّضَ الله إليه من خلافته لا بدّ أن يَنْتَقِلَ عنه إلى أبنائه المَيَامِين ، كما انتقل إليه عن آبائِهِ الراشدين ؛ فلم يغترَّ بمَوَاعِيدِها المُحَال ، وأضربَ عمَّا تَخْدَع به من الأَمَانِيِّ والآمال ؛ وأشفَقَ على مَنْ كفَّله الله بسياسَتِه ، وحمَّله رعايَتَه من أهل الإسلام المعتصِمين بحبل دَعْوَتِه ؛ المشتملين بظلِّ بيْعته ، عند تقضِّي مُدّتِه ونُزُوعه إلى آخرته ؛ في الوقت المعْلُوم ، بالأجل المَحْتُوم : من انتشار الكَلِمه ، وانبِتَاتِ العِصْمه ؛ وانشِقَاق العَصَا ، وإراقة الدِّما ؛ واستِيلاء الفتَن ، وتعطيل الفُرُوض والسُّنَن ؛ فنظر

لهم بما يَنْظِم شَمْلَهم ، ويصِل حَبْلَهم ؛ ويَزْجُر ظَلَمَتَهم ، ويَجْمع كلِمتهم ، ويؤلِّف أفْئِدَتَهم ؛ ورأىٰ أن يَعْهَد إلىٰ فلان ولَدِه : لأنه قريعُه فى عِلْمِه وفَضْله ، وعقيبُه فى إنصافِه وعَدْله ؛ والمَلْمُوح من بعده ، والمرجُوُّ ليومه وغَدِه ، ولِما جمعَ اللهُ له من شُرُوط الإمامه ، وكمَّله له من أدَواتِ الخلافه ، وجَبَله عليه من الرَّحمة والرَّافه ؛ وخَصَّه به من الرَّصانة والرَّجاحه ، والشَّجاعة والسَّماحه ؛ وآتاه من فَصْل الخِطَاب ، وجَوامِع الصَّواب ومحاسِنِ الآداب ؛ ووِقايةِ الدِّين ، والغِلْظة علىٰ الظالمين ، واللُّطْف بالمؤمنين ؛ بعْدَ أن قَدَّم آستخارةَ الله تعالىٰ فيه ، وسأله تَوْفِيقَه لما يُرْضيه ؛ ووقَفَ فِكْرُه علىٰ آختياره ، ولم يكن بآختياره مع إيثَارِه ؛ ويَلُوح فى شمائله ، ويَسْتَوْضِح فى مَخايِله ؛ أنَّه الولىُّ المجتبىٰ ، والخليفةُ المصْطفىٰ ؛ الذى يحمِى اللهُ به ذِمارَ الحقّ ، ويُعْلى بسلطانه شِعَارَ الصِّدْق ؛ وأنه ـ سبحانه ـ قد أفضىٰ إليه بما أَفْضىٰ به إلىٰ الخُلَفاء من قَبْله ، وأفاضَ عليه من الكامِنَات ما أفاضَهُ علىٰ أهله ؛ وبعدَ أنْ عاقده وعاهَدَه علىٰ مثل ما عاهَدَه عليه آباؤُه : من تقوىٰ اللهِ تعالىٰ وطاعتِه ، وآستشعار خِيفَتِه ومراقبتِه والعملِ بكتابه وسُنَّته ؛ وإقامةِ حُدُود الله التى حدّها ، بفُرُوضه التى وكَّدها ، والاقتداءِ بسَلَفه الراشدين ، فى المُكافَحَة عن الدِّين ، والمسامحةِ عن أوزار المسلمين ؛ وبَسْط العدْل علىٰ الرعِيَّه ، والحكم بينهم بالسَّوِيَّه ؛ وإنصافِ المظلومِ من الظَّلُوم ، وكفِّ يَدِ المغتَصِب الغَشُوم ؛ وصَرْف وُلَاة الجَوْر عن أهل الإسلام ، وتخَيُّر من ينْظُر بينهم فى المَظالِمِ والأحْكام ؛ وأن لا يُوَلِّىَ عليهم إلَّا من يَثِق بعدَالته ، ويسْكُنُ إلىٰ دِينه وأمانَته ؛ ولا يَفْسَحُ لشريف فى التعدِّى علىٰ مَشْرُوف ، ولا يَقْوىٰ فى التسَلُّط علىٰ مَضْعوف ؛ وأن يحمِل الناس فى الحُقوق علىٰ التَّساوِى ، ويُجْرِيَهم فى دَوْلته علىٰ التَّناصُف والتَّكافِى ؛ ويأمر حُجَّابه ونُوّابَه بإيصال الخاصّة والعامّة إليه ، وتمكينِهم من عَرْضِ حوائِجهم ومَظَالِمهم عليه : ليعلموا : الوُلاةُ والعُمَّال ، أنَّ رعيته

علىٰ ذُكْر منه وبَال ؛ فيتَحَامَوُا التثقيلَ عليهم والإضرار بهم . وأشهد عليه بكلّ ماشرَطَه وحَدَّده ، والعملِ بما يحمد إليه فيما تقلّده . علىٰ أنه غَنِيّ عن وَصِيَّة وتبصير ، وتنبيه وتذكير ؛ إلا أنَّ محمدًا سيدَ المرسلين يقول لعليّ صلّى الله عليهما "أرسِلْ عاقلاً الا فأوصه"(١) .

فبايِعُوا علىٰ بركة الله تعالىٰ طائعينَ غيرَ مُكْرَهين ، برَغْبةٍ لا برَهْبه ، وبإخلاصٍ لا بمُدَاهَنه ، بيعةَ رِضًا وٱختيار ، وٱنقيادٍ وإيثار ؛ بصحَّةٍ من نِيَّاتكم ، وسلامةٍ من صُدُوركم ؛ وصفاءٍ من عَقائِدكم ، ووفاءٍ وٱستقامةٍ فيما تضَعُون عليه أيْمانَكم : لِيُعَرِّفَكم اللهُ [من] سُبُوغِ النِّعمه ، وشُمولِ الخَبْره ، وحُسْنِ العاقبه ، وٱتفاقِ الكلمه ؛ مايُقِرُّ نواظِرَكم ، ويُبَرِّد ضمائرَكم ؛ ويُذْهِبُ غِلَّ صُدُوركم ويُعِزُّ جانبَكم ، ويُذِلُّ مُجانِبَكم ؛ فاعلموا هذا وٱعملوا به إن شاء الله .

وقد يُغْنِي هذا الكتابُ الذى ذكرناه مَغْنَى العهد ، فلا يُحتاج إلىٰ عَهْد :

وعلىٰ ذلك كُتِبَ عن الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، ٱبن الحاكم بأمر الله أحمد ، عهدُ ولدِهِ المستوثِقِ بالله « بركة » بالخلافة بعده . وهذه نسخته :

الحمدُ لله الذى أيَّد الخلافةَ العبَّاسيَّة بأجَلِّ والدٍ وأبرّ وَلَد ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبه والسَّنَد كالسَّنَد ، وآواهُم من أمْرِهم إلىٰ الكَهْف فالكَهْف وإن تناهىٰ العَدَد ، وزان عِطْفَهَا بسُؤْدَدِ سَوادِ شِعارهم المسجِّلةِ أنوارَهم ولا شكَّ أن النُّور فى السَّواد ، وعَدَق(٢) بصَوْلتهم النبويِّ مُعْجِزُها كلَّ مُنادّ .

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه وحرر .

(٢) لعله وقدع . أى كفّ . تأمل .

نحمَدُه علىٰ مامنّ به من تَمَـام النِّعمة فيهـم، ونُزُول الرحمة بتَوَافِيهم ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مَحْضَـةَ الإخْلاص ، كافلًا مَحْضُها بالفَكَاك من أسْرِ الشِّرْك والخَلَاص ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بمـا أوضَح سُبُلَ الرَّشاد، وقَمَع أهـلَ العِناد، والشـفيعُ المشَفَّع يوم التَّنادْ ؛ صـلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا ٱنقضاءَ لهـا ولا نَفَاد، وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ فإنَّ أميرَ المؤمنين (ويذكر ٱسمه) يَعْتَصِم بالله فى كلِّ مايأْتِى ويَذَر ممـا جعل اللهُ [له] من التفويض ، ويُشِير إلىٰ الصَّواب فى كل تَصْريح منه وتعريض ؛ وإنه شَدّ اللهُ أزْرَه، وعَظَّم قَدْره، ٱستخار اللهَ سبحانَه وتعالىٰ فى الوصيَّة بمـا جعله الله له من الخلافة المعظَّمة المفَخَّمة الموروثةِ عن الآباء والجُدُود ، المُلْقاةِ إليه مقاليدُها كما نصَّ عليه ٱبْنُ عَمِّه صلّى اللهُ عليه وسلم فى الوالد من قُرَيش والمَوْلُود ؛ لولَده السيِّد، الأجلِّ، المعظَّم، المكَرَّم، فلان ، سـليلِ الخلافةِ وشِـبْلِ غابِها، ونُخْبةِ أحْسابها وأنْسابها، أجلَّه اللهُ وشرَّفه ، وجَمَّـل به عِطْفَ الأمانَةِ وفَوَّفَه : لِمَـا تلَمَّحه فيه من النَّجَابة اللائحةِ علىٰ شمائِلِه ، وظَهَر من مستَوْثِق إبْداءِ سِرِّه فيه بدَلائل بُرْهانه وبُرْهان دلائله ؛ وأشهدَ علىٰ نَفْسه الكريمة ـ صانها الله تعالىٰ ـ مولانا أو سيدُنا أمير المؤمنين، مَنْ حضَر من حُكَّام المسلمين : قُضاة قُضاتهم ، وعلمائهم ، وعُدُولهم، بمجلسـه الشريف، أنه رضِيَ أن يكون الأمْرُ فى الخلافة المعظَّمة ، الذى جعله الله له الآنَ لولده السـيِّد الأجلِّ فلان بعد وفاته، فسَّح الله فى أجَلِه ؛ وعَهِد بذٰلك إليه، وعوّل فى أمر الخلافةِ عليـه ؛ وألقىٰ إليه مقاليدَها ، وجعل بيـده زِمامَ مُبْدِئها ومُعِيدها ؛ وصَّى له بذٰلك جزئيِّه وكُـلِّيِّه، وغامضه وجلِيِّه ؛ وصيَّةً شرعيـةً بشُروطها اللازمة المعتبره، وقواعِدِها المحرَّره؛ أشهَد عليه بذلك فى تاريخ كذا .

الوجـــــه السـابع

(فيما يكتب فى مستنَد عهدِ ولىّ الخلافة عن الخليفة ، وما يكتُبه الخليفة فى بيت العلَامة ، وما يُكْتَب فى ذَيْل العــهد بعد إتمـام نُسْخته من قَبُول المعهود إليه ، وشهادةِ الشُّهود علىٰ العهد)

أما مايكتب فى المستَنَد ، فينبغى أن يكونَ كما يُكْتَب فى عُهود المُلُوك عن الخلفاء ، علىٰ نحو ماتقدّم فى البيْعات ؛ وهو أن يُكْتَب : «بالإذْن العالى ، المولَوِىّ ، الإمامىّ ، النبوىّ ، الفلانىّ (بلقب الخلافة) أعلاه الله تعالىٰ » أو نحو ذٰلك من الدعاء .

وأما مايكتُبُه الخليفة فى بيت العلامة ، فينبغى أن يَكْتُب : « عهِدتُ إليه بذٰلك » : لأنه اللفظُ الذى ينعقِدُ به العــهد . ولو كتب : « فوّضتُ إليه ذٰلك » كما يكتُب الخليفةُ فى عهد السلطان الآنَ علىٰ ماسيأتى ، كفىٰ ذٰلك . والأليقُ بالمقام الأوّلُ .

وأما مايُكتَبُ فى ذيل العهد بعد إتمـام نُسْخته ، فالمنقولُ فيه عن المتقدّمين ما كَتَبَ به « علىّ الرِّضىّ » تحت عهْد المأمون إليه بالخلافة ، وهو :

الحمـدُ لله الفعّالِ لمـا يَشَاء ، لامُعقِّبَ لحُكْمه ، ولا رادَّ لقَضائه ، يعـلَمُ خائنـةَ الأعْيُن وما تُخْفِى الصُّــدور ؛ وصـلواتُه علىٰ نبيِّــه محمدٍ خاتمَ النبيين ، وآلِهِ الطيِّبين الطاهرين . أقولُ وأنا علىٌّ بنُ موسىٰ بن جعفر : إنَّ أميرَ المؤمنين عَضَّــده الله بالسَّداد ، ووفَّقه للرشاد ؛ عَرَف من حقِّنا ماجهِله غيره : فوَصَلَ أرْحاما قُطِعتْ ، وأمَّنَ أنفُسًا فزِعتْ ، بل أحياها وقد تَلِفَتْ ، وأغْناها إذ ٱفتقَرت ؛ مُتَّبعا رِضا ربِّ العالمين ، لايُرِيد جزاءً من غيره وسـيَجْزِى اللهُ الشاكِرِين ، ولا يُضِيعُ أجْرَالمُحْسِنِين ؛

وإنه جعل إلىّ عَهْدَه، والإمْرةَ الكُبْرىٰ إن بَقِيتُ بعْـده؛ فمن حَلَّ عُقْدةً أمر اللهُ بشَدّها، أو فَصَم عُروةً أحبَّ اللهُ إيثاقَها، فقد أباحَ حَرِيمَه وأحَلَّ محرَّمه؛ إذ كان بذلك زارِيًا علىٰ الإمام، منتهِكًا حُرْمةَ الإسـلام؛ بذلك جرىٰ السالفُ فصـبر منهم علىٰ الفَلَتات، ولم يُعترَض بعدَها علىٰ العَزَمات؛ خوفًا علىٰ شَتَاتِ الدِّين، وآضطِراب حَبْلِ المسلمين؛ ولقُرْب أمرِ الجاهليةِ ورَصْد فُرْصة تُنْتَهَز، وباقيةٍ تُبْتَدَر؛ وقد جعلتُ لله تعالىٰ علىٰ نَفْسى إنِ آستَرْعانى علىٰ المسلمين، وقلَّدنى خِلافتَه، العملَ فيهم عامّـة وفى بنى العبَّاس بن عبدالمطَّلب خاصَّـة بطاعتِه وبسنَّة رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأنْ لا أَسْفِك دمًا حراما، ولا أُبِيحَ فَرْجا ولا مالا؛ إلا ماسفكَتْه حدُودُه، وأباحتْه فرائضُه؛ وأن أتخيَّر الكُفَاة جُهْدى وطاقتِى. جعلتُ بذلك علىٰ نَفْسى عهدًا مؤكَّدا يسألُنِى [الله] عنه، فإنه عزَّ وجل يقول: ﴿وأَوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كان مَسْـئُولا﴾. فإن أحدثت أو غيَّرتُ أو بدّلْتُ، كنتُ لِلغيَرِ مستحِقا، وللنَّكال متعرِّضا؛ وأعوذُ بالله من سَخطه، وإليه أرغَبُ فى التوفيق لطاعته، والحولِ بينى وبين معْصيتَه، (فى عامّة المسلمين؛ والخاصّة والحضريد لان على ضدّ ذلك)(١): ﴿وَمَا أدْرِى مايُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: ﴿إنِ الْحُكْمُ إلَّا لِلّهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفاصِلِينَ﴾. لٰكنَّنى آمتثلْتُ أمْرَ أمير المؤمنـين وآثرْتُ رِضاه، والله يَعْصِـمُنى وإيَّاه؛ وأشهدْتُ الله علىٰ نفسى بذلك وكفىٰ بالله شهيدا. وكتبتُ بخطِّى بحضرة أمير المؤمنين ـ أطال اللهُ بقـاءه ـ والفضلِ بن سَهْل، وسهلِ بن الفضل، ويحيىٰ بن أكْثَم، وبِشرِ بنِ المعتَمر، وحمَّاد آبنِ النُّعمان، فى شهر رمضان سنة إحدىٰ ومائتين.

ثم كتب فيه مَنْ حَضر من هٰؤلاء، وهذه صورة كتابتهم.

فكتب الفضل بنُ سَهْل وزيرُالمأمون ماصورته:

(١) ثبتت هذه العبارة فى الاصل وعليها علامة التوقف. ولم نعثر عليها فى غير هذا الكتاب. تأمل.

"رسَمَ أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءَه قراءةَ مضمُون هذا المكتوب: ظهرِه وبطنِه، بحَرَم سيدنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم، بين الرّوضة والمِنْبر على رُءُوس الأشهاد، ومَرْأًى ومَسْمَعٍ من وجوه بنى هاشم وسائر الأولياء والأجناد؛ وهو يسألُ الله أن يعرِّف أمير المؤمنين وكافَّةَ المسلمين بركةَ هذا العهد والميثاق، بما أوجب أميرُ المؤمنين الحجةَ به على جميع المسلمين، وأبطَلَ الشُّبْهةَ التى كانتِ اعترضَتْ آراء الجاهلين: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ علىٰ مآأَنْتُمْ عَلَيْه﴾. وكتب "الفضلُ بن سهل" فى التاريخ المعيَّن فيه".

وكتب عبدُ الله بنُ طاهر ما صورته «أثبتَ شهادتَه فيه بتاريخه عبدُ الله بن طاهرِ بنِ الحسين».

وكتب يحيىٰ بنُ أكثَمَ القاضى ماصُورته: «شهد يحيىٰ بنُ أكثَم على مضمُون هذه الصحيفة ظهرِها وبطنِها، وكتب بخطه بالتاريخ».

وكتب حَمَّاد بن النُّعمان ماصورتُه: «شَهِد حَمَّاد بن النعمان بمضمون ظهره وبطنِه، وكتب بيده بتاريخه».

وكتب بِشْرُ بنُ المعتمر ماصورته: «شهد بمثل ذلك بِشْرُ بن المعتمر، وكتب بخطه بالتاريخ».

قلت: وعلىٰ نحو ما تقدّم من كتابة المعهود إليه بالقَبُول وشهادةِ الشُّهود على العهد ينبغى أن يكونَ العملُ أيضا فى زماننا: ليجتمعَ خطُّ العاهد بالتفويض على ماتقدّم، وشهادةُ الشهود. ولو اقتصر المعهودُ إليه فى الكتّابة علىٰ قوله: «قبِلتُ ذلك» كان كافياً، وإن كان أُمِّيًّا اكتُفى بشهادة الشهود.

الوجـــــــه الثـــامن

(فى قطع الورق الذى تُكتَب فيه عهودُ الخلفاء، والقلمِ الذى يُكتَب به، وكيفيَّـــةِ كتابتها وصورةِ وَضْـــعها)

أما قَطْعُ الورق فمقتضىٰ قول المقرّ الشِّهابىِّ بن فضل الله فى "التعريف" أنَّ للعهود قَطْعَ البغدادىّ الكامل، وأن عُهودَ الخلفـاء تُكْتَب فى البغدادىّ كما هو مستعْمَل فى عهُود الملوك عن الخلفاء، علىٰ ماسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ. وهو مقتضىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ قَطْع الورق فى مقدّمة الكتاب نَقْلا عن محمد بن عمر المدائنى فى كتاب " القلم والدواة " أنَّ القطع الكامل للخلفاء.

قلت : وقد أخبرنى من يُوثَق به أنه وقَف علىٰ عهد المعتضِد بالله أبى الفتح أبى بكر، والدِ المتوكل علىٰ الله : أبى عبـدِ الله محمد خليفة العصر، وهو مكتوب فى قطع الشامىّ الكامل؛ وأنه كُتِبَ عهد المتوكِّل علىٰ ظهره بخط الشهود دون كاتبِ إنشاء. وكأنهم لمـا تقهقَرتِ الخلافةُ وضَعُف شأنُها، وصار الأمْرُ إلىٰ الملوك المتغلِّبين علىٰ الخلفـاء، تنازلُوا فى كتابةِ عُهُودهم من قطـعِ كامل البغدادى إلىٰ قطع الشامىّ. وهذا هو المناسبُ للحال فى زمانِنا.

وأما القـلم الذى يُكتَب به، فالحكْمُ فيــه ما تقدّم فى البَيْعات، وهو إن كُتِب العهدُ فى قطع البغدادىّ، كتِبَ بقلم مختَصَر الطُّومار. وإن كُتِب فى قطع الشامىّ، كتب بقلم الثلثين الثَّقِيل.

وأما كيفيَّة الكتابة وصورةُ وضْعها، فعلىٰ ماتقدّم فى كتابة البَيْعات، وهو أن يُبتدأ بكتابة الطُّرّة فى أوّل الدَّرْج بالقلم الذى يُكتَب به العهدُ سُـطورا متلاصقةً ممتـدّةً

فى عَرْض الدَّرْج من أوّله إلىٰ آخره من غير هامش . ثم إن كانتِ الكتَابةُ فى قَطْع البَغْدادىّ الكامل، جرىٰ فيه علىٰ القاعدة المتداوَلة فى عُهود الملوك عن الخلفاء؛ فيتْرُكُ بعد الوصل الذى فيه الطرّة ستّةَ أوصال بياضًا من غير كتابة، ثم يكتُبُ البسملة فى أوّل الوصل الثامن بحيثُ يُلْحِق أعالىَ أَلِفَاته بالوصل الذى فوقه ، بهامش قَدْر أربعة أصابع أو خمسة؛ ثم يكتُب تحتَ البسملة سَطْرا من أوّل العهد ملاصقا لها؛ ثم يخلِّى مكانَ بيت العلامةِ قَدْرَ شبر كما فى عُهود الملوك؛ ثم يكتُب السطر الثانى تحتَ بيت العلامة علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة . ويَحْرِص أن تكونَ نهايةُ السجعةِ الأُولىٰ فى السطر الأوّل أو الثانى؛ ثم يَسْتَرْسل فى كتابة بقيّة العهد إلىٰ آخره، ويجعل بين كلِّ سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُمَاش . فإذا آنتهىٰ إلىٰ آخر العَهْد، كتب « إن شاء الله تعالىٰ » ثم المستَنَد، ثم الحمدَلةَ، والصلاةَ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم والحَسْبَلةَ، علىٰ ماتقدّم فى الفواتح والخَوَاتم . ثم يكتب المعهودُ إليه والشهودُ بعد ذلك . وإن كُتِب فى قطع الشامى، فعلىٰ ما تقدّم فى البَيْعات : من أنه ينبغى أن يُقْتَصر فى أوصال البياض علىٰ خمسة أوصال ، ويكونُ الهامشُ قدْرَ ثلاثة أصابع .

وهذه صورة وضعه فى الورق، ممثّلا فيها بالطرّة التى أنشأتها، علىٰ ماتقدّم ذكره فى العهد الذى أنشأته علىٰ لسان الإمامِ المتوكلِ علىٰ الله خليفةِ العصر لولَده العبّاس . وهو العهد الأخير من المَذْهب الأوّل من عُهُود الخلفَاء عن الخلفاء

بياض بأعلى الدرج تقدير اصبع

(ابتداء العرض) هــذا عهدٌ إمامىٌّ قد علَتْ جُدُودُه، وزاد فى الآرتقاء فى العَلْيــاء صُعُوده، وفُصِّلتْ (ابتداء العرض)
بالجواهر قلائدُه ونُظِّمت بنفيس الدُّرِّ عُقُوده، من عبـدِالله ووليِّــه الإمام المتوكِّلِ
علىٰ الله أبى عَبْد الله محمد ابن الإمام المعتضِد بالله أبى الفتح أبى بكر، بالخلافة
المقدّسةِ لولَده السيد الجليل، ذَخيرة الدِّين، وولىِّ عهد المسلمين، أبى الفَضْل
العبَّاس، بلَّغه الله تعالىٰ فيه غايةَ الأمل، وأقَرَّ به عينَ الأمّة كما أقرّ به عينَ أبِيــه (كذا)
وقد فَعَل على ماشرح فيه

بياض ستة أوصال

بســم الله الرحمن الرحيم

هامش هـــذا عهدٌ سـَعيدُ الطالع ميمُون الطائر مباركُ الأوّل

صورة خط الخليفة عهدت إليــه بذلك

وكتب فلان بن فلان بين الســطرين قدر شبر

تقدير ربع ذراع جميــلُ الأوْسَط حميــدُ الآخِر تشهد به حضَراتُ الأمــلاك

وترقُمُــه كفُّ الثُّريّا بأقلام القَبُولُ فى صحائف الأفلاك وتُبـاهِى

والباقى بالشرح به ملائكةُ الارض ملائكةَ السما، وتَسْرِى بنَشْره القَبُولُ إلىٰ الأقطـار

هامش فتنْشُر له بكل ناحية عَلَمـا، وتُطْلِـعُ به سـعادةُ الجَدّ من مُلوك العدْل في كلّ أُفُقٍ نَجْما.

ثم يأتى على الكلام إلى آخر العهْد على هذا النَّمَط إلى أن ينتهِيَ إلى قوله فيه «والله تعالى يبلِّغه منك أملا، ويحقق فيك عِلْما ويُزَكِّي بك عملا»

إن شاء الله تعالى

كُتِب في اليوم الأوّل من المحرّم
سنة إحدى وثمانمائة

بالإذن العـالى، المولَوِىّ، الإمامىّ، النبـوىّ، المتـوَكِّلِىّ،

أعــــلاه الله تعـالى

الحمد لله وحْدَه وصلواتُه على سيدنا محمد وآله وصَحْبه وسلامُه

حسبنا الله ونعم الوكيل

صورة خط المعهود
قبلتُ ذلك
وكتب فلانٌ ولىُّ
عهدِ أمير المؤمنين

صورة خط شهود العهد
شهد على العاهد والمعهود إليه
فيه زادهما الله شرفا
وكتب فلان بن فلان
وكذا بقيـة الشهود

النــــوع الثـانى

(عهودُ الخلفاء للملوك ، ويتعلّق النظر به من سبعةِ أوجُه)

الوجـــه الأوّل

(فى أصـل مشـرُوعيّتهـا)

والأصلُ فيها مارواه ٱبن إسحاق وغيرُه : أنه لمـا رَجَع وفْدُ بنى الحـٰرِث بنِ كعب إلىٰ قومهم باليَمَن بعد وُفُود [هم] علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسـلم قبلَ وفاتِه بأربعة أشهر، بعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعدَ أن وَلَّى وَفْدَهم عَمْرو بنَ حَزْم، يُفَقِّهُهم فى الدِّين، ويعلِّمُهم السنّةَ ومَعَالِمَ الإسلام، ويأخُذُ منهم صدَقاتِهم . وكتب له كتاباً عَهِد فيه عَهْدَه ، وأمَرَه فيه أمره ، علىٰ ماسيأتى ذكْرُه فى أوّل نُسَخ العُهُود الواردةِ فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ . فقد فوّض النبيُّ صلّى الله عليه وسلم أمْرَ اليمن فى حياتِه إلىٰ عَمْرو بن حَزْم رضى الله عنه . وذٰلك أصرحُ دليـل وأقومُ شاهدٍ لمـا نحن فيه .

الوجـــه الثـانى

(فى بيانِ [معنىٰ] المُلْك والسَّلْطنة اللتين يقَعُ العهدُ بهما)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب نقْلا عن "الفُروق" فى اللغـة للعسكرىّ أن المُلْك أخصُّ من السَّلْطنة : لأن المُلْك لايطلَقُ إلا علىٰ الوِلَاية العامّة، والسَّلطنة تُطْلق علىٰ أنواع الوِلَايات، حتّى إنَّ الفقهاء يعبِّرون عن القاضى ووالى البلد فى أبواب الفقه بالسُّلْطان .

ثم تفويضُ الخليفة الأُمورَ فى البلاد والأقاليم إلىٰ مَنْ يدبِّرها ويقُوم بأعبائها علىٰ ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل — وهو أعلاها وِزارةُ التفويض، وهو أن يَسْتوزِرَ الخليفةُ من يفَوّض إليه تدبيرَ الأمور برأيه وإمضاءَها علىٰ آجتهاده، وينظُرُ فيها علىٰ العُمُوم. وعلىٰ ذٰلك كانتِ السلطنةُ فى زَمَن الخلَفاء الفاطميين بمصر علىٰ ماسيأتى ذكره. قال الماوردىّ فى "الأحكام السلطانية" : ولا يمتنِعُ جوازُ مثلِ ذلك : لأنَّ كلَّ ما وُكِل إلىٰ الإمام من تدبيرِ [الأمة] (١) لايقْدِر علىٰ مباشرة جميعه إلَّا بالآستِنابةِ، ونيابةُ الوزيرِ المشاركِ له فى التدبير أصَحُّ فى تنفيذ الأمور، [من تفرّده بها] (١) ليستظْهِر به علىٰ نَفْسه ولنَفْسه، فيكُونَ أبعدَ من الزَّلَل، وأمنَعَ من الخَلَل. قال : وتعتبر فى [تقليد] (٢) هذه الوزارة شروطُ الإمامة إلا النَّسبَ وحده. وقد تقدّم بيانُ شروط الإمامة فى الكلام علىٰ البيعات. ثم قال : وكلُّ ماصحَّ من الإمام صحَّ من وزير التفويض إلا فى ثلاثة أشياءَ :

أحدها — ولايةُ العهد. فإنَّ لإمام أن يَعْهَدَ إلىٰ مَنْ يرىٰ وليس ذلك للوزير.

الثانى — أنَّ للإمام أن يستعْفِيَ الأمّةَ من الإمامة وليس ذلك للوزير.

الثالث — أنّ للإمام أن يعْزِل من قلَّده الوزيرُ وليس للوزير أن يعْزِلَ من قلَّده الإمام.

وتفارق هذه الوزارةُ الخلافةَ فى عموم النظر فيما عدا ذلك من وجهين :

---

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

(٢) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

أحدهما — مختصّ بالإمام وهو أن يتصفّح افعالَ الوزير وتدبيرَ الأمور : ليُقِرّ منها ماوافق الصّواب ، ويستدرِك ماخالَفَه : لأنّ تدبير الأمة إليه موكول، وعلى آجتهاده محمول .

والثانى — مختصّ بالوزير. وهو مطالعةُ الإمام بما أمضاه من تدبيرٍ، وأنفذه من ولايةٍ وتقليدٍ : لئلا يصيرَ بالآستِبْداد كالإمام .

أما وِزَارةُ التنفيذ فسيأتى الكلام عليها فى تقليد الوزارة إن شاء الله تعالىٰ .

القسم الثانى — إمارة الآستكفاء .

وهى التى تنعقد عن آختيارٍ من الخليفة . وتشتمل علىٰ عملٍ محدودٍ ونظرٍ معْهود، بأن يفوِّض الخليفةُ إليه إمارةَ بلدٍ أو إقْليم ولايةً علىٰ جميع أهله ؛ ونظَرًا فى المعهُودِ من سائر أعماله ، فيصيرُ عامَّ النظر فيما كان محدُودا من عملٍ ، ومعهُودا من نَظَر . قال الماوردىّ : فينظر فيما إليه فى تدبير الجيش ، وترتيبه فى النّواحى، وتقديرِ أرْزاقهم إن لم يكُنِ الإمامُ قد قدَّرها ، وإدْرارها عليهم إن كان الإمام قدَّرها ؛ وكذٰلك [النظر فى] الأحكامِ ، وتقليدِ القُضاة والحُكّام، وجِبايةِ الخَراج، وقَبْض الصَّدَقات والعملِ فيهما ، وتفريق مايستحق منهما، وحمايةِ الحَرِيم ، والذّبّ عن البيْضة ، ومراعاةِ الدِّين من تغييرٍ أوتبْديل، وإقامةِ الحُدُود فى حقُوق الله تعالىٰ وحُقُوق الآدميين ، والإمامةِ فى الجُمَع والجماعات بالقيام بها، والآستِخْلاف عليها ؛ وتسييرِ الحَجيج من عَمَله ومَنْ يمرّ عليه من غير عَمَله ؛ وجهاد من يَلِيه من العدُوّ، وقَسْم الغنائم فى المقاتِلَة ، وأخْذِ خُمُسها لاهل الخُمُس . وله أن يتّخذ وزيرَتنفيذ لا وزيرَ تَفْويض .

وعلىٰ هذا كانتِ الأمراءُ والعُمَّال فى الأقاليم والأمصار منَ ٱبتداء الإسلام إلىٰ أن تغلَّب المتغلِّبون علىٰ الأمر وٱستُضْعِف جانبُ الخلفاء .

قال المـاورديّ : ويعتبَرُ فى هـذه الإمارة ما يُعتَبر فى وِزَارة التفويض من الشروط : إذ ليس بين عُمُوم الوِلَاية وخُصوصِها فَرْقٌ فى الشروط المعتَبَرة فيها .

القسم الثـالث — إمارة الاْســتيلاء .

وهى أن يقلِّده الخليفةُ الإمارةَ علىٰ بلاد ويفوِّض إليـه تدبِيرَها(١)، فيستَوْلى عليهـا بالقوّة ، فيكون [الأمير] بٱستيلائه مستَبِدًّا بالسياسة والتدبير ، والخليفةُ بإذنه ينَفِّذ أحكامَ الدين : لتخْرُج عن الفساد إلىٰ الصِّحَّة ، ومن الحَظْر إلىٰ الإباحة ؛ نافذَ التصرُّف فى حقوق الملة وأحكامِ الأُمَّة . وهــذا ما صار إليه الأمرُ بعد التغلُّب علىٰ الخلفاء ، والاْستبدادِ بالأمر بالغَلَبة والقوّة .

قال المـاورديّ : وهــذا وإنْ خرج عن عُرْف التقليـد المطْلَق فى شروطِه وأحكامِه ، ففيه [من] حفْظ قوانينِ الشرع وحِراســة الأحكام الدينيـة مالا يجُوزُ أن يُتْرك مختَلًّا مدْخُولا ، ولا فاسدًا مَعْلولا ؛ فجاز فيــه مع الاْستيلاءِ والاْضطرار ، ما ٱمتَنع فى تقليد الاْستِكْفاء والاْختيار : لوُقُوع الفَرْق بين شروط المَكِنَة(٢) والعَجْز . قال : والذى يُتَحفَّظ بتقليد المستولِى من قوانين الشريعة سبعةُ أشياء ، يشْتَرِك فى التزامها الخليفةُ الموَلِّى والأميرُ المستَوْلى ، ووجُوبُها فى جهة المستولى أغلظُ .

---

(١) عبارة ”الأحكام السلطانية“ وإمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطراب فهى أن يستولى بالقوّة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوّض إليه الخ وهى أوضح وأصرح .

(٢) فى المصباح . وله مَكِنَةٌ أى قوّة وشدّة .

أحدها — حِفْظ مَنْصب الإمامة فى خلافة النبوّة، وتدبيرِ أمورِ الأمة : ليكون ما أوجبه الشرعُ من إقامتها محفُوظا، وما تفرّعَ عنها من الحقوق محْروسا .

والثـانى — ظهورُ الطاعةِ الدِّينية التى يزُولُ معها حكمُ العِناد فى الدين ، وينتفى بها مأْثَم المُبايَنةِ له .

والثالث — ٱجتماعُ الكلمةِ علىٰ الأُلْفة والتنَاصُر : ليكونَ المسـلمونَ يدًا علىٰ مَنْ ســـواهم .

والرابع — أن تكونَ عقُود الولايات الدينيَّة جائزة، والأحكامُ والأقضيةُ [فيها] نافذة، لا تبطل بفساد عُقُودها، ولا تسقُط بخَلَل عُهُودها .

الخامس — أن يكونَ ٱستيفاءُ الأموال الشرعيَّة بحقٍّ تبرأ به ذمَّةُ مؤدِّيها ، ويستَبِيحه آخِذُها ومُعْطِيها .

السادس — أن تكونَ الحدُودُ مستوفاةً بحقٍّ ، وقائمةً علىٰ مستَحِقّ ؛ فإنَّ جَنْب المؤمِن حِمًى إلَّا من حقُوق الله تعالىٰ وحُدُوده .

السـابع — أن يكون للأُمَّــة فى حِفْظ الدين وازِعٌ عن محارم الله تعالىٰ، يأمُرُ بحقِّــه إن أُطيع ، ويدعُو إلىٰ طاعتــه إن عُصِى . ثم قال : فإن كَمُلت فيــه شُروطُ الاختيارِ المتقــدّمةُ، كان تقليدُه حتْما ٱسـتِدْعاءً لطاعتــه ، ودفْعا لمشاقَّته ومخالَفته ؛ وجرىٰ علىٰ مَنِ ٱستَوْزره أو ٱستَنَابه أحكامُ من ٱستَوْزَره الخليفة أو ٱستَنَابه . وإن لم تكْمُل [فيه] شروطُ الاختيار ، جاز له إظهارُ تقليدِه ٱستدعاءً لطاعته وحَسْما لمخالَفَته ومعانَدَته ، وكان نفُوذُ تصرُّفاته فى الحقُوق والأحكامِ مَوْقُوفا علىٰ أن يستنيب الخليفةُ

له مَنْ تكاملَتْ فيه الشُّروط . قال : وجاز مثلُ هذا وإن شَذَّ عن الأصول : لأن الضرورةَ تُسْقِط ماأعْوزَ من شُروط المَكِنة .

قلت : ومملكةُ الديار المصرية من حِينِ الفتح الإسلامىّ وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا دائرةٌ بين هذه الأقسام الثلاثة، لاتكادُ تخْرُج عنها : فكانتْ فى بِداية الأمر « إمارة آستكفاء» يولِّى عليها الخليفةُ فى كلِّ زمن مَنْ يقُوم بأعبائها، ويتصرَّف فى أمورها، قاصرُ الوِلاية عليها، واقِفٌ عند حَدِّ مايَرِد عليه من الخليفة من الأوامِر والنَّواهى، إلَّا ما كان فى أيام بَنِى طُولُون من الخُروج عن طاعةِ الخلَفاء فى بعض الأحيان . فلَمَّا آستَوْلىٰ عليها الفاطِميُّون وآستوْزَرُوا أربابَ السُّيوف فى أواخِرِ دوْلتهم، وعظُمتْ كلِمتُهم عندهم، صارتْ سلطَنتُها "وزارةَ تفْويض" . وكان الخليفةُ يحتَجِب والوزير هو المتصرِّف فى المملكة كالمُلوك الآنَ أو قريبٍ منهم . وكانوا يُلَقَّبون بألقاب المُلوك الآنَ : كالمَلِك الأفضل رِضْوان وزيرِ الحافظ، وهو أوَّل من لُقِّب بالمَلك منهم فيما ذكره المؤيَّد صاحبُ حماةَ فى تاريخه . والملِك الصالح طَلائِع بن رُزِّيك وزير الفائز ثم العاضِد . والملِك المنصُور أسدِ الدين شِيركُوه بن شادِى وزيرِ العاضد، وآبنِ أخيه صلاحِ الدين يُوسفَ بنِ أيُّوب وزيرِ العاضد أيضا، قبل أن يستقِلَّ بالمُلْك ويخطُبَ بالديار المصرية لبَنِى العَبَّاس ببَغْداد . ولانُكْرَ فى تسمية الوزير مَلِكا، فقد قيل فى قوله تعالىٰ فى قِصَّة يوسفَ عليه السلام : ﴿ وقَالَ المَلِكُ آئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسى ﴾ إنَّ المرادَ بالملِك الوزيرُ لا الملِكُ نفْسُه . ولما آنتُزِعتْ من الفاطميين وصارتْ إلىٰ بنِى أيُّوبَ، وكانوا يَلُونَها عن خُلَفاء بنى العبَّاس، صارتْ « إمارةَ آستيلاءٍ » لآستيلائِهم عليها بالقُوّة، وآستبدادِهم بالأمْر والتدبير مع أصْلِ إذْنِ الخليفة وتقْلِيده . وكان الرشيدُ قد لقَّب « جَعْفَر بن يَحْيىٰ البَرْمَكىّ »

فى زمن وِزارته له بالسـلطان ، ولم يأخُذ النـاسُ فى التلقيب به . فلمّـا تغلّب الملوكُ بالشّرق علىٰ الخلفاء وٱستبَدُّوا عليهم ، صار لقَبُ السلطان سِمةً لهم ، مع ما يختصُّهم به الخليفةُ من ألقـاب التشريف : كشَرَف الدَّوْلة ، وعَضُد الدولة ، ورُكْن الدولة ، ومُعِزّ الدولة ، وعِزّ الدولة ، ونحو ذلك . وشاركهم فى لَقَب السلطنة غيْرهم من ملُوك النواحى ، فتلقَّب بذٰلك صـلاحُ الدين يوسفُ بنُ أيُّوبَ ، وتلقّب بالملك الناصِرعند ٱستبداده بالمُلْك علىٰ العاضـِد الفاطمىّ بعدَ وِزارتِه له ، ونَقَـل ما كان من وِزَارة التفويض والعهدِ بها إلىٰ السلطنة ، وصارتِ الوزارةُ عن السلطان معدُوقةً بقَـدْرٍ مخصوصٍ من التصرُّف . وبقِىَ الأمْرُ علىٰ ما هو عليه من الاِستيلاء والاِستبدادِ بالمُلْك ، مع أصلِ إذْن الخليفة وكِتابةِ العَهْد بالمُلْك ، وهى علىٰ ذلك إلىٰ زماننا ؛ إلا ما كان فى زمنِ تعطيلِ جِيـد الخلافة من الخُلَفاء ، من حينِ قَتْل التتارِ « المسـتَعْصِمَ » آخرخلفـاء بنى العباس ببغداد إلىٰ حينِ إقامةِ الخليفـة بمصر فى الدولة الظاهرِيَّة بِيبَرْس . علىٰ أنَّ فى السلطنة الآنَ شَبَهًا من وِزارة التفويض ؛ فإن الخليفةَ يفوّض إليـه فى تقليده تدبيرَ جميع الممـالكِ الإسلامية بالتفويض العامّ لايَسْتثْنِى منها شيئاً . وغيرُ هذه المملكة وإن كان خارجًا عن يَده فهو داخل فى عُمومِ وَلَايتـه ، حتّى لو غَلَب علىٰ شىء منها أو فتحه لم يَحْتَجْ فيه إلىٰ توليةٍ جديدةٍ من الخليفة . ولا مانِـعَ لذلك : فسيأتى فى الكلامِ علىٰ المناشير أنه يجوزُ للإمام أن يُقْطع أرضَ الكُفْر قبل أن تُفْتَح ، وإذا جاز ذٰلك فى الإقطاع ففِى هذا أَوْلىٰ . وحينئذ فتكون سلطنةُ الديار المصْريّةِ الآنَ مركّبة من وزارة التفويض وإمارةِ الاِستيلاء .

الوجـــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فيــه)

وٱعلم أنه يجب علىٰ الكاتب مراعاةُ أمور :

منها ــ براعةُ الاِستهلال بمـا يتهيَّأُ له من ٱسْمِ السـلطان أو لَقَبه الخاصّ : مثل فلان الدين ، أو لَقَبِه بالسلطنة : مثل الناصِر، والظاهِر ، ونحوِهما ؛ أو غيرِ ذٰلك ممـا يدُلُّ علىٰ مابعده قبلَ الإتيان به كما تقدّم فى البَيْعات وعُهُود الخُلَفاء .

ومنها ــ التنبيهُ علىٰ شَرَف السَّلْطنة وعُلُوِّ رُتْبتها ، ووجُوبِ القيام بأمْر الرعيَّــة ، وتحمُّل ذٰلك عن الخليفة .

ومنها ــ الإشارةُ إلىٰ ٱجتهاد الخليفةِ وإعمـال فِكْره فيمَنْ يقُوم بأمْر الأُمَّــة ، وأنه لم يجِدْ بذٰلك أحقَّ من المعهود إليه ولا أولىٰ به منه ، فيَصِفُه بالصِّفات الجميلة ، ويُثْنِي عليه بمـا يلِيقُ بمَقَام المُلْكِ .

ومنها ــ الإشارةُ إلىٰ جَرَيان لفظٍ تنعقِد به الوِلايةُ من عَهْد أو تقليدٍ أوتفويض ، وقبولِ ذلك ، ووُقُوع الإشهاد علىٰ الخليفة بالعهد .

ومنها ــ إيرادُ مايليق بالمَقَام من الوصيَّة ، بحسَب مايقْتضيه الحال : من علُوّ رتبة الخلافة وٱنْخِفاضها ، مبيِّنا لما يلزَمُه القيامُ به : من حِفْظ الدِّين علىٰ أصولِه المستقرّة ، وما أجمعَ عليه سلف الأمّة ، وتنفيذِ الأحكام ، وإنصافِ المظلومِ من الظالم ، وحِمايةِ البَيْضة ، والذَّبّ عن الحُرَم ، وإقامةِ الحُدُود ، وتحصين الثُّغُور ، وجهاد أعداءِ الله وغَزْوِهِم ، وجبايةِ الفَىْء والصَّدَقات علىٰ ما أوجبه الشرعُ من غيرحَيْف ولاعَسْف ،

وتقديرِ العطاء، وصَرْف مايُسْتَحَقُّ فى بيت المـال من غير سَرَف ولا تقْتِير، فى وقْتِ الحـاجة إليـه، وآستِكْفاءِ الأَمَنـاء، وتقليد النُّصَحاء للأعمال والأموال، ومُباشرةِ الأمورِ بنَفْســه وتَصَفُّح الأحوال ؛ إلىٰ غير ذٰلك من الأمور المتعلِّقة بالإمامة : من إقامة مَوْسِم الحجِّ، وتأمين الحَرَم الشريف وإكرام ضرائح الأنبياء وبيتِ المقْدِس، وتحرير مقادير المُعامَلات، وغير ذٰلك ممـا يقتضيه أمْرُ المملكة .

الوجـــــه الرابـــــع
(فيما يكتب فى الطـــرّة، وهو نمطان)

النَّمَط الأوّل — ما كان يُكتَب فى وِزارة التفويض فى دَوْلة الفاطميين .

وكان الخليفةُ هو الذى يكتُب بيده . وهذا أمْرٌ وإن كان قد تُرِك فالمعرفةُ به خيْرٌ من الجهل، خصُوصًا وقد أثبتَ المقرُّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله عهْدَىْ أسد الدين شـيركوه وآبنِ أخيه السلطانِ صَلاح الدِّين يوسُفَ بن أيوب بالوزارة عن العاضد، فى جملة عُهُود الملوك علىٰ ما سـيأتى ذِكْره . وسنُورِدُهما فى جمـلة عُهُود الملوك عن الخلفاء فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

فمن ذلك ما كتب به العـاضِدُ فى طُرّة عهدِ أَسَـد الدِّين شـيركوه المتقدّم ذكره، وهو :

«هذا عهْدٌ لا عَهْدَ لوزيرٍ بمثله، وتقليدُ أمانةٍ رآك اللهُ تعالىٰ وأميرُ المؤمنين أهْلًا لحَمْله، والحجةُ عليْكَ عندَ الله بما أوضَحه لكَ من مَرَاشد سُبُله ؛ فخُذْ كتابَ أميرِ المؤمنين

بِقُوّه، وٱسْحَب ذَيْلَ الفَخار بأنِ ٱعتَزتْ خِدْمَتُكَ إلىٰ بُنُوّة النُّبوّه؛ وٱتخِذْ أميرَ المؤمنين للفَوْز سبيلا ﴿ولا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيكُمْ كَفيلا﴾ » .

ومن ذلك ما كتب به العاضدُ أيضا فى طُرّة العهد المكتَتَب عنه بالوِزارة للسلطان صلاحِ الدِّين يُوسفَ بن أيُّوب قبل ٱستِقْلاله بالسلطنة ، وهو :

« هـذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليْك، وحُجَّتُه عند الله تعالىٰ علَيْك؛ فأَوْفِ بعَهْـدك ويَمينِك، وخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بيَمينك ؛ ولِمَنْ مَضىٰ بجـدِّنا رسولِ الله صـلّى الله عليه وسلم أحسَنُ أُسْوه، ولمن بَقِي بقُرْبنا أعظَمُ سَلْوه ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُون عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ولا فَسادا والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين﴾ » .

النمط الثـانى — ما يُكْتَب فى طُرّة عهود الملوك الآنَ .

وهو قريب ممـا كان يُكتَب أوّلا مما تقدّم ذِكْره ، إلّا أنه يُبدّل فيه لفْظ الوِزارة بالمُلْك والسَّلْطنة ، ويكونُ الذى يكتبه هو الذى يكْتُب العهدَ دُونَ الخليفةِ . ثم هو بحسَب ما يُؤْثِره الكاتبُ ممـا يدُلُّ علىٰ صَدْر العهد علىٰ مايقتضيه الحال .

وهـذه نسخةُ طرّةِ عهدٍ ، كتَب بهـا القاضى محيى الدين بن عبْد الظاهر ، فى نسخةِ عهدٍ أنشأه للسـلطان الملكِ الناصرِ محمد بن قلاوُون ، فى سـنة سبعَ عشْرةَ وسبعمائة ، وهو :

« هـذا عهدٌ شريفٌ تجدّدتْ مَسَرّاتُ الإسلام بتَجْديده ، وتأكّدتْ أسـبابُ الإيمـان بتأكيده ، ووُجِد النصرُ العزيزُ والفتحُ المبينُ بوُجُوده ، ووَفَد اليُمْنُ والإقبالُ

علىٰ الخليقة بوُفُوده، وورد الأنامُ مَوْرِد الأمانِ بوُرُوده . من عبـدِالله ووليّه الإمامِ المستكفِي بالله أبي الرَّبيع سليمانَ أميرِ المؤمنـين ، ٱبنِ الحاكم بأمرِ الله ابي العباس أحمـد . عَهِد به إلىٰ السلطان الملكِ النـاصر أبي الفتح محمّـد ، خلَّد الله سلطانه ، ٱبن السلطان الملكِ المنصورِ سيفِ الدين قلاوون الصالحِيِّ قدّس الله روحه » .

تم الجزء التـاسع . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء العـاشر

واوّله الوجـــه الخامس

(فيما يكتب فى ألقـاب الملوك عن الخلفـاء ، وهو نمطان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الأميرية ٤٧١٥/١٩١٥/٣٠٠٠)

فهـــــــرس

الجـــــــزء التـاسع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صبح الأعشى

الجـــزء العاشر

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجـــزء العاشر

طبـع
بالمطبعة الأمـيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

الوجه الخامس

(فيما يُكْتَب فى ألقابِ الملُوك عن الخلَفاء ، وهو نَمَطان)

النمطُ الأوّل

(ما كان يُكْتَب فى قديم الزمن)

وهو أن يُقْتَصر علىٰ مايلَقَّب به الملِكُ أو يُكَنَّى به من ديوان الخلافة ، ثم يقال : « مَوْلىٰ أمير المؤمنين » ولا يُزادُ علىٰ ذٰلك .

كما كتب أبو إسحاقَ الصابى فى عهد فَخْر الدولة بن بُوَيْه عن الطائع لله :

« هـذا ماعهِدَ عبدُ الله عبدُ الكريم الطائعُ لله أميرُ المؤمنين ، إلىٰ فخـر الدَّوْلة أبى علىّ مَوْلىٰ أمير المؤمنين » .

وإلىٰ هـذا أشار فى "التعريف" بقوله : علىٰ أنَّ لهـذا ضابطًا كانَ فى قديم الزمان وهو أنه لايُكتَب للرجل إلّا ما كان يلَقَّب به من ديوان الخلافة (1) [بالنصِّ] (2) من غير زيادةٍ ولا نقْصٍ .

---

(١) فى "التعريف" ص ٨٧ لملك .

(٢) الزيادة من التعريف .

النمط الثانى
(مايُكْتَب به لمُلوك الزمان)

وقد حكىٰ فى "التعريف" فى ذلك مذهبيْنِ :

الأول — أن يُكتَب فيها : السُّلطان، السيِّد، الأجلّ، الملك الفلانىّ، مع بقِيَّة مايُناسِب من الألقاب المفْرَدة والمرَكَّبة : كما كتب القاضِى الفاضلُ فى عهْد أسَدِ الدِّين شيركوه الآتِى ذِكْرُه عن العاضد الفاطِمِىّ :

«مِنْ عبدِ اللهِ ووَلِيِّه أبى محمدٍ الإمام العاضِدِ لدِينِ الله أمير المؤمنين إلىٰ السيِّد، الأجلِّ، الملِكِ، المنصُورِ، سلطان الجُيُوش، ولىِّ الأُمَّة، فخرِ الدولة، أسَدِ الدِّين، كافِلِ قُضاة المسلمين، وهادِى دُعاة المؤمنين، أبى الحٰرِثِ شِيركوه العاضدىّ» .

وعلىٰ هذه الطريقة بزيادةِ ألقـاب كَتَب آبْنُ القَيْسَرانىّ فى العهد للملِكِ النـاصر محمدِ بنِ قلاوُون : قدّس الله رُوحَه ونحـو ذٰلك . قال فى "التعريف" : وأنا إلىٰ ذلك أجنَحُ، وعليه أعمَلُ .

الثـانى — أن يُكْتَب : المَقَام الشريف، أو الكَرِيم، أو العالِى مجرَّدا عنهما . ويُقْتَصر علىٰ المفردة [دون المركبة](١) .

كما كتب به الصاحبُ فخرُ الدين بنُ لُقْمان، فى عهْد الظاهر بِيبَرْس بعد ذِكرِ أوصافِه ومَنَاقبه : ولمـا كانت هذه المناقبُ الشريفةُ مختصَّةً بالمَقَام العالى المَوْلوىّ، السلطانىِّ، المَلَكىّ، الظاهِرِىّ، الرُّكْنىّ، شرَّفه الله تعالىٰ وأعلاه .

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : ورُبّما أبدل المتقدّمون « المَقَام » فى هذه الحالة بـ«المَقَرّ» وأتى بالألقاب من نحو ماتقدّم .

وكما كتب به القاضى مُحْيي الدِّين بنُ عبد الظاهر فى عهْد المنصُور قلاوُون بعد ٱستيفاءِ مَنَاقِبه وأوصافه ، وذكر إعمال الفِكْر والرَّوِيَّة فى ٱختيارِه : «وخرَج أمرُ مولانا أميرِ المؤمنين شرّفه الله أن يكون للمَقَرّ العالى، المولَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، المنصُورِىّ ، أجلَّه الله ونَصَره ، وأظفره وأقْدره ، وأيّده وأبّده ؛ كلُّ مافوّضه اللهُ لمولانا أمير المؤمنين » ونحو ذٰلك .

وبقِىَ مذهبٌ ثالثٌ ـ وهو أن يأتى بنظير ألقابِ المَذْهب الأوّل ، مقتصِرا علىٰ الألقاب المفْرَدة دُونَ المرَكَّبة . وعلىٰ ذٰلك جرىٰ الوزيرُ ضياءُ الدِّين بنُ الأثير فى العهد الذى كَتَب به معارَضَةً لعهْد السلطان صلاح الدِّين يُوسفَ بن أيُّوب الآتى ذكره ـ فقال بعد ذكر مَنَاقبه : «وتِلكَ مَناقِبُك أيُّها الملِك، الناصرُ، الأجلُّ، السيدُ، الكبيرُ، العالمُ، العادلُ، صلاحُ الدين أبو المظَفَّر يوسفُ بنُ أيوبَ» . ولم يتعرّض لحكايته فى "التعريف" . علىٰ أنّ ٱبن الأثير إمامُ هذا الفن، وحائزُ قصَب السَّبْق فيه، ومقالتُه ممـا يُحتَجُّ بها ويعوّلُ عليها .

فإن قيل : لعله فى "التعريف" أراد مذاهبَ كُتَّاب زمانه؛ فالجوابُ أنَّ حكاية المذهَب الثانى عن المتأخِّرين تُؤْذِن بأنَّ المراد متقدّمو الكتّاب ومتأخّروهم .

الوجه السادس

(فيما يُكتَب فى متْن العُهود، وفيه ثلاثةُ مذاهِبَ)

المذهبُ الأوّل

(وعليه عامّة الكُتّاب من المتقدّمين وأكثرِ المتأخّرين)

أن يُفتتح العهْد بلفظ «هذا» مثل: «هذا ماعَهِد به فلانٌ لفلان» أو «هذا ماأمَرَ به فلانٌ فلانا» أو «هـذا عهدٌ من فلان لفلان» أو «هذا كتابٌ آكتَتَبه فلان لفلان» وما أشبه ذلك.

وللكُتّاب فيه طريقتان:

الطريقةُ الأُولىٰ

(طريقة المتقدّمين)

وهى أن لايأتِىَ بتحميدٍ فى أثناءِ العهْد فى خُطْبة ولا غيرِها، ولا يتعرَّضَ إلىٰ ذكر أوصافِ المعهودِ إليه والثناءِ عليه أصْلا، أو يتعرّضَ إلىٰ ذلك باختصار ثم يقول: «فقلّده كذا وكذا» ويذكر ما فوّض إليه، ثم يقول: «وأمَره بكذا» حتّى يأتى علىٰ آخر الوَصايا، ثم يقول فى آخره: «هـذا عهْدُ أمير المؤمنين إليك، وحجّتُه لك وعلَيْك» ويأتى بما يناسبُ ذلك، ويختِمُه بقوله: «والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته» أو «والسلام عليك» أو بغير ذلك من الألفاظ المناسبة علىٰ آختلاف طُرُقهم فى ذلك، وتبايُن مقاصِدِهم. وعلىٰ هذا النّهْج وما قاربه كانتْ عهودُ السلف فمَنْ بعدَهم، تأسّياً بالنبىّ صلّى الله عليه وسلم فيما كتَبَ به لعَمْرو بن حَزْم حِينَ وَجَّهه إلىٰ اليمن، كما تقدّمت الأشارةُ إليه فى الِاستشهاد لأصل عُهُود المُلوك عن الخلفاء.

وهذه نسخته بعد البسملة فيما ذكره ابنُ هشام وغيرُه :

« هذا بَيَانٌ مِنَ الله ورسُوله : ﴿ يٰأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود ﴾ »

« عَهْدٌ من [محمدٍ](١) النبيِّ رَسُولِ اللهِ لعَمْرِو بْنِ حَزْم [حِينَ بَعَثَه »

« إلىٰ اليَمَن](١) أمَرَهُ بتقْوىٰ اللهِ فى أَمْرِهِ كُلِّه ، فَإِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا »

« وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ . وأَمَرَه أن يَأْخُذَ بالحَقِّ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ ، وأَنْ يُبَشِّرَ »

« النّاسَ بِالخَيْر وَيَأْمُرَهُمْ بِه ، ويُعَلِّمَ النَّاسَ القُرْءَانَ ويُفَقِّهَهُمْ فِيه ، »

« وَيَنْهىٰ النَّاسَ فلا يَمَسُّ القُرْءانَ إنْسانٌ إلَّا وهو طَاهِرٌ ، ويُخْبِرَ »

« النّاسَ بالَّذِى لَهُمْ والَّذِى عَلَيْهِمْ ، ويَلِينَ للنّاسِ فى الحَقّ وَيَشْتَدَّ عَلَيْهِمْ »

« فى الظُّلْم ، فَإِنَّ اللهَ كَرِهَ الظُّلْمَ وَنَهىٰ عنه فقال : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلىٰ »

« الظَّالِمِينَ ﴾ ويُبَشِّرَ النّاسَ بالجَنَّة وبعَمَلِها ، ويُنْذِرَ النّاسَ النّارَ وعَمَلَها ، »

« وَيَسْتَأْلِفَ النّاسَ حتّىٰ يَفْقَهُوا فى الدِّين ، ويُعَلِّمَ النّاسَ مَعَالِمَ الحَجِّ »

« وسُنَّتَه وفَرِيضَتَه وما أَمَرَ اللهُ به ، والحَجُّ الأَكْبَرُ الحجُّ الأكْبَر ، »

« والحَجُّ الأَصْغَرُ هو العُمْرة ، ويَنْهىٰ النّاسَ أنْ يُصَلِّيَ أحَدٌ فى ثَوْبٍ »

« واحِدٍ صَغيرٍ إلا أنْ يَكُونَ ثَوْبًا يَثْنِي طَرَفَيْه علىٰ عاتِقَيْه ، ويَنْهىٰ »

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ٧٢) .

« [الناسَ[١]] ان يَحْتَبِيَ أحدٌ فى ثَوْبٍ واحدٍ يُفْضِى بِفَرْجِه إلىٰ السَّماء ، »
« ويَنْهىٰ أن لَّا يَعْقِصَ أحدٌ شَعْرَ رأسِه فى قَفَاه ، ويَنْهىٰ إذا كانَ بيْنَ »
« الناس هَيْجٌ عن الدُّعاء إلىٰ القَبَائل والعَشَائر ، ولْيَكُنْ دَعواهُمْ إلىٰ اللهِ »
« [عز وجلّ[١]] وحْدَه لاشَرِيكَ له [فمَنْ لَمْ يَدْعُ إلىٰ اللهِ ودَعَا إلىٰ »
« القَبَائِلِ والعَشَائر فَلْيُقْطَعُوا بالسيف حتّىٰ تَكُونَ دَعْواهُمْ إلىٰ اللهِ »
« وحدَه لاشَرِيكَ لَه[١]] ويأْمُرَ الناس بإسْباغ الوُضُوء : وُجُوهِهِم ، »
« وأيْديهِمْ إلىٰ المَرَافق ، وأرجُلِهِمْ إلىٰ الكَعْبَيْن ، ويَمْسَحُون برُءُوسِهم »
« كما أمَرَهم اللهُ ، وأمَرَ بالصلاةِ لِوَقْتِها ، وإتْمامِ الرُّكُوع [والسُّجود[١]] »
« والخُشُوع ، ويُغَلِّسُ بالصُّبْح ، ويُهَجِّر بالظُّهْر[٢] حينَ تَمِيلُ الشمسُ ، »
« وصلاةُ العَصْرِ والشَّمْسُ فى الأرض مُدْبِرة ، والمَغْرِبِ حينَ يُقْبِلُ »
« الليلُ ، لاتُؤَخَّرُ حتّىٰ تَبْدُوَ النُّجومُ فى السماء ، والعِشاءِ أوّلَ اللَّيْل . »
« وأمَرَ بالسَّعْى إلى الجمعة إذا نُودِىَ لها ، والغُسْلِ عِنْدَ الرَّواح إلَيْها . »
« وأمَرَه أن يَأْخُذَ من المَغَانم خُمُسَ الله ، وما كُتِبَ علىٰ المؤْمِنين »

---

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٧٢ .

(٢) الذى فى السيرة « بالهاجرة حين تميل » .

« فى الصَّــدَقة من العقار(١) عُشْرُ ماسَقتِ العَيْنُ وسَقَـتِ السَّماءُ ، وعلىٰ »
« ماسَــقىٰ الغَرْبُ نِصْفُ العُشْر . وفى كلِّ عَشْرٍ من الإبِلِ شاتانِ ، »
« وفى كلِّ عِشْرِين أربعُ شِياهٍ . وفى كلِّ أربعِينَ من البَقَر بقَرةٌ ، »
« وفى كلِّ ثلاثين من البَـقَر تَبِيـعٌ جَذَعٌ(٢) أو جَذَعةٌ ، وفى كلِّ أربَعِين »
« من الغَنَم سائمة وحْدَها شاةٌ ، فإنَّها فَرِيضَــةُ اللهِ تعالىٰ التى ٱفْتَرَضَ »
« علىٰ المُؤْمِنِينَ فى الصَّدَقة ، فَمَن زَادَ خَيْراً فهُوَ خَيْرٌ لَهُ . وأنَّه مَـنْ »
« أسْــلَمَ من يَهُودِيٍّ أوْ نَصْرانِيٍّ إسْلامًا خالِصًا مِنْ نَفْسِه ودَانَ بِـدِينِ »
« الْإِسْــلام ، فإنَّه من المُؤْمِنِين : لَهُ مِثْلُ مَالَهُمْ وعَلَيْه مِثْل مَاعَلَيْهِمْ ، »
« ومَنْ كانَ علىٰ نَصْرَانِيَّتِهِ أوْ يَهُودِيَّتِه ، فإنَّه لايُرَدُّ عنها وعلىٰ كلِّ حالِـمٍ : »
« ذَكَرٍ أوْ أُنْثىٰ ، حُرٍّ أوْ عَبْدٍ دينارٌ وافٍ ، أو عِوَضُه ثِياباً ، فَمَنْ أدّىٰ »
« ذٰلِكَ فإنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ رَسُولِه ، ومَـنْ مَنَع ذٰلكَ فإنَّه عَدُوٌّ للهِ »
« ولِرَسُولِه ولِلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا » .

« صلواتُ اللهِ علىٰ محمّدٍ والسَّلامُ عليه ورحمةُ اللهِ وبركاته » .

---

(١) كذا فى السيرة أيضا بالعين والقاف وفى كتب اللغة العقار [أى كغراب] خيار الكلإ والعقار [أى كسلام] النخل . تأمل .

(٢) فى اللسان ج ٩ ص ٣٩٣ "اذا طلع قرن العجل وقبض عليه فهو عضب ثم هو بعد ذلك جذع"

وعلى نحو ذلك كتب أميرُ المؤمنين عليٌّ بن أبى طالب كرَّم الله وجهه عَهْدَ مالكِ بنِ الأشتَر النخَعِيِّ حِينَ وَلَّاه مِصْرَ . وهو من العُهُود البليغةِ جَمَع فيه بيْنَ مَعَالِم التَّقْوىٰ وسياسةِ المُلْك .

وهذه نسختُه فيما ذكره ٱبن حَمْدُونَ فى تذكرته :

هٰذا ما أمَرَ [به عبدُ الله](١) علىٌّ أمير المؤمنين مالكَ بن الحرث الأشتَر، فى عَهْده إليه، حِينَ ولَّاه مِصْرَ: جِبايةَ خَراجِها، وجِهادَ عدُوِّها، وٱستِصْلاحَ أهْلِها، وعِمارة بِلادِها . أمَره بتقوىٰ الله وإيثارِ طاعتِه، وٱتِّبـاعِ ما أمَرَ به فى كتابه من فرائِضِه وسُنَنه التى لا يسْعَدُ أحدٌ إلا باتِّباعها ، ولا يَشْقىٰ إلا مع جُحُودها وإضاعتِها ؛ وأنْ يَنْصُرَ الله تعالىٰ بيده وقَلْبه ولسانِه، فإنَّه جلَّ ٱسْمُه قد تكفَّل بنَصْرِ مَنْ نَصَره ، وإعزازِ مَنْ أعزَّه . وأمَره أنْ يَكْسِرَ من نَفْسِه عِنْدَ الشَّهوات ، ويَزَعَها عند الجَمَحات، فإنَّ النفْسَ لأمَّارة بالسُّوء إلَّا ما رَحِمَ اللهُ .

ثم ٱعلَمْ يا مالِكُ أنِّى قد وَجَّهتك إلىٰ بلادٍ قد جَرَتْ عليها دُوَلٌ قَبْلَك : مِنْ عَدْل وجَوْر، وأنَّ النـاسَ يَنْظُرُون من أُمورِكَ [فى مثل](٢) ما كُنْتَ تَنْظُر فيه من أمْر الوُلَاة قَبْلَك ، ويقُولُون فيكَ كما كُنْتَ تقُول فيهم . وإنما يُستَدَلُّ علىٰ الصالحين بما يُجْرِى اللهُ لهم علىٰ أَلْسُنِ عِباده، فلْيَكُنْ أحبَّ الذَّخائر إليك ذَخِيرةُ العمَلِ الصالِح . فامْلِكْ هَوَاك ، وشُحَّ بنَفْسِك عمَّا لا يحِلُّ لك ، فإنَّ الشُّحَّ بالنفس الإنْتِصافُ منها فيما أحبَّتْ وكَرِهَتْ . وأشعِرْ قَلْبك بالرحمةِ للرَّعيَّة ، والمَحَبَّة لهم، واللُّطْف بهم ، ولا تكُونَنَّ عليهم سَبُعًا ضارِيًا، تغتَنِمُ أكْلَهم، فإنهم صِنْفان : إمَّا أخٌ لكَ فى الدِّين ،

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" (ص ١٠٥) .

(٢) الزيادة من شرح نهج البلاغة لٱبن أبى الحديد .

وإمّا نَظِيرٌ لك فى الخلق : يفرط منهم الزَّلل، وتَعْرِضُ لهم العِلَل، ويُؤْتىٰ علىٰ أيْديهم فى العَمد والخَطإ : فأعْطِهِم من عَفْوِك وصَفْحِك مثلَ الذى تُحِبُّ أن يُعْطِيَكَ اللهُ من عَفْوه وصَفْحِه : فإنَّك فوْقَهم ووالى الأمرِ علَيْكَ فَوْقَك، والله فَوْقَ مَنْ وَلَّاك . وقد ٱستَكْفاكَ أمرَهم ، وٱبْتَلاكَ بِهِم ؛ ولا تَنْصِبَنَّ نفْسَك لحَرْب الله، فإنه لايَدَىْ لك بِنقمتِه، ولا غِنى بك عن عَفْوه ورحمتِه ؛ ولا تَنْدَمَنّ علىٰ عَفْو ، ولا تَبْجَحَن بعقوبة، ولا تُسْرِعَنّ إلىٰ بادِرةٍ وجدت عنها مَنْدُوحة ؛ ولا تقُولَنّ إنِّى ٱمرؤ آمُرُ[(1)] فأُطاع : فإن ذٰلك إدغالٌ فى القَلْب ، ومَهْلَكة فى الدِّين ، وتَقَرّبٌ من الغيَر . وإذا أحْدثَ لك ماأنْتَ فيه من سُلْطانك أُبَّهةً أو مَخِيلةً، فانظُرْ إلىٰ عِظَم مُلْكِ الله تعالىٰ فَوْقَك، وقُدْرتِه منك علىٰ مالا تَقْدر عليه من نَفْسك ؛ فإنَّ ذٰلك يُطَامِنُ إليْكَ من طِمَاحك ويُكُفُّ عَنْك من غربِك ، ويفِىءُ إليك بما عَزُب عنك من عَقْلك . وإيَّاكَ ومُساماةَ الله تعالىٰ فى عظَمته ، والتَشَبُّه به فى جبَرُوته ، فإن الله يُذِلُّ كلَّ جبَّار ، ويُهِينُ كلَّ مُخْتال .

أنْصِفِ اللهَ وأنْصِف الناسَ من نَفْسك ومن خاصَّةِ أهْلِك ومِمَّن لك فيه هَوىً من رَعِيَّتك : فإنَّك إنَّلا تفْعَلْ تَظْلِمْ ، ومَنْ ظَلَم عبادَ الله كان اللهُ خَصْمَه دُونَ عِباده ، ومن خاصَمَه اللهُ ، أدْحَضَ حُجَّتَه وكان للهِ حَرْبا حتّى يَنْزِعَ ويَتُوب . وليس شىءٌ أدعىٰ إلىٰ تغييرِ نِعمةِ الله وتعجيلِ نِقْمته من إقامةٍ علىٰ ظُلْم [فإنَّ الله سَمِيعٌ يسْمَعُ دَعوةَ المظلومين وهو للظالمين بالمِرْصاد][(2)] .

ولْيكُنْ أحَبُّ الأمور إليكَ أَوْسطَها فى الحَقِّ ، وأعَمَّها فى العَدْل ، وأجْمَعَها لِرضَا الرَّعيَّة ؛ فإنَّ سُخْط العامَّة يُجْحِفُ برضا الخاصَّة ، وإنَّ سُخْط الخاصَّة يُغْتَفَر مع رضا

(١) فى "مفتاح الافكار، وشرح نهج البلاغة" «مؤمر» .

(٢) الزيادة من "مفتاح الافكار" وشرح "نهج البلاغة" .

العامَّة ، وليس أحدٌ من الرعيَّة أثقَـلَ علىٰ الوالِي مَئُونةً فى الرَّخاء ، وأقَلَّ مَعُونةً له فى البَلَاء، وأكْرَه لِلإنصاف ، وأسْأَلَ بالإلْحاف ، وأقَلَّ شكْرًا عند الإعْطاء ، وأبْطأَ عُذْرا عنـد المنع ، وأضْعفَ صَبْرا عند مُلِمَّات الدَّهْر ، من أهـل الخاصَّة ، وإنما عمودُ الدِّين ، وجِمَاعُ المسلمين ، والعُدّةُ للأعداء العـامَّةُ من الأمَّة . فليكُنْ صَغْوُك لهم ، ومَيْلُك معَهم ، وليُكنْ أبعَـدُ رعيَّتك منك ، وأشْنَؤهم عنْدَك ، أطلَبَهم لمَعَايِب النّاس : فإنَّ فى الناس عُيوبًا الوالى أحقُّ بسَتْرها ، فلا تَكْشِفَنَّ عمَّا غاب عنْك مِنْها ، فإنّمـا عليك تَطْهيرُ ماظَهر [لك] (١) واللهُ يحكم علىٰ ماغاب عَنْك مِنها . فاسْـتُرِ العَوْرَةَ ما آستطعْتَ يَسْتُرِ اللهُ ماتُحِبُّ سَتْره من عَيْبك .

أطْلِقْ عن الناس عُقْدَةَ كلِّ حِقْد ، واقْطعْ عنْهم سبَبَ كلِّ وَتْر ، وتَغابَ عن كلِّ مالا يَضِحُ لك ، ولا تَعْجَلَنَّ إلىٰ تصـديقِ ساع : فانَّ الساعِىَ غاشٌّ وإن تَشَبَّه بالناصِحين . ولا تُدْخِلَنَّ فى مَشُورتِك بَخِيلًا يعْدِلُ بكَ عن الفَضْـل ويَعِدُك الفَقْر ، ولا جَبـانًا يُضْـعِفُك عن الأُمور ، ولا حَرِيصًا يزَيِّن لك الشَّرَهَ بالجَوْر : فإنَّ البُخْل والجُبْنَ والحِرْص غَرائِزُ شَتَّى يجمَعُها سُوءُ الظنِّ بِالله .

إنَّ شَرَّ وُزَرائِك مَنْ كان للأشْرار قَبْلَكَ وزِيرا ومَنْ شارَكَهُمْ فى الآثام ، فلا يكُونَنَّ لك بِطَانة ، فإنَّهم أعوانُ الأثَمَه ، وإخْوانُ الظَّلَمَه ، وأنت واجدٌ منهـم خَيْرَ الخَلَف مِمَّن له مِثْلُ آرائِهم ونَفَاذهم ، وليس عليه مِثْلُ آصارِهم وأوْزارِهم : ممَّن لم يُعاوِنْ ظالمًا علىٰ ظُلْمه ، ولا آثِمـا علىٰ إثْمه ، أُولئك أخفُّ عليك مَئُونه ، وأحسَنُ لكَ مَعُونه ، وأحْنىٰ عليْكَ عطْفا ، وأقَلُّ لغيْرِك إلْفا ، فاتَّخِذْ أولئك خاصَّةً لخَلَواتك [وحَفَلَاتك] (١) . ثم لْيَكُنْ آثَرُهُم عِنْدك أقْولَهم [لك] (١) بمُرِّ الحقّ ، وأقَلَّهم مساعدةً فيما يكونُ منك مما

---

(١) الزيادة من "مفتاح الأفكار، ونهج البلاغة" .

كَرِه اللهُ لأوْليائه، واقعًا ذلك من هوَاك حيثُ وَقع. والْصق بأهْل الورَع والصِّدْق، ثم رُضْهم علىٰ أن لا يُطْروك ولا يُبَجِّحوك[1] بباطلٍ لم تفعَلْه: فإنَّ كثْرةَ الإطْراءِ تُحْدث الزهْوَ وتُدْنِى من الغِرَّة. ولا يكونَنَّ المحسنُ والمُسيء عندك بمَنْزِلةٍ واحدة، فإنَّ فى ذٰلك تزهيداً لأهل الإحْسان [فى الإحسان][2] وتدْريبًا لأهل الإساءةِ [علىٰ الإساءة][2] [3]:

وإنَّك لا تَدْرِى إذا جاَء سـائِلٌ * أأنْتَ بمـا تُعْطِيه أم هُو أسْعَدُ!

عَسىٰ سائِلٌ ذُو حاجةٍ إن مَنَعْتَهُ * من اليومِ سُؤْلا أن يَكُونَ له غَدُ!

وفى كَثْرةِ الأيْدى عن الجَهْل زاجِرٌ، * ولَلْحِــلْمُ أبْقىٰ للرِّجال وأعْــوَدُ!

✦

وعلىٰ ذٰلك كتب[4] أبو إسحاق الصابى عن الخليفة «الطائع لله» إلىٰ فخر الدولة بن رُكْن الدولة بن بُوَيه، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة ستٍّ وستين وثلثمائة.

وهـــذه نسخته:

هذا ماعَهِدَ عبدُ الله عبدُالكريم [الإمام][5] الطائعُ لله أميرُ المؤمنين [إلىٰ فخر الدَّوْلة أبى الحسن بن رُكْن الدَّوْلة أبى علىّ مولىٰ أمير المؤمنين][5] حينَ عَرَف غَنَاءه وبَلَاءه،

(١) أى لا يفرحوك يقال بجحته تبجيحا فتبجح أى فرحته ففرح أنظر اللسان ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار، ونهج البلاغة".

(٣) اقتصر فى الأصل على هذا القدر وله بقية طويلة مذكورة فى "نهج البلاغة، ومفتاح الأفكار" فليرجع إليهما من شاء.

(٤) أى كتب العهد عن الخ .

(٥) الزيادة من "رسائل الصابى" والمثل السائر .

وٱستصحَ دِينَه ويقينه ، ورعىٰ قديمَه وحديثَه ، وٱستنْجَب عُودَه ونِجارَه . وأثنىٰ عزُّ الدولةِ أبو مَنْصور بنُ مُعزِّ الدولة أبى الحُسَيْن مولىٰ أمير المؤمنين [أيّده الله](١) عليه ، وأشار بالمَزِيد فى الصَّنِيعة إليه ،وأعلَمَ أميرَ المؤمنين ٱقتداءَه به فى كلِّ مَذْهَب ذهب فيه من الخِدْمة ، وغَرَضٍ رمىٰ إليه من النَّصِيحة ، دُخُولا فى زُمْرة الأولياء [المنْصُوره ، وخروجًا عن جماعة الأعْداء المدْحُوره](٢) ،وتصرُّفا علىٰ مُوجِبات البَيْعة التى هى بعِزِّ الدولة أبى منصور مَنُوطه ، وعلىٰ سائر من يتْلُوه ويتْبَعه مأخوذةٌ مشْرُوطه ؛ فقلَّده الصلاةَ وأعمـالَ الحرب ، والمَعاوِنَ ، والأحْداثَ ، والخَرَاجَ ، والأعشارَ ، والضِّياعَ ، والجَهْبذَة ، والصَّـدقاتِ ، والجَوالِيَ ، وسائر وُجوه الجبَايات [والعَرْض](٢) والعطَاء ، والنَّفَقةَ فى الأولياء [والمَظَالم وأسواقَ الرقيق](٢) والعِيارَ فى دُور الضرب والطُّرُز والحِسْبة بكُور هَمَـذانَ ، وأَسْتَرَاباذَ ، والدِّينَور ، وقَرْمِيسِينَ ، والإيغَارَيْن ، و[أعمـال](٢) أَذْرَبِيجانَ ، وأرّانَ ، والسَّحانِين ، ومُوقانَ . واثقًا منه باستِبْقاء النعمة وٱستِدامتِها ، والإستزادةِ بالشُّكر منها ، والتجنُّب لغَمْطها وجُحُودها ، والتنكُّب لإيحاشِها وتنْفِيرِها ، والتعمُّد لمـا مَكَّن له الحُظْوةَ والزُّلفىٰ ، وحرَس عليـه الأُثْرَةَ والقُـرْبىٰ ؛ بمـا يُظْهِره ويُضْمِره من الوَفاء الصحيح ، والوَلاءِ الصَّرِيح ، والغَيْب الأَمِين ، والصَّدْر السليم ، والمقاطَعةِ لكل من قاطع العُصْبَه ، وفارق الجُمْله ، والمواصلةِ لكلِّ من حَمىٰ البَيْضة وأخلص النِّيَّة ـ والكونِ تحتَ ظلِّ أمير المؤمنين وذِمَّته ، ومع عزِّ الدولة أبى منصور وفى حَوْزته ؛ والله جلَّ ٱسْمـه يعرِّفُ أميرَ المؤمنـين حُسْن العُقْبىٰ فيما أبرم ونَقَض ، وسَـدَادَ الرأْى فيما رفَع وخَفَض ، ويجعل عزائمَه مقرونةً بالسـلامه ، محجوبةً عن موارد النَّدامه ، وحَسْبُ أميرِ المؤمنين الله ونعم الوكيلُ .

(١) الزيادة من "رسائل الصابى" المطبوعة "والمثل السائر" .

(٢) الزيادة من "رسائل الصابى" المطبوعة "والمثل السائر" .

أَمَرَه بتقوىٰ الله التى هى العِصْمة المَتِينـه، والجُنَّـة الحَصِينه، والطَّوْد الأرفَع، والمَعَاذ الأمْنَع، والجانبُ الأعزّ، والمَلْجأ الأحْرَز، وأنْ يَسْتشعِرها سِرًّا وجَهْرا، ويستعْمِلَها قَوْلا وفعلا، ويتخذَها رِدْءا دافعا لنوائبِ القَدَر، وكَهْفا حامياً من حوادث الغِـيَرْ، فإنها أوجَبُ الوسائل، وأقربُ الذَّرائع، وأعودُها علىٰ العبـد بمَصالِحه، وأدْعاها إلىٰ سُبُل مَناجِحه، وأولاها بالاستمرار علىٰ هدايتِـه، والنَّجاة من غَوَايته، والسلامةِ فى دُنْياه حينَ تُوبِق مُوبِقَاتُهـا، وتُرْدِى مُرْدِيَاتُها، وفى آخرته حينَ تُرَوِّعُ رائعاتُهـا وتُخِيف مُخيفاتُها. وأنْ يتأدَّب بآدابِ الله فى التواضُـع والإخْبات، والسَّكينة والوَقَار، وصِدْق اللَّهْجة إذا نَطَق، وغَضِّ الطَّرْف إذا رَمَق، وكَظْم الغيظ إذا أُحْفِظ، وضَـبْط اللسان إذا أُغْضِب، وكَفِّ اليدِ عن المآثِم، وصَوْن النفس عن المَحَارم. وأن يذْكُر الموتَ الذى هو نازِلٌ به، والمَوْقِفَ الذى هو صائرٌ إليـه، ويعْلَمَ أنه مسئُول عمّا ٱكتَسَب، مجزِىٌّ بما ترَمَّك(١) وٱحتقَب، ويتزوّدَ من هذا المَمَرّ، لذاك المَقَرّ، ويستكْثِرَ من أعمـال الخير لتنفَعَه، ومن مَساعِى البِرِّ لتُنْقِذَه، ويأتمِرَ بالصالحات قبل أن يؤمَرَ بها، ويَزْدَجِر عن السيِّئات قبْلَ أن يُزْجَر عنهـا، ويبتدِئَ بإصلاح نَفْسه قبل إصـلاح رعِيَّته: فلا يبعَثُهم علىٰ مايأتى ضدَّه، ولا ينهاهُمْ عمّـا يقْترِفُ مثـلَه، ويجعلَ ربَّه رقيباً عليه فى خَلَواته، ومُروءتَه مانعـةً له من شَهَواته، فإنَّ أحقَّ من غلَبَ سلطانَ الشَّهْوة، وأَوْلىٰ من صَرَع أعداءَ(٢) الحَمِيّة، مَنْ ملك أزِمَّة الأمور، وٱقتدَرَ علىٰ سِياسة الجُمْهور، وكان مُطاعًا فيما يرىٰ، متَّبَعا فيما يَشَاء، يَلِى علىٰ النـاس ولا يَلُون عليه، ويقتَصُّ منهـم ولا يقتَصُّون منه، فإذا ٱطَّلع الله منـهُ علىٰ نَقَـاءِ جَيْبه، وطهارة ذَيْله، وصِحَّـة سَريرَتِه، وٱستِقامة سِـيرتِه، أعانه علىٰ حِفْظ

---

(١) فى "الرسائل، والمثل السائر" «ترمل».

(٢) كذا فى الرسائل أيضا. وفى المثل السائر ص ١٣٢ "من ضرع لغذاء الحمية".

ما ٱستحفظه، وأنهضه بثقل ما حمّله؛ وجعل له مخلصا من الشبهة ومخرجا من الحيرة، فقد قال تعالى: ﴿ ومَنْ يتّقِ اللهَ يجعلْ لَهُ مخرجًا ويرزقْهُ مِنْ حيثُ لا يحتسب ﴾ . وقال عز من قائل: ﴿ يأيها الّذينَ آمنوا ٱتّقوا اللهَ حقّ تُقاتِهِ ولا تموتُنّ إلّا وأنتمْ مُسْلِمونَ ﴾ . وقال: ﴿ ٱتّقوا اللهَ وكونوا معَ الصّادقينَ ﴾ إلى آيٍ كثيرةٍ حضّنا بها على أكرم الخُلُق، وأسلَم الطُّرُق؛ فالسعيدُ من نصبها إزاءَ ناظرِه، والشقيُّ من نبذها وراء ظهره؛ وأشقى منه من بعث عليها وهو صادفٌ عنها، وأهابَ إليها وهو بعيدٌ منها؛ وله ولأمثاله يقول الله تعالى: ﴿ أتأمُرُونَ النّاسَ بالبِرِّ وتنسَوْنَ أنفسَكُمْ وأنتمْ تتلُونَ الكتابَ أفلا تعقِلُونَ ﴾ .

وأمره أن يتخذ كتابَ اللهِ إمامًا متّبعا، وطريقًا موقّعا (١)؛ ويُكثِر من تلاوته إذا خَلَا بفكره، ويملأ بتأمّله أرجاءَ صدره؛ فيذهبَ معه فيما أباحَ وحظَر، ويقتدِي به إذا نهى وأمَر؛ ويستبينَ ببيانه إذا ٱستغلقتْ دُونَه المعْضلات، ويستضيءَ بمصابيحه إذا غُمَّ عليه في المُشكِلات؛ فإنه عُروةُ الإسلام الوُثقى، ومحجّتُه الوُسطى، ودليلُه المُقْنِع، وبرهانُه المُرْشِد (٢)؛ والكاشفُ لظُلَم الخُطوب، والشافي من مرَض القلوب، والهادي لمن ضَلّ، والمُتلافي لمَنْ زلّ؛ فمَنْ لهِج به فقد فاز وسَلِم، ومَنْ لَهِيَ عنه فقد خابَ ونَدِم، قال الله تعالى: ﴿ وإنّه لكِتابٌ عزيزٌ لا يأتيهِ الباطلُ مِنْ بينِ يدَيْهِ ولا مِنْ خلفِهِ تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ ﴾ .

وأمره أن يُحافظَ على الصلوات، ويدْخُل فيها في حقائق الأوقات؛ قائمًا على حدُودها، متّبِعا لرُسُومها؛ جامعًا فيما بين نيّته ولفظه، متوقّيا لمَطامح سَهوه ولحظه؛

(١) في الأصول والمثل السائر متوقعا بزيادة التاء وهو تحريف من النساخ، ففي اللسان ج ١٠ ص ٢٨٢ يقال طريق موقع مذلل .

(٢) في "الرسائل" الأسطع .

منقطعًا إليها عن كلِّ قاطع لها، مشغُولا بهـا عن كلِّ شاغلٍ عنها؛ متثبتًا فى رُكُوعها وسُجُودها؛ مستَوْفيا عدَدَ مفْروضها ومسْنُونها؛ مُوَفِّرا عليهـا ذِهْنَه، صارفاً إليها هَمَّه؛ عالمـًا بأنه واقفٌ بين يدَىْ خالقه ورازِقِه، ومُحْييه ومُميته ، ومُثِيبه ومُعاقِبه؛ لاتستَتِرُ دُونَه خائنَةُ الأعيُنِ وما تُخْفِى الصُّـدور(١) . فإذا قضَاها علىٰ هـذه السبيل مُنْذُ تكبيرة الإحرام إلىٰ خاتمةِ التسليم، أتْبعها بدُعاء يرتَفِع بارتِفَاعها، [ويُسْتَمَع بِاسْتِمـاعها](٢)، ولا يتَعـدّىٰ فيه مسائلَ الأبرار، ورغائبَ الأَخْيار : من ٱستِصْفاحٍ وٱستِغْفَار، وٱسـتِقالةٍ وٱسترْحام، وٱستِدْعاء لمصالح الدِّين والدنيـا، وعَوائدِ الآخرة والأُولىٰ؛ فقد قال تعالىٰ : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ علَىٰ المُؤْمِنِينَ كِتَاباً موْقُوتاً ﴾ ، وقال تعـالىٰ : ﴿ وأَقِم الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ﴾ .

وأَمَره بالسَّـعْى فى أيَّام الجُمَع إلىٰ المساجد الجامعَـه، وفى الأعياد إلىٰ المُصَلَّيَات الضَّاحِيَه، بعد التقَدُّم فى فَرْشها وكِسْوتها؛ وجَمْع القُوَّام والمؤذِّنين والمكَبِّرين فيها، وٱستِسْعاء النـاسِ إليها، وحَضِّهم عليْها؛ آخذينَ الأُهْبَه، متنَظِّفين فى البِزَّه؛ مُؤَدِّين لفرائض الطَّهاره، بالِغِين فى ذٰلك أقْصىٰ الاِستِطاعه؛ معتَقِدين خَشْيَةَ الله وخِيفَتَه، مُدَّرِعين تَقْواه ومُراقَبَته؛ مُكْثِرين من دُعائه ـ عز وجَلَّ ـ وسُؤاله، مصَلِّين علىٰ محمد رسولِهِ صلَّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله؛ بقُلُوبٍ علىٰ اليقين مَوْقُوفه، وهِمَمٍ إلىٰ الدِّين مصْرُوفه؛ وألْسُن بالتسْبِيح والتقْدِيس فَصِيحه، وآمالٍ فى المَغْفِرة والرحمـة فَسِيحه؛ فإنَّ هذه المُصَلَّياتِ والمتَعَبَّدات بيوتُ الله التى فَضَّلها، ومَنَاسِـكه التى شَرَّفها؛ وفيها يُتْـلىٰ القُرءانُ [ومنها ترتَفِعُ الأعمال؛ وبهـا يلُوذُ اللائِذُون(٢)] ويعُوذُ العائذُون؛

(١) كذا فى "المثل السائر" أيضا . وفى "رسائل الصابى" « ومن لايستسرّ دونه خائنة عينه وخافية صـــدره » .

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة .

ويتعبـد المتعبدون ، ويتهجد المتهجدون ، وحقيق على المسلمين أجمعين : من والٍ ومولًّى عليه أن يصونوها ويعمروها، ويواصلوها ولا يهجروها . وأن يقيم الدعوة على منابرها لأمير المؤمنين ثم لنفسه على الرسم الجارى فيها ، قال الله تعالى فى هـذه الصلاة : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ . وقال فى عمارة المساجد : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ .

وأمره بأن يراعى أحوال من يليه ، من طبقات جند أمير المؤمنين ومواليه ؛ ويطلق لهم الأرزاق، فى وقت الوجوب والاستحقاق؛ وأن يحسن فى معاملتهم، ويجمل فى استخدامهم، ويتصرف فى سياستهم : بين رفق من غير ضعف، وخشونة من غير عنف؛ مثيبا لمحسنهم ما زاد بالإبانة فى حسن الأثر، وسلم معها من دواعى الأشر؛ ومتغمدا[1] لمسيئهم ما كان التغمد له نافعا، وفيه ناجعا؛ فإن تكررت زلاته ، وتتابعت عثراته ؛ تناوله من عقوبته بما يكون له مصلحا ، ولغيره واعظا . وأن يختص أكابرهم وأماثلهم وأهل الرأى والخطر منهـم بالمشاورة فى الملم، والإطلاع على بعض المهم ؛ مستخلصا نخائل قلوبهـم بالبسط والإدناء ، ومستشحذا بصائرهم بالإكرام والاحتفاء : فإن فى مشاورة هـذه الطبقة استدلالا على مواقع الصواب، وتحرزا من غلط الاستبداد، وأخذا بمجامع الحزامه، وأمنا من مفارقة الاستقامه ؛ وقد حض الله تعالى على الشورى حيث قال لرسوله عليه الصلاة والسلام: ﴿وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

---

(١) أى ساترا لهفواته من قولهم تغمد فلانا ستره .

وأمَره بأنْ يَعْمِدَ(١) لما يتصل بنَواحِيه من ثُغُور المسلمين، ورِبَاطات المُرابِطين، ويَقْسِمَ لها قِسْما وافرًا من عِنَايَتِه، ويَصْرف إليها طَرَفا بل شَطْرا من رِعايَتِه؛ ويختارَ لها أهلَ الجَلَد والشِّدّه، وذَوِى البأس والنَّجْده: ممن عَجَمتْه الخُطُوب، وعَرَكَتْه الحُروب؛ وٱكتَسَب دُرْبة بخُدَع المُتناوِبين، وتجرِبةً بمكايِد المتقارِعين؛ وأن يستَظْهِر بتكْثِيف عَدَدهم، وٱختيار عُدَدِهم؛ وٱنْتِخاب خَيلِهم، وٱستِجادَة أسْلِحَتِهم؛ غير مُجَمِّر(٢) بَعْثًا إذا بعَثَه، ولا مستكْرِهه إذا وَجَّهه؛ بل يُناوِبُ بين رِجَاله مناوبةً تُرِيحهم ولا تُمِلُّهم، وترَفِّههم ولا تَئُودُهم: فإنَّ فى ذٰلك من فائدة الإجمام، والعدلِ فى الٱستِخْدام؛ وتنافُس رجال النُّوب فيما عاد عليهم بعزِّ الظَّفَر والنَّصْر، وبُعْد الصِّيت والذِّكْر، وإحْراز النفع والأَجْر؛ مايحِقُّ علىٰ الوُلاة أن يكونُوا به عامِلين، وللناسِ عليه حامِلِين. وأنْ يكَرِّر علىٰ أسْماعهم، ويثبِّت فى قلُوبهم؛ مَواعِيدَ الله لِمَنْ صابر ورابَط، وسَمَح بالنفس وجاهَد؛ من حيثُ لايُقْدِمُون علىٰ تورُّطِ غِرَّه، ولا يُحْجِمُون عن ٱنتِهاز فُرْصه؛ ولا ينْكُصُون عن توَرُّد معرَكه، ولا يُلْقُون بأيْدِيهم إلىٰ التَّهْلُكه؛ فقد أخذَ الله تعالىٰ ذٰلك علىٰ خَلْقه، والمُرامِينَ عن دِينه؛ وأن يُزِيحَ العِلَّة فيما يُحتاج إليه من راتبِ نَفَقات هذه الثُّغور وحادِثِها، وبناءِ حُصُونها ومعَاقلها؛ وٱستِطْراقِ طُرُقها ومَسَالِكها، وإفاضةِ الأقْوات والعُلُوفات للترتِّبين فيها والمتردِّدين إليها والحامِينَ لها. وأن يبْذُل أمانَهُ لمن طلَبه، ويَعْرِضَه علىٰ مَنْ لم يطْلُبْه. ويفِىَ بالعهْد إذا عاهد، وبالعَقْد إذا عاقَد؛ غير مُخْفِرٍ ذِمَّة، ولا جارِحٍ أمانة؛ فقد أمر

---

(١) فى "رسائل الصابى" بأن يضم مايتصل الخ.

(٢) فى اللسان ج ٥ ص ٢١٧ «تجمير الجند أن يحبسهم فى أرض العدو ولا يقفلهم من الثغر» وهو المراد هنا. تأمل.

اللهُ تعالىٰ بالوَفَاء فقـال جلَّ من قائل : ﴿ يٰأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بالعُقُود ﴾ .
ونَهىٰ عن النَّكْث فقال عزَّ من قائل : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَـا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِهِ ﴾ .

وأمره أن يَعْرِض مَنْ فى حُبُوس عمَله علىٰ جَرَائِرِهم [وإنْعامِ النظر فى جِناياتِهم وجرائِمِهم] (١) فمن كان إقرارُه واجبًا أقرَّه ومن كان إطلاقُه سائغًا أطْلقَـه . وأن ينظُر فى الشُّرْطة والأحداث نَظَر عدْل و إنصاف، ويختارَ [لهـا من الوُلاة] (١) مَنْ يخافُ الله تعـالىٰ ويَتَّقيـه ، ولا يُحابِى ولا يُراقِب فيـه ، ويتقدَّمَ إليهم بقَمْع الجُهَّـال ، ورَدْع الضُّـلَّال ، وتَتَبُّع الأشْرار ، وطلَب الدُّعَّار ، مسـتدلِّينَ علىٰ أماكِنِهم ، متوَغِّلين إلىٰ مَكامِنِهم ، متوَلِّجين عليهم فى مَظَانِّهم ، متوثِّقِينَ ممن يَجِدُونه منهم ، منفذِين أحكامَ الله تعالىٰ فيهم بحسب الذى يتبيَّنُ من أمْرِهم ، ويَتَّضِحُ من فِعْلهم ، فى كبيرةٍ آرتَكبُوها ، وعظيمةٍ آحتَقَبُوها ، ومُهْجةٍ أفاظُوها وآستَهْلَكُوها ، وحُرْمةٍ أباحوها وآنتَهكُوها : فمَنِ آستحقَّ حدًّا من حدُود الله المعلومةِ أقامُوه عليه غير مُخَفِّفين منه ، وأحلُّوه به غيرَ مقَصِّرين عنه ، بعد أن لا يكونَ عليهم فى الذى يأتونَ به حُجَّة ، ولا يعترِضَهم فى وُجُوبه شُبْهة : فإنَّ الواجب فى الحدُود أن تُقامَ بالبيِّنات ، وأن تُدْرأَ بالشُّبُهات ، فأولىٰ ما توخَّاه رُعاةُ الرَّعايا فيها أن لا يُقْدِموا عليها مع نُقْصان ، ولا يتوَقَّفوا عنها مع قيامِ دليلٍ و بُرْهان . ومن وجب عليه القتلُ آحتاط عليه بمـا يُحْتاط به علىٰ مثـله : من الحَبْس الحَصِين ، والتوثُّق الشـديد ، وكتَبَ إلىٰ أمير المؤمنين بخبَره ، وشَرْح جِنايَتِـه ، وثُبوتها بإقْرار يكون منه ، أو بشهادةٍ تَقَع عليه ، ولْيَنْتَظِرْ من جوابه مايكون عملُه بحَسَبه ، فإنَّ أمير المؤمنين لا يُطْلِق سَفْك دمِ مسلِمٍ أو مُعَاهَدٍ إلا ما أحاط به عِلْمـا ، وأتْقنه فَهْما ، وكان ما يُمْضِيه فيـه عن بصيرة لا يخالِطُها شَـك ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة .

ولا يَشُوبُها رَيْب . ومن ألَمَّ بصغيرةٍ من الصغائر، ويسيرةٍ من الجرائر، من حيثُ لم يُعْرَفْ له مِثْلُها، ولم تتقدّم منه أُخْتُها ، وعَظَه وزَجَره، ونهاه وحَذَّره ، وٱستتابه وأقاله، مالم يكن عليه خَصْم فى ذٰلك يطالِبُ بقِصَاصٍ منـه ، وجزاءٍ له ، فإنْ عادَ تَناوَلَه [من] التقْويم والتهْذيب، والتعْزير والتأْديب، بما يَرىٰ أنْ قد كفىٰ فيما ٱجترَم، ووفىٰ بمـا قدّم، فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وأمره أنْ يعطِّلَ مافى أعمـاله من الحانَاتِ والمَوَاخِير، ويُطَهِّرَها من القَبائح والمَنـاكِير، ويمنعَ من تَجَمُّع أهل الخَنَا فيها وتألُّف شَمْلِهم بهـا : فإنه شَمْـلٌ يُصْلِحه التَّشْتيت، وجَمْع يَحْفَظُه التفْريق، ومازالتْ هذه المَوَاطنُ الذَّميمة والمَطَارِح الدَّنيئة، داعيـةً لمن يَأْوِى إليها، ويَعْكُفُ عليها، إلىٰ تَرْك الصلوات، [وإهمالِ المفترَضات](١) ورُكوب المُنْكَرات ، وٱقتراف المَحْظُورات ، وهى بُيوتُ الشـيطان التى فى عِمـارتها لله تعالىٰ مَغْضَبَة، وفى إخرابها للخَيْر مَجْلَبـة ، والله تعالىٰ يقول لنا معشَرَ المؤمنين : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ ويقول عزّ من قائل لغـيرنا من المذمومين : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْـدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَٱتَّبَعُوا الشَّهوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ .

وأمره أن يُولِّىَ الحِمايةَ فى هذه الأعمال ، أهلَ الكِفَاية والغَناء من الرجال ، وأن يَضُمَّ إليهم كلَّ مَنْ خَفَّ ركابُه، وأسْرعَ عند الصَّريخ جوابُه، مرتِّبًا لهم فى المَسَالح، وسادًّا بهـم ثغر المَسَالك، وأنْ يوصِيَهم بالتيقُّظ ، ويأخُذَهم بالتحفُّظ، ويُزيحَ عِلَلَهم فى عُلُوفة خيلهم ، والمقرَّر من أزْوادهم ومِيَرِهم ، حتّى لاتثقُـلَ لهم علىٰ البلاد وَطْأة، ولا تَدْعُوَهم إلىٰ تَحيُّفهم وتَلَمُّهم حاجة ، وأن يَحُوطوا السابلةَ بادِئةً وعائِدة،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة و"المثل السائر" .

ويتداركوا[(١)] القوافل صادرةً وواردَه، ويحرسوا الطُّرق ليلا ونهارا، وينفضوها رَواحا وإبكارا، وينصبوا لأهل العيث الأرصاد، ويتمكّنوا لهم بكلّ واد، ويتفرّقوا عليهم حيث يكون التفرّقُ مضيّقا لفضائهم، ومؤدّياً إلى انفضاضهم؛ ويجتمعوا حيث يكون الاجتماعُ مُطفِئاً لجمرتهم، وصارعا لمروّتهم؛ وأن لايُخلُوا هذه السُّبُلَ من حُماة لها وسيّارة فيها : يتردّدون فى جواديها[(٢)]، ويتعسّفون فى عواديها[(٢)]، حتّى تكون الدماءُ محقُونه، والأموالُ مَصُونه، والفتن محسُومةً والغارات مأمُونه؛ ومَن حصَل فى أيديهم من لصّ خاتل، وصُعْلوك خارب، ومُخيف لسبيل، ومُنتهك لحَريم، امتثل فيه أمرَ أمير المؤمنين الموافق لقول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وأمره بوضع الرَّصَد على من يجتازُ فى أعماله من أُبّاق العبيد، والاحتياط عليهم وعلى مايكونُ معهم، والبحث عن الأماكن التى فارقوها، والطُّرق التى استطرقوها؛ ومَواليهم الذين أَبَقوا منهم، ونَشَزوا عنهم؛ وأن يردّوهم عليهم قهْرا، ويُعيدوهم إليهم صُغْرا، وأن يُنْشِدُوا الضالّة بما أمْكَنَ أن تُنْشَد، ويحفَظُوها على ربّها بما جازَ أن تُحْفَظ، ويتجنّبوا الامتطاءَ لظُهورها والانتفاعَ بأوبارها وألبانها مما يُجزُّ ويُحْلَب؛ وأن يعرّفوا اللُّقَطة ويتّبعوا أثرَها، ويُشيعُوا خَبَرها؛ فإذا حضر صاحبُها وعُلِم أنه مستوجِبُها سُلّمت إليه، ولم يُعترَض فيها عليه؛ فإنّ الله عزّ وجل يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . ويقولُ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : "ضالّةُ المؤمنِ حَرَقُ النّار" .

---

(١) فى "الرسائل، والمثل السائر" «ويبذرقوا» والبذرقة الخفارة .

(٢) فى "الرسائل" « فى جوادها ... ... فى عواد لها » .

وأمره أن يُوصِىَ عُمَّـاله بالشدّ علىٰ أيْدى الحُكّام، وتنفيذ ما يَصْـدُر عنهم من الأحكام؛ وأن يَحْضُروا مجالِسهم حُضُورَ الموَقِّرين لها، الذابِّين عنها، المقِيمين لرُسُوم الهيبـة وحُدُود الطاعة فيها؛ ومَنْ خرج عن ذلك من ذى عَقْل سَخِيف، وحِلْم ضَعيف، نالُوه بمـا يَرْدَعُه، وأحلُّوا به مايَزَعُه؛ ومتىٰ تَقاعَس متقاعِسٌ عن حضُورِ مع خَصْم يستَدْعِيه، وأمْرٍ يوجِّه الحاكُم إليه فيه؛ أو الْتَوىٰ مُلْتوٍ بحقٍّ يحصل عليه، ودَيْن يستقِرُّ فى ذِمَّتـه، قادُوه إلىٰ ذلك بأزِمَّة الصَّـغَار، وخَزائِم الاِضْطرار؛ وأن يَحْبِسُوا ويُطْلِقُوا بأقوالهم، ويُثْبِتُوا الأيْدىَ فى الأملاك والفُرُوج ويَنْزِعُوها بقَضَاياهم؛ فإنَّهم أُمَناءُ الله فى فَصْل مايَفْصِلُون وبَتِّ ما يَبُتُّون، وعن كتابه وسُـنَّة نبيه صلّى الله عليه وسلم يُورِدُون [ويُصْدِرون](١) وقد قال تعـالىٰ: ﴿ يَٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِـعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَـدِيدٌ بِمَـا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ . وأن يَتَوخَّى بمثل هـذه المُعاملة عُمَّالَ الخَراج فى ٱستِيفاء حُقُوق ما ٱسـتُعمِلُوا عليه، وٱستِنْطاف بَقَاياهم فيـه، والرِّياضةِ لمن تَسُوءُ طاعتُـه من مُعامِلِيهم، وإحْضارِهم طائعِينَ أو كارِهين بَيْنَ أيديهم؛ فمن آدابِ الله تعالىٰ للعبد التى يَحِقُّ عليه أن يتخذها [أدبا](١) ويجعلها إلىٰ الرضا عنه سببًا، قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْبِرِّ وَالتَّقْوىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالْعُدْوانِ وَٱتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وأمره أن يجْلِسَ للرعيَّةِ جُلُوسا عامّا، ويَنْظُر فى مَطَالبها نَظَرا تامّا؛ ويساوِىَ فى الحق بين خاصِّها وعامِّهـا، ويُوازِىَ فى المجالس بين عَزِيزها وذَلِيلها؛ ويُنْصِف المظلومَ من ظالمه، والمغْصُوب من غاصبِه؛ بعد الفَحْص والتأمُّل والبَحْث والتَّبين،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى المطبوعة، والمثل السائر" وهى من سقط الناسخ.

حتى لا يحكم إلّا بعدل ، ولا ينطق إلّا بفصل ، ولا يثبّت يدًا إلّا فيما وجب [تثبيتها فيه، ولا يقبضها إلا عمّا وجب] (١) قبضُها عنه ، وأن يسهِّل الإذنَ لجماعتهم ، ويرفعَ الحجاب بينه وبينهم ، ويوليهم من حصانة الكنف ، ولين المنعطف ، والاشتمال والعناية ، والصّون والرّعاية ، ما تتعادلُ فيه أقسامُهم ، وتتوازنُ منه أقساطُهم ، ولا يصلُ المكينُ منهم إلى آستضامة من تأخّر عنه ، ولا ذو السلطان إلى هضيمة من حلّ دونه . وأن يدعوهم إلى أحسن العادات [والخلائق] (١) ويحضّهم على أجمل المذاهب والطرائق ، ويحمل عنهم كلَّه ، ويمدّ عليهم ظلّه ، ولا يسومهم خسفا ، ولا يلحق بهم حيفا ، ولا يكلّفهم شططا ، ولا يجشّمهم مضلعا ، ولا يثلم لهم معيشه ، ولا يداخلهم في جريمة (٢) ، ولا يأخذ بريئًا منهم بسقيم ، ولا حاضرًا بعديم ، فإنّ الله جل وعز نهى أن تزر وازرةٌ وزر أخرى ، وجعل كلّ نفس رهينةً بمكسبها بريئةً من مكاسب غيرها . ويرفع عن هذه الرعيّة ماعسى أن يكون سُنّ عليها من سُنّة ظالمه ، وسُلك بها من محجّة جائره ، ويستقري آثار الولاة قبله عليها ، فيما أزجوه من خير أو شرٍّ إليها : فيقرّ من ذلك ماطاب وحسُن ، ويزيل ماخبُث وقبُح : فإنّ من يغرس الخير يحظى بمعسول ثمره ، ومن يزرع الشرّ يصلى بممرور ريعه ؛ والله تعالى يقول : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ .

وأمره أن يصون أموال الخراج وأثمانَ الغلّات ، ووجوه الجبايات ، موفّرا ، ويزيد ذلك مثمّرا ، بما يستعمله من الإنصاف لأهلها ، وإجرائهم على صحيح الرّسوم فيها : فإنه مالُ الله الذي به قوّة عباده ، وحمايةُ بلاده ، ودرور حلبه ، وآتصالُ

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة و"المثل السائر" وهي من سقط الناسخ .

(٢) كذا في "المثل السائر" أيضا وفي "الرسائل" «في حرفه» .

مَدَده؛ وبه يُحَاط الحريم، ويُدْفَع العَظِيم؛ ويُحمىٰ الذِّمار، وتُذَاد الأَشْرار. وأن يجعل آفتتاحه إيَّاه بحسَب [إدْراك](١) أصــنافِه، وعند حُضُور مَواقيتِـه وأحْيـانِه؛ غير مستَسْلِف شيْئا قَبْلها، ولا مؤَخِّر لها عنها؛ وأن يُخُصَّ أهلَ الطاعة والسلامةِ بالتَّرْفيه لهم، وأهلَ الآستِصْعاب والآمْتِناع بالتشدُّد عليهم: لئلا يقَع إرهاقٌ لِمُذْعِن، أو إهمالٌ لطامع. وعلىٰ المتولِّي لذٰلك أن يضَع كُلًّا من الأمرِيْنِ مَوْضِـعَه، ويُوقِعه مَوْقِعه؛ متجنِّبا إحلَال الغِلْظة بمن لايستَحِقُّها، وإعطاءَ الفُسْحة لمن ليس من أهْلِها؛ والله تعالىٰ يقول: ﴿ وأَنْ لَيْسَ للإِنْسَانِ إِلَّا ما سَعىٰ وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمَّ يُجْزاهُ الجَزَاءَ الأَوْفىٰ ﴾.

وأمره بأن يتخيَّر عُمَّــاله علىٰ الأعشار، والخَرَاج، والضِّـيَاع، والجَهْبَذَة، والصَّدَقات، والجَوَالى، من أهل الظَّلَف والنَّزاهة، والضَّـبْط والصِّيانة، والجَزَالة والشَّهَامة؛ وأن يستظْهِرَ مع ذٰلك عليهم بوصيَّةٍ يُوعِيها أسماعَهُم، وعُهودٍ يقَلِّدها أعناقَهم؛ بأن لايُضَيِّعوا حَقّا، ولا يأكُلُوا سُحْتا، ولا يستعْمِلُوا ظُلْما، ولا يُقارِفُوا غَشْما. وأن يُقِيموا العِمَارات، ويحتاطُوا [علىٰ الغَلَّات](٢) ويتحَرَّزُوا من تَرْك حقٍّ لازم أو تعطيلِ رَسْمٍ عادل؛ مؤدِّين فى جميع ذٰلك الأمانه، مجتَنِبين للخيَـانه. وأن يأخُذُوا جَهابِذَتَهُم باسْتِيفاء وَزْن المال علىٰ تَمَامه، وآستِجادةِ نَقْده علىٰ عِيَاره؛ وآستعمالِ الصِّحَّة فى قَبْض مايَقْبِضُون، وإطْلاقِ مايُطْلِقُون. وأن يُوعِزُوا إلىٰ سُعاة الصَّدَقات بأخْذ الفرائض من سائمة مَواشِى المسلمين دُونَ عاملتها، وكذٰلك الواجبُ فيها؛ وأن لايجمَعُوا فيها متفرِّقًا ولا يفرِّقُوا مجتَمِعا، ولا يُدْخِلُوا فيها خارجًا عنها، ولا يُضِيفُوا إليها ماليس

---

(١) من "الرسائل، والمثل السائر".

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة.

منهـا : من فَحْـل إبلٍ أو أَكُولة[(١)] راعٍ ، أو عَقيـلةِ مال ؛ فإذا آجتبَوْها علىٰ حقِّها ، وآستَوْفُوها علىٰ رَسْمِها ، أخرجُوها فى سبِيلها ، وقَسَّموها علىٰ أهْلهـا الذين ذكرهم الله تعـالىٰ فى كتابه ، إلّا المؤلَّفـة قلوبُهم الذين سقَط سَهْمُهم ، فإنَّ الله تعـالىٰ يقول : ﴿ إنَّمـا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَسَاكِينِ والْعَامِلِينَ علَيْها والْمُؤَلَّفَة قُلُوبُهُـمْ وَفِى الرِّقَاب والْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وآبْنِ السَّبِيل فَرِيضَةً مِنَ اللهِ واللهُ عليمٌ حَكِيم ﴾ . وإلىٰ جُباة [جَمَاجِم][(٢)] أهل الذِّمَّة أن يأخُذُوا منهم الجزْيةَ فى المحرَّم من كل سنة [بحسَبِ][(٢)] منازِلهم فى الأحوال ، وذاتِ أيْديهـم فى الأموال ؛ وعلىٰ الطَّبَقات المُطَبقة فيها ، والحُـدُود [المحدودة][(٢)] المعهُودةِ لهـا ؛ وأن لا يأخُذُوها من النساء ، ولا ممن لم يبلُغ الحُـلُمَ من الرجال ، ولا من ذى سِنٍّ عاليه ، ولا ذى عِلَّة باديَه ؛ ولا فقيرٍ مُعْدِم ، ولا مترَهِّب متبَتِّل ؛ وأن يُراعىَ جماعة هٰؤُلاء العُمَّال مراعاةً يُسِرُّهاو يُظْهِرها ، ويُلاحظُهم مُلاحظةً يُخْفِيها ويُبْدِيها : لئلّا يزُولُوا عن الحـقِّ الواجب ، أو يعْدِلُوا عن السَّنَن اللّاحب ؛ فقد قال تعـالىٰ : ﴿ وأَوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولا ﴾ .

وأمره أن يَنْدُبَ لعَرْض الرجال وإعْطائهـم ، وحِفْظ جِراياتهم وأوْقاتِ إطْعامهم ، مَنْ يَعْرِفه بالثِّقة فى متَصَرَّفه ، والأمانة فيما يَجْرِى علىٰ يَدِه ، والبُعْـد عن الإسْفاف إلىٰ الدَّنِيَّه ، والاَتِّباع للدناءة ؛ وأن يبعثَه علىٰ ضبط [حِلىٰ][(٣)] الرجال وشِيَاتِ الخيل ، وتجْديد العَرْض بعـد الاَستِحْقاق ، وإيقاع الاَحتياط فى الإنفاق ؛ فمن صَحَّ عَرْضُه ولم يبْقَ فى نفْسه شىءٌ منه : من شكٍّ يعْرِض له ، أو ريبةٍ يتوهَّمُها ، أطلق أموالَهُم موفُوره ، وجعلها فى أيديهم غير مَثْلُومه ؛ وأن يرُدَّ علىٰ بيت المـال أرزاقَ من

(١) أكولة الراعى مايسمنها للأكل .

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة .

(٣) الزيادة من "رسائل الصابى" .

سقط بالوفاة والإخلال، ناسبًا ذلك إلى جهته، ومُوردا له على حقيقته. وأن يطالب الرجالَ بإحضار الخيلِ المختاره، والآلاتِ المستكمَلة المستعمَلة على ما تُوجبه مبالغُ أرزاقهم، وحَسَب منازلهم ومراتبهم؛ فإن أخّر أحدُهم شيئا من ذلك قاصّه به من رِزْقه، وأغرمه مثلَ قيمتِه؛ فإنّ المقصِّر فيه خائنٌ لأمير المؤمنين، ومخالفٌ لرب العالمين؛ إذ يقول الله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وأمره أن يعتمدَ فى أسواقِ الرقيق ودُورِ الضَّرْب والحِسْبة والطُّرُز، على من تجتمع فيه آلاتُ هذه الوِلايات: من ثقةٍ ودِرايه، وعِلْمٍ وكفَايه، ومعْرِفةٍ ودرابة، وتَجْربة وحُنْكه، وحَصَافة ومُسْكه؛ فإنها أحوالٌ تُضارع الحُكْمَ وتُناسبُه، وتُدانيه وتقاربُه. وأن يتقدَّمَ إلى وُلَاة أسواقِ الرقيق بالتحفُّظ فيمن يُطْلِقون بيْعه، ويُمْضُون أمره؛ والتحرُّز من وُقُوع تَجوّزٍ فيه، وإهمالٍ له؛ إذ كان ذلك عائدًا بتحصينِ الفُرُوج، وتطهيرِ الأنْساب. وأن يُبْعِدوا عنه أهلَ الرِّيبه، ويُقرِّبُوا أهلَ العِفَّه؛ ولا يُمْضُوا بيعًا على شُبْهه، ولا عَقْدا على تُهَمه. وإلى وُلَاة العِيار، بتخليص عَيْنِ الدِّرهم والدينار: ليكونا مَضْروبين على البَراءة من الغِشّ، والنَّزاهة من المَشّ(١)؛ وبحسَبِ الإمام، المقرَّر بمدينة السَّلام؛ وحِراسةِ السِّكّك من أن تتداولها الأيْدى المُدْغِله، وتتناقَلَها الجهاتُ الظَّنِينه(٢)؛ وإثباتِ ٱسْمِ أمير المؤمنين على ما يُضْرَبُ منها ذَهَبا وفِضّة، وإجراء ذلك على الرَّسْم والسنَّه. وإلى وُلَاة الطُّرُز بأن يُجْرُوا الاستعمالَ فى جميع المَنَاسج على أتم النِّيقه(٣)، وأسلم الطَّرِيقه، وأحكَم الصَّنْعه، وأفضلِ الصِّحه؛

(١) المش الخلط حتى يذوب. انظر القاموس

(٢) لعله معناه المعادية ففى اللسان ج ١٧ ص ١٤٥ الظنين المعادى لسوء ظنه وسوء الظن به. وفى الأصل «المثبتة» وفى المثل السائر المنبية والتصحيح من رسائل الصابي.

(٣) النيقه الاسم من تنوق فى الأمر إذا تأنق فيه.

وأن يُثبِتُوا آسْمَ أمــير المؤمنين علىٰ طُرُز الكُسَا ، والفُرش والأعلام والبُنُود .
وإلىٰ وُلَاة الحِسْبة بتصَفُّح أحوالِ العوامّ فى حِرَفِهم ومَتَاجرهم ، ومجتَمع أسواقِهم ومعاملاتهم ؛ وأن يُعايِرُوا المَوَازِينَ والمَكَاييل ، ويفْرِزوها علىٰ التعْـدِيل والتكميل ؛ ومن آطَّلعُوا منه علىٰ حِيلةٍ أو تلْبِيس ، أو غِيلةٍ أو تدْليس ؛ أو بَخْس فيما يُوفِيــه ، أو آســتِفْضال فيما يَسْـتَوْفيه ، نالُوه بغلِيظِ العــقُوبة وعَظِيمها ، وخَصُّوه بوَجِيعها وأليمها ؛ واقِفِيــنَ به فى ذٰلك عند الحدّ الذى يَرَوْنه لذنبه مُجازِيا ، وفى تأديبه كافيًا فقـــد قال الله تعــالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا آكْتَالُوا علىٰ النَّــاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

هــذا عهدُ أميرِ المؤمنِينَ إليكَ ، وحُجَّته عليك ؛ وقد وقَفَك به علىٰ سَوَاء السبيل ، وأرشَــدَك فيه إلىٰ واضِح الدَّليل ؛ وأوسَعَك تعلِيما وتَحْكِيما ، وأقْنَعك تَعرِيفا [وتفْهِيما](١) ولم يَأْلُكَ جُهْــدا فيما عَصَمك وعَصَم علىٰ يَدِك ، ولم يَدَّخِرْك مُمْكِنا فيما أصْـلَح بك وأصْلَحك ؛ ولا تَرَك لك عُذْرا فى غَلَطٍ تَغْلَطُه ، ولا طرِيقًا إلىٰ مُتورَّطٍ تتورّطه ؛ بالغًا بكَ فى الأوامِر والزَّواجِر إلىٰ حيثُ يلزَمُ الائمّةَ أن يَنْدُبوا الناسَ إليه ، ويَحُثُّوهم عليه ؛ مقيمًا لك علىٰ مُنْجِيَات المسالك ، صارفًا بك عن مُرْدِيَات المَهَالك ؛ مُرِيدًا فيك ما يُسَلِّمك فى دِينِك ودُنْياك ، ويَعُود بالحظّ عليك فى آخِرَتك وأُولَاك ؛ فإن آعتدَلْتَ وعَدَلْتَ فقــد فُزْتَ وغَنِمْتَ ، وإن تجانَفْتَ وآعْوجَجْتَ فقــد خَسِرْتَ ونَدِمْتَ ؛ والأَوْلىٰ بك عند أميرالمؤمنين مع مَغْرِسك الزَّاكى ، ومَنْبِتِك النامى ، وعُودك الأنجَب ، وعُنْصُرك الأطيب ، أن تكون لظَنِّه بك محقِّقا ، ولمَخِيلته فيك مُصَدِّقا ؛ وأن تستَزِيد بالأثَرِ الجميل قُرْبًا [من رب العالمين](١) وثوابا يومَ الدين ؛ وزُلْفىٰ عند أمير المؤمنين ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة .

وثناءً حسنا من المسلمين ؛ فخُذْ مانبَذ إليك أميرُ المؤمنين من معَاذيرِه، وأَمْسك بيدك علىٰ ماأعْطىٰ من موَاثيقه، وٱجعلْ عهده [هـذا](١) مثـالًا تحتَذيه ، وإماما تقْتفيه ؛ وٱستعِنْ بالله يُعِنْك ، وٱستهْدِه يَهْـدِك ، وأخلص إليه فى طاعتِه، يُخْلِص لك الحظَّ من معُونتــه ؛ ومهما أشـكَلَ عليك من خَطْب ، أو أعضَـل عليك من صَعْب ، أو بهرَك من باهِر ، أو بهَظك من باهِظ ، فاكتُبْ إلىٰ أمير المؤمنــين به مُنْهيـا ، وكن إلىٰ مايرد [من جوابه](١) عليك مُنْتَهيا، إن شاء الله تعالىٰ . والسـلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه .

[وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر يومَ الأحد لثلاثَ عَشْرةَ ليلةً خلتْ من جُمادىٰ الأولىٰ سنة ست وستين وثلثمائة](١) .

⁂

وعلىٰ هـذا الأُسلوب كتب أمينُ الدين أبو سعيد، العَلَاءُ بن وَهْب بن مُوصَلَايا عن القائم بأمر الله عهدَ أمير المسلمين يُوسفَ بن تاشفين، بسلْطنة الأندلُس وبلادِ المغرب، بعد العشرين والأربعمائة، فيما رأيتُه فى ترَسُّل ٱبن مُوصَلايا المذكور .

وهذه نسختُه بعد البسملة الشريفة :

هـذا ماعَهِد عبدُ الله ووَليُّه ، عبـدُ الله القائمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين ، إلىٰ فلان حينَ ٱنتهىٰ إليه ماهُو عليه من ٱدِّراع جلَابيب الرَّشاد ، فى الإصْـدار والإيراد ؛ وٱتِّباع سَنَن من أبدْىٰ وأعاد، فيما يجْمَـع خيْرَ العاجِلَة والمَعَاد، والتخصيص من حَميد الأنْحاء والمَذاهب، بمـا يستَمِدّ منه أصنافَ الآلاء والمَوَاهب ، والتحَلِّي من السَّداد

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" .

الكامل ، بمـا فازَ فيه بامتطاء الغاربِ من الجمَـال والكاهل ؛ وآتَّضَح ماهو متشَبِّث به من صِحَّة الدِّين واليقِين ، والمُواظبة من آكتِساب رضا الله تعالىٰ علىٰ ماهو أقْوىٰ الظَّهِير والمُعِين ، فى ضِمْن ماطَوىٰ عليه ضُلُوعَه ، وأدَام لَهَجَه به ووَلُوعه : من مُوالاة لأمير المؤمنين يَدِينُ الله تعالىٰ بهـا ، و يرجُو النجاةَ من كل مَخُوف بآستحكام سَعْيِها ؛ ومشايعةٍ لدوْلتـه ساوىٰ فيها بين ماأظْهَر وأَسَرّ ، وأمَّل فى آجتِناء ثمرها كلَّ ما أَبْهَج وسَرّ ؛ فولَّاه الصَّلاةَ بأعمال المَغْرب ، والمعاونَ ، والأحْداث ، والخرَاج ، والضِّياع ، والأعْشارَ ، والجَهْبذَة [(١)] ، والصَّدقاتِ ، والجَوَالِىَ ، وسائرَ وجُوه الجِبَايات ، والعَرْض ، والعَطاء ، والنَّفقةَ فى الأولياء ، والمَظَالِم ، وأسواقَ الرقيق ، والعِيارَ فى دُور الضَّرْب ، والطُّرُز ، والحِسْبة ، ببلاد كذا وكذا : سُكونًا إلىٰ آستِقلاله بأعْباء ماآستَكْفاه إيَّاه ، وآستقباله النعمةَ عليه فى ذٰلك بكلِّ ماينْشُر ذكْرَه و يُطِيب رَيَّاه ؛ وثِقةً بكونه للصَّنيعة أهلا ، و بأفْياء الطاعةِ الإماميَّـة مستَظِلّا ؛ وتَوْفرةً علىٰ مايزيدُه بحضرة أمير المؤمنين حُظْوة تُردّ باعَ الخطوب عنه قَصِيرا ، وتُمدّ مقاصِدَه من التوفيق بما يَضْحىٰ له فى كلِّ حالةٍ نصـيرا ؛ وعلْما بمـا فى آصْطِناعه من مصلحةٍ تَسْتنير أهِلَّتُها ، وتستَبِين من شُبه الغيِّ شواهِدُها وأدلَّتها ؛ والله تعالىٰ يَصِل مَرامِىَ أمير المؤمنين بالإصابة ، ويُعِينه علىٰ ما يُقِرُّ كلَّ آمرئ فى حقِّه ويُحِـلُّه نِصابه ؛ ويُحْسِن له الخِطْرةَ فى كلِّ ما يَغْـدو له مُمْضيا ، ولمَطَايا الآجتهادِ فى فعله مُنْضِيا ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلّا بالله ، عليه يتوكل وإليه يُنِيب .

وأمَرَه بآعتماد تَقْوىٰ الله تعـالىٰ فى الإعْلان والإسْرار ، وآعتقاد الواجِب من الإذعان بفَضْلها والإقْرار ؛ وأن يَأْوِىَ منها إلىٰ أمْنَع المَعاقل وأحْصَنها ، ويَلْوِىَ عِنانَ

(١) عبارة عن نقد الذهب والفضة .

الهدىٰ فيها إلىٰ أجمل المقاصد وأحسنها ؛ ويجعلها عمدته يوم تعدم الأنصار ، وتشخص الأبصار : ليجتني من ثمرها مايقيه مصارع الخجل ، ويجتلي من مطالعها مايؤمنه من طوارق الوجل ؛ ويرد بها من رضا الله تعالىٰ أصفىٰ المشارب ، ويجد فيها من ضوالّ المنىٰ أنفس المواهب : فإنها أبقى الزاد ، وأدعىٰ فى كل أمر إلىٰ ورى الزناد ؛ وقدخص الله بها المؤمنين من عباده ، وحضّ منها علىٰ ماهو أفضل عدّة المرء وعتاده ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ يٰأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

وأمره أن يأتمّ بكتاب الله تعالىٰ مستضيئاً بمصباحه ، مستضيماً لسلطان الغيّ بالوقوف عند محظوره ومباحه ؛ ويقصد الاستبصار بمواعظه وحكمه ، والاستدرار لصوب التوفيق فى الرجوع إلىٰ متقنه ومحكمه ؛ ويجعله أميراً علىٰ هواه مطاعاً ، وسميرا لايرىٰ أن يكشف عنه قناعا ؛ ودليلاً إلىٰ النجاة من كل مايخاف أثامه ، وسبيلاً إلىٰ الفوز فى اليوم الذى يسفر عن فصل الحساب لثامه ؛ ويتحقق موقع الحظّ فى إدامة درسه ، وصلة يومه فى التأمل بأمسه ؛ فإنه يبدى طريق الرشد لكل مبدئ فى العمل به معيد : ﴿ وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

وأمره أن يحافظ علىٰ الصلوات قائماً بشروطها وحدودها ، وشائما بروق التوفيق فى أداء فروضها وحقوقها ؛ ومسارعاً إليها فى أوقاتها بنيّة عائفة مناهل الكدر والرنق ، عارفة بما فى إخلاصها من نصرة الهدىٰ وطاعة الحق ؛ وموفرا عليها من ذهنه ، ما الحظّ كامن فى طيّه وضمنه ؛ وموفيا لها من الركوع والسجود ، ماالرشاد فيه صادق الدلائل والشهود ؛ متجنبا أن يلهيه عنها من هواجس الأفكار ، ووساوس القلب

العُونِ منها والأَبْكار، مايَقف فيه مَوْقِفَ المُقَصِّر الغالط ، ويَنْزِل فيه مَنْزِلةَ الجاحد للنِّعم الغامِط ، وقدأمر اللهُ تعالىٰ بها وفَرَضها علىٰ المؤمنين وأوجبَها وحَثَّ من إقامتها، علىٰ مايُفْضِى إلىٰ صلاح المَقاصد وآستقامتها، فقال عزَّ من قائل: ﴿ فأَقِيمُوا الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ علىٰ المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتا ﴾ .

وأمره بالسَّعْى فى أيام الجُمَع إلىٰ المساجد الجامِعـه، وفى الأعْياد إلىٰ المُصَلَّيات الضاحِيه، بعْدَ أن يتقدّمَ فى عِمارتها، وإعدادِ الكِسْوة لها، بما يؤدِّى إلىٰ كَمال حِلَاها، ويُحْظِى من حُسن الذكر بأعذَبِ الموارد وأحْلَاها، ويُوعِزَ بالآستكثار من المكَبِّرين فيها والقُوّام، وترتيبِ المصابيح العائدةِ علىٰ شَمْل جَمَـالها بالآتِّساق والآنْتِظام : فإنها بُيوتُ الله تعـالىٰ التى تُتْلىٰ بها آياتُه، وتُعْلىٰ فيهـا أعلامُ الشَّرْع وراياتُه . وأن يُقيم الدعوةَ علىٰ مَنَابرها لأمير المؤمنين ، ولوَلِىّ عهْده العُدّة للدِّين ، أبى القاسِم عبد الله آبن محمدٍآبنِ أميرِالمؤمنين، أدام اللهُ تعالىٰ به الإمتاع، وأحسَن عن ساحَتِه الدِّفاع، ثم لنَفْســه جاريا فى ذٰلك علىٰ ماأُلِفَ من مثله ، وسالكًا منه أقومَ مَسالك الآهتداء وسُــبْله ، وقد بيَّن اللهُ تعـالىٰ ما فى عِمارتها من دلائل الْإيمـان، والفوزِ بمـا يُعطِى من سُخْط الله تعالىٰ أوثَقَ الأمان ، فى قوله سـبحانه : ﴿ إنَّمَـا يَعْمُرُ مَساجدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتىٰ الزَّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلَّا اللهَ فَعَسىٰ أُولٰئِكَ أنْ يَكُونُوا من المُهْتَدِين ﴾ . وقال فى الحثِّ علىٰ السعى إلىٰ الجوامع التى يُذْكَر فيها آسْمُه، ويَظْهر عليها مَنَارُ الإسـلام ورَسْمُه : ﴿ يأَيُّها الذين آمَنُوا إذا نُودِىَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلىٰ ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

وأمره أن يعتمدَ فى إخراج الزكاةِ ما أمر اللهُ تعالىٰ به ، وهَدىٰ منه إلىٰ أرْشَـدِ فعْـلٍ وأصوَبِه، ويقومَ بذٰلك القيامَ الذى يُحْظيــه بجميل الذِّكر، وجَزيل الأجْر،

ويشهدُ له بزكاء المَغرِس وطِيب النَّجْر، ويقصِدَ فى أداء الواجب منه مايصِلُ أمْسَه فى التوفيق بيَوْمِه ، ويُطْلِقُ الألسـنة بحَمْده ويكُفُّها عن لَوْمه ؛ متجنِّبا من إخلالٍ بمـا نُصَّ عليه فى هذا الباب، أو إهمالٍ فيه لمـا يَلِيق بذَوِى الدِّيانة وأُولى الألْباب؛ ومتوَخِّيا فى المسارَعة إليه مايتطَهَّر به من الأدْناس، ويتوفَّر به حُسنُ الأُحْدوثة عنه بين الناس ؛ فقد جعل اللهُ تعـالىٰ الزكاةَ من الفُروض التى لاسبيلَ إلىٰ المَحِيد عنها، ولا دليلَ فى الفَوْز أَوْفىٰ منها ؛ وأمر رسولَه صلّى الله عليه وسـلم بأخْذها من أُمَّته ، وأبان عن كَوْنِها ممـا يُجْتنىٰ كُلُّ مرغوبٍ فيـه من ثَمرتِه؛ ووصلَ الأمْرَ له فى ذلك بمـا يوجب فضلَ المسابقة إلىٰ قَبُوله : لمـا فيه من الحظّ الكاملِ فىاستنارة غُرَره وحُجُوله ، فى قوله سبحانه : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وتُزَكِّيهِمْ بِهَا وصَـلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ .

وأمره أن يُهَذِّب من الدَّنَس خِلاَلَه ، ويَصِلَ بأقوالِه فى الخيرِ أفْعالَه ؛ ويمتنِـع من تلبيةِ داعِى الهوىٰ المُضلّ، ويَتّبِـعَ سَنَن المتفَيِّئ بالهُدىٰ المستظِلّ؛ ويَقْبِضَ يدَه عن كل محرَّم تُوثِقُ أشراكُه وتُوبِقُ غوائلُه ، وتُؤْذِن بسُوء المنقَلَب شواهِـدُه ودلائلُه ؛ ويجعَلَ له من نَهاره رقِيباً علىٰ نَفْسـه يصُونُها عن مَرَاتع الغَىّ ومَطَارِحه ، وأميناً يصُـدُّ عن مَسارب الإثْم ومَسَارِحه ؛ فإنَّها لاتزالُ أمّارةً بالسُّوء إن لم تُقَد إلى جَدَد الرَّشَد ، وتُقَمْ لها سُوقٌ من الوَعْظ يبلغُ فيها أقصىٰ الغاية والأمَد ؛ فالسعيدُ مَنْ أضحىٰ لهـا عِنْد سَوْرة الغَضَب وازِعا، وأنحىٰ عليها بلَوْم يغْدُو معه عن كلِّ مايُسْخِطُ اللهَ تعـالىٰ نازِعا، وأن يتنزَّه عن النَّهْى عمَّا هو له مُرْتَكِب، والأمْرِ بمـا هو له مجتَنِب : إذ كان ذلك بالهُجْنة حاليـا ، وبينَ المَـرْء وبينَ مقاصِـد هَدْيه حائلا ، قال الله تعـالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّـاسَ بِالْبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُون ﴾ .

وأمره أن يُضْفِيَ علىٰ مَنْ قِبَلَه من أولياء أمير المؤمنين وجُنودِه، أصْنافَ جَلابِيبِ الإحسان وبُرُوده؛ ويُخصّهم من جزِيل حِبائه بمـا يَصِلُون منه إلىٰ أبْعَـد المَدَىٰ، ويمْلِكُون به نَواصِيَ الآمالِ ويُدْرِكُون قَواصِيَ المُنىٰ؛ ويميِّز من أدّىٰ واجِبَه فى الطاعة وفَرْضَه وأبْدَى صَفْحَته فى الغَنَاء بين يديه بمَزِيدٍ من الآشتمال يُرْهِف بصيرَة كلٍّ منهم فى التوفُّر علىٰ ماوافَقَه، ووصَـل بآنِفِه فى التقرُّب إليه سابِقَـه، ويَدْعُو المقصِّرَ إلىٰ الآستِبْصار فى آعتماد مايَلْحق فيه رتْبَةَ من فازت فى الحَظْوة قِداحُه، وفاتَت الوصفَ غُرَرُه فى الزُّلْفَـة وأوْضـاحُه : ليَمْرَح به فى الآغتِذاء بلِبَان النِّعمه، كما آنْتَهَج جَدَده فى إحسانِ الخِدْمه . وأن يَرْجِع إلىٰ آراء ذَوِى الحُنْكَة منهم مستَضِيئًا بها مسترْشِدا، وطالبًا ضَوالَّ الرأْيِ الثاقِبِ ومُنْشِدا؛ وقد بيَّن الله فضْلَ المَشُورة التى جعلها للألباب لِقَاحا، وفى حَنادِس الشُّكوك مِصْباحا؛ حيثُ أمر رسولَه صلّى الله عليه وسلم بها، وبعَثَه منها علىٰ أسَـدِّ الأفعال وأصْوَبِها، فقال تعـالىٰ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ ﴾ .

وأمره أنْ يعدلَ فى الرَّعايا قِبَله، ويُحِلَّهم من الأمْن هِضابَه وقُلَله؛ ويَمْنَحُهُمْ من الآشتمـال، مايَحْمِى به أمُورَهم من الآختِـلال، ويَحْوِى به من طِيبِ الذِّكْر بحسَب ما آكتَسَب من رَضِيِّ الأَنْحاءِ والخِلَال؛ ويُضْفِيَ علىٰ المُسْلِم منهم والمُعاهَد من ظِلِّ رعايتِه مايُساوِى فيه بين القَوِىّ والضَّعيف، ويُلْحِقُ التليدَ منهم بالطَّرِيف : ليكونَ الكلُّ وادِعِين فى كَنَف الصَّوْن، راجعِين إلىٰ الله تعالىٰ فى إمدادهم بالتوفيقِ وحُسْن الطاعة والعَوْن . وأن ينظُرَ فى مَظَالمهم نظَرا ينصُر الحقَّ فيه، وينْشُر عَلَم العدل فى مَطَاوِيه؛ ويُنْصِفَ معه بعضَهم من بعضٍ، ويُنْصِبَ(١) به لهم من آهْتِمامه أسْـنىٰ قِسْمٍ وحَظّ؛ مُلِينًـا لهم فى ذلك جانِبَـه، ومُبِينا مايَظَلُّ به كاسِبَ الأجْرِ وجالِبَـه؛

(١) يقال أنصبه جعل له نصيبا . انظر اللسان والقاموس .

ويُزِيل عنهم ماشَرَعه ظلَمَةُ الغلْمان بتلك الأعمال، ويديل من تِلْكَ الحال باستئناف مايُوطِئُهم كواهِلَ الآمال، جامعًا لهم بين العـدْل والإحسان، وجاعلًا أمْرَ الله تعالىٰ فى ذلك مُتلقًّى بالطاعةِ الواضحةِ الدليل والبُرْهان، قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَـدْل والْإحْسانِ وإيتاءِ ذِى القُرْبىٰ ويَنْهىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لعلَّكُمْ تَذَكَّرُون ﴾ .

وأمره بأن يكُونَ بالمعْروف آمِرا ، وعن المنْكَر زاجِرا، ولله تعـالىٰ فى إحياءِ الحقّ وإماتةِ الباطل مُتاجِرا . وأن يشُدّ من الساعين فى ذلك والدَّاعين إليـه ، ويعُدَّ القيامَ بهذه الحال من أفضل مايتقرَّب به إلىٰ الله تعالىٰ يوم العَرْض عليـه . ويتقدّمَ بتعطيل ما فى أعمـاله من المواخير ودَحْضها ، وإزالة آثارها ومَحْوِها ؛ فإنها مواطنُ بالمَخازى آهِـلَهْ، ومن مشارِبِ المَعَاصى ناهِلَه ؛ قد أُسِّسَتْ علىٰ غير التَّقوىٰ مبَانيها ؛ وأُخْلِيتْ من كل ما يُرْضِى اللهَ تعالىٰ مَغَانِيها ؛ وقد أبانَ اللهُ تعالىٰ عن فضـل الطائفة التى ظَلَّت بالمعروف آمِرَةً وعن المنكَر ناهِيه ، وضَنَّت بمـا تُرىٰ فيه عن مَقاصد الخير ذاهلةً لاهيَهْ، فقـال : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ .

وأمره أن يُرتِّب لِحمـاية الطُّرُقات مَنْ يجمع إلىٰ الصَّرامة والشَّهامه، سُلُوكَ مَحَاجِّ الرَّشاد والاستِقامه، ويجعلُ التعفُّفَ عن ذَمِيم المَراتع شاهدًا بتوفيق الله إيَّاه، وعائدًا عليه بمـا تُحْمَد مَغَبَّته وعُقْباه، ويأْمُرَ بحِفْظ السابلَه، واختِصاصِهم بالحِراسة السابِغة الشامله ؛ وحِمَـاية القَوافل واردةً وصادرَه، واعتمادِها بمـا تَغْـدُو به إلىٰ السـلامة مُفْضِيةً صائِره : لتُحْرَس الدماءُ مما يُبِيحُها ويُرِيقها، والأموالُ ممـا يُقْصَد فيه سبيلُ الإضاعة وطرِيقُها. وأن يخوِّفَهُم نتائِجَ التقصير، ويعرفَهُم مَنَاهِج التَّبْصير، وأنَّ عليهم

رُقبـاءَ يلاحظُون أمُورَهم ويُوضِّحُونها : ليكون ذٰلك داعيـًا إلىٰ التحوُّط والتحرُّز، وآعتمادِ الميل إلىٰ جانب الصِّحَّة والتحيُّز، ويُوجِبَ لهم من بعْدُ مايكْفِي أمثالَهُم مثلهُ، ويكفَّ أيديهـم عن الآمتـداد إلىٰ ما تُذَمُّ سـبله ؛ فإنْ أخلّ أحدُهم بما حُدَّ له، أو مَزَج بالسُّوء عمَلَه، جَزاه بحسَب ذٰلك ومُوجِبِه . قال الله تعالىٰ : ﴿ مَنْ يعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ .

وأمره أن يتقدّم إلىٰ نُوّابه فى الأعمال بوَضْع الرَّصَـد علىٰ من يجْتاز بها من العبيد الأُبَّاق، والاستظهارِ عليهم بحسَبِ العَدْل والآستِحْقاق ؛ وآسـتِعْلام أماكِنِهم التى فَصَـلُوا عنها، ومواطنِهم التى بَعُدُوا منها ؛ فإذا وضَحَتْ أحوالُهم وبانَتْ، وآنحسمَتْ الشُّـكُوكُ فى بابِهـم وزالَتْ، أعادُوهم إلىٰ مَواليهم أبَوْا أم شاءُوا، وأصْـفَوْا نيّاتِهم فى الرُّجُوع إليهم أم شَابُوا . وأن يقصِدُوا إنشادَ الضَّوالّ، ويجتهدُوا من إظهار أمْرِها بمـا يغْدُو جمالُ الذِّكر به فى الظِّلال ؛ ويتجنَّبُوا أن يَمتطُوا ظهورَها بحال، أو يمُدُّوا أيدِيَهم إلىٰ منافِعِها فى إسرارٍ وإعْلان ؛ حتّىٰ إذا حضَرَ أربابُها سُلِّمت إليهم بالنُّعوت والأوصاف ، وأُجْرِيَ الأمرُ فى ذٰلك علىٰ مايَضْحىٰ به علَمُ العـدْل عالِيَ المَنَـار حالِيَ الأَعْطاف ؛ فقد أمر اللهُ تعالىٰ بأداء الأمانات إلىٰ أهلها ، وهدىٰ من ذٰلك إلىٰ أوْضح مَحَاجِّ الصِّحَّة وسُبْلها ، فقال : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأمَانَاتِ إلىٰ أهْلِهَا وَإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَدْلِ ﴾ .

وأمره أن يختار للنظَر فى المَعَاوِن والأجلاب من يرْجِع إلىٰ دينٍ يحميه من مَهاوى الزَّلَل وصَلَف (١) عن مَدِّ اليدِ إلىٰ أسباب المَطَامع ، وكَلِفٍ بمـا يعُود علىٰ ما كُلِّف إيَّاه بصَلاحٍ مُشْرِق المَطَالع ؛ ومعرفةٍ بما وُكِل إليه كافيةٍ وافِيه، ولمـا يُوجِبُ الآستزادة (٢) له

(١) لعله بالظاء المشالة بمعنى الكف . تأمل .

(٢) لعله الاستزراء أى الزراية عليه والتهاون به .

ماحيةٍ نافيَه، ويُوعِزَ إليهم بالتشميرِ فى طلَب الدُّعَّار، من جميع الأماكن والأقْطار، وحَسْمِ موادِّ العـار فى بابِهم والمَضَار . وأن يُمْضُوا فيهم حُكمَ الله بحسَب مقاصدهم فى الضَّلال ، وتُجرىٰ أمورُهم علىٰ قانون الشرع المُنـير فى حَنادِس الظلام ، ممتَنعين أن يُراقِبُوا من لم يُراقِبِ اللهَ تعالىٰ فى فِعْله، ويُجانِبُوا الصوابَ بقَبُول الشَّفاعة فيمن شهِدتْ آثارُه بذَمِيم سُـبْله ؛ وإذا وقَع الظَّفر بجانٍ قد كَشَف فى الغىّ قِناعه، وأظهرتْ مَساعيه إباءَه من إجابةِ داعِى الرَّشَـد وٱمْتِناعَه ؛ أُقيم حدُّ الله تعـالىٰ فيه من غير تَعَدٍّ للواجِب ، ولا تَعَرٍّ من مَلابس السالكين للجَدَد اللَّاحِب، ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وأمره أن يُوعِزَ إلىٰ أصحاب المَعَاوِن بأن يَشُـدّوا من القُضَاة والحُكّام، ويُجِدُّوا فى إجراء أُمُورهم علىٰ أوْفىٰ شُروط الضَّبْط والإقْدام، ويأمُرَهم بحضُور مجَالِسهم لتنفيذ أحكامهم وإمضائِهـا ، والمسارعةِ إلىٰ حَثِّ مَطـايَا التشمير فى ذٰلك وإنْضائِهـا ؛ والتصَرُّف علىٰ أمثِلَتهـم فى إحضار الخُصُوم إذا ما ٱمتنَعُوا ، وسَوْقِهم إلىٰ الواجب إذا زاغُوا عنه وٱنحرَفُوا . وأن يتقدَّم بإمداد عُمَّال الخَراج بمـا يُؤَدّى إلىٰ قوّة أيْدِيهم فى ٱستيفاء مال الفَىْء وٱجتبائه، وٱعتماد ما ينْصُر الحقوقَ فى مَطَاويه وأثْنائه، إذْ كان فى ذٰلك من الصَّلاح الجامع، وكَفِّ المضارّ وحَسْم المَطامِع، ما المَعُونة عليه واجبه، وللتوفيق مقارِنةٌ مصاحِبَهْ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ البِرِّ والتَّقْوىٰ ولا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإِثْمِ والعُدْوَانِ وٱتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب ﴾ .

وأمره بعَرْض من تَضُمُّه الحُبُوس من أهـل الجرائم والجَرائر، وتأَمُّل أحوالِهِم فى المَوارِد والمَصادر، والرُّجُوع إلىٰ متولّى الشُّرْطة فى ذكر صُورة كلٍّ منهم والسبَب فى حَبْسه ، والتعيينِ من ذٰلك علىٰ ما يُعرَف به صِحَّةُ الأمر من لَبْسه ؛ فمَنْ أُلْفِى منهم

للذُّنوب آلِفا، وعن سَـــنَن الصَّواب مُنْحرِفا ، تُرِك بحاله ، وكُفّ بإطالة آعتِقَاله ، عن مَجَالِه فى ميادِين ضَلَاله ؛ وإن وُجِد منهم مَنْ وجب عليه الحَدّ، أقيم فيه بحسَبِ مايقتضِيه الحقّ؛ ومن آعترَضَتْ فى بابه شُبْهة تُجَوّز إسقاطَ الحَدّ عنه ودَرْأَه، آعتمد إلحاقَه فى ذٰلك بمن آتَّصل إليه صَوْب الإحسان ودَرُّه ؛ ومن لم يكن له جُرْم وتظْهرُ صِحَّةُ شاهِده ودليلِه ، قدّم الأمْر فى إطلاقه وتخلِيَة سبيلِه ؛ وإنْ غدا لأحَدِهم سعْىٌ فى الفَساد واضِحٌ وبان، وغَوىٰ به فى مُحاربة الحقِّ وخَان، قُوبِل بما أمر اللهُ تعالىٰ به فى كتابه حيث يقول : ﴿إِنَّمَـا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

وأمره باختيار المرَتَّب للعَرْض والعَطاء، والنَّفـقةِ فى الأوْليـاء، من ذَوِى المعْرفة والبَصـيره، والمشهورِينَ فى العِفَّة بتَساوِى العلانيَـة والسَّرِيره ؛ وممن تحلَّى بالأمانَةِ جِيـدُه ، وآعتضَد بَطرِيفهِ فى الرَّشاد تَليـدُه ؛ وكان بمـا يُسْـنَد إليه قيِّماً ، وفى مقرّ الكِفَاية ثاوِيًا مُخيِّماً . وأن يتقدَّم إليه بضَبْط حِلىٰ الرّجال وشِيَاتِ الخُيُول، وأن يقْصد فى كل وقت من تجديد العَرْض ما يشْهَدُ بالآحتياطِ السابغِ الأهدابِ والذُّيول ؛ فإذا وضح وجْهُ الإطلاق، وَسلِمَ مالُ الآستِحْقاق، كانت التفرقةُ علىٰ قَدْر المنازل فى التقديم والتأخِير، وبحسَبِ الجَـرائد التى تدُلُّ علىٰ الصـغيرِ من ذٰلك والكَبِير ؛ ومتىٰ طرَقَ أحدَهم ماهو محتُومٌ علىٰ خَلْقه، أعاد علىٰ بيتِ المـال من رِزْقه بقدر قِسْطه وحَقِّه. وأن يُلْزِمَهم إحضارَ جِياد الخُيول وخِيارِ الشِّكَك ، ويأخُذهم من ذلك بأوضح مانَهَج المرءُ الطريقَ فيـه وسَلَك ؛ فإنْ أخلَّ أحدُهم بمـا يلزَمُه البروزُ فيـه يوم العَرْض، أو قصَّر فى القيام بالواجب عليه الفَرْض ؛ حاسَبَه بذٰلك من الثابتِ باسْمه ، والمُطلَق

برسْمه، تنبيها له على تلافِى الفارط، وتبصيرًا لغيره فى البُعْد عن مَقامِ المُخْطِئ الغالط، إذ كان فى قُوَّتهم وكمال عُدَّتِهم إرهابٌ للأعداء والأضْداد، و إرهافٌ للبصائر فيما يُؤَدِّى إلىٰ المصالح الوافيـةِ الأعْداد والأَمْداد، قال الله تعـالىٰ : ﴿ وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

وأمره بِاخْتيار عُمَّال الخَرَاج، والضِّـياع، والأعشار، والجَهْبَذَة، والصَّدقات، والجَوَالِى ؛ وأن يكونوا مُحْتَضِنين من الأمانةِ والكِفَاية بمـا يَقَع الاشتِراكُ فى عِلْمه، ومتَقَمِّصين من مَلَابس العِفَّة والدِّراية ماتُحْمَدُ العواقبُ فى ضِمْنه، ومتميِّزين بما يُغْنِيهم عن الأفكار بنتائج الاتِّعاظ والاعْتِبار، ويُغْرِيهم بالاستمرار على السَّنَن المُنْجِى لهم من مَواقِف التنصُّل والاعتِذار . وأن يأمر عُمَّـال الخراج بجِبَاية الأموال، على أجملِ الوُجُوه والأحوال، سالِكينَ فى ذٰلك جَدَدا وَسَطا، يَحْمِى من مَقَام من ضَعُف فى الاستِخْراج أوسَطَا . و [أن يتقدّم] إلىٰ الناظرين فى الضِّياع بتوْفِيَة العِمارة حَقَّها والزراعةِ حَدَّها، والتوفيرِ من حِفْظ الغَلَّات الحاصلة علىٰ مايُقْتَفَىٰ فيه أرشَد المذاهب وأسَدّها، متحرِّزين من أمرٍ يُنْسَبُون فيه إلىٰ العَجْز والخِيانة، فكلٌّ من الحالين مُجْزٍ فى وُضُوح أدلَّة الفساد ومُخْزٍ . و إلىٰ الجهابذة بقَصْد الصحَّة فى القَبْض والتقْبيض، وحِفْظ النَّقْد من التدليس والتلْبيس ؛ أداءً للأمانة فى ذٰلك، واهْتِداءً فيـه إلىٰ أقْوم المَسَالك . و إلى سُعَاة الصدقاتِ بأخذ الفرائض من مَوَاشِى المسـلمين السائمة دُونَ العامله، والجَرْى فى ذٰلك علىٰ السُّـنَّة الكاسبةِ للحَمْدَة الوافيـةِ الكامله ؛ متجنِّبين من أخْذ فَحْـل الإبل وأَكُولة الراعى، وعقائلِ الأموالِ المحظُورة علىٰ سائرِ الأسباب والدَّواعِى؛ فإذا استُوفِيَتْ علىٰ المحدُود من حقِّها، أُخْرِجت فى المَنْصُوص عليه من وجُوهها وسُبُلها . و إلىٰ جُبَاة جَماجِم أهل الذِّمَّة بأخذ الجِزْية منهم فى كلِّ سنة، علىٰ قدر ذات أيديهم فى الضِّيق والسَّـعَه، وبحسَب العادة المألُوفة المتَّبَعه ؛ ممتنعين من

مُطالبة النِّسْوان، ومَنْ لم يبْلُغ الحُلُمَ من الرجال ومنْ علَتْ سِنُّه عن الاِكْتِساب وتبتَّل من الرُّهْبان، ومَنْ غدَا فقْرُه واضِحَ الدليـل والبُرْهان ؛ وفاءً بالعَهْـد المسْئُول، وتلَقِّيًا لأمْرِ الله تعالىٰ بالقَبُول حيثُ يقول : ﴿وأَوْفُوا بِالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولًا﴾ .

وأمره أن يَرُدَّ أمرَ المَظَالم وأسواقِ الرقِيق ودُورِ الضَّرب والطُّرُز والحِسْبة إلىٰ مَنْ عَضَّد بالظَّلَفِ الوَرَع، وآنتظَم له شَمْلُ الهدىٰ وآجتَمَع : فكان ذا معْرِفة بمـا يَحْرُم ويَحِل ، وبصيرةٍ يتفَيَّأُ(١) بها من عَوَارض الشُّبَه ويَستَظِلّ ؛ وأن يكون النظرُ فى ذٰلك مُضاهِيًا لِلْحُكْم ملائِمًا، ولن يَقُومَ به إلَّا مَنْ لا يرىٰ عاذلًا له فى فعله لائِمًا. وأنْ يتقدّمَ إلىٰ من يلى المَظَالم بتسهيل الإذْنِ لِلْخُصُوم فى الدُّخُول عليـه ، وتمكينِ كُلٍّ منهم من آستيفاء الحُجَّة بينَ يَدَيْه، والتوَصُّـل إلىٰ فَصْل مابينَهُم بحسَب مايقُودُ ا لحَقُّ إليـه ؛ وأن يقصِدَ فيما وقَع الخُلْفُ معهم فيه، الكَشْفَ الذى يقُوم به ويَستَوْفِيه ؛ فإنْ وضَح له الحقُّ أنفَـذه وقَطَع به ، وإلا ردّهم إلىٰ مجالس القَضَاء لإمضاء ذٰلك علىٰ مقْتضىٰ الشَّرْع ومُوجَبه . وإلىٰ المرتَّبين فى أسواق الرقيق بالتحفُّظ فيما يُبْتاع ويُبَـاع ، وأن يستعمِلَ فى ذلك الاَقتفاءَ للسُّنَن الجميل والاِتِّباع : ليُؤْمَنَ آختِلاطُ الحُرِ بالعبد، وتُحْرَسَ الأنسابُ من القَدْح والفُروجُ من الغَصْب ؛ فى ضِمْن حِفْظ الأموال، والمَنْع من مَزْج الحرام بالحَلَال . وإلىٰ وُلاة العيَار بتصْفِيَة عيْنِ الدِّرْهم والدِّينار من الغِشّ والإدْغال ؛ وصَوْنِ السِّكَك من تداوُل الأيْدى الغريبةِ لهـا بحالٍ من الأحْوال ؛ متحذِّرين من الاِغْترار بمـا رُبَّمـا وضَح الفسادُ فيه عِنْـد الاعتبار ، وما نعين التُّجَّار المخصوصين بالإيراد ، من كل قولٍ مخالِفٍ للإيثـار فى الصحَّة والمُراد ؛ ومعتَمِدين إجراءَ الأمر فيما يُطْبَع علىٰ القانون بمدينة السـلام، من غير خلافٍ لمسـتَقرِ القاعدة فى ذٰلك ومتَّسق النظام ؛ وأن يثْبَت ذِكْرُ أمير المؤمنين، ووَلِيُّ عهدِه فى المسلمين؛

(١) فى اللسان "فاء الفىء فيأ تحوّل وتفيأ فيه تظلل" .

علىٰ مايُضْرَب من الصِّنفين معا ، والمُسارعةِ فى ذٰلك إلىٰ أفضل مابادَرَ إليه المَرْءُ وسَعىٰ . وإلىٰ المستَخْدَمين فى الطُّرُز بملاحظة أحوال المَنَاسِج والإشرافِ عليها، وأخْذ الصُّنَّاع بالتجويدِ علىٰ العادةِ التى يجبُ الاْنتهاءُ إليها؛ وإثباتِ اسم أمير المؤمنين علىٰ ما يُنْسَج من الكُسا والفُـرُوش والأعلام والبُنُود ، جَرْيا فى ذٰلك علىٰ السَّنَن المرْضِىِّ والمِنْهاج المحْمُود . وإلىٰ من يُراعِى الحِسْـبةَ الشريفةَ بالكَشْف عن أحوال العَوامّ فى الأسـواق ، والاْنتهـاء فى ذٰلك إلىٰ ما يَنْتهِى به شمَـلُ الصَّلاح إلىٰ الاْنتـظام والاْتِّساق؛ وأن يتقدّم [اليهم] بمايجِبُ من تعبير مايختَصُّ بهم من المَكاييل والمَوَازين، وحملِها علىٰ قانُون الصِّحَّة الواضحـة الدلائل والبَراهين ؛ وأن يقْصد تبصيرَهم مواضِعَ الحَظِّ فى الاْستقامه، ويحذِّرَهم مواقِعَ الاْنتقام الذى لاتُفِيد فيه أسبابُ الاْستِصْفاح والاْستقاله ؛ فإنْ عرفَ من أحد منهم إقداما علىٰ إدْغال فيما يَزِن أو يَكيل ، قُوبِل من التأديب بما هو الطريقُ إلىٰ ٱرْتِداعه والسَّبِيل، قال الله تعالىٰ : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ .

وأمره أن يعرِفَ قَدْر النعمة التى ضفَتْ عليه بُرودُها ، وحلَّت جِيدَه عُقُودُها ؛ وزُفَّت منه إلىٰ أَوْفىٰ أكفائِهـا، وحُفَّت بجزيل القِسَم من جميع أكْنافِها وأرْجائها؛ وأن يُقابِلهـا بإخْلاصٍ فى الطاعة يساوِى فيه بين مايُبْـدِى ويُسِر، وسَعْيٍ فى الخدمة يُوفِى علىٰ كل مُجازٍ ومُبِرّ؛ ويَبْدأَ أمامَ مايتوخَّاه بأخْذ البيعة لأمير المؤمنين وولِىِّ عَهْده علىٰ نَفْســه ووَلَده ، وكافَّةِ الأجنـاد والرَّعايا فى بَلَده ؛ عن نيَّة صـفَتْ من الكَدر والقَذىٰ، ووفَتْ للتوفيق بما ضَمِنَتْ من خِذْلان البغْى ونُصْرة الهُدىٰ؛ ويُتْبِـعَ ذٰلك بالحُقُوق فى كل خِدْمة تُرْضِى، والوقُوفِ عند الأوامر الإماميَّـة فى كلّ مايُؤدِّى إلىٰ الوِفاق ويُفْضِى؛ وأن يحمِـلَ إلىٰ حضرة أمير المؤمنين من الفَىْء والغنـائم ما أوْجبَـه

الله تعالىٰ وفَرَضــه ، من غير تأخير لما يجب تقــديمه من ذلٰك ولا تَقْصير منـــه فيما يقتضى التَّلافِىَ والاْسـتِدْراك : ليأمُرَ أمير المؤمنين بصَرْفه فى سبيله المُشارِ إليهــا ، ووُجوهِه المنصوص عليها ، قال الله تعــالىٰ : ﴿ وٱعْلَمُوا أَنَّمَـا غَنِمْـتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القُرْبىٰ وَالْيَتَامىٰ وَالمَسَاكِينِ وَٱبْنِ السَّبِيل ﴾ .

ثم إنَّ أمير المؤمنين آثر أن يُضاعِفَ له من الإحسان ، ما يقْتضـــيه مقامه لَدَيْه من وَجِيه الرتبة والمَكان ، وشَرَّفه بمــا يَرْفُل من حِلاه فى حُلَل الجَمــال ، وتكفَّل له عُلَاه ببلُوغ منْتهىٰ الآمال ، وبوَّأه بمــا أوْلاه مَحلًّا تقْصُر عن الوُصُول إليه الأقْدام ، وتعْجِز عن حَلِّ عُراه الأيَّام ؛ ولقَّبــه بكذا ، وأذِنَـــ له فى تَكْنِيَته عن حَضْرته ، وتأهيله من ذلٰك لمــا يَتجاوَزُ قدْرَ أُمنِيَّته ؛ إنافةً به علىٰ مَنْ هو فى مُسَاجلته من الأقْران طالِـع ، وإضافةً للنِّعمة فى ذاك إلىٰ ما ٱقترَنَ بها فيما هو لشَمْل الفَخْر عنده جامع ؛ وأنفَــذَ لِواءً يَلْوِى به إلىٰ الطاعة أبِىَّ الأعناق ، ويَحْوِى به من العِزِّ ما أنوارُه وافيــةُ الإشْراق .

فتلَقَّ يافلانُـــ هذه الصَّنِيعةَ الغَــرَّاء ، والمِنْحةَ التى أكسبَتْ زِنادَك الإيراء ؛ بِالاْستبشارِ التَّام ، والاْعْتراف فيها بسابِـغ الطَّوْل والإنْعام ؛ وأشِعْ ذكرَ ذلٰك عنــد كلِّ أحد ، وٱنتَهِ فى الإبانة عنه إلىٰ أبْعَــد أمد ؛ وٱعتمدْ مكاتَبةَ حضرة أمير المؤمنين متَسَمِّيا ، ومَنْـــ عَداه متلقِّبًا متكَنِّيا ؛ وتوفَّرْ علىٰ شكرٍ تستدِرُّ به صَوْب المَزِيد ، وتستحِقُّ به إلحاقَ الطَّرِيف من الإحسان بالتَّلِيد ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليْك ، والحُجَّةُ لكَ وعليْكَ ؛ قد أوْضَحَ لك [فيه] الصَّواب ، وأذَلَّ به الجَوامِحَ الصِّعاب ؛ وحَباك منه بموْهبة كفيلةٍ بخَيْرِى البَدْء والمَعَاد ، وَفِيَّةٍ فيها

المُنىٰ بسابِق الضَّمان والميعاد ؛ وضَمَّنه من مَوَاعظه ماهَـدىٰ به إلىٰ كلِّ ما الجَنيُّ ثمرُه، وغَدَا مَحْظِيًّا بمـا تَرُوق أوضاحُه فى المجْد وغُرَرُه؛ ولم يَأْلُك فيه تجمُّلا يُكْسِبك الفَخْرَ النامى، ويجْعَل ذِكْرَك زِينةَ المَحْفِل والنادى ؛ وتقديمًـا يُنْبِئ عمَّا خُصِصْتَ به من المِنَح المُشْرِقة اللَّآلى ، وإكرامًا يَبْقىٰ صيتُه علىٰ تَقَضِّى الأيَّام واللَّيالى؛ وتبْصِـيرًا يَقِى من فَلَتات القَوْل والعمـل، ويرتَقِى المستَـضِىءُ بأنواره إلىٰ ذُرىٰ الأمْن من دَواعى العِثَار والزَّلَل ؛ فأَصْغِ إلىٰ ما حَواه، إصغاءَ الفائز بأوْفَى الحظ، وتدبَّرْ فَحْوَاه، الناطقَ بفَضْل الحثِّ علىٰ الهـدىٰ والحَضّ ؛ وكُنْ لأوامِر أمير المؤمنـين فيه محتَذِيا ، ومِنْ تجَاوُز مُحْدُودِه فى مَطاوِيه مُحتَمِيا ؛ وبمواعِظه الصادقة معتَبِرا ، وفى العمَل بمـا قارَنَ الحق مستَبْصِرا، تَفُزْ بالغُنْم الأكبر، وبالسلامة فى المَوْرِد والمَصْدَر؛ وإيَّاك وآعتمادَ ما تُذَمُّ فيـه مَكاسِبُك، فإنَّ لك بين يدَى الله تعـالىٰ مَوْقِفا يناقِشُك فيه ويحاسِبُك.

وآعلم أنَّ أمير المؤمنين قد قَلَّدك جَسِيما، وخَوَّلك جَزِيلا عظيما؛ فلا تَنْسَ نَصِيبَك من الله تعـالىٰ غَدَا ، ولا تجعلْ لسُلْطان الهَوىٰ المُضِلِّ عليك يدًا ؛ وإنْ خَفِيَ عليك الصوابُ فى بعض ما أنتَ بصَدَدِه، أو آعترَضَ فيه من الشُّـبَه ما يحُولُ بينك وبين طرِيق الرشاد وجَدَدِه ؛ فطالِـعْ حضرةَ أمير المؤمنـين به ، وآستَنْجِدِ اللهَ فى ذٰلك بأسَدِّ رأيٍ وأصْوبه؛ يُبَدِّلْك من الشكِّ يقينا، ويُبْدِ لكَ ما يغدُو لكلِّ خير ضَمينـا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطريقـــة الثـانية

(طريقةُ محقِّق المتأخِّرين ممَّن جرىٰ علىٰ هذا المذهب : كالشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، والمقرّ الشهابىّ بن فضل الله ، ومَنْ والاهم)

وهى أن يأتى فى أثناء العَهْد بخُطبة أو تحميدٍ علىٰ عادة المكاتبات ، وأن يذكُر بعدَ صدر العهد حميدَ أوصاف المعهُود إليه ، ويُطنِبَ فيها ويُثْنِيَ عليه بما يليق بمقامه . قال فى " التعريف " : علىٰ نحو ماتقــدّم فى عهُود الخلفاء عن الخلفـاء . قال فى " التثقيف " : وصورته أن يُكْتب :

« هذا ماعَهِد به عبدُ الله ووليُّــه أميرُ المؤمنين المتوكلُ علىٰ الله (مثلا) أبو فلان فلان بن فلان ، إلىٰ السيِّد الأجلِّ الملِكِ العالِم العادل المؤيَّد المظفَّر المنصور المجاهد» ويذكر اللَّقب هنا، مثل الناصر أو الكامل أو غيره « فلانِ الدنيـا والدين، فلان، ٱبن السلطان السعيد الشهيد الملك الفلانى خلَّد الله تعالىٰ ملكه .

أما بعدُ، فإنَّ أميرَ المومنين يحمَـدُ إليكَ اللهَ الذى لاإلٰهَ إلا هو ، ويصلِّى على ٱبن عمِّه سيدنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم » ويكمل الخطبة بمـا أمكنه . ثم يقال : « عهِد إليه وقلَّده جميعَ ماهو مُقَلَّده من مصالح الأمّة وصَلَاح الخلق ، بعدَ أنِ ٱستخار اللهَ تعالىٰ فى ذٰلك ، ومَكَث مدّةً يتدبَّرهذا الأمْرَ ويُروّى فِكْره فيه وخاطِرَه، ويستشيرُ أهلَ الرأيِ والنظر، فلم يَرَ أَوْفَقَ منه لأمور الأمّة ومَصالح الدنيا والدِّين» . ومن هذا وشِبْهه . ثم يقال: «وإن المعهود له قَبِل ذلك منه» ويأتى فيه بمـا يليقُ من محاسِن العِبارة وأجناس الكلام .

قلت : وقد يُؤتىٰ بعد «أما بعد» بخُطبة ، مثل أن يقال : «أما بعدُ فالحمدُ لله» ونحو ذلك ، ويكمِّل الخطبة بمـا يليق بالمَقَـام . ثم قد يقتصر علىٰ تحميـدة واحدة،

وقد يكرره إلىٰ ثلاث ، وإن شاء بلغ به سبعا . فقد قال فى "التعريف" فى الكلام علىٰ عهود الملوك للملوك : إنه كلَّما كَثُر التحميد ، كان أدلَّ علىٰ عِظَم النعمة . وقد يقال فى آخره : « والاعتمادُ علىٰ الخط الفلانى (بلقب الخلافة) أعلاه حُجَّةٌ بمقتضاه أو «والخطُّ الفلانى أعْلاه حُجَّةٌ فيه » ونحو ذلك .

وعلىٰ هــذه الطريقة كتب الشيخُ شهاب الدين محمودٌ الحلبىّ عهدَ الملك العادل « كتبغا » عن الخليفة الإمام الحـاكم بأمْر الله أبى العباس أحمد،(١) ٱبن الإمام الذى ٱستحضره الملكُ الظاهرُ بيبَرْس من بَغدادَ وبايعه ، وهذه نسختُه :

هــذا عَهْدٌ شريف فى كتابٍ مَرْقومٍ يَشْهَدُه المُقَرَّبون، ويُفَوِّضُه آلُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم الأئمةُ الأقرَبُون . من عبدِ الله ووَلِيِّه الإمامِ الحـاكم بأمْر الله أبى العبَّاس أحمدَ أمير المؤمنين، وسليلِ الخُلَفاء الراشدين والأئمة المهديِّين، رضوانُ الله عليهم أجمعين، إلىٰ السلطان الملِكِ العادل زَيْن الدنيا والدين « كُتْبغا المنصورى» أعزَّ الله سلطانَه .

أما بعــدُ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليكَ اللهَ الذى جعل له مِنْك سُـلْطانا نَصيرا ، وأقام له بمُلْكك علىٰ ما وَلَّاه من أمور خَلْقِه عَضُدًا وظَهيرا ؛ وآتاك بمـا نَهَضْتَ به من طاعته نِعَماً ومُلْكا كبيرا، وخَوَّلك بإقامة ماوراءَ سَريره من مَصَالح الإسلام بكُلِّ أرضٍ مِنْـبَرا وسَرِيرا ، وجاءَ بك لإعانَته علىٰ ما ٱسـتَخْلفه اللهُ فيه من أمور عبـاده علىٰ قَدَرٍ وكان ربُّك قَدِيرا ؛ وجَمع بك الأُمّةَ بعــدَ أنْ كاد يَزِيغُ قلُوبُ فريقٍ منهم ،

(١) لم يذكر نسبه فى الأصل . وفى ٱبن اياس هو أحمد بن على بن أبى بكر بن الخليفة المسترشد ٱبن الخليفة المستظهر ٱبن الخليفة المقتدى ٱبن محمد الذخيرة العباسى . وكذلك هو فى خطط المقريزى إلا أنه قال أحمد بن أبى على الحسن بن الخ . وأقام فى الخلافة نيفا وأربعين سـنة وتوفى سنة احدى وسبعمائة وهو أوّل خلفاء بنى العباس بمصر . وبمراجعة تاريخ كتبغا ولاجين يعلم أنهما كانا فى زمنه وبالضرورة يكون هوالماهيلطها فتنبه .

وعَضَّدك لإقامة إمامتِه بأولياءِ دَولتِك الذين رضى الله عنهم؛ وخَصَّك بأنصارِ دينِـه الذين نَهَضُوا بما أُمِروا به من طاعتك وهم نازهون، وأظهرَكَ علىٰ الذين ٱبتَغَوُا الفِتنَةَ من قَبْلُ وقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جاءَ الحقُّ وظَهَر أمْرُ اللهِ وهم كارِهُون ؛ وٱصطفاكَ لإقامة الدِّين وقد ٱختلفَتِ الأهْواءُ فى تلك المُـدّه ، ولَمَّ بك شعَثَ الأمّة بعـدَ الاضطرابِ فكان موقِفُك ثَمَّ مَوْقِفَ الصِّدِّيق يومَ الرِّدّه .

ويشهَدُ أن لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له ، شهادةَ حاكِم بأمْره، مستنزِلٍ لك بالإخلاص ملائكةَ تأْييده وأعوانَ نَصْره ؛ مستَرْهِفٍ بها سَـيْفَ عَزْمِك علىٰ من جاهَرَ بشركه وحاربَهُ بكُفْره ، معتَصِمٍ بتوفيقه فى تفويضـه إليك أمْرَ سِرِّه الذى ٱستُودِعَه فى الأمّة وجَهْرِه؛ ويصلِّى علىٰ سيدنا محمدٍ رسولِ الله الذى ٱستَخْرجهُ اللهُ من عُنْصُره وذَويه، وشَرَّف به قَدْرَ جدّه بقوله فيه : «عَمُّ الرَّجُلِ صِنْوُ أبيه» وأسَرَّ إليه بأنَّ هذا الأمرَ فُتِح به ويُخْتَمُ ببَنِيه؛ وعلىٰ آله وصحبِه والخلفاء الراشـدين من بعْدِه، الذين قَضَوْا بالحق وبه كانُوا يَعْـدِلُون، وجاهدُوا أئمـةَ الكُفْر الذين لا أيْمـانَ لهم والذين هُمْ بَرَبِّهِم يَعْدِلُون؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وإنَّ أميرَ المؤمنـين لمـا آتاه اللهُ من سِرِّ النبوّه، وٱسـتودَعه من أحكام الإمامة المَوْرُوثة عن شرف الأُبُوّه؛ وٱختصَّه من الطاعة المفروضةِ علىٰ الأُمَم ، وفَرَض عليه من النظر فى الأخَصِّ من مصالح المسلمين والأعَمّ ؛ وعَصَم آراءَه ببركةِ آبائِهِ من الخَلَل ، وجعَل سَهْمَ ٱجتهادِه هو المُصيبَ أبدًا فى القولِ والعمَل ؛ وكان السـلطان فلان هو الذى جمعَ اللهُ به كلمةَ الإسلام وقد كادَتْ ،وثبَّت به الأرضَ وقد ٱضطربَتْ بالأهواء ومادَتْ؛ ورفَعَ به مَنارَ الدين بعد أن شَمَخ الكُفْرُ بأنْفِـه ، وألَّفَ به شَمْلَ المسلمين وقد طَمَحَ العدُوّ إلىٰ ٱفتراقه وطَمِع فى خُلْفِـه ، وحفِظ به فى الجهاد حُكْمَ

الكتاب الَّذى لا يأْتِيه الباطِلُ مِنْ بينِ يدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِه ؛ وحَمىٰ به المَمالكَ الإسلاميّةَ فما شامَ الكُفْرُ منها بَرْقَ ثَغْرٍ إلّا رُمِىَ من وَبَالِه بوابِل ، ولا أطْلق عِنَانَ طَرْفه إلىٰ الأطراف إلا وَقَع من سَطَوات جُنُوده فى كُفَّة حابِل ؛ ولا اطْمَأَنُّوا فى بلادِهم إلا أتَتْهم سَرَاياه من حيثُ لم يَرْتقِبوا ، ولا ظنُّوا أنهم ما نِعتُهم حصُونُهم من الله إلَّا وأَتَاهُمْ بجُنُوده من حيثُ لم يحتَسِبوا ؛ وألَّف جُيوشَ الإسلام فأصبحَتْ علىٰ الأعداء بيُمْنه يدًا واحده ، وقام بأُمور الأمّة فأمسَتْ عُيونُ الرَّعايا باستِيقاظ سُيُوفه فى مِهَاد الأَمْن راقِده ؛ وأقام مَنارَ الشريعة المطهَّرة فهى حاكمةٌ له وعليه ، نافذٌ أمرُها علىٰ أمره فيما وَضَع الله مقاليدَه فى يدَيْه ؛ ونَصَره الله فى مَواطِنَ كثيره ، وأعانَهُ علىٰ مَنْ أضمر له الشِّقاق والصَّلاةِ وإنَّها لكَبِيره ؛ وأظهره بمَنْ بغىٰ عليه فى يومه بعد حِلْمه عنه فى أمسِه ، وأيَّده علىٰ الذين خانُوا عهدَه ويدُ الله فَوْقَ أيْديهم فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِه ؛ وتعيَّن لمُلْك الإسلام فلم يكُ يصْلُح إلّا له ، واختاره اللهُ لذٰلك فبلغ به الدِّينُ آمالَه ؛ وضعْضَع بمُلْكه عمودَ الشِّرك وأَمَالَه ، وأعاد بسلطانه علىٰ المَمالك بهجَتَها وعلىٰ المُلْك رَوْنَقه وجَلَالَه ؛ وأخدمه النصْرَ فما أضمر له أحدٌ سُوءًا إلا وزَلْزَلَ أقدامَه وعَجَّل وَبَالَه ، وردّه إليه وقد جعل من الرُّعْب قُيودَه ومن الذُّعْر أغْلَاله ، وأَوْطأ جَوَادَه هامَ أعدائه وإنْ أَنِفَ أن تكونَ نِعالَه .

عهد إليه حينئذٍ مولانا الإمامُ الحاكم بأمْرِ الله أميرُ المؤمنين فى كلِّ ماوراءَ خلافتِه المقدّسه ، وجميع مااقتضَتْه أحكامُ إمامته التى هى علىٰ التَّقْوىٰ مؤسَّسه : من إقامةِ شِعار المُلْك الذى جمع اللهُ الإسلامَ عليه ، وظهُورِ أُبَّهة السلطنة التى ألقىٰ اللهُ وأميرُ المؤمنين مَقالِيدَها إليه ؛ ومن الحُكْم الخاصِّ والعامِّ ، فى سائر مَمَالك الإسْلام ، وفى كل ماتقتضِيه أحكامُ شريعةِ سيدِنا محمدٍ عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ وفى خَزَائن الأموال وإنْفاقِها ، ومِلْك الرِّقاب وإعتاقِها ، واعتقالِ الجُنَاة وإطلاقِها ؛ وفى كل

ماهو فى يَدِ المِلَّة الإسلامية أو يفتحُه الله بيده عليها ، وفى جميع ماهو من ضَوَالِّ الممالك الإسلاميةِ التى سَيَرْجِعُها الله بجهادِه إليها ؛ وفى تقليد المُلوك والوُزَراء ، وتَقْدِمة الجُيُوش وتأمير الأُمَراء ؛ وفى الأمصار يُقِرُّ بها مَنْ شاء من الجُنُود ، ويبعثُ إليها ومنها ماشاءَ من البُعُوث والحُشُود ؛ ويحكُم فى أمرِها بما أمرَ اللهُ من الذَّبِّ عن حَرِيمها ، ويتحكَّم بالعَدْل الذى رَسَم اللهُ به لظَاعِنها ومُقيمِها ؛ وفى تقديم حديثِها وآستِحْداثِ قَدِيمها ، وتَشْييد ثُغورها ، وإمضاء ماعَرَّفه الله به وجَهِلَه سواه من أُمُورها ؛ وإقْرارِ من شاءَ من حُكَّامها ، وإمضاء ما شاء من إتقان القَواعد بالعَدْل وإحْكامِها ؛ وفى إقطاع خَوَاصِّها ، وآقتلاعِ ما آقتضَتْه المصلحةُ من عمائرها وعِمارة ماشاء من قِلاعها ؛ وفى إقامة الجِهاد بنَفْسه الشريفةِ وكَتَائبه ، ولِقاء الأعداء كيفَ شاءَ من [تسيير] سَرَاياه وبَعْثِ مواكِبِه ؛ وفى مُضَايقَةِ العدُوِّ وحِصَاره ، ومصابَرَتِه وإنظاره ، وغَزْوه كيفَ أراه اللهُ فى أطراف بِلاده وفى عُقْرِ داره ؛ وفى المَنِّ والفِداء والإرْقاق ، وضَرْب الهُدَن التى تسألُها العِدَا وهى خاضِعةُ الأعْناق ؛ وأخْذِ مُجاوِرِى العدُوّ المخذُول بما أراه اللهُ من النِّكاية إذا أمْكنَ من نَوَاصِيهم ، وحُكْمِ عَفْوه فى طائعهم وبَأْسِه فى عاصِيهم ، وإنزالِ الذين ظاهَرُوهم مِنْ أهْلِ الكِتاب مِنْ صَيَاصِيهم . وفى الجُيُوش التى ألِفَ الأعداءُ فَتَكاتِ أُلُوفها ، وعرَفُوا أنَّ أرواحَهم وَدَائعُ سُيوفِها ؛ وصَبَّحتْهم سَرايَا رُعْبِها المبثوثةُ إليهم ، وتَرَكهم خَوْفُها كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ يَحْسَبُون كُلَّ صَيْحةٍ عليهم ؛ وهم الذين ضاقَتْ بمواكبهم إلى العدا سَعَةُ الفِجَاج، وقاسَمتْ رِماحُهم الأعداءَ شَرَّ قِسمة ففى أيْدِيهم كُعُوبُها وفى صُدُور أولئك الزِّجاج(١)، وأذهبتْ عن الثُّغور الإسلاميَّة رِجْسَ الكُفْر وطَهَّرت من ذلك ماجاوَرَ العَذْبَ الفُراتَ والمِلْحَ الأُجاج ؛ وعُرِفُوا فى الحروب بتَسَرُّع الإقدام ، وثَبَاتِ الأقدام ، وادَّخر اللهُ

(١) جمع زج كرمح ورماح .

لأيامه الشريفة أن تَرُدَّنها بهم (١) دارَ السَّلام إلىٰ مُلْك الإسلام : فيُدِرّ عليهم ماشاءَ من إنعامه الذى يؤكِّدُ طاعتهم، ويجدِّدُ آستِطاعتهم ؛ ويضاعِفُ أعْدادهم، ويجعل بصَفاء النيَّات ملائكةَ اللهِ أمْدادَهم ؛ ويحملُهم علىٰ الثَّبات إذا لَقُوا الذين كَفَرُوا زَحْفا، ويجعلُهم فى التعاضُدِ علىٰ اللِّقاء كالبُنْيان المرْصُوص فإنَّ الله يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فى سَبِيلهِ صَفّا. وفى أمْر الشرع وتولية قُضاته وحُكَّامه، وإمضاء مافَرَض الله عليه وعلىٰ الأمة من الوقُوف عِنْد حُدُوده وا (٢) مع أحْكامه ؛ فإنَّه لواءُ الله الممْدُودُ فى أرضه، وحبلُه المَتِينُ الذى لانَقْض لإبْرامه ولا إبْرَام لنَقْضه، وسَنَن نبيِّه الذى لاحَظَّ عندَ الله فى الإسلام لغير متمسِّك بسُنَّته وفَرْضه ؛ وهو ــ أعزَّ الله سلطانه ــ سيفُ الله المشهورُ علىٰ الذين غَدَوْا وهمْ من أحكامِ الله مارقُون، ويدُه المبسوطةُ فى إمضاء الحكم بما أنزل اللهُ : ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ﴾.
وفى مَصَالح الحرمين الشريفين وثالِثِهِما الذى تُشَدّ أيضا إليه الرِّحال. وإقامةِ سَبِيل الحجيج الذين يَفِدُون علىٰ الله بما مَنَحهم (٣) من بِرِّه وعِنَايته فى الإقامة والآرْتِحال.
وفى عِمَارة البيُوت التى أَذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَع ويُذْكَرَ فيها آسْمُه يُسَبِّح لَهُ فِيها بِالغُدُوِّ والآصالِ رِجَال ؛ وفى إقامة الخُطَب علىٰ المَنَابر، وآقْتِرانِ آسمه الشريف مع آسمه بين كلِّ باد وحاضر، والآقتصارِ علىٰ هذه التثنيَةِ فى أقطار الأرض فإنَّ القائلَ بالتثليث كافر ؛ وفى سائر ماتشْمَله الممالكُ الإسلاميَّة ومَنْ تشتَمل عليه شَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا ؛ وبَرًّا وبَحْرا، وشاماً ومِصْرا ؛ وحجازاً ويَمَنا، ومن يستقرُّ بذٰلك إقامةً وظَعْنا.
وفوّض إليه ذلك جميعَه وكلَّ ماهو من لوازم خلافتِه لله فى أرْضه، ماذُكِر ومالم يُذْكَر

(١) النهب من معانيه الغارة أى ترد غاراتهم دار الخ وفى الأصل يردفها بهم . تأمل .

(٢) بياض بالأصل ولعلها «والمشى» مع الخ .

(٣) فى الأصل أوضحهم . تأمل .

تفويضًا لازما ، وإمضاءً جازما ، وعَهْـدا مُحكَمًا، وعَقْدا فى مصالح مُلْك الإسـلام مُحَكَّمًا؛ وتقليدًا مؤبَّدا، وتقريرًا علىٰ كرّ الجديدين مُجـدَّدا ؛ وأثبت ذٰلك وهو الحاكم حقيقةً بما علِمه من آستِحْقاقه والحاكمُ بعِلْمه، وأشهدَ اللهَ وملائكته علىٰ نُفُوذ حكمه بذٰلك: ﴿واللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه﴾. وذٰلك لِمَا صحَّ عنده من نُهوض مُلْكه بأعباء ماحَمَّله الله من الخلافه ، وأدائِه الأمانةَ عنه فيما كتَبَ اللهُ عليه من الرحمـة اللّازمةِ والرافهْ؛ وآستقلالِه بأُمور الجهاد الذى أقام اللهُ به الديـن ، وآختصاصه وجنوده بعُمُوم ما أمر اللهُ به الأمة فى قوله تعـالىٰ: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُـمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُـدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴾ . وأنَّه فى الجهاد سَهْمُه المُصيب وله به أجْرُ الرامى المسَـدَّد، وسيفُه الذى جَرَّده علىٰ أعداء الدين وله من فَتَكاته حَظُّ المُرْهَف المجرَّد؛ وظلُّ اللهِ فى الأرض الذى مَدّه بُيْمن يمينه، وآيةُ نَصْره الذى آختاره اللهُ لمصالح دُنْياه وصَلاح دِينه؛ الناهضُ بفرض الجهادِ وهو فى مستقَرّ خلافتِه وادِع، والراكضُ عنه بخَيْله وخَيَاله إلىٰ العدوّ الذى ليس لفَتَكات سُـيُوفه رادِع؛ والمُؤَدِّى عنـه فرضَ النَّفِير فى سبيل الله كُلَّمـا تعيَّن ، والمنتقِمُ له من أهل الشِّقاق الذيـن يُجادِلُون فى الحقِّ بَعْـدَ ما تَبيَّن؛ والقائمُ بأمر الفُتُوح التى تَرُدّ بِيَعَ الكُفْر مساجدَ يُذْكَر فيهـا آسمُ الله وآسْمُه ، ويُرْفَع علىٰ منابرها شِـعارُه الشريفُ ورَسْمُه؛ وتُمثّل له بإقامة دَعْوته صورةُ الفتح كأنه ينْظُر إليها ، والناظرُ عنـه فى عُمُوم مصالح الإسلام وخُصوصِها تعظيمًا لقَدْره، وترفيهًا لِسرّه ؛ وتفخيما لشَرَفه، وتكريماً لجلالة بيتِه النبوىّ وسَلَفه ؛ وقيامًا له بمـا عَهد إليه ، ووَفَاءً من أمور الدِّين والدنيا بمـا وَضَع مقاليدَه فى يدَيْه .

ولِيُدَلَّ علىٰ عِظَم سِيرته المقدّسةِ بكَرَم سَيْره، ويُنَبِّهَ علىٰ كمال سعادتِه إذ قد كُفى به فى أُمور خلْق الله تعالىٰ والسعيدُ من كُفِىَ بغَيْره ، لم يجعلْ أميرُ المؤمنين علىٰ يَده يدًا

فى ذلك ، ولا فَسَّح لأحد غيره فى أقطار الأرض أن يُدْعَى بمَلِك ولا مالك ، بل بسَطَ حُكْمَه وتحكمه فى شَرْق الأرض وغَرْبها ومابينَ ذلك ؛ وقد فرض طاعتَه على سائر الأُمَمْ ، وحَكَم بوجُوبها على الخاصِّ والعامِّ ومَنْ ينقُضُ حُكْمَ الحاكِم إذا حَكَم ؛ وهو يعلمُ أنَّ الله تعالى قد أودَع مولانا السلطانَ سِرًّا يُستَضَاء بأنواره ، ويهتدى فى مصالح المُلْك والممالكِ بمَنَاره ، بجعل له أن يفْعلَ فى ذلك كلَّ ماهدى الله قلْبَه إليه ، وبعثَه بالتأييدِ الإلٰهِىّ عليه ؛ واكتفى عن الوَصَايا بأنَّ الله تعالى تكفَّل له بالتأييد ، وخَصَّه من كلِّ خير بالمَزِيد ؛ وجعل خُلُقَه التقوى وكلُّ خير فَرْعٌ عليها ، ونَوَّر بصيرتَه بالهُدى فما يدُلُّ على حسنة من أُمورِ الدنيا والآخرةِ إلّا وهو السابقُ إليها ؛ والله تعالى يجعلُ أيَّامه مؤرَّخةً بالفُتوح ، ويؤيِّده بالملائكةِ والرُّوح ، على مَنْ يدَّعِى الأَبَ والاِبنَ والرُّوح ؛ ويجعلُ أسباب النصر معقُودةً بسَبَبه ، والمُلْكَ كلمةً باقيةً فى عَقِبه .

ويشْهَد بهذا العهْد الشريف مع من شَهِده من الملائكة المقَرَّبين ، كلُّ من حضر تِلاوتَه من سائر الناس أجمعين : لتكونَ حجَّةُ الله على خلْقه أسبَقْ ، وعهدُ أمير المؤمنين بثُبوته أوْثَقْ ؛ وطاعةُ سلطان الأرض قد زادها اللهُ على خلقه بذلك توْكيدا ، وشهد [الله] وملائكتُه على الخلق بذلك وكَفى بالله شَهِيدا . والاعتمادُ على الخط الحاكمىّ أعلاه حجَّةٌ به ، إن شاء الله تعالى .

***

وعلى نحو ذلك كتب الشيخُ شِهاب الدين محمودٌ الحلبىُّ عهدَ الملك المنصور « حُسام الدِّين لاچين » عن الخليفة الحاكم بأمْر الله بن أبى الربيع سليمان (١) المتقدّم ذكره . وهذه نسخته :

(١) الذى فى التواريخ أن الحاكم بأمر الله الذى بايع له الظاهر بيبرس طالت مدته الى أيام حسام الدين لاچين وأما الحاكم بأمر الله بن أبى الربيع فهو ابن ابنه تأمل .

هذا عهدٌ شريفٌ تشهَدُبه الأملاكُ لأشرف الملوك، وتسلُكُ فيه من قواعد العُهود المقدّسةِ أحسَنَ السُّلُوك؛ من عبد الله ووليِّه الإمام الحاكم بأمْرِ الله أميرِ المؤمنين، للسلطان الملك المنصور حُسَام الدنيا والدين، أبى الفتح لاچين المنصورى، أعزَّ الله سلطانَه.

أما بعدُ، فالحمدُ لله مُؤْتِى المُلكِ من يَشاءُ من عِبَاده، ومُعْطِى النصرِ من يُجاهد فيه حقَّ جِهادِه؛ ومُرهِف حُسامِ آنتقامه علىٰ مَنْ جاهر بعِنَاده، ومفوِّض أمرِ هذا الخلق إلىٰ مَنْ أودَعَه سِرَّ رأفته فى محبّته ومُرادَ نِقْمته فى مُرادِه؛ وجامعِ كلمةِ الإيمان بمَنِ آجتباه لإقامةِ دينِه وآرْتضاه لرفْع عِمَاده، ومُقِرّ الحقِّ فى يَدِ مَنْ منع سيفَه المجرّدَ فى سبيل اللهِ أن يَقِرَّ فى أغْمادِه؛ وناصرِ مَنْ لم تزَلْ كلمةُ الفُتُوح مستكنّةً فى صُدُور سيوفه جاريةً علىٰ ألْسنةِ صِعَادِه، وجاعلِ مُلْكِ الإسلام من حُقُوق مَنْ إذا عُدَّ أهلُ الأرض علىٰ آجتماعِهم كان هو المتعيِّنَ علىٰ آنْفِراده؛ الذى شرَّف أَسرَّة مُلْك الإسلام باستيلاء حُسَام دِينِه عليها، وزَلْزَل ممالك أعدائِه بما بَعَثَ من سَرايَا رُعْبِه إليها؛ وثَبَّت به أركانَ الأرْضِ التى ستحْتَوِى مُلْكَه فى طرَفَيْها، وضَعْضَع بسلطانه قواعِدَ مُلُوكِ الكُفْرِ فودَّعتْ ما كان مُودَعا لأيّامه من مَمَالك الإسلام فى يَدَيْها؛ وأقامه وليَّه بأمرِه فلم يختَلِفْ عليه آثنانِ من خَلْقه، وقلَّده أمرَ بريّته لما أقْدَره عليه من النُّهُوض بحقّهم وحقِّـه؛ وأظهَره علىٰ مَنْ نَصَب له الغوائلَ واللهُ غالِبٌ علىٰ أمْرِه، ونَصَره فى مواطِنَ كثيرةٍ لِمَا قدّره فى القِـدَم من رِفْعـة شأْنه وآعتِلاءِ قَدْره؛ وجعل عَدُوّه وإن أعْرضَ عن طَلَبه بجُيُوشِ الرُّعْب محصُورًا، وكَفَاه بنَصْرِه علىٰ الأعداء التوَغُّلَ فى سَـفْكِ الدِّماء فلم يُسْرِفْ فى القَتْل إنّه كانَ مَنْصُورا؛ ونَقَل إليـه المُلْكَ بسَيْفِه والدِّماءُ مَصُونه، وحكَّمه فيما كان بيدِ غيْرِه من الأرض والبلادُ آمِنةٌ والفِتَنُ مأمُونه؛ فكان أمْرُ مَنْ ذَهَب سَحابَةَ صيْف، أو جَلْسة ضَيْف؛ لم تَحُلَّ له روْعةٌ فى القلوب،

ولم يُذْعِرْها ـ وقد ألْبسه اللهُ ما نَزَع عن سِوَاه ـ سالِبٌ ولا مَسْلُوب، إجراءً لهذه الأمة علىٰ عَوائِدِ فضلِهِ العَمِيم، وآختصاصًا بما آتاه من مُلْكه ﴿ واللهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ من يَشَاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيم ﴾.

يَحْمَدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ما مَنَح فى أيَّامه الدِّينَ من آعتِضاده بحُسَامه، والآعتماد فى مُلْك المسلمين علىٰ من يجعَلُ جِبَاهَ ملُوكِ الشِّرْك تحتَ أقْدامه، والآعتِدادِ بمساعى مَنْ حُصُونُه فى الجهاد ظُهُورُ جِيَاده وقُصورُه أطرافُ حُسَامه.

ويشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شَهادةَ حاكمٍ بما أرَاه، حامدٍ له فى مُلْك الإسلامِ علىٰ تيَسُّرِ ماوطَّده ورَفْعِ ماعَرَاه، معتصِمٍ به فى كلِّ ما أثبتَه بالحق من قَواعد الدِّين فى جهاد أعداء الدِّين عن سَيْره فى ذٰلك وسُرَاه؛ وأن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جعله من عَصَبتِه الشريفة وعُصْبَته(١)، وشرَّفه بِوِرَاثة خلافَتِه فى أمَّته [ورفع] قَدْرَ رُتْبتِه، وقَصَره علىٰ إقامة من يُرْهِب العِدا بنَشْر دعْوتِه فى الآفاقِ مع مَوَاقع رَغْبته؛ ويسألُه أن يصلِّيَ عليه صلاةً تفتَح له فى الدنيا إلىٰ العِصْمة طَرِيقا، وتجعَلُه فى الأُخْرىٰ معه ومَعَ الَّذِينَ أنعَمَ اللهُ عليهم من آبائِهِ الشُّهداء والصالِحِينَ وحَسُنَ أُولٰئِك رفيقا، وسلَّم تسليما كثيرا.

وإنَّ أميرَالمؤمنين لِمَا آختصَّه الله به من البرِّ المُودَع فى قلبه، والنُّور الذى أصبح فيه علىٰ بَيِّنة من رَبِّه، والتأييدِ المنتقلِ إليه عمَّنْ شَرُف بقُرْبه، والنصِّ الذى أسَرَّه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم إلىٰ جدِّه العبَّاس من بَقَاء هذا الأمرِ فى وِرْثَته دُونَ أقارِبِه وصَحْبه، لم يَزَلْ يرغَبُ إلىٰ اللهِ سبحانَه ويستخيرُه فى إقامةِ من يَنْهَضُ فى مُلْك الإسلام حقَّ النُّهوض، ويفوِّضُ إليه الأمانةَ إلىٰ مَنْ(٢) يرىٰ أداء الأمانةِ فيهِمْ من

(١) أى جعل الله الخليفة من عصبة النبي الخ فتنبه.

(٢) لعله ممن يرىٰ. تأمل

آكد الفُروض، ومَنْ إذا قال النفيرُ ياخَيْلَ اللهِ آركَبِي سابقتْ خيلُه خَيالَه، وجازَتْ عزائمُه نِصالَه، وأخذَ عدُوَّ الدِّين من مَأْمنه، وغالبَ سيفُه الأجلَ علىٰ آنتزاع رُوحه من بَدَنِه، وقاتلَ لتكُونَ كلمةُ الله هى العُلْيا، وجاهدَ لإقامة مَنَار الإسلامِ لا للتَّعرُّض إلىٰ عَرَض الدنيا، وقدّمتْ له ملُوكُ الدنيا حُصُونَها، وبذلَتْ له مع الطاعة مَصُونَها، وأُقيمَ له بكلِّ قُطْر منـبرٌ وسَرِير، وجَمعَ ملُوكَ العِـدا فى رِقِّ طاعته وهو علىٰ جَمْعِهم إذا يشَاءُ قدِير، ومَنْ يُقِيم العـدلَ علىٰ ما شَرِع، والشَّرْعَ علىٰ ما أُخِذ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم وسُمِـع، ويُمِيت البِدَع بإحياء السُّنَن، ويعْلَم أنَّ الله جعل لخلْقِه علىٰ لسان نبيِّه محمدٍ صلّى الله عليه وسلم سَنَنا ولا يعدِلُ بهم عن ذٰلك السَّنَن .

ولمـا كانــ السُّلْطانُ الملكُ المنصُور حُسامُ الدنيـا والدِّين أبو الفَتْح « لاچين المنصورى» ـ خلّد الله سلطانَه ـ هو الذى جعلَ [الله] صَـلَاحَ الأمة علىٰ يدَيْه، وآختـاره لإقامة دينِه فساقَ مُلْكَ الإسـلام عَنْوةً إليه، وأنْهضَـه بذٰلك وقد أمدَّهُ بجُنُود نصره، وأنزل سكينَتَه عليـه وجمعَ قلوبَ أهل الإسـلام علىٰ حُبِّـه، وفرّقَ أعداءَ الدِّين خوْفُ حَرْبه، وجعلَ النصرَ حيثُ توجه من أشياخه وحِزْبه، وعضَّده لنصرة الإسلام بملائكة سَمَـائِه، وأقام به عُمودَ الدين الذى بالسَّيْف قام ولا غَرْوَ فإنَّ الحُسَام من أسْمائه، وأقبلتْ إليـه طوائفُ جُيوش الإسلام مُذْعِنين، وأدّى فى كرامتهم حُقُوقَ طاعة الله الذى أيده بنَصْره وبالمُؤْمِنـين، وتلقَّاهم بشـيرُ كرامتِه ونِعَمِـه وقال : ادْخُلُوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِين ؛ فطارتْ مُحَلِّقاتُ البشائر بمُلْكِه فى الآفاق، وأغَصَّ العِـدا سلطانُه فمـا توهَّمُوا فى أمرِ الإسـلامِ الآختِلافَ حتّى تحقّقُوا بحمْـدِ الله ويُمْن أيّامه الوِفَاق ؛ وآختالتِ المنابرُ الإسلاميَّةُ بذكْرِ أمير المؤمنين وذكْرِه، وأعلنت الأمةُ المحمديَّةُ بحمد الله الذى أقرَّ به الحقَّ فى مرْكَزه وردَّ به شارِدَ

المُلْك إلىٰ وَكْره؛ وتحقّق أمير المؤمنين أنه المكنُونُ فى طوِيّته والمستكنُّ فى صَدْره؛ والقائمُ فى عِمارة بيتِه النبوىّ وسلامتِه مَقام سَلْمانِهِ وعَمّاره، فعَهِد إليه حينَئِذ فى كلّ ما تقتضيه أحكامُ إمامتِه فى أمّة نبيِّـه، وجعله فى التصرُّف المطلَقِ عنه قائمًـا مقامَ وَصيِّه فى الملّة ووليِّـه؛ وقلّده أمرَ مُلْك الإسلام تقليدًا عامّا، وفوّض إليـه حُكْمَ السـلطنة الشريفة تفويضًا تامًّا؛ وألْبَسه من ذلك ماخلَعه عن سِواه، ونَشر عليـه لواء المُلْك الذى زَوىٰ ظِلَّه عن غيره وطَوَاه؛ وحكّمه فى كل ما تقتضيه خلافتُـه المقدّسه، وتُمْضيه إمامتُه التى هى علىٰ التقوىٰ مؤسَّسَه : من إقامة مَنَار الإسـلام، والحُكْم العام فى أمّة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام؛ وفى تقليد المُلُوك والوُزَراء، وتقْـدمة الجيوش وتأمير الأُمَراء؛ وفى تجهيز العساكر والسَّرَايا، وإرسال الطَّلائـع والرعَايا، وتجريد الجنُود الذين ما ندَبهـم إلىٰ الأعداء إلا آبُوا بالنِّهـاب وبالسَّبَايا؛ وفى غَزْو العدوّ كيف أراه اللهُ إنْ شاء بنَفْسه أو جُنْده، وفى آسترْسال النصر بالثبات والصبْر فإنّ الله يَجْزِى الصابرين وماالنَّصْر إلا من عِنْده؛ وفى محاصَرة العدوّ ومُصابَرته، وإنظاره ومُناظَرته، وإنزالهم علىٰ ما شَرَع اللهُ فيهـم من الأحكام، والتوخِّى فى ذٰلك ماحَكَم به سـعْدُ بنُ معاذ فى زمن الرسول عليه أفضلُ الصلاة والسلام؛ وفى ضَرْب الهُدَن وإمضائها، والوفاءِ بالعقُود المشروعةِ إلىٰ آنتهاء مُدَدها وآنقضائها، وفى إرْضاء السُّيوف ممن نكَث ولم يُتِمَّ عهده إلىٰ مدّته فإنَّ إسْخاط الكُفْر فى إرضائها؛ وفى الأمصار يُقرُّبها مَنْ شاءَ من الجنُود، ويبعثُ إليها من شاء من البُعُوث والحُشُود؛ وفى سِدَاد الثغور بالرجال الذين تفْتَرُّبهـم عن شَنَب النصر، وتأْمَنُ بهـم أعدادُها من غَوائل الحصْر، وتَوْفير سِهامِها من سِهَام القوّة التى تَرْمِى بشَرَر كالقَصْر؛ وإمدادِ بَحْرها بالشَّوانى المجرَّبة المجـدَّده، والسُّفُن التى كأنهـا القصُورُ الممهّدة علىٰ الصُّرُوح الممرَّده؛ فلا تزال تدبُّ إليهم من ذَوات الأرجُل عقارِبُها، وتَخْطَف غِرْبانَهم الطائرةَ بأجنحة

القُلُوع مخالِبُها ، وفى تقْدِمة وتنفيذ السَّرايا التى لاتزالُ أسِنَّتُها إلىٰ نُحُور الأعداء مُقوّمه ، وإنفاقِ ما يَراه فى مصالح الإسلام من القَناطِيرِ المُقَنْطرة من الذهب والفِضّة والخيلِ المُسَوّمه ، وفى إعلاء مَنَار الشرع الشريف والاِنقياد إليه ، والمسارعةِ إلىٰ نُفُوذ حُكْمه فيما لَهُ وعليـه ، وتقْوِيةِ يدِ حُكّامه علىٰ كلِّ أمـيرٍ ومأمور أقرَّ الشرعُ فى يدِه شيئا أو ٱنتزَعَه من يدَيْه ، وتفويضِ الحُكْم إلىٰ كلِّ من يتعيَّن لذٰلك من أئمة الأمّه ، وإقامةِ الشرع الشريف علىٰ قواعِدِه الأربعـة فإن ٱتِّفاق العلمـاء حُجّةٌ وٱختلافُهُم رحْمه ، وفى مصالح الحرمين الشريفين وثالثِهما الذى تُشَدُّ الرحالُ أيضا إليـه ، وفى إقامة سُبُل الحجيج الذين دعاهُم الله فلَبّوْه وٱستدعاهُمْ فقدِمُوا عليه ، وفوّض إليه كلَّ ماهو من لوازم خلافته لله فى أرضه : ماذُكِر وما لم يُذْكر ، تفويضًا لازما ، وتقليدًا جازِما ، وعَقْـدا مُحْكما ، وعَهْدا فى مصالح الإسـلام والمسلمين محكَّما ، وٱكتفىٰ عن الوَصايَا بمـا جُبِل عليه خُلُقه الشريف من التقوىٰ ، وهدىٰ نفْسَـه النفيسةَ إليه من التمسُّك بالسنَد الأقوم والسبَبِ الأقْوىٰ ؛ فمـا يُنَبَّه علىٰ حسنة إلّا وهو أسبَقُ إليها ، ولا يُدَلُّ علىٰ خَلَّة إلا وفِكرُهُ الشريفُ أسرَعُ من فِكْرِ الدالِّ عليها ؛ وقد وَثِق ببراءة الذِّمّة من حقِّ قوم أضْحَوْا لفضـل مثله راجِين ، وتحقّق حلُول النعمة علىٰ أمّة أمسَوْا إلىٰ « لاچِينَ » لاجِين ؛ وقد ٱستخار أمير المؤمنين اللهَ فى ذلك كثيرا ، ولجَأَ إلىٰ اللهَ فى توفِيقه وتوقيفِه علىٰ الصواب ممـا يجِدُه فى الحكم بذٰلك هاديًا ونصـيرا ؛ وسارَعَ إلىٰ التسليم بأمر الله تعـالىٰ فيما فوّض إليـه من أمور عباده إنَّه كان بعِبادِه خَبِيرا بصِيرا . وأشهدَ الله وملائكتَه ومن حضَرَه من المؤمنين علىٰ نَفْسه بما تضمَّنه هـذا العهدُ الكريم ، وحكَمَ علىٰ الأئمّة بمقتضاه فمَنْ بدّله بعْدَ ماسَمِعه فإنّمـا إثْمُهُ علىٰ الذين يُبَدِّلُونه إنَّ اللهَ سَمِيع عليم . والخطُّ الشريف الإماميّ الحاكميّ أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وعلى قريبٍ منه كتب القاضى شمسُ الدين إبراهيم بن القَيْسَرانىّ عهدَ الملكِ الناصر «محمد بن قلاوون» عن الحاكم بأمر الله أحمدَ بنِ أبى الربيع سليمان . وهذه نسخته :

هـذا عهدٌ يَعْمُر بك للإسلام المَعَاهد ، وينصُر منك الاعتزامَ فتَغْنَى عن المُوالى والمُعاضِد ، ويُلْقِى إليك مقاليدَ الأمور : لتجتَهِدَ فى مَرَاضِى الله وتُجاهِد ، ويبعَثُك على العمل بالكتاب والسنَّة : ليكونا شاهدَيْنِ لكَ عِندَ الله فى أعظَمِ المَشاهد ، فخُذْ كتاب أميرالمؤمنين بقُوّة تبرُّكا بأخْذِ يحيى عليه السلام للكتاب ، وحاسِبْ نَفْسَك محاسبَةً تجِدُ نفْعَها يوم يقُومُ الحِساب ، وآعمَلْ صالحا فالّذين آمنُوا وعمِلُوا الصالحات طُوبى لهم وحُسْنُ مآبٍ .

من عبد الله ووليِّه الإمام الحاكم بأمر الله أبى العبَّاس أحمدَ أمير المؤمنين : إلى السلطان الأجلِّ ، العالم ، العادلِ ، المجاهِدِ ، المرابِط ، المظَفَّر ، المَلِك ، الناصِر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ، سيِّد الملوك والسلاطين ، فاتِح الأمصار ، مُبِيد الأَرْمَن والفَرَنْج والتَّتار ، وارِث المُلْك ، سلطان العَرَب والعَجَم والترك ، خادمِ الحرمين ، صاحبِ القِبْلتين ، أبى الفتْح محمدٍ قَسِيم أمير المؤمنين أعزّ الله سلطانه ، ولدِ السلطان الشهيدِ الملكِ المنصورِ سيف الدين قلاوون ، قدّس الله رُوحَه .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله الذى أقام ناصِرَ الإسلام وأهلَه بخيْرِ ناصِر ، وأحَلَّ فى السلطنة المعظَّمة من آستَحَقَّها بذاته الشريفة وشرفِ العَنَاصِر ، ووضَع الإصْر بمن كَثُرت منه

ومن سَلَفه الكريم علىٰ الرّعايا الأَوَاصِر(١)، وعقد لواءَ المُلْك لمن هو واحدٌ في الجُود ألْفٌ في الوغىٰ ففي حالَيْه تُعقَد عليه الخَناصر؛ وجمعَ كلمةَ الأمّة بمتفرِّد في المَعالى متوحِّد في المَفاخر، متَّصِف بمناقِب أربىٰ بها علىٰ أرْبابها من المُلوك الأوائِل والأواخر؛ وأقرّ النواظِرَ والخواطِرَ بمن أشْرق عليهما نورُه الباهر، وظهرتْ آثارُ وُجوده وَجُوده علىٰ البَواطِن والظَّواهر؛ وأعاد شَبيبةَ الأيَّام في آقتبال سرِّ السرائر، وسارتْ بشائِرُ مَقْدمه في الآفاق سَيْرَ المَثَل وماظَنُّك بالمَثَل السائر؛ وفعلَتْ مَهابَتُه في التمهيد والتشْييد فِعْلَ القَنا المتَشاجِرْ، وشفَتِ الصُّدورَ بوُجود الآتِّفاق وعَدَمِ الشِّقاق بعدَ أن بلَغتِ القُلُوبُ الحنَاجر؛ وأورثَ البِلادَ والعبادَ صَفْوةَ ذُرِّيةٍ وَرِثُوا السيادةَ كابِراً عن كابِر، وسرىٰ سِرُّه إذا وُلِد المولودُ منهم تهلَّلَتْ له الأرضُ وآهتَزَّتْ إليه المَنابر.

والحمـدُ للهِ الذى آجْتبىٰ سيدَنا محمدا صلّى الله عليه وسلم من أشرَفِ بيْتٍ وقَبيله، ومنَحَ الأُمَّةَ برسالتِه من خَيْرَيِ الدنيا والآخرة الوَسيله، وأوجبَ الشفاعةَ لمَنْ سأل اللهَ له أعلىٰ دَرَجة لاينالُهـا إلا رجُلٌ واحدٌ وهى الوَسـيله؛ وجعل شَمْلَهم بمبايعتِـه ومتابَعته في الهداية نَظيما، وحضَّ علىٰ ذٰلك بقوله تعالىٰ: ﴿ إنَّ الَّذينَ يُبَايِعُونَك إنَّمـا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمـا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أوْفىٰ بما عاهَدَ عَلَيـهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيما ﴾. وبلَّغهم به من السـعادة غايةَ مطْلُوبهم، وأيده بنَصْره وبالمؤمنين وألَّف بينَ قُلُوبِهم؛ وزان شريعتَـه المطهَّرةَ بمَحاسِنَ أبهىٰ مَنْظَرا ومَخْـبَرا من العُقُود، وفرَض علىٰ المؤمنين أن يُوفُوا بالعُهود وبالعُقود؛ وأقدرَهم علىٰ حَمْل الأمانةِ التى أشفقَت السمٰواتُ والأرض والجبـالُ من حَمْلها، وأنزل في كتابه العزيز: ﴿ إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلىٰ أهْلِهَا ﴾.

---

(١) المراد بها المنن انظر القاموس.

والحمـدُ لله الذى ٱختار أميرَ المؤمنين من سُلالة عمّ نبيّه العباس ، وٱصطفىٰ بيتَه المباركَ من خيرِ أُمّةٍ أُخرِجتْ للناس ؛ وقوّىٰ به جأشَ المسلمين وجُيوشَ الموحِّدين علىٰ المُلْحِدين، وآتاه بسيادةِ جَدّه وسَعادة جَدّه مالم يؤُت أحدًا من العالمِين؛ وحفظ به للمؤمنين ذِمَاما ، وجعله للمتّقين إمَامًا ؛ وخصّه بمزيد الشرفَيْن : نَسَبِه ومَنْصِبه ، وجعـل مزيّةَ الرتبتين كلمةً باقِيــةً فى عَقِبه ؛ وصان به حَوْزةَ الدين صيـانةَ العَرين بالأُسُود، وصَيّر الأيْدِىَ البيضَ مشكُورةً لحامِلِي راياتِه السُّود .

يَحْمَــده أميرُ المؤمنين حمدَ من ٱختــاره من السَّماء فاستخْلَفه فى الأرض ، وجعل إمْرتَه علىٰ المؤمنين فَرْضا لتُقامَ به السُّـنّة والفَرْض، ويشهدُ أن لاإلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له الذى أَسْرىٰ بعبده لَيْلا من المَسْجِدِ الحَرَامِ إلىٰ المَسْجِدِ الأقْصىٰ؛ ويشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى كشَف بمَبْعثِه عن القلوب حُجُب الغَىّ، وأشرقتْ أنوارُ نُبوّتِه فأضاء لهايومَ دُخُوله المدينةَ كُلُّ شئ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من أقامه فى الإمامة مُقَامه وأشار إلىٰ الاقتداءِ به من بعْـده، ومنهم من أعزَّ الله به الإسلامَ فى كلِّ قُطْر مع قُرْبه وبُعْدِه؛ ومنهم من كانتِ اليدُ الشريفةُ النبويّةُ فى بَيْعة الرِّضْوان خيرًا له من يَدِه، ومنهم مَنْ أمر اللهُ تعالىٰ بالمُباهلة (١) بالأبْناء والنُّفُوس فباهل (١) خاتَمُ الأنبياء صلّى الله عليه وسلم به وبزَوْجه ووَلَده؛ وعلىٰ بقيّة العشره، الذين غدَتْ بهم دعوةُ الحقّ مشتَهِرةً منتَشِرَه؛ وعلىٰ عَمَّيْه أسدِ الله وأســد رسولِه عليه السـلام، وجدِّ الأئمة المهديّين أُمَراء المؤمنين وخُلَفاء الإسلام، وسلم تسليمًا كثيرا .

وإنّ اللهَ تعالىٰ جعل سَجِيّــةَ الأيّام الشريفةِ الإماميّة الحاكميّة أدام الله إشْراقَها، وقَسَم بهـا بينَ الأولياءِ والأعداءِ آجالَهَا وأرْزاقَها؛ رَدَّ الحُقوق إلىٰ نِصَابها ، وإعادتَها

(١) فى الاصول بالمباهاة ... ... فباهى، وهو تصحيف من الناسخ .

إلىٰ مستحقِّها ولو تمادَتِ الأيَّامُ علىٰ ٱغْتِصابها ، وإقرارَها عِنْـد مَنْ هو دُونَ الورىٰ أوْلىٰ بها : ليحقّق أنَّ نسبَه الشريفَ أظهر علىٰ أوامِرِه دلائلَ الإعْجاز ، وحَلّى كلماتِها بالإيجاز وهِبَاتِها بالإنْجاز ؛ وإنَّ الله جعـل الآسمَ الشريف الحاكميّ فى الحُكْم بأمْره علىٰ خير مسَمّى ، وقوّى منـه فى تأييدِ كلِمـة الحقِّ جَنَانا وعَزْما ، ولم يُخْـرِج من أحكامه عن ٱتِّباع أمرِ الله قضيَّةً ولا حُكْمًا ؛ وكنتَ أيُّهـا السيد ، العالِمُ ، العادلُ ، السلطانُ ، الملكُ ، الناصرُ ، ناصرُ الدنيا والدين ، أبو الفتح محمدُ ٱبنُ السلطان الشهيدِ الملك المنْصُور ، سـيفِ الدين قلاوُون ـ قدّس الله رُوحَه ـ أولىٰ الأوليـاءِ بالمُلْك الشريف : لمـا لسَلَفك من الحقُوق ، وما أسلَفُوه من فَضْـلٍ لا يحسُن له التناسِى ولا العُقُوق ؛ ولِمَـا أوجب لكَ علىٰ العساكر الإسـلامية سابقُ الأيْمـان ، وصادقُ الإيمان : ولأنك جمعْتَ فى المجْد بينَ طارِفٍ وتالِدٍ ، وفُقْتَ بزكِيِّ نَفْسٍ وأخٍ ووالد ؛ وجَلاَلَهْ ، ماوَرِثْتها عن كَلاَله ؛ وخِلاَل ، مالها بالسِّيادة إخْلال ؛ ومَفاخِر ، تُكاثر البحْرَ الزاخِر ؛ ومآثِر ، أعْجزَ وصفُها الناظمَ والناثِر ؛ وكان رِكابُك العالى قد سارَ إلىٰ الكَرَك المحروس ، وقعَدَتْ عنك الأجسامُ وسافرَتْ معك النُّفُوس ؛ ووثِقَتِ الخواطرُ بأنَّك إلىٰ السلطنة تَعُود ، وأنَّ الله تعالىٰ يجدّد لك صُعوداً إلىٰ مَراتِب السُّعود ؛ وأقمتَ بها وذِكْرُك فى الآفاق سائِر ، والآمالُ مبَشِّرة بأنك إلىٰ كُرْسيِّ مَمْلكتِك صائِر . فلَمَّا ٱحتاج المُلْكُ الشريف فى هذه المدّة إلىٰ مَلِك يَسُرُّ سريرَه ، وسلطانٍ تغدُو باستقراره عيونُ الأنامِ والأيَّام قَريره : لِمَـا للسلمين فى ذٰلك من تيْسِيرِ أوطار وتعميرِ أوْطانٍ ، ولأنهم لا يَنْفُذُون فى المَصالح الإسلاميَّةِ إلا بسُلْطان ؛ لم يَدُرْ فى الأذهان ، ولا خَطَر لقاصٍ ولا دان ، إلَّا أنك أحقُّ الناس بالسلطنةِ الشريفه ، وأَوْلاهم برُتْبتها المُنِيفه ؛ ولا ذَكَر أحدٌ إلا حُقوقَ بيتِك وفَضْلَها ، ولا قال عنكم إلَّا بقول الله : ﴿وكانُوا أحَقَّ بِهَـا وأهْلَها﴾ : لأنَّ البلادَ فُتوحاتُ سُيوفكم ، ورَعاياها فيما هم فيه من الأمْن والخير

بمنزلة ضُيُوفكم؛ ولأنّ العساكر الإسلاميَّة آسترقَّهم وَلاؤك، ووالوك لانهم أرقَّاؤك؛ فلم يقُل أحد : أنَّى له المُلْك علينا ؟ بل أقرّ كلٌّ منهم لك باليد وقرّ بولايتك عَيْنا؛ وأخلصُوا فى مُوالاتك العقائد، وآستبْشَروا منك بمُبَارَك الوجه ماجدٍ جائد؛ ولم يغبْ غائبٌ خليفتهُ جيشُ أبيه وجدّه الصاعد؛ ورفعتِ الممالكُ يدَ الضَّراعة سائلةً وراغبهْ، وخطَبَتْك لعقائلها ومَعَاقلها والخُطباءُ على المنابر لك خاطبةٌ وبدعائك مخاطبه؛ وقصدتْ لذلك أبوابَكَ التى لا تزال تُقْصَد، ودُعيتَ للعوْد المبارَك وعودُ محمّد للأمَّة المحمديَّة أحْمد؛ وفعلت الجيوشُ المنصورةُ من طاعتك كلَّ ماسَرّ، وأرْبَتْ فى صِدْق النيَّات وبِرِّها على كل منْ بَرّ :

وَلَوَ آنّ مُشْتاقًا تكلَّفَ فَوْقَ مَا * فِى وُسْـعِهِ لسَعى إليكَ المِنْبَرُ!

فما ضَرَّ بحمدِ الله بُعْدُ الدار والآمالُ بساكِنِها مُطيفه ، بل كانَ لكَ الذِّكرُ فى قلب الخليفة نِعْمَ الخَليفه؛ وكنتَ لديْه ــ وإن غِبْت ــ حاضرًا بجميل الذِّكر، ونأيْتَ دارا فقرّبَكَ إليــه حُسْن التصويرِ فى الفِكْر. وكان أميرُ المؤمنين قد شاهَدَك يافِعا، وشهِدَ خاطِرُه أن ستَصِــيرُ للمسلمين نافِعًا؛ وتأمَّل منك أمائرَ أضْحى لها لترقِّيك آمِلا، وهلالًا دلَّتْه كرامتُه ــولا تُنْكَر الكرامةُــ على أن سيكونُ بدْرا كامِلا؛ وبلَغَه عنك من العــدْل والإحسان ، ماأعجز وصْـفُه بَلاغتَيِ القلَمَ واللِّسان ؛ فناداك نداءَه على بُعْــد المَزار ، ولم يجِدْ لكَ نظيرا فأطالَ وأطابَ لَمقْدَمك السـعيد الآنْتِظار ؛ إلى أنْ أقْدمْتَ إقدامَ اللَّيْث ، وقَدِمتَ إلى البـلاد المتعطِّشة إلى نَظَرك الشريف قُـدُومَ الغيْث ؛ فلاحَ بكَ على الوُجُود دليلُ الفَلاح ، وحَمِد الرعايا سُراك عند الصَّباح والآستِصْباح ؛ وشاهدُوا منك أســدًا فاقَ بوَثَبَاتِه وثبَـاتِه الأُوَل ، وشخْصا لا يصْلُح إلَّا لإدالة دُوَل ولا تَصْـلُح إلا لمثْـله الدُّوَل؛ وقامتْ باخْتِبـارك على آختيارك الدَّلائل، وعَـرَفك

سريرُ المُلْك وعَرَف فيك من أبيك شَمـائل ؛ و رأىٰ أميرُ المؤمنين من نَجابتك فوقَ ما أخبرَتْ به مُساءلةُ الرُّكْبان ، ومن مَهابتك مادَلّ علىٰ خفض الشانِئ ورَفْع الشان ؛ ومن مَحـامدك كلّ ما صـغّر الخَبَرعنها الخُـبْر ، وأعلنتْ ألسنةُ الأقدار بأنه لم يَبْق عن تقليدك الممـالكَ الإسلاميَّةَ بحمد الله تعالىٰ عُذْر ؛ فاختارك علىٰ عِلْم علىٰ العالَمِين ، وآجتباك للذَّبّ عن الإسلامِ والمسلمين ؛ وآستخارَ اللهَ تعالىٰ فى ذلك نخَار ، وأفاضَ عليكَ من بَيْعته المباركةِ مع نَخْوك المشتَهِر حُلَل الفخَار ، وعهِد إليكَ فى كلّ ماآشتملتْ عليه دعوةُ إمامته المعظَّمه ، وأحكامُ خلافته التى لم تزَلْ بها عقُود الممـالك فى الطاعة مُنَظَّمه ؛ وفوَّضَ إليـك سَلطنةَ الممـالك الإسلاميَّة بَرًّا و بحرا ، شامًا ومِصْرا ؛ قُرْبا وبُعْـدا ، غَوْرا ونَجْـدا ؛ وما سيفتَحُه الله عليـك من البِلاد ، وتستنقذُه من أيْدى ذَوِى الإلحاد ؛ وتقليدَ المُلوك والوُزَراء ، وقضاةِ الحُكْم العزيزوتأميرَ الأمراء ؛ وتجهيزَ العساكر والبُعُوث للجهـاد فى سبيل الله ومحاربةَ مَنْ ترىٰ محاربتَه من الأعداء ، ومهادنَةَ من ترىٰ مُهادنتَه منهم ؛ وجعل إليك فى ذلك كله العَقْـد والحَلّ ، والإبرامَ والنقضَ والوِلايةَ والعَزْل ؛ وقلَّدك ذلك كلَّه تقليدا يقُوم فى تسليم الممـالك إليك مَقامَ الإقْليد ، ويَقْضِى لقريبِها وبَعيدِها بمشيئةِ الله تعالىٰ بمزيدِ التمهيد والتَّشْييد : لتعلم أنَّ الله قد جعلَ الأيامَ الشريفـةَ الحاكمية ـ أدامها اللهُ تعالىٰ ـ فَلَكا أبدىٰ سالفًا من البيت الشريف المنصورى أقْمارا ، وأطْلَع منهم آنِفًا بَدْرا ملأ الخافقيْن أنْوارا ؛ فكُلَّما ظهـرَتْ لسَلَفه مآثرُ بدتْ مآثرُخلَفـه أظْهَر ، ومن شاهَدَهم وشاهدَ شمسَ سعادته المنَزَّهة عن الأُفُول قال هـذا أكْبَر ؛ وكلَّمـا ذُكر لأحدهم فضـلٌ عـلِم أنه فى أيامه متزَيِّد ، وأنه إنْ مضىٰ منهم سيِّد فى سَبِيله ، فقد قام بأطرافِ الأسِنَّة منهم سَـيِّد ؛ وصيرَّ الدولة الشريفةَ الخليفيَّةَ غاباً إنْ غاب منهم أُسُـود ، خَلَفهم شـبْل بشَّرتْ مَخايِلُه أنَّه عليها يَسُود .

فلْيتقَلَّدِ السلطانُ الملك الناصر ما قلّده أمير المؤمنين ، ولْيَكُنْ لدعوته الهادِيَة من المُلَبِّين وعليها من المؤمِّنين ؛ ولْيترَقَّ إلى هذه الرُّتبة التى آستحَقَّها بحسَبه ، وآسترَقَّها بنَسَبه ؛ ولْيباشِرْها مستبْشِرا ، ويُظْهِرْ من شكر الله تعالى عليها مايَغْدُو به مستَظْهِرا ؛ فقد أراد أميرُ المؤمنين القيامَ فى نُصْرة الدين الحنيف فأقامَك أنتَ مُقامه ، وصرّف بك بين أهل الطاعةِ والعِصْيان إكرامَهُ وآنْتِقامَه ؛ رَعْيًا لعهْد سلَفِك الكريم ، ولما آستوجَبَتْه نفسُك النفيسةُ من وُفُور التعظيم والتكْرِيم ؛ وعِنايةً بالعساكر المؤيَّدة الذين وجَّهُوا وجُوهَ آمالهم إلَيْك ، وأبتْ كلمتُهم التى صانها اللهُ عن التفرُّق أن تجتَمِع فى الطاعة والخِدْمة إلَّا عليك ولَدَيْك ؛ ومِنَّةً عليهم بسلطانٍ مابَرِحُوا من الله تعالى يطلُبُونه ، وملك نشَئُوا بأبوابه العالية فلهذا يُحِبُّهم ويُحِبُّونه .

فاحمَدِ اللهَ تعالى الذى جعل لكَ فى إعادة المُلْك أُسْوةً بسُلَيْمان عليه السلام ، وردّه إليكَ ردًّا لا آنفِصال لعُرْوته ولا آنْفِصام ؛ فأضحيْتَ لأمور عباده سَدَادا ، ولثُغُور بلادِه سِدَادا ؛ وللخليفة عَضُدا فى الخليقه ، وفى الدهر سامِيَ الحقيقةِ حامِيَ الحقِيقه ؛ ولِلْمُلْك وارثا ، ورقَّاك رُقِيًّا أصبحتَ به فى السلطنة واحدًا وللخلافة المعظمة ثانيًا وللقَمَرين ثالثا .

وبُشْراك ! أنَّ الله أبرم سبَبَ تأييدك إبْراما لا تَصِل الأيدى إلى نَقْضه ، وأنك سُئِلتَ عن أمرٍ طالما أتعبَ غيْرَك سُؤالُه فى بعضه ؛ وأن الله يُحْسِن لك العونَ وبك الصَّوْن ، فقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " ياعَبْدَ الرَّحْمٰن بنَ سَمُرةَ ! لا تَسْألِ الإمارةَ فإنَّكَ إنْ أُعْطِيتَها عَنْ مَسْألَة وُكِلْتَ إليها ، وإنْ أُعطِيتَها عن غَيْر مَسْألةٍ أُعِنْتَ عليها " .

وبشراك ! أن أمير المؤمنين خَصَّك بمزيد الآعتناء ، وأقامك مُقامَه فى حُسْن الغَنَاء، وحقّق أنَّ السعادة فى أيامه موصُولةٌ منكم بالآباء والأبناء؛ وبلَّغك بهذا التقليد الشريف الأمانِى ، وتَوَّجَهُ بيمين قريبةِ عهد باستلام الرُّكن اليمانى ؛ وآصطفاكَ بقَلْب أظهر له الكُشوفَ إشراقُ تلك السُّتُور ، وغَدَا مَغْمُورا بالهداية ببركة البيتِ المعْمُور، ونظرٍ زادَتْه مشاهدةُ الحرم الشريف النبوىّ نُورا علىٰ نُور؛ فقابِلْ ذلك بالقيام فى مُهِمّات الإسلام ، وتدقيقِ النظرِ فى مَصالح الخاصّ والعام؛ وآجتهِدْ فى صِيانَةِ الممالكِ آجتهادًا يَحْرُس منها الأوْساطَ والأطْراف ، وتنتظِمُ به أحوالُها أجلَّ آنتظام وتأتلِفُ أجملَ آئتِلاف .

والوَصايَا كثيرةٌ وأولاها تَقْوىٰ الله : فليجعَلْها حِلْيَةً لأوقاته ، ويُحافِظْ عليها محافظَةَ من يتَّقيه حقَّ تُقاته؛ ويتَّخِذْها نَجِىّ فِكره وأنيسَ قلْبِه، ويُعَظِّمْ حُرُماتِ الله : ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَه عِنْدَ رَبِّه ﴾ .

والشرعُ الشريفُ فهو لعِقْد الإسلام نِظَام ، وللدِّين القَيِّم قِوَام ؛ فتجْتَهِد فى آقتفاء سَنَنه ، والعملِ بمفْرُوضه وسُنَنه؛ وتكريم أهلِه وقُضاتِه ، والتوسُّل بذٰلك إلىٰ الله فى آبتغاء مَرْضاته .

وأمراءُ دولتك فهم أنصارُ سَلَفك الصالح، وذَوُو النصائح فيما آثَرُوه من المصالح؛ وخُلَصاءُ طاعتهم فى السِّرِّ والنَّجْوىٰ ، وأعوانُهم علىٰ البِرِّ والتقوىٰ ؛ وهم الذين أحَلَّهم والِدُك من العِناية المحَلَّ الأسْنىٰ ، والذين سبَقَتْ لهم بحُسْن الطاعة من اللهِ الحُسْنىٰ ؛ ولو لم يكن لهم إلّا حُسْنُ الوفاء، لكَفَاهم عندَك فى مَزِيد الآعتماد والآستِكفاء؛ فإنهم جادَلُوا فى إقامة دولتِك وجالَدُوا ، وأوْفَوْا بالعهد فهم المُوفُون بعهدهم إذا عاهَدُوا ؛ وهم للوصايا بخِدْمتك واعُون، وفيما آئتمَنْتَهم عليه لأماناتهم وعَهْدهم راعُون؛ قد أصْفَوْا

لك النيّـاتِ بظهْرِ الغيْبِ ، وأخلَصُوا الطوِيّات إخلاصا لاشكَّ معـه ولا رَيْب ؛ ونابُوا عنك أحسَنَ مَنَاب ، وكَفُّوا كَفَّ العدوّ فمـا طالَ له لاَفتِراس ولا ٱختِلاس ظُفُرٌ ولا نَاب ؛ وٱتخَذُوا لهم بذٰلك عنـدَ الله وعِنْدك يدًا ، وأثّلُوا لهم به مَجْـدا يبقىٰ حديثُه الحسنُ الصحيحُ عنهم مُسْنَدا .

فاستَوْصِ بهم وبسائرِ عساكرِك المنصورةِ خيرا ، وأجمِلْ لهم سريرةً وفيهم سَيْرًا ، وأحمِدْهم عُقْبىٰ هذه الخِدْمه ، وأورِدْهم مَنْهَلَ إحسانٍ يُضاعِف لهم النِّعمة والنَّعْمه : لتؤكّد طاعَتَك علىٰ كل إنسان ، ويثِقُوا بحُسْن المكافأة : و﴿ هَـلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسان ﴾ . ولتَزْدادَ أوامِرُك ونَواهِيـكَ ٱمْتِثالا ، ولا يجِدُوا عن محبّـة أيّامك الشريفةِ ٱنْتِقالا ، وليُقَال فى حُسْن خِدَمِهم وإحْسانِك : هٰكذا هٰكذا وإلّا فَلالَا .

وأما الغَزْو والجهادُ فى سبيل الله تعالىٰ ، وما أوجبه فيهما قولُه : ﴿ ٱنْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالا ﴾ ، فأقلّ ما يُجْزِئ فرضَ الكِفَاية منـه مَرّةٌ فى كل عام ، وأما فرضُ العين فوُجُوبه علىٰ ذَوِى الاَسـتِطاعة من المسلمين عامّ ؛ وقد عرفت سَنَن السلطانين الشهيدين : والِدِك وأخِيك ـقدّس الله رُوحَهماـ فى الاَعتِناء بجِهَاد الكُفّار ، وغَزْوِهم فى عُقْرِ الدار ؛ وموقِفَ أحدهما فى مَوْطِنٍ زلَّت فيه الأقدامُ عن الإقدام ، وٱجتمع فيه الكُفْرُ علىٰ الإسلام ؛ وشابَ من هَوْله الوَليد ، ومُصابرتَه تُجاهَ سيْف من سُيُوف الله تعـالىٰ الإمام خالد بنِ الوليـد ؛ وٱستِنْقاذًا لآخِر البلاد الساحليّة التى أنقذها اللهُ من أيْدِى المشْرِكين علىٰ يَدِ الصَّلاحَيْن ، وفَتَح لهما أبوابَ الجنـة ببركة الاَفتتاحَيْن ؛ وأنَّ والدَك وأخاكَ سَدًّا علىٰ المشركين الفِجَاج ، وطَهَّرا من أرجاسهم العَذْبَ الفُراتَ والمِلْحَ الأُجَاج ؛ فالكتائبُ المنصوريّه ، أبادت التّتار بالسُّيُوف المَشْرَفيّه ؛ والممالكُ

الإســلاميّه، زَهَتْ نِظاما بالفُتُوحات الأشرَفِيّــه؛ فاجتَهِدْ فى إعلاء كلمةِ الدين أتَمَّ آجتِهاد، وعَزِّزْهما بثالث فى الغَزْو والجِهاد .

وأما الرَّعايا بَعِيدُهم وقريبُهم ، ومستَوْطِنُهم وغَرِيبُهــم ، فَيُوفِّيهم من الرِّعاية حَظَّهم ، ويُجْزِل صِيانَتَهم وحِفْظَهم ؛ وكما يَرىٰ الحَقَّ له فَلْيَرَ الحقَّ عليه ، ويُحْسِن إلىٰ رَعَاياه كما أحسَنَ اللهُ إليه .

وأما العدلُ فإنَّه للبلاد عِمَــاره ، وللسَّعادة أَمَاره ، وللآخرة مَنْجاةٌ من النَّفْس الأَمَّاره ؛ فلْيكُنْ له شِعَارا ودِثَارا ، ولْيُؤَكِّد مَرَاسِمَــه فى الأمر بالمعْروف والنهى عن المنْكَر ، والمحافظةِ من ذٰلك علىٰ مايُذْكَر به عند الله ويُشْكَر .

والحُدُود الشرعيَّــة فلْيُحَلِّ بإقامتهــا لِسانَه وطِرْسَــه ، ولا يَتعدّها بنَقْص ولا زيادة ﴿ ومَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه ﴾ . والله يخلِّد له رُتبةَ المُلْك التى أعلىٰ بهــا مَقَامه ، ويُديمُه ناصرا للدين الحنيف فأنصارُه لا يزالُون ظاهِرِين إلىٰ يَوْمِ القِيــامه ؛ ويجعَلُ سبَبَ هــذا العهد الشريف مَدىٰ الأيَّام متينا ، ويجدّدُ له فى كلِّ وقْت نَصْرا قرِيبًــا وفَتْحا مُبِينا . والخطُّ الحــاكمىّ أعلاه ، حجــةٌ بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الحمدُ للهِ وحده ، وصلواتُه علىٰ سيدِنا محمدٍ وآله وسلامُه ، حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل .

***

وعلىٰ نحو من ذٰلك كتب القاضى علاءُ الدين بنُ عبد الظاهر عن المستكْفِى بالله ، أبى الرَّبيع سُلَيان ، عهدَ الملك المظَفَّر ركنِ الدين "بيبرس المنصُورى" الجاشنكير . وهذه نسخته :

هذا عهدٌ شريفٌ انتظمتْ به عقُود مصالح المُلْك والممالك، وابتسمتْ ثُغُور الثُّغور ببَيْعته التى شَهِدت بصحَّتها الكِرامُ الملائك ؛ وتمسَّكتِ النُّفُوس بمُحْكَم عَقْده النَّضِيد ومُبْرَم عِقْده النَّظِيم، ووثِقَت بميثاقه فتركتِ الألْسُنَ مستفْتِحةً بقول الله الكريم : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم ﴾ .

الحمدُ لله الذى جعل المِلَّة الإسلاميَّة تَأْوِى من سلطانها إلىٰ رُكْن شدِيد ، وتَحْوِى من متابعة مظَفَّرها كلَّ ما كانت ترُومُه من تَأْبِيد التأْيِيد، وتَرْوِى أحاديثَ النصر عن مَلِك لايَمَلُّ من نُصرة الدِّين الحنيفىِّ و إن مَلَّ الحديدُ من الحَدِيد ؛ مُؤْتِى مُلْكه مَنْ يشاء من عباده، ومُلْقِى مقالِيده للوَلِىّ المَلِىّ بقَمْع أهل عِنَاده؛ ومانِحِه مَنْ لم يزَلْ بعزائمه ومَكارمه مَرْهُوبا مَرْغُوبا ، ومُولِيه ومُوَلِّيه مَنْ غَدا محبوّا من الأنَام بواجب الطاعة محبُوبا، ومُفوّض أمْرِه ونَهْيِه إلىٰ مَنْ طالمَا صَرف خَطِّيَّه عن حِمىٰ الدين أخْطارا وخُطُوبا .

والحمدُ لله مُجْرِى الأقْدار، ومُظْهِر سرّ المُلْك فيمَن أضْحىٰ عند الإمامة العباسيَّة بحُسْن الاختِبار من المصْطفَيْن الأخيار ؛ جامعِ أشتاتِ الفَخَار ، ورافعِ لِواء الاستِظْهار ؛ ودافِعِ لَأْواء الأضْرار ، بجميل الالتجاء إلىٰ رُكْنٍ أمسىٰ بقُوّة الله تعالىٰ عالِىَ المنار، وافِىَ المبارّ، بادِىَ الآثارِ الجميلةِ والإيثار .

والحمدُ لله علىٰ أنْ قلّد أمورَ السلطنة الشريفةِ لكافِلها وكافِيها، وأسنَدَ عَقْدَها وحَلَّها لمن يُدْرِك بكريم فِطْنته وسليم فِطْرته عواقِبَ الأُمور من مَبَادِيها، وأيَّد الكتائِبَ الإيمانيَّةَ بمن لم تزَلْ عوالِيه تُبَلِّغُها من ذُرىٰ الأمانِىّ مَعالِيها .

يحمدُه أمير المؤمنين علىٰ إعلاء كلمة الإيمان بأعْيان أعْوانِها، وإعْزازِ نَصْرها بأركان تشييدها وتشْيِيد أركانِها، ويشهدُ أنْ لاإلٰهَ إلا الله وحدَه لَاشريك له شهادةً

لا تبرح الألسـنةُ تَرْوِيها والقلوبُ تَنْوِيها، والمواهبُ تُجْزِل لقائلها تَنْويلا وتَنْويهـا؛ ويشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه أكمَلُ نبيّ وأفضلُ مبعُوث، وأشرفُ مُوَرِّث لأجَلِّ مَوْرُوث، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبـه صلاةً تَنْمِى بركاتُها وتَنُمّ(١)، وتَخُصّ حسَنَاتُها وتَعُمّ؛ ورضى الله عن عمّه العبّاس جدّ أمير المؤمنـين، وعن آبائه الأئمة المهديّين؛ الذين وَرِثُوا الخلافةَ كابرًا عن كابِر، وسَمَتْ ووُسِمتْ بأسمائهم ونُعُوتهم ذُرىٰ المَنَابر .

أما بعدُ، فإن الله عزّ وجلّ لمـا عَدَق بمولانا أميرِ المؤمنين مصالحَ الجُمْهور، وعقَد له البيعةَ فى أعناق أهلِ الإيمان فزادَهُم نُورًا علىٰ نُور؛ وأورثَه عن أسلافه الطاهـرين إمامةَ خيرِ أُمّه، وكشف بمُصابَرتِه من بأس العِـدَا ظَلَام كلِّ غُمّه؛ وأنزل عليـه السكينةَ فى مواطنِ النصرِ والفتْحِ المبِين، وثَبّته عنـد تَزَلْزُل الأقدام وثبّت به قلوبَ المؤمنين؛ وأفاض عليه من مَهَابة الخلافة ومَوَاهِبها ماهو من أهْله، وأتّم نعمتَه عليه كما أتمّها علىٰ أبوَيْه من قَبْـله ـ بايَعَ الله تعالىٰ علىٰ أنـ يختارَ للتّمليك علىٰ البَرايا، والتحكيم فى الممالكِ والرّعايا؛ مَنْ أَسّس بُنْيانَه علىٰ التقوىٰ، وتمسّك من خشـيةِ الله تعـالىٰ بالسبَبِ الأَقْوىٰ؛ ووقَف عند أوامر الشرع الشريـف فى قَضائِه وحُكْمه، ونَهَض لأداء فرضِ الجهـاد بمَعَالى عَزْمه وحَزْمه؛ وكان المقامُ الأشرفُ العـالى، المولوىُّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، المظفّرىّ، الرُّكنىّ؛ سـلطان الإسلام والمسلمين، سيدُ الملوك والسلاطيـن؛ ناصرُ المِلّة المحمديه، مُحْيِي الدولة العبّاسيه؛ أبو الفتح «بيبَرْس» قسيمُ أمير المؤمنين : أعزّ الله تعالىٰ ببقائه حِمىٰ الخلافة وقد فَعَلْ، وبلّغ فى بقاء دولته الأمل ـ هو المَلِكُ الذى انعقد الإجماعُ علىٰ تفْضيله، وشهِدت مناقبُه الطاهرةُ باسْتِحقاقه لتَحْويل المُلْك إليـه وتَخْويله؛ وحكَم التوفيقُ والاتّفاقُ بتَرَقّيـه

(١) نم الحديث ظهر . ونم الشىء سطعت رائحته .

إلىٰ كُرسىّ السلطنة وصُعُوده ، وقضتِ الأقدارُ بأن يُلْقِىَ إليه أميرُ المؤمنين أزِمَّةَ عُهُوده، والذى كم خفقَت قلوبُ الأعادى عند رُؤْية آياتِ نصره، ونطقَتْ ألسنةُ الأقدار بأنْ سيكونُ مليكَ عصْره وعزيزَ مِصْره، وآهتزَّتْ أعطافُ المنابر شَوْقا للافتخار باسْمِه، وآعتزَّتِ الممالكُ بمن زاده الله بَسْطةً فى عِلْمه وجِسْمه ؛ وهو الذى مابرِح مُذْ نشأَ يجاهد فى الله حقَّ جِهاده، ويساعدُ فى كل مَعْرَكة بُمرْهَفَات سُيُوفه ومتْلفات صِعَاده، ويبْدى فى الهَيْجاء صَفْحتَه للصِّفاح فيقيه اللهُ ويُبْقيه : ليجعله ظِلَّه علىٰ عباده وبلاده، فيُرْدِى الأعداءَ فى مواقِف تأييده فكَمْ عفَّر من خدٍّ لمُلوك الكُفْر تحتَ سَنَابك جِيَاده ؛ ويَشْفِى بصُدُور سُيُوفه صُدُورَ قومٍ مؤمنين، ويَسْقِى ظِماءَ أسِنَّته فيَرْوِيها من مَوْرِد وَرِيد المشركين ؛ ويُطْلِع فِى سماء الملك من غُرَر آرائِه نَيِّراتٍ لاتأفُل ولا تغُور ، ويُظْهِر من مَواهِبه ومَهَابته ماتُحسَّنُ به الممالكُ وتُحصَّنُ الثُّغُور؛ فما من حِصْنٍ آستغْلقه الكفرُ إلا وسيْفُه مِفْتاحه، ولا ليلِ خَطْب دجَا إلا وغُرّته الميمُونةُ صَباحُه ؛ ولا عَزَّ أملٌ لأهل الإسلام إلا وكان فى رأْيه المسدَّدِ نَجاحُه ، ولا حصَلَ خللٌ فى طَرَفٍ من الممالك إلّا وكانَ بمشيئةِ الله تعالىٰ وبسَدَاد تدبيره صَلَاحُه ؛ ولا آتَّفق مَشْهَدُ عدوّ إلا والملائكةُ الكِرامُ بمظافَرَته فيه أعدَلُ شُهوده ، ولا تجدّدَ فتوحٌ للإسلام إلا جادَ فيه بنَفْسه وأجاد ؛ (والجُود بالنَّفْس أقْصىٰ غايةِ الجُودِ) .

كَمْ أسلَفَ فى غَزْو أعداء الدِّين من يومٍ أغَرَّ مُحَجَّل ، وأنفق مالَهُ آبتغاء مَرْضاة الله سبحانه فحاز الفَخْر المعَجَّل والأَجْر المؤَجَّل ؛ وأحْيا من مَعالم العُلوم ودوَارس المدارس كلَّ داثِر، وحَثَّه إيمانُه علىٰ عِمَارة بيُوت الله تعالىٰ الجامعةِ لكلِّ تالٍ

وذاكر : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾ . وهو الذى مازالتِ الأوليـاءُ تَتَخيَّل مَخايِلَ السَّــلْطنة فى أعطافه مَعْنًى وصُوره ، والأعداءُ يرومون إطفاءَ ماأفاضه اللهُ عليه من أشِعَّة أنواره : ﴿ويَأْبىٰ اللهُ إلَّا أنْ يُتِمَّ نُورَه﴾ . طالَمَا تطاوَلتْ إليــه أعناقُ المـالك فأعْرَض عنها جانبا ، وتطفَّلتْ علىٰ قُرْبه فكان لهـا ــ رعايةً لذِمَّة الوفاء ــ مُجَانِبا ، حتّٰى أذِن اللهُ سبحانه لكلمةِ سلطانه أن تُرْفَع ، وحَكَم له بالصُّعود فى دَرَج المُلْك إلىٰ المحَــلِّ الأعلىٰ والمكانِ الأرْفَع ، وأدّٰى له من المَوَاهب ما هو علىٰ ٱسْمِه فى ذخائرِ الغُيوب مستَوْدَع .

فعنــد ذٰلك ٱستخار اللهَ تعالىٰ ســيدُنا ومولانا الإمام المستكْفِى بالله أميرُ المؤمنين أبو الربيع سليمان، ٱبنُ الإمام الحـاكم (وذكر نسبه علىٰ العادة) جعــل الله الخلافةَ كلمة باقيــةً فى عَقِبه ، وأمتعَ الإســلامَ والمسلمين بشرفَىْ حَسَبِه ونَسَبِه ، وعَهِد إلىٰ المقام العالى السلطانى بكلِّ ماوراءَ سرير خلافتِه ، وقلَّده جميعَ ماهو مقلَّده من أحكام إمامتِه ، وبسَطَ يدَه فى السلطنة المعظَّمه ، وجعل أوامِرَه هى النافذَةَ وأحكامَه هى المُحَكَّمه ، وذٰلك بالديار المِصْرية ، والممالك الشاميَّة ، والفراتيَّة ، والجَبَليَّة ، والساحِلية ، والقِــلَاع والثُّغور المحروســة ، والبلاد الحِجازيَّة ، واليمـانية ، وكلِّ ماهو إلىٰ خلافة أمير المؤمنين مَنْسوب ، وفى أقطارِ إمامتِه مَحْسُوب ، وألقىٰ إلىٰ أوامِرِه أزِمَّة البَسْط والقَبْض ، والإبرامِ والنَّقْض ، والرَّفْع والخَفْض ، وما جعله اللهُ فى يده من حُكْم الأرض ، ومن إقامةِ سُــنَّة وفَرْض ، وفى كلِّ هِبة وتمليك ، وتصرُّف فى ولايةِ أمور الإســلام من غير شَريك ، وفى تولية القُضاة والحُكَّام ، وفَصْل القضَايَا والأحكام ، وفى سائر التحكُّم فى الوجُود ، وعَقْــد الألوية والبُنُود ، وتجنيــد الكتائب والجُنُود ،

وتجهيز الجيُوش الإسلاميَّة من التأييـد(١) إلىٰ كلِّ مقام محمود ؛ وفى قَهْر الأعداء الذين نَرْجُو بقوة الله تعالىٰ أن يمكّنه من نَوَاصِيهم ، ويُحَكِّم قواضبه فى آستِنْزالهم من صَيَاصِيهم ، وآستِئْصال شأفةِ عاصِيهم ؛ حتّى يمحُوَ إن شاء الله تعالىٰ بمصابيح سُيُوفه سَوادَ خُطوب الشِّرْك المُدْلهمّه ، وتغْدُوَ سَراياه فى آقْتِلاع قِلاع الكفر مُسْتَهِمَه ؛ وتُرْهِبهم خيْلُ بُعُوثه وخَيَالُها فى اليَقَظةِ والمَنَام ، ويدْخُل فى أيامه أهلُ الإسلام «مدينةَ السلام» بسلام ـ تفويضًا تامًّا عامّا ، منضّدا مُنَظّمًا مُحَكّما محكما ؛ أقامه مولانا أمير المؤمنين فى ذٰلك مُقام نفْسه الشريفه ، وآستشهد الكِرامَ الكاتبين فى ثُبُوت هذه البَيْعة المُنيفه .

فليتقلّد المقامُ الشريفُ العالى السلطانى ـ أعز الله نصره ـ عِقْدَ هذا العهد الذى لا تَطْمَح لمثله الآمال ، وليْستمْسِكْ منه بالعُروة الوثقىٰ التى لا آنْفِصامَ لها ولا آنْفِصال ؛ فقد عوّلَ أميرُالمؤمنين علىٰ يُمْن آرائك التى ما بَرِحت الأئمّةُ بها فى المُعْضِلات تَسْتَشْفِى ، وآستكفىٰ بِكَفَايتك وكَفَالتك فى حِياطة المُلْك فأضحىٰ وهو بذٰلك المُسْتَكْفِى ؛ وهو يقصُّ عليك من أنباء الوَصايَا أحسَنَ القَصَص ، ويَنُصُّ لدَيْك ما أنت آخذٌ منه بالعَزَائم إذا أخَذَ غيرُك فيه بالرُّخَص ؛ فإن نُبِّهت علىٰ التقوىٰ فطالَما تمسّكْتَ منها بأوْثَقِ عُرْوه ، وإن هُدِيت إلىٰ سبيل الرَّشاد فما زِلْتَ تَرْقىٰ منه أشرفَ ذِرْوه ؛ وإن آستَرْهَفْنا عزْمَك الماضِيَ الغِرار ، وآستدْعينا حَزْمك الذى أضاء به دَهْرُك وآستنار ، فى إقامة مَنار الشرع الشريف ، والوقوف عند نَهْيه وأمره فى كل حكْم وتَصْريف ، فما زِلْتَ ـ خلّد الله سلطانك ـ قائمًا بسُنّته وفَرْضه ، دائبًا فى رِضَا الله تعالىٰ بإصلاح عقائد عباده فى أرْضه ؛ وما بَرِح سيفُك المظفّرُ للأحكام الشرعيّة خادِما ، ولمِوادِّ الباطل حاسِما ، ولأُنُوف ذَوِى البِدَع راغِما ؛ فكلُّ ما نُوصِيك به

(١) لعله من التلبية . تأمل .

من خير قد جُبِلتْ عليه طِباعُك ، ولم يزَل مشتدًّا فيه ساعِدُك ممتدًّا إليه باعُك ؛ غير أنّا نُورِد لُمَعة آقتضَاها أمرُ الله تعـالىٰ فى الآقتداء بالتّذْكرة فى كتابه المبين، وأوجبها نصُّ قوله تعالىٰ : ﴿ وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ . ويَنْـدرِجُ تحتَ أُصُولها فروعٌ يستغْنِي بدقيق ذِهْنه الشريفِ عن نَصِّها، وبفكره الثاقب عن قَصِّها؛ فأعظَمُها للّة نَفْعا، وأكثَرُها للباطل دَفْعا، الشرعُ الشريف : فليكُنْ ــ أعز الله نصره ــ عاملًا علىٰ تشييدِ قواعِد إحكامِه ، وتنفيـذِ أوامِر أحْكامه؛ فالسعيدُ من قَرَن أمْرَه بأمره، ورضِيَ فيه بحُلْو الحق ومُرِّه. والعدلُ فلْينْشُرْ لواءه حتّى يأْوِيَ إليه الخائف، وينكَفَّ بَرْدعه حيْفُ كلِّ حائف؛ ويتَساوىٰ فى ظلِّه الغنِيّ والفقير، والمأمورُ والأمير؛ ويُمْسِي الظُّلمُ فى أيّامك وقد خَمدتْ ناره، وعفَتْ آثارُه .

وأهَمُّ ما آحتفَلَتْ به العَزائم ، وآشتمَلَتْ عليـه هِمَم الملوك العظَائم ، وأشْرعتْ له الأسِـنَّة وأُرْهِفَتْ من أجْله الصوارم ؛ أمرُ الجهاد الذى جعله اللهُ تعـالىٰ حِصْنا للإسلام وجُنَّه، وآشترىٰ فيه أنْفُسَهم وأموالَهُم بأنَّ لهم الجنَّه؛ فجَنِّد له الجُنودَ وآجْمعْ له الكتائب ، وآقْضِ فى مَواقِفـه علىٰ الأعداء مِن بأْسك بالقَواضِي القواضِب؛ وآغْزُهم فىعُقْر الدار، وأرهِفْ سيفَك البَتَّار : لتأْخُذ منهم للسلمين بالثّار . والثُّغور والحصون، فهى سِرّ المُلْك المَصُون، وهى معاقلُ النفوس إذا دارتْ رَحىٰ الحرب الزَّبُون ؛ فلْيُقَلِّد أمْرَها لكُفَاتها ، ويَخُصَّ حمايَتَها بحُماتها، ويضاعِفْ لمن بها أسبابَ قوّتها ومادّةَ أقْواتها . وأمراءُ الإسلام وجنودُ الإيمان فهم أولياءُ نَصْرك، وحَفَظة شامِكَ ومِصْرك؛ وحزبُك الغالب، وفريقُك الذين تَفْرَق منهم قلوبُ العِدا فى المشارق والمغارب؛ فليكُن المقامُ العالى السـلطانىّ ــ أعزه الله تعـالىٰ ــ لأحوالهم متفقِّدا، وبَبَسْط وجهِه لهم مُتَودّدا؛ حتّى تتأكد لمقامه العالى طاعتُهم، وتتجدّدَ لسلطانه العزيز

ضَراعَتهم . وأما غير ذٰلك من المصالح، فما بَرِح تدبيرُه الجميل لها ينفِّذ ورأيُه الأصيل بها يُشير، فلا يحتاجُ مع علمه بغَوامِضها إلىٰ إيضاحها ﴿ ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ . والله تعالىٰ يخصُّ دولته من العدل والإحسان بأوْفَر نصيب، ويمنَحُ سلطانه مايرجُوه من النصر المعَجَّل والفتح القرِيب، إن شاء الله تعالىٰ .

المـــــــذهب الثـانى

(أن يفتتحَ العهد بلفظ « من فلان » باسم الخليفة وكُنْيته ولقَبِ الخلافة ،
« إلىٰ فلان» باسم السلطان وكُنْيته ولقب السلطنة كما فى المكاتبات ،
ثم يأتى بعـــد ذٰلك بلفظ « أما بعـــد »)

ثم تارةً يأتى بعد البعدية بتحميد، مثل أن يقول : «أما بعدُ فالحمد لله» ويتخلص إلىٰ ذكر أمر الولاية وما ينْخرِط فى سِلْكها ؛ وتارةً يأتى بعـد البعدية بخطاب المولىٰ والدعاء له، ويتخلَّص إلىٰ مقاصد العهد : من الوَصايا وغيرها، علىٰ آختلاف مقاصد الكُتَّاب، وعلىٰ ذلك كانت العهود فى دولة الفاطميين بمصر .

قلت : وقد يُستَحْسَن هـذا المذهبُ فيما إذا كان المعهود إليه غائباً عن حضرة الخليفة : لأن العهدَ يصير حينئذ كالرسالة الصريحة إليه، بخلاف ما إذا كان بحضرته فإنه لايكونُ فى معنىٰ الرسالة الصريحة .

وعلىٰ هذا المذْهَب كتب أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله عهدَ شرف الدولة شيْرزيك بن عضُد الدولة بن بُوَيه، وهذه نسخته :

من عبدِ الله « عبدِ الكريم الإمام الطـائع لله » أمير المؤمنين ، إلىٰ شِيْرزيك بن عضد الدولة وتاج الملة أبى شُجَاع مولىٰ أمير المؤمنين :

سلامٌ عليك ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، ويسألُه أن يصلِّيَ علىٰ محمدٍ عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم .

أما بعد ـ أطالَ اللهُ بقاءَك، وأدامَ عِزَّك وتأييدَك، وسعادَتَك ونعمتَك ، وأمتع أميرَ المؤمنين بك وبالمَوْهِبة فيك وعندَك ـ فإنَّ أمير المؤمنين يَرىٰ أن يَحْفَظ علىٰ كل ولىٍّ أحْمدَ مذاهِبَه ، وأَرْضىٰ ضرائبَه ، وٱنْصرفَ عن الدنيـا متمسِّكا بطاعته ، متديِّنا بمشايعته ، حقُوقَه المتوحِّده ، وحُرُماتِه المتمهِّده ؛ فيمن يخْلُفه بعده من ولدٍ أمَّل أن يَرِث عنه محَلَّه ، ويقُومَ فيه مَقامَه ؛ وفاءً لأهل الوِلايه ، وتَصرُّفا علىٰ أحكام الرِّعايه ؛ وسياقةً للصنيعة من سالفٍ إلىٰ خالف ، وإمضائِها من تالدٍ إلىٰ طارِف . هـذا علىٰ الأمْرِ الجامع ، والعُمومِ الشامل ؛ فإذا ٱتَّفق أنَّ مُنتهىٰ وِراثة القُرْب إليه ، والمَنازِل لدَيْه ، إلىٰ النُّجبـاء الأفاضِـل ، والخُصَفاء الأماثِل ؛ الذين يَسْـتَحِقُّون ٱستئنافَ الآصطِناع لهم ، وٱستقبالَ التفويض إليهم بالمَناقب الموجُودة فيهم ؛ لو ٱنفردَتْ عما حازُوه عن آبائِهم وأوْليائِهم ، أَجْرىٰ أميرُ المؤمنين مايُفيضه عليهم من الأيادِى ، ويُرَقِّيهم إليه من هِضَاب المَعالى ، مُجْرىٰ الأمر الواجب الذى كثُرت الدَّواعى إليـه ، وٱتَّفق الرأْى والهوىٰ عليه ؛ وتطابقَ الإيثارُ والآختبار فيه ، وٱقترنَ الصوابُ والسَّدَادُ به ؛ وٱشـترك المسلمُون فى ٱستِثْمار فائدَتِه وعائدَتِه ، والآنتفاع بتأْدِيَته وعاقبته ؛ والله يَخِير لأمير المؤمنـين فيما يُمْضِيه من العزائم ، ويَبْنِيه من الدَّعائم ؛ ويعتَمِده مِنْ المصالح ، ويتوخَّاه من المَنـاجح ؛ إنه علىٰ ذٰلك قدير ، وبه جدير ؛ وهو حسْبُ أمير المؤمنين ونعم الوكيل .

وقد علِمتَ ـ أدام الله عِزَّك وأمتَعَ أمير المؤمنين بك ـ أنَّ شجرةَ بيتك [هى] التى تمكَّنتْ فى الخدمة أصُولُها ، والفضيلةُ منوطةٌ بها ، وأسبابُ التَّمام والدوام مجتمعةٌ فيها ؛

فلذلك سَبَغتِ النعمةُ عليكم، وآمتدّ ظِلُّها إليكم؛ ونُقِّلت فيها أقداحُكُم، وتوفَّرت منها حُظُوظكم؛ فتداولتُموها بينكم كابِراً عن كابرٍ بمَساعِيكم الصالحه، ومَناهِجِكم الواضحه؛ وتعاضُدكم علىٰ مالَمّ تَشعُّثَ الدولةِ الجامعه، وطَرَف عنها الأعيُنَ الحاسده؛ وكان شيخك عضد الدوله، وتاج المله؛ أبوشجاع رضوان الله عليه، صاحبَ الرتبة الزُّعمىٰ عند أميرالمؤمنين وهُمَامَها، والممتطِى غارِبَها وسَنَامَها؛ فعاشَ ماعاشَ مشكورا محُمودا؛ ثم آنقلبَ إلىٰ لقاءِ ربه سعيدًا رشيدا؛ وأوجبَ أميرُالمؤمنين لكَ وله منكَ الحُلولَ بمكانه، وحيازةَ خَطَره وشانِه؛ إذ كنت أظْفَر وَلَده، وأوّلَ المستحِقِّين لِوِرَاثته؛ وكانتْ فيك مع ذٰلك الأدَواتُ المقتِضيات لأنْ يفَوِّض الأمورَ إليك، ويعتمِدَ فيها عليك : من كِفَاية وغَناء، وآستِقْلال ووَفَاء؛ وسِياسةٍ وتَدْبير، وشَهامةٍ وتَشْمير؛ وتصرُّفٍ علىٰ طاعةِ أمير المؤمنين، وإشْبالٍ(١) علىٰ إخْوتِك أجمعين؛ وحُسْن أثَرٍ فيما أُنفِذَ أمْرُك فيه، وإفاضةِ أَمْن فيمَنْ أُمضيَتْ ولايتُك عليه؛ وإحاطةٍ بدلائل الحَواله، ومَخايِل الأَصَاله؛ بمثلها تُنال الغاياتُ الأقاصِى، وتُفْتَرع الذوائبُ والنَّواصى؛ فنوّلَكَ أميرُ المؤمنين تلكَ المَأْثُره، وخَوّلَك تلك المَفْخَره، وجعل أخاكَ صَمْصامَ الدوله، وشمسَ المله؛ أبا كالِيجار ـ أمتع اللهُ [بكما] أمير المؤمنين ـ بك تأييدَه، والمتقدّمَ بعدكَ علىٰ وَلَدِ أبيك؛ وأجراكما فى التطبيق بينكما والتقريرِ لِمَنَازلكما علىٰ مثل ماجرىٰ الأمرُ عليه بين ركْن الدولة أبى علىٍّ ومعِزِّ الدولة أبى الحسين سالفا، ثم بين عضُد الدولة وتاج الملة ابى شجاع ومؤيدِّ الدولة أبىمنصور آنفا؛ تولَّاهم الله بالرحمه، ونفَعَهم بما قبضَهم عليه من وَثَائق العصمه؛ وخَصَّك أمير المؤمنين بعد ذٰلك بما يُخَصُّ به ذُو القَدْر الشامخ والقدَم السابقه، والمَحَلّة الساميه؛ فذكَرَك بالتكنيه، ورفَعَك عن التسميه؛ ولقَّبك لقَبْين : أحدهما «شرفُ الدولة» لتشْرِيفه بك أولياءه

(١) الإشبال التعطف على الرجل ومعونته . انظر اللسان ج ١٣ ص ٣٧٥ .

الذين أوطأهم عَقِبَك ، وأعلَقَهم حبلَك ، والآخر «زين الملة» لزينة أيّامه بمعاليك ، وتضاعُفِ جَمَالهـا بمَساعِيك ؛ وعقَد لك بيده لواءَيْن يَلْويانِ إليك الأعناقَ بالطوع ممن سَرّاه وأبْهجاه ، والكَرْه ممن راعَاه وأزْعَجاه ؛ وأمر بأن تُقامَ لك الدعوةُ علىٰ منَابر مدينــة السـلام وما يجرى معها من الأعمـال بين الدَّعوة لأمير المؤمنـين وبين الدَّعوة لصَمْصام الدولة وشمس المِلَّة ، أمتع اللهُ أميرَ المؤمنـين بكما ، وأحسن الدِّفاعَ له عنكما : إلحاقًا لك وله بِـ.ـدك بأبيكما فيما كان شُرِّف به من هذه الحال التى لم يَبْلُغْها غيْرُه ، ولا أُهِّل لهـا أحدٌ قبـله ، وأن يُثْبَت ذِكْرُك باللقب والكُنْية فيما يُنْقَش من سِكك العَـيْن والوَرِق فى دُور الضرب بادِيًا ، وذِكْرُ صَمْصام الدولة ـ كلاً كما اللهُ ـ تاليا . وحَباك أمير المؤمنين مع ذٰلك بخِلَع تامَّة تُفاض عليك ، وفرسَيْن من جِياد خَيْله يُقادان إليك ، بمركَبيْ ذَهب من خاصِّ مَرَاكبه ، وسيفٍ ماضٍ من خِيار أسْيافه ؛ يُعِزُّ الله مَنْكِبيْك بنجَادَيْه ، ويُذِلُّ مناكِبَ أعدائك بغِرَارَيْه ، وطَوْق وسِوارَيْن . وأن تُجرىٰ فى المكاتبة عنه إلىٰ الغايةِ التى أجْرىَ أبوك رحمه الله إليْها ، وهذا الكتاب ناطقٌ بها ودالٌّ عليها . ونَدَب لإيصال الجميع إليك علىَّ بنَ الحسين الهاشمىّ الزَّيْنَىّ ، وأحمدَ بنَ نصر العباسىّ حاجِبَه ووحى خادمه ؛ فتلَقَّ شَرَفَ الدَّولة وزَيْنَ الملة وأبا الفوَارس [ذٰلك] ـ أدام الله عزك ـ بما يحِقُّ عليك من تقْوىٰ الله فى سِرِّك وجَهْرك ، ومراقَبتــه فى قولك وعملك ، وٱبتغاءِ رضاه فى مختَلِج خَطَراتك وفِكْرك ، وٱتبـاعِ طاعته فى مَخَارج أمرك ونَهْيك ؛ وقابِلْ ماأنعَم به عايك ، وأحسَنَ فيه إليْك ، بالشكر الذى موْقِعُــه من النعمة موقِعُ القِرىٰ من الضيْف ، فإن وجده لم يَذُم ، وإن فَقَده لم يُقِم ؛ وٱمدُدْ علىٰ مَنْ وُلِّيت عليــه من الخاصَّــة والعامَّة ظِلَّك ، ووطِّئْ لهم كَنَفك وٱغمُرْهم بطَوْلك ؛ وسُسْهم سياسةً يكون بها صَلاَحُهم مضمُونا ، وحريمُهم مَصُونا ؛ وبلادهم معْمُوره ، ومنـافِعُهم موفُوره ؛ وحَلَبُهم دَارّا ، وعيْشُهم رَغَدا ؛ وثغورُهم

مسْـدُوده ، وأعاديهم مَذْوده ؛ ومسالِكُهم محميَّـه ، ومساكنهم مرْعِيّـه ؛ ومُرْهم بالمعروف ، وآنْهَهُم عن المنكر ، وآبعَثْهم على الحَسَنات ، وآكفُفْهم عن السَّـيئات ؛ وساوِ فى الحق بيْنَ شريفِهم ومشروفِهم ، وقَوِيِّهم وضعيفِهم ؛ وقريبِهم وغريبِهم ؛ ومِلِّيِّهم وذميِّهم ؛ وقَوِّمْ سُفَهاءهم وجُهَّالهم ، وآنْفِ دُعَّارهم وخُرَّابَهم ؛ وأكرِمْ صُلَحاءهم وعُلَمـاءهم ، وشاوِرْ فُضَـلاءَهم وعقلاءَهم ؛ وجالسْ أُدْنياءَهم وأعْليـاءَهم ؛ وأنِلْهم مَراتِبَهم ، ونَزِّلهم مَنازِلهم ؛ وأرِهِم تمسُّكَكَ بالدين ليقْتدُوا بك فيه ، ورَغْبتَك فى الخير ليتقرّبُوا إليك به ؛ وخذ الحقَّ وأعْطِه ، وآبسُط العـدلَ وقُلْ به ؛ وآدْرَإ الحـدُود بالشُّبُهات ، وأقِمْها وأمضِها بالبيِّنات : لتكون الرغبـةُ إليك فى رَغَب ، والرَّهبةُ منك فى رَهَب ؛ وبالجمـلة فاحْمِلِ النـاس على كتاب الله ـ جلّ وعز ـ وآدابِه ، وسـنة الرسول وما جاء به .

وآعلم أنَّ أمير المؤمنين قد جعل كتابه هذا عَهْدا إليك ، وحجةً لك وعليك ؛ وأنَّ الأوامر والنواهِيَ فى العهود تكونُ كثيرة : وإنمـا قَصَّر فيه عن آستِيفائها ، لآرتفاع طبَقَتِـك عن الحـاجةِ إلى آستِقصائها ، وللخروج إلى الله من الحق فى تضمينه هذه الجمل منها ؛ فإذا وصل ذلك إليك مع كراماتِ أميرِ المؤمنين المقدَّم ذكْرُها لك ، فالبَسْ خِلَعه ، وتقلَّد سيفه ؛ وتحلَّ بِحِلاه ، وآبْرُزْ لمن يليك على حُمْلانه[1] ، وأظْهِر لهم ضُروبَ إحسانِه وآمتِنانه ؛ وآنْصِبْ أمامَك اللِّواءيْن ، وتكَنَّ وتلقَّبْ باللقَبَـين ؛ وكاتِبْ من تُكاتِب من طَبَقات الناس متلقِّبا بهما متكَنِّيا ، إلا أميرَ المؤمنين فإنَّ الأدبَ أن لاتكاتبه متلقِّبا بل متَسمِّيا ؛ وليس ذلك ناقصا لكَ فيما أُعْطِيته ، ولا مرتجعًا شيئا مما حُبِيتَـه ؛ ولكنَّه الأمرُ بالمعروف ، والرسْمُ المألُوف ؛ وصِـلْ ما بينَك وبينَ أخيـك

(١) فى القاموس مانصه « والحملان بالضم مايحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة » .

صَمصامِ الدولة وشمس الملة ـ أدام اللهُ الإمتاعَ بكما ـ بالمودَّة، كما وصله اللهُ بالأُخُوَّه؛ وكونَا جميعًا يدًا فى طاعة أمير المؤمنين، وٱستقِيمَا على كلمةٍ سواءٍ فى رِعاية المسلمين؛ وٱتَّفقا على مسالمَةِ المسالِمين، وتعاضَـدَا فى محـارَبة المحارِبين؛ فإنّ ذلك أرْأَبُ للصَّـدْع، وأحتم للبشر، وٱنظَمُ للشَّمْل، وأليقُ بالأهْل. وأقِمِ الدعوةَ لنَفْسك على منابر الممالكِ بعـد إقامتها لأمير المؤمنين؛ وكاتبْ أميرَ المؤمنين بأخْبارك، وطالِعْه بآثارك؛ وٱستَدْعِ أمرَه فيما ٱستَعْجَم من التدبير عليك، ورأيَه فيما ٱستَبْهم من الأمور دُونَك؛ وٱسترشِدْه إلى الحظّ يُرْشِـدْك، وٱستهده فى الخُطُوب يَهْـدِك؛ وٱستَمِدّه من المَعُونة يُمْدِدْك، وٱشكُرْ آلاءه يَزِدْك؛ إن شاء الله تعالى.

أطال اللهُ بقاءك وأدام عِزَّك وتأييدك، وسعادتَك ونعمتَك؛ وأمتَعَ أمير المؤمنين بك وبالرَّغْبة فيك وعنْدك؛ والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاته.

⁂

وعلى هـذا النمط كتب القاضى الفاضلُ عهـدَ أسد الدين شِيركوه بالوزارة عن العاضـد الفاطمىِّ، والوزارةُ يومئـذ قائمةٌ مَقَام السلطنة على ما تقـدّم ذكره، وهذه نسخته:

من عبدِ الله ووليِّـه، عبدِ الله أبى محمدٍ الإمام العاضـد لدين اللهِ أمير المؤمنين، إلى السيد، الأجلِّ، الملِك، المنصور، سلطانِ الجيوش، ولىِّ الأمه، فخرِ الدوله، أسدِ الدين، كافل قُضاة المسلمين، وهادى دُعاة المؤمنـين؛ أبى الحرث شِيركوه العاضدىّ، عضَّد الله به الدين، وأمْتَع بطُول بقائه أميرَ المؤمنـين؛ وأدام قدرته، وأعلى كلمتَه.

سلامٌ عليك : فإنّ أمير المؤمنين يحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، ويسأله أن يصلّى علىٰ سيدنا محمدٍ خاتمِ النبيين ، وسيدِ المرسلين ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين ، الأئمةِ المهديين ، وسلّمَ تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله القاهرِ فوْقَ عِباده ، الظاهرِ علىٰ مَنْ جاهَرَ بعناده ؛ القادر الذى يعجِزُ الخلق عن دَفْع ماأودَع ضمائرَ الغُيوب من مُراده ، القوىِّ علىٰ تقريب ماعزبت الهِمَمُ باستِبْعاده(١) ، المَلِىِّ بحُسْن الجزاء لمن جاهدَ فى اللهِ حقَّ جِهادِه ، مُؤْتِى المُلكِ مَنْ يشاء بما أسلَفَه من ذَخائرِ رَشَاده ، ونازِعه ممَّن يشاء بما ٱقترفَه من كبائر فَسادِه ؛ منجدِ أميرِ المؤمنين بمَنْ أمضىٰ فى نُصْرته العَزائم ، وٱستقْبله الأعداءُ بوجُوه النَّدَم وظُهور الهَزائم ؛ وفعلتْ له المهابةُ مالا تصنعَ الهِمَم ، وخَلعتْ آثارُه علىٰ الدُّنيا ما تخْلَعه الأنوارُ علىٰ الظُّلَم ؛ وعُدِمتْ نظراؤه بما وُجِد من محاسنه التى فاق بها مُلوكَ العَرب والعجَم ، وٱنتقَم اللهُ به ممَّن ظلَم نفْسَه وإن ظَنَّ النَّاسُ أنه ظلم ؛ وذادَ عن مَوَارد أميرِ المؤمنين مَنْ هو [منه] أَوْلىٰ بها ويَأْبىٰ اللهُ سبحانه إلا إمضاءَ ماحَتَم ، ورامَ إخفاءَ فضائله وهل يشتَهِر طِيبُ المِسْك إلا إذا ٱكْتُتِم ؟ مؤيِّد أمير المؤمنينَ بإمامٍ أقرّ اللهُ به عَيْنَهم ، وقضىٰ علىٰ يده من نُصْرة الدين دَيْنَهم : ﴿ لَوْ أنفقْتَ مافِى الأَرْضِ جَمِيعًا ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

والحمدُ لله الذى خصَّ جدّنا محمدًا بشرف الاصطِفاء والاجتباء ، وأنهضَه من الرسالة بأثقلِ الأعْباء ، وذَخر له من شَرَف المقام المحمُود أشرفَ الأنْصِباء ، وأقام به القِسْطاس ، وطهّر به من الأدْناس ؛ وأيّده بالصابِرِين فى البأْساء والضَّرّاء وحِينَ البَاس ،

(١) كذا فى الأصول ولعله ماٱعترفت ، تأمل .

وألبسَ شريعتَه من مَكارِم الأفعال والأقْوال أحسَنَ لِباس ؛ وجعلَ النُّورَ سارِياً منه في عَقِبه لايَنْقُصه كثرةُ الاقْتِباس : ﴿ ذٰلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ علَيْنَا وعلى النَّاس ﴾ .

والحمدُ للهِ الذى آختارَ أميرَ المؤمنين لأن يُقوم فى أمَّته مَقامه ، وهدىٰ بمَراشِد نُورِه إلىٰ طُرُق دار المُقامه ، وأوضَح به مَنَارَ الحقِّ وأعلامَه ؛ وجعلَه شهِيدَ عصْره ، وحُجَّة أمْرِه ، وبابَ رِزْقه ، وسبيلَ حقِّه ، وشفيعَ أوْليائه ، والمستَجارَ من الخُطُوب بلِوَائه ، والمضمُونةَ لِذَوِيه العُقْبىٰ ، والمسئُولَ له الأجْرُ فى القُرْبىٰ ؛ والمفترَضَ الطاعةِ علىٰ كل مكلَّف ، والغايةَ التى لايُقَصِّر عنها بوَلاَئه إلا من تأخَّر فى مِضْمار النَّجاة وتخلَّف والمشفُوعَ الذكْرِ بالصلاة والتسليم ، والهادِىَ إلىٰ الحقِّ وإلىٰ طريق مستقِيم ؛ لايُقْبَل عمل إلا بحَفَارة ولائِه ، ولايَضِلُّ من آستضاءَ بأنْجُم هدايته اللاَّمِعه ، ولا دِينَ إلاَّ به ولا دنيا إلاَّ معه : ليتَّضِح النهجُ القاصِد ، ولتقُومَ الحجة علىٰ الجاحِد ؛ وليكُونَ لِشيعتِه إلىٰ الجنــة نِعْمَ الشافِعُ والرائد ، وليأتِىَ اللهُ به بُنْيانَ الأعداء من القَواعد ، وليبيِّنَ لهم الذى آختَلفُوا فيه ولِيَعْلَمُوا أنَّمـا هُوَ إلٰهٌ واحِد .

يحمَــدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ما حَباه من التأييــد الذى ظَهَر فبَهَر ، وآنتشَر فعَمَّ نَفْعُه البَشَر ؛ والإظهارِ الذى آشتَرك فيه جُنودُ السماء والأرْض ، والإظْفارِ الذى عَقَد اللهُ منــه عَقْدا لاتَدْخُل عليه أحكامُ النَّقْض ، والآنتصارِ الذى أبانَ اللهُ به معنىٰ قوله : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ ببَعْض ﴾ .

ويسألُه أن يصلِّى علىٰ سـيِدنا محمدٍ الأمينِ ، المبعوث رَسُولًا فى الأُمِّيِّين ؛ الهادى إلىٰ دارِ الخُلُود ، المستقلِّ بيـانه[1] آستِقْلالَ عَواثِر الجُدُود ، والمعْدُودِ أفضلَ نعمة علىٰ أهل الوُجُود ؛ والصافيـةِ بشريعَتِه مَشارِعُ النعمه ، والواضِحةِ به الحنيفيَّـةُ البيضاءُ

(١) المستقل . من آستقل الشىءُ إذا ارتفع يريد أن بيانه مرتفع آرتفاع عواثر الجدود .

لِئَلَّا يكُونَ أَمْرُ الخلْق عليهم غُمَّه ؛ وعلىٰ أبينا أخِيـه وآبنِ عمّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ناصر شريعتِه وقَسِيمه فى النَّسَب والسَّبَب ، ويدِ الحقِّ التى حُكم لها فى كلِّ طَلَب بالغَلَب ؛ وعلىٰ الأئمةِ من ذرّيتهما وسائطِ الحِكَم ، ومَصابيح الظُّلَم ومَفَاتيح النِّعَم ؛ والمُخْفِقين دَعْوىٰ من باهَاهُم وفاخَر ، والباذلين جُهْدَهم فى جِهادِ من اتَّخذ مَعَ اللهِ إلهًـا آخر ؛ وسَلَّم وردَّد ، ووالىٰ وجَدَّد .

وإن أمير المؤمنين لِمَـا فوّضه الله تعالىٰ إليه من إيَالَةِ الخليقـه ، ومنَحَه من كَرَم السَّجِية وكَرَم الخَلِيقه ؛ وبسَطَه من يده علىٰ أهل الخِلاف ، وأنجزه من موعُوده الذى ليس له إخلالٌ ولا إخْلاف ؛ وأوضَحَه من براهين إمامتِـه للبصائر ، وحفِظ به علىٰ الإســلام من طَليعةِ المَبَادئ وساقةِ المَصَاير ؛ وأورثه من المَقَام الذى لا ينبغى إلّا له فى عصْره ، واستخْدَم فيــه السُّيوف والصُّروف من تأدية فرائِض نَصْره ؛ وأظهر له من المُعْجِزات ، التى لايخلُو منها زمَن ، وظاهر له من الكرامات ، التى زادَتْ علىٰ أُمْنِيَّة كل مُتَمَنّ ، وأتمنه عليــه من أسرار النبوّة التى رآه اللهُ تعـالىٰ لها أشرَفَ مُودَع وعليها أكرمَ مُؤْتَمَن ؛ وأجرىٰ عليه دولتَــه من تذليل الصِّعاب وتسهيل الطِّلاب ، وتفليـل أحزاب الشِّرْك إذا اجتمَعُوا كما اجتمع علىٰ جدّه صلّى الله عليه وسلم أهلُ الأحْزاب ـ يواصل شُكرَ هذه النِّعَم التَّوامّ ، ويعرِفُ بعَوارفِها الفرادىٰ والتُّؤام ؛ ويقَـدّمُ بين يدىْ كلِّ عمل رغبةً إليه فى إيضاح المَرَاشـد ، ونيةً لا تَضِلُّ عنهـا الهدايةُ ولا سيّما وهو الناشِد ؛ ويستخِيرُه عالمًـا أنه يقدّم إليه أسبابَ الخيْر ، ويُناجِيه فيطْلِعُه الإلهامُ علىٰ مايُحَلِّى السِّيَر ويجَلِّى الغِيَر ؛ ويأخُذ بيدِ الله حقَّه إذا اغتُصِبتْ حُقُوقه ، ويَستنجِد بالله إذا استُبيح خلافُه واستُجيز عقُوقُه ؛ ويفْزَع إلىٰ الله تعالىٰ إذا قَرَع الضائر ، ويَثِقُ بوعد الله تعالىٰ إذا استهْلكتِ الشُّبَهُ البصائر ؛ فما اعترَضَ ليلُ كُرْبةٍ إلا انصدع

له عن بَحْـرٍ وَضَّاح ، ولا ٱنتقضَ عَقْـدُ غادرٍ إلا عاجلَهُ اللهُ سبحانه بأمْرٍ فَضَّاح ؛ ولا ٱنقطعَتْ سُبُلُ نُصْرة إلا وصلها اللهُ تعالىٰ بمن يُرْسِـله ولا ٱنصدعَتْ عصا أُلْفة إلا تداركَ اللهُ تعالىٰ بمن يجرّدُه تجريدَ الصِّفاح ؛ و إذا عدّدَ أميرُ المؤمنين هـذه النِّعَم الجَسِـيمه ، والمِنَح الكريمه ؛ واللطائفَ العظِيمــه ، والعَوَارِفَ العَميمه ؛ والآياتِ المعـلُومه ، والكِفايات المحْتُومة والعـادات المَنْظُومه ؛ كنت أيُّها السيد الأجل ـ أدام اللهُ قـدرتَك ، وأعْلىٰ كلمتَـك ـ أعظَمَ نِعَمِ الله تعـالىٰ أثَرا ، وأعلاها خَطَرا ، وأقْضاها للأُمَّة وطَرا ؛ وأحقَّها بأن تسمَّى نِعْمه ، وأجدَرَها بأن تُعَدّ رحْمه ؛ وأسْماها أن تَكْشف غُمَّــه ، وأنْضاها فى سبيلِ الله سـبحانه عَزْمه ؛ وأمْضاها علىٰ الأعداء حَدّا ، وأبْداها فى الجِهـاد جِدّا ؛ وأعداها علىٰ الأعداء يَدًا ، وأحسَـنَها فعـلا لليوم وأرجاها غَدًا ؛ وأفرجَها للأَزْمة وقد كادتِ الأمةُ تصـير سُدىٰ ، وأحقَّ الأوليـاء بأن يدعىٰ للأولياء سيِّدا ، وأبْقاهم فَعلةً لاينصَرِم فِعْلُها الذى بَدَا أبدا .

فَلْيَهنِئْك(١) أنَّك حِزْبُ الله الغالب ، وشِهابُ الدين الثاقِب ، وسيفُ الله القاضِب ؛ وظلُّ أميرِ المؤمنين الممـدُود ، ومَوْرِدُ نعمتِه المَوْرُود ، والمقدَّمُ فى نَفسه وما نُؤَخِّره إلّا لأجَل معدود ؛ نَصَرْتَه حين تناصَرَ أهلُ الضَّلال ، وهاجَرْتَ إليــه هاجِرًا بَرْدَ الزُّلال وبَرْدَ الظِّلال ؛ وخُضتَ بِحارَ الأهوال ، وفى يَدِك أمواجُ النِّصال ؛ وها فى جِيدِك اليوم عِقْدُ جواهِرٍ منِّه ونَظْمُ لآل ، بل قد بلغْتَ السماء وزُيِّنْتَ منك بنجوم نهـار لانُجومِ لَيَـال ؛ وكشفْتَ الغَمَّاء وهى مُطْبِقه ، ورفعْتَ نواظِرَ أهـل الإيمـان وهى مُطْرِقه ؛ وعقَصت أعِنَّــة الطُّغيان وهى مُطْلَقــه ، وأعدْتَ بِحُنْكَتِك علىٰ الدولة العَلَويَّة بهجَةَ شَــبَابها المُونِقه ؛ وأنقذْتَ الإسلامَ وهو علىٰ شَفىٰ جُرُفٍ هار ، ونفَذْت حينَ لاتنْفُذ

---

(١) فى الأصـل فليهنك . وفى اللسان ج ١ ص ١٨٠ « والعرب تقول ليهنئك الفارس بجزم الهمزة وليهنيك الفارس بياء ساكنة ولا يجوز ليهنك كما تقول العامة » . فتنبه .

السِّهام عن الأَوْتار، وسمعتَ دَعْوته علىٰ بُعْد الدار، وأبصرْتَ حقَّ الله ببصيرتك وكَمْ من أُناس لايَرَوْنه بأبْصار، وأجليْتَ طاغيةَ الكُفْر وسِواك ٱجتَذَبه، وصدَقْتَ الله سبحانه حينَ داهَنَه مَنْ لابصيرةَ له وكَذَبه، وأقْدمتَ علىٰ الصَّليب وجَمَراتُه متوقِّده، وقاتلْتَ أولياءَ الشيطان وغَمَراتُه متمَرِّده، وما يَومُك فى نُصْرة الدولة بواحد، ولا أَمْسُك مَجْحودٌ وإن رَغِمَ أنفُ الجاحد، بل أوجبْتَ الحقَّ بهِجْرة بعد هِجْره، وأجبْت دَعْوة الدين قائمًا بها فى غَمْرة بعد غَمْره، وٱفترعْتَ صَهْوةَ هذا المحلِّ الذى رَقَّاك إليه أميرُ المؤمنين باستِحْقاقك، وأماتَ اللهُ العاجزين بما فى صُدُورهم من حَسرات لَحَاقك، وكنتَ البعيدَ القريبَ نُصْحُه، المحجوبَ النافذَ بحجَّته المذعُورةَ أعداءُ أمير المؤمنين [به] إن فُوِّق سَهْمُه أو أُشْرِع رُمْحُه، وما ضَرَّكَ أنْ سَخِطك أعداءُ أمير المؤمنين وأميرُ المؤمنين قد ٱرْتضَاك، ولا أنْ مَنَعك المُعانِدُ حقَّك وقد قضىٰ لك وٱقْتضاك، وما كان فى مُحاجَرَتك عن حظِّك من خدمة أمير المؤمنين الذى أنْتَ به منه أَوْلىٰ، ومُدافَعتك عن حقِّك فى قُرْب مقامه الذى لايستطيع طَوْلا، إلا مغالبةُ الله فيك واللهُ غالبٌ علىٰ أمره، ومباعدَتُك وقد قرّبك اللهُ من سِرّ أمير المؤمنين وإن بَعُدْتَ من جَهْره، ٱستشْرفَتْك الصُّدُور، وتطلَّعت إليك عُيُونُ الجُمْهور، وٱستوجَبْتَ عقيلةَ النِّعم بما قدّمتَ من المُهُور، ونصرتَ الإيمانَ بأهله، وأظهرتَ الدِّينَ بمظاهرتك علىٰ الدِّين كلِّه، وناهضْتَ الكَفَرة بالباع الأشَدِّ والرأْى الأَسَدّ، ونادَتْهم سيوفُك: ــ ولا قَرارَ علىٰ زأْرٍ مِنَ الأَسَد ــ وأدال اللهُ بك ممن قَدِم علىٰ ما قَدَّم، ونَدِم فما أغنىٰ عنه النَّدَم، حِينَ لَجَّ فى جَهالته، وتمادىٰ فى ضَلَالته، وٱستمَرّ علىٰ ٱستِطالته، وتوالتْ منه عَثَراتٌ ما أَتْبعها باستقالته، فكَم ٱجتاحَ للدَّوْلة رجالا، وضَيَّق من أرزاقِهم مَجَالا، وسلَبَ من خزائنها ذَخائرَ وأسلحةً وأمْوالا، ونقَلَها من أيدى أوليائها إلىٰ أعداءِ الله تباركَ وتعالىٰ، وٱتَّسعتْ هَفَواته عن التعديد،

وما العهدُ منها ببعيد ؛ وقد نسخَ الله تعالىٰ بك حوادثَها فوجب أن تُنْسَخ أحاديثُها، وأبىٰ الأئمَّـةَ منك بمن هو وليُّهـا والأمَّةَ بمن هو مُغيثُها؛ ودعاك إمامُ عَصْرك بقلبِه ولسانه وخَطِّه علىٰ بُعْد الدار، وتحقّق أنك تتصرّفُ معه حيثُ تصرّفَ وتدُور معه حيثُ دار، وآختارك علىٰ ثِقةٍ من أنَّ الله تعالىٰ يُحْمِده فيك عواقِبَ الآختيار، ورأىٰ لكَ إقدامَك ورقابُ الشرك صاغِره ، وقُدومَك وأفواهُ المَخَاوِف فاغِرَه ، وكَرَّتك فى طاعته وأبىٰ الله تعالىٰ أن تكونَ خاسِره ؛ وسَطَا بك حين تمـالىٰ بك المشركُون ، وتمثّل لرسُلِهم بقوله سبحانه : ﴿ آخْسَـُٔوا فِيهَـا ولَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وأنِفت عِزَّتُه هُجنة الهُدْنه، وقال لأوليائه : ﴿ وقَاتِلُوهُمْ حتّىٰ لاتَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ وآزْدرىٰ بخنازِيرهم آنتظارًا لوصُولك بأُسُود الإسلام، وصَبَرعلىٰ علم أنَّك تُلَبِّي نِداءَه بألسنة الأعلامِ قبل ألْسِنة الأقْلام ؛ فكنْتَ حيْثُ رَجَا وأفضَـل ، ووُجِدت بحيثُ رعىٰ وأعْجَل ؛ وقدِمتَ فكتب اللهُ لك العُـلُوَ ، وكبَت بك العَـدُوَ ؛ وجمع علىٰ التوفيق لك طَرَفَيِ الرَّواح والغُدوّ؛ ولم يلبَسِ الكافرُ لسِهامك جُنَّةً إلا الفِرار ، وكان ﴿ كشجَرةٍ خَبِيثةٍ آجتُثَّتْ من فَوْقِ الأرضِ مالَهَـا مِن قَرَار ﴾ فلله دَرُّك حين قاتلتَ بخَـبَرك ، قبلَ عَسْكَرِك ، ونُصرتَ بأثيرك ، قبل عَشِـيرك ؛ وأكْرِمْ بك من قادِم خَطَواتُه مبْرُوره، وسَطَواتُه للأعداءِ مُبِيره، وكلُّ يوم من أيامه يُعَدّ سِيره ؛ وإنك لمبعُوثٌ إلىٰ بلاد أمير المؤمنين بَعْثَ السَّحاب المُسَخَّر، ومقدَّمٌ فى النِّية وإن كنتَ فى الزمان المؤَخَّر؛ وطالِـعٌ بِفِئة الإسلام غَيْر بعيد أن يُفِيءَ اللهُ عليها بلادَ الكُفَّار ، ورجالِ جهادٍ عَدَدناهم عندنا من المُصْطَفَيْنَ الأخْيار ، وأبناءِ جِلاد يشْتَرُون الجنةَ بعَزائم كالنـار ، وغُرَرِ نصرٍ سُكُونُ العدوّ بعدَها غُرورٌ ونَوْمُه غِرَار .

ولمـا جرىٰ مَنْ جرىٰ ذِكْرُه علىٰ عادَته فى إيحاشك والإيحاش منك بكَوَاذِب الظُّنُون، ورامَ رجْعتَك عن الحضرة وقد قَرّتْ بكَ الدار وقرّت بك العُيون ؛ وكان

كما قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ هنالك عصبت(١) نفوس الإسلام ففتكت به أيديها ، وكشفت له عن غطاء العواقب التي كانت منه مباديها ؛ وأخذه من أخذه أليم شديد، وعدل فيه من قال ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ : ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

ولما نشرت لواء الإسلام وطواه ، وعضدت الحق وأضعف قواه ؛ وجنيت عقبى ما نويت وجنى عقبى ما نواه ، وأبيت إلا إمضاء العزم في الشرك وما أمضاه ؛ ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله ﴾ ودفعت الخطب الأشق، وطلعت أنوار النصر مشرقة بك وهل تطلع الأنوار إلا من الشرق ؟ وقال لسان الحق : ﴿ فأي الفريقين أحق ﴾ ، قضى الله تعالى إلى أمير المؤمنين عدة قدمها ثم قضاها، وولاه كما ولى جده صلى الله عليه وسلم قبلة يرضاها ؛ وانتصر له بك انتصاره لأهل البيت بسلمانه وعماره، وأنطق أمير المؤمنين باصطفائك اليوم و بالأمس كنت عقد إضماره؛ وقلدك أمير المؤمنين أمر وزارته ، وتدبير مملكته وحياطة ماوراء سرير خلافته ، وصيانة ما اشتملت عليه دعوة إمامته ، وكفالة قضاة المسلمين، وهداية دعاة المؤمنين ؛ وتدبير ماعدقه الله بأمير المؤمنين من أمور أوليائه أجمعين، وجنوده وعساكره المؤيدين ، المقيمين منهم والقادمين ؛ وكافة رعايا الحضرة بعيدها ودانيها، وسائر أعمال الدول باديها وخافيها ؛ وما يفتحه الله تعالى على يديك من البلاد، وما تستعيده من حقوقه التي اغتصبها الأضداد ؛ وألقى إليك المقاليد بهذا التقليد؛ وقرب عليك كل غرض بعيد ؛ وناط بك العقد والحل ، والولاية والعزل ، والمنع

(١) في اللسان " عصبت الابل وعصبت بالكسر اذا اجتمعت " . ولعل هذا مراده ان لم يكن أهمل نقطه وأصله غضبت . تأمل .

الوطأة ماآستطعتَ عنهـم ؛ وبدِّلهم من بعـد خَوْفِهم أمْنا ، وكُفَّ من يعترِضُهم في عَرَض هذا الأدْنىٰ .

والجِهاد فهو سلطانُ الله تعالىٰ علىٰ أهـل العِنَاد، وسطوةُ اللهِ تعالىٰ التى يُمْضِيها فى شرِّ العبـاد علىٰ يد خَيْرِ العِباد، ولك من الغَنَاء فيـه مِصْرا وشاماً، وثَبَاتِ الجأش كَرًّا وإقداما، والمَصَافِّ التى ضُرِبتْ فكنت ضاربَ كُماتها، والمواقِفِ التى آشتدّتْ فكنتَ فارجَ هَبَواتهـا، والتَّـدْريبِ الذى أطلَق جَدَّك، والتجريبِ الذى أَوْرىٰ زَنْدك، [ما] يُغْنِي عن تجديد الوَصايا البَسِيطه، وتأكيدِ القَضايا المُحِيطه، وما زِلْتَ تأخُذ من الكُفَّار باليمين، وتعْظُم فُتوحُك فى بلاد الشِّمال فكيف تكونُ فى بلاد اليمين؛ فاطلُبْ أعداء الله بَرًّا و بحرا ، وأجلِبْ عليهـم سَهْلا ووَعْرا ؛ وقَسِّم بينهم الفَتَكاتِ قَتْلا وأَسْرا، وغارةً وحَصْرا ؛ قال الله تعالىٰ فى كتابه المكنون : ﴿ يٰأَيُّهَا الذين آمنُوا قاتِلوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ من الكُفَّارِ ولْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وآعْلَمُو أَنَّ اللهَ مع المتَّقِين ﴾ .

وتوفيقُ الله تعالىٰ يفتَحُ لك أبوابَ التدبير، وخُبْرتك تَدُلُّك علىٰ مَراشِد الأَمْر : ﴿ ولا يُنَبِّئُك مثلُ خَبِير ﴾ فأنت تَبْتدِعُ من المحاسن ما لا تُحيط به الوصَايا ، وتخترِع من المَيَامن مايَتعرّف بركاتِه الأولياءُ والرَّعايا ؛ والله سبحانه وتعالىٰ يحقِّق لأمير المؤمنين فيك أفضلَ المَخايِل، ويفتَحُ علىٰ يديك مستغْلِقَ البلاد والمَعاقِل ؛ و يصيبُ بِسِهامك من الأعداء النُّحورَ والمَقَاتل ، و يأخُذ للإسـلام بك ماله عنْـدَ الشرك من الثَّاراتِ والطَّوائل ؛ ولا يُضيع لك عمَلَك فى خدمة أمير المؤمنين إنه لايُضيع عمَـلَ عامل ، ويُجْرِى الأرزاقَ والآجالَ بين سَيْبِك الفاضل وحُكْمِك الفاصل ؛ فآعلَمْ هذا من أمر أمير المؤمنين ورَسْمه، وآعمَـلْ بمُوجَبه وحُكْمه؛ إن شاء الله تعالىٰ، والسـلامُ عليك ورحمةُ الله و بركاتُه .

⁂

وعلىٰ نحو منه كتب القاضى الفاضـل أيضًا عهدَ الملِك النـاصر، صلاح الدين يوسُفَ بنِ أيُّوبَ بالوِزارة عن العاضد أيضا ، وهذه نسخته :

من عبْد الله ووليِّه عبدِ الله أبى محمد الإمام العاضـد لدين الله أمير المؤمنين ، إلىٰ السيِّد الأجلّ (علىٰ نحو ماتقدّم فى تقليد عمِّه أسدِ الدِّين شِيرَكوه) .

أما بعدُ، فالحمدُ لله مصرّفِ الأقْدارِ ومشَرِّف الأقْدار، ومُحْصِي الأعمالِ والأعْمار، ومبْتَلِي الأخيار والأبرار، وعالِم سِرّ الليل وجَهْر النهـار ؛ وجاعلِ دولةِ أمير المؤمنين فَلَكا تتعاقَبُ فيه أحوالُ الأقْمار : بين ٱنقِضاء سِرَار وٱستقبال إبْدار ؛ ورَوْضًا إذا هوَتْ فيـه الدَّوْحات أيْنعت الفُروعُ سابِقةَ النُّوَّار باسِـقةَ الثِّمـار ؛ ومُنْجِدِ دعوته بالفُروع الشاهدة بفضل أُصولها، والجواهرِ المستخْرَجة من أَمْضى نُصُولها، والقائم بنُصْرة دولته فلا تزال حتّٰى يرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها قائمةً علىٰ أُصُولها .

والحمدُ لله الذى ٱختار لأمير المؤمنين ودلَّه علىٰ مَكان الِاختيار، وأغناه باقتضاب الإلهـام عن رَوِيَّة الِاختبار، وعضَّد به الدينَ الذى ٱرتضاه وعَضَّده بمن ٱرتضاه، وأنجزَ له من وَعْد السـعْد ماقَضاه قبْلَ أن ٱقْتضاه ، ورفع محـلَّه عن الخلق فكلُّهم من مُضافٍ إليه غيرمُضَاه ؛ وجعل مملكتَه عَرِينًا لٱعتزازها بالأسَد وشِبْله ، ونعمَتَه ميراثًا أَوْلىٰ بها ذَوِى الأرحام من بنى الوَلَاء وأَهْلِه ، وأظهر فى هذه القضيَّة ما أظهره فى كلِّ القضَايَا من فضل أمير المؤمنين وعَدْله ؛ فأولياؤُه كالآيات التى تتَّسِق دَرارِىُّ أفُقِها المنير، وتَنْتَسِق دُرَرعِقْدها النظمِ النَّضِير : ﴿ ما نَنْسَخْ من آيةٍ أو نَنْسأْها نَأْتِ بخيرٍ مِنْها أو مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ علىٰ كُلِّ شَىْء قَدير﴾ .

والحمـدُ لله الذى أتمَّ بأمير المؤمنين نعمةَ الإرشاد ، وجعـله أَوْلىٰ مَنْ للخَلْق ساد وللحَقِّ شاد ، وآثره بالمَقَام الذى لاينْبغِى إلَّا له فى عَصْره ، وأظهـر له من معْجزات نَصْره مالا يستـقِلُّ العددُ بحَصْره ، وجمع لمن والاه بينَ رَفْع قَـدْره ووَضْع إصْره ، وجعـل الإمامةَ محفوظةً فى عَقِبه والمعقِّباتِ تحفَظُه بأمْره ، وأودَعَه الحِكَم التى رآه لها أحْوطَ من أوْدعَه ، وأطْلع من أنوار وجْهه الفجرَ الذى جَهِل من ظَنَّ غيرَ نُوره مطْلَعَه ، وآتاه مالم يُؤْتِ أحدا ، وأمات به غَيًّا وأحيا رَشَدا ، وأقامه للدِّين عاضدا فأصبَح به معْتضدا ، وحفِظ به مَقامَ جَدّه وإن رَغِم المستكْبِرون ، وأنعَم به علىٰ أُمَّته أمانًا لولاه ما كانوا يَنظُرون ولا يُبصِرون ، و ﴿ مَا كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنْتَ فيهِمْ وما كانَ اللهُ مُعذِّبَهم وَهُمْ يَستغفِرُون ﴾ .

يحمَدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ماآتاه من توفيقٍ يُذَلِّل له الصَّعْبَ الجـامِح ، ويُدْنِى منه البعيدَ النَّازِح ، ويُخلِف علىٰ الدِّين من صلاحه الخلَفَ الصالح ، ويُلْزِم آراءَه جَدَدَ السُّعود الواضح ، ويُرِيه آياتِ الإرشاد فإنَّه نازح (؟) قَدْح القادِح ، ويسألُه أن يصَلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ الذى أنجىٰ أهـلَ الإيمـانِ ببعْثِه ، وطهَّر بهَدْيه من رِجْس الكُفْر وخبثه ، وأجار باتِّباعه من عَنَتِ الشيطان وعَبَثِه ، وأوضَحَ جادّةَ التوحيد لـكلِّ مشركِ الاعتقاد مثَلِّثه ، وعلىٰ أبينا أمير المؤمنين علىِّ بن أبى طالب الذى جادلَتْ يدُه بلسان ذى الفَقَار ، وقَسَّم ولاءَه وعَداوتُه بين الأتْقياء والأشْقياء الجنَّةَ والنار ، وعلىٰ الأئمة من ذُرّيتهما الذين أذلَّ الله بعِزّتهم أهل الإلحاد ، وأصفىٰ بمـا سـفَكُوه من دِمائهم مواردَ الرشاد ، وجرتْ أيديهم وألسِنَتُهم بأقواتِ القلُوب وأرزاقِ العباد ، وسلَّم ومجَّد ، ووالىٰ وجَدّد .

وإن الله سبحانَه ما أخلىٰ قطُّ دولةَ أمير المؤمنين التى هى مَهْبِط الهُدىٰ ومَحَطُّ النَّدىٰ، وموردُ الحياةِ للولّى والرَّدىٰ للعِدا، من لُطْف يتلافىٰ الحادثةَ ويَشْعَبها ويرأَبُها، ونعمةٍ تبلغ بها النفوس أربها؛ ومَوْهِبة تَشُدُّ موضِعَ الكَلْم، وتسُدُّ موضع الثَّلْم؛ وتُجلِّى غمائِمَ الغُمَم، وتُحَلِّى مَغانم النِّعم؛ وتستوفِى شرائطَ المَناجح، وتستَدْنِى فَوارِط المَصَالح؛ ولم يكُنْ ينسىٰ الحادثةَ فى السيد الأجلِّ الملكِ المنصور رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنةَ متقلَّبه ومَثْواه؛ التى كادَتْ لها أواخى المُلْك (١) تتزَعْزَع، ومَبَانِى التدبير تتضَعْضَع؛ إلّا ما نظر فيه أمير المؤمنين بنُور الله من ٱصطفائك أيها السيدُ الأجل الملك الناصر: - أدام الله قدرتَك - لأن تقُوم بخدمته بَعْده، وتَسُدَّ فى تَقْدِمة جيُوشه مَسَدَّه؛ وتَقْفُو فى ولائه أثرَه، ولا تفْقِدَ منه إلا أَثَره؛ فوَازتِ الفادحةُ فيه النعمةَ فيك، حتّى تستوفى حظَّه من أمير المؤمنين بأجْر لا يُضيعُ اللهُ فيه عملَه، فاستوجبَ مقْعَد صِدق بما ٱعتقدَه من تأدية الأمانةِ له وحَمَله؛ وٱستحَقَّ أن يُنَضِّر اللهُ وجهَه بما أخْلَقَه اللهُ من جِسمه فى مَوَاقف الجهاد وبَذْله؛ ومضىٰ فى ذِمَام رضا أمير المؤمنين: وهو الذِّمام الذى لا يَقْطع اللهُ منه ماأمَرَه أن يَصله؛ وأُتْبِع من دعائه بتُحف أوّل ماتلقاه بالرَّوْح والرَّيْحان، وذَخَرتْ له من شفاعته ماعليه معوَّلُ أهل الإيمان فى الأمان؛ فرَعىٰ الله له قَطْعه البيداءَ إلىٰ أمير المؤمنين وتجشُّمَه الأسفار، ووَطْأَه المَوَاطِئَ التى تَغيظ الكُفّار؛ وطُلُوعَه علىٰ أبواب أمير المؤمنين طُلوعَ أنوارِ النهار، وهِجْرتَه التى جمعتْ له أجْرَين: أجر المهاجِرين وأجْر الأنصار؛ وشكَر له ذلك المَسْعىٰ الذى بلغ من الشِّرك الثار، وبَلَّغ

---

(١) الأواخى جمع أخية وهى عود يعرض فى الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه الدابة. انظر اللسان ج ١٨ ص ٢٠٤ .

الإسلامَ الإيثار . وما لقِيَ ربَّه حتّى تعرّضَ للشّهادة بين مُختَلف الصِّفاح، ومشتَجَر الرِّماح، ومفتَرَق الأجسامِ من الأرواح ؛ وكانت مشاهدتُه لأمير المؤمنين أجْرًا فوقَ الشّهاده، ومِنّةً لله تعالىٰ عليه له بها ما للّذِينَ أحسَنُوا الحُسْنىٰ وزِيادَه ؛ وحتّى رآك أيُّها السيدُ الأجلُّ الملك النـاصر ــ أدام الله قدرتَك ــ قد أقررتَ ناظِرَه، وأرغمْت مُناظِره ؛ وشَدَدْت سـلطانَه، وسَـدَدْتَ مكانَه ؛ ورَمىٰ بكَ فأصاب، وسقىٰ بك فصاب ، وجمعْتَ ما فيـه من أبَّهة المَشِيب إلىٰ ما فيك من مَضَاء الشَّباب؛ ولَقِنتَ ماأفادَتْه التَّجارِبُ جُمْـله ، وأعانَتْك المحاسِنُ التى هى فيك جُلّه ؛ وقلَّبَ عليكَ إسناد الفَتكات فتقَلَّبت ، وأوْضح لك مِنْهاجَ البَركات فتقَبَّلْت؛ وسَـدّدَك سَهْما، وجَرّدَك شَهْما، وآنتَضَاكَ فارْتضـاك غَرْبا ، وآثرَك علىٰ آثرِ ولده إمامةً فى التـدبيرِ وحَرْبا؛ وكُنْتَ فى السـلم لِسانَهُ الآخِذَ بمجامع القُلوب ، وفى الحَرْب سِنانَه النافذَ فى مَضايِق الخُطوب ، وساقتَـه إذا طَاب ، وطليعتَـه إذا طَلَب ، وقلْبَ جيْشـه إذا ثبَتَ وجناحَهُ إذا وَثَب ؛ ولا عُذْر لِشبْل نشأَ فى حَجْر أسـد ، ولا لهلالٍ آستَمْلىٰ النُّورَ من شمسٍ وآستَمَدّ :

هذا ولو لم يكُنْ لك هذا الإسنادُ فى هذا الحديث، وهذا المُسْنَد الجامع من قَديم الفَخْر وحَديث ؛ لأغنَتْك غَـرِيزةٌ عزِيزة وسَجِيّةٌ سَجِيّة وشِيمةٌ وَسِيمه، وخلَائقُ، فيهـا ما تُحِبُّ الخَلَائق، ونحَائز، لم يَحُزْ مثلَها حائز؛ ومحَاسِن، ماؤُها غيرُ آسِن ،ومآثِر، جَدّ غيرِ عاثِر؛ ومفَاخِر، غفَـل عنها الأوّلُ : ليستأثِرَ بهـا الآخِر؛ وبراعةُ لِسان، ينْسَجِم قِطارُها ، وشَجـاعة جَنَان ، تَضْطرِم نارُها ؛ وخِلَالٌ جِلَالٌ عليكَ شـواهدُ أنوارها تتوضَّح، ومَساعِى مُسَاعِد لديْكَ كمائِمُ نَوْرها تتفتّح؛ فكيف وقد جمعْتَ لك فى المَجْد بين نَفْس وأبٍ وعَمّ ، ووجب أن سألك من آصْطفاء أمير المؤمنين ماذا حَصَل ثُمّ علىٰ الخلق عَمّ ؛ فيومُك واسطةٌ فى المجد بين غَدِك وأمسِك، وكلُّ نادٍ من أنْدية الفَخار

لك أن تقولَ فيـه وعلىٰ غَيْرِكَ ان يُمْسِـك ؛ فبُشْراك أنَّ أنْعُمَ أمير المؤمنين موصُولةٌ منكم بِوالدٍ وولَد ، وأن شمْس ملكه بكم كالشمسِ أقوىٰ ما كانتْ فى بيْتِ الأسَد .

ولمـا رأىٰ اللهُ تقلُّبَ وجه أمير المؤمنين فى سَمَائِه وَلَّاه من اَختِيارك قِبْله ، وقامت حُجَّتُه عندَ الله باستِكْفائِك وزيرًا له ووَزَرا لِلّه ؛ فناجَتْه مَراشِدُ الإلهام ، وأضاءت له مقاصِدُ لاتَعْقِلُها كلُّ الأفهام ؛ وعَزَم له علىٰ أن قَلَّدك تدبيرَ مملكتِه الذى أعْرَقْتَ فى إرْثِه وأغْرَقت فى كَسْبه ، ومهَّد لك أبعدَ غايةٍ فى الفخر بمـا يَسَّرَ لك من قُرْبه ؛ ولقد سـبَقَ أميرُ المؤمنين إلىٰ اَختيارك قبْلَ قولِ لسانِه بضَمِير قلْبه ، وذَكَر فيك قول ربه : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّه﴾ . وقلَّدك لأنك سيفٌ من سُيوف الله تعـالىٰ يحِقُّ به التقـلُّد وله التَّقْليـد ، وآصطفاك علىٰ عِلْمٍ بأنك واحدٌ منتَظِم فى معْنىٰ العَديد ؛ وأحْيا فى سلطان جُيوشِه سُنَّة جدِّه الإمام المستنصِر بالله فى أمير جُيُوشـه الأوَّل ، وأقامك بعْده كما أقام بعْده ولَدَه وإنه لَيَرْجُو أن تكون أفْضَلَ من الأفْضَل ؛ وخرج أمرُه إليـك بأن يُوعَز إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السِّجِلّ لك بتقليدك وزارَتَه التى أحلَّتك رُبُوتَها ، وأحَلَّ لك صَهْوتَها ؛ وحَلَّاك نِعمتَها ، و (١) لك نَعْمتَها ؛ فتقلَّدْ وزارةَ أمير المؤمنـين من رُتْبتها التى تناهَتْ فى الإنافَه ، إلىٰ أنْ لارُتْبَةَ فوْقَها إلَّا ماجعله اللهُ تعالىٰ للخلافه ؛ وتبوأْ منها صَدْرا لاتتطَلَّع إليـه عُيونُ الصُّدُور ، وآعتَقِلْ منها فى درجةٍ علىٰ مثلها تَدُور البُدُور : ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ : وقُلِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ . وباشِرْ مستَبْشِرا ، وآستَوْطِن متدَيِّرا ، وآبسُـطْ يدَك فقد فوّضَ إليك أميرُ المؤمنين بَسْـطا وقبْضا ، وآرفعْ ناظِرَك فقـد أباحَ لك رَفْعا وخَفْضا ؛ وآثبُتْ علىٰ دَرَجات

(١) بياض بالأصول بقدر كلمة .

السعادة فقد جعل لحُكمك تثبيتا ودَحْضا ، وٱعقِدْ حُبيٰ العَزَمات للصالح فقد أُطْلق بأمْرِك عَقْدا ونَقْضا ، وٱنفُذْ فيما أهّلك له فقد أدّىٰ بك نافلةً من السِّياسة وفَرضا ؛ وصَرِّفْ أمورَ المملكة فإليْـك الصَّرْف والتصْريف ، وثَقِّفْ أَوَدَ الأيام فعليكَ أمانةُ التهذيب والتثقيف ؛ وٱسْحَبْ ذُيولَ الفَخار حيثُ لاتصِل التيِّجان ، وٱمْلأْ لَحْظًا من نور الله تعالىٰ حيثُ نتّقِي الأبصارُ لُحَيْنَ الأجْفان ؛ إنَّ هذا لَهُوَ الفَضْل المُبِين فٱرْتَبِطْه بالتقوىٰ التى هى عُرْوةُ النَّجاة وذخيرةُ الحياةِ والمَمَات ، وصَفْوةُ ماتَلقَّىٰ آدم من رَبِّه من الكَلمات ؛ وخيرُ ماقدّمَتْه النُفوس لغَدِها فى أمْسِها ، وجادلَتْ [به] يومَ تجادِلُ كلُّ نفْسٍ عن نَفْسِها ؛ قال اللهُ سبحانه ومَنْ أصدَقُ من الله قِيلا : ﴿ والْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ ٱتَّقىٰ ولا تُظْلَمُونَ فَتِيلا ﴾ . وٱستَتِمَّ بالعدل نِعَمَ الله تعالىٰ عليك ، وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إليْك ، وأْمُرْ بالمعْروف فإنّك من أهْله ، وٱنْهَ عن المنكَر كما كنت تنَزَّهْتَ عن فِعْله .

وأوْلياءُ أمير المؤْمنين ، وأنصارُه الميَامين ، ومن يَحُفُّ بمَقامِ مُلْكه من الأمَراء المطَوَّقين ، والأعيانِ المعَصَّبين ، والأماثِلِ والأجنادِ أجمعين ؛ فهُم أولياؤُه حقّا ، ومماليكُه رِقّا ، والذين تَبوّءُوا الدارَ والإيمانَ سَبْقا ، وأنصارُه غَرْبًا كما أنَّ عسكَرَك أنصارُه شَرْقا ؛ فهُم وهُمْ يَدٌ فى الطاعة علىٰ مَنْ نَاواهم ، يَسْعىٰ بذِمّتِهم أدْناهم ؛ وتَحَكّم فيهم وأنتَ عنْدَ أمير المؤمنين أعْلاهم .

هذا وقد كان السيدُ الأجلُّ الملكُ المنصور ـ رضى الله عنه ـ ٱستَمْطَر لهم [من] إنعام أمير المؤمنين المساحمةَ بعلَقِهم ، وواسىٰ (١) فى هذه المَنْقَبة التى ٱستحَقَّ بها حُسْنَ الذكر بين طوائِفِهم وفِرَقِهم ، فصنهم من جائحاتِ الٱعتراض ، وٱبْذُلْ لهم صالحاتِ الأَغْراض ، وٱرفَعْ دُونَهم الحِجَاب ، ويَسِّرْ لهمُ الأَسْباب ، وٱستَوْفِ منهم عنـد

(١) لعله وساوىٰ كما لايخفىٰ .

الحُضور إليـك غاياتِ الخطاب ؛ وصَرِّفْهم فى بِلاد أمير المؤمنين وُلَاةً وحُماه ، كما تُصَرِّفُهم فى أوقاتِ الحرب لُمَاةً وكُمَاه ؛ وعَرِّفهم بركةَ سُلطانِك ، وٱقْتـدْ قلوبهم بزِمَام إحْسانِك .

وأما القُضاة والدُّعاةُ فهـم بين كَفالَتِـك وهَـدْيِك ، والتصريف على أمْرِك ونَهْيِك ؛ فاستعمِلْ منهم مَنْ أحسَنَ عملا ، فأمّا بالعِنايَات فلا .

والجهاد فأنتَ راضِعُ دَرّه ، وناشِـئةُ حَجْره ؛ وظُهورُ الخيل مَواطِنُك ، وظِلال الجبل مَسَاكنُك ؛ وفى ظُلُمات مَشَاكِله ، تُجْلى محاسِنُك ، وفى أعقـاب نَوَازله ، تُتْلى مَيَامِنُك ؛ فشَمِّر له عَن ساقٍ من القَنَا ، وخُضْ فيه بَحْرًا من الظُّبَا ؛ وٱحْلُلْ فيه عُقْدَة كلمات الله سبحانه وَثِيقاتِ الحُبى ؛ وأَسِلِ الوِهادَ بدماء العِـدا وٱرفَعْ برءُوسِهم الرُّبا ؛ حتّى يأتِيَ اللهُ بالفتح الذى يرجُو أمير المؤمنين أن يكونَ مذْخُورا لأيّامك ، ومشهودًا به يومَ مَقَامك بين يدَيْه من لِسانِ إمامِك .

والأموال فهى زُبْدة حَلَب اللُّطْف لا العُنْف ، وجُمَّةٌ يمترِيها الرِّفْق لا العَسْف ، وما برِحَتْ أجدّ ذخائِر الدُّول للصُّـفُوف ، وأحَدّ أسْـلِحتها التى تَمْضى وقد تَنْبُـو السُّـيوف ؛ فقدِّمْ للبلادِ الٱستِعْمار ، تُقدِّمْ لكَ الٱسْتِثْمار ، وقَطْرَةٌ من عدْل تَزْخَرُ بها من مالٍ بِحار .

والرَّعايا فهم ودائعُ الله لأمير المؤمنين وودائعُه لديْك ، فاقبِضْ عنهم الأيْدى وٱبْسُطْ بالعدلِ فيهم يدَيْك ؛ وكُنْ بهم رءُوفا ، وعليهم عَطُوفا ؛ وٱجعل الضعيفَ منهم فى الحقِّ قوِيًّا والقَوِيَّ فى الباطل ضَـعِيفا ؛ ووَكِّلْ برعايتهم ناظِرَ ٱجتِهادك ، وٱجعلْ ألْسنَتهم بالدُّعاء من سـلاحك وقلوبَهم بالمحبّة من أجْنادِك ؛ ولو جاز أن يستَغْنِيَ عن

الوصيَّة قائمٌ بأمر، أو جالِسٌ فى صَدْر، لٱستغنَيْتَ عنها بفِطنتك الزّكِيَّه ، وفِطْرتك الذّكيَّه؛ ولٰكنَّها من أمير المؤمنين ذِكْرىٰ لك وأنتَ من المُؤمنين، وعَرابةُ بركةٍ فتلَقَّ رايتَها باليمين؛ والله تعالىٰ يؤيّدك أيُّها السيدُ الأجل ـ أدام الله قُدرتَك ـ بالنصر العَزيز، ويَقْضِى لدولة أمير المؤمنين علىٰ يدَيْك بالفَتْح الوَجيز، ولأهلها فى نَظَرك بالأمر الحريز، ويمتِّع دَسْت الملك بحِلىٰ مَجْدِك الإبريز؛ ويُقِرُّ عيونَ الأعيانِ بما يَظْهَر لك فى مَيْدان السعادة من السَّبْق والتَّبريز، ويُمَلِّيك من نِحْلة أنعُم أمير المؤمنين بما مَلَّكك إيّاه مِلْك التحْويز؛ ويُلْحِق بك فى المجْد أوْلَك، ويُحْمِد فيك العَواقِبَ ولَك ؛ فٱعلَمْ ذٰلك من أمر أمير المؤمنين ورَسْمه ، وٱعمَلْ بمُوجبِه وحُكْمه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المـذهب الثـالث

(أن يفتتح العهـد بخُطْبـة)

وهو ماحكاه فى "التعريف" عن الصاحب فخر الدين إبراهيمَ بنِ لُقْمان، فيما كَتَب به للظاهر بِيبَرْس، وذكر أن ٱبنَ لُقْمان ليس بحُجَّة . ثم قال : علىٰ أن الفاضل مُحْيي الدين بنَ عبد الظاهر قد تبعه فيما كَتَب به للمنصور قلاوُون .

قلت : ليس ٱبنُ لقمانَ هو المبتكرَ لهـذا المذْهَب ، بل كان موجُودا معمُولا به . استعمله كُتّاب الإنشاء بديوان الخلافة ببغدادَ قبْلَ ذلك بزمَنٍ طويل ، وهو مَنْبَع الكتابة الذى عنه يَصْدُر الترتيب، وقاعدتُها التى يُبْنَىٰ عليها المصطَلَح . وعليه كُتِب عهد العادل[(١)] أبى بكر بن أيُّوب أخى السلطان صلاح الدين يوسف « من بغداد » . وإليه مال ٱبنُ الأَثِير فى "المثَل السائر" . وذكر أن الٱفتتاح بـ«هٰذا ماعُهِد» قد

(١) لعله للملك الكامل ٱبن الملك العادل الخ كما يفيده ما يأتى فى صلب العهد . تأمل .

ٱبتُذل بكثرة الاِسـتعمال، وٱبنُ لقمانَ تابعٌ لامَتْبُوع . علىٰ أن إنشاءَه يدلُّ علىٰ تقدُّمه فى الكتابة، وهو وإنْ كان ليس بحجة فابنُ الأثير حجةٌ فى هـذا الشأن، يُرْجَع إليـه ويعمل بقوله ، ويؤيِّده حديثُ : " كُلُّ أَمْرٍ ذِى بالٍ لا يُبْـدَأُ فِيه بالْحَمْـدُ للهِ فهو أجْذَمُ " . ولذٰلك مال أهـلُ العصر إلىٰ ٱختياره والعملِ عليه ؛ إلا أنَّ فيـه مخالفةً لمـا وقَع فى عهدِ النبي صلّى الله عليه وسـلم لعَمْرو بن حزم وغيرِه من عُهُود الصحابة علىٰ ماتقدّم ذكره .

وبكلِّ حال فأهلُ هـذا المذْهَب لايخرُجون فيـه عن ضربين : ضرب يعبِّرون عن الأوامرِ الواردةِ فى العهد عن الخليفة بقوله : « أَمَره بكذا وأمره بكذا » وهى طريقة المتقدّمين منهم، وعليها كُتِب عهـدُ العادل أبى بكر المشار إليـه . وضربٍ يعبِّرون بقولهم « أنْ يفْعل كذا وكذا » وما يجرى هذا المَجْرىٰ، وهى طريقة أهل زمانِنـا .

وهذه نسخةُ العهد المكتوبِ به من ديوان الخلافة ببغدادَ علىٰ هـذه الطريقة ، للعادل أبى بكرِ بنِ أيُّوب (١) أخى (٢) السلطان صلاح الدين « يوسفَ بنِ أيوب » وهى :

الحمـــدُ للهِ الذى ٱطْمأنَّتِ القلوبُ بذِكْره، ووجَبَ علىٰ الخلائق جزيلُ حَمْـده وشُكْره؛ ووسِعَتْ كلَّ شيءٍ رحمتُه، وظهرَتْ فى كل أمرٍ حكمتُه؛ ودلَّ علىٰ وَحْدانيَّته بعجائبِ ماأحكمه صُـنْعا وتَدْبيرا ، وخلَق كلَّ شيء فقَدّره تقْـديرا ؛ مُمِدِّ الشاكرين بنَعِمه التى لاتُحصىٰ عَدَدا ، وعالمِ الغيبِ الذى لايُظْهِرُ علىٰ غَيْبِـه أحدَا ؛ لامُعَقِّبَ لحُكْمه فى الإبْرام والنَّقْض، ولا يَئُودُه حِفْظُ السمٰواتِ والأَرْض ؛ تعالىٰ أنْ يحيط

(١) تقدّم قبلا التنبيه عليه . تأمل .

(٢) فى الأصول عم السلطان وهو سبق قلم .

بُحكمِه الضـمير، وجلّ أن يبْلُغَ وصْـفَه البيانُ والتفسير : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهو السَّمِيعُ البَصِـــيرُ ﴾ .

والحمدُ لله الذى أرســلَ محمّدًا صلّى الله عليه وسلم بالحقّ بَشِيرا ونَذِيرا ، وداعيًا إلىٰ الله بإذْنِه وسِراجًا مُنِيرا ، وآبتعَثَه هادِيًا للخلق ، وأوضَحَ به مَنَاهِجَ الرَّشَد وسُبُلَ الحق ، وآصطفاه من أشْرف الأنسابِ وأعزّ القبائل ، وآجْتَباه لإيضَاح البراهينِ والدّلائل ، وجعله لدَيْه أعظَمَ الشُّـفعاء وأقْرَبَ الوَسَائل ، فقذَف صلّى الله عليـه وسلم بالحَقّ علىٰ الباطل ، وحمَلَ الناسَ بشريعتِه الهادِيَةِ علىٰ المَحَجَّة البيضاءِ والسُّنَن العادل ، حتّى آستقام آعْوِجاجُ كلّ زائِـغ ورجَع إلىٰ الحقّ كلُّ حائد عنه ومائِل ، وسجدَلله كلُّ شيءٍ تَتَفَيَّأُ ظِلاله عن اليمينِ والشّمائل ، صلّى الله عليــه وعلىٰ آله وصحبه الكرامِ الأفاضِل ، صــلاةً مستمرّة بالغُدُوات والأصائِل ؛ خصوصًا علىٰ عمّه وصِنْو أبيــه العباسِ بن عبد المطلب الذى آشــتهرَتْ مَنَاقِبُه فى المَجَامع والمحَافِل ، ودَرّتْ ببركَةِ الآسْتِسقاء به أخلافُ السُّحُب الهَواطِل ، وفاز من تنصِـيص الرسول علىٰ عَقِبــه فى الخلافة بمـا لم يفُزْ به أحدٌ من الأوائِل .

والحمدُ للهِ الذى حازَ مواريثَ النبُوّة والإمامه ، ووفَّر جزيلَ الأقسام من الفَضْــل والكَرامه ، لعَبْده وخليفته ، ووارث نبِيّه ومُحْيِي شريعتِه ، الذى أحلَّه الله عزّ وجلّ من مَعَارج الشرَف والجَلَال فى أرفَعِ ذِرْوه ، وأعلَقَه من حُسْن التوفيق الإلهىّ بأمْتَن عِصْمة وأوثَق عُرْوه ، وآستخرجه من أشرف نجَار وعُنْصَر ، وآختصَّه بأزْكىٰ مِنْحة وأعظَمِ مَفْخَر ، ونَصَبه للمؤمنين عَلَمـا ، وآختاره للمسلمين إمامًا وحَكَمًا ، وناط به أمْرَ دِينه الحَنيف ، وجعله قائمًـا بالعدل والإنصاف بين القوِىّ والضّعيف ، إمامِ المسلمين ، وخليفة ربّ العـالمين ، أبِى جَعْفر المنصورِ المستنصِر بالله أميرِ المؤمنين ،

ٱبن الإمام السعيد التقِيّ، أبى نَصْر محمد الظاهِر بأمْر الله، ٱبن الإمام السعيد الوفِيّ أبى العبّاس أحمدَ الناصِر لدين الله، ٱبن الإمام السعيدِ أبى محمد المستضىءِ بأمْر الله أمير المؤمنين، صلواتُ الله عليهم (١) أجمعين، وعلىٰ آبائه الطاهرين، الأئمة المهديين؛ الذين قَضَوْا بالحقّ وبه كانُوا يَعْدِلُون، ولقُوا اللهَ تعالىٰ وهو عنهم راضٍ وهم عنه راضُون.

وبعد، فبحَسَب ماأفاضه اللهُ علىٰ أمير المؤمنين ــ صلواتُ الله (١) عليه وسلامُه ــ من خلافَتِه فى الأرض، وفوّضَه إلىٰ نَظَره المقدّس فى الأُمور من الإبْرام والنَّقْض، وما ٱستخْلَصه له من حِياطة بلاده وعبَاده، ووكَلَه إلىٰ شريف نَظَره ومُقدَّس ٱجتهادِه؛ لايزال ــ صلوات الله (١) عليه ــ يَكْلأُ العِباد بعَيْن الرِّعايه، ويسْلُك بهم فى المصالح العامّةِ والخاصَّة مذَاهِبَ الرَّشَد وسُبُلَ الهِدَايه؛ وينْشُر عليهم جناحَىْ عَدْله وإحسانه، ويُنْعِم لهم النظَرَ فى ٱرتياد الأُمَنَاء والصُّلَحاء من خُلَصاء أكفائه وأعوانِه؛ متخيِّرًا للاِسترعاءِ مَن ٱستحْمَد إليه بمشكُور المساعى، وتعرَّف إليه فى سياسة الرَّعايا بجميل الأسبابِ والدَّواعِى؛ وسلك فى مفْتَرَض الطاعة الواجبة علىٰ الخلائق قَصْدَ السبيل، وعُلِم منه حُسْنُ الاضْطِلاع فى مصالح المسلمين بالعِبْءِ الثَّقِيل؛ واللهُ عز وجلَّ يؤيِّد آراءَ أمير المؤمنين ــ صلواتُ الله (١) عليه ــ بالتأييد والتَّسْديد، ويُمدّه أبدًا من أقسام التوفيق الإلٰهىِّ بالمْوفور والمَزِيد؛ ويَقْرُن عزائِمَه الشريفةَ باليُمْن والنَّجاح، ويُسَنِّى له فيما يأتِى ويَذَر أسبابَ الخير والصَّلَاح؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنيب.

(١) لم نقف علىٰ استعمال هذه الصيغ فى عهود غير الفاطميين إلا فى هذا العهد.

ولمـا وفّق الله تعالىٰ نصيرَ(١) الدين محمدَ بْن سيف الدِّين أبي بكر بن أيوب من الطاعة المشهوره ، والخدم المشكوره ، والحُظْوة فى جهاد أعداءِ الدين بالمَساعى الصـالحه ، والفَوْزِ من المراضى الشريفة الإماميَّة ـ أجلها الله تعالىٰ ـ بالمَغانم الجزيلة والصَّفْقة الرابِحه ؛ لمـا وصَلَ فيه سالفَ شريفِ الآختصاص بآنِفِه ، وشفَع تالدَه فى تحصيل مأثور الآستخلاص بطارِفه ؛ وآستوجَبَ بسُلوكه فى الطاعة المفروضة مَزِيدَ الإكْرام والتفضيل ، وضَرَع فى الإنعام عليـه بمَنْشُور شريف إمامىٍّ يسـلُك فى آتّباعه هُداه والعملِ بمَراشِده سواءَ الصِّراط وقَصْـدَ السبيل ـ آقتضتِ الآراءُ الشريفةُ المقدّسةُ ـ زادها الله تعالىٰ جَلالا متألِّقَ الأنوار، وقُدْسا يَتَساوىٰ فى تعظيمه مَنْ هو مستَخْفٍ بالليـل وسارِبٌ بالنهـار ـ الإيعازَ بإجابته إلىٰ ما وَجَّه أمَلَه إلىٰ الإنافة فيه به إليه ، والجَذْبَ بضَبْعيْه إلىٰ ذِرْوة الآجتباء الذى تظْهر أشـعَّةُ أنواره الباهِرةِ عليه ؛ فقلَّده ـ علىٰ خِيرةِ الله تعـالىٰ ـ الزَّعامةَ والغَلَّات ، وأعمالَ الحرب والمَعـاوِنَ والأحْداثَ والخَراجَ والضِّياعَ والصَّدَقات ، والجوالِيَ وسائرَ وُجوه الجِبَايات ؛ والعَرْض والعطاء ، والنَّفقة فى الأولياء ؛ والمظالِمَ والحِسبةَ فى بلاده ، وما يفتَتِحه ويستولِى عليه من بلاد الفرنْج المُلاحِين ، وبلاد من تَبرُز إليـه الأوامرُ الشريفةُ بقَصْده من الشاذِّين عن الإجماع المنعقد من المسلمين ؛ و[من] يتعدَّى حدودَ الله تعالىٰ بمخالفة من يصل(؟)من الأعمال الصالحات بولائه المفروضِ علىٰ الخلائق مقْبوله ، وطاعتُه ضاعف الله جلالَه بطاعته وطاعةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم موصُوله ؛ حيث قال عز من قائل : ﴿ يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . وآعتَمَد ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ فى ذٰلك علىٰ حُسْن نظَره ومَدَد رِعايتِه ، وألقىٰ مقالِيدَ التفويض إلىٰ وُفُور آجتهاده وكمال سِياستِه ؛ وخَصَّه من هـذا الإنعام الجزيلِ بمـا

(١) المشهور ناصر الدين .

يبقىٰ له علىٰ تعاقُب الدهر وٱستمِراره، ويخلّد له علىٰ ممرّ الزمان حسْنَ ذكره وجزيلَ نخَاره، وحباه بتقليد يُوطّد له قواعدَ الممالك، ويفْتَح بإقليده رِتاجَ الأبواب والمَسَالك؛ ويفيد قاعدتَه فى بلاده زيادةَ تقريرٍ وتَمْهِيد، ويَطير به صِيتُه فى كلّ قريب وبَعيد؛ ووَسَمه بالملك الأجلّ، السيد، الكامل، المجاهد، المرابط، نَصير الدين، ركن الإسلام، أَثِير الأنام، تاج الملُوك والسلاطين، قامِع الكَفَرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمرّدين، غازى بك محمد، بنِ أبى بكر، بن أيوب، معين أمير المؤمنين؛ رعايةً لسَوابق خِدَمه وخِدَم أسلافه وآبائه، عن وُفُور ٱجتِبائه، وكمال ٱزْدلافه؛ وإنافةً من ذِرْوة القُرْب إلىٰ محلٍّ كريم، وٱختصاصًا له بالإحسان الذى لا يُلَقَّاه إلَّا من هو كما قال تعالىٰ: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. وُثُوقا بصحَّة ديانته التى يسْلُك فيها سَواءَ سبِيله، وٱستنامةً إلىٰ أمانته فى الخدمة التى ينْصَح فيها لله تعالىٰ ولرسوله؛ ورُكُونًا إلىٰ [كون] الإنعام عليه موضُوعا بحمد الله تعالىٰ فى أحسن مَوْضِع، واقعًا به لديه فى خير مستَقَرّ ومستَوْدَع.

وأمير المؤمنين ــ صلواتُ الله عليه (لا زالتِ الخِيَرةُ موصولةً بآرائه، والتأييدُ الإلٰهىُّ مقرونا بإنفاذه وإمضائه) يستمِدّ من الله عز وجلّ حُسْن الإعانةِ فى ٱصطِفائه الذى ٱقتضاه نظرُه الشريفُ وٱعتمادُه، وأدّى إليه ٱرتيادُه المقدَّسُ الإمامىّ وٱجتهادُه؛ وحسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعْم الوكيل.

أمره بتقوىٰ الله تعالىٰ التى هى الجُنَّة الواقِيه، والنِّعمةُ الباقيه؛ والمَلْجأ المَنِيع، والعِمَادُ الرفيع؛ والذخيرةُ النافعةُ فى السِّرّ والنَّجْوىٰ، والجَذْوةُ المقتَبَسة من قوله سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ﴾ وأن يدَّرِع بشِعارَها، فى جميع الأقوال والأفعال، ويهتدىَ بأنوارها، فى مشكلات الأُمُور والأحوال؛ وأن يعمل بها سرًّا

وجَهْرا، ويشْرَحَ للقيام بحُدُودها الواجبة صَـدْرا؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عنه سَيِّئاتِهِ ويُعْظِمْ لَهُ أجْرا ﴾ .

وأمره بتلاوةِ كتابِ الله متدبِّرا غَوامِض عجائبه ، سالكًا سبيلَ الرَّشاد والهِـدايةِ فى العمَلِ به ؛ وأن يجعله مِثالًا يَتَّبِعه ويقْتفيه ، ودليـلًا يهتدى بمَراشِـده الواضحةِ فى أوامره ونَوَاهيه ؛ فإنه الثَّقَل الأعْظم ، وسَبَبُ الله المُحْكَم ، والنورُ الذى يهْـدى به إلىٰ التى هى أقْوم ؛ ضَرَبَ الله تعالىٰ فيــه لعباده جوامِعَ الأمثال ، وبيَّن لهم بهُـداه الرُّشْد والضَّلال، وفَرَّق بدلائله الواضحةِ بيْنَ الحرام والحَلال؛ فقال عز من قائل : ﴿ هٰذا بَيَانٌ لِلنَّاس وهُدًى ومَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِين ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ كِتَابٌ أنْزَلْناهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِه وليتَذَكَّرَ أُولُوا الألْباب ﴾ .

وأمره بالمحافظة علىٰ مَفْرُوض الصلوات ، والدُّخول فيها علىٰ أكمل هيئةمن قَوانين الخُشُوع والإخْبات؛ وأن يكونَ نظَرُه فى مَوْضِع سجوده من الأرض، وأن يمثِّل لنَفْسه فى ذٰلك موْقِفَه بينَ يدَيِ الله تعالىٰ يوم العَرْض؛ قال الله تعـالىٰ : ﴿قَدْ أفْلَحَ المُؤْمِنُون الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خاشِعُون ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ علىٰ المُؤْمنين كِتابًا مَوْقُوتا ﴾ . وأن لايشتغِلَ بشاغِل عن أداء فُرُوضها الواجِبه، ولا يَلْهُوَ بسببٍ عن إقامة سُنَنها الراتِبه ؛ فإنها عِمادُ الدين الذى نمَتْ أعاليه، ومِهادُ الشرع الذى تَمَّت قواعِدُه ومَبانِيه ؛ قال الله تعـالىٰ : ﴿حَافِظُوا عَلىٰ الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطىٰ وَقُومُوا لِلهِ قانِتِين ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهىٰ عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَر ﴾ .

وأمره أن يسعىٰ إلىٰ صلوات الجُمَع والأعياد، ويقُومَ فى ذٰلك بما فرضه اللهُ تعالىٰ عليه وعلىٰ العباد؛ وأن يتوجَّه إلىٰ الجَوامع والمساجِد متواضِعا، ويَبْرُزَ إلىٰ المصلَّيات الضاحية فى الأعياد خاشِـعا ؛ وأنْ يُحافِظَ فى تشييدِ قواعدِ الإسـلام علىٰ الواجب

والمَنْدُوب ، ويعَظِّمَ باعتماد ذلك شَعائِرَالله التي هِي مِنْ تَقْوىٰ القُلُوب ؛ وأن يشمَلَ بوافر آهتمامِه وآعتِنـائه ، وكمالِ نَظَره وإرْعائه ؛ بيُوتَ الله التي هى مَحَالُّ البركات ، ومواطِنُ العبادات ؛ والمساجدُ التي تأكَّد فى تعظيمها وإجْلالهـا حُكْمُه ، والبيوتُ التي أذِنَ اللهُ أن تُرْفَع ويُذْكَر فيها آسْمُه ؛ وأن يرَتِّب لهـا من الخَدَم من يتَبَتّل لإزالة أدْناسها ، ويتصدّىٰ لإذكاء مَصابيحها فى الظَّلام وإيناسِها ؛ ويقُومَ لها بمـا تحتاجُ إليه من أسباب الصَّلاح والعِمَارات ، ويُحضرَ إليها مايليق من الفُرُش والكِسْوات .

وأمره بآتِّباع سنة النبيّ صلّىٰ الله عليه وسلم التي أوْضَح جدَدَها ، وثقَّف ـ عليـه السلام ـ أَوَدَها ؛ وأن يعتمِدَ فيها علىٰ الأسانيد التي نَقَلها الثِّقات ، والأحاديثِ التي صحَّت بالطرق السليمةِ والرِّوايات ؛ وأن يقتَدى بمـا جاءت به من مَكارِم الأخلاق التي نَدَب صلّىٰ الله عليه وسلم إلىٰ التمسك بسَببِها ، ورَغَّب أمته فى الأَخْذ بها والعمَل بأدَبِها ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه وَمَا نَهَاكُمْ عَنْه فَانْتَهُوا ﴾ . وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ .

وأمره بمجالسة أهل العلم والدِّين ، وأُولى الإخلاص فى طاعة الله تعالىٰ واليَقِين ؛ وآستشارتِهم فى عَوَارض الشَّكِّ والآلتباس ، والعملِ بآرائِهم فى التمثيل والقِياس ؛ فإن الآستشارةَ لهم عينُ الهـدايه ، وأمْنٌ من الضَّلالة والغَوَايه ؛ وبها تَلْقَح عُقُم الأفهام والألباب ، ويُقْتَدَح زنادُ الرَّشَد والصواب ؛ قال الله تعالىٰ فى الإرشاد إلىٰ فضْلِها ، والأمرِ فى التمسك بحبْلها : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فى الْأَمْر ﴾ .

وأمره بمراعاةِ أحوال الجُنْد والعسكر فى ثُغُوره ، وأن يَشْمَلهم بحُسْن نظره وجميل تَدْبيره ؛ مستصْلِحا نِيـّاتهم بإدامة التلطُّف والتعهُّد ، مستوضِحًا أحوالَهم بمواصـلة التفحُّص والتفقُّد ؛ وأن يَسُوسَهم سياسةً تبعَثُهم علىٰ سلُوك المَنْهج السليم ، ويَهْديهم

فى ٱنتظامها وٱتّساقها إلىٰ الصِّراط المستقيم، ويحمِلَهم علىٰ القيام بشرائط الخِدَم، والتمسُّك منها بأقوىٰ الأسباب وأمْتَنِ العِصَم، ويدْعُوَهم إلىٰ مصلحةِ التواصل والٱئْتِلاف، ويصُدَّهم عن مُوجِبات التخاذُل والٱخْتِلاف، وأن يعتمد فيهم شرائط الحَزْم فى الإعطاء والمَنْع، وما تقتضيه مصلحةُ أحوالهم من أسباب الخَفْض والرَّفْع؛ وأن يُثيبَ المحسنَ علىٰ إحسانه، ويُسْبِل علىٰ المُسيءِ ماوَسِعه العفْوُ وٱحتمله الأمْرُ ذَيلَ صَفْحه وٱمتِنانه، وأن يأخُذَ برأْى ذَوِى التَّجارب منهم والحُنْكه، ويجْتَنِى بمشاوَرَتهم فى الأمر ثَمَر الشَّركه؛ إذْ فى ذٰلك أمنٌ من خَطإِ الٱنْفِراد، وتزحْزُح عن مَقام الزَّيْغ والٱستبداد.

وأمره بالتبتُّل لما يَليه من البلاد، ويتَّصل بنواحيه من ثُغُور أُولى الشِّرْك والعِناد؛ وأن يصْرِف مَجامِعَ الٱلتفاتِ إليها، ويخُصَّها بوُفُور الٱهتمام بها والتطلُّع عليها؛ وأن يشْمَل مابِبلاده من الحُصُون والمَعاقل بالإحكام والإتْقان، ويتَنَهَّى فى أسبابِ مصالحها إلىٰ غايةِ الوُسْع ونِهَاية الإمْكان؛ وأن يشْحَنها بالمِيرة الكثيرةِ والذَّخائر، ويُمِدَّها من الأسْلحة والآلاتِ بالعَدَد المستَصْلح الوافِر؛ وأن يَتَخَيَّر لحِراستها [من يختارُه] من الأُمَناء الثِّقاه، ولسَدِّها من يَنْتَخِبه من الشُّجْعان الكُماه؛ وأن يؤكِّد عليهم فى ٱستعمال أسباب الحِفْظةِ والٱستِظْهارِ، ويُوقِظَهم لِلاحتِراس من غَوائل الغَفْلة والٱغْتِرار؛ وأن يكونَ المشارُ إليهم ممن رَبَوا فى ممارسة الحُرُوب علىٰ مُكافَحة الشدائد، وتدَرَّبُوا فى نَصْب الحبائل للشركين والأخذ عليهم بالمَراصد؛ وأن يَعتمد هذا القبيلَ بمواصلة المَدَد، وكَثْرة العَدَد، والتَّوسِعَة فى النفقة والعَطاء، والعملِ معهم بما يقتضيه حالُهم وتفاوُتُهم فى التقصير والغَناء؛ إذْ فى ذلك حسمٌ لمادَّة الأطماع فى بلاد الإسلام، وردٌّ لكيد المعانِدين من عَبَدة الأصنام؛ فمعلوم أنَّ هذا الغرضَ أوْلىٰ ما وُجِّهت إليه العناياتُ وصُرِفت، وأحقُّ ماقُصِرت عليه الهِمَم

ووُقِفَتْ ؛ فإن الله تعالىٰ جعله من أهمّ الفُروض التى كَرَّم فيهـا القيامَ بحقه، وأكبرِ الواجبات التى كَتَب العملَ بها علىٰ خلقه ؛ فقـال سبحانه وتعالىٰ هاديًا فى ذٰلك إلىٰ سبيل الرشاد، ومحرِّضا لعباده علىٰ قيامهم بفُروض الجهاد : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فى سَبِيلِ اللهِ ولا يَطَـئُونَ مَوْطِئًا يَغيظُ الكُفَّارَ ولا يَنَالُونَ مِن عَدُوٍّ نَيْلا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المُحْسِنِينَ ولا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَـغِيرَةً ولا كَبِيرَةً وَلَا يقْطَعُون وادِيًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُون ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ فَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهم ﴾ . وقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : "مَنْ نَزَل مَنْزِلا يُخيفُ فيه المُشْرِكينَ ويُخِيفُونَه، كان له كأجْرِ ساجِدٍ لا يرفَعُ رأسَه إلىٰ يوم القيامة، وأجْرِ قائمٍ لا يَقْعُد إلىٰ يوم القيامة، وأجرِ صائمٍ لا يُفْطِر" . وقال عليه السـلام : "غَدْوَةٌ فى سبيلِ اللهِ أو رَوْحَةٌ خيرٌ ممـا طلَعَتْ عليه الشمْسُ" . هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى حقِّ من سمِـع هذه المقالةَ فوقف لديْها، فكيف بمن كان كما قال عليه السلام : "ألَا أُخْبِرُكم بخَيْرِ الناس : ممسكٌ بعِنان فَرَسِه كُلَّمـا سَمِـع هَيْعةً طارَ إليْها" .

وأمره باقتفاءِ أوامرِ الله تعالىٰ فى رَعَاياه ، والاهتداءِ إلىٰ رعاية العَدْل والإنصاف والإحسان بمَرَاشده الواضحةِ ووَصَاياه ؛ وأن يسْلُكَ فى السياسة [بهم] سُبُلَ الصَّلاح ، ويشمَلَهم بِلِين الكَنَف وخَفْض الجَنَاح ؛ ويُمَدَّ ظلَّ رِعايته علىٰ مُسْلمهم ومُعاهَدهم ، ويُزَحزِحَ الأقذاءَ والشَّوائبَ عن مَنَاهلهم فى العدل ومَواردِهم ؛ وينظُرَ فى مَصَالحهم نظرا يُساوِى فيـه بين الضعيف والقوىّ ، ويُقوِّمَ بأوَدِهم قيـامًا يهتدى به ويهديهم فيه إلىٰ الصِّراط السَّوِىّ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإحْسانِ و إيتاءِ ذِى القُرْبىٰ ويَنْهىٰ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لعَلَّكم تَذَكَّرُون ﴾ .

وأمره باعتبار أسْبابِ الاستِظْهار والأَمَنة، واستقْصاء الطاعة المستطاعة والقُدْرة المكنَة، في المساعدة على قضاء تَفَث حُجَّاج بيتِ الله الحَرَام، وزُوّار نبيِّه عليه أفضلُ الصلاة والسلام؛ وأن يُمِدّهم بالإعانة في ذلك على تحقيق الرجاء وبُلُوغ المَرَام، ويحرُسَهم من التخطُّف والأذى في حالَتَيِ الظعن والمُقَام؛ فإنَّ الحجَّ أحدُ أركان الدين المشيَّده، وفُروضِه الواجبةِ المؤكَّده؛ قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ ﴾ .

وأمره بتقْويةِ أيْدى العاملين بحُكْمِ الشرع في الرَّعايا، وتنفيذِ مايصْدُر عنهم من الأحكام والقَضَايا، والعملِ بأقوالهم فيما يثبُتُ لذوِى الاستحقاق، والشدِّ على أيديهم فيما يَرَوْنه من المنْع والإطلاق؛ وأنه متى تأخَّر أحدُ الخَصْمين عن إجابةِ داعى الحُكْم، أو تقاعَس في ذلك لما يلزم من الأداء والعُدْم، جَذَبه بعِنَان القَسْر إلى مجلس الشَّرْع، واضطرّه بقُوّة الإنصاف إلى الأَدَاء بعْد المنْع. وأن يتوخّى عُمَّالَ الوُقُوف التى تقرِّب المتقرِّبون بها، واستمسَكُوا في ثَوابِ الله بمَتِين حبْلها. وأن يُمِدّهم بجميل المعاوَنةِ والمساعده، وحُسْن المُوَازَرة والمُعاضَده، في الأسباب التى تُؤْذِن بالعِمَارة والاستِثْماء، وتعودُ عليها بالمصلحة والاستخلاصِ والاستيفاء؛ قال الله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ .

وأمره أنْ يتخيَّر من أُولِى الكَفَاءةِ والنَّزاهة مَنْ يَستخْلِصُه للخِدَم والأعمال، والقيام بالواجبِ: من أداء الأمانةِ والحراسةِ والتمييزِ لبيتِ المال. وأن يكونُوا من ذوِى الاضْطِلاعِ بشرائط الخِدَم المعيَّنة وأمورها، والمهتدين إلى مَسَالك صلاحِها وتدبيرِها. وأن يتقدّمَ إليهم بأخْذ الحُقُوق من وُجُوهها المتيقَّنه، وجِبايَتِها في أوقاتها المعيَّنه؛ إذْ ذاك من لوازم مصالح الجُنْد ووُفُور الاستظهار، ومُوجِبات قوةِ الشوكة

بكثيرِ الأعْوان والأَنْصار، وأسباب الحِفْظَة(١) التى تُحمىٰ بها البلادُ والأمصار؛ ويأمُرَهم بالجَرْى فى الطُّسُوق(٢) والشُّروط علىٰ النَمَط المعتاد؛ والقيامِ فى مصالح الأعمال علىٰ أقدام الجِدِّ والاجتهاد . وإلىٰ العاملين علىٰ الصَّـدَقات بأخْذ الزكَوات علىٰ مشرُوع السَّنَن المَهْيَع ، وقَصْد الصراط المُتَّبَع ؛ من غير عدُول فى ذلك عن المِنْهاج الشرعىّ ، أو تساهلٍ فى تبـديل حُكْمها المفروضِ وقانُونها المَرْعىّ ؛ فإذا أُخذتْ من أربابهـا ، الذين يُطهَّرون ويُزَكَّوْن بهـا ، كان العمل فى صَرْفها إلىٰ مسـتحقها بحكم الشريعة النبوية ومُوجِبها . وإلىٰ جُبَاة الجِزْية من أهل الذِّمَّة بالمطالبة بأدائها فى أوّل السنه ، واستيفائها منهم علىٰ حَسَب أحوالهم بحكم العادةِ فى الثَّروة والمَسْكَنه ؛ إجراءً فى ذٰلك علىٰ حكم الاستمرار والانْتِظام ، ومحافظةً علىٰ عظيم شعائرِ الإسلام .

وأمره أن يتطلع علىٰ أحوال كلِّ من يستعْمله فى أمْر من الأمور ، ويُصرِّفُه فى مصلحةٍ من مصالح الجمهور ، تطَلُّعا يقتضِى الوقوفَ علىٰ حقائق أماناتِهـم ، ومُوجَب تهذيبهم فى حركاتهم وسكَنَاتهم ؛ ذَهَابا مع النُّصح لله تعالىٰ فى بريَّته ، وعملاً فيه بقول النبىّ صلّى الله عليه وسلم : "كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْـئُولٌ عن رَعِيَّته" .

وأمره أن يستصلِـحَ من ذوى الاضْطِلاع والغَناء ، من يرتِّب العَرَضَ والعطاء ، والنَفقَةَ فى الأوليـاء ؛ وأن يكونوا من المشهورين بالحَزْم والبصيره ، والموسُومين فى المُنـاصَحة بإخلاصِ الطويَّة وإصـفاءِ السريره ؛ حالِين من الأمانة والصَّوْن بمـا يَزِين ، ناكِبِين عن مَظَانِّ الشُّبَه والطمَع الذى يَصِمُ ويَشِين ؛ وأن يأمُرَهم باتِّباع عاداتِ أمثالهم فى ضَبْط أسماء الرجال ، وتحليةِ الأشخاص والأَشْكال ، واعتبار شِيَات

(١) فى القاموس « الحفظة بالكسر والحفيظة الحمية والغضب » .

(٢) الطسوق جمع طسق وهو شبه الخراج له مقدار معلوم وليس بعربى خالص . أنظر اللسان .

الخيول و إثبـات أعدادها ، وتحريض الجند على تخيُّرها وٱقتناء جيـادها ؛ وبذْل الجُهْـد فى قيامِهِم من الكُرَاع واليَزَك والسِّلاح بمـا يلزَمُهم ، والعمل بقوله تعالىٰ : ﴿ وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ . فاذا نطقت جرائد الجند المذكورين بمـا أُثْبِت لدَيْهم، وحقَّق الٱعتبارُ والعِيَانُ قيامَهُم بمـا وجب علَيْهم ؛ أُطلِقت لهم المعـايِشُ والأرزاق بحسَبِ إقْراراتهـم ، وأُوصلَتْ إليهـم بمقتضىٰ واجبـاتِهِم وٱستحقاقاتِهِم : فإن هذا الحالَ أصلُ حراسـة البلاد والعباد ، وقيـامِ الأمر بمـا أوجبه الله تعالىٰ من الٱستعداد بفَرْض الجهاد ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ والَّذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِين ﴾ .

وأمره بتفويض أمْرِ الحِسْبة إلىٰ مَنْ يكون بأمْرها مُضْطلِعا، وللسُّنَّة النبويَّة فى إقامـةِ حُدودها متَّبِعـا ؛ فيعتمد فى الكَشْف عن أحوال العـامَّة فى تصرُّفاتهـا الواجِب ، ويسلُكُ فى التطلع إلىٰ معاملاتهـم السـبيلَ الواضحَ والسَّـنَنَ اللَّاحِب ؛ (١) فى الأسواقِ لٱعتبار المكاييل والمَوازِين . ويُقيـمُه [مقامه] فى مؤاخَذة المطفِّفين وتأديبِهم بمـا تقتضيه شريعةُ الدين؛ ويحذِّرُهم فى تعدِّى حُدود الإنصاف شِدّةَ نَكاله ، ويقابِل المستحِقَّ المؤاخذةِ بمـا يرتَدِع به الجمْعُ الكثيرُ من أمثاله ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ المستَقِيم ولا تَبْخَسُوا النَّـاسَ أشْيَاءَهُمْ ولا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِيـن ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا عَلَى النَّـاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُـمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عظيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّـاسُ لِرَبِّ العالَمِيـن ﴾ .

(١) بياض فى الأصل ولعله «و يطوف فى الأسواق» الخ .

فلْيتولَّ الملكُ السيدُ، الكاملُ، المجاهدُ، المرابطُ، نصيرُ الدين، ركنُ الإسلام، أثيرُ الأنام، جلالُ الدوله، فخر الملّة، عزُّ الأمة، سندُ الخلافه، تاجُ الملوك والسلاطين، قامعُ الكَفَرة والمشركين، قاهرُ الخَوَارج والمتمرِّدين، أميرُ المجاهدين، غازى بك معين أمير المؤمنين ـ ماقلَّده عبدُ الله وخليفتُه فى أرضه، القائمُ له بحقّه الواجبِ وفرضه، أبو جعفرٍ المنصورُ المستنصرُ بالله أمير المؤمنين، تقليدَ مطمئنٍّ بالإيمان، وينصحْ لله ولرسوله وخليفتِه ـ صلواتُ الله عليه ـ فى السِّرِّ والإعْلان، ولْيشرحْ بما فُوِّض إليه من هذه الأمورِ صَدْرا، ولْيَقُم بالواجب عليه من شُكْر هذا الإنعام الجزيلِ سِرًّا وجهْرا، ولْيعملْ بهذه الوصايا الشريفةِ الإماميَّه، ولْيَقْفُ آثارَ مَراشِدها المقدّسةِ النبويَّه، ولْيُظْهِر من أَثَرِ الجِدِّ فى هذا الأمر والاْجتهاد، وتحقيق النظر الجميل لله والإرشاد، مايكون دليلًا على تأييد الرأى الأشرفِ المقدّس ـ أجله الله تعالى ـ فى اْصطِناعه واْستِكْفائه، وإصابةِ مَواقِع النُّجْح والرَّشَد فى التفويض إلى حُسْن قيامِه وكمالِ اْعتِنائه، فلْيَقْدُر النعمةَ فى هذه الحال حَقَّ قَدْرها، ولْيَمْترِ بأداء الواجبِ بما غَلَب عليه من جزيل الشكر غَزِير دَرِّها، ولْيطالِعْ مع الأوقات بما يُشْكِل عليه من الأمور الغَوَامض، ولْيُنْهِ إلى العلوم الشريفةِ المقدّسة ـ أجلها الله تعالى ـ مايلتَبِس عليه من الشكُوك والغَوَامض (؟)، لِيَرِدَ عليه من الأمثلة مايُوَضِّح له وجهَ الصواب فى الأمور، ويستمِدَّ من المَرَاشد الشريفةِ التى هى شفاءٌ لما فى الصدور بما يكونُ ورُوده عليه وتتابعُه إليه نُورًا على نور، إن شاء الله تعالى.

⁂

وهذه نسخة العهد الذى كتب به الصاحبُ فخرُ الدين: إبراهيم بن لُقْمَانَ، للظاهر بِيبَرْسَ، التى أنكر عليه القاضى شهابُ الدين بنُ فضل الله فى "التعريف" اْبتداءها بخُطْبة، وهى:

الحمدُ للهِ الذى أضْـفىٰ [علىٰ الإســلام] (١) ملابِسَ الشَّرف ، وأظهر دُرَره وكانتْ خافيةً بمـا آستَحْكَم عليها من الصَّدَف ؛ وشـيَّد ما وهىٰ من عَلاَئه حتى أنسىٰ ذِكْرَ ما سلَف ، وقيَّضَ لنصره ملوكًا آتفقَ علىٰ طاعتهم مَنِ آختلَف .

أحمده علىٰ نِعَمه التى رتَعتِ الأعينُ منها فى الرَّوْض الأُنُف ، وألطافِهِ التى وقَفَتِ الشـكْرَ عليها فليس له عنهـا مُنْصَرَف ؛ وأشهد أن لاإلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً توجب من المَخاوِف أمْنـا ، وتُسَهِّل من الأمور ما كان حَزْنا ؛ وأشهد أنَّ محمدا عبــدُه ورسوله الذى جَبَرَ من الدِّين وَهْنا ، وصـفيُّه الذى أظهر من المَكَارم فُنُونا لافنًّا ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين أضحت مناقِبُهم باقيــةً لاتَفْنىٰ ، وأصحابِه الذين أحسنوا فى الدِّين فاستحقُّوا الزيادةَ من الحُسْنىٰ .

وبعد ، فإن أَوْلىٰ الأولياء بتقديم ذِكْره ، واحقَّهم أن يُصْبِح القلم ساجدًا وراكِعا فى تسطيرِ مَناقبِه وبِرِّه ؛ مَنْ سـعىٰ فأضحىٰ بسعيه الجميلِ متقدِّما ، ودَعا إلىٰ طاعته فأجاب مَنْ كانـ مُنْجِدا ومُتْهِما ؛ وما بدتْ يدٌ من المكْرُمات إلَّا كان لهـا زَنْدا ومِعْصَما ، ولا آستباحَ بسيفِه حِمىٰ وَغًى إلا أضرمه نارًا وأجراه دَما .

ولمـا كانت هذه المناقبُ الشريفةُ مختصةً بالمقام العالى ، المولوى ، السلطانى ، المَلَكىّ ، الظاهرى ، الركنىّ ، شرفه الله تعـالىٰ وأعلاه ، ذَكَرهُ الديوانُ العَزيز ، النبوىُّ ، الإمامىّ ، المستنصرىّ ــ أعز الله تعالىٰ سلطانَه ــ تَنْوِيها بشريفِ قَدْره ، وآعترافا بصـنعه الذى تَنْفَد العبارة المُسْهَبة ولا تقوم بشكره ؛ وكيف لا ؟ وقد أقام الدولة العبَّاســيَّة بعد أن أقْعدَتْها زَمانةُ الزَّمان ، وأذهبَتْ ما كانـ لها من مَحَاسِنَ وإحْسان ، وآسْتعْتَب دهْرَها المسِيءَ فأعْتَب ، وأرضىٰ عنها زمانَها وقد كانَ صالَ

---

(١) زيادة لاستقامة الكلام .

عليها صَوْلة مُغْضَب ، فأعاده لها سِلْما بعد أن كان عليها حَرْبا ، وصَرَف آهتمامَه فرجع كلُّ مُتضايِقٍ من أُمورها واسِعًا رَحْبا ، ومنَحَ أميرَ المؤمنين عند القُدُوم عليه حُنُوّا وعَطْفا ، وأظهر له من الوَلَاء رَغْبةً فى ثواب الله مالايَخْفَىٰ ، وأبدىٰ من الآهتمام بالبَيْعة أمْرًا لو رامَهُ غيره لآمتنَعَ عليه ، ولو تمسَّك بحبله متمسِّكٌ لآنقَطَع به قبلَ الوُصُول إليه ؛ لٰكِن ٱلله ادّخر هذه الحسنةَ لِيُثَقِّلَ بها فى الميزان ثوابُه ، ويُخَفِّفَ بها يومَ القيامة حسابُه والسعيدُ من خُفِّف حسابُه ؛ فهذه مَنْقَبة أبىٰ اللهُ إلا أن يَخلّدها فى صَحيفة صُنْعه ، وتكرِمَةٌ قضتْ لهذا البيتِ الشريف بجَمْعه بعد أن حصَل الإيَاسُ من جَمْعه ؛ وأمير المؤمنين يشكُر لك هذه الصَّنائع ، ويعرِف أنه لولا آهتمامُك لآتَّسع الخَرْقُ علىٰ الراقع ؛ وقد قلَّدك الديارَ المصريَّة والبلاد الشامية ، والدِّيار البَكْرِيَّة والحجازية واليَمَنِيَّة والفُراتيَّه ، وما يتجدّد من الفُتُوحات غَوْرا ونَجْدا ، وفوّض أمر جُنْدها ورَعاياها إليك حين أصبحْتَ فى المَكارم فَرْدا ، ولم يجعَلْ منها بلَدا من البلاد ولا حِصْنا من الحصون مُسْتثنىٰ ، ولا جهةً من الجهات تُعَدُّ فى الأعلىٰ ولا الأدنىٰ .

فلاحِظْ أمورَ الأمّة فقد أصبحْتَ لها حاملا ، وخلِّص نَفْسك من التَّبِعات اليومَ ففى غدٍ تكونُ مَسْئُولا لا سائِلا ؛ ودَعْ الآغترارَ بالدنيا فما نال احدٌ منها طائلا ، وما رآها أحدٌ بعين الحقِّ إلا رآها خَيالًا زائلا ؛ فالسعيدُ مَنْ قطَع آماله الموصُوله ، وقدّم لنفسه زادَ التقوىٰ فتقْدِمةُ غير التقوىٰ مردودةٌ لا مقْبُوله ؛ وآبسُطْ يَدَك بالإحسان والعدْل فقد أمر اللهُ بالعدْل والإحسان فى مواضِعَ من القرءان ؛ وكَفَّر به عن المَرْء ذُنوبا وآثامًا ، وجعل يومًا واحدًا فيه كعِبادة العابِدِ ستّين عامًا ؛ وما سلَك أحدٌ سبيلَ العدْل والإحسان ، إلا وآجتُنِيَتْ ثمارُه من أفنان ؛ وتراجَعَ الأمرُ فيه بعد تداعِى أركانه وهو مشَيَّدُ الأركان ، وتَحَصَّن به من حوادِث الزمان ؛ وكانت

أيَّامه فى الأيَّام أبهىٰ من الأعيـاد ، وأحسَن فى العيون من الغُرَر فى أوجُه الجياد ، وأَحْلىٰ من العقُود إذا حُلِّى بها عَطَل الأجْياد .

وهـذه الأقاليم المنوطةُ بك تحتاج إلىٰ نُوّابٍ وحُكّام، وأصحابِ رأْى من أصحابِ السيوف والأقْلام ؛ فإذا آستعنْتَ بأحد منهم فى أمورك فنَقِّب عليه تنقِيبا ، وآجعَلْ عليه فى تصرُّفاته رقِيبا؛ وسَلْ عن أحواله ففى القيامةِ تكُون عنه مسئُولا و بما أجْرَم مطْلُوبا ، ولا تُولِّ منهـم إلّا من تكونُ مَساعِيه حسـناتٍ لك لا ذُنُو با ؛ وأْمُرْهم بالأَنَاة فى الأمور والرِّفْق ، ومخالفةِ الهوىٰ إذا ظهرَتْ أدلَّةُ الحقّ؛ وأن يقابِلُوا الضعفاء فى حوائجهم بالثَّغْر الباسِم والوجْه الطَّلْق ، وأن لا يُعامِلوا أحدًا علىٰ الإحسان والإساءةِ إلّا بمـا يستَحِقّ؛ وأن يكونُوا لمن تحتَ أيديهم من الرعية إخْوانا ، وأن يُوسِعُوهم بِرًّا و إحسانا؛ وأن لا يستَحِلُّوا حُرُماتِهم إذا آستحلَّ الزمانُ لهم حِرْمانا ، فالمسلمُ أخُو المسلم ولو كان عليه أميرًا وسلطانا ؛ والسعيدُ من نَسَج ولَايتَـه فى الخير علىٰ مِنْواله ، وآستَنَّ بسُنَّته فى تصرُّفاته وأحواله ، وتحمَّلَ عنه ماتعجِز قدرتُه عن حَمْل أثقالِه .

وممـا يُؤمَرُون به أن يُمْحىٰ ماأُحْدِث من سَيِّءِ السُّنَن ، وجُدِّد من المظالم التى هى من أعظم المِحَن ، وأن يُشْترَىٰ بإبطالها المحامِدُ رخيصةً بأغْلىٰ ثَمَن ؛ ومهما جُبِي منها من الأموال فإنمـا هى باقيةٌ فى الذِّمَم حاصله ، وأجيادُ الخزائِنِ إن أضْحتْ بها حالِيةً فإنمـا هى علىٰ الحقيقةِ منها عاطِلَهْ ؛ وهل أشْقىٰ ممن آحتَقَب إثمـا ، وآكتَسَب بالمَسَاعى الذميمة ذَمّا ، وجعـل السَّوادَ الأعظم [له] يومَ القيامة خَصْما، وتحمَّلَ ظُلْمَ الناس فيما صدَرَ عنه من أعمـاله ﴿ وقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْما ﴾ .

وحقيق بالمقـام الشريف المَوْلَوِىّ، السـلطانِىّ، المَلَكِىّ، الظاهرِىّ، الرُّكْنِىّ أن تكون ظُلاماتُ الأنامِ مردُودةً بعَدْله ، وطاعتُه تُخَفِّف ثِقْلا لاطاقةَ لهم بحَمْـله ؛

فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيامُ مالم تصنعه لمن تقدّم من الملوك وإنْ جاء آخرا ؛ فاحمد الله على أنْ وصل إلى جنابك إمامُ هُدًى يُوجِب لك مَزِيّة التقديم ، ويُنَبِّه الخلائقَ على ما خصَّك الله به من الفضل العظيم ؛ وهذه أمور يجب أن تُلاحَظ وتُرْعى ، ويُوالى عليها حمدُ الله فإن الحمد يجِبُ عليها عقلا وشَرْعا ، وقد تبين لك أنَّك صِرْتَ فى الأمور أصْلا وصار غيرُك فَرْعا .

وممـا يجب أيضا تقديمُ ذكره أمرُ الجهاد الذى أضحى على الأُمّة فَرْضا ، وهو العمل الذى يَرْجِعُ به مُسْودُّ الصحائف مُبْيَضّا ؛ وقد وعدَ اللهُ المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعدّ لهم عِنْده المَقَام الكريم ، وخصَّهم بالجنة التى لالَغْوَ فيها ولا تأْثِيم ؛ وقد تقدّمتْ لك فى الجهاد يَدٌ بيضاءُ أسْرعتْ فى سَوَاد الحُسَّاد ، وعرفَتْ منك عَزْمةً وهى أمضى ممـا تُجِنُّه ضمائرُ الأغماد ، وآشتهرتْ لك مواقِفُ فى القتـال وهى أشهَرُ وأشْهى إلى القلوب من الأعياد ؛ وبك صانَ اللهُ حِمىَ الإسلام أن يُبْتَذَل ، وبعزمك حَفِظ على المسلمين نِظَام هـذه الدُّوَل ؛ وسيفُك أثَّر فى قلوب الكافرين قُرُوحا لاتنـدَمِل ، وبك يُرجى أن يرجع مقرُّ الخلافة إلى ما كان عليـه فى الأيَّام الأُوَل ؛ فأيقِظْ لنُصْرة الإسـلام جَفْنا ما كان غافِيًا ولا هاجِعا ، وكُنْ فى مُجاهـدة أعداءِ الله إماما متبُوعًا لا تابِعـا ، وأيِّدْ كلمةَ التوحيد فمـا تجِـدُ فى تأييدها إلا مُطِيعا سامعا ؛ ولا تُخْلِ الثُّغُورَ من آهتمامٍ بأمرها تَبْسِم له الثُّغُور ، وآحتفالٍ يبدِّل مادجَا من ظُلُماتها بالنُّور ؛ فهذه حصونٌ بهـا يحصُل الآنتفاع ، وعلى العَدُوّ داعيـةُ آفتراقٍ لا آجتماع ، وأَوْلاها بالآهتمام ما كان البحرُ له مُجاورا ، والعدوُّ إليـه ملْتفِتا ناظِرا ؛ لاسيَّما ثغورُ الديارِ المصرية فإنَّ العدوّ وَصَل إليها رابِحًا وراح خاسرا ، وآستأْصَلهم اللهُ فيهـا حتّى ما أقالَ منهـم عاثِرا ؛ وكذلك الأسطولُ الذى تُرى خيلُه كالأَهِلَّه ، وركائبُه سابقةً بغير سائقٍ مستَقِلَّه ؛ وهو أخُو الجيش السُّلَيمانى فإنَّ ذاك غدَت الريحُ له حامِله ،

وهـــذا تكفَّلتْ بحَمْــله الرِّياح السابله ، وإذا لَحَظَها الطَّرْف جارِيةً فى البحر كانت كالأَعْلام، وإذا شَبَّهها قال: هذه ليالٍ تُقْلَــعُ بالأيام؛ وقد سنَّى الله لك من السعادة كلَّ مَطْلَب، وآتاكَ من أصالة الرأى الذى يُريك المُغَيَّب؛ وبسطَ بعد القبض منك الأمَل، ونَشِط بالسعادة ما كان من كَسَل؛ وهدَاكَ إلىٰ مَنَاهج الحقِّ ومازِلْت مهتدياً إليها، وألزمك المَرَاشِدَ فلا تَحْتاجُ إلىٰ تنبيه عليها؛ والله تعالىٰ يُمِدُّك بأسباب نصره، ويُوزِعُكَ شُكر نِعَمه فإنَّ النعمةَ تَسْتَتِمُّ بشكره؛ إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة عهد كتب بها القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر ، للسلطان الملك المنصور قلاوون، عن الخليفة الإمام أبى العبَّاس أحمد الحاكم بأمر الله المتقدّم ذكره علىٰ هذه الطريقة، وهى :

الحمْــدُ لله الذى جعــل آيةَ الســيف ناسخةً لكثيرٍ من الآيات، وفاسخةً لعُــقُود أُولِى الشَّــكِّ والشُّــبُهات ؛ الذى رفع بعض الخَلْق علىٰ بعضٍ دَرَجات ، وأهَّــلَ لأُمور البــلاد والعباد مَنْ جاءت خَوارِقُ تَملُّكه بالذى إنْ لم يكُن من المُعْجِزات فمن الكَرامات .

ثم الحمدُ لله الذى جعــل الخلافَةَ العبَّاســية بعد القُطُوب حسَــنَةَ الاِبْتِســام ، وبعد الشُّحوب جميــلةَ الاِتِّسام ، وبعــد التشريدِ كلُّ دار إســلام لهــا أعظمُ من دار السَّــــلام .

والحمــدُ لله علىٰ أن أشْهدَها مَصارِعَ أعدائها ، وأحمَدَ لهــا عَوَاقِبَ إعادةِ نصرها وإبْدائِها ، وردّ تشــتِيتَها بعد أن ظَنَّ كــلُّ أحد أنَّ شِــعارَها الأسودَ ما بَقِى منه إلا ماصانَتْه العيونُ فى جُفُونها والقُلوبُ فى سُوَيْدائِها. ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحْدَه

لاشريكَ له شهادةً يتلذَّذ بذكرها اللّسان، ونتعطَّر بنفحاتها الأفواهُ والأرْدان، وتتلقَّاها ملائكةُ القَبُول فترفعُها إلىٰ أعلىٰ مكان . ونصلّي علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أ كرمَنا الله به وشَرَّف لنا الأَنْساب ، وأعزَّنا به حتّٰى نزل فينا مُحْكَمُ الكتاب ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله الذين آنجابَ الدِّينُ منهم عن أَنْجاب ، ورضِىَ الله عن صَحَابته الذين هم خيرُ صِحَاب ؛ صلاةً ورضوانا يُوفّٰى قائِلُها أجْرَه يومَ الحساب من الكَثْرة بغير حساب (؟) يومَ الحساب .

وبعدَ حمدِ الله علىٰ أن أحمَدَ عواقِبَ الأمور، وأظهر للإسلام سُلطاناً آشتدّتْ به للأمة الظُّهور وشُفِيت الصُّدور ؛ وأقام الخلافةَ العبَّاسية فى هذا الزمن بالمنصُور كما أقامها فيما مضىٰ بالمنصُور، وآختار لإعلانِ دَعْوتها مَنْ يُحْيِى معالِمَها بعد العَفَاء ورُسومَها بعد الدُّثُور ؛ وجمع لها الآنَ ماكان جَمَع عليها فيما قبلُ من خِلاف كلِّ ناجم، ومَنَحها ما كانتْ تبشرها به صُحُفُ المَلَاحم[1] ؛ وأنفَذَ كلمتها فى ممالك الدَّوْلة العلوية بخير سيفٍ مَشْحوذٍ ماضى العزائم، ومازَجَ بين طاعتِها فى القلُوب وذكرِها فى الألسنة وكيف لا والمنصورُ هو الحاكِم ؟ ؛ وأخرج لحِياطةِ الأُمَّة المحمَّديَّة مَلِكا تُقَسَّم البركاتُ عن يمينه ، وتُقْسِم السعادةُ بنور جبينه ؛ وتُقْهَر الأعداءُ بفَتَكاته ، وتُبْهَر عقائلُ المَعَاقل بأصْغَر راياته ؛ ذو السعد الذى مازال نُوره يَشِفُّ حتّٰى ظهر، ومُعْجِزُه يَرِفُّ إلىٰ أن بَهَر ؛ وجوهَرُه ينتقل من جَيِّد إلىٰ جَيِّد حتّٰى علَا الجبين، وسِرُّه يكْمُنُ فى قلبٍ بعد قلبٍ حتّٰى عُلِم ـ والحمدُ لله ـ نَبَأُ تمكينه فى الأرض بعْدَ حين ؛ فاختاره اللهُ علىٰ عِلْم ، وآصْطفاه من بين عباده بما جَبَلَه اللهُ عليه من كَرَم وشجاعةٍ وحِلْم ؛ وأتىٰ بِهِ الأمةَ المحمديَّةَ فى وقتِ الآحتياج عَوْنا وفى إبَّان الآستمْطار

(١) فى الأصول « من الملاحم » .

غَيْثا ، وفى حين عَيْث الأشبالِ فى غير الاْفتِراس لَيْثـا ؛ فوجَب علىٰ مَنْ له فى أعْناق الأُمَّة المحمديَّة مُبايعةُ رِضوان ، وعند أَيْمانهم مصافَحَةُ أيمان ؛ ومَنْ وجبَتْ له البيعةُ باستحقاقه لِميراثِ مَنْصب النبوّه ، ومَنْ تِصحُّ به كلُّ وِلايةٍ شرعيَّة يُؤْخَذ كتابُها منـه بقوّه ؛ ومَنْ هو خليفةُ الزمانِ والعَصْر ، ومن بدَعَواته تنْزِل بالنصر عليكم معاشِرَ الإسلام ملائكةُ النصر ، ومن نَسَـبُه بنَسَب نبيكم ـ صلّى الله عليه وسلم ـ مُتَّشِج ، وحَسَبُه بحَسَبِه ممتَزِج ، أن يفوِّض مافوّضَه اللهُ إليه من أمْر الخلْق ، إلىٰ مَنْ يقُوم عنـه بفرض الجِهاد والعمَل بالحَقّ ؛ وأن يُولِّيـه ولايةً شرعيَّة تِصحُّ بهـا الأحكام وتنْضبِط أمورُ الإسلام ، وتأتِى هــذه العُصبةُ الإسلاميَّةُ يومَ تأتِى كلُّ أمة بإمامهم من طاعةِ خليفتِهم هــذا بخير إمام ؛ وخرج أمْرُ مولانا أميرِ المؤْمنين ـ شرَّفه الله ـ أن يكون للمقرّ العـالى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانِىّ ، المَلَكىّ ، المنصورىّ ، أجلَّه الله ونَصَره ، وأظْفَره وأقْدره ، وأبَّده وأيَّده ، كلُّ مافوّضه اللهُ لمولانا أمير المؤمنين من حُكْم فى الوجود ، وفى التَّهائم والنُّجود ؛ وفى المَدَائن والخزَائن ، وفى الظَّواهر والبوَاطن ؛ وفيما فَتَحه اللهُ وفيما سيفْتَحُه ، وفيما كان فَسَـد بالكفر والرَّجاءُ من الله أنه سيُصْلِحه ؛ وفى كل جُود ومَنّ ، وفى كلِّ عطاء ومَنّ(١) ؛ وفى كل هِبَة وتمليك ، وفى كل تفَرُّد بالنَّظَر فى أمور المسلمين بغير شَريك ؛ وفى كلِّ تعَاهُد ونَبْذ ، وفى كلِّ عطاءٍ وأَخْذ ؛ وفى كل عَزْل وتَوْليـه ، وفى كل تسليم وتَخْليـه ؛ وفى كل إرْفاق وإنْفاق ، وفى كل إنْعـام وإطْلاق ؛ وفى كلِّ تجْـديد وتعويض ، وفى كل حَمْـد وتَقْريض ؛ ولايةً عامةً تامَّة محكمة محكَّمه ، منضدة منظَّمه ؛ لايتعقَّبها نَسْخٌ من خلْفِها ولا من بين يديهـا ، ولا يعْتَرِيها فسْخٌ يطْرأُ عليها ؛ يَزِيدها مَرُّ الأيام جِدّةً يُعاقِبها حُسْن شَبَاب ، ولا ينْتَهِى علىٰ الأعوامِ والأحْقاب ، نعَمْ ينتهى إلىٰ مانصبه اللهُ للإرشاد من سُـنَّة وكِتاب ؛

(١) لعل مراده وقطع من منّ الحبل قطعه .

وذلك من شَرْعٍ لله أقامه للهداية علَما ، وجعله إلى احتياز الثواب سُلّما . فالواجب أن يعمل بجزئيات أمره وكُلّيّاته ، وأن لا يَخْرُج أحدٌ عن مقدّماته ، والعدل فهو الغرس المُثمر ، والسّحابُ المُمْطِر ، والروضُ المُزْهِر ؛ وبه تتنزّل البركات ، وتخلف الهبَات ، وتُرْبِي الصَّدَقات ؛ وبه عِمارةُ الأرض ، وبه تُؤدّى السنةُ والفرض ؛ فمن زرَع العدلَ اجتنى الخير ، ومن أحسَن كُفِيَ الضّرر والضَّير ، والظُّلم فعاقِبتُه وَخيمه ، وما يطولُ عُمُر المُلْك إلا بالمَعْدَلة الرحيمه ، والرعية فهُم الوديعة عند أُولى الأمر ، فلا يخصّص بحُسْن النظر منهم زيدٌ ولا عَمْرو ، والأموال فهى ذخائر العاقبةِ والمآل ؛ والواجبُ أن تُؤْخَذ بحقّها ، وتُنْفَق فى مستَحِقّها ، والجهاد بَرًّا وبحرًا فمن كِنانةِ الله تُفوّق سِهامُه ، وتؤرّخ أيامُه ، ويُنْتضى حُسامُه ، وتَجْرى مُنْشآتُه فى البحر كالأعلامِ وتُنْشَر أعلامُه ؛ وفى عُقْر دار الحرب يُحَطُّ رِكابُه ، ويُخَطُّ كتَابُه ، وتُرسَل أرسانُه ، وتَجوسُ خِلالَها فُرْسانُه ؛ فليَلْزَمْ منه دَيْدنا ، ويستصْحِبْ منه فِعْلا حَسَنا ؛ وجُيُوش الإسلام وكُماتُه ، وأمراؤه وحُماتُه ؛ فهم مَنْ قد علمتَ قِدَمَ هِجْره ، وعِظَم نُصْره ، وشِدّةَ باس ، وقُوّةَ مِراس ؛ وما منهم إلا مَنْ شهِد الفُتوحاتِ والحُرُوب ، وأحسنَ فى المُحاماة عن الدِّين الدُّءُوب ؛ وهم بَقايَا الدُّوَل ، وتَحايَا الملوك الأُوَل ؛ لاسيَّما أُولِى السَّعْى الناجح ، ومن لهم نسبةٌ صالحيَّة إذا فَخَروا بها قيل لهم : نِعْمَ السلفُ الصالِح ؛ فأوْسِعْهم بِرًّا ، وكُنْ بهم بَرًّا ، وهم بما يجِبُ من خِدْمتك أعلَمُ وأنت بما يجب من حُرْمتهم أَدْرَى ؛ والثغور والحصون فهم ذخائرُ الشِّدّه ، وخزائنُ العَديد والعُدّه ، ومقاعِدُ للقتال ، وكنائنُ الرَّجاء والرِّجال ؛ فأحسِنْ لها التحصين ، وفوّضْ أمْرَها إلى كلّ قوىٍّ أمِين ، وإلى كلّ [ذى] دينٍ متِين ، وعقْل رَصين ؛ ونوّاب المَمالك ونوّاب الأمصار ، فأحْسِنْ لهم الاِخْتيار ، وأجمِلْ لهم الاِختِبار ، وتفقّدْ لهم الأَخْبار .

وأمّا ماسوىٰ ذٰلك فهو داخلٌ فى حدُود هذه الوَصاياَ النافِعه، ولولا أنّ الله أمرنا بالتذكير، لكانت سَجَـايا المقرّ الأشرف السلطانىّ، المَلَكىّ، المنصورىّ، مكتفِيـةً بأنوار ألمعيتِـه الساطعه؛ وزمامُ كلّ صَلَاح يجب أن يشغل به جميعَ أوقاته، هو تَقْوىٰ الله قال الله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقَاتِه ﴾ .

فلْيكُنْ ذٰلك نُصْبَ العين، وشَغْلَ القلب والشَّفَتيْن؛ وأعداء الدين من أرمن وفَرَنْج وتتَـار، فأذِقْهـم وبالَ أمْرِهم فى كلّ إيراد للغَزْو وإصْـدار؛ وثُرْلأن تأخُذ للخلفاء العباسيِّين ولجميع المسلمين منهم الثَّار، وآعلَمْ أنّ الله نَصِيرُك علىٰ ظُلْمهم وما للظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصار .

وأما غيرهم من مُجاوِريهم من المسلمين فأحْسِنْ باستنقاذك منهم العِلَاج، وطُبَّهم باستِصْلاحك فبالطِّبِّ المَلَكىّ والمنصُورىّ ينْصَلِح المِزَاج؛ واللهُ الموفِّق بمنّه وكرمه .

⁂

وعلىٰ هذه الطريقة مشىٰ المَقرّ الأشرفُ الناصرىّ محمدُ بن البارِزىّ الحمَوىّ صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية وسائرالممالك الإسلامية : جمّل الله تعالىٰ الوجودَ بوجُوده، وأنافَ بقَدْره علىٰ كِيوَانَ(١) فى آرتقائِه وصُعُوده، وجعله لسـلطانه المؤيَّد رِدْءًا مابدَا سعدُ المُلْك صاعدًا إلا كان له سعْدَ سُعوده .

فكتب علىٰ ذٰلك عهدَ السـلطان الملك المؤيَّد أبى النصر « شِـيخ » خلَّد الله سلطانه، عن الإمام المستعين باللهِ أبى الفضل العبَّاس أمير المؤمنين خليفة العصْر

(١) آسم لكوكب زحل وهو ممنوع من الصرف للعلميــة والعجمة لأنه ليس فى كلام العرب آسم عينه ياء ولامه واو . انظر اللسان فى مادة خ ون ج ١٦ .

أيّد الله تعالىٰ به الدِّين ــ فى شَعبانَ المكَرَّمِ سنة خمسَ عشرةَ وثمانمائة، بعد خَلْع النـاصر فَرَج؛ فأتىٰ فيـه بمـا أَنْجل الرَّوْض المنَمْنَم والنجْمَ الزاهر ، وأوجب علىٰ العارف بنَقْد الأمرين أن يقول : كَمْ تَرَكَ الأوّلُ للآخر، عدَّد فيه وقائعَه المشهوره، وذكَرَ مناقبَـه التى صارتْ علىٰ صَفَحات الأيام مرقومةً وعلىٰ مَرِّ الليالى مذْكوره ، وفى بُطُون التواريخ علىٰ توالى الجديدَيْنِ وتعاقُبِ الدُّهور مسطُوره؛ (فكتب علىٰ ذلك عهدَ السلطان الملِك المؤيَّد أبى النصر شَيْخ خلد الله سلطانه)(١)، ونصُّه :

الحمدُ لله الذى جعل الدِّين بنصْره مؤيَّدا ، وآنْتَضاه لمصالح المُلْك والدِّين فأصْبح ومن مُرْهَفَات عزمه باديةً بائدةُ العِدا ؛ وفتح علىٰ فَقْر الزمان بشَيْخ مُلْك زُوِيَتْ له عوارفُ العـدل ومعارفُ الفضل فاستَغْنىٰ ــ ولله الحمــدُ ــ بسعيد السُّعَدا ، وأصلح فسادَ الأحوال بأحكام رأْيه وإحكام حُكْمه فأصبحتْ مأمونةَ الرَّداء آمنةً من الرَّدىٰ؛ وآمتَنَّ علىٰ أولياء الدولةِ الشريفة بمن لم يَزَلْ سهمُ تدبيره الشريف فيهم مُسَدَّدا، ومياهُ الظفَر جاريةً من قَنـاة غَوْره الذى بذٰلك تعَوّدا ، وبحرُ إحسانه الكاملُ وإن قَدُم العهدُ المَديدُ مُجَدَّدا .

والحمدُ لله الذى جعل وُجُوه هذه الأيامِ بالأمْنِ مُسْفِره ، وليـالىَ جُودها بالعَدْل مُقْمِره ؛ وعَذَبات أوليائهـا بالأفراح مُزْهِره ، وحدائقَ أخِصَّائهـا بالنجاح مُثْمِره؛ ومنازلَ أعدائها مُقْفِرةً موحشه ، ونوازِلَهم مُذْعِرةً مُدْهِشـه ؛ وأجسادَهم بأمراض قلوبهم مُشَوَّشه، وأكبادَهم بلَوَاعِج زَفَراتهم مُعَطَّشه .

والحمدُ لله الذى جعل هــذه الأيامَ الفاضلةَ الجَلال جليلةَ الفضل، شاملةَ النِّظام ناظمةَ الشَّمْل، هاميةً بالمكْرُمات هائمةً بالعدل، دانيةَ القُطوف، معروفةً بالمعْرُوف، مُغيثةَ الملهوف، مُرْهِبَةً للألوف، متصرِّفةً فى الآفاق صارفةَ الصُّروف، حمدًا يُبْهِج

(١) تقدمت هذه الجملة بنصها قبل ستة أسطر فلعلها تكررت من قلم الناسخ أو سهو من المؤلف فتنبه .

النفُوس، ويزيل البُوس، ويُديم السُّرور، ويُذْهِبُ المحْذُور، و﴿ الحمدُ للهِ الَّذِى أذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إنَّ ربَّنَا لغفُور شَكُور﴾ .

نحمدُه علىٰ هذه النِّعم التى تفيَّأتِ الأُمَمُ بِظِلالها ، وبلغتْ بها النفوسُ غايةَ آمالِها، ورويتْ بعد ظَمإ الخوفِ من حِياض أَمْنِ زُلَالها ، وآستَسَرَّتْ بعد الحَزَن بأفْراح قَبُولها وإقبالها، وآرتفعتْ بعد آنخفاضِها رُءُوس أبطالِها وأقْيالها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلَّا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُديم النَّعْماء، وتُجْزِل العَطَاء، وتَكْشِف الغَمَّاء، وتَقْهَر الأعداء ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسولُه الذى قرن طاعةَ أُولى الأمر بطاعتِه ، وأيَّد منِ آهتدىٰ منهم بهِدَايته ؛ وأعانَهُ لَمَّا آستَعان بعِنَايته ، وأظلَّه تحتَ ظلِّ عَرْشه يوم لاظِلَّ إلا ظِلُّه فى دار كرامتِه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آنحازُوا إلىٰ حَوْزته وآحْتَمَوْا بحمايته ، وأثمرَ لهم غرسُ دِينه فرَعَوْه حقَّ رعايته، وشرَّف وكرم .

وبعدُ ، فلمَّا كانتْ رحمةُ الله تعالىٰ لغَضَبه سابقه ، ورأفتُه بعباده متلاحِقَه ، وكانت الممالكُ الشريفة قد آختلَّت أُمورُها، وصار إلىٰ الدُّثُور معمورُها ، وأشرف علىٰ البَوَار أميرُها ومأمُورُها ؛ فالشرائعُ متغيِّرة شرائعُها ، والعوائدُ مفقودةٌ مآثِرُها ؛ والمظالِمُ قويٌّ سلطانُها ، كثيرٌ أعوانُها؛ ضعيفٌ مُضادِدُها، قليل مُعانِدُها ؛ فلا نائبُ سياسةٍ إلا مشغُول بالنَّوائب ، ولا حاكمُ شرع إلا وقد سُدَّتْ عليه المَذَاهب؛ ولا تاجرٌ إلا وقد خَسِرت تجارتُه فما ربِحَتْ، ولا ذُو قِرَاض إلا ورُءُوس أمواله قد آنْقرضَتْ، ولا صاحبُ تُراث إلا وقد مُحيتْ آيةُ ميراثه ونُسِخَتْ ؛ ولا رُكْنُ مملكةٍ إلَّا وقد آنهدَم أساسُه ، ولا عضُدُ دولة إلا وقد بطَل إحْساسه ـ أقامَ سبحانه وتعالىٰ لإزالةِ هذه النَّوازل الفادِحه ، وإخمادِ نار هذه القبائح القادِحه ؛

مَنْ توفَّرتِ الدَّواعِى علىٰ ٱستحْقاقه السلطنةَ الشريفه ، وأجمعتِ الأُمّةُ علىٰ ٱنحصار ذٰلك فى أوصافه المُنِيفه؛ ودلَّتْ أمائرُ السُّعود علىٰ محلِّه الجليـل ، وجنابِه الذى إذا لاذَ بِه مَنْ خافَ الدهْرَ رجع وطَرْفُ الدَّهْرِ عنه كليل؛ طالمَا أصْفىٰ مواردَ العدل ، وأضْفىٰ أذيالَ الفَضْل؛ وأمَّن الخائِف ، وروّعَ الحائف؛ وأمضىٰ فى الجهاد عَزْمَه ، وأنفـذ فى السَّرايا إليه حُكْمَه ، وسـدّدَ إلىٰ مَعَاونه فى غَرَض الكُفّار سَهْمَه ؛ وفتح الطريقَ إلىٰ بيتالله الحرام بعدَ الآنْسِداد ، وأنعم علىٰ القانِـع والمعترّ بالراحلة والزّاد ؛ وعَمَر المساجد ، وجعلها آهِـلةً بالراكع والساجِد؛ وجَلَا عَرُوسَ الأموىّ فى حُلَل التهليل والتكْبير، وأعاد عُودَ مِنبرِه الذابِل وهو نَضِير . هذا مع شجاعةٍ شاهدَها وشهِدَ بهـا أبطالُ الإسـلام، وسَطْوةٍ تخْشاها الأُسُـودُ فى الآجَام ، ووَقَارٍ يُخْضِع بالهيبة رُءوسَ الأعلام؛ وبِشْرٍ يطْلُع بَجْرُه من طالع جَبْهَته ، ونُورٍ ساطع من جهـة جبهته ؛ وحياءٍ متطَلّع من طَلْعته ، وحِبَاء متدَفّق من أنملته ؛ وكنتَ أيُّها الملكُ الجليل المؤيَّد ـ لا زال شَمْلُ الدين بك مجْموعا ، وعَلَمُ الإسلام مرفُوعا ، وقلبُ أهل الشِّرك والنِّفاق مَرُوعا ـ أنتَ المتَّصفَ بهذه الصِّفاتِ الحميده ، والكاشفَ لتلك الشدائد الشَّديده ؛ فلم يَرُعْك خطَرُ الخَطَّاره ، ولا ٱنحلالُ أهل صَرْخَد حيثُ ٱشتهرتْ عزائمُ صَوَارِمك البَتَّـاره ؛ ولا خَطْرتُك من القَيْسارِيَّة إلىٰ الرَّيْدانِيَّـة فى أسرَعَ من غَفْوه ، والشَّيخُ لا تُنْكَرله الخَطْوه ؛ ولا مشاهدةُ الحِمام فى الحَمَّـام ، ولا زاغ بَصَرُك بالَّجُونِ حين أظلمَ القَتَام ؛ حتّى زال المـانِـع ، وهَجَع الهاجع ؛ وأُمِنَت الخُطُوب ، وفُرِّجت الكُرُوب ؛ وخَلَا دَسْتُ السلطنة ممن نكَثَ الأَيْمـان ، وأصرَّ علىٰ الإثم والعُدْوان ، وأقررت ٱسمَ الخلافة علىٰ الآنْفِراد ، ليستخيرَالله فى الأصلَح للعباد والبلاد .

هذا ورأْىُ أهلِ الحَلِّ والعقد من مُلوك الإسلام وأُمَرائه ، وقُضاته وعلمـائه ، ومشايخه وصُلَحائه ؛ وخاصَّته وعامَّتِه ، ورأْىُ مولانا أمير المؤمنين ، أعزَّ الله تعالىٰ به

الدِّين ، وجمع بِيُمْنِ بركته شمْلَ الإسلام والمسلمين؛ مُجْمِعٌ علىٰ تفويضِ أمرِ المسلمين وولايةِ عَهْدهم وكفالةِ السلطنة الشريفةِ والإمامة العُظْمىٰ إليك ـ خلَّد الله سلطانَك ، وجعل الدهر خَدِيَك والملائكةَ أعْوانَك؛ فقــدّم أميرُ المؤمنين من الآستخارة أمامَ هــذا التقليد مايُعْتبر فى السُّــنَّة الشريفة ويُقَدَّم ، وعلم أنَّ المصلحةَ فيما خاره اللهُ له وللأمّة مِن وِلَايتك أيُّهــا الملكُ المبجّل والســلطان الأعظَم؛ وأنك أبْرأ للذِّمّه ، وأبَرُّ بالأمّه؛ وشاهَدَ بإجمــاع الأُمّة علىٰ سلْطنتك من التآلُف والآتِّفاق ، ماننفى الخلافَ والشِّقاق ؛ وما سَرَّ الجمهور الطائعين من غير دِفاع ، والجَمَّ الغَفيرَ لبديع آرائك ورفِيع راياتِك مُذْعِنين لحســن الآتِّباع ؛ وأهــلَ الحلِّ والعقد لأمرك ونهيك قد خضَعتْ منهــم الرِّقاب ، وسارعُوا إلىٰ إجابةِ دعوتِك حيــن آتضحتْ لهم أدلَّةُ الصواب . والزمانَ بإفْضاء الأمر إليــكَ قد طابَ وآعتــدَل ، والأرضَ فى مَشارِقها ومغَاربهــا بمَهابتِك قد أمِنَتْ من الوجَلْ ، والنفوسَ الأَبِيَّةَ قد أذعنَتْ لمبايعتك من غير مَهَل ؛ والفتنــةَ وقد ردّ اللهُ بالغيظ مُثيرَها ، والأُلفــةَ وقد برَقت من سرائر أهل التوحيــد أساريرُها ؛ والعساكرَ المنصورةَ قد أحاطتْ به كما أحاطتْ بالبُدُور الهاله ، وقد أنزل اللهُ عليــك نامُوسَ المَهَابة والجــلَاله ؛ وفوّضَ إليكَ ما ولّاه اللهُ من أمورِ الإسلام والمســلمين ، وأسنَدَ إليك مافى يده من مَصَالح عبــاده المؤمنين : لتُقِيم علىٰ أساسِ أحكامِكَ دعائمَ الدِّيــن القويم ، وتُسَــيِّرَ الخلائقَ علىٰ مِنْهاجِ طريقِك المســتقيم ؛ وتُحْسِــنَ ـ إن شاء اللهُ ـ برِعَايتك عاقبةُ الرعيَّه ، كما أصبحتْ قلوبُهم بك راضِــيَةً مرضِــيَّه .

وعَهِدَ إليك أميرُ المؤمنين فى كلِّ ماوراءَ سريرِ خِلافتِه ، وفى كلِّ ما يَرتَبِط بأحكام إمامته ؛ وقلّدك ذلك شَرْقا وغَرْبا ، وبُعْــدا وقُرْبا ؛ وبَرًّا وبحْرا ، وسَهْلا ووَعْرا ؛ وفى كلِّ ماله من المُلْك والممــالك ، وما يفتحُه [الله] علىٰ يدِك بعــد ذلك ؛ تفويضًا

شاملًا، وتقليدًا كاملا؛ وعهدًا تامًا، وإسنادًا عامًا؛ ولاية مكمَّلة البُنْيان، مؤسَّسة على تقوى من الله ورضوان؛ وسلطنةً آخذةً بالذِّمم، مشتملةً على جميع الأمم؛ يدخُل فى هذا العهد العامِّ والتفويض التامّ، والرأى الذى شهد له إجماعُ الأئمة بالإحكام؛ [يدخل فى ذلك](١) مفضُولُ الناس وفاضِلُهم، وعالِمُهم وجاهِلُهم؛ وخاصُّهم وعامُّهم، وناقِصُهم وتامُّهم؛ وشريفُهم ومشروفُهم، وقويُّهم وضعيفُهم؛ وآمِرُهم ومأمورُهم، وقاهِرُهم ومَقْهورُهم؛ والجُمعُ والجماعات، وبيوتُ العبادةِ والطاعات؛ والقُضاةُ وأحكامُها، والخطباءُ ومنابِرُها وأعلامُها؛ والجيوشُ والعساكرُ والكتائب، وربُّ سيفٍ وكاتبُ إنشاء وقلمُ حاسِب؛ وطوائفُ الرَّعايا على اختلاف أطْوارهم، وتفاوُتِ أرزاقهم وأقدارِهم؛ والعُرْبانُ والعَشائر، وبيوتُ الأموال والذَّخائر؛ ودانِى الأُمَم وقاصِيها، وطائعُها وعاصِيها؛ والخَراجُ وجباياتُه، والمصروفُ وجِهاتُه؛ والصدَقاتُ ومستَحقُّوها، والرِّزَق ومرتَزِقُوها؛ والإقطاعاتُ والأجناد، وما يُستَعَدّ [به] لمَواطن الجهاد؛ والمنعُ والعَطاء، والقبضُ والإمْضاء؛ والخُمس والزَّكوات، والهُدَنُ والمعاهَدات، والبيع والقُمامات؛ ومايظهَر من أمور الملك وما يَخْفىٰ، وما تستَدْعيه براعتُك فى السرِّ والخَفا؛ وشعارُ السلطنة وأُهْبتُها، ونواميسُ المُلْك وحُرْمتُها.

فأجبت ـ رعاك الله ـ دعوةَ أمير المؤمنين ودعْوتَهم لقَبُول ذلك مَسْئُولا، معتمِدًا على أن الله سيُنْزِل إليك من يُسَدِّدك من الملائك فِعلا وقَوْلا؛ فاجْلِس ـ أيدك الله ـ على تَخْت مُلْكٍ قد هيَّأه الله لمَواقفك المطَهَّره، وسريرِ سلطنةٍ عُلِّقتْ سرِيرَ سعْدك الأمجدِ فتقاعسَتِ الهِمَمُ عنه مُقَصِّره.

فالحمدُ لله ثم الحمدُ لله عن الدَّهر وأبْنائه، ولا مثلَ هذه النعمة بهذا الخَبَر وأنْبائه؛ ﴿ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عليْنَا وعلى النَّاس﴾ وهذا ما كان من قَضِيَّة الدين على رَغْم

(١) مابين القوسين فى الأصل وهو من زيادة الناسخ كما لا يخفى .

الوَسْوَاس الخَنَّاس ، وهـذا ما كانت الآمالُ تنتظر وُرُودَه ، وجوارى القِدَم ترتقب سُـعُوده :

واللهِ مازادُوكَ مُلْكا إنَّمـا * زادُوا أكُفَّ الطالِبين نَوالَا !

وأمَّا الوصايا ، فأنتَ بحمد الله طالَمَـا ملأْتَ بها الأسْمـاع ، وكَشَفَتْ عاطفتُك لمن أردتَ ترتيبَه عنها القِنَاع ؛ ولكن عُهِد من تعبُّـداتك السماعُ لشَـدْوها ، والطَّرَبُ لحَدْوها ، فعليكَ بتقوىٰ الله ، فبها تُورِقُ أغصانُ الأرب الذَّوابل ، ويُغرِّدُ طائرُ عزِّك الميمُونُ بالأسْحـار والأصائِل ؛ فاجعَلْها ربيعَ صَـدْرك ، وأَيْنِـعْ بها حدائقَ فِكْرِك ؛ ورَوِّحْ(١) بعَرْفِها الأرِيج أرجاءَ مُلْكك ، وأجْرِ الشرعَ الشريفَ علىٰ ماعَوّدتَه من نصرك ، والعلماءَ علىٰ ماألِفُوه من بِرِّك وخَيْرك ؛ فهم ورَثَةُ الأنبياء عليهم السلام ، والدالُّونَ علىٰ الشريعةِ بأسِنَّة أقلامهم ما يكِلُّ عنه حدُّ الحُسَام ؛ وطَهِّرْ مَنْصِبَ الشرع الشريف من الرَّذائل ، وصُنْ أيَّامَ مُلْكك الشريفِ عن الجُهَّال والآكِلين أموالَ النـاس بالباطِل ؛ والعدل ـ ونستغفر الله ـ فإنك مُثمِّرٌ لغراسه ، رافعٌ ماآنهدم من أساسِه ؛ قد جعلْتـه مجلِسَ محاكاتك ، وأنيسَ خَلَواتك ؛ والفضل ـ وبِرُّك أخجلَ الأقلام فلو مرّ بك راجيكَ علىٰ الصَّـفَا لآرتاح للمعروف ، أو شاهد هِباتِك حاتمٌ لرجع طَرْفُه عنها وهو مَطْروف ؛ ولا سَرَفَ فى الخير ، ولا ضَرَر ولا ضَيْر ؛ وأْمُرْ بالمعروف وآنْهَ عن المنكر فأنت المسئُولُ بين يدَىِ الله عن ذلك ، وآنْهَ نفسَك عن الهوىٰ بحيثُ لايَرَاك اللهُ هنالك ؛ وحُدُود الله فلاتتعدّاها ، والرعايا حُطْها بعين رعايتِك وآرْعاها ؛ وجَنِّـد الجنود برًّا وبحرا ، وأذِلّ أعداءك قَهْرا وقَسْرا ؛ وراجع النظَرَ فى أمر نُوّاب السـلطنة الشريفة مراجعةَ الناقد البصـير ، وتيقَّظْ لصيانة قِلاع الممـالك ومَعاقِلها وحُصُونها ، وتخيَّرْ لها مَنْ ليس بمشْكُوك المناصحة ولا مَظْنُونها ؛ وحُطْها مع عِمَـارتها

(١) فى الأصول وريح بالياء المثناة . تأمل .

بالعِدّة والعُدَد، والأقوا ت لِكَىْ تطمئنّ النفوسُ بمَدَدها منها إذا طالت المُدد، وتفقّدْ أحوالَ مَنْ فيهـا من المستخْدَمه ، وآرعَ حقُوقَ من له بها خِدْمةٌ متقدِّمه ؛ وآجعلِ الثُّغورَ باسمةً بحَفَظتِها، ولاحظِ الأمورَ بحسن تدبيرِك المألوف فى سياستِها. وآستَوْصِ خيْرًا بأُمرائك الخالصين من الشُّكُوك ، السالكين فى طاعتِك أحسَنَ السُّلُوك ؛ وضاعِفْ لهم الحُرْمه، وآرْعَ لهم الذِّمَّه؛ لاسيَّما أُولى الفِكر الثاقب، والرأْى الصائب؛ فشـاوِرْهم فى مُهِمَّات الأمور ، وآشرحْ بإحسانك منهم الصُّـدور؛ وآرعَ حقوقَ المهاجرين والأنصار، الذين سلكَتْ معك مَطاياهم البِطاحَ والقِفار، وهَجَروا محبُوبَهم من الوطَن والدار؛ وجالَدُوا وجادلُوا، وآوَوْا فى سبيلك وقاتَلُوا؛ وأنِلْ كلًّا منهم مايرجُوه، وآشرحْ صدُورَهم بإدراك ماأمَّلُوه؛ وجيوش الإسلام فاغْرِس محبتَكَ فى قُلُوبهم بإحْسانك ، وكما سبقْتَهم حِسا فتحبَّبْ إليهم بجزيل آمْتِنانك؛ وجيوش البحر فكُنْ لها مُحِيطا، وبجَلِيَّات مشيها مُحِيطا(١) ؛ فإنهـا تُوجَّه للأصقاع، سُلَيمانِيَّـة الإسراع ؛ تَقْـذِف بالرُّعْب فى قلوب أعداء الدين ، وتَقْلَع بقلُوعها آثارَ المُلْحدين؛ فواصِلْ تجهيزَ السَّرايا لركوب ثَبَجِه، والغوصِ إلىٰ أعداء الله فى عَميق لُجَجِه . وأجْمِـل النظرَ فى بيتِ الله الحرام ، وحرمِ رسولِه عليه أفضل الصلاة والسلام : لتسلُكَ عِينُ الأمن الأباطِح ، وتَقَرّ عيونُ حُمُره بالمـائح والمـاتِحْ ؛ وتتعَرَّفَ بعِرْفانك عـرَفات ، وتُرمىٰ مَخـاوِفُ الخَيْف من أيْدى مَهَابتِـك بالجَمَرات ؛ وصِلْ جيرانَهما بصلاتِك : لتُسْهِرَ أعْيُنَهـم بالدعاء لك وأنتَ فى غَفَواتك . والقُـدس الشريفُ الذى هو أحدُ المساجد التى تُشَـدّ إليها الرحالُ فزِدْ تقديسَـه ، وآجعل رُبُوعَ عباداته بالصَّـلوات مأنُوسه . وإقامةُ موسم الحج كلَّ سـنة فأنت بعد حركة تيمور فاتِحُ سبيله ، وكاسى مَحْمِله حُلَل توقيرِه وتَبْجِيله .

---

(١) لعل محيطا الأولى البحر والثانية من الإحاطة بمعنى العلم .

هـذه الوصايا تَذْكِرة للخاطر الشريف وحاشاك من النِّسْـيان ، وهذا عهد أمير المؤمنين ومبايعةُ أُولِى الحلّ والعقد قد تقاضَيا إلىٰ حقِّك علىٰ الزمان ، وعندك كتابُ الله وسـنةُ رسوله صـلّى الله عليه وسلم ماضَلَّ من تمسّك بهما ولاَمَانْ، فاتَّبِعْ أحكامَ الله يُوسِّع اللهُ لك فى مُلْكك ، واجعلْ هَدْيك بهما إمامَ نَهْيك وأمْرِك ؛ وأدِّ ماقلَّدك اللهُ من حقوق الإمامة والأمانة إلىٰ خَلْقه أداءً موفورا : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأَمانَاتِ إلىٰ أهْلِها وإذا حَكَمْتُم بيْنَ الناسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَـدْلِ إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ به إنَّ الله كانَ سَمِيعًا بَصِيرا ﴾ .

قلت : ولمـا كان هذا العهد قد ادّرَعَ جِلْباب العجائبِ فأعْجَب ، وارتَدىٰ برداء الغرائب فأَغْرَب ؛ وسُقِىَ غرسُـه ماء البـلاغة فأنْجَب ، وشنَّف الأسماعَ إذ أسمَعَ فأرقص علىٰ السماع وأطرب ؛ وامتطىٰ صهوةَ جِياد البَيان فتنقّل فيها من كُميت إلىٰ أشْقَرَ ومن أحوىٰ إلىٰ أشْهَب ـ أحببتُ أن آتِىَ له بطُرَّة هى له فى الحقيقة ذَيْل ، ونُغْبَةٌ من بحر وقَطرةٌ من سـيْل ؛ لاجَرَم جعلتُها فى الوضـع فى الكتاب له لاحِقه ، وإن جرت العادةُ أن تكون الطُّرّة للعهد سابِقه ؛ وهو :

هـذا عهدٌ شريفٌ ترقُمُه أقلام أشِـعَّة الشمس بذَهَب الأصـيل علىٰ صَفَحات الأيام ،وتُعْجِمه كفُّ الثريَّا بنُقَط النجوم الزواهر وإن كان لاعهدَ للعُهُود بالإعْجام ، وتعترِف ملوكُ الأرض أنَّ صاحبه شـيخُ الملوك والسلاطين فتقدّمُه فى الرأى وتُجِلُّه فى الرتبـة وتعاملُه بالإجْلال والإعْظام ؛ من عبـد الله ووليِّـه ، وخليفتِه فى أرضه وصـفيِّه ، وسليلِ خلفائه الراشـدين وابْنِ عم نبيِّه ؛ الإمام الفلانى (إلىٰ السـلطان الاعظم الملك الفلانى إلىٰ آخر الألقاب) .

* * *

وهذه نسخةُ عهد علىٰ هـذا المذهب ، كُتِب به عن أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس خليفة العصر، للملك العادل شمس الدنيا والدين «مظفَّرشاه» بالسلطنة بالمملكة الهِنْدية، فى شوّال سنة ثلاث عشرة وثمانمائة بِدمشْقَ المحروسة؛ من إنشاء الشيخ الإمام علَّامة العصر، جامع أشـتاتِ الأدَبِ ومالك زِمَامه، تقىّ الدِّين محمد بن حَجَّة، الشاعرِ الحموىّ، ومفتى دار العدل بحماة المحروسة، ممـا كُتِب بخطِّ المولىٰ تاج الدين عبد الرحمن بن التـاج ، أحد كُتَّاب الإنشـاء الشريف بالأبواب الشريفـة ، فى قَطْع البغـدادىّ الكامل بخَفِيف الطُّومار، وكانت الطرّة المكتَتَبة فى الوصل الأوّل خمسـةَ أسطر بالقلم المذكور ، وسطرين بخفيف المحقّق ، والطرّة البيضاء خمسة أوصال ، والبياضُ بين كلِّ سطرين ثلث ذراع، وبيتُ العلامة الشريفة ضِعفُ ذٰلك ، والهامش رُبُع الورق علىٰ العادة . وصورة الطرّة :

عهدٌ شريفٌ عَهِد به عبدُالله ووليُّه سيدُنا ومولانا الإمام الأعظمُ العبَّاس أبوالفضل المستعينُ بالله أميرُالمؤمنين، وآبنُ عمِّ سيد المرسلين؛ أعزَّالله به الدين، وأمْتَع ببقائه الإسلامَ والمسلمين؛ إلىٰ المَقامِ الأشرف، العالى، السلطانِىّ، العادلىّ، الشمْسِىّ، أبى المجاهد «مظفَّر شاه» أعزَّ الله تعالىٰ أنصاره . وقلَّده السلطنة المعظَّمة بحضرة "دِهْلى" وأعمالها ومُضافاتها علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذلك؛ ولايةً عامّةً شاملةً كاملةً جامعه، وازعةً قاطعةً ساطعه؛ شريفةً منيفة : فى سائر الممالك الهنـدية وأقاليمها ، وثُغُورها وبلادِها؛ وعساكرها وأكابِرِها وأصاغِرِها ، ورعاياها ورُعاتِها، وحُكَّامها وقُضاتِها؛ وما آحتوتْ عليه شرقًا وغَرْبا، بُعْدا وقُرْبا علىٰ ماشُرِح فيه .

الصدر بعد البسملة الشريفة :

الحمــدُ لله الذى وَثَّق عهدَ النَّجاح للمستعينِ به ، وثَبَّت أوتادَه : ليفوزَ من تمسَّك من غيرِ فاصلة بسَببِه ؛ وزَيَّن السماء الدنيـا بمصابيحَ وحِفْظا ، وأفرغَ علىٰ أعطافِ الأرضِ حُلَلَ الخلافة الشريفه ، وعلم أنَّ خَلفَها الشريف زَهْرَةُ الحياةِ الدنيـا فقال عز من قائل : ﴿ إنِّى جاعِلٌ فى الْأرضِ خَلِيفة ﴾ . وٱخْتارها من بيتٍ براعةُ ٱستهْلاله فى أوّل بيتٍ وُضِع للناس ، وسبقتْ إرادتُه ـ وله الحمد ـ أن تكونَ هذه النَّهْلةُ من سِقَاية العبَّاس .

فالحمدُ للهِ علىٰ أن جعلَ هــذه السِّقايةَ عَيْنا يَشْرب بها المُقَرَّبون ، ومن عَلِم شَرَفها تميَّز وتمسَّك بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

والحمــدُ لله الذى ٱستخْلف آلَه فى الأرض وفَضَّلهم ، فإنْ تحدّثَ أحدٌ فى شَرَفِ بيتٍ فاللهُ ســبحانه قد جعل البيتَ والحديثَ لهم ؛ فأكْرِم به بَيْتا من أقرّ بعُبُوديَّتــه كان له بحمد الله من النار عِتْقا ، وتمتَّع بنعيم بركتِه التى لا يَتَجنَّبُها إلا الأشْقىٰ ؛ وهو البيتُ الذى بعثَ اللهُ منه شاهدا ومبَشِّرا ونَذيرا ، وداعِيًـا إلىٰ اللهِ بإذْنِه وسِرَاجا مُنِـيرا ، وصفّىٰ أهلَه من الأدناس وأنزل فى حقِّهم : ﴿ إنَّمَـا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أهْلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا ﴾ . وصــيَّر علَمَهم الخليفىَّ(١) علىٰ وَجنــة الدَّهْرِ شامَهْ ، وخَصَّهم بالتقديم فالحمدُلله واللهُ أكبَر لهذه الإمامه ؛ وإذا كان النسيب مقدَّما فى المَدْح وهو فى النظْم واسطةُ العُقود ، فهــذا هو النَّسب الذى كأنَّ عليه من شمس الضُّحىٰ نُورا ومن فَلَق الصَّباح عَمُود ؛ وهــذا هو الركنُ الذى مَنِ ٱستلمه وٱستَند إليه قيل له : فُزْت بعُلُوّ سَندك ، فقد رُوِى عن النبىّ صلّى الله عليه وســلم أنه قال لعَمِّه العباس : " ياعَمِّ ألَا أُبَشِّرك ؟ قال : بلىٰ يارسولَ الله ـ قال : إنَّ الله فَتَح الأمْرَ بى

(١) نسبة الى الخليفة فالواجب حذف الياء والتاء .

ويَخْتِمُه بوَلَدِك" . وهذا الحديثُ يُرشِد إلىٰ التمسُّك بِطيب العهود العباسيَّة لِتُفيضَ علىٰ المتمسك بها نِيلَ الوفاء، وتُعينَ من آستعان بالمستعينِ وعلم أنَّ النبيَّ عليه السلام قال لجدّه : "أنتَ أبوُ الخُلَفاء" . وناهيك أنَّه صلّى الله عليه وسلم قال لأُمِّ فضل وهى شاكَّة فى الحمل: "اذْهَى بأبى الخُلَفاء" فكان عبدَ الله المنتظمَ به هذا الشَّمْل فأَحبِبْ بهـا شجرَةً زكا غَرْسُها ونَمـا، وتسامَتْ بهـا الأرضُ وكَيْفَ لا ؟ وأصلُها ثابتٌ وفَرْعُها فى السَّما؛ فسلام علىٰهذا الخَلَف الذى منه المستعينُ بالله والمتوكلُ عليه والواثقُ به والمعتصِمُ والرشيدُ، ورحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهلَ البيتِ إنَّه حميدٌ مجيد .

نحمدُه حمدَ مَنْ عِلم أنَّ آلَ هذا البيتِ الشريف كسفينةِ نُوح وتعلَّق بهـم فنَجَا ، ونَشْكره شُكْرَ من مالَ إلىٰ الدُّخُول تحتَ العلَم العبَّاسيّ وتنصَّل من الخوارج فوجَدَ له من كلِّ ضِـيق مَخْرَجا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً نرجُو أن تكون مقبولةً عند الحاكم وَقْتَ الأدا ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسولُه الذى حَرَّضَنَا علىٰ التمسك بالعُهُود وأرشدَنا إلىٰ طريق الهُدىٰ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَفَّوْابالعُهود، وكانوا فى نِظام هذا الدِّين وجمعه فرَائدالعقُود؛ صلاةً يسقِى عهادالرحمة ـ إن شاء الله ـ عهدَها، وينتظِمُ فى سِلْك القَبُول عِقْدُها؛ وسلَّم تسليما .

أما بعدَ حمدِ الله الذى ألْهَمَنا الرَّشَد وجعل منَّا الخلفـاء الراشدين ، وهدانا بنَبِيِّه صلّى الله عليه وسلم وخَصَّنا من بيته الشريف بالأئمة المهديِّين ؛ وآصطفىٰ من هذا الخَلَف خلائف الأرض، وسَنَّ مواضِىَ العُقُول التى قطعَتْ أنَّ طاعَتنا فَرْض؛ فإنَّ لعهدنا العبَّاسىّ شَرَفا لا يرْفُل فى حُلَله إلَّا من آتَّخذ مع الله عهْدًا وأتاه بقلبٍ سـليم ، فقد قال الله تعالىٰ بعدَ أعُوذُ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿إنَّ الَّذينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأيْمـانِهِمْ ثَمنًا قَليلًا أُولَئِك لاخَلَاقَ لَهُمْ فِى الْآخِرَةِ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولا يَنْظُر إليْهِمْ يَوْمَ القِيامَة ولا يُزَكِّيهِمْ ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيم﴾ . ولا يتمسَّك بهذا العهدِ إلَّا مَنْ صَحَا إلىٰ القيام

بواجبِ الطاعةِ وترَكَ أهْلَ الجهل فى سَكْرتِهِم يَعْمَهُون، وآنتظَم فى سِـلك من أنزل اللهُ فى حقِّهم : ﴿ والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فى البَأْساءِ والضَّرَّاء وحِينَ البَأْس أُولئِكَ الَّذِين صَدَقُوا وأُولئِكَ هُمُ المُتَّقُون ﴾ .

فمن نَهَضَ إلىٰ المَشْى فى مِنْهاجه مَشىٰ بعَيْن البصيرة فى الطَّرِيق القَوِيم، وتَلَا له لسانُ الحال : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا علىٰ وَجْهه أهْدىٰ أَمَّنْ يَمْشِى سَوِيًّا علىٰ صراطٍ مُسْتَقِيم ﴾ . وهو قَبْضةٌ من آثارِ البَيْعة النبويّه ، وشِـعَار يتَشرّفُ به من مَشىٰ تحتَ أَلْوِيته العباسيّه ؛ وما أُرْسِل هذا العهدُ النبوىُّ إلىٰ أحد من ملوك الأرض إلا عَمَّه الشرفُ من جميع جِهاته ، و﴿ اللهُ أعْلَمُ حيْثُ يجعَلُ رِسالاتِه ﴾ وشَدَتْ أعوادُ مِنْبَره طَرَبا ، وأزهرَتْ رَوْنَقًا وأثمرَتْ أدَبا ؛ وآستطالتْ بيد الخلافة لإقامةِ الحَـدّ ، وكيفَ لا ويَدُ الخلافة لا تُطاوِلُهـا يد ؛ وكان المقامُ الأشرفُ (إلىٰ آخر الألقـاب المذكورة فى التعريف وآسمه المكتتب فى الطرّة) هو الذى رَغِب فى التمسُّك بهذا العهدِ الشريف لِيُزِيلَ عن مُلْكه الالتباس ، وآستَند إليه لِيرْوِىَ بسَنَدِه العالى عن آبن عبَّاس ؛ فإنه الملك الذى ظَفَّره اللهُ بأعداء هذا الدِّين وسَمَّـاه مظَفَّرا ، ولقَّبه بالشمسىّ وآختار له أن يُقارِن من الطَّلْعة المستعينيَّة قَمَرا ؛ أينع زَهْرُ العـدْل من حضرة "دِهْلىٰ" فعطَّر الآفاق ، وضاع نَشْرُه بالهند فعاد الشَّمُّ إلىٰ المزْكُوم بالعِراق ؛ وصارتْ دِمَن "سُومْنات"[(1)] عامرةً بقيام الدِّين ، وأيَّده اللهُ فيها بعدَ القتال بالفتح المبين ؛ ولم يتْرُكْ للعَدُوّ فى بيت بيتَ ليـله ، وأبطل مادهَّره أهل دِهلىٰ بحُسْن اليَقظة وقُوّة الصَّوْله ؛ وأباد الكَفَرة من أهل دِيوَ ولم يقبل لهم دِيَه ، وفاءُوا إلىٰ غير أمْر الله فأبادهم بسَيْفه الهندىّ فلم تَقُمْ لهم فيَـه ؛ وفَطَّر أكبادَ مَنْ ناوأه بها فلازَمُوا عن رُؤْيتِها الصَّوْم ، ونادىٰ منادِى عَدْله

(١) تقدم فى (ج ٥) من هـذا المطبوع أنها "صومنات" بالصاد المهملة و يقال أيضا بالسين المهملة بدل الصـاد .

بالبلاد الهنـدية : لا ظُلْمَ اليَوْم؛ ودانتْ له تلك الممالكُ برًّا وبحرا، وسَهْلا ووَعْرا؛ ما نظَم الأعداءُ علىٰ البحر المـديدِ بيْتا إلا أبان زِحَافَه وأدار عليـه دوائِرَه، فكم نَظَم شَمْلَ الرعايا بالعـدْل ونَثَر رُءُوس الطُّغاة بالسـيف فلا عَدِم الإسـلامُ ناظمَه وناثرَه؛ سُـئلتِ الرُّكبانُ فى البَرِّ عن مَناقبه الجميلة وعَمَّ يتَساءَلُون وقد صار لهـا عَظِيم النبا، وصرّح راكبُ البحر بعد التسميةِ باسْمِه ﴿وٱتخذَ سبيلَه فى البحر عَجَبا﴾ فظِلُّه فى البَرِّ ظليل، وعدْلُه فى البحر بَسِيط وطَوِيل.

هذا ولم يَبْقَ فى تلك الممـالكِ الهنديَّة بُقْعة إلا ولم يصغر الله(١) بسَـنابك الخيل فيها مَمْشاه، ولا نفسٌ خارجةٌ عن الطاعة إلا وماتَتْ فى رُقْعة الأرض بمظفَّر شاه؛ فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السيِّدى، الإمامى، الأعظَمى، النبوى، المستعِينى، سيدِنا ومولانا أمير المؤمنين المستعينِ بالله أبى الفضـل العبَّاس (ونسبه إلىٰ الحاكم بأمر الله، والدعاء) بعد أنِ ٱستخار الله تعالىٰ سيدُنا ومولانا أمير المؤمنين كثيرا، وٱتخذه هاديًا ونصيرا، وصلّىٰ علىٰ ٱبن عمه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسـلم - أن يفوّض إلىٰ المقام الأشرف المشار إليه ولايةُ العهد وكفالةُ السـلطنة المعظَّمة، بحضرة دِهْلىٰ وأعمالها كما فى الطرَّة كما هو المعهود: ليهطِلَ جُودُ الرحمة علىٰ تلك البِقاع المباركة إن شاء الله ويَجُود: لمـا رآه من صَلَاح الأمّة ومصالح الخلق، ٱستخلافا تَحَلَّى بذكره الأفواه، وتستنِدُ إليه الرُّواه، وتترنَّم به الحُدَاه؛ وتستبشِرُ به كافَّةُ الأُمَم، ويقْطَع به ويحفَظُه ربُّ كل سيفٍ وقلَم، ويعتمِدُ عليه كلُّ ذى عِلْم وعلَم؛ فلا زعيمَ جيش بها إلَّا وهذا التفويضُ يَسـعُه ويشملُه، ولا إقليمَ من أقاليمها إلا ومَنْ به يُقَبِّـله ويقبَله، ويتمثَّل به ويمتثِله، ولا منْبَرَ بجوامعها إلا وخطيبُه يتلُو برهانَ هـذا التفويض ويرتِّله.

(١) لعله إلا وصغر الله أو بقعة لم يصغر الخ. تأمل.

وأما الوصايا فعنده ـ إن شاء الله ـ تَهُبُّ نَسَماتُ قَبُولها ، وتُعْرب عن نصْب مفعولها ؛ وهو بحمد الله تعالىٰ لوصَايَا هذا العهد المبارَك نِعم القابل ، ففى الصحيحين عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم : "سَبْعَةٌ يُظِلُّهم اللهُ فى ظِلِّهِ منْهم الإمامُ العادِل" والوصيَّة بالرَّعايا واجبة والعـدْل فيهم قد حرّض النبىّ صلّى الله عليه وسلم عليه ، وقال : "يَوْمٌ من إمامٍ عادلٍ أفضَلُ من مَطَر أربعينَ صبَاحًا أحوَجَ ما تكون الأرضُ إليه" . وقال آبن عمِّنا علىّ رضى الله عنـه « المُلْك والدِّينُ أخوانِ لاغنًى لأحدهما عن الآخَر، ونَشْرهما فى الرعيَّة ضائع ، فالدِّين أُسٌّ والمُلْك حارس ، فما لم يكُنْ له أُسٌّ فمَهْدُوم ، وما لم يكن له حارسٌ فضائع » ـ فلْيأْمُرْ بالمعروف ويَنْهَ عن المنكر عالمـا أنه ليس يُسْأل غدًا بين يدى الله عز وجل عن ذٰلك سوانا وسواه ، ويَنْهَ نفسَه عن الهوىٰ فلا يحسُن لعُودِ قدِّه أن يَميل مع هواه ـ ولْيترك الثُّغور بعدْله باسِمه ، وقواعدَ المُلْك بفضـله قائمه ـ وليجاهِدْ فى الله حقَّ جهاده ، ويَلْطُفْ بالرعايا ويَعْلَمْ أن الله لطيفٌ بعباده ـ وليشرح لهم بالإحسان صَدْرا ، ويُجْرِهم إذا وقفَ علىٰ أحوالهم أحسَنَ مُجْرىٰ ؛ وهو بحمـد الله غيرُ محتاج إلىٰ التأكيد : لأنه لم يَخْلُ له من القيـام فى مصالح المسلمين فِكْر ، ولكنه تجديدُ ذِكر علىٰ ذِكْر ؛ والله تعالىٰ يمتِّع بطُول بقائه البلادَ والعباد ، ولا بَرِحت سـيُوفُه الهندية تكلِّم أعدَاء هذا الدين بألسـنةٍ حدَاد ؛ وثبَّت مُلْكه بالعدل وشيَّد أقوالَه وأفعاله ، وختم بالصالحاتِ أعمـالَه ؛ والاَعْتمادُ علىٰ الخط الإمامىّ المستعينىّ أعْلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : ولم يُعْهد أنه كُتِب عن الخلفاء العباسـيين القائمين بالديار المصريَّة عهـدٌ لملك من غير ملوك الديار المصرية سوىٰ هذا العَهْد .

المـــــــذهب الرابع

([أن يفتتح العهدُ بقوله أما بعدُ](١) « فالحمدُ لله » أو « أما بعدُ فإنَّ أمير المؤمنين » أو « أما بعدُ فإن كذا » ونحو ذلك)

ويأتى بمـا يُناسِب من بَراعة الاستهلال وحال المتولِّى والمُولَّى وما يجْرِى مَجْرَىٰ ذلك ممـا يســنَحُ للكاتب ذكُره مما يناسِبُ الحال ، ويأتى من الوَصايَا بمـا يُناسب المَقَـام : إما بلفظ الغَيْبة أو بلفظ الخِطاب كما فى غيره من المذاهب السابقة ، وهى طريقة اقترحها الوزير ضيـاءُ الدين بنُ الأثير فى " المثَل السائر " أنشأ عليها عهْـدا فى معارَضة المكتُوب للسُّلطان صلاح الدين «يوسُفَ بنِ أيوب» من ديوان الخلافة ببغدادَ الآتى ذكُره فى المذهب الخامس ، وهذه نسخته :

أما بعـدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين يَبْدَأ بحمْد الله الذى يكونُ لكلِّ خُطْبة قِيادا ، ولكلِّ أمْرٍ مِهَادا ، ويستَزِيدُه من نِعَمه التى جعلتِ التَّقْوىٰ له زادا ، وحَمَّلْته عِبْءَ الخلافة فلم يَضْعُف عنه طَوْقا ولم يألُ فيه اجتهادا ، وصَغَّرتْ لديه أمْرَ الدنيا فما تَسوَّرتْ له مِحْرابا ولا عَرَضَتْ عليـه جِيَادا ، وحقَّقت فيه قوله تعـالىٰ : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها للَّذينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فَسادًا ﴾ . ثم يصَلِّى علىٰ من أُنْزِلت الملائكةُ لنَصْره إمْدادا ، وأسْرِىَ به إلىٰ السماء حتّٰى ارتقىٰ سَبْعا شِدَادا ، وتجلّٰى له ربُّه فلم يُزِغْ منه بصرًا ولا أكْذَبَ فُؤادا ، ثم من بعـده علىٰ أُسْرته الطاهرة التى زكَتْ أوراقًا وأعْوادا ، ووَرِثت النُّورَ المبين تِلادا ، ووُصفتْ بأنَّهـا أحدُ الثَّقلين هِـداية وإرشادا ، وخصوصا عمَّه العباسَ المدعوَّ له بأنْ يُحْفَظ نَفْسا وأوْلادا ، وأن تَبْقىٰ كلمة الخلافة فيهم خالدةً لا تخَاف دَرَكا ولا تخْشىٰ نَفَادا .

---

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح ممـا يقتضيه المقام .

وإذ آستوفى القلمُ مداده من هذه الحمدله، وأسند القول فيها عن فصاحته المرسله، فإنه يأخذ فى إنشاء هذا التقليد الذى جعله حليفًا لقرطاسه، وآستدام سجوده على صفحته حتى لم يكد يرفع من راسه، وليس ذلك إلا لإفاضته فى وصف المناقب التى كثرت فحسن لها مقامُ الإكثار، وآشتبه التطويلُ فيها بالآختصار، وهى التى لا يفتقر واصفها إلى القول المعاد، ولا يستوعر سلوكَ أطوادها ومن العجب وجودُ السهل فى سلوك الأطواد، وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الأجلّ، السيدُ، الكبيرُ، العالمُ، العادلُ، المجاهدُ، المرابط، صلاحُ الدين أبو المظفّر يوسف آبن أيوب، والديوانُ العزيز يتلوها عليك تحدّثًا بشكرك، ويباهى بك أولياءه تنويها بذكرك، ويقول: أنت الذى تُستكفى فتكونُ للدولة سهمها الصائب، وشهابها الثاقب، وكنزها الذى تذهبُ الكنوزُ وليس بذاهب، وما ضرّها وقد حضرت فى نصرتها إذا كان غيرُك هو الغائب، فآشكُرْ إذًا مساعيك التى أهّلتك لما أهّلتك، وفضّلتك على الأولياء بما فضّلتك، ولئن شوركت فى الولاء بعقيدة الإضمار، فلم تشارك فى عزمك الذى آنتصر للدولة فكان له بسطةُ الآنتصار، وفرقٌ بين من أمدّ بقلبه ومن أمدّ بيده فى درجات الإمداد، وما جعل اللهُ القاعدين كالذين قالوا "لو أمرتنا لضربنا أكبادها إلى برك الغماد". وقد كفاك من المساعى أنك كفيت الخلافة أمر منازعيها، فطمست على الدعوة الكاذبة التى كانت تدّعيها، ولقد مضى عليها زمنٌ ومحرابُ حقّها محفوف من الباطل بمحرابين، ورأت ما رآه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم من السوارين اللذين أوّلهما كذّابين، فبمصر منهما واحدٌ تاه بمجرى أنهارها من تحته، ودعا الناسَ إلى عبادة طاغوته وجبته، ولعب بالدين حتى لم يدر يوم جمعته من [يوم أحده ولا](1) يوم سبته، وأعانه على ذلك قومٌ رمى اللهُ بصائرهم

(1) الزيادة من "المثل السائر" ص ١٤٢ .

بالعمىٰ والصَّمَم، وآتخذوه صَنَمًا [بينهم][1] ولم تكن الضلالةُ هناك إلا بعجْل أو صَنَم؛ فقمت أنت فى وَجْه باطله حتّى قعَد، وجعلتَ فى جِيده حَبْلا من مَسَد، وقلتَ ليـدِه : تَبَّتْ فأصبح [وهو][1] لايَسْعىٰ [بقَدَم][1] ولا يَبْطِش بيـد؛ وكذٰلك فعلتَ بالآخر الذى نَجَمتْ باليمن ناجمتُه، وسامتْ فيه سائمتُـه؛ فوضع بيتَه موضِعَ الكَعْبة اليمـانيه، وقال : هذا ذُو الخَلَصة الثانيـه؛ فأىُّ مَقَاميْك يعترف الإسلام بسَبْقه، أم أيّهما يقُوم بأداء حقّه؛ وهاهنا فليُصْبِح القلم للسيْف من الحُسَّاد، ولتَقْصُرْ مكانتُه عن مكانَتِه وقد كان له من الأَنْداد؛ ولم يَحْظَ بهذه المَزِيَّة إلا أنَّه أصبح لك صاحبا، ونَخَر بك حتّى طال نخرا كما عَزَّ جانبـا، وقَضىٰ بوِلايتك فكان بها قاضـيًا لَمَّـا كان حدُّه قاضِـبا .

وقد قلَّدك أمير المؤمنين البـلادَ المصريَّة واليَمنِيَّة غَوْرا ونَجْدا، وما آشتملتْ عليه رَعِيَّةً وجُنْدا، وما آنتهتْ إليـه أطرافُها بَرًّا وبَحْرا، وما يُستنقَذُ من مُجَاوِريها مسالمَةً وقَهْرا، وأضاف إليها بلادَ الشام وماتحتوِى عليه من المُدُن الممدَّنه، والمراكز المُحَصَّنه؛ مستثنِيًا منها ما [هو][1] بيد نُور الدِّين إسمـاعيل بن نُور الدين محمود رحمه الله : وهو حلَبُ وأعمـالُها، فقد مضىٰ أبُوه علىٰ آثار فى الإسـلام تَرْفَع ذكره فى الذاكرين، وتَخْلُفه فى عَقِبـه فى الغابرين، وولده هـذا قد هَذَّبتْه الفطرةُ فى القول والعمـل، وليستْ هذه الرَّبوةُ إلا من ذٰلك الجَبَل .

فليكُنْ له منك جارٌ يدنُو منـه وِدادًا كما دَنَا أرضا، ويُصْـبِح وهو [له][1] كالبُنْيان يَشُدّ بعضُه بعضا؛ والذى قدّمناه من الثناء عليك رُبَّمـا تَجاوزَ بك درجةَ الآقتِصاد، وألْفَتَك عن فضيلةِ الآزدياد؛ فإيَّاك أن تنظُرَ إلىٰ سَـعْيك نظرَ الإعجاب، وتقولَ : هذه بلادٌ أنا آفتتحتُها بعـد أنْ أضْرَبَ عنهـا كثيرٌ من الأَضْراب؛ ولٰكِنِ آعلم أنَّ

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ١٤٢ .

الأرض لله ولرسُوله ثم لخليفته من بعده ، ولا مِنّةَ للعبد بإسلامه بل المِنّةُ لله بهداية عَبْده ، وكَمْ سلَف قَبْلك ممّن لو رام مارُمْتَه لَدَنَا شاسعُه ، وأجاب مانعُه ؛ لكن ذَخَره الله لك لتَحْظىٰ فى الآخرة بمَفازِه ، وفى الدنيـا برَقْم طِرَازه ؛ فألْقِ بيدك عند هـذا القولِ إلقاءَ التسليم ، وقل : ﴿ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَاعَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ .

وقد قُرِن تقليدُك هذا بخِلْعة تكونُ لك فى الآسم شِعارا ، وفى الرَّسم فَخَارا ، وتُناسب محَلّ قلبِك وبَصَرِك وخيرُ مَلابِس الأولياء ماناسَبَ قُلُوبا وأبْصارا ؛ ومن جملتها طَوْقٌ يُوضَع فى عُنُقك موضِعَ العهْد والمِيثاق ، ويُشير إليك بأنّ الإنعامَ قد أطافَ بك إطافةَ الأَطْواقِ بالأعنـاق ؛ ثم إنك قد خُوطبْت بالملك وذٰلك خطابٌ يقْضى لصَـدْرك بالآنشراح ، ولأَمَلِك بالآنْفِساح ، وتُؤمَر معه بمَدّ يَدك إلىٰ العَلْيـاء لا بضَـمِّها إلىٰ الجَنَاح ؛ وهذه الثلاثةُ المشارُ إليها هى التى تَكمُل بها أقسام السِّياده ، وهى التى لامَزِيدَ عليها فى الإحسان فيقال : إنَّها الحُسْنىٰ وزِياده ؛ فإذا صارتْ إليك فانصِبْ لها يومًا يكونُ فى الأيَّام كريمَ الأنْساب ، وآجعلْه لهـا عيدا وقُلْ : هذا عيدُ التقليد والخِلْعة والخطاب ؛ هـذا ولك عنـدَ أمير المؤمنين مكانةٌ تجعلُك لَدَيْه حاضراً وأنت ناءٍ عن الحُضُور ، وتَضِنُّ أن تكون مشترَكةً بينَك وبين غَيْرك والضِّنَّة من شِيَم الغُيُور ؛ وهذه المكانةُ قد عرّفَتْك نفْسَها وما كنت تعرِفُها ، وما نقول إلا أنَّهـا لك صاحبةٌ وأنتَ يوسُفُها ؛ فاحْرُسْها عليك حِراسةً تقضى بتَقْديمها ، وآعملْ لها فإنَّ الأعمال بخَوَاتِيمها ؛ وآعلَمْ أنك قد تقلَّدت أمرا يفْتَن به تَقِيُّ الحُلُوم ، ولاينفَكُّ صاحبُه عن عُهْدة المَلُوم ، وكثيرا ماتُرىٰ حسناتُه يوم القيامة وهى مقتَسَمةٌ بأيْدى الخُصُوم ؛ ولا ينجُو من ذٰلك إلا من أخذَ أُهْبة الحِذَار ، وأشفق من شهادة الأَسْماع والأبصار ؛ وعلِم أنَّ الولايةَ ميزانٌ إحدىٰ كِفَّتيه فى الجنة والأُخْرىٰ فى النار . قال النبيُّ صلّى الله عليه وسـلم : "يا أبا ذَرٍّ إنِّى أُحِبُّ لَكَ ما أُحِبُّ لنَفْسى لاتَأَمَّرَنَّ علىٰ آثنين ولا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتيم" .

فانظر إلىٰ هـذا القول النبوىّ نَظَر من لم يُخْدَع بحـديث الحِرْص والآمال، ومثّـل الدنيا وقد سِيقتْ [اليك](١) بحذافيرها أليس مَصيرُها إلىٰ زوال ؟ . والسعيدُ مَنْ إذا جاءتْه قضىٰ بهـا أرَبَ الأرواح لاأرَبَ الجُسُوم ، واتخذَ منهـا وهى السُّمُّ دواءً وقد تُتَّخذ الأدويةُ من السُّمُوم؛ وما الاغتباطُ بمـا يختلِف علىٰ تَلَاشيه المَسَاء والصَّباح؟ وهو ﴿ كماء أنزلْناه من السماء فاختَلَط به نَبَاتُ الأرض فأصْبَحَ هَشيماً تَذْرُوه الرِّياح ﴾ والله تعـالىٰ يعصِمُ أميرَ المؤمنين ووُلاةَ أمره من تَبِعاتها التى لابَسَـتْهم ولابَسُوها ، وأحصاها الله عليهـم ونَسُوها ؛ ولك أنتَ من هـذا الدعاء حظٌّ علىٰ قدر مَحَلِّك من العناية التى جذَبَتْ بضَبْعك [ومحلِّك من الوِلَاية التى بسطَتْ من دِرْعك](١) .

فخُذْ هذا الأمرَ الذى تقلَّدته أخْذَ من لم يتعَقَّبه بالنسيان، وكُنْ فى رعايته ممن إذا نامَتْ عيناه كان قلْبُه يقْظان .

ومِلاكُ ذٰلك كلِّه فى إسباغ العدل الذى جعـله اللهُ ثالثَ الحديثِ والكتاب ، وأغنىٰ بثوابه وحْدَه عن أعمال الثواب ، وقدّرَ يوماًمنه بعبادةِ ستِّين عاما فى الحِسَاب ؛ ولم يأمُرْ به آمِرٌ إلا زِيدَ قوّةً فى أمره ، وتحصَّن به من عدُوّه ومن دَهْره ؛ ثم يجاء به يومَ القيامة وفى يديه كتَابًا أمان ، ويجلس علىٰ مِنْـبر من نُور عن يَمين الرحمٰن ؛ ومع هذا فإنَّ مَرْكَبَه صعْبٌ لا يستَوِى علىٰ ظهره إلا مَنْ أمسك عِنانَ نَفْسه قبـل إمساك عِنانه ، وغلبَتْ لَمَّةُ مَلَكه علىٰ لَمَّة شَيْطانه ، ومن أوْكَد فُروضه أن يَمْحى السُّنَنَ السيئة التى طالتْ مُدَد أيَّامها ، ويَئِس الرَّعايا من رفع ظُلَاماتهـا فلم يجعَـلُوا أمدًا لانْحِسار ظَلَامها ؛ وتلك هى المُكُوس التى أنشأتْها الهِمَم الحقِيره ، ولا غِنىٰ للأيدى الغنيَّة إذا كانتْ ذا[تَ] نُفُوس فَقِيره ؛ وكُلَّما زِيدتِ الأموالُ الحاصلةُ منها قَدْرا زادها اللهُ مَحْقا ،

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ١٤٤ .

وقد ٱستمرّت عليهـا العوائدُ حتّىٰ ألحقها الظالمُون بالحقُوق الواجبة فسَـمَّوْها حقّا ؛ ولولا أنَّ صاحبها أعظَمُ النـاس جُرما لمـا أُغلِظ فى عقابه ، ومُثِّلت تَوْبةُ المرأة الغامديّة بمتـابه ؛ وهل أشْـقىٰ ممن يكونُ السـوادُ الأعظَمُ له خَصْما ، ويُصْبِح وهو مطالَبٌ منهم بما يَعْلَم وبمـا لم يُحِطْ به عِلْما . وأنت مأمورٌ بأن تأتِىَ هذه الظُّلاماتِ فتُنْحى علىٰ إبطالها ، وتُلْحق أسماءَها فى المَحْو بأفْعالها ؛ حتّىٰ لايبقىٰ لها فى العِيان صُوَر منظُوره ، ولا فى الألسنة أحاديثُ مذكُوره ؛ فإذا فعلتَ ذٰلك كنتَ قد أزلْت عن المـاضى سُنّة سُوء سنَّتْها يَدَاه ، وعن الآتى مُتابعةَ ظُلْم وجدَه طريقًا مسلوكًا يجرىٰ علىٰ مَدَاه .

فبادِرْ إلىٰ ما أُمِرْتَ به مُبادرةَ مَنْ لم يَضِقْ به ذِرَاعا ، ونظَر إلىٰ الحياة الدُّنيا بعينِه فرآها فى الآخرةِ متاعَا ؛ وٱحمَدِ اللهَ علىٰ أنْ قَيَّض لك إمامَ هُدًى يقِفُ بك علىٰ هُدَاك ، ويأخُذُ بحُجْزتك عن خُطُوات الشيطان الذى هو أعدىٰ عِدَاك ؛ وهـذه البلادُ المَنُوطة بنظرك تشتَمِل علىٰ أطرافٍ متباعِده ، وتفتقِرُ فى سياسَتِها إلىٰ أيدٍ مُساعده ؛ وبهذا تكثُر فيها قُضاةُ الأحكام ، وأولُو تدبيرات السُّيوف والأقْلام ؛ وكُلٌّ من هٰؤلاء ينبغى أن يُفْتَنَ علىٰ نارِ الاختبار ، ويسَـلَّط عليه شاهِدَا عدل من أمانة الدِّرْهم والدِّينار ؛ فمـا أضـلَّ الناسَ شىءٌ كحُبِّ المـال الذى فُورِقَتْ من أجله الأَدْيان ، وهُجِرتْ بسببه الأولادُ والإخْوان ، وكثيرا ما يُرىٰ الرجلُ الصائمُ القـائمُ وهو عابدٌ له عبادةَ الأوثـان ؛ فإذا ٱسـتعنْتَ بأحد منهم علىٰ شىءٍ من أمْرِك فٱضرِبْ عليـه بالأَرْصاد ، ولا تَرْضَ بما عرفْتَه من مَبْدإ حاله فإنَّ الأحوال تَتَنَقَّل تنقُّل الأجساد ، وإيَّاكَ أن تُخْدَع بصَلَاح الظاهر كما خُدِع عمرُ بن الخطَّاب رضى الله عنـه بالرَّبيع ٱبن زِيَاد ؛ وكذٰلك فَأْمُرْ هٰؤلاء علىٰ ٱختلاف طَبَقاتهم أن يأمُرُوا بالمعْروف مُواظِبين ، ويَنْهَوْا عن المنكر محاسِبين ، ويعلموا أنَّ ذٰلك من دأْب حِزْب الله الذين جعلهم

الغالبين، وليَبدَءُوا أوّلا بأنفُسِهم فيَعْدِلُوا بها عن هَوَاها، ويَأمُرُوها بما يأمُرُون به مَنْ سِواها، ولا يَكُونُوا ممن هَدَىٰ إلىٰ طريق البِرّ وهو عنه حائد، وٱنتصَبَ لطَبّ المَرْضىٰ وهو محتاجٌ إلىٰ طبيب وعائد، فما تنزِلُ بركاتُ السماء إلّا علىٰ من خاف مَقَامَ ربِّه، وألزم التقوىٰ أعمالَ يدِه ولسانِه وقلْبِه، فإذا صَلَحت الوُلاةُ صلَحت الرعيةُ بصَلاحهم، وهم لهم بمنزلة المصابِيح ولا يَستضِيءُ كلُّ قومٍ إلا بمِصْباحهم .

ومما يؤمرون به أن يكونُوا لمن تحتَ أيْدِيهم إخوانا فى الاْصْطِحاب، وأعوانًا فى تَوزُّع الحِمْل الذى يثْقُل علىٰ الرِّقاب، فالمسلمُ أخُو المسلم وإن كان عليه أمِيرا، وأَوْلىٰ الناس باستعمال الرِّفْق من كان فضلُ الله عليه كبِيرا، وليستِ الولايةُ لمن يستجدُّ بها كثرَةَ اللفيف، ويتولّاها بالوَطْء العنيف، ولكنّها لمن يُمال علىٰ جوَانبه، ويُؤْكَل من أطايبه، ولمن إذا غَضِب لم يُرَ للغضَب عنده أثَر، وإذا أُلْحِفَ فى سؤاله لم يُلْحِقِ الإلحافَ بخُلُق الضَّجَر، وإذا حضر الخُصُوم بين يدَيْه عَدَل بينهم فى قِسْمة القول والنظَر، فذلك الذى يكون لصاحبه فى أصحاب اليمين، والذى يُدْعىٰ بالحفيظ العليم وبالقوىّ الأمين، ومن سعادة المرْء أن يكونَ وُلاتُه متأدِّبين بآدابه، وجارِين علىٰ نَهْج صَوابِه، وإذا تطايرتِ الكتُب يوم القيامة كانت حسناتُه مُثْبَتةً فى كتابِه .

وبعدَ هذه الوصية فإنَّ هاهنا حسنةً هى للحسنات كالأُمِّ الوَلُود، ولَطالَمَا أغنَتْ عن صاحبها إغناءَ الجُنُود، وتيقَّظتْ لنَصْره والعُيُون رُقُود، وهى التى تُسْبَغ لها الآلَاء، ولا يتخطّاها البَلَاء، ولأمير المؤمنين بها عنايةٌ تبعَثُها الرحمةُ الموضوعةُ فى قَلْبه، والرغبةُ فى المَغْفرة لما تقدّمَ وتأخّر من ذنْبِه، وتلك هى الصدقةُ التى فضّل اللهُ بعضَ عباده بمزيّة إفضالها، وجعلها سبباً إلىٰ التعويض عنها بعَشْر أمثالها . وهو يأمُرُك

أن تتفقّد أحوالَ الفقراء الذين قُدِرتْ عليهم مادّةُ الأرزاق، وألبسهم التعفُّفُ ثوبَ الغنىٰ وهم فى ضِيقٍ من الإملاق ؛ فأُولئك أولياءُ الله الذين مَسَّتْهم الضَّرّاءُ فصَبَروا، وكَثُرت الدنيا فى يدِ غيرِهم فما نَظَروا إليها إذْ نظَرُوا؛ وينبغى أن يُهَيِّئ لهم من أمْرِهم مِرْفَقا، ويضْرِبَ بينَهُم وبين الفَقْرِ مَوْبِقا .

وما أطلْنا لك القولَ فى هــذه الوصية إلا إعلاما بأنهـا من المُهِمّ الذى يُستقْبَل ولا يُستدْبَر، ويستَكْثَر منه ولا يستكثر، وهذا يُعَدّ من جِهاد النفس فى بَذْل المـال، ويتلُوه جهادُ العـدوّ الكافر فى مَواقِف القِتال ؛ وأميرالمؤمنين يعرِّفُك من ثوابه ما تجعل السـيفَ فى ملازمته أخَا ، وتسخُو له بنَفْسِكَ إن كان أحدٌ بنَفْسه سَخَـا ؛ ومن صفاتِه أنه العملُ المحبُوّ بفضل الكَرَامه ، الذى ينْمِى أجْرُه بعدَ صاحبه إلىٰ يومِ القيامه ؛ وبه تُمتحَنُ طاعةُ الخالق علىٰ المخْلُوق ، وكلُّ الأعمـال عاطلةٌ لاخَلُوقَ لهـا وهو مختَصٌّ دُونَها بزينة الخَلُوق؛ ولولا فضلُه لمـا كان محسوباً بشَطْرِ الإيمان، ولَمَـا جعلَ الله الجنة له ثمنًا وليستْ لغَيْره من الأثمـان ؛ وقد علمتَ أن العدُوّ هو جارُكَ الأدنىٰ، والذى يبلُغُك وتبلغه عينا وأُذُنا ؛ ولا يكون للإسلام نِعْم الجار حتّى تكون له بِئْس الجار، ولا عُذْرَ لك فى تركِ جهاده بنَفْسك ومالك إذا قامتْ لغَيْرك الأعذار ؛ وأميرُ المؤمنين لا يَرْضىٰ منك بأن تَلْقاه مُكافِحًا ، أو تَطْرُقَ أرضَه مماسيا أو مُصابِحا؛ بل يُريد أن تقصِدَ البلاد التى فى يده قصـدَ المستنقِذ لا قصد المُغير، وأن تحكُمَ فيها بحُكْم الله الذى قضاه علىٰ لسان سعدٍ فى بَنِى قُرَيظَة والنَّضير؛ وعلىٰ الخُصوص البيتُ المقدّس فإنه تِلادُ الإسلام القديم ، وأخُو البيت الحرامِ فى شَرَف التعظيم ، والذى توجَّهت إليه الوُجوهُ من قبلُ بالسُّجود والتسلِيم؛ وقد أصْبح وهو يشْكُو طُولَ المدّةِ فى أَسْرِ رَقبته ، وأصبحتْ كلمةُ التوحيـد وهى تشْكُو طُولَ الوحشةِ فى غُرْبتها عنه

وغربته؛ فانهَضْ إليه نهضَةً تُوغِل فى قَرْحه ، وتُبدِّل صَعْب قِياده بسَمْحه ، وإن كان له عامُ حُدَيْبِيَةَ فأَتْبِعه بعامِ فَتْحه ؛ وهذه الآستزادةُ إنمـا تكونُ بعدَ سَدَاد مافى اليَـدِ من ثَغْرٍ كان مُهْمَلا فحَمَيْتَ موارِدَه، أو مُسْتَهْدِما فَرَفعت قَوَاعِدَه؛ ومن أهمِّها ما كان حاضِرَ البحر فإنه عَوْرةٌ مكشُوفه ، وخطَّـة مَخُوفه؛ والعدوّ قريبٌ منه علىٰ بُعْده، وكثيرا ما يأتيه فَجْأَةً حتّى يسبِقَ بَرْقُه بَرَعْده ؛ فينبغى أن ترتِّب بهذه الثغور رابطةً تكْثُر شُجعانُهـا ، وتقلُّ أقرانُها، ويكون قِتالُها لأنْ تكونَ كلمـةُ الله هى العُلْيا لا لأنْ يُرىٰ مكانُها ؛ وحينئذ يُصْبِح كلٌّ منها وله من الرجال أَسْوار ، ويعلم أهـلُه أن بناءَ السيف أمنعُ من بِناء الأحجار ؛ ومع هـذا لا بُدّ من أصطول يكْثُر عدَدُه ، ويقْوىٰ مدَدُه؛ فإنه العُدَّة التى تستعينُ بهـا فى كَشْف الغَمَّاء، والآستكثارِ من سَبَايا العبيد والإمَاء، وجَيْشُه أخو الجيش السُّلَيمانىّ : فذاك يسيرُ علىٰ مَتْن الريح وهذا علىٰ مَتْن المـاء؛ ومن صفات خيله أنها جمعَتْ بين العَوْم والمَطَار، وتساوتْ أقدارُ خَلْقها علىٰ آختلاف مُـدّة الأعمـار ؛ وإذا أُشْرِعت قيل جبالٌ متلفِّعة بقطَع من الغُيوم، وإذا نُظِر إلىٰ أشكالها قيـل : إنها أهِلَّة غيرَ أنها تهتدى فى مَسِيرها بالنُّجوم ؛ ومثلُ هذه الخيلِ ينبغى أن يُغالىٰ فى جِيادها، ويستكْثَر من قِيادها؛ وليُؤَمَّر عليها أميرٌ يلقىٰ البحْرَ بمثله من سَعَة صَـدْره ، ويسلكُ طُرُقَه سلُوكَ من لم تقتُلْه بجهلها ولٰكن قتلها بخُبْره؛ وكذلك فليكُنْ ممن أفنتِ الأيامَ تجارِبُه ،وزَحَمَتْها مناكِبُه ، وممَّن يُذِل الصَّعْب إذا هو ساسَه وإن سِيسَ لانَ جانِبُه؛وهذا هو الرجل الذى يرْأَس علىٰ القوم فلا يجد هِزَّةً بالرياسه؛ وإن كان فى الساقةِ ففى السَّاقة أو فى الحِراسة ففى الحِراسه؛ ولقـد أفلحَتْ عِصابةٌ آعتصَبَتْ من وَرَائه ، [وأيْقَنت بالنصر من رايته كما أيقنَتْ بالنصر من رائه] (١) .

---

(١) الزياد من "المثل السائر" ص ١٤٧ .

وٱعلَمْ أنه قد أُخِلَّ من الجهاد برُكْن يقْدَح فى عمله ، وهو تمامُه الذى يأتى فى آخره كما أنَّ صِـدْق النيَّـة يأتِى فى أوّله ؛ وذلك هو قَسْمُ الغنائم فإنَّ الأيدىَ قد تداولَتْـه بالإجحاف، وخلطتْ جِهادَها فيـه بغُلُولها فلم ترجِع بالكَفَاف؛ والله قد جعل الظُّلْمَ فى تعدِّى حدُوده المحدُوده، وجعل الٱستئثارَ بالمَغْنَم من أشراط الساعة الموعُودَه ؛ [ونحن نعوذُ به](١) أن يكونَ زمانُنا هذا شرَّ زمانٍ وناسُه شرّ ناس ، ولم يستخْلِفْنا علىٰ حِفْظ أركانِ دِينه ثم نُهمِله إهمال مُضَيِّع ولا [إهمال](١) ناس ؛ والذى نأمُرُك به أن تُجْرِى [هذا](١) الأمْرَ علىٰ المنصوص من حكمه ، وتُبَرِّئَ ذمَّتك مما يكونُ غيرُك الفائزَ بفوائده وأنت المُطالَبَ بإثمه ؛ وفى أرزاقِ المجاهدين بالديارِ المصرية والشاميَّة مايُغْنِيهم عن هذه الأُكْلة التى تكُون غدًا أَنْكالا وجَحِيما ، وطَعامًا ذا غُصَّةٍ وعذابًا أليما .

فتصَفَّحْ ماسـطَّرناه لك فى هـذه الأساطير التى هى عزائمُ مُـبْرَمات ، بل آياتٌ محكَمات ؛ وتحبَّبْ إلىٰ الله وإلىٰ أمير المؤمنـين بٱقْتِفاء كتابها ، وٱبْنِ لك منهـا مَجْدا يَبْقىٰ فى عَقِبك إذا أُصِيبتِ البيوتُ فى أعقابها ؛ وهذا التقليدُ ينْطِق عليك بأنه لم يألُ فى الوصَايَا التى أوصاها ، وأنه لم يُغادِرْ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحْصاها ؛ ثم إنه قد خُتِم بدَعَواتٍ دعا بها أميرُ المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خِيرةَ الله التى تتـنَزَّل من كلِّ أمرٍ بمـنْزِلة نِظامه ؛ ثم قال : اللّهُمَّ إنى أُشْهِدك علىٰ من قلَّدتُه شهادةً تكون عليـه رقيبَه ، وله حَسِيبه ؛ فإنِّى لم آمُرْه إلا بأوامر الحقِّ التى فيها موعِظةٌ وذِكْرىٰ ، وهى لمن ٱتَّبعها هدًى ورحمـةٌ وبُشْرىٰ ؛ فإذا أخذ بها فَلَج بحُجَّته يوم يُسْأل عن الحُجَج ، ولم يُخْتَلَج دُونَ رسول الله عن الحوْض فى جملة من يُخْتَلَج ، وقيل له : لاحرجَ عليك ولا إثمَ إذ نجوت من وَرَطات الإثم والحَرَج ، والسلام .

---

(١) الزيادة من كتاب "المثل السائر" ص ١٤٧ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

المـــذهب الخامس

(أن يفتتح العهد بـ«إنَّ أَوْلىٰ ما كان كذا » ونحوه)

وهى طريقة غريبةٌ، كُتِب عليها عهدُ السلطان صلاح الدين «يوسُفَ بن أيوب» بالديار المصرية من ديوان الإنشاء ببغداد . وهو الذى عارضه الوزير ضياءُ الدين بن الأثير فى العهد المتقدّم ذكره فى المذهب [الرابع] (١) . وهذه نسخته :

إنَّ أَوْلىٰ من جادَتْ رِباعَه سُحُبُ الاصْطِناع ، وخُصَّ من الاصْطفاء والاجْتباء بالصَّفَايا والمِرْباع ، مَنْ تَرَسَّم انتهاجَ الجَدَد القويم ، والطريقِ الواضِح المستَقِيم ، واعتَلَق من الولَاء بأَوْثَق عِصَمِه وحِباله ، والفِناء الذى يَهْتدِى بأنواره فى مَتَصَرَّفاته وأعماله ، والتحلِّى بجميل الذكر فى سيرته ، وخُلُوص الاعتناءِ بأُمور رعِيَّته ، وكان راغباً فى اقْتِناء حَمِيـدِ الخِلَال ، مجتهدًا فى طاعةِ الله بمـا يُرْضِـيه من العـدْل الممتدِّ الظِّلال ، عاملًا فيما يُناطُ به بمـا يتَضوّعُ نَشْرُ خَبَره ، ويُجْتَنىٰ بحُسْن صُـنعه يانِـعُ ثمره ، باذلًا وُسْعَه فى الصلاح ، مُؤْذِنَةً مساعِيه بفَوْز القِدَاح .

ولمَّـا كان الملكُ الأجلُّ ، السيدُ ، صلاحُ الدين ، ناصرُ الإسـلام ، عمادُ الدولة ، جَمـالُ المُلْك ، فخـرُ الملة ، صَفِيّ الخلافة ، تاجُ المُلوك والسلاطين ، قامعُ الكَفَرة والمشركين ، قاهِرُ الخوارج والمتمرِّدين ، عِزُّ المجاهدين ، أَلْب غازى بك ابن يُوسف ابن أيُّوب ــ أدام الله عُلُوّه ــ علىٰ هذه السَّجايا مُقْبِلا ، وبِصفاتِها الكاملة مشتَمِلا ، مُؤْثِرا تضاعُفَ المأْثُرات ، مثابرًا علىٰ ماتزْكُو به الأعمالُ الصالحات ، متَحَلِّيا بالمحَـامد الرائقه ، مُستَبِدًا بالمناقب التى هى لجميلِ أفعالِه موافقةٌ مطابِقه ، محصِّلا من رِضا الله تعالىٰ مايُؤْثِره ويرومُه ، [و] من طاعة الدَّار العزيزةِ ــ لازالتْ مُشَيَّدة البِناء ، سابغةَ

(١) بياض بالأصل والتصحيح مما تقدّم .

النَّعماء ، دائمةَ الاَستبْشار، عزيزةَ الأَنْصار - [و] من آستمرار الظَّفر مايستديمُه، - آقتضتِ الآراءُ الشريفةُ - لازال التوفيقُ قَرِينَها، والتأييدُ مُظافِرَها ومُعِينَها- إمضاءَ تصرُّفه وإنفاذَ حُكْمه فى بلاد مِصْر وأعمالِهـا ، والصعيدِ الأعلىٰ ، والإسكندرية ، وما يفتَحُه من بلاد الغَرْب والساحل، وبلادِ اليمَن وما آفتتحه منها ويستخلصُه بعدُ من ولايتها ؛ والتعويلَ فى هذه الولاياتِ عليـه ، وآستنقاذَ ماآستولىٰ عليه الكُفَّار من البلاد، وإعزازَ كلِّ مَنْ أذَلُّوه وآضْطهدُوه من العباد : لتعودَ الثُّغورُ بيُمْنِ نَقِيبته ضاحكةَ المَبَاسِم، وبإصابة رأْيِه قائمةَ المَوَاسِم .

أَمَرَه بادئًا بتقْوىٰ الله التى هى الجُنَّـــة الواقيَــه ، والذَّخيرةُ الباقِيـه، والعِصْمة الكافيَه ، والزادُ إذا أَنفضَ وَفْدُ الآخرةِ وأرْمَلُوا ، والعَتَادُ النـافعُ إذا وجَدُوا شاهدًا لهم وعليهم ماعمِلُوا : فإنَّها العَلَم المنصوبُ للرَّشَـد ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يأَيُّهـا الَّذينَ آمَنُوا آتَّقُوا اللهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ ماقَدَّمَتْ لِغَد ﴾ .

وأمَرَه أنْ يتَّخذ كتَابَ الله سبحانه العَـلَم الذى به يَقْتدِى ، وبأنوارِه إلىٰ حُدُود الصواب يَهْتدِى، ويستَمِعَ لزَواجِره ومَواعِظه، ويعتَبِرَ بتخويفه ومَلاحِظه، ويُصْغِىَ إليه بسَـمْعه وقلبِه، وجَوارِحه ولُبِّه، ويعمَلَ بأوامره المحْكَمه، ويقِفَ عند نَواهيه المُبْرَمه، ويتدَبَّرَ ماحوتْه آياتُه من الوَعْد والوَعيـد، والزَّجْر والتَّهْـديد، قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَإنَّه لَكِتابٌ عَزيزٌ لايَأْتيه الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِـهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيد ﴾ .

وأمَرَه أن يكونَ علىٰ صَـلَاته محافِظًا، ولنَفْسه عن الإخلال والتقصِـيرِ فى أداء فَرْضها واعِظا، فيغْتَنِم الاَستعدادَ أمامَ أوقاتها للأَداء ، ويحترِز من فَوَاتها والحاجة إلىٰ القَضاء، مُوَفِّيا حقَّها من الرُّكُوع والسُّجود، علىٰ الوصْف الواجبِ المحدُود، مُخْلِصا سرَّه عند الدُّخول فيها، وناهيًا نَفْسَه عمَّـا يُصدّها بالأفكار ويُلْهيها ؛ مجتهدًا فى نَفْى

الفِكْر والوِسْواس عن قَلْبِه، منتصِباً فى إخلاصِ العبادة لرَبِّه: ليغْدُوَ بوَصْف الأبرارِ منْعُوتا، قال الله تعالىٰ: ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ علىٰ المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتا ﴾ .

وأمَرَه بقَصْد المساجِد الجامعــةِ فى أيَّام الجُمَع، آمتثالًا لأمْرِ الله المتَّبَع، بعزيمــةٍ فى الخير صادِقَه، ونِيَّة للعبادة مُوافِقه؛ وفى الأعيــادِ إلىٰ المُصَلَّيَات المُصْحِرة المجَمَّلة بالمَنَابر الحالِيَه، التى هى عن الأدناس مطهَّرةٌ نائِيَــه؛ فإنَّها من مَوَاضِــع العبادة ومَواطِنِها، ومَظَانِّ تلاوةِ القُرءان المأمورِ بحفظ آدابِها وسُنَنِها؛ فقدْ وصف اللهُ تعالىٰ مَنْ وفَّقــه لتحميــل مُؤَنه(١) بالعِماره، بمــا أوْضَح فيــه الإشَارَه؛ وشَرَّفه بوضْع سِمَــةِ الإيمــان عليه بالإكرامِ الفاخِر، فقال: ﴿إنَّمــا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليومِ الآخِرِ﴾: فيُقِيم الدعوةَ الهاديةَّ علىٰ المَنَــابر علىٰ عادةِ مَنْ تَقَــدّمه، ومُنْتَهِيا فيها إلىٰ أحسَنِ ماعهِدَه وعَلِمَه .

وأمَره بلُزوم نَزَاهة الحُرُمات، وآجتنابِ المحُرَّمات؛ والتحَلِّى من العَفَاف والوَرَع بأجمل القَلَائد الرائِقَه، والتقَمُّص بمَلَابس التقوىٰ التى هى بأمثالِه لائِقَــه؛ وسلوكِ مَنَــاهِج الصَّلاح الذى يجُمُل به فِعْلُه، ويصْــفُو له عَلُّه ونَهَله؛ وأن يمنَعَ نَفْســه من الغَضَب؛ ويرُدَّها عمَّا تأمُرُ به من سُوء المُكْتَسَب؛ ويأخُذَها بآدابِ الله سبحانه فى نَهْيِها عن الهَوىٰ، وحَمْلِها علىٰ التَّقْوىٰ؛ ورَدْعِها عن التورُّط فى المَهَاوِى والشُّــبَه، وكلِّ أمْرٍ يلتَبِس فيه الحقُّ ويشْتَبِه؛ ويُلْزِمَها الأخْذَ بالعفْو والصَّفْح، والتأمُّلَ لمكان الأعمــال فيــه واللَّمْح؛ قال الله تعــالىٰ: ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ﴾ .

وأمَرَه بإحسانِ السِّيرة فى الرعايا بتِلْكَ البِلاد، وآختِصاصِهم بالصَّوْن الرائح الغَاد؛ ونَشْر جَناح الرِّعايةِ علىٰ البعِيــد منهم والقَرِيب، وإحْلالِ كلٍّ منهم محَلَّه علىٰ القاعدة

(١) لعله لتجميل بيوته . تأمل .

والترتيب، وإشاعة المَعْـدَلة فيهم، وإسْهامِ دانِيهم مِنْ وافِر مُلاحَظَتِه وقاصِيهم؛ وأن يَحْمِيَ سَرْحَهم من كلِّ داعِر، ويَذُودَ عنهم كلَّ مُوارِبٍ بالفَساد ومُظاهِر؛ حتّى تَصْـفُوَ لهم من الأَمْن الشَّرائع، وتَضْفُوَ عليهـم من بركة وِلَايتـه المَدَارِع، وتستَنير بضَوْء العـدْل منهم المَطَالع؛ ويحتَرِمَ أكابِرَهم، ويَحْنُوَ علىٰ أصاغِرِهم؛ ويشْمَلَهم بكَنَفه ودِرْعه، وينْتَهِيَ فى مَصَالحهم إلىٰ غاية وُسْعه؛ ولا يَأْلُوهم فى النُّصْح جُهْدا، ولا يُخْلِف لهم فى الخير وَعْدا؛ ويُشاوِرَهم فى أمره فإنَّ المَشُورة داعيـةٌ إلىٰ الفَلَاح، ومِفتاحُ باب الصَّـلاح؛ قال الله تعـالىٰ: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْـتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فإذا عَزَمْتَ فتَوَكَّلْ علىٰ اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتوكِّلين ﴾ .

وأمَرَه بإظهار العَدْل فى الرعِيَّة التى تَضُمُّها جميعُ الأكنافِ والأَطْراف، والتحَلِّي من النَّصَفة بأكمل الأَوْصاف؛ وحَمْلِ كافَّتِهم علىٰ أَقْوَمِ جَدَد، وعِصْـيانِ الهوىٰ فى تَقْويم كلِّ أَوَد؛ والمساواةِ بين الفاضِل والمَفْضُول فى الحقِّ إذا ظهر صِدْقُ دليله، والاْشتِمالِ عليهم بالأمن الذى يَعْذُب لهم بَرْدُ مَقِيله؛ وكَشْفِ ظُلامة من ٱنبسطَتْ إلىٰ تَحَيُّفِه الأَيْدى والأطماع، وأعجزَتْه النُّصْرةُ لنفْسه والدِّفاع؛ وتصَفُّحِ أحوالهم بعينٍ لاتَرْنُو الىٰ هَوًى يميلُ بها عن الواجب، وسَمْعٍ لايَصْغَىٰ إلىٰ مَقالة مائِنٍ ولا كاذب؛ ولا يَغْفُل عن مصلحةٍ تَعُود إليهم، ويرجِعُ نفعُها عليهم؛ ولا عن كَشْف ظُلاماتِ بعضِهم من بعض، وردِّهم إلىٰ الحقِّ فى كلِّ رَفْعٍ من أحوالهم وخَفْض؛ فلا يُرىٰ إلَّا بالحق عاملا، وللأُمُور علىٰ سَنَن الشريعـة حاملا؛ مجتنِبًا إغفالَ مَصَالحهم وإهمالَهَـا، وحارسًا نِظامَها علىٰ تتابُعِ الأيَّام وٱتِّصالها: ليكونَ ذلك إلىٰ وُفُور الأجر داعِيـا، وبحسن الأُحْدوثة قاضيا؛ مقتدياً بمـا نطَق به القرءان: ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَان ﴾ .

وأمَرَه أن يأمُر بالمعروف ويُقِيم مَنَارَه، ويَنْهىٰ عن المنكر ويَمْحُوَ آثارَه ؛ فلا يتْرُك مُمْكنًا من إظهار الحقِّ وإعْلانِه، وقَمْع الباطل وإخْمـاد نِيرانِه ؛ ويعتمِدَ مساعدةَ كل مُرْشِد إلىٰ الطريقِ الأقْصَـد، وناهٍ عن التظَاهُر بالمحظُور فى كل مَشْهَد ؛ وكلِّ(١) مَنْ تضحىٰ مَعُونتُـه مشاركـةً فى إحراز المَثُوبة ومساهِمَه، ومُساوِمةً فى ٱقْتِناء الأجر ومُقاسِمَـه ؛ وأن يُوعِزَ بإزالة مَظَانِّ الرَّيْب والفساد فى الدَّانى من الأعمال والقاصِى ؛ فإنَّها مَواطِنُ الشيطان وأماكِنُ المَعاصِي ؛ وأن يشُـدَّ علىٰ أيْدى الآمِرِين بالمعروف والناهِينَ عن المُنْكَر، ويُعِينَهم علىٰ ذٰلك بمـا يَطِيبُ ذكْرُه فى كل مَشْهَد ومَحْضَر ؛ ويجتَهِـدَ فى إزالة كلِّ محظُور ومنْكَر، مقـدّمٍ فى الباطل ومؤَخَّر ؛ قال الله تعـالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ بالمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عن المُنْكَرِ ﴾ .

وأَمرَه أن يُقدِّم الاحتياطَ فى حفظ الثُّغُور ومجاوِرِيها من الكُفَّار، ويستعمِلَ غايةَ التيقُّظ فى ذٰلك والاستظهار : ليأمَن عليها غَوائلَ المَكايِد، ويفُوزَ من التوفيق لذٰلك بأنواع المَحامِد ؛ ويتجرَّدَ لجهاد أعداءِ الدين، والانتقامِ من الكَفَرة المارقين ؛ أخْذا بقول رب العالمين : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالًا وجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ فى سبيلِ الله ذٰلِكُمْ خيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون ﴾ . وأن يعملَ فيما يحصُل من الغَنائم عنـد فَلِّ جُمُوعهم، وٱفتتاح بلادِهم ورُبُوعهم ، بقول الله وما أَمَرَ به فى قِسْمتها، وإيفـاءِ كلِّ صاحبِ حصته منها ؛ سالكًا سُبُلَ مَنْ غدا لآثارِ الصـلاح مُقْتفيا ، وللفَرْض فى ذلك مؤدِّيا ؛ وبِهُدىٰ ذَوِى الرشـد مُهْتَدِيا . قال اللهُ تعـالىٰ فى محكم التنزيل : ﴿ وٱعْلَمُوا أنَّمَـا غَنِمْتُمْ مِنْ شَىْء فَأَنَّ لِلّٰهِ خُمُسَـهُ وللرَّسُول ولِذِى القُرْبىٰ والْيَتَامىٰ والمَسَاكِينِ وٱبنِ السَّبِيل ﴾ .

(١) فى الأصل فانه من تضحى الخ تأمل .

وأمَرَه أن يُجيبَ إلىٰ الأَمَان مَن طلَبه منه، ويكونُ وفاؤُه مقترِنا بمـا تضَمَّنه ؛ غيرَ مُضْمِرٍ خلافَ ما يُعْطِى به صَفْقةَ أمانه، ويجتَنِبَ الغَدْر وما فيه مِن العار، وإسْخاط المَلِك الجَبَّار؛ قال الله عزوجل : ﴿وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذَا عَاهَدْتُمْ ولا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِها وقد جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إنَّ اللهَ يَعْلَمُ ماتَفْعَلُون﴾ .

وأمَرَه بأن يأمُرَ أصحابَ المَعاوِن بمساعدة القُضَاة والحُكَّام ، ومَعُونتِهم بما يَقْضى [بلَمِّ] شَمْلِ الصلاح فى تنفيذِ القضايا والاْنتِظام؛ وأخْذ الخُصُوم بإجابةِ الداعى إذا آستُحْضِر[وا] إلىٰ أبوابهم للإنصاف ، والمُسارعةِ إلىٰ الحقِّ الواجبِ عليهم من غيْرِ خِلَاف؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وأَكْثَرُهُمْ للحَقِّ كارِهُون ﴾ .

وأمره بالتعويل فى المَظَالم وأسواقِ الرقيق ودُور الضَّرْب والحِسْبة علىٰ مَنْ يَأْوى إلىٰ عَفَافٍ ودِين، وعِلْمٍ بأحكام الشريعة وصِحَّةِ يَقين؛ لايخفىٰ عليه ماحَرَّمه الله تعالىٰ وأحَلَّه ، ولا يلتبسُ علىٰ عِلْمه ماأوْضَح إلىٰ الحقِّ الواضِح سُبُلَه ؛ وإلىٰ مَنْ يتولَّى المَظالِمَ بإيصال الخُصُوم إليه ، وإنصافِهم كما أوجبه اللهُ تعالىٰ عليـه ؛ وآستماعِ ظُلَاماتهم، وإحسانِ النظَر فى مُشاجَرَاتِهم؛ فإنْ أسفَرَ للحق ضِياءٌ تَبِعه، أو آشتَبَه الأمرُ ردّه إلىٰ الحُكَّام ورَفَعه . و[إلىٰ] الناظِرِ فى أسواق الرقيق بالاْحْتِراز والاْستِظْهار ، وتَعْرِيةِ الأحوال من الشُّبَه فى آمْتِزاج العبيد بالأحرار : لتضحىٰ الأنسابُ مَصُونةً مرعِيَّه ، والأموالُ عن الثَّلْم محرُوسةً محميَّه . وإلىٰ من ينظُر فى الحِسْبة بتصَفُّح أحوال العامَّة فى مَتَاجِرهم وأمْوالِهم ، وتتَبُّعِ آثار صِحَّتِهـم فى المعاملة وآعْتِلالِهم ؛ وآعتبار المَوَازين والمَكَاييـل ، وإلزام أربابِهـا الصِّحَّةَ والتعـديل ؛ قال الله سـبحانه وتعـالىٰ : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ المُسْتَقِيم ﴾ .

وأن يُعْمل الجفن فى تطهير البِـلاد، من كلّ مدْخُول الاعتقاد ، معروفٍ بالشُّبه فى دينِه والإلحاد، ومَنْ يسعىٰ منهم فى الفَساد، ويأمُرَ المرتَّبين فى المراكز والأطْراف باقْتِناصهم، وكَفِّ فسادِهم وإجْلائهـم عن عِراصِهم؛ وأن يُجْرِىَ عليهم فى السِّياسة ما يجبُ علىٰ أمثالهم من الزَّنادقة والذين تَوْبتُهم لا تُقْبل ، وأمْرُهم علىٰ حُكْمِ المخاطِبين لايحمل . قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ كَفروُا بَعْدَ إيمَـانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدادُوا كُفْرا لن تُقْبَلَ تَوْبتُهم وأولٰئِكَ هُمُ الضّآلُّون﴾ .

وأمَرَه أن يتلَقّىٰ النعمةَ التى أُفْرِغتْ عليه،وٱنساقَتْ إليه، بشُكْرٍ يَنْطِق به لسانُه، ويُتَرجم عنه بَيانُه : ليَستديمَ بذٰلك الإكرام، ويقْتَرن الإحسانُ عنده بالالْتئام، وأن يُوفّيها حقَّها من دوامِ الحمـد ، والقَصْد إلىٰ شُكْرها والعـمْد ؛ قال الله تعـالىٰ : ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فإنَّمـا يَشْكُرُ لنَفْسه ﴾ .

ولْيعلمْ أن أمير المؤمنـين[(١)] قد بيَّن له من الصـلاح ما ٱتَّضحَتْ أعلامه ، وأُثْبِتتْ فى المَرامى سِهامُه، وأرشَد إلىٰ ماأودَع هذا المنشور من جَدَد الفوز بمرضاة الله تعالىٰ وشُكْرِ عبـاده ، عاملًا فى ذٰلك بمقتضىٰ جِدّه وٱجتهاده : لِيُحْرِز السَّـبْق فى دنيـاه وعُقْباه ، ويَتَوفَّر عنـده ما مُنِح به ممـا أرْهَف عَزْمَه وحَباه ؛ وغدا بمكانِه رافلًا فى ملابِس الفَخْر والبَهاء ، نائلًا منى ما طال به مَناكِبَ القُرناء، وٱختصَّ بمـا أعلىٰ درجَتَه فتقاعسَتْ عنه آمالُ حاسديه، وتفرّد بالمكانة عن مَقام من يُبارِيه ويُناويه؛ وأُولِىَ من الإنعام ما أمَّنَ به سِرْبَ النعمة عنـده ، وأَصْـفىٰ من مَناهِل الإحسان وِرْده؛ وأهدىٰ إليه من المواعظ مايجبُ أن يُودِعه واعيةَ الأسماع،ويأُخُذَ بالعمل به كُلُّ راع؛ فيَنْهَج ـ أدام الله علوّه ـ مَحاجَّ الولاء، الذى عَهِده من أمثاله من الأولياء،

(١) فى الأصل وليعلم أن الله وهو غير موافق لباقى الكلام كما لايخفى .

متنزِّها عن تقصيرٍ منه فى عامَّة الأوقات ، ومراعيًا أفعالَه فى جميع التصرُّفات؛ ويعلم أنَّه مسئُول عن كل ماتلفَّظ به لسانُه ناطقا، ونظَر طرْفُه إليه رامقا؛ قبْلَ أن يُجانب هَوَاه ، ويَبْقىٰ رهينًا بما ٱكتسبَتْ يداه ؛ ولا يغـتَرَّ من الدنيا وزُخْرفِها بغَرَّار ليس الوفاءُ من طبـاعه، ومُعِيرٍ ما أقْصر مدَّةَ ٱرتجاعه ! ؛ وسبيلُ كافَّة القضاة والأعيـان ومقدّمِى العساكر والأجناد ، ورُؤساءِ البلادِ، متابعتُه وموافقتُه ، وطلبُ مصالحهم من جَنابِه ، والتصرفُ علىٰ ٱستصوابه ؛ وقد أُكِّدتْ وَصَاتُه فى الرفق بهم والاشتمالِ عليهم ، والإحسان إليهـم ، وإجْمال السِّيرة فيهم ؛ وكلَّما أشكل عليه أمْرٌ من المتجدّدات يطالع به الديوانَ العزيز ـ مجده الله تعـالىٰ ـ ليُنْهِج له السبيل إلىٰ فتح رِتَاجه، وسُلُوك مِنْهاجه ؛ والله ولىُّ التوفيق والهـدايه ، وجمع الكلمةِ فى كلِّ إعادةٍ وبِدايه ؛ والمعونةِ علىٰ العِصْـمة من الزَّلَل، والتأييدِ فى القول والعمَل؛ إن شاء الله تعالىٰ، وهو حسبُنا ونِعْم الوكيل .

الوجـــــه السابع

(فيما يكتب فى مستَنَد عهد السلطان عن الخليفة، ومايكتُبه الخليفةُ فى بيت العلامة، ومايُكْتَب فى نسخة العهد من الشَّهادة أو مايقومُ مَقامَها)

أما مايكتَب فى المستَنَد، فقد جرتِ العادةُ أن يكتَب فيه نحوُ ماتقدّم فى البَيْعات وعُهودِ وُلاة العهد بالخلافة : وهو : « بالإذْن العالىّ ،المولَوىّ، الإمامىّ، النَّبوىّ ، الفلانىّ (بلقب الخلافة) أعلاه الله تعالىٰ » .

وأما مايكتُبه الخليفةُ فى بيت العلامة، فإنه يكتُب علامَته وتحتها : « فوّضْتُ إليه ذٰلك، وكتَب فلانُ بنُ فلان» . ورأيت فى بعض الدساتير نَقْلا عن الحاكم بأمْر الله

أبى العباس [آبن الخليفة] المستكْفِى بالله أبى الربيع سليمان [أنه] كان يكتب : « وكتب أحمد آبن عمّ سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم » .

وأما مايُكتَب فى نسخة العهد من الشَّهادة، فقد جرتِ العادةُ أن يكتُب قاضيان فأكثرُ من قُضاة القضاة الأربعة فى حاشـيَةِ العهد أو فى ذَيْله ماصورتُه : «أشهدَنِى مولانا أميرُ المؤمنين العاهدُ المشارُ إليه فيه ــ أدام الله تعالىٰ أيّامَه ــ بمـا نُسِب إليه فيه من العهد إلىٰ فلانِ بنِ فلان » أو ما فى معنىٰ ذلك .

قلت : والواجب أن يضُمُّوا فى رسم شهادته الشهادةَ علىٰ السلطان بقَبُول العهد، بأن يقال قَبْل علىٰ مانُصَّ وشُرِح فيه : « وعلىٰ مولانا السلطانِ المشارِ إليه فيه بقَبُول مافُوِّض إليــه فيه » أو نحو ذلك : لأنه كما يعتبر العهدُ من العاهد يعتــبر القَبُول من المعهود إليه كما تقدّم فى مَوْضِعه .

الوجـــــه الثـامن

(فى قَطْع الورق الذى تُكتَب فيــه عهُودُ الملوك عن الخلفاء، والقلم الذى يُكتَب به، وكيفيَّةِ كتابتها، وصورةِ وضْعها فى الورق)

أما قطْعُ الورق فلا نِزاعَ فى أنه يُكتَب فى قَطْع البغــدادىِّ الكامل ، علىٰ ماهو مستقِرّ العادة إلىٰ الآنَ . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق فى المقالة الأُولىٰ[(١)] من الكتّاب أنَّ عَرْضَه ثلاثةُ أشبار وخمسةُ أصابع ، وطُول الوصل كذٰلك .

---

(١) كذا فى الأصــل مضببا عليــه ولم يتقدّم فى الأولى وانمـا تقــدم فى المقالة الثالثة الكلام على المقادير وأن عرض البغــدادى الكامل ذراع واحد بذراع القماش المصرى . انظر ج ٦ ص ١٩٠ من هذا المطبوع .

وأما القلم الذى يكتب به، فمختَصَر قلم الطُّومار لمناسبته له علىٰ ماتقدّم فيما يُناسب كل قَطْع من الورق من الأقلام .

وأما كيفيَّة كتابة العهد وصورةُ وضعه فى الورق، فعلىٰ ماتقدّمَ فى البَيْعات وعُهودِ أوليـاء العهد بالخلافة : وهو أن يَبْـدأ بكتابة الطُّرَّة فى أعلىٰ الدرج من أوّل عَرْض الورق إلىٰ آخره سـطورًا متلاصقةً من غير هامشٍ، وفى أعلاه قدْرُ إصبع بياضًا، ثم يترك سـتةَ أوصالٍ بياضًا من غيْرِ كتابة غير الوصل الذى فيـه الطُّرَّة ؛ ثم تكتبُ البسملةُ فى أوّلِ الوصل الثامن بحيثُ تكونُ أعالِى ألفاتها تكادُ تلْحَق بالوصل الذى فوقه، بهامش عن يمين الدَّرْج قَدْرِ أربعة أصابع مطْبُوقَة أو خمسة؛ ثم يكْتُب سطرا من أوّل العهد تحت البسملة ملاصقا لها بحيثُ تكاد أعالى ألفاته تلْحَق بالبسملة، ثم يخَلِّى بيتَ العلامة قدْرَ شبر، ثم يكتب السطر الثانىَ من العهد علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة، ويسترسل فى كتابة بقية العهد .

ثم الذى رأيتـه فى دُسْـتُور معتمد يُنْسَب للمقرّ العلائىِّ بن فضـل الله أنه يكون بين كلِّ سطرين قدر ربع ذراع . وأخبرنى بعضُ فضلاء الكُتَّاب أنه رأىٰ فى بعض الدساتير أنَّ سُـطورَه تكون مُزْدوِجةً علىٰ نظير البسملة والسـطر الأوّل، وبين كل سطرين بعد بيت العلامة تقديرُ خمسةِ أصابع مَطْبوقةٍ .

قلت : ولعل ذلك تفنُّن من الكاتب وتطريزٌ للكتابة، لاعلىٰ سبيل اللُّزوم .

فإن قيـل : لِمَ كان مِقدارُ البياض بين سُطُور العهد مع كِبَرِ قَطْع الورق دُونَ بياض ما بين سُطُو ر التقاليد ونحوها ممـا يكتب عن السلطان علىٰ ما سيأتى ذكره ؟ فالجواب أن العهد كالمكاتبة من العاهد للمعْهُود إليـه، كما أنَّ التقليد كالمكاتبـة من المقلِّد للمقلَّد، والأعلىٰ فى حقِّ المكتوب إليه أن تكون السطور متضايقةً علىٰ ماتقدّمُ

فى الكلام علىٰ المكاتبات، فناسب أن تكونَ سطورُ العهد أكثرَ تقارباً من سطور التقليد وما فى معناه، تعظيما لشأن السلطان فى الحالتين .

فإن قيل : ينقَض ذٰلك بعظم قلَم العهد ، ضرورةَ أنه كلَّما غلُظ القلمُ كان أنزل فى رُتْبة المكتوب إليه علىٰ ماتقدّم أيضا ، فالجوابُ : أن غلَظ القلم فى العهد تابعٌ للورق فى كِبَر قَطْعه، وقاعدةُ ديوان الإنشاء أنه كُلَّما كَبِر قطعُ الورق فى المكاتبات ، كان تعظيماً للمكتوب إليه، بدليل أنَّ كلَّ من عَظُم مقداره من الملوك كان قَطْع الورق فى مكاتبته أكْبَر، ولو كُتِب العهدُ بقلم دقيق معَ ضِيق السُّطور وسَعة الورَق لجاء فى غاية القِصَر . ثم قد جرتِ العادةُ أن تكون كتابةُ العهد من أوّله إلىٰ آخره من غير نَقْط ولا شَكْل، وعليه عملُ الكُتَّاب إلىٰ آخرِ وقْت .

قلت : هـذا بناءً علىٰ المذهَب الراجح فى أن المكاتبـةَ إلىٰ الرئيس تكونُ من غير إعجام ولا ضَبْط : لمـا فى الإعجام والضَّبْط من ٱستجهال المكتوبِ إليه ونِسبَته للغَباوة وقِلّة الفهم، بخلاف من ذَهَبَ إلىٰ أن الكتابة إلىٰ الرئيس تُقَيَّـد بالإعجـام والضـبطِ كى لايعترِضَه الشكُّ ، ولا يُكلَّف إعمـالَ الفِكر، علىٰ ما تقدّم ذكـره فى أوائل المكاتبات، فإنه يرىٰ نَقْط العهد وشكْلَه .

وإذا ٱنتهىٰ إلىٰ آخر العـهد كتب المشيئةَ ، ثم التاريخ ، ثم المستَنَد ، ثم الحمدلة والصـلاة علىٰ النبيّ صلى الله عليـه وسلم ثم الحسـبلة، علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ الفواتح والخواتم فى أوائل المقالة الأولىٰ من الكتاب .

وهـذه صورة وضعه فى الورق، ممثَّلا له بالطرّة التى أنشأها القـاضى علاءُ الدين ٱبن عبـد الظاهر ، والعهد الذى أنشأه القـاضى شمسُ الدين إبراهيمُ بنُ القَيْسرانى للملك الناصر "محمد بن قلاوون" وهو العهد الأخير من المذهب الأوّل .

الطـــرة

هذا عهدٌ شريفٌ تجدّدتْ مَسَرّاتُ الإسلامِ بتجديده، وتأكّدتْ أسبابُ الإيمانِ بتأكيده، ووُجِد النصرُ العزيزُ والفتحُ المبينُ بوُجُوده، ووَفَد اليُمْنُ والإقبالُ علىٰ الخَليقة بوُفُوده، ووردَ الأنامُ مَوْرِدَ الأمانِ بوُرُوده . من عبدالله ووليِّه الإمام المستكْفِي بالله أبي الربيع سليمان أمير المؤمنين، آبن الحـاكم بأمر الله أبي العباس أحمد، عَهِد به إلىٰ السلطان الملك النـاصر أبي الفتح محمـد خلّد الله سلطانه، آبن السـلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي قدّس الله روحه علىٰ ما شرِح فيه .

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

الهـامش هـــذا عهدٌ شريفٌ يَعْمُر بك للإســلام المَعَاهد، ويَنْصُر منك الأعتِزامَ

بيت العـــلامة

فتَغْنىٰ عن المُوالى والمُعاضِد، ويُلْقِي إليك مقاليدَ الأمور لتَحْمِيَ فى مَرْضاة

تقـــدير ربع ذراع

الله وتُجاهِد، و يَبْعَثُك علىٰ العمل بالكِتاب والسُّنّة : ليكونا شاهدين لَكَ

تقـــدير ربع ذراع

عنْدَ الله فى أعظم المَشَاهد ــ إلىٰ أن يأتىَ إلىٰ قوله فى آخره : والله تعالىٰ

الهامش يخلّد له رُتبةَ المُلْك التى أعلىٰ بها مَقامَه، ويُديمُه ناصرًا للدين الحنيف

فأنصارُه لايزالُون ظاهِرِين إلىٰ يَوْمِ القِيامه؛ ويجعل سببَ هـذا العهدِ

مَدىٰ الأيام مَتِينا ، ويجـدِّدُ له فى كل وقت نصْرا قريبًـا وفَتْحا مُبِينا ؛

والخط الحـاكمىُّ أعلاه، حجةٌ بمقتضاه

إن شاء الله تعالىٰ

كتب فى من شـهر كذا

سـنة كذا

بالإذْن العـالى المَـوْلوى الإمامىّ النبَّـوىّ الحـاكمىّ

أعـــــلاه الله تعـالى

الحمد لله وحدَه، وصلواتُه علىٰ سيدِنا محمدٍ وآله وصحبه وسلامُه

حسبنا الله ونعم الوكيل

النـــــوع الثـالث

(من العُهود عهودُ الملوك لوُلاة العهْد بالمُلْك)

وهو أن يعْهَد الملكُ بالمُلْك بعـده لمن يختاره من أولادِه أو إخْوته أو غيرهِم من الأقارب أو الأجانب .

ويتعلق النظـــرُ به من ســبْعة أوجه :

الوجـــه الأوّل

(فى بيـان صِحّــة ذٰلك)

لَـمَّا صَحَّت إمارةُ الاِستيلاء إخمادًا للفِتَن،وتنفيذًا للأحكام الشرعيَّة علىٰ ماتقـدّم من كلام المـاوردىّ فى النوع الثـانى من العهود، ٱقتضتِ المصلحةُ تصحيحَ العهد بالمُلْك لمـا فيـه من المعنىٰ المتقدّم . وقد جرَتْ عهودٌ من الملوك لأبنائهـم بالديار المصرية وغيرها بحضرة الجمِّ الغفير من العلماء وأهل الحلِّ والعَقْد فأمضَوْا حكم ذٰلك ولم ينكِرُوه، وذلك منهم دليلُ الجواز .

فإن قيل : قد تقدّم فى النوع الثانى من العُهُود من كلام المـاوردىّ أن وزِيرَ التفويض لايجوز له أن يَعْهَـد بالوِزارة لغيره ، ووزارةُ التفويض فى معنىٰ السلطنة الآنَ أو قريبةٌ منها علىٰ ماتقـدّم هناك ، فالجواب : أنه قد تقدّم أن السلطنةَ الآنَ مُرَكَّبة من وِزَارة التفويض وإمارةِ الاِستيلاء، بل السلطانُ الآنَ كالمستبدّ بالأمر، والشوكةُ مصحِّحة لأصل الولاية فلأن تكونَ مصحِّحةً لفرعها أولىٰ .

الوجـــــه الثـانى

(فيما يكتب فى الطـرّة)

ينبغى أن يكونَ مايكتَب فيها علىٰ نحو مايكْتَب فى طُرَر عهُود الملوك عن الخلفاء، إلا أنه يُزاد فيها : « عهِدَ إليه بالمُلْك بعده » كما يقال فى عهود الخلفاء عن الخلفاء : « عَهِد إليه بالأمر بعدَه » .

وهذه نسخة طـرّة :

«هذا عهْدٌ شريفٌ جليلٌ قدره ، رفيعٌ ذكره، علىٌّ نخرُه ، متبلِّج صُبْحه ضَوِّىّ فجْرُه . من السلطان الأعظم الملك الفلانىّ فلان الدنيا والدين فلان ، خلَّد الله تعالىٰ سلطانَه، ونصر جُيوشَه وأعوانه ـ بالسلطنة الشريفةِ لولده المَقَام العالى السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ ، بلَّغه الله تعالىٰ فيه غايةَ الآمال، وحقَّق فيه للرعية مايرجُونه من مَزيد الإفضال، علىٰ ما شرح فيه» .

الوجـــــه الثـالث

(فى الألقاب التى تُكْتَب فى أثناء العـهد)

وقد ذكر فى "التعريف" أنه يُكتَب له : المَقَام الشريف أو الكريم، أو العالى مجرّدا عن الشريف والكريم، ويُقْتَصر فيها علىٰ الألقاب المفْردة دُونَ المركبة .

قلت : وعلىٰ هـذه الطريقة كتب القاضى محيي الدين بن عبـد الظاهر ألقاب الملك الصالح علىّ بن المنصور قلاوون فى عهده بالسلطنة عن والده المذكور، فقال : « ولمَّـا كان المقامُ العالى الوَلَدىّ السلطانىّ المَلَكىّ الصالحىّ العمادىّ » .

وعلىٰ نحو من ذلك كتب المشارُ إليه ألقابَ الملك السعيد بركةَ بن الظاهر بيبرس فى عهده بالسلطنة عن والده المذكور، فقـال: «وخرج أمْرُنا بأن يكتَبَ هـذا التقليدُ لولدنا الملكِ السـعيدِ ناصرِ الدين بَرَكة خاقان محمد» إلا أنه قد خالف ذٰلك فيما كتب به فى ألقاب الملكِ الأشرفِ خليل بن المنصور قلاوون فى عهده بالسلطنة عن والده بجمع بينَ الألقاب المفْرَدة والمركَّبة، فقال: «هذا عهدُنا للسيِّد الأجل الملكِ الأشرفِ صلاح الدُّنيا والدين، فخرِ الملُوك والسلاطين، خليلِ أمير المؤمنين» ولم يتعرّض فى التعريف لحكاية هـذا المذْهَب، مع كون كلام ابن عبـد الظاهر حجةً يُرْجَع إليه فى هذا الفن.

الوجـــــه الرابع
(ما يكتب فى المســتند)

ويتعين أن يُكْتَب فيـه «حسَبَ المرسُوم الشريف» لصُدُوره عن السلطان كما يُكْتَب فى التقاليد.

الوجـــــه الخامس
(ما يكتب فى مَتْن العــهد)

وللكُتَّاب فيــه طريقتان:

الطريقةُ الأُولىٰ — أن يفتَتَح العهدُ بعد البسملة بلفظ «هذا» ونحوه علىٰ ماتقدّم فى عُهُود الملوك عن الخلفاء.

وعلىٰ هذه الطريقة كتب أبُو بَكْرِ بنُ القَصِيرة المغربىّ الكاتبُ عن أمير المسلمين «يوسف بن تاشفين» سلطان المَغْرِب بولايةِ عهدِه لابنه أبى الحسن علىٰ مابيدَه من الغَرْب والأندَلُس، فى ذى الحجة سنة ستٍّ وتسعين وأربعمائة، وهو:

كتابُ توليةِ عظيمٍ جَسِيم ، وتوصيةِ حَمِيم كريم ؛ مُهِّدت علىٰ الرضا قواعِدُه ، وأُكِّدت بيدِ التقوىٰ معَاقدُه ، وأُبعِدت عن الغَوَاية والهوىٰ مصادِرُه ومَوَارِدُه ؛ أنفذه أميرُ المسلمين وناصرُ الدِّين ، أبو يعقوبَ يوسفُ بنُ تاشفين ؛ أدام الله أمره ، وأعزَّ نصره ، وأطال فيما يُرْضِيه ويَرْضىٰ به عنه عُمُرَه ؛ غيرَ محابٍ ، ولا تاركٍ فى النصيحة لله عز وجلّ ولرسوله موضِعَ ٱرتيابٍ لمُرْتاب ـ للأمير الأجلِّ أبى الحسن علىّ ٱبنِهِ المتقبل شِيَمه وهِمَمه ، المتأثِّل حِلْمَه وتحلُّمه ؛ الناشئ فى حَجْر تقويمِه وتأْديبه ، المتصرِّف بين يَدَىْ متحديه (١) وتَهْذِيبه ؛ أدام اللهُ عِزَّه وتوفيقَه ، وأَنْهج إلىٰ كل صالح من الأعمال طريقَه ؛ وقد تهمَّم بمَنْ تحتَ عَصَاه من المسلمين ، وهذا فيمَنْ يخلُفُه فيهم هُدًى للمتقين ، ولم يرَ أن يَتْرُكَهم سُدًى غيرَ مَدِينين ؛ فٱعْتَام فى النِّصاب الرفيع وٱختار ، وٱستَنْصَح أُولِى الرأْى منهم ومن غيرهم وٱستَشَار ، وٱستضاء بشِهاب ٱستخارةِ الله عزَّ وجلَّ وٱستنار ؛ فلم يُوقِعِ الله بعد طُول تأَمُّل ، وتراخى مُدّةٍ وتمهُّل ؛ اختيارَه ولا ٱختيارَ مَنْ فاوضه فى ذٰلك من أُولى التقوىٰ والحكمة والتجربة وٱستَشاره إلَّا عليه ، ولا صارَ به وبهم الٱجتهادُ إلَّا إليه ، ولا ٱلتقىٰ وُرَّاد التَّرائى والتشاوُر إلا بينَ يدَيْه ؛ فولَّاه علىٰ ٱستحكامِ بصيرةٍ وبعْدَ طُول مَشُورةٍ عهدَه ، وأفضىٰ إليه بالأمْرِ والنهيِ والبَسْط والقبضِ بعْدَه ؛ وجعله خليفتَه فى رَعايا مَسْنَده وأَوْطأَ عقِبَه جَمَاهيرَ الرجال ، وناطه بمُهِمَّات الأموال والأحوال ؛ وعَهِد إليه أن يتَّقِيَ الله ما ٱستطاع ، ولا يَعْدِلَ عن سَمْت العَدْل وحُكْم الكتاب والسنَّة فى أحد عَصىٰ أو أطاع ، ولا ينامَ به عن حِمايةٍ من أسْهره الحَيْف والخَوْف والٱضْطِجاع ؛ ولا يتلَهَّى دُونَ معْلِن شَكْوىٰ ، ولا يتصَمَّم عن مستصْرِخٍ لِدفاعِ بَلْوىٰ ؛ وأن يَنْتظِمَ أقصىٰ بلادِه وأدناها فى سِلْك تدبيرِه ، ولا يكونَ بين القريب والبعيدِ من رعيَّته بونٌ

(١) كذا فى الأصول ولعله تجريبه . تأمل .

فى إحصائِه وتقديره؛ ثم دعَا ــ أدام الله تأييدَه ــ لمبايعَته مَنْ دنَا ونأىٰ من المسلمين، فلبَّوْا مسرِعين وأَتَوْا مُهْطِعين، وأعطَوْا صَفْقة أيمـانهم متبرِّعين متطوِّعين؛ وبايعُوه علىٰ السَّـمْع والطاعه، وٱلتزامِ سَنَن الجمـاعه؛ وبَذْل النصـيحه، وإصْـفاء النِّيَّات الصحيحه؛ ومُوادّةِ مَنْ صاحَبه، ومحارَبَة من حارَبه؛ ومكايَدة من كايَدَه، ومعانَدَة مَنْ عانده؛ لا يدّخِرُون فى ذٰلك علىٰ حال المَكْرِه والمَنْشَـط مَقْـدُره، ولا يحتجُّون فى وقْتِي السُّخْط والرضا بمَعْـذِره؛ ثم أمر بمخاطبةِ أهـل البلادِ لتُبايِعَه كلُّ طائفـة فى بلدها، وتُعطِيَـه كما أعطاه مَنْ حضر صَفْقةَ يدها؛ حتّى يستوِيَ فى ٱلتزام بَيْعته، القريبُ والبعيـد، ويجتمِعَ علىٰ الٱعتصام بحبل دَعْوته، الغائبُ والشهيد؛ وتطْمَئِنَّ من أعلام الناس وخَيْرهم قلُوبٌ كانت من تَراخِي ما ٱنْتجز قَلقه، ولم تزَلْ ببقية التأخُّر أرِقَه؛ ويشملَ الناسَ السرورُ والٱستبْشار، وتمكَّن لهم الدَّعةُ ويتمَّهد القَرار؛ وتَنْشأ فى الصَّـلاح لهم آمال، ويستقْبِلَهم جَدٌّ صاعدٌ وإقبـال؛ والله يُبارك لهم فيها بَيْعةَ رِضْوان، وصفْقةَ رُجْحان، ودَعوةَ إيمـان؛ إنه علىٰ ما يشاء قدير، لا إلٰهَ إلا هو نعم المولىٰ ونعم النصير.

شهد علىٰ أمير المسلمين[(١)] ناصرِ الدين، أبى يعقوبَ يوسفَ بن تاشفين ــ أدام الله أمره، وأعزّ نصره ــ بكلِّ ما ذُكر عنه من ٱلتزام البَيْعة المنصوصة فوق هذا، وأعطىٰ صَفْقة يمينِه متبرِّعا بها، وبالله التوفيق. وذلك بحضرة قُرْطبةَ حماها اللهُ تعالىٰ.

الطريقة الثـانية ــ أن يُفْتتح العهدُ بعـد البسمِلة بخُطْبـة مفتتَحةٍ بالحمد لله، وهى طريقة المِصْريين، وعليها ٱقتصر المقرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى "التعريف" وعلىٰ هذه الطريقة كتب القـاضى محيي الدين بن عبد الظاهر عن الظاهر بِيبَرْس عهد ولدِه الملك السعيدِ برَكة، وهذه نسخته:

(١) فى الأصول أمير المؤمنين وهو سهو عمـا تقدم فتنبه.

الحمدُ لله مُنَمِّى الغُرُوس، ومُبْهِج النُّفُوس، ومُزَيِّنِ سماءِ المملكة بأحسَنِ الأهِلَّةِ وأضْوإ البدُور وأشرقِ الشُّموس؛ الذى شَدّ أَزْر الإسلام، بملوك يتعاقَبون مصالحَ الأنام، و يتناوَبُون تدبيرَهم كتَناوُب العينين واليدين فى مُهِمَّات الأجساد ومُلِمَّات الأَجْسام .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى أيقظَتْ جَفْن الشُّكْر المُتغافِى، وأوردَتْ نَهْل الفضل الصافِى، وخَوَّلتِ الآلاءَ حتّٰى تمسَّكت الآمالُ منها بالوَعْد الوَفِىّ وأخذَتْ بالوَزْن الوافى ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ كَثَّر الله عَدَده وعُدَده ، وأَحْمَد أمسَه و يَوْمَه ويُحْمِدُ - إن شاء الله تعالىٰ - غدَه ؛ ونُصلِّى علىٰ سيدنا محمد الذى أطْلع اللهُ به نَجْمَ الهدىٰ ، وألبس المشركين به أرْدِيَةَ الرَّدىٰ ؛ وأوضَح به مَناهِجَ الدين وكانتْ طرائِقَ قِدَدا، صلّٰى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً دائمةً لا تنقضى أبدا .

وبعدُ، فإنا [بما] أَلْهَمَنا الله من مصالح الأُمَم ، وخَوّلنَا من الحِرْص علىٰ مُهِمَّات العباد الذى قَطَع به شَأْفَةَ الكُفْر وخَتَم ، وأتىٰ به والشركُ قد عَلِم كلُّ أحدٍ ٱشتعالَ ناره فكان عَلَما بنارٍ مُضْرَمة لا نارًا علىٰ عَلَم ؛ وقدَّره من رفع الكُفْر من جميع الجوانِب، وقفوهم من كل جهة حتّٰى رماهم بالحَتْف الواصِلِ والعذابِ الواصِبِ؛ فأصبَحَ الشِّركُ من الإبادةِ فى شَرَك، والإسلامُ لا يَخْشىٰ من قَتْل ولا يخافُ من دَرَك؛ وثُغورُ الإسلام عاليةُ المبتنىٰ ، جانيةٌ ثِمَارَ الٱدِّخار من هُنا ومن هُنا؛ تُزاحِم بُرُوجُها فى السماء البُروج، وتشاهِدُ الأعداءُ منها سماءً قد بُنِيت وزُيِّنَتْ وما لها من فُرُوج؛ وعساكرُ المِلّة المحمديّة فى كلِّ طَرَف من أطراف الممالك تجُول ، وفى كلِّ وادٍ تهِيمُ حتّٰى تَشْعُر بالنصر ولٰكنَّها تفعل ماتقُول؛ قد دوّخت البلادَ فقتلَت الأعداء

تارةً بالإلْمَام وتارة بالإدْهام[١]، وسلَّت سُيُوفها فراعَتْهم يقظةً بالقِرَاع ونَوْما بالأحْلام؛ ترىٰ أنا قد لَذَّ لنا هذا الأمرُ ٱلتِذاذَ المُسْتَطيب، وحَسُن لدينا موقِعُه فعكَفْنا عليه عُكُوف المستجيد ولبَّيناه تلبيةَ المستَجيب؛ وجعلْنا فيه جميعَ الآلاتِ والحَوَاس، وتَقَسَّمت مباشَرتُه ومُؤامَرتُه سائرَ الزمَن حتّىٰ غدا أكثَرَ تردُّدا إلىٰ النَّفْس من الأنفاس؛ وٱستنْفَدْنا الساعات فى ٱمتطاء المُضَمَّر الشَّمُوس، وٱدّراع مُحْكَم الدِّلَاص التى كأنها وميضُ بَرْقٍ أو شُعاعُ شُمُوس؛ وتجريد المُرهَفات التى جفَتْ لِحاظُها الأَجْفان، وجَرَتْ فكالمِيَاه وأُضرِمتْ فكالنِّيران؛ وتَفْوِيق السهام التى غدَتْ قِسِيُّها مرابعا نبالها بان (؟)، وٱعتقالِ السَّمْهَرِيَّة التى تَقْرَع الأعداءُ سِنَّها نَدَما كُلَّما قَرَعت هى السِّنان، إلىٰ غير ذلك من كلِّ غارةٍ شَعْواء تُسىءُ للكُفَّار الصَّباح، وتَصْدِمُ كالجبال وتَسِيرُ كالرِّياح؛ ومُنازَلاتٍ كم ٱستلبَتْ من مَوْجُود، وكم ٱستنْجزَتْ من نصرٍ مَوْعُود، وكم مدينةٍ أَضْحتْ لها مَدِينةً ولَكِنْ أخّرها اللهُ إلىٰ أجل مَعْدود.

وكانت شجرتُنا المباركةُ قد ٱمتدّ منها فَرْعٌ تفرَّسْنا فيه الزيادةَ والنُّمُوّ، وتوسَّمنا منه حُسْن الجَنىٰ المرجُوّ؛ ورأينا أنَّه الهلالُ الذى قد أخذَ فى ترقِّى منازِل السُّعود إلىٰ الإبدار، وأنه سِرُّنا الذى صادفَ مكانُ الآختبار له مكانَ الآختيار؛ فأردنا أن نَنْصِبه فى مَنْصِب أحلَّنا اللهُ فسيحَ غُرَفه، ونُشَرِّفه بما خوّلنا اللهُ من شَرَفه؛ وأن تكون يدُنا ويدُه تلتَقِطان من ثَمَره، وجِيدُنا وجِيدُه يتحلَّيان بجَوْهَره؛ وأنَّا نكون للسلطنةِ الشريفةِ السمعَ والبصر، وللمملكة المعظَّمة فى التناوُب بالإضاءة الشمسَ والقمَر؛ وأن تَصُولَ الأُمَّةُ منَّا ومنه بحَدَّيْن، ويبْطِشُوا من أمرنا وأمره بيَدَيْن؛ وأن نُرَتِّبه علىٰ حُسْن سياسةٍ تَحْمَدُ الأُمةُ ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ عاقِبَتَها عند الكِبَر، وتكُونُ

---

(١) لعله بالايهام أى تارة بالنزول بهم وتارة بالرعب .

الأخلاقُ الملوكيةُ منتشئة منه ومنْتَشِئةً به من الصِّغَر ؛ ونجعَلَ سَعْىَ الأَمَّة حميـدا ، ونَهَبَ لهم منه سلطانًا نصيرًا ومُلْكا سـعِيدا ؛ ونُقوّى به عَضُد الدين ونَرِيش جَناحَ المملكه ، ونُنْجِح مَطْلَبَ الأمة بإيالتِه وكيف لايَنْجَح مَطْلَب فيه بَرَكه ؟ .

وخرج أمْرُنا لا بَرِح مُسْـعِدا ومُسْعِفا ، ولا عَدِمتِ الأمةُ منه خَلَفا مُنْبِلًا[(١)] ونَوْءًا مُخْلِفا ؛ بأن يُكتَب هذا التقليد لولَدنا السعيدِ ناصرِ الدين « بركَةَ خاقان محمد » جعل الله مَطْلَع سـعده بالإشراق محْفُوفا ، وأرىٰ الأُمَّة من مَيامِنـه مايَدْفَع للدَّهْرِ صَرْفا ويُحْسِن بالتدبير تَصْرِيفا ـ بوِلاية العهد الشريف علىٰ قُرْب البلاد وبُعْدها ، وغَوْرها ونَجْـدها ؛ وقِلاعِها وثُغُورها ، وبُرورِها وبُحورِها ؛ وولاياتِهـا وأقطارِها ، ومُدُنها وأمصارِها ؛ وسَهْلها وجبَلِها ، ومُعَطَّلها ومُغْتَلِّها ؛ وماتَحْوِى أقطارَه الأحلام ، ومايُنْسَب للدولة القاهرة من يَمَنٍ وحِجازٍ ومِصر وغَرْبٍ وسَواحِلَ وشامٍ بعدَ شام ؛ وما يتداخَلُ ذٰلك من قِفَار ومن بِيدٍ فى سائر هـذه الجهات ، وما يتخَلَّلها من نِيل ومِلْح وعَذْبٍ فُرات ؛ ومَنْ يسكُنُها من حقِير وجَليل ، ومن يَحُلُّها من صاحبِ رُغَاء وثُغَاء وصَلِيل وصَهِيل ؛ وجعلْنا يدَه فى ذٰلك كلِّه المبسُوطه ، وطاعتَه المشْرُوطة ونَواميسَه المضْبُوطه ؛ ولا تدبيرَ مُلكٍ كُلِّىّ إلا بنا أو بولَدنا يُعْمَل ، ولاسَيْفَ ولا رِزْقَ إلا بأمرِنا هذا يُسَلُّ وهـذا يُسْأل ؛ ولا دَسْتَ سلطنةٍ إلا بأحدنا يتوَضَّح منـه الإشْراق ، ولا غُصْن قَلَم فى روضِ أمْرٍ ونَهْى إلَّا ولدينا ولديه تمتدُّ له الأَوْراق ؛ ولا منبرَ خطيبٍ إلا باسمنا يميسُ ، ولا وجْهَ دِرْهم ولا دينـارٍ إلا بنـا يُشْرِق ويكادُ تبرجًا بَهْرَجًا لا يتطلَّع من خلال الكِيس .

فلْيتقلَّد الولدُ ماقلَّدناه من أمور العبـاد ، ولْيَشْرَكْنا فيما نُبـاشره من مصالح الثُّغور والقِلاع والبِلاد ؛ وسنَتعاهد هذا الولَدَ من الوصايا بمـا سَيَنْشأ معه توْءَما ، ويمتزِج

(١) يقال أنبلت الرجل ونبلته اذا ناولته النبل ليرمى والمراد أنه نافع معين تأمل .

بلحْمِه ودَمِــه حتّى يكادَ يكُون ذلك إلهــاما لاتعَلُّمـا ؛ وفى الولد بحمْد الله من نَفَاذ الذّهن وصِحّة التصوّر ماتَتشَكّل فيه الوَصَايا أحسَنَ التشكيلِ ، وتظْهَر صورةُ الإبانة فى صَفَائه الصَّقيل ؛ فلذلك آستغْنَينا عن شرْحها هاهُنا مسرُوده ، وفيه ـ بحمد الله ـ من حُسْن الخليقة مايحقّق أنها بَشَرف الإلهــام موجُوده ؛ والله لايُعْدِمنا منه إشفاقاً وبِرّا ، ويجعله أبدًا للأمة سنَدًا وذُخْرا ، إن شاء الله تعالىٰ .

✤ ✤ ✤

وعلىٰ ذٰلك كتب القاضى محيي الدين بن عبدالظاهر أيضا عن المنصور «قلاوون» عهد ولده الملكِ الأشرفِ صلاح الدين « خليل » وهذه نسخته :

الحمــدُ لله الذى لم يزَلْ له السَّمْع والطاعة فيما أمَر ، والرضا والشُّــكْرُ فيما هدَم من الأعْمار وما عَمَر ، والتفويضُ فى التعويض إن غابتِ الشمسُ بقِى القَمَر .

نحمَدُه علىٰ أن جعل سلطانَنا ثابتَ الأركان ، كلُّ روضة من رِيَاضه ذاتُ أفنان ؛ لاتُزَعْزِعه رِيحٌ عقيم ، ولايُخْرجه رُزْء عظيم عن الرِّضا والتسليم ؛ ولا يُعْتبط من جملته كريمٌ إلا ويُغْتَبط من أُسْرته بكريم ؛ ونشهد أنْ لاإلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تَزِيدُ قائلَهــا تَفْويضا وتُجْزِل له تَعْويضا ، وتُحْسِــن له علىٰ الصــبرِ الجميل فى كلّ خَطْب جليلٍ تحْرِيضا ؛ ونشهدُ أن محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أنْزل عليه فى التسليم : ﴿ وَمَا محمّدٌ إلَّا رَسُــولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُــل ﴾ . والنبيُّ الذى أوضَح به المَنَــاهج وبَيَّن به السُّبُل ، صــلّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه ماتجاوبت المَحَابِر والمَنَــابر فى البُكَر والأُصُل ؛ وما نُثِرتْ عقُود ونُظِمت ، ونُسِــخت آياتٌ وأُحْكِمتْ ؛ ونُقِضتْ أمورٌ وأُبْرِمت ، وما عزَمتْ آراءٌ فتوكَّلت وتوكّلتْ فعزَمتْ ؛ ورضِى اللهُ عن أصحابه

الذين منهم من كان للخليقــة نِعْم الخليفه ، ومنهم مَنْ لم يُدْرِكْ أحدٌ فى تَسْوِيدِ النفْس الحَصِــيفة ولا فى تَبْييض الصَّحِيفة مُدَّه ولا نَصِــيفه ؛ ومنهم من يسَّره الله لتجهيز جَيْش العُسْرة فعرَفَ اللهُ ورسولُه معروفَه ، ومنهم من عمِل صالحًا أرضىٰ ربَّه وأصلَح فى ذُرِّيتِه الشريفه .

وبعدُ ، فإن من ألطاف الله تعالىٰ بعباده ، وٱكتنافِ عواطفِه ببلاده ؛ أنْ جعلنا كُلَّمــا وهىٰ للمُلْك ركْنٌ شديدٌ شيَّدنا رُكْنًا عِوَضه ، وكلمــا ٱعترضَتْ للمقادير جملةٌ بدّلْنا آيةً مكانَ آيةٍ وتناسَيْنا ـ تجلُّدا ـ تلك الجملةَ المعتَرِضه ؛ فلم يُحْوِجِ اليوْمَ لأَمْسِه ، وإن كان حميــدا ، ولا الغارسَ لغَرْسه ، وإن كان ثمرُه يانِعًا وظِلُّه مديدا ؛ فأطْلَعْنا فى أُفُق السلطنة كوكبًا سعيدا كان لحُسْن الاستخلاف مُعَدّا ، ومَنْ لقَبِيل المسلمين خَيْرٌ ثوابا وخَيرٌ مَرَدّا ؛ ومن يبَشِّرُ الله به من الأولياء المتَّقين ويُنْذِرُ من الأعداء قومًا لُدّا ، ولم يبقَ [إلا] به أُنْسُنا بعدَ ذَهاب الذين تَحْسَبُهم (كالسيف فَرْدا) ؛ والذى ماأمضىٰ حدّه ضريبةً إلا (قَدَّ البَيْضَ والأبدانَ قَدّا) ؛ ولا جهَّز رايةَ كتيبةٍ إلا أغْنىٰ غَناءَ الذاهبين وعَدَّ الأعداءَ عدّا ؛ ولا بعَثَه جَزَع فقال : (كم من أخٍ لى صالح) إلَّا لقِيَه ورَعٌ فقال : (وخُلِقْتُ يوم خُلِقت جَلْدا) ؛ وهو الذى بقَواعد السلطنة أدرىٰ وبقوانينها الأعْرَف ، وعلىٰ الرَّعايا الأعْطَف وبالرَّعايا الأرْأَف ؛ وهو الذى ما قيل لبِناء مُلْك هذا عَلَيْــه قدْ وَهىٰ إلَّا وقيــل هذا بناءٌ مثلُه منه أَسْمىٰ ملِكٌ أشْرَف . والذى مابرح النصرُ يتنَسَّم من مَهَابِّ تأميلِه الفَلَاح ، ويتبَسَّم ثغرُه فتتوسَّم الثغورُ من مَبْسَمِه النَّجاح ؛ ويُقْسَم نُورُه علىٰ البسيطة فلا مِصْرٌ من الأمصار إلَّا وهو يَشْرَئِبُّ إلىٰ مُلاحظةِ جبين عهْدِه الوَضَّاح ، ويتفَتَّق ٱشتقاقُ النُّعوت فيقول التسَلِّى للتملِّى : سواءٌ الصالحُ والصَّلاح ؛ والذى مابرِح لشِعار السلطنةِ إلىٰ توقُّله وتنَقُّله أتمُّ حَنِين ، وكأنمــا كُوشفت الإمامة العبَّاسيَّة بشَرَف مسمَّاه فيما تقدَّمَ من زمنٍ سلَفَ ومِنْ حِين ؛ فسمَّتْ وسَمَت بٱسمه

أكابرِ الملوك وأخايرَ السلاطين، فخُوطِبَ كلٌّ منهم مجَازا لا كهذهِ الحقيقة «بخليلِ» أمير المؤمنين، والذى [كم] جَلَا ببهىّ جَبِينه من بهيم، وكَمْ غدَا المُلْك بحُسْن رُوائِه ويُمْن آرائه يَهِـيم، وكَمْ أبرأَ مَوْرِدُه العذبُ هِيمَ عِطاشٍ ولا يُنْكَر الخليل إذا قيل عَنْه أبراهِيم، ومن تَشْخَصُ الأبصارُ لِكَمَاله يومَ رُكُوبه حَسِيره، وتُلقِى البَنَانُ سِلاحَها ذَهَلا وهى لاتدْرِى لكثرة الإيمـاء إلىٰ جَلَاله إذا يَبْدُو مَسِيره، والذى ألْهم اللهُ الأمةَ بجوده ووُجُوده صَـبْرا جميلا، وآتاهم من نَفَاسة كرمه وحراسةِ سَيْفه وقلَمِه تأمِيناً وتأميلا، وعَظُم فى القلوب والعُيُون بمـا من بِرِّه سيكُون فسمَّتْه الأبوّة الشريفةُ ولَدا وسَمَّاه الله «خليـــلا» .

ولَمَّـا تحتَّم من تفويض أمْر المُلْك إليــه ما كان لوقْته المعـلوم قد تأَخَّر، وتَحَيَّن حينه فكَمُل زيادةً كزيادة الهِلال حتّى بادَرَ تمـامَه فأبْدَر، ٱقتضىٰ حُسْنُ المناسـبة لنصائح الجُمْهور، والمراقبةِ لمصالح الأُمُور، والمُصاقَبة لمَنَاجح البلاد والثُّغُور، والمُقارَبة من فَوَاتِح كلِّ أمْرٍ مَيْسور، أن نُفَوِّض إليه ولايةَ العهد الشريفِ بالسلطنة الشريفة المعظَّمه، المكَرَّمة المفخَّمة المنظَّمه، وأنْ يَبْسُط يدَه المُنيفةَ لمصافحتها بالعُهُود، وتحكُّمها فى العساكر والجُنُود، وفى البُحُور والثُّغور، وفى التَّهائم والنُّجود، وأن يُعْدَق بَبَسْطِها وقَلَمِها كلُّ قَطْع ووَصْل، وكلُّ فرْع وأصل، وكلُّ نَصْر ونَصْل، وكلُّ مايَحْمِى سَرْحا، ويَهْـمِى مَنْحا، وفى المُثِـيرات فى الإعْداء علىٰ الأعداء نَقْعا وفى المُغِيرات صُـبْحا، وفى المَنْع والإطْلاق، وفى الإرْفاد والإرْفاق، وفى الخَمِيس إذا ساق، وفى السيوف إذا بلغَتِ التراقِىَ وقيل مَنْ راق، وفى الرِّماح إذا ٱلتفَّتِ السـاقُ بالسَّاق، وفى المُعاهَدات والهُدَن، وفى الفداء بمـا عَرَض من عرض وبالبُـدْن بالبَدَن، وفيما ظهَر من أُمُور المُلْك وما بطَن، وفى جميع ماتستَدْعيه بواعثُه، فى السِّر والعَلَن، وتسترعيه نوافثُه، من كبْت وكُتب متفرّقَيْن أو فى قَرَن، عَهْدا مباركا عُوذُه

وتمائمُه ، وفواتِحُه وخواتِمُه ؛ ومناسِمه ومَيَاسِمه ، وشروطُه ولوازِمُه ؛ وعلى عاتِقِ الملك الأعزّ نِجادُه وفى يَدِ جَبَّار السموات قائِمُه ؛ لا رادَّ لحُكْمه ولا ناقِضَ لبرْمه ، ولا داحضَ لما أثبَتَتْه الأقلامُ من مكنُونِ عِلْمه .

[و] يزيده مَرُّ اللَّيالِى جِدّةً * وتقادُمُ الأيام حُسْنَ شباب

وتُلْزِمَ السِّنُون والأحقابُ ، آستيداعَه للذرارىّ والأعْقاب ؛ فلا سلطانٌ ذُو قَدَر وقُدْره ، ولا ذُو أَمْر وإمْره ؛ ولا نائبٌ فى مملكة قرُبتْ أو بعُدتْ ، ولا مقدَّمُ جيوش أَتْهمَتْ أو أنجدَتْ ، ولا راعٍ ولا رعِيَّه ، ولا ذُو حُكْم فى الأمور الشرعيَّه ؛ ولا قلمُ إنشاءٍ ولا قَلَمُ حساب ، ولا ذَوُو أنساب ولا ذَوُو أسباب ؛ إلا وكلٌّ داخلٌ فى قَبُول هذا العقدالميمُون ، ومتمسِّكٌ بحكم كتابه المكنُون ، والتسليم لنصِّه الذى شهد به من الملائكة الكرامُ الكاتبُون ؛ وأمسَتْ بيْعَتُه بالرِّضوان محفُوفه ، والأعداء يَدْعُونها تضرُّعا وخيفَه ، ولْيشْكُرُوا الصنيعَ الذى بعد أن كانتِ الخلفاءُ تُسلْطِن الملوكَ قد صار سلطانُهم يقِيمُ من وُلاة العهد خليفةً بعد خليفه .

وأمَّا الوصايا فأنْتَ ياولدنا الملكَ الأشرف ـ أعزَّك الله ـ بها الدَّرب ، ولِسَماع شَدْوها وحَدْوها الطَّرب ، الذى للَّغو لا يضْطَرِب ؛ فعليك بتقوى الله عز وجلَّ فإنها مِلاَك سَدَادك ، وهَلاَك أضْدادِك ؛ وبها يُراشُ جَناحُ نَجَاحك ، ويحسُنُ آقتداءُ آقتداحك ؛ فاجعلها دَفِينَ جوانِح تأميلك ووَعْيك ، ونُصْبَ عينَىْ أمْرِك ونهْيك ؛ والشرع الشريف فهو قانُون الحق المتَّبع ، ومأمُون الأمر المستَمَع ؛ وعليه مَدَارُ إيعاء كلِّ إيعاز ، وبه يتَمَسَّك من أشار وآمتاز ، وهو جَنَّة والباطلُ نار : ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجَنَّةَ فقَدْ فَاز﴾ . فلا تخْرُجْ فى كلِّ حال عن لَوازِمه وشُروطِه ، ولا تنْكُبْ عن معلَّقه ومَنُوطه . والعدل فهو مُثَمِّرُ غُروسَ الأموال ، ومعَمِّر بيوتَ

الرَّجاء والرِّجال، وبه تزكو الأعمـارُ والأعمال ؛ فاجعَـلْه جامعَ أطراف مَرَاسِمك، وأفضلَ أيَّام مَوَاسِمك ؛ وسِمْ به فِعْلَك، وسَمِّ به فرضك ونَفْلك، ولا تُفْرِد به فلانا دُونَ فلان، ولا مكانًا دُونَ مكان، وٱقْرِنْه بالفضل : ﴿ إنَّ اللّٰهَ يَأْمُرُ بالعَـدْل والْإِحْسان ﴾ . وأحسِن التخوِيل، وأجمِـل التَّنْويل ؛ وكَثِّرْ لمن حَوْلَك التموِينَ والتَّمْويل، وضاعِف الخـيرَ في كلِّ مُضَـاف لمَقَامك، ومُسْتضِيف بإنعامك؛ حتّٰى لاتَعـدَمَ في كلِّ مكان وكلِّ زمان ضـيافةَ الخليل ؛ والثُّغُور فهى للمالك مَبَاسِمُها، وللمَسالك مَنَاسِمها ؛ فاجعل نَواجِذَها تَفْتَرُّ عن حسْن ثَنَايا الصَّوْن ، ومَرَاشِفَها شَنِبة الشِّـفاه بحُسْن العَوْن ؛ ومُنْها ، بمـا يَحْمِى السَّرْحَ منها ، وأعِنْها ، بمـا يدْفَع المَكاره عنْها ؛ فإنهـا للنصر مَقَاعد ، وبها حِفْظُ البلاد من كلِّ مارٍّ من الأعداء مارد ؛ وأمراءُ الجيوش فهم السُّورُ الواقِى بين يدَىْ كلِّ سُـور ، وما منهم إلا كلُّ بَطَل بالنصر مشهور ، كما سـيْفُه مشهور ؛ وهم ذخائرُ الملُوك، وجَوَاهر السُّلوك، وأخايِرُ الأكابر الذين خَلَصُوا من الشكوك؛ وما منهم إلا مَنْ له خِدْمات سلَفَت، وحقوقٌ عُرِفت ، ومَوَاتٌّ علىٰ آسـتلزام الرِّعاية للعُهود وُقِفتْ ؛ فكُنْ لجنودهم متحبِّبا، ولمَرَابعهم مُخْصِبا،ولمَصَالحهم مُرَتِّبا، ولآرائهم مستَصْوِبا، ولٱعتضادهم مستَصْحِبا، وفى حَمْدهم مُطْنِبا، وفى شُكْرهم مُسْهِبا ؛ والأولياءُ المنصورِيُّون الذين هم كالأولاد، ولهم سـوابِقُ أمَتُّ من سَوَابق الإيجـاد ؛ وهم مَنْ علِمْتَ آسـتكانةً من قُرْبنـا ، ومَكانةً من قلْبنا ؛ وهم المساهِمُون فيما ناب ، وما بَرِحُوا للدولة الظُّفُرَ والناب ؛ فأسْهِم لكلٍّ منهم من آحْتِرامك نَصِيبا ، وأدِمْ لهم آرتياحَك ، وألِنْ جِمَاحَك، وقوِّهم بسلاحِك، تجِدْ منهم ضُرُوبا؛ وترىٰ كُلًّا منهم فى أعدائك ضَرُوبا .

وكما أنا نُوصِيك بجُيُوش الإسلام، كذا نُوصِيك بالجيش الذى له الجَوَارِ المُنْشَآتُ فى البحْر كالأَعْلام؛ فهو جيشُ الأمْواه والأَمْواج ، المضافُ إلىٰ الأفواج من جيش

الفِجَاج ؛ وهو الجيشُ السُّلَيمانىُّ فى إسْراع السـير ، وما سُمِّيت شَـوَانيه غِرْبانا إلا ليجتَمِع بها لنـا ما ٱجتمع لسليمانَ صلّى الله عليه وسـلم من تسخِير الريح والطَّيْر ؛ وهى من الديار المصرية علىٰ ثَبَج البحر الأَسْوار ، فإن قُذِفَت قَذَفَتْ الرعب فى قلُوب الأعداء و إن أُقْلِعت قلعَتْ منهم الآثَار ؛ فلا تُخْلِه من تجهيز جَيْشه ، وسَكِّنْ طيْشَ البحر بطَيْشه ، فيُصْبِح لك جيشان كلٌّ منهما ذو كَرٍّ وفَرّ ، : هذا فى بَرٍّ بحرٌ وهذا بحرٍ بَرّ ؛ و بيوت العبادات فهى التى إلىٰ مصلًّى سمِيِّك «خليل» الله تنتهى مَحَارِيبُها ، وبها لنا ولك وللمسلمين سُرىٰ الدَّعَوات وتَأْوِيبُها ؛ فوَفِّها نصيبهَا المفروضَ غير منقُوص ، ومُرْ برفْعها وذِكْرِ ٱسم الله تعالىٰ [فيهـا] للأمر المنصُوص ؛ وأخَوَاتُهـا من بُيُوت الأموال الواجِدات الواجبات ، من حيثُ إنهـا كلَّها بيوتُ الله عز وجل : هذه للصَّلاة وهذه للصِّـلَات ؛ وهذه كهذه فى رَفْع المَنَار وجمع المَبَار ، وإذا كانتْ تلكَ ممـا أَذِنَ اللهُ أن تُرْفَع ويذْكَرَ فيها ٱسْمُه فهذه تُرْفَع ويُذْكَرُ فيها ٱسْمُـه حتّى علىٰ الدِّرهم والدِّينار ؛ فٱصرِفْ إليها ٱجتهادَكَ فيما يعُود بالتثمير ، كما يعُود علىٰ تلكَ بالتَّنْوير ؛ وعلىٰ هذه بإشحانها(١) بأنواع الصُّروف ، كإشحان(١) تلك باستواء الصُّفُوف ، فإنها إذا أصبحَتْ مَصُونه ، أجملَتْ بحمـد الله المَعُونه ؛ وكفَلَتْ بالمـؤونةِ و بالزيادة علىٰ المَـؤُونه ، فتُكَمِّل هذه لكل وَلِىّ دُنْياه كما كَمَّلتْ تلك[لكل]وَلِىِّ دِينه ؛ وحدود الله فلا يَتعدّاها أحد ، ولا يرأُف فيها ولَدٌ بوالد ولاوالد بولَد ؛ فأقِمْها وقُمْ فى أمرها حتّى تنْضبِط أتمَّ الضبط ، ولا تجعَـلْ يدَ الفَتْك مغلولةً إلىٰ عُنقها ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْط ؛ فلكلٍّ من الجنايات والقِصَاص شَرْط شرَطه اللهُ وحدٌّ حدَّه فلا يتجـاوَزُ أحد ذلك الحَـدّ ولا يخرج عن

---

(١) لعل الصواب بشحنها من شحن الثلاثى يقال شحنه يشحنه ملأه ، وأما الرباعىّ فمعناه الاغماد يقال سيوف مشحنة أى مغمدة وأشحن الرجل اشحانا تهيأ للبكاء وهو غير مناسب هنا تأمل .

ذلك الشرط ، والجهاد فهو الدَّيْدن المألوف من حيث نشأ نشأ ونشأتك (١) وفى ظُهور الخَيْل ، فمِلْ على الأعداء كُلَّ المَيْـل ، وصَبِّحْهم من فَتَكاتك بالوَيْل بعد الوَيْل ، وآرمِهم بكلِّ شِمَّرِىّ (٢) قد شَمَّر من يده عن الساعدِ ومن رُمْحه عن الساقِ ومن جَواده الذَّيْل ، وآذهبْ لهم من كلِّ ذلك مَذْهب ، وأنر بنُجُوم الخِرْصان كلَّ غَىٍّ وغَيْهَب ، وتَكَثَّرْ فى غَزْوهم من الليـل بكلِّ أدْهَم ومن الشَّفَق بكلِّ أَحمرَ وأشـقَر ومن الأصـيل بكلِّ أصْفَر ومن الصـبح بكلِّ أشْهَب ، وآستنْهِبْ أعمارهم وآجعلْها آخرَ ما يُسْلَب وأوّلَ ما يُنْهَب ؛ ونرجو أن يكونَ اللهُ قد خَبأَ لك من الفُتُوحات ما يستنْجِزُها لك صادِقُ وَعْدِه ، وأن ينصُرَ بك جُيوشَ الإسـلام ، فى كلِّ إنْجـاد وإتْهام ، وما النَّصْرُ إلّا من عِنْده ؛ و بيتَ اللهِ المحجُوجُ من كلِّ فَجّ ، المقصودُ من كلِّ نَهْج ، فسَيِّر سبِيلَه ، ووَسِّعْ [له] الخيرَ وأحْسِن تسبِيلَه ؛ وأوصِلْ من بِرِّك لكلٍّ من الحرمَيْنِ ماهو لَه ، لتُصبِحَ رُبوعُه بذلك مأْهُولَه ؛ وآحِمه ممَّن يُرِيدُ فيه بإلحادٍ بظُلْم ، وطَهِّره من مَكْس وغُرْم : ليعُودَ نَفْعُك على البـادِى والعاكِف ، ويُصْبِح وادِيه وناديه مستَغْنِيَين بذلك عن السَّـحاب الواكِف ؛ والرعايا فهم للعَـدْل زُرُوع ، وللاِستِثْمار فُرُوع ، ولآستلزامِ العِمارة شُرُوع ؛ فمتى جادَهُم غيْثٌ أعجبَ الزُّرّاعَ نَباتُهم ، ونَمَت بالصَّـلاح أقواتُهم ، وصلَحتْ بالنَّمـاء أوقاتُهم ؛ وكَثُرت للجنود مستَغَلَّاتهم ، وتوفَّرت زَكَواتهم وتنوّرَتْ مِشْكاتُهم ؛ والله يضاعِفُ لمَنْ يَشاء .

هذا عهدُنا للسيد الأجَلّ ، الملكِ ، الأشرفِ ، صلاح الدنيا والدين ، فخرِ الملوك والسلاطين ، خليـلِ أمير المؤمنـين ، أعزَّ الله تعـالى ببقائه الدِّين ؛ فليَكُنْ بعُروته متمسِّكا ، وبنَفْحته متمسِّكا ؛ وليتقلَّد سيفَ هذا التقليد ، ويَفْتَحْ مُغْلَق كلِّ فتح منه

---

(١) بياض فى الأصل بقدر كلمة صغيرة .

(٢) الشمرىّ بفتح الشين وكسرها مع شد الميم فيهما الماضى فى الأمور المجرب انظر اللسان ج٦ ص٩٦ .

بخيرِ إقْليد، وها نحن قد كَثَّرنا لديه جواهِرَه فدُونه مايشاءُ تحليتَـه من تَتْويج مَفْرِقٍ وتختيم أنامِلَ وتسوير زَنْد وتَطْويقِ جِيد، ففى كلِّ ذٰلك تبجيلٌ وتَمْجيد، والله تعالىٰ يجعل آستِخْلافَه هـذا للتقين إماما، وللدِّين قِواما، وللمجاهدين آعْتِصاما، وللمعتدين آنْفِصاما، ويُطْفِئ بمياه سُيُوفه نارَ كلِّ خَطْب حتّى يُصْبِح كما أصبحَتْ نارُ سَمِيِّه صلّى الله عليه وسلم بَرْدًا وسَلَاما، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وعلىٰ ذٰلك كتب القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، عن المنصور « قلاوون » المتقدّم ذكره، عهدَ ولده الملكِ الصالح «علاءِ الدِّين على» وهذه نسخته :

الحمد لله الذى شرّف سريرَ المُلْك منه بعَلِيِّه، وحاطه منه بوَصِيِّه، وعضَّد منْصُورَه بولاية عهد صالِحِه وأسمىٰ حاتِمَ جُوده بمكارِمَ حازها بسَبْق عَدِيِّه، وأبهج خيرَ الآباء من خير الأبناء بمن سُمُوّ أبيه منه بشريف الخُلُق وأبِيِّه، وغَذّى روْضَه بمتابعةِ وَسْمِيِّه وبمسارعةِ وَلِيِّه .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى جمعتْ إلىٰ الزَّهْر الثَّمَر، ودارَكَتْ بالبحر وباركتْ فى النَّهَر، وأجملتِ المبتدأ وأحسنَتِ الخَبَر، وجمعتْ فى لَذاذة الأوقات وطِيبِها بينَ رَوْنَق الآصالِ ورِقَّة البُكَر. ونشهد أن لاإلٰهَ إلا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً نُلْبِس الألسنةَ منها فى كلِّ ساعة [ثوبا] جَدِيدا، ونتَفَيَّأ منها ظِلًّا مَدِيدا، ونستَقْرِب من الآمال مايَراه سِوَانا بَعِيدا. ونصلِّى علىٰ سيدنا محمد الذى طَهَّر الله به هذه الأُمَّةَ من الأدْناس، وجعلها بهدايته زاكيَةَ الغِرَاس، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من فَهِم حُسْنَ آستخلافه بالأمر له بالصَّلاة بالناس، ومنهم من بنىٰ اللهُ به قواعدَ الدِّين وجعلها مُوطَّدة الإسَاس، ومنهم من جهَّز جيشَ العُسْرة وواسىٰ بمالِه حينَ الضَّرَّاء

والبأس ، ومنهم من قال عنه صلّى الله عليه وسلم : "لَأُعْطِينَّ الرَّايةَ غدًا رَجُلًا يُحِبُّه اللهُ ورسولُه ويُحِبُّ اللهَ ورسولَه" فحُسنَ الالتماسُ بذلك والاقتباس، وزاد فى شرفه بأن طَهَّر أهلَ بيتـه وأذهب عنهم الأرجاس، صـلاةً لاتزال تتردَّدُ تردُّدَ الأنفاس، ولا تبرح فى الآناءِ حسنةَ الإيناس .

وبعد ، فإنَّ خير من شُرِّفت مراتبُ السـلطنة بحُلُوله ، وفُوِّفت ملابسُ التحكيم بقَبُوله ،ومَنْ تزهىٰ مطالـعُ المُلْك بإشْراقه، وتتبادرُ الممالكُ مُذْعِنةً لاستحْقاقه، ومن يَزْدهِى مُلْكُ منصورِه ــ نصره الله ــ بولَده وولىّ عهـده مَكِنةً بانيه، ومن يتشرَّف إيوانُ عظمةٍ : إنــ غاب والدُه فى مصلحة الإسـلام فهو صدْرُه وإن حضر فهو ثانيه، ومن يتحمَّل غابُ الإيالة منه بخير شِبْل كفَلَ لَيْثا، ويتكفَّل غوثُ الأمّة بخير وابِلٍ خلَفَ غَيْثا ؛ ومن أُلْهِم الأخلاقَ الملوكيَّة وأُوتِىَ حُكْمَها صبيًّا ، ومن خصَّصتْه الأدعيةُ الشريفةُ بصالحها ولم يكُن بدُعائها شَقِيًّا ، ومن رُعت به هَضْبة المُلْك حتّى أمسىٰ مكانُها عليّـا، ومن هو أحقُّ بأن يُنْجِب الأملَ ويُنْجِح، وأولىٰ بأن يُتْلَىٰ له : ﴿ ٱخْلُفْنِى فى قَوْمِى وأَصْلِحْ ﴾ . ومن هو بكلِّ خيرٍ مَلِى، ومَنْ إذا فُوِضت إليه أمورُ المسلمين كان أشرَفَ من لأمورهم يَلِى ؛ ومن يتحقَّق من والدِه الماضى الغِرَار ، ومن ٱسْمِه العالى المَنَار، أنْ لاسيْفَ إلا ذُو الفقَار ولا فتىٰ إلا علِى .

ولـمَّا كان المقامُ العـالى، الوَلَدىّ، السـلطانىّ، المَلَكىّ، الصالحىّ، العَلَائىّ ــ عضَّد اللهُ به الدِّيــن ، وجمعَ إذعانَ كلِّ مؤمن علىٰ إيجاب طاعتـه لمباشرة أمور المسلمين،حتّى يُصْبِح وهو صالح المؤْمنين ــ هو المرجوَّ لتدبير هذه الأُمُور، والمأمولَ لصَلاح البلاد والثُّغور، والمدَّخَر فى النصر لشِفَاء مافى الصُّدُور، والذى تشهد الفِراسةُ لأبيه وله بالتحكم : أوليس الحاكُمُ أبو علىّ هو المنْصُور؟ . فلذلك ٱقتضَتِ الرحمه،

والشفقةُ على الأمه ؛ أن يُنْصَب لهم ولىَّ عهد يتمَسَّكُون من الفضل بعُرْوة كرمه ، ويَسْعَوْن بعد الطواف بكَعْبة أبيه لحَرَمه ؛ ويقتطِفُون أزاهِرَ العدل وثِمارَ الجُود من كَلِمه وقَلَمه ، وتَستسْعِدُ الأمةُ منه بالملِك الصالح الذى تُقْسم الأنوارُ لجبينه وتُقَسَّم المبارّ من كراماتِه وكَرَمه .

فلذلك خرج الأمرُ العالى ، المولوىُّ ، السلطانىُّ ، الملَكىّ ، المنصورىُّ ، السيْفىّ ـ أخْدمه الله القَدَر ، ولا زالتِ الممالكُ تتباهى منه ومن وَلِىّ عهده بالشمس والقمر ـ أن يُفوِّض إليه ولايةُ العهد وكَفالةُ السلطنة المعظَّمة ، ولايةً تامّةً عامّة شاملةً كامله ؛ شريفةً مُنيفه ، عَطُوفةً رَءُوفه ؛ فى سائر أقاليم الممالكِ وعساكِرِها وجُنْدها ، وعَرَبها وتُرْكُمانها وأكرادِها ونُوّابها ووُلَاتها ، وأكابِرها وأصاغِرها ورَعَاياها ورُعاتِها ، وحُكّامها وقُضاتِها ، وسارِحِها وسانِحِها ؛ بالديار المِصْرية وثُغُورها وأقاليمها وبلادِها ؛ وما آحتوَتْ عليه . والمملكةِ الحِجازيَّة ، وما آحتوتْ عليه . ومملكةِ النُّوبة ، وما آحتوتْ عليه ، والفُتُوحات الصفَدية والفُتُوحات الإسلاميَّة الساحلية وما آحتوتْ عليه . والممالكِ الشاميَّة وحُصُونها ، وقِلَاعها ومُدُنها ؛ وأقاليمها وبِلادِها ، والمملكة الحِمْصيَّة ، والمملكة الحِصْنية الأكراديَّة والجبلية وفُتوحاتها ، والمملكة الحَلَبية وثُغُورها وبلادها ، وما آحتوت عليه ، والمملكة الفُراتيَّة ، وما آحتوتْ عليه ؛ وسائر القِلَاع الإسلامية بَرًّا وبحرا ، وسَهْلا ووَعْرا ؛ شامًا ومصرا ، يَمَنًا وحِجازا ، شَرْقا وغَرْبا ، بُعْدا وقُرْبا . وأن تُلْقَى إليه مَقاليدُ الأمور فى هذه الممالك الشريفه ، وأن تستخلِفَه سلطنةُ والده ـ خلد الله دولته ـ لتُشاهِدَ الأمةُ منه فى وقتٍ واحدٍ سلطانا وخليفه ؛ ولايةً وآستخلافًا تُسنِدُهما الرُّواه ، وتترَنَّم بهما الحُدَاه ، وتَعيهما الأسماعُ وتنْطِق بهما الأفْواه ؛ تفويضًا يُعلَن لكافَّة الأُمَم ، ولكلِّ ربِّ سيفٍ وقَلَم ، ولكل ذى عِلْمٍ وعَلَم ؛ بما قاله صلّى الله عليه وسلم لسميّه رضىَ الله عنه حينَ أولاه من الفَخار ما أولاه :

"من كنت مولاه فعلي مولاه" . فلا ملك إقليم إلّا وهذا الخطاب يصله ويوصّله ، ولا زعيم جيش إلا وهـذا التفويض يسعه ويشـمله ؛ ولا إقليمٌ إلّا وكلّ من به يُقبّله ويَقبَله ، ويتمثّل بين يديه ويمتثله ، ولا منبرٌ إلّا وخطيبه يتلو فرقانَ هـذا التقديم ويرتّله .

وأمّا الوصايا فقد لقّنّا ولدنا وولىَّ عهدنا ماآنطبع في صفاء ذهنه ، وسرت تغذيته في نمـاء غصنه ، ولا بُدّ من لوامعَ للتبرّك بها فى هذا التقليد الشريف تُنير ، وجوامعَ بعـر لحربها (؟) حيث يصير ، وودائـعَ يُنبّئك عنهـا ولدُنا ـ أعزنا الله ببقائه ـ ولا ينبّئك مثلُ خبير : فاتّقِ الله كأنّك تراه فإنْ لم تكُنْ تراه فإنّه يراك ، وآنصرِ الشرعَ فإنّك إذا نصرْتَه ينصُرْك الله علىٰ أعداء الدّين وعداك ، وآقضِ بالعدل مخاطبا ومكاتبا حتّى يستبق إلىٰ الإيعاز به لسانُكَ ويُمناك ، وأمُرْ بالمعْروف وآنْهَ عن المنْكر عالمـًا أنه ليس يُخاطَبُ غدًا بين يدَي الله عن ذٰلك سِوانا وسِـواك ، وآنْهَ نفسَـك عن الهوىٰ حتّى لايراك اللهُ حيثُ نهـاك ؛ وحِط الرعيّـه ، ومُرِ النّوابَ بحملهـم علىٰ القضايا الشرعيّه ؛ وأقِمِ الحُدُود ، وجنّـد الجُنود ، وآبعثْها برّا وبحرا من الغزْو إلىٰ كلّ مقام محُمود ؛ وآحفَظِ الثُّغور ، ولاحِظِ الأُمور ، وازْدَدْ بالآسترشاد بآرائنـا نُورا علىٰ نُور ؛ وأمراء الإسلام الأكابر وزُعماؤه ، فهم بالجهاد والذّبّ عن العباد أصـفياءُ الله وأحبّـاؤه ؛ فضاعِفْ لهم الحُرْمةَ والإحسان . وآعلمْ أنّ الله آصـطفانا علىٰ العالمين وإلّا فالقومُ إخْوان ؛ لاسيّمـا أولُو السـعْيِ الناجِح ، والرأْى الراجِح ، ومن إذا نخَرُوا بنِسْبة صالحية قيل لهم : نِعْمَ السّلفُ الصالِح ؛ فشاوِرْهم فى الأمر ، وحاوِرْهم فى مهمّات الأمور فى كلّ سِرّ وجهْر ؛ وكذلك غيرُهم من أكابر الأُمَراء الذين هم من تحَايا

(١) كذا فى الأصول ولعله تعتز بجيوشها حيث تسير . تأمل .

الدُّول، وذخائرِ المُلوك الأُوَل؛ أجْرِهم فىهذا المَجْرىٰ، وآشرَحْ لهم بالإحسان صَدْرا؛ وجيوش الإسلام هم البَنَان والبُنْيان ، فَوالِ إليهم الآمْتِنان ؛ وآجعل محبَّتك فى قلُوبهم بإحسانك إليهم حسنة المَرْبىٰ ، وطاعتَك فى عقائدهم قد شَغَفها حُبّا : لِيُصْبِحوا بحُسْن نَظَرك إليهم طَوْعا ، وليُحصِّل كلُّ جيش منهم من التقرّب إليك بالمُناصحة نَوْعا ؛ والبلاد وأهلها فهُم عندك الوديعه ، فآجعل أوامِرَك [لهم] بَصِيرة وسَمِيعه .

وأما غيرُ ذلك من الوصايا ، فسنُخَوّلك منها بما يَنْشأ معك تَوْءما ، ونلَقّنك من آياتها مُحْكما فُمُحْكَما ؛ والله تعالىٰ يُنَمّى هلالَك حتّى يُوصِّله إلىٰ درجة الإبْدار، ويغَذّى غُصنَك حتّى نراه قد أيْنَع بأحسَن الأزهارِ وأيْنَع الثِّمار؛ ويرزُقك سعادةَ سلطاننا الذى نُعِتَّ بنَعْته تبرُّكا، ويُلْهِمك الآعتضادَ بشِيعته، والآستِنانَ بسُنَّته،حتّى تُصْبح كتَمَسُّكا بذٰلك متَمَسِّكا ، ويجعل الرعيةَ بك فى أمْن وأمان حتّى لاتخْشىٰ سُوءا ولا تخافُ دَرَكا ؛ والآعتمادُ علىٰ الخط الشريف ـ أعلاه الله تعالىٰ ـ أعلاه إن شاء الله تعالىٰ .

الوجه السادس

(فيما يُكتَب فى مستَنَد عهدِ ولىِّ العهد بالسلطنة ، وما يكتُبه السلطان فى بيت العلامة، وما يُكتَب فى ذَيْل العهد)

أما ما يكتَب فى مستَنَد العهْد وما يكتُبه السلطانُ فى بيت العلامة ، فكغيره من سائرالوِلَايات من التقاليد وغيرِها : وهو أنه يكتب فىالمستند «حَسَب المرسوم الشريف» كما يُكْتب فى المكاتَبات التى هى بتَلَقِّ كاتب السر علىٰ ماتقدّم ذكره فى بابه . ويكتُب السلطانُ فى بيت العلامة آسْمَه وآسمَ أبيه .

وأما مايكتب فى ذيلِ العهد وشهادة الشهود علىٰ السلطان بالعهد ، فمثل أن يكتب : « شهِدتُ علىٰ مولانا السلطانِ الملكِ الفلانىّ العاهدِ المشارِ إليه فيه خلَّد الله مُلْكه ، أوخلَّد الله سلطانه » وماأشبه ذٰلك من الدعاء « بمـا نُسِبَ إليه فيه من العهد بالسلطنة الشريفةِ إلىٰ ولده المَقام الشريف العـالى السلطانىّ ، الملَكىّ ، الفلانىّ ، وعلىٰ المعهودِ إليه ـ أعزَّ الله أنصارَه ـ بقَبُول العهد المذكور،وكتَب فلانُ بنُ فلان» .

الوجـــــه السابع

(فى قطع ورق هذا العَهْد وقَلَمه الذى يُكتَب به ، وكيفيّة كتابته، وصـــورةِ وضْـــعه فى الورق)

أما قطع ورَقه فمقتضىٰ إطلاق المَقَرّ الشهابىّ بن فضـل الله فى « التعريف » أن للعهود قَطْع البغدادىّ الكامل أنه يكتب فى البغدادِىّ أيضا .

قلت : وهو المناسبُ لعَظَمة السلطنة، وشَماخَة(١) قَدْرها . إذ المُلْك إلىٰ ولىّ العهد آئل، وللدُّخول تحتَ أمره صائِر، خصوصًا إذا كان المعهودُ إليـه ولَدا أو أخًا . وحينئذ فيكتب بمختَصر قلَم الطُّومار لمناسبته له ، علىٰ ما تقدّم فى غير مَوْضع .

وأما كيفيـة كتابته وصورةُ وضعها فى الورق ، فهو أن يخلِّى من أعلىٰ الدَّرْج قدْر إصبع بياضًا . ثم يكتُب فى وسطه بقَلمٍ دقيق ماصورتُه «الاْسْمُ الشريف» كما يكتب فى التقاليد وغيرها علىٰ ماسيأتى . ثم يبتدئ بكتابة الطُّرّة بالقَلَم الذى يُكتَب به العهد من أوّل عَرْض الورق من غير هامش سُطورا متلاصـقة إلىٰ آخر الطُّرّة . ثم يتْرُك سـتةَ أوصال بياضًا من غير كتابةٍ غيْرَ الوصل الذى فيـه الطرة . ثم يكتُب البسملة فى أوّل الوصل الثامنِ بحيث تلحقُ أعالى ألفاتِه بالوصـل الذى فَوْقَه ، بهامش عن

(١) لعل الصواب وشموخ قدرها فإنا لم نقف على هذا المصدرفما بين يدينا من كتب اللغة فليحرر .

يمين الورق قدرَ أربعة أصابعَ أو خمسة مطبُوقة . ثم يكتب تحتَ البسملة سطرا من أوّل العهد ملاصقًا لها . ثم يخلّي بيتَ العلامة قدرَ شبرٍ كما فى عهود الملوك عن الخلفاء . ثم يكتبُ السطر الثانى تحت بيت العلامة علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة ، ويَستَرْسِل فى كتابة بقيّة العهد إلىٰ آخره ؛ ويجعلُ بين كلّ سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُماش . فإذا آنتهىٰ إلىٰ آخر العَهْد كتب « إنْ شاء الله تعالىٰ » ثم المستَنَد، ثم الحَمْدلة والصلاةَ علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم والحَسْبَلة، علىٰ ماتقدّم فى الفَوَاتح والخَوَاتم . ثم يكتُب شهودُ العهد بعد ذلك .

وهذه صورة وضْعه فى الورق، ممثّلا له بالطرّة التى أنشأتها لذلك، وبالعهد الذى أنشأه القاضى مُحيي الدّين بن عبد الظاهر عن المنصور «قلاوون» بالعهد بالسلطنة لوَلَده المِلك الصالح « علاءِ الدّين علىّ » وهى :

هذا عهدٌ شريفٌ جليلٌ قدْرُه ، رفيعٌ ذِكْره، علىٌّ نَجْره ، مُتبلّجٌ صُبحُه ضَوِىٌّ فَجْره ؛ من السلطان الأعظم المِلك الظاهر، ركْنِ الدنيا والدّين «بيبرس» خلّد الله تعالىٰ سلطانَه ، ونصر جُيوشَه وأعوانَه ، بالسلطنة الشريفة لولده المَقَام العالى السلطانىّ، المَلَكىّ، السعيدىّ، بلّغه الله تعالىٰ فيه غايةَ الآمال، وحقّق فيه للرعية مايرجونه من مزِيد الإفضال . علىٰ ما شرح فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش الحمدُ لله الذى شرّف سريرَ المُلك منه بعليّه ، وحاطه

منه بوَصيّه، وعَضّد منصورَه بولاية عهد صالحِه، وأسْمىٰ حاتمَ جُوده

هامش بمكارِمَ حازَها بسَبْق عَدِيِّه، وأَبْهج خيْرَالآباءِ من خَيْرِ الأبناءِ بمن سُمُوُّ أبيه منه بشريفِ الخُلُق وأَبِيِّه، وغَذّى روْضه بمتابعةِ وَسْمِيِّه، و بمسارعة وَلِيِّه.

نحمَدُه على نِعَمه التى جمعتْ إلى الزَّهْرِ الثمر إلى أن يأتى إلى قوله: ولا يَخافُ

دَرَكا والاعتمادُ على الخَطِّ الشريف ـ أعلاه اللهُ تعالى ـ أعلاه

إن شاء الله تعالى

كتب فى

ســـنة

حسب المرسوم الشريف

الحمدُ لله وحده، وصلواتُه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

النـــوع الرابـــع

(من العُهود عُهود الملوك بالسَّلْطنة للملوك المُنْفَرِدين بِصغار البُلْدان)

ويتعلَّق النظرُبه من أربعة أوجه :

الوجـــــه الأوّل

(فى بيانِ أصل ذٰلك وأوّلِ حدُوثه فى هذه المملكة إلىٰ حِينِ زوالِه عنها)

قد تقدّم فى المكاتبات ، فى الكلام علىٰ مكاتَبة صاحب حَماةَ أنَّ ذٰلك مما كان فى الدولة الأيُّوبية، ثم فى الدولة التُّرْكيَّة فى الأيام المنصوريَّة « قلاوون » والأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » ثم بطل ذٰلك . وذٰلك أنَّ السلطانَ صلاحَ الدين «يوسفَ بنَ أيوب» حينَ آستَوْلىٰ علىٰ البلاد الشاميَّة مع الديار المِصريَّة بعدَ موتِ السلطان نُور الدين «محمود بن زنكى» صاحب الشام، فرّقَ أقارِبَه فى ولاية الممالك الشامية : كدِمَشْق وحَلَبَ وحَماةَ وحِمْص وغيرها وآستمرّت .

وكان السلطانُ صلاحُ الدين قد ولّٰى حماةَ لآبن أخيه تقِىّ الدين عُمَرَ بن شاهِنْشاه آبنِ أيُّوب، فبقيَتْ بيده حتّٰى تُوفِّىَ سنةَ سبع وثمانين وخمسِمائة . فوَلِيهَا بعده آبنُه المنصورُ ناصرُ الدين محمَّدٌ وبقِىَ بها حتّٰى تُوفِّى سنةَ سبعَ عشرةَ وَستِّمائة . فوليها آبنُه الناصرُ قَليج أرْسَلان فبقِىَ بها إلىٰ أن آنتزعها منه أخوه المظفَّر فىسنة ستٍّ وعشرين وستمائة ، وأقام بها إلىٰ أن مات سنة ثلاثٍ وأربعين وستِّمائة . فوليها آبنُه المنصُور محمد ، فبقِىَ بها إلىٰ أن غلَب هُولاكُو ملكُ التتار علىٰ الشام وقتل مَنْ به من بَقَايَا الملوك الأيُّوبية، فهرَب المنصورُ إلىٰ مصر وأقامبها إلىٰ أن سار المظَفَّر قُطُز صاحب مصر إلىٰ الشام، وآنتزعه من يَدِ التتار، وصار الشامُ مضافًا إلىٰ مملكةالديار المِصْريَّة،

فَردّ المنصورَ إلىٰ حمــاةَ ، فبقى بها حتّى تُوفّى ســنةَ ثلاث وثمانين وسِتّمــائة . فولّى المنصورُ قلاوون ٱبنَه المظفّر شادِى مكانَه ، وكتب له بها عَهْدا عنه ، فبقِيَ بها حتّى تُوفّى سنة ثمان وتسعين وستمائةٍ ، فى الأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » فى سلطنته الثانية بعْد « لاچين » . فولّى الملك الناصرُ قَراسُنْقُر أحدَ أمرائه نائبًا ؛ فلما ٱستولىٰ غازانُ ملكُ التتار علىٰ الشام ، كان العادل كُتْبغا بعد خلعه من سلطنة الديار المصرية نائبا بصَرْخَدَ ، فأظهر فى قِتال التتار قُوّةً وجَلَادة ، فولّاه الملكُ الناصر حَماةَ ، وحضر هزيمةَ التتار مع المِلك الناصر ســنةَ ٱثنتين وسَبْعِمائة ورجع إلىٰ حماةَ فمــات بها . فولّى الملكُ الناصرُ مكانَه سيفَ الدين قَبْجَق نائبــا ، ثم نقله إلىٰ حَلَب ، وولّى أستدمر كَرَجى نيابةَ حماةَ مكانه . ولمــا رجع السلطانُ الملكُ الناصر من الكَرَك نقل أســتدمر كَرَجى من حماةَ إلىٰ حلب ، وولّى المؤيَّد عمادَ الدِّين إسماعيلَ بنَ الأفضل علىِّ بنِ المظفَّر عمرَ ، مكانَه بحماةَ سنة ستَّ عشرةَ وســبْعِمائة علىٰ عادة من تقدّمه من الملوك الأيُّوبية ، فبقى بهــا إلىٰ أن تُوفّى ســنَةَ ثنتين وثلاثين وسبْعِمائة . فولّى الملكُ الناصر ٱبنَه الأفضلَ محمدًا مكانَه ، فبقىَ بها حتّى مات الملكُ الناصر فى ذى الحِجّة سنة إحدىٰ وأربعين وســبعمائة ؛ وٱستقرّ فى السلطنة بعــده ٱبنُه المنصورُ أبو بكر ، وقام بتدبير دولتــه الأميرُ قُوصُون . فكان أوّلُ ما أحدث عزلَ الأفضلِ بن المؤيّد عن حماة ، وولّى مكانَه بها الأميرَ قُطُز نائبــا . وسار الأفضلُ إلىٰ دِمَشقَ فأقام بها حتّى تُوفّى بها سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة ، وهو آخرُ من وليها من بنى أيُّوبَ .

وقد ذكر المقرّ الشّهابىُّ بنُ فضــل الله فى " مسالك الأبصار " أنَّ سلطانَها كان يســتقلُّ باعطاء الإمْرة والإقطاعات ، وتولِيَــة القُضاة والوُزَراء وكُتّاب السرّ وكلّ الوظائف ، وتُكتبُ المناشير والتواقيعُ من جِهَته . ولٰكنه لا يُمْضى أمرًا كبيرًا فى مثل

إعطاء إمْرة أو إعطاءِ وظيفةٍ كبيرة حتَّى يُشاوِر صاحبَ مصر، وهو لا يُجيبه إلا أنَّ الرأْى مايَرَاه . ومن هــذا ومثله . قال : وإن كان سـلطانًا حاكمًا ومَلِكا متصرّفًا فصاحبُ مصر هو المتصرِّفُ فى توليةٍ وعزلٍ، مَنْ أراد وَلَّاه ومَنْ أراد عَزَله .

قلت : وكان للملكة بذٰلك زيادةُ أُبَّهة وجَمَال : لكون صاحبها تحتَ يدِ[ه] من هو متَّصف بٱسم السلطنة، يتصرَّف فيه بالوِلاية والعَزْل . علىٰ أنَّ هذا القِسم لم يتعرّضْ له المَقَرّ التَّقَوِىّ بنُ ناظر الجيش فى " التثقيف " لخُلوّ المملكة الآنَ عن مثله؛ وإنما أشار إليه المَقَرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله رحمه الله فى " التعريف " حيث قال : وأما مايُكتَب للملوك عن المُلُوك، مثـلِ وُلاة العهود والمنفرِدين بِصغَار البُـلْدان فإنه لاتُستفتَح عهودُهم إلا بالخُطَب . وذلك أنَّ حماةَ كانتْ فى زمنـه بأيْدى بنى أيُّوبَ علىٰ ما تقدّم ذكره، ولذٰلك قال فى "مسالك الأبصار" : ومما فى حُدُود هذه المملكة ممن له ٱسمُ سلطانٍ حاكمٍ وملكٍ متصرّفٍ صاحبُ حماةَ .

الوجـــــه الثـانى

(فى بيان مايُكتَب فى العهد، وهو علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(مايكتب فى الطرّة، وهو تلخيص مايشتمل عليه العهد)

وهــذه نسخة عهـد كتب بها المَقَرّ الشهابىّ بن فضـل الله عن الملك النـاصر «محمد بن قلاوون» للملك الأفضلِ «محمدِ ابنِ المؤيَّد عمادِ الدين إسمـاعيل» بسلطنة حماةَ أيضا، فى رابع صفر سنة ٱثنتين وثلاثين وسَبْعمائة . وهو آخِرُ مَن مَلَكها من بنى أيُّوبَ، وهى :

الحمـدُ لله الذى أقرّ بنـا المُلْكَ فى أهِلَّة أهْله ؛ وتَدارَكَ مُصـابَ مِلْكٍ لولا ولَدُه الأفضلُ لم يكن له شَبِيهٌ فى فضْله ، ووهبَ بِنا بيتَ السلطنة مِنْ أبقىٰ البقَايَا مايَلْحَق به كُلُّ فرع بأصْلِه ، ويظهَرُ به رَوْنَقُ السيفِ فى نَصْله .

نحمَدُه علىٰ ماأفاض بمَواهِبنـا من النِّعَم الغِزَار ، وأدخلَ فى طاعتِنا الشريفـةِ من مُلوكِ الأَقْطار ، وزاد عَطايانَا فأضْحتْ وهى ممـالكُ وأقالِيمُ وأَمْصـار ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أفلَح مَنْ مات من ملوكِ الإسلام عليهـا ، وحَرَض بها فى الجهـاد علىٰ الشَّهادة حتّى وصَل إليها ، ومدّ يَدَه لمُبايعتنا علىٰ إعلائها فسابقَتِ الثُّريَّا ببَسْط يدَيْها ، ونشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى شَرَّف من تسمّى بآسْمِه أومَتَّ بالقُرْبىٰ إلىٰ نَسَـبه ، وصَرَّف فى الأرض مَنْ تمسَّـك من رعاية الأُمَّة بسبَبِه ، وأكْرَمَ به كرِيمَ كلِّ قومٍ وجعَل كلمةَ الفَخَار كلمـةً باقيةً فى عَقِبه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابِه ماناحَ الحمامُ لحُزْنه ثم غَنَّى من طَرَبه ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّنا ــ ولله الحمدُ ــ ممَّن نَحْفَظُ بإحساننا كلَّ ودِيعه ، ونَتَقَبَّل لمن أقبل من الملوكِ علىٰ سؤال صَـدَقاتنا الشريفةِ كلَّ ذَرِيعـه ، ونتكَفَّل لمَنْ مات وهو علىٰ وَلائنا بمـا لوْ رآه فى ولده لسَرَّه ماجَرىٰ ، وعلم أنَّ هـذا الذى كان يتَمَنَّى أن يَعيش حتّى يُبْصِر هذا اليومَ ويرىٰ ، وكان السلطانُ الملكُ المؤيَّد عِمَـاد الدين ــ قدّس الله رُوحه ــ هو بقيَّةَ بيتِه الشريف ، وآخِرَ مَنْ حلَّ من ملوكهم فى ذِرْوة عِزِّه المُنِيف ، ولم يزَلْ فى طاعتنا الشريفةِ علىٰ ماكان من الحُسْنىٰ عليـه ، ومن المحاسن التى لقِيَ الله بها ونُورُ إيمـانِه يَسْعىٰ بين يديْه ، فوهَبْنا له من المَمْلكة الحَمِويَّة المحروسـة ما كان قد طال عليه سالِفُ الأمد ، ورسَمْنا له بها عطِيَّةً باقيةً للوالد والولَد ، فلمَّا قارَبَ آنقضاءَ أجَله ، وأشرفَ علىٰ ماقدّمه إلىٰ الله وإلينا من صالح عمَلِه ، لم يَشْغَلْه مابه عن مطالعة

أبوابنا الشريفة والتذكار بولده، وتقاضى صدقاتنا العميمة بما كان ينتظره قمره المنير لفرقده؛ وورد من جهة ولده المقام الشريف، العالى، الولدى، السلطانى، الملكى، الأفضلى، الناصرى - أعز الله أنصاره - ما أزعج القلوب بمصابه فى أبيه، وأجرى العيون على من لانقع له على شبيه؛ فوجدنا من الحزن عليه ماأبكى كل سيف دما، وأن كل رمح يقرع سنه ندما؛ وتأسفنا على ملك كاد يكون من الملائك، وأخ كريم أو أعز من ذلك، وسلطان عظيم طالما ظهر شنب بوارقه فى ثغور الممالك؛ وقمنا من الحزن فى مشاركة أهله بالمندوب، ثم قلنا : لكم فى ولده العوض ولا ينكر لكم الصبر يا آل أيوب .

فاقتضت مراسمنا المطاعة أن نرقيه إلى مقامنا العالى، ونعقد له من ألوية الملك ماتهتز به أطراف العوالى؛ ونركبه من شعار السلطنة بما تتجمل به مواكبه، وتمتد به عصائبه، وتميس من العجب وتمتد رقابها بالرقبة السلطانية جنائبه؛ تنزيها لخواطركم الكريمة علينا عن قول ليت، وتنويها بقدر بيتكم الذى رفع لكم إسماعيل به قواعد البيت : لما نعلمه من المقام العالى الملكى الأفضلى الناصرى - أمتع الله ببقائه - من المناقب التى آستحق بها أن يكون له عليكم الملك، والعزائم التى قلد بها من الممالك ماتجول به الجياد وتجرى به الفلك؛ مع ماله من الكرم الذى هو أوفى من العهاد بعهده، والفضل الذى آتصل به ميراث الأفضلية عن جده؛ والجود الذى جرى البحر معه فاحمرت من الخجل صفحة خده، والوصف الذى لم يرض بالجوزاء واسطة لعقده؛ والعدل الذى أشبه فيه أباه فما ظلم، والعلم الذى ماخلا به بابه من طلب : إما لهدى وإما لكرم؛ ولم يخرج من كفالة والده إلا إلى كفالتنا التى أظلته بسحبها، وحلت سماء مملكته بشهبها؛ وخاطبناه كما كنا نخاطب والده - رحمه الله - بالمقام الشريف، وأجريناه فى ألقابه مجرى الولد زيادة له فى التشريف، وصرفنا

أَمْرِه فى كل ما كان لمُلُوك أهلِه فيه تَصْرِيف، وسنُرْشِدُه إلىٰ أَوْضَحِ طَرِيقَه، ويقُوم مَقَام أبيه أَوليْس «الناصرُ» هو أبوالأفْضَل حقِيقه، ورسَمْنا بطلَبه إلىٰ[ما]بينَ أيدينا الشريفة لنُجدِّدَ له من نظَرنا الشريف مايَتَضاعَفُ به سُعودُه، ويزدادُ صُعُوده، ويتَماثَل فى هـذا البيت الشاهِنْشاهىّ أبناؤُه وآباؤه وجُدُوده: لتعمل معه صدَقاتُنا الشريفةُ ماهو به جَدِير، وترَفعَه إلىٰ أعزِّ مكانٍ من صَهْوة المِنْبَر والسَّرِير، وتُكاثِرَ به كلَّ سلطان وما هو إلَّا جَحْفَلٌ يَسِير، لتُشيَّد به أركانُ هـذا البيت الكريم، وتُحيا عِظامُه وهى فى اللُّحُود عَظْمٌ رَمِيم، وتَعْرِفَ الناسُ أن عِنايتَنا الشريفـةَ بهم تَزِيد علىٰ ماعَهِدُوه لجَدِّهم القدِيم من سَمِيِّنا الملِكِ الناصرِ القديم.

فخرجت المَرَاسِيمُ الشريفةُ، العاليةُ، المَوْلَوِيَّة، السلطانية، المَلَكِية، الناصِرِيَّة: لا زالتِ الملوكُ تتقلَّد مِننَها فى أعناقها، ولا بَرِحتِ الممالكُ من بعض مَوَاهِبِها وإطْلاقها، أن يُقَلَّد هـذا السلطانُ الملكُ الأفضل ـ أدام الله نصْرَه ـ من المملكة الحَمَوية وبلادِها، وأُمَرائها وأجنادِها، وعَربِها وتُرْكُمانِها وأكرادِها، وقَضَاياها وقُضَاتِها، ورَعاياها ورُعَاتِها، وأهلِ حواضِرها وبَوادِيها، وعُمْرانِها وبَرارِيها ـ جميعَ ما كان والدُه ـ رحمه الله ـ يتقلَّده، وبسَيْفه وقَلَمه يُجْرِيه ويجرِّدُه: من كلِّ قليل وكثير، وجليلٍ وحَقِير، وفى كلِّ مأمورٍ به وأمِير، يتصرّف فى ذلك جميعِه، ويُقْطِع إقطاعاتها بمناشيرِه ويُولِّى وظائفَها بتواقيعِه، وينظُر فيها وفى أهلها بما يعْلَم أنَّ له ولهم فيه صَلَاحا، ويُقِيم من هَيْبة سلطانه مايُغْنِيه أن يُعْمِل أسنَّةً ويُجرِّدَ صِفَاحا.

ولْيَحْكُمْ فيها وفيمَنْ هو فيها بعـدْ له، ويجمَعْ قلوبَ أهلها علىٰ وَلَائه كما كانُوا عليه لأبيه من قَبْله، ولْيَكُنْ هو وجنودُه وعساكِرُه أقربَ فى النُّهوض إلىٰ مصالح الإسلام من رَجْع نَفَسه، وأمضىٰ فى العَزائِم ممـا يشتبه (؟) بها من سيفه وقَبَسه.

وأما بقيَّة مايُملَىٰ من الوصَايا، أو يُدَلُّ عليه من كَرَم السَّجايا؛ فهو ـ بحمد الله تعالىٰ ـ غريزةٌ فى طِبَاعه، ممتزِجٌ به من زَمان رَضَاعه؛ وإنمـا نُذَكِّره ببعض مابه يُتَبَرَّك، ونحُضُّه علىٰ آتِّباع أبيـه فإنها الغايةُ التى لاتُدْرَك؛ والشرع الشريف أهَمُّ مايشْغَل به جميعَ أوقاته، وتقوىٰ الله فما ينتصرُ الملِكُ إلا بتُقَاته؛ والفِكْرة فى مصالح البلاد والرعايا فإنها مادّةُ نَفَقاته، وآستكثارُ الجنود فإنهم حِصْـنُه المنيع فى مُلاقاته، ومبادرةُ كلِّ مهـم فى أوّل مِيقاته، وولاياتُ الأعمـال لايعتمِد فيها إلَّا علىٰ ثِقَاته، وإقامةُ الحُـدود حتّى لايُنصِتَ فى تَرْكها إلىٰ رَقْى رُقَاته؛ ورعايةُ مَنْ له علىٰ سَـلَفه خدمةٌ سابقه، وآستجلابُ الأدْعية الصالحةِ لنا وله فإنها للسهام مسابقه؛ ويُمْضِ فى الأُمُور عزمه فإنه مُذَرّب، ويَبْسُـطِ العـدلَ والإحسان فإنه بهـما إلينا يُتَقَرّب؛ ولْيأخُذْ بقلوب الرعايا فإنها تتقلّب، ولْيُكْرِم وِفادةَ الوُفُود ليقفَ بهـم ـ لنجاح مقاصـدهم ـ علىٰ بابٍ صحيح مجرّب؛ ولْيجتهـدْ فى الجهاد، ويتيقَّظْ والسَّـيْف مكتَحِلُ الجَفْن بالرُّقاد؛ ويهْتَمَّ فإنَّ الهمم العالية تُقَوّم بها عَوالِى الصِّعاد، ويُقَوّم البريدَ فإنَّ فى تقويمه بقاءَ المُلْك وعمارةَ البلاد؛ ولْيقِفْ عنـد مراسِمنا الشريفةِ لتَهْديَه إلىٰ سبيل الرَّشاد، ويُحْسِنْ سلُوكَه ليَطْرَبَ بذكره كُلُّ أحد ويترَنَّم كُلُّ حاد؛ وغير هذا من كلِّ ماعهدنا والِدَه ـ سقىٰ الله عهده ـ له سالِكَا، ولأزِمَّة أُمُوره الجميلة مالِكا؛ ممـا لايَحتاج ـ ممـا نَعرِفه من سِيرته المُثْلىٰ ـ إلىٰ شَرْحه، ولا يُدَلُّ نهارُه الساطعُ علىٰ صَبَاحة صُبْحه؛ ولْيُبْشِر بمـا جُعِل له من فضلنا العَمِيم، ويتَمَسَّكْ بوعْدنا الشريف أن هـذه المملكةَ له ولأبنائه وأبناءِ أبنائه ماوُجد كُفْءٌ من نَسَـبِهم الصميم؛ والله تعـالىٰ يُمِدُّك ـ أيها الملك الأفضل ـ بأفضـل مَزِيده، ويحفَظُ بك ماأبقاه لك أبُوك «المؤيَّدُ» من تأييده؛ والآعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

الوجـــــه الثـالث

(فيما يُكْتب فى المستَنَد عن السلطان فى هذا العهد، وما يكتبه السلطانُ فى بيت العَــلَامة)

والحُكْم فى ذٰلك علىٰ ما مَرَّ فى عهود أوليـاء العهد بالســلطنة : وهو أن يكتب فى مستَنَد العهد «حَسَبَ المرسوم الشريف» كما فى غيره من الولايات، ويكتب السلطان فى بيت العلامة ٱسمَه من غير زيادة .

قلت : ولا يُكْتَب فيـه شهادةٌ علىٰ السلطان كما يُكْتَب فى عُهُودِ أوليـاء العهد بالسلطنة : لأن العهد بالسلطنة العظمىٰ شبِيهٌ بالبَيْعة، والشهادة فيها مطلوبةٌ للخروج من الخلاف، علىٰ ماتقدّم فى موْضِـعه . والعهدَ بولاية سلطنةٍ بعض الأقاليم شبِيهٌ بالتقليـد، والشهادة فى التقاليد غير مطْلُوبة، وذٰلك أن الســلطنة لا تنْتهِى إلىٰ ولىّ العهدِ إلا بعد موتِ العاهد، ورُبَّمـا جَحَد بعضُ الناس العهدَ إليــه؛ وولاية بعضِ البُلْدان إنمـا تكون والسلطانُ المولىِّ منتصبٌ فلا يؤَثِّرالجحودُ فيها .

الوجـــــه الرابع

(فى قَطْع ورق هــذا العهد وقلمِه الذى يُكتَب به، وكيفيَّــةِ الكتابة، وصورةِ وضــعها فى الورق)

أما قطع الورق فمقتضىٰ عموم قول المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" : إن للعهود قطع البغدادىّ الكامل أنه يُكتَب فى قطع البغدادىّ أيضا .

قلت : والذى يقتضيه القياسُ أن تكون كتابتُه فى الورق البغدادىّ لمَعْنىٰ السلطنة ، ولكن فى قَطْعٍ دُونَ القطع الكامل : لنُقْصان رُتْبة هذه السلطنة عن السلطنة العظمىٰ ؛ ألا ترىٰ مكاتبةَ صاحب مملكةِ إيران كانتْ فى زمن القان «أبى سعيد» تُكتَب فى قطع البغدادىّ الكامِل كما ذكره فى "التعريف" وغيره ؛ ومكاتبةَ صاحب مملكة بَيْتِ بركةَ المعروفة بمملكة أزْبَك من مملكة تُوران تكتب له فى قطع البغدادىّ بنقْص أربعة أصابع مطْبُوقة كما ذكره فى "التثقيف" لانحطاط رُتْبته عن رتبة القان أبى سعيد، علىٰ ماتقدّم ذكره فى المكاتبات .

وأما قلمه الذى يكتب به، فينبغى إن كُتِب فىقطع البغدادىّ الكامِلِ أنيكون بمختَصر قلَم الطُّومار كما فى غيره من العهود التى تُكتَب فى القطع الكامل . وإن كتب فى دون الكامل، فينبغى أن يكون القلمَ دُونَ ذٰلك بقليل .

وأما صورة وضعه فى الورق ، فعلىٰ مامرَّ فى عهُود أولياء العهد بالسلطنة من غير فَرْق : وهو أن يكتُبَ فى رأس الدرج بقلمٍ دقيقٍ الاسمَ الشريفَ، ثم يبتدئ بكتابة الطرّة فىعَرْض الورق من غير هامش سُطورا متلاصقةً إلىٰ آخر الطرّة، ثم يخلِّى ستّةَ أوصال بياضا، ثم يكتُبُ البسملة فى أوّل الوصل الثامن بهامش قدرَ أربعة أصابع أو خمسةٍ مطبوقة، ثم يكتب سطرا من أوّل العهد ملاصقًا للبسملة ، ثم يخلِّى بيتَ العلامة قدر شبر علىٰ ما تقدّم ، ويكتُب السطرَ الثانى علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة ، ثم يسترسِلُ فى كتابة بقية العهد إلىٰ آخره، ويكون بين كلِّ سطرين قدرُ رُبُع ذراع علىٰ قاعدة العهود . فإذا انتهىٰ إلىٰ آخر العهد كتَب «إن شاء الله تعالىٰ» ثم التاريخ ، ثم المستند ، ثم الحمدَ لله والصلاةَ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، ثم الحَسْبلةَ . وتكون كتابتُه من غير نقط ولا شكل كسائر العُهود .

قلت : ولو وُسِّع ما بينَ سُطوره ونُقِطت حروفُه وشُكلت : لمـا فيـه من معنىٰ التقاليد، لكان به أليَق .

وهــذه صورةُ وضـعه فى الورق ، ممثّلا لهـا بالطرّة التى أنشأتُها فى معنىٰ ذٰلك، والعهد الذى أنشأه المَقَرّ الشّهابىّ بنُ فضل الله للملك الأفضل «محمد» بن الملك المؤيد «عماد الدين إسماعيل» آخر ملوكِ بنى أيُّوب بها(١)، وهى :

هذا عهدٌ شريفٌ عَذُبت موارِدُه ، وحَسُنَتْ بحسن النيــة فيه مقاصِــدُه ، وعاد علىٰ البريّة باليُمْن عائِدُه . من السلطان الأعظم ناصر الدنيا والدين الملكِ الناصر أبى الفتح محمد ٱبنِ السلطان الشهيد « قلاوون » خلَّد الله تعالىٰ ملكه ، وجعل الأرض بأسرها مِلْكه ـ للمقام الشريف العـالى الســلطانىّ ، المَلَكىّ ، الأفضَــلىّ ، محمــدِ ٱبن المقام العالى المؤيَّدىّ إسمــاعيل أعزّ الله تعالىٰ أنصاره ، وأحمدَ آثارَه ، بالسلطنة الشريفة بحماةَ المحروسةِ وأعمالها ، علىٰ أكمل العوائد وأتمِّها، وأجمل القواعد وأعَمِّها، علىٰ ما شرح فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش الحمدُ لله الذى أقرّ بنا المُلْكَ فى أهِلّة أهــله ، وتدارَكَ مُصابَ مَلِك لولا

ولَدُه الأفضــلُ لم يكن له شبِيه فى فَضْــله ، ووهب بنـا بيتَ السلطنة

(١) أى بحماة ولم يتقدّم لها ذكر فتنبه .

هامش

من أبْقى البقَايَا ما يَلْحقُ به كلُّ فرع بأصــله ، ويظْهَر به روْنَقُ السيفِ

فى نصله . إلىٰ أن يأتى إلىٰ قوله فى آخره : والله تعالىٰ يُمِدُّك أيها الملكُ

الأفضلُ بأفضــل مَزِيده ، ويحفَظُ بك ما أبْقــاه لك أبوكَ المؤيَّد من

تأييده ، والاعتمادُ علىٰ الخط الشريف ــ أعلاه الله تعالىٰ ــ أعلاه

إن شاء الله تعـالىٰ

كتب فى

ســـنة

حسب المرسوم الشريف

الحمدُ لله وحدَه ، وصلواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامُه

حسبنا الله ونعم الوكيل

البـاب الرابع

من المقـالة الخامســــة

(فى الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحـاب السُّيوف والأقلام، وفيــه [ثلاثةُ] (١) فصول)

الفصـــل الأوّل

(فيما كان يُكتَب من ذلك عن الخلفاء، وفيه خمسةُ أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فيما كان يُكتَب عن الخلفاء الراشدين من الصحابة رضوانُ الله عليهم)

وكان الرسمُ فى ذلك أن يفتتَح العهدُ بلفظ : « هــذا ما عَهِد » أو « هذا عهدٌ من فلان لفلان » ويؤتى على المَقْصَد إلى آخره . ويقال فيه : « أمَره بكذا وأمَره بكذا » .

والأصــلُ فى ذلك ما كَتَب به أبو بكر الصــدّيقُ رضى اللهُ عنه، لأمَرائه الذين وجَّههم لقتال أهل الرِّدّة، وعليه بَنىٰ من بعده . وهذه نسخته :

هذا عهدٌ من أبى بكر خليفةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم، لفلانٍ حينَ بعثه [فيمَنْ بعثَه] لقتال مَنْ رجَع عن الإســلام . عهِد إليه أن يتَّقِيَ الله ما ٱســتَطاعَ فى أمْره : كلِّه سرِّه وجَهْره . وأمره بالجِدّ فى أمْر الله، ومُجاهدةِ من تَوَلّى عنه ورجَع عن الإسلام إلى أمانِىِّ الشيطان، بعد أن يُعْذِر إليهم : فيَدْعُوهم بدِعاية الإسلام :

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من ج ١ ص ٢٥ من هذا المطبوع .

فإنْ أجابُوه أمْسك عنهم، وإن لم يُجيبوه شَنَّ غارَتَه عليهم حتّى يُقرُّوا له؛ ثم يُنَبِّئهم بالذى عليهم والذى لهم، فيأخُذ ماعليهم ويُعْطِيهم الذى لهم؛ لايُنْظِرهم ولا يَرُدّ المسلمين عن قِتَال عَدُوّهم؛ فمن أجاب إلىٰ أمر الله عزّ وجلّ وأقرّ له، قَبِل ذٰلك منه وأعانَهُ عليه بالمعروف، وإنما يُقاتَل مَنْ كفَر بالله علىٰ الإقْرار بما جاء مِنْ عِنْد الله: فإذا أجابَ الدَّعْوةَ لم يكن له عليه سبِيلٌ، وكان اللهُ حَسِيبَه بعدُ فيما آستَسَرّ به. ومَنْ لم يُجِبْ إلىٰ داعيةِ الله قتل وقوتل حيثُ كان وحيْثُ بلَغ مَراغِمَه، لايقبلُ من أحدٍ شيْئًا أعطاه إلّا الإسلامَ؛ فمن أجابه وأقرّ به قَبِل منه وعَلَّمه؛ ومَنْ أبىٰ قاتله: فإن أظهَرَهُ اللهُ عزّ وجلّ عليه، قَتَـل فيهم كلَّ قِتْلة بالسِّلاح والنِّيران، ثم قَسَم ماأفاء اللهُ عليه إلّا الخُمسَ فإنه مُبَلِّغُناه. وأن يمنَعَ أصحابَه العَجَلةَ والفَساد، وأن لايُدْخِلَ فيهم حَشْوا حتّى يَعْرِفَهم ويَعْـلَمَ ماهُم: لئلّا يكُونوا عيونا، ولئـلا يُؤتىٰ المسـلمون من قِبلَهم؛ وأن يَقْصِـد بالمسلمين ويَرْفُق بهم فى السَّـيْر والمَنْزِل؛ ويتَفَقَّدَهم ولا يُعْجِلَ بعضَهم عن بعض، ويستَوْصِى بالمسلمين فى حُسْن الصُّحْبة ولِينِ القَوْل.

***

وهـذه نسخة عهد كتَب به أميرُ المومنين عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنـه، لأبى مُوسىٰ الأشعرىّ رضى الله عنه، حينَ ولّاه القضاءَ:

أما بعدُ، فإنّ القضاءَ فريضةٌ مُحْكَمة، وسُنَّة مُتَّبعَة؛ فافهَمْ إذا أُدْلِىَ إليك، وآنْفُذْ إذا تبيَّنَ لك: فإنه لاينْفَع تكلُّمٌ بحقٍّ لانَفَاذَ له. آسِ بينَ الناس فى وَجْهك وعَدْلك ومَجْلِسِـك حتّى لايَطْمَعَ شريفٌ فى حَيْفك، ولا ييْأَس ضعيفٌ من عَوْنك(١). البَيِّنةُ علىٰ مَنِ آدّعىٰ، واليمينُ علىٰ من أنْكَر، والصُّلْح جائزٌ بينَ المسلمينَ إلاّ صُلْحا أحلَّ حَرَاما

(١) فى العقد الفريد (ج ١، ص ٣٣) "ولا يخاف ضعيف من جورك".

أو حَرّم حَلَالا . لا يمنَعنَّك قضاءُ قضيْتَه بالأمس فراجعْتَ فيــه عَقْلَك وهُدِيتَ فيه لرَشَـدك أن تَرْجع إلىٰ الحقِّ : فإن الحَقَّ قديم ، ومُراجعةُ الحق خيرٌ من التمَّــادِى فى الباطــــل .

الفَهْمَ الفَهْــمَ فيما تلَجْلَج فى صَــدْرك ممــا ليس فى كتابٍ ولا سُــنَّة ، ثم آعْرِف الأَشْباهَ والأمثــال ، وقس الأمورَ عنــد ذٰلك بنَظَائرها ، وآعْمِدْ إلىٰ أقْرَبها إلىٰ الله (١) وأشْبَهِها بالحقِّ ، وأجعَلْ لمَنِ آدَّعىٰ حقًّا غائبا أو بيِّنةً أمَدًا ينْتهِى إليــه : فإنْ أحْضَر بينةً ، أخذْتَ له بحقِّه وإلا آستحلَلْتَ القضيَّةَ عليه ؛ فإنَّه أنْفىٰ للشَّكّ ، وأجْلىٰ للعَمىٰ . المسلمُونَ عُدُولٌ بعضُهم علىٰ بعض إلا مَجْلُودًا فى حَدّ ، أو مجرَّبا عليــه شهادةُ زُورٍ ، أو ظَنينًــا فى وَلَاء أو نَسَب ، فإنَّ الله تولّى منكم السَّرائرَ ودَرَأ بالبيِّنات والأَيْمــان . وإيَّاكَ والقَلَقَ والضَّجَر ، والتَّأَذِّى بالخُصُوم ، والتنكُّر عند الخُصُومات : فإنَّ الحقَّ فى مواطِنِ الحقِّ يُعَظِّمُ اللهُ به الأَجْر ، ويُحْسِن عليــه الذُّخر والجزاء . فَمَنْ صَحَّت نيَّته وأقْبل علىٰ نَفْسه ، كفَاه اللهُ ما بيْنَه وبيْنَ الناس ، ومَنْ تخلَّق للناس بمــا يعلَمُ اللهُ أنه ليس مِنْ نَفْسه شانَهُ اللهُ ، فمــا ظَنُّك بثوابِ اللهِ فى عاجل رِزْقه وخزائنِ رحمتِــه ، والســـلام .

قلتُ : هــذا ما ذكره آبنُ عبد رَبِّه فى « العِقد » . ويقع فى بعض المصنَّفات آبتداؤُه : من عمرَ بن الخطاب إلىٰ عبْد الله بن قَيْس ـ سلامٌ عليكَ أما بعدُ .

ووقع فى مسْنَد البَزَّار أن أوّله : آعْلم أنَّ القضاءَ فريضةٌ مُحْكَمه ، مع تغييرِ بعض الألفاظ وتقديم بعضٍ وتأخير بعضٍ .

---

(١) يروى إلىٰ الصواب .

الطـــرف الثــانى
(فيما كان يُكتَب عن خُلَفاء بنى أُمَيَّـــة)

كتب عبدُ الحميد بن يحيىٰ الكاتب، عن مَرْوانَ بنِ محمد لبعض مَنْ وَلَّاه[(١)] .

أما بعــدُ ، فإنَّ أميرَ المؤمنين ـ عند ما آعتَزم عليه من تَوْجيهك إلىٰ عَدُوِّ الله الجِلْف الجافِي الأعْرابِيِّ، المتَسكِّع فى حَيْرة الجَهالة، وظُلَم الفِتْنة، ومَهاوِى الهَلَكة . ورَعَاعِه الذين عاثُوا فى أرض الله فَساداً، وآنتَهكُوا حُرْمَةَ الإسْلام آستِخْفافا، وبَدَّلُوا نِعْمةَ الله كُفْرا ، وآستَحَلُّوا [دِماءَ أهْل][(٢)] سِــلْمه جَهْلا ـ أَحَبَّ أن يَعْهَد إليــك فى لطائِفِ أُمُورك ، وعَوامِّ شُئُونك ، ودَخائِل أحْوالك، ومُصْطَرَف تنَقُّلك عَهْــدا يُحَمِّلُك فيه أدَبَه، ويشْرَع لك به عِظَتَه، وإن كنتَ بحمــد الله من دِينِ الله وخِلافته بحيثُ آصطنَعك اللهُ لوِلَاية العهــد مختَصًّا لك بذٰلك دُونَ لُحْمتك وبَنِى أبِيك . ولولا ماأمَرَ الله تعالىٰ به، دالًّا عليه، وتقدّمتْ فيــه الحكماءُ آمِرِينَ به : من تقديم العِظَة، والتَّذْكيرِ لأهل المعْرِفة وإن كانُوا أُولِى سابقــةٍ فى الفضــل وخِصِّيصاءَ فى العِــلْم، لآعتمدَ أميرُ المؤمنين علىٰ آصْطِناع الله إيَّاك ، وتفضيلِه لك بما رآك أهْلَه فى مَحَلِّك من أميرِ المؤمنين ، وسَبْقِك إلىٰ رغائبِ أخْلاقِه، وآنتزاعِكَ محمودَ شِيَمِه، وآستِيلائك علىٰ مَشَابِه تدْبِيره . ولو كان المُؤَدَّبون أخَذُوا العلْمَ من عِنْد أنفُسِهم ، أو لُقِّنُوه إلهامًا من تِلْقائِهم ولم نُصِبْهم تعلَّمُوا شيْئا من غيرهم ، لنحَلْناهم عِلْمَ الغيْب ، ووضَعْناهم بمنزلةٍ قَصَّر بها عنهم خالِقُهم المستأثِرُ بعلم الغَيْب عنهم بوَحْدانيَّته فى فَرْدانِيَّته وسابقِ لاهُوتِيَّتِــه، آحتجاباً منهــم لتعقُّب فى حُكْمه ، وتَثَبُّت فى سلطانه وتنفيذِ إرادته،

(١) المولى هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" (ص ٢٣٠) وغيره وهى لازمة .

علىٰ سابقِ مشيئته . ولكن العالِمُ الموفَّقُ للخيْر ، المخصوصُ بالفضـــل ، المحْبُوُّ بمزيّة العــلم وصَفْوته ، أَدْركه معانًا عليه بلُطف بَحْثه ، وإذلال كَنَفه ، وصِحّة فَهْمه ، وهجر سَآمته .

وقد تقدّمَ أميرُ المؤمنين إليك ، آخِذًا بالحُجّة عليك ، مُؤَدِّيا حقَّ الله الواجبَ عليه فى إرشادك وقَضاء حَقِّك ، وما ينْظُر به الوالُد المَعْنِيُّ الشَّفيق لوَلَده . وأميرُ المؤمنين يرجو أن يُنَزِّهَك اللهُ عن كل قَبِيح يَهَشُّ له طَمَع ، وأن يعْصِمَك من كلِّ مكروهٍ حاق بأحدٍ ، وأن يُحَصِّنَك من كلِّ آفة آستولَتْ علىٰ آمْرِئ فى دِين أو خُلُق ، وأن يُبَلِّغَـه فيكَ أحسَنَ ما لم يزَلْ يُعَوِّدُه ويُرِيه من آثار نعمةِ الله عليك ، ساميــةً بك إلىٰ ذِرْوة الشرف ، مُتَبَحْبِحةً بك بَسْطةَ الكرم ، لائحةً بكَ فى أزْهَر مَعالِى الأدب ، مُورِثةً لك أنفَس ذخائر العِزّ ؛ واللهَ يستَخْلِفُ عليك أميرُ المؤمنين ويسألُ حِيــاطتَك ، وأن يعْصِمَك من زَيْغ الهوىٰ ، ويُحْضِرَك داعِىَ التوفيق ، مُعانًا علىٰ الإرشاد فيــه ، فإنه لا يعينُ علىٰ الخير ولا يُوفِّق له إلّا هو .

اِعلم أنَّ للحكمة مَسالكَ تُفْضِى مَضايِقُ أوائِلِها بمن أمَّها سالِكا ، وركِبَ أخطارَها قاصــدًا ، إلىٰ سَعَة عاقِبتها ، وأَمْن سَرْحِها ، وشَرَف عِزِّها ؛ وأنهــا لا تُعارُ بسُخْف الخِفَّة ، ولا تُنْشأ بتفريط الغَفْلة ، ولا يَتعــدّىٰ فيها بامْرِئ حَدّه ؛ وربمــا أظهرَتْ بَسْطةُ الغَىّ مستُورَ العيْب . وقد تلقَّتك أخلاقُ الحِكْمة من كلِّ جهةٍ بفَضْلها ، من غير تعَب البحْث فى طَلَبها ، ولا مُتطاوِلٍ لمُناولة ذِرْوتِها ؛ بل تأثَّلَتَ منها أكْرَم نَبَعاتهــا ، وآستخلصْتَ [منهــا](1) أعْتقَ جواهِرها ؛ ثم سَمَوْتَ إلىٰ لُباب مُصاصِها ، وأحرَزْتَ مُنْفَس ذخائرها ، فآقتعِدْ ما أحرَزْتَ ، ونافِسْ فيما أصبْتَ .

(١) الزيادة من رسائل البلغاء .

وٱعلم أنَّ ٱحتواءَك علىٰ ذلك وسَبْقك إليه بإخلاص تَقْوىٰ الله فى جميع أُمُورك مُؤْثِرا لها، وإضْمارِ طاعته مُنْطَوِيًا عليها، وإعْظامِ ماأنعم اللهُ به عليك شاكرًا له، مرتبطًا فيه للَزِيد بحُسْن الحِياطة له والذَّبِّ عنه من أن تَدْخُلَك منه سآمةُ مَلاَل، أو غَفْلَةُ ضَياع، أو سِنَةُ تَهاوُن، أو جَهالَةُ مَعْرِفة: فإنَّ ذٰلك أَحَقُّ مابُدِئ به ونُظر فيه، معتمِدًا عليه بالقُوّة والآلةِ والعُدّة والٱنفراد به من الأصحابِ والحامّة. فتمَسَّكْ به لاجئًا إليه، وٱعتمِدْ عليه مُؤْثِرًا له، وٱلْتَجِئْ إلىٰ كَنفَه متحيِّزًا إليه: فإنه أبلَغُ ماطُلِب به رضا الله، وأنْجَحُه مَسْألة، وأجْزَلُه ثوابا، وأعْوَدُه نَفْعا، وأعَمُّه صلاحا، أرشَدك اللهُ لحظِّك، وفهَّمك سَدَاده، وأخَذ بقَلْبك إلىٰ محْموده. ثم ٱجعلْ لله فى كل صَبَاح يُنْعِم عليك ببُلُوغه، ويُظْهِر منك السلامةَ فى إشْراقه [من نَفْسك](١) نصيبًا تجعَلُه له شُكْرا علىٰ إبلاغه إيَّاك يَوْمَك ذلك بصِحّةِ جَوارحَ وعافيةِ بَدَن، وسُبُوغ نِعَم، وظُهُور كَرامة. وأن تَقْرأَ فيه من كتاب الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ جُزْءا تُرَدِّدُ رأْيَك فى آيه، وتُرتِّل(٢) لفظك بقراءته، وتُحْضِره عقْلَك ناظرًا فى مُحْكَمه، وتتفهَّمُه مفكِّرًا فى مُتَشابِهه: فإنَّ فى القرءان شِفاءَ الصُّدور من أمراضها، وجِلاءَ وَساوِس الشيطان وصَعَاصِعِه(٣)، وضِياءَ مَعَالم النُّور، تبيانًا لكل شىء وهُدًى ورحْمةً لقومٍ يُؤْمِنون. ثم تعهَّدْ نَفْسَك بمجاهَدة هَوَاك: فإنَّه مِغْلاق الحَسَنات، ومِفْتاح السَّيِّئات، وخَصْم العقل.

وٱعلَمْ أنَّ كلَّ أهوائك لكَ عَدُوّ يحاوِل هَلَكَتَك، ويعترِض غَفْلتَك: لأنَّها خُدَع إبليس، وخَواتِلُ مَكْره، ومَصايِدُ مَكيدته، فاحذَرْها مُجانِبًا لها، وتوَقَّها محترِسًا منها،

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره.

(٢) فى مفتاح الأفكار (ص ٢٣٢) وغيره «وتزين» وهى أنسب.

(٣) الصعاصع جمع صعصع وهو طائر أشهب يصيد الجنادب شبه وسوسة الشيطان به وفى بعض المؤلفات وسفاسفه.

وٱستَعِذْ بالله عزَّ وجلّ من شَرِّها، وجاهِدْها إذا تناصَرتْ عليك بعَزْمٍ صادق لاوَنْيَةَ (١) فيـه، وحَزْمٍ نافذٍ لامَثْنَوِيَّةَ لرأْيك بعدَ إصْداره، وصِدْقٍ غالبٍ لامَطْمَعَ فى تكذيبه، ومَضَاءةٍ صارمةٍ لا أَناةَ معهـا (٢)، ونِيَّةٍ صحيحةٍ لاخَاْجةَ شــكٍّ فيها : فإنَّ ذٰلك ظِهْرِىٌّ صِدْقٍ لكَ علىٰ رَدْعها عنك، وقَمْعِها دُونَ ما تتطَلَّعُ إليه منكَ؛ فهى واقِيةٌ لك سُخْطَةَ ربك، داعيةٌ إليكَ رضَا العامّةِ عنــك، ساترةٌ عليك عيْبَ مَن دُونَك؛ فازدَنْ بهـا متحَلِّيا، وأصِبْ بأخلاقِك مواضِعَها الحميدةَ منها، وتَوَقَّ عليها الآفَةَ التى تقتَطِعك عن بُلوغها، وتُقَصِّر بك دُونَ شَأْوِها : فإنَّ المـُونَةَ إنمـا ٱشتدّتْ مستَصْعبة، وفَدَحتْ باهظةً أهـلَ الطَّلَب لأخْلاق أهل الكَرَم المنتحِلين سُمُوَّ القَدْر، بجَهَالةِ مواضِعِ ذَمِيم الأخلاق ومحْمُودها، حتّى فَرّط أهلُ التقصــير فى بعض أُمُورهم، فدخلَتْ عليهـم الآفاتُ من جهاتٍ أَمِنُوها، فنُســبُوا إلىٰ التفريط، ورَضُوا بِذُلِّ المنْزِل، فأقامُوا به جاهلينَ بموضع الفضل، عَمِهِين عن دَرَج الشَّرَف، ساقطين دُونَ منْزِلة أهل الحِجا. فحاوِلْ بُلوغَ غاياتِها مُحرِزًا لها بسَبْق الطلب إلىٰ إصابة الموْضِع، مُحصِّنًا أعمــالَك من العُجْب : فإنه رأسُ الهَــوىٰ، وأوّلُ الغَوَاية، ومَقَادُ الهَلَكة؛ حارسًا أخلاقَك من الآفات المتَّصِــلة بمَسَاوِى (٣) الألقاب وذَمِيم تَنابُزِها، من حيثُ أتت الغفلةُ، وٱنتشر الضَّيَاع، ودخَل الوَهْن. فتوَقَّ غُلُوب (٤) الآفاتِ علىٰ عقْلك، فإنَّ شواهدَ الحق ستُظْهِرُ بأماراتهـا تصــديقَ آرائك عنــد ذَوِى الحِجا، وحالَ الرأيِ وخَفْض النظر. فاجتلِبْ لنَفْسك محمودَ الذِّكر وباقِيَ لسانِ الصِّــدْق بالحَذَر لمـا تقدَّمَ إليك فيه أمير المؤمنين،

(١) من قولهم افعل ذلك بلا وَنْية أى بلا توان.

(٢) هو من قولهم تأنّى بالأمر ترفق وتنظر. أى لارفق معها.

(٣) فى بعض المؤلفات بمساوى العادات وذميم إيثارها.

(٤) أى غلبة الآفات ولم نقف على هذا المصدر فيما بأيدينا من كتب اللغة.

متحرِّزا من دُخُول الآفاتِ عليك من حيثُ أَمْنُـك وقِلَّةُ ثِقَتك بمُحْكَمِها : من ذلك أن تملِكَ أمورَك بالقصـد، وتُدارِىَ جُنْدَك بالإحْسان، وتَصُونَ سِرَّك بالكِتْمان، وتُداوِىَ حِقْدَك بالإنصاف، وتُذَلِّل نفْسك بالعَدْل، وتُحَصِّنَ عُيوبَك بتقويم أَوَدِك، وتمنعَ عقْلَك من دُخُول الآفاتِ عليه بالعُجْب المُرْدِى . وأناتَك فَوَقِّها المَلالَ وفَوْتَ العـمل ، ومَضاءَتَك فدَرِّعها رَوِيَّة النظر واكْنُفْها بأَنَاة الحِـلْم . وخَلْوتَك فاحْرُسْها من الغَفْلة واعْتمادِ الراحة ، وصَمْتَك فانْفِ عنه عِيَّ اللَّفْظ ، وخَفْ سُوءَ القَالَة؛ واستِمَـاعَك فأَرْعِه حُسْنَ التفهُّم، وقَوِّه بإشْهاد الفكر؛ وعَطاءَك فامْهَـدْ له بيُوتاتِ الشَّرف وذَوِى الحَسَب، وتحرَّزْ فيه من السَّرَف واستطالةِ البَذْخ وامْتنانِ الصَّنِيعة؛ وحَياءَك فامنَعْـه من الخَجَل ، وبَلادةِ الحَصَر؛ وحِلْمَك فَزِعْه عن التَّهاوُن وأحْضِرْه قُوَّةَ الشَّكِيمة؛ وعُقُوبتَك فقَصِّربهـا عن الإفراط ، وتعمَّدْ بها أهلَ الاستحقاق؛ وعَفْوَك فلا تُدْخِلْه تعطِيلَ الحقُوق، وخُذْ به واجبَ المفْتَرَض، وأقِمْ به أوَدَ الدِّين؛ واستِئْناسَك فامنَعْ منـه البَذَاءَ وسُوءَ المُنَاقَثَة (١) . وتَعَهُّدَك أُمُورَك فخُذْه أوقاتاً، وقَدِّره ساعاتٍ، لا تَستفْرِغُ قُوَّتك ، ولا تستَدْعِى سَآمَتَك؛ وعَزَماتِك فانْفِ عنها عَجَلة الرأْى ، ولَجَاجةَ الإقدام؛ وفَرَحاتك فاشْكُمْها عن البطَر، وقَيِّـدها عن الزُّهُوّ؛ ورَوْعاتِك حُطْها من دَهَش الرأْى ، واستِسْلام الخُضُوع؛ وحَذَراتِك فامنَعْها من الجُبْن، واعمِدْ بها الحَزْم؛ ورَجاءَك فقَيِّده بخَوْف الفائت، وامنَعْه من أمْنِ الطَّلَب .

هذه جَوامِعُ خِلال دَخَّال النقصِ منها واصلٌ إلىٰ العقْل بلَطائف أَبْنِه وتصاريف حَوِيله ، فأحْكِمْها عارفًا بها، وتقـدّم فى الحِفْظ لهـا ، معتزِما علىٰ الأَخْذ بمَرَاشِدها والانتهاءِ منها إلىٰ حيثُ بلغَتْ بك عِظةُ أمير المؤمنين وأدَبُه إن شاء الله .

(١) يقال ناقث فلان فلانا بالكلام آذاه انظر القاموس مادة ن ق ث .

ثُمَّ لْتَكُنْ بِطانَتُك وجُلَساؤك فى خَلَواتك، ودُخَلاؤُك فى سِرّك، أهلَ الفِقْه والوَرَع من خاصّة أهـلِ بيْتك، وعامّةُ قُوّادِك ممن قد حَنَّكتْه السِّنُّ بتصارِيف الأُمور، وخَبَطتْه فصالها بينَ فَراسن البُزَّل منها، وقَلَّبتْه الأمور فى فُنُونها، وركِبَ أطوارَها: عارفًا بمَحَاسن الأُمور ومواضـع الرَّأْى وعَيْنِ المَشُورة؛ مأْمُونَ النصيحة، مُنْطوِىَ الضـمير على الطاعة. ثم أحْضِرْهم من نَفْسـك وَقَارا يسـتَدْعى لك منهم الهَيْبة، وآستِئناسًا يَعْطِف إليك منهم المَوَدّة، وإنْصاتًا يفُلُّ إفاضتَهم له عِنْدك بمـا تَكْره أن يُنْشَر عنك من سَخَـافة الرأْى وضَياع الحَزْم. ولا يَغْلِبَنَّ عليك هَواك فيَصْرِفَك عن الرأى، ويقْتطِعَك دُونَ الفِكْر. وتَعَلَّم أنك ـ وإن خلَوتَ بسِرّ فألقَيْتَ دُونَه سُتُورَك، وأغلَقْتَ عليه أبوابَك ـ فذلكَ لا محالَةَ مكشُوفٌ للعامّة، ظاهرٌ عنك وإن آستتر[ت] بُرُبَّمـا ولعلَّ وما أُرىٰ إذاعة ذلك وأعلم (1)، بمـا يَرَوْن من حالاتِ من يَنْقطِع به فى تلك المواطن. فتقـدّمْ فى إحكام ذلك من نَفْسـك، وآسدُدْ خَلَله عنك: فإنه ليس أحدٌ أسرَعُ إليه سُوءُ القالة ولغَطُ العامّة بخيرٍ أو شرٍّ ممن كان فى مثـل حالك ومكانِكَ الذى أصبحْتَ به من دِينِ الله والأمـلِ المرجُوِّ المنتظَرِ فيك. وإيّاكَ أن يُغْمِزَ فيك أحدٌ من حامّتك وبِطانَةِ خَدَمتِك بضَعْفةٍ يَجِدُ بها مَساغًا إلىٰ النُّطق عندك بما لا يعْتَرِلُك عَيْبُه، ولا تخْلُو من لائمتِه، ولا تأمَنُ سُوءَ الأُحْدُوثة فيه، ولا يرخُص سُوءُ القالةِ به إنْ نجَم ظاهِرا أو عُلِن بادِيا، ولن يَجْترِئُوا علىٰ تلك عنْدك إلّا أن يَرَوْا منك إصغاءً إليها، وقبولًا لهـا، وترخيصًا لهم فى الإفاضةِ بها. ثم إيَّاك وأن يُفاضَ عندك بشىْءٍ من الفُكاهات والحكايا، والمِزَاح والمَضاحِك التى يَستَخِفُّ بها أهـلُ البِطاله، ويتَسرَّعُ نحْوَها ذَوُو الجَهاله؛ ويجِدُ فيها أهلُ الحَسَد مقالًا لعَيْب يُذيعُونه،

(1) كذا فى الأصل ومفتاح الأفكار مع توقف والمراد أنه يحذر من نشره بهذه الألفاظ.

وطَعْنا فى حقٍّ يَجْحَدونه ؛ مع مافى ذٰلك من نَقْص الرأى ، ودَرَن العِرْض ، وهَـدْم الشرف ، وتأْثيل الغَفْلة ، وقُوّة طِباع السُّوءِ الكامنةِ فى بنى آدمَ كَكُمُون النار فى الحَجَر الصَّلْد ، فإذا قُدِح لاح شَرَرُه ، وتلهَّبَ وَمِيضُه ، ووَقَدَ تضرُّمُه . وليسَتْ فى أحد أقوىٰ سَطْوةً ، وأظهَرَ توقُّـدا ، وأعلىٰ كُمُونا ، وأسرَعَ إليـه بالعَيْب وتَطَرُّق الشَّيْن منها لِمَنْ كان فى مِثْـل سِنّك : من أغْفال الرجال وذَوِى العُنْفُوان فى الحَداثة ، الذين لم يقع عليهم سِمَـاتُ الأمور ، ناطقًا عليهم لائحُها ، ظاهرًا فيهم وَسْمُها ، ولم تَمْحَضْهم شهامتَها ، مظهِرةً للعامَّة فضلَهم ، مُذيعـةً حسْنَ الذكر عنهم ؛ ولم يبلُغْ بهـم الصِّيتُ فى الحُنْكة مستَمَعا يَدْفعُون به عن أنفُسهم نواطِقَ ألْسُن أهـل البَغْى ، ومَوادَّ أبْصار أهل الحَسَـــد .

ثم تعهَّدْ من نَفْسك لطيفَ عَيْبٍ لا زِمٍ لكثيرٍ من أهل السلطان والقُدْرة : من أبطال الذرع(١) ونَخْوة الشَّرف والتِّيه وعَيْب الصَّلَف ؛ فإنها تُسْرِع بهم إلىٰ فَسَادِ وتهجين عقُولهم فى مواطِنَ جمَّـة ، وأنحاء مُصْطَرِفة ، منها قِلَّةُ ٱقتدارهم علىٰ ضَـبْط أنفسهم فى مَوَاكِبهم ومسايرتِهم العامّةَ : فمن مقَلْقِل شَخْصَه بكثْرة الاْلتفات عن يمينه وشماله ، تَزْدَهِيه الخِفَّة ، ويُبْطِره إجلابُ الرجال حَوْلَه . ومن مُقْبِـل فى مَوْكِبه علىٰ مُداعبَة مُسايِره بالمُفَاكهة له والتَّضاحُك إليه ، والإيجافِ فى السَّيْر مَرَحا ، وتحريك الجَوارِح متَسرِّعا ، يَخَالُ أنَّ ذٰلك أسرَعُ له وأحَثُّ لمَطِيَّتـه ، فلْتُحَسِّن فى ذلك هَيْئَتَـك ، ولْتُجَمِّلْ فيــه دَعَتَــك ؛ ولْيَقِلَّ علىٰ مُسايِرِك إقبالُك إلا وأنْتَ مُطْرِق النظر ، غيرُ ملتفِتٍ إلىٰ محـدِّث ، ولا مقبل عليــه بوجهك فى مَوْكِبك لمحادَثَته ، ولا مُوجِف فى السـير مقَلْقِلٍ لجَوارحك بالتحريك والاْستِنْهاض ؛ فإنَّ حُسْنَ مسايَرة الوالِى وٱتِّداعَه فى تلك الحالة دليلٌ علىٰ كثيرٍ من غُيُوب أمره ومستَترِ أحواله .

(١) فى مفتاح الأفكار «من أبطال البدع» وفى غيره «من أقطار الذرع» وفى كليهما علامة التوقف تأمل .

وٱعلم أنّ أقواما يتسرّعون إليكَ بالسّعاية ، ويأتونَك علىٰ وجه النّصيحة ، ويستميلُونَك بإظهار الشّفقة ، ويستدْعُونك بالإغْراء والشُّبْهة ، ويُوطِئونك عُشْوةَ الحَيْرة : ليجعلُوك لهم ذَريعةً إلىٰ ٱستِئْكال العامَّة بموضِعهم منك فى القَبُول [منهم](١) والتصديقِ لهم علىٰ مَنْ قرَفُوه بتُهَمة ، أو أسرعُوا بك فى أمره إلىٰ الظِّنَّة؛ فلا يَصلنَّ إلىٰ مُشافَهتِك ساعٍ بشُبْهة ، ولا معروفٌ بتُهَمة ، ولا منسوبٌ إلىٰ بِدْعة [فيعرِّضَك](٢) لإيتَاغ دِينِك ، ويحمِلَك علىٰ رعيَّتك بما لا حقيقةَ له عندك ، ويُلْحِمَك أعراضَ قوم لاعلْمَ لك بدَخْلهم(٣) ، إلا بما أقدم [به] عليهم ساعيا وأظهر لك منهم مُتَنصِحا . ولْيكُنْ صاحبُ شُرْطتك المتولّى لإنهاء ذٰلك هو المنصوبَ(٤) لأولٰئك ، والمستَمِعَ لأَقَاويلهم ، والفاحِصَ عن نَصائِحهم ؛ ثُمَّ لْيُنْهِه ذٰلك إليكَ علىٰ ما يُرْفَع إليه منه لتأمُرَه بأمْرك فيه ، وتَقِفَه علىٰ رأْيك من غير أن يَظْهرَ ذلك للعامَّة : فإن كان صوابا نالتك خِيرتُه ، وإن كان خَطأ أقْدَم به عليك جاهلٌ أو فَرْطةً سعىٰ بها كاذبٌ فنالتِ الساعىَ منهما أو المظلومَ عقوبةٌ ، أو بَدَر من وَاليك إليه عُقُوبةٌ ونَكَال ، لم يَعْصِبْ ذٰلك الخطأُ بك ولم تُنْسَب إلىٰ تفريط ، وخلَوْتَ من موضع الذَّمِّ فيه : مُحضِرا إليه ذِهنَك وصوابَ رَأْيك . وتقدّمْ إلىٰ مَنْ تُولِّى ذٰلك الأمْرَ وتعتمِدُ عليه فيه أن لا يُقْدِم علىٰ شىْءٍ ناظرًا فيه ، ولا يحاوِلَ أخْذَ أحد طارقًا له ، ولا يُعاقِبَ

---

(١) الزيادة عن ''مفتاح الأفكار'' وغيره .

(٢) الزيادة عن ''مفتاح الأفكار'' وغيره وهى لازمة . وفى القاموس فى مادة (و ت غ) وأوتغ دينه بالاثم أفسده .

(٣) دخل الرجل بالفتح والكسر نيته ومذهبه .

(٤) الذى فى ''مفتاح الأفكار'' وغيره «وليكن صاحب شرطتك ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك إليه آنتهاء ذلك وهو المنصوب الخ» .

أحدا مُنكِّلا به، ولا يُخَلِّىَ سبيلَ أحد صالحاً عنه : لإصْحارِ براءته(١)، وصِحَّة طريقته؛ حتَّى يرفَع إليكَ أمْرَه، ويُنْهِى إليك قضيّتَه على جهة الصِّدْق، ومَنْحىٰ الحق، ويَقِين الخبَر؛ فإن رأيتَ عليه سبيلًا لَمحْبَس أو مجازًا لعُقُوبة، أمرتَه بتولِّى ذلك من غير إدخالِه عليك، ولا مُشافهةٍ لك منه؛ فكان المتولِّى لذلك ولم يَجْرِ على يديْكَ مكروهُ رأى ولاغِلظةُ عقُوبة. وإن وجدْتَ إلى العَفْو [عنه] سبيلا، أوكان مما قُرِف به خَلِيّا؛ كنتَ أنتَ المتولِّى للإنعام عليه بتخليَةِ سبِيله، والصفح عنه بإطلاق أَسْره؛ فتولَّيتَ أجْرَ ذلك وٱستحقَقْتَ ذُخْره، وأنطقْتَ لسانَه بشُكْرك، وطوّقْتَ قومَه حمْدَك، وأوجبتَ عليهم حقَّك؛ فقرَنْتَ بين خصلتين، وأحرزْت حُظْوتيْن : ثوابَ الله فى الآخرة، ومحُمودَ الذِّكْر فى الدُّنيا .

ثم وإيَّاك أن يصِلَ إليك أحدٌ من جُنْدك وجُلَسائك وخاصَّتك وبِطانَتك بمسألة يَكْشِفُها لك، أو حاجة يَبْدَهُك بطلبها، حتَّى يَرْفَعَها قبلَ ذلك إلى كاتبك الذى أهدفْتَه لذلك ونصبْتَه له، فيَعرِضَها عليك مُنْهِياً لها على جهة الصِّدق عنها، وتكونَ على معرفة من قَدْرها : فإن أردْتَ إسعافَه بها ونجاحَ ماسألَ منها، أذِنْتَ له فى طَلَبها، باسطاًّ له كنَفَك، مُقْبِلا عليه بوجْهك؛ معظُهور سُرورك بما سألك، وفسحة رأْى وبَسْطة ذَرْع، وطيبِ نَفْس . وإن كرِهْتَ قضاء حاجته، وأحببْتَ ردَّه عن طَلِبته، وثقُل عليكَ إجابتُه إليها، وإسْعافُه بها، أمرتَ كاتبَك فصفَحه عنها، ومَنَعه من مُواجَهتِك بها؛ نخفَّتْ عليكَ فى ذلكَ المئُونةُ، وحَسُن لك الذِّكر، ولم يُنْشَر عنك تجَهُّم الردِّ، وينَلْك سُوءُ القالة فى المنْع، وحُمِل على كاتبك فى ذلك لائمةٌ أنت منها بِرِىءُ الساحة .

(١) أى لوضوح براءته ففى حديث علىّ فأصحر لعدوّك أى كن من أمره على أمر واضح انظر اللسان ج ٦ ص ١١٣ .

وكذلك فليَكُنْ رأيُك وأمرُك فيمَنْ طرأ عليك من الوُفُود وأتاك من الرُّسُل ، فلا يصلَنَّ إليك أحدٌ منهم إلّا بعد وصُول علمه إليك ، وعِلْم ماقَدِم له عليك ؛ وجِهةِ ماهو مكلِّمك به ، وقدْرِ ما هو سائلُك إيّاه إذا هو وصل إليك ، فأصدرْتَ رأيك فى حوائجه ، وأجلْتَ فِكرْك فى أمره ، وآخترْت معتزِما علىٰ إرادتِك فى جوابه ، وأنفَذْت مصْدُور رَوِيَّتك فى مَرْجُوع مسألته قبل دُخُوله عليك ، وعلمِه بوُصول حالِه إليك ؛ فرفَعْتَ عنك مَئُونَةَ البديهة ، وأرخَيْت عن نفسك خِناق الرَّوِيَّة ، وأقدمْتَ علىٰ ردّ جَوابه بعد النَّظَر وإجالة الفِكْر فيه . فإنْ دخل إليكَ أحدٌ منهم فكلمك بخلافِ ما أنْهىٰ إلىٰ كاتبِك وطوىٰ عنه حاجته قِبَلك ، دفعْته عنك دفعا جميلا ، ومنعتَه جوابَك منْعا وَديعا ؛ ثم أمرْتَ حاجبَك بإظهار الجَفْوة له ، والغِلْظة عليه ، ومنْعِه من الوصُول إليك ؛ فإنَّ ضبْطَك لذٰلك مما يُحْكِم لك تلكَ الأسباب ، صارفًا عنك مَئُونتَها ، ومُسَهِّلا عليك مستَصْعبَها .

اِحذر تضييعَ رأيك وإهمالَك أدبَكَ فى مسالك الرضا والغضَب وآعْتِوارِهما إيّاك ، فلا يَزْدَهِينَّك إفراطُ عُجْب تستخِفُّك روائعُه ، ويَسْتَهْوِيك مَنْظَره ، ولا يَبْدُرَنَّ منك ذٰلك خَطَأ ونَزَق خِفّة لمكروه إنْ حَلَّ بك ، أو حادثٍ إنْ طرَأ عليك . ولْيَكُنْ لك من نَفْسك ظِهْرِيٌّ(١) مَلْجأ تحترزُ به من آفاتِ للرَّدىٰ ، وتستعْضِد فى مُوهِم النازل ، وتتعقَّبُ به أُمورَك فى التدبير . فإن آحتجْتَ إلىٰ مادّة من عَقْلك ، ورَوِيَّة من فِكْرِك ، أو آنْبِساط من مَنْطِقك ، كان آنحيازُك إلىٰ ظِهْرِيِّك مُزْدادا مما أحببْتَ الآمتياح منه والآمْتِيار ؛ وإن آستدبرْتَ(٢) من أُمُورِك بوادِرُ جهْل أو مَضىٰ زلل أو معانَدةُ حقٍّ أو خطلُ تدبيرٍ ، كان ماآحتجنْتَ إليه من رأْيك عُذْرا لك عند

(١) فى رسائل البلغاء وتستعهده فى مهم نازل .

(٢) كذا فى المفتاح ورسائل البلغاء أيضا ولعله وان آبتدرت الخ . تأمل .

نَفْسك، وظهْرِيًّا قويًّا علىٰ ردّ ما كرهتَ، وتخفيفًا لمئُونة الباغين عليـك فى القـالة وآنْتِشار الذكر، وحِصْنا من غُلُوب الآفاتِ عليك، وآستِعْلائها علىٰ أخلاقك .

وآمنَعْ أهْلَ بطانتك وخاصَّةَ خدَمِك من آستِلْحام أعراض الناس عندك بالغِيبَة، والتقرُّبِ إليك بالسِّعاية، والإغراءِ من بعضٍ ببعض ؛ أو النَّميمةِ إليْـك بشىء من أحوالهم المستَتِرة عنك ، أو التحميل لك علىٰ أحد منهـم بوَجْه النَّصيحة ومَذْهَب الشَّـفَقة : فإنَّ ذٰلك أبلغُ بك سُمُوّا إلىٰ مَنالةِ الشرف ، وأعونُ لك علىٰ محُمود الذكر، وأطلَقُ لعِنان الفضل فى جَزَالة الرأْى وشَرَف الهِمَّة وقُوّة التدبير .

وآمْلِكْ نفْسَـك عن الآنِبســاط فى الضحك والآنِفهاق ، وعن القُطُوب بإظهار الغَضَب وتنَحُّله : فإنَّ ذٰلك ضَعْف عن مِلْك سَوْرة الجَهْل، وخروجٌ من آنتحال آسمِ الفَضْل . ولْيكُنْ ضَحِكُك تبَسُّما أو كَشْرا فى أحايينِ ذلك وأوقاته، وعنـد كلِّ رائع مستَخِفٍّ مُطرِب ؛ وقُطوبُك إطراقًا فى مواضـع ذٰلك وأحواله ، بلا عَجَلة إلىٰ السَّطْوة ، ولا إسراعٍ إلىٰ الطِّيَرة، دُونَ أن يكْنُفَها رويَّةُ الحـلم ؛ وتملِكَ عليها بادِرةَ الجهـــل .

إذا كنتَ فى مجلِس مَلَئك، وحيثُ حضورُ العامّة مجلسَك، فإيَّاك والرمْىَ بنظرك إلىٰ خاصٍّ من قُوّادك ، أو ذى أُثْرة عندك من حَشَـمك . ولْيكُنْ نظَرُك مقسومًا فى الجميع ، وإراعتُـك سمْعَـك ذا الحـديث بِدَعةٍ هادئة، ووَقارٍ حسَن، وحضُورِ فَهْم مجتَمِع ، وقِلّةِ تضَجُّر بالمحدِّث . ثم لا يبْرَحُ وجهُك إلىٰ بعض حَرَسـك وقُوّادك متوجِّها بنظَـرٍ رَكين ، وتفَقُّـدٍ مَحْض . وإن وَجَّه إليك أحدٌ منهـم نَظَرَه مُحدِّقا، أو رَماكَ ببصره مُلِحًّا ، فاخفضْ عنـه إطراقًا جميلًا باتِّداع وسُكُون . وإيَّاك

والتَسرُّعَ فى الإطراق ، والخِفَّةَ فى تصريف النظَر، والإلحاحَ علىٰ من قصدَ إليك فى مخاطبته إيَّاك رامقًا بنَظَره .

وٱعلم أنَّ تصَفُّحك وجوهَ جلَسائك وتفقُّدك مجالِسَ قُوادك ، من قُوَّة التـدبير ، وشهـامةِ القلب ، وذَكَاء الفِطْنة ، وٱنتِباه السِّـنة . فتفقَّد ذٰلك عارفًا بمن حضَرك وغابَ عنك ، عالِمًـا بمواضِعِهم من مجْلِسك ، ثم ٱعْدُبهم عن ذٰلك سائلًا لهم عن أشغالهم التى منعَتْهم من حضُور مجْلِسك ، وعاقتْهم بالتخلُّف عنك .

إن كان أحدٌ من حَشَمك وأعوانِك تثِقُ منه بغيبِ ضمير ، وتعرِفُ منـه لِينَ طاعة ، وتُشرِف منـه علىٰ صِحَّة رأى ، وتأمنُه علىٰ مَشُورتك ، فإيَّاك والإقبالَ عليـه فى كلِّ حادثٍ يَرِدُ عليـك ، والتوَجُّهَ نحوَه بنظَرك عنـد طَوارِق ذٰلك ، وأن تُرِيه أو أحدا من أهـل مجْلِسك أنَّ بك حاجةً إليه مُوحِشة ، أو أنْ ليس بك عنـه غِنًى فى التدبير ، أو أنَك لا تقْضِى دُونَهُ رأيا ، إشراكًا منك له فى رَوِيَّتك ، وإدخالًا منك له فى مَشُورتك ، وٱضطرارًا منك إلىٰ رأيه فى الأمر يَعْرُوك : فإنَّ ذٰلك من دخائل العُيوب التى ينتَشِر بهـا سُوءُ القالة عن نُظَرائك فٱنفِها عن نفسِـك خائفًا لٱعتلاقها ذِكْرَك ، وٱحجُبْها عن روِيَّتك قاطعًا لأطماع أوْليائك عن مثْلها عِنْـدك ، أو غُلُوِّهم عليها منك .

وٱعلم أنَّ للشُورة موضعَ الخلْوة وٱنْفرادَ النظر ، ولكلِّ أمرٍ غايةٌ تُحيط بحُـدُوده ، وتجمعُ معالِمَه . فٱبغِها مُحْرِزا لهـا ، ورُمْها طالبا لنَيْلها ؛ وإيَّاك والقُصورَ عن غايتها أو العجْزَ عن درْكها ، أو التفريطَ فى طلَبها . إن شاء الله تعالىٰ .

إيَّاك والإغرامَ عن حديثٍ مَّا أعجَبك ، أو أمرٍ مَّا ٱزدهاكَ بكثْرة السـؤال ، أو القطْعَ لحديث مَنْ أرادك بحديثـه حتّٰى تنقُضَه عليه بالخوْض فى غيره أو المسألة

عمّا ليس منه : فإنّ ذٰلك عند العامّة منسُوب إلىٰ سُوء الفهم وقِصَر الأدب عن تناوُل محاسِن الأُمُور والمعرفةِ بمَساوِيها، ولٰكن أنصِت لمحدّثك وأرعه سمعك حتّى يعلَم أنْ قد فهِمْتَ حديثَه ، وأحطتَ معرِفةً بقوله : فإن أردتَ إجابته فعن معرفةٍ بحاجته وبعْد عِلم بطَلِبته ؛ وإلا كنْتَ عند ٱنقضاء كلامه كالمتعَجِّب(١) من حديثِه بالتبسُّم والإغْضاء، فأجْزىٰ عنك الجَواب، وقطع عنك ألْسُن العتْب .

إيَّاكَ وأن يظْهَر منك تبَرُّم بطُول مجاِلسك ، أو تَضَجُّر ممن حَضَرك ؛ وعليك بالتثبُّت عند سَوْرة الغضَب، وحَمِيَّة الأَنَف ، ومَلَال الصبر فى الأمر تستعجل به والعمل تأمُر بإنفاذه ؛ فإنَّ ذٰلك سُخْف شائن، وخِفَّة مُرْدِيَه، وجَهَالةٌ بادِيَه . وعليك بثُبوت المَنِطق ، ووَقَار المجْلِس ، وسُكُونِ الريح ، والرَّفْض لحَشْو الكلام ، والتَّرْك لفضوله . والإغْرام(٢) بالزِّيادات فى منْطِقك والترديدِ للَفْظك : من نحو ٱسمع ، وٱفهَمْ عنِّ ، ويا هَنَاه، وألا تَرىٰ ؛ أو ما يُلْهَج به من هذه الفضول المقَصِّرة بأهل العقل ، الشائنة لذوى الحِجا فى المنْطِق، المنسوبة إليهم بالعِيِّ، المُزْرِية لهم بالذِّكر . وخِصالٌ من مَعَايب المُلوك والسُّوقةُ عنها غبِيَّة النظر إلا مَنْ عرَفها من أهل الأدب، وقلَّما حاملٌ لها، مضْطَلِع بها ، صابرٌ علىٰ ثِقْلها ، آخذٌ لنفسه بجوامعها . فانفِها عن نفسك بالتحفُّظ منها، وٱملكْ عليها ٱعتيادَكَ إيَّاها معتَنِيا بها : منها كثْرةُ التنَخُّم ، والتبصُّق، والتنخُّع، والتُّؤباء ، والتمطِّى، والجُشَاء ، وتحريكُ القَدَم ، وتنقيضُ الأصابع، والعبثُ بالوجه واللِّحية أو الشارِب أو المِخْصَرة أو ذُؤابة السيف، أو الإيماضُ بالنظر، أو الإشارةُ بالطَّرْف إلىٰ بعض خَدَمك بأمْرٍ إن أردتَه، أو السِّرار فى مَجْلِسك، أو الاستِعْجال فى طَعْمك أو شُرْبك . وليكنْ طَعْمك متَّدعا، وشُرْبك

(١) فى المفتاح وغيره كالمتعلل وهى واضحة .

(٢) مراده والترك للاغرام أى الولوع بالزيادات الخ فهو من المنهى عنه بدليل بقية الكلام فتنبه .

أنْفاسا ، وَجْرعُك مَصًّا . وإيَّاكَ والتسرُّعَ إلىٰ الأيمـان فيما صَغُر أوكَبُر من الأمور، والشَّـتيمةَ بقول يا ٱبنَ الْمَنَـاة ؛ أو الغميزةَ لأحدٍ من خاصَّـتك بتسويغهم مقارَفة الفُسُوق بحيث مَحْضَرُك أو دارُك وفِنَاؤك : فإنَّ ذلك كلَّه ممـا يقبُحُ ذكره ، ويسُوءُ موقعُ القول فيه ، وتحمِلُ عليك مَعايبُه ، وينالُك شَينه ، وينتشِر عليك سُوءُ النبإ به . فٱعرِفْ ذلك متوقِّيا له ، وٱحذَرْه مجانباً لِسُوء عاقبته .

ٱستكثِرْ من فوائد الخير : فإنهـا تَنْشُر المَحْمَدة ، وتُقيل العَثْرة ؛ وٱصبِرْ علىٰ كَظْم الغيظ : فإنه يُورِثُ الراحه ، ويُؤَمِّن الساحه ؛ وتعهَّد العامَّة بمعرفة دَخْلهم ، وتبطُّنِ أحوالهم ، وٱستثارةِ دَفَائنهم ؛ حتّى تكونَ منها علىٰ رأْى عين ، ويقينِ خُبْرة ؛ فتُنعِش عَدِيمهم ، وتَجْبُر كَسيرَهم ، وتُقِيم أوَدَهم ، وتُعَـلِّم جاهلَهم ، وتستصلح فاسدَهم : فإنَّ ذٰلك من فِعْلك بهم يُورثُك العِزَّة ، ويقدّمك فى الفضْل ، ويُبْقِى لك لسانَ الصِّدق فى العاقبة ، ويُحْرِز لك ثوابَ الآخرة ، ويردُّ عليك عواطفَهم المستنْفِرةَ منك ، وقلوبَهم المتنحِّيةَ عنك .

قِسْ بينَ مَنازِل أهل الفضـل فى الدِّيـن والحِجـا والرأْى ، والعقْل والتدْبير ، والصِّيت فى العـامَّة ، وبين منازِل أهـل النَّقْص فى طَبقَات الفضـل وأحواله ، والخُمول عندَ مُباهاة النَّسَب ؛ وٱنظُرْ بصُحْبة أَيِّهم تنالُ من مودّته الجميل ، وتستجْمِع لك أقاويلَ العامة علىٰ التفضـيل ؛ وتبلُغُ درجةَ الشرف فى أحوالك المتصرِّفة بك . فاعتمدْ عليهم مُدْخِلا لهم فى أمْرِك ، وآثِرْهم بمجالسـتك لهم مستمِعًا منهـم ؛ وإيَّاك وتضيِيعَهم مفرّطا ، وإهمالَهم مُضَيِّعا .

هـذه جوامعُ خصال قد نَخَّصها لك أميرُ المؤمنـين مُفَسِّرا ، وجمع لك شَواذَّها مؤلِّفا ، وأهداها إليكَ مُرْشِدا ؛ فقِفْ عنـد أوامِرِها ، وتنَاهَ عن زواجِرِها ، وتثبَّتْ

فى مَجامِعها، وخُذْ بوثائِق عُرَاها تَسْلَمْ من مَعَاطب الرَّدىٰ ، وتنَـلْ أنفسَ الحظُوظ ورغِيبَ الشَّرف ، وأعلىٰ درَج الذِّكر، وتأثل سطر العز(؟) واللهَ يسال لك أميرُ المؤمنين حُسْنَ الإرشاد، وتتابُعَ المزِيد وبلوغَ الأمل، وأن يجعل عاقبــة ذٰلك بك إلىٰ غِبْطة يُسوِّغُك إيَّاها، وعافيــةٍ يُحِلُّك أكنافها ، ونعمة يُلْهِمُك شكْرَها : فإنه الموفِّق للخـير ، والمعينُ علىٰ الإرشاد ، منه تَمـامُ الصالحات، وهو مُؤْتِى الحسَنات، عنْـده مفاتيح الخير، وبيده المُلْك وهو علىٰ كلِّ شيءٍ قدير .

فإذا أفضيْتَ نحو عدُوِّك ، وآعتزمتَ علىٰ لقائِهم، وأخذْتَ أُهْبة قتالهم ، فاجعَلْ دِعامَتك التى تلجَأ إليهــا ، وثِقتَك التى تأْمُل النجاةَ بها، ورُكْنَك الذى ترتجى مَنـالةَ الظَّفَر به، وتكْتَهِف به لمَعَالق الحذَر تقوىٰ اللهِ مستشعرًا لها بمراقبته ، والآعتصام بطاعتــه متبعًا لأمره ، مجتنبًا لسُخطه ، محتَذِيا سُنَّته ، والتوَقِّى لمعاصيـه فى تعطيل حدُوده ، أو تعَـدِّى شرائعه ، متوكِّلا عليه فيما صمَدْتَ له ، واثقًا بنصره فيما توجَّهْتَ نحوه، متبرِّئا من الحول والقُوّة فيما نالَك من ظَفَر، وتلَقَّاكَ من عِزّ ، راغبًا فيما أهابَ(١) بك أميرُ المؤمنين إليه من فضل الجهاد ورمىٰ بك إليه، محمودَ الصبر فيه عند الله من قتال عدوّ المسلمين ، أكْلَبَهم عليه وأظهرَه عداوةً لهم ، وأفدَحه ثِقلا لعامَّتهم، وآخَذَه بربَقِهم ، وأعلاه عليهم بغيا، وأظهَره عليهم فِسْقا وفُجُورا، وأشـدَّه علىٰ فَيْئِهم الذى أصاره اللهُ لهم وفتحه عليهــم مئُونةً وكَلًّا . واللهُ المســتعانُ عليهم ، والمستنصَرُ علىٰ جماعتهم ، عليه يتوكَّل أميرُ المؤمنين ، وإيَّاه يستصْرِخ عليهم ، وإليــه يفوِّض أمْرَه وكفىٰ بالله وليًّـا وناصرا ومُعِينا، وهو القوىُّ العزيز .

(١) هو من قولهم أهاب بالابل إذا دعاها فتنبه .

ثم خُذْ مَنْ معك من تُبَّاعك وجُنْـدك بكَفِّ مَعَرَّتهم ، وردّ مشـتَعِل جهْلهم ، وإحكام ضَيَاع عملهم ، وضَمِّ منتشِر قَواصِيهم ، ولَمِّ شعَث أطرافهم ، وتقييدِهم عمَّن مرّوا به من أهل ذمَّتِك وملتك بحُسن السيرة ، وعَفَاف الطُّعْمة ، ودَعة الوَقار ، وهَدْى الدَّعة ، وجِمام المستجم ، محكما ذلك منهـم ، متفقِّدا لهم تفقُّدك إيَّاه من نفســك .

ثم ٱصْمِد لعدُوّك المتسمِّى بالإسلام ، الخارجِ من جماعة أهله ، المنتحلِ ولايةَ الدِّين مســتحلًّا لدماء أوليائه ، طاعنًا عليهم ، راغبا عن سُنَّتهم ، مفارقا لشرائِعهم ؛ يَبْغِيهم الغَوَائل ، وينصِبُ لهم المَكايِد ؛ أضرَمُ حِقْدا عليهم ، وأرصدُ عداوةً لهم ، وأطلَبُ لِعَثرات فُرَصهم من التُّرْك ، وأُمَم الشرك ، وطواغى الملل ؛ يدْعُو إلى المعصية والفُرْقه ، والمُرُوق من ديـن الله إلى الفِتْنـه ، مخترعا بهواه للأديان المنتحَلَة والبِـدَع المتفرّقة خَسَارا وتخسيرا ، وضَــلالًا وتضليلا ، بغير هُدًى من الله ولا بيان . ساء ما كسبت له يَدَاه [وما اللهُ بظَلَّام للعَبِيد] (١) وساءَ ما سوّلتْ له نفْســه الأمَّارةُ بالسُّوء ، واللهُ من ورائه بالمِرْصاد : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصِّنْ جُنْدك ، وٱشكُمْ نَفْسك بطاعة الله فى مجاهَدةِ أعدائه ، وٱرجُ نَصْره ، وتَنَجَّز موعُوده ، متقدِّما فى طلَب ثوابِه على جهادهم ، معتزِما فى ٱبتغاء الوسـيلةِ إليه على لقائهــم : فإنَّ طاعتك إيَّاه فيهم ، ومراقبتَك له ورجاءك نَصْره مُسهِّل لك وُعُوره ، وعاصِمُك من كل سُــبَّة ، ومُنْجِيك من كلِّ هُوّه ، وناعِشُك من كلِّ صَرْعة ، ومُقِيلُك من كل كَبْوة ، ودارئٌ عنك كلَّ شُـبْهة ، ومُذْهِب عنك لَطْخة كلِّ شك ، ومُقَوّيك بكلِّ أيد ومكِيده ، ومُعِزّك فى كل معتَرَك قتال ، ومؤيِّدك فى كلِّ مَجْمَع لقاء ، وكالِئُك

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٤٣ .

عند كل فتنة مُغْشِيه(١)، وحائطك من كل شُبْهة مُرْدِيه؛ والله وليُّك وولىّ أميرالمؤمنين فيك، والمستخْلَف علىٰ جُنْدك ومَنْ معك .

اِعلم أنَّ الظفر ظَفَران : أحدُهما وهو أعمّ منفعةً، وأبلَغُ فى حُسْن الذكر قالةً، وأحوطُه سَلامة، وأتمُّه عافيةً ، وأحسَنُه فى الأُمور وأعلاه فى الفضل شرفًا ، وأصحُّه فى الرَّوِيَّة حَزْما ، وأسلَمُه عند العامَّة مَصْدرا ـ مانِيلَ بسلامة الجُنود ، وحُسْن الحِيلة ، ولُطف المَكِيدة [ويُمْن النَّقِيبة](٢) وٱستِنْزال طاعة ذَوِى الصُّدُوف بغير إخْطار الجُيُوش فى وَقْدة جَمْرة الحرب ، ومُبارزة الفُرْسان فى معتَرَك الموت ؛ و إن ساعدَتْك طُلُوق الظَّفَر ، ونالَكَ مزيدُ السعادة فى الشرف ؛ ففى مُخاطَرة التَّلَف مكروهُ المصائب ، وعِضاضُ السيوف وألَمُ الجِراح ، وقِصاص الحروبِ وسِجالُها بمُغاوَرة أبطالِها . علىٰ أنك لاتَدْرِى لأىٍّ يكون الظفَرُ فى البديهة، ومَنِ المغلوبُ بالدولة ، ولعلك أن تكون المطلوبَ بالتمحيص . فحاوِلْ إصابةَ أبلغِهما فى سلامة جُنْدك ورعيَّتك ، وأشهَرِهما صِيتًا فى بُدُوّ تدبيرك ورَأيك ، وأجمَعِهما لأُلْفة وليِّك وعدُوِّك، وأعوَنِهما علىٰ صلاح رعيَّتك وأهل مِلَّتك، وأقواهما شكيمةً فى حَزْمك، وأبْعدِهما من وَصْم عَزْمك ، وأعْلَقِهما بزِمَام النجاة فى آخِرَتك ، وأجْزلِها ثوابًا عند ربِّك .

وٱبْدأْ بالإعذار إلىٰ عَدُوِّك، والدُّعاء لهم إلىٰ مراجَعة الطاعه، وأَمْر الجَماعه، وعِزِّ الأُلْفة، آخذًا بالحجَّة عليهم، متقدِّمًا بالإنْذار لهم ، باسطًا أمانَك لِمَنْ لجَأَ إليك منهم، داعيًا [لهم اليه](٢) بألْيَن لفْظك وألطَف حِيَلك، متعطِّفا برأْفتك عليهم، مترَفِّقا بهم

(١) أى مدلهمة سوداء من قولهم أغشى الليل إذا أظلم . تأمل .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٤٤ وغيره .

فى دُعائك ، مُشْفِقا عليهم من غَلَبة الغَوَاية لهم ، و إحاطة الهَلَكة بهم ، منفِّذا رُسُلك إليهم بعدَ الإنْذار، تَعِدُهم إعطاءَ كلِّ رغبة يَهِشُّ إليها طَمَعُهم فى موافقة الحق ، وبَسْطَ كل أمان سألُوه لأنفسهم ومَنْ معهم ومن تَبِعهم ؛ موطِّناً نفســك فيما تبْسُط لهم من ذٰلك علىٰ الوفَاء بعهْدك ، والصبْرِ علىٰ ماأعطيْتَهم من وَثائق عَقْدك ؛ قابِلاً توبة نازِعهم عن الضَّــلالة ، ومُراجَعةَ مُسيئهم إلىٰ الطاعة ؛ مُرْصِــدا للُنْحاز إلىٰ فِئَة المسلمين وجماعتِهم إجابةً إلىٰ مادعوْتَه إليه وبَصَّرتَه إيَّاه من حقِّك وطاعتك ، بفضل المَنْزِلة ، و إكرام المَثْوىٰ ، وتشرِيفِ الجــاه . ولْيَظْهرْ من أثَرك عليــه ، و إحسانِك [إليه] ما يرغَبُ فى مثــله الصادفُ عنــك ، المُصرُّ علىٰ خلافِك ومعصيتِك ؛ ويَدْعو إلىٰ ٱعتلاق حبْــل النجاة وما هو أمْلَك به فى الاْعتصام عاجِلا ، وأنجىٰ له من العِــقاب آجِلا ، وأحوطُه علىٰ دينه ومُهْجته بَدْءا وعاقِبة ؛ فإنَّ ذلك ممـا يستَدْعى به من الله نَصْرَه عليهم ، و يعتضِدُ به فى تقديمه الحُجَّة إليهم ، مُعْذِرا أو منْذِرا ، إن شاء الله .

ثم أذْكِ عُيونَك علىٰ عَدُوِّك متطلِّعا لعلِم أحوالِهم التى يتقَلَّبُون فيهـا ، ومَنازِلهم التى هم بها ، ومَطامِعِهم التى قدمَدُّوا أعناقَهم نحوَها ، وأىُّ الأمور أدْعىٰ لهم إلىٰ الصُّلْح ، وأقْوَدُها لرضاهم إلىٰ العافية ، وأسهَلُها لاْستِنْزال طاعتهم ، ومن أىِّ الوجُوه مَأْتاهم : أمِنْ قِبَل الشِّــدّة والمُنافَرة والمَكِيدة والمُبَاعدة والإرْهاب والإيعاد ، أو التَّرْغيب والإطماع ، متثبِّتا فى أمرِك ، متخَيِّرا فى روِيَّتك ، مستمْكِنا من رأيك ، مستشيرًا لذَوى النصيحة الذين قد حنَّكتْهم السِّنّ ، وخبَطتْهم التَّجْرِبة ، ونَجَّذتْهم الحروب ؛ مُتَشَزِّناً[1] فى حَرْبك ، آخذًا بالحَزْم فى سُوء الظن ، مُعِدّا للحَذَر ، محترِسا من الغِرّة ؛ كأنَّك فى مَســيرك كلِّه ونُزولِك أجمَــعَ مُواقِفٌ لعدوّك رأْىَ عينٍ تنتظِرُ حَمَلاتِهم ، وتتخوَّفُ

(١) هو من قولهم تَشَزَّن للامر تأهب .

كَرَّاتِهم، مُعِدًّا أقوىٰ مَكايِدك، وأرْهَبَ عَتَادِك، وأنْكَأَ جِدّك، وأجَدّ تَشْمِيرك؛ معظِّما أمْرَ عدُوّك لأعظَمَ مما بلغَك، حَذَرا يكاد يُفرِط: لتُعدّله من الآحْتِراس عظِيما، ومن المَكيدة قوِيًّا؛ من غير أن يَفْثَأَكَ (١) ذلك عن إحكام أُمورك، وتدبير رأْيك، وإصْدار رَوِيَّتك، والتأهُّبِ لما يَحْزُبُك؛ مصغرا له بعد آستِشْعار الحذْر، وآضْطِهار الحزم، وإعمال الرَّوِيّة، وإعدادِ الأُهبة: فإنْ ألَفيْت عدُوّك كَلِيلَ الحدّ، وقَمْ الحَزْم، نَضِيضَ الوفْر (٢)، لم يَضُرّك ما آعتدَدْت له من قُوّة، وأخَذْت له من حَزْم؛ ولم يزِدْك ذٰلك إلا جُرأةً عليه، وتسَرّعا إلىٰ لِقائه. وإن ألفيْتَه متوقّد الحرْب، مستكْثِف الجَمْع، قَوِىّ التَّبَع، مستَعْلِىَ سَوْرة الجهل؛ معه من أعْوانِ الفتنة وتَبَع إبليسَ من يُوقِد لهبَ الفتنة مسعّرا، ويتقدّم إلىٰ لِقاء أبطالها متسرّعا، كنتَ لأخْذك بالحزْم، وآستِعدادِك بالقوّة؛ غيرَ مُهين الجند، ولا مُفَرِّط فى الرأْى، ولا متلهِّف علىٰ إضاعة تدبير، ولا مُحتاجٍ إلىٰ الإعداد وعجلةِ التأهُّب مبادرةَ تدْهَشُك، وخوفا يُقْلِقك. ومتىٰ تغْتَرَّ بترقيق المرقِّقين، وتأخُذْ بالهُوَينىٰ فى أمر عدُوّك لتصغير المصغِّرين، ينتَشِرُ عليك رأْيُك، ويكونُ فيه آنتقاضُ أمرك ووهْنُ تدبيرك، وإهمالٌ للحزْم فى جُنْدك، وتضييعٌ له وهو مُمْكِن الإصحار، رَحْب المَطْلَب، قَوِىّ العِصْمة، فسيحُ المضْطرَب؛ مع ما يدْخُل رعيَّتك من الآغترار والغَفْلة عن إحكام أحْراسِهم، وضَبْط مَراكِزِهم؛ لما يروْنَ فيه من آستِنامتك إلىٰ الغِرّة، ورُكُونك إلىٰ الأَمْن، وتهاوُنك بالتدبير؛ فيعودُ ذٰلك عليك فى آنتِشار الأطْراف، وضَياعِ الأحكام، ودخُول الوَهْن بما لا يُستقالُ محذوره، ولا يُدْفَع مَخُوفُه.

---

(١) بالفاء والثاء المثلثة أى يكسرك و يؤخرك عن اخ.

(٢) أى قليل الوفر والمال من قولهم رجل نضيض اللحم قليله.

احفَظْ من عيُونك وجَواسِيسك ما يأتُونَك به من أخبار عدُوّك . وإيَّاكَ ومعاقبةَ أحدٍ منهم علىٰ خَبَر إن أتاك به آتّهمْتَه فيه أو سُؤتَ به ظنًّا وأتاك غيرُه بخلافه ، أو أن تكَذِّبه فيه فترُدَّه عليه ولعله أن يكونَ قد مَحَضَك النصيحةَ وصدَقَك الخبَرَ ، وكذَبَك الأوّلُ ، أو خَرَج جاسُوسُك الأوّلُ متقدما قبل وُصُول هذا من عند عَدُوّك ، وقد أبرمُوا لك أمْرا ، وحاوَلُوا لك مَكِيدة ، وأرادوا منك غِرّة ، فآزدَلَفُوا إليك فى الأُهْبة ثم آنتقضَ بهم رأيُهم ، وآختلف عنه جماعتُهم ، فأرادُوا رأْيا ، وأحدثُوا مَكِيدة ، وأظهروا قُوَّة ، وضربُوا مَوْعدا ، وأَمُّوا مَسْلَكا لمَدَد أتاهم ، أو قوةٍ حدثَت لهم ، أو بصيرةٍ فى ضلالةٍ شغلَتْهم ؛ فالأحوال بهم متنقِّلة فى الساعات ، وطَوارِق الحادثاتَ . ولكن ٱلْبَسْهم جميعًا علىٰ الآنتصاح ، وآرْضَخْ لهم بالمطامع ، فإنَّك لن تستعْبِدَهم بمثلها . وعِدْهُم جَزالة المثاوِب ، فى غير ما آستنامةٍ منك إلىٰ ترقيقهم أمْرَ عدُوّك ، والآغترارِ إلىٰ ما يأتُونك به دُونَ أن تُعمِلَ رَوِيّتك فى الأخذ بالحَزْم ، والإستكثار من العُدّة . وآجعَلْهم أوثَقَ من تقْدِر عليه ، وآمَنَ من تسكُن إلىٰ ناحِيَته : ليكون ما يُبْرِم عدوُّك فى كل يوم وليلة عنْدَك إن آستطعتَ ذٰلك ، فتنقُضَ عليهم برأْيك وتدبيرك ما أبرمُوا ، وتأتِيَهم من حيثُ أَمِنُوا ، وتأخُذَ لهم أُهْبة ماعليه أقدَمُوا ، وتستَعِدَّ لهم بمثل ماحَذِرُوا .

وآعلم أنَّ جَواسِيسَك وعُيونَك رُبَّما صدَقُوك ، وربَّما غَشُّوك ، وربَّما كانُوا لك وعليك فنصَحُوا لك وغَشُّوا عدوّك وغشُّوك ونصحوا عدوّك ، وكثيرا ما يَصْدُقُونك ويصْدُقُونه . فلا تَبْدُرَنَّ منك فَرْطةُ عقُوبةٍ إلىٰ أحد منهم ، ولا تعْجَلْ بسُوء الظن إلىٰ من آتَّهمته علىٰ ذٰلك ؛ وآستنزِل نصائِحَهم بالمِيَاحة والمَنَالة ، وآبسُطْ من آمالهم فيك من غير أن يَرىٰ أحدٌ منهم أنك أخذْتَ من قوله أخْذَ العامل به والمتَّبِع له ، أو عمِلت علىٰ رأْيه عملَ الصادِر عنه ، أو رَدَدْتَه عليه ردّ المكَذِّب به ، المتهِم له ،

المستخِفِّ بما أتاك منه، فتفسد بذلك نصيحته، وتستدعى غشَّه، وتجترّ عداوته. وٱحذر أن يعرفوا فى عسكرك أو يُشار إليهم بالأصابع، وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وأمين سرِّك، ويكون هو الموجِّه لهم، والمُدْخِل عليك من أردت مشافهته منهم.

وٱعلم أن لعدوّك فى عسكرك عيوناً راصدة[(١)]، وجواسيس متجسِّسة، وأنه لن يقع رأيه عن[(٢)] مكيدتك بمثل ماتكايده به، وسيحتال لك كٱحتيالك له، ويعدّ لك كإعدادك فيما تزاوله منه، ويحاولك كمحاولتك إيّاه فيما تقارعه عنه؛ فاحذر أن يشتهر رجل من جواسيسك فى عسكرك فيبلغ ذلك عدوّك ويعرف موضعه، فيعدّ له المراصد، ويحتال له بالمكايد. فإن ظفر به فأظهر عقوبته، كسر ذلك ثقات عيونك، وخذلهم عن تطلّب الأخبار من معادنها، وٱستقصائها من عيونها، وٱستعذاب ٱجتنائها من ينابيعها، حتّى يصيروا إلى أخذها مما عرض من غير الثِّقة ولا المعاينة، لقطًا لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المرجفة. وٱحذر أن يعرف بعض عيونك بعضا: فإنّك لاتأمن تواطؤهم عليك، وممالأتهم عدوَّك، وٱجتماعهم على غشّك، وتطابقهم على كذبك، وإصفاقهم[(٣)] على خيانتك، وأن يورِّط بعضهم بعضا عند عدوّك. فأحكم أمرهم فإنّهم رأس مكيدتك، وقوام تدبيرك؛ وعليهم مدار حربك، وهو أوّل ظفرك. فاعمل على حسب ذلك وحيث رجاؤك به، تنل أملك من عدوّك، وقوّتك على قتاله، وٱحتيالك لإصابة غرّاته وٱنتهاز فرصه، إن شاء الله.

فإذا أحكمت ذلك وتقدّمت فى إتقانه، وٱستظهرت بالله وعونه، فولّ شرطتك وأمر عسكرك أوثق قوّادك عندك، وأظهرهم نصيحةً لك، وأنفذهم بصيرةً

(١) فى "مفتاح الأفكار" وغيره «كامنة».

(٢) كذا فى الأصول. وفى "رسائل البلغاء" «وأن رأيه فى مكيدتك مثل ماتكايده به». تأمل.

(٣) أى ٱجتماعهم من قولهم أصفقوا على الأمر ٱجتمعوا عليه.

فى طاعتك ، وأقواهم شكيمةً فى أمرك ، وأمضاهم صَريمةً (١) ، وأصدقهم عَفافا ، وأجزَأَهم غَناء ، وأكفاهم أمانَة ، وأصحّهم ضميرا ، وأرضاهم فى العامّة دِينا ، وأحمدهم عند الجماعة خُلُقا ، وأعطفهم على كافّتهم رأفة ، وأحسنهم لهم نَظرا ، وأشدّهم فى دِين الله وحقّه صَلابة . ثم فوّض إليه مُقوّيا له ، وابسُط من أمله مُظهِرًا عنه الرضا ، حامدًا منه الابتلاء . وليكُنْ عالما بمراكز الجُنود ، بصيرًا بتقدّم المنَازل ، مُجرّبا ، ذا رأى وتجربةٍ وحَزْم فى المَكيدة ، له نَباهةٌ فى الذِّكر ، وصِيتٌ فى الوِلاية ، معروفَ البيت ، مشهورَ الحسَب . وتقدّم إليه فى ضَبْط مُعسكره ، وإذكاءِ أحْراسه فى آناء ليله ونَهارِه ، ثم حَذِّره أن يكون منه إذنٌ لجنوده فى الانتِشار والاضْطِراب ، والتقدّم لطلائعك ، فتُصابَ لهم غِرّة يجترئ بها عدوُّك عليك ، ويُسْرِع إقداما إليك ، ويَكسر من إياد (٢) جُنْدك ويُوهِن من قوّتهم : فإنّ الصوت فى إصابة عدُوّك الرجلَ الواحدَ من جُنْدك أو عبيدِهم مُطْمِعٌ لهم فيك ، مُقوّ لهم على شَحْذ أتباعهم عليك وتصغيرِهم أمْرَك ، وتوهِينِهم تدبِيرَك . فحَذِّره ذلك وتقدَّمْ إليه فيه . ولا يكوننّ منه إفراطٌ فى التضييق عليهم ، والحَصْر لهم ، فيَعُمّهم أزْلُه ، ويشمَلُهم ضَنْكه ، وتَسوء عليهم حالُه ، وتشتدّ به المُؤونةُ عليهم ، وتخبُث له ظُنُونهم . وليكُنْ موضعُ إنزاله إيّاهم ضامّا لجماعتهم ، مستديرًا بهم جامعًا لهم ، ولا يكون منبسِطا منتشِرا متبدِّدا ، فيشُقّ ذلك على أصحاب الأحْراس ، وتكون فيه النُّهزة للعدُوّ ، والبُعدُ من المادّة إن طرَق طارِق فى فَجَآتِ الليل وبغَتاته . وأوعِزْ إليه فى أحراسه ، وتقدّمْ إليه فيهم كأشدّ التقدّم وأبلَغ الإيعاز . ومُرْه فليوَلِّ عليهم رَجُلا ركِينا مُجرَّبا جَرِىء الإقْدام ، ذاكِىَ الصَّرامة ،

---

(١) الصريمة العزيمـــة .

(٢) فى مفتاح الأفكار وغيره « أفئـدة » وفى بعض الأصـول من ابادة بالباء الموحدة وهاء التأنيث وفى اللسان فى مادة أى د إياد «العسكر الميمنة والميسرة وكل ماتحرزبه فهو اياد » . تأمل .

جَلْدَ الجَوَارح، بصيراً بمواضِع أحْراسه، غيرَ مُصانـع ولامشَفِّع للناس فى التنحِّى إلىٰ الرَّفاهِيَة والسَّعة، وتقدُّمِ العسكر والتأخُّر عنه، فإن ذٰلك ممـا يُضعِف الوالىَ ويُوهِنه لٱستنامته إلىٰ مَنْ وَلَّاه ذٰلك وأَمْنه به علىٰ جَيْشه .

وٱعَلْمْ أنَّ مواضعَ الأحراس من مُعَسْكَرك، ومكانَها من جُندك، بحيثُ الغناءُ عنهم والرَّدُّ عليهم،والحفظُ لهم، والكَلاءَةُ لمن بغتَهم طارِقا، أو أرادهم خاتِلا؛ ومراصِدُها المُنْسَلَّ منها والآبقَ من أرقائِهم وأعْبُدهم؛ وحِفْظُها من العيون والجواسيس من عدوّهم . وٱحذر أن تَضْرِب علىٰ يديْه أو تشْكُمَه عن الصَّرامة بمؤامَرتِك فى كلّ أمر حادثٍ وطارئ إلا فى المُهِمِّ النازلِ والحَدَث العام : فإنك إذا فعلتَ ذٰلك به، دعوته إلىٰ نُصْحك، وٱستوليْتَ علىٰ محصُول ضميره فى طاعتِك؛ وأجْهَد نفْسَه فى ترتيبك، وأعمَـلَ رأْيَه فى بلُوغ موافَقتك و إعانتِك؛ وكان ثِقتَك و رِدْأَك وقُوّتك ودِعامتَك، وتفرّغْتَ أنت لمُكايدة عدُوّك، مُرِيحًا لنفسك من هَمِّ ذٰلك والعناية به، مُلْقِيا عنك مَئُونةً باهظة وكُلْفة فادِحة .

وٱعلم أنَّ القضاء من الله بمكانٍ ليس به شيءٌ من الأحكام، ولا بمثل محلِّه أحدٌ من الوُلاة : لمـا يَجْرى علىٰ يديه من مَغَاليظ الأحكام ومَجارِى الحدُود . فليكُنْ من تُولِّيه القضاء فى عسكرك [من ذوى] (١) الخير فى القناعة والعَفَاف والنَّزاهة والفَهْم والوقار والعِصْـمة والوَرَع، والبَصَر بوجوه القضـايا ومَواقعِها، قد حنَّكتْـه السِّنُّ وأيَّدته التجْربةُ وأحْكمتْه الأمور، ممن لايتصَنَّع للولاية و يستَعِدُّ للنُّهْزة، ويَجْترئُ علىٰ المُحاباة فى الحكم، والمُداهنةِ فى القضاء، عَدْلَ الأمانة، عَفِيفَ الطُّعْمة، حَسَنَ الإنصاف، فَهِم القلب، وَرِع الضمير، متخَشِّع السَّمْت، بادِى الوَقَار، محتَسِبا للخير . ثم أجر

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره .

عليه مايَكْفِيه ويَسعُه ويُصْلحه ؛ وفَرِّغه لمـا حَمَّلتــه ، وأعِنْه علىٰ ماولَّيته : فإنك قد عرّضْــتَه لَهلَكة الدنيا وبَوار الآخرة ، أو شَرَف الدنيا وحُظْوة الآجلة ، إن حسُنَت نيتُه ، وصدقَت روِيَّته ، وصحّتْ سريرتُه وسَلَّط حكمَ الله علىٰ رعيَّته ، مُطلِقا عِنانه ، منَفِّذا قضاءَ الله فى خلقه ، عاملاً بسُنَّته فى شرائعه ، آخِذًا بحُدُوده وفرائِضه .

وآعلم أنه من جُنْــدك بحيثُ ولايتُك[(١)] ، الجاريةُ أحكامُه عليهم ، النافذةُ أقضِيَته فيهــم ؛ فاعْرِف من تُولِّيه ذٰلك وتُسْنِده إليه . ثم تقدّم فى طلائعك فإنهـا أوّلُ مَكيدتك ، ورأسُ حَرْبك ، ودِعَامةُ أمْرِك ، فانتخِبْ لها من كلِّ قادةٍ وصَحَابةٍ رجالا ذوى نَجْدة وبأْس ، وصَرَامة وخُبْرة ، حُماةً كُفاة ، قد صَلُوا بالحرب وذاقُوا سِجَالَها ، وشرِبُوا مِرارَ كُئُوسها ، وتجرّعُوا غُصَص درِّها ؛ وزبَنَتْهم بتَكْرار عواطِفها ، وحملَتْهم علىٰ أصعَبِ مَرا كبهـا ، وذَلَّلتهم بثِقَاف أوَدها . ثم آنتقِهم علىٰ عينْـك ، وآعْرِض كُراعَهم بنفسـك ؛ وتوخَّ فى آنتقائِك ظُهورَ الجَلَد ، وشَهامةَ الخُلُق ، وكمالَ الآلة . وإيَّاك أن تَقْبل من دوابِّهــم إلا الإناثَ من الخيل المَهْلُوبة ، فإنهُنَّ أسْرَعُ طلَبا ، وأنجىٰ مَهرَبا ، وألْيَنُ مَعْطَفا ، وأبعَــدُ فى اللُّحُوق غاية ، وأصـبرُ فى معترَك الأبطال إقْداما . وخُذْهم من السِّلاح بأبْدان الدُّرُوع ، ماذيَّةِ الحـديد ، شاكَّة النَّسْج ، متقارِبَة الحِلَق ، متلاحِمَة المسامير وأسْـوق الحديد ، مُموَّهة الركب ، مُحْكَمَة الطَّبْع ، خفيفة الصَّوْغ ؛ وسواعِد طَبْعها هِنْدىّ ، وصَوْغُها فارسىٌّ ؛ رقاقُ المَعَاطف بأكُفٍّ واقِيــة وعملٍ محكم . ويَلْمقُ البَيض مُذْهَبــة ومُجرّدة ، فارســيَّة الصَّوغ ، خالصةُ الجوهر ، سابِغةُ المَلْبَس ، واقيةُ الجُنَن ، مستَدِيرة الطَّبْع ، مُبْهمة السَّرْد ، وافِيةُ الوزْن كتَرِيك النَّعام فى الصَّنْعة وآســتدارةِ التَّقْبيب ، وآستواءِ الصَّوْغ ، مُعْلمة بأصنـاف

(١) فى "مفتاح الأفكار" وغيره بحيث ولايتك وفى الموضع الجارية الخ تأمل .

الحرير وألوان الصِّبغ ؛ فإنَّها أهيبُ لعدُوِّهم ، وأفتُّ لأعضاد مَنْ لَقِيهم ، والمُعلِم مُخْشِيٌّ محذور ، له بَدِيهةٌ رادِعه ، وهيْبة هائِله ؛ معهم السُّيوف الهِنْديه ، وذُكُور البيض اليمانِيَه ؛ رِقاقُ الشَّفَرات ، مسنُونةُ الشَّحْذ ، مُشَطَّبة الضرائب ، معتَدِلةُ الجواهر ، صافِيَة الصَّفائح ؛ لم يَدْخُلْها وَهْن الطبْع ، ولا عابَها أمْتُ الصَّوْغ ، ولا شانَها خِفَّة الوزْن ، ولا فَدَح حامِلَها بُهورُ الثِّقل ؛ قد أشرَعُوا لُدْن القَنَا ، طِوَال الهوادى ، مُقَوَّمات الأَوَد ، زُرْق الأسِنَّة ، مستَوِية الثَّعالب[(1)] ؛ وميضُها متوقِّد ، وسِنْخُها[(1)] متلَهِّب ، مَعاقِص عُقَدها منْحُوتة ، ووُصُوم أوَدِها مقَوَّمة ، وأجناسُها مختلِفة ، وكُعُوبها جَعْدة[(2)] ، وعُقَدُها حبكة ؛ شَطْبة الأسنان ، مُوَّهَةُ الأطراف ، مستَحدّة الحَنَبات ، دِقاقُ الأطراف ، ليس فيها ٱلْتواءُ أَوَد ، ولا أَمْتُ وَصْم ، ولا بها مَسْقَط عيب ، ولا عنها وُقُوع أمنية ؛ مستحْقِبِي كَنَائِنِ النَّبْل وقِسِىِّ الشَّوْحط والنَّبْع ؛ أعْرابِيَّة التعقيب ، رُومِيَّة النُّصُول ، مسْمُومة الصَّوْغ ؛ ولْتكُنْ سِهامُها علىٰ خمْس قَبَضات سِوىٰ النُّصول ، فإنها أبلغُ فى الغاية ، وأنفَذُ فى الدُّرُوع ، وأشَكُّ فى الحديد ؛ سامِطِين حقائِبَهم علىٰ مُتُون خُيُولهم ، مستخِفِّين من الآلة والأمتِعة والزاد [إلا مالا غناءَ بهم عنه][(3)] .

وٱحذَرْ أن تكِلَ مباشرة عَرْضهم وٱنتخابَهُم إلىٰ أحد من أَعْوانك وكُتَّابك : فإنَّك إن وكَلْته إليهم أضعْتَ مواضِعَ الحَزْم ، وفرّطت حيثُ الرأْى ، ووقفت دُونَ عَزْم الرَّوِيَّة ، ودخل عَمَلَك ضَياعُ الوَهْن ، وخَلَص إليك عيبُ المحاباة ، ونالَهُ فسادُ

(١) الثعلب طرف الرمح الداخل فى جبة السنان ، وفى "مفتاح الأفكار" وغيره «وشحذها متلهب» .

(٢) فى الأصول والمفتاح بالغين والفاء ولم نقف له على معنى مناسب .

(٣) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٥١ .

المداهنة، وغلب عليــه مَنْ لايصْلُح أن يكونَ طليعة للسلمين ولا عُدّةً ولا حِصْـنا يَدّرئُونَ به ، ويكتَفُون بموضعه . والطلائعُ حصونُ المسلمين وعُيونُهم ، وهم أوّل مَكيدتك ، وعُروةُ أمرك ، وزِمامُ حربك . فليكن آعتناؤُك بهـم، وآنْتِقاؤُك إيّاهم بحيثُ هم من مُهِمّ عمـلك، ومَكيدةِ حرْبك ؛ ثم آنتخِبْ للولاية عليهـم رجُلا بعيدَ الصوت، مشهورَ الآسم ، ظاهرَ الفضل ،نَبِيهَ الذِّكر، له فى العدُو وَقَعات معرُوفات ، وأيّامٌ طِوال وصَوْلات متقدّمات ، قد عُرِفَتْ نِكايَتُه ، وحُذِرتْ شوكَته ، وهِيبَ صوتُه ، وتُنُكِّب لقـاؤُه ، أمينَ السّريرة ، ناصِحَ الجيْب ، قد بلَوْتَ منـه مايُسكِّنك إلىٰ ناحيته : من لِين الطاعة ، وخالِص المودّة، ورَكانة الصّرامه، وغُلُوب الشّهامه، وآسـتجماعِ القُوّة ، وحَصافةَ التدبير . ثم تقدّمْ إليـه فى حُسْن سِياستهم، وآستِنْزال طاعتهم، وآجتلابِ مَوَدّاتهم،وآستِعْذاب ضمائرهم،وأَجْرِ عليهم وعليه أرزاقا تَسَعُهم، وتُمَدّ من أطماعهم سوىٰ أرزاقهم فى العـامّة ، فإنّ ذلك من القوّة لك عليهـم ، والآستنامةِ إلىٰ ماقِبَلَهم .

وآعلَمْ أنهم فى أهمِّ الأماكن لك ، وأعظمِها غناءً عنك وعمَّن معك، وأقمعِها كَبْتا لمحادِّك، وأشجاها غَيْظا لعـدُوك ، ومَنْ يكُنْ فى الثّقة ، والجلَد ، والبأْس ، والطاعة، والقوّة، والنصيحةِ ، والعُدّة، والنَّجدة حيثُ وصـفَ لك أميرالمؤمنين وأمرك به ، يضَعْ عنك مَؤُونة الهم ، ويُرِحْ من خِناقك رَوْع الخوف ، وتلْتَجى إلىٰ أمرٍ مَنِيع ، وظهرٍ قوِيّ ، ورأْيٍ حازِم، تأمن به فَجَآت عدُوك ، وغِرّاتِ بغَتَاتهـم ، وطوارِقَ أحداثهم ، ويصيرُ إليك علْم أحوالهم، ومتقدّماتِ خُيُولهم ، فانتخِبْهم رأْىَ عيـن ، وقوِّهم بمـا يُصْلِحهم من المَنَالات والأطماع والأرْزاق ، وآجعلْهم منك بالمنْزل الذى هم به من مَحَارِز علاقتك ، وحَصانةِ كُهُوفتك ، وقوّة سَيّارة عسكرك . وإيّاك أن تُدخِل فيهـم أحدًا بشفاعة ، أو تحتمله علىٰ هَوادة ، أو تقدّمه لأُثْرة ، أو أن يكون

مع احدٍ منهم بغل نَفَل ، أو فضلٌ من الظَّهر ، أو ثَقَل فادح ، فتشتدّ عليهم مئُونة أنفسهم ، ويدخلُهم كَلَالُ السآمة فيما يعالِجُون من أثقالهم ، ويشتغلُون به عن عدُوّهم إن دَهَمهمْ منه رائع ، أو بَجَأهم منه طليعةٌ . فتفقّدْ ذلك محكمًا له ، وتقدّم فيه آخذا بالحَزْم فى إمضائه ، أرشدك اللّٰهُ لإصابة الحَظّ ، ووفّقك لِيُمْن التدبير ، وقصد بك لأسْهل الرأْى وأعودِه نَفْعا فى العاجل والآجل ، وأكْبَتِه لعدُوّك وأشجاه لهم ، وأردَعِه لعادِيَتِهم .

ولِّ دَرَّاجة عسكرك وإخراجَ أهلِه إلىٰ مَصافّهم ومراكزِهم رجُلًا من أهل بيوتات الشَّرَف ، محمودَالخُبْرة ، معروفًا بالنَّجْدة ، ذا سِنٍّ وتَجْرِبة ، لَيِّن الطاعة ، قديمَ النَّصيحة ، مأْمُونَ السَّريرة ، له بصيرةٌ بالحق نافذةٌ تُقَدّمه ، ونيَّة صادقةٌ عن الإدهان تَحْجُزه . واْضْمم إليه عِدّةَ نفَر من ثِقات جُنْدك وذَوِى أسنانِهم يكونُون شُرْطةً معه ، ثم تقدّمْ إليه فى إخراج المَصافّ ، وإقامة الأَحْراس ، وإذْكاءِ العُيون ، وحِفْظ الأَطراف ، وشِدّة الحَذَر ، ومُرْه فليضَع القُوّادَ بأنفسهم مع أصحابهم فى مَصافِّهم ، كلُّ قائدٍ بإزاء مكانِه ، وحيثُ منْزِلُه ، قد سُدّ ما بينه وبيْنَ صاحبِه بالرِّماح شارعةً ، والتِّرسةِ موضُونةً ، والرجالِ راصدةً ، ذاكيةَ الأحراسِ ، وجِلةَ الرَّوْع ، خائفةً طوارِقَ العدوّ وبَيَاتَهُ . ثم مُرْه فليُخْرِج كلَّ ليلة قائدًا فى أصحابه أو عِدّةٍ منهم إن كانوا كثيرًا ، علىٰ غَلْوة أو ٱثنتين من عَسْكرك ، منتبِذًا عنك مُحيطا بمنْزِلك ، ذاكيةً أحراسُه ، قَلِقةَ التردُّد ، مُفْرِطةَ الحَذَر ، مُعدّة للرّوْع ، متأهِّبةً للقتال ، آخذةً علىٰ أطراف المُعَسْكر ونواحيه ، متفرّقين فى ٱختلافهم كُرْدُوسا كُرْدُوسا ، يستقبل بعضُهم بعضا [فى الاْختلاف] (١) ويَكْسَع تالٍ متقدّمًا فى التردّد ، وٱجعلْ ذلك بين قُوّادِك وأهلِ

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٥٢ .

عســكرك نُوَبا معروفة ، وحِصَصا مفْرُوضَــــة ، لا تُعْرِ منهــا مُزْدَلِفا منك بمَوَدّة، ولا تَحامَلْ فيه علىٰ أحدٍ بمَوْجِدة، إن شاء الله تعالىٰ .

فوِّض إلىٰ أُمَراء أجنادك وقُوّاد خَيْلك أمورَ أصحابِهِم ، والأخْذَ علىٰ قافِيَة أيْديهم ، رياضةً منك لهم علىٰ السَّمْع والطاعة لأُمَرائهم ، والاتِّباع لأمْرِهم ، والوُقُوف عند نَهْيِهم ؛ ونقــدّمْ إلىٰ أُمَراء الأجناد فى النوائب التى ألزمْتَهم إيّاها ، والأعمــال التى آستنجدْتَهم لهــا ، والأسـلحةِ والكُرَاع التى كتبْتَها عليهم ؛ وآحذَرِ آعتلالَ أحدٍ من قُوّادك عليك بما يَحُول بينك وبينَ تأديب جُنْدك ، وتقويمِهم لطاعتك ، وقَمْعهم عن الإخلال بمَرَاكزهم لشىء ممــا وُكِلوا به من أعمالهم ؛ فإنَّ ذٰلك مَفْسَدة للجند ، مَفْثأةٌ للقوّاد عن الجِدّ والإيثار للمناصحة ، والتقدّم فى الأحكام .

وآعلم أنَّ فى آستخفافهــم بقوّادهم وتضْيِيعهم أمْرَ رُؤسائهــم دُخُولا للضَّياع علىٰ أعمالك ، وآستِخْفافا بأمْرك الذى يأْتمرون به ورأْيك الذى تَرْتَئى . وأوْعِزْ إلىٰ القُوّاد أن لا يُقْدِم أحدٌ منهم علىٰ عقوبةِ أحدٍ من أصحابه ، إلا عُقوبةَ تأديبٍ فى تقْويم مَيَل ، وتثقيفِ أَوَد ؛ فأما عقوبةٌ تبلُغ تلَفَ المُهْجة وإقامةُ حدٍّ فى قطع ، أو إفراطٌ فى ضَرْب أو أخْذُ مال ، أوعقوبةٌ فى شَعَر فلا يلِيَنَّ ذٰلك من جندك أحدٌ غيْرُك ، أو صاحبُ شُرْطتك بأمرك وعن رأْيك وإذنك ؛ ومتى لم تُذَلِّل الجنــدَ لقُوّادهم ، وتُضْرِعْهم لأمرائهــم ، تُوجبْ لهم عليك الحجــةَ بتضييع ــ إن كان منهم ــ لأمْرك ، أو خَلَل ــ إن تهاونُوا به ــ من عَمَلك ، أو عجز ــ إن فَرَط منهم ــ فى شىءٍ ممــا وكَّلتهــم به أو أســنَدْته إليهــم ؛ ولا تجِدُ إلىٰ الإقدام عليهــم باللَّوْم وعَضِّ العقوبة عليهم مَجَازًا تصــلُ به إلىٰ تعنيفِهِم ، بتفريطِك فى تذليلِ أصحــابهم لهم ، وإفسادِك إيَّاهم عليك وعليهم . فانظُرْ فى ذٰلك نظَرا مُحْكما ، وتقدّمْ فيــه برِفْقك تقــدُّما بليغا ؛ وإيَّاك أن

يدْخُل حَزْمك وَهْن، أو يَشُوبَ عَزْمك إيثار، أو يَخْلِط رأيَك ضَياع؛ والله يستودِعُ أمير المؤمنين نَفْسَك ودينَك .

إذا كنتَ من عدُوّك علىٰ مسافةٍ دانيــة وسَنَن لقاءٍ مختَصَر، وكان من عسكرك مُقْتربا قد شامَتْ طلائعُك مُقدّماتِ ضلالته، وحُماةَ فِتْنته؛ فتأهَّبْ أُهبة المُناجِز، وخُذِ آعتدادَ الحَذِر، وكَتِّب خُيولَك، وعَبِّ جُنْدك؛ وإيَّاكَ والمسيرَ إلا فى مُقَدَّمة ومَيْمنــة ومَيْسَرة وساقةٍ؛ قد شَهَرُوا الأسـلِحةَ، ونَشَروا البُنودَ والأعلام؛ وعَرِّفْ جُنْدَك مراكزَهم سائرِينَ تحتَ ألوِيتهم، قد أخذُوا أُهْبة القتال، وآستعدُّوا للِّقاء؛ ملتجئين إلىٰ مَواقِفهم، عارفينَ بمواضِـعهم فى مَسِيرهم ومُعَسْـكَرهم . وليَكُنْ تَرَحُّلُهم وتنَزُّلهم علىٰ راياتِهـم وأعلامِهم وفى مراكِزِهم، قد عَرَّف كلُّ قائد منهـم أصحـابَه مواقِفَهم : من المَيْمنة والمَيْسَرة والقَلْب والساقةِ والطَّليعــة، لازمينَ لها، غيرَ مُخِلِّين بمـا آستُنْجِدوا له، ولا مُتهاوِنين بما أُهيب بهم إليه؛ حتّىٰ تكونَ عساكِرُك فى مَنْهلٍ تصل إليه ومسافةٍ تَخْتارُها كأنها عسْكرٌ واحد فى آجتماعها علىٰ العَدُوّ، وأخْذِها بالحَزْم، ومَسِيرها علىٰ راياتِها، ونُزُولها فى مراكِزِها، ومَعْرِفتها بمواضِعها : إن ضلَّت دابةٌ من موضِـعِها، عَرَف أهــلُ العسكر من أىّ المراكز هى، ومَنْ صاحِبُهـا، وفى أىّ المحلِّ حلُولُه منها فرُدّتْ إليه، هدايةً معروفةً بسَمْت صاحبِ قيادتها؛ فإنَّ تقــدُّمَك فى ذلك وإحكامَـك له طارحٌ عن جُندك مئُونة الطَّلَب، وعنـايةَ المعرفة، وآبتغاءَ الضَّالَّة .

ثم آجعَلْ علىٰ ساقتك أوثقَ أهل عسكرك فى نَفْسك صَرامةً ونَفاذا ورِضًا فى العامَّة، وإنصافا من نَفْسه للرعيَّة، وأَخْذا بالحق فى المَعْدَلة، مستَشْعِرا تقوىٰ الله وطاعتَه؛ آخذا بهَدْيك وأَدَبك، واقفًا عند أمْرِك ونَهْيك، معتَزِما علىٰ مناصَحتِك وتزيينك، نظيرا

لك فى الحـال، وشبيهًا بك فى الشَّرف، وعديلًا فى الموضـع، ومُقاربا فى النسب(١)؛ ثم أكْثِف معه الجَمْع، وأيِّده بالقُوة، وقوِّه بالظَّهْر، وأعِنْه بالأموال، وٱعْمِدْه بالسلاح، ومُرْه بالتعطُّف علىٰ ذَوِى الضَّعْف من جنـدك ومن أزحفَتْ به دابَّتُه وأصابتْـه نَكْبـة : من مرض أو رُجْلة أو آفة، من غير أن يأذن لأحدٍ منهم فى التنحِّى عن عسكره، أو التخلُّف بعد ترحُّله، إلا لمجهودٍ سُقْما، أو لمطروقٍ بآفةٍ جائحةٍ . ثم تقدَّمْ إليه محذِّرا، ومُرْه زاجرا، وٱنْهه مُغْلِظا فى الشدّة علىٰ من مَرَّ به منصَرِفا عن معسكرك من جندك بغير جَوازك، شادًّا لهم أَسْرا، ومُوقِرَهم حديدا، ومُعاقِبَهم مُوجِعا، ومُوجِّهَهم إليـك فتَنْهَكهم عُقُوبةً، وتجْعَلهم لغيرهم من جندك عِظَة .

وٱعلم أنه إن لم يكُنْ بذٰلك الموضِع من تَسْكن إليه واثقًا بنَصِيحته قد بلَوْتَ منه أمانة تُسَكِّنك إليـه، وصرامةً تؤَمِّنُك مهانَتَه، ونَفاذًا فى أمرك يُرْخى عنك خِنـاقَ الخوفِ فى إضاعته ـ لم يأمَنْ أمير المؤمنين تَسلُّلَ الجنـد عنك لِواذًا، ورَفْضَهم مراكزهم، وإخْلالَهم بمواضِعهم، وتخلُّفَهم عن أعمالهم، آمِنينَ تغييرَ ذٰلك عليهم؛ والشـدّةَ علىٰ من ٱجْتَرمه منهم، فأوْشَك ذٰلك فى وَهْنك، وخَذَل من قُوّتك، وقَلَّل من كَثْرتك .

اجعَلْ خلفَ ساقتِك رجُلا من وُجُوه قُوّادك، جلِيدًا، ماضيًا، عفيفًا، صارمًا، شَهْم الرأْى، شدِيدَ الحَذَر، شكِيمَ القُوّة، غيرَ مُداهِن فى عُقُوبة، ولا مَهِين فى قُوّة، فى خمسين فارسًا يحشُرُ إليك جُنْـدك، ويُلْحق بك من تَخَلَّف عنك بعْـدَ الإبلاغ فى عُقُوبتهم، والنَّهْك لهم والتنكيلِ بهم . وليَكُنْ بعَقْوتك فى المنْزِل الذى ترْحَل عنه، والمَنْهَـل الذى تَتَقوّض منـه، مُنْمِرطا فى النفْض له، والتتَبُّع لمن تخلَّف عنك به؛

(١) فى مفتاح الأفكار وغيره « فى الصيت » وهى أوضح .

مشتدًّا فى أهل المنْزِل وساكِنِه بالتقدّم، مُوعِزا إليهم فى إزعاج الجُنْد عن منازلهم، وإخراجهم عن مكامنهم؛ وإيعادِ العقُوبة المُوجِعة والنَّكَال المُبْسِل فى الأشْعار والأَبْشار، وآستِصْفاءِ الأموال وهَدْم العَقَار لمن آوىٰ منهم أحدًا أو سَتَر موْضعه، أو أخفىٰ محلَّه . وحَذِّرْه عقُوبتَك إيَّاه فى الترخيص لأحدٍ، والمحاباةِ لِذِى قَرَابة، والآخْتِصاص بذلك لذى أثْرَة وهَوَادة . ولْتَكُنْ فُرسانُه منتَخَبِين فى القوّة، معْرُوفين بالنَّجْدة؛ عليهم سوابِغُ الدُّروع دُونَها شِعار الحشو وجُبَب الآستِجْنان؛ متقلّدين سُيوفَهم، سامِطِين كنائنَهم، مستَعِدِّين لهَيْج إن بَدَهَهُم [أو كَمِين إن يظهر لهم](١) . وإيَّاك أن تَقْبل منهم فى دَوابِّهم إلا فرسًا قَوِيًّا أو بِرْذَوْنا وَثِيجا : فإن ذٰلك من أقوىٰ القُوّة لهم، وأَعْون الظَّهِرِىّ علىٰ عدُوّهم، إن شاء الله .

لِيَكُنْ رَحيلك إبَّانا واحدًا، ووَقْتا معلُوما : لتَخِفَّ المَئُونة بذٰلك علىٰ جُنْدك، ويعلموا أوانَ رَحِيلهم، فيقَدِّموا فيما يُرِيدُون من معالجة أطْعِمَتهم، وأعلافِ دَوابِّهم، وتَسْكُنَ قلوبهم إلىٰ الوقت الذى وَقَفُوا عليه، ويَطْمئِنَّ ذوُو الرأْى إلىٰ إبَّان الرحيل، ومتىٰ يكُنْ رَحيلُك مختَلِفا، تعظُم المئُونةُ عليك وعلىٰ جُنْدك ولا يزالُ ذَوُو السَّفَه [والنَّزق](١) يترحَّلُون بالإرجاف وينْزِلُون بالتوهُّم، حتى لا ينتفع ذُو رأْى بنوم ولا طُمأْنينة .

إيَّاكَ أن تُظْهِر آستِقْلالا، أو تُنادِىَ برحيل من مَنْزل تكونُ فيه، حتّىٰ تأمُر صاحبَ تعبِئَتك بالوُقُوف بأصحابه علىٰ مُعَسْكرك آخذا بجَنَبَتَىْ فوهته، بأسْلحتهم عُدّةً لأمرٍ إن حضَر، أو مفاجَاةٍ من طَلِيعة للعَدُوّ إن رأت منكم نُهزةً، أو لمحَتْ عندكم غِرَّة . ثم مُرِ النَّاسَ بالرَّحيل وخيْلُك واقفة، وأُهْبتُك مُعَدّة، وجُنَّتك

(١) الزيادة عن «مفتاح الأفكار» وغيره .

واقيــة، حتّى إذا آستقللتُمْ من مُعَسْكركم، وتوجّهتم من منْزِلكم، سِرتم على تَعبئتكم بسُــكُون ريح، وهُدُوّ حَمْــلة، وحُسْن دَعَة . فإذا آنتهيْتَ إلى مَنْهَل أردتَ نُزوله أو همَمْت بالمُعَسْكر به، فإيّاك ونُزولَه إلا بعدَ العِلم بأهله، والمَعْرِفة بمَرَافقــه؛ ومُرْ صاحب طليعتِــك أن يَعْرِف لك أحوالَه، ويستَثِيرَ لك عِلْمَ دَفِينِــه، ويستَبْطِنَ علْمَ أُموره ثم يُنْهِيها إليك على ماصارتْ إليه: لتعلم كيف آحتمالُه لعَسْكرك، وكَيْفَ ماؤه وأعْلافُه وموضِعُ مُعَسْكَرِك منه، وهل لك ــ إن أردتَ مُقاماً به، أو مطاولَةَ عدُوّك أو مكايَدَتَه فيه ــ قوّةٌ تحملك ومَدَدٌ يأتيه: فإنّك إن لم تفعَلْ ذٰلك، لم تأمَنْ أن تَهْجُم علىٰ مــنزل يُعجِزك ويُزْعِجك عنــه ضِيقُ مكانه، وقِلّةُ مِيــاهه، وآنقطاعُ موادّه، إن أردتَ بعدُوّك مَكيدة، أو آحتَجْت من أمورهم إلىٰ مُطاوَلة . فإن آرتحلْتَ منه كنتَ غَرَضا لعدوّك، ولم تجِدْ إلىٰ المحارَبة والاخْطار سبيلا؛ وإن أقمتَ به أقمتَ علىٰ مشقّة وحَصْر وفى أَزْل وضِيق، فاعرِفْ ذلك وتقدَّمْ فيه . فإن أردت نزولًا أمرتَ صاحب الحَيْل التى وَكَّلت بالناس فوقفتْ خيــلُه متنحّيةً من مُعسكرك، عُدّةً لأمر إنْ غالَك، ومَفْزَعا لبَديهة إنْ راعَتْك، فقد أمِنْتَ بحمــد الله وقوّته لجَاَةَ عدُوّك، وعرَفْت موقِعَها من حِرْزِك، حتّى يأخُذَ الناسُ منازلهم، وتُوضَعَ الأثقالُ مواضِعَها، ويأتيَك خبرُ طلائعك، وتُخرِجُ دَبَّابتُك من مُعَسْكرك دَرّاجة ودبّابا مُحيطيْن بعسكرك، وعُدّةً إن آحتجْتَ إليها . ولتكن دَبّاباتُ جندك أهل جَلَد وقُوّة، قائدًا أو آثنَيْن أو ثلاثةً بأصحابهم، فى كلِّ ليــلةٍ ويومٍ نُوَبا بينَهُــم؛ فإذا غَربت الشمسُ ووجَبَ نُورُها، أخرج إليهم صاحبُ تعبِئَتك أبْدَالهم، عَسَسًا بالليل فى أقْربَ من مواضــع دَبَّابِى النهارِ، يتعاوَرُ ذٰلك قُوّادُك جميعًا بلا مُحاباةٍ لأحدٍ فيه ولا إدْهان .

إيّاكَ وأن يكون منْزلُك إلا فى خَنْدق وحِصْن تأمَنُ به بَيات عَدُوّك وتستَنيمُ فيه إلىٰ الحَزْم من مَكيدتك إذا وُضِــعَت الأثقالُ وحُطّتْ أبنِيَةُ أهل العسكر، لم يُمْدد

طُنُب ، ولم يُرْفَع خِباء ، ولم يُنْصَب بناءٌ حتى تَقْطع لكلِّ قائدٍ ذَرْعا معلوماً من الأرض بقَدْر أصحابه ، فيحْفِروه عليهم خَنْدقا يُطِيفونَه بعــد ذٰلك بخَنادق الحَسَك ، طارحينَ لها دُونَ آشْتِجار الرِّماح ، ونَصْبِ التِّرَسة ، لها بابانِ قد وكَّلتَ بحِفْظ كل باب منهما رجُلا من قُوادك فى مِائة رجلٍ من أصحابه ؛ فإذا فُرِغ من الخَنْــدَق كان ذانِك الرجلانِ القائدانِ بمَنْ معهما من أصحـابهما أهلَ ذٰلك المَرْكز ، وموْضعَ تلك الخيل ، وكانُوا هم البَوّابِينَ والأحراسَ لذَيْنِك الموضعَيْن ، قد كَفَوْهما وضَبطُوهما وأُعْفُوا من أعمال العسكر ومكْرُوهه غيرهما .

وآعلم أنكَ إذا كنتَ فى خَنْدق ، أمِنتَ بإذْن الله وقُوتِه طوارِقَ عدُوك وبَغَتاتِهم ، فإنْ راموا تلكَ منك ، كنتَ قد أحكمتَ ذٰلك وأخذْتَ بالحزْم فيــه ، وتقدّمْتَ فى الإعدادِ له ، ورتَقْتَ مَخُوفَ الفَتْق منه ؛ وإن تكُنِ العافيةُ آستَحَقَّيْت حمْــدَ الله عليها ، وآرتبطْتَ شُكْره بها ، ولم يَضْرُرْك أخذُك بالحزم : لأن كل كُلْفــة ونَصَب ومَئُونةِ إنفــاق ومشَــقَّةِ عمل مع السلامة غُنْم وغيرُ خَطَر بالعاقبــة ، إن شاء الله . فإن آبْتُلِيت ببَيَات عدُوك أو طَرَقك رائِعًــا فى ليلك ، فليُلْفِكَ حَذِرا مُشَمِّرا عن ساقك ، حاسرًا عن ذِراعك ، متشَزِّنا لحَرْبك ؛ قد تقدّمَتْ دَرّاجَتُك إلىٰ مواضِــعِها علىٰ ما وصَفَه لك أمير المؤمنين ، ودَبَّابتُك فى أوقاتها التى قَدَّر لك ، وطلائعُك حيثُ أمرك ، وجُنْدُك علىٰ ما عَبَّأ لك قد خَطَرْتَ عليهــم بنَفْسك ، وتقدّمْتَ إلىٰ جُنْدك إن طَرَقَهم طارق ، أو فاجَأَهم عدُوّ ، أن لايتكلَّم منهم أحدٌ رافعًا صوته بالتكبير مُغْرِقا فى الإجلاب ، مُعْلِنا بالإرهاب لأهل الناحية التى يَقَع بها العدوُّ طارقًا ، ولْيُشْرِعُوا رِماحَهم ناشبِين بها فى وُجُوههم ، ويَرْشُقُونهم بالنبل مكْتَنِّين بأتْرِسَتِهم (١) ، لازِمين لمَرا كزهم ،

(١) فى المفتاح وغيره « ملبدين ترستهم » وفى الأصل أترستهم وقال آبن السكيت لا يقال أترسة وزان أرغفة وإنمــا جمع الترس ترسة وتروس وتراس وربمــا قيل أتراس فتنبه .

غير مُزِيلى قَدَم عن موضِعها ، ولا مُتجاوِزين إلىٰ غير مَرْكَزهم . ولْيُكَبِّروا ثلاثَ تكبيرات متواليات وسائرُ الجند هادُون، لتَعرِف موضِعَ عدُوّك من مُعَسْكرك، فتُمِدّ أهل تلك الناحية بالرجال من أعْوانك وشُرْطتك ، ومن آنتخبْتَ قبلَ ذلك عُدّةً للشدائد بحَضْرتك، وتَدُسّ إليهم النُّشّاب والرِّماح .

و إيَّاكَ وأن يَشْهَروا سـيْفًا يتجالَدُون به . وتقدَّمْ إليهم أن لا يكونَ قتالهم فى تلك المواضع لمَنْ طَرقَهم إلا بالرِّماح مُسْـنِدين لها إلىٰ صُـدُورهم، والنُّشّاب راشقِينَ به وجُوهَهم، قد أَلْبدُوا بالأتْرِسة، وآستجَنُّوا بالبَيْض، وألْقَوْا عليهم سَوابِغَ الدُّروع وجِبابَ الحَشْو، فإن صَـدّ العدوُّ عنهم حاملين علىٰ جهةٍ [أخرىٰ ، كَبَّر](١) أهل تلك الناحيـة التى يقع فيها كفِعْل الناحيةِ الأُولىٰ، و بقيَّـةُ العسكر سكوتٌ والناحيةُ التى صَدّ عنها العدوُّ لازمةٌ مراكزهم منتطقةُ الهدوّ ساكنةُ الرِّيح، ثم عمِلتَ فى تقويتهم و إمْدادهم بمثل صَنيعِك فى إخوانهم .

وإياك أن تُخْمِـدَ نارَ رُواقـك [واذا وقع العـدُوّ فى مُعَسْكرك نأجِّجْها ساعِرًا لها وأوْقدْها حطَبًا جَزْلًا يعرف به أهـل العسكر مكانَكَ وموضع رواقك](١) فيَسْكُن نافِرُ قلوبهـم، ويَقْوىٰ واهِى قُوتِهـم، ويشتدُّ منْخَذِل ظُهُورهم، ولا يرجُمُونَ بك الظُّنون، ويجعـلونَ لكَ آراء السُّوء، ويُرْجِفُون بك آناءَ الخوْف، وذلك من فِعلك رادٌّ عدُوَّك بغيْظه لم يستَفْلِل منك ظُفُرا، ولم يبلُغْ من نِكَايتك سُرُورا . و إنِ آنصَرفَ عنك عدُوُّك ونَكَل عن الإصابة من جُنْدك وكانتْ بخَيْـلك قوةٌ علىٰ طلَبه أو كانت لك من فُرْسانك خيْلٌ مُعدَّة وكتيبةٌ منْتَخَبة، [و]قَدرتَ علىٰ أن ترْكَبَ بهم أكْساءَهم، وتحمِلَهم علىٰ سَنَنِهم، فأَتْبِعْهم جَرِيدَةَ خيل عليها الثِّقات من فُرْسانك، وأُولو النَّجْدة من حُمَاتك، فإنك ترْهَق عدوّك وقد أَمِن من بَيَـاتك، وشُـغِل بكَلَاله عن التحرُّز

(١) الزيادة من مفتاح الافكار وغيره وهى من سقطات الناسخ كما لايخفى .

منك والأخذ بأبواب مُعَسْكره ، والضَّبْط لمَحارِسه عليك، مُوهَنةً حُماتُهم لِغبة أبطالهم : لما أَلْفَوْكم عليه من التشمير والجِدّ، قد عقَر اللهُ فيهم ، وأصابَ مِنهم، وجرَح من مقاتِلتِهم، وكَسَر من أمانيّ ضُلّالهم، وردّ من مستَعلِي جِماحهم .

وتقدَّمْ إلىٰ من تُوجِّهه فى طَلَبهم، وتُتْبِعه أكساءَهم: فى سُكُون الرِّيح، وقِلّة الرَّفث، وكَثْرة التسبيح والتهليل، وٱستِنْصار اللهِ عزَّ وجل بألسِنَتِهم وقلوبِهم سِرّا وجَهْرا، بلا لَجَبٍ ضَجَّة، ولا ٱرتفاعِ ضَوْضاء، دُونَ أن يردوا علىٰ مطلبهم، وينتَهِزُوا فُرْصَتهم. ثم لْيَشْهَروا السَّلاح ، وينتَضُوا السُّيوفَ، فإنَّ لها هَيْبةً رائعة، وبَدِيهة مَخُوفة، لايقومُ لها فى بُهْمة الليل وحِنْدِسه إلا البطَلُ المُحارِب ، وذُو البصيرة المُحامِى ، والمستمِيتُ المُقاتل، وقليلٌ ماهم عند تِلكَ الحَمِيَّة وفى ذلك المَوْضع .

لِيَكُنْ أوّلَ ماتتقدّمُ به فى التهيُّؤ لعدُوّك، والٱستعدادِ للقائه، ٱنتخابُك من فُرْسان عسكرك وحُماة جُنْدك ذَوِى البأْس والحُنْكة والجَلَد والصَّرامة، ممَّن قد ٱعتاد طِرَاد الكُماة ، وكَشَّر عن ناجذه فى الحَرْب ، وقام علىٰ ساقٍ فى مُنازَلة الأقْران ، ثَقِفَ الفُرُوسية ، مجتمِعَ القُوّة، مستحْصِدَ المَرِيرة ، صَبُورا علىٰ هَوْل الليل، عارفاً بمُناهَزَة الفُرَص، لم تَمْهَنه الحُنْكة ضَعْفا، ولا بَلَغَتْ به السِّنُّ كَلالا، ولا أسْكَرَتْه غِرَّة الحَداثة جهلا، ولا أبطرَتْه نَجْدة الأغمار صَلَفا، جَرِيئًا علىٰ مخاطَرة التلف، مُقْدِما علىٰ ٱدِّرَاع الموْت ، مُكابِراً لمَهِيب الهول، متقحِّماً مَخْشيّ الحُتُوف، خائضًا غَمرات المَهالك ، برأْي يؤَيِّده الحزم ، ونيّة لا يخالِجُها الشّكّ ، وأهواء مجتمعة ، وقلوبٍ مؤتَلِفة ، عارفينَ بفضل الطاعةِ وعِزِّها وشرفِها ، وحيثُ محلُّ أهلها من التأييد والظَّفر والتمكين ، ثم ٱعْرِضْهم رأْيَ عين علىٰ كُراعهم وأسلِحَتهم . ولْتكُنْ دوابُّهم إناثَ عِتاق الخَيل، وأسلحتُهم سوابغَ الدُّروع وكمالَ آلةِ المُحارب، متقلِّدين

سُيوفَهم المستخْلَصة من جيِّد الجَوْهر وصافى الحديد، المتخيرة من معادِنِ الأَجْناس، هِنْديَّة الحديد يَمـانِيَة الطَّبع، رِقاق المَضارب، مَسْمُومة الشَّحْذ، مُشَطَّبة الضَّرِيبة؛ مُلْبدِين بالتِّرسة الفارسيّة، صِـينِيَّةِ التعقيب، مُعْلَمة المَقابِض بِحَلَق الحديد، أنحاؤُها مربَّعة، ومَخارِزُها بالتجليد مُضاعَفة، مَحْمَلُها مستَخَف؛ وكَنائِنُ النَّبْل وجعابُ القِسِىّ قد ٱستحْقَبُوها، وقِسِىّ الشِّرْيان والنَّبـع أعرابِيَّة الصَّنْعة، مختلِفةُ الأجناس، محكَمَةُ العمَلِ، مُقَوَّمة التثقيف؛ ونُصُول النَّبْـل مسمُومة، وعملها مَصِّيصِىّ، وتركيبُها عِراقِىّ، وتَرْيِيشُها بَدَوِىّ؛ مختلِفةُ الصَّوْغ فى الطَّبْع، شَـتّى الأعمال فى التشْطِيب والتجنيح والاِسـتِدارة. ولْتكُن الفارسـية مقلُوبةَ المَقابِض، منبَسِطة السِّـيَة، سَهْلَةَ الاِنعطاف، مُقَرَّبة الاِنْحِناء، مُمْكِنة المَرْمىٰ، واسـعةَ الأَسْهُم؛ فُرَضها سهلةُ الوُرُود، ومَعاطِفُها غير مقترِبة المُواتَاة. ثم وَلِّ علىٰ كلِّ مائة رجل منهم رجُلا من أهل خاصَّـتك وثِقاتِك ونُصَحائك، له صِيتٌ فى الرِّياسـة، وقَدَم فى السابقة، وأوَّليَّـة فى المشايعة. وتقـدَّمْ إليه فى ضَـبْطهم، وكَفِّ معَرّتهم، وٱسـتِنْزال نصائحهم، وٱستعداد طاعتهـم، وٱستِخلاص ضمائِرِهم، وتعاهُدِ كُراعِهم وأسلِحتِهم: مُعْفيا لهم من النوائب التى تلزَمُ أهلَ عسكرك وعامَّةَ جنْـدك؛ وٱجعلْهم عُدّة لأمرٍ إن حَزَبك أو طارقٍ إن أتاك؛ ومُرْهم أن يكونُوا علىٰ أُهْبة مُعَدّة، وحَذَرٍ نافٍ لِسِـنَة الغفلة عنهم؛ فإنك لاتَدْرِى أىُّ الساعات من ليلك ونهارِك تكونُ إليهم حاجتُك. فلْيَكُونوا كرجلٍ واحدٍ فى التشمير والتَّرادُف وسُرْعةِ الإجابة؛ فإنّك عَسَيْتَ أن لا تجدَ عنـد جماعة جندك فى مثـل تلك الرَّوْعة والمُباغَتة ــ إن ٱحتجْتَ إلىٰ ذلك منهم ــ مَعُونةً كافية، ولا أُهْبة مُعَدّة، بل ذٰلك كذلك. فليكُنْ هٰؤلاء القومُ الذين تنتخبُ عُدّتَك وقُوتَك، بُعُوثا قد وَظَّفْتها علىٰ القُوّاد الذين ولَّيتهم أُمُورَهم، فسمَّيت أوّلا وثانيا وثالثًا ورابعًا وخامسًا وسادسًا؛ فإن ٱكتفيتَ فيما يطْرُقك ويَبْدَهُك ببَعْث واحد، كان

مُعَدّا لم تحتج إلىٰ آنتخابهم فى ساعتِك تلك فقطِّع البعْثَ عليهم عند مايَرْهَقُك . وإن احتجتَ إلىٰ آثنين أو ثلاثةٍ، وجَّهت منهم إرادتَك أو ماترىٰ قُوّتَك، إن شاء الله .

وَكِّلْ بِخَزائنِك ودَواوينك رجلًا ناصحًا أمينًا ، ذا وَرَع حاجِز، ودِينٍ فاصِل ، وطاعةٍ خالصةٍ ، وأمانةٍ صادقةٍ، وآجعلْ معه خيْلا يكونُ مَسيرها ومَنْزِلها ومَرْحَلُها مَعَ خِزانتِك وحَوْلَها . وتقدَّمْ إليه فى حِفْظها ، والتوقِّى عليها، وآتِّهام كلِّ من تُسنِد إليه شيْئا منها علىٰ إضاعتِه والتهاوُن به ، والشِّدَّةِ علىٰ مَنْ دنا منها فى مَسِير، أو ضامّها فى منْزِل، أوخالَطَها فى مَنْهل . وليكُنْ عامّةُ الجُنْـد والجيش - إلا مَنِ آستخلَصْت للَسِيرِ معها - متنحِّين عنها، مُجانِبِين لها فى المَسِير والمَنْزِل؛ فإنه رُبَّما كانت الجَوْلةُ وحدثتِ الفَزْعة ، فإن لم يكن للخَزائن ممن يوكَّل بها أهلُ حِفْظ لها وذَبٍّ عنها ، وحِياطةٍ دُونَها،وقُوّةٍ علىٰ مَن أراد آنتِهابَها،أسرعَ الجندُ إليها وتداعَوْا نحوَها حتّٰى يكاد يَترامىٰ ذٰلك بهم إلىٰ آنتِهابِ العَسْكر، وآضطِرابِ الفتْنة ؛ فإنَّ اهلَ الفِتَن وسُوءِ السِّيرة كثيرٌ، وإنما هِمَّتُهم الشَّر؛ فإيَّاك أنْ يكونَ لأحد فى خَزائنك ودَواوِينك [وبيوت أموالك](١) مَطْمع ، أو يجِدَ سبيلا إلىٰ آغْتِيالها ومَرْزَأتها .

اِعلم أنَّ أحسنَ مَكِيدتِك أثرًا فى العامَّة، وأبعَدها صِيتاً فى حُسْن القالَة، مانلتَ الظَّفر فيه بحَزْم الرَّوِيَّة، وحُسْن السِّيرة ، ولُطْف الحيلة . فلتَكُنْ رويَّتُك فى ذٰلك وحِرْصُك علىٰ إصابته بالحِيَل ، لا بالقتال وأخْطارِ التَّلَف ، وآدْسُسْ إلىٰ عدُوّك ، وكاتِبْ رُؤساءَهم وقادَتَهم وعِدْهم المَنالات ، ومَنِّهم الوِلايات ، وسَوِّغْهم التُّراث، وضَعْ عنهم الإحَنَ ، وآقطَع أعناقَهُم بالمطامع ، وآستَدْعِهم بالمَثاوب ، وآملأْ قُلوبَهم بالترهِيبِ إن أمكنَتْك منهم الدَّوائِر، وأصارَتْهم إليك الرَّواجِع ، وآدْعُهم إلىٰ الوُثوب بصاحِبِهم أو آعتِزالِه إن لم يكن لهم بالوُثُوب عليه طاقةٌ ، ولا علَيْك أن تَطْرَح إلىٰ

(١) الزائد من رسائل البلغاء .

بعضهم كُتُبا كأنّهـا جوابُ كُتبٍ لهم إليك ، وتكتب على ألسنتهم كتبا إليك تدفعها إليهم ، وتحمل بها صاحبهم عليهم وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة ؛ فلعلّ مكيدتك في ذلك أن يكونَ فيها افتراقُ كلمتهم ، وتشتيتُ جماعتِهـم ، وإحَنُ قلوبهم ، وسُوءُ الظنِّ مِن واليهم بهم ، فيوحشهم منه خوفُهم إيّاه على أنفسهم إذا أيقنوا باتهامه إياهم ؛ فإن بسط يده فقتلهم ، وأولغ سيفه في دمائهم ، وأسرع الوثوب بهم ، أشعرهم جميعاً الخوفَ ، وشملهم الرُّعبُ ، ودعاهم إليـك الهربُ فتهـافتوا نحوك بالنصيحة وأمُّوك بالطّلب . وإن كان متأنّيـا محتملا رجوتَ أن تستميلَ إليك بعضَهم ، ويستدعى الطمعُ ذوى الشَّره منهم ، وتنالَ بذلك ماتُحِبُّ من أخبارهم ، إن شاء الله .

إذا تَدانى الصَّفّان ، وتواقف الجمعان ، واحتضرت الحربُ ، وعبّأتَ أصحابك لقتال عدوِّهم ، فأكثِر من قول : لاحولَ ولا قوّةَ إلا بالله ، والتوكُّلِ على الله عزّ وجلّ والتفويضِ إليـه ، ومسألته توفيقك وإرشادَك ، وأن يَعزِم لك على الرُّشد المُنْجى ، والعِصْـمة الكالئة ، والحياطةِ الشاملة . ومُرْ جُندَك بالصَّمْت وقلّةِ التلفُّت عنـد المُصاولة ، وكثرةِ التكبـير فى أنفسهم ، والتسبيح بضمائرهم ؛ ولا يُظهِروا تكبـيراً إلا فى الكَرّات والحَمَـلات ، وعند كل زُلْفةٍ يزدلِفونها ؛ فأما وهم وقوفٌ فإنّ ذلك من الفَشَل والجُبْن ، وليذكُروا الله فى أنفسهم ويسألوه نَصْرهم وإعزازهم ، وليُكْثِروا من قول : لا حولَ ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم ، حسبُنا اللهُ ونعم الوكيلُ ، اللهُمّ انصُرنا على عدُوّك وعدُوِّنا الباغى ، واكفِنا شوكتَه المستحدّه ، وأيِّدنا بملائكتك الغالبين ، واعصِمْنا بعونك من الفَشَل والعَجز إنك أرحمُ الراحمين .

وليكُنْ فى مُعَسـكرك المكبِّرون فى الليل والنهـار قبْـل المُواقعة ، وقومٌ موقوفون يحضُّونهم على القتال ويحرّضونهم على عدُوّهم ، ويصِفُون لهم منازلَ الشُّهداء وثوابَهم ،

ويُذَكِّرونهم الجنةَ ودرجاتِها ونعيمَ أهلِها وسُكّانِها، ويقولون : آذكُروا اللهَ يَذْكُرْكم، وآستنْصِروه ينصُرْكم، وآلتجِئوا إليه يمنَعْكم . وإن آستطعتَ أن تكون أنت المباشِرَ لتعبِئَة جُنْـدك، ووضْعِهم مواضِعَهم من رأيك، ومعك رجالٌ من ثِقـات فُرْسانك ذَوُو سِنٍّ وتجرِبة ونَجْـدة علىٰ التعبئة التى أميرُ المؤمنـين واصفُها لك فى آخر كتابك، فآفعل إن شاء الله تعالىٰ .

أيَّدك اللهُ بالنصر، وغَلَب لك علىٰ القوّة، وأعانك علىٰ الرَّشَـد، وعصَـمك من الزَّيْغ، وأوجبَ لمن آستشهَدَ معك ثوابَ الشُّهداء ومَنـازِلَ الأصْفِياء، والسـلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه .

وكتب سنةَ تسع وعشرين ومائةٍ .

الطـــرف الثـالث

(فيما كان يُكتَب عن خلفاء بنى العبَّاس ببغدادَ إلىٰ حينِ آنقراض الخلافة العبَّاســية من بغداد)

وهو علىٰ أربعـــة أنواع :

النـــوع الأوّل

(ما كان يُكتَب لوُزَراء الخــلافة)

وكان رسمهم فيه أن يفتَتح بلفظ « أما بعــدُ فالحمدُ لله » ويؤتىٰ فيه بثلاث تحميداتٍ، وربـما آقتُصِر علىٰ تحميدة واحدةٍ . وعلىٰ ذٰلك كانت تقاليدُ وُزَرائهم من أرباب السُّيوف والأقلام .

وهذه نسخةُ تقليدٍ من ذٰلك كتَب بها العلاءُ بن مُوصَلايا ، عن القائم بأمر الله ، للوزير فخر الدولة بن جَهِير ، فى شهور سنة ٱثنتين وسبعين وأربعمائة ، وهو :

أما بعـدُ ، فالحمدُ لله ذِى الآلاءِ الصافِيَـة الموارِد ، والنَّعماء الصادقةِ الشَّواهد ، والطَّوْل الجامع شَمْلَ أسباب المِنَح الشَّوارد ؛ ذى القُدْرة المصرَّفة علىٰ حُكْمها مَجارِى القَدَر ، والمشيئة الحالية بالنَّفاذ فى حالَتَى الوِرْد والصَّدَر ، المُذِلّ بجميل صُنْعه أعنـاقَ المَصَاعب ، المُديم(١) بكريم لُطْفه من ٱمتداد ذوائب النَّوائِب ؛ الذى جلَّ عن إدراك صِفاتِه بعدّ أو حَدّ ، ودَلَّ بباهرِ آياتِه علىٰ كونه الفَردَ الولىَّ بكل شُكْرٍ وحمد ، سبحانه وتعالىٰ عما يصِفُون .

والحمـدُ لله الذى ٱختصَّ محمدًا صلّى الله عليه وسـلم بالرِّساله واجْتباه ، وحَبَـاه بالكَرامه بمـا أشْرق له مَطْلَعُ الجَلال ، وٱختـاره وبعثه لإظهار كلمةِ الحقِّ بعد أن مدّ الضَّلالُ رُواقَه ؛ فلم يزلْ بإعْزاز الشَّرْع قائمـا ، ولساعاتِ زمانِه فى طَلَب رضا الله قاسِما ؛ لا ينْحرِف عن مقاصِدِ الصواب ولا يَمِيل ، ولا يُخْلِى مَطايا جِدِّه فى تقوية الدِّين مما يُتابِـع فيه الرَّسِيمَ والذَّمِيل ، إلىٰ أنْ أزالَ عن القلوب صَدَأَ الشُّكُوك وجَلاَ ، وأجلىٰ مَسْعاه عن كُلِّ ما أودَع نُفُوسَ أحلافِ البـاطل وَجَلا ؛ ومَضىٰ وقد أضاء للإيمـان هلالٌ أُمِنَ سِرَارُه ، وٱنتضَىٰ لإبادة الشِّرك حُساماً لا ينْبُو قطُّ غِرارُه ؛ فصلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين ، وأصحابِه المنتخَبين ؛ صلاةً يتَّصل الأصيلُ فيها بالغُدُوّ ، وترىٰ قيمتُها فى الأجر وافيةَ العُلُوّ والغُلُوّ .

والحمـدُ لله الذى أصار إلىٰ أمير المؤمنين من إرْث النبُوّة ما هو أحقُّ به وأَوْلىٰ ، وأنار له من مَطالع العِزّ ما أسْـدىٰ به كُلَّ نعمةٍ وأَوْلىٰ ؛ وأحَلَّه من شرَف الإمامة

(١) كذا فى الأصول المديم بالميم ولعله المديل باللام تأمل .

بحيث عنَتْ لطاعتــه أعناقُ الرِّقاب الصِّعاب ، وأذعنَتْ له القلوبُ بالإنطواءِ علىٰ الوَلَاء الفَسِــيح الرحاب والشِّعاب ؛ وجعل أيَّامه بالنَّضارة آهلةَ المَغَـانى، متقابِلةً أسماؤُها فى الحُسْن بالمَعَانى ؛ فما يجرِى فيهـا إلا ما الصوابُ فى فِعْله كامِن ، والحظُّ بٱنتِهاج سُبُله كائِن ؛ إبانةً عن ٱقتران الرَّشَد بعزائمه فى حالتى العَقْد والحَلّ، وٱقتراب مَرامِ كلِّ مايَحُل من الصَّلاح فى الدهر أفضلَ المَحَلّ .

ثم إنه يَرىٰ من إقرار الحُقُوق فى نِصابها، وإمرار حِبـال التوفيقِ فى جانِبهـا(1) من الأطماع الممتدّةِ إلىٰ ٱغتصابها ؛ مايُعرِب عن الاهتداء إلىٰ طُرُق الرَّشَـد ، والاقتداء بمَنْ وجدَ ضالَّة المراد حين نَشَد؛ ويقصِدُ من تجديد العوَارف، عند كلِّ عالم بقَدْرها فى الزمان عارِف ؛ مايحلُو جَنىٰ ثَمَره فى كل أَوَان، ويَحْدُو(2) ٱنتشارُ خبره علىٰ إعانة كل فكر فى وَصْفه عُنْوان ؛ فيتناقَلُ الرُّواةُ ذِكر ذٰلك غَوْرا ونَجْـدا، وتلقىٰ الهممُ العليَّـة ٱدِّخار الجمالِ به أنفعَ من كلِّ قِنْية وأجدىٰ ؛ استمرارًا علىٰ شاكلة تحلَّتْ بالكَرَم، وحلَّت من الجَلَال فى القُلَل والقِمَم، وحلَتْ آثارُهافى إيلاء نَفِيس المِنَح وجزيلِ القِسَم .

ولما غَدا مَنْصِب الوِزارة موقُوفا علىٰ الَّذين طالمَا جَزُّوا بِهِمَمهم نَواصِىَ الخُطوب، وحازوا بِذِمَمهم المنَالَ فى مَقَاصد ٱستَشْهَدوا بهـا علىٰ إحرازِ كلِّ فضـيلة وٱستدَلُّوا ؛ وكَفُّوا بكِفَايتهم أكُفَّ الفساد وردُّوا ، وحازُوا الفَعَال فى كلِّ ماسَعَوْا له وجَدُّوا ؛ وخلا الزمانُ ممَّن ينْهَض بِعبْء هذا الأمر الجسيم، وتُصْبِح أنباؤُه فيه ذَكيَّة الأَرَج والنسيم ــ لم يبقَ غيْرُك ممن يستَحِقُّ التخْييمَ فى عِراصه، والتحكيمَ فى ٱجتِناء الفَخْر منه وٱستِخْلاصه ؛ وكان القَدَر سبقَ بانْفِصالك عن الخِدْمة لالضَعْف سرِيرَه ، ولا لقُوّة جَرِيره، ولا لكَدَرِ سـيره ؛ وكيفَ وأنت المتفرِّدُ بالكمال ، والمتجرِّدُ فى كل

(1) لعله فى صيانتها .

(2) أى يبعث ويسوق ٱنتشار الخ .

مقام سلِم حَدُّ تقرُّبك فيه من حادِثِ الكَلَال ، ولك فى الدولة الحقُوقُ التى أعْتَدَتْ لكَ من وقع الاْستِزادة مِجَنًّا ، والمواقِفُ التى آغتذَتْ من دِرّة الإحماد بما أينَ[(١)] الظِّئْرُ لها وأنّا ، والمَقَاصِدُ التى أُعْدِمَتْ منك البَدَل ، ولا آنحرفَ لك منها مَسْعًى عن مَنَاهج الإصابةِ ولا عَدَل ، وتمكَّنْت فيها من عِنَان التوفيق بما لايُجارى سيفُك فيه قط ، ولا يَحْسُن له حالَ المَسْرى إليه الحطّ ، والآثارُ التى أثارَتْ من كَوَامن الرضا أفضَلَ مايُذْخَر ويُقتنى ، وأنارَتْ من دلائل الزُّلفى ما يُنْتَجز به وعْدُ المُــنى ويُقتضى ؛ لكن كان ذٰلك مسطُوراً فى الكتاب ، وليتَبَيَّنَ أنه لاعِوضَ عنـك فى الاْستِحقاق للأمْرِ والاْستِيجاب ، لم يُوجَدْ لهٰذه الرُّتْبة كُفُؤا سِواك ، ولا يُنَزِّهها عن العَطَل غيرُ رائقِ حِلَاك ، فرأى أميرُ المؤمنين تسليمَ مقاليدِها إليكَ إذ كُنْت أحقَّ بها وأهلَهـا ، وممَّن يَجْمَعُ بعدَ الشَّتات شَمْلَها ، فطوَّقك من قلائِدِها ماهو بأعْطافك ألْصَق ، وبتَمامِ أوصافكَ ألْيَق : لتَدّرِع من عِزِّ الوِزارة جِلْبـابا لاتُخْلِق الأيامُ له جِدّه ، ولا تزال السُّعودُ بما يَئُول إلى دَوام مُدّته ممتدّه ، وتَرتضعَ من لِبَان خِلَالها ما يَقْضِى لك بأن تَقِفَ نفْسَها عليك ، وتقِفَ آمالُ الأمثال دُونَ ما آنتهتِ الغايةُ فيه إليك ، وتعتمِدَ فيما عَدَقه بك منها وناطَه ، ووَفّاك فيه حقُوقَ النظر وآشْتِراطَه ، بحِكَمٍ توَحَّدْتَ فى إحراز أدواتِها التى لايبْلُغ أحدٌ لك منها مَدى ، ولم يَمُدّ طامعٌ إلى مساجَلَتك فيها يدًا ــ ما يُرْضِى الله تعالىٰ ويُرْضيه ، ويُخُصُّ ذكرك بالطيب ويحيطه فتفُوزَ فَوْزا كبيرا ، وتُعيد الساعِىَ فى إدراك شأْوِك ظالِعًا حَسِيرا .

ثم إنه شَفَع هذه المِنْحةَ التى قَمَّصك مَجاسدَ فخْرِها بالوُجُوب ، وعوَّضَك فيها الدهْرُ بحادِثِ البِشْر عن سابق القُطُوب ــ بإيصالك إلى حَضْرته ، وإدْنائك من سُــدّته ، ومُنَاجاتِك بما يُتيحُ لك آمْتطاءَ غارِبِ المجد وصَهْوته ، والاْحتواءَ على خالِص السعد

(١) لعل الصواب أوْن يقال شرب الرجل حتى أون أى امتلا .

وصَفْوته ؛ وحِبائك من صُنُوف التشريفات التى تَرُوق حلىٰ خِلَالها ، وتتُوق الآمالُ إلىٰ إدْراكها ومنَالها ؛ وصفَتِ الكراماتُ التى وفَت المُنىٰ بهـا بعد مِطَالها ، ونفَت القَذىٰ عن مُقَل مغْضُوضة بسُوء فِعَـال الأيَّام ومقَالها ؛ بمـا يُوطِئُ عقِبَك الرجال ، ويُضَيِّق علىٰ مَنْ يُحاوِل مُجاراتَك المَسْرح والمجَال ؛ ولم يقتنِـع بذٰلك فى حقِّ النُّعْمىٰ التى أعْداك فيهـا علىٰ الغِيَر ، وأغْداك منها فى ظِلٍّ من الأمن البـادى الأوضاح والغُرَر ؛ حتّٰى ألحق بسِماتِك «تاجَ الوُزَراء» تنويهاً بذِكْرك فى الزّمان ، وتنبيهاً علىٰ ٱخْتِصاصك لدَيْه بوَجَاهة الرُّتبــة والمَكان ؛ فصار مكْرُوه الأمور فى محبُوبِها سبَبا ، وخبَتْ نارُ كلِّ مَنْ سعىٰ فى تضـليل النظام وَجِيفا وخَبَبا ، حتّٰى الآملون أن يجعلوا تحْت الخلافة(١) زَمِنا ، وتُصْبِح رِبَاعُه بعد النَّضارة دِمَنا ؛ ليُعْقِبَهم ذاك نَيْلَ ماوصلت إليه الامضاء(؟) لهذا العزم . وبالجملة فالسَّآمةُ واقعةٌ من تَتَابُع هذه الشّكاوىٰ ، وقد كان الأحَبُّ أن لا يُضَمِّن الكتُبَ النافذةَ سِوىٰ تعهُّد الأنباء ، لا زال عَرْفُها أرجًا من سائر الأرجاء والنَّواحِى . لٰكن تأتِى مَجارِى الأَقْدار ، ودَواعِى الاضطرار ، إلىٰ مايُرَنِّقُ(٢) ماءَ الإرادة والإيثار ؛ والآنَ فقد بلَغ المـاء ، وجلب من عَدم الصَّبرِ الحِنَـاء ؛ ولم يبق غيْرُ هِزَّة دينيَّةٍ منك تكْشف بها هـذه المَعَرَّه ، وتُتْحِف منها أميرَ المؤمنين بمـا يُتِمُّ لدَيْه أكملَ المَسَرَّه ؛ فقُمْ فى ذٰلك مَقَـام مِثْلك ــ وإن كان لا نظيرَ لكَ يُوجَد ــ تحْظَ بمـا يُمْضى لك فيه ٱستحقاقَ كلِّ الحمد ويُوجِب ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخةُ تقليد من ذٰلك ، كُتب بها عن المسترْشِد ــ فيما أظُن ــ لبعض وُزَرائه ، وهى :

أما بعدُ ، فالحمــدُ لله المنفَرِد بكِبْريائه ، المتفضِّــل علىٰ أوْليائه ؛ مُجْزِل النَّعْماء ، وكاشِف الغَمَّاء ؛ ومُسْبِـغ العَطاء ، ومُسْبِل الغِطَاء ؛ ومُسْنِي الحِبَاء ، ومُسْدِى الآلَاء ؛

(١) فى الأصل المخافة ولا معنى له . (٢) لعله بمـا يرنق .

الذى لا يَئُوده الأعبـاء، ولا يَكِيـدُه الأعداء؛ ولا تبلُغه الأَوْهام، ولا تُحيط به الأَفْهام؛ ولا تُدْرِكه الأبصار، ولا تَتَخيَّـله الأفكار؛ ولا تُهْرِمه الأعوامُ بتَوَاليها، ولا تُعْجِزه الخُطُوبُ إذا آدْلَهَمَّت لياليهـا؛ عالِمِ هَوَاجِس الفِـكَر، وخالِقِ كل شىء بقَدَر؛ مصَرِّف الأقدار علىٰ مَشِيئته ومُجْرِيها، ومانِح مَواهِبِه مَنْ أضحىٰ بيَدِ الشُّـكر يَمْتَرِيها؛ حمدًا يَصُوب حَيَاه، ويعْذُب جنَاه؛ وتتهلَّل أَسِرَّةُ الإخلاص من مَطَاوِيه، ويستَدْعِى المَزِيدَ من آلائِه ويقْتَضِيه .

والحمدُ لله الذى آستخْلَص محمدًا صلّى الله عليه وسلم من زَكِىّ الأَصْلاب، وآنتخَبه من أشْرَف الأنْساب؛ وبعثه إلىٰ الخليقَة رسُولا، وجعله إلىٰ مَنْهَج النجاة دَلِيـلا؛ وهدبو السرك بور لـ(١) لدل وقضاه (؟) وشَهَر عَضْب العِزِّ وآنْتضاه؛ والأُمَمُ عن طاعةِ الرحْمٰن عازِفه، وعلىٰ عبادةِ الأوثانِ عاكِفه؛ فلم يزَلْ بأمْرِ ربِّه صادعا، وعن التمسُّك بعُرا الضَّـلالِ الواهيةِ وازِعا؛ وإلىٰ رُكُوب محجَّة الهدىٰ داعِيا، وعلىٰ قَدَم الآجتهاد فى إبادة الغَوَاية ساعِيا؛ حتّى أصبح وجْهُ الحق مُنِـيرا مُشْرِقا، وعُودُه بعـد الذُّبول أخْضَرَ مُورِقا؛ ومضىٰ الباطلُ مُولِّيا أدباره، ومستَصْحِبا تَتْبِيره وبَوارَه؛ وقضىٰ صلّى الله عليه وسلم بعـدَ أن مَهّد من الإيمـان قَواعِده، وأحكم آساسَه ووَطائِده؛ وأوضح سُبُل الفَوْز لمن آقْتفاها، ولحَبَ طرِيقَها بعد مادَثَرت صُوَاها؛ فصلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين، وصَحْبه الأَكْرَمين؛ صلاةً متَّصِلاً سَحُّ غَمَامِها، مُسْفِرا صُبْحُ دَوامِها .

والحمـد لله علىٰ أنْ حازَ لأمير المؤمنين من إرْث النُّبوّة ما هو أجدَرُ بحِيازةِ مَجْده، وأولىٰ بفَيْض عِدِّه؛ ووطَّأ له من الخلافة المعظَّمة مِهـادًا أحفزَتْه نحوه حوافزُ آرتياحه، وجذَبَتْه إليـه أزِمَّة راعه والْتِيَاحه؛ إلىٰ أنْ أدرك من ذلك مُنَاه، وألقىٰ الآستِقْرارُ الذى لا يَرِيم عَصاه؛ وعَضَّد دولتَه بالتأييـد من سائرأنحـائِه ومَرَامِيه؛

(١) كذا فى الأصول على هذه الصورة ولم نهتد إلى تثقيفه .

وأعراضه ومَغازيه؛ حتّى فاقتِ الدُّولَ المتقادِمَة إشراقا، وأعطَتْها الحوادثُ من التغيُّر عهدًا وفِيًّا وميثاقا؛ وأضحتْ أيامُه ـ أدامها الله ـ حاليةً بالعـدل أجيادُها، جاليةً فى مَيادِين النَّضارة جِيادُها؛ وراح الظُّلمُ دارسـةً أطلالُه، مقلَّصا سرباله، قد أَنْجَم سَحابُه، وزُمّت للرِّحلة رِكابُه؛ فما يستَمِرّ منها أمرٌ إلا كان صُنْعُ الله سبحانه مُؤيِّدَه، والتوفيقُ مصاحِبَه أنّى يَمَّم ومُسـدِّدَه؛ وهو يستَوْزِعه ـ جلَّت عظمتُه ـ شُكْرهـذه النِّعمه، ويستَزِيدُه بالتحدُّث بها من آلائِه الجَمَّه؛ ويستمِدُّ منه المُعونةَ فى كلِّ أرَبٍ قصدَه وأمَّه، وشَحَذ لانتحائِه عَزْمه؛ وما توفيقُه إلَّا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنِيب .

ولمَّـا كانتِ الوِزارةُ قُطْبَ الأمورالذى عليه مَدارُها، وإليـه إيرادُها وعنـه إصْدارُها؛ وخَلَا منصِبُها من كافٍ يكونُ له أهْلا، ويِنْظِم من شَمْاله شَمْلا، أجالَ أميرُ المُؤمنين فيمن يَخْتار [لذ] لك فِكْرَه، وأنْعَم [النظر] لأهل الاصطفاء لهذه المنْزِلة حتّى صرّح مَحْضُ رأيه عن زُبْدة اختيارِك، وهداه صائبُ تدبيره إلىٰ اقْتِراحك وإيثارِك؛ وألقىٰ إليك بالمَقَاليـد، وعوّل فى دَوْلتـه القاهرةِ علىٰ تدبيرك السَّديد؛ وناطَ بكَ من أمرِ الوِزَارة مالم يُلْفِ له سِواكَ مستَحِقّا، ولا لنَسِـيم اسْتِيجابِه مستَرِقّا؛ علما بمـا تُبْـديه كفايتُك المشهوره، وإيَالَتُك المَخْبُوره؛ من تقويم ماأعجزَ مِيادُه، وإصلاح ما استَشْرىٰ فَسادُه؛ واستقامةِ كلِّ حالٍ وهىٰ عِمادُها، وأصلتَ علىٰ كثْرة الاقتداح زِنادُها؛ وتثَبُّتا لمـا تبْسِم عنه الأيامُ من آثار نظرك المُعْربةِ عن احتوائك علىٰ دلائل الجَزاله، واستيلائِكَ علىٰ مَخايل الأَصاله؛ اللذَيْن تُنالُ بهما غاياتُ المَعـالى، وتُفْرَع الذُّرىٰ والأَعَالى .

ثم إنَّ أميرالمؤمنين بمقتضىٰ هذه الدَّعاوىٰ اللازمه، وحُرُمات جَدِّك وأبِيك السالفة المتقا مه؛ التى استَحْصَدتْ فى الدار العزيزة قُوىٰ أمْراسِها، وأدْنَتْ منك

الآنَ ثمرة غِراسِها، رأىٰ أن يُشيِّد هــذه العارفةَ التى تأرّجَ لديْك نسيمُها ، وبدَتْ علىٰ أعنـاق نحْـرك رسُومُها ؛ وجادتْ رِباعَك شآبِيبُها ، وضفَتْ عليك جلابِيبُها ؛ بمـا يَزيدُ أزرَكَ آشتِدَادا ، و باعَ أملك طُولا وآمتِدادا ؛ فأدْناك من شريف حَضْرته مُناجِيا ، ومنحَك من مَزايا الأيَّام مايكْسِبُك ذِكْرا فى الأعقاب سارِيًا ، وعلىٰ الأحقاب باقِيًا ؛ وأفاضَ عليك من المَلَابس الفاخرِة ما حُزْتَ به أوصافَ الجَمـال ، وجمع لك أبَادِيدَ الآمال ؛ وقلَّدكَ وحصــل (؟) (١) بداوه ، وأمْطاكَ صَهْوةَ سابِحٍ يُساوِى الرِّياحَ سَبْقا ، ووسَمك بكذا وكذا فى ضمن التأهيل للتكنية ، إبانةً عن جميــل معتقَدِه فيك ، ورعايةً لوسائلك المُحْكَمة المرائر وأواخيك .

وأمركَ بتقوىٰ الله التى هى أحصَنُ المَعَاقل ، وأعذَبُ المناهل ؛ وأنفَعُ الذَّخائر ، يومَ تُبْلىٰ السَّرائر ؛ وأن تستشعِرها فيما تُبْديه وتُخْفيه ، وتَذَرُه وتأْتيه : فإنها أفضلُ الأعمال وأوجَبُها ، وأوضَحُ المســالك إلىٰ الفَوْز برضا اللهِ وألْحَبُها ، وأجلبُ الأشـياء للسعادة الباقية ، وأجْناها لقُطُوف الجِنانِ الدانيه ؛ عالمًا بمـا فى ذٰلك من نَفْع تتكامَلُ أقسامه ، وتتفتَّح عن نَوْر الصَّلاح الجامِعِ أكمامُه ؛ قال الله جلَّت آلاؤُه ، وتقدَّستْ أسماؤه : ﴿وسارِعُوا إلىٰ مَغْفرةٍ مِنْ ربِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰواتُ والأرضُ أُعدّتْ للمتَّقِين﴾ . وقال تعالىٰ حاضًّا علىٰ تَقْواه ، ومخبِرا عما خَصَّ به متَّقيه وحَباه ؛ وكفىٰ بذٰلك داعيًا إليها ، و باعثًا عليها : ﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتَّقين ﴾ .

وأمرَكَ أن تتوخَّى المَقاصِدَ السليمةَ وتأتيها ، وتَتوخَّم المواردَ الوخيمةَ وتجتَوِيها ؛ وأن تُتْبِـع بالحزم أفعالَك ، وتجعل كتَابَ الله تعالىٰ إمامَك الذى تهتدى به ومِثالَك ؛ وأن تكُفَّ من نفسك عند جِماحِها و إبائِها ، وتصُدَّها عن متابَعةِ أهْوائها ؛ وتثْنِىَ عند آحْتِدام سَوْرة الغضب عِنانَها ، وتُشعِرَها من حميــد الخلائق مايُوافِق إسرارُها فيه

(١) كذا فى الأصل على هذه الصورة والمراد أنه انعم عليه بخلعة وسيف وجواد . تأمل .

إعلانَها : فإنهـا لم تزَلْ إلىٰ منْزِلة السُّوء المُرْدِيَة داعيَه، وعن سُلُوك منَاهِج الخير المُنْجِية ناهِيَه ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوء إلَّا مارَحِمَ رَبِّى إنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيم ﴾ .

وأمَرك أن تتخَيَّر للخِدمة بينَ يدَيْك من بَلَوْتَ أخبَـاره ، وآستَشْفَفْتَ أسْرارَه ؛ فعلمتَه جامعًا أدواتِ الكِفَايه، موْسُوما بالأمانة والدِّرايه؛ قد عَرَكتْه رَحا التَّجارِب عَرْكَ الثِّفَال، وحلَبَ الدَّهْرَ أشطُرَه علىٰ تصاريف الأحْوال : ليكونَ أمْرُ مايُوَلَّاه علىٰ مَنْهَج الآستقامةِ جارِيا ، وعن مَلَابِس الخلَل والآرتيـاب عارِيا ؛ فلا يَضَعُ فى مَزْلَقةٍ قَدَما ، ولا يأتِى ما يَقْرَع سِنَّه لأجْلِه نَدَما ؛ وأن تَمْنَح رعايَا أميرِ المؤمنين من بِشْرِك ما يعـقِل شَوارِدَ الأهواء ، ويَلْوِى إليك بأعناقِ نَوافِرِها اللائى آعتصَمْنَ بالجِمَاح والإِبَاء؛ مازجًا ذلك بشِدّةٍ تَستَوْلِى حُمَيًّا رَهْبتها علىٰ القُلوب، وتَفُلُّ مرهَفاتُ بأسها صَرْفَ الخُطُوب، من غير إفراطٍ فى آستدامةِ ذلك يضِيقُ نظامُها به، ويُغْرِيها اتِّصالُه باستِشْعار وَعْر الخطإ وآستِيطاءِ مَرْكَبِه .

وأمرك أن تُعْذِبَ مَوْرِد الإحسان لمن أحمَدْتَ بَلاءَه ، وتحقَّقتَ غَنَـاءه ؛ وآستحسَنْتَ أثَره، وآرتضَيْتَ عِيانَه وخَبَرَه ؛ وتُسْدِل أَسْمـالَ الهَوَان علىٰ من بلَوْتَ فعلَه ذَمِيما، وألفيتَه بعِرَاص الإساءة مُقِيما، وإلىٰ رِبَاعها المُوحِشة مستأْنِسًا مستَدِيما؛ كِيْلَا لكلِّ آمْرِئٍ بِصَاعه، وآتِّباعا لما أمر اللهُ باتِّباعه؛ وتجنُّبا للإهمال الجاعِلِ المُحْسِنَ والمسِيءَ سواء، والمُعِيـدِ هما فى مَوْقِف الجزاء أكْفَاء ؛ فإنَّ فى ذلك تزهيـدًا لذوى الحُسْنىٰ فى الإحسان، وتتابُعـا لأهل الإساءة فى العُدْوان؛ ولوْلا مافرضـه اللهُ علىٰ أمير المؤمنين من إيجاب الحُجَّـه، والفَكَاك من رِبْقة الآجتهـادِ ببلَاغ المَعْذِره، لثَنىٰ عِنَانَ الإطالة مُقتَصِرا، وآكتفىٰ ببعض القَوْل مختَصِرا؛ ثقةً بآمتناع سَدَادك ونُهَاك،

أن يَرَاكَ صوابُ الفعل حيثُ نَهاكَ ؛ وآستِنامةً إلىٰ ماخوّلَكَ اللهُ من الرأْى الثاقب، المُطَّلِع من خصائص البَدِيهة علىٰ محتَجب العَوَاقب . فآرتَبِطْ يافلانُ هـذه النُّعْمىٰ التى جادَتْ دِيَمُها مَغَانِيك، وحقَّقتِ الأيَّامُ بمَكَانتهـا أمانِيك ؛ بشُكْريَنطِقُ به لسانُ الآعتراف ، فيؤَمِّن وحْشِيَّ النِّعم من النِّفار والآنْحراف ؛ وآسلُكْ فى جَمَـال السِّيره، والآقتداء بهذه الأوامر المَبَيَّنة المذكوره، جَدَدا يُغْرِى بحمدكَ الألْسِنه، ويُعْرِب عن كونك من الذين يستَمِعُون القَوْلَ فيَتَّبِعُون أحسَنَه ؛ والله يصَدِّق مَخِيلةَ أمير المؤمنين فيك، ويُوزِعُك شكرَ ما أوْلاكَ ويُولِيـك ؛ ويجعلُ الصَّوابَ غرَضا لنِبَال عزائِمه، ويَذُودُ عن دولتِه القاهرةِ كتائبَ الخُطوب بصَوَارِم السَّعد ولَهَـاذِمه ؛ ويصِلُ أيامَه الزاهرةَ بالخُلُود، ويبْسُط علىٰ أقاصِى الأرضِ ظِلَّه الممْدُود ؛ ما آستهلَّ جَفْنُ الغيث المِدْرار، وآبتسمَتْ ثُغُور النُّوَّار، إن شاء الله تعالىٰ .

النــــوع الثـانى

(ممـا كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكْتَب لأرباب الوظائف من أصحاب السُّيوف ، وهو علىٰ ضربين)

الضـــــرب الأوّل

(العُهُــود ، وهى أعلاها رُتْبَــةً)

وطريقتهم فيهـا أن تُفْتَتح بلفظ : «هـذا ما عهِد عبدُ الله ووليُّه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىُّ إلىٰ فلان الفلانىّ حينَ عرفَ منـه » ويذكُر بعضَ مناقبه، ورُبَّمـا تعرَّض لثناءِ سُلطان دولتِه عليه . ثم يقال : « فقَلَّده كذا وكذا » ثم يقال : « وأمَره بكذا » ويأتى بمـا يُناسب من الوصَايَا . ثم يقال : « فتقلَّدْ كذا وكذا » ثم يقال :

«هذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليك، وحُجَّتُه عليك» أو نحو ذٰلك ؛ ولا يُؤْتىٰ فيه بتحميد فى أوّل العهد ولا فى أثنائه كما تقدّم فى عهُود الخلفاء للملوك .

عهـــود أربابِ السيوف

(وهى عدّة ولايات)

منها — النظر فى المَظَالم .

وهـذه نسخةُ عهدٍ كتَب به أبو إسحاقَ الصابِى ، عن المُطِيع لله ، إلىٰ الحُسَيْن آبن مُوسىٰ العَلَوىّ، بتقليد المَظَالم بمدينة السلام، وهى :

هذا ماعَهِد عبدُ الله الفضلُ الإمامُ المطيع لله أميرُ المؤمنين، إلىٰ الحسين بن مُوسىٰ العَلَوىّ، حينَ آجتمَع فيه شرَفُ الأعْراق ، والأَخْلاق؛ وتكامَلَ فيه يُمْنُ النقائب، والضَّرائب ؛ وعَرَف أميرُ المؤمنين فيه فضْـلَ الكِفَاية والغنَاء ، ورَشادَ المقاصـد والأَنْحاء ، فى سالِف ما ولّاه إيّاه من أعمـاله الثقيلةِ التى لم يزَلْ فيها محمُودَ المَقَام ، مستَمِرّا علىٰ النِّظام؛ مُصِيبَ النَّقْض والإبْرام ، سَدِيدَ الإسْداء والإلْحام؛ زائداً علىٰ المُزَايِدين، راجحًـا علىٰ المَوازِين؛ فائتًا للحاذين ، مُبِرًّا علىٰ المُبارين ؛ فقلّده النظـرَ فى المظالم بمدينة السـلام وسَوادِها وأعمالِهـا، وما يَجْرِى معَها ؛ ثقةً بعِلْمه ودِينه ، وآعتمادًا علىٰ بصيرتِه ويَقِينه؛ وسُكُونًا إلىٰ أنّ الأيام قد زادَتْه تَحْليما وتهذيبا ، والسِّنّ قد تناهَتْ به تحنيكا وتجْرِيبا ؛ وأن صَنِيعةَ أميرِ المؤمنين مستقرّةٌ منه عندَ أكرم أكفائها، وأشرَفِ أوليائِها ؛ برَحِمِه المَتَّاءِ(١) الدانِيه، وحُرْمته الشامخَةَ العالِيَه، ومَعْرِفته الثاقِبَة الدّاعِيةَ إلىٰ التفوِيض إليه، الباعثةِ علىٰ التعويلِ عليه؛ وأميرُ المؤمنين يستمدّ

(١) لعل الصواب المـاتّة .

اللهَ فى ذلك أحسَنَ ماعوّده من هِدايةٍ وتَسْديد، ومعونةٍ وتأْييد؛ وما توفيقُه إلّا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

أمره بتقْوىٰ الله التى هى الجُنَّة الحَصِينه ، والعِصْمة المَتِينه ؛ والسبَبُ المتَّصِـلُ يومَ ٱنقِطاع الأسباب ، والزادُ المبلِّغ إلىٰدار الثَّواب ؛ وأن يستَشْعِرَها فيما يُسِرّ ويُعْلِن ، ويعتَمِدَها فيما يُظْهِر ويُبْطِن ؛ ويجعَلَها إمامَــه الذى يَنْحُوه ، ورائِدَه الذى يَقْفُوه ؛ إذ هى شِيمةُ الأبْرار والأخيار . وكان أولىٰ مَنْ تعلَّق بعَلائقها ، وتمسَّــك بوَثائِقها ؛ لَمفْخَره الكريم ، ومَنْصِبه الصَّمِيم ؛ وٱســتظلالِه مع أمير المؤمنين بدَوْحة رسُولِ الله ـ صلّى الله عليه وعلىٰ آله ـ التى يَكْتَنَّان فى فِنَائها ، ويأْوِيَان إلىٰ أفْيائها ؛ وحقيقٌ علىٰ من كان منها مَنْزَعُه ، وإليها مَرْجِعُه ؛ أن يكونَ طيِّبا زكِيّا ، طاهرًا نَقِيّا ؛ عفيفًا فى قوله وفعلِه ، نظيفًا فى سِرّه وجَهْره ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهلَ البَيْتِ ويُطَهِّركُمْ تَطْهِيرا ﴾ .

وأمره بتلاوةِ القُرْءان ، وتأمُّلِ مافيــه من البُرْهان ، وأن يجعــلَه نُصْبا لناظره ، ومألَفا لخاطره ؛ فيأخُذُ به ويُعْطِى ، ويأتَمِرُ له وينْتَهِى ؛ فإنه الحجةُ الواضحه ، والمحَجَّة اللائحه ؛ والمُعْجزة الباهرة ، والبيِّنة العادلة ؛ والدليــلُ الذى من ٱتَّبعه سَــلِم ونجَا ، ومن صَدَف عنه هَلَك وهَوىٰ ؛ قال الله عز من قائل : ﴿ وَإنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره أن يجْلِس للخُصُوم جلوسًا عامّا ، ويُقْبِل عليهم إقبالاً تامّا ؛ ويتَصَفَّحَ مايُرْفَع إليــه من ظُلاماتِهم ، ويُنْعِمَ النظر فى أســباب مُحادَثاتهم ؛ فمــا كان طريقُه طريقَ المنازعة المتعلِّقــة بنظر القُضاة وشهــاداتِ العُدُول ردَّه إلىٰ المتولِّى للحُكْم ، وما كان طريقُــه الغُصوبَ المحتاجَ فيها إلىٰ الكَشْف والفحص ، والاستشفاف والبَحْث ؛

نظر فيه نظرَ صاحبِ المَظَالم ، وآنتزع الحقّ ممن غَصَب عليه ، وآستَخْلصه ممن آمتدّتْ له يدُ التعدِّى والتغرر إليه ، وأعاده إلىٰ مستَحقّه ، وأقرّه عند مستوْجبه ؛ غيْرَ مراقِب كبيرًا لِكبَره ، ولا خاصًّا لخُصُوصه ، ولا شريفًا لشرَفه ، ولا متسَلْطنا لسُلْطانه ؛ بل يقــدِّمُ أمرَ الله جلَّ ذكره فى كل ما يأْتى ويَذَر ، ويتوخّى رضاه فيما يُورِد ويُصْدِر ؛ ويكونُ علىٰ الضعيف المُحِقّ حَدِبا رءُوفا حتّى ينْتَصر وينتصف ، وعلىٰ القوىّ المُبْطِل شديدًا غليظا حتّى ينقادَ ويُذْعِن ؛ قال الله جل وعز : ﴿ يا داوُدُ إنَّا جعَلْنَاكَ خَلِيفةً فى الْأَرْض فاحْكُمْ بينَ النَّاسِ بالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّون عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسابِ ﴾ .

وأمره أن يَفْتَح بابَه ، ويُسَهل حِجابَه ، ويبْسُط وجْهَه ، ويُلِين كَنَفه ؛ ويَصْبِر علىٰ الخُصُوم الناقِصين فى بيانِهم حتّى تَظْهَر حُجّتُهم ؛ ويُنْعِمَ النظر فى أقوال أهلِ اللَّسَن والبَيَانِ منهم حتّى يعلَمَ مُصِيبَهم ؛ فربّما آستَظْهَر العرِّيضُ المُبْطِل بفضل بَيَانه ، علىٰ العاجز المُحِقِّ لِعِىّ لسانه ؛ وهنالك يَجِب أن يقَعَ التصَفُّح علىٰ القَوْلين ، والآستظهارُ للأمْرَيْن : ليُؤْمَن أن يزُولَ الحقُّ عن سَنَنه ، ويَزُورَّ الحكمُ عن طريقه ؛ قال الله عز وجل : ﴿ ياأَيُّها الَّذِين آمَنُوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بنَبَإٍ فتبيَّنُوا أنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالة فَتُصْبِحُوا علىٰ مافعَلْتُمْ نادِمينَ ﴾ .

وأمره بأنْ لايَرُدَّ للقُضاةِ حُكْما يُمْضُونه ، ولا سِجِلًّا يُنَفِّذُونه ؛ ولا يُعَقِّب ذلك بفَسْخ ، ولا يُطَرِّق عليه النقض ؛ بل يكونُ لهم موافِقًا مُؤَازِرا ، ولأحكامهم عاضِدًا ناصِرا ؛ إذْ كان الحقُّ واحدًا وإن آختلفتِ المَذاهبُ إليه . فإذا وجَدَ القِصَّةَ قد سِيقَتْ ، والحُكومةَ قد وقعَتْ ؛ فليس هناك شَكٌّ يوقَفُ عنده ، ولا رَيْب يُحتاج

إلىٰ الكَشْف عنـه ، وإذا وجد الأمر مشْتَبِها ، والحقّ ملتَبِسا ، والتغُّرر مستعْمَلا ، والتغلُّبَ مستَجازا ، نظر فيه نَظَر الناصر لحقِّ المحقين ، الداحِض لبـاطل المُبْطلين ، المُقَوِّى لأيْدى المستضْعَفين ، الآخذ علىٰ أيدى المعتَدين ، قال الله عز وجل : ﴿ يٰأَيُّهـا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلىٰ أَنْفُسِـكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْفَقِيرًا فَاللّهُ أَوْلىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمـا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

وأمره أن يسـتَظْهِرَ علىٰ معْرِفَتِه بمُشاوَرة القُضاة والفُقَهاء ، ومُبَـاحثِة الرَّبَّانِيِّين والعُلَماء ؛ فإن آشتَبَهَ عليه أمرٌ آسترْشَدَهم ، وإن عَزُب عنه صوابٌ آستدلَّ عليـه بهم ؛ فإنهم أزِمَّة الأحكام ، وإليهم مَرْجِع الحُكَّام ، وإذا آقْتدىٰ بهم فى المُشْكلات ، وعَمِل بأقوالهم فى المُعْضِلات ، أمِنَ من زَلَّة العـاثر ، وغَلْطة المسـتَأثِر ، وكان خَلِيقا بالأصَالةِ فى رأْيه ، والإصَابةِ فى أبحاثه ، وقد أمر الله ـ تقدّستْ أسماؤه ـ بالمُشاوَرة فعرَّفَ الناسَ فضلَها ، وأسْلَكَهم سُبُلَها ، بقوله لرسوله صلَّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلىٰ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِين ﴾ .

وأمره أن يكتُبَ لمن تَوَجَّب له حَقّ من الحُقوق إلىٰ صاحب الكُوفة بالشَّـدّ علىٰ يده والتمكُّن له منه ، وقَبْض الأيْدى عن مُنازعتِه ، وحَسْم الأطماع فى مُعارضَتِه ؛ إذ هو مندُوبٌ لتنْفِيـذ أحكامه ، ومأمورٌ بإمضاء قَضَاياه ؛ ومتىٰ أخذ أحدٌ من الخصوم إلىٰ مكاذَبةٍ فى حقٍّ قد حُكم عليه به ، أخَذَ علىٰ يده وكَفَّه عن عُدْوانه ، وردّه إلىٰ حُكْمِ اللهِ الذى لا يُعْدَل عنـه ، قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَعَـدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظالِمُونَ ﴾ .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحُجّته عليك ؛ قد أرشَدَك وذَكَّرك ، وهَداك وبَصَّرك ؛ فكُنْ إليه مُنْتَهِيا ، وبه مُقْتدِيا ؛ وٱستَعِنْ بالله يُعِنْك ، وٱستَكْفِه يَكْفِك .

وكتب الناصح أبو الطاهر فى تاريخ كذا .

ومنها — نِقابةُ الطالِبيِّين : وهى المعبَّر عنها الآنَ بنِقَابة الأشراف .

وهذه نسخةُ عهد بنِقابة الطالِبيِّين ، كتب به أبو إسحاق الصابى ، عن الطائع لله إلىٰ الشريف أبى الحسن محمَّد بن الحُسَيْن العَلَوىّ المُوسَوىّ ، مضافاً إليها النظرُ فى المساجد وعِمارتِها ، وٱستخلافِه لوالده الشريف أبى أحمد الحُسَين بنِ موسىٰ علىٰ النظر فى المَظَالم والحجِّ بالناس ، فى سنة ثمانين وثلثمائة ، وهى :

هذا ما عَهِد عبدُ الله عبدُ الكريم ، الإمامُ الطائعُ لله أميرُ المؤمنين ، إلىٰ محمَّد بن الحسين بن مُوسىٰ العَلَوىّ ، حينَ وصلَته به الأنْساب ، وقُرِنت(1) لديه الأسباب ، وظهرت دلائلُ عقله ولَبَابته ، ووضَحت مخايِلُ فضله ونَجَابته ، ومَهَّد له بهاءُ الدولة وضياءُ الملة أبو نَصْر بنُ عضُد الدولة مامَهَّد عند أمير المؤمنين من المَحَلِّ المَكين ، ووَصَفَه به من الحِلْم الرَّزين ، وأشار به من رَفْع المَنْزِلة ، وتقديم الرُّتْبة ، والتأهيل لوِلَاية الأعمال ، وتحمُّل الأَعْباء والأثْقال ، وحيثُ رَغَّبه فيه ، سابقةُ الحسين أبيه ، فى الخِدْمة والنصيحه ، والمُشايعةِ الصَّحيحه ، والمواقف المحُموده ، والمَقَامات المَشْهُوده ، التى طابتْ بها أخبارُه ، وحسُنَت فيها آثارُه ، وكان محمدٌ متخَلِّقا بخَلَائقه ، وذاهِبًا علىٰ طرَائقه : عِلْما ودِيَانه ، ووَرَعا وصِيَانه ، وعِفَّةً وأمَانه ، وشَهامةً وصَرامه ؛

(1) فى "المثل السائر" ص ١٢٢ « وتأكدت له الاسباب » .

وتَفَرَّدا بالحظ الجَزِيل : من الفضـل الجميل والأدَب الجَزْل ، والتوجُّه فى الأَهْل ؛ والإيفاءِ فى المناقِب علىٰ لِدَاته وأترابه ، والإبْرار علىٰ قُرَنائه وأضْرابه ـ فقلَّده ما كان داخلًا فى أعمـال أبيه من نِقَابة نُقَبَاء الطالِبيِّين بمدينة السـلام وسائِر الأعمـال والأمصـار ، شَرْقا وغَرْبا ، وبُعْـدا وقُرْبا ؛ وٱختصَّه بذٰلك جَذْبا بضَبْعه ، وإنافة بقَدْره ، وقضاءً لِحَقِّ رحمه ، وتَرْفِيهـا لأبِيه ، وإسعافًا له بإيثارِهِ فيـه ؛ إلىٰ ما أمَر أميرُ المؤمنين باستخلافِهِ عليه من النَّظَر فى المَظَالم ، وتسييرِ الحَجِيج فى أَوَان المَوَاسم ؛ والله يُعرِّف أمير المؤمنين الخِيَرَة فيما أمَر ودَبَّر ، وحُسْنَ العاقبـة فيما قَضىٰ وأمضىٰ ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنيب .

أمره بتقْوىٰ الله التى هى شِعارُ المؤمنين ، وسِيمَا الصالحين ، وعِصْمةُ عبـاد الله أجمعين ؛ وأن يعتقِدَها سِرّا وجَهْرا ، ويعتمِدَها قَوْلا وفِعْلا ؛ فيأخُذُ بهـا ويُعْطِى ، ويَرِيشُ ويَبْرِى[(١)] ؛ ويأْتِى ويَذَر ، ويُورِدُ ويُصْـدِر ؛ فإنها السببُ المَتِين ، والمَعْقِل الحَصِين ؛ والزادُ النافعُ يومَ الحساب ، والمَسْلَكُ المُفْضِى إلىٰ دار الثَّواب ؛ وقد حَضَّ اللهُ أولياءَه عليها ، وهداهم فى مُحْكَم كتابه إليها ؛ فقال : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وأمره بتلاوة كتاب الله سبحانه مُواظِبـا ، وتَصَفُّحه مُداوِما مُلازِما ؛ والرُّجوع إلىٰ أحكامه فيما أحَلَّ وحَرَّم ، ونَقَض وأبْرم ، وأثابَ وعاقَب [وباعَدَ وقارَب][(٢)] ؛ فقد صَحَّح الله بُرهانَه [وحُجَّته][(٢)] ، وأوضح مِنْهـاجَه ومحجَّته ؛ وجعله فَجْرا فى الظُّلُمات طالِعا ، ونُورا فى المُشْكِلات ساطِعا ؛ فمن أخَذَ به نجا وسَلِم ، ومن عَدَل عنه هلك وهَوىٰ

(١) فى "المثل السائر" بدله «ويسر وينوى» .

(٢) الزيادة من "المثل السائر" .

[وندم](١) . قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره بتنزيه نَفْسه عما تَدْعُو إليه الشَّهوات، وتتطلَّع إليه النَّزَوات ؛ وأن يَضْبِطها ضَبْط الحَكِيم ، ويَكُفَّها كَفَّ الحليم ؛ ويجعلَ عقْلَه سلطاناً عليها ، وتمييزه آمِرًا ناهيًا لها ؛ فلا يَجْعلْ لها عُذْرا إلىٰ صَبْوة ولا هَفْوه ، ولا يُطلِق منها عنانا عند ثَوْرة ولا فَوْره ؛ فإنَّها أمَّارة بالسُّوء ، مُنْصبَّة إلىٰ الغيّ ؛ فالحازمُ يتَّهِمها عند تحرُّك وَطَره وأرَبه ، واهْتياجِ غَيْظه وغضَبه ، ولا يَدَع أن يَغُضَّها بالشَّكِيم ، ويَعْرُكها عَرْك الأدِيم ؛ ويقُودَها إلىٰ مصالحها بالخَزائم ، ويعتقِلَها عن مُقارَفة المحارم والمآثم ؛ كيما يَعِزُّ بتذليلها وتأدِيبها ، ويَجِلُّ برياضتها وتَقْويمها ؛ والمُفرِّطُ فى أمره تطْمَح به إذا طمَحتْ ، ويجمَحُ معها أنَّى جمَحتْ ؛ ولا يلْبَث أن تُورِدَه حيثُ لا صَدَر ، وتُلجِئَه إلىٰ أن يعتذر ، وتُقِيمَه مُقامَ النادم الواجِم ، وتنكُّبُ به سَبِيلَ الراشد السالِم ؛ وأحقُّ من تحلَّى بالمحاسن ، وتصدَّى لاكتِساب المحامد ، مَنْ ضَرب بمثل سَهْمه فى نَسَب أمير المؤمنين الشريف ، ومَنْصِبه المنيف ؛ واجتَمَع معه فى ذُؤابة العِتْرة الطاهِره ، واستظَلَّ بأوْراق الدَّوْحة الفاخِره ؛ فذاك الذى تتضاعَفُ له المآثِرُ إنْ آثَرها ، والمثالِب إنْ أسَفَّ إليها ؛ ولا سيَّما من كان مندُوبا لسياسَة غيْرِه ، ومُرَشَّحا للتقليد علىٰ أهْله ؛ إذ ليس يَفِى بإصلاح مَنْ وُلِّى عليه ، مَنْ لا يَفى بإصلاح ما بين جنْبَيه ؛ وكان من أعظم الهُجْنة أن يأمُرَ ولا يأتَمِر ، ويَزْجُر ولا يَزْدَجِر ؛ قال الله عزّ وجلّ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

---

(١) الزيادة من "المثل السائر" .

وأمره بتصفّح أحوالِ من وُلّى عليهم وٱستقْراء مذاهِبِهم ، والبحثِ عن بَواطِنهم ودخائِلِهم ؛ وأن يعْرِف لمن تقدّمَتْ قدَمُه منهم وتظاهر فَضْلُه فيهم مَنْزِلتَه ، ويُوفِّيَه حقَّه ورُتْبته ؛ وينْتهِيَ فى إكرام جماعتهم إلىٰ الحُدُود التى تُوجبها أنسابهم وأقدارُهم ، وتقتضِيها مواقفُهم وأخْطارُهم : فإنّ ذٰلك يلزَمُه لشيئين : أحدُهما يخُصُّه وهو النَّسَب الذى بينَه وبينَهم ، والآخَرُ يعُمُّه والمسلمين جميعا ، وهو قولُ الله جلَّ ثناؤه : ﴿ قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْه أجْرًا إلَّا المَوَدّةَ فى القُرْبىٰ ﴾ فالمودّةُ لهم والإعظامُ لأكابِرِهم ، والإشبالُ(١) علىٰ أصاغِرِهم ؛ [واجب](٢) متضاعِفُ الوجوب عليه ، ومتأكِّدُ اللزوم له ؛ ومن كان منهم فى دُونِ تلك الطَّبَقة من أحْداثٍ لم يَحْتَنِكوا ، أو جِذْعانٍ لم يقْرَحُوا ؛ مُجْرِينَ إلىٰ مايُزْرِى بأنسابهم ويَغُضّ من أحسابِهم ، عَذَلهم ونَبّههم ، ونَهَاهم ووعَظَهم ؛ فإن نَزَعُوا وأقلَعُوا فذاكَ المُرادُ بهم ، والمقْصود إليْه فيهم ؛ وإن أصَرُّوا وتتابَعُوا ، أنالهم من العقُوبة بقَدْر مايكُفّ ويرْدَعُ ؛ فإن نَفَع وإلا تجاوزه إلىٰ مايُوجع ويلذَع ؛ من غير تطَرُّق لأعْراضِهم ، ولا ٱنتهاكٍ لأحْسابهم ؛ فإنَّ الغرض منْه الصِّيانه ، لا الإهَانه ؛ والإدَاله ، لا الإذَاله . وإذا وجبَتْ عليهم الحقُوق ، أو تعلَّقَتْ بهم دواعى الخُصُوم ، قادَهُم إلىٰ الإغفاء بما يصح منها ويجب ، والخُروجِ إلىٰ سَنَن الحق فيما يشْتَبِه ويلتَبِس . ومتىٰ لزِمَتْهم الحدودُ أقامها عليهم بحَسَب ما أمر الله به فيها ، بعد أن تثْبُت الجرائمُ وتَصِح ، وتَبِينَ وتتَّضِح ؛ وتتجرّدَ عن الشكِّ والشُّبهه ، وتَتَجلّى من الظنّ والتُّهمَه ؛ فإن الذى يُستَحَبُّ فى حدود الله أن تُدْرأَ عن عباده مع نُقْصان اليقين والصِّحّة ، وأن تُمْضى عليهم مع قِيام الدليل والبَيِّنة . قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ يتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّٰالِمُون ﴾ .

---

(١) الإشبال العطف وفى "المثل السائر" « والاشتمال » وهو بمعناه .

(٢) الزيادة عن "المثل السائر" .

وأمره بحياطة هذا النَّسب الأطهر، والشَّرف الأفخر، عن أن يَدَّعِيه الأدْعِياء، أو يَدْخُل فيه الدُّخَلاء، ومَنِ ٱنتمىٰ إليه كاذبا، وٱنتحله باطِلا، ولم يُوجَدْ له بيتٌ فى الشَّجَره، ولا مِصْداقٌ عند النَّسَّابين المَهَره، أوقَعَ به من العقوبة مايستحقُّه، ووَسَمه بما يُعْلَم به كِذبُه وفِسْقُه، وشَهَره شُهْرةً ينكشِفُ بها غِشُّه ولَبْسُه، ويَنْزِعُ بها غيرُه ممن تُسَوِّلُ له مثلَ ذلك نَفْسُه. وأن يُحْصِن الفُروجَ عن مُناكَحةِ مَنْ ليس لها كُفُؤا، ولا مشارِكَها فى شَرَفِها ونَفْـرِها؛ حتّى لا يطمَعَ فى المرأة الحسيبةِ النَّسيبة إلا مَنْ كان مِثْلا لها مُساويا، ونظيرا مُوازِيا؛ فقد قال الله تعالىٰ: ﴿إنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا﴾.

وأمره بمراعاةِ مُتَبَتِّلى أهـلِه ومتهجِّديهم، وصُلَحائهم ومُجـاوِريهم، وأرامِلِهـم وأصاغِرِهم؛ حتّى يَسُدَّ الخَلَّة من أحوالهم، ويُدِرّ المَوادَّ عليهم، وتتَعادلَ أقساطهم فيما يصِـلُ إليه من وُجُوه أموالهم؛ وأن يُزَوِّجَ الأَيامىٰ، ويُرَبِّىَ اليتامىٰ؛ ويُلْزِمَهم المَكاتِبَ ليتلقَّنُوا القُرءان، ويَعْرِفوا فرائِضَ الإسلام والإيمـان؛ ويتأدَّبوا بالآداب، اللائقةِ بذَوِى الأحْساب: فإنَّ شَرَفَ الأعراق، مُحتاجٌ إلىٰ شَرَف الأخْلاق؛ ولا حَمْدَ لمن شَرُف نَسَبُه، وسَخُف أدبه؛ إذ كان لم يَكْسِب الفَخْرَ الحاصلَ له بفَضْل سَعْى ولا طَلَب، ولا ٱجتهادٍ ولا دَأَب؛ بل بصُنْع من الله عز وجلّ له، ومَزِيد فى المِنَّة عليـه؛ وبحسَبِ ذاك لزُوم مايلْزَمُه من شكره سبحانه علىٰ هـذه العطيَّه، والٱعتدادِ بما فيها من المَـزِيّه، وإعمـال النَّفْس فى حيازة الفَضائِلِ والمنـاقِب، والترفُّع عن الرَّذائِلِ والمَثالب.

وأمره بإجمـال النِّيابة عن شَيْخه الحسَـيْنِ بن مُوسىٰ فيما أمره أميرُ المؤمنين باستخلافه عليه من النظر فى المَظالم، والأخْذِ للمظلوم من الظالم؛ وأن يجلِس للترافعين

إليـه جُلوسا عامّا ، ويتأمّل ظُلاماتِهم تأمُّلًا تامّا ؛ فما كان منها متعلّقا بالحاكِم ردّه إليـه ، ليحْمِل الخُصومَ عليـه ؛ وما كان طريقُـه طريقَ الغَشْم والظُّلم ، والتغلُّب والغَصب ، قبَضَ عنه اليَدَ المُبْطِله ، وثَبَّت فيه اليَدَ المستَحِقّه ؛ وتحرّى فى قضَـاياه أن تكُونَ موافقةً للعدْل ، ومجانِبَةً للخَذْل ؛ فإنّ غايتَي الحاكم وصاحبِ المظَالم واحدة : وهى إقامةُ الحق ونُصْرتُه ، وإبانَتُـه وإنارتُه ؛ وإنمـا يختلف سبِيلاهما فى النظر : إذ الحـاكِمُ يعـمل علىٰ ما ثبَتَ وظَهَـر ، وصاحبُ المظـالم يفْحَص عمّـا غمَض وآستَتَر ؛ وليس له مع ذلك أن يَرُدّ لحـاكم حُكُومه ، ولا يُعِلّ له قَضيّه ؛ ولا يتعَقَّب مايُنْفِذه ويُمْضِيه ، ولا يتَتَبّع مايحْكُم به ويَقْضيه ؛ والله يَهْديه ويُسَدّده ، ويُوفّقه ويُرْشده .

وأمره أن يسَـيِّر حجيجَ بَيْت الله إلىٰ مَقْصِـدهم ، ويحميَهم فى بَدْأتهم وعَوْدتِهم ؛ ويرَتِّبَهم فى مَسِيرهم ومَسْلِكهم ، ويرعاهُمْ فى ليلهم ونهَارِهم ؛ حتّى لا تنالهُم شِـدّه ، ولا تصلُ إليهم مَضرّة ؛ وأن يُرِيحَهم فى المَنَازل ، ويُورِدَهم المَنَاهل ؛ ويُناوِبَ بينهم فى النَّهَل والعَلَل ، ويُمكِّنَهم من الارتِواء والاكتفاء ؛ مجتهدًا فى الصِّيانة لهم ، ومُعْذرا فى الذّبّ عنهـم ؛ ومُتلوِما علىٰ متأخّرِهم ومتخَلّفِهم ، ومُنْهِضا لضـعيفهم ومَهِيضهم ؛ فإنهم حُجّاج بيتِ الله الحرام ، وزُوّارُ قبر الرسول عليه السلام ؛ قد هَجَروا الأَوْطان ، وفارَقُوا الأهلَ والإخوانَ ، وتجشَّمُوا المَغارِمَ الثّقال ، وتعَسَّفُوا السُّهُول والجِبال ؛ يُلبُّون دعاء الله عز آسْمُه ، ويُطيعون أمره ويؤدُّون فرضَه ويرجُون ثَوابه ؛ وحقيقٌ علىٰ المسلم المؤمن أن يحْرُسَهم متبَرّعا ، ويَحُوطهـم متطوّعا ؛ فكيْفَ مَنْ تولىّ ذلك وضَمِنـه ، وتقلّده وآعتنقه ، قال الله : ﴿ ولله علىٰ النَّـاسِ حِجُّ البيْتِ مَنِ آسْـتَطاعَ إليه سَبِيلا ﴾ .

وأمره أن يُراعِىَ أمورَ المساجد بمدينــة السلام وأطْرافها ، وأقْطارِها وأكنافها ، وأن يَجْبىَ أموال وُقُوفها ، ويستَقْصِىَ جميعَ حقُوقها ، وأن يَلُمَّ شعثَها ، ويَسُدّ خلَلَها ، بمــا يتحصَّل من هذه الوُجوه قِبَله ، حتى لايتعَطَّل رسْمٌ جرىٰ فيها ، ولاتُنقض عادةٌ كانتْ لهــا ، وأن يُثْبِتَ ٱسمَ أمير المؤمنين علىٰ ما يعْمُره منهــا ، ويذْكُرَ ٱسمه بعــده بأنَّ عُمْرانها جرىٰ علىٰ يدَيْه ، وصلاحَها أدّاه قولُ أميرالمؤمنين إلىٰ فِعْله ؛ فقد فَسَّح له أمير المؤمنين بذلك تنويهًا بٱسمه ، و إشادةً بذكره ؛ وأن يُولِّىَ ذٰلك مِنْ قِبَله مَنْ حسُنت أمانتُه ، وظهرت عفَّته وصيانَتُــه ؛ فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ إنمـا يَعْمُرُ مساجِدَ الله مَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتىٰ الزَّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلَّا اللهَ فَعَسىٰ أُولٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا من المُهْتَدِين ﴾ .

وأمره أن يستَخْلِف علىٰ مايرىٰ الٱستخلاف عليه من هذه الأعمال : فى الأمصارِ الدانيَــة ، والبِلاد القريبــةِ والبَعيدة ، مَنْ يَثِق به من صُلَحاء الرجال ، وذَوِى الوَفَاء والٱستِقْلال ؛ وأن يعهَدَ إليهم مثلَ الذى عُهِد إليه ، ويعتمِدَ عليهم فى مثل ما ٱعتُمِد عليه ؛ ويستَقْرِىَ مع ذٰلك آثارَهم ، ويتعرَّف أخبارَهم ؛ فمن وجده محمودًا أقرَّه ولم يُزِلْه ، ومن وجده مذْمُوما صرَفَه ولم يُمْهِله ؛ وٱعتاض منــه مَنْ تُرْجىٰ الأمانةُ عنــده ، وتكونُ الثِّقة معهودةً منه ؛ وأن يختار لكتابتهِ وحِجَبتــه والتصرُّف فيما قَرُب منه وبَعُد عنه ؛ مَنْ يَزِينُه ولايَشِينه ، ويَنْصَح له ولا يَغُشُّه ، ويجَمِّله ولايُهَجِّنه ، من الطبقة المعرُوفة بالظَّلَف ، المتصوِّنة عن النَّطَف[(١)] ؛ ويجعَلَ لهم من الأرزاقِ الكافيه ، والأُجْرة الوافيه ، مايصُدُّهم عن المَكاسب الذميمه ، والمآكلِ الوَخيمه ؛ فليس تجب عليهم الحُجَّةُ إلا مع إعطاء الحاجة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وأنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا ماسَعىٰ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمَّ يُجْزاهُ الجَزاءَ الأَوْفىٰ ﴾ .

---

(١) هو بالتحريك العيب .

وأمره بأن يكتُب لمن يقوم ببيِّنتِه عنـده وتنكشِفُ حجتُـه له ، إلىٰ أصحـاب المَعـاِن بالشَّـدّ علىٰ يديْه ، وإيصال حَقِّه إليـه ؛ وحَسْم الطمَع الكاذِب فيـه ، وقَبْض اليَدِ الظالمة عنه ؛ إذ هم مندُوبُون للتصرُّف بينَ أمْره ونَهْيه ، والوقُوفِ عند رَسْمه وحدّه .

وهذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليْك ، وحجّتُه لك وعليْك ؛ قد أنارَ فيه سبِيلَك ، وأوضح دلِيلَك ؛ وهـداك وأرْشَدك ، وجعلك علىٰ بيِّنة من أمرك ؛ فاعمَلْ به ولا تخالِفْه ، وٱنْتَهِ إليه ولا تَجاوَزْه ؛ وإن عرض لك أمْرٌ يُعجِزك الوفاءُ به ، ويشْتَبِه عليك وجْهُ الخُـروج منـه ، أنهيتَه إلىٰ أميرِ المؤمنين مبادِرا ، وكنتَ إلىٰ مايأمُرُك به صائرا ؛ إن شاء الله تعالىٰ . وكُتِب فى مستهَلِّ شعبان سنة ثمـانين وثلثمائة .

ومنها ــ ولاية الصلاة .

وهذه نسـخةُ عهدٍ كتب بهـا أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله ، لأبى الحٰـرث محمـد بن مُوسىٰ العلَوىّ المُوسَوى ، بتقليده الصـلاةَ فى جميع النواحى والأمصار والأطراف ، وتوقُّف عن إظهاره لرَأْى رآه فى ذٰلك ، وهى :

هذا ماعهِـدَ عبدُ الله إلىٰ محمد بن مُوسىٰ العَلَوىّ ، لمـّا ٱستكْفاه النظرَ فى نِقـابة الطالبيين فكفَاه ، وتحمَّل ذٰلك العِبء فأغناه ، وفات النظراءَ فى الٱستقلال والوَفاء ، وبذَّ الأمثالَ فى الٱضْطِلاع والغَنَاء ؛ جامعًا إلىٰ شرَف الأحساب والأعْراق ، شرَف الآدابِ والأخلاق ؛ وإلىٰ كرائِم المَفاخر والمَناقب ، مكارِمَ الطِّباع والضَّرائب ؛ علىٰ الحَدَاثة من سِنِّه ، والغَضَاضة من عُوده ؛ مستولِيًا من البرَاعة والنَّجابه ، والفَراهة واللَّبَـابه ؛ علىٰ التى لايبلغُها الشِّيبُ المَفارق ، فضـلا عن البالغ المُراهق ؛ وغاياتٍ

تنقَطِع دُونَها أنفاسُ المنافِسين ، وتتضَرَّم عليهـا أحشاءُ الحاسِدين ؛ لاسيَّمَا وقد أطَّتْ(١) بأمير المؤمنين إليـه شواجنُ الأرحام ، وعطَفَتْه علىٰ آصطناعه عواطِفُ الآباء والأعمام ؛ وآقتضَتْ آثارُه المحمُوده ، وطرائقُه الرَّشيده ؛ أن يُناوِبَه علىٰ رُتْبة لم يبلُغْها أحدٌ من ولد أبيه ، ولم يفتَرِع ذوائِبَها رجلٌ دونه ؛ فقلَّده الصـلاةَ بمدينة السـلام فى خمسة جوامِعِها : فأوَّلُها الجـامعُ الداخلُ فى حَرِيم أمير المؤمنين ، وجامعُ الرُّصَافة ، وجامع المَنْصُور ، وجامع بُراثىٰ ، وجامع الكَفِّ الذى تولىّٰ أبوه إشادَتَه وعمـارتَه ، وحسُنتْ آثارُه فى إنشائه وإعلائه ؛ وحيثُ سَمَتْ همتُه إليه ، وبذَل المجهودَ فى إنفاق الأموال الدَّثْرة(٢) عليه ؛ وآستَنْزل بذٰلك من الله أجزَلَ إثابة المُثـابِين ، وأوْفَر أجْرِ المأْجُورين ؛ وجميعِ المَنابر فى شَرْق الأرض وغَرْبِهـا ، وبعيـدِ الأقطار وقرِيبِها ؛ وأميرُ المؤمنين يسألُ اللهَ حُسْن التسـديد فى ذٰلك وسائرِ مَرَامِيـه ، وجميع مَطالِبه ومَغازِيه ؛ وجَوارِى هِمَمه التى يُمْضِيها ، وسرايا عَزَماته التى يَنْوِيها ؛ وأن يجعـل النجاحَ قائدَها وسائقَها ، والصلاح أوّلَهـا وآخِرَها ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلَّا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

أمره بتقوىٰ الله التى هى أحرزُ المَعـاقل ، وأحصَنُ الجُنَن عند النَّوازل ؛ وأعظَمُ مَلْجإٍ يُلْجَأ إليه ، وآمَنُ مَوْئِل يُعَوَّلُ عليه ؛ وأن يعتقدَها فى خَلْوته وحَفْلته ، ويعتمدَها فى سِرِّه وعلانِيَته ؛ ويجعلها سببا يتْبَعه ، ولباسا يدَّرِعه ؛ فيُنازِع بها مَنْ نازعه ، ويُوادع بها مَنْ وادَعه : فإنهـا أوْكَدُ الأسباب ، وأوصَلُ القُرَب والأنساب . وأولىٰ الناس بالتمسُّك بحَبْلها ، والآشتمالِ بظِلِّها ؛ مَنْ كان بأجلِّ المَناسب تعلُّقُه ، وبأشرَف الخلائقِ

(١) فى القاموس « أطت له رحمى رقت وتحركت » فانظره .

(٢) فى اللسان ج ٥ ص ٣٦٢ « الدثر بالفتح المـال الكثير لايثنى ولا يجمع يقال مال دثر ومالان دثر وأموال دثر » فلعل هاء التأنيث زائدة من قلم الناسخ . تأمل .

تخلُّقه، قال الله سبحانه: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾.

وأمره بتلاوة القرءان، والمواظبةِ عليه والإدْمان، والائْتمار بما فيه من الأوامر، والازْدجار عما تضمَّن من الزَّواجر، وأن يجعله الإمامَ المتَّبَع فيقفُوَه، والطريقَ المَهْيَع فيقْصِدَه وينْحُوه: فإنه العَلَمُ المُنْجى من الغَوايه، والدليلُ القائدُ إلى الهدايه، والنور الساطعُ للظلام إذا أشكل مُشْكِل، والحاكم القاضى بالحقِّ إذا أعْضَل مُعْضِل، قال الله: ﴿ وإنَّه لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ من حَكِيم حَمِيد ﴾.

وأمره بتهذيب لُبِّه، من جوامِح الوَساوِس، وتطهير قَلْبِه، من مَطَامِح الهَوَاجِس؛ وأن يتوقَّى اللحظةَ العارِمه(١)، ويتجنَّبَ اللفظةَ المُؤْلِمه؛ عاصيًا جَواذِبَ الخَلَاعة، ومُطيعا أوامِرَ النَّزاهة؛ حتَّى يستوىَ خافيه وعالِنُه، ويتَّفق ظاهِرُه وباطِنُه؛ فِعالُ من جعله إمامُ المسلمين إمامًا، وقدَّمَتْه الرعيةُ أمَاما؛ وكانَ إلى الله داعيا، وله عن عباده مُناجِيا؛ وبينهم وبَيْنَ خالقِهم وَسِيطا، وعلى ما قلَّده من الصلاة بهم أمينا: لتصِحَّ شُروطُ صَلاته، ويُقْبَل مرفُوع دَعَواته؛ قال الله عزوجل: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إلى اللهِ وعَمِلَ صالحًا وقال إنَّنِي من المُسْلِمِين ﴾.

وأمره بالمحافَظَة على الصلَوات، وانتهازِ فُرَصِها من الأوقات؛ والدخول فيها بالرِّقَّة والخُشُوع، والتوفُّر بالإخباتِ والخُضُوع؛ وحقيقٌ على كل مستشْعِرٍ شعارَ الإسلام، ومتجَلْبِب جِلْبابَ الإيمان، أن يفعل ذلك مستوفيًا شُروطَه، ومستقْصيا حُدُودَه ورُسومه، فكيف بمن أقامه أميرُ المؤمنين [مقامه] فى امتطاء غَوارب المَنَابر

(١) لعله من قولهم رجل عارم أى خبيث شرير.

وذُرَاها، ونَصَبه مَنْصِبَه فى أَمِّ الرعيَّة أدْناها وأقصاها . قال الله تعالىٰ : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيدا ﴾ . وقال : ﴿ اتَّقُوا اللهَ حقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وأمره بالسعْى فى الجُمَع إلىٰ المساجد الجامعَة ، وفى الأعياد إلىٰ المُصَلَّيات الضاحية ، وأن يَخُصَّ أحدَها بصلاته فيه وقَصْدِه له ؛ ويأمُرَ خلفاءَه علىٰ الصلاة بالافتراق فى سائر الجوامع وباقى المَنَابر ، بعد الأمْر بجَمْع المؤذِّنين والمكبِّرين ، وإحضار القُوّام والمرتِّبين ، فى أتمِّ أُهْبةٍ وأجملِ هَيْئة ، بقلوبٍ مستشْعِرة للخشُوع ، متَصَدِّية للدُّموع ؛ وألْسُن بالتسبيح والتقديس مُنْطَلِقة ، وآمالٍ فى حُسْن الجزاء وجزيل الثَّواب منفَسِحة ، حتّى تعبِّر ألسِنتُهم إذا افترعُوا الخُطَب وافتتَحُوا الكَلِم عن مكْنُون ضمائِرِهم ، ومضمُون سَرَائِرِهم ؛ فتَجِىء المواعِظُ بالغةً ، والزواجر ناجعة ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنفُسَكُمْ وأنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُون ﴾ .

وأمره بمُراعاة المساجِد ، وتعهُّد الجوامع ؛ وسدِّ خَلَلها ، ولَمِّ شَعَثها ؛ فإنها مَقَاوِم[1] عزِّه ونحره ، ومَحاضِرِ صِيته وذِكْره ؛ ومراكزُ أعلام الدِّين الخافقه ، ومطالعُ شُموس الإسلام الشارِقَه ؛ ومواقِفُ الحق المشْهُوده ، وقواعِدُ الإيمان الموْطُوده ؛ مما لا يتضَعْضَع أحدها إلا تضَعْضَعَ من أركان الإسلام له رُكْن ، ولا آلتات بعضُها إلا آلتات من أعضاء الدِّين عضو ؛ قال الله عز وجل : ﴿ إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتىٰ الزَّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلَّا اللهَ فَعَسىٰ أُولٰئِكَ أنْ يَكُونُوا من المُهْتَدين ﴾ .

(١) جمع مقوم وفى اللسان « المقوم الخشبة التى يمسكها الحراث » ولعله يريد أنها آلات عزه ونحره .. تأمل .

وأمره فى خُطبتــه بكثرة التحفُّظ ، وعنــد آفتتاحه وآختتامه بطُول التيقُّظ ؛ فإن العُيون به مَنُوطة ، والأعناقَ إليــه ممدُودة ؛ والمَسامعَ فاغرةٌ تتلقَّف ما يقوله ، والقلوبَ فارغةٌ لحفظ ما يُبْـدِئ وما يُعيــد ؛ فقليلُ الزَّلَل ، فى ذلك الموقِف كثير ، وصــغيرُ الخَطَل ، فى ذلك المقام كــبير ؛ والله تعالىٰ يُسَدّده إلىٰ المَحَجَّة الوُسْطىٰ ، ويقِفُ به علىٰ الطريقة المثلىٰ ، بمنه .

وأمره بالسَّكِينة فى آنتصابه للصَّلاة الجامعة ، وتقدُّمه لقضاء الفُروض اللازِمة ؛ وأن يَسْكُن [فى كلّ] حدّ من حدودها فى الرُّكوع والسُّجود ، والقِيـام والقُعود ؛ فإنه عليها مُحاسَب ، وبمــا يَلْحَق من يأتَمُّ به فى جميعها مُطالَب ؛ وأن يُفرّغ قلبَــه لمــا يتلُوه من البَيَان ، ويرفع صوْتَه بمــا يمرّ به من قَوَارع القُرْءان ، مرتِّلا لقراءته ، ومُسْتَرْسِلا فى تلاوته : ليشــترِكَ فى سَمَــاعها الأقربُ والأقْصىٰ ، وينتفِعَ بمواعِظها الأبعدُ والأدْنىٰ ، بعــد إخلاصِ سِرِّه وآنتزاعِه ، وتسوِيَته فى الطهور بين باديه وخافِيه ، وغائبه وحاضِره ؛ فليس بالطاهر عندَ الله تعالىٰ من يُصيبُ بالمــاء أطرافَه ، وأدْرنَ بالخبائِث شــغافَه ؛ قال الله تعــالىٰ : ﴿ يٰأَيُّها الَّذينَ آمنُوا إذا نُودِىَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَــةِ فَآسْعَوْا إلىٰ ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ﴾ . وقال : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ علىٰ المُؤْمِنينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ .

وأمره أن يُقيم الدَّعوة علىٰ منابر أعمــاله القاصــيةِ والدانيَة والغائبةِ والحــاضِرة لأمير المؤمنين ؛ ثم للناهِض عنــه بالأعْباء ، والقائم دُونَه فى البَأْساء والضَّرَّاء ؛ الذى غُذِّى بِلِبان الطاعة ، وآنْقاد بزِمَام المتابَعة : بَهَاء الدولة ؛ ولوُلَاة الأعمال من بعــده الذين يُدْعىٰ لهم علىٰ المَنَابر ، مايكُون منهــا علىٰ العادة الجارية فيها ، فإنهــا دعوةٌ تلزمُ إقامتُها ، وكلمةٌ تجِبُ إشادتُها ؛ إذ كانتْ متعلِّقة بطاعة الله عزّ وجلّ ، وقد أوجبها اللهُ

تبارك وتعالىٰ علىٰ كافَّة المسلمين وجميع المُعاهَدين، إذ يقول [وهو] اصدَقُ القائلين : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ؛ وعائدتُها تَعُمُّهم، وفائدتُها تشْمَلُهم؛ إذ كان صلاحُ الرعيَّة مقرُونا بصَلَاح راعِيها، وفَسادُ الأمّة مَنُوطا بفَساد والِيها .

وأمره بٱستِخْلاف من يَرىٰ ٱستِخلافَه علىٰ الصَّلاة فى الأقطار والأطْراف والنواحِى والبُلْدان ، وأنْ يختارَ من الرجال كلَّ حَسَن البَيَان ؛ مِصْقَع اللسان ؛ بَليلَ الرِّيق إذا خَطَب، بليغَ القَوْل إذا وَعَظ .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، وحجَّته لك وعلَيْك ؛ قد أعْذَر فيه وأنْذَر، وهدىٰ من الضَّلالة وبَصَّر ؛ وأعلَقَك زِمامَ رُشْدك وغَيِّك ، وقَلَّدك عِنانَ هُلْكك وفوْزك ؛ وخَيَّرك فى كِلَا الأمْرين، ووقَفَك إزاءَ الطريقَيْن ؛ فإن سلَكْت أهْداهما لم تلْبَثْ أن تَعُود غانِما، وإن وَلَجْتَ أضلَّهما فغيرُ بعيد أن تَتُوب نادِما؛ وٱستَعِنْ بالله يُعِنْك ، وٱسْتَزِده من الكِفَاية يَزِدْك ؛ وٱستَلْبِسْه الهِداية يُلْبِسك ، وٱستَدْلِلْه علىٰ نَجَاح المَطالب يَدْلُلْك ، إن شاء الله، والحمدُ لله وحْده .

ومنها — نظرُ الأوقاف .

وهـذه نسخةُ عهـدٍ من ذٰلك ، كتب بها أبو إسحاقَ الصـابى عن الطائع لله — للحسين بن مُوسىٰ العَلَوى ، وهى :

هـذا ماعهِدَ عبدُ الله عبدُ الكريم الإمامُ الطائعُ لله أميرُ المؤمنين، إلىٰ الحسين بنِ مُوسىٰ العَلَوى، حينَ طابتْ منـه العَناصر، ووصلَتْه بأمير المؤمنين الأَوَاصِر؛ جَمَـع إلىٰ شَرَف الأَعْراق الذى وَرِثه، شَرفَ الخُلُق الذى ٱكتَسَبه؛ ووضَحَتْ آثارُ دينـه

وأمانته ، وبانت أدلّة فضـله وكفايته ، فى جميع ما أسـنده أميرُ المؤمنين إليه من الأعمـال، وحمّله إيّاه من الأثقال؛ فأضاف إلىٰ ما كان ولّاه من [ذلك] النّظر فى الوُقوف التى كانت يدُ فلانٍ فيها بالحضرة وسوادها، ثِقـةً بسَداده ، وسُكونا إلىٰ رَشاده ؛ وعِلْما بأنه يَعرف حقّ الصّنيعه، ويَرْعىٰ مايُستحفَظُه من الوديعه ؛ ويجرى فى المَنْهَل الذى أحمَده أميرُ المؤمنين منه ووُكل إليه . والله يُمِدُّ أميرَ المؤمنين بصَواب الرأى فيما نحـاه وتوخّاه ، ويُؤمنـه فى عاقبته النّـدَمَ فيما قضاه وأمْضاه ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب .

أمره بتقوىٰ الله التى هى عِمـاد الدين ، وشِعارُ المؤمنين ، وأن يعتقدها فى سِرّه ونَجْواه، ويجعلَها الذخيرةَ لِأُولاه وأُخراه؛ ويتجنّبَ الموانـع المُونيَه، ويتوقّى المواردَ المُرْديه ؛ ويغُضَّ طرْفَه عن المَطامع المُغْويه، ويذْهَبَ بنفْسه عن المَطارح المُخْزيه؛ فإنه أحق من فَعَل ذاكَ وآثره ، وأَولىٰ منِ آعتمَده وآستَشْعَره؛ بنَسَـبه الشريف، ومَفْخَره المُنيف ؛ وعادته المشْهُوره ، وشاكِلته المأْثُوره؛ وتلاوة كتاب الله الذى هو وعترة رسول الله الثّقَلان المخَلَّفان فى الأمّة ، وقد جمعْتَه (١) ، وآخَرُهما الأنسابُ وجمعْتَه والثانى عِصْمةُ أُولى الألباب ، وتوجّهتْ حُجّةُ الله بما يرجِعُ من هذه الفضائلِ إليه، وأنّه غُصْنٌ من دَوْحة أميرِ المؤمنين، التى تحدّاها اللهُ بالإنْذار قبْل الخلائق أجمعين؛ إذ يقولُ لرسوله محمد صـلّى الله عليه وعلىٰ آله : ﴿ وأَنْذرْ عَشيرَتَكَ الأَقْرَبِيـنَ ﴾ . وقد حَضّ تبـارَك وتعـالىٰ علىٰ التَّقْـوىٰ ، ووعَدَ عبادَه عليهـا الزُّلْفىٰ ؛ فقـال : ﴿ يأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا آتّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصّادقين ﴾ .

وأمره بالآشْتمال علىٰ ماأسْنَده إليه أميرُ المؤمنين من هذه الوُقُوف مستنفِدا طَوْقه فى عِمـارتها ، مستفرِغا وُسْـعَه فى مصْلَحتها ؛ دائبًا فى آستِغْلالها وتَثْميرها ، مجتهِدًا

(١) هذه الجمل هكذا فى الأصول وهى غير مستقيمه .

فى تَدْبِيرها وتَوْفِيرها ؛ وأن يَصْرِف فاضلَ كلِّ وَقْف منها بعدَ الذى يُخْرَج منه للنَّفقة علىٰ حِفْظ أصلِه ، وآستِدْرار حَلَبه ؛ والمَئُونة الراتبةِ للقُوَّام عليه ، والحَفَظة له ؛ إلىٰ أربابه الذى يعود ذلك عليهم فى وُجُوهها التى سُبِّل لها ، ووُقِف عليها ؛ واضعًا جميعَ ذٰلك مواضِعَه ، مُوقِعا له مَوَاقِعه ؛ خارجًا إلىٰ الله من الحقِّ فيه ، مؤدِّيًا الأمانة إليه ؛ وأن يُشْهِد علىٰ القابضين بما يَقْبِضُونه من وُقُوفهم ، ويَكْتُب البراآتِ عليهم بما يستَوْفُونه من أموالهم ؛ ويستظْهِرَ لنفسه بإعداد الشَّواهد والأدِلَّة علىٰ مايُنْفِقه من أموال هذه الوُقُوف علىٰ مَصالحه ، ويَصْرِفه منها إلىٰ أهلها ؛ ويُخْرِجه منها فى حُقُوقها وأبواب بِرِّها ، وسائرِ سُبُلها ووُجُوهها ؛ سالكًا فى ذٰلك مَذْهَبه المعْروفَ فى أداء الأمانه ، وآستِعْمال الظَّلَف والنَّزاهه ؛ معَقِّبا علىٰ من كان ناظرًا فيها من الخَوَنة الذين لم يَرْعَوْا عهدا ، ولم يتصَوَّنُوا عن سُحْت المَطاعِم ، وظُلَم المَآثِم .

وأمره باستكتابِ كاتبٍ معروفٍ بالسَّداد ، مشْهورٍ بالرَّشاد ؛ معلومٍ منه نصيحةُ الأصْحاب ، والضَّبطُ للحساب ؛ وتفويضِ دِيوان الوُقُوف وتدبيرِه إليه ، وتوصيَته بصيانةِ مايشْتَمل عليه من أُصُول الأعمال وفُرُوعها ، وقليلِ الحُجَج وكثيرِها ؛ وأن يحتاطَ لأربابها فى حِفْظ رُسُومها ومُعاملاتِها ، وحِراسةِ طُسُوقها ومُقَاسَماتها ؛ حتّىٰ لايستمِرَّ عليها حَيْف يَبْقىٰ أثَرُه ، ولايتغَيَّر فيها رسمٌ يُخاف ضَرَرُه ؛ وأن يُنْصِف الأَكَرَة فيها والمُزارِعين ، وسائرَ المُخالِطين والمُعامِلين ؛ ولا يُجَشِّمَهم حَيْفا ، ولايَسُومَهم خَسْفا ؛ ولا يُغْضِيَ لهم عن حق ، ولا يَسْمَح لهم بواجب ، خَلَا ماعادتِ السَّماحةُ به بزيادة عِمَاراتهم ، وتأليفِ نِيَّاتهم ، وآجتلاب الفائدةِ منهم والعائدةِ بهم ؛ فإنه مؤْتَمَن فى ذلك كلِّه أمانةً ، وعليه أن يُؤدِّيها ويخْرُج عن الحقِّ فيها .

وأمره بآختيار خازنٍ حَصِيف ، قَئُومٍ أمين ؛ يَخْزُن حُجَجَ هذه الوقوف وسِجِلَّاتها ، وسائرَ دفاترِها وحُسْبَاناتها ؛ فإنَّها ودائعُ أربابها عنْده ، وواجبٌ أن يَحْتاطَ عليها

جُهْدَه، فمتىٰ شَكَّ فى شرط من الشُّروط، أو حَدٍّ من الحُدود، أو عارَضَ مُعارِض، أو شاغَبَ مُشاغِب، فى أيَّام نظرِه وأيَّامِ مَنْ عسىٰ أن تُنْقَلَ ولايةُ هذه الوُقوف إليه، ويُناطَ تدبيرُها به، دفَع مايَحْدُث من ذلك بهٰـذه الحُجَج التى هى مَعارِف البُرْهان، وقواعِدُ البُنْيان، وإليها المَرْجِع فى كلِّ بينة تُنْصَر وتُقام، وشُبهة تُدْحَض وتُضام .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، ووثيقتُه الحاصلةُ فى يدَيْك، فاتَّبِـع آثارَ أوامرِه، وآزدَجِرْ عن نَواهِيــه وزواجِره، وآستمْسِك به تنْجُ وتَسـلَمْ، وآعملْ عليه تَفُزْ وتغْنَمْ، وآسترشِدِ الله يُرْشِدْك، وآستَهْدِه يَهْدِك، وآستعِنْ به يَنْصُرْك، وفوِّضْ إليه يَعْصِمْك، إن شاء الله تعالىٰ .

الضــــرب الثـانى

(ممـا يُكتَب من ديوان الخلافة لأرباب السُّـيوف التقاليدُ . وهى لمن دُونَ ارباب العُهود فى الرُّتبة، وليس لافتتاحها عندهم ضابِطٌ)

وهــذه نسخةُ تقليدٍ بحِماية الكُوفة، لأبى طَرِيفِ بن عليـان العُقَيْلى، من إنشاء أبى إسحاق الصابى، وهى :

قد رأَيْنا تقليدَك ـ أطال اللهُ بقاءك ـ الحِمـايةَ بالكُوفة وأعمالِها وما يَجْرى معها ثِقةً بشَهامتك وغَنائك، وسُكونا إلىٰ آستِقْلالك ووَفائك، وآعتقادًا لاْصطِناعك وآصطِفائك، وحُسْنَ ظنٍّ بك فى شُكر ما يُسْدىٰ إليك، ومقابَلتِه بمـا يَحِقُّ عليك، من الأَثَر الجميل فيما تُولّاه، والمَقامِ الحميد فيما تُستَكْفاه، فتولَّ ـ أيدك الله ـ ذلك مقدِّما تقوىٰ الله ومراقَبته، ومستَمِدّا توفيقه ومَعُونَتَه . وآحْرُسِ الرعيَّة فى مَسا كِنها، والسابلَة فى مَسالِكها . وآدْفَعْ عن عَمَلك ونواحيه أهلَ العَيْث جميعا، وآطْلُبْهم طلَبا

شديدا، وٱطْرُقْهم فى مكامِنهم ، وتوَلَّجْ عليهم فى مَظَانِّهم ؛ ونَكِّل بمن تَظْفر به منهم نَكالًا تُقيم به حُكْمَ الله عليهم، وحُدودَه فى أمثالهم ؛ وبالِـغْ فى ذٰلك مبالغةً تُخيف الظَّنِين وتُوجِسُه، وتُؤَمِّن السَّليم وتُؤْنِسُـه . وراعِ الأَكَرَةَ والمُزارِعين حتّٰى يَنْبَسِطوا فى معايِشِهِم ، ويتصَرَّفُوا فى مصالِحِهـم؛ وتتيَسَّر عوامِلُهم فى عِمَاراتهـا، ومَواشِيهم فى مَسَارِحها؛ ومتىٰ طُرِدتْ لأحدٍ منهم طَرِيدةٌ أو آمتـدَّتْ إليهم يَدٌ عاتِيَة، آرتجِعْتَ ما أُخِذَ له، ورَدَدْته بعينِه أوقيمةِ مِثْلِه . وخَفِّف عمن وُلِّيت عليـه الوَطْأة، وآرفَعْ عنهم المَئُونةَ والكُلْفة؛ وخُذْهم بالتناصُف، وٱقْبِضْهم عن التظَالُم، وٱمنَعْ قوِيَّهم من تَحَيُّف المَضْعُوف، وشريفَهم من ٱستضامةِ المَشْرُوف؛ وأَوْلِهم من عَدْلك وحُسن سِيرَتِك، وٱستِقامة طرِيقتِك، مايتَّصل عليه شُكْرُك، ويَطِيبُ به ذِكْرُك؛ ويقتَضِى لك دَوامَ الوِلايه، وتَضاعُفَ العِنَايه .

وٱعلَمْ بأنك فيما وُلِّيتَـه من هـذا الأمر متضَمِّن للمـال والدَّم، ومأْخُوذ بكل ما يَهُمُّك من ذمة ومحْرَم؛ فليكن ٱجتهادُك فى الضَّـبْط والحِمـايه ، وٱحْتِراسُك من الإهمال والإضاعة، بحَسَب ذٰلك. وٱكتُبْ بأخبارك علىٰ سِياقَتِها، وآثارِك لأَوْقاتها: ليتَّصِلَ لك الاحماد (١) عليها، والمجازاةُ عنها؛ إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الثـالث

(ممـا كان يُكتَب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغدَادَ ما كان يُكْتَب لأرباب الوظائف ببغدَادَ من أصحاب الأقلام)

وهى علىٰ ضربيـن :

---

(١) من أحمده استبان له أنه مستحق للحمد.

الضـــرب الأوّل

(العُـــهُود)

ورَسْمُها علىٰ نحو ما تقــدّم فى عهُود أرباب السُّــيوف ، تُفْتَتح بـ«هـذا ما عَهِد » إلىٰ آخر الترتيب المتقدّم ذكره .

وهذه نسخة عَهْد بولاية قضاءِ حاضرةِ بغدادَ وسائرِ الأعمال؛ كَتَب به المسترشدُ بالله لقاضى القُضاة أبى القاسم علىّ بن الحسين الزينبى، وهى :

هــذا ما عَهِد عبدُ الله أبو منصور الفضلُ، الإمامُ المسترشدُ بالله أميرُ المؤمنين ، إلىٰ قاضى القضاة علىّ بنِ الحســين الزينَبى : لَمَّــا تأمَّل طريقَتَــه، وشَحَذ عقِيدتَه؛ وأحْمَدَ مذاهِبَه، وآرْتَضىٰ ضرائبَه؛ وتكاثرتْ دَواعِيه ، وحسُنَتْ مَساعِيه ؛ ووجَدَه عندَ الاِختِبَار ، وفى مِضْمار الاعْتبار ، راجِعًا إلىٰ عَقْل رَصين ، ودِينٍ مَتِين؛ وأمانةٍ مشْكُوره، ونَزاهة مَخْبُوره؛ ووَرَع ثَمِر المَشْرَع ، عارٍ من دَنَس المَطْمَع؛ وعِلْم توَفَّر منه قِسْمُه، وأصاب فيه سَهْمُه . وحين راعىٰ فيــه مورُوثَ شَرفِ النَّسَب، إلىٰ شَرَف العلم المكتَسَب، مع ماسلَف لبيته من الحُرُمات المرعية المتأكِّده، والقُرُبات المرضيَّة المتمهِّده؛ والسوابِقِ المُحْكَمَةِ المَرائر، الحميــدةِ المبادِئ والمَصايِر؛ فقلَّده قضاءَ القُضاة بمدينة السلام وسائرِ الأمصار، فى الآفاقِ والأقْطار؛ شَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا؛ إنافةً به إلىٰ ما أصبَحَ له مســتَحِقّا ، وآستَمرَّ آستِيجابُه مســتَرقّا؛ وجَذْبا بضَبْعه إلىٰ مايحقّق نُهوضَه بأعْبائه، وحُسْنَ آستِقلاله به وغَنائِه؛ وآقتفاءً لآثارِ الأئمة الراشدين فى إيدَاعِ الوَدائع عند مستحِقِّها ، وتَفْويضِ الأُمور إلىٰ أكفائِها وأهْلِها ؛ لاسيَّــما أولياءُ دولتِهم، وأغْذياء نِعمَتِهم؛ الذين كَشَفَت عن سَجْف خِبْرتهم التَّجارِب، ووَرَدُوا من الخلال الرشيدةِ أعذَبَ المَشارِب ؛ وآنتهَجُوا الجَدَد الواضح ، وتقبَّلوا الخُلُق

الصالح ، والله سبحانه يقرن عزائم أمير المؤمنين بالخيرة فى كلِّ رأى يرتئيه ، وأمر يؤمّه وينتحيه ، ويصدّق مخيلته فى كلّ حال يأتيها ، ويمضى عزمه فيها ، وما توفيقه إلا بالله عليه يتوكّل وإليه ينيب .

أمره بتقوى الله التى لا يسعد أحد إلا بالتمسّك بسببها ، ولا يشقى إلا مع إضاعتها ، فإنها الجناب المريع ، والمعقل المنيع ، والنّجاة يوم الفزع الأكبر ، والعدّة النافعة فى المعاد والمحشر ، والعصمة الحامية من نزغات الشيطان ومخايله ، المنقذة من أشراكه وحبائله ، وبها تمحّص الأوزار ، وتنال الأوطار ، وتدرك المآرب ، وتنجح المطالب ، قال الله تعالى : ﴿ يأيّها الّذين آمنوا إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفّر عنكم سيّئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

وأمره باستشعار خشية الله سبحانه فى قوله وفعله ، واختلاف أطواره وأحواله ، وتذكّر ما هو قادم عليه ، ووافد إليه : يوم ﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئا ﴾ . فلا يقوده الهوى إلى اتّباع شهوه ، أو إجابة داعى هفوة أو صبوه ، إلا كان الخوف قادعه ، والحذار مانعه ، وأن يجعل التواضع والوقار شيمته ، والحلم دأبه وخليقته ، فيكظم غيظه عند احتدام أواره ، واضطرام ناره ، مجتنبا عزّة الغضب الصائرة إلى ذلّة الاعتذار ، ومتوخّيا فى كل حال للمقاصد السليمة الإيراد والإصدار . وأن يتأمل أحوال غيره تأمّل من جعلها لنفسه مثالا ، واتّخذها لنسجه منوالا ، فما استحسنه منها فيأتيه ، وما كرهه فيجتويه ، غير ناه عمّا هو من أهله ، ولا آمر بما هو مجانب لفعله ، قال الله جلّت عظمته : ﴿ أتأمرون النّاس بالبرّ وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ .

وأمره بتِـلاوةِ كتابِ الله مُواظِبا، والإكثارِ من قراءتِهِ دائبا ؛ وأن يجعَـلَه إماماً يَقْتفِيه، ودليـلًا يَتَّبِعه فيَهْدِيه ؛ ونُورا يستضيءُ به فى الظُّلُمات ، وهادياً يسترْشِـده عنـد ٱعْتِراض الشُّبُهات ؛ ومَوْئِلا يستَنِدُ إليـه فى سائرِ أحكامِه ، وحِصْناً يلْجأ به فى نَقْضِه وإبْرامِه؛ عامِلًا بأوامِرِه ، ومُزْدَجِرا بزَوَاجِره؛ ومُنْعِما نظَرَه فى مُحْكَمِ آياتِه ، وصادِعِ بيِّناته ؛ ومُعْمِلا فِكْرَه فى خَوْض غِمَـاره ، وٱستِخْراج غَوامِض أَسْراره ؛ فإنَّه الحقُّ الذى لا يَجُور متَّبِعُـه ، والمَتْجَر الذى لا يَبُور مُبْتَضِعه ؛ والمَنَـارُ الذى به يُقْتَدىٰ ، والمَنْهجُ الذى بأعلامه يُهْتَدىٰ ؛ والمصـدَرُ الذى تَغْرىٰ به الأُمورُ فى مُلْبِس الإشـكال ، وتشْرَعُ معه الأحوالُ المستَبْهِمة فى وُرودِ الوُضُوح السَّلْسال ؛ ويَنْبُوع الحِكمَة الذى ضربَ اللهُ فيـه الأَمْثال ؛ وفَرَق فيه بينَ الحرام والحلال ، والهـدايةِ والضَّلال؛ قال الله سبحانه : ﴿ ونَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى ورحْمةً وبُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِين ﴾ .

وأمره بدِراسة السُّنَن النَّبوِيَّة صلواتُ الله علىٰ صاحبِها، والٱقتداءِ بِمـا جاءتْ به من مَكارم الأخلاقِ التى نَدَب إليها، وحَضَّ عليها؛ وتَتَبُّعِ مايتداخَلُها من الأخبـار الجَرِيحه، والرِّوايات غيرِ الصَّحِيحه؛ والفَحْصِ عن طُرُقِها وإسنادِها، وتمييزِ قَوِيمها ومَيَّادِها؛ والبحثِ عن رُواتِها، منحوزِها وثِقاتِها؛ فمـا ألفاه بَرِيئًا من الطعْن، آمنا من القَـدْح والوَهْن ؛ عارِيًا من مَلابِس الشَّكِّ والٱرتياب ، عاطِلًا عن حلىٰ الشُّبْهة والٱعْتِياب ، ٱتَّبعه وٱقتَفَاه ، وتمثَّـله وٱحتَذَاه ؛ وكان به حاكِمًا ، ولأَدْواء الباطل بٱتِّباعه حاسِما؛ وما كان مترَجِّحا[(١)] بين كِفَّتى الشكِّ واليقين ، ولم تَبْدُ فيـه مَخايِلُ الحق المُبِين، جعل الوَقْفَ حُكْمَه، ورَدَع عن العمل به عَزْمَه؛ إلىٰ أن يَضِح الحقُّ فيه، فيعتَمِدَ ما يُوجبُه ويقتَضِيه : فإنه ـ عليه السـلام ـ الداعى إلىٰ الهُدىٰ ، والرحمةُ

(١) أى مترددا ومتذبذبا . انظر اللسان والقاموس .

التى عصَم اللهُ بها من عَوادِى الرَّدىٰ ، والهـادى الذى لم يفصل بينَ العمل بفرائض كتابه وسُنَنه فى قوله تقدّستْ أسماؤه ، وجلَّت آلاؤه : ﴿ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُـذُوهُ وما نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنْتَهُوا وٱتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب ﴾ .

وأمره بإقامةِ الصَّلَوات الخمسِ المفروضةِ فى أوقاتها ، والمبادرةِ إليها قبْلَ فوَاتِها ؛ والإتْيان بشرائِطها المحدُودةِ وأركانها .

وأمره بمجالسة العُلَماء ، ومُباحثةِ الفُقَهاء ، ومُناقَشة ذَوِى البصيرةِ والفَهْم ، والفِطْنة والحَزْم ؛ ومشاوَرَتِهـم فى عَوارض الأُمُور المُشْكِله ، وسوانِح الأحكامِ المستَبْهِمة المُعْضِـله ؛ حتى يُصَرِّح محضُ رأيه وآرائِهـم عن زُبْدة الصَّواب ، وتُنْتِج أفكارُهم باستِجْمامها نظَرًا شافيًا بالجواب ، رافعًا عنه مُنْسدِل الحجـاب ؛ وإنَّ فى ذلك ثَلَجا للصُّدور ، وٱستظهارًا فى الأمور ، وٱحترازًا من دواعى الزَّلَل ، وٱستمرارِ الخلَل ؛ وأمْنًا من غَوائلِ الاٌنفراد ، وحَطًّا للتعويل علىٰ الاٌستِبْداد ؛ فلَرُبَّ ثقةٍ أدّتْ إلىٰ خَجَـل ، وأَمْن أفْضىٰ إلىٰ وَجَل ؛ وما زالتِ الشُّورىٰ مقْرونةً بالإصـابه ، مُحْكمةً عُرىٰ الحق وأسـبابَه ؛ حارسةً من عواقب النَّدَم ، داعيةً إلىٰ السلامة من زَلَّة القَدَم ؛ وقد أمر الله نبيَّه صلّى الله وسلم عليه ، وأزْلَف محلَّه لديه ، بالاٌستظهار بالمُشاوَرة مع عِظَم خَطَره ، وشرف قَدْره ؛ فقـال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فإذَا عَزَمْتَ فتوَكَّلْ علىٰ اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتوَكِّلين ﴾ .

وأمره أنــ يَختارَ للحُكْم الأماكنَ الفسيحةَ الأرْجاء ، الواسعةَ الفَضاء ، ويَنْظُرَ فى أمور المسلمين نظرًا تفْتَرُّ ثُغورُ العدْل فيه ، وتلُوحُ خشيةُ الله من مَطاوِيه ؛ فيُوصِّل إليه كافَّةَ الخصوم ، ويَبْرُز لهم علىٰ العُمُوم ، غيرْ مشدِّدٍ حِجابَه ، ولا مُرْتِج دُونَ المترافِعِين إليه بابَه ؛ وأن يُولِىَ كُلًّا من الإقبال عليه ، وحُسْن الإصغاءِ إليه ، مايكُونُ بينهم فيه

مُساوِيا، ولهم فى مَجْمَع المُوازاة حاوِيا، ولا يُعطِى من آلتفاته [إلىٰ] الشريف لشرَفه، وذى الشارة الحسـنةِ من أجل ثَوْبِه ومِطْرَفه، مايمنَعُه مَن تَقْحَمُه العُيون، وتترجّم فى خُموله الظُّنُون: فإنّ ذٰلك مُطمِع لذى الرُّواء فى دَفْع الحقِّ إذا وجب عليـه، وآلتمـاسِ الباطِل وإن ضَعُفتِ الدَّواعى إليـه؛ مُوئِسٌ لذى الخُمول من الآنتصـار لحقِّه، وإنْ أسفَرَ صبْحُ يقينه ونطقَتْ ألْسنةُ أدلته؛ فالناسُ وإن تبَاينُوا فى الأقدار والقِيمه، وتفاوَتُوا فى الأرزاق المَقْسُومه، فالإسـلام لهم مجتَمَع، والحـقُّ أحقُّ أن يُتَّبَع؛ وهم عند خالِقِهم سواءٌ إلا مَنْ ميزَّتْه التقوىٰ، وتمسَّـكَ بسببِها الأقوىٰ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللهِ أتْقَاكُمْ ﴾. وقال تعالىٰ: ﴿ إنْ يَكُنْ غَنِياً أو فَقيرًا فاللهُ أَوْلىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ أنْ تَعْـدلُوا وإنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فإنَّ اللهَ كانَ بمـا تعْمَلُون خَبِيرا ﴾.

وأمره أن يتأمَّلَ أحوالَ المُتَرافِعين إليه، والخُصوم لَدَيْه؛ ويتطَلَّب ماوقَعَ نِزاعُهُم لأجله فى نَصِّ الكتاب، ويَعْدِل إلىٰ السُّنَّة عند عَدَمه من هذا الباب؛ فإنْ فُقِد من هـذين الوجهين، فلْيَرْجِع إلىٰ ماآختاره السَّلَفُ المهتَدُون، وأجمع عليه الفُقهاءُ المجتَهِدُون؛ فإن لم يُلْفِ فيه قولًا ولا إجْماعا، ولاوجَدَ إليه طريقًا مسـتطاعا، أعمَلَ رأْيَه وآجتِهادَه، وآمتطى رِكابَ وُسْعه وجيادَه؛ مستظهرًا بمَشُورة الفقهاء فى هـذه الحال، ومستخْلِصا من آرائِهم مايَقَع عليه الآتِّفاق الآمنُ الآعتلال: ﴿ وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وهُوَ يهْدى السَّبِيل ﴾.

وأمره باستِعمال الأنَاة عنـد الحُكُومات، وآستماع الدَّعاوىٰ والبَيِّنات؛ من غير سُرْعةٍ تُحْدِث خَطَلا، ولا إفراطٍ فى التأنِّى يُورِث مَلَلا؛ فإنَّ الحقَّ بينَ ذَيْنِك علىٰ شَفَا خَطَر، وظَهْر غَرَر؛ ولا سيَّما إذا كان أحدُ الخَصْمين منْطِيقا، يُنَمِّق كلامَه تنْميقا؛

فإنه يَخْلُب ببلاغةِ نُطْقه مستَمعه، ويُغَطِّى وجهَ الباطل بألفاظه المُوَشَّعه؛ فإذا آتَّفق لدَيْه ماهــذا سبيله، شَحَذ له غَرْب فِطْنته، وأرْهف غِرَار فِكْره وبَصيرتِه؛ ومنح كُلًّا من الإنصاتِ مايَجْتلِي وجْهَ النَّصف مُنيرا، ويَغْدُو لأشياع الجَوْر مُبيرا. وإنْ ذُو اللَّسَن رَوّعه، وأوْهَمَــه أنَّ الحقَّ معه، بمـا يلفِّقه من كلام يَقْصُر خصمُه عن جوابه، ويَحْصَر عن جِداله وآستِيفاء خِطابه؛ مع عَدَم البينة المشْهُوده، وتَعَذُّر الحجة الموْجُوده، آستعاد كلامَه وآستنْطَقه، وآستوضَح مَغْزاه وتحقَّقه؛ من غير إظهار إعجابٍ بمـا يَذْكُره، ولا آغترارٍ بمـا يَطْويه ويَنْشُره؛ ولا إصغاءٍ يبـدُو أثَرُ الرَّغائب من فَحْواه، ولا آختصاصٍ له بمـا يمنَعُ صاحبَه شَرْواه[1]: لئلّا يولِّد ذلك له آشْتطاطا، ويُحْدِث له آنْطلاقًا فى الخُصُومة وآنْبِساطا؛ حتّٰى إذا آبتَسم الحقّ، وآنتَصر الصِّدق؛ وفَلَج أحدُهما بحُجَّته، ولحَن ببيِّنَته، أقرّ الواجبَ فى نِصَابه، وأداله من جُنود الظُّلْم وأحزابِه؛ وأمضىٰ الحكمَ فيــه بٱعتزامٍ صادِق، ورأيٍ مُحصَــدِ الوَثائق؛ غير ملْتَفت إلىٰ مُراجعة الخُصُوم وتشَاجُرِهم، وشَكْواهم وتنَافُرِهم؛ آعتمادًا للواجب، وآنْتهاجًا لجَدَد العَــدْل اللَّاحب. قال الله تعـالىٰ: ﴿ يَادَاوُدُ إنَّا جَعلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِـعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيل اللهِ إنَّالّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَـا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَاب ﴾.

وأمره إذا آنتُدِب للقضاء أن يُفَرِّغ بالَه، ويَقْضِىَ أمامَهُ أوْطارَه وأشغالَه؛ ويُخَلِّى من أحوالِ الدنيا سِرَّه، ويَشْرحَ لمـا هو بصَدَده صَدْره؛ فلا تنْزِعُ نفْسُه إلىٰ تحصيل مأْرَب، ولا تتَطَلَّع إلىٰ دَرْك مَطْلَب؛ فإن القلْبَ إذا آكتنَفَتْه شُجُونه، وأحاطتْ به شُئُونه، كان عُرْضَــة لتشعُّب أفكاره، وحملِه علىٰ مَرْكَب آضطراره الجارى بضِدّ إيثارِه وآخْتياره؛ حرِيًّا بالتقصير عن الفَهْم والإفهام، والضَّجَر عند مشْتَجَر الخصام.

---

(١) « شروىٰ الشىء مثله ».

وأمره بالتثبُّت فى الحدُود، والاِستظهارِ عنـد إقامتِها بمن يَسْـكُن إلىٰ قوله من الشُّهود؛ والاِحتياطِ من عَجَل يُحيل الحكم عن بيَانه، أو رَيْثٍ يرجيه عند وُضُوحه وتبيانه؛ وأن يتجافىٰ عمّـا لم يُصَرَّح له بذكره وشَرْحه ، ولا يُسْرِعَ إلىٰ تصديقِ ساعٍ وإن تشَبَّه بالناصحين فى نُصْحه؛ حتّى يستبِينَ له الحقُّ فيُمْضيه ، عاملًا بمـا يُوجبه حكْمُ اللهِ فيه . وأن يَدْرأ من الحدُود ماآعترضَتِ الشُّبهةُ دليلَه، وكانتْ شواهدُه مدْخُولَه؛ ويُقيمَ منها ما قامتْ شُهودُه، ولم يُمْكن إنكارُه وجُحُودُه؛ مُكْبِرا لتَجافِيها، ومُعظِّما للتجوُّز فيها ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وأمره بتصَفُّح أحوال الشُّهود المُعدَّلين، المسموعةِ أقوالُهم فى أمور المسلمين وأحوال الدِّين؛ ومواصلةِ البحْث عن طرائِقهم، وآستِشْفاف خلائِقِهم؛ مستخْدما فى ذلك سِرَّه وجَهْره، وواصـلًا بعَوانِ دأْبه فيـه بِكْره؛ فمَنْ علِمه سـليما فى فِعْله، غيرَ ظَنِين فىأصْله؛ مُتَحرِّيا فى كَسْبه، مَرْضِيًّا فىمَذْهَبِه؛ حافظًا لكتاب الله سبحانه، مُتَمَسِّكا من علم الشريعة بمـا يَلْوِى عن مَهاوِى الخطإِ عِنـانَه؛ حاليًا بالدِّيانة المُنِـيرةِ المَطالع، حاميًا نفْسَه عن الإسْفاف إلىٰ دَنَايا المَطامِع، حاوِيًا من الظَّلَف والأمانه ، والقَدْر والصيانه ، والاِحتِراسِ والتحفُّظ، والتحَرُّز والتيقُّظ؛ ماتميَّز به علىٰ أشـكاله وأتْرابِه ، وطال مناكِبَ أمثـاله وأضْرابه ، فقد كمَلَتْ صفاتُه، وآقتضَتْ تقديمَـه أدواتُه؛ ووجب أن يُمْضِىَ كونَه عدْلا ، ويجعله لقَبُول الشهادة أهْلا . ومَنْ رآه عن هذه الخِلَال مقصِّرا ، وببعضها مستَظْهِرا ؛ وكان موسوماً بديانة مشكوره ، ونزاهة مأْثُوره ، رضِىَ بذلك منه قانِعا، وحكَم بقوله سامِعا . ومَنْ كان عن هذيْن الفريقين نائِيًـا، ولأحوالهم المبيَّنِ ذكرها نافيًـا، ألغىٰ قولَهُ مُطَّرِحا، وردَّ شهادتَه مصَرِّحا ؛ فإنَّ هٰؤلاء الشهودَ أعوانُ الحق علىٰ آنتصاره، وحربُ البـاطل علىٰ تَتْبِيره وبَوَاره ؛

ومَحجَّة الحاكم إلى قضائه ، ووَزَره الذى يستَنِد إليه فى سائرِ أنحائه ؛ فإذا أعْذَر فى ٱرْتيادِهم ، وٱستفرَغ وُسْعه فى ٱنْتقادِهم ، فقد خرجَ من عُهْدة الاْجتهاد ، وٱستحقَّ من الله جزاءَ المجتهِد يومَ التَّناد ؛ ومتى غرّر فى ذلك توجَّهت اللائمةُ عليه ، وكان قِمنًا بنِسبة التقصير فى الاْحتياط إليه ؛ والله يتولَّى السرائر ، ويَبْلُو خَفيَّات الضمائر ، قال سبحانه : ﴿ ممَّنْ تَرْضَوْنَ من الشُّهَداء ﴾ . وقال جل ذكره : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُم ويُسْأَلُون ﴾ .

وأمره أن يَكِل أُمورَ اليتامى فى أمْلاكهم وأمْوالهم ، ومراعاةِ شُئُونِهم وأحوالِهم ؛ إلى الثِّقات الأعفَّاء ، والكُفَاة الأتْقياء ، الذين لاتَسْتَهْوِيهم دَواعِى الطَّمَع ، ولا يُورِدُهم الإسفافُ مواردَ الطَّبَع ؛ وأن يتتبَّع أمورَهم ويتصفَّحها ، ويُشارِفَها بنَفْسه ويستَوْضِحها ؛ عالما أنه عمَّا فى أيديهم مسْئُول ، فإنَّ عُذْره فى إهمالٍ يتخلَّله غيرُ مقْبول ؛ وهو سبحانه يقول : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يأْكُلُونَ أَموالَ اليَتامى ظُلْمًا إنَّما يأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نارًا وسَيَصْلَوْنَ سعيرا ﴾ .

وأن يُوعِز إليهم بالإنفاق على أربابِها بالمعْرُوف : ليَنْتَهِجُوا فيها جَدَد القصد المألُوف ؛ حتَّى إذا بلَغُوا الحُلُم ، وأُونِس منهم الرُّشْد وعُلِم ؛ وساغَ لهم التصرُّفُ فى نُفُوسهم ، ووثِق منهم باستِدْرار معايِشِهم ، دفَع إليهم أموالَهم محرُوسَه ، ووَفَّاهم إيَّاها كاملةً غير منقُوصه ؛ مستظهِرا بالشَّهادة عليهم ، والبراءةِ منها بتسليمها إليهم ؛ اتِّباعا لقوله تعالى : ﴿ وٱبْتَلُوا اليَتامى حَتَّى إذَا بَلَغُوا النِّكاحَ فإنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوا إلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوهَا إسْرافاً وبِدَارًا أنْ يَكْبَرُوا ومَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ومَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فإذَا دَفَعْتُمْ إلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبا ﴾ .

وأمره بتزويج الأيامى اللواتى فقدن الأولياء ، واعتدى عليهن صَرْفُ الدهر وأساء ؛ وأضرّ بهن طولُ الإرمال، وبدت عليهن آثارُ الخَلَّة فى الحال ؛ فيُنكحهن أكفاءهن من الرجال ، ويُتِمّ عقد نكاحهن على مُهُور الأمثال .

وأمره بتفويض أمر الوُقُوف الجارية فى نظره إلى مَنْ يأمنه ويختاره ، وتُقرَن بإعلانه فى آرتضائه أسراره : من أهل التَّجربة والحَياء، ذَوى الاضطلاع والغَنَاء؛ فإنهم أقلُّ إلى المَطامع تشوُّفا ، وأبعدُ فى عواقب الأمور نَظَرا وتلطُّفا ؛ وأن يُوسِّع عليهم فى الأرزاق، فيُوصِّلها إليهم مُهَنَّاة عند الوُجوب والاستحقاق ؛ فبذلك يملك المرءُ نَفْســه ويستصلحها ، ويتجنَّبُ مواقفَ التُّهَم ويطرحُها ؛ وتجبُ عليه الحُجَّـةُ إن ثَلَم أمانه ، أو قارَف خِيانه ؛ مستظهِرًا بترتيب المُشْرِفين الذين خَبَر أحوالَهم ، وسَبَر أفعالَهم .

وأن يتقدّمَ إلى المستنابين قِبَلَه بالإنفاق عليها حَسَب الحاجة من محصُولها ؛ حافظا بما تعمَّده من ذلك لأصولها؛ وجِبايةِ آرتفاعها من مظَانِّها ؛ والتماس حقُوقها فى أوانها ؛ وصَرْفها فى وُجُوهها التى شرطها واقِفُوها ، وعيّن عليها أربابُها وأهْلُوها ؛ غيرَ مُخِلٍّ مع ذلك بالإشراف والتطلُّع ، ولا مُهْمِل للفَحْص والتبلُّغ ؛ فمَنْ ألفاه حميدَ الأثَر، ورضِيَّ العيان والخَبَر، عوّلَ عليه ، وفوّضَ مستَنِيما إليه ؛ ومَنْ وجده قد مَدّ إلى خيانةٍ يَدَه آستبْدَل به وعزَله، جزاءً بما فعله : ﴿ إنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كانَ خَوَّانًا أَثِيما ﴾ .

وأمره أن يَستخْلِف على مانأى عنه من البِلاد مَنْ جَمع [إلى الوقار] الحِلْمَ، وإلى الدِّراية الفَهْم ؛ وإلى التيقُّظ الاستبصار ، وإلى الوَرَع الاستِظْهار : ممن لا يَضيق بالأُمور ذَرْعا ، ولا تُحْدث له مُراجعةُ الخُصوم ضَجَرا ولا تبرُّما ؛ ولا يَتمادى

فى أسباب الزَّلَّه، ولا يُقصِّر عن الرجُوع إلىٰ الحقِّ إذا ٱتَّضَح له؛ ولا يكتَفِى بأدْنىٰ مَعْـدَلة عن بُلُوغ أقْصاها، ولا تتهافَتُ نفْسُــه علىٰ طاعةِ هوَاها؛ ولا يُرْجِئ الأخْذَ بالحجة عِنْدَ ٱنكشافها، ولا يعجِّل بحُكْمٍ مع ٱعتراض الشُّبْهة وٱكْتِنافها؛ ولا يستَميلُه إغْراء، ولا يَزْدَهِيه مَدْح وإطْراء؛ وأن يَعْهَدَ بمثل ماعَهِد أميرُ المؤمنين إليه، ويُعْذِر فى الإجْهادْ بإيجابِ الحجة عليه: ليبْرأَ من تَبِعةِ بادرةٍ عساه يأْتيها، أو مَزْلَقة تُناديه فيُهبُّ ملبيا لداعِيها؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلىٰ البِرِّ والتَّقْوىٰ وَلَا تَعاوَنُوا علىٰ الإثْمِ والعُدْوَانِ وٱتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب ﴾.

وأمره أن يُمْضِىَ ماأمضاه الحُكَّام قَبْله ولا يتعَقَّب أحكامَهم بتأْويل، مجتنبًا تَتبُّع عَثَراتهم، والبحْثَ عن هَفَواتهم؛ ومهْما رُفِع إليه من ذلك مما الإجماعُ عليه مُوافق، ولسانُ الكِتاب والسُّنَّة به ناطِق، أمْضاه وحَكَم به، وإن كان مباينًا لمَذْهبه: فإنَّ الحكومات كلَّها ماضيةٌ علىٰ ٱختلافِ جِهاتها، مستمِرّةٌ علىٰ تَنافِى صِفاتها، محميَّة عن التأويلِ والتعْليــل، محروسةٌ من التغيير والتبديل؛ ما كان لهــا مَخْرَجٌ فى بعض الأقوال، أو وُجِد لهــا عنـد الفُقهاء ٱحتِمال؛ إلّا أن يكونَ الإجمــاع منعَقِدا علىٰ ضِدّها، آخذا بالغــائها وردِّها؛ فيستفْرِغ فى إيضاحِها جُهْده، ويُنْفِق فى تلافِيها من الٱستطاعة وُجْده، حتّىٰ يُعِيدَها إلىٰ مقرّها من الواجب، ويُمضِيَها علىٰ الحقِّ اللّازِب؛ قال الله عز وجل: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَـا أنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّالِمُون ﴾.

وأمره أن يتَّخِـذ كاتبًـا بالظَّلَف موْسُوما، وبأدَقِّ مايُناط به قَيُّوما، خبيرًا بمـا يَسْـطُره، عالمًـا بمـا يَذْكُره، عارفا بالشُّروط والسِّجلّات، وما يتوجَّه نحوَها من التأْويلات، ويتداخَلُها مِن الشُّـبَه والتلبيسات؛ مطَّلِعا علىٰ أسرارها وعلَلِها، وتصاريف حِيَلها؛ متحرِّزًا فى كل حال، متنَزِّها عن مَذْموم الفعال؛ متَّخذا خشْية

الله شِـعارا ، مُسْبِلا دُونَ عِصْيانه من التُّقىٰ أستارا : فإنها نظاماته التى يرجِعُ إليها، ويَدُه التى يبطِشُ بها ويعوّل عليها ؛ ومتىٰ لم يكن له من نَفْسه وازع، ولا من عَقْله ودِينِه رادِع ؛ لم يُؤْمَنْ أن تدبَّ عَقاربُه ليـلا ، ويَسْحَب علىٰ الغوائل والمُوبِقات ذَيْلا، فيعُمَّ الضررُ بمكانه، ويُشرِع أذاه إلىٰ المسلمين حَدَّ سِـنانِه . وأن يتخَيَّر حاجبا طاوِيًا كَشْحَه دُونَ الأشرار، جامعًا لأَدَب الأخْيار، مُدَّرعا جِلْبابَ الحيـاء، طَلْقَ الوجه عند اللِّقاء، سَهْل الجانب لَيِّنَه ، مستشْعِر الخير متيقِّنه ؛ غير متجَهِّم للناس ، ولا معامِلهم بغير البَشَاشـة والإيناس ؛ فإنه البـابُ إليه، والمعتَمَد فى لقائه عليه ؛ فلينْتَخبه ٱنتخابَ من عَلِم أنَّ حُسنَ الثناء خيرُ زاد، وأنفَسُ ذُخْرٍ وعَتَاد؛ ورَأَى طِيِّب المَحْمَدة أجملَ كَسْب مراد ، وحَظٍّ مجسَّد مسـتَفَاد . ومتىٰ كان عن هـذه الخِلال متخَلِّيا، وبخلافها متحَلِّيا، ٱعتاض عنه بمن هو أسلَمُ غيبا، وآمَنُ ريبا، وأنقىٰ جَيْبا، وأقَلُّ عيبا، قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدا ﴾ .

وأمره أن يتسَـلَّم ديوانَ القضاء وما فيـه من الحُجَج والسِّجِلَّات، والوثائق والكَفَالات، والمَحَاضر والوَكالات ؛ بمَحْضَرٍ من العُدول ليكونُوا له مشاهِدين، وعليه شاهِدين؛ وأن يجعل خزَّانها من يرتَضيه، بٱجتماع أدواتِ الخير فيه؛ عاملًا فى حِفْظها بمـا تقتضيه الأمانةُ التى أشفَقَت السمٰواتُ والأرضُ والجبالُ منها ، وأقرَنَّ بالعجز عنها ؛ متحرّيا من أمرٍ يبوء معـه بالآثام ، فى دار المُقام ؛ قال الله تعـالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ علىٰ السَّـمٰواتِ والأَرْضِ والجِبَـالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولا ﴾ .

وأمره بمراعاة أمرِ الحِسـبة فإنها أكبرُ المصـالح وأهمُّها ، وأجمَعُها لنفْع النـاس وأعَمُّها، وأَدْعاها إلىٰ تحصينِ أموالهم ، وٱنتظامِ أحوالِهم؛ وحَسْم موادّ الفَساد،

وكَفِّ يَدِهِ عن الامتداد ، وأن يتقدّم إلىٰ المُستنابِ فيها بمُداومة الاطِّلاع علىٰ كمِّيَّة الأسعار، والفَحْص عن مادّةِ المخلُوقات فى الانقطاع والاستمرار، ومواصلةِ الجُلُوس فى أماكنِ الأقْوات ومَظَانِّها : ليكون تَسعيرُها بمقتضىٰ زيادتِها ونُقْصانِها، غيرَ خارج فى ذلك عن حدِّ الاعتدال ، ولا مائلٍ إلىٰ مايُجْحِف بالفريقين من إكثار وإقْلال ؛ وأن يُراعِىَ عِيارَ المكاييل والمَوازين ، ليميِّزَ ذوِى الصِّحَّة من المطفِّفين ؛ فيقول لمن حَسُن اعتباره [مَرْ] (١) حىٰ ويقابِلَ مَنْ ساء اختبارُه بما يجعَلُه لأمثاله رادعا، حتّىٰ يَزِنُوا بالقِسْطاس المستقيم، ويتجنَّبُوا التطفيف بقَلْب من إضمار المُعاوَدة سَليم؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَيْلٌ للمطفِّفينَ الَّذينَ إذا اكْتالُوا علىٰ النَّاس يَسْتَوْفُونَ وَإذَا كَالُوهُمْ أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العالَمِين ﴾ .

هـذا عهدُ أمير المؤْمنين إليك ، وحجّتُه عنـد الله تعالىٰ عليك، وقفَكَ [فيه] علىٰ منْهَج الصَّلاح ، وأعلَقَك منه إن اتَّبعتَه بأسبابِ النَّجاح، وأدرَّ به عليك خِلْفَ السَّعادة إن أَمْرَيْتَه (٢) بيَدِ القَبُول ، وجمع لك مع احتذائه بَدائدَ (٣) المأْمُول ، وعطَفَ لديْكَ متىٰ تمثَّلته شَوارِدَ السُّول، وأوجدَكَ ضالَّةَ متاعِك إن أصغَيْت إليـه سامِعًا مُطيعا ، وأعاد إنِ ائْتمرت بأوامره شَمْلَ أقوالِك جميعـا ، وأرادكَ مَرْعىٰ النجاة إن نهضْتَ بأعبائه مَريعا ، لم يَدَّخِرْك فيه شفيفا، ولا حَقَرَك إرشادًا وتَعْريفا ؛ خلَعَ به رِبْقَـةَ الأمانة عن عُنُق اجتهادِه، وأوضَحَ لك مايُسأَل غدًا عن فعله واعتمادِه .

فبادِرْ إلىٰ العمل به مُسْرِعا، وقُمْ بالمحدود فيه مُضْطَلِعا، واعلَمْ أنَّ لكل عالِم هَفْوه، ولكلِّ جَوادٍ كَبْوه، فاغضُضْ عن مَطامِح الهوىٰ طَرْفَك، واثْنِ عن أضاليـل الدُّنْيا

(١) مرحى كلمة تقال للرامى إذا أصاب تعجبا من رميه .

(٢) مرى الدم وأمراه استخرجه .

(٣) لعله مع اختزاله . تأمل

الغَزارةِ عِطْفَك ، واَخْشَ مَوْقِفًا تشْخَص فيه الأَبْصار ، وتَعْدَم الأعوانُ والأنصار ؛ يَوْمَ يَنْظُر المَرْءُ ماقَدّمتْ يَدَاه ، وتنقطع الوسائِلُ إلا ممَّن أطاعَ الله واَتّقاه ؛ يَنْعَم عَوْفُك(١) ، ويأْمَنْ يومَ القيامةِ خَوْفُك ؛ ومهما عَرَض لك من شُبْهة لم تُلف مَخْرَجا منها ، ولا صَدَرا عنها ، ولا وجدْتَ لسَقْبِها هِناء ، ولِدائها شِفاء ، فطالِعْ حضرةَ أمير المؤمنين بِحالهـا مستَعلِما ، وأَنْهِها إليه مستفْتِحا باستدعاء الجوابِ عما أصبح لدَيْك مستغْلِقا مُبْهَما ، يُمْدِدْك منه بمـا يُرِيك صُبْح الحق منبَلِجا ، وضِيقَ الشَّـكِّ مُنْفَرِجا ؛ عن علم عنــده البحر كالقِياس ، إلىٰ أوْشالِ النـاس ؛ واَلله تعـالىٰ يعضّد آراءَ أمير المؤمنين بالصواب ، ويُمِدّه بالتوفيق فى سائر الآراب ؛ ويقُود لمراده أزِمَّةَ جوامِحها الصِّعاب ، ما أنْجَم سَحَاب ، وأَثْجَم رَبَاب ، بمنِّه وسَعة فضله .

⁂

وهذه نسخةُ عهــدٍ بولاية القضاء بسُرَّ مَنْ رأىٰ ، كتب بها أبو إسحاق الصابى ، عن الطائع لله ، للقاضى أبى الحُسين محمد اَبن قاضى القُضاة أبى محمد عبيد الله ، ابن أحمــد بن معروف ، حينَ ولّاه القضاء بسُرَّ مَنْ رأىٰ وغيرها ، وما أُضيف إلىٰ ذلك من أعمال الجزيرة ، وهى :

هــذا ماعهِدَ عبدُ الله عبدُ الكريم ، الإمامُ الطائع لله أمير المؤمنين ، إلىٰ محمد اَبن قاضى القُضاة عُبيد الله بن أحمد ، حينَ عُرِفت الفضيلةُ فيه ، وتَقَيَّلَ(٢) مَذَاهبَ أبيه ؛ ونَشَأ من حِضْنه فى المَنْشإ الأَمِين ، وتبوّأَ من سَبَبه ونَسَــبه المتبَوّأَ المَصُون ؛ ووجده أميرُ المؤمنين مستحِقًّا لأن يُوسَم بالصَّنيعه ، والمنزلة الرَّفيعه ؛ علىٰ الحَداثة من سِنِّه ،

(١) العوف من معانيه البال والحال ومنه يقال فى الدعاء نعم عوفك .

(٢) يقال تقيل فلان أباه [أى بالياء المثناة] تقيلا اذا نزع اليه فى الشبه .

والغَضاضة من عُوده، سامياً به فى ذلك إلى مَراتب أعيان الرّجال، التى لا تُدْرَك إلّا مع الكمال والاكْتِهال: لِما آنَس من رُشْده ونَجابته، وآستوضح من عقْله ولَبابته، وآسترْجح من وَقاره وحِلْمه، وآستغْزر من دِرايته وعِلْمه، وللّذى عليه شيخُه قاضى القُضاة عبيدُ الله بن أحمد من حَصافة الدّين، وخُلوص اليقين، والتقدُّم على المتحلّين بِحلْيته، والمنتحِلين لِصناعته، والاستبدادِ عليهم بالعِلْم الجمّ، والمَعْنَى الفَخْم، والافتنانِ فى المَساعى الصالحةِ التى يَسُودُ أحدُهم بأحدِها، ويستحقّ التَّجاوُزَ لهم من آستوعبها بأَسْرها، وبالثّقة والأمانة، والعِفّة والنّزاهة، التى صار بها عَلَما فَرْدا، وواحداً فَذّا، حتّى تكلّفها من أجله مَنْ ليستْ من طَبْعه ولا سِنْخه، فهو المحمُود بأفعاله التى آختص بها وبأفعالِ غيرِه ممن حَذاه فيها، وبما نَفَق من بضائع الخير بعد كَسادها، وبالسابقة التى له فى خدمة المُطيع لله أوّلا ثم خدمة أمير المؤمنين ثانيا، فإنها [سابقة](١) شائعٌ خبَرُها، وجميلٌ أثَرُها، قوِيّةٌ دوَاعِيها، متمكّنة أوَاخِيها. وللمكانة التى خُصّ بها من أمير المؤمنين [ومن عزّ الدولة أبى منصور مولى أمير المؤمنين أيده الله](١) ومن نَصير الدولة الناصِح أبى طاهر رَعاه الله، ومن عُظَماء أهلِ حَوْزتهم، وأفاريقِ(٢) عوامّهم ورعِيّتهم؛ فلما صَدَق محمد فِراسةَ أمير المؤمنين ومَخايِلَه، وآحتذى سَجايا أبيه وشمائلَه، وحصل له ما حصل من الحُرُمات المتأثّله، والمَواتّ المتأصّله، أحرزَ من الأثَرة على قُرْب المَدى، ما لا يُحْرِزه غيرُه على بُعْد المَرْمى، وآستغنى أميرُ المؤمنين فيه عن طول التّجْربة والاختبار، وتكرُّر الامتحان والاعتبار. فقلّده الحكْمَ بين أهلِ سُرَّ مَنْ رأى، وتِكْرِيتَ، والطبرهان، والسِّنّ، والبَوازِيج، ودَقُوقا، وخانيجار، والبَنْدَنِيجَيْن، وبوحسابور، والرّاذانَيْن، [ومَسْكِن](١) وقُطْرُبُّل، ونهربُوق، والدبين، وجميع الأعمال

---

(١) الزيادة من "رسائل الصابى".

(٣) أفاريق جمع أفراق وأفراق جمع فرقة.

المُضافةِ إلىٰ ذٰلك والمنسوبةِ إليـه ، وشرَّفه بالخِلَع والحُمْلانـــ ، وضُروب الإنعام والإحْسان ، وكان فيما أعطاه من هذا الصِّيتِ والمَجْد ، ونحله إيَّاه من المَفْخَر العِدّ ، مبتغيًا ما كَسَـبه من الله الرِّضا والزُّلْفىٰ ، والسـلامةَ فى الفاتحة والعُقْبىٰ ، وراعيـًا لمـا يُوجِبـه لقاضى قُضاته عُبَيـدِ الله بن أحمدَ من الحقوق التى أخفىٰ منها أكْثَرَ ممـا أبْدىٰ ، وأمسكَ عن أضـعاف ما أحْصىٰ ، وذاهبـًا علىٰ آثار الأئمة المهديِّين ، والوُلاة المجتهِدين ، فى إقرار ودائعِهم عند المرَشَّحِين لحِفْظها ، المُضْطَلِعين بحملِها ، من أولادِ أوليائهم ، وذُرِّيَّة نُصَحائهم : إذ كان لا بُدّ للأسلاف أن تَمْضِى ، وللأخلاف أن تَنْمِى ؛ كالشجر الذى يُغْرَس لَدْنًا فيصيرُ عظيما ، والنباتِ الذى يَنْجُم رَطْبا فيصير هَشِـيما ؛ فالمُصيب من تخيَّر الغَرْس من حيثُ آستَنْجب الشجر ، وآسـتَحْلىٰ الثَّمر ، وتعمَّد بالعُرْف مَنْ طابَ منه الخَبَر ، وحَسُن منه الأثَر ، وأمير المؤمنين يسألُ اللهَ تعالىٰ تسديدًا تُحمَد عائدتُه ، وتَدِرُّ عليه مادّتُه ، ويتولَّاه فى العزائم التى يَعْزِمها ، والأمور التى يُبْرِمها ، والعقُودِ التى يعْقِدها ، والأغراضِ التى يعتَمِدها ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلَّا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنيب .

أمره باعتماد التَّقْوىٰ ، فإنَّها شِـعار أهلِ الهُدىٰ ؛ وأن يُراقِبَ اللهَ مراقبَةَ المتحرّز من وَعِيده ، والمتَنَجِّز لمَوَاعيده ؛ ويطَهِّر قلبـه من مُوبِقات الوَساوِس ، ويهذِّبَه من مُرْدِيات الهَوَاجِس ؛ ويأْخُذَ نفْسَـه بمآخذ أهلِ الدِّيـن ، ويكلِّفَها كُلَف الأبرار المؤمنين ؛ ويمنَعَها من أباطيل الهَوىٰ ، وأضاليلِ المُنىٰ ؛ فإنها أمَّارةٌ بالسُّوء ، صَبَّة(١) إلىٰ الغَىّ ؛ صادَّةٌ عن الخير ، صادِفَة عن الرَّشَـد ؛ لا ترجِعُ عن مَضَارّها إلّا بالشَّكائم ، ولا تنقادُ إلىٰ منافِعها إلا بالخَزائم ؛ فمَنْ كَبَحها وثَنَاها نجّاها ، ومن أطْلَقها وأمْرَجها(٢)

(١) أى مائلة الى الخ . (٢) فى الأصول والرسائل وأهرجها بالهاء ولعله تصحيف ففى اللسان "وأمرجها [أى الدابة] تركها تذهب حيث شاءت" فتنبه .

أرْداها . وأولىٰ مَنْ جعل تقوىٰ الله دَأْبَه ودَيْدَنه ، والخيفةَ منه منهاجَه وسَنَنه ؛ مَن ٱرتدىٰ رِداءَ الحُكّام ، وأمر ونَهىٰ فى الأحكام ، وتَصدّىٰ لكَفّ الظالم ، وردّ المَظَالم ، وإيجاب الحُدُود ودَرْئها ، وتحليلِ الفُروج وحَظْرها ، وأَخْذ الحقُوق وإعطائها ، وتنفيذِ القضايا وإمضائها : إذ ليس له أن يأمُر ولا يأْتمر ، ويَزْجُر ولا يَزْدَجِر ، ويأتىَ مثل ما يَنْهىٰ عنه ، ويَنْهىٰ عمّا يأتى مِثْلَه ؛ بل هو محقُوق بأن يُصْلِح ما بين جَنْبيْه ، قبلَ أن يُصْلِح ما رُدّ أمرُه إليه ؛ وأن يهذِّب من نِيَّته ، ما يحاوِلُ أن يهذِّب من رعيَّته ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُون ﴾ : ﴿ فاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُها النّاسُ والحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِين ﴾ .

وأمره بالإكثار من تِلاوة القرءانِ الواضِح سبيلُه ، الراشدِ دليلُه ؛ الذى مَنِ ٱستضاء بمَصابيحه أبْصر ونَجا ، ومن أعْرض عنها زَلَّ وغَوىٰ ؛ وأن يتخذه إمامًا يَهْتدى بآياته ، ويَقْتدِى ببيّناته ؛ ومثالًا يحْذُو عليه ، ويرُدُّ الأصولَ والفُروع إليه ؛ فقد جعله الله حُجّتَه الثابتةَ الواجبه ، ومَحَجّته المستبينَةَ اللّاحِبه ؛ ونُورَه الغالبَ الساطع ، وبُرهانَه الباهِرَ الناصع ؛ وإذا ورد عليه مُعْضِل ، أو غُمّ عليه مُشْكِل ، اعتَصم به عائذا ، وعَطَف عليه لائذا ؛ فبه يُكْشَف الخَطْب ، ويُذَلّل الصَّعْب ؛ ويُنال الأَرَب ، ويُدْرَك المَطْلَب ؛ وهو أحدُ الثقلين اللذين خلّفهما رسولُ الله صلى الله عليه وعلىٰ آله وسلم فينا ، ونصبهُما مَعْلَما بعدَه لنا ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللّٰهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيما ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ وإنَّه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يأْتِيه الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه وَلَا مِنْ خَلْفه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد ﴾ .

وأمره بالمحافظة على الصّلوات ، وإقامتها فى حقائق الأوقات ، وأن يدخل فيها أوانَ حُلُولها بإخلاص من قلبه ، وحضور من لُبّه ، وجمع بين لفظه ونيّته ، ومطابقة بين قوله وعمله ، مرتّلا للقراءة فيها ، مُفْصحا بالإبانة لها ، متثبّتا فى ركوعها وسجودها ، مستوفيا لحدودها وشروطها ، متجنّبا فيها جرائر الخطإ والسّهو ، وعوارض الخطل واللّغو : فإنه واقف بين يدى جبّار السماء والأرض ، ومالك البسط والقبض ، والمطّلع على خائنة كلّ عين وخافية كلّ صدر ، الذى لاتحتجب دونه طويّه ، ولا تستعجم عليه خبيّه ، ولا يضيع أجر محسن ، ولا يصلح عمل مفسد ، وهو القائل عز وجل : ﴿ وأقم الصّلاة إنّ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ .

وأمره بالجلوس للخصوم ، وفتح بابه لهم على العموم ، وأن يوازى بين الفريقين إذا تقدّما إليه ، ويحاذى بينهما فى الجلوس بين يديه ، ويقسم لهما أقساما متماثلة من نظره ، وأقساطا متعادلة من كلمه : فإنه مقام توازن الأقدام ، وتكافؤ الخواصّ والعوامّ ، ولا يقبل على ذى هيئة لهيئته ، ولا يعرض عن دميم لدمامته ، ولا يزيد شريفا على مشروف ، ولا قويّا على مضعوف ، ولا قريبا على أجنبىّ ، ولا مسلما على ذمّى ، ماجمعهما التخاصم ، وضمّهما التحاكم . ومن أحسّ منه بنقصان بيان ، أو عجز عن برهان ، أو قصور فى علم ، أو تأخر فى فهم ، صبر عليه حتّى يستنبط ماعنده ، ويستشفّ ضميره ، وينقع بالإقناع غلّته ، ويزيح بالإيضاح علّته . ومن أحسّ منه بلسن وعبارة وفضل من بلاغه ، أعمل فيما يسمعه منه فكره ، وأحضره ذهنه ، وقابله بسدّ خلّة خصمه ، والإبانة لكل منهما عن صاحبه ، ثم سلّط على أقوالها ودعاويهما تأمّله ، وأوقع على بيّناتهما وحججهما تدبّره ، وأنفذ حينئذ الحكومة إنفاذا يعلمان به أنّ الحقّ مستقرّ مقرّه ، وأن الحكم موضوع موضعه ، فلا يبقى للمحكوم عليه استرابة ولا للمحكوم له استزادة ، وأن يأخذ نفسه مع ذلك بأطهر

الخلائق وأحْمَدها ، وأهدىٰ السَّـجايا وأرْشَدِها ؛ وأن يقصـد فى مَشْيه ، ويُغضّ من صَوْته ، ويَحْذف الفُضُول من [لفظه و](١) لَحْظه ، ويخَفِّف من حَرَكاته ولَفَتاته ، ويتوقَّر من سائر جَنَباته [وجهاته](١) ، ويتجنَّب الخُرْق والحِدّة ، ويَتَوقّى الفَظاظةَ والشِّدّه ؛ ويُلين كَنَفه من غير مَهانة ، ويُرِبُّ هيبَتَه فى غير غِلْظة ؛ ويتوخّى فى ذلك وُقُوفا بين غايتيْه ، وتوسُّطا بين طَرَفيْـه ؛ فإنه يخاطِبُ أخْلَاطا من الناس مختلِفين ، وضُروبًا غير متّفقين ؛ ولا يخلو فيهم من الجاهل الأَهْوج ، والمظْلوم المُحْرَج ؛ والشيخ الهِمّ ، والناشئِ الغِرّ ؛ والمرأة الرَّكيكه ، والرجل الضعيف النَّحيزة ؛ وواجبٌ عليـه أن يَغْمُرَهم بعقْله ، ويشْمَلَهم بعدْله ؛ ويُقيمَهم علىٰ الآستقامة بسياسته ، ويَعْطِفَ عليهم بحِلْمه ورِياسَته . وأن يجْلِس وقد نالَ من المَطْعَم والمَشْرب طَرَفا يقِف به عند أوّل الكِفَايه ، ولا يبلُغ منه إلىٰ آخرِ النِّهايه ؛ وأن يَعْرِض نَفْسه علىٰ أسباب الحاجة كُلِّها ؛ وعوارِض البَشَرِيَّة بأَسْرها : لئـلا يُلِمّ به من ذلك مُلِمٌّ أو يَطِيفَ به طائفٌ فيُحِيلانه عن جَلَده ، ويَحُولان بينه وبين سَـدَده . ولْيكُنْ همُّـه إلىٰ مايقول ويُقال له مَصْروفا ، وخاطِرُه علىٰ مايَرِد عليه ويَصْدُر عنه موقُوفا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فاحْكُمْ بَيْنَ النـاسِ بِالْحَقِّ ولا تَتَّبِـعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عذَابٌ شَدِيدٌ بِمَـا نَسُوا يَوْمَ الحِسَاب ﴾ .

وأمره إذا ثبَت عنـده حقٌّ من الحقُوق لأحدٍ من الخُصُوم . أن يكتُبَ له متىٰ آلتمس ذلك إلىٰ صاحب المَعُونة فى عمله بأن يمكّنه منـه ، ويَحْسِم المعارضَات فيـه عنـه ، ويقبِضَ كلَّ يدٍ تمتـدّ إلىٰ مُنازَعتِه ، أو تتعدّى إلىٰ مجاذَبتِه ؛ فقد نَدَب الله

(١) الزيادة عن " رسائل الصابى " .

النـاسَ إلىٰ مُعاونةِ المُحق علىٰ المُبْطِل، والمظلومِ علىٰ الظـالم؛ إذ يقولُ عزّ وجلّ: ﴿ وتَعَاوَنُوا عَلىٰ البِرِّ والتَّقوىٰ ولا تَعاوَنُوا علىٰ الإِثْمِ والعُدْوان ﴾ .

وأمره أن يستصْحب كاتبًا دَربا بالمحاضر والسِّجِلَّات، ماهرا فى القضايا والحكومات، عالمًا بالشُّروط والحدُود، عارفًا بمـا يجُوز ومالايجُوز، غيرَ مقَصِّر عن القُضاة المستُورِين، والشُّهود المقْبُولين، فى طهارةِ ذَيْله، ونَقاءِ جَيْبه، وتصَوُّنه عن خُبْث المآكِل والمَطاعِم، ومُقارفة الرِّيَب والتُّهم؛ فإن الكاتب زمامُ الحاكم الذى إليه مَرْجِعُه، وعليه مُعَوَّله؛ وبه يحترِس من دَواهِى الحِيَل، وكَوامِن الغِيَل. وحاجبًا سديدًا رشـيدا، أديبًا لبيبـا، لايُسِفُّ إلىٰ دَنِيّة ولا يُلِم بمنكَرة؛ ولا يقْبَـل رِشْوه، ولا يلتمِسُ جَعَالةً؛ ولا يحجُب عنـه أحدًا يحُاوِل لقاءه فى وَقْته، والوصولَ إليـه فى حينِه. وخُلفاءَ يردُّ إليهم مابعُدَ من العمل عن مَقرّه، وأعجزه أن يتولّىٰ النظرَ فيه بنفسه؛ ينتخِبُهم من الأماثل، ويتخَيَّرهم من الأفاضل؛ ويعْهَد إليهم فى كلِّ ماعُهِد فيه إليـه، ويأخُذُهم بمثل ماأُخِذ به؛ ويجعَلُ لكلٍّ من هذه الطوائف رِزْقا يكُفُّه ويكْفِيه، وقُوتا يحْجُزه ويُغْنِيه؛ فليس تلزمُهم الحُجَّـــةُ إلا مع إعطائِهم الحـاجة، ولا تُؤخَذُ عليهـم الوثيقةُ إلا مع إزاحة العِلّة؛ فقد قال الله تعـالىٰ: ﴿ وأَنْ لَيْسَ للإِنْسانِ إلّا ماسَعىٰ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمَّ يُجْزاهُ الجَزاءَ الأَوْفىٰ ﴾ .

وأمره بإقرار الشهود الموسومين بالعَدَالة علىٰ تَعْديلهم، وإمضاءِ القضاءِ بأقْوالهم؛ وحملِهم علىٰ ظاهرِ السَّلامه، وشِعار الآستِقامه؛ وأن يعتمِدَ مع هـذا البحْثَ عن أديانهم، والفَحْصَ عن أماناتِهم، والإصـغاءَ إلىٰ الأحاديث عنهم: من ثناءٍ يتكرر، أو قَدْح يتردّد؛ فإذا تواتر عنـده أحدُ الأمرين، ركن إلىٰ المزكّى الأمين، ونبا عن المتّهم الظّنين: فإنه إذا فعل ذٰلك آغتبط أهلُ الأمانة بأماناتِهم، ونزَعَ أهلُ الخيانةِ

عن خياناتهم ؛ وتقرّبوا إليه بما تَنْفق سُوقُه ، ويُستحَقّ به التوجُّه عنده ، وٱستمرّ شُهودُه وأمناؤه ، وأتباعُه وخلفاؤُه ، علىٰ المَنْهج الأَوْضح ، والمَسْلك الأنْجح ؛ وتحصّنت الأموالُ والحقُوق ، وصِينت الحُرُمات والفُروج ؛ ومتىٰ وَقَف لأحدٍ منهم علىٰ هَفْوة لاتُغْفر ، وعثرةٍ لاتُقال ، أسقطه من عَدَدهم ، وأخرجه عن جُمْلتهم ؛ وٱعتاض منه من يَحْمَد دينَه ، ويرتضى أمانَتَه ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وإمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فانْبِذْ إلَيْهِمْ علىٰ سَوَاءٍ إنَّ اللهَ لايُحِبُّ الخائِنِينَ ﴾ . وقال فى الشهادة : ﴿وأَقِيمُوا الشَّهادَةَ لله﴾ .

وأمره بالضَّبْط لما يجرى فى عَمَله من الوقُوف الثابتةِ فى دِيوان حُكْمه ؛ والتعويلِ فيها علىٰ الأُمَناء الثِّقات ، والحُصَفاء الكُفَاة ، المعروفين بالظَّلَف والوَرَع ، المتنزِّهين عن النَّطَف(١) والجَشَع ؛ والتقدُّمِ إليهم فى حِفْظ أصولها ، وتوفيرِ فُروعِها ؛ وتثميرِ غلاَلها وٱرتفاعِها ؛ وصَرْفِها إلىٰ أهلها ومستحِقِّها وفى وُجوهها وسُبُلها ؛ ومطالبتِهم بحساب مايجْرِى علىٰ أيديهم ، والاستِقْراء لآثارهم فيه وأفعالِهم ؛ وأن يَحْمَد منهم من كَفىٰ وكَفَّ ، ويَذُم من أضاعَ وأسَفّ ؛ ويُنْزِل كُلًّا منهم منزِلَته التى ٱستحقَّها بعمَله ، وٱستوجبها بأَثَره ، قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأَمَانات إلىٰ أهْلِها وإذا حَكَمْتُمْ بيْنَ النَّاس أنْ تحْكُمُوا بالعَدْل إنَّ اللهَ نِعِمَّا يعِظُكُمْ بِهِ إنَّ اللهَ كانَ سَمِيعًا بَصِيرا ﴾ .

وأمره بالاحتياطِ علىٰ أموال الأيْتام ، وإسنادِها إلىٰ أعفِّ وأوثَق القُوّام ؛ والتقدّمِ إلىٰ كل طائفة بأن يجريهم مُجْرىٰ ولده ، ويقيمهم مُقَام سُلالته ، فى الشفقة عليهم ، والإصلاح لشُئُونهم ، والإشرافِ علىٰ تأديبِهم ؛ وتلْقينهم مالا يَسَع المسلم جهْلُه من الفرائض المفْتَرضة ، والسُّنَن المؤكَّدة ، وتخْرِيجِهم فى أبواب معَايِشهم ،

(١) هو بالتحريك العيب والريب .

وأسباب مَصالِحهم، والإنفاقِ عليهم من عَرْض أموالهم بالمعروف الذى لاشَطَطَ فيه ولا تَبْذير، ولا تَضْييق ولا تقْتِير، فإذا بلغُوا مَبالِـغَ كمالِهم، وأُونِس منهم الرُّشْـد فى متصَرَّفاتهم، أطلَقَ لهم أموالهم، وأشهد بذلك عليهم؛ فقد جعله الله بمـا تقلَّده من الحُكم، خلَفًا من الآباء لذَوِى اليُتْم؛ وصار بهذه الولايةِ عليهم مسْـئُولا عنهم، ومَجْزِيًّا عمـا سار به فيهم، وأوصـلَه من خير أو شرٍّ إليهم؛ قال الله تعـالىٰ: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدا إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُون أموالَ اليَتَـامىٰ ظُلْمًا إِنَّمَـا يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نارا وسَيَصْلَوْنَ سَعيرا ﴾.

وأمره بحفظ مافى دِيوانه من الوثائقِ والسِّجِلَّات، والحُجَج والبيِّنات، والوَصايَا والإقْرارات: فإنها ودائعُ الرعيَّة عِنـده، وواجبٌ أن يَحْرُسَها جُهده، وأن يَكِلَها إلىٰ الخُزَّان المأمُونين، والحَفَظة المتيقِّظين، ويوعزَ إليهم بأن لايُخْرِجوا شيئا منها عن موضِـعه ولا يُضيفوا إليها مالم يكن بعلْمِه، وأن يتَّخذ لهـا بيتًا يحصُرها به، ويجعله بحيث يأْمَنُ عليه: ليرجع متىٰ ٱحتاجَ الرجُوعَ إليه؛ فقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وعَهْدِهِمْ راعُون ﴾.

وأمره إن ورد عليه أمْرٌ يُعْييه فصلُه، ويشتبِه عليه وجْهُ الحكم فيه، أن يرُدّه إلىٰ كتاب الله، ويطلُبَ به سبيلَ المَخْلَص منه، فإن وجده وإلا ففى الأثَر عن رسول الله صلّى الله عليه وسـلم، فإن أدركه وإلا ٱستفْتىٰ فيه مَنْ يليه من ذَوِى الفِقْه والفهم، والهدايةِ(١) والعِلم؛ فما زالت الأئمةُ والحُكّام من السَّلَف الصالح، وطُرّاق السَّنَن الواضح؛ يستفتى واحدٌ منهم واحدا، ويسترشدُ بعضٌ بعضا؛ لزُوما لِلاجتهاد، وطلباً للصواب؛

(١) فى رسائل الصابى «وأهل الدراية».

وتحرُّزا من الغلط ، وتوقِّياً من العِثَار ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ فإنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فرُدُّوهُ إلىٰ اللهِ والرَّسُول ﴾ .

وأمره أنْ لاينقُضَ حكما حكم به مَنْ كان قبله ولا يَفْسَخه ، وأن يعمَل عليه ولا يَعْدِل عنه ، ما كان داخلاً فى إجماع المسلمين ، وسائغًا فى أوضاع الدِّين ؛ فإنْ خرج عن الإجماع ، أوضَحَ الحال فيه لمن بحَضْرته من الفقهاء والعلَماء حتّى يصيرُوا مثله فى إنكاره ، ويجتمعُوا معه علىٰ إيجاب رَدِّه ، ثم ينقُضه حينئذ نقْضا يَشِيع ويَذِيع ، ويعُود به الأمر إلىٰ واجبه ، ويستقِرّ معه الحقُّ فى نِصابه ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الفاسِقُون ﴾ .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحُجَّتُه عليك ؛ قد شرح به صدْرَك ، وأوضح به سُبُلك وأقام أعلامَ الهداية لك ، ولم يَأْلُك تبصيرا وتذكيرا ، ولم يَدَّخِرْك تعريفًا وتوقيفا ؛ ولم يجعلْك فى شيءٍ من أمرك علىٰ شُبْهة تعترِضك ، ولا حَيْرة تعتاقُك ؛ والله شاهدٌ له بخُروجه من الحق فيما وَصَّى وعَهِد ، وعليك بقَبُولك ماقبِلْتَ مما ولّى وقلَّد ؛ فإن عدلت واَعتدلْت ــ وذلك خليقٌ بك ــ فقد فاز وفُزْتَ معه ، وإن تجانَفْت وزَلَلْت ــ وذلك بعيدٌ منك ــ فقد رَبِح وخسِرْتَ دُونه ؛ فلْتكُنِ التقوىٰ زادَك ، والاَحتراسُ شِعارَك ؛ واَستعِنْ بالله يُعِنْك ، واَستَهْدِه يَهْدِك ؛ واَعتضِدْ به يُعَضِّدك ، واَستمِدّ من توفيقه يُمْدِدْك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

[وكتب نصيرُ الدولة الناصحُ أبو طاهر يومَ كذا من رجب سنة ست وستين وثلثمائة][1] .

---

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" .

وهذه نسخة عهد بقضاءِ القُضاة شَرْقا وغَرْبا ، كُتِب به عن الإمام الناصر لدين الله أحمد، للقاضى محيي الدين أبي عبد الله محمد بن فَضْلان ؛ من إنشاء أستاد الدار عضد الدين بن الضحَّاك، وهي :

هــذا ماعهِدَ عبدُ الله وخليفته فى العالَمين، المفتَرَضُ الطاعة علىٰ الخلق أجمعين ، أبو العبَّاس أحمدُ النـاصرُ لدين الله أميرُ المؤمنين ؛ إلىٰ محمد بن يحييٰ بنِ فَضْــلان : حين سَــبَر خِلاله وآستَقْراها، وآعتَبَر طرائقَه وآستَبْراها ؛ فألفاه رشيدًا فى مَذَاهبه ، سدِيدًا فى أفعاله وضَرائبه؛ موْسُوما بالرَّصانه، حاليًا بالوَرَع والدِّيانه؛ مبَرِّزا من العلوم فى فُنُونها ، عالمـا بمفْرُوض الشريعة المطَهَّرة ومسْــنُونها ؛ مُدّرِعا ملابِسَ العَفَاف ، قد أناف علىٰ أمثـاله فى بوَارِع الأَوْصاف ؛ فقَلَّده قضاءَ القُضاة فى مدينة الســلام وجميع البِلاد والأعمال، والنواحِي والأمْصار : شَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا ؛ سُكُونًا إلىٰ ماعلِم من حاله ، وآضْطِلاعه بالنهضة المُنوطة به وآستِقْلالِه ، وركُونًا إلىٰ قيــامه بالواجب فيما أُسْنِد إليه، ونُهوضه بِعِبْء ماعُوِّل فى حفظ قوانِينِه عليــه ؛ وآستنامةً إلىٰ حلُول الآصطِناع عنـــده ، ومصادَفتِه منــه مكانا تبَوّأه بالآستِحقاق وحْده ؛ والله تعالىٰ يعضِّد آراءَ أميرِ المؤمنين بمزيد التوفيق فى جميع الأُمور، ويُحْسِن له الخِيَرَة فيما يؤُمُّه من مَنَاظِم الدِّين وصَــلاح الجُمْهور ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلَّا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

أمره بتقوىٰ الله تعـالىٰ فى إعلانه وإسْراره، وتقَمُّص شِعارها فى إظهار أمره وإضْمـارِه؛ فإنها العُروة الوُثْقىٰ، والذُّخْر الأَبْقىٰ، والسعادةُ التى مادُونَها فوزٌ ولا فوقَها مَرْقىٰ؛ وهي حلْية الأبرار، وسِيَما الأخْيار، والمَنْهَج الواضح، والمَتْجَر الرابح؛ والسبيلُ

المؤدّى إلى النجاة والخلاص ، يومَ لاوَزَرَ ولاتَ حِينَ مَنَاص ؛ وأنفعُ العُدَد والذّخائر ، وخيرُ العَتَاد يوم تُنْشَر الصُّحُف وتُبْلَى السَّرائر ؛ يومَ تَشْخَص الأبصار ، وتَعْـدَم الأنصار : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ . ولا ينجُو من عذاب الله يومئذٍ إلا مَنْ كان زادُه التقوى ، وتمسّـك منها بالسبب الأقوى ؛ قال الله تعـالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

وأمره أن يجعل كتابَ الله إمامًا يَهْتَدِى بمَنَاره ، ويستَصْبِح ببَواهر أنْواره ؛ ويستَضِىءُ فى ظُلَم المشكلات بمُنِير مصْباحه ، ويقفُ عند حُدُود محظُوره ومُباحه ؛ ويتّخذُه مثالا يحتَذِيه ، ودليلًا يتَّبع أثَرَه فيهْدِيه ؛ ويعمَلُ به فى قضـاياه وأحكامه ، ويقتَدِى بأوامره فى نَقْضِـه وإبْرامه : فإنه دليلُ الهـدى ورائدُه ، وسائقُ النُّجْح وقائدُه ؛ ومعدِنُ العلم ومَنبَعُه ، ومَنْجَم الرَّشاد ومَطْلَعه ؛ وأحدُ الثقلين اللذين خَلَّفهما رسول الله صلّى الله عليه وسـلم فى الأمّه ، والذِّكْرُ الذى جعله الله تعالى تبْيانا لكل شىءٍ وهدًى ورحمه ؛ فقال عز من قائل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وأمره بانْتِزاع(1) الآثارِ النبوية صـلوات الله على صاحبها وسـلامه ، والاهتـداءِ بشُمُوسها التى تَنْجلى بها دُجُنّة كلِّ مشْكِل وظَلامُه ؛ والاقتداءِ بسُنَّة الشريعة المتبُوعه ، وتصَفُّح الأخبار المسمُوعه ؛ والعملِ منها بمـا قامتْ أدلَّة صِحّته من جميع جِهاتِه ، واستحكمت الثِّقة بنَقَلتِه عنه ــ عليه السلام ــ ورُواتِه ؛ وسلِمتْ أسانيدُه من قَدْح ، ورجالُه من ظِنَّة وجَرْح ، فإنّها التاليةُ للقرءان المجيد فى وُجوب العمل بأوامره ،

(1) فى اللسان ج ١٠ ص ٢٢٩ « انتزع بالآية والشعر تمثـل و يقال للرجل إذا استنبط معنى آية من كتاب الله قد انتزع معنى جيدا » .

والانتهاءِ بِروادعه وزواجرِه؛ وهو عليه الصلاة والسلامُ الصادقُ الأمينُ الذى ماضلَّ وما غَوىٰ، وما يَنْطِق عن الهَوَىٰ؛ وقد قرَنَ الله سبحانه طاعتَــه بطاعتِه، والعملَ بكتابه والأخْذَ بسُنَّته؛ فقال عز من قائل: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وأمره بمجالسة العلمــاء، ومُباحثــة الفُقَهاء؛ ومشاركتِهم فى الأُمور المشْــكِله، وعَوارِض الحكوماتِ المُعْضِله: لتستبِينَ سبيلُ الصواب، ويَعْرىٰ الحُكْمُ من مَلَابس الشُّبَه والارتياب؛ ويَخْلُصَ من خطإِ الانفراد، وغوائِلِ الاستبداد؛ فالمَشُورة باليُمْن مقرونه، والسلامةُ فى مَطَاوِيها مَضْمُونه؛ وقد أمر الله تعالىٰ بها نبيَّه صلّى الله عليه وسلم مع شَرَف منزِلته وكمالِ عِصْمته، وتأييدِه بوَحْيه وملائكتِه؛ فقال سبحانه: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وأمره بفتْح بابه، ورَفْع حِجَابه؛ وأن يجلس للخُصوم جلُوسا عامّا، وينْظُر فى أمورهم نَظَرا حسَنًا تامّا؛ مساوِيًا بينَهم فى نَظَره ولَحْظه، وإصغائه ولَفْظه؛ محترِزا من ذى اللَّسَن وجُرأة جَنانه، متأنِّيًا بِذى الحَصَر عنــد إقامة بُرْهانه، فرُبَّمـا كان أحدُ الخصمين أَلْحَنَ بحُجَّتــه، والآخَرُ ضعيفا عن مُقاوَمتِــه؛ هذا مَقـامُ الفحص والاستفهام، والتثبُّت وإمضاءِ الأحكام: ليسْلَم من خديعــة مُحْتال، وكَيْد مُغْتال؛ مائلًا فى جميع ذٰلك مع الواجِب، سالكًا طريقَ العَدْل اللّاحِب؛ غيرَ فارق فى إمضاء الحكم بين القَوِىّ والضعيف، والمَشْروف والشريف؛ والمـالك والمملُوك، والغنِىّ والصُّعْلوك، قال الله تعـالىٰ: ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ . وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وأمره أن يتصفّح أحوالَ الشهود، المسموعةِ أقوالُهم فى الحقُوق والحُدُود؛ المرجُوعِ إلىٰ أماناتِهم، المعمُول بشَهادتِهم؛ الذين بهم تُقام الحُجَج وتُدْحَض، وتُبْرَم الأحكامُ وتُنْقَض؛ وتُثْبَت الدّعاوىٰ وتُبْطَل، وتُمضىٰ القضايا وتُسجّل؛ مجتهدًا فى البحْث عن طرائِقهم وأحوالهم، وآنتقادِ تصاريفهم وأفعالهم، وآستِشْفاف سَجَاياهم، وعِرْفان مَزَاياهم؛ مخصِّصا بالتميز مَنْ كان حميدَ الخِلال، مَرْضِىَّ الفِعال؛ راجعًا إلىٰ وَرَع ودِين، متمسِّكا من الأمانة والنّزاهة بالسبب المَتِين، قال الله تعالىٰ: ﴿ وأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾.

وأمره بالنظر فى أمور اليَتامىٰ وأمْوالهم، ومراعاةِ شُئُونهم وأحوالِهم؛ وأن يرتِّب بسبب آتِّساق مصالحهم الثِّقاتِ الأعِفَّاء، والأُمَناءَ الأتْقياء؛ ممن ظهرتْ دِيانَتُه، وحسُنَت سَرِيرتُه؛ وآشتَهر بالظَّلَف والعَفاف، والتنزُّه عن الطمَع والإسْفاف؛ ويأمُرهم بحفظها من خَلَل يتخلّلها، ويدٍ خائنةٍ تَدْخُلها؛ وليْكن عليهم حَدِبا، وفى فَرْط الحُنُوّ أبا؛ وخَلَفا من آبائهم فى الإشْفاق عليهم، وحُسْن الآلتفاتِ إليهم: فإنّه عنهم مسْئُول، والعُذْرُ عند الله تعالىٰ فى إهمالهم غيرُ مقبُول؛ وأن يأْذَن لهم فى الإنْفاق عليهم بالمعْروف من غيرِ إسرافٍ ولا تقْتِير، ولا تضْيِيقٍ ولا تبْذير؛ فإذا بلغ أحَدُهم النِّكاح، وآنَس منه أماراتِ الرُّشْد والصَّلاح، دفع مالَه إليه، وأشهد بقَبْضه عليه؛ علىٰ الوجْه المنصُوص، غيرَ منْقُوص ولامَنْغُوص؛ ممتثِلا أمرَ الله تعالىٰ فى قوله سبحانه: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفىٰ بِاللهِ حَسِيبا ﴾.

وأمره بترويج الأيامَى اللّوَاتِى لاأولياءَ لهنّ من أكفائِهِنّ، بمُهورِ أمثالِهِنّ؛ وأن يشْمَل ذوات الغِنىٰ والفَقْر منهنّ بعدْله، ويتحرّىٰ لهنّ المصلحةَ فى عَقْده وحَلِّه.

وأمره ان يستنيبَ فيما بَعُد عنه من البِلاد ودَنَا ، وقُرب منه ونأىٰ ، كلَّ ذِى علم وآستبْصار ، وتيقُّظ فى الحـكم وآسـتِظْهار ؛ ونزاهةٍ شائعـه ، وأوصافٍ لأدوات الآسـتحقاق جامِعَهْ ؛ ممن يتحقّق نُهوضَـه بذلك وآضْطِلاعَه ، ويأمن آستِزْلاله وآنْخداعَه ؛ وأن يَعْهَد إليهـم فى ذٰلك بمثل ما عُهِد إليه ولا يألُوهم تنبيها وتذْكيرا ، وإرشادًا وتبصيرا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وتَعاوَنُوا علَىٰ البِرِّ والتَّقْوىٰ ولا تَعاوَنُوا علىٰ الْإثْم والعُدْوانِ ﴾ .

وأمره بإمضاء ما أمضاه قبْـله الحُكَّام ، من القضـايا والأَحْكام ؛ غير متعَقِّب أحكامَهُم بنقْض ولا تبْـدِيل ، ولا تغيـير ولا تَأْوِيل ؛ إذا كانتْ جائزةً فى بعض الأقْوال ، مُمْضاةً علىٰ وجهٍ من وُجُوه الآحتمال ؛ غيرَ خارقةٍ للإجمـاع ، عاريةً من مَلَابِس الأبْتداع ؛ وإن كان ذٰلك منا فيًا لمذْهَبه ، فقد سبَقَ حكمُ الحاكِم به ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ ومَنْ لَمْ يحكُمْ بِمَـا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالمُون ﴾ .

وأمره أن يتخذ كاتبًـا قيِّما بشُروط القضايا والسِّجِلَّات ، عارفًا بمـا يتَطرّق نحْوَها من الشُّبَه والتأْويلات ، ويتَداخَلُها من النَّقْص والتلبيسات ؛ متحَرِّزًا فى كلِّ حال ، متنَزِّها عن ذَميم الأفعال . وأن يتخـيَّر حاجبًا نَقِيّ الجَيْب ، مأمونَ المَشْهَد والغَيْب ؛ مستشْعرًا للتقوىٰ ، فى السِّر والنجوىٰ ، سالكًا للطريقة المثلىٰ ؛ غير متَجَهِّم للناس ، ولا معتمدٍ مايُنافِى بَسْط الوجه لهم والإينـاس : فإنه وُصْلتهُم إليه ، ووجْهُه المشهودُ قبلَ الدخول عليه ؛ فلينتَخِبْه من بَين أصحابه ، وممن يرتَضِيه من أمثاله وأضْرابه .

وأمره بتَسـلُّم ديوان القضاءِ والحُكْم ، والآستظهار علىٰ ما فى خَزائنـه بالإثبات والخَتْم ؛ والآحتياط علىٰ مابه من المـال والسِّجلّات ، والحُجَج والمحاضر والوكَالات ؛

والقُبُوض والوثائق والأثْبات والكَفالات ، بمحْضَر من العُـدُول الأُمناء الثِّقات ؛ وأن يرتِّب لذٰلك خازنا يُؤدّى الأمانةَ فيه ، ويتوخّى ماتُوجبه الديانة وتقتضيه .

وأمره بمراعاة أمر الحِسْبة : فإنهـا من أكْبَر المصالِح وأهمِّها ، وأجمعِها لمنـافِع الخَلْق وأعمِّها ، وأدْعاها إلىٰ تحصينِ أمْوالهم ، وآنتظامِ أحْوالهم ؛ وأن يأمُر المستنابَ فيها باعتبار سائرِ المَبِيعات فيها : من الأقوات وغيرها فى عامَّة الأَوْقات ؛ وتحقيق أسباب الزيادة والنُّقْصان فى الأسعار ، والتصدّى لذٰلك علىٰ الدَّوام والآستِمْرار ؛ وأن يُجْرِى الأمرَ فيها بحسَب ماتقتضِيه الحالُ الحاضِره ، والموجباتُ الشائعةُ الظاهِره ؛ وآعتبارِ المَوازِينِ والمَكايِيل ، وإعادة الزائِد والناقِص منها إلىٰ التَّسْوية والتعـديل ؛ فإنِ آطَّلَع لأحد من المتعاملين علىٰ خيانةٍ فى ذٰلك وفِعْلٍ ذَميم ، أو تطفيف عَدَل فيه عن الوزن بالقِسْطاس المستَقِيم ، أنالَهُ من التأْديب ، وأسـباب التَّهْذيب ، ما يكونُ له رادِعا ، ولغيره زاجِرًا وازِعا ؛ قال الله تعـالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا آكْتَالُوا عَلىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون أَلا يَظُنُّ أُولٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العالَمِين ﴾ .

وهـذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليك ، وحُجَّتُه عندَ الله تعـالىٰ عليك ؛ قَدْ أولاكَ من صُنُوف النِّعم والآلاء ، وجزِيلِ الكَرَم والحِباء ، ما يُوجب عليك الاعترافَ بقَـدْره ، وآستِيزاعَ شُكره ؛ ووقَف بك علىٰ مَحَجَّة الرَّشاد ، وهـداكَ إلىٰ مَنْهَج الحقِّ وسَنَن السَّداد ؛ ولم يأْلُكَ تَثْقِيفا وتَبْصـيرا ، وتَنْبِيها وتذكيرا . فتأمَّلْ ذٰلك متدبِّرا ، وقِفْ عنـد حُدُود أوامِره ونَواهِيه مستَبْصِرا ؛ وآعمَلْ به فى كلِّ ما تأتيه وتَذَرُه ، وتُورِده وتُصْـدِرُه ؛ وكنْ للمَخِيلة فى آرْتِيادك محقِّقا ، وللمعتقَد فيك مُصَـدِّقا ؛ تفُزْ من خير الدارين بمُعلَّى القِداح ، وإحمـادِ السُّرىٰ عند الصَّباح ؛ وحسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعم الوكِيلُ .

الضـــرب الثـانى

(ممـا كان يكتب بِديوان الخلافة ببغْدادَ لأرباب الوظائف من أصحاب الأقـــلام التواقيعُ)

وطريقتُهم فيها أن يفْتتح التوقيعُ بلفظ «أحَقّ» أو «أَوْلى» أو «أقْمَنُ مَنْ أُفِيضت عليه النِّعم» أو «مَنْ فُوّض إليه كذا» أو «مَنْ نُوّه بذكره» ونحو ذلك «مَنْ كان بصفة كذا وكذا» ثم يقال: «ولمـا كان فلانٌ بصفة كذا وكذا، فُوّض إليه كذا وكذا» أو «أُسْنِد إليه كذا وكذا» ونحو ذلك.

وهــذه نسخة توقيع بتدريس، كُتِب به عن الإمام الناصرلدين الله، للقــاضى محيي الدين «محمد بن فَضْلان» بتدريس المَدْرسة النِّظاميةّ ببغْداد، فى ســنة أربعَ عشرةَ وستِّمائة، وهى:

أَحَقُّ مَنْ أُفِيضَتْ عليه مَجَاسِدُ النِّعَمْ (١)، وجُذِب بضَبْعه إلىٰ مَقام التنويه وتقَدُّم القَدَم، مَنْ أسـفَر فى أفضـية الفَضائل صبـاحُه، وٱنتَشر فى العـالَمِ عِلمُه وأزْهر مِصْـبـاحُه.

ولَّمـا كانَ الأجَلُّ الأوحَدُ، العـالم، مُحْيِي الدين، حُجَّة الإسـلام، رئيس الأصحابِ، مُفْتِى الفريقين، مُفِيد العُلُوم، أبوعبد الله «محمد بن يحيىٰ بن فَضْلان» أدام الله رفعته، ممن نَظَم فرائدَ المَحامد عِقْدُه النَّضِـيد، وأَوَىٰ من العلم والعَمَل إلىٰ رُكْن شدِيد، وثَبَتَتْ قدمُه من الديانة علىٰ مستَثْبَت راسخ وقَرارٍ مَهيد ــ رُؤِى التعويل فى تفويض التدريس بالمَدْرسة النِّظاميّة إليه: ثقةً بٱضْطِلاعه وٱستِقْلاله، وتبْريزه

(١) المجاسد جمع مجسد بالضم والكسر الثياب التى تلى الجسد وقد تكون مصبوغة بالجسد وهو الزعفران.

فى حلبات الاستباق على نظرائه وأمثاله ، وتراجع المساجلين له عن فوت غايته وبعد مناله ؛ وأسند إليه ـ أدام الله رفعته ـ النظر فى أوقاف المدرسة المذكورة بأجمعها ، واعتماد ما شرطه الواقف فى مصارفها وسبلها ؛ سكونا إلى كفايته ، وركونا إلى سداده وأمانته .

ورسم له تقديم تقوى الله تعالى التى ما زال منتهجا لطرائقها ، متمسكا بعصمها ووثائقها ؛ وأن يشرح صدره للتعلمين ، ولا تأخذه ضجرة(١) من المستفيدين ، ولا تعدو عيناه عن جهلاء الطالبين ؛ ولا يتبرم بالمبالغة فى تفهيم المبتدى ، ولا يغفل عن تذكير المنتهى : فإنه إذا احتمل هذه المشقة ، وأعطى كل تلميذ حقه ، كان الله تعالى كفيلا بمعونته ، بحسب ما يعلم من حرصه عليهم وإخلاص نيته . وليكن بسائر المتفقهة معتنيا رفيقا ، وعليهم حدبا شفيقا ؛ يفرع لهم من الفقه ماوضح وتسهل ، ويبين لهم ما التبس من غوامضه وأشكل ؛ حتى تستنير قلوبهم بأضواء علوم الدين ، وتنطق ألسنتهم فيها باللفظ الفصيح المبين ، وتظهر آثار بركاته فى مراشده وتبين ؛ ولتتوفر همته فى عمارة الوقوف واستنمائها ، والتوفر على كل ماعاد بتزايدها وزكائها ؛ بحيث يتضح مكان نظره فيها ، ويبلغ الغاية الموفية على من تقدمه ويوفيها ؛ ولا يستعين إلا بمن يؤدى الأمانة ويوفيها ، ويقوم بشرائط الاستحفاظ ويكفيها ؛ وهو ـ أدام الله رفعته ـ يجرى من عوائد المدرسين والمتولين قبله على أوفى معهود ، ويسامى به إلى أبعد مرتقى ومقام محمود ؛ وأذن له فى تناول إيجاب التدريس ونظر الوقوف المذكورة ، أسوة من تقدمه فى التدريس والنظر فى الوقوف ، على ماشرط الواقف فى كل ورد وصدر ، واعتماد كل ماحده فى ذلك ومثله من غير تجاوز .

---

(١) هى بالضم التبرم والتضجر . انظر القاموس .

النـــــوع الرابـــــع
(ممـا كان يُكْتَب من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكْتَب لزُعَماء أهل الذِّمَّة)

وطريقُهم فيه أن يُفتَتَح بلفظ : « هذا كتابٌ أمَر بكَتْبه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىّ أمير المؤمنين لفلان » ثم يقال : « أما بعدُ فالحمدُ لله » ويؤتىٰ فيه بتحميدة أو ثلاث تحميداتٍ إن قُصِد المبالغة فى قهر أهل الذمَّة بدُخُولهم تحت ذِمة الإسـلام وآنقيادِهم إليه . ثم يذكر نظَر الخليفة فى مصالح الرعِيَّة حتّى أهلِ الذمة، وأنه أُنْهِى إليه حالُ فلان وسُئِل فى توليته علىٰ طائفته فولَّاه عليهم للميزَة علىٰ غيره من أبناء طائفته ونحو ذٰلك، ثم يُوصِيه بمـا يناسبُه من الوصايا .

وهـذه نسخةٌ من ذلك، كُتِب بها عن القائم بأمر الله، لعَبْـد يَشُوعَ الجْاثَلِيق، من إنشاء العلاء بن مُوصَلَايا، وهى :

هذا كتابٌ أمر بكَتْبه عبـدُ الله أبو جعفرٍ عبـد الله الإمامُ القـائم بأمر الله أميرُ المؤمنين، لعَبْد يَشُوعَ الجاثَلِيق الفَطْرَك .

أما بعـدُ، فالحمدُ لله الواحدِ بغَير ثان ، القديمِ لاعَنْ وُجُودِ زَمَان، الذى قَصُرت صنيعة الأوهام، عن إدراكه وحارَتْ، وضَلَّتْ صـنيعة الأفهام، عن بُلُوغ مَدىٰ صِـفاتِه وحالَتْ، المتنزِّه عن الوَلَد والصاحبه، العاجزةِ عن إحاطة العـلم به دلائلُ العقُول الصافيَةِ الصائبـه، ذِى المَشِيئة الحالِيَـة بالمَضَاء، والقُدْرة الجـارِيَة عليها تصاريفُ القَـدَر والقضاء، والعظمةِ الغَنِيَّـة عن العَوْن والظَّهِير، المتعالى بها عن الكُفْء والنظِير، والعِزَّة المكتَفِية عن العَضُـد والنصـير، ﴿ لَيسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِير ﴾ .

والحمدُ لله الذى آختارَ الإسلامَ دِينا وآرْتضاه، وشَامَ[1] به عَضْبَ الحقِّ علىٰ الباطل وآنْتضاه، وأرسل محمدًا ـ صلىٰ الله عليه ـ مُنْقِذا من أشْراكِ الضِّلَّه، وكاشفًا عن الإيمان ماغَمَره من الإشراك وأظَلَّه، وبعثه ماحيًا أثَرَ الكُفْر من القلُوب والأسْماع، وناحيًا فى آتِّباع أوامرِه ماجَدّ فى البِدار إليه والإسْراع، وأدّىٰ[2] ماحُمِّله أحسنَ الأداء، وداوىٰ بمُعْجِز النبوّة من النفوس مُعْضِل الداء، ولم يزَلْ لأعلام الهدىٰ مُبِينا، ولحبَائل الغَىّ حاسمًا مُبِينا، إلىٰ أن خلَص الحقُّ وَصَفا، وغدا الدِّينُ من أضداده منتَصِفا، وآتَّضح للحائر سَنَنُ الرَّشَد، وآنقاد الأبِىُّ باللِّين والأَشَد، فصلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين، وأصحابه المنتخَبِين، وخُلفائه الأئمة الراشدين، وسلَّم تسليما .

والحمد لله الذى آستخْلصَ أميرَ المؤمنين من أزْكىٰ الدَّوْحة والأَرُومه، وأحَلَّه من عِزِّ الإمامةِ ذِرْوةً للمجْد غيْرَ مَرُومه، وأصار إليه من تُرَاث النبوّة ماحَوَاه بالآستحقاق والوُجُوب، وأصاب به من مَرامِى الصَّلاح ماحُميت شُموسُه من الأُفُول والوجُوب، وأوْلاه من شَرَف الخلافة ما آستَقْدَم به الفخْرَ فلبّى، وآستخْدَم معه الدَّهرَ فما تأبّى، ومنح أيَّامه من ظهُور العدْل فيها وآنْتِشاره، ولَقَاح حَوامِلِ الإنصاف فيها ووَضْع عِشَاره، ماقَضَل به العُصُور الخالِيَه، وظلَّت السيَرُ متضمِّنةً من ذكرها ما كانت من مثلِه عارِيَةً خالِيَهْ، وهو يستَديمُه ـ سبحانه ـ المَعُونةَ علىٰ ما يُقَرِّب لَدَيْه ويُزْلِف عنده، ويستمدُّه التوفيقَ الذى يغْدُو لعزائمه الميمُونةِ أوفىٰ العَضُد والعُدَه، وما توفيقُ أميرِ المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكّلُ وإليه يُنِيب .

---

(١) شام السيف شيما سله .

(٢) فى الأصول وأدلى ... ... الادلاء . وهو تصحيف كما لايخفىٰ .

وأميرُ المؤمنين مع ماأوجب الله تعالىٰ عليه من ٱختصاص رَعاياه [بالمَواهب] التى يَمُدّ عليهم رِواقَها، ويَرُدّ بها إلىٰ أغصان صَلاحِهم أوْراقَها ؛ ويُلْقِى علىٰ أجْيادهم عُقُودها ، ويَقِى رياحَ ٱئتلافِهم رُكُودَها ، يرىٰ أنْ يُولِىَ أُولِى الاَسـتقامة من أهل ذِمّته ضُروبَ الرأفة وصُنوفَها، وأقسامَ العاطفة الدافعةِ عنهم حوادِثَ الغِيَر وصُروفَها؛ بمقتضىٰ عُهُودِهم القويَّة القُوىٰ، وأذِمّتِهـم(١) التى يلزمُ أن يحافِظَ عليها أهلُ العدل والتقوىٰ؛ ويغتمِدَهم من الضَّرر الغـامر ، والإجمامِ المُضاهِى الآنِفُ منـه الغابِر؛ بمـا يَقْبِض يدَ الضَّيْم وكَفَّه، وأن يحبُوَهم من الحِياطة بما يحرُس رُسومَهم المستمرّة من أسباب الآختلال ، ويُجْرِيهم فيها علىٰ ماسنّه السلَفُ معهم من مألُوف السَّجَايا والخِلَال .

ولمـا أُنْهِى إلىٰ حضرة أمير المؤمنين تمييزُك عن نُظَرائك ، وتَحَلِّيك من السَّـداد بمـا يستَوْجِبُ معه أمثالُك المبالغةَ فى وصْفِك وإطرائك ؛ وتخَصُّصُك بالأنحاء التى فُتَّ فيها شَأْوَ أقرانِك، وأفدْتَ بها ماقصّر معه مُساجِلُك من أبناء جِنْسك أن يعْدِلَك فى مِيزانِك ؛ وما عليه أهلُ نِحلتك مِن حاجتهم إلىٰ جاثَليق كافلٍ بأُمُورهم، كاف فى سياسة جُمْهورهم؛ مستقِلٍّ بما يلزمه القِيامُ به، غيرِ مُقِلٍّ بمـا يتعيَّن مثلُه فى أدوات مَنْصبه؛ وأنَّ كُلًّا ممن يُرْجَع إليه منهم لَمَّـا تصَفَّح أحوالَ متقدِّمِى دينِهم وٱستَشَفّ، وأعمل الفِكْر فى ٱختيار الأرجَح منهم والأشـفّ ؛ وٱتفقُوا من بعدُ علىٰ إجالة الرأْى الذى أفاضُوا بينَهـم قِدَاحَه، وراضُوا به زَنْد الآجتهاد إلىٰ أن أوْرىٰ حين راموا ٱقتِدَاحَه ؛ فلم يُصادفُوا مَنْ هو بالرياسـة عليهم أحقُّ وأحْرىٰ، وللشُّروط الموجبة التقديمَ فيهم أجمعُ وأَحْوىٰ ؛ وعن أموالِ وُقُوفهم أعفُّ وأوْرَع ، ومن نَفْسه لداعى التحرّى فيها أطْوعُ وأتْبَع ، منك . اختارُوكَ لهم راعِيًا ، ولِمَـا شَدّ نِظامَهم ملاحظا

(١) جمع ذمام بالذال المعجمة وفى اللسان الذمام والمذمة الحق والحرمة .

مُراعِيا؛ وسألُوا إمضاء نَصِّهم عليك والإذْنَ فيه ، وإجراءَ الأمر فيما يخُصُّـك أسَدَّ مَجارِيه ؛ وترتِيبَك فيما أُهِّلْت له وحُمِّلْتَ ثِقْـله ، وٱختصاصَك علىٰ من تقدَّمَك من الأضراب ، بمزيدٍ من الإرْعاء والإيجاب ؛ وحمْلَك وأهلَ نِحْلتك علىٰ الشُّروط المعتاده ، والرسومِ التى إمضاءُ الشريعةِ لهـا أوْفىٰ الشَّهاده ـ رأىٰ أميرُ المؤمنـين الإجابةَ إلىٰ ماوُجِّهتْ إليه فيه الرَّغْبـه ، وٱستخارة الله تعالىٰ فى كل عَزْم يُطْلِق شَـبَاه ويُمْضى غَرْبه ؛ مقتَدِيا فيما أسْداه إلَيْك ، وأسْناه من أنْعُمه لَدَيْك ؛ بأفعال الأئمةِ الماضين ، والخلفاء الراشدين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، مع أمثالك من الجَثالِقَةِ الذين سَبَقُوا ، وفى مقامك ٱتَّسَقُوا ؛ وأوْعز بترتيبك جاثَلِيقًا لنُسْطور النَّصارىٰ بمدينة السلام وسائر البِلاد والأصْقاع ، وزعِيمًا لهم وللُّروم واليَعاقِبة طُرًّا ، ولكلِّ من تَحْويه ديارُ الإسلام من هاتين الطائفتيْن مِمَّن بها يستقِرّ وإليها يطْرا ؛ وجعل أمرَك فيهم ممتَثَلا ، وموضعَك من الرِّياسة عليهم متأثِّلا ؛ وأن تنفرد بالتقدُّم علىٰ هذه الطوائف أجْمَع : ليكونَ قولُك فيما يُجِيزه الشرعُ فيهم يُقْبَـل وإليك فى أحوالهم يُرْجَع ؛ وأنْ تميز بأُهْبة الزَّعامة ، فى مجامع النصارىٰ ومُصَلَّياتهم عامّةً ، من غير أن يَشْرَكَك فيها أو يشاكِلُك فى النِّسبة الدالة عليها مَطْرانٌ أو أُسْـقُفٌّ للروم أو اليَعاقِبة : لتَغْدُوَ شواهدُ ولايتك بالأوامر الإمامية باديةً للسامع والناظر ، وآثارُ قُصُورهم عن هذه الرُّتْبـة التى لم يبلُغُوها كافَّةً للمُجادِل منهم والمُناظِر ؛ ومُنِعُوا بأَسْرهم عن مساواتك فى كلِّ أمر هو من شُروط الزَّعامة ورُسُومها ، والتَّرَيِّى بمـا هو من علاماتها ووُسُومها ؛ إذ لاسبيلَ لأحدِهم أن يَمُـدّ فى مُباراتك باعه ، ولا أن يخْرُج عن المُوجَب عليه من الطاعة لك والتِّباعه ؛ وحَمَلك فى ذاكَ علىٰ مايدُلّ عليـه المنشورُ المنشَأُ لمن تقدَّمك ، المُمْضىٰ لكَ ولكلِّ من يأتى بَعْـدَكَ ؛ المُجَدِّدُ بمـا حواه ذِكْرَ ما نطقَتْ به المناشـيرُ المقرّرةُ فى أيام الخلفاء الراشدين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، لمن تقدَّمَك فى مَقَامك ، وأحرزَ سبْقَ مَغْزاك

ومرامك : من كونِ المنصوبِ فى الخَلْقَة إليه الزَّعامةُ علىٰ ماتضُمُّه ديارُ الإسلام من هذه الفِرَق جَمْعا ، والمنصوصُ عليه فى التقدّم الذى ليس لغيره من رياضه مَرْعىٰ ؛ وتقدّمَ أميرُ المؤمنين بحِياطتك وأهل نِحْلتك فى نُفوسِكم وأموالكم وبِيَعِكم ، ودِياركم ومَقارِّ صلواتكم وحِراسةِ أموالكم ، وٱعتمادِكم بأقْسام الكَلاءة علىٰ أجمل الرَّسْم معكم ؛ وأن تُحْمَوْا من نَقْض سُنَّة رضيَّة قُرِرتْ لكم ، ودَحْض وتيرةٍ حميدةٍ ٱستُعْمِلت فى فَرْضكم ؛ وأن تُقبَض الجِزيةُ من رجالكم ذَوِى القُدرة علىٰ أدائها بحَسَب ماجرت به عاداتُكُم دون النساء ومن لم يبْلُغ الحُلُمَ دَفْعــة واحدةً فى الســنه ، وتُجْرَوْا فى ذٰلك علىٰ السجيَّة التى تناقَلَها الرُّواة وتداولتها الألْسنه ؛ من غير تَثْنية ولا تكرير ، ولا تَرْنيق لَمنْهَل المعْدَلة عندكم ولا تَكْدير ؛ وأن تُحْبىٰ بالشَّدّ دائمـا وتقويةِ يدك علىٰ من نصَبْته فى أمورهم ناظرًا ولشَمْلهم ناظما ؛ ويُفْســح لك فى فصْــل ما يَشْجُرُ بينهم علىٰ سبيل الوَساطه : لتقصِــد فى ذاكَ ما يَحْسِمُ دواعِىَ الخُلْف ويَطْوِى بِساطَه ؛ وأن تُمْضى تثْقيفَك لهم وأمْرَك فيهم ، أسوةَ ماجَرىٰ عليه الأمْرُ مع مَنْ كانــ قبلك يَلِيهِــم ؛ لتُحْسِن معه السيرةَ العادلَة(١) عليهــم بحِفْظ السَّوَام ، المطابقَة للشروط السائغةِ فى دِين الإســـلام .

وأمر بإنشاءهذا الكتاب مشتَمِلا علىٰ ماخَصَّك به ، وأمْضىٰ أن تُعامَل بموجَبه ؛ فقابِلْ نعمةَ أميرِالمؤمنين عندَك بمــا تستوجِبُه من شــكرٍ تبْلُغ فيه المَدَىٰ الأقْصىٰ ، وبِشْرٍ لايُوجِد التصــفُّحُ له عندك قُصورا ولا نَقْصا ؛ وواظِبْ علىٰ الاعتراف بمــا أُولِيتَه من كلِّ ما جَمَّلك ، وصدّقَ ظَنَّك وأمَلَك ؛ وٱستزد الإنعامَ بطاعةٍ تَطْوِى عليها الجَوانح ، وأدعيةٍ لأيامه تُتْبِـع الغادِىَ منها بالرائح ؛ وتجنَّبِ التقصيرَ فيما بك عُدِق ، وإليك وُكِلَ وعليك عُلِّق ؛ وٱحتفظ بهذا الكتاب جُنَّة تمنعُ عنك ريْبَ الدَّهرِوغيْرَه ،

(١) لعله العائده ، تأمل .

وحِجّةً تحمل فيها على ما يَحْمِى مأمُنحْته من كل ماشِعْته (؟) وغَيْره ؛ وليَعْملْ بهذا المثال كافَّةُ المَطَارنةِ والأساقِفة والقِسِّيسِين، والنصارى أجمعين ؛ وليَعتَمِدُوا من التِّباعة لك مايستحقُّه تقديمُك على الجماعه ، وليَثِقُوا بما يَغْمُرهم من العاطفة الحامِيَة سِرْبَهم من التفريق والإضَاعه ؛ إن شاء الله تعالى .

وكتب فى شهر ربيع الأوّل سنة سبع وستين وأربعمائة .

الطـــرف الرابـــع

(فيما كان يكتب عن مدَّعى الخلافة ببلاد المغرب والأندلُس)

وكانوا يعبِّرون عمّا يُكتَب من ذلك بالظَّهائر والصُّكوك : فالظهائرُ جمع ظهير ، وهو المُعِين ، سمِّى مرسومُ الخليفة أو السلطان ظهيرًا لما يَقَع به من المُعاونة لمن كُتِب له . والصُّكُوك جمع صَكٍّ وهو الكتاب ، قال الجوهرىّ : وهو فارسىّ معرَّب والجمع أَصُكٌّ وصِكَاك وصُكُوك ؛ ثم تَحامى المتأخِّرون منهم لَفْظ الصَّكّ ، لما جرى به عُرْف العامّة من غَلَبة آستعماله فى أحد مَعْنَيَى الآشتراك فيه وهو الصَّفْع ؛ وآقتصَرُوا على آستعمال لفظ الظَّهير .

ولذلك حالتان :

الحـــالة الأولى

(ما كان الأمرُ عليـــه فى الزمن القـــديم)

وآعلَمْ أنه لم يكن لهم مصْطلَح يَقِفُون عنـد حدِّه فى الآبْتـداءات ، بل بحسَبِ ماتقتضيه قريحةُ الكُتّاب ؛ فتارةً يبتَدأُ بلفظ : « من فلان إلى فلان » أو « من فلان إلى أهل فلانة » أو « إلى الأشياخ بفُلانةَ » أو « يَصِلُكم فلانٌ بهذا الكتاب » .

وتارة يبْتَدأ بـ«أما بعدَ حمد الله» . وتارةً يبتدأ بلفظ « تقدَّمَ فلان بكذا » . وتارة يبتدأ بلفظ « مكتوبُنا هذا » وغير ذلك ممـا لاينْحصِر .

فمن الظَّهائر المكتَتَبة لأرباب السُّيوف عندهم ،ماكُتِب به بولاية ناحيةٍ، وهى:

من فلانٍ إلىٰ أهل فلانةَ أدام الله لهم من الكرامة أتمَّها ومن الرِّعاية أوْفَاها ؛ وأسبَغَ عليهم بُرودَ نِعَمه الجزيلةِ وأضْفاها .

أما بعدَ حمدِ الله ميسِّر أسباب النَّجاح ،ومُسَنِّى مَرامِ الرَّشاد والصَّلاح ؛ والصلاة علىٰ سيدنا محمدٍ رسوله نبيِّ الرحمة والرِّفْق والإسْجَاح(١)، وعلىٰ آله وصحبه المتَّصفين بالقوّة فى ذات الله تارةً وتارةً بخفض الجَنَاح ؛ والرِّضا عن الخليفة أميرِ المؤمنين ذِى الشَّرف الذى لم يزَلْ بالهُدىٰ النبوىّ متوَقِّد المِصْباح ، والدعاءِ للقام الإمارِىّ بالنصر الذى يُؤْتِى مَقالِيدَ الآفْتِتاح ، والتأييدِ المـاضى حَدُّ رُعْبِه حيثُ لايَمْضِى غِرارُ المهَنَّد وشَبا الرِّماح ـ فإنَّا كتبناه إليكم ـ كتَبَ الله لكم سُكونَ الأرجاء وهُدُوَّها ، وأجرىٰ لكم بالصَّلاح رَواحَ الأيَّام وغُدوَّها «من فلانة» وللدَّوْلة العليَّة بركاتٌ تُكاثِرُ السُّحُب فى آنْسِكابها وآنْسِجامها ؛ وتقُودُ الخيراتِ والمسَرَّات فى كل أَوْبٍ بزِمَامها ، والحمدُ لله حمدا يَقْضى بوُفُور جزيلات النِّعم وجِسَامها .

وإنَّ الآهتِمامَ بكم لمستَدِقُّ علىٰ كل غرضٍ جميـل ، ومقدَّمٌ فيما يُحْظِيكم بكلِّ بُغْية وتأميل ؛ وبحسَبِ هـذا لايزَالُ يختارُ لكم من الوُلاة كلَّ مختار منْتَخَب ، ولا يُقدِّم عليكم إلَّا مَنْ ينتهِى إلىٰ أثيلِ حسَبٍ وكريمِ مُنْتَسَب ، ولا يزال يُداوِل موضِعكم بين كل طريقةٍ تتَّصل من حُسْن السِّيْر وسَـداد النظر بأمْتَن سبَب ؛ وعلىٰ هذا الأصل آستَخَرْنا اللهَ وهو المستَخار ، والذى يقْضِى مايشاءُ ويَخْتار ، فى أن قدَّمنا عليكم ،

(١) الإسجاح حسن العفو .

ووَلَّينا للنظَر فيما لدَيكم، مَنْ له التقدّم فى الإقْدام، والاَضْطِلاعُ الثابتُ الأَقْدام، وذلك فلان . وآثَرْنا كم به اَعتِناءً بجانِبكم واَهتِبالا(١)، وخصَصْنا كم منه بمن يُفْسِح فى كل أَثَرٍ حميدٍ مجَالا، والمعتقَدُ فيه أن يعمَل علىٰ شاكلته بنَبَاهة مَكانه، وأن يبذُل فى الاَنتهاض والاَكتفاء غايةَ وُسْعِه وإمْكانه، وعليه أن يُلازِمَ تقْوىٰ الله العظيم فى سِرِّه وعَلَنه، ويَجْرِىَ علىٰ سبيل العَدْل وسَنَنِه، ويُشَمِّر عن ساعده فى الدِّفَاع عن أَحْوازِكم كُلَّ التشْمير، ويأخُذَ علىٰ أيدى أهل التعدِّى أَخْذًا يقْضِى علىٰ الفسَاد وأهلِه بالتَّتْبير، ويَقْصِدَ بكم سدِيدَ السَّعْىِ ورَشيدَ الرأْى فى الدقِيق والجليل والصغيرِ والكبِير، ويُسَوِّىَ فى الحق بين الحافِل والتافِهِ والغنِىّ والفقير، وعليكم أن تسْمَعُوا وتُطِيعوا، ولا تُهْمِلوا حقَّ الاَمتثال والاَئتمار ولا تُضيِعُوا، وأن تكونُوا يدَه التى تَبْطِش، وأعوانَه فيما يُحاوِل من مستَوْفِى المساعِى المرضيَّة ومستوعِبِها، وأن تتعاوَنُوا علىٰ التقوىٰ والبِرّ، وتقِفُوا له عند النهْيِ والأَمْر، وتجتهدُوا معه فى مَصَالحكم كلَّ الاَجتهاد، وتعتَمِدُوا علىٰ مارَسَمْناه لكم أتَمَّ الاَعتماد، وستَجِدُون من مُوَاليكم - إن شاء الله - مايوافِقُ الظَّنَّ به، ويلائِمُ العملَ بحسَبِ حَسَبه، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

* * *

ومنها ما كُتِب به فى ولايةِ ناحيةٍ أيضا، وهى :

من فلان إلىٰ أهل فلانةَ أدام الله تعالىٰ كرامتهم بتَقْواه، وعرَّفَهم أحقَّ النظر بمصالِحِهم وأَحْراه .

وبعدُ، فإنَّا كتَبْناه لكم - كتب الله لكم أحْوالا متَّصِلةَ الصَّلاح، حميدةَ الاَختِتام والاَفْتِتاح - من فلانة ونِعَمُ الله سبحانه موفُورةُ الأقسام، صَيِّبةُ الغَمام، وقد اَقتضىٰ

(١) أى اشتغالا بشأنكم من قولهم اهتبل هبلك أى اشتغل بشأنك انظر اللسان ج ١٤ ص ٢١٢ .

ما نتوخّاه من الاحتيـاط علىٰ جوانبكم ، ونعتمده من الإيثـار لكم والاعتناء بكم ؛ أن نتخيّر للتقديم عليكم من نعلم منه الأحوالَ المرضيّة حقيقه ، ونحمد سيْرَه فيما يُحاوِله وطريقــه .

ولمّـا كان فلان ممن حُمدتْ مقاصدُه، وشُكرت فى المحاولات الاجتهاديّة عوائدُه؛ وحسُنتْ فيما نُصرِّفه فيــه مصادِرُه وموارِدُه ، رأينا والله القاضى فيما نذَره ونأْتيــه ، بالتوفيق الذى يكُون به انقيـادُ النُّجْح وتأتّيــه ، أن نقدِّمَه لحفظ جِهَاتكم، وتأمينِ أرجائِكُم وجَنَباتكم ؛ ووَصَّيناه أن يجتهِدَ فيما قلّدناه من ذٰلك كلَّ الاجتهاد ، ويَنْتهِض فى إذهاب الشّرّ وإرهاب أهـلِ الفَساد ؛ وبأن يسْلُك فيما يتولّاه من الأحكام سَنَن الحق، ويَجْرىَ علىٰ سبيل العَدْل والرِّفْق؛ ويدْفَع أسباب المظالم، ويُنْصِفَ المظلومَ من الظالم؛ فإذا وافاكم فتلَقَّوْه بنفُوس منبَسِطه، وعقائدَ علىٰ العمل الصالح مرتَبِطه؛ وكونُوا معه علىٰ تمْشِية الحق يدًا واحده، وفئةً فى ذاتِ الله متعاونةً متعاضدَه؛ بحول الله سبحانه .

ومنها ما كُتِب به بإعادة وال إلىٰ ناحيةٍ، وهى :

وإنا كتَبْناه إليكم ـ كتبكم اللهُ من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ، وأعْلَقكم من طاعته بالحبل الأمتَنِ الأقوىٰ ـ من فلانة : والذى نُوصِـيكم به تَقْوىٰ الله تعالىٰ والعملُ بطاعته، والاستعانةُ به والتوكُّل عليه؛ وقد صَرَفنا إليكم فلانا بعد أن أقام هُنا شاهدًا مَشاهدَ للتعلم نافعــه ، مباشرًا من المُذاكرة فى الكتاب والسُّـنّة مجالِسَ ضامنةً لخيرِ الدنيـا والآخرة جامعَه؛ مُطَالِعًا لأحوال الموحِّدين أعزَّهم الله فى مآخذهم الدينيّه، ومقاصِدِهم المُحْيِيَة لمـا دَرَس من المِلّة الحنيفيَّه؛ فنال بذلك كلِّه خيرًا كثيرا، وأحرز به

حظًّا من السعادة كبيرا، وظفِر منه بما يكونُ له فى كل ماينْظُر فيه سراجًا مُنِيرا، وقد أعَدْناه إلىٰ الشُّغُل الذى كان يتولّاه لِجهَتكم حرسها الله، ووصَّيْناه بتقوىٰ الله تعالىٰ الذى لا يَطَّلِع علىٰ السَّرائرِ سِوَاه، وأن يكونَ بما شاهدَه مما تقدّم ذِكْرُه مقْتدِيا، وبأنوارِه الساطعةِ التى لايَضِلُّ من آهتدىٰ بها مُهْتدِيا، ولا يستنِدُ فى شىءٍ من أحكامه إلىٰ من لايقُوم علىٰ عصْمته دليل، ولا جُعِل إليه تحريمٌ ولا تحليل؛ فأعينُوه ـ وفقكم الله ـ علىٰ تمشيةِ هذه المقاصِد الكريمةِ أكْرَمَ إعانه، وآسْلُكُوا من مُظَاهَرته علىٰ الحق ومُوَازَرَته علىٰ المَسَالكِ التى تستبِينُ هنالِكُم أتمَّ آستِبَانه، إن شاء الله تعالىٰ.

* * *

ومن الظهائر المكتتَبة بالوظائف الدينيَّة ما كُتِب به فى ولاية قاض، وهو:

أما بعدَ حمدِ الله رافِع عَلَم الحقِّ لمن آهتدىٰ، وواضِع ميزانِ القِسْط بالشريعة المحمدِيَّة الآخذةِ بالحُجَز عن مَهاوِى الرَّدىٰ، ومؤيِّد الدِّين الحنيفىِّ بمن آرتضىٰ لتحديد حُدُوده وتجديد عهُوده وهدىٰ. والصلاةِ علىٰ سيدِنا محمدٍ نبيِّه الكريم الذى أرسلَه إلىٰ الناس كافَّة غيرَ مستَثْنٍ عليه من الخَلْق أحدَا؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سلَكُوا فى نَصْره وإظْهار أمْرِه جَدَدا. والرضا عن الخليفة أمير المؤمنين العبَّاسىِّ الأطْيب عُنْصُرا ومَحْتِدا، فإنا كتبناه إليكم ـ كتبكم الله ممن آعتزَّ بطاعته وتَقْواه، وآعتصَمَ من حَبْله المتينِ بأوْثقِه وأقْواه ـ من فلانة وفضلُ الله سبحانه مديدُ الظِّلال، وتوكُّلُنا عليه ـ عز وجهُه ـ ظهيرُنا المعتَمَدُ به فى كلِّ حال، وعِمادُنا الذى نقدِّمه فيما نُدَبِّره من الأعمال؛ وإنَّكم من عنايتنا، وموصُول رعايَتنا، لَبِالمحَلِّ الأدْنىٰ؛ ومن خاصِّ

نظرنا وآهتمامنا لمَنْ نكَاف بشأنه كلّه ونُعنىٰ ، ونعتمــدُ من ذلك بالأحْسَن فالأحسنِ لجزاءُ الذين أحسَنُوا الحُسْنىٰ .

وقد علمتُم ـ وصــل الله كرامتكم ـ أنّ الأحكامَ الشرعيّة هى مِلَاك الأمور ونظامُها ، وعليها مَدَار الأعمال الدينيَّة وبها تَمامُها ؛ وأنه لايصْلح لهـا إلا مَنْ تجرَّدَ عن هواه ، وآثَر الحقَّ علىٰ ماسِواه ؛ وآتَّبَع حكَمَ نبِيِّه ـ عليه السلام ـ فى كلِّ ماعمِله ونَواه ، وتجمَّل بالدِّراية وحَمْل الرِّواية فكانتا أظْهَر حِلاه ؛ وآتَّسَم بالعدْل والآعتدال فيما ولِيَه من ذلك أو توَلَّاه ، وكان ممن أطْلَقَ الحقُّ لسانَه وقيَّد الورَعُ يُمْناه ؛ وقد أمعَنَّا النظر فيمَنْ له من هــذه الأوصاف أوْفىٰ نصيب ، ومَنْ إن رَمىٰ عن قَوْس نظــره الموفَّق كان سهمُه المســدّدُ مصيب : لنخصَّكم به قاضيا فى هذه الأحكام ، ونقدِّمه للفصل بينكم فى القضَايا الشرعية حَكَما من صالِحِى الحُكَّام ؛ فرأينا أهلًا لذلِكم ومحلًّا من آختُبِرت علىٰ [النَّهْج] القويم أحوالُه ، وآرتُضِيت فيما نيطَ به من ذلك أعمــالُه وأقوالُه ؛ وشهِد له الآختبارُ بالآنكفاف عن كل سابق وغائب (١) ، وعن آرتِكابِ الثَّنِيَّات إلىٰ السَّنَن اللاحب ؛ وذٰلكم « فلان » أدام الله كرامتَه وتوفيقَه ، ويَسَّر إلىٰ مَسَالك النَّجاة مَسْلكَه وطريقَه ؛ فأنفــذناه إليكم حَكَمًا مَرْضِىَّ السِّــيَر ، وافِرَ الحظِّ من المَعارِف المُصوِّرة للحقِّ فى أجمَلِ الصُّوَر ؛ مكتفياً بمـا لدَيْه من آستِقامة الأحوال عن الوَصايَا ماخَلَا التذكيرَ والتنْبِيه ، والوصية بتقوىٰ الله فهى التى تَعصِم العاملَ بها وتُنْجِيه ؛ فقد وَصَّى بها اللهُ مَنِ آختاره من خلقه لإقامة حقِّه وآرتضاه ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وإيَّاكُمْ أَنِ آتَّقُوا الله ﴾ . فتلقَّوْه ـ أدام الله كرامتَكُم ـ بنُفُوس منبَسِطه ، وقلوبٍ مبتَهِجة مغتَبِطه ، وأهواءٍ علىٰ التظَافُر

(١) لعله عن كل شائن وعائب . تأمل .

والتناصُرِ فى الحق مجتمعةٍ مرتبِطه؛ وتعاوَنُوا فى ذاتِ الله على الطاعه، وكُونُوا فى سبيل الله يدًا واحدةً فيدُ الله مع الجَمَاعه؛ وآستعينُوه سبحانَه على الخير يُعنكم، وآشكُرُوا الله يُؤْتِكم خيرًا ممـا أُخِذَ منكم؛ وهو سبحانه يتوَلَّاكم بالحِفْظ الشامل، ويستعمِلُكم من طاعته وسُلُوك سبيل مَرْضاتِه بأنْجَى ما آستُعمِل به عامل؛ والسلام.

* * *

ومنها ما كتب به أبو الحسن الرُّعَيْنى فى ولايةِ قاضٍ، وهى :

من فلانٍ إلى الأشـياخ بفلانةَ أدام الله كرامتَهم بتقواه، وآستعْمَلهم فيما يُحِبُّـه ويرضـاه.

أما بعدُ، فإنا كتبْناه إليكم ـ كتب الله لكم حُسْناه، وأوْزَعكم شُكْرَ ماخوَّلَكم من نُعْماه ورُحْماه؛ ومن مقاصِد هـذا الأمر العزيز ـ أدامه الله ـ ما يُعْـلِى يدَ الحـقِّ ويُسْمِيها، ويسَدِّد سهامَ العدل إلى أغراضها ومَراميها، ويتكفَّلُ بالجزاء لمَنْ لاذَ بأكناف الطاعةِ ونَواحِيها، والحمدُ لله على نِعَمه التى لانَحْصُرها ولا نُحْصِيها.

وإلى ذٰلكم فإنَّ فلانا لَمَّـا تمكنت الثِّقةُ بجميـل صِفَته، وآستنامَت البصـيرةُ إلى آستحكام سِـنِّه ومعْرِفته؛ وقد كان تقدّم له من خِدْمة الأمر وأوليائه مانَجَّـده(١) مع الأيَّام ونَخَّرجه؛ وخصَّصه من كريم الآسـتعمال بمـا آستَدْناه إلى مَراقى الذَّكاء وآسـتَدْرَجه؛ رأينـا ـ والله المستعانُ ـ أن نقدِّمه للنظر فى قضاياكم الدِّينِيَّه، وأحكامكم الشرعيَّـه؛ بعد أن وَصَّيناه بتقوى الله فقدَّمَها، وعرَضْنا عليـه مايعلَمُه ويلزمُه من شُروط الحكومة فالتزمها. فلْيَنْهَضْ إلى ماقدّمْنـاه على بركةِ الله تعـالى

(١) فى الأصل أنجده بالهمز وهو غير مناسب.

مشمِّرا عن ساعد الحَزْم، آخذًا فى كافَّة أمُوره بما يأخُذه أُولُو العزْم؛ جاريًا علىٰ السَّنَن الواضح المعروف؛ مسوِّيًا فى الحق بين النَّبِيه والخاملِ والشريفِ والمشْرُوف؛ محتَسبا علىٰ إقامةِ فُروض الدِّين أكرَمَ آحتِساب، مكتَسِبا من الأجر فى رَدْع الظُّلْمِ والباطل أفضَلَ آكتِساب، راجيًا فى تمشيةِ العدْل علىٰ رَغْم من أباه ما يَرْجو المؤمنُ المحقّق من زُلْفىٰ وحُسْنِ مآب؛ ولدينا من عَقْده علىٰ ذلك ما يُحسِّن مقْصَده، ويمكِّن فى بَسْطة الحقِّ مقْعَده؛ فإذا وافاكُم فآستبْشِروا بمُوافاته، وقِفُوا عند ما يُمْضيه من لوازِم الشَّرْع ومُوجِباته، وتعاوَنُوا علىٰ الخير تعاوُنًا يُجْزِلُ حَظَّكم من فضل الله وبركاته؛ فهو المؤمَّل فى ذلك لاربَّ سواه.

* * *

ومن الظهائر المكتَتَبة بالوظائف الدِّيوانيــة ما كَتَب به أبو المطَرِّف بن عمــيرة بولاية وِزارةٍ، وهو:

مكْتوبُنا هـذا بيدِ فلان أدام الله عَلاءَه، وحفِظ عنايتَه وغناءه؛ يجِد به مكانَ العِزّة مَكِينا، ومورِدَ الكرامة عَذْبا مَعِينا، وسبيلَ الحُرْمة المتأكدة واضحا مستَبِينا؛ ويتَقَلّد وزارتَنا تقلُّد تفويضٍ وإطْلاق، ويلْبَس ما خُلِع عليه منها لِبْسةَ تَمكُّن وآستِحْقاق، وينْزِل من رُتْبتها العُلْيا مَنْزِلةً شرَفُها ثابتٌ وحماها باق؛ ويُسَوَّغ الدارَ المَخْزَنية التى يسْكُنها بفلانة تَسْوِيغا يُمَلِّكه إيَّاها أصَحَّ تمليك، ويُفْرَد فيهـا من غير تَشْريك؛ إن شاء الله تعالىٰ والسلام.

* * *

ومنها ما كتب به أبو عبد الله بنُ الأَبَّار فى مشارَفَة ناحيةٍ، وهو:

عن إذْن فلان، يتقدّم فلان للنَّظَر فى الأشغال المَخْزَنية بفلانة، مُوَفِّيا مايجِبُ عليه من الآجتهاد والتَّشْمير، والجِدّ الذى آرتَسَم فى الإنماء والتَّثْمير، مصدِّقا ماقُدِّر فيه من الآنتهاض والآستقلال، وقُرِّر عنه من الأمانةِ التى رَشَّحته وأهَّلَتْه لأنْبَه الأعمال، جاريًا فى ضَبْط الأمور المَخْزَنِيَّة والرِّفْق بجانب الرعيــة علىٰ المَقَاصد الجليلة والمَذَاهب المرضيَّة فى عامَّة الشُّئُون والأحوال، عاملاً بما تقدّمت به الوصيَّة إليه، وتأكَّدتْ الإشارةُ [به] عليه، من تَقوى الله فى السرِّ والعَلَن، عالمـا أنَّ المرءَ بمـا قدّمته يداه مُرْتَهَن.

* * *

ومنها ما كتب به المذكور بإعادة مشارفٍ إلىٰ ناحيةٍ، وهو:

يُعادُ بهذا المكتوب فلانٌ إلىٰ خُطَّة الإشراف بفُلانة: رافلًا من ملابس التَّكْرِمة والحُظْوة فى شُفُوفها، مُخَلًّى بينَه وبينَ النظر فى ضروب الأشغال المَخْزَنية وصُنُوفها؛ فهو المعروفُ بالكِفاية والآجتهاد، الموصوفُ بحُسْن الإصدار والإيراد، وأَوْلىٰ الناس بالتزام النَّصيحه، والآزدياد من بَضائع الأعمال الرَّبِيحه، مَنْ كَثُرت النِّعَمُ السلطانيَّة لديه، ودُفِع إلىٰ الخُطَط ودُفعتْ إليــه. فليتقلَّد هــذه الخُطَّة بحقِّها من الآنتهاض والتشمير، وتأدِيَة الأمانةِ بالإنمـاء والتَّثْمير، ولْيَتَزَوّدْ تقْوىٰ الله تعـالىٰ ليومٍ يُسْأَل عن النَّقِير والقِطْمير، جاريًا فى أموره كلِّها علىٰ الطريقة السَّوِيَّه، جامعًا بينَ الآحتياط للمَخْزَن(١) والرِّفْق بالرعيَّــه، غيرَ عادلٍ فى حالٍ من الأحوال وفَنٍّ من فُنون الأعمال عن مقتَضىٰ هذه الوصيَّه، إن شاء الله تعالىٰ.

(١) المخزن بفتح الزاى مايخزن فيه الشيء.

الطـــرف الخـامس
(فيما كان عليه الأمرُ فى الدولة الفاطمية بالديار المِصريّة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة أنه كان بها من وظائف أرباب السُّيُوف الوِزَارةُ إذا كان الوزيرُ صاحبَ سـيْف؛ والنظرُ فى المَظَالم، وزَمُّ الأقارب، ونِقابةُ العَلَويِّين، وزَمُّ الرجال والطوائِف : كالأُمَوية، والحافِظِيَّـة، والأفْضلية، وغيرِهم ممَّن تقـدّم ذكُره فى ترتيب دَوْلتهم؛ ووِلايةُ الشُّرْطة، وولايةُ المَعَاون والأحْداث، وولايةُ الحِمَـاية، وولايةُ حِفْظ الثُّغور، والإمارةُ علىٰ الحجِّ، والإمارةُ علىٰ الجِهاد، وولايةُ الأعمال، وغير ذلك . ومن الوظائف(١) قضاءُ القُضاة، والدعوةُ إلىٰ مذْهَبهم، والنظرُ فى الأوقاف والأَحْباس، والنظرُ فى المساجد وأمْرِ الصـلاة، وغير ذلك .

وكانتْ كِتَابةُ مايُكْتب لَديْهم لأرباب الوِلايات علىٰ نوعين :

النـــــوع الأوّل
(ماكانـ يكتَبُ به عن الخليفة نفسِــه)

وكان من شأْنِهم أنهم يتعرّضُون فى أثناء الوِلاية لإشارة الوزير بتوليةِ المُولَّى وثنائِه عليه، ورُبّمـا أهملُوا ذلك . وكانوا يُسَمُّون جميعَ مايكتَب منـ ديوان الإنشاء سِجِلّات، ورُبّمـا سَمَّوْه عهُودا؛ وعليــه يدُلُّ ما كتبه العاضدُ آخرُ خلفائهم فى طُرّة سِجِلِّ السلطان صلاح الدِّين بالوِزارة : « هذا عهْدٌ لاعَهْدَ لوزيرٍ بمثله » علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ عُهُود الملوك .

ولهم فيهـا أربعة مذاهب :

---

(١) لعله «ومن وظائف أرباب الأقلام قضاء» الخ فتنبه .

المـــــذهب الأوّل

(أن يفتَتَح مايُكتَب فى الولاية بالتَّصْــدير)

وهو «من عبدِ الله ووليِّه فلانٍ أبى فلان الإمام الفلانىّ أمير المؤمنين، إلىٰ فلان ابن فلان» بالألقاب المنعوتِ بها من دِيوان الخلافة، ويُدْعىٰ له بدعوتين أو ثلاثٍ؛ ثم يقال: «سلامٌ عليك فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لاإلٰهَ إلا هو، ويسْأَلُه أن يصَلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ صلّىٰ الله عليه وسلم وعلىٰ أخِيهِ وٱبنِ عمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب» ويُؤْتىٰ من وَصْف الخليفةِ ومَدْحه بمـا يُناسِب المَقَام.

ثم هو بعدَ ذٰلك علىٰ ثلاثِ مراتبَ:

المرتبـــــة الأُولىٰ

(أن يقال بعد التصدير المقدَّم «أما بعدُ فالحمدُ لله»)

ويؤتىٰ من التحميد بمـا يُناسبُ تلك الولايةَ، ثم يؤتىٰ بتحميدةٍ ثانيــةٍ وثالثة، وتكونُ الثالثةُ متعلِّقةً بالنِّعم الشاملةِ لأمير المؤمنين؛ ثم يقال: «وإنَّ أميرَ المؤمنين لِمَـا ٱختصَّه اللهُ به من كذا وكذا» ويذكر ماسَنَح من أوصاف الخليفة، ويذْكُر أنه تَصَــفَّح الناسَ وسَبَرهم فلم يجِدْ من يصْلُح لتلك الولَايةِ إلَّا هو، ويذْكُر من صــفته ماٱتَّفَق ذكْرُه، ثم يذكر تفويضَ الوِلايةِ إليه، ويوُصِيه بما يُناسِب، ويختِمُ بالدعاء ثم بالســلام مع التفنُّن فى العبارة، وٱختلافِ المعانِى والألفاظ، والتقـديم والتأخير بحسبِ ماتقتضيه حالُ المُنْشِئ، وتؤدى إليه قريحتُه.

وهى علىٰ ضربيـــن:

الضـــرب الأوّل

(سِجِــلّات أرباب السـيوف)(١)

وعلىٰ ذلك كَتْبُ سِجِلّات وُزَرائهم أصحابِ السـيوف القائمين مَقام السـلاطين الآنَ، من لَدُنْ وزارة أمير الجيوش بَدْرٍ الجَمَـالىّ وزير المستنصِر : خامسِ خلفائِهم وإلىٰ آنقراض دولتهم . وقد تقدّم منها ذكر عهْدَيِ المنصور : أسد الدين شِيركُوه آبن شادِى ، ثم آبنِ أخيه الناصر صلاح الدين يوسفَ بن أيُّوب بالوزارة عن العاضـد فى جملة عُهُود الخلفاء والملوك ، حيث أشار فى "التعريف" إلىٰ عدّهمـا من جملة عهود الملوك .

ومن أحسَنِها وصْفا، وأبْهَجِها لفظا، وأدَقِّها معنى، ما كتب به الموَفَّق بنُ الخَلَّال صاحبُ ديوان الإنشاء عن العاضد المتقدّم ذكره، بالوِزارة لشَاوَر السَّعْدىّ، بعد أن غلبه ضِرْغام عليهـا ثم كانت له الكَرَّة عليه . وهذه نسخته :

من عبد الله ووليِّــه عبد الله أبى محمد العاضِد لدين الله أمير المؤمنين ، إلىٰ السيِّد الأجَلّ، سلطانِ الجُيُوش، ناصرِ الإسلام ، سـيفِ الإمام، شرَفِ الأنام، عُمْـدةِ الدِّين، أبى فلان فلان .

سـلامٌ عليك : فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لاإلٰهَ إلّا هو، ويسألهُ أن يصَلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ خاتَمِ النَّبيين، وإمام المُرْسَلين، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهـرين الأئمة المهديِّين، وسلَّم تسليما .

أما بعــدُ ، فالحمدُ للهِ مانِح الرغائبِ، ومُنيلِها ، وكاشِــفِ المَصاعِبِ ، ومُزِيلها؛ ومُذِلِّ كل عُصْبة كَلِفَتْ بالغَدْر والشِّقاق ومُذِيلها . ناصِرِ من بُغِىَ عليــه، وعاكس

(١) لم يترجم فيما يأتى للضرب الثانى وهو سجلات أرباب الأقلام وإن كانــ قد ذكرها ضمن المراتب الثلاث الآتية فتنبه .

كَيْدِ الكائِد إذا فَوّق سَهْمَه إليـه، ورادّ الحقوق إلىٰ أربابِها، ومرتَجِـع المراتب إلىٰ مَنْ هو أجْدَر بُرقِيِّها وأوْلىٰ بها، ومُسَـنِّي الخير بتَيْسير أسبابه، ومسَهِّل الرَّتَب(١) بتمهيد طُرُقه وفَتْح أبوابه، ومُدْنِي نائِي الحظّ بعد نُفُوره وآغْترابه، ومُطْلِـع الشمْس بعد المَغيب، ومُتدارِك الخَطْب إذا أعضَـلَ بالفَرَج القريب، مُبْدِع ما كانَ ويكُون، ومسبِّب الحَرَكة والسُّكون، مُحْسِن التـدبير، ومسَهِّل التعْسير: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالكَ المُلْك تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وتَـنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِير﴾.

والحمدُ لله الذى آختَصَّ أولياءَ أميرالمؤمنين الأَبْرار بالآستعلاء والظُّهور، وذَلَّل لهم جَوامِحَ الخُطوب ومَصاعِبَ الأُمور، وآتاهُم من التأييدِ كلَّ بديع مستَغْرَب، وأنالَهُم من كل غَرِيبٍ إذا أُورِد قَصَصُـه أطْرَب، ومكَّنهم من نَواصِي الأعداء، وشَمِلَهم بعناياته فى الإعادةِ والإبْداء، وضَمِن لهم أحْمَـدَ العَواقب، وأرشدَهُم إلىٰ الأفعال التى ثَبَّتَتْ لهم فى صحائِف الأيَّام أفضلَ المَناقب، وهداهُمْ بأميرالمؤمنين إلىٰ ماراق زُلالُهُ، وتَمَّ غايةَ التَّمام كما أنه كان لرضا الله سبحانَه وحُسْن ثوابِه مآلُه(٢)، ويُمِدّهم فى المجاهدة عن دَوْلته بالتأييدِ والتمكين، ويُحْظِيهم من أنوار اليقينِ، بما يَجْلُو عن أفئدتهم دُجىٰ الشَّكِّ البَهِيم، ويُظْهِر لأفهامِهم خصائصَ الإمامة فى حُلَل التفخِيم والتعظِيم، ويُريهم أنَّ خلُوص الطاعة مَنْجاةٌ فى المَعاد بتقديرالعزيزِ العليم.

والحمدُ لله الذى آستَثْمَر من دَوْحة النبوّة الأئمةَ الهادِين، وأقامَهم أعْلاما مُرْشِدةً فى مَحجّة الدين، وبيَّن بتَبْصِـيرِهم الحقائقَ وورّث أميرَ المؤمنين شَرفَ مَقاماتِهـم،

(١) مراده الصعب. والرّتب بالتحريك من معانيه الشدّة والغلظة يقال ما فى هذا الأمر رتب ولا عتب أى عناء وشدّة.

(٢) لم يتقدم ما يعطف عليه وهو من متعلقات أمير المؤمنين كما لا يخفىٰ.

وجعـله مُحْرِزَ غاياتِهم، وجامعَ مُعجزاتهم وآياتهم؛ وقضىٰ لمن ٱلتحف بظلِّ فِنائه، وٱشتمل بسابِـغ نِعمه وآلائه، وتمسَّك بطاعتِـه وٱعتصم بولَائه؛ بالخُلُود فى النعـيم المُقيم، والحُلول فى مَقامِ رِضْوانٍ كريم : ﴿ ذٰلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيم ﴾ .

يحمَـدُه أميرُ المؤمنين علىٰ نِعَمه التى جعلَتْـه للبشر إماما، وأمضَتْ له فى المَشَارق والمَغَارب أوامِرَ وأحكاما ؛ وجَرّد من عَزْمه فى حياطةِ دِيـن الله عَضْبا مُرْهَفا حُسَاما، وٱستخْلَص لإنجاد دولته من أوليائهـا أكْمَلهم شجاعةً وإقْداما ؛ وأحسَنَهم فى تدبير أمُورها قانُوناً ونِظَاما ؛ وأتَمَّهم لمصـالح أجنادِها ورَعاياها تفقُّـدا وٱهتِماما ، وأَوْلاهم بأن لا يُوجِّه عليـه أحدٌ فى حقٍّ من حقُوق الله مَلَاما ، وأجْدَرهم بأنْ يُحَلَّ من جميـل رأْى أمير المؤمنين دارَ سـلام يَلْقىٰ فيها تحيَّةً وسَلَاما ؛ ويسألُه أن يصلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ خاتَم النبيين الذى أَعلَنَ بالتوحيد وجَهر، وغلَب بالتأييد وقَهر؛ وأظهر المُعْجز البديعَ وٱسـتطال إعجازُه وبهَر، وأطلع نُورَ الإســلام وٱشتَهر فى المَشَارق والمغارب إشراقه وظَهر؛ وعلىٰ أخيـه وٱبنِ عمِّه أبينا علىّ بنِ أبى طالب سيف الله الذى شَهَره علىٰ الكفر وسَلَّه ، وكَفَّله إعزازَ الدِّين فأعظمه بجهاده وأجلَّه ؛ وقرَع بعزه صَـفَاةَ الإلحادِ فأعانه (؟) بعزه وأذلَّه ، وقَصَّد الأصنام وأرْغَم مَـنِ ٱستَغْواه الشيطانُ بٱتِّباعها وأضَلَّه ؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرّيتهما أعلامِ الدِّين ، وهُداة المتقين ؛ ومُوَضِّحى سبِيل الحقِّ لأهل اليقين ؛ ومُوَصِّلى الأنوار الدينيـة إلىٰ بصائر المؤمنين ؛ صلاةً تتكرَّر وتتردّد، وتدُوم مَدَىٰ الأيام وتتجدّد .

و إن أمير المؤمنين لِمَـا ٱختصَّه الله به من المَنْصب الشريف، وسَمَـا به إليه من المحلِّ الشامخ المُنيف؛ وفوّضَه إليه من تدبيرِ خَلْقه، وأفرده به من ٱتِّباع أمره والقيام

بحقِّه؛ وناطه به من المحاماة عن المِلَّة الحنيفيَّه، والاجتهادِ فى أن يشْمَل أهلَها بالحالة السنِيَّة والعِيشة الهنِيَّـه؛ وإعانته فى إظهار شِـعَارها، وتأييده فى إظهار عُلُوِّها علىٰ المُلْك واقتِدارها ــ يبْذُل جُهْده فى الاستعانة بمَن تقوم به حُجَّتُه عندَ الله بالاعتماد عليه، ويتوثَّق لنفْسـه فى اختيار من يَقوم برضا الله فى إسناد الأُمورِ إليـه؛ ويَحْرِص علىٰ التفويض لمن يَكْفِى فى التدبير، وتُحِيط غايةُ نظَره بالصغير من رجال الدولة والكبير؛ تقـرُّبا إلىٰ الله بالعمل فيما وَلَّاه بمـا يُرْضِـيه، وازْدِلافا بِاتِّبَاع أمره فى كل مايُنْفذه ويُمْضيه . وقد كان أمير المؤمنين تصفَّح أولياءَ دوْلته، وعظماءَ مملكته وأكابِرَ شيعته وأنصارَ دَعْوته؛ فوجدك أيُّها السيد الأجلُّ أكملَهم فضـلا، وأقلَّهم مثْلا؛ وأتَمَّهم فى التدبير والسياسة إنصافًا وعَدْلا، وأحقَّهم بأن تكون لكلِّ رياسةٍ وسيادةٍ أهلا؛ ففوّض إليـكَ فى أمور وِزَارته، وعوّلَ عليـك فى تدبير مملَكتِه وجمع لك النظَر فيما وراءَ سرير خلافتِـه؛ فجرَتِ الأمورُ بمقاصدك السـعيدة علىٰ إيثار أمير المؤمنيـن وإرادتِه، واستمرّ أمرُ المملكة بمباشَرتك علىٰ أحسـن قانُونه وعادتِه، وشَمِلت المَيامنُ والسُّعود أتمَّ اشتمالٍ علىٰ تفصيله وجُمْلتـه؛ وانْحسمتِ الأَدْواء، وذَلَّتْ بسطوتك الأعْداء، وزالت فى أيَّامك المَظالِمُ والاعتداء، وحسُنتْ بأفعالك الأُمور، وظهَر بك الصَّلاحُ وكان قبْلَ وِزَارتك قليلَ الظُّهور؛ فانبسطتِ الآمال، واتَّسقتِ الأعمال؛ وأُقْمِع الضَّلال، وأُمِنَت الأهوال؛ وخَلَصتْ من الرأْى السَّـقيم، وحظِيتْ بالمُلْك العقيم، وغدا جُنْدُها ورعاياها ببركة رَأْيك فى النَّعيم المُقِيم .

فلمَّا رمقَتْك عينُ الكمال، وألْهبَ قلوبَ حَسَـدتك ماأُوتيتَه من تَمـام الخِلال، تكاثَر من يَحُوك المَكايِد، وتظافَر عليـك المُنافِسُ والمُعانِد؛ ورنَتْ إليك إساءةُ مَنْ عاملْتَه بالإحسان، وعدَتْ عليك خيانةُ من ائْتَمَنْتَه أتمَّ ائْتمان؛ وتَمَّ له(١) المرادُ بوَفَائك

(١) لعله "لك" بكاف الخطاب . تأمل .

وغَدْره، وسـلامةِ صَدْرِك ومَكْره، وآتّفاقِ ظاهِرِك و باطِنك ومبايَنة سِرِّه لجهره؛ فكان ماهَوَّنه فى نفسه سلامةُ النَّفْس وأكبرِ الوَلَد، ومنح فى اسداده نِعمًا لا تنحصر بعَدَد، وأفْظَع ما كان فيه ماأُصِيبَ به ولَدُك الأكبرُ رضى الله عنـه الذى أُصِيب وهو مظْلوم، ولو لم يُصَبْ لم يمتنِـع من الأجَل المحتُوم؛ فربِحْت بِمـا نالكَ ثوابا، وآسـتفتَحَ لك الحظُّ من النصْر علىٰ الباغِى بابًا؛ وآغتَصَب الغـادِرُ مالا يستَحِق، ورآه أمير المؤمنين بصورة المُبْطِل ورآك بصُورة المُحِقّ؛ وهدَتْك السعادةُ إلىٰ العمل بسِيرة الأنبياء، فى الآنْحِيازِ عن الأعداء، والتباعُد عن أهل الغَيّ والآعْتِداء؛ فانْسلَلْت من الغُواة آنْسِـلالَ الصارم من غِمْده، وتوارَيْتَ من العُتَاة توارِىَ النـار فى زَنْده؛ وقطعْتَ المَفـاوِزَ مصاحِباً للعُفْر والعِين، حتّٰى حللْتَ بَرْبْوةٍ ذاتِ قَرارٍ ومَعِيـــن؛ و إنَّ أمير المؤمنين يُمِدّك فى ذٰلك بدُعائه، ويُعِدّك لتدبير دولتِه وقَمْع أعدائه؛ ورآك و إنْ آبعـدَتْك الضَّروراتُ عن بابه، وأنْأتْك الحادثاتُ عن جَنَـابه، أنَّك وزيرُه المَكِين، وخالِصتُه القوىُّ الأَمين؛ الذى لاينْزِع عنـه شمسَ وزَارته، ولا يُؤْثِر له غيرَ سلطانه ومملكتِه .

ولمـا وُجِّهتَ إلىٰ أعمالِ أميرالمؤمنين بمن آستصْحَبْته راجيًا من عدُوّك الآنتصار، قاصدا إدْراكَ الثار، وحلَلْت بعَقْوته(١)، وخيَّمتَ فى جِهَته؛ فاتَّصلتْ بينكُم الحُروب، وعزَّ علىٰ كلٍّ منكما نيلُ المطْلُوب ــ أنجدك أميرُ المؤمنين عنـد عِلْمه ببلوغ الكتاب أجلَه، وآستيفاءِ الوَقْت المحدود مَهَله، بإظهار ميْله إليك ومَيْله عن ضِـدّك، وأنَّ قصْـدَه مُباينٌ لقصْـد المذكور موافِقٌ لقصْـدك؛ فسبَّبَ ذا نصْرَك وخِذْلانَه، وتقويتَك وإيهانَه؛ ولأمير المؤمنين فى حاله عناية تُسْعِدك، ورعايةٌ تؤيِّدُك .

(١) أى بساحته يقال ما بعقوة هذه الدار مثل فلان .

فحين عُدْتَ إلىٰ بابه عَوْدَ الشُّمُوس إلىٰ مَشارِقها قَبِلك أحسنَ قَبُول، وتلقَّاك بتبليغ السُّول؛ وكشفَ الغِطاءَ عمَّا كان يُسرُّه إليك ويُضْمِره، ويُرِيده بك ويُؤْثِره؛ وجدّدَ لك ما كنتَ تنْظُر فيه من الوِزَاره، ومباشرةَ ما كان مردُودا إليك من السِّفَارة والظِّهاره: لأنَّك أوحدُ ملوكِ العصر كمالا، وأوسَعُهم فى حسن التدبير مجالا؛ وأشرَفُهم شِيَمًا بديعةً وخِلالا، وأصلَحُهم آثارًا وأعمالا؛ وأتمُّهم سعادةً وإقبالا، وأكثرُهم تقيَّةً لله تعالىٰ؛ وما زِلْتَ للمَفاخر جامعا، ولراية المجْد رافعا؛ ولِذُرىٰ العَلَاء والسَّناء فارِعَا؛ تزْدانُ العصُور بعصْرك، وتتجمَّل الدنيا ببقاء نَهْيك وأمْرِك؛ وتتعجَّب الأفلاكُ العليَّةُ من سَعَة صَدْرك، وتتضاءَلُ الأقدارُ الساميةُ لعظيم قَدْرك؛ وكم لك من مَنْقَبةٍ تَجِلُّ أن يكيِّفَها بديعُ الأقوال، وتعظُم أن يتمنَّاها بديعُ الأقوال(١)؛ فالدولة العَلَويَّة بتدبيرك مختالَةٌ زاهيَهْ، وأركانُ أعدائها وأضدادِها بحَزْمك وعَزْمك واهيه، وسَعاداتُ من تضُمُّه وتشتمِلُ عليه متضاعفةٌ غيرُ منقطعةٍ ولا متَنَاهيه؛ ولم تزَلْ للإسلام سَيْفا قاطعًا ماضيا، وعلىٰ الإلحاد سيفًا مرْهَفا قاضِيا؛ تذُودُ الشرْكَ عن التوحيد، وتَصُدّ الكفرَ عن الإيمان فيحِيدُ مُرْغَما ويَبِيد. وكم لكَ فى خِدْمة أئِمة الهُدىٰ من مَأْثُرة تُؤْثَر فتُبْهِج، ويوردُ ذكرُها فيُغْرِى بالثناء عليكَ ويُلْهِج؛ وتبْذُل فى طاعتهم النفْسَ والوَلد، وتنتهِى فى مناصَحتهم إلىٰ الأمدِ الذى ليس بعدَه أمد؛ فلذلك فُزْتَ بدعواتهم التى أعقبَتْك حُسنَ العواقب، وأحَلَّتْك المحَلَّ الذى لاتسْمُو إلىٰ رُقِيِّه النجومُ الثَّواقب؛ فإذا رفعَكَ أميرُ المؤمنين إلىٰ منزلةٍ سامية، وجد محَلَّك لديه عنها يَجِلُّ ويسْمُو، وإذا خصَّك بفضيلةٍ مّا، صادفَ ٱستِحقاقَك عنها يرتَفِع ويعْلُو؛ وإذا ٱستَشَفَّ خصائِصَك، وجدها بديعةَ الكمالْ، يمتنِعُ أن يُدْرَك مثلُها

---

(١) الأقوال جمع قَيْل (وأصله من ذوات الواو) وهم ملوك حمير ويجمع أيضا علىٰ أقيال علىٰ لفظ واحده.

بحِرْص ساعٍ أو ينُاَل ؛ وقد توافقَتِ الخواطرُ علىٰ أنك أوحدُ وُزَراء الدولة العلَويّة ظَفَرا ونَظَرا ، وأحسَـنُهم فى طاعتها ومخالَصتِها أثَرا ، وأفضلُهم خُبْرا وأطيبُهم خبَرًا ؛ وقد جدّد لك أميرُ المؤمنـين ٱصطفاءَك لوزارته ، وٱجتِباءَك لتدبير مملكته ، وجعلك الفَرْدَ المشار لك فى دوْلته .

فتقلَّدْ ماقلَّدك أميرُ المؤمنين من هذه المهِمَّات الجسام ، وتَسـنَّمْ ماوطَّده لك من هذه الرُّتَب العِظام ، وتلَقَّ آلاءَه بما يُثْبِتك فى جرائِد الأبرار ، ويمنَحُك مصاحبةَ التوفيق فى الإيرادِ والإصْدار ، وباشِرْ ماناط إليك من كبيرِ الأُمُور وصغيرِها ، وجليلِ الأحوالِ وحقيرِها ، وٱبْسُط يدَك فى تدبير دَوْلته ، وأنفِذْ أوامِرَك فى أرجاء مملكَتِه ، وٱعْنَ بما جعله لك من تدبير جُيُوشه الميَامين وأوليائه المتَّقين ، وكفالةِ قُضاة المسلمين وهدايةِ دُعَاة المؤمنين ، وربِّ أحوالِ جنُودِه ورعاياه أجمعين ؛ وٱعمَـلْ فى ذلك بتقْوىٰ الله الذى مابرِحتْ لك دَأبًا وطرِيقَه ، وشِيمةً وخليقَه ؛ وبها النجاةُ من النار ، والسَّلامةُ فى دار القَرار ، والفوْزُ بمعنىٰ الخَلَاص ، فى يوم المُناقشةِ والقِصَاص . فالعارفُ من مَهَّد بها مَقامَه فى الآخرة تمْهيدا ، وأحْرَزَ بها من الثواب فى الآخرة مَزِيدا ، بقول الله فى الكتاب الذى جعـله فى الإعجاز فَرِيدا : ﴿ يٰأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدا ﴾ .

وراقِبِ اللهَ فيما ألقـاه إليكَ فقد فوّضَ إليك مَقاليـدَ البَسْـط والقَبْض ، والرفْع والخَفْض ، والوِلاية والعَزْل ، والقَطْع والوصْل ، والتولِيَـة والتصريفِ والصَّرْف ، والإمضاءِ والوَقْف ، والغَضِّ والتَّنْبِيـه ، والإخمال والتَّنْويه ، والإعْزاز والإذْلال ، والإساءة والإجْمـال ، والإبْداء والإعاده ، والنقْصِ والزِّياده ، والإنْعـام والإرْغام ،

وكل ما تُحْدِثه تصاريفُ الأيام، وتقتضيه مطالبُ الأنام ؛ فهو إليك مرْدُود، وفيما عُدِق بنظَرك معْدُود .

وأما العدلُ ومدُّ رُواقه، و إقامةُ موَاسِمه وأسْواقه؛ والإنصافُ واتباعُ مَحَجَّته، والاعتمادُ علىٰ أحكامه وأقضِيَته ؛ وكفُّ عوادِى الجَوْر والمَظالم، وحَمْـلُ الأمرِ علىٰ قصْدِ التصاحُب والتَّسالُم ؛ وإظهارُ شِعارِ الدِّين ، فى إنصاف المُتداعين إلىٰ الشرع المتحاكمين؛ والدعوةُ الهاديةُ وفتحُ أبوابها للمستجيبين، وإعزازُ من يتَمَسَّـك بها من كافَّة المؤمنين؛ والأموالُ والنظرُ فيها، والأعمالُ أقاصِيها وأدانِيها ـ فكلُّ ذلك محرَّرٌ فى تقليد وِزارتِك الأوَّل، وأنت أَوْلىٰ مَنْ حافَظ علىٰ العمَلِ به وأكمل .

وأمَّا أُمراء الدولةِ الأكابِر، وصُـدُورها الأماثِل ؛ وأُمَراؤُها الأعيان، وأولياؤُها الذين بسُـيُوفهم تُقام دعائمُ الإيمـان ـ فأنت شفيعُهم فى كلِّ مكان، ومُعِينُهم الذى يبْذُل جُهدَه بغاية الإمكان ؛ والجاهِـدُ لهم فى النَّفْع والصَّلاح ، والحريصُ علىٰ دَفْع مايُلِمُّ بكلٍّ منهم من الضَّرر والاجتِياح؛ ومازلتَ لهم فى الأغراض بحَضْرة أمير المؤمنين مساعِدا، وعلىٰ مايُبَلِّغهم الآرابَ حرِيصًا جاهِدًا؛ وتَخُصُّهم دائمًـا بعِنايتك، وتُمِدّهم برِعايَتك ، وتُعْمِل لهم فى الحاجات صائبَ رَأْيِك ؛ فأَجْرِهم علىٰ ماألِفُوه من الاعتِناء والإجمال، وبلِّغهم من محافَظتِك نهاياتِ الآمال؛ فهم أبناءُ المَلاحِم، ومُصْطلُو لَهَب الجمر الجاحِم؛ ومصالِحُو الصِّفاح، المُرْهَفة الشُّروب، وملاعِبُو الرِّماح، العاسلةِ ذاتِ الكُعُوب؛ ومُعْمِلو العِتاق الأَعْوجيَّة، ومُرْسِلو السِّهام المَرِيشة المَبْرِيَه .

وأميرُ المؤمنين يعلَمُ أنكَ بفضـلِ فِطْرتِك، وثاقبِ فِطْنتك، وما مَيَّزكَ الله به من قديم حُنْكتِك وتجْربتك؛ تَغْنىٰ عن الوصايا، وتُنَزَّه عن توسِيع الشَّرْح فى القَضايا؛ وإنمـا أوردَ لك هذا النَّزْر منها علىٰ جهة التيمُّن بأوامر الأئمه، والتبرُّك بمَراسيم هُداة

الأمه ؛ والله يحقّق لأمير المؤمنين فيكَ الأَمَل ، ويوَفّقك فى خدمته للقول والعَمَل ؛ ويُعينك علىٰ إصلاح دوْلته ، وٱغْتنام فُرَص طاعته ؛ وبَذْل الجُهْد والطاقة فى مناصَحته ، والاجتهادِ فى رَفْع مَنَار دَعْوته ؛ ويؤيّدك علىٰ أعداء مملكته ، ويُرشدُك إلىٰ العمل بما يُسْبغ عليك لباسَ نعمته ؛ فاعلَمْ هذا من أمير المؤمنين ورَسْمه ، وانتَهِ إلىٰ مُوجَبه وحكمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، والتحميد .

❖

وعلىٰ ذلك كتب الموَفّق بنُ الخلّال أيضا عن العاضد بوِلاية ٱبن شاوَر السَّعْدىّ نيابةَ الوزارةِ عن أبيه ، وتفويضَ الأمور إليه ، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليه (بألقاب الخلافة) إلىٰ فلان (بالنُّعوت اللائقةِ به) .

سلامٌ عليك (إلىٰ آخر الصلاة علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم علىٰ نحو ما تقدّم فى سِجِلّ الوزارة لأبيه) .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله مؤيِّد الحقائقِ بأفضل الأنصار ، ومُعزِّ الممَالك بأكمل ذَوِى النَّفاذ والٱستِبْصار ؛ وجاعلِ الولَدِ البارّ لوالدِه رُكْنا وسَندا ، والنَّجْل المختارِ لناجِلِه نَجْدةً ومَدَدا ؛ مرتِّب الممالك علىٰ أفضل نِظامها ، ومُرَقِّى الدُّول إلىٰ المُؤْثَر من إجلالها وإعْظامها : ليتَّضِح للتأملين فضلُ تأكد الأواصِر ، ويستَبِينَ للناظرين فَصْل تبايُنِ العَنَاصر ؛ إبرامًا منه ـ جل وعَزّ ـ لأسبا ، الحِكْمه ، وتوسيعًا لسبيل الحَنَان والرحمه ؛ وشُمولًا لما يتتابَعُ به إحسانُه من المَنِّ الجَسِيم ﴿ فَضْلًا مِنَ اللهِ ونِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

والحمدُ لله مُعْلِي الدَّرجات ورافِعِها، ومُفيد الأمَم ونافِعِها، ومزُيل البَأْساء ودافِعِها، ومُجيب الدَّعَوات وسامِعِها، ومُضاعِف المَصالِح وجامِعِها، الذى وَقَف علىٰ الدولة العَلَويَّة أحسَنَ السِّيَر، وخَصَّها فيمن تُؤْثِر ٱصطفاءَه بمساعدة القَدَر، ويسَّر لها رائقَ التدبير بعد ملابَسة الرَّنْق والكَدَر، وٱدَّخَر لها من الأصفياء مَنْ تُشْرِق الدنيا بأنْواره، وتتزيَّن الدُّهورُ بمَحَاسِنِ آثاره، وتسمُو المفاخِرُ بمَفَاخِره، ويتوالىٰ الثناءُ علىٰ ما ٱبْتكره من المَكارم فى أوّل نَشْئِه وآخِره، ويَتَتَابع الإحمادُ لمن يختارُه ويجتبِيه، وتتضاءلُ أقدارُ الملوك إذا ذُكِر فضلُه وفضلُ أبِيه، وتسكُنُ النفوسُ إلىٰ تمام وَرَعه ودينه، ويَنطِق لسان الإجماع بصِحَّة معتقَده ويقِينه.

والحمدُ لله الذى شَمِل البرايا فَضْلُه، وعمّ الخلائقَ عدْلُه، وأقرّتِ العقول بأنَّ إليه يَرْجِعُ الأمْرُ كلُّه.

يحمَدُه أميرُ المؤمنين علىٰ نِعَمه الظاهرةِ التى أحْظت دولتَه الظاهرةَ، بمُؤازرةِ البيت الجليل الشَّاوَريّ، وأيدَتْ مملكتَه القاهرةَ، بحاماته عن حَوْزتها بالعَضْب المُرْهَف والسَّمْهَرِيّ؛ ويشْكُره علىٰ مِننه التى ٱستخلَصَتْ له منه أنصارا يُرْهِفُون فى طاعته العزائم، ويُحَقِّرُون فى إرادتِه العَظَائم، فيذُبُّون عن حَوْزته ولا يخافُونَ فى ذاتِ الله لَوْمةَ لائم؛ ويسألُه أن يصلِّي علىٰ جدّه محمدٍ الداعِي إلىٰ الهُدىٰ، والمبعوثِ إلىٰ الخلائق وهُم إذْ ذاكَ سُدىٰ؛ والمُناضِلِ فى نُصْرة الإسلام بالأُسْرة والآل، والمُطَّرِح عاجِلِ الدنيا الفانيةِ لآجِلِ المَآل؛ وعلىٰ أبيه أمير المؤمنين علىّ بن ابى طالب الذى اقام من دِينِ الله منكَر الأَوَد، وقام لنبيّ اللهِ مَقام النَّجْل المرتَضىٰ والوَلَد، وقطّ من طواغِيت الكفر شامِخَ الهَام، وأوضح غامضَ التنزيل بما أفرده الله به من مَزَايا

الإلْهام؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرّيتهما أبناءِ الرِّسالة والإمامه، والمختصِّين بإرْثِ بيتِه المُحْبَوّ بتظْلِيل الغَمَامه؛ والقائمين بنُصْرة الدِّين، والمتفرّدينَ بإمْرة المؤمنين .

وإنَّ أمير المؤْمنين لِمَا أقامه اللهُ له من تمكينِ قَواعدِ الدِّين، وآختاره لإيضاحِه من إرشاد فِرَق المسْلمين؛ وأفضىٰ به إليه من سِرّ الإمامة المكْنُون، وألقاه إليه من خَفَايا الإلْهام الذى تُستَنْبَط من أنوارها علَّةُ ما كانَ ويكُون؛ وأمَدَّه [به] من التأييد الذى يستأصل طواغيتَ النِّفاق بقَوارع المَهَالك ، ويسْلُك بمَرَدة أهل العِناد أوْعَرَ السُّـــبُل والمَسَالك ؛ وأنجدَه فى كلِّ الحالات بالألطاف الخفِيَّة التى تتكفَّل بإعلاء كلمتِه، وتتضمَّن نَصْر أعلامه ونَشْر دَعْوتِه؛ وآتاه جوامعَ المَعَارف والحِكَم، وفرضَ طاعتَــه علىٰ مَنْ دان بالتوحيــد منْ جميع الأُمَم؛ وألزم مقاصِــدَه وأنحاءه التوفيق، وأوجب لهــا الســعادةَ فى كلِّ جليلٍ ودقِيق ـ يفوّضُ أمْرَه إلىٰ الخالق، ويُفيض جُودَه وبِرَّه فى الخلائق؛ فلا يزالُ لأحوال دوْلتــه مُراقِبــا ، ولا ينْفَكُّ يُفيد كلَّ مايتعلَّق بها نظَرا ثاقِبا؛ فإذا لاحتْ له لائحةُ صَلاح ، أو بدَتْ لنظَره مَخِيلةُ نَجَاح، آجتهَدَ فى توسيع مَجَالها،وحرَّض علىٰ حَثِّها وقَصْد إعجالها؛ وآلتمس للدَّولة آجتلابَها، وفَتَح إلىٰ آستِدعاء النَّفْع بابهَا : لينْمِى الخيرُ العميمُ، فى دولتــه، ويتضاعفَ النفعُ الجسيمُ، لرعيَّته؛ وتكونَ كافَّةُ الخلق فيهــا بالأَمَنة والسُّكون مغمُورين ، وبحُسْنِ صنيع الله بهم فَرِحين مسْرُورِين .

ولمّــا تصفَّح أميرالمؤمنين أحوالَ دولته، وتأمّلها تأمُّلَ من يُؤْثِرأن يَفْقَه الفحصَ فى كل مهم علىٰ حقيقتِه، رأىٰ أن الله جل وعَلا قد منَح أمير المؤمنين من خالصته وصفيِّه، ووزيره وكافِيه ووليِّه؛ السيد الأجلّ (بالنعوت والدعاء) الذى قام بنُصْرته، وكفَلَ أهوالَ الحُروب بنَفْســه وأولاده وأُسْرته؛ وحالف التغرُّبَ والأســفَار،

واستبدلَ من لِين العَيْش بملاقاة السِّهام واللَّهاذِم والشِّفَار، واتخذ ظُهورَ الجِياد عِوضًا من الحَشَايا، ومُنازلةَ الأبطال دأْبا فى الحَنَادس والبُكَر والعَشَايا، وآثر علىٰ لُبْس الغَضِّ المُونِق الجـديد، لباسَ اليَلَب ولأماتِ الحـديد، ولازَمَ فى ذاتِ الله قَرْع أبوابِ الحُتُوف، والتهجُّمَ علىٰ كل مَخْشِىّ مَخُوف، حتّىٰ ذَلَّل الأعداء، وقَمَع الاعتـداء، وحَسَم الأدْواء، وألزم الدَّهْر بعد خطئِهِ الاستِهْواء؛ وأفاد دولةَ أمير المؤمنين باجتهاده عِزّا، وادّخرلهـا عندَ الله من الأجْر والمَثُوبة كَنْزا؛ وسيَّر عنها فى الآفاق أحسَنَ الأحاديث، وبيَّن فضْلَها علىٰ غيْرها فى القدِيم من الدَّهْر والحَدِيث؛ وأخلَص لأمير المؤمنين فى الطاعةِ حتّىٰ استخْدَم المُوَالِىَ الموافِق، والمُبايِنَ المنافق؛ وكَمَّل فضائله التى لاتُحدّ، ومحاسِـنَه التى لا تَنْحصر ولا تُعَدّ؛ بفَضِـيلةٍ تفُوت الفضائل، ومَنْقَبة تفُوق بفخرها المناقِبَ الجلائل: وهى ماوجَّهه الله [له] من بنُوّة الأجَلّ فلان الذى لم يَزَلْ للدولة عِزًّا حاضرا، ووليًّا ناصِرا، وعَوْنا قاهِرا، ومجْدا ظاهِرا؛ وجَمـالا باهِرًا. ومابَرِح لله ـ جلَّ وعلا ـ مُراقِبـا، ولِرضاه وغُفْرانه طالبا؛ قد جمعَ إلىٰ كمال الدِّين وصِحّة اليقين، المخالصةَ فى طاعةِ أمير المؤمنين؛ لا يَفْتُر منذُ مدّة الطُّفُولِيَّة [عن] درْس القرءان، ولا يبارِى بغير الأمور الدينية نُجباءَ الأقران؛ إن تصَفَّحتَ محاسِنَه الدنيويَّة عُدَّ مَلِكا مُهذَّبا، وإن تأملْتَ مناقبَه الدينيَّة حُسِب مَلَكا مقرَّبا؛ وكم له من مَنْقَبة تستنقِصُ الغُيوث، وشجاعة تستَجْبِن اللُّيوث؛ ومهابةٍ تردّ أحاديثُها الجيوشَ علىٰ الأعقاب، وتُغْريها بموالاة الحَـذَر والارْتِقاب؛ إذا أسهبت الخُطوب أوجَزَ تدبيرُه، وإذا استطالت الحوادثُ قَصَّر طُولَها فأعجبَ تقريرُه؛ فالدولةُ العلَوِيَّة من ذَبّه فى الحَرَم الآمن، والخلافةُ العاضِدِيَّة من ملاحَظاته فى تدبيرٍ يجمعُ أشـتَاتَ المَيامن؛ فاجتماعُ المـآثِرِ قد وحَّده، بشَهادة الإجماع، وتَوالِى المَحامد قد أفردَه، بمـا شاع منه فى الممالك وذَاع؛ تتحاسَدُ عليه غُرُّ الأخلاق، وتتنافَسُ فيه المَكارمُ منافَسة

ذواتِ الإشْراق؛ فلا تُوجَد خَلَّة فضــلٍ بارعٍ إلا وقد جَمَّعها، ولا مَكِنَةُ جَبْرٍ قارع إلا وهو الذى مَهَّد مَحَجَّتها ووَسَّعها؛ ومَقاماتُه فى الجِهـاد والجِلاد مقاماتٌ أوضحت الحقائقَ للأفهام، وثبَّتتِ الدقائقَ تَثْبيتا يبقىٰ علىٰ غابِر الأيَّام؛ وأعزَّت دعوةَ الدولة العَـلَوية وأيَّدَتْها، ونصرَتْ أعلامَها ونشَرتْها؛ وأ كتنفَتْ بالتفضـيل والإحسان رجالَها، وأزالتْ بالجِدّ والتشمير أَوْجالها؛ ومحَتْ آثارَ عُدَاتها بالسُّيوف، وألفتهم (١) عن النِّكايات الُمجحِفة بوَزْع المَنَايا والحُتُوف .

والحُروبُ قَـرْباه فى مُهُودها، ومَنْشاه بينَ أُسُودها، ورُعاتُها وقْفٌ علىٰ إضرامها وإخمادِ وَقُودها؛ فإذا تورّدَها تورّدَها باسِمًـا متهلّلا، وإذا ٱقتحَم مَضايِقَها تصرَّفَ فيها متوقِّفا متمهِّلا؛ لايَحْفِـل بأهْوالها، ولا يُرىٰ لقارعةٍ من عظائم قَوارِعها والِهَـا؛ وحَسْـبُك فَتَكاتُه فى طُغاة الكُفَّار، وقصْـدُ أولياء الدولة بالإظهار: فإنَّ الكُفَّار حينَ نَهَـدُوا للنِّفاق، وٱجتلبُوا أشباهَهم من بعيدِ الآفاق؛ وتَهَجَّمُوا علىٰ الأعمـال فجأَهم بعَزْمة من عَزَماته أقامتْ رايةَ الدين، وجعلتْهم حَصِـيدا خامدين؛ وأفْنتْ منهـم الصَّناديد، وٱصْطَلَمتْهم ببلايا تَزيد علىٰ التعـديد؛ وٱجتحَفَتْهم بالقَتْل والأَسْر والتفريق، ورمتْهم بدَواهٍ لايقـدرُ بَشَرِىٌّ علىٰ دِفَاعها ولا يُطيق؛ ولمَّـا ٱلتجأَ طاغيةُ الكُفْر إلىٰ الحِيَرة وركَد، ورامَ الٱعتصامَ بعُرْوتها وٱجتَهد، وٱغترَّ بمـا معه من الجمع وكَثْرة العدَد؛ نَهَد إليه فى الأبطال الأَنْجاد، ونهَض نَحْوه ثابتًا للقِراع والجِلاد؛ فأزاله عن مَجْثِمه، وذَعَره ذُعْرًا شرَّده عن مَعْلَمه؛ ورماه بالحَرَاك بعد السُّكُون، والتَّعب الذى قَدّر بٱغترارِه أنَّ مثـلَه لايكُون؛ وكَمْ له فَتْكةٌ فى أهل العَمُود ذلَّلتْ جِماحَهُم، وٱستلبَتْ أرواحَهم، وأعادتْ ليلًا بالنَّقْع صَباحَهم .

---

(١) لعـــله وألهتهم .

وعند تمادى عُتاة الكُفَّار فى الإصرار، وجَوْسِهم خِلالَ الدِّيار، ونَفْثِهم فى وُجُوه الأذىٰ والإضْرار، وطَمَعِهم فى ٱجتياح أهلِ الأعمالِ والأقطار ـ عوّلَ أميرُ المؤمنين فى ٱستِئصالهم علىٰ عَزْمه، وٱعتضَدَ بذَبِّه وحَسْمه ؛ وجعل إليه التدبيرَ بالقاهرة المحروسةِ التى هى عُمْدةُ الإيمانِ والإسلام، ودارُ هِجْرة الإمام، ومَعْقِل الخلافة مُنْذُ غابرِ الأيَّام، وأطلق يَدَه فى رَبِّ جميع الأعمال، وتأمينِها من بَوائق الأوْجال ؛ فبثَّ بالحضرةِ وبالأعمال من مَهابتِه ماشَرَّد الأوغار، وسَهَّل الأمصار، ومَحَق الضُّلَّال، وأذاقَهم النَّكَال؛ فعَمَّ السُّكون والأَمَنه، وٱستولَتْ علىٰ الأعمال السياسةُ المستَحْسَنه؛ فجادتْ بنَضرة الأيام وصَلاح الوُجُود، وٱغتبَطُوا من تدْبيره بصُعُود الجُدُود، ورتَعُوا من عِنايتِه فى عيْشٍ يُضاهِى عيْشَ جِنانِ الخُلُود؛ فالبَلَاغات بأَسْرها لاتقُوم بمَدْح ماأُوتِىَ من الفضائل، ولا يُوازى مجموعُها مَنْقَبةً من مَناقبِه التى أَرْبىٰ بها علىٰ الملوك الأواخرِ والأَوائل؛ والخَصائصُ الملُوكيةُ بجُمْلتها فيه جِبِلَّة وفِطْره، وإذا قِيستْ نادرةٌ من نوادر فضله بما تفرّقَ فى جميع المُلُوك كانتْ فضائلُه بمنْزِلة البحر ومجموعُ فضائلِ المُلُوك بمنْزِلة القَطْره؛ وقدطَرَّز فضائلَه البديعه، وخِلالَه الساميةَ الرَّفيعه، من مُوالاة أمير المؤمنين ومناصحةِ دولتِه بما تكفَّل بسعادة الدنْيا والآخره، ونِهاياتِ مَغانِم الثوابِ الشريفةِ الفاخره؛ فلَيْلُه ونهارُه مصْروفانِ إلىٰ المجاهَدة عن دولة أمير المؤمنين التى هى دولةُ التَّوْحيد، والمُخْلِص فيها مُعرَّض لكلِّ مقامٍ سعيد؛ فمحاسِنُه ترتفع عن قَدْر التقريظ والمَدِيح، ولا تُقابَل إلا بموالاة التسبيح .

ولما أحمَدَ أميرالمؤمنين أثرَهُما فى خِدْمته، وشكَرَ قَصْدَهما فى دولته؛ وكان السيدُ الأجلُّ قد بلَغ إرْبَه فى الخِلال، وحلَّ المحلَّ الذى لاتتعاطاه جوارِحُ الآمال؛ وقَدْرُه يَشْرُف عن كلِّ تكريم ، وموضِعُه يتميَّز عن كلِّ مَنْ جَسِيم ، ومنزلتُه تسمُو عن كلِّ تعظيم ـ فأوصىٰ أميرُ المؤمنين السيدَ الأجل أنْ يُقَرّر له جميعَ خِدَمه ، ويُسْبِغ عليه

فى المستأنَف أضْفىٰ نِعمه : فإن محلَّه يرتفع عن محلِّ الخِدَم الجليله ، ويسمُو عن كل تَصرُّف يسِمُه فى الدولة بسِمَة جميله ؛ ورأىٰ أميرُ المؤمنين والسيدُ الأجل أن يُعْلَن بإسـناد النيابة عن والدِه فى أُمور المملكةِ إليـه ، ويُشْهَر أنَّ ذلك معوَّلٌ فيه عليه : ليخفِّف عن السيد الأجلّ أمير الجيوش أمْرَ أثقالها ، ويتحمَّل عنه تكليفَه بعض أحوالها ؛ ترفيهًا للسـيد الأجل عن التَّعَب ، وتخفيفًا من كَثْرة النَّصَب ؛ علىٰ أنَّ عُلُوّ قدره الأجلّ لم يُخْلِه فى وَقْتٍ من الأوقات من مشاركةٍ فى التدبير ، ولا صَـدَّه عن ممازجةٍ فى مُهِمٍّ كبير ؛ بل ما بَرِحتْ يدُه فى جميع أحوالِ الدولة جائِله ، وجَلَالةُ مَنْصِبه تقضى بأن تكونَ تصريفاتُه لجميـع الأمور شامـلَهْ ؛ وتوقيعاتُه ماضـيةً فى الأموال والرجال ، والجهات والأعمـال ؛ وأميرُ المؤمنين والسيد الأجل يستَسْعِدان بأداته ، ويَتَتَّبعان فى كل السياسات ماهو موافِقٌ لإراداتِه : لمـا خصَّه الله [به] من المَرَامى الصائِبه ، وللمقاصِد التى السعادةُ علىٰ مايَرِد منهـا مُواظِبه ، وجَبَله عليه من المحافظةِ علىٰ حُسْن المَرْجِع وحميدِ العاقِبه - خرجَ أمْرُ أمير المؤمنين إلىٰ السيد الأجل بالإيعاز إلىٰ دِيوان الإنشاء بكَتْب هـذا السِّجلّ لك : فتقلَّدْ ما قُلِّدته من النيابة عن والدك فيما إليه من أمور مملكتِه ، وأحوال دَوْلتِه ؛ معتمِدًا علىٰ تقوىٰ الله التى بها نجاةُ أهل اليقين ، وفوزُ سُعداء المتقين ؛ لقول الله عز من قائل : ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين﴾ . وٱحمِلْ عن السـيد الأجل والدِك مايُؤْثِرأن تحمِلَه عنه من الأثقال ، وتكفَّلْ مايُكَلِّفُك إيَّاه من الأشغال ؛ ونَفِّذ مايختارُ أن تُنَفِّذَه ، وأنجِزْ مايُؤْثِر أن تُنْجِزه ؛ وأمضِ ما يُشِـير إليك بإمضـائه(١) من أساليب التوقيعات ، وفُنُون المُهِمَّات ؛ وقُمْ فى كل من أمور نيابَتِك المقامَ الذى يُرْضِيه ، ويوجِبه بِرُّك ويقتضيه ؛

(١) فى الأصل «اليك الى امضـائه» ولا يخفى ضعفه أو بطلانه .

وقد جعلك الله ميمونَ النَّقيبــه ، مسْعُودَ الضريبــه ، مُكَمَّل الأَدَوات ، مؤهَّلا لترقِّى الغايات ، لا تكْبَرعن مباشرتِكَ كبيره ، ولا تَشِفُّ(١) عن رُتْبتك رتبــةٌ خطيره ، وأجْرِ علىٰ عادةِ والدك فى حسن السياسةِ والتدبير ، والإجمالِ للأولياء لكما فى كل صــغيرٍ من الأُمُور وكبير .

والوصايَا متَّسِــعةُ الفنون ، كثيرةُ الشُّــجُون ، ولك من مَزِيَّة الكمال ، وفضــيلة الجَلَال ، ومساعدةِ الإقبال ، والخِبْرة بالجهاتِ والأعمال ، وطوائِفِ الأولياءِ والرجال ، ما يُعينُك علىٰ آستنباط دقائقها ، والعمل بحقائقها ، وسُلوك أحسَن طرائقها .

هذا عهدُ أميرالمؤمنين إليك ، وحجتُه عليك ، فاعمَلْ بأحكامه ، وأجْرِ أمورك علىٰ نِظامه ، وبالِــغْ أيها السيدُ الأجل أميرُ الجيوش فى شُكْرِ نعمةِ الله التى ألهمَت الملوكَ إشاعةَ فَضْلك ، ورتَّبت السُّعود علىٰ آكتناف عَقْدِك وحَلِّك ، ومنحَتْكَ آيةَ كليم الله فجعلت لك وزيرًا من أهلك ، فاعْلَم هذا وآعمَلْ به إن شاء الله تعالىٰ ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

⁂

وعلىٰ ذلك كتب بعضُ كُتَّابهم عن العاضد ، لرُزِّيك بن الصالح طلائع بن رُزِّيك ، بولايةِ المظالم وتقدِمةِ العسكر فى وزارةِ أبيه ، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليِّه فلانٍ أبى فلان الإمام الفلانى (بلقب الخلافة) أمير المؤمنين ، إلىٰ فلان (بلقبه وكنيته) .

سـلامٌ عليك ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو ، ويسألُه أن يُصلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم خاتَم النبيين ، وسيدِ المرسلين ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهِرين ، الأئمةِ المهدِيِّين ، وسَلَّم تسليما كثيرا .

(١) فى القاموس "شف يشف شفا زاد ونقص" .

أما بعدُ، فالحمدُ للهِ الغامرِ بالطَّوْل والفضل، الآمرِ بالإحسان والعَدْل، مُوسِّـع سُبُل الصَّلاح لبريَّته، ومسبِّب أسبابِ النَّجاح لدينِه الحنيف وملَّته؛ وجاعلِ أبرارِ أوليائه ذَخائرَ مُعدّةً لنفْع الخلق، ومُصطفِى سعداءِ أحِبَّائه لإعلاء مَنَار الشرع و إقامة قِسْطاس الحق؛ وميسِّرِهم للنُّهوض بالأعباء التى تتكَفَّل بعَضْد الدولة العلوية وتَقُوم، ومجتَبِيهم للفصل بمَرْضاته فيما يقضى بإغاثة المَلْهُوف و إنصافِ المظْلُوم؛ الذى تنقاد بمشيئته الأمور، وتتصرف بإرادته الدُّهُور، و يعلَم خائنةَ الأعيُنِ وماتُخْفِى الصُّدُور؛ و يغدُو فضلُه علىٰ عباده جَسِيما، و﴿ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرّةٍ و إنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ويُؤْتِ من لَدُنْه أجرًا عظيما ﴾ .

والحمد لله الذى أوضح بأنبيائه سُبُلَ الهدىٰ للأَنام، وأنقَذَ بإرشادهم من عِبادةِ الأوثانِ والأصْنام؛ وأقامَ باجتهادِهم أحكامَ ماشَرَعه من المِلَل والأديان، وأذهب بأنوارِهم ماغَمَر الأُمَم من غَياهِبِ الظُّلْم والعُدْوان؛ وقَفَّى علىٰ آثارهم بمن لانبُوّةَ بعْـد نُبوّتِه، ولاحُجَّةَ أقْطَعُ من حُجَّته؛ ولا وُصْلَةَ أفضَلُ من وُصْلةٍ ذَخَرها لأمَّته، ولاذُرّيَّةَ أقْوَمُ بحقِّ الله فى حِفظ نظامِ الإيمانِ من عِتْرته وذُرّيَّته .

يَحمَدُه أمير المؤمنين علىٰ أنْ مكَّن له فى الأرْض، وذخَر شفاعتَه لذَوى الوَلَاء فى يوم النُّشور والعَرْض؛ وأورثه خَصائِصَ من مضىٰ من أئمَّة الهُدىٰ آبائه، وأفرده بمُعجز التأييـد الذى أضاءت الآفاقُ بمُشْرِق أنبـائه؛ و يشكُره علىٰ أن أنجدَ دولتَـه بكفيلٍ جدَّد جِلْبابَها، وظهيرٍ أحْكَمَ أسبابَهَا، ونصيرٍ بَلَّغ بها فى الوَلىّ والعَدُوّ مطالِبَها وآرابَهَـا؛ وآستَنْجَب له من نَجْله خليـلا يتلُوه فى الفضائل البارِعه، وناصرًا يُحاوِل فى الذَّبِّ عن حَوْزَته عَزْما أمْضىٰ من السُّيوف القاطعه؛ وعَضُـدا يقُومُ له بإرضاءِ الخالق والمَخْلُوق، ومُسْـعدا لا يألُو جُهْدا فى إيصال المستحقِّين إلىٰ ما جعله الله لهم

من الحُقُوق . ويسأله أن يصَلِّى علىٰ جدّه محمدٍ سيدِ من بَلَّغ عن الله رسالةً وأمْرا ، وأفضَلِ من دَعا إلىٰ توحيد بارِئه سِرًّا وجهْرا ؛ وأكملِ منْ جاهد عن دِينه حتّى ظهَرتْ بعدَ الدُّروس جِدّتُه، وقهَرتْ إثْرَ الخُضُوع عِزَّتُه، وآنتشرتْ فى المشارِق والمَغارِب كلمتُه ودعْوتُه؛ صلّى الله عليه وعلىٰ أخيه وآبنِ عمِّه أبينا علىّ بنِ أبِى طالب قسيمِه فى الشَّرَف والأُبُوّه، وصِدّيقِه الأكبرِ فيما جاء به من النُّبوّه؛ والمكمَّل بالنصِّ علىٰ إمامته الدِّين، وخامسِ الخمسةِ الذين سادِسُهُم الرُّوح الأمين ؛ وأبى الأئمةِ الأبْرار، والهازِم بمُفْرَده كلَّ جيْش جَرّار ؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرّيتهما أعلامِ مَحجَّة الهُدىٰ، وأنوارِ سُبُل الإيمان التى بأنوارها يُسْتَبْصر ويُقْتدىٰ ؛ وأدلّةِ منْهاج النجاه ، وكاشِفِى غُمَمِ الشَّكِّ إذا الظُّلْم دَجاه؛ وسَلَّم ومجَّد، وتابع وردّد .

وإنَّ أمير المؤمنين لِما آصطفاه اللهُ له من إرْث سِرّ الإمامة المَصُون المكْنُون ، وحَقِّ بَيانِه العظيم الذى بالخُشُوع لجَلاله أفلح المُؤْمنون؛ وآختاره [له] من نَشْر لواء الحقِّ ونصْره ، وتأكيدِ أحكامِ الإنصاف ليَحْظىٰ بعائدَتها كافَّةُ أهل زَمنه وعصْره ؛ وألبسه إيَّاه من تاج خلافَتِه الذى أشْرقَ لبصائر العارفين نُورُه الساطع ، وتجلّىٰ لأفهام المُوقِنين بُرهانُه الصادعُ ودليلُه القاطع ؛ وأُودِعه من خَفَايا الحكَم التى عَذُب سَلْسبيلُها، وبلغ إلىٰ النعيم الخالد دليلُها وسبِيلُها؛ وكَّله لأيَّامه من الإقبال الذى جعلَها مواسِمَ زاهيةً بَهجَةَ النصر المبين ، وأعيادَ ظَفَرٍ تروقُ بتَوالى إبادةِ العادلين عن الطاعة النّاكبين ؛ وأوقاتًا سعيدةً تُفيد الدينَ وأولياءَه عِزًّا وآعْتِلاء ، وتُوجب للإيمان وأنصاره آقتدارًا وآسْتِيلاء ، وتُسْبِغ عليهم كيفما تصرّفتْ بهم الأحوالُ مِننًا ضافيةً وآلاء؛ ويَسَّره لعِلْمه من الإحاطة بكل مُغَيَّب مستُور، وأوجبه لأغْراضه فى كل مايرومُه من مُظاهَرةِ المقْدُور؛ ومَهَّده لحُلُوله من أشْمَخ منازِل التطهير والتقديس ، وشَرَّف به شِيَمه من كل خُلُق نَبَوىّ بارعٍ نَفِيس؛ وفضَّله به من الكرم الذى لاتزالُ

سُحُبه تجُودُ الأُمَم سَرَفا، ولا تنفَكُّ غيوثُه تَجُدُّ لمن مُطِر به عَلاءً وشَرَفا؛ ولا بَرِح وابلُه يعُمُّ بالنِّعَم الغُرِّ الجِسام، ولا تَكُفُّ سيُوبُه عن إفاضة المِنَن التى علَتْ وغلَتْ فلا تُسامىٰ ولا تُسام؛ وخُصَّ به إحسانه من المُثابرة علىٰ إعظام المَنائح للستوجِبين، والمحافظةِ علىٰ إجزال المَواهب للزْدَلِفين إليه بالأعمال الصالحةِ المتقرّبين - يُجْهد آراءه فى آرتياد من تتضاعَفُ للبريَّة بالآستعانة بكماله أسبابُ المَصالح، وتتأكَّدُ للأمّة بالتعويل علىٰ بارِع فضلِه أحكامُ النُّجْح والمَناجِح، وتقُوم الحجةُ عنـدَ الله بالآعتضاد به فيما يَقْضِى بنَفْع [العباد]، ويسْهل الآعتماد علىٰ ديانتِه بالنُّصْح لله فى الحاضر من بريّته والْباد؛ ويَنْطِق شرَفُ خلائقه بتوفُّره علىٰ إحراز مَغانِم البِرِّ والتقوىٰ، وتُعْرِب طرائقُه عن السَّعْى الذى لايقِفُ فى مَرْضاة ربِّه دُونَ بلُوغ الغايةِ القُصْوىٰ؛ وتدلُّ أحوالُه علىٰ رعاية حُقُوق الله سبحانَه فى كلِّ مايفعل ويقول، وتُوضِّح أخباره حُسْنَ تأتِّيه فى مصالح الأُمَم لما يَعْجز عن آستنباطه رَواجِحُ العقُول؛ ويقتَدِحُ نظَرُه أنوارًا يُستضاء بها فى طُرُق السِّياسات الفاضله، ويفْتِتح فكْرُه أبوابا تَضْحىٰ بها الخليقةُ إلىٰ الخيرات الكاملةِ واصله؛ ويبعثُه حُسْنُ جِبِلَّته علىٰ أن يحتَقِر فى إعانة البَرايا، عظائمَ المَشاقّ، ويدْعُوه كرمُ سَجِيَّته إلىٰ أن يحنُوَ علىٰ الرعايا، حُنُوَّ مَنْ يتوخَّاهم بالرحمةِ والإشْفاق؛ ويقْوىٰ بإعانته المستضْعَفُ قوّةً تُحَصِّنه من عَدْوىٰ الآهتضام، ويَعِزُّ بملاحظتِه المستذِلُّ عِزَّةً تُخْرِجه عن صُورة المقهُور المُسْتَضَام؛ ويقتَفِى الآثارَ الصالحيَّةَ فى عَدْل الطِّباع وحُسْن الشِّيَم، ويتَّبع السُّنَن الغِياثيَّة فى الإحسان إلىٰ جميع الأُمَم، ويَقْصِد فى اللُّطْف بالصغير والكبير قَصْدَها، وينتحى نواجِمَ الباطل فيعتَمِدُ آجتثاثَها وحَصْدَها؛ ويكون تفويضُ أمير المؤمنين إليه تَوثُّقا عند خالقه وباريه، وآحتياطًا لنفسه فى آستنادِ المهمَّات منه إلىٰ من لايُدانيه مُدانٍ ولا يُباريه؛ وتتيَمَّن الدولةُ العلَويَّةُ بمباشرته للأحوال تيمُّنا يُؤذِنُ لها بإدْراك كلِّ مَطْلَب بعيد، وتستَسْعد بحُسْن

سِيرته ٱستِعدادا يقْضى للمَنَاجِح بتمكِينٍ تُبْدى فيه وتُعِيد ؛ وتَختالُ الأيّامُ بما ٱجتلتَه من جَواهرِ مَفَاخِره ، وتَزْدان الأزمانُ بمـا توشَّحتْه من مَناقبـه التى حقَّرت الملُوكَ فى أوّل الدَّهْر وآخِره .

وقد ٱكتنفَتْـك أيُّها الأجلُّ عنايات الله سـبحانه وٱشتملَتْ عليـك ، وتتابعَتْ موادُّ ٱصطِفائه وٱجتبائِه إليك ؛ وأنالتْكَ من كلِّ فضـل بارِعٍ ، غايتَه ، وأظهرتْ فيك لـكلِّ كمال رائع ، آيتَـه ؛ وجمعتْ لك من مُعْجِزات المَحاسِن مالولا مُشاهدتُك لوجب ٱسـتحالةُ جَمْعه ، ولأنْكَر كلُّ متدبِّرٍ صدَر حديثُه عن صَدَر صدْره أو وُرُود سْمعه ؛ ويَسَّر لك تمـامُ السَّعد والإقبال ، الترقِّيَ إلىٰ ذِروة العُلىٰ التى يهَابُ النجمُ أن تَمُرّ ملاحظَتُها منه ببال ؛ وتأنَّقت الحظوظُ فى إعظام ماخوّلتَك من الفضائل الباهـرة فبـالغَتْ وتناهت ، وأغرقَتْ فيما أتحفتْـك به من المحاسن النادرة فشرفتْ بك وتباهَتْ ؛ حتّى غدَا جسِيمُ ماقُدّم شرحُه من الثناء وذِكْرُه ، وعظِيمُ ماوجب منه نشرُه فتضوّعَ أَرَجُه ونَشْره ، نُغْبةً من بِحارها الزاخره ، وشَذْرةً من عُقُودها الفاخره ؛ وقليلًا من كثيرها الجسيم ، وضَئيلًا من جزيلها الذى ٱستكمَل خصائِصَ التعظيم .

واستثمر فأنت الجـامع لمفترِق الفضائل المُلْكيه ، والفارِعُ ذُرَى الجَلال الذى أفردَتْك به المواهبُ الملُوكيَّه ؛ والممنوحُ أعلىٰ رُتَب السيادة السارِيةِ إليـك من أكرم الأُصُول ، والمْمُوح بارتقاء هِضَاب المَجْد التى عَجَز ملُوكُ الآفاقِ عن [الٱنْتهاء] إليها والوُصُول ؛ والأوحدُ الذى بَذَّ العظماءَ فعظُم خَطَرا وقدْرا ، والأرْوعُ الذى ٱنقادتْ له الصِّعابُ فرَحُب باعًا وصَدْرا ، والعالمُ بالأُمُور الذى أصبح أعلَمَ ملوكِ الأرض بأحسنِ التَّدبير وأدرىٰ ؛ والمُذْكِى بأنوار ذَكَائه فى عاتِم النُّوب سِراجا وهَّاجا ، والمشمِّرُ فى ذات الله فلا يُوجَد له علىٰ غير ما أرضاه مَعَاجا ، والمبتكِرُ من غرائب السِّياسات مالا تَزالُ محاسِـنُه علىٰ مَفْرِق الزمن تاجا ؛ والممجَّد اللَّهجُ بتمجيده كلُّ مقْول ولسان ، والمُعْجز

كلَّ متعاطٍ وإن كان بليغًا بديعَ الإحسان ، والممنوحُ المُعرِق فى السيادة والمملكه ، والمبتدِعُ المكارمِ أبْكارا تجِلُّ عن أن يُشابِهَه أحدٌ فيها أو يَشْرَكه ، فآياتُ مجدك ظاهرةٌ باهره ، وغُرُّ خلائقك فى آختراع المآثِر وآفتراعها ماهِره ، وإليك إيماءُ السعادة وإشاراتُها ، والدُّسوتُ باعتلائك مناكبَها تُسامى السماءَ أرجاؤُها ، ويتحقق فى البحر الأعظم بتصدُّرك فيها رجاؤُها ، فلا كمالَ إلّا ما أصبح إليك يُنْسَب ، ولا جلال إلا ما يُعَدّ من خصائصك ويُحسَب ، ولم تزل لربِّك خاضعا ، ولشَرَفك متواضعا ؛ وأنوارُ الألمعيَّة تُوضِّح لك من طُرُق الأمانة ما يَعْجِز عن إدراكه قوىُّ التجريب ، وتُحْكِم لك من أحكام السياسةِ ماتقْصُر عن أقلِّه فِطَنُ الحكماء الشِّيب ، وتُبْدى لك أسرارَ الأزمنة المتطاوِلة فى إقبال سِنِّك ، وتُلين بتلطفاتٍ صَلابةَ الخطوب مع نَضارة غُصْنك ، وما بَرِح ذكرُ أخبار صَوْلتِك ، وحديثُ ما أعظمه الله من فُروسيَّتك وشجاعتِك ، يُوفِّر حُلوم الأبطال فى المَلَاحم إذا أطارَها الذُّعْرُ فطاشَتْ ، ويُسَكِّن نفوسَ الأنجاد فى المَلَاحم إذا أطارها الذُّعر فجاشتْ ، ويُحْدث للجبناء جُرْأةً وإقداما ، ويجعلُ الكَهامَ فى الحروب مُذَلَّقًا حُساما ؛ نخُيَلاء الأَعْوجيَّة زهو مما ترْقُبه من شَرَف آمْتطائك ، وصليلُ المَشْرَفيَّة ترنُّمٌ بمُطْرِب قَصَصك وأنبائك ، وآهتزازُ السَّمْهَريَّة جَذَل بما كَفَّلتها من إشادةِ عَلَائك ، وضَمَّنتها من إبادة أعدائك ، وليس بغريبٍ أن تفْضُل الأملاك ، وتطأَ أخامِصُك السِّماك ، وتختالَ فى وَشْى الوصف البَديع ، وتُشْرِق أسِرّةُ محاسنك فتُخْجِلَ ضوءَ الصُّبْح الصَّديع ، وقد أكرمك الله مع فضلِ الخليقة والفِطْره ، وكمالِ الخصائِص التى غدَا كلٌّ منها فى بديع المُعْجزات نَدْره ، ببُنوّة مُغيث الأنامِ ، ومُصْلِح الأيّام ، وكفيلِ أمير المؤمنين وكافِيه ، ومُبْرِئ مُلْكه من أسقام الحوادث وشافِيه ، السيد الأجلِّ الملك (وتتمة النعوت والدعاء) الذى آنتضاه اللهُ لكَشْف الغُمَم ، وآرتضاه لتدبير الأُمَم ، وفَضَّله على ملوك العرَب والعَجَم ، وشَمَخ علاؤُه فتطامَنَ

له كلُّ عليٍّ ودان، وسمَتْ مواطِئُ أقدامه فتمنَّت منالَها مواطِئُ التِّيجان، وحاز بالمَساعى الفضلَ الباهِرَ أجْمَع، وآستولىٰ علىٰ بواهر الحِكَم بالنظر الثاقبِ والقَلْب الأَصْمع(١)، وأُفْرِد بكمالٍ عزَّ أن تُدْرِكه الآمال، أو يكُونَ لِآشْتِطاطها فيه مَطْمع أو مَجَال؛ وغدا النصرُ المُبين تابعًا لعَذَبِ ألْوِيته، وحُسنُ إقباله فى كلِّ موْطِن كفيلٌ بإدبار العدُوِّ وتوليَته؛ وأجاب داعِىَ الله إذ آستنصَرَ لآل بيت النبوّة وآستَصْرَخ، ولَبّى دعاءَه تلبيةً تُسطَّر أخبارها علىٰ ممرّ الزمان وتُؤَرَّخ؛ وأجلىٰ شياطين الضَّلال وقد تبِعتْ فى زعيمها الجاحد وثَنا، وصدّها بالعزم المُرْهَف عما أصرَّتْ عليه من مُنْكَر الإلحاد وثنىٰ؛ وبدَّلَت سطَاه جبابرةَ الطُّغاة من الأوْطان بُعْدا وسُحْقا، وأمتعتْهم فتكاتُه من الأعداء الوافرة إفْناءً وسَحْقا، وأذاقتْهم حَملاتُ جُيوشِه وَبالَ أمرِ من عاضَدَ باطلا وعاند حَقّا؛ وجعلَتْهم شِفارُ سيوفِه الباترةِ فى التَّنائف حصِيدا، ورمَتْ بالإرْغام والإضْراع مَعاطِسَهم وخُدودَهم بعد أن عَمَّروا شُمَّا وصِيدا؛ وقصَّد بمواضيها أشْلاءَهم ودماءَهم فألحم غُروبَها وسَقىٰ؛ وكَشَف بلوامعها عن الدولة الفاطمية من مَعَرّتهم جُنْحا عاتمًا وغَسَقا؛ وكَفلَ أمورَهم فأحسن الإيالةَ والكَفَاله، وأعادها إلىٰ أفضلِ ماتقدّمَ لها من القوّة والفَخامة والجَلاله؛ ونظر أحوالَها فقوّم كلَّ معْوَجٍّ وعدّل كلَّ مائل، وحَباها مَلْبَس جمالٍ تقْبُح عند بَهْجته ملابِسُ الخمائل.

ولمّا أباد عُصَب العِناد، عطف علىٰ الآجتهاد فى الجِهاد؛ فجابَتْ جحافلُه متقاذفَ الأقطار، ونالتْ من الفتك بالكَفَرة فى أقصىٰ بلادها نهايةَ الأوطار، وآنتزعَتْ منهم الحُصون، وآستباحَتِ المُمنَّع المَصُون؛ حتّى أصارت جَلَدهم المشهورَ فشَلا، وفَيْض إقدامِهم المذكورِ وَشَلا؛ وشَمِل الأمة بسِيرةٍ عُرفت بالعدْل والإحْسان، وأحظَتِ

(١) أى الذكى المتيقظ .

الخلائقَ بالأمْن المَدِيدِ الظلال، وأرضتْهم بالعيش الرائقِ الزُّلَال؛ وأنالتْهم من المَطالِب ما اتَّسعت لإدراكه خُطَا الآمال؛ وجادَ ففَضَح الغَمائم، ومَنَّ على ذَوِى الذُّنوب حتّى كاد يُتقرّب إليه بالجَرائم؛ وأقال عَثَراتٍ كَبُرتْ فلولا كَرَم سجيّته لم يَرُم الإقالةَ من خَطَرها رائِم؛ وأمدّه اللهُ من معْجِزات البَلاغة والبَيَان، وغرائبِ الحِكَم البديعةِ الأفتنان، مايستَخِفُّ الأحلامَ بفَرْط الطَّرَب والإفْتان؛ ولم يزل منذُ كان يحْمِى سَرْحَ الدين، ويضُمُّ نَشَر المؤمنين، ويبذُل نفْسَه الشريفةَ فى نُصرة الدولة العلَوِيَّة بَذْلَ أكمل ناصرٍ وأفضل مُعين؛ وتكبُرُ عظائمُ الخُطوب فيكونُ عزمُه أعظَمَ وأكْبَر، وتُزْهىٰ الأيام بغُرّ مَحاسنه وهو لايُزْهىٰ ولا يتكبّر؛ فقد عزّ جانبُ كماله، عن أن يُناهِضَه جُهْدُ المديح، وارتفع محلُّ جَلاله، فلا يُنال تكييفُه بإشارةٍ ولا تصريح، وعَظُم قدرُ مفاخره فلم يقابَلْ إلا بموالاة التمجيد لخالقِه والتسبيح؛ ووجب علىٰ متصَفِّح خصائِصه الموالاةُ فى التعظيم، ولزومُ مَنْهَج استيداعٍ لايبْرَح عنه ولا يَرِيم؛ ومبالغةُ قوله تعالىٰ: ﴿ ماهٰذَا بَشَرًا إنْ هٰذَا إلَّا مَلَكٌ كَرِيم ﴾.

فبَلَّغ الله أميرَ المؤمنين فى إطالة مدّته الآمال، وأبقىٰ لمُدّته باستمرار نظرِه الحظَّ والجَمَال؛ وفتح له المَشارقَ والمَغاربَ بِهِمَمه العالية وعزائِمه، وجعل نَوَاجِمَ الإلحاد حَصائدَ شِفَار صَوارمه؛ فافْخَرْ أيُّها الرجلُ بأصْلك وفَرْعك كيفَ شِيت، وابْجَح بما مُنِحتَ منه وأُوتِيت، ووالِ شكرَ خالقِك علىٰ ما خُوِّلتَ وأُولِيت؛ فما نَخَر بمثل نَخْرِك ملِكٌ سَمَيْدَع، ولا تباهىٰ الدَّهْرُ لأحد بمثل ماتَباهىٰ فى حقّك ولا أبْدَع.

ولما تكاملَ لك أيُّها الأجل بلُوغُ هذا الفضلِ الجَسِيم، وتَمَّ مامُنِحته من المجد الحادثِ والقديم، جدّد أميرُ المؤمنين لك شِعارَ التعظيم، وكَمَّل لديك المفاخرَ تكْمِيلَ العِقْد النظيم؛ وجعل الخيرَ فى إمْرته لك عِيَانا، وأقامك للدولة الفائزيَّة والمملكةِ

الصالحيـة بُرْهانا، وجعلك لكافَّة المسلمين فى أقطار الأرض سُـلطانا، وطابَق بين ماخصَّك به من السِّمات السنيَّه، وبين مامكَّنه لك من المراتب العليه، فآتَّخذك لدولته ناصِرًا وعضُدا، وآنتَخبك للإسلام مَجْدا وسَنَدا، وأحيا بمُرافَدَتك أنصارَالدين، وشفىٰ بنظرك صُدورَ المؤمنين، وآستخْلَصك لنفسه النفيسةِ حميًا وخليلا، وبلَغ بك إلىٰ الغاية القُصْوىٰ إعلاءً وتبجيلا ، وشَرَّفك بخِلَع بديعةٍ من أخصِّ مَلابِس الخلافة تروُق محاسنُها كلَّ النواظر، وتفُوق بدائعُها مادبَّجه زَهَر الروض الناضر، وقلَّدك سيفا يُؤْذِن بالتقليد، ويُبَشِّر بالنصر الدائم المَزِيد، تتنافَس فى مَتْنه وفِرِنده الجواهر، ويستَوْلِى ناصعُها علىٰ الباطن منـه والظاهر، وعَزَّزها بالتشريفات التى آكتنفَتْها البَهْجة والبهاء، وبلَّغتها فى العُلىٰ إلىٰ الغـاية التى ليس بعدها آنْتهاء، وآثر أن تُبْسَط يدُك فى التدبير، ويُعْدَق بك ماهو عنده بالمحَلِّ الكبير، ويُجْمَع لك من أشتاتِ دولتِه مالم يُعرَف لجمع مثله فى سالف الزَّمَن نظِير، ويسْنَد إلىٰ كمالك مايعودُ النفع بصَلاحه علىٰ المأمور من الأنامِ والأمير .

ففاوَضَ أيُّها السـيد الأجلُّ الملكَ الصالحَ والدَك أدام الله قُدرَته، وأعلىٰ كلمتَه، فى ذلك مُفاوضـةً أفضتْ إلىٰ وُقُوع الإجمـاع علىٰ أنك أ كمَل مُلوك دهـرِك دِينا ، وأصحُّهم يقينا، وأشرَفُهم نَفْسا وأخلاقا، وأكرَمُهم أُصُولا وأعراقا، وأمثلُهم طريقةً وأحسَـنُهم سيره ، وأنْقاهم صـدْرا وأطهَرُهم سريره، وأشَـفُّهم جوْهرا وأزْكاهم ضريبة وأتْقاهم لله سِرًّا وعَلَنـا ، وأولاهم بأن لايصْدُر عنـه من الأفعال إلَّا جميلا حسَنا، وأنك أفضلُ مَنْ عَدَق أميرُ المؤمنين بنظره أمْرَ الدنيـا والدين، وأسْنَد إلىٰ ملاحظته أحوالَ أُمَراء الدولة ورجالها أجمعين، وفوّض مصالحَ المسـلمين منه إلىٰ التَّقِيِّ الأَمين ، وأنَّ السـيدَ الأجلَّ الملكَ الصالح أدام الله قدرتَه لمَّـا أخلَص محـلَّه عند أميرالمؤمنين بتَتابُع الإشاده، وتفرّدَ باستِمرار المضاعفة بإذن الله تعالىٰ والزِّياده،

وآستولىٰ علىٰ الأمدِ الأقْصىٰ فى السموّ لدَيْه والتعالى، وآنخفضَتْ عن ثَراه ذُرىٰ أشْمَخ المَعالِى، كان عندَ أمير المؤمنين الأوّلَ فى الجَلال وأنتَ ثانيــه ، والسابقَ فى الفَخار وأنتَ تاليه ؛ ودَلَّ بفضْلك علىٰ فضله دِلالةَ الصبح علىٰ النهار، والنَّمـاء علىٰ الإبدار، والثَّمرِ الطيب علىٰ فضيلةِ الأصْل والنِّجار ؛ فتبارك مُولِى المِنَن لأوليائه وحِزْبه، القائل فى محكم كتابه : ﴿ والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُه بإذْنِ رَبِّه ﴾ .

وقرّر لك أمير المؤمنين آستِشْفافَ أُمُور المَظَالم ، و إنصافَ المظلُوم من الظـالم ؛ والنظَرَ فى آسفَهْسَلارِيَّة العساكر المؤيَّدة المنصورة إيثارًا من أمير المؤمنين لأن يجعلَ لك خيرَ الدنيا والآخرة ميَسَّرا، ويُثْبِتَ لك فى كلٍّ من أمور العاجلة والآجلة حديثًا حسنًا وأثرا؛ ورتَّب ذلك لكَ ترتيبا يصْحَبه التوفيق و يلزَمُه، و يكمِّله السعدُ و يتِّمه ؛ و يُحِيطُ به اليُمْنُ والنَّجاح ، و يشتمل عليه الحظُّ والفَلَاح . فتقلَّدْ ماقلَّدك أميرُ المؤمنين شاكرًا لأنْعُمه ، متَمسِّكا بأسباب وَلائه وعِصَمِه ؛ جاريًا علىٰ أحسَن عاداتِك فى مراقبة الله وخِيفتِه ، مستمِرًّا علىٰ أفضل حالاتِك فى خَشْيته ؛ متَّبِعا أوامره فى العمل بتَقْواه ، وزَاجرا للنفس عما تُؤْثِره وتَهْواه ؛ بقول الله فى كتابه المبين : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِين ﴾ .

وآعلَم أن المظالم (١) كنْزٌ من كُنوز الرحمه ، و بابٌ يُتوصَّـل منه إلىٰ مصلحة الأُمّه ، ووسيلةٌ يتوسَّل بهـا السُّعداء إلىٰ خالقهم فى آستبقاء ما أسبَغَ عليهـم من النِّعمه ؛ فاجلِسْ لهـا جلُوسا عامًّا ترفَعُ فيه الحِجاب ، وتُيَسِّر للوصُول إليك عنده الأسْباب ؛ وتأمر بتقريب المتظلِّمين ، وتُوعِز بإدنائهم لتسْمَع كلامَ الشاكين ؛ وتوَفِّر علىٰ الأخذ بيد المستضْعَف القَرِيع (٢) ، والحُرْمة التى لاتجِدُ سبيلًا للإنصاف ولا تَسْتطيع ؛ وتتقدَّمُ

(١) يريد ولاية المظالم . (٢) من معانى القريع المغلوب وهو المناسب هنا .

بأن تحضر بينَ يديك النائبَ فى الحُكْم العزيز الذى علىٰ فُتْياه مَدارُ أحكامِ الدين، ومَنْ تحتاجُه من الموقِّعين والدَّواوين؛ وتأمر بإحضار القِصص وعَرْضها، وتتأمَّل دَعاوَى المتظلِّمين فى إبْرامها ونقْضهـا؛ وتوقعُ علىٰ كلٍّ منها بمـا يقتضيـه الشرعُ وأحكامه، ويوجبه العدلُ ونِظامُه.

وآنظر فى مُشْكِل القِصَص نظرا يُزِيل إشكالَها، ويجعلُ إلىٰ لَوازم الشرعِ والحقِّ مآلَهـا؛ وراعِ أمرَ المنازَعات حتّٰى تنتهى إلىٰ الأواخِر، ولا يبـقىٰ فيها تأمُّل لمتأمِّل ولا نظرٌ لناظر؛ وتُخْرِج أوامرك بإيصال كلِّ ذى حقٍّ إلىٰ حقِّه، وكفِّ كلِّ متعدّ عن سُلوك سبيل العُدْوان وطَرْقه. ولْيكن الضعيفُ أقوىٰ الأقوياءِ عندك إلىٰ أن يصلَ إلىٰ حقِّه موفَّرا، والقوىُّ أضعفَ الضُّعَفاء حتى يَخْرُجَ مما عليه طائعا أو مُجْبَرا؛ والشرعُ والعدلُ فهما قِسْطاسَا الله فى أرضه، ومُعِينا [ن علىٰ] الحق من أراد العمَل بواجب الحقِّ وفرْضِـه؛ فَخُذْ بهما وأعطِ بينَ العِباد، وأثبِتْ أحكامهما فيما قَرُب وبَعُد من البِلاد؛ وساوِ بهما فى الحقُوق بين الأنام، وصَرِّف النصَـفةَ بحكمهما بين الخواصِّ والعَوَام، حتّٰى ينتَصِفَ المشروفُ من الشريف، والضعيفُ من ذى القُوّة العَنِيف، والمغْمُور من الشهير، والمأمورُ من الأمير، والصغيرُ من الكبير؛ وآستكثِرْ بإغاثة عباد الله ذخائرَ الرِّضوان، وآستفْتِح بقيامك بحُقوق الله فيهم أبوابَ الجنان؛ وآعْمُم بسعيد نظرك وتامِّ تفقُّدك وملاحظاتِك جميعَ صُـدُور أوليـاء الدولة وكُبَرائها، ومُقَدَّميها المطَوّقين وأُمَرائها؛ وميِّزها الأعيان، ورجالَها الظاهرةَ نجدَتُهم للعِيان؛ وتوَخَّ الوجوهَ منهـم بالإجْلال والإكْبار، وتبليغ الأغراض والأَوْطار؛ والتمييزِ الذى يحْفَظ نظام رُتَبهم، ويُنيلهم من حراسة المنازِل غايةَ أَرَبهم؛ وآلْقَهم مستبْشِرا كعادتك الحُسْنىٰ، وآجْرِ معهم فى كَرَم الأخلاق علىٰ مَذْهبك الأَسْـنىٰ؛ وعَرِّفْهم بإقبالك علىٰ مصالح أمورهم، وآتِّجاهك لصَالح شُـئُونهم، بركَةَ آشتمـالهم بفضْـلك، وآلتحافهم بظلِّك؛

وٱقصد مَنْ يَليهم بما يَبْسُط آمالهم، ويُوسع فى التكرمة مَجالَهم؛ ويُكْسِبهم عِزّة الإدناء والتقريب، ويُخُصّهم من إحفائك بأوفر سَهْم ونصيب؛ وكافّةَ الرجال فاحفَظ نِظامهم بحُسْن التدبير، وأَثِّر فيهم بجميل النظر أحسَنَ التأثير؛ وتوخَّهم بما يَشُدّ باهتمامك أزْرَهم، ويُصْلِح بتفقُّدك أمْرَهم، ويقِفُ علىٰ الطاعة سِرَّهم وجهْرَهم؛ ويُيَسِّر لهم أسبابَ المصالح ويُسَهِّلها، ويتِمّ لمطالبهم أحكامَ المَيامن ويُكَمِّلها؛ وأصْفِ لجميع ذكرهم من سابق فى التَّقْدِمة وتال، ومُخْلِص فى المشايَعة ومُوال، مَناهِلَ (١) إحسان أمير المؤمنين الطامية الجِمام، المتعرِّضةَ مواردُها العذبةُ لأَدْواء كافّة الأنام؛ فهم أنصارُ الدولة وأعوانُها، وأبناءُ الدعوة وخُلصاؤها وشُجْعان المملكة وفُرْسانها؛ ونَجْدة خلاصها عند ٱعتِراض الكُروب (٢)، وسيُوفُها المذَرَّبةُ القاطعةُ الغُروب؛ وأسِنَّتها المتوغِّلة من الأعداء فى سُوَيداء القلوب، وحِزْبُها الذى أذِنَ الله بأنه الغالب غيرُ المغْلوب؛ ولكلٍّ منهم منزِلُه من التقديم، وموضعُه من الاشتمال بظلِّ الطَّوْل العميم، ومحلُّه من الغَناء ومكانُه من الكِفاية الذى بلغ إليه فسَدَّه. فرتِّبْ كُلًّا من المقدَّمين فى الموضع الجديرِ به اللائق، وأوضِحْ للموفَّقين أنوارَ مَراشِدك ليَلْحَق بتهذيبِك السُّكَيتُ منهم بالسابِق.

والوصايا متسِعةُ النِّطاق، متشعِّبة الاشتِقاق؛ ولم يَستوْعِبْ لك أميرُ المؤمنين أقسامَها، ولا حاوَلَ إتمامَها: للاستغناء بما لك من المعْرِفة التى غدَتْ فى ٱستِنْباط حِكَم السياساتِ أكبَرَ مُعين، والفطرةِ النفيسةِ التى تُمدّك من كل فضيلة بأغْزَرِ مَعِين؛ ولا يزالُ يُضيء لبصيرتك من أنوار السيدِ الأجلِّ الملكِ الصالح ـ أدام الله قدرتَه ـ

(١) لعله وأصف لجميع من ذكرتهم من سابق الخ . تأمل .

(٢) فى الأصل "ٱختلافها" . تأمل .

التى لا تبرَح للبصائر لامِعَــه، ولمحاسِنِ الأفعال وغُرَرها جامعــه؛ ماتستعين[(١)] بأضوائها علىٰ الغرض المطلُوب من الإصابة وأ كثر .

هــذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، و إنعامُه عليك؛ فتلقَّه من الشُّكْر بمـا يكون للَمزِيد سبَبا مؤ كِّدا ، ويغدُو الإحسان معــه مُردّدا مُجدَّدا ؛ وٱبذُلْ جُهدَك فيما أرضىٰ الله وأرضىٰ إمامَ العصر، وثابِرعلىٰ الأعمال التى تُناسبُ فضائلك المتجاوِزةَ حدّ الحَصْر؛ واللهُ يعضِّدك بالتوفيق ، ويُمهِّد لك إلىٰ السعادة أسهلَ طريق ؛ ويُرْهِف فى الحرب عزائِمَك، ويُمْضِى فى الأعداء صَوارِمَك؛ ويضاعِفُ لك موادَّ النصر والتأييد، ويُخصُّ بناء مَجْدِك بالإعلاء والتشييد؛ إن شاء الله . والسلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاته .

قلت : والذى يظهر أن ممـا كان يكتب فى دولتهم علىٰ هــذه الطريقة سِجلَّاتِ كِبار نِيَاباتهم، حالَ ٱستفحال الدولة فى مبادئ أمْرِها ، قبل خُرُوج البلادِ الشاسعة عنهـا واسْتِقْلاعها من أيديهم : كدِمَشْق ومُضافاتها من البلاد الشامية قبلَ خُرُوجها عنهــم لبنى أُرْتُق فى زمن المستنصر أحد خلَفائهم؛ وكأفريقِيَةَ وما معها مرن بلاد الغرب قبلَ تغلُّب المعزِّ بن بادِيس نائِب المستنصِر المتقدّم ذِكْره بهـا وقَطْع الخُطبة له؛ وكجزيرة صِقلِّيَّةَ من جزائر البحر الرُّومىّ قبلَ تغلُّب رُجَّار أحد ملوك الفَرَنْج عليها وٱنتزاعِها من أيديهم فى زمن المستنصر المذكور أيضا؛ فإنَّ دِمَشقَ وأفريقِيَةَ وصِقلِّيَّةَ كانت من أعظم نِياباتِهم، وأجلِّ ولاياتهم؛ فلا يبعُدُ أن تكونَ فى كتابة السِّجلَّات عندهم من هذه الطبقة .

---

(١) فى الأصل "فاستمد" . تأمل .

المرتبـــــة الثـانيـــــة

(من المذهب الأوّل من سِجِّلات ولايات الفاطميين أن يُفْتَتح السِّجِلُّ بالتصدير، فيقال : « من عبد الله ووليِّه » إلىٰ آخر التصلية ، ثم يُؤتىٰ بالتحميد مرةً واحدةً ويُؤتىٰ فى الباقى بنسبة ماتقدّم ، إلا أنه يكونُ أخصَرَ ممـا يؤتىٰ به مع التحميدات الثلاث)

ثم هى إما لأرباب السُّـــيوف أو لأربابِ الأقلام من أرباب الوظائِف الدِّينية والوظائف الدِّيوانية .

فأما السِّجلّات المكتَتَبة لأرباب السُّيُوف، فمن ذلك نسخةُ سِجِلٍّ بولاية القاهرة من هذه الرتبة : لِرِفْعة قدر متولِّيها حينئذٍ، وهى :

من عبد الله ووليِّه (إلىٰ آخره) .

أما بعدُ، فالحمدُ لله رافِع الدَّرجات ومُعْلِيها، ومُولِى الآلاء ومُوَالِيها؛ ومُحْسن الجزاء لِمَنْ أحسن عَملا، ومُضاعف الحِبَاء للذين لايَبْغُون عن طاعته حِوَلا؛ ومنيلِ أفضل المَوَاهب ومُخوِّلها، ومتِّم النعمةِ علىٰ القائم بشُكْرها ومُكَمِّلها؛ مُتْبعِ المِنَنِ السالفة بنظائرها وأشـكالها ، والمجازِى علىٰ الحسَـنة بعَشْرِ أمثالِها ؛ وصلّىٰ الله علىٰ جدّنا محمدٍ رسولِه الذى أقام عِمادَ الدين الحَنِيف ورفَعَه، وخفض بجهاده مَنارَ الإلحاد ووَضَعَه؛ وأرغَمَ عَبَدة الصَّلِيب والأوْثان ، ونَشَر فى أقطار المملكةِ كلمةَ الإسـلام والإيمـان؛ وكـشَفَ غَياهِبَ الضَّـلال بأنوار الهُدىٰ اللَّامِعه ، وهتَكَ حجابَ الكفْر ببراهينِ التوحيد الصادعةِ وسيوف النصر القاطِعَه ؛ صلّىٰ الله عليه وعلىٰ أخيه وٱبنِ عمِّه أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب، سيف الحقِّ الماضى المَضَارِب ، وبَحْر العلم الطامى

الثَّجج والعَوارِب[1]؛ ومَعِين الحكمةِ العَذْبِ المَشارع؛ والمخصُوصِ بكلِّ شرَفٍ باسق وفضلٍ بارِع؛ وعلىٰ آلهما سادة الأَنَام، وحُماةِ سَرْح الإسلام؛ ومُوَضِّحى حقائقِ الدِّين، وقاهِرِى أحزابِ المُلْحِدين؛ وسلَّم ومجَّد، وضاعفَ وجَدّد.

وإنَّ أميرَ المؤمنين لِمَا آتاه اللهُ من شَرَف المَحْتِد والنِّجار، وتَوَّجه به من تِيجانِ الإمامةِ المُشْرِقة الأَنْوار، وألقاهُ إليه من مقاليدِ الإبْرام والنَّقْض، وأنالَهُ إيَّاه من الخلافة فى الأرْض، والشَّفاعةِ فى يومِ العَرْض؛ وعَدَقه به من إيضاحِ سُبُل الهُدىٰ اللّامعه، وهَتْكِ حِجاب الكُفْر ببراهِينِ التوحيد الصادِعةِ وسُيوف النصر القاطِعه؛ إلىٰ الأَنَام[2]، وأطْلَعه عليه من أسرار الحِكْمة بمُناجاة الإلهام؛ وأقامه له من إعلاء مَنار المِلَّة وتقْويم عِمَاد الحق، وأمدَّ به آراءَه من العنايات الرَّبَّانيَّة فيما جلَّ ودَقّ؛ وأمضاه له فى الأقطار من الأوامِر والنَّواهى، وأفردَه به من الخصائص الشريفةِ التى يَقْصُر عن تَعْديدها إسهابُ الواصف المُتناهى؛ ويَسَّره لإرادته من ٱقْتيادِ كلِّ أبِيٍّ جامح، وحبَّبه إليه من ٱستعمال السِّيرة المستَدْنية من المصالح كلَّ بعيدٍ نازِح ـ يُضاعِفُ بَهاءَ أيَّامه بٱصطِفاء ذَوِى الصَّفاء، ويزِيدُ فى بَهجة زمانِه بٱستِكْفاء أُولِى الوَفاء؛ ورَفْع منازِلِ المُعْرِقين فى الوَلَاء إلىٰ غاياتِ السَّناء، ويُنِيل المخلصين من الحِبَاء، مايدُل علىٰ مواضِعهم الخَطيرةِ من الاَجْتِباء؛ ويُسْنِد مَعَالِىَ الأمور، إلىٰ الأعيانِ الصُّدُور؛ ويَعْدِق الولاياتِ الخَطيره، بمن حَسُنَت منه الآثارُ والسِّيره، وأظهر تَغايُرُ الأمور ماهو عليه من خُلُوص النِّية ونَقاءِ السَّريره؛ وٱستَوْلىٰ علىٰ جوامع الفضْل وغاياته، وقَصُرتْ هِمَمُ الأكفاء عن مماثَلته فى الغَناء ومُساواتِه؛ وألقَتْ إليه المناقبُ قِيادَ المستَسْلِمِ المُسَلِّم،

(١) جمع عارب أو عاربة . يقال ماء عرب كثير ونهر عرب و بئر عربة كثيرة الماء والفعل من كل ذلك عرب عربا فهو عارب وعاربة . انظر اللسان ج ٢ ص ٨١ .

(٢) متعلق بإيضاح سبل الهدىٰ فتنبه .

وأعجز تعديدُ محاسِنه البارعةِ كلَّ ناطقٍ ومتكلِّم، وسمَتْ همَّته إلىٰ ٱكتساب الفخار، وٱستكمل فُنونَ المحامدِ فحَصلتْ لديه حصُولَ الاقْتِناء والادِّخار؛ وفاز من كلِّ مأثُرة بالنصيب الوافِرِ المُعلَّى، وتشوقتْ إليـه الرُّتَب السنيةُ تشوّفَ [من] رأتْه لهـا دُونَ الأكفاء أهْلا؛ وكفىٰ المُهمَّاتِ بجَنان ثابتٍ وصَـدْر واسِع، وقرّبَتْ عليـه أفعالُهُ المرضيَّةُ من المَيَامِن كلَّ بعيدٍ شاسِع؛ ووَسَم جَلائلَ التصرُّفات بمـا خَلَّفه بهـا من مستَحْسَن الآثار، وخلَصَت مشايعتُـه من الأكدار فحَلَّ فى أمْيَزِ محلٍّ من الإيثار؛ وجارىٰ المُبرِّزين من أرباب الرِّياسات فسـبَق وأبرّ، وأحرزَ جميلَ رأْيِ ولِيِّ نِعمتِه فيما ساءَ وسَرّ .

ولـمَّـا كنتَ أيها الأمير المغْنِيَّ بهذا الوصفِ الرفيع، المخصوصَ من مَفاخِره بكلِّ رائع بدِيع؛ الحالَّ من الاصطفاء فى أقرب محلٍّ وأدْناه، المرتِقىَ من الرياسـة أشمَخَ مكانٍ وأسْناه؛ الأوحَدَ فى كل فضيلةٍ ومَنْقَبه، الكاملَ الذى أوجبَ له الكمالُ صُعودَ الجَدِّ وسُموَّ المرْتَبه؛ المُصلحَ مايُردّ إلىٰ نظره بالتدبير الفائِق، الشاملَ مايُعْدَق به بحَزْمه الذى لاتُخْشىٰ معه البَوائِق؛ المُجمَعَ علىٰ شكر خصائِصه وخِلَاله، الفائتَ جُهْد الأعيان الأفاضـِل بعَفْو ٱستِقْلاله؛ المعتَصِمَ من المُشايعة بالسبَب المَتين، المتميِّزَ علىٰ الأكفاء بمآثِرِه المأْثُورة وفضـله المُبين؛ وما زالتْ مَساعِيكَ فى طاعة أمير المؤمنـين تُوجِب لك منـه المَزِيد، وتسـتدْعِى لمنْزلتـك من جميل رأْيه مُضاعفةَ التشْيِيد؛ وتخُصُّـك من الاجتباء بالنصيبِ الوافرِ الجزِيل، وتبلِّغك من تتابُع النِّعم ما يُوفى علىٰ الرجاء والتأْميل .

وقد باشْرتَ جلائلَ الولايات، وعُدِق بك أفخَمُ المهِمّات، فٱستعملْت السِّـيرة العادله، وسُسْت السياسـةَ الفاضِله؛ وجمعْتَ علىٰ محبّتك القُلوب، وبلَّغْت الرعيةَ

من إفاضة الإنصاف كلَّ مُؤْثَر ومطْلُوب، وإذا برقتْ بارقةُ نِفاق، ونَجَم ناجِم من مَرَدة المُرَّاق، كنتَ الولِيَّ الوَفِيّ، والمخلِص الصَّفِيّ، والمُدافِع عن الحوْزة بجِهَاده، والمحامِيَ عنها بماضِي عَزْمه وصادِق جِلَاده، والباذِلَ مُهْجَتَه دُون وليّ نعمته، والجاهِدَ فيما يُحْظيه بنائِل مَوَاتّه وتأكُّد أذِمَّته، ومُجْلِيَ ظلامِ الخَطْبِ الدامِس بحُسَامه، ومُزِيلَ الخَطْب الكارِثِ برأْيه وآعْتِزامه، ومواقِفُك في الحروب، تكشف الكُرُوب، وتُرْوِي من دِمَاء الأبطال ظامِئات الغُرُوب، وتُورِد سِنانَ اللَّدْن العاسِل، وَرِيدَ الكَمِيّ الباسل، وتُحَكِّم ظُبَا المَناصِل، في الهَاماتِ والمَفاصِل، وتستَبِيحُ من مُهَج الأقران كلَّ مَصُون، وتَرْمِيهم من قوارع الدَّمار بضُرُوب متَّسِعة الفنون، فآثارُك في كل الحالات محمُوده، وشرائطُ الاصطِفاء فيك فاضِلةٌ موجُوده. وحضَر بحضْرة أمير المؤمنين فَتَاهُ ووزيره، وكافِلُ مُلْكه وظهيرُه، السيدُ الأجل الملك الذي (١) فأثنىٰ عليك ثناءً وسَّع فيه المجَال، وخصَّك من شُكْره وإحماده بما أفاض عليك حُلَل الفَخْر والجَمَال، وقرر لك الخدمةَ في ولاية القاهرةِ المحروسة. فتقلَّد ماقلَّدك أميرُ المؤمنين من ذلك: عاملا بتقْوىٰ اللهِ الذي تصِيرُ إليه الأمور، ويَعْلم خائِنةَ الأعْيُن وما تُخْفِي الصُّدور، قال الله في كتابه المبين: ﴿ يأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا آتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾.

وآعلم أنَّ هذه المدينةَ هي التي أُسِّس علىٰ التقْوىٰ بُنْيانُها، ولها الفضيلةُ التي ظهَر دليلُها ووَضَح برهانُها: لأنها خُصَّت بفخرٍ لايُدْرَك شَأْوُه ولا تُدْرَك آمادُه، وذلك أنَّ منابِرَها لم يُذْكَر عليها إلا أئمةُ الهدىٰ آباءُ أمير المؤمنين وأجدادُه، ثم إنَّها الحرَمُ الذي أضحىٰ تقديسُه أمْرا حتْما، وظَلَّ ساكِنُه لايَخافُ ظُلْما ولا هَضْما، وغدَتِ

(١) بياض في الاصول بقدر كلمة ولعله ذكرك فأثنى الخ.

النعمةُ به متمَّمةً مكمَّله ، والأدعيةُ فى بيوتِ العبـادات به مَرْفُوعةً متقبَّله : للقُرْب من أمير المؤمنين بابِ الرحمة ومَعْدِن الجَلاَله ، وثمرةِ النبوّة وسُلالة الرساله ؛ فاشْمَلْ كافَّةَ الرعايا بها بالصِّيانة والعِنَايه ، وعُمَّهم بتـامِّ الحِفْظ والرِّعايه ؛ وٱبْسُطْ عليهم ظلَّ العـدل والأَمَنه ، وسِرْفيهم بالسِّـيرة العادلة الحَسَنه ؛ وساوِ فى الحقِّ بينَ الضعيف والقَوِىّ ، والرِّشـيد والغَوِىّ ؛ والمِـلِّىّ والذِّمىّ ، والفقير والغنِىّ ؛ وٱعتمدْ مَنْ فيهـا من الأمراء والمميَّزين ، والأعيانِ المقدَّمين والشُّهود المعدَّلين ؛ والأماثِل من الأجناد ، وأرباب الخِدَم من القُوّاد ، بالإعْزاز والإكْرام ، وبلِّغْهم نهـايةَ المُراد والمَرَام ؛ وأقِمْ حدُودَ الله علىٰ منْ وجبتْ عليه بمقتضىٰ الكتاب الكَرِيم ، وسـنَّة محمدٍ عليه أفضـلُ الصلاة والتسليم ؛ وتفقَّدْ أمورَ المتعيِّشين ، وٱمنَعْ من البخْس فى المكاييل والمَوَازين ؛ وحَذِّر من فسادٍ مُدْخَل علىٰ المَطاعم والمَشَارب ، وٱنْتهِج فى ذلك سبيلَ الحق وطريقَ الواجِب ؛ وٱحْظُرْ أن يخْلُوَ رجلٌ بٱمرأة ليسَتْ له بمَحْرم ، وٱفعَلْ فى تنظيف الجوامع والمساجد وتنْزِيهها عن الآبتذال بما تُعَزُّ به وتُكْرَم ؛ وٱشْدُدْ من أعوان الحُكْم فى قَوْد أُباةِ الخصوم ، وٱعتمِدْ من نُصْرة الحق ما تبقىٰ به النعمةُ عليك وتَدُوم ؛ وأوْعِز إلىٰ المستخْدَمين بحفظ الشارع والحارات ، وحراستِها فى جميع الأزْمنةِ والأوقات ؛ وواصِلِ التَّطْواف فى كل ليلة بنفْسك فى أوفىٰ عِدّه ، وأظهر عُدّه ؛ وٱنتَـهِ فى ذلك وفيما يُجاريه إلىٰ مايشْهَدُ باجْتهادك ، ويزيدُ فى شكْرك وإحْمادك ؛ والله تعالىٰ يوفِّقك ويُرْشِـدك ، ويسدِّدك فى خدمة أمير المؤمنين ويُسْعدك ؛ فاعلَمْ ذلك وٱعمـلْ به ، وطالِـعْ مجلِس النظر الأجلىّ المَلَكىّ بمـا تحتاج إلىٰ علمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وعلىٰ هذا النَّمط كان يُكْتَب سِجِلُّ ولاية الشرقية من أعمال الديار المصرية دُونَ غيرها من سائر الولايات ، إذ كانت هى خاصَّ الخليفة كالجيزيَّة والمَنْفَلُوطيَّـة الآنَ ، وكان واليها هو أكْبَرَ الوُلاة عندهم لذلك .

وأما الوظائف الدينية .

فمنها — ما كتَب به القاضى الفاضلُ عن العاضد بولاية قاضٍ :

من عبْد الله ووليِّـه عبد الله أبى محمد الإمامِ العاضد لدين الله أميرِ المؤمنين، إلىٰ القاضى المؤْتَمن الأمين، علَمِ الدين، خالصـةِ أمير المؤمنين ؛ وفّقه الله لمـا يُرضيه، وسدّده فيما يَذَرُه و يأْتيه، وأعانه علىٰ ماعُدِق به ووُلِّيه .

سلامٌ عليك فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لاإلٰهَ إلّا هو، و يسأله أن يصلّى علىٰ جدّه سـيِّد ولَد آدمَ، وعالِمِ كل عالَم، ومُبْقِى كلمةِ المتقين علىٰ اليقين، ومُعْلِى منَارِ الموحِّدين علىٰ المُلْحدين ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين، وعلىٰ أُمَراء المؤمنين، صلاةً تتصِلُ فى كلِّ بُكْرة وأَصيل، و يُعدّها أهل الفضل وأهـلُ التحصيل ؛ ووالىٰ وجدّد، وعظّم ومجّد، وكرّر وردّد .

و إن أمير المؤمنين لِـمَا آتاه الله إيَّاه من نَفَاذ حُكْمه ومَضَاء حِكْمته ، وفوّضَه إليـه من إمامة أمّته، وأفاضه عليه من أنوارٍ كشفَتْ غَمامة كلِّ غُمّــه ، وشرَّدتْ بعَـدْله من بَسْـطةِ ظُلْم وسَطْوة ظُلْمه ؛ وأظهره له من حقٍّ نصَب للنصر عَلَمــه وللهداية عِلْمَه، وأيَّده به من كلِّ عَزْمة فتكَتْ بكل أَزْمه، ووكَّل به هِمَمه من إتمـام نِعْمة وٱبْتـداء نِعْمه؛ وأطلق به يَدَه من مَعْروف روّضَ الآمالَ صَوْبُ مِدْراره، و بدَتْ علىٰ الأحوال آثارُ إيثارِه؛ وأخذ به الخِصبُ من المَحْل ثارَه وٱسـتقالَ به الرخاءُ من وَهَـدات عِثَاره ؛ وعضَّد به أفعـالَه من أمور التوفيق ٱتِّباعا وٱقْتِضابا ، وألهمه من مُوالاة الآلاءِ التى لاتَذْهَب عهودُ عِهَادها ٱنقضاءً ولا ٱنْتِضابا ؛ ويَسَّر له عزيمةً من الآراء التى لا تُكْسِب إلا حمدا أو ثوابا ـ يختَصُّ بإحسانه من ينُصُّ الٱختبـار علىٰ أنه أهـلٌ للٱختيار ؛ وتُفِيض الأحوال من حوالىَ أوصـافه ما يُديمُ المَطَار

فى الأوطار، ويُنْعِم علىٰ النعمة بإهدائها إلىٰ ذوى الآستيجاب، ويَصْطنِـعُ الصَّنيعة بإقرارها فى مَغَارس الآستطابةِ والآستِنْجاب؛ ويرشِّح لِخدَمه من عُرِف ذِكْرُه بأنه فائح، وعَرْفُ عُرْفه ناصعٌ ناصِح؛ ويبوّئ جِنَانَ إنعامه مَنْ أحسن عَملا، وآستحقَّتْ منزلتُه من الكفاية أن تكونَ له بَدَلا، ولم تَبْغِ تصرُّفاتُه فى كل الأحوال عنها حوَلا؛ ودرّجَتْه خصائصُه العليةُ فاقتعدَ صَهوات الدَّرجات الْعُلىٰ، وآستحَقَّ بفضل تفضيلِه أن يُولىٰ الجميلَ جُمَلا؛ وعُرِضتْ خِلالُه علىٰ تعيين الآنتقاد فاقتضاها ولا يتضاها، وزُويَتْ مسالكُ الغَناء بصَدْره فَضَاها فَضَاها .

ولمـا كنتَ أيُّها القاضى المشتملَ علىٰ هذه الخِلال آشتمالَ الرَّوْض علىٰ الأزاهر، والأُفُق علىٰ النُّجوم الزَّواهر؛ والعقودِ علىٰ فاخر الجواهر، والخَواطِر علىٰ خَطَراتها الخواطر، والنَّواظِر علىٰ ماتُصافِحُ من الأنوار وتُباشِر؛ المُثْرِى من كل وَصْفٍ حَسَن، المتبوعَ الأثرِ بمـا فَرَض من المَحاسن وسَنّ؛ الكالئَ ماتُستحْفَظ بعينِ كفايةٍ لايُصافحُ أجفانَها وَسَن؛ الأمينَ الذى تُرِيه أمانتُه متاعَ الدنيا قليلا، وتُصْحبه ناظرا عن نَضارتها كَليلا؛ المُؤْثِرَ دينَه علىٰ دنياه؛ المطيعَ الذى لايسْلُو العصبة عن هَواه، المخلِصَ النية فى الوَلاء و"لِكُلِّ آمرئ مانَواه" الناصحَ الذى يُنَزِّه مايُلابسه عن لباس الرَّيْب، البعيدَ عن مَظانِّ الظُّنون فلا تتطلَّع الأوهامُ منه علىٰ عَيْبِ غَيْب؛ النقِيَّ الساحة أن يَغْرس بهـا وَصْمه، التقيَّ الذى لاتُخْدَع يدُه عن التمسُّك ماآستطاعَ بحبل عِصمَه؛ المحتُومَ الحقُوق بأن يُستودَع دهْرَ الوفاء، المتوسِّلَ بموات تُوجِب له الإيفاءَ علىٰ الأكفاء؛ المستقيمَ علىٰ مثلِ الظّهيرة كَهْلا ويافِعا، الشافِـعَ بنَفْسه لنَفْسه وكفىٰ بالآســتحقاق شافعا؛ وحسْـبُك أنك حَملتَ الأمانةَ وهى حِفظ الكتّاب، وأطلق اللهُ به لِسانَك فشفَيْت القلوب من الأوْصاب، ووصــلَ به سببَك إلىٰ رحمتــه يوم

تنقطع الأسباب ، وأصبح محلُّك فى الدارين آهلا أثيرا ، وكنتَ ممن قال الله فيه : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقَدْ أُوتِىَ خَيْرا كثيرا ﴾ .

وقد خالطْتَ فى مَواكب أمير المؤمنين المعقِّباتِ التى من بيْنِ يدَيْه ومنْ خلفه ، وقَرُبْت من مجالسه المشتملةِ منه علىٰ عُنْوان عِناية الله بالبريَّة ولُطْفه ، ونُوره الذى كلَّتِ العُيونُ عن كَشْفه والحِيلُ عن كَسْفه ، وتقدّمْتَ بخدمة الخلَفاء الراشدين ، أمراءِ المؤمنين ، إلىٰ سوابِقَ سبقْتَ بها فى كل مِضْمار ، وجمعتَ فى المخالصة فيها بينَ الإعلان والإضْمار ، وسَبَرَ التجريبُ حالتَيْك بصحائف خِبْره ، وآستمرّتْ بك الحال فى القُرب منهم وفى تقلُّب الأحوال عِبْره ، وتدرّجْتَ فى حُجُب القُصور ، وبَدَتْ لك الغاياتُ فما كنتَ عنها ذا قُصُور ، فكانت التَّقدمةُ لك مظنونةً وبك مضْمُونه ، وسريرتُك علىٰ الأسرار المَصُونة مأمُونه ، وما آعوجَّت معالِمُ إلا وكان تقويمُها بتقْويمك ، ولا آستيقَظتْ حِيلةٌ تخاف الحقُّ سبيلَ غيِّها بتهويمك[(1)] ، وإنَّ كل قائلٍ لايملك من إصغاء أمير المؤمنين ماتملِكُ بتلاوة الذِّكر الحكيم ، ولايسْلُك من قَلْبه ماتسْلُك بمُعْجز جَدّه العظيم ، فأنت تخْدُم أمير المؤمنين بقَلْبك مُواليا ، وبلسانك تاليا ، وبنَظَرك مؤتمنا ، وبيَدك مُخْتزِنا ، لاجرم أنك حصَدْت مازرَعْت طيِّبا ، وسقاك ما آستمْطَرت صَيِّبا ، وزُفَّت لك الأيادى بِكْرا وثَيِّبا ، وحَلَلْت يَفَاعَ المنازِل مستأْنِسا إذا حلَّ غيرُك وهَدَاتِها متهيبا .

فأمَّا حُرْمتك التى بَوَّأَتك من الآختصاص حَرما ، وجعلَتْك بين الخواصّ علَما ، وتوالِى يَدك بلمس ماحظِى من الملابس بصحبة جسده الطاهر ، وآشتَمَل علىٰ زَهْر النُّضار وزَهْر الجواهر ، فذلك جارٍ مجْرىٰ السِّكة والدَّعْوة فى أنهما أمانةٌ تعُم العِباد والبلاد ، وهذه أمانةٌ تخُصّ النفُوس والأجساد ، ولكَ مما فى خزائنه وكالة التخيير

(١) التهويم النوم الخفيف . يريد أنه لاينام عن ابطال كل حيلة .

والتعبير، وعن أغراضه الشريفةِ سفارةُ الإفراج والتغيير؛ وهذه مواتٌّ تجعل سَمَاء السَّماح لك دائمةَ الدِّيَم، وتُسْكِن آمالك فى حَرَم الكَرَم؛ وتعقد بينَك وبينَ السعادة أوكَدَ الذِّمم، وتتقاضىٰ لك جُدودَ الجدّ بِقدم الخدم.

وحضر بحضْرة أمير المؤمنين فَتاه، الذى زُهِى الزمانُ به فَتَاه؛ ووزيرُه، الذى عَزَّ به مِنْبره وسريرُه، السيدُ الأجل أفضل الملوك قَدْرا، وأكثرُهم قُدْرة، وأعظمُهم صَبْرا؛ وأدرَبُهم نُصْرة، وأفيَضُهم جُودا غَمْرا، وأكشَفُهم لغَمْرة، وأمضاهم علىٰ الهول صَدْرا، وأردُّهم لكَرَّة، وأثبَتُهم جاشا وصليلُ السيوف يَخْطُب والمَقَاتل تَسْمَع، وأوضَحُهم فى ٱستحقاق المجد حُجَّة شَرَعتْها الرّماح الشُّرَّع؛ وأركَبُهم فى طاعة أمير المؤمنين لَمشَــقه، وأشدُّهم وطأةً علىٰ من جَحَد نُورَه وعَقَّ حقَّه؛ فالدنيا مبتسمةٌ به عن ثُغور السُّرور، والمُلْك بكَفَالته بينَ ولىٍّ منصور وعدوّ محصُور؛ فأسفرتْ سفارتُه عن أنك من أمْثلِ ودائع الصَّنائع وأكفاء الاستكفاء، وأعيان من يحقِّق اختيارَهم وفضلَهم العيان، وأفاضل من هو أهل لإسداء الفواضل؛ وأن الصنيعة ثوب عرك (؟) داره، وجارٌ قد عقَد بينَ شكرك وبينه جِوارُه؛ وقرّر لك تقدِمةً فى الحضرة لأنك فارسهم ٱسمـا وفعلا، وأوّلهم حين تتلو وحين تتلىٰ؛ والنظرَ علىٰ المؤذّنين بالقُصور الزاهرة، والمساجد الجامعه، وبالمشاهد الشريفةِ : لأنَّ الأذان مقدّمةٌ بين يَدِى القرءان، وأمارةٌ علىٰ معالم الإيمان؛ والنظَرَ فى تقويم ما يرِدُ إلىٰ الخزانة العالية الخاصَّة والعامّة من الملابس علىٰ ٱختلاف أصـنافها، والأمتعة علىٰ ٱئتـلاف أوصـافها؛ ومشارفةَ خِزانة الفُروش ليكمل لك النظرُ فى الكِسْوات التى تصانُ للملبوس، والكسواتِ التى تُبتَـذَل للجلوس؛ وخَزْنَ بيتِ المـال الخاص ليكمل لك النظـرُ فى الذهب مَصُوغا ومرْقُوما، وخَزْنا وتقويمـا؛ وٱستصوبَ أمير المؤمنين مارآه، وأمضىٰ ما أمضاه؛ وخرج أمره إلىٰ ديوان الإنشاء أن يكتب هذا السجلّ لك بذٰلك .

فاعْرِف قدْرَ ما عُدِق بك من أمور دينٍ ودنيا، وخِدَمٍ لا تَقْوىٰ عليها إلا بلباس التقوىٰ ؛ وأنك قد أصبحتَ لجنّاتِ أنعُم أمير المؤمنين رِضْوانا ، ويدُكَ للفظ إحسانِه لِسانا؛ وباشِرْ ذٰلك مستشعِراً خشيةَ الله فى سِرّك وجهْرك ، متحقِّقا أنه غالبٌ علىٰ أمرك ، مدّخِرًا من الأعمال الصالحة ما يبقىٰ عند فَنَاء ذخرك ، مستديماً للنعمة بما يقيِّدها من شكرك ، وما يصُونُها أن تُبتذل من بِشْرك ؛ عالمًا أن التَّقيَّة حِلْية الإيمان ، وضَمانُ الامان ، وزادُ أهل الجِنان إلىٰ الجِنان ، بقول الله سبحانه فى كتابه العزيز : ﴿ وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ ﴾ .

وأخْلِص نيَّتَك فى خدمة أمير المؤمنين فمع الإخْلاص الخَلَاص ، وأدِّ له الأمانة فإنَّ أداءَها أطيبُ القَصَص يوم القصاص ؛ وقُمْ فى خدمته المَقامَ المحمُود ، وٱستدِمْ بها صُعُودَ رِكَاب السُّعُود ؛ فقد عرّفكَ الله بركَةَ النصيحة وعوائدَها ، وأنجزَتْ لك الآمالُ المنبسطةُ مَواعِدَها ؛ وٱستَشرِفْ أحوالَ القرّاء فهم أحقُّ قومٍ بالتهذيب ، ولُزومِ أساليبِ التأديب ؛ فمن كان للآيات مرتِّلا ، وللدِّراسة متبتِّلا ؛ وبأثواب الصلاح متقمِّصا ، وبخصائِص الدِّين متخصِّصا ؛ ولما فى صدْرِه بقلبه لا بِلِسانه حافِظا ، وعلىٰ آداب ماحَفِظ مُحافِظا ؛ فذلك الذى تُشافِهُ تلاوتُه القلوب ، وتروض بأنواء المدامع جُدُوب الذُّنوب ؛ ومن كان دائمَ الإطالة فى سَفَر البطَاله ، ساتراً لأنوار المعرفة بظُلَمِ الجَهاله ؛ فحقٌّ عليك أن تصرِفَه وتُبعِده ، وتجعلَ التوبةَ للعود موْعِده ؛ وكذلك المؤذِّنون فهم أُمَناء الأوقات ، ومتقاضُون دُيونَ الصلوات ؛ ولا يصلُح للتأذين إلا من كملت أوصافُ عَدَالته ، وأُمنت أوصامُ جهالته .

وأما الأمانةُ فى الأموال التى وُكلت إلىٰ خَزْنك وخَتْمك ، والأمتعةُ التى وُكلت إلىٰ تقويمك وحُكْمك ؛ فأن تؤَدّى بسُلُوك أخلاقِك وهى الأمانه ، وٱتّباعِ طِباعك

وهى الإباء للخيانه؛ وأن تستمرّ على وتيرتك، ومشكور سيرتك؛ ومشهور سريرتك، ومنير بصيرتك؛ وأن لاتؤتى من هوًى تتّبعه، ولاحيف تبتدعه، ولاقوىٍّ تنخدع له، ولا ضعيف تخدعه؛ ولا من محاباة وإن أحببت، ولا من مداجاة كيفما تقلّبت؛ وآذكر مايُتلى من آيات الله فى مثلها: ﴿إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أهْلِها﴾ والله يتولّى توفيقك وتوقيفك، ويُديم [على] مايُحبّ تصريفك؛ إن شاء الله تعالى.

ومنها — ما كتب به القاضى الفاضل أيضا، وهى:

من عبد الله ووليّه (إلى آخره).

أما بعدُ، فإنّ رُتَب الولايات متفاوتةُ الأقدار، متباينةُ الأخْطار، وكلُّ شيءٍ منها عند أمير المؤمنين بمقْدار؛ ولها رجال مشرَّفو الأقْدار، ومحالُّها بحضرته مقدّرةٌ تقدير منازِل الأقمار؛ ومَحالُّ الأولياء بمقامه محالُّ الأهلة تتنقّلُ بين أول النَّمَاء إلى آنتهاء الإبدار؛ ومِنْ أميَزها قدرا، وأحقِّها بأن يكونَ صدرا، وأن يَشْرح لمن حلّه صَدْرا، وأن يَسُوق إليه الخاطبُ من آستحقاقه مَهْرا؛ ولايةُ مدينة مصر: لأنها المجاورةُ لمحلّ الخلافه، وكلُّ مصرٍ بالنِّسبة إليها معها بالإضافه؛ وهى خِطَّة النِّيل، وفُرضة المنيل(١)؛ وبها إذا هجمت الخُطوب المُنيل، ومنها من عثَرات الأيام المَقيل؛ ومنها تُؤنَس أنوارُ الإمامة على أنها نتوضَّحُ بغير التأْميل وبَدْء التأميل، ولا يؤهَّل لولايتها إلا كل حاملٍ لعبئها الثقيل؛ ولا تسندُ الخدمةُ فيها إلا لكل مُثْرٍ من ذخائر السياسة غير فقِير ولا مُقل، ولا يتوقّل رُتْبتها إلا من تكونُ به الرتب مُنيرة ومحاسنُه لا تَمَلُّ مما يُمل؛ ولا يمتطى صَهْوتَها إلا من لايطَأْطئ للأطماع عزَّةَ نزاهته ولا يُذل، ولا يرتقى درجتَها إلا من يهتدى بأعلام الديانة التى لا تُضل، ولا يُقرأ سجِلُّها إلا لمن يَطْوى مَظالِمَ الرعية طَىَّ الكتابِ للسِّجلّ.

(١) المنيل بفتح الميم الشىء المعطى.

ولما كنتَ أيها الأمير ممن توقَّدت هذه الأوصافُ فيه توقُّد النار فى ذُرى علَمِها، وأوجد معانِىَ مَعالِيها وأنقذها من إسار عَدَمِها ؛ وآرتقىٰ إلىٰ هَضَبات الرياسة المَنيعة بمـا جعل خِلَاله المسـلَّم فضْلُها مثل سَلَمِها ، وناولَتْه الدِّرايةُ عِنانَىْ سيْفِها وقَلَمِها ؛ وشهدت الأيام بتقـدُّم قَدَمِه فى مراتبِها وقِدَمِها ، وأمِنَت الصواب أن يُتبعَ أفعالَه إذا أمضاها بعيب (؟) بذمِّها، وكتبَتْ أقلامُ رماحه سطُورَ الطعن فى صُدُور العِدا مستمدّة من دَمِّها ؛ وتجشَّم مشقَّاتِ المعالى فآثرَتْه تعفى راحة بجسمها ؛ وآجتمعت فيه صـفاتُ المَحاسِن المتفرّقة فقضىٰ عليهـا بتجسيمها؛ وتَصـدَّر الدرجات المحصنَة من مطالع الحاضر لحظّه من رقتها ونسيمها ؛ وتعرّضتْ ذخائرُ المحامد لمـا فى طبْعه من آقتناصِها ونَعيمها ؛ وقرّتْ عينُ المنازل فمـا زوَتْ وجهَ إقبالها ولا بسطَتْ راحةَ تظَلُّمها، وآنثنَتْ إليه عقائلُها المصونةُ فمـا ثَنَتْ دُون ديانتِـه عِنانَ تلَوُّمها ؛ وأثرُك فى كل ولاية مشـكُور ، وسـعْيُك فى كل غاية غيرُ مقصور؛ وغَناؤك فى المُهـمَّات مُعَدّ مذْخُور ، ومُساجِلُك عن أيسَر ما وصلْتَ إليه مدفُوع مدْحُور ؛ وليـلُ شَبابك بالكوكب الدُّرىّ من صولَتِك منْحُور ، وأفعالُك أفعالُ مَنْ لا يحوُز غيرَ مُحرِز كَسْب الأجور ، وخلالُك خلالُ من آنتظم فى سِلْك الذين يرجُون تجارةً لن تبُور .

وقد سلفَتْ لك خدَم تصرّفْت فيها وتدرّجْت ، وعُرِّفْتَ بطُهر الذكر من رعيَّتها وتأرَّجْت ؛ وتحوّبْتَ من الأوزار علىٰ ما يوقع ذنْبَك وتحرَّجْت ؛ وجريتَ علىٰ أجمل عاده ، وآقتضيْتَ عند آنقضاء شأْو الإبداء آسـتئنافَ شأْو الإعاده . ومَثَـلَ بحضرة أميرالمؤمنين لسانُ أمره ، وسيفُ زجْره ، السـيدُ الأجلُّ الذى قام بمـا آستكفاه فأحسَنَ وحسَّن ، وصان حِمىٰ الملك فأحصَن وحَصَّن ؛ وجاد بنَفْسـه فى سبيل الله فما ضَنّ ، وكان مكانَ ما أُمِّل عند آصطفائه وفوقَ ما ظُنّ ؛ وسدّد قُصودَه، فمرقتْ سِهامُها وما مرقَت عن طاعته ، وأطلع سُعودَه ، فأنارت نُجوما لأوليائه ورُجُوما لأهل

خلافِ خلافتِـه ، وأطلقَتْ أحكامَ عدل الله فى خلْق الله أحكامُ مراماتِه وسيفُ إخافتـه ؛ فالدنيا بيمن ايالتـه عن ماخذ السراء ، وطُلَقاء الجُود بمـا عملته يدُه من قيود الإحسـان فى عِدَاد الأُسَراء ؛ ورضا أميرالمؤمنين عنـه كافلٌ له بأن يُرضِىَ الله فى الأعداء ، وملوكُ الأرض إن فدتِ السماء(؟)طَيِّبةٌ أنفسُها له بالفِداء ؛ والدنيا متأرِّجة بِطيبِ خَبَره ، والعلياء متبرِّجة بحُسْن نظَره ؛ وبِحارُ التـدبير لا تُفارق زَبَدَ أمواجِها إلا بفاخرِجَوْهَره ، وقوانينُ السِّياسة لا تُوجَد مسندَة إلا عن آتِّباع أَثَره ؛ ولاحظَّ لمحاربه إلا سِـلْمه بعِثَاره وتثَلُّمه بعثْيره ، فأثنىٰ عليك بحضْرته واصِـفا ، وثنىٰ إليك عِنانَ عنايتـه عاطِفا ، ورأىٰ تقليـدَك ولايتَها مُعْربا بآستحقاقك عارِفا ــ خرج أمر أمير المؤمنين إليـه بأن يُوعِزَ إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هـذا السجِلِّ لك بتقليدِك ولايةَ المَعُونة والحِسْـبة بمدينة مصر والجِيزة والقَرَافة ، إنافةً بك عن النُّظراء ، وإبانةً عمَّالك من جميـل الآراء ؛ وتَطْرِيةً لحظك بمـا حصَـل به من الإطراء ، ورعايةً لمـا لكَ من الآنتهاء إلىٰ أقصىٰ غايات الإحسان والإجراء ، وإيجابًا لمـا تتوسل به من العَناء ، وذخائرِ الغَنَاء والإثراء ، وإشادةً لقدْرك الذى أشاده ما أنت عليـه من الإيواء إلىٰ ظلِّ النزاهة والآستِيناء .

فتقلَّدْ ما قُلِّدته من هذه الخدمه ، وآرفُلْ بمـا ضَفَا عليك من ملابس هذه النعمة وبمـا صفا لدَيْك من مواردِ هـذه الجُمَّه ؛ وقدّم تقوىٰ الله أمامَك ، وآتَّبِـعْ وصيَّتَها التى آستعمل الله بها إمامك ؛ فبها النجاةُ مضمونه ، والرحمةُ متيقَّنة لا مظْنُونه ؛ قال الله سـبحانه فى كتابه المكنون : ﴿ ويُنَجِّى اللهُ الَّذِين آتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ولا هُمْ يَحْزَنُون﴾ .

وآعتمد المساواةَ بينَ الناس فيما هو حُكْم ، والنظرَ بالعدل فى كلِّ ما هو ظُلْم ؛ ولا تجعَلْ بين الغنىّ والفقير فى الحق فَرْقا ، وآسلُكْ فيهـم طريقًا واحدًا فقد ضَـلَّ

مَنْ سلك فيهم طُرُقا؛ وآشمَلْ أهلَ المدينة بطُمَأنينة تُنيم الأخيـار وتُوقظ الأشْرار، وأمنةٍ تساوى فيها بيْنَ ظلام الليلِ ونُور النهار: لتكونَ ولايتُك لهم مَوْسِما، ومَوْرِدها لثُغُور الأمرِ مَبْسِما؛ وأنصف المظلوم وآقْمَع الظالم، وكُنْ لنفسك زعيماً بنجاتها فالزعيم لهـا غارِم؛ وآنْهَ عما نهىٰ الله عنـه من الفَحْشاء والمُنْكَر، وأْمر بالمعروف وحَسْبُك أن تُعرفَ به وتُذْكَر؛ وخُذْ فى الحدود بالاعتراف أو الشّهاده، ولاتتعدَّ حدَّها بنقص ولا زياده؛ وكما تُقيمها بالبينات، فكذلك تدرؤُها بالشُّبُهات. وفى هــذه المدينة من أعيان الدولة ووُجُوهها، وكلِّ سامى الأقدار نبيهها؛ وأربابِ السيوف والأقلام، والمعدودين فى العلماء والأعلام، والمعدَّلين الذين هم مَقاطِع الأحكام، والتجار الذين هم عينُ الحلال والحرام، والرعيةِ الذين بهم قِوام العيْش فى الأيام؛ مَنْ يلزمك أن تكونَ لهم مُكْرِما، ولإيالتهم مُحْكِما، ومن ظلمهم متحرّجًا متأثِّمـا، ولسانُهم فى الشكر عن لسانك متكلِّما؛ وإلىٰ قلوبهم بجميل السِّيرة متحبِّبا، ولِمَساخطهم ـ مالم تُسخِط الله ـ متجَنِّبا. وآشدُدْ من المستخدَمين بباب الحكم فى إشخاص مَنْ يتقاعد عن الحضور مع خَصْمه، ويتَّبِـع حكمَ جهله فيخْرُج عن قضيَّة الشرع وحُكْمه؛ وأوعِزْ إلىٰ أصحاب الأرباع بإطلاعك علىٰ الخَفَايا، وإبانةِ كل مستُور من القضايا؛ وأن يتيقَّظوا لسَكَنات الليل وغَفَلات النهار، وخُذْهم فى الليل بمـا آلتزموه من الحَرَس من مَكَايد اللُّصوص والدُّوَّار، وأيقِظْهم لأنْ يتيقَّظوا فرُبَّمـا آجتنىٰ ثَمَرَ الأمْن من غَرْس الحِذار؛ وإذا ظفِرْت بجان قد أوبقَه عملُهُ، وطَمَح إلىٰ الفساد أَمَلُهُ، فآجْمَـعْ له بين التنكيل والتوكيل، أوذى ريبـة إن زاد ريبـةً بالحبْس الطويل، وإلا فطالع بأمره إنْ كان من غير هذا القَبِيل. وواصِل التَّطوافَ فى العَدَد الوافر، والسِّلاحِ الظاهر، فى أرجاء المدينة وأطرافِها، وعمِّر بسِرِّك سائرَ أرجائها وأكنافِها.

وآنظر فى الحسْبة نظَرَ من يحتسب ما عنـد الله خيرٌ وأبْقىٰ ومن يرغَبُ فى الأجر

ويُعْرِض عن شِعار لباس التمويه واللَّبْس . وآمنَعْ أن يخْلو رجل بامرأة ليستْ بذات مَحْـرَم : لتكُون قد سلَّمْتَ وسلِمت من شُبْهَتِي المَطْمَع والمَطْعَم . وآستوضِحْ آلاتِ المعاملات ، وغيرها فيها تخِفُّ المَوَازين أو ترْجَح ﴿ يَوْمَ تُبَـدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ والسَّمٰوات ﴾ . وآعتمِدْ فى تهذيبها وتصويبها ماتُحْسِن فيـه للمسيء والمُحْسِن ، لأنك تُكَفُّ أحدهما عن عمل المتهافِت وعن المَهُوب المعن .

وتقدّم بنَفْض الأذىٰ عن جادَّة الطريق ، وآنْهَ أن تحمَّلَ دابَّةٌ أكثَرَ ممـا تُطِيق ؛ وتفقَّد الجوامعَ والمساجدَ بالتنظيف إبانةً لجَمَالهـا ، وصيانَةً من آبْتذالهـا ؛ ولا تمَكِّنْ أحدا أن يحْضُرها إلا مؤدِّيًا للفَرْض أو منتظِرا أو متطوّعا ، أو عالمـا أو متعلما أو مستَمعا ؛ فإنها أسواقُ الآخره ، ومنازل التَّقْوىٰ العامِره ؛ وأجْرِ الأمورَ علىٰ عاداتها ، وآسترشِدْ فى طارئاتها ومُشْكلاتها ؛ فآعلَمْ هذا وآعملْ به . إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة سِجِلٍّ بولاية قاضٍ بثغر الإسكندرية ، من إنشاء القاضى الفاضل ، من هذه الرتبة ، وهى :

من عبد الله ووليِّه (إلىٰ آخره) .

أما بعدُ ، فالحمـد لله الذى نشَر رايةَ التوحيد وأعزَّ مِلَّة الإسلام ، وهدىٰ بكَرَمه مَنِ آتَّبع رِضْوانَه سُـبُلَ السَّلام ؛ رافعِ منَـار الشرع وحافِظ نِظامه ، ومُجْزِل الثواب لمن عمِل بأمْره فى تحليلِ حلالِه وتحْرِيم حرامِه ؛ وسِعَ كلَّ شىء رحمةً وعِلما ، وساوىٰ بين الخليقة فيما كانَ حُكْما ، وقال جلَّ من قائل فى كتابه العزيز : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وهُوَ مُؤْمِنٌ فلا يَخَافُ ظُلْمًا ولا هَضْما ﴾ . سبحانه من خالق لم يزَلْ رءُوفا ببَرِيَّتـه ، عادلًا فى أقضِيَته ، مُضاعِفا أجرَ من خشِيَه وعمـل بخِيفته ، موفِّرا ذلك له يوم يَوَدُّ المُجْرِمُ لو يفْتدِى من عذابِ يوْمِئذ ببَنِيه وصاحبته وأخِيه وفَصِيلته .

يحمده أميرُ المؤمنين أنْ أفاض عليه أنواراً إلهيَّه، وتعبَّد البريَّةَ بأن جعلها بطاعته مأمورةً وعن مخالَفته مَنْهِيَّه؛ وآستخلَف منه على الخليقة القويَّ الأمين، وآتاه مالم يُؤْتِ أحدًا من العالَمين؛ ويسألُه أن يصلِّيَ على جدّه الذى عمَّ إرسالُه بالرحمه، وكشَف بمَبْعثه كلَّ غُمَّه، وجعل شرعه خيرَ شرع وأُمَّتَه خيرَ أمه؛ فأحيا من الإيمان ما كان رَميما، وهدى بالإسلام صِراطًا مستقيما، وخاطبه اللهُ فيما أنزل عليه بقوله: ﴿ إنَّا أنْزلْنَا إلَيْكَ الكتَابَ بالحقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلخَائِنِينَ خَصِيما ﴾ وعلى أبينا أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب الذى وفَّر الله نصيبَه من العلم والحِكْمه، وجعل خلافَتَه فى أرضه لاتخرُج عن ذرّيته الهُداة الأئمَّه؛ وعلى آلهما الأطهار، وعِتْرتهما السادةِ الأبرار، الذين وَلاؤُهم يُحظِى بالجنة ومحبَّتُهم تنجِّى من النار؛ وسلَّم عليهم أجمعين [سلاما] باقياً إلى يوم الدين.

وإن أميرَ المؤمنين لِمَا أفرده الله به من المآثر، وتوحّده به من المَناقب والمَفاخر، وخصَّه بشرفه من الإحسان إلى أوليائه بالإنعام إليهم فى الدنيا والشفاعةِ لهم فى اليوم الآخِر – يرتادُ لجلائل الخِدَم مَنْ يُشَار إليه ويُومى، ويختار لتولِّيها مَنْ يكون بأثقالها ناهضًا وبأعبائها قَئُوما؛ ويُسْنِد أمرها إلى من لا يُمارَى فى سُؤْدَده ولا يختلَف فى فضله، ويَعْدِق شُئُونها بمن عُدِقت الرياسةُ به وبأسلافه من قَبْله؛ فيكون إذا شُرِّف بها عَرَف منزلتَها ومحلَّها، ووقع الآتفاقُ على التمثل بقوله: ﴿ وكَانُوا أَحَقَّ بها وأهْلَها ﴾.

ولما كنتَ أيُّها القاضى المكينُ من البيت الذى آشتهر قَدْرُه، وآرتفع ذِكْرُه، وحلَتْ رتبتُه، بأوصافِ كلٍّ من أهله فى قوله وفعله، وتردّدت رياستُه، فى عددٍ كثير لاعهدَ للرياسة بالتردُّد فى مثْله؛ وكانتْ لك ولمن مضى من أسلافك آثارٌ فى الخِدَم خلَّدتْ لكم مجْدا يبقى، وأقرتْ من الحديث به مالا يسمُو إليه النِّسيانُ ولا يَرْقى؛

فكل مانتولّوْنه متجمِّل بكم ولا يُريد معكم زياده، وكلُّ مايُعْتَمَد فيـه عليكم قد نال مطلوبَه وبلغ البِغْيـة والإراده ، والذى يخرُج عن نَظَركم يتلهّف عليكم حنيناً إليكم وآشتياقا، وإن رُدَّ إليكم لم يألُ تَشَبُّثاً بكم وتمسُّكا وآعتِلاقا.

هذا إلىٰ مالكم من الحُرُمات المرعيه، والمَواتِّ التى ليست بمَنْسيه. والسيد الأجلُّ الأفضل الذى حسْبُه من المفاخر قيامُه بحق الله لمّـا غَفَل الملوك عنه وقَعَدوا ، وآستيقاظُه بمُفْرده حينَ نامُوا دُونَ آستخلاصه ممـا عَراه ورقَدُوا، وإن آنتصابَه آيةٌ أظهرها الله للّه ، وحسَمَ بهـا فى رَفْع مَنار الدّين كلَّ عِلّه ؛ فإذا أُنفِقَت الأعمـار فى [بيان] أوصافه كانت جديرةً بذٰلك حريّه ، وإذا ذُكِرت آثارُه فى الإسلام كان العِلم بكرمها لاحقًا بالعلوم الضَّروريه ؛ فمـا يُنْسَب المتوسِّع فى التقريظ له إلىٰ تَغَال ، ولا تَضْييع وقت يُقْضىٰ فى آهتمامٍ بالثناء علىٰ مَناقبه وآشتِغال ـ يُواصلُ الثناء عليك والشكْر لك ، ويتـابعُ من ذٰلك ما إذا ذُكِر اليسير منـه شرَّفك وجَمَّلك ؛ ويصف ما كان لأخيـك القاضى المكين ـ رحمـه الله ـ من الآجتهاد فى المُناصحات ، ومن الأفعال الحَسَـنة والأعمال الصالحات ، ومن الوَجَاهة التى أحلَّته مكانًا متجاوِزا غايةَ الآمال الطامحات ، مارَفَعـه عن طبقاتِ كثير من سادات الناس ، وجعل حاسِديه فى راحةٍ لمـا شَمِلهم من دَعَة الياس . وإنك أيُّها القاضى المَكين ، الأشرفُ الأمين ؛ قد بلغْتَ مَداه فى الجَلاله ، ووَرِثت مجْـدَه لا عن كَلاله ؛ وحَوَيْت فضله ونَخْره ، وقفَوْت أثَرَه وأحييتَ ذِكْرَه ؛ وحُزْت خِلاله الجميـلةَ وأفعاله الرضـيّه ، وحصَّلت الفضيلتين الذاتيَّة والعَرضيّه ؛ ولذٰلك تقرّرت نُعوتُك « القاضى المكين » لآستيجابك فيما تقضى به جزيلَ الثواب ، ولتمكُّن أفعـالك فى محـل الصَّواب ؛ و « الأشرفُ الأمين » لشرف نفسـك ، وكونِ أمانتك فى حاضِر يومـك علىٰ ما كانت فى ماضى أمْسك ؛ و « تاجُ الأحكام » لأن مايصدُر منها سامى المِنْهاج ، وقد آرتفع محلُّه كما

ٱرتفع محلُّ التاج؛ و « جمالُ الحُكَّام » لأنك لمـا وَلِيتَ ماوُلُّوا، جمَّلتهم إذ فعلتَ من الواجب فوق مافعَلُوا ؛ و « عُمدةُ الدين » لأنَّ من كان مثلك ركَنَ إليـه الدينُ وٱستند ، وتوكَّأ علىٰ جانبه وٱعتَمد ؛ و«عمدةُ أمير المؤمنين » لأنك ذخيرةٌ لدولته ، ونِعْم البقيةُ الصالحةُ لمملكتِه .

ومعلوم أن ثغر الإسكندرية ــ حماه الله تعالىٰ ــ الثغرُ الرفيـعُ المقدار، الذى هو قُرّة العين للإسلام وقَذًى فى عيون الكُفَّار ؛ ومحلُّه ممـا تتطامن له معاقلُ التوحيد وحصُونُه ، وهو مشتملٌ من الفقهاء والصلحاءِ والمرابطين وأهلِ الدِّين علىٰ مَنْ لم يزَلْ يحفظه ويصُونه ؛ وإليه تَتَنَاثَلُ(١) السُّفَّار ، وتَتردّدُ التُّجَّار ؛ وهو المقصود من الأقطار القصيَّة النائيه، ومن البلاد القريبةِ الدانيـه؛ وما زالتْ أحوالُه جاريةً بنظَرِك علىٰ أحسَن الأوضاع وأفْضلها، وأوفىٰ القضايا وأكملها ؛ وما كان ٱستخدامُ غيرِك فيـه إلا ليَظْهَر إشراقُ شَمْسك، وليزُولَ الشكُّ فى تَبْريزك علىٰ جِنْسِـك، وليتبيَّن فضـلُ مباشَرتك وتَولِّيك علىٰ أن ذلك لم يكُنْ مكتتما، وليتحقَّق أنَّ عقدَ صَلاحه لا يكون بتولِّى غيرك متَّسِقًا ولا منتظِما .

وقد رأىٰ أميرُ المؤمنين إمضاءَ مارآه السيدُ الأجلُّ الأفضل من إقرارك علىٰ الحكم والقضاء : لٱطِّلاعك من ذٰلك علىٰ سِرّه ، ونَفاذِك فى جميع أمرِه ؛ ولِخُبْرتك به ودُرْبتك ، ولٱستقلالِك ومضائك ومعْرفتك ؛ وإنك إذا ٱستَمْررت علىٰ عادتك ، غَنِيتَ عن تجـديد وصيَّتك ؛ فتمادَ علىٰ سُنَّتك ، ولا تخرُجْ عن سبيلك ومَحجَّتك ؛ وأنت تعلم أنَّ الشُّهود بهم يُعْطِى الحُكَّام ويمنعون ، وبأقوالهم يفْصِلون ويقْطَعُون ؛ وبشهاداتهم تثبتُ الظُّلامات وتبْطُل، وعليهـا يعتَمَد فى ٱنتزاع الحقُوق ممن يُدافِع ويَمطُـل؛ فواجبٌ أن يكونُوا من أتقيـاء الورىٰ، وممن لا يتَّبع الهوىٰ؛ فٱستَشِفَّ

(١) أى تنصب وترد عليه كثيرا انظر اللسان والقاموس .

أحوالَهم، وآستَوْضِحْ أمورَهم وأفعالَهم؛ فمن كان بهذه الصفة فأجْرِه علىٰ عادته فى آستماع مَقالتِــه ، ومَنْ كان بخلافه فقِفِ الأمْرَ علىٰ عدالته ، وآحْسِم مادّةَ الضرر فى قبول شهادته؛ وقد جعل لك ذٰلك من غير آستِئْذان عليه ، ولا آعتراضٍ لك فيه؛ ولا تُقرّبْ أحدًا من رُتْبة العَداله ، وآرفَعْها بإزالة الأطماع فيها عن الإهانة والإذاله ؛ وآغضُضْ من أبصار المتطلّعين إليهـا ، والمتوثّبين عليهـا ، بالتطَارُح علىٰ الجهات ، وآلتماسها بالعِنايات التى هى من أقوىٰ الشُّبُهات ؛ وإن ورد إليــك توقيعٌ وتزكيةٌ من البـاب فأصدره [فى] مُطالعتك ليُحيط العلمُ به، ويخرُجَ إليك من الأمر ماتفعَلُ علىٰ حسَبِه؛ وآفعلْ فى دار الضَّرب وأحوال المستخْدَمين والمتصرّفين علىٰ ما أنتَ به العالمُ البصير، والعارفُ الخبير .

وقد جُعل لك إضافةً إلىٰ ذٰلك النظرُ فى أمرِ جميع هــذا الثَّغْر المحروس وأُسْـند إليــك ووُكل إلىٰ صائِب تدبيرك، وإلىٰ حُسْن تهذيبك ؛ وإلىٰ بركةِ سياستِك، وإلىٰ عملك فيه بمقتضىٰ ديانتِك ؛ وصار جميع المستخدَمين به من قبلَك متصرِّفين ، ولأوامرك متوكّفين ، وعنــدَ ما تحُدّه واقفين ، ولمَرَاسمك متابِعين غيْرَ مخالِفين ؛ فمن أحْمدتَه منهــم وعلمتَ نَهْضته فأجره علىٰ عادتِه ورَسْمه ، ومَنْ كان بخلاف ذلك فاستبْدِل به وآمْحُ من الخدمة ذِكْرَ آسمه ؛ فلا يَدَ مع يَدِك ، ولا عُدُولَ عن مقْصدك ؛ والآستخدامُ فى هــذا الأمرِ قد أُسْنِد إليك ورُدّ ، وكونُه من جهة غيرك أُغْلق بابه وسُدّ؛ فلا تَصرُّفَ فيه إلا لمن صَرّفته ، ولا خِدمةَ إلا لمن آستخدَمْتَه .

وتأكيدُ القول عليك لايزيدُك حِرْصا ، والمعرفةُ بهمّتك وخُبْرتك تُغْنيك عن أن توصىٰ ؛ والذى تقدّم ذِكره فى هذا السجِلّ إرهاف لِحَدّك ، وإعلاءٌ لِجَدّك ، وإطْلاع لكوكب سَعْدك ؛ والله يتولّى تأييدَك وتوفيقَك ، ويُوضح إلىٰ الخير سبيلك وطريقَك ؛

فاعلم هذا وٱعملْ به، وطالِع مجلسَ النظر بأمور خِدْمتك، وما تَحتاجُ إلىٰ عمله فى جهتك. إن شاء الله عز وجل.

* * *

وأما السِّجلَّات المكتتَبَة بالوظائف الدِّيوانية، فكما كتب به بعض كُتَّابهم بولاية ديوان المُرْتَجَع :

لسَنِيّ الدولة وجَلَالِها، ذى الرياستين، أبى المنجى سليمان بن سَهْل بن عِمْران.

أما بعدُ، فإنّه من حسُنتْ آثارُه فى مناصحات الأئمة الخلفَاء، وٱرتفع محلُّه فى طاعتهم عن الأنظار(١) والأمثال والأَكْفاء، وظهَرتْ بركاتُ أفعاله فيما يتولَّاه ظهورَ الشمس ليس بها من خَفَاء، وباهَىٰ بتدبيره كُلَّ مايباشرُه من أمر خطير قدرُه، وٱستدعَتْ من الثناء والإطراء مايتأرّجُ نَشْره ويتضوّع ذِكرُه، وتساوىٰ عنده القولُ والعملُ ونافَسَ فيه الخُبْرُ الخبرَ، ورتَّبه مرتِّبه مقدَّما علىٰ مَنْ مضىٰ من طبَقته وغَبَر، ووَسَم الأعمال بسِمات فى العمائر تُضاف إليه وتُنْسَب، وغدَت الخِدَم تُزْهىٰ به وتُعْجَب، وهو لايُزهىٰ ولاينظُر ولايُعْجَب ـ كان ردُّ المهمَّات إليه حُسنَ نظرٍ لها، وإذا حُظِرت جلالةُ تولِّيها علىٰ غيره أضحىٰ نفاذُه منتهِجا له مَحلّها، وكان التنويهُ به حقًّا من حقوقه وواجبًا من واجباته، والمبالغةُ فى تكريمه وتفخيمه مما يتعيَّنُ الأنتهاء فيه إلىٰ أقصىٰ آمادِه وأبعدِ غاياتِه.

ولمَّا كنتَ فى متولِّى الدواوينِ، مشهورَ الشأن والقَدْر، وحالًّا من مَراتب الكُفَاة المقدَّمين، فى حقيقةِ الصَّدْر، إن ٱنتظمُوا عِقْدا كنتَ فيه الواسِطَه، وإن قَسَط غيرُك علىٰ مُعَامَل لم تكن أفعالُك قاسطه، ولك السياسةُ التى ظلَّتْ ساحاتُها رِحابا،

(١) جمع نظر بوزن نِدّ بمعنى النظير حكاه أبو عبيدة. انظر اللسان ج ٧ ص ٧٦.

والرياسة التى من وَصَفَك بها فما تملّق ولا داجىٰ ولا حابىٰ ، والصِّناعةُ البارعة التى تشهَدُ بها الطُّروس واليَرَاع ، والأمانةُ الوافيــةُ التى آرتفع فيها الخلافُ ووقَعَ عليها الإجْماع ، والتصرّفُ فى أنواع الكتابة علىٰ تبايُنِ ضُروبها ، والآستيلاءُ علىٰ ظاهرِها ومستُورها وواضِحِها ومكتُومها ، والأخذُ لها عن أهلِ بيتِك الذين لم يَزالُوا فيها عَرِيقين ، ولم ينفكُّوا فى مَدَاها سابقينَ غيرَ مَلْحُوقين ، وقد زِدت عليهم بما حُزْته بهِمَّتك ، ونِلْته بقَرِيحتك ، حتّى بلغْتَ منها ذِرْوةً شامخةً عليَّه ، وحصّلت فضيلتين فَضِيلةً ذاتيَّة وفضِيلةً عَرَضِيَّه ، وأمِنْت مَنْ يُبارِيك ويساجِلُك ، وكُفِيت مَنْ ينَاوِئكَ ويُطاوِلك ، وكان الديوان المُرْتجَع عن بَهْرامَ وغيره من أجلِّ الدواوين وأوْفاها ، وأحقِّها بالتقديم وأَوْلاها : لأنه يشتَمِل علىٰ نواحٍ مختاره ، ويحتَوِى علىٰ ضِياعٍ مكنُوفة بالعماره ، وقد زاده مِيزةً علىٰ غيره كونُك ناظرًا فيه ، وأنك مدبِّر أمرِه ومستَوْفيه .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فَتاهُ ووزيُره السيدُ الأجلُّ الأفضلُ الذى عزَّ بحُسْن سِيرته المُلْكُ وتضاعفَ بهاؤُه ، وضَمِنتْ مصالِحَ الأمور تدبيراتُه وآراؤُه ، وظلَّتْ شُئُون الدولة بما يقرّره منتظمةً مستقيمه ، وغَدَتِ المَيامنُ والسُّعودُ مخيِّمةً فى داره مُقيمه ، وآتَّفقتْ علىٰ الثناء عليه مختلَفاتُ الأقوال ، وقضَتْ مَهَابَتُه بحماية النُّفُوس وصيانةِ الأموال . وفاوضه فى أمرِ هذا الدِّيوان فأفاضَ فى وَصْفك وشُكْرك ، وأطنَبَ فى تَقْرِيظك وإجمال ذِكْرك ، ونبَّه علىٰ الحظ فى تولِّيك إيَّاه ، وواصلَ من مَدْحك بما يتضوّع عَرْفُه ويَطِيب رَيَّاه ، وقرّرلك من تولِّيه مايصِلُ سببَ الخيرات بسببِه ، وميَّزك بما لم يَطْمَع أحد من كافَّة متولى الدّواوينِ به ، فلم يجعَلْ فيه يدًا مع يَدِك ، ولا نظرا إلالك بمفْرِدك ، فلا يرفَعُ [أحد] شيئا إلىٰ غير ديوانك من حساب مايَجْرِى فى أعمالِه ، ولا مُعاملةَ لبيت المال إلَّا معك فيما يَحِلُّ من أمواله . فأمضىٰ

أمير المؤمنين ذلك وأمر به ، وخرج أمرُه إلى ديوان الإنشاء بكَتْب هـذا السجلّ بتقليدِكَ الدّيوانَ المرتجَع المذكور : ثِقةً بأنك تأتِى فيـه على الإراده ، وتتأتّى لبُلُوغ الغَرَض وزياده .

فآستَخِرِ اللّهَ تعالى وباشِرْ أمورَه بجِدّك المعهود ، وشمِّر عن ساق عَزْمك المشْهود وسَعْيك المحمود ، وآجْرِ على رَسْمك فى العمل بما يحْفَظ أوضاعَه ، ويُزْجِى آرتفاعَه ، ويُزِيح عِلَّتـه ، ويُغْزِر مادَّته ، فآعتقِدْ مواصلةَ الليل والنهـار فى مصالحه فَرْضًا إذا آعتقَدها غيرُك نَفْلا ، وآجعلِ آجتهادَك لآستخراج أمواله وكُنْ عليها إلى أن تَصل إلى بيت المـال قُفْـلا ، وآستنْظِفْ ما فيـه من تَقَـاوٍ وباَق ، وآفعَـلْ فى تدبيره مايُجْرى أمورَه على الوِفَاق ، وآستخدِمْ من الكُتَّاب من تَحْمَدُه وترتضيه ، وتُنَصِّهم إلى الأفعال التى تستدعِى شكْرَك لهم وتقتضيه ، ولا تُسوِّغ لضامنٍ ولاعاملٍ أن يُقَصِّر فى العماره ، وآعتمِدْ من ذلك مايكونُ على كفايَتِك أوضَحَ دِلالة وأصَحَّ أَمَاره .

وقد أمر أمير المؤمنين أن تَجْرِىَ الحالَ على ما كانتْ عليه من دُخول ذلك وبَيْعه بغير مَكْس فى جميع الأعمـال ، وأزاحَ مع ذلك عِلَّتك ببَسْـط يدِك وإنفاذِ أمرك وإمضـاء قولك ، وإفرادِك بالنظر من غير أنْ يكونَ لأحدٍ من متولِّى الدواوين على آختلافهم نظرٌ معك ، فتَمَادَ فى حُسْن تدبيره على سُنَّتك ، ولا تَخْرُجْ عن مذْهبك وطريقتِك ، والله يوفِّقك ويُسْـعِدك ، ويُعينك ويعضِّدك ، فآعلَمْ هـذا وآعملْ به إن شاء الله عز وجل .

المرتبـــة الثـالثـــة

(من المذهب الأوّل من سجلات ولايات الفاطميين أن تفتتح
بالتّصـــدير أيضا ، وهو « من عبـــد الله ووليه » إلىٰ آخر التصلية علىٰ
النبي صلى الله عليه وسلم وأميرِ المؤمنين علىّ رضى الله عنه ؛ ثم يُؤتىٰ بالبعْدية ،
لكن من غير تحْميد ، بل يقال : «أما بعدُ فإنَّ أوْلى» أو «إنَّ أحق»
ونحو ذلك ، ويذكر مناقب المُوَلّىٰ ثم يأتِى بالوصايا)

وآعلم أنَّ هذه المرتبةَ من السِّجلّات يشترك فيها أربابُ السيوف وأربابُ الأقلام من أصحاب الوظائف الدينيَّة والوظائف الدِّيوانية .

فأما سجِلّاتُ أرباب السُّـيوف فكأصحاب زُمُوم طوائف الرِّجال ، يعنى التَّقْدمة عليهم والولايات ونحو ذلك ، علىٰ ماسيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخُ ولاياتٍ لأرباب السيوف بالحَضْرة من هذه المرتبة .

نسخة سِجِلّ بزَمّ طائفة ، من إنشاء القاضى الفاضل ، وهى :

من عبد الله ووليِّه (إلىٰ آخره) .

أما بعدُ ، فإنَّ أميرالمؤمنين يصْطَنع مَنْ يرتضيه لتأليف عَبِيده وضَمِّهم ، ويستَوْقفُه للنظرِ فى تقديم رجال مملكته وزَمِّهم ، ويختار مَنْ يَجْتبيه لإحراز مَدْحهم بالبُعْد من مُوجِبات ذَمِّهم ؛ ولا يُؤَهِّل لذٰلك إلا مَنْ توسَّل بالغَنَاء وتَقرَّب ، وآستَقَلّ بالأعْباء وتَدَرَّب ؛ وأطلَقَ حَدَّه التوفيقُ فمضىٰ وتَذَرَّب ، وأُودِع الإحسانَ فما زايَل مَحَلَّه ولا تَغرّب ، ولابَس الأمورَ ملابسَــةَ من فَطُن وجَرّب ؛ وقد أيَّد الله دولتَه بفتـاه وأمينه ، وعِقْده وثَمِينه ؛ السـيِدِ الأجلِّ الذى غدَتْ آراؤه للمصالح كَوافِل ، وأذْكَىٰ للتدبير عُيُونَ حَزْم غير ملتفِتاتٍ عنه ولا غَوَافِل ؛ وأطْلع من السَّعد نجُوما غيرَ غَوارِبَ

ولا أَوافِل، وقام بفَرائِض النَّصائح قِيامَ من لم يُجَوِّز فيهـا رُخَصَ النَّوافل، وتحدَّثَتْ بأفعاله رِماحُه فى المَحافِل فما راعت الجَحافل .

ولـمَّا مَثَل بحضرة أمير المؤمنين أجمَلَ ذِكرك واطابَه ، وقصَـدَ بك غَرَضَ الأصطناع فأصابه ، وآستَمْطر لك الإنعامَ الغَدَق السَّحابِ فأجابَه ، ووصَفَ ما أنت عليـه من شَهامةٍ شُهِدت وشُهِرت ، وصرامةٍ تظاهَرَتْ وظَهَرت ، وكِفَـايةٍ برَعَتْ وفَرَعت ، ونزاهةٍ آستُودِعت الأمانَةَ فرعَتْ ، ومُناصحةٍ آنفردَتْ بوَصْـفها ، وتحلَّت واسطةَ عِقْد صَـفِّها ، وجهـادٍ لم يزَلْ به القُرْءانُ مُغْرِيا ، والصَّعبُ المَقَـادِ مُذْعنا والخَطْب عابيا (؟) فى قيادها مدعيا ، وقرّر لكَ الأستخدام فى زمِّ الطائفـة فأمضىٰ تقريرَه ، وآستصابَ تدبيرَه ، وخرج أمرُه إليه بأنْ يُوعِز إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السِّجلِّ وإيداعه ماتهتَدِى به ، وتعمَلُ بتأْديبه .

فتقلَّد ماقُلِّدته من ذلك عاملا بالتَّقيَّة فإنهـا الجُنةُ والمَحَجَّة ، والجُنَّة والجَنَّـه ، والمَدد السليم ، والمَنْهَجَ القويم ، والنعمةُ والنَّعيم ، بقول الله سبحانه فى كتابه الحكيم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

فانهضْ بشُروط هـذا الزَّمّ نُهوضا يُؤدِّى عنك من النُّصْح مفروضا ، ويجعلُ لك كلَّ يوم كتابَ شـكر مفْضُوضا ، وسُسْ هـذه الطائفةَ بمـا يُولِيها دواعِىَ الوِفَاق ، ويَحْميهـا من عَوادِى الأفتراق ، وآجهَدْ فى منافعهـا مجْتَلِبا ، ولأخْلاف دَرِّها مُحْتلبا ، وآنتصبْ لأستشفاف أحوالهم وتعَهُّدها ، وملاحظة أفعـالهم وتفَقُّدها ، فمن ألفيتَه إلىٰ فرائض الخِدْمة مُسْرعا ، وبنوافلها متطَوّعا ، وبكَرَمه عمَّـا يَشِينه مترَفِّعا ، شحَذْت بَصيرتَه بالتَّكْرِمه ، ورشَّحتَ هِمَّته للتَّقْدمه ، ومن وجَدْته لتلك الصفات الزائنة مُخالفا ، وللصفاتِ الشائنة مُؤالفا ، ولنفسه عمَّا يرفَعُها صارِفا ، قوَّمْتَ أوَدَه وثقَّفْته ، وأشرفت به علىٰ مَنْهَج الصِّراط ووَقَّفته ، فاعلَمْ هذا وآعمل به ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهــذه نسخةُ سِجِلٍّ بولاية الفُسْطاط المعبَّر عنهـا بمصر علىٰ نحو ماتقدّم فى ولاية القاهرة، وهى :

أما بعــدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين لِمَـا خصَّ الله به آراءَه من التأييد الذى يُسَدِّد سِهامَهـا ، ويُجْزِل من التوفيق سِهَامهـا ؛ وأطلَق به يَدَه من أيادٍ تسبِقُ آمادَ الآمال وتُكاثِرُ أوْهامَها ، وألْبس الدِّينَ ببقائه من مهابةٍ تصيِّر قلوبَ أعدائه مَهامِها ؛ ومَيَّز به عَصْره من خصائص نَصْر لاتُطِيــل الأيام آستِفْهامَها ولا تخْشىٰ آستِبْهامَها ، ويَسَّره من نَبإ دعوتِه التى طبَّقتْ أنجادَ الأرض وتِهَامَها ، ورَقَّاه من محــلِّ أمانةِ الإمامة التى لا يظهر أرباب الألبــاب علىٰ أسرار الله ولا آتِهامَهَا ؛ وناطه بتــدبيره من إيَالَةِ البريَّة والآعتناءِ بمَصَالحها ، وأصابه من مَرَاشِد اليقين التى تستضىءُ العقول بمَصابِحِها ؛ وأتىٰ به الأنفُسَ الصالحة من تَقْواها ، وصَرَف بمــا صَرَّفه علىٰ لسانه من الحُكْم عنها مَضارَّ الشُّبَه وطَوَاها ، وألبسه من هَدْى النبوّة التى قرَّبَ اللهُ إسنادَ من رآها وفَضْلَ مَنْ رواها ـ يستغزر مَوادّ التوفيق من خالِقِه بنُصْحه فى الخلائق ، ويقدِّم الآستخارةَ بين يدَىْ أفعاله فهى به أمْلَكُ الخــلال وأخصُّ الخَلَائق ؛ ويَعْتام للقيام بتكاليفِ الآستنهاض ، ويختارُ لتقوِيم المَيَّاد من آشتهر بالتدبير وجَبْر المُنْهاض ؛ ويُقدِّم لِكبارِ الوِلَايات وعَوَاليهـا ، وخصائص الرُّتَب وغَوَاليها ، مَنْ تكافأَتْ فى آستيعابِ المحاسنِ خِلالُه ، وخطبَ الخِــدَم المتكثِّرة لأُولى الحظوظ آســتِقلالُه ، وعلِم آستبدادُه بطِيب الذكر وأمِن آنفِصالُه ، وأوىٰ إلىٰ جَنَّة مَرِيعــة وجُنَّة مَنِيعة من الوَلَاء وألحفَتْــه ظِلالُه ، وآستقام علىٰ مَحَجَّة واضحة من المخالصة ولم يُخَفْ زيغُه ولا ضَلَالُه ، ومضتْ ضرائبُه فى المُهِمَّات مَضــاءَ الحُسَام الذى لا ينبُو حدُّه ولا يَثْبُت آنفِلالُه ، وصَحَّ بِصِــيرة

فى المناصحة فما سَرَّ الأعداء شَكُّه ولا آعتِلالُه ، وأعطىٰ الخدَم حقُوقَها من إقامة القوانين ، ونَهض بأعبائها المثَقَّلة نهضةَ المشمِّرين غيرِ الوانين ، وآشتدّتْ وطأةُ تبادُره علىٰ المُفْسِدين والجانين ، وتظاهرَتْ شواهدُ ميزتِه بما يُكَثِّرله الحُسَّاد ويُرْغِم الشانِين ، وآقتنىٰ من نفائس المحامد ما يَعُـدّه أهلُ النظر قُنْيَةَ القانِين ، وآستبْقىٰ من جميل الأُحْدوثة ما يبقىٰ ذِكرُه بعد فنَاء الفانِين ، ووفِّقَتْ فى الخـدْمة مصادِرهُ ومَوارِدُه ، وآنتظمتْ دُرَر الذكر بحسن ذكره فأْتلفتْ فَوَارِدُه ، ونُشِدتْ ضوالُّ الغَناء فآلتقتْ عنـده غرائبُه وشَوارِدُه ، وآختصَّت مَسَاعيه بالإبْرار علىٰ الأنظار ، وصحَّتْ خِلالُه علىٰ عَيب النقْد كما صَحَّح النـارَ نُورَ الأبصار ، ونظَر لمن أُسْنِد إليه أمرُه نظراً يُعْفيه من تطرُّقِ الأكدار والمَضارّ ، ورعىٰ له ما هو متوسِّل به من آثارٍ حقيقةٍ بالإيثار ، وكفايةٍ تأخُذ للخِدَم من الفَخْر بالثار .

ولمـّا كنتَ أيها الأميرُ المرادَ بهذا الإيراد ، المُطَّرِدَ إليه هذا الآستِطْراد ، المعدُودَ فى أمراء الدولة العَلَويَّة من الأعيان الأَفْراد ، المُحَلِّى سيفَه بينَ المساعِى الجميلة ينتقى منهـا ما آختارَ ويصْطفِى ماأراد ، المُهادىٰ الصِّفاتِ الحسـنةِ فلا جاحدَ من عُداته ولارادّ ، المُضْطلِـعَ بما يُعْيِي حملُه الحازمَ المُطِيق ، المستنْفِدَ فى أفعاله المشكورةِ أقوالَ الواصفِ المِنْطيق ، الواصـلَ بمحْمود مساعيه إلىٰ غايات السابِقين فى مَهَل ، الجامعَ فى تدبير المِهمَّات بين رأْيٍ آحتنَك وحَزْمٍ آكتهَل ، المنظُورَ بعينْ الحَزْم بآيات دَواعِيه ، المترقِّىَ إلىٰ أمانيِّـه فى دَرَج مَساعِيه ، المُجِيبَ دعوةَ العزْم إذا قام فلم يسْمَع المقصِّرون داعِيه ، المجتهدَ فى تشييد أركان التدبير إذا آرتُقِب آضطرابُه وخِيف تَداعِيه ، الممتثلَ وصَايَا الأدب الصالِح فهو بقَلْبه راعِيه وبسَمْعِه واعِيه ، الشَّهمَ الذى ينفُذُ فى الأمور نَفاذَ السَّهم ، الألْمعِىَّ الذى علَا أن يُماثَل بمـا أُوتِىَ من بَسْطة الفَهْم ، المتبوِّئَ من النعمة منزلةَ شكرٍ لا يرُومُ ضيفُها أن يَرِيمَـه ، ومَرْبَعَ حمْـد لا يسُوم نازلُهـا غيرَ

أن يُسِيمه ؛ المباشِرَ من مأْثور السياسة ما آستفاض ذِكْرُه فلم تتطرّق عليـه أسبابُ المجـد ، البالغَ بسُموّ المساعى ماقصَّر الأكفاءُ عنه ولم يُقَصِّروا عن الجَهْد ؛ الحـالَّ من التقدمة فى هِضَابها إذا نزل الأكفاءُ منها فى الوَهْـد ، الحاملَ من أعباء المُشايعة ماغدَا به من المُوفين علىٰ الأنظـار الموَفِّين بالعَهْد ؛ المحقوقَ من الوسائل بأن يجُودها النجاحُ بأغْزَرِ دِيمة وأسْـقىٰ عَهْد ، المؤدِّى فيما يُسْنَد إليـه فُروضَ التفويض ، المَلِيَّ بأن لا تنوب فرصةُ حَزْم إلا كان مليًّا باللَّحَاق والتعويض ؛ المكتفِىَ من وصَايا الحزم بمـا يقُوم له مَقامَ التصْريح من التعريض ، المستوجِبَ أن تُجْدىٰ إلىٰ آسـتحقاقه وتُهْدىٰ سحائبُ الطَّوْل الطويلِ العَرِيض ؛ المسـتوعبَ شرائطَ الرياسـة بالآستيلاء علىٰ أدَوَاتها ، المتَتَبِّع مظانَّ الخطوب بمُفاجأة الغَرَض فى مُدَاواتها ؛ المبرِّزَ علىٰ القُرَناء بخلال لاتَطْمَع الهممُ فى مُساماتها ولا مُساواتِهـا ، الآخذَ من كل شيء بأحسنه فأىُّ حسنة لم يُؤتَهـا ولم ياتها ، النافذَ الآراء إذا المشْكلات لم يتَّضح لأرباب الألبـاب مُصْمَت بيَانِها ، المُصيبَ شواكلَ الضَّرائب فسهامُ آرائه مدْلولةٌ علىٰ شَوَاتها ، المتبرِّجَ المقاصد لعيان الحمد إذا تخفَّزت الأفعالُ ووارَتْ سَوْآتها ، المعروفَ بثُبوت الجَنَان ، حينَ يلتبسُ الشُّجاعُ بالجَبَان ، المشـكورَ فى مواقِف الحَـرْب بأفواه الجِراح ولِسان السِّنان ؛ المقـدمَ حيثُ الأعضاءُ تتزيَّل والأقدامُ تتزلْزَل ، المقتَحِمَ غَمَـراتِ الهَيْجاء والأرواحُ عن وِلاياتِ الأجسامِ تُعْزَل . وقد وُلِّيت الولاياتِ فآستقلْلتَ بها أحسَنَ آسـتِقلال ، ورُفع لك منارُ العدل فاستدلَلْت منه بأوْضَح آستِدْلال ؛ وجعلتها علىٰ مَنْ تُؤْويه حَرَما ، وعلىٰ مَنْ يطْرُقها حِمىٰ ؛ وكنتَ لجُمْهور زمانك فى المصالح والنَّصائح مُقَسِّما ، ولحكم التقوىٰ ولو ضَفَتْ مشقَّاتُها دُونَ حكم الهوىٰ محكِّما .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فَتـاهُ ووزيرُه السـيدُ الأجلُّ الذى حلَّ المشكلات من رأْيه وراياته بالشمس وضُحَاها ، وتعرَّضت له آيةُ الليل من العـدا فجَلَّاها بسُيوفه

ومَحاها ، وثبّت نِصابَ المُلْك الفاطمىّ حينَ أدارت الحربُ علىٰ فَتَكاته رَحاها، وٱقتادَ الأعداءَ إلىٰ مَصارِعها بخزائِمَ من العزائم وأعْجَلَها وأوْحَاها ، وقام بنَصْر أئمة الهدىٰ حينَ قَعَد النـاس ، ورعىٰ اللهُ عزيمتَه الصابرةَ فى البأساء والضَّرّاء وحِينَ البـاس ، وخاطر فى حفظ الدِّين بنفْسٍ تجرِى مَحَبَّتُها مع الأنْفاس ، وحلَّ من ملوك الأرض مَحَلّ العين من الراس بل الراسِ من الحوَاسّ ، وأتعبَت الأجسامَ هِمَمُه الجِسام ، وأعدىٰ الزَّمانَ فتبَسَّم جذَلا بعَدْله البَسَّام ، وقسَّمت المطامعُ أموالَه فحمىٰ المجدَ الموفَّر عليه من الٱنْقِسام .

فطالَعَ أميرَ المؤمنين بأخبارك بعد ٱخْتبارك ، وتوسُّلك إلىٰ التقدمة بَمرْضِىّ آثارك ، وما أظهره الٱمتحانُ من نَقَـاء سريرتِك وأسرارِك ، وٱستقامتِك علىٰ مُثْلىٰ الطريقـة وٱستبْصارِك ، وأن ولايةَ مصرَ من أنفَس الولايات مَحَلّا ، وأثبتِها علىٰ غيرها فَضْلا ، بمجاوَرتها للمَقامِ الكريم ، وحُصُولها من ٱستقلال الرِّكاب الشريف إليهـا علىٰ الشَّرَف العظيم ، وٱختِصاصها من مَجَال الخلافة بمـا جَمَع لها بين الفخْرَيْن الحادث والقديم ، وأوجبَ لها علىٰ غيرها من البلاد مزيَّةً ظاهرةَ التكريم والتقْديم ، وما يَمُتُّ به أهلُها من شَرَف الجِوار الذى لآمالهم به التخييرُ فى الإحسانِ والتحْكِيم .

وما رأىٰ من إسناد ولايتِها إليك عِلْمـا أنَّك ممن تزْكُو لديه الصَّنِيعه ، وتروقُ فى جِيد كفايته فَرائدُ المِنَن البضِيعه ، وتتطامَنُ لٱستحقاقه ذِرْوةُ كلِّ مرتبة رفيعه ـ خرجَ أمرُ أميرِ المؤمنين إليه ، بأن يُوعِز إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجلّ لك بالولاية المذكورة . فتقلّدْ ماقلّدك منها مقدِّما تقوىٰ الله علىٰ كل فِعْل وقول ، متبرِّئًا إليه من طَوْل الحَوْل ، مُعِدّا ذخيرتَها النافعةَ ليوم الهَوْل ؛ قال الله فى مُحْكم الكتاب : ﴿ وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزاد التَّقْوىٰ وٱتَّقُون يَاأُولى الألْباب ﴾ .

وٱنظُرْ فى هــذه الولاية حاكِماً بالقِسْطاس ، وساو فى الحق بين طَبَقات الناس ؛ ولا تميِّزْ فيه رفِيعاً علىٰ حقِير ، ولا غنيًّا علىٰ فقير ؛ وأقِم الحدُودَ علىٰ من وجبت عليه إقامةً يرتَدِع بها المغْرُور ، وتستقيمُ بها الشُّـؤُون وتنتظِمُ الأمور ؛ وراعِ مَنْ بهذه المدينة المحروسةِ من شُهُودها ، ومتميِّزى أهلها ، ففيها الفُقهاء والأتقياء ، والقُرَّاء والعلمـاء ؛ والمتميِّزُون الأعيانُ الوُجوه ، وأهلُ السلامة الذين يستوجِبُ كلٌّ منهم نَيْلَ مايأْمُله وبلُوغَ مايرجُوه ؛ فٱعتمِدْ إعزازَهم ، وتوَخَّ تكرِمتَهم ؛ ووَفِّهم مايجب لهم من الحق ، وٱلْقَهُم بالوجه المُسْفِرِ الطَّلْق ؛ وأْمُر بالمعروف ونُصَّ إليــه ، وٱنْهَ عن المنكر وعاقِبْ عليــه ؛ وتفقَّد أحوالَ المَطاعِم والمَشَارب ، وحافِظْ علىٰ إجرائها علىٰ أحكامِ الصواب وقضَايا الواجب ؛ وٱحظُرْ فى المكاييل والموازِين البَخْس والتَّطفِيف ، وقدِّم الإنذارَ فى ذٰلك والتحذِيرَ والتَّخويف ؛ وأَوْعِزْ بتنظيف المَسَالك والساحات ، وٱمنَـعْ من تَوْعِير السُّبُل والطُّرُقات ؛ وٱعتمِدْ كلَّ ليلة مواصَلةَ التَّطْواف علىٰ أرجاء هذه المدينة وأكْنافها ، ومُتابعةَ الإطْلال علىٰ نَواحيها وأطْرافها ؛ وٱعمَلْ فيمَنْ تظْفَرُ به من عابِث وعَاد ، ومُنتهِج طريقَ الفَساد ، مايَرْتَدِع به سِواه ، ويجعَــلُه مَوْعِظةً لمن يَعْدِل عن الصَّواب و يتَّبِـعُ هواه ؛ وٱشْدُدْ من المتصرِّفين علىٰ بابِ الحُكْم العزيز فى قَوْد أُبَاة الخُصُوم ، لِيُنْظَر بينهــم فيما ينتصِف به المَظْلوم من الظَّلُوم ؛ وتقدَّمْ بتوقِير الجَوامع وصِيانَتِها ، وحافِظْ علىٰ ماعاد ببهْجتها ونظَافَتِهـا ؛ وخُذِ المستخْدَمين فى الأرْباع بأن يتيَقَّظ كلٌّ منهم لمـا يجْرِى فى عَمَله ، وأن يكون كلُّ مايحدُث ويُنْهىٰ إليك من قِبَله ؛ وٱنظُرْ فى الصِّناعة المحروسة ، وفى عَمائر الأساطيلِ المظفَّرة المنصُوره ؛ وتوَفَّرْ علىٰ تدبير أمورها والاِهتِمام بشُئُونها ؛ وحِفْظ مافيها من الأخشاب ، والحَديد والعُدَد والآلاتِ والأسْباب ؛ وٱبعَثِ المستخْدَمين علىٰ المناصحة فيها ، وبَذْل الجُهْد فى قصد مصالحها وتوَخِّيها ؛ وأجرِ أمرَ هــذه الولاية علىٰ مايَشْهَد بحُسْن أثَرِك ، وجميلِ ذِكْرِك وطيِّب

خَبَرك؛ فاعلَمْ هذا وآعملْ به، وطالِـعْ مجلس النظر السيدىّ الأجَلّ بأمور خدْمتك، وما يَحْتاج إليه من جِهَتك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة سجِلٍّ بولاية الأعمال القُوصيَّة، وهى بعد التصدير :

أما بعدُ ، فإنَّ أميرَ المؤمنين لمَوْضِعه من خلافةِ الله التى أعْمَره إيَّاها ، وأنار بنَظَره مُحيَّاها، والإمامةِ التى أفْرَعه ذُرَاها، وناطَ به عُرَاها ؛ وما وَكَلَه إليـه من القِيـام ، بحِفْظ الإسـلام ، الذى رضيه دِينـا ، وألبسه بعدله تَحْسينا وبِذَبّه عنـه تَحْصينا ؛ وما آستَوْدَعه إيَّاه من جَوامع الحِكم ، وعدَقَه بكَفَالتِه من رعايةِ الأُمَم ، وعضَّـد به آراءَه من التأييدِ والتوفيق، وأوْجَبه من فَرْض طاعتِه علىٰ كلِّ مُطيق ـ يَصْطفى لمَعُونته علىٰ النُّهوض بمـا حَمَّله الله من أعْبـاء الأمَانه، والشُّـكْر علىٰ ما آختصَّـه به من الوَجَاهة عنْـده والمَكَانه ؛ ويَستكْفى فيما أُمِر به من إحسان الإيَالةِ فى برِيَّته ، ويَنْتخِب لتفويضِ أُمُورِهم والسُّلوكِ بهم مَسالكَ رأْفتِه فى سِيرتهـ مَنْ يكون آصطفاؤه لرِضا الله عنه مُطابِقا ، وآجْتِباؤه لشرائط المُراد والآقْتراح مُوافِقا ؛ وآنتصابُه للمهمَّات أفضَلَ مابُدِئ به وقُدِّم آعتمادُه ، وإسنادُ الأمرِ الجسيم إليه أوْفىٰ ماعَظُم بتدَبُّره شأنُه ورُفِع بنظَره عِمادُه ؛ وإنْ وُلِّى وِلايةً ، جعلها بمهابته حَرَما آمنًا علىٰ أهلها من المَخاوِف، وغَدا حُسْن سـيرته بُرهانا علىٰ فَضْـله يضْطَّر إلىٰ التصـديقِ به المُؤَالفُ والمُخالف ؛ وأعاد حميدُ أثرِه مَحْلَها ربيعًا مُمْرِعا ، وقرّبَ حسنُ ثنـائه من المطالب ما كان بعيدًا ممتنِعا ؛ وإنْ نُدب للجُلَّى ، عاد مظَفَّر المَقاصد ، محفُوفًا بالمَيَامن والمَسَاعد ؛ ساحبًا ذيْلَ الفَخْر ، حائزًا لِكُنوز الأجْر ؛ مستعينًا بتوحيده علىٰ العَدَد الجَمّ ، والعَسْكر الدَّهْم (١) .

(١) الدهم بفتح الدال الكثير أنظر اللسان ج ١٥ ص ١٠١ .

وإنَّ هذه الأوصافَ قد أصبحَتْ لك أيُّها الأميرُ أسامِيَ لم تَزِدْك معْرِفه، وخواصَّ المهِمَّات إلىٰ ملابَسـتِك إيَّاها متطلِّعةٌ متشوِّفه؛ وأفعالُك الحميدة قد بنَتْ لك بكلِّ رِيع منَـارا، وجعلتْ لك فى كل مَكْرُمة سِمَاتٍ وآثارا؛ وجميلَ رأْى أمير المؤمنين فيك، قد زادَ توفيقَ مَساعِيك؛ وضاعفَ ٱرتقـاءَ معالِيك، وجعـلَ الخِيَرةَ مقترنةً بمَقَاصدِك ومَرَاميك؛ وسَمَا بك إلىٰ رُتبة من الوَجَاهة تتذَبْذَبُ دُونَها مَطَارِحُ الهِمَم، وأحلَّكَ من الثِّقة بك منْزِلةً لاتُفْضِى إليها خواطِرُ الظِّنَن والتُّهَم؛ وتحقَّقَ من يَقِينك ومَضاءِ عَزِيمتك، وعدْلِ سِيرتك وصفاءِ سَرِيرتك، ماجَعل حظَّك عنده زائدَ النَّمَـاء، وذِكْرَك بحضرته مكنوفاً بالشكر والثَّناء؛ ووسائلَك إليه متقبَّلة؛ وقد أدْركتَ فى رَيِّق الشَّباب حَزامةَ الكُهُول، وٱستنْجحْت فى مَقاصدك بضميرٍ من الوَلَاء مأْهُول؛ ولك البيتُ الذى كَثُر فيــه الأمجادُ والأفاضل، وأحلَّك فى دَعَة الناس من يخافهم المُبارِى والمُناضل؛ وتساوَتْ فى ٱعتقاد تفضيلهم حالَتَا السِّرّ والجهر، وأُصْلِح بعَزائِمهم ماظهر من الفَساد فى البرِّ والبحر؛ وفُتَّ المَطامعَ بفضيلة هـذا النَّسَب وفضـيلة النفْس، ودلت مآثِرُك علىٰ ما ظَهَر من خصائصك دِلالةَ الفَجْر علىٰ الشَّمْس.

ولـمـا رآك أمير المؤمنين أهْلًا للعَوْن علىٰ ٱستيجابه لُطْفا لله عنده، وٱلتماسِ عوائد صُنْعه الجميل فيمن فارقَ سعْيَه ونَبذ عَهْده ـ ٱنتضىٰ منك حُساما حا سما للأَدْواء، معينا فى اللأْواء، طَبًّا بتأليف الأهْواء؛ لاينبُو غِرَارُه، ولا يُخشىٰ ٱغتِرارُه؛ ولا يُفَلُّ حَدُّه، ولا يُؤْويه غِمــدُه؛ فانحقنتِ الدِّماء، وسكَنتِ الدَّهْماء؛ وعَمّ الأَمْن، وعَظُم من الله تعالىٰ الطَّوْلُ والمَنّ؛ وأصبحَ مكانُ القول فيك ذا سَعَةٍ فَسِيحا، ولسانُ الإحماد لأفعالك مُنطلِقًا فَصيحا؛ وحصلْتَ من الوجاهة عند أمير المؤمنين بحيث [لاتأباك](١) رُتبةٌ خَطِيره، ولا تَنْأىٰ عنك بجانبها [منزلة] رفيعةٌ أثيره؛ بل غَدَتْ خواصُّها فيك

(١) فى الأصول بحيث قدرك رتبة الخ. تأمل.

لاستجزال حظّها من الجمال بك راغبه ، وممتنعاتُها لاستكرام الأكفاء طالبةً للإفضال بل خاطبَهْ ؛ إذ كان مايعْدَم التتمّة بك لايعـدَم شعَثا واختلالا ، وما حظِى منها بمقاربتك يَتيه زُهُوًّا بك واختيالا ؛ فإذا أراد أميرُ المؤمنين أن ينظُرَ إلىٰ عمل من أعمال مملكته ويرفعَ من محلّه ، ويُفيضَ عليه من سحائبِ رأفتِه ما يكون ماحيًا لآثارِ جَدْبه ومَحْله ؛ ويعمّ بالبركات أقطارَه ، ويبلّغَ كلًّا من أهله مآربَه من العدل وأوْطارَه ـ استندَ منك إلىٰ القوىّ الأمين ، والكاملِ الذى لايُخْدَع الظنُّ فيه ولا يَمِين ؛ إذا استُكْفِىَ أمرًا حمىٰ حماه بالماضيَيْنِ : حُسامِه واعتزامه ، وتمسّك فى حفظ نظامه بالحُسْنَيَيْن : طاعةِ الله وطاعةِ إمامه .

ولما كانتْ مدينةُ قُوصَ وأعمالها أمْدَىٰ أعمالِ المملَكة مَسافَه ، وأبعدَها من دار الخلافه ، وتشتمِلُ علىٰ كثيرٍ من أجناس الناس ، وأخلاطٍ يُحتاج فيهم إلىٰ إحسان السِّياسةِ والإيناس ، وعليه معَاجُ المسافرين من كلّ فَجٍّ عَميق ، وإليه يَقْصد الحُجَّاج إلىٰ بيتِ اللهِ العتيق ـ رأىٰ أميرُ المؤمنين وبالله توفيقُه أن يَرُدّ ولايةَ الحَرْب بها إليك ، ويُعوِّلَ فى تقويم مائدها وضَمِّ نَشَرها عليك ، وأن يَحْسِمَ بك داءَها ، ويُحَسِّنَ بنظَرك رُواءَها ، ويعُمَّ أهلَها بك رأفةً ومَنًّا ، فخرج أمرُه إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجلِّ [لك] بالولاية المذكورة .

فتقلَّدْ ماقلّدك أمير المؤمنين واعتمِدْ علىٰ تقوىٰ الله التى جعلها شرْطا فى الإيمان ، وأمَرَ باعتمادِها فى السِّرّ والإعلان ؛ فقال فى كتابه المبين : ﴿ واتّقُوا اللهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ﴾ .

وأْمُرْ بالمعْروف وانْهَ عن المنْكَر ، وابسُطْ عدلَ أميرالمؤمنين علىٰ البادين والحُضَّر ، وأقم الحُدودَ علىٰ من وجبت عليه بمقتضىٰ الكتاب والسُّنّه ، وقُمْ بما أمر الله به

من ذلك بأنفذ عَزْمٍ وأقوىٰ مُنَّـه ؛ وساوِ فى الحقّ بين الضعيف والقَوِىّ ، وآسِ بينَ العدُوّ والولِىّ [والذمى] والمِلِّىّ ؛ وآجعـل من تضُمُّه هـذه الولايةُ ساكنين فى كَنَف الوِقَايه ، مشمُولين بالصَّون والحِمَايه ؛ وليَكُنْ أَرَبُهم فى الصلاح من أَرَبِك ، فكلٌّ منهـم شاكرٌ لله علىٰ النعمة بِك ؛ وبُثَّ فى أقطارها ما يحجُزُ النفوسَ العـادِيَة عن التظالُم ، ويُعِيد شِيمَتَهم بعْـدَ العُدْوان مُخْلِدة إلىٰ التوادُع والتَّسالُم ؛ ومَنْ أقْدَم علىٰ كبائر الإجْرام ، ولم يتحرّجْ عن الدَّمِ الحرام ؛ فآمتثِلْ فيه ما أمر الله به فى قوله : ﴿إنَّمَـا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُـولَه ويَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ من خِلَافٍ أو يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَة عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

واعتمد المســتخْدَم فى الحكم العزيز والدَّعوة الهـادِيَّة ـ ثبتهما الله ـ بمـا يُقَوِّى عزْمَه ، ويَنفِّذ حُكْمَه ؛ وأجْزِلْ حظَّه من إعزاز الجانِب ، وتيسير المَطالِب ؛ وأحسِنْ إليــه العَوْنَ علىٰ صَوْن المؤمنين ، وآجتلابِ المستَخْبِثِين . والمستخْدَمون فى الأموال مِن مُشَارِفٍ وعامل وغيرهمـا فآنْدُبهم فى عِمَارة الأعمــال ، وبلّغهم فى المُرافدة كُنْهَ الآمال ؛ وآشدُدْ منهــم فى صَوْنِ الآرتفاع ، وحِفْظه من الإفراط والضَّياع ؛ وضافِرْهم علىٰ آستِخْراج الخَرَاج ، وخُذْهم بحَمْل المُعامَلِين علىٰ أعدَل مِنْهاج . والرجالُ العســكرِيَّة المركزية المستخْدَمون معك فآستخْدِمْهم فى الخِدَم السانِحه ، وصَرِّفهـم فى المُهِمَّات القريبــة والنازحه ؛ فمَنِ آســتقامَ علىٰ طريق الصواب ، أجريْتَ أمورَه علىٰ الآنتظامِ والآستتباب ؛ ومَنْ كان للإخلال آلِفـا ، وللواجب مُخالِفا ، قوّمْتَ بالتأديب أوَدَه ، وحَلَّأْته عن مَوْرِد الفساد الذى تَورَّده .

هذه دُرَر من الوصايا فآبعث (؟)[1] علىٰ إحضارِه الثقة بهدايتك إلىٰ كلِّ صَواب ،

(١) لعله بعث على اختصارها الثقة الخ تأمل .

وٱعْتلاقك من الديانة والأمانة بأوْثَق الأسباب؛ وإحاطةِ علم أميرالمؤمنين بٱستِغنائك بذاتِك، وكمالِ أدَوَاتك، عن الإيقاظِ والتنبيه، والإرشاد فيما تَنْظُر فيه؛ والله يوفِّقك إلىٰ ما يُرْضِــيه، ويجعل الخِيرةَ مكتنِفةً لمـا ترويه وتُمضِيه؛ فٱعلَمْ هــذا وٱعمل به إن شاء الله تعالىٰ.

✤
✤ ✤

وهذه نسخةُ سِجلٍّ بولاية الأعمال الغربِيَّة، وهي :

أما بعدُ، فإن أمير المؤمنين لِمَـا فضَّله الله به من إمامة البَشَر وشَرّفه، وأناله إيَّاه من الخلافة التي نَظَم بها عِقدَ الدين الحَنِيف وألَّفه؛ وأمضاه اللهُ له في أقطار البَسِيطةِ من الأوامر، ونَقَله إليــه من الخصائص النبوِيَّة التي تجمَّلَتْ بذكرها فُروقُ المَنابر؛ ومَكَّنه له من السلطان الذي تخْضَع له الجبابرةُ وتَدين، وعضَّده به من التأييد الذي أرْغَم المشرِكين وخَفَض مَنــارَ المُلْحِدين؛ وآثَره به من مَزايا التقديس والتمجيــد، وألْهمه إيَّاه من ٱستكمال السِّيرةِ التي أصبحَ الزمَنُ بجمالها حالِيَ الجِيد؛ وأنْجد به مُلْكَه من مُوالاة النصر ومُتابعة الإظفار، وحازه له من مَواريث النبوّة المنتقِلة إليه عن آبائه الأطهار؛ وٱصطفاه له من إيضاح سُبُل الهــدىٰ المعتاد، وألهمه إيَّاه من إسـباغ مَلَابس الرحمة علىٰ الحاضر من الأُمَم والْباد؛ ووَفَّر عليه ٱجتهادَه من ٱستِدْناء المصالح وٱجتِلابها، وصَرَف إليه هِمَمَه من تمهيد مسالك الأَمَنة وفَتْح أبوابهاـ يتصَفَّح أمور دولته تصَفُّح العانِي بتهذيبِ أحوالهــا، ويتفَقَّد أعمال مملكته تفقُّدا يُزِيل شَعَثها ويُؤَمِّن من ٱختلالها؛ ويَعْدِق المهمَّاتِ الخطيرةَ بالصدُور الأفاضل من أصفيائه، ويَزِيدُ في رفْع منازل أوليائه إلىٰ الغاية التي تَشهَد بجَلَالة مواضعهم من جميل آرائه؛ ويُفِيضُ عليهم من أنوار سـعادتِه مايظهَر سناه للأبصــار، ويمنَحُهم من ٱصطفائه مالايَزالُ دائمَ الثَّبات والٱسـتقرار؛ ويُعوِّل في صيانة الرعايا من المَضارّ؛ وحراسـةِ الأعمال المتميِّزة من عَيْث المفْسدين والدُّعَّار، علىٰ مـن تَرُوع مَهابتُــه ضوارِيَ

الآساد، وتكْفُل عزائمُه بقطع دابِر الفَساد ؛ ويُبْدِع فى السياسة الفاضلةِ ويُغْرِب ، وتُعجب أنباؤُه فى حسن التــدبير وتُطْرِب ؛ ويعُمُّ الرعايا بضُروب الدَّعَة والسُّكون، ويشْمَلُهم من الأَمَنة والطُّمأنينة بأنواعٍ وفُنُون ؛ وتقومُ كفايتُه بسَــدّ الخلَل وتقويم الأَوَد ، ويبلُغُ فى تيُّمنــه فى آكتساب المَحامد إلىٰ أقصىٰ غايةٍ وأبعــدِ أمَد ؛ ويُعْنىٰ بحفظ النَّواميس وإقامةِ القَوانين ، ويَدْأبُ فى آســتعمال السيرةِ الشاهدةِ له باستكمال الفضل المُبِين ؛ ولا يألُو جُهْدا فى تقريب الصَّلاح وآستِدْنائه ، ويقْصِد من الأفعال الجميلة ماتَلْهَج به الألْسُن بإطابة ثَنائه .

ولمَّــا كنتَ أيُّها الأميرُ نَجْمــا من نجوم الدين المُضيئة المشْرِقه ، وثمرةً من ثَمَرات دَوْحة العَلاء الزَّكِيَّة المُورقه ؛ وفَذًّا فى الفضائل البديعه، وفَرْدا فىالمَحاسن التى لم تَفُزْ بنظيرِ ذِكْرها أُذُنٌ سميعه؛ وسيفًا يحْسِم داءَ الفساد حَدّاه، وكافيًا لايتجاوَزُه الاقتراح ولا يَتَعدّاه؛ وماجدًا حازَ المَفاخِرَعن أهل بيته كابِرا عن كابِر، وعَلَما فى المـآثِر يهتَدى به الأعيانُ الأكابِر؛ وهُمامًا تملأ مهابَتُه القلوب ، وماضــيًا تلوذُ بمَضائه الأعمـالُ الخطيرةوتئُوب ؛وصَدْرا تُقِرّ له الرؤَساءُ بارتفاع المنْزِله ، ومُهذَّبا أغْرَتْه شِيَمُه الرضيَّة ببَثّ الإنصاف وبَسْط المَعْدِله ؛ وحازِمًا لايُخْشىٰ آختِداعُه وآغترِارُه، وعازمًا لايَكْهَم عزمُه ولا يَكِلُّ غِرارُه . وقد ألقَتْ إليكَ المناقبُ قِيادَها مُطيعه، وأحلَّتْك الرياسةُ فى أشْمَخِ ذِرْوة رَفِيعه؛ وتألَّفتْ عندك الفضائلُ تألُّفَ الجواهِر فىالعُقُود، وتكفَّلتْ لك مساعيكَ المحمودةُ بتضاعُف المَيَامن وترادُف السُّــعود؛ وتكاملتْ فيك الخِلالُ المطابِقــة لكَرَم أعراقِك، وآســتُعملت الأفعالُ الشاهدةُ بمبالغتك فى وَلاء أئمَّتِــك وإغْراقِك ؛ وحصــل لك من الآنْتِمـاء إلىٰ البيتِ الصالحى الكريم ماكَسَبك فخرا لايبْرَح ولايَرِيم؛ وخصَّك فىكلِّ زمن بمُضاعفة التفْخيم والتقدِيم؛ وأنالكَ من الإقبال غايةَ الرَّجاء، وجعل وَجاهتَك فسيحة الفناء، وسيعةَ الأرجاء . ولك المهابةُ التى تُغْنِى

غَناء الجُيوش المتكاثرةِ العَـدَد ، والشجاعة التى تُسَـلِّط قَوارِعَ الدَّمار علىٰ منْ كفَر وعنَد ، والعزمُ الذى ٱستمدّتِ السيوفُ الباترةُ من مَضَائه ، وعَزَّ جانبُ التوحيد بٱنْتِضائه لِجهاد أعداءِ الله وٱرْتِضائه ، والإقدامُ الذى تلُوذُ منه أُسُودُ الوقائع بالفِرار ، والبأسُ الذى لايعْصِم منه الهربُ ولا يُنَجِّى من بَوادره الحِذَار .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيُره ، وصائنُ مُلْكه وظهيرُه ، السيدُ الأجلُّ الذى (١) فأثنىٰ عليك ثَناءً طالَ وطاب ، وحَرَّر فى ذِكْر مَناقِبك ومَحاسِـنك القولَ والخطاب ، وذَكَر مالك [من الأعمـال] فى الأعمال الغَرْبيه ، التى أعادتِ الأَمَنةَ علىٰ الرعيه ، وما ٱستعمَلْت فيهم من السِّيرة العادله ، والسياساتِ الفاضـله ، وقرَّر لك الخدمةَ فى ولايةِ أعمال الغربيَّة ، ـ فخرج أمر أميرالمؤمنين إليه بأن يُوعِز إلىٰ ديوان الإنشاء بكتب هذا السجلِّ لك بالولاية المذكورة .

فتقلَّد ما قُلِّدته عاملاً بتقوىٰ الله سبحانه الذى إليـه تَصِيرُ الأمور ، ويعلَم خائنـةَ الأعيُن وما تُخْفِى الصُّدور ، وقال الله جلَّ من قائل فى كتابه المكنون : ﴿ إنَّ ٱللّٰهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ فاعْمُمْ بالعدل مَنْ تشتمِل عليه هذه الوِلايه ، وٱنتَهِ فى حِياطتهم وكَلاءتِهم إلىٰ الغايه ، وصُنْهم من كلِّ أذًى يُلِمُّ بساحتِهم ، وتوَفَّرْ علىٰ ماعاد باستِتْباب مصلَحَتِهم ، وٱخْصُص أهلَ السترِ والسلامة بمـا يُصْلِح أحوالَهم ، ويَشْرح صدُورَهم ويبْسُط آمالَهم ، وقابِلِ الأشرارَ منهم بمـا يُدَوِّخ شِرَّتهم ، ويُكُفُّ عن ذوى الخير مَضرّتَهم ، وٱشـدُدْ وطْأَتك علىٰ الدُّعَّار وأهل العِنـاد ، وتطَلَّبْهم حيثُ كانُوا من البلاد ، وٱقصِدْ حِمايةَ السُّـبُل والطُّرُقات ، وصُنْها من غوائل المُفْسِدين علىٰ ممرّ الأوْقات ، ومَنْ ظفِرتَ به من المُجْرمين فاجعَـلْه مُزْدَجَرا لأمثـاله ، وموعظةً لمن يسلك مَسْلكَ ضَلالِه ، والمُقْدِمون علىٰ سَفْك الدَّمِ الحرام ، والمرتكِبون لكبائر الذُّنوب

(١) بياض بالاصول .

والإجرام، فامتثِلْ فيهم ماأمر اللهُ تعالىٰ به فى كتابه الكريم، إذ يقول : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وأَجْزِلْ حظَّ التُّوّاب فى الحُكْم العزيزِ من عِنـايتك ، واجعَلْ لهم نصـيبًا وافرًا من آهتمامك ورِعايَتك، وعاضِدْهم علىٰ إقامة مَنـار الشرع، وأَجْرِ أحوالَهم علىٰ أجمل قضيَّة وأحسَنِ وضْع . والمستخدَمُون فى الأموال، تُشَدّ منهم شَدّا يبلِّغُهم الآمال ، ويقْضِى بترجيـة الآرتفاع وتَثْمِير الآسِتغْلال، وعاضدْهم علىٰ عِمـارة البِلاد، ووَازِرْهم علىٰ ماتكونُ به أحوالُها جارِيةً علىٰ الآطِّراد . والرجالُ المركزِيَّةُ والمُجرَّدون فاستنهضهم فى المهِمّات القريبـةِ والبَعيده ، وخُذْهم بلزوم المَنَاهج المستقيمةِ السَّـديده، وقابل الناهضَ منهم بمـا يستوجِبه لنَهْضَته ، وقَوِّم المقصِّر بمـا يُوزِع من يَسْـلُك مَسْلَكه ويقتفى طريقَته، فاعلَمْ هذا وآعمَلْ به وطالع، إن شاء الله تعالىٰ .

✦✦✦

وهـذه نسخةُ سِجِلٍّ بولاية ثغر الإسكندرية، كُتِب به لآبن مَصَّال، من إنشاء القاضى الفاضل، وهى :

أما بعـدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين لمـا أكرمهُ الله به من شَرَف المَنْصِب والنِّصاب ، وأجارَ العبادَ بآبائه الطاهرين من عِبـادة الأوثانِ والأَنْصاب ، وأَوْرَدَهم من مَوارِد حِكَمِه التى كُلُّ صادرٍ عن رِىِّ قلبه منها صَاد ، وسَخَّره بأمره من رِياح الصواب التى تَجْرِى بأَمْرِه رُخَاءً حَيْثُ أصاب، وأصْمىٰ بسهام عَزائِمه، من مَقَاتل الباطِل، وحَلّى بأنوارِ مكارِمه، من أجيادِ الأمانِىِّ العَوَاطل، وأنجزَه علىٰ يَدِ أياديه من وُعُود سُعودٍ تظَلُّ السُّحُب المَواطِرُ بمثلهـا هَوَاطل، وتوحَّده به من الإمامـةِ التى أعزَّ بها

أحزابَ التوحيد، وأجْراه من بَركاته التى لاتقول الآمالُ لهـا هَلْ من مَزِيد، وأَوْراه من فتَكاته التى لاتقول لهـا الآجالُ هلْ من مَحِيد، وأجدّبه من إرادته لأَزْمة الأيام فهى بين إنعامه وإسقامه تُفيد وتُبيد ؛ وأحدَثه له من مُعْجِزات التأييـد التى تملك أحاديثها رِقَّ التأبيد، وشرّف به قَدْره فى ملكُوت السموٰاتِ والأرض والملائكةُ له أنصـارٌ والملوكُ له عبيـد ؛ وألهمه من إيداع جَلىّ صـنائعه حيثُ لا يُنْكِرُ المقلّد ولا يُستَغْرب التقليـد ، وأنطقَ به لسانَ كرمه من بدائع إحسان تَرُوقُ بين التَّرديد والتوليد ـ ينظُر بنُور الله فيمن ينظُر به للجمهور، ويجلُو عقائلَ المَكارم علىٰ مَنْ هو ماهِرٌ فى تَقْدِمة المُهُور، ويُرْبِح الذين يرجُون بوَلَائه تجارةً لن تبُور ، ويقتَدِح الأنوارَ المُودَعة فى سَواد الشَّباب كما يُودَع فى سَواد العين بياضُ النُّور، ويرفَع رُتَب الأعيان حتّى إذا تَعـاطاها سِواهم ضُرِبَ بينـه وبينها بِسُور، وتَعُود أياديه إلىٰ بيوت النِّعَم فكلُّ بيتٍ تولَّاه كالبيت المعْمور ؛ ويُهْـدِى السرُورَ بهـم إلىٰ صُـدُور الثُّغور ، والابتِسامَ إلىٰ ثُغور الصُّدور ؛ ويرىٰ أنهم يستوجِبُون فواضِلَه ميراثا ، وإذا سُلِّمت إليهم أعِنَّةُ الوِلايات كانتْ لهم تُراثا ، وإذا تبوَّءُوا الرُّتب العلية كانت الرياسـةُ لهم دارا والسِّياسة أثاثا ؛ لا سِيَّما الصدرُ الذى عرفته السعادةُ لدولة أمير المؤمنين واحدا يجمعُ فضْلَ سَلَفه ، ونَدْبا ماعُرِضتْ عليه جَواهرُ الدّنيا فضْـلا عن أعْراضِها إلَّا ولَّاها عِطْفَ نَزاهته وظَلَفه ؛ وألْمعِيًّا تتناثَرُ معانِى المَعالِى من شمائله كما تَنْتثِر من غُصْن القَلَم ثِمـارُ أحْرُفه، وكُفْأً للصُّـدور من أنهضَـه بها بنَصِّ تكلُّفه أنهضه بها فضْلُ كَلَفه ؛ وقوّامًا بالأمور يَمْضِى عليهـا مَضاءَ النَّجْم فى بَحْرِ حِنْدِسـه لا السَّهمِ فى نَحْر هَـدَفه ، ومَلَّاكا للثُّغور إذا حلَّ منها فى إسكَنْدَرِيَّتها فهو علىٰ الحقيقـة نَجْمٌ حلَّ بُرْجَ شَرَفه ؛ وطَوْدا للوَقَار يعتَرِى الحلمُ منـه إلىٰ أقْومه لا إلىٰ أحْنَفه، وشَرْطا للاختيار، يكتفى مُصطَفيه منَّـةَ مُعرّفه ومَئُونة معنّفه ؛ ومعنًى للفخَار، لم ينتصِـفْ فيـه من لسان

واصـفه، مَسْمَعُ مستوْصِفه ، وعلَمـا للأنظار ، يبدُو لهم مَنارُ إشراقه ويخفىٰ عليهم منـالُ شَرَفه .

ولمّـا كنتَ أيُّها الأمير واسطةَ عِقْد هـذه الأوصاف الحُسْنىٰ ، ومُنْجِدَ ألفاظهـا من الحقيقةِ بالمعْنىٰ الأسْنىٰ ؛ المتوحِّدَ من الرياسة باسمٍ لا يجمَعُ بعـده ولا يُثَنّىٰ ، الجارِيَ إلىٰ غايةٍ من المجد لا يُردّ عنهـا عِنانُه ولا يثنىٰ ؛ الجديرَ إذا وُلِّيَ أن يُسْكِن الرعيَّةَ اليومَ عدْلا لا تَسْكنُه فى غدٍ عدْنا ؛ ويُنْجِز فيهـم وعدَ الله الصادقَ فى قوله : ﴿ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنا﴾ . المستبِدَّ بالحمد حتّىٰ آستقرّ فيما يفْعل وآستقرىٰ فيما يُكْنىٰ ؛ الثَّبْتَ الذى لا تقرَعُ الأهوالُ صَـفاتَه ، النّدْبَ الذى لا تبلُغ الأقوالُ صِفاتِه ، الولىَّ الذى لا تكدِّر الأحوالُ مُصافاتَه ؛ الجامعَ بينَ فضل السوابِق وفَضْل اللواحق ، المتجلِّيَ فى سماءِ الرِّياسة نَيِّرا لا تهتَضِمه صُروفُ الليالى المَواحِق ؛ المشكورَ الفَعَال لا بألْسِـنة الحقائبِ بل بألِسِـنة الحقائِق ، المسـتبِدَّ بالهِمَم الجلائلِ المدلولةِ علىٰ المَحَاسن الدقائِق ؛ المسـتمدَّ صَوْبَ الصواب من خاطرٍ غيرِ خاطل ، المستجدَّ ثَوْبَ الثواب بِسَعْيٍ ينْصُر الحقَّ علىٰ الباطل ؛ المستعدَّ لعُقَب الأيام بأقْرانٍ من الحزم تَثْنيها علىٰ الأعقاب ، المستردَّ بَمساعيه فوارِطَ محاسِنَ كانتْ مَطْوِيَّةً فى ضمائر الأَحْقاب ؛ السامِيَ بهمَّته ، إلىٰ حيثُ تتقاصَرُ النواظِرُ السَّوامى ، المُقَرْطِس بعزيمته ، حيثُ لاتبلغ الأيْدى الرَّوامِى ؛ المسـتقِلَّ بقَطِّ نَواجِم الخطوب وحَسْمِها ، المستقرَّ فى النفوس أنه يقُومُ فى ظُلَمِها مَقـام نَجْمِها ؛ المُطْلَقَ وجْها فلا غرْوَ أن تُجْلىٰ به الجُلَّىٰ ، المطلقَ وصْفا حسنًا فلا يعرِض له لوْلا ولا إلّا ؛ المؤيَّدَ العَزَمات ، فى صونِ ما يفوَّضُ إليه ويَليه ، المتَّقىٰ الوثَبات ، ممَّنْ يُجاوِرُه من الأعداء ويَليه ؛ المُحْيِيَ بمسعاه ماشاده أوْلُوه ، والمتوضِّحةَ فيه نصوصُ المجْـد الذى كانوا تأوَّلوه ؛ والآوِىَ إلىٰ بيتٍ تناسقَتْ فى عُقُوده الرؤساءُ الجِلَّه ، والطالعَ منه فى سماءٍ إذا غرَبَتْ منها البُدُورُ أشرقَتْ فيها الأهِلَّه .

ولقد زِدْتَ عليهم وما قَصَّرُوا زيادةَ أبيضِ الفجْرِ علىٰ أزْرقِه ، وكنتَ شاهدَ من يَرْوِى مناقِبَهم البديعه ، ودليلَ منِ ٱدَّعىٰ أن المَكَارم لكم مَلْكَةٌ وعند سِوَاكم وَدِيعه ؛ وقبِلتَ وصاياهم فى المعالِى فكأنما كانتْ لديْكم شَرِيعه ، ونَصَرتم الدولة العلويَّة فكنتم لهـا أمثَـلَ أولياءَ وأخصَّ شيعه ؛ وتجمَّلتْ أنسابُكم باصطناعها وكفا كم إن عُدِدتم لصنائع اللهِ صَنِيعه ، وأباحتْكُم من ٱصطفائها كلَّ درجةٍ علىٰ تعاطى الأطماع عليَّةٍ مَنِيعه ؛ وقدَّمتْكُم جيشَ بَرِّها وبَحْرِها ، وكان منكم سـيفُ جِهادها ونَجْمُ ليلها وفارسُ كَرِّها ؛ وصالتْ بكم علىٰ أعدائها كلَّ مَصَـال ، وأغْربتْ منْ يليهـا إلا إذا ٱسـتقرّتْ فى داركم إلىٰ مَصَّال ؛ وحينَ خرجْتَ منها خائفًا تترقَّب ، وأبقيتَ فيها حائفا يتعقَّب ؛ كنتَ الذهبَ المشهور ، الذى ما بَهْرجه الرَّغام ، والحَـرْفَ المجْهُور ، الذى ما أدْرجه الإدغام ؛ وكنتَ وإنْ كنت بينَ الكُفَّار ، عنهـم شديدَ النِّفار ، وحللْتَ فيهـم محلَّ مؤمنِ آل فِرْعونَ يدْعُوهم إلىٰ النجاة وإن دعَوْه إلىٰ النـار ؛ وعُدْتَ إلىٰ باب أمير المؤمنين عوْدَ الغائبِ إلىٰ رَحْله ، والآئبِ إلىٰ أهلِه ؛ وٱستقرَرْتَ به ٱسـتقرارَ الجوهرِ فى فَصْله ، والفَرْعِ فى أصْـلِه ؛ وأبان الاِستشفافُ عن جوهرِك الشَّفَّاف ، وخرجتَ من تلك الهَفَوات خروجَ الرياح لأُخْرُوج الكَفاف ؛ وأعربَتِ السـعادةُ إذ حيَّتْك بمَشِيبٍ أسْـوَد ، وتبِـعَ الأماجدُ غُبارَك الذى يُرْفَع من طريق السُّودَد ؛ وٱعتلقْتَ بعُروة الجِدّ ، فلَسْتَ من دَدٍ ولا منْك دَدْ ، وصَبرّت قلبَ العيشِ الأصفىٰ بعـدَ العيْش الأنكَد ؛ لاجرم أن أميرَ المؤمنين أنساكَ سيئةَ أمْسِـك بحسنةِ يومك ، وسَمَا بك إلىٰ أعلىٰ رُتَبِ الأولياء وأغناك عن تعرُّضِ سَوْمك ، وأنعَمَ بك علىٰ قومٍ ماعرَفُوا إلا رياسةَ قوْمك .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين أمينُ مملكته ، ويمينُ فَتْكتِه ؛ السيدُ الأجل الذى أتىٰ اللهُ به سَهْما إلىٰ مصْرَ وهى كَنانَتُه ؛ وأفرده بمزيَّة السـبْق فلا حظَّ لمُساجله إلا أن

تَدْمىٰ بنَانَتُه ، ورعىٰ الرعيَّة منه ناظرٌ لاتُلِمُّ بناظره مَراوِدُ الهُجُود ، وقام بالملك منه قائمٌ لايزالُ يُورِدُه مَوارِدَ الجُود ، وأغْنَتْه يدُ الغِلَاب عن لسان الخِلَاب ، ونال نادرة الأمَل فى نادرَةِ الطِّلَاب ، وجَمَّت فتكاتُه من الهَرَمين إلىٰ الحَرَمين ، وصَرَّف الرُّمح تصريفَ القَلَم وكأنه يصُولُ ويَصِلُّ بقلمين ، وردّ اللهُ به العدُوَّ منخَذِلا ، وطالما لَقِيـه فأقام مُنْجَدلا ، وأضحىٰ به ذيلُ النعمة منسَحبا وسِتْرُ الأَمَنة مُنْسدِلا ، ودَبَّر الأمورَ فأمسكها حازمًا وعَقَلَها متوكِّلا — فأَنْهىٰ مالسلَفِك عند الأئمة الخلفاء من مزيَّة الأصطفاء ، وما لَكَ فى نفْسِك من الحسَنات التى مابَرِحت بارحةَ الخَفَاء ، وما ٱطَّلَع عليـه من خِلالك التى ماأخلَّتْ بِمَنْقَبــه ، وأفعالك التى ماتغايرتْ فى يومٍ ذى نِعْمة ولا يومٍ ذى مَسْــغَبه ، وما لَكَ من وثائق العُقُود ، وما فيك من الأوصاف المؤكِّدة لعَلَائق السُّــعود ، وقرّرَ لك الخدمةَ فى كذا وكذا — خرج أمرُ أمير المؤمنين إليه بأن يُوعِزَ إلىٰ ديوان الإنشاء بكتْب هذا السجلّ لك بالخِدَم المذكورة وهى التى فُرِّقت لسَــلَفك وجُمِعتْ لديك ، كما أن محاسِنَهم المفتَرِقةَ منتظمةُ العقُود عليـك : ليُكَمِّل لك ولايَتَي الثغر والسيادةِ فى حال ، وليسُدَّ بك ثَغْر الجِهاد وثغر الإمحال ، ولتقومَ [فى هذا] مقامَ الجَحْفَــل الجرَّار وفى ذلك مَقامَ الحَيَا الهَطَّال . ولتكون فرائدُ الإنعام عنــدك تُؤاما(١) ، وليجعل ٱبتداءَ تصرُّفك لغيرك تَماما ، وليختصرَ لك طريقَ الكمال ، وليَجْرِي بك فى مَيْدان الشكر طلِيقَ الآمال .

فتقلَّد ماقُلِّدته منهما عاملا بتقوىٰ الله التى هى مصالحُ الأعمال ، ومَيدانُ الإتحاف والإجمال ، وسبَبُ النجاة فى الأبتداء وعندَ المآل ؛ قال الله سبحانه فى كتابه الذى لم يَجْعَلْ له عِوَجا : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجا ﴾ .

(١) جمع توأم . قال الأزهرى ومثــله غنم رباب وإبل ظؤار وهو من الجمع العزيز . انظر اللسان ج ١٤ ص ٣٣٨ .

وٱبسُط العدلَ علىٰ من يَحْوِيه هذا الثغرُ الذى هو ثغرُ الثُّغور الباسم، وأَوْلاها بأن تكون أيامُه بأوامر الله وأمر أمير المؤمنين موَاسِم؛ ففيه من صُدُور المحافل، وقلُوب الجَحافل؛ وعُيون المَدَارس، وأعيانِ الفَوَارس؛ وتُجَّار الدنيا والآخره، وأخيارِ الأمة المقيمةِ والمسافِره؛ ووُفُور مكارمِ عدلِ أمير المؤمنين التى هى بالرَّجاء واردة و بالرضا صادره، منْ يؤثر أن يكونَ فضلُ السُّكون لهم شاملا، ورداءُ الأَمْن عليهم سابِلا؛ وسَحابُ الإنعام عليهم هاطِلا، وحالُهم فى الآتِّساق لا متغيرًا ولا حائِلا. وساوِ فى الحق بينَ أبْعدهم وأقرَبِهم، ومقيمِهم ومتغرِّبهم؛ وٱعتمِدْ منهم منْ تقدّم ذكرُه بما يُرْهِف فى الطاعة خاطِرَه ويُشْحِذه، ويصُونُه من تحَيُّف الأيدى الجائرة ويُنْقِذُه؛ وٱخصُصِ العلماءَ بكرامة تُعينهم علىٰ التعليم، والأعْيانَ بمزِيَّة توُضِّح لهم ماهم من مَزِيَّة التقديم؛ وٱكفُفْ عوادِىَ أهل الشَّرَه والشرّ، وٱقْمَع غُلَواء من ٱعتزَّ بغير الله وٱغترّ؛ وتوَخَّهم بإقامة المَهَابة وبَسْطها، وكفِّ الشوكة وقَطِّها؛ وأْمُر بالمعروف وٱنْهَ عن المنكر، وأقم الحُدودَ إقامةَ من يُثابُ عليها ويُؤْجَر، وتفقَّدْها علىٰ حدِّها غيرَ داخل فى الأقلِّ ولا خارجٍ إلىٰ الأكثر؛ وأذْكِ العيونَ علىٰ منْ يُلِمُّ بسواحل الثغر من أُسْطول العدوّ اللعين ومراكبِه، وٱحجُزْ باليقظة بينَه وبينَ تَلْصِيص مَطَالبه، وأْمُرْ أهلَه بٱتخاذ الأسلحة التى يُعِزُّ الله بها جانبَه، ويُذِلُّ مجانبَه؛ وتُبلَغ العدوَّ اللعينَ من ذكرها مايُعمِلها وهى فى أيديهم موفَّره، ويَبْذُلها فى مَقَاتلهم وبيوتُهم بها معمَّره؛ قال الله سبحانه فى آياته المتلوّه : ﴿ وأعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوّه ﴾ .

وٱعتمِدْ للأعمال البحريَّة مثل ماتقدّم شرحُه من تأمين الأخيارِ وتَرْويع الأشرار، وتتبعِ كل مُرِيب مستخْفٍ بالليل وساربٍ بالنَّهار؛ ومن ظفرتَ به قد حاربَ الله فى أرضه، وصار قتْلُه من فَرْضه، فنَفِّذ حُكمَ الله فيه فى آية السيف وأمضِه؛ وٱدْعُ إلىٰ عمارة بلادها وتخَفُّرها، وتفَقُّد المصالح بها وتكَثُّرها؛ وإطابة أنفُس المزارعين

بمـا تخفّفه عنهم من وَطْأة كانتْ ثقيله، وتقلّله عنهم من مَغارِمَ لم تكُن قليله ؛ فمـا عَمَرت البلاد بمثل النزاهة التى هى شِيمتُك المعتاده، والمعْدَلة التى هى من خِلَالك مستَفاده ؛ وآعتمِدْ كُلًّا من النـائب فى الحكم العزيز والناظِرِ فى الدعوة الهـادِيَّة والمُشارف بالثغر والعُمَّال برعاية تحفَظ مَراتِبَهم، وتلْحَظ مَطالِبَهم ؛ وتُنفِّذ الأحكام، وتَبْلُغ بمـا ينظُرون فيه من المصالح غاياتِ التَّمام، وتُعزُّ طائفة الإيمان، وتُظهر عليهم أثَرَ الإحسان؛ وتستدرُّ حَلَب الأموال، وتستديمُ عمارةَ الأعمال؛ وتقْضى بمواصـلة الحمول وتحصيل الغِلَال ، وتعودُ بها عليك عوائدُ الأجْر والجَمَال ؛ ومثلُك آشتهارًا أيُّها الأميرُ مَنْ وُلِّى فلم تُطَل له الوصايَا التى يَحتاجُ إلىٰ إطالتها سِواه؛ ويُوثَق بما يُذكيه من عُيون حزمٍ غيرِ غَوَافِلَ ولاسَـوَاه؛ ويحقِّق أن تقواه رقيبُ سِرِّه ونَجْواه، وأن أميرَ وَرَعه يحكم علىٰ أسيرِ هَواه؛ والله سبحانه يجعل نعمةَ أمير المؤمنين لدَيْك مأمولةَ الدَّوام موصولةَ الحبل، ويُتِمُّها عليك كما أتمَّها علىٰ أبوَيْك من قَبْل؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وعلىٰ هـذا النمط كانت سجلَّات سائر ولايات أعمـال الديار المصرية ، فكانت تُكتَب علىٰ نظير ذٰلك فى الوجه القبـلىّ ولايةُ الجيزيَّة، وولايةُ الإطْفِيحيَّة، وولاية البَهْنَساويَّة، وولاية البُوصِـيريّة، وولاية الأُشْمُونين والطَّحاوِيَّة، وولاية السُّـيُوطية ، وولاية الإخْميميَّـة ، وولاية الفَيُّوم، وولاية واحِ البَهْنَسا ، وولاية الواحِ الداخلة ، وولاية الواحِ الخارجةِ . ومن الوجه البحرىّ ولايةُ القَلْيُوبيـة ، وولاية مُنْيـة تردى وهى مُنْية غَمْر، ووِلَاية المُرْتاحية، وولاية الدَّقَهْليـة ، وولاية مدينة تِنِّيس ــ وبها كانتْ دار الطِّراز ــ وولاية المَنُوفيَّـة ، وولاية جزيرة بنى نَصْر وربمـا أضيفَتْ إلىٰ المَنُوفية وعُبِّر عنهما بالمَنُوفيَّتين، وولاية جزيرة قُوْسينيًا ، وولاية البُحَيرة ، وولاية ثَغر رشـيدِ المحروس، وولاية ثغر نَسْتَراوه ، وولاية ثَغر دِمْيـاط ، وولاية الفَرَما، بساحل الشامى فيما دُونَ العَرِيش .

وأما البلاد الشاميَّة فقد تقدّم أنهـا كانتْ خرجتْ عنهم وتملَّكت الفَرَنْج غالبَ سواحل الشام، ولم يبقَ معهم إلا ساحلُ عَسْقلان وماقاربَه وكان مقرُّ الولاية بهـا فى عَسْقلان .

وهذه نسخة سجل بولايتها، وهى :

أما بعـدُ ، فإنَّ أولىٰ ما وَفَّر أميرُ المؤمنين حظَّه من العنـاية والآشتمال ، وآعتقد العُكُوفَ علىٰ مَصالحه من أشْرَف القُرُبات وأفضل الأعْمال ؛ وأسندَ أمرَه إلىٰ من يستَظْهِر علىٰ الأسباب المُعْيِية بحُسْن صَبْره، وعَدَقَ النظر فيه بمن لا يُشْكِل عليه أمْرٌ لَمضائه ونَفَاذه ومعرِفتـه وخُبْره، ما كان حِرْزا للُمرابطين ومَعْقِلا ، وملتَحَدا للمجاهدين ومَوْئِلا ، ومُوجِبا لكلّ مجتهِد أن يكون لدَرجات الثواب مرتقياً متوقِّلا ؛ عَمَلا بالحَوْطة للإسلام الذى جعله الله فى كَفَـالته وضَمَانه، وتمـادياً علىٰ سياستِه التى أقرّ بفضلها إقرارَ الضرورة كافَّةُ مُلوكِ زمانه؛ وحِرْصا علىٰ الأفعال التى لم يزَلْ مقصودا فيهـا بألطاف الله تعـالىٰ وتوفيقِه، وتبَتُّلا للأمور التى أرشده اللهُ سبحانه فى تدبيرها إلىٰ مَنْهَـج الصواب وطريقِـه ، ومضاعفَةً من الحسنات عند أوليـائه أهل الحق وحِزْبه وفريقِه .

ولمـا كانت مدينةُ عَسْقلان ــ حماها الله تعالىٰ ــ غُرّةً فى بَهيم الضَّلال والكُفْر، وحَرَما يمتـازُ عن البلاد التى كَلَّمها الشِّرْك بالنابِ والظُّفْر؛ وهو من أشرَف الثُّغور والحُصُون، وأهلُه أنصارُ الدّين القيِّم المحفوظ المَصُون؛ وكنتَ أيُّها الأمير من أعيان أُمَراء الدولة وكُبرائهم، ووُجوهِ أفاضلهم ورُؤَسائهم؛ ولك فى الطاعة آسترْسالُ الأَمْن فى مَواطِن المَخاوف ، وفى الذَّبّ عنهـا وحمايتها مواقفُ كريمةٌ لا تُوازىٰ بالمَواقف ؛ وقد وصلْتَ فى وَلَائهـا القديمَ بالحديث والتـالدَ بالطريف ؛ وحينَ وُلِّيتَ مهمَّاتٍ

آستَنْجِد فيها بعَزْمك، وآستعين عليها بحَزْمك؛ تهيَّب الأعداء فيها ذِكْرَ آسمك، وكان من آثارك فيهـا ماشُهِر غُفْلُها(١) بوَسْمك؛ فلا يُباريك مُبارٍ إلا أربَيْت عليـه وزِدْت، ولا يُناويك مُناوٍ إلا أنسيتَ ذكْرَه أو كِدْت؛ فكم لك من مقـامٍ محمودٍ يَسِير ثناؤُه ووصفُه، وكم لك من ذكرٍ جميـل يفُوح أرَجُه ويتضوّع عَرْفُه، وكم لك من مَجَالٍ فى المشايَعةِ لا يقصُر أمدُه ولا يكبُو طِرْفُه؛ والسـيد الأجلُّ الأفضلُ الذى عظَّم الله قدرَه ورفع مجْدَه، وجعله فى الغَضَب لتوحيده دُونَ جميع البريَّة أُمَّةً وحدَه؛ وألهمه التجرُّد لنُصرة الإيمـان فقام بحقِّ الله لمـَّا غفَل الملوكُ وقعَدُوا، وأمدّه بموادّ السعدِ فآستيْقظ بمُفْرده حين نامُوا عن آستخلاصِه ممـا عَرَاه ورقَدُوا؛ وأضحىٰ آنتصابُه آيةً أظهرها الله لله، وغدا آنتصارُه مُعْجزةً حسَم بها فى رفع مَنَار الدِّين كُلَّ عِله؛ فهِمَّته مصروفةٌ علىٰ ما يُعزُّ الشريعـة الحنيفيه، وعَزْمته موقوفةٌ علىٰ الدّفع عنهـا بأطراف الذَّوابل وحدّ المَشْرَفيّـه؛ فبلَّغه الله فى كلِّ ما يحاوله ما يُضاعف فَخْرَه، وأعانه علىٰ مايقدّمه لمَعَاده ويجعله فى الآخرة ذُخْره؛ بحوله ومَنِّه، وطَوْله وفضله.

فلا يزال هذا السيدُ الأجل يُثْنى عليك ثناءً يخلِّد لك ولعَقِبك مَجْدًا باقيا، ويحبُوك من الوصف والإطراءِ بمـا يجعلُك فى مراتب الوَجاهة والنَّباهة ساميًا راقِيا؛ ويُرشِّحك من الخِدَم لأجلِّها قَدْرا، ويُطْلِع منك فى آفاق سمائها بَدْرا، ويجعلُ لك بما يؤهِّلك له صِيتًا ويُسَيِّر لك ذِكْرا؛ وحين جدّد شُكْرك، وأوصل علىٰ عادته ما يُشَيِّد أمْرك؛ قرّر لك ولاية «ثغر عَسْـقلان» ـ حماه الله تعـالىٰ ـ الذى هو ثَغْر الدّين، وكِنَانةُ الموحِّدين، ووَزَرُ الأتقياء المجاهِدين، وشجًى فى صـدُور الكَفَرة المعانِدين؛ فأمضىٰ أمير المؤمنين ماراه من هذا التقرير، وعلِمَ أن البركة مضمونةٌ فيما يتكلَّفه من التدبير؛

---

(١) الغُفْل بالضم مالا علامة فيه من القداح والطرق وغيرها ومالاسمة عليه من الدواب . انظر القاموس .

وخرج أمرُه إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجل بتقليدك ولايةَ هذا الثغر المحروس وعَمَلِه، وما هو منتظم معه من سَهْله وجَبَله .

فاعْرِف قدْرَ هذه النعمة التى رفعَتْك علىٰ جميع الأُمَراء، وأغناك فيها حُسْن رأى أمير المؤمنين ووزيرِه السيدِ الأجلِّ الأفضلِ عن الوسائط والسُّفَراء ؛ وأحلَّتْك أعلىٰ مراتبِ الرِّفعة والسُّمُوّ، وأحْظَتْك مع بُعْد الدّار بمزِيَّة القُرْب من قَلْبيْهما والدُّنُوّ .

فتقلَّدْ ما قلَّدك أمير المؤمنين من هـذه الوِلاية الشامخةِ المَحَلّ ، التى غَدَا محظُورُها علىٰ غيرك من المُبَاح لك المُحَلّ ؛ وتلَقَّها من الشكر بمـا يجعلُها إليك آوِيَه ، ولدَيْك مقيمةً ثاوِيَه ؛ وٱعمَلْ فيهـا بتقْوىٰ الله التى إذا أظلمتِ الخطوبُ طلعَتْ فى ليلهـا فجرا، قال الله عز من قائل : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ .

وٱشمَلْ أهلَ هذه الولاية بالمُماثلة بينهم فيما كان حَقّا، ولا تجعَلْ بين الشريف والمشروفِ فى الواجب فَرْقا ؛ وأْمُر بالمعروف وٱبعثْ عليـه، وٱنْهَ عن المُنْكَر وٱمنَع من الإجْراء إليـه ؛ وأقِم الحدود مستَمِرّا فى إقامتهـا علىٰ العاده، ومتوَقِّيا من نقص مايُؤْمَر به منها أو زِياده؛ وٱصرِف النصيبَ الأجْزَل، الأوفَرَ الأكمل، إلىٰ الاستيقاظ للعَدُوّ المخذُول المجاورِ لك والبحثِ عن أخبـاره وعَمَل المَكايِد له ، ومواصلته بمـا يُدِيم مخافَتَـه ووَجَلَه ؛ وٱغْزُه فى عُقْر داره ، وٱقصِدْه بمـا يقضى بخَفْض مَنَـاره ؛ ولاتُهمِل تسييرَ السَّرايا إليه ، وإطْلاعَ الطلائع بالمَكارِه عليه ؛ وٱعتمِدْه بمـا يُشَرِّد عنـه لَذيذَ مَنامه، وٱزْرَعْ فى قلبه خوْفا يهـابُك به فى يقَظَته وفى أحلامه . وٱفعَـلْ فى أمر من يجرِّدُ إليك من عسكر البدَل المنصورِ فى تقريرِ نُوَب المَنَاسر، ولتتخيرَّ لهـا كلَّ متوَثِّب علىٰ الإقدام مُتجاسِر، ماتقتضيه الحالُ مما أنتَ [أ]قوم لمعرفته، وأهدىٰ النـاس فى سبيله ومَحجَّتـه . ووفِّرْ حظَّ القاضى المَكينِ متولِّى الحكْم والمشارفة من

إعْزازك وإكرامك ، وآشتمـالك وآهتمامك ، ورعايتك ومعاضـدَتك ، والعـمل فى ذلك بمـا هو معروفٌ من سياستِك، ومشهورٌ من رِياستك ؛ وكذلك المستـخْدَم فى الدَّعوة الهاديَّة ثبتها الله تعـالىٰ ، فاعتمِدْه بمـا يُعِزُّ أمره ، ويبسُط أملَه ويشْرَح صدْرَه . وضافِرْ علىٰ أمر المال ، ووُفور الاَستِغْلال ؛ والعملِ من ذٰلك بمـا فيه أكبَرُ حظٍّ للديوان . وآجْرِ علىٰ ماهو مشهورٌ عنك فى وِلَايتك من حُسْن السياسة ، والعملِ بقَضَايا المصلحة ، والتبتُّل لما تستقيمُ به أمورُ الخَدَمة ، وحفظ أهلِ السلامة وأربابِ الدين ، وإعمال السيف فى مستـوجِبيه من المفسِدين والمتمرّدين ، ممـا أنت أنفَـذُ الوُلاة فيه ، وأعلمُهم بما يوجِبُه الصوابُ ويقتضِيه ؛ فاعلَمْ هذا وآعمَلْ به ، وطالِـعْ مجلس النظر بمـا تجب المطالعةُ بمثله ؛ إن شاء الله تعالىٰ (١) .

المـــــذهب الثـانى (٢)

(أن يفتَتح مايُكْتب فى الولاية بلفظ « هـذا ماعَهِد عبدُ الله ووليُّه فلان أبو فلان ، الإمامُ الفلانىُّ أميرالمؤمنين ، لفلان الفلانىِّ حينَ وَلَّاه كَيْتَ وكَيْتَ » من غير تعرّضٍ لتحميد فى أوّل مايُكْتَب ولا فى أثنـائه ؛ ثم يقال : « أمره بكذا وأمره بكذا » علىٰ قاعدة ما كان يكتَب فى العهود بديوان الخلافة ببغداد ، وهو قليل الاَستعمالِ عندهم للغاية القُصْوىٰ ، ولم أظْفَر منه بغير هذا العهد)

وهذه نسخةُ عهْد علىٰ هذه الطريقة ، كُتِب به عن الحاكم بأمر الله الفاطمىّ ، للحسـين بن علىّ بن النُّعمان ، بقضاء الديار المصرية وأجنادِ الشام وبلادِ المَغْرِب ، مضافًا إلىٰ ذلك النظرُ فى دُور الضرب والعِيار وأمْرُ الجوامع والمساجد ، وهو :

---

(١) فى بعض النسخ هنا زيادة نصها «وأما الوظائف الدينية فنها» ثم ترك بياضا بقدر نصف صفحة .

(٢) وقع فى الأصول الضرب الثانى وهو سهو من الناسخ .

هذا ما عهِد عبدُالله ووليُّه المنصورُ أبو علىّ الحاكمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين، للقاضى حُسَين بن علىّ بن النُّعمان حينَ وَلّاه الحكْمَ بالمُعِزِّيَّة القاهرة ومصرَ، والإسكندرية وأعمالها، والحرمَيْن حرسهما الله تعالىٰ، وأجنادِ الشام، وأعمال المَغْرِب، وإعلاء المَنَابر، وأئمَّة المساجد الجامعة، والقَوَمة عليها والمؤذِّنين بها، وسائرَ المتصرِّفين فيها وفى غيرها من المساجد، والنظرَ فى مصالحها جميعا، ومشارفَةَ دار الضَّرْب وعِيارِ الذهب والفِضَّة، مع ما آعتمده أميرُ المؤمنين وآنتحاه، وقصده وتوخَّاه: من آقتفائه لآثارِه، وآنتهائه إلىٰ إيثارِه، فى كلِّ عِليَّة للدولة يَنْشُرها ويُحْيِيها، ودنِيَّةٍ من أهل القبلة يَدْثُرها ويُعَفِّيها، وما التوفيقُ إلا بالله ولىِّ أمير المؤمنين عليه توكُّله فى الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلَّده إيَّاه، من أمورهم وولَّاه .

أمره أن يتَّقِيَ الله عز وجلَّ حقَّ التقوىٰ، فى السِّر والجهر والنَّجْوىٰ؛ ويعتصِمَ بالثَّبات واليقين والنُّهىٰ، وينْفَصِم من الشُّبُهات والشكوك والهَوىٰ: فإنَّ تقوىٰ الله تبارك وتعالىٰ مَوْئِلٌ لمن وَأَلَ إليها حصين، ومَعْقِل لمن آقتفاها أمِين، ومُعوَّل لمن عوَّل عليها مَكِين؛ ووَصيَّةُ الله التى أشاد بفضلها، وزاد فى سَناها بما عهد أنه من أهْلِها، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين ﴾ .

وأمره أنْ لا يُنْزِل ماولَّاه أميرُ المؤمنين [إيَّاه] من الأحكام فى الدِّماء والأَشعار والأبشار، والفُروج والأمْوال، [عن] منْزِلته العظمىٰ من حُقُوق الله المحرَّمه، وحُرُماته المعظَّمه، وبيِّناته المبيَّنة فى آياته المُحْكَمه؛ وأن يجعل كتابَ الله عز وجلَّ وسنَّةَ جدّنا محمدٍ خاتَم الأنبياء، والمأثُورَ عن أبينا علىّ سيد الأوصياء، وآبائنا الأئمة النُّجباء ـ صلَّى الله علىٰ رسوله وعليهم ـ قِبلةً لوَجْهه إليها يتوجَّه، وعليها يكون المتَّجه (١) . فيحكم

(١) فى الأصل « إلينا يتوجه وعليها لا يكون متجه » وهو غير مستقيم . تأمل .

بالحق ويقضى بالقسط، ولا يحكّم الهوى على العقل، ولا القسط على العدل، إيثارًا لأمر الله عز وجلّ حيث يقول : ﴿ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

وأمره أن يُقابِل مارَسَمه أميرُ المؤمنين وحدّه لفَتَاه برْجَوان، من إعْزازه والشّد على يدِه، وتنفيذِ أحكامه وأقضيتِه، والقَصْر من عِنَان كلِّ متطاولٍ على الحُكْم، والقَبْض من شكَائمه، بالحق المفترَض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه : من تَرْك المجاملة فيه، والمُحاباة لِذى رَحِم وقُرْبى، ووَلِيٍّ للدولة أو مَوْلى؛ فالحُكْم لله ولخليفته فى أرضه، والمستكينُ له لحكم الله وحكم وَلِيِّـه يستكين، والمتطاولُ عليه، والمباين للإجابة إليه، حقيقٌ بالإذالة والنُّهوض؛ فليتق الله أن يستَحْيِيَ من أحد فى حق له : ﴿ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ .

وأمره أن يجعلَ جلوسَه للحكم فى المواضع الضاحِيَة للمتحاكمين ويَرْفَع عنهم حِجَابه، ويفتَح لهم أبوابه، ويُحْسِن لهم ٱنتصابَه، ويَقْسِمَ بينهم لحظَه ولفظَه قِسمةً لا يُحابِى فيها قويًّا لقُوّته، ولا يُرْدى فيها ضعيفًا لضَعْفه، بل يميلُ مع الحقِّ ويجنَح إلى جهته، ولايكونُ إلا معَ الحقِّ وفى كَفَّته، ويذكُرُ بموقف الخصوم ومحاباتهم بينَ يديه موْقفَه ومحاباتَه بين يدى الحَكَم العدل الدّيان : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه ﴾ .

وأمره أن يُنْعِم النظرَ فى الشُّهود الذين إليهم يَرْجِع وبهم يَقْطَع فى مَنافذ القضايا ومَقَاطع الأحكام، ويستشِفَّ أحوالهم ٱستِشْفافا شافيا، ويتعرَّف دخائلَهم

تعرُّفا كافِيـا ، ويسألَ عن مذَاهبهـم وتقلُّبِهـم فى سرهم وجهرِهم ، والجلىّ والخفىّ من أمورهم ؛ فمن وجده منهـم فى العَدَالة والأمانه ، والنَّزاهة والصِّـيانه ، وتحرِّى الصِّـدق ، والشهـادةِ بالحق ، علىٰ الشِّيمة الحُسْنىٰ ، والطريقـة المُثلىٰ ، [أبقاه] وإلا كان بالإسقاط للشهادة أَوْلىٰ . وأن يُطالِـعَ حضرة أمير المؤمنـين بمـا يبدُو له فيمن يعـدّله أو يردُّ شهادتَه ولا يقْبَله : ليكونَ فى الأمرين علىٰ مايَحُدّ له ويمثِّـلُه ، ويَأْمَن فيما هذه سبيلُه كلَّ خَلَل يدخُله ؛ إذ كانت الشهادةُ أُسَّ الأحكام ، وإليهـا يرجع الحُكَّام ، والنظرُ فيمن يؤهَّل لها أحقُّ شيء بالإحكام ؛ قال الله تقدّست أسمـاؤه : ﴿ يٰأَيُّهـا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قوَّامينَ بِالقِسْـطِ شُهَداءَ لِلهِ وَلَوْ علىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ والْأَقْرَبِين ﴾ . وقال تعـالىٰ : ﴿ وَالَّذينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ .

وأمره أن يعمَل بأمْثِلة أمير المؤمنين له فيمن يَلِى أموالَ الأيتـامِ والوَصايَا وأُولِى الخَـلَل فى عقُولهم ، والعجْزِ عن القيام بأموالهم ؛ حتى يجوز أمْرُها علىٰ مايَرْضَى الله ووليُّه : من حِياطتها وصِيانتها من الأُمَناء عليها ، وحفْظِهم لهـا ، ولَفْظهم لمـا يحرم ولايحلُّ أكْلُه منها ؛ فيتَبوأ عنـدَ الله بُعْـدا ومَقْتا ، آكلُ الحرامِ والمُوكِلُ له سُحْتا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَموالَ اليَتامىٰ ظُلْمًـا إنَّمـا يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نَارًا وسَيَصْلَوْنَ سَعِيرا ﴾ .

وأمره أن يُشارِفَ أئمـةَ المساجد والقَومةَ عليها ، والخُطبـاءَ بها والمؤذِّنين فيها ، وسائرَ المتصرِّفين فى مَصالحها ، مشارَفةً لايدخُل معها خَللٌ فى شيء يلزم مثلهُ : من تطهير ساحتِها وأفنيتِها ، والاِستبدالِ بمـا تبدَّل من حُصُرها فى أحيانها ، وعِمارتِها (١) بالمصابيح

(١) الأولىٰ "وإضاءتها" كما لايخفىٰ .

فى أوقاتها، والإنذارِ بالصّلوات فى ساعاتِها، وإقامتِها لأوقاتها، وتوفِيَتها حقَّ رُكوعها وسُجودها، مع المحافظة عَلىٰ رُسُومها وحدُودها، من غير آخْتِراع ولا آخْتِلاع لشىءٍ منها: ﴿ إنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ علىٰ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتا ﴾.

وأمره أن يَرْعىٰ دارَ الضَّرب وعِيارَ الذهب والفِضَّة بثقات يحتاطُون عليهما من كل لَبْس، ولا يمكِّنون المتصرِّفين فيهما من سبَبٍ يُدْخِل علىٰ المُعاملِين بهما شَيْئا من الوَكْس؛ إذْ كان بالعَيْن والوَرِق تُتَناول الرِّباع، والضِّياع والمَتَاع؛ ويُبْتاع الرقيق، وتنعقِدُ المناكِح وتُتَقاضىٰ الحُقوق؛ فدُخُول الغِش والدَّخَل فيما هــذه سبيلُه جُرحةٌ للدِّين، وضررٌ علىٰ المسلمين؛ يتَبَرَّأ إلىٰ الله منهما أميرُ المؤمنين.

وأمره أنْ يســتعينَ علىٰ أعمال الأمصار التى لا يُمكِنه أن يشاهِدَها بأفضلِ وأعلم وأرشــد وأعمَدِ من تُمْكِنه الآستعانةُ به علىٰ ما طَوَّقه أميرُ المؤمنين فى آستعماله. قال الله عزّ وجل: ﴿ إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلىٰ السَّمٰواتِ والْأَرْضِ وَالْجَبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إنَّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولا ﴾.

هذا ماعهِد أميرُ المؤمنين فأَوْفِ بعَهْده، تَهْتِد بهَدْيه، وترْشُدْ بُرْشْده؛ وهذا أوّلُ إمرة أمّرها لك فاعمَلْ بهــا، وحاسِبْ نفسَك قَبْــل حسابِها؛ ولا تدَعْ من عاجل النظَر لهــا أن تَنْظُر لِمَآبها: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وتُوَفّىٰ كُلُّ نَفْس ماعَمِلتْ وَهُمْ لايُظْلَمُون ﴾.

وكتب فى يوم الأحد لسبع ليال بَقِين من صفر سنة ٣٨٩.

المـــذهب الثـالث
من مذاهب كُتّاب الدولة الفاطميّـــة

(أن يُفْتَتح ما يُكتَب فى الولايات بخطبة مبتدأةٍ بالحمدُ لله كما يكتب فى أعلىٰ الولايات فى زماننا ، ويقال : « يحمَدُه أمير المؤمنين علىٰ كذا وكذا ، ويسأله أن يصلِّى علىٰ محمد وآله ، وعلىٰ جدّه علىّ بن أبى طالب» ثم يقال : «وإنَّ أمير المؤمنين لم يزل يَنْظُر فيمَنْ يصلُح لهذه الولاية ، وإنه لم يجِدْ من هو كُفُؤ لها غير المولّٰى ، وإنه ولّاه تلك الوظيفة» ثم يُوصّٰى بما يليق به من الوصية ؛ ثم يقال : «هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجّتُه عليك ، فاعمل به » أو نحو ذلك ممـا يُعطى هـذا المعنىٰ)

وقد أورد علىّ بن خَلَف من إنشائه فى كتابه " موادّ البيان " المؤلَّف فى ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية عِدّةَ تقاليدَ لأرباب السُّيوف .

منها — تقليد فى رسم مايُكتَب للوزير، [وهو] :

الحمـدُ لله المنفردِ بالملَكُوت والسـلطان، المستغْنِى عن الوُزَراء والأَعْوان ، خالقِ الخَلْق بلا ظَهِير، ومُصوِّرِهم فى أحسَنِ تَصْوير ، الذى دبَّر فأتقَن التدبير ، وعَلَا عن المُكَلِّف والمُشير ، المانِّ علىٰ عباده بأن جعلهم بالتوَازُر إخْوانا ، وبالتظافُر أعْوانا ، وأفقر بعضَهم إلىٰ بعض فى ٱنتظامِ أُمورهم ، وصلاحِ جُمْهورِهم .

يحمَدُه أمير المؤمنين أنِ ٱستخْلفه فى الأرض ، وناطَ به أسـبابَ البَرْم والنقض ، وٱسترعاه علىٰ بَرِيّته ، وٱستخلصه لِخلافته ، وقيّضه لإعْزاز الإسلام ، وحياطةِ الأنَام ، وإقامةِ الحُدُود وتنفيذِ الأحكام ؛ ويسألُه الصلاةَ علىٰ سـيدنا محمد خاتَمِ الأنبيـاء ، وخِيرةِ الأصفِياء ، المؤيَّدِ بأفضـل الظُّهَراء ، وأكمل الوُزَراء : علىِّ بنِ أبى طالب المتكفِّل فى حياته ، بنَصْره وإظهار شريعتِه ، والقائم بعد وَفَاته ، مقَـامَه فى أُمّته ؛

صلّى الله عليهما، وعلى الأئمة من ذرّيتهما، مفاتيح الحقائق، ومصابيح الخلائق؛ وسلّم، وشرّف وكرّم.

وإنّ الله تعالى نظر لخلقه بعين رحمتـه، وخصّ كُلًّا منهـم بضَرْب من ضُروب نعمته، وأقْدرَهم بالتعاضُد، على آنتظام أُمورهم الوُجودِيه، وأوْجدهم السُّبُل بالترافُدِ، إلى آسـتقامة شُـؤونِهم الدُّنْيويه: لتنْبجِسَ عيونُ المَعَاوِن بتوازُرِهم، وتَدِرّ أخلافُ المَرافِق بتظافُرِهم.

وأَوْلى النـاس باتّخاذ الوُزَراء، وآســتخلاص الظُّهَراء، من جعله اللهُ تعالى إلى حقّه داعيا، ولخلْقِه راعِيا؛ ولدار الإسلامِ حامِيا، وعن حِماه مُرامِيًا، وآستخلفه على الدّنيا وكلّفه سياسةَ المسلمين والمُعاهَدين، ولذٰلك سأل موسى عليه السلامُ وهو القَوِيّ الأمِين، فى آستخلاصِ أخيه هارُونَ لوِزَارته، وشدّ أزْره بمُوازَرتِه، فقال: ﴿ وآجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي آشْدُدْ به أَزْرِى﴾. وآستوزر محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو المؤيَّد المعصومُ الذى لاينْطِق عن الهوى آبنَ عمه عليًّا سيدَ الأوصياء؛ بدليل قوله له: «أنْتَ مِنِّى كَهارُونَ من مُوسٰى إلّا أنّه لا نَبِيَّ بَعْـدِى» لأن الإمام لو تولّى كلَّ ماقرُب وبعُد بنفسه، وعوّل فى حِيطَتِه على حواسّه؛ لنصّ ذٰلك بتطرّق الخَلَل، ودخول الوَهْن والشَّلَل؛ وإنمـا تسـتعينُ الأئمـةُ على ما كفّلها الله بكُفَاة الأعوان، وأهلِ النُّصْرة فى الأديان؛ وذَوِى الآسـتقلالِ والتشمير، والمعرفةِ بوُجوه السياسة والتدبِير، والخِبْرة بَمجارى الأعمال، وأبواب الأمْوال، ومَصالح الرجال.

وإنَّ أميرَ المؤمنين لم يزل يرتادُ لِوزارته حقيقًا بها مسـتحقًّا نعْتَها؛ جامعًا بين الكِفَاية والغَنـاء، والمناصَحةِ والولاء، والأُبوّة والآختصاص، والطاعةِ والإخلاص؛ والنُّصْرة والعزْم، وأصالةِ الرأْى والحَزْم؛ ونَفاسة السياسةِ والتدبير، والنَّظَر بالمصلحة فى الصـغير والكبير؛ والآحتيال والتأْديب، وملابَسة الأيّام والتجريب؛ والآنتمـاء

إلى كريم المَناجب، بضمير المَناصب؛ ويكرِّر فى الاختيار تقليده(١)، ويُجيل فى الانتقاء تأمُّله وتدبُّره. وكلَّما عرضت له مخيلةٌ قَمِن تُوافق إيثاره، أخلف نَوْءُها، وكلما لاحتْ له بارقةٌ تُطابقُ آختياره، خَبا ضَوْءُها؛ حتى آنتهت رَوِيَّتُه إليك، وأوقفه آرتياده عليك؛ فرآك لها من بينهم أهلا، وبتقمُّص سِرْبالها أولىٰ؛ وبالآستبداد بإمْرتها أحقّ وأحرىٰ: لآشتمالك علىٰ أعيان الخصائص التى كان زيادٌ [لها] جامعا، وحُلُولك فى أعيان المَناقب التى لم تزل تَرومها متحلِّيا بفرائدها، وما شُهِرت به من إفاضة العدْل والإقْساط، وإغاضة الجَوْر والإشْطاط؛ وإنالة الحقِّ والإنصاف، وإزالة الظُّلم والإجْحاف؛ ومراعاة النُّصْح بانسانك شاهدا، ومناجاته بجَنَانك جاهدا؛ ولنُهُوضك بالخَطْب إذا ألَمَّ وأشكل، والحادِث إذا أهَمَّ وأعضل؛ وتفرُّدك بالمَساعى الصالحه، والآثار الواضحه؛ والطرائقِ الحميده، والمذاهبِ السَّديده؛ والتحلِّى بالنَّزاهة والظَّلَف، والعَطَل من الطَّبَع والنَّطَف؛ وفضلِ السِّيرة، وصِدْق السَّريره؛ ومحبة الخاصَّة والعامّه، والمعْرِفة بقدر الأمانه؛ والآضطلاع بالصَّنيعه، والحفظ للوديعه.

فرأى أميرُ المؤمنين برأيه فيما يُريه، ويقضى له بالصلاح فيما يعزم عليه ويُمضيه ويسدِّد مَراميَه ومساعيه؛ ويتعهَّدُه فى جميع مقاصده بلُطف تحلُو ثِمارُه، وتحسُنُ عليه وعلىٰ الكافَّة آثارُه؛ أن قد وَلَّاك النظرَ فى مملكته، وأعمال دولته: بَرِّها وبحرها، وسهْلها ووَعْرها، وبَدْوها وحَضَرها؛ وردّ إليكَ سياسةَ رجالها وأجنادها، وكُتَّابها وعُرَفائها، ورعيَّتها ودواوينها، وآرتفاعها ووجُوه جباياتها وأموالها؛ وعَدَق بك البَسْطَ والقبْض، والبَرْم والنَّقْض؛ والحطَّ والرفْع، والعطاء والمَنْع، والإنعام والوَدْع، والتصريفَ والصَّرْف؛ ثقةً بأن الصواب مَنُوط بما تُسْدِى وتُلحِم، وتُفيض وتنظِم، وتَنْقُض وتُبرِم؛ وتُصدر وتُورد، وتُقرّر وتأتِى وتَذَر.

(١) لعله «تخيُّره» تأمل.

فَلْتَهْنَأْ هذه النعمة متمِّليا بمَلْبَسها، ساريًا فى قَبَسها، وتَلَقَّها من الشكر بما يَسْتَرهِنُها ويُخَلِّدها، ويُقرّها عليك ويؤبِّدها، وٱعرِفْ ماأهَّلك له أمير المؤمنين من هذا المقام الأثير، والمحلّ الخطير، فإنّما ذلك فضْلُ الله يُؤْتِيه مَنْ يشاء والله ذُو الفضل العظيم .

وأنتَ وإن كنْتَ مكتفِيًا بفضل حَصافتك ، وثَقابة فِطْنتك ، وحُسْن ديانَتِك ، ووَثاقة تَجْرِبتك ــ عن التبصير ، مستغْنِيا عن التنبيه والتذْكير ؛ فإن أمير المؤمنين لايمتنِع أن يزيدَك من مَراشده ، مايَقِفُك علىٰ سَنَن الصواب ومَقاصده ؛ وهو يأمُرُك بتقوىٰ الله تعالىٰ فى سِرّك وجَهْرك ، وٱستشعارِ خَشْيته ومراقَبته ؛ والله قد جعل لمن ٱتَّقاه مَخْرَجا من ضِيقِ أمره وحَرَجه ، ونصبَ له أعلامًا علىٰ مَناهج فَرَجه .

وأن تستعملَ الإنصافَ والعدل ، وتُسْبِغ الإحسانَ والفَضْل ، وتُلين كَنَفك ، وتُظهِر لَطَفك ، وتُحسِن سَيْرك ، وتُفيضَ بِرَّك ؛ وتصْفَح وتَحْلُم ، وتعفُوَ وتَكْرُم ؛ وتُبَصِّرَ من ترجُو صلاحَه وتفَهِّمَه ، وتُنْصِفَ من أفرطَ جِماحُه وتُقوِّمَه ؛ وتأخذَ بوثائق الحَزْم ، وجَوامِعِ العَزْم ، والغلظةِ والشدّةِ علىٰ مَنْ طغىٰ ولَجَّ فى غَيِّه وعتا ؛ وبارزَ الله وأميرَ المؤمنين بالخِلاف والشِّقاق ، والانحرافِ والنِّفاق ، مستعملًا فاضلَ التدبير عند المُوادَعه ، وفاصلَ المُكافحةِ عند المُقارَعَه ، مُصْلِحا للفاسد ، مشَتِّتا للشارِد ؛ مكثِّرا لأولياء الدولة وخُلَصائها ، وحاصدًا لبُغاتها وأعدائها ؛ واعظًا مذَكِّرا للغافل ، مؤَمِّنا للظلوم الخائف ، مخيفًا للظالم الحائف ، مستَصْلِحا للسيئين ، مذَكِّرا بإحسان المحسِنين ؛ متَنَجِّزا لهم الجزاءَ علىٰ بَلائهم فى الطاعة وآثارِهم فى الخِدْمه . وأن تنظُرَ فى رجال الدولة علىٰ آختلافهم نظرا يَسْلُك بهم سبيلَ السَّداد ، ويُجْرِى أمورَهم علىٰ أفضل العُرْف المعتاد .

فأما الأماثلُ والأُمَراء ، والأعيان والرؤساء ، فتحفَظُ علىٰ من أُحْمِدت طريقتُه ، وعُرِف إخلاصه وطاعتُه ، شِعارَ رياستِه ، وتزيدُ فى تكرمتِه ، وتنتهِى به إلىٰ ماتتراءىٰ إليه مَواضِى هِمَّته .

وأمّا طوائفُ الأجناد فتُقِرُّهم علىٰ مَراتبهم فى ديوان الجيْش المنصُور، وتخُصُّهم من عِنايتِك بالنصيب المْوفُور، وتستخدِمُهم فى سَدّ الثُّغور وتسْديد الأُمُور، وتُراعى وُصُولَ أطماعِهم إليهم، أوقَات الآستحقاقِ إليهم، وانفاقهم نصاب الوجوب منهم (١) .

وأما الكُتَّاب المستخْدَمون منهم فى آستخراج الأموال، وعِمارةِ الأعمال، فتخُصُّ كُفاتَهم بمـا تقتضيه كِفايَتُهم، وأُمناءَهم بمـا تُوجبه أماناتهـم ؛ وتَستبدلُ بالعـاجز الخبيثِ الطُّعْمه ، والطَّبعِ المستشعرِ شِـعارَ المذَمَّه : ليتحفظ النّزِه المأمونُ بنزاهتـه وأمانته، ويُقْلِـع الدَّنِسُ الخَـُون عن دَنَسه وخيانته؛ وتأْمُر من تختارُه لخدمة أمير المؤمنين منهم أن يَسِـيروا بالسِّيَر الفاضله ، ويعمَلُوا علىٰ الرُّسُوم العادله ؛ فلا يضَيِّعوا حقًّا لبيتِ مال المسلمين، ولايُخيفوا أحدًا من المعامَلين .

وأما الرعيَّة ، فيأمُرك أن تحكُم بينها بالسَّوِيه ، وتعتمِدَها بعَدْل القضـيه ؛ وترفَعَ عنها نَيْرَ الجَوْر ، وتحميَها من وُلَاة الظلم؛ وتَسُوسَها بالفضل والرأفة متىٰ آستقامَتْ علىٰ الطاعه ، وتأدّبتْ فى التِّباعه؛ وتُقَوِّمها متىٰ أجْرَتْ إلىٰ المنازح والآفِتتان، وأصرّت علىٰ مَغْضَبة السلطان .

وأما الأموالُ وهى العُدّة التى تُرْهِف عزائمَ الأولياء، وتَغُض من نَواظِر الأعداء؛ فتستَخْرِجها من مَحَقِّها ، وتضَعُها فى مستحِقِّها؛ وتجتهِدُ فى وُفُورها، وتتوفَّر علىٰ ماعاد بدُرُورها ؛ وأن تُطالِـعَ أميرَ المؤمنين بذَرّه وجِلّه ، وعَقْد أمرك وحَلّه ؛ وتُنْهِىَ إليه كل ماتعزِمُ علىٰ إنهائه ، وترجعَ فيـه إلىٰ رائه : ليُكْرِمك من موادّ تبصيره وتعريفه، ويزِيدَك من هدايته وتوقيفه ؛ بمـا يُفْضى بك إلىٰ جادّة الخير وسبيله ، ويوضِّح لك عَلَمَ النَّجاح ودليله .

---

(١) المراد قيامهم بمـا يجب عليهم من استجادة الخيل والسلاح .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك : وقد أوْدَعه من تلويح الإشاره ، ما يُكتفىٰ به عن تصريح العِبَاره ، ثقــةً بأنك الأريبُ الألْمِعِىّ ، والفَطِنُ اللَّوْذَعىّ ، الذى تنتهِى به مُتونُ التذكير إلىٰ أطرافِه وحواشِيه ، وتفْضى به هوادى القول إلىٰ أَعجازه وتَوَاليه .

فتقلَّد ما قلدكَ أميرُ المؤمنين ، وكُنْ عنــد حُسْن ظَنِّه فى فضلك ، وصَدِّقْ مَخِيلتَه فى كمالك ، والله تعالىٰ يعرِّف أمير المؤمنين وجه الخيرة فى تصيير أمره إليك ، وتَعْويله فى مهماته عليك ، ويوفقك لشُكْر المَوْهِبة فى ٱستِخْلاصــك ، والمِنْحة فى ٱجْتِبائك ، ويُنْهِضك بمــا حَمَّلك من أعبــاءِ مُظاهَرتِه ، وجَشَّمك من أثقال دَوْلتِه ، ويُسَدِّدك إلىٰ مايُدِرُّ عليك أخلافَ [نعمته] ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاتُه .

* * *

ومنها ــ ماأورده فى رَسْم تقليد زَمِّ الأقارب : وهو التقدمة علىٰ أقارب الخليفة ، وهذه نسخته :

الحمــدُ لله الذى ٱبتــدأ بنِعْمته ٱبتــداءً وٱقْتِضابا ، وأعادَها جزاءً وثواباً ، ومَيَّز من ٱختصَّه بهدايةِ خلْقِه ، وٱستخْلصه لإظهــار حَقِّه ، بأضْفاها عِطافا ، وأصْفاهَا نِطَافا ، وأحسَنِها شــعارا ، وأجملها آثارا ، وٱستَخْرجهم من أطيب البريَّة أعْراقا ، وأطْهرِها شِيَما وأخْلاقا ، وأقْدمِها سُؤْدَدا ومجْدا ، وأكْرمِها أباً وجَدّا ، وتوَحَّد بأفضل ذٰلك وأعْلاه ، وأكمله وأسْــناه ، محمدًا صفْوتَه من خُلَصائه ، وخِيرتَه مِن أنبيائه ، فأظهره من المَنْجَب الكريم ، والمَنْجَم الصَّميم ، والدَّوْحة الطاهرِ عُنْصُرها ، الشريف جوهَرُها ، الحُـلْوِ ثَمَرُها ، ورَشَّح من ٱختاره من عتْرته لسياسة بريَّتــه ، والدعاءِ إلىٰ توحيده وطاعته .

يحمدُه أمير المؤمنين أنْ شرّفه بميراث النبوّه ، وفضّله بأكرم الوِلادة والأبوّه ؛ وأحلّه فى الذِّروة العاليـة من الخلافه ، وناط به أمورَ الكافه ؛ ويسأله الصلاةَ علىٰ جدّه محمد وعلىٍّ أبيه ، صلّىٰ الله عليهما .

وإن أمير المؤمنين يرىٰ أنَّ من أشرف نِعم الله عليـه موْقِعا ، وألطف مواهبِه لديْه موْضعا ، توفيقَه للمحافظة علىٰ مَنْ يُواشِجُه فى كريم نَسَبه ، ويمازجُه فى صميم حَسَبه ؛ ويُدانيـه فى طاهرِ مولِده ، ويُقارِبه فى طِيب مَحْتِده ؛ وتنزيل كلِّ ذى تميُّز منهم فى دِين وعِلم ، ودراية وفهم ، وإحلاله بالمنزلة التى يستوجبُها بفاضل نَسَبِه ، وفضلِ مكتَسَبه ؛ ويبعثُ أنظاره علىٰ التحلِّى بخِصاله ، والتزيُّن بخِلاله : ليحصُل لهم من فضْل الخلائق والآداب ، مايُضاهى الحاصلَ لهم من عَراقة المناجب والأنساب ؛ ولذلك لا يزالُ يَنوطُ أمورَهم ، ويكِلُ تدبيرَهم ، إلىٰ أعيانِ دولتِه ، وأماثِل خاصّته ؛ الذين يعْتادُون حضرته ويراوحُونها ، ويطالِعُونه بحقائق أحوالِهم ويُنْهونَها ؛ ويستخرجُون أمْرَه فى مصالحهم بما يُذَلِّل لهم قُطوفَ إحسانه وطَوْله ، ويُعْذِب لهم مَشارِعَ بِرِّه وفضله ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنيب .

فإن كان العهد إلىٰ خادم ، قال :

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين معْدُودا فى أُولى النَّباهه ، المترشِّحين للاستقلال بأعباء دولتِـه وذَوِى الوجاهه ، المُستخْلَصين لٱستكفاء جَلائِل مملكته : لِمَا ٱجتمع فيكَ من إباء النفس وعِزّتها ، ووَثاقةِ الدِّيانة وحَصافتها ، وسَدادِ السِّيرة وٱستقامتها ، ونَقاء السريرةِ وطهارتِها ؛ وتقيُّلك مَنْهَج أمير المؤمنين ومذْهَبَه ، وتمثُّلك بهَدْيه وأدبِه ؛ ونشْئِك فى قُصُور خلافته ، وٱرتضاعِك دَرَّ طاعتِه ـ رأىٰ ـ والله تعالىٰ يعزِم له علىٰ الخير فى آرائه ، ويوَفِّقه لصالح القولِ والعمل فى ٱنحائه ـ أنْ قلّدك زَمَّ بنى عمِّـه

الأشراف الإسماعيليين ثقةً بسياستك وحميدِ طريقتك، وإنافةً لمنزلتك وإعرابا عن أثيرِ مكانتك .

وإن كان العهد إلىٰ شريف قيل بدَلًا من هذا الفصل :

ولمّا كنتَ بحضرة أمير المؤمنين ممن زَيَّن شريفَ مَحْتِده، بمُنيف سُؤْدَده، وطاهرَ مَوْلدِه، بظاهرِ مَحْتِده، وكريمُ تالدِه بنفيس طارفِه، وجليلَ سالفِه، بنَبِيلِ آنِفه، مقتفياً سَنَن أوّلِيّتك، مفرّعا علىٰ أُصول دَوْحتك، ضارباً بالسَّهم المُعَلَّىٰ في الدين والعِلْم، حائزًا خَصْل السَّبْق في الرَّجاحة والفَهْم - رأىٰ أمير المؤمنين أنْ قلّدك نِقابة بني عمّه الأشرافِ الفلانيين : ثِقةً بأنك تَعْرِف مايجمَعُهم وإيّاك من الأرحام الواشِجه، والأَواصِر المُتَمازِجه، وتُحْسِن السِّيرة بهم، والتعهُّدَ لهم والتوفُّر عليهم .

ثم يوصل الكلام بأيّ الخطابين قُدّم فيقال :

فتقلّد ما قلّدك أمير المؤمنين مستشعِرًا تقوىٰ الله وطاعتَه، معتقدًا خِيفتَه ومراقَبَته، سائرًا فيمَنْ وَلّاك أمير المؤمنين بسيرته، مسْتَنًّا بسُنَّته، متأدِّبا بآدابه، مقتفيا مَناهج صَوابِه، وإكْرام هذه الأُسْرة [التي] خَصَّها الله تعالىٰ بكرامته، وفَرَض مودّتَها علىٰ أهل طاعته، ونَزَّهها عن الأدناس، وطَهَّرها من الأَرْجاس، فقال جل قائلًا : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا ﴾ .

واْعرِف لهم حَقَّ مراتبِهم الدانيةِ من أمير المؤمنين، ونَزِّلهم بحيثُ نَزَّلهم اللهُ من الدُّنيا والدِّين، واْعتمِدْ تعظيمَ مشايخهم وتوْقيرَهم، وسياسةَ شُبَّانِهم وتَدْبيرَهم، وتَقْويم أخلاقهم وتثقيفَهم، وخُذْهم بلُزُوم الطرائق الحميده، والمَذاهبِ السَّديده، التي تليقُ بأُصولهم الطاهره، وفُروعِهم المُثْمِره، ومَناحِتهم الصَّميمه، ومَناجِبهم الكريمه، وتَفَقَّد مَنْشاهم ومَرْباهم، وخُلَطاهم وقُرْباهم، فمن تناكَرَتْ أعراقُه، وأخلاقُه،

وأنسابُه، وآدابُه، بالغْتَ فى تنبيهه وتعْرِيفه، فإن نَجَع ذٰلك فيه وإلا بسَطْتَ يدَك إلىٰ تهذيبِه، وإصلاحِه وتأديبِه : لِيَستيقِظَ من مَنامةِ غِرَّته، ويرجع إلىٰ اللائق بشَرَف ولادته؛ وآنظُر فيما أُوقِف عليهم من الأملاك والمستَغَلَّات، والضِّياع والإقطاعات، والرُّسُوم والصِّلات؛ وآندُبْ لتولِّى ذٰلك مَنْ تسكُن إلىٰ ثِقَته وأمانتِه من الكُتَّاب؛ وراعِ سيرتَه فى عِمَارته، وطريقتَه فى تَثْمِير مالِه وزيادتِه؛ فإن ألفيْتَه كافيًا أمينا أقررتَه، وإن وجدْتَه عاجزا خَئُونا صرَفْتَه؛ وآستبدلْت به من يُحْسِن خَبَرك، ويُطِيب أثرَك؛ وأجرِ الأمْرَ فى قسمته بين ذُكورهم وإناثِهم علىٰ الرسوم التى يشهَدُ بها دِيوانُهم؛ وآكتُبِ الرِّقاع عنهم إلىٰ الحضرة فى آقتضاء رُسُومهم، وما يَعْرِض من مهِمَّات أمورِهم، وتنتجز كلَّ مايتعلقُ بهم وتنوبُ عنهم فيه: لتستقِيم شُئُونهم بسياستك، وتنتظِمَ أحوالهم بحُسْن سَيْرتِك .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فاعملْ به وآنتَهِ إلىٰ متضمَّنه، إن شاء الله تعالىٰ :

* * *

ومنها — ماأورده فى رَسْم تقليدٍ بنقابة العَلَوِيِّين، وهو :

الحمدُ لله الذى آنتجبَ من أسْرار عبـاده قادَةً جعلهم لمَصَالحهم نِظاما، وآنتخب من أخْيار خليقَتِه سادةً صيرّهم لأُمورهم قِوَاما؛ وعَدَق بهم هدايةَ مَنْ ضلّ، وتقويمَ من دَلّ؛ وتعليمَ من جَهِل، وتذكيرَ من غَفَل؛ ونصَبَهم أعلامًا علىٰ طُرُق الرَّشاد، وأدلةً علىٰ سُبُل السَّداد .

يحمدُه أميرُ المؤمنين أنِ آختصَّه بأُثْرةِ الخلافةِ والإمامه، وميَّزه بمزيَّة الولايةِ علىٰ الأُمَّة والزَّعامه؛ وأنهضه بمـا كَلَّفه من سياسة برِيَّته وتنزيلِهم منازِلَهم من آختصاصِه وإيثاره، وإحْلالهم فى مَحَالِّهم من آستخلاصه وآختياره؛ ويسأله الصلاةَ علىٰ أشرف

الأُمم نِجَارا وأطيبِهم عُنْصُرا، وأعظمهم مَفْخَرا، سيدنا محمدٍ صلّى الله عليه وعلى أخيه وآبن عمّه، وبابِ حِكْمته وعِلْمه، أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب الراسخ فى نَسَبه، المُدانِى [له] فى حَسَبه، سيفِه الباتر، ومُعْجِزه الباهر، ومكاتِفه المُظاهِر، وعلى الأئمة من ذرّيتهما المهْديّين، وسلم تسليما .

وإنّ أمير المؤمنين بما خَصّه الله تعالى من شَرَف المَنْجَم والمَوْلِد، وكَرَم المَحْتِد، وخوّله من مَناصب الخلفاء والأئمه، وناط به من إمامة الأُمّه - يرى أنّ من نِعَم الله التى يجبُ التحدّثُ بشُكْرها، وتَحِقُّ الإفاضةُ فى نَشْرها، توفيقَه للنظر فى أحوال ذَوِى لُحْمته، وأُولى مُناسَبته، المُواشِجين له فى أَرُومته، المعتَزِين إلى كرم وِلادته، وتوخّيَهم بما يُزْلِفُهم فى مَلابس الجمال، ويُوقِّلُهم فى هَضَبات الجَلال، ويرتّبُهم فى الرُّتَب التى يستوجبونها [ويراها] أَوْلى بمَغَارسهم وأنسابِهم، وماسًّا بأنفسهم وآدابهم، ولذلك يصْرِف آهتمامَه إلى مايجمع لهم بينَ شَرَف الأعراق، وكَرَم الأخلاق، وطهارةِ العناصِر والأواصِر، وحيازةِ المناقب والمآثر .

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين من جِلّتهم العُلَماء، وطَهَرتهم الأزْكياء، وأبرارِهم الصُّلَحاء، وخيارِهم الفُضَلاء، الذين تضارعَتْ أخلاقُهم وأعراقُهم، وتقارَعتْ أنسابُهم وآدابُهم، وتشاكهَتْ موارِدُهم ومصادِرُهم، وتشابَهتْ أوائلُهم وأواخِرُهم، وآتفقت جيُوبُهم ودخائلهم، وتوضّحت عن الدين والخير مخايِلُهم . هذا مع مايرعاه أميرُ المؤمنين من كريم مَساعِيك فى خدْمته، وإصابة مَراميك فى طاعتِه، وآعتصامِك بحبْل متابَعتِه، ونُهوضك بحقوقِ ما أسبغَه عليك من نِعْمته - رأى أمير المؤمنين - والله تعالى يَقضى له فى آرائه بحُسْن الآختيار، ويُمِدّه بالعون والتأييد فى مَجارِى الأقدار- أنْقلّدك النِّقابةَ على الأشراف الطالبيّين أجمعين، المقيمين

با لحضرة وسائر أعمــال المملكة شَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا ؛ ثِقةً بأنّك تصدِّق مَخِيلته فيك وٱعتقادَه، وتستَدْعى بكفايةِ ما ٱستكفاك شُكْرَه و إحمادَه؛ وتستدرّ بالاِستقلال والغَنَاء أخلافَ إحسانه وفضلِه، وتمترى بالاَضطلاع بمُضْلِـع الأثقال فائضَ ٱمتنانه وطَـــوْله .

فتقلَّد ما قلَّدك أمير المؤمنيـــن عاملًا بتقوىٰ الله وطاعتِــه ، مستشْعِرا لخِيفتِــه ومراقبتِه؛ وأحسِنْ رعايةَ من عَدَق بك رعايتَه، وسياسةَ من وكَلَ إليك سياستَه .

وٱعلم أنَّ أمير المؤمنـيـن قد ميَّزك علىٰ كافَّة أهـــل نَسبك ، وجميع من يُواشِجُك فى حَسَبك؛ وجعلك عليهم رئِيسا ولهم سائِسا ؛ فاعْرِف لهم حقَّ القرابة والمشابكه ، وتَشاجُر الأنساب والمُشاركه ؛ فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبىٰ ﴾ . وعُمَّهم جميعا بالتوقير والإكرام، والتفقُّد والاِهتمام؛ وٱتَّخِذْ شيْخَهم أبا ، وكَهْلَهم أخا، وطِفْلَهم ولدا؛ وٱفرِض لهم من الحنَان، والإشفاق والفَضْل والإحسان، ماتقتضيه الرَّحِم الدانيــه، والأواصِرُ المُتقارِبه؛ وكُنْ مع ذٰلك متفَقِّدا لأحوالهم، مطالِعالسِيَرهم وأفعالهم؛ فمن ألفَيْته سالكًا لأقْصَد الطرائق، متخلِّقا بأجمل الخلَائق؛ حارسًا لشَرَفه، متشَبِّها بسَلفه ، فزِدْه فى الأُثْرَة زيادةً تُرغِّب أمثالَه فى ٱقتفاء مَذْهبِه، وتبعثُه علىٰ التأدُّب بأدَبه؛ ومن وجدْته مستحسِنًا مالا يليق بصَريح عِرْقه، راكبا ما ليس من طُرُقه ، فأيْقظه بنافِع الوَعْظ، وذكِّره بناجِع اللَّفْظ ؛ فإن ٱســتقامَ علىٰ الطريقة المُثْلىٰ ، ورجع إلىٰ الأجْدر والأَوْلىٰ، عرفْتَ ذلك من فِعله ، وفرضتَ له ماتَفْرِضُه لصُلَحاء أهله : فإن الله تعالىٰ قد فتَح باب التوبه، ووعَدَ بإقالة أهل الإنابة؛ ومَنِ ٱنحرفَ عن التذكير، وٱنصرفَ عن التبصير؛ وأصَرّ وتمـادىٰ، وٱرتكب ما يُوجب حدًّا؛ ٱمتثلتَ أمرَ الله تعالىٰ فيه، وأقمتَ الحدّ عليه؛ غيرَ مُضْغِ

إلىٰ شَـفَاعه، ولا مُوجب لحقّ ذَريعه : فإن أمير المؤمنين يصل من ذَوِى أنسابه، من وَكَّدها بأسبابِه ؛ ويقطَع من أوجب الحقُّ قطيعتَه، ولا يراعى رَحِمَه وقرابَتَـه . ووَكِّلْ بهم من يَرْوِى إليك أخبـارَهم ، ويكشِفُ لك آثارَهم : ليعلموا أنهـم ببال من مطالَعتك ، وبعينٍ من ٱهتمامك ومشارَفتِك ؛ فيكبَحُ ذلك جامِحَهم عن العِثَار والسَّقَط ، ويمنع طامِحَهم من الزَّلَل والغَلَط . وتوَخَّهم فى خطابك بالإكرام، وميِّزهم عن محاوَرةِ العَوام؛ ولا تقابِلْ أحدا منهم ببَذَاء ولا سَبّ، ولاقَدْح فى أمٍّ ولا أب؛ فإنهم فروعُ دوحةِ أميرالمؤمنين وعِترتُه الذين طهَّرهم الله من الأرجاس، وفَرضَ قِراهم علىٰ النـاس . ووَفِّر ٱهتمامَك علىٰ صِيانةِ النَّسَب من الوَكْس ، وحياطته من اللَّبْس؛ فإنه نَسَبُ الرسول صلَّى الله عليـه وسلم الذى يتصل يومَ ٱنقِطاع الأنْساب ، وسببُه الذى يتشج يومَ ٱنفِراط الأسباب؛ وأثبِتْ أسمـاءَ كافَّةِ من يَعْتَرِى إلىٰ هذا البيت منسوبةً إلىٰ أُصولها : لتأمن من دَخيل مُلصَقٍ يتزوّر عليهـا ، ومختَلِق مُلْحَق ينضم إليها . وإن عـرف مدَّعٍ نسبًا لاحجة له فيه، ولابينةَ عندَه عليه؛ فغلِّظ له العقاب، وٱشْهَره شُهرة تحجُزُه عن معـاودة الكذَاب ؛ وٱحتَطْ فى أمرِ المَنَاكِح وصُنهـا عن العَوامّ، ووَفِّر كرائمَ أهل البيتِ عن مُلابسة اللِّئام ؛ وإن ٱدّعىٰ أحدٌ من الرعيَّة حقًّا علىٰ شريف فاحِملْهـا علىٰ السويَّة وعِده بإنصاف خصمِه، وٱمنَعْه من ظُلْمه؛ وإن ثَبَت أيضا فى مجلس الحُكْم حقٌّ علىٰ أحد من الأشراف فانزِعْه منـه [وول](١) علىٰ من فى البلاد ، أهـل السَّداد منهم والرَّشاد؛ ومُرْهم بتقيُّل مذهبك، ونَقْل أدبك؛ وٱصرِف ٱهتمامَك إلىٰ حِفْظ أوقافهـم وأملاكهم ومستَغَلَّاتهم فى سائر الأعمـال، وحُطْها من العَفَاء والاِضْمِحلال ؛ وتوفَّر علىٰ تثمـير ٱرتفاعها، وتزجيـة مالهـا ؛

(١) الزيادة ليستقيم الكلام .

وٱستخدِمْ لضبط حاصلِها ، وجهات مُنْفَقِها ، من تسْكُن إلىٰ ثقته ، وتثِق بنهْضتِه ؛ ووَزِّع مايرتفع من ٱستغلالها بينَهـم علىٰ رُتَبِهم التى يشهد بها ديوانهم .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فٱنتهِ إليـه منتهجا لتمثيله ، معتمِدا بدليله ؛ وطالِعْ أميرالمؤمنين بمـا ٱلتبَس عليك وأبْهم ، وأشكَل وٱستَعْجم : ليَقفك علىٰ واضِح السَّنَن ، ويُرشِدك إلىٰ أحسن السُّنَن ؛ وٱستعِنْ بالله يَهدِك لمعونته ، وٱستهْدِه يؤيِّدْك بهدايته ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

✥

ومنها — ماأورده فى رسمِ تقليدِ بزَمِّ طوائف الرجال .

الحمدُ لله البديع تقديرُه ، الحكيم تدبيرُه ، الذى أتْقن ماصَنَع وأحْكمه ، وكَمَّل ماأبدع وتَمَّمه ؛ وأعطىٰ كلَّ مصلحة من مصالح عِباده نِظاما ، وكُلَّ مَرْفَق من مرافق خلقه قِوَاما ؛ فلا يُقارَب فيما خَلَق وصوّر ، ولا يُشَاكَل فيما قدّر ودبَّر ؛ ورأَبَ ثَلْم بريَّته بمن ٱستخلصه من خاصَّتها ، لسياسة عامَّتها ؛ وٱنتخبه من أشْرافها ، لتسديد أطْرافها ؛ وإقامة من سادَها لإصلاح فاسدِها ، وتقويم مائِدها ؛ وتوقيفِها علىٰ سَنَن الصواب ، وتعريفها بمَحاسِن الآداب .

يحمده أميرالمؤمنين أن أحلَّه فى المنْزِلة العليَّة : من ٱصطِفائه وٱستخلاصه ، والذِّروة السنيَّة : من ٱجتبائه وٱختصاصِـه ؛ وفوّض إليـه تنزيلَ الرتب وتحْويلها ، وإقرارَ المنازل وتحويلَها ؛ وناط به البَرْم والنقض ، والرَّفْع والخَفْض ؛ والرَّيْش والحصّ ، والزيادةَ والنَّقْص ؛ وسوّغَه الشُّـكرَ علىٰ مواهبه السابغ عِطافُها ، الفسيحةِ أكنافُها ، البعيدةِ أطرافُها ؛ و[يسأله] أن يصلى علىٰ نبىِّ الرحمه ، ومُفيد الحكمه ، سيدنا محمد خاتَم

الرُّسُل ، ومُوضِّح السُّبُل ؛ صلى الله عليــه وعلىٰ أخيه وآبنِ عمِّه ، وخليفته علىٰ أُمَّتــه وقومه : علىّ بن أبى طالب أميرالمؤمنين ، ومَوْلىٰ المسلمين ؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيتهما الطاهرين .

وإنَّ أمير المؤمنين بمـا فوّضَهُ الله تعالىٰ إليــه من حِماية الأنَام ، والمُراماة عن دار الإسلام ؛ وكَفَّله من غَضِّ نواظر أهــل العِناد ، وتنكيس رُءُوس رؤساء الإلحاد ؛ لايزال ينظُر فى مصالح عبِيده ، وتَوَفُّر سياسة رجال دولتِه وجنودِه ؛ الذين هم حِزْبُ الله الغــالبُون ، وجنــدُه المنصورُون ؛ ويرُدُّ النظرَ فى أمورهم ، والتقدّمَ عليهم ؛ وزَمَّ طوائفهم ، إلىٰ خواصِّ دولته ، وأعيان مملكتِه ، الذين بَلَاطرائقَهم ، وحَمِدَ خلائقَهم : من الغَناءِ والكِفاية ، والسَّداد وحُسْن السياســة ؛ ونَقَّلهم فى الخدم فاستقلُّوا بأعبائها وأثقالها ، ونهضُوا بناهضِ أعمالها ؛ ومضتْ عزائمُهم فى حِياطة البيضة ، وآشْتدّت صرائمهم فى تحصين الحَوْزة ، وصدَقتْ نيّاتهم فى المُراماة عن المِلَّه ، والمحاماة عن الدعوة والدَّوْله .

ولـمَّـا كنتَ بحضرة أمير المؤمنين مُعَدّا لمهِمَّاته ، معدودًا فى أماثِل كُفَاته ؛ مشهورًا بحسن السياسة لمـا تُورِده وتُصدِرُه ، معروفًا بفضــل السِّيرة فيما تأتيــه وتَذَره ــ رأىٰ أمير المؤمنين ــ والله يُرشده لأعْوَدِ الآراء بالصلاح والإصــلاح ، وأدْناها من الخير والنجاح ــ أنْ قلَّدك زَمَامَّ طائفة الرجال الفلانيين (ويوصفون بمـا تقتضيه مكانتهم من الدولة وحسن سيرهم فى الخدمة) إنافةً بقَدْرك ، وإبانةً عن خَطَرك ، وتنويهـاً بذكْرك ، وتفخيًما لأمرك .

وهو يأمُرُك بتقوىٰ الله تعــالىٰ وطاعتِه ، وآستشعارِ مراقبتِه ؛ ورياضةِ خلائقك علىٰ محبّة العَدْل ، وإيثار الفَضْل ؛ وآتِّبــاع اللُّطف ، وآجتناب العسْــف ؛ وتوخِّى

الإنصاف، وبَسْط الهيبةِ من غير إجحاف، وأن تخُصَّ هـذه الطائفةَ من النظر في أمورها، وتعهُّد صغيرها وكبيرِها، بمـا يُسَدّد أحوالَهَا، ويحقِّقُ آمالَهَا، وتأخُذَها بأحسَن الآداب اللائقة بأمثالِها، وسُلوك الطريقةِ المعهودة من أعيانهـا وأماثِلِها، وتُشْعرها من أمير المؤمنين بمـا يشرَحُ صَدْرَها في خدمتـه، ويُقِرّ عينها في طاعتِه، والمسارعةِ إلىٰ مكافحة أعدائِه، والتميُّزِ في نُصْرة أوليـائه، وتُطالعَ بحال من يستحِقُّ الاحترام، ويستوجبُ إفاضةَ الإنعام، وتكتبَ الرِّقاع عنهـا (مستدْعِيا للرِّباطات، في الأطماع والعاجزين شاملا في التعويد والتأمير والتلقيب والولايات قاصـدا في ذلك مايُفَسِّح آمالها في الآجال، ويُوثِّقُها بدُرُور الأمثال)[(١)]، فإنهم أمراءُ الحُروب، وكُفَاة الخطوب، الذين يجاهِدُون عن الحَوْزَة، ويُرامُون عن الدولة، وآفرِض لهم من الإكرام، وتامِّ الآهتمام، ماتقتضيه مكانَتُهم في الدوله، ومَوْضعهم من الخِدْمه، وتكفَّلْ أوساطَهم بالرِّعايه، وآصْرِفْ إليهم شَطْرا موفورا من العِنايه، وألحِق من بَرَّز منهم وتقدّم، ونَهَض وخَدَم، بنظرائه وأمثاله، وساوِ بينـه وبينَ أشكاله، وتعهَّد أطرافهم بملاحَظتك، وتفقَّدْهم بسِياستِك، وخُذْهم بلُزُوم السِّيَرِ الحميده، والمذاهب السَّدِيده، والتوفُّر علىٰ مايُرْهِف عزائِمَهم، ويؤيِّد أيدِيَهم، ولا تُفَسِّح لأحد من هذه المذاهب في مخـالطة العَوَام ولا مشاركةِ التُّجّار والآحتراف، ووكِّلْ بهم من النُّقباء من يَبْتلِي سِـيَرَهم، ويُنْهِي إليك أخبارَهم، فمن علمته قد آجترأ إلىٰ نَسْخ المَذْهب، فتناوَلْه بأليم الأَدَب، وآحْضُضْهم علىٰ الإدْمان في نَقْل السلاح، والضَّرْب بالسيف، والمطاعنـة بالرمح، والإرْماء عن القَوْس، وميِّز من مَهَر وآسـتقلّ، وقَصِّر بمن ضَجَّع وأخَلّ، فهم كالجَوَارح التي ينفَعُها التعلـيم والإجراء، ويضُرُّها الإهمـالُ والإبْقاء، وفي صرفِك الآهتمامَ إليهـم مايزيدُ في رَغْبـةِ ذي الهمَّة العليَّـه، ويبعَثُ المعروفَ

(١) كذا في النسخ ولم نهتد الى المراد منها .

فى النفس الدَّنيَّـه ، وأن تُطالبَهم بالاستعداد ، وارتباط الخُيُول الجِياد ، والاستكثار من السِّـلاح الشاك والجُنَن . ولْيَكُنْ ماتُطالبهـم بإعداده من هـذه الأصناف علىٰ حَسَب الفُروض من العَطَاء ، ولا تُرَخِّص لأحد فى الاقْتناع بمـا لايَليقُ بمنْزلتـه ، والرضا بمـا يقع دُون مايعتَدُّه أماثِلُ طبَقتِه . ومَنْ مات من هـذه الطائفة وخلَّف ولدا يتيمًا فضُمّه إلىٰ أمثاله ، وانظُرْ فى حاله ، ووكِّل به من يفَقِّهه فى دينه ، ويعلِّمُه مالا غِنىٰ به عن تَعْليمه من كتاب الله وسُنَّته ، ومَنْ يهذبه فى الخدمة ويعلِّمه العملَ بآلاتها ، والتنقُّلَ فى حالاتها ، ويطْلَقُ له من إنعام أمير المؤمنـين مايقُوم بكُلْفتها ولوازِمِها ، وخُذْ كلَّ من تُقَدِّمهم بخدمها والجَرْى علىٰ عادتها فى النُّهوض بما يُسْتَنْهض به ، ولا يُفَسَّـح لها فى التَّثاقُل عنـه ، وسوِّ بينَهم فى الاستخدام ، ولا تخُصَّ قومًا دون قوم بالترفيـه والإجمام ، فإنّ فى ذلك إرهاقًا لعزائمهم ، وتقويةً لمُنَنِهم ، وإفاضةَ العدل عليهم .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، قد وَكَّد به الحجةَ عليك ، فتأمَّلْه ناظرا ، وراجِعْه متدَبِّرا ، وانتَهِ إلىٰ مَصَابِره ومَراشِـده ، واعملْ علىٰ رُسُـومه وحدُوده ، يُوفِّق الله مقاصِدَك ، ويُسْعِد مَصالِحك ويتولَّاك ، إن شاء الله تعالىٰ .

ورُسوم هـذه العهود يتفاضَلُ الخطابُ فيها بحسب تَفاضُل الطوائف ومَن يولَّى عليها . وهذا الأُنْموذَج متوسِّط تُمْكن الزيادةُ عليه والنقصُ منه .

✤

ومنها — ما أورده فى رسم تقليد بإمارة الحج ، وهذه نسخته :

الحمدُ لله الذى طهَّر بيته من الأَرْجاس ، وجعلَهُ مَثَـابةً للنـاس ، وآمَنَ مَنْ حلَّه ونَزَله ، وأوْجبَ أجرَ من هاجر إليه ووصَلَه .

يحمَدُه أمير المؤمنين أن خَصَّه بحيازة البيتِ الأعظَم ، والحِجْر المكَرَّم ، والحَطِيم وزَمْزَم ؛ وأفضىٰ إليه ميراثَ النبوّة والإمامه ، وتُراثَ الخلافة والزَّعامه ؛ وجعله لفَرْضه موفِّيا ، ولحقوقه مؤَدِّيا ، ولحُدُوده حافظا ، ولشَرائعه ملاحِظا ؛ ويسألُه أن يصَلِّيَ علىٰ مَنْ أمره بالتأذينِ فى النـاسِ بالحَجّ إلىٰ بيتـه الحرام لشهادةِ مَنافِعِهم ، وتأْديةِ مناسكهم ؛ وقَضاءِ تَفَثِهم ، ووَفَاء نَذْرهم ، وذِكْرِ خالِقِهـم ؛ والطوافِ بحَرَمه ، والشكر علىٰ نِعَمه : سـيدنا محمدٍ رسولِه صلىٰ الله عليه وعلىٰ وصـيه وخليفتِه ، وباب مدينة علمِه وحكمتِه : علىِّ بن أبى طالب سـيد الوَصيِّين ، وعلىٰ الأئمـةِ من ذرّيتهما الطاهرين .

وإنَّ أولىٰ ماصَرَف أمير المؤمنين إليـه هِمَّته ، ووَفَّر عليـه رِعايَتَه ؛ مُثابرا عليـه ، وناهضًا لحق الله تعالىٰ فيه ؛ النظرُ فى أمرِ رُفَق الحجيج الشاخصةِ إلىٰ بيتِ الله الحرام ، وزيارةِ قَبْر نبيه عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ وردُّه إلىٰ من حلَّ محلَّك من الدين ، وتميز بما تميَّز به صُلَحاء المسلمين : من العلم ، ورَجَاحة الحِلْم ؛ ونَفَاذِ البصيره ، وحُسْن السريره ، وعَدْل السِّيره ؛ ولذلك رأىٰ أمير المؤمنين أن قلَّدك أمرَ رُفَق الحَجِيج المتوجِّهةِ من موضع كذا إلىٰ الحرمين المحروسين ، ووَلَّاك الحرب والأحْداثَ بها : واثقًا بآستقلالك وغنَائك ، وسَـدَادك وإصابة آرائك ؛ فتقلَّد ماقلَّدك أميرُ المؤمنين بعَزمٍ ثاقب ، ورأيٍ صائب ، وهِمَّة ماضيه ، ونَفْس ساميه ؛ وشَمِّر فيه تشميراً يُعْرِب عن محلِّك من الاِضْطِلاع ، ويدُلُّ علىٰ آستقلالك بحقِّ الاِصْطِناع ؛ وخُصَّ الحُجَّاج بأتَمِّ الأحُظّ ، وكُنْ من أمرهم علىٰ تَيقُّظ ؛ وآعتمِـدْ ترَقُّبهم فى المَسِـير ، وسوِّ فى رعايتهم بين الصغير والكبير ؛ فإنهم جميعًا إلىٰ الله متوجِّهون ، وإلىٰ بيتِـه الحرام قاصدُون ، وعلىٰ رسولِه صلى الله عليـه وسلم وافِدُون ؛ قد آستقرَبُوا بَعيدَ الشُّـقَّه ،

وآستَدْمِثُوا خَشِن المَشَقّه ، رغبةً فى ثواب الله وعَفْوه ، والنجاةِ من عِقابه وسَطْوه ؛ وتقرُّبا إليه بِارتسام أمْرِه وطاعتِه ، وإيجابا للحرمة بالحُلول فى عِرَاص بيتِه وأفْنِيته ؛ فُرافدَتُهم واجبـه ، ومساعدَتُهم لازِبه ؛ حتّى يصلُوا إلىٰ بُغْيَتِهم وقد شَمِلتهم السلامةُ فى الأنفس والأموال، والأمنةُ فى الخيْل والرجال : متوجِّهين وقارّين وقافلين، بعد أن يشْهَدُوا منافِعَهم ، ويُؤدُّوا مَناسِكهم، ويعملُوا بمـا حُدّ لهم . ورُدَّهم فى سَيْرهم عن الآزدحام ، ورتِّبهـم علىٰ الآنتظام؛ وراعِهـم فى وُرُود المَنَـاهل ، وآمنَعْهم من التحادُثِ عليهـا والتكاثُر فيها ؛ حتّى لا ينفصِلُوا منهـا إلّا بعدَ الآرتواء، ووُقوع التَّساوِى والآكتفاء ؛ وقَدِّم أمامَهُـم من يمنَعُهـم من التسرُّع ، وأخِّرْ وراءَهم من يحفظهم من التقَطُّع ؛ ورتِّب ساقَتَهم، ولا تُخِلّ بحفظهم من جميع جهاتِهم؛ وطالِـعْ أمير المؤمنين فى كل منْزِل تنزِلُه ومحـلٍّ تحُلُّه بحقيقـة أمرِك ليقِفَ عليها، ويُمـدّك بمـا يُنْهِضك فيها .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فتدبَّره عامِلًا عليـه؛ متبصِّرا بمـا فيه، عاملًا بمـا يحسُن موقِعُه لك، ويزيدك من رضا الله وثوابه، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

ومنها — ماأورده فى رسم تقليد الإمارة علىٰ الجِهاد ، وهذه نسخته :

الحمد لله الصادقِ وعْدُه ، الغالب جُنْـدُه ؛ ناصر الحق ومُدِيله ، وخاذِل الباطل ومُذِيلِه ؛ مُحِلِّ النَّكْب بمن آنصرف عن سبيله، ومُنْزِلِ العِقاب بمن تحرَّف عن دليله ؛ الذى آختـار دينَ الإسـلام فأعلىٰ مَنارَه، ووَضَّح أنواره؛ وآسـتخلَص له من أوليائه أعضادا لاتأخُذُهم فى الحق لومةُ لائِم ، ولايُغْمِضون عن المكافَحة دُونَه جَفْنَ حالم؛

وجَزَاهم علىٰ سعْيهم فى نُصْرته جزاءً فيه يتنافَس المتنافِسُون ، وإلىٰ غاياته يَرْتمى بالهِمَم المُجِدّون ؛ قصدًا من الله تعالىٰ فى إعزاز دينه ، وإنجازِ ماوعَد به خُلفاءَه من إظهاره وتمكينه ؛ وقطًّا لشَوْكة أهـل العِناد ، وتَعْفيةً لآثار ذَوِى الفساد ؛ وتوفيرًا لأَحَاظى من بَذْل الاجتهاد ، من سُعَداء عبادِه فى الجهاد .

يحمَدُه أميرالمؤمنين أنِ ٱختصَّه بلطيف الصُّنْع فيما ٱستَرْعاه ، ووفَّقه للعمل بما يُرْضيه فيما وَلَّاه ؛ وأعانه علىٰ المُراماة عن دارِ المسلمين ، والمحاماةِ عن ذِمَار الدّين ؛ ومجاهدةِ [مَنْ] ندَّعنهما صادفا ، ونَكَب عن سبيلهما مُنْصرِفا ؛ وإبادةِ من عَنَد عن طاعته وٱتَّخذ معه إلهـا آخَر لاإلٰهَ إلا هو سبحانه وتعالىٰ عما يقُول المُشْركون عُلُوّا كبيرا ؛ وٱستنزالهم من صَيَاصِيهم قهْـوا وٱقتِسارا ، وإخراجِهم عن بُيوتِهـم عِزًّا وٱقتدرا ؛ وإذاقتِهـم وَبَالَ أمرِهم [و] عاقبةَ كُفْرهم ، ٱتِّباعا لقول الله تعالىٰ إذ يقول : ﴿ يأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مع المُتَّقِينَ ﴾ .

ويسأله أن يصَـلِّى علىٰ أشهر الخلْق نُورا وفضـلا ، وأطْهر البريَّة فرْعا وأصلا ؛ وأرشَـد الأنبيـاء دَليلا ، وأقصـدِ الرُّسُل سبيلا : محمدٍ رسوله الذى ٱبتعثـه وقد توعَّر طريقُ الحق عافِيا ، وتَغوَّر نُورُ الهدىٰ خافِيا ؛ والنـاسُ يتَسَكَّعُون فى حَنَادس الغَمَرات ، ويتورّطُون فى مَهاوِى الهَلَكات ؛ لايعْرِفُون أنهم ضُـلَّال فيستَهْدُون ، ولا عُمْى فيستَبْصِرون ؛ فأيَّده وعضَّـده ، ووفَّقه وسَـدّده ؛ ونَصَره وأظهَره ، وأعانه وآزَرَه ؛ وٱنتخب له من صَفْوة خلْقِه ، أولياءَ كاتَفُوه علىٰ ظُهور حقِّه ، سَمَحُوا بالأنفس العَزِيزه ، والأموال الحَرِيزة ؛ وجاهدُوا معه بأيدٍ باسِـطةٍ ماضيه ، وعزائمَ متكافيةٍ متوافيه ؛ وقلوبٍ علىٰ الكفار قَسِيَّة قاسيه ؛ وعلىٰ المؤمنين رَءُوفة حانيَهْ . فلمَّا صدَقُوا ماعاهَدُوا الله عليه ، وٱرتسمُوا أمْره وٱنتَهوْا إليه ، شَرِكهم معه فى الوصْف والثناء ،

وأضافَهم إليه فى المَدْح والإطراء، فقال جل قائلا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَىٰ الكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُم ﴾ . صلّى الله عليه وعلىٰ أخيه وآبن عمّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب سيفِ الله الفاصِل، وسِنَانه العامل؛ ومُعْجِز رسُوله الباهر، ووزيرِه المُظاهِر؛ مُبِيد الشُّجْعان، ومُبِير الأقران؛ ومُقَطِّر الفُرْسان، ومُكَسِّر الصلبان؛ ومنَكِّس الأوْثان، ومُعِزّ الإيمان، الذى سبَقَ الناسَ إلىٰ الإسلام، وتقدّمَهم فى الصَّلاة والصِّيام؛ وعلىٰ الأئمةِ من ذرّيتِهما المَيَامين، البَرَرة الطاهِرين، وسلَّم تسليما .

وإنَّ أمير المؤمنين بما كلَّفه الله تعالىٰ من [أمر] دِينه، ووَعَده من إظهاره وتمكينه، يرىٰ أنَّ أفضل مارَنَا إليه ببصَر بَصيرته، ورمىٰ نَحْوه بطامِح همّته، ماشَمِلت الدينَ والدنيا بركتُه، وعمَّت الإسلامَ والمسلمين عائدتُه؛ وحلَّ محلَّ الغيث إذا تدفّق وهَمَع، والنهارِ إذا تألّق ولمَع. ولا شيءَ أعودُ علىٰ الأمه، وأَدْعىٰ إلىٰ سُبُوغ النِّعمه، من عُلُوكلمتِهم، وآرتفاع رايتِهم؛ وتحصين حَوْزتِهم، وإيمان مَنَصَّتهم؛ وتأديةِ الفريضة فى مجاهدةِ أعدائهم، وصَرْفهم عن غُلَوائهم؛ وآقتيادهم بالإذلال والصَّغار، وكَبْحهم بشَكائم الإهوان والاقْتِسار؛ ومواصلتِهم بغَزْو الديار، وتَعْفية الآثار؛ وإيداع الرُّعْب فى صُدُورهم، وتكذيبِ أمانِىّ غُرُورهم؛ ووَعْظهم بألسِنة القواضب، ومكاتبتِهم علىٰ أيدى الكَتائب : لما فى ذلك من ذُلّ الشِّرك وثُبوره، وعِزّ التوحيد وظُهوره؛ ووُضُوح حجّة أولياء الله تعالىٰ علىٰ أعدائه بما يُنْزِله عليهم من نَصْره ومَعُونته، ويؤيِّدهم به من تأييده وعِنَايته؛ لا جَرَمَ أن أمير المؤمنين مصْرُوف العَزْمه، موقُوف الهِمّه، علىٰ تنفيذ البُعُوث والسَّرايا، والمواصلةِ بالجُيُوش والعَرَايا؛ وتجهيزِ المرتزِقة من أولياء الدوله، وحَضّ المُطَّوّعة من أهل المله، علىٰ ما أمر الله تعالىٰ به من غَزْو المشركين، وجهاد المُلْحدين؛ نافذًا فى ذٰلك بنفسه، وباذلا فيه

عزيزَ مُهْجته ، عنـد تسهُّل السبُل إلىٰ البِعْثة ، ووجُود الفُسْحة ؛ ومعوّلا فيـه عند التعذُّر علىٰ أهل الشّجاعة والرَّجاحة من أعيان أهل الإسلام الذين أيْقَنَتْ ضمائرهم ، وخَلَصتْ بصـائرهم ؛ ورغِبُوا فى عاجل الذكر الجميـل ، وآجل الأَجْر الجزيل ؛ وأميرُ المؤمنين يسأل الله تعـالىٰ أن يُجْرِيه فيما يُصْـدِر ويُورِد ، علىٰ أفضل مالم يزَلْ يُولىٰ ويُعَوّد : من التوفيق فى رأْيه وعَزْمه ، والتسديد فى تدبيره وحَزْمه ؛ ويؤتيه من ذٰلك أفضَلَ ماآتاه ولِيًّا آستخْلَفه ، وأميناً كفَّله عبادَه وكلّفه ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكّلُ وإليه يُنِيب .

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين ممن يُعِدّه لجلائل مهمَّاته ، ويَعُدُّه من أعيان كُفَاته ؛ ورآه سِدَادا للخَلَل ، وعِمـادًا فى الحادثِ الجَلَل ؛ وسَهْما فى كِنَانتِـه صائبا ، وشِهابا فى سماءِ دولته ثاقِبا ؛ وسيفْا بيَدِ الدين قاطِعا ، ومِجَنًّا عن الحَوْزة دافعا ــ رأىٰ ــ وبالله التوفيق ــ أن يُقدِّمك علىٰ جُيُوش المسلمين ، وبُعوثِهم الشاخصة إلىٰ جهاد المشركين ؛ فقلَّدك الحرْبَ والأحْداث بها ، وعقَد لك لواءً بيده يَلْوِى إليك الأعناق ، ويُنَكِّس لك رُءوسَ أهل الشِّقاق ؛ وشرّفَك بفاخِرِ مَلابِسه وحُمْلانه ، وضاعفَ لديْك مَوَادَّ إحسانه ؛ وحبَاك بطوْقٍ من التِّبْر ، مرَصَّع بفاخر الدُّرّ ؛ عادِقًا هذه الخدمةَ منك بالنِّصيح المأمون ، والنَّجِيح الميْمُون ؛ الذى تتوضَّح فيـه أنوار اللَّبابه ، وتلُوحُ عليـه آثارُ النَّجابه ؛ واثِقًا بمـا تَنْطوى عليـه من الإخلاص والوِلَايه ، وتَحلَّى به من الغَناء والكِفَايه ؛ وتفترِضه من الآستمرار علىٰ سَنَن الطاعه ، والآستقامةِ علىٰ سَمْتِ الآنقياد والتِّباعه ؛ وتُوجِبُه من مناصحة المسلمين ، والتشميرِ فى نُصْرة الدين .

فتقلَّدْ ماقلَّدك أميرُ المؤمنين مستشعِرًا تقْوىٰ الله وطاعتَـه فى الإسرارِ والإعلان ، معتقِدًا خِيفتَه ومراقبَته فى الإظْهار والإبْطان ؛ مخلِصَ القلب ، رابطَ اللُّبّ ، واثقا

بنصْر الله الذى يُسْبِغه علىٰ خُلَصائه ، ويُفْرِغه علىٰ أوليـائه ؛ آخذًا بوَثَائق الحزْم، متمسِّكا بعلائق العَزْم؛ ناظرًا من وراء العَوَاقب، متفرسا فى وُجُوه التجارب؛ مقلِّصا سُجُوف الآراء بإضْفَاء غِيَـار التدبير، مُمِـرًّا مرائر التقرير؛ مُوغِلا فى المَخَاتل والمكايد، حارسًا للطالع والمَرَاصد؛ يَقْظَانَ النفْس والناظر، متحرّزًا فى موقف الوانى والمُخَاطِر. وأن تتوجه علىٰ بركة اللهِ وعونْه وحسن توفيقه، ويُمْن تأييده؛ بعـد أن تتسلَّم من الجُيوش المنصورة جرائدَ بعِدّةِ رجال أمير المؤمنين السائرين تحتَ رايتك ، المُنوطين بسِياسـتِك؛ وتَعْرِضُهم عليها ، فتتخيَّرُ من شُهِرت بَسَالتُـه وكَفَاحه ، وعَتَق جَوادُه وكَمُل سِلاحه ؛ وعُرِف بِصِدْق العزيمة فى مُقارَعة الأعداء ، وحُسْن الطويّة فى الإخلاصِ والوَلَاء ؛ وتستَبْدِلُ بالوَرَعَ الجَبـان ، والرِّعديد الضـعيف الجَنَان ؛ الناقِص العُـدّه، المقصِّر النَّجْده؛ المدخُولِ النِّيَّـه، النَّغل الطَّوِيَّه(١) ؛ فإذا كملَت العدّة من أهـل الجَلَد والشَّهامه ، وأُولِى الحَمَـاسة والصَّرامه ؛ آسـتدعَيْت من بيت المـال ما يُنْفَق فيهم من مستَحَق أطماعهم ، ومَعُونة طريقهم ؛ وأجريتَ النفقةَ فيهم علىٰ أيدى عارِضيهم وكُتّابهم ؛ فإذا أزحْتَ عِلَلهم فاستصْحِبْ من العُدَد والسِّـلاح والخِـيَم والأزواد والأموال ما يُرْهِبُ الأعداء ، ويُنْهِض الأوْلياء ؛ وأَذِّنْ فى مُطَّوِعة المسلمين، بجِهاد المُشْركين؛ فى [كل] بَلْدةٍ تنْزِلهـا ، ومَحَلَّة تحُلُّها ؛ وآبذُلْ لهم الظَّهْر والمِـيرة والمَعُونة بالسـلاح وما يسـتَدْعونه ؛ وأرْهِفْ عزَائمَهم فى غَزْو الكُفّار ، وإجلائِهم عن الأوطانْ والدِّيار ؛ وآسْلُك الطريقَ القاصِد، ولا تُفارِقْ أهلَ المَنَاهل والمَوَارد ؛ ولا تُغـذَّ السـيرَ إغْذاذا تنقطِعُ له الرجال وتتأخَّرُ به الأَزْواد ، ولا تتلوَّمْ فى المَنَازل تلوُّما تتصَرَّم فيـه الآماد ؛ ويُوجدُ المشركين مُهْلة للاِحتيال والآستعْداد؛ وراع جَيْشَك عند الحَلِّ والتَّرْحال، ولاتُبَاعِدْ بين مَضارِبهِـم إذا نزَلُوا، ولا تمكِّنْهم

(١) فى الأصول المهروق الطوية ولم نجد هذه المـادة .

من التفرُّد إذا ٱرتحَلُوا ، وخُذْهم بالاِجتماع والاِلتئام ، والتآلُف والاِنتظام ، ولاسيَّما إذا حصَلُوا فى أرض العَدُو فإنَّهم ربمَّا ٱهْتَبَلُوا(١) الفُرْصة فى المَسير المتسَرِّع ، والمَبِيت المتفَرِّد ، ونالوا منه ماتُتَوسَّم به الهضيمةُ علىٰ أهل الإسلام ، والعياذ بالله .

وإذادانيتَ القومَ فأعطِ الحَزَامَةَ حقَّها ، مستعمِلا تارةً للدَّهاء والخِداع ، وأخرىٰ للِّقاء والقِراع ؛ فربمـا أغنَت المُساتَره ، عن المُكاشَره ؛ ونابتْ مَخايِل التَّلَطُّف ، عن مَداخل التعسُّف ؛ وكفتْ غوائِلُ المخادَعه ، عن مَواقِف المماصَعه ؛ وقدقال إمامُ الحرب ، وزعيمُ الطَّعْن والضَّرب : "الحَرْبُ خَدْعة" .

وإذا عزمتَ علىٰ المَصاع والمُنـاخه ، والإيقاع والمُكافحه ، فبُثَّ من سَرعَان الفُرْسان الذين لاتشُكُّ فى محض نُصْحهم ، ولا ترتابُ بِصدْق نِيَّاتهم ، طلائعَ تُطْلِعك علىٰ الأخبار ، وعيونًا تَكْشِفلك حقائقَ الآثار ، وتَغُضُّ الطَّرْف عن مجاورى الديار ، ومُرْ مَنْ تقدّمه عليهم بأن لا يقْتحم خَطَرا ، ولا يركَب غَرَرا ؛ وليكُنْ مَنْ تُنْفِـذه فى ذلك [من] أهل الخِبْرة بالطُّرُق والساحات ، والدخلات والأودية والفَجَوات ؛ حتىٰ لايتِمَّ للعدُو فيهم حِيله ، ولا ينالهم منه غِيله ؛ فإذا أتوْك بالخَبَر اليقين ، وأقبَسُوك قَبَس النُّور المبين ؛ بدأتَ الحرب مستخيرًا لله تعالىٰ ، مقدِّمًا أمامَكَ الاستِنْجاح به ؛ وٱستنزالَ النصرِمن عنده ، مرتِّبا للكتائب ، معبيًا للصُّفوف والمَقانب ؛ زاحفًا بالراجل محَصَّنا بالفارس والرامى مجْتنًّا بالتارس ؛ وٱشحَن القلبَ والجناحين بالشُّـجعان المستبقين ، والأبطال الحلاسين ؛ وأنزِل إلىٰ رحىٰ الحَرْب مَنْ خفَّ ركابُه من الأنجادِ الراغبين فى عُلُو الصِّيت والذكر ، الطالبينَ الفوزَ بالثواب والأجْر ؛ وٱجعـل وراءهم رِدْءا ، وأعدّلهم مَددا يُوازرونهم إن يجئهم مالايطيقونه ويَحِين(؟) ، ويُطايرونهم علىٰ

(١) أى ٱغتنموا الفرصة الخ .

ما خلص إليهـم وادعين ؛ وقِفْ من التأخير والإقدام ، والنُّفُوذ والإحْجام ، موقفًا تُعْطِى الحَزامةَ فيه حَظَّها ، والرويَّةَ قِسْطها ؛ مصَمِّما ما كان التصميم أدْنىٰ لانتهاز الفُرْصه ، واهتِبال الغِرّه ؛ متلوِّما ما كان التلومُ أحمدَ للعاقبة ، وأسلم للَغبَّة .

واعلم أنَّ ريح النصر قد تهُبُّ للكافرين علىٰ المسلمين ، فلايكُنْ ذٰلك قادحًا منك فى الدِّين . فإن الله تعـالىٰ يستَدْرِج بسُنَّة الباطل لابسُنَّة الإظفار ، ويُريهم الإقْدار فى مَخَايِل الأقدار ؛ حتّىٰ إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أوردتْهم كَواذبُ أمانِيِّهم مواردَ الهلَكه ، وأُخِذُوا بَغْتــة ، ودالتْ دولةُ الحق لأوليائها مرفوعةَ الأعلام ، آخذةً بنَواصِى العُدَاة والأقدام ؛ وتحقَّقْ أنَّ الأمورَ بخواتِيمها ، والأعمال بتَمَامِها ؛ وأنه ولىُّ [المؤمنين] . ماجمَعَ موقِفُ فِئَتَىْ شــكٍّ ويَقِين ، وكُفْر ودِين ؛ إلّا كان الفَلْج والنصْر لأهل التُّقىٰ والدِّين ، والخسارةُ والبوارُ علىٰ الشاكِّين الكافرين ، تصديقًا لوعده تعالىٰ إذ يقولُ : ﴿ولَقَدْ سَبَقَتْ كَلمتُنَا لِعِبادِنَا المُرْسَلِينَ إنَّهُمْ لَهمُ المَنْصُورُون وإنَّ جُنْدنا لَهُمُ الغالِبُون﴾ .

وتحفظ بنَفْسك ولا تُلْقِها فى المَهَـالك متهوّرا ، ولا تَرْم بهـا فى المَتالِف مُخاطِرا ؛ ولا تُساعدْها علىٰ مطاوعة الحميَّة والنَّخْوه ، وتحرّز قبْل السَّقْطة والهَفْوه ؛ فإنك ـ وإن كنتَ واحدا من الجيش ـ أوحَدُهم الذين يتبادَرُون إليــه ، ويعتمِدُون فى السياسة عليــه ؛ وما دمتَ محفوظًا ملحوظا فالهيبة عاليَه ، والعين ساميه ؛ وإن ألَمَّ بك ـ والله يعصمُك ـ خَطْب ، أو نالَك ـ والله يكْفيك ـ رَيْب ، توجَّه الخَلَل ، وأرْهف حدُّ الوَهْن والشَّــلَل . وإن دعتْك نفسُك إلىٰ الجهـاد ، وحملك تصرّفُك علىٰ الكِفَاح والجلاد ؛ فليكُنْ ذٰلك عنــدَ الإحجام ، وتَزَلْزُل الأقدام : فإنَّ ذلك يَشْـحَذ عزائمَ المسلمين ، ويقوّى شَكائم المتأخِّرين ؛ غيرَ مضيِّع للحَذَر ، فى الوِرْد والصَّدَر ؛ وكذٰلك فاحْرُس أماثِلَ القُوّاد ، ووجُوه الأجناد ، الذين تُشْفىٰ صــدُورُ الكفّار بمَصارِعهم ،

وتُنْقَع غُلَلهم بمَضايعِهم؛ وحامِ عنهم حِمايةَ الجُفُون عن المُقَل، وصُنْهم صيانةَ الصَّوارِم من الخَلَل؛ ودافِعْ عن كافة [جند] المسلمين المرتزِقين والمتطوّعين، فإنَّ الله تعالىٰ قد كافىٰ بينَ دِمائهم، وسوّى بين ضُعفائِهم وأقويائِهم؛ علىٰ أنه سبحانه قد وعدَهم عن بَذْل الأنفس فى مجاهدة المُلْحدين، وإبادة المشْرِكين، الجزاءَ الجسيم، والنعيمَ المقيم؛ والبقاءَ الذى لايعتوره فَناء، والجَذَل الذى لايعترضُه ٱنقضاء .

وقدِّمْ علىٰ الأساطيل والمَراكِب الحربيَّة وأعمالها ورجال البَحْر من تختاره لذلك من أماثل الأمَراء المشهورين بالشِّدّة والنَّجْدة، والبَصارة والمَهارة والخبْرة بشُقَّة البحر والقِتال فيه؛ ومُرْه بالتَّسحيل وملازَمةِ السِّيف والإرساء من الشُّطوط بحيثُ يتأمَّلُ مَضارِبَك، ليكون ماحُمِل عليها من مِيرةٍ وعُدّة قريبًا منك؛ فإنْ نازلتَ ثَغْرا من ثغور الساحل فاملأْه بالخيل من بَرِّه، وبالسفائن من بَحْره؛ وٱستخْدِم لحفظ مافيها من الأزْواد والأسْلِحة والعُدَد والنِّفْط ودُهْن البَلَسان والحِبَال والعَرَّادات وغيرها من الآلات مَنْ تَثِق بأمانته ومعرِفته . وتقدّمْ إليهم بالحَوْطة علىٰ مايخرجونه من العَوارى وٱسترجاعه بعد الغِنىٰ عنه؛ وٱستظهِرْ بذٰلك ٱستظهارا يُحمَدُ موقعُه لك، ويعرَفُ به رَصينُ رأْيك؛ وسديدُ مذْهَبك . وٱستخلِصْ لمجالستك من أهل الأصالة والحَزْم، والرَّجاحة والفَهْم، والدِّراية والعِلْم، والتجارِب فى ممارسة الحرُوب، وملابسة الخُطوب، من ترجع إلىٰ رأيه فيما أشْكل، وتعتمدُ علىٰ تجربتِه فيما أعْضَل؛ ولا تستبدّ برأيك فإنَّ الاستبدادَ يُعَمِّى المَراشِد، ويُبْهِم المَقاصد .

ولَمّا كانت الشُّورىٰ لِقاحَ الأفهام، والكاشفةَ لغَواشى الإبْهام، أمر الله تعالىٰ بها نبيَّه عليه السلام فقال : ﴿ وشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ فإذا عَزَمْتَ فتوَكَّلْ علىٰ اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتوكِّلين ﴾ .

ولا تُشاوِرْ جبَانا ولامثبِّطا عن انتهاز الفرصة الممكنة، ولا متهوِّرا يحملك على الغرّة المُهْلكة؛ وتأن فى الآراء فإنَّ التأنِّى يُجِمُّ الألباب، ويجْلو وجهَ الصواب، ويقلّص سُجُوفَ الارتياب؛ واضرِبْ بعضَ الآراء ببعضٍ وسَجِّلْها، وأجِلْ فكرَكَ فيها وتأمَّلْها؛ فإذا صرَّحَتْ عن زُبْدتها، وانشقَّتْ أكمامها عن ثمرتها، فأمض صحيحَها، واعتمد نَجيحها؛ وإذا استوىٰ بك وبالعدوّ مَرْحىٰ(١) الحَرْب فحرِّقْهم بنار الطَّعْن، وأذقْهم وبالَ أمْرِهم، وعاقبةَ كُفْرهم؛ ولا ترِقَّ لهم؛ واتّبِع ماأمر الله تعالىٰ به فى الغِلْظة عليهم، فإنه يقول: ﴿ يٰأيُّها الّذينَ آمَنُوا قاتِلُوا الّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ ولْيَجِدُوا فِيكُم غِلْظَةً واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾. فإن جنحُوا للسَّلم والمُوادَعة مصانِعين، فقابل بالقبول، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿ وَإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لَهَا وتَوَكَّلْ عَلىٰ اللهِ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾.

وابْذُلِ الأمانَ لمن طَلَبه، واعْرِضْه علىٰ من لم يَطْلُبه، وفِ لمن تُعاهده بعَهْده، واثبُتْ لمن تُعاقِده علىٰ عَقْده؛ ولا تجعل ما تُفْرِطه من ذلك ذَريعةً، إلىٰ الخديعه، ولا وَسيلة، إلىٰ الغِيلة: فإن الله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿ يٰأَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا أَوْفُوا بالعُقُود ﴾. ورسولُه صلى الله عليه وسلم يقول: "النّاسُ عِندَ شُرُوطِهِم" وإذا أعانك اللهُ علىٰ افتتاح مَعْقِل من مَعاقِل المشركين، واستضافتِه إلىٰ مابأيدى المسلمين، فارفع السيفَ عن قاطِنيه، واعتمد اللُّطْف بالمقيمين فيه؛ وادْعُهم إلىٰ الإسلام، واتْلُ عليهم ماوعد اللهُ به أهلَه من كريم المَقَام؛ فمَنْ أجابك إلىٰ استشْعار ظِلِّه، والاعتصامِ بحبله؛ فافرِضْ له ما تفرِضه لإخوانك فى الدِّين، واضْمُمْ إليهم من علماء المسلمين من يبصِّرهم ويُرْشِدهم، ويُثقِّفهم ويسدِّدهم؛ وخيِّرْ مَنْ آثر المُقَام علىٰ دينه بين تأديةِ الجزية، والاستعبادِ والمَمْلكة؛ فإن أدَّوُا الجزيةَ فأجْرِهم مُجْرىٰ أهل الذمَّة

(١) أى المكان الذى تدور عليه رحى الحرب.

المعاهَدِين، وخُصَّهم من الرِّعاية بمـا أُمِر به فى الدين، و إن أبَوْا ذٰلك فإن الله تعالىٰ قد أباح دماءَ رِجالهم، وٱستِعبادَ ذراريِّهم ونِسائهم، وٱبْتَنِ بالمَعْقِل مسجِدا جامعاً يجمَّع فيه بالمسلمين، ويُخطَب علىٰ مِنْبره لأمير المؤمنين، وٱرفَعْ منارتَه حتّٰى تعلُو علىٰ كنائس المشركين، وٱنصِبْ فيـه إمامًا يؤدِّى الصلاةَ فى أوقاتهـا، وخطيبًا مِصْقَعا يخطُب الناسَ ويعِظُهم، ومكبِّرين يَدْعُون إلىٰ الصلوات، ويَنبِّهُون علىٰ حقائقِ الأوقات، وقُوّاما وخُدّاما يتولَّوْن تنويرَ مَصابِيحه، وتعهُّد تنظيفه وفُرُشه، وأطلِقْ لهم من الأرزاق والجِرايات ما يبعَثُهم علىٰ ملازمتـه ويُعِينهم علىٰ خدمته، وٱحتَطْ علىٰ من يحصُـل فى يدِك من أسْرىٰ المشركين، لتَفدِىَ بهم مَن فى قبضتِهم من أُسَراء المسلمين، وإذا عرَضُوا عليك الفِداءَ فاحذَرْ من خديعةٍ تتِمُّ فيه، أو حيلةٍ تتوجَّه فى ٱفتكاك معروفٍ منهـم بمجهولٍ من أهل الإسلام، وإن كان الله تعالىٰ قد فضَّل أدْنياءَ المسلمين علىٰ عُظَماء المُلْحِدين، ولم يسوِّ بينهم فى دُنْيا ولا آخرةٍ ولا دِين، إلا أنَّ هذا مما يوجب الحَزْمُ الحَوْطةَ فيـه (١). وإن ظَفِرتَ بنَسِيب لطاغِيَتِهم المتملِّك عليهم أو خَصِيص به فاحمِلْه إلىٰ حضرة أمير المؤمنين، لِيُقرِّبهـا رهِينةً علىٰ مَنْ قِبَلهـم من المأْسُورين، وسبيلا إلىٰ ٱنْتزاع ما يبـذُلُونه فى فِدايتـه من المَعاقل والحُصُون. وقد أمضىٰ لك أمير المؤمنين أن تعقِدَ الهُدْنة معهـم إذا رَغِبُوا فيها علىٰ الشرائط التى تَعُود بعُلُوِّ كلمة اللّٰه، وتجمَعُ الخواطِرَ والاستظهارَ للدوله، فعاقِدْهم محتاطا، وٱشترط عليهم مُشطّا، وتحرَّزْ فى العقـد مِمَّا يُوجب تأوُّلا، ويدخِل وَهْنا، ويطرِّق وَهْيا. وتحفَّظْ بجَوالى المُعاهَدين والأموال المقْبُوضـة فى فِداء الغَلّات والغنائم وسَبْى المشركين حتى يُحْمَل ذلك إلىٰ بيت مالِ المسلمين، فينظُرَ أميرالمؤمنين فى تفريقه علىٰ مستحقِّه، وإيصاله

(١) اشتهر هـذا البناء على الألسنة وفى رسائل الأفاضل ولكن لم نجده فى كتب اللغة وإنمـا الذى فيها بهذا المعنى «فلان مُخِص بفلان أى خاص به وله به خصية» فتأمل .

إلىٰ مستوْجِبه؛ وٱفحَصْ عن أحوال المستأمِنين إليـك تفحُّصا يكشِف ضمـائرَهم، ويبلُو سرائرَهم؛ وتحرّزْ منهـم تحرُّزا يؤمِّنُك مكايِدَهم وحِيَلهم، وخدائِعَهم وغِيَلهم؛ وإذا نازلتَ حِصْنا من حصُون الكفار، فكن علىٰ يَقَظة من مَخاتِلهم فى الليـل والنهـار؛ وانصِبِ الحَرَس والأرْصاد، وٱحذَرِ الغِرّة ولا تُهْمِلِ الاعتداد: لتعرّف أعداءَ الله أن طَرْفك ساهِد، وجَنانَك راصِـد؛ وتفقَّدْ أمر الجيش وأزِحْ علّةَ من ترقُبُه فى الأطماع والمواكَدات، ومُطَّوِّعته فى المَعَاون والجِرايات؛ ولا تغْفُلْ عنهـم غفـلةً تضـطَرُّهم إلىٰ الانفِلال، وتدعُوهم إلىٰ الانفِصال؛ وأحسِنْ إلىٰ من حَسُن فى الكفاح أثرُه، وطابَ فى الإبلاء خَبَرُه؛ وعِدْه عن أمير المؤمنين بالحِبَاء الجزيل، والعَطاء والتّنْويل؛ فإنّ ذٰلك قادِحٌ لعزائم الأوْلياء، باعثٌ لهم علىٰ التصميم فى اللّقاء؛ فإذا أنتَ ـ بمشيئة الله ـ شفيْتَ الصُّدور، وٱحتذيْت المأمُور، وأعزَزْت الدين، وذلّلْت الملْحِدين؛ ودوّختَ البلاد، ونكّست رءُوس أهل العناد، فٱنقلِبْ بعساكر أمير المؤمنين، ومُطَّوِّعة المسـلمين، إلىٰ حضرته واثقًا بجميل جَزائه، وجليل حِبَائه؛ وطالِعْ فى مَوْرِدك ومَصْـدَرك، بمـا يجـدّدُه الله لك ويفتَحُه علىٰ يدك؛ وٱذْكُرْ ما أشـكل عليك ليُمِدّك أميرُ المؤمنيـن بالتبصير والتوقيف، والتعليم والتعْريف؛ وٱستعِنْ بالله فهو خيرُ معين، وتوكّلْ علىٰ الله فإنه نعم الوكيل.

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، فٱعمَلْ به وٱنتهِ إليه يسدِّد الله مَساعيَك، ويصوّب مَراميَك؛ إن شاء الله تعالىٰ.

قلت: وأورد فى خِلال ذلك من تقاليـد أرباب السـيوف جملةً أسـقَط من صدرها التحميدات.

ماأورده فى رسم تقليد الإمارة علىٰ قتال أهل البغى أن يُقال بعد التحميد مامثالُه:

وإنَّ الله تعالىٰ أوجبَ طاعةَ أُولى الأمْرِ علىٰ كافَّة المؤمنين، وأكَّد فرضَها علىٰ جميع المسلمين، فقال جل قائلًا : ﴿ يأَيُّها الَّذين آمنُوا أطِيعُوا اللهَ وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُم ﴾ . علمًا منه تعالىٰ بأنَّ الطاعة مِلاكُ الأمرِ ونِظامُه، ومِساكُ الجُمْهور وقِوامُه، وأنه لاتِتمُّ سياسةٌ مع الشِّقاق والانحراف . وأمر سبحانه باستِتابة من ألقىٰ العِصْمة من يَده، ونبذَ الطاعةَ وراء ظَهْره، بشافى المَوَاعظ والتبصير، ونافع التنبيه والتذكير، فإنْ أقلَع وتاب، ورجَع وأناب، وإلا جُوهِد وقُوتِل، وقُوبِل بالرَّدْع حتّى يُقْبِل ويعتصمَ بالطاعه، وينتظِمَ فى سِلْك الجماعه، فقال تعالىٰ: ﴿ وإنْ طائفتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بيْنَهُما ﴾ . وقال : ﴿ فقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّٰى تَفِىءَ إلىٰ أمْرِ الله ﴾ . وإنَّ الغُلاة(1) فارقُوا اجتماعَ المسلمين، وانسلخُوا من طاعة أمير المؤمنين، نابِذين لبَيْعته، شائين بُطْل دعوته، وشقُّوا عصا الإسلام، واستخَفُّوا محمل الحرام، واستوطَئُوا مَرْكَب السيئات والآثام، وعرَّجوا عن قَويم السَّنَن، وسَمَّوْا بأراذل البِدَع أفاضلَ السُّنَن، وسعَوا فى الأرض بالفَساد، وجاهَروا بالعِصْيان والعِناد، وكاتَبهم أميرُ المؤمنين مبصِّرا، ومُعْذِرا مُنْذِرا ومخوِّفًا محذِّرا، ودعاهُم إلىٰ التى هى أصلَحُ فى الأُولىٰ والأُخْرىٰ، وأربح فى البَدْء والعُقْبىٰ، وأعلمهم أنَّ الله تعالىٰ لا يقبل صلاتَهم ولا صِيامَهم، ولا حَجَّهم ولا زكاتَهم، ولا يُمْضى قضاياهم ولا حُكوماتِهم، ولا عقودَهم ومُناكحاتِهم، ما داموا علىٰ معصيةِ إمامهم، ومُفَارقة ولىِّ أمْرِهم، الذى أوجبَ عليهم طاعتَه، وفرض فى أعناقهم تِباعتَه، وتابَع فى ذلك مواصلا، ووالاه مُكاتِبا ومُراسِلا، فأصَرُّوا علىٰ العقُوق، واستمرُّوا علىٰ اطِّراح الحُقُوق، ودعَوْا إلىٰ الأسْوَإ لها من إقْدام الجُيُوش عليهم، ونَقْل العساكر إليهم، ومقابلتِهِم بما يقوِّم أوَدَهم، ويُصْلِح فاسدهم، ويَزَع جاهلهم، ويُوقظ غافِلَهم .

(1) فى الأصل الغلاب وليس بواضح المعنى والمراد البغاة .

و إنّ أمير المؤمنين تخيّرك للتقدّم على الجيش الهاتف نحْوَهم : لما يعلمه من شَهامتِك وصَرَامتِك ، وسَـدادِك وسِياستِك ، و إخلاصك ووفائك ، وكِفايتك وغَنـائِك ، (ويوصف بما تقتضيه منزلته ، والأمر الذى هو أهْل له) .

وهو يأمُرُك أن تقدم النفوذ إليهـم ، مستنْجِحا دعاءَ أمير المؤمنين ، مستنْزِلا لصُرُوف الغالبين ؛ مستشعِرًا لبـاسَ التقوىٰ ، فى الإعلان والنَّجْوىٰ ، فإذا نازلْتهـم فى عُقْر دارهم ، فأذِقْهم بالمضايقة و بالَ أمْرِهم ؛ وٱسْلُكْ بهم سبيلَ أمير المؤمنـين وٱفتَتِحْهم بالإرشاد ، وحُضَّهم علىٰ ما يقضى بصَلَاح الدنيا والمَعَـاد ؛ فإن ٱستقاموا وتنصّـلُوا وراجعُوا ورجعُوا فأعطِهم الأمان ، وأفِضْ عليهـم ظِلَّ الإحسان ؛ و إن أصَرُّوا وتمرَّدُوا ، وجاهدُوا وٱعتَدوا ، فشمِّرْ لمنازلتهم ، وصَمِّم فى مقاتَلَتهم ؛ واثقًا بأن الله تعالىٰ قد قضىٰ بالنصر لأولياء أمير المؤمنـين وأهل طاعتِه ، والخِـذْلان لأعدائه وأهل مَعْصيتِه ؛ إبانةً بذلك عن تأييده لمن ٱعتَصَم بحبله ، ودفْعه لمن ٱنسلخ من ظِلِّه ؛ وحُجّةً بالغـةً لمن تمسَّك بطاعته ، وموعظةً شافيةً لمن ٱستخَفَّ بحَمْـل معصيته ؛ فإن ملَّكك الله تعالىٰ البلاد ، وطَهَّرها من أهـل الفساد ؛ وشَرِّد عنها الدُّعَّار والأشرار ، إلىٰ أقاصِى الدِّيار ؛ فٱجْبُبْ نَواعِقَ الفِتنة والضَّلاله ، وعَفِّ آثارَ ذَوِى الغىّ والجَهَاله ؛ وأسْبِـغ الأَمْن علىٰ أهـل السَّلامه ، وأفرِغ العدلَ علىٰ مَنْ سلك سبيلَ الاستقامه ؛ وأجْرِ الأمْرَ فى الخُطْبة لأمير المؤمنـين علىٰ الرَّسْم المحدُود ، والمَنْهَج المعهود ؛ وطالِعْه بمـا ٱنتهيتَ إليه ، ليكاتبَك بمـا تعتمدُ عليه .

و يضمَّن هذا العهد مايقع فيه من شروط العهد المتقدّم ، و يُؤْمَر أن لايستصحب من الجُند إلّا من يثِق بإخلاصه وصفائه ، ويَسْكُن إلىٰ أمانته ووَفَائه ؛ وأن يرْفُض المدخول النِّيه ، النَّغِل الطويَّه ، فإنه لاشيءَ أضَرُّ علىٰ المحاربة من لقـاء عدوّ بجَيْش

مُخامِرين، وجند مُمَاكِرين ؛ وقد يكون فى العساكر مَنْ يُداهِن ويظهِر الخدمة وهو فى مثل العَدُوّ : إما لأنّ بينهما سالِفَ وِداد وولاية قد تأصّلتْ بإطاع وإفساد ، أو يكون لسلطانه قليلَ الإحماد . وهذا الذى أوردناه ليس بمثال جامع وإنما هو الذى يتميز به هذا العهدُ عما تقدمه، والكاتبُ إذا آحتاج إلىٰ آستعماله رتّبه وقدّم مايجب تقديمه، وأخر مايجب تأخيره و [أضاف اليه ماتجب] إضافته، إن شاء الله تعالىٰ.

* * *

وهذه نسخة سجلٍّ بولاية مصر، وهى :

الحمدُ لله، الموفِّق إلىٰ دواعى رضاه، المحسِنِ العونَ علىٰ ماأوجب المزيد من إفضاله وآقتضاه ؛ المثيبِ علىٰ ماهدىٰ إليـه من طاعتِه ، القابلِ عملَ مَن آستنفَدَ فى الشكر أقصىٰ طاقتِه ؛ المتكفِّلِ بمصالح عبادِه، المُولِى من مواهبه ماتعْجِز الخواطرُ والألسنةُ عن تَعْداده ؛ وصلّى الله علىٰ جدّنا محمدٍ الذى جعل آتّبـاعَه سبيلًا إلىٰ سَكَن جَنَّـات الخُلُود، وآلَتْ بهداه نارُ الكفر إلىٰ الهُمُود والخُمُود ؛ وأنقَذَ من مَهـاوِى الضَّلال، ووَسَم مَنْ حادَّه وحادَ عن سبيله بالصَّغار والإذْلال ؛ وخَلَّفَ فى أُمَّته الثقلين كتابَ الله وعِترتَه ، وأبقى بهما فيهم آيتَه وهدايَتَه ؛ وعلىٰ أخيه وآبن عمِّه أبينا أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب مُبْرِم أسباب الشريعة ومُحكِمها، ومُطْلِق سيوفه فى نُفُوس أعداء الملة ومُحَكِّمها ؛ وبابِ مدينة علم النُّبوّة التى لايُدْخَل إليهـا إلّا منه، وسيدِ من عَنَاهم الله بقوله : ﴿ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْه ﴾ وعلىٰ آلهما الأئمة الهُداة قُوَّامِ الإسلام، وساسـةِ الأنام ؛ وخُلَفاء الله فى أرضـه ، والمُوفين بعهده والآمرين بأداء سُنَّته وفَرْضـه ؛ ورُكْنِ العصمة الذى مَنْ لجأ إليـه نَجا ، والحِصنِ الذى ماخابَ من أمَّه فَرَجًا منه فَرَجا ؛ وسلّم وعظَّم ، ووالىٰ وكَرَّم .

وإنّ أمير المؤمنين لمـا أوْدَعه الله إيَّاه من أسرار الحكمـه، وآجْتباه له من إمامة الأُمَّه، وآختاره له من كَلَاءة الخليقة وإيَالتها، وحفْظ حَوْزتها من المَخاوف ورعايتها، وما خصَّه به من بُنُوة النبوة والرِّساله، وأفردَ به رأيه من الجَزالة والأصاله، وآكتنفَ به أنحاءَه من التوفيق الذى لا يَصْدِف عن غرض الإصابة ولا يَحِيد، وعضَّده به من التأييد القاضى لعَزائمه ببلُوغ الغَرض فى نُصْرة التوحيد، وآستوْدَعه إيَّاه من الإقبال الذى يجعل المستحيل لمُراده إمْكانا، والتأييد الذى أوضح به لإمامته بُرْهانا، وتوحَّده به من العِصْمة التى تُصِيب بها مَراميــه مواقعَ الرَّشاد، وتضْمن الخِيَرة لمـا يُعانيه من الأُمور ممـا سَـدّ وساد - يُعْمِل خواطِرَه فيما يكْفُل للنفوس بِرِضاها، ويُجْزِل للدّين والدنيا به حِظَاها، وتتظاهرُ به ضروبُ الصــلاح علىٰ الأمه، وتحيا به سُنَن الخيرات وتتِمُّ النعمه، وينظُر لمن آستوْدَعه الله إيّاهم من بريّته نظرَ المؤدِّى الأمانةِ إلىٰ مؤتَمِنه، المستَوْدَع فيما يُتقرّب به إليه من البرِّ شُكْرَ سوابِـغ مَنائحه ومِنَنه، ويُقرّب علىٰ الأمة مَنالَ الخير بآصــطفائه مَنْ يكون لأفاضل الشِّـيَم مستكملا، وإلىٰ ما أزْلفه إلىٰ الله سبحانه من طاعةِ أمير المؤمنين متوصِّلا، ولسَوَادِّ الثناء بفاضل سِيرته متحلِّيا، وللتسَمُّح فى قوانين السِّياسة مجتنبا، ولمـا علم [رَغْبَة] الرعية فيه منتصبا، وفيما بلَّغهم أقصىٰ الآمالِ متسبِّبا، وبمراقبة الله فيما يأتِى ويَذَر متديِّنا، وبحُسْن الجزاء علىٰ العمل بمَرْضاته متيقِّنا : ليكون أمير المؤمنين قد قضى [ماأوجبــه عليه] مستخْلِفُه بآجتبائه وآصطفائه، وآستَحْمَد إليه بإسناد جلائل الخِدَم إليه وآســتِكْفائه، وأتىٰ ماتكون السلامةُ مضمونةً فى مَباديه وعواقِبه، وأَحْظىٰ بنيل المُراد فى جميع جهاتِه وجَوانبه، مستديمًـا نِعَمَ الله التى أسداها إليه وأَوْلاها، مُواصِــلا حمدَه علىٰ مِنَنه التى ظاهرها عليه ووَالَاها، ويستعينُه علىٰ لَوَازم عوارِفه التى من أجَلِّها خَطَرا، وأحمدها فى البريَّة أثرا، وأجْمَعِها لمَنافع الخـاص والعام، وأعْودها بحماية حَوْزةِ الإســلام، وأشهدها

ببراهين الأئمّه، وأدلّها على عناية الله بهذه الأمّه، مامُنِحَه أميرُ المؤمنين من مُوازرة فَتاه ووزيرِه، ومعينِه على المصالح وظهيرِه؛ السيدِ الأجل العادل أميرِ الجُيوش أبي الحسنِ عليٍّ الظافريّ، - والدعاء - الذى أظهر اللهُ به لأمير المؤمنين آياتِ حُقُوقه، وآستأصل ببأسه شأفةَ من تتابَعَ فى مُرُوقه وبالغ فى عُقُوقه؛ وكسا الدهْرَ بإيالته مَلابِسَ الجَمال، وفسّح بفاضل سِيرته مجالَ الآمال؛ وبذَلَ من الجهاد غاية الآجتهاد، ووالىٰ من عِمارة البلاد ماأنْطق بحمده الجَماد، وآستخْلَص نخائلَ الصُّدور بلُطْف سياستِه ووُسْع عدله، ورغِبتْ غرائبُ الآمال فى الإيواءِ إلى سابغِ فضلِه؛ وتبارَتِ الليالى والأيامُ فى خِدْمة أغراضِه فى أعاديه، وآسترَقَّ قلوبَ الأولياء بما يُواليه من بِيضِ أيادِيه؛ ووضَع الأشياءَ فى مواضِعها غيرَ محُابٍ ولا مرخِّص، ولم يَحْظَ بأيامه النيِّرةِ غيرُ الطائع المخْلِص؛ ولم يَنْفَق للباطل سُوق، وأتت سيرتُه بما يُرضِى الخالقَ والمخْلُوق؛ فاللهُ تعالىٰ يجعل مدّتَه غيرَ متناهيةٍ إلى مدىٰ، والنصرَ والتوفيقَ لآرائه مَددا؛ ويخلِّدُ أبدا سعْدَه، ويُنْجِز لأمير المؤمنين علىٰ يدِه وَعْدَه .

ولما كانتْ منزلتُه عند أمير المؤمنين المنزلةَ التى تتطامَنُ دُونَها المنازلُ والرُّتَب، وجلّتْ أن ينالَها أحدٌ ممن بَعُد أو قَرُب؛ وأفعالُه قُدوةً يُهتدَىٰ بأمثالها فى الشُّكوك، وسِيرتُه قد عظُمتْ عن أن تَتعاطىٰ مماثلَتَها هِمَمُ الملوك؛ ومحلُّه عندَه من الكمال بحيثُ تَسْتحكِم الثِّقةُ بآختياره، ويُرجَع فى عقد الأمور وحَلّها إلىٰ آتّباع آثاره ومُوافقة إيثاره؛ وكانتْ مَراتبُ الأولياء عندَ أمير المؤمنين بحسَبِ مَراتِبهم من قُرْبه، وموضِعُهم من رضاه مُضاهِياً لموْضِعهم من قَلْبه؛ ومكانُهم من الحُظْوة لديه مُناسِبا لمكانِهم من الزُّلْفة عنده، وأحقُّهم بسَناء الرُّتَب من أقبسه زَنْدَه وكساه مجدَه، ولاسيّما مَنْ لم يَخرُجْ منه عن حُكْم الولد، وحلَّ منه محلَّ القلْب من الكَبِد، ونشَأَ فى دَوْحته غُصْنانضيرا، وطلَع فى سماءِ جلالِه قمرا مُنيرا، وآعتلىٰ بجِدّه، وقطَع بحَدّه، وتظاهرَتْ

شواهدُ سعْدِه فى مَهْده ؛ وكنتَ أيها الأميرُ الحاوِىَ لهـذا الفضل المبين ، المعتلِقَ من ولاءِ أمير المؤمنين بالحبْل المَتين ؛ الذى نشأ متوقِّلا فى دَرَج المَعالى ، وغدا متقيِّلا فى ظِلال الصَّوارم والعَوالى ؛ وأخذتَ بمَرَاشد السيدالأجلِّ العادِل فزِدْتَ عن الظُّنون وأوْفيْت ، ووعدَتْ عنك فصَدّقْتَ ضمانَها ووَفَّيت ؛ ومازِلت بعيْن الإجلال والتعظيم مَلْمُوحا ، و بأفضلِ خِلال الرُّؤساء ممنُوحا ؛ و بجَلَائل المراتب مُؤهَّلا ، و بلسان الإجماع مفَضَّلا ؛ ولمَـا أعيا من أدواء النِّفاق حاسمـا ، وفى مَواقف المَخاوف رابطَ الجأش حازِما ؛ ولمـا يَعُدّ الأماجِدُ له مذْخُورَ المَضاء ، وفيما تُعانيه وتلابِسُـه مُوفَّق الآراء ؛ وقد آكتنفَك من آتِّباعك هَدْىَ السـيدِ الأجل العادل ــ أدام الله قدرتَه وولاءَه ــ ناصر الدين ، الأجل المظفَّر المقدّمِ الأمين ؛ سيفِ الإمام ، ركنِ الإسـلام ، شرفِ الأنام ؛ فخرِ المُلوك ، مقدّمِ الجيوش ، ذى الفضائِل ، خليل أميرالمؤمنين ؛ أبىالفضائل عبَّاس الظافرىّ العادلىّ ، أدام الله به الإمتاع ، وعضَّده وأحسَنَ عنه الدِّفاع ، الذى هو فخرُ المُلوك ونجْلُهـم ، وأثْراهم من المفاخر وأجَلُّهم ؛ وأقدَمُهم فى الرياسـة قَدَما وأعرَقُهم ، وأطيَبُهم أرجَ ثنـاءٍ وأعبَقُهم ــ ماجعلك أعلىٰ الأعيـان مَفْخَرا ، وأكرَمَ الجواهِرِ عُنْصُرا ؛ وأولاهم بآلاءِ أمير المؤمنين وعَطائِه ، وأسبَقَهم فى مِضْمار آختياره وآجتبائِه ؛ وأثبَتَهم عندَه مكانَه ، وأحْراهم فى خِدَمه بتأدية الأَمانَه ؛ وقد عَرَف من مَوَاقفك المشْهوده ، ومَقاماتك المحْموده ؛ ما كان منـك فى نَوْبة آبن مَصَّال وجُمُوع ضَـلاَله ، وما آستفاضَ من كَوْنك سببَ آنهزامه وآنفلاله ؛ وآنقلابِ تدبيره عليـه وآنعكاسه ، والتفريق بين جسَدِه وراسِه ؛ وحصل لك بذٰلك من إحماد أمير المؤمنين ما لايبلُغُ الوصفُ مَداه ، إذ كان قد جرّد سـيْفَ نصرِ والدك الأجل المظَفَّر وأنت حَدّاه ــ رأىٰ أمير المؤمنين ــ وبالله توفيقُه ــ أن لايُضيِّع مافيك من جَوْهرٍ مكْنُون ، ولا يرجِعَ فى أمرِ نَباهتِك إلىٰ ماتَدُل عليـه السِّنُون ؛ إذ كنتَ للكمال مع فَتَاءِ السِّنّ

حائزا ، وبمزيّة اصطناع أمير المؤمنين واختياره إيّاك فائزا ، وفاوض السيدُ الأجلّ العادل ـ أدام الله قدرته ـ فى تشريفك بولاية يكشف بها شُفُوفَ جوهرك ، ويُوضّح لكافّة البريّة بمباشرتك إيّاها ما استقرّ عنده من جميل مُختبَرك ، ووقع التعيينُ على تقليدك ولايةَ مصر وما مع ذلك من الصّناعتين وغيرهما من حقوقهما . فأمضى أميرُ المؤمنين ذلك لما لهذه الولاية من الحُظْوة بالقُرْب والدُّنوّ ، وليوفّر على الإيثار على أن يبلّغ نظرك إلى غايات العُلوّ والسموّ ، وخرج أمرُه إلى ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجل بتقليدك الخدمةَ المذكورة : علمًا بانتظام شُئُونها بإيالتك ، وحياطة حَوْزتها بسطاك ومَهابتك ، وتحقّقًا أنّ بسياستك تعُمُّها المصالح ، وتتظاهرُ عليها الميامنُ والمَناجح ، وتظهر لها الحجةُ فى الافتخار ، على سائر الأمْصار ، وتستأنف بمُقارنتك من الميزة ما لم تَحْظَ به فيما سلف من الأعصار ، ويتّضح بك البرهانُ لمن بالغ فى تفضيلها ، وتَنال من فائض العدل بسيرتك ما تكاد تَغْنَى به عن نيلها .

فتقلّد ما قلدك أميرُ المؤمنين من ذلك : معتمدًا على تقوى الله الذى إليه تصيرُ الأمور ، ويَعْلَمُ خائنةَ الأَعْيُن وما تُخْفِى الصُّدُور ، قال الله تعالى فى محكم كتابه المبين : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ . واجعَلْ من تحويه هذه المدينةُ بالعدل مشمولين ، وعلى أجمل السِّيرة والرسوم محمُولين ، وساوِ فى الحكم بين الشريف والدَّنىّ ، وآسِ فى المقدار بين المِلِّىّ والذِّمّىّ ، وأقِم الحدودَ على من تجب عليه بمقتضى الكتاب وصحيح الآثار ، ولا تتعدّها بإقلالٍ ولا إكثار . وفى هذه المدينة من ذَوِى الأنساب ، وأعيان الأجنادِ ومتميّزى الكُتّاب ، وأماثل الشهود : فاعتمِدْ تمييزهم والاحتفاءَ بهم ، ومعونتَهم على مَطالبهم ومحابِّهم ، وكذلك مَنْ تضمّنت هذه الولايةُ من التُّجّار والرعية . وتوخّهم بما يُسكّن جاشهم ، ويُزيل استيحاشَهم ، ويَفْسَح لهم فى الرجاء والأمل ، ويُعينُهم على صالح العمَل . وتقدّم بحفظ الجامع العتيق وصَوْنه

وتوفيره ، علىٰ مايليقُ به وتوْقِيره؛ وآمنَعْ من آبتذاله فى غير ماجُعِل له ، ونُصب له ، من الإعلان بذكره فيــه وأهله ؛ ووفِّر تامَّ العِنايه ، وشاملَ الرِّعايه ؛ علىٰ مَنْ به من الفُقَهاء والعلماء ، والمتصدِّرين والقُرّاء ؛ وحُضَّهم بالتكرمة علىٰ المبالَغةِ فى طلب العُلُوم ، والتزوّدِ من صالح الأعمال ليومِ الوقتِ المعلوم ؛ وخُذْ جميع المســتخْدَمين معك بلزوم الطرائق الحميده ، والمقاصد المستَوْفقة السدِيده ؛ فمن آستمَرّ علىٰ ماترضاه من آجتهاده ، وتستوفقُه من صواب آعتمادِه ، أجريتَه علىٰ رَسْمه فى الرعايه ، وتوخَّيتَه بالصون والحِمَايه ؛ ومَنْ كان بالخدم مُخِلّا ، وسلوكُه عما يلزمه ضالًّا مضِلّا ؛ فأوعِزْ بتأديبِه ، وما يقضى بتقويمه وتهذيبِــه ؛ والثِّقــة بوُفُور حظِّك من الصواب ، وإجرائك علىٰ مايُناط بك علىٰ الآستِتْباب ، أغنىٰ عن الإطالةِ لك فى الوصَايَا والإسهاب ؛ والله تعالىٰ يقرُنُ الخير بمـا تنظُر فيــه ، ويجعل التوفيقَ مضمُونا فيما تَذَره وتأْتِيه ؛ ويُنيلك من رُتَب السعادة ما أنتَ له أهْل ، ويُتِمُّ نِعمتَه علَيْكَ كما أتمَّها علىٰ أبَوَيْك من قَبْل ؛ فاعلَمْ هذا وآعملْ به ، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

ومن السجِلّات بالوظائف الدينيَّة علىٰ هذه الطريقة ماكَتَب به القاضى الفاضل عن العاضد بولاية بعض القُضاة ، وهو :

الحمدُ لله الواســعةِ عَطايَاه ، الوازِعةِ قضَاياه ؛ المشتملةِ علىٰ أقسام الخلْق قِسَمُه ، المبرُورِ فى سُؤالهم يومَ فصلِ القضاء قَسَــمُه ؛ المسطورِ فى كتابه الذى مافرّط فيه من شيء مُحَلَّلُ الشرع ومُحَرَّمُه ؛ المتمثِّلِ فيه لمن مَثَلُه مُطاعُ الأمر ومسلَّمه ؛ الكريمِ الذى لايُضِيع ثوابَ العاملين ، ولايقْطَع أسبابَ الآملين ، ولايمنعُ طِلَابَ السائلين ؛ العدلِ الذى قامتْ حجّتُــه علىٰ الناكبين والعـادِلين ، والحقِّ الذى يقْضى بالحقِّ وهو خيرُ

الفاصلين؛ مُصَفِّى مَشارع الشريعةِ من أعراض الكَدَر، وحامِى مَعاقل المِلَّة من آنتقاض المَدَر، ومنزِّه أوليائه من مَحَاسنها فى رياض الفِكَر، ومعترِفهم بما عرض عليهم من إنافتها لآرتياض النظر، وآرتكاض الفِطَن والفِطَر؛ جاعل الحُكْم سلطانه الذى يَأْوِى اللهِيفُ إلىٰ ظِلّه، وحماه الذى يلْجَأ الضعيف إلىٰ عَدْله؛ ومَفْزَع الرائِع(١) الذى يقِفُ المشروفُ والشريفُ عند فصْله، وشفاءَ العلل الذى يَذْهَب بكل [مافى] صَدْر من عِلّه؛ ومَشْرَعَ الإنصاف الذى يُفْضِى إلىٰ الظَّمَإ فيضُ سَجْله، ومَوعِدَ الخلائق يوم تُطْوىٰ السماءُ كطَىِّ سِجِلّه، ومُظْهِره لَيُظْهَر به هذا الدينُ علىٰ الدِّين كُلّه؛ والآمِر فيما أشكل منه بالتعريج إلىٰ مستَنْبِطه من أهله، وجاعِل الأئمة الهادين الحُجَج علىٰ مَنْ رجع إلىٰ قياس عقله أوتقليد جَهْله؛ وأحدَ الثقلين الذى يخفِّف عن كُلّ غارب كل ثِقْله، وأخوه الكتابُ فلن يفترِقا حتّى يردَا الحوضَ يوم نَهْله وعَلّه؛ وصراطَه المستقيمَ الذى من أتىٰ اليومَ فيها بزَلّة رأيه أتىٰ غدا بزلة فِعْله، ومَنارَ الأنوار المضروبَ علىٰ طُرُق السارى فى ليل الضَّلال وسُبْله، وسبَبَ العصمة التى أشار فيها إلىٰ الآعتصام بحَبْله؛ وصلَّى الله علىٰ جدّنا محمد الذى عَظُم به جَدُّنا، وآعتلَق بسَبَبِه مَجْدُنا؛ ووجبَ به علىٰ كل من وَادّ الله ورسولَه وُدُّنا، وأَوْرثنا من علمه ماحاز لنا شَرفَى الدين والدُّنَا؛ وحلم به نجير من ضاقَتْ به المذاهبُ فرجا فرجًا، وحكَّمه المشركُون فيما شَجَر بينهم فلم يجِدُوا فى أنفُسِهم بما قضىٰ حَرَجا؛ وعلىٰ أخيه وآبن عمِّه، القائم مَقَامه بفصْل حكمه وفَضْل عِلْمه؛ أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى حُرِز له من المكْرُمات لُبابُها، وطابت بغُبار حلمه إقامةُ الألباب وإلبابُها؛ وميّزه علىٰ الكافّة بقوله : "أنا مَدينةُ العِلْم وعلِىٌّ بابُها" وشهِد طورًا بأنه

---

(١) أى الخائف .

أفتاهم، فعلِم أنه أقربُهم به شبَها وفى مَدىٰ الفضل أقْصاهم؛ وعلىٰ الأئمة من ذرّيتهما الذين أنعَمُوا فأجزَلُوا، وحكَمُوا فعـدَلُوا؛ وحُمِّلُوا ثِقْـلَ الأمانة فحمَلُوا، وجاهَدُوا فى سبيل الله فعلَوْا بمـا فعلُوا؛ وآستوجبُوا الحمدَ بمـا أوْلَوْا والأجرَ بمـا وُلُّوا؛ صلاةً مأمونةً من الشُبُهات، متوضِّحة الشِّيات .

ولمـا كان حُكْمُ الصواب فى الحُكْم بين النـاس أن يُختارَ مَنْ بانَ صوابُه وٱتَّضَح، وبان عنـه حكْمُ الهوىٰ الذى فَضَح؛ وأصغىٰ ضميرَه إلىٰ لسان الحـقِّ الذى فَصح، وعُرِض جوهرُه علىٰ مَحَكِّ النَّقْد فصَحّ؛ ومُيِّزَ بينه وبينَ الرجال فثقُل وَزْنا ورَجَح، وآحتجَّ به الإسلامُ علىٰ من نَوىٰ مُناواته فنَجَح؛ ووَلِىَ الأحكامَ بين المسلمين فأصْلح وصَلَح، وتسَمَّح إذا كان الحقُّ له وإذا ما كانَ فيه فما أسمَح[(١)] ولا سَمَح؛ وجدّد جِدُّه من مَعَالم العلوم ماصَحَّ رسمُه وأمَّح[(٢)]، وأطلعتْه علىٰ خَفَايا المشـكلاتِ بَديهةُ فكْره لَمَّا لَمح؛ وملكَ عِنانَ هواه رأيُه فجَنَح إلىٰ هواه وما جَمَح، وشرَح صـدرَ الآختيار بمـا ملأ الأخيارَ من محاسنه وشَرَح، وتعالىٰ الآقتراحُ لهذه المرتبة فكان وَفْقَ ما أراد وفوقَ ما آقترَح؛ وتشبَّث بعينِ الأعمـال الصالحةِ وتمسَّـك، وتنَزَّه عن داءٍ يلازِمُها وأعراضٍ تَشينُها وتنَسَّك؛ وكثُرَ الخوضُ فى الباطل فإما صَدَع بالحق وإمّا أمْسَك، وأعدىٰ فَصْلَه وفَضْلَه علىٰ من شَكَا أو شَكّ؛ وغضَّ عينَيْه عمَّا أُعْطِى سِواه ومُتِّع به، وآشترىٰ طُولَ راحته بتَصيبه الآنَ من نَصَبِه، وحسره (؟) النعمة من تَعَبِه؛ وأيس الظالِمُ من مُمَـالاته ومُبالاته، وطمِع المظلومُ بقُرْب إعاناتِه وبُعْد إعْناته؛ ومَرَّ مُرُّ الدهرِ وحَلاَ حُلْوُه فلم يشهَدْ باستِمَـالاته عن حالاته، ولم يرْضَ أحدبه حُكْمَ صَرف دهرٍ يجرِى بأذاته؛ ولا كشفَتْ منـه التجارِبُ إلا عن البَصائر التى تَرُوق السَّماع

(١) أى فا آنقاد ولان ولا سمح أى جاد وسخا .

(٢) أى درس وعفا . انظر اللسان .

والنُّظّار، والحسناتِ التى قضَتْ بصائرُها بقضاءِ مناظَرة الأنظار، والديانةِ التى عَمَرت المحارِيبَ فى الليل وأطرافِ النهار، والأمانةِ التى ٱستمسك عَقْدُها فما خِيف عليه أن يَتَداعىٰ ولا أن يَنْهار، والصيانةِ التى ٱستوىٰ فَوْقَ مَرْكَبها فحَلَّت بجنَّاتِ عَدْن تجرى من تحتِها الأَنْهار .

ولمَّا كنت أيُّها القاضى ملتقىٰ هذه الأوصاف وطَيِّعَها، ومَشْرِقَ نحرها ومَطْلَعَها، ومَلْقىٰ عصا ٱرتيادِها ومَنْجَعَها ، ومَوْرِدَ فَرَط تلك الأموالِ ومَشْرَعَها، ومُرادَ هـذه السِّمَات التى تَقَعُ منك موقِعَها، وتألَفُ عندَك مَوْضِعَها، وأصلَ هذه المحامِدِ التى إن ٱستَعْلَقت بسِواه فمنه فَرَّعها، وقارِعَ صَفاةِ هذه الذِّروة التى ما كان لغيره أن يَقْرَعَها، ومن تَعُدّه الخناصرُ أتقىٰ كُفاةِ الرتب وأوْرَعَها، وأبلجَ أُباة الرِّيْب وأرْدَعَها، وأشدَّها قيامًا ومَقامًا فى ذاتِ الله وإن كان له أطوعَها، وأمضاها حدًّا إذا كَفَّ الباطلَ الغُرُوب ، وأشرَقَها شمسًا لاتتوارىٰ بحِجاب الغُرُوب، وأقْواها سَلَّةً فى تنفيذِ حكمٍ حقٍّ إذا ضَعُف الطالبُ والمطْلُوب ، وأنْقاها صحيفةً بمـا أَوْدَعها من نُور العـمل المكتُوب، وأبْداها زُهْدًا فى دنياه إذا أَنْمَوْا بوعْدها الكاذِبِ أمَلَ إيتائِها المكْذوب، وأدومَها مصاحبةً لشكر لايستقِلُّ به رفيقُها المصحُوب، وأقْوَمها طريقةً فى الحَسناتِ فما طريقُه إلىٰ الحُوب بمَلْحُوب، وأقْواها طُمأْنِينةَ قلب إلىٰ ذِكْر الذى تطْمَئِنُّ به القلوب، وأنهضَها عَزْما بما أعيا الهِمَم من تكاليف الطاعة وآد بسمع وبصَر وفؤاد، وأقْدرَها علىٰ مجاهدة الشَهَواتِ أشدَّ الجِهاد ، وأنظَرَها لنفسه فى تحصيل عمل يشهد له يومَ قِيامِ الأشهاد، وأمهَدَها لجَنْبه وذخائرُ التقوىٰ نِعْمَ المِهاد .

وإلىٰ اليقـينِ(١) الذى ظهـرتْ شواهدُه ، والعملِ الذى جُمعتْ إليك شوارِدُه ، والدِّين الذى صفَتْ إليك موارِدُه، والعِلْمِ الذى هبَّتْ بمذاكَرتك رواكِدُه، والفَهْم

(١) مراده وكل ذلك مضاف إلى اليقين الخ .

الذى تظاهرتْ بمناظرتِك مَراشِــدُه، والنظر الذى ألقىٰ فُرْسَانَ الجدال بالجَدَالَهْ، والأثر الذى يُقْضىٰ به عليك بالعَدَالَه، والمحاماةِ عن الحقِّ بمـا يقْضِى لمخالِفِه بالإذالةِ ولمؤالفه بالإدَالَهْ، والإرشادِ الذى ما بدا لفَهْم الشاكِّ إلا بَدَا له، والفُتْيَا التى ضربَتْ ثَبَج الباطلِ بسُيوفِها، وحلَّتْ مَسامعَ المستفيدِينَ بشُنُوفِها، والجلالةِ التى لا يُملُّ مسمُوع أوصافِها، والعدالةِ التى لا يُملُّ (؟) مشْرُوع إنصافِها، وكم ليلةٍ أغمدْتَ ظلامَها فى نُور التهجُّد والناس هُجُود، وسكَّنْتَ جُفونَ مناقبِها بيَقَظات السُّجُود، وأنشأتِ الخشــيةُ غَمامَها فاطفأتْ بمـاء الدمع النـارَ ذاتَ الوَقُود، وبلغتَ رياضةَ الجوارح التى تُرِيد ورياضَ القلب التى تَرُود، فأسفر الصبحُ منك عن سارٍ واقِف، وآستسرَّ لك القَبُول عن أُنْس خائف، وتأرَّجتْ أنفاسُ الأسحـار باسـتِغفارِك، وتمَّ عُنوانُ السُّجود بأسرارِك، وآبيضَّتْ شِيَةُ الليلِ بِحلىٰ آثارِك، وآكتنفَتْك الطَّهارةُ حتّى كأنَّك مُصْحَف، وأرهَفَتْـك الديانةُ حتّى كأنك مُرْهَف، وحالَفَتْك الرَّكانةُ وكأنك مع سـلامة الخَلْق أحنَف، وثقَّفتك السِّنُّ فأبقَتْ منك ماأبقتْ من سِـنان المثقَّف، وعرَفَتْكَ الأحكامُ بأنك ماضٍ علىٰ الحقائق عند الشُّـبَه تتوقَّف، وألِفتْـك النزاهةُ فشهِد عدولٌ أن نكرَةَ المطامِع عندَك لاتتعرَّف، وصرَفَتْك النزاهةُ عن دُنْيا إن كانتْ عرائِسُها تُزَفُّ فغَدًا مواردُها تُنْزَف، وآستشرفَتْك المنازلُ التى لاتَزالُ بأعناق الأشرافِ تُسْتَشْرَف، وما رأَسْت، حتى درَسْت، ولا تنبَّهت، حتى تفقَّهت، ولا أفْنيت حتى أفْنيت المحابِر، ولا تصــدّرتَ حتَّى تصــبَّرت علىٰ كُلَفٍ تغلِب الصابر، فما حابَاكَ من حَباك، ولا قدّمك حتّى علِم أن سِوَاك ماساواك، فرِياستُك لم تكن فَلْته، وآستشرافُ وجه الرياسة لك لم يكُنْ لَفْته، بل تنقَّلتَ متدرِّجا، وأثنىٰ عليك لسانُ حقيقةٍ ما كان متلَجْلِجا، ولو أقعَـدَك حسَـبُك أو أباك، لقبِلك المجدُ وما أبَاك،

فكيف ولك نفْس بنَتْ لك الشرَفَ الخالد ، وجمعت الطريفَ منه إلى التالد ، ولم تقْنَع بما ورِثْتَ من تُراثِ رياسةِ الوَالِد .

والسيد الأجلُّ الذى أعادَ إلى الدولة رَوْنَق نَضارتها ، بعد رَوْنق إضارتها ، وأفاضتْ عليه حَيَا إشارتها ، وأضافت إليه نَصّ إشارتها ؛ وأعطَتْه السعادةُ أفضلَ إمارتها ، بما أعطَتْه من فضل وِزارتها ، وآشتملتْ مَعانِى النَّجاح من صَفْحةِ بِشْره التى عَجَّلتناكَ الآمالَ بِبشارتها ، وأقرت حركاتُه الخلافةَ فى دارِها والأنوارَ فى دارتها ؛ وقصَّرتْ مهابتُه أيدِىَ الأعداء بعد آستطالتِها ، وأخمدتْ نارَهُم بعد آستِطارتِها ، وذلَّلت رياضتُه الأُسودَ فلم تَرُع الأسماعَ بزأْرِها ولا العُيونَ بزيارتِها - يَعُدّك للصُّدور صَدْرا ، ويَعِدك بما يرفَع ذَوِى الأقدار قَدْرا ؛ ويذكُرك بما تَطِيب به نَشْرا ، ويحسُنُ ملبوسُه بِشرا ؛ ويراكَ أوْلى من أقام الحقَّ لازمًا جَوادّه ، وأقعدَ الباطلَ حاسِمًا مَوَادّه ؛ ويصِفُك بالعدْل الذى يتألّم عليه الأضداد ، والسَّداد الذى لا يُضْرَبُ بينك وبينَه بالأَسْداد ؛ والنزاهةِ المنزَّهة عن التصنُّع بالرياء ، والسريرة الطِّيبة النَّشر والسيرة الحسنةِ الرُّواء .

ولما قرّر لك النيابةَ عنه فى الصلاة والخَطابة والقضاء والمَظَالم والإشراف على الجوامع والمساجِد ودارِ ضَرْب العين والورِق والسِّكَّة بالحَضْرة وسائر أعمال المملكة ، أمضىٰ أميرُ المؤمنين ماقرّر ، وتخيَّر لهذه العطية من تخيَّر ؛ سكُونا إلى أمانتِك التى حملت نوقَها ، وركُونا إلى ديانتِك التى أوجبَتْ تطلُّعَ هذه الرتبة إليك وسَوْقَها ؛ وعلما أنك فارِسُها الذى آتَّسع مِيدَانُه ، وواحدُها الذى رَجَح مِيزانُه ، وكُفْؤُها الذى تَمكَّن مكانُه .

فتقلَّد ما قلِّدت من ذلك عاملا بتقوى الله التى يفوز العامل بها فى مواقف الإسخاط ، ويجوزُ بها السالكُ مَتالِفَ الصراط ، ويحوزُ بها الآملُ معارفَ الآحتياط ؛

قال الله فى فُرْقانه الذى نزله علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرا : ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِه وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورا﴾ .

والحكم فهو عقد اللباس دُنْيا ودِينا ، وسبيلُ الحق الذى يسْلُكه مَنْ جَرىٰ شِمالا وسلَك يمينـا ؛ وبه كفَّ الله الأيدىَ المتعدّيه ، وأنقذ من النـار النفوسَ المتردِّيه ؛ وأقام حدُودَ كلِّ من ٱستحقَّها ولم يتوقَّها ، وأوجب قِصاصَ الدماء علىٰ من أراقهـا وٱستَباحَ رِقَّها ؛ وبه يقف القوىُّ والضعيفُ موْقفا واحدا ، وَيَظْهَرُ أولو عدلِ الله لمن كان بعين قلبه مُشاهِدا ؛ وبه تتبيَّن مواقعُ التحليل والتحريم ، وفيه تتعيَّن مقاطِعُ الحُكْم بالتحكيم ؛ ولمجالِسه الوقارُ فهى جَنَّة لا لَغْوَ فيهـا ولا تأْثِيم ، والظالمُ فيـه وإن ظفر فإنما ظفِر بما يُقْطع له من نار الجحيم . ولا تجعل بين المتحاكمين إليك من فَرْق ، وساوِ فى الحكم بين كافَّة الخلْق ؛ ولاتَحْكُم بحُجَّة أحد الخصمين وإن كان لها السَّبْق : ﴿فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَـا أَنْزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ . ولا تقْطَعْ بعلْمك وإن كنتَ عالما ، ولا تُبالِ فى الله أن تُغْضِب ظالما وتُرْضِىَ مظْلوما ؛ وٱجعل لنفسك من نَظَرِك وإصغائك بين المترافعين إليك مقسوما ، فلا تحقر خطأ الحكم وتجنب منه بينهما ماتجده [عند] الله عظيما : وٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَـا أَنْزَلَ اللهُ ولَا تَكُنْ لِلخَـائِنِينَ خَصِيما . وتجلْبَبْ بالوَقار الذى يبيِّن فضـلَ المِله ، ويشهد للكُفْر بالذِّلَّه ، ويُلْبِسُك فخرَ السَّراة الجِلَّه ؛ ولا يمنَعْك مذمومُ التكبُّر ، عن محمود التدبُّر ؛ ولا جبْرَ لكَسْر التجبُّر ، ولا خير فيمن لا يُمْهِل روِيَّة التحير فالعجلةُ تضيِّق مَيْدان التخيُّر ؛ وإذا أُوضِحَ الملتبسُ لفَهمِك ، وعَزَّ القطعُ بفصْل حُكْمك ؛ فأفهم الظالِمَ ماتوجَّه عليـه لخصمه ، فرُبَّمـا أُوتِى من سُوء فهمه لامن طريقِ ظُلْمه ؛ ولعله لا يجمعُ عليه بين فَوْتِ مرادِه وبقاءِ إثمه ؛ وذاكر المُقْدِمين علىٰ اليمين ، بمـا علىٰ مَنْ يَمين ؛ وأن كاذبَها يَدَع الديارَ

بَلَاقِع ، وأن خَرْق الجُرْأة علىٰ الله ماله من راقع، وصَرْعةَ الفاجر مالها من مزيل ولا رافع؛ ومَنْ قطعه الحَصَر عن الإفصاح ، وصَرَفه العِيُّ عن الإيضاح، فٱستعمِلْ معه أناةً تُوضِّح مايختلِجُ فى صدْره، ورِفقا يُفْصِح ما يختلج فى فكره؛ فإنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إنَّكُم لَتَخْتَصِمُون إلىّ ولعَلَّ أحَدَكم أنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بحجَّته من الآخَر فأَقْضِيَ له علىٰ نَحو ماأَسْمَع" ولِدُخول المجالس دَهْشة تُورِث اللسان عُقْلَه ، ولمفاجأة المَحَافل حَيْرة تُعقِب البيان مُهْله ؛ فواجب عليك ممن تدلَّه أن تَدُلَّه ، وممن يُشْدَه أن تَشُدَّه : لتقْضِيَ بما تقضى، وتُمْضِى الحكمَ بحقيقة تَمْضِى؛ وإن تَجَزَّتْ قضيَّة قد فَرَطت، وتدبَّرت نَوبةً قد أفرطت؛ فبادرْ بٱستِدْرا كِها ، قبل وُقُوعك فى أدْرا كها، وتعذرك عن إدرا كها؛ ولستَ معصوما من المَغَالط، ولا موصوما بالخطإ الفارط ، ولا مَلُوما [إلا] إذا أقمتَ علىٰ ما الله منه ساخط ؛ فقد ذَمَّ الله من ٱتَّقىٰ الخلائقَ ولم يتَّقِ الخلَّاق؛ فقال تعالىٰ : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولا يَسْتَخْفُونَ من اللهِ وهو مَعَهُمْ ﴾ .

وكتابُ الله وسنةُ رسوله السِّراجان اللذان ما ضَلَّ هُداهما ، والمِهادانِ اللذان ماأوضَحَهما إليه وأبداهما؛ وقد أغنتْ نصوصُهما عن الأقْيِسه، وأوضح خُصوصُهما عامَّةَ الأمور المُلْتَبِسه؛ قال الله سبحانه : ﴿ ما فَرَّطْنَا فى الكتابِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه ومَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنْتَهُوا﴾ وإن أشكلتْ نازلةٌ غير مسطُوره، وأعضَلَتْ واقعةٌ غيرُ محصُوره؛ فاسترْشِد أميرَ المؤمنين فى أمْرِها، وقِفْ علىٰ بحار علمِه فلن تَعْدَمَ سَيْحَ دَرِّها ؛ فأميرُ المؤمنين الذى أمر الله عند التنازع بأن نردّ [إليه](١) ماأعْضَل، وأتمّ أخذك للاستنباط [إلامِن](١) الذين حكَم الله أن يُردّ عليهم ما أَشْكل .

(١) زدنا هاتين الكلمتين على ما فى الاصل لأن الكلام بدون زيادتهما لا يفهم . تأمل .

والشهادةُ فلقد أمر اللهُ بإقامتها وكفىٰ بالله شهيدا ، وكفىٰ بذلك جَلالة وتمجيدا ؛ ولا تتَّخِذ إلا العُـدول المَقَانع ، ولا تسمَعْ منهـم إلا لمن هو لأمر الله سامِع ؛ فهـم الأعوانُ التى تُدْفَع بها نارُ جهـنم ، والجُنَن التى يتَّقِى بها الحاكم سهام الآثامِ فيما حَلَّل وحَرَّم ، وإلىٰ علمهم ٱنتهتْ مقاطِعُ الحقوق التى اللهُ بها أعلم ؛ وما سرىٰ حكمٌ إلا بعد أن تجِدَ أقوالَه دليـلا ، ولك السـمْعُ ولهم البصر وكلُّ أُولئك كان عنـه مَسْـُٔولا ؛ وٱستشِفَّ أمورهم فمن ألفيته آلفا لمَحَجَّة الصواب ، عائفا لمَضَلَّة الٱرتياب ، لايُخاف بالإغْضاب ، ولا يُخاف بالإرهاب ، ولا يحسِبُ حسابا إلا ليوم الحِساب ، فاسمع مَقالتَـه ، وأقِرّ عدالَتَـه . ومن كان عن السبيل ناكِبا ، وللهَوىٰ راكِبا ، فأرْجِلْه عن ظَهْر العَداله ، وتتبَّع زَلَله بالإزاله ؛ وواصِلْ فيهم ألسـنةَ حكمك ، وأوْجُه علمك ؛ فلا تستَنِب إلا من تعلم أن خطأه عليك وصوابَه لك ، ولا تعوّل إلّا علىٰ من لايُخْجِل نفسك ولا يُذَمُّ تَعْويلك .

وكاتبُك فقلمُه لسانك ، ولسانه ترجُمانك ؛ إن وَقَّع فإليك تُنْسَب مواقع توقيعِـه ، وإن وصـل حكما بمسطُوره فمِقدارُك مسطورٌ من مسمُوعه ؛ فلا ترضَ بالدُّون فمـا يدوّن ، ولا تعوّل إلا علىٰ كل من تصوّر وتصوّن .

وحاجِبُك فهو عينُك وإن سُمِّى حاجبا ، ووجْهك الذى تلقىٰ به إذا كنْتَ غائبا ؛ فاختَرْ من يكون متخيرًا فى المَقَال ، متحلِّيا بحُسْن الفِعال ، مجرِّبا فى جميع الأحوال ؛ لايلتفتُ إلىٰ دنيـا دينُـه ، ولا يخونك أمانَتـه ولا تمتدّ يمينُـه ، ولا يقول عنـك ولا عن نفسه إلا مايَزِينُك ويزِينُه ، ولا يخِفُّ إلىٰ ماتخِفُّ به موازينُه .

والخطباءُ فُرْسان المنابر ، وألسنةُ المحاضر ، وتراجِمُ الشعائر ، وأئمةُ المَجامع ، وسُفَراء القلوب بوَساطة المسامع لمَقامها الرافع ، ومُبِرُّها الفارغُ من القلوب علىٰ دائها ، وتدحر

حربُه شياطينَ الأمم عنـد آعتدائها، ويُعرب عن الهداية ويبالغ بلاغَتَه فى إهدائها، ويتقِنُ مخارجَ الحروف مُحْسِنا فى أدائها و إبدائها، وتَحُلُّ موعظتُه عن العيون الجامدة عُقَدَ وكائها، وينادى القلوبَ الصَّدِيَةَ فيكون صَدَاه صوبَ بكائها، ويستشعرُ أرْدِيَةَ الوَقَار فتشهد المنابرله بارتدائِهـا ، وتغذى النفوسَ مواعظُه إذا قصدتْه بآستنصارها علىٰ القلوب وآستِعْدائها .

والأيتـام فأنتَ لهم والد ، وأجْرُ نفَقَتك عليهم فى الصحيفةِ وارِد، وهم ودائعُ الله لديْك، وذخائرُ الآباء [إ] لَّا أنهم فى يديْك؛ فأحْسِن بهم السياسة بالشَّفَقه، وأحسن لهم التدبيرَ بالنَّفَقه، ومن آنسْتَ رُشْدَه، فآدفع مالَهُ إليه ، ومن لم تسترْشدْ قَصْدَه، فأنفق منه عليه؛ قال الله تنبيهًا وتحذيرًا : ﴿ ولَا تَأْكُلُوا أَمْوالَهُمْ إلىٰ أَمْوالِكُمْ إنَّه كَانَ حُوبًا كَبِيرا ﴾ .

والمساجد بيوت الله التى يُسَبَّح له فيها بالغُدُوّ والآصال، ومَظانُّ العبادة التى يعمُرها أهل الاِعتلاقِ بمعْروفه والإفضال؛ ومصاعِدُ الكَلِم الطيب والعملِ الصالح، وأسواقُ الآخرة التى يُوجب فيها المشتَرُون صَفْقة البَيْع الرابح؛ فعَبِّد الطريقَ إلىٰ زيارتها، وآشْرَحْ قلوبَ المتطهِّرين بطهارتها، وآنِس القائمينَ بالليل والمستغفِرين بالأسحارِ بإنارتها .

والمضْروبُ بدار الضرب فهو عينُ ما تجب عليه الزَّكوات، ونفس ما تُحازُ [به] المستَمْلَكات، ومدارُ ماتشتمِلُ عليه المُعامَلات، وقِيَمُ ماتُحقَن به الدماء فى الدِّيات، ومنتهىٰ ما تُوفَّىٰ به الصَّـدُقات، وتُوصى به الصـدقات؛ فتولَّ أخذَ عِيـاره ، ومباشرةَ تصفية دِرْهمه ودِينـاره، وأخْلِصْه لتنْجُوَ من النـار بلَفَحات نارِه؛ وآحفَظْ شكله الذى ينقش خاتَم جَوازِه؛ والأسمـاءُ المسطَّرة عليـه وسيلةُ آمتيـازه علىٰ بقية الأحجار وإعْزازه .

والوكالة علىٰ باب الحكم فهى كِفَاح المتناضِلين، وسِلَاح المتناصِلين؛ ومن ينتفع بها لا يُعْزَل من الخطاب، كما لا ينصَّب بها من يَفْتَح له الباطلُ الأبواب؛ فلا تُوعِها إلا لمن حسمته الدُّربه، فى السرعة من القُرْبه، وتدبر قول الله: ﴿ وإنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّـه ﴾ ممن يُؤْمَن علىٰ النساء والرجال، ولا يُعْجِبه إرسالُ لسانه فى الحَلَال، ولا يُبطِلُ الحق إذا أطلق لسانه فى سَعة المَجَال.

والمتصرّفون الذين هم أيدى الشريعة التى تُشْخِص الخُصوم، ويُستعانُ بهم علىٰ قَمْع الظَّلوم ونَفْع المظلوم؛ فتخيَّرْ أن يكون أكبرهم من أهل طبقته، وأمدّهم تحسينا لسُمْعته وتحصينا لأمانته.

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فاهتَدِ بهَدْيه، وقُمْ بفرض رَعْيه وحقِّ وَعْيه؛ وكريم سعى الآخرة أحسَنَ سَعْيه، وتصرَّفْ بين أمر الحقِّ ونهيه؛ والله سبحانه يبلِّغُك من مناجح أمْرِك، مالا تبلُغـه بمَطامِح فِكرك؛ وييسر لك من بديهة الإرشاد، ماتعجِز عنه رويّة الآرتياد؛ فاعلمْ هـذا من أمير المؤمنـين ورَسْمه، وآعمل بموجَبِه وحُكْمه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

❖

ومن ذٰلك ماأورده علىُّ بن خلف الكاتب فى كتابه "موادّ البيـان" فى سجـلٍّ بالدعوة للدولة والمشايعة لهـا، والموافقة علىٰ مذْهَبها، وهو:

الحمدُ لله خالِق ماوقَع تحت القيـاس(١) والحَوَاس، والمتعالى عن أن تُدْرِكه البصائرُ بالآستدلال والأبصارُ بالإيناس؛ الذى آختار الإسلامَ فأظهره وعظَّمه، وآستخلص الإيمـانَ فأعزَّه وأكْرَمه؛ وأوجب بهما الحجةَ علىٰ الخلائِق، وهداهم بأنوارِهما إلىٰ أقْصَد الطرائق، وحاطَهُما بأوليائه الراشدين شُموسِ الحقائق؛ الذين نَصَبهم فى أرضه

(١) يريد بالقياس المعقول.

أعلاما، وجعلهم بين عِبَاده حُكَّاما؛ فقال تعالىٰ: ﴿ وجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّــةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْراتِ وإِقَامَ الصَّلاةِ وإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وكَانُوا لَنَا عابِدِينَ ﴾ .

يَحْمَدُه أمير المؤمنين أنِ ٱصْطفاه لخلافتِه، وخصَّه بلطائف حِكْمَتِه؛ وأقامه دليلًا علىٰ مَنَاهِج هِدايتِه، وداعيًا إلىٰ سبيل رحمتِه؛ ويسألُه الصــلاةَ علىٰ سيدنا محمدٍ نبيِّه الذى ٱبتعَثَه رحمــةً للعالمين، فأوضح مَعالِمَ الدين، وشَرَع ظواهره للمسلمين، وأودع بَوَاطِنَه لوصيِّه سيد الوصيين: علىٍّ بن أبى طالب أمير المؤمنين، وفوّض إليه هدايةَ المستجِيبين، والتأليفَ بين قلُوب المؤمنــين، ففجَّر ينابِيعَ الرَّشاد، وغوّرَ ضَلالاتِ الإلْحاد، وقاتل علىٰ التأويل كما قاتل علىٰ الرسل، حتى أنار وأوضَحَ السُّــبُل، وحسَر نِقابَ البيان، وأطْلع شمْسَ البرهان، صــلَّى الله عليهما، وعلىٰ الأئمة من ذرِّيَّتهما، مصابيحِ الأديان، وأعلام الإيمان، وخُلَفاء الرحمن، وسلَّم عليهم ماتعاقب المَلَوان، وترادَف الجديدان .

وإنَّ أمير المؤمنين بمــا منحه الله تعالىٰ من شَرَف الحِكْمه، وأورثه من مَنْصب الإمامة والأئمه، وفوّض إليــه من التوقيف علىٰ حدُود الدين، وتبصيرِ من ٱعتَصَم بحبله من المؤمنين، وتنويرِ بصائرِ من ٱستمسك بعُرْوته من المستجيبين ـ يُعْلن بإقامة الدعوة الهادِيَّة بين أوليائه، وسُبُوغ ظلِّهــا علىٰ أَشياعه وخُلَصائه، وتغذِيَةِ أفهامِهم بلِبَانهــا، وإرهافِ عقُولهم ببَيانها، وتهذيبِ أفكارهم بلطائفها، وإنقاذِهم من حَيْرة الشُّكُوك بمَعَارفها، وتوقيفِهم من عُلُومها علىٰ ما يَلْحَب لهم سبُلَ الرِّضوان، ويُفْضى بهم إلىٰ رَوْح الجِنان وريح الحَنَان، والخلودِ السرمدىِّ فى جوار الجَوَاد المنَّان ـ ما يزالُ نظرُه مصروفًا إلىٰ نَوطِها بناشئٍ فى حِجْرها، مغتذٍ بدَرِّها سارٍ فى نُورها، عالِمٍ بسرائرِها المَدْفُونه، وغوامِضِها المكْنُونه؛ موفِّرا علىٰ ذلك ٱختيارَه، وقاصِيةَ ٱنتقاده وٱختبارَه؛ حتّى أدّاه الٱجتهادُ إليك، ووقَفَــه الٱرتيادُ عليك، فأسـندَها منكَ إلىٰ

كفئِها وكافيها ، ومِدْرَهِها المبرِّزِ فيها ؛ ولسانِها المترجِم عن حقائقِها الخفيَّه ، ودقائقِها المَطْويَّه ؛ ثقةً بوَثاقة دينِك ، وصحَّةِ يقينِك ؛ وشهودِ هَدْيك وهُدَاك ، وفضلِ سِيرتِك فى كل ماولَّاك ؛ ومحضِ إخلاصِـك ، وقديم آختصاصِك ؛ وأجراك علىٰ رَسْم هـذه الخدْمة فى التشريف والحُمْلان ، والتنويهِ ومُضاعفة الإحسان .

فتقلَّدْ ما قلَّدك أمير المؤمنـين مستشْعِرا للتقوىٰ ، عادلا عن الهَوىٰ ، سالكًا سبيلَ الهُدىٰ ؛ فإنَّ التقوىٰ أحصَنُ الجُنَن ، وأزينُ الزِّين ، و﴿ آدْعُ إلىٰ سبِيلِ ربِّكَ بِالْحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِىَ أَحْسَن ﴾ . فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ ومَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرا كَثِيرا ﴾ . وحَضَّ علىٰ ذلك فقال سبحانه : ﴿ ومَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إلَىٰ اللهِ وعَمِلَ صَالِحًـا وقَالَ إنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ .

وخُذِ العهدَ علىٰ كل مستجِيبٍ راغب ، وشُـدّ العقْدَ علىٰ كل مُنْقادٍ ظاهِر ، ممن يَظْهر لك إخلاصُـه ويقينُه ، ويصِحُّ عندك عَفَافه ودِينُه ؛ وحُضَّهم علىٰ الوفاء بمـا تُعاهِدُهم عليه ، فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولا ﴾ . ويقول جل من قائل : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَـا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْق أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَـا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِه ﴾ . و[كفّ] كافَّةَ أهل الخلاف والعِناد ، وجادِلْهم باللُّطْف والسَّـداد ، وآقبَلْ منهم مَنْ أقبلَ إليكَ بالطَّوْع والآنقياد ؛ ولا تُكْرِه أحدا علىٰ متابَعتِك والدخول فى بَيْعتِك ، وإن حمَلَتْك علىٰ ذلك الشفقةُ والرأفةُ والحنـان والعاطفة : فإنَّ الله تعالىٰ يقول لمن بعثه داعيًا إليه بإذنه : محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم : ﴿ ومَا أَكْثَرُ النَّاسِ ولَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين ﴾ .

ولا تُلْقِ الوديعـةَ إلا لحُفَّـاظ الوَدائع ، ولا تُلْق الحَبَّ إلا فى مَزْرَعة لاتُكْدِى علىٰ الزارع ؛ وتوخَّ لغَرْسِـك أجلَّ المَغَارس ، وتُورِدُهُم مشارع ماءِ الحياة المَعِينِ ،

وتُقرّبهم بقُربان المخلصين ؛ وتخرِجُهم من ظُلَم الشكوك والشُّبُهات ، إلىٰ نُور البراهينِ والآيات ؛ واتْلُ مجالس الحِكَم التى تخرج إليك فى الحضرة علىٰ المؤمنين والمؤمنات ؛ والمستجيبين والمستَجيبات ، فى قُصُور الخلافةِ الزاهره ، والمسجِدِ الجامع بالمُعِزِّيَّة القاهره ؛ وصُنْ أسرارَ الحِكَم إلا عن أهلِها ، ولا تَبْذُلْها إلا لمستحِقِّها ؛ ولا تكشِفْ للمستضْعَفين ما يَعْجِزون عن تحمُّله ، ولا تستقِلُّ أفهامُهم بتقَبُّله ؛ وآجمعْ من التبصُّر بين أدلَّة الشرائع والعقُول ، ودُلَّ علىٰ آتصال المتل بالممنون ؛ فإن الظواهِر أجسامٌ والبواطِنَ أشباحُها ، والبَواطنَ أنفسٌ والظواهِرَ أرواحُها ؛ وإنه لا قِوامَ للأشباح إلا بالأرْواح ، ولاقِوامَ للأرواح فى هذه الدار إلا بالأَشْباح ، ولو آفترقا لفَسَد النِّظام ، وآنتسخ الإيجادُ بالإعدام . وآقتصِرْ من البيان ، علىٰ مايحرُس فى النفوس صُورَ الإيمان ، ويصونُ المستضعَفين من الافتِتَان ؛ وآنهَهُم عن الإثم ظاهِرِه وباطِنه ، وكامِنِه وعالِنه ؛ فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وذَرُوا ظاهِرَ الإثْم وباطِنَه ﴾ .

وآتَّخِذْ كتاب الله مِصباحًا تقتَبِس أنوارَه ، ودليلا تقْتفِى آثارَه ؛ وآتلُهُ متبصِّرا ، وردِّدْه متذكِّرا ، وتأمَّلْه متفكرا ؛ وتَدَبَّر غوامضَ مَعانيه ، وآنْشُرْ ماطُوِىَ من الحِكَم فيه ؛ وتصرّفْ مع ماحلَّله وحَرَّمه ، ونقَضَه وأبرمه ، فقد فَصَّله الله وأحْكمه ؛ وآجعل شَرْعه القويمَ الذى خَصَّ به ذَوِى الألبـاب ، وأوْدَعه جوامعَ الصلوات ومحاسِنَ الآداب ، سببا تَتَّبع جادَّته ، وتبلُغ فى الآحتجاج محَجَّته ، وتمسَّكْ بظاهِره وتأويلِه ومُثُله ، ولاتعْدِل عن مَنْهجه وسُبُله ؛ وآضْمُمْ نَشَرَ المؤمنين ، وآجمع شَمْلَ المستجِيبين ، وأرشِدْهم إلىٰ طاعة أمير المؤمنـين ؛ وسوِّ بينَهم فى الوَعْظ والإرشاد ، والله تعـالىٰ يقول فى بيته الحرام : ﴿ سَواءٌ الْعاكِفُ فِيهِ والْبَادِ ﴾ . وزِدْهم من الفوائد والموادِّ علىٰ حسَب قُوَاهم من القَبُول ، وما يظْهَر لك من جَوْدة المحصُول ؛ ودَرِّجهم بالعلم ووَفِّ المؤمنَ حقَّه من الآحترام ، ولا تُعْدِم الجاهلَ عندك قَوْلًا سلَاما كما علَّم ربُّ

السلام . وتوخَّ رعاية المؤمنين، وحمايةَ المعاهَدين، وميِّزهم من العامّة بما مَيَّزهم الله من فضل الإيمان والدين ؛ وألِنْ لهم جانبَك وٱحْنُ عليهم وٱلطُف ، وٱبسُطْ لهم وجهَك وأقبِلْ إليهم وٱعْطِف ؛ فقد سمعتَ قولَ الله تعالىٰ لسيد المرسلين : ﴿ وٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ولا تُفَسِّح لأحد منهم فى التطاوُل بالدين، ولا الإضرارِ بأحد من المعاهَدين والذِّمّيين، ومَيِّزهم بالتواضُع الذى هو حِلْيةُ المؤمنين؛ و إذا ألْبَس عليك أمرٌ وأشْكَل، وصَعُب لديْكَ مَرامٌ وأعْضل، فأَنْهِه إلىٰ حضرة الإمامة متبِعا قول الله تعالىٰ : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ . وقوله : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَىٰ اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلا ﴾ : ليخرجَ إليـك من بصائر توقيفِها، ومَراشد تعريفِها؛ مايَقِفُك علىٰ مَنَاهج الحقيقه، ويَذْهَبُ [بك] فى لاحِبِ الطَّرِيقه؛ وٱقبِضْ مايحمِلُه المؤمنون لك من الزكاة والجِزَىٰ(١) والأخْماس والقُرُبات ومايجرى هذا المجرىٰ؛ وتتقـدّمُ إلىٰ كاتب الدعوة بإثبات أسمـاءِ أربابه ، وٱحمِلْه إلىٰ أمير المؤمنين لينتفع مخرجُوه بتنقيله له ووُصُوله إليه، وتبرأَ ذِمَمُهم عند الله منه . وٱستنِبْ عنك فى أعمال الدعوة من شُيُوخ علم الحكْمة ومَنْ تَثِق بديانتِـه ، وتسكُنُ فيـه إلىٰ وُفُور صِناعته؛ وٱعْهَد إليهم كما عُهِـد إليك ، وخُذْ عليهم كما أُخِذ عليك؛ وٱستطْلِق لهم من فضـل أمير المؤمنين مايُعِينهم علىٰ خِدْمته، ويحمِلُ ثِقْلَهم عن أهل دَعْوته ؛ وٱستخْدِم كاتبا دَيِّنـا أمينا مُؤْمِنـا بصـيرًا عارفا ، حقيقًا بالآطِّلاع علىٰ أسرار الحكْمة التى أمر الله بصيانتِها وكِتْمانها عن غير أهلِها، نقيـا حَصيفا لطيفا، يُنْزِلهم فى مجلسك بحسَبِ مراتِبِهم من العلم والدين والفضل .

---

(١) جمع جزية وهى خراج الارض وما يؤخذ من الذمىّ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فتدَبَّره متبصِّرا، وراجِعْه متدبِّرا، وبه الوَصايَا تَهْدى وتُسَدِّد، وتوَفِّق وتُرْشِد، وٱستعِنْ بالله يُمِدَّك بمعُونته، ويُدِم حظَّك من هدايتـه، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وعلىٰ هذا سائرُ السجلات من هذا النوع . وقد أورد فى "موادّ البيان" سجِلَّات غيرَ هذه حذف منها التحميدَ وٱقتصر علىٰ مَقاصدها، وفيما ذُكِر من ذلك مَقْنَع .

المــــــذهب الرابع

(ممـا كان يكتب لأرباب الولايات بالدّولة الفاطميـــة مرتبةُ الأصاغر من أرباب السُّيوف والأقلام)

وليس لهذه الرتبة صِيغٌ محصورةٌ فى الٱفتتاح، بل تُفْتَتح بلفظ : «إنَّ أمير المؤمنين لـما آتاه الله [من] كذا يفعل كذا وكذا ولـمَّا كنتَ بصفة كذا ، وحضَر بحضرة أمير المؤمنين فَتاهُ ووزيرُه فلان وأشار بكذا، قرّركَ أميرُ المؤمنين فى كذا » أو يقال : «إن أولىٰ» أو «إنَّ أحَقَّ» أو «إنَّ أجدَر» أو «أقْمَن» أو « مَنْ حسُنَتْ طريقتُه» أو « مَنْ كان متَّصفا بكذا كان خليقًا بكذا» أو «ولـمَّا كان كذا» أو «منشور تقدّم بكَتْبه فلان » ونحو ذلك .

فمن المكتَتَب عن الخليفة من هذه المرتبة لأرباب السيوف نسخةُ سجِلِّ بزَمٍّ .

إنَّ أمير المؤمنين لِـما آتاه الله من المَحَلِّ الأرْفَع ، وجعله اليومَ الآمِرَ المطاعَ وغدًا الشــفيعَ المشفَّع، يتعهَّد عبيدَه بِعِهَاد كَرَمه ، ويُجِير من هَجْرِ(١) النوائب من يُحاوِل ظِلَّ

---

(١) الهجير والهجيرة والهجر والهاجرة نصف النهار عند زوال الشمس الى العصر وقيـل فى كل ذلك انه شدّة الحر . انظر اللسان ج ٧ ص ١١٥ .

حَرَمه ؛ ويقبَلُ وسـيلةَ من كانت النجابةُ أقوىٰ وسائِله وذِمَمه ، ويؤمِّنه من إلحاف حوادثِ الدهرِ به ولَمِّه ؛ فلا زال بأُمُورهم عانيا ، وبمَكارم شِيمته عن رَفْع مسائِلهـم غانِيا ؛ لاسيَّما من حسُن فى الخدمة أثَرًا وطاب خَبَرا ، ونُشِرتْ أوصافُه فى أيدى الثَّناء فكانتْ بُرودا وحِبرًا ؛ ونَمِن له الإحسانُ فى كل زمانٍ أن يأتِىَ مستحْمِدا لامعتَذِرا ، وعُدِقت به بِحارُ المحاماة فما أخرجَتْ منه إلا جَوْهرا ، وغَرَس مقدّماتِ المخالصةِ وكان لسانِحِ الإنعام مسْتَثْمرا ، وصـقَل التجريبُ صفِيحةَ طبْعه وكان لضَريبـةِ الحَزْم مستأْمِرا ، وٱستبدّ بمُوجِبات المحامد مؤثرا لها ومُسْتأثِرا ، وجُعلتْ لديْه أسبابُ الأستقلال التى قلَّتْ عندَ سِواه فظَلَّ منها مهِدا (؟) متكثرا .

ولمـا كنتَ أيُّها الأمير ممن قام له هـذا الوصفُ مَقـامَ الأسم [من] المسَمّٰى ، وتوضَّحتْ مَخايِلُه به فلم يكُنْ من اللُّغز المُعَمّٰى ؛ وقام يقرر من الخدمة مشتَمِلا ، وٱستقل بشرائط التعويلِ مستَكْمِلا ، وأدرك غاياتِ المحاسنِ عجِلًا متَمَهِّلا (١) ، وضمنتْ له الشبيبةُ أن يعلُو كاهِلَ الرياسة متكَهِّلا ، وٱشتهر بالتقدُّم فلم تَعرف به أوضاحُ الصنائع غُفْلا ولا مَجْهَلا ، وٱستوجبَ أن لا يزال فى أُفُق الإنعام مُنْهَلًّا عليه يُغادِر لديه غدِيرًا ومَنْهلا ، وٱستحقَّ أن يملأ يديه من (٢) ناظرِه متأمِّلا ، وأدّىٰ فريضةَ النصيحة كافلًا متكفِّلا ومُعْملا لامتَعَمِّلا ، ونهض بتكاليف الخدمةِ متحمِّلا فيهـا مالم يزل متحمِّلا .

وحضر بحضرة أمير المؤمنـين فتـاهُ الذى أفتاه التوفيقُ باسـتبْراره ، ووليُّه الذى جَمَّ به موردُ السعد بعد ٱستِنْزارِه : السـيدُ الأجلُّ سـيفُ نَصْره المهنّد باسـه ،

(١) التمهل التقدّم وتمهل فى الأمر تقدّم فيه . انظر اللسان .

(٢) بياض بقـــدر كلمة .

وليْثُ حَرْبه والسِّنان نَاب ، وسحابُ الرحمة إلىٰ الإسلام بها حصل ربحى خضر الجَنَاب ، ومتعب الرائح فى غيِّه حتّىٰ عَزُب فى سُهوب الإسهاب بأطناب الإطْناب ، ومستحقُّ المدائح التى يُعَطَّر بها الجَنَاب ، ويُعطّل بها الرِّكاب ، والملكُ الذى خدمه الملوكُ لالرتبة الغَنَاء عنه بل لرُتْبة المَنَاب ، فذكرك بما جَمَّلك ، وآستمطر لك من الإحسان ماجَمَّ لك ، وآستوفق فى مُناصحة الدولة عَمَلك ، وقَرَّبَتْ عليك بسِفَارته بحضرة أمير المؤمنين أملَك ، وقرّر لك الخدمةَ بالزِّمِّ الفلانى إخلادًا إلىٰ ماتنْطَوِى عليه جُمْلتُك ، وآعتماداً علىٰ ماتعز به كلمَتُك ، فأجابه أميرُ المؤمنين إلىٰ ماأجابَكَ إليه ، وتقدّم أمرُه باستخدامك فيما عُيِّن عليه ، وخرج أمره إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجل بتقليدك ذٰلك .

فتقلَّد ماقُلِّدته مستشعِرا لباس التقوىٰ ، ناهيًا للنفس عن الهَوىٰ ، سالكًا الطريقةَ المُثْلىٰ ، قال الله سبحانه : ﴿ والعاقبَةُ لِلتَّقوىٰ ﴾ . وهذه الخدمةُ من أمراء قبائل العَرَب ، وهى المَنْبَع وسِواها الغَرَب(١) ، وما فيها من يُدْعىٰ إلىٰ خدمة إلا طَبَّق المِفْصل وأتىٰ علىٰ الأرَب ؛ فخُذْها بالمرسُوم لما تُنْدب له من المهِمَّات السانحةِ والعوارض ؛ والخُفُوف إليها بالأسْلِحة الرَّوائِع والخُيُول النَّواهِض ؛ وألْزِم رجالَها أن تحفَظَ من الطُّرُقات مايُصاقِبُها ، وأن تَسُوقَ كلَّ نفس بجنايتها إلىٰ من يعفُو عنها أو يُعاقِبُها ؛ وقدّم العَرْض الذى يُستَدلُّ به علىٰ مَنْ كان بالوفاء ساقِطا ، وعن أعمال المملكةِ ساخِطا ؛ ليسترجِعَ الدّيوانُ ما كان بيده ، ويفتضحَ من كانت الخِيانةُ سريرةَ مقْصَده ؛ فاعلَمْ هذا وآعمَلْ به .

---

(١) الغرب بالتحريك من معانيه الماء يقطر من الدلو بين الحوض والبئر أنظر القاموس .

ومن ذلك نسخة سجل بولاية ثغر، وهى :

إنَّ أَوْلىٰ من رَقَّاه إنعامُ أمير المؤمنـين إلىٰ المحلِّ اليَفَـاع، وشفَعتْ فيـه وسائِلُ فضائله فغَنِي عن الاِستِشْفاع ؛ وعَظُم له النفْع لمـا به من عظيم الاِنْتِفاع، وجرّدَتْه يدُ الاختيار سيْفًا من سُيُوف الذَّبِّ عن المِلَّة والدِّفاع ؛ واستقرَّ فى الرُّتب التى لاتُنْقَل إلا إلىٰ الزِّيادة ولا تُغيَّر إلا إلىٰ الارتفاع ، وجُلِّيت عليـه وجوهُ النعماء واضحةَ اللِّثام واضِعةَ اللِّفَاع ، ونِيطتْ منـه وصايَا الحَزْم بحافظٍ لهَـا واعٍ، وتوفَّرت عليه بواعثُ الصنائع ودعتْ إليه دَواعٍ ـ مَنْ ترشَّح بالاِستحقاق للرتب السنِّيَّة وتأهَّـل ، وسبَق المجارين فى حَلْبة الإخلاص علىٰ أنهـم جَهَدوا وتمهَّـل ؛ واستوجبَ امتطاء كاهِل الرياسة بالفتك الذى شَبَّ والرأْى الذى تكَهَّل ، وثبتَ جأشُه فى المَقَامات التى يُراعُ لهـا كلُّ رُوعٍ ويَذْهَل ؛ ومَنَعَتْ مهابتُه العدوَّ أن يَجْهَل عليـه وأبتْ له حَصافتُه أن يَجْهَل ، وغَرِيتْ همتُه بالمَطْلَب الأصعبِ من العَلَاء وأنِفت من المَطْلَب الأَسْهل ؛ وولِىَ الولاياتِ الجليلةَ فظلَّتِ الرعايا تَعِلُّ من موارِدِ عَدْله وتَنْهَل ، ونشأَتْ لهم سُحُب الرِّكاب التى بَرْقُها يتهَلَّل وعارضُها يَنْهلّ .

ولمَّـا كنتَ أيُّها الأميرُ الناهِضَ بحقوق هذه السِّمات ، البعيدَ القَدْر من المُساواة والمُسامات ؛ المتنقِّلَ فى درجات التَّقْـدِمة والكَرَامات ، المنفرِجةَ عن أنوار فتكاته ظُلُماتُ المَقامات؛ المُعَدّ النَّجْدةِ لمَوَاقف البأساء والضراء والرادَّ علىٰ أعقابِها الأبطالَ المُعْلِمةَ بالفَتكات المُعْلَمات، الدائمَ الغَرَام بمَقاماتِ الرِّياسة وإن كانتْ عظيمةَ المُؤَن جسيمةَ الغَرامات، القائمَ بمـا تُوجِبه عليـه صنائعُ أمير المؤمنين من حقُوق المُدافَعة عن الحَوْزة وفُروض المُرامات، المتظاهِرةَ فيـه شواهدُ الفضائِل بأصـدق الأعذار

وأوضَح العلامات، المشهورَ المَقامات، إذا جرتْ من مُتُون الصِّفاح جداوِلُ وٱهتزّت من غُصُون الرِّماح قامَات، الآخِذَ بالأرصاد علىٰ العِـدا بسُيوفٍ ترقُب الرِّقاب وتهِيمُ فى الهامات؛ الكافِىَ الذى تنقَّل فى الخِدَم فكان من الشُّـكر مُثْرِىَ الأثَر، وٱنتُدِب فى المِهمَّات فكان مَثابَ التَّواءِ مُسْفِر السَّـفَر؛ المعروفَ فى تصرُّفاته بانتهـازِ النُّجْح وقَصْر البجح، والمعوّلَ علىٰ أن تصفَه أفعاله بشرحٍ لصَدْر الآختيار به شَرْح، المعدودَ يوم الرَّوْع من كُفاة الخَطْب وحُماة السَّرْح، المـاضِىَ الحدِّ إذا كان السـيفُ لعدم الضارب مشتَبِهَ الحَدّ بالصَّفْح؛ وقدَّم فعلَ الآستقلال، وأخَّر سُؤال الإِسـتِغْلال، وأسكنه من المُخالصـة إلىٰ دارٍ ببُلوغ الآمالِ مِحْلال، وٱرتفعتَ كاهل المجد بسعْى لمحظُورها به آسـتِحْلال؛ وسهَّلت إلىٰ الطاعة كلَّ مُعْتاص من المَطالب، وغدَا الآستحقاقُ بمُرادِك نِعْم الكفيلُ وبأملك نِعْم الطالب، وٱشـتهرتَ بخلالٍ ٱقتضت الرَّغبةَ فيما ٱقتضَتْه إليك من الرغائب، وعَظُم النفعُ بك حتّى لا نَفْع مع غيْبتك بحاضر ولا ضَررَ مع حُضُورك بغائب. ومثَل بحضرة أمير المؤمنين فَتاه ووليُّه وأمينُه السيدُ الأجل، الذى سارتْ أوصافُه مَسير الشمس وأنارَتْ إنارَتها، وسقَتْ مَكارمُه سَقْىَ الغُيُوث وأمارَتْ إمارَتَهـا؛ وسرَتْ خيولُه مَسْرىٰ طَيْف الخَيـال وإن كرِه الأعداءُ زِيارتَها، وقامتْ مهابَتُه مَقامها فى البلاد وأغارَتْ علىٰ القلوب إغارَتَها، ونازعَ الأقْمارَ بعُلوِّ القـدر دارَها وما حسِبُوا الدَّسْت له دارَتَهـا، وأشارتْ له السـعادةُ العلَوية وأمضىٰ التلطُّفُ إشارتَها وأحسَن به شارتَها؛ وطالَعَ بمـا أنت عليه من طاعةٍ تبْذُل فيهـا الطَّاقة، وكفايةٍ إذا تَعاطاها الوصفُ المتَّسِع ضَيَّق عنها النُّطْقُ نِطاقه؛ وعَدَّك فى سَرَعان الأولياء إذا رتَّب سواك فى الساقه، وٱحتَسَب بما لكَ من حسنات نَظْمها نَظْم السِّياقه. وبما قرّره لك من الخِدْمة إلىٰ ولاية كذا، خرج أمر أمير المؤمنين بأن يُوعَز إلىٰ ديوان الانشاء بكتْب هـذا السجل لك بالخِدمة المذكورة، سكُونا إلىٰ

مُناصحتِك التى سكنَتْ ضميرَك، وركُونًا إلىٰ موالاتك التى حقّقت أملك وتقْـدِيرَك، وإيرادًا لك إلىٰ المَوَارد التى تُوجِب تقديمَك وتصْديرَك .

فتقلَّد ما قُلّدته منهـا بادِئا بتقوىٰ الله التى إن جعَلْتها جُنَّتك كانتْ جَنَّتك ، و إن آستشْعَرتها عُمدتَك أنجزَتْ فى الدارين من السعادتين عِدَتَك ؛ قال الله تعالىٰ فى كتابه المكْنون : ﴿ إنَّ اللهَ معَ الَّذِينَ آتَّقوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون ﴾ . وقال تعـالىٰ : ﴿ وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ آتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ . وآبدأْ فى هذا الثغر الجليـل قدرُه ، المصاقِبِ لمـا به محلُّ السـعد ومقرُّه ، الميَسَّر به لكلِّ عاملٍ ثوابُه وأجْرُه ، المحضوض علىٰ رِبَاطه لمن توفَّر حظُّه من ذخائرِ الآخرةِ فأحْسـن ذُخْرُه ـ بعدل القَضَايا ، وصَوْن الرَّعايا ، وبثِّ السَّرايا ، وترويع العدوِّ من جميع المَطَالع والثَّنايا ، وإهداءِ المَنَايا إليـه فى الغُدُوات والعَشَايا ، والتطَلُّع علىٰ مايُجِنُّه من المَكايِد والخَفَايا ، وكفايةِ أوساط الصِّفَاح مصافَحَةَ أطراف الرِّماح تَحَايا ، ولا تخليه أن تُجهِّز فى كل يومٍ إليـه رايةً أو تُنَفِّذ فيـه رايا ، وأن تسترزق الله أموالَهُ مَغَـانِمَ وحرِيمَه سـبَايَا ، وتُطْلِـع عليهم فى عُقْر دارِهم طَوالِـعَ المنايا وقَوارِعَ الرَّزايا ؛ حتى لا تلوحَ فُرْجةٌ إلا آقتحَمْتها ، ولا تعِنَّ فُرصةٌ إلا آغتنمْتَها ؛ وآمدُدْ علىٰ مَنْ بهـذا الثغر جَنَاح الرِّعاية والذَّبّ ، ومَهِّـد لهم جانبَ العدل ليتبوّءُوا فيـه آمنِى السِّرِّ والسِّرْب ؛ وصُنْهم صـيانةً ترفَع عنهـم عَوادِىَ المضارّ ، وتُوطد لهم أكنافَ السكونِ والآسـتقْرار ؛ وآعتمِدْ من الأمر بالمعْروف والنهْيِ عن المنكر ما يطلقُ فيكَ ألسِـنةَ المادحين ، وينْظِمُك فى سِـلك من نَحاه الله بقوله : ﴿ يأْمُرُون بالمَعْرُوف ويَنْهَوْنَ عن المُنْكَر وأُولٰئكَ من الصَّالِحِين ﴾ .

وأقِم الحدّ علىٰ مَنْ وجب عليه إقامةً لاتتعدّىٰ فيها الواجِب، ولاتُفارقُ بها مَنْهَج الحقِّ اللَّاحِب؛ وتوخَّ متولِّى الحكم بإعزاز ينفِّذ حُكْمَه، وإكرام يَشُــدّ فى الحق عَزْمَه، ويردَعُ الظالمَ ويمنَعُ ظُلْمه؛ وكذلك المستخْدَمُ فى الدعوة الهادِيَّة عامِلْه بمـا يَشُدّ إزره، ويشرَحُ فى دعاء المستجيبينَ صدْره؛ وبالِـغْ فى عَضْد المستخدَمين مبالغةً تُدِرّ بها الأموال، وتُوجِد بهـا السبيلَ إلىٰ توفير عِطِيَّات الرجال، وتُوسِّع عليهم فيها المَجَال؛ وآمنَعْ من يتعرّض لكَسْب الضرائب، والإخلالِ بإلزام الواجِب؛ وشرور الاقلاب، وقَصْد سرح المـال بالتَّبَاب؛ وأقِمْ للسُّور شطْرا من آهتمامك تعْمُر أبراجَه وأبدانَه، وتستخدِمُ حُرَّاسه وأعوانَه؛ وترتِّب عليه الوَقُودَ فى الليالى المُظْلمه، وتُعْجِز [عن] مناله المطامعَ الميسورةَ والأيدى المتَسَنِّمه؛ وواصِلْ من عمائره مايَتلافىٰ الخلَل قبـلَ آنفِراجه، ويُعِيد مَبْدأ الغارة علىٰ أدْراجه؛ فالقليـلُ بالغَفْلة يستَدعِى كثْرةَ الآِهتمام، وربَّمـا لم تُصِب فيه المرمىٰ ولم يَنْجَع المَرَام .

ومراكِبُ الأسطول المنصورة فولِّهـا مَنْ ترتضِى نُهوضَــه، ومن يقُوم بشرائط الجِهادِ المفرُوضــه؛ وإذا آنس فرصــة لم يعترِضْها التفويت، وإذا نَزل به القِرْنُ ناداه بعزْم المســتَميت، وإذا عَرَا المجتمع عرَّض جمْعَــه للتشتيت؛ وآحتَطْ علىٰ حواصل هــذه المراكِب فبها قوّةُ الإسلام علىٰ عدُوّه، ومدَدُ آستِظهارِه وعُلُوّه؛ وأقِمْ من الرؤساء من له حِيــلةٌ فى الأســفار، وخِبْرة بمكايد الغارات والحِصَار، ومُثـابرةٌ يقتــدر بها علىٰ فتح أبواب المنافع وسدّ أبواب المَضَارّ؛ ولكَ من البصيرة الجامعه، والألْمَعيَّة اللَّامِعه، ماأنتَ به جَدِيرٌ أن تكونَ لك الذِّكرى نافِعــه؛ فاعلَمْ هذا وآعمَلْ به؛ إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الثـــانى

(ممـا كانـــ يكتب فى الدولة الفاطمية بالديار المصرية
ما كان يكتب عن الوزير)

وقد علمتَ فى الكلام علىٰ "المسالك والممالك" أنَّ الوزير إذ ذاك كان فى منزلة السلطان الآنَ، وكان الشأنُ فيما يكتب فيه أن يفتَتَح بمـا يفتتح به المذهبُ الثالث (١) ممـا كانـــ يكتَب عن الخليفة . وهو أن يفتَتَح مايكتب بلفظ : « إنَّ أوْلىٰ » أو « إنَّ أحقَّ » أو « إنَّ أجْدر » أو « إنَّ أقْمَن » أو « من حسُنَتْ طريقتُـــه » أو «مَنْ كان متَّصفا بكذا كان خلِيقًا بكذا» و « بلَمَّـــا كان فلان» أو «لَمَّـا كنت» علىٰ نحو ماتقدّم .

ثم ما يُكتب عن الوزير : تارةً يكتَب بأمر الخليفة ، وتارةً يصْـــدُر عن الوزير آستِقْلالا ، فيبَيِّنه الكاتبُ فى كتابته . وهى : إما لصاحب سيف، أو قلم .

فمِنـــ المكتتب عن الوزير فى الدولة الفاطمية لأصحاب السُّيوف نسخةُ سِجل بولاية الاسكندرية من إنشاء القاضى الفاضل رحمه الله، وهى :

مَنْ عُدّ من الأولياء الأَماثِل ، ووُجِد عندَ الآنتقادِ قليلَ المُماثِل ؛ وتوسَّل بالحَسَنات التى يُقْبل عنـــده منها تشفِيع الوَسَائل ، وتُقْبل السفارةُ له الشاملةُ الآستحقاقِ الذى يُغْنِى عن المَسائِل ؛ ولطُف فكرُه لآقتناء الشِّيَم الموجبةِ لآرتقاء الدرجات الجَلاَئل ، وألقتِ الرُّتب قِناعَها له عِنْـــدَ الكُفْء الذى يُقـــدِّم لهـا أفضـــلَ مُهُور الحَلاَئل ، وأسفرت مواقِفُ الغَناء منه عن الهِزَبْر الشهم واللَّوذَعِىِّ الحُلاَحل ، وأفْرج له الكُفَاة

(١) لعل الصواب « المذهب الرابع » .

عن صـدُور المنازل الرفيعةِ فلم يكُنْ بينَـه وبينَها حائِل ، وٱستـقلَّ بعظِيم مايُفَوَّض إليه فلم تحِمل الأقوامُ ماهو حامِل ، وٱتَّسع مَجال كِفَايته فى كلِّ أمْرٍ يضـيق بالمُبَاشر ضِـيقَ كِفَّة الحابل ، وتَتَبَّع آثارَ الخَلَل بعـزَماته تتَبُّع الغيثِ آثار الدِّيار المَوَاحل ــ كانت الولاياتُ الجليـلاتُ له من المُعَدّ المدَّخر ، وقرَّبتْ عليـه منازلَ الآثارِ التى يُتجمَّل بها ويُفْتَخَر .

ولمـا كان الأميرُ جامعًا لمـا أُفيض فيه من هـذه الصِّفه ، وموصُوفا بها من كلِّ لسانٍ صادقٍ ونيةٍ منصِفه ، جاريةً علىٰ غيره مَجْرىٰ النكرة ومستنِدةً إليـه ٱستِنادَ المعْرِفه ، مشتملًا علىٰ خِلال كغرائبِ المكارِم مستوفيةٍ متألِّفه ، كلِفًا بالشِّيَم الحميدةِ إذا ٱفتضَحتْ بهـا الشِّيمُ المتكلَّفه ، قَمِنًا أن يُوفَّى فيُقْرض سعْيَه إذا ٱقْترضت المَساعى المتَسلِّفه ، نَهَّاضا بالمَصَاعب عند ماتختلِف فى إعطائِها العزائمُ المتخلِّفه ، آوِيًا من رَجاحته إلىٰ المَعْـقِل الحَرِيزِ والحِصْن الحصين ، حاوِيًا لفضائلَ حسنةٍ منهـا الفَتْك الجَرِىُّ والرأىُ الرَّصين ، مُقْدِما علىٰ الأهوال إذا تغَلَّقت وُجُوهها غبرا ، مُصِرّا علىٰ الخَطَرات حتى يظُنَّه الغُمْرغُمْرا ، مصافِحاً للرماح ، إذا بدَتْ أناملُ الأسِنَّه ، مباشرا للصِّفاح ، إذا ذُعِرتْ لهـا النفسُ المطمئِنَّه ، جديرًا أن يرُدّ الخيلَ المُغيرةَ تَدْمىٰ نحورُها ، وتمدَحَك وتذمُها الجِرَاح التى ٱشتمَلت عليها ظُهُورُها ، وسمَـا للأعداء سيوفُك فعندك غُمودُها وفيهم صدُورُها ــ رأينا بمـا آتاه الله من رأْى لايستأخِرُ أن يَستخِير ، ونظرٍ يستمرُّ أن يَمْتـاحَ من موارد الرَّشاد ويستَنير ، ما خرجَ به أمرُنا من ولايتِك لثغر الإسكندرية بعـد أن طالعْنـا مولانا صلواتُ الله عليـه بمـا رأيْنا ، وٱسترشَـدْنا بميَامن إمضائِه ماأمضَيْنا ، وفاوَضْناه فيما فوَّضْناه إليك وأفضَيْنا ، وقضَيْنا حقَّ الخِدمة فيما ٱستَمْطَرْنا من صَوْب وٱقتضينا ، إذ كان الله قد خَصَّ خِلالَه بمُواتاة الأقـدار ، ووَقَف المَيامنَ علىٰ ما يُمْضيه ويُوقفـه من أعنَّـة الإيراد والإصدار ، وجعـل الخِيرَةَ فيما

يختار، والحقّ دائرًا حيثُ دار، وأخْلَص للأولياء المستَشْعِرين بولائِه بخالصةٍ ذِكْرَىٰ الدار، وجعــل رأيَه قُطْبا فى سمـاء الخلافة عليـه فى مصـالح خلق الله المَـدار؛ فصَحَّح ماعرضــناه علىٰ مقام خلافتِه وصوّبه، وناجَتْـه بديهةُ الإلهـام بمـا أغنَتْه عمَّـا صعَّد فيه المستشيرُ وصوّبه؛ وخرج الينا بأن يمضىٰ لك هذا الأمر، ويُفوِّض إليك هذا الثغر.

فلْتقـابِلْ هـذه النعمةَ بشكرٍ يوجب ٱستيفَاءَ باقِيها، وٱعتِـدادٍ يمهِّـد درجاتِ مَراقِيها، متنَجِّزا وعدَ الله لمستوفيه بإيلاء المزيد، الجديرِ باحالته من حالة التقليد إلىٰ حالة التَّخْليد، جاعلا تقْوىٰ الله حجتَه فيما يقطَعُه ويَصله، وعمدتَه فيما يمنعُه ويبذُله. قال الله سبحانه فى كتابه الذى فضله علىٰ كل كتاب: ﴿وتزَوّدُوا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ وٱتَّقُونِ يأُولِى الأَلْبـاب﴾. ولا تجعَـلْ فى حُكْمك بيـن الخُصَماء فرْقا وإن عدل أحدهمـا؛ وليكن علىٰ الحق الذى لا مُفاضـلةَ فيه مَقْعدُهمـا عندك ومَوْرِدُهما؛ وٱنتصِف للمظلومِ من الظالم، وٱعمَلْ فى ذٰلك عملَ من لا تأخُذه فى الله لومةُ لائِم؛ وأقِمِ الحُدود متحرِّيا، وأَمْضِها إمضاءَ من لا يزالُ بعين طاعةِ الله متحلِّيا؛ ونَفِّـذْها غيرَ مُكْثِرٍ ولا مُقِلّ، فإن المُكْثِر متعَدٍّ والمُقِلَّ مُخِلّ.

وقد علمتَ ما للقاضى من التَّقْدمة الشهيره، والرُّتبــة الأَثِيره؛ والمَسَاعى التى هى بألسنةِ الحمدِ مأْثوره، والأقوال التى هى فى صحائفِ حُسْن الذكر مسْطُوره؛ والحُرُمات التى شهِدتْ بها الأيامُ والليالِى، والمَوَاتِّ التى ٱنتظمت فى سُلوك التصرُّفاتِ ٱنتظامَ اللّآلى؛ والصِّـفات التى زهَتْ بها أجيادُ المحامدِ الحَوالى؛ وله الخُبْرة بقوانِين هذا الثغر وأحكامِه، والعادةُ التى لا خلافَ أنهـا لمصالح مايُباشِره وإحكامــه، وأنتَ مقدَّم أرباب السـيوف فى الثَّغْر وهو مقــدّمُ أرباب أقلامه؛ فٱعْرِف له منزِلتَـه

فى الخِدَم المَنُوطةِ بكَفَالته ، والأمور المَحُوطة بإيالتـه ؛ ووَفِّه من أثر الإكبار حَقَّه ، ويَسِّر فيما آشتدّ عليه من مَعُونتك طُرُقَه ؛ وأعِنِ الداعىَ علىٰ ماهو بسبيله من الإرشاد ، وقُمْ فى إعلاء مَنارِه قيامَ المُغْرم الشاد .

والأموالُ أولىٰ ما صَرَفْت إليها همَّك ، ووقَفْت عليها عَزْمَك ؛ فاستَنْهِض المستخْدَمين فيما يُسْتادىٰ ، ولا تمكِّنْهم أن يُحدِثوا رسْما ولا يُسقِطوا مُعتادا ؛ ولا بدّ من المُقام بظاهر البحر مدّةَ آنْفِتاحه ، وتفقُّد الأسطول المقيم بالميناء تَفَقُّدا يستوعِبُ أسبابَ إصلاحه ؛ وأذْكِ العُيون علىٰ سواحله فلم يَخْلُ أمر العدوّ من طارقِ ليل وخاطف نهار ، وذُدْهم عن بَغَتات هجُومهم بما يبْلُغهم عنك من دوام التيقُّظ والآستِظهار ، وآستنهِض الرجالَ فى نوائب الخِدَم وحوادِثها ، وصرِّفْهم علىٰ موجِبات المتجدِّدات وبواعثها .

وهذا الثغرُ ففيه من أرباب الزَّوايا العاكفين علىٰ العبادات ، والعلماءِ الداعينَ الناسَ إلىٰ الإفادات ، من لا يُدَّخَر الإكرام إلا لأن يؤدِّى إلىٰ آستحقاقهم ، ولا يُصانُ المال إلا لأن يُبْذَل لآستحقاقهم[(1)] ؛ فأوصِلْ إليهم ماهو مقرَّر لهم إيصالا هنِيًّا ، وأعْفِهم من مئُونة الهَزِّ وساقطْ عليهم رُطَبا جَنِيًّا ، وآستنهِضْ لنا دعَواتِهم فإنها أسْهُمُ الأسحار ، وآستخلص لنا نيَّاتِهم فهم لنا جُنْد الليل وغيرهم لنا جُنْدُ النهار ، والسلام .

* * *

ومن ذلك نسخةُ سجِلٍّ بحماية الرِّباع ، وهى :

مَنْ كان فيما يتولَّاه مشكورَ السعْيِ محمودَ الأثَر ، مستعملا من النصح وبَذْل الجُهْد ما يزيدُ الخُبْر فيه علىٰ طَيِّب الخبَر ، معتمدا ما يدُلُّ علىٰ درايةٍ وخُبْرة ودُرْبه ، متوخِّيا

(1) لعـله لاستيجابهم .

ما يجعل الخدَم إذا ماردّت إليه لم تحُلّ فى دار غُرْبه ـ آستحق أن يُورَىٰ زنده، ويُرهَف حدُّه، وتُقوى مُنّتُه، وتُشْحَذ قريحته .

ولما كنتَ أيُّها الأميرُ ممن عُرِف نَفاذُه وأُحْمِدت خِلالُه ، وشُكِرتْ طرائقُه وآرتُضيت أفعالُه ، وظهر فيما يباشره غَناؤُه وآستقلالُه ، وجمع إلىٰ الكِفاية نَزَاهه ، وإلىٰ الأمانة نَبَاهه ، وإلىٰ اليَقظة عَفَافا وسَدادا ، وإلىٰ النهضة حَزامةً لا يجِدُ الطالب عليها مستَزَادا ـ تقدّم فتىٰ مولانا وسيدنا باستِخْدامك فى حماية الرِّباع السلطانية بالمعِزِّيَّة القاهرة المحروسة : سكونا إلىٰ جِدّك وتشْميرك ، وتعويلًا علىٰ تأتِّيك وتدْبيرك ؛ فاستَخِرِ الله وباشِرْ ماردّ إليك من هذه الحِماية بعَزْم لا يُمازِجه فُتُور ، وحَزْم لا يصاحِبُه قُصُور ؛ وآكشِفْ أحوالَ هذه الرِّباع كشْفا يُعرَف به حالُها ، ويُعْلم منه آستقامتُها وآختلالُها ؛ وآنتصبْ لآستخراج ما لها من السُّكّان ، وآستعمل فى آستِيدائه غايةَ الآستطاعة والإمكان .

ومِلاكُ الأمر فيها أن تتعهّدها بالطّواف فيها ، وأن تحافِظ علىٰ حِراسة غَيْرِها ، وتناوُلِ أجرِها ، ورَمِّ مالعله يسترِمُّ منها ويتشعّث ، والعكوفِ علىٰ ذلك بحيث لا يتوقّف فيه أمرٌ ولا يتريّث ، وحمِلِ مالِ آرتفاعها إلىٰ بيت المال المعمُور بعد ما يُصْرف فى مصالحها ، ويُطلق فيما يثبُت به عليها ؛ ولك من الأمير مَنْ يُعينك ويُنْجِدك ، ويلبِّي دعوتَك ويعضِّدُك ، ويظافِرُك علىٰ آنتظام شُئُونك ومقْصَدك : من الآشتمال بما يزيد علىٰ تأميلك ، فآجعل عليه آعتمادَك ، وبه فى الحَلّ والعقْد آسترْشادَك ؛ فاعلم هذا وآعملْ به ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن الوظائف المكتَتَبة عن الوزير لأرباب الوظائف الدينيــة نسخة سِجل بالحكم بقُوص ومشارفةِ أعمال الصعيد، وهى :

من تقدّمَتْ لأسلافه خِدَم ومُناصَحَات، وكانوا مشهورِين بأنّ طرائقَهم فى السّداد مستقيماتٌ واضحات، وعُرِف جميعُهم بالصّيانة والدّيانه، والثّقة والأمانه، والمحافظة علىٰ مايُحْظيهم عند وَلىّ نِعمتهم، والعملِ بمـا يقْضِى بِطيب ذكرهم وحُسْن سُمعتِهم، كان ذلك ذريعةً له ووسيله، وماتّة ينَال بها المَواهبَ الجزِيله .

ولمـا كنت أيها القاضى علىٰ القضيّة المرضيّة من ولاء الدولة وطاعتِها، والحرص علىٰ الإخلاص لهـا ومشايَعتها، والتحلّى بالعلم والتمييز فى أربابه ، والتعلّق بفعل الخير والتمسُّك بأسبابه ، والعمل بما ينفَعُك فى عاجلتِك وآجلتِك، والاجتهادِ فيما يبعثُ علىٰ وُفُور حظّك من الإنعام وزيادتِك ، وكانت لك دُرْبة فيما تُعانيــه ودِرايه ، وصوْلة فى حُسْن التأتّى إلىٰ أمدٍ بعيدٍ وغايه ،وقد تقدّمتْ لأخيك القاضى الرشيد ـ رحمه الله ـ خدمةٌ أبانتْ عن حرصه ومناصحتِه، وأعربَتْ عن وُفُور نصيبِه من النُّهىٰ ورَجَاحته، فأدّىٰ ذلك إلىٰ بلُوغه من رُتَب أمثــاله أقصاها ، وإلىٰ أنِ آستقرّتْ خِدَمه عليــه وألقتْ عنــده عَصَاها ، وهــذه نصيبك إذا آقتفَيْتَها فقد عرَفْت مَفْضاها ، وإذا عكفْت عليها نالك من الإحسان علىٰ حَسَبها ومقتَضَاها ـ تقدّم فتىٰ مولانا وســيدنا باستِخْدامك فى النِّيـابة فى الحكم بمدينة قُوص والمشارفةِ بأعمــال الصعيد الأعلىٰ : تنويهــا بك وتكريمًــا لك ، وتمهيدًا لمكان الاصطِناع الذى رَتَّبك فيــه وأحلّك ؛ فاعْرِف قدرَ هــذه النعمه ، وقابِلْها ببــذْل الطاقة فى النُّصْح فى الخِــدمه ، وبالغ فى الشكر الذى يُثبّتها عنــدك ويُديمها لك ، وآحرص علىٰ القيام بحقّها حرصا تَبُدُّ به

نظراءك وأمثالك ، واعمل فى ذلك بما تضمنه التقليد المكتتب لك من مجلس القاضى الأعز الماجد أدام الله تمكينه ، وما أودعه من وصايا مُرْشده، وهدايات إلىٰ الصواب مُقرِّبة وعن الخطإ مُبْعده ، وافعل فى أمر المشارفة ما اشتملت عليه التذكِرة المعمولةُ من الدّيوان فإنه يُوضِّح لك مَنْهج الصَّلاح ، ويأتيك منه بما يَزِيد علىٰ البغية والاقتراح ، وانتصب للعِمارة والاستكثار من الزراعة بالمعْدَلة علىٰ المُعامَلين ، والاستخراج لحقُوق بيت المال علىٰ أحسنِ القَوانين ، وواصل من الحُمُول ، ما يكون محقِّقا للظنون فيك والمأمُول ، فاعلَمْ هذا واعمل به ، إن شاء الله عز وجل .

ومن ذٰلك نسخة سجل بالنيابة فى الحكم والأحباس والحَوالى بثغر دِمْياط ، وهى :

أحقُّ من كانتِ المواهبُ عنده مُخَلَّده ، والمنائحُ إليه متواصلةً متجدِّده ، والعوارفُ تَفِدُ عليه فتُخيِّم فى مَغْناه وتُقيم ، والفواضلُ تأْتِى نحوه فتستقرّ فى مَثْواه ولا تَرِيم ، والنِّعمُ الشَّتى لا تشْكُو فى مَواطِنه استيحاشا ولا اغترابا ، والمِنَنُ إذا حُبِىَ بها كان نَيْلُه لها استحقاقًا منه لها واستيجابا ـ من كَرُمتْ أعراقُه ومَحاتِدُه ، وشُهِرت أوصافُه ومحامِدُه ، وصفَتْ فى المُخالصة مصادِرُه وموارِدُه ، وكثُرت فى تقريظه غرائبُ الثَّناء وشوارِدُه ، وشيَّد مَنار أسلافِه بالتخلُّق بخلائِقهم ، وأبقىٰ الحديثَ عنهم بانتهاج سُبُلهم وطرائِقهم ، وأحسن بِرَّهم ، فى الاقتفاء لأثَرِهم والاقتداء بهَدْيهم ، وإحياء ذكْرِهم ، بالعمل بما كانُوا عليه فى عَوْدهم وبَدْئِهم .

ولما كنتَ أيُّها القاضى لهذه الخِلال جامعا ، وإلىٰ المَراشد مُصْغيا سامعا ، ولبُلُوغ مانالَه أسلافُك بالمناصَحات راجيًا طامعا ، ولك فيما يُسنَد إليك نظرٌ يدُل

علىٰ صــوابِ آرائك ؛ وفيما يُرَدُّ إلىٰ تولِّيك كفايةٌ تميِّزك علىٰ نُظرائك ؛ ولمّـا نُدبت للأحكام الشرعية، أبنْتَ عن الديانة والألمعيَّه ؛ وحين باشرتَ الأعمالَ الدِّيوانيَّه، نَصَحْت وٱجتهدْتَ وأخلصْتَ النِّيه ؛ والذى بيَدِك يتمسَّك بك، ويتعلَّق بسببِك ؛ لأنك لمـا ٱستُكْفيتَه نهضتَ وأحسنْت، فلذلك يأبىٰ أن يُكلَّفـه غيرُك وأن لايتكفَّله إلا أنت ـ تقدّم فتىٰ مولانا وسيدِنا بكتب هذا المنشور بتجديد نَظَرِك فيما هو بيَدِك من النيابة فى الحكم العزيز بثغر دِمْياط ـ حماه الله تعـالىٰ ـ والمشارفة علىٰ الأحبـاس به، وعلىٰ مستخْرَج الجَوَالى فيـه، تقويةً لعَزْمك، وإمضاءً لحُكْمك، وشـدًّا لأَزْرك، وتأكيدًا لأمْرك، وإنفاذًا لقولك، وبَسْـطا ليَدك، وإيضـاحًا لمِيزَتِك، وإظهارا لتكرِمتك، وإبانةً عن حسن النيِّة وإعرابًا عن جميل الرأى فيك ؛ فاجرِ علىٰ رَسْمك وعادتك، وٱستغنِ بمـا أُودعتْه تقاليـدُك من الوصايا، وٱستمرَّ علىٰ نَهْجك الذى أفضىٰ بك إلىٰ أحمد الأفعال وأجمل القَضَايا ؛ وٱرتبِط النعمة عنـدك بتَمادِيك علىٰ عادتك، وتوسَّــل بمشكور السعْيِ إلىٰ نموّ حظِّك ووُفُور زيادتِك ؛ فاعلمْ هذا وٱعملْ به، إن شاء الله عز وجل .

* * *

ومن ذلك نسخة سجل بالحكم بالأعمال الغربية، وهى :

مَنْ كان بالعلوم الدينيَّة قَـيُوما، وفى الأمور الشرعيَّة ممَّن يشار إليه ويُومىٰ، وظَلَّ مَنْ يُجَاريه من طبقته قليلًا إذا لم يكُنْ معدُوما ؛ وعُلِم نفاذُه الذى سَلِم من المناقَضة فيـه والاِختلاف، وعُرِف ٱعتمادُه الواجبُ من غير مَيْل عنه ولا ٱنْحِراف ؛ وكان لشَمْل الديانة والأمانةِ مؤلِّفا جامعا ، وغدَا الوصفُ بجميل الخِلال وحميدِ الأفعـال عنـه مسمُوعًا ذائعا ؛ وآثارُه فى كل ما يتوَلَّاه مُدّاحُه وخُطباؤُه، وسفراؤُه فى الرُّتب

الجليلة نزاهتُـه وظَلَفُ نفســه وإباؤُه ـ صارت الأحكام بنظره مَزْهُوّه، وأضحت الخدَم الخطيرةُ تَتَوقَّع بإسنادها إليــه آستِظْهارًا وقُوّه ؛ فهى تتشوّف إلىٰ أن يُولِيها حظًّا من محاسِنِه يُكْسِــبها نَضْرة وبهــاء ، وتتصدّى من نظره فيها لمــا يضْمَن لهــا إدرا كا للإرادة و بلوغًا إليها وآنتِهاء .

ولمــا كنتَ أيُّهــا القاضى حائزًا لهــذه الصِّــفات ، محيطًا بمــا آشتملتْ عليــه من الأَدَوات، سالكًا أعدلَ طريقٍ فى الأمور إذا أشكَلَتْ، عاملًا بقضايا الواجبِ إذا آعتمدتِ الإقبالَ عليك وآتّكلتْ؛ ولك الِخدْمة السنيه، التى لاتطْمَح إليها كل أُمْنيّه، والرتبُ الرفيعةُ التى لا ينالُهــا إلّا مَنْ كانــ عمله موافقا لصادق النيّــه ؛ وكلُّ ما تباشره يغتَبِط بك ويأْسىٰ علىٰ فِراقك ، وكلُّ ما حُظِر علىٰ غيرك مبــاحٌ لك لآستيجابِك له وآستحقاقِك؛ فمن العدل أن تكونَ كفايَتُك علىٰ الأعمــال مقسّمه، وأن تكونَ آثارُك فى كل ماتُعانيه من أمور المملكة علامةً لك عليهــا وسِمَه ؛ وكانت الخدمةُ فى الحكم بالغربية من التصرّفات الوافيــةِ المِقْدار، الساميةِ الأخطار؛ التى لايسْمُو كُلُّ آملٍ إليهــا، ولايحدّثُ كُلُّ أحد نفْسَــه بتولّيها؛ وقد آشتهرت خُبْرتُك بالأحكام، وحفْظُك فيها للنِّظام؛ وبَتُّك للقِصَص المشكِله، ورفْعُك للنُّوَب المُعْضِله ـ فرأينا آستخدامَك نائبًا عنــ القاضى الأعزِّ المــاجدِ فى الصَّلاة والخَطَابة والقضاء بالأعمال الغربية المقدّم ذكْرُها : إذ كنت تعْدِل فى أحكامِك، ولا تخرُج عن قضايا الصواب فى نَقْضِــك وإبْرامِك ؛ ولا تُحــابِى فى الحق ذا مَنْزِله، ولا تنفَكُّ معتمِدًا مايقتضى لك بالمِيزةِ المتأكّدة والرتبــة المتأثّله ؛ وأمرنا بكَتْب هــذا المسطور شَــدًّا لأزْرِك ، وتشييدًا لأَمْرِك؛ وإيراءً لزَنْدك وتقويةً لعزْمك؛ وضمَّنّــاه ماتقــدّم ذكره من وصــفِك وشُكْرِك، وتقريظِك وإجمال ذِكْرِك؛ والثناءِ علىٰ علمك، والإبانةِ عن قضيّتك فى قضائك وحُكْمِك .

فاعملْ بمـا اشتمل عليه التقليدُ المكتتَب لك من مجلس الحكم العزيز وٱنْتـهِ إلىٰ ما أُودِع من فُصُوله، وكنْ عاملاً بمضمونه متّبِعا لدليله ؛ والله يوَفّقك ويُرشِـدُك ، ويعينُك ويُسدِّدُك؛ فاعلم هذا وٱعمَلْ به، إن شاء الله عز وجل .

ومن ذلك نسخة سجل بالحكم والمشارفةِ بثغر عَسْقلانَ من سواحل الشام، وهى :

الذى منَحنا الله من المفـاخر الدالّةِ علىٰ محلّنا عنده، والمآثِرِ التى أوصلَتـنا بها من الشرف إلىٰ أمدٍ لاغايةَ بعـدَه؛ والقضايا العادلةِ التى أبانَتْ عمـا أجراه الله لنـا من اللطائف، والسـياسةِ الفاضلةِ التى تشهدُ لنا ببياض الصحائف، قد ضاعَفَ حظَّنا من التأييد فيما نَراه ونُمْضيه، وضمِن لنا الهدايةَ فى حق الله تعالىٰ إلىٰ مايُرْضيه؛ وأجزل قِسْطَنا من التوفيق فى ٱجتباء من نَجْتبيه، وحبَّب لنا إسْناءَ المواهب لمن كان قليلَ النظير والشَّبِيه؛ ووقَفَ ٱهتمامنا علىٰ التنبيهِ(؟)علىٰ كلّ مشكور المساعى، وصَرَف ٱعْتزامنا إلىٰ التفقُّد للمقاصد التى هى علىٰ الاصطفاء من أقوىٰ الدَّواعى؛ ووفَّر ٱلتفاتَنا إلىٰ تأمُّل الإخلاص الذى صفَتْ مواردُه ، وصحّت سرائره ، وأُحْكِمت معاقده ، وأُحْصِدت مرائرُه؛ وتوكّل لصاحبه فى بلوغ المطالب البعيدةِ المَطارح ، وتبَتّل لمن وُفّق له فى سُبُوغ العَوارف المُخْصبةِ المَسارح ؛ وجعلنا لا نَغْفُل عمن بذَل فى الطاعة مُهْجتَه ، وأظهر بدُءُوبه وٱنتصابه دليلَه علىٰ الولاء المحْض وحُجّته ؛ وأبان عن تقْواه وحُسْن إيمـانه، وتقرّب باستِفْراغ وُسْعه إلىٰ الله تعـالىٰ وإلىٰ سلطانه؛ وعمل فيما ٱؤْتُمِن عليه ما ٱستوجَبَ به جزيلَ الأجر، وكان له من رأيه فى أعداء المِـلّة مايقُوم مَقامَ العسكر الجَرّ؛ وعلم أنّ تجارته فى المخالصة نافقةٌ مُرْبحه، وأن مراميَه فى المناصحة صائبةٌ مُنْجحه؛ وتيقّن أنابحمد الله لانُخيِّب أملا، ولانُضيع أجْرَ مَنْ أحسَنَ عمَلا .

ولما كنت أيها القاضى المكين المرتضىٰ ثقةُ الإمام جلالُ الملك وعمادُه ذو المعالى صفىُّ أمير المؤمنين، مستولياً علىٰ هذه الخلال، التى تكفَّلتْ لك بإعلاء القَـدْر، ومحتوِيًا علىٰ هذه الخصال، التى رتَّبتك علىٰ نظرائك فى الصَّدْر ؛ ولك من الحرمات سوابقُ لايُطمَع فيها بلَحَاقك ، ومن المواتِّ شوافعُ تجعل جَسائِمَ النعم وَقْفا لٱستحقاقك ؛ وقد عُرِفت بالجِدّ والتشمير ، وٱشتهرْتَ بصادق العَزْم وصائبِ التدبير ؛ وجُعلْتَ مؤهَّلا لكل أمر خطير ومُهِمٍّ كبير ، واستقرّ أنك إذا ٱستُكْفِيت جسيما فقد وُكِلَ منك إلىٰ الأمين الخبير : لأنَّ لك الرياسةَ التى لا تُجارىٰ فيها ولا تُبارىٰ ، والكِفايةَ التى لايُختلَف فيها ولا يُمَارىٰ ، والفضائلَ التى تشهد بها أعداؤُك وحُسَّادُك ٱضْطِرارا ، وما زالتْ أفعالكَ فى كل ماتتولَّاه من الخِدَم الجليلة دالةً علىٰ كَرَم طِباعِك ، وآثارُك معربةً عن سَعة ذَرْعك فى الخير وٱمتدادِ باعِك ، وأخبارُك ناطقةً بإبائك عن الباطل وٱقتفائِك للحقِّ وٱتِّباعِك ؛ ولما نظرتَ فى القضاء تهلَّل بنظَرك وجهُ الشرع ، وأبنْتَ عن اضطلاعك من علمه بالأصل والفَرْع ؛ وعدَلْت فى أحكامك ، ولم تعْدِل عن الواجب فى نَقْضك وإبرامِك ؛ وفعلتَ ما أقرّ عينَ المِلَّة ، وأربَيْت علىٰ مَنْ تقدّمَك من القُضاة الجِلَّة ، وٱعتمدتَ من الإنصاف مابرَّدْت به الغُلَّة وأزَحْت به كلَّ عِلَّه ؛ ووَفَّيت هذه الخدمةَ جميعَ شروطها ، وفسَّحْت فى تولِّيك أمانِيَّ المظلومين بعد ضيقِها وقُنُوطها ؛ وقمتَ فى ذلك المقامَ الذى يقضى بثُبوت النعمةِ عندك وخلُودِها ، وبالغتَ فى ٱرتباطها بالشُّكْر لعلمك أن شُرودَها بكُنُودها . فأما الإشراف فإنك أتيتَ فيه مادلَّ علىٰ حُسْن المعرفه ، وٱستقبلْتَ فى وجْهه كل صفه ؛ وأوضح أنَّ كلَّ مَنْ باشرَه لم يبْلُغْ مَداك ، ولا جرىٰ مَجْراك ؛ ولاوصلَ إلىٰ غايتِك ، بل ماطَمِع بمُداناتك ولامُقاربَتِك ؛ وكلُّ ماعُدِق بكفايتك فقد أتيتَ بحمد الله فيه علىٰ الأغراض ، لاجَرَم أنه مستدْعٍ لزيادتك ومطالبٌ ومتقاض ؛

فحين اجتمعت لك هذه الأسبابُ استوجبتَ من إنعامنا ما يتنزه كرمُنا عن تعويقه، ومن جزيل إحساننا ما يكون تعجيلُه حقًّا من حقوقه؛ فشرّفناك بتجديد ما هو بيدك من الحكم العزيز والمشارفة بثغر عسقلانَ حماه الله تعالى، وجعلنا النيابةَ فى الحكم عنا تنويهًا بك ورفعًا لشانك، وتبيينًا لموضعك عندنا ومكينِ مكانك .

فاعمل بتقوى الله التى أمر بها فى كتابه الذى به يهتدى المؤمنون فقال عزّ من قائل : ﴿ يأيُّها الَّذينَ آمنُوا اتقُوا اللهَ ولتنظُرْ نفْسٌ مَا قدّمتْ لغَدٍ واتّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بمـا تعْمَلُون ﴾ . واجرِ على عادتك فيما حسّن أثرك ، وأطاب خبرك؛ معتمدا على ما تضمّنته عهودُك، واشتملتْ عليه تقاليدُك : من المساواة بين القوىّ والضعيف فى الحقّ ، وإجراء الشريف والمشروف فى المحاكمة مُجرًى واحدا من غير فرْق ؛ والنظرِ فيمن قِبَلك من الشُّهود ، وحملِهم على القانون المألوف المعْهود : من إقرار مَنْ ترتضيه، والمطالعةِ بحالِ من تأباه لما توجبه طريقتُه وتقتضيه ؛ والمحافظةِ على أن لا يتعلّق بشىء من أمور الحُكْم إلا مَنْ أُحمِد فعله ، وحصل له من التزكيةِ ما يُزكّى به مثلُه ؛ إلى غير ذلك مما أُودِع فيها ، وأحاطتْ بها الوصايا التى لم يزل يستوعِبُها ويستوفِيها .

واستقِمْ على سبيلك فى ضَبْط المال وحِفْظه وصَوْنه ، واستعِنْ على بلوغ المرادِ فى ذلك بتأييد الله وتوفيقه وعَوْنه ؛ وتمادَ على سُنّتك فى النظر فى أحوال الثغر المحروس والانتصابِ لمصالحه ، والتوفُّر على منافِعه ، والاجتهاد فى الجِهَاد بآرائك ، والاستمْرار فى ذلك على سَدِيد أنحائك ، والله ولىُّ عونك وإرشادك ، والمانُّ بتبليغك فيما أنتَ فيه أقصى مُرادِك ؛ فاعلم هذا واعملْ به ، إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك نسخة سجل بتدريس، وهى :

أميرُ المؤمنين لمـا مَنَحه الله من الخصائِص التى جعلَتْه لدينـه حافِظا ، ولمصالح أمور المسلمين مُلاحِظا ؛ ولِمَـا عادَ بشُمُول المنافع لهم مواتِرا ، وبمـا أحْظَاهم عنده تبارك وتعالىٰ مُعِينا وعليه مُثابِرا ؛ لايزال يُولِيهم إحسانا وفَضْلا ومَنًّا ، ويُسْبِغ عليهم إنعاما لم يزل تسم (؟) هممهم إلىٰ أن تُمنَّى ؛ وقد يسَّر الله تعالىٰ لخلافته ودولتِـه ، ووهَبَ لإمامته ومملكتِه ؛ من السيد الأجل الأفضـل، أكرَمَ ولىّ ضاعف تقْواه وإيمانَه، وأكمَلَ صفى وقفَ ٱهتمامَه وٱعتزامَه علىٰ مايُرْضِـيه سبحانه ؛ وأعدلَ وزير لم يرْضَ فى تدبير الكافَّة بدُون الرتبة العُلْيـا ، وأفضـلَ ظهيرٍ ٱبتغىٰ فيما آتاه اللهُ الدارَ الآخرةَ ولم يَنْس نَصيبَه من الدُّنيا ؛ فهو يُظافِرُ أميرَ المؤمنـين علىٰ ماعمّ صلاحُه عمومَ الهواء، ويفاوِضُ حضرتَه فيما يستخلص الضمائرَ بمـا يرفَع فيه من صالح الدعاء .

ولمَّـا ٱنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين مِيزةُ ثغر الإسكندرية ـ حماه الله تعالىٰ ـ علىٰ غيره من الثُّغُور، فإنه خليقٌ بعنايةٍ تامةٍ لاتزال تُنْجِد عنده وتَغُور: لأنه من أوْقىٰ الحصُون والمَعاقل، والحديثُ عن فضله وخطير محلّه لاتهمة فيه للراوى والناقِل ؛ وهو يشتمِل علىٰ القُرّاء والفقَهاء ، والمرابطين والصُّلَحاء؛ وأن طالِبى العلم من أهله ومن الوارِدِين إليه ، والطارئين عليه، متشتِّتو الشَّمْل، متفرّقُو الجمع ـ أبىٰ أمير المؤمنين أن يكونُوا حائرين متلدِّدين، ولم يرضَ لهم أن يَبْقَوْا مذَبْذَبِين متبدّدين؛ وخرجتْ أوامرُه بإنشاء المدرسة الحافظيَّة بهذا الثغر المحروس بشارع المَحَجَّة منًّا عليهم وإنعاما ، ومستَقَرًا لهم ومُقَاما ؛ ومثوًى لجميعهم ووطَنـا ، ومحلًّا لكافَّتهم وسَكَنًا ؛ فجدّد السـيد الأجل الأفضل أدام الله قدرتَه الرغبةَ إلىٰ أمير المؤمنين فى أن يكونَ ماينْصَرف إلىٰ مئُونة

كل منهم والقيامِ بأوَدِه، وإعانتِه علىٰ ماهو بسبيله وبصَددِه: من عينٍ وغلة، مطْلَقا من ديوانه، وآستـرفَدَ أمير المؤمنين المثوبةَ فى ذٰلك فأجابه جَرْيا علىٰ عادة إحسانه؛ وآستقرّت التقدمةُ فى هذه المدرسةِ لك أيها الفقيهُ الرشيد جمالُ الفقهاء أبوالطاهر: لنَفاذك وآطلاعك، وقُوّتك فى الفقه وآستِضْلاعِك؛ ولأنك الصدرُ فى علوم الشريعه، والحالُّ منهـا فى المنزِلة الرفِيعه؛ والمشتغِلُ الذى آجتمع له الأصولُ والفُروع، ومن إذا آختُلف فى المسائل والنوازِل كان إليـه فيها الرُّجُوع؛ هـذا مع ماأنتَ عليه من الورَع والتُّقىٰ، وأنَّ مُجارِيَك لايكون إلا ناكصًا علىٰ عَقِبه مُخْفِقا؛ وأمر أمير المؤمنين أن تدَرِّس علومَ الشريعة للراغبين، وتعلِّم ماعلَّمك الله إيَّاه لمن يُريد ذلك من المؤثِرين والطالبين؛ وخرج أمره بكتب هذا المنشور بذلك شَدًّا لأزْرك، وتقويةً لأمرك ورَفْعا لذكرك.

فأخلِصْ فى طاعة الله سرًّا وجَهْرا، فإنه تعـالىٰ يقول فى كتابه: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِه ويُعْظِمْ لَهُ أَجْرا ﴾. وآعتمدْ توزيعَ المطْلَق عليهم، وتقسيمَه فيهم علىٰ حَسَب مايؤدّى آجتهادُك إليـه، ويُوقِفُك نظرُك عليـه؛ وقرّبْ من آرتضيتَ طريقتَه، وأبْعِد من أنكرت قضيتَّه؛ فقد وُكل ذٰلك إليك، وعُدِق بك من غير آعتراضٍ فيه عليك؛ فمَنْ قرأه أو قُرِئ عليه من الأمير المظَفَّر والقاضى المكين ـ أدام الله تأييدهما ـ وكافَّةِ الحماةِ والمتصرفين، والعُمَّال والمستخدمين؛ فليعتمدْ رعايةَ المدرسة المذكورة ومن آحتوتْ عليه من الطلبـة وإعزازَهم، والاشتمالَ عليهـم، والآهتمامَ بمصالحهم، والتوخى علىٰ منافعهم؛ وليتْلَ هذا المنشورُ علىٰ الكافَّة بالمسجد الجامع، ولْيُخَلَّد بهذه المدرسة حجَّةً بمـا تضمَّنه، إن شاء الله عزّ وجلّ.

ومن ذلك سجل بولاية الحِسْبة من إنشاء القاضى الفاضل، وهى :

مَنْ شُكرت خلائقُه، وتهـذّبت طرائقُه، وأُمِنَتْ فيما يتولاه بوائِقُـه، ونيطت بعُرىٰ الصواب علائقُه، وفُرِجت بسَدَاده مسالكُ الإشكال ومَضايقُه، وٱستحْوىٰ من الأمانة قرينًا فى التصرّفات يُرافقُه ولا يُفارِقه، ونهض إلىٰ الٱستحْقاقِ ولم تَعُقْه دونه عوائقُه، وأثنىٰ عليه لسانُ الٱختبار وهو صحيح القول صادقُه ـ استوجبَ أن يُخَصّ من كل قول بأجمله، وأن يُعانَ علىٰ نَيْـل رجائه وبلوغ أَملِه، وأن يُقْتَدح زَنْدُ نيّته ليُرىٰ نُورُ عمـله، وتُيَسّر إلىٰ النجاح متوعِّرات طُرُقه ومشكلاتُ سُـبُله، وأن يقابل جَرَيانُه فى الولاية قِبَـله فيظهرَ عليه أثرُ الإحسان فيكون الشكرُ من قِبَل الإحسان لامن قِبَله، ويُورَدَ من موارد النجح مايتكفّل له بالرىّ من غُلّله، ويُوسَمَ من مَياسِم الٱصطناع مايكون حليةَ أوصالِه ويشْفَعُ سَداد خِلاله فى سَدّ خَلَله .

ولـما كنت أيها الشيخُ المشتملَ علىٰ ما تقدّم ذكره، المستكملَ من الوصف مايجبُ شكرُه، الآوىَ إلىٰ حِرْز من الصيانة حَرِيز، المستغنِىَ بغَنَائه عن الٱسـتظهار بعِزْوة[1] العزيز، المستوجبَ إلىٰ أن يُعَدّ من أهل التمييز لأنه من أهل التمييز، المستوعِبَ من الخلال الجميلةِ مالايقتضيه القولُ الوجيز، المخرَجَ من قضايا الدّنَايا فمـا يستبيحُ محرَّمها ولايستجيز، الممدَّح فى خدمٍ كلّها أخلصته خَلاَص الذهب الإبْرِيز، وكانت له مضمارًا تشهَدُ له أفعاله [فيهـا] بالسبق والتبريز، المتوسلَ بأمانة عزَّبهـا جنابُه عن الشُّبهة ووِجْدانُها فى الناس عزيز ـ تقدّم فتىٰ مولانا السيد الأجل باستخدامك علىٰ

(١) العزوة بالكسر الاعتزاء . أى انه غنىّ بنفعه عن الاستظهار بالاعتزاء الى أحد . وفى الأصل بعروة بالاهمال . تأمل .

الحِسْبة بمدينة كذا : فباشر أمْرها مباشرةَ من يبْذُل فى التقوىٰ جُهْدا، فلا يرىٰ غيرها علىٰ ظَمَإٍ وِرْدا، ولا يراه الله حيثُ نهاه، ولا يأمُره أبدا ويَنْهاه إلا نُهَاه، ولا يرىٰ ما كشَفَته إلا وهو عالمٌ أنَّ الله يراه، وآنتَهِ فيها إلىٰ ماينتهِي إليه من بذَلَ غايةَ وُسْعه، ومن لايرتدُّ عن جرركيـه من عموم نَفْعه، ومن يدُلُّ بتهذيبِ طباعِ الناس علىٰ طهارة طبْعه، ومن يستَجْزِل حسْنَ صنيعِ الله لدَيْه بحُسْن صُنْعه، ومن يستَدْعى منه بذْلَ فضلِه بحَظْر ماأُمِر بحَظْره ومَنْعه. وآسلُكْ فيما تستعمله من أمرها المَذْهَب القَصْد والمَنْهَج الأقْوم، وآجتهِدْ فيها آجتهادَ معتصِمٍ بحبـل التقوىٰ المتين وسببَها المُبْرَم. وآمنعْ أن يخلُو رجل بامرأة ليستْ بذات محْـرَم. وآستوْضِحْ أحوالَ المطَاعم والمشارِب، وقوِّمْ كلَّ من يخرُج فى شيءٍ منهـا عن السَّنَن الواجب. وعيِّر المكاييلَ والموازينَ فهى آلاتُ معامَلات النـاس، واجتهِدْ فى سلامتِك من الآثامِ بسَلَامتها من الإلباس والأدناس، وحَذِّرْ أن تحمَّـل دابةٌ مالاتُطيق حَمْله، وأدِّبْ من يجْرِى إلىٰ ذٰلك يتوخَّى فعْلَه، وأوعِزْ بتنظيف الجوامع والمساجد لتُنيرَ بالنَّظافة مسالكَها، كما تُنير بالإضاءة حَوالِكَها، ففى ذٰلك إظهارٌ لبهجتها وجَمَالها، وإيثارٌ لصيانتِها عن إخْلاق نَضْرتها وآبتذالِهـا، ولا تمكِّنْ أحدا أن يحضُرَها إلا لصلاةٍ أو ذِكْر، قاطعا للسان الخِصَام ومُوقظا لعَيْن الفِكْر، فأما من يجعلها سُوقًا للتِّجاره، فقد حصَلَ بهذه الجَسارة علىٰ الخَساره، فهى ميادينُ الضُّمر، وموازين الرُّجح فى الظاهر من أعمالهم والمُضْـمَر، وما أحقَّ ليالِيَها أن تقوم بها الهُجَّد لا السُّـمَّر، وهل أذِنَ الله أن تُرْفَع لغيرآسمه أو تُعَمَّر، وآحظُرْ أن يَحْضُر الطُّرُقات ما يمْنُع السلوكَ أو يُوعِرُه، وآفعـل فى هذا الأمرِ مايرْدَع العابثَ ويزْجرُه. وخُذ النصارىٰ واليهودَ والمخالفين بلُبْس الغِيار وشَدِّ الزُّنَّار، ففى ذلك إظهار لمـا فى الإسلام من العِزَّة وفى المخالفة من الصَّغار، وإبانةٌ بالشدِّ للتأهُّب للسـير إلىٰ النار، وتفريق بين المؤمنـين والكُفَّار، وأدِّبْ من يَكِيلُ

مطفِّفا، أو يَزِن متحيِّفا ، أدباً يكون لمعاملته مزيِّفا ، وله من معاودة على فعله زاجراً ومخوِّفا؛ فاعلَمْ هذا وآعملْ به، إن شاء الله تعالىٰ .

***

ومن المكتَتَب عن الوزير لأرباب الوظائف الديوانيــة سجِــلٌّ بمشارفة الجَوَالى بالصعيد الأدنىٰ والأُشْمُونين، وهى :

مَنْ حسُنَت آثارُه فيما يتولّاه ، وآستعمَل من الآجتهاد مايدُلُّ علىٰ معرفتِــه بقدر ماتوَلّاه، كان آعتمادُه بمــا يؤكِّد سَبَبه ويُنْجِح قصــدَه ويبسُط يده، ويُرهِف حدَّه فيما يضْمَن مصالح خِدْمته، وينظِم أمرَها فى سِلْك إيثاره وبُغْيته .

ولمــا كنتَ (١) لمَّا نُدِبتَ إلىٰ مشارفة الجَوَالى بالصعيد الأدْنىٰ والأُشْمُونين قد أبَنْت عن الخُــبْرة والدِّرايه ، والأمانةِ والكِفايه ، والآنتصابِ للاســتِخْراج والجِبَايه ، والآجتهــاد فى الوَفَاء بمــا كتبتَ به خَطَّك ، والحرصِ علىٰ ما يُجْزِل نصيبَك من جميــل الرأْى وقِسْطَك ــ تقدّم فتىٰ مولانا وسيدنا بكتب هذا المنشورِ مضمَّنا شكرَك وإحمادَك ، ومُودَعا مايبلِّغُــك فى الخــدمة بُغْيتك ومرادَك ؛ وتجــديدَ نظَرك وتقويةَ يدِك ، وإعزازَ جانبك ؛ وتوخِّيك بمــا يشرَح صــدرَك ، ويشُــدّ أزْرَك ، ويرفع موضعَك ويُزِيح عِلَلَك ؛ ويقيم هيبتك ويُفْســح مجالَك ، ويبلِّغك آمالك .

فاجرِ علىٰ رَسْمك فى هــذه المشارفة وآستمِرّ علىٰ عادة دُءُوبك ، وآجعــل التقرّب بالنصيحة غايةَ مطلُوبك ؛ وواصــل الآنتصابَ لآســتخراج مالِ هــذه الجَوَالى

(١) بياض بالأصل . ومراده "أيها الأمير" أونحوه .

واستِنْضاضه وآستيفائه وآستنظافِه، وتمـادَ فى ذلك علىٰ سُنَّتك الحميده، وطريقتِك السَّديده؛ وثِق بأنذلك يُسْفِر لك عن بلُوغ أراجيك، ويضاعف سَهْمَك من حسن الرأى فيك؛ فليعتمدِ الأميران معاضـدَة المذكور ومؤازرتَه، وإعانتـه ومظافرَته، وإجابةَ ندائه، وتلبيةَ دعائه؛ والشدَّ منه فى آستخراج البواقِى مع المـال الحاضر: ليجِدَ السبيلَ إلىٰ الوفاء بمـا شَرَطه علىٰ نفسه، وكتب خَطَّه به؛ والمبالغةُ فى ذلك مبالغـةً يعودُ نفعهـا علىٰ الديوان، ويشهدُ لهما ببذل الطاقة والإمكان؛ فلْيَعلم ذلك وليعمل به، إن شاء الله عز وجل.

ومن ذلك سجلٌّ باستيفاء الأعمال القبلية، وهو:

من كَرُم أصلُه ومَحتِده، وحسُن فى الولاء ظاهرُه ومعتَقَده، ولُقِّن المخالصةَ عن المـاضين من أسلافه، ولَزِم فى المناصحة مَنْهجا لم يَعدِل عنه إلىٰ خلافه، وتَنَقَّل فى جلائل الخدم بكثرة الثنـاء عليه والتعديد لأوصافه؛ وكان فى كلِّ مايباشره علىٰ قضيةٍ تَشهد بفضله، وتَدُلُّ من محاسن الخلال علىٰ مالايجتَمع إلا فى مثله؛ علىٰ أنه قليلُ النظَراء والأكْفاء، كَلِفٌ بالآقتـداء بمَكارم الأفعال والآتِباعِ لهـا والآقتفاء ــ آستوجب أن يُرفَع مكانهُ ومحلُّه، وآستحق أن يحمَّل من أعباء المهمَّات مالاينهض به [إلا] مثلُه؛ وصلَح أن يجعل لمـا يراعِى أمرَه سهْما من نظره فيه، وأن يبرز من توليته إيَّاه فى مَلْبَس جمال يُسْبِغه حسنُ التدبير عليه ويُضْفِيه.

ولمـا كنت أيها الشريفُ، تاجُ الخلافة، عضـدُ الملك، صنيعةُ أمير المؤمنين، من جِلَّة آل أبى طالب، والموفُورى الحظِّ من المآثِر والمَنـاقِب؛ ولك مع نَسَـبك الشريف ميزةُ بَيْتك فى الدولة العلوية ــ خلد الله ملكَها ــ وتقدُّمه، وآسـتقرارُك

بَنَجْوة من السناء لايضايقُه أحدٌ من طبقتك فيها ولايَزْحَمُه؛ وقد توليتَ أمورا جليلةً فكنتَ عليها القويَّ الأمين، وأُهِّلت لمنازل سنيَّة فأوضحتْ لك الأثرَ الحسنَ وأظهرت منك الجوهرَ الثمين؛ ولم تَنْتقِل قطُّ من شيء تتولّاه، إلىٰ غيره مما تُستحفَظُه وتُستكْفاه، إلا كان الأوّل عليك يتلهَّف، والثانى إليك يتطلَّع ونحوك يتشَوّف؛ وما برِحْتَ ملتَمِسا من الرتب الخطيرة مخطُوبا: لأن الأسباب التى غدَتْ فى غيرك متشتِّتة متفرّقه، قد أُلْفِيت عندك مجتمعةً متألِّفة متّسِقه؛ فلك النزاهةُ السابقةُ بك كلَّ من يجاريك، والوجاهةُ الرافعة قدرَك علىٰ من يُناوِيك؛ والأمانةُ التى يشهد لك بها من لايُحابِيك، والديانةُ التى حُزْتَها عن الشريف عضُد الدولة أبيك — تقدّم فتىٰ مولانا وسيدنا بالتعويل عليك فى تولّى ديوان الاستيفاء علىٰ الأعمال القبلية وما جُمِع إليه، الذى هو من أجلِّ الدّواوين قدرا، وأنبهِها ذكرا، وأرفعِها شانا، وأشمخها مكانا؛ وخرج أمرُه بكَتْب هذا التقليد لك؛ فباشرْ ذلك متقياً لله تعالىٰ فيه، جاريا علىٰ مراقبةِ عادتك التى تُزْلِفُ فاعلَها وتُحظِيه؛ فالله تعالىٰ يقول إرشادا لعباده وتفهيما: ﴿ يٰأيُّهَا الَّذين آمنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أعْمَالَكُمْ ويَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ فقَدْ فَازَ فَوْزًا عظِيما ﴾.

وتبتَّل إلىٰ عمارة الأعمال، وتَزْجِية الارتفاع واستخراج الأموال؛ واعتمد مواصلةَ الجِدّ والتشمير، واعكُف علىٰ الاجتهاد الذى يشهدُ لك بقلّة الشبيه وعدم النظير؛ واستنْظِف البواقىَ من كل الجهات والأماكن، وكُنْ علىٰ ضبط ماتَستخرِج وصونِه أحفَظَ له من الخزائن؛ وانظر فى أمر الكُتّاب نظر من يكْشِف عن جميع أسبابهم، ويعلم أنه المخاطَبُ علىٰ خطئِهم وصوابِهم؛ وخُذْهم بملازَمة الأشغال، والمواظَبة علىٰ التنفيذ وعلىٰ استيفاء الأعمال؛ ولا تُسوّغ لضامن ولا عامل أن يُضَجِّع فى العمارة، ولا أن يماطل بها من ساعة إلىٰ ساعة فإن فائت ذلك لايُلْحَق،

وفارطه لايُدْرك ، وقد أُزيحت علّتُــك ببسط يدك و إنفاذ قولك و إمضاء حكمك ؛ فتماد علىٰ سُنّتك وآستمـرّ علىٰ رَسْمك ، وآعلم هــذا وآعمل به ، وطالع بمــا تحتاج إلىٰ المطالعة بمثله ، إن شاء الله تعالىٰ .

سجل بمباشرة الأغنام والمطابخ .

لمــا كانت الأمانةُ كافلةً بالتنو يه لأربابها ، والكفايةُ سافرةً فى التمييز لمن يتعلق بأســبابها ، والخبرةُ خَلّةً لايليق التصرُّف ولا يحسن إلا بهــا ؛ وكنتَ أيهــا القاضى مشهورَ النَّفاذِ والمعرفه ، خليقاً إذا ذكر المرَشّحون للهمات بأجمل صِفَه ؛ وقد عُلمتْ نباهتُك ، وآستقرّتْ نَزاهتُك ، وحَسُن فيما نتولاه أثَرُك ، وطاب فيما تباشِرُه خَبَرُك . وحين عُدِقت بك الخِــدَم فيما يســتدعىٰ و يُبْتاعُ من الأغنام برسم المَطَابخ الســعيدة وما يُنْفق و يُطْلَق منهــا ، متصرّفاً فى ذلك بين يدَىِ المخلِص السديد صفىِّ الملك مأمونِ الدولة أبى الحسن : فرج الحافظى أدام الله تأييده ؛ فشكر سعْيَك ، وأحمد قصــدَك ، ورضِىَ آجتهادَك ، وآستوفَقَ آعتمادك ــ تقدّم فتىٰ مولانا وســيدنا فلان بكتب هــذا المنشور لك ، مضمّنا مايقضى بشدّ أَزْرِك ، وشرح صدْرِك ، وتقو يةِ مُنّتك ، و إرهاف عَزْمك فى خدمتك ؛ وآعتمادِك بمــا يؤدِّى إلىٰ آســتقامة الأمرِ فيما عُدِق بك ، ومساعدتِك ومعاضــدتِك ومعونتِك فى أســبابك ؛ وتبليغِك أقصىٰ طِلَابك ، والأميران يعتمدان رعايتك ، والشدَّ منك و إعانتَك ، والمحافظةَ علىٰ مصالح أمرك والتلبيةَ لدعوتك ، وتوفيرَ حظك من الملاحظة لشُئونك . فلتعلم هــذا ولتعمل به ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

ومن ذلك نسـخة منشور بمشارفة المواريث الحشرية ، والفروض الحُكْميـة ، وهى :

منشورٌ تقدّم بكتبه فتىٰ مولانا وسيدنا السـيدُ الأجل الأفضـل لك أيها القاضى الرشـيد ، سَدِيد الدولة ، أبو الفُتوح محمد بن القاضى السـعيد عين الدولة أبى محمد عبد الله بن أبى عقيل ــ أدام الله عزك ــ لمـا ٱشتهرتْ كفايتُك ٱشتهارَ الشمس ، وأَمِنتْ أمانتُـك دخولَ الشـبهة واللبس ، وسلكْتَ مذهبَ أسـلافك فى العَفَاف والنزاهة وظَلَف النفس ؛ وظلَّت آثارُك فيما تتولاه شاهـدة بديانتك ، وأفعالك فيما تُسْتكفاه معربةً عن نباهتِك ؛ وسِـيرتُك فيما تتكَلَّفه منتهيـةً بك إلىٰ أقصى أمد الآحتياط مُفْضِـية ، وقد أضحىٰ سبيل تقديمك مُعبَّدا مذلَّلا ، وغدوتَ لمـا يُناسِب كريم بَيْتك مرشَّحا مؤهَّلا ؛ وإنمـا إبقاؤك علىٰ مابيدك لتكمِّل إصـلاحَه وتهذيبَه ، وتتمِّم تثقيفه وترتيبَه ؛ ولذلك كتب هــذا المنشورُ مقصورًا علىٰ إقرارك علىٰ ما أنت متولِّيه من الخدمة فى مشارفة المواريث الحَشْريه ، وتقرير الفروض الحُكْميه .

فاجرِ علىٰ رَسْمك وعادتك ، وٱستمرّ علىٰ مَنْهَجك فى بَذْل ٱستطاعتك ؛ وٱلزم المعهودَ منك فإنه مُغْنٍ عن الآستزاده ، وتمادَ علىٰ ماأتيتَ فيه علىٰ البُغْية والإراده ؛ وٱكتفِ بمـا تضمَّنته التذكرة الديوانيـة المعمولةُ لهذه الخدمه ، وحافظ من الآجتهاد علىٰ ما يجدّدُ لك كلَّ وقت ملبَس نعمه ؛ فاعلَمْ هـذا وٱعملْ به ، وليُنْسَخ هـذا المنشور بحيث يُنْسَخ مثله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

✤

ومن ذلك نسخة منشور بعُمَالة ، وهى :

عندَ ماوُصفتَ به من آجتهادٍ ومناصحه ، وأمانةٍ ليس فيها مساهلةٌ ولا مسامَحه ؛ ومخالصةٍ آستمررت فيها القضيةَ المستقيمةَ الواضحه ، وكفايةٍ تمسَّكتَ منها بالسبب الوثيق وحصَلْت علىٰ الصَّفْقة الرابحه ؛ ومعاملةٍ تحرَّيت فيها نَهْج من حُبِّب إليه الأعمالُ الصالحه ، وكفايةٍ إذا باشرت الدُّهْمة الكالحةَ أبدلتْها بالغُرّة الواضحه ، وسُمْعةٍ مابرِحت الألسُن لذخائر ثنائها مبيحةً ولسرائر أسبابها بائحه ؛ وإنك إذا أُهِّلت لخدمة جعلتَها لشُكْرك لسانا ، ولكِتاب كفايتك عُنْوانا ؛ ومَن كان بها ملما (؟) إذا رأتك دواءه كان مستعارا بك أحيانا .

فآعتمدْ فى هذه الخدمة مايحقِّق بك ظنا ، ويقيمُ لك وَزْنا ، ويشُدّ بك رُكْنا ويضاعِفُ لدَيْك مَنّا ، ويُنِيلك من الإحسان مانتمَنّى ، ويُسْنى لك من الزيادة والحسنىٰ ، ويتوكَّل فى آقتضاء الحظّ الجزيلِ الأسنىٰ ؛ وآستَرْفِع (؟) الحُسْبانات التى مايلزم رَفْعُها ، ويُحفَظ به شرطُ الكِفاية ووضْعُها ؛ وآكشِفْ ولا تُبقِ ممكنا حتى تكشِفَه ثم آستنطقه ، وحاصل به أصله ثم تجمله ؛ وحاقِقِ الجهابِذَ علىٰ ماخرجتْ به البراآت ، ورُفِعت به الختمات ؛ ولاتُخْلِ وُصولا ، من أن تكون بخطّك موصولا ؛ وآستخرج حقُوقَ الديوان علىٰ ما مضَتْ به مواضى سُنَنه ، وخذْ من كل شىء فى خدمتِك بأحسَنِه ، وأنزل نفْسَك من شئون السنة بأمنع ظل وأحصنه ؛ وآحمل التُّجّار والسُّفَّار علىٰ عوائد العدل وشرائطه ، وقضاياَ الصونِ وحوائطه ؛ وشواهدِ الدِّيوان وضرائبه ، ولا تتعدّ فيهم مألُوفَ مَطالِبه ؛ وآنظُرْ فى الأملاك

السـلطانية نظرا يُصلح معتلَّها، ويصَحِّح مختَلَّهـا، ويُوفِّر أجرَها، ويُزْجِى غيْرها، وكذلك الأحبـاسُ والأحكارُ والمواريث : تحافظ على حِفْظ آسـتغلالها ، وتُكَفِّ كَفَّ من يُرى باستباحةِ أمرِ الحرمةِ وآستحلالِها، وقد وردتْ لك من الديوان تذكرة فاهتَدِ بمنظومها، وآقتد برسُومها ؛ ولك من الآراء ما يَشْحَذ عزمك، وينفِّذ حكمك، ويُسْنى موردَك، ويعْلى يدَك، ويمثِّل الرعايةَ فيـك ، ويقيم على أن تكْفى الديوان بمـا يكْفيك، والسلام .

تم الجزء العاشر . يتلوه إن شاء الله تعـالى الجزء الحادى عشر

وأوله الفصـــــل الثـالث

(من البـاب الرابع من المقـالة الخامســـة)

والحمد لله ربِّ العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خَاتَم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـــه والتـابعين ، وسلامُه

وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل

(المطبعة الأميرية ، ٥٦٩٤/١٩١٦/٣٠٠٠)

فهـــــرس

الجـــــزء العـاشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

(تم فهرس الجـــزء العـاشر من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجزء الحادى عشر

دار الكتب السلطانية

كتاب
صبح الأعشى
تأليف
الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الحادى عشر

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٥ هـ
١٩١٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثانى[1]

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فيما يُكْتَب من الوِلَايات عن الملوك ، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطَّرَف الأوّل

(فى مصطلَح كُتَّاب الشرق)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ما كان يُكْتَب عن الخلفاء أنّ الوِلَاياتِ فى الخلافة العبَّاسيَّة بِبَغْدادَ كانت تَصْدُر عن الخُلَفاء دُونَ الملوك المُساهمين لهم فى الأمر، لا يُشارِكونَهم فى شيء من الوِلَايات أصلا . وقد تقدّم ذكر ما كان يكتب عن خلفائهم من الوِلَايات هناك .

والمقصود هنا ما كان يُكتَب عن ملوك بنى جَنْكِزخان من البيت الهُولاكوهى فمَنْ بعدَهم . ولم أقِفْ علىٰ شىء من مصطلَحهم فى ذٰلك فأُورِدَه هنا .

---

(١) وقع سهوا فى آخر الجزء العاشر أن أوّل الجزء الحادى عشر "الفصل الثالث" وصوابه "الثانى"

الطـــرَف الثــانى

(فى مصطلَح كُتَّاب الغرْب والأنْدلُس فيما يُكتَب من الوِلايات عن الملوك)

واعلم أنهم يعبِّرون عما يُكتَب فى جميع ولاياتهم بالظَّهائر: جمع ظَهِير[1]، يفتتحونه بلفظ «هذا ظهير» كما تقدّم بيانُه فى الكلام على ما كان يكتب عن خُلَفاء المغْرِب .

ثم هى على ثلاثة أضرب :

الضـــرب الأوّل

(ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السُّيوف)

وهـذه نسخةُ ظَهيرٍ بنيابة السلطنة بالحضرة من إنشاء أبى عبد الله بن الخطيب، وهى :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ، منْزِلتُه فى الظهائر منزلةُ المعتَمد به من الظُّهَراء، ومحلُّه من الصُّكُوك، الصادرةِ عن أعاظم المُلُوك، محلُّ أُولِى الرايات، الخافقةِ العَذَبات، والآراء . فتَحَ على الإسلام، من بعد الإبهام، أبوابَ السَّرّاء، وراقَ طِرازًا مُذْهَبا على عاتِق الدَّولة الغَرّاء، وأعملَ عوامل الجهاد فى طاعة ربِّ العباد، شارعة لأهل الكفر والعِناد، من باب الإعمال والإغراء .

أمر به فلان لصَدْر صدُور أوِدّائه، وحُسَامه المشهورِ على أعْدائه، ووليِّه الذى خَبَر صِدْقَ وفائه، وجَلَّى فى مِضْمار الخُلُوص له مُغَبِّرًا فى وجُوه أكفائه . شيخ شُيُوخ المجاهدين، وقائدِ كتائبه المنصورةِ لغَزْو الكافرين والمعْتدين، وعُدَّتِه التى يُدافِع بها عن الدِّين، وسائِقِ وِرْدِه المبَرِّز فى الميادين، الشيخ الأجلّ الأعزّ الأسنى، الأمجد،

---

(١) فى اللسان وغيره "الظهير العون يستوى فيه الواحد والجمع". وقد جمعه الفرّاء على ظهراء . وفى شرح الأشمونى عن بعض النحو يين أنه يشترط فى جمع فعيل على فعائل أن يكون علما لمؤنث . تأمل .

الأسْعدِ ، الأصْعد ، الأغْنىٰ ، الأَحْمىٰ ، الأَحَب ، الأَوصل ، الأفضل ، المجاهد ، الأقضَىٰ ، الأرضىٰ ، الأمضىٰ ، الشهيد ، المقدَّس ، المرحومِ أبى عبد الله بدرِ الدين آبن شيخ الشُّيوخ وعلَمَ الأعلام ، المدافِع عن حَوْزة الإسلام ، البعيدِ الغارةِ فى تُخُوم عَبَدة الأصنام ، الشيخ الكبير ، الجليلِ الخطيرِ ، الرفيع ، الصَّدْر ، المعَظَّم ، الموَقَّر ، صاحب الجهاد الأرضىٰ ، والعزْم الأمضىٰ ، المقدّسِ ، المرحومِ أبى عِمْران (موسىٰ) آبن أبى زيد رحو بن محيو بن عبدالحق بن محيو ، وصلَ الله سعدَه ، وحَرَس مجدَه ، وبلَّغه من مظاهَرة دولتِه ومُوازَرة خلافته قَصْدَه . رَفَع قُبَّة العناية والآختيار علىٰ عِمَاد ، وأشادَ بدَعْوة التعظيم [مُسْمِعًا](١) كلَّ حيٍّ وجَماد ، وقابل السعْىَ الكريم بإحْماد ، وأورد من البِرِّ غيرَ ثِمَاد ، وآستظهَر بالوفاء الذى لم تستتِرْ نارُه برَماد ، ولا قَصَّرت جِيادُه عن بُلُوغ آماد ، وقَلَّد سيفَ الجهاد عاتِقَ الحَسَب اللُّباب ، وأعْلَق يدَىْ الآستظهار بأوْثَق الأسباب ، وآستغلَظَ على الأعداء بأحبِّ الأحباب . لَمَّا قامتْ له البراهينُ الصادقةُ علىٰ كَرَم شِيَمِه ، ورُسُوخ قَدَمه ، وجَنَىٰ منه عند الشِّدّة وآلتمحيص ثمرَةَ ماأَوْلاه من نِعَمه ، قابل بالرَّعْى كرائمَ ذِمَمِه ، وعظائمَ خِدَمه ؛ وشدّ اليَدَ علىٰ عهده الذى عرفه حينَ آنتكثت العُقَد وأَخْلَق المعتقَد ، وآستأْسَد النَّقَد(٢) ، وتنَكَّر الصديق ، وفَرِق الفَرِيق ، وسُدّت علىٰ النَّظرة الطَّريق ، وتميز المغرق والغَريق ؛ فأثقلَ له ميزانَ المُكافات ، وسجّل له رسْمَ المُصافات ؛ وجعله يمينَ المُلْك الذى به يُناضِل ، ويُقاطِع ويُواصِل ؛ وسيفَ الجهاد ، الذى يحمى بمَضَائه حَوْزة البلاد ، ومِرْآة النُّصْح التى تَتَجلَّى بها وجوهُ الرَّشاد . فقدّمه ــ أعلىٰ الله قدَمه ، وشكر

(١) الزيادة عن ''ريحانة الكتاب'' لابن الخطيب .

(٢) النقد بالتحريك السفل من الناس ، وضرب من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه يقال هو أذلّ من النقد . أنظر اللسان .

نِعَمه، وأسعده فيما يمّمه، ونَشَر بالنصر علَمه ـ شيخَ الغُزاة بحضرته العليّه، وسائر بلادِه النصريه : ترجعُ القبائلُ والأشياخ إلىٰ نظره فى السَّكنات، وتَستدرّ علىٰ يده من مقامه الكريم غُيومَ البركات؛ وتُقرّر وسائلَها بوَساطة حُظْوته، وتقصّر خُطاها ٱعترافا بحقّه الواجب عن خُطْوته. فعليه تدورُ أفلاكُ جماعاتهم كُلَّما ٱجتمعُوا وأْتَلفُوا، وبحجة فضله يزولُ إشكالُهم مهما ٱختلَفُوا؛ وبلسانه المُبِينِ يقرّر لهم ماأسلَفُوا، وفى كَنَف رَعْيه ينشأ من أعقبوا من النَّشأةِ وخلَّفُوا؛ وبإقدامه تنهَضُ أقدامهم مهما توقَّفُوا. فهو يَعْسُوب كتائبهم الملتفَّه، وفرْزانُ قِطَعهم المصْطَفَّه؛ وشَهْمُ جوارِحهم الفارِهه، وعَيْنُ عيونهم النَّابِهه، وتأويلُ أمورِهم المتشابهه؛ عن نظره يَرِدُون ويَصدرون، وبإشارته يَرِيشُون ويَبْرُون وآثارَه يقتفُون، وبتَلْعة دوّاره المَرِينىّ فى خدمة مقامه النصرىّ يَقِفُون. فهو الذى لا تأنَفُ أشرافُ القبائل من ٱقتفاء آثارِه، ولا تجهل رِفعةَ مِقداره؛ فلبيته المَزِيَّةُ بالحق، المستوجبةُ للفخر بسابقةِ السعادة لعبد الحَقّ؛ ولذاته قَصَبُ السبق، ولوَفَائه الشُّهرة فى الغرب والشَّرْق.

فليتولَّ ذٰلك ـ تولَّاه الله ـ منْشرِحا بالعز صدْرُه، مستمدّا[(1)] من شمس سعادته بدْرُه، معروفا حقُّه معظَّما قدرُه؛ فهى خُطَّة قومه، وفريسةُ حَوْمه، وطِيَّة أمسِه ويَوْمه؛ وكُفْءُ خطْبته، ومَرْمىٰ رُتْبته؛ وحَلْيُ جيده، ومَظْهَر توفيقه وتسديده. مُطْلِقا من عِنان الثناء، علىٰ أهل الغَناء، معاملا بصادق الإطراء، لذوى الآراء؛ متغَمّدا بالإغضاء، هَفَواتِ أهل ٱلمَضَاء؛ معرِّفا بالقبائل، والعشائر والفصائل؛ كُلَّما وفدُوا من الآفاق للاستلحاق؛ منبِّها علىٰ مَظَانِّ ٱلاستحقاق، مُطبِّقًا للطباق، مميِّزا لجيادها يومَ السِّباق؛ حريصا علىٰ إنماء الأعداد، مطبِّقا مَفَاصلَ الشِّراد؛ محتاطًا علىٰ الأموال التى تمترِى

(١) فى ريحانة الكتاب «مشرقا» .

بهـا أكُفُّ الجباية ضُروعَ العباد، واضعًا مالَ الله حيثُ وضـعه ٱلحق من الوَرَع والآستـداد، [لا] سيَّما فى هذه البِلاد، حتَّىٰ تعظُم المَزايا والمَزاين، وتتوفَّرَ الكتائبُ والخَزائن ويبتهجَ السامعُ ويُسرَّ المُعاين، ويظهر الفضلُ علىٰ من تقدّم، وأنَّ الظُّهَراء كَمْ غادَرت من متردِّم، ويتحسَّرَ من قصَّر ويتندّم، وعند الله يَجِدُ كلُّ ماقدّم. فهى قلادةُ الله التى يُضِيع مَنْ أضاعها(١)، ويَرْضىٰ عمن أعمل فيها أوامِرَه وأطاعها. وهو، ـ وصلَ الله سعادتَه! وحرس مجادَتَه! ـ أولىٰ مَن لاحظ ضرائِرها، وٱستـطلع من ثَنـايَا التوكل علىٰ الله بشَائرها: نَسـبًا وحسَبا، وجدًّا وأبا، وحَدًّا وشَـبَا، ونَجْدة وصَحتْ مَذْهَبا.

وعلىٰ الغُزاة ـ وفَّر الله جموعَهم! وأنجدَ تابعهم ومتبوعَهم! ـ أن يعرفوا قدْرَ هذا التعظيم الذى خفقتْ أعلامُه، ووَضَحتْ أحكامُه، والآختصاص الذى لَطُف محلُّه، والاعتناءِ الكريم الذى ضَـفَا ظِلُّه، فيكونوا من إيجـاب حقِّه حيثُ حَدّ ورَسَم، وميَّز ووَسَم، لايتخلَّف أحد منهم [فى خدمتـه](٢) أيده الله عن إشـارته الموفّقه، ولا يَشِذُّ عن رياسته المطلقه، بحول الله تعالىٰ وقُوّته.

⁂

وهذه نسخة ظَهِير بنيابة السلطنة ببعض الأعمال، وهى:

هذا ظهيرٌ كريمٌ، مضمَّنُه ٱستجلاءٌ لأمور الرَّعايَا وٱستِطْلاع، ورعايةٌ كَرُمت منها أجناسُ وأنواع، وعدْلٌ بَهر منه شُعَاع، ووصَايَا يجب لها إهْطاع.

أصدَرْناه للفقيه أبى فلان. لَمَّـا تقرَّر لدَيْنا دِينُـه وعدله وفضـله رأينا أنَّه أحقُّ مَن نُقلِّده المُهمَّ الأَكِيد، ونرمِى [به](٢) من أغراض البِرِّ الغرَضَ البعيد، ونَستكْشِف به

(١) فى "ريحانة الكتّاب" التى لا يضيع من أضاعها، ويوفى صاعها.
(٢) الزيادة من "ريحانة الكتّاب".

أحوالَ الرَّعايا حتَّىٰ لايغيب عنا شيءٌ من أحوالها، ولايتطرَّقَ إليها طارقٌ من إهمالها، ويُنهِى إلينا الحوادثَ التى تنشأُ فيها إنهاءً يتكفل بحياطة أبشارها وأموالها . وأمرناه أن يتوجه إلىٰ جهة كذا ـ حاطها الله ـ فيجمَعَ الناس فى مساجدهم، ويندُبَهم من مَشَاهدهم . ويبدأ بتقرير غرضنا فى صلاح أحوالهم، وإحساب آمالِهم (١)، ومكابدتنا المشَقَّةَ فى مُدَاراة عدوّهم الذى يعلم من أحوالهم ماغاب عنهم ـ دفعه الله بقدرته، ووَقَىٰ نفوسَهم وحريمهم من مَعَرّته ـ وبما رأينا من ٱنبِتات الأسبابِ التى فيك تُؤمَّل، وعَجْزِ الحِيَل التى كانتْ تُعْمَل . ويستدْعِى إنجادَهم بالدعاء، وإخلاصَهم فيه إلىٰ ربِّ السماء . ويسأل عن سِيرة القُوّاد، ووُلاة الأحكام بالبلاد : فمن نالَتْه مَظْلِمة فليرفَعْها إليه، ويقُصَّها عليه : ليبلِّغها إلينا، ويُوفِدَها مقرّرةَ المُوجَبات علينا . ويختبِرُ ما ٱفترِض صَدقةً للجبل، وما فَضَل عن كريم ذٰلك العمَل : ليعيِّن لبناء الحصن بجبل قارة يَسَّر الله لهم فى إتمامه، وجعل صدَقتَهم تلك مِسْكَ ختامه، وغيْرَه مما ٱفترُض إعانةً للمسافرين، وإنجادًا لجهاد الكافرين؛ فيعْلَم مقدارَه، ويتولّى اختبارَه؛ حتَّىٰ لايُجْعَلَ منه شيءٌ علىٰ ضعيف، ولا يُعدلَ به لمشروف عن شريف، ولا تَقَعَ فيه مضايقةُ ذى الجاه، ولا مخادعةُ غير المراقِب لله . ومتىٰ تحقَّق أن غنيًّا قُصِّر به فيه عن حقه، أو ضعيفا كُلِّف منه فوق طَوْقه، فيُجبِر الفقيرَ من الغنِيّ، ويَجْرِى من العَدْل علىٰ السَّنَن السوىّ ـ ويُعلِم الناس أن هذه المَعُونةَ وإن كانت بالنسبة إلىٰ محلّ ضرُورتها يسيره، وأن الله يضاعفها لهم أضعافا كثيره؛ ليست مما يَلْزم، ولا من المَعَاون التى بتكريرها يُجْزَم ـ وينظر فى عهود المتوفين فيصرفُها فى مَصَارفها المتعينه، وطُرُقها الواضحة البيِّنه ـ ويتفقَّد المساجد تفقُّدا يكسُو

(١) فى القاموس «أحسبه أرضاه» .

عارِيَها ، ويُتَمِّم منهـا المآربَ [تتميما] يُرضى بارِيَهـا ـ ويندُبُ النـاس إلىٰ تعليم القرءان لصبْيانهم ، فذٰلك أصـلُ أديانهم . ويحـذِّرهم المغيب عن كل شىء من أعشارهم فالزكاةُ أختُ الصلاة وهما من قواعد الإسلام ،وقد آخترنا لهم بأقصىٰ الجدّ والآعتزام ، ورفعْنا عنهم رسمَ التعريف نظراً إليهم بعين الآهتمام ؛ وقدّمنا الثِّقات لهـذه الأحكام ، وجعلنا الخَرْص شرعياً فى هـذا العام ، وفيما بعـده إن شاء الله من الأعوام .

ومن أهمِّ ما أسـندناه إليه ، وعوّلْنا فيه عليـه ، البحثُ بتلك الأحْواز عن أهل البِدَع والأهواء ، والسائرينَ من السبيل علىٰ غير السَّواء ؛ ومَنْ يُنْبَزُ بفساد العَـقْد ، وتحريف القصْـد ؛ والتلبُّس بالصوفيَّة وهو فى الباطن من أهل الفساد ، والذاهبينَ إلىٰ الإباحة وتأويل المَعَـاد ؛ والمؤلِّفين بين النساء والرجال ، والمتتبِّعين لمذَاهب الضَّلال . فمهما عثر علىٰ مُطَوّق بالتهمه ، منَبَّز بشىء من ذٰلك من هذه الأُمَّه ؛ فليشُدّ وَثاقَه شَـدّا ؛ وليسُدّ عليه سبيلَ الخَلاص سـدّا ؛ ويسترْعِ فى شأنه المُوجَبـات ، ويستَوْعِبِ الشهادات ، حتَّىٰ ننظر فى حَسْم دائه ، ونُعالِـجَ المرَضَ بدوائه ؛

فليتولَّ ماذكرنا نائبا بأحسن المَنَاب ، ويقصِدْ وجهَ الله راجيا منه جزيلَ الثواب ، ويعمَلْ عملَ مَنْ لا يخـاف فى اللهِ لومة لائم ليجدَ ذٰلك فى مواقف الحساب ؛

وعلىٰ من يقف عليه من القوّاد والأشياخ والحُكّام أن يكونوا معه يدًا واحدة علىٰ ماقرّرناه فىهذه الفصول : من العمل المقبُول والعدْل المبذول . ومن قصَّر عن غاية من غاياته ، أو خالف مقتضًى من مقتَضَـياته ، فعقابه عقـابُ من عصىٰ أمر الله وأمرنا فلا يلومَنَّ إلا نفسه التى غرّتْه ، وإلىٰ مَصْرَع النكير جَرَّته ، والله المستعان .

* * *

وهذه نسخة ظهير بالإمرة على الجهاد ، وهى :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ بلغ فيه الاختيار، الذى عضَّده الاختبـار[١]، الى أقصى الغايه، وجمع له الوِفاقُ، الذى خدَمه البختُ والاتفاق، والأهليَّة التى شهدت بها الآفاق، بين نُجْح الرأى ونَصْر الرايه ؛ وأنتجتْ به مقدّماتُ الوَلَاء نتيجةَ هـذه الرتبة السامية العَلَاء والوِلايه . واستظهر من المعتمد به، علىٰ قصده الكريم فى سبيل الله ومذهبِه، بلَيْث من لُيُوث أوليائه شديدِ الوطْأة علىٰ أعدائه والنِّكايه، وفرعٍ من فروع المُلْك الأصيل معروفِ الأُبُوّة والإبايه، : لتتضح حجةُ النصر العزيز والفتح المبـين ذى القوّة المتين محكمةَ الآيه، وتدل بدايةُ هـذه الدولة الرافعة لمَعَالم الدين، المؤيَّدة فى الأقوال والأفعال بمَدَد الرُّوح الأمين ، علىٰ شرَف النِّهـايه .

أصـدرحِكمَتَه وأبرزَ حُكْمَه ، وقرّر حدّه المـاضىَ ورسْمَه، عبـدُ الله ، الغنىُّ بالله [محمدُ ابن مولانا أميرالمسلمين أبى الوليد بن نصر][٢] ـ عَضَّد الله كتّائبه وشدّ عَضْده، ويَسَّر فى الظهور علىٰ أعداء الله قَصْده ـ لوليِّه المستولِى علىٰ مَيادِين حُظوته و إيثارِه، الفـائز بالقِدْح المُعلّى من إجلاله و إكباره؛ ظهيرِ استنصارِه، وسيفِ جهاده المُعَـدّ لِصدق ضريبته و يوم افتخاره، ويَعْسُوبِ قبائل الغُزاة بأصقاعه الجهاديَّة وأقطاره؛ الأميرِ أبى عبد الرحمن، ابن الأمير أبى علىّ، ابن السلطان أمير المسلمين أبى سعيد، ابن أمير المسلمين أبى يوسفَ يعقوبَ بن عبدالحق ـ وصل الله له أسباب سعده، وأنجز للمسـلمين بمظاهَـرتِه إيّاه علىٰ الكافرين سابِقَ وعده، لمـّـا وفد علىٰ بابه الكريم

---

(١) فى ريحانة الكتّاب « بلغ فيه الاختيار النهايه والاختبار الى » الخ .

(٢) الزيادة "من الريحانة".

مؤثرا (١) على ما كان بسبيله عن جِوَاره، ملقيا بَمحَلَّة الجهاد عصا تَسْياره، مفَضِّلاما عند الله علىٰ رحْب أوطانه وأقطاره، شِيمةُ من أسرع إلىٰ خير الآخرة بِبِدَاره، قبل آكتمال هلالِهِ و إبْداره، وعلىٰ آنبعاث أمله وترامى هممه وآستقامة مدَاره ـ قابل أيده الله وِفادَتَه بالقَبُول الممدوح، والصَّدْر المشروح، والعنايةِ العاليـةِ المَظَاهر والصُّرُوح؛ وجعل له الشِّرْب المُهَنَّى فى مَنَاهل الصنائع التى صنَعَ اللهُ لمُلْكه والفُتُوح؛ ولم يَدَّخر عنه تقريبًا يَقف الأولياءُ دُون مَدَاه، وترفيعًا تشهد به محافِلُ المُلْك ومنتدَاه؛ إلىٰ أن ظَفِرت بحقيقة الموالاةِ الكريمةِ يَدَاه، ثم آستظهر به على أعداء الله وعِدَاه، فوَفَّى النُّصح لله وأدّاه، وأضمَره وأبْداه، وتحلّى بالبسالة والجَلالة والطَّهارة، اللائقة بمَنْصِب الإمارة، فى رَوَاحه ومَغْداه؛ حتّىٰ آتفقت الأهواءُ علىٰ فضله وعفَافه، وكمال أوصافِه وظهرتْ عليه مَخايِلُ أسلافه. ثم رأىٰ الآن ـ سدّد الله رأيَه، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه ـ أن يُوفِد ركائبَ الآعتقاد الجميل علىٰ جَنَابه، ويُفَسِّح مَيْدانَ الآستظهار بحُسْن مَنَابه، ويصِلَ أسبابَه بأسبابه؛ ويُضاعِفَ بولائه الصادقِ آهتمامه، ويُقيمَه فى قَوْد عسا كره لجهاد البَرّ مقامه؛ فأضفَىٰ ملابس وُدِّه عليه، وجعله فاتحَ أبوابِ الجنة بفضل الله بينَ يدَيْه؛ وأجراه مُجْرىٰ عضُده الذى تصْدُق عنه الضريبةُ فى المَجَال، وسيفِه الذى يُفَرِّج به مضايِقَ الأهوال؛ ونَصَبه للقبائل الجهادية قِبْلة فى مناصحة اللهِ ومناصحةِ مَشْرُوعه، ورايةً سعيدةً فى مظاهرة متْبُوعه؛ وعقد له الولايةَ الجهاديَّة التى لاتُعْدَل بولايه، ولا تُوازَنُ عنايةُ المعتمَد بها بعِنايه؛ يشهد بصَراحة نسبها الدين، وتتحلَّى بحِلَى غُرَّتها المَيَادين. فالجهاد فى سبيل الله نِحْلةُ نبيّ الأُمَّه، ومَنْ بعده من الأيمه؛ لاسيَّمَا فى هذا القطر المتأكِّد فيه ذٰلك لأُولِى الدِّين والهِمَّه.

(١) لعله "مؤثرا له علىٰ ما كان يشغله عن جواره" تأمل.

فليتولَّ ذٰلك تولِّيَ مثله وإن قلَّ وجودُ مثله ، جاريًا علىٰ سَنَن مَجْده وفضله ، سائرا من رضا الله علىٰ أوْضَح سـبُله ، معتمدا عليه فى الأمر كلِّه .

ولْيَعْلَم أن الذى يخلق ما يشاء ويختار قد هَيَّأ له من أمره رشَدا ، وسلَك به طريقًا سَـدَدا (١) ، واسـتعمله اليومَ فيما يُحْظِيه غدا ، وجعل حَظَّه الذى عوّضَه نُورًا وهُدى ، وأبعد له فى الصالحات مَدَى — ولينظرْ فيما لديه من القبائل الموفُوره ، والجموع المؤيَّدة المنصوره ، نظرًا يُزِيح العِلل ، ويبلِّغ الأمل ، ويَرْعىٰ الهَمَل (٢) ، ويُحْسِن القول ويُنْجِـح العــمل ، منبِّها علىٰ أهل الغَنَـاء والآستحقاق ، مسـتدِرًّا للعوائد والأرزاق ، معرِّفا بالغرباء الواردين من الآفاق ، مُطبقًا منهـم للطبـاق ، متغمِّدًا للهَفَوات بحسن الأخلاق ، مستجيدًا للأسلحة والكُرَاع (٣) ، مبادرًا هَيْعاتِ الصَّريخ بالإسْراع ، مسترعيا للشُورة التى يقَع الحكْمُ فيها عن حصول الإجمـاع ، رفيقا بمن ضَـعُف عن طُول الباع ، محتاطًا علىٰ الإسـلام فى مواقف الدِّفاع ، مُقْدِما عند آتِّجاه الأطماع ، صابرًا فى المَضايق علىٰ القِراع ، متقـدِّما للأبطال بالآصطناع ، مقابلا نصائحَ أُولى الخِبْرة بحُسْن الآستمـاع ، مستعْمِلا فى الحروب ماأجازه الشرعُ من وُجوه الخِدَاع ؛ حتّىٰ يكون عملُه وَفْقَ شُهْرته البعيدةِ المَطَار ، وسيرتُه فيما أُسْنِد إليه مَثَلًا فى الأقطار ، واسـتقامةُ التـدبير علىٰ يديه ذريعـةً إلىٰ إرغام أُنوف الكُفَّار ؛ بقوّة الله وحوله ، وعزَّته وطَوْله .

وعلىٰ الغُزاة بالحضرة العليه ، وسائر البلاد النَّصْريه ؛ من بنى مَرِينٍ ، وسائر القبائل المجاهدين ، أن يعْرِفوا قدْرَه ، ويمتثلُوا فى مرضاتنا أمْرَه ؛ ويكونُوا معه رُوحا ويَدًا

(١) السدد القصد والآستقامة والسدد أيضا مقصور من السداد . انظر اللسان .

(٢) الهمل آسم جمع لهامل لأن فاعلا لايكسر على فعل ونظيره رائح وروح . انظر اللسان .

(٣) الكراع كغراب جماعة الخيل . والهيعة الصوت تفزع منه وتخافه من عدوّ . انظر القاموس .

وجَسَدا، وساعدا وعضُدا؛ فبذٰلك يشمله من الله ومن مَقَامنا الرضا والقَبُول، والعزُّ الموصــول؛ ويُمْضِى فى عدُوّ الله النُّصُول، ويتأتّى علىٰ خيرِ الدنيا والآخرةِ الحُصُول، إن شاء الله . ومَنْ وقف عليه، فليعرفْ مالديه؛ بحول اللهِ تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة ظهير بالتَّقْدِمة علىٰ الطبقة الأولىٰ من المجاهدين، لولد السلطان، وهى :

هذا ظهيرٌ كـريمٌ، فاتَحَ بنشر الألوية والبُنُود، وقَوْد العساكر والجنود؛ وأجالَ فى مَيْدانِ الوجود، جِيادَ البأس والجُود؛ وأضْفىٰ سِتْرَ الحِمَاية والوقاية بالتَّهائم والنُّجود، علىٰ الطائفين والعاكِفِين والرُّكَّع السُّجود ــ عقَد للمعتَمد به عَقْد التشريف والقــدر المُنِيف زاكِىَ الشُّهود؛ وأوجب المنافَسةَ بين مجالِس السُّروج ومَضَــاجِع المُهُود، وبَشَّر الســيوفِ فى الغُمُود، وأنشأ رِيحَ النصر آمنــةً من الخُمُود ــ أمضىٰ أحكامه، وأنهد العِزَّ أمامَه، وفَتَّح عن زهرِ السُّرور والحبور أكمامه، أميرُ المسلمين عبد الله محمد ٱبن مولانا أمير المسلمين أبى الحجــاج يوسف ٱبن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد فرج بن نصر ــ أيد الله أمره، وخلَّد ذكره ــ لكبير ولده، وسابق أمده، ورَيْحانة خَلَده، وياقوتة الملك علىٰ يده؛ الأميرِ الكبيرِ، الطاهرِ الظاهرِ، الأعلىٰ، واسطةِ السلك، وهلال سمــاء المُلْك، ومِصْباح الظُّلَمَ الحُلْك، ومَظِنَّةِ العناية الإلهيَّة من مدبِّر الفَلَك ومُجْرِى الفُلْك؛ عُنْوانِ ســعدِه، وحُسامِ نصره وعَضُــده؛ وسميِّ جدِّه، وسلالةِ فضله ومجده؛ السعيدِ، المظفَّر، الهُمَام، الأعلىٰ، الأمضىٰ، العالِم، العادِل، العامل، الأرضىٰ، المجاهد، المؤمَّل، المعظم، أبى الحجاج يوسف ــ ألبسه الله من رضاه عنــه حُلَلا لا تُخْلِق جِدّتَهــا الأيام، ولا تبلغُ كُنْهَها الأفهام؛ وبلغه فى خدَمه المبــالغَ التى يُسَرُّ بها الإسلام، وتَسْبَح فى بِحَار صنائعها الأقلام، وحرس

معالِيَه البـاهرةَ بعينه التى لا تنَام، وكنَفَه بُركْنه الذى لا يُضام ــ فهو الفرع الذى جرىٰ بخَصْله علىٰ أصْله، وٱرتسم نَصْرُه فى نَصْله، واشتمل جِدُّه علىٰ فضله، وشَهِدت ألْسُن خِلاله، برِفعة جَلَاله؛ وظهرت دلائل سعادَته، فى بَدْء كل أمر وإعادته.

ولمَّـا صَرف وجْهَه إلىٰ ترشيحه لٱفتراع هِضَاب المَجْد البعيـدِ المَدىٰ، وتوشيحه بالصَّبر والحِـلْم والبأس والنَّـدىٰ، وأرهفَ منـه سيْفا من سيوف الله لضَرْب هام العِدَا، وأطلعه فى سمـاء المُلْك بدْرَ هدىٰ، لمن راح وغَدَا؛ وأخَذَه بالآداب التى تُقيم من النفوس أَوَدا، وتُبْـذَر فى اليوم فتُجْنَىٰ غدا، ورَقَّاه فى رُتَب المَعَـالى طَوْرا فطَوْرا، ترقِّىَ النبـات ورَقًا ونَوْرا؛ ليجدَه بحول الله يدًا باطشةً علىٰ أعدائه، ولسانا مجيبا عنـد نِدَائه، وطرازًا علىٰ حُلَّة عَلْيائه، وغَمامًا من غمائم آلائه، وكوْكبًا وهَّاجا بسمائه. وعقد له لواءَ الجهاد علىٰ الكتيبة الأَنْدَلُسية من جُنْده، قَبْل أن ينتقل من مَهْـده؛ وظلَّله بجَنَـاح رايتـه، وهو علىٰ كَتَد(١) دايته، واستركَبَ جيشَ الإسلام ترحيبًا بوِفَادته، وتنويهًا بمَجَادته، وأثبتَ فى غَرَض الإمارة النصرية سَهْم سعادَته ــ رأىٰ أن يزيده من عنـايته ضُروبا واجناسا، ويُتْبِـع أثَرَه ناسًا فناسا؛ قد اختلَفُوا لسانا ولبـاسا، وٱتفقُوا ٱبتغاءً لمرضاة الله وٱلتمـاسا؛ ممَّن كَرُم ٱنتمـاؤُه، وٱزَّينت بالحَسَب الغر(٢) سمـاؤُه، وعُرِف غَنَـاؤه، وتأسَّس علىٰ المَجَادة بِناؤه؛ حتَّى لا يدع من العناية فنًّـا إلا جلبَه إليه، ولا مقادَةَ فخـر إلا جعلها فى يدَيْه، ولا حُلَّةَ عز إلا أضفىٰ ملابسها عليه.

وكان جيشُ الإسـلام فى هـذه البلاد الأندَلُسية ــ أَمَّن الله خِلَالهَـا، وسَكَّن زِلْزالهـا، وصَدَّق فى رحمة الله التى وسعت كل شىء آمالَهَـا ــ كَلَف هِمَّته، ومَرْعىٰ

(١) الكتد بفتح التاء وكسرها أعلى الكتف والدّاية الظئر، أنظر اللسان .

(٢) لعله الاغر وفى ريحانة الكتّاب «الخالص» .

أذِمَّته ، ومَيْـدَان جِيـاده ، ومتعلَّق أمد جِهاده ، ومِعْرَاج إرادته ، إلىٰ تحصـيل سـعادته ؛ وسبيلَ خِلاله ، إلىٰ بلُوغ كماله ؛ فلم يدَعْ له علَّة إلا أزاحها ، ولا طَابـةً إلا أجال قِداحَها ، ولا عزيمة إلا أوْرىٰ آقتداحها ، ولا رَغْبـة إلا فَسَّح ساحَها ؛ آخذا مُروءتَه بالتهـذيب ، ومَصَافَّه بالترتيب ، وآمالَه بالتقريب ، وتأنيس المُرِيب ، مستنجزًا له وبه وعدَ النصر العزيز والفتح القريب ؛ ورفع عنه لهـذا العهد نظرَ من حكَّم الأغراضَ فى حُمَاته ، وآستشعر عُروقَ الحَسَائف لشريف كُمَاته ؛ واشـتغل عن حُسْن الوَسَاطةِ لهم بمصلحة ذاتِه ، وجَابَ جُبَاته ، وتثمـير ماله وتوفير أقواته ، ذاهبًا أقصىٰ مذاهبِ التعمير بأمَدِ حياته ؛ فآنفرج الضِّيق ، وخَلَص إلىٰ حسن نظره الطريق ، وساغَ الرِّيق ، ورضِى الفريق .

رأى ـ والله الكفيل بنُجْح رأيه ، وشُكْر سعيه ، وصلة حفظه ورعيه ـ أن يُحْمِـد لهم آختيارَه ، ويُحْسِن لديهم آثارَه ؛ ويستنيبَ فيما بينه وبينَ سيُوف جهاده ، وأبطال جِلَاده ؛ وحُماةِ أحوازِه ، وآلات آعتزازه ، مَنْ يجرى مُجْرىٰ نفســه النفيسةِ فى كل معنىٰ ، ومن يكون له لفظُ الولاية وله ـ أيده الله ـ المعنىٰ ؛ فقدَّمه علىٰ الجماعة الأُولى كُبرىٰ الكتائب ، ومَقادِ الجَنائب ؛ وأجَمَة الأبطال ، ومُزْنة الوَدْق الهَطَّال ؛ المشتملة من الغُزاة على مَشْـيخة آل يعقوبَ نُسَباء الملوك الكِرام ، وأعلام الإسـلام ؛ وسائر قبـائل بنى مَرِين ، لُيوثِ العَرِين ؛ وغيرِهم من أصناف القبائل ، وأُولى الوسائل ؛ ليَحُوط جمـاعتَهم ، ويرفع بتفقُّده إضاعتَهم ، ويستخلصَ لله ولأبيه ـ أيده الله ـ طاعتَهم ؛ ويُشَرِّف بإمارته مواكِبَهم ، ويزيِّن بهلالِه الناهضِ إلىٰ الإبدار ، على فَلَك سـعادة الأقدار ، كَوَاكبهم ؛ تقديمـًا أشرق له وجه الدِّين الحنيف وتهلَّل ، وأحسَّ باقتراب ما أمَّل ؛ فللخَيْل آختيال ومَراح ، وللأَسَل السُّمْر آهتزازٌ وآرتياح ، وللصُّدُور انشراح ، وللآمل مَغْدًى فى فضل الله ومَرَاح .

فليتولَّ ذلك ـ أسعده الله ـ تولِّيَ مثله ممن أسِرَّة الملك أسِرَّتُه، وأُسْرة النبي صلى الله عليه وسلم أُسْرته، والمَلِكُ الكريم أصلُ لفرعه، والنسبُ العربيُّ مَفْخرٌ[(١)] لِطيب طبعه، آخذًا أشرافَهم بترفيع المجالس بنسبةِ أقدارِهم، مقرِّبا حُسْنَ اللقاء بإيثارهم، شاكرا غَنَاءهم، مستديما ثناءَهم، مستدرًّا لأرزاقِهم، موجبا للمزيَّة بحسب آستحقاقِهم، شافعا لديه فى رَغبَاتهم المؤمَّله، ووسائلهم المتحَمَّله، مسهلا الإذنَ لوُفُودهم المتلاحقه، مُنَفِّقا لبضائعهم النافقه، مُؤْنسا لغُرَبائهم، مستجليًا أحوالَ أهليهم وآبائهم، مميزا بيْنَ أغفالهم ونُبَهائهم .

وعلىٰ جماعتهم ـ رعىٰ الله جِهادهم، ووَفَّر أعدادهم ـ أن يطيعُوه فى طاعة الله وطاعةِ أبيه، ويكونوا يدًا واحدةً علىٰ دِفَاع أعادى الله وأعاديه، ويَشُدُّوا فى المواقف الكريهة أزْرَه، ويمتثلوا نَهْيَه وأمره، حتّٰى يعظُمَ الانتفاع، ويُثْمِر الدِّفاع، ويخلُصَ القَصْدُ لله والمُطَاع، فلو وجد ـ أيده الله ـ غايةً فى تشريفهم لبَلَّغها، أو مَوْهِبةً لسوَّغها، لكن مابعدَ ولده العزيز عليه مَذْهَب، ولا وراء مباشرتِهم بنفسه مَرْغَب، والله مُنْجِح الأعمال، ومبلِّغ الآمال، والكفيل بسعادة المآل .

فمَن وقَف علىٰ هذا الظَّهِير الكريم فليَعلَمْ مقدارَ ما تضمَّنه من أمرٍ مُطاع، ونخر مستنِد إلىٰ إجماع، ووجوبِ آتِّباع، وليكن خيرَ مَرْعِيٍّ لخير راع، بحول الله .

وأقطعه ـ أيده الله ـ ليكونَ بعضَ المَدَد لأزواد سَفْره، وسِمَاط قَفْره، فى جملة ما أَوْلاه من نعمه، وسوَّغَه من مَوادّ كرمه ـ جميعَ القرية المنسوبة إلىٰ عَرَب غَسَّان : وهى المحَلة الأثيره، والمنزلةُ الشهيره، تنطلق عليها أيدى خُدَّامه ورجاله،

(١) فى الريحانة «منجد لطيب» الخ .

جاريةً مَجْرىٰ صالح ماله ، محـرّرةً من كل وظِيف لاستغلاله ، إن شاء الله فهو المستعانُ سبحانَه ، وكتب فى كذا .

⁂

وهذه نسخةُ ظَهِير لمشيخة الغُزاة بمدينة مالَقةَ ، وهو :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ أطلع الرِّضا والقَبُولَ صَـباحا ، وأنشأ للعِناية فى جَوّ الوجود ، من بعد الرُّكود ، رِيَاحا ، وأوسع العيونَ قُرّةً [وإبصارا][1] والصُّدورَ انشراحا ، وهيَّأ للمعتَمد به مَغْدًى فى السعادة ومَرَاحا ، وهزَّ منه سـيْفا عتيقًا يفوق اختيارا ويروقُ التِمـاحا ، وولَّاه رياسـةَ الجهاد فى القطر الذى تقدّمتِ الولايةُ فيـه لسَلَفه فنـال عزًّا شهيرا وازداد فخرا صُرَاحا ، وكان [له][1] ذلك إلىٰ أبواب السعادة مِفْتاحا .

أمَرَ به وأمضاه ، وأوجب العملَ بحَسَبِه ومقتضاه ، الأميرُ عبدُالله محمد ابن مولانا أمير المسلمين ، والمجاهِد فى سبيل رب العـالمين ، أبى الحجّاج [يوسف][1] ابن مولانا أمير المسـلمين ، أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر ـ أيد الله أمره وأعز نصرَه ، وأسعد زمانه وعصره ـ لوليه فى الله الذى كَسَاه مولاه من جميل اعتقاده حُلَلا ، وأورده من عَذْب رضـاه مَنْهلا ، وعرَّفه عوارفَ قَبوله مفَصَّلا خطابُها ومجمَـلا ؛ الشيخ أبى العلا ، إدريس ، ابن الشيخ أبى سعيد عثمان ، بن أبى العلا وصل الله أسباب سعادته ، وحرس عَلِيَّ[2] مَجَادته ، وأجراه من ترفيع المكانة لديه علىٰ [أحمد عادة سلَفِه][1] وعادته .

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

(٢) فى ريحانة الكتّاب «أكناف» .

ولمّا كان له القَدْر الجليل، والمجدُ الأثيل، والذكرُ الجميل، والفضائلُ التى كَرُم منها الإجمال والتفصيل، وأحرز قَصَب السَّبْق بذاته وسلَفه إذا ذُكِر المجدُ العريض الطويل، وكان قد أعملَ الرِّحْلة إليه يحْدوه إلىٰ خدمته التأميل، ويَهْوِى به الحُبُّ الذى وَضَح منه السبيل، وعاق عنه الواقعُ الذى تبيَّن فيه عُذْرُه الجميل، ثم خلَّصه الله من مَلَكَة الكفر الخَلاصَ الذى قام به علىٰ عنايته الدليل ـ قابله بالقَبُول والإقبال، وفَسَّح له مَيدان الرضا رَحْبَ المَجال، وصرف إليه وجهَ الاعتداد بمضائه رائقَ الجمال، سافرًا عن بلوغ الآمال، وآواه من خدمته إلىٰ رَبْوة متَّسعة الأرجاء وارفة الظِّلال، وقطع عنه الأطماعَ بمقتضىٰ همته البعيدةِ المَنال. ثم رأى ـ والله يُنْجِح رأيه، ويشكر فى سبيل الله عن الجهاد سعْيَه ـ أن يستظهرَ بمَضَائه، ويرسل عليه عَوَارفَ آلائه، ويَعْمُر به رُتَب آبائه. فقدّمه ـ أعلى الله قَدَمه، وشكر [آلاءه](1) ونِعَمه ـ شيخَ الغُزاة والمجاهدين، وكبيرَ أُولى الدِّفاع عن الدين، بمدينة (مالَقَة) حَرَسها الله أختِ حضرة [دار](1) ملكه، وثانيةِ الدُّرّة الثمينة من سِلْكه، ودارِ سلَفه وقَرارة مَجْده، والأُفقِ الذى تألَّق منه نُور سعده، راجعًا إليه نظرَ القواعد الغربية رُنْدَةَ وركوان (؟) وما إليه رجوعُ الاستغلال والاستيراد، والعزِّ الفسيح المَجال البعيدِ الآماد، يقودُ جميعَها إلىٰ الجهاد، عاملًا علىٰ شاكلة مَجْده فى الإصْدار والإيراد، حتّٰى يظهر علىٰ تلك الجهاتِ المباركة آثارُ الحِماية والبَسالة، ويعودَ لها عهدُ المَجادة والجَلالة، وتتزيَّنَ مَلَابسَ الإيالة. وهو يعمل فى ذٰلك الأعمالَ التى تليق بالمَجْد الكريم، والحَسَب الصميم، حتّٰى ينموَ عددُ الحُماة، ويكُفَّ البأسَ أكُفُّ الغُزاة ويعظُم أثرُ الأبطال الكُماة، وتظهر ثمرة الاختيار، ويشمل الأمنُ جميعَ الأقطار، وتنحسمَ عنه أطماعُ الكفّار.

(١) الزيادة من "الريحانة".

وعلىٰ من يقف عليه من الفُرْسان ـ وفَّر الله أعدادهم، وأعزَّ جهادهم ـ أن يكونوا ممتثلين فى الجهاد لأمره، عارفين بقَدْره، مُمْضين فيما ذُكِر لحكمه، واقفين عند حدِّه ورسمه . وعلىٰ مَنْ سواهم من الرعايا والخُدّام، والوُلاة والحُكّام، أن يعرفوا قدرَ هذا الاعتناء الواضح الأحكام، والبرِّ المشرِقِ القَسَام، فيُعاملوه بمقتضىٰ الإجلال والإكرام، والترفيع والإعظام . علىٰ هذا يُعتمَد، وبحَسَبه يعمل، بحول الله وقوّته .

الضــرب الثـانى

(من ظهائر بلاد المغرب ما يُكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقــلام)

وهذه نسخةُ ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة، وهو :

هـذا ظهيرٌ كريم أنتج مطلوبَ الاختيار قياسُه، ودلَّ علىٰ ما يُرْضِى الله عز وجل التماسُـه، وأطلع نورَ العناية يجلو الظلامَ نِبْراسُه، واعتَمَد بمَثابة العَـدْل من عُرِف بافتراع هَضْبتها باسُـه، وألقىٰ بيـد المعتَمد به زِمامَ الاعتقاد الجميـل تَرُوق أنواعُه وأجناسُه، وشـيَّد مَبْنىٰ العز الرفيع فى قُنَّة الحَسَب المنيع وكيف لا واللهُ بانيه والمجدُ أساسُه .

أمر به، وأمضىٰ العملَ بمقتضاه وحَسَبه، أمير المسلمين أبو الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ـ أيد الله أمره، وخلد فخره ـ لقاضى حضرته العليه، وخطيب حَمْرائه السنيَّه، المخصوص لديه بترفيع المزيَّه، المصروف إليـه خطابُ القضاة بإيالته النَّصريه، قاضِى الجمـاعه، ومصرّف الأحكام الشرعيـة المُطَاعه، الشيخ أبى الحسن ابن الشيخ أبى محمد بن الحسن وصل الله سعادتَه،

وحَرَس مَجادَته، وسنَّى من فضـله إرادتَه . عَصَّب منه جبينَ المجد بتـاج الوِلايه، وأجال قِداحَ الآختيار حتّى بلغ الغـايةَ وتجاوَزَ النهايه، فألقى منه بيمين عَرَابةَ الرايه، وأحلَّه منه مَحَلَّ اللفظ من المعنى والإعجاز من الآيه، وحَشَر إلى مراعاة ترفيعه وُجُوهَ البِرِّ وأعيانَ العنايه، وأنطق بتبجيله، أَلْسُنَ أهل جِيله، بينَ الإفصاح والكِنايه .

ولـمـا كان له الحَسَب الذى شهِدتْ به وَرَقات الدَّواوين ، والأصالةُ التى قامتْ عليها صِحـاحُ البراهين ، والآباءُ الذين آعتزَّ بمضاء قُضاتهـم الدِّين، وطَبَّق(١) مَفاصِـلَ الحكم بسيوفهم الحقُّ المبين، وآزدان بمجالسة وُزَرائهم السلاطين : فمِن فارس حُكْم أو حكِيم تدبير، أو قاضٍ فى الأمور الشرعية ووَزِير، أو جامعٍ بينهـما جمعَ سلامةٍ لاجمعَ تكسير؛ تعـدّدَ ذلك وآطَّرد ، ووجد مَشْرَع المجـد عَذْبا فوَرَد ، وقَصَّرت النظراءُ عن مَدَاه فآنفرد ، وفَرىٰ الفِرى فى يد الشَّرْع فأشبَه السـيفَ الفِرِنْد ؛ وجاء فى أعقابهم مُحْيِيا لمـا دَرَس ، بمـا حقَّق ودَرَس ، جانيًا لمـا بَذَر السلفُ المبـاركُ وآغترس ؛ طاهِرَ النَّشْأة وَقُورَها ، محمودَ السَّـجِيَّة مَشْكُورَها ؛ متحلِّيـا بالسَّكينه ، حالًّا من النَّزاهـة بالمكانة المَكِينه ؛ ساحبًـا أذيالَ الصَّون، بعيـدًا عن الآتصاف بالفساد من لَدُن الكَوْن ، فخطبَتْـه الخُطَط العليَّـه ، وآغتبطَتْ به المَجادةُ الأوَّليَّه ؛ وآستعملتْه دولتُـه التى ترتاد أهـلَ الفضائل للرُّتَب ، وتستظهر على المناصب بأبناء التُّقَى والحَسَب ، والفضـلِ والمجدِ والأدَب ، ممن يجمعُ بين الطارف والتالدِ والإرث والمكتَسَب ؛ فكان معدُودا من عُدُول قُضاتها وصدُور نُبَهائها ، وأعيان وُزرائِها ، وأُولِى آرائِهـا .

فلمَّا زانـ الله خلافتـه بالتمحيص ، المتجَلِّى عن التخصيص ، وخَلَصَ مُلْكه الأصـيل كالذهب الإبريز من بعـد التخليص ، كان ممن صَحِب رِكابَه الطالبَ للحق

(١) يقال طَبَّق السيف اذا أصاب المَفْصِل فأبان العضو . انظر اللسان .

بسَيف الحق ، وسلك فى مظاهرته أوْضح الطُّرْق ، وجادل مَنْ حادّه بأمضىٰ من الحِداد الذُّلُق ، وآشتهر خبرُ وَفَائه بالغرب والشَّرْق ، وصلّى به صلاة السفَر والحضَر ، والأَمْن والحـذَر ، وخطب به فى الأماكن التى بَعُـد بذكر الله عهْـدُها ، وخاطب عنه ــ أيده الله ــ المخاطَبَاتِ التى حُمِد قصدُها ، حتّى آسـتقلَّ مُلْكُه فوق سريره ، وآبتهج منه الإسـلام بأميره وآبنِ أميره ، ونزل السِّـتر علىٰ العبادِ والبلاد ببركة إيالته ويُمْن تدبيره ، وكان الجليسَ المقرَّب المحـل ، والحَظِيَّ المشاوَرَ فى العَقْد والحَـل ، والرسولَ المؤتَمَن علىٰ الأسرار ، والأمينَ علىٰ الوظـائف الكِبَار ، مزيِّنَ المجلس السلطانىِّ بالوَقَار ، ومتحِفَ المَلِك بغريب الأخبار ، وخطيبَ مِنْبره العالى فى الجُمُعَات ، وقارئَ الحديث لَدَيْه فى المجتمَعَات .

ثم رأىٰ ــ أيده الله ــ أن يُشْرِك رعيتَـه فى نَفْعه ، ويَصرِف عواملَ الحُظْوة إلىٰ مزيد رفعه ، ويُجْلسه مجلِسَ الشارع صلواتُ الله وسلامه عليه لإيضاح شِرْعه ، وأصله الوثيقِ وفرعه ، وقدَّمه ــ أعلىٰ الله قدمه ، وشكر آلاءه ونِعَمه ــ قاضياً فى الأمور الشرعيه ، وفاصـلا فى القضايا الدينيَّه ، بحضرة غَرْناطة [العلية] حرسها الله تقـديمَ الآختيار والآنتقاء ، وأبقىٰ له فخرَ السَّلَف علىٰ الخَلَف والله يمتِّعه بطول البقاء .

فليتولَّ ذلك عادلا فى الحُكْم ، مُهتَدِياً بنور العِـلم ، مسوِّيًا بين الخصوم حتّى فى لحظه وآلتفاته ، متصفًا من الحلم بأفضل صِفاته ، مهيبًا بالدِّين ، رءُوفًا بالمؤمنين ، مسَـجِّلا للحقوق ، غيرَ مُبـالٍ فى رضا الخالق بسُخْط المخلوق ، جَزْلا فى الأحكام ، مجتهدا فى الفصْـل بأمضىٰ حُسَام ، مراقبـًا لله عزَّ وجلَّ فى النَّقْض والإبرام ، بارًّا بمَشْيخة أهل التوثيق ، عادلًا إلىٰ سَعَة الأقوال عنـد المَضِـيق ، سائرًا من مشهور المذهب علىٰ أهـدَىٰ طريق ــ وأوصاه بالمَشُورة التى تقْـدَح زِنادَ التوفيق ، والتثبت

حتّى ينْبلِج قِياسُ التحقيق؛ وصيَّةً أصدرها له مَصْدَرَ الذِّكرىٰ التى تنفع، ويُعْلِى اللهُ بهـا الدرَجاتِ ويرفَع، وإلا فهو عن الوَصاة غَنِىٌّ، وقصدُه قصدٌ سَنِىٌّ؛ والله عز وجل ولىُّ إعانته، والكفيلُ بحِفْظه من الشُّبُهات وصِيَانته .

[وأمره ـ أيده الله ـ أن ينظُر فى الأحباس علىٰ آختلافِها، والأوقاف علىٰ شَتّى أصـنافها](١) واليتامىٰ التى آنسدلتْ كَفالةُ القُضاة علىٰ ضِعافِها . فيذُودُ عنهـا طوارقَ الخَلَل، ويُجْرى أمورَها بمـا يتكفَّل لها بالأَمَل .

ولْيعلَمْ أن الله عز وجل يَراه، وأن فَلَتَاتِ الحكم تُعاوِدُه المراجعةَ فى أُخْراه، فيدَّرِع جُنَّةَ تقواه، فسبحان من يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ .

فعلىٰ مَنْ يقِف عليه أن يعرف حقَّ هذا الإجلال، صائنًا منصبَه عن الإخلال، مبادِرًا أمرَه الواجبَ بالآمتثال؛ بحول الله .

وكتب فى الثالث من شهر الله المحرَّم فاتِح عامِ أربعةٍ وستين وسبعمائة، عَرَّف الله فيه هذا المَقامَ العلىَّ عوارفَ النصر المبين والفتح القريب، بمَنِّه وكرمه، فهو المستعان لا رب غيره .

* * *

وهذه نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة أيضا، وهو :

هذا ظهيرٌ كريمٌ أعلىٰ رتبةَ الآحتفاء [والآحتفال](١) آختيارا وآختبارا، وأظهرَ معانِىَ الكرامة والتخصيص انتقاءً وآصطفاءً وإيثارا، ورفع لواءَ الجَلَالة علىٰ مَن آشتمل عليها حقيقةً وآعتبارا، ورقَّىٰ فى درجات العز مَن طاولَها علاءً بَهَرَ أنوارا، ودِيناً كَرُم فى الصالحاتِ آثارًا وزَكَا فى الأَصالة نِجَارا، وخُلُوصا إلىٰ هـذا المَقَام العلىِّ السعيد

(١) الزيادة عن ريحانة الكتّاب، ونفح الطيب ص٧٣ ج ٣ .

راق إظهارًا و إضمارا . أمَر به وأمْضاه ، وأنفذ العمل بحكمه ومقْتضاه ، فلان للشيخ القاضى ، العَدْل ، الأرْضَى ، قاضى الجماعة وخطيب الحضرة العليه ، المخصوص لدىٰ المقـام العلىّ بالحُظْوة السنيَّة والمكانة الحَفيّـه ، الفاضل ، الحافل ، الكامل ، الموَقَّر ، المبرُور أبى الحسن ٱبن الشيخ الفقيه ، الوزير ، الأجل ، الأعزِّ ، المـاجد ، الأسنىٰ ، المرَفَّع ، الأحْفَل ، الأصلَح ، المبارَك ، الأكمل ، الموَقَّر ، المبرور ، المرحوم أبى محمد بن الحسن ــ وصـلَ الله عزَّته ، ووالىٰ رفعتَه ومبَرَّته ، ووهب له من صلة العناية الربَّانية أملَه وبُغْيته ــ لَمَّـا أصبح فى صُدور القُضاة العلماء مُشارا إلىٰ جَلاَله ، مستَنَدا إلىٰ معارفه المخصوصة بكماله ، مطرِّزا علىٰ الإفادة العلمية والأدبيَّة بمحاسـنه البديعـة وخِصاله ، محفوفًا مقعدُ الحكم النبوىّ ببركة عَدَالته وفضلِ جَلاله ؛ وحلَّ فى هذه الحضرة العلية المحلَّ الذى لا يرقاه إلَّا عيْنُ الأعيان ، ولا يتبوّء مهادَه إلا مثلُه من أبناء المجْد الثابتِ الأركان ، ومَوالى العلم الواضح البرهان ، والمبرّزين بالمآثر العليَّة فى الحُسْن والإحسان . وتصـدّرَ لقضاء الجمـاعة فصدَرت عنـه الأحكام الراجحةُ الميزان ، والأنظارُ الحسنَةُ الأثرِ والعِيَان ، والمقاصدُ التى وفَتْ بالغاية التى لا تُستطاعُ فى هذا المَيْدان ؛ فكم من قضيَّة جَلَا بمعـارفه مشكِلَها ، ونازلةٍ مبْهَمة فتح بإدراكه مُقْفَلها ، ومسألة مُهْمَلة عرَّف نَـكِرتَها وقرّر مهمَلَها ؛ حتّٰى قرّتْ بعدالتـه وجَزَالته العُيون ، وصدَقت فيه الآمال النـاجحةُ والظُّنون ، وكان فى تصـديره لهذه الولايةِ العُظْمىٰ من الخَـيْر والخيرة ماعسىٰ أن يكون ــ كان أحقَّ بالتشفيع لولاياته وأَوْلىٰ ، وأجدرَ بمضاعفة النِّعم التى لا تزال تترادَفُ علىٰ قَدْره الأعلىٰ .

فلذلك أصدر له ــ أيده الله ــ هذا الظهيرَ الكريمَ مشيرًا بالترفيع والتنويه ، ومؤكِّدا للاحتفاء الوجيه ؛ وقدّمه ــ أعلىٰ الله قَدَمه ، وشكر نِعَمه ــ خطيبـًا بالجامع الأعظم

[من حضرته](١) ـ عَمَرَه الله بذكره ـ من عِلْية الخطباء، وكِبار العلماء، وخِيار الفقهاء الصُّلَحاء؛ فليتولَّ ذٰلك فى جُمُعَاته، مظهرا فى الخُطْبة أثَر بركته وحسناته، عاملًا علىٰ مايقرّبه عند الله من مرضاته، ويُظفِره بجزيل مَثُوباته؛ بحول الله وقوّته .

الضـــرب الثالث

(ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية)

وهذه نسخة ظهير بالقلم الأعلىٰ المعبَّر عنه فى بلادنا بكتابة السر؛ وهى :

هذا ظهير كريم نصب للمعتَمد به الإنافة الكبرىٰ ببابه فرَفَعه(٢)، وأفردَ له متْلُوَّ العز جمعَه ووِتْره وشفعَه، وقرّبه فى بِساط المُلْك تقريبا [أرْغَمَ به أنفَ عِداه ووضعه](٣)، وفتح له بابَ السعادة وشَرَعه، وأعطاه لواءَ القلم الأعلىٰ فوجب علىٰ مَنْ دونَ رتبته، من أُولى صنعته، أن يتَّبعه؛ ورَعىٰ له وسيلتَه السابقةَ عند آستخلاص المُلْك لَمَّـا آبتَزَّه الله من يَدِ الغاصب وآنتزعه، وحَسْبُك من ذِمَام لايحتاج إلىٰ شيءٍ معه .

أمر به الأميرُ فلان لفلان ـ وصل اللهُ سعادتَه، وحَرس مجادَته ـ أطْلع له وجْهَ العناية أبهىٰ من الصبح الوَسِيم، وأقطعه جَناب الإنعام الجَمِيم، وأنْشَقه أرَجَ الحُظْوة عاطِرَ النسيم، ونَقَله من كُرْسىّ التدريس والتعليم، إلىٰ مَرْقىٰ التَّنْويه والتكريم، والرتبة الَّتى لا يُلَقَّاها إلا ذُو حظٍّ عظيم؛ وجعل أقلامه جِيادًا لإجالة أمره العلىّ، وخِطابه السنىّ، فى مَيادين الأقاليم؛ ووضع فى يده أمانَةَ القلَم الأعْلىٰ، جاريًا من

(١) الزيادة من ''ريحانة الكتاب'' .

(٢) فى الريحانة «نصب المعتمد به للأمانة» الخ وهو أنسب بالمقام .

(٣) من ''ريحانة الكتاب'' .

الطريقة المُثْلىٰ، علىٰ النَّهج القويم، وآختصه بمزِيَّة الشُّفوف علىٰ كُتَّاب بابه الكريم . لَمَّا كان ناهضَ الوَكْر فى طلبة حضرتِهِ من البِدايه، ولم يزل تظهَر عليه لأُولى التمييز مَخايِلُ هذه العِنايه : فإن حضَر حِلَق العلم جَلَّى فى حَلْبة الحُفَّاظ إلىٰ الغايه، وإن نَظَم أو نثَر أتىٰ بالقصائد المصقوله، والمخاطَبات المنقُوله ؛ فاشتهر فى بلدِه وغيرِ بلدِه، وصارت أزِمَّة العناية طَوْعَ يده، بما أوجب له المزِيَّةَ فى يومِه وغَدِه .

وحين ردّ اللهُ عليه مُلْكَه الذى جَبَر به جَناحَ الإسلام، وزيَّن وُجُوهَ الليالى والأيَّام، وأدال الضِّياءَ من الظلام ؛ وكان ممَّن وَسَمه الوفاءُ وشَهَره، وعَجَم الملكُ عُودَ خُلُوصه وخَبَره ؛ فحمِد أثَرَه، وشكر ظاهرَه ومضمَرَه ؛ وآستصحب علىّ رِكابه الذى صحبَ اليمنُ سَفَره، وأخلصت الحقيقةُ نَفَره، وكَفَل الله وِرْدَه وصَدَره ؛ ميمونَ النَّقيبه، حَسنَ الضَّريبه ؛ خالصًا فى الأحوال المُريبه، ناطقًا عن مقامه بالمخاطَبات العجيبه ؛ واصلًا إلىٰ المَعانى البعيدةِ بالعبارات القريبه، مبرِّزا بالخِدَم الغريبه، حتَّى آستقام العِماد، ونطق بصِدْق الطاعةِ الحىُّ والجَماد، ودخلتْ فى دين الله أفواجا العِبادُ والبِلاد، لله الحمدُ علىٰ نِعَمه الثَّرَّة العِهاد، وآلائِهِ المتواليةِ التَّرداد ــ رعىٰ له ــ أيَّده الله ــ هذه الوسائل وهو أحقُّ مَنْ يَرْعاها، وشكر له الخِدَم المشكورَ مَسْعاها ؛ فقصر عليه الرُّتبة الشَّمَّاء التى خَطَبها بوَفائه، وألبسه أثوابَ آعتنائِه، وفَسَّح له مَجالَ آلائه ؛ وقدّمه ــ أعلىٰ الله قدْمَه، وشكر نعمَه، ــ كاتبَ السِّرّ، وأميرَ النهى والأمْر ؛ تقديمَ الآختبار، والآغتباط بخدمته الحسنةِ الآثار، والتيمُّن باستِخْدامه قبلَ الحُلول بدار المُلْك والآستقرار، وغيرِ ذٰلك من مُوجِبات الإيثار .

فليتولَّ ذٰلك عارفًا بمقداره، مقتفِيًا لآثاره، مستعينًا بالكَتْم لأسراره، والآضْطِلاع بعظام أُموره وكِباره، متَّصِفا بما يَجْمُل من أمانته وعَفَافه ووَقاره ؛ معطِياً هذا الرسم

حقّه من الرِّياسه ، عارفًا بأنه أكبرُ أركانِ السِّياسه ؛ حتّى يتأكّدَ الاغتباطُ بتقريبه وإدنائه ، وتتوفّرَ أسبابُ الزِّيادة فى إعلائه ؛ وهو ـ إن شاء الله ـ غنىٌّ عن الوَصَاة فَهْمًا ثاقِبا ، وأدباً لعُيون الكمال مُراقِبا ؛ فهو يعمَلُ فى ذلك أقصىٰ العمَل ، المتكفِّل ببلوغ الأمَل .

وعلىٰ مَنْ يقِف عليه : من حَمَلة الأقلام ، والكُتَّاب الأعلام ، وغيرهم من الكافّة والخُدَّام ، أن يعرفُوا قدرَ هذه العناية الواضحةِ الأحكام ، والتقديم الراسخ الأقدام ، ويوجبُوا ما أوجب من البِرِّ والإكرام ، والإجلال والإعظام ؛ بحول الله وقُوّته ، وكتب فى كذا .

الطـــرف الثـالث

(فى مصطلَح كُتَّاب الديار المصرية فيما قَبْل الخلفاء الفاطميين
وفيما بعدهم إلىٰ زماننا)

وفيه أربعُ حالات :

الحـالة الأولىٰ — ماكان عليه أمر نُوّاب الخُلَفاء بهذه المملكة إلىٰ ٱبتداء الدولة الطُّولونيَّة .

ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المُدّة صَرْف عناية ، تقاصُرًا عن التشبُّه بديوان الخلافة ، إذ كانت الخلافةُ يومئذ فى غاية العِزِّ ورِفْعة السلطان ، ونيابةُ مصرَ بل سائرُ النيابات مضمَحِلَّة فى جانبها ، والولاياتُ الصادرةُ عن النوّاب فى نياباتهم متصاغرةً متضائلةً بالنسبة إلىٰ مايصْدُر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذٰلك لم يقَعْ مما كتب منها ماتتوفَّر الدواعى علىٰ نقله ولاتنصرف الهِمَم لتدوينه مع تطاوُل الأيام وتوَالِى اللَّيالى .

الحالة الثانية — ما كان عليه أمرُ الدولة الطُّولونيَّة من حين قيام دولتهم إلىٰ آنقراض الدولة الأخْشيديَّة .

وقد تقدّم أن أحمدَ بنَ طُولون أوّلُ من أخذ فى ترتيب المُلك و إقامة شِعَار السلطنة بالديار المِصْرية . ولما شَمَخ سلطانُه، وآرتفع بها شانُه، أخذ فى ترتيب ديوان الإنشاء لما يَحتاج إليه فى المكاتَبات والولايات، فاستكتبَ آبنَ عبد كان، فأقامَ مَنَار ديوان الإنشاء ورَفَعَ مِقْداره ؛ وكان يفتتِح ما يكتُبه عنه فى الولايات بلفظ « إنَّ أوْلىٰ كذا » أو « إن أحقَّ كذا » وما أشبه ذٰلك .

وهذه نسخة عهد كَتَب به آبنُ عبدكان عن أحمدَ بنِ طُولون بقضاء بَرْقة تُرشد إلىٰ ما عداها من ذٰلك وهى :

إنَّ أحَقَّ مَنْ آثَرَ الحقَّ وعمِل به ، وراقبَ اللهَ فى سِرِّ أمره وجَهْره، وآحترس من الزَّيغ والزَّلَل فى قوله وفعله ، وعمل لمَعَاده ورجْعتِه ، إلىٰ دار فاقتِه وفَقْره ومسكنته، مَنْ جُعِل بين المسلمين حاكما، وفى أمورهم ناظرا: [فأراق](١) الدماءَ وحَقَنها، وأحَلَّ الفروجَ وحَرَّمها ، وأعطى الحُقوقَ وأخذَها ؛ ومَنْ علم أنَّ الله تبارك وتعالىٰ سائلُه عن مِثْقال الذَّرَّة من عمله، وأنه إنما يتقلَّب فى قَبْضتِه، أيام مُدّته، ثم يخرج من دُنياه كخروجه من بطن أُمِّه ، إما سعيدًا بعَمَله و إما شقيًّا بسعْيِه .

و إنَّا لما وَقَفْنا عليه من سَدِيد مذْهَبك وقويم طَريقتك؛ وجميل هَدْيك وحُسْن سِيرتك؛ ورجَوْناه فيك، وقرّرناه عندك: من سُلُوك الطريقة المُثْلىٰ، وآقتفاء آثار أئمة الهُدىٰ، والعملِ بالحق لا بالهَوىٰ ـ رأينا تقليدَك القضاءَ بينَ أهل ثَغْر بَرْقة، وأمرناك بتقْوىٰ الله الذى لا يُعجِزُه من طَلَب، ولا يفُوته من هَرَب ـ و بطاعته التى مَنْ آثَرها

(١) بياض فى الاصل والتصحيح من المقام .

سعد، ومن عمِل بها حُمِد، ومن لَزِمها نجا، ومن فارقَها هَوىٰ ـ وأن تُواصل الجلوسَ لمن بحَضْرتك من الخُصوم : صابرا بنفْسك علىٰ تنازُعهم فى الحقوق، وتدافُعِهم فى الأمور، غيرَ بَرِمٍ بالمراجَعات، ولا ضَجِر بالمُحاكمات : فإنَّ من حاوَلَ إصابةَ فصلِ القضاء، وموافقةَ حقيقةِ الحكم بغير مادَّة من حِلْم، ولا معونةٍ من صبرٍ، ولا سُهْمة من كَظْم، لم يكُن خليقًا بالظَّفَر بهما، ولا حقيقًا بالدَّرْك لها ـ وأن تَقْسِم بينَ الخَصْمين إذا تقدّما إليك، وجلَسا بينَ يديْك، فى لَحْظك ولَفْظك، وتُوَفِّىَ كلَّ واحد منهما قِسْمه من إنصافك وعَدْلك، حتّٰى يَيْأس القوىُّ من مَيْلك، ويأمَنَ الضعيفُ من حَيْفك : فإنَّ فى إقبالك بنَظَرك وإصغائك بسمعك إلىٰ أحد الخصمين دُونَ صاحبِه ما أضلَّ الآخرعن حُجَّته، وأدخل الحَيرةَ علىٰ فكره ورَويَّته ـ وأن تُحضِر مجلسَ قضائك من يُستظْهَر برأيه، ومَنْ يَرْجِع إلىٰ دينٍ وحِجًا وتُقًى : فإن أصبْتَ أيَّدك، وإن نَسيت ذَكَّرك ـ وأن تقتدىَ فى كلِّ ما تُعْمل فيه رَويَّتك، وتُمضى عليه حكْمَك وقضيَّتك، بكتاب الله الذى جعله صِراطا مستقيما، ونُورا مستبِينا، فشَرعَ فيه أحكامَه، وبيَّن حلالَه وحرامَه، وأوضح بِه مشكلاتِ الأُمور، فهو شفاءٌ لما فى الصُّدور. وما لم يكن فى كتاب الله جل وعز نصُّه فإنَّ فيما يُؤْثَرعن النبىّ صلى الله عليه وسلم حُكْمه، وما لم يكن فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ٱقتفيْتَ فيه سبيلَ السَّلَف الصالح من أئمة الهُدىٰ رضى الله عنهم الذين لم يألُوا الناس ٱختبارا، ولا ٱدَّخَروهم نصيحةً وٱجتهادا، عالما أنك أسعدُ بالعدل ممن تَعْدل عليه، وأحظَىٰ بإصابة الحق ممن تُصيبه فيه : لما تتعجَّلُه من جميل أُحدوثته وذِكْره، ويُدَّخر لك من عظيم ثوابِه وأجره، ويُصْرَف عنك من حُوب ما تتقلَّده ووِزْره ـ وأن يكون الذين تحكم بشهادتهم [من] أهلِ الثِّقة فى أديانهم، والمعروفينَ بالأمانة فى مُعامَلاتهم، والموسُومين بالصدق فى مَقالاتهم، والمشهورِين

بالتقدّم فى عَدَالاتهم : فإنك جاعلُهم بينَ الله و بينَك فى [كل] كلامٍ تُصْدِره، وحكم تُبْرِمه؛ وحقيقٌ بأن لا ترضَىٰ لنفسك منهم إلا بمـا يُرضىٰ منك، وتَعلَمُ أن ذلك هو الصدقُ، وأنك قد أبليتَ عُذرَك فى تخيُّرهم، فإنه بعلم أن ذلك هو الصِّدقُ من نِيَّتك، والصِّحة من يقينك، تحسُن عليه معونَتُك، و يحضُرك التوفيقُ فى جميع أقضيتك ــ وأن يكونَ من تستعينُ به علىٰ المسألة عن أحوال هؤلاء الشهودِ ومذاهبِهــم، وما يُعرَفون به و ينسَبُون إليه فى رحالهم ومَسا كنِهم أهلَ الوَرَع والأمانه، والصِّدق والصيانه ــ وأن تجدِّد المسألة عنهم فى كل مرّة، وتفحَصَ عن خبرَهم فى كل قضيه؛ ثم لا يمنعَك وُقوفُك علىٰ سُقُوط عَدالةِ من تقـدّمْتَ بتعديله من آستقبال الواجبِ فى مثله، وآستعمال الحقّ فى أمْره ــ وأن تُشرف علىٰ أعوانك وأصحابك، ومن تجرى أمورُك علىٰ يديه من خلفائك وأسبابك؛ إشرافا يمنَعُهم من الظلم للرعيَّــه، و يقبضُ أيديَهم عن المآكل الرَّدِيَّه؛ و يدعُوهُم إلىٰ تقويم أَوَدِهم، وإصلاح فاسدهم، و يزيدُ فى بصــيرة ذوى الثِّقة والأمانة منهم؛ فمن وقفتَ منــه علىٰ آمتثالٍ لمذهبك، وقبولٍ لأدَبك؛ وآقتصارٍ فيما يتقلَّده لك، أقررتَه وأحسنْتَ مكافأتَه ومَثُوبته، ومن شَممت منه حَيْفا فى حكمه، وتعــدِّيا فى سِــيرته، وبَسْطا ليده إلىٰ ما لا يجب له، تقدّمت فى صَرْفه، وألزمته فى ذٰلك ما يلزَمُه ــ وأن تختار لكتابتك من تعرِف سَداد مذهبه، وآستقلاله بمـا يتقلَّده، و إيثارا لحرس (؟)(1) من صحته، ومَنْ تقــدِّر عنده تقديمـا(2) فى نصيحتك فيما يجرى علىٰ يديْه، وتوخِّيا لصدقك فيما يحضُره وتَغيب عن مشاهدته؛ فإنك تأمَنُه من أمر حكمك علىٰ ما لا يؤتمن علىٰ مثـله إلا الأمين، وتُفوِّض إليــه من حُجَج الخصوم المرفوعِين إليك ما لايفوَّض إلا لذى العَفَاف والدِّين ــ وأن تتفقد

(1) لعله «و إيثاره للتأكد من صحته» . تأمل .

(2) لعله « تحريا » تأمل .

مع ذلك أمره، وتتصفّح عمله، وتُشرف على ماتحت يديه بما يؤدّيك إلى إحكامه وضبطه، ويُؤمّنك من وقوع خلل فيه ـ وأن تختار لحجابتك من لا يتجهّم الخُصُوم، ولا يختصّ بعضها دونَ بعض بالوُصول، وتُوعز إليه فى بَسْط الوجه، ولين الكَنَف، وحُسْن اللفظ، ورفع المئونة، وكفّ الأذىٰ.

فتقلّدْ ماقلّدناك من ذلك عاملا بما يحقّ عليك لله جلّ وعزّ ذكره، ومستعيناً به فى أمرك كلّه: فإنّا قلّدناك جسيما، وحمّلناك عظيما، وتبرّأنا إليك من وِزْره وإصْره، واعتمدْنا عليك فى توخّى الحقّ وإصابته، وبسْط العدل وإفاضته؛ واْقبِضْ لأرزاقك وأرزاق كُتّابك وأعوانك ومن يحجُبُك ولثَمن قراطيسك وسائر مُؤَنك فى كل شهرٍ أربعين دينارا؛ فقد كتبْنا إلى عامل الخَرَاج بإزاحة ذلك، أوقات استحقاقك إيّاه ووجوبه لك، وإلىٰ عامل المدينةِ بالشّدّ علىٰ يَدِك، والتقويةِ لأمْرك؛ وضَمّ العِدّة التى كانت تُضَم إلىٰ القضاة من الأولياء إليك، وهما فاعلان ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

الحالة الثالثة — ما كان عليه الأمر فى زمن بنى أيُّوب.

وكانوا يسمُّون ما يكتَب عن ملوكهم من الولايات لأرباب السيوف والأقلام «تقاليدَ» و«تواقيعَ» و«مراسيمَ» وربّما عبّروا عن بعضها بـ«المَنَاشير»

وهى فى الافتتاحات علىٰ ثلاث مراتب:

المرتبة الأولىٰ — أن تفتتح الولايةُ بخطبةٍ مبتدأةٍ بالحمدُ لله تعالىٰ ثم يؤتىٰ بالبعديّة، ويذكَرُما سنَحَ من حال الولاية والمولّى، ويُوصّى المولّى بما يليقُ بولايته، ثم يقال: «وسبيل كلّ واقفٍ عليه من النوّاب العملُ به» أو نحو ذلك.

وهى علىٰ ثلاثة أصناف:

الصنف الأوّل — أرباب السيوف من هذه المرتبة

وهذه نسخة توقيع بولاية ناحيةٍ و إقطاع بلادِها لمتولّيها ، وهى :

الحمدُ لله علىٰ عوائده الجميلةِ وعَواطِفه ، وفوائدِه الجزيلة وعَوارِفه ؛ ناصبِ الحقّ وناصره ، وقاصِم البـاطلِ وقاصِره ؛ ومُنيرِ الدينِ ومُديله ، ومُبيرِ الكُفْر ومُذيله ؛ وشادِّ أَزْر أوليـائه وسادِّ ثغرهم ، وناصرِ مُعِزِّهم ومُعِزِّ نصْرهم ؛ الذى أضفىٰ علينـا مَدارِعَ نِعَمه ، وأصـفىٰ لدينا مَشارعَ كَرَمه ؛ وأعلقَ أيدِيَنا من العـدل بأَوْكـدِ الأسباب والأمْراس ، وصَرَف بنا صَرْفَ العَسْف وكفَّ بكفايتنا كَفَّ البُؤْس عن الرعيَّة والْبَاس ؛ وجَلَب إلىٰ آستجلاب الشكر من الناس هِمَّتنا ، وطَوىٰ علىٰ حُبِّ البِرِّ وإبرار المُحِب طويّتنا ؛ وحَسَم بمـا أَوْلاناه من أيْدٍ مادّةَ كلِّ يدٍ تمتـدّ إلىٰ محظور ، ويسَّرنا بِبساط العـدل المطوىّ لِمـا طَوىٰ بعدلنا بِسـاطَ الظُّلم المنشور ؛ وأبىٰ لنـا أن نكفُرَ نِعْمَةَ أو نَهَبَهـا لكافر ، أو نَدَعَ شُكْرَ مِنَّة أو نُودِعَها عند غير شاكِر .

ولَـمَّا كان الأمير فلان ممَّن سبقَتْ لجدّه ولأبيه ـ تعاهـد اللهُ بالعهاد مَثْواهمـا ، وخص بثَرَّارِ الرحمة ثَراهما ـ الحُرَم الأكيده ، والخِدَمُ الطريفةُ والتَّليـده ؛ ولم يزالَا مجتهدَيْن فى تعمير هـذا البيتِ وتشييد أُسِّـه ، ملازِمَيِ الإدآب فى إنمـائِه وتَشْديد غرسه ، مُفْضيَيْن بالموالاة إلىٰ مُواليـه ، مفْصِحين بالمعاداة لمُعَاديه ؛ رأينا ـ لا زال الإقبال لآرائنا مقابِلا ومُرافقا ، والسعدُ مساعدًا والتوفيقُ موافقا ـ أن نُلحقَه بدرَجة أوَّليه ، ونُوردَه من كرمنا مَوْرِدَ جدّه وأبيه ؛ ونَثْنِيَ إليه عِنانَ عِنايتنا ، ونَرْعاه بعين رعايتنا ؛ ونُلحِقَه جَنـاحَ لُطْفنا ، ونبوِّئه مَقْعَد شرف تحتَ ظِلّنـا ؛ ونحْرُسَ حَدّه من الفُلول ، وجَدّه من الخُمُول ؛ وعُودَه من الخَوَر ، ووِرْدَه من الكَدَر ؛ وأن نقرِّره

علىٰ ما بوّأنا فيه والِدَه من الهِبات والإنعام والإفْضال والإحسان، وجميع ما دخل تحت آسمه من المَعاقل والبُلْدان، وسيُوضِّح ذلك بقلم الدِّيوان .

فلْيقابِلْ هذا الإنعامَ من الشكر بمِثْله ، ويُوازِ هذا الإفضالَ من حُسْن القَبُول بِعِدْله ؛ ولْيرتبِطْ نِعَمَ الله عنده بالشُّكر الوافِى الوافِر، فالسعيدُ مَن آطَّرح خَلَّة الشاكى وآدَّرع حُلَّة الشاكر ؛ ولْيُدْمِنِ التحدّثَ بها فالتحدّثُ بالنِّعَم من الشكر ، ويستجذب موادّها بإيضاح سُبُل البِر ، ويجعَلِ التقوىٰ شِعاره ودِثارَه ، ويُخْلِص الطاعةَ لله إيرادَه وإصدارَه .

وليكُنِ العدلُ رَبِيئتَه ورائدَه ، والأمرُ بالمعروف دليلَه وقائدَه ؛ وليَقُم فيما نِيطَ به حقَّ القيام ، ويُشَمِّرْ فى حِفْظ ما آسترعَيْناه عن ساقِ الآهتمام ، ويعلَمْ أن منزِلَته عندنا أسنىٰ المَنازل وأعلاها ، ومرتبتَه لدينا أبهجُ المراتب وأبْهاها ؛ ومحلَّه عندنا السامِى الذى لا يُضاهيه سامِى ، ومكانَه المكانُ الذى ليس له فى الممكن أن يفْترِع عَلَمَه سامى ؛ فسبيلُه علمُ ذلك وتحقيقُه ، وتَيَقُّنه وتصديقُه ، وسبيل كلِّ واقفٍ علىٰ هذا المثال ، [أن] يقابله بالآمتثال ، من سائر العُمَّال ، وأرباب الوِلايات والأعمال ، والآعتمادُ علىٰ العَلامة الشريفة فى أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — أرباب الوظائف الدينية

وهذه نسخة توقيع بتدريس مدرسةٍ والنظرِ عليها ، والتحدّثِ علىٰ أوقافها وسائر تَعلُّقاتها ، وهى :

الحمد للهِ الظاهرِ إحسانُه ، الباهرِ بُرهانُه ؛ القاهرِ سلطانُه ، المتظاهرِ آمتنانُه ؛ نحمدُه علىٰ إنعامه حمدًا يدُوم به من حلب غزارته وحلى نضارته ازديادُه وازْدِيَانُه ،

ونسأله أن يصلّي على سيدنا محمد نبيّه الشارع الشارح بيانُه ، وعلى آله وصَحْبه الذين هم أعضاد شَرْعه وأركانُه .

أما بعد ، فإنّا لما نَراه من تشييد بُيُوت ذَوِى البُيوتات ، وإمضاء حُكْم المُرُوءة فى أهل المُرُوءات ، وإرعاء مَوَاتّ ذَوِى الحقوق الحقيقة بالمراعاة وإحياء المَوَات ، وموالاةِ النِّعم الشامل عمومُها لأُولى الخُصوص والخُلُوص فى الموالات ، ما نزال نُلْحِق درَجاتِ الأخلاف منهم فى الآختصاص بالآستخلاص بالأسلاف ، فنُوردُهم من مَشارع دولتنا ومَشَارب نعمتِنا فى الآصطفاء والآصطناع أعذبَ النِّطاف ، ونُجنيهم من مَغَارس الرجاء ، ومَجارى النَّماء ، فى الإدناء والآجتباء ، ثمراتِ النِّعم الدانيةَ القِطاف ، ونُفِيض عليهم من مَدَارع البَهْجة والبَهاء ، وحُلَل الثَّناء والسَّناء ، فى الاكرام ، بالآحترام ، ما يضفُو على الأعْطاف .

ولما كان الشيخُ فلان متوحِّدا بالنسب الأثير الأثيل ، والحسب الجَلِىّ الجليل ، والمحْتِد الأكيدِ الأصيل ، والفضل المَوْرُوث والمكتسَب ، والزَّكاءِ فى المنتمَى والمنتَسَب ، والذَّكاء الذى أنارتْ فى أُفُق التوفيق ذُكَاؤه ، والولاءِ الذى بان فى شِرْعة الإخلاص صَفاؤُه ، والدِّينِ الذى علا سَنَاستنّه ، فى مَنَار التحميد ، والخُلوص الذى حَلا جَنَىٰ جنّته ، فى مَذَاق التوحيد ، والرِّياسة التى تَضَوَّع رَيًّا رياضِها المُونِقه ، والسماحةِ التى تَنَوّح حَيَا حِياضها المُغْدِقه ، والأمانة التى نهضَتْ بها فضائلُه ، والموالاةِ التى نَجحتْ بها عندنا وسائلُه — رأينا إجراءَه على عادة والده فى تولِّى المدرسة المعمُورة التى أنشأها جدُّه للشافعية بحَلَب ، وأوقافِها ، وأسبابها ، وتدريسها ، وإعادتها ، وآستنابةِ مَنْ يراه ويختارُه فى ذلك كله ، والنظرِ فى جميع ما يتعلّق بها كُثْرِه وقُلِّه ، وترتيب الفقهاءِ فيها ، وتقرير مشاهَرَاتهم على ما يراه من تفضيلٍ وتقديم ، وتفصيل

وتقسيم ، وتخصيص وتعميم ، ونقص وتكميل وتتميم ؛ وحفظ الوقوف بالاحتياط في مصارفها ، والعمل فيها ، بشروط محبّسيها وإطلاقها بقيود واقفيها ، بالابتداء بالعمارات ، التي تؤذن بتوفير الارتفاعات ، وتكثير المغلّات ، وتنمية الثمرات ؛ مستشعرا تقوى الله التي هى حلية الأعمال الصالحات ، والعصمة الباقية والجنّة الواقية عند النائبات . وفوّضنا ذلك إلى أمانته ، وبعده إلى من يقوم مقامه من إخوته ، تشييدًا لبيتهم الكريم ، وتجديدًا لمجدهم القديم ؛ ورفعا لمكانتهم المكينه ، وحفظا لمرتبتهم المصونه . وأمرنا بإعفاء جميع أوقاف المدرسة وسائر أوقافهم ، وأملاكه وأملاك إخوته وحمايتهم من جميع المظالم والمطالب ، والنوائب والشوائب ، والعوارض والعراض واللوازم والكلف ، والمؤن والسّخر ، والتبن والحطب ، والأطباق والأنزال ، وسائر التوزيعات والتقسيطات والأنفال ؛ وإعفاء فلّاحيها ومزارعيها من جميع ذلك ؛ وإطلاق كلّ ما يصل من مغلّات الأوقاف والأملاك المذكورة إلى مدينة حلب من جميع المؤن على الإطلاق ، وكذلك جميع ما لهم من البضاعات والبياعات والتجارات معفاةً مطلقةً لا اعتراض عليها لأحد ، ولا تمدّ إلى شيء منها يدُ ذي يد . وليتولّ ذلك على عادته المشكوره ، وأمانته المشهوره ؛ بنظرٍ كافٍ شاف ، وكرمٍ وافرٍ واف ؛ وورعٍ من الشوائب صاف ، وعزوفٍ عن الدنيّات بالدينيّات متجاف ؛ وسداد لركن المصالح شائد ، وتذكر لترقى موادّ المناجح رائد ؛ ورأيٍ في ذمّة الصواب راجح ، وسعي برتبة الرّشاد ناجح ؛ وهمّةٍ عاليةٍ في نشر العلم بالمدرسة وإعلاء مناره ، وإلزام الفقهاء والطلبة بتدريسه وإعادته وحفظه وتكراره ؛ ومروءةٍ تامة في الاشتمال على إخوته ومخلّفي أبيه بما يصل به الرّحم ، ويظهر به الكرم ، ويحيي من مفاخر آبائه الرّمم ، ويقوى لهم من معاقد مكارمه العصم . وسبيل الولاة والنوّاب وكل واقفٍ على هذا المثال إمضاءُ ذلك كلّه على سبيل الاستمرار ،

وتصرُّم الأعمار ، وتصرّف الأعصار ، وتقلُّب الأحوال والأدوار ؛ وحفظُه فيهم وفى أعقابهم على العُصور والأحقاب ، ووصل أسبابه عند انقطاع الأسباب ، من فَسْخ ينقُض مُبرَم معاقده ، أو نَسْخ يقوّض مُحْكَم مقاعده ؛ أو تبديل يكدّر صافىَ موارده ومشارعه ، أو تحويل يقلّص ضافىَ ملابسه ومدارعه . وليبْذُلْ لهم المساعَدةَ فى كلّ ما يعود له ولجماعته بصلاح الحال ، وفراغ البال ونجاح الآمال ، وإقامة الجاه فى جميع الأحوال . والعملُ بالأمر العالى وبمقتضاه ، والاعتمادُ على التوقيع الأشرف به إن شاء الله تعالى .

الصنف الثالث — أربابُ الوظائف الديوانية

وهذه نسخة توقيع بوزارة ، من إنشاء بعض بَنى الأثير ، وهى :

الحمدُ لله الذى فضَّلنا على كثيرٍ من عباده ، وأغنانا بمَزيد عطائه عن ازدياده ، وجعَلنا ممن استخْلَفه فى الأرض فشكر عواقبَ إصداره ومبادئَ إيراده .

نحمدُه ولسان أنعُمه أفصَحُ مقالًا وأفسح مجالا ، وإذا اختلفَتْ خَواطِرُ الحامدين رَويّة كاثَرها ارتجالا ؛ ونسأله أن يوفّقنا لتلقّى أوامِره ونَواهيه بالاتباع ، وأن يُصْغىَ بقُلوبنا إلى إجابة داعى العَدْل الذى هو خيرُ داعٍ ، ويُنقذَنا من تبِعات ما استرعاناه يوم يُسْأَل عن رعيّته كلُّ راعٍ .

أما بعدُ ، فإن الله قَرَن استخارتَه برَشَده ، وجعلها نُورا يُهتدَى به فى سُلوك جَدَده ، ويُستمدّ من يُمْن صَوابه مايُغْنِى عن الرأى ومَدَده . ومن شأْننا أن نتأدّبَ بآداب الله فى جليل الأمر ودقيقه ، وإذا دَلَّ التوفيق امْرءًا على عمله دَلَّ عملُنا على توفيقه ؛ فمن عُنْوان ذلك أنَّا اصطفينا لوزارتنا مَنْ تحمَدُنا الأيام من أجْله ، وتحسُدُنا الملوكُ على مثله ، ويعلَمُ من أتى فى عصره أنه فاتَ السابقين من قَبْله ، وهو الوزيرُ الأجل

السيدُ الصدرُ الكبير، جلالُ الدين، شرفُ الإسلام، مجتبىٰ الإمام فخرُ الأنام؛ وليست هذه النعوت مما تزيد مكانَه عُرْفا، ولا تستوفى من أوصافه وَصْفا؛ وإن عدّها قومٌ جُلَّ ما يدّخرونَه من الأحساب، ومعْظَمَ ما يخلِّفُونه من التُّراثِ للأعقاب؛ ولا يَفْخَر بذٰلك إلا مَنْ أَعدَم من ثَرْوة شرفه، ورضِيَ من الجوهر بصَدَفه؛ وأنتَ فغير فاخرٍ به ولا بما وَرِثْتَه من مَجْد أبيك الذى أضحَتِ الأيَّام به شُهودا، والجُدُود له جُدُودا، وغَدا وكأَنَّ عليه من شمس الضُّحى نُورا ومن الصَّباح عمودا؛ وقد علمتَ أنه كان إلٰه نَسَبُ المكارم وسيَمِها، وكان مابلغه منها أعظَمَ ما بلغه من دنياه علىٰ عِظَمِها؛ لٰكنَّك خلَّفت لنفسك مَجْدا منك ميلادُه، وعنك إيجادُه؛ واذا ٱقترن سعْيُ الفتىٰ بسَعْى أبيه فذٰلك هو الحسَبُ الذى تقابل شَرَفاه، وتلاقىٰ طَرَفاه، وغَضَّ الزمان عنه طَرْفَه كما فتح بمَدْحه فاه؛ وإذا ٱستطرفَتْ سادةُ قوم بنيتَ بالسُّؤدَد الطريفِ التَّليد، ولقد صدّق اللهُ لهجةَ المُثْنِي عليك إذ يقول: إنَّك الرجلُ الذى تُضْرَب به الأمثال، والمهذَّب الذى لا يقال معه : أىُّ الرجال؛ وإذا وازَرْتَ مملكةً فقد حظِيَتْ منك بشَدّ أزْرِها، وسَدّ ثَغْرِها، وأصبحَتْ وأنتَ صدرُ لقَلْبها وقَلْب لصَدْرها؛ فهى مزدانةٌ منك بالفضل المُبِين، معانةٌ بالقوىّ الأمين؛ فلا تبيتُ إلا مستخدمًا ضميرَك فى وَلَائها، ولا تغدُو إلا مستجديًا كفايَتَك فى تمهيدها وإعلائها .

ومن صفاتك أنك الواحدُ فى عَدَم النظير، والمعدُود بألف فى صوابِ التدبير، والمؤازرُ عند ذِكْر الخَيْر علىٰ الإعانة وعند نِسيانه علىٰ التذكير؛ ولم ترقَ إلىٰ هذه الدرجة حتَّى نَكَحتَ عَقَبات المَعَالى فقضيْتَ أجلَها، وآنسْتَ من طُور السعادة نارًا فهُدِيتَ لها؛ ولم تبلُغْ من العُمْر أَشُدّه، ولا نزعَ عنك الشباب بُرْدَه؛ بل أنت فى رَيْعان عُمْرك المتجملُ برَيْعان سُؤْدَده، المتقمِّصُ من سيما الجلال ما أبرزَ وقارَ

المَشيب فى أَسْوده . وهذا المنصبُ الذى أُهِّلت له و إن كان ثانِىَ المُلك مَحَلّا ، وتِلْوَه عَقْدا وحَلّا ؛ فقد علَا بك قَدْرُه ، وتأبَّل بك أمره ؛ وأصبَح وشخصُك فى أرجائه مَنَار، و رأيُك وفضلُك من حوله سُورٌ وسوَار ؛ وله من قلمك خطيبٌ يجادل عن أحساب الدولة فينفَحُها فخرا ، وسيفٌ يُجالِد عن حَوْزتها فيمنَحُها نَصْرا ؛ ولقد كان من قَبْلك وقبل أبيك مُكْرَها علىٰ إجابة خاطِبه ، والنُّزوِ إليه عن مَرَاتبه ؛ فلَمَّا جئتماه ٱستقرّ فى مكانِه ، ورضِىَ بعُلُوِّ شأنكما لعلوّ شانه ؛ وقد علِم الآنَ بأنكَ نزلْته نُزولَ الليث فى أَجَمِه ، وٱستقلَلْتَ به ٱستقلالَ الرُّمح باحدمه (؟) ؛ وما زالتِ المعالى تَسْـفِر بينك و بينه وأنت مشتغِل بالسعى للسيادة وآدابِها ، عن السعى للسّعادة وطِلَابها . فخُـذ ما وصلت إليه باستحقاق فضلك ومَناقبه ، لا بٱتفاق طالعك وكوا كِبه .

وٱعلم أنَّ هــذه النعمةَ و إن جاءتْك فى حَفْلها ، وأناخَتْ بك بصاحبها وأهلِها ؛ فلا يُؤْنِسُها بك إلا الشكرُ الذى يجعل دارَها لك دارا ، ووُدَّها مستمْلَكا لك لامُعَارا ؛ وقد قيل : إنَّ الشكر والنعمةَ توءَمان ، و إنه لا يتم إلا بٱجتماع سِرِّ القلب وحديث اللسان ؛ فاجعَلْه معروفَها الذى تُمْسكها بإحسانه ، وتَقَيِّدها بأشْطانه .

وقد أفردْنا لك من بيت المـال ما تســتعينُ به علىٰ فرائض خِدَمـ(١)ـك ونوافِله ، وتُرَدّ فضلَه علىٰ ٱبتناء مجـدِك وفضائله ؛ وذلك شىءٌ عائدٌ علىٰ الدولة طِيبُ سُمْعته ، فلهـا محمودُ ذِكره ومنك مَوارِدُ شِرْعتِه ؛ و إذا حُمِدت مَنَاهــل الغُدُر كان الفضــل للسحاب الذى أغْدَرها . والمفرَد باسمك من بيت المـال كذا وكذا .

وكُلُّ ما تضمَّنه تقليدُ غيرك مِن الوصايا التى قُرِعتْ له عصاها ، ونُبِـذَتْ له حَصَاها ، فأنت مستغْنٍ عن ٱستمـاعِها ، مكتفٍ بٱطِّلاع فكرك عن ٱطِّلاعها ؛ غير أنا نسأَلُك كما سأل رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم مُعَاذا ، ونسألُ اللهَ أن يجعلَ لك

(١) لعله «منصبك» . تأمل .

من أمرك يُسْرا ومن عَزْمك نَفَاذا ؛ وقد أجابنا لسانُ حالك بأنك تأخذ بتقوى الله التى ضمِنَ لها العاقبه ، وجعل شيعتَها الغالبه ؛ وأنك تجعلُها بينك و بينه سببا ممدودا ، و بينك و بين الناس خُلُقا معْهودا ؛ حتّى تُصْبح وقد أمِنْتَ من دهرك عِثَارا ، ومن أبنائه أسماعا وأبصارا — ومن شرائطها أن يكونَ الرجلُ المسلم الذى سلم الناسُ من يَدِه ولسانِه ، وفى هذين كفاية عن غيرهما من الشِّيَم ، التى تُحفَظ بها سياساتُ الأمم : فإنَّ العدل هو الميزان الذى جعله الله ثانِيَ الكتاب ، والإحسان الذى هو الطينةُ التى شاركَتْها القلوبُ فى جِبِلَّتها مشاركةَ الأحباب .

وأمَّا ماسوىٰ ذٰلك من سياسة الملك فى تقرير أُصُوله ، وتدبير محصُوله ؛ كالبلاد وآستعمارها ، والأموال وآستثمارها ؛ وولاةِ الأعمال وآختبارِها ، وتجنيدِ الجنودِ وآختيارها ؛ فكلُّ ذٰلك لا يصدر تدبيرُه إلا عن نَظَرك ، ولا يُمْشَى فيه إلا علىٰ أثرك ؛ وأنت فيه الفقيهُ آبنُ الفقيه الذى سرىٰ إليك عِلْمُه نفسا ودَرْسا ، وثمرةً وغرسا ؛ فهذا كتابُ عهدنا إليك : نخذه بقوّةِ الأمانة التى أبتِ السموات والأرض حملَها ، وما أطاقَتْ ثِقْلَها ؛ والله يسْلُك بك سَدَدا ، و يتحرّى بك رَشَدا ، و يلزمك التوفيقَ قلْبا ولسانًا ويَدا ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

ومن ذلك نسخةُ توقيع باعادة النظر بثَغْر الإسكندرية لآبن بصّاصةَ فى شهور سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى أضحَكَ الثُّغور بعد عُبُوسها ، وردَّ لها جَمالَها وأنار أُفُقَها بطُلُوع شُموسِها ، وأحْيا معَالم الخير فيها وقد كادَتْ أن تُشْرِف علىٰ دُرُوسها ؛ وأقامَ لمصالح الأمة من يُشْرِق وجْهُ الحق ببَيَاض آرائِه ، وتلتَذُّ الأسماعُ بتلاوةِ أوصافه

الجميـلة وأنبائه ؛ حَمْدَ من أُسْبِغتْ عليـه النَّعماء ، وتهادَتْ إليـه الآلاء ، وخطَبَتْه لنفسها العَلْيـاء .

وبعـدُ ، فأحَقُّ مَن ماسَ فى أندية الرِّياسة عِطْفا ، وٱستجْلىٰ وُجوهَ السعادة من حُجُب عِزِّها فأبدَتْ له جَمَالا ولُطْفا ، وٱصـطفَتْه الدولةُ القاهرة لمِهـمَّاتها لمَـَّا رأته خيرَ كافل ، وتنقَّل فى مراتبها السنيةِ تنقُّل النَّيِّرات فى المَنَازل (١) .

ولـما كان المجلسُ السامى القاضى ، الأجلُّ ، الصدرُ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، الأوحدُ ، الكاملُ ، المجتبىٰ ، المرتضىٰ ، الفاضلُ ، الرشيدُ ، جمـالُ الدين ، فخرُ الأنام ، شرفُ الأكابر ، جمالُ الصُّدور ، قدوةُ الأُمَنـاء ، ذُخْرالدولة ، رضِيّ المُلُوك والسلاطين ، الحسينُ ٱبن القاضى زكىّ الدين أبى القاسم ــ أدام الله رِفْعَتـه ــ ممن أشارتْ إليـه المناقبُ الجليله ، وصارتْ له إلىٰ كل سُؤْل نِعْمَ الوَسـيله ــ رُسِم بالأمرِ العـالى ، المَوْلَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَـكىّ ، العادلىّ ، البَدْرىّ ، ــ ضاعفَ الله عَلاءَه ونَفَاذه ــ أن يُفَوّض إليه نظرُ ثغرِ الإسكندريَّة المحروس ونظرُ مَتَـاجره ، ونظر زكَوَاته ونظرُ صادِره ، ونظرُ فُوّة والمُزَاحمتين ، فيقدّم خِيرةَ الله تعالىٰ ويباشرُهذا المنصبَ المبارَك ، بعَزَماته الماضيه ، وهِمَمِه العاليه ، برأْى لايُساهَم فيه ولا يُشارَك ، ليُصبِح هذا الثغرُ بمباشَرته باسماً حاليا ، وتعُودَ بهجتُه له بجميل نظَرِه ثانيا . وينتصِبُ لتدبيرأحواله علىٰ عادته ، ويقرّرُ قواعِدَه بعالى هِمَّتـه ، ويجتهدُ فى تحصـيل أمواله وتحصينِ ذخائره ، وٱستخراجِ زكاته وتنميـة مَتَاجِره ، ومعاملةِ التِّجَار الواردين إليـه بالعَدْل الذى كانُوا أَلِفُوه منـه ، والرِّفْق الذى نَقَلُوا أخبارَه السارَّةَ عنه ؛ فإنهـم هَدَايا البُحُور ، ودَوَالبة

(١) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ وأصله « من اشتهر بمحاسن الخلال ، ومحامد الخصال ، وساس الأمور برأيه الراجح ، ودبرها بسعيه الناجح ، ولما » الخ أو نحو ذلك فتنبه .

الثُّغُور، ومن ألسِنَتهم يُطَّلَع علىٰ ما تُجِنُّه الصُّدور، وإذا بَذَر لهم حَبَّ الإحسان نَشَرُوا له أجنحةَ مراكِبِهم وحامُوا عليه كالطُّيور. وليعتَمِدْ معهم ما تضمَّنته المراسيمُ الكريمةُ المستقِرّة الحكم إلىٰ آخرِ وَقْت، ولا يسْلُكُ بهم حالةً تُوجب لهم القَلَق والتظَلُّم والمَقْت؛ ولْيُواصِل بالمُحُول إلىٰ بيتِ المال المعمُور، ولْيملأ الخزائنَ السلطانيَّة من مستعْمَلات الثغر وأمتعتِه وأصنافه بكل ما يُستغنىٰ به عن الواصل فى البُرور والبُحور؛ ولْيصرِفْ همَّته العاليةَ إلىٰ تدبير أحوالِ المَتَاجر بهذا الثغر بحيثُ ترتفِع رُءُوس أموالها وتَنْمى، وتجودُ سحائبُ فوائدِها وتَهْمى؛ ولْيراعِ أحوال المستخْدَمين فى مباشَرَاتهم، ويكْشفُ عن باطن سَيْرِهم فى جهاتهم؛ ليتحقَّقُوا أنَّه مهَيْمنٌ عليهم، وناظرٌ بعينِ الرأفة إليهم؛ فتنكَفَّ يدُ الخائنِ منهم عن الخِيانه، وتتحلَّى أناملُ الأمين بمَحَاسن الصِّيانه؛ وليتفق فيما يأتيه ويَذَره، ويقدّمه من المُهمَّات ويؤخِّرُه، مع المجلس السامى، الأميرِ، الأجلِّ، الكبيرِ، المجاهِد، المقدَّم، الأوحدِ، النصيرِ، شمس الدين، متولِّى الثغر المحروس ــ أدام الله نعمتَه ــ فإنه نِعم المُعين علىٰ تدبير المهمَّات، ونعمت الشمسُ المشرقةُ فى ظُلَم المشكلات. ولْيطالِعْ بالمتجدِّدات فى الثغر المحروس، لِيَرِدَ الجوابُ عليه عنها بما يشْرَح الصدور ويُطَيِّب النفوس؛ ولْيتناولْ من الجامكية والجِراية عن ذلك فى غرّة كلِّ شهر من ٱستقبال مباشرته ما يشْهَد به الديوان المعمورُ لمن تقدّمه من النُّظَّار بهذه الجهات، وهى نظرُ الثغر وما أضيف إليه علىٰ ما شرح أعلاه.

المرتبـــــــــة الثـانية

(أن تفتتح الولايةُ بلفظ « أما بعــدَ حمد الله » أو « أما بعــدُ فإن كذا »
ويؤتىٰ بمـا يناسِب من ذكر الوِلاية والمُولَّى، ثم يذكر ما سنح
من الوصايا، ثم يقال «وسبيل كل واقف عليه»)

فمِن المكتتب لأرباب السُّيوف من هذه المرتبة ما كان يُكْتَب لبعض الوُلاة .

وهذه نسخة بولاية الشرقية، وهى :

أما بعدُ، فإنَّا لمَـا منَحَنا الله إيَّاه من معجِزات النصر المستنطِق الألسنةَ بالتسبيح، وآتاناه من نَظَرِ حمىٰ ناضر عَيش الأمَّــة من التَّصْويح ، وألبَسَناه من ثياب العَظَمة المخصوصة بأحسَنِ التوشِيع والتوشيح ، ووفَّقَنا له من آصطفاء من نُقْبِل عليه بوجه التأهيـلِ للمهمَّات والترشيح، وقوّاه من عزائمنا التى تُرَجُّ بها أرضُ الكفر وتُدَوَّخ ، ووسَّعه لنا من الفُتُوح التى أنباؤُها خيرُ ما تُصدَّر به السِّيَر وتؤرّخ ــ لا نزال نبالِـغ فيما صان الحَوْزة وحاطَها ، ومدّ رُواقَ الأمنة ومَهَّد بِسَاطَها ، وقرّب نوازِحَ المصـالح وجمعَ أشتاتَها، وأوجبَ آنْصرامَ حِبال آختلال الأُمُور وآقتضَى آنْبِتاتَها .

ولما كانتِ الأعمالُ الشرقيةُ جديرةً بمتابعة الآعتناء ومُوالاته، وإعراقِ كَرَم التعهُّد فيما يحفَظُ نِظامها بمُغالاته ، وأحقَّها بأن تُصرفَ إلىٰ صَوْنهـا وُجُوهُ الهِمَم الطَّوامح ، ويُوقَف عليها حُسْن الآحتفال الجامع دواعِيَ تَذْليل الجامح، إذ كانت أجدَرَ الأعمال بِكِلاءَة الفُروع من أوضاعها والأُصُول ، والبـابَ الذى لا يَجب أن يدخُلَه إلَّا من أُذِن له فى القــدوم إليها والوُصُول ، ويتعيَّنُ التحرُّز علىٰ الطُّرقات التى منهـا إليها الإفضاء ، ويُوكَّل بمـا دونها من المياه عُيونٌ حفظةٌ لا يلزمُها النومُ والإغضاء،

ــ وكنتَ أيُّها الأميرُ أشــدَّ الأمراء باسا، وأوْفَاهم لحسن الذكر الجميل لِباسا، وأكثرَهم لمُهَج الأعداء آخْتِلاسا ، وأجمَعَهم للحاسن المختَلِفة ضُرُوبا وأجناسا، وقد تناصَرتْ علىٰ قُصُودِكَ الحسنةِ واضحاتُ الدلائل، وتحلَّت أجيادُ خِلالك من جواهر المَفَاخر بقَلائدَ غيرِ قلائِل؛ وآستطارَ لك أجملُ سُمْعه، وفَطَمتْ سُيوفُك أبْناءَ الكُفْر عن آرتضاعها من المِلَّة الإسلامية ثَدْيَ طَمْعه؛ ولا آستبهمتْ طُرُق السـياسة إلا هُديت إلىٰ مَجَاهلها، ولا حَلَّأَ التقصيرُ سِواكَ عن شَرائع النِّعم إلا غَدْوتَ بكِفَايتك وارِدَ مَناهِلها؛ وكَمْ شهِدْتَ مَقامَ جِلَاد، ومَوْقِفَ جِهاد؛ فمزَّقْت ثوبَ مارققه نَسْجا، وأدلت فى ليل قَسْطَله عَوادِىَ صَوارِمك شَرْجا، وقُمْت فيما وُكل إليـك من أمور الفاقُوسِيَّة وقلعتَىْ صَـدَرٍ وأيْلَةَ حرسهما الله تعـالىٰ قيامًا أحظاك بالثناء والثواب ، وآسْتنبْت فى كلٍّ منها من أجرىٰ أمورَها علىٰ الصواب ــ خرجَ أمرُ الملِك الناصِرِ بكَتْب هذا السجلِّ بتقليدك ولايةَ الأعمال الشرقية المقدَّم ذكرُها .

فاعتمِدْ مباشرتَها عاملًا بتقوى الله التى مَغْنَمُها خيرُ ما آقتاده مستَشْعِروها لأنفسهم وآستاقُوه . قال الله تعالى : ﴿ وقَدِّموا لِأَنْفُسِكُمْ وآتَّقُوا آللَّهَ وآعلَمُوا أنَّكُمْ مُلاقُوه ﴾ وآبسُط العدلَ علىٰ أهل هـذه الوِلَايه ، وآخصُصْ أهل السَّلامة بمـا يُسْبِل عليهم سِتْرَ الحِياطة والحِمَايه ؛ وتطَلَّبِ المفسدين أتمَّ تطَلُّب ، وآحظُرْ عليهم التنَقُّلَ فى هذه البـلاد والتقَلُّب ؛ ومَنْ ظَفِرت به منهم فقابِلْه بمـا يُوجِبه حكم جَرِيرته ، ويقتضيه مَوْقِـعُ جريمته ، ويَجعله مُزْدَجَرا لسالِكى طريقته . وشُدّ من المستخْلَف علىٰ الحكم العزيز شـدّا ينْصُر جانبَ الشرع ويُعِزُّه ، ويَكْثُر به علىٰ الباطل تَروِيعُ الحق وأَزُّه؛ وأعِنِ المستخْدَمين فى المـال علىٰ آستيفائه من وُجُوهه عند وُجُوبه ، وبلِّغ كلًّا منهم من الإعانة علىٰ تحصـيله أقصىٰ مطْلُوبه ؛ وقوِّ أيديَهم فى تخضـير البِلاد وتعميرها ،

وٱبعثِ المُزارِعين علىٰ مباشَرة أحوال الزِّراعة وتقرير أمورها ؛ وفيما يُستَرْعَوْنه من مَصَالح الأعمال ، ويعُود عليهم فى موجبات الرجاء بمَنَاجح الآمال . وراعِ أمرَ السُّبُل والطُّرُقات ، وٱجعلِ ٱحتِراسك عليها الآنَ مُوفيا علىٰ المتقدِّم من سالف الأوقات ؛ ولا تَنِ فى إنفاذ المتخَبِّرين إلىٰ بلاد العدوّ ، وتحدّيهم فى الرَّواح والغُدُوّ ، بما يمنعهم من الهُدوّ ، وكَشْفِ أخبارهم ، وتَتَبُّع آثارهم ، وتسْيِير الجواسيس إلىٰ ديارهم ؛ حتّٰى لا تخفىٰ عنك من شُئونهم خافيه ، ولا يجِدُوا سبيلَ غِرّةٍ يهتَبِلُونها ـ والعياذ بالله ـ بالجُمْلة الكافيه . وطالع بما يتجدّدُ لك وما يَرِد من الأنباء عليك ، وغير ذٰلك مما يُحتاج إلىٰ علمه من جِهَتك ، وما تجرى عليه أحكام خِدْمتك ، فاعلم هذا وٱعملْ به إن شاء الله تعالىٰ .

❖

وهذه نسخة بولاية الغربية من هذه المَرْتَبة ، وهى :

أما بعدُ ، فإنَّا لمَّا آتانا اللهُ من سَعادةٍ لِطُرق الإرادات فيها تَعْبِيد ، وأسبَغه بنا من نِعَمٍ لا يعُدّها التحديد ، ولا يَحُدّها التعديد ؛ وأبْهَجنا به من ٱكتناف المَطالب بنجاحٍ لا يُعَقِّبُه تعسير ولا يعَسِّره تعقيد ؛ وأمضاه من عزائمنا التى ما فَتَكت قَطُّ بالأعداء فَقِيدَ منهم فَقِيد ؛ ولَقَّاه الأَمنةَ بنظَرنا من نَضْرة عيشٍ جَانَبَ الجَفَافُ دَوْحَه المُخْضَلّ ، وأهداه بتبصيرنا من أَنْوار الهدَى المتقدّمة كلَّ ذى جهل ظَلَّ ممن ضَلَّ ـ لا نزال نستوضِحُ أمورَ أمراءِ دولتنا متصفِّحين ، ونبلو أخبارَ المؤهَّلين منهم لسياسة الرعيَّة المرَشَّحين ، ونكشف شئُونهم غير متجوِّزين ولا متسمِّحين ؛ ونُظهر فى أحوالهم آثارَ الإِيثار لرفع درَجاتِهم ، وأماراتِ الرفع منهم مقابلةً علىٰ حياطة أمواٍل مَنْ نكونُ عليه وصون منْحَاتهم ، ونبوّئهم مُبَوّأَ صدق من تصديق آمالِهم وتحقيقها ؛ ونَزُفُّ إليهم

عقائلَ المِنَح المانِعَ شُكرُهم من تسيُّب سَيْبِها وتطرُّق تَطليقِها؛ ونحمل لكلٍّ منهم ما يؤمِّله من آجتهاده ويُؤْثِره؛ ولا نُلْغِى الآهتمامَ بما يُوطِّئ لهم مِهادَ الطَّوْل الجزيل ويُوَثِّره؛ عملًا بآداب الله سبحانَه فى إجزال حُظُوظ المحسنين من إحسان المجازاه، وإيلائهم المزيدَ الحاكمَ بنقص آعتدادهم عن المُوازَنَة له والمُوازاه، كما قال سبحانه وقوله هدًى ونورٌ وشفاءٌ لما فى الصدور: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .

ولما كان الأمير (والنعوت والدعاء) من أنجحهم فالا، وأرجحهم مَصَالا، وأصلَحِهم أعمالا، وأوضَحِهم كمالا؛ ومازالتْ أغصانُ نُهاه متتابِعةً فى بُسُوقها، وضرائبُه نافقةً أعلاقُ المحامِد بِسُوقِها؛ وعزائمُه فى إذلال الفِرَق المبالِغة فى فُسُوقها، مشمِّرةً عن سُوقِها؛ وما بَرِح فى شَوْط الفَخْر راكِضا، ولعُقُود مكروهِ الأمور التى تُزِيغُ الأمانةَ رافضا، وبأعباء القِيام بفرائِض الآلاءِ ناهِضا؛ وما آنفكَّتْ مناقِبُه تُعْيِي بيانَ الواصف وبَنَانَ العادّ، ومساعيه مُدرِكةً وهى وادعةٌ مايَعْجِزُ عن أقلِّه جِدُّ الجادّ؛ ورأيُه [يرتق] كلَّ متفتِّق ومنبثق من الأمور المهمَّة بِسَداد الراتق السادّ، وجميلُ ذِكْره يَفُوح بما يفوق المِسْكَ فيثُوب إليه من الثَّواب بالنائى النادّ؛ وما فَتِئَ دأبُ شِيَمَته الإعراض، عن المُوبِق من الأَعْراض؛ واختيارَ الرِّفق، والإغراقَ فيما يُديمه إلىٰ فَكِّ أعناقِ أسْرىٰ المسلمين من سرى العتق — خرج أمرُ المِلك الناصر بكتْب هذا السجِلِّ له بتقليده ولايةَ الأعمال الغربية .

فليتقلَّدْ ما قُلِّده معتمدًا علىٰ تقوى الله التى صَرَف عن معتمِدها شِربَ التكدير، ومَنَحه من المكارم عندَه مايُوفى علىٰ التقدير؛ ولْيَجْرِ علىٰ عادته فى بَسْط ظل المَعْدَلة ومدّ رُواقها، وصون مَسَاحى الرَّعايا عن إملاقها منها وإخْفاقها؛ والمساواة بها بين

الأقوىٰ والأضعف، والأدنىٰ والأشرف؛ والبادى والحُضَّار، والمُناوئين والأنصار؛ والخاصّ والعام، والأجنبىّ وربِّ الحُرْمة والذِّمام : لينام المستُورون علىٰ مِهاد الأمن، ويسلم جانِبُ سلامة أموالهم وأرواحِهم من الوَهْن . ولْيعامل المستخْلَف علىٰ الحكم العزيز بمـا يستوجبه مثلُه من نُصْرة الأحكام «ووكل إليـه أمر الأمراء لمن آثرها[(١)] والإحكام» والإكرام الشامل لقَدْره، والاهتمام الشارح لصَدْره. ولْيتوخَّ المستخْدَمين فى الأموال بمـا يكون لعِلّاتِهم مُزيحا، ليصـل إليهم ما يرومونه نجيحا . ويُلْزِم من جَرَتْ عادتُه بلزوم الحدود واجتناب تعدّيها ، والتوفُّر علىٰ حِفْظ مسالكها والمتردِّدين فيها ؛ وليطالع بما يتجدّد قِبلَه من الأحوال الطاريه ، وما لم تزل الرُّسومُ بإنهاء مثلِها جارِيه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبـــة الثـالثة

(أن تفْتَتح الولايةُ بلفظ «رُسم» ثم يذكر أمرُ الولاية والمولَّى ويوضح ، ثم يقال «وسبيل كلِّ واقفٍ عليه»)

فمن المكتتَب لأرباب السيوف من هذه المرتبة نسخة مرسوم بشدّ ناحيةٍ، وهى :

رُسم ـ أعلىٰ الله المراسيمَ وأدام نَفَاذها ـ بالإنعام علىٰ الأمير فلان بمـا يُفيض عليه مَلابِسَ الاصطفاءِ ويُضْفيها ، ويُسْمى لقدمه فى الثبات مَدَارج الارتقاء ويُسْنيها ؛ ويُعْرِب عن اختصاصه بالمنْزلة التى يفْضُل بها علىٰ مُبَاريه ، واستخلاصه للرتبَة التى يفوتُ بها شأوَ مُجَاريه؛ ويؤهِّله لثغْرِ حارِمِ المحروس وشَدِّه، وتولِّيه أمورَه بكفايته ونَهْضته وحَزَامته وجِدّه ؛ وقد أمَرْنا بتســليم قلعةِ حارِمٍ وأعمالهـا وسائرِ مايختص بها ويُضافُ إليها من ضِيَاعها ومواضِعها إليه، والتعويلِ فى وِلَايتها وتعميرِها وتثْميرها

---

(١) كذا فى غير نسخة ولا معنى له وقد تقدّم لهذا المقام أمثال ونظائر يفهم منها المقصود .

عليه؛ بموجَب ما يُفَصَّل من الديوان علىٰ ما كان جاريًا فى الإقطاع المحروس للحال، وسبيلُ أهــلِ الديوان ـ أيدهم الله ـ العملُ بالأمر العالى و بمقتضاه، والآعتمادُ علىٰ التوقيع الأشرف به، إن شاء الله تعالىٰ .

***

ومن ذلك نسخة مرسوم بشَدّ وقف، وهى :

رُسِم ـ أعلى اللهُ المراسيمَ وأدام نَفَاذَها ـ بالتعويل على الأمير فلان فى تولية الوقوف بالجامع المعمور بحَلَب المحروسة، والبِيمارَسْتَان، والمساجدِ، والمشاهد بالأماكن والمواضع، وظاهرِها و باطنِها وأعمالها، وتفويضِها إليه، والآعتمادِ فى جميعها عليه؛ سُكونًا إلىٰ نَهْضته وكِفَايته، ووُثُوقا بخِبْرته ومعرفته وعلما بنزاهتِه، وسَدَاده وأمانتِه؛ وذلك لآستقبال سنة سبع وثمانين وخَمْسمائة .

فليتولَّ ذلك بِكفاية كافيه، ونهضةٍ وافيه، وهِمَّة لأدواء الأحوالِ شافيَه؛ ونظر تامّ، لشَمْل المصالح ضامّ، وتدبيرٍ جميل فى كل خاصّ من أسباب عمله وعامّ؛ وتقوًى لله عزّ وجل تَقْوىٰ بها يَدُه، ويَضِحُ بالآستقامة علىٰ سَننِها جَدَدُه؛ ناظرا فى الوُقُوف ومصارِفِها، وتَتَبُّع شُروط واقِفِها؛ بكل ما يعُود بتعمير أعمالها، وتثمير أموالها، وتدبيرِ أحوالها؛ مطالبًا بحساب مَنْ تقدّمه وتحقيق مبالغه تكميلًا وإضافة، وآحتسابًا وسياقه؛ ولْيطلُب شواهده، ولْيَبْنِ على الصحة قواعِدَه، وليلتمس ما يَصِح من بواقيه من جهاتها، وليكْشِفْ بما يوضِّحه من سبُل الأمانة وجوهَ شُبُهاتها؛ وقد أَذِن له فى آستخدام من يراه من النُّوّاب والمتصرفين والمشارِفين، والوكلاء والمستخْدَمين؛ علىٰ ما جرتْ به العاده، من غير زياده . وسبيل النوّاب ـ أيدهم الله ـ العملُ بالأمر العالى و بمقتضاه، والآعتمادُ علىٰ العلامة الشريفة، إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبة الرابعة

(أن يفتتح بلفظ : «إن أحق» أو «إن أولىٰ» أو «من كانت صفته كذا» وما أشبه ذلك)

فمن ذلك نسخة منشور بنقابة الأشراف، وهى :

مَنْ كانتْ أوصافُه شائعةً بين الأنام، وصُحُف فضائله منشورةً لدىٰ الخاصّ والعام، مع شرفِ نَسَبٍ شامخ الأعلام، وتُقًى فَخَر به علىٰ الأنام، وعِلْمٍ يُجْلىٰ به صَدَأُ الأفهام، وعِفَّةٍ مرائرُها محكمةُ الإبرام ـ كان جَديرا بإفاضة سِجَال النِّعم عليه، وقَمِينا بإرسال سَيْل المَوَاهب إليه .

ولما كان الشيخ فلان متصفًا بهذه الصفات الجميله، ومتخَصِّصا بمزاياها الجليله؛ وضاربًا فيها بالسَّهْم المُعَلّىٰ، ونازلًا منها فى الشَّرَف الأعلىٰ، ومتقَمِّصا ثوبَ الإخلاص والصَّفاء، ومتَّشحا بوِشَاح العِفَّة والوَلاء ـ آختصصناه بزيادةِ التقديم والآجتباء، وحَبَوْناه بوُفُور الكرامة والآصطفاء، وأجريْناه علىٰ مستَمِرّ رَسْمه بالرِّعاية علىٰ ذُرِّيَّة أهل العَباء، حسَبَ عادتِه المستقرّةِ إلىٰ آخر عهدِ مَنْ كانت الإيالَةُ إليه وإلىٰ رحمة الله مضىٰ : ليَسيرَ فيهم بكتاب الله العظيم وسنّة رسوله، ويسلُكَ جَدَدَ الحق الذى يُوصِّله من الزُّلْفىٰ إلىٰ أقصىٰ مُناه وسُوله؛ ويحُضَّهم علىٰ تلاوة القُرءان، ومعرفةِ مايصْلُح للأديان . وليسوِّ فى الحكم بين الضعيف فيهم والقوىّ، ويَعُمَّ بالإنصاف الفقيرَ والغنىّ . ولْيُحْسِنْ إلىٰ مُحسِنهم، ولْيَجْرِ علىٰ فضْله لمُسيئهم؛ بعد أن يقدّم إليه زَجْرا ووَعيدا، ويُوسِعَه إنذارا وتهديدا؛ فإن وَعىٰ وآرْعَوىٰ وإلا سلَّط عليه أسبابَ الأذىٰ، وتولّاه بما يستحِقُّه من الجزا؛ ويعيدُه إلىٰ حالة الآستقامة والآستوا، ويكُفُّه عن دواعى الهوىٰ . ومَنْ وجبَ عليه حدّ أقامه فيه، وبادَرَ إلىٰ آعتماده وتوخِّيه، حسَبَ مايوجبُه حكم الشرع ويقتضيه .

وليكن رءوفًا بهم ما ٱستقاموا، ومنتقمًا منهم ما ٱعوجّوا ومالوا؛ وإن وجب على أحدهم حقٌّ لمليّ أو دنيّ، ٱستخلصه منه ولم يمنعه تعلّقه بنسبٍ شريف عليّ؛ وإن ٱفترىٰ منهم مفترٍ علىٰ أحد من الملل، قابله عليه بما يزجُره عن قبيح العمل: فإنّ الناس فى دار الإسلام ومَنْ هو تحت الذِّمام سواسية وأقربهم إلىٰ الله تعالىٰ من كانتْ سيرتُه فى الإسلام رضيّه، وطويّتُه فى الإيمان خالصةً نقيّه؛ ومَنْ حكم عليه حاكمٌ من الحُكّام، بحقٍّ ثبت عنده بالبيّنة العادلة أو الإعلام، ٱنتزعه منه أو سجنه عليه، إلىٰ أن يُرْضِى خصمَه أو يردّ أمرَه إلىٰ الحاكم ويفوّضه إليه.

ولْيحْرُس أنسابهم بإثبات أُصُولها، وتحقيق فُروعها؛ ومَن رام دُخولًا فيه بدَعْوىٰ يُبْطِل فيها نقّب عن كَشْف حاله، وإظهار مُحَاله؛ وجازاه بما يستحقُّه أمثالُه، ويرتدعُ فيما بعْدُ مثالُه: ليخلُص هذا النسبُ الكريم، من دَعْوىٰ المجهول، وٱندماجه فى أُسْرة الرسول؛ عليه أفضلُ الصلاة والتسليم. ويمنعُ من ٱتصال أيِّم من الأُسْرة إلىٰ عاميّ، ولا يُفَسِّح أن يُعْقَد عليها عَقْد إلا لِكُفْءٍ مليّ: ليبرأَ هذا المجدُ الشريفُ من التكدير، ولا تُزَيِّفَه شوائبُ التغيير.

ولينظُرْ فى الوقوف علىٰ المَشَاهد والذُّرِّيّه، نظرا يحمَدُه عليه مَنْ يعْلَمُه من البَرِيّه، ويُحْظيه بالثواب عند مالكِ المَشِيّه. ويبتدئ بعمارة أُصُولها وٱستكمال فُرُوعها، وقسمة مَغَلّها علىٰ ما تضمنه شرط الواقفين لها. ولْيحتَطْ علىٰ النُّذور، وينفقْها علىٰ عادتها فى المصالح والجُمْهور؛ عالمًا أنّ الله تعالىٰ سائلُه عمّا توخّاه فى جميع الأمور، وأنه لا يخفىٰ عليه كلُّ خفيّ مستور. قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾.

وأَذِنَّا له أن يستنيبَ عنــه فى حال حَيَاته، وبعدَ وفَاته ـ فَسَّح الله له فى المُهَل، وخَوّله صالحَ العَمَل ـ الأرشدَ من بَنِيه، ومَنْ يختاره لهذا الأمر وله يَرتَضِيه . وقد أنعمنا عليه بإجراء ما كان باسمه مســتمرا إلىٰ الآن، وأضفْنا إليه ما يُعينه على النظر فى مصالح الأُسرة أدام الله له عُلُوّ الشان؛ من تمليكٍ وإدْرارٍ وتيســير، وجعلناه له مســتَمِرّا، وعليه مستقِرّا؛ ولمن بعده من نَسْله والأعقابِ، علىٰ توالى الأزمان والأحقاب؛ وحظَرْنا تغييرَه وفسْخَه، وتبديله ونَسْخه : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْــدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَــا إِثْمُــهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وهو معــيَّن من ديوان الآستيفاءِ المعمور، بهذا المنشور المسْطُور، بالأمر العالى أعلاه الله وأمضاه، عَمَّا كان قديما، وما أُنْعِم عليــه به آخرا، وهو القديمُ الذى كان له وشهد به الديوان المعــمُور، وهو الإقطاع من ناحيــةِ كذا، ويُجرىٰ علىٰ عادته فى إطلاق ما قُرِّر له من ناحيــة كذا بشهادة الديوان الفلانى، والمجدَّد الذى أُنْعِم به عليه لآســتقبال سنة سبع وسبعين وما بعدها. وسبيلُ كافَّة الأُسْرة الطالبيِّين بمدينة كذا الآنقيادُ إلىٰ تبَاعته، والآمتثال لإشارَتِه، والتوفُّر على إجلاله وكرامتــه؛ فإنه زعيمُهم، ومقدَّمُهم ورئيسُهم؛ ومن خالفه منهــم قابلناه، وبأليم العِقاب جازَيْناه، والآعتمادُ فى ذٰلك أجمعَ علىٰ التوقيــع الأشرف العالى أعلاه الله، والعَلائم الديوانيَّة فيه، إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه نُسخة بولاية الشرقية، وهى :

لَمَّــا كانتِ الأعمالُ الشرقيَّةُ أجدَرَ البلادِ بأكيد الآهتمام وأخْلَق، وأَوْلاها بإضْفاء سِرْبالِ الآهتبال الذى لا يُخْلِقُ إذا رَثَّ سِوَاه وأخْلَقَ؛ وأقْمَنَهــا بحُسن نظرٍ يُرسَــل لرســولٍ علىِّ الرسم الأعنَّــةَ فى إدامة نَضْرة العمارة عليها ويُطْلق، وأحَقَّها بأن يُبْرَم لها

سَبَبُ تفقُّدٍ لا يلتصق به رَهْن ولا يَغْلَق ؛ وأَحْراها باعتناءٍ يقضى لأمرها بالآطِّراد ، وأَوْلاها بتعهُّد يجعل مصالح الشُّئُون آلفةً للثَّواء بها والمُقَام عائفةً للنشوز عنها والشِّراد ، : لأنها بابُ الشام ، وإليها تَرِدُ القوافِلُ المتردِّدةُ منه على مَرّ الأيَّام ؛ ومنها يستَكْشِف الأخبار ويستنهض الطوالع والمتخبِّرين ، وبمواصلة التفقُّد تعْلَم الأحوالُ الطارئة فى كل وقْت وحِين ؛ فتجب المبالغةُ فى حفظ طُرُقاتها ومياهها ، وأن تصرف الهِممُ إلىٰ ضبط أحوالها ، وعامة أنقابها وآتِّجاهها ، ويوضع بناء الحزم فى صون أطرافها علىٰ أثبت قاعدة ويُؤسَّس ، ويبالَغ فى إذكاء العيون علىٰ كل طارق يتخبَّرُ للعدوّ الملعون ويتجَسَّس ؛ وكنت أيُّها الأمير من المشهورين بالشجاعة والإقدام ، وذَوِى الكفاية المُوفِى ثراؤُهم فيها [علىٰ] عارض الإعدام ، وما زلْتَ معدودًا من خاص الأتراك الأعيان سبهم(؟) ، المقصِّر مجاروهم إلىٰ غاية البَسَالة عن اللَّحاق بهم والإدراك وقد تقدّمت ولايتُك هذه الأعمالَ فقصَدْت منها قصدًا سَديدا ، وألحَفْت الرعايا ظِلًّا من الأَمَنة مديدا ــ خرج الأمر بإيداع هذا المنشور ما أُنْعِم به عليك من إعادتك إلىٰ وِلَايتها ، فبالغ فى آستيضاح الأنباء وكشْفِها ، ورفع الْوَنْيَة فى ذٰلك وصَرْفِها ؛ ووَكِّل به عَزْمة لا تُلِمُّ سِنَةٌ بطَرْفها ، وآنتهِ فيه إلىٰ غايةٍ تَضِيق سَعةُ القول بوَصْفها ؛ وتابِع فى تسيير الطلائع ونَدْبِها ، وعوِّل من كلِّ قبيلة من العُرْبان المستنهَضين علىٰ شَهْمِها ونَدْبِها ؛ وآجتهِد فى حفظ الطُّرُقات والمَنَاهل ، وآستنهِض للتحرُّز عليها من هو عالِمٌ بها غيرُ جاهل ؛ وتحفَّظ من خَلَل يتطرّق ــ والعياذ بالله ــ علىٰ البِلاد وخَلَل يتخَلَّلها ، وآنتض لهذه المهمات بصارِمِ حدٍّ تَسْلم مَضارِبُه من عَجْز يفلُّها ؛ ولا تُبْقِ ممكنا فى إنفاذ المتخَبِّرين ، وإرسال من يُغِير علىٰ بلاد العدُوّ من الخَبِيرين ، بما [أنّ] هذه سبيلُ المتدرِّبين ، وألْزِم أربابَ الحدود من جميع الأقطار حِراسةَ حُدُودهم ، وخُذْهم باستِنفاد وُسْعِهم فى الآحتياط وآستِفْراغ مجهُودهم ؛ وطالِعْ

بما يُورَد قِبَلك، وأنّه ما يُزيح بسُرْعة إجابتك عنه فى الخِدْمة عِلّلك؛ فاعلم هذا واْعمل به، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة بولاية المُرْتاحية، وهى :

خرج الأمر بكَتْب هذا المنشور وتضمينه : إن مَنْ أظهر خُلاصة جَوْهره السَّبْك، وآرتفع فى إشكائه بالإنصاف عن كل شائك الشَّكّ، وحصل عنده [من] الخلال الزكيّة نظْمٌ لا يَنْحَلّ وعَقْد لا ينْفَكّ، وأوفىٰ علىٰ التقدير والظنّ فى التدبير المفَرِّج به عن الرعيّة الضَّنْك ـ آستوجب أن تُسنَد إليه حمايتُهم، وتجعلَ إليه كِلاءتُهم .

ولمَّا كنتَ أيها الأميرُ ممن أُحْمِد عند نَجْز عَزْمه، وتجريب نصل حَزْمه؛ وآعتبار فَصْل مَقالته، وآختبار أصلِ أصالته؛ وشُكر آستمراره علىٰ الآتصاف بمَحْض الولاء، وآستدْراره أخلافَ غُرَرِ الآلاء، وآستثماره أصنافَ جَنَى الثَّناء، وآستقراره أكناف وهْيّ الآعتناء؛ ولم تزلْ فى رِفْعتك وَجيها، وما بَرِح جميلُ الرأى يُديم بَعْثًا لتُحَف الإحسان نحوَك وتوجيها؛ وما آنفكّتْ مجاهَدتُك مجاهِدةً فى مهامِّ إقدام تَنْويها، وشجاعتُك ملاقِيةً علىٰ الكفّار كُلَّ كِفاح يلْقَوْن منه كَلًّا ثقيلا ويومًا كريها؛ ـ أُودِع هذا المنشور ما رُسم من آستخدامك فى ولاية الأعمال المُرتاحيَّة .

فباشِرْها معتمدا علىٰ تقوىٰ الله سبحانَه التى تَقْوىٰ بها أسبابُ توفيقك وتنالُه، وتسْلَمُ أمورُ مباشرتك من خَلَل يكدِّر آستبشارَك وينَكِّد . وآعتمِد العدلَ علىٰ من تشتمل عليه هذه الولايةُ وتَحْويه، وبالِغْ فيما يزيل عنهم الحَيْفَ ويَزْويه؛ وآقْصِدْ ما يَقْضِى لسِرْبهم بالتأمين، ويبلِّغهم من تحصينِ أوطانهم غايةَ التأميل . وآجعَلْ أيدى المفْسِدين مكفوفةً عن كافّتهم، ووجُوهَ المعتدين مصروفةً عن إخافتهم؛

وتطلَّب الأشرار ، وتَتَبَّع الدُّعَّار ، ومَنْ ظَفِرت به منهم فلا تَكُن عن التنكيل به ناكِلا ، ولا تُقَصِّر فى الحَوْطة عليه والمطالعة به عاجلا . وعامل النائبَ فى الحُكْم العزيز بإنهاضه ، وصَوْنِ مَدِيد باعه فى تنفيذ الأحكام عن آنقباضه ، وٱعْضُدْه فى إنفاذِ قضاياه ، وٱختصاصه بإكرامٍ يقْبِل عليه مُطْلَقَ مُحيَّاه . وشُدَّ من الضامن فى آستِيداء حقُوق الديوان وٱستِنْطافها علىٰ أحسَن حال من غير خُرُوج عن الضرائب المستقِرّه ، وعوائد العَدْل المستَمِرّه . وتحرّزْ أن يكونَ لمُناهَضَة العدُوّ طُروقٌ إلىٰ ناحيتك أوِ آنتِياب ، وشَمِّر للتحَفُّظ من مكايِدِهم تشميرًا يزُول عن حقيقته عارضُ الآرْتياب ، ولا تُبْقِ شيئًا يمكِّن لأدلى وِلايتك قواعِدَ الأمَنةِ منهم ، وتبتَّلْ لِوِقايتهم أذاهم تبتُّلَ من لا ينامُ عنهم . وطالِعْ بما يُحْتاجُ إلىٰ علمه من جهتك إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة بولاية السَّمنُّوديَّة ، وهى :

إنَّ أوْلىٰ مَن وَلِيَ الأعمال ، وتعلَّقت بكفايَتِه الآمال ، وعُدِقَت به المُهِمَّات ، وأُسْنِدت إليه الوِلَايات ، مَنْ نَطَقت بمَعْدَلَته الألْسِنه ، وٱنتفَتْ عن عيْنِ خِبْرَته السِّنَه ، وكان حسَنَ السياسة لرعِيَّته ، كثيرَ العِمارَة مدّة تولِيَته ، شَهْما فى آستِخْراج الحقُوق من جِهاتها ، صارمًا فى رَدْع المجرمين عن زَلَّات النفْس وهَفَواتها ، حَسَنةً سِيرتُه ، خالصة مناصَحتُه وسَرِيرتُه .

ولمَّا كنتَ أيها الأمير فلان ـ أدام الله تأييدَك وتسديدَك ، وحراستَك وتمهيدَك ـ أنتَ المتوَشِّحَ بهذه الصِّفات الحِسان ، المتَّصِفَ بما تقدّم من الشَّرح والبَيَان ، الذى نطقَتْ شمائلُك بشَهامَتِك ، وشهِدَت مخايِلُك بنَباهتك ـ خرج الأمر الفلانى بأن تتولَّى مدينةَ سَمَنُّود وضواحيها ، وما هو معروفٌ بها ومنسُوبٌ إليها ، بشرط بَسْط

العدْل ونَشْره، و إعباقِ عَرْف الحق ونَشْره؛ وأن تُخَفِّف الوطأة عنهم وتفْعلَ ما هو أَوْلىٰ، وتعْلَمَ أنك تُسْأل من الله تعالىٰ فى الأخرىٰ ومنّا فى الأُولىٰ؛ وأن تَصونَ الرعايا وتجتَلِبَ لنا أدْعيتهم، وتعامِلَهم بما يُطيِّب نُفوسَهم ويبلِّغهم بُغْيتَهم؛ حتّى يتساوىٰ فى الحق ضعيفُهم وقَوِيُّهم، ورشِيدُهم وغَوِيُّهم، ومَلِيُّهم ودَنِيُّهم؛ وأن لا تُقيم الحدود علىٰ مَنْ وجبتْ عليه إلا بمقتضىٰ الشرع الشريف، والعدْلِ المُنيف؛ وأن تَشُدّ من نُوّاب الحكم العزيز، وتفْعَل فى ذٰلك فِعلَ المهذَّب ذى التمييز؛ وأن تَحْسُر عن ساعد الاجتهاد فى الجمع بينَ استِخراج جميع الحقوق الديوانية والعِمَاره، وتجعلَ تقوى الله هى البِطانةُ لك والظِّهاره؛ وأن تبذُل النهضة فى استخراج الأموال، وتحصيلِ الغِلال علىٰ التّمام والكَمال؛ بحيثُ لايتأخّر منها الدّرْهم الفَرْد ولا القَدَح الواحد، وتفْعلَ فى ذٰلك فعلَ المُشْفِق المشمِّر الجاهد؛ وأن تُديم مباشرَتك للأقْصاب فى حال بَرْشِها وزراعتها وتربيتها وحملِها، واعتصارِها وطَبْخها، وتزكيةِ أثمارها؛ بحيث لاتكل الأمرَ فى شيءٍ من ذٰلك إلىٰ غير ذى ذِمّة بمُفْرده، ولا إلىٰ من ليس بذى خِبْرة لايعلم مُشْتِق التصرُّف من مُسْعِده. وقد جعلنا لك النظرَ علىٰ جميع النَّواحى الجارِيَة فى ديواننا بالوجه البحرىّ خاصةً لتنظُر فى أمرها، وتزجُر أهلَ الجنايات بها؛ وتفعل فيها كلَّ مايحمَدُ به الأثَر، ويَطِيب بسَماعه الخَبَر.

فتقلَّدْ ماقُلِّدت، وقُمْ حقَّ القيام بما إليه نُدِبت؛ واعملْ فيه بتقوَى الله فى سِرِّك وجَهْرك، وقدِّم الخوفَ من الله علىٰ جميع ما تأتيه أو تَذَره من أمرك؛ وتَسلَّمْه شاكرا لما أسدَيْناه إليك، متمسِّكا بما أوجَبْناه عليك؛ فإنَّ الشكر يُوجب مزيدَك، ويُكَثِّر عَديدَك.

وهذه نسخة بولاية النَّسْتراويّة، وهى :

مِن عادتنا فى التدبير وشِيَمِنا، وسُنَّتِنا فى السياسة وسيرتِنا، إسباغُ المَوَاهِب والنِّعم، وتنقيلُ عبيدنا فى مَراتب الخِدَم، آسترْشادا بأسلافنا المُلُوك وآقْتِداء، وآستضاءةً بأنوارهم المشرِقَة وآهتِدَاء .

ولمَّا كنتَ أيها الأمير ممن عُرِفَتْ بسالتُه ، وآشتهرت شجاعتُه وصرامتُه ، وآستَحقَّ أن يُلْحَظ بعين الرِّعايه، وأن يشرَّف بالآرتضاء للتعويل عليه فى وِلَايه، ـ رأينا ـ وبالله توفيقُنا ـ آستخدَامَك فى وِلاية الأعمال النَّسْتراويَّة ، وخرج أمرُنا إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السِّجلّ بتقليدك ذٰلك، وتضمينِه ماتعتَمِد عليه ، وتنتهى إلى المُمَثَّل لك فيه .

فتقلَّدْ مَاقُلِّدتَه عاملا بتقوى الله فيما تُسِرُّه وتُعْلِنُـه ، معتمِدًا فيها غايةَ مايستطيعُه المكلَّف ونهايةَ ما يمكنُه، فاللهُ تعالىٰ يقول إرشادًا للمُؤمنين وتفهيما : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . وساوِ بين القوىّ من هذه الولاية والضعيف، وَلَا تَجْعَلْ فى الحقِّ فرقًا بين المشروف والشريف، وآمْدُدْ علىٰ كافَّتهم رُواقَ السُّكون والأَمنَه ، وأَجْرِهم فى المَعْدَلة علىٰ العادة الجميلةِ الحَسَنه ، وآفعلْ فى إقامة الحُدود علىٰ من تجب عليه ما يُوجبه كتابُ الله الكريم ، وتقْضِى به سنَّةُ نبيه محمد عليه أفضلُ الصلاة والتسليم ، وآدأَب فى حِفْظ السُّبُل والمَسَالك، وآجتهِدْ فى ذٰلك الآجتهادَ الذى يجب علىٰ أنْظارك وأمثالك، ومتىٰ ظفِرْت بمن يُؤذى مسافرا، أو يخيف واردًا أو صادرا ، فطالِعْ بحاله يُمثَّل لك فى التمثيل بما تعتمده ، وتُؤمَر فى شأنه بما تنتهى

إليه وتقْصِده . ووراعِ المستخْدَمين علىٰ الحكم والدعوة فهما يتولَّيَان ما بإعزازه يقومُ مَنَارُ الإســلام ، وتجرى أمورُ الشريعــة علىٰ أجمل وَضْع وأحسَن نِظام . وخُذ المستخْدَمين فى الأموال الدِّيوانية بالاجتهاد فى العِماره ، وحمْلِ المعامَلِين علىٰ ما تُوجبه المَعْــدَلة والحرص علىٰ ماوفَّر الارتفاع ، وحَمَاه من أســباب التفريط والضَّــياع ؛ واستنهِض الرجال المستخْدَمين معك فيما ترى نَدْبَهم إليــه ، واستنهاضَهم فيــه ؛ فاعلَمْ هذا واعملْ به ، إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسخة بولاية الإسكندرية ، وهى :

اهتمامُنا بما حاطَ ثغْرَ الإسكندرية ـ حماه اللهُ تعالىٰ وحصَّنَه ، ومنحه أتمَّ حظ التفقُّد وأكمَله وأجمَل وضْع التعهُّدِ وأحسَنَه ؛ وقَوَّىٰ سببَ استقامة شئُونه واتِّساقِ أموره ومكَّنه ، ومدّ ظِلَّ الدَّعَة والسكون علىٰ كافَّة من تَدَيَّره وسَكَنَه ؛ وحَفظ عليــه نِظام النَّضاره ، وأماط عنــه مَكْروهَ الأحوال الضاره ؛ وأنامَ أهْلَه علىٰ مَضْجَع الأمْنِ ومِهــادِه ، وحَكَم بإحلالهم نُجودَ الاتحاد علىٰ المَصَــالح وإجلالهم عن وِهَاده ؛ وحَمىٰ سَــوامَ أموالهم من مَشْروبِ وِرْدٍ أُجاجٍ ومَرْعىٰ نبتٍ وخيم ، وحَبَاهم من رُسوم الإحسان وعوائده مالا ينطِقُ لسانٌ علىٰ زوائده بترْخِيم ؛ ومَلا آمالَ الأعداء عن التطرُّق إليه إخفاقًا ، وردَّ نُصولَ سِهام مكايِدِهم عنه علىٰ ما عُهِد من فضل الله سبحانه أفواقا ـ إذْ كان من أجَلِّ الثغور الإســلامية أوزارًا ، وأسبقها إلىٰ غاية التفضــيل ابتِدارا ، وأكثرَها بمن حَوَاه من صــدور الدِّين وأئمة المسلمين افتخارا ، وأفضلِها مَحَلًّا ولم يزل مَفْزَع السُّفَّار من كل جِهةٍ رُسُلا وتِجَارا ـ أوجب أن نُســند ولايتَه ، ونَرُدَّ كلاءتَهُ ، إلىٰ مَنْ يجرى فى التدبير علىٰ حكم سياســته المعلوم ؛ الحَسَنّ

الأخذ بيَدِ المظلوم ، ويقُومُ بحسن التفويض والائتمان ، ويعطى بَدَل السَّلامة من حقوق انتقامه عهدةَ الأمان ؛ ويسلكُ فيما يُعدَق به طريقَ السَّـداد ويلزم نَهْجه ، ولا يمكنُ أن يكونَ له علىٰ غير الصـواب مَعَاجٌ ولا عَرْجه ؛ ويأخذُ فى كل أحواله بوَثائِق الحَزْم ، وتُحِلُّ له أعمالُه الصالحةُ من مَثْوىٰ المنازل الرفيعة ما هو علىٰ غيره من الحرام الجَزْم .

ولمـا كان الأميرُ المعنىُّ بهذا الوصفِ الواضح البيانِ ، المتكافئةَ فى ذِكر مَناقِبه شهادةُ السَّماعَ والعِيان ؛ الكالئَ ماينُاطُ به بقَلْبٍ ألمعِيٍّ وطَرْف يَقْظان ، الحـالَّ من الوَرَع فى أسمىٰ مكان وأعلىٰ مَظَان ؛ الجامعَ فى إقامة شرع الإخلاص بينَ الفرائض والسُّنَن ، الموفيةَ عزائمُه علىٰ مَضارِب المُهَنَّدة التى لا تَقِى منها ما نعاتُ الجُنَن ؛ الفائحَ من نبثِه ما تُؤْثَر صِحَاحُ الأنباء عن عَليــل نَسيمه ، الجديرَ بمـا يُزَفُّ إليـه من عقائِل جزيل الإنعام وجَسيمه ؛ وقد أبان فى ولايتـهِ بمطابقته بينَ شِـدّته ولِينه ، وإقامةِ مَنَـار الإنصاف المُعرِب عن امتدادِ باعه فى الحرب وانقباضِ يَمِينه ؛ وإروائه كافَّةَ أهلها من نَمِير العون علىٰ استتبابِ الأمورِ ومَعِينه ـ خرج أمرُ الملك العادل بتقليده ولايةَ ثغْر الإسكندرية حماه الله تعالىٰ والبحيرة .

فليتقلَّدْ ماقلَّده إيَّاه ، ويباشِرْه منشرحا صدرُه متهلِّلا مُحَيَّاه ؛ وليعتمدْ علىٰ تقوىٰ الله التى هى خير عَتَاد ، وأفضلُ ما اعتُمِد عليه فى الحياة الدُّنيا ويومَ يَقُومُ الأَشْهاد ؛ وهى نجاةُ أهل اليقين ، وفوزُ المتقين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يٰأيُّها الَّذين آمنُوا اتَّقُوا اللّهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين ﴾ .

ولْيبالِـغْ فى نَشْر رايةِ العدل ومَدِّ جَنَاحه ، وتعْفِيَة أذىٰ الجَوْر واجْتياحه ؛ ولْيشْمَلِ الصغيرَ والكبيرَ من أهـل هذه الولايةِ بِرِدَاء النَّصَفه ، ويعاملْهم بالجميـل المُوفى علىٰ

الصِّفَه، ويُقِم الحُدُودَ علىٰ مستوجبيها، وينتهِ إلىٰ الغاية فى تجنُّب إضاعتها وتوقِّيها؛ وليدُلَّ علىٰ المفسدين عينَ من يتتبَّع وُقُوعَهم فى قبضتِه ويتطلَّب، ويقابِلْ كلًّا منهم بما يرىٰ متعقِّبا بإيماض بَرْق المُعاقبة غيرَ خُلَّب؛ ولا يبْقِ مُمْكِنا فى التنقيب علىٰ مرتكبِي الآثام، والمرتكنين علىٰ سَفْك الدم الحرام؛ ومَنْ ظَفِر به منهم فليُحَكِّمْ فيه شَبَا ظُفُر الانتقام ونابِه، ويقابِلْه من الرَّدْع بما يُؤَمِّن من معاودَة عادات التعدِّى علىٰ كل حَقِيرونابِه. ولْيجْرِ علىٰ عادته فيما يَسِّير عنه أحسَنَ السُّمْعه، ويشهَدُ له بالتنزُّه عن خَبِيث الطُّعْمة وقبيح الطَّمْعه. ويشدّ من القاضى متولِّى الحكم فيما يُصْدِره ويُورِده، ويَحُلُّه ويعقِده، ويُمْضيه من الأحكام الشرعيه، ويعتمده فى القَضايا بما لَدَيْه من الألمعيَّه. ويعاضِد المستخْدَمين فى الأموال معاضدة تُثَمِّره، وتُنَمِّى الارتفاعَ وتُوَفِّره، وتَعُودُ علىٰ الديوان بالحظِّ الوافى، وتُعْرِب عن كَوْنه بمثل هـذه الولاية نِعْمَ الكُفْءُ الكافى. ويعامِل التُّجَّار علىٰ تبايُنِ بُلْدانهم، واختلاف ألسنتهم وألوانِهم، معاملةً يجْمل أثَرُها ويحْسُن؛ ويتلقَّهم ببِشْر وطلاقةٍ تَنْطِق بشُكْر استبْشارِهم بها الألْسُن؛ ويحفَظْهم فى أنفسهم وبضائعهم، ويستنفِد الوُسْع فى دَفْع مَضارِّهم وروائِعهم. ويعتمِدْ بَعْث رجاله علىٰ الاستعداد للجهاد، والتأهب لِقِراع الأضْداد. وينْتهِ إلىٰ الغاية فيما يُزِيل منهم اعتذارًا ويُزِيح اعتلالا، ويوجِبُ لهم الاقتدارَ علىٰ مكافَحَة عَدُوٍّ إن طرق الثَّغْر والعياذُ بالله تعالىٰ.

* * *

وهذه نسخة بولاية بَرْقَة، وهى:

مِن حقِّ الأطراف المتناهية فى بُعْد أقْطارِها، والبلادِ الشاسعةِ عن ثَواء المَمْلكة ومَحَلِّ استقرارها، التى انتظمَتْ فى سِلْك أعمال المملكة الناصريَّة وانخرطَتْ،

وٱستدركَتْ مُعِدّاتُها لمن حوَتْه فوائتَ الفوائد التى سلَفتْ وفَرطتْ ـ أن يُديم أكِيدُ الاهتمام لها التحصِينَ والتحْسين، ولا يُغبَّ أهلَها مايغشاهم من الملاحَظَات مصْبِحين ومُمْسين ؛ وتُزْجِىَ لهـا سحائبُ كَرَم التعهُّد عِهادَه غَدَقا ، ويُعْمِلَ الأولياءُ فى حياطتها من الغُمود ألسِـنةً ويُذْكُون دُونَها من القنَا حَدَقا ؛ ويفوّض أمورَهم إلىٰ مَنْ تخِفُّ علىٰ يده كُلْفَتهم، وتجتمعُ بحُسْن سِيرته أُلْفَتُهم؛ ويشتَمِل مِن عِنايته عليهم ٱشتمالَ الصدَفة علىٰ القُلوب، وتنيلُهم مهابتُه من كَفّ عَدْوىٰ العِدا كلَّ مؤْثَر مطلوب .

ولما كنتَ أيُّهـا الأمير من أميز سالِكى هذه الطرائق ، وأمثلِ فُرْسان الحُروب وحُمَاة الحقائق ؛ وأشجَعِ المجاهدين فى الله حَقَّ جِهاده ، وأجْسَرِهم علىٰ إصلاء الشِّرك ضِرامَ فتكٍ لايُخْشىٰ إصلادُ زِنَاده؛ ولك السياسةُ التى تُرتِّب بينَ الأُسُود والظِّباءِ ٱصطحابا، والمخالَصةُ التى لاتُناجىٰ إذا وُصِفَتْ بالتغالى فيها ولا تُحابىٰ ـ خرج أمر الملك العادلِ بكَتْب هـذا المنشورِ لك بمـا أنعَمَ عليك بولايتِه وإقطاعِه : وهو بَرْقةُ بجميع أعمالها وحُقُوقها : من العقَبة الصُّغرىٰ وإلىٰ آخر حدُودها، وبمـا أَمَر به كافّةَ العُرْبان المقيمين بهذه البلاد، وجميعَ أهلها من حاضرٍ وباد : من الإعلان لك بشِعَار الطاعه، وصَوْنِ ما يلزَمُهم أداؤه إليك من فروض النُّصْح عن الإضاعه ؛ وأن يبذُلُوا فى موافقتك غايةَ الاجتهاد، ويعتمِدُوا من ٱمتثال مراسِمِك أحسَنَ ٱعتماد؛ ويحذَرُوا من العدول عن أمرك، ويجتنبوا مخالفة نَهْيك وزَجْرك .

فاستمسِكْ بحبل التقوىٰ الفائزِ من يعتصِمُ به ويتعلَّق، وٱستشعِرْ من خيفة الله ما يُشْرِق لأجله عليـك نُورُ الرِّضـوان ويتألَّق، قال الله تعـالىٰ فى كتابه المكنون : ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ . وعامِلْ أهلَ هذه الولايةِ بالإنصاف، وإيَّاك ومكْروهَ العُـدُول عن مَحَجَّة العدل والانحراف؛ وتوقَّ العَسْفَ بهم والحَيْف

عليهم، وٱجتنب الترخيصَ لأصحابك فى مدّ يدِ أحدٍ منهم بعُدْوانٍ إليهم؛ وسِرْ فيهم سَيْرةَ ترؤُفٍ بهم وترفُّق، وجانِبْ سبيلَ من تقوم عنده أسواقُ ٱختلاق المتخرّصين وتَنْفُق؛ ولا تخْرُجْ فى تدبير الأمور عن قانون الشّريعه، ولا تجعلْ لك إلىٰ فَوْز الآخرةِ عن تقديم العمَل الصالح من ذَريعه. وغُلَّ عنهم أيدىَ حاضرى المفسدين وباديهم، وأَبِنْهم بالمهابةِ عن إصرارهم علىٰ المنكرات وتماديهم؛ وَكِلْ بهم عَزْما رادعًا لهم وازِعا، ونَكِّل بمن ظَفِرت به منهم تنكيلا يَزْجُر مَنْ يظَلُّ بحر الضّلال نازِعا. وشُدّ من خُلَفاء الحكم العزيز فى تنفيذ قضاياه، وخُصَّهم من الكرامة بما تقتضيه إقامةُ مَنَاره وإنارةُ مَزَاياه. وٱعتمِدْ ما يُعيد الحقائقَ بوجُوه ناضره، ويردّ الأباطيلَ بصَفْقةٍ خاسره. وراعِ أمورَ التُّجّار والحُجّاج مراعاةً تشمَلُهم فى السفَر والإقامه، وتحميهم من تطرُّقِ ٱستهانةٍ إلىٰ أحد منهم وٱستِضامَه؛ وطالِع بما يتجدّدُ من أحوال خدمتك، وما يُحتاج إلىٰ علمه من جِهَتك؛ إن شاء الله عز وجلّ.

***

وهذه نسخة بولاية الْفَرَما، وهى :

نحنُ لمّا ضاعفَهُ الله لدَيْنَا من إحسانه وأجْزَلَه، وعَدَقه بنا من تدبير أمورِ الخلْق وأسنده إلينا وَوَكَلَه، نعتمد عبيدَنا بتوفير الرِّعاية لهم والإكرام، ونُحافظ علىٰ ما يغْمُرهم من شامل الإفضال وسابغ الإنعام؛ فنقدِّم للخِدَم من خَطَبها بخلوص طاعته، ونؤهِّل للرُّتَب من أبانت شِيَمُه عن خبرته ومناصحته.

ولمّا كنتَ أيُّها الأمير ممن ظهرَتْ مشايعتُه ومُوالاته، وحسُنت فى مكافَحة الأعداء مشاهدُه ومَقَاماتُه، ووضحتْ فى أفعاله دلائلُ النُّصح وبانتْ عليه سِمَاتُه؛ ولك مَسَاعٍ مشكوره، ومواقِفُ مشهوره، ومقاصدُ هى من مآثرك معدودةٌ

وفى فضائلك مذكوره؛ رأينا ـ وبالله توفيقُنا ـ آستخدامَك فى ولاية الفَرَمَا والجِفار (١) : سكونًا إلىٰ رضا مذهَبِك ، وثقةً بانتظام الحـال فيما يُردُّ إليك ويُنـاطُ بك ؛ وخرج أمرُنا إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هـذا السجِلّ بتقليـدك الولايةَ المذكورة وتضمينه مانأمُر به ونَرسُمه ، ممـا يَهْديك إلى الصواب فتَتَمسَّك به وتعكُف عليه وتلْزمُه .

فتقلَّدْ ما قُلِّدْتَه شا كرا علىٰ هذه النُّعمىٰ ، عاملا بطاعة الله تعالىٰ ومراقبته فى السر والنجوىٰ ، وآعتـدَّها زادا إلىٰ الآخرة تطمئن به القـلوبُ وتَقْوىٰ ، قال الله عز من قائل فى كتابه : ﴿ وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ ﴾ . وآعتمِدْ فى أهل هـذه الولاية نَصَفَةً تعمُّهم ومَعْـدِله ، وسُسْهم سياسةً تكون لسـنَّة الخير مؤكِّدة ولسُـنَّة الجوْر مبـدِّله . وماثِلْ فى الحـق بين قَوِيِّهـم وضـعيفِهم ، ولا تجعـل مزيَّةً فى الواجب لشريفِهم علىٰ مشروفِهم ؛ وآنتصِفْ للظلوم من المتعدّى الظالم ، وآعمَـلْ بالكتاب والسـنَّة فى الحـدود التى تُقيمهـا علىٰ ذَوِى الجـرائر والجرائم ؛ وآنتصِبْ لحفظ الطُّرُقات ، وصَوْنِ الصادرين والوارِدين فى جميع الأوقات ؛ ونَكِّل بمن تظفَرُ به من المفسـدين ، وآجعله عِظَةً لأمثاله من الظالمين والمعتَدين ؛ وعاضِدِ النائبَ فى الحكم العزيز معاضدةً تقضى بإعزاز الجانب ، وساعِده مساعدةً تنفُذ بها أحكامُه علىٰ قَضِيَّة الواجب ؛ وكذٰلك مُتولّى الدَّعوة الهاديَّة فهى مِصْباح الزمان ، وبإشادة ذِكره تَقْوىٰ دعائمُ الإيمـان ؛ فاجتهِـدْ فى تمييز متولِّيها وإكرامِـه ، وبلِّغـه فى ذٰلك غايةَ مطلوبه ومَرَامه . وتوفَّر علىٰ الشدّ من المستخْدَمين فى الأموال ، وراعِ [ما يحسن] لدينا فيما تنظُر فيه من الأعمال ؛ وآحرِصْ علىٰ ماعاد بوُفُور ارتفاعها ، وأجْرِ أحوالَها علىٰ أفضل رُسُومها وأوضاعِها ؛ بحيثُ يكونُ العدلُ منبسطا منبَثّا ، والحَيْفُ منحسما مستأْصَلا مجتَثّا ؛ وأجْمِل صحبةَ الرجال المستخْدَمين معك ، وأحسِنْ معاشرتهم مع مطالبتهم بملازمة

(١) كانت عدّة قرى ومن مدنها العريش والورّادة ورَفَح وقطية وقس والزعقا . انظر معجم البلدان .

الخدمه، وآستنهاضهم فى الأمور الشاقّة المهمَّه ؛ فاعلَمْ هذا وآعمل به، وطالِع بما تحتاج إلىٰ المطالعة به؛ إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة بولاية عَسْقلان، وهى :

من شِيَمنا التى غدَتْ للمصالح ضَوا من ، وعلَتْ فكُلُّ متطاول عندها مُتطامن ؛ وهِمَمنا الكافلة [للرعيَّة] بما يُقِرُّ عُيونَها، والقاضية للخاصَّة والعامَّة بما يوجب طُمَأْنينَتَها وسكُونَها ؛ أنعَمْنا النظرَ فيما نَرْعاها به ونسُوسُها، وأعملنا الفِكْرَ فيما يستقيم به أمرُها ويزولُ معه بُوسُها؛ فيقِف [بنا] الآجتهادُ فى ذٰلك علىٰ مَحَجَّة الصواب التى لا ضَلالَ فى سُلُوكها، ويُفْضِى منا الحرصُ إلىٰ غايةٍ لم يبلُغْها أحدٌ من مدبِّرى الدول ومُلُوكها؛ فننتخب لخطير الخِدَم من كان قَئُوما بها مستقِلًّا بآصارها، ونَنْتجب لجليل الرُّتَب الأعيانَ من أمراء دولتنا وأنصارها؛ حِفْظا لما آستُحفِظْناه من أمور العِباد والبِلاد، ورَفْعا لعِماد الصَّلاح وحَسْما لموادِّ الفساد .

ولَمَّا كنتَ أيها الأميرُ من الأولياء الذين صفَتْ فى المخالصة ضَمائِرُهم ، وحسُنَتْ فى الطاعة عقائدُهم وسرائِرُهم؛ ونالُوا من نَبِيه الحظِّ ما أطنبَ الواصفُ فيما يذكره منه ويَرْويه ، وأحمَدُوا المناصحةَ فيما رَقَوْا فيه من دَرَج التنويه؛ وقد آستُكْفِيت مهمّاتٍ من الخِدَم فكَفَيْت هَمَّها وخفَّفت ثِقْلَها ؛ وأُهِّلت لولايات سَنِيَّة فحَمَلْت كَلَّها ، وكنت مستحِقًّا لها وأهلَها؛ فلك مَواتُّ حميدةٌ من حَسَن المقاصد ومشكور المَساعى ، وحُرُمات أكيدةٌ ظلَّتْ علىٰ آصطفائك من أوْفَى البواعث وأقوىٰ الدَّواعى ؛ وكانت مدينةُ عَسْقلانَ ـ حماها الله تعالىٰ ـ ثغرَ الإسلام الذى لا ثَغْرَ له فى الشام سواه ، والرِّباطَ الذى مَنْ كان به فقد نال الثوابَ الجزيلَ وأحرَزه وحَواه؛ وهو فى عُيون الكفار ـ خذَلهم الله ـ نُكْته ، وأسبابُ طَمَعهم فيه منقطعةٌ بمحاماته منبَتَّه ؛ ونحن

نُوفِّرُ آهتمامَنا عليه رعايةً لمكانه المكين ، ونتنصِى الكُفاة لتولّيه توصُّلا إلى النِّكاية فى المشركين ؛ وهو معقِلٌ للسلمين المجاهدين ورِدّ ، ومُجاوروه قوم لُدّ ، وأمرُهم أمْرٌ إدّ ؛ فيجب أن يُرتادَ لضبطه النَّدْبُ الذى لا تُهتَبَل غِرّتُه ، ويُسامَ لحفظه العضْبُ الذى لا تُتّقَى ضرْبَتُه ؛ ويُختار لصونه الشهمُ الذى تقِف على المصالح هِمّته ، وتنفُذ فيها عَزْمتُه ؛

وحين كانتْ هذه الصفاتُ فيك موجُوده ، وظلّت محسوبةً من خلالك معدوده ؛ رأينا ــ وبالله توفيقُنا ــ ماخرج به أمرُنا إلى ديوان الانشاء من كَتْب هذا السجِلّ بتقليدك ولايةَ هذا الثغر وضواحِيه ، وعمله ونواحِيه ؛ ثقةً بمشهور مَضائك ، وعلْماً بإبرارك على نُظَرائك .

فتقلَّد هذه الخدمةَ عارفاً قدْرَ ماخُوّلت منها ، وعاملا بتقْوى الله وخِيفَتِه فى جميع ماتأمُر به وتَنْهى ؛ فإن تقواه الجُنّة الواقيه ، وإن خِيفَته الذّخيرةُ الباقيه ؛ وقد وعد اللهُ المتقين بتيسير الأمور ، وتكفيرِ السيآت وإعظام الأُجُور ؛ قال الله عز من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ . واستعمِل العدلَ فى جميع من يشتمِلُ عليه عمَلُك ، ويجرى عليه تولّيك ونظرُك ؛ وساوِ فى الحق بين الضعيف والقوىّ ، وماثِل فى الحكم بين القريب والقَصِىّ ؛ وإذا ثبت على شريفٍ حقٌّ فلا تُحابِهِ لرُتْبتـه ، وإذا ثبت لوضيع فخذه ممّن لزمه وآستقرّ فى جِهته .

وآعتمد من الأمر بالمعروف والنّهْيِ عن المنكر ما يَستَنْطِق بالثناء عليك ألْسنةَ المادحين ، وينظمُك فيمن عناهم الله تعالى بقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ

(١) فى القاموس وغيره «آنتصيت» أى بالصاد المهملة «الرجل آخترته» فتنبه .

وَيَأْمُرُون بالمَعْرُوف وينْهَوْنَ عن المُنْكَرِ ويُسَارِعُونَ فِي الخَيْرات وأُولٰئِكَ من الصَّالِحِين ﴾ .

وأقِم الحُدود علىٰ مَنْ لزِمتْه بمَا أمر اللهُ به إقامةً [تجرى بها] مَجْرَاها ، وتوَقَّ الزيادة فيهَا والنقص توقِّيَ من يتمثَّل المُجازاة كأنه يَراها . وهذا الثغر لمحلِّه وسُمُوِّ مِقْداره ، وقُرْب العَدُوِّ منه ودُنُوّ داره ، لا يُقْنَع له بمركَزِيَّته ، ولا يُكتفىٰ فى حقِّه بمرابِطيَّته وقَواريَّته ؛ فنحن نُسَيِّر إليه العساكر المظفَّرة دَفْعتين فى كل سَنَة علىٰ حُكْم البَدَل : فيرِدُه عسكر جديدٌ مُزاحُ العلة ، كثيف العُدَّة ، وافر العِدّه ، يؤثر أن يَظْهر أثَرُه ، ويحافظ علىٰ ما يطيب به ذكره وخَبَره ، فَبُثَّ السرايا وشُنَّ الغارات ، وضيِّق علىٰ العدوّ فسيحَ النَّواحى والجِهات ، وجهِّزْ إليه من يُخيفه فى مَآمنه ، وآبعثْ عليه من يَطْرُقه فى أحْرز أماكنه ، وآندُبْ من يطالِعُك بخفيّ أخبارِه ، ويظهِرُ لك باطنَ أموره ومستورَ أسراره : لتنتهِزَ فيه الفُرصةَ إذا لاحَتْ مَخايِلُها ، وتبادِرَ الغفلةَ منه إذا ظهرَتْ دلائلُها . وآجعل للمتطوّعين من الكِنَانيِّين نصيبا من ثواب الجهاد ، وآحمِلْهم علىٰ آستفراغ الوُسْع بغاية الحِرْص والآجتهاد ؛ وآفعَلْ فى هذا الباب ما تتضاعفُ به مَوادُّ الأجْر ، وتنتسِخ به الأوزارُ كما ينتسِخُ الظلامُ بضياء الفَجْر ؛ وآعضُدْ متولِّى الحكم العزيزِ عَضْدا يُعْلِى أمرَه ، ويشُدّ أزْرَه ؛ ويحرُس نظامَه ، وينفِّذ قضاياه وأحكامَه ؛ وكذٰلك متوَلِّى الدعوة الهادية ـ ثبّتها الله تعالىٰ ـ فاعتمِدْه بما يشرح صدرَه فيما يوضِّحه للؤمنين ، ويهدى به المستجيبين والمتدينِّين ؛ ووَفِّر موفَّرَ آهتمامك علىٰ مرافدة من يتولّىٰ أمرَ المال وما يجرى فى الخاصّ لتَدِرّ أخلافُه ، ويزكو آرتفاعُه ، وتغزُر مادّته ، ويتوفَّر مستخْرَجه ؛ ويحتمىَ من خيانةٍ وتحيُّف ، ويسْلَم آستيداؤُه من تريُّث وتوقُّف . وآستنْهِض الرجالَ المستخدَمين فى الأمور السَّوانح ، وصَرِّفهم فيما ترىٰ تصريفَهم عليه من أسباب المنافع والمصالح ؛ وآستمطِر

الإحسانَ لمن أحمدْتَ طريقتَه، وقوِّم بالتأديب من ذَممت فعله وكرِهتَ سَيْرتَه؛ فاعلم هذا وٱعملْ به، وطالع بما يُحتاج إلىٰ المطالعة بمثله؛ إن شاء الله عز وجل.

* * *

ومن المكتَتَب بالوظائف الديوانية من هذه المَرْتبة نسخةُ توقيع بنظر الدَّواوين، وهى :

أحقُّ الأعمال بأن يُنْعَمَ فيها النظرُ الشافى، ويُنْدَبَ لحمل عِبْئِها الأمينُ الكافى، ويُجَالَ النظرُ فى تقليدها للقيِّم بأمرها، ويُعمَلَ الرأىُ لٱرتيادِ القوىّ علىٰ ضبطها وحَصْرها، ما كان منها جامعًا لمَصَالح الدولة، حائزًا لمَهامّ المملكة : وهى أعمال الدِّيوان، والنظرُ فى حفظ وُجُوه الأموال وما يُعين علىٰ ٱستِنْمائها، ويعودُ بالزيادة فى أصول أبوابها؛ إذ كان ذٰلكَ مِلاكَ الأمور، وزِمامَ التدبير فى حِفْظ الجُمْهور، والمَعُونةَ العُظمىٰ علىٰ الٱستكثار من الرجال الذين بهم يتمُّ حفظُ البلاد وحمايةُ الثُّغُور.

ولمَّا سَلَّطْنا البحثَ علىٰ ٱستصلاح من نؤهِّله لهذه المنزلة، وٱستخلاصِ من نُحِلُّه بهذه المرتبة، أدّانا الٱختبارُ والٱنتقاد، وٱنتهىٰ بنا الٱعتيامُ والٱرتياد؛ إلىٰ ٱختيار الشيخ فلان : حينَ سَفَرتْ له النَّباهةُ فى الكِفايَه، والوَجَاهةُ فى الخبْرة والدِّرايه؛ وجب ... ...(1) علىٰ ٱختصاصه بالفَضْل الذى تحلَّىٰ بأدَبه، والعَفَاف الذى ٱشتَهر من مذهبِه؛ من الخصال الحميده، والخِلال الرَّشيده؛ والفضائلِ الموروُثة والمكتَسَبه، والخلائقِ المُنْتقاة المهَذَّبه؛ ورأيناه أهلا لإحْلال هذه المَكانه، وعَدْلا قَيِّما باحتمال هذه الأمانَه؛ وعلِمْنا أن الصنيعةَ عنده زاكيةُ المَغَارس، والنعمةَ المُفاضةَ عليه ضافيةُ المَلابس؛ فقلَّدناه أمر الديوان بحَلَب وما معها من البلاد المضافةِ إليها

(1) بياض بالأصل بقدر كلمة.

والداخلةِ فى حكمها : قاصى ذلك ودانيه، وأواسطه وحواشيه ؛ مقدّمين الاستخارةَ فيما نُبْديه من قول ، ونعزِم عليه من فعل .

وأمرناه أن يستشعر تقوى الله سبحانه فإنّها الجُنّة الواقيه ، والذخيرة النافعةُ الباقيه؛ ويعتلق أسبابها فإنها المُنجّية من المهالك، الهاديَةُ إلى السُّبُل الواضحة إذا اشتبهت المسالك ؛ محقِّقا ماتوسّمناه فيه من مَخايِل الأصاله، ودلائل الجزاله؛ مصدِّقًا ما استلمحناه من كفايته وغَنائه ، واستوضحْناه من استِقْلاله واستِقصائه .
وأن يبدأ فيرتِّبَ فى كل مُعاملة أمينًا من الثِّقات الكُفاه، مشهوداً له بالنَّهْضة والأمانة المستَوْفاه . وأن يَزُمَّ الأعمالَ القاصيةَ والدانيه ، والبلاد القريبةَ والنائيه؛ بالضبط المستقْصِى ، والحفظ المستوفِى ؛ وبمن يرتّبه عليها من الكُتّاب الأُمَناء ، ويستصلحُه لها من الحَفَظة النُّصَحاء . ويتتبّع حال مَنْ بها من النُّوّاب : فمن شهدت له التجربةُ بالكفاية ، ودلَّ الاختبارُ منه على العِفّة والأمانة ، استدامه فى خدمه المَنُوطة به ، وطالَعَ من حاله بما يَقْضِى له حُسْنُ النظر بحسبه؛ ومَنْ ألفاه متنكِّبًا سبيلَ الأمانه ، مقارِفًا طريقَ العَجْز والخِيانه، بادرَ إلى الاستبدال به ، وعجَّل قطْعَ ما بينه من الخدمة وبين سببه . وأن يسترْفِعَ البواقىَ من الأموال ، فى سائر الجهات والأعمال ، إلى آخر التاريخ الذى تليه مباشَرتُه ، ويتصلُ بآخره مبدأُ نظره وفاتحتُه ؛ موشَّحةً أوراقُ ذلك بخطوط الأمناء ، مفصلةً جهاتُه بأسماء المعامَلين والضُّمَناء ؛ حتّى إذا حُمِلت إليه ، وصارتْ حُجّة على رافعها فى يديْه ؛ طالبه بموافقة مَنْ هو فى ذِمّته ، وتقدّم بعد تصديقه على ذلك بمضايَقته بعد المطالعة بجلِّىّ الحال وحقيقته . ثم يَسْترفِع من مستوفِى الديوان وعُمّاله شروطَ الضُّمّان ورسومَهم ، وقواعِدَهم فى الضمان وعوائدَهم : ليكون علمُ ذلك عنده مبيّنًا ، ووقتَ مَساس(١) الحاجة إليه حاضرا . ويطالب بجرائد الضِّياع خاصِّها ومُقْطَعِها المشتملةِ على ذكر رُسُومها وحُقُوقها ؛ وعدد فُدُنها

(١) الأولى بل الصواب مسيس الحاجة .

ومقاسمها . وجرائد الخراج اللازم لأرباب الأملاك على أملاكهم، وتحقيق المصفوح عنه والمسامح به والباقى على الأداء فى جهته . وجرائد الجزية مفصلة فى نواحيها، وأسماء أربابها إلى حين رفعها ـ وأن يطالب نواب الجزية فى كل شهر بختمة تتضمن ذكر مصارف مايحول إليهم، وإقامة وجوه المال الذى جمع عليهم؛ مفصلة مميزة الابتياعات عن الإطلاقات، والضيافات عن السفرات والإصطبلات؛ وكذلك نواب الأهراء يسترفع منهم مايدل على مثل ذلك، وسائر المتولين فى سائر الخدم يطالبهم بهذه المطالبه، ويضيق عليهم فى مثل ذلك سبيل المغالطة والمواربه؛ ويجعل مؤاخذتهم بذلك من الأمور الراتبه، والوظائف اللازمة الواجبه؛ حتى يتبين له الكافى من العاجز، والأمين من الخائن .

وليتأمل وجوه الإخراجات، ومبلغ الإطلاقات والإدرارات؛ ويسترفعه من مظانه مفصلا بجهاته، منسوبا إلى أربابه؛ ويتقدم بكتب مؤامرة جامعة لذلك التفصيل، دالة على المقدار المطلق فى كل سنة محكم النظر الدقيق دون الجليل؛ وليعتمد فى إطلاق ما يطلق منها على سبيل ما يوقع به عند ذلك، وليكن هذا من الأمور الجارية على العادة والرسم، ويلزمه كل من نواب الديوان .

* * *

ومن المكتتب منها بالوظائف الدينية نسخة تقليد بولاية الحسبة، من إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير، وهى :

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ .

هذا أمْرٌ يشـتمِلُ علىٰ معْنىً الخُصوص دونَ العُمُوم ، ولا يختصُّ به إلا ذَوُو الأوامر المُطاعة أو ذَوُو العُـلُوم ، وقد منَحَنا اللهُ هذين الوصفين كِلَيْهما ، وجعَلَنـا من المستخْلَفِين عليهما .

فلْنَبدأْ أوّلا بحمده الذى هو سبب للمَزِيد ، ثم لنأخُذْ فى القيام بأمره الذى هو علىٰ كلّ نفس منه رقيبٌ عَتِيد ؛ ولا ريب أن إصلاحَ العِبـاد يسْرِى إلىٰ الأرض حتّىٰ تزكُوَ بطُونُها ، وتَنْمُوَ عيونُها ، ويَشترِكَ فى بركات السماء ساكنُها ومسكونُها ؛ والأمرُ بذٰلك حِمْـل إن لم نتوزَّعْه الأكُفُّ ثقُل علىٰ الرقاب ، وإذا ٱنتشرتْ أطرافُ البـلاد فإنها تفتقِرُ إلىٰ مساعَدةٍ من مستنيب ومستَنَاب ؛ وقد ٱخترنا لمدينة كذا رجلا لم نأل فى ٱختياره جُهْدا ، وقدّمنـا فيه خِيرةَ الله التى إذا صدقتْ نِيَّتُها صادفَتْ رُشْـدا ؛ وهو أنت أيها الشيخ فلان .

فابسُـطْ يدَكَ [بقوّة] (١) إلىٰ أخذ هذا الكتاب ، وكُنْ حسنةً من حسَناتنا التى ثَمَّ يرجَح بهـا ميزانُ الثواب ، وحَقِّق نظرَنا فيـك فإنه من نُور الله الذى ليس دُونَه من حجاب .

وٱعلَمْ أنَّ أمر الشريعة مبنىٌّ علىٰ التيسير لا علىٰ التعسير ، ولا يضَعُ اللسانَ موضعَ السوطِ إلا من أُوتِى زيادةً فى التفسير ؛ وفى سـنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم منْـدُوحةٌ لمن لزِمها ، وهى هدًى لمن عمِل بها ونورٌ لمن علِمها ؛ ويكفى من ذٰلك قصـةُ الأعرابىّ الذى أتىٰ حاجتَه فى المسجد فسارع الناسُ إليه ، فنهاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنّمـا بُعِثْتُم ميسِّرين ولم تُبْعَثُوا معسِّرين ، ثم دعا بذَنُوب من ماء فصبَّه عليه وقال : ياأخَا العَرَب إنَّ المساجدَ لم تُوضَعْ لشَىْء من هذَا وإنمـا وُضِعَتْ للصَّلاة وقِراءةِ القُرْءان » .

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ٤١٦ .

فانظرْ إلىٰ هذا الرِّفق النبوىّ الذى شَفىٰ وكَفىٰ ، وعَفَّىٰ علىٰ أثر المعصية لَمَّـا عَفَا ؛ ولو عاد ذٰلك الأعرابىّ لمثلها لُنقِل عن لين التهذيب ، إلىٰ شدّة التأديب ؛ وكذٰلك فكن أنت فى الرفق الذى حُدِّثْتَ عنه ، ومَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ منْه .

ونحن نأمُرك أن تحتسب أوّلًا بلين القول لا بالأَنَف [و] النكير ، وأن تترفّق فى الموعظة التى هى طريق إلىٰ الخشية والتذكير ؛ وأن لا تكون باحْتِسابك مُدِلًّا بأنّك علىٰ الصراط المستقيم ، وأن الناس بيْنَ يديك علىٰ سَنَن التثقيف والتقويم ؛ فإن من أكبر الذنوب ذنبَ الإعجاب ، والأَوْلىٰ لك حينئذٍ أن تعودَ علىٰ نفسك بالاحتِساب (١) ؛ ومن أَدَبك وأدَب أمثالك أن يقف فى أمْرِه بالمعروف مع التقْوىٰ لامع هَوَاه ، وأن لا يُفَرِّق فى إزالة المعصية أن تكون بيده أو بيد أحدٍ سواه ؛ وإذا كنت كذٰلك قَرَنك الله بمَنْ أنزل السكينةَ علىٰ لسانه ويده ، وقوّم له أَوَدَ الناس لتقويم أَوَدِه ، والله ينظُر إلىٰ قَلْب ٱبنِ آدم لا إلىٰ عَمله ولا إلىٰ جَسَده . وعليكَ بالمجاهدين الذين سُلِب عنهم ثوبُ العافيه ، ومَن ٱختفىٰ منك بالٱستِتار فلا تكْشِفْ عن حاله الخافِيَه . وأما ذَوو الهيئات فإنَّ عثَراتِهم تُقَال ، وأعراضَهم لاتُذَال ، ولرُبّما كان التجاوُزُ عنهم داعيا إلىٰ الٱنتقال ؛ وفى قصة أبى مِحْجَنٍ وسعْد ماينبِّئُك أنَّ الحياء أغنىٰ فى الٱزْدِجار ، وفى الناس أذنابٌ لا قَدْر لها تَذُبُّ عنه ورُءوسٌ تُذَبُّ عمّا لها من الأقدار . وهاهنا من ضَروريّات الوصايا مايُؤْتَىٰ فى مثله بتوكيد الأقوال ، وأكثَرُ ذٰلك يدُور فى المعاملات التى أَلِفَها قومٌ دون قوم ، وٱستمرُّوا عليها يومًا دُونَ يوم ؛ وقد أتىٰ منها ما ٱتّفَق علىٰ العمل به كلُّ فريق ، وأيسرُ ذلك إزالةُ النُّخامة من المسجد وإماطةُ الأذىٰ عن الطريق .

---

(١) فى القاموس ٱحتسب عليه أنكر ومنه المحتسب .

وهذه الوصايا كلُّها لا تفْتَقِر فيها إلىٰ التوقيف ، وأنت عالِمٌ بوضع كَلِمها فى مواضعه وغيرُك الذى يتعدَّى إلىٰ التحريف ؛ فامضِ علىٰ السَّنَن ، وأْتِ بالحسَن ؛ وسوِّ بين حالتَيْك فى السِّرِّ والعَلَن ، وكنْ من خوف الله ورجائه بين رِحْلةِ سفَر وقَرارةِ وطَن . وهذا عهدُنا إليك تتقمَّص اليومَ منه رِداء جميلا ، وستَحْمِل غدًا منه عِبْئًا ثقيلا ؛ وقد فرَضْنا لك عن حقِّ سعيِك فريضةً تجدُ بها كَفَافا ، وتمنعُك أن تمدّ عينيْك إلىٰ غيرها ٱستِشْرافا ، فإنَّ العملَ الذى تولَّيته يستغرق أوقاتَك أن تكون للدنيا كاسِبَه ، وتشغَل نفْسَك بالعمل والنَّصَب لا أن تكون عاملةً ناصِبه . وإذا نظرت إلىٰ ما نيطَ بك وجدْتَه قد ٱستحصىٰ الزَّمَن أو كاد ، وأنت فيه بمنزلة البانِى وقواعِده : « وكلُّ بِنَاء علىٰ قدْر بانيه وما شاد » . ونحن نأمُر وُلَاتنا علىٰ ٱختلاف مراتِبهم أن يرفعوا من قَدْرك ، ويَسدِّدُوا من أمرِك ، وإذا ٱستَوْعَرَ عليك أمرٌ من الجوانب سهَّلوا من وَعْرِك ؛ والله قد أمر أهلَ طاعته بأن يكون بعضُهم لبعض من الأعوان ، فقال جل وتعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ولا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ ﴾ .

الحالة الرابعة

(مما يُكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات ماعليه مصطلح كُتَّاب الزمان بديوان الإنشاء بالديار المصرية مما يُكتب عن السلطان لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم من التقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع ، على ما سيأتى بيانه ، وفيه [ثلاثة] (١) مقاصد)

المقصد الأول

(فى مقدّمات هذه الولايات ، وفيه مهْيعان)

المهيع الأوّل

(فى بيان رجوع هذه الولايات إلى الطريق الشرعى)

قد تقدّم فى أوّل الكلام على العهود أن السلطنة فى زماننا دائرةٌ بينَ إمارة الاستيلاء : وهى أن يقلّده الخليفةُ الإمارةَ على بلاد ويُفوِّض إليه تدبيرَها فيستولى عليها بالقوة ، وبينَ وِزارة التفويض : وهى أن يستوزر الخليفةُ من يُفوّض إليه تدبيرَ الأمور برأيه وفصلَها على اجتهاده ، وأنها بإمارة الاستيلاء أشبه ، على ماتقدّم بيانُه هناك . وقد صرح الماوَرْدىّ فى "الأحكام السلطانية" أنه إذا كَمَلَ فى المستولِى على الأمر بالقوة بعد توليةِ الخليفة له مع اشتماله على الصفات المعتَبَرة فى المولّى فى الولاية الصادرة عن اختيار الخليفة الإسلامُ ، والحرِّيّة ، والأمانةُ ، وصِدْق اللّهجة ، وقِلَّة الطمع ، والسلامةُ من الميل مع الهوى ، والبراءةُ من الشَّحْناء ، والذّكاءُ ، والفِطْنة — جاز له ما يجوزُ للخليفة من توليةِ وزارةِ التفويض وغيرِها من سائر النِّيابات ، وجرى على من استوزره أو استنابه أحكامُ من استوزره الخليفةُ

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الآتى .

أو آستنابه، وان لم يستكمل الصِّفَاتِ المعتبرةَ فى الولاية الصادرةِ عن آختيار الخليفة، آستنابَ له الخليفةُ لكل وِلاية من تتكاملُ فيه شروطُها .

قلت : وقد كانت ملوكُ بنى بُوَيْه و بنى سَلْجُوق مع غَلَبَتهم علىٰ أمر الخلفاء ببغداد وآستيلائِهم يقتصرون فى تصرُّفهم علىٰ متعلّقات المُلْك فى الجهاد والتصرّف فى الأموال ، و يكِلُون أمر الولايات إلىٰ الخليفة يُباشِرها بنفسه، وتكتَبُ عنه العهودُ والتقاليدُ علىٰ ما تشهد به نُسَخُها الموجودةُ من إنشاء الصابى وغيره ـ وكذٰلك الخلفاء الفاطميُّون بمصر عند غَلَبة وُزَرائهم علىٰ الأمر من لَدُنْ خلافة المستنْصِر و إلىٰ آنقراض خلافتهم من الديار المصرية، كالصالح طَلَائِـع بنِ رُزِّيك[1] فى وزارته للفائز والعاضد ، ونحو ذٰلك : فإنَّ الخليفة هو الذى كانتِ الولاياتُ تَصْدُر عنه تارةً بإشارة الوزير، وتارةً بغير إشارته ، علىٰ ما تشهد به نسخُ السِّجلّات المكتتبة فى دَوْلتهم ، علىٰ ما تقدّم بيانه فى الفصل الأوّل من هذا الباب . علىٰ أنَّ أصحابَنا الشافعيةَ وغيرَهم من أئمة الفقهاء ـ رحمهم الله ـ قد صَحَّحوا الإمامةَ بغلبة الشوكة والآستيلاءِ علىٰ الأمْرِ بالقهر دُونَ آستكمال شروط الإمامة ، تصحيحًا للأحكام الشرعية الصادرة عن المستَوْلِى بالشوكة : من العُقُود والفُسوخ وإقامة الحُدود وغيرها، علىٰ ماهو مذكور فى باب الإمامة . وحينئذ فتكون جميعُ الولايات الصادرة عن السلطان صحيحةً شرعا و إن لم يستَنِبْه عنه الخليفةُ ، وكذٰلك ما يترتَّب عليها ، علىٰ ما الأمر جارٍ عليه الآنَ .

---

(١) ضبطه المجد فى قاموسه فقال « كقبيط » . ونُقِل عن الحافظ آبن حجر ضبطه بكسر الزاى وصوبه شارح القاموس و به ضبطه آبن خلكان فى تاريخه .

المَهْيَــــع الثـانى

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات)

وآعلم أنه يجب على الكاتب فى ذلك مراعاةُ أمور .

الأمر الأوّل — براعةُ الآستهلال بذكر آسم المولّى أونعتِه أو لَقَبه أو الوظيفة، أوحالِ الولاية ، مع آستِصْحاب براعة الاستهلال إلى آخر الخُطْبة ونحوها من الآفتتاحات، كما أشار إليه الشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبيُّ رحمه الله فى كتابه "حُسْن التوسل" كما تقدّم ذكره فى الكلام على البَيْعات والعُهود .

الأمر الثانى — مراعاة قَطْع الورق فى الجملة لكلّ مايُكتَب من ديوان الإنشاء من المكاتباتِ والولايات وغيرِها . والذى يختص بهذا المكان ذكرُ مقاديرِ قَطْع الورق فيما يتعلّق بهذه الولايات خاصّة، وهى خمسة مَقادير: — أحدُها قَطْع الثلثين، ويختصُّ فى الولايات بكِبَار التقاليد دُونَ غيرها — وثانيها قَطْع النِّصف، وفيه تُكتَب صغارُ التقاليد، والمَراسِيمُ المُكَبَّرة، والتفاوِيضُ ، وكِبارُ التواقيع — وثالثها قَطْع الثُلُث، وفيه تُكْتَب صغارُ المراسيم المكبَّرة، والتواقيعُ المتوسطةُ — ورابعها قَطْع العادة المنصورى، وفيه تُكتَب صغارُ التواقيع والمراسيمُ التى لأصحابها بعضُ ميزةٍ لا تنتهى بهم إلى رُتْبة قَطْع الثُّلُث — وخامسها قَطْع العادة الصغيرُ ، وفيه تُكتب صغارُ التواقيع والمراسيمُ التى هى فى الرتبة الأخيرة .

الأمر الثالث — معرفةُ ما يناسِب كلَّ قطع من هذه المقادير من الأقلام . وقد تقدّم فى المقالة الثالثة نقلا عن "التعريف" مالكلِّ مِقْدار من الأقلام . والمتعلّق بهذا الموضع من ذلك أنَّ لِقطع الثُلُثين قَلَمَ الثلث الثقيل، ولقطع النصف قَلَمَ الثلث الخفيف، ولقَطْع الثلث قَلَم التوقيعات، ولقطع العادة مُطْلقا قَلَمَ الرِّقاع .

الأمر الرابع — معرفةُ اللَّقَب المطابقِ لرتبـة كلِّ ولايةٍ وصاحبِها من الألقاب الأصولِ المتقدّمِ ذكرُها فى الكلام على الألقاب من المقـالة الثالثـة . وهى المَقَرّ، والجَناب، والمجالسُ، ومجلِسُ كذا على الإضافة؛ وما يُنـاسِب كلَّ لقَب من هـذه الألقاب من الفروع المرتَّبة عليها، كوصف المَقَرّ بالكريم العالى، ووصف الجناب تارةً بالكريم العالى، وتارة بالعالى مجرَّدا عن الكريم، ووصف المجلس تارةً بالعالى، وتارة بالسامى، وإضافة مجلس فى حق أرباب السيوف إلى الأمير فيقال : مجلس الأمير، وفى حقِّ أرباب الأقلام من العُلَماء وأصحاب الدواوين إلى القاضى فيقال : مجْلِس القاضى ، وفى حقِّ الصُّلَحاء إلى الشيخ فيقال مجلِسُ الشيخ؛ وانَّ لِمَنْ دُونَ هؤلاء الصَّـدْر ويُوصَف بالأجل فيقال الصَّدْر الأجلُّ ؛ وأن لكل أصل من هذه الأصول فروعا شتَّى تترتَّب عليه . وتقـدّم أيضا فى المقالة الرابعـة فى الكلام على المكاتباتِ الصادرةِ عن الأبواب السلطانية بالدِّيار المصرية فى زماننا إلى أهل المملكة مكاتبـةُ كل واحدٍ ممَّن جرتِ العادةُ بالمكاتبـة إليه، وما يختصُّ به من الألقـاب الأُصولِ والفُروع .

وٱعلم أنَّ الولاياتِ أعَمُّ من المكاتَبَات : فقد يكون للشخص ولايةٌ من الأبواب السلطانية وليس له مُكاتَبَة، إذ المكاتَبَات إنمـا تكون لقومٍ مخصوصين من أرباب الوِلايات . إذا عُلِم ذلك فكلُّ من له مكاتَبـة عن الأبواب السـلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام ممن تقـدّم ذكره فى الكلام على المكاتَبـات إذا كُتِبتْ له ولايةٌ نُعِت بألقابه ونُعُوتِه التى بها يُكاتَب عن الأبواب السلطانية، إلا أنَّ الدعاء المصدَّر به المكاتبةُ يجعل فى الآخِر دُونَ الأوّل : فاذا كانت المكاتبَةُ إلى أحدٍ «أعزَّ اللهُ تعالى انصارَ المَقَرّ الكريم» قيـل فى ألقابه فى الولاية « المَقَرّ الكريم » إلى آخر ما يقتضيه الحال، ثم يقال : فلان أعز الله تعالى أنصاره؛ وكذلك فى البواقى . أمّا من لم تَجْر

العادة بمكاتبةٍ إليـه عن الأبواب السلطانية ممن يُولَّى عنها فإن لكل طبقةٍ ألقاباً تخصهم . ونحن نذكر الألقابَ الأصولَ وما يتفرَّع عليها لكلِّ طبقةٍ من كل طائفةٍ على الوضع الذى تقتضيه الوِلايات دُونَ المكاتبات، ليُجْرَى كلٌّ من أرباب الولايات على ما يُناسبه من الألقاب .

وقد علمتَ فيما تقـدّم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أن الألقاب على خمسة(١) أنواع :

النوع الأوّل — ألقـاب أرباب السيوف

والمستعمل منها بديوان الإنشاء تِسعُ مراتبَ :

المرتبة الأولى — المقرُّ الكريمُ مع الدعاء بعِزِّ الأنصـار، وهى : المَقَرُّ الكريمُ، العالى، الأميرىُّ ، الكبيرىّ، العـالِمىّ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ، الزعيمىّ ، العَوْنىّ، الغِياثىّ ، المُثاغرىّ، المُرابطىّ ، المهِّدىّ ، المشـيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، العابِدىّ ، الناسكىّ ، الأَتابكىّ ، الكفيلىّ، الفـلانىّ، معزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ أمراء العـالَمين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحِّدين ، ممهِّد الدُّوَل ، مشـيِّد المَمَـالك، عمَاد المِلَّة، عونُ الأمة ، ظهيرُ المُلوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى لقب السلطان) أعزَّ الله تعالى أنصارَه .

المرتبة الثانية — الجنابُ الكريمُ مع الدعاء بعزِّ النُّصْرة، وهى : الجنابُ الكريم، العالى، الأميرىُّ الكبيرىّ العالِمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، الزعيمىّ، العَونىّ، الغِياثىّ، المُثاغرىّ، المُرابطىّ، المهّـدىّ، المشـيِّدىّ، الظَّهيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ، عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالَمين، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جُيوش

---

(١) المعدود ستة فتنبه .

الموحِّدين ، مقدَّم العساكر ، ممهِّد الدُّول ، مشيِّدُ الممالك ، عمادُ الملَّة ، عونُ الأمة ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلىٰ لقب السلطان) أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرتَه .

المرتبة الثالثة — الجنابُ العالى مع الدعاء بمُضاعفة النِّعمة ، وهى : الجنابُ العالى ، الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، العَونِىّ ، الزعيمىّ ، الممهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، الكافِلىّ ، الفلانىّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحِّدين ، ممهِّد الدُّوَل ، مشيِّد الممالك ، عمادُ الملَّة ، عون الأُمَّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلىٰ السلطان) ضاعَفَ الله تعالىٰ نِعمتَه .

المرتبة الرابعة — الجنابُ العالى مع الدعاء بدَوَام النعمة ، وهى : الجنابُ العالى الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىُّ ، المؤيِّدىّ ، الأوْحَدىّ ، النَّصيرىُّ ، العَوْنىّ ، الهُمَامِىّ ، المقدَّمىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانى ، عِزّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كَهْفُ المِلَّة ، ذُخْرُ الدَّوْلة ، عِمَادُ المملكة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسامُ أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالىٰ نِعمَتَه .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى والدعاء بدَوَام النعمة ، وهى : المجلس العالى الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنىّ ، الأَوْحدىّ ، النَّصيرىّ ، الهُمَامىّ ، المقدَّمىّ ، الظهيرىّ ، الفلانىّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ الأمراء فى العالَمين ، نُصْرةُ الغُزَاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كهفُ المِلَّة ، ذُخْرُ الدولة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسَام امير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه .

المرتبة السادسة — المجلس السامىُّ بالياء، والدعاءُ بدوام التأييد ونحوه، وهى : المجلس السامِىُّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الذُّخرىّ ، النّصيرىّ ، الأوحدىّ ، المؤيَّدىّ، الفلانىّ ، مجدُ الإسلام، بهاءُ الأنام، شرَفُ الأمراء ، ذُخْر المجاهِدين ، عضُدُ الملوك والسلاطين، فلان الفلانى، أدام الله تأييدَه .

المرتبة السابعة — السامى بغير ياء، والدعاءُ أدام اللهُ رِفْعته ونحو ذلك، وهى : المجلس السامى ، الأميرُ، الأجلُّ ، الكبيرُ، الغازى ، المجاهدُ ، المؤيّد ، الأوحدُ ، المرتضىٰ ، فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام، فخرُ الأمراء، زينُ المجاهدين، عمدةُ الملوك والسلاطين، أدام الله رفعتَه .

المرتبة الثامنة — مجلسُ الأمير، والدعاءُ أدام الله سعدَه ونحوه، وهى : مجلس الأمير، الأجلّ ، الكبير، الغازى، المجاهد ، المؤيّد، الأوحد ، المرتضىٰ ، فلان الدين ، مجدُ الأمراء ، زينُ المجاهدين ، عُدّةُ الملوك والسلاطين ، فلان الفلانى ، أدام الله سعْدَه .

المرتبة التاسعة — الأمير مجرّدا عن المضاف إليه، وهى : الأميرُ، الأجلُّ ، وربّما زيد فيه فقيل الكبير، المحترَم، ونحو ذلك .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ أرباب الوظائف الديوانية ، وهى علىٰ ستِّ مراتِبَ)

المرتبة الأولىٰ — الجناب العالى مع الدعاء بمضاعَفَة النِّعمة . وفيها أسلوبان :

الأُسلوب الأوّل — ألقـاب الوزير وهى : الجناب العـالى ، الصاحِبىُّ، الكبيرىُّ، العالِىّ، العادلىّ، الأوْحَدىّ، الأكملىّ، القوَامىّ، النِّظامىّ، الأثِيرىّ،

البَليغىّ، المنفِّذى ، المسدّدىّ، المتصرِّفىّ، الممهِّدىّ، العوْنىّ، المُدبِّرىّ، المُشيرىّ، الوزيرىّ ، الفلانىّ ، صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الوزراء فى العالَمين ، رئيسُ الكبراء، كبيرُ الرؤساء، أوحدُ الأصحاب، مَلاذُ الكُتَّاب ، قِوَام الدُّول، نظامُ المُلْك ، مُفيد المَنَاجح ، معتَمَد المصالح ، مُرَتِّب الجيوش ، عِمادُ المِلة ، عونُ الأمّة، مُشير المُلوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه .

الأسلوب الثانى — ألقاب كاتب السرّ، عند ما آستقرّ ما يكتب له تقليدا فى قَطْع الثلثين ، وهى : الجنابُ العالى، القاضَوِىّ، الكبيرىُّ، العالمىّ ، العادلىّ، العَلّامىّ، الأفضَلِىّ، الأكْملىّ، البليغىّ، المسدَّدىّ، المنفِّذىّ، المشيِّدىّ، العوْنِىّ، المُشيرىّ ، اليَمينىّ ، السَّفيرىّ ، الأَصيلىّ ، العَريقىّ، الفلانىّ ، صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء فى العالَمين، قدوةُ العلماء العاملين ، جمالُ البُلَغاء ، أوحدُ الفضلاء ، جلالُ الأصحاب ، كَهْف الكُتَّاب ، يمينُ المملكة، لسانُ السَّلْطنة ، سفيرُ الأُمَّة، سَليلُ الأكابر، مُشير الملوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، ضاعف الله تعالىٰ نِعمته .

قلت : وقد كان رتبتُه : المجلس العالى عند ما كان يُكتَب له توقيعٌ فى قطع النِّصف .

المرتبة الثانية — المجلس العالى مع الدُّعاء بدَوَام النعمة، وفيها أربعة أساليبَ .

الأسلوب الأوّل — ألقابُ كاتب السرّ علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى كتابة توقيع فى قَطْع النصف ، ويُدْعىٰ له : أدام الله نعمتَه، وهى : المجلسُ، العالى، بالألقاب المتقدّمةِ له مع الجناب العالى، علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ .

الأسلوب الثـانى — ألقاب ناظر الخاص، وهى: المجلس العالى القاضوىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأوحدىّ، الأكملى، الرّئيسىّ، البليغىّ، البارعىّ، القِوامىّ، النّظامىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، المنفّذىّ، المسدّدىّ، المتصرّفى، الفلانىّ، جمالُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الرؤساء فى العالَمين، قِوامُ المصالح، نِظام المَناجح، جَلَال الأكابر، قُدوةُ الكُتّاب، رئيسُ الأصحـاب، عِمادُ الملة، صَفْوة الدولة، خالصةُ الملوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالىٰ نعمتـه.

الأسلوب الثـالث — ألقاب وزير دِمَشْق إذا صُرِّح له بالوزارة، وهى: المجلس العـالى، الصاحِبىُّ، الوزيرىّ، الأجلّىّ، الكبيرىُّ، العالمىّ، العـادلىّ، المؤيّدىّ، الأوْحدىّ، القِوامىّ، النّظامىّ، المـاجدىّ، الأثيرىّ، المُشيرىّ، الفلانىّ، صلاحُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الوزراء فى العالمين، رئيسُ الكبراء، كبيرُ الرؤساء، بقية الأصحاب، مَلَاذُ الكُتّاب، عِمادُ المِلة، خالِصة الدولة، مشير الملوك والسلاطين، خالصةُ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالىٰ نعمتَه.

الأسلوب الرابـع — ألقاب ناظر النُّظّار بالشام، إذا لم يكن وزيرا، وهى: المجلس العالى، القَضَائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العـامِلىّ، الأوْحدىّ، الرّئيسىّ، الأثيرىّ، القِوامىّ، النّظـامىّ، المنفّـذىّ، المتصرّفىّ، الفلانىّ: مجدُ الإسـلام والمسلمين، شرَفُ الرؤساء فى العالَمين، أوحدُ الفُضَـلاء، جلالُ الكُبَراء، حُجّة الكُتّاب، صَفْوة الملوك والسلاطين، خالصةُ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالىٰ نِعمتَه.

المرتبة الثالثة — المجلس السامىّ بالياء مع الدعاء بدوام الرفعة وما فى معناها ، وهى : المجلس السامىُّ ، القَضَائىّ ، الأَجَلّىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، الفاضِلىّ ، الكامِلىّ ، الرئيسىّ ، الأَوْحدىّ ، الأَصِيلىّ ، الأَثيرىّ ، البَلِيغىّ ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام ، شرفُ الرؤساء فى الأَنام ؛ زَيْن البلغاء ، جمالُ الفُضلاء ؛ أوحدُ الكُتَّاب ، فخر الحُسَّاب ؛ صفوةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالىٰ رِفعتَه .

فإن كان من كتاب الإنشاء ، أسقط منه « فخرُ الحُسَّاب » .

المرتبة الرابعة — السامِى بغير ياء ، مع الدعاء بدَوام الرِّفعة ونحوه أيضا ، وهى : المجلس السامِى ، القاضِى ، الأَجَلُّ ، الكبيرُ ، الصَّدْر ، الرئيسُ ، الأَوْحَد ، البارعُ ، الكاملُ ، الأصِيلُ ، الفاضِلُ ، فلان الدين ؛ جمالُ الإسلام ، بهاءُ الأَنَام ؛ شرفُ الأكابر ، زَيْن الرؤساء ، أوحدُ الفُضلاء ؛ زَيْنُ الكُتَّاب ، صفوةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالىٰ رِفعتَه .

المرتبة الخامسة — مجلِسُ القاضى ، وهى : مجلس القاضى ، الأَجَلّ ، الكبير ، الفاضِل ، الأَوْحد ، الأَثِير ، الرَّئِيس ، البليغ ، العريق ، الأَصِيل ، فلان الدين ؛ مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ؛ شرفُ الرؤساء ، زَيْن الكتاب ، مُرْتضىٰ الملوك والسلاطين ، أدام الله رِفعتَه .

المرتبة السادسة — القاضى ، وهى : القاضِى الأَجَلُّ . ورُبَّما زيد فى التعظيم الصَّدْر ، الرئيسُ ، الكبيرُ ، ونحوُ ذٰلك .

النـــــوع الثـالث

(ألقابُ أرباب الوظائف الدِّينية ـ وهى أيضا على ستّ مراتبَ)

المرتبة الأولى — الجنابُ العالى ـ وهى لمَن آستقرّ له كتابةُ تقليـدٍ فى قَطْع الثلثين من قُضاة القُضاة بالدِّيار المِصْرية وهو الشـافعىّ؛ وهى : الجنابُ العـالى، القاضَوِىّ، الشَّيْخىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، العامِلىّ، الأفضَلِىّ، الأكملىّ، الأَوْحدىّ، البَلِيغىّ، الفَريدىّ، المُفيدىّ، النَّجيدىّ، القُـدْوِىّ، الحُجِّىّ، المحقِّقىّ، الوَرَعىّ، الخاشعىّ، الناسِكِىّ، الإمامِىّ، العَلَّامىّ، الأصِيلىّ، العَرِيقىّ، الحاكمىّ، الفلانىّ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، شرفُ العلمـاء العاملين، أوحَدُ الفضلاء المُفيدين، قُدْوة البلغاء، حُجَّة الأمَّة، عمدةُ المحقِّقين، فخرُ المدرّسين، مفتى المسلمين، جلالُ الحُكَّام بركةُ الدولة، صَدْر مصرَ والشام، مُعِزُّ السنَّة، مؤيِّد الملة، شمسُ الشريعـة، رئيسُ الأصحاب، لسانُ المتكلمين، حَكَم الملوكِ والسـلاطين، ولىُّ أمير المؤمنـين؛ فلان (بنسبه) أعز اللهُ تعالى أحكامَه .

وكذلك قاضى القُضاة الحنفىُّ بالديار المصرية عند ما آستقرّ المكتوبُ له تقليدًا .

المرتبة الثـانية — المجلس العالى؛ وبهـا كان يُكتب لقاضى القُضاة الشافعىّ قبل أن يستقرّ ما يكتَبُ له تقليدا، بالألقاب والنُّعوت السابقةِ له مع الجناب؛ وكذلك الثلاثةُ الباقون باختصارٍ فى الألقـاب والنُّعوت؛ وهى : المجلس العـالى، القاضَوِىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العاملىّ، الأفضَلِىّ، الأكملىّ، الأَوْحدى، البليغىّ، الفَريدىّ، المُفيدىّ، النَّجيدى، القُدْوىّ، الحُجِّىّ، المحقِّقىّ، الإمامىّ، الأَصِيلىّ، العَرِيقىّ، الحـاكمىّ، الفلانىّ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، سـيِّدُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء المُفيدين؛ قُدْوة البُلَغاء، حجةُ الأمّة، عمدَةُ المحدّثين، فخرُ المدرّسين،

مفتي المسلمين، جلالُ الحُكّام، حَكَم الملوك والسلاطين، فلان الفلانى (بنَسَبه) أعزَّ الله تعالىٰ أحكامه .

المرتبة الثالثة — المجلس السامىّ بالياء، وهى : المجلس السامىُّ، القضائىّ، الكبيرىُّ، العالمىُّ، الفاضلىُّ، الأوْحَدىّ، الرئيسىّ، المُفيدىّ، البَليغىّ، القُدْوىّ، الأثيرِىّ، مجدُ الإسلام والمسلمين، جمالُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء، صَدْر المدرّسين، عُمدةُ المُفْتين، خالصةُ الملوك والسلاطين، فلان الفلانىّ : أدام الله تعالىٰ تأييدَه .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء، وهى : المجلسُ السامى، القاضى، الأجَلُّ، الكبيرُ، الصَّدْرُ، الرئيسُ، العالم، الفاضلُ، الكاملُ، فلان الدين، مجدُ الصُّدور، زَيْنُ الأعيان، مرتَضىٰ المُلوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ رِفعتَه .

المرتبة الخامسة — مرتبةُ مجلس القاضى، وهى : مجلس القاضِى، الأجلّ، الكبيرِ، العالِم، الفاضلِ، الأوحدِ، الصدر، الرئيس، مجدِ الإسلام، بهاء الأنام، زينِ الأعيان، فخرِ الصُّدُور، مرتَضى الملوك والسلاطين، فلان : أعزَّه الله تعالىٰ .

المرتبة السادسة — مرتبة القاضى، وهى : القاضى، الأجَلُّ . وربما زيد فى التعظيم نحو الكبير، الصدر، الرئيس، ونحو ذٰلك .

النـــوع الرابع

(ألقابُ مشايخ الصُّوفية — وهى علىٰ خَمْس مراتبَ)

المرتبة الأولىٰ — المجلسُ العالى. وبها يُكتَب لشيخ الشُّيوخ بالديار المِصْرية، وهى : المَجلس العالى، الشيخىُّ، الكبيرىُّ العالِمىّ، العامِلىّ، السالِكىّ، الأوحَدىّ،

الزاهدىّ، العابدىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، المُفيدىّ، القُدْوِىّ، الإمامىّ، النّظامىّ، المَلاذىّ؛ جلالُ الإسلام والمسلمين، شرَفُ الصُّلَحاء فى العالَمين، شيخُ شُيوخ الإسلام، أوحدُ العلماء فى الأنام، قدوةُ السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين، فلان، أعاد الله تعالىٰ من بَرَكاته .

المرتبة الثانية — المجلس السامىّ باليـاء، وهى : المجلس السامىُّ، الشيخىّ، الكبيرىُّ، الأوْحَدىّ، الأكملىّ، العابدىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ؛ جمالُ الإسلام، زينُ الأنام، صَفْوةُ الصُّلَحاء، فخرُ العُبَّاد، بركةُ الملوك والسلاطين : أعاد الله تعالىٰ من بركَته .

المرتبة الثالثة — المجلسُ السامى بغير ياء، وهى : المجلس السامِى، الشيخُ، الصالحُ، الزاهـدُ، العابدُ، الوَرِع، الخاشِعُ، الناسكُ، السالكُ، فلان الدِّين؛ مجدُ الصلحاء، زينُ المشايخ، قُدْوة السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين : نَفَع الله تعالىٰ ببركته .

المرتبة الرابعة — مجلسُ الشَّيخ، وهى : مجلسُ الشيخ، الصالِح، الزاهـد، العابِد، الناسِك، السالِك، فلان الدين، مجد الصُّلحاء، زين المشايخ، بركةِ الملوك والسلاطين : أدام الله تعالىٰ بركَته .

المرتبة الخامسة — مرتبة الشيخ، وهى : الشيخُ، الصالحُ، الوَرِع، الزاهد، ونحو ذلك : نفع الله تعالىٰ به .

النــــوع الخــامس

(ألقابُ مَنْ قد يُكْتب له بولاية من رؤساء العامَّة من التُّجّار وغيرهم)

وفيهــا أربع مراتب :

المرتّبة الأولىٰ — المجلس الساميُّ بالياء ، وهى : المجلس الساميّ ، الصدريُّ ، الأجَلّيُّ ، الكبيريُّ ، الرئيسيّ ، الفلانيّ .

المرتبة الثانية — المجلس السامى بغير ياء ، وهى : المجلس السامِى ، الصــدْرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، المحتَرَم .

المرتبــة الثالثة — مجلسُ الصَّدْر ، وهى : مجلسُ الصــدر ، الأجلّ ، الكبيرِ ، المحتَرَم ، المؤتَمَن ، فلان الدين . و يقال فى ألقاب المِهتارِيَّة ونحوِهم : الحاجُّ فلان .

المرتبة الرابعة — مرتبة الصَّدْر ، وهى : الصَّدْر ، الأجلُّ . فإنْ زِيد فى تكريمه قيل بعد ذٰلك : الكبير ، المحتَرَم .

النــــوع السادس

(ألقابُ زعمــاء أهل الذِّمَّة ، وهم ثلاثة)

الأوّل — بَطْرَك النصارىٰ اليَعَاقبة ، وهى : الحضرةُ الساميَــة ، الشيخُ ، الرئيسُ ، المبجَّل ، المكَرَّم ، الكافِى ، المعزَّز ، المُفَخَّر ، القِدِّيس ، شمس الرياســة ، عمــاد بَنِى المَعمودِية ، كنزُ الطائفة الصلِيبِيَّة .

الثــانى — بَطْرَك المَلِكانِيَّة ، وتُختصَر ألقابُه عمَّا يُكتب به لبَطْرك اليَعَاقِبَة بعضَ الاختصــار .

الثالث ـ رئيسُ اليهود، وهى : الرئيسُ الأوحدُ، الأجَلُّ، الأعزُّ، الأخَصُّ، الكبيرُ، شرفُ الداوُديِّين، فلان أبو فلان : سدّده اللهُ فى أقواله، وثبّته فى أفعاله .

قلت : ومما يجبُ التنبُّه له أن ما تقدّم من الألقاب والنُّعوت المفرّعة على الألقاب الأُصول ليستْ مما يُوقَف عند حدّ، بل محتمِلةٌ للزيادة والنقص بحسب ما تَقتضيه الحال، ويحتمِله المَقَال . بل ربّما وُلّى بعضَ المناصب مَنْ فيه صِفاتٌ تستحق ألقابا ونعوتا خاصّةً، فيكتبُ له بذلك مراعاةً لما يَقتضيه حالُه، ويستوجبُه مَقَامه، ثم يلى ذلك المنصبَ بعده مَنْ لايستحق الوصفَ بالألقاب والنُّعوت التى تُخَصُّ المتقدّم، فيؤتى بها للثانى : كما اتّفق فيما كُتِب به فى نِيَابة الشام حينَ وَلِيَها الأمير بيدُمُر الخُوَارَزْمىّ رحمه الله، وكان من الدِّيانة على ما لا يُوجَد فى غيره . فكتب فى ألقابه حينئذ : العابِدىّ، الناسكىُّ، الخاشِعِىّ . فلزِمتْ فيمن بعْده وصارت مما يكتَبُ به إلى الآنَ، سواء اتصف نائبُها بِدينٍ أم لا ـ وكما اتفق فى الصاحب عَلَم الدِّين بن زُنْبور حين اجتمع له الوِزارةُ ونظرُ الخاصِّ والجيش، فكُتِب له بألقابٍ ونُعوتٍ جامعةٍ لألقاب تلك الوظائف ونُعوتِها، فاستمرّ ذلك فيما يُكتَب به لكلّ مَنْ وَلِىَ الوزارة بعدَه إلى الآنَ؛ حتّى إنه يكتب فى ألقاب الوزير الآن «مرتِّب الجيوش» وهو من الألقاب الخاصّة بناظر الجيش استطرادًا لما كُتِب به لابن زُنْبور : لانضمام نظر الجيش إليه على ماتقدّم ـ وكما اتّفق فيما كُتِب به للشيخ تقىّ الدين السُّبْكى من الألقاب الجليلةِ المِقدار، الرفيعةِ المكانةِ، فى قضاء الشام لرِفْعة مقامه، واتّساع باعِه فى العلم، وعُلُوِّ مكانته فى الخاصّة والعامّة فلزِم كتابة ذلك لقاضى قُضاة الشافعيةِ بالديار المِصْرية، من حيثُ إنه لا يليق بالحال

أن يكون قاضى الشام أعلىٰ رتبــةً من قاضى الدِّيار المصرية . ثم سَرىٰ ذٰلك فى كل من وَلِى المنصِبَ بعد ذٰلك ، وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا .

وممـا يلتحق بذٰلك أنه قد جرت العادةُ فى الزمن المتقدّم وهَلُمَّ جَرًّا إلىٰ زماننا أنه كان يكتب فى الطرَّة لأرباب السيوف بعــد الأميرى « الكبيرىّ الفلانى » بلقب الإضافة إلىٰ لقب السلطان كالناصرىّ ونحوه ، بخلاف أرباب الأقلام فإنه لم تَجْر العادةُ بأن يكتب لهم ذٰلك فى شىءٍ من طرَّة تقاليــدهم ولا تَواقيعهم ، إلىٰ أن لِبس القاضى سعدُ الدين بنُ غُرَابٍ الكَلُّوتة ، وآستقر إستادارا فى الدولة الناصرية فرج آبن برقوق ، ثم آســتقرَّ مشــيرا وكتب له تقليدٌ بالإشارة كتب له فى طرَّة تقليــده بعــد الكبيرى « النــاصرى » لجمعه بين الســيف والقلَم . ثم جرىٰ بعض الكُتَّاب علىٰ مثــل ذٰلك فى غيره من أرباب الأقــلام الأكابر : كالوزير ، وكاتب السر ، وناظر الخاصّ ، وناظر الجَيْش ، ومن فى معنــاهم من أرباب الوَظَائف الديوانية . والحجةُ فيــه ظاهرةٌ من حيثُ إنــ كلًّا من المذكورين إذا كُتِب عنــه كتاب ، كُتِب فى أعلاه تحت البسملة « المَلَكىّ الناصرىّ » وإذا كتب عنه قِصَّة ، كتب فيها تحت البســملة « المَلَكىّ الفلانىّ » . ومقتضىٰ ذٰلك أن يكتب لقب الإضافة إلىٰ لقب الســلطنة فى تقليــده أو توقيعــه علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليــه من فعــل بعض الكُتَّاب .

الأمر الخامس ــــ ممــا يجب علىٰ الكاتب مراعاته معــرفةُ الوصــف اللائق بصاحب الوظيفة .

فيجب عليه مراعاةُ ماينا سبه من الأوصافْ التى يَقَع بها تقريظه ومَدْحُه :

فإن كان نائبَ سلطنة وصَفَه بالشجاعة، والنَّجْدة، وقُوّة العَزْم، والشَّهامة، وشِدّة الشَّكيمة، ونُصْرة الدِّين، وكَفِّ [الأيدى] العادِيَة، وإرهابِ العدوّ، وقَمْع المفسدين، وإرغامِ أهْلِ العُدْوان، وحِمايةِ الثُّغور ــ إن كان فى ثغر ــ ووُفُور الهَيْبة، وبُعْدِ الصِّيت، وطَيرانِ السُّمْعة، مع بَسْط المَعْدَلة والرِّفْق بالرعيَّة، والرأفة بخلق الله تعالىٰ، والشَّفقةِ عليهم، والإحسانِ إلىٰ الكافَّة، والأخْذ بقلوبهم، والوقوفِ مع أحكام الشريعة، وبَذْل الطاعة، والمناصَحة، والمخالَصة، وقِدَم هِجرته فى الدولة ــ إن كان قديم هجرة ــ ومُرور الدُّوَل عليه ــ إن كان قد مَرَّت عليه دول ــ، وأنه نَشْءُ الدولة ــ إن كان ابتداء أمره فيها ــ، ونحو ذٰلك .

وإن كان نائبَ قلعة وصفه بالحِذْق، واليَقَظة، وقوّة الحَزْم، وشِدّة التحرُّز، والمعرفةِ بأحوال الحِصار وضُروب القِتال وطُرُق التحصين والمُدافعة، ونحو ذٰلك .

وإن كان وزيرا وصفه بحُسْن التدبير، وجَزالة الرأْى، والاحتياط فى الأمور، والقِيام بمَصالح الإسلام، وعِمارةِ البِلاد، والنُّهوض فى المهمَّات، وكَفِّ الأيدى العادِيَة، والأخْذِ علىٰ يد المتعَدِّى، وتَنمِيَة الأموال وتَثْمِيرها، وتسهيل مايجرِى من الأرزاق علىٰ يَده، وبَذْل المجهُود فى معاضَدة الشريعة، وشِبْه ذٰلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ .

وإن كان كاتبَ سِرٍّ وصفَه بالفَصاحة والبَلاغة، وقيامِ أقْلامه فى التأثير فى العدُوّ مَقامَ السُّيوف والرِّماح، وكُتبِه فى تفريق الكتائب مَقامَ الجيوش والعساكر، وسَدادِ الرأى، وكَتْم الأسرار، وحمايةِ الممالك بنتائج أفكاره، وما شاكل ذٰلك .

وإن كان ناظِرَ جيش وصفه بالمعْرِفة بأمور الجيوش وترتيبها ، وأصناف الأمراء، والجُنْد، والمستخْدَمين، وترتيب مَقَاماتهم، وما ينخَرِط فى هذا السِّلْك .

وإن كان ناظر الخاص وصفه بالمعرفة بأمور الحِسَاب، والنهضةِ فى المهِمَّات، والمعرفة بأحوال دِيوان الخاصّ وجِهَاته ، والقُدرةِ علىٰ تحصيل الأموال وزيادتها، ومعرفة ما يُحتاجُ إليه من أصناف الأقْمِشة والطُّرُز وغيرها ، مع الأمانة والعِفَّة ، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وإن كان مستوفِىَ الصُّحْبة وصفه بالمعرفة بفُنُون الكتابة ، ونَظْم الحُسْبانات ، والاحتياطِ فى ٱسْتِرْفاعها ، مع الضبط والاحتراز والأمانة والعِفَّة وما هو من هذا القَبيل .

وإن كان ناظرَ خِزَانة الخاصّ وصفه بالأمانة، والعفَّة ، والمعرفةِ بأصناف الخِزَانة : من الأقمشةِ، والتَّشاريف، والطُّرُز، ومعرفة مراتبِ أربابِها،وما يُناسب كلَّ واحدٍ منهم من أنواع التشاريف من عالِيها وهابِطها، وما يطابِق ذٰلك .

وإن كان قاضيا وصفه بغَزَارة العِلم، وسَعَة الفضل ، ونُصْرة السُّنَّة، وقَمْع البِدْعَة، والعَدْل فى الأحكام ، وإنصافِ المظلومِ من الظالم، والأخْذِ للضعيف من القوِىّ، والنزاهةِ عن المَطَاعم الوَخِيمة، والمطامع الرديَّة، والبُعْد عن الأهواءِ فى الحكم، وما ينخَرِط فى هذا السِّلك .

وإن كان محتَسِبا وصفه بعد وصْفه بالفضل بالعِفَّة، والأمانة ، وعُلُوِّ الهِمَّة، وقُوَّة العزم، والصَّرامة، ووُفُور الهيبة، والنُّهوض بالأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكَر، والنظَرِ فى مصالح المسلمين ، وعدمِ مُحاباة أهلِ الدُّنيا وأربابِ الجاه ، وأنه لا يفرِّق فى الحق بين الجليل والحقير، وما فى معنىٰ ذٰلك .

وإن كان وكيل بيت المال وصفه بعد العلم والديانة بالوقوف مع الحق ، والتثبُّت فيه ، ومراعاته المصلحة العامَّة فى كل مايتعلَّق به ، والمعرفة بشروط الاعذار ومواقع ابداء الدافع ونفيه ، وأنه يقدّم مصالحَ المسلمين علىٰ مصالح نفسه ، وما يقارب ذٰلك .

وإن كان مدرّسا وصفه بسَعَة العلم ، والتضلُّع بالفُنون ، والأخْذِ من كلٍّ منها بحظٍّ وافر ، وطُولِ الباع فى البحث والمناظَرة ، والوقوف مع الحقِّ فيها ، وعدمِ الجدال فى الباطل ، وتربيَة الطلبة ، وتأديبهم ، والتقريب علىٰ من عَسُر علىٰ فهمه شىء من المسائل ، وعدمِ الترفُّع عليهم ، وتنزيلهم منازِلَهم فى الفضل ، وتقديم مَنْ بَرَع منهم .

وإن كان خطيبًا وصفه بالفَصَاحة ، والبَلاغة ، وقُوّة اللَّسَن ، وشِدّة الشَّكيمة فى الكلام ، وتأثير وَعْظه فى القلوب ، وانسكابِ الدموع من وَقْع عِظَاته ، وما أشبه ذٰلك .

وإن كان شيخَ خانِقاه وصفه بالوَرَع ، والزُّهد ، والنُّسُك ، وقطْع العلائق من الدنيا ، وتربيَة المريدين وتسليكهم ، والوقوف مع طريق السَّلَف الصالح .

وإن كان رئيسَ الأطبَّاء وصفه بالحِذْق فى الطِّبِّ ، والمَهارة فيه ، وتقدُّمه علىٰ غيره فى الفَنّ ، والمعرفةِ بالعقاقير وما فيها من نَفْع وضُرّ ، والمعرفةِ بالأمراض والعِلل وطُرُق العِلاج ، وما يجرى مجرىٰ ذٰلك .

وإن كان رئيس الكَحَّالين وصفه بالمعرفة فى صَنْعة الكُحْل ، والتقدّم علىٰ أبناء صَنْعته فيه ، والمعرفةِ بحال العينِ وأمراضها ، وأصناف الأكحال ، وما يوافق كلَّ علّة من ذٰلك ، وما ينخرط فى هذا السِّلك .

وإن كان رئيسَ اليهود او بَطْركا من بَطَاركة النصارى، وصفه بالمعرفةِ بأمور ملّته، والوقوفِ مع قوانينِ شِرْعتِه، ومعاطاةِ العدل فى جماعتِه، والتزام شُروط الذمة، والوقوف عند حدِّها، والدخولِ تحت الطاعة، والوقوفِ عند ما حُدّ له، ونحو ذلك .

الأمر السادس — مما يجب على الكاتب مراعاته وصيةُ ربِّ كل ولاية من الولايات المعتبَرة بما يناسِبُها .

وآعلم أن كل ما حَسُن وصيةُ المولّى به، حَسُن وصفُه به . والوَصَايا مختلفة باختلاف موضُوعاتها، إلا أنّ الجميع يشترك فى الوصيَّة بتقوى الله، فهى الأُسُّ الذى يبنى عليه، والركنُ الذى يُستَنَد إليه . وهذا البابُ هو الذى يطولُ فيه سَبْح الكاتب، ويَحتاج فيه إلى سَعَة الباع؛ فإنه ما لم يكن الكاتبُ حاذقًا بما يلزم ربَّ كل وِلاية ليُوَفِّيها فى الوصية حقّها، وإلا ضلَّ عن الطريق، وحادَ عن جادّة الصَّنْعة . ولذلك يقال للكاتب : «القَلَم الأكبر» : لأنه بصَدَد أن يُعلِّم كلَّ واحد من أرباب الولايات ما يلزمُه فى وِلَايته .

وحينئذ فإن كان المتولّى «نائبَ سلطنة» وُصِّى بتفقّد العساكر، وعَرْض الجيوش، وإنهاضِها للخدمة ... ...(١) للوظائف مَنْ يليق بها، وتنفيذ الأحكام الشرعيَّة، ومعاضَدة حُكّام الشرع الشريف، وإجراء الأوقافِ على شُروط واقِفِيها، وملاحظة البلاد وعمارتها، وإطابةِ قلوب أهلِها، والشَّدّ من مباشِرى الأموال، وتقويةِ أيديهم، ومُلازمةِ العَدْل، وعدَمِ الآنفكاك عنه؛ وتحصينِ ما لديه من القِلاع، وآستطلاعِ الأخبار والمطالعةِ بها، والعملِ بما يرِدُ عليه من المراسيم

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله «وآنتقائه» للوظائف الخ .

السلطانية، وأنّ ما أَشْكل عليه يستضيءُ فيه بالآراء الشريفة، والإحسان إلى الجند، وتعيين إقطاع مَنْ مات منهم لولده إن كان صالحا، ونحو ذلك .

وإن كان « نائب قلعة » وُصِّى بحفظ تلك القلعةِ، وعمارة ما دَعَتِ الحاجةُ إلى عِمَارته منها، والأخذِ بقُلوب من فيها، وجمعِهم على الطاعة، وأخذِ قلوبهم بالإحسانِ إليهم، وتحصينِها بآلات الحِصَار، وادّخار آلاتِ الحرب : من المَجَانيق والقِسِيّ وسائر الآلات : من السِّهام، واللَّبُوس، والسَّتائِر، وغير ذلك . وكذلك آلاتُ أرباب الصنائع، كآلات الحدّادين، وصُنَّاع القِسِيّ ومَنْ في معناهم مما يُحْتاج إلى عمله في آلات القلعة، والاعتناءِ بغَلْق(١) أبواب القلعة وفَتْحها، وتفقُّد متجدّدات أحوالها في كل مَسَاء وصَبَاح، وإقامةِ الحَرَس، وإدامة العَسَس، وتعرُّف أخبار المجاورين لها من الأعداء، وإقامةِ نُوَب الحَمَام بها، والمطالعةِ بكل ما يتجدّد لدَيْه من الأخبار .

وإن كان «وزيرا» وُصِّى بالعدل وزيادةِ الأموال وتَثْميرها، والإقبال على تحصيلها من جهات الحِلّ، واختيار الكُفَاة الأمناء، وتجنُّب الخَوَنة، وتطهير بابِه، وتسهيل حجابِه، والنظر في المصالح، وأنه لا يستَبْدِل إلا بمَنْ ظهر لديه عجزُه أو خيانتُه، والنظرِ في أمر الرواتب وإجرائها على أربابها .

وإن كان «كاتبَ سِرّ» وُصِّى بالاهتمام بتلقى أخبارِ الممالك وعَرْضِها على المواقف الشريفة، والإجابةِ عنها بما تبرُزُ به المراسيمُ الشريفةُ، وتعريف النوّاب في الوَصَايا التي تُكتَب في تقاليدهم عن المَوَاقف الشريفة ما أَبْهَمَ عليهم، ويبيِّنُ لهم ما يقفُون

(١) جرى على اللغة القليلة والكثير الشائع إغلاق فتنبه .

عند حدّه ، والنظرِ فى تجهيز البَريد والنَّجّابة(١) ، وما يُبعَث فيه من المصالح وينَفَّذ فيه من المهِمّات والقُصّاد، ومعرفةِ حقُوق ذَوِى الخدمة والنَّصيحة، وإجرائِهم فى رُسُوم الرواتب وعوائد البر والإحسان علىٰ أتَمّ العوائد ، وتأليف قلوبهم ، والأخذِ بخواطِرِهم ؛ والنظرِ فى أمر الكَشّافة والدَّيَادِب والنظّارة والمَنَاوِر والمُحرِقات وأبراج الحَمَام ؛ وصرفِ نظره إلىٰ رسل المُلُوك الواردة ، ومعاملتِهم بالإكرام ، والأخذ فى صَوْن سرّ المَلِك وكتمانه حتّى عن نَفْسه ، وضبطِ ألواح البريد ، والاحترازِ فيما تؤخَذ عليه العلامةُ الشريفة ؛ ومراعاةِ كُتّاب ديوان الإنشاء، والإحسانِ إليهم، وأن لا يَستكتبَ فى ديوانه إلا مَنْ علم صلاحَه لذٰلك وكفايتَه، ووثِقَ منه بكِتْمان السرّ كما يَثِق به من نَفْسه .

وإن كان « ناظر جيش » وُصِّى بالاحتياط فى أمر دِيوانه ، والوقوفِ علىٰ معالم هذه المباشَرة ، وجرائدِ الجند ، والإقطاعات ، وتحرير الكُشُوف والمحاسَبات ، واستيضاح أمر من يَموت من أرباب الإقطاعات من ديوان المواريث أو من المقدَّمين والنُّقَباء، والاحتراز فى أمر المربَّعات وجهاتِ الإقطاعات وما يترتَّب عليها من المناشير، والنظرِ فى أمر المقْطَعين : من الجُنْد، والعرَب، والتُّركُمان، والأكراد، ومن عليه تقْدِمةٌ أو دَرَك بلاد أو غير ذٰلك .

وإن كان «ناظر خاص» وُصِّى بالاحتياط لِديوانه، والأخذِ فى تحصيل أموال جِهاتِه وتَنْميتِها وتثميرِها، وزيادتِها وتوفيرِها ؛ والتحرُّز فيما يُرْفَع من حُسْباناتِها ، والاهتمامِ بأمر التَّشَارِيف والخِلَع ، وما يختصُّ بكل وِلاية وغيرها من التَّشاريف ،

(١) جارى العامة فى هذا الاستعمال .

وما جرتْ به العادةُ من الهدايا المُحضَّرة إلىٰ ملوك الأقطار ، والأخْذ فى ذٰلك كلِّه بالحظِّ الأوفىٰ للديوان السلطانىّ ، وما يجرى مجرىٰ ذلك .

وإن كان «مستوفىَ صُحْبة» وُصِّى بإلزام الكُتَّاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها ، وعمل المكلَّفات وتقدير المِساحات ، وتمييزِ ما بينَ تسجيل الفُدُن فى كل بلدٍ بحسَب ما يصلُح لها من الزِّراعة ، وتمييزِ قِيَم بعضها علىٰ بعضٍ ، ومستجِدِّ الجرائد ، وما يقابَل عليه من ديوان الإقطاعات والأحْباس وغير ذٰلك .

وإن كان «ناظرًا لخزانة الخاص» وُصِّى بتحصيل مايُحتاج إليه لتفصيل الخاصّ وتشاريفِ أربابِ السيوف والأقلام : العَرَبِ ، والتُّرْكمان ، والأكرادِ ، وغيرهم ؛ وهَدايا المُلوك وما يجرى مَجْرىٰ ذلك : من العَتَّابىّ والأطْلَس ، والمُشَربَش ، والمُقَنْدَس والمَتَمَّر ، والطِّرازات علىٰ اختلافها : من الزَّرْكش ، والباهى ، وأنواع المستعملات ، وما يحمَل من دارِ الطِّراز ، وما يُبتاع للخزانة العالية ، وما هو مُرْصَد لها من الجهات التى يحمَل إليها متحصِّلُها : ليُنفَق فى أثمان المَبيعات ومصروفِ المستعْمَلات ، والاحترازِ فيما يُنْفق من الأثمان وقِيمة المُبْتاع ، وشهاداتِ الرسائل المكتتبة إليه بالحمول وما يكتب بها من الرَّجَعات ، وأن يحصِّل كلَّ شىء هو بصَدَد الحاجة إليه قبلَ الاحتياج .

وإن كان « قاضيا » وُصِّى بالتروِّى فى أحكامه قبل إمضائها ، وأن يراجعَ الأمرَ مرَّةً بعد أُخرىٰ ، واستشارةِ أهل العلم ، والرُّجوع إليهم فيما أَشْكل عليه ، واستخارةِ اللهِ تعالىٰ قبل الإقدام علىٰ الحكْم ، والقضاءِ بحقِّ الخصم بعد وُضُوحه ، والتسجيل له به ، والإشهادِ علىٰ نَفْسه بذٰلك ، والتسويةِ بين الخُصوم حتّٰى فى تقسيمِ النظَر إلىٰ الخصمين ، والتحرِّى فى استيداء الشهادات ، وأن لايقبل من الشهود الا من عُرِف

بالعَدَالة : من رَبِّ قلم أو سيف، والتنقيب عما يصدر من العُقُود، ولا يعوّل من شهود القِيمة إلا علىٰ كل عارف بالقِيَم خبيرٍ بها، والنظرِ في أمر الرُّسُل والوُكَلاء، والنظرِ في أمور أهل مَذْهَبه، والاعتناءِ بشأنهم .

ويزاد «الشافعيّ» التوصيةَ بالنظر في دعاوىٰ بيتِ المال ومُحاكماته ، والاحتراز في قضاياها ولا يُقبلُ فيها بينةٌ لوكيل بيت المال فيها مَدْفَع ، ولا يُعمَل فيها بمسألة ضعيفةٍ ، والنظرِ في أمر أموال الأيتام وأمر المتحدِّثين فيها بالإحسانِ إليهم ، وكذلك أموالُ الصدَقات الجارية تحتَ نظرِه، والتيقُّظ لإجرائها علىٰ السَّداد في صَرْفها في وجوه استحقاقها ، وأن لايَعمل في مسألة تفرَّد بها مذهَبُه إلا بما نَصَّ عليه إمامُه أو كان عليه أكثرُ أصحابه ، ولا يَعْتَمِد في ذٰلك مرجُوحا ولا ما تَفرّد به قائلُه ، وأن لايولي في البَرّنائبا الا مَنْ عُرِف استحقاقه وأهليته لما يتولّاه .

ويُزاد «الحَنفيّ» الوصيةَ بالعمل بما اقتضاه مذهَبُه من الأمور التي فيها صَلاحُ لكثير من الناس: كتَزْويج المُعْصِرات، وشُفْعة الجِوار، ونَفَقة المعتدَّة البائن، وعدم سَماع بيِّنة الإعسار الّا بعد مُضيّ المدّة المعتبرة في مَذْهَبه ، والإحسانِ إلىٰ مَنْ ضَمّه نِطاق ولايته ممن نَزَح إليه من أهل الشَّرْق وأقاصي الشِّمال .

ويُزاد «المالكيّ» الوصيةَ بالتحرّي في بيِّنات الدِّماء، والإعذار إلىٰ الخَصْم ليُبدِيَ مالدَيْه من دافِع ، والعملِ بما تفرّد به مذْهَبُه مما فيه فُسْحة للناس : كالثُّبوت بالشهادة علىٰ الخط، وولايةِ الأوصياء، وإسقاط الرَّيْع في الوقف المستَرَدّ بعد البيع، والإحسانِ إلىٰ مَنْ لديْه من غُرَباء أهل مَذْهَبه، لاسيَّما مَنْ أتاه من بلاد المغرب .

ويزاد « الحنبليّ » الوصيةَ بالاحتياط في بيعِ مادَثَر من الأوقاف والاستبدال بها، ورعايةِ المصلحة في ذٰلك لأهل الوقف بما أمكن، والفَسْخ علىٰ من غاب عن زوجته

الغَيْبَةَ المستوجبة للفسخ عندهم ، ووقْف الإنسان علىٰ نفسه ، وأمرِ الجوائح التى يحصل بها التخفيف عن ضُعَفاء الناس ، والمُعامَل علىٰ الزرع بالحرث ونحوه ، وغير ذلك مما يجرِى هذا المَجْرىٰ ، والوصيةِ بأهل مذهبه الذين هم أقلُّ المذاهب عِدَّةً وأنزَرُهم وظائفَ وأوقافا ، ومعاملتِهم بالإحسان .

وإن كان « قاضِىَ عسكر » وُصِّى بنحو ما يوصَّى به [القاضى] وأن يتخذ معه كاتبًا يكتب للناس ، وأن يقبل من الجُنْد من كان ظاهرُه العدالَةَ ، فإنَّ الشُّهود المُعَدِّين لتحمُّل الشهادة يعِزُّ وجودُهم فى العسكر ، وأن يكون له منزِلٌ معروف يُقْصَد فيه إذا نُصبت الخيام ، وأحسن ما يكون ذٰلك عن يمينِ الأَعْلَام السلطانية ؛ وأن يكون مستَعِدًّا للأحكام التى يكْثُر فصْلُها فى العسكر : كالغنائم ، والشَّرِكة ، والقِسْمة ، والمَبِيعات ، والردّ بالعَيْب ؛ وأن يُسْرِع فى فصل القضاء بين الخُصوم : لئلا يكون فى ذٰلك تشاغُل عن مَوَاقع الحرب ومقَدِّماته ، وغيرِ ذٰلك مما يجرى هذا المجرىٰ .

وإن كان « محتَسِبا » وُصِّى بالنظر فى أمر المَكَاييل والمَوَازين وسائر المَقَادير ، والتحذيرِ من الغِش فى الطعام والشَّراب ؛ وأن يتعرَّف الأسعار ، ويستعلم الأخبار فى كل سُوق من غير علم أهله ؛ وأن يقيم على الأسواق وأرباب المَعَايِش من ينُوب عنه فى النظر فى أمورهم من الأُمناء المأمونِين ؛ وأن لا يمكن أحدًا من العَطَّارين من بيع غرائبِ العَقَاقير إلا ممَّن لا يُستَراب به بخط متطبب لمريض ؛ وأن يمنع المتحيلين علىٰ أكل أموال الناس بالباطل : من الطُّرُقِيَّة (١) وأهل النِّجامة وسائرِ الطوائف المنسوبة إلىٰ بنى ساسانَ من تعاطِى ما يتعاطَوْنه من ذٰلك ، ويقمَعَهم ويَحْسِمَ مادَّتهم ، والتصدِّى للأمر بالمعْروف والنهى عن المنكر ، والمنعِ من الغِش

(١) أى المنجمين الذين يدّعون معرفة المغيبات بمقتضى النظر فى النجوم .

وإخبار المشترِي بأزيدَ ممـا آشترىٰ به ، والنظر فى أمر فُقَهاء المكاتب والعالمـات من النساء، ولا يمكن منهم أحدا [أن] يتعاطى ذلٰك إلا من عُرِفت أمانَتُه، وأُثِرت صيانَتُـه ، وأن لا يستنيبَ إلا أهـلَ العِفَّة والأمانة والنَّزاهة ممن بَعُدَ عن الطمَع ، ونأىٰ عن مَطاعِمِ السُّوء .

وإن كان «وكيلَ بيتِ المال» وُصِّى بالعمل بالشرع الشريف فى جميع أحكامه ، وأنَّ مَنْ مات وله ورثة تَستوعبُ ميراثَه لا يكلِّفهم ثُبُوتا فيه تعنتٌ ومدافعةٌ عن حقهم، والتَّشديدِ فى أمر من كانت قِصَّته منْكَرة ، والتحرُّزِ من شهود الزُّور فى مثل ذلك ، وأن يرجِعَ فى كل ما يُبَـاع ويؤجَّر إلىٰ العوائد ، وأن يَتحرّز فى شهادة شُهود القِيمة ، ولا يَرجِعَ فيها إلا لمن يُوثَقُ به ممن يكون عنده معرفةٌ بقِيَم الأشياء ، ويَنَبَّه علىٰ أنَّ له أن يدَّعِيَ بحق المسلمين حيث شاءَ عند من يشاء من أصحاب المَذَاهب ، وأنَّ الدعوىٰ عليـه لا تكون إلا فى مجلس الحكم العزيز الشـافِعِيّ ، علىٰ ما جرتْ به العادةُ القـديمة ، والآحتياطِ فى حقِّ بيت المـال ، ولْيَختَرْ للآستنابة فى الأعمـال من يصلُح لذٰلك .

وإن كان «مدرّسا» وُصِّيَ بأن يُقْبِل علىٰ جماعة درسه بطَلَاقة وجْه ، وأن يستميلَهم إليه جُهْدَ آستطاعته ، ويُرَبِّيَهم كما يرَبِّى الوالدُ ولدَه ، ويستحسنَ نتائِجَ أفكارهم التى يأتونَ بها فى درسه ، ويقدّمَ منهم من يجب تقديمُه ، ويُنْزِل كلَّ واحد منهم منزلَتَه ، ليهُزَّهم ذلٰك إلىٰ الإكباب علىٰ الآشتغال والآزدياد فى التحصيل . ثم يأتى [فى] كل مدرّس بمـا يناسبه من أمور العلم الذى يدرّس فيه إن كان يدرّس فى علمٍ خاصٍّ .

وإن كان « خطيبا » وُصِّيَ برعاية حقِّ رُتبـة الخَطَابة والقيـام بحق ازدواجها ، وأن يأتى من المواعظ بمـا يَقْرَع الأسماع بالوعد والوعيد ، ويُلِينُ القلوبَ القاسية ،

وأن يُعِدّ لكل مَقامٍ يقومه مقالًا يقوله، وأن يخفِّف الخُطبة، ويأتىَ بها بليغةً مفهومة، إلىٰ غير ذٰلك من متعلِّقات الخَطَابة .

وإن كان «شيخَ خانقاه» وُصِّى بالاجتهاد فى العبادة، والمشيِ علىٰ طريق السَّلَف: من الزُّهد، والورَع، والعَفَاف؛ وأن يأخذ جماعته بمآخذه فى الأمور؛ وأن يعرِفَ لجماعة مكانه حقُوقَهم الواجبةَ لهم ويُنزِلهم منازِلَهم خصوصًا أُولى السابقةِ منهم، ويأخُذَ فى الرفق بهم ومُداراتهم، مع ترتيب من آستَجَدّ منهم، وإجرائهم علىٰ طرائِق الصُّوفيَّة، وتعريفِهم الطريقَ إلىٰ الله تعالىٰ، وتدريج المُريدين علىٰ قَدْر ما تحتمله أفهامُهم، دونَ أن يهْجُم عليهم من أحوال الطريق بما لاتحتمله عُقُولهم . و[اتباع] سبيل الكتاب والسُّنَّة اللَّذيْن من حاد عنهما ضَلَّ، ومن خرج عن جادّتهما زَلّ، وكَفِّهم عن آرتكاب البِدَع والجَرْى علىٰ مِنهاجها؛ ومن أتىٰ ذنبا فخُذْه بالتوبة والآستغفار؛ والإنكار علىٰ من أخَذ فى الشَّطَحات، والخروج عن قانون ظاهر الشريعة، ومَنْع من نحا هذا النحوَ أو جرىٰ علىٰ هذه الجادّة، والإحسان إلىٰ من يَقْدَم عليه من الآفاق، وحُسْن التلقِّ له، وإكرام نُزُله بعد أن يَعَجِّل له بالإذن، والأمر بأخذ عُكَّازة، وفَرْش سَجَّادة، وما ينخرِط فى سِلك ذٰلك .

وإن كان «رئيسَ الأطباء» وُصِّى بالنظر فى أمر طائفتِه، ومعرفةِ أحوالهم، ويأمُر المعالِج أن يعرف أوّلا حقيقةَ المرض وأسبابَه وعلاماته، ثم ينظر إلىٰ السِّن والفَصْل والبلد، وحينئذ يشْرَع فى تخفيف الحاصل، وقَطْع الواصل، مع حِفْظ القوّة؛ وأن لايُهاجِم الداء، ولايستغرب الدواء، ولا يُقْدِم علىٰ الأبدان إلا مايُلائمها، ولا يخرُج عن عادة الأطباء ولو غلب علىٰ ظَنِّه الإصابةُ حتّىٰ يتبصَّر فيه برأيِ أمثاله؛ ويتجنبُ الدَّواء، ما أمكنَتْه المعالجة بالغِذاء، والمركَّبَ ما أمكنته المعالجةُ بالمفرد؛

ويتجنب القياس إلا ماصحّ بتجريب غيره فى مثل من أخذ فى علاجه، وما عرض له، وسِنّه، وفصلِه، وبلده، ودَرجة الدواء؛ وأن يحذر التجربةَ فإنها خَطَر، مع الاحتراز فى المقادير والكيفيات، وفى الاستعمال والأوقات، وما يتقدّم ذٰلك الدواء أو يتأخّر عنه؛ ولا يأمر باستعمال دواء ولا مايُستغرب من غذاء حتّى يحقّق حقيقتَه، ويعرف جديدَه من عتيقه، ليَعرف مقدار قُوّتِه فى الفعل .

وإن كان «رئيس الكَحّالين» وُصّى بالنظر فى حال جماعتِه أيضا، ومعرفةِ أحوالهم، وأن لايُصَرِّف منهم إلا من عُرِف بحُسْن المُداراة والملازمةِ فى العِلاج، ويأمر كُلًّا منهم أن لايُقْدِم علىٰ مداواة عينٍ حتّى يعرِف حقيقةَ المرض، وأن يُلاطفَها بما يناسِبُها من الغِذاء، وأن يتخيّر من الكُحْل ما فيه شفاءُ العين وجِلاءُ البصر، وأن يستشيرَ الأطباءَ الطبائعيَّة فيما أهَمَّ، ممّا لايُستغنىٰ عن رأى مثلِهم فيه، من تخفيف المادَّة بالاستفراغ أو نَقْص دمٍ أو غير ذٰلك .

وإن كان «رئيس اليهُود» وُصّى بضَمّ جماعته، ولَمِّ شَمْلهم، والحكمِ فيهم بقواعِد مِلّته، والنظرِ فى أمور الأنكحة عندهم، وما يعتبَر عندهم فيها علىٰ الإطلاق، وما يَفْتقِر إلىٰ الرضا من الجانبين فى العَقْد والطّلاق، والنظر فيمن أوجبَ حكمُ دِينه عليه التحريم، والتوجُّه فى صلاتهم تِلقاءَ بيت المَقْدِس إلىٰ جهة قِبْلتهم، وإقامةِ حدود التوراة علىٰ ما أنزل اللهُ تعالىٰ من غير تحريفٍ ولا تبديلٍ للكلمة بتأويلٍ ولا غيره، وٱتباع ماأَعطَوْا عليه العهدَ مع إلزامه لهم [ما التزموه] من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين أُقِرُّوا فى دار الإسلام علىٰ الصَّغار والإذعان لأهل الإسلام، وعدَمِ مضايَقتِهم للسلمين فى الطُّرُق، وتميزِهم بشِعارهم فى الحَمّام، كى لايحصُل اللَّبْس بالمسلمين، وحمل شِعار الذمة علىٰ رُءُوسهم : وهى العمائم الصُّفْر، ويأخذهم بتجديد صَبْغه فى كل حين، وعدم التظاهر بما يقتضى المناقضة : من ذكر الله تعالىٰ أو رسوله صلى الله عليه وسلم

بسُوء، أو إظهار الخمر أو معتقدِهم فى العُزَيْر عليه السلام . وله أن يرتِّب طبقاتِهم على ماتقتضيه مراتبهم عنده، وكذلك له التحدُّث فى كنائس اليهود المستمرَّة إلى الآنَ بأيديهم، من حين عَقْد الذمَّة، من غير تجديد متخرِّبٍ، ولا فِعل مالم تُعقَد عليه الذمَّة ويقرّهم عليه السلَفُ الأوّل .

وإن كان « بَطْرَك النصارى المَلكانيَّة » وُصِّى بما عليه بِناءُ شِرْعته من المسامحة والاحتمالِ والصَّبْر على الأذى، وعدمِ الاكتراث به، وأخْذ نفسه بهذه الآدابِ؛ وأنه يُقَدّم المصالحةَ بين المتحاكمين إليه قبل فَصْلها على البَتِّ فإنه قاعدةُ دِينه المَسيحىِّ، ولم تُخالف فيه الملةُ الإسلاميَّة، وأنه ينَقِّ صدُورَ إخوانه من الغِلّ، ويتخلّق بكل خُلُق جميل، ولا يستكْثِرُ من الدنيا، ويتنزّه عن أموال جماعتِه والتوسُّلِ إلى أخذها، وأنَّ إليه أمْرَ الكنائس والبِيَع، وعليه أن يتفقّدها فى كلِّ وقت، ويرفع مافيها من الشُّبُهات، ويحذِّر رُهْبان الدِّيارات من جعلها مَصْيدةً للمال؛ وأن يتجنَّبوا فيها الخَلْوةَ بالنساء، ولا يُؤْوِى إليه أحدا من الغُرَباء القادمين عليه يكون فيه ريبةٌ، ولا يكْتُم ما اطلع عليه من ذلك عن المسامع الشريفة السلطانية، ولا يُخْفى كتابا يَرِد عليه من أحدٍ من الملوك، أو يكتُب له جوابا؛ ويتجنَّبُ البحر وما يَرِد منه من مَظانِّ الرِّيَب .

وإن كان « بَطْرَك اليَعاقِبة » قيل فى وصيته نحوماتقدّم فى وصِيَّة بطرك المَلكانيِّين، إلا أنه لا يقال : واعلَمْ أنَّك فى المَدْخل إلى شريعتك طريقُ الباب، بل يقال : واعلم أنك فى المَدْخَل إلى شريعتك قَسِيمُ الباب، ومساوِله فى الأمر والنهى والتحليل والتحريم . ويقال بدل قوله « وليتجَنَّب البحر » : « وليتوقَّ ما يأتيه سرًّا من تِلْقاء الحَبَشة » .

قلت : وهذه الوصايا مَدْخَل إلىٰ ما يرضىٰ به أصحابُ الولايات ممَّن تقدّم ذكره والأمر فى الزيادة والنقص فى ذلك بحسَب المناسبة راجعٌ إلىٰ نظر الكاتب . علىٰ أن المقرّ الشهابىّ ٱبنَ فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" عِدّة وَصايا ليست مما يُكْتَب الآنَ، فأضربنا عن ذكرِ مَقاصـدها هنا : لتُوردَ برُمّتها فى الكلام علىٰ ما يكتب فى متن التقاليد والتواقيع ونحوها، مع النسخ التى تُورَد هنـاك علىٰ صورة ما أوردها، ليُنْسَج علىٰ مِنوالهـا إن أُمِر بكتابة شىءٍ منها .

المقصـــــد الثـانى

(فى بيان مَقاصِد ما يُكتب فى الوِلايات، وفيه جملتان)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى بيان الرُّسوم فى ذلك، ومقادير قَطْع الورَق لكلِّ صِـــنْف منها علىٰ سـبيل الإجمـال)

وهى علىٰ أربعـــة أنواع :

النـــــوع الأوّل

(التّقـاليـــد)

جمع تَقْلِيــد . يقال : قلّدته أمرَ كذا إذا ولّيتــه إيّاه . قال الجوهرى : وهو مأخُوذ من القــلادة فى العُنُق ، يقــال قلّدتُ المرأة فتقلّدت ، قال : ومنه التقْليد فى الدِّين أيضا .

ثم التقاليــد تشتمل علىٰ طُرّة ومَتْن ، فأما الطرّة فقد أشار اليها فى "التعريف" بقوله : وعُنْوانُها «تقليدٌ شريفٌ لفلان بكذا» . وأوضح ذٰلك فى "التثقيف" فقال :

وصورتُه : ان يكتَب : تقليد شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المَقرّ الكريم ، أو إلىٰ الجناب الكريم ، أو إلىٰ الجنـاب العالى الأميرىّ الكبيرىّ ، الكافلىّ ، الفـلانىّ ، أعزّ الله تعـالىٰ أنصاره ، أو نُصرتَه ، أو ضاعفَ الله تعـالىٰ نعمتَه ، نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس ، أو بحلَبَ المحروسة ، أو بطرابُلُس المحروسة ، أو نحوها ، علىٰ أجمل العوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد علىٰ ما شُرِح فيه .

قلت : وتفصيل هذا الإجمال : إن كان المكتوبُ له التقليدُ هو النائبَ الكافلَ ، كُتِب فى طرّة تقليده : تقليدٌ شريفٌ بأن يفَوّض إلىٰ المَقرّ الكريم العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الكَفيلىّ ، الفلانىّ ، فلان الفلانىّ ، بلقب الإضافة إلىٰ لَقَب السلطان ، كالناصرىّ مثلا ، كَفالةُ السلطنة الشريفةِ بالممالك الإسلاميّة ، أعلاها الله تعالىٰ علىٰ أجمَل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد ، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليدُ بكفالة السَّلْطنة بالشام ، كُتِب : تقليـدٌ شريفٌ بأن يفَوّض إلىٰ المَقرّ الكريم العـالى ، الأمـيرِىّ ، الكبيرىّ ، الكَفيلىّ ، فلانٍ النـاصرىّ ، مثلا كَفَالةُ السـلطنة بالشام المحروس علىٰ أتمّ العوائد فى ذٰلك وأجمل القواعد ، علىٰ ما شُرح فيـــه .

وإن كان التقليد بنيابة السـلطنة بحَلَبَ ، كُتِب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجَناب الكريم العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ، فلانٍ الناصرىّ ، أعز الله تعالىٰ نُصْرتَه ، نيابَةُ السلطنة الشريفــة بحلَبَ المحروسة ، علىٰ أجمل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد ، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بنيابة طَرَابُلُس ، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى ، الأميرىّ ، الكبيرى ، الكافلىّ ، الفـلانىّ ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعفَ الله

تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفةِ بطرَابُلُس المحروسة، علىٰ أجمل العَوائد فى ذلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بحَمَاة، أُبْدل لفظ طَرابُلُس بحماة .

وإن كان بنيابة السلطنة بصَفَد، أُبْدل لفظ طَرابُلُس وحَماة بصَفَد، والباقى علىٰ ما ذُكِر فى طرابلس .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بغَزَّة ـ حيثُ جُعلت نيابةً ـ كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرى، الكافلىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفة بغَزَّة المحروسةِ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، علىٰ ماشُرِح فيه .

فإن كان مُقدّم العَسْكر كما هو الآنَ، أبدل لفظُ نيابة السلطنة الشريفةِ بلفظ « تَقْدِمة العسكر المنصُور » والباقى علىٰ ما ذُكِر .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك، كُتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفـلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفةِ بالكَرَك المحروس، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بالوِزَارة، كتب : تقليدٌ شريف بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى الصاحِبىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمته، الوزارةُ الشريفـةُ بالممـالك الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمورُ، علىٰ ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بكتابة السرّ، كُتِب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، القاضوِىّ، الكبيرى، اليمينِىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه، صحابةُ دواوين الإنشاء الشريفة بالممالك الإسلامية، أعلاها الله تعالىٰ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، بالمعلوم الشاهد به الدّيوان المعمور، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قُضاة الشافعيّة بالديار المصريّة، كُتب : تقليدٌ شريف بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، القاضوِىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ، فلان : أعزّ الله تعالىٰ أحكامَه، قَضاءُ قُضاة الشافعية بالديار المصرية، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمور، على ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قُضاة الحنفيّة، كتب كذٰلك، إلا أنه يُبْدَل لفظ الشافعية بلفظ الحنَفيّة .

وإن كان التقليد لأمير مكّةَ، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الشريفىّ، فلانٍ الفلانىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه إمْرةُ مكّةَ المشرّفةِ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، على ما شُرح فيه .

وإن كان بإمرة المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام، كتب كذٰلك إلا أنه يُبْدَل لفظُ مكّةَ المشرّفة بلفظ المدينة الشّريفة .

وإن كان بإمرة آل فَضْل، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ : أدام الله تعالى نعمتَه إمرةُ آل فَضْل، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، على ما شُرح فيه .

هــذه جملة ما عُهدتْ كتابتُــه من التقاليد المكتَتَبة من ديوان الانشاء بالأبواب الشريفــة، فإن حَدَث كتابةُ ما يستحقُّ أن يكْتَب له تقليــدٌ، كالأتابَكِيَّة ونحوها، كتب بالألقاب اللائقة بصاحبه .

ثم وراءَ ذلك أمران : أحدهما ـ أنه قد تقدّم نقلا عن "التعريف" أنه يكتَب فى العُنوان الذى هو الطرّة : «تقليدٌ شريفٌ لفلان بكذا» فإن كتب تقليدٌ بكَفَالة السلطنة مثلا، كتب : «تقليدٌ شريفٌ للمقرّ الكريم، العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ، بكَفَالة السلطنة الشريفة بالممـالك الإسلامية، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، على ما شُرِح فيه» .

الثانى ــ أنه اقتَصَر فى "التثقيف" علىٰ قوله فى آخر الطرَّة، علىٰ أجمل العَوائد فى ذلك وأكمل القواعد، وليس الأمر منحصِرًا فى ذلك، بل لو عُكس بأن قيــل : تقليــد شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ فلان كذا، أو تقليدٌ شريف لفلان بكذا علىٰ أكمل القواعد واجمل العوائد على ماشُرح فيه، لكان سائغًا .

فإن كان صاحبُ التقليــد علِيَّ الرتبة : كالنائب الكافل، ونائِب الشام، ونائب حلَبَ، والوزيرِ، وكاتب السرّ، ونحوهم، كُتِب علىٰ أجمـل العوائد وأتمّها، وأكمل القَواعد وأعمِّها، أو بالعكس : بأن يكتب علىٰ أجمل العوائِد وأعمِّها، وأكمل القَواعد وأتمِّها، على ما شُرِح فيه .

وأما مَتْن التقليد، فقد قال فى "التعريف" إن التَّقاليدَ كلَّها لا تُفتتح إلا بالحمدلله وليس إلا، ثم يقال بعدها : أما بعْدُ، ثم يذكر ماسَنَح من حال الولاية وحال المُولَّى، وحُسْن الفكر فيمن يصْلُح، وأنه لم يرَ أحقَّ من ذلك المولَّى ويسمَّى، ثم يُقال مايُفْهم أنه

هو المقدّم الوصف أو المتقدّم إليه بالإشارة؛ ثم يقال: رُسم بالأمر الشريف العالى، المَوْلَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ (ويدعىٰ له) أن يقلَّد كذا، أو أن يفوّض إليه كذا، والأوّل أجلُّ؛ ثم يُوصىٰ بما يناسب تلك الولايةَ ممـا لا بدّ منه تارةً جُمْليًّا وتارة تفصيليًّا، ويَنَّبه فيه علىٰ تقوىٰ الله تعالىٰ؛ ثم يختَمُ بالدعاء للولّى، ثم يقال: وسبيلُ كل واقفٍ عليه العملُ به بعد الخَطِّ الشريفِ أعلاه.

قال: ولفُضلاء الكُتَّاب فى هذا أساليب، وتفنُّن كثيرُ الأعاجيب، وكلُّ مألوف غريب، ومَن طالع كلامهم فى هذا وجد ما قُلْناه، وتجلّى له ما أبهمْناه.

وذكره فى "التثقيف" بأوْضَح معنًى وأبيَن، فقال: ويُكتَب بعد الصَّدْر بخُطْبة مناسبة أوّلها الحمدُ لله إلىٰ آخرها، ثم أما بعْدُ، ويذْكُر ما يرىٰ ذِكرَه من حال الولاية والمولَّى، ويذكر آسمه، وهو أن يقال: ولما كان المَقرّ، أو الجنابُ، وألقابه ونعوته إلىٰ آخرها، ويُدْعىٰ له: أعزَّ الله أنصارَه أو نُصرتَه، أو نحوه، علىٰ ماجرتْ به عادتُه، ولا يُزاد علىٰ دَعْوةٍ واحدة؛ ثم يقال ما يُفْهِم أنه المرادُ بهـذه الأوصاف، أو المعنىّ بهـذه الإشـارة أو نحو ذٰلك؛ ثم يقـال: آقتضىٰ حُسْن رأينا الشريفِ، ويذكر ما يقتضى تكريمَـه وتعظيمه؛ ثم يقـال: فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العـالى، المولوىّ، السلطانى، المَلَكىّ، الفلانى (ويُدْعىٰ له بما يناسب الحال ثلاثَ دَعوات أو أربعـا) أن يُفَوّض إلىٰ المشار إليـه كذا؛ ثم يقال: فليتقَلَّدْ ذٰلك، أو فليتَلَقّ هـذا التفويض، أو نحو هذا؛ ثم يُوصّى بمـا يناسب تلك الولايةَ ممـا لا بدّ منه، ويحرص أن يَنَبِّه فيه علىٰ العمل بالتقوىٰ؛ ثم يُختَم بالدعاء للولّى بالإعانة والتأييـد ونحو ذٰلك ثلاثَ دعوات، وأكثرها أربع، وأقلُّها آثنتـان؛ ثم يقال: بعـد الخط الشريف شرفه الله تعـالىٰ وأعلاه أعلاه إن شاء الله تعالىٰ؛ ثم التاريخ

والمستَنَد، والحمدلَةُ، والحسْبَلةُ علىٰ العادة . ولم يَقُل فيه : وسبيلُ كل واقف عليه، كما قال فى "التعريف" .

وٱعلم أنَّ التقاليد علىٰ ٱختلافها لاتخْرُج فى مقادير قَطْع الورَق عن مِقدارَيْن :

الأوَّل — قطعُ الثلثين بَقَلم الثُّلُث الثقيل . وفيه يُكتَب لنُوّاب السلطنة بمصر والشام مطلقا، وكذلك الوزيرُ، والمشيرُ، وكاتبُ السر، وقاضى قُضاة الشافعية والحنفيَّة بالديار المصرية .

الثانى — قَطْع النصف بقلم الثُّلُث الخفيف . وفيه يُكتَب لذَوِى التقاليد من أُمَراء العرب : وهم أميرُ مكةَ المشرَّفة ، وأميرُ المدينة الشريفة، وأمير آل فَضْل من عَرَب الشام علىٰ ما تقدّم ذكره . ولا يُكتَب من التقاليد شىءٌ فيما دُونَ هذا المِقدار من قَطع الوَرق بحال . وسيأتى الكلام علىٰ نُسَخ التقاليد فيما بعدُ، إن شاء اللهُ تعالىٰ .

النـوع الثـانى

(ممـا يُكتَب فى الولايات السلطانية المراسـيمُ)

جمع مَرْسوم، أخذًا من قولهم : رَسَمْت له كذا فارتَسَمه إذا ٱمتثله ، أو من قولهم : رسم علىّ كذا إذا كتب، ويحتمل أن يكون منهما جميعا .

وهى علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(المراسـيم المكبَّرة)

ولم يتعرّض لها المَقَرّ الشِّهابىّ ٱبن فضل الله فى "التعريف" لأنها لم تكن مستعملةً فى زمنه وإنمـا حَدَثَت بعده .

قال فى "التثقيف": وهى علىٰ نمط التقاليد ليس بينهما اختلافٌ إلا فى أمرين: أحدهما ـ أنه لا يكتب شىءٌ من المراسيم فى قَطْع الثلثين بل فى قَطْع النصف أو الثلث. الثانى ـ أنه لا يقال فيها «تقليدٌ شريفٌ» بل «مرسومٌ شريف».

قلت: ويفترقان من أربعة وجوه. أحدها ـ أنه يقتصر فى طُرّة المرسوم علىٰ «الأميرى» دُونَ «الكبيرى» بخلاف التقاليد فإنه يقال فيها «الأميرىّ الكبيرىّ». الثانى ـ أنه يقال فى المرسوم: «أن يستقِرّ» ولا يقال: «أن يفوَّض» ولا: «أن يُقلَّد». الثالث ـ أنه لا يقال: «علىٰ أجمل العَوائد وأتمّ القَواعد» بل يقال: «علىٰ عادة مَنْ تَقدّمه وقاعدتِه». الرابع ـ أنه لا يقال فى الصَّدْر: «أما بعد» بل «وبَعْد».

قال: وهى تختص بنُوّاب القِلاع المنصورة بالممالك الإسلامية، وأمراءِ العُرْبان أو مَنْ[(1)] بالشام وحلَبَ، وشادّى مراكز البريد وغيرهم.

ثم هى علىٰ طبقتين:

الطبقة الأُولىٰ ـ ما يُكتَب فى قَطْع النصف بقلم خفيف الثلث. وذٰلك للنوّاب بالقلاع: من مقدّمى الأُلوف والطَّبْلَخانات: كنائب حِمْص، والرَّحْبَة، والبِيرة، وقلعة المسلمين، ومَلَطْية، وطَرَسُوس، وأَذَنَةَ، وبَهَسْنَىٰ، والفُتوحات الجاهانيّة وغيرها ممن يكتَب له المجلِسُ العالى والسامىّ بالياء أو بغير ياء علىٰ ما تقدّم بيانُه فى المكاتَبات إليهم. وكذٰلك بعضُ أمراء العُرْبان وهم أميرُ آل عَلىّ، وأمير آل مِرا، وأمير بنى عُقْبَة. قال فى "التثقيف": وصورة مايكتَب فى الطرّة أن يكتب:

(1) لعله ممن بالشام الخ. تأمل.

« مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى أو السامىّ الأميرىّ ، الفلانىّ ، فلان (ويدعىٰ له بما يناسبه) فى النيابة فى الجهة الفلانية علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه علىٰ ما شُرِح فيه » .

فإن كانت النيابة تقْدِمةَ ألف : كنيابة الرَّحْبة ونحوها ، كُتِب فى طرّة مرسومِ نائبها : « مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى الأميرىُّ الفلانىّ فلان ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه ، فى المكان الفلانىّ علىٰ عادةِ مَنْ تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه » .

وإن كانت النيابة طَبْلخاناه كتب : « مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان ، أدام الله تعالى تأييدَه فى النيابة بمكان كذا ، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » ، أو كتب : « مرسوم شريفٌ أن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان الدين فلان ، أدام الله تعالى تأييدَه فى النيابة بمكانِ كذا ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه » .

وإن كانت نيابةَ قلعة دِمَشْقَ ، كتب : « مرسومٌ شريف بأن يستقرّ المجلسُ العالى ، الأميرىُّ ، فلانٌ ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه فى النيابة بالقلعة المنصورةِ بدِمشْق المحروسة ، علىٰ عادةِ من تقدَّمه فى ذٰلك وقاعدتِه ، علىٰ ماشُرِح فيه » . وكذلك كلُّ قلعة بحسب ألقاب نائبها التى يُكاتَب بها .

ثم يُكتَب فى الصَّدْر بعد البسملة خُطبةٌ مفتَتحة بالحمدُ لله ، ثم يقول : وبعدُ ، ويأتى بنحو ما تقدّم ذكرُه فى التقاليد ، ثم يقال : ولما كان المجلسُ العالى أو السامىّ إلىٰ آخر ألقابه ، ثم يقال : فلان ، ويدعَىٰ له بما جرتْ به عادتُه ، ويقال مايُفْهَم منه أنه المقصودُ بما تقدّم ذكره من المدح والأوصاف السابقة ، ثم يقال : فلذٰلك رُسم

بالأمر الشريف إلىٰ آخره أن يَستقرّ المشارُ إليه فى كذا علىٰ عادةِ من تَقَدّمه فى ذٰلك وقاعدته، فلْيَتَلَقَّ ذٰلك ونحوه . ثم يُوصىٰ بمـا يناسب وظيفتـه التى تولّاها، ويختم بنظير ماتقدّم ذكره فى ختم التقاليد .

الطبقة الثانية — من المراسيم المكبَّرة مايُكتَب فى قطع الثلث بقلم التوقيعات . قال فى " التثقيف " : وصورتُه فى الطرّة والصـدْر علىٰ ما تقدّم فى الطبقة الأُولىٰ، إلا أن خُطبته تفتَتح بأمَّا بعدَ حمد الله، وتختَتم بما تقدّم ذكره . قال : وقد تكتب لنوّاب القِلاع من أمراء العَشَرات : مثل نائب بَغْراسَ، ونائب الدَّرْبَساك، ونائب كَرْكَر، ونائب الكَخْتَا، ونحوها . قال : وكذلك أربابُ الوظائف غير النِّيـابات، مثل شادِّ الدَّواوين بالشام وحَلَب، وشادّ مراكز البَرِيد بهما، ونحو ذٰلك، وبعض أمَراء العرب : كأمير بنى مَهْدِىّ، ومقدّم عَرَب جَرْم، ومقـدّم عَرَب زَبِيد علىٰ نُدْرة فيه . فإن كان المرسوم بنيابة من النيابات المذكورة وغيرها، كتب : «مرسومٌ كريمٌ بأن يسـتقرّ المجلس السامى، الأمـير فلان الدين أعزه الله تعـالىٰ، فى النيابة ببَغْراسَ، أو بالدَّرْبَساك، أو بكَرْكَر، وما أشبه ذٰلك علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بشدٍّ بالشام أو بحلَبَ، كتب : «مرسومٌ كريمٌ أن يستقرّ المجلس السامى، الأمير، فلان الدين : أعزه الله تعالىٰ فى شَدِّ الدواوين بالمكان الفلانى، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه علىٰ ماشُرِح فيه» . وإن كان بشَدِّ مراكز البَرِيد، أُبْدِل لفظ «شَدّ الدواوين» بلفظ «شَدّ مراكز البَرِيد بالمكان الفلانى» . وإن كان بإمرة بنى مَهْدِى، كتب : « فى إمرة بَنِى مهدىٍّ، علىٰ عادة مَنْ تقـدّمه وقاعدته » . وإن كان بتَقْدمة عرب جَرْم، كتب : «فى تقدِمة عرب جَرْم، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بتقدمة عرب زَبِيد، أبدل لفظ جَرْم بزَبِيد، وعلىٰ ذٰلك .

الضـــرب الثـانى

(من المَراسيم التى تكتب بالولايات المَراسيم المصغَّرة)

وهى ما يُكتب فى قَطْع العادة، وبها يُكتب لأرباب السيوف بالولايات الصغيرة مثل نظرِ الأوقاف ونحوهِ . وهى صنفان :

الصنف الأوّل — ما يُتْرك فيه أوصالُ بياضٍ بين الطُّرّة والبسملة، وهى أعلاها، ويُكتَب بالسامى بغير ياء أو مجلس الأمير :

وصورتها أن يكتب فى الطرّة : « مرسومٌ شريفٌ أن يَستقرّ المجلسُ السامى الأمير فلان الدين ، أو مجلس الأمير فلان فى كذا وكذا بما لذٰلك من المعلوم الشاهدِ به ديوانُ الوقف، أو نحو ذٰلك ، علىٰ ماشُرِح فيه» ثم يكتب فى الصَّدْر بعد البسملة ماصورته : «رُسِم بالأمر الشريفِ العالى، المولوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ» (باللقب الخاصّ ولقبِ السلطنة) ويُدْعىٰ له بما فيه براعةُ الآستهلال بذكْر الوظيفة أو آسمِ صاحبها أو لَقَبه ونحو ذٰلك ، وأقلُّها ثلاثُ فِقَرات فما زاد «أن يستَقِرّ المجلسُ السامى، الأميرُ، الأجل» (إلىٰ آخر ألقابه)، أو أن يستقرّ مجلسُ الأميرِ، الأجلِّ (إلىٰ آخر الألقاب) لما له من كذا وكذا (ويأتى من صفات المَدْح بما يُناسب المقام) ثم يقال : فليُباشِرْ ذٰلك، أو فليَتَلَقَّ ذلك ، أو فليقابل صدَقاتنا الشريفةَ بكذا ونحو ذٰلك . ثم يُوصَّى بما يليق به ، ويدْعىٰ له بدعوتين فقط ؛ ثم يقال : بعد الخط الشريف العالى أعْلاه الله تعالىٰ» .

قلت : وهذا الصِّنف إن رُوعِى صاحبُه، كتب فى قَطْع العادة المنصورىّ، وإلا ففى قطع العادة الصغيرِ . قال فى ”التثقيف“ : ومما ينبَّه عليه أنه لا يُكتَب

مرسومٌ شريفٌ فى قطع العادة إلا بمثل نِيابة الشَّقِيف بصَفَد[(١)] وصَرْخد وعَجْلُون والصُّبَيْبة ، فإنه لا يُولَّى فيها إلا مقدَّمُ حَلْقة او جنـدىٌّ ، ومثل هذا لا يكتب عن المواقف الشريفة إلا نادرا ، فإنَّ كُفَّال الممـالك يستبِدّون بالتولية فى ذٰلك .

الصنف الثـانى — ما يُكتب فى هيئـة ورقـة الطريق ، ويكونُ فى ثلاثة أوصال ، وصـورته أن يكتب فى الطرّة ماصورتُه : «مرسومٌ شريف أن يسـتقِرّ فلان ، أو أن يرتَّب فلان فى كذا وكذا ، علىٰ ماشُرِح فيه» ويكون ذٰلك فى سطرين ، ولا يكتب فى أعلاه الآسمُ الشريفُ كما يُكتب فى غيره : لأنـ من المعـلوم أنه لا يُكتب فى هذا إلا الآسم الشريف فيستغْنىٰ عن ذكره ، ثم يكتب فى آخر ذٰلك الوصل : «رُسِم بالأمر الشريف» علىٰ نحو ماتقدّم ، إلا أنه لا يُحتاج فى الدعاء إلىٰ مايكون فيه براعةُ آستهلال ، بل يكْفِى «أعلاه الله وشرفه ، وأنفذَه فى الآفاق وصرَّفه» ونحو ذٰلك «أن يَستقِرّ فلان فى كذا أو يرَتَّب فى كذا ، فليُعْتَمَدْ ذٰلك ويعمَلْ بحسَـبِه ومقتضاه ، بعد الخط الشريف أعْلاه الله تعالىٰ أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ» .

النـــوع الثـالث

(ممـا يُكتب فى الولايات السلطانية التفاويضُ)

جمع تَفْويض ، وهو مصـدر فوّض الأمْرَ إلىٰ زيد إذا ردّه إليـه ، ومنـه قوله تعالىٰ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَىٰ ٱللَّهِ ﴾ أى أَرُدُّه إليـه . قال فى "التعريف" : وبه يُكتب لعامَّة القُضاة ، يعنى ممن دُون أرباب التقاليـد ، وهى من نَمَط التقاليد ، غير أنها يقال فى تعريفها « تفويضٌ شريفٌ لفلان بكذا » . ومقتضىٰ ماذكره أنه إذا

---

(١) لعله وصفد بواو العطف . تأمل .

كتب « تفويضٌ شريفٌ بقضاء قُضاة الديار المصرية مثلا » يكتب فى الطُّرّة : « تفويضٌ شريفٌ للجاس العالى ، القاضَوِىّ ، الكَبِيرِىّ ، بقضاء قُضاة المالكيَّة بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العَوَائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمور علىٰ ما شُرِح فيه » ثم يأتى بنحو ما تقدّم ترتيبُه فى التقاليد ، إلا أنه يكون أخصَرَ .

قلت : ولم أقِفْ علىٰ نسخةٍ تفويض غيْرَ نسخةٍ واحدةٍ من إنشاء المقرّ الشهابىّ ٱبن فضل الله لبعض قُضاة دِمَشْقَ . وقد أنشأتُ أنا تفويضًا بقضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية لقاضى القُضاة جمالِ الدين يُوسف البِسَاطىّ ، حين وُلِّىَ علىٰ أَثَر ولاية قاضِى القُضاة جلالِ الدين البُلْقِينِىّ (١) قضاءَ قُضاة الشافعيَّة ، ٱفتتحتُه بلفظ : «الحمدُ لله الذى شَفَع جَلال الإسلام بجَمَاله » وكتبت له به ، وكتبت فى طرّته : «تفويضٌ شريف للمجلس العالى ، القاضَوِىّ ، الجَمَالِىّ ، يوسُفَ البِساطىّ المالكىّ ، أعز الله تعالىٰ أحكامَه بقضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العَوائد ، وأكمل القَواعد ، علىٰ ما شُرِح فيه » . وقرأته بالمجلس العامّ بالمدرسة المنصورية . وسيأتى ذكر نسختِه فى الكلام علىٰ النُّسَخ فى المَقْصِد الثانى من هذا الطَّرَف ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) بُلْقِينة بضم الباء وسكون اللام وكسر القاف كما فى المعجم والقاموس .

النــــوع الرابع
(التواقيــع ، جمعُ توقيــع)

قد تقدّم فى مقدّمة الكتاب عن ٱبن حاجب النُّعمان فى ذخيرة الكُتّاب: أنّ التوقيع معناه فى اللغة التأثيرُ الخفيف ، ومنه قولهم : ناقةٌ موقَّعــةُ الجَنبة(١) اذا أثّر فيها الرَّحْلُ تأثيراً خفيفًا ، وأنه يحتملُ غيرَ ذلك . وفى ٱصطلاح الأقدمين من الكُتّاب أنه ٱسم لما يُكتَب فى حواشى القِصَص بخطّ الخليفة أو الوزيرِ فى الزمن المتقدّم ، وخط كاتبِ السِّرّ الآنَ ، ثم غَلَب حتّى صار عَلَمًا علىٰ نوعٍ خاصٍّ ممـا يُكتَب فىالولايات وغيرها . قال فى "التعريف" : وهى علىٰ أُنْموذَج التفاويض . قال : وقد يقال : أن يرتَّب ، وأن يقــدّم ، ثم قال : وعُنوانها « توقيعٌ شريفٌ لفلان بكذا » ولا يقال فيها علىٰ ٱختلافها : «وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه» كما فى التقاليد ، بل يقال : «فليُعتَمَدْ ما رُسِم به فيه بعد الخطّ الشريفِ أعلاه» . وقد ذكر فى "التعريف" أنها تكون لعامّــة أرباب الوظائف جليلِها وحقــيرِها ، وكبيرِها وصغيرِها ، حتّى الطبلخانات اللاحقين بشَأْو الكِبار فَمَن دُونَهم . وقال فى "التثقيف" : إنها مختَصَّــة بالمتعمِّمين من أرباب الوظائف الدينيَّة والدِّيوانيــة ، ولا يُكتَب لأرباب السيوف منها إلا القليل : مثل نظر البِيمارَسْتان ، ونظر الجامع الجديد ، ونظر الحَرَمين الشريفين ، يعنى حَرَم القُدُس وحَرَم الخليل عليه السلام .

قلت : والجامع بينَ كلامَيْهما أنه فىزمن صاحب "التعريف" كانتِ التواقيعُ تُكتَب بالوظائف لأرباب السُّــيُوف من النِّيابات وغيرها قبــل أن تُحدَثَ المراسيمُ المكبَّرة المقدّمة الذكر ، ثم خُصَّت التواقيعُ بعــد ذلك بالمتعمِّمين دُونَ أرباب

---

(١) الجنب والجانب والجنبة محركة شق الانسان . قاموس .

السيوف . ومضىٰ الأمرُ علىٰ ذٰلك فى زمن صاحب "التثقيف" يجرىٰ علىٰ حكمه ولم يبقَ ممن يكتب له توقيعٌ من أرباب السيوف سِوىٰ نُظّار الجهات الثلاث المتقدّمة الذّكر : من البيمارَسْتان المنصورى، والجامع الجديدِ الناصرىّ بمصر، ونظر الحرَمَيْن : حرمِ القُدُس الشريف، وحَرَمِ الخليل عليه السلام . والحكمُ باق علىٰ ذٰلك إلىٰ الآنَ .

ثم التواقيع علىٰ آختلافها لا تخرُج عن أربع طبقات :

الطبقة الأولىٰ

(ما يفتتح بخُطْبة مفتَتَحة بالحمد لله، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولىٰ — ما يكتَب فى قَطْع النصف بقلم خفيفِ الثُّلُث . قال فى "التثقيف" : وصورتُه يعنِى مايكتَبُ به لأرباب الأقلام أن يكتَب فى الطرّة : « توقيعٌ شريفٌ بأن يفوّضَ إلىٰ المجلس العالى، القاضوِى"، الكبيرى"، الفلانى" (ويُدْعىٰ له دعوةً واحدة) بما جرت به عادتُه (١)، علىٰ أجمل العوائد، وأكملِ القواعدِ، بالمعلوم الشاهِد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخروقتٍ على ماشُرِح فيه » .

قال : فإن كان حاكمًا، كُتب له بعد الكبيرىّ، الحاكمىّ . وإن كان كاتب السرّ، كتب له بعد الكبيرى"، اليَمينى، لاغير . ثم يكتب فى الصدر خُطْبة مفتَتَحة بالحمد لله ثم يقال : أما بعدُ، والتَّتمة على نظير ما ذُكر فى التقاليد إلا فيما يليق بالوظيفة والمتولِّى لها ممّا يناسِبُ الحال . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان يكتب بذٰلك للقُضاة الأربعة بالديار المصرية، والقُضاة الأربعة بالشام، وكاتبِ السرّ بمصر

(١) لم يذكر المفوّض به إليه للعلم به من نظائره والأصل أن يفوض الى المجلس ... ... نظر الجامع الجديد الناصرى مثلا بما جرت به الخ فتنبه .

والشـام ، وناظرِ الجيش بهـما ، وناظر الدواوين المعمورةِ والصُّحْبة الشريفـة ، وهو ناظرُ الدولة .

وحينئذ فإن كتب بذٰلك لقاضى القُضاة الشافعيَّة بالديار المصرية علىٰ ما كان الأمرُ عليـه أوّلا ، كتب فى الطرّة « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقِرَّ المجلس العالى ، القاضوىُّ ، الكبيرىُّ ، الفلانىّ ، فلان : أعزّ الله تعالىٰ أحكامَه ، فى قضاء قُضاة الشافعيَّة بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العوائِد وأتمِّها ، وأكمل القواعِد وأعمِّها ، بما لذٰلك من المعلوم الشاهد به الديوانُ المعمور ، علىٰ ما شُرِح فيه » .

وإن كتب به لقاضى القُضاة الحنفيَّة ، علىٰ ما كان الأمرُ عليه أوّلا أيضا ، كتب له نظير قاضى القُضاة الشافعية إلا أنه يُبْدَل لفظ الشافعية بـ«الحَنفيَّة» .

وإن كُتب لقاضى القُضاة المالكية ، علىٰ ما الأمر مستقرٌّ عليه الآنَ ، كتب له كذٰلك ، وأبدل لفظ الشافعية والحنفية بـ«المالكيَّة» .

وإن كُتب لقاضى القُضاة الحنابلة فكذٰلك ، ويقال فيه «الحَنَابلة» .

وإن كتب به لأحدٍ من القُضاة الأربعـة بالشام ، فكذٰلك ، إلا أنه يقال قضاء قُضاة الشافعيَّة أو الحنفية أو المالكية أو الحنابلة بالشَّام المحروس .

وإن كتب به لكاتبِ السرّ علىٰ ما كان الأمرُ عليه أوّلا ، كتب : « توقيع شريفٌ بأن يُفَوّض إلىٰ المجلس العـالى ، القاضَوىّ ، الكبيرى ، اليمينيّ فلان ، ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَـه ، صحابةُ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ ، علىٰ أجمل العوائِد ، وأكمل القواعِد ، بالمعلوم الشاهـد به الديوانُ المعمورُ ، علىٰ ماشُرح فيه » .

وإن كُتب به لكاتبِ السرّ بالشام، أُبْدل لفظُ الممالكِ الإسلامية بـ«الشأم المحروسِ» .

وإن كتب به لناظر الجيش بالديار المِصريَّة ، كتب : « توقيعٌ شريفٌ بأن يفوَّض إلىٰ المجلس العالى ، القاضَوِىّ ، الكبيرىّ ، الفلانىّ : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ، نظَرُ الجيوش المنصورةِ بالممالك الإسلاميَّة ، أعلاها الله تعالىٰ علىٰ ما شُرِح فيه » .

وإن كتب به لناظرِ الجيش بالشام ، أبدِل لفظُ الممالك الإسلامية بـ«الشام المحروسِ» .

وإن كتب به لناظر الدولة، كُتِب : «توقيعٌ شريفٌ بأن يفوَّض إلىٰ المجلس العالى، القاضَوِىّ ، الكبيرىّ، الفلانىّ، فلان، ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ، نظَرُ الدواوين المعمورةِ والصُّحبةُ الشريفةُ ، علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القَواعد ، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمورُ علىٰ ماشُرِح فيه» .

وإن كتب به لناظر البيمارَسْتان لصاحب سيفٍ (١)، كتب : «توقيعٌ شريفٌ أن يفوَّض إلىٰ المقرِّ الكريم، أو الجنابِ الكريم، أو العالى (علىٰ قدر رُتبته) الأميرىِّ، الكبيرىِّ ، الفلانىّ ، فلان الناصرىِّ مثلا : أعزَّ الله أنصاره ، أو نُصرتَه ؛ أو ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه (بحسَب ما يليق به) نظرُ البيمارَسْتان المعمور المنصورىّ، علىٰ أجمل العوائد، وأكملِ القواعد، بما لذٰلك من المعلوم الشاهدِ به الديوان المعمور علىٰ ماشُرِح فيه» . وكذلك نظرُ الجامع الجديدِ ونظرُ الحرمَيْن الشريفين كلٌّ بما يناسب الألقاب . وعلىٰ ذٰلك .

(١) لعله وكان صاحب سيف .

المرتبة الثانية من التواقيع — مايكتَب فى قَطْع الثلث بقلم التوقيعات، وهو لمن مرتَبتُه السامىّ بالياء . قال فى "التثقيف" : وصورتُه فى الطُّرّة والصدْر على ما تقدّم شرحُه لكن بأخْصَر مما تقدّم . قال : وبذٰلك يُكتب لنقيب الأشْراف ولقُضاة القُضاة بحلب وطرابُلس وحماةَ وصَفَد والكَرَك ، وكذٰلك لقضاةِ العسكر بالممالك المذكورة والمُفْتِين بدار العَدْل بها، ووكلاءِ بيت المال بها، والمحتَسِبين، ونُظّار الجيش بها ، وكُتّاب الدَّسْت بمصر والشام ، وناظِر البيوتِ بالديار المصرية . وكذٰلك ناظرُ خزائن السِّلاح، ومستوفِى الصُّحْبة، وناظرُ بيت المال، وناظرُ الخزانة الكبرىٰ وخزانةِ الخاصّ ، وناظرِ الأحباس ، ومشايخُ الخَوَانق الكِبار : كسَعيد السعداء ، وبِيبَرْس بالقاهرة ، والشُّمَيْصاتيَّة بدِمَشْق . وكذٰلك تقدمةُ التُّرْكمان بالشام ، وتقدمةُ الأكراد به ، ومشيخةُ العائد .

فإن كُتِب بذٰلك لنقيب الأشراف، كتب «توقيعٌ شريف أن يستقرّ المجلسُ السامىُّ، الأميرىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالىٰ عُلُوّه، فى نِقابة الأشراف بالديار المصرية، علىٰ عادة من تقدمه وقاعدتِه، علىٰ ما شُرِح فيه» .

وإن كتب لقاضى قُضاة الشافعية بحَلَب ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أيّد الله تعالىٰ أحكامه، فى قضاء قُضاة الشافعية بحَلَب المحروسة، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كتب للحنفىّ بها كُتب كذٰلك ، وأبدل لفظُ الشافعية بـ«الحنفيَّة» وكذا فى المالكية والحنابلة .

وإن كتب لأحدِ قُضاة القضاة بغيرها : كطرابُلُس، وحماةَ، وصَفَد، والكَرَك، أبدل لفظُ حلَبَ بلفظ تلك المدينة، والباقى علىٰ حُكمه .

وإن كتب لأحدٍ من قُضاة العسكر بالممالك المذكورة ، كُتب « توقيعٌ شريف بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىُّ ، فلان الشافعىّ ، مثلا أو نحو ذٰلك : أيّد الله تعالىٰ أحكامه ، فى قضاء العسكر المنصور بالمكان الفلانىّ ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » .

وإن كتب بإفتاء دار العَدْل بشىءٍ من هذه الممالك ، أبدل لفظ «قضاء العسكر» بلفظ «إفْتاء دارِ العدل» والباقى علىٰ حُكمه .

وإن كتب لأحدٍ من وكلاء بيت المال بها ، كتب « توقيع شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلانٌ : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى وَكالة بيتِ المال المعمور بالمكان الفلانىّ ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من المحتِسبين بهذه الممالك ، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى ، القضائىُّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى نظر الحِسْبة الشريفة بالمكان الفلانى علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدتِه » .

وإن كُتب لأحد من وُكلاء بيتِ المال بها ، كتب « توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلس السامىّ ، القضائىُّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى وكالة بيتِ المال المعمور بالمكان الفلانى ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه » .

وإن كتب لأحدٍ من نُظّار الجيش بها ، كتب « توقيع شريف بأن يَستقِرّ المجلس السامىّ ، القضائىُّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى نظَر الجُيوش المنصورة بالمملكة الفلانية ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه » .

وإن كتب لأحدٍ من كُتَّاب الدَّسْت بالديار المصرية، كتب «توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى كِتابة الدَّسْت الشريف بالأبواب الشريفة» . ثم إن كان عن وفاةٍ عَيَّنه أو بنُزول عَيَّنه .

وإن كان بالشام، أُبْدِل لفظ «بالأبواب الشريفة» بلفظ «بالشام المحروس» .

وإن كتب بذٰلك فى نظر البيوت بالديار المصرية ، كتب « توقيع شريف أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر البيوت المعمورة » .

وإن كُتِب لأحدٍ بنظر خزائنِ السِّلاح بالديار المصرية ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه، فى خزائن السِّلاح المنصورة، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب باستيفاء الصُّحْبة، كتب «توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى آستيفاء الصُّحْبة الشريفة ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب بنظر بيت المال ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىُّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر بيت المال المعمور ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب بنظر الخزانة الكُبْرىٰ ، كتب « توقيعٌ شريف أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه، فى نظر الخزانة العالية الكُبْرىٰ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» .

وإن كتب بنظر خزانة الخاصّ ، أُبْدل لفظ الخزانة العالية الكبرىٰ بلفظ خزانة الخاصّ الشريف ، والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كُتِب بنظر الأحباس ، كُتِب « توقيعٌ شريفٌ ان يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام اللهُ تعالىٰ رفعتَـه ، فى نظر الأحباس المبرورة ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب بمَشْيَخة الخانقاه الصَّلَاحية (سعيد السعداء) كتب « توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، الشَّيخىّ ، الفلانىّ : أعاد الله تعالىٰ من بركاته ، فى مَشْيخة الخانقَاه الصَّلَاحيَّة ، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه وقاعدته » .

وإن كتب بمَشْيخة خانقاه بِيبَرْس ، أبدل لفظ « الخانقاه الصَّلَاحيَّة » بلفظ « الخانقاه الرُّكْنِيَّة بيبرس » والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كتب بمشيخة الشُّمَيصاتية بدمشق ، أبدل ذٰلك بلفظ « الخانقاه الشُّمَيصاتِيَّة بالشام المحروس » .

وإن كتب بتَقْدِمة التُّرْكمان بالشام ، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىّ ، الفلانىّ : أعزّه الله تعالىٰ ، فى تَقْدِمة التُّرْكمان بالشام المحروس ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته » .

وإن كتب بتَقْدِمة الأكراد ، أبدل لفظ « التُّرْكمان » بلفظ « الأكراد » .

وإن كتب بمشيخة العائد ، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىّ الفلانىّ : أعزّه الله تعالىٰ ، فى مَشْيخة العائد ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته » . وعلىٰ ذٰلك .

الطبقة الثانية

(من التواقيع ما يُفْتتح بلفظ « أما بعد حمد الله » وهو لمن رُتْبته السامى بغير ياء ، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى — ما يُكتَب فى قَطْع الثلث ، وهو الاصلُ فيما يُكتب فى الثلث ثم تُرُقِّىَ عنه إلى رُتْبة الآفتتاح بالحمد . ألا ترى أن المَناشِيرَ التى تُكتَب فى قَطْع الثُّلُث بقلم التوقيعات تفْتَتح كلُّها بلفظ « أما بعدُ » على ما سيأتى بيانُه فى المقالة السادسة ، فى الكلام على المَنَاشير ، إن شاء الله تعالى .

وصورته أن يكتب فى الطرّة « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى ، القَضائِىّ ، فلانُ الدين أو الشيخُ فلان الدين فى كذا ، على عادةٍ من تقدّمه فى ذلك وقاعدتِه ، على ماشُرِح فيه » ثم يَكتب فى الصدر « أما بعدَ حمدِ الله » ويصلِّى على النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ ثم يقول : « فإنَّ أَوْلَى الأمور بكذا مَنْ هو بصفة كذا » أو «إنَّ أَوْلَى الناس بالتقديم من هو متَّصِف بكذا» ونحو ذلك ؛ ثم يقال : « ولما كان المجلس» ويؤتى بنحو ماتقدّم فى المفْتَتح بالحمدُ لله .

قلت : وقد قَلَّ آستعمال هذا الضَّرب بديوان الإنشاء الشريف وإن كان هو الأصلَ فيما يكتب فى هذا القَطْع ، حتّى لايكاد يُكتَب به إلا فى النادر ، تَغَاليا فى رِفْعة المكتوب لهم ، مع المسامحة لهم فى مثل ذلك .

المرتبة الثانية — ما يُكتَب فى قَطْع العادة المنصورىّ .

والأمرُ فيه على ماتقدّم فيما يُكتب من هذه الطبقة فى قطع الثلث . قال فى " التثقيف " : وهو قليلٌ جدّا لا يكون إلا فى تدريسٍ كبير ، أو نظرِ وقفٍ

كبير، أو مشيخة الحرم الشريف بالقُدُس الشريف، إن لم يكن فى قطع الثلث؛ أو لرجلٍ كبيرٍ قديم الهِجْرة فى الخدْمة الشريفةِ، إلا أنَّ الوظيفة صغيرةٌ لاتقتضى أن تكون فى قطع الثلث .

الطبقـــة الثـالثة

(من التواقيع ما يفتتَح بلفظ «رُسِم بالأمر الشريف» وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى — ما يُكتب فى قَطْع العادة المنصورى بقَلَم الرِّقاع ، وهو لمن رُتبته السامى بغير ياء ممن لم تبلغ رتبتُه قطعَ الثلث . قال فى "التثقيف": وصورته أن يكتب فى الطرّة «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى القاضى فلان الدين: أعزه الله تعالى فى كذا ، أو أن يُرتَّب ، أو أن يُقَدّم» ويذكر ما تضَمَّنه الشاهدُ من قصةٍ أو قائمةٍ من ديوان الوِزارة أو الخاصّ أو غير ذلك «على ماشُرِح فيه» . قال: ثم يكتب فى الصدر بعد البسملة « رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ ، الفلانىّ ، باللقب الخاص ، ولقب السلطنة » : مثل الناصرىّ ، الزَّيْنِىّ ، ونحو ذلك (ويُدْعى للسلطان بأدعية تُناسب الوظيفةَ والمتولِّىَ لها ، وأقلُّها ثلاث فِقَرات فما زاد) «أن يستقرّ المجلسُ السامى ، القاضى ، فلانُ الدين فلان ، أو مجلُس القاضى فلان الدين فلان : أعزَّه الله تعالى فى كذا ، لما له من صِفاتٍ هى كذا وكذا (ويأتى من صفات المَدْح بما يُناسب المَقام) ثم يقال : فلْيباشِرْ ذلك ، أو فليتَلَقَّ هذا الإحسان ، أو فليقابِلْ صدَقاتِنا الشريفةَ» ونحو ذلك ؛ ثم يُوصَى بما يليق بتلك الرتبة ، ويدعى له بسجعتَين فقط . ثم يقال : «بعدَ الخطّ الشريفِ أعلاه» . ثم قال : وبذلك يكتب لكُتّاب الدَّرْج ، ومستَوْفى

الدولة ، وناظرِ الأهْراء ، وناظر المَطَابخ ، ومشايِخ الخَوانِق الصِّغار، والتَّدارِيس الصِّغار ، وأنظارِ الأوقافِ الصِّغار ، ونحو ذٰلك ممـا لا يأخُذه حَصْر .

وحينئـذ فإن كُتِب بذٰلك لكاتب دَرْج ، كتب فى الطـرّة « توقيع شريفٌ أن يسـتقرّ مجلسُ القاضى فلانِ الدين فلانـ : أعزّه الله تعالىٰ فى كتابة الدَّرْج الشريف » .

وإن كتب به لمستوفٍ من مستوفِى الدولة ، كُتب «أن يستقرّ المجلس السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله نعمتَه ، فى ٱستيفاء الدولة الشريفةِ علىٰ عادة من تقدّمه » .

وإن كُتب لناظر الأهراء ، كُتب « أنـ يستقر المجلسُ السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله رفعتَه ، فى نظر الأهراء السعيدةِ » .

وإن كتب بنَظَر مَطَابخ السُّكَّر ، كتب « أن يستقرّ المجلس السامى ، القـاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى نظَر المَطَابخ السعيدة» .

وإن كتب بمَشْيخة خانقاه صغيرة ، كتب «أن يستقر المجلس السامى ، الشَّيْخىّ ، فلان الدين فلان ، أو مجلسُ الشيخ فلان الدين فلان : نفَع الله تعالىٰ ببركته ، فى مَشْيخة الخانقاه الفلانية ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه» .

وإن كُتِب بتدْريسٍ صغير ، كتب «أن يستقرّ فى تَدْريس المدرسـة الفلانية ، علىٰ عادةِ من تقدّمه وقاعدتِه» .

وإن كتب بنظَر وقْف ، كتب « أنـ يسـتقرّ فى نظر الوقْف الفـلانىّ » ونحو ذٰلك .

ثم إن كان لشيءٍ من ذٰلك معــلوم يشهَد به الديوانُ السلطانىّ كَكتابة الدَّرْج وآستيفاءِ الدولة ، كُتِب بعــد قوله وقاعدتِه : « بمـا لذٰلك من المعلوم الشاهـدِ به الديوانُ المعمور » .

وإن كان الشاهدُ بالمعلوم كَتابَ وقف ، كتب «بمـا لذٰلك من المعلومِ الشاهدِ به كتابُ الوقف المبْرور» . ويقول فى آخر طُرّة كل ولاية من التقاليد، والتفاويض، والمَرَاسِيم، والتواقيع علىٰ آختلافها : «علىٰ ما شُرِح فيه» .

الطبقة الرابعـــــة

(التواقيع الصِّغار، وهى لأصغر ما يكونُ من الولايات:
من نَظَر وقْفٍ صغيرٍ ونحو ذٰلك ، وتكون فى ثلاثة أوصال ونحوها)

وهى علىٰ ضربيـــن

الضرب الأوّل — ما يُكتب علىٰ مِثال أوراق الطَّرِيق .

وصورتُها أن يُكتب فى أعلىٰ الدَّرْج : «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ فلان فى كذا، علىٰ ما شُرِح فيه» . ويكونُ ذٰلك فى سطرين؛ ثم يُكتب فى آخر ذٰلك الوصل : «رُسِم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ السلطانىّ» إلىٰ آخر ماتقدّم فى الطبقة الثالثة . ويقال فى الدعاء : « أعلاه اللهُ وشَرَّفه ، وأنفذه وصرّفه » ونحو ذٰلك . ثم يقال : «أن يستقر فلانٌ فى كذا» ويشرح ماتضمَّنه الجواب فى هامش القِصّة . ثمّ يقال : «فلْيعتَمِدْ هــذا المرسومَ الشريفَ كلُّ واقفٍ عليه ، ويعمَلْ بحسَبه ومقتضاه، من غير عُدُول عنه ولا خروج عن مَعْناه، بعْدَ الخط الشريف أعلاه» .

الضرب الثـانى — ما يُكتَب علىٰ ظُهور القِصَص .

وكيفيّته أن تُلصَق القِصَّة التى شَمِلها جوابُ كاتب السرّ أو غيره علىٰ وَصْلين من ورَق العادة الصغير . قال فى "التثقيف" : وصورتُها أن يُكتب فى ظاهر القصَّـة بغير بَسْمَلة قبل الوصل الذى وصـله بنحو أربعة أصابع ما صورته : « رُسِم بالأمر الشريف العالى المولَوِىّ السلطانىّ » علىٰ نحو ما تقـدّم . ويُدْعىٰ له : « أعلاه الله وشرّفه ، وأنفذه وصرّفه » علىٰ ما تقدّم فى الضرب الأوّل . ثم يقال : «أن يُتأمَّل ما أنهاه رافعُها باطنا ، وليُتقـدّم بكذا وكذا » ويشرح ماتضمَّنه الجوابُ فى هامش القِصَّـة . ثم يقال : « فليعتَمِد هـذا المرسومَ الشريفَ كلُّ واقف عليه ، ويعمَلْ بحسَبِه ومقتضاه ، بعـد الخطّ الشريف أعلاه» . قال : وإن كان رافعُ القصَّة ممن هو متميِّز بعضَ التميُّز قيل : «مترجِمُها» بدل «رافِعُها» . فإن زِيدَ فى قدره ، قيل : « ما ذكره مجلسُ القـاضى أو المجلسُ السامى القاضى » إن كان من هذه الرتبـة ، وتُذكر بعضُ ألقابه . ثم يقـال : « أدام الله عُلوَّه » أو « أعزه الله ، فليتقَـدَّم » ويكمِلُ إلىٰ آخره .

وٱعلم أنَّ المقرّ الشِّهابىّ ٱبنَ فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" ٱفتتاحاتٍ أخرىٰ للتواقيع بين رُتْبة «أما بعد حمد الله» ورتبة «رُسِم بالأمر الشريف» فقال : بعد الٱفتتاح بأما بعدَ حمد الله : وقد تستفتح بقول : «أما بعدُ فإنَّ أوْلىٰ ما كان كذا» أو ما هذا معناه ، وقد تستفْتَح بقول : « من حسُنَت طرائقُه ، وحُمدت خلائقُه» أو ما هذا معناه ، وجعلها رُتبةً بعد رتبةٍ .

قلت : وهذه الٱفتتاحات كانتْ مستعملةً فى الدولة العباسية ببغْداد ، وفى الدولة الفاطميّة بالديار المصريّة والبلاد الشاميّة ، ثم فى الدولة التُّركيَّة إلىٰ زمن المَقَرّ الشِّهابىّ

المشار إليـه فى الدولة النـاصريَّة محمدِ بن قلاوون، ثم رُفِضتْ بعـد ذٰلك، وتُرِك آستعمالُهـا بالديار المصرية البتَّـةَ، فلم يكن أحدٌ من كُتَّاب ديوان الإنشاء يسـتعْمل شيئًا منهـا .

المقْصِـــد الثـالث

(فى بيان كيفيَّة وضع ما يُكتب فى هذه الولايات فى الوَرَق ، ويتعلَّق به عشَرةُ أمـــور)

الأمر الأوّل — الطُّرّة، وهى فى آصطلاحهم عبـارةٌ عن طَرَف الدَّرْج من أعلاه، ثم أطلقوه على ما يُكتَب فى رأس الدَّرْج مجازا، تسمية للشيء باسم مَحَلِّه .

قلت : وليس صحيحًا من حيثُ اللغة، فإنَّه فى الأصل مأخوذٌ من طُرّة الثوب . وقد ذكر الجوهرىّ وغيره أن طُرّة الثوب هى طَرَفُـه الذى لاهُدْب فيـه، والذى لاهُدْبَ فيه من الثوب هو حاشيَتاه، بخلاف أعلاه وأسـفلِه . نعم يجوز أن تكون مأخوذةً من الطَّرّ بمعنى القَطْع ، لأن الطُّرّة مقتطَعةٌ عن كتابة المتْن، يفْصِل بينهـما بياضٌ ، ومنــه سمِّى الشَّعْر المرسَل على الصُّـدغ طُرّة . وقد جرتِ العـادةُ فى كل مايكتَبُ له طرّةٌ أن يكتب فى أعلىٰ الدَّرْج فى الوَسَط بقَلَم الرِّقاع بكل حالٍ ماصورتُه « الآسم الشريف » ثم تكتَبُ الطرّة تِلْوَ ذٰلك من أوّل عَرْض الدَّرْج إلىٰ آخره ، دون هامشٍ عن يمينٍ ولا شِمال : بحيث تكون أطرافُ المنتصبات من أوّل السطر الأوّل ملاصـقةً لأسفل ما كُتِب فى أعلىٰ الدَّرْج ممـا تقدّم ذكره . ويأتى بالطرّة المناسبة : من تقليدٍ ، أو مرسومٍ، أو تفويضٍ، او توقيع، بالقلم المناسِب لمقدار قَطْع ذٰلك الورق علىٰ ما تقدّم بيـانهُ، ويأتى علىٰ ما يُكتب فى الطرّة علىٰ ماتقتضـيه

الحال، علىٰ ماسبق ذكْره إلىٰ أن ينتهىَ إلىٰ آخره . فإن ٱنتهىٰ فى أثناء سطرٍ، تَرَكَ باقِيَه بياضا، وكتب فى آخره «علىٰ ماشُرِح فيه» بحيث يُوافِق آخرُ ذٰلك آخِرَ السطر . وإن ٱنتهى ما يُكتَب فى الطرّة فى آخر السطر، كتب تحتَ ذٰلك السطر علىٰ حيال آخره «علىٰ ما شُرِح فيه» كما تقدّم، لايختلف الحالُ فى ذٰلك فى مكتوب ولاية، إلا فيما يُكتَب علىٰ ظهور القِصَص : فإنّ العادة جرتْ فيه أن لايكون له طُرّة، ولا يُكتب فى أعلاه الاسمُ الشريف : لأنه قد علم أنه لا يُكتب فيه إلا الاسمُ الشريف، فلم يحتج إلىٰ تنبيهٍ علىٰ ذٰلك .

الأمر الثانى — البسملةُ الشريفة . ومن شأنها أن تُكتب فى أوّل كلّ وِلاية لها شأنٌ، عملًا بقوله صلى الله عليه وسلم : «كُلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لا يُبْدَأ فيه بحَمْدِ اللهِ فهُوَ أجْذَمُ» يعنى ناقصَ البركة . ومحلُّها من كُتُب الولايات فى أوّل الوصل الرابع بعد أوصال البَيَاض . أما مالا بالَ له من كُتُب الولايات : كالتواقيع التى علىٰ ظُهُور القِصَص وما هو منها علىٰ صورةِ أوراق الطريق، فقد جرىٰ الاصطلاحُ علىٰ أنه لا يُكتَب فى أوّلها بسملةٌ أصلا، بل تفتتح بـ«رُسِم بالأمر الشريف» .

قلت : وقد كان القاضى علاءُ الدين علىُّ الكَرَكىّ حينَ وُلّىَ كتابة السرّ الشريف بالديار المِصرية فى أوّل سلطنة الظاهر برقوقٍ الثانية أمر أن تُكتب فى أوّل هذه التواقيع بسملةٌ لطيفةُ المقدار، طلبًا للتبرك، ثم تُرِك ذٰلك بعد موته وٱنتقالِ الوظيفة إلىٰ غيره . ولايخفىٰ أنّ ماعليه الاصطلاحُ هو الوجه : فإنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قد قيّد مايُبْدَأ بالبسملة بما يكون له بالٌ من الأمور، ومقتضاه أنّ مالا بالَ له لايُبْدَأ فيه ببسملة . علىٰ أنه قد كان أمر أن تُجعل البسملةُ قبل قوله «رُسِم بالأمر

الشريف» ومقتضىٰ ذٰلك أن تقع العلامةُ فوقَ البسملة، وفيه مالا يخفىٰ . بخلاف غيره من الولايات الكِبار فإنَّ العلامة تكونُ فيها تحتَ السطر الثانى من البسملة ، علىٰ ما سيأتى بيانُه .

الأمر الثالث — الآفتتاحُ الذى يلى البسملةَ . وقد علمتَ مما تقدّم أنّ الذى آستقرّ عليه آفتتاحُ كُتُب الولايات على آختلافها من أعْلىٰ وأدْنىٰ لا يخرُج عن ثلاثة أصناف :

أحدها — الآفتتاحُ بالحمدُ لله، وهو أعلاها . ثم تختلف رتبتُه بعد ذٰلك باختلاف ما يُكتب فيه من مقادير قَطْع الورق : إذ هو تارةً تُفتتح به التقاليدُ ، وتارة تفتَتَح به المراسيمُ المكبَّرة ، وتارة تفتَتَح به التفاويضُ ، وتارة تفتَتَح به كِبارُ التواقيع .

الثانى — الآفتتاحُ بأما بعدَ حمدِ الله . وهو المرتبةُ الثانيةُ من المراسيم المكَبَّرة ، والتواقيع الكِبار . وتكون فى قَطْع الثلث تارةً ، وفى قطع العادة المنصورىّ أخرىٰ .

الثالث — الآفتتاحُ برُسِم بالأمر الشريف . وهو المرتبة الثالثةُ من المراسيم والتواقيع ، وهى أدنىٰ رُتَبِها . وتكون فى قطع العادة الصغيرِ ، وربما كُتِب بها فى قطع العادة المنصورىّ .

الأمر الرابع — البعديةُ فيما يفتتح فيه بالحمدُ لله ، وهو علىٰ ضربين .

الأوّل — أن يقال بعد التحميدِ والتشهُّد والصلاةِ على النبىّ صلى الله عليه وسلم : أما بعدُ ، وهو الأعلىٰ . وتكون فى التقاليد خاصَّةً .

الثانى — وبعدُ ، وهى دُونَ اما بعد . وتكون فى التفاويض وكِبَار المراسيم والتواقيع . وقد مرّ القولُ على ذٰلك مستوفًى فى الكلام علىٰ الفَواتح فى المقالة الثالثة .

الأمر الخامس — وصفُ المتولِّى بمـا يُناسب مَقامه ومَقامَ الولاية من المَدْح والتقريظ . وقد مرّ القولُ علىٰ ذٰلك فى المقْصِد الأوّل من هذا الطّرَف، فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات .

الأمر السادس — الألقابُ المختصَّة بصاحب الولاية . قد تقـدّم أنه يذكر فى الطُّرّة بعضُ الألقاب التابعـةِ للّقب الأصلىّ : من المقرّ والجناب وغيرهمـا، مع التصريح باسم المولَّى والدعاء له بمـا يُنَاسبه، على ماتقـدّم بيانُه هناك . أما فى أثناء الولاية، فإنه يُسـتوعب جميعُ ألقابه ويعاد ذكْرُ الاسم والدعاء المذكور فى الطُّرّة . وقد تقدّم ذكُرُ الألقاب مسـتوفىً فى المقْصِد الأوّل من هذا الفصل فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات .

الأمر السابع — وصـيَّة صاحبِ الولاية بمـا يُناسب ولايتَه . وقد تقـدّم التنبيهُ علىٰ ذٰلك فى الكلام علىٰ مقدّمات الولاياتِ أيضا .

الأمر الثامن — الدعاءُ لصاحب الولاية بمـا يناسـبُه إذا كان مسـتحقًّا لذٰلك . وقد ذكر فى "التعريف" أن من ٱستُصْغِر من المُوَلَّيْن لايُدعىٰ له فى أوّل ولاية ولا آخِرها، وربمـا قيل بدَل الدعاء أو بعده : « والخيرُ يكون » .

الأمر التـاسع — الخَواتِم : من كتابة « إن شاء اللهُ تعالىٰ » والتاريخ، والمستَنَد، والحمدلة، والتصلية، علىٰ نحو ماتقدّم فى المكاتَبات .

فأما المشيئة، فإنه يكتب فى آخرِ مكتوبِ كلِّ ولاية : « إن شاء الله تعـالىٰ » فى سطرٍ منفرِدٍ .

وأما التاريخ، فإنه يُكتَب فى سطرين كما تقدّم فى المكاتبات، فيكتب « كُتِب فى يوم كذا من شهر كذا» فى سطر، ويكتَب «سنة كذا وكذا» فى سطر تحته .

وأما المستنَد، فإنَّه يكتب تحتَ التاريخ، كما تقدّم فى المكاتَبات . فإن كان بتلَقّى كاتبِ السرّ ، كُتِب فى سطرٍ واحد « حسَبَ المرسومِ الشريف » . وإن كان برسالة الدَّوَادار ، كتب « حسَبَ المرسوم الشريف » فى سطر ، ثم كتب فى سطر تحته « برسالةِ الجناب العالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الفلانىّ الدَّوَادار ، الناصرىّ» مثلا . وإن كان بخط السلطان، كتب «حسَبَ الخَطِّ الشريف» . وإن كان بإشارة النائب الكافل، كتب « بالإشارة العاليةِ الأميريَّة الكبيريَّة الفلانية» فى سطر، وكتب « كافلِ الممالك الشريفةِ الإسلاميَّة أعلاها الله تعالىٰ » فى سطر تحته . وإن كان بإشارة الوزير، كتب «بالإشارة العاليةِ الصاحبيَّة الوزيريَّة الفلانية » فى سطر ، ثم كتب فى السطر الثانى « مدبِّر الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ» . وإن كان الوزيرُ صاحبَ سيف ، أسقط منها «الصاحبيَّة» . أللهم إلا أن يكون مرسومًا صغيرا أو توقيعًا صغيرا مما كُتِب فى هيئة ورقة الطريق أو علىٰ ظهر القِصَّة ، فإنه إن كان بتلقِّى كاتب السرّ، كُتِب المستَنَد علىٰ حاشية التوقيع علىٰ سَمْت ما بين السطر الأوّل والثانى . وإن كان بإشارة النائب الكافل كُتِب هناك « بالإشارة العالية» سطرين، علىٰ نحو ما تقدّم فيما يُكتَب تحت التاريخ . وإن كان بإشارة الوزير، فالأمر كذٰلك . وإن كان برسالة الدَّوَادار، كتب علىٰ الحاشية هناك « حسَبَ المرسوم الشريف » ، ثم كُتِب تحتَ التاريخ « برسالة الجناب العالى » إلىٰ آخر المستَنَد .

وأما الحمْدلةُ والصلاة على النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم ، ففى سطر تحت المستَنَد ، كما فى المكاتبات، يكتب فيها «الحمد لله وحده» ثم يخلِّى بياضا، ثم يكتب «وصلَواتُه علىٰ سيدِنا محمد وآله وصحبه وسلامُه» .

وأما الحَسْبلةُ ، ففى سطر تحتَ ذٰلك يكتب فيه « حَسْبُنا الله ونعم الوكيلُ » علىٰ ما تقدّم فى المكاتَبَات .

الأمر العاشر — البياض الواقعُ فى كُتُب الولايات، وله سِتَّةُ مواضع :

الأوّل — فيما بين الطُّرّة والبسملة، وهى ثلاثةُ أوصال بالوصل الذى فيه الطرّة، لا يتجاوزُ ذٰلك فى مقدار قطع كبيرولا صغير . إلا أنه ربما ٱقتُصِر علىٰ وصلين فيما ٱستُصغِر شأنُه من الرتبة الثالثة من التواقيع .

الثانى — الحاشيةُ فيما علىٰ يمين البسملة وما بعدها . وأهلُ زماننا يعبِّرون عن ذٰلك بالهامش، ولم أجدْ له أصلا فى اللغة . وقد تقدّم القولُ عليها فى المقالة الثالثة، فى الكلام علىٰ متعلَّقات قَطْع الورق وما ينخرِط فى سِلْكه . أما آخر الأسطر فإنه لا بياضَ فيه ؛ علىٰ أنّ مُلوك الروم يجعلون لكُتُبهم حاشيةً من أوّل الأسطر وحاشيةً من آخرها ، علىٰ ما تقدّم القولُ عليها فى الكُتُب الواردة عن صاحب القُسْطنطِينيَّة .

الثالث — بيتُ العلامة، وهو فيما بينَ السطر الأوّل : وهو الذى يلى البسملةَ، وبين السطر الثانِى : وهو الذى يكونُ فى آخر وصل البسملة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقاديرِ الورق فى المقالة الثالثة أن مقدارَه فى الزمن القديم كان قَدْرَ شِبر، وقد شاهدْناه دونَ ذٰلك بقليل فيما كُتِب به فى الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" علىٰ مايشهَد به الموجودُ من تواقيعِهم؛ ثم تَنَاقَص قليلا . فلمَّا غَلَا الورقُ وقُصِّرت الأوصالُ نقص مقدارُه حتّى صار نحوَ شِبر(١)، وهو علىٰ ذٰلك إلىٰ الآن . ويزيد ذٰلك وينقصُ باعتبار قَطْع الورق فإنه فى القَطْع الكبير يكون الوصلُ أطولَ منه فى القطع الصغير .

(١) لعله نحو "نصف شبر" كما لا يخفى .

الرابع — ما بين الأسطر فى مَتْن الولاية . وهو علىٰ مقـدار النِّصف من بيت العـلامة فى القطع الكبير والقطع الصـغير ، لا يكاد ذٰلك يختلف إلا فى التَّواقيـع والمَرَاسـيم التى هى علىٰ هيئة أوراق الطريق ، والتى علىٰ ظُهور القِصَص فإنَّ ما بين السطرين منها يكون متضايقًا حتّٰى يكونَ بقدر ثلاثةِ أصابعَ مطبوقةٍ .

الخامس — مابين أسطُر اللَّواحِق فيما بعدَ «إن شاء الله تعالىٰ» فإنه يكون مابين كلِّ سـطرين من ذٰلك قدرُ نصف مابين السطرين فى مَتْن الولاية ، إلا فى المستَنَد إذا كان سطرين ، مثـل أن يكون برسالة الدَّوادار ونحوها ، فإنَّ السطرين يكونان متلاصقين .

السادس — ما بعدَ اللَّواحق فى آخر الكتاب ، وهو قدرٌ يسيرٌ يكون قدر إصبعين مطبوقين أو ثلاثةِ أصابعَ مطبوقاتٍ وما قارَبَ ذٰلك .

المَهْيَـــع الثـانى

(فى ذكر نُسَخ ممـا يُكتب فى متْن الولايات من التقاليد والمَراسيم المكَبَّرة والتفـاوِيض والتَّواقِيـــع)

قلت : وقد كنتُ هَمَمْت أن أجعلَ ٱبتدا آتِ التقاليد ، والتفاوِيض ، والمَراسيم ، والتواقيـع : من الأفتتاح بـ«الحمـدُ لله» أو بـ«أما بعد حمد الله» أو بـ« رُسِم بالأمر الشريف» فى فصلٍ مستقلٍّ ، ومقاصدَها المتعلقةَ بالوظيفة ... ...(1) الكاتب الذى لا يحسن الانشاء ما أحب من الأبتدا آت المنـاسبةِ للاسم أو اللَّقب ونحوهما ثم يبيِّن القصدَ المتعلق بالوصف . ثم أضربت عن ذٰلك وأتيت بالنسخ علىٰ صُورتها لأمور : منهـا ــ أن فى تضيع النسـخة إفسادًا لصُورتها وضَياعَ فضـيلة المنشئين

---

(١) بياض بالأصل فى غير نسخة ولعله «فى فصل علىٰ حدة ليختار الكاتب الذى لايحسن الإنشاء ما أحب الخ» .

وإشاعة ذكرهم . ومنها ـ أن يعرف أنّ الصورة التى تُورَد مما كُتِب به فى الزمن السابق، وأنها مصطَلَح قد آصطَلَح عليه أهلُ ذٰلك الزمان . ومنها ـ أن يَعرِف المنشئ ترتيبَ من تقدّمَ لينسُجَ علىٰ مِنْواله . وإذا أراد من لادُرْبَةَ له بالإنشاء أخذَ تحميدة من تقليدٍ أو توقيع وغيرهما ونقلها إلىٰ مَقْصِد من مقاصد الولاية لم يُعْجِزه ذٰلك .

ثم قسمته علىٰ ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل

(ولاياتُ وظائف الديار المِصرية ، وهى علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(الولاياتُ بالحضرة ، وهى علىٰ ستة أضرب)

الضرب الأوّل

(ولايات ارباب السيوف ، وهى علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ

(ذواتُ التقاليد ، وهى ثلاثُ وظائفَ)

الوظيفة الأولىٰ

(الكَفَالة ، وهى نِيَابة السلطنة بالحضرة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائِف المملكة فى المقالة الثانيةِ أن الكَفَالة هى أعلىٰ رُتَب نيابة السلطنة ، وأنّ النائبَ الكافلَ يحكُم فى كل مايحْكُم فيه السلطانُ ، ويُعَلِّم فى التقاليد والتواقيع والمَنَاشير وغير ذٰلك ، بخلاف غيره من النوّاب فإنّ كل نائبٍ لا يعَلِّم إلا علىٰ ما يختصُّ بخاصَّةِ نيابتِه . وقد تقدّم فى مقدّمة الولايات أنّ لقبه «المَقَرّ الكريم» علىٰ ما آستقرّ عليه الحال .

وهذه نسخةُ تقليد بكَفَالة السلطنة، كُتِب بهـا من إنشاء الشّهاب محمودٍ الحلَبيّ رحمه الله، وهى :

الحمدُ لله الذى جعــل رُكْنَ الدولة فى دولتنــا القاهرةِ ثابتَ القواعد، علىٰ فَرْقَد الفَرَاقد، راقيًا فى رُتَب العُلوّ الآخذةِ من أُفُق التأييد بالمَطَالع ومن نُطُق العزّ بالمَعَاقد؛ حاليًا بعُــقُود المَهابة التى لا تزالُ لرُعْبِها علىٰ الأعداء طلائعَ خيلٍ فى المَرَاقب وورائعَ خَيَــال فى المَرَاقد، حاويًا من أنواع المفــاخرما لو كاثرَتْه الدّرارىُّ غدَتْ وهى لمجموعه فَرَاقد، أو فاخرَتْه الدُّرَر ثقَّبتها الأفكارُ النواقد، مقلَّدًا من سُــيوف الظَّفَر مالا تنْبُو فى نُصْرة الإســلام مَضَاربُه وكيف تَنْبُو وأوامرُنا لعقُود حمائلِها علىٰ عَوَاتق مَجْده عَوَاقد .

نحمده علىٰ نِعَمه التى عدَقتْ أمورَ دولتنا بمن يَرْفَع بأسُــه مَنارَها، وعقَدتْ قواعِدَ مملكتنا بمن يُوالى فضلُه أنوارَها، وعضَدتْ هِممَ أوليائنا بمن إذا تخيَّلتْ أعداءُ الدين مواقِعَ صَوارِمه كان أمنعُ صوْنِها إسَارَها وأنفَعُ سِلاحِها فِرارَها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُشْرِق الهِمَمُ، بلَوامعها، وتَشْرُفُ الكَلِمُ، بجَوامعِها، وتزْكُو الأُمَم، بمـا تنْقُل الألسِنةُ منها عن القلوب إلىٰ مَسَامعِها؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه الذى أقامنا اللهُ لنَصْر دينه، وألهمَنا تفويضَ مصالح أمّتِــه الىٰ كلّ ولىّ ما رُفِعَتْ رايةُ نَصْر إلا تلَقَّاها عَرابةُ مجدِه بيَمينــه، وعضَّــدَنا فى جهاد أعدائه بأعزّ صفىٍّ ينُوب بأسُــه للجيش عن طليعتِه ويقوم رأيه فى الحرب مَقَــامَ كَمِينه، صــلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ٱختارهم لصُحْبته وٱرْتضَاهم، وأرْهَفَهُم لإقامة ملّته وٱنتضاهم، فمنهم من فازَ بمَزِيّتىْ سـبْقِه وتصديقِه، ومنهم من كان الشيطانُ يُنكِّب عن طريقِــه، ومنهم من ٱختار الشهادةَ علىٰ الانتصار بفَرِيقه

ورَفيقه، ومنهم مَنْ أقامه بشَرَف الأُخُوَّة معــه مُقامَ شَقِيقه، صلاةً يَبلُغه إخلاصُ مُقِيمها، ويُعرَضُ عليه إيمــانُ مُديمها، وسلم .

أما بعــدُ، فإنا من حينَ أورَثَنا الله مُلْكَ الإسلام لاعن كَلَاله ،وألبَسنا فى مَواقف الذَّبِّ عن دينه حُلَل العزِّ المُعْلَمَةَ بالجَلَالة ، ومكَّن لنــا فى أرضه، وأنهَضنا بمسْنُون الجهاد وفَرْضه ، ونَشَر دعوةَ مُلْكنا فى طُول الوجُود وعَرْضه ـ لم نزَلْ نرتادُ لكَفَالة الممــالك الإسلاميَّة من تَأْوِى منه إلىٰ رُكْنٍ شديد، ورأيٍ سديد، وحَزْمٍ يقَرِّب من مَواهِب النصر كلَّ بعيد، وعَزْم إذا أرهفَ صوارِمَه من أدْنىٰ الصعيد، وجفَ لهَوْل مواقِعها بابُ الحديد، فهو المطوِىّ فى أثناء ضمائرنا وإن تقَلدنا قبْلَه سِواه، والمنْوِىّ فى أحناء سرائِرنا وإنَّمـا لأمرِئٍ مانَواه، قد حلَبَ قِدمُ هِجْرته، الدَّهْرَ أشْطُرَه، وكتب حُسْنُ خِبْرته، من عُنْوان السَّـيْر أسطُره، وتمثَّلتْ مرْآة الزمان لفِكْره فاجتلىٰ صُوَر الوقائع فى صَــفَائها، وتردَّدتْ تجاربُ الأمم علىٰ سمْعِه فعَــلِم ما يأتى وما يَذَر فى تَرْكها وٱقتِفائها، وٱستقبل دولَةَ أسلافنا الشريفةَ من فواتِحها : فكان لسانَ محاسنِها، وبَنَان مَيامِنها، وخِزانةَ سِرِّها ، وكِنانةَ نَهْيِها وأمرِها ، وطليعةَ تأييدها ، وذَريعةَ أوليائِها إلىٰ عوارفِها وجُودِها، وعُنْوانَ أخبارِها، وعِنَان سَوابِقِها التى لا تُدْرِك مآثُرَ من سَــلَفَ شَقَّ غُبارها، ويمينَ قَبْضــتها المصَرِّفة بين البأس والنَّــدىٰ، وأمينَ آرائها المؤيَّدة بالتوفيق اللَّدُنِىّ علىٰ العــدا ، ورُكْنَها المُشَــيَّد بالأَسَل وهو ما تُبْنىٰ عليه الممــالك، وحِصْنَها المصَفَّح بالصِّفاح فلا تستطيعُ الأهواءُ أن تتوَقَّل إليه تلكَ المَسَالك، وزعيمَ جيوشِها التى ٱجتنَتْ من قَصَب قَوَاضبه ثمر النَّصْر غيرَمَرَّة، ومقدَّمَ عساكرها التى ٱجتلَتْ به وجُوهَ الظَّفَر الحلوةَ فى أيَّام الكريهة المُرّة .

ولما كان المَقَرّ الكريمُ (الفلانى) هو معنىٰ هـذه الصفات المُبْهَمه، ومَبْنىٰ هذه القواعد المحْكَمه، وطِرازَ حُلَل هذه الأحوال المُعْلَمه، وسرَّ المقاصد الظاهره، وسِلْك هذه [النجوم] الزاهيَة بل فَلَك هذه الدَّرارِى الزاهره، تُحَلِّق صَوادِحُ البراعة، فتقع دُونَ أوصافه بمراحل، وتغوصُ سوابحُ اليَرَاعة، فيُلقيها العجْزُ عن ٱستخراج دُرَرِ نُعُوته بالسَّواحل، فأوصافُه تُذْكَر علىٰ وجْه الإجمال لضيق نِطَاق الفَصاحة عن تفصيلها، ومناقبُه تُشْـكَر بلسان الإجماع لعجز ألْسِـنة الأقلامِ عن بُلُوغها إلىٰ غايتها ووُصُولها؛ فلذٰلك ٱقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُفْسِح مَجالَ الهدىٰ، بتفويض إيَالة الممالكِ إليه، وأن نَقْطَع آمالَ العِدا، بالٱعتماد فى زَعَامة الجيوش الإسلاميَّة عليه، وأن نُقِرّ عيونَ الرَّعايا بإلقاء مَقاليدِ العَـدْل والإحسان إلىٰ يدَيْه، وأن نصُونَ عقائلَ الممـالك من مَهَابته بمـا يغدو سُورا لعَوَاصمها، وسِوَارًا لمَعَاصِمها، وشَنَبًا تفترُّ ثغورُها عن بُرُوقه، أو لَهبًا يقْطَع طَريق أملِ العِـدَا عن تخيُّل خَيَالهـا فى طُروقه: ليعتضِدَ الدِّين منه برُكْنه، ويتغلَّب [علىٰ] الشِّرْك فى حالتَىْ حَرْبه ووَهْنه، ويتقلَّب كلٌّ من رعايانا بينَ وِهَادِ يُمْنِه ومِهادِ أمْنِه - رُسِم بالأمر الشريف - لا زال مُلْكه علىَّ الأركان، راقيًا من أُفُق النصر إلىٰ أعلىٰ مَكانةٍ وأرفع مكان - أن تُفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفةِ بالديار المصريه، والممالك الإسلاميه، علىٰ أكملِ العَوائد، وأجمل القَواعد؛ تفويضًا تَمضِى أحكامُه فى الممـالك الإسلامية شرْقا وغَرْبا، وبُعْـدا وقُربا؛ فلا يخرج منها شىءٌ عن أوامره وأحكامِه، ولا يُعْدَل فى سِلْمها وحَرْبها عن حُكْمَىْ سُيوفه وأقلامه.

فليَستقِرّ فى هـذه الرُّتْبة العالية ٱسـتقرارَ الأركان المَوَاكِث، والأَطْوادِ اللَّوابث، والأُصُـول النَّوابت، والنجوم الثوابت، مؤثِّلا قواعدَها برأيه السـديد ورايته، معوِّذًا كمالَهَـا بسيف النصر وآيتِـه، مبتدئًا فى إعلاء مَنَارها مِن العدل بأقْصاه

ومن الإحسان بغايتِـه ؛ مكثّرًا أعدادَ الجيوش الإسـلامية برأيه السـعيد ، مقرّبا من مَطَامح النَّصر النائية كلَّ بعيـد ؛ مُوكّلا بحركات العَـدُوّ وسَكَناته جَفْنًا لا يألَفُ الغِرار (١) ، وسيْفًا لا يعرِف القَرَار ، وعَزْما لا يَرضىٰ من عدوّه دُونَ ٱصْطلامه الفِرَار ؛ فلا تزال جيوشُ الإسلام بجميل تَعَاهُده مُزَاحة العوائِق ، مُزَالةَ العلائق ؛ لامانعَ لها عن الركوب ، ولا قاطِعَ عن الوُثوب ؛ قد أعدّتْها عزائمُه ، فكلُّ زمانها بالتأهُّب للّقاء وقتُ إمكانه ، وأمدّتْ بأسَها صوارمُه ، فهى لاتسأل عن عَدَد عدُوّها بل عن مَكانه ؛ مقيمًا منارَ العدل الذى هو أساسُ المُلك ودِعامَتُـه ، ورأسُ الحكم بأمر الله فى خَلْقه وهامَتُه ، ونَوْرُ الخِصْب الكافل بمصالح العباد والبلاد وعامّتُه (٢) ، ناشرًا له [فى] أقْطار الممالك ، ماحيًا بنُور إقامته آيةَ ليلِ الظُّلْم الحالِك ؛ معاضدًا أحكامَ الشريعة المطهَّرة بالآنقياد إليها ، والآعتمادِ فى الحَلّ والعَقْد عليها ، والآحتفال برَفْع منارها : فإنَّ ذٰلك من أفضل ما قدّمتْه الدولُ الصالحةُ بين يدَيْها ؛ مقدّمًا عمـارةَ البلاد علىٰ كلّ مهمٍّ : فإنها الأصل الذى تتفرّعُ عنه المصالح علىٰ آفتراقِها ، والمـادّةُ التى تستَطِيل الجيوش الإسلاميّة علىٰ العِـدا بتوسعها فى إنفادِها وإنفاقِها ، والأسبابُ التى تُعينُ الغيوثَ علىٰ نمـاء ما بَسَـط الله لعباده من أرزاقِها ؛ وآكَـدُ مصالحها الرِّفْق الذى ما كان فى شىءٍ إلا زانَه ، والعدل الذى ما آتّصف به مُلْكٌ إلا حَفِظه وصانَه ، فقد جعلْنـا أمره فى ذٰلك جميعِه من أمرنا المُطَاع ، وآقتصرْنا عن ذكرِ الوصايا بمـا فى خصائصه الكريمةِ من حُسْن الآضْطِلاع وجميل الآطِّلاع ، وآكتفَيْنا بمـا فى خلائقه الجميلةِ من محاسِنَ لو تخيّرَ نفْسَــه لم يزِدْها علىٰ ما فيه من كَرَم الطِّباع ؛ والله تعالىٰ يؤيِّده وقد فَعَل ، ويجعل رُكْنَه من أثبتِ قواعد الدِّين وقد جعَلْ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) الغِرار النوم القليل أو القليل من كل شىء . انظر اللسان ج ٦ .

(٢) العامة قُبَض الحَصَد إذا آجتمعت بعد حصدها وجمعها عام . كذا يؤخذ من اللسان .

وهذه نسخةُ تقليد بكَفَالة السلطنة أيضا، وهى :

الحمدُ لله الذى زانَ دولتَنا القاهرةَ من حُسامِها بتقْليده، وصانَ حِمىٰ ممالِكِنا الشريفةِ من أوليائنا بمن تَغْدُو مواقِعُ سيوفه من كل عدُوّ قلائدَ جِيده، وزاد جَلالةَ الملك بمَنْ إذا ركِب فى مَواكِب نِيابَتِه أوردَ جِيادَ رُعْبه من كل مُتوّج من ملوك العدا مَناهلَ وَريده، وفوّضَ تقْدِمة جُيوشنا المنصورةِ إلىٰ مَن تُضاعِف مهابَتُه فى عُيون العِدا عدَدَ جنُوده، وتغزُوه سرايا خَيْله فى يَقظتِه وتطْلُع عليه طلائعُ خَيَاله فى هُجُوده، وإذا صَلّتْ سيوفُه فى موْقِف وغًى أغْرتْ رأسَ كلِّ مستكبِرٍ لم يعْرِف اللهَ قبلَ رُكوعه بسُجُوده، مُشَرِّف أقدار أوليائنا من المَرَاتب بما تَشْرُف به أقدارُ المراتب فى نفسها، ومفَضِّل أيام دَوْلتنا علىٰ الدُّوَل بما ألِفتْه من جلالة مُلْكنا فى أمْسِها، ومُجَمِّل سِيَرِ أصفيائنا من المَعْدَلة بما إذا غرسَتْه فى قلوب الرعايا كان الدعاءُ الصالحُ ثمرةَ غَرْسها، ومقَلِّد خواصِّنا من إيالة المُلْك ما إذا خطَبتْ به الأقلامُ علىٰ منابِرِ الأنامل نَقلت البلاغةَ فى تلك الأوصاف عن قُسِّها، ومُفيض حُلَل الأنباء المرقومةَ بأسْنىٰ الرُّتَب علىٰ منْ إذا زانَتْ حِبَرُها اللابسَ زانها بِلُبْسها، وإذا أشرقتْ به هالةُ المواكِبِ لوغًى سقطَتْ فوارسُ ملُوك العِدا عن مَراكبها واضطربَت الأسِرَّةُ بملوك فُرْسِها، وإذا كتمتْه الأعداءُ أنباءَها نطقَت ألسنةُ رياحِه بأسرار أهل الشرك ولا يُرىٰ أسْمَعُ من صُمِّها ولا أفصَحُ من خُرْسِها، وإذا تطاولتْ أبطالُ الوقائع للِقائه افترّتْ ثغورُ سُيوفه عن شَنَب النصر لإلْفِها بمعانَقةِ الأعناقِ وأُنْسِها .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى أعادتْ شرفَ أسمائنا إلىٰ أسماع المنابر، وأنطقت بمضاعفة الأنباء لأوليائنا ألسنةَ الأقلام فى أفواه المحابر، وأعادتْ بسيف النصر حقُوقَ مُلْكنا الذى تلقَّيناه مع الأوّلية والأولوية من أسلافنا الكرام كابرًا عن كابِر .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لا تزال سيوفُنا بإعلاء مَنارها ناهِضَه، وجِيادُ جِهادنا لنَشْر دَعْوتها فى الآفاق را كِضَه، ومَوادُّ نِعَمنا ونِقَمنا لآمال حامليها باسطةً ولأرواح جاحِديها قابِضه؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى ايده الله تعالىٰ بنَصْره، وآتاه من معْجِزاته مايَحُولُ البصر دُونَ حَصْره، وجعله أمامَ الأنبياءِ و إمامَهُم مع تأخُّر عَصْره، ونَصَره بالرُّعْب الذى زَحْزَح كلَّ مَلِكٍ عن سريره وأنزل كلَّ متوَّج من قَصْره؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين هَجَروا فى نصرته، مأْلُوفَ الأوطان والأوطار، وركِبُوا فى إقامة مِلَّته، مَخُوفَ الأهوال والأخطار، وفَتَحُوا بِيُمْن دَعْوته، ما اشتملتْ عليه المَشارِقُ والمغارِبُ من الأرجاء الممتدّة والأقْطار؛ صلاةً لا يزال سيفُ جِهادِنا لدوامِها مُقِيما، وحكْمُ جِلادِنا لإقامتها مُدِيما؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا.

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من سَمَتِ التقاليدُ بأوصافه، وصُرِّفَتْ أمورُ الممالك بينَ بأسه وإنصافِه، وحُلِّيت مواقفُ الخِدمة الشريفةِ من جواهر مَهَابته، بما هو جديرٌ بِحُلَىٰ السيف، وزُيِّنت مجالسُ العدل من إيالته، بما هو مبرَّأٌ من المَيْل والهَوىٰ منزَّه عن الظلم والحَيْف؛ ومُلِئت القلوبُ من مَخافته، بما يمنع ذا القُوّة فى الباطل من توهُّم البطش وذا الصَّبْوة فى الهَوىٰ من استزاره (؟) ويُحَسِّن لها الفِرار، ويهوّنُ عليها فى جَنْب ما تتوقَّعُه من مواقع سُيوفه السَّبْىَ والإسار، وعُدِق به من مصالح الأقاليم ما يصرِّفه بيمينٍ دَأْبها اليُمْنُ ويَسار شأنُها اليَسار؛ وفُوِّضَتْ زعامةُ الجيوش منه إلىٰ هُمَام يقوم بأمرها علىٰ ما يجب، وليْثٍ لو لم ينهَضْ بأُلُوفها المؤلَّفة فى الوقائع لكان من نَفْسه وحْدَها فى جَحْفلٍ لجَب؛ ومِقْدامٍ آلافُ العِدا فى شجاعته آحاد، وضِرْغامٍ قَسْور أهلِ الكفْر بين يدَىْ وَثَباته وثباتِه وأُسُودُهم نُقَاد؛ من لم نَزَل نَعُدُّه فى أركان البيت الشريف المنصورىّ بالخناصر، ونُعدّه للمواقف التى ليس للدين فيها غير تأييد

الله وحدَّ السيف ناصر، ونَدّخره من معَادن أوليائنا الذين تمسَّكوا من الانتماء إلينا بأمْكَن الأسباب وأقوىٰ الأَوَاصر، ونقلّد أعطافَ الأواصر منه سيفًا يُرمىٰ منه بَيْتُ العِدا ومعاقلُهم بأفتك حاصدٍ وأفْلَل حاصر؛ فكَمْ من مواقفَ شَفَع فيها الشجاعةَ بالخضُوع لربِّه، ومواطنَ لَبِس فيها قَلْبَه علىٰ الدِّرع إذا لَبِس غيرُه الدِّرعَ علىٰ قَلْبه؛ ومسالكَ سلَكها فى طاعة الله وطاعتنا والسيُوفُ تنفِر من قُرُبها، ومشاهدَ شهِدها فى طاعة الله وطاعتنا والقلوب تفرّ من حُجُبها، وليَالٍ قطعها فى خدمتنا لم يصْحَبْ غيرَ ألسنة أسنَّته وأعيُنِ شُهُبها؛ ومقاصد للدّين بلَغها والسِّهامُ لانجمالُها من الفَرَق قوادِمُ النُّسُور، وسَرايَا وقفَ بينها وبين العِدا فضُرِبَ بينهم من شجاعته بِسُور، وبِحارِ حرْبٍ لم تتجاسَر السوابِحُ علىٰ قطْعها حتّى مدّ عليها من مُعْوَجَّات سيوفه قناطِرَ ومن مُقَوَّمات ذَوابِله جُسُور؛ وكم أنامَ الرعايا فى مِهادِ عَدْله فلم يطْرُقْهم طَيْفُ ظالم فى الكَرا، ولا رَوَّع سِرْبَهم خيالُ مُغِير أوهَمَهُم السُّرىٰ؛ بل كانوا محفوظين بمهابته محفُوفين بمواهبه، وادِعين فى ظلّه الذى مادَجا عليهم ليلُ خَطْب إلا أطلع لهم بُدورَ الأمن فى غَياهبِه.

ولما كان (فلان) هو الذى سار بذِكْر مهَابته المَثَل، وصار له فى قلُوب الأعداء من الرُّعب ماتَشَابه فيه القاتِلانِ الوَجَل والخَجل، وجمع محاسنَ الصفات فما أخذ عنه أو نُطق به أو نُظر إليه إلا وُجد (مِلْءَ المَسَامع والأفْواه والمُقَل)؛ ولا جَرَّد علىٰ العِدا سيفا إلا ودّعتْ أرواحُهم الأجساد، ولا أرْهفَ فى مجالس العَدْل والإحسان قلَما إلا وضمِنتْ له الآجامُ التى نشأَ بها (كَرم السُّيُول وسَطْوةَ الآساد)؛ ولا طلَع فى أُفُق مواكِبَ إلا وهالتِ العِدا هالةُ بَدْره، ودلّت علىٰ عِظَم سلطاننا رفعةُ قَدْره، وشهِدت له بحُسن طاعتنا طاعةُ أُمَرائنا لأمره؛ وأسلَفَ من خِدْمة والدنا السلطان الشهيد ما لم تَزَلْ له به عندنا حقوقٌ مرعيَّة، وسوابقُ مرضيَّة،

ورتبةُ تقديم سنيّه، ومزيةُ تقريبٍ جعلته مُشاهَدا بالعِيان مقدّما فى النيّه ـ ٱقتضتْ آراؤنا الشريفةُ أن نُرَوِّع العِدا بسيفه، ونُرِيَهم من تقْدِمتِه علىٰ الجيوش يقظةً ما كانوا يرَوْنه حُلُما من طَيْفه؛ ولِيعْلَمَ الأعداء معاجلةَ أخذهم بالعُنْف والحَيْف، وأننا لا تأخُذُنا فى الله لومةُ لائم فليس بينَنا وبينَ أعداء الله ورسُوله (صلى الله عليه وسلم) إلا السَّيْف.

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ ممالكُ الإسلام به مُفْتَرَّة المَبَاسم، عالية مدى المَهَابة إذا طَرقتها عواصفُ رِياح العِدا وقفَتْ دُونَ بُلُوغها داميةَ المَناسم ـ أن تُفوَّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية علىٰ العادةِ فى ذٰلك والقاعدة تفويضًا يُفيض علىٰ الممالك حُلَل المَهَابه، ويَسْلُب أعداءَ الدين رداءَ الأمن فلا ينفَعُهم الخضُوع ولا الإنابه، ويُضاعِفُ لنا أدعيةَ الرعايا الصالحةَ بإجرائهم علىٰ ما ألِفُوه من العدل والإحسان فمنهم الدعاءُ الصالحُ ومن كَرَم الله الإجابَهْ.

فلْيتقلَّد هذه الرُّتبة الدالَّةَ علىٰ ٱرتفاع قدره لديْنا، الشاهدةَ له باحتفالنا بما أوجبه إخلاصُه من حقوق الطاعة والولاء علَيْنا؛ المنبِّهةَ علىٰ أنه سيفُنا الذى نَصونُ الممالك بحدِّه، ونَصُولُ علىٰ العِدا بمَضائه الذى تَهلَّلُ وُجوهُ النصر كلَّما أسفَر من غِمْده؛ ولْيستقرَّ فى ذٰلك نافذًا فى المصالح الإسلامية أمْرُه، مُغيرا علىٰ جُيوش الأعداء ذِكْره، معمِلَةً فى حمايةِ الدِّين بِيضُه المُرْهَفَة وسُمْره، مجمِّلةً بإشراق طلعته مطالِعُ المَواكب، مسيِّرَةً نجُوم أسِنَّته إلى قلوب أعداء الدِّين مَسيرَ الكواكب، مُخْفِقةً بخُفُوق رايته مَساعِى الكفر الصادرةِ عن آمالهم الكَواذب؛ ليعْلَمَ عدوّ الله أنه أشدُّ طَلَبًا له من أجَله، وألزمُ لعنُقه من عَمَله، وأسبقُ إليه من رَجْع صوتِه، وأنزل عليه من مُفَاجأة مَوْته. ولْيُجْمِل النظرَ فى مصالح الجيوش الإسلامية بما يُضاعِفُ عِدّتها،

ويُبْقِى على توالى الأحقاب حِدّتَها وجِدّتَها، ويأخُذُهم بإدامة التمرّن فى الحُروب، وإطالة عِنان التأهّب للرّكوب؛ ويُعين كلًّا منهم بملاحظة حاله على آستدامه قُوّته وإمكانه؛ ويجعلُهم بالاقتباس من شجاعته من القوم الذين لايَسْألُون عن عدد عدُوّهم بل عن مَكانه. وليُكُنْ لكلمة الشريعةِ الشريفةِ رافعا، ولشُبَه من يمتنع عن الانقيادِ إلى الأحكام دافعا؛ وعلى يدِ من يتطرّق إلى الخُروج عن أحكامه آخذا، ولمن لم يسْلُك الأدبَ بين يَدَىْ حُكّامه بما يقتضيه تعظيمُ الحكمِ العزيز مؤاخذا. وليأمُرِ النوّاب بإقامة منَار العدل الذى يومٌ منه خيرٌ للأرض من أن تُمْطَرَ أربعين يوما، ويَصْرِفْ إلى مَصالح الثُّغور الإسلامية وحمايتِها فِكْرا لم يختَرْ دعةً ونظراً يأْنفُ أن يألَف نَوْما؛ وملاكُ الوصايا تقوى الله وهى من خَصائص نفسه الكريمه، وراحةُ رُوحه التى هى للفِكْر فى مصالح الإسلام مُديمه؛ فليَجتهِدْ فى المحافظة عليها ما آستطاع، ويُمْضِ بها فى مصالح الإسلام أمْرَه الذى جعَلْناه من أمرنا مُطاع.

* * *

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة أيضا، كُتِب به عن السلطان الملكِ أبى بكرِ آبن الناصر محمد بن قلاوون للأمير طُقُزْدُمُر أمير مجلس، فى سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة، بعد أن بطلَتِ النيابةُ فى دولة أبيه الملك الناصر عِدّةَ سِنين، وهى :

الحمدُ لله الذى آصطفى لسلطاننا المنصورِ مَنْ ينُوب عنّا فى رعاية الجمهور أحسَنَ منَاب، وأضْفى على مُلْكنا المعمور من رياسته أسَرّ سربال ومن حراسته أجَلّ جِلْباب، وكفى دولتَنا الشريفةَ بسياستِه مُهِمّاتِ الأمور فلتأْييدها بقيامه دوَام ولتشييدها باهتمامه آستِصْحاب، وشفَى الصُّدور بصُدُور إشارته المباركَة التى لها بأوامرِنا العالية آقترانٌ ومن ضمائرنا الصافية آقْتِراب، وأوفى له من بِرّنا العميم بحقه

الذى [له] بعهْده آستحقاقٌ للتقـديم و إيجاب ، وسبْقِه القديم الذى له من سَعيد المصاهرة أكرمُ آتّشاج ومن حميد المُظاهرة ألزمُ آنتساب .

نحمدُه على أن بصَّر آراءَنا بطُرُق الوِفاق وسُبُل الصواب ، ونشكره على أن نَضَّر راياتِنا فى الآفاق : فلقُلوبِ العِـدا من خَوْفها إرهاق و إرهاب .

ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً منزَّهة عن الشّكِّ والآرتياب ، موجَّهةً إلىٰ قِبْلتها التى ترضاها الألباب ، ونشهَد أنَّ سـيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظفر عَزْمَه بالثَّبات وقَهَر خصمَه بالتَّباب ، ووَفَّر قِسْـمه من الإنجـاد ويَسَّر حِزْبه للإنجاب ، وأظهر آسمَه بعد آسمِه فحلا فى الأفواه ذِكْرُه وطاب . صلى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين سلكُوا من بعده فى رعاية عهده أحسَنَ الآداب ، صلاةً متصلةَ الأسـباب ، موصِّلةً إلىٰ خيرِ مآلٍ متكفِّلةً بنِعَم باب (؟) لا يزال لسُحُب جُودها فى الوُجُود آنصِباب ، ولمقْتَرِب وُفُودها وُرُود إلىٰ مَظَانِّ الرِّضوان من غير إغْباب ، ما جَرَّد آنتقامُنا علىٰ الأعداء سـيفَ سطًا يقُدّ الرِّقاب ، وأوردَ إنعامُنا الأولياءَ بحرَ نَدًى زاخِرَ العُبَاب ، وجدّد قيـامُنا بعلم هُـدًى مرّتْ عليه الأعوامُ وما لُمِح له أثَرٌ ولا فُتِح له باب ، وآعتمَد مَقامُنا الشريفُ ، فى الجمع للقلوب والتأليف ، علىٰ أعلىٰ ولىّ وأعلىٰ جَنَاب ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من آعتمَدْنا فى الإنجاب والإنجاح علىٰ دِيَانته ، وآنتجدنا فيما أرَدْنا من الآستصحاب للصَّلاح بإعانته ، وآعتضَدْنا فى تقطين الممالك وتأمينِ المسالك بِصِيالَته وصيانَتِه ، ورعينا عنـدَ والدِنا الشهيد ـ سـقَى اللهُ عَهْده صوبَ الرِّضوان ـ علىٰ عُلُوّ مكانه ودُنُوّ مَكانَتـه ، فا كتفيْنا فى كَفَالة الأُمَّة وإيَالةِ النِّعمـة بخشيتِه من ربِّه واستكانَتِه ـ من حُمِدت سَجَاياه ، وتعدّدتْ مَزَاياه ، واستَنَدت

إلى ما أمر اللهُ تعالى به من العَـدْل والإحسان فى الأحكام قَضَايَاه ، ووجَدَتْ منه الزُّهدَ والرِّفق رُعاةُ الإسلام ورَعايَاه ؛ فهو الممدوحُ فعلُه ، من جميع الألسنه ، الممنوحُ فضلُه ، فى سائر الأزمنه ، المَموحُ عليه آثارُ القَبُول الظاهرِ من عناية الله لما نَوَاه من الخير لخلق الله وأبطَنه ؛ فهو عاضِدُ السلطنة الذى حَلَّ من العَلْياء مَوْطِنَه ، وكافِلُ المملكه ، الذى سبَق إلى كلِّ مجد فأدرَكه ؛ وسـيفُ الدوله ، الحامِى الحَوْزة البادِى الصَّوْله ؛ ومَنْ له آشتمالٌ على العَلْيا ، ومن يقارِنُ التحقيقُ له رأيا ، ولا يباين التوفيقُ له سَـعْيا ، ويُعاوِن الهـدى والنهى على طُول المَدى له أمرا ونَهْيا ، ويُعايِن الورى لسلطاننا المنصور منه مَهْدِيًّا يُجْمِل لدولتنا حِفْظا ويُحْسِن لمُلْكنا رَعْيا .

وكان فلان هو الذى لم يزَلْ متعيِّن المَحاسن ، متبيِّن المَيامن ، متمكِّن الرِّياسة فى كل الأماكن ؛ فحِلْمُه إذا اضطَربت الجبالُ الرَّواسى ثابتٌ ساكن ، وعِلْمه الزائدُ بأوضاع السِّياسـة وأنواعِ النَّفاسة للوُجود من بَهْجته زائنٌ ، ورأيُه الصائبُ للبلاد والعِباد صائِن ، ورَعْيُه للخلق بالحق : القوىُّ منه خائفٌ والضعيفُ إليه راكن ، وبِشْره هادٍ للرائِى وبادٍ للعاين ، وذِكْرُه الجميـلُ سائرٌ فى الآفاق والأقطار والمَدَائن ؛ حتَّى أظهر الله تعالى بإمداد نَيِّرنا الأعظمِ من إشراق بَدْره الكامل ما هو فى سِرِّ الغيب كامِن ، وشَهر سيفَه الذى يغدو الإيمـانُ من مَهَابته فى كَنَفٍ منيعٍ وحَرَمٍ آمِن .

ولما مضَتْ على مَنْصب النيابة الشريفـة فى أيَّام والدنا الشهيد بِضْعُ سِـنين ، وآنقضَت الأيامُ والليالِى والدهرُ بمَوْهبَتها ضَنين ؛ ولا وُطِيتْ لها رَبْوه ، ولا آمتُطيت لها صَهْوه ؛ وكانتْ فى سِلْك مُلْكه مندَرِجه ، وبصَفْو سلطَنته ممتَزِجه ؛ إلى أنْ قضى عليه الرِّضْوانُ النَّحْب ، وأفضى من الجَنان إلى المَحَلِّ الرَّحْب ، رأينا بعـده بمَنْ كان يتحقَّق وُدَّه أنْ نَسـتأنِس ، وأمضينا وصيَّته المبـاركة فى آختيار ثمرةِ الإخلاص بمن

كان له الاختصاص يغرس ، وأفضينا إليه بالمناب عنّا لما كان من أنوار والدنا الشهيد فى كل تسديد يقتبس ، ومن الاستئثار بمجالسته يفوز فيحوز حكم الحكم لأنه كان أمير ذلك المجلس ، وقضينا باعتماد أمره الكريم بعد أمرنا الشريف : لأنه الخبير الذى لا ينبهم عليه شىءٌ من خفايا القضايا ولا يلتبس — اقتضى حسنُ الرأى الشريف إلقاءَ ما فى أيدينا من مقاليد الممالك إلى يده ، وإبقاءَ وديعةِ هذا الأمرِ العظيم إلى صونه وعونه وتشدّده ، وإيفاء جنابه إلى حميد هذه الغايةِ التى هى للمناسبة مناسبةٌ لسؤدده .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف — لازال يجمعُ شمْل الإسلام بتعيّنه وتفرده ، ويرجعُ أمرُ الأنام منه إلى مأمون الرأى رشيده سفّاح السّيف مهنّده ، منصور العزم مؤيّده ، ويوسع الخليقةَ إذا وليهم بالرأفة والرحمة ومَنْ أولى من أبى بكر بأن يخُصّ أصحابَ محمد عند الخلافة بإعذاب منْهل الجُود وموْرده — أنْ تفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية — أعلاها اللهُ تعالى — نيابةً شاملةً مُحيطه ، كاملةً بسيطه ، تعنى كلَّ أمير ومأمور ، وتُدنِى أمرَها الذى يعامل بالإجلال ويقابَل بالسّرور ، برًّا وبحْرا ، وسهْلا ووعْرا ، غورًا ونجْدا ، بُعْدا وقُرْبا ، شرْقا وغرْبا ، وما منحه اللهُ تعالى لوالدنا الناصر من الممالك ويُدّخر لسلطاننا المنصور ويُحْبَى :

تستوعبُ أمرَ ما نأى من هذه الأقاليم ودنا ، وتجب طاعتُه فيها على كلّ من كان مؤمنًا ، ويمتثل فى ذلك كلّه أمرُه ، وتعمل فيه الرويّة فيجْمُل فكرُه ، ويُؤمَّل فيه فتحُه ونصرُه ، وينقل به مدْحُه وشُكرُه ، ولا ينفصل منحُه وبِرُّه ، ناظرا فى هذه النيابة الشريفة بفكره التامّ ، سائرا فيها السيرَ الجميلَ من الدُّرْبة والإلهام ، ناشرًا ظلالَ المَعْدلة على مَنْ سار أو أقام ، مظاهرًا بجنابه منا أجلَّ مَقام . ونحن وإن كنا نتحقّق من خلاله الحُسنى ، كلّ وصْف يُسْنى ، ونثق منه بذى الصدر السليم الذى هو على

المقاصد يُعان وبالمحامد يُعْنىٰ ، فلسنا نُخِلُّ بالوصية التى نَعْلم أنَّ له عنها ٱستِغْنا ؛ ولكننا لا نَتْرك بها التبرُّكَ ولا نَدَع ماسنّ الله تعالىٰ منها وشرع ، ولا نُغْفِل ، مايجب به أن يحتَفَل ؛ فقد وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وأمضىٰ أمره المسموعَ كلَّ ذى رجُوع إلىٰ الله تعالىٰ منهم وإنَابَهْ ؛ فقد أولاه الله تعالىٰ كلَّ جميل قبل أن وَلّاه ، وحَلَّاه بالسِّمات والمَكْرُمات قبل أن رَفَع عُلاه ؛ وأعطاه ما أرْهَب العِدا من سَطَاه ، وهداه إلىٰ كلِّ رُشْد تأتمُّ به الهُداه .

فأهَمُّ ذٰلك تقوىٰ الله تعالىٰ وهو عليها مجبُول ، وأمرُها عنده متَلَقًّى بالقَبُول . والعدْل فهو منه مأمُول ، والٱتصافُ بالإنصاف فهو دأبُه فيما يفْعَل ويقُول ؛ والجهادُ : فعزائمه فى مَيْدانه تجُول ، وصوارِمُه بها من قِرَاع فُرْسانه فُلُول . والزُّعماءُ والأكابر فلهم من محافظته اعتناءٌ وبملاحظَته شُمُول . والعساكرُ الإسلاميَّة فبتأبيده تَبْطش أيديهم بالعِدا وتصُول . وزعماءُ البلادِ فلهم إلىٰ ظِلِّ رحمته إيواءٌ وبكَنَف نعمته ظُلُول . وممالكُ الإسلام فما منها إلامعمورٌ بما أوْتَه كَفالتُه مأهول ؛ وثُغُوره فكلُّها بَسّام بفَتكاته التى ألقىٰ رُعْبَها فى البحر فهو بيْن كلِّ فاجر وبينَ البحر يَحُول ، وماهو بذٰلك من حَميد المسالك موصُول ، ومحلُّه المقدّم لأنه أهَمُّ الأصول : من إكرام الحُكّام ، وإبرامِ الأحكام ، وٱستيفاءِ الحُدُود ، وٱقتفاء السَّنَن المعهُود : من إنجاز الوُعُود ، وإحراز السُّعود ، والإجهاز علىٰ كلِّ كَفُور وجَحُود ، والٱحترازِ من فَظاظة الناس بإفاضةِ الجُود ؛ فكلُّ ذلك علىٰ خاطره مسْرُود ، ولما آثره موْرُود ؛ وفى ذخائره موجُود ، ومن خِبْرته معلومٌ معهود ، وعن فكرته مشهورٌ ومن فِطرته مَشْهود ، فلْيَسَعْ أمرُنا هذا جميعَ الأمراء والجنُود ، ولْيرجعْ إليه كلُّ من هو من جملة المِلَّة معدود ؛ ولْيقابِلْ مرسُومَنا بالسمع والطاعة ، أهلُ السنة والجماعة ، ساعةَ الوقوف عليه وحالةَ الوُرُود ، وٱلله تعالىٰ يُصْلح ببقائه الوُجُود ، ويَمْنح باهتمامه المقصُود ، ويفتَح المعاقلَ

باعتزامه الذى ليس بمردُود عن مُرادِه ولا مَصْدود ، بل يُصْبِح الكفْرُ من خوفه محصورا ويُمْسى وهو بسيفه محصُود ؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه وصيّة لنائب سلطنة ، أوردها فى "التعريف" قال :

يُوصىٰ بتقوىٰ الله تعالىٰ وتنفيذ الأحكام الشرعيّة ، ومُعاضدة حُكّامها ، وآستخدامِ السُّيوف لمساعدة أقلامِها ؛ وتفقُّد العساكر المنصورة وعَرْضِها ، وإنهاضِهم لنَوَافل الخِدْمة وفَرْضِها ؛ والتخيُّر للوظائف ، وإجراء الأوقاف علىٰ شرط كلِّ واقف ؛ والملاحظة الحُسْنىٰ للبلاد وعمارةِ أوطانِها ، وإطابة قلوبِ سُكّانها ، ومعاضدة مباشِرى الأموال مع عدَم الخُروج عما أُلِف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانِها ؛ وتحصينِ مالديه ، وتحسين كلِّ ما أمْرُه إليه ؛ وآستطلاع الأخبار والمطالعةِ بها ، والعملِ بما يرِد عليه من المراسيم المطاعة والتمسك بسَببِها ؛ وأنه مهما أشكل عليه يَستضِىء فيه ، بنور آرائنا العاليةِ فهو يكْفِيه ، ومن قُتِل من الجند أو مات وخَلَّف ولدا يصلح لإقطاعه يعَيِّن له ليقومَ بمُخلَّفيه ، ويقال من هذا مايقوم بتمام الغرض ويُوفِّيه .

الوظيفة الثانيـــة

(الوزارة لصاحب سـيْف)

وآعلم أنّ أوّل من أُطلِق عليه لقبُ الوزارة فى الإسلام "أبو حَفْص الخَلّال" وزير أبى العَبّاس السَّفّاح أوّل خلفائهم(١) كما ذكره القُضاعىّ فى "عيون المعارف فى أخبار الخلائف" ثم صارت الوزارةُ بعد ذلك للخلفاء والمُلوك دائرةً بين أرباب السُّيوف

---

(١) أى خلفاء العباسيين .

والأقلام ، تارةً يليها صاحبُ سـيف وتارةً يليها صاحبُ قلم ، إلا أنها فى أرباب الأقلام أكثر. وعلىٰ ذلك جرىٰ عُرْف الديار المصرية من ٱبتداء الأمر وإلى الآنَ.

ومما يَنَبَّه عليه أنَّ الوزير اذا كان صاحبَ سَيْف ، كان فى مجلس السلطان قائماً فى جملة الأمراء القائمين . وإذا كان صاحبَ قلم ، كان جالسًا كما يجلس أرباب الأقلام : من كاتب السرّ وغيره .

وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كتب به للأمير سَيْف الدين بُكْتُمر . وهى :

الحمد لله الذى شدّ أزْرَ دولتِنا القاهرة ، من أوليائنا بأمضىٰ سيف ، وعضَّد أيامنا الزاهرةَ ، من أصفيائنا بأعدل وَلِىّ لا يوجَدُ فى حكمه حَيْف ، وعَدَق تدبيرَ أمورِ ممالكنا الشريفة بمن تَحْجُبُ مهابتُه ذوِى الأطماع الطامحة عمّا لا يُحَب فلا يُلِم بهم فيها خاطر [ولا] يطرُقُهم بها طَيْف ؛ جاعلِ التأييد لآرائنا مصاحِبا ، والتوفيقِ موافقا لأوامرنا التى لا تُهْمِل من مصالح الإسلام مندُوبا ولا تدَعُ من مهمّات المُلْك واجِبا ؛ والإقبالِ تاليًا لمراسمِنا فى ٱرتياد من يغْدُو قلبُ المُحِقّ من حَيفه ساكنا وقلب المبطل من خَوْفه واجبا ، واليُمْنِ تابعا لٱستخارَتِنا فى ٱنتخاب من لم يزَل فى خدمتنا الشريفة للأدعية الصالحة جالِبا ، ولمنافع الإسلامِ والمُلْك طالبا ، ولمضارّهما حاجِبا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى عضَّدت أيامَنا بمن جمعَتْ أدواتُه ، رتبَتِى السيف والقلمَ ، وعدَقَت تدبير ممالكنا بمن أحرزت [صفاته] ، مزيّتَى العِلْم والعَلَم ، وشدّ أزْرَ دولتنا بمن يُبَيِّضُ بمعْدلَته من صحائف أيّامنا ما هو أحبُّ إليها من حُمْر النَّعَم .

ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادة نُعِدّها للقائه ، ونتيمَّن بها فى افتقاد من نعتضِدُ به فى مصالح أهلها وٱنتقائه ، ونقدّمُها أمامَ كل أمر نَدَّخره لٱعتلاء ولِيِّنا بالتقىٰ وٱرتقائه ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى أرسله إلىٰ الأُمَم

طُرّا، وخصَّه بالأمّة التى جعَل أمارةَ سبقِها إلىٰ الخيرات أنْ غدَتْ محجّلةً غُرّا ، وأيَّده بنصره و بالمؤمنين الذين ما منهم إلا مَنْ أعرَضَ عن زُخْرُف الدنيا و إن كان حُلْوا وقال الحَقَّ و إن كان مُرّا ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين وَلُوا أمتَه فعدَلُوا، والذين تمسَّكوا بسَنَن سُنَّته فما حادُوا عنها ولا عدَلُوا، صلاةً لا تزالُ الألسُن لإقامتها مُدِيمه، والقلوبُ لإدامتها مُقِيمه، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإن أوْلىٰ من أبرزتِ الضمائرُ فى الاعتضاد به مكنُونَ طَوِيّتها، واعتمدتِ الخواطر، فى تصريح عَلَانِيَتها بأولويّته لمصالح الإسلام علىٰ نِيّتها، وتشوّفتِ البلاغةُ لرَقْم مَفَاخره، وتنافست المعانى فى تخليد مآثِره، وهَنَّأت المَعْدَلة نفسَها، برافع لوائها، وأبدت الدولةُ أُنسَها، بناشرِ بِرّها فى الأقطار وآلائها، وافترَّت ثغورُ الاقاليم المحروسةِ بمن تَلْهَج بمصالحها ألسِنةُ أقلامه ، واخضرَّت رُبىٰ آمال الأولياء بما يُسْفِر عنه من تهلُّل بهاء غُرَر أيامه، مَنْ هزَزْنا منه لمصالح الإسلام سيْفا يصلُ ما أمر اللهُ به أن يُوصَل، ويَفْصِل من مهمّات الممالك مايقتضى الحقُّ أن يُفْصَل، ويُبْرِز من معادن العَدْل والإحسان ماهو فى سِرّ خلائقه كامِن، ويُنْزِل من استقامت سيرتُه فى الحِمىٰ المُخْصِب والحرَمِ الآمن، ويصُون الأموالَ بمَهَابته فلا تمتدّ إليها هَوَاجِسُ الأطماع ، ولا تتجاسَرُ أبصارُ غير الأمناءِ أن تقصّ نبأَ رُؤْيتها علىٰ الأسماع ، ويُضاعفُها بخِبْرته التى تَهْدِيها الأمانةُ إلىٰ مَعَادنها ، وتدُلُّها النزاهةُ علىٰ مواطنها ، وتُبْدِى لها ظواهرُ الأعمال أسرارَ بواطِنها، ويعمّر بيوتَ الأموال بعِمارة البلاد، ويثمِّر فروعَ الطَّوارف من مصالحها بحِفْظ أصولِ التِّلاد، ويكُفُّ أكُفَّ الظلم عن الرعايا فلا يَخْشىٰ مُحِقٌّ علىٰ حقه ، ولا يخاف مستقيمٌ علىٰ ما قُسِم له من رزْقه ، ولا يطمح قوىٌّ إلىٰ من يستضْعف جانِبَه، ولا يطمَعُ باغ فى الحيف علىٰ أحدٍ مخالِطَه فى نَسَب كان أو مُجانبَه .

ولما كان الجناب العالى (الفلانى) هو الذى أشير إلى مناقبه، واعتضد منه بمطيع لله فى السر والعلن ومراقبه؛ وفوض تدبير الممالك منه إلى من لا تأخذه فى الحق لومة لائم، واعتمدت أيامنا الزاهرة منه على من طالما سرى فى مصالحها على جياد العزائم؛ وشد أزر الملك من موازرته بمن يكسو دست الوزارة أبهة وجلالا، ويلبس منصبها سنا لو ملكته الشمس مارامت عن بروج شرفها انتقالا؛ ويمد على الرعايا لواء عدل لا يقلص له هجير الظلم كما تتقلص الظلال ظلالا؛ وتطلع به شموس الأرزاق على أولياء دولتنا لكن لا تذهب كالشموس غروبا ولا زوالا؛ مع مهابة تخيف الأسد فى أجماتها، ومعدلة تعين الغيوث على رفع محول البلاد ودفع أزماتها؛ وديانة زانها التقى، وخبرة صانها الورع وهما أفضل مابه يرتقى.

وكانت الوزارة الشريفة نظام المملكة وقوامها، وذروة الدولة وسنامها؛ وتاج المراتب وإكليلها، وعتاد الخزائن الجامع دقيق المصالح الإسلامية وجليلها ـ اقتضت آراؤنا الشريفة أن تزين هذه الرتبة بجوهر فرنده، وأن يصدر منصبها عن مناقب لا تصدر إلا عن جهته ومفاخر لاترد إلا من عنده؛ وأن يطلق فى مصالحها قلمه، ويمضى فى قواعدها إشاراته وكلمه؛ ويطلع فى أفقها شمس تدبيره، ويعدق به ما يراه فى أمورها من صغير الأمر وكبيره؛ وأن نجعل مسامع الأقاليم على سعتها إلى أوامره ونواهيه مصغيه، وأن نصد بسمعته عمن بعد عوارض الإمهال الملهية ومواقع الإهمال المطغيه.

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لازالت سحائب بره مستهله، وركائب المحامد إلى حرم نعمه مهله ـ أن تفوض إليه الوزارة الشريفة بالممالك الإسلامية على أكمل القواعد، وأجمل العوائد؛ تفويضا يعلى مرامه، ويمضى مضاء ألسنة الأسنة أقلامه،

ويبسُط فى مصالح الأقاليم المحروسة يَدَه ولسانَه ، ويلقى إليه من مهمّات كلِّ قُطْر أزِمَّته ليصَرِّف علىٰ مايَراه من المصالح عِنانَه .

فليستقرّ فى هذه الرُّتْبة السنية ٱستقرارَ الدُّرَر فى أسلاكها، والدَّرارىّ فى أفلاكها؛ نافذَ الأمر فى مصالح شَرْقها وغَرْبها، مُطاعَ القول فى بُعْد أماكنها منه وقُرْبها؛ ناشرًا كلمةَ العدل فى أرجائها ، محققا بالإحسان آمالَ أُمَمٍ قَصَرت علىٰ كَرَمنا ممدُودَ رَجائها؛ مُعْلِيا مَنارَ الشرع الشريف بمعاضدة حُكّامه، والوقوف عند أوامره المُطاعة وأحكامه؛ حافظًا أقدارَ الرُّتَب بأكْفائها ، معتمِدًا علىٰ ذَوى البُيوت المحافِظين على ٱتِّباع سِيَرِ أسلافهم وٱقتِفائها ؛ معوّلا علىٰ ذَوى الخِبْرة التامة مع الدِّيانه ، مُراعِيًا مع ظُهور المعرفة جانبَ العِفَّة والنَّزاهة والصِّيانه؛ مُوكِّلا بمصالح بُيوت الأموال والخزائنِ المعمورةِ موادَّ الأموال ومَعِينَها، صارفًا إلىٰ عِمارة البلاد جميلَ تدبيرٍ تعتضد البحارُ والسُّحُب منه بمُساعِدها علىٰ رىّ الأرض ومُعِينها؛ ميَسِّرا موادَّ أرزاق خَدَم دولتنا القاهرة وأوليائها بجميل بِشْره وحُسْن رُوائه، مسَهِّلا مطالِبَ أرباب الرواتب والصَّدَقات بطَلاقة وَجْهٍ لو تأمله ٱمْرُؤ صادِى الجوانِح لٱرتَوىٰ من مائه ؛ ليتوفَّر أهلُ الوظائف علىٰ خِدَمهم بقلوب منْبَسِطةِ الآمال ، ويُناضِلَ عنها الفقراءُ بسِهام الليل(١) التى لا تَطيش إذا طاشَتِ النِّبال؛ فقد جعلنا أمْرَه فى ذٰلك جميعه من أمرنا فلْيَكْتُبْ يمْتَثَلْ ، وليقُلْ فى مصالحنا بما يراه يَسْر كلامُه سُرىَ الرياح ويَسِرْ قولُه سَيْرَ المَثَل ؛ ولا يُمْضَ عقدٌ ولا حَلّ ، ولا ولايةٌ ولا عزل ؛ ولا رَفْع ولا خَفْض ، ولا إبرام ولا نَقْض ؛ إلا عن رأيه وإشارتِه ، وبنَصّ خَطِّه وعبارتِه .

وفى سِيرته السَّرِيَّه ، وديانته التى هى من أسباب الهوىٰ عَرِيَّه ، مايُغْنِى عن وصايا تُمْلىٰ علىٰ فكره ، وقواعد تُجْلىٰ علىٰ ذِكْره ؛ ومِلاكُها تقوىٰ الله : وهى من أخَصّ

(١) المراد دعوات السَّحَر كما لايخفىٰ .

اوصافه ، ونشرُ العدل والإحسان وهُما من نتائج إنصاته لأمور الرعايا و إنصافه ؛ لكن علىٰ سبيل الذِّكرىٰ التى تنفع المؤمنين ، وترفع درجاتِ المتقين ؛ فليجعلْها نجيّ خاطره ، وقبلة ناظره ؛ والله تعالىٰ يُعْلِى قدره وقد فعل ، ويجعله من عباده المتقين وقد جعل ؛ بمنّه وكرمه . والاعتماد [علىٰ الخط الشريف أعلاه] إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثالثة

(الإشارةُ ، وهى وظيفة قد حدَثت كتابتُها ولم يُعْهَد بها كتابةٌ فى الزمن القديم)

وهذه نسخةُ تقليد أنشأته بالإشارة للأمير جمالِ الدين يوسف البشاسى إستادار فى الدولة الناصرية فرج ، حين فُوِّضت إليه الإشارة مضافةً إلىٰ الإستَدَاريَّة ، وكَتَب له به المقرُّ الشمسىّ العُمَرىّ كاتبُ الدَّسْتِ الشريف ، فى شعبان سنة تسع وثمانمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جدّد للديار المصريّة بالمحاسن اليُوسُفِيَّة رَوْنَق جَمالها ، وأعزَّ جانبها بأجلِّ عزيزٍ ملأتْ هيبتُه الوافرةُ فسيحَ مجالها ، وأسعدَ جَدّها بأسعدِ مُشيرٍ أدارتْ آراؤه الصائبةُ مُتقاعِسَ الأمور مابين يمينها وشمالها ، وأكرَمَ مآبَها بأمثل كافٍ عاد حسنُ تدبيره بضُروبٍ من المصالح أنامَ الخلقَ فى ظِلالها ، وأجاب سُؤْلَها بأكمل لم تَعْدل عن خِطْبتها له وإن أطال فى مِطالها .

نحمَدُه علىٰ أنْ أغاثَ الدولةَ القاهرةَ بمن أَخصَب به بعد الإمحال رَبْعُها ، وطال بطَوْله بعد القُصور فَرْعُها ، وحَسُن فى المَناظر بحُسن تأتّيه لذى التأمُّل يَنْعُها .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريك له الذى شَرَع المَشُورة وحثَّ عليها ، وعدَق أمورَ السيف والقلَم بها فردّهما عندَ اختلافِ الرأى إليها ؛ شهادةً ترفع قائلَها إلىٰ أسنىٰ المراتب وتُعْليه ، وتقرِّب المخلِص فى انتحالها من مقام الاستخلاص وتُدْنيه .

ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى ورَد واردُ الأمة من مَنْهَل شِرْعته المطهّرة ماعَذُب مَشْرَعُه وِرْدا وصَدَرا ، وآلتقطت السَّيَّارَةُ أحاديثَ فضله فَصَيَّرتْها للرِّفاق سَمَرا ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تقيَّلوا مَساحِبَ أذياله فى العدل فعدَلُوا ، ولَزِموا مَنْهج سُنَنه الواضِحَ فما حادُوا عن سَواءِ السبيل ولا عدَلُوا ؛ صلاةً تفوق العَدّ حَصْرا ، وترفَع بركاتُها عن الأمة حَصْرا وتبدّل العُسْرَ يُسْرا ، فتُعيد عِجَاف الزمان سِمَانا وسُنْبلاتِ الوقت بعد اليُبْس خُضْرا ؛ وسلَّمَ تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنّ للملكة قواعِدَ تُبنىٰ عليها ، وأركانا تستَنِد إليها ، ودعائمَ يُشَدّ بالاعتضاد بها بُنيانُها ، وعَمَدا يعتمِد عليها فى المهمّات سلطانُها ؛ وهذه المَبانى وإن آتَّسع نطاقُها ، وآمتدّ بامتدادِ المملكة رُواقُها ؛ فإنّ بالسيف والقلم قِوامَها ، وبالتعلّق بحبالها بقاءَها ودوامَها ؛ إذ كانا قُطبين عليهما مَدَار فلَكها ، ونقطتين عنهما ينشأ الخطُّ المستقيمُ فى تدبير مُلكها ؛ وزعيمين يُترافَعُ إليهما عند التخاصُم ، وحكَمين يُرْجَع إلىٰ حُكْمهما عند التَّحاكم ؛ إلا أنهما لايستقلّان بأنفُسهما عند التحالُف ، ولا يقوم أحدُهما برأسه لدىٰ التَّخالف ؛ بل لهما إمامٌ يَرْجِعان إليه ، ويعوّلان عند آضطراب الأمورِ عليه ؛ وهو الرأى الذى لا يُقْطَع أمرٌ دون حكمه ، ولا يهتَدِى سارٍ فى مَهامِه المهِمّات إلا بنَجْمه ؛ إذْ كان علىٰ الشجاعة مُقَدَّما ، ودليلُه من المعقُول والمنقُول مسلَّما ، والمُتَّسم به لايزال عند المُلوك مبجّلا معظَّما ؛ لايقدِّمون عليه ولدا ولا والدا ، ولا يُؤْثِرون علىٰ مُعاضَدته عضُدا ولا ساعِدا ؛ إن أشار برأى تمسك الملكُ منه بالحبل المَتين ، أو مَحضَه كلامَ نصح قال : ﴿إنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِين﴾ .

ولما كان الجناب العالى ، الاميرىّ ، الكبيرىّ (إلىٰ آخر ألقابه) يُوسُف الناصرىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه ، هو الذى حنّكته التّجارِب و «حَلَب الدَّهْرَ

أشْطُرَه» ، وَعرف بتقليب الأمور علىٰ ممرّ الزمان مَخْبَره ؛ مع ما ٱشتمل عليه من الرأى الصائب ، والفِكر الذى اذا أبدتْ قريحتُه فى الارتياء عَجبًا أتتْ فطرتُه السليمةُ بالعجائب .

هذا وقد عَلَا فى الدولة القاهرة مَقامُه ، ورَشَقَتْ أغراضَ مقاصدها بانقضاء الآجال فى الوقائع سِهامُه ؛ وساس العساكرَ فأحسن فى سياستها التدبير ، وبذَل فى نَفَقاتها الأموالَ فمال فيها إلىٰ الإسراف دُون التقْتير ؛ وٱستجاب الخواطرَ فأخذ منها بمجامع القُلوب ، وٱقتاد النفُوسَ الأبِيَّة قهرا فأطاعه مَنْ بينَ الشَّمال والجَنُوب ؛ وقام من المهِمّات الشريفة بما لم يَسبِقْه إليه سابق ، وأتىٰ من خَوارِق العادات فى التنفيذ بما لم يَلْحَقْه فيه لاحِق ، وبادر إلى ترتيب المصالح فرَتَّبها ولم يَعُقْه فى ٱنتهاز الفُرْصة عن دَفْع المفاسد عائِق ؛ وأخذ فى حَطِّ الأسعار فورد مَنْهَلا من المعروف صافيا ، وأمر بإبطال المُعامَلين فكان له عَمَلا علىٰ تَوالِى الأزمان باقيا ؛ ولازمَ بعدَ رضا الله تعالىٰ رِضَا مَلِكه ففاز بأشرف المآثر فى الحديث والقديم ، وتأسَّىٰ فى تعريفه بنَفْسِه بيوسف عليه السلام فقال : ﴿ٱجْعَلْنِى علىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إنِّى حَفِيظٌ عليم﴾ — ٱقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف تنويهًا بذكره ، وتقديمَه علىٰ غيره ممن رام هذه الرتبة فحُجِب دُونَها ﴿والله غالبٌ علىٰ أمره﴾ .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزينى — لا زال يجمع لأوليائه شَمْلَ المَعالى ، ويُرَقِّى أصفياءَه فى درجات العِز علىٰ ممر الأيَّام والليالى — أن تُفوّض إلىٰ المشار إليه الإشارةُ الشريفة التى هى أسنىٰ المقامات وأعلاها ، وأقصىٰ المرامات لدَيْنا وأغْياها ؛ مع ما ٱنضَمَّ إلىٰ ذلك من النظر فى الوزارة الشريفة التى جلَّ قدرُها ، وعلا فى المناصب ذكرُها ؛ والخاصّ الذى ٱختص بمهمَّاتنا

الشريفة، والديوان المفْرَد الذى غَمَر من ممالكنا السعيدة ذا الوظيفة وغيرَ ذى الوظيفه، وتعلقات المملكة شرْقًا وغربا، ولوازمها المفترقة بُعْدا وقُرْبا .

فليتلَقَّ مافُوِّض إليه بيمينه التى طالمـا رَبِحت فى الطاعة صَفْقتُها، ويقابِلْه بالقَبول الذى محلُّه من القلوب مُهجَتُها، مقدّمًا تقوىٰ الله تعالىٰ فيما خَفِىَ من مقاصده وظَهَر، مُؤْثِرا رضاه فى كل ما يأتِى ويَذَر، معتمِدا فى المصالح آعتمادَ ذى اليَقَظة الساهر، آتيا من غرائب الرَّغائب بمـا يحقِّق قول القائل : «كَمْ تَرَكَ الأوّلُ للآخِر» .

والوصايا كثيرة ومن بَحْره تُستخرَج دُرَرها، ومن سوابق آرائه تُستَوْضَح أوضاحُها وغُرَرُها، والله تعالىٰ يُدِيم عليـه نِعَمَ إقبالنـا الباطنةَ والظاهره، ويتولّاه من العناية بمـا يحقِّق له دائم قوله : ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِى الدُّنْيـا والآخِرَه﴾ . والآعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثانيـــة

(ممن يكتب له من أرباب السيوف ذواتُ التواقيع، وفيها وظائفُ)

الوظيفـــة الأولىٰ

(نظر البيمارستان لصاحب سيف)
(١)

الحمد لله رافع قَدْرِ من كان فى خدمتنا الشريفةِ كريمَ الخلال، ومُعْلِى درجةِ من أضفىٰ عليه الإخلاصُ فى طاعتنا العليةِ مَديدَ الظِّلال، ومجـدّدِ نِعَمِ من لم يخُصّـه اعتناؤُنا بغـاية إلا رقَّتْه هممُه فيها إلىٰ أسنىٰ رُتَبِ الكمال، ومفوّضِ النظرِ فى قُرَب

(١) فى بعض نسخ الأصل بياض ولعله كان متروكا لنسبة القول الى منشئه كما يأتى فى نظيره بعد .

الملوك السالفةِ إلىٰ مَنْ لم يلاحِظْ من خواصّنا أمرا إلا سَرَّنا ما نُشاهِد فيه من الأحوال الحَوَال .

نحمده علىٰ نِعَمه التى لا تزال تَسْرى إلىٰ الأولياء عَوارِفُها ، ومناهِلِه التى لا تبرَح تشتمِل علىٰ الأصفياء عواطِفُها ، وآلائِه التى تُسدِّد آراءنا فى تفويض القُرَب إلىٰ مَنْ إذا باشَرها سُرّ بسيرته السرِيّة مستحِقُّها وواقِفُها .

ونشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً رفَع الإخلاصُ لِواءَها ، وأفاض الإيمانُ علىٰ وُجوه حَمَلتِها إشراقَها وضياءَها ، ووالىٰ الايقانُ إعادةَ أدائِها بمواقف الحق وإبداءَها .

ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بعُموم الشفاعة العُظْمىٰ ، المَقْصُوص فى السُّنَّة ذِكْرُ حوضه الذى من شَرب منه شَرْبةً فإنَّه بعْدَها لا يَظْمَا ، المنصوصُ علىٰ نُبوّته فى الصُّحُف المنزَّلة وبشَّرت به الهواتِفُ نَثْرا ونَظْما ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين فازُوا من طاعته بالرُّتب الفاخره ، وحازُوا بالإخلاصِ فى محبته سعادةَ الدنيا والآخِره ، وأقبلُوا علىٰ حظُوظهم من رضا الله ورِضاه فلم يُلْوُوا علىٰ خِدَع الدنيا الساحِره ، صلاةً دائمةَ الاتِّصال ، آمنةً شمسُ دولتِها من الغُروب والزَّوال ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ الأمور بالنظر فى مَصالحِها ، وأحقَّها بتوفيرالفكْرعلى آعتبادِ مَناهجِها وآعتماد مناجِحِها ، أمرُ جِهات البِرّ التى تقرَّب بها السلطانُ الشهيد الملكُ المنصور (قدّس الله رُوحَه) إلىٰ من أفاض نِعمَه عليه ، وتنوّعَ فى إنشائها فأحسَن فيها كما أحسَنَ اللهُ إليه ، ورَغِبَ بها فيما عِندَ الله : لعلمه أنَّ ذلك من أنْفَس الذخائر التى أعدّها بَيْنَ يدَيْه ، وحلَّ منها فى أكرم بُقْعة نقَله الله بها عن سريره إلىٰ مَقْعَد صدْق عند ربِّه ،

وعَمَر بها مواطِنَ العبادة فى يوم سِلْمِه بعد أن عَفّى بها مَعاقِلَ الكفر فى يومِ حَرْبه ؛ وأقام بها مَنارَ العلوم فَعَلا مَنالُها، وأعدّ للضُّعَفاء بها من مواد البِرّ والإلطاف مالو تعاطَتْه الأغنياءُ قَصُرت عن التطاوُلِ إليه أموالُها ؛ وأن نرتادَ لها مَنْ اذا فوّضْنا إليه أمرا تحقَّقْنا صَلَاحَه ، وتيقَّنَّا نَجَاحه ، وآعتقدْنا تنميَةَ أمواله ، وآعتمدْنا فى مضاعفة آرتفاعه وآنتفاعِه علىٰ أقوالِه وأفعاله ، وعلِمنا من ذٰلك ما لا نحتاجُ فيـه إلىٰ آختبار ولا آعتِبار، ولا يُحتاج فى بيـان الخِيرَة فيه إلىٰ دليـلٍ إلا إذا آحتاجَ إليـه النَّهار ، لنكونَ فى ذٰلك بمَثَابة من ضاعفَ لهذه القُرَب أسبابَ ثوابها ، أو جدّد لهـا وقْفًا : لكونه أتىٰ بيوتَ الإحسان فى آرتياد أكفاء النَّظَر لهـا من أبوابها .

ولمـا كان فلان هو الذى نبهتْ أوصافُه علىٰ أنه ماوَلِىَ أمرا إلا وكان فوقَ ذٰلك قَدْرا ، ولا آعتُمِد عليه فيما تَضيق عنه هِمَمُ الأولياء إلا رَحُبَ به صَـدْرا، ولا طلع فى أُفُق رُتْبَة هلالا إلا وتأمَّلَتْه العيون لأجَلِّ رُتَب الكمال بَدْرا؛ يدرك مانأىٰ من مصالح ما يليه بأدْنىٰ نظَر، ويسبِقُ فى سَـدَاد ما يباشِره علىٰ ما يجبُ سَـدادَ الآراء ومواقِعَ الفِكَر. ونحن نزدادُ غِبطةً بتدبيره، ونتحقّق أنَّ كل ما عدَقْنا به إليه من أمرٍ جليل فقد أسندناه إلىٰ عارفِهِ وفوّضناه إلىٰ خبيرِه ـ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نَعْدق بجميل نظره هذا المُهِمَّ المقدَّم لدينْا ، وأن نُفوّضَ إليه نظرَ هذه الأوقافِ التى النظَرُ فى مصالحها من آكد الأُمور المتعيِّنة علينا .

فرُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال فضلُه عميماً ، وبِرُّه يقدِّم فى الرُّتَب من كان من خواصِّ الأولياء كريمـا ـ أن يُفوّض إليه كَيتَ وكَيْتَ .

فلْيلِ هـذه الرتبةَ التى أُريد بها وجهُ الله وما كان لله فهو أهَمّ، وقُصِـد بها النفعُ المتعدّى إلىٰ العُلَمـاء والفُقَراء والضُّـعفَاء ومراعاةُ ذٰلك من أخصِّ المصالح وأعَمّ .

ولينظُرْ فى عموم مصالحها وخُصوصها نظرًا يَسُدّ خللَها ، ويُزِيحِ عِلَلَها ، ويعَمِّر أصولَها ، ويثمِّر محصولَها ، ويحفَظ فى أماكنها أموالَها ، ويقيم بها معالِمَ العلوم فى أرجائها ، ويستنزل بها موادَّ الرحمة لساكنها بألْسنة قُرّائها ، ويستعيدُ صحةَ مَن بها من الضعفاء بإعداد الذَّخائر لملاطَفة أسقامها ومعالجة أدْوائها ؛ ويحافظ على شُروط الواقف فى إقامة وظائفها ، وآعتبار مَصارفها ، وتقديم ما قدّمه مع مَلاءة تدبيره باستكمال ذلك على أكمل ما يجب ، وتمييز حواصلها بما يستَدْعِى إليها من الأصناف التى يعزُّ وجودها ويجتلَب ؛ وضَبْطِ تلك الحواصل التى لا خزائنَ لها أوثقُ ، من أيدى أمنائه وثِقاتِه ، ولا مُودَع لها أوفق ، من أمانة من يتَّقِى اللهَ حَقَّ تُقَاته ؛ فلذلك وَكَلْناه فى الوَصَايا إلى حُسْن معرفته وآطِّلاعه ، ويُمْن نُهوضه بمصالحنا وآضْطلاعه ، إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية

(نظر الجامع الطولونى)

من إنشاء المَقَرّ البَدْرى ابن المَقرّ العَلائى بن فضل الله صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف ، فى الدولة الظاهرية برْقُوق ، كتب به المَقرّ الشمسىّ العمرىّ كاتبُ الدَّسْت الشريف لأبى يزيد الدَّوادار ، وهى :

الحمدُ لله الذى أقامَ من أوليائنا خيرَ ناظر ، يَقرّ به كل ناظر ، وأدام بنا بِناءَ المعروف الزاهِر وحُسْنه الباهر ، وأنام الأنامَ فى مِهاد الأمن بانتقاءِ وَلِىٍّ لسانُ الكون حامدٌ له ومادحٌ وشاكِر ، وفتح أبوابَ السعادة باصطفاء صَفِىٍّ طاب بسفارته كلُّ خاطرِ من مُقِيم وخاطر ، ومنحَ أسباب السيادة بأوفى وَفِىٍّ عَمَر بوُجوده

الوجودَ وغَمَر بجُوده كلَّ باد وحاضر، وأبْصَرَ بالدين المتين والفضل المبين فأقمناه للنظَر علىٰ بُيوت الله تعالىٰ لأوْلويَّته بذٰلك : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ ﴾ .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى ظهرَتْ[1] بالمَزيد فسَرَّتِ السرائر، وظهرَتْ بنُور الرُّشْد المَديد فأشرقَ بها الباطنُ والظاهِر . ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له العزيزُ القادر، شهادةً صدَقتْ فى الإخلاص بها الألْسنةُ والضمائر . ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه مَعْدِنُ الأسرار، وبحرُ الجُود الزاخر، ومنبعُ الأنوار، صاحبُ الآيات الظاهرةِ والمُعْجزات الباهرةِ والمَفَاخر، الذى يَبْعثُه اللهُ مَقاما محمودًا يحمَدُه الأوائلُ والأواخر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه النُّجومِ الزَّواهر، الذين جاهدُوا فى الله حقَّ جهاده فكان كلٌّ منهم للدِّين الحنيف أعظمَ مجتهِد ومؤيِّد وناصر، وسَلَّم تسليما كثيرًا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من أُلْقيتْ إليه مقاليدُ الأمور، وصرَّفناه فى جميع مَصَالح الجُمْهور، وفوّضْنا إليه النظرَ فى بُيوتِ الله تعالىٰ ليعْمُرَها بنظره السعيد وتُضاعَفَ له الأُجور، ومكَّنَّا له فى دولتنا الشريفةِ حتَّى صار قُطْبَ فَلَكها عليه تدور، وبسَطْنا يَدَه ولسانَه فهو يَنْطِق عنَّا ويأمر بالقضاء والقَدَر فى الوُرُود والصُّدُور، وقيَّدنا الأرزاقَ بقلَمه، والمهمَّاتِ بكَلمه، فلا فضْلَ إلا من فَيْضه المنشور - مِن آمتاز علىٰ غيره بفضيلتَى السَّيفِ والقلَم، وتقدّم فى الطاعة الشريفةِ بأثْبَتِ قَدَم، كان بها من السابقين الأوّلينَ من القِدَم، وآتَّصف بالشَّجاعة والشَّهامة والمَعْرفة التامّة والحِلْم والعَدْل والحِكَم، فهو التَّرْجُمان عنَّا الناطقُ بفَصْل الخطاب فى السِّرِّ للتُّرْك والعَرب والعَجَم، وعُرِف بالرأْى السديد، والنظَر السعيد، والتدبير الحَميد، والقول المُفيد،

(١) ظهرت بالمزيد قويت به، وظهرت بنور الرشد وضحت وبانت .

والجُود والكَرَم ، وطُبِـع علىٰ الخير الجَزيل ، والدِّين الجَميـل ، عُمْره فى الحقّ قائم ، لا تأخُذه فى الحقِّ لومةُ لائم ، طالَمَـا أحيا بحُسْن السِّفارة من العَدَم .

هو واحدٌ فى الفَضْل والنظرِ السعيد لأبى سعيد .

فمَن الذى يَحْكِيه فى الشَّرَف العَتيد بطَل الوَغىٰ أبو يزيد .

قـد تفرّد فى العِـفَّة والدِّيانه ، والثِّقة والأمانه ، وٱلْتحفَ بالصَّفا ، وتردّىٰ بالوفا ، وشفىٰ بالخير والجبر مَنْ كان بالفَقْر علىٰ شَفَا فحَصَل له الشِّفا ، ووفَىٰ بالعهود والمواثيق وذلك أمر ماخَفىٰ (١) ، ولحِق فى الجُود والدِّين بسَمِيِّه أبى يزِيَد البِسْطامىّ الولِىّ :

قالوا : الْولِىُّ أبو يَزِيدٍ قَدْ مَضىٰ * وهو الفَريدُ بفَضْـلِه والصادِقُ !

قلْتُ : الأميرُ أبو يزيدٍ مِثْـلُه * هٰذاك سابِقُـه وهـذا اللّاحِقُ !

ولمـا كان فلان هو المشار إليـه بهذه الصِّفات الحَسَـنه ، والمناقِب التى تنوّعَتْ فى مدائحها الألسِنَه ، وعُرِف بالجُود فمَلَك حُبُّه الأفئدةَ فارتفعَت الأصواتُ بالدعاء له مُعْلِنه ، طالَمَـا أنالَ النِّعم ، وأزال النِّقَم ، وجَبَر القُلوب ، وكشَفَ الكُرُوب ، وجَلَا ظَلام الخُطُوب ، ونَشَر المعروف ، وأغاثَ الملْهُوف ، وأنقَذَ من المَهَالك ، وعَمَر بتـدبيره المَمَـالك ، ووصَـل الأرزاق ، وأجرىٰ الأطلاقَ علىٰ الإطلاق ـ ٱقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نعتَمِد فى جميع الأشياءِ عليـه ، ونُلقِىَ مقاليدَ الأمور إليه ، ونَنُوط به المهِمَّاتِ وغيرَها : ليكون العِلمُ بالكُلِّيات والجزئيَّات لدَيْه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يتحِف بالمَزيد من كَرَمه ، ويُسْبغ جلابِيبَ نِعَمه ، ويجرى بحرُ فضلِه الواسـع ، ويعُمُّ بنظَره المقرّبين من أوليائه كلَّ جامع للخير جامع ، أن يستقرّ (٢) ... ...

(١) جرى على لغة طيء نظر اللسجع فتنبه .

(٢) بياض بالأصل والمراد "فى نظر الجامع الطولونى" الخ وكثيرا ما يفعل ذلك فى مثل هذه المواضع .

فلْيتلقَّ هذا التفويضَ الجليلَ بقَبُوله ، ويبلِّغ الجامعَ المذكورَ ما يرتقبُه من عِمارته التى هى غايةُ مأمُوله . ومنه تؤخَذ الوصايا لأنه لسانُنا الناطق ، وسفيرُ مملكتِنا العالِمُ بالحقائق والدَّقائق ، فلا يَحتاج أنْ يُوصىٰ ولا أن نفْتح معه فى الوصية بابًا ، ومايصْلُح ان يقال لغيره لا يجوز أن يكونَ له خِطابا :

ومِثْلُك لا يُدَلُّ علىٰ صَوابٍ * وأنْت تُعَلِّم النَّاسَ الصَّوَابا!

والله تعالىٰ يؤيده فى القول والعَمَل ، ويعُمُّ بوجُوده وَجُوده الوُجود وقد فعَل ؛ ويُبْقِيه مَدىٰ الدهر ، ويستخْدِم لسُعُوده الساعةَ واليومَ والجمعةَ والشَّهْر ؛ ويجعلُ بابه الطاهرَ مفتوحا للقاصدين علىٰ الدَّوام ، ويُقِيمُه واسطةَ عِقْد المُلْك فإنه مُبارَك أينما كان ورحمةٌ للأنام ؛ والاعتمادُ علىٰ الخطِّ الشريف أعلاه حجةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثالثة

(نِقَابةُ الأشراف)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائفِ الدِّيار المِصرية فى المقالة الثانية أنَّ موضُوعَها التحدّثُ علىٰ الأشراف ، وهم أولادُ أمير المؤمنين علىٓ بنِ أبى طالب رضى الله عنه ، من فاطمةَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وقد جرتِ العادةُ أنَّ الذى يتولّىٰ هذه الوظيفةَ يكون من رُءُوس الأشراف ، وأن يكون من أرباب الأقلام ، وإنما أوردْتُه مع أرباب السُّيوف لأن المقرَّ الشِّهابىَّ بنَ فضل الله قد ذكر فى بعض دَساتيره الشاميَّة أنه يُكْتَب لنَقيب الأشراف « الأميرىّ » ولا يكتَب له « القَضائىّ » ولو كان صاحبَ قلَم .

وقد رأيتُ له عدّةَ تواقيعَ علىٰ ذٰلك مكتتبةً من الأبواب السلطانية وعن نائبَي الشام وحلب وغيرهما، معبّرا عنه فيهـا بـ«الأميرى» وتوقيعُه فى قطع الثُّلُث مفتتحٌ بخُطْبة مفتتحة بـ«الحمدُ لله» .

وهذه نسخةُ [توقيع](١) بنقابة الأشراف، وهى :

الحمدُ للهِ مشرِّفِ الأنْساب، ومُوفِي الأحساب، حقوقَ ملاحظَتِهم بغيرِ حساب، وجاعِلِ أيّامِنا الشريفةِ تحمَد الاكتساب .

نحمده بمحامدَ حسنةِ الإيجاد والإيجاب . ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا شـكَّ فى مَقالهـا ولا ٱرْتياب . ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسولُه ونبيُّه الذى أَنْزَلَ عليـه الكِتاب، وشرَّف به الذَّراريَّ من شجرته المبـاركةِ الأعْقاب، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا تتوارَىٰ شمسُها بحجاب .

وبعدُ، فإنَّ خير ما صُرفت الهِممُ إلىٰ تشيِيد مَبـانيه، وتقْييـد مُهْمَل رَوَاعيـه وملاحظةِ قاصيه ودانيه، المحافظةُ علىٰ كلِّ ما يرْفَع قدرَ الآل ويُعْليه، ويُردُّ إليهم عِنانَ الاعتناء ويَثْنيه .

ولـمّـا كانت العترةُ الطاهرةُ النبويةُ وُرّاثَ الوحى الذين آلَ إليهم مِيرَاثُه، وأهلَ البيت الذين حصَل لهم من السُّؤْدَد آياتُه، وقد سأل اللهُ وهو المسئُول لهم القُرْبىٰ، وخصَّهم بمزايا حقيقٍ بمثلِ متصرِّفهم أنه بها يُحْبىٰ وأنها لهم تُجْبىٰ : لـمـا فى ذٰلك من بركاتٍ تُرْضى سيدَ المرسلين وتُعْجِبه، ويُسَطِّر الله [الأجر] لفاعله ويكْتُبه، وكان لابدَّ لهم من رئيس يُنَضِّد سِلْكهم وينَظِّمه، ويعظِّم فخرهم ويفَخِّمه، ويحفظ أنسابَهم،

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ويصْقُل بمكارمه أحسابَهم ، ويَنمّى بتدبيره رَيْعَهم ، ويُتابع تحتَ ظِلّ هذه الشجرةِ الزكيّةِ ما زكَّى يَنْعَهم ، ويحفَظُهم فى ودائع النَّسْل ، ويَصُدّ عن شَرَف أَرُومتِهم من الأَدْعياء المدّعين بكل بَسْل[(١)] ، ويَحْرُس نِظامهم ، ويُوالِى إكرامَهم ، ويأخُذهم بمكارم الأخلاق ، ويَمُدّهم بأنواع الإرْفاد والإرفاق ، ويتولَّى رَدْع جانيهم إذا لم يَسْمَع ، ويتدبَّرُ فيه قولَه : « أنفُك منْكَ وإنْ كانَ أجْدَع » .

ولَمّا كان فلان هو المشارُ إليه من بنى هذه السُّلالة ، وله من بينهم مِيزةٌ باطنةٌ وظاهرةٌ وإن كانُوا كُلُّهم شيئًا واحدا فى الإجلال والإعظام ، فقد تميَّزتْ من بين الأنامل السَّبَّابةُ علىٰ الخِنْصِر والبِنْصِر والوُسْطىٰ والإبهام ، وكَمْ ثَمرٍ جَنِيٍّ فُضِّل بعضُه علىٰ بعض فى الأُكُل وهو يُسْقىٰ بماءٍ واحد ، وقد ٱمتاز علىٰ بنى هاشمٍ سيدُ المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام ـ ٱقتضىٰ حُسْنُ الرأى المُنِيف ، أنْ رُسِم بالأمر الشريف ـ لا برِح يختَارُ وينتقى ، ويجتَبِى من يخشىٰ اللهَ ويتَّقى ـ أن تُفوّضَ إليه نِقابةُ الأشراف الطالِبيِّين علىٰ عادةِ من تقدّمَه من النُّقباء السادة .

فلْيجمَعْ لهم من الخير مايُبْهِج الزهراءَ البَتُول فعلُه ، ويفعَلْ مع أهله وقَرابته منهم ماهو أهْلُه ، ولْيحفَظْ مواليدَهم ، ويُحَرّرْ أسانيدَهم ، ويَضْبِطْ أوقافَهم ، ويعتَمِدْ إنصافَهم ، ويُثمِّر متَحصَّلاتِهم ، ويكثّر بالتدبير غَلَّاتِهم ، ويأخُذ نَفْسَه بمُساواتِهم ، فى جميع حالاتِهم ، ولْيأخُذْهم بالتجمُّع عن كل مايَشِين ، والعملِ بما يَزِين ، حتّى يُضيفوا إلىٰ السُّؤدَد حُسْنَ الشِّيَم ، وإلىٰ المَفاخر فاخرَ القِيَم ، وكلُّ مايفعله معهم من خير أو غيره هو له وعليه ، ومِنْه وإليه ، والله يحفظُه من خَلْفِه ومن بين يدَيْه ، بمنّه وكرمه ! .

---

(١) البسل الشدّة كما فى اللسان . ووقع فى الاصل «نسك» بالنون والكاف وهو تصحيف .

* * *

وهذه نسخة وصية لنقيب الأشراف أوردها فى "التعريف" فقال :

ونحن نُجِلُّك عن الوَصَايا إلا ما نَتَبرَّك بذِكْره ، ويُسُرُّك إذا ٱشتملتَ علىٰ سِرِّه ؛ فأهْلَك [أهْلَك ، راقب](١) اللهَ ورسوله جدَّك صلّى الله عليه وسلم فيما أنت عنه من أمورهم مسئُول ، وٱرفُقْ بهم فهم أولادُ أمّك وأبيك حَيْدَرَةَ والبَتُول ، وكُفَّ يدَ من علمتَ أنه [قد](١) ٱستطال بشَرَفه فمدّ إلىٰ العِناد يدًا ، وٱعلم أنَّ الشريفَ والمشروفَ سواءٌ فى الإسلام إلا من ٱعتدىٰ ، وأنَّ الأعمال محفوظةٌ ثم معروضةٌ بين يدَي الله فقدِّمْ فى اليوم ما تَفْرَح به غَدًا ، وأزِل البِدَع التى يُنْسَب إليها أهلُ الغُلُوِّ فى وَلَائهم ، والعُلُوِّ فيما يُوجِب الطعنَ علىٰ آبائهم ، : لأنّه يُعلم أنَّ السلفَ الصالح رضى الله عنهم كانوا مُنَزَّهين عما يَدَّعيه خَلْفُ السَّوْء من ٱفتراق ذاتِ بينِهم ، ويتعرّضُ منهم أقوام إلىٰ ما يجُرّهم إلىٰ مَصَارِع حَيْنِهم ، فللشِّيعة عثَراتٌ لا تُقال ، من أقوال ثِقَال ؛ فَسُدّ هذا البابَ سَدّ لَبِيب ، وٱعمَلْ فى حَسْم موادِّهم عَمَلَ أرِيب ، وقُمْ فى نَهْيهم والسيفُ فى يَدِك قيامَ خَطِيب ، وخوِّفْهم من قَوَارِعك [مَوَاقِع](١) كلِّ سَهْم مُصِيب ، فما دُعِى « بحىَّ علىٰ خير العَمَل » إلىٰ خيرٍ من الكتاب والسنَّة والإجماع [فٱنْظُم فى نادى قومك عليها عُقُودَ الأجتماع](١) . ومَنِ ٱعتَزَىٰ إلىٰ ٱعتزال ، أو مالَ إلىٰ الزَّيْديَّة فى زيادة مَقَال ، أو ٱدَّعىٰ فى الأئمة الماضين ما لم يَدَّعُوه ، أو ٱقتفىٰ فى طُرُق الإماميَّة بعضَ ما ٱبتدَعُوه ، أو كَذَب فى قول على صادقِهم ، أو تكلَّم بما أرادَ علىٰ لسان ناطقهم ، أو قال : إنه تلقَّ عنهم سِرًّا ضَنُّوا علىٰ الأمَّة ببلاغه ، وذَادُوهم عن لَذَّة [مَسَاغه](١) ، أو رَوَىٰ عن يوم السَّقيفة والجَمَل غيرَ ماوردَ أخبارا ، [أو تمثَّل بقول من يقول : عبد شمسٍ قد أوْقَدَتْ لبنِي هاشم نارا](١) أو تمسَّك من عقائد الباطن بظاهر ، أو قال

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٠ وهى لازمة لٱستقامة الكلام .

إنَّ الذاتَ القائمةَ بالمعنىٰ تختلف فى مَظَاهِر؛ أو تعلَّق له بأئمة السِّتْر رجاء، أو آنتظر مُقيما بِرَضْوىٰ عنده عَسَلٌ وماء، أو رَبَط علىٰ السِّرْداب فرسَه لمن يقُودُ الخيل يَقْدَمُها اللِّواء؛ أو تلفَّتَ بوجهه يظُنّ عليًّا كرَّم الله وجهــه فى الغَمَام، أو تَفَلَّت من عِقَال العقلِ فى آشْتراط العِصمة فى الإمام . فعرِّفْهم أجمعين أنَّ هذا من فساد أذهانهم، وسُوء عقائِد أدْيانِهــم؛ فإنَّهم عدَلُوا فى التقرب بأهْلِ هذا البيت الشريف عن مَطْلُوبهم، وإن قال قائل إنهم طَلَبوا فقل له : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلىٰ قُلُوبِهِم﴾ .

وآنظُرْ فى أمور أنسابِهم نظَرا لا يَدَع مجَالا للرِّيَب، ولا يستطيعُ معــه أحدٌ أن يدخُل فيهم بغــير نَسَب، ولا يَخْرُج منهم بغير سَبَب، وسَاوِق المتصرِّفين فى أموالهم فى كلِّ حِساب وآحفَظْ لهم كلَّ حَسَب . وأنتَ أَوْلىٰ من أحسَن لمن طَعَن فى أسانيدِ هذا الحديث الشريفِ أو تأوّل فيه علىٰ غير مُرادِ قائلِه صلى الله عليه وسلم تأديبًا، وأراهُمْ ممــا يوصِّلهم إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ رسوله طريقًا قريبــا . ونَكِّل بمن علمتَ أنه قد مالأَ على الحق أو مالَ إلىٰ فريق الباطل فَرَقا، وطوىٰ صَدْرَه علىٰ الغِلِّ وغَلَب من أجله علىٰ ما سبَق فى علْم الله تعــالىٰ من تقديم مَنْ تَقَــدَّم حَنَقا؛ [وجارَ وقد](١) أوضَحْتَ لهم الطريقةَ المُثْلىٰ طُرُقا، وآردَعْهم إن تعرّضوا فى القَدْح إلىٰ نضال نصال، وآمنَعْهم فإن فِرَقهم كلَّها وإنْ كَثُرت خابطةٌ فى ظلامِ ضَلال؛ وقدِّمْ تقوى الله فى كل عَقْد وحَلّ، وآعملْ بالشريعة الشريفة فإنها النَّسَب الموصُول الحَبْل .

وآعلم أنَّ المقرَّ الشهابىَّ بنَ فضــل الله قد ذكَر فى "التعريف" عِدّةَ وصايا لجماعة من أرباب السُّيوف، لم يُكْتَب لأحد منهم فى زماننا، بل رُفِض آستعمالُها وأُهْمِل . ونحن نذْكُرها حِفْظا لذِكْرها، وآحتياطًا أن يقتضِىَ الحالُ فى زمنٍ كتابةَ شىءٍ منها .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف ص ١٣٢ .

إحداها — وصية أَتَابَك المُجاهِدين

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ وظائف الدِّيار المِصرية أنَّ أصله أَطَابَك(١) بالطاء المهملة ومعناه الأبُ الأمير ، وأنَّ أوّل من لُقِّب بذٰلك زَنْكى أطَابَك صاحب المَوْصل، ثم غَلَبت فيه التاءُ المثناةُ بدَلَ الطاء ، وهى :

وأنت آبنُ ذٰلك الأبِ حَقِيقه ، و ولَدُ ذٰلك الوالِدِ الذى لم تُعْمَل له إلا من دِماء الأعداء عَقيقه ؛ وقد عُرِفْتَ مثلَه بثَبَات الجَنَان ، وصُلْتَ بيَدِك و وَصَلْتَ إلىٰ مالم يَصِلْ إليه رُمْح ولا قدَر عليه سِنَان ؛ ولم يُزاحِمْك عدوّ إلا قال له : أيُّها البادى المَقَاتِل كيفَ تُزاحِم الحديد ، ولاسُمِّى آسمُك لجَبَّار إلا قال له : ﴿وجَاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالْحَقِّ ذٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ . وأنتَ أَوْلىٰ من قام بهذه الوظيفه ، وألَّف قلُوبَ هذه الطائفة التى ما حَلَم بها حالِمٌ إلا و باتَ يُرْعَدُ خِيفَه ؛ فلْيأخُذْ هذا الأمرَ بزِمَامه ، وليعمَلْ لله ولإمَامه ؛ وليَرِم فى حُبِّ البَقَاء الدائم بنَفْسَه علىٰ المنيّه ، ولْينادِمْ علىٰ مُعاقَرة الدِّماء زُهورَ سَكاكِينه الجَنِيّه ؛ وآطبَعْ منهم زُبَرا تُطاوِل السيوفَ بَسكاكِينها ، وتأخُذ بها الأُسُودَ فى عَرِينها ؛ وتمتدّ كأنَّها آمالٌ ، لما تُرِيد ، وتُرْسَل كأنَّها آجالٌ ، ولهذا هى إلىٰ كلِّ عدوّ أقربُ مِن حَبْل الوَرِيد ؛ وأذْكِ منهم شُعَلا إذا دعِيتْ بأحسابها لا تجد إلّا متحاميا ، وآرم منهم سهاما إذا دعِيَتْ (؟) بأنسابها الاسماعيلية فقد جاء أن إسماعيل كان راميا ؛ وفَرِّج بهم عن الإسلام كلَّ مَضيق ، وآقلَعْ عن المسلمين من العَوَانية كلَّ حجَرٍ فى الطريق ؛ وصَرِّف رجالَك المَيَامين ، وتصيَّدْ بهم فإنَّهم صُقُور ومَنَاسِرُهم السَّكاكِين ؛ وآخطَفْ بهم الأبصارَ فبأيْمَانهم كلُّ سِكِّينة كأنَّها البرْقُ الخاطِف ، وآقْطِفِ الرءُوسَ فإنها ثمراتٌ أينعَتْ لِقاطِف ؛ وآعرِفْ لهم حقَّهم وضاعِفْ لهم

(١) هو بفتح الباء الموحدة كما ضبطه ابن بطوطة فى رحلته ص ٢٥٨ ج ٢ .

تكريما، وأدِمْ لهم بنا بِرًّا عميما ، وقدِّم أهلَ النفع منهم فقد قدَّمهم الله ﴿ وفَضَّل اللهُ المُجاهِدِينَ عَلَىٰ الْقاعِدِينَ أجْرًا عَظِيما ﴾ .

وآعلَمْ أنهم مثلُ الوُحوش فزِدْ فى تأْنِيسِهم ، وآشكُرْ إقدامَهم فطالمَا آقتحَمُوا علىٰ الملوك وما هابُوا يقَظةَ حرسِهم، وآرفَعْ بعضَهم علىٰ بعضٍ درجاتٍ فى نَفَقات تَسافيرِهم وقُعود مَجْلِسِهم ، ولا تُسَوِّ بينَهم فما هُم سَواءٌ و ﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ ﴾ . وأصلُ هذه الدعوةِ ما زالتْ تَنْتقِل بالمَوارِيث حتَّى آنتهتْ إلينا حقُوقُها ، وأوْمضَتْ بنا حيثُ خلعَتْ هَيَا كِلَها بجَرْعاء الحِمَىٰ برُوقُها ، والله تعالىٰ يوفِّقه ويُرْشِده ، ويُطَوِّل باعَه لما قَصُرت عنه سَواعدُ الرِّماح ووصَلَت إليه يدُه .

***

الثانية — وصِيَّة أستاد الدار .

ولْيتفقَّدْ أحوالَ الحاشيَةِ علىٰ آختلافِ طَوائفِها ، وأنواعِ وظائفها ، ولْيرتِّبْها فى الخِدْمة علىٰ مايَجِب ، وينظُر فى أمورهم نظَرًا لايَخفىٰ معه شىءٌ مماهم عليه ولا يحتَجِب ، ولْيبدَأْ بمُهِمِّ السِّماط المقدِّمِ الذى يُقدّم ، وما يَتَنوَّعُ فيه من كل مَطْعَم ، وما يُمَدّ منه فى كل يوم بُكْرةً والعَصْر ، وما يُستدعىٰ معه من الطَّوارئ التى لايَحُدّها الحدّ ولا يحصُرها الحصر ، وأحوالِ المَطْبَخ الكريم الذى منه ظهور تِلك المَخافى ، ووفاءُ ذٰلك الكرمِ الوافى ، والتقدّمِ إلىٰ الأمناء والمشرِفين فيه بأمانة الإنفاق ، وصيانةِ المآكل مما يُعاب علىٰ الإطلاق . ثم أمرِ المشروب وما تُغْلَق عليه أبواب الشراب خاناه السعيدة من لطائف مأكولٍ ومشروب ، وشىءٍ عزيزٍ لا يوجد إلا فيها إذا

عزَّ المطلوب ؛ ومراجعـةِ الأطباء فيما تجرى عليه قوانينها ، وتُشَبُّ لطبخه من حُمْر اليواقيتِ كوانينها ؛ وإفرازِ ماهو للخاص الشريف منها وما هو للتفرقه ، وما لا يصرف إلا بخط الطبيب ولا يسَـلَّم إلا إلىٰ ثِقه . ثم الطشت خاناه السعيدة التى هى خِزانة اللِّباس ، وموضِعُ ماتَبرُزُ به من الزِّينة للناس ؛ وما يُحتاجُ إليه من آلاتِ التطبيب ، وما يُعَيَّن لها من الصابُون وماءِ الوَرْد والطِّيب ، وغير ذٰلك من بقِيَّة ما هى مستَقَرّه ، ويُؤخَذ منها مُسْـتَدَرّه ؛ ومن يُسْتخْدَم بها ممن بَرِئَ من الرِّيَب ، وعُرِف بالعَفَاف والأدب ؛ وعُلِم أنه من أهل الصِّـيانه ، وعلىٰ ماسُـلِّم إليه ومَنْ خالطهُ الأمانه . ثم الفِراش خاناه وما يُنْصَبُ فيها من الخِيام ، وما يكونُ فيها من فَرْش سَفَر ومُقَام ، وشَمَع يُفضِّض كافُور ُكافُوريّه آبَنُوسَ الظَّلام . ثم غِلْمان الإصْطَبْل السعيد والنَّجَّابة وإن كان إلىٰ سواه استِخدامُهُم ، ولدىٰ غيره مستَقَرّهم ومُقامُهم ، لكنّهم ماخَرَجُوا من عَدِيده ، ولا يَرُوقُهم ويَرُوعُهم إلا حَسَنُ وعْده وخَشِنُ وَعِيـده . ثم المُنَاخَات السُّـلطانيةُ وما بها من جِمَـال ، وما يَسْرَح فيها من مالٍ وجَمال ؛ ومن يُستخدَم فيها من سـيروان ومِهْمَرْد ، وما فيها من قِطَار مُزْدَوج وفَرْد ؛ فيوفِّر لهـذه الجهة نصيبًا من النظر يشاهد أمُورَها وقد غابتْ فى الأقطار ، وتفرقتْ كالسُّـحُب يلزمُها القِطَار القَطَّار ؛ ولْيكُونوا علىٰ بالِه فإنهم يسرِقُون الذَّرّة[1] من العَيْن ومعهم الذَّهَب العَيْنُ محمَّلا بالقِنْطار ؛ فلْيُحْسِن منهم الاَرْتِياد ، وليتخيَّر أرقَّهم أفئدةً فإنَّهم بكَثْرة ملازمتِهم للإبل مثلُها حتّى فى غِلَظ الأكباد . وطَوائف المُعامَلِين ، والأبقار ومَنْ عليها من العامِلين ، وزَرائبِ الغنم وخَوَلِهَا ورِعائِها ، وأصناف البيوت الكريمةِ وما تطْلُبه فى آستدعائِها ؛ ونفقات الأمراء المماليك السلطانيَّـة فى إهلالِ كلِّ هِلال ، وما يُصْرف فى كُساهم

(١) فى "التعريف" « ذرّة الكحل » .

علىٰ جارى عادتهِمْ أو إذا دعَتْ إليه ضرورةُ الحال ؛ وما يؤخَذ عليه خطُّه من وصولات تُكتَب ، وآستدعاآت تُحْسَب من لوازمه وهى للكَثْرة لا تُحْسَب ؛ فلْيكُنْ لهذا كلِّه مراعيا ، ولأُمورِه واعِيا ، ولما يجب فيه دُونَ ما لا يجب مستَدْعِياً وإليه داعِيا ؛ وهو كبيرُ البيتِ وإليه يرجع أمر كلِّ مملوك ومستخْدَم ، وبأمره يؤخَّر من يؤخَّر ويقدَّم من يُقدَّم ، ومثلُه يُتَعلَّم منه ولا يُعَلَّم ؛ وعَصاه علىٰ الكلِّ محمولة علىٰ الرِّقاب ، مبسوطةٌ فى العَفْو والعِقاب ، ومكانُه بين يدَيْنا حيثُ نراه ويرانا ولدَيْنا قابَ قوسَيْن أو أدْنىٰ مِن قاب .

وعليه بتقْوىٰ الله فبها تمامُ الوصايا وكمالُ الشرُوط ، والأمرِ بها فعصَاه محكمة وأمره مبْسوط ، وكلُّ مايُناط بنا : من خاصَّة أمورنا فى بيتنا ــ عَمَره الله ببقائِنا وزاد تَعْميرَه ــ بتدبيره منُوط .

الثالثــة ــ وصِيَّة أميراخور .

وقد تقــدّم فى الكلام على الألقابِ فى المَقَالة الثـالثةِ أنَّه مرَكَّبٌ من لفظين : عَرِبِىٌّ وهو أمير ومعناه مَعْروف ، وأُخُور فارسىٌّ ومعناه العَلَف ، والمعنىٰ أميرُالعلَف . وكأنه فى الأصل كان هو المتولِّى لعَلُوفة الخيل ، ثم آرتفعَتْ وظيفتُه حتّىٰ صار صاحبُها من أكابر الأُمَراء المقــدَّمين ، وهو يتحــدّثُ فى الإصْطَبْلات السلطانيَّة وما حوَتْه من خَيْل وبِغال ودَوابَّ وجِمالٍ وأثَاثٍ ، وغير ذٰلك .

وهذه نسخة وصيته :

ولْيكُنْ علىٰ أكمل مايكونُ من إزاحةِ الأعْذار ، والتأهُّب لحركاتِنا الشريفة فى ليْلٍ كانَ أو نَهار ، مقدِّمًا الأهَمَّ فالأهمّ من الأمور ، والأبْدأَ فالأبْدأَ من [تقديم] (١) مَرَاكبنا

(١) الزيادة عن "التعريف" وهى لا زمة كما لا يخفى .

السعيدة وتهيئة مَوْكبنا المنصُور، وترتيب ذٰلك كلّه علىٰ ماجرتْ به العَوائد، وتحصيل ماتدْعُو الحاجةُ إليه علىٰ قَدْرِ الكِفَاية والزَّوائد، والنَّظرِ فى جميع إصْطَبْلاتنا الشريفةِ، والحشارات السعيدة، وخيـلِ البَريد، والرَّكائب المُعَدّة لقَطْع كلِّ مدًى بعيد؛ وما يجتمع فى ذٰلك وينقسِم، وما يُركَب منها ويُجْنَب مما يَسِم الأرضَ بالبُدُور والأهلَّة من كلِّ حافِرٍ ومَنْسِم؛ وما هو برَسْم الإطـلاق، وما يُعَدُّ لممـاليك الطِّباق؛ وخَيْل التِّلاد، وما يُجْلَب من قَوْدٍ(١) كلِّ قبيلة من القبائل ويجىء من كلِّ بلدٍ من البلاد؛ والمشترىٰ مما يُباع من المواريث ويُستعْرَضُ من الأسواق، وما يُعَدُّ للمواكب وللسِّباق؛ وليُجِلْ رأيَه فى ترتيب ذٰلك كلِّه فى مراتبـه علىٰ ما تقتضيـه المُهمَّات، والاحتراز فى التِّلاد مما لعلَّه يُبدَّل ويقال هو هذا أو يؤخَذُ بحجة أنه مات؛ وليجتهِد فى تحقيق ما نَفَق، [وليُحرِّره علىٰ حُكْم ما يتحقَّق عنـده لا علىٰ ما اتّفق(٢)،] وكذٰلك فليكُنْ فحصُه عمَّن يستخْدمُ عنده من الغِلْمان، ولا يهمِلُ أمورَهم مع معاملتِهم بالإحسان؛ ولا يستخْدِم إلا من تُشْكر سيرَته فى أحْواله، وتُعرَف خِبرتُه فيما يُراد من أمثالِه؛ وكذٰلك الرَّكَّابة الذين تملِك أيديهم أعِنَّةَ هذه الكرائم، والتحرُّز فى أمرهم ممن لعلّه يأْوِى إليهم من أرباب الجَرائم؛ والأوشاقِيَّةُ الذين هم مثلُ ممـاليكه وهم فى الحقيقة إخوانُه، وجماعةُ المباشِرين الذين هم فى مباشرة الإصْطَبلات السعيدة ديوانُه؛ وكلَّ هؤلاء يُلزِمهم بمـا يلزم أمثالَهم من السُّلوك، ويُعْلِمهم بمـا يجب عليهم أن يتعلَّموه من خِدْمة الملوك؛ ولا يَسْمَح لأحدٍ منهم فى أمرٍ يُفْضى إلىٰ إخلال، ولا يقتضِى فَرْطَ إدْلال، ولْيُقِمْ أَوَدَهم بالأدَب فإن الأدب مافيه إذْلال؛ وكلُّ هؤُلاء الطوائف ممن يتجنَّب العامةُ مخالطَتَهم لمـا طارَ فى أيَّام من تقدّم عن أمثالهم من سُوء السُّمْعه،

---

(١) فى اللسان من معانى "القود الخيل" وهو المناسب هنا .

(٢) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٠٠) وهى لازمة كما لا يخفى .

ويُتخوّف منهم الشّرعه ؛ فليكُنْ لهم منك أعظَمُ زاجِر ، ومَن شُكِيَ إليك منهم فسارعْ إلىٰ التنكيل به وبادِرْ ؛ وٱشْهَر من فعلك بهم ما يُوجِب منهم الطُّمَأنينه ، ولا يعود أحدٌ بعدَه يُكَذِّب يقينَه ؛ وأمراء أخوريه الذين هم أتباعُك ، وبهم يمتدّ باعُك ، هم بحَسَب ما تجعلهم بصَدَده ، وما منهم إلا من يقْدِر [أن] يتعدّىٰ حدّه فى مقام قَدَمه وبَسْط يده ؛ فاجعلْ لكلٍّ منهم مَقاما معلوما ، وشيئْا تجعل له فيه تحكيما . وتثمين الخيول المشتراة والتَّقادِم قوِّمها بأهل الخِبْرة تقويمَ عَدْل ، وقُلِ الحقَّ ولا يأخُذْك فيه لومٌ ولا عَذْل ؛ وما يُصْرَف من العليق برَسْم الخيول السلطانيه ومَنْ له من صدَقَاتنا الشريفةِ عَليق ، مُرْ بصرفه عند الاستحقاق وٱضْبِطه بالتعليق ؛ وتصرّفْ فى ذٰلك كلّه ولا تتصرَّفْ إلا تصرُّف شَفيق ، وصُنْه بأقلام جماعةِ الدِّيوان ولا تقنع فى غير أوقات الضرورة برفيقٍ عن رفيق ؛ وكذٰلك البراسيمُ السلطانية أصْلا وزياده ، ولا تَصْرِفْ إلا مانأمُر به وإلا فلا تخْرُجْ فيه عن العاده ؛ ونُزلَاؤُك من أمراء العُرْبان عامِلْهم بالجميل ، وزِدْ فى أخذِ خواطرهم ولو ببَسْط بِساط الأُنْس لهم فما هو قليل ، : لتتَضاعفَ رغْبَتُهم فى كلِّ عام ، وليستدِلُّوا ببَشَاشةِ وجهك لهم علىٰ مابعدَه من الإنعام ؛ وبِغالَ الكؤوسات السعيدةِ والأعلامِ المنصوره ، وأثقال الخِزانة العالية المعموره ؛ ٱجعلها من المهمّات المقدَّمه ، والمقدِّمات لنتائج أيام النصْر المُعْلَمه ؛ ورتِّبْها فى مَواقِفِها ، وأتمّها أتَمَّ ما يكون من وظائفِها ؛ فبها تثبتُ مواقفُ العسكر المنصور ، وإليها يأْوِى كلُّ مستظِلٍّ ورَحَىٰ الحرب تَدُور ؛ وغير ذٰلك من قُماش الإصْطَبْلات السعيدة من الذَّهَب والفِضَّة والحرير ، وكلِّ قليل وكثير ؛ باشِرْه مباشرةَ من لا يتخَلَّى ، وأحصِه خَرْجا ودَخْلا ؛ وإيَّاك والأخذَ بالرُّخَص ، او إهمالَ الفُرَص ، أو طلَبَ فائتٍ جُرْم أهملتَه حتَّى نَكَص .

الرابعة — وصية مُقدَّم المماليك .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ أرباب الوظائف أنه يتحدّث فى أمر المماليك السُّلطانية والحُكْم بينهم، ويركَبُ خلفَهم إذا ركب السلطانُ كأنَّه يحفظهم . والوصية هى :

وليُحْسِن إليهم، ولْيَعْلَمْ أنَّه واحد منهم ولكنه مقدَّمٌ عليهم ، وليأخُذْ بقُلوبهم مع إقامة المَهَابة التى يُخيَّل إليهم بها أنه معَهم وخَلْفَهم وبين يدَيْهم، ولْيُلْزِم مقدَّم كلِّ طَبقة بما يلزَمه عند تَقسيم صَدَقاتنا الجارية عليهم : من ترتيب الطِّبَاق، وإجراء ساقيةٍ جارية من إحساننا إليهم ولا ينْسَ السَّوّاق؛ وليكُنْ لأحوالهم متعهِّدا، ولأمورهم متفَقِّدا؛ وليستَعْلِم أخبارَهم حتَّى لايزالَ منها علىٰ بَصيره، ولْيعْرِفْ ماهم عليه مما لا يخفىٰ عليه فإنهم وإن لم يكونوا له أهلًا فإنهم جيرَه؛ ولْيأْمُرْ كلًّا منهم ومن مقدَّميهم والسَّوّاقين لهم بما يلزَمُهم من الخِدْمه ، وليُرتِّبْهم علىٰ حُكم مكانَتِهم منَّا فإن تساوَوْا فليقدّم من له قُدْمه؛ ولْيعدِل فى كل تَفْرِقه، وليُحسنْ فى كل عَرْض ونَفَقه، وليفرِّقْ فيهم مالهم من الكَساوى ويُسْبِلْ عليهم رِداءَ الشَّفَقه؛ وليُعِدّ منهم لغابِنا المَحْمِىِّ سِبَاعا تفترس العادِيَه ، وليُجْمِل النظرَ فى أمر الصِّغار منهم والكِبَار أصحابِ الطَّبَقات العاليه؛ وليأخُذْهم بالرُّكوب فى الأيَّام المعتاده، والدُّخول إلىٰ مكانِ الخِدْمة الشريفة والخروج علىٰ العاده ، وليُدِرْهم فى أوقات البيا كير والأسفار نِطاقًا دائرَ الدِّهْليز المنصور، وليأمُرْهم أمرا عامًّا بأن لا يركبَ أحدٌ منهم إلا بدُسْتُور ولا ينزلَ إلا بدُسْتُور؛ وليحترِزْ عليهم من طوائف الغِلْمان ، ولا يستخْدِم منهم إلا معروفا بالخير ويُقِيمُ عليهم الضُّمّان ؛ ولْيحَرِّر علىٰ مَنْ دخَل عليهم وخرَج ، ولا يفتَحُ لأحدٍ منهم إلا من عُلِم أنه ليس فى مثله حَرَج ؛ ولا يَدَع للرِّيبة بينهم مجَالا للاضْطراب ، ولْيُوصِ مقدَّميهم بتفقُّد ما يُدْخَل إليهم فإن الغِشَّ أكثَرُه من الطَّعام والشَّراب ؛ وليُدِمْ مراجعَتَنا فى أمرهم فإنَّ بها يَعرِفُ الصواب، وليعمَلْ بما نأمره به ولا يجِدُ جَوًى فى جواب .

الضـــــرب الثـانى

(ممّن يُكتب له بالوِلايات بالديار المِصرية أربابُ الوظائف الدينية، وهو على طبقتين)

الطبقـــــــة الأولى

(أصحابُ التقاليد ممّن يُكتَب له بالجناب العالى)

وتشتمل على عدّة وظائف

الوظيفـــــةُ الأولى

(القضـاء)

قد تقـدّمَ فى المقالة الثانيــةِ فى الكلام على ترتيبِ الوظائف أنّ الديارَ المصرية كان يليها قاضٍ واحدٌ، إلى أنْ كانت الدولةُ الظاهريةُ «بِيبَرس» فى أوائل الدّولة التُّركيــة، وقاضِى القضاة يومئذ القاضِى تاجُ الدين عبــدُ الوهاب ابن بنتِ الأعَزّ الشافعىّ، فاضطَرب الأمرُ لاِختلاف المذاهب، فاقتضى رأىُ السلطان تقريرَ أربعة قُضاة من كل مَذْهب قاض، وقُرِّر القـاضِى تاجُ الدين ابن بنت الأعزّ فى قَضاء قُضاة الشافعية على حاله، وكُتِب لكلٍّ منهم تقليــدٌ بذلك؛ ثم خُصَّ قاضى القضاة الشافعيــة بالتولِيَة فى بلاد الريف دُونَ غيره من القُضــاة الثلاثة، واستمرَّ الأمرُ على ذلك إلى الآنَ. إلا أنه لمـا حدثَ بديوان الإنشاء تنويعُ مايُكتب لأرباب الأقلامِ إلى تقاليد، فى قطع الثلثين، وتَفاوِيضَ، وتَواقِيعَ، فى قطع النصف، تقرّرَ الحالُ على أن يُكتَب للقُضاة الأربعة تواقيعُ فى قَطْع النصف بـ«المجلس العـالى»، ولم يزَل الأمرُ على ذلك إلى أن وَلِىَ القاضى عمادُ الدين أحمدُ الكَرَكىّ الأزرقىّ قَضاء قُضاة

الشافعية فى أوّل سلْطَنة الظاهِر «بَرْقُوق» الثانية ، وأخُوه القاضى علاءُ الدين علىّ كاتبُ السرّ ، فعُنِى بأخيه عمـادِ الدين المذكور ، فكَتَب له تقليدا فى قطع الثلثين «بالجناب العـالى» . وبَقِى الثلاثةُ علىٰ ما كانوا عليه من كِتابةِ التواقيع إلىٰ أن وَلِىَ القاضى جمالُ الدِّين محمودٌ الحلبىّ القَيْسَرِىّ المعروفُ بالعَجَمىّ رحمه الله قَضاء قُضاة الحنفيَّة فى الدولة الظاهريَّة أيضا، مضافًا إلىٰ نَظَر الجيش ، فكُتِب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بالجناب العالى أيضا ، وبقى المـالكىّ والحنبلىّ علىٰ ما كانا عليـه من كتابة التواقيع فى قَطْع النِّصف . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ أن وَلِىَ قاضى القُضاة جمالُ الدين يوسفُ البِسَاطىّ قَضاءَ قُضاة المـالكية فى الدولة الناصرية «فَرَج بن الظاهر برقوق» فأنشأتُ له تفويضًـا وكتبت له به ، ولم يكُن أحدٌ ممن عاصَرْناه كُتِب له تفويض غَيْره . ثم لمـا وَلِى الشيخُ جمال الدين عبدُالله الأقْفَهْسِىّ قضاءَ المـالكية ، كتب له توقيعٌ فى قطع النصف ، إلا أنه كُتِب له «بالجناب العـالى» كما يُكتَب لأصحاب التقاليد ، وجرىٰ الأمرُ فيمَن بعـدَه علىٰ ذٰلك . ولم يبقَ من هو علىٰ النَّمَط الأوّل سِوىٰ قاضى القُضاة الحنابلة ، ويُوشِك أن يُكتَب لكلٍّ من المالِكىّ والحنبَلِىّ أيضا تقليـدٌ : لمساواتهم بغيرهم من الأربعة . وقد ذكرتُ ما يكتَب لهم من تقاليد وتواقيع هنا جمعا للمُفْتَرِق وتقريبًا للمَأْخذ .

وهـٰأنا أذكر ما يكتب للأربعة علىٰ الترتيب .

الأوّل (قضاء القُضاة الشافعية)

وهذه نسخةُ تقليـدٍ بقضاء القُضاة الشافعية ، كُتِب به لقاضى القُضاة تاجِ الدين ابن بنتِ الأعزّ رحمه الله ، حينَ آستقرّ أحدَ القُضاة الأربعة بعد انفراده بالوظيفة علىٰ ما تقدّم ، وهى من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبدالظاهر رحمه الله تعالىٰ ، وهى :

الحمدُ لله مجرِّدِ سيفِ الحقِّ علىٰ من آعتدىٰ، ومُوسِّع مَجَالِه لمن راحَ إليه وآغتدَىٰ، ومُوضِّح طريقه لمن آقتادَ وآقْتدىٰ، ومزيِّن سمـائِه بنُجُوم تستمِدُّ الأنوارَ من شمس الهُدىٰ؛ الذى أعْذَب لِشرْعة الشريعـة المحمَّدية يَنْبُوعا، وأقامَها أصْلًا مَدّ بثِمـار الرُّشْد فُروعا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى ألزمَتْنا لتشييدِ مَبانِيها شرُوعا، ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَعْمُر بها من القلوب والأفْواه رُبُوعا . ونصَلِّى علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أرسـله الله إلىٰ الخلائق جميعا، وقام بِعِبْء الأمر يصنَعُ حَسَـنا ويُحْسن صَنِيعا، صلى الله عليه وعلىٰ آله صلاةً لا يبْرَح برقُها ملمُوعا، ولا ينفَكُّ وِتْرُها بالتسليم مشْفُوعا .

وبعدُ، فإنَّ أحقَّ من جُدِّد له شرَفُ التقريض، وخُلِّد له إرضاءُ الأحكام وإمضاءُ التفويض، ورِيشَ جناحُه وإن لم يكُن المَهِيض، وفُسِّح مجالُه وإن كان الطويلَ العَرِيض؛ ورُفِع قدْرُه علىٰ الأقدار، وتقسَّمتْ من سحائبه الأنواءُ ومن أشِعَّتِه الأنوار، من غَزُر مدُّه فجَرَتْ منه فى رِيَاض الحقِّ الأنهار، وغدا تخْشَع لتقْواه القلُوبُ وتُنصِت لقوله الأسماع وترْنُو لمُحَيَّاه الأبصار؛ قد أوفَد من إرشاده للأمة لُطْفًا فلُطْفا، وأوقَد من علمه جَذْوةً لاتخبُو وقَبَسا بالهوىٰ لا يُطْفىٰ، وفاتَ النُّظَراء والنُّظَّار فلا يُرْسل أحدٌ معه طِرْفا ولا يَمُدّ إليه من حَيائه طَرْفا، وآحتَوىٰ من عُلُوم الشريعة علىٰ ماتفرّق فى غَيْره، وغدا خيْرَ دليـلٍ إلىٰ الحقِّ فلا يُقتَدَىٰ فى المُشْكلات إلا برأْيِ آجتهـادِه ولا يُهتَدىٰ فى المذاهب إلا بِسَـيْره؛ وكان لفَلَك الشريعة المحمَّدية قُطْبا، ولجُثْمانهـا قَلْبـا ولِسوارها قُلْبا، ولدليلها بُرهانا، ولإنسانها عيْنا ولعينها إنْسانا؛ فكم أرضىٰ بَنِى الأنام عن الأيَّام، وكم أغْضىٰ حياءً مع قدرته علىٰ الآنْتِقام؛ وكم أمضَىٰ لله حُكْما لا آنفصالَ لعُرْوته ولا آنفِصام، وكم قَضىٰ بالجَوْر فى ماله وبالعَـدْل فى الأيتـام؛

فلو آستعداهُ الليلُ علىٰ النهار لأنصفَه من تعدّيه، ولم يُداجه لمـا ستَرَه عليه من تَعدِّيه فى دَيَاجِيه؛ فهو الصادِعُ بمـا أمر اللهُ به ولو علىٰ نفْسِه، والمستردُّ الحقوقَ الذاهبةَ من غير محاباةٍ حتّىٰ لغدِه من يومِه وليومه من أمْسِه .

ولمـا كان قاضى القُضاة تاجُ الدين عبدُ الوهّاب ممن هو فى أحْسَن هذه السِّمات قد تَصوّر، وكادَتْ نجومُ السماء بأنواره تتكثَّر، وتجوْهَر بالعلوم فأصبح حقيقةً هو التاجَ المُجوْهَر؛ وله مزايا السُّؤدَد التى لا يُشَكُّ فيها ولا يُرْتاب؛ وسجايا الفضلِ التى إذا دخل [إليه] غيرُه من باب واحد دخل هو إليه من عِدّة أبْواب؛ وهو شجرةُ الأحكام، ومَصْعَدُ كَلِمِ الحُـكّام؛ ومَطْلَع أنجُـم شرائع الإسـلام؛ ومَهْبِط وَحْى المُقَـدّمات والآرتِسام، ومجتَمَع رِفَاق القضايا فى الحلال والحَرام ـ خرج الأمرُ الشريفُ بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القُضـاة بالديار المصرية : فليستصْحِبْ من الحق ما هو مَلِيٌّ باستصحابه، وليستمِرَّ علىٰ إقامة مَنَار الحق الذى هو مُوثِّقُ عُرَاه ومؤكِّدُ أسبابه؛ وليحتَلِبْ من أخْلاف الإنْصاف ما حَفَّـله آجتهادُه ليد احتلابه؛ عالمـًا بأنّ كل إضاءة إنارتُها من قَبَسه، وإن آستضاء بهـا فى دياجى المُنىٰ؛ وكلَّ ثمرةٍ من مغترَسه، وإن مَدّ إليها يدَ الاجتنا؛ وكلَّ جدْولٍ هو من بَحْره وإن بَسَط إليه راحةَ الآغتراف؛ وكلَّ مَنْهَج هو من جادّته وإن ثنَىٰ إلىٰ سُـلوكه عِنَان الآنصراف لا الآنْحِراف؛ وهو بحمد الله المجتهدُ المُصيب، والمـادّةُ للعناصر وإن كان نصيبُه منها أوفرَ نصيب؛ وسجاياهُ يتَعلَّم منها، كيْف يُوصِّى ويُعلِّم، ومزاياه تُقوِّم الأَوَد، كيف يُقَوَّم؛ والله الموفِّق بمنّه وكرمه! .

الثـانى — قاضى قُضاة الحنفِيَّة علىٰ ما آسـتقرّ عليه الحالُ من لَدُن القاضى جمـالِ الدين محمودٍ القَيْسَرىّ وإلىٰ آخر وقت . وموضوعُها النظرُ فى الأحكام

الشرعيَّـة علىٰ مـذهب الإمام أبى حنيفـةَ رضى الله عنـه ، ويختصُّ نظره بمصر والقاهرة خاصَّةً .

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة الحنفية كُتِب به لمن لَقَبه شمسُ الدين، وهى :

الحمدُ لله الذى أطْلَع فى أُفُق الدِّين الحنيف شمسا مُنِيرَهْ ، ورفَع درجةَ من جعله من العلم علىٰ شريعةٍ ومن الحكم علىٰ بصيرَهْ ، وقَلَّد أمورَ الأمة لمن يَعْلم أنَّ بين يديه كتابًا لا يُغادر صغيرةً ولا كبيره ، ووَفَّق لفصل القضاء مَنْ مشىٰ علىٰ قَدَمِ أقْدم الأئمة فسار فى مَذْهبه المُذْهَبِ أحسَنَ سِيره ، الذى ادَّخر للحكم فى أيَّامنا الشريفة من نفائس العلمـاء أفضلَ ذخيره ، وقضىٰ بإرجاء أمْرِه لنختارَ له من تحلَّى به بعد العَطَل وكُلُّ قضاءٍ خيره ، وأيقظ عنايتَنا لمن رَقَد الدهرُ عن فضله فباتَتْ عينُ الاستحقاق باستقرار رتبته قَرِيره .

نحمَـدُه حمدَ مَنْ توافَتْ إليه النِّعم الغَزيره ، وتوالتْ عليه المِنَن الكثيرةُ فى المُدَد اليسيره ، وأخصَبَت فى أيامه رياضُ الفضائل فهى بكلِّ عالم عَدِمَ النظير نَضِـيره ، وافتتح دولتَه برَفْع مَنَار العدل فآمالُ أهل الظلم عن تعَاطيه قاصرةٌ وأيْدى أهل الباطل عن الامتداد إليه قَصِيره ، وخصَّ المناصبَ فى ممـالكه بالأكْفاء فإذا تلبَّسَتْ بهـا هِمَمُ غيرهم عادتْ خاسئةً أو امتدّتْ إليها أبصارُ مَن دُونَهم رجعتْ حَسِيره .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُصافِـح العَلَنَ والسريره ، وتُصْبِح بها القلوبُ موقنةً والألسُنُ ناطقةً والأصابعُ مُشِيره ، ونشهد أنَّ محمدًا عبـده ورسـوله الذى بعثَ الله به الرسُـل مُخْبِرةً وأنزل الكُتُب بمبعثه بَشِـيره ، واجتباه فى خير أُمَّة من أكرمِ أَرُومة وأشرفِ عَشِيره ، وأظهر أنوارَ مِلَّتِـه إلا لمن أعمىٰ الغَىُّ بصيرتَه وهل ينفَع العُمْىَ شمسُ الظَّهِيره ، وخصَّه بالأئمة الذين وفَّقهم للاستعانةِ بالصبر

والصلاة وإنّها لكبيره، وجعل علماءَهم وَرَثَةَ الأنبياء فلو ٱدُّعيتْ لأحكامهم العصمةُ لكانت بذلك جديره؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً نتقرّبُ بدَوامها إلىٰ الله فيُضاعفها لنا أضعافًا كثيره، وسلّمَ تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أولىٰ الأمور بأن تُشاد قواعِدُه، وتُتَعَهَّد معاهِدُه؛ ويُعلىٰ مَنارُه، وتُفاضَ بطُلُوع شمسه أنوارُه؛ ويَحَلّى به بعد العَطَل جِيدُه، ويُنظَم فى سِلك عُقُود الأمة فَرِيدُه؛ وتَكَمَّلَ به قُوىٰ الدين تكملةَ الأجساد بقُوىٰ الطبائع الأربع، وتُعمَّر به رُبُوعُ الملة التى ليس بعـدها من مَصيف لملّة ولا مَرْبَـع، وتُثَبَّت به قوائمُ الشرع التى ما للباطل فى إمالة بعضها من مَطْمَع؛ وتُجْلىٰ به عمّن ضاق عليه المَجَالُ فى بعض المذاهب الغُمَّه، ويستقرَّ به عدَدُ الحُكّام علىٰ عدَدِ الأئمـة المستقرّ علىٰ عددِ الخلفاء الراشـدين من خُلَفاء الأمّه؛ ويُمَـدّ به علىٰ الخلق جناحُ الرحمة وافِرَ القَوادِم وارِفَ الظِّلال، ويجمعَ به عليهم ماجمع اللهُ فى أقوال أئمتهـم من الحق وما ذَا بَعْدَ الحَقِّ إلَّا الضَّلَال، ـ أمرُ القضاء علىٰ مذْهب الإمام أبى حنيفةَ النُّعمان بن ثابت رضى الله عنه الذى ٱشتَقَّ الله له من المِلَّة الحنيفيَّة نِسبَةً سَرتْ فى الآفاق، وأفاضَ عليه من موادّ القياس الجلىّ كُنوزا نَمَت علىٰ الإنْفَاق، وعضَّد أيّامه بوليَّيْ عهدٍ قولُهما حجة فيما تفرّدا به من الخِلاف أو ٱجتمعا عليه من الوِفَاق؛ وعُدّ من التابعين لِقِدَم عَهْده، وسُمّى «سراجَ الأمة» لإضاءة نُوره بهما من بعده .

ولمـا خَلَا بانتقال مباشِره إلىٰ الله تَعـالىٰ، توقَّف مـدّةً علىٰ ٱرتياد الأَكْفاء، وٱرْتياءِ من هو أهلُ الاصـطفاء، وٱختيارِ من تكمُلُ به رفعةُ قَدْره، ويعيـد لدَسْته بتصَـدُّره علىٰ بِساط سليمانه بهجةَ صَدْره؛ ويغدُو لسرِّ إمامه بعد إماتة هـذه الفَتْرة باعثا، ويُصْبِح وإن كان واحدَ عصْره لأبى يوسفَ ثانيـا ولمحمد بن الحسن ثالثا؛

ويُشَبَّه به البَلْخىُّ زُهْدا وعِلْما ، والطَّحاوِىُّ تمسُّكا بالسُّنّة وفَهْما ، ويعترف القُدُورىُّ من بحره ، ويعترف الحُصَرىّ بالحَصَر عن إحْصاء فضله وحَصْره ، ويقف من مذهبِ ابن ثابت ، علىٰ أثبتِ قَدَم ويتمى من فِقْه النُّعمان إلىٰ فَرْع زاكٍ وأصل ثابتٍ ، وينشُر من أحكامه ما إنْ وافق الأئمةَ فهو حُجَّة قاطِعة ومَحَجَّة ساطِعه ، أو خالفهم بمَذْهبه فهو رحمةٌ واسعه ، ونعمةٌ [و] إن كانت بين الطُّرق فارقةً فإنّها علىٰ الحق جامِعَه .

ولما كان فلانٌ هو المنتظَر لهذه الرتبة آنتظارَ الشمس بعد الغَسَق ، والمرتقَب لبُلُوغ هذه المنزلة التى تقدّمتْ إليها بوادرُ آستحقاقه فى السَّبق ، والمعطُوفَ علىٰ من وُصِف من الأئمة وإن تأخّر عن زمانه عطفَ النَّسَق ، وهو الذى مادامَ يعدِلُ دمَ الشهداء مدادُ أقلامه ، وتضع الملائكةُ أجنحتَها رضًا بما يصنَع من نقل خَطَواته فى طلب العلم وسَعْيِ أقدامه ، ودخلَ من خشيةِ الله تعالىٰ فى زُمْرة من حُصِر بإنّما[(١)] ، وهَجر المضاجعَ فى طاعة الله لتحصيل العِلْم فلو عُدَّت هَجَعاته لقَلَّما ، وهَجَّر فى إحراز الفضائل فقَيَّد أوابِدَها ، وأحرَزَ شَوارِدَها ، ولَجَّج فى بِحار المَعَانى فغَاصَ علىٰ جواهِرِها ، ونظر نظرَةً فى نُجوم العُلوم فاحتَوىٰ علىٰ زُهْرِها وراد خمائلَ الفضائل فاستولىٰ علىٰ أزاهِرِها ، وآنتهىٰ إليه علمُ مذهبِه فبرَّز علىٰ من سَلَف ، وجارىٰ علماء عصره فوقفَتْ أبصارُهم عن رؤية غُبَاره وما وقَفْ ، ونَحَا نحوَ إمامه فلو قابله يعقوبُ مع معرفتِه فى بحثٍ لآنصرَف ، وتعيَّن عليه القضاءُ وإن كان فرضَ كفاية لا فرضَ عَيْن ، وقدّمه الترجيحُ الذى جعل رُتبتَه همزةَ آستفهامٍ ورتبةَ غيْرِه بَيْنَ بَيْن ــ آقتضىٰ رأيُنا الشريفُ آختصاصَه بهذا التمييز ، والتنبيهَ علىٰ فضله البسيط بهذا اللفظ الوجيز .

(١) يريد الاشارة الى قوله تعالىٰ : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

فلذلك رُسِم أن يفوّض إليــه كيت وكيت . فليتولَّ هذه الرتبةَ التى أصبَح فيهـا عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم نائبا وبشَرْعِه قائمـا، ويتقلّدْها تقلُّدَ من يعلَم أنه قد أصبح علىٰ حكم الله مُقَــدّما وعلىٰ الله قادِما، ويتثبَّتْ تثبُّتَ من يعتصِمُ بالله فى حُكْمه فإنَّ أحدَ الخَصْمين قد يكونُ ألْحَنَ بحجّته وإن كان ظالمـا ، ويلْبَسْ لهذا المَنْصب حُلَّة تمنَع المُبْطِل من الإقدامِ عليه، وتدفعُ الظالم عن التطَاوُل إلىٰ أمرٍ نَزَعه الشرعُ من يَدَيْه ، وتُؤمِّن الحقَّ من آمتــدادِ يَدِي الجَوْر والحَيْف إليه ؛ ولْيُسوِّ بين الخصمين فى مَجْلسه ولَحْظه ، ويَعْــدِلْ بينهما فى إنصاته ولفظه ، : ليعلَمَ ذُو الجاه أنه مساوٍ فى الحق لخَصْمه، مكفوفٌ باستمـاع حجّته عن الطمَع فى ظُلْمِه ؛ ولا ينقُض حكما لم يخالِفْ نَصًّا ولا سُنَّةً ولا إجماعا، ولْيشارِكْ فيما لا يجهله من القضايا غيْرَه من العلمـاء ليتزيَّد بذلك مع آطّلاعه آطلاعا، ولِيغتنِمَ فى ذلك الآستعانةَ بآرائهم فإنَّ الله تعالىٰ لا ينتزِع هذا العلم انتزاعا، وليسُدّ مَسالكَ الهَوىٰ عن فِكره، ويَصْرِفَ دواعِىَ الغضَب لغيرِ الله عن المُرور بذِكْره[(١)]؛ وليجعَلِ العمَلَ لوجه الله نتيجةَ علمه، وليحْكُمْ بمـا أراه اللهُ (والله يحكُم لا مُعَقِّبَ لحُكْمه)؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الثالث — قاضى قضاة المـالكية :

وهــذه نسخة تقليدٍ بقضاء قُضاة المـالكيــة ، لقاضى القُضاة جمـالِ الدين يوسُــفَ البِساطىِّ المُقَــدّم ذكرُه ، فى العَشْر الأخير من رَجَب الفَرْد ســنةَ أربــع وثمــانمــائة ، وهو :

الحمــدُ لله الذى شَفَع جَلالَ الإســلام بجَماله ، وناطَ أحكامَه الشرعيَّةَ بمن آقترَن بحميــد مَقَاله جميــلُ فِعَاله ، وخصَّ مذهبَ عالِم المدينةِ بخيرِ حاكمٍ ما جَرىٰ حديثُه

(١) الذكر والذكر أى بالضم والكسر التذكر .

الحسَنُ يومًا إلا وكان معْدُودا من رجاله ، وعَدَق النظرَ فى أحكامه بأجلّ عالم لو طُلِب له فى الفضل مِثْلٌ لعجز الزمانُ أن يأتِىَ بمِثاله .

نحمدُه علىٰ أن أخْلَف من النَّبْعة الزكيَّة صِنْوًا زاكيا ، وأدالَ من الأخ الصالح أخًا للعُلوم شافيـا ، ولمَنْصبه العلِىّ ولله الحمدُ وافيـا . ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له مجرّدُ سـيف الحق علىٰ كلّ مبطِل معـانِد ، ومرهِفُ حدّه القاضب لكل مُلْحِدٍ عن سَوَاء السبيل حائد ؛ وأنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبىّ فاق الأنامَ بفضله وعَمَّ البريَّة بعَدْله ، وسُدّ بابُ التوبة علىٰ متنقِّصه فلم تكن لتُقبَلَ توبةُ مثلِه ، وكان إلىٰ مالكٍ مصيرُه فلا جرمَ قَضىٰ بإهدار دَمِه وتحتُّم قتلِه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين ذَبُّوا عن حِمىٰ الدين وذادُوا ، وسلكوا سبيلَ المَعْدَلة إذ حكَمُوا فما ضَلُّوا عن سَنَن الطريق ولا حادُوا ؛ صلاةً تبقىٰ ببقاء الدُّهور ، ولا تزولُ بهجةُ جمالها بتوالى الأعوامِ والشُّهور، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ، فإنَّ أوْلىٰ ماقُصِر عليه النظَر ، وآستُغرقتْ فيـه الفِكر وعَرَا العيونَ فيه السهَر ؛ وصُرِفت إليـه الهِمَم ، ورَغِبت فى البراءة من تخلُّفـه الذِّمم ـ النظرُ فى أمر منْصِب الشرع الشريف الذى يَأْوِى الملهوفُ إلىٰ ظِلّه ، ويلجأ المستجيرُ إلىٰ عَدْله ، ويتعلّق العُـفَاة بوثيق عُروته ومَتِين حَبْـله ؛ وبرَهْبته يكُفُّ الظالم عن ظُلْمه ، وينتصِـفُ الخصمُ من خَصْمه ، ويُذْعِن العـاصى إلىٰ طاعتِـه وينقادُ الأَبِىّ إلىٰ حُكْمه ، ويأْتَمُّ به الحائرُ فى دُجىٰ الجهـل فيستضِىءُ بنُوره ويهتـدى بنَجْمه ؛ لاسيمـا مذهَبُ مالكٍ الذى لم يزَلْ للدِّين من أهل الإلحاد مُثْئِرا ، وللقِصاص من أهل العِناد مبتَـدِرا ، وبسَلّ سَـيف الحقّ علىٰ الطُّغاة المتمرّدين مشـتَهِرا ؛ ففاز من سَطَوات الإرْهـاب بأرْفَع المراتِب ، وعلا رقابَ المُلْحدين بأرْهف القواضب ، وخُصَّ من

سَفْك دماء المُبْطِلين علىٰ البتّ بما لم يشارِكْه فيه غيرُه من المذاهب ؛ فوجبَ أن يُختارَ له من ينُصّ الاختبار علىٰ انه أهل للاختيار ، ويقطَع المنافسُ أنه الراجحُ وَزْنا عند الاعتبار ، وتأخذ مناقبُه البسيطةُ فى البَسْط فلا تنفَدُ إذا نَفِدَت مناقبُ غيره المركَّبةُ عند الاختصار ، ويشهَدُ له ضِدُّه بالتقدّم فى الفضل وإن لم تتقدَّمْ منه دَعْوىٰ ، ويعترفُ له بالاستحقاق خصمُه فيتمسَّك من عدَم الدافع فيه بالسَّبب الأقوىٰ ، ويحْكُم له بعلوّ الرُّتبة مُناوِئُه فيرتفع الخلافُ وتنقطِع النَّجْوىٰ ، ويسَجِّل له حاسدُه بثُبوت المفاخر المحكومِ بصِحَّتها فلا ينقضُها حاكم وإن بلغ من تدقيق النظرِ الغايةَ القُصْوىٰ ؛ وتنفذ أحكامُه فى البريَّة فلا يُوجَد لها مخالِف ، وتحذَر شِيعةُ الباطل سَطْوتَه فلا يرىٰ لباطل مُخَالف ، ويشْتَهِر عنه من نُصْرة الحق ما يأْمَن معه المستضْعَف الخائف ، ويَتحقَّق فيه من قيام العَدْل ما يرتَدِع به الظالم الحائف ؛ ويَستوِى عنده فى لزوم الحق القوىُّ والضعيف ، ولا يُفَرِّق فى لازمه بين المشْرُوف والشريف ، ولا يميِّز فى حَمْل الأعباءِ الشرعيَّة بين الشَّاق وغيره ولا بينَ الثقيلِ والخفيف ، ولا يُحابِى قريباً لقَرابته ، ولا جليلا لجلالته ، ولا ظالمًا خوفَ ظلمه ولاذا ٱستطالةٍ لٱستطالتِه ، ولا يستَزِلُّه ذُولَسَن للَسَنِه ولا بليغٌ لبلاغتِه ، ولا يُخالِف بين الصديق الملاطِف وغيرِه إلا فى منْع قَبُول شهادتِه .

ولما كان المجلس العالى القاضَوِىّ ، الكبيرِىّ ، الإمامِىّ ، العالِمىّ ، الصَّدْرِىّ ، الرئيسِىّ ، الأوحَدِىّ ، العَلَّامىّ ، الكامِلىّ ، الفاضِلىّ ، المُفيدِىّ ، الفَرِيدِىّ ، الحُجِّىّ ، القُدْوِىّ ، الخاشِعِىّ الناسِكىّ ، الحاكمىّ ، الجَمَالىّ ؛ جَمَالُ الإسلام ، شرَفُ الأنام ، حاكِمُ الحُكّام ، أوحدُ الأئمه ، مُفيد الأُمّه ، مؤيِّد الملّه ، مُعِزُّ السنَّه ، شمسُ الشريعه ، سيفُ المناظرين ، لسانُ المتكلمين ، حَكَم الملوك والسلاطين ، خالصةُ أميرِ المؤمنين ،

أبوالمحاسن «يوسفُ البِساطىّ» المالكى ـ أدام الله تعالى نعمتَه ـ هو المرادُ من هذه الصِّفات، التى وقعَتْ من محلِّه الكريم موقِعَها، والمقصودُ من هـذه السِّمات، التى أَلِفتْ من سِيرته الفاضلةِ موضِعَها؛ وقارِعُ صَفاة هذه الذِّرْوة التى ما كان ينبغى لغيره أن يَقْرَعها؛ وشمسُ الفضل الحقيقُ بمثلها أن لا يتوارىٰ جمالُها بحِجاب الغُروب، وفاصِـلُ مشْكِلات القضَايَا إذا آشـتدّ إشكالُهـا وعظُمت فى فَصْلها الخُطُوب، ومتَعيِّن الوِلاية التى إذا كانتْ فى حقِّ غيره علىٰ الإباحة كانتْ فى حَقِّه علىٰ الوُجوب؛ وقد دَرَّب الأحكامَ وخَبَرها، وعَرَف علىٰ التحقيق حالَها وخَبَرها، ووردَ من مَشَارِبها الرائقة أصفىٰ المنـاهِل فأحسَن وِرْدَها وصَدَرها؛ ونَفُست جواهر فوائده ففاقَت جواهرَ المعادِن، وغطَّت محاسنُ فضله فضائلَ غيره ولا تُنْـكَر المحاسنُ لـ«يوسُفَ» وهو «أبو المَحاسن»، فعلُومه المَدَّوَنة بالبيان والتحصيل كافِله، ومُقَـدِّمات تنبيهاته بنتائج النَّوادر الحسنةِ متواصِـلَه؛ وتهذيبُ ألفاظِه المنقَّحة تُؤْذِن بالتحرير، وعيونُ مسائله المتواردةِ لا تدخُل تحت حَصْر ولا تقْدير؛ فلو رآه «مالك» لقال: ما أعظَمَ هـذه الهمَّه، أو أدركه «آبنُ القاسم» لوَفَّر من الثناء عليه قسْمَه، أو عاصره «آبنُ عبدالحَكَم» لحكَم له بأنَّ سهْمه قد أصاب الغَرض وغيرَه أطاشَ الريحُ سَهْمَه؛ أو عاينه «أشهبُ» لقال قد ركِب هذا الشَّهباءَ أنَّى يُلْحَق، أو سمع «آبنُ وهْب» كلامه لقطع بأنه هِبـةٌ ربَّانيَّة وبمثله لم يُسْبَق؛ أو بلغ «آبنَ حبيب» خبرُه لأحَبَّ لقاءه، أو بَصُر به «سُحْنون» لتحقَّق أنه عالم المذْهَب ما وَرَاءه؛ أوآستشعر بقُدومه «آبنُ سِيرين» لبَشَّر به، أو جاوره «آبنُ عَوْف» لعـاف مجاورةَ غيره أو مجـاوزةَ طُنُبه؛ أوجالسه «آبن يُونُس» لتأنَّس بمجالسته، أوحاضره «أبو الحسنِ بنُ القَصَّار» لأشْجىٰ قلبه بحُسن محاضَرَته؛ أوجاراه «القاضى عبدُ الوَّهاب» لقضىٰ بعُلوّ مكانته، أو آتَّصل ذكره «بالمـازرىّ» لزَرَىٰ علىٰ «مازَرَ» لبُعْدها عن دار إقامته؛ أو آطَّلع

«القاضى عياضٌ» علىٰ تحقيقاته لاستحسن تلك المَدَارك، أوناظره «آبنُ عبدالسلام» لسَلَّم أنه ليس له فى المناظرة نظيرٌ ولا فى تدقيق البحث مُشارك؛ أو مَرَّ به «آبن الجَلَّاب» لجلَب فوائدَه إلىٰ بلاده، أو حضَره «آبنُ الحاجب» لتحقَّق أنه جامعُ الأُمَّهات علىٰ آنفراده .

هـذا وقد حُفَّ بجَلَال لا عهْدَ لأحدٍ بمثله، ولا طاقةَ لفاضل بمُقاومة فَضْله، ولا يَسْمَح الزمان بنظيره من بعده كما لم يَسْمَح به من قَبْله؛ فاجتمع من جَمال الجَلَال، وجَلال الجَمال، ما لم يكن ليدخُل تحتَ الإمكان، وعُزِّز عددُهما من أعلام الأئمـة بثالثٍ ورابع فقام بنـاءُ الدِّين من المذاهب الأربعة علىٰ أربعـةِ أركان؛ ولا عِبرةَ بمـا يذْهَب إليه الذاهبون من كراهة التربيع تبَعًا للمنجِّمين فى آعتقادِهم الفاسد، فقد ورد أنَّ زَوايا الحوض علىٰ التربيع وذٰلك فيه أعظمُ دليل وأقومُ شاهد .

وكان مَـذْهَب مالك رحمـه الله هو المُراد من هـذه الوِلاية بالتخصيص، والمجلِسُ الجَمَالىُّ المشارُ اليه هو المقصودُ بهذا التفويض بالتنصيص ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُوَفِّى مرتبتَه السنيَّةَ حقَّها، ونُبَوِّئَ النِّعم مستحِقَّها، ونملِّك رقابَ المعالى مسترِقَّها، ونقدِّم علىٰ طائفة المـالكيَّة من أضحىٰ لهم جَمـالا، ونُتحِفَهم بمن أمسىٰ لعِزِّهم كمالا، ونفوِّض قضاءَ مذْهَبهم إلىٰ من إذا جرىٰ فى مَيْدان حُكْمه قالت محاسنُ قضاياه : (هكذا هكذَا وإلا فَلَالا) . ونُسنِدَ الأحكامَ الشرعيةَ إلىٰ من هو بها أعرَف، ونَقِفَها علىٰ من عُرِف أنه علىٰ الحقائق ماضٍ وعند السُّـنَّة يتوقَّف، ونُعدِق أمرها بمن ألِفَ النزاهةَ فنكِرَةُ المَطامع عنده لا تتعرَّف؛ ونَكِلَ النظرَ فيهـا إلىٰ مَنْ أمسىٰ لشُروط الآستيجاب جامعا، ونُقدِّم فى ولاية هذا المنْصِب من شَفَع له آستحقاقُه وكفىٰ بالآستحقاق شافِعا .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يَبْسُط لأوليائه من بِساط الأُنْس ماكان مَطْوِيّا ، ويُنيلهم من رغائبِ الآمال ماكان عنهم فى سالِف الأزمان مَزْوِيّا ـ أن يُفوَّض إليه قضاءُ قُضاة مذهب عالم المدينة ، وإمامِ دارِ الهجرة ، مالِك بن أنَس الأصبحىّ : قدَّس الله تعالىٰ رُوحَه . فليتلَقَّ مافُوِّض إليه بأفضل تلقٍّ يليق بمِثْله ، ويتقبَّلْه تقبُّلا يناسب رِفعة محَلِّه ، ويبتهِجْ بأجلِّ تفويض لم يُسْمَحْ بتمنِّيه لآخر من قبله .

ومن أهمّ مانُوصيه به ، ونوجِّه القول إليه بسبَبِه ، تَقْوى الله تعالىٰ التى هى مِلاكُ الأمر كلِّه ، وقِوَام الدين من أصله ، والاشتمالُ عليها فى سِرِّه وجهره والعملُ بها فى قوله وفعلِه ، ثم بِرُّ الخلق والإحسانُ إليهم ، والتجاوُزُ عنهم إلا فيما أوجبه الشرعُ من الحقوق عليهم ؛ ففى التقوىٰ رضا اللهِ وفى البِرِّ رضا الخلقِ وناهيك بجمعهما من رُتْبة فاخره ، إذ لاشكَّ أنَّ من حصَّل رضا الله ورضا الخلق فقد حصَل علىٰ خير الدنيا والآخره ، ووراءَ ذلك قاعدةٌ فى الوصايا جامعه ، وتَذكِرة لذَوى الذِّكرىٰ نافِعه ، وهى أنْ يتأمَّل أحوال غيره تأمُّل من جعلها لنفسه مِثالا ، ولنَسْجه مِنْوالا ، فما استحسنه منها أتىٰ مثْلَه ، وما استقبحه تجنَّب فعلَه ، واقفًا فى ذلك عند ماوردَتْ به الشريعة المطهَّرة بنص صريح أو تأويل صحيح ، مُعْرِضا عن العقْليَّات المحضةِ فلا مجالَ للعقْل فى تحسينٍ ولا تقْبيح .

وأما أدَبُ القضاء الجارى ذكرُ مثله فى العُهُود ، والنظرُ فى أمر النُّوَّاب وكُتَّاب الحكم والشُّهود ، فهو به أدرَبُ وأدرَىٰ ، وبمعرفة ذلك لهم وعليهم أحقُّ وأحرىٰ ، غير أنَّا نُوصِيه بالتثبت فى أمر الدِّماء وعَلاقتها ، وتحقُّق حكمها قبلَ الحُكم بإراقتها ، فإنَّ ذلك لمادّة القَلَق فيها أحْسَم ، ومن تَبِعاتها فى الدارين أسْلَمَ ، والوصايا كثيرةٌ

ولكنّها منـه تُستفاد، وعنـه تؤخَذُ وإليـه تُعاد؛ والله تعالىٰ يتولّاه، ويحُوطه فيما وَلّاه، ويُديم عليه هذه النعمةَ فما فوق مَنْصِبه منصِبٌ يتمنّاه؛ والاعتمادُ[1] ... ... إن شاء الله تعـالىٰ .

وكُتِب لستٍّ إن بَقِين من شهر رجب الفردِ عامَ أربع وثمـانمـائة، حسَبَ المرسوم الشريف، بمقتضىٰ الخط الشريف .

* * *

وهذه نسخة توقيع بقضاء القُضاة الحنفيَّة بدِمَشْقَ، من إنشاء القاضى ناصر الدين ٱبن النَّشَائى، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل منَـارَ الشَّرع الشريف مستمِرًّا علىٰ الدَّوام، وشَمَلَ مَنْصِب الحكم العزيز للعالِم بعد العالِم علىٰ ممَرّ الأيام؛ وأجملَ ٱنتخابَ من يقُوم بأعباء القضايا، ومن تدُوم به مَزَايا السَّجايا، فيتخيَّر لذٰلك الإمام بعد الإمام؛ وأقبل بوجْه ٱجتبائِهِ علىٰ ولىٍّ تتأكَّد بإنصاته وإنصافه إحكامَ الأحكام، وعدَل بٱعتنـائه إلىٰ تعيينِ من ترتفِع به فى العلوم أعلامُ الإعلام، ومن يتأيَّد به الحقُّ فى كل نقضٍ وإبْرام .

نحمده علىٰ نِعَمه الوافرة الأقْسام، السافرةِ [اللثـام] عن وجُوه الزيادة الوِسَام، ونشكره علىٰ مِنَنه الجِسام، ومَوَاهِبِـه التى لا تبْرَحُ ثغُورُ إحسانهـا لذَوِى الٱستحقاق واضِحةَ الٱبْتِسام .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً كفيلةً بالمَرام، مُنيلةً للإكرام، جميلةَ التلفُّظ والٱلتِئام، جزيلةَ الكَنَف والٱعتِصام؛ ونشهَد أنّ محمدًا عبدُه ورسوله الذى أقام اللهُ به شعائرَ الإسلام، وأظهر شرائعَ الدين الحنيف بحُسَامٍ نصره الحَسَّام،

(١) أى إلىٰ آخر ما يكتب فى مثله، وحذفه من باب الٱختصار .

وأورثَ مَنْ أهَّله من أُمَّته كُنوزَ العلوم التى لاتنفَـدُ فوائدُها مع كَثْرة الإنفاق مدَى السنِينَ والأعْوام، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هَدَوُا المؤمنين بإلْهام الكَلَام، وَعَدَوْا علىٰ المشركين بسِهَام الكِلَام، وأبدَوْا من إرشادهم إلىٰ خَفَايا القضايا ما يظْهَر بتهذيبهم ظُهورَ بدْر التَّمَـام، صلاةً دائمةً باقية تُجْزِل لقائلها الأجْر التام، وتُرْسل إليـه سحائبَ المواهب هاطلةَ الغَمَام، وسلَّم تسليما كثيرا .

و بعد، فإنَّ أوْلىٰ من تذَهَّب به مذْهَبُه، وتحلَّى به محلُّ الشرع الشريف ومَنْصبُه، وأنار بنُور إرشاده ليلُ الشك وغيهَبُه، وسَهُل بتقريبه علىٰ فَهْم الطالب مطْلَبُه، وهمىٰ به وابِلُ العلم وصيِّبُه، وأُتيح به لمستفيد كنْزُ الفوائد التى يَدْنُو بهـا أرَبُه، وشِيمَ من برق شِيَمِه بإشام ماوُجد فى الجَوْد صادِقُه وفُقِـد خُلَّبُه ـ مَنْ علا فى العلوم نسَـبُه، وتأكَّد فى الدين سـبَبُه، وشَـيَّد مبْنِيَّ المَعَالى مُعْرَبُه، وصقَل مَرَايا الأفهام مُهَذَّبُه، وزاحمَ منكبَ الجَوْزاء فى ارتفاع القَدْر منْكبُه، وجَمَّل موَاكِب المباحث فى الأُصول والفروع مَوْكِبُـه، وسحَّتْ بدقائقِ الحقائق سُحُبه، واشـتاق إلىٰ قُرْبه موطنُ الحكم العزيز فمـا زالَ يرتقِبُـه ، وارتاحَ الزمانُ إلىٰ عفَافه وإنصافه فأرشـد حيثُ نختارُه لذلك وننتَخبه .

ولمـا كان المجلس العالى ... ...(١) أيَّد الله أحكامَه هو الذى أرشَدَ الطالِبِين فى البِـدايه(٢) ، وأفاد المنتهِين درجَاتِ النِّهايه ، وأفهَمَ المستفِيدِينَ صوابَ الهِـدايه ، وغدا سابقًا [فى] حَلْبة العُلماء إلىٰ أقصىٰ غايه . كَمْ قَرَّب إلىٰ الأذهان غامِضَ المُشْكل وأوضَحَ مفهُومه ، وكَمْ أشاع فرائد فوائده التى طَبَّق الأرض بها عُلُومَه ، وكم أباحَ لَقْطَ ألفاظه المشحونةِ بالحِكَم فتحَلَّى الناس بدُرَرِها المنثورةِ والمنظُومه ؛ معَ ماله من دِينٍ

(١) بياض بالأصل متروك لتكلة الألقاب المعلومة كالأميرى الكبيرى الخ .

(٢) فى المصباح مانصه : "والبداية بالياء مكان الهمز عامىّ نص عليه ابن برّى وجماعة" .

متين ، وٱستحقاق للتقدّم مُبين ، وصلاحٍ بلغ به درجاتِ المتّقين المرتقين ، وٱتباعٍ لسُنَن الحق فى الحُكْم بين الخَلْق عن يقين ـ ٱقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف أن يُقْرَن منصِبُ القضاء بجماله ، وأن يُعوّض عن إمامه المفقود بإمامه الموجود ليستمِرَّ الأمرُ علىٰ حاله .

فلذٰلك رُسِم ... ... ـ لا زالت أئمةُ العلم الشريف فى أيامه يخلُف بعضُهم بعضا ، وأقدارهم تدُوم رِفعتُها مدىٰ المُدَد فلا تجد نَقْصا ولا نقضًا ـ أن يُفوّض (١) ... ...

فليُباشِرْ ذٰلك بعلمه المأثور، وحُكْمه المشْهور، وإنصافه الذى يَعْدِل فيه ، وٱتصافه بالحق الذى ما بَرِح يُوفيه ؛ قاضيًا بينَ الخصوم بما أمر اللهُ عز وجل ، مراقبًا لخشية الله علىٰ عادته ، مُذيعًا لِلمِلَّة الحنيفيَّة أنواعَ إفادته ؛ قاطعا بنَصْل نَصِّه مُشْكل الإلباس ، جامعًا فى أحكامه المستَدّة بمقتضىٰ مَذْهبه بين الكتاب والسُّنَّة والقياس . والوصايا كثيرةٌ ومِلاكها التقوىٰ وهى مادّتُه ، وطريقُه المستقيمُ وجادّتُه ؛ وما زالتْ عُمْدَتَه التى يعتمِدُ عليها ، وعدّتَه التى يستند فى إسناد أمْرِه إليها ؛ والله تعالىٰ يجمِّل الأيام بأحكامه ، ويبلِّغه من خير الدنيا والآخرة غايَةَ مُراده ومَرامه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة توقيع بقضاء قُضاة المالكيَّة أيضا ، أنشأتُه لقاضى القُضاة جمال الدين البساطىّ المذكور عند عَوْده إلىٰ الوظيفة ، لأربع بَقِين من ذى القَعدة سنة سبع وثمانمائة . وقد وافق عودُه عودَ شيخ الإسلام جلالِ الدين عبدالرحمن البُلْقينىّ إلىٰ قضاء قُضاة الشافعيَّة أيضا ، وهى :

(١) بياض فى الاصل والمراد واضح مما تقدّم .

الحمـدُ لله الذى أعاد لرُتْبة القضاء رَوْنَقَ « جمَالِهـا » وأسعدَ جَدَّها بأسعدِ قِرانٍ ظهرَتْ آثارُ يُمْنِـه بمـا آثرتْه من ظُهور «جَلَالهـا» ، وأجاب سُؤْلهـا بأجَلِّ حاكمٍ لم تَعدِل عنه يوما فى سُؤالها ، وأسعَدَ طَلِبَتَهَا بأكملِ كُفْءٍ لم تَنْفكَّ عن خِطْبته وإنْ أطال فى مِطَالِهـا ، وأكرم مآبَها بأكْرمِ كافٍ ما فاتَها مَنَـالُ ماضٍ إلا أدركَتْه به فى مَآلِهـا .

نحمدُه علىٰ أنْ أُعطِيَتِ القوسُ باريها ، وأُعيـدت مِياهُ الاستحقاقِ إلىٰ مَجاريها ، ورُدَّتِ الشاردةُ إلىٰ مالكٍ أَلِفَت منه بالآخرةِ ماأَلِفتْ من خيره فى مَبَادِيها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَخْفِق بالإخلاص مَنَاطُهـا ، ويزدادُ مع طول الأَمَد نَشَاطُها ، ولا ينْطَوِى علىٰ ممَرّ الأيامِ ــ إن شاء الله تعـالىٰ ــ بِساطُها . ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله أفضلُ نبىٍّ رَفَع قواعدَ الدين وشَاد ، وقامَ فى الله حقَّ القيـام فحَسَم بسَـيف الشرع مادّةَ الفَساد ، وأحكم بسَـدِّ الذَّرائع سِـدادَ الأمور فجرت أحكامُ شريعته المطهَّرة علىٰ السَّدَاد ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آستنْشِق من مَعْدَلَتِهم أطيبُ عَرْف ، وخُصُّوا من صفات الكمال بأحْسَن حِلْية وأكمل وَصْف ، صلاةً تُوهِى عُرا الإلحـاد ، وتفْصِمُها ، وتَبُكُّ أعناقَ أهـلِ العِنَاد ، وتَقْصِمُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فلاخفَاءَ فى أنَّ الأبصار تتشوَّفُ لرؤية الهلال مع قُرْب الغَيْبة للأخذ منه بنصيبها ، والشمسَ يُترقَّب طلُوعها فى كلِّ يومٍ وإن قرُبَ زمانُ مَغيبها ، والمسافرَ يُسرُّ بإيابه وإنْ تكرر قُدُومه من بَعيد المسافة وقَريبها ، والسَّهرانَ يتطلَّع من ليلتـه الطويلة إلىٰ طُلُوع فجْرها ، والمَنَاصبَ السنيَّة تأرِز إلىٰ مستحقِّها كما تأرِزُ الحيَّـة إلىٰ جُحْرها .

ولما كان المجلسُ العالى، القاضَوِىّ، (إلىٰ آخر ألقابه) أعزَّ الله تعالىٰ أحكامه هو الذى حُمِدت فى القَضاءِ آثارُه، وسارتْ بحُسْن السِّيرة فى الآفاق أخْبارُه، وحَسُن بحُسْن تأتِّيه فى الوِرْد والصَّدَر إيرادُه وإصْدارُه؛ وتنافَس فى جميل وَصْفه الطِّرْس والقَلَم، وظهرَتْ فضائلُه (ظهورَ نار القِرىٰ لَيْلا علىٰ عَلَم)؛ ونشرَتِ الأيَّام من عُلُومه ماتُطْوىٰ إليه المَراحل، وجادَتْ مَواطِرُ فكره بما يُخْصِب به جَنابُ المَرْبَع الماحِل؛ وعَمَرتْ من مَنْصِب القضاء بولايته مَعاهِدُه، وجرتْ بقضايا الخير فى البَدْء والعَوْد عوائِدُه؛ ونفذَتْ بنَفَاذ أوامره فى الوجود أحكامُه، ورُقِم فى صحائِف الأيَّام علىٰ توالى الدُّهور نقضُه وإبرامُه؛ وسُجِّل بثُبوت أحقِّيَّته فانقطعَتْ دُونَ بلوغ شأْوِه الأطماع؛ وحُكِم بمُوجَب فضله فانعقَد علىٰ صحَّة تقدُّمه الإجماع؛ ففرائدُ فوائدِه المُدَوَّنة تُؤْذن بالبَيان والتحصيل، ومُقَدِّمات تنبيهاتِه المحقَّقة، تكفِى نتائجُ إفضالها عن الإجمالِ والتفصيل؛ وجواهرُ ألفاظه الرائقةِ، نعم الذخيرةُ التى تُقْتنىٰ، ومَدارِكُ معانيه الفائقةِ، حَسْبُك من ثَمَرة فكر تُجْتنىٰ؛ وتهذيبُ إيراداته الواضحةِ تُغْنى فى إدراكها عن الوَسائل، وتحقيقُ مسائِله الدقيقةِ تُحقِّق فيها أنها عُيونُ المسائل ــ وكانتْ وظيفةُ قضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية فى رفيع رتبتها، ووافرِ حُرْمتها، قد ألقتْ إليه مقاليدَها، ورفعتْ بالانتماء إلىٰ مجلسه العالى أسانيدَها، وعرَفَتْ محلَّه الرفيعَ فتعلَّقتْ منه بأعَزِّ مَنال، وحظِيَتْ بجماله اليُوسُفِىّ المرَّةَ بعد الأُخْرىٰ فقالتْ: لابَرَاحَ لى عن هذا الجَمال؛ وعجمَتْ بتكرُّر العَوْد عُودَه فأعرضتْ عن السِّوىٰ، وقرَّتْ بالإيابِ إليه عيناً «فألْقتْ عَصَاها وٱستقرَّ بها النَّوىٰ» ــ ٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُعِيد الوظيفةَ المذكورةَ إليه، ونُعوِّل فى ٱستكشاف مُشْكِلاتِ الأحكام علىٰ ما لدَيْه، إقرارًا للأمر فى نِصَابه، وردًّا له بعدَ الشِّرَاد إلىٰ مَثَابِه، وإسعافًا للمَنْصب بطَلِبَته وإن أتعبَ غيرُه نفْسَه فى طِلَابِه.

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُبْدِئُ المعروفَ ويُعيده ، ويُوَفِّر نصيبَ الأولياء ويَزيدهُ ـ أن يفوَّضَ إلىٰ المجلس العالى المشار إليه قضاءُ القُضاة بمَذْهب عالم المدينة وإمام دار الهجرة «مَالك بنِ أنَسِ الأَصْبَحيّ» رضى الله عنه ، علىٰ جارِى عادته المتقدِّمة فى ذٰلك . وأن يُضافَ إليه تدريسُ قُبَّة الصالح والأنظارُ الشاهد بها توقيعُه الشريف ، وأن لا يقَرَّر أحدٌ فى دروس المالكية من مدَرِّس ومُعيد إلا بتعيينه ، علىٰ أتم العوائد وأجملها ، وأعمِّ القواعد وأكملها .

فليَمُدّ إلىٰ رُتْبته السنيَّة برفيع قَدْره وعليِّ هِمَّته ، ويقابِلْ إحسانَنا بالشكر نُتْحِفْه بمزيد الإقبال إذ لا زيادةَ فى العُلو علىٰ رُتْبته . ثم أوَّل ما نُوصيه به ، ونؤكِّد القولَ عليه بسبَبِه ، تقوىٰ الله التى هى مِلَاك الأمور كلِّها ، وأوْلَىٰ المفترَضات فى عَقْد الأمور وحَلِّها ؛ فهى العِصْمة التى مَنْ لجأ إليها نَجَا ، والوقايةُ التى ليس لِمَنْ حاد عنها من لَحَاق قَوَارِع الله مُلْتَجا . ونُتْبِعُ ذٰلك بالتلويح إلىٰ الاحتياط فى المسائل التى تفرّد بها مذهَبُه الشريف ضِيقا وسَعَة ، واختَصَّ بها إمامُه الأصبَحيّ دُون غيرِه من الأئمة الأربعَه ؛ وهى مسائلُ قليله ، آثارُها فى الورىٰ كثيرةٌ جليله ؛ منها سَفْكُ دمِ المنتقِص والسابّ ، وتَحَتُّم قتله علىٰ البَتِّ وإن تابْ ؛ فعليه أن يأخُذ فى ذلك بالاهتمام ، ولا يُعْطِىَ رُخْصة فى حقِّ أحدٍ من الأنبياء والملائكةِ عليهم السَّلام ، ليكون ذٰلك وسيلةً إلىٰ الخُلوص عن القَذىٰ ، وذريعةً إلىٰ سلامة الشَّرف الرفيع من الأَذَىٰ ؛ إلا أنَّا نُوصيه بالتثبُّت فى الثُّبوت ، وأن لا يعجَلَ بالحكم بإراقة الدم فإنه لا يُمكِنُ تداركُه بعد أن يَفُوت . ومنها : الشهادةُ على الخط وإحياءُ ماماتَ من كُتُب الأوقاف والأملاك ، وتقريبُ ما شَطَّ فلا يَقْبَل فيه إلا اليقِظَ الواقفَ مع تحقُّقه دُونَ حَدْسه ، ولا يطلق عنان الشُّهود فإنَّ الكاتب ربما اشتَبَه عليه خَطُّ

نَفْسِه ـ ومنها : ثُبوتُ الولاية للأوصياء، فيُجْرِيها علىٰ ٱعتقاده، ولكن إذا ظهرَتِ المصلحةُ فى ذٰلك علىٰ وَفْق مُراده ـ ومنها : إسقاطُ غَلَّة الوقْف إذا ٱستُرِدَّ بعد بيعه مدّةَ بقائه فى يَد المشترى ، تحذيرا من الإقدام علىٰ بَيْع الوقف وعقوبةً رادعةً لبائعه المجترى . إلىٰ غير ذٰلك من مسائل الآنفراد، وما شاركه فيه غيرُه من المذاهب لمُوافقَـة الآعتقاد، فيُمضِى الحكمَ فيه بأقوى العزائم، ويُلْزِم فيها بمـا استبانَ له من الحقِّ ولا تأخُذه فى الله لَوْمةُ لائِم .

وأما غيرُ ذٰلك من الوصايا الراجعـةِ إلىٰ أدَب القضاء فلدَيْه منها الخُبْر والخَـبَر، ومنه تُستملىٰ فوصيّته بها كنَقْل التَّمْر إلىٰ هَجَر، والله تعالىٰ يعامِلُه بلُطْفه الجميل، ويُحُفُّه بالعناية الشاملةِ فى المُقَام والرَّحيل، إن شاء الله تعالىٰ، والآعتماد ... ...

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بقضاء قُضاة الحنابلة ، وهى :

الحمـدُ لله الذى أطلع فى أفُق الدِّين القَيِّم[1] شمسًا مُنيره ، ورفع درجةَ مَنْ جعله من العلم علىٰ شريعةٍ ومن الحُكْم علىٰ بَصيره ، وقلّد أمورَ الأمّة بمن يَعْلَم أنَّ بين يدَيْه كتابا لا يُغادِر صغيرةً ولا كبيره، ووفَّق لفصل القضاء مَنْ مَشىٰ علىٰ قَدَم إمامه الذى ٱدَّخَر منه للحكم فى أيّامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضَـلَ ذَخيره ، وقضىٰ بإرجاء أمْرِه لنختارَ له من تَحَلَّىٰ به بعـد العَطَل وكلُّ قَضاءٍ خيره ، وأيقظ عايَتنا لمن رقد الدهْرُ عن فضله فباتتْ عينُ الآستحقاق باستقرار رُتْبته قريره .

نحمده حمدَ من توافَتْ إليـه النِّعم الغزيره، وتوالتْ عليه المِنَن الكثيرة فى المُـدد اليسـيره ، وأخصبَتْ فى أيّامه رياضُ الفضائل فهى بكلِّ عالِم عدِمَ النظيرَ نَضيره ،

(١) تقدّمت فى تقليد حنفى بأطول من هذا وبعض تغيير .

وٱفتتح دولَته برفع منَار العدل فآمالُ أهلِ الظلم عن تَعاطِيه قاصرةٌ وأيْدى أهل الباطِل عن الآمتداد إليه قَصيره ، وخَصَّ المَناصبَ فى ممالكه بالأكْفاء فإذا تلبَّستْ بها هِمَمُ غيرهم عادتْ خاسئةً أو آمتدّتْ إليها أبصارُ مَنْ دُونَهم رجعتْ حَسيره .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُصْلِحُ العَلَن والسَّريره ، وتُصْبِح بها القلوبُ مُوقِنةً والألْسُن ناطقةً والأصابعُ مُشيره . ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى بعث اللهُ به الرسلَ مخبِرةً وأنزل الكُتُب بمَبْعثه بَشِيره ، وآجتباه فى خير أمّةٍ من أكرم أَرُومةٍ وأشرفِ عَشِيره ، وأظهر أنوارَ مِلَّته إلا لمن أعمى الغىُّ بصيرتَه وهل تنفَع العُمْىَ شمسُ الظَّهِيره ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً نَتَقرّبُ بدوامها إلى الله فيضاعِفُها لنا أضعافا كَثِيره ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلى الأمور بأن تُشادَ قواعِدُه ، وتُتَعهَّد معاهِدُه ، ويُعلىٰ مَنَارُه ، وتُفاضَ بطلوع شَمْسِه أنوارُه ، وتُكَمَّل به قُوى الدين تكملةَ الأجسادِ بقُوىٰ الطبائع الأربَع ، وتُعمَّر به ربوعُ الملة التى ليس بعدَها من مَصِيفٍ لِملَّة ولا مَرْبَع ، وتُثَبَّت به قوائمُ الشرع التى ما للباطل فى إمالةِ بعضِها من مَطْمَع ، أمرُ القضاء علىٰ مذْهَب الإمام الرَّبَّانىّ « أحمد بن حنبل » رضى الله عنه ، وكان قد خَلَا بانتقال مباشره إلىٰ الله تعالىٰ ، وتوقَّف مدّة علىٰ آرتياد الأكْفاء ، والإرشاد إلىٰ من هو أهل الآصطفاء ، وآختيار من تكمُل به رِفعةُ قَدْره ، ويُعيد لدَسْته علىٰ بِساط سُليمانِه بهجَةَ صَدْره .

ولما كان فلانٌ هو المنتَظَر لهذه الرُّتْبة آنتظارَ الشمس بعدَ الغَسَق ، والمرتَقَب لبُلوغ هذه المنْزِلة التى تقدّمت إليها بَوَادرُ آستحقاقه فى السَّبَق ، والمعطوفَ علىٰ الأئمة من أصحاب إمامه ـ وإن تأخر زمانه ـ عطْفَ النَّسَق ، وهو الذى ما زالَ

يعدِلُ دَمَ الشهداء مِدادُ أقلامه ، وتضَعُ الملائكةُ أجنحتَها رضًا بما يَصْنَع من نَقْل خُطُواته فى طلب العلم وسَعْى أقدامه ، ودخل من خَشْية الله تعالىٰ فى زُمْرة من حُصِر بإنَّما ، وهجر المَضاجعَ فى طاعة الله لتحصيل العِلْم فلو عُدّتْ هَجَعاتُه لقَلّما ؛ وهَجَّر فى إحراز الفضائل فقَيَّد أوابِدَها ، وأحرَزَ شوارِدَها ؛ ولَجَّ فى بِحار المعانى فغاص علىٰ جواهِرِها ، ونظَر نظْرةً فى نُجوم العلوم فاحتَوىٰ علىٰ زُهْرِها وزار خمائِلَ الفضائل [فاستوى] علىٰ أزاهِرِها ؛ وانتهىٰ إليه علمُ مذهبه فبَرَّز علىٰ مَنْ سلف ، وجارىٰ علماء عصره فوقفَتْ أبصارُهم عن رؤْية غُبارِه وما وقَفْ ؛ وتعيَّن عليه القضاء وإن كان فرضَ كفايةٍ لافرضَ عيْن ، وقدّمه الترجيحُ الذى جعل رتبتَه همزةَ آستفهام ورُتْبة غيره بيْنَ بين ـ آقتضى رأيُنا الشريف آختصاصَه بهذا التمييز ، والتنبيهَ علىٰ فضله البسيطِ بهذا اللفظِ الوجيز .

فلذٰلك رُسِم أن يفوّضَ إليه كَيْت وكَيْت . فليتولَّ هذه الرتبةَ التى أصبح فيها عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نائبًا وبشَرْعه قائما ، ويتقلّدْها تقَلُّد من يعلم أنه قد أصبح علىٰ حُكم الله تعالىٰ مقدَّما وعلىٰ الله قادِما ، ويتثبتْ تثبُّت من يعتصِم بحبل الله فى حكمه فإنَّ أحدَ الخَصْمين قد يكون ألحنَ بحجَّته وإن كان ظالما ، ويلبَسْ لهذا المنصِب حُلَّةً تمنَعُ المبطِل من الإقْدامِ عليه ، وتدفَعُ الظالم عن التطاوُل إلىٰ أمرٍ نزعه الشرعُ الشريفُ من يديه ، ويُؤَمِّن الحقَّ من آمتداد يَد الجَوْر والحَيْف إليه ؛ وليُسَوِّ بين الخصمين فى مجلسه ولحظِه ، وليعدِلْ بيْنَهما فى إنصاته ولفْظه : ليعلَمَ ذُو الجاه أنّه مساوٍ فى الحقّ لخصمه ، مكفُوف باستماع حجّته عن الطمع فى ظُلْمه ؛ ولا ينقُضْ حكما لم يخالِف نصًّا ولا سنّة ولا إجماعا ، وليشارِكْ فيما لا يجهلُه من القضايا غيْرَه من العلماء ليتزيّد بذٰلك مع آطلاعه آطّلاعا ، وليغتنِمْ فى ذٰلك الآستعانة

بآرائهم : فإنَّ الله تعالىٰ لاينتزع هذا العِلْمَ انتزاعا، وليسُدَّ مسالك الهوىٰ عن فِكره، ويصْرِفْ دواعىَ الغَضَب لغير الله عن المُرور بذُكْره، وليجعل العمَلَ لوجه الله نتيجةَ علمه، وليحكم بما أراه الله ﴿ واللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه ﴾ .

⁂

وهذه نسخة وصية أوردها فى "التعريف" تشمَل القُضاةَ الأربعةَ ، قال :
وصيةٌ جامعةٌ [لقاضٍ][1] من أىِّ مذهبٍ كان ، وهى :

وهذه الرُّتْبة التى جعل اللهُ إليها منتَهىٰ القَضَايا ، وإنهاءَ الشَّكايا ؛ ولا يكون صاحبها إلا من العُلَماء ، الذين هُم ورثةُ الأنبياء ؛ ومتولِّى الأحكام الشرعيَّة بها كما ورث عن نَبِىِّ الله صلى الله عليه وسلم علمَه ، كذلك وَرِث حُكْمَه ؛ وقدأصبح بيده زِمامُ الأحكام ، وفَصْلُ القضاء الذى يُعرَض [بعضه][1] بعدَه علىٰ غيره من الحُكَّام ؛ وما منهم إلا مَنْ ينقُدُ نقْدَ الصيْرَفِىّ ، وينفُذُ حكمُهُ نفاذَ المَشْرَفِىّ ؛ فليتروَّ فى أحكامه [قبل إمضائها ، وفى المحاكمات اليه][1] قبلَ فَصْل قضائها ؛ وليراجع الأمرَ مرَّةً بعد مرَّةٍ حتى يزُولَ عنه الاِلتِباس ، ويُعاوِدْ فيه بعد التأمُّل كتابَ الله وسنَّةَ رسوله صلى الله عليه وسلم والإجماعَ والقياس ؛ وما أشكل عليه بعد ذٰلك فليُجَلِّ ظُلَمه بالاِستخاره ، وليُحِلَّ مُشْكِله بالاِستشاره ، ولا يَرَ نَقْصا عليه إذا ٱستشار فقد أمر اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم بالشُّورىٰ ، ومرّ مِنْ أوّل السَّلَف مَنْ جعلها بينَه وبينَ خطَإ الاجتهاد سُورا ؛ فقد يَسْنَح للمرء ما أعيا غيرَه وقد أكثر فيه الدَّأَب ، ويتفطَّن الصغيرُ لما لم يَفطَنْ إليه الكبيرُ كما فَطِن ٱبنُ عمر رضى الله عنهما للنخْلة [و] مامَنَعه أن يتكلَّم إلا صغرُ سِنّه ولُزُومًا مع من هو أكْبَرُ منه للأدب ؛ ثم إذا وضَح له الحقُّ

(١) الزائد من "التعريف" ص ١١٦ .

قضىٰ به لمستحقِّه ، وسجّل له به وأشهد علىٰ نَفْسه بثُبوت حقِّه ؛ وحكم له به حكما يَسُرُّه يوم القيامة أنْ يراه ، وإذا كَتَب له به ، ذُكِر بخَيْر إذا بَلِيَ وبَقِيَ الدهرُ ما كَتَبَتْ يداه . وليسوِّ بينَ الخُصوم حتَّى فى تقسيم النظَر ، وليَجْعلْ كلَّ عمله علىٰ الحَقِّ فيما أباحَ وما حظَر ؛ وليُجِد النظرَ فى أمر الشهود حتّى لا يدخُلَ عليه زَيْف ، وليتحرَّ فى آستيداءِ الشهاداتِ فرُبَّ قاضٍ ذُبِح بغير سِكّين وشاهدٍ قُتِل بغير سَيْف ؛ ولا يقْبَلْ منهم إلا مَن عُرِف بالعَداله ، وأُلِف منه أن يرىٰ أوامرَ النفْس أشَدَّ العِدَا له ـ وغيرُ هؤلاء ممن لم تَجْرِ له بالشهادة عاده ، ولا تَصدّىٰ للآرتزاق بسُحْتها ومات وهو حَيٌّ علىٰ الشَّهاده ، فليقبلْ منهم من لا يكونُ فى قَبول مثله مَلامه ، فرُبَّ عدلٍ بين منطقةٍ وسَيْف وفاسقٍ فى فَرَجِيَّة وعِمَامه ـ ولينقِّب علىٰ ما يصدُر من العُقود التى يؤسَّس أكثرُها علىٰ شَفَا جُرُف هار ، ويُوقِع فى مثل السِّفَاح إلا أنَّ الحُدودَ تُدْرأ بالشُّبُهات ويبقىٰ العار ـ وشهودُ القِيمة الذين يَقْطَع بقولهم فى حقِّ كلِّ مستحقٍّ ومالِ كلِّ يتيم ، ويُقلِّد شهاداتِهم علىٰ كل أمرٍ عظيم ؛ فلا يُعوِّل منهم إلا علىٰ كلِّ رَبِّ مالٍ عارفٍ لاتخفىٰ عليه القِيَم ، ولا يُخاف معه خَطأ الحَدْس وقد صقَل التجريبُ مِرْآةَ فهمه علىٰ طُول القِدَم . وليتأنَّ فى ذلك كلّه أناةً لا تَقْضى بإضاعة الحقّ ، ولا إلىٰ المُطاوَلة التى تُفضى إلىٰ مَلَلِ من آستحقّ . وليمهِّدْ لرَمْسه ، ولا يتعلّل بأنَّ القاضىَ أسيرُ الشهود وهو كذلك وإنما يَسْعىٰ لخَلَاص نفسه ـ والوكلاءُ هم البَلاءُ المُبْرَم ، والشياطينُ المسوِّلون لمن توكَّلُوا له الباطلَ ليُقضىٰ لهم به وإنما تقطع لهم قِطعةٌ من جهنَّم ، فليكُفَّ بمهابته وَساوِسَ أفكارهم ، ومَساوِىَ فُجَّارهم ؛ ولا يدع لمجْنىٰ أحدٍ منهم ثمرةً إلا ممنُوعه ، ولا يدَ آعتداء تمتدُّ إلا مغلولةً إلىٰ عُنقه أو مقْطُوعه . وليطهِّر بابَه من دَنَس الرسل الذين يمشُون علىٰ غير الطريق ، وإذا رأىٰ واحدٌ منهم درهما ودَّ لو حصل فى يَده ووقَع فى نار الحريق ؛ وغير هذا مما لا يَحتاج به مثلُه أن يُوصَىٰ ،

ولا أن يُحصىٰ عليه منه أفرادُ عمَلَه وهو لا يُحْصىٰ ، ومنها النظر فى أمور أوقاف أهل مذهبه نظَرَ العُموم ، فليعْمُرْها بجميل نظره فرُبَّ نظرةٍ أنفَعُ من مواقع الغُيُوم ، وليأخُذْ بقلوب طائفته الذين خُصَّ من بينهم بالتقديم ، وتفاوتَ بُعـدُ ما بينه و بينهم حتّى صار يُزِيلُ عارضَ الرجُل منهم النظرةُ [منه] ويأسُو جِراحَه منه التكْليم . وهذه الوصايا إنما ذُكرت علىٰ سبيل الذِّكْرى ، وفيه ـ بحمد الله ـ أضعافُها ولهذا ولَّيناه والحمدُ لله شُكْرا ؛ وقد جعلنا له أنْ يستنيبَ مَنْ يكون بمثل أوصافِه أو قريباً من هذه المَثَابه ، ومن يرضى له أن يحمل عنه الكَلَّ ويقاسمَه ثَوابه ؛ وتقوىٰ الله تعالىٰ هى جِماعُ الخير ولا سيَّما لصاحب هذه الوظيفه ، ولمنْ وليها أصْلا وفرْعًا لا يستغنِى عنها ربُّ حُكْم مطلقُ التصرُّفِ ولا خليفه .

ويُزاد الشافعىّ :

وليعلَمْ أنه صدرُ المَجْلس ، وأنه أدنىٰ القوم وإن كانوا أشباهَه منا حيثُ نَجْلس ، وأنه ذُو الطَّيْلَسَان(١) الذى يخضَع له ربُّ كلِّ سيف ويُبْلِس ، وليتحقَّقْ أنه إنما رفعه علمُه وتُقاه ، وأنَّ سبَبَ دِينه لادُنْياه هو الذى رَقَّاه ، فليقدُرْ حقَّ هذه النِّعم ، وليقف عند حدّ منصِبه الذى يَوَدّ لو ٱشترىٰ سَوادَ مِداده بحُمْر النَّعمْ .

ويقال فى وصيته : وأمرُ دَعاوىٰ بيتِ المال المعمُور ، ومحاكماته التى فيها حقُّ كل فردٍ فردٍ من الجمهور ؛ فليحترِزْ فى قَضاياها غايةَ الآحتراز ، وليعمَلْ بما يقتضيه لها الحقُّ من الصِّيانة والإحْراز ؛ ولا يقبَلْ فيها كلَّ بينةٍ للوكيل عن المسلمين فيها مَدْفَع ، ولا يعمَلْ فيها بمسألة ضعيفة يظن أنها ما تَضُرُّ عند الله فإنها ما تنْفَع ؛ وله حقوق فلا يجِدُ من يَسْعىٰ فى تملُّك شيءٍ منها بالباطل منه إلا الياس ، ولا يلتفت إلىٰ مَن رَخَّص لنفسه وقال : (هو مالُ السلطان) فإنَّه مالنا فيه إلا ما لِوَاحِدٍ من الناس .

(١) ذكر فى ''القاموس'' أن لام الطيلسان مثلثة .

وأموال الأيتام الذين حَذَّر اللهُ من أكل مالهم إلا بالمعْروف لا بالشُّبُهات، وقد مات آباؤُهم ومنهم صغارٌ لايهتَدُون إلىٰ غير الثدْى للرَّضاع ومنهم حملٌ فى بطُون الأُمَّهات؛ فليأْمُرِ المتحدّثين لهم بالإحسانِ إليهم، وليعرِّفْهم بأنهم سيُجْزَوْن فى بَنِيهم بمثل ما يعمَلون معهم إذا ماتُوا وترَكُوا ما فى يدَيْهم، وليُحَذِّرْ منهم من لاولد له: ﴿ولْيخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافًا خافُوا علَيْهِم﴾. وليقُصَّ عليهم فى مثل ذٰلك أنباءَ من سَلَف تذْكيرا، وليتْلُ عليهم القرآنَ ويُذَكِّرْهم بقوله تعالىٰ: ﴿إنَّ الَّذِينَ يأْكُلُونَ أَمْوالَ اليَتامَى ظُلْمًا إنَّما يأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نارًا وسَيَصْلَوْنَ سَعِيرا﴾. والصدقاتُ الموكولة إلىٰ تَصريف قَلَمه، المأكولةُ بعَدم أمانةِ المباشرين وهى فى ذمَّه، يتيقَّظ لإجرائها علىٰ السَّداد فى صَرْفها فى وجوه آستحقاقها، والعملِ بما لا يَجب سِواه فى أخذها و إنفاقها. والمسائلُ التى تفرَّد بها مذهَبُه وترَجَّح عنده بها العَمَل، وأعدَّ عنها الجوابَ لله إذا سأل، لايعمَلُ فيها بمرجوح إلا إذا كان نصَّ مذهب إمامه أوعليه أكثَرُ الأصحاب، ورآه قد حكَم به أهلُ العلم ممن تقدّمه لرُجْحانه عنده وللاستصحاب. ونُوّابُ البَرِّ لا يقلِّد منهم إلا من تحقَّق استحقاقَه، فإنه إنما يولِّيه علىٰ مسلمين لا عِلْمَ لأكثَرِهم فهم إلىٰ ذى العلم أشدُّ فاقه؛ هذا إلىٰ ما يتعرّف من دِياناتِهم ومن عَفَافهم الذى يتجرّع المرءُ منهم به مَرارةَ الصبر من الفاقةِ وهو به يتَحَلّٰى، ثم لايزال له عينٌ عليهم فإنَّ الرجال كالصناديق المُقْفَلة لايُعرف الرجلُ ما هو حتّٰى يتولّٰى.

ويزاد الحنفىّ:

وليعلَمْ أن إمامه أوّلُ من دوّن الفِقْه وجَمعه، وتقدّم وأسبَقُ العلماء من تَبِعه؛ وفى مَذْهبه ومذاهب أصحابِه أقوال فى المذْهَب، ومسائلُ مالحِقه فيها مالك وهو أوّلُ

مَنْ جاء بعدَه وممَّن يُعَدّ من سوابقه أشهَب؛ ومن أهمها تزويجُ الصَّغائر، وتحصينُهُنّ بالأكفاء من الأزواج خوفاً عليهن من الكبائر؛ وشُفْعةُ الجوار التى لو لم تكُنْ من رأيهم لما أُمِنَ جارُ السُّوء على رَغْم الأُنُوف، ولأقام الرجلُ الدَّهْرَ ساكناً فى داره بينَ أهله وهو يتوقَّع المَخُوف؛ وكذلك نفقةُ المعتدّة التى هى فى أَسْر من طلَّقها وإن بُتَّتْ من حِباله، وبقِيَت لا هو بالذى يُنفِق عليها ولا هى بالتى تستطيعُ أن تتزوّجَ من رجل يُنفِق عليها من ماله؛ ومن آستدانَ مالًا فأكله وآدّعىٰ الإعسار، ولفَّق له بينةً أراد أن تُسْمع له ولم يدخُل الحَبس ولا أَرْهِق من أمره الأَعسار، وأهل مذهبه علىٰ أنه يُسجَن ويمكُثُ مُدّة، ثم إذا آدَّعىٰ أنَّ له بينةً أُحْضرت ثم هل تُقْبل أولا . فهذا وأمثاله مما فيه عمومُ صلاح، وعظيمُ نفعٍ ما فيه جُناح؛ فليقض فى هذا كلِّه إذا رآه بمقتضىٰ مذْهَبه، وليهتَدِ فى هذه الآراء وسواها بقَمَر إمامه الطالع أبى حنيفة وشُهُبه؛ وليُحسِن إلىٰ فُقَهاء أهل مذهبه الذين أدْنى إليه أكثَرَهم الاغتراب، وحلَّق بهم إليه طائرُ النهار حيثُ لايحلِّق البازى وجناحُ الليل حيث لايَطير الغُراب؛ وقد تركوا وراءَهم من البلاد الشاسِعه، والأمداد الواسِعه، ما يُراعىٰ لهم حقُّه إذا عُدّت الحقوق، ويجمعه وإيَّاهم به أُبُوه أبو حنيفةَ وما مثله من يُنْسَب إلىٰ العُقُوق .

ويزاد المالكىّ :

ومذهَبُه له السيْفُ المُصْلَت علىٰ مَنْ كفر، والمُذْهِب بدَمِ من طُلَّ دمُه وحصل به الظَّفَر؛ ومَن عَدَا قدْرَه الوضيع، وتعرّضَ إلىٰ أنبياء الله صلواتُ الله عليهم بالقول الشَّنِيع؛ فإنه إنما يُقتل بسيفه المجرَّد، ويُراق دمُه تعزيرا بقوله الذى به تفَرّد؛ ولم يزلْ سيفُ مذهبه لهم بارِزَ الصَّفْحه، مسلِّما لهم إلىٰ مالكٍ خازن النار من مذهب مالكٍ الذى مافيه فُسْحه؛ وفى هذا مايُصَرح غُدُر الدِّين من القَذىٰ، ومالم تُطَلَّ دماءُ

هؤلاء (لا يسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذىٰ)؛ وإنما نُوصيه بالتحرّى فى الثُّبوت، [والبينة التى لا يستدرك بها ما يفوت،](١) وإنما هو رجلٌ يَحْيا أو يمُوت، فليتمهّل قبل بَتِّ القضاء، وليُعْذِر إليهم لاحتمال ثبوتِ تفسيق الشهود أو بَغْضاء؛ حتّى لا يُعجِّل تِلافًا، ولا يَعْجَل بما لا يُتلافىٰ، فكما أننا نُوصيه أن لاينقُضَ فى شَدّ الوَثاق عليهم إبْراما، فهكذا نُوصِيه أن لا يُصيب بغير حقّه دمًا حراما؛ وكذٰلك قبول الشهادة على الخَطّ، وإحياءِ ما ماتَ من الكُتُب وإدناء ما شَطّ؛ فهذا مما فيه فُسْحة للناس، وراحةٌ مافيها باس؛ إلا أنه يكون الثبوتُ بهذه البيِّنة للاتصال، لالنَزْع يدٍ ولا إلزامِ بمجرّدها بمال؛ وهكذا ما يراه من ولاية الأوصياء وهو مما تفرّد به هو دون البقيه، وفيه مصلَحة وإلا فما معنَى الوصيَّه؛ وهو زيادةُ احترازٍ ما تضُرُّ مراعاة مثلها فى الأُمور الشرعيَّه؛ وسوى هذا مثل إسقاط الرَّيْع فى وقف آستُرِدّ وقد بِيع، وعُطْل المشترى من التكسُّب بذٰلك المال مدةً لا يشترِى ولا يَبِيع؛ وهذا مما يَبُتُّ قضاءه فى مثله، ويجعلُ عقابَ من أقْدم علىٰ بَيْع الوقف إحرامَه مدّةَ البيع من مَغَلّه؛ وسوىٰ ذٰلك مما عليه العَمَل، ومما إذا قال فيه قال بحقٍّ وإذا حكم عدَل. وفُقهاء مذهبه فى هذه البلاد قليلٌ ماهم، وهم غُرَباءُ فليُحْسِن مَأْواهُم، وليكرم بكرمه مَثْواهم؛ وليْستقرّ بهم النَّوىٰ فى كنَفِه فقد مَلُّوا طُول الدَّرْب، ومعاناة السفر الذى هو أشدُّ الحَرْب، وليُنْسِهم أوطانَهم ببِرّه ولا يَدَعْ فى مآقيهم دَمْعا يَفيض علىٰ الغَرْب.

ويُزاد الحَنْبلىّ:

والمُهِمّ المقدَّم — وهو يعلم ما حَدَث علىٰ أهل مَذْهبه من الشَّناعه، وما رُمُوا به من الاقوال التى نتْرُكها لما فيها من البَشاعه؛ ونكتفى به فى تعْفية آثارِها، وإماطة

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٢١ .

أَذَاها عن طريق مَذْهَبه لتأْمنَ السالكةُ عليه من عِثَارها ؛ فتعالىٰ الله أن يُعْرف بكَيْف ، أو يُجاوَبَ السائلُ عنه بهذا إلا بالسيف ؛ والانضمامُ إلىٰ الجماعة والحذَرُ من الانفراد ، و إقرارُ آياتِ الصِّفات علىٰ ما جاءت عليه من الاعتقاد ، وأنَّ الظاهرَ غيرُ المراد ، والخُروج بهم إلىٰ النُّور من الظَّلْماء ، وتأويل مالا بُدّ من تأويله مثلُ حديث الأمَةِ التى سُئِلت عن رَبِّها : أينَ هو فقالت فى السَّماء ؛ و إلا ففى البليَّة بإثبات الجهة مافيها من الكَوَارث ، ويلزم منها الحدوثُ والله سبحانه وتعالىٰ قديمٌ ليس بحادِثٍ ولا محَلًّا للحوادث ؛ وكذٰلك القولُ فى القرءان ونحن نُحذِّر مَنْ تكلَّم فيه بصَوْت أو حَرْف ، فما جزاء من قال بالصوت إلا سوطٌ و بالحرف إلا حَتْف ؛ ثم بعد هذا الذى يَزَعُ به الجُهَّال ، ويَرُدّ دُونَ غايته الفِكْرَ الجَوّال ، ينظُر فى أمور مذْهَبه و يعمل بكل ما صَحَّ نقلُه عن إمامه وأصحابه : من كان منهم فى زمانه ومن تخلف عن أيامه ؛ فقد كان رحمه الله إمامَ حقٍّ نهضَ وقد قعد الناسُ تلكَ المُدَّه ، وقام نَوبةَ المِحْنة مَقَام سيد تَيْم ــ رضى الله عنه ــ نَوْبةَ الرِّدّه ؛ ولم تَهُبَّ به زُعازِعُ المَرِيْسىّ وقد هبَّتْ مَرِيسا ، ولا ٱبْنُ أبى دُوَاد وقد جمع له كلَّ ذَوْد وساقَ إليه من كلِّ قُطْرٍ عِيسًا ؛ ولا نكَثَ عُهدةَ ما قدّم له المأمونُ فى وصيَّة أخيه من المَوَاثِق . [ولا روَّعه سوطُ المعتصِم وقد صبَّ عليه عذابَه ولا سيفُ الواثِق] (١) .

فلْيقَفِّ علىٰ أثَرِه ، وليقِفْ بمسنَده [علىٰ مذهبه] (١) كلِّه أو أكثَرِه ، ولْيقضِ بمفرداته وما ٱختاره أصحابُه الأخيار ، ولْيقَلِّدْهم إذا لم تختلِفْ عليه الأخبار ؛ وليحترِز لدِينه فى بيعِ ما دَثَر من الأوقاف وصَرْف ثمنه فى مثله ، والاستبدالِ بما فيه المصلحةُ لأهلِه ؛ والفَسْخ علىٰ من غاب مدّةً يسُوغ فى مثلها الفَسْخ ، وتركَ زوجةً لم يترك لها

(١) الزيادة من «التعريف» (ص ١٢٢) .

نَفقة وخلَّاها وهى مع بقائها فى زوجيَّتـه كالمعلَّقه ؛ و إطلاقِ سَرَاحها لتتزوّج بعـد ثُبوتِ الفَسْخ بشُروطه التى يبقىٰ حكمُها به حكْمَ المطلَّقه ؛ وفيما يمنع مُضارَّة الجـار ، وما يتفرّع علىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : «لا ضَرَر ولا ضِرَار» ، وأمرِ وقف الإنسان علىٰ نفْسِه و إن رآه سِـوىٰ أهل مذْهبه ، وطلَعَتْ به أهلَّةُ علمـاءَ لولاهم لمـا جَلا الزمانُ جُنْحَ غَيْهَبه ؛ وكذلك الجوائح التى يخفَّف بها عن الضُّعَفاء و إن كان لا يَرىٰ بها الإلزام ، ولا تجرى لدَيْه إلا مَجْرىٰ المصالحةِ بدليل الإلتزام ؛ وكذلك المعاملةُ التى لولا الرُّخصةُ عندهم فيها لمـا أكل أكثرُ الناس إلا الحرامَ المَحْض ، ولا أُخِذَ قِسْم الغِـلال والمعامِلُ هو الذى يزْرَع البُذُور ويحُرث الأرض ؛ وغير ذٰلك ممـا هو من مفرَداته التى هى للرِّفق جامِعـه ، وللرَّعايا فى أكثر معايشهم وأسـبابِهم نافِعه ؛ فإذا آستقرّت الفُروع كانت الأصولُ لها جامعَه (١) . وفقهاءُ مذهبِه هم الفُقراء لقلَّة المحصول وضَعْف الأوقاف ، وهم علىٰ الرِّقَّة كالرِّماح المعَـدّة للثِّقاف ؛ نخـذْ بخواطِرهم ، ومُدّ آمالَهُم فى غائب وَقْتِهم وحاضِرِهم ؛ وآشمَلْهم بالإحسان الذى يُرَغِّبهم ، ويقِل به طَلَبُهم لوجوه الغنىٰ ويكْثُر طُلَّبُهم .

---

(١) عبارة "التعريف" « واذا استقرت الاصول كانت الفروع لها تابعه » .

الطبقـــة الثـانية

(من أرباب الوظائف الدّينية أصحابُ التواقيع ، وتشتمل على مَرَاتِبَ)

المرتبـــة الأُولى

(ما كان يكتَب فى النصف بـ«المجلس العالى» كما كان يكتب للقضاة الأربعة أوّلا ، وقد تقـدّم)

المرتبـــة الثـانية

(ما يكتب فى قطع الثلث بـ«السامىّ» بالياء)

واعلم أنّ الأصل فيما يُكْتب من التواقيع أنْ يفتتح بـ«أما بعـدُ» إلا أن الكُتَّاب تسامحُوا فيـه فافتتحُوا لمن علَتْ رتبتُـه حيث اقتضى الحـالُ الكتابةَ له فى الثلث بـ «الحمدُ لله» ، وأبقَوْا من انحطَّت رتبته عن ذلك على ما كان عليه من الافتتاح بـ«أما بعد» وها أنا أُورِد ماسنح من ذلك مما أنشأه الكُتَّاب فى ذلك من الافتتاحَيْن جميعا . ويشتمل على وظائفَ .

الوظيفـــة الأُولى

(قضاء العسكر)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية أنّ موضُوعها التحدّثُ فى الأحكام فى الأسـفار السلطانيّة وأنّ له مجلسًا يحضُره بدار العَدْل فى الحَضَر . وقد جرت العادةُ أن يكون قُضاة العسكر أربعةً : من كلّ مذهَب قاض .

وهذه نسخةُ توقيع شريفٍ بقضاء العسكر المنصور بالحضْرة السلطانية ، وهى :

الحمدُ الذى رفَع للعِلْم الشريف فى أيّامنا الزاهرة منَارا ، وزاد بإعلاء رُتَب أهله دولَتنا القاهرةَ رِفْعةً وفَخَارا ، وزان أحكامَه الشريفة بحُكّامه الذين طلَعُوا فى غَياهب مُشكلاتِه بُدُورًا وتدفَّقوا فى إفاضتِه فى الأحكام الشرعيَّة بِحارا .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمه التى حَلَّتْ فَجَلَّتْ ، ومِنَنِه التى أَهَلَّت الجود فاستَهَلَّت .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تكون لقـائلها ذُخْرا ، وتُعْلى للتمَسِّك بهـا فى المَلإ الأعلىٰ ذِكْرا ، ونشهدُ أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى هو أسبَقُ الأنبياء رُتْبَـة وإن كان آخِرَهم عَصْرا ، صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أضْحَوْا للمقتـدين بهم شُموسًا منـيرة وللمهتدين بعُلُومهم نُجوما زُهْرا ، صلاةً لا تزال الألْسُن تُقيمها ، والأسماعُ تستديمُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ من نوَّهْنا بذِكره ، ونبَّهنا علىٰ رِفعة قَدْره ، وأطلَقْنا ألسِنَة الأقلام فى وصف مَفَاخره وشُكْره ، وأثَّلْنا قواعدَ مجده التى لو رام بَنانُ البَيانِ استقصاءَها حال الحَصَرُ دُون حَصْره ، ونفَّذْنا كلِمَ حُكْمه ورفَعْنا فى أندية الفضائل ألويةَ فُنُونه وأعلامَ نَصْره ؛ من لم يزل دَمُ الشهداء يعـدِلُ مِدادَ أقلامه ، وتُقيمُ مَنَارَ الهدىٰ أدلةُ فضائله وشواهدُ أحكامِه ، وتُوَضِّح الحقَّ حتى يكاد المتأمِّلُ يلحظُ الحُكْم لوضوحه ويُبْصره ، وينصُر الشرع بأمداد عِلْمه ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ من يَنْصُره ؛ وشـيَّد مذْهبَ إمامه الإمام الفلانىّ فأصبح فسيحَ الأرجاء وإن لم يكن فيه فُسْحه ، وجدَّد قواعدَ العَدْل فى قضايا عسا كرنا المنصورة فهو مُشاهَد من كَلِمه ومن نظره فى لَمْحه مِلْحه .

ولمـا كان فلان هو الذى نعَتْنا بمـا تقدّم من الخطاب خلائقَه الحُسْنىٰ ، وأثنَيْنا علىٰ ماهو عليه من الإقبـال علىٰ جَوْهر العلم دُونَ التعرّض إلىٰ العَرَض الأدْنىٰ ؛ مع ما حواه من موادِّ فضائلَ تزكُو علىٰ كثرة الإنْفـاق ، وفرائد فوائدَ تُجْلَب علىٰ أيدى

الطَّلَبة إلىٰ الآفاق ؛ وقُوّةٍ فى الحق ، الذى لا تأخُذه فيه لومةُ لائم ، وعدْلٍ أحكام فى الخَلْق ، ألَذَّ من سِنَةِ الكَرىٰ فى جَفْن نائم ـ ٱقتضى حُسنُ الرأْيِ الشريف أن نوَطِّد فى عساكرنا المنصورةِ قواعدَ أحكامِه ، ونُوطِّن كلًّا منهم علىٰ أنه تحتَ ما يُمْضِيه فى أقضيته النافذة من نقضه وإبرامه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف أن يفوَّض إليه قضاءُ العساكر المنصورة الشريفة : علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القَواعد ؛ وأن تُبْسط كلمتُه فى كلِّ ما يتعلق بذٰلك من أحكام الشرع الشريف . فليحكُمْ فى ذٰلك كلّه بما أراه الله من عِلْمه ، وآتاه من حِكَمه وحُكْمه ، وبيّن له من سُبُل الهدىٰ ، وعيَّنه لبصيرته من سُنَن نبيه صلى الله عليه وسلم التى من حادَ عنها فقد جار وٱعتدىٰ ؛ ولْيقِفْ من الأحكام عند ماقرَّرتْه الشريعةُ المطهَّرة من أحكام الله التى لا يعقلُها إلا العالِمُون ، ويأمُرْ كلًّا من المتقاضِين بالوقوف عند ماحُدّ له : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولٰئِك هم الظالِمُون﴾ . والوصايا وإن كثُرَت فمن مثله تُفَاد ، وإن جَلَّت فسمْعُه فى غِنًى عما يُبْدأُ له منها ويُعاد ؛ ومِلاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ التى هى شِعار أُنْسِه ، وحِليةُ يومِه وأمسِه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى القول والعمَل ، ويوفّقه لما يرضاه ويصُونُه من الخطَإ والخطَل .

* * *

وهذه وصيةٌ لقاضى العسكر ، أوردها فى "التعريف" وهى أن يُقال :

وهو الحاكم حيثُ لا تنفُذ إلا أقضيَةُ السيوف ، ولا تَزْدحِمُ الغرماء الا فى مواقِف الصُّفُوف ، والماضى قلمُه وكلُّ خَطِّىّ يمُدّ بالدّماء ، والممضىٰ سجلُّه وقد طَوَى العَجَاجُ كالكتاب سجِلَّ السماء ؛ وأكثَرُ ما يُتَحاكم إليه فى الغنائم التى لم تحِلّ لأحدٍ قبل هذه الأمّة ، وفى الشَّركة وما تُطلب فيه القسْمة ، وفى المبيعات وما يُردّ منها بعَيْب ،

وفى الديون المؤجَّلة وما يُحْكَم فيها بغَيْب ، وكلُّ هذا مما لا يحتمل طُولَ الأناة فى القضاء ، وٱشتغالَ الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالتردُّد إليه بالإمضاء ؛ فليكن مستحضِرا لهذه المسائل ليَبُتَّ الحكم فى وقته ، ويُسارع السيفَ المُصْلَتَ فى ذلك الموقف ببَتِّه ؛ ولْيعلمْ أن العسكرَ المنصورَ هم فى ذٰلك الموطن أهلُ الشهاده ، وفيهم من يكون جُرْحه تعديلًا له وزياده ؛ فليقْبَلْ منهم من لا تخفىٰ عليه سِيما القَبُول ، ولا يردّ منهم من لا يضرُّه أن يردّه هو وهو عند الله مَقْبول ؛ وليجعَلْ له مستقرّا معروفا فى المُعَسكر يُقْصَد فيه إذا نُصِبت الخيام ، وموضعًا يمشِى فيه ليقضى فيه وهو سائر وأشهر ما كان علىٰ يمين الأعلام ؛ وليلزمْ ذٰلك طُولَ سفره وفى مُدَد المُقَام ، ولا يخالفه ليُبْهِمَ علىٰ ذوى الحوائج فما هو بالصالحيَّة بمِصْرَ ولا بالعادليَّة بالشام ؛ ولْيتَّخذْ معه كُتَّابا تكتُب للناس وإلا فمن أين يوجد مركز الشهود ، ولْيسجِّل لذى الحق بحقه وإلا فما ٱنسدّ بابُ الجحود ؛ وتقوىٰ الله هى التى بها تُنْصَر الجنود ، وما لم تكن أعلىٰ ما يكُون علىٰ أعلام الحَرْب والا فما الحاجةُ إلىٰ نَشْر البُنود .

الوظيفة الثانية

(إفتاءُ دار العَدْل)

وموضوعُها الجلوس بدار العدل حيثُ يجلس السلطانُ لفصل الحُكُومات ، والإفتاءُ فيما لعلَّه يطرأ من الأحكام بدار العدل . وهى وظيفةٌ جليلة ، لصاحبها مجلسٌ بدار العدل يجلسُه مع القُضاة الأربعة ومَنْ فى معناهم .

وهذه نسخة توقيع لمن لقبُه «جمال الدين» يُنْسَج علىٰ منْوالها ، وهى :

الحمدُ لله جاعل العِلْم للدِّين جَمَالا ، وللدنيا عِصمةً وثِمَالا ، ولأسباب النَّجاة والنَّجاح شارةً إذا تحلَّى بها ذُو التمييز كان أحسنَ ذَوى المراتب حالا ، وأجلَّهم

فى الدارين مَبْـدَأً ومآلا ، وأحقَّهم برتبة التفضيل التى ضَرَبت لهـا السنَّةُ المطهَّرة فضلَ البَدْر علىٰ الكواكب مِثالا .

نَحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى خصَّت دارَ عدْلنا الشريف من العلماء بأَكْفائها ، وآصطفَتْ لِـا قَرُب من مجلسنا المعظَّم مَنْ دلَّ علىٰ أنَّ التأييد قرينُ آصطفائها .

ونشهد أن لا إلٰه الا الله وحدَه لا شريك له شهادةً يفترُّ عن شَنَب الصواب ، ثَغْرُها ، ويتفتَّح عن فَصْل الخطاب ، زَهْرها ؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بمحكم التـنزيل ، المنصوصُ فى الصُّـحُف المنزَّلة علىٰ ذكر أُمَّتـه الذين علمـاؤُهم كأنبياء بنى إسراءيل ؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم كالنُّجوم المُشْرِقة ، من اقتدىٰ بهم آهتـدىٰ ، وكالرُّجُوم المحرِقة ، من آعتدىٰ وجَدَ منها شهابا رَصَدا ؛ وسـلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ ما آرتدْنا له من رياض العلم مَنْ سَمَا فيه فَرْعُه ، ورَحُب بتلَقِّى أنواع العُلوم ذَرْعُه ؛ وبسَـقَتْ فى فُنون الفضائل أفنانُه ، ونَسقَتْ فرائدَ الفوائدِ فى سلْك الطُّروس بَنانُه ــ فُتْيا دار عدلِنا الشريفِ التى أحكامُنا لهـا تابِعه ، وأغصانُ العدل بثِمار فَتاوِيهـا مُورِقةٌ يانِعه ، وأعيُنُنا إلىٰ أفواه مُفْتِيها رامقةٌ وآذانُنا لمقالاتهم سامِعَه .

ولما كان فلان هو ثمرةُ هذا الآرتياد ، ونُخبةُ هذا الآنتقاد ؛ المعقودُ عليه فى آختيار العلماء بالخَناصر ، والعريقُ فى أَصَالة العلوم بأَصَالةٍ ثابتةِ الأَواصِر ؛ والذى إذا أجاب تدفَّقتْ أنواءُ الفوائد ، وتألَّقت أضـواءُ الفَرائد ، وآتُّخذتْ مسـائِلُ فِقْهـه قَواعِدَ تترتَّب الأحكام الشرعيـة عليها ومصادرُ وحيـه مَوَارِد ــ اقتضت آراؤنا الشريفـةُ أن نُزيِّن بَهْجةَ هذه الوظيفة بجَماله ، ونُنزِّه إشراقَها بنُور فضائله التى لو قابلَها بدرُ الأُفُق نازعتْه حُلَّةَ كَماله .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زالتْ أحكامُه مع أوامر الشرع الشريف واقِفَه ، ومعـدَلتُه الشريفةُ باقتفاء آثار الحق لمُشْتَكيَات الظُّلْم كاشِفه - أن يفوّض إليـه كذا : فليُباشِرْ هذه الوظيفـةَ السنيّة مفجِّرا ينابيعَ العلوم فى أرْجائها ، محقِّقا للفتاوىٰ بتسهيل مواردِها وتقْريب أوحائها ، موضِّحا طُرُقها بإقامة براهينـه وأدلّته ، مُبْديا دقائقَها التى يُشْرق بها أُفُقُ الفكر إشراقَ السماء بنُجُومها والأُفُق بأهلّتـه ، مُظْهِرا من غوامضـها ما يُقرِّب علىٰ الأفهام مَنَـالَهُ ، ويُفسِّح لجياد القرائح مجَـالَه ، ويَنَقِّح لكل ذى ترَوٍّ رويّتَـه ولكل مرتجِل بديهتَـه وآرتجـالَه ، فإنه الكاملُ الذى قطع إلىٰ بلوغ الغايةِ مَسَالكَ اللَّيالى ، والإمامُ الذى غاص فِكْرُه من كل بحر لُجَجَ المعانِى فاستخرج منهـا مكنُونَ اللآلى ، مع أن علمه المهـذَّبَ غنىٌّ عن تنبيـه الوَصايَا ، مَلِيٌّ بمـا يلزم هـذه الوظيفـةَ من الخصائص والمَزَايا ، فإنَّ البحرَ يأبىٰ إلا تدفُّقا ، والبدرَ إلا تألُّقا ، والله تعالىٰ يزيدُه من فضـله ، ويُزَيِّن به أُفُقَ العلم ويَزِيد مِنَّا دُنُوّا قُرْبَ محَـلِّه .

الوظيفـة الثالثة
(الحِسْبة)

وقد تقدّم أنَّ موضُوعَها التحدّثُ علىٰ أرباب المَعَايش والصَّنائع ، والأخذُ علىٰ يد الخارج عن طريق الصَّلاح فى مَعيشتِه وصِناعته . وحاضرةُ الديار المِصريّة تشتمل علىٰ حِسْبتين (١) :

الأولىٰ - حِسبةُ القاهرة : وهى أعلاهمـا قَدْرا ، وأفخمُهما رُتْبة ، ولصاحبها مجلسٌ بدار العَدْل مع القُضاة الأربعة وقُضاة العسكر ومُفْتِى دار العدل وغيرِهم . وهو يتحدّث فى الوجْه البحرىّ من الديار المِصرية فى ولاية النُّوّاب وعَزْلهم .

(١) أى والثانية حسبة الفسطاط التى سيأتى لهـا توقيع بعد صفحات .

قلت : ولم تزل الحِسبةُ تُولَّى للمتعمّمين وأرباب الأقلام إلىٰ الدولة المؤيَّدية شيخ ، فوَلَّاها للأمير سيف الدِّين منكلى بغا الفقيه أمير حاجب مضافة إلىٰ الحُجُوبيَّـة . علىٰ أنَّ فى سِجِلَّات الفاطميِّين مايشهد لهـا فى الزمن المتقدّم . وربَّمـا أُسنِدتْ حسـبةُ القاهرة إلىٰ والى القاهِرة ، وحِسْبةُ مصر إلىٰ والى مِصْر .

وهذه نسخة توقيع من ذٰلك ، وهى :

الحمدُ لله مجدّدِ عوائدِ الإحسان ، ومُجْرِى أولياء دولتنا القاهرة ، فى أيَّامنا الزاهرة ، علىٰ ماألِفُوه من الرُّتَب الحِسان ، ومضـاعِفِ نِعَمنا علىٰ من آجتنىٰ لنا بحُسْن سِـيرته الدعاءَ الصالحَ من كل لسان .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى لاتُحصىٰ بِعدّها ، ولاتُحصَر بحَدِّها ، ولا تُستزادُ بغير شُكْرِ آلاءِ المنعِمِ وحَمْــدِها .

ونشهَد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نُقيمها فى كُلِّ حُكْم ، وتحاوِلُ سيوفُنا جاحِديها فتنهَض فتَنْطِقُ بالحجة عليهم وهم بُكْم ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ من آئْتمر بالعدل والإحسان ، وأعدلُ آمرٍ أمتَه بالوَزْن بالقِسط وأنْ لايُخْسِرُوا المِيزان ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آحتَسبُوا فى سبيل الله جُلَّ عَتَادِهم ، وآحتَبسُوا أنفُسَهم فى مقاطعة أهل الكُفْر وجِهَادهم ، فلا تُنْتَهَب جَنائبُها فى الوُجُود ، وتَسْرى نَجائبُها فى التَّهائم والنُّجود ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــدُ ، فإنَّ أوْلىٰ مَنْ دعاه إحسانُنا لرَفْع قَدْره ، وإنارة بَدْره ، وإعلاءِ رُتْبتـه ، وإدناء منزلتــه ، وإعلامِ مُخْلِص الأولياء بمضاعَفَة الإحسان إليه أنَّ اللهَ لايُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحسَنَ عملا ، وأنَّ كرمنا لا يُخَيِّب لمَنْ أسلف سَوابِقَ طاعتِه فى أيَّامنا الشريفة أمَلا ، مَنْ لم تزَلْ خِدَمُه السابقــةُ إلىٰ الله مقرِّبه ، وعن طُرُق الهوىٰ مُنَكِّبه ، وبالله

مُذَكِّره، وعلىٰ الباقياتِ الصالحات من الأعمال موفّره؛ مع ماأضافه إلىٰ ذٰلك من أمرٍ بمعروف، و إغاثةِ ملهُوف؛ ونهْيٍ عن منكر، وآحتسابٍ فى الحق أتىٰ فيه بكلِّ ماتُحمَد خلائقُه وتُشْكر؛ وآجتنابٍ لأعراض الدنيا الدَّنيَّه، وآجتهادٍ لما يُرضِى الله ويرضينا من آتّباع سيرتِنا السَّريَّه؛ وشِدّةٍ فى الحق حتَّى يُقال به ويُقَام، ورِفْق بالخلق إلا فى بِدَعٍ تُنْتَهك بها حرمةُ الإسلام، أو غِشٍّ إن لم يَخُصَّ ضررُه الخاصَّ فإنَّ ذٰلك يَعُمُّ العام .

ولَمَّا كان فلان هو الذى آختصَّ من خِدْمتنا، بما رفَعه لدَيْنا، وأسلَف من طاعتنا، ما آقتضىٰ تقريبَه منَّا وآستِدعاءَه إلينا، ونهض فيما عدَقْناه به من مصالح الرعايا وكان مشكُورَ المساعى فى كل ماعُرِض من أعماله فى ذٰلك علينا ــ آقتضىٰ رأينا الشريف أن يفوّض إليه كذا، فليستقرّ فى ذٰلك مجتهِدا فى كلّ ما يعُمُّ البَرايا نفعُه، ويجْمُل لديهم وَقْعُه؛ ويمنَع من يتعرّض باليَسَار، إلىٰ ما لهم بغير حَقّ، أو يضَيِّق بالآحتكار، علىٰ ضعفائهم مابسَط اللهُ لهم من رِزْق؛ ويذُبُّ عنهم بإقامة الحُدود شُبَه تعطِيلها، ويعرِّفهم بالمحافظة علىٰ الحق فى المعاملات قواعِدَ تحريمِها وتحليلِها؛ ويُرِيهم بالإنصاف مَنارَ القسطاس المستقيم لعلهم يُبْصِرون، ويؤدِّبُ من يجِدُ فيهم من المطَفِّفين: ﴿الَّذِين إذا آكْتَالُوا علىٰ النَّاس يَسْتَوْفُون وإذا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهم يُخْسِرون﴾ ويأمُرُ أهلَ الاسواق بإقامة الجماعاتِ والجُمَع، ويقابل من تَخَلَّف عن ذٰلك بالتأديب الذى يَرْدَع من أصرَّ فيه علىٰ المخالَفة ويَزَع؛ ويُلزِم ذَوِى الهيئات بالصِّيانة التى تُناسِب مناصِبَهم، وتُوافِق مراتِبَهم، وتنَزِّه عن الأدْناس مَكاسِبَهم، وتصُون عن الشوائب شاهدَهم وغائبَهم؛ ولا يمكّن ذَوِى البيوع أن يَغْبِنُوا ضُعَفاءَ الرعايا وأغبِياءَهم، ولا يُفَسِّح لهم أن يرْفَعوا علىٰ الحق أسعارهم ويَبْخَسُوا الناسَ أشْياءَهُم .

وليحملْ كُلًّا منهم علىٰ المعامَلات الصحيحه ، والعقُود التى غدَتْ لهـا الشريعةُ الشريفة مُبيحه ، ويجنّبْهم العقُودَ الفاسده ، والحِيَلَ التى تَغُرّ بتدليس السِّلَع الكاسده ، وهو أخبر بالبيوع المنصوصِ علىٰ فسادِها فى الشرع الشريف ، وأدْرىٰ بما فى عدَم تحريرِهم المكاييـلَ والموازيـنَ من الإخسار والتطفيف ؛ فليفعلْ ذٰلك فى كل مايجب ، ويَحتَسِب فيه مايدَّخره عند الله ويحتَسِب ؛ ولْتكن كلمتُه فى ذٰلك مبْسوطه ، ويدُ تصرُّفه فى جميع ذٰلك مُحيطة وبمـا يستَنَد إليه من أوامره مَحُوطه ؛ ولْيُوص نُوّابه بمثـل ذٰلك ، ويوضِّحْ لهم بإنارة طريقته كلَّ حالٍ حالِك ؛ ويقدّمْ تقوىٰ الله علىٰ كلّ أمر ، ويتَّبِـعْ فيه رضا الله تعـالىٰ لارضا زيد وعمرو ؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك بحِسْـبة الفُسْطاط المعبَّر عنه الآنَ بمصر عَوْدا إليهـا ، وهى :

الحمدُ لله الآمرِ بالمعروف والناهى عن المنكر ، الشاهدِ بالعَدْل الذى تقوىٰ به كلمةُ الإيمـان وتُنْصَر ، والغامرِ بالجُود الذى لا يُحصىٰ والفَضْـل الذى لا يُحْصَر ، العامرِ ربوعَ ذَوِى البيوت بتقديم من آنعقدت الخناصرُ علىٰ فَضْله الذى لا يُجْحَد ولا ينكَر .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى لا تزال ألسنةُ الأقـلام ترْقُم لهـا فى صُحُف الإنعـام ذِكْرا ، وتجدّد لهـا بإصابة مواقع الإحسان العامِّ شُكرا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تصْـدَع بنُورها ليلَ الشرك فيئُول بَجْرا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى قمعَ اللهُ به من آغتَرَّ بالمعَاصِى وغَرّر ، وأقام بشريعتِه لواءَ الحق الأطْهر ومَنارَ العـدل الأظهر ، وعلىٰ آله وصَحْبه

الذين سلكوا من الهداية بإرشاده مَنْهَجَ الحق الأنور ، وآحتبسوا نفوسهم فى نُصرته ففازوا من رضاه بالحظ الأوفى والنصيب الأوفر .

وبعدُ، فإن الله تعالى لما جعل كلمتنا المبسوطة على العدل والإحسان مقصُورَه، وأوامرَنا الشريفةَ بإقامة مَنار المعروف مؤيَّدةً منصُوره ، وأحكامَنا المشهورةَ بالإنصاف فى صحائف الدَّهْر بالمحاسن مَسْطُوره، وألهمنا من آتِّباع الشرع الشريف ما غدَتْ به قلوبُ الرعايا آمنةً مسرُوره ــ قصدنا أن نختارَ لمراتب الدِّيانة والعَفَاف مَنْ لم يزل بيتُه بالصَّدارة عليًّا، ووصفُه بأنواع المحامد والمَمَادح مَليًّا .

ولما كان فلان هو الَّذى ورِثَ السِّيادةَ ، عن سلَفٍ طاهر، وتلقَّى السعادةَ، عن بَيْتٍ فُروعه التقوى فأزرتْ بالروض الزَّاهى الزَّاهر؛ وسَرَتْ سرائُره بحسن سِيرته وسَيْره ، وأبطن من الدِّيانة ماأظهرتْه أدلَّة خَيْره، وتنقَّل فى المَرَاتب الدِّينيَّة فأربى فى حُسْن السلوك على غيْره ؛ وسلك من الأمانة الطريق المُثْلى، وآعتمد ماعَدِمَ به مُضاهيا ومِثْلا ؛ وجنى ما نطَق بإنصافه فَضْلُ الكيل والمِيزان ، ورجَاه من أهل الخير كلُّ ذى إحسان وخشِيَه أهلُ الزَّيْغ والبُهْتان ؛ وكانت الحِسبةُ المباركة بمصر المحروسة قد أَلِفَتْ قضاياه وأحكامَه، وعرَفَت بالخُبْر معروفَه وشكَرت نقْضَه وإبرامه ؛ وفارَقَها على رَغْمها منه آختيارا ، وعادَتْ له خاطبةً عَقيلةَ نَزاهته التى لا تُجارى .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى أن يفوّض إليه كذا . فلْيقَدِّم خِيرةَ الله فى مباشرة هذه الوظيفه ، ولْيُقِمْ مَنارَها بإقامة حدُودها الشريفه ؛ ولْينظُرْ فى الكيل والمِيزان اللَّذين هما لسانُ الحق الناطِق، ولينْشُرْ لواء العَدْل الذى طالما خفقَتْ بنُودُه فى أيَّامنا حتَّى غدا قلْبُ المجرم وهو خافق ؛ وليُحسِن النظرَ فى المَطَاعم

والمَشَارب ، ولَيَرْدَع أهلَ البِدَع ممن هو مستخْفٍ باللَّيل وسارِب ؛ وفيه ـ بحمد الله تعـالىٰ ـ من حُسْن الألْمَعِيَّة ما يُغْنِي عن الإسهاب فى الوَصَايا ، ويُعين علىٰ السَّـدَاد فى نَفَاذ الأحكام وفَصْل القَضَايا ؛ وكيف لا وهو الخَبِـير بمـا يأتِى ويَذَر ، والصَّدْر الذى لايَعْدُو الصَّوابَ إن وَرَد أوصَدَر ؛ والله تعالىٰ يَعْمُر به للعَدْل مَعْلَما ، ويكسُوه بالإقبال فى أيامنا الشريفـة ثوبًا بالثَّواب مُعْلَمـا ، والخطُّ الشريف أعلاه ، حجـة بمقتضـاه .

* * *

وهذه وصية محتَسِب أوردها فى "التعريف" وهى :

وقد وَلِىَ أمرَ هذه الرُّتْبة ، ووُكِل بعَيْنِه النظرُ فى مصالح المسلمين لله حِسْبة ؛ فلينظُرْ فى الدَّقيق والجليـل ، والكثير والقَليل ، وما يُحْصَر بالمقادير وما لايُحْصَر ، وما يُؤمَر فيـه بمعروفٍ أو يُنْهىٰ عن مُنْكر ، وما يُشْتَرىٰ ويُبَاع ، وما يُقرِّب بتحريره إلىٰ الجنَّـة ويُبْعِد من النار ولو لم يَكُنْ قد بقِىَ بيْنَه وبينها إلا قدْرُ باعٍ أو ذِرَاع ؛ وكل ما يُعْمَل من المعايِش فى نهارٍ أو ليل ، وما لا يُعرَف قدْرُه إلا إذا نَطَق لسانُ المِيزان أو تكلَّم فَمُ الكيل . وليعمَلْ لديه معدّلا لكلِّ عمَل ، وعيارًا إذا عُرِضَتْ عليه المعاييرُ يُعرفُ مَنْ جار ومَنْ عدَل ؛ وليتفقَّدْ أكثَرَ هذه الأسباب ، ويحذِّر من الغِشِّ فإنَّ الداء أكثرُه من الطَّعام أو الشَّراب ؛ وليتَعَرَّف الأسعار ويستعْلِم الأخبار ، فى كل سوق من غير إعلام لأهله ولا إشعار ، وليُقِمْ عليهم من الأُمَناء من ينوب عنه فى النَّظَر ، ويطمئنُّ به وإن غابَ إذا حضَر ؛ ويأمُره بإعلامه بمـا أعضَـل ، ومراجعته مهما أمكن فإنَّ رأى مثـله أفضَل . ودار الضَّرب والنُّقودُ التى منها تَنْبَثّ ، وقد يكونُ فيها من الزَّيْف مالا يَظْهَر إلا بعد طُول اللُّبْث ؛ فليتصَدّ لمهمَّاتها بصَـدْره الذى لا يَحْرَج ،

وليَعْرِض منها على المحَكّ من رأيه مالا يَجُوز عليه بَهْرَج ؛ وما يُعلّق من الذهب المكسور ويُروبص من الفضّة ويُخْرَج ، وما أكلت النار كلّ لحامه أو بعضه فليُقِم عليه من جِهَته الرقباء ، وليُقِمْ على شمس ذَهبه مَنْ يرقُب منه ما تَرْقُب من الشمس الحِرْباء ؛ وليُقِمِ الضُّمّان على العَطّارين والطُّرُقيّة من بَيْع غرائب العقاقير إلا ممّن لايستَراب فيه وهو معْرُوف ، وبَخَطّ متطبّب ماهر لمريض معيّن فى دواء موصوف . والطُّرُقيّة وأهلُ النِّجامة وسائر الطوائف المنْسوبة إلى ساسَان ، ومن يأخُذ أموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان ، وكل إنسان سَوْء من هذا القَبيل هو فى الحقيقة شيطانٌ لا إنسان ؛ امنَعْهم كلَّ المنع ، وٱصدَعْهم مثل الزُّجاج حتّى لا ينْجبِر لهم صَدْع ، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلا فما يُجْدِى فى تأديبهم ذاتُ التأديب والصَّفْع ؛ وٱحْسِم كلَّ هذه الموادِّ الخبيثه ، وٱقطَع ما يُجَدّد ضعفاءُ الناس من هذه الأسباب الرَّثيثه ؛ ومَنْ وجدْتَه قد غَشَّ مسلما ، أو أكل بباطلٍ دِرْهما ؛ أو أخبر مشْتريًا بزائد ، أو خرجَ عن معهُود العَوائد ؛ أَشْهِرْه فى البلد ، وأرْكب تلك الآلةَ قَفاه حتّى يضْعُف منه الجَلَد ؛ وغيرُ هؤلاء من فُقَهاء المكاتب وعالمات النِّساء وغيرهما من الأنواع ممن يُخاف من ذِئْبه العائث فى سِرْب الظِّباء والجآذر ، ومن يُقْدِم على ذلك ومثله وما يُحاذِر ، آرشُقْهم بسِهامك ، وزَلْزِلْ أقدامَهم بإقْدامك ؛ ولا تَدعْ منهم إلا من ٱختَبَرْت أمانَتَه ، وٱخترت صِيانَتَه . والنُّوّاب لا ترضَ منهم إلا من يُحْسن نَفَاذا ، ويُحْسَب لك أجْرُ استنابته إذا قيل لك من ٱستَنَبْت فقلْت هذا ؛ وتقوى الله هى نعم المَسالك ، وما لك فى كلِّ ما ذكْرناه بل أكثره إلا إذا عمِلْت فيه بمذهَب مالك .

الوظيفــــة الرابعـــــة
(وَكالةُ بيتِ المــال)

وهى وظيفةٌ عظيمةُ الشان رفيعةُ المقدار، وقد تقدّم أن موضُوعَها التحدّثُ فيما يتعلّق بمَبِيعات بيتِ المــال ومُشْتَرَواته[1] : من أرضٍ وآدُر وغير ذٰلك ممــا يجرى هذا المَجْرىٰ، وأنّ متولِّيَها لا يكون إلا من أهل العلم والدِّيانة، وأنّ له مجلِسًا بدار العدل: تارةً يكونُ دون مجلِس المحتَسِب، وتارة فوقَ مجْلِسه، بحسَب رِفْعــة قدْر كل منهما فى نَفْسه . وقد أُضيف إليها فى المباشرة نظرُ كِسْوة الكَعْبة الشريفة وصارا كالوظيفة الواحدة .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المــال :

الحمدُ لله جامعِ المَناصب الدينيَّة، لمن خطَبَتْه لهــا رتبتان : العِلْمُ والعمَل، ومكمِّلِ الرُّتب السَّنيَّة، لمن وُجِدت فيه أهبتان : الورَعُ والتُّقىٰ وعُدِمت منه خلَّتان : الحِرْصُ والأمَل؛ جاعلِ ٱختصاصِ الرُّتب بأكفائها حِلْيَة الدُّول، والنظرِ فى مصالحها الخاصَّة والعامَّة زينةَ أيامنا التى تتلفَّت إلىٰ محاسِنها أجيادُ الأيَّام الأُوَل .

نحمــده علىٰ نِعَمه التى عصمَتْ آراءنا من ٱعتراضِ الخَلَل، وأمضَتْ أوامِرَنا من مصالح الأمة بمــا تَسْرِى به المحامِدُ سُرىَّ النجوم ويَسِير به الشُّكْرُ سَيْرَ المَثَل .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لم نزلْ نستنْطِق بها فى الجهاد، ألْسِنَةَ الأَسَل، ونُوقِظ لإقامتها عُيونَ جلاد، لهــا الغُمُود جفُون والسهام أهدابٌ والسُّــيوف مُقَل؛ ونشهد أنّ محمدًا عبــده ورسوله الذى أظهر اللهُ دينَه علىٰ الأديان وشرَّف مِلَّته علىٰ الملل، وأسْرىٰ به من المسجد الحرام إلىٰ المَسْجد الأقصىٰ إلىٰ سِدْرة

(١) جرىٰ على اللغة العامية وإلا فصواب العربية مشترياته بالياء .

المنتهىٰ وعاد ولم يَكْمُل الليْلُ بينَ السَّيْر والقَفَل ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هَجَرُوا فى المُهاجَرَ إليه الأحياءَ والحِلَل ، وشَفَوْا بأســنة سنته العِلَل والغُلَل ، وتفرَّدوا بكمال المَفَاخر فإذا خَلعتِ الأقلامُ علىٰ أوصافهم حُلَلا غدَتْ منها فى أبهى من الحُلَل ، صلاةً تتوالىٰ بالعَشِيّ والإبكار وتتواتَرُ فى الإشراق والطَّفَل ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــد ، فإنَّ أوْلَى الرُّتب بإنعام النظر فى آرتياد أكْفَائها ، وآنتقادِ فرائد الأعيان لها وآنتقائها ، وآستخارةِ الله تعالىٰ فى آختيار من يكون أمرُ دينِه هو المُهِمَّ المقدّم لدَيه ، وآستنارةِ التوفيق فى آصطفاء من يكون مهمُّ آخرتِه هو المرئيّ المصوَّرَ بين عينَيْه ؛ مع ما آتصفَ به من محاسنِ سَجَايَا جُبِلت عليها طِباعُه ، وخُصَّ به من سوابِقِ مزايا رَحُبَ بها فى تلقِّ المصالح الدينيَّة صَدْرُه وباعُه ، رتبتان يَعُم نفعُهما ويَخُصّ ، ويحسُن وقْعُهــما بمــا يُبْــديه من أوصافه ويَقُصّ ؛ ويتعلَّق كلٌّ منهما بجماعة الأمَّــة فَرْدا فَرْدا ، ويشْــتَملان علىٰ منــافِعهم علىٰ آختلافِها بَدْأً وإعادةً وعَكْسا وطَرْدا ؛ ويكون المتصدِّى لها مناقِشًا علىٰ حقُوقهم وهم ساهُون ، ومفتِّشا عن مصالحهم وهم عنها لاهُون ؛ ومناضلًا عنهم وهم غافِلُون ، ومشمِّرا للسعى فى مَصالحِهم وهم فى حِبَرِ الدَّعَة رافِلُون ، ومتكَلِّفا لآستمــاع الدَّعوىٰ عنهم جَوْبَ فلَوات الجَوَاب ، ومتكفِّلا بالتحرّى فى المحاوَرَة عنهــم وإصابةِ شاكلةِ الصَّواب ، ومؤدِّياً فى نصحهم جُهْــدَه تقرُّبا إلىٰ مَرَاضينا وله عندنا الرِّضا وآبتغاءَ ثوابِ الله : ﴿والله عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَاب﴾ وهُما وَكالةُ بيت المــال المعمور والحِسْــبةُ الشريفةُ بالقاهرة المحروسة : فإنَّ منافع وكالةِ بيتِ مال المسلمين عائدةٌ عليهم ، آئلة بأحكام الشريعة المطَهَّرة إليهم ؛ راجعةٌ إلىٰ ما يعمُّهم مَسارُّه ، مُعَدَّةٌ لمــا تُدْفَع به عنهم من حيثُ لا يشعُرون مَضارُّه ؛ صائنةٌ حقوقَهم من تعــدّى الأيدى الغاصــبه ، حافظةٌ بيوتَ أموالهم من آعتراض الآمال

العاملة الناصبه ؛ وكذلك نظرُ الحِسْبة : فإنه من أخصّ مصالح الخَلْق وأعمّها ، وآكدِ الوظائف العامّة وأكملها ٱستِقصائيّةً لمصالح الدينيّة والدُّنيويّة وأتمّها ، يحفَظ علىٰ ذَوِى الهيئات أقدارَهم ؛ ويبيّن بتجنُّب الهَنَات فى الصَّدْر مِقْدارَهم ، ويَصُون بتوَقِّى الشُّبُهات إيرادَهم وإصدارَهم ؛ وينزّه معامَلاتِهم عن فسادٍ يعارِضها ، أو شُبَه تُنافِى كمَالَ الصحة وتُناقِضُها ؛ ويحفَظ أقواتَهم من غِشٍّ مُتْلِف ، أو غُلُوٍّ مُجْحِف ؛ إلىٰ غير ذلك من أدْوِيةٍ لا بدّ من الوقوف علىٰ صحةِ تَرْتيبِها وتركيبِها ، وتتبُّع الأقوال التى تجرى بها الثِّقةُ إلىٰ غاية تجريبِها ؛ ولذٰلك لا تُجْمعان إلا لمن أوقفَه علمُه علىٰ جادَّة العمَل ، وٱقتَصَر به وَرَعُه علىٰ مادّة الحق فليس له فى التعرُّض إلىٰ غيره أمَل ؛ وسَمَتْ به أوصافُه إلىٰ مَعالم الأمور فوجد التُّقىٰ أفضلَ ما يُرْتَقىٰ ، وعَرَضتْ عليه أدَواتُه جوهَرَ الذخائر فوجد العمَلَ الصالحَ أكمَلَ ما يُنتَقَد منها وما يُنْتَقىٰ ؛ وتحَلَّىٰ بالأمانة ، فصارتْ له خُلُقا وسَجِيَّه ، وأنِس بالنَّزاهة ، فكانتْ له فى سائر الأحوال للنَّجاة نَجِيَّه ؛ وأرتْه فضائلُه الحقَّ حيثُ هو فتمَسَّك بأسبابه ، وتشبَّث بأهدابِه ، وٱتَّصف به فى سائر أحوالِه فإن أخَذَ أخذَ بحُكْمه وإن أَعطَىٰ أعطىٰ به ؛ وٱحترز لدينه فهو به ضَنِين ، وٱستوْثَق لأمانتِه وإن لم يكن فيها بحمد الله متَّهمًا ولا عليها بظَنِين ، وٱجتنَىٰ ثِمارَ المَحَامد الحُلْوةَ من كَمام الأمانَةِ المُرَّه ، وعلِم أنَّ رضا الله تعالىٰ فى الوقوف مع الحقِّ فوقَف معه فى كلِّ ماساءَه للخلق وسَرَّه .

ولَمَّا كان فلان هو الذى أمسكَتِ الفضائلُ بما كَمَّلها من آداب نَفْسه ونَفاسة آدابِه ، وتجاذبَتْه الرُّتَب للتحلِّى بمكانته فلم تكُن هذه الرتبةُ بأحقَّ به من مجالس العلم ولا أوْلَىٰ به ؛ وشهِدت له فضائلُه معنًى بما شهِدت له به الأئمةُ الأعلامُ لفْظا ، ونوّهتْ بذِكره العلومُ الدينيَّة التى أتقنها بحْثا وأكْمَلها دِرايةً وأثبتَها حِفْظا ؛ فأوصافُه كالأعلام المشتَقَّة من طبـاعه ، الدالَّةِ بدوامها علىٰ ٱنحصار سبَب الٱستحقاقِ فيه

وآجتماعه ؛ المنبِّهة على أنه هو المقصودُ بهـذه الإشارات التى وراءها كلُّ مايحمَد من آضطلاعه بقواعد هـذه الرُّتب وآطِّلاعه ؛ فهو سرُّ ما ذُكر من نعوتٍ وأوصاف ، ومعنًى ماشُهِر من مَعْدَلة وإنصاف ، ورُقُومُ ماحُبِّر من حُلَل أُفيضتْ منه على أجمل أعْطـاف ـ رُسِم (١) أن يفوِّض (١) تفويضًا يقع به الأمر فى أحسن مواقِعِه ، ونَضَع به الحُكْم فى أحمد مواضِعِه ؛ ويُحُلّ من أجياد هذه المنـاصب مَحَلّ الفرائد مِن القلائد ، ويقع من رياض هذه المراتِب وُقُوعَ الحَيَا الذى سَـعِد به رأْى الرائد .

فليباشِرْ هاتين الوظيفتين مُرْهِفا فى مصالحهما همَّةً غيرَ هِمَّه (٢) ، مجتهدا من قواعدهما فيما تبرأ به عنـد الله منَّا ومنـه الذِّمَّه ، محاقِقا على حُقُوق بيت المـال حيثُ كانتْ محاقَقةَ من يعلم أنه مطلوبٌ بذلك من جميع الأمَّه ؛ متحرِّيا للحق فلا يغدُو لمـا يجبُ له مُهْملا ، ولا لمـا يجب عليه مُمَـاطِلا ، واقفًا مع حكم الله تعالى الجَـلِىّ فى الأخذ والعطاء فإنَّه سِيَّانِ من تَرَك حقًّا أو أخذ باطِلا ؛ مُجْرِيًا عوائِد الحِسْبة على ماأُلِف من تدبيره ، وعُرِف من إتقـانِه وتحريره ، وشُهِر من آعتماده للواجب فى سائرأمورِه ؛ مكتفِيًا بمـا آطَّلع عليـه قديمـا من مصالحها ، منتهِيًا إلى ما سـبَقَتْ معرفتُه به من أسـبابها ومناجِحها ؛ والله تعالى يوفِّقـه فى آجتهاده ، ويُعِينـه على مايدَّخِره لمَعَاده ، إن شاء الله تعالى .

* * *

وهذه وصيةُ وكيل بيت المـال أوردها فى "التعريف" :

وهو الوكيلُ فى جميع حقُوق المسلمين وماله معهم إلا حقُّ رجلٍ واحد ، والمكلَّفُ بالمخاصمة عنهم حتَّى يُقِرَّ الجاحد ؛ وهو القائمُ للدَّعْوى لهم وعليهم ، والمطلوب من الله

(١) بياض فى الموضعين والغرض منه الآختصار والمبيض له مفهوم مما تقدّم مرارا . (٢) أى غير ضعيفه .

ومنّا بما يُؤخَذ لهم أو يُؤْخَذ من يدَيْهم ؛ والمُعَدّ لتصحيح العقُود ، وترجيح جهة بيت المال فى العَقَار المبيع والثمن المَنْقود ؛ والمتكلِّمُ بكِتَابِ الوكالة الشرعية الثابته ، والثابتُ القَدَم والأقدامُ غيرُ ثابتــه ؛ والمَفْسوح المَجَال فى مجالس الحُكَّام ، والمجادلُ بلسان الحــقِّ فى الأحْكام ؛ والموقوفةُ كلُّ دعوى لم تُسْـمع فى وجْهــه أو فى وجه من أَذِن له فى سَمَاعها ، والمرجوعُ إليه فى إماتةِ كلِّ مخاصَمَة حصل الضجَر من طُول نِزَاعها ؛ وإبداءِ الدَّوافع ، ما لم يجِــدْ بُدّا من الإشهاد عليه بعَــدَم الدافع ، والانتهاءِ إلىٰ الحق كان له أوعليه ولايَقِف عند تثْقِيل مثقِّلٍ ولاشفاعةِ شافع ، وبوقوفه تُحدّد الحدود [وتُمتَحن الشهود][1] ويُمْشَى علىٰ الطُّرُق المستقيمه ، وتُحفظ لأصحابها الحقوقُ القــديمه ؛ وبه يتم عَقْد كل بيع وإيجــارٍ إذا كانت المصلحةُ فيها لعــامَّة المسلمين ظاهره ، ولهم فيما يُوكَّل عنهم فيه الحظُّ والغِبْطة بحَسَب الأوقات الحاضره .

ونحن نُوصيه فى ذٰلك كلِّه بالعمَل بمــا علِم ، والانتهاء فى مقتضىٰ قولنا إلىٰ مافَهِم ؛ وتقديمِ تقوى الله فإنه متىٰ قدّمها بين يديه سَلِم ، والوُقُوف مع رضا الله تعالىٰ فإنه متىٰ وقَف معه غَنِم ؛ والعملِ بالشرع الشريف كيفَمَا توجَّهت به أحكامُه ، والحذَر من الوقوف فى طريقِه إذا نفذَتْ سِهَامُه ؛ ومَنْ مات وله ورَثة معروفةٌ تستكمل بحقِّها ميراثَه ، وتحوزُ بحظِّها تُراثه ؛ لا يكلفُهم ثبوتًا يكون من باب العنَتْ ، والمدافعة بحقٍّ لايحتــاج [مستَحِقُّه][1] إلىٰ زيادة ثَبَت ؛ وإنمــا أنتَ ومن كانت قضيّته مُنْكَره ، والمعروفُ من مستحقِّ ميراثِه نَــكِره ؛ فأُولئك شــدِّدْ فى أمرهم ، وأوطِ شُهداءَهم فى الاستِفْسار منهم علىٰ جَمْرِهم ؛ وتَتَبّعْ باطن الحــال لعله عنك لا يَتَسَتَّر ، ولا يمْشى عليك فيــه الباطلُ ويمشِى شاهــدُ الزُّور بكُمّيه ويتبَخْتَر ، فإن تحقَّقتَ صحةَ شهاداتهم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٢ .

وإلا فأشْهِرْهم فى الدنيا ودَعْهم فى الآخرة لا يُخَفَّف عنْهُم العـذَابُ ولا يفتَّر؛ وكلُّ ما يُباع أو يؤجَّر ٱرجع فيـه إلىٰ العوائد، وتقلَّد أمرَ الصغير، وجدّدْ لك أمرًا منّـا فى الكبير، وذٰلك بعد مراعاة ماتجِبُ مراعاتُه، والتأنّى كلَّ التأنّى حتّى يثبُتَ ماينْبغى إثباتُه؛ وشهودُ القِيمة عليهم المَدَار، وبشهادتهم يُقَدَّر المِقْدار؛ وما لم يكونُوا من ذوِى الأقدار، ومن أهل الخِبْرة بالبَزّ والجِدار، وممن ٱشترىٰ العَقَار وٱستغَلَّه وبنىٰ الدار، وإلا فاعلم أنَّ مثله لا يُرجَع إليه، ولا يُعوَّل ولا سيَّما فى حقِّ بيت المال علَيْه(١)؛ فاتَّفِقْ مع وُلاة الأمُور من أهل الأحْكام، علىٰ تعيينِ من تَعيَّن لتقليدِ مثلِ هذه الشهاده، وتعرَّف منهم مَنْ له كلُّ الخبْرة حتّى تعرِفَ أنه من أهـل الزَّهَاده؛ ولك أن تدّعِىَ بحق المسلمين حيثُ شِئْت ممن ترىٰ أن حقَّه عنده يترجَّح، وأن بيِّنَتهم تكون عنده أوضَح؛ فأمَّا الدَّعْوىٰ عليك فمن عادتها أن لا تُسْمَع إلا فى مجلس الحكم العزيز الشافعىِّ ـ أجلَّه الله تعـالىٰ ـ ونحن لانغيِّر العوائد، ولا ننقضُ مابنَتِ الدولُ السالفةُ عليـه القواعِد؛ فليكُنْ فى ذٰلك المجلس سماعُها إذا تعيَّنَت، وإقامةُ البينات عليها إذا تبيَّنتْ؛ واللهَ اللهَ فى حقِّ بيت المـال، ثم اللهَ اللهَ فى الوقتِ الحاضرِ والمآل؛ ومَنْ تستنيبهُم عنك بالأعمال لا تُقرّ منهم إلا من تَقَرّ به عينُك، ويُوفَّى به عند الله لا بمـا تُحَصِّـله من الدنيا دَيْنُك؛ ومَنْ كان لعمله مُصْلِحا، ولأمَله مُنْجِحا، لا تغيِّر عليه فيما هو فيـه، ودَعْه حتّى يتبينَ لك خافِيه؛ ولتستَقْصِ فى كلِّ وقتٍ عنهم الأخبار، ولتسـتعْلِمْ حقائق ماهم عليه بمن تستصحبه من الأخيار، ولا تزال منهم علىٰ يَقِين، وعملٍ بمـا فيه خلاصُ دنيا ودِين .

(١) كذا فى التعريف أيضا والمراد أن المقوّمين يشـترط فيهم أن يكونوا بتلك الصفات والا فلا يؤخذ بتقويمهم ولا يعوّل على كلامهم .

الوظيفـــة الخامسة

(الخَـــطَابة)

وهى من أجلِّ الوظائف وأعلاها رتبةً فى نفْس الأمر . وموضوعُها معروفٌ .
وتختصُّ هذه الطبقة من التواقيع بخَطَابة الجوامع .

وهذه نسخةُ توقيع بخَطَابة الجامع بقلعة الجبل المحروسة، حيث مُصَلَّى السلطان، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلَبىّ :

الحمــدُ لله الذى أنار بالذِّكْر قلُوبَ أوليـائه ، وكشَفَ بالذِّكْرىٰ بصائرَ أصْفِيائه ، وأنال أهلَ العِـلم بالإبلاغ عنـه إلىٰ خلْقِه وِراثةَ أنبيائه ، وآختار لإذْكارِنا بآلاء الله من فُرْسان المَنَابِر مَنْ يُجاهد الأعداءَ بدُعائِه ، ويُجاهِر الأوِدّاء من مواعظِه بمـا يعلَم كلٌّ منهم أنَّ فى مُؤْلِمِ صَوَادِعه دواءَ دائِه ، فإذا آفتتَح بحمد الله أثنىٰ عليـه بِوادّ علمه حقَّ ثَنائه ، ونزَّهه بمـا ينبغى لسُبُحات وجْهِه وجلالِ قُدْسه وتقدُّس أسمائِه ، وأثنىٰ كما يجبُ علىٰ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلم الذى آدمُ ومَنْ بعــدَه من الرُّسلِ تحتَ لِوائه ، وإذا تُلِيتْ علىٰ خيلِ الله خُطبتُه تشوّقَتْ بلقاءِ أعداء الله إلىٰ لقائه ، وخَطبتِ الجِنانَ من بذْل نفُوسها ونفائسِها بمـا أقْنَتْه فى سبيل الله لآتِّقائه .

نَحمدُه علىٰ أن جعَلَنا لذِكره مستَمِعين ، ولأمره ونَهْيِه متَّبِعين ، وعلىٰ حَمْده فى كل ملإٍ من الأولياءِ مجتَمِعين .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لا تزال تختالُ بذِكرها أعطافُ المَنَابِر ، وتتعَطَّر ألسِــنةُ الأقلام بمـا تنْقُله منها عن أفْواه المَحَـابِر ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى هَدى اللهُ مَنْ تقــدّم من الأمة بخُبْره ومن تأخَّر بخَبَره ، وجعل روضةً من رياض الجنة بين قَبْره ومِنْبَرِه ، صلى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم

أوّلُ من عُقِدتْ بهم من الجُمَع صلواتُها، وأكرمُ مَن زُهيت به من الجهاد والمَنابر صَهَواتُها؛ صلاةً لا نزال نُقيمها عنـد كلِّ مسْجد، ونُديمها فى كلِّ مُتْهِم فى الآفاقِ ومُنْجِد، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلىٰ المنابر أن يُرتادَ له من أئمة العلماء عَلَّامةُ عَصْره، ورُحلةُ مِصْره؛ وإمامُ وقْته الذى يَصْدَع بالحق وإن صَـدَع، وعالمُ زمانه الذى يقُوم فى كل مَقـام بمـا يُناسبه مما يأخُذ فى الموعظةِ الحسنةِ وما يَدَع، مِنْبرٌ نُذَكِّر بآلاء الله علىٰ أعوادِه وإن لم نَزَلْ لها من الذَّاكرين، ونُنَبِّه فيه علىٰ شُكر الله بالرأفة علىٰ خَلْقه وإن لم نَبْرَح لها بذٰلك وغيره من الشاكرين، ونُشَوِّقُ عليه إلىٰ الجهاد فى سبيل الله بما أعدّ اللهُ لنا علىٰ ذٰلك من النصْر والأجْرِ وإنْ كُنَّا علىٰ الأبَد إليه مُبادِرين، وإلىٰ إقامة دَعْوة الحق به مُباكرين .

ولمـا كان فلان هو الذى تعَيَّن لرُقِىّ هذه الرتبةِ لخُطَبَ لخَطَابتها، وتبيَّن أنه كُفْؤُهَا الذى تتشَوّقُ النُّفوس إلىٰ مواعظه فترْغَبُ فى إطالتهـا لإطابَتِها ــ ٱقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نحَلِّيَ بفضائله أعطافَ هذا المِنْبر الكريم، وأن نختَصَّ نحن وأولياؤُنا بسَمَاعِ مواعِظه التى تُرغِّب فيما عندَ الله بجهادِ أعداء الله ﴿ واللهُ عِنْدَهُ أجْرٌ عظيم ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال يُطْلِـعُ فى أُفُق المنـابر من الأولياء شمسًا مُنيره، ويُقِيم شعائرَ الدين من الأئمة الأعلام بكُلِّ مُشْرِق العَلانيَة طاهِرِ السَّريره ــ أن يفوّضَ إليه كذا : فلْيَحُلَّ هذه الرتبــةَ التى لم تُقَرِّب لغيره جِيادُها، ويُحَـلِّ هذه العقيلةَ التى لا تُزَان بسِوى العـلم والعمل أجيادُها، ويَرْقَ هـذه الهَضْبةَ التى يطُول إلَّا علىٰ مِثْله صُعُودُها، ويَلْقَ تلك العصبة التى تجتمع للأولياء به (؟) حُشودها . وهو يعلم أنَّه فى موْقفِ الإبلاغ عن الله لِعباده، والإعلام بمـا أعدّ اللهُ فى دار كرامتِه لمَنْ

جاهد فى الله حقَّ جِهاده ، والإنذارِ لمن قَصَّر فى إعْدادِ الأهْبة ليوم مَعَادِه ؛ وهو بمَحْضَر من حُمَاة الإسلام ، ومَشْهَدٍ ممن قلَّدْناه أمرَ أمَّة سيدنا محمد عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ فلْيَقْصُر خُطَبه علىٰ طاعةٍ لله يحُضُّ عليها ، وعَزْمةٍ فى سبيل الله يُشَوِّق إليها ، ومعْدَلة يصِفُ ماأعدّ الله لوُلَاة أمر قدَّمتْها بين يدَيْها ، وتوبةٍ يبعَثُ الهِمَم ، علىٰ تعجيلها ، وأوقاتٍ مكْرُمة ينَبِّه الأمم ، علىٰ احترامها بتقْوىٰ الله وتبجيلها ، ودُنْيا يُنْذِر من خِدَاعها ، ويبيِّن للمُغْتَرّ بها ماعُرِف من خلائقها المذمومةِ وأُلِف من طِبَاعها ، وأُخْرىٰ يوضِّح للُمْعرِض عنها وَشْك قُدُومها ، ويحذِّر المقصِّر فى طِلَابها من عذَابها و يبَشِّر المشَمِّر لهـا بنَعِيمها . وليعْلَمْ أنَّ الموعظة إذا خرجَتْ من الألسِنَة لم تَعْـدُ الأسماع ، ولم يُحَصَّلْ منها علىٰ غير تعَقُّل القَرائن والأسْجاع ؛ و إذا خرجَتْ من القلوب وقعت فى مِثْلها ، وأثمرت فى الحال بالمحافظة علىٰ فَرْض الطاعة ونفْلِها ؛ وسكَّنَتْ فى السرائر طِباعَ طاعةٍ تأبىٰ علىٰ مُحاوِلِ نَقْلِها ، وقدحَتْ (١) فى البصائر من أنواع المعْرفة ما لم يُعْهَد من قَبْلِها . وليجعَلْ خُطَبه فى كل وقتٍ مناسبةً لأحوال مستَمِعيها ، متناسبةً فى وضُوح المقاصد بينَ إدْراك مَنْ يَعِى غوامِضَ الكلام ومَنْ لا يَعِيها ؛ فخيرُ الكلام ما قَلَّ ودَلّ ، و إذا كان قِصَرُ خطبةِ الرجُل وطُول صلاتِه منبئين عن فقهه فما قَصَّر مَنْ حافَظ علىٰ ذٰلك ولا أخَلّ ؛ وليُوشِّح خُطَبه من الدعاء لنا وللمسلمين بما يُرجىٰ أن يوافِقَ ساعةَ الإجابه ، وإذا توخَّى الغرضَ بدعائه لعُمُوم الأمة فقد تعيَّنتْ ــ إن شاء الله ــ الإصابَه ؛ وهـذه الوصايَا علىٰ سبيل الذِّكْرى التى تنفَع المؤمنين ، وترفَعُ المحسنين ، والله تعالىٰ يجعله ــ وقد فعل ــ من أوليائه المتقين ؛ بمنّه وكرمه ! ، إنْ شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله وقذفت .

* * *

وهذه وصية خطيب أوردها فى "التعريف" :

ولْيرقَ هذه الرُّتْبة التى رُفعتْ له ذُرا أعوادِها، وَقُدِّمتْ له من المنابر مُقرَّباتُ جِيادِها، وليصْعَدْ منها علىٰ أعلىٰ دَرَجه، وليَسْعدْ منها بصَهْوةٍ كأنما كانتْ له من بُكْرة يومه المُشْرِقِ مُسْرَجه، ولْيَرْعَ حقَّ هذه الرتبة الشريفه، والذِّروة التى ماأُعِدّت إلَّا لإمامٍ فردٍ مثله أو خليفه، وليقِفْ حيثُ تَخْفُقُ علىٰ رأسه الأعلامُ، ويتكَلَّم فتخرَس الألسنة وتَجِفُّ فى فَمِ الذُّرَا الأقلام، ولْيَقرَعِ المسامعَ بالوعْد والوعِيد، ويُذَكِّر بأيام الله مَنْ ﴿كان له قَلْبٌ أوْ ألْقَى السَّمْعَ وهُو شَهِيد﴾. ويُلَيِّن القلوبَ القاسيةَ وإن كان منها ما هو أشدُّ قَسْوةً من الحِجارة والحديد، ولْيَكُنْ قد قدّم لنَفْسه قبل أن يتقدّم، وليُسْبِلْ عليه دِرْعَ التوبة قبل أن يتكَلَّمَ، وليجعَلْ لكل مَقامٍ مَقالا يقُوم به علىٰ رءُوس الأشهاد، ويفَوِّقُ منه سَهْما لايُخْطِئ موقِعُه كلَّ فؤاد، وليَقُمْ فى المِحراب مَقام من يخشىٰ ربَّه، ويخافُ أن يَخْطَف الوجَلُ قلْبَه، وليعلم أنَّ صدَفةَ ذٰلكَ المحراب ما ٱنفلقَتْ عن مثل دُرّته المكْنُونه، وصناديقَ الصُّدُور ما أُطْبِقَتْ علىٰ مثل جوْهَرته المخزُونه، وليؤمَّ بذٰلك الجَمِّ الغَفير، وليتقدّم بين أيديهم فإنَّه السَّفِير، وليؤدِّ هذه الفريضةَ التى هى من أعظَم الأركان، وأوّلِ الأعمال التى تُوضَع فى المِيزان، وأقربِ القُرَب التى يَجْمَع إليها داعِى كلِّ أذان، وليُقِمْ بالصلاة فى أوقاتها، وليُرِحْ بها الناسَ فى أوّل مِيقاتها، وليَخَفِّف مع الإتمام، وليتحَمَّل عمَّن وراءَه فإنه هو الإمام، وعليه بالتقْوىٰ فى عَقْد كل نيَّه، وأمامَ كلِّ قضيَّه، والله تعالىٰ يجعَله ممن ينقَلِبُ إلىٰ أهله وهو مسْرُور، ويُنَصَبُ له مع الأئمة المُقْسِطين يوم القيامة عن يمين الرحمن منابِرُ من نُور، بمنّه وكرمه.

الوظيفـــة السادسة

(الإمامة بالجوامع ، والمساجد ، والمَدَارس الكِبار التى تصــدُر التوليةُ عن الســلطان فى مثلهـا)

وهـــذه نسخة توقيـــع بالإمامة :

أما بعدَ حمد الله علىٰ نِعَمه التى جعلت أيَّامنا الشريفةَ تزيدُ أهلَ الفضائل إكراما ، وتخُص بالسيادة والتقديم من أنشَأه الله تعالىٰ قُرَّةَ أعيُنٍ وجعــله للمتَّقين إماما ، وقدّمه علىٰ أهل الطاعة الذين يَبِيتُون لربِّهم سُجَّدا وقِياما .

والشَّهادة له بالوحدانيَّة التى تكسُو مُخْلِصَها جَلَالا وسَّاما ؛ والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الذى أمَّ النــاسَ وعلَّمهم الصلاةَ وأظهر فى إقامة الدِّين مقالا محُمودا ومقامًا ، وعلىٰ آله وصحبــه الذين تمسَّكوا بسُنَّته توثُّقــا وٱعتصاما ــ فإنَّ خير الرتَب فى هذا العصر وفيما تقدّم ، رُتبةُ الإمامة حيثُ تقدّم سيدُ البَشَر فى محْرابها علىٰ الأمة وأمّ ؛ فاختارها من ٱتَّبع الطريقَ المحمديَّة وشَرْعها ، وعلم سَناءَها ورَفْعها ؛ فزاد بذٰلك سُمُوّا إلىٰ سموّه ، وحصل علىٰ تَضاعُف الأجر ونُمّود ؛ وهو فلان .

رسم ــ لا زالت أيامه الشريفةُ تَشْمَل ذَوِى الأصالة والصَّدارة بجزيل فَضْلها ، وعوائدُ إنعامه تجرى بإتمــام المعروف فتُبقِى الرتَبَ الدينيَّةَ بيد مســتحِقِّها وتسارع إلىٰ تخليد النعم عند أهلها ــ أن يستمرَّ فلان فى كذا جاريًا فيه علىٰ أجمل العادَات ، إعانةً له علىٰ ٱكتسابِ الأجُور بمــا يعتمده من تأهيــل مَعْهَــد العِبادات ؛ ورعايةً لتكثير المَبَارّ ، وترجيحًا لمــا ٱشتمل عليــه من حُسْن النظر فى كل إيراد وإصْــدار ، وتوفيرًا للمَنَاجح التى عُرِفت من بيته الذى كَمْ أُلِفَ منه فعلٌ جميل وعَمَلٌ بارّ ، ووُثوقًا

بأنه يعتَمِد فى عمـارة مساجِد الله سـبحانه وتعالىٰ أنه تَشْهَد به الملائكةُ المتعاقِبُون بالليل والنهار، والله تعالىٰ يجعل النِّعم عنده مؤبَّدة الآستقرار، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــة السابعة

(التدريس، وموضُوعه إلقاءُ المسائل العلمية للطَّلبَة)

وهـذه نسخة توقيـع بتدريس كُتِب به للقـاضى عزِّ الدين آبن قاضى القُضاة بَدْرِ الدِّين بن جَماعةَ ، عوضًا عن والده ، فى جُمادىٰ الآخرة سـنةَ ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله مُتِمِّ فَضْله علىٰ كلِّ أحد ، ومُقِرِّ النِّعمة علىٰ كلِّ والد ووَلَد ، الذى خَصَّ أولياءَنا ببُلُوغ الغايات فى أقْرَب المُدَد ، وآستصحابِ المعروف فما يُنْزَع منهم خاتَمٌ من يَدٍ إلَّا لِيَد .

نحمدُه بأفضل ما يحمَدُه به مَنْ حَمِد ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً باقيــةً علىٰ الأَبد ، ونُصلى علىٰ سـيدنا محمد نبيِّه الذى جعـل شريعتَه واضحةَ الجَدَد ، قائمةً بأعلام العلمـاء قِيامَ الأَمَد ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وأصحابِه الذين شَبَّهم فى الهُدى بالنُّجوم وهُمْ مثلُها فى كَثْرة العَدَد ، وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ ، فإنَّ نِعَمَنا الشريفةَ لا تَحَوّل ، ومواهِبَنا الجزيلة ... ...[1] تَخَوّل ، وكرمَنَا يُمهِّد منـازِلَ السُّعود لكل بدْرٍ يتنقَّل ، وشِيَمَنا الشريفةَ ترعىٰ الذِّمَمَ لكلِّ من أنفَق عُمْرَه فى ولائها ، وتحفَظ مالهَـا من المآثِرِ القديمة بإبقائها فى نُجَباء أبنائها ، مع ما نُلاحِظُه فى آستحقاقِ التقديم ، وآنتخاب مَنْ ترقَّىٰ منهم بين العِلْم والتعليم ، وحَصَّل

---

(١) بياض بالأصل ولعله لا تزال لأوليائنا تَخَوّل . وفى اللسان "التخول التعهد وحسن الرعاية" .

فى الزمن القليل العِلمَ الكثير، واستمدّ من نُور والدِه وهو البَـدْر المُنير، وعُلم بأنَّه فى الفضائل سرُّ أبيه الذى شاع، وخليفَتُه الذى لو لم يَنُصَّ عليه لما آنعقَد [إلا] عليه الإجماع، والواحدُ الذى ساد فى رُتْبة ابيـه وما خلَتْ من مثله ـ لا أخْلىٰ اللهُ منه البِقـاع! .

وكان المجاس السامىّ، القضائىّ، الفـلانىّ، هو المرادَ بمـا قدّمنا من صـفاته الجميـله، وتوسَّمْنا أنه لَمْعةُ البَـدْر وهى لاتخفىٰ لأنهـا لا تَرُدُّ العُيونَ كَليله؛ ورأىٰ والدُه المشارُ إليه من آستحقاقِه ما آقتضىٰ أن يُنَوِّه بذكره، ويُنَبِّـه علىٰ المعرفة بحقِّ قَدْره، فآثَرَ النُّزُول له عمّـا باسمه من تدريس الزاوية بجامِع مصرَ المحروسـة ليقُوم مَقامَـه، ويُقرِّر فوائِدَه وينْشُر أعلامَه، ويَعْـلم أنه قد حلَّق فى العليـاء حتَّى لَحَق البَـدْرَ وبلغ تمَـامه؛ فعلِمْنا أنَّ البركةَ فيما اشار، وأنَّ اليُمْنَ بحمـد الله فيما رجّحـه من الآختيـار.

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف ـ زاد الله فى شَرَفِه، وجعل أقطارَ الأرض فى تصَرُّفه ـ أن يُرتَّب فى هـذا التدريس عوضًا عن والده، أطال الله بقـاءَه علىٰ عادته وقاعدته إلىٰ آخر وقتٍ لأنه أحقُّ من آستحق قدْرُه الرفيعُ التميـيز، وأولىٰ بمِصْرَ ممن سـواه لمـا عرَفَت به مصر من العزيز ثم من عَبْد العزيز.

ونحن نُوصيك أيُّها العالِم ـ وفَّقك الله ـ بالمُداومة علىٰ ما أنت بصَدَده، والمذاكرة للعلم فإنَّك لاتُكاثِرُ العُلَماء إلا بمَدَده؛ والعملِ بتقوىٰ الله تعالىٰ فى كل قَصْد وتَصْدير، وتَقْريب وتقرير، وتأثيلٍ وتأثير، وتقليل وتكثير، ونصٍّ وتأويل، وترتيبٍ وترْتيل؛ وفى كل ماتَزْدادُ به رفعتُـك، وتطِيرُ به سُمْعتُك، ويحسُنُ به الثناءُ علىٰ دِينك المتِين، ويقومُ به الدليلُ علىٰ ما وضح من فَضْلك المبِين .

وٱعلم بأنك قد أدركتَ بحمـد الله تعـالىٰ و بكرمنا و بأبيـك و باستحقاقك ما ٱرتدّ به كثيرٌ عن مَقَامك ، ووصلتَ فى البِـداية إلىٰ المَشيخة فى زاوِيَةِ إمامك ؛ فاعمل فى إفادةِ الطَّلَبة بما يرفَعُ الرافعيُّ لك به الرايه ، و يأتمُّ بك إمامُ الحرمين فى النِّهايه ؛ فقد أمسيتَ جارَ البحر فاستخرِج جُمَانَه ، وٱجتهد لتُصيب فى فَتاويك فإنَّ أوّلِيك سِهَام رميُها من كِنَانه ؛ وسبيلُ كل واقفٍ عليه العملُ بمقتضاه والٱعتمادُ(١) .

❊ ❊ ❊

وهـذه نسخة توقيع بتدريس زاوية الشافعىّ بالجامع العتيق أيضا ، من إنشاء المولىٰ زَيْن الدين بن الخَضِر مُوقِّع الدَّسْت ، كُتِب به لتاج الدين محمد الإخنائى شاهدِ خِزَانة الخاص ، بالنِّيابة عن عمِّـه قاضى القضاة تقىِّ الدين المـالكىّ فى أيام حياته ، مستقِلًّا بعدَ وَفاته ، وهى :

أما بعدَ حَمْدا لله علىٰ أنْ زانَ مجالِسَ المَدَارس فى أيَّامنا الشريفة بتاجِها ، وأقربها من ذَوِى الإنابة من يستَحِقُّ النيـابةَ عن تقِىّ قوّى الأحكام بإحكامها و إنتاجِها ، و رفع قدرَ بيتٍ مباركٍ طالمـا ٱشتَهر علَمُ عِلْمه وصدَر عن صَدْره فكان مادّةَ مَسَرّة النفس وٱبتهاجِها ، وجعل عوارِفَنا ترعىٰ الذُّرِّيَّة الصالحـةَ فى عَقِبها وتُولِّى كلَّ رُتْبـة مَنْ أضحىٰ لأهلها بوَجَاهته مُواجِها ؛ والشهادةِ له بالوَحْدانيَّة التى تَنْفِى شِرْكَ الطائفة الكافرةِ ومَعْلُولَ ٱحتجاجِها ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى ٱستقامتْ به أمورُ هذه الأمة بعد ٱعْوِجَاجِها ، وتشرَّفتْ به علمـاؤُها حتَّى صارتْ كأنبياء بنى إسراءيلَ بحُسْن ٱستنباطِها للجُمَل و جميـلِ ٱستخراجِها ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين علِمُوا وعمِلوا وأوضَحُوا لهذه المِـلَّة قويمَ مِنْهاجِها ـ فإنَّ أوْلَى الأوليـاء ببُلوغ الأمَل ، وتعاهُـد

(١) أى الى آخر ما يقال فى مثله .

مدارس العلم بصالح العمل ، وإظهار سرّ الفوائد للطالبين ، وحلّ عقود مشكلها بجميل الاطّلاع وحسن اليقين ، من حوىٰ معرفة الفروع والأصول ، وحاز من مذهبه المذهب خير محصول ؛ ونشأ فى حجر الفضائل ، واقتدىٰ بحكام بيته الذين لهم فى العلوم بمصر والشام أوضح البراهين وأقوى الدلائل ؛ وله فى الآباء والأبوّة ، الديانة التى بلغ بها من الإقبال مرجوّه ؛ طالمـا سارت أحكام عمّه ـ أجله الله ـ فى الأقطار ، وحكم فأبدىٰ الحكم بين أيدينا أوفى الأمصار ، وله العفاف والتقىٰ والمآثر الجميلة وجميل الآثار ؛ والفتاوىٰ التى أوضح بها مشكلا ، وفتح مقفلا ، والفصل بين الخصوم بالحق المجتلىٰ ؛ والبركة التى لدولتنا الشريفة منهـا نصيب وافر ، والتصميم الذى اقترن بغزارة العلم والوقار الظاهر ؛ فهو ـ أعز الله أحكامه ـ من العلمـاء العاملين ، وله البشرىٰ بمـا قاله أصدق القائلين ؛ فى النبإ الذى تمّ به الزيادة والنماء : ﴿ إنّمـا يخشىٰ اللهَ منْ عبادِه العُلَمَاء ﴾ .

ولمـا كان المجلس السامى هو الذى استوجب التصدير لإلقاء الدروس ، وأضحىٰ مالكيّا مالكًا أزمّة الفضائل حائزًا من أثوابها أنفس ملبوس ؛ وله بخزانة خاصّنا الشريف وإصطبلاته السعيدة الشهادة البيّنه ، والكتابة التى هى العزّ الحاضر فلا يحتـاج معها إلىٰ إقامة بيّنه ، والكفالة التى نطقت بها الأفواه مسرّة ومعلنه ، والأمانة التى حذا فيها حذو أبيه واتّبع سننه .

فلذلك رسم ــ لا زال يديم النعم لأهلهـا ، ويبقى المراتب الدينيّة لمن أضحىٰ محلّه مناسبا لمحلّها ، أن يستقر ... ...(١) فلينب عن عمّه فى هذا التدريس ، وليقف ما يسر النفوس من أثره النفيس ؛ وليفد الطلبة علىٰ عادته ، وليبد لهم من

(١) بياض بالأصل ومراده فى تدريس زاوية الشافعى الخ .

النُّقول ما يُظْهِر غزيرَ مادَّته ، وليستنبط المسائل ، وليُجِبْ بالأدلَّة المُسائل ، وليرَجِّح المَباحِث ، وليكن لوالده — رحمه الله — أحَقَّ وارث ، وليستقِلَّ بهذه الوظيفة المباركة بعد وفاة عمه أبقاه الله تعالىٰ ، وليتزيَّد من العلوم ليبلُغ من صدَقَاتنا الشريفة آمالًا ، والله تعالىٰ يسدِّدُ له بالتقوىٰ أقوالًا وأفعالا ، بمنّه وكرمه .

⁂

وهــذه نسخةُ توقيع بتدريس المدرســة الصَّلاحيَّة المجاورة لتُرْبة الإمام الشافعيّ رضى الله عنــه ، كُتِب به لقاضى القُضاة تقِيّ الدين ، آبن قاضى القُضاة تاج الدِّين آبن بِنْت الأعزّ . من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهى :

الحمدُ لله شافِى عِيّ البَحْث بخيرِ إمامٍ شافِعِىّ ، والآتى منه فى الزَّمَن الأخير بمن لو كان فى الصَّدْر الأوّل لأثنىٰ علىٰ وَرَعه ودينه كلُّ صحابِىّ وتابِعِىّ ، ومُفيد الأسماع من وَجِيزِ قولِه المحرَّر ما لولا السبقُ لمــا عَدَل إلىٰ شرح وجيزٍ سواه الرافِعىّ .

نحمده علىٰ نِعَمٍ ألهَمَتْ وضْعَ الأشــياء فى محلِّها ، وآستِيداعَها عند أهلِها ، وتأتِّيها بمــا يزيل الإشكال بانجذابِ مَنْ شَكْلُه مناسبٌ لشَكْلها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً يتزيَّن بها المَقَال ، ويتبيَّن بهــا الحقُّ من الضَّــلال ، ونشهد أن محمدًا عبــدُه ورسوله ونبيُّــه موَضِّحُ الطُّرُق إلىٰ الحق المبين ، وناهِجُها إلىٰ حيث مجتَمَعُ الهدىٰ ومرتَبَع الدِّين ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَهْدى إلىٰ صراط الَّذين ، ورضى الله عن أصحابِه الذين منهم مَنْ جاءَ بالصِّدْق وصَدَّق به فقوِىَ سبب الدين المتين ، ومنهم من فَرَق بين الحق والباطل وكان إمامَ المتقين وسُمِّىَ أميرَ المؤمنين ، ومنهم من جَهَّز جيشَ العُسْرة فثبَّت جأْشَ المسلمين ،

ومنهم من أعطاه صلّى الله عليه وسلم الرايةَ فأخذَها منه باليمين ، ورضى الله عن بقيّة الصحابة أجمعين .

وبعدُ، فلما كان مذْهَب الإمام الشافعى «محمدِ بن إدريسَ» رضى الله عنه هو شُهْدة المتلفظ، وكفايةُ المتحفِّظ، وبهْجةُ المتلحِّظ، وطرازُ ملْبَس الهدى، وميدانُ الاجتهاد الذى لاتقفُ أعنَّـة جِياده عن إدراك المَـدى، وقد تجملتْ ديارُ مصر من بركة صاحبه بمن تُشَـدّ إليه الرِّحال، وتَفْخَرُ جَبَّانة هو فيها حالّ، وجِيدٌ هو بجواهر عُلومه حالٍ، ومن يَحْسُن إلى ضريحه المُنيف الاستناد، وإذا قُرِئَتْ كُتُبه لدَيْه قيل ما أبعَدَ هذا المَرْمى الأسنى! وما أقْربَ هذا الإسْناد! ، وما أسْعدَ حَلْقةً تُجْمع بين يدىْ جَدَثه يتصدَّر فيها أجلُّ حَبْر، ويتصدَّى لنَشْر العلوم بها من عُرِف بحُسْن السِّيرة عند السَّبْر، ومَنْ لولا خَرْقُ العوائد لأجاب بالشُّـكر والثناء عليه صاحبُ ذلك القَبْر كما قال: «قال صاحب هذا القبر» ـ حَسُن بهذه المناسبة أن لاينتصِبَ فى هذا المَنْصب إلا من يَحْمَـدُ هذا السيدُ الإمامُ جِوَاره، ومَن يُرْضِيه منه ـ رضى الله عنه ـ حُسْنُ العِباره، ومن يستحِقُّ أن يتصدّر بين نُجوم العلماء بِدارة تلك الخِطَّة فيقال قد جمَّل الله به دارةَ هذا البدر وعمَّر به من هذا المدرِّس دارَه، الذى يفتقِر إلى تنويل نِعَمه، وتنويه قَلَمِـه ، من الأئمة كلُّ غنِى، ويُعجَب ببلاغة خُطَبه، وصِـياغة كُتُبه، من يَجْتَـلِى ومن يجتَنِى، ومن يَهْنَا المستفيدُون من عذُوبة ألفاظه وصفاءِ معانيه بالمَوْرد الهنِى، ومَنْ إذا سَحَّ سَحابهُ الهَطَّالُ اعترفَ له بالهُمُوّ والهمُول المزنى، والذى لسَـعْد جَدّه من أبيه ليث أكْرِمْ به من لَيْث وأكرم ببَنِيه من أشبال! ، وأعزِزْ به من فاتِحِ أبوابِ إشكالاتٍ عَجِزَ عن فَتْحها القَفَّال! ، ومن إذا قال سكتَ الناس ، ومن إذا قام قَعَد كلُّ ذى شِمَاس، وإذا أخذ بالنصِّ ذَهَب الاقْتِباس ، وإذا قاس قيل هذا بحرُ المَذْهب المشارُ إليـه بالأصابـع فى مِصْره جلالةً ولا يُنْـكَر لبحر المِصْر الإشارةُ

بالأصابع ولا القياس؛ ومن يزهو بتقي قلبه ورُقي جوابه لسانُ التعويل ولسان التعويذ، كما يَميس بإحاطته وحياطته قَلمُ الفتوى وقلم التنفيذ، ومن يفخر [به] كلُّ عالم مفيد إذا قال : أنا بين يديه طالبٌ وأنا له تلميذ ؛ ومَنْ حيثُما ٱلتفتَّ وجدتَ له سُؤددا جَمّا ، وكيفما نظرتَ رأيتَ له من هُنا وِزارةً ، ومن هُنا خَطابةً ، ومن هُنا مشيخةً ، ومن هنا تدريسا ، ومن هُنا حُكْما !!!! ؛ فهو الأصلُ ومَنْ سِواه فُرُوع ، وهم الأثمادُ وهو اليَنْبُوع ؛ وهو مجموع السياده ، المختارُ منه الإفاده ، فما أحسنَه من ٱختيار وما أتمَّه من مجموع ، وكان قاضي القُضاة ، سيِّد العلماء ، رئيسُ الأصحاب ، مقتَدى الفِرَق ، قُدوةُ الطوائف ، الصاحب تقيّ الدين «عبد الرحمن» ولد الصاحب قاضي القُضاة تاج الدين بن [بنت] الأعز أدام الله شَرفه ، ورَحِم سلَفه ، هو منتهى رغبةِ الراغب ، ومُشْتهى مُنْية الطالب ؛ ومَنْ إذا أضاءت ليالي النُّقُوس بأقمار فتاويه قيل (بياضُ العَطايا في سَـواد المَطالب) ، ومن تتَّفق الآراء على أنه لِسِنِّ الكُهُولة شيخُ المَذاهب ؛ ومَنْ عليه يَحْسُن الاتفاق ، وبه يجمُل الوِفاق ، وإذا وَلِيَ هذا المنصبَ ٱبتهج بولايته إيّاه مالك في المدينة وأبو حنيفةَ وأحمدُ رضي الله عنهم في العِراق ؛ وٱهتزَّتْ به وبمجاورة فوائده من ضريح إمامه جوانبُ ذلك القبر طَرَبا ، وقالت ‹‹الأُمُّ›› لقد أبهجتَ ـ رحم الله سلفَك ـ بجدِّك وإبائك جدًّا وأبا ، ولقد ٱستحقَّيْت أن يقول لك منصبُ سلَفك رضي الله عنهم : أهْلًا وسَهْلا ومَرْحَبا ، وهذه نَسَماتُ صَبًا ، كانتِ الإفادة هُنالك تَعرِفُها منك من الصِّبا .

فالحمد لله على أن أعطى قَوْسَ ذلك المحراب باريها ، وخصَّ بشَقِّ سهامها من لا يزال سعده مُباريها ، وجمَّل مطلَع تلك السماء ببدرٍ كم باتتْ [عليه] الدُّرر تحسُد دَراريها ؛ وألهَم حسنَ الاختيار أن يجري القلمُ بما يحسُن بالتوقيع الشريف موقعُه ، ويجمُلُ في أثناء الطروس وضعُه وموضعُه .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ : ـ أجْراه الله بالصواب ، وكشف بارْتيِـائه كلَّ ٱرْتياب ، ولا زال يختـارُ وينتقِى للمنـاصب الدِّينيَّة كلَّ عالِمٍ بأحكام السُّنَّة والكتاب ـ أن يفوّض إليه تدريسُ المدرسة الصلاحيَّة الناصريَّة المجاورة لضريح الإمام الشافعىّ بالقرافة رضى الله عنه . فليُخَوّل ولْينوِّل كلَّ ذى استفاده ، وليجَمّلْ منه بذلك العقْد الثمين من علماء الدِّين بأنْخَم واسطةٍ تَفْخَرُ بها تلك القِلاده ، وليذْكُرْ من الدروس مايُبْهِج الأسماع ، ويُرْضِى الٱنتجاع ، ويُجادُ به الٱنتِفاع ، ويَحْتَلِبُه من أخلاف الفوائد ٱرتِضاءُ الٱرتِضاع ، ويتناقل الرُّواةُ فوائدَه إلىٰ علماء كل أُفُق من البِقَاع ، ولْيَقُلْ فإنَّ الأسماعَ لفوائده مُنْصِته ، والأصواتَ لَمبَاحثه خاشعةٌ والقلوبَ لمَهابته مُخْبِته ، ولْيُنْهِض قوىَّ المسائل بما يحصِّل لها أعظَمَ انتِعاش ، ولْيُمتْ ماأماته إمامُه من البِدَع فيُقَال به له : هذا محمدُ ٱبنُ إدريسَ مُذْ قُمْتَ أنتَ عاش ، ولْيُسْمِع بعلومه مَنْ به من الجهل صَمَم ، ولْيستَنْطِق مَنْ به من الفَهَاهة بَكَم ، ولْيحقِّق عند الناس بتَعَصُّبه لهذا الإمام أنه قد قام بالتنويه به الآنَ الحاكُم ٱبنُ الحاكم أُخُو الحاكم كما قام به فيما سلف بنو عَبْد الحَكَم .

وأما غيرُ ذلك من الوصايا فهو بحمد الله صاحبُ إلهامها ، وجالِبُ أقْسامها ، وجُهَينة أخبارِها ، ومَطْلَع أنوارِها ، فلا يُعاد، عليه ما منه يُستفاد ، ولا يُنْثَر عليه دُرّ هو منظِّمُه فى الأجياد ، والله تعالىٰ يُعَمِّر بسيادته معالمَ الدين وأكْنافَه ، ويزيِّن بفضله المتينِ أوساطَ كلِّ مصر وأطرَافه ، ويُضيف إليه من المستفيدين مَنْ بإرفاقه وإشفاقه يكون عيشُهُ خَفْضا بتلك الإضافَهْ ، ويجعله لا يُخَصِّص حُنوّه بمَعْهَد دُونَ مَعْهَد ولا بمسافةٍ دُون مَسافَه ، ويُبْقِيه ومنفعتَه إلىٰ ساريةٍ سارية الإطافة واللَّطَافه ، وألطافَه بهذه الولاية تقول لكلِّ طالبٍ فى القَرَافة القَ رَافه .

قلت : ولما تُوفِّي قاضي القضاة بدرُ الدين بنُ أبي البقاء ـ تغمده الله تعالىٰ برحمته ـ وكان من جملة وظائفه تدريسُ هذه المدرسة ، كان السلطان قد سافر إلىٰ الشام في بعض الحَرَكات ، فسافر ٱبنُه أقضىٰ القضاة جلالُ الدين حتَّى ادرك السلطانَ بالطريق ، علىٰ القُرب من غَزَّة ، فولّاه الوظيفةَ المذكورةَ مكانَ أبيه ؛ وكان القاضي نورُ الدين بنُ هلال الدولة الدِّمَشقيّ حاضرًا هُناك ، فأشار إليه القاضي فتحُ الدين فَتْح الله كاتبُ السر الشريف ـ عامله الله بلطفه الخفيّ ـ بإنشاء صدر لتوقيعه ، يسطر به للعلامة الشريفة السلطانية ، فأنشأ له سَجْعتين ، هما :

الحمدُ لله الذي أظهَر جلالَ العلماء الشافعية بحضْرةِ إمامهم ، وأقام ساداتِ الأبناء مقامَ آبائهم في بثِّ علومهم وصلاتِهم وصِيامِهم . ولم يجاوز ذلك إلىٰ غيره ، فسُطِّر التوقيع بهاتين السجعتين ، وعُلِّم عليه العلامة السلطانية .

وكان من قول نُور الدين بن هلال الدولة للقاضي جلال الدِّين المذكور : إنَّ هذا التوقيعَ يبقىٰ أبيضَ : فإنه ليس بالديار المصرية من ينهض بتكملتِه علىٰ هذا الأُسلوب . فسمع القاضي كاتبُ السرّ كلامَه ، فكتبَ لِي بتكملته علىٰ ظَهْره ، وعاد به القاضي جلال الدين فأعطانيه ، وأخبرني بكلامِ ٱبن هلالِ الدولة وما كان من قوله ، فتلكَّأْت عن ذلك ، ثم لم أجِدْ بُدّا من إكماله وإن لم أكُنْ من فُرْسان هذا المَيْدان ، فأنشأْت له علىٰ تينك السجعتين ما أكملته به ، فجاء منه تِلْوَ السجعتين السابقتين اللتين أنشأهما ٱبن هلال الدولة :

وخصَّ برياسة العلم أهلَ بيتٍ رأتْ كُهولُهم في اليَقظة ما يتمنَّى شُيوخُ العلماء أن لو رأَوْه في مَنامهم .

وجاء من وسطه :

ٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُنَوِّه بذكره، ونقدّمه علىٰ غيره ممّن رام هذا المَقامَ فحُجِب دُونَه ﴿واللهُ غالِبٌ علىٰ أمْرِه﴾ .

وجاء فى آخره :

والله تعالىٰ يرقّيه إلىٰ أرفع الذُّرا، وهذه الرتبةُ وإن كانت بِدايتَه فهى نهايةُ غيره (وإنّا لنَرجو فوقَ ذٰلكَ مَظْهرا) .

وقد أعوَزَنى وِجْدانُ النسخة عند إرادة إثباتها فى هذا التأليف لضَيَاع مُسْوَدّتها ولم يحضُرْنى منها غيرُ ماذكرتُه . وفيما تقدّم من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبدالظاهر من توقيع القاضى تقيّ الدين ابن بنت الأعز مالا ينظَر مع وُجوده إلىٰ غيره .

* * *

وهذه نُسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية بمصر، المختصّة بالمالكية، المعروفة بالقَمْحِية، بمصرالمحروسة، أنشأتُه لقاضى القُضاة جمال الدين الأَقْفَهسىّ، وهى :

الحمدُ لله الذى زيَّن معالمَ المدارس من أعلام العُلماء بجَمالها، وميَّز مراتبَ الكَمَلَة بإجراء سَوابِق الأفكارِ فى مَيادِين الدُّروس وفَسِيح مَجالها، وعَمَّر معاهدَ العلم بأجلّ عالم إذا ذُكِرت وقائعُ المناظَرة كان رأسَ فُرْسانها ورَئِّيس رجالها، وناط مقاصدَ صَلَاح الدين بأكمل حَبْر إذا أُورِدتْ مناقِبهُ المأثورةُ تمسَّك أهلُ الدِّيانة منها بَوثِيق حِبَالها .

نحمَدُه على ٱختيار الجوهر والإعراض عن العَرَض ، والتوفيق لإدراك المَرامى وإصابة الغَرَض .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له الذى خصّ أهلَ العلم بكريم حِبائه، وشرَّف مَقامهم فى الخليقة فجعلهم فى حَمْل الشريعة ورَثَةَ أنبيائه؛ شهادةً تُعْذِبُ لقائلها بحُسْن الإيراد وِرْدا، وتُجدِّد لمنتحِلها بمواطن الذِّكر عَهْدا فيتَّخذ بها عند الرحمٰن عَهْدا؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبيٍّ عَلِم وعَلَّم، وأكرمُ رسولٍ فصَّل الأحكامَ إذ شَرَع ونَدَب وأوجبَ وحلَّل وحَرَّم؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عُنُوا بتفسير كتاب الله تعالىٰ فأدْرَكُوا دقيقَ مَعانيه، وٱهتمُّوا بالحديث رِوَايةً ودِرَايةً ففازُوا بتأسيس فِقْه الدِّين وإقامة مَبانيه؛ صلاةً تُحيط من بِحار العلم بزاخِرِها، وتأخُذ من الدُّروس بطرَفَيها فتقارِنُ الحمدَ فى أوّلها وتصْحَب الدعاء فى آخرها؛ ما تُتُبِّع بالمنقول مواقِعَ الأثَر، وعُوِّل فى المعْقُول علىٰ إجالة الفِكْر وإجادةِ النَّظَر، وسلَّم تسليما كثيرا.

وبعد، فإنَّ أَوْلىٰ ما صَرفت النفوسُ إليه هِمَمَها، وأخلصت فيه نِيَّتَها وخلَّصت من تَبِعاته ذِمَمَها؛ وتبِعتْ فيه آثارَ من سلَف من الملوك الكِرام، وأعارَتْه كُلِّيَّ نظرِها وقامتْ بواجبه حقَّ القِيام ــ أمرُ المدارس التى هى مَسْقَط حجَر الاشتغال بالعِلم ومستَقَرّ قاعِدته، وقُطْب فلك تَطْلابه ومُحيط دائرته؛ ومَيْدان فُرْسان المشايخ ومَدَار رجالها، ومَوْرِد ظِمَاءِ الطَّلَبَة ومحطُّ رحالها؛ لا سيَّما المدارسُ الأيُّوبية التى أُسِّس علىٰ الخير بِناؤها، وكان عن صَلاح الدين منْشؤُها فتألَّق برقُها وٱستطار ضياؤُها.

ومن أثبتِها وَثيقه، وأمثلها فى الترتيب طَرِيقه؛ المدرسةُ القَمْحية بالفُسْطاط الآخذةُ من وجوه الخير بنطاقِها، والمخصوصُ بالسادة المالكيَّة ٱمتدادُ رُواقِها؛ إن ٱعتُبرتْ رعايةُ المذاهب قالت: مالكٌ وما مَالِك، وإن عُمِلَتْ حِسْبة المدارس فى البُرِّ كانتْ لها فَذَالك؛ قد رُتِّب بها أربعةُ دُروس فكانتْ لها كالأركان الأربعه، وجُعلت صدَقتُها الجاريةُ بُرًّا فكانت أعظم بِرًّا وأعمّ منفعه.

ولما كان المجلسُ العالى، القاضَوِىّ، الشيخىُّ، الكبيرىُّ، العالمىّ، العاملىّ، الأفضلىُّ، الأكملىُّ، الأوحدىُّ، البليغىّ، الفَريدىّ، المُفيدىّ، النَّجيدىّ، القُدْوِىّ، الحُجِّىّ، المحقِّقىّ، الإمامىّ، الجَمَالىّ : جمالُ الإسلام والمسلمين ، شرَفُ العلماء العاملين ، أوحدُ الفضلاء المُفيدين ؛ قدوةُ البلغاء زينُ الأمه ، أوحدُ الأئمّه ؛ رُحْلة الطالبين ، فَخْرُ المدرّسين ؛ مفتِي الفِرَق لسانُ المتكلمين ، حُجّة المناظرين ؛ خالصةُ الملوك والسلاطين ، وَلِىُّ أمير المؤمنين ؛ أبو محمد « عبدُ الله الأَقْفَهْسِىّ » المالكِىّ ـ ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ـ هو عيْنُ أعيان الزمان ، والمحدَّثُ بفضله فى الآفاق وليس الخبرُ كالعِيان؛ مَاولِىَ منصبا من المناصب إلا كان له أهْلا،ولاأراد الانصرافَ من مجلس علم إلا قال له مَهْلا؛ ولا رَمىٰ إلىٰ غاية إلا أدْركَها،ولا أحاط به مِنْطَقةُ طَلَبةٍ إلا هزَّها بدقيق نظَره للبحث وحَرَّكها؛ إن أطال فى مجلسه أطاب، وإن أوجز قَصَّر محاوِرُه عن الإطالة وأنَاب ؛ وإن أورد سُؤالا عَجَز مناوِئُه عن جوابه، أو فتح باباً فى المناظرة أحجم مُناظِرُه عن سَدِّ بابه ؛ وإن ألَمّ ببحث أَرْبىٰ فيه وأنَاف ، وإن أفتىٰ بحُكْم اندفع عنه المُعارض وارتفَع فيه الخلاف ؛ فنوادره المدوّنة فيها البيانُ والتحصيل ؛ ومقدّماته المبسوطةُ إجمالُها يُغْنِى عن التفصيل ؛ ومشارقُه النيِّرة لا يأفِلُ طالِعُها، ومداركه الحسنَةُ لايَسْأم سامعُها؛ وتهذيبُه المهذَّب جامعُ الأمَّهات، وجواهره الثمينةُ لاتُقاوَم فى القيمة ولا تُضاهىٰ فى الصِّفات ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُنوّه بذكره ، ونُقدِّمه علىٰ غيره ، ممن حاول ذلك فامتنَع عليه ﴿ والله غالبٌ علىٰ أمْرِه ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولَوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكىّ، الناصرىّ، الزينىّ ـ لا زالت مقاصِدُه الشريفةُ فى مذاهب السَّداد ذاهبَه ، ولأغراض الحقِّ والاستحقاق صائِبه ـ أن يستقرّ المجلسُ العالى المشارُ إليه فى تدريس المدْرَسة

الصَّلاحيَّة بمصر المحروسة المعروفة بالقَمْحية عِوضًا عن فلان الفلانى، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه .

فليتلَقَّ ذٰلك بالقَبُول ، ويَبْسُطْ فى مجالس العلم لسانَه فمن كانَ بمَثَابته فى الفضل حقَّ له أن يقُول ويَطُول ؛ ومِلاكُ الأمر تقوىٰ الله تعالىٰ فهى خيرُ زاد ، والوصايا كثيرة وعنه تُؤخَذ ومنه تُستفاد ؛ والله تعالىٰ يبلِّغه من مقاصده الجميلة غايةَ الأمل ، ويرقِّيه من هِضَاب المعالى إلىٰ أعلىٰ مَراتب الكمال وقد فَعَلْ ؛ والاعتماد علىٰ الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، حجةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسخة توقيع أيضا بتدريس المَدْرسة الصلاحيَّة المذكورة، أنشأتُه للقاضى شمس الدين محمد ابن المرحوم شِهاب الدين أحمد الدِّفْرىّ المالكىّ، فى شعبان سنة خمس وثمانمائة، وهو :

الحمدُ لله مُطْلِع شمس الفضائل فى سماء مَعاليها، ومبلِّغ دَرارِىّ الدَّرارِىّ النبيهةِ الذِّكر بسَعادة الجَدّ غايةَ غيرها فى مَبادِيها، وجاعِل صَلاح الدِّين أفضلَ قصدٍ فوَّقت العنايةُ سِهامَها بإصابةِ غَرَضه فى مَراميها ، ومجدّدِ مَعالِم المدارس الدارسةِ بخَيْر نظر يقضى بتشييد قواعِدِها وإحكام مَبانيها .

نحمَدُه علىٰ أنْ صرَف إلىٰ القيام بنَشْر العلم الشريف اهتمامَنا، وجعل بخِيرته العائدةِ إلى التوفيق فى حُسْن الاختيار اعتصامَنا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له مُفيضَ نتائج الأفكار من وافِرِ إمداده ، ومخصِّصُ أهلِ التحقيق بدقيق النَّظر تخصيصَ العامِّ بقَصْره علىٰ بعض أفْراده ؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله أوفَرُ البرية فى الفضل سَهْما، والقائلُ

تنويهًـا بفضيلة العلم : « لا بُورِكَ لِى فى صَبِيحةِ يَوْمٍ لا أزْدادُ فيه عِلْما » صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين حُلُّوا من الفضـل جواهِرَه الثمينه ، والتابعين وتابعى التابعين الذين ضُرِبتْ آباطُ الإبل منهم إلىٰ عالِمِ المدينه .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ ما صُرِفت إليـه الهِمَم ، وبَرِئَت بتأدية حقّه الذِّمَم ، وغدَت النفوس بالنظر فى مصالحه مشتَغِله ، والفكرُ لشرف محلّه منه إلىٰ غيره منْتقله ، النظرُ فى أمرِ المدارس التى جُعِلت للاشـتغال بالعلم سبَبا موصولا ، ولطَلَبته رَبْعا لا يزال بمجالس الذكر مأهُولا ، لاسيَّمـا المدارس التى قد قَدُم فى الإسلام عهدُها ، وعَذُب باستمرار المعروفِ علىٰ توالى الأيَّام وِرْدُها .

ولمـا كانت المدرسـة الصَّلاحية بفُسْطاطِ مصر المحروسة قد أُسِّس علىٰ التقوىٰ بُنْيانهـا ، ومُهِّدت علىٰ الخـير قواعِدُها وأركانُها ، واختصَّت طائفةُ المـالكية منها بالخِصِّيصـة التى أغنىٰ عن باطن الأمرِ عُنوانُهـا ، وكان المجلسُ السامىّ هو الذى خطَبتْه الرُّتَب الجليـلة لنَفْسها ، وعيَّنته لهـذه الوظيفةِ فضائلُه التى قد آنَ ولله الحمدُ بُزُوغُ شمْسِها ، وعَهِدت منه المعاهدُ الجليلةُ حسنَ النظر فتاقَتْ فى يَومِها إلىٰ ما ألِفت منـه فى أمْسِها ـ اقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف أن نُفرده بهـذه الوظيفةِ التى يقوم إفرادُه فيها مَقام الجمع ، ونجمعَ له من طرفَيْها مايتَّفِق علىٰ حُسْنه البصَرُ ويقضِى بطيب خَبَره السَّمْع .

فلذلك رُسِم بالأمرِ الشريف ، العالى ، المولَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزَّينىّ : ـ لا زال يُقِيم للدِّيـن شِعارا ، ويرفَعُ لأهل العـلم الشريف مِقْدارا ـ أن يستقرّ فى الوظيفة المذكورة لمـا اشتهَر من علمه ودِيَانته ، وبانَ من عفَّته المشهورة ونَزَاهتِـه ، واتَّصفَ به من الإفاده ، وعُرِف [عنه] من نَشْر العلوم فى الإبْداء

والإعاده ، وشاع من طريقتـه المعروفةِ فى إيضاحه وبيانه ، وذاعَ من فوائده التى قدّمَتْه علىٰ أبناء زمانِه ، ورفَعَتْه إلىٰ هذه المرتبة باستحقاقه علىٰ أقرانه .

فلْيُباشِرْ تدريسَها مُظْهِرا من فوائده الجليلةِ ما هو فى طَيِّ ضميره ، مضْمِرا من حُسْنِ بيَـانِه ما يُستغنىٰ بقليله عن كثيره ، مقرِّبا إلىٰ أذهان الطلبة بتهذيب ألفاظِه الرائقة ما يُفيـد ، مُورِدا من علومه المدوّنةِ ما يجمع له بين نَوادِر المقدّمات ومَدَارِك التمهيد ، مُوَفِّيا نظرَها بحسن التدبير حقَّ النظر ، موفِّرا رِزْقها بمـا يُصَدِّق الخُبْرُ فيه الخَبَر ، قاصِـدًا بذٰلك وجهَ الله الذى لا يُخَيِّب لراجٍ أملا ، معامِلا فيه اللهَ معاملةَ من يَعْلم أنه لا يُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحسَنَ عملا . ومِلاكُ الوصايا تقوى الله تعـالىٰ فليجعَلْها إمامَه ، ويتخيَّلْها فى كل الأحوال أَمامَه ، والله تعالىٰ يسدّده فى قوله وعمله ، ويبلِّغه من رضاه نهايةَ سؤله وغايةَ أملِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسـخة توقيع بالتدريس بقُبَّة الصالح ، أنشأتُه اقاضى القضاة جَمال الدين «يوسُفَ البِساطِىّ» بعـد أن كُتِب له بهـا مع قَضاء القُضاة المـالكية ، فى العَشْر الأخير من شعبان سنة أربع وثمـانمـائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل للعلم جَمَالا تتهافَتُ علىٰ دَرْكه محاسِنُ الفضائل ، وتتوارَدُ علىٰ ثبوت محامِده المتوارِدةِ قواطِعُ الدلائل ، وتُحقِّق شواهدُ الحـال من فضله ما يُتَلَمَّح فيه من لوائح المَخَايل .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمه التى ما آستهلَّتْ علىٰ وَلِىّ فأقلَعَ عنه غَمامُها ، ولا آسـتقرَّتْ بيد صفِىّ فآنتُزِعتْ من يَده حيثُ تَصرّف زِمَامُها ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُزْهِر بمعالم الدِّين غُروسُها ، وتَيْنَـع بثمار الفوائد المتتابِعة دُروسُها ،

وأن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسوله أشرفُ الأنبياء قَدْرا ، وأوّلُهم فى عُلُوّ المرتبة مكانًا وإن كان آخِرَهم فى الوجود عَصْرا ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الحائزين بقُرْبه أنفَرَ المناقب ، والفائزينَ من دَرَجة الفضل بأرفَع المراتِب ؛ صلاةً تكون لِحلَق الذِّكر نِظاما ، ولأوّلها ٱفْتِتاحا ولآخرها خِتَاما ؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ من شِيَمنا الشريفه ، وسَجَايانا الزاكيةِ المُنِيفه ؛ أنا إذا منَحْنا مَنْحا لا نَستَعِيده ، وإذا أعطينا عَطاءً لا ننقُصه بل نَزِيدُه ؛ وإذا قرّبنا وليًّا لا نُقْصيه ، وإذا أنعمنا علىٰ صَفِىّ إنعاما لا نَعُدّه عليه ولا نُحْصيه .

ولمّا كان تدريسُ المدرسة المالكية بقُبّة الصالح من أعلىٰ دُرُوسهم قَدْرا ، وأرفَعِها لدىٰ التحقيق ذِكرا ، وأعظمِها إذا ذُكِرت الدروس فَخْرا ؛ إذ بمجال جِدَاله تنفَطِر المَرَائر ، وبمَيْدانِ مَباحثه تشتهر البُلْقُ من مُضْمَرات الضمائر ؛ وبسُوق مُنَاظرته يتميّز النُّضَار عن الشَّبَه ، وبمحَكّ مُطارحته تتبيّن الحقائقُ من الشُّبَه ؛ وبمَظانّ مجالسه يُعرَف العالى والسافِل ، وبمَعْركة فُرْسانه يُعرَف مَن المفضُولُ والفاضل ؛ ومن ثَمّ لا يَلِيه من علمائهم إلا الفُحُول ، ولا يتصدّىٰ لتدريسه إلا مَنْ أمسىٰ بحُسَام لسانه علىٰ الأقْران يَصُول ؛ ولم يزَلْ فى جملة الوظائف المضافة لقضاء القُضاة فى الأوّل والآخر ، تابعًا لمنْصِب الحكم فى الوِلاية كلَّ زمن إلا فى القليلِ النادر ؛ وكان المجلس العالى ، القاضوىّ ، الكبيرىّ (إلىٰ آخر ألقابه) أدام الله تعالىٰ نعمتَه قد ٱشتملَتْ ولايتُه عليه لٱبتداء الأمر ٱستحقاقا ، وحَفِظَه كَرمُنا عليه فلم يجِد الغيرُ إليه ٱستِطْراقا ـ ٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُتْبِع ذلك بولاية ثانيةٍ تُؤكّد حُكمَ الولاية الأُولىٰ ، ونُرْدِفَه بتوقيع يجمع له شرفَ القُدْمة والجمع ولو بوجه أَوْلىٰ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المُولَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزَّيْنىّ ـ لا زال يعتمِد فى مَشاهد الملوك أتمَّ المصالح ، ويُخُصُّ الصالحَ منهم بمَزِيد النَّظر حتَّى يقال ما أحسَنَ نظَرَ الناصر فى مَصَالح الصَّالح ! ـ أن يستمِرّ المجلسُ العالى المشارُ إليه علىٰ ما بِيَدِه من الولاية الشريفةِ بالتدريس بقُبَّة الصالح المذكورة ، ومَنْع المُعارِض وإبطال ما كُتِب به وما سيُكْتَب ما دام ذٰلك فى يده ؛ علىٰ أتَمِّ العوائد وأكملها ، وأحسَنِ القواعد وأجملها .

فليتلَقَّ ما فُوِّض إليه بكِلْتا يدَيْه ، وليشْكُرْ إحساننا الشريفَ علىٰ هذه المِنْحة فإنَّها نعمةٌ جديدةٌ توجبُ مزيدَ الشكر عليه ؛ وليتصدَّرْ بهذا الدرس الذى لم تزل القلُوبُ تتقطَّع علىٰ إدراكه حَسَرات ، ويتصدَّ لإلقاء فوائده التى إذا سمعها السامع قال : هُنا تُسْكَبُ العبَرات ، ويُبرِزْ لفُرْسان الطَّلَبة من ... ...(1) صدْره من كَمِينه ، ويُفِضْ علىٰ جدَاولهم الجافَّة ماسَحَّ به فكره من يَنَابِيع مَعِينه ؛ مستخرجًا لهم من قامُوس قريحته دُرَر ذٰلك البَحْر الزاخر ، مُظْهِرا من مكنُونِ علمه مالا يُعلم لِمَدّه أوَّلٌ ولا يُدرك لمَدَاه آخر ؛ ويُنفِقْ من ذخائر فضلِه ما هو بإنفاقه مَلِىٌّ ، متفقِّدا بفضل غَنَائه من هو عن فرائده المُرْبِحة غيرُ غَنِىّ ؛ مقرّرًا للبحْث تقريرًا يزول معه الإلتباس ، مسْنِدا فروعَه النامية إلىٰ أثبتِ الأصول من الكتاب والسنَّة والإجماع والقِياس ؛ معتمِدا لما عليه جادَّةُ مذهَبه فى الترجيح ، جاريًا علىٰ ما ذهب إليه جَهابذةُ محقِّقيه من التصحيح ؛ مُقْبِلا بطَلَاقة وجهه فى دَرْسه علىٰ جماعتِه ، باذلًا فى آستمالتهم طاقةَ جُهدِه محسنا إليهم جُهدَ طاقته ؛ مربِّيا لهم كما يُربِّى الوالدُ الولد ، مُوفِّيا من حقوقهم [فى] التعليم ما يبقىٰ له ذِكْرُه علىٰ الأبَد ؛ منمِّيا ناشئتَهم بالتدريب الحَسَن تنميةَ الغُروس ، جاهدًا فى ترقِّيهم بالتدريج حتَّى يؤَهَّل من لم يكن تُظَنُّ فيه أهليةُ الطلب لأنْ يتصدّىٰ

(1) بياض بالأصل بقدر كلمة .

للفَتَاوىٰ وإلقـاء الدُّروس ، سالكا من مناهج التقوىٰ أحسنَ المسالك ، مُورِدا من تحقيقات مذهَبِه ما إذا لَمحَه اللامِحُ لم يشُكَّ أنه لِزمام المذْهَب مالِك ؛ والله تعـالىٰ يُجْرِيه علىٰ ما ألِفه من مَوارد إنعامه ، ويمتِّع [هذه الرتبة] السنِيَّة : تارةً بمجالس دُرُوسه وتارة بمجالس أحكامِه ؛ والاعتماد ... ...

* * *

وهــذه نسخة توقيع بتدريس الحـديث بالجامع الحـاكِمىّ ، من إنشاء الشِّهاب «محمودٍ الحلبىّ» للشيخ قُطْب الدين «عبد الكريم» وهى :

الحمـدُ لله الذى أطلَع فى أُفُق السـنَّة الشريفة من أعلام علمائها قُطْبا ، وأظهر فى مَطالِعها من أعيان أئمَّتهـا نُجوما أضاءَ بهـم الوجودُ شَرْقا وغَرْبا ، وأقام لحِفْظها من أئمة أعلامها أعلامًا أحسَنُوا عن سَنَدها دِفاعا وأجملوا عن مُتُونها ذَبّا ، وشَرَّف بها أهلَها فكلَّما بَعُدتْ راحلتُهم فى طلبها ٱزدادُوا من الله قُرْبا ، وٱختار لحَمْلها أُمناءَ شَغَفَتْ محاسِنُهم قلوبَ أهل الفِرَق علىٰ ٱختلافها حُبّا ، وسلَكُوا باتباعها سَنَن السُّـنَن فأمنُوا أن تُروِّع لهم الشُّبَهُ سِرْبا ؛ وألهمَنا من تعظيم هذه الطائفةِ ما مهَّد لهم فى ظِل تقرُّبنا إليـه مَقَاما كريمًـا ومَنْزِلا رَحْبا ، وعصَم آراءَنا فى الآرتيادِ له من الخَلَل فلا نَختـار له إلا من تُسَرُّ باختياره طَلَبَة وتُغْبَط بتعيينه أئمةٌ ونُرضِى بٱرتيادِه رَبّا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى صانَتْ هذه الرتبةَ السنيَّة بأكْفائهـا ، وزانَتْ هـذه المرتبةَ الشريفةَ بمن لم تَمِل عينُه فى تأثيل قَواعدها إلىٰ إغْفائها ، وجعلتْ هذه الدرجةَ العليَّة فَلَكا تُشْرِق فيه لأئمَّـة الحديث أنوارُ علوم تَفْنىٰ الدُّهورُ دُونَ إطفائها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهـادةَ مُجادل عن سُـنَّته الشريفةِ بألسِنة أسنَّته ، مجالِدٍ عن كلمتها العاليةِ بقَبْض مَعاقِد سُيُوفه وإطلاق أعِنَّته ، باعث

بالجهاد دعوتها إلىٰ كلّ قلب كان عن قبولها فى حُجُب أكنّته . ونشهد أنّ محمدا عبده ورسولُه الذى أُوتىَ جوامعَ الكَلِم ، ولوامعَ السُّنّة التى من آعتصم بها عُصِم ومَنْ سَلَّم بها سَلِم ؛ فهى مع كتاب الله أصلُ شَرْعه القويم ، وحبلُ حكمه الذى لا تُمكَّنُ يدُ الباطل من [حل] عِقْده النظيم ، وكنوزُ دِينه التى لا يُلَقَّاها إلا ذُو حظٍّ عظيم ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَضُّوا علىٰ سُنّته بالنّواجذ ، وذَبُّوا عن شريعته بسُيُوف الجِلاد القواطع وسِهَام الجِدَال النوافذ ، صلاةً لا يزال يُقام فرضُها ، ويُمْلأ بها طُولُ البسيطة وعَرْضُها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أَوْلىٰ ما توجَّهت الهِمَمُ إلىٰ آرتياد أئمّته ، وتوفَّرت الدَّواعى علىٰ التقرُّب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفويض مَناصبه إلىٰ البَرَرة الكِرام من أُمَّته ـ علمُ الحديث النبوىّ صلواتُ الله وسلامُه علىٰ قائله ، وحفظُه بدروسه التى جَعَلتْ أواخِرَ زمنه فى صِحّة نَقْله ومعرفةِ أَسْراره كأوائِله ؛ وأن(١) نختار لذلك من نَشَأ فى طَلَبه حتَّى آكتهل ، وسَرىٰ فى تحصيله سُرَىٰ الأهلَّة حتَّى آكتمل ؛ وغُذِّى بلِبان التبحُّر فيه حتى آمتزَج بأديمه ، وجَدّ فى تحصيله وآجتهد حتَّى ساوىٰ [فى] الطلَب بين حديثِ عُمْره وقديمه ؛ وحَفِظ من مُتُونه ، ما بمثله يستَحِقُّ أن يُدعىٰ حافظا ، وغلَب علىٰ فُنونه ، حتّى قلَّ أن يُرى [بغير] علومه والنظرِ فى أحكامه لافظا ؛ فإنّه بعد كتاب الله العزيز مادّةُ هذا الدِّين الذى يُحْكَم بنُصوصه ، وتتفاوت رُتَبُ العلماء فى حُسْن العمل بمطلَقه ومقيَّده وعُمومه وخُصوصه ؛ وعنهما تفرّعت أحكامُ المِلّة فملأت عُلُومُها جميعَ الآفاق ، وزكَتْ أحكامُها الشرعيةُ علىٰ كَثْرة الإنفاق ؛ وسرىٰ الناس منها علىٰ المَحَجّة التى آستوىٰ فى الإشراق ليلُها ونهارُها ، وعَلَا علىٰ المِلَل بالبراهين القاطعة نُورُها ومنارُها ؛ وكفىٰ أهلَها شرفًا أنهم يذُبُّون عن سنّة نبيهم ذَبَّ اللُّيوث ، ويجُودُون

(١) لم يتقدّم ما يعطف عليه ولعل الأصل «فوجب أن نهتم به أجل اهتمام ، وأن نختار الخ» .

علىٰ الأسماع بما ينفَع الناسَ فى أمر دينهم ودُنْياهم منها جَوْدَ الغُيوث ، ويُحافِظون علىٰ ألفاظها محافظةَ من سمِعها منه صلى الله وسلم عليه ، ويعظِّمُون مجالسَ إيرادها ونَقْلِها حتَّى كأنهم لحسن الأدَب جلوس بين يدَيْه ؛ ويُغالُون فى العُلق طلبا للقُرْب منه وذٰلك من أسْنَى المَطالب ، ويَرْحَلُون لضَمِّ شَوارده من الآفاق فياقُرْبَ المَشارق عندهم من المَغارب ! .

ولما كان المجلسُ السامىّ الفلانىّ : هو الذى عُنِى بكلِّ ماذُكر من وصفٍ كريم ، وحديثِ وَرَع قديم ، وقِدَم هِجرة فى علم الحديث ٱقتضَتْ له حُسنَ أوْلَوِيَّة ووجُوبَ تقديم ؛ وتلقَّى هذا العلم كما وُصِف عن أئمَّته حتَّى صار من أعيانهم ، ولقِىَ منهم عُلَمَاءَ أضحى باقتفائهم كما كانوا رُحْلَةَ زمانهم ؛ ونظر فى عُلُومه فأتقنَها فكأنه ينطِقُ فيها بلسان ٱبنِ الصَّلاح ، وأحرزَ غاياتِ الكمال ، فى أسماء الرِّجال ، فإلىٰ ٱطِّلاعه يُرجَع فى تجريح المجرَّح وتعديل الصِّحاح ؛ وكان منصبُ تدريس الحديث الشريف النبوىّ الذى أنشأناه بالجامع الحاكمىّ تكثيراً لنشر أحاديثِ مَنْ لاينطق عن الهوىٰ ، ونوَيْناه لٱرتواء الرُّواة من بحر هذا العلم الشريف بالإعانة علىٰ ذلك وإنَّما لكُلِّ ٱمرئٍ ما نوىٰ ، قد ٱستُغْرِقَتْ أوقاتُ مباشره بتفويضنا الحكم العزيز علىٰ مذهبه إليه ، وتوفير زمانه على ... ... [(١)](#) .

قلت : وتختلِف أحوالُ التواقيع التى تُكتَب بالتداريس باختلاف موضُوعاتها : من تدريس التفسير ، والحديث ، والفقه ، واللُّغة ، والنحْو ، وغير ذلك ، فى براعة الٱستهلال والوصايا ، وهو فى الوصايا آكَدُ .

---

(١) ترك هنا بياضا للبقية ولعله لم يكمله اتكالا على ماهو معروف ومشهور فى مثله .

وهذه نُسَخ وصايا أوردها فى التعريف :

وصية مدرِّس — ولْيَطْلُع فى مِحْرابه كالبَدْر وحولَهُ هـالَةُ تلك الحَلَقـه[1]، وقد وقَتْ أهدابُ ذلك السوادِ منه أعظَمَ آسْودادًا من الحَدَقه ؛ وليَرْقَ سَجَّادتَه التى هى لِبْدة جَوادِه إذا آستَنَّ الجدال فى المِضْمار، ولْيُخْفِ [أضواءَ] أولئك العلماءِ الذين هم كالنُّجوم كما تتضاءَلُ الكواكبُ فى مَطالِع الأقْمار، ولْيُبْرِزْ لهم من وراء المحراب كمِينَـه ، وليُفِضْ علىٰ جَداوِلهم الجافَّة مَعِينَه ؛ وليَقْذِف لهم من جَنَبات مابين جَنْبيه دُرَر ذٰلك البحر العَجَّاج، ولْيُرِهِمْ من غُرَرِ جياده ما يُعْلَم به أنَّ سوابِقَه لايهُولُها قَطْع الفِجَاج ؛ ولْيُظْهِرْ لهم من مكنُون علمه ما كان يُخْفيه الوَقَار، ولْيَهَبْ من مَمْنُون فضله مايَهَبُ منه عن ظَهْرِ غِنًى أهلَ الآفتقار ؛ وليُقرِّرْ تلك البُحُوث ويبيِّنْ ما يرِدُ عليها ، وما يُرَدُّ به من مَنَعها وتطرّق بالنقْض إليها ؛ حتَّى لا تنفصل الجماعةُ إلا بعـد ظُهور الترجيح ، والإجماعِ علىٰ كلمةٍ واحدةٍ علىٰ الصحيح ؛ وليُقْبِلْ فى الدروس طَلْقَ الوجه علىٰ جَمَاعته، وليستَمِلْهم إليه بجُهْد آستطاعته ؛ ولْيُرَبِّهم كما يُرَبِّى الوالدُ الولَد، وليستَحْسِنْ ما تَجيء به أفكارهم وإلا فـكم رَجلٍ بالجَبْـه لبِنْتِ فِكْرٍ وأَد ؛ هذا إلىٰ أخذِهم بالآشـتغال، وقَدْح أذهانِهِم للاشْـتِعال ؛ ولْيُنَشِّئ الطلبة حتّٰى يُنَمِّى منهم الغُروس، ويؤهِّلَ منهم مَنْ كانَ لايُظَنُّ منه أنه يتَعلَّم لأن يُعَلِّمَ ويُلْقِيَ الدُّروس .

وصية مقرئ :

ولْيَدُمْ علىٰ ماهو عليه من تلاوة القرءان فإنه مِصْباحُ قلبه، وصَلاحُ قُرْبه، وصَباح القَبول المُؤْذِنِ له برضا ربه ؛ وليجعَلْ سُـوَره له أسْوارا، وآياتِه تُظْهِر بين عينيه

(١) جرى فى تحريك لام الحلقة على ما رواه يونس عن أبى عمرو بن العلاء من كونه لغة فى السكون أنظر " المصباح " .

أنوارا ؛ وليتْلُ القُرءان بحُروفِه وإذا قرأ آستعاذ ، وليجمَعْ طُرُقه وهى التى عليها الجمهور ويَتْرُك الشَّواذّ ، ولا يرتَدَّ دونَ غايةٍ لإقْصار ، ولا يقِفْ فبعد أن أتمَّ لم يبْقَ بحمد الله إحصار ، وليتوسَّعْ فى مذاهِبه ولا يخرُجْ عن قراءة القُرَّاء السبعة أئمة الأمصار ؛ وليبذُلْ للطَّلَبة الرِّغاب ، وليُشْبِع فإنَّ ذَوِى النَّهْمة سِغَاب ، وليُبِرِ الناسَ ما وَهبه الله من الاقتدار فإنه آحتضَنَ السَّبْع ودخَل الغاب ؛ وليُتِمَّ مبانِىَ ما أتم « آبنُ عامر » و « أبو عمرو » له التعْمير ، ولَفَّه « الكِسَائى » فى كسائه ولم يقل جَدِّى « آبنُ كثير » ؛ وحُمَّ به « لحمزة » أن يعُودَ ذاهبُ الزمان ، وعُلِم أنه لا « عاصِمَ » من أمر الله يُلْجأ معه إليه وهو الطُّوفان ؛ وطَفِق يتفجَّر علما وقد وقفَت السُّيول الدَّوافع ، وضَرأ كثرُ قرّاء الزمان لعدم تفهيمهم وهو « نافع » ؛ وليُقْبِل علىٰ ذَوِى الإقبال علىٰ الطَّلَب ، وليأْخُذْهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد آنتَسَب ؛ وهو يعلم ما مَنَّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النَّعماء ، ووصل سبَبَه منه بحبل الله الممتدِّ من الأرض إلىٰ السماء ؛ فليَقْدُر حقَّ هذه النعمة بحسن إقباله علىٰ التعليم ، والإنصاف إذا سُئِل فعِلْمُ الله ما يتَناهَىٰ ﴿ وفَوْقَ كلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم ﴾ .

وصية محدّث :

وقد أصبح بالسنَّة النبَوِيَّة مضْطلِعا ، وعلىٰ ما جمعتْه طرُقُ أهل الحديث مُطَّلِعا ؛ وصَحَّ [فى] الصحيح أنَّ حديثَه الحسَن ، وأنَّ المرسَلَ منه فى الطلَب مقْطُوع عنه كُلُّ ذى لَسَن ؛ وأنَّ سنَدَه هو المأخوذُ عن العَوَالى ، وسَماعه هو المرقِّص منه طُولَ الليالى ؛ وأنَّ مثله لا يُوجَد فى نَسَبه المُعْرِق ، ولا يُعرَف مثلُه للحافظيْن « آبنِ عبد البَرِّ » بالمَغْرِبِ و « خَطيبِ بَغْدادَ » بالمَشْرِق ؛ وهو يعلم مِقدارَ طلب الطالب فإنه طالما شَدّ له النِّطاق ، وسعىٰ له سَعْيه وتجشَّمَ المَشاقّ ؛ وآرتحل له يشتدّ به حرصُه والمَطَايا

مُرْزِمه ، و ينبِّهُه له طلَبُـه والجُفون مُقْفَـلة والعُيون مُهَوِّمه ؛ ووقَف علىٰ الأبواب لا يُضْـجِره طولُ الوقوفِ حتى يُؤذَن له فى وُلُوجها ، وقعَـد القُرْفُصاءَ فى المجالس لا تَضيق به علىٰ قِصَر فُروجِها .

فليُعامِلِ الطلبةَ إذا أتَوْه للفائدة معاملةَ من جَرَّب ، ولُيُنشِّط الأقرباءَ منهم ويُؤْنِس الغرباء فما هو إلا ممن طلب آونةً من قريب وآونةً تَغَرَّب ؛ وليُسْفِر لهم صَباحُ قصده عن النَّجاح ، ولينْتقِ لهم من عُقُوده الصِّحاح ؛ وليوَضِّح لهم الحديث ، وليُرِحْ خواطرَهم بتقريبه ما كان يُسَار إليه السَّيْرَ الحثِيث ؛ وليُوتِهم مما وسَّع الله عليه فيه المجَال ، ويعَلِّمْهم ما يجب تعليمُه من المُتُون والرجال ؛ ويبصِّرْهم بمواقع الجَرْح والتعـديل ، والتوجيه والتعليـل ، والصحيح والمعتـلّ الذى تتناثَرُ أعضاؤُه سُقْما كالعليل ؛ وغير ذلك مما لرجال هـذا الشان به عِنَـايه ، وما يُنَقَّب فيـه عن دراية أو يُقْنَع فيـه بمجرّد رِوَايه ؛ ومثـله ما يُزاد حلمـا ، ولا يُعْرَف بمن رَخَّص فى حديثٍ موضوعٍ أو كَتَم عِلْمـا .

وصـيةُ نحوىّ :

وهو زيدُ الزَّمان ، الذى يُضرَب به المَثَل ، وعَمْرو الأوان ، وقد كَثُر من سيبويه المَلَل ، وما زِنِىّ الوقت ولكنه الذى لم تُسْتَبَحْ منـه الإبل ؛ وكسائىّ الدَّهْر الذى لو تقـدّم لمـا آختار غيْرَه الرشـيدُ للمأمون ، وذُو السؤْدَد ، لا أبو الأسود ، مع أنه ذُو السابقة والأجر الممْنُون ؛ وهو ذو البِرِّ المـأْثور ، والقدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذَيْل فخَـاره المجرور ؛ والمعروفُ بمـا لا يُنْـكر لمثله من الحَزْم ، والذاهب عمـلُه الصـالحُ بكل العوامل التى لم يبْقِ منهـا لحَسُوده إلا الجَزْم ؛ وهو ذُو الأبنِيَـة التى لا يُفْصِـح عن مثلِها الإعراب ، ولا يُعرَف أفْصَحُ منها فيما أُخِذَ عن الأعراب ؛

والذى أصبحت أهدابُه فوقَ عمائم الغمائم تُلَاث ، ولم يزلْ طُولَ الدهر يُشْكَر منه أمسُه ويومُه وغَدُه وإنما الكلماتُ ثلاث . فلْيتصدَّ للإفاده ، وليعلِّمْهم مثلَ ما ذُكِر فيه من علم النحو نحوَ هذا وزياده ؛ وليكن للطلبة نجمًا به يهْتدىٰ ، وليرفع بتعليمه قدْرَ كل حَبْرٍ يكون خبرًا له وهو المبتدا ؛ وليقدِّمْ منهم كلَّ من صَلَح للتبريز ، وٱستحقَّ أن يُنصَب إمامًا بالتمييز ؛ وليُورِدْ من موارِده أعذَبَ النِّطاف ، وليجرّ إليه كلَّ مضاف إليه ومُضاف ؛ وليُوقِفْهم علىٰ حقائق الأسماء ، ويُعرِّفْهم دقائقَ البحوث حتَّى ٱشتقاقَ الاسم هل هو من السُّمُوّ أو من السِّماء ؛ وليبيِّن لهم الأسماءَ الأعجميَّة المنقولةَ والعربيةَ الخالصه ، وليدُلَّهم علىٰ أحسن الأفعال لا ما يُشْتَبه فيه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصه ؛ وليحَفِّظْهم المُثُل وكلماتِ الشُّعراء ، ولينصِب نفْسَه لحَدّ أذهان بعضهم ببعض نصبَ الإغراء ؛ وليعاملْ جماعة المستفيدين منه بالعَطْف ، ومع هذا كلِّه فليرفُقْ بهم فما بلغ أحدٌ علما بقوّة ولا غايةً بعَسْف .

* * *

وهذه وصية لغوىّ أوردها فى التعريف[١] .

---

(١) بياض بأصله ، ولم تذكر هذه الوصية فى نسخة "التعريف" التى بيدنا .

الوظيفة الثـامنـــة
(التصـــدير)

وموضوعه الجلوس بصَدْر المجالس بجامع أونحوه . ويجلس متكلِّم أمامَه علىٰ كُرْسىّ كأنه يقرأ عليه ، يفتتح بالتفسير ثم بالرَّقائق والوَعْظيَّات ، فإذا آنتهىٰ كلامُه وسكت ، أخذ المتصــدّر فى الكلام علىٰ ما هو فى معنىٰ تفسـير الآية التى يقع الكلامُ عليها ، ويستــدرج من ذٰلك إلىٰ ماسنَح له من الكلام . وربمــا أُفْرد التصديرُ عن المتكلم علىٰ الكرسىّ .

وهذه نسـخةُ توقيع بتصـديرٍ أنشأتُه للشيخ شهاب الدين « أحمدَ الأنصارىّ » الشهير بـ«ـالشابِّ التائب» بالجامع الأزهر، وهى :

رسم ... ...[1] لا زالتْ صدَقاتُه الشريفةُ تخُصُّ المجالسَ بمَنْ إذا جلس صدْرَ مجلس كان لرتبته أجملَ صَدْرٍ يجتبىٰ من علَماء التفسير، ومن إذا دقَّق لم يفهم ... ...[2] عنه وإذا سلك سبيل الإيضاح كان كلامُه فى الحقيقةِ تفْسيرَ تفسير، وتَصطفِى من سَرَاة الأماثل مَنْ دارَ نعتُه بين « الشابِّ التــائب » و « الشيخ الصالح » فكان له أكرمُ نعتٍ علىٰ كلِّ تقدير ــ أن يستمرَّ المجلس السامىّ أدام ــ الله تعالىٰ رفعته ــ فى كذا وكذا ، لأنَّه الإمامُ الذى لاتُسامىٰ علومُه ولا تُسام، والعلَّامة الذى لاتُدْرَكُ مَدَارِكُه ولا تُرام، والحَبْرُ الذى تنعقدُ علىٰ فضله الخَنَــاصر، وفارسُ الحَلْبــة الذى يَعْتَرِف بالقُصور عن مجاراةِ جِيَاده الُمناظِر، وآيةُ التفسير التى لاتُنْسَخ ، وعَقْد حقيقتهِ الذى لا يُفْسَخ ، والمــاهرُ الذى آســتحقَّ بمَهَارته التصــدير، والجــامعُ لفُنونه المتنوّعة

(١) أى بالامر الشريف الخ .

(٢) بياض بالأصل ولعله «لم يفهم شرحه إلا عنه» أو نحو ذلك .

جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير ، وترْجمانُ معانيه الآتى من غرائب تأويله بالعَجَب العُجاب ، والعارفُ بهَدْى طريقه الذى إذا قال قال الَّذى عِنْدَه عِلْمٌ من الكِتاب ، وزاهدُ الوقت الذى زيَّن بالعلم العمَل ، وناسِكُ الدهر الذى قَصَّر عن مَبْلَغ مَدَاه الأمل .

فليتلَقَّ ما أُلقِيَ إليه بالقَبول ، ولَيسْتنِدْ إلىٰ صدْرِ مجلس يقُول فيه ويطُول ، وليبيِّنْ من معانى كتاب الله ما أجمَلْ ، ويوَضِّحْ من خفيِّ مقاصده ما أَشْكَل ، وليَسْلُكْ فى تفسيره أقومَ سَنَن ، ويُعْلِنْ بأسراره الخفيَّة فسرُّ كتابِ الله أجْدَرُ أن يكون عن عَلَن ، وليَجْرِ فيه علىٰ ما أُلِف من تحقيقاته فإنه إذا لم يحقِّق المناظِرةَ فَمَنْ ؟ ، وليأخُذْ مشايخَ أهل مجلسه بالإحسان ، كما أحسَن الله إليه فهل جَزَاءُ الإحْسان إلا الإحْسَان ، ويحُضَّ شَبابهم علىٰ التوبة ليُحِبَّهم الله فيتَّصل فى المحبة سنَدُهم فإن « الشابَّ التائبَ » حبيبُ الرحمن ، والله تعالىٰ يرقِّيه إلىٰ أرفعِ الذُّرا ، ويرفعَ مجلِسَه السامى علىٰ محل الثُّريَّا (وإنا لنرجُو فَوْقَ ذٰلِكَ مَظْهرا) . إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة التاسعة

(النظر)

وموضُوعه التحدُّث فى أمورٍ خاصَّة بإباحة ضَروراتها ، وعمَل مَصالحها ، وٱستخراج متحصِّل جهاتها ، وصَرْفه علىٰ الوجه المعتَبر ، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وتشتمل علىٰ عِدّة أنظار :

منها ــ نظر الأَحْباس : جمع حُبْسٍ[(١)] وهو الوَقْف : فقد تقدّم فى المقالة الثانية أنه كان أصلُ وَضْعه أراضِيَ آشتراها (الإمامُ الليثُ بن سعد رضى الله عنه)

(١) فى المختار «والحبس كالقفل ماوقف» وهو المراد هنا .

ووقفها علىٰ جهاتِ برٍّ؛ ثم تبعه الناسُ فى إضافة الأوقاف إلىٰ ذٰلك ، إلىٰ أن كانتْ وزارة الصاحبِ بهاءِ الدين ٱبن حَنَّا فى سلطنة الظاهر بيبرس البُنْدُقْدارى ، فأفردَ للجوامع والمساجد والرُّبُط والزَّوايا ونحو ذٰلك رِزَقًا ، وقصَر تحدُّثَ ناظر الأحباس ومباشِريه عليها ، وأُفردت الأوقافُ بناظرٍ ومباشِرين كما سيأتى :

وهذه نسخة توقيع بتدريس الطب بالبِيمارَسْتان المنصورى(١) ، كُتِب بها «لمهذَّب الدين» وهى :

الحمــدُ لله الذى دَبَّر بحكمته الوجُود ، وعمَّ برحمته كلَّ موجود ، وحال بنَفْع الدواء بين ضُرِّ الداء كما حالتْ عطاياه دُونَ الوُعود ؛ نحمَده ونشكره وهو المشكور المحمُود ، ونُثنى عليه خيرَ الثناء قيامًا وقُعودًا وعلىٰ الجُنُوب و فى السجُود ، ونستزيدُه من فضله فإنه أهلُ الفضل والجُود .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً اللهُ بها والملائكةُ وأولُو العــلم شُهود ؛ ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبشِّر لأمته بالجَنَّات والخلُود ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة دائمةً إلىٰ يوم الوُعُود .

وبعــد ، فإنَّا لمــا أقام الله بنا شَعائرَ الإيمــان ، وأصبح دينُه بحمد الله منصوراً بنا علىٰ سائر الأدْيان ، وجاهدْنا فى الله حقَّ الجهاد باليَد والقلب واللِّسان ، وشيَّدنا لعلومه وشرائعه كلَّ بديع الإتقان ، ورتَّبنا فيه من العلماء الأعيان كلَّ رفيع الشان ، وٱخترْنا له الأخيار من أهل العلم بالطِّب والفقه والحديث والقُرءان ؛ ورأينا كل من تقدّمنا من الملوك ، وإن سلك فى سياسة الرعية أحسَنَ سُلُوك ، قد ٱهتمَّ بعلمِ الأديان وأهمل

(١) حق هذا التوقيع أن يذكر فى تواقيع الوظيفة السابعة الخاصة بالتداريس .

علمَ الأبدان، وأنشأ كلٌّ منهم مدرسةً ولم يحْفِل بِبِيمارَسْتان، وغفَل عن قوله صلى الله عليه وسلم : «العِلْم عِلْمان»؛ ولم يأخُذ أحدا من رَعيته بالاْشتغال بعلم الطّب المُضْطّر إليه، ولا وقف وقفا علىٰ طلَبة هـذا العلم المنصوص عليه، ولا أعدّ له مكانًا يحضُر مَنْ يشتغل بهذا الفن فيه، ولا نصَب له شخصا يتمثّل هذا المشتغل لديه ــ علمنا نحن بحمد الله تعـالىٰ من ذٰلك ما جهِلُوه، وذكَرْنا من هذه القُرْبة ما أهملُوه، ووصَلْنا من هذه الأسباب الدِّينية والدُّنيوية ما فَصَلوه، وأنشأنا بِيمارَسْتانا يبْهَر العيونَ بَهْجه، ويفُوق الأبنِيةَ بالدليل والحجّة، ويحفَظ الصحةَ والعافيةَ علىٰ كل مُهْجه؛ لو حلَّه من أشْفىٰ لَعُوجِل بالشِّفا، أو جاءه من أكْمَده السُّقْم لاشْتفَى، أو أشرف عليه العُمُر بلا شِفاء لعاد عنه بشِفَا؛ ووقفْنا عليه من الأوقاف المبرورة مايملأ العينين، ويُطْرِف سمـاعُ جملته الأُذُنين، ويعيدُ عنه مَنْ أمَّه مملوء اليدين؛ وأبحنا التَّداوىَ فيـه لكل شريفٍ ومشروفٍ ومأمورٍ وأمير، وساوَيْنا فى الاْنتفاع به بينَ كل صغيرٍ وكبير، وعلمنا أن لانظير لنا فى مُلْكنا ولانظيرَ له فى إبقائه فلم نجعل لوقْفه وشرطه من نظير؛ وجعلنا فيه مكاناً للاْشتغال بعِلْم الطب الذى كاد أن يُجهَل، وشرَعنا للناس إلىٰ وِرْد بحره أعذَبَ مَنْهَل، وسهّلنا عليهم من أمره ما كان الحُـلُم به من اليقَظة أسهَل؛ وآرتدْنا له من علماء الطِّب من يصْلُح لإلقاء الدروس، وينتفِع به الرئيسُ من أهل الصِّناعة والمرءوس، ويؤتَمَن علىٰ صحة الأبدان وحِفْظ النفوس؛ فلم نجِد غيرَ رئيس هذه الطائفة أهلًا لهذه المرتبه، ولم نَرْض لها مَنْ لم تكن له هذه المَنْقبه، وعلمنا أنه متىٰ وليَها أمسىٰ بها مُعْجَبا وأضحىٰ به مُعْجَبه .

ولـما كان المجلس السامى «مهـذّب الدين» هو الرئيس المشارُ إليه، والوحيدُ الذى تُعقَد الخناصِرُ عليه؛ وكان هو الحكيم «بقراط»، بل الجليـل «سقراط»، بل الفاضل «جالينوس»، بل الأفضـل «ديسقُوريدُوس» ــ آقتضت الآراء

الشريفةُ أن تُزاد جَلَالتُه بتولية هـذا المنصب الجليل جَلالَه ، وأن تُزَفَّ إليـه تجرُّ أذيالَه ، وأن يقال : (لم يَكُ يَصْلُح إلا لَهَـا ولم تَكُ تَصْلُح إلَّا له) .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال للدِّين ناصِرا ، ولأعلامِ العُـلوم ناشِرا ـ أن يفوَّضَ إليــه تدريسُ الطب بالبيمارَسْتان المبـارك المنصوريّ ، المستجدّ الإنشاء بالقاهرة المحروسة ، علمًا بأنه المتمَهِّر فى هذا الفنّ ، وأنه عند الفِرَاسة فيه والظَّنّ ، وأنه سقراطُ الإقليم إذا كان غيرُه سِقْراط الدَّنّ ، وثقةً بأنا للجَوْهَر قد ٱلتقَطْنا ، وبالخيْر قد ٱغتَبَطْنا ، وعلىٰ الخبير قد سقَطْنا .

فليْتلَقَّ هــذه النعمةَ بالشكر الجليـل ، والحمدِ الجزيل ، والثناءِ الذى هو بالنَّمَـاء والزيادة كَفيـل ؛ ولينتصِبْ لهـذا العِلم المبارك ٱنتصابَ من يقوم بالفَرْض منـه والسنَّه ، ويُعْرَفُ له فيه الفضلُ ويُتقلَّد له فيه المِنَّه ، ويُثنىٰ علىٰ آثاره الجميلة فيه وتُثْنىٰ إليه الأعِنَّه ؛ ولُيبْطِل بتقويمه الصحَّةَ ما ألَّفه ٱبنُ «بطْلان» ، وليُرِنا بتدبيره جِبِلةَ البِر فإنه «جالينُوس» الزمان ، وليبذل النَّجاة من الأمراض والشفاءَ من الأسـقام فإنه «ٱبن سِينا» الأَوان ؛ وليجمع عنده شَملَ الطابه ، وليُعْط كلَّ طالبٍ منهم ماطلبه ، وليبلِّغْ كلَّ متَمنٍّ من الاشتغال أرَبَه ؛ وليشرَحْ لهم صدرَه ، وليبذُلْ لهم من عمره شطْرَه ، وليكْشِفْ لهم من هذا العلم المكنون سِرّه ، وليُرِهم ماخفِيَ عنهم منه جَهْره ؛ وليجعلْ منهم جماعة طَبائعيه ، وطائفةً كحَّالين وجَرائحيّه ؛ وقوما مُجبِّرِين ، وبالحديد عامِلِين ، وأُخرىٰ بأسماء الحَشائش وقُوَىٰ الأدْوية وأوصافها عالِمين ؛ وليأمُرْ كُلًّا منهم بحفظ مايجب حفظُه ، ومعرفةِ مايزيد به حَظُّه ، وليأخُذْه بما يُصلِح به لسانَه ولفظَه ، ولا يفْتِرْ عنهم فى الاشتغال لحَظَهْ ؛ وليُفْرِدْ لكل علم من العلوم طائفَــه ، ولكل فن من فنونه جماعةً بمحاسنه عارِفَهْ ؛ وليْصرِفْ إليهم من وجوه فضائله كلَّ عارِفه ،

وليَكْشِفْ لهم ما أشكل عليهم من غوامِضه فليس لها من دُون إيضاحه كاشِفَه ؛ لِيُنْشَرَ فى هذا المكان المبارَك من أرباب هذه العلوم قومٌ بعدَ قوم ، ويظهَرَ منهم فى الغد ــ إن شاء الله ــ أضعافُ ماهو ظاهرٌ منهم اليوْم؛ ولِيُقال لكلِّ من طَلَبته إذا شُرِع فى إجازته وتزْكيته : لقد أحْسنَ شيخُه الذى عليه تأدَّب ، وإنَّ مَن خرَّج هذا «المهذَّب» ؛ عاملاً فى ذٰلك بشروط الواقف أعزَّ الله نصرَه، واقفًا عند أمره أمضٰى اللهُ أمرَه؛ والخيرُ يكون . إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة توقيع بنظَر الأحباس مفتَتَحة بـ«أما بعد» وهى :

أما بعدَ حمدِ الله الذى أَذِن أن تُرْفَع بيوتُه ويُذْكَر فيها آسْمُه ، ويُكَثَّر فيها قَسْم ثوابه ويُجزل قِسْمه ، والصلاة علىٰ سيدنا محمدٍ الذى عَظُم به قطعُ دابر الكُفْر وكَثُر حَسْمُه ــ فإنَّ خيرَ مَنْ عُوِّل عليه فى تأسيس بيوتِ الله وعِمارة رُبُوعها ، ولَمِّ شَعَثها وشَعْب صَدُوعها ، والقيامِ بوظائفها ، وتسهِيل لطائفها ، وتأهيل نواحِيها ، لهُبُوط الملائكة لتلقِّى المصلِّين فيها ، مَنْ كان ذا عَزْم لاتأخُذه فى الله لومةُ لائِم ، وحَزْم لايُلِمُّ بأفعاله لَمَم المآثِم ، ونظرٍ ثاقِب ، ورغبةٍ فى آختيار جميل المآثر والمَناقِب ، ومباشرةٍ تَرْعَىٰ قوانينَ الأمور وتكتنِفُها آكتناف مُراقِب .

ولما كان فلانٌ ممَّن هذه الأوصافُ شِعَارُه ، وإلىٰ هذه الأمور بِدَارُه ، وكم كَتَب الله به للدّولة أجرَ راكِع وساجِد ، وكم شكرَتْه وذكرَتْه ألسنةُ أعلام الجوامع وأفواهُ مَحَاريب المساجِد ــ آقتضىٰ مُنِيف الملاحظةِ والمحافظةِ علىٰ كل قريبٍ من بيوتِ الله وشاهد ، أنْ خرج الأمر الشريفُ ــ لا بَرِح يكشِف الأوْجال ، ويدعُو له فى الغُدُوِّ والآصال رِجَال ــ أنْ يفوَّض لفلان نظرُ دِيوان الأحباس والجوامع والمساجد المعمورة بذكر الله تعالىٰ .

فلْيباشِرْها مبـاشرةَ من يُراقب الله [إنْ] وقَّع أو توقَّع ، وإن أطاعَ أو تَطَوّع ؛ وإن عزَل أو ولَّى ، وإنَّ أدَّب مَنْ نَهىٰ عبدا إذا صَلَّى ؛ وليجتهِدْ كُلَّ الاْجتهاد فى [صَرْف] رَيْع المساجد والجوامع فى مَصارفها الشرعيَّه ، وجهاتها المرعيَّه ؛ وليأخُذْ أهلَها بالملازمة فى أحيانِها وأوقاتِها ، وعِمَارتها بمصابيحها وآلاتِها ؛ وحفْظِ مايُحفظون به لأجْلِها ، ومعاملتهم بالكرامة التى ينبغِى أن يُعامَلَ مثلُهم بمثِلها ؛ وليحرّزْ فى إخراج الحـالات إذا خُرِّجت وأُخْرِجتْ ، وفى مستحَقَّات الأجائِر إذا آستُحِقَّت وإذا عُجِّلت ؛ وفى التواقيع إذا أُنْزلت وإذا نُزِّلت ، وفى الاْستِثْمارات التى أُهْمِلت وكان ينبغِى لو أُهِّلتْ ؛ وإذا باشر [و] ظهَر له بالمبـاشرة خَفَايا هـذا الدِّيوان ، وفَهِـم ما تحتويه جرائدُ الإحسان ، فليكُنْ إلىٰ مصالحـه أوّلَ مُبَـادر ، ويكفيه تدبُرُ قوله تعالىٰ : ﴿ إنَّمَـا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ باللّهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

قلت : وقد كنت أنشأت توقيعا بنظر الأحباس ، للقاضى « بَدْر الدين حَسَن » الشهير بابن الدَّاية ، مفتَتَحا بالحمــدُ لله ، جاء فَرْدا فى بابه . إلا أن مسوَّدته غُيِّبت عنّى ، فلم أجِدْها لأثبِتَها هاهنـا كما أثبتُّ غيرها ممـا أنشأتُه : من البَيْعاتِ والعُهود والتواقيع والرسائل وغير ذلك .

ومنها ـ نظرُ الأوقاف بمصر والقاهرة المحروستيْن ، ويدخُلُ فيه أوقافُ الحَرَمين وغـــيرهما .

وهذه نسخةُ توقيع بنظرها ، وهى :

الحمدُ لله الذى حفِظ مَعالِمَ البرّ من الدُّثُور ، وأحيَا آثارَ المعروف والأُجُور ، وصانَ الأوقافَ المحبَّسة من تبْديل الشروط علىٰ تَوالِى الأيَّام والشُّهور .

نحمَدُه علىٰ فضله الموفُور ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لها فى القُلوب نورٌ علىٰ نُور ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المؤيَّد المنصور ، الطالعُ البُدور ، المبعوثُ بالفُرْقان والنُّور ، المنعوتُ فى التوراة والإنجيل والزَّبُور ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما كَرّتِ الدُّهور ، وطلعَتْ كواكبُ ثم تَغُور .

وبعدُ ، فإنَّ أهل الخير من المؤمنين تقرّبُوا إلىٰ الله سبحانَه وتعالىٰ من طَيِّبات أموالهم بأوقافٍ وقَفُوها علىٰ وجوه البِرّ وعَرَّفوها ، وجعلُوا لها شروطا ووصَفُوها ؛ فتقبَّل الله لهم ذٰلك ، ثم ماتُوا فما آنقطع عمَلُهم بها وهم فى بَرْزَخ المَهَالك ؛ ووَلِيَها بعدَهم الأمناءُ من النُّظَّار ، فقاموا بحقُوقها وحفْظ الآثار ؛ وأَجْرَوْا بِرَّها الدارَّ فى كلِّ دارْ ، وصانُوا معالِمَها من الأغيار ، وشاركُوا واقِفِيها فى الصدقة لأنهم خُزَّانٌ أُمناءُ أخيار .

ولما كان فلان هو الذى لا يتدَنَّس عِرْضُه بشائِبه ، ولا تُمْسى المصالحُ وهى عن فكره غائِبَه ، ولا تبرَحُ نجومُ السُّعود طالعةً عليه غيرَ غائِبه ؛ وهو أهلٌ أن يُنَاط به التحدُّثُ فى جهات البرّ الموقُوفه ، وأموالِ الخير المصْرُوفه ، لأنه نَزَّه نفسَه عما ليس له فلو كانتْ أموال غيره غَنَمًا ما آختصَّ منها بصُوفَه ؛ فلذٰلك رُسم ... ... (١) .

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشَرةً حسَنة التأْثير ، جميلةَ التَّثْمير ، مأمُونَةَ التغيير ، مخصوصةً بالتعبير ؛ ولينظر فى هذه الأوقاف علىٰ آختلافها من رُبوع ومبَانى ، ومساكِنَ ومَغانى ؛ وخاناتٍ مسبَّله ، وحوانيتَ مكمَّله ؛ ومُسقَّفات معمُوره ، وساحاتٍ مأْجورةٍ غيرِ مهجُورَهْ . وليبدأ بالعمارة فإنَّها تحفظ العينَ وتكفِى البناءَ دُثُورَه ، وليتَّبع شروط الواقفين ولا يعدلْ عنها فإنَّ فى ذلك سُرورَه ؛ ويندَرِج فى هذه

(١) بيض له فى الأصل لعلمه من أمثاله السابقة .

الأوقاف ماهو علىٰ المساجد ومَوَاطِن الذِّكر : فليُقِمْ شِعارَها، وليَحْفَظْ آثارَها، وليرفَعْ مَنَـارَها ؛ والوصايا كثيرةٌ والتقوىٰ ظِلُّها المخطُوب ، ومراقبـة الله أصلُها المطلُوب ووصلُها المحبوب، والله تعالىٰ يجمع علىٰ محبّته القُلوب؛ بمنّه وكرمه ! .

ومنها ــ نظر البيمارَسْتان المنصوريّ بين القَصْرين لأرباب الأقـلام ، وهو من أجلِّ الأنظارِ وأرفعِها قَدْرا ، ما زال يتولّاه الوزراءُ وكُتّاب السرّ ومَنْ فى معناهم .
[وهذه نسخة توقيع] من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلَبيّ (١) ، وهى :

الحمـدُ لله رافِع قدرِ من كان فى خدمتِنا الشريفة كريمَ الخِلال، ومُعْلِي درجةِ من أضْفىٰ عليـه الإخلاصُ فى طاعتنا العليَّة مديدَ الظِّلال، ومجدّدِ نِعَمِ من لم يخُصَّه آعتناؤنا بغاية إلا ورَقَّتْه همَّتُه فيهـا إلىٰ أسْنىٰ رُتَب الكمال، ومفوّض النظر فى قُرَب سـلَفِنا الطاهرِ إلىٰ من لم يلاحِظْ من خواصِّـنا امرا إلا سَرَّنا ما نُشَـاهِدُ فيه من الأحوال الحَوَال .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى لا تزال تَسْرِى إلىٰ الأولياء عوارِفُها، ومِنَنِه التى لاتبرَحُ تشمل الأصفِياءَ عواطِفُها ، وآلائِه التى تُسَـدّد آراءَنا فى تفويض قُرَبِنا إلىٰ مَنْ إذا باشرها [سُرَّ] بسيرتِه السَّرِيَّة مستحِقُّها وواقِفُها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة رَفَعَ الإخلاصُ لواءَها، وأفاض الإيمـانُ علىٰ وُجُوه حَمَلتها إشراقَها وضِـياءَها ، ووالى الإيقانُ إعادةَ أدائِها بمواقِف الحقِّ وإبْداءَها ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله المخصوصُ بعُموم الشفاعة العُظْمىٰ، المقصوصُ فى السـنة ذِكرُ حوضِه الذى من شَرِب منه شَربةً فإنه بعدَها لا يَظْما ، المنصوصُ علىٰ نُبوّته فى الصُّحُف المنَزَّلة وبشَّرتْ به الهواتِفُ نَثْرا ونظْما؛ صـلَّى الله

(١) تقدمت فى وظائف الطبقة الثانية من ذوات التواقيع ببعض تغيير وآختصار .

عليـه وعلىٰ آله وصحبه الذين فازُوا من طاعته، بالرُّتب الفاخره، وحازُوا بالإخلاص فى محبَّته، سعادةَ الدنيا والآخره، وأقبلُوا علىٰ حظهـم من رضا الله ورضاه فلم يُلْوُا علىٰ خِدَع الدنيا الساحره؛ صلاةً دائمةَ الاتّصال، آمنـةً شمسُ دَوْلتِها من الغُروب والزَّوال؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـد، فإنَّ أوْلى الأمور بإنعـام النظَر فى مَصالِحِها، وأحقَّها بتوفير الفِكْر علىٰ آعتبار مَنَاهِجِها وآعتماد مَنَاجِحِها ــ أمرُ جِهات البر التى تقرِّب والدُنا السلطان الشهيد ــ قدّس الله رُوحَه ــ بهـا إلىٰ مَنْ أفاض نِعَمه عليـه، وتنوّعَ فى إنشائها فأحسَن فيها كما أحسَنَ اللهُ إليـه، ورَغِب بها فيما عندَ الله لعِلْمه أنَّ ذٰلك من أنفَس الذخائر التى أعدَّها بينَ يديْه؛ وحلَّ منها فى أكرم بُقْعة نقـلَه اللهُ بها عن سريره إلىٰ مَقْعَد صدق عنـد ربِّه، وعَمَر بها مواطِنَ العبادة فى يومِ سـلْمه بعد أنْ عفَّى علىٰ مَعَاقل الكفر فى يوم حرْبِه؛ وأقام بها مَنـارَ العلوم فعلا مَنالُهـا، وأعدّ للضُّعفاء بها من مَوادّ البِر والإلطاف مالو تعاطَتْه الأغنياءُ قصُرت عن التطاوُل إليه أموالُهـا؛ وأن نرتادَ لهـا مَنْ إذا فوّضنا إليـه أمرا تحقَّقنا صَلَاحه، وتيقَّنَّا نجاحَه؛ وآعتقدْنا تنميةَ أمواله، وآعتمدْنا فى مضاعفة آرتفـاعه وآنتفاعِه علىٰ أقوالِه وأفعالِه؛ وعلمنا من ذٰلك مالا نحتاجُ فيه إلىٰ إخبار ولا آخْتبار، ولا يحتاج فى بيان الخيرة فيه إلىٰ دليلٍ إلَّا إذا آحتاجَ إليه النَّهار؛ لنكونَ فى هـذا بمثابة مَنْ ضاعفَ لهذه القُرَب أسبابَ ثوابِها، أو جدّدَ لها وَقْفا لكونه أتىٰ بيوتَ الإحسان فى آرتياد الأكفاءِ لها من أبوابها .

ولذٰلك لمـا كان فلانٌ هو الذى صانَ أموالَ خواصِّـنا، وأبانَ عن يُمْن الآراء فى استِئْثارنا به لمَصالحنا الخاصَّةِ وآختصاصِنا؛ وآعتدَدْنا بجميل نظره فى أسباب التدبير التى تملأ الخَزائن، وتدُلُّ علىٰ أنَّ من الأولياء من هو أوقَعُ على المقاصـد من سهام

الكَائِن ، وتُحَقِّق أنه كما فى العَنَاصر الأربعة معادنُ فكذلك فى الرجال مَعَادِن ؛ ونَبَّهت أوصافُه علىٰ أنه ما وَلِىَ أمرًا إلا وكان فوق ذلك قَدْرا ، ولا آعتُمِد عليه فيما تَضيق عنه هِمَمُ الأولياء إلا رَحُب به صَدْرا ، ولا طَلَع فى أُفُق رتبةٍ هلالا إلا وتأمَّلْته العيون فى أجَلِّ دَرَج الكمال بَدْرا ؛ يُدْرِك ما نَأىٰ من مصالح ما يليه بأدْنىٰ نظر ، ويَسْبِق فى سَدَاد ما يباشره علىٰ ما يجب سَدَاد الآراء ومواقِعَ الفِكر ؛ فنحن نَزْداد كل يومٍ غبطةً بتدبيره ، ونتحقَّق أن كل ماعدقنا به إليه : من أمرٍ جليلٍ فقد أسندناه إلىٰ عارفه وفوَّضْناه إلىٰ خَبِيره ـ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُعْدِق بجميل نظره أمر هذا المُهِمِّ المقدّم لدَيْنا ، وأن نفوّض إليه نظر هذه الأوقاف التى النظرُ فى مَصَالِحها من آكد الأمور المتعيِّنة علينا .

فرسم بالأمر الشريف ـ لا زال فضلُه عمِيما ، وبِرّه يقدِّم فى الرتب مَنْ كان من الأولياء كريما ـ أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت .

فلْيَلِ هذه الرتبةَ التى أُرِيدَ بها وجهُ الله وما كان لله فهو أهَمّ ، وقُصِد بها النفعُ المتعدّى إلىٰ العُلَماء ، والفُقَراء ، والضُّعفاء ومراعاةُ ذلك من أخصِّ المصالح وأعَمّ ؛ ولينظُرْ فى عموم مصالحها وخصوصِها نظرا يَسُدّ خَلَلَها ، ويزيح عِلَلَها ، ويُعَمِّر أصولها ، ويُثَمِّر محصولها ، ويحفظ فى أماكنها أموالَها ، ويُقيم معالم العلوم فى أرجائها ، ويستنزل بها موادَّ الرحمة لساكنها بألسنة قُرَّائها ؛ ويستعيد صحّةَ مَنْ بها من الضعفاء بإعداد الذّخائر لملاطَفة أسقامها ومعالجة أدْوائها ؛ ويحافِظُ علىٰ شُروط الواقف ـ قدّس الله رُوحَه ـ فى إقامة وظائفِها ، وآعتبار مَصارِفها ؛ وتقديم ما قدّمَه مع مَلاءَة تدبيره باستكمال ذلك علىٰ أكمل ما يجب ، وتمييز حواصلِها بما يستدعى إليها من الأصناف التى يعِزُّ وجودُها ويُجْتلب ؛ وضبط تلك الحواصل التى لا خزائن لها أوثقُ من أيدى

أمنائه وثِقاته، ولا مُودَع لها أوفقُ من أمانة من يتقِي الله حقَّ تُقاته؛ وليفعل فى ذلك جميعِه ماعرَفْناه من تدبيره الجميل خُبْرا وخبرا، وحَمِدناه فى كل مايليه وِرْدا فى المصالح وصَـدَرا؛ فإنه ـ بحمد الله ـ الميمونُ نظرًا وتصرُّفا، المأمونُ نزاهة وتعفُّفا؛ الكريمُ سجيَّةً وطِباعا، الرحيبُ فى تلقِّى المهمات الجليلة صَدْرا و باعا؛ فلذلك وكَلْناه فى الوصايا إلى حُسْن معرفته وآطِّلاعه، ويُمْن نُهوضه بمصالحنا وآضْطِلاعه؛ والله تعالى يُسَدِّده فى قولِه وعمـلِه، ويحقِّق بالوقُوف مع مَرَاضِى الله تعـالى ومَرَاضِينا غايَةَ أمله؛ إن شاء الله تعالى.

*
* *

ومنها ـ نظر الجامع الناصرىّ بقلعة الجَبَل.

وهـذه نسخةُ توقيع بنظره، كُتِب به للقاضى جلالِ الدين القَزْوِينِىِّ وهو يومئذ قاضى قُضاة الشافعيَّة بالديار المِصريَّة، وهى:

الحمدُ لله الذى زادبِنـا الدين رِفْعةً وجَلالا، وجعل لنا على إعلاء مَنار الإسـلام إقْبالا، وأحسن لنظَرِنا الشريفِ فى كلِّ آختيـارٍ مآلا، ووفّق مَرامِى مَرَامِنا لمن أخلَصْنا عليه آتِّكالا.

نحمَدُه حمدا يتواتَرُ ويتوالى، ويُقرِّب من المُنَى مَنَالا، وتُنِير به معاهدُ نِعَمه عندنا وتَتلالا، ونُديمه إدامةً لا نَبْغِى عنها حِولًا ولا آنتِقالا.

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نصدِّقها نيَّة ومَقَالا، ونرجُو بالتَّغالى فيها القَبولَ منـه تعالى، ويتراسَلُ عليها القلبُ واللسانُ فلا يعترِى ذاك سهْوٌ ولا يخاف هذا كَلالا؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله الذى كَرُم صَحابةً وآلا، ودَلَّهم على الرُّشـد فورَّثُوه من علماء الأمّة رجالا، صلَّى الله عليه وعليهم صلاةً نَسترعى عليها

من الحَفَظة أكْفاءً أَكْفالا ، ونستمدّ لرُقُمها المُذْهَبات بُكَرا وآصالا ، وتسمو إليه الأنفاسُ سُمُوَّ حَبَاب المـاء حالًا فحالا ، ما مدّتِ الليالِى علىٰ أيّامها ظِلَالا ، وما بلغ سوادُ شَبابها من بياضِ صُبْحِ اكْتِهالَا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ من بَنىٰ حقَّ عليه أن يُشيد(١) ، ومن أراد [أن] سنَّته الحُسْنىٰ تبقىٰ فليتخذ مُعِينا علىٰ ما يُريد ، ومن أنشأ بِرًّا فلا بُدّ من مباشِرٍ عنـه يضْمَن له التجديد ، ويُظَنُّ به مع تأثيرِه التَّخْليد ، ومَنْ تاجرَ لله بمعروف فما يَسْخُو بالمُشاركة فيه إلا لمن يَقُوم مَقَام نَفْسه أو يَزِيد ، ومن بَدأ جميلا فشَرْطُ صَلاحه أن يُسْنِده إلىٰ مَنْ له بالمراقبة تَقْيِيد ، فيما يُبْدئُ ويُعيد ، وأيُّ إشادةٍ أقوىٰ ، من التأسيس علىٰ التقوىٰ ، أو معين أجلُّ من حاكم آستخلصناه لنا ولإخْوانِنا المسلمين ، أو مباشِر أنفعُ ، من سيدٍ آرتدىٰ بالمَجْد وتلَفَّع ، وتروَّى بالعلوم وتضَلَّع ، أو مشارِكٍ فى الخير أوْلىٰ من وَلِيٍّ قلَّدناه دِينَنا قبل الدُّنْيا ، وأعلَيْناه بالمنصبَيْنِ : الحُكْمِ والخَطَابة فتصرَّف منهما بينَ الكلمة العالية والدَّرَجة العُلْيـا ، أو أحسَنُ مراقبةً من حَبْرٍ يعبدُ اللهَ كأنَّه يراه ، وإمامٍ يدعُو إليه دُعاءَ أوّابٍ أوّاه ، قد آنفردَ بمجمُوع المحَاسن يَقِينا ، وأصبح قدْرُه الجلىّ الجليل يغنِينا وعن المـدائح يُغْنِينا ، فحسبُنا الوصفُ إيضاحًا وتبْيِينا ، ولكن نُصَرِّح باسمه تَنْويهـا وتعيِينا ، وتحسينا لسِيرة أيّامنا الشريفة بعالِمِ زمانها وتزيينا ، لا عُذْرَ لفِكْرٍ لم يُنَضِّـد مناقِبَه وقد تمثلتْ مَعَاليه جَواهِر ، وقلمٍ لم يُوَشِّ الطُّروسَ بمَعانيه بعدَ ما زانَ من فنُونها أنواعَ الأزاهِر ، هو المجلسُ العالى القضائِىّ ، الإمامِىّ ، العالِمِىّ ، العاملِىّ ، العَلَّامىّ ، الكاملِىّ ، الفاضلِىّ ، القُدْوِىّ ، المُفِيدِىّ ، الخاشعِىّ ، الناسكِىّ ، الوَرَعِىّ ، الحاكِمِىّ ، الجَلَالِىّ : حجةُ الإسلام والمسلمين ، قُدوةُ العلماء العامِلِين فى العالَمِين ، بركةُ الأمه ،

---

(١) مأخوذ من أشاد بنيانه اذا طوّله . أنظر اللسان فى مادة ش و د — ج ٤ — .

عَلَّامة الأئمه ، عِزُّ السنَّه ، مؤيِّد الدَّوله ، سيفُ الشريعه ، شمسُ النظر ، مُفْتى الغُرَر ، خَطِيبُ الخُطَباء ، إمامُ البُلَغاء ، لسانُ المتكلِّمين ، حَكَمَ الملوك والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ، أبو المَعَالى محمدُ ابنُ قاضى القضاة سعدِ الدين أبى القاسم عبدالرحمن بن عُمَرَ بن أحمد القَزْوِينى قاضى القُضاة الشافعية : أدام الله عِزَّةَ الشرع الشريف بأحكامه ، وتَرْفِيهَ سُيوفِ الجِلاد وأسَلِه بلسان جِدَاله وأقلامه ؛ قاضٍ يُفَرِّق بين المهترجين(١) برأيٍ لا يَطِيش حِلْمُه ولا يَزِلُّ حُكْمُه ، ويتَّقِى الشُّبُهات بوَرَع يَتْبَعُه عملُه ويَهْديه عِلْمُه ؛ ما لَحَظ جهةً إلا حَظِيَتْ ببركة دارّة مُزْنُها ، سارِيةٍ مَناجِحُها سارٍّ يُمْنُها ؛ ولا أقبل علىٰ بيتٍ من بيوتِ الله إلا حَنّ منه إلىٰ سُبُحَات الجلال ، ولا تكلَّم فى وَقْفٍ إلا أجْراه فى صالح الأعمال علىٰ أقْومِ مِثَال ؛ ونحنُ لهذه المَزَايا نَرُدُّ إلىٰ نظره الكريم ما أهَمَّنا من عِمارةِ مسجدٍ وجامع ، ونُقَلِّده من أوقافِنا ما يَخْلُفُنا فيه خيرًا فإنَّ الأوقافَ ودائِع .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكِىّ ، الناصرىّ ـ لا زال يُصِيب الصَّواب ، ولا يَعْدُو أولِى الألباب ـ أن يفوَّض إليه نظرُ الجامع الناصرىّ المعمُورِ بذكر الله تعالىٰ ، بقَلْعة الجبل المحروسة ، وأوقافِه ، والنظرُ علىٰ التربة والمدرسة الأشرفِيَّتَيْن وأوقافِهما .

* * *

ومنها ـ نظرُ مَشْهد الإمام الحسين رضى الله عنه بالقاهرة المحروسة .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خِطَط القاهرة فى المقالة الثانية أنّ الصالحَ طلائِعَ آبنَ رُزِّيكَ حين قصد نقلَ رأسِ الإمام الحُسَين إلىٰ القاهرة ، بَنىٰ لذلك جامعَه

(١) يريد المتخاصمين ولكنا لم نعثر على هذا البناء فيما بأيدينا من كتب اللغة .

خارجَ بابِ زُوَيلة[(١)]، فبلغ ذلك الخليفةَ فأفردَ لها هذه القاعةَ من قاعات القَصْر وأمر بنَقْلها إليها .

وهذه نسخة توقيع بنظره، من إنشاء الشيخ شهابِ الدين محمودٍ الحلبي، وهي :

الحمدُ لله الذي جعل مَواطنَ الشَّرَف في أيَّامنا الزاهرة، محصُورةً في أكفائها، ومَشاهدَ السيادة في دولتنا القاهرة، مقصورةً علىٰ من حَبَتْه أوامِرُنا باعتنائها، وخصَّتْه آلاؤنا باصطفائها، الذي أجرىٰ حُسنَ النظر في مَظَانّ الآباء الطاهرة علىٰ يَد مَنْ طلع في أُفُق العَلْياء من أبنائها، وعَمَّر معاهِدَ القُرُبات بتدبير مَنْ بدأ بقواعِد دِينه وأجاد إحكامَ تشييدها وإتقانَ بنائها .

نحمده علىٰ ما خُصَّت به أيامُنا من رَفْع أقدار ذَوِي السِّيادة والشَّرف، واتَّصف به إنعامُنا من مَزِيد بِرٍّ عَلِم بحُسْن ظهُوره علىٰ الأولياء أنَّ الخيرَ في السَّرف .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُعَرِّف بها من اعترف، ويُشَرِّف قدرُ من له بالمحافَظة عليها شَغَف؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذي طهّر الله بَضْعتَه الزهراءَ وبَنِيها، وخصَّهم بمزيَّة القُربىٰ التي نزَّهه أن يسأل علىٰ الهداية أجْرا إلا المَوَدّة فيها؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين هم أجدَرُ بالكَرَم، وأحقُّ بمحَاسن الشِّيَم، وما منهم إلا مَنْ (تعرِف البَطْحاءُ وطْأتَه * والبَيْتُ يَعْرِفُه والحِلُّ والحَرَم)؛ وعلىٰ آله وأصحابه الذين أنعم الله به عليهم، واتَّبعوه في ساعةِ العُسْرة فمنهم الذين أُخرِجُوا من دِيَارهم والذين يُحِبُّون مَنْ هاجَرَ إليهم؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ مَن زُيِّنت به مواطِنُ الشَّرف، وعُدِقت به العِنايةُ بخِدْمة من دَرَج من بَيت النبوّة وسَلَف، وعُمِرت به مشاهِدُ آثارِهم التي هي في الحقيقة لهم غُرَف،

---

(١) كجهينة وسفينة . انظر شرح القاموس في مادة زول .

[ونالَتْ الدولةُ] منْ تدبيره الجميل بعض حظِّها ، وخصَّت بُقعته المباركة من نظره بما ينُوب فى خِدمةِ محلّه الشريف عن مواقع لَحْظها ، وجَعَلتْ به لابنِ رسول الله من خِدمة أبيه معها نَصيبا ، وفعلَتْ ذلك إذ خبرَتْ خدمتـه أجنبيّا علما أنها تتضاعف له إذا كان نَسِيبا ، وحكمتْ بما قام عنـدها مَقام الثُّبوت ، وأمرتْه أن يبدأ بخدمة أهلِ البيت [فإن] لازمَها لديْها مقدَّمٌ علىٰ البيوت ـ مَن طَلَع شِهابُ فضله من الشَّرَف السَّنِيِّ فى أكرم أُفُق ، وأحاطتْ به أسـبابُ السُّؤْدَد من سـائر الوجُوه إحاطةَ الطَّوْق بالعُنُق ، وزانَ الشَّرفَ بالسُّؤدَد والعـلمَ بالعمَل ، والرياسـةَ باللطف فاختارتْه المناصِبُ واختالتْ به الدُّوَل ، وتقـدّم بنَفْسه ونَفَاسـةِ أصله فكان شَوْطُ من تقدّمَه وراء خَطْوه وهو يمشِى علىٰ مَهَل ، واصـطفَتْه الدولةُ القاهرةُ لنَفْسـها فتمسَّك من المُوالاة بأوْثَقِ أسبابِها ، واعتمدَتْ عليه فى بَثِّ نِعَمِها ، وبَعْث كَرَمها ، فعرّف فى ذٰلك الأمورَ من وجهها وأتَى البيوتَ من أبوابِها ، وحَمِدَتْ وفُودُ أبوابِنـا العاليةِ لحسن سِيْرته فى إكرامهم السُّرَىٰ ، واكتفَتْ [حتى] مع تَرْك الكرامة إليهم ببَشاشةِ وجهِه التى هى خَيْر من القِرَىٰ ؛ وصان البُيوتَ عن الإقواء بتدبيرِه الذى هو من موادِّ الأرزاق ، وزاد الحواصلَ بتثميره مع كَثْرة الكُلَف التى لو حاكَتْها الغمائمُ لأمْسكَتْ خَشْيةَ الإنفاق .

ولما كان فلان هو الذى تُلِيت مناقِبُ بيته الطاهر ، وجُلِيت مفـاخِرُ أصـله الزاهر ، وتجملت بشَرَف خِلاله خِلالُ الشَّرف التى تركها الأوّلُ للآخر ، وكان مشْهَد الإمام السيد الحسين ابن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة بُقْعةً هى منْتَجَع الرحمه ، ومَظِنَّة إجابة الأُمَّه ، وروضةُ من شُرِّفت بانتقاله إليهـا ، وتربةُ شهيدِ الزهراء صلوات الله علىٰ أبيها وعليها ؛ وبه الآنَ [من] رواتب القُرُبات ووظائف العلوم وجهات الخير ما يَحتاج إلىٰ اختيار من يُجْمِل النظرَ فيه ،

ويسلُك نَهْج سلَفه فى الإعراض عن عَرَض الدنيا ويَقْتفيه ـ رأينا أن نختار لذٰلك من آخترناه لأنُفسنا فكان الكُفْءَ الكريم ، وآختَبْرناه لمصالحنا فخـبَرْنا منه الحفيظَ العليم ، وأن نُقـدّم مُهِمَّ ذلك البيتِ علىٰ مُهِمِّ بيوتنا فإنَّ حقوق آل بيتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم أَحَقُّ بالتعظيم .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ مكارمُه بتقريب ذَوِى القُرْبىٰ جَديره ، ومراسيمه علىٰ إقدار ذَوِى الرُّتب علىٰ مايجب قَديره ، ـ أن يفوّضَ إليه النظرُ علىٰ مشهد الإمام الحسين آبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة ، علىٰ قاعدة من تقدّمه فى ذٰلك ، بالمعلوم الشاهد به ديوانُ الوقف : لما قدّمْناه من أسبابٍ رجّحته لذلك ، وبيّناه من أمور أوضحَتْ فى آختيارنا له المَسَالك ؛ ومَنْ أولىٰ منـه بهذه الرتبة التى شهِدَتْ له باستحقاقها مناصِـبهُ ومَنَاسِبُه ، أو أقدَرُ منه علىٰ أمثـال هذه الوظيفة وقد أقرتْ بكماله وكرمِ خِلاله مراتبُ الباب الشريف ورَواتِبُـــه .

فليُمْعن النظرَ فى مباشَرة أوقافِ هـذه البُقعةِ المباركةِ مُظهِرا ثمرة تفويضها إليه ، مبيِّنـا نتيجةَ تعرُّضها له وعَرْضِها عليـه ، منبِّها علىٰ سِرّ التوفيق فيما وضَع أمرُنا من مقاليد أمرِها فى يدَيْه ، مجتهدًا فى تمييز أموال الوقْف من كل كاتب [حديث] ، موضِّحًا من شفقة الولد [على] مانُسِب إلىٰ الوالد ما شهِدْت به فى حقّها الأحاديث ، سالكا من خدمة ذٰلك المشهدِ ما يشهَد له به غدا عند جَدِّه ، ناشرا من ... ...(١) لواءَ فضلٍ رفْعُه فى الحقيقة رفعٌ لمجده ، وليلْحَظْ تلك المصالحَ بنظره الذى يَزِيد أموالَهـا تثمـيرا ، ورِبَاعَها تعْميرا ، وحواصلَها تميـيزا وتوفِيرا ، وآرجُ أيُّها السـيد الشريف

(١) بياض بالأصل ولعله "من عنايته به لواء الخ" .

عندَ الله تعالىٰ بذٰلك عن كل حسنةٍ عشرا إن ذٰلك [كان] علىٰ الله يسيرا . وصُنْ مابيدِك عن شوائب الأدناس : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا﴾ . وقد خبَرْنا من سيرتك وسريرتِك مالا نَحتاج أن نَزْداد به خُبْرا، ولا أنْ نبلُوَه بعد ماسَلَف مرَّةً أخرىٰ؛ ولكن نُذَكِّرك بتقوىٰ الله التى أنت بها متَّصف، وبوُجودِها فيك معروفٌ وبوُجُوبها عليك تعترِف؛ فقدِّمْها بين يدَيْك، وٱجعَلْها العُمْدة فيما ٱعتمَدْنا فيه عليك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبة الثالثة

(من الوظائف الدينية ما يُكتب فى قطع العادة الصغير، مفتتحا بـ«رُسم بالأمر الشريف»)

وهو لمن كانت رتبتُه مجلس القاضى، ورُبَّما كُتِب فيه بالسامى بغير ياء لمن قُصِد تعظيمُه وهو قليلٌ، وبه يُكتَب لأرباب الوظائف الصِّغَار من الخُطَباء، والمدرِّسين، ونُظَّار الأوقاف، وغيرِهم ممن لاينحصِرُ كثرةً .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر البِيمارَسْتَان العتِيق الذى رَتَّبه السلطانُ صَلاحُ الدين «يوسُف بن أيُّوب» فى بعض قاعات قَصْر الفاطميِّين، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زالَت أيَّامهُ تُفيد عَلَاء، وتستخدِم أكْفاء، وتُضْفى ملابِسَ النَّعماء علىٰ كلِّ علىٍّ فتكْسُوه بَهْجَةً وبَهاء ــ أن يستقِرّ فلان فى نَظَر البيمارَسْتان الصَّلاحىّ بالقاهرة المحروسة، بالمعلوم الشاهد به الدِّيوان المعمورُ إلىٰ آخر وَقْت، لكَفاءته التى ٱشتهر ذِكْرُها، وأمانته التى صدَّق خَبَرَها خُبْرُها؛ ونزاهتِه التى أضحىٰ بها

عليَّ النفس فغدَا بكل ثناء مليًّا ، ورياستِه التى أحلّتْ قدْرَه أسمىٰ رتبةٍ فلا غروَ أن يكون «عليًّا» .

فليباشِرْ نظرَ البِيمارَسْتان المذكورِ مباشرةً يظْهَرُ بها انتفاعُه ، وتتميَّزُ بها أوضاعُه ، ويَضْحىٰ عامِرَ الأرجاء والنَّواحى ، ويقول لسان حاله عند حُسْن نظره وجميل تصرُّفه : الآنَ كما بَدَا صَلَاحِى ، وليجعلْ هِمَّتَه مصروفةً إلىٰ ضَبْط مقْبُوضه ومصْروفه ، ويُظهِرْ نهضَته المعروفةَ بتثمير رَيْعه حتى تتضاعَفَ موادُّ معروفِه ، ويلاحِظْ أحوالَ مَنْ فيه ملاحظةً تُذْهِب عنهم الباس ، ويراعِ مصالحَ حالِه فى تنميته وتزكيته حتَّى لا يزالَ منه شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شِفَاء للناس ، وليتناول المعلومَ الشاهدَ به الدِّيوانُ المعمور من استقبال تاريخه بعد الخط الشريف أعلاه .

واعلم أنَّ من تواقيع أرباب الوظائف الدينية مايكتب فى هيئة أوراق الطريق ، أو علىٰ ظهور القِصَص ، وقد تقدّم .

وهذه نسخة توقيع بالتحدّث فى وقف :

رُسِمَ بالأمر الشريف العالى المولَوِىّ السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ وشرَّفه ، وأنفذه وصرَّفه ـ أن يستقرّ القاضى فلانُ الدين فلان فى التحدُّث فى الوقف الفلانىّ ، بما لذلك من المعلوم الشاهِد به كتابُ الوقف . فليعتمِدْ هذا المرسوم الشريف كلُّ واقف عليه ، ويعمَلْ بحسَبِه وبمقتضاه ، بعد الخط الشريف ، إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثـالث

(من الولايات بالحضرة السلطانية بالديار المصرية ـ الوظائفُ الديوانية)

وهى على طبقتين :

الطبقـــة الأولى

(أربابُ التقاليد، فى قطع الثلثين ممن يُكتب له «الجنابُ العالى»

وفيهـا وظيفتان)

الوظيفـــة الأولى

(الوزارة ، إذا كان متولِّيها من أرباب الأقلام، كما هو الغالِبُ)

وقد تقـدّم فى الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية نَقْـلا عن "مَسَـالك الأبصار" أن رَبَّها ثانى السلطان لو أُنصف وعُرِف حقُّه، إلا أنها لمـا حدَثَتْ عليها النيابة ، تأخّرتْ وقعَد بها مكانُها حتَّى صار المتحدِّثُ فيها كناظر المـال، لايتعـدَّى الحديثَ فيـه ولا يتَّسع له فى التصرُّف مَجَال ، ولا تمتدّ يدُه فى الولاية والعَزْل لتطلُّع السـلطان إلى الإحاطة بجَرَيان الأحوال فى الولاية والعزل . وقد تقدّم ذكر ألقابه مستوفاةً فى الكلام على مقدّمة الولايات فى الطَّرَف الأوّل من هذا الفصل، والكلامُ على طرّة تقليده فى الكلام على التقاليد .

وهذه نسخة تقليـدٍ بالوزارة ، كُتِب بها للصاحب « بهاءِ الدين بن حَنّا » . من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمدُ لله الذى وهَبَ لهذه الدولة القاهرةِ من لدنْه وليًّا، وجعل مكانَ سرِّها وشَدِّ أزْرها عليّا، ورضِيَ لهـا من لم يزل عند ربِّه مَرْضيّا .

نحمدُه على لُطْفه الذى أمسى بِنا حَفِيّا، ونشكُره على أن جعل دولتنا جنّــةً أورث تدبيرَها من عبادِه مَنْ كان تقِيّا؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُسَبِّح بهــا بُكْرة وعشيّا، ونصلِّى على سيدنا محمدٍ الذى آتاه اللهُ الكتابَ وجعله نبِيّا، صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً نتَّبِـع بها صراطًا سوِيّا.

وبعــدُ، فإنَّ أولى ما تنَغَّمتْ ألسنةُ الأقلامِ بتلاوة سُوَره، وتنعَّمتْ أفواهُ المَحابِر بالاستمداد لتسطيرِ سِيَرِه، وتناجَتِ الكِرامُ الكاتبونَ بشُكْرِ مجمَله ومفَصَّله، وتناشَدتِ الرُّواة بحُسْن لَسَــنِه وترنَّمت الحُداةُ بِطيب غَزَله، وتهــادتِ الأقاليمُ تُحَفَ معجَّله ومؤجَّله، وعنَتْ وجوهُ المَهَارِق لصُعُود كَلِمه الطيِّب ورَفْع صالحِ عَمَلِه ــ ما كان فيه شكرٌ لنعمةٍ تَمُنُّها على الدولة سعادةُ جُدُودِها وحُظُوظِها، وإفادةُ مَصُونِها ومحفُوظِها، وإرادةُ مرمُوقِها بحُسْن الاستيداع وملْحُوظِها، وحمدٌ لِمنْحةٍ أفاءَتْها بركاتٌ أحسنَتْ للمْلكة الشريفــةِ مآلا، وقرَّبتْ لهــا منَالا، وأصــلحَتْ لهــا أحْوالا، وكاثرَتْ مَــدَدَ البحر فكلَّما أجرَى ذاكَ ماءً أجرت هى مالَا؛ وإن ضَنَّت السُّحُب أنشأَتْ هى سُحُبا، وإن قيل ــ بشُحِّ سَيْحِنا ــ : رَوْنَقُ الأرض ذهَبَ، عوّضتْ عنه ذَهَبا، كَمْ لها فى الوجود من كَرَم وكرامَه، وفى الوجوه من وُسوم ووَسَامه؛ كم أحيَتْ مُهَجا، وكم جعلَتْ للدولة من أمْرِها مَخْرَجا؛ وكم وسَّعتْ أملا، وكم تركَتْ صدْرَ الحَزْن سَهْلا، وكم تركت صَــدْر الخزائنِ ضَيِّقا حَرَجا؛ كم آستخدمَتْ جَيش تَهجُّد فى بَطْن الليل، وجيشَ جِهادٍ على ظُهور الخيل؛ وكم أنفقَتْ فى واقفٍ فى قَلْبٍ بين صفُوف الحروب، وفى واقفٍ فى صفُوف المساجد من أصحاب القُلُوب؛ كم سبيلٍ يَسَّرت، وسُــعودٍ كَثَّرت؛ وكم مخاوِفَ أدبرتْ حين درّت، وكم آثارٍ فى البلاد والعباد آثرَتْ وأثرَّت، وكم وافتْ ووَفَّت، وكم كفَتْ وكَفَّت، وكم أعفَتْ وعَفَت وعَفَّت، وكم بهــا موازِينُ للأولياءِ ثَقُلت وموازينُ للأعداء خَفَّت؛ كم أَجْرتْ من وُقُوف،

وكم عُرِفَتْ بمعروف، كم بيوتِ عبادةٍ صاحبُ هذه البركات هو محرابُها، وسماءِ جُودٍ هو سَحابُها ومدينـةِ علم هو بابُها؛ تُثْنِى الليالى على تغليسه إلى المساجد فى الحَنَادِس، والأيامُ على تهجيره لعيادة الفُقَراء وحُضور الجنائز وزيارةِ القُبور الدَّوارِس؛ يكتَنُّ تحت جَناح عدْله الظاعنُ والمُقيم، وتَشْكُرُ مَبارَّه يثربُ وزمزمُ ومكّةُ والحَطِيم؛ كم عمَّتْ سُنَن تفقُّداته ونوافِلُه، وكم مرَّتْ صـدَقاتُه بالوادى ـ فَسَّح الله فى مُدّته ـ فأثنَتْ عليه رِمَالُه وبالنادى فأثنت عليه أراملُه؛ ما زار الشامَ إلا أغناه عن منّة المطر، ولا صَحِب سلطانَه فى سفر إلا قال: نِعْم الصاحبُ فى السَّفَر والحضَر.

ولمـا كان المنفردُ بهـذه البركاتِ هو واحدُ الوجُود، ومَنْ لا يُشـاركه فى المزَايا شريكٌ وإنَّ الليـالىَ بإيجاد مثْـله غيرُ وَلُود؛ وهو الذى لو لم نُسَمِّه قال سامع هذه المناقب: هذا الموصُوف، عنْد الله وعند خلقِه معْروف؛ وهذا الممدُوح، بأكثَرَ من هذه الممادح والمحامد من ربه ممدُوح ومَمْنُوح؛ وهذا المنعوتُ بذلك، قد نعتَتْه بأكثر من هذه النُّعوت الملائك؛ وإنمـا نذكُرُ نعوتَه ٱلتذاذا، فلا يعتقد خاطِبٌ ولا كاتب أنه وفَّى جلالتَه بعضَ حقِّها فإنه أشرف من هذا؛ وإذا كان ولا بدّ للمَادح أن تجول، وللقلم أن يقُول؛ فتلك بركاتُ المجلس العـالى، الصاحبىّ، السـيِّدىّ، الورَعىّ، الزاهـدىّ، العـابِدىّ، الوالِدىّ، الذُّخْرىّ، الكَفِيلىّ، المُهِّدىّ، المشـيِّدىّ، العونىّ، القِوَامىّ، النِّظامىّ، الأفضَلىّ، الأشرَفىّ، العالِمىّ، العادلىّ، البهائىّ؛ سيد الوُزَراء فى العالمين، كهف العابدين، ملجأ الصالحين؛ شرف الأولياء المتَّقين؛ مدَبِّر الدول، سدَاد الثُّغور، صلاح الممالك؛ قُدوة الملوك والسلاطين، يمينِ أمير المؤمنين؛ علىّ بن محمد: أدام الله جلاله. من تَشْرُف الأقاليمُ بحياطة قلَمه المبارك، والتقاليدُ بتجديد تنفيذه الذى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك؛ فمـا جُدّد منها إنمـا هو بمَثابة آياتٍ

فتردّد، أو بمنزلة سجلات فى كل حين بها يُحكم وفيها يُشْهَد ؛ حتى تتناقل ثبوتَه الأيامُ والليالى، ولا يخلو جيدُ دولة من أنه يكون الحالى بما لَهُ من فاخر اللآلى.

فلذلك خرج الأمرُ العالى ــ لا بَرِح يكْسِب بهاءَ الدين المحمدىّ أتمَّ الأنوار، ولا بَرِحت مراسِمُه تزهُو من قلم منَفِّذه بذى الفِقَر وذى الفَقَار ــ أن يضَمَّنَ هذا التقليدُ الشريف بالوزارة التامة، العامَّة، الشاملة، الكاملة : من المآثر الشريفة الصاحبية، البهائية، أحسنَ التضمين، وأن يُنْشر منها مايتَلَقَّى رايتَه كلُّ رَبِّ سيف وقلم باليمين ؛ وأن يُعْلِم كافَّةُ الناس ومن تضُمُّه طاعةُ هذه الدولة ومُلكُها وسِلْكُها من مَلك وأمير، وكلّ مدينةٍ ذاتِ مِنْبر وسرير ؛ وكلّ من جمَعَتْه الأقاليمُ من نُوّاب سلطنه، وذى طاعةٍ مُذْعنه ؛ وأصحابِ عقْد وحَلّ، وظَعْنٍ وحَلّ ؛ وذى جُنُود وحُشُود، ورافِعى أعلامٍ وبُنُود ؛ وكلِّ راعٍ ورعيه، وكل من ينظر فى الأمور الشرعيه ؛ وكلِّ صاحب علم وتدْرِيس، وتهليلٍ وتقديس ؛ وكلِّ من يدخُل فى حكم هذه الدولة الغالبة من شُمُوسها المضيئة، وبُدُورها المُنِيرة وشُهُبها الثاقبة، فى الممالك المصريَّة، والنُّوبيَّة، والساحليَّة، والكَرَكيَّة، والشَّوْبَكيَّة، والشاميَّة، والحَلَبية، وما يتداخَلُ بينَ ذلك، من ثُغُور وحُصُون وممالك ــ أنَّ القَلَمَ المبارَك الصاحبِيّ البَهائىّ فى جميع هذه الممالك مَبْسوط، وأمْرَ تدبيرِها به منُوط، ورِعايةَ شفقَتِه لها تَحُوط ؛ وله النظرُ فى أحوالها، وأموالها ؛ وإليه أمرُ قَوانينها، ودواوينها، وكُتَّابها، وحُسَّابها ؛ ومَرَاتبها، ورَوَاتبها ؛ وتصريفها، ومَصْروفها ؛ وإليه التولية والصَّرْف، وإلىٰ تقدُّمه البدلُ والنعتُ والتوكيدُ والعَطْف ؛ فهو صاحبُ الرُّتبة التى لا يَحُلُّها سواه وسوىٰ من هو مرتَضيه، من السادة الوزراء بَنِيه، وما سمَّينا غيرَه وغيرَهم

بالصُّحُوبيــة (١) فليحذر من يُخــاطِبُ غيْرَه [و] غيرهم بها أو يُسمِّيه؛ فكما كان والدُنا الشهيدُ رحمه الله يخــاطبه بالوالد قد خاطَبْناه بذلك وخَطَبْناه ، وما عدَلْنــا عن ذٰلك بل عَدَلْنا لأنه ما ظَلَم مَنْ أشــبَهَ أباه ؛ فمنزِلتُه لا تُسامىٰ ولا تُسام ، ومكانَتُــه لا تُرامىٰ ولا تُرام ؛ فمن قَدَح فى سِــيادته من حُسَّاده زِنادَ قَدْحٍ أُحْرِق بشَرَرِ شَرِّه ، ومَنْ رِكب إلىٰ جَلَالته ثَبَجَ سُوء أُغْرِق فى بَحْره ، ومن فَتَل لسعادته حَبْل كيدٍ فإنما فَتَلَه مُبْرِمُه لنَحْره ؛ فلتلزَمِ الألســنةُ والأقلامُ والأقدامُ فى خِدْمتِه أحسنَ الآداب ، وليقُل المتردّدون : حِطَّةٌ إذا دخلُوا الباب ؛ ولا يغترّهم فرطُ تواضُعه لدينه وتَقْواه ، فمن تأدّب معه تأدّب مَعَنا ومن تأدب مَعَنا تأدَّبَ مع الله . وليُتْلَ هــذا التقليدُ علىٰ رءوس الأشهاد ، وتُنْسَخ نُسْخَتُه حتَّى تتناقلها الأمصارُ والبِلاد ؛ فهو حجّتنا علىٰ من سمَّيناه خصُوصا ومن يدْخُل فى ذٰلك بطريق العُمُوم ، فليعمَلُوا فيه بالنص والقياس والاستنباط والمفهوم ؛ والله يَزِيد المجلس الصاحِبيَّ الوزيرىّ البهائىَّ ســيدَ الوزراء من فضله ، ويبْقيه لغاب هذه الدولةِ يصُونُه لشِبْله كما صانه لأسَده من قَبْله ، ويمتِّع بنيتِــه الصالحة التى يحسُنُ بها ـ إن شاء الله ـ نَمــاءُ الفرع كما حَسُن نمــاءُ أصلِه ، بمنِّه وكرمه ! .

⁂

وهذه نســخة تقليد بالوزارة ، كُتِب به للصاحب تاجِ الدين محمدِ بنِ فخر الدين ابن الصاحبِ بَهاءِ الدين علىِّ بن حَنَّا ، فى ربيع الأوّل سنَةَ ثلاث وتسعين وستّمائة ، من إنشاء المولىٰ شِهاب الدين محمودٍ الحلَبىّ ، تغمده الله برحمته ، وهى :

---

(١) فى التعبير بالصحوبية تسامح فى العربية .

الحمـد لله مكمّل شرفِ الوزارة بطَلْعة تاجِها ، ومشرّف قَدْرِهـا بمَنْ تُشْرق عليها أشعّة سعدِه إشراقَ الكواكب علىٰ أبراجِها ، ورافع لواءِ مجدِها بمن تلَقّته بعد الجَفَاء فى حُلَل سُرورِها وحُلِيّ ٱبتِهاجِها ، وتحلَّتْ بعدَ العَطَل منجواهر مَفاخره بما تَتَزيَّنُ عقُود السُّعود بازْدِواجِها ، وترفُل من ٱنتِسابها إلىٰ أُبَّهة بَهائه بما يَودُّ ذهَبُ الأصيل لوٱمتَزَج بسُلُوك ٱنْتِساجِها ، الذى شيَّد قواعدَ هذه المرتَبة السنيَّة فى أيَّامنا وجدّدَها ، وبعثَ لها علىٰ فَتْرة من الأكْفاء مَنْ حَسَم الأدْواءَ فكان مَسِيحَها وشَرع المَعْدَلَةَ فكان محمَّدَها ، وردَّها بحكم الآستحقاقِ إلىٰ من لا يُخْتَلَف فى أنه صاحِبُها ، ورجَعها إلىٰ من خطَبَتْه لنفسِها بعد أن أحجَم لشَرَف قَدْرها خاطبُها .

نحمدُه علىٰ أن شَدّ أَزْر مُلْكنا بأكْرِم وزِير ، وأيمَنِ مشير ، وأجلِّ مَنْ ينتهى إلىٰ بيتٍ كريم ، وحسَبٍ صَمِيم ، ومن إذا قال لسان مُلْكِنا : ﴿ ٱئْتُونِى به أستَخْلِصْهُ لِنفْسى ﴾ قالت كفايتُه : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ ٱلْأَرْض إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيم ﴾ .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُقِرّ بها سِرًّا وعَلَنَا ، ونُقِرُّ بها هذه العقيلةَ الجليلةَ عند من يكْسُوها مَجْدُه رفعةً وسَنَا ، ويُلْبِسُ جَفْنَ الدَّهر عنها وسَنَا ، ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله المخصوصُ بكل صاحبٍ شهد الكتابُ والسنّةُ بفضله ، وقام بعضُهم بحُسنِ مُؤازَرته مَقامَ من شدّ اللهُ [به] عضدَ مَن سَأَلَه وزيرًا من أهْله ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لاتَغْرُب شمسها ، ولا يعزُب أُنْسُها ، ولا يَتفاوتُ فى المحافظة عليها غَدُها وأمْسُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنّ أوْلىٰ من خَطَبَت بحمده الأقلام ، وٱفتَتَحت به الدولةُ التى ابتَسمت بنسيمها ثُغُورُ الأيام ، وودّت مسكةُ الليل لو مازَجَتْ أنفاسَه ، وأمَّل بياضُ النهار لوأخذ من غير سمة عوضَ ورق الوَرَق قِرطاسَه ، وتحاشدت النجوم لتنْتَسق فى سلك

معانيــه وطارتْ بذكره فى الآفاق أنْباء السُّــعود، وحكَمتِ الجُــدُود بأنه فى ٱقتبال إقباله نهايةُ الآباءِ وغايةُ الجُدُود ؛ وٱفتَرَّت به ثُغور الممالك عن أحسَن الدُّرِّ النَّضيد ، وسَرَتْ بذكْره رِفاقُ الآفاقِ ففِى كلِّ نادٍ مُنادٍ وفى كلِّ بَرٍّ بَرِيد ، وٱختالتْ به أعطافُ الدولة القاهرةِ فأوتْ من الرأى السَّديد إلىٰ كلِّ ركنٍ شديد، ونطق به العدلُ والحقُّ فخَرِس الظُّلم وما يُبـدئُ الباطلُ وما يُعيد، وجرتْ به أقدارُ ذَوِى الرُّتَب علىٰ أجمـل مَناهجِها فأمَّا أهـل العدل فيُقَرَّبون نجِيًّا وأما أهـل الظُّلم فأُولَئِـكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيد ، وبدَتْ به وجوهُ المصالح سـافرةً بعد الحِجَاب ، بارزةً بعد طُول الأنتِقال إلىٰ الأنتِقاب ، داخلةً بوفُود المحامد من كلِّ باب ، إلا الظُّلمَ فإنه بحمد الله قد سُدَّ ذٰلك الباب . وأقرَّ منصبُ الوزارة الشريفة أنّا أعَدْنا به الحقَّ إلىٰ نِصابه ،ورَدَدْناه إلىٰ من هو أَوْلىٰ به بعد ٱغتصـابِه، وألبَسْـناه من بَهْجة أيَّامنا تاجًا رَدَّ عليـه عِزًّا لا تطْمَع يَدُ الذَّهَب فى ٱنتزاعه عنه ولا ٱستلابِه؛ وتقليدَه لمن يودُّ الفرقَدُ لو عُقِد به إكليلُه ، ويتمنَّى الطَّرْفُ لو أدرَكَ غايةَ مَجْـدِه وإن رجع وهو حسِيرُ البصر كَلِيلُه ؛ وتفويضَ ذٰلك إلىٰ من كان له وهو فى يَدِ غيره، ومَنْ به وببيتِه تمهَّدت قواعدُه فمـا كان فيه من خيرٍ فهو من سَيرتِهم وما كان من شَرٍّ فمن قِبَل المُقَصِّر من عِثَارهم فى سَيْره ؛ وما أُحدِث فيـه من ظُلْم فهو منه بُرَاء إذْ إثم ذٰلك علىٰ من ٱجترَأَ عليه ، وما أُجْرِى به من معروف فإلىٰ طريقهم منسوبٌ وإن تَلبَّس منه بمـا لم يُعْطَ مَنْ نُسِب إليه؛ وما خلا منهم هذا الدَّستُ الكريم إلا وهم بالأولَوِيَّة فى صَدْره الجلوس، ولا تصدَّىٰ غيرُهم لتعاطِيه إلا وأقبلَتْ عليه فى أيَّامه الجُسوم وعِلْية النُّفُوس .

ولذٰلك لمَّـا كانتْ هـذه الدولةُ القاهرة مفتَتَحة بالبركات أيَّامُها، ماضيةً بكَفِّ الظلم ونَشْر العدل سُيُوفها وأقلامُها، مستهِلَّةً بالأرزاق سُحُبُ فضـلها التى لا يُقْلِـع

غمامُها ـ اقتضت الآراءُ الشريفة اختيارَ خيرِ صاحبٍ يُعين على الحق بآرائه، ويجمّل الدَّست ببهجته ورُوَائه، ويُجرِى الأرزاقَ بوجْهٍ لو تأمّله امْرُؤ ظامئُ الجوانح لارتوى من مائه؛ وكان المجلسُ العالى، الصاحبىُّ، الوزيرىُّ، التاجىّ: أدام الله تعالى نعمتَه، ورَحِم سَلَفَه، هو المخطوبَ لفضله، والمطلوبَ لهذا الدَّسْت الذى تعين له دونَ الأكفاء وإن لم يكنْ غيرُ أهْله من أهله؛ ومازال يتشوّفُ إليه تشوُّفَ البُروج إلى نُجُوم السُّعود، ويتطلّع إلى مُحَيَّاه الذى هو كَنُور الشمس فى الدُّنُوّ وكمحلّها فى الصُّعُود؛ وما زالت الأدعيةُ الصالحةُ ترتفع فى أيامه لمالكِ عَصْره، والآراءُ تُقام منها جُنودٌ لتأييده وحُشُود لنَصْره، والأموالُ تُحمَلُ منها إلى خَزائنه بأشْبَهَ بموج البحر فى الحُضْر دُونَ حَصْره.

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ ضاعفَ الله مواهبَه العَميمه، وكمّل جَلالَ دولته بتفويض أُمورها إلى ذَوِى الأصول العريقة والبُيوتِ القديمه ـ أن تُحَلَّى منه هذه الرتبةُ العلية بما حَلَّى به الدِّين، وتُعقَدَ له رايةُ فضلِها المَتين؛ ليتلقّاها شرْقًا وغَرْبا، وبُعْدًا وقربا؛ وبَرًّا وبحرا، وشامًا ومِصْرا، ويُحَلِّى حِلاه عِلْمٌ وعَلَم، وسيفٌ وقلَم؛ ومِنبَرٌ وسرير، ومأمورٌ وأمير.

فليتلَقَّ أمرَه بالطاعة كلُّ مؤتمر بأمْرِنا الشريف، جارٍ فى طاعتنا المفروضة بينَ بَيَانِ التقليد وعِنَان التصريف؛ وليُبادرْ إلى تدبير أمور الأقاليم بأقلامه المباركه، ويمضِ القواعدَ على ماتَراه آراؤُه المنزَّهة عن المنازعة فى الأمْرِ والمشاركه؛ ولْيَنْشُرْ كلمة العدل التى أمر اللهُ بإضافة الإحسانِ إليها، ويُمِتْ بِدَع الظلم فإنَّ الله يشْكُره على تلك الإماتة ويحمَدُه عليها؛ ويسهِّلْ رِزْق الصدقات، ووظائفَ القُرُبات، فإن ذلك من أجَلِّ ما قدَّمته [الطائفة] الصالحةُ بين يَدَيْها؛ ولْيُكْثِر بذلك جنودَ الليل فإنها لا تَطيش سهامُها، ويتوقَّ من مُحارَبتها بظُلْم فإنَّه لا يُداوى بالرُّقَى سِمامُها، وليعوِّذ بتمائم التيسير

مواهَبَنا فإنَّ تمام النعمة تمَـامُها، وليطلق قلَمَه فى البَسْط والقبض وليُعِدْ بتدبيره على هـذا المنصب الشريف بهجَتَه، ويتدارَكْ بآرائه ذَمَاءَه وبدوائه مُهْجَتَه، ويَصُنْ عن شوائب الظُّلم حرمتَـه، ويخلّص ذمَّتنا من المآثم وذِمَّته، وليعلَمْ أنَّ أمور المملكة الشريفة مَنُوطةٌ بآرائه وأحكامه، مضـبوطةٌ بأقواله وأقلامه، فليجعلْ فِكْرَه مرْآةً تجْلُو عليه صُوَرَها، ويُقِمْ آراءَه صُحُفا تَتْلو لدَيْه سُوَرَها، ويأمُرِ النوّاب بما يَراه من مصالحنا ليُلَبُّوه سامعين، ويُسْهِرْ جَفْنه فى مصالح البِلاد والعِباد لترْقُد الرَّعايا فى مِهَاد الأَمْن وا عين، ويعَضِّـد الشريعـةَ المطهَّرة بتنفيذ أحكامِها، وإعلاء أعلامِها، وإظهارِ أنوارها، وإقامةِ مارفعه الله من مَنَارِها، ولا يَعْدِل فى أمور مباشرتِها بالممالك الشريفة عن آرائه، ولا يُمْضِى فيها عَزْلا ولا وِلايةً إلا بعد تَتَبُّعه الواجبَ فى ذٰلك وآستقرائه، وهو أعلم بما يجب لهذه الرُّتبـة من قواعدَ إليـه يُرْجَع فى أوضاعها، وعليـه يُعوّل فى آصطلاحها لآنفرادِها فيه وآجتماعِها، فليفعَلْ فى ذٰلك ما هو عليـه بحُسْن الثناء جدير، وليعتصِمْ بالله فى أموره فإنَّه نِعْمَ المولىٰ ونِعْمَ النصير، إن شاء الله تعـالىٰ.

***

وهـذه نسخة تقليد بالوزارة، كُتِب به للصاحب ضياءِ الدين بالاستمرار على الوزارة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ:

الحمد لله الذى شَدَّ أَزْر مُلْكِنا الشريف، بمن أضاء فى أُفُق الدِّين علْمُه، وشـيَّد قواعدَ عدْلِنا المُنِيف، بمن أعْلَتْ منارَ الحق آياتُه فى أحكام الممالك وحِلْمُه، ووطَّد أركانَ دولتنا القـاهرة بمن يفعل فى نِكَاية أعداء الله فِعْلَ الحربِ العَوَانِ سِـلْمُه،

وأجرىٰ الأرزاقَ فى أيَّامنا الزاهرةِ علىٰ يَدِ من كَفَّت أقلامُه كَفَّ الحوادث فلا عُدْوانَ تغشَىٰ ظُلَمُه ولا عادٍ يُخْشىٰ ظُلْمُه ، وصانَ ممالكَنا المحروسةَ بآراء مَنْ إن صَرَف إلىٰ نكاية أعداء الله حَدّ يراعِه لم يَنْبُ موقِعُه ولم يَعْفُ كَلْمُه ، وإن صرفه فى حماية ثغر لم يُشَمْ برقُه ولم يَدِقْ بالوهم ظُلْمُه ، وإن حمىٰ جانبَ إقليم عزَّ على الأيام ثَلُّ عُروشِ ما حَماه وَشْمُه ، وإن أرهفَه لذَبٍّ عن دين الله راعتْ عدوَّ الدين منه يقظتُه وسلَّه عليه حُلْمُه .

نحمده علىٰ نِعَمه التى زانتْ أسنىٰ مناصبِ الدنيا فى أيَّامنا الزاهرةِ بضياءِ الدِّين ، وأعلَتْ أقدارَ الرُّتَب العُلْيا بتصرُّفها بآراء من أصبح عِلْمُه عَلَما للمتقين وعَمَلُه سَنَنا للمقتدين ، وفُجِّرت ينابيعُ الأرزاق فى دولتنا القاهرةِ بيَدِ من أغْنىٰ بيدنا المعتَفين وقَمَعَ بمهابتِنا المعتدين .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أعاد يُمْنُها علىٰ سَمْع المنابر من نُعوتنا ما فَقَد ، وأطفأ إعلانُها عن حَمَلتِها لَهَبَ العناد وقد وَقَد ، وفوَّضَ اعتناؤُنا بمصالح أهلها أمورَهم إلىٰ أكمل من انتقىٰ لنا التأييدُ من ذخائر العلماء وأفضل من انتَقَد ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى أقامنا الله للذَّبِّ عن أمَّته ، وجلا بنُور جهادِنا لأعدائه عن قَلْب كل مؤمن ما أظَلَّه من غَمِّه ورانَ عليه من غُمَّته ، وعضَّدنا من أئمة مِلّته بمن أردْنا مصالحَ العباد والبلادِ فى إلقاء كلِّ أمر إليه بأزمَّته ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من فاز بسَبْقِه ، وحاز بتصديقِه قدمَ صِدْقه ، واختصَّه الله بمؤازرةِ نبيِّه دُونَ مَنِ اجتباه من خَلْقه ؛ ومنهم مَن كان الشيطان يُنَكِّب عن طُرْقه ، ونَطَقَ من الصواب بما نزل الذِّكْرُ الحكيمُ علىٰ وَفْقه ، وسُمِّى الفارُوقَ لتمييزه بين الحقِّ والباطل وفَرْقِه ؛ ومنهم من قابَلَ المعتَدين

برِفْقِه وقُتِل شهيدًا علىٰ حَقِّـه ، وكانت ملائكةُ الرحمن تستَحْيِي من خُلُقِـه الكريم وكرم خُلُقِه ؛ ومنهم من طلَع [لا]معُ نُور الإيمان من أُفُقِه ، وكان سيْفُه من كل مُلْحِد فى دين الله بمثـابة قِلَادةِ عُنُقِه ، وطَلَّق الدنيا تورُّعا عنها وبيدِه مفاتيحُ ما بَسَـط الله للأُمَّة من رِزْقِه ؛ صلاةً يُقيم الإيمانُ ، فرضَها ، ويملأ بها الإيقانُ ، طُولَ البسيطة وعَرْضَها ، وتُزَيِّن كواكبُ ذِكرها ومواكبُ نَصْرها سمـاءَ الدنيا وأرضَها ؛ وسـلَّم تسليما كثيرا .

أما بعـدُ ، فإنَّ أولىٰ من رُقِمت لأعطافِ فَضْله حُلَل الكلام ، ونُظِمت لأجياد ذِكره فرائدُ المَعانِى المستـخرجةُ من بحار الفِكْر علىٰ أَلْسِنة الأقلام ؛ ووُشِّحت التقاليد من مناقبه بما هو أحسنُ من ٱتِّساق الدَّرارىِّ علىٰ هالاتِ البُدور ، وجُلِّى علىٰ المَسَامع مفاخِرُه بمـا هو أبهىٰ من النُّور فى العيون! وأحلىٰ من الأمن فى القُلُوب! وأوقعُ من الشِّفاء فى الصُّدُور ، وأُطلِعَ فى أُفُق الطروس من أوصافه شمسٌ أسفَر بأنواع العلوم ضـياؤُها ، وأُنْشِئت فى أثناء السـطور من نعْت مآثره سُحُبٌ إذا قابلتْها وجُوه الحَيَا سترها بحُمْرة البَرْق حَياؤُها ؛ وأودعتِ المَهارِق من ذِكْر خلاله لُطْفا يَوَدُّ ذهبُ الأصيل لو ناب عن أنْفاسِها ، ومُنِحت صدُورُ المعانِى من معاليه طُرَفًا تتمنَّى الرياضُ العواطرُ لو تَلَقَّتْ عن أنفاسِها ـــ مَن سَمَت الوزارةُ بٱستقرارها منه فى مَعْدِن الفضائل ، وٱتَّسمت منـه بالصاحبِ الذى أعادَتْ أيَّامُه ما فُقِـد من محَاسن السِّـيَر الأوائل ؛ وٱبتَسمتْ من علومه بالعَلَّامة الذى تتفرّعُ من أحكامه أحكامُ الفروع وتتفجَّر من تواقيعـه عُيون المسائل ، وٱتَّصفت من مَعْـدَلته بالمُنْصِف الذى هَجَر فى أيَّامه هجيرَ الحَيْف والظُّلْم فالأوقاتُ فى أيامه المباركةِ كلُّها أسحارٌ وأصائِل ؛ وٱبتهجَتْ من إنْصافه بالعادل الذى سَهَّل علىٰ ذَوِى المطالِب حِجـابَ بابه فلا يحتاجُ أن يُطْرَق بالشَّفاعات ولا أن يُستفْتَح بالوسائل ، وأشرقتْ من مفـاخِره بالكامل الذى حسُنتْ به حُلَل

الثناء فكأنها ٱبتسامُ ثُغور النَّوْر فى أثناء الخمائل ؛ فالعدْل فى أيَّامه كالإحسان شامِل ، والمعروف بأقلامه كالسُّحُب المتكفِّلة برىّ الأرض الهامِل ، والظلمُ والإنصاف مفترقان منه بين العَدَم والوجود فلا يُرى بهذا آمرا ولا يُردُّ عن هذا آمل ؛ قد أعطىٰ دَسْتَ الوزارة الشريفة حَقَّه : فالأَقْدار بآياته مَرْفُوعه ، والمضارّ بمعْدَلته مَدْفُوعه ، وكلمةُ المظلوم بإنصاف إنصاته مسمُوعه ، وأسبابُ الخيرات بحُسْن نيَّته لنيَّته الحسنة مجْموعه ؛ والأقاليمُ بِكَلاءة أقلامه محُوطه ، وأحوال المملكةِ بآرائه المشتملة علىٰ مصالحها مَنُوطه ؛ والثُّغُور بحُسْن تفقُّده مفتَرَّةُ المَباسِم ، مصُونة بإزاحة الأعذار عن مَرِّ الرِّياح النَّواسم ، آهِلةُ النَّواحِى بموالاة الحُمُول التى لا تَزَال عِيسُها بإدامة السُّرىٰ دامِيَةَ المَناسِم ؛ والبلادُ بما نَشَرتْ أقلامُه من العَدْل معمُوره ، والرَّعايا بما بسطَتْ [يدُ] إحسانه من الإحسان مَغْمُوره ، وأربابُ التصرُّف بما تقتضيه أقلامُه عن الحَيْف منهيَّةٌ وبالرِّفْق مأموره ، والأيدى بالأدْعيَة الصالحةِ لأيَّامنا الزاهرة مرتَفعه ، والرعيَّةُ لتقلُّبها فى مِهَاد الأمْن والدَّعَة بالعَيْش منتفعه ؛ وبيوتُ الأموال آهلةٌ ، علىٰ كَثْرة الإنفاق ، والغَلَال متواصلَة ، مع التوَفُّر علىٰ عِمَارة البلاد ، والحُمولُ متواليةٌ مع أَمْن من صدَرتْ عنهم علىٰ ما فى أيْديهم من الطَّوارِف والتِّلاد ؛ والأمورُ بالتيقُّظ لها علىٰ سَعةِ الممالك مضْبُوطه ، والنُّفوس بالأمْن علىٰ ما هِىَ عليه من التملِّى بالنِّعَم مغْبُوطه ؛ والمناصِبُ مَصُونة بأكفائها ، والمراتبُ آهلةٌ بالأعيان الذين تنبَّهت لهم فى أيَّامه عيُونُ الحظِّ بعد إغْفائها ؛ ومجالِسُ المعْدَلة حاليةٌ ، بأحكام سِيرتِه المُنْصِفه ، ومواطِنُ العلم عاليةٌ ، بما يُملىٰ فيها من فوائده التى أتعَبَ ألسِنة الأقلام ما فيها من صِفَه .

ولما كان الجنابُ العالى ، الصاحبِىّ ، الوزيرىّ ، الضِّيائىّ ، وزيرالممالك الشريفة ، هو الذى كَرُمت به مناسِبُها ، وعظُمَت بالآنتماء إليه مَناصِبُها ، وتحلَّت

بِعِلْمِه معاطِفُها ، ونزلَتْ علىٰ حُكم حِلْمه عوارِفُ بِرِّها العميمةُ وعَوَاطِفُها ؛ و زهَتْ بجواهِرِ فضائله أجيادُها ، وٱستَوتْ فى مَلَابِس حُلل المَسَرَّة به أيامُها الزاهيةُ وأعيادُها ؛ وأنارتْ بمَعْدَلته لياليها ، وأشرقَتْ بالاْنتظام فى سِخَاب(١) إيالته لآليها ؛ فكَمْ من أقاليمَ صان قلَمُه أموالَها ، وممالكَ حَلَّى عدْلُه أحوالَها ، وبلادٍ أعان تدبيرُه السُّحُب علىٰ رَيِّها ، وأعمال أبانَ عن ٱستغنائها بتأثيره عن مِنَّة الحَيَا حسنُ مسمُوعها ومرئِيِّها ؛ وأرزاقٍ أدرّها ، ورِزَق أجراها علىٰ قواعدِ الإحسان وأقرَّها ؛ وجهاتِ بِرٍّ أعان واقفِيها عليها ، وأسبابِ خيرٍ جعل أيَّامنا بإدامة فَتْحِها السابقةَ إليها ؛ وقَدَم سِعايةٍ أزالها وأزَلَّها ، وكلمةِ حادثةٍ أذَالَها وأذلَّها ؛ ووُجوهِ مَضرَّة ردَّها بيد المعْدَلة وصدَّها ، وأبوابِ ظُلم لا طاقةَ للرعيَّة بسُلوكها أغلقَها بيُمنىٰ يُمنه وسَدّها ؛ فدأْبُه أن يُسَدِّد إلىٰ مقاتِل العِدا باتخاذ اليَد عند الفقراء سِهامَ الليل التى لا تَصُدُّها الدُّروع ، وأن يجدِّدَ لأوليائنا من عوارِف آلائنا أخْلاف بِرّ تَرْوِى الآمالَ وهى حافلةُ الضروع ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أن نُزيِّن بجيده غُرَر التقاليد ، ونجدِّدَ إليه فى أمور وزارتنا الشريفةِ إلقاء المَقَاليد ؛ وأن نُوَشِّى الطروسَ من أوصافه بما يجدّد علىٰ أعطافها الحِبَرَ ، ونردّدَ علىٰ ألسنة الأقاليم من نُعوته مالا تَمَلُّ المسامعُ إيرادَ الخَبَر منه بعد الخَبَر.

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المَولوِىّ ، السُّلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ ـ لازال الدِّين فى أيامه الشريفةِ مُشْرِقا ضياؤُه ، آهلةً باعتلائه مَرابِعُ الوُجُود وأحياؤُه ، ممدُودةً علىٰ الامّة ظِلالُه الوارفةُ وأفياؤُه ـ أن يُجدَّد هذا التقليد باستقراره تجديداً لا يُبلِي الدهرُ حُلَلَه ، ولا تقوِّض الأيام حِلَله(٢) ؛ بل يُشْرِق فى أُفُق الممالك إشراقَ

---

(١) السخاب بكسر السين المهملة و بالخاء المعجمة قلادة من مسك وقرنفل ومحاب بلا جوهر جمعه ككتب .

(٢) جمع حلة بالكسر بمعنى البيوت وهى مائة فما فوقها انظر المصباح .

النجوم الثَّوابت ، و يتفرّعُ فى مصالح المُلْك تفرُّعِ الأفنان الناشئة فى الأُصول النَّوابت ؛ وتختالُ به مناصِبُ الدولة القاهرة فى أسنىٰ مَلابِسها ، وتُضىء به مواطِنُ العلوم إضاءةَ صَباحةِ المِصباح فى يَدِ قابِسِها ؛ وتُستَرْنَعُ لنا به الأدعيةُ الصالحة من كلِّ لسان ، وتُجتلىٰ به لأيامنا الزاهرة من كل أُفُق وجوهُ الشُّكْر الحِسَان .

فلتَجْر أقلامُه فى مَصالح دولتِنا الشريفةِ علىٰ أفضل عادَتها ، و يُرسِلْها فى نَشْر العدْل علىٰ سجيَّتها وفى إجراء الجُود علىٰ جادّتِها ، و يَكُفّ بها أكُفَّ الحوادث فإنما تُزال أسبابُ الظلم بَحَسْم مادّتها ؛ ولِينْطِقها فى مَصالح الأموال بما تظَلُّ له مسامِعُ الحُمول مُصْغيه ، و يُطْلِقُها فى عِمارة البِلاد بما تغْدو له ألسِنةُ الخِصْب حافظةً ولما عَدَاه مُلْغِيه ؛ وكذٰلك الخزائن التى هى معاقلُ الإسلام وحُصونُه ، وحِماه الذى لا يُبتَذَلُ بغير أمرنا الشريف فى مصالح المُلْك والمِلَّة مَصُونُه ؛ فليجعلها بتدبيره كالبِحار التى لا تنْقُص بكثْرة الوُرّاد جِمامُها ، ولا تنْزَحُها السُّحُب لكثرة ما تحمِلُ الى الآفاق غَمامُها ؛ ولتكُنْ كلمةُ العدل من أهمِّ ما تُفتَتَح به مجالِسُه ، وآكَدِ ما يُؤمَرُ به مُحاضِرُه من الأولياء ومُجالِسُه ، وأزكىٰ ما يَستجيدُ [به] لاستثمار الدعاء الصالح مَغارِسَه ، وأوثَقِ ما يحُوط به حِمىٰ الملك الذى إذ اغفَا جَفْنُ عينِه كان حارِسَه . وأوّلِ ما ينبغى أن يُنافِس عليه حاضِر دَسْته وغائبَه ، وأوْلىٰ ما يُعِدّ علىٰ إهماله نَكالَه و يَعُدّ علىٰ إقامته رغائبَه .

ولْيلاحِظْ من مَصالح كلِّ إقليم ما كأنَّه ينظر إليه بعين قلبه ، و يمثِّلُ صورتَه فى مِرْآة لُبِّه ؛ فيُقِرّ كلَّ أمر علىٰ ما يَراه من سَدَاده ، و يُقَرِّر حال كلِّ ثغر علىٰ ما يحصُل به المراد فى سِدَاده ؛ فيغدُو لأعذاره بموالاة الحُمُول إليه مُزِيحا ، و يمسى بسَدّ خَلَله لخواطر أهل الكفر مُتْعِباً ولخواطرنا الشريفة مُرِيحا ؛ و ينظر فى أحوال

من به من الجُنْد والرجال بما يؤكِّد الطاعةَ عليهم ، ويجدّد الاستطاعةَ لديهم ؛ ويُزيل أعذارهم واعتذارَهم [بوصول حقوقهم اليهم ، ويُوفِّرهم علىٰ إعداد الأهبة للأعداءِ] (١) إذا أتَوْهم من فَوْرِهم ، ويكُفُّهم بإدرار الأرزاقِ عليهم عن اعتدائِهم علىٰ الرعايا وجَوْرِهم ؛ ويتفقَّد من أحوال مباشِريها ووُلاة الحكم والتحكُّم فيها ما يعلمون به أنه مناقِشُهم علىٰ الأمور اليَسيره ، والهَفَوات التى يَرَوْنها قليلة وهى بالنسبة إلىٰ كثرة الرَّعايا كثيره ؛ ويتعاهدُ أمور الرتب الدينيَّة فلا تؤخَذُ مناصبُها بالمَناسب ، ولا تَغْدُو أوقافُها المُعَدّة لاكتساب العلوم فى المَكاسب ؛ بل يتعين أن يرتادَ لها العلماءَ الأعيان حيثُ حَلُّوا ، ويُقرِّر فى رتَبِها الأئمَّةَ الأكفاءَ وإلا اتخذ النـاسُ رُءُوسا جُهَّالا فضَلُّوا وأضَلُّوا . ولتكنْ أقلامُه علىٰ كلِّ ما جرتْ به العوائدُ فى ذلك محتَويه ، وأيامُه علىٰ أكمل القواعد فى ذٰلك وغيره منطَويه ، فما ثَمَّ شيءٌ من قواعد الوِزارة الشريفة خارجٌ عن حكمه فلْيكتُبْ يُمتَثل ، وليقُلْ فى مصالح دولتنا القاهرة يكُن قولُه أمضَىٰ من الظُّبَا وأسْرىٰ من الصَّبا وأسيَرَ من المَثَل ؛ فلا تُمضىٰ فى ذٰلك ولايةٌ ولا عَزْل ، ولا مَنْع ولا بَذْل ، ولا عقْد [ولا] حل ؛ إلا وهو معدُوق بآرائه ، متوقِّف علىٰ تنفيذِه وإمضائِه ؛ متلقٍّ ما يقرّر فيه من تِلْقائه ، وفى الاكتفاء بِسيرته ما يُغنِى عن إطرائه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نُسخة تقليد بالوزارة :

الحمد لله الذى شَدَّ لدولتنا القاهرة باصطفاء أشرف الوزراء أزْرا ، وخصَّ أيَّامَنا الزاهرةَ باجتباء مَنْ حماها عدْلُه أن تَضَع أو تحمِل وِزْرا ، وأفاض إنعامَنا علىٰ مَنْ طلع

(١) الزيادة من التقليد الآتى بعد .

فى أُفُق خدمتنا هلالًا واستقلَّ بحسن السَّيْر والسِّيرة بَدْرا ، وضاعفَ إحسانَنا لمن [لا] نرفَعُه إلىٰ رتبة شرف إلا وكان أجلَّ الأكفاء علىٰ ذٰلك قُدْرةً وقَدْرا ، وجمَّل مُلْكنا بمن إذا افتخرت الدُّول ببعض مناقبه كفاها ذٰلك جلالا وفخْرا ، وإذا ادَّخرت تدبيره وبذلَتْ ما عداه فحَسْبُها ما أبقَتْه وقايةً للملك وذُخْرا ، وبسط عدْلَنا فى الأقاليم بيد مَنْ حين أمرْنا القلمَ بتقليده ذٰلك سجَد فى الطِّرس شكْرا ، وافتتح بحمد الله يُذَكِّر النعمةَ به علىٰ آلائه إنَّ فى ذٰلك لَذِكْرىٰ ، وأخذ فى وصف دُرَرِ مَفَاخره التى تمثَّلت له فنَضَّدها دُون أن يستدعِىَ رَوِيَّةً أو يُعْمِل فِكْرا .

نحمده حَمْدَ من والىٰ إلىٰ أوليائه ، مَوادَّ النِّعم ، وأضفىٰ علىٰ أصفيائه ، ملابِسَ الكَرَم ، وحفِظ لمن أخلَص فى طاعته مَعارفَ معروفه التى هى فى أهل النُّهىٰ ذِمَم ، ونبَّه لمصالح رعاياه مَنْ عمّ عدْلُه وإن لم يَغْفُ عن ملاحظة أمورهم ولم يَنَمْ .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لاشريك له شهادةً نُعلِنُها ونُعلِيها ، ونُرْخِص أرواحَ جاحديها ونُغْلِيها ، ونُوالى النِّعَمَ علىٰ المتمسِّك بها ونُولِيها ، ونقرِّب بيُمْنها رُتَبَ الأولياء من إحساننا ونُدْنِيها ، ونجدِّد لهم بتأييدها ملابِسَ المِنَن نُظْهِرُ عليهم آثارَ النِّعم السنية فيها ، ونرفَعُهم بحسن عنايتنا إلىٰ أشرف غايةٍ كانوا يُسِرُّون أهليَّتهم لها والله يُبْدِيها ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أقامنا لنصر دينه فقمْنا به كما أمَرْ ، وأبقىٰ علىٰ أيَّامنا حكْمَ أيَّامه فاستمرّ الحالُ علىٰ ماسبقَتْ به دعوتُه من تأييد الدين بعُمَر ، وخَصَّنا ممن ينتمى إلىٰ أصحابه بأجلِّ صاحبٍ ينُوب عن شمس عَدْلنا فى محو ظُلْمة الظُّلْم مَنابَ القَمَر ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الزُّهْر الغُرَر ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنَّ أوْلىٰ من اختيرت جواهرُ الكلام لوَصْف مفاخره ، وانتُخِبت غُرَرُ المعانى لوَصْف آثاره فى مصالح الإسلام ومآثِره ؛ وقامتْ خطباءُ الاقلام علىٰ منابِرِ

الأنامل بشيرةً بيُمْن أيّامه ، وتطلَّعت مُقَل الكواكب مشيرةً إلىٰ ما أقبل علىٰ الأقاليم من إقباله وسَحَّت سُحُبُ أقلامه ؛ وتبرَّجت زُهْر النجوم لينتظِم فى عُقُود مناقبه سعودُها ، وتأرَّجت أرجاءُ المَهَارق إذ تبلَّج من ليلٍ عن فجرٍ عمودُها ؛ وسارت به أنباءُ السُّعود والقلَم الناطق بذكره وهو المحلِّق الميمُون طائره ، والطِّرس الموشَّع بشكره وهو المخلَق الذى تملأ الدنيا بَشائِره ـ من استخلصَتْه الدولةُ القاهرة لنفسها فتملَّاها عينا وسُرَّ بها قَلْبا ، وآختصَّتْه بخواصها الشريفة فرَحُب بها صَدْرا ولبَّاها لُبّا ، وكافَ بمؤازرتها ذاتها حتَّى قيل : هـذه ﴿تُراوِدُ فَتَاهَا عن نَفْسه قد شَغَفَها حُبًّا﴾ ؛ وأحلَّته من وزارتها الشريفة بالمكان الأسْنىٰ والحرَم الحريز ، وأثنَتْ علىٰ فضله الأسمىٰ بلسان الكَرَم البسيط الوجيز ، وآعتمدَتْ فى أمور رعاياها علىٰ ما فيه من عَدْل ووَرَع لا يُنْكَر وُجودُهما من مثله وهو فى الحقيقة عُمَرُ بنُ عبد العزيز ، وأدنَتْه عنايتُنا منَّا لما فيه من فضلٍ عميم ، وحسَبٍ صميم ، ونَسَبٍ حديثُ مجْده قديم ، وأصالة إذا آفتخرت يوما تميمٌ بقومها قالت أين تميمُك من جدِّه صاحبِ رسول الله صلى الله عليه وسلم تَميم ؛ وغرستْه لنفسها وطال ذٰلك الغرسُ وطابَ الثَّمر ، وآعتضدَتْ بتدبيره فكان له عند أطرافِ العَوَالى فى مكانه الأعزّ أظْرَف سَمَر ، ووثِقَتْ بما فيه من عَدْل ومعرفة لا يُنْكَرُ من نحا الصوابَ آجتماعهما فى عُمَر ؛ وآشتقَّت له بإحساننا من نِسْبته وَصْفا جميلا ونعتا جَليلا ، وخصَّته لمزيَّة ذٰلك الآشتقاق بمزيد قُرْبنا فأمسىٰ فى خدمتِنا جَليلا وأصبَح خَليلا ؛ ورعَتْ له ما قد تمَّ من تدبير أتىٰ عليه بنفسه ، وسَدَادٍ ظهَرتْ مزيَّتُه كل يوم منه علىٰ أمْسه ؛ وسعْيٍ جميل مابَرِح فى مصالح الإسلام رائحا وغاديا ، واجتهادٍ فى أمور أهل الجهاد مابَرِح يَدْأبُ فيه علما بما أعَدّ اللهُ لمن جهَّز غازيا ؛ ودانَ له من حُسْن ملاحظته الأمورَ ما ليس للوصف به من

قبل، وتأملت ما يُكشف له على البُعد من المصالح التى يأمر بالصواب فيها وكيف لا وعُمرُ الذى شاهد السَّرِيَّة على البُعْد من سارية الجبل؛ وأيقنتْ ببسط العدل فى الرَّعايا إذ هو مؤتمِر والعادل آمر، وتحققت عمارةَ البلاد على يديه لأنَّ عُمرَ بحُكْم العَدْل عند الحقيقة عامر .

ولذلك لما كان المجلس العالى الفخرى - ضاعف الله نعمته - هو الذى قرَّبتْه طاعتُنا نجيًّا، ورفعته ولايتُنا مكانًا عليًّا، وحقَّق له آجتهادُه فى مصالح الإسلام الأَملَ من رِضانا وكان عند ربه مَرْضيًّا، وأخلص فى خدمة دولتنا الشريفة فاتَّخذتْه لخاصِّ الأمور وعامّتها صفيًّا، وأظهر مابطَن من جميل اجتهاده فجعلتْه لمصالح المُلْك وزيرا وصاحبًا ووَليًّا؛ وأنجزتْ منه لتدبير أمور الممالك ما كان الزَّمنُ به ماطلا، وأجرَتْ على يده التى هى مليَّة بتصريف الأرزاق ما لا يَبْرَح غمامُه هاطلا، وقلَّدته رعايةَ الأمور وأُمورَ الرعايا علمًا أنه لا يترْك لله حقًّا ولا يأخذُ باطلا، وقلَّدتْ جيدَه بأسنى حِلَى هذه الرتبة الجليلة وإن لم يكن منها بحُكْم قُربه منا عاطلا، ورفعتْ له لواء عدل ما زال له بالمُنى فى أيامنا الشريفة حامِلا، وكمَّلتْ له ببلوغ الغاية من أُفُق العُلُوّ رفعةَ قدره وما زال المُؤَهَّل للكمال باعتبار ما يئُول إليه كامِلا، ونوَّهتْ بذكره وما كان لظهور مَخايِل هذا المنصب الجليل عليه فى وقتٍ خاملا، ونظرَت الرعايا فما عدلتْ بهم عن بَرٍّ رفيق، وصاحبٍ شفيق، ووزيرٍ عُمَرىّ السيرة ماسلكَ طريقا إلا وعدلَ شيطانُ الظلم عن ذٰلك الطريق؛ وكان هذا المنصب الجليل غايةً مدارُ الممالك عليها، وقبلةً تَوَجَّهُ وجوهُ أهل الطاعة فيما يُفَاض عليهم من نِعَمنا إليها؛ وهو الذى يتدرَّع صاحبُه من أنواع الطاعات لَبُوسا، ويعالِجُ من أدواء المَهامِّ ما بغير عزائِمه لا يُوسى، ويتردَّد فى المخالَصة والمناصَحة من مالكِ أمره بمنزلة هارُون من مُوسى - اقتضت آراؤُنا الشريفة ان نُفوِّض ذٰلك إلى مَنْ نهض فى طاعتنا

الشريفة بما يجب ، وعلمنا تحرُّزه لدينه ولنا فيما يأتى ويجتنب ؛ ومن تُزاد به مع فخره أيّامُنا الشريفة فخرا ، ويُصبح له مع ماله من الجلالة فى نفسه رُتَبُ جلالةٍ أُخرىٰ .

ولهذا رسم بالأمر الشريف العالى المولوىّ ، السلطانىّ ، الملكىّ ، الفلانى : ــ لا زال يُصرّف الأقدار بيمين أيّامه ، ويُشرّف الأقدارَ ببرّه وإنعامه ، ويُدرّ علىٰ الأولياء وابِلَ جُوده الذى تخجل الدِّيَمُ من دَوامه ــ أن تفوّض إليه الوزارةُ الشريفة الكاملةُ علىٰ جميع الممالك الإسلامية : شرْقا وغرْبا ، وبُعْدا وقربا ؛ وبرًّا وبحْرا ، وشاما ومِصْرا ؛ علىٰ أجمل القَواعد فى ذٰلك وأكملِها ، وأسنىٰ الفوائد وأفضلِها ، وأتمّ الأحوالِ التى يُستغنىٰ بمجملها عن مفصَّلها .

فليُعْطِ هذه الرتبةَ من جلالته حَظًّا كانتْ من إبطائه علىٰ وَجَل ، ويُجارِ الغمائمَ بوابِل إنعامنا الذى يُعْلَم به أن حُمْرة البَرْقِ فى أثنائه خَجَل ؛ ويُطلقْ قلمه فى مصالح الدولة القاهرة بَسْطا وقَبْضا ، وإبراما ونَقْضا ، وتدبيرًا يُعين النِّيلَ والغَمَام علىٰ تَتَبُّع المَحْل ماوجَدَ كلٌّ منهما أرْضا ؛ ويُعمِلْ آراءه المباركَةَ تدبيرا للمناجح وتَدْريبا ، وتقريرًا للقواعد وتَقْريبا ، ونظرًا يجعل لكلِّ عملٍ من ملاحظته نَصيبا ، وفكرا يحاسبُ به علىٰ حقوق الله وحقوق خَلْقه فإنَّ الله هو المناقِشُ علىٰ ذٰلك ﴿وكَفَى بِاللهِ حَسِيبا﴾ .

ويبدَأُ بالعَدْل الذى رسم الله به وبالإحسان فى مُلْكِنا الشريف ، ويخفِّفُ ــ مع الجمع بين المصالح ــ عن خَلْق الله الوطأةَ فإنَّ الإنسانَ ضعيف ، وينْجِزْ لأولياء دولتنا موادَّ الارزاق فإنَّ سيْفَ المنْع الذى نُحاشِي أيّامَنا عن تجريده أقلُّ نِكايةً من التسويف ، ويمنَعُ الوُلاةَ من ظُلم الرعايَا باعتبار أحوالهم دُونَ أقوالهم فإنَّ منهم من يدَّعى العدل ويجُور ويُظْهر الرِّفق ويَحِيف ؛ وليتتبَّعْ أدواءَ المَحْل تتبّعَ طبيبٍ خبير ،

ويُصرّف الأمورَ بجميل تدبيرِه فإنّ البركة معْدوقةٌ بحُسْن التدبير، ويستقبِلْ رَىَّ البلاد — إن شاء الله تعالىٰ — بسَدَاد حَزْم يُغْتفر به هذا القليل لذٰلك الكثير، ويستَخلِف بالرِّفق والعدْل أضعافَ مافاتَ فى أمْسه فإنّ ذٰلك على الله يَسير. وليهتّم ببُيوت الأموال فيُوالى إتيانَ الحُمول إليها من أبوابِها، ويضاعِفُ بها الحواصلَ التى لا يُطَّلَع بغير حُسْن التدبير علىٰ أسبابِها، فإنّها مَعادِنُ الذخائر ومَوارِدُ الرجال، وإذا أعدّ منها جِبالًا شوامِخَ تَلَا إنفاقُنا فى سبيل الله: ﴿ ويَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَال ﴾.

وكذٰلك الخزائنُ التى هى مَعاقِلُ الإسلام وحُصُونُه، وحِمَاهُ الذى لا يُبْتذل بغير أمرِنا الشريف فى مَصَالح الملك والمِلة مَصُونُه، فيجعلها بتدبيره الجميلِ كالبِحار التى لا تنقُص بكَثْرة الورّاد جِمامُها، ولا تَنْزَحها السُّحُب علىٰ كثرة ماتحمِل إلىٰ الآفاق غَمَامُها؛ وليُلاحِظْ من مصالح كلّ إقليم بما تُمثّله له على البُعْد أفكارُه، ويأمر فى أحوال مَنْ به من الجند بمايُؤكّد الطاعةَ عليهم، ويجدّد الاستطاعة لدَيْهم، ويُزيح أعذارَهم واعتِذارَهم بوصُول حقُوقهم إليهم؛ ويُوفّرُهم علىٰ إعداد الأُهْبة للأعداء إذا أتَوْهم من فَوْرهم، ويكُفُّهم بإدرار الأرزاق عليهم عن اعتدائِهم على الرعايا وجَوْرهم؛ ويجعلُ ثغورَ كل جانبٍ — بتيسير محصُولها، وتثميرِ ذخائرِها التى هى من مَوارِد رجالها — مُصَفَّحة بالصِّفاح، مُشْرِقةً بأسنَّة الرِّماح، مسدُودةً من جهة العدُوّ عنها مسالكُ الرياح؛ ويتفقَّد من أحوال مباشِريه، ووُلاةِ الحكم والتحكُّم فيه؛ مايعلمُون به أنه مناقِشُهم على الأمور اليسيره، والهفَواتِ التى يرَوْنَها قليلةً وهى بالنسبة إلىٰ كثرة الرعايا كَثيره، والأحوالِ التى إذا عدَّدها الكتّاب عليهم قالوا: ﴿ يا وَيْلَتَنا ما لِهٰذَا الكِتَابِ لا يُغَادِرُ صغيرةً ولا كَبيره ﴾، ويتعاهدُ أمورَ الرُّتب الدينية فلا تؤخذ مناصبها بالمَنَاسِب، ولا تُعَدّ رِزَقُها المعدّةُ لاكتساب العِلم فى المَكاسب؛ بل يتعيّن أن يَرْتادَ

لذلك العلماءَ الأعلام حيث حَلُّوا ، ويقرِّر فى مراتبها الأكفاءَ وإلا اتخذ الناس رُءوسا جُهّالا فضَلُّوا وأضَلُّوا ، وقد جعلنا [أمره] فى ذلك جميعه من أمرنا ، فليقُلْ يُمتثَلْ ، ويَنْشُر كلمةَ عدلِنا التى يَسِير بطريقتها المُثْلىٰ المَثَل ، ولا تُمضىٰ ولايةٌ ولا عَزْل ، ولا مَنْع ولا بَذْل ، ولا عقْد ولا حَلْ ، الا وهو معـدُوق بآرائِه ، متلَقٍّ من تِلْقائه ، متوقِّفٌ علىٰ تنفيذه وإمضائِه ، وقد اختصرنَا الوصايَا ، اكتفاءً بما فيه من حُسْن الشِّيَم ، واقتصَرْنا علىٰ ذكر بعض المَزَايَا ، إذ مثلُه لا يُدلُّ علىٰ صواب ولا يُزاد مافيه من كَرَم ، لكنَّ تقوى الله أوْلىٰ ماذُكِّر به من لم يزَلْ لربِّه ذاكِرا ، وأحقُّ ماشكِر علىٰ التوفيق مَنْ لم يبْرَح له به شاكِرا ، والله يَزِيد قَدْره اعتِلاء ، ويضاعِفُ للدولة الشريفة احتفالا بشُكْره واعتِناء .

***

وهذه نسخة تقليد بالوزارة .

الحمدُ لله الذى شدّ أَزْر المَلِك من الوزراء بالمَكِين الأمين ، وأشْرك فى أمْر مُلْكه من هو علىٰ صَلَاح الجمهور خيرُ مُعِين ، وألقىٰ مقالِيدَ حُسْن تدبيره لمن دَلَّت عليه بركةُ الاستِخاره ، وصوّب أمرَ دَقِيقه وجليله لمن هو لجميل الثناء المغْنىٰ وإليه ببَنَان الاجتباء الإشارَهْ ، وناولَ كِتَابها لمن هو أحقُّ بتحمل أعبائه ، ورقَّى منصِبَها لمن لاشُبْهة بأنه الحقيقُ باستِعلائه ، وناوَلَ قلمَ إعطائها ومنْعِها لواضع الإشارة فى محلِّها ، وعدّق تمير أموالِها بمن لايأخُذُها بمقتضًى يبْديه إلا مِن حِلِّها .

نحمدُه علىٰ حُسْن إلهامه ، وشريف إفهامه ، ونشهد أن لا إلٰه الا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ عبدٍ مخلِصٍ فى أدائِها ، محقٍّ فى إعادتِها وإبْدائِها ، ونشهد أن محمدا

عبده ورسوله خيرُ مَنْ هو بالحق مبْعُوث وبالصــدق منْعُوت ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لاتزال مستمرّةً فى كل وقت موْقُوت، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ يدَ الوزارة هى اليدُ الباسطةُ فيما قَلَّ وجلّ، والمتحكِّمة فيما عُدق بالمَلِك من كلِّ عَقْد وحَلّ؛ والموقوفُ عند إشارةِ بَنَانِها وإليها التحكُّم فى كل إعطاء ومَنْع، وتفريقٍ وجمْــع؛ وعزْلٍ ووِلَايه، ونِهايةُ كل نَهْى وأمْر وما لهــا من غايه، ورَبُّها من المَلِك كالرُّوح الباصرةِ من العينْ، واللسانِ المعبِّر عن كلِّ زيْن وشَيْن؛ وحَسْبُه أنه فى المحلِّ من ذاتِ اليمين، ومن مكانَة التمكُّن فى الحِرْز الحَصين؛ ولهذا لا يؤهَّل لها إلا من آنْعقد علىٰ سُؤْدَده الإجماع، وآنقطعتْ دُون لحَاق شَرَفه الأطماع؛ وتأصَّل فى نِخَــارها وتفرّع، وقام بفُروض كِفــايةِ كَفَالتها وتَطوّع؛ وسار حديثُ مناقبــه فى الآفاق، وجاءَ بالآختيار والآختبار بالوِفَاق؛ وحَسُن صورةً ومعنىٰ، وتعــدّدَتْ مناقبُــه فدلَّت علىٰ أنه الفرْد إذا آتَّسقَت عقُوده مَثْنىٰ مثنىٰ . وكان المجلس العــالى الفلانىّ رَبَّ حَوْزتها وسريرِها، ورُوحَ بَصَرِ مرتَمِق هــذه المحامد وإليه [أمر] مَصِــيرِها؛ والذى حكَمتْ له السيادةُ بمَنَالهــا وحكَّمتــه، وأوضَحتْ بأصالتها وَجْه الصواب فى آختياره لهــا وأحكَمَتْــه؛ وقد حازَ من متفرِّق لوازمهــا ما تفرَّقَ فيمن سِوَاه، وحَوىٰ من أدواتها [مادل] علىٰ أنَّ الله خلقــه فسَوّاه؛ إن قال فالصوابُ موَكَّل بمَنْطِقــه، أو صَمَت فعِظَمُ مَهابته قائم مقامه بجميل الخُلُق لا تَخَلُّقه؛ قد جمــع إلىٰ التواضُع فرطَ المَهَــابه، وإلىٰ الآبتــداء بالمعروف حُسْنَ الإجابه؛ إن ذُكِرت الصَّــدارة فهو مالكُ زِمَامها، أو الرِّياسة فهو غُرَّة لِثَامها؛ أو الكَفالة فهو مُصَرِّف عِنانهــا، أو الوِزارةُ فهو عيْنُ أعيانِها؛ لم تزَلْ رتبتهُــا متشوّقةً لحلوله، ممهّــدة لشريف تأهيله .

ولما تحلّىٰ منها بهـذه الحلىٰ ، وسار حديثُ مَلاءَته بتخويلها فى المَلَا ، وتلا لسانُ القلم سُوَرَ هذه المحاسن وتَلَا الثانى بالأوّل منها إذا تَلَا ؛ رُسِم بالأمر العالى ـ أمتعه الله بمـا وُهِبه من حُسْن مؤازرته ، وشدّ عَضُدَ مملكته بالإمتاع برِبْح حُسْن معاملته لله وله ولُمتَـاجرته ـ أن تُفوّض الوزارةُ المفخَّمه ، المكرَّمة المبجَّلة المعظَّمه ؛ للمشار إليـه : تفويضًا عامًّا للقريب من مصالحها والبَعيد ، والطارِف والتليد ، والمُقِيم والنازح ، والغادِى والرائح ، والسانِح والبارِح ، والباغِم والصادِح .

فليباشِرْ ما فُوّض إليه منها مباشرةَ مثلِه لمثلها ، وليُعْطِها من نَيْله مُناسِب نَيْلها ، وليأخذْ أمرها بِكلْتا يدَيْه ، وليُعِرْها جانبًا من آحتفاله ليَظْهَر عليها آثارُ سُؤدده كما ظهر شريفُ تَخْويلِها عليه ؛ وليُطْلِقْ فيها لسان نَهْيه وأمرِه ، وليُعْمِلْ فى مصالِحها صالحَ فِكرِه ؛ فقـد عُدِقت به مَهامُّها : جليلُها وحقـيرُها ، وقليلُهـا وكثيرُها ، وأميرُها ومأمورُها ، وخليلُها وضريرُها ، وناعقُها وناعِبُها ، وكاسيها وكاسِبُها ، ودانيها وقاصيها ، وطائعُها وعاصِيها ، ومستقبلُها وحالُهـا وماضِيها ، وواليها وقاضِيها ؛ ثقةً بتمام تدبيره ، وحميدِ تأثيرِه ، وأنَّه إن حَكَم فصَل ، وإن قطَع أو وصَل كان الحزْم فيما قَطع ووصَل ؛ إذ هو الوزيرُ الذى قد صُرِف عن عمـل الأوزار وسار ، إلا أنه فى كل مَنْهج سارْ ، تقْطُر السيادةُ من معاطِفه ، وتَجْنِى ثمرَ المُنىٰ من أغصان قلمِه يدُ قاطفه ؛ لاشىءَ يخرُج عن حُكْمه ، ولا مصلحةَ تعزُب عن عِلْمه ؛ فولايةُ الحُكَّام معدوقةٌ بإشارته ، موقوفةٌ علىٰ مايُثْبِته ببليغ عِبارتِه . ومع جَلالة قدْرِه لايَحتاج إلىٰ التأكيد فى الأموال وآستِدْرار أخلافِها ، والرَّعايا والآستدامة بالإحسان وُدَّ أحْلافها ؛ وبيوتِ الأموال وآستيداء حقوقها ، ومُراعاة جانبِها إذ هى الأمُّ الحَنُونة يَتجنَّب عقُوقها . والخزائنِ فهو أدْرىٰ بما يجب من تضييق صَدْرها بالمناقيص عن الآنْشراح ، والآهتمام بحواصل تشريفها المستجلِبة إفاضةُ ملابِسها قلبَ مَنْ غدَا وراح ؛ وثَمّ دقائِقُ ، هو أدرىٰ بما لهـا من

طرائِق ؛ وحقائقُ ، هو أعرَفُ إذ كان فيها الفاتِقَ الراتِق ؛ فهو ـ أجلَّه الله ـ غنىّ عن تفصيلها ، وذهنُـه أشرفُ عن الوصايا المنـدوبة لتوصيلها ؛ والله تعالىٰ يقدّر له وبه الخَـيْر ، ويمتّع بحسن تدبيره المقرونِ بجميـل السريرة والسَّيْر ؛ والخطُّ الشريف أعلاه ، حجَّةٌ بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه وصية وزير أوردها فى " التعريف " وهى :

يُوصىٰ بتقوىٰ الله فإنَّه عليـه رقيب ، وإليـه أقربُ من كلِّ قريب ؛ فليجعَلْه أمامَه ، وليطْلُبْ منه لكل ماشَرَع فيه تمَـامَه ؛ وليُجِلْ رأيَه فى كلِّ ماتَشُدّ به الدولةُ أَزْرها ، وتُسنِد إليه ظهْرَها ؛ وليجعلِ العدْلَ أصلا يبْنِى علىٰ أُسِّه ، والعملَ فى أموره كلِّها لسلطانه لا لنَفْسه ؛ وليَـدَعْ منه الغرضَ جانبا ، وحظَّ النفس الذى لا يبْـدُو إلا من العَـدُوّ ليُصْدِق من دَعَاه صاحِبا ؛ وليُبصِر كيف يُثَمِّر الأموالَ من جهاتهـا ، وكيف يخلِّص بيوت الأموال بالاقتصار على الدَّراهم الحلال من شُبُهاتها ؛ وليَنَزِّه مطاعِمَ العساكر المنصورة عن أكل الحَرَام فإنه لايُسْـمِن ولا يُغْنِى من جُوع ، ولا يُرىٰ به من العيْن إلا مايُحرِّم الهُجُوع ؛ وليحذَرْ من هذا فإن المُفاجئ به كالمخاتِل ، ولْيتجَنَّب إطعام الجُنْد منه فإن [آكل] الدرهم الحرام مايُقاتِل ؛ وليُحْسِنْ كيف يُولِّى ويَعْزِل ، ويُسَمِّن ويَهْزِل ؛ وعليه بالكُفَاة الأُمَناء ، وتجنُّب الخَوَنة وإن كانوا ذَوِى غَنَاء ؛ وإيَّاه والعاجِزَ ، ومن لو رأىٰ المصلحةَ بين عينَيْه ألفىٰ بينه وبينها ألف حاجِز ؛ وليطَهِّر بابه ، ويُسَهِّل حجابَه ؛ ويفكِّرْ فيما بَعُدَ أكثَرَ ممـا قَرُب : مقدّمًا للأهَمِّ فالأهمِّ من المصالح ، وينظر إلىٰ ماغابَ عنـه وحضَر نظرَ المُمـاسِى والمُصابِح ؛ ولا يستَبْدِل إلا بمن ظهر لديه عجزُه أو ثبتت عنده خيانتُه ، ولا يدَعْ من جميل نظره مَنْ صحَّت لديه كفايَته ،

أو تحقَّقتْ عنده أمانتُه، وليسلُكْ أقصدَ الطُّرُق فى أمر الرواتب التى هى من صدَقاتنا الشريفة وصَدَقات مَن تقدّمَ من الملوك، وهى إمَّا لمن وجب له حقٌّ وإن كان غنيًّا أو عُرِف صلاحُه وهو صُعْلوك، وكذٰلك ما هو لأيتامِ الجُنْد الذين ماتُوا علىٰ الطاعه، وأمثالِهم ممن خَدَم دولتنا القاهرة بما آستطاعَهْ، فإن غالِبَ مَن مات منهم لم يُخلِّف لهم إلا مانَسمَح لهم به من معروف، ونُجْريه لهم من جارٍ هو أنفع من كثير مما يخلِّفه الآباء للأبناءِ من المال المتملَّك والوقْف الموقُوف، وليصْرِف آهتمامَه إلىٰ آستخلاص مالِ الله الذى نحن أُمَناؤه، وبه يَشْغَل أوقاتَه وتَمتلئ كالإناء آناؤُه، فلايَدَعْ شيئا يجب لبيت المال المعمور من مستحقه، ولا يتسمَّح فى تخلية شىءٍ منه كما أننا نُوصِيه أنه لا يأخذُ شيئا إلا بحقِّه، وليُبْق لأيَّامنا الزاهرةِ بتواقيعه ذِكْرا لايَفْنىٰ، وبِرّا لايزال ثَمرُه الطيِّب من قلمه يُجْنىٰ، ليكونَ من رياح دولتنا التى تغتنم ما يُثيره من سَحَابها المَطِير، وحسَناتِ أيَّامنا التى ماذُكرنا وذُكِر معنا إلا وقيل: نِعْمَ الملك ونِعْمَ الوزير.

الوظيفة الثانية

(كتابةُ السِّرّ، ويُقال لصاحبها "صاحبُ دَواوين الإنشاء")

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ الوظائف أنَّ موضُوعها قراءةُ الكتُب الواردةِ على السلطان، وكتابةُ أجْوبَتِها، وأخذُ خَطِّ السلطان عليها وتسفيرُها، وتصريفُ المراسيم وُرُودا وصُدُورا، والجلوسُ لقراءة القصَص بدار العدل، وأنَّه صار يُوقِّع فيما كان يُوقَّع فيه بقلم الوزارة.

قلت : وقد كان فيما تقدّم يُكتَب له توقيعٌ فى قطع النصف بلقب «المجلس العالى» ثم استقرّ أن يُكتَب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بلقب «الجناب العالى» . وقد تقدّم الكلامُ على تقليده فى الكلام على التقاليد .

وهذه نسخةُ تقليدٍ بكتابة السرّ ، كُتِب بها للمَقر المُحْيَوِىّ «مُحيي الدين بن فضل الله» عند عَوْده إلىٰ كتابة السِّر بالديار المصرية ، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة ثلاث ... ...(١) من إنشاء السيد الشريف شِهاب الدين ، أحد كُتَّاب الدَّرْج الشريف ، وهى :

الحمدُ لله المانِّ بفَضْله ، المستعانِ به فى الأمر كلِّه ، الذى رفَع أوّل الأولياء من العَلْياء إلىٰ محلِّه ، ووضَع النِّعَم عند من يَنُصُّ الاستحقاقُ علىٰ تقديمه بمنصبه ويجلُّ ما فُوِّض إليه من أَجْله ، وأبدَعَ نظام السُّؤدَد بأجمل حالٍ ما دام يَحْيىٰ جامعَ شَمْله ، وأودَع سِرَّ مُلْكنا الشريف عند الحفيظَيْن منه ومن نَجْله ؛ وأرجعَ الرياسةَ إلىٰ من سَما ثَبَاتا ، ونما نباتا ، وعَلا عَزْما ، ووَفىٰ حَزْما ، فبيُمْن آثاره تُضْرَب الأمثالُ ولا تَجد فى يُمْن سَجَاياه كِمثْله .

نحمده علىٰ أن أعاد بنا الحقَّ إلىٰ أهلِه ، ونشكُره علىٰ أن جادَ روضَ الآمال بواكِف سَحابِ كَرَمنا ووَبْله ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةَ مَن وُفِّق للصواب فى قوله وفِعْله ، وتُحقِّق منه جميلُ الإخلاص فى جميع مذاهبه وسُبْله ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المُؤْوِى يومَ الجزاء إلىٰ سابِغ ظِلِّه ، والمُرْوِى يوم العطَش الأكبر بسائغ نَهْله ، والنبيُّ الذى بعثه خاتمَ رُسْله ، وآتاه من الكَرامة مالم يؤْتِ أحدًا من الأنبياء من قَبْله ، والمجتبِي من علماء صَحابته من أهَّله لإيداع سِرِّه وصَوْنه وإبلاغِ أمْره وحَمْله ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين سبَقُوا إلىٰ غايات الفَخَار

(١) بياض بالأصل .

وخُصُّوا بخَصْله ، ورضى الله عن أصحابه المجاهدين فى حُبِّه المعتصمين بحَبْله ، خُصوصًا الصدِّيقَ الذى أحسنَ الخلافَةَ من بعده وقاتل مَنِ ٱرتدَّ بقَتْله ، ومَنْ فَرَق بين الحق والباطل بحُسْن سيرته ومَحْض عَدْله ؛ ومن تلقَّ عنه آيات الكتاب فا (١) ... ... فى ترتيبه وجمعه وأدائه ونَقْله ؛ ومَنْ كان فارسَ حَرْبه ، وحارسَ سَرْبه ، وكاتبَ وحْيه وخاطِبَ كِفْله ؛ وعن بقية المهاجرين والأنصار الذين ٱنفردُوا بأكمل الفضل وأجَلِّه ، صلاةً ورِضْوانا وضَح بهما نورُ الهدىٰ لمستدِلِّه ، ماشفىٰ كرُمنا الصُّدورَ بصُدور إقباله إلىٰ مَنْ قام بفرض وَلَائه ونَفْله ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فنِعَمُنا لاتزال للعُهود حافِظه ، وبالجُود متْحِفةً وبالسُّعود ملاحِظَه ، وعلى المعهود من كَرَم شِيَمِها محافِظَه ؛ وللخِدَم مكافِيه ، وللقِسَم مُوفِية وبالنِّعم مُوافِيَه ، وبمألُوف الكَرَم مُلافِيه ؛ ٱتبّاعا لسبيل الصَّواب ، وإيداعًا لِلْنحة عند من لحَقِّه فى ٱستِحقاقها إيجاب ، فلمَحَلِّه ٱقترانٌ بالاقتراب ، ولفِعله إنجازٌ لوعُود الصُّعود وإنجاب ، ولِفَيض الله تعالىٰ عليه من القَبُول أبهىٰ جِلْباب ، وله سَبْق ولاء لمُلْكنا بعد جفاء فيه السنين والأحْقاب ، وصِدْقُ وُدٍّ ماضاع لدينْا ولا خَاب ، وقِدَمُ هِجْرة كَمْ لها فى تأييد الدِّين ٱنتِصار وٱنْتِصاب ، وتعدُّدُ مناقبَ هى فى الإشراق والرِّفعة كالنُّجوم وفى الكَثْرة عَدَد الرمل والحَصىٰ والتُّراب ؛ فما دَعاه سلطانُنا إلا ٱستجاب ، ولا ٱستَوْعاه سِرَّه إلا غَدَا به يُصان ولا يُصاب ، ولا ٱستنطَقْنا قلَمه إلا كفىٰ الخَطْب بأمْلَح خِطاب ، ولا ٱستَثَرْنا رأْيَه إلا حضر الرُّشْدُ وما غاب ؛ فكَمْ فرّق للأعداء من كتيبة بكِتاب ، وقَرَّب من ظَفَرٍ والسيفُ فى القِرَاب ؛ فبدَعَواته يُسْتَنْزَل من النَّعماء أهْمَرُ سحَاب ، وببركاته جاء نصرُ الله والفتحُ وكان كيدُ الكافرين فى تَبَاب ، وبأقلامه إنعامنا يَهَبُ وٱنتِقامنا يُهَاب ؛ فهى على الممالِك أمنعُ سِيَاج ، ولها فى مَسَالك الخيْر

(١) بياض بالأصل ولعله فأحسن فى ترتيبه الخ .

أبدَعُ منْهـاج، وللدولة به و بولده استغْناء و إليهما آحْتياج، فكم ضَمَّنَا دُرَر كلامهما الأدراج، وأطْلعا زُهْر أقلامهما من المَهارِق فى أبْراج، وكم واصلَتْ فى ليل النِّقْس السُّرَىٰ والإدْلاج، حتى أبدَتْ صَبَاح النجاح ذا آبْتلاج، فلا عَجَب أن كان للنِّعم إليهما مَعادٌ ومَعَاج، ولِضيق الخطب عند باعهما الرَّحْبِ فُسحةٌ وآنْفراج .

ولمـا كان المجلس العـالى المُحْيَوىّ هو أَسْرىٰ من تُلْقىٰ إليه الأسرار، وتَبْـقىٰ منه عند أحْرىٰ الأحرار، فكم لها صانَ أينَ صار، وكم لخواطرنا الشريفةِ من أفعاله سارٌ حيثُ سار، وكم له من كَرَمنا دارٌّ فى كل دارْ، فمِنَّا لقُرْبه إيثار، ولأثنيتِنا عليه إكْبار، ولنـا بفضائِله إقْرار، يُوجِب للنِّعم عندَه الإقرار ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُعيد إليه مَنْصِبَه، ونَزِيد لدَيْه المَوْهِبه، ونجعلَ وُجودَ تفضيله لدوْلتنا أعظمَ مَزِيَّةٍ ومنْقَبـه، ونَراه أجلَّ كُفْء لآسـتجلاء عقائِل الأسرار المحجَّبه، و إن كان لنزاهتِه لايَخْطُبها فهى لوَجَاهتِه ترغَبُ أن تخْطُبَه .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العالى، المولَوِىّ، السـلطانىّ، المَلَكىّ الفلانىّ ــ لا بَرِح بفضل الله يحيي الدّين، و بتأييده يَبِين أنَّه الحقُّ المبين، و بتسْديده يُصيب عينَ الصواب فى التعيين ــ أن نفوّض للشار إليه صحَابةَ ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب الشريفةِ شرَّفها الله وعظَّمها : علىٰ أجمل عوائده، وأكمل قواعده، وأحسن حالاتِه فى حُسْن مقاصـده، ونُفوذ ما يُبَلِّغـه من رسائل عَدْلنا فى مصادِرِ كل أمر وموارِده؛ وليستقرَّ بآسمِه من المعلوم كذا وكذا .

فلْيتلَقَّ منصبَه المباركَ بأمَل فى كَرَمنا مبْسوط، ورتبتَه التى يَحمى حِمَاهـا ويَحُوط؛ مُمْضيًا للمهـمَّات والمَراسم، مبْقيا من يُمْن آثاره ما تَضْـحىٰ به ثغور الثُّغور بوَاسِم، مُ يدا لمن عنده من كُتَّابنا أوقاتَ الأُنْس فأيَّامُهم [به] كلُّها مَوا سم، وبِها لهم من الخيْرات

أجزلُ المَقَاسم، وقد وَفَّروا دواعِيَهم إلى الخدمة إذ وَفَّر على نفقتِهم دَواعِيَه، وهو لسانُ الدولة وهم أُذُنٌ صونٍ لما يُلْقِيه إليهم واعِيَه، فحَقَّ لهم إلى وِداده أن يجنَحُوا، وبإسعاده أن يَنْجَحُوا، وعن وَلائه لن يبْرَحُوا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وبِرَحْمَتِه فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾، فلِسَرِيرِ المُلْك به سُرور، وللدولةِ من أشعَّة إيابه وطَلعة شِهابِه نُورٌ على نور، وبهما عمادُ الشرف الأعلى مرفوعٌ وبيتُ الفضل الأوفى معْمُور، وهو وَبْل هذا الغيث الغَمْر وشِبْل هذا الليث الهَصُور، طالما هَزَم الصُّفوفَ من كُتُبنا بالسُّطور، وجَهَّز بُرُدا سِرُّها بالصون مكتُوم وعَلَمُها بالنصر مَنْشور، وهو كنز الفضائل وكِتَابُه الذَّهب شُذُور، ومن هذه الأُسْرة العُمَرية بأُفُق العلياء نجومٌ وأهِلَّة وبُدُور، وللنَّيِّر الأكبَرِ إشراقٌ وأتلاقٌ وسُفُور، وغيرُه بالوصايا المأمور، وسواه نُبيِّن له قصدَ السبيل حتَّى لا يَضِلَّ ولا يجُور، ولانحتاجُ أن نُذَكِّره بما هو من عِلْمه مَذْكور، وفى صحائفه مسْطُور، ولا نعلِّمه سَدَادا إذ هو عليه مجْبُول ومفْطُور، بل الهُدىٰ منه ملتمَسٌ، ومقتفًى ومقتَبَس، ومأْثُور، وبحمد الله مافى حَزْمه قُصُور، ولا فى عَزْمه فُتُور، وهو بحرُ العِلْم المحيطُ وثَبِير الحِلْم الموفُور، وليس التقديمُ له بمستغْرَب بل فضله المعروفُ المشهُور، والله تعالىٰ يَرْعىٰ له فى خدمتنا عَهْدا قديما، ويُبْقِيه للدعاء مُواصِلا ومُديما، ويُوزِعُه شكْرَ فضل اللهِ علىٰ ذلك ﴿وكانَ فَضْلُ اللّهِ عليْكَ عَظِيما﴾ إن شاء الله تعالىٰ.

❖

وهذه نسخةُ تقليد بكتابة السِّر، كُتِب بها للقاضى شهاب الدِّين بن فضل الله، وهى:

الحمدُ للهِ على عنايةٍ حَفِظت مُلْكَنا الشريف بمعقِّباتها، وصانَتْه بصاحب تصريف تَقُوم كُتبُه وآراؤُه مَقامَ الكتائبِ ورَاياتِها، وسَنَّتْ لنا الخِيرَةَ لمنْ نجتنى بقلمه النصرَ

من ثمراتهـا ، وبينت الحُسْنىٰ فى طريقتـه المُثْلىٰ حتّى آنقسم الصُّبْح من قَسَماتِها ، واقْتُسم النُّجْح من عاداتِها ، وآتَّسم فكْرُهُ بالنُّصْح وقد ضَلَّت الأفكارُ عن إصاباتِهـا فظلَّتْ فى غَفَلاتِها .

نحمدُه حمدًا يَهُبُّ مع الأنفاس فى هَبَّاتِها ، ويَهَبُ من اللطائف الحِسَان أفضـلَ هِبَاتِها ، ويُنَبِّه القلوبَ لتقييد شَوارِد النِّعم بِصِـدْق نِيَّاتِها ، ويُنافِس الكرامَ الكاتبين علىٰ نفائس الثَّناء فى تسبِيح لُغاتِها بصَفِيح سَمٰواتِها .

ونشْهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهـادةً تملأُ الصُّحفَ بحَسناتِها ، وتُمَـلِّى الوُجوهَ بالأنوار فى توجُّهاتِها ، وتلُوح من سِماتهـا سِيمياءُ لا تَشُقُّ على الأبصار فى تَوسُّمـاتِها ، وتفْـخَر برَقْمِها الأقلامُ بأنه لا طَعْن فى آعتدال حَركاتِها ، على الرِّماح فى آعتِدال قاماتِها ؛ ونشهد أنَّ سـيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أدَّى الرسـالةَ بمـا تحمَّله من أماناتِها ، ورَعَى العهودَ لمن أخلَص فى مُراعاتِها ، ودَعَا الأُمّةَ بإذْنِ الله إلىٰ سبِيلِ نَجاتِها ، وآستأْمَن على الوَحْى كُتَّاباً سبقُوا فى السَّعادة إلىٰ غاياتِها ، وبلَّغُوا عنه السُّـنَّة بإباناتِها والسُّورَ وآياتِهـا ؛ صلى الله عليـه وعلىٰ آله وأصحابِه فُرْسان البلاغةِ ورُواتِها ، وحفظةِ الأسْرار وثِقاتِها ، وصاغةِ المعَانى فى الألفاظ الغُرِّ بنَفَثاتِها ، وأُولى الأحلام التى لا تُطِيشُها وقائعُ الدهر برَوْعاتِها ، ولا تُذْهِلُها عن الأوْراد فى أوقاتِها ، وتلَقِّ الوفُود بأقْواتِهـا ، والأخلاقِ التى آتَّسـع نِطاقُها فى تصرُّفاتِها ، وآمتنع حِجابُهـا أن تتخطَّاه الخِدَعُ بهَفَواتِها ، صلاةً تَزِيدُ الأعمارَ بزكاتِها ، وتُزَيِّنُ الأعمالَ ببركاتِها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فإنَّ المُلْك عمودُ بناؤُه بِسرِّه ، وآرتفاعُه بالتأسيس لمسـتَقَرِّه ، وآمتناعُه بعد العساكر المنصورة بكاتبٍ يُخاتِل العـدُوَّ فى مَكْره قبل مَكَرِّه ، ويقاتل فى الحَرْب

والسِّلم بنَفَّاذ رأيِه ونَفَّاث سِحْره ، ويقابل كلَّ حال بما يحسُن موقِعُه من صَدْمِه بصَدْره أو صَدِّه بصَبْره ، وينظُر فى العواقِب نظَر البصير بأمْرِه ، الواعِى لآحتيال عُذْره قبل آختيالِ الباغِى فى غَدْره ؛ إذا جادلَ فبالحُجَّة البالغه ، وإذا جاوبَ أبطل الأهوالَ الزّائغه ، وإذا أمرْنا بالعدل والإحسان سيَّرهُما عنَّا كالشمس البازِغَه ، ومَلَأ بهما حُبًّا لنا القلُوبَ الفارغَه ؛ وقد جرَّبْنا على طُول المَدىٰ كُتَّابا ، وآنتخَبْنا منهم كثيراً آرتضَيْناهم أصْحابا ، ومارَسْنا جماعةً آزدَدْنا بهم إعجابا ، ورأينا طوائِفَ فيهم مَنْ إنْ أجاد آجتناءً لزَهَرات القول حادَ عن الجادَّة آجتِنابا ، وإن كلَّف نفْسه مذاهِبَ الكُتَّاب أخلَّ بمقاصد المُلوك إن كتَب عنهم كِتابا .

ولم نظْفَر بمن تمَّت فيه الشروطُ المشرُوطه ، ومَتَّ بالدائرة المحيطةِ إلى الفضائل المبْسوطَه ، وآمتاز بفَهم لايُقْبِل على الفسادِ ولا يَقْبَل الأُغْلوطه ؛ إن أملَيْناه إملاءً ذَكَره ، وإن حُمْنا حولَ معنًى لا تُؤدِّى إليه العبارة فَسَرَه(١) ، وإن سَرَدْنا عليه فصْلا مُطوّلا خَبَره ، وربما رأى المصلحةَ فى آختصاره فآختَصَره ، وإن أوْدعْناه سِرًّا ستَره ، وصانه بمحوِ غيَّب أثَره ، وكتمه إمَّا بخَطِّه عن قلبه فلم يُدْرِكْه أو بقَلْبه عن لحْظه فلم يَرَه ، وإن خَلَّينا بينه وبينَ غرَض من أغراضنا الشريفةِ آستخرجَه كما فى خواطِرنا وأظهَره ـ كالمجلس العالى ، القضائىّ ، الأجلّىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، العَوْنىّ ، العلّامىّ ، القوامىّ ، النِّظامىّ ، المدبِّرىّ ، المُشيرىّ ، الفاضلىّ ، الكاملىّ ، الأوْحدىّ ، المُفَوَّهىّ ، الخاشعىّ ، السفيرىّ ، الشِّهابىّ : صلاح الإسلام والمسلمين ، سيِّد الرؤساء فى العالَمين ، قُدوةِ العلماء العاملين ، إمامِ الفضلاء والمتكلِّمين ، رئيسِ الأصحاب ، مَلاذِ الكُتَّاب ، سفيرِ الأمّة ، عمادِ الملَّة ، لسان السلطنة ، مدبِّر الدُّوَل ، مشيِّد الممالك ، مُشيرِ الملوك والسلاطين ، ولِىِّ أمير المؤمنين

(١) فى المصباح فسره من باب ضرب أوضحه و بينه والتثقيل مبالغة .

«أحمدَ بن فضلِ الله» ضاعف الله نعمتَه . فإنَّا خطَبْناه لهذه الوظيفه، وآستخلَصْناه علىٰ كثرة المتعيِّنين لأنفُسنا الشريفه ، وآمتحَنَّاه فى الأمور الجليلةِ واللطيفه، وحمَّلْناه الأعباءَ الثقيلةَ والخفيفَه ، وأوقفْناه مرَّة وأخرىٰ أطلقنا تَصْريفه، وأنعمْنا النظرَ فى حاله حتى تحققنا تثقيفَه ؛ وكتَب وآستُكْتِب عنا سِرًّا وجهْرا فملأ قَلْبا وسَمْعا ، و باشَر مراسِمَنا العاليةَ مِصرًا وشامًا وصْلا وقطعا فعزَّ رفعةً وعَمَّ نَفْعا ؛ وأنشأ التقاليدَ وقلَّدها ، ونَفَّذ المُهِمَّاتِ وسَدَّدها ، ووَقَّع التواقيعَ وأطلق بها وقد قَيَّدها ، ومَشَّى المصالحَ باحترازٍ ما بَدَّدها وآحتراسٍ ما عَقَّدها ، وجهَّز البُرُدَ بهِمَّة ما قيَّدها طلبُ الراحة ولا أقعَدَها . وهو كاتِبُ مُلُوك ، وصانِعُ سُلوك ، وشارعُ سُلُوك ، وصائغُ ذهبٍ مسْبُوك ، وناسِجُ وَشْى مَحُوك ، وجامعُ صفاتٍ ماسِواها هو المتْروك ؛ لا يَعْدُو بالكلمة محلَّها، ولا يُؤاخى بالقرينة إلا شَكْلَها، ولا يسمَح بمخاطبةٍ إلا لمن تعيَّن لها ، ولا يعاملُ بالغِلْظة إلا من آستوجبَها ولا يخُصُّ بالحُسنىٰ إلا أهْلَها ؛ نأْمُره بالتَّهويل فيُزَلْزِل قواعدَ العَدُوّ، ونُشير إليه بالتهوين فيُفيد مع بقاء المَهابة الهُدُوّ؛ وقد رَضيناه حقَّ الرضا ، وأضْرَبْنا به عمَّن بقِىَ من أكابرِ الكُتَّاب ونَسينا من مضىٰ ، وتعيَّن علينا أن نحكمَ له بهذا الآعتبار ونَحمِلَه علىٰ هذا المقْتضَىٰ ، وأن نُطْلِعه فى سَماء دَسْتِنا الشريف شِهابًا أضا ؛ وأن نقلِّده مُهِمًّا مازال هو القائمَ بتنفيذ أشغالِه ، والساعىَ بين أيدينا الشريفة فى تدبيرِ مقاصِدِه وجملةِ أحواله ؛ إلىٰ مالَهُ من بَيْتٍ أثَّلوا مَجْده ، وأثَّروا سعْدَه ، وأرَّثُوا عندنا وُدّه ؛ و بنَىٰ كما بنَوْا ، وآجتنَىٰ من السُّؤدَد ما آجتَنَوْا ، ورمَىٰ فى خدمة الدُّوَل إلىٰ مارَمَوْا ، إلا أنَّ مذْهبَه فى البيان أحْلىٰ ، وأسلُوبَه أجْلىٰ ، وقيمةَ كلامِه أغْلىٰ ، وقِدْحَه فى الكمال هو المُعَلَّى ، وأدبَهُ بحمد الله قد لحَظَتْه سعادةُ أيَّامنا الزاهرة فما فيه لَوٌّ ولا لَوْلا ؛ سوىٰ أنه آتَّفق مُعارِضٌ آعترَض بين السَّهم والهَدَف ، وسَفِه نفْسَه فوقَف فى مَواقف التَّلَف ، ودَقَّ عنه شأنُ كاتبِ السر فسَقَط من حيثُ

طمِعَ فى السُّقُوط وما عَرَف ؛ ورام الدُّخولَ بيْنَ الملِك و بين يَدِه ، و بينَ اللِّسان وما يُحَدِّثه به الضميرُ من حقيقة معتَقَدِه ، والاّطلاعَ علىٰ ما لو لم يكن للإنسان لمـا أداره فى خَلَدِه؛ والتعدّىَ بما ليس له من لَفْظِـه متوقع ، وسرىٰ فى مَسْرًى لو طَمَح إليـه طَرْف السُّهَا لتقطَّع؛ وما علم أنَّ كاتب السر هو مستَوْدَع الخَبَـايا، ومستَطْلَع الخَفَايا ، وقلَمــه (ٱبنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنايَا) ، و فى ٱستِمْداده يُعْرَف بالمُـنَى ويُرْعَف بالمَنَايا ؛ وله الكِتَابةُ والتوقيع ، والتصرّفُ فيما للتنفيـذ من التحسـين والتَّنْويع ، وغير ذلك من التفريق والتجْمِيع ، والتأصِـيلِ والتفْرِيع ، والترغيب والترهيب والتأْمين والتَّروِيع .

ولمـا دَلَّ ذلك المعتَرِض بإكْبَارِه، وأطالَ المَطَارَ فى غير مَطَاره ، وقال الناس إنَّ أبوابَنا العاليةَ جَنَّة حُفَّت من سُوء أخلاقه بالمَكَارِه ، رمَيْنا به من شاهِق ، وأبعدْناه لآخرته أزهَدَ ما هَدَر من تلك الشقاشِق ؛ وتقـدّمْنا بإنشاء هـذا التوقيع الشريف تقويةً لكاتب سِرِّنا الشريف فى تَصْريفـه ، وبيَّنَّا أنه لا يُقاس به أحدٌ فإنّه لسان السلطان ويَدُه وكفىٰ بذلك دلالةً علىٰ تشرِيفه .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى، المولَوىّ ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الناصرىّ ـ لازال إذا عَزَم صَمّم ، وإذا بَدَأ المعروف تَمّمّ ، وإذا ٱستخار اللّهَ فى شىء رَضِى بخيرَتِه وسَلَّم ـ أن يسـتقلَّ المجلس العالى ، القَضَائىّ، الشِّهابىّ « أحمدُ بنُ فضل الله » المشارُ إليه بصَحَابة دَواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلاميَّة المحروسة : رفيقًا لأبيه المجلس العالى ، القضائىّ، المُحْيَوِىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه و بركتـه فى المباشَره، وشريكًا بل منفَرِدا ليقوم معه ودُونَه بمـا قام به من كتابةٍ باطنة وظاهِرَه؛ ٱستقَلَّ كلٌّ منهما بها فيما بَعُد وقَرُب ممـا يضُمُّه نطاقُ الدولة القاهِرَه؛ مع ما هو مستقرٌّ فيه من كتابة

السر الشريف ، والتصرّف فى المهمّات الشريفة والتصريف ؛ وهو المنفرد بتقديم البريد وعَرْضه ، ومباشرة خَتْمه وفَضِّه ، وقراءته بين أيدينا ؛ وآستخراج مراسمنا الشريفة فى كل مَنَاب ، ومُشافَهة وخِطاب ، وآبتداء وجَواب ، وملَطَّف ومكبَّر ، ومقَدَّم ومؤخَّر ، ومكمَّل ومشطَّر ؛ وإليه أمرُ البَريد والقُصَّاد والنَّجَّابه ، ومن آشتَمل من الدُّجىٰ جِلْبابَه ، أو ألقَتْه إلىٰ مُلَاءة الصَّباح المنشورة يَدُ ليلةٍ مُنْجابه ؛ وتعيينُ مَنْ يَرىٰ تعيينه منهم فى المهمّات الشريفة السلطانيّه ، والمصالح المقدّسة الإسلاميّه ؛ وإليه الحمَامُ الرسائلىّ وتزجيته ، وزَجَالتُه ومَدْرجتُه ؛ ومن يصل من رُسُل الملوك إلىٰ أبوابنا العاليــة ، وجميعُ من يُكاتِب الدولةَ الشريفة من كل منتَسِب وغريب ، وبعيد وقريب ؛ وقراءةُ القِصَص لدينا ، والكتابةُ علىٰ ما يسُوغ كتابةُ مثله ، وأخذُ العلامة الشريفةِ من يَده .

وأما من نَستكتِبُهم عنّا فى ممالكنا الشريفة فهو المقلَّد لأعبائهم ، والمخَلَّى بينه وبين ما يراه فى آجتِبائهم ؛ يستكتِبُ كلَّ أحد فيما يراه ، ويرفَعُ بعضَهم فوقَ بعض درجاتٍ منهم مستيقِظٌ ومنهم نائم فى غَمَرات كَرَاه ؛ كلُّ هذا من غير معارَضةٍ له فيه ، ولا آعتراض عليه فى شيءٍ منه ؛ يبلِّغنا مهمّاتِنا الشريفةَ ويتلقَّ عنا ، ومنه إلينا وإليه منّا .

وأما ما يَرِد عليه من الرسائل عنّا بما يكْتَب به فيمَشِّى منه مالا يمكن وقُوفه ، ويراجعنا فيما لا يكون إلا بعد مراجَعتِنا تصريفُه ؛ فليَمْشِ علىٰ هذه القاعده ، وليستقِلَّ بهذه الوظيفة آستقلالا هو كالخبر محَلُّ الفائده ، ولينشُرْ من إقبالنا الشريف عليه بالصِّلات العائده ؛ ونحن نختَصِر [له] الوصايا لانَّه الذى يُمْليها ، ونقتَصِر منها على التقوى فإنها الذخيرة النافعة لمن يُعانيها ، والباقيةُ الصالحة خيرٌ لمن يقتَفيها ؛

والله تعالىٰ يقوّى أسبابَه ، ويُنير شِهابَه ، ويَزِيد من المعالى اكتِسابه ، ويُغْنِينا بقلمه عن سِنانٍ يتقدّم عامِلَهُ ، وبلسانه عن سيفٍ يُفارِق قِرابَه ؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .

❖

وهذه نسخة تقليد بعوْد القاضى شِهاب الدِّين بن فضل الله إلىٰ كتابة السر . من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء الشريف ، وهى :

الحمدُ لله الذى أحمَدَ العُقْبىٰ بفضله ، وأكّد النُّعْمىٰ بوَصْله ، وأودعَ سِرَّ مُلْكِنا الشريف عند أهْله ، وأطْلع شِهابَ الدين من أُفُق العلياء فى محلِّ شرفه وشَرَف محلِّه ، ورفع قَدْره فى سَيْره إلىٰ بُروج السُّعود وحُلُوله بدرجات الصُّعود ونَقْله ، وأرجَع المَوْهبةَ منه إلىٰ مَنْ يشكُرها بقوله وفِعله ، وأينع الفَرْعَ الزاكِي الذى يَحْيَا أصلُه بواكِفِ سَحاب كَرَمنا ووَبْله ، وأتمَّ النِّعمة عليه كما أتمَّها علىٰ أبَوَيْه من قبْله ، وضَمَّ له أطرافَ الرياسة وجمع شَمْلها بشَمْله ، وعمَّ بفضلِه وفضلِنا أهلَ هذا البيت الذين فُطِروا على السُّؤدَد وبَصُروا من رِضانا باتِّباع سُبْله .

نحمده علىٰ إضفاء ظِلّه ، ونشكُره علىٰ إصْفَاء نَهَله ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً أشرق نورُ هُداها ، بمستَدلِّه ، وأغدَقَ نَوْءُ نَداها ، بمستَهِلّه ؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه أرسله خاتَم رُسْله ، وجعلَ له الفضلَ على الخلق كُلِّه ، وألهم به سُبُل هديه وسَنَن عَدْله ، وأرشدَه إلىٰ فَرْض دينه ونَفْله ، وأوْدَعه السِّرَّ الذى لم يُودَعْه سواه وحمَّله من أعباءِ الرِّسالة ما لم ينْهَض غيرُه بحَمْله ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله أغصانِ الشجرة الزَّهْراء التى هى بَضْعةٌ منه ونَبْعة من أصْله ، ورضى الله

عن أصحابه الذين أجَلَّهم من أجْله ، خصوصا مَنْ بادر إلىٰ الإيمان نخُصَّ من السَّبْق بخَصْله ، ومَنْ أيّد به الدينَ وفَرَّ الشـيطانُ من ظِلّه ، ومَنْ جهَّز جيشَ العُسَرة حتّى غزا العِدا بخَيْله ورَجْله ، ومَن كان بابَ مدينة العلم ومانحَ جَزْله وفاتح قُفْله ؛ وعن بقيَّة المهاجرين والأنصارِ الذين ما منْهم إلا مَنْ جاهد حتَّى قام الدينُ بنَصْره ونَصْله ، صلاةً دائمةً يجعلها اللسان أهمَّ شُغُله ، ويتلقَّ قادمُها فى مواطن القَبُول بأكْرم نُزُله ، ما رَمىٰ قوسُ العزم بصائب نَبْـله ، وحَمىٰ حِمىٰ الملك بلَيْثه وشِـبْله ، وفوّض أجَلَّ المناصب إلىٰ فاضل العصر وأجَلّه .

أما بعـدُ ، فإنَّ آراءنا لا تزالُ للمصالح مُراعيَه ، ولا تبرحُ بالإسعاد إلى الأوليـاء ساعِيه ، فتدعُو إلىٰ مَقامها من وَفَّر على الإخلاص دواعِيَه ، وتُدْنِى من مُلْكها مَنْ له بالخَفَايا أعظَمُ بصـيرةٍ وفى جميل القضَايا أجمُلُ طواعِيَـه ، وتُلْقِى أسرارَها إلىٰ مَنْ له لسانُ حقٍّ ناطقٌ وأُذُنُ خيرٍ واعِيَه ، وتُقدِّمُ مَنْ له قَدمُ صِدْق ثابتةٌ ويدٌ بيضاءُ طُولىٰ فى المهمَّات عاليـه ، لتغدُوَ سهام أقلامه إلىٰ الأغراض راميَـه ، وصوائبُ أفكاره عن حِمىٰ المُلْك محاميَه ، وتكونَ عبارتُه للمقاصـد مُوفِيةً وإشارتُه لمَوْعد اليُمْن مُوافيه ، وتُضْحِى دِيَمُ نِعَمنا الواكفةُ لسوابق خِدَمه مُكافِيه ؛ لما يتَّصل بذلك من المَصالح ، وتُناجِى خواطِرُنا الشريفةُ به المَنَاجِح ، ويقْبِل عليه وجهُ الإقبال ، فى كل حال ، ويَغْدو إليه طَرْف الإجلال ، وهو طامِح ؛ فنجَمّل به ممالكَنا مِصْرا وشاما ، ونُسَدّد به مَرْمَى ونُصيب مَرَاما ، ونحفَظ له ولأبيه فى خدمتنا حقًّا وذِمَاما ، ونكونُ له فى الحـالتين بِرًّا وإكـراما ، ونُعلى محلَّه إعلانا بعُلُوِّ مكانه وإعلاما ؛ فيؤلِّف للرياسـة نِظاما ، ويُضاعف للرُّتبة إعظاما ، ويُعْمِل يَرَاعًا بل حُسَاما ، ويجْلو وجْهَ المُنىٰ طَلْقا ويبدو بعـدَ البِشْر بَسَّاما ، ويُحْسن بأعباء المهِمَّات قِياما ؛ وحيث نقلتْـه أوطانُه هِضابَ المجدوقَلَّتَه ، وأينَ وجَّهتْه أعلتْ قدْره ونوّهتْه ؛ وكلمـا أوفدَتْه أفاضَتْ عليـه مَلْبَس

العِزّ وجدّدتْه، وآختصَّته بالتصرف وأفردَتْه، وآنتضت ماضِىَ آجتهاده وجرّدَتْه، وأجرَتْه من إجراء فضلها على ما عوّدَتْه، وآستقلّت له منائحَها من كثير المواهب ماخوّلَتْه، ومن كبير المناصب ماقلّدتْه.

ولما كان فلان هو الذى أُودِع الأسرارَ فحفِظها، وآطّلع على الدقائق فرَعاها ببصيرته ولحَظَها؛ وباشر مهمّاتنا فأمْضاها، وسَرّ خواطرَنا وأرضاها، وظهرتْ منه بين أيدينا كفايةٌ لا تُضاهَى؛ وقلّد أجيادَ أوليائنا من تقاليده عُقُودا، وأدنى من المقاصد بلُطْف عبارته بَعيدا، وأغنى الدولةَ أن تجهِّز جيشا وجَهَّز بَرِيدا، وأبان بمَقاله عمّا فى أنفُسنا فلم يُبْقِ مَزِيدا، وصان الأسرارَ فجعلَ لها فى خَلَده خُلُودا، وجمع أشتاتَ المحَاسن فأضحى فريدًا؛ كم لعَمِّه فى خدمتنا من هجرةٍ قديمه، ولأبيه من موالاةٍ هى للمُخالَصة مواصِلةٌ ومُديمه، وكم لهما أسبابٌ فى الرياسة قويّةٌ وطرائق فى الهداية قَويمه، وكم كاتبٍ يسَّر الله بهُداهما تعليمَه وتفهيمَه، وقدّر على يديهما وصُولَه إلى رُتَب العَلْياء وتقديمَه، فنفعتْهما عميمَه، ونَبْعتهما صَميمه، ولهما فى الشام ومصر أجملُ شِيمه، وكم له هو أيضا من تقدُّمات آقتضتْ تكريمَه، وكفايةٍ عند علُومنا الشريفة معلُومه، وكتابةٍ حُلَلُ المَهارق بوَشْيِها مرقُومه؛ فلو قابله الفاضلُ «عبدُ الرحيم» لبادَر إلى فضله إقرارَه وتسليمَه، أو «عبدُ الحميد» لكانت مَناهِجُه الحميدةُ بالنسبة إلى مذاهبه ذَميمه، أو سمع «عبدُ الرحمن» مقاله لضَمَّن ألفاظَه معانيَه العَقيمه، أو أدركه «قُدامةُ» لعرَف تقديمَه، وآقتدى بسُبْله المستقيمه، أو حوى «الجَوهَرىّ» فرائد ألفاظه لعرَف أنّ صحاحه إذا قُرِنت بها سَقيمه، أو رأى «آبنُ العَديم» خَطَّه لآستغْنَت منه بسَلاسل الذّهب نفْسُه العَديمه؛ أو «الوَلِىّ» لآستجْدى من صَوْب إجادَته أغزَر دِيمه، أو نظره «آبنُ مُقلةَ» لوجدَتْ مُقلتُه نُضرةَ خطِّه ونَعيمه،

أو «ٱبنُ البوّاب» لكان خَدينَ بابه وخديمَه؛ فهم صدُورٌ صُدُورهم سليمه، وأماثِلُ معدودةٌ وأمثالهم معْدُومه .

ٱقتضىٰ حسنُ رأينا الشريف أن نُلْقِيَ إليه منصباً هو أَوْلىٰ به، ونُقِرّ عينَه بدُنُوّه مِنّا وٱقْتِرابِه، ونمتّع البصر والسمع بخَطّه وخِطابِه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف، العالى، المولَوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ ـ لا بَرِح يُعيد نِعمَه كما بَدَأها أوّلَ مرّه، ويَسُرُّ القلوبَ بِكافٍ أوْدَعه سِرّه؛ ويحمد لأحَدِ الأولياءِ عوْدَه ومستقَرَّه (١) ـ .

فليتلقَّ هذه النِّعمة بشُكْرها وليترَقَّ منصبا رفيعا يناسِب رِفْعة قدْره، وليبْسُط قلَمه فى تنفيذ مُهِمّ الممالك من نَهْيه وأمره، وليحفَظْ ماأُودِعَهُ من خَفِىّ سِرِّه، ولْيُلاحِظْ المهمَّاتِ بفكره، وليحافِظ علىٰ مايَعْرِفه من رضانا طُولَ دَهْره؛ ونحن نعلَمُ من صوابِ أفعاله وتسديدِها، ما لا نحتاجُ معه إلىٰ تكثير الوصايا وتعْديدِها، ولا إلىٰ تكريرها وترديدِها؛ لاسيَّما وقد سلفَتْ له بها خِبْرة لا نَفتقِر إلى ٱستيعابِ ذكراها ولا إلىٰ تجْديدِها، وتقدّمتْ له مباشرةٌ ٱستبشَرْنا بيمُونها وأثنينا علىٰ حميدِها، وٱستدْنَيْنا سَنَاها وٱستغنينا عن سِواها بوجُودها؛ وله بحمد الله توَفُّر التوفيق، وهو الحقيق بما فوّضنا إليه على التحقيق، وفضْلُه من الشوائنِ عرِىٌّ وفى المجانبين عريق، وقدْره بتجديد النِّعم جدير وبخِلال الكَرَم خليق، والله تعالىٰ يُوضِّح به من الخير أبيَنَ طريق، ويسُرُّ بمَقْدَمه الولىَّ والصديق، ويَفْرُق به بينَ الحقِّ والباطل بجَدِّه الفاروقُ وهو من أكرم فَرِيق؛ بمحمد وآله ! .

(١) حذف المرسوم به اختصارا فى الكتابة واتكالا على فهمه من نظائره المتقدّمة فهو ملحوظ له ومراد .

* * *

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرّ :

الحمدُ لله الذى أظهر لتدبير دولتنا شِهَابا يعلو علىٰ فرْقَد الفَراقِد، وكمّل به عقُودَ الممالك فسَمَتْ جواهرُ فرائدِها علىٰ الدَّرارِىّ إذ كان واسطةَ تلك الفَرائد، ومُعيد إحساننا إلىٰ خَيْر ولىٍّ أغنىٰ تدبيرُه عمَّن سواه فكان بالألْف ذٰلك الواحد ، ومُخوِّل موادِّ كرمنا لمن هو صدر أسرارنا و يمينُ مملكتنا فى كلِّ صادرٍ عنهـا ووارِد ، ومنقِّل الأكفاء إلىٰ مراتبِ سعودهم فتُصبِح ألويةُ محامِدهم فى معاقل العزِّ أنخر مَعاقِد ، ومُحلِّى مُلكِنا الشريف بأكمل كافٍ ما أمَّ مصرا إلا تلقّته بالهناء ولا فارقَ شاما إلا أسِفَتْ عليه تلك الربوعُ والمعاهِد .

نحمده علىٰ نِعَمٍ أقرّتْ عُيونَ الأولياء لَمَّـا أقرّتْهم من موادّ جُودنا علىٰ أكمل القَواعد، ونشكره علىٰ ما بَلَّغَنا من جميل المآربِ وبلُوغ المقاصِد، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادة تُنجِّى قائلَها من جميع الشدائد، ونشهد أنَّ سيد[نا محمدا سيد] البَشَر عبده ورسولُه الذى جاد بهدايته فكان أكرمَ جائد، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحابته خصوصًا علىٰ أوّل الخلَفاء أبى بكر الصدّيق الذى لا فخرَ كفخَاره، وعلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب حاملِ أسرارِه وفاتح أمصـارِه، وعلىٰ أمير المؤمنين عثمانَ بن عفّـانَ مُبدّل عُسْره بيَسَاره، وعلىٰ ابن عمّه علىّ بن أبى طالب أعزِّ نُسَبائه وأخصّ أصهاره، وعلىٰ بقيّة مهاجِريه وأنصاره، صلاةً سَهْلةَ المَشَارع عَذْبةَ المَوارد .

وبعـد فإنَّ من سجيّتنا إذا تيمَّنَّا بولىّ لا نَزال نلْحظُه ، ونَرْعىٰ حقُوق خدَمه فى القُرْب والبُعْد ونَحفظُه، ونُقابل ماأسلفه لدينا بنفائس النِّعم، ونُفيض عليه مَلابِس الجُود والكرم، لا سيَّـما من لم يزل يُظْهر لنا كلَ يوم تعَبُّدا جديدا، ومن أصبَح

فى الفَصاحة والبَلَاغة وَحِيـدا ، ومن جمع أطرافَ السؤدَد والرياسـة فلم يَبْرَح بهما فريدا ؛ ومن تَحْسُن النعم بإفاضتها عليـه ، وتكْمُلُ المِنَنُ بإضافة محاسِنها إليـه ؛ وتزهو فرائدُ البلاغة بانتظامها فى سِلْك مَجْده ، وتُشْرِق كواكبُ اليَرَاعة فى اتِّساقها فى فَلَك سَعْده ؛ وكان لِلَبَابَتِه فى الاختصاص بنا اليـدُ الطُّولىٰ ، وتَلَا عليـه لسانُ اعتنائنا فى الحـالين : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولىٰ ﴾ .

ولمَّـا كنتَ أيُّها الصدرُ «شهابُ الدين» أحقَّ الناس بهذا المَنْصب لمـا لِوالِدِك ـ أبقاه الله تعالىٰ ـ ولعَمِّك ـ رحمـه الله تعالىٰ ـ من الحُقُوق ، ولمـا أسلَفاه من الخِـدَم التى لا يحسُن التناسِى لهـا ولا العُقُوق ؛ ولأنك جمعتَ فى المجد بيْن طارف وتالد ، وفُقْت بأزكىٰ نَفَر وعَمٍّ وإخوةٍ ووالِد ؛ وجلالَةْ ، ما وَرِثْتها عن كَلَاله ؛ وخِلال ، مالها فى السِّيادة من إخْلال ؛ ومَفَاخِر ، تُكاثِر البحرَ الزَّاخر ؛ ومآثِر ، يَعْجِزُ عن وصفها الناظمُ والناثر ؛ ولمـا نعلَمه من فضائلك التى لا تُجْحَد ، رعيناك فى عَوْدك لوظيفتك وعودُ « أحمدَ » أحْمَد .

ولمـا كان فلانٌ (١) هو الذى تقْطُر الفَصاحةُ من أعطاف قَلَمـه ، وتَخْطِر البـلاغةُ فى أثواب حِكَمه ؛ وتنزِل المعانى الممتنِعةُ من مَعَاقل القَرائح علىٰ حُكْمه ، وتقِف جِيادُ البَدَاهة المتَسَرِّعة حيْرىٰ قبل التوسُّط فى علْمه ؛ إن وَشَّى الطِّرْس فرِيَاض ، أو أجرىٰ النِّقْس فحِياض ؛ أو نَظَم فقَلَائد ، أو نَثَر ففَرَائد . لا يتجـاسَرُ المعنىٰ المطرُوقُ أن يُلِمَّ بفِكره ، ولا يُقْـدِم المعنىٰ المتخَيَّلُ المسـبوقُ للمُرور بذِكْره ؛ ولا يجوزُ زَيْف الكلام علىٰ ذِهْنـه المتَّقِـد ، ولا يَثْبُت غُثَاء الكلام لدىٰ خاطره المنتَقِد ؛ فـ«عبدُ الحميـد»

(١) هذه عبارة أخرى تكتب بدل الأولى ولا يجمع بينهما أى فالكاتب مخير فى تصدير مقاله باحداهما كما لا يخفى .

كـ«عَبْد الرحيم» فى العَجْز عن لَحاق علُومه التى يجد « الراغبُ » علىٰ نُورها هُـدىٰ ، والأصمعىُّ لو أدركه لتـلَا عليه : ﴿هَـلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أن تُعَلِّمَنِ مِمَّـا عُلِّمْتَ رُشْدا﴾ «والطُّغرائىّ» لو عاصره لزاد نظْمَه وٱزداد علىٰ نُوره هدىٰ، و«الحريرىّ» لو رافقه لأمِن فى ‹‹مَقاماته›› من التجْرِيح والرَّدىٰ؛ قد قَصَّرتْ عن غاية كماله جيادُ القَرائح ، وعَجَزت عن وصْف صفاته جميع المَدَائح ؛ وشَرُف منصِـبُه بٱنتسابه إليه ، ورُفِع قدرُه بمثُوله لدَيْه؛ مع ما تميَّز به من نَزاهةٍ صَرَف بها عن الدنيا طَرْفه ، وزَهادةٍ زانَتْ بالسَّعْد صَدْرَه ومَلاءةٍ ملأَتْ بالعِفَّة كفَّه ؛ فهو واحدُ زمانه ، وأوحدُ أوانه ؛ والبحرُ الذى يُحدَّث عن فضلـه ولا حَرَج ، والروضُ الذى يُنْقَل عن فضله إلى الأسْمـاع أطيَبُ الأرَج ؛ وكان قد مال عن منصِـبِه وهو يذْكُره ؛ وفارقَه وهو يَشْكُره ، ونادىٰ غيره وبقوله يلَبِّى ، وشُـغل بغيره وهو يقول حَسْـبِى « شهابُ الدين » حَسْـبِى : ﴿فَلَمَّـا رءَاه مستَقِرًّا عندَهُ قال هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى﴾ . فلما حَصَل له الٱستئناس ، وزال عنـه القَلَق والٱلتباس ، قال : ﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْـلِ اللهِ علَينَا وَعَلَىٰ النَّاس﴾ ــ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نخُصَّـه بٱستقرار رُتْبَته لدَيْه ، وأن نستمرّ به علىٰ وظيفته السنيةِ ٱستمرارَ السُّعود المقبِل عليه .

فرُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال شِهابُ سـعده لامعا ، وسَحابُ كرمه هامعا ، ومُطاعُ أمره لمصالح الدِّين والدنيا جامعًا ؛ ــ لمَنَاقبه (١) التى وَفَرت مَيامنها ، وأسفَرت بوصْف آثاره الحسنة كوامنُها ؛ وأن يُعادَ إليها كما يُعادُ السِّوارُ إلىٰ الزَّنْد ، أو كما يعُود نسيمُ الصَّـبا إلىٰ الرَّنْد . فليُؤنِس منصِبًا كان إليه مشتاقًا ، ومجلِسًا كانَ منتظِرًا أن يَزُرَّ من ملابس جلاله علىٰ عُنقه أطْواقا ؛ وليجَمِّل هالةً كانت متشوِّقةً إلىٰ عقُود دُرَره . فٱحمَد الله علىٰ ما خصَصْناك به من مَزِيد الٱعتناء ، وأن السـعادةَ فى أيّامنا الشريفة

(١) المراد أن يستقر فى كذا لمناقبه ... ... وأن يعاد .

متصلةً فتشمَل الآباءَ والأبْناء ؛ ويكْفيك بهـذا التوقيع الشريف إذ بلغْتَ به جميعَ الأماني ، وتوّجْناه بيمينِنا الشريفَة لقرب عهْدها بمصافحَة الرُّكن اليماني ؛ وٱصطفيناك بقلمٍ عَظُم شأناً بتلك السُّتُور ، وغدا معْموراً بالهداية ببركة البيت المعْمُور ، وٱزداد بمشافهـة الحرم الشريف نُورًا علىٰ نُور . فليُحْسِـن نظرَه المبارَكَ فى ذٰلك كلِّه ، وليُبْدِ ما يحْسُنُ فى هـذه الوظيفة من مِثْله ؛ وفى تقـدُّم مباشرتِه فى هذه الوظيفـة وعلْمِه ما يُغْـنِى عن كثْرة الوصايا ، وملاكُها تقوى الله تعـالىٰ وهى أكمل المَـزَايا ؛ وليُحْمِـدْ أفعالَه ويصِـلْ أسـبابَ ٱعتمادِه بسببها ؛ والله تعـالىٰ يُجمِّـل له مواهبَ تَخْويله ، ويجعل له الخيرَ فى تنقُّله وتَحْويله ؛ والخطُّ الشريف أعلاه ، حجّةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرّ :

الحمـد لله الذى جعل خَواطرَ أوليائِنا بإقرار نِعَمِنا مستقِرّه ، ومَواطرَ آلائِنا علىٰ ذوِى الإخلاص فى ولائنا دائمةَ الدِّيَم مستمِرَّه ، وبشائرَ رضانا تجدِّد لكلٍّ من ذَوِى الاختصاص ٱبتهاجَه وبِشْرَه ، وسـوافرَ أوجه إقبالنا لأُولى الاصطفاء والوفاءِ مُشْرِقة الأوضاح متهلِّلةَ الأسِرَّه ، مُودِعِ أسرار مُلْكنا الشريف من آل «فَضْـل الله» عند أكرم أُسْرَه ، وممتِّع دولتنا بخيرِ كافٍ دَقَّق فى مصالحنا فِكرَه ، وأنفق فى مناجحنا عمرَه ، ومُجْمِـعِ آرائنا علىٰ أعلىٰ علىّ حلَّ من بُهْرِ بيتِه بمعرفه وبهَرَ خَيْره ، ومُطْلِـعِ أنجمُهم بأفُقِ تقريبنا مرّةً بعـد مرّه ، فنحيي نيرهم الأكبر وقد شيّدنا بإرتقائهم بيتَه وشدَدْنا بعلائهم أزْرَه .

نحمده علىٰ أنْ جبَل سَجاياَنا ، علىٰ الإحسان والمبَرَّه ، ونشكُره علىٰ أنْ أجزل عَطايانَا ، لمن لم يَزَلْ يَعرِف حقَّه ويألف خَيْره ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له

شهادةً تشْرَح لمُؤْمنها صدْره ، وتُصلِح لمُوقنها أمْرَه، ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى أسمىٰ علىٰ الخلائق قَدْرَه، وتولّى فى المَضايِق نَصْره، وأعلىٰ فى المَشارق والمَغارِب ذِكْره، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله أعزِّ عِتْره، ورضى الله عن أصحابه الذين أسْدَوُا المِنَّة وسَدُّوا الثُّغْره، صلاةً ورضوانا متواصلاينِ فى كلِّ أصيل ومكرَّرين فى كلِّ بُكْره، ما وُهِب فضلُ الله مستحِقًّا فسَرَّ بالعواطف والعَوارف سِرَّه، وعقَّب فى سماء الإسعاد كوكَبٌ كوكبًا فحَلَّ محلَّه وقرّ مقَرّه، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ فشِيَمُنا ترعىٰ لأوليائها حُقُوقا ، ونِعمُنا الغامرةُ تُثْنِى صدَقاتِها لمن لم يزَلْ فى وَلائها صَدُوقا، وتَزيد هِباتِها توفيرًا لمن عَهِدتْ منه لمَراضيها توفيقا ، وتُجدِّد بتعاهدها مَعْهَد الفضل فلا يُمْسِى خاليًا بل يُضْحِى بإكرامها خليقا، وتشَيِّد بإحسانها بيتا أُسِّس علىٰ تقوىٰ الله وطاعةِ سلطانها فغَدَا بالحِفْظ حقيقا ، وتَحْمِى بآعتنائها جوانبَه من الغِيَر فلا يرَهَب حِماه لها طُرُوقا ، ولا تجِدُ بفضل الله لها عليه طَريقا، وتُطْلِعُ فى بروج سُعودها زُهرا تَرُوق شُروقا ، وتَجْمَع علىٰ مُهمَّاتِها مَن عَظُموا فَضْلا وكَرُموا فرِيقًا، وتُودِع أسرارَها عند سَراتِهم رُكُونًا إليهم وسُكونا ورِضًا بهم ووُثُوقا ، وتشفَعُ منائحَها بمنائحَ تزيدُ آمالَهم نَجاحا وتُفيد أمانيَّهم تحقيقا، وترفَعُ مكانًا عليًّا إلىٰ حيث آتَّسع السِّرار من مُلْكها من كان بالمَيامن مَليًّا وفى المحاسن عَريقا، ويَخْلُف فى خِدَمها شقيق منهم شَقيقا ، ويُصَرِّف أوامرَها ونواهِيَها من أعيانهم من تأْمَن المصالحُ مع آجتهادِه، تفويتًا وتخافُ الأعداءُ لسداده، تعويقا، طالمَا آئتَمنَّاهم علىٰ إيداع أسرارِنا فحلَّت من سرائرهم مستَوْدَعا وثيقا، وعُيِّنوا للمعالى فصادفَتْ طويَّتُنا من يقظتهم ونهضتِهم تَصْدِيقا ، فهمْ أوْلىٰ أن نجعل لأجيادهم بعُقُود جُودنا تطويقا ، وأحقُّ أن نرفع بنِعَمنا محلَّهم، ونجمعَ فى خِدْمتنا شَمْلَهم، فلا يخشَوْن نقْضًا ولا تَفْريقا .

ولما كان المجلس العالى الفلانىّ هو الذى لحظَتْه عنايتُنا، فَعَلَا فِعْلا، وأيقظتْه إشارتُنا، فَغَدا فى الحكم كَهْلا، وحفِظتْه رعايتُنا، فعَمَرت بيتَه العمرىّ الذى مازال بالعوارِف ملمُوحًا وللقَبول أهْلا، وأحْظتْه سعادتُنا، فى إقامته مُقام أبيه فى حِفْظ أسرارنا التى هو أحقُّ بإيداعِها وأوْلىٰ ـ آقتضى حُسْن الرأى الشريف أن نُجْرى بمراسِمنا أقلامَه، ونوَفِّر من إنعامنا أقسامَه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا بَرِحتْ سحائبُـه عامّه، ومواهبـه لهـا مزيد وإدامَهْ، ورعايتُه إذا آبتدأتْ فضلا رأتْ إتمـامَه، وكواكبُهُ تَسير فى منازل عِزِّها ولنَيِّرها الأكبرِ الإرشادُ والإمامَهْ ـ أن يفَوَّض إليه كذا وكذا، علىٰ أجمل العوائد، وأكمل القواعد، نظير ما كان مستقرّا لأخيه .

فلْيُباشرْ هـذه الوظيفةَ التى لهـا به وبأهـله أعظَمُ فَخَار، وليحُلَّ هذه الرتبةَ التى ما منهم إلا مَنْ لهـا يُجتَبىٰ ويُستخار، وليجُمِّل هـذا المنصِبَ الذى إليهـم مصيرُه فى جميع الأمصار، وليُحلِّ المَهارق بانشاآته التى شانَ مُطاولَهَا عن شأْوِها الإقْصار، وليتوقَّل هذه الهضبةَ التى لهـا علىٰ عَلْيائهم آقْتِصار، وفى آبائهـم وأبنائهم لهـا تعيينُ وآنحصار، وليـدَبِّج الطُّروس من خَطِّه بالوَشْى الرقيم، وليُبْهِج النفُوسَ من خِطابه بالدُّرِّ النظيم، وليُسْرج الشُّموس من أوضاع كتابتِه التى تُبْرِز من إبريز كُنُوزها «آبنَ العَديم»، وليُجهِّز البُرُد التى تَقدَمُها مهابَتُنا فلم يكْبِتْها من كتائب الأعداء هَزِيم، ولْيزَيِّن مقاصِـدَها التى قُرِن بهـا الفتحُ القريب والنصرُ العزيزُ والفضـلُ العظيم؛ وهو بحمد الله غنِيٌّ عن الإرشاد بالوصايا والتفهيم، علِيُّ القَدْر لا يحتاج مع ألمعيّته إلىٰ تنبيه ولا إلىٰ تعليم؛ وهم أئمةُ هذه الصـناعة ولهم الفضل القديم، وسبيلُهم السَّوِىُّ وصراطُهم القويم؛ والله تعـالىٰ يُوفِّر لهم فضلَنا العميم، ويُظْفِر أقدارَهم من لَدُنَّا

بتكرير التكريم، ويُسْنِي أمرَهم فى آفاق العلياء يُسعِدُ ويُقْعِد ويُقيم، ويديمُ لكلٍّ منهم فى ظلّ نعمنا المزيدَ والتأكيدَ والتقديم؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه، حجةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه وصيةٌ لكاتب السرّ، أوردها فى "التعريف" وهى :

وليأمُرْ عنَّا بما يُقابَل بالآمتثال، ويقال به : السيوفُ لأقلامه مِثَال؛ ويَبْلُغ [من] ملُوك العِدا مالاتبلُغه الأسِنَّه، ولاتصل إليه المراكبُ المُشْرَعة القلُوع والخيولُ المطلَقةُ الأعِنَّه؛ وليُوقِّعْ عنَّا بما تَذْهَب الأيامُ ويَبْقىٰ، ويُخَلِّدْ من الحسنات ما يلْقىٰ آخرةً ويُلْقىٰ؛ ويُمْلِ من لَدُنْه من غُرَر الإنشاء مايُطرِّز كلَّ تقليد، وتُلْقىٰ إليه المَقَاليد؛ ولينفِّذْ من المهمَّات ماتُحجَب دُونَه الرِّماح، وتُحْجِم عن مجاراة خَيل البريد بِهِ الرِّيَاح؛ وليتلَقَّ مايَرِد إلينا من أخبار الممالك علىٰ آتِّساع أطرافها، وما تضُمُّه مُلاءة النَّهار مِلْءَ أطرافها؛ وليُحْسِن لدَيْنا عَرْضَها، وليؤدِّ بأدائها واجبَ الخدمة ولْيُتِمَّ فَرْضَها؛ وليُجِبْ عنَّا بما آستخرجَ فيه مراسِمَنا المُطاعه، وبما وُكل إلىٰ رأْيه فسمِع له الصوابُ وأطاعَهْ؛ ولْيُمْضِ ما يَصْدُر عنَّا مما يجُوبُ الآفاق، ويزكُو على الإنْفاق، ويجُول ما بينَ مِصْر والعِراق، ويطيرُ به الحمام الرسائِلىُّ وتجرى الخيلُ العِتَاق؛ ولْيُرِ النوّابَ ما أَبْهم عليهم بما يُرِيهم من ضَوْء آرائنا، وليؤكِّد عندهم أسبابَ الوَلَاء بما يُوالِى إليهم من عَمِيم آلائنا؛ وليأْمُرِ الوُلاةَ بما يقف به كلٌّ منهم عندَ حَدِّه ولا يتجاوَزُه فى عمله، ولا يَقِف بعده علىٰ سواه بأَمَله؛ وليتولَّ تجهيزَ البَريد، وآستِطْلاعَ كلِّ خبر قريبٍ وبعيد؛ والنَّجَّابة وما تَسير فيه من المصالح، وتأخُذ منه بأطراف الأحاديث إذا سالتْ منه بأعناق المَطِىّ الأباطِح؛ وأمورَ النُّصحاء والقُصَّاد،

ومن يَظَلُّ سِرُّهم عنده إلى صَخْرة أعيا الرجالَ انصداعُها وهُمْ شَتَّى فى البِلَاد؛ وليعرِفْ حقوقَ ذوى الخِدْمة منهم، وأهلِ النصيحةِ الذين رضى الله عنهم، ولا يَنْسَ عوائدَهم من رُسوم إحساننا الموظَّف، وكرمنا الذى يَسْتَميلُ به القلوبَ ويتألَّف؛ وليصُنِ السرَّ بجُهْده وهيهات أن يختفى، وليحجُبْه حتّى عن مِسْمَعيه فسرُّ الثلاثة غير الخفِى؛ والكَشَّافةَ الذين هم ربيئة النظر، وجَلَّابة كل خَبَر؛ ومن هم أسرَعُ طرُوقا من الطيف، وأدخَلُ فى نُحور الأعداء من ذُبابِ السَّيْف؛ وهم أهلُ الرِّباط للخيل، وما منهم إلا من هو مُقْبِل ومُدْرِك كاللَّيل؛ والدَّيادِبُ والنَّظَّاره، ومن يَعلمُ به العِلْمَ اليقينَ إذا رفَع دُخَانه أو نارَه؛ وهم فى جنَباتٍ حيثُ لا يخفى لأحد منهم مَنَار، ولا يزال كلُّ نبإٍ بتنويرهم كأنه جَبَل فى رأسه نَار؛ والحمَامَ الرسائلىَّ وما يحمل من بَطائِق، ويتحمَّل من الأنباء ما ليس سواه [له] بِطائِق؛ ويخوضُ من قطع الأنهار، ويقطع إلينا ما بَعُد مسافةَ شهر وأكثرَ منه فى ساعةٍ من نَهَار؛ ويَعْزِم السُّرى لا يُلْوى على الرِّباع، ويعلم أنها من ملائكةِ النصر لأنها رُسُل ولها أجنحةٌ مَثْنى وثُلاثَ ورُباع؛ وغيرَ هذا مما هو به معْدُوق، وإليه تُحْدى به النُّوق؛ من رُسُل الملوك الوارِده، وطوائف المستأمَنين الوافِده؛ وكلُّ هؤلاء [هو لا] مالهم المتَرْجِم، والمصَرِّح عن حالهم المُحَمْجِم، فليعامِلْهم بالكرامه؛ وليُوسِعْ لهم من راتب المُضَيَّف ما يحبِّب إليهم فى أبوابنا العاليةِ الإقامَه؛ وليعلَمْ أنه هو لدَيْنا المستشارُ المؤتَمَن، والسفيرُ الذى كلُّ أحدٍ بسِفارته مرتهِن؛ وهو إذا كتب بَنانُنا، وإذا نطق لسانُنا؛ وإذا خاطب مَلِكا بعيدَ المَدى عُنْوانُنا، وإذا سدّد رأيه فى نُحور الأعداء سهمُنا المرسَلُ وسِنانُنا؛ فليُنْزِل نفسَه مكانها، ولينظر لدَيْنا رتبتَه العليَّة إذا رأى مثل النجوم عِيانَها .

فليراقِب اللهَ فى هذه الرتبه، وليتوقَّ لِدينه فإنَّ الله لا يَضيع عنده مثقالُ حَبَّه، وليخَفْ سُوءَ الحساب وليتّق الله ربَّه؛ وجماعة الكُتَّاب بديوان الإنشاء بالممالك

الإسلامية هم على الحقيقة رعيّتُه ، وهداهم بما تُمِدّهم به من الآلاء ألمعيتُه ؛ فلا تستكتِبْ إلا من لا تجِدُ عليه عاتبا ، ولا يجِدُ إلا إذا قعَد بينَ يدَيْه كاتبا ، والوصايا منه تُسْتملَىٰ .

الطبقة الثانية

(من أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية أصحابُ التواقيع ، وهم علىٰ ثلاث درجات)

الدرجة الأولىٰ

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«ـالمجلس العالى» وكلُّها مفتتَحة بـ«ـالحمدُ لله»)

وتشتمل علىٰ ثلاثِ وظائفَ سوىٰ ماتقدّم أنه نقل إلىٰ رتبة التقاليد ، وهو كتابة السرّ .

الوظيفة الأولىٰ

(نظرُ الخاصّ)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّها وظيفة محدَثةٌ ، أحدثها السلطانُ الملك الناصر «محمدُ بن قلاوون» حينَ أبطل الوِزارةَ ؛ وأنَّ أصل موضوعها التحدّثُ فيما هو خاصٌّ بمال السلطان ؛ وأنَّ صاحبها صار كالوزير لقُرْبه من السلطان وتصرُّفه فى تدبير جُملةِ الأمور ، وتعيينِ المباشِرين ، إلا أنّه لا يقدر علىٰ الاستقلال بأمر ، بل لابدّ له من مراجَعة السلطان . وقد تقدّم ذكرُ ألقابه فى الكلام علىٰ مقدّمة الولايات من هذا الفصل ، وعلىٰ طُرّة توقيعه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاصّ ، كُتِب به للقاضى شمسِ الدين مُوسىٰ بن عبد الوهّاب فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» وهى :

الحمدُ لله الذى جعـل كلَّ جُرْح بنـا يُوسىٰ، وعجَّل كلَّ نعمة تُبدِّل بُوسا، وتغيِّر بالسُّرور من المَساءة لَبُوسا .

نَحمَدُه حمْـدا يشْرَح صدُورا ويسرّ نفُوسا، ونشهد أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً ترفَع لقائِلِها رُءُوسا، وتُطلِـع فى آفاق ممالِكنا الشريفة شُمُوسا، وتُنْشِئ فى أيَّامنا الزاهرة غُرُوسا، ونشهد أن محمَّدا عبدُه ورسوله الذى بَشَّر به مُوسىٰ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه صلاةً تملأ طُرُوسا، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإن العمل بالسنَّة أَوْلىٰ ما يتَمسك به المتمَسِّك، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «ٱبْدَأْ بنَفْسِك»؛ وكانت الخواصُّ الشريفةُ هى المصلحةُ الخاصَّةُ بنا، المتعلِّقةُ دُونَ كل شيء بأنفُسِنا؛ لأن من خزائنها العالية تتفرّقُ مَواهِبُنا الشريفةُ فى الوجُود، وتتحلَّى مَعاطِف الأمراء والجُنُود؛ وكان فيها مَن لم يزَلْ هو وبَنُوه قائمين بها أحسَن قيام، [و]فيها من ممـالكنا الشريفةِ مايُضاهى بمَدَده الغَمام؛ مَنْ حضَر منهم لايتَفَقَّد معه مَنْ غاب، ومن كتب منهم فى شيءٍ من مصالحها قال الذى عِنْده عِلْمٌ من الكتاب؛ كم أجرتْ صدَقاتُنا الشريفةُ بأقلامهم من إنعام، وتقَسَّموا فى مصالحنا الشريفة هذا فى الخاص وهذا فى العَامّ؛ طالما ٱنقطع والدُهم رحمه الله تعالىٰ بعُذْر فمَشَّوا الأمور علىٰ أكمل سَـدَاد، وأجملِ ٱعتِماد، وأتمّ مالو حضَر أبُوهم وكان هو المتولِّىَ لمـا زاد؛ فمـا خلَتْ فى وقتٍ منه، أو من أحد منهم لَمَّا غاب مَنْ بقِىَ يسُـدّ عنه؛ فلم يزل منهم ربعُها مأنوسا، ولا سُئِل فيها عن قصَّة إلا وأنبأت بها صُحُفُ إبراهيم ومُوسىٰ .

وكان المجلس العالى فلان هو الذى تفرّد آخِرًا بهذه الوظيفه، وٱستقَلَّ فيهـا بين أيْدِينا الشريفه؛ وسافر فيهـا إلىٰ ثَغْر الإسكندرية ـ حرسها الله تعالىٰ ـ فٱفترّ بيُمْن تصرُّفه، وحسن تعفُّفه، وعَدم فيها المضاهىَ لأنه لاشىءَ يُضاهى الشمسَ إذا حلَّ

سِرُّها فى مَنازِل شَرَفه ، كم كفَتْ له كِفَايه ، وبدَتْ بِدايه ، وكم بلَغ من غايَهْ ؛ كَمْ له من هِمَم ، وكَمْ تقدّمتْ له قَدَم ، وكم ٱعترف السيفُ بِبِرِّ القَلَم ؛ كَمْ له فى خِدْمة المقامات العالية أولادِنا أثَرٌ جميل ، وفعلٌ جَلِيّ جليل ، وسلُوكٌ فلا يُحتاج فى الشمس إلىٰ دليـل ؛ كم أحسَنَ فى مَرَّه ، كم ردَدْناه إلىٰ الكرك كَرَّه ؛ كم غَلَب علىٰ السحاب فرَقىٰ إليهـا ، وبلَغ النُّجومَ وله قُـدُوم عليها ؛ فلمـا ٱنتقل والدُه القاضى تاجُ الدين عبدُ الوهاب إلىٰ رحمـة الله تعالىٰ ، ٱحتاج إلىٰ توقيعٍ شريفٍ بالٱستقلال فى وظيفة نظر الخاصّ الشريفِ التى خلَتْ عن أبيه ؛ ليعلم كلُّ متطاوِل إليها أنه لا يَصل إليهـا مع وُجود بَنِيه ؛ فمـا عادَ إلا وعادَ بعين العِناية محروسا ، ولا أقبـلَ علىٰ كرمنا إلا قالَ ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَىٰ ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ زاد الله شرَفَه ، ومكَّن فى الأرض تَصرُّفَه ــ أن يفوّض إليـه نظرُ الخاصّ الشريف بالممـالك الإسلامية المحروسة ، علىٰ عادةِ والده رحمه الله فى هذه الوظيفه ، وقاعدتِه فى رُتْبتها المُنِيفه ؛ ليقضىَ ما كانَ فى خاطرِ أبيه من الوَطَر ، ولأنه فى أمثالِه عينُ الأعيانِ والعينُ أَوْلىٰ بالنظَر .

فليُباشر ما أنعمَتْ به صدَقاتُنا العميمةُ عليه علىٰ ما عُهِد [منه] بالأمس ، وعُرِف به من حُسْن السلوك كمن يَمْشِى فى ضَوء الشمس ؛ وليقـدّم تقْوى الله والأمانةَ فهما أفضـلُ ما يُقدّم ، وأجملُ ما يَعمَل به من تقَدّم ؛ والنهضةَ فإنهـا هى التى تقُوم بها المصالح ، والتصدّىَ لمـا هو بصَـدَده فإن به يتمُّ كلُّ عمـل صالح ؛ وليَحتفِظْ علىٰ الخزائن العالية ، وليكُنْ فيها كواحد من رُفْقته عملا بالعادة [فيها] ، وإلا فنحن نعلَم من كفايته [أنه] يكفيها ، ولْيثمِّر الجهات التى إليه مرجِعُها ، والأموالَ التى يدُوم إليه من العين تطلُّعها ؛ وليستجلِبْ خواطرَ التُّجّار بإيصال حقُوقهم إليهم ، والقائمين فى خدْمة

أبوابنا الشريفة بتعجيل ما تُنعِم به صدقاتُنا الشريفةُ عليهم ؛ وليكُنْ إلىٰ ما تبرُز به مراسمنا الشريفة مُسَارِعا ، ولها فى كلِّ ما أشكَل عليه من الأمور مُراجِعا ؛ وبقيَّة هذا من كلِّ ما يحتاجُ أن نُوصِيَه بتعلُّمه فقد عُلِم مما جرتْ به عادتُنا الشريفةُ بأن نقولَهُ فى مثله ، ولهذا نختصِر فى الوصايَا التى تُشْرح ٱكتفاءً بما آتاه الله بنا من فضله ؛ والله تعالىٰ يأْخُذ به إلىٰ النَّجاح ، ويفتَح له بنا أحسَن الٱفْتِتاح ؛ والٱعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص :

الحمدُ لله الذى جعل خَواصَّ النِّعَم لمُلْكنا الشريف لأجَلِّها ، ونفائِسَ الذخائرِ من دولتنا القاهرة بمحَلِّها ، وأخايِرَ المَفاخِر مبسوطا فى أيَّامنا ظِلُّها .

نحمَدُه بمحامِدِه التى لا نَمَلُّها ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً أشرَق مستَهَلُّها ، ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى خُتِمت به أنبياؤُها ورُسُلُها ، وبعثه الله للأرحام يَبُلُّها ، وللأولياء يُجِلُّها ، وللأعداء يُذِلُّها ، ولسُيوف النصر من الغُمود يَسُلُّها ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما شُدّ علىٰ مطِيَّة رَحْلُها ، ووَلِيَ المراتِبَ أهلُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ خزائن مُلْكنا الشريف مستَوْدَعُ كلِّ ثمِين ، وممالكَنا المعظَّمة لا تُعْدَق إلَّا بالثِّقة الأمين ، ومتاجِرَ خواصِّنا الشريفة لا يُثَمِّرها إلا مَنْ رأيُه يعضِّد قلَمه فى اليمين ، والمَتْجَر المحروس لا يقُوم بنَماء محصُوله إلا مَنْ له حَزْمٌ سديدٌ وعَزْم متين ، ونَظَر الخواصِّ هو الذِّروة العالية فمُرْتقيها علىٰ كل ما يعترِضه مُعين .

ولما كان فلان هو المختارَ علىٰ يقين، والمخطوبَ لهذا المنْصِب ليزيده فى التحسين والتَّحصين ، والذى إن نَظَر فى القليل عاد كثيرا بالأُلوف والمِئين، فإنْ دبَّر تدبيرا حُفِظ وحُرِس وصِين، وضبط فى حُسْن الاعتماد بَلَغ إلىٰ الصِّين؛ وإن توجّه إلىٰ الثغر المحروس تفَجَّر له عن أمواله الجَمَّه ، وأخرجَ له من فاخر الحُلَل ما حَسَّن راقِمُه رَقْمَه؛ وصدَر عنه إلىٰ أبوابنا الشريفة بالتُّحَف المُثْمَنه، والحُمُول التى أوقرتِ السُّفُن فى النِّيل، والإبلَ فى السبيل، فأزال الغُمَّه ، وأثارَ الأمورَ المُدْلَهِمَّه، ونشرَ ما طواه لدَيْنا فشكَرْنا له ما تقدّم به مما أتَمَّه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ... ... فلْيُباشِرْ هذا المنصِبَ الكريمَ بتدبيرٍ يُصْلِح الفاسد، ويُنَفِّق الكاسِد، ويَكْبِت الحاسِد ؛ ويُكَثِّر الأموال ، ويُسْعِد الأحوال ؛ ويُثَمِّر الذَّخائر، ويَسُرّ السَّرائر، ويُوَفِّر حاصلَ الجواهر، ويُكَثِّر التُّحَف من كل صِنْف فاخر؛ ويُوفِي المهِمَّاتِ الشريفةَ حقَّها فى الأوّل والآخر، ويَنْشُر التشاريفَ كالأَزَاهِر . ولْيخْتَرِ الأُمناءَ الثِّقات، ولْيُحَرِّر كلٌّ منهم الميقَات ، ولْيَبِعْ لخاصِّنا الشريف ويَشْتَرِ بالأرْباح فى سائِر الأوْقات ؛ ولْيتلَقَّ تجارَ الكارمِ الواردين من عَدَن ، بٱستجلاب الخواطر وبَسْطِ المِنَن ، ونَشْرِ المَعْدَلة عليهم ليَجِدُوا من اليُمْن ما لم يَجِدُوه فى اليَمَن؛ وكذٰلك تجار الجهةِ الغربيَّة الواردين إلىٰ الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفَرَنْج : فلْيُحْسِنْ لهم الوِفَاده، ولْيُعامِلْهم بالمعدلة المستفَاده، فإنَّ مكاسبَ الثغر منهم ومنَ الله الحُسْنىٰ وزياده . والوصايا كثيرةٌ وهو غَنِيٌّ عن الإعادَه، و [ملاكها] تقوىٰ الله فليَقْتَفِ رَشادَه ، وليُصْلِح مآبَه ومَعادَه ، ولا يتدَنَّس بأقذار هذه الدنيا فإنها جَمْرة وَقَّادَهْ ، والله تعالىٰ يحرُس إرفاقَه وإرفادَه، بمنّه وكرمه ! : بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثانيـــــة
(نظر الجيش)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنَّ موضُوعَها التحدّثُ فى الإقطاعات بمِصْرَ والشام، والكتابةُ بالكَشْف عنها، ومشاوَرةُ السلطان عليها، وأخْذُ خطِّه . وقد تقـدّم ذكْرُ ألقابه فى جملة الألقاب فى الكلام علىٰ مقدّمات الوِلايات من هذا الفصل، وتقدّم ذكْرُ مايُكتَب فى طرّة تقليده فى الكلام علىٰ التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمـدُ لله الذى عَدَق[1] بالأَكْفاء مصالحَ الجُنود، وصرَّف أقلامَهم فيما نُقْطِعه من الجُود، واجتَبىٰ لمراتِب السيادة من تحمَدُه الأقلامُ فى العطايا البيض والسُّـيوفُ فى الخُطوب السُّود .

نحمَـدُه وهو المحمود، ونشكُره شكرا مُشْرِقَ المَيَـامِن والسُّعود؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً عَذْبَةَ الوُرُود، يجِـدُ المخلِص بركتَها يومَ العَرْض ﴿ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أضحَتْ به جيوشُ الإسـلام منشُورةَ الألْوية والبُنُود، منصورةَ السَّرايا فى التَّهـائم والنُّجود؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أورَقَ عُود، وأُولِجَ نَهارُ السيوف فى لَيْل الغُمُود؛ وسلَّم تسليما .

وبعـد، فإنَّ أجلَّ رُتَب هذه الدولة الشريفة مُرْتقىٰ، وأجملَها منْتَقىٰ، وأكرَمَها هاديًا حَلَّى بعِقْد السِّـيادة مَفْرِقا، رتبةٌ حكَّمنا مرتقِيَها فى أرزاق الجُيوش الذين هم حُماةُ الدين وأنصارُه، ولهم رَواحُ الظَّفَر وابتكارُه؛ ولهـذا لايَحْظىٰ بتسنُّمها إلا من عَلَا مِقْدارا، وشكرتِ الدولةُ الشريفـةُ له آثارا؛ وجيِّبَتْ عليـه السعادةُ أثوابَها،

(١) (عدق) جمع .

وأوكفَتْ عليه سَحابها، وأنزلتْه ساحاتِها ورِحابها؛ وغدتْ لأحاديثِ عَلْيائه تَرْوِى، وحمدِه الميسورِ والمنْشورِ والمَطْوِى .

ولما كان فلان هو الذى نَمَتْ مآثِرُه، وكَرُمت مفاخِرُه، وآستوَتْ على العَلْياء مَظاهِرُه؛ وشُكِرَ آستبصارُه وحِياطتُه، وكَمُل سلوكُه منهَجَ الفَخار وجادّته؛ وأحْصى الجُنود عدَدا، وإن كاثَرُوا النجُومَ مدَدا؛ وأحاط بالأرض المُقْطَعه، فلم تكنْ نواحِيها عنه ممتنِعه؛ ولم يُغادِرْ منها شيئا إلا أحصاه، وآتّبع سببَ مَراضينا حتّى بلَغ أقصاه؛ فالعلمُ يُثْنِى عليه والعَلَم، والحربُ والسِّلْم يشكرانِه لمناسبة نظرِه القرطاسَ والقلَم ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نرقِّيه هَضْبةً ساميَةَ العُلىٰ، فاخرةَ الحِلىٰ؛ ومنبعَ أرزاق أئمة الفضل وأبطالها، ورتبةً شهِد منالُها بعدَمِ مثالها .

فلذٰلِك رسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه ... ...

فليباشر هذه الوظيفةَ المباركه، ولْيحُلَّ ذَرَاها الأسْمىٰ، وليجمل آطِّلاعَه علىٰ الجيوش المنصورة حتّى لا يُغادِرَ منها آسما؛ لتغْدُوَ مصالحُها وَرِيقةَ الغراس باسِقه، وعقُودُها نفيسةَ الفرائد متناسِقه؛ وليُجْرِ نظرَه المبارك فيما صَرَّفناه فيه، آخذًا بيُمْن السَّداد من فعله وحُسْنِ التنفيذ مِنْ فيه؛ مُلْزِما مَنْ تحت نظَره بإتقان ماهمْ بصدَده من العُروض والأمثله، حتّى تغدُوَ لديه ممثَّله؛ مُحرِّرا للإقطاعات وعِلْمِ خَفَاياها فيما نَهَبُه ونُقْطِعه، ونصله ونَقْطَعُه؛ والمقايَضاتِ وإن آختلفت، والإفراجات وإن آكتنفَتْ، والمَغَلَّات الآتية والأُخْرىٰ التى سلَفَتْ؛ وما يخصُّ المتَّصل، من فعل المنفصل؛ والمتحصل والعِبْره، والخاص والعُدّة لذوى الإمره؛ ومنها مصرىّ لاغِنَى عن تحريره، وشامىّ يفْتقِر إلىٰ الإتقان فى قليله وكثيره؛ ولينظُرْ فيمن له جامكيَّة أو إقطاع مُجْزَل، وكلاهما فى دولتنا سِمَاك : هذا رامحٌ وهذا أعْزَل .

هذه وصايا جَمَّه ، وأنت غنيٌّ عن أن يستقْصِيَ القلمُ ذكرَها أو يُتِمَّه ، والله تعالىٰ يجمِّل به رُتَبه ، ويبلِّغه أرَبَه ، ويرفَع عليه لواءَ المجد وعَذَبه ؛ بعد العلامة الشريفة أعلاها الله تعالىٰ أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمدُ لله الذى أعزَّ الجيوشَ المنصوره ، وجَزَّ أعناقَ العِدَا بالسُّيوف المشْهُوره ، وهَزَّ ألويةَ التأييدِ المنشُوره ، وجعل الجَحافِلِ مُشْرِفةً وأجنِحتَها خافقةً وساقتَها مُحدِقةً وقلوبَها مسْروره .

نحمده بمَحامده المذكوره ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مأثوره ، موصولةً غيرَ مهْجُوره ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أبطل من الشيطانِ غُرُورَه ، وصان للإسلام حَوْزتَه وثُغُوره ، وسنَّ لأمّته الآستخارةَ والمَشُوره ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً نوّرت من الليل دَيْجُوره ، وكَثَّرتْ لقائلها أُجُورَه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أحوال جُيوشِنا يتعيَّن حُسْنُ النظر فى أمْرِها ، والقيامُ بموادِّ نَصْرِها ، وإسعافُها بناظر يحرّر جهات أرزاقِها ، ويضبِطُها مخافةَ آفتراقِها ، ويأمُر بنَظْم جرائد أسمائهم وآتفاقِها ، ويُتقِن الحِلىٰ ، ويبيِّن يومَ العَرْض محلَّه فى آرتقاء العُلىٰ ؛ ويصُون المحاسَباتِ لكل منفَصِل ومتَّصِل من الخُلَل ، ويُسْرِع فى الدخول والخُروج مايَصل به لكلٍّ حقُّه عند آستحقاقِ الأجَل .

ولما كان فلان هو الممْدُوحَ بألسِنة الأقلام ، والرئيسَ بينَ الأنام ، والمشكورَ بين أرباب السُّيوف وذَوى الأقلام ، والمأمونَ فيما يُعْدَق به من مَهامّ ، والعزيزَ المنَال ،

والسائرَ بَجْدِه الأمثال، والمنشورَ فضلهُ فى كل منشُور، والظاهرَ أثَره تجريده[(١)] فى الديوان المعمور، والذى شكرْته المملكةُ الشريفة فهو من صُدُورها فى الصُّدُور .

فلذلك رسم ... ...[(٢)] فليباشِرْ نظرَ هذا المنْصِب السعيد بأمانة تحفَظُ أرزاقَ العساكِر، وتجلُو الظَّلامَ العاكر ، ولْيُحرِّر جرائدَ التجريد ، وليصُنِ العُدّةَ الكاملةَ من التَّبْديد ، ولتكن أوراقُ البياكر نُصْبَ عينيه حتَّى إذا طُلِبت منه أحضَرها محرَّره ، وإذا وقع فيهم حركة كانت أقلامُه غير مقصِّره ؛ وليرغِّب فى اقتناء الثناء حتَّى يُصْبِح عنده منه جملةٌ من الألُوف ، وليكن للأمانةِ والنُّصْح نِعم الألُوف ؛ وليتَّقِ الله معَ أصحاب السُّيوف ، وليستجْلِب خواطِرَ أرباب الصُّفوف ، وليجعلْ له بِرًّا فى كل أرض يطوف؛ وتقوى الله فهى السبيلُ المعروف، فلينْعَمْ بجنَّتها الدانيةِ القُطوف ، وليلْبَسْ بُرْدتَها الضافيةَ السُّجوف ، والله تعالىٰ يُنجِّيه من المخُوف ، بمنِّه وكرمه ! .

⁂

وهذه وصية ناظر جيش أوردها فى "التعريف" قال :

وليأخُذْ أمرَ هذا الديوان بكُلِّيته ، ويستحضِرْ كلَّ مسمًّى فيه إذا دُعِى باسمه وقُوبِل عليه بحِلْيته ؛ وليَقُمْ [فيه] قياما بغَيْره لم يُرَضْ ، وليُقدِّم من يجب تقديمهُ فى العَرَض ؛ وليقِفْ علىٰ معالم هذه المُباشره ، وجرائد جُنودِنا وما تضحى له من الأعلام ناشِره ؛ وليقتصِدْ فى كل مُحاسَبه ، ويحرِّرْها علىٰ ما يجب أو ما قارَبه وناسَبه ، وليستصحِّ أمرَ كلِّ ميت تأتِى إليه من ديوان المَواريث الحَشْريَّةِ ورقَةُ وفاته ، أو يخبِره به مقدَّمه أو نقيبُه إذا مات معه فى البيكار عند مُوافاتِه ؛ وليحرِّر ما تضمنَتْه الكشُوف ،

---

(١) لعله والظاهر أثره وتحريره الخ .

(٢) بياض بالاصل ومراده بالأمر الشريف الخ .

ويحقّق ما يقابل به من إخراج كلّ حال على ما هو معروف، حتى إذا سُئل عن أمر كان عنه لم يخْف ، وإذا كَشف على كَشْف أظهر ما هو عليه ولا يُنكَر هذا لأهل الكَشْف؛ وليحترز فى أمر كل مَرْبَعه، وما فيها من الجهات المُقْطَعه؛ وكلّ منشور يُكتب، ومثالٍ عليه جميعُ الأمر يترتّب؛ وما يَثْبُت عنده وينزِل فى تعليقِه، ويُرجَع فيه إلى تحقيقِه؛ وليعلم أنّ وراءَه من ديوان الاستيفاء من يُساوِقه فى تحرير كل إقطاع ، وفى كل زيادة وأقطاع ، وفى كل ما يُنْسَب إليه وإن كان إنما فعله بأمرنا المُطاع؛ فليتبصَّرْ بمن وَراءَه ، وليتوقَّ اختلاق كلّ مبطل وافتراءَه؛ وليتحقّق أنه هو المشار إليه دُون رُفْقته والمُوكَل به النظر، والمحقَّق به جملةُ جندنا المنصور من البَدْو والحضَر. وإليه مَدارج الأمراء فيما تَنْزِل ، وأمرُ كلّ جندىّ له ممّن فارق أو نُزِّل؛ وكذلك مُساوَقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشورِ أو على السِّياقه ، ومن هو فى العساكر المنصورة فى الطَّليعة أو فى السَّاقه . وطوائف العَرَب والتُّركمان والأكراد، ومَنْ عليهم تقدِمةٌ أو يلزمهم رَوك بلاد، أوغير ذلك مما لا يفوت إحصاؤُه القلم، وأقْصاه أو أدْناه تحتَ كل لواءٍ يُنْشَر أو علَم؛ فلا يزال لهذا كله مستحضِرا، وعلى خاطره مُحْضَرا ؛ لتكون لَفَتات نظرنا إليه دُونَ رُفْقتِه فى السؤال راجعه ، وحافظتُه الحاضرةُ غنيةً عن التذْكار والمُراجَعَه .

الوظيفة الثالثة

(نظرُ الدواوين المعبَّرُ عنها بنظر الدَّوْلة)

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيبِ وظائفِ الديار المصرية أنّ موضوعَها التحدّثُ فى كل ما يَتحدّثُ فيه الوزيرُ، وأن كلّ ما كَتَب فيه الوزيرُ « يُكْشَف » مثلا ، كَتَب فيه « يُكْشَف عمّا رُسم به » ونحو ذلك . وتقدّم ذكرُ ألقابه فى الكلام

علىٰ مقدّمات الولايات من هـذا الفصل ، وتقدّم ذكرُ ما يُكتب فى طُرّة توقيعـه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الدواوين ، كُتِب به لتاج الدِّين بنِ سعيد الدولة ، وهى :

الحمـدُ لله الذى خصَّ من أخلَص فى الطاعة من آلائنـا بحُسْن النظر ، وأجنىٰ من غَرَس فى قَلْبه أصلَ الإيمـان من عَوَارف أيَّامنا الزاهرة يانِـعَ الثَّمَر ، ورفَع مَن ٱستضاءَ فى دولتنا القاهرة بأنوار الهُـدىٰ من خُمُول الرُّتَب إلىٰ مَكان الغُرَر ، وأظهر لَوَامعَ السعادة من نِعَمِنا علىٰ مَنْ أضاء له الرَّشَدُ فرآه بعين البَصيرة قبْل البَصَر .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أرفَـعُ ما يقتنىٰ وأنفَـعُ ما يُدَّخر ، وأفضَـلُ ما نجَتْ به الفِرقة الموحِّدة وهلكَتْ به الفِرق الأُخَر ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ البشَر ، وأرْأفُ البَدْو والحَضَر ، والمبعوثُ إلىٰ الأُمَم كافَّةً لمـا قضاه الله تعالىٰ من سعادةِ من آمَنَ وشَقاوةِ مَنْ كفَر ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه المَيامين الغُرَر ، صلاةً دائمـةَ الوِرْد والصَّدَر ، باقيةَ العيْن والأثَر ، وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ من خصَّه بِرُّنا بالنظر الحسَن ، وشَمِله كرَمُنا من الرُّتَب بما يُهْجَر فى بلوغ مثله الوَسَن ، وٱشتمَل عليه معروفُنا بمـا يجعل يَراعَه فى مصالح الدولة القاهرة جميلَ العِبارة حسَنَ اللَّسَن ، مَنْ سَمَتْ به نفْسُه إلىٰ سعادةِ الآخرة فأتتْه سعادةُ الدنيا تابعـه ، وسلَك فى مَراضى الدولة القـاهرة طريقَ الإخلاص فغـدَتْ لكلِّ خيرٍ حاويةً ولكُلِّ يُمْن جامعَه ؛ مع كفاءةٍ جاءت المناصبَ علىٰ قدَر ، ومعرفةٍ مالحَظت المَصالحَ بأقْرب نظَر ، إلا نَمَّت الأموالَ وبدَرَت البِـدَر ، وخِبرةٍ ما ٱعتُـبِرت فيهـا محاسِنُ سَـيرتِه فى كل مايباشرُه إلا صَغَّر خُبْرُها الخـبَرْ ، ونزاهةٍ سلكَتْ به فى كل

ما يليه أحسنَ المَسالك، وعِفَّةٍ رفعتْه من الرتب الديوانيَّة إلىٰ مَفَارِقها ولا رُتْبَةَ للتَّاج إلا ذٰلك .

ولمَّا كان فلان هو الذى ٱجتَنىٰ من إحسان الدولةِ القاهرةِ بالطاعة أفضلَ الجَنىٰ، وفاز من عوارِفها العميمةِ بجميل المُخالَصة مازاد علىٰ المُنىٰ، وٱنتمىٰ من أدوات نفسه إلىٰ كمال المعرفةِ والعِفَّة وهما أنفَرُ ما يُدَّخر للرُّتَب الجليلة وأنفَس ما يُقْتنىٰ، وعُنِي من أسباب ٱستحقاقه المناصبَ بما ٱقْتَضىٰ إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعتَنىٰ .

فلذٰلك رُسِم أن يفوّض إليه نظرُ الدواوين المعمُورة : فلْيُباشِرْ ذٰلك محلِّياً هذه الرتبةَ بعقُود تصَرُّفه الجميل، ومجَلِّيا فى هذه الحَلْبة بسبق معرفتِه الذى لا يَحتاجُ إلىٰ دليل؛ ومبيِّنا من نتائج قلَمِه ما يُبرْهِن علىٰ أنه موضِعُ الآختيار، ومن كوامِن ٱطِّلاعه ما لا يَحتاجُ إلىٰ بُرهانٍ إلا إذا ٱحتاجَ إليه النَّهار؛ فلا يزالُ فرعُ يَراعِه فى روضِ المصالح مُثْمِرا، وليلُ نِقْسِه فى ليل الأعمال مُقْمِرا؛ وحُسن نظَره إلىٰ ماقَرُب ونأَىٰ من المصالح مُحْدِقا، ولسانُ قلمه لما دَقَّ من أمور الأقاليم محقِّقا؛ ورسمُ خطِّه لما يستقرّ فى الدواوين المعمُورةِ مُثْبِتا، ووَسْم تحريره لما يُجتنىٰ من غُروس المصالح مُنْبِتا؛ ولدَرِّ أخلافِ الأعمالِ، بحُسْن الآطِّلاع محتَلِبا، ولوجُوه الأموال، بإنفاق التوجه إلىٰ تثميرها إن أقبلت مجتَليا وإن أعرضَتْ مختَلِبا؛ فإنَّ الأمور معادنُ يستثيرُها التصرّفُ الجميل، ومنابتُ يُنمِّيها النظر الجليّ والإتقانُ الجليل؛ وملاكُ كلِّ أمر تقوى الله تعالىٰ فليجعَلْها إمامَه، ويتخَيَّاها فى كلِّ حالٍ أمَامه؛ والله تعالىٰ يوفِّقه بمنه وكرمه! .

قلت : ورُبَّما أضيف إلىٰ نظر الدواوين المعمُورةِ نظرُ الصُّحبة الشريفة الآتى ذِكْرُها، وكُتِب بهما جميعا لشخص واحد .

وهـذه نسخة توقيع بهما جميعاً(١)، كُتِب بها لتاج الدِّين بن سعِيد الدولة على أَثَر إسلامه، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي :

الحمدُ لله الذي خصَّ مَنْ أخلصَ في الطاعة من آلائنا بحُسْن النظَر، وأجنىٰ من غَرَس في قلبه أصلَ الإيمانِ من عَوارف أيَّامنا الزاهرة يانِـعَ الثمر، ورفَع من ٱستضاء في دولتنــا القاهرة بأنوار الهُـدىٰ من خُمُول الرُّتب إلىٰ مكان الغُرَر، وأظهر لوامعَ السعادة من نِعَمِنا علىٰ من أضاء له الرَّشَد فرآه بعين البصيرة قبْل البَصر .

نَحَمُدُه علىٰ إحسانه الذي غَمَر، وٱمتنانه الذي بَهَر، وفضلِه الذي عَمَّ كلَّ من ظَهَر له الهُدىٰ فلم يُعارِض الحقَّ إذا ظَهر .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هي أرفَـعُ ما يقتَنىٰ وأنفَـع ما يُدَّخر، وأوضَحُ ما نجَتْ به الفِرقةُ الموحِّدة وهَلَكت به الفِرقُ الأُخَر، ونشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ البشر، وأرأَفُ البَدْو والحضَر، والمبعوثُ إلىٰ الأمم كافَّة لمـا قضاه الله من سَعادةِ من آمنَ وشَقاوةِ من كفر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الميامينِ الغُرَر، صلاةً دائمةَ الوِرْد والصدَر، باقيةَ العيْن والأثَر، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ من خصَّه بِرُّنا بالنظر الحسَن، وشمِله كرَمُنا من الرُّتَب بمـا يُهْجَر في بلوغ مثـلِه الوَسَن، وٱشتمل عليـه معرُوفُنا بمـا يجعل يَراعه في مَصـالح الدولةِ القاهرةِ جميـلَ العِبارة حَسَن اللَّسَن، مَن سَمَتْ به نفْسُـه إلىٰ سعادة الآخرةِ فأتتْه [سعادة] الدنيا تابِعه، وسلك في مَراضِي الدولة القاهرةِ طريقَ الإخلاص فغدَتْ لكل خيْرٍ حاويةً ولـكل يُمْن جامِعَه، مع كفاءةٍ جاءتِ المناصبَ علىٰ قدَر، ومعرفةٍ مالَحَظتِ المصالح بأقرَبِ نظرٍ إلاَّ نَمَّت الأموالَ وبدَرتِ البِدَر، وخِبْرةٍ ما ٱعتُبِرت فيها

(١) هي عين سابقتها خلا أن فيها ضم الصحبة مع تغيير يسير، فتنبه .

محاسنُ سيْرتِه فى مباشرةٍ الاصغرَّ خُبْرُها الخبرَ، ونزاهةٍ سلكَتْ به فى كل ما يليه أحسَنَ المَسالِك، وعفَّةٍ رفَعتْه من الرتب الديوانية إلىٰ غُرَرها ولا رُتْبةَ لِلتَّاجِ إلا ذلك .

ولما كان فلان هو الذى ٱجتَنىٰ من إحسان الدولة القاهرة بالطاعةِ أفضَلَ الجَنىٰ، وفازَ من عَوارِفها العميمةِ بجميل المخالَصة مازادَ علىٰ المُنىٰ، وٱنتمَىٰ من أدوات نفسه إلىٰ كمالِ المعرفةِ والعِفَّة وهما أنفَسُ ما يُدَّخر للرتب الجليلةِ وأنفَسُ ما يُقتنىٰ، وغُنِي من أسباب ٱستحقاقِه المناصبَ والرتبَ بما ٱقتضى إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعتَنىٰ ـ فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يفوَّض إليه نظر الدواوين المعمورة ونَظَر الصُّحبة الشريفةِ .

فليباشِرْ ذلك محلِّيًا هذه الرتبةَ بعقُود تصرُّفه الجميل، ومجلِّيا فى هذه الحَلْبة بسَبْق معرفته التى لاتحتاج إلىٰ دَليل؛ ومبيِّنا من نتائج قلمه مايبرهن علىٰ أنه موضِعُ الٱختيار، ومن كَوامِن ٱطِّلاعه ما لايحتاج إلىٰ بُرْهان إلا إذا ٱحتاجَ إليه النَّهار؛ فلا يزالُ فرعُ يراعه فى روض المصالح مُثْمِرا، وليلُ نِقْسه فى ليل الأعمال مُقْمِرا؛ وحُسنُ نظَره إلىٰ ماقَرُب ونأَىٰ من المصالح مُحْدِقا، ولسانُ قَلَمه لما دَقَّ وجلَّ من أمور الأقاليم محقِّقا؛ ورسمُ خطِّه لما يستقِرُّ فى الدواوين المعمورة مُثْبِتا، ووَسْم تحريره لما يجتنىٰ من غُروس المَصالح مُنْبِتا؛ ولدَرّ أخلافِ الأعمال، بحُسْن الٱطِّلاع محتلِبا؛ ولوجوه الأموال، بإنفاق التوجُّه إلىٰ تثميرها إن أقبلتْ مجتلِيًا وإن أعرضَتْ مُخْتلِبا؛ فإنَّ الأمور معادنُ يَسْتثيرُها التصرفُ الجميل، ومنابِتُ يُنَمِّيها النظرُ الجليّ والإتقانُ الجليل؛ ومِلاكُ كلِّ أمر تقوى الله تعالىٰ فليجعَلْها إمامَه، ويتخيَّلْها فى كل وقتٍ أمامَه؛ والله تعالىٰ يوفِّقه بمنِّه وكرمه! . والخطُّ الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه .

الوظيفة الرابعـــــة

(نظر الصُّحبة)(١)

[وهـذه نسخة توقيع بنظر الصحبة] كُتِب به للشريف شهـاب الدين ناظر الصُّحْبة ، من إنشاء الشهاب محمودٍ الحَلَبىّ ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل الشرَفَ حيثُ حلَّ ركابُنا مُصاحِبا ، وأطلَع للفضل فى أُفُق خدْمتِنا من أولياء دولتِنا شِهابًا ثاقِبا ، وعَدَق النظرَ فى صُحْبتنا بمَنْ لم يزَلْ لمصالحنا ملاحِظًا ولأوامرِنا مُراقِبا ، وفوّض أمورَ مباشرةِ حالٍ من آجتهد أو قصَّر فى خدمتنا إلىٰ مَنْ لم يزَلْ بنفسه فى واجبِ الطاعةِ مُنافسا وعلىٰ فرضِ المُوالاةِ مُحاسِبا .

نحمَـدُه حمدَ مَنْ أجملَ فى أوليائنـا نَظَرا ، وخَصَّ بالنظر فى صُحْبتنا من آختبِرتْ خدمتُــه فتساوَتْ فى الطاعة والمناصحةِ سَفَرا وحضَرا ، وآعتمد فى ملاحظة مباشِرى مايمرّ عليه من ممالِكه علىٰ مَنْ لايُهمِل له حقًّا ولا يُحْدِث له ضَرَرا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لاتزال جيوشُنا لإعلاء مَنَارِها مُجهَّزه ، وسَرَايانا إلىٰ مَقاتِل جاحِديها البارِزةِ مبرَّزه ، ووُعودُ النصرِ علىٰ مَنْ ألحَدَ فيها لنـا معَجَّلةً وعلىٰ أيدينا منجَّزه ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أنهضَنا الله من جهاد أعداءِ دينه بمـا فَرَض ، وأيقظَنا لرفع أقدارِ أهل بيتِه فلم يُقَصِّر بأحد منهم فى أيّامنا أملٌ ولا بَعُد عليه غَرَض ، وخَصَّنا منهم بمَن تمسَّك بجوهره الأعْلىٰ فلم

(١) يظهر قياسا على ماسبق فى نظائره أن هنا سـقطا ، هو « وموضوعها أن صاحبها يتحدّث مع الوزير فى كل مايتحدّث ويشاركه فى الكتابة فى كل مايكتب فيــه ويوقع فى كل مايكتب فيه الوزير تبعا له » . انظر صفحة ٢٩ ج ٤ من هذا المطبوع .

يتعرّضْ من هذا الأذْنىٰ إلىٰ عَرَض ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَن (يكادُ يُمْسكُه عِرْفانَ راحتِه)، وإلَّا المؤْثِرُ طاعةَ الله ورسولِه وأُولِي الأمر علىٰ رَاحتِه ؛ صلاةً دائمـةَ الاتِّصال ، آمنـةً شمسُ خُلودها من الغُروب والزَّوال ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ من آخترْناه لصُحْبتنا الشريفةِ علىٰ عِلْم ، وأعدَدْناه لمِهمَّاتنا الكريمةِ لمـا فيه من تَسَرُّع إدراكٍ وتثبُّتٍ فى حُكْم ؛ وبَسَطْنا له فيما عدَقْناه به من ذٰلك لساناً ويَدا ، وحفِظْنابه الأحوالَ من [وصول] مسترِقِ السَّمْع إليها ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَـدا﴾ وآدَّخرْنا أقلامَه لمصالح كلِّ إقليم يمرّ ركابُنا الشريفُ عليه ، وفوّضـنا مناقشةَ مباشريه علىٰ ما أهملُوه من حقوق الله تعـالىٰ وحقُوق الرَّعايا إليـه ؛ وأقمناه لتصفُّح ذٰلك بنفْسه ، وتلمُّح زيادةِ كلِّ يومٍ علىٰ أمْسه ؛ وآنتزاعِ الحقِّ ممن مدّ يَدَه إلىٰ ظُلْم بكفِّ كفِّه عنه ورفْعِ يَدِه ، وآرتجاع الواجبِ ممَّن أقدم عليه بالباطل فى يومِه وآطَّرح المؤاخذةَ به فى غَدِه ؛ وغيرِ ذٰلك مما أحصاه الله ونَسُوه ، وآعتمدُوا فيه علىٰ المصلحة فآجتَنَوْا ثمرةَ ماغرَسُوه — مَنْ كان له فى المناصحـةِ قَدَمُ صدقٍ عنـد ربِّه ، وفى خدمـةِ الدولةِ القاهرةِ قِدَمُ هجـرة تقتضِى مَزِيدَ قُرْبه ؛ فكان أبدا بمرأًى من عنايتنا ومَسْمَع ، ومن إحساننا بالمكانِ الذى ليس لأحدٍ من الأكفاءِ فى بلوغ غايتِه أملٌ ولا مَطْمَع ، وتفرّد بآجتماع الدِّين والمَنْصِب والأصالةِ والعِـلْم والكرم وهـذه خِلَال الشرف أجمَع .

ولـمَّـا كان فلان هو الذى آجْتنىٰ من إحسانِ الدولةِ القاهرةِ بالطاعة أفضلَ الجَنىٰ ، وفازَ من عوارِفِها العميمة بجميـل المخالَصةِ مازاد علىٰ المُنَىٰ ؛ وآنتمىٰ من أدَوات نفسه ونَسَـبِه إلىٰ كمال المعرفةِ والعِفَّة وهمـا أفخـرُ ما يُدَّخَر للرُّتب الجليلة وأنفَسُ

ما يُقتنىٰ، وعُنِى من أسباب آستحقاقه المناصبَ والرتب بمـا آقتضىٰ إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَـل بتقديمه وأن يُعتنَىٰ . فلذٰلك رسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه نظر الدواوين[(١)] المعمورة .

فليباشر ذٰلك محلّيًا هذه الرتبةَ بعقُود تصرُّفه الجميل ، ومجلّيا فى هذه الحلبةِ بسَبْق معرفتـه التى لاتحتاجُ إلىٰ دليـل؛ ومبيّنا من نَتائج قلمه مايُبَرْهِن علىٰ أنه موضعُ الآختيار ، ومن كوامِن آطّلاعه مالا يحتاج إلىٰ برهان إلا إذا آحتـاجَ إليـه النّهار؛ فلا يزالُ فرعُ يَراعه فى روض المصالح مُثْمِرا، وليـل نِقْسِه فى ليل الأعمـال مُقْمِرا؛ وحُسنُ نظره إلىٰ ما قَرُب ونأىٰ من المصالح مُحْدِقا ، ولسانُ قلَمِه لمـا دَقَّ وجلَّ من أمور الأقاليم محقّقا ؛ ورسمُ خطّه لمـا يستقرّ فى الدواوين المعمورة مثْبِتا ، ووسم تحريرِه لمـا يجتنىٰ من غُروس المصالح مُنْبِتا؛ ولدَرّ أخلاف الأعمال بحُسن الآطلاع محتلِبا، ولوجُوه الأموال بإنفاق التوجُّه إلىٰ تثميرها إن أقبلَتْ مجتليـا وإن أعرضَتْ مختَلِبـا ؛ فإنَّ الأمور معادِنُ يَستثيرُها التصرُّفُ الجميـل ، ومنابِتُ يَنمّيها النظرُ الجلىّ والآتقانُ الجليل؛ ومِلاكُ كل أمرٍ تقوى الله تعالىٰ فليجعلها إمامَه، ويتخيَّلْها فى كل حال أمامَه؛ والله تعالىٰ يسدّده ويوفّقه بمنّه وكرمه!؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وربّمـا أُضيف إلىٰ نظر الصُّحبة نظرُ الدواويـن الشريفة، وحينئذ فيَحتاج الكاتبُ أن يأتِى فى براعة الآستهلال بمـا يقتضِى الجمعَ بينهما ، ويوردَ من الوصايا ما يختصُّ بكل منهما . والكاتبُ البليغ يتصرَّف فى ذٰلك علىٰ وَفْق ما يحدُث له من المعانى ويسنَحُ له من الألفاظ .

---

(١) الصواب نظر الصحبة .

الدرجـــــــة الثـانية

(من تواقيـع أرباب الوظائف الدِّيوانية بالحَضْرة بالديار المصرية ما يُكتَب في قطع الثلث بـ«ـالمجلس السامى» بالياء، مفتتحا بـ«ـالحمدُ لله» إن قُصِد تعظيمُ المكتوب له علىٰ ما هو الأكثرُ، أو بـ«ـأما بعدَ حمد الله» جَرْيا على الأصل لمـا يُكتَب فى قطع الثلث، علىٰ ماتقف عليه فى النُّسَخ)

وتشتمل علىٰ وظائف :

الوظيفـــــــة الاولىٰ
(كتابة الدَّسْت)

والمراد دَسْت السلطنة . وقد تقدّم الكلامُ عليها فى مقدّمة الكِتَاب فى الكلام علىٰ ديوان الإنشاء، وتقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنَّ موضُوعَها أن يجلِس أصحابُها بدار العدل أيّامَ المواكب خَلْف كاتبِ السرّ، ويقرءُون القِصص على السلطان بعد قراءة كاتبِ السرّ، ويكتبُون عليها بمـا تقتضيه الحالُ، بعدَ إشارة السـلطان بالكتابة؛ ثم يحمِلُ ما يكتبُون عليه من القِصَص إلىٰ كاتب السرّ فيُعيِّنُها . وأنَّ هذه الوظيفة كانتْ من أجَلِّ الوظائف وأرفعِها قَدْرا، منحصرةً فى عددٍ قليـل نحو الثلاثة فمـا حولَهـا؛ ثم وقع التساهُل فى أمرها، ودخَل فيها العددُ الكثير حتّٰى جاوز عددُهم العشرين، وبقيت الرياسةُ فيهم لعَدَد مخصوصٍ منهم، وقَنِـع الباقون بالاسم . وقد تقدّم ذكر طرّة توقيعه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخةُ توقيع بكتابة الدَّسْت، وهى :

الحمدُ لله الذى فَضَّل الكِرامَ الكاتبين، وأحيا بفضائل الآخِرين الأوّلين الذاهبين، وأنزل فى القَصَص : ﴿ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ القَوْمِ الظَّالِمينَ ﴾ .

نحمَـدُه وهو المحمودُ المُعين ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ قومٍ مخْلِصين؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله خاتَمُ النبيين، ورسولُ ربِّ العالمين، والشافعُ فى المُذْنِبين من المؤمنين، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً باقيةً إلىٰ يوم الدِّين، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــدُ ، فإنَّ العدْل الشريفَ دارٌ جُدْرانُها الأمرُ المُطاع ؛ وأبوابُها الخيرُ الذى لا يُضَاع ، وسَقْفُها الرحمةُ والاتِّضاع ، وصدْرُها الإحسانُ المديدُ الباع ؛ وصَحْنُها الأمنُ والسُّرور فلا يُخافُ أحدٌ فيه ولا يُرَاع ، وجلساؤُها الكاتبُون عارِضُو الرِّقاع ؛ هم مَعْدِن الصَّدَاره ، ومَوْطِن الكِتَابة والكِنَاية والإشاره ، وأقلامُهم تأتِى بحُسْن التشبيــه والاستعاره ، وتُطرِّز حواشِىَ الرِّقاع بوَشْىٍ بادِى الإناره ، ما اختِيرَ أحدُهم للجلوس فى دَسْته إلا وقد أرضَىٰ مَنِ اختاره ، وتميَّز بحُسن السَّمْت والوَفاء والوَقار والشَّاره .

ولمــا كان فلان هو الذى له فى السُّؤدَد أصلٌ عرِيق ، وفى الفضائل له قلَمٌ مُطِيق ، وفى البلاغة له لسانٌ مِنْطِيق ، وإذا دبَّج قرطاسَه فهو للروض شَقِيق ، ونباتُه الجوهرُ لا الآسُ والشَّقِيق ، وأصبح للجُلوس فى الدَّسْت الشريف أهلًا على التحقيق .

فلذٰلك رُسم أن يستقرّ... ... ... فليَحُلَّ هذا الدَّسْتَ الشريف مُبْهِجا ببَيانِه ، مُثْلِجا للصُّدور بعِرْفانه ، متَبَلِّجا بنُور يدِه ولسانه ، قارئا من قِصَص الناس وظُلاماتهم فى إيوانِه كلَّ شىْءٍ فى أَوانَه ؛ لا يكتُمُ ظُلامةً مكتوبةً فى رُقْعه ، بل يُعرِّف مَلِكَه بها ويبَلِّغُها سَمْعَه ، فإنه فى هذا المحلِّ أمينٌ والأمينُ محــلُّ النُّصح والخيرِ والرِّفْعه ؛ وإذا وقَّع فهو مأمُور ، فليأْتِ بمــا يُبْهِج الصُّدُور ، ويَشْفى غليلَ الشاكِى ، بلفظِه الزاكِى ، والوصايا كثيرة لكن السليم لبعضِها الحــاكى (١) ؛ وتقْوىٰ الله فهى تاجُها المجَوْهَر ،

(١) لعله لكن سَقُلم ببعضها الحاكى ، وهو تقوى الخ . تأمل .

وبدْرُها المنوَّر، وكوكَبُها الأزْهَر، والله تعالى يمتِّعه بالفضل الذى لا يُحوّل ولا يتغيَّر، بمنِّه وكَرَمه! إن شاء الله تعالى.

* * *

وهذه نسخةُ توقيع من ذلك أيضا، وهى:

الحمدُ لله الذى أَفَاض على الأولياءِ من فضْله، وأهْمىٰ عليهم من مَواهِبه ما يقْصُر عنه الغَمامُ فى وَبْله وطَلِّه، ومَنَح دَسْتَ المُلْك الشريف من الألفاظ المجِيده، والفضائل المُفيده.

نحمده علىٰ نِعَمِه التى أجزلَتْ إحسانَها، وأجملت ٱمتنانَها، و بزغَتْ مُزْهِرةً فقدَّمَتْ من الدولة أعيانَها، ونشكُره علىٰ عوارِفه التى أُلْقِى لأهل الثناءِ عِنانُها، ورَحُب لذَوِى البيوت صدْرُها وفُضَّ عُنوانُها.

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تشهَد القلوبُ إيمانَها ويدَّخِر القائلُ لها ليوم المَخاف أمانَها، ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر الله به الشريعة المطهَّرة وأبانَها، وشرَّف [به] هذه الأمَّةَ و رفع علىٰ جميع الأمم شانَها، وبعثه رحمةً إلىٰ كافَّة الخلق فأقام بمُعْجزاته دليلَ الهداية و بُرهانَها، وأطفأ بنُور إرشادِه شَرَرَ الضَّلالة ونيرانَها، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا من نَزَّه نفْسَه النفيسةَ وصانَها، وسلَكَ فى خِدْمته وصُحْبته الطريقةَ المُثْلىٰ فأحسنَ إسرارَ أمورِه وإعلانَهَا، صلاةً دائمةً باقيةً تُجمِّل بالأجور ٱقترانَهَا، وسلَّم تسليما كثيرا.

وبعدُ، فانه لمَّا كانتْ وظيفةُ توقيع الدَّسْت الشريف من أجلِّ الوظائف وأسْناها، وأنفَسِها وأعْلاها، وأجمَلِها وأَبْهاها، القائمُ بها سفيرُ الرعيَّة إلىٰ المَلِك

فى حاجتهم ، وترجمانٌ مُعْرِب عن شِكاياتهم ، وكاشفُ أحسنُ ناشرٍ عن ظُلاماتهم ؛ جالسٌ علىٰ بِساط الأُنْس بقُرْب الحضره ، منفِّذٌ نَهْىَ مليكه وأَمْرَه ، مبلِّغ ذا الحاجة من إنعامه جُودَه وبِرَّه ــ تعين أن يُندَب رئيسٌ وآبنُ رئيس ، وجوْهَرُ بحرٍ نَفِيس ؛ ذو أصْل فى السُّؤدَد عَرِيق ، ولسانٍ فى الفضائل طَليق ، وقَلَمٍ حَلَّى الطُّروس بما يفُوق زَهَرَ الرياض وهو لهـا شَقِيق ، وفاضلٌ لا يُقاس بغيره لأنه الفاضلُ على التحقيق ؛ وكان المَقَرُّ العالى الفلانىّ هو المشارَ إليه بهـذه الأَوْلوِيَّه ، والمرادَ من سطور هـذه المحـامد اللُّؤْلُؤِيَّة . فلذٰلك رُسِم بالأمر العالى أن يستقرّ المشارُ إليه فى وظيفة توقيع الدَّسْت الشريف عِوضًا عن فلان بحُكْم وَفَاته .

فلْيباشِرْ ذٰلك مباشرةً تُشْكَر مدى الزمان ، وتُحمَد فى كلّ وقتٍ وأَوَان ؛ ولْيدَبِّج المَهارِقَ بوَشْى يفُوق قلائدَ العِقْيان ، ولْيَمْلأْ بالأجور لنا صُحُفًا بما يوحيه عنا من خيراتٍ حِسان . ونحن فلا نُطيل له الوصايَا ، ولا نُحَلِّيه بها فهى له سَجَايا ؛ مع ما أدّبه به عِلْمُه الجَمّ ، وعمَلُه الذى ما آنصرفَ إلىٰ شىء إلا تَمّ ؛ ويجمعُها تقوىٰ الله تعالىٰ وهى عَقْد ضميره ، ومِلاكُ أُمُوره ؛ وما بَرِح هو وبيتُه الكريم مصابيحَ أُفُقِها ومفاتيحَ مُغْلَقِها ، ولهم جُدُد ملابِسها وللناس فواضلُ مُخْلَقِها ؛ والله تعالىٰ يزيدُه من إحسانه الجزيل ، ونِعَمِه التى يرتَدِى منها كلَّ رداءٍ جميل ، ويمتِّعه بإمارته التى ما شُكِر بها إلا قال أدبًا : حسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ؛ والآعتمادُ فى مَسْعاه ، على الخط الكريم أعْلاه .

الوظيفـــة الثانيـــة

(نظر الخزانة الكُبرىٰ)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنَّ هذه الوظيفةَ كانتْ كبيرةَ الموضِع من حيثُ إنها مستوْدَع أموال المملكة ، إلىٰ أن حدثَتْ عليها خزانةُ

الخاصّ فانحطّت رتبتُها حينئذ، وسمّيت الخزانةُ الكُبرىٰ باسمٍ هو أعلىٰ منها ، وأنه لم يبقَ فيها سوىٰ خِلَع تُخْلَع وتُصْرف أوّلًا فأوّلا . وقد تقدّم ما يكتب فى طُرة توقيع ناظرِها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر الخزانة :

الحمدُ لله الذى جعل الخزائنَ لذخائرنا كُهُوفا ، وملابِس إقبالِنا شُنوفا ، ومَواهِبَنا تُجْزل عطاءً ومعْرُوفا ، وإقبالَنا علىٰ مُحسِن التدبير ومجمل التأثير عَطُوفا ، وأياديَنا فى إسكان جَنّتِها قُطُوفا .

نحمدُه حمدًا مألوفا ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أوضحَتْ معرُوفا، ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى أزال مَخُوفا، وأقام الصلاةَ والجهادَ صُفُوفا، وشهَر علىٰ العِدا عند تأييدِ الهُدَىٰ سُيُوفا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما سدَل الليلُ سُجُوفا، وسلَّم تسليما .

وبعد، فإنَّ المُلْك الشريف له تُحَف مَصُونه، وذخائرُ مكْنونه، وأصنافٌ حِسانٌ فى خزائننا مخزُونَه ، وجواهِرُ عالية القِيمة ثمينة [لا يقوم عليها إلا من] لا يَمُدُّ عينَ عَفافه إلىٰ المال وإن كثُرتْ آلافُه ، ووَلَج لُجَّة هذه الذخائر ولم تُلِمَّ بالبَلَل أطرافُه، وهو فلان : العريقُ فى انتسابِه ، الوثيقُ انتماؤُه إلىٰ فضل الله وجَنابِه ، النقِيّ ثوبُ عِرْضه، التَّقِيّ بتمسُّكه بسُنَّته وفَرْضه، الوفِيّ نظره بغضِّه ، المستمسك بجميع الخيْرِ دُون بعضِه ، من بيتِ السيادة ومَنْ هو من بَيتِ السِّيادة فالسُّؤدَد نجمُ سَمائِه وطَودُ أرضِه . فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف أن يستقرّ . ...

فلْيباشر هذه الوظيفة بعمَلٍ ونِيَّه ، متسلّما ذخائرهذه الخزانة العلِيّه، وأمورَها وأحوالَها ، وتفصيلَها وإجمالَها ، وحُمولَها وأحمالَها، وحُلَلَها المرقُومه، وذخائرَها

المعْلومه، وجواهِرَها المنظُومه ، وأكياسَهـا المختُومه، وصناديقَها المرْكُومه ؛ ما عَنْ علمه فيها شيءٌ خاف ، وصونُه لهـا كاف، وأمْرُ الله بينَ النُّون والكاف .

وليَعْلَمْ أن خزائنَنا تُصَبُّ فيها سحـائبُ التُّحَف والأموال والأصـناف، من سائر الممـالك والمُـدُن والثُّغور والأطْراف ؛ ومنها يُخْرج بجهاز مواهِبنا و إنعامنا للأوليـاءِ الأشْراف، و إنمـا هى لمصالح المسلمين فى الجَمْع والاِئْتلاف ، وتَقْوية أهلِ الطاعة علىٰ أهل الاِخْتلاف، فليَضْبِطْ ما تُطلِقُه و إن كانتِ الأقلامُ لا تستطيع ذٰلك لكَثْرة الإسْعاف؛ ولْتكُنِ التشاريفُ المثمَنة الكامِله، حاصلةً بمَنَاطِقها المجوْهَرَة الهائله، وطُرُزِها الطائِلَهْ، وتَعابِيها الفاضِلَهْ ، حتَّى إذا أنعَمْنا منها علىٰ أحدٍ بشيءٍ يأْتِي بحمُوله وقد حَمِد فاعِلَه . والوَصايَا كثيرةٌ وتقْوى الله نِظام عِقْدها ، وغَمَـام رِفْدها ، وزِمام مَجْدِها، وتَمامُ سَعْدها؛ فلْيكُنْ متلفِّعًا ببُرْدِها، متضوّعا بنَدِّها ، وهو غنيٌّ عن الوصايا ومَدِّها، والله تعالىٰ يؤيِّد حركاتِه فى قصْدِها؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه، حجة بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه وصية لناظر الخزانة ، أوردها فى "التعريف" :

ولْيَمْلأْ بنظَره صُدُور الخزائن، وليجمَعْ فيها أشتاتَ المَحاسِن؛ ولْيُعِدَّ فيها كلَّ ما يُدَّخر للإنفاق، ويحتَفِظْ به للإطْلاق؛ ويحصِّـلْ ما يُضاهِي البحرَ بالتفريع والتأْصـيل، والجُمَل والتَّفاصـيل ؛ وما لا يُوزَن إلا بالقناطير، ولا يُحْصِي مَنَّـه مَلْءُ الأساطير؛ وما يُهيَّأُ من التشاريف الشريفة التى تُباهِي أشِعَّةَ الشُّموس بلَمْعها، وتُحاسِن وشائـعَ الروض بخِلَعها؛ وما فيها من مُخَلَّقات ألْوانٍ لا تُمـاثَل بتصوير، ولا يظُنُّها الأوليـاءُ إلا الجنةَ ولِبَاسُهم فيها حَرير؛ وما تحتَوِى عليـه من عَتَّابِيٍّ وأطلس، ومُشَرْبَش ومُقَنْـدس ، وكلِّ طِراز مُذْهب وباهى، وما هو من ذهَب أوْله يُضَـاهِي، وكُلّ

ما يتشرّفُ به صاحبُ سيف وقلَم، ويُعطىٰ إنعاما أو عند أوّلِ آستخدامٍ فى خِدَم؛ وماهو مع هذا من أنواع المستعْمَلات، والنواقِص والمُكمّلات؛ ومايُحمَل من دار الطِّراز، ويحمد ممـا يأتى من المُبتاع من بَزٍّ وبزاز؛ وما هو مُرْصَدٌ للخزانة العالية من الجهات؛ التى يحمَلُ إليها متحصِّلها: لينفق فى أثمانِ المَبيعات، ومايُستعمل، وما يُعَلَّم منه بالطَّرْز ويُعْمَل، وبقية مايُدَّخر فى حواصلها من مال بيت المـال الذى يُحمَل؛ وذٰلك كلُّه فهو الناظرُ عليه، والمناظِرُ عنه ممـا خرج من عِنده ووصل إليه، والمحاجِجُ عنه بالمراسيم التى تُشَك للحِفْظ وتُنْزَل لديه؛ فلْيراعِ ذٰلك جميعَه حقَّ المراعاة، وليحرّرْ قدر مايُنفَق من الأثمـان وقيمةِ المَبيعات، وليحترِز فيما يُزكّى بعضُه بعضا من شهادة الرسائل المكتتبة إليه بالحُمول وما يُكتَب بها من الرَّجعات؛ ولْيُعرِ المعاملين من نظره مالا يجِدُون معه سبيلا، ولا يقدِرُون معه علىٰ أن يأخذُوا فوقَ قَدْر آستحقاقِهم كثيرا ولا قَليلا؛ وليُقدِّم تحصيلَ كل شيءٍ قبل الاحتياج إليه ويَدَعْه لوقته، ولا يمثل لديه إلا سرعة الطلب الذى متىٰ تأخَّر أُخِّر لوقْتِه(؟)؛ والأمانةَ الأمانَه، والعَفاف العفافَ فمـا كان منهما واحدٌ رداءَ آمرِئٍ إلّا زانَه، ولولاهما لمـا قال له الملك إنَّك اليوْمَ لَدَيْنا مكين أمين وسَلَّم إليه الخِزانَهْ .

الوظيفـــــة الثـالثـــــة

(نظرِ خزانةِ الخـاصّ)

وهى الخزانة التى آستُحدِثَتْ فى الدولة النـاصرية «محمـد بن قلاوون» عنـد آستِحْداث وظيفةِ « نَظَرِ الخـاصّ » وقد آنتَقَل ما كان يحمل إلى الخزانة الكُبْرىٰ ويُصْرف منها إلىٰ هذه الخِزانة، سوى الخِلَع، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الكلام علىٰ توقيع ناظر الخزانة الكُبْرىٰ .

وهــذه نسخة توقيع بنظر خزانة الخاص ، كُتِب به للقــاضى شرف الدين محمد ٱبن علاء الدين الجَوْجَرِىّ(١) ، فى مستَهَلّ شهر رجب الفَرْد ، ســنةَ تِسع وثلاثين وسَبْعِمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى زاد بنظرِنا الشريفِ شَرَفَ مَنْ لَحَـه من أوليائنا [و]حَفَظَه ، وأفاد المستأنَفَ من بِرِّنا مَنْ عَهِدْنا له الفِطرةَ السليمةَ وتيقَّنَّا منــه الفِكْرة واليَقَظَه . وأعاد للخَلَف الكريم ، من المشايخ ما كان للسَّلَف القديم الصالح من التقديم ، الذى شمِلهم بالتكريم ، وجعلَهم علىٰ خزائِنِ جُودِنا العمِيم : لأنهم العلمــاءُ الحفَظَه . وجاد بالطُّرَف من خاصِّ إنعامنا العامِّ لَمِنْ لقلمه عنــد الإدْناء من سَرِير المُلْك إنجــازُ عِدَة ولِلسانه عند ٱرتقاء مِنْبر النُّسْك إبرازُ عِظَه .

نحمَــدُه علىٰ أن أجزَلَ لمن عوّل علىٰ شامِلِ كَرَمِنا جزاءَه وعِوضَه ، ونشكُره علىٰ أن تطوّل بنَوافِل نِعَمِنا لمن قام بعدَ أبيه بلوازم خدْمتِنا المفترَضَه ، وعكف أعمالنا علىٰ بيتٍ مبارَكٍ مامنهم إلا من شُمِل من إحساننا بالمَنْح لمــا بذَلَ لسلطاننا من النُّصْح ومَحَضَه .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُودَع مَصُونُهــا فى الأرائك المتعَلِّية ويَقطَع يقينُها الشكوكَ المعترِضه ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله الذى عظُمتْ عطايا بَذْله ، فالبحار المرتفِعةُ عنها منخَفِضه ، وكَرُمتْ سَجَايا فضله ، فليست بمنتقِلة وأُبْرِمت قضايا عدله ، فليست بمنتَقِضه ، وعَمَّتْ البرايا يَدُه البيضاءُ التى هى بالأرزاقِ فى الآفاقِ مُنبسِطةٌ وليسَتْ عن الإنفاق خشيةَ الإمْلاقِ منقبِضَه ، صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهـــم إلا من أقرضَ الله قَرْضا حسناً فضَاعفَ له ما أقرضَه ، صلاةً تُدْنِى لقائلها فى الأُولىٰ من النِّعمة والأمانِ أملَه وتُؤْتِيه فى الأُخْرىٰ من الرحمة والرضوان غَرَضَه ، وسلم تسليما كثيرا .

(١) نسبة الى «جوجر» بفتح الجيمين وراء بليدة بالقرب من دمياط انظر ياقوت ج ٢ .

وبعد، فإن أولىٰ مَنْ رُفع بإكرامنا إلىٰ رُتْبة عَلائه، وآنتفع من مقامنا الشريف باختصاص خدْمته وإخلاص وَلائه ــ مَنْ شفَع مزاياه بجمْع أشتات العُلوم فى أبكاره وآنائه، وآستُودِع ذخائرَ مُلْكنا المصونةَ فكان حفيظًا عليما عند آقترابه منّا وإدنائه، وصَدَع القلوب بإبْداع وَعْظه وإبْدائه؛ وآتبعَ سبيلَ والده القويم؛ فى الشِّدّة فى الحق والتّصميم؛ وسلك طريقَته التى هـداه الله إليها بتوفيقه فأدْرك غايتَه فى آبتـدائه، وقَنِـع بمـا آتاه الله تعالىٰ فآثرتْ مكارمُنا رِفعةَ محلِّه وتَوْسعةَ حِبائه؛ وبَرَع فى إتقانِ الفضائلِ التى آذنَتْ باصطفائه وآجتبائه، ووقَع عليه آختيارُنا الذى نستخيرُ اللهَ تعالىٰ له فى إبْرام كلِّ أمرٍ وإمضائه؛ وأجمعَ عليه رأيُنا الذى كم أصابَ الصوابَ فى تعيين العُلَمـاءِ الأنْجاب فنَصَّ عليه الآستحقاقُ بإيجابِ الترجيح وآقتضائه .

وكان المجلس السامى الشَّرَفىّ هـو الذى قدّمْناه بعد أبيه لشهادة خزائننا الشريفةِ فشاهَدْنا من حُسْن سَيْره ماأبْهج، ونظَمْناه فى سِلك أولياء المُلْك فسَلك من الخَيْر أقوَمَ منْهَج، ثم أردْنا الآنَ أنّ هلالَه يَنتقل إلىٰ رُتْبة الكمال لمَّا تدرّب وتدرّج؛ وأعدْنا له تامَّ الإقبال حيثُ شَرفُ دولتِنا الأعلىٰ ــ زاد الله تعالىٰ تأييدَه ــ بذكره لدَيْنا وبشُكْره عندنا يُلْهَج ــ فآقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أنّ هـذا النظرَ الجميلَ عنه لا يُخْرَج، وهذا الوِقْرَ الجليل لا يُعـدَل به عن فرعٍ مُنْجب لأصلٍ طيِّب أثْمـرَ الوَلاءَ والدُّعاءَ لأيّامنا الشريفة وأنْتَج .

فلذٰلك رُسم ... ... لا زالتِ الصدُور بصُدُور أحكامه تَثْلَج، والأمورُ بمُرور إنعامِه تفْضُل علىٰ الحقّ الأبْلَج ــ أن يستقرّ ... ... فلْيَنْطِقْ لسانَ كَلمـه بالإخلاص فى حمـد الخاصّ والعامّ من هـذا الإكرام الذى بمَطارِفه تَسَربل وبعَوارِفه تتوّج، وليُطلِقْ سنانَ قلمِه فى تبييض المَصاحف بذكر إنعام المَقام الذى هو كالبَحر ويُفْصِح

عن حمْده فهو بحمد الله لا يتلجْلَج ؛ وليُحقِّق ببَيان حُكْمه ضبطَ الأصل والخَصْم والواصِلِ والحاصلِ والمُحْضَر والمُخْرَج ، ولْيُنفِق فى أوليائنا من عَوَائد صِلاتِ نَعْمائنا التى تَقْبِضُها أيدى ملوك المَدائِن ببَسْطٍ ومن بَعْضِها صُدُور الخزائن تَحْرَج ؛ ولْيسْلُك سُنَن أبيه التى بها يستظْهِر ويفتخِر ويستدِلُّ ويحتجّ ، ويَستمْسِك بسببه الأقْوىٰ من الدِّيانة التى بابُها من النجاة فى الدارين غير مُرْتَج ؛ ونترك له تفصيلَ الوصاياَ لأنه قرينُ كفيلٍ مُلْكنا القوىّ الأمين ذِى الإرشاد والسَّداد فمع مرافقَتِه فى الإصدار والإيراد والتَّكرار والتَّعداد لم يَحْتَجْ ، والله تعالىٰ يجعل الطُّروس بذِكْر تقديمه تحبَّر وتُدبَّج ، والدروس تنْشَر وعلومه تَعطَّرُ وتتأرَّج ؛ بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفــة الرابعــة

(نظر البيوت والحاشية)

وقد تقدّمَ أنّ موضُوعَها التحدّث فى كل ما يتحدّث فيه أستاد الدار ، وتقدّم الكلامُ علىٰ ما يُكتَب فى طرّة تقليدِ ناظرها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر البيُوت والحاشيةِ :

الحمدُ لله الذى عَمَّر البيوتَ بنَواله ، وكَثَّر فيها أصنافَ النِّعم بإفْضاله ، وجعلَ فيها الخَيرَ يتضاعفُ مع كلِّ يوم بتَجدُّدِه ومع كلِّ شهرٍ بإقْباله .

نحَمده علىٰ مَديدِ ظِلاله ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ صادق فى مَقَاله ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولهُ الذى رَحِم الله العالَمِين بإرْساله ، وسقَىٰ الجيْشَ من كَفِّه بنَبْع زُلاله ؛ وأَوَىٰ إلىٰ المدينة دار هجْرتِه وآنتقالِه ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الناصِرين لهذا الدين فى كل حاله ؛ وسلَّم تسليما .

وبعد ، فإنَّ طراز المُلْك الشريف البيوتُ الكريمة : فمنها يتفجَّر ينبُوع الرِّزق الجارى ، ومنها يُضىء سَقْط الزَّنْد الوارى ، ومنها تُبْسَط الخِوَانات ، وتُمَدّ الأسْمِطة فى المهمَّات ، ومنها يقومُ للسعد نُصْبات وأىّ نُصْبات(١) ، ومنها تُقَسَّم ألوانُ الطيِّبات على مُقْتَرَح الشهوات ، وعمادُ أمْرِها على ناظر يقُوم بتأصيلها وتفْريعها ، وتجنيسها وتنويعها ، وتكثير حاصلها ، وآستِدْعاء واصلها ، وجمْع كلِّ مافيه مرْغُوب ، وآدِّخار كلِّ ماهو محُبوب ، وتأليف القلوبِ على شكره وجُلُّ مافيها عملُ القُلُوب .

ولمَّا كان فلان هو الرشيدَ فى فِعله ، المأمونَ فى فضْله ، الأمينَ فى عَقْده وحَلِّه ، المسدَّدَ فى الحال كلِّه ، المُعطِىَ المباشرةِ حقَّها على ما ينبغى فى الشهر من مستهَلِّه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يستقر ... ... فليباشرْ هذه الوظيفةَ الكريمةَ مستجْلِبا المَنَافع ، مشنِّفا بحُسن سِيرته المسامع ، طالعًا من العَفَاف فى أبهى المَطَالِع ، مستدْعِيًا ما جرتِ العادةُ بآستدعائه(٢) من أصناف المَتْجَر السعيد من أصنافٍ متعدِّده ، وأنواعٍ منضَّده . ولْيُزِحْ أعْذار المصالح السعيدة من كلِّ صِنْف على حِدَه ، وليستجْلِبْ خواطر المُعامَلين بوفائهم وإنجازهم كلَّ عِدَه ، والرواتبَ اليوميَّةَ ليَصْرِفْها لمستحِقِّها ، والبُيوتات فليسدّ خَلَلَها حتَّى لا يظهر نقصٌ فيها ، ومرتَّبات الآدُر(٣) الشريفة فلتَكُنْ نُصْبَ عينيه على ما يُرضِيها ، وما آختَرْناه لهذه الوظيفة إلا أنَّه أنسَبُ من يليها ، والوصايا كثيرةٌ وتقوى الله فلتكُنْ أطيبَ ثمراتٍ يجتَنِيها ، وأحسَنَ منْحاتٍ يجتليها ، وأزينَ زينةٍ يحْتليها ، وهو غنىٌّ عما تُشافِهُه [به] الأقلام من فِيها ، والله تعالى يَصُون هِمَمَه ويُعْليها ، بمنه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى القاموس النصبة بالضم السارية ولعله المراد .

(٢) لعل هذا اللفظ زائد من قلم الناسخ .

(٣) جمع دار على القلب .

وهذه نسخةُ توقيع بنَظَر البيوت :

الحمــدُ لله الذى جدَّد لأَوْليائنا مَلابِسَ السُّعود، وشَــيَّد لهم مَبانِىَ العِزِّ وضاعَفَ لِقَدْرهم التَرَقِّىَ والصُّعُود، ووالَىٰ إلىٰ(١) أوليائِهم سَحائبَ الفضل المستهِلَّةَ بالكَرَم والجُود.

نحمده علىٰ نِعَمِه الضافية البُرُود، ومِنَنه الصافيةِ الوُرُود؛ ونشهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُرْغِمُ بهــا أنفَ الجَحُود، ونشهد أنَّ محمدا عبــدُه ورسوله صاحبُ الحوضِ المورُود واللِّواء المعقُود؛ صــلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين جادَ كلُّ منهم بمــالِه ونَفْسه فى رضــاه والجُودُ بالنَّفيسَيْنِ أقصىٰ غايَةِ الجودُ؛ صلاةً دائمةَ الإقامة فى التهائِم والنُّجُود، مستمرَّةَ الإدامةِ ماتعاقب السَّحابُ روْضًا بجَود؛ وسلَّم تسليما كثيرا

وبعــدُ، فإن أَوْلىٰ من غدَتِ البيوتُ آهلةً بوُفُود نَظَره، عامرةً بسَــدادِه وجميلِ فِكْرِه، مشيَّدةً بمــا يُبْديه من أوْضاح التقرير وغُرَره ــ مَن سَمَــا هِمَّةً وحَسُن سَمْتا، وسلكَ فى الأمانة طريقًا لا عِوَج فيها ولا أَمْتَا؛ وحَلَّ فى الرُّتب فحَلَّاها، وتنَقَّل فيها فمــا قالتْ له إيهِ إلا وقال الذى فارَقَها آهَا؛ وكان فلان هو الذى آستحَقَّ بكفايَته حُسنَ التنقُّل، وآستوجبَ الصِّلةَ والعائدَ لمــا فيه من جميل التأَتِّى والتوصُّل ــ آقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نَنْقُله إلىٰ رُتَب السعاده، وأن نخُصَّه كلَّ حِينٍ من نِعَمِنا بالحُسنىٰ وزِيادَه. فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقرّ ...

فلْيضْبِط أُصُولَها وفُروعَها، ومُفْرَدَها ومجموعَها، وليُؤْنِس بحياطةِ آجتهاده رُبُوعَها؛ وليَكْفُلْها بأمانةٍ تضُمُّ أطرافَها، ونزاهةٍ تُحَلِّى أعطافَها، وكتابةٍ تحصُر جليلَها ودقيقَها،

(١) لعل الصواب ووالى إليهم سحائب . تأمل .

ونَبَاهةٍ تُوفّى شُروطَها وحُقوقَها، وليحَرّرْ واردَها ومصْروفَها، ليغْدُوَ مشكورَ الهِمَم موصُوفَها، وليُلاحِظْ جرائدَ حِسابِها، ويحفَظْ من الزيغ قلمَ كُتّابِها، حتّى يَنْمِيَ تصرُّفه فيها على الأوائل، ويُشْكَرَ تعرُّفه وتعطُّفه على كل عامِل ومُعامل، والله تعالى يبلِّغه من الخير ما هو آمِل، بمَنّه وكرمه، إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الخامسة

(نظرُ خزائنِ السِّلاح)

وقد تقدّم أنَّ موضوعَها التحدُّث فيما يستعمَل ويُبْتاع من أنواع السِّلاح الذى يحمل للزَّرَدْخاناه السلطانية. وقد جرَتِ العادة أن يحمَلَ ما يتحصَّل من ذلك فى كل سنةٍ إلى الزَّرَدْخاناه مرّةً واحدة. وقد تقدّم ما يُكتب فى طرة توقيع ناظِرِها.

وهذه نسخةُ توقيع بنظر خزائن السلاح من إنشاء المَوْلى «شمسِ الدين بن القَيْسَرانِىّ» كُتب به «لفخر الدين» أخى جمالِ الدين ناظرِ الخاصّ، وهى:

أما بعدَ حمد الله تعالى الذى ضاعفَ فخْرَ المناصِب، بمتولّيها، ورفَع قدرَ المراتِب، بمن يُكبِّرها بقدْره العلى ويُعْليها، وأمدّ المَقانِبَ(١)، بنظر ذى المَناقب الذى يُزيّن بمرهَفِ حَزْمه أسلِحتَهم ويُحلّيها، ويُمضى بماضى عَزْمه كلَّ فِرِنْدٍ فريدٍ ليُسعِّر نارَ صَليله بنظره السعيد ويجلّيها، جاعلِ أيّامنا الشريفةِ تُقدّم لخدَمها كلَّ سَرِىّ تسرى به هِمَمُه إلى العلياء، وتنتخِبُ لحُسن نظرها من يعْلُو بكرَمَ الذاتِ وجَمال الإخاء، وتُولّى من الأولياء من يُعِدّ للأعداء خزائنَ سلاح تُبيدهم بها جيوشُنا المؤيَّدةُ فى فيافِى البيْداء، إذا دارَتْ رحَى الحرب الزَّبُونِ وثارتْ وَغَى الغارة الشَّعْواء. والشهادةِ له بالوحْدانيّة

---

(١) جمع مقنب "كمنبر" وهم جماعة الخيل والفرسان.

التى ٱتّسق بدْرُها، فى سماء الإخْلاص، وأشرقَ فَجْرُها، بضياء القُرْب والاختصاص، وسَما فخرُها، بجلال الجمَال فأصبح بحمد الله آخذًا فى المَزيد آمنًا من الانتقاص، وعلا ذِكْرُها، بما درّعَنا به من دُروع التوحيد وأسبَغ علينا منْه كلَّ سابغةٍ دِلَاص. والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى خصّه الله بالتكريم والتعظيم، وختَم به الرسُلَ الكِرام بما منَحه من الاصطفاء والتقْديم، وأوحىٰ إليه فى الكتاب الحكيم: ﴿أنِ ٱتّبِعْ مِلَّةَ إبْراهيم﴾. وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم أشِدَّاءُ علىٰ الكُفَّار رُحَماءُ بينهم، وقرّب قُرْبهم لدَيْه صلى الله عليه وأذهَبَ بيْنَهم — فإنّ من شِيَم أيّامنا الشريفة أن تُبلِّغ أولياءَهَا مَراما، وترعىٰ لأصفيائِها ذِماما، وتصطفِيَ لولاية الرُّتَب من أضْحىٰ ثَغْرُ وَلائِه بَسَّاما، وتُجرِّدَ لحسن النظَر من يُجرّد بِهِمَمه حُسَاما حَسَّاما؛ لا سِيَّما من ٱقتفىٰ سَنَن أخيه — أجلّه الله — فيما يأتِى ويذَر، وٱهتدىٰ بهَدْيه فى كلِّ وِرْد وصَدَر، وحذا حَذْوه السديدَ الأثَر، السعيدَ النظر، وٱتّبع رُشْدَه الساطعَ البَلَج اللامعَ الغُرَر، وسار سيْرَه الذى تتأرَّجُ به أرجاءُ الممالك فحيثُ سارَ سَرّ؛ إذ هو جمالُ الجُود، جَلَال الوجُود، مُقيل عِثَار الملهُوف والمجهُود، موئِلُ التّهائم والنُّجود، مستجْلِب الدعاء لنا من الطائفين والعاكِفين والرُّكّع السُّجود؛ ذُو المآثر التى ذِكْرُها أعطَرُ من الروض المَجُود المَوْجُود، والمناقِب التى يُساوى فيها الكواكبَ ويسامتُها فى السُّعود والصُّعُود.

ولما كان المجلسُ العالى الفَخْرىّ قد أصبح فَخْرُه بأُخوّته ناميًا، وقدْرُه بأُبوّته ساميًا، وأصبحتْ مَفاخِرُه به خالدَه، وجمع مَزايَا وسَجايَا جَمعتْ له طارفَ السَّعد وتالِدَه ٱقتضىٰ رأينا الشريف أن نُشدّدَ له[1] بأخيه أزْرا، ونُجدّدَ له فى إصلاح السلاح نَظَرا؛ ليكون لأخيه — أعزه الله تعالىٰ — النظرُ علىٰ الخاصِّ والعام، وبِيدِه مقاليدُ خِزانتِنا التى يشْمَل منها البرايا بصُنوف الإنعام؛ وتدبيرُ خواصّنا الشريفة وجُيوشِنا

(١) لعله «أن نشدّد به لأخيه».

المؤيَّده، وله النظرُ علىٰ اعمال لَبُوس، تقى من الجيوش البُوس : البَيْض [ذَات] القَوَانِس ، واليَلَب المُدار والسُّمْرِ المَدَاعِيس ، والبِيض المُهَنَّده .

فلذٰلك رُسم ... ... لا زال يجمع لأوليائِه علىٰ آلائه شَمْلا ، ويرفَع أقدارَ أهلِ الكَرم باستقرار النِّعم إذْ كانُوا لها أهْلا وبها أَوْلىٰ - أن يستقِرَّ فلان فى نظر خزائن السِّلاح المنصورة علىٰ عادةِ من تقدَّمه وقاعدته ، وبمعلومِه الشاهدِ به الدِّيوانُ المعمورُ لهذه المآثرالتى بثَّها القَلَم ، والمَفاخرِ التى آشتهرت كالنارعلى العَلَم ؛ فلْيَكْشِفْ مابهذه الخزائن من عُدّة الحرب ، والآلات المُعَدّة فى الهيجاء للطَّعْن والضَّرْب ؛ ويشمِّرْ فى تكثيرها عن ساعد آجتهادِه ، ويعزِّزْ موادَّ الإمداد بها بحُسن نظره ويُمْن آعتمادِه ؛ ويستعْمِلْ بَرَسْم جهاد الأعداء كلَّ نصلٍ صقيل ، وصَمْصامٍ له فى الهام صَليل ؛ وصفيحةٍ بيضاءَ تبيَضُّ بها بين أيدينا الصَّحيفه ، ولبوسٍ تُرهِبُ عدوّ الله وتُضاعف تخويفَه ؛ وزاعِبِيّ يُرْعِب ، وسَمْهَرِيّ يُزهِق بلسان سِنانه النُّفوسَ ويُذْهِب ؛ وخِرصانٍ تُكلِّم الأبطالَ بأَسَل ألسِنَتِها فى الحروب ، وقَواضِبَ لها فى سماء العَجاج شُروق وفى تِحْلِئِ(١) الكفَّار غروب ؛ وبَدَنٍ يقُدّ الأبدان ، ولأمةٍ لم تُبارَ فى تحصينها وتخييرها ولم تُدان ؛ وفَضْفاضةٍ علىٰ جُنود الإسلام تُفَاض ، وسابغةٍ تُسْبَغ علىٰ كل راجلٍ من أهل الإيمان لِيَقْضِيَ من أهل الشرك ما هو قاض .

وليحفَظْ ما يُنْفَق علىٰ هذا العَدَد من الضِّياع ، ويأتِ بما تأتى به الضِّياع علىٰ أحسن الوجُوه وأجمل الأوضاع ؛ ولْيَضْبِطْ ما يُصرفُ عليها من الأموال ، ويعتمِدْ فى نظرها ما تُحمَد عاقبةُ أمره فى سائر الأحْوال ؛ ويتيمَّنْ فى سائر أفعاله بميامن كماله ، ويسترشِدْ بمَراشِده فى أموره باليُمْن والرشْد من خِلال جَماله ؛ ويسلُك بحُسْن نظره لهذه الخزائن ما يُنتظَر به أن يفُوقَ أنظار الأنظار ويرتَقِبْ ، ويعلَمْ أنَّ هذا أوّلُ

(١) التحلئ الشعر أو سواده .

إقبالنا عليه (وأوّلُ الغيثِ قَطْرٌ ثم يَنْسَكِب) ؛ والله تعالىٰ يجعل خزائنَ الإسلام بجمال نحره آهِلَه ، ويُورِدُها مواردَ العزّ الدائم ويُصَفّى من أكدار الأقذار لها مَناهِلَه ؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

الوظيفــــة السادسة

(آستيفاء الصُّحْبة)

وصاحبها يَتحدّثُ فى كل ما يَتحدّثُ فيه ناظرُ الصُّحْبة المقدّم ذكرُه .

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك ، من إنشاء القاضى «ناصرِ الدّين بن النَّشائى» وهى :

الحمدُ لله الذى زادَ فخارَ أوْليائنا رِفعةَ المِقدار ، وأفاد الصُّحبةَ الشريفةَ خيرَ كافٍ آستوجب منّا بجميل خِدْمته جزيلَ الإيثار ، وجاد بالجُود وآبتدأَ السعود لمن حسُن فيه الآختِيار وحُمِد الآختبار ، وآرتاد للمناصب العليّة كلَّ "مستوفٍ" للمحاسن له حقُوقَ وفاءٍ لا تُضاع وقدَمُ ولاء أجملَ فيه الإيرادَ والإصْدار .

نحمده علىٰ نِعمٍ أجزلتِ الآثار ، ونشكُره علىٰ مِنَن أجملت المَسَارّ ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِص يترشَّف ساحَ ثوابها الدارّ فى تلكَ الدار ؛ ونشهد أنّ سـيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أيَّد الله به المؤمنين وأخمدَ نارَ الكُفَّار ، وبعثه رحمةً للعالمين فأقام بناءَ الإسلام بعدَ ما كاد يَنْهار ، وأسرىٰ به إلىٰ السَّبْع الطِّباق فطبّق نبأُ معجزاتِه الأرضَ وملأَ الأقطار ، صـلاةً باقيةً لا تزال أغصانُ أُجُورها دانيةَ القُطوف زاكيةَ الثِّمـار ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فإنَّ أجلَّ النِّعم ما علَتْ ملابِسُها ، وأجملَ المِنَن ما غلَتْ نفائسُها ، وأكملَ المَنح ما زكَتْ فى رياض الإقبال غرائسُها ، وأجزلَ العطايا ما جُلِّيتْ فى حُلَل الفَخَار

عرائسُها ، وأولى الأولياءِ بتحويل ذٰلك لديْه ، وتخويلِ هـذه المواهب إليـه ، وإسباغ أثْواب الآمتنانِ عليه ، وآجتبائِه لرُتَب علتْ محَلّاً ، وآختياره لمنْصب يُصْبِح به جِيدُه من عقُود العناية مُحَلّىً ـ من شُكِرت أوصافُه ، وآشتهر عفَافُه ، وحَسُن منّاً إسعادُه و إسعافُه ، وحُمِدت خلالُه ومآثِرُه ، وحاز فخْـرَ نَعْتِه ونفْرِ ذَاتِه فلا غَرْوَ أن تعدّدت مفاخِرُه ، وأسلَفنا من خِدْمتـه ما آستوجَبَ أن يَجْنِيَ به ثِمـارَ الإحسان ، وقدّم بيْن أيدينَا الشريفةِ من يُمْن تصرُّفه ما أَنْتج له مضاعفةَ الآلاءِ الحِسان .

ولمـا كان فلان هو الذى تحلّىٰ من هـذه الأوصاف بعُقُودها ، وتجلّىٰ فى مَطارِف بُرُودِها ، وأثنَتْ علىٰ خِصاله ألسِـنةُ الأقلام ، وأثبتَتْ جميـلَ خِلالِه فى صُحُف أوراقها وصحائِف الأيَّام ، وحازَ من الأمانة والنّزاهـة كلَّ ما يُشكَر به على الدّوام ، وآمتاز بحُسْن الكتابة التى تُقِرّ النواظر وتَسُرُّ الخواطر وتُزْرى بالروض البسّام . ما باشرَ رُتْبـة إلا وَفَى بها ، وحفِظ أموالَهـا وغلالَها وضَـبط أمورها وكَفَى بهـا ـ آقتضىٰ رأيُنا الشريفُ أن نَنْقُـله إلىٰ درجات السـعاده ، ونَمنَحَه مِـن إقبالنا الشريف زيادةَ الحُسـنىٰ وحُسْن الزّياده ، ونخُصَّـه بوظيفةٍ تُدْنيه منّا قُرْبا لنكون قد أجمَلْنا له الآبتداءَ والإعادَهْ .

ولذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالَ نفْرُ أوليـائِه بمَزِيد آلائِه ساميا ، وقـدْرُ أصفيائه بمديد عطائِه نامِيًا ـ أن يستقرّ فى كذا .

فلْيتلَقَّ هذا الإحسانَ ، بيدِ الآستحقاق ، وليتقلّدْ عقُودَ الآمتنان ، الذى طالمَـا قلَّد جُودُهُ الأعناق ، ولْيباشرْ ذٰلك مباشَرةً يَسُرُّ خَبَرُها ، ويسير خَبَرُها ، ويشنِّف الأسماعَ تأثيرُها وأثَرُها ، وليَسلُكْ فيها من السَّداد ، ما يؤكِّد حمْدَه ، ومن حُسن الآعتماد ، ما يؤيِّد سَعْدَه ، وليعتَمِدْ فيها من الأمانة ما هو المشهورُ من آعتمادِه ، ومن العَفاف ماصَحَّ عنه نقلُ إسناده ، وليدَبِّج المراسيمَ الشريفةَ بقلَمه السعيد ، وليوَشِّها بكتابتِه التى بها الحسن

مبدئ ومُعيد، ولْيضبِطْ جميعَ أموال الديوان المعمُور وغِلاله ، وسائرَ أموره وأحواله ، ولْيستَوْفِ بقلَمه علىٰ مُباشِريه وعُمَّاله ، ولْيُحِطْ عِلْماً بخَراج بِلاده وأعمالِه ، ولْيسترفع الحساب شامًا ومصرا ، وليتصفَّح الرِّقاع بالممالك الشريفة المحروسة ليَحْوِيَ بجميعِها خُبْرا ، وليتعيَّنْ جُمَلها وتَفْصيلَها ليكون بمُخرَجها أدرَبَ وبمَرْدُودها أدْرىٰ ، ولْيَحْصُرْ متحصِّلَها ومَصْرُوفَها ، ومُعجَّلَها وموقُوفَها ، حتّىٰ لا يخرُجَ شيءٌ عن علمه ، ولتكُنْ جُملةُ هـذا الأمر محرّرة فى ذهْنـه ليجيب عنها عنـد السؤال بتحقُّق فهمه ، والوصايَا كثيرة وهو بهـا خبـير عليم ، حائزٌ منها أوفىٰ وأوفر تقسيم ، ومِلاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ فليجعَلْها عُمدتَه ، ولْيتَّخِذْها فى كل الأمور ذَخيرتَه ، والله تعـالىٰ يُضاعف له من لَدُنّا إحسانا ، ويرفَع له قدرًا وشانا ، والاعتمادُ على الخطِّ أعلاه .

***

وهذه وصية لمستوفِى الصحبة أورَدَها فى "التعريف" وهى :

فهو المُهَيْمن على الأقلام ، والمؤَمَّن علىٰ مصرَ والشام ، والمؤمَّل لمـا يَكْتُب بخَطِّه من كل ترتيبٍ وإنعام ، والملازِمُ لصُحْبة سلطانه فى كل سفرٍ ومُقَام ، وهو مستوفى الصُّحْبه ، والمستَوْلِى بالهِمَم علىٰ كل رُتْبه ، والمعوَّلُ علىٰ تحريره ، والمعمُولُ بتقريره ، والمرجوعُ فى كل الأمور إلىٰ تَقْـديره ، به يتحرّر كلُّ كشف ، ويُكَفُّ كلُّ كَفّ ، وبتنزيله وإلّا ما يكْمُل آستخدامٌ ولا صَرْف ، وهو المتصفِّح عنّـا لكلِّ حساب ، والمتطَلِّع لكلِّ ما حضَر وغاب ، والمناقِشُ لأقـلام الكُتّاب ، والمحقِّق الذى إذا قال قال الَّذِى عِنْـدَهُ عِلْمٌ من الْكِتاب ، والمُظْهِر للخَبـايَا ، والمُطْلِع للخَفَايا ، والمتَّفَق علىٰ صِحَّـة ماعنده إذا حصـل الخلاف ، ووصـل الأمرُ فيه إلى التَّلاف ، ولْيُلْزِم الكُتَّاب بمـا يلزَمُهم من الأعمال ، ويحررها بمسـتقرّ إطلاقه وضرائب رءوس

المـال ، وعَمَلِ المكلفات وأن يكلّفوا عمّالها ، وتقديرِ المِسـاحات وليتتبّع خَلَلَها ، وليُلْزِمهم بتمييز قِيَمِها بعض عن بعضٍ ، وتفاوتِ ما بين [تسجيل] (١) الفُدُن فى كل بلد بحسَب ما تصلُح له زراعةُ كلِّ أرض ، وبمستجدّ الجرائد وما يقابل عليه ديوانُ الإقطاع والأحباس ، وغير ذلك مما لا يحصل فيه ٱلتباس .

ومثلُك لا يُزَوَّد بالتعليم ، ولا يُنازَع فكلُّ شيء يؤخَذُ منه بالتسليم ، وما ثَمَّ ما يُوصىٰ به رَبُّ وظيفةٍ إلا وعنده يتنزّل علمُه ، وفيه يتنزّه فهمُه ، وملاك الكل تقوى الله والأمانة فهما الجُنّتان الواقيتان ، والجَنّتان الباقيتان ، وقد عُرِف منهما بما يُفاض منه عليه أسبَغُ جِلْباب ، وأسبَلُ سِتْرٍ يُصان به هو ومن يتّخذُهم من مُعِينين ونُوّاب ، والله تعالىٰ يبلّغه من الرتَب أقصاها ، ويُجرِى قلمَه الذى لا يَدَع فى مال ممالكنا الشريفة صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها .

الدرجة الثالثة

(من تواقيع أرباب الوظائف الديوانية بالديار المصرية
ما يُكْتَب فى قطع العادة : إما فى المنصورىّ ، مفتَتَحا بـ«أما بعد حمد الله»
أو علىٰ قَدْر المكتوب له فى القطع الصغير ، مفتَتَحا بـ «رسم بالأمْر الشريف »
إن ٱنحط قَدْره عن ذٰلك)

وفيها وظائف :

منها ـ كتابةُ الدَّرْج بديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة .

وهذه نسخةُ توقيع بكتابة الدَّرْج الشريف ، كُتِب به للقاضى تاج الدين ، عبد الرحيم بن الصاحبِ فخر الدين بن أبى شاكر ، وهى :

---

(١) الزيادة من التعريف ص ١١٥ .

رُسِم ... ... ـ لا زالت صـدَقاتُه الشريفةُ تشْمَل نُجباءَ الأبنا، ومبرّاتُه الجسيمةُ تُجْزِل للولَد البارِّ حُسْن الزيادة وزيادَةَ الحُسنىٰ، وهباتُه الكريمةُ تُقْبل بوجْه الإحسان علىٰ فَرْع الأصـل الأسْمىٰ وتُرصِّع تاجَه بجوهر نحْره الأسْنىٰ، وسِماتُه الوسيمةُ، تجمِّل شَدَّ أزر الوِزارة الفخيمة، بأكْفَإ نجل ثَنىٰ الزمانُ عنانَ الرياسة إليـه وعليه أثْنىٰ ـ أن يستقرّ فلان فى كذا وكذا : لأنه رُبِّى فى حَجْر الرياسه، وآجتنىٰ من الروض المجدَ الذى أعلىٰ السعدُ غراسَه ؛ ونَشأ من محلِّ السُّؤْدَد والفَخار، وبزَغ من بيتٍ حقَّت له رفعةُ الأقدار ؛ وبَسَق غُصنُ فرعه من أصلٍ ثابت، وسَمَـا بدَوْح عِزٍّ فى مواطن المَعـالى نابتْ، وهمىٰ ندىٰ قلمِه بانتسابِه إلىٰ سَرَاة الكُتَّاب فناهيك من كاتبٍ لأبى الخَلَل كـابتْ ؛ تَعترفُ الدولةُ لسَلَفه بسالف العُهُود، وتغْترف من مَنْهَل تدبيرِهم المَوْرُود ؛ وتتحلّىٰ من تاجهم بأسْنىٰ العقُود، وتسمُو من نخر وِزارتِهم ووِزارةِ نحرِهم بمـا يملأ الوُجُود بالجُود؛ وتختال من تصريف أقلامهم وأقلامِ تصريفهم فى روض التنفيذ المَجُود فإنْ ذُكِرت مآثرُ جَدِّه قَصَّرتْ عن إدراكها الحُـدُود، وإن شُكِرت مناقبُ والده ـ أجله الله ـ ففَجْرها البـاذِخ مشهُود، وهو بلسانِ العـامِّ والخاصّ مَمْدُوح محمُود، وإلىٰ مَعانِى خطِّه تنتهى درجاتُ الصُّعود والسُّعود؛ فلا غَرْوَ لهـذا الفَرْع الناجبِ أن يَتْبع أصْـلَه، وأن يسْلُك فضائلَه وفَضْـلَه ؛ وأن يقْفُوَ مَنْهَجَه، ويحْذُوَ فى الكِتَابة طريقتَه المُبْهِجه ؛ ويأتِىَ من البَراعة بسَنَنِها القَويم، ويبْرُز من اليراعة وَشْىَ خَطِّه الرقيم ؛ وأن يُحَلِّىَ أجيادَ المَهارق بجوهر تاجه النَّضيد النَّظيم، وأن تحلُوَ ألفاظُه فى الإنشاء حينَ تمُرّ علىٰ الأسماع مُرُورَ النسيم ؛ [لا] سِيَّما وقد ظهَرتْ عليـه من مَخايل الرآسـة دَلائِل، وشُرِعتْ له مناهِلُ الأدَب والفضائل ؛ وحازَ من حُسْن النشأة ما سار بُشكْره المَثَل، وحصَل من الآشتغال علىٰ كنْز المعرفة وآشتمل ؛ وغدا جديرًا بكلِّ مرتبةٍ سنِيَّه، وكل رِفْعة هى بأعدائها مبنيه .

فليباشِرْ ذٰلك مباشرةً يجعلُها لباب المعالى مفتتَحا ، وللزيادة من كلِّ خير سبَبا كُلَّما أبْدىٰ الدهرُ مَساءً وضُحىٰ ؛ ولينقُلْ فى آتباع مَهْيَع المجد عن والده وجدِّه أبقاهما الله تعالىٰ ، وليدأَبْ للتحلِّى بأخلاقِهما الحسَنةِ أقوالًا وأفعالا ؛ وليُبْهِج الطُّروسَ بوَشْيِ قلمه ، وليَنَمِّق المكاتباتِ ببَلاغة كَلِمه ؛ وليَتخِذِ الصَّوْنَ شِعارَه ، والعَفافَ دِثارَه ؛ والأمانةَ معتمَدَه ، والنزاهةَ مستَنَده ؛ وضَبْطَ القولِ مادّتَه ، وحفظَ اليد واللسانِ جادّتَه ؛ والوصايا كثيرة وملاكها التقوىٰ وهى حِلْيتُه الحقيقيّه ، وعقيدَتُه العقْليَّة والمَنْطِقيَّه ؛ فليَجْعلْها دأبَه ، وليُرْضِ فى إعلانه لها رَبَّه ؛ والله تعالىٰ يُعْلِى قدْرَه وجَدّه ، ويحفظُه وأباه وجَدّه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع شريف بكتابة دَرْج تجديدًا ، وهى :

رُسم ... ... ـ لا زال يمنَحُ الأولياءَ ، بتجديد النِّعم إحسانًا ، ويُولِى البُلَغاء ، فضْلًا يُعْلى لهم رُتْبةً وشَانا ، ويُبْدى لهم فى ديوان إنشائه الشريف فضائلَ جَمَّةً وبيانًا ـ أن يجدَّد هذا التوقيعُ الشريفُ باسم فلان تجديدًا لِأنوارِ الإحسانِ إليه ، وتأكيدًا لمَزايا الآمتِنان لدَيْه ، وتسديدًا لمستَنَده الذى ألقاه وجْهُ الإقبال إليه ؛ لِما حازَه من فضيلةٍ تامّة ، وبلاغةٍ ملأَتْ ببديع المَعانِى ومَعانِى البديع ألفاظَه وكلامَه ، وكتابةٍ أجْرتْ فى حواشِى الطروس بمحقَّق التوقيعاتِ أقلامَه ، وأمانةٍ بنَتْ علىٰ الصِّدق والعفَاف أقسامَه ، ورياسةٍ تأثَّل مجدُها ، فبلغ مَرامَه ، وآتَّصل سعدُها ، فلايَخْشىٰ آنفِصامَه ، وبَعُد شأوُها فهى الساميةُ إلىٰ رفع المنازل من غيرِ سآمه . قد آتَّصف من البَراعة بجميل الأوْصاف ، وظهر آستحقاقُه فهو بادٍ غيرُ خاف ؛ وترَوّىٰ من بحرِ البلاغة

حيثُ ورَد منْهَلَها الصَّاف، وسلَك طُرُقَ الخير فتضاعف له الإسْعاد والإسْعاف، وٱمتازَ بمزايَا التجمُّل فى أموره والعَفَاف؛ وٱستحقَّ بذٰلك أن نُجَدِّد له فضلَ الألُفه، ونُؤَكِّد له بكرمنا نَيْلا ٱعتادَه وعَرَفه .

فليستَمِرَّ فى ذٰلك ٱستمِرارًا به أسبابُ الخير مؤتَلِفه، ووجُوه الفضائل عن صُنُوف الكِتَابة غيرُ منصرفه؛ ولْيُبدِ من البَـلاغة بيانَها البديع، ويُجَمِّل منْزِل العليـاءِ الرفيع؛ ويَسْلُكْ مَسْلَكه فى الأمانه، ويتَّقِ الله تعالىٰ بملازمة المُراقبـةِ والدِّيانه؛ والله تعالىٰ يُعلِى مكانَه، ويزيدُ فى ٱقتِناء الفضائل إمكانَه؛ والاعتمادُ على العلامة الشريفة أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت ورُبَّمـا كُتِب التوقيع لكاتب الدَّرْج بزيادةِ معلوم، فيَحتاجُ الكاتبُ إلىٰ أن يأتىَ بعبارةٍ تجمع إلىٰ ما تقـدّم من براعة الٱستهلال ما يَليها من موجب الٱستحقاق، وسببِ الزيادة وترادُفِ الإحسان .

* * *

وهٰذه نسخة توقيع بشهادة الخزانة، كُتِب به لابن عُبادة، وهى :

أما بعدَ حمدِالله الذى أفاضَ على الأولياء من خزائن فَضْلِه، وأفاءَ لهم أوفرَ نصيبٍ من إحسانه المشكورِ فيه عَدْلُ قَسْمه وقَسْم عَدْله، وأهمىٰ عليهـم من سُحُب مواهبِه مايَقْصُر عنه الغَمام فى وَبْله وطَلِّه، وأسبغَ عليهم من جُودِه العميم مايصْفُو لديهم المَرَحُ فى وارِفِ ظلِّه؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ نبيه ورسولِه أشرفِ رُسْلِه، وخاتم مَنْ جاء من الأنبياء منْ قبْـله، والهـادِى ببِعثته الشريفةِ إلىٰ طُرُق الحق وسُـبُله؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تابعُوه فى قوله وفعْله، وبايَعُوه على المظاهرة فى نُصرة الدين

الحَنيفِ وأهْلِه ، وجمعُوا هِمَمَهم على ٱلْتِئام كلمةِ الإيمـان وجمْع شَمْلِه ، وأرهفَ كلَّ منهم فى نَصْره ماضِىَ عزْمِه ونَصْلِه - فإنَّ أوْلىٰ من رُعِيت له حقوقُ ذِمامه ، ومُنِح أجزلَ العطاء الذى تَقْضِى الأقدارُ بدَوامه ، ولُوحظ بعين الإقبال ما أسْلفه من حُسْن الطاعة لله ولرسوله ولإمامه - مَنْ جَدّ فى الخدمة فأضحىٰ الجَدّ له خادما ، وداوَمَ علىٰ المناصحةِ فغَدَا سعدُه دائمـا ؛ وأخذَ من كلِّ فضلٍ بزِمامه ، ومَتَّ بمـالَهُ علىٰ الدولة الشريفة من حُرْمته وذِمَامه ؛ وسلك فى أداءِ الأمانة السَّنَنَ القويم ، وجُعِل علىٰ خزائنِ الأرض بمـا تَلَا لسانُ فضله : ﴿إنِّى حَفِيظٌ عَلِيم﴾ ؛ وتمسَّكَ من الإخلاص بأقْوىٰ الأسباب ، وجَعَلتْ له التقوىٰ مَحَلًّا يُدْخل عليه ملائكةَ القبول من كلِّ باب ، وزَيَّن سمـاءَ المعالى بكواكِب مجدِه فمـا تشوَّف إليها طَرْفُ متطاوِل إلا وأتْبَعه شِهاب .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى غَدَا حسنُ مناقبه إلىٰ شكره مُرشِدا ، وإلىٰ ذكره بالجميل مُسْعِدا ، وألهجَ لسانَ القلمِ فى وصفه مُنشِدا ؛ وٱختصَّ من هذه المحامد بأوْفَرها قِسْما ، وطلع فى أُفُقِ هذا الثناء الجميلِ نَجْما ، فلذلك رسم ... ...

ومنها - ٱستيفاء الدولة .

وموضوعُها التحدّثُ فى كل ما يتحدّث فيه الوزيرُ وناظرُ الدولة ، وضبطُ الأموال الديوانيـة ، وكتابةُ الحُسْبانات ، وكُلُّ ما يجرى مَجْرىٰ ذلك . وقد جرتِ العادةُ أن يكون فيها مستوفيان .

وهذه نسخة توقيع باستيفاء الدولة :

أما بعـدَ حمدِ الله الذى صانَ الأموالَ بالأقلام المحرَّره ، والدفاترِ المُسطَّره ، والحُسْبانات المصدَّره ، والجوامِع المسَيَّره ، والتيقُّظ الذى ٱستخْرجَ البواقىَ المنكسره ،

والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمد الذى أزال ظَلام الظُّلْم ونوّره، ومحا الجَورَ وغيّره، وأيّد الحق وأظهرَه، وعلى آله البرَرَه، وصَحْبه خصوصا العَشرةَ المبَشَّره - فإنَّ للدولة الشريفة من الأقلام ضابطا، ولها من الحِساب نظامًا أصبح عليها سِيَاجًا وحائطا، يصون الأموال أن تكونَ بأيدى الخائنين نُهْبى، ويُحرِزُ المطلَقاتِ بعْدا وقُرْبا ؛ وقَلَمُ الاستيفاءِ هو الذى إذا طاشَتْ أقلامُ الكُتَّاب كان فى رأْسها لِجَاما ، وإذا خَصَم المباشرون بالمَصْروف قَبِل السائغَ الصحيحَ وردَّ ما كان سقيما وخرَّج ما لم يكن تَمَاما .

ولما كان فلان هو الذى فى الرآسة كبيرٌ معْروف، وفى السعادة حميدٌ موصوف، وفى قلمه تصحيحُ كلِّ مصروف ، وله فى الدولة آثارٌ مرضيَّة تشْكرُها الأقلام والسُّيوف ؛ ما نظر فى حِساب ، إلا أزال عنه ما به يُعَاب ؛ ولا رأى فَذَالك ، إلا وأوضَحَ فيها المَسَالك ؛ ولا عُرِض باقٍ، إلا آستَخْرج ما يتعيَّن آستخراجُه بقلمه الراقى ، وفَهْمِه الواقى؛ فلذلك رسم أن يستقر ... ...

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ بتحريره وتحبيره، وتمييزه وتَثْميره، وتوفيره وتكثيره، وإيراده وتصديره، وتسهيله وتَيْسيره، وإزالة تعسيره ؛ وإذا أمْسك دفاترَه، أظهر مآثِرَه، وإذا نُسيت الجُمَلُ أبدى تَذاكِرَه ، والعمْدةُ على شَطْبه فى الحُسْبانات الحاضِره ، فلا يخرُج من عنده شيءٌ بغير ثبوت فإنَّ التواقيع الشريفة والمراسيمَ الشريفة هى كالأمثال سائِرَة ؛ ولا يتَّخِذ المُعين ، إلَّا الأمين ، ولا يستعين ، إلا بمن هو مأمونُ اليمين ؛ والوصايا كثيرةٌ وهو غنيٌّ عن التبيين ، فلْيتَّق الله ربَّ العالمين، ولْيستجْلِب لنا الأدعيَةَ من الفقراء الصالحين ؛ فإنَّ صدقاتِنا الشريفةَ تُنْعِم عليهم بمرتَّبات وأرزاق ، ونِعَم وأطْلاق ، فليُسَهِّلْ عليهم الصَّعْب فى كلِّ بابٍ وإطلاق، والله تعالى يُمِدُّه بالإرفاق؛ بمنّه وكرمه، إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد يكتب لوظيفة آستيفاء الدولة مفتتحا بـ«رسم» .

وهــذه نسخة توقيع من ذلك باستيفاء الدولة، كُتِب به لَعَلَم الدين بن ريشــة ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا بَرِحتْ أيَّامه الشريفةُ تَرْفَع لذوى الكفاءة مِنْ إحسانها عَلَما ، وتُرجِع مصالحَ الدولة إلىٰ مَنْ أحسَن فيهـا خِطاباً وأعملَ فى مُهِمَّاتِها قلَمـا ، وتختارُ مَنْ دأَب فى تكميل أدَواتِه حتَّى صار علىٰ أنظاره متقدِّما ـ أن يرتَّب فلان عِلْما بكفايته التى وضَحَت ، ودِرايتِه التى فاقَتْ مُناظِرَها ورجَحتْ ، وأمانتِه التى حصَّلتِ النماء وأربَحتْ ، وهمَّتِه التى ميزَّت الأموال بإحرازها فعلَى السَّداد خُتِمت وبالتحرِّى آفتُتِحتْ .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ التى تحتاج إليه باحتراز مثلِه ، والرُّتبةَ التى يتعيَّن علىٰ مُباشِرها إيصالُ كلِّ حقٍّ إلىٰ أهــله ، فقد أرجعْنا ضبطَها وتحريرَها إليه ، وآعتمدْنا فى تيسير أموالِهـا وسدِّ أحوالهـا عليه ؛ فهو جديرٌ ببلوغ القصــد فيما قرَّرناه لدَيْه ، وحرَّرناه بقلمه ويدَيْه .

فليبسُطْ فى مصالح الدِّيوان المعمُورِ وأمواله قلَمَه ، وليَعْمَلْ بمـا هو عالم من تبيين حقائقِ آحوال وظيفته ويُخْلِصْ فيه قولَه وكَلِمَه ؛ ولْيُصُنِ الأموال ، ويتفَقَّدْ ما يلزم العُمَّال ، ويَحُثَّ علىٰ حمول بيتِ المال ؛ وليسترفع الحُسْبانات من جهاتها على العاده ، وليستودِعْ دفاترَها وجرائدَها من يتحقَّق تحرّزَه وسَدادَه ، ولْيتخِذْ مُعينِيــه من أرباب الحِذْق والدِّراية والآطِّلاع علىٰ كل نقْصٍ وزيادَه ، وإبداءٍ وإعاده ؛ وله من نَفْسه مالا يَحتاج معــه إلىٰ زيادةِ الوصايا وتكْثِيرها ، ومن ألْمَعِيَّته ما يُدْرك به الفضْلَ فى جليــل الأمور وحَقيرها ؛ فإنَّه قد تخَلَّق بأخلاق أهل الأدَب ، وشارك فى جليل

الخَطْب وسدَّ ما إليه عزمَه آنتدَب؛ والله تعالىٰ يبلّغه من الجُود غايةَ الأرَب، ويُعينُه علىٰ صالح العمَل وآنتهازِ القُرَب؛ والآعتماد ...

ومنها ـ آستيفاءُ الخاصّ . وصاحبُها فى الخاصّ كمستوفِي الدولة فى ديوان الوزارة .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بآستيفاء الخاصّ لمن لقَبُه «أمينُ الدين» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أيامُه الشريفةُ تُقْدِم بمهمَّاتها أمينا، وتقدِّم فى خدمتها من أضحىٰ معلَّى شمالا ويمينا؛ وتُولِّى الرتب السنيَّةَ مَنْ جعل التحرّز لقلَمه مصاحِبا ولكَلِمه مُعينا ـ أن يستقرّ فلان فى كذا : لمَا عُرِف من رآستِه التى ميَّزَتْه، وأمانتِه التى جمعتِ الرَّفْع فأحرزَتْه؛ وضبْطِه الذى ترقَّى به فى المراتب وتنَقَّل، وإدراكه الذى يَصُونُ به غوامِضَ المصالح ويَعقِل؛ ولمَا سلَف له من خدمةٍ ملكَ فيها السَّداد، ومباشرةٍ عُلِم بها ماهو متَّصِف به من حُسْن الآعتماد .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ التى وُلِّيها، ولْيُشْهِر من همَّته فيها ما يرفَع مكانتَه ويُعْلِيها؛ ولْيُدِم المراقبةَ لمصالح ديوان الخاصّ الشريف فى كلِّ قولٍ وعمل، ولْيسارِعْ إلىٰ ما يُفيد المَناجِحَ ويَبْلُغُ من الضبْط والتحرُّز غايةَ الأمل؛ ولْيصُنِ الأموال من ضَيَاعها، ويحافِظْ علىٰ سلوك طرائِقِ الحقِّ وآتِّباعِها؛ وليستَرفِع الحُسْبانات من أربابها، ويتفقَّد محرَّراتها التى هو أعلَمُ وأدْرىٰ بها؛ ويَتَّخذْ من مُعينيه من أضحت معرفتُه للدقائق جامعَه، ويحتفِلْ بمتحصِّلات أموال الخاصّ بعَزْمتِه التى أضحت لمكانتَه رافعه، لاسِيَّما ثغرُ الإسكندرية التى قد أصبحَتْ جهاتُها لطلَب أقلامه مُتابعةً طائعه؛ وليُلزِمْ كلَّ عامل بتحرير مايجب عليه وما تنبغى فيه المراجَعَه؛ فإنا قد أقمناه لذلك مستَوْفيا، وليتصفَّح أمورَه الجليلةَ والحقيرةَ مستوضِحا مستقْصِيا؛ ولْيتّقِ الله

الذى يبلِّغُه من زيادة مَنْحِنا الأمل، ويعينُه علىٰ صالح العَمَل، والله تعالىٰ يمنَحُه من الخير ما يُنْجِح مَسْعاه ويتزّهُه عن الزَّيْغ والزَّلَل، والاعتماد ... ...

* * *

وهذه نسخة توقيع فى المغنىٰ لمن لقبه «بدر الدين» وهى :

رُسم بالامر الشريف ـ لازال يُطلِع لذَوِى الكفاية من إحسانه فى سَماء الإقبال بَدْرا، ويرفَعُ لمن أمَّ الأبوابَ لأوليائه(١) من ذَوِى الرآسة قَدْرا، ويشْفَع لمن شُكرتْ معرفتُه بنُجْح القصد فآنشرح له بالمِنَن الجمَّة صَدْرا ـ أن يستقرّ فلان فى كذا : لكفايته التى خُطِب بسببها إلىٰ مَقَرّه، ودرايته التى آستوْجَب بها أنْ نطقَ لسانُ القَلَم بذكْره، ونزاهته التى أجمعت بها أمثالُه علىٰ شُكْره، وأمانته التى تستدْعِى الحقَّ فى حُلْو الأمر ومُرِّه، وديانته التى هى أصلٌ فى كل أمره، وصيانته التى يعتمِدُها فى سِرِّه وجهره، ومشارفته المصالح بعين يقظته التى يلُوح لها وجهُ الصواب فيقِف عند حدِّه وقدْره .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى أسلفها حُسنَ الاعتماد، وليوَفِّها من معهود يقظته يُمْنَ الاجتهاد، وليحقِّق حسنَ ظنِّ المباشرين فى رغبتهم(٢) فيه فى الإنصاف فى الإرْفاق والإرْفاد، ولْيعمِّر جهاتِ الأموال بجميل الاقتصاد، ويُنْجِز الأحوالَ علىٰ سبيل السَّداد، ولْيتَّبع منهاجَ الخير فى كل ما يأْتيه من إصدارٍ وإيراد؛ فقد رجَع ضبْطُ هذه الجهة إليه، واعتُمِد فى تحريرها عليْه؛ فلْيصُنِ الأموال، ويتفقَّد ما تَحْسُن به العُقْبىٰ والمآل؛ ولْيتحَرَّ فى جميع ماهو لازمٌ له أن يكونَ على الحق الواضح، والسَّنَن القويم فإنه المَتْجر الرابحُ والمآبُ الناجح؛ وتقوىٰ الله تعالىٰ فهى عمدةُ كل عبدٍ صالح،

---

(١) لعله من أوليائه ذوى الخ .

(٢) لعله «ورغبتهم فيه من الانصاف» الخ تأمل .

والوصايا كثيرةٌ مبيَّنــة تُغْنِى عن إفصاح الشارح؛ والله تعالىٰ يُلْهِمه الطريقَ السديدةَ ويُرْشِده، ويُعينه بالتوفيق ويُنْجِده، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها ــ ٱستيفاء البُيوت والحاشية .

وهذه نسخة توقيع بذٰلك ، كُتِب بها لعَلَم الدين «شاكر» عوضًا عن تاج الدين ابن الغزولى فى الأيام الأشرفية «شعبان بن حسين» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زالتْ صــدَقاتُه الشريفةُ تَمنَحُ الأكفاءَ من إحسانِها نِعَما، وتُضاعِف لهم من عَطائها كَرَما ، وأيَّامُه الشريفة تعُمُّ البُيوتَ الكريمــةَ بكافٍ قد نَشَرت له الأمانةُ فى دولتِه الأشرفيَّةِ علَمــا، ومَواهِبُه تقدّم للوظائف مَنْ أضْحىٰ شاكِرًا لله تعالىٰ وتبسُطُ له فى دواوين أعزّ الأنصار قلَما ــ أن يستقرّ المجلسُ السامى القاضى، فلانُ الدين فى كذا وكذا : لأمانته المَوْفُوره ، ومعرفتِه المشهُوره، ومحاسِنِه المذكُوره ، وسـيرته المشْكُوره، وكتابتِه التى أضحَتْ فى صَفَحات الحُسْــبانات مسْـطُوره، وديانتِه التى جدّدَتْ بهجَتَه وسُرورَه، وخِبْرتِه بمنازل البُيوت المعمُوره ؛ وقِدَمِ هِجرته فى الوظائف التى أوجبت نُقلتَه إلىٰ أجلِّها، وصَدارته التى رفعَتْــه إلىٰ أرفَعِ محالِّها؛ كم له فى دَواوين أعزِّ الأنصار من أقلام منَفَّذه، وآراءٍ مُسدَّده؛ ونظَرٍ أصلح به كلَّ فاسد، وكَبَتَ به كلَّ حاسد؛ وضَبْطٍ لأصول الأموال، وتتَبُّعٍ للمصالح فى البكَر والآصال .

فلْيباشِرْ هــذه الوظيفةَ المباركةَ التى هو أخبَرُ بمباشَرتِهــا، وأعلَمُ بأحوال البُيوت الكريمة وعمارتِهــا؛ ولْيُظْهِرْ فى الحاشية السعيدةِ مآثِرَه الحسنَه، ونزاهتَه التى نطَقَت بشكرها الألْسِنَه، ولْيُبْدِ فى مباشرتِه من كل شيءٍ أحسَنَه ؛ ولْيَسْلُك طرائقَ الأمانه، ولْيَقْفُ آثارَ ذوى العَفَاف والصِّيانه ؛ ولْيلازِمْ مباشرةَ أعزِّ ولىٍّ فى المَسَاء والصَّباح،

ولا يشْغَله شاغلٌ عن مصالح ممهِّد الدول مَنْ [هو] لسلطاننا الأشرفِ أميرُ سِلاح ، والله تعالىٰ يفتح له من الخير أبوابَ النَّجاح . والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وممَّا ينخرط فى سلك تواقيع أرباب الوظائف السلطانية وظائفُ دواوين الأُمَراء الخاصكيَّة ، فإنه ربما كُتِب عن السلطان التوقيعُ لبعض أرباب وظائف دواوينهم كما يُكتَب فى الوظائف السلطانية .

*
* *

وهذه نسخةُ توقيع كريمٍ بنظر دواوينِ بعض الأمراء ، وهى :

أمَّا بعد حمدِ الله الذى هدىٰ إلىٰ المِلَّة المحمَّدية مَنْ أسرَّ الإيمانَ فى قلبه ونَواه ، وضَمَّ إلىٰ الأُمَّة [الاسلامية] من أضمر الإخلاصَ فأظهره اللهُ فى متقَلَّبه ومَثْواه ، وجمعَ لولِيِّ الدولة ومُخْلِصها الفرجَ والفرَحَ لأنه مَن توكَّل عليه كَفَاه ؛ والشهادة بالوَحْدانية التى تُبَلِّغ قائلَها من رضاه مُنَاه ، وتجعل جَنَّاته لمن أسَرَّها جَنَانُه مستقرَّه ومأْواه ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى قَصَم عِدَاه ، وفَصَم عُرا مَنْ عاداه من أهل الشرك وعَدَاه . وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آهتدَوْا بهُدَاه ، وآستجْدَوْا جَدَاه ؛ ولَبَّوْا نِدَاه ، وأَمُّوا نَدَاه ؛ صلاةً تُجزِل لمصلِّيها ثوابَه ، وتُجْمِل مآبَه ، وتُحْمِد عُقْباه ـ فإنَّ أَوْلىٰ من رفَع له الكرمُ محَلَّا ، وقلَّدته النِّعمِ عِقْدا مُحَلًّى ؛ وأُعيد إلىٰ رتبة الآصطفاء ، وفُوِّض إليه ديوانُ أعزِّ الأخصَّاء ؛ وصُرِّف قلمُه فى مَهامِّه ، وحصلتْ هِمَمُه علىٰ جميع أقسامِه ؛ وعُدِقتْ مصالحهُ بتدْبيره ، ومناجِحُه بتأثيله وتأثيره ؛ ومتَحصَّلاتُه بتمييزه وتثْميره ، وأحوالُه وأموالُه : هذه بحُسْن تصرُّفه وهذه بيُمْن تَقْريره ـ مَنْ دخل فى دين الله القَويم ، وآجتَباه وهدَاه إلى الصِّراط المستقيم ؛ وكَسَاه الإسلامُ حلَّةَ شرَفِه ، وبوَّأه الإيمانُ

مَبانِى غُرَفِه، ونَوىٰ الآستقامةَ فى إقامته ومُنْصَرَفه؛ وآلتحَفَ بجِلْباب الإسلام وآرتَدَىٰ، وتَلَبَّس بالإيمان فصَدّ عنه الأذَىٰ ورَدّ الرَّدىٰ، وغَدَا من أصحاب الصِّراط السَّوِىِّ ومَنِ آهْتدىٰ؛ مع كفايةٍ أوجبَتْ له التقريبَ والتقديم، وجدّدَتْ له مَلابِسَ التكبير والتكْرِيم؛ وكتابةٍ فاقَ بها أمثالَه، وعلا مِثالَه، وبلَّغته من العَلْياء مَرامَه ومَنَالَه؛ ومعرفةٍ بفنُون الحِسَاب، وخِبْرةٍ آعترف له بها الكُتَّاب والحُسَّاب، وأوجبَتْ له من الإقبال مالم يكُنْ فى حساب .

ولما كان مجلس القاضى فلان : هو الذى أخَذ القلَمُ فى مدْحِه، والكَرَمُ فى مَنْحِه؛ آقتضىٰ رأيُنا الشريف أن نُقْبِل على إقبالِه علىٰ الدين بوجْه الإقبال، وأن نبَلِّغه فى أيَّامنا الشريفة ما كان يرجُوه من الآمال . فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لازال يرْفَع مَن كان للدّولة ولِيًّا، ويضَع الشيءَ محلَّه بتقديم مَنْ أضحىٰ عِرفانُه جَلِيًّا[(١)] .

فلْيباشِرْ ذٰلك مباشرةً تبلِّغه أمَلًا من الآعتِلاء، وتُنوِّلُه مَرامًا من الآعتِناء، وتُؤَمِّنه من طوارِق الزَّمن وحوادِثِ الآعتِداء، عالمًا بأنَّ دولتنا الفلانيةَ المنصورةَ تُجازِى عن الحسنةِ بأمثالِها، وأنَّ أيَّامنا الفلانيةَ المشهورةَ المشكورةَ تبَلِّغ أولياءها غايةَ آمالِها؛ وأنّنا أجزَلْنا بِرّه، وأجملْنا ذِكْرَه، وأجرَيْنا علىٰ لسان القَلَم حمْدَه وشُكْرَه؛ فليعتَمِدْ فى مباشرته الأمانةَ المُبِرَّة، والنزاهةَ التى رَفَعت ماساءَه ووضَعَتْ ماسَرَّه؛ وليشَمِّر فى مصالح هذا الديوان السعيد عن ساعِدِ آجتهادِه، ويعتَمِد فى أموره ماأُلِفَ من سَدَاده، ويَتَحرَّ من السعادة ما كان قبل القول من سُعَاده؛ وليتَّق الله حقَّ تُقاته، ويجعَل التقوىٰ حِليَةً لأوْقاته، وحُلَّةً علىٰ سائرِ تصَرُّفاته؛ ويَسِرْ بتقواه سَيْرًا خَبَرًا وخُبْرًا، ويَذَرْ جورا وجَبْرا، ﴿ومَنْ يتَّقِ اللهَ يجعَلْ لَهُ مِن أَمْرِه يُسْرا﴾ .

(١) أن يستقر فى ديوان كذا الخ وحذفه اختصارا للكتابة وكثيرا ما يفعل مثل ذلك .

قلت : وغالب مايُعتنىٰ به فى تواقيع أرباب الأقلام المفتتحة بـ«رُسِم» الدعاءُ المصدَّرُ به التواقيع [و]آشتمالُه علىٰ بَراعةِ الاستهلال .

وهذه جملةُ أدعيةٍ من ذٰلك يُنْسَج علىٰ مِنْوالها :

أثير الدين — لازال فَلَك فضله أثيرا، وطالعُ سَعْدِه مُنيرا، وهُبُوب ريح مبَرّاته للخيرات مُثيرا .

أمين الدين — لازال يَبْتغى للخِدَم الشريفةِ خَيْرَ أمين ، ويصْطفِى للقيام بالمصالِح أنهَضَ مُعين، ويجتبِى لأهمِّ المُهِمَّات من هو غير متَّهَم فى المناصحة وغيرُ ظَنِين .

بدر الدين — لازال يُولِّى المناصبَ الدِّينيَّةَ من سَلَك فى النزاهة مَسْلَكا جميلا، ويُولِى الفضل الجزيل مَنْ أضحىٰ إشراقُ بدْره علىٰ آثار حظِّه دليلا .

برهان الدين — لازالَتْ أوامِرُه الشريفةُ ترفَع للعلماء شانا ، وتُقِيم على آستحقاقِهم دَليلا واضحا وُبرهانا .

تاج الدين — لازالَتْ صدقاتُه الشريفةُ ترفَع تاجَ الفضائل على الرُّءُوس، وبِرُّه الشاملُ يُذَكِّى النفوس ويُزَكِّى الغُروس ، وتَواردُ إفضاله يُوشِّى المَهارِقَ ويدَبِّجُ الطُّروس .

تقىّ الدين — لا زالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تقدّم كلَّ تقىّ ، وتُرَجِّح ميزانَ مَنْ هو بالفضائل أمْلىٰ مَلِىّ، وترفَع قدْرَ من إذا سُئِل عن محلِّه فى الرياسة قيل عَلِىّ .

جمال الدين — لازال جمالُ جميله للنُّفوس رائِقا، وإفضالُه المتوافر لكل إفضالٍ سابِقا .

جلال الدين — لازالتْ صدقاتُه الشريفة تَزيد جلال ذَوى الفضل جَلالا، وإحسانُه المتواترُ يُوَسِّع فى البِرّ لأُولى الاستحقاقِ مَجَالا، وبِرُّه المتتابِعُ تَقصُر عنه خُطا كلّ بِرّ فيُنادِى: هكذا هكذا وإلا فلا لَا .

رضىّ الدين — لازال رِضىَّ السَّجَايا، ظاهرَ المَزَايا، مسترسِلَ دِيَم العَطَايا .

زينُ الدين — لازال نَوالُه الشريفُ زيناً لنائله، وسؤالُه المحقّق إجابتُه شرفًا لسائِله، وقاصدُ بابه الشريفِ يُؤَمّ بالخير فى عاجِلِ الأمرِ وآجِله .

سراج الدين — لازالتْ عنايتُه الشريفةُ تَخُصُّ أولياءَها بجزيل المَواهِب، وتُبَلِّغهم من صدَقَاتها العامّةِ غايةَ الآمال وأقْصى المَطالب، وتُوقِد لهم من أنوار سَعادتِها سراجًا يَغْلِب علىٰ نُور الكواكب .

سرىّ الدين — لازالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تَصْطفى من أرباب الكتابةِ من يُجِيد المعانِىَ فلا يضَع لفظا إلا جعَل تحتَه معنًى سَرِيًّا، وترتضى من فُرْسان البَراعة فى مَيْدان اليَرَاعة مَنْ يرتقِى ببلاغتِه مَكانًا عليًّا، وتجتبِى من أهل الإجادة من تميَّز بالإفادة فلا يزال كلامُه لأجياد الطُّروس حُلِيًّا .

شرف الدين — لازالت صدَقاتُه الشريفةُ تضَع الشىءَ فى محلِّه، وتُرجِع الفضلَ إلىٰ مستحقِّه وأهلِه، وتختارُ للمناصب من ظَهر شرفُه بين قولِه وفعْلِه .

شمس الدين — لازالتْ صدقاتُه الشريفةُ تُطْلع فى سماء المَعَالى من ذَوى الرياسة شَمْسا، ونِعَمُه الجسيمةُ تُنْبِت فى روض الإحسان غَرْسا، ومراسمُه العاليةُ تَنْقُل إلىٰ رُتَب الرياسة من شَدّت كفُّه علىٰ عدد الأمانىّ خَمْسا .

شهاب الدين — لا زالتْ صدقاتهُ الشريفةُ تُطْلِع فى أفُقِها شِهابا، وتُهْمِل من جزيل المَواهب للأمانِيّ سَحابا، وتضَع الشيءَ فى محله وتَزِيدُ الأمورَ آنتظاما والدعاءَ آستِجلابا .

صدر الدين — لا زالتْ آراؤه الشريفةُ تستجيدُ من ذَوِى الفضائل مَنْ جاوَزَ الجَوْزاء نَظْما وفاق النَّثْرة نَثْرا، وتستفيدُ(١) به المناصب من الأماثل مَنْ تقصُر عن مجده الكواكبُ رِفْعة وقَدْرا، وتسترِيد منه المراتب من فاق سَحْبانَ وائلٍ وسادَ الأوائل فأضحىٰ فى مجالس العلياء صَدْرا .

صلاح الدين — لازال أمرُه الشريفُ يقدّم من يُفِيد ويُجِيد، فيكون لكلّ أمرٍ صلَاحا، وكرَمُه الطويلُ المَديد، يشمَلُ مِن ذوى الفضائل مَنْ فاق "سَحْبانَ" وائلٍ فصاحةً وفاق "حاتِمَ" الأوائل سَماحا، ورأيُه الرشيدُ السديدُ، يختارُ مَنْ إذا آنتضىٰ اليراعةَ غلَب رأْيُه سيُوفا وطال قَلَمُه رِماحا .

ضياء الدين — لا زالتْ آراؤه الجميلةُ، تختار من ذَوِى الفضائل الجليلةِ من تَزْداد به المناصب ضياءَ، ونِعمُه الجزيلةُ، تعُمُّ كلَّ بارع إذا آدلهمَّتِ الخُطوب كان فُوه لها جِلاءَ، وعوارفهُ المستطيلةُ، تشمَل كلَّ فاضل بذَلَ فى الخدمة جُهْده وتكْسُوه هيبة وبَهاءَ .

عـلم الدين — لا زال جزيلُ إحسانه، أوضَحَ من نارٍ علىٰ عَلَم، ومزيدُ آمتِنانِه، يشملُ أربابَ السيف والقلَم، وسُحُب بَنانِه تَسُحُّ فلا تَشُحُّ بجزيل الكَرَم .

علاء الدين — لا زال عَلاءُ دولتِه يصطفِى ذَوِى الفضائل، ويختارُ من الفُصَحاء من يفُوتُ الأواخِرَ كما أضحىٰ يفُوت الأوائِل، ويقدّمُ مَنْ هو فى تدبِيرِ اليَراعة كعليّ بن هِلَال وفى حُسْن البَراعة كسَحْبانِ وائِل .

---

(١) لعله «وتستعيد للمناصب ... ... وتسترِيد فى المراتب الخ» . تأمل .

عِــزّ الديـن — لا زالتْ صدقاتُه الشريفة تَزِيد ذَوِى الأقلام، من جزيل الإنعام، فتُنيلُهم عِزّا ، وتستجيدُ من كُتَّابها الأعلام، من خُصَّ بجواهر الكلام، فكلُّ حُسْن إلىٰ كلامه يُعْزىٰ، وتستفيدُ من نُجَباء الأيَّام، كلَّ بارع كأنَّ كلامَه زَهْر الكِمَام، فلو خاطب سَحْبان لأورثه قُصُورا وعَجْزا .

عِمَـاد الديـن — لا زالَتْ آراؤُه الشريفةُ تتَّخِذ من نُجَباء الكُتَّاب، عِمَادا، وتختارُ من ذَوِى الفضائل فى الخِطاب، مَنْ تجِـدُ لكلامه حُسْنا وسَـدَادا، وتُقدِّم من أهل الفضل فى السؤال والجوابِ، مَنْ لا تَعْدَم فى كلِّ مقاصده رَشَادا .

عضد الديـن — لا زالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تجعل من إنعامها، لخدّامها، عضُدا، وتلحَظُ بعين إكرامها، وحسن آحترامِها، مَنْ طال فى الفضل مَدىٰ، وتزيِّن مطالعَ أيامها، بشُموس أعلامِها، فلا ترىٰ مثلَهم أحدا .

غَرْس الديـن — لازالَتْ صـدقاتُه الشريفةُ تُنْبِت فى روض الإحسان، من أرباب البيَـان ، غَـرْسا ، وتجتنِي من كِمام اللِّسان ، أزاهِرَ النُّكَت الحِسان ، وتزيِّنُ بها طِرْسا ، وتُفيض من مَواهب البنَـان ، ما يشهَد لهـا بجزيل الآمْتِنان ، فَيطِيب كلُّ آملٍ نَفْسا .

غياث الديـن — لا زالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تُبْـدِى لكلِّ آملٍ غِياثَهـا ، وتُضفِى ظِلَّها علىٰ من آستجار بها وآستغاثها، وتنْطِق ألسُنُ أقلامها، بمواهب إنعامِها، فتبذُل طريفَها وتُراثَها .

فتـح الديـن — لا زالتْ صـدَقاتُه الشريفةُ تتخيَّر من ذَوِى الأقلام، مَنْ يفتح أبواب الكلام، فتحا، وتَهَب جزيلَ الإنعام، لمن يستحقه من الكُتَّاب الأعلام،

فينالُ بذٰلك ثناءً ورِبْحا، وتُقرّب بيَدِ العِناية والإكرامِ، من ذَوى الرياسةِ والاحترام، مَنْ هزَّ على البلَغاء قِدْحا .

فخــر الديـن — لا زالَتْ آراؤه الشريفةُ تُنَصِّب فى المَناصب، من يَزِيد بحُسْن مباشَرته فخْـرَها، وتُمْطِى ظُهورَ المراتب، من إذا أظْلَمت الأيامُ لعدم فاضل ظهرَ بفضيلتِه فجْـرُها .

قُطْب الديـن — لازالتْ صـدقاتُه الشريفةُ تُدِير علىٰ قُطْب البـلاغة من أرباب اليَراعة نُجُوما، وتُشيرُ بعنايتها إلىٰ مَنْ حاز من الفضل فُنُونا وأحيا من الآداب رُسوما، وتُنير بدُورَ سعدها لمن لم يزل قلَمُه لأسرار المُلْك كَتُوما .

كريم الديـن — لازالتْ صـدقاتُه الشريفة تشـمَل من ذَوِى الفضائل مَنْ عُدّ فى فضْـلِه وأصلِه كريمـا، فتقُدّم مَنْ لا له فى البَلاغه ممـاثِلٌ فلا يَزالُ بكل فَنٍّ عليما، وتُنَصِّب فى المَنـاصب مَنْ فات قَيْسَ الأوائل رأْيا وفاقَ قُسًّا بحـديث بَلاغته قديمـا .

كمال الديـن — لا زالتْ سعادتهُ الباهره، تُطْلِـعُ فى سماء العَلْياء مَنْ فاق البُدورَ كمالا، وأوامِرُه القاهره، تُقدّم أسْنىٰ البُلَغاء جَلالا، وأسْمىٰ صدَقاتِه الوافيه، تعُمُّ من ذَوِى الفضائل مَنْ زاد المَناصبَ بحُسن مباشرتِه مَهابةً وجَمالا .

مجد الديـن — لا زالت صدَقاتُه الشريفةُ تملِّك أعنَّةَ الأقلام، من تراه لها مَجْدا، وتُودِع بجيد الأيَّام، من جواهرِ الفضلاء عقْدا، وتشمل بأياديها الكرام، مَن اذا جُمِـع البُلَغاء كان بينهم فردا .

محيي الدين — لازالت أوامرُه الشريفةُ تشمَل من البُلَغاء من شُهِر بفصْل الخطاب، وإذا ماتت الفضائلُ يُحيِيها، وغيثُ جُوده الهامى (١) يُفِيض فيضَ السَّحاب، فيُبادِرُ العُفَاة ويُحَيِّيها؛ وعنايتُه تعم ذَوِى الألباب، فتمَهِّد رُتَب العِزِّ وتُهَيِّيها .

موفَّق الدين — لازالتْ صدقاتُه الشريفةُ تُطْلِع كلَّ هلال مَن آهتدَىٰ به كان موَفَّقا، وتُمَلِّك اليراعَ مَنْ يُزْرِى بابن هِلال أنَّى كتَب: رِقَاعا ومحقَّقا؛ وتُفِيض لراجيها أفضلَ نَوالٍ مَنْ شبَّهه بالغيث كان مُحَقِّقا .

ناصر الدين — لا زال يُقرِّب مَنْ أضحىٰ لأهل الكَلام، بمُرْهَفات الأقلام، ناصِرا؛ ويَهَب طويلَ الإنعام، لمن باعُه مديدٌ فى النَّثْر والنِّظام، فما بَرِح فضلُه وافِرا؛ وينتخِب مَنْ غدَا شَرِيعا لعادات الكرام، مُضارِعا لِصفات الكُتَّاب الأعلام، وأصبح فى البَيان نادِرًا .

نجم الدين — لازالت أوامره الشريفةُ تُطلِع فى أفُق السعاده، من ذوِى السياده، نَجْما؛ وتعُمُّ بجزيل الإفادَه، مَن عُرِف بالفضل وبالإجادَه، وفاق أقرانه نَثرا ونَظْما؛ وتَسْمح من عنايتها بالإراده، لمن هو أهلُ الحسنىٰ وزياده، فتُجْزِل له من كَرَمها قِسْما .

نُور الدين — لا زالتْ صدقاتُه الشريفةُ تعُمُّ بالنَّوال، مَنْ هو فى البَرَاعة متَّسِعُ المَجال، فيزِيدُ الكلامَ نُورا؛ وحسَناتُه تشمَل ذَوِى الآمال، بما يُحْمَد فى البَدْء والمآل، فتملأُ القلوبَ سُرورا؛ ومَبرّاتُه تَصِل أُولِى الكمال، وتنتخِبُ أخيارَ العُمَّال، فلا بَرِح أنفَذَ الملوكِ أُمورا .

---

(١) فى الاصل «الوهام» و يظهر أنه تحريف .

نِظـام الدين — لازال يتخيَّرُ مَنْ كان فى الناس مَجِيدا ، وفى البيان مُجِيدا ، فَحَسُن لفظُه نِظاما ، ويَهَبُ مِن بِرّه مَزِيدا ، لمن كان فى الخِدمة مُرِيدا ، فلا ينقُض للنصيحة ذِمَاما ، ويبذُل كَرَمًا مُفيدا ، لمن يراه فى الفضـل مُبْدِئا ومُعِيدا ، فحاز فَخَارًا وطابَ كَلاما .

هُمـام الدين — لا زال يرتَضِى مَنْ هو فى فُرْسان البَراعةِ أنهضُ هُمَـام ، ويقتضِى وعْدَ كرمه لمن نهضَ فى الرياسـة نُهوضَ آهتِمام ، وينتضِى عَضُـدَ(١) ذهنه فيصيب مَفْصِل كلِّ كَلام .

وَلِيّ الدين — لازال يُحَلِّى أجيادَ المناصِب منذَوِى البلاغه ، بمن يُحسِن فى الكلام الصِّـياغة ، فينظِمه حُلِيًّـا ، ويُجَلِّى كُرَب المراتب من فُرْسان البراعه ، بمن راحَ فضلُه ولفظُه جَلِيًّا ، ويُولِّى المناصبَ من غدا فى البيان وافر البضاعه ، فاتخذَتْه الأقلامُ وليًّـا .

---

(١) لعل الصواب معضد كمنبر : تأمل .

الضــــرب الرابـــع

(من الوظائف التى يُكتب فيها بالديار المصرية مَشْيخةُ الخَوانق ، وكلُّها يُكتب بهـا تواقيعُ)

وهى على طبقات :

الطبقـــــة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» مفتتحا بـ«الحمد لله» وهو مَشْيخة الشــيوخ خاصَّـة)

وآعلَمْ أنَّ مشيخةَ الشُّيوخ كانت فيما تقدّمَ تُطلَق على مشيخة الخانقاه الصَّلاحيَّة، «سعيد السعداء» فيكتَبُ فيها بذلك . ولم يزل الأمرُ على ذلك إلى أن بَنَى السلطان الملك الناصرُ « محمدُ بن قلاوون » الخانِقاه الناصريَّةَ بِسِرياقَوْس، آستقرّتْ مشيخةُ الشيوخ على من يكون شيخًا بها، والأمرُ على ذلك إلى الآنَ .

وهــذه نسخةُ توقيع بمَشْيخة الشُّــيوخ بالخانِقاه الصَّلاحية « ســعيد السُّعداء » بالقاهرة المحروسةِ باسم الشيخ شمس الدِّين بن النَّخْجُوَانىّ، من إنشاء المقرّ الشهابىّ آبن فضل الله العمرىّ، وهى :

الحمدُ لله مُرقِّى أوليائِه ، ومُوَقِّى أصــفيائِه ، ومُلَقِّ كلمةِ الإخلاص لمن تلَقَّ سرَّها المصُونَ عن أنبيائِه .

نحمدُه على مُصافاةِ أهــل صَفائِه، ومُوافاة نِعَمنا لمن تمسَّك بعُهود وَفائه ، وتَسَلَّك فأصبحتْ رجالٌ كالجواهر لا تنتظِم فى سِلْكه ولا تُعَدّ من أكْفائِه ، وطَلَعَ للدِّين شمسًا يُباهِي الشمسَ بضيائه ، ويُباهِلُ البدرَ التَّمـامَ فيتغيَّرُ تارةً من خَجَله وتارةً من حَيائِه .

ونشهد أنْ لا إِلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نعُـدُّها ذُخْرا للقائِه ، ونخرا باقِيًا ببقائِه ، راقيًا فى الدرَجات العُلىٰ بارتقائِه .

ونشهد أنَّ سـيدَنا محمدا عبدُه ورسـولُه مبلِّغُ أنبائِه ، ومسَوِّغُ الزُّلفىٰ لأحِبَّائه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه والتابعين لهم بإحسانٍ من أهل وَلَائه ، ومَنْ عَرَف به اللهَ لمَّـا تفكَّر فى آلائِه ، صـلاةً يُؤمَّل دوامُها من نَعْمائه ، ويؤمِّن عليها سُـكَّانُ أرضه وسَمـائِه ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإن أوْلىٰ ما آستقامَ به [الشخص على] الطريقه ، وآستدامَ به الرجوعَ إلى الحقيقه ، وآسْتَامَ به يطمئن إلىٰ خالقه لا إلى الخليقه ، وحفظ أُفُقه بنيرٍّ تستضىء به النيِّرات ، ونَوْءٍ تتقَسَّم به الغمائمُ المُطِرات ـ طائفـةُ أهل الصَّـلاح ، ومن معهم من إخْوان أهلِ الصـفاء الصُّوفيَّة داعِي الفَلَاح ؛ ومن تَضُمُّهم من الواردين إليهم إلىٰ جَنَاح ، والصادِرين عنهم بنَجَاح ؛ ومن تُفْتَح له فيهم أبوابُ السماء ، وتُمنَح بنَفَسهم عامةُ الخلق مَلَابِسَ النعماء ؛ ومن يُكشَف بتهجُّدهم جُنْحُ كلِّ ظَلام ، ويُكسَفُ بتوجُّههم عارضةُ كلِّ بدْرِ تمـام ؛ ويُستشفىٰ ببركاتهم من داء كل سَقَام ، ويُستَسْقىٰ بدعائهم إذا قَصَّر النِّيلُ وقَصَّ جناحَه الغَمَام . وهم أولياء الله وأحِبَّاؤه ، وبهـم يتعلَّل كل لبيبٍ هم سَقَامه وهُم أطبَّاؤه ؛ أنحلَهُم الحبُّ حتّىٰ عادوا كالأرْواح ، وأشغلهم الحبُّ بصوتِ كلِّ حَمام شجاهُم لمَّـا غنَّىٰ وبرّح بهم لمَّـا ناح ؛ وأطربَهـم كلُّ سَمْع فوجدُوا بكل شيء شَجَنا ، وعذَّبهم الهوىٰ فاستعذَبُوا أن لا يلائُموا وسَنَا ؛ ومثَّل فرطُ الكَلَف لهم الأحباب فمـا رأَوْا لهم حالًا إلا حَسَنا ، وأثقـلَ تكرارُ الذِّكْرىٰ قلوبَهم فمـا عَدُّوا غُرْبةً غُرْبةً ولا وطَنًا وطَنَا ؛ قَرَّبت المحبةُ لهم فى ذات الله كلَّ مُتباعِد ، وألَّفَتْ أَشتاتَهم فاختلفَت الأسمـاءُ والمعنىٰ واحد .

والخانقاه الصلاحيّةُ بالقاهرة المحروسة المعروفةُ بـ«سعيد السعداء» ـ قدّس الله رُوح واقفِها ـ هى قُطْب نُجومهم السائره، ومرا كِزُ أفلاكِهم الدّائره، وإليها تنحطُّ رُحَّالُ سُفَّارهم، وعليها تُحَطُّ رِحَال أسْفارهم، تضْطرِب فِرَقُهم فى البِلاد وإليها مَرْجِعُهم، وعليها مجتَمعُهم، وفيها مواضعُ خلَوَاتهم، ومطَالِع جَلَواتهم، ومكانُ صَلَاتِهم، وإمكانُ صِلَاتِهم، ومَشْرِق شُموسهم، ومُؤْنِق غُرُوسهم، ومِنهاجُ طريقتِهم، ومِعراجُ حقيقتِهم، مَأْوىٰ هذه الطائفةِ الطائفةِ فى شَرْق البِلاد وغَرْبها، وبُعْدها وقُرْبها، وعَجَمِها وعُرْبِها، ومَنْ رفع سُجوفَها أو هو محجوبُ بحُجُبِها، والمؤهَّلة والعراب، وأهل الاغتراب، هى فَسيحُهم الرَّحيب، وصَفيحُهم القريب، ومثالُهم إذا اجتَمَعُوا فى الملإ الأعلىٰ زُمَرا، واخترقُوا المَهامِهَ وما جازوا بَيداءَ ولا جابُوا مُقْفِرا، وبلغُوا الغايةَ وما أزعَجَ رِكابَهم حادٍ فى ليلِ سُرىٰ، ووصلُوا وما فارقُوا فُرُشَهم المهَّدة إلىٰ ما وراءَ الورَىٰ، شرطُ كلِّ خانقاه أن لا تُغْلَق فى وجه من ينْزِل فيها بابا، ولا تُطيلَ جهاتُها المُمنَّعةُ له حِجَابا، ولا تُعْجِلَ مقاماتُها المرفعة له قبل (١) ... ...

* * *

وهذه نسخة توقيع بمَشْيخة الشيوخ، وهى مَشْيخة الخانقاه الناصريَّة بسِرياقَوْس، ممَّا كُتِب بذلك للشيخ نِظام الدين الأصْفِهانى، من إنشاء السيد الشريف شمس الدين :

الطـرّة

توقيعٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى المجلس العالى، الشيخىّ، النِّظامىّ، إسحق ابنِ الشيخ المرحوم جلال الدين عاصِم، ابن الشيخ المرحوم سعدِ الدين محمدٍ الأصفِهانىّ

(١) بياض فى الأصل وبه علامة التوقف .

القُرشىِّ الشافعىّ ـ أدام الله النفْع ببركته ـ مشيخةُ الخانقاه السعيدةِ الناصريَّة بسرياقَوْس ـ قدّس الله رُوح واقِفها ـ ومشيخةُ الشيوخ بالديار المصريَّة والبِلاد الشاميَّة والحلبيَّة ، والفُتوحات الساحلِيَّة ، وسائر المَمالكِ الإسلاميَّة المحروسة ، علىٰ عادَته فى ذٰلك وقاعدَته ومعلُومه ، وأن يكون ما يخصُّ بيتَ المال من ميراث كلِّ من يُتَوفَّى من الصوفيَّة بالخانقاه بسرياقَوْس للشيخ نِظام الدين المشارِ إليه ، بحيث لا يكونُ لأَمين الحكم ولا لِديوان المَوارِيث معه فى ذٰلك حديثٌ ، وتكونُ أمورُ الخانقاه المذكورةِ فيما يتعلَّق بالمَشْيخة وأحوالِ الصوفيَّة راجعةً للشيخ نِظام الدين المشارِ إليه ، ولا يكونُ لأحدٍ من الحُكَّام ولا من جِهة الحِسْبة ولا القُضاة فى ذٰلك حديثٌ معه ، ولا يشْهدُ أحدٌ من الصوفيَّة ولا ينْتَسِب إلا بإذنه ، علىٰ جارى عادتِه فى ذٰلك علىٰ ما شُرِح فيه ، وأوّله :

الحمدُ لله علىٰ نِعَمه التى ألَّفتْ للصالحين من عباده نِظَاما ، وٱستأنفَتْ للصَّائحين إلىٰ مُرادِه إحراما ، وصرَّفتْ أوامرَنا بالعدْل والإحسانِ لمن فَوّضَ أمُورَه إلىٰ ربِّه فأنْجحَ له من مَزِيد التأييدِ مُرادًا ومَراما ، وعطَفَتْ بأوجُه إقبالِها الحِسانِ علىٰ من هو متنَزِّه عن دُنْياه ، متوجِّهٌ إلىٰ أُخراه ، يمْضِى نهارَه صِيامًا وليْلَه قِياما .

نحمده علىٰ أنْ جعلَنا نَرْعىٰ للأولياء ذِمَاما ، ونَسْعىٰ بالنَّعماء إليهم ابتداءً وإتْماما ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً ترفَع للمُخْلِصين فى عِلِّيِّينَ مَقَاما ، وتدْفَع بأعمال الصِّدْق عن المتوكِّلين عليه بَأْسا وأسْقَاما ؛ ونشهد أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جعله للمتَّقين إماما ، وفضَّله على النبيِّين إجلالًا وإعْظاما ، وكمّله بالسِّمات المُكَرَّمات ، والصِّفات المشَرَّفات ، مما لا يُضاهىٰ ولا يُسامىٰ ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين شَرُفُوا إضافةً إلىٰ نسبه الشريف وٱنْضماما ، ورضى اللهُ عن أصحابه

الذين عَرَفُوا الحقَّ فبذَلُوا فى إقامته ٱجتهادًا وٱهتمامًا، صلاةً تُجمِّل ٱفتتاحا وٱختتامًا، وتُجْزِل إرباحًا و إنعامًا، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فشِيَمُنا العدلُ والإنصاف، لمن له بيُمنِ الأعْراق ٱتصالٌ وبحُسْن الأخلاقِ ٱتِّصاف؛ ومن كَرَمِنا الفضلُ والإسْعاف، لمن لاخفاءَ فى تعيُّنه لتصدير التقديم وتكريرِ التكريم ولا خِلَاف؛ ومن سَجاياناَ الجميلةِ أن لا تُضاع حقوقُ مَنْ هو فى الزَّهادة والعُبُوديَّة إمامٌ، لألسنة الأيَّام، بحِلَاه الحسنةِ إقرارٌ وٱعتراف ، ولمزَايَانا جميلُ المحافظةِ، وجليلُ الملاحظةِ، لمن توكَّل على الله حقَّ التوكُّل فله ٱنتصارٌ بالله تعالىٰ وٱنتِصَاف: لأنَّه العريقُ الأسْلاف، الرَّفِيق بالضِّعاف، الحقِيقُ بتوفير التوفيق الذى له بحَركاتِه المباركةِ ٱكْتِناف ، المُطِيقُ النُّهوض بأعباء الرِّياسة : لأنَّ للقلوب علىٰ محبَّتِه ٱئتلاف، السَّبُوقُ إلىٰ غايات الغَلَوات الذى تَحُفُّ به فى بُلوغ آماد الإسعادِ من الله تعالىٰ ألْطاف ، والصَّدوقُ النيَّةِ مع الله تعالىٰ فكَمْ والىٰ لنعمائِه الزيادةَ والاِستِئْناف .

وكان المجلسُ العالى الشيخىّ، الإمامىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، العامِلىّ، الأوحَدىّ، القُدْوىّ، الورَعىّ، الزاهدىّ، الناسكىّ، الخاشعىّ، السالِكىّ، الأصيلىّ، العَريقىّ، القوامىّ، العلَّامىّ، النِّظامىّ : جمالُ الإسلام والمسلمين، شرفُ العلماء فى العالَمين، أوحدُ الفضلاء، قُدوة المشايخ، مَربِّى السالِكين، كنزُ الطالِبين، موضِّح الطريقه، مبيِّن الحقِيقه، شيخُ شيوخ العارفين، بركةُ الملوك والسَّلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، إسحٰق ٱبن الشيخ المرحوم فلان — أدام الله النفْعَ ببركاتِه — هو المفوِّضَ أمورَه إلىٰ ربِّه ، المُعْرِضَ عن الدنيا بباطِنه وقلْبِه، المتعوِّض بما عندَ الله من فضله فما زال الإيثارُ من شأْنه ودأْبه ، إلىٰ إخوانه وصَحْبه ، فهو من الذين يُطْعمون الطعامَ علىٰ

حُبِّه، ويُلْهَمُون من العمل المَبْرُور إلى أقرَبِه من الله وأحَبِّه، ويقُومون الظَّلامَ مع أولياء الله المخلِصين وحِزْبه، ويستديمونَ الإنعام من الله تعالىٰ بالإحسان إلىٰ عبادِه ففرْعُهم لأصلِهم فى صُنْعهم مُشْبِه، ويستسْلِمُون لأحكامِ الله تعالىٰ وكلُّهم شاكر لرَبِّه، علىٰ حُلْو القضاء ومُرِّه صابِرٌ علىٰ سَهْل الأمر وصَعْبِه، سائرٌ بالصِّدق فى شَرْق الوجُود وغَرْبِه، مثابِرٌ على الحق فى عَجَم الخلق وعُرْبِه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُوصِّـل الحُقوقَ إلىٰ مستحِقِّيها، ويُجمِلُ الوثُوقَ بمن تتجمَّل المراتبُ الدينيةُ منه بترقِّيها ـ أن يفوّض إلى المُشار إليـه مشيخَةُ الخانقاه السعيدة الناصرية بسِرْياقَوْس ـ قدّس الله رُوح واقِفها ـ ومشيخَةُ الشيوخ بالديار المصريَّة، والبلاد الشاميَّـة والحلبية، والفُتوحات الساحليَّة، وسائر الممـالكِ الإسلاميَّة المحروسـة، علىٰ عادَتِه فى ذٰلك وقاعدتِه ومعْـلُومه، وأن يكون ما يَخُصُّ بيتَ المـال المعمُور من ميراث كلِّ من يُتوفَّى من الصُّوفية بالخانقاه المذكورة للمشارِ إليـه، بحيث لا يكونُ لأمين الحكم ولا لِديوان المَوارِيث معـه فى ذٰلك حديث، وتكُون أمورُ الخانقاه المذكورةِ فيما يتعلَّق بالمَشْـيخة وأحوال الصوفيَّة راجعةً إليه، ولا يكُون لأحدٍ من الحكَّام ولا من جهة الحِسْبة ولا القُضاة فى ذٰلك حديثٌ معه، ولا يشْهَد أحدٌ من الصُّوفية ولا ينْتَسب إلا بإذنه على العادةِ فى ذٰلك، ويكون ذٰلك معدُوقًا بنظره .

فلْيعُدْ إليها عَوْدا حميدا، ولْيُفِدْ من الإصلاح مالم يَزَلْ مُفيدا، وليعتَصِمْ بالله تعالىٰ مَوْلاه فيما توَلَّاه وقد آتاه اللهُ تثْبِيتا وتسْـديدا، وليُشْهِد بها من القوم المبارَكين مَنْ [كان] عَوْدُه قبل الصوم عيدا، وهو أعزَّه الله تعالىٰ المسـعودُ المباشَره، المحمودُ

المُعاشَره، المشهودُ منه ٱعتمادُ الاجتهادِ فى الدنْيا والآخِره، المعهودُ منه النَّفْع التامّ ، فى فُقَراء مصْرَ والشام ، فكم أثّر الخير وآثَره، وكَثَّر البِرَّ وواتَره ، ويَسَّر السيرَ الحَسَن الذى لم يبْرَح لسانُ الإجماع شاكِرَه .

ونحن نُوصيه عملًا بما أمر الله تعالىٰ به رسولَه صلى الله عليه وسلم فى كتابه المُبين، بقوله وهو أصدقُ القائلين : ﴿ وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَىٰ تنْفَعُ المُؤْمنين ﴾ وإن كنا نتحقَّق ما هو عليه من العلم والدِّين ، والحُكْم الرَّصين، والزُّهد والورَع اللذين نحن منهما علىٰ بيِّنة ويقِين، باتِّباع شرُوطِ الواقفِين، والإمتاع بالعوَارف أولياءَ الله العارِفين : فإنَّه ما زال حيثُ حلَّ فى جميع الآفاق ، واصلًا للأرْزاق، مُواصلا بالأشْواق ، شاملًا بالإرْفَاق ، عاملًا بالحقّ فى إيصال الحقُوق لذَوِى الاستحقاق . ونأمُرُهم أن يكونَ لهم علىٰ تكريمه ٱتفِّاق ، وفى مُتابعتِه ٱجتماع وٱتِّساق ؛ فإنَّه شيخُ الطَّوائف ، وإمامُ تُقْتَبَس منه اللَّطائف، وتُلتمَس منه الهدايةُ فى المَواطِن والمَواقف ؛ والله تعالىٰ يمتِّع ببركاته الأمّه ، ويَسْمَع منه فى الخَلَوات لنا الدَّعواتِ التى تكونُ لأورادِه المقبولةِ مفتَتِحةً ومُتمِّه ، ويصِلُه بعِنايتِه التى تقيِّد الهَمَّ وتؤيِّد الهِمَّه ، ويجعله حيثُ كانَ للفقراء نعمةً وبيْنَ الناس رَحْمه؛ والعلامةُ الشريفةُ أعلاه، حجةٌ بمقتضاه .

الضـــربُ الخامس

(من أرباب الوظائف بالدِّيار المصريَّة بالحضرة ـ أربابُ الوظائف العاديَّة، وكلُّها تواقيعُ)

وهى علىٰ طبقات :

الطبقـــة الأُولىٰ

(مَـنْ يُكتَب له فى قَطْع النصف بالمجلس العالِى، وهو رئيسُ الأطبَّاء المتحدّثُ عليهم فى الإذن فى التطَبُّب والعلاج والمنْع من ذٰلك وما يجرِى هــذا المجْرىٰ)

وهذه نسخة توقيع برياسة الطِّبّ ، وهى :

الحمــدُ للهِ مُؤْتِى الحكمةِ مَنْ يشاءُ من عباده، ومُعْطِى أمانةِ الأرواح مَـنْ ترقَّى فى حفظها إلىٰ رُتْبة ٱجتهاده، وجاعلِ عِلم الأبْدان أحدَ قِسْمَيِ العلِمِ المُطْلَق فى حالَيِ ٱجتماعِه وٱنفراده، وموفِّقِ من جعل نُصْح خلقِ الله فيــه سببًا لسعادة دُنْياه وذَخيرةً صالحةً ليوم مَعادِه، ومُبلِّغ(١) مَنْ كان[دائبًا] فى إعانة البرِيَّة علىٰطاعةِ ربِّها بدَوامِ الصِّحَّة غايةَ مَرامه وأقْصىٰ مُراده ، ورافِعِ رتْبــةِ من دَلَّ ٱختيارُه وٱختبارُه علىٰ وُفُور علْمِه ونُجْح علاجِه و إصابةِ رأْيه وسَدادِه .

نحمــده علىٰ نِعَمه التى خصَّتْ بنِعَمِنا من كَمُل فى نَوْعه وفضْــلِه وحَسُن فى علْمــه وعَمَلِه قولُه وفِعلُه ، وجمعَ من أمانةِ وظيفتِه ومعْرِفتِها ما إذا جَلَس فى أسْنَى مناصبها قيل : هٰذا أهْلُه .

---

(١) فى الأصل ”ومقلب ... ... بداوم الصحة“ الخ تأمل .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُشْرِق البصائرُ بأضْوائِها ، وتُفْـرِقُ الضمائرُ (١) باخلاصها من أدْوائِها ، وتُغْـدِقُ بيُمْنِها أنواءُ التوفيق فتتأرَّج رياضُ الإيمـان بَيْن رُوائِها وإرْوائِها . ونشهَدُ أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى أنارتْ ملَّتُـه ، فلم تَخْفَ علىٰ ذى نَظَر ، وعلَتْ أدِلَّتُه ، فلم ينَلْها مَنْ فى باع رَوِيَّته قِصَر ، وبهرتْ مُعجِزاتُه فلو حاولت الأنفاسُ حصْرَها أفناها العِيُّ والحَصَر ؛ صـلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانُوا لأَدْواء القـلوب عِلاجًا ، ولسَلْسبيل الإيمـان مِزاجا ، وللبَصائر السائرةِ فى دُجىٰ الشُّبهات سِراجا ؛ صلاةً دائمةَ الإقامه ، متصلةَ الدَّوام إلىٰ يوم القِيَامه ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـد : فإنَّ صِناعة الطِّبّ علم موضوعُها حفظُ الأبدان النَّفيسه ، ومقصُودُها إعانةُ الطبيعـة علىٰ حِمَـاية الأعضاءِ الرَّئيسه ؛ ومَدارُها الأعَمّ ، علىٰ معْرِفة العَوارض وأسبابِها ، ومَدْرَكُها الأتم ، الوقُوعُ على الصواب فى معرفةِ الجُسوم وأوْصابِها ؛ وحينئذٍ تتفاوتُ رُتَبُ أهلِها عنـد تشَعُّب مَدارِكها ، وٱختلافِ مَسالِكها ؛ وتَشابُه عِلَلها ، وٱلتباس صَوابِها بخَلَلِها ؛ إذ لا يميِّز ذٰلك حقَّ تمييـزِه إلا مَنْ طال فى العـلم تبحُّره ، وحَسُن فى رُتَب هذا الفنّ تصَدُّره ، وطابَق بين نَقْله وعلاجه ، وعَرَف حقيقةَ كل مركَّب من الأدوية ومُفْرَدٍ بعيْنه وٱسمِه وصفتِه ومِزاجه ؛ وتكرّرَتْ عليـه الوقائعُ فعرَفَها دُرْبة وأحكمها نَقْلا ، ولُقِّب بشِرْعة التقوىٰ إذ كان الإقدامُ على النفُوس قبـل تحقُّق الداء والدَّواء مذمومًا شرعًا وعقْـلا ؛ ولذٰلك تحتـاجُ إلىٰ رئيس يُنْعِم فى مَصالحها نَظَرَه ، ويُجْمِل فى منافعها وِرْدَه وصَـدَره ؛ ويعتبِرأحوالَ أهلِها بمِعْيار فضـلِه ، ويُلْزِم الداخلَ فيها ببُلوغ الحَـدّ الذى لا بُدّ منه بينَ أرباب هـذا الشأن

(١) من أفرق المريض والمحموم برأ .

وأهلِه ؛ ويَعْرِف لأكابر هذا الفنّ قدرَ ما منَحَهم الله من عِلْمٍ وعَمَل ، ويَبْسُط رجاءَ المبتدئِ إذا كَمَّل نفسه حتّى لا يكُون له فيها بغير كمال الاستحقاق طمَعٌ ولا أمَل .

ولمـا كان المجلسُ السامي ، القاضي ، الأجلُّ ، الحكيم ، فلانُ الدين : هو الذى بلَغ من العلم غايةَ مُراده ، واحتوىٰ من هذا الشان علىٰ ما جمَع به رُتَب الفاضلين فيه على انفراده ؛ فلو عاصَرَه «الرئيسُ» لاعتمَد عليه فى كُلِّيَّات قانونه ، أو « الرازىُّ » لعلم أن « حاوِيَه » من بعض فنونه ؛ قد حَلَب هذا العِلْمَ أشْطُرَه ، وأكمل قراءةَ هذا الفنّ رُموزَه وأسطُره ؛ وحلَّ أسرارَه الغامِضـه ، وارتَوىٰ من سُحُب رُموزِه بأنْواءٍ لم يَشِم غيرُ فكرِه بُروقَها الوامِضـه ؛ وأسلَفَ من خِدْمة أبوابنـا العالية سفَرا وحضَرا ما اقتضَىٰ له مزيّةَ شُكْره ، وتقاضَىٰ له مزيدَ التنبيـه علىٰ قَدْره والتنويهِ بذِكْره ؛ وحُمِد فيـه الفَرِيدان : صحةُ نقْلِه وإصابةُ فِكْره ، وعُلِم أنه جامعُ علوم هذه الصِّناعة فلا يشِذُّ منها شىءٌ عن خاطره ولا يَغيب منها نَقْل عن ذُكْره .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال شِهابُ فضله لامِعا ، وسَحاب بِرّه هامعا ــ أن يكونَ فلان متولِّىَ رياسة الأطباء بالديار المصرية علىٰ عادة مَن تقدَّمه .

فليباشرْ هـذه الرياسةَ ناظرا فى مَصالِحها ، مُطْلِعا من شِهاب فضله ما يَزين أُفُقَها زينـةَ السماء بمصابيحها ؛ متفقِّدا أحوالَ مباشريها ، متلَمِّحا أحوال المستقِلّ بأعبائها والداخلِ فيها ؛ سالكًا فى ذٰلك سبيلَ مَن تقدّمَه من رُؤسائها ، حاكمًا فى أُمورها بمـا جرَتْ به العادةُ المستقِرّةُ بينَ أكابرِها وعلمائها ؛ مُطارِحا مَن قَدُمت هجرتُه فيهـا بمـا يقتضِى له مراجعةَ أُصُوله ، مُلزِما من ظهَر قصُورُه فيها بالتدرُّب إلىٰ حدٍّ لا يُقْنَع منـه بدُون حصُوله ؛ مجيبًا فى الإذن لمن أظهرَ الاستحقاقُ صـدقَ ما ادّعاه ، قابلًا فى الثُّبوت من مشايخ هـذه الصِّناعة من لا يَشْهد إلا بمـا علمه ولا يُخْبِر من التدرُّب

إلا بمـا رآه ووعَاه، متحرّيًا فى الثُّبوت لدينه، آذنًا بعد ذٰلك فى التصرُّف إن ترَقَّ علمه باستحقاقه إلىٰ رتبة تعيينه؛ وليُعْطِ هذه الوظيفةَ حقَّها من تقديم المبَرِّزين فى علْمِها، وتكريم مَنْ منحه الله درجتَيْ نقاِها وفهْمِها، وتعليم مَن ليس عليه من أدَواتها المعتبَرة غيرُ وَسْمِها وآسْمِها؛ ومَنْع من يتطرّق من الطُّرُقية إلىٰ معالجَةٍ وهو عارٍ من رِدَائهـا، وكَفِّ يَدِ من يتَهجَّم على النفوس فيما غَمُض من أدوائها قبل تحقُّق دَوَائها؛ وآعتبارِ التقوىٰ فيمن يتصدّىٰ لهذه الوظيفةِ فإنّها أحدُ أركانِها، وآختيارِ الأمانةِ فيمن يصْلُح للاطِّلاع على الأعضـاء التى لَوْلا الضرورةُ المبيحةُ حَرُم الوقوفُ علىٰ مَكانِها؛ وليكُنْ فى ذٰلك جميعهِ مجانبًا للهَوىٰ، ناويًا نَفْعَ الناس فإنما لِآمرئٍ مانوىٰ؛ والله تعالىٰ يحقِّق له الأمَل، ويسَدِّده فى القول والعمَل؛ بمنِّه وكرمه! .

قلت : وربَّمـا آفتتح توقيعها بـ«أما بعدَ حمد الله» .

وهذه نسخةُ توقيع برياسة الطِّب، من إنشاء الشيخ شهابِ الدين محمودٍ الحلبىّ، كُتِب بها لـ«شِهاب الدين الحكيم» فى المحرّم سنة تِسْع وسبعِمائة، وهى :

أمَّا بعــدَ حمدِ الله حاسمِ أَدْواء القلوب بلطائفِ حِكْمتــه، وقاسِم أنواعِ العُلوم بينَ مَنْ كُل آستعدادُهم لقَبُول ما آقتضَتْه حِكمةُ قسمتِه؛ وجاعِلِ لباس العافيةِ من نِعَمه التى هى بعدَ الإيمـان أفضــلُ ما أفاضَ على العبد من بِرِّه وأســبغَ عليه من نِعمتِه، والمنَزِّلِ من القُرءان ماهو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين قُلْ بفضــلِ اللهِ وبرحمَتِــه؛ ومقَرِّب ما نأىٰ من الفضائل علىٰ مَنْ أسرىٰ إليها علىٰ مَطايَا عزْمِه وسَرىٰ لتحصيلها علىٰ جِياد هِمَّتــه، ومُلْهِم آرائنا بتفويض أمانةِ الأرواح إلىٰ من أنفَق فى خدمةِ الطبيعة أيَّامَ عُمْره فكان بلوغُ الغاية فى علْمِها نتيجةَ خِدْمته؛ والصــلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ الذى شرحَ اللهُ بالهــدىٰ صدُورَ أمَّتِه، وخصَّــه منهم بأعلامِ كلِّ علم وأئمته، وجلَا

بيقين مِلّته عن كلّ قلبٍ ماران عليه من الشّك وغُمّته ، وعلىٰ آله وصحبه الذين حَماهم من الزَّيْغ والزَّلَل ما بَجَّر الهُــدىٰ لهم من جَوامِــع الكَلِم وأفاضَ التُّقىٰ عليهم من أنوار عِصمته ــ فإنَّ أولىٰ الأمور أن يُعتَمَد فيها علىٰ طبيبِها الخبير ، ويُصانَ جوْهَرُها عن عَرَض العَرْض علىٰ غير ناقِدِها البصير ؛ وتُحمىٰ مَوارِدُها عمن لم يعرِف كيف يجتَنب مَواقِــعَ التكدير ، وتُرفَع كوا كِبُهــا عمّن لم تُدرِك أفكارُه دقائقَ الحوادِث وحقائِقَ التأثير ــ أمرُ صِناعة الطّب التي موضُوعها الأبدانُ القائمة بالعِباده ، والأجسامُ القائمة بمــا يتعاقَبُ عليها من الحوادث والزّياده ؛ والنُّفوس التي ما عنْها إنــ حصَل فيها التفريطُ بدَلٌ ولا عِوَض ، والأرواحُ التي إنْ عَرَض الفَناءُ لجوْهَرِها فلا بَقاءَ بعده للعَرَض ؛ والطبيعةُ التي إن خُدِمت علىٰ ما يُحَب نَهَضت علىٰ ما يَجِب بالصِّحَّة حقّ النُّهوض ، والأمزِجةُ التي إن نفرَتْ لعدم التأَنّي في سياستها أعجزَتْ مَنْ يَرُوض .

ولذلك تفتقِر علىٰ كثْرة أربابها ، وتحتاجُ مع غَزارة المتمَسّكين بأسبابها ؛ وتُضطَّر وإن آندفعت الضروراتُ بكَثْرة مُتقِنيها ، وتتشوّفُ وإنــ وُجِد الجَمُّ الغفــير من المتلَبّسين بأدَواتِها والمُتبَحّرين فيها ــ إلىٰ رئيس يُنعِم في آعتبارِ أكفائها النَّظَر ، ويَدْفَع عن رُتْبتها بتطَرُّقِ غيرِ أهلها الغِــيَرَ ، ويَعْرِف منــ أحوالِ مُباشِريهــا ما لا يَكْفِي في خُبْرها الخَبَر ؛ فلا يَقْبَل إلا مَنْ عَلِم مِقدارَ عِلْمه ، ووَثِق مع الحِفْظ بصِحّة فَهْمه ؛ ورضِيَ عن خُبْره في الطّبّ وآجتهاده ، وآعتَبر منــه كل نوع تحتَ أجناسه المتعدّدة علىٰ حِدَته وآنفرادِه ؛ وجاراه في كُلِّيّات الفنّ فرآه في كلّ حَلْبــةٍ راكضا ، وطارَحه في فُصول العلم فوجدَه بحَمْل أعباءِ ما تفرَّع منها ناهِضا ؛ واختَبَر دُرْبتَه فوجدَها موافقة لتحصيله ، مطابِقةً لمــا حَواه من إجمالِ كلِّ فنٍّ وتفصيلِه ؛ وتتبّع مواقِعَ دِينه فوجدَها مَتِينه ، ومواضعَ أمانتِــه فألْفاها مَكِينه ، وأســبابَ شفقَتِه ونُصْحِه فعرَف أنها علىٰ ما جَمَع من الأدوات الكاملةِ مُعِينه ؛ ويتعَيَّنُ أن يكونَ هــذا «الرَّئِيسُ» في أوانِه ،

و «الرازىّ» فى زمانه ، و «الفارابىّ» فى كونه أصلا تتفرّعُ فنونُ الحِكَم من أفنانه ؛ عِلاجُه شفاءٌ حاضِر ، وكلامُه[1] نجاةٌ من كل خَطَر مُخامِر ؛ وتدبيرُه للصحّة تقويم ، وتصفّحه تثقيفٌ لعلماء الصّناعة وتسليم ، ودُروسُه ذخائرُ يُنفِق من جواهرِ حِكَمِها كلُّ حكيم .

ولمـا كان المجلس العالى الصّدْرىّ ، الشّهابىّ : هو المرادَ بالتعيُّن لهذه الوظيفه ، والمقصودَ بمـا أُشيرَ إليه فى ٱستحقاق هذه الرتبة من عبارةٍ صريحةٍ أو كنايةٍ لطيفه ؛ وأنّه جمع من أدَوات هـذا الفن ما ٱفْتَرق ، وٱحتَوىٰ علىٰ أُصُوله وفُروعه فاجتمعَتْ علىٰ أولَويّته الطوائفُ وٱتّفقتْ علىٰ تفضيله الفِرَق ؛ فلو عاصَره «أبقراط» لقَضىٰ له فى شَرْح فُصوله بالتّقْدمه ، ولو أدْرَك «جالينوس» لٱقتدىٰ فى العِلاج بمـا عَلّمه ؛ مع مباشرةٍ ألّفت بين الصحّة والنُّفوس ، وملاطفةٍ أشرقَت مواقعُ البُرء بها فى الأجساد إشراقَ الشُّموس ؛ وٱطّلاع يعْرِف به مبْلغَ ما عنـد كلِّ متَصَـدٍّ لهذه الصناعة من العـلم ، وتبَحُّرٍ فى الفنون لا يُسـلِّم به لأحدٍ دَعْوى الأهلية إلا بعد حرب جدالٍ هو فى الحقيقة عيْنُ السِّلْم ـ فرُسِم بالأمر العالى أنــ يستقرّ فلانٌ فى رياسة الأطبّاء الطبائعيّــة بالديار المصرية والشام المحروس ، علىٰ عادتِه وعادةِ مَنْ تقدّمه فى ذٰلك ، ويكون مستقِلًّا فيها بمفرده .

فلْينظُرْ فى أمر هذه الطائفة نظَراً تبْرأ به الذمّه ، ويحصُـل به علىٰ رضا الله تعالىٰ ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم فى الشّفَقة على الأُمّه ؛ ويُعطِى به الصناعة حقّها ، ويُطْلِق من يدِ مَنْ تطاوَلَ إليهـا بغير أهليّةٍ رِقّها ؛ ويصُون النفوسَ من إقْدامِ من تقدّمَ بغيرِ خِبْرة كاملةٍ عليهـا ، ويذُبُّ عن الأرواح تطرُّقَ مَنــ يتطرّق بغير معْرِفة وافرةٍ إليهـا ؛ فإنَّ فارطَ التفريط فى النفُوس قلَّ أن يُسـتدْرَك ، ومن لم تجتَمِع فيه

(١) لعل الأنسب "وكلاءته" .

أدواتُ المعرفة التامةِ والدِّين فما ينبغى له أن يدخُل فى المعالجة قَبْل الكمال وإن دخَل فلا يُتْرَك ؛ فإنَّ من لازمِ صَلاح الأرواحِ صَلاحَ الأجساد ، وإنَّ الداءَ الذى لا دَواءَ له أن تكونَ العِلَّة فى وادٍ والمعالجةُ فى واد؛ فلا يَقْبَل فى التزكيَة إلا مَن يثِق بدِينه كوثُوقه بعِلْمه ، ولا يُصرِّف أحدًا فى هذه الصناعة إلا الذين زكَتْ أعمالُهم قبل التزكيه؛ وليَشْفَعها بالامتحانات التى تُسْفِر(1) وجُوه الوثُوق بالأهليـة عن ألم دقائقها المُنْكيه ، فإنَّ العِيان شاهِد لنفْسه ، ومن لم تنفَعْه شهادةُ فعلِه فى يومِه لم ينْفَعه غيرُه فى أمسِه؛ ولا يُمضِ فيها حُكْمًا قبل استكمال نِصابِ الشَّهاده، وقبل التثبُّت بعد كمالِها: فانَّ المعالجةَ محاربةٌ للداء والموتُ بجَهَالة المحارِب له شَهاده؛ وليأْمُرْ من أُلجِئَ إلىٰ معالجـة مرض لا يعرِفُه بمتابعة مَنْ هو أوفَقُ منـه بالتقديم، ومراجعة من هو أعلم منه به : فانَّ الحوادث قد تختلِف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾.وملاكُ الأمور تقوى الله فليجعلها حجَّته فيما بيْن الله و بيْنَه، والافتقارُ إلىٰ توفيقه فلْيَصْرِف إلىٰ ذٰلك قلْبَه وعيْنَه؛ والخيرُ يكونُ إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه وصيةُ متطبِّب طبائِعِىّ ، أوردها فى "التعريف" قال :

ولْيتعرّف أوّلًا حقيقةَ المرض بأسبابِه وعَلاماتِه ، ويَستقصِ أعراضَ المريض قبل مُداواتِه ، ثم ينظُرْ إلى السِّنّ والفَصْـل والبلد؛ ثم إذا عرفَ حقيقةَ المرض ، وقدَّرَ ما يحتَمله المزاجُ من الدواء لما عَرَض؛ يشْرَع فى تخفيف الحاصـل، وقَطْع الواصل، مع حِفْظ القُوىٰ . ولا يهاجِم الداء، ولا يستَغرِب الدَّواء؛ ولا يَقْدَم عَلى الأبدان إلا بما يُلائِمها، ولا يبعد الشـبه ، ولا يخرُج عن جادَّة الأطبَّاء ولو ظنَّ

(1) لعله تسفر عن وجوه الوثوق بالأهلية لثام دقائقها الخ . تأمل .

الإصابة حتّى يقْوى لدَيْه الظنّ و يتبصّر فيه برأى أمثاله . وليتجَنّب الدّواء، ما أمكنه المعالجـةُ بالغِذاء ، والمركّب ، ما أمكَنه المعالجـةُ بالمفْرد ؛ و إيّاه والقياسَ إلّا ماصحّ بتجريبِ غيره فى مثْل مِزاج من أخذ فى عِلاجه ، وماعَرَض له ، وسِنّه ، وفَصْله ، و بلدِه ، ودرجة الدّواء . وليحذَرْ من التجْربة ، فقد قال أبقراط وهو رأسُ القَوْم : إنهـا خطَر . ثم إذا ٱضْطُرّ إلىٰ وصفِ دواءٍ صالحٍ للعلّة نَظَر إلىٰ ما فيـه من المُنافاة و إن قلّتْ ، وتحيّل لإصلاحه بوصف يصْلُح معـه ، مع الاحتراز فى وصْف المَقادير والكِمّيات والكيفيّات ، فى الاستعمال والأوقات ، وما يتقـدّم ذٰلك الدواءَ أو يتأخّر عنه . ولا يأمر باسـتعمالِ دواء ، ولا مايُسـتغرب من غذاء ، حتّى يحقّق حقيقتَه ، و يعرف جديدَه من عتيقه : ليعرِف مِقدارَ قوّته فى الفِـعل . ولْيعلَمْ أنّ الانسان هو بِنْيةُ الله وملعُونٌ من هَدَمها ، وأنّ الطبيعةَ مكافية وبُؤْسىٰ لمن ظلَمها ، وقد سَلّم الأرواح وهى وديعةُ الله فى هـذه الأجسام ، [فليحفَظْها وليتقِ اللهَ ففى ذٰلك جميعُ الأقسام][(1)] و إيّاه ثم إيّاه أن يصِفَ دواءً ثم [يكون هو الذى] يأتِى به[(1)] ، أو يكون هو الذى يدُلُّ عليه ، أو المتولّى لمنـاولتِه للمريض ليستعمِله بين يَدَيْه ، وفى هـذا كلّه لله المنّة ولنا إذ هدَيْناه له وأرشدْناه إليه .

***

وهذه نسخة توقيع برياسة الكَحّالين .[(2)]

---

(١) الزيادة عن "التعريف" ص ١٣٩ .

(٢) بياض بالأصل .

الضــــرب السادس
(من أرباب الوظائف بالديار المصــــرية)

زعمـاء أهل الذمة

ويُكتب لجميعهم تواقيعُ فى قَطْع الثلُث بألقابهم السابقـةِ مفتَتحةً بـ«أما بعـد حمد الله» .

ويشتمل هذا الضربُ علىٰ ثلاث وظائف :

الوظيفـــــــة الأُولىٰ
(رآســةُ اليهود)

وموضوعُها التحدّثُ علىٰ جماعة اليهود والحُكْمُ عليهم، والقضاءُ بينهم علىٰ مقتضىٰ دينهم وغيرُ ذٰلك .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ النِّحل والمِلَل أنَّ الموجودين من اليهود ثلاثُ طوائفَ : وهم الرَّبَّانِيُّون، والقَرّاءُون، والسامِرة . وقد جرتِ العادةُ أن يكون الرئيسُ من طائفةِ الرَّبَّانيِّين دونَ غيرهم، وهو يحكم على الطوائف الثلاثِ .

وهذه نسخةُ توقيع برآسة اليهودِ، من إنشاء القاضى مُحيِي الدين بنِ عبْدِ الظاهر، وهى :

أما بعــدَ حمد الله الذى جعــل ألْطافَ هذه الدولة القاهرةِ تَصْطفِى لِذِمَّتها من اليهود رئيسًا فرئيسا، وتختــارُ لقَومها كما آختار من قَوْمِه مُوسىٰ، وتُبْهِج لهم نُفُوســا كُلَّمــا قدّمتْ عليهم نَفِيسا؛ والصلاة والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ النبىّ الأمىّ، والرسولِ الذى أجملَ الوصــيَّةَ بالمِلّىّ والذِّمىّ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما هَطَل وَبْلىّ،

وما نزل وَسْمِىّ ــ فإنَّ مَعْدَلة هذه الدولةِ تكتنف المِلَلَ والنِّحلَ بالاحتياط، وتعُمُّهم من إنصافِها و إسعافِها بأوفَرِ الأنصباء وأوفىٰ الأقساط، وتَلُمُّهم من حادث الزمن إذا اشتطَّ ومن صَرْفِه إذا شاط، وتضُمُّهم كما ضَمَّت البُنُوّة إلىٰ جَناح النُّبوّة الأسباط، لا تزالُ ترقُب الإلَّ والذِّمه، فى المسلمين وأهلِ الذِّمّه، وتَقْضى لهم بحُسْن الخِيَرة ورعاية الحُرْمه، وتُبيحهم من أمر دينهم ما عليه عُوهِدُوا، وتمنَحُهم من ذٰلك ما عليه عُوقِدُوا، وتحفظ نواميسَهم بأحْبارٍ تُحَمَدُ موادُّهم إذا شُوفِهوا وتَحْسُن مَرْآهم إذا شُوهِدُوا: من كل إسراءِيلىّ أجمَلَ للتوراةِ الدِّراسه، وأحسن لأسْفارِ أنبيائه آقتباسَه وأجملَ آلتماسَه، ومن نَبَّهتْه نباهتُه للتقدمة فما طَعِم آجتهادَه يومًا حتَّى صار وجْهَ الوَجاهة فى قومه ورأسَ الرِّآسه، فأصبح معدُومَ النظيرِ، معدودًا منهم بكثيرِ، وموصُوفا بأنه فى شَرْح أسفارٍ عِبرانية حَسَنُ التفسير، واستَحَقَّ من بين شيعتِه أن يكون رأسَ الكَهَنه، وأن تُصْبِح القلوبُ فى مجامعهم بحُسْن منطقِه مرتَهَنَه، وبان للجَهالة بتثقيفه لشيعته تحجُبُ عقائدِهم عن أن تغْدُوَ ممتَهَنَه.

ولما كان فلان هو لمحاسن هذا التقريظ بَهْجَه، ولحَسد هذا التفويض مُهْجَه، ولمَادح هذا الثناء العريض لَهْجَه، ولعينِ هذا التعيين غَمْضَها، وليد هذه الأيادى بَسْطَها وقَبْضَها، ولأبكار أفكارِ هذه الأوصافِ متقاضيَها ومُقْتَضَّها، ومَنْ أُدْنِيَتْ قِطافُ النعماء ليَد تَقْدمتِه «علىٰ غيظ مَن غُصَّ منها» وآجتنىٰ غَضَّها ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يميزَّ علىٰ أبناء جنْسه حقَّ التمييز، وأن يُجازَله من التنويه والتنويل أجلُّ ما جِيز.

ورُسم بالأمر الشريف ــ لازال يَختارُ فيُجْمِل الاختيار، ويغْدُو كالغيْث الذى يعُمُّ بنفعه الرُّبَا والوهادَ والأثمارَ والأشجار ــ أن تُفَوّض إليه رآسةُ اليهود علىٰ

آختلافهم : من الرَّبَّانيين، والقَرَّائين، والسامرة بالديار المصرية حماها الله وكلأها .
فليجعل أسبابهم بالتقوى تقوى، وغروسهم بالتدبير لاتذوى ؛ ومقاصدهم لايمازجها شك ولا شكوى، وليُنزل عليهم منًّا منًّا يسليهم صنعا حتى لا يفارقوا المنّ والسلوى ؛ وليتق الله فيما يذره ويأتيه ، ويحسن فى آجتلاب القلوب وآختلابها تأتّيه ؛ وإيّاه والتِّيه حتّى لا يقال : كأنّه بعدُ لم يخرج من التِّيه .

وجماعةُ الرَّبانيِّين فهم الشَّعب الأكبر، والحزب الأكثر؛ فعاملهم بالرِّفق الأجدى والسِّرّ الأجدر، ولكونك منهم لا تمل معهم على غيرهم فيما به من النفس الأمّارة تؤمر .

وجماعةُ القَرَّائين فهم المعروفون فى هذه المِلَّة، بملازمة الأدلّة، والآحتراز فى أمر الأهلّة، فانصب لأمرهم من لم يتولّه حين يتولّه ؛ ومن كان منهم له معتقد فلا يُخرَج عن ذلك ولا يُحرَج، ولا يُلجَم منهم بلجام من نار إنكار من فى ليلة سبته [بيته] عليه لا يُسرج .

والسامرةُ فهم الشَّعب الذين آذن التنظيف أهله بحروبه ، ولم يكُ أحدهم لمطعم لكم ولا مشرب بأكوله ولا شروبه ؛ فمن قدرت على ردّه بدليل من مذهبك فى شروق كل بحث وغروبه، فاردده من منهج تحيّده عن ذلك وهروبه، وإلا فقل له : ياسامريّ بَصُرتُ بما لم تبصروا به . ولتكن تستكمل فيهم بالبتّ، وآرفق بهم فإن "المُنبَتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" فإيّاك أن تكون ذلك المُنبَتّ، ومرهم بملازمة قوانينهم كيلا يعدو أحدٌ منهم فى السَّبت ؛ وآجعل أمور عقودهم مستتبَّة، وأحسن التحرّى والتحرير لهم فى إتقان كل كتبه ؛ ولا تختر إلا الأعيان، من كل حزّان وديّان ؛ ومن كان له من داود عليه السلام لُحمَة نَسَب ،

وله به حُرمةُ نسَب، فَارْعَ له حَقَّه، وأصْحِبْه من الرِّفق أكرمَ رُفْقه. والجزيةُ فهى لدمائكم وأولادكم عِصْمه، وعلىٰ دِفَاعها لا دافِعها وَصْمه، ولأجلها ورَد: «مَنْ آذَىٰ ذِمِّيًّا كُنْتُ خَصْمَه»، وهى ألَمُّ من السيف إجارَه، وهى أجرةُ سُكنىٰ دار الإسلام كما هى لأستحقاقِ المنفعةِ بها إجارَه؛ فأدُّوها، وبها نفُوسكم فادُوها، ﴿وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾، فعُدّوا ألطافَ الله بها ولا تَعْدُوها؛ وداوِمْ علىٰ مَهْ، زجرا لتارك عَلامه؛ ومن قَصد منها خَلاصه، فقل له فى الملإ: ماذا خَلاصَهْ؛ ومَنْ ركَن فى أمرها إلى الإخْلاد والإخْلال، وسكَن إلى الإهْمال، ولم يرضَ بأنَّ رايةَ الذِّلَّة الصفراءَ علىٰ رأسه تُشَال؛ فأوْسِعْه إنكارا، وألزمه منها شِعَارا؛ وإن قامَ بنصْرِه منهم مَعْشَرٌ خَشِن فأرِهم بعد العَلَامة خُشْكارا؛ وخُذْهم بتجنُّب الغِشِّ الذى هو للعهد مَغَيِّر ومغَيِّب، وٱكفُفْ من هو بما يُنافيه معيَّر ومعيَّب؛ وأما من هو مجيبٌ لذٰلك فهو لقصده محبَّب، وانقلْ طِباعَهم عن ذٰلك وإن أبتْ عن التناقل فأنت ما تتلو: ﴿قُلْ لا يَسْتوِى الخَبيثُ والطَّيِّب﴾. وقد عُلِم أن الذى تتعاطَوْنه من نفْخ فى البُوق إنما هو كما قلتم للتَّذْكار، فاجتهـدُوا أن لا يكونَ لتـذْكار العِجْل الحنيـذ الذى له خُوار؛ هذه وصايانَا لك ولهم فقُلْ لهم: هذه مَوْهِبَة الدولة وإحسانُها إليكم، ولُطْفها بكم وعاطِفَتُها عليكم، وبَصِّرهم بذٰلك كلَّما تلا إحسانُنا إليهم: ﴿يَا بَنِى إسْرائِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أنْعمْتُ عَلَيْكُم﴾.

⁂

وهذه نسخةُ توقيع برآسةِ اليهودِ أيضا:

أمَّا بعدَ حمدِ الله علىٰ أنْ جعل مُلاحظةَ هذه الدولة القاهرةِ لجميع الملل ناظره، وإحسانَها لا يُغْفِلُ مصلحةً لأُولِى الأديان غائبـةً ولا حاضِرَهْ؛ والصلاةِ علىٰ سيدِنا محمد الذى جعل ذِمَّتَه وعهْدَه وَفِيَّيْنِ لكل نَسمة مؤمنةٍ وكافره ـ فإنَّ الله تعالىٰ لما مَدّ

رُواقَ عدلِ هذه الأيام الشريفةِ علىٰ كل مُعاهِد: من متقرِّبٍ ومُتباعِد، وساوىٰ بينَهم فى النظر الذى صدَق الرأى وصدَّق الرائِد ـ اقتضىٰ جميلُها أن يُسْهَم لكلٍّ من أهل الذمة أوفَرُ نصيب، وأن لا يُقال لأحدٍ منهم من الإجحاف ما يُرِيب، وأنْ لا تكونَ أمورُهم مُضاعَه، ولا تَعَبُّداتُهم مُراعَه؛ ولا شَرائعُهم غيرَ مَصُونه، ولا أحكامُهم عارية [عن] حُسْن مَعُونه؛ وكانتْ جماعةُ اليهود وإن كانُوا أُولِى غَىّ، وصَدَق النصارىٰ فيهم وصدَقُوا فى النصارىٰ من أنَّهم ليْسُوا علىٰ شَىّ؛ لا بدَّ لهم من مباشِرٍ يأخذُهم بالأمْر الأحْوَط، والنامُوس الأضْبَط، والمَراسيم التى عليهم تُشْرَط؛ وكان الذى يُخْتار لذٰلك ينبغى أن لايكونَ إلا من أكْبَرِ الكَهَنة وأعْلَمِ الأحبار، وممن عَرَف من دينهم ما لأَجْلِه يُصْطفىٰ ولِمثْله يُخْتار؛ وممَّن فيه سياسةٌ تحجُزه عن المضارّ، وتحجُبُه عن الاستِنْفار؛ وكان فلانٌ الرئيس هو المتميِّزَ بهذه الأوصافِ علىٰ أبناء جنْسه، وله وازِعٌ من نفسه، ورادِعٌ من حُسْن حَدْسه، وخدمةٌ فى مهمَّات الدولة يستحِقُّ بها الزيادةَ فى أُنْسِه؛ وهو من بينِ جماعتِه مشهورٌ بالوَجَاهه، موصوفٌ بالنَّباهه؛ ذو عِبْرانيَّةٍ حسنةِ التعبير، ودراسةٍ لكُتُب أهل ملَّته علىٰ مافيها من التغْيير ـ اقتضَىٰ جميلُ الاختصاص المُنيف، أن يُرْسَم بالأمر الشريف ـ لابَرِح يرقُب الإلَّ والذِّمَّه، ويَرْعىٰ للمعاهَدين الحُرْمه ـ أن تُفوَّض إليه رآسةُ اليهودِ الرَّبَّانيين والقَرَّائين والسامره، علىٰ عادةِ من تقدَّمه.

فلْيباشِرْ ذٰلك مستوعِباً أمورَهم كلَّها، مستودَعا دِقَّها وجِلَّها، مباشِراً من أحوالهم ما جرَتْ عادةُ مثله من الرُّؤساء أن يباشرَ مِثْلَها؛ غيرَ مفرِّط فى ضبْط نامُوسٍ من نَواميس المملكه، ولا مُغْفل الإنكارَ علىٰ من(١) يتجاوَزُ ذٰلك إلىٰ مَوارِد الهَلَكه؛ ومَنْ فعل مايقضِى بنقْضِ عهْده، فعليه وعلىٰ مستحسِنه له من المقاتلَة مايتَّعظ به كلُّ مَنْ يفعلُ

(١) فى الأصل ممن. تأمل.

ذَلك من بعـده ، بحيثُ لا يخرُج احدٌ منهم فى كنيستِه ولا فى يَهودِيَّته ولا فى منع جزيتِه عن واجبٍ مَعْهود ، ومن خالفَ فوراءَ ذٰلك من الادب ماتَقْشَعِرُّ منه الجُلود ، وما جعلَهم الله ذمَّةً للسلمين إلا حَقْنًا لدمائهم ، فلا يُحْها أحدٌ منهم فتجتمع له شماتةُ أهل الأديان من أعدائِهم بأعدائِهم — والوصايا كثيرةٌ و إنمـا هذه نُخْبَتُها الملخَّصه ، وفيها من حساب الإحسان إليهم ماتغْـدُو به أيَّام الإمْهال لهم مُمَحَّصه ، والله يوفِّقه فى كل تصرُّف مرغُوب ، وتأفف من مثله مطْلُوب ، بمنه وكرمه ! .

* * *

وهذه وصية لرئيس اليهود أوردَها فى ''التعريف'' وهى :

وعليه بضَمِّ جماعتِه ، ولَمِّ شَمْلهم باستطاعتِه ، والحُكْمِ فيهم علىٰ قواعد مِلَّته ، وعوائد أيمتِـه ، فى الحكم إذا وَضَح له بأدِلَّته ، وعقُودِ الأنكحة وخواصِّ مايعتبر عندهم فيها على الإطلاق ، وما يُفتقَرُ فيهـا إلى الرضا من الجانبَيْن فى العَقْـد والطَّلاق ، وفيمن أوجبَ عنده حكْمُ دينِه عليه التَّحْريم ، وأوجبَ عليه الآنقيادَ إلى التحكيم ، وما آدَّعَوْا فيه التواتُرَ من الأخبار ، والتظافُر على العمل به ممـا لم يُوجَد فيه نصٌّ وأجمعتْ عليه الأَحْبـار ، والتوجُّه تِلقاءَ بيت المَقْدس إلىٰ جِهةِ قِبْلتهم ، ومكان تعَبُّد أهل ملَّتهم ، والعمل فى هـذا جميعه [بمـا شرَعه موسىٰ الكليم ، والوقُوف معـه][1] إذا ثبت أنه فعـلُ ذٰلك النبىّ الكَريم ، وإقا مةِ حُدود التَّوراة علىٰ ما أنزل اللهُ من غير تحريف ، ولا تبديلِ كلمةٍ بتأويلٍ ولا تصريف ، وآتباعِ ما أَعطَوْا عليـه العَهْد ، وشَدُّوا عليه العَقْد ، وأبقَوْا فيه ذَمَاءهم ، ووَقَوْا به دِماءَهم ، وما كانت تحكم به الأنبياءُ والرَّبانيُّون ، ويُسَلِّم إليه الإسلاميُّون منهم ويعبِّر عنه العِبرانيُّون ، كلُّ هذا مع إلزامه لهم بما يلزَمُهم

(١) الزيادة من ''التعريف'' ص ١٤٣ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

من حُكْم أمثالهم أهلِ الذمَّة الذين أُقِرّوا فى هـذه الدِّيار، ووقايةِ أنفُسهم بالخضُوع والصَّغار ؛ ومدِّ رءوسهم بالإذعان لأهْل مِلَّة الإسـلام، وعدمِ مضايقتِهم فى الطُّرُق وحيثُ يحصُـل الألتباس بهم فى الحَمَّام؛ وحملِ شِـعار الذمَّة الذى جُعِل لهم حِلْيَةَ العَمائم، وعُقِد على رءوسهم لِحفْظهم عَقْدَ التَّمائم ؛ وليعْلَمْ أنَّ شِعَارَهم الأصفر، مُوجَب لئلا يُراق دمُهم الأحمر ؛ وأنَّهم تحتَ عَلَم علامتِه آمنُون ، وفى دَعَة أصائله ساكِنُون ؛ وليأخُذْهم بتجديد صَبْغه فى كلِّ حين ، وليأمُرْهم بملازمته ملازمةً لا تزال علائمُها على رءوسهم تَبِين ؛ وعدمِ التظاهُر بمـا يقتضى المناقَضه ، أو يُفْهَم منه المُعارضه ، أو يدع فيه غير السَّيف وهو إذا كلَّم شديدُ العارضه ؛ وله ترتيبُ طبقات أهل ملَّته من الأحبار فمَنْ دُونهم على قدر آسـتحقاقِهم ، وعلى مالا تَخْرُج عنه كلمةُ آتِّفاقهم ؛ وكذلك له الحديثُ فى جميع كنائس اليهودِ المستَمِرّة إلى الآن ، المسـتقرّة بأيديهـم من حِينِ عقـد عهْد الذمة ثم ما تأكَّد بعدَه لطُول الزمان ؛ من غير تجديد متجدِّد ، ولا إحداث قدرٍ متزيِّد ؛ ولا فِعلِ شىءٍ ممـا لم تُعقَد عليـه الذمه ، ويُقِرّ عليهم سلفَهم الأوّلَ سلفُ هـذه الأمه ، وفى هذا كفايةٌ وتقوى الله وخوفُ بأسِنا رأسُ هذه الأمور المهِمَّه .

٭٭٭

[وصـيـة رئيس السـامرة][1] :

ولا يَعْجِز عن لَمِّ شَعَث طائفته مع قِلّتهم ، وتأمينِ سَرْبهم الذى لو لم يُؤَمَّنوا فيه لأكلهم الذئبُ لذِلَّتهم؛ وليصُنْ بحسن السُّلوك دِماءَهم التى كأنمـا صُبِغتْ عمـائمُهم الحمرُ منها بماطُلّ، وأُوقِد لهم منها النارُ الحمراءُ فلم يتّقُوها إلا بالذُّل؛ وليعْلَمْ أنَّهم شُعبةٌ من اليهود لا يخالِفُونَهم فى أصـل المعتَقَد ، ولا فى شىء يخرُج عن قواعد دينِهم لمن

(١) لم يعنون فى الأصل وزدناه من "التعريف" ص ١٤٤ .

ٱنتقد، ولولا هذا لمــا عُدُّوا فى أهل الكِتاب، ولا قُنِــع منهم إلا بالإسلام أو ضَرْب الرِّقاب، فلْيَبْنِ علىٰ هــذا الأساس، [ولْيُنْبِئْ قومَه أنَّهم منهم وانمــا الناس أجناس](١) وليلتَزِم من فُروع دِينه مالا يخالِفُ فيه إلا بأن يقول لا مِسَاس، وإذا كان كما يقول: إنه كهُرُون عليه السلام فليلتَزِمِ الجَدَد، ولْيَقُمْ من شَرْط الذمَّة بمـا يُقِيمُ به طُولَ المُدَد، ولَيَتَمسَّك بالمُوسويّة من غير تبديل، ولا تحريفٍ فى كلِمٍ ولا تأوِيل، ولْيُحْصِ عملَه فإنه عليه مَسْطور، ولْيقِف عند حدِّه ولا يتعدَّ طَوْره فى الطُّور، وليحْكُمْ فى طائفته وفى أنكحتِهم ومواريثِهم وكنائسِهم القديمـةِ المعقُودِ عليها بمـا هو فى عقد دينِـه، وسببٌ لتوطيد قواعده فى هذه الرتبة التى بلَغَها وتوطينه .

الوظيفةُ الثــانيـــــــة

(بَطْرِكيَّة النَّصارىٰ المَلَكيَّة، وهم أقدمُ من اليَعاقِبَة)

وقد تقــدّم فى الكلام على النِّحل والمِلَل أنهم أتْباع ملكا الذى ظهر قديمًـا ببلاد الرُّوم، وأنَّ الروم والفَرَنج كلَّهم أتباعُه، وبالديار المِصريَّة منهـم النَّزْر اليسير، ولهم بَطْرك يخصُّهم .

وهذه نسخة توقيع لبطرك المَلَكية :

أمَّا بعد حمد الله مُنوِّع الإحْسان، لأَولِى الأدْيان، ومؤَصِّله ومفرِّعه لكلِّ طائفةٍ ولكل إنْسان، والصلاةِ علىٰ سـيدنا محمدٍ الذى أبادَ اللهُ به مَنْ أبادَ وأبانَ من عهده وذِمَّته من أبان ــ فإنَّ الطائفةَ المَلَكيَّة من النصارىٰ لمَّـا كانتْ لهم السابقةُ فى دِينهم، ولهم أصلُ الرآســة والنَّفَاسة فى تعيينهم؛ وما برِحَتْ لهم فى الكِلاءَة والحِفْظ قَدَمُ

---

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٤ .

السابقه، ورُتبةٌ بملوكهم الرُّومانيَّة سامِقَه، وما زالَتْ لهم خِدَمُ الدول إلىٰ أغراضها مُتساوِقةً ومُتسابِقه، ولهم جِوارٌ مشكور، وتبتُّلٌ مَشْهُور، وعليهم وَصايَا من المُلُوك فى كل وُرُود وصُدُور، ولهم من نُفُوسهم مَزايا تستوجِبُ آحترامَهم، وتستَدْعِى إكرامَهم، وكان لا بُدّ لهم من بَطْريرك يُلاحظ أحوالَهم أتمَّ المُلاحظه، ويستدْعى لهم من الدَّوْلة أعظَمَ محافظه، ويحفَظ نَواميسَ قِبيلهم، ويُحْسِن دِراسةَ أناجِيلهم، ويعرِّفُهم قواعدَ معْتَقَداتهم، ويأخذُهم بالدُّعاء لهذه الدولةِ القاهرة فى جميع صَلَواتهم، ويجْمَعهم علىٰ سَدَاد، ويفرِّقُهم علىٰ مُراد. وكان البَطْريرك فلان هو المتَّفَق بين طائفته علىٰ تعيينه، والمُجْمَعَ علىٰ إظهار آستحقاقه وتَبْيينه، والذى له مَزَايَا لو كان فيه واحدةٌ منها لكَفَتْه فى التأهيل، ولرفَعَتْه إلىٰ مَنْصبه الجليل. فلذٰلك رُسم... ... - لابَرِح يُعْطِى كلَّ أحد قِسْطه، ويدْخُل كلٌّ لأبوابه ساجدًا وقائلًا حِطَّه - أن يباشِرَ بَطْرِكيَّةَ النصارىٰ المَلْكية علىٰ عادةِ مَنْ تقدّمه من البَطارِكة السالفةِ بهذه الدولة.

فلْيَحُط أُمورَها الجزئيَّة والكليَّه، والظاهرةَ والخفيَّه، ولْيأخُذْهم بما يلزَمُهم من قوانينِ شِرعتِهم، وكلِّ مايرِيدون من حُسْن سُمْعتِهم، وأما الدِّيَرة والبِيَع والكنائس التى للملكية فَمرجعها إلىٰ صَونه، وأمرُها مردُودٌ إلىٰ جميل إعانته وعَوْنه، والأساقِفةُ والرُّهْبان فهم سَوادُ عيْن معتَقَده، وخُلاصةُ منتَقَده، فلا يُخْلِهم من تبْجِيل، وحُسْن تأهيل، وتَتَقدّم إلىٰ مَنْ بالثغور من جماعتك بأنْ لا يدْخُل أحدٌ منهم فى أمر مُوبِق، ولا فى مُشْكل موثِق، ولا يَميلون كلَّ الميل إلىٰ غريبٍ من جنسهم، وليكُن الحذَرُ لغَدِهم من يومِهم وليَوْمِهم من أمسِهم، ولا يُشاكلونَ رسولًا يرِد، ولا قاصدًا يَفد، وطريقُ السلامة أوْلىٰ ماسُلِك، ومن ترَكَ الدخولَ فيما لايَعْنيه تُرِك، هذه جملةٌ من الوصية لامعةٌ أفلح وآهتدىٰ مَنْ بها آسْتَنار، ورَشِد من لها استشار، والله يوفِّقك فى كل مَقْصد تَرُوم، ويجعَلُك بهذه الوصايا تقُول وتقُوم.

* * *

وهذه وصية لبَطْرَك المَلَكية أوردها فى "التعريف" وهى :

وهو كبيرُ أهلِ ملّته، والحاكمُ عليهم ما آمتدّ فى مُدّته؛ وإليه مَرْجِعُهم فى التحريم والتحليل، وفى الحُكْم بينهم بما أُنْزِلَ فى التوراة ولم يُنْسَخ فى الإنجيل؛ وشريعتُه مبنيّة على المُسامحة والآحتمال، والصبرِ على الأذى وعدمِ الآكتراث به والآحتفال؛ فخُذْ نفسك فى الأوّل بهذه الآداب، وآعلمْ بأنك فى المَدْخَل إلى شريعتك طريقٌ إلى ألباب؛ فتخلّقْ من الأخلاق بكلّ جميل، ولا تستكْثِرْ من متاع الدنيا فإنّه قليل؛ وليُقدِّم المصالحةَ بين المتحاكِمِيْن إليه قبل الفصل البَتّ فإنّ الصلح كما يقال سيِّد الأحكام، وهو قاعدةُ دينِه المَسيحىّ ولم تخالِف فيه المحمّديّةُ الغراءُ دينُ الإسلام؛ ولينظِّفْ صدُورَ إخوانه من الغِلّ ولا يقْنَعْ بما ينظِّفُه ماءُ المعموديّة من الأجسام؛ وإليه أمرُ الكنائس والبِيَع، وهو رأسُ جماعته والكلُّ له تبَع؛ فإيّاه أن يتخذَها له تجارةً مُرْبِحه، أو يقتطِعَ بها مالَ نصرانىٍّ يقرِّبُه فإنه ما يكونُ قد قرّبَه إلى المَذْبَح وإنما ذَبَحه؛ وكذلك الدِّياراتُ وكل عُمْرٍ[(1)]، والقَلَالىُّ فيتعيَّن عليه أن يتفقَّد فيها كلَّ أمْر؛ وليجتهِدْ فى إجراء أُمورها على ما فيه رَفْع الشُّبُهات، وليعلَمْ أنهم إنما اعتزلُوا فيها للتعبُّد فلا يَدَعُها تُتَّخذ متنزَّهات؛ فهُم إنما أحدَثُوا هذه الرَّهبانيَّة للتقلُّل فى هذه الدنيا والتعفُّف عن الفُروج، وحبَسُوا فيها أنفُسَهم حتّى إنّ أكثرهم إذا دخَل فيها ما يعُودُ يبقى له خُرُوج؛ فليحَذِّرْهم من عَملِها مصْيدةً للمال، أو خَلوةً له ولكن بالنساء حرامًا ويكون إنما تنزّه عن الحلال؛ وإيّاه ثم إيّاه أن يُؤوِىَ إليها من الغُرباء القادمين عليه مَنْ يُريب، أو يكْتُمَ عن الإنهاء إلينا مشكِلَ أمرٍ ورَد عليه من

(١) هو بالضم المسجد والبيعة "قاموس" .

بعيد أو قريب ، [ثم الحَذَرَ الحَذَر من إخفاء كتاب يرِد عليه من أحدٍ من الملوك ،](١) ثم الحذَر الحذَر من الكتابة إليهم أو المَشْى علىٰ مثل هذا السُّلوك ، وليتجنَّب البحرَ وإيَّاه من اقتِحامه فإنه يَغْرق ، أو تَلَقِّى ما يُلقيه إليه جَناحُ غرابٍ منه فإنه بالبَيْن يَنْعَق ؛ والتقوىٰ مأمورٌ بها أهلُ كلِّ مِلَّه ، وكلُّ موافِق ومخالِف فى القِبْله ؛ فليكُنْ عملُه بها وفى الكِنَايةِ ما يُغْنِى عن التَّصْريح ، وفيها رضا اللهِ تعالىٰ وبها أَمَرَ المَسِيح .

الوظيفة الثالثة

(بَطْرِكيَّة اليَعاقِبَة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ النِّحل والمِلَل الخُلْف فى نِسْبتِهم : فقيل إنهم أتْباع ديسقرس ، وانه كان آسمه فى الغِلْمانيَّة يَعْقُوب ، وقيل أتباع يعْقُوب البَرْذعانى ، وقيل غيرُ ذٰلك ، والأصحُّ عند المؤرِّخين الأوّل . وبَطْرَكُهم يحكم علىٰ طائفةِ اليَعاقِبة ، وجميعُ نَصارىٰ الحبشةِ أتباعُه ، وفى طاعتِه ملكُ الحبشةِ الأكبر ، وعنه تصْدُر ولايتُه .

وهذه نسخة توقيع لبطرك النصارىٰ اليعاقِبة :

أما بعدَ حمد الله الذى أظهرَ دينَ الإسلام علىٰ الدِّين كلِّه ، وأصدَرَ أمورَ الشرائع عن عقْد شَرْعِه وحَلِّه ، وصيَّر حكمَ كلِّ ملةٍ راجعًا إلىٰ حُكم عَدْلِه ؛ والشهادةِ له بالوحدانيَّة التى تَدُلُّ علىٰ أنه الواحدُ الأحدُ الذى لم يَلِدْ ولم يُولَدْ وليس شىءٌ كمثله ، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ أعظَمِ أنبيائه وأكرمِ رُسْلِه ، وأشرف ولَد آدم ونَسْلِه ، المصطفىٰ فى عِلْم الله من قَبْله ، ووسيلتِه فى التوراة من غرور الشيطان وخَذْله ، والذى أطفأ اللهُ ببركتِه نارَ نُمروذَ عن إبراهيم وجعلها بَرْدا وسلاما وأجَلَّه من أَجْله ،

---

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٥ .

وبَشَّر به عيسى بنُ مريمَ عبدُ الله وٱبنُ أَمَتِه وأقرّ موسىٰ بنُ عمرانَ كليمُ الله بفضْله ؛ وعلىٰ آله الطيِّبين الطاهرين من فُروع أصله ، وأصحابِه سامعى قوله ، وتابِعى سُبُله — فإنَّ الله تعالىٰ لما ٱرتضَى الإسلامَ دينا ، وأفضىٰ بالمُلْك إلينا وقضىٰ لنا فى البَسيطة بَسْطةً وتمكينا ، وأمضىٰ أوامِرَنا المطاعة بشُمول اليُمْن شِمَالًا ويَمِينا — لم نزل نُولِى رَعايانا الإحسانَ رِعايةً وتوطِينا ، ونُديم لأهل الذمَّة مِنَّا ذِمَّةً وتأمِينا ، وكانتْ طائفةُ النَّصارىٰ اليَعَاقبةِ بالديار المصرية لهم من حِينِ الفتح عَهْدٌ وذِمَام ، ووصيَّةٌ سابقةٌ من سيدِنا رسولِ الله عليه أفضلُ الصلاة والسلام ، ولا بُدّ من بَطْريكٍ يرجعُون إليه فى الأحكام ، ويجتمِعُون عليه فى كلِّ نَقْض وإبْرام .

ولما كانتِ الحضرةُ الساميةُ الشيخُ الرئيسُ ، المبجَّل ، المكرَّم ، الكافى ، المعزَّز ، المفخَّر ، القِدِّيس ، شمسُ الرِّآسة ، عِمادُ بَنِى المَعْمُودية ، كنْزُ الطائفة الصَّليبيَّه ، ٱختيار الملوكِ والسلاطين ، فلان : وفَّقه الله ، هو الذى تجرّدَ وترَهَّب ، وأجهَدَ رُوحَه وأتْعَب ، وصامَ عن المَأْكَل والمَشْرَب ، وساحَ فأبْعَد ، ومَنَع جَفْنه لذيذَ المَرْقَد ، ونهض فى خِدْمة طائفتِه وجَدّ ، وخفَضَ لهم الجَناحَ وبَسَط الخَدّ ، وكفَّ عنهم اليَدَ ، وٱستحَقَّ فيهم التبجيلَ لما تميَّز به عليهم من مَعْرِفة أحكام الإنجيل وتفرّد — ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريفِ أن نُلْقِيَ إليه أمرَ هذه الفِرْقة ونُفَوّض ، ونُبَدِّلهم عن بطريكهم المتوفَّى ونُعوِّض .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف — لابرِحت مراسمُه مُطاعه ، ومَراحِمُه لإنزال أهل كرمِها بيعتُها مرعيَّةً غيرُ مراعه (١) — أن يقدَّم الشيخُ شمسُ الرِّآسة المذكور على المِلَّة النصرانية اليَعْقُوبيَّة ، ويكونَ بَطْرِيركا عليها ، علىٰ عادةِ مَن تقدّمَه وقاعدتِه بالديار المصرية ، والثُّغور المحروسة ، والجهات التى عادتُه بها إلىٰ آخرِ وقت .

(١) أى غير مفزعة ولم يذكر القاموس ولا اللسان أراعه وانما الفعل راعه وروّعه أى أفزعه .

فليسْلُك سبيلَ السَّوا ، ولا يُمَلِّكْ نفْسَه الهوىٰ ، وليتمسَّك بخوف الله تعالىٰ إن فَعَل أو نوىٰ ، أو أخبر عن الحواريِّين أو رَوىٰ ؛ فالعليمُ مراقِب ، والعظيم مُعاقب ؛ والحكيم أمَرَ أُولِي العقُول بالفكرة في العَواقب ، والحاكم غدًا بحقُوق الخلق غدًا يُطالِب ؛ والظُّلْم في كلِّ ملَّة حرامٌ والعدلُ واجِب ، فلْيستوفِ الإنصاف بين القَوِيّ والضعيف والحاضر والغائب ؛ وليقْصِد مصلحتَهم وليعتمِدْ نصيحتَهم ، وليُمْضِ علىٰ ما يدينُون به بُيوعَهم وفُسوخهم ومَوارِيثهم وأنكحتَهم ؛ وليقْمَع غاوِيَهم ، وليَسْمع دعاوِيَهم ؛ ولْيُلْزِمْهم من دينهم بما وجدُوه ، فظنُّوه وٱعتقدُوه ؛ وليَتَّبِع سبيلَ المعْدَلة فلا يعدو [ها] عائدةً إليه أمورُ القِسِّيسين والرُّهبان ، في جميع الدِّيَرة والكنائس بسائر البُلْدان ، ولا يُعتَرض عليه فيما هو راجِعٌ إليه من هذا الشان . ولا يقدِّم منهم إلىٰ رُتبة إلا من ٱستصْلَحه ، ولا يرَجِّح إلىٰ منزلةٍ إلا من رشَّحه إليها ورَجَّحه ، متَّبِعا في ذٰلك ما بيَّنه له العدلُ وأوضَحه ، مرتجِعَ الرتبة ممن لم تكُن الصدُور لتَقْدمتِه منْشَرِحه ، مجمعا لغيره في الإيرادِ والإصْدار علىٰ ٱعتماد المَصْلحه ؛ وقد أوضحنا له ولهم سبيلَ النجاة فليقتَفُوه ، وعرَّفناهم بالصواب والخيرَة لهم إن عرَفُوه ، وليسألِ اللهَ ربَّه السلامةَ فيما له يفْعل وبه يَفُوه ؛ والعلامة الشريفة أعلاه .

⁂

وهذه نسخة توقيع لبَطْرك النصارىٰ اليعاقِبة ، كُتِب به للشيخ المؤتَمَن ، في شهور سنة أربع وستين وسبعمائة ، وهي :

أما بعدَ حمد الله علىٰ نِعَمه التي نَشَرتْ لواء دولتنا في الآفاق ، فأوَىٰ كلُّ أحد إلىٰ ظلِّه ، وبسطَتْ معدِلَتنا في البلاد على الإطلاق ، فمنحَت الخاصَّ والعامَّ من بِرِّنا بوابله وطَلِّه ، وٱصطنعَتْ بذمَامها ملوكَ المِلَل وحُكَّامَ الطوائف فنطقُوا عن أمرِنا

فى عَقْد كلِّ امر وحَلِّه ؛ والشهادةِ بوحدانيّتِه التى تُنْجِح أملَ المخلِص فى قوله وفعْله ، وتفتَح لمن تمسَّك بعُرْوتها أبوابَ النجاة فيُصبِح فى أمانٍ فى شأنه كلِّه ؛ والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبده ورسوله أشرفِ الأنبياء قدراً فى مُحْكَم الذكر ونَقْله ، المبعوثِ رحمةً للعالمين زيادةً فى رِفْعة مقامه وتقريرا لفَضْله ، المنعُوتِ بالرأفة والرحمة فى محكم كتابِه الذى لا يأتيه الباطلُ من بيْنِ يدَيْه ولا من خَلْفه ولم يستَطِعْ أحدٌ أن يأتِيَ بسُورةٍ من مِثْله ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين اتَّبعُوا طريقتَه المُثْلىٰ وسلَكُوا مَناهجَ سُبْله ، وعقَدُوا الذِّمم لأهل المِلَل واستوْصَوْا بهم خيراً لما عَرَفُوه من سَعة حِلْمه وبَذْلِه ــ فإنّه لما كانت الطائفةُ المَسيحيّة ، والفِرقة اليعقُوبيّة ، ممن أوتْ تحتَ ظِلِّنا الذى عمَّ الوجُود ، وسكنَتْ فى حَرَم ذِمامِنا الذى سار نبَؤُه فى التهائم والنُّجُود ، وتمسَّكتْ من طاعتِنا واتِّباع أوامِرنا بما سلَف لها من الهُدَن والعُهود ؛ وكانتْ أحكامُهم مما يحتاجُ إلىٰ من يدُور عليه أمرُها فى كلِّ حال ، وتنتظِمُ به مصالحُ شملِها ليبلُغُوا بها الآمال ، ويأمنوا فى معتقدهم فيها من الإخْلال ؛ وأنه إذا مات بَطْريرك لهم لا بُدّ أن نَرسُمَ لهم بغيره ، ليعتمِدوا فى ذٰلك ما يتقدّمُ به إليهم فى نَهْيه وأمْره ؛ ويسْلُكَ بهم فى أحكامهم ما يَجِب ، ويعرِّفَ كُلًّا منهم ما يأتى ويذَر ويفعَلُ ويجتَنِب ؛ ويفصِلَ بينهم بمقتضىٰ ما يعتقدُونه فى إنجيلهم ، ويُمشِّى أحوالَهم علىٰ مُوجَبِه فى تحريمهم وتحليلِهم ؛ ويزجُر من خَرج عن طريقه ، ليرجعَ إلىٰ ما يجبُ عليه أسْوَة رفيقه ؛ ويقضى بينهم بما يعتقدُونه من الأحكام ، ويبيِّن لهم قواعدَ دينهم فى كل نقْض وإبرام ؛ فلما هلَك الآنَ بَطرِيكُهم مع مَنْ هلَك ، رَسَمْنا لهم أن ينتخِبُوا لهم من يكونُ لطريقته قد سَلَك ؛ وأن يختاروا لهم من يسُوس أمورَهم علىٰ أكمل الوُجُوه ، لنرسُم بتقديمه عليهم [فيقوم] بما يؤمِّلُونه منه ويرتَجُوه (١) .

---

(١) حذف نون الرفع رعاية للسجع .

وكان الحضرة السامية، القدِّيس، المبجَّل، الجليلُ، المكرَّم، الموقَّر، الكبير، الديَّان، الرئيس، الرُّوحانى، الفاضل، الكافى، المؤتَمَن، جرجس بن القَسّ مفضَّل اليعقوبى، عمادُ بنى المعموديَّه، كنزُ الأئمة المسيحيَّه، منتخَب الملة الصليبيَّه، ركن الطائفة النصرانيَّه، ٱختيارُ الملوك والسلاطين : أطال الله تعالىٰ بَهجتَه، وأعلىٰ علىٰ أهل طائفتِه درجتَه، قد حازَ من فضائل ملَّته أسْماها، وصَعِد من درجات الترقِّى علىٰ أبناء جنْسِه أعلاها؛ فنزَّه نفسَه عن مشاركة الناس، وتَقَشَّف بين أهله فى المأْكَل واللِّباس، وتركَ الزواج والنِّكاح، وٱشتغل بعبادته التى لازمَ عليها فى المَساء والصَّباح، وألقىٰ نفْسه إلى الغاية فى الاطِّراح، وساحَ بخاطره فى الفكرة وإن لم يكن بجسَدِه قد ساح، وٱرتاضَ بتَرْك الشَّهوات مدّةَ زمانِه، وٱطَّرح المَلاذَّ لتعلو درجتُه بين أهله برِفْعة مكانِه، وٱشتمل من علوم طائفته على الجانبِ الوافر، وعرَف من أوامرِهم ونَواهِيهم ما تَقَرّ به منهم العينُ والناظر، وطَلَب من الربِّ الرءوفِ الرحيم القوةَ علىٰ أعماله، وسأل الإلٰهَ أن يزيِّن لأهل ملَّتِه ما يأتى به من أقوالِه وأفعالِه؛ فوقع ٱختيارُهم عليه، وسألوا صدقاتِنا الشريفةَ إلقاء أمْرِهم إليه.

فرُسِم بالأمر الشريف ــ لازال إحسانُه إلىٰ سائر العالَمِ واصِلا، وجُودُه لكل طائفةٍ بارتيادِ أكفائها شامِلا ــ أن يقدَّم حضرةُ القدِّيس المؤتَمن جرجس المشار إليه على الطائفة اليعقُوبية، من الملة النصرانية، بالديار المحروسة والجهاتِ الجارى بها العادة، ويكون بَطْرِيركا عليهم علىٰ عادة من تقدّم فى ذٰلك ومستَقرِ قاعدتِه إلىٰ آخر وقت، قائمًا بما يجب عليه من أمور هذه الملَّه، باذلًا جهْدَه فى سلوك ما ينبغى مما يَنْظِم عليه أمرَه كلَّه، فاصلًا بينهم بما يعتقدُونه من الأحكام، متصرفًا علىٰ كل أُسْقُفٍّ وقَسٍّ ومَطْران فى كل نقْض وإبرام، مالكًا من أمور القِسِّيسين والرُّهبان والشَّمامسة الزِّمام، مانعًا مَنْ يرومُ أمرا لا يُسوّغه وَضْع ولا تقرير، جاعلا نظرَه عليه

منتقدا بالتحرّز فى التخيير، زاجراً من يخرج منهم عن ٱتّباع طريق الشريعةِ المطهّرة التى يَصِح بها عقدُ الذمّه، ملزِما بسُلوكها فى كل ملمة فإن ذٰلك من الأمور المهمّه، آمرا مَنْ فى الدَّيرة من الرُّهبان بمعاملة المـارّين بهـم والنازِلين عليهم بمَزِيد الإحسان ومَدِيد الإكرام، والقيامِ بالضِّيافة المشروطة من الشَّراب والطَّعام .

ولْيتحدّثْ فى قِسمة مَوَاريثهم إذا ترافعُوا إليه، وليجعَلْ فصلَ أمورِ أهلِ طائفته من المهـمّات لديه، ولْيُشْفِقْ على الكبير والصـغير، وليتنزّهْ عن قليل مَتَاع الدنيـا والكثير، وليزهَدْ فى الجليـل قبل الحَقير . وفى ٱطّلاعه علىٰ أحكام دينـه ما يَكْفِيه فى الوصـيّه، وما يرفعُـه بين أبناء جنسه فى الحيـاة الدنيويّه، والآعتماد على الخط الشريف أعلاه الله أعلاه .

*
* *

وهذ نسخة توقيع لبَطْرك اليَعاقِبة، وهى :

أما بعـدَ حمد الله علىٰ أنْ جعل من إحسانِ هذه الدولة لكلِّ مِلِّىّ وذمّىّ نَصيبا، وفوّقَ إلىٰ أهـداف الرِّعايةِ سهْما فسَهْما مامنهـا إلا ماشُوهِد مُصيبا ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد الذى أحْمَدَ اللهُ له سُرَى فى صَلاح الخلائِق وتأْوِيبا ـ فإنه لمّـا كان من سجايا الدولة القاهرةِ النظرُ فى الجزئيّات والكلّيّات من أمور الأمّه، وتجاوَزَ ذٰلك إلىٰ رِعايةَ [أهل] الذمّه، لاسيَّما مَن سبقَتْ وصيةُ سيد المرسلين عليهم من القِبْط الذين شرّفهم رسولُ الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ بوُصْلته منهـم بأمِّ إبراهيم ولده عليـه السلام، وقَبولِ هديَّتهم التى أبقَتْ لهم مزيّةً علىٰ ممَرّ الأيّام، وكانوا لابُدّ لهم من بِطْرِيك يحفظ سَوَامَهم، ويَضْبِط خواصَّهم وعَوامَّهم، ويجمُع شَمْلَ رُهْبانهـم، ويُراعِى مصـالحَ أديانِهـم، ويحرّرُ أمورَ أعيـادِهم ومَواسِمهم فى كل كَنِيس، ويدعُو للدولة القاهرة فى كل تقْديس، وتُجعَل [له] الخِيرَةُ فى ضَبْط أمور البِيَع والدَّيرَة وٱختيار الأساقفَـة

والكُهّان ، وحِفْظ النواميس المسيحيَّة فى كل قُرْبان ؛ ولا يصلُح لذٰلك إلا من هو بَتُول ، وكلُّ خاشع عاملٍ ناصبٍ يستحقُّ بذٰلك أنَّ هذا الأمرَ إليه يَئُول .

ولما كان البطْريرك فلان هو المجمَع علىٰ صلاحيته للبَطْركيةِ علىٰ شَعْبه ، والتقْدِمةِ علىٰ أبناء المعْموديَّة من شِيعته وصَحْبِه ، لما له من عِلْم فى دينه ، ومعرفةٍ بقوانينه ، وضَبْطٍ لأفانينه ، وعقْلٍ يمنعُه عن التظاهر بما يُنافى العهُود ، ويُلافِى الأمرَ المعهُود ـ آقتضىٰ جميلُ الآختيار أنه رُسِم بالأمر الشريف ـ لا بَرِح يضَع كلَّ شيء فى موضعه من الآستحقاق ، ويُبالغُ فى الإرفاد لأهل المَلّ والإرْفاق ـ أن يباشِرَ بَطْركيَّةَ جماعةِ اليَعاقبة بالديار المِصريَّة ، علىٰ عادةِ من تقدّمَه فى هذه الرتبه ، ومن آرتقىٰ قبْلَه إلىٰ هذه الهَضْبه .

فلْيباشِرْ أمرَ هذه الطائفه ، وليجعل مَعونَته بهم طائفَه ، وليَضْبِط أمورَهم أحسَنَ ضبْط وأجملَه ، وأتمَّه وأكمَله ؛ ولْيأْخُذْهم بما يلْزَمهم من القيام بالوظائف المعْروفه ، والعُهود المألُوفه ؛ ولْيُلزِمْهم بما يَلزَمُهم شرعا من كَفٍّ عن تظاهرٍ ممنُوع ، أو تَعاطِى محذورِ منكورِ الشرورِ والشروع ؛ أو تنكُّبٍ عن طريق الآستقامه ، وكما أنَّهم عدَلُوا عن الإسلام لا يَعْدِلُون عن السَّلامه .

وأمَّا أمورُ الدِّيَرة والكنائس فأمرُها إليك مردُود ، فاجْرِ فيها على المعْهُود ، وأقِم فيها عنك من يُحْسِن النِّيابه ، ومن يُجْمِل الإنابَه ، ومن يستجْلِب الدعاءَ لهذه الدولة القاهِرة فى كل قُدَّاس ، ويُجدّد التقدّس والأنْفاس ؛ وعلىٰ رُهْبان الأَدْيِرة للمساجد والجوامع وظائفُ لا تُمنَعُ ولا تؤخَّر ، ولا تُحوِجُ أحدًا منهم أنَّه بها يُذَكَّر ؛ ولْيشْرُطْ علىٰ أهلها أنهم لا يأْوُون طليعةَ الكُفَّار ، ولا من يحصُل منه إلا خيرٌ وإلا يحصُل الإضرار ، وليأْمرْهم بحُسن الجِوار ، والقيامِ بما هو موظَّف عليهم للسلمين السُّفَّار

وغير السُّفَّار، هـذه نُبْذة من الوصايا مُقْنِعه، ولو وُسِّع القولُ لكان ذا سَعَه، وفى البطْريرك من النَّباهة ما يُلهِمه الصَّواب، والله يجعل حسنَ الظنِّ به لا آرتياءَ فيه ولا آرتياب، بمنّه وكرمه! ، والآعتماد ... ...

* * *

وهذه نسخةُ توقيع لبَطْرك اليعاقِبة، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله الذى خصّ كلَّ ملَّةٍ منَّا بمِنَّه، وأقامَ بأوامرِنا علىٰ كلِّ طائفةٍ مَنْ نرضاه فتُحقِّق بإحساننا ظَنَّه، وجعل من شِيَمنا الشريفةِ الوصيةَ بأهل الكتاب عملًا بالسُّنَّه . والشهادةِ بوحدانيَّته التى نتَّخذ بينها و بينَ الشَّكِّ والشرك من قُوَّة الإيمان جُنَّه، وندّخر أُجُورَها فنسمُو بها يومَ العَرْض إلىٰ أعلىٰ غُرَف الجَنَّه . والصلاةِ والسلام علىٰ نبيِّه محمدٍ أكرم من أرسلَه إلىٰ الأُمم فأنال كلًّا من البرايا يُمنَه، وأعظمِ من بعثَه فشَرع الدينَ الحنيف وسَنَّه، وعلىٰ آله وأصحابِه الذين لم تزلْ قلوبُ المؤمنين بهم مطمئنَّه ــ فإنَّ لدولتنا القاهرة العوارِفَ الحِسان، والشِّيَم الكريمةَ والعطايَا والإحسان، والفواضِلَ التى للآمال [منها] ما يُرْبِى عليها و يَزيد، والمآثِرَ التى بَحْرُ بِرِّها الوافرُ المديد، ولكل ملَّةٍ من نِعمها نوالٌ جزِيل، ولكلِّ فِرْقة من مَواهبِها جانبٌ يقتضى التخْوِيل ولا يَقْضى بالتحويل، ولكلِّ طائفـة من يُمْنها ومَنِّها منائحُ طائفـةٌ بمزيد التنويل، ولكل أُناس من معْدَلتها نصيبٌ يشمَل الملَل، وعادةُ معروفٍ تواترتْ مع أنهـا خالصةٌ من السَّآمة والمَلَل، سجيَّةٌ سَخِية بنا شَرُفت، ومَزِيَّة مرْوِيَّة منَّا أُلِفت، وإنَّ من أهل الكتاب لَطائفةً كثُرت بأبوابنا الشريفةِ عَدَدا، وآستصْفَتْ من مَناهلِ جُودِنا مَوْرِدا، وآنتظَمَتْ فى سِلْك رعايانا فأضحىٰ سبَبُ فضلنا لهـا مؤكَّدا، وكانت المِلَّة المَسيحيه، والفِرْقة اليعْقُوبيَّـه، لا بُدّ لها بعد موتِ بِطْريكها من إقامة غيره ،

وتقديم من يُرتضىٰ بفعْله وقوله وسَيْره، لتقتدِيَ به فى عَقْد أمورها وحلّها، وتحريمها وتحليلها ووَصْلها وفصلِها، وتهتدِيَ به فى معتقَدها، وتَرْكَن إلىٰ مايذكُره من مجموع أحكام الإنجيل ومفْردها، وينتصبَ للفَصْــل بين خصومها بمــا يقتضيه عِرْفانُه، ويَظهَر لأهل ملّته بيانُه، حتَّى لا تجدَ فى أمر دينها إلا ما تُريده، وبمــا نُديمه لهــا من ٱستمرار الهُدْنة تُبْدِى دُعَاءَها وتُعيده، فإنَّ سيدنا محمدا ــ صلى الله عليه وســلم ــ أمَرَنا أن نســتَوْصِيَ بأهل الكتاب خيْرا، ونحن نسْلُك من ٱتّباع شريعتِــه المطهَّرة مانُحْسِن فيه ــ إن شاء الله ــ سِيرةً يسيرةً وسيرا .

ولمــا كانت الحضرةُ الساميَةُ، الشــيخُ، الرئيسُ، المبَجّل، المكرَّم، الفاضلُ، الكافِي، الثِّقَة، عمادُ بني المعموديّه، كنزُ الطائفة الصليبيه، ٱختيارُ الملوك والسلاطين، فلان ــ أطال الله بقاءَه، وأدام علىٰ أهل طائفته ٱرْتقاءَه ــ ممَّن ٱتفق علىٰ شُكْره أبناءُ جنْسه، وٱستوجب أن يرقىٰ إلىٰ هــذه الرُّتْبة بنَفْسه، وٱشتهر بمعرفةِ أحوال فِرَقِه، وهجرَ الأهلَ والوطنَ فى تهذيب خُلُقه، وحَرَّم فى مدّة عُمره النكاح، وسار فى المَهامِه والقِــفَار وسَــاح، وأضحىٰ خَميصَ البطن خاوِيَ الوِفَاض، قد ترك الطّيِّباتِ وهجر التَنَعُّم وٱرتاض، وٱعتمد فى قوله علىٰ الإِلٰه، وسأل الرَّبَّ أنــ يبلِّغه فى أهل ملّته ما تمنّــاه .

فلذَلك رُسِم بالأمر الشريفِ ــ لا زال يجمع الفِرَقَ على الدعاء لأيَّامه الشريفه، ويُديم للأقربين موادَّ مَواهبِه المألُوفه ــ أن يقدَّم الشــيخُ فلان على المِلَّة النصرانية اليعقُوبيَّة، ويكونَ بطْريركا عليها علىٰ عادة من تقدَّمه، ومســـتقرّ قاعدته، بالديار المصريَّة والثُّغور المحروسة، والجهات التى عادَتُه بها، إلىٰ آخر وقت، [فليتولَّ ذَلك] سالكًا من طُرُق النزاهة مايجب، فاصلًا بين النصارىٰ بأحكام دينه التى لاتخفىٰ عنه

ولا تحتجب، مالكًا أزمّة كل أُسْقُفّ وقمص ومِطْران، مرجّحا بين القِدّيس والقِسّيس والشَّمّاس والرُّهْبان؛ لتُصبح أحكامُ كبيرِهم وصغيرِهم به منُوطه، ومواريثُهم مقْسومةً بشِرْعته التى هى لدَيْهم مبْسُوطه؛ ويقِف كلٌّ منهم عند تحريمه وتحليله، ولا يخرُجَ فى شِرْعتهم عن فِعله وقولِه ولا يقدّم منهم إلا من رضِىَ بتأهيله؛ وليأْمُرْ كلَّ قاصٍ منهم ودان، ومن يتعبّد بالدِّيَرة والصَّوامع من الرجال والنِّسْوان، برَفْع الأدعيَةِ بدوام دولتِنا القاهرةِ التى أسْدَتْ لهم هذا الإحْسان؛ ويُلْزِمْ كلًّا منهم بأن لا يُحدِث حادِثا، ويكْرِمَ نُزُل من قَدِم عليه راحِلًا أو لابِثًا؛ فإن هذه الولايةَ قد آلتْ إليه، وهو أدرَبُ بما تنطوِى شروطُها عليْه، والله تعالىٰ يجعل البهجة [لديه] مُقيمه [والنعمة عليه مستديمه]؛ والخطُّ الشريف أعلاه، حجةٌ بموجَبه و بمقتضاه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

*
* *

وهذه وصية لبَطْرك اليعاقِبة أوردَها فى "التعريف" قال:

ويُقال فى وصيَّة بَطْرك اليعاقبة مثلُ مافى وصيَّة بَطْرك المَلَكيَّة، إلا فيما يُنَبَّه عليه. ويسقط منه قولنا: «وآعلَمْ بأنّك فى المَدْخَل إلىٰ شريعتك طريقٌ إلى الْباب» إذ كان لايَدين بطاعةِ الْباب الذى هو رأْس المَلِكانيِّين، وإنما هو رأسُ اليَعاقبة نظيرُه للمَلِكانيين، ويقال مكان هذه الكلمة «وآعلَمْ بأنك فى المَدْخَل إلىٰ شريعتك قَسيم الباب وأنتما سواءٌ فى الأتْباع، ومتساوِيانِ فإنّه لا يزدادُ مِصْراع علىٰ مِصْراع». ويسقط منه قولنا: «وليتجَنَّب البحر وإيّاه من اقتحامه فانّه يغْرَق» وثانيةَ هذه الكلمة إذا كان مُلْكُ اليعاقبة مُغَلْغلا [فى الجنوب](١) ولا بحْر، ويبْدَل بقولنا: «وليتجَنّبْ ما لعلّه ينُوب، وليتوقَّ ما يأتيه سِرًّا من تِلْقاء الحبَشة حتّىٰ إذا قدَر فلا

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٦.

يَشَمُّ أنفاسَ الجَنُوب؛ وليعلم أنّ تلك المادّة وإن كثُرت مقَصِّره، ولا يحفِلْ بسُؤْدد السُّودان فإنّ الله جعل آيةَ الليلِ مُظْلمةً وآيةَ النهارِ مُبْصِره» ثم يُخْتم بالوصية بالتقوىٰ كما تقدّم، ونحو هذا والله أعلم .

النـــوع الثانى

(ما هو خارجٌ عن حاضرتَىْ مصر والقاهرة : من وظائف الديار المصريّة مما يُكْتَب لأربابها . وهى ثلاث جهات)

الجهـــةُ الأُولىٰ

(ثغرُ الإسكَنْدريّة ، والوظائفُ فيها علىٰ ثلاثةِ أصناف) .

الصـــنفُ الأوّلُ

(وظائفُ أربابِ السُّـــيوف وبها وظيفةٌ واحدة وهى النِّيابة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ وظائفِ الديار المصرية أنّها كانتْ أوّلًا ولايةً، إلىٰ أنْ طرَقَها الفرَنْج فى سـنةِ سَبْع وستّين وسبْعِمائة ، فاستقرّتْ من حينئذ نيابةً، يُكتَب لنائبها تقليد فى قطع الثلثين بـ«الجَناب العالى» مع الدُّعاء بمضاعفَة النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليدٍ بنيابة ثَغر الإسكَنْدرِيّة :

الحمدُ للهِ علىٰ نِعَمٍ باسِمة الثَّغْر، مُسْفِرة الفَجْر، رافعة القَدْر .

نحمدُه حمدًا يشْرح الصَّدْر، ويطْلُع طلوعَ البَدْر؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُحالِف من يُحالِفُها، وتُخالِف من يُخالِفُها؛ ونشهد أنّ محمدًا عبدُه

ورسوله أفضلُ نبيٍّ رَابَطَ فى سبيل الله وجاهَدَ، وكابَدَ فى الجهاد أعداءَ الدِّين وكايَدْ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين خاضُوا فى غَمَرات الدُّجى كلَّ غَمْر، ونُدِبوا لحماية الدِّين ... ... [(١)] كَرِيهةٍ وسَدَاد ثَغْر .

أمَّا بعدُ، فإنَّ الاهتمام بالثغور هو أَوْلى ما إليه حُمِد، وعلى مصالحها اعتُمِد، وكان ثغرُ الإسكندريَّة المحروسُ هو المفترَّ عن أحسَن الثَّنايا ، والمخصُوصَ من الحِياطة بأتمِّ المَزَايا ، والذى كم شَفَتْ [(٢)] شِفاهُه من سُقْم عند ارتشاف، والذى المُثاغِرُ به والمرابِطُ كَمْ له بالحسنات من ائتلاف ، وكانتِ المصلحةُ تقتَضِى أن لا يُختارَ له إلا كُلُّ كامِل الأوْصاف، كافلٍ بما تستدْعيه مصلحةُ أهلِه من إنْصاف، ذُو عَزْم يمضِى والسِّهَامُ مستوْدَعة فى الكنائن ، ويقْضِى بالعدل المُزِيل للشَّوائب والشَّوائن ، ومَن له حزم يسُدّ ثَغْر المَعايب دُونَ كلِّ ملاحِظ ومُعايِن ، وله سِياسةٌ تُحفَظ بمثلها الثُّغور ، وتُصان الأُمور ، وله بشاشةٌ تستجْلِب النُّفُور ، وتُوفِّق ما بين الألسِنة من أولى الوُدِّ والصُّدور، وله حياطةٌ بينا يقال : هذا جانبُه دَمِثٌ إذ يُقال : هذا جانِبُه صَعْب ممتَنِع ، وبينما يُقال ليقَظته للمصلحة : هذا سحابٌ يتجهم [(٣)] إذْ يُقال هذا سيْلٌ مندفِع .

ولما كان فلانٌ هو مستوعبَ هذه الصِّفات، ومستوْدَع هذه الأسماءِ والسِّمات، وإليه بهذه المَناقِب يُشار ، وهو ساحِبُ أذيالِ هذا الفَخَار - اقتضى حسنُ الرأى

(١) بياض بالأصل ولعله فكانوا ليوم الخ .

(٢) فى الأصل « كتفت» وهو تصحيف من الناسخ .

(٣) لعله سحاب جهام . أى لا ماء فيه . تأمل .

الشريف أن تُفوَّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بثَغْر الإسكندرية المحُروس ، تفويضًا يُمْضِى فى مصالحه لسانَه وقلَمَه ، ويُصرِّف بين الأوامر والنَّواهى إشاراته وكلِمَه ؛ ويزيِّن مواكِبَه بطلْعته ، ويزيد مهابَتَه ببُعْد صيته وٱشتهار سُمْعتهِ .

فليباشرْ هذه الوظيفةَ مُجَمِّلا مَواكِبَها ، مكمِّلا مراتِبَهَا ، موَثِّلا(١) بقواعد الأمْن أرجاءَها وجوانِبَها ؛ ناشرًا لواءَ العدل علىٰ عَوالِمها ، قابضًا بالإنصاف لمظْلومِ رعيَّتها علىٰ يد ظالمِها ؛ مُعْليا مَنارَ الشرع الشريف بمعاضدَةِ حُكَّامه والانقياد إلىٰ أحكامه ، والوقوف فى كل أمر مع نَقْضه وإبرامه ؛ ولْيَحْرُس جوانبَ هذا الثغر ويحميها ، وليصُنْ عوارِضَه وما فيها ومَنْ فيها ؛ ولْيكلَاْهُ بَرًّا وبحرا ، وليُرْخِ عليه من ذَبِّه سِترًا فسترًا ؛ وليُنْجِح لِسَافِرتِه(٢) طَلَبا ، وليبلِّغْهم من العدل والإحْسان أرَبًا ؛ ويُجْمِل معاملةَ من وجَد منهم فى سَفَره نَصَبا ، وٱتخذ سبيلَه فى البحْرِ عَجَبا . والرعيَّة فهم طِرازُ الممالك ، وعُنوان العِمارة الذى مَن شاهده فى هذا الثغر عَلِم ما وراءَ ذٰلك ؛ وأحسِنْ إليهم وٱرْأفْ بهم ، وبلِّغْهم من عَدْل هذه الدولة غايةَ أرَبِهم ؛ وأمورُ الخُمُس والديوان فلها قواعِدُ مستَقِرّه ، وقوانين مستَمِرّه ؛ فاسْلُكْ منها جَدَدا واضحا ، وٱبتَغِ لها عَلَما لائحا ؛ وغيرُ ذٰلك فلا يكادُ علىٰ فَهْمك يخفىٰ ، من تقوىٰ الله التى بها تُكَفُّ عينُ المَضَارّ وتُكْفىٰ ؛ والله تعالىٰ يلْهِمك صَوابا ، ولا يجعل بينَ حِجَاك وبينَ المَصالح حِجَابا ، بمنِّه وكرمه ! .

---

(١) موثلا ممكنا . من وثل الشئ أصله ومكنه .

(٢) (لسافرته) هم المسافرون .

الصنف الثانى

(من الوظائف التى يكتب بها بثغر الإسكندرية ـ الوظائف الدينية، وكلها تواقيع، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى (١)

(ما يكتب منها فى قَطع الثلُث بـ«السامىّ» بالياء، وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى

(القضاء)

وهو الآنَ مختصٌّ بالمالكيَّة، وقاضيها يتحدَّثُ فى نفس المدينة وظاهِرِها، ليس له ولايةٌ فيما هو خارجٌ عنها.

وهذه نسخةُ توقيع بقضاءِ ثَغْر الإسكندريَّة لمالِكيٍّ، كُتِب به للشيخ «وجيه الدين محمد بن عبد المُعْطى الإسكَنْدرىّ المالكىّ» وهى:

الحمدُ لله رافعِ قدْرِ من نوَّهَ العلمُ بذِكْره، ونَوَّر التُّقىٰ مواقِعَ فِكْره، ونَبَّه الورَعُ علىٰ رِفْعة قَدْره، وأشرَقَ به مَنْصِبُ الحكم العزيز إشراقَ الأُفُق بطلوع بَدْره، وأضاءتْ بنُور أحكامه غوامِضُ القضايَا الشرعيَّة إضاءةَ الدُّجىٰ بغُرّة فَجْره، وقضىٰ له دوامُ الإصابة فى الاجتهاد بإحراز أجْرَيْه إذا كان أحدُ قِسمَىْ الاجتهاد مقتضِياً لأجْره، ومُلِئَ صدرُه بأنواع العلوم الدينيَّة فوسَّع له الشرعُ الشريفُ صدرَ مجلِسه وأعدَّ له مجْلِس صَدْره، وزَخَر من خاطره بحرُ العلم فارتوَتْ رياضُ الخواطر بأنوار فرائد دُرّه،

(١) لم يذكر الثانية فيما يأتى.

وأسفر وجهُ الدين بنُور علمه وعَمله : فقام هذا مَقامَ السُّرور فى أساريره وناب هذا مَنَابَ الشَّنَب فى ثَغْره .

نحمدُه حمدًا يزيدُ قَدْرَ النِّعم تنويها، ويُسوِّغ فى المحامد تعظيًما لمُسْدِى المِنَّة وتنْزِيها، ويَنْهَض بشكر التوفيق فى ٱختصاص مَنْصب الحكم بمن كانَ عند اللهِ وَجِيها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادة تفتَرُّ ثغورُ الإسلام بإدامتها ، وتُبنَىٰ قواعدُ الإيمـان علىٰ إقامتها ، وتَشِيمُ بَوارقَ النصر علىٰ جاحِدها من أثنـاء غمـامَتِها، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أنارتِ الآفاقُ بملَّتـه ، ودارَتْ أداةُ التشبيه بين أنبياء بنى إسرائيل وعلماءِ أُمَّته، وضاهىٰ شرعُه شمسَ الظهيرة فى وُضُوح أحكامه وظهور أدلَّته ؛ صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين عملُوا بمـا علمُوا ، وجاهدُوا أعداءَ الله فمـا ضعُفوا لذٰلك ولا ألِمُوا، وقضَوْا بالحق بينَ أمّته فلا المَقْضِىّ لهم أثموا ولا المَقْضِىّ عليهم ظُلِموا ؛ صلاةً لا تزالُ لهـا الأرض مسجِدا، ولا يبرَح ذِكرُها مُتْهِما فى الآفاق ومنْجِدا؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ من قُلِّد الحكم وإن نأَىٰ به الورَعُ عن توقُّعه، وخُطِب للقضاء وإن أعْرَض به الزُّهدُ عن طِلَابه وتتَبُّعه ، ودُعِىَ إليـه إذِ الإجابةُ عليـه متعيِّنه ، ووُضِعَتْ مقاليدُه بحكم الآستحقاقِ [فى يديْه] إذْ أولَويَّته البيِّنةُ لا تحتاجُ إلىٰ بَيِّنه ــ من عُقِدت علىٰ تعيُّنه لهذا المَنْصب الجليـل الخَناصر، ودَعَت إلى آستدعائه إليه فضائلُه الثـابتةُ القواعِد وزَهادتُه الزاكيـةُ الأواصر؛ ودلَّت عليه علومُه دَلالةَ الأضواء،علىٰ لَوامِع الشُّهُب، ونَبَّهتْ عليه فنُونُه تنبيهَ الأنواء، علىٰ مَواقِع السُّحُب؛ وشهِدَ بِورَعه المتين، تفقُّهُـه وآعتزالُه ، وأنبأ عن نُهوضه بنُصرة الدين، قوّةُ جِداله الذى هو جِلادُ مثـله ونِزالُه ؛ وتَبحَّر فى أنواع العلوم حتَّى جاوَرَ البحرَ بمثله ولكنَّه

العــذْب الزُّلال ، وشَغَل نفسَه بالتنوع فى الفُنون فكان التحلّى بعبادة الله ثمرَة ذلك الاشتغال ، ومشَى علىٰ قَدم الأئمة العلماء من أسلافه فلم يُشَقَّ فى ذلك المضمارِ غُبارُه ، ونشأ علىٰ طريقةِ العلم والعمل : فنهارُه بالانقطاع إليه ليلُه وليلُه بالاشتغال بهما نهارُه .

ولمـا كان فلان هو الذى خطبَتْه هذه الرتبةُ السنيةَّ لنفسها ، وتشوّقتْ إلى الإضاءة بطُلُوعه فى أُفقها تشــوّقَ المَطَالِـع إلى الإضاءة بطُلُوع شمسِها ، وأثنىٰ لسانُ القلم علىٰ فضــائله وهو يعتذِر من الاختصار ، واقتصرتِ البلاغةُ على اليســير من التعريض بوَصْفه وطالِبُ مالا يُحصَر معذورٌ فى الاقتصاد والاقتصار ، وعُيِّن لمـا تعيَّن عليه من مصالح الأمّةِ وذلك يقضى لمثله من أهل الورَعَ أن يُجِيب ، وطُلِب لعموم مصالح الإســلام التى ما ينبغى لمثله من أنصار الســنَّة أن يتأخّر عن مِثْلها أو يَغِيب ؛ وكان ثغْرُ الإسكندرية المحروسُ من المَعاقِل التى يفْتَرّ عن شَنَب النصر ثَغْرُها ، ومن أركان الدين التى يَغَصُّ بأبطالهـا بحرُها ؛ وهى مَأْوىٰ صُـلَحاء(١) الجهـاد الذين سِهامُ ليلهم أسبَقُ إلى العِدَا من سِهامهم ، ومَوْطِنُ العلمــاء من أهل الاجتهاد الذين يَعْــدِل دمَ الشهداء مِدادُ أقلامهم ؛ وهى دارُه التى تُزهىٰ به نواحيها ، ومَوْطنُ رِباطه الذى يومٌ وليلةٌ منــه فى سبيلِ الله خيْرٌ من الدنيا وما فِيها ـ اقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُخُصَّ منصِبَ حكمِها بعالِمِ أُفُقِها المُنير ، وزاهِدِ ثَغْرِها الذى ماشَام برقَه بصرُ عدوٍّ إلا وانقلب إليه خاسِئًا وهو حَسِــير ، أن(٢) نُفوِّض إليه منصِبَ القضــاء والحكم العزيزِ بثغر الإسكَنْدريَّة المحروس ، علىٰ قاعدةِ من تقدّمه فيــه ، نظرًا فى عمُوم ذلك الثغر المحروس به (؟) إلىٰ من انعقد إجماع أئمةِ عصْره ومِصره علىٰ سَعَة علمه ووُفُور ورَعه وكمال فضله .

---

(١) مرادُه أنهـا مأوى صلحاء المتعبدين الذين الخ .

(٢) يظهر أن فى هذه العبارة سقطا وحرر .

فليباشر هذا المنصبَ الذى مِلَاكُ أمرِه العلمُ والتُّقَى ، ونِظامُ حكمه العدْلُ والورَعُ وهما أكملُ مابه يُرْتَقَى ؛ وليَحكُمْ بما أراه الله من قواعد مذهبه المُحْكَمه ، وأحكام إمامِه التى هى بمصالح الدِّين والدنيا محكَّمه ؛ وليْقضِ بأقوال إمامِ دار الهِجْرة التى منها صدرَت السنَّة إلى الآفاق ، وعنها أُخِذتْ ذخائرُ العلم التى تزكُو على كَثْرة الإنفاق ؛ وبها حِمَى الأحكامِ الدينية موطَّأُ الأكناف ، وفيها آستقام عمودُ الملَّة ممدُود الطَّرَف على سائر الأطراف ؛ فلْيَلِ من ذلك وغيره جميعَ ما كان يليه مَنْ تقدّمه ، وتقتضيه قواعدُ ولايته التى أمضينا فيه لسانَه وقلَمَه .

فأمَّا ما يدخُل تحتَ هذا الإجمال من آداب القضاء وقواعِده ، وأدَواتِه وعوائِده : من تخصيص الحُكْم بأوقاته ، ومُساواتِه بين الخصمين فى إنصافِه وإنصاتِه ؛ وآجتنابِ الحُكْم فى الأوقاتِ المقتضِيَة لِتَرْكه ، وتوَقِّى نقْض الأحكام التى نَظَمَها عَدَمُ مخالفة النص والإجْماع فى سِلْكه ؛ فإنه مكتَفٍ بالإجمال عن تفصيلها ، مكتفٍ عن ذكر كثيرِها بالإيماء إلى قليلها ؛ إذ هو أدرى بأوضاعِها شَرْعا وعُرْفا ، وأدرَبُ بما قد يشِذُّ منها عن ألمعيَّته أو يخفَى ؛ وملاكُ الوصايا تقوى الله تعالى وهى من خصائص نفْسِه ، وفواتِحِ ما آبتدأ الورَعُ بإتقان دَرْسه ؛ والله تعالى يؤيد حُكْمه ، ويُعْلِى عَلَمه ؛ بمنّه وكرمه ! والآعتماد ... ... إن شاء الله تعالى .

*
* *

وآعلم أنه كان فيما تقدّم قد وليها قاضٍ شافعىٌّ .

وهذه نسخةُ توقيع بقضائها ، كُتِب به للقاضى «عَلَم الدين الإخنائى» الشافعى ، فى ثامنِ شعبانَ سنةَ ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى رَفَع لنا فى كل ثَغْر عَلَما ، وأجْرىٰ لنا فى جِوار كلِّ بحر مايضاهيه كَرَما ، وجعل من حُكّام دولتنا الشريفةِ من يُعْرَف بنسبه الإسنائى بل السَّنائى أنه يمحُو من الظُّلْم ظُلَما .

نحمَدُه علىٰ أن زادَنا نِعَما ، ووَفَّر للأحكام الشرعيَّة بِنا قِسَما ، وأغْلىٰ قِيَمًا ، [فأضحت] تُنافِسُ الدُّرَّ الثمين قِيَما ؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُجرِّد لإقامتها سيْفا وقَلَما ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذى جعل اللهُ له شريعةً ماذِيَّةً(١) ودِيناً قِيَما ، ونصَب من أئمة أتْباعه كلَّ علَم يهدى أُمَما ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة باقيةً مابقِيَت الأرضُ والسَّما ، وسلَّم تسليما .

وبعد ، فإنَّ أوْلى الثُّغور بأن لايَزالَ به عَلَمٌ مرفُوع ، وعِلْم مصونٌ حِجابُه الممنُوع ، وعملٌ يمشِى به أئمـةُ الأمة علىٰ طريقه المشروع ، ثغرُ الإسكندرية ــ حماها الله تعالىٰ ــ فإنها من دار الملك فى أعزِّ مَقام ، ومن مُجاورة البحر فى مَوْطن جهاد تَخْفُق به الأعلام ؛ وغالبُ مَن فيها إما فقيهٌ يتمسَّك بالشريعة الشريفـة فى عُلُوّ علومه ، أو ربُّ مالٍ له وقوف بمجلس الحكم العزيز ينتصِفُ من خِصام خُصُومه ؛ ولم تزَلْ وظيفةُ القضاء بها آهِلةَ الصدور ، كامِلةَ البدُور ، متهلِّلةً بما لايفوتُ الشَّنَب كبارق الجَزْع إذا حكىٰ إيماضَ الثُّغور ؛ وكان لها مدّةٌ قد خلَتْ ونحن نفكِّر فيمن يكون سَدَادا لثغرها ، وكافيًا فيما يُهِمُّ فى الأحكام الشرعية من أمْرِها ؛ وكافلًا من الحق الذى أمر اللهُ به بما يقِى النفوس ، وقائما فى مَدَارسها بما يَزيد معالِمَها إشادةً فى الدروس ؛ حتَّى أجمعت آراؤُنا الشريفةُ علىٰ من يحْسُن عليه الإجماع ، وتُحْسَم به دواعِي النِّزاع ، ويحسُد علمَه علمُ الشمس لِما علا عنها من كُرَة الارتفاع ؛ ومن يتضَوّعُ بنَشْر العدل

(١) أى سهلة بيضاء .

فى يُمنىٰ كفه القلَم ، وإذا وقفَتْ به الركائبُ قالت : ياسارِى القصدَ هذا البانُ والعَلَم ؛ وكان المجلس السامىّ القضائىّ العَلَمى الإسنائى الشافعى ، أدام الله علُوّه هو العَلَم المنشُور ، والعِلْم المشهُور ، والمرادَ بما تقدّم من وصْف مشكُور ؛ فاقتضت مراسمُنا المُطاعة أن تُناط به من الأحكام الشرعية القضايا ، وأن يبْسِم هذا الثغر بحكمه عن واضِح الثَّنايا .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ : زاده الله شرَفا ، وضاعف له تصرُّفا ــ أن يفوّض إليه القضاءُ بمدينة إسكَندرية ــ حماها الله تعالىٰ ــ علىٰ عادةِ من تقدّمه وقاعدتِه المستقرّة إلىٰ آخر وقت ، علىٰ أنه يَستنيبُ عنه فى تحمُّله وفيما شاء منه من هو موصوفٌ بصفته ، موثوقٌ بدينه وعِلْمه ومعرفته ؛ ولْينتصِبْ فى مجلس الحكم العزيز لمن ينتصِف ، ولْيعمل بما يُرضِينا من مراضِى الله تعالىٰ فإنَّ للعيون أن تنظُر وللألْسِنة أن تَصِف ؛ ولينظُرْ فى أمر الشهود فإنَّ الأحكام الشرعيةَ علىٰ شهادتهم تُبْنىٰ ، وليحترِزْ من الوكَلاء فإنَّ منهم من يجعل الظنّ يقيناً واليقينَ ظنّا ، ولينظر فى أمور الأيتام ويتصرّفْ فى أموالهم بالحُسْنىٰ ؛ وليُقِم الحدودَ ، علىٰ مقتضىٰ مَذْهَبِه ، وليعوّل فى العقُود ، علىٰ من لايخافُ معه امرؤٌ علىٰ إلحاقٍ فى نسبه ؛ وغير هذا مما إليه مرجعُه ، وإليه ينتهى مفترَقه ومجتمعُه وبحكمه يفصَلُ أمرُه أجمَعُه ؛ ولْيتخذ الله تعالىٰ عليه رَقيبا ، ويعلَمْ أنه سيرَىٰ كلّ ما يعملُه عند الله قريبا ؛ وتقْوىٰ الله هى التى نتخذ معه عليها عَهْدا مسئُولا ، ورجاءً مأمولا ، وقولا عند الله وملائكتِه وأنبيائه مقْبُولا ، ونقلّده منها علىٰ كل مخالِف سيفًا مسلُولا ؛ ونحن نرغَبُ إلىٰ الله أن يوفّقه فى حكمه ، ويُعِينَه علىٰ كل مايُمْلَىٰ من الوصايا بما هو مليٌّ به من عَمَله وعلْمه ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجةٌ فيه .

قلت : وكان قد آستُحدِث بالإسكندرية قاضٍ حنفيّ فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » يُولَّى من الأبواب السلطانية رفيقًا للقاضى المالكىّ بها ، يتحدّثُ فى الأحكام فى القضايا المتعلِّقة بمذْهبه خاصّة ، وأمرُ مُودَع الأيتام ونظرُ الأوقاف ، وغيرُ ذلك من متعلَّقات قضاء القضاة مختصٌّ بالمالكى ؛ ثم صارت بعد ذلك تارةً يولَّى بها حنفىّ كذلك ، وتارة تَشْغَر منه . فإنْ وليها حنفىّ ، كتب له فى قطع الثُّلُث كما يكتب للقاضى المالكىّ ، وليس بها الآن شافعىّ إلا نائبا عن المالكىّ ، ولا حنبلىّ بها أصلا .

الوظيفة الثانية

(الحِسْبة بثغر الإسكندرية)

ومحتَسِبها يمضِى تحدُّثَه فيما يختص به قاضِيها ، وليس له نُوّاب فيما هو خارج عن ذلك من البلاد .

وهذه نسخة توقيع بالحِسْبة بثغر الإسكندرية .

الحمدُ لله الذى جعل المناصِبَ فى أيَّامنا الزاهرة محفوظةً فى أكفائها ، مضمونةً لمن تقاضت[له] من الإقبال ر[دَّ]جَفَائها ، معدوقةً فى مآلها إلىٰ مَنْ زانها بمعرفته الحسنة بحسن... ... ... (١) بمن دلَّتْ كَفاءَتُه وكِفايَتُه علىٰ أنه أولىٰ بتقرُّبها وأحقُّ باصطِفائها .

أحمدُه علىٰ نِعَمِه التى لم تُخيِّب فى إحساننا أملًا ، ولم تُضَيِّع سعْىَ من أحسن [العملَ] فى مصالح دولتنا إنَّ الله لا يُضِيع أجْرَ من أحسَنَ عَمَلا ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أشرفُ مافاهَ به اللِّسان ، وأفضلُ ما تُعبِّد به

(١) بياض بالأصل . ولعله "بمعرفته الحسنة وحسن بهائها ، مخصوصة بمن الخ" .

الإنسان ، وأرفعُ ما مُلِكت به فى الدنيا والآخرةَ عِظامُ الرُّتَب الحِسان ؛ ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذى أحلَّ الطيِّباتِ وأباحَها ، وأزال الشُّبَهات وأزاحَها ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تمسَّكُوا بأحكامه، ووقَفُوا مع ما شَرَع لهم من حلال دينِه وحرامِه، وحافظُوا على العمل بسُنَّته بعدَه محافظَتَهم عليها فى أيَّامه؛ صلاةً يتوقَّد سراجُها ، ويتأكَّد بها ٱنتساقُ السنَّة وٱنتساجُها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ مَن رجع فيه حقُّ منصِبِه إلىٰ نِصابه ، ورُدَّ به واجبُ رُتْبته إلىٰ من جعلَتْه سوابقُ سيرته أَوْلَىٰ به؛ وتقاضتْ له سيرتُه عواطفَ كرمِنا،ونهضَتْ نزاهتُه باستِطْلاع ما غابَ عنه من عوارِفنا ونِعَمِنا ؛ وأغنَتْه أوصافُه عن تجديد ثناء يُستعادُ به بِرُّنا القديم ، ويستَدَام له به فضلُنا العميم، وتستدرّ به أخلافُ كرمِنا الذى تَساوَىٰ فى عمومه الظاعنُ والمُقِيم ــ مَن زانَ التقىٰ أوصافَه ، وكمَّلت العِفَّةُ معرفتَه وإنصافه؛ وتولَّت الديانة نظَره فيما عُدِق [به] من مصالح الرعايا خُصوصًا وعمومًا ، وتكفلت الخبرة من ٱعتباره لأمور الأقوات بأن جعَلَ لكل منها فى الجَوْدة حدًّا معلوما ؛ وباشَر ما فُوِّض إليه فجمع بينَ رِضا الله تعالىٰ ورضا خلْقه، وعُوِّل عليه فى حِسْبة أعزِّ الثغور لدينا فتصبح الرعايا فيما بَسَط لهم من رِزْقه .

ولما كان فلان هو الذى أضاءت أوصافُه وهل تُنْكَر الإضاءةُ للسِّراج، وتَشَوّفت إليه رتبتُه فلم يكنْ لها إلَّا إليه مَلَاذٌ وإلا عليه مَعَاج؛ فسلَك من السِّيَر أرضاها لربِّه، ومن الأحوال أجمعَها لأمْن عاقبتِه وسلامةِ غِبِّه؛ ومن الاجتهاد فى مصالح الرعايا ما يُضاعَف شكْرُه على ٱحتسابه، ومن الخبرة ما يُعرِّف كلا منهم كيف يكونُ ٱكتساء البرية فى ٱكتسابِه ــ رُسِم أن يستقرّ(١) ... ...

(١) بياض بالأصل وهو معلوم مما تقدم وحذفه اختصارا فى الكتابة .

فلْيستمرّ فى ذلك علىٰ عادته التى ناضلَتْ عنه فأصابَتْ ، وقاعدته التى دعَتْ له عواطفَ نِعمَنا فأجابَتْ ؛ ولْيَزِدْ فى التحذير والتحقيق ما ٱستطاع ، ويُناقِشْ حتى يستقرّ على الصحة فيما يُباع أو يُبتاع ؛ ويقابِلْ على الغِشّ بما يردَع متعاطِيه ، ويزجُر صانعَ الأعمال الفاسدة عن ٱستِدامتِها ومَن يُوافقه علىٰ ذلك ويُواطِيه ؛ ويُثَمِّرْ أموالَ الأحباس بملاحظة أُصُولها ، والمحافظةِ علىٰ رَيْعها ومحصُولها ؛ وإمضاء مَصارفِها علىٰ شروط واقفِيها إن علمت ومزية (؟) ماقدّم من شكْره والثناء عليه ؛ وملاكُ ذلك جميعِه تقْوىٰ الله تعالىٰ وهى أخصّ ماقُدّم من أوصافه ، والرِّفْقُ بالرَّعايا وإنّه من أحسنِ حِلىٰ معرفتِه وإنصافِه ؛ والخيرُ يكونُ إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفــــة الثــالثة

(نظَرُ الصــادر)

وموضُوعها التحدُّث فى قَدْر مقرَّر يؤخَذ من تُجّار الفَرَنج الواردين إلى الإسكندرية ، وعليه مرَتَّبات لناسٍ مخصوصِين من أهل العِلم والصلاح ، يُنفَق عليهم بمقاديرَ معلومة من متحصِّل هذه الجِهة .

وهــذه نسخةُ توقيع بنظر الصــادر والوارِد ، أنشأته عن السلطان الملِك الناصر «فرج بن الظاهر برقوق» للقاضى ناصر الدين «محمد الطَّنَاحى» إمام المقام الشريف السلطانىّ ، فى منتصف شهر صفر سنةَ أربع وثمــانمــائة ، وهى :

الحمد لله الذى جعل من سُلطاننا الناصر لأخَصّ ولىٍّ أعَزَّ ناصر ، وخصَّــه من فائِض كَرَمِنا المتتابع ومَنِّنا المترادِف بأكرم وارِد وأبرّ صادِر ، وبوّأه من فضْلِنا المُنيف أفضل مبوَّإٍ : فتارة تأتَمُّ به الملُوك وتارة يخطُب الكافّةَ علىٰ رءُوس المَنابر .

نحمده علىٰ أنْ جعلنا نَتَّبع فى الوِلايات نَهْجَ الصَّواب ونقتفيه ، وآثَرنا من أَثَرة الأبوة بِأعْلىٰ مواقع الاْجتباء والولدُ سِرُّ أبيه ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له الذى أذلَّ طُغاةَ الكفر بقَمْع آنافِ كُبَرائهم ، وألزمَهم الصَّغار بمالٍ يؤخَذ من أقوياءِ أغنيائِهم فيفرَّق فى ضُعفاء المسلمين وفُقَرائهم؛ ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله الذى نَدَب إلىٰ مَبرَّة أهل الفضل وذَويه ، ورغَّب فى رِعاية المودَّة للآباء بقوله : «إنَّ مِنْ أبَرِّ البِرِّ بِرَّ الرجُل أهْلَ وُدِّ أبِيه» صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عُقِدت بهم مهمَّاتٌ ، فقاموا بحقِّها ، ووُكلت إليهم جلائلُ الوِلايات ، فأحرَزُوا بجميل التأثيرِ قَصَب سَبْقها ؛ صلاةً يبقىٰ علىٰ مدَى الأيام حكْمُها ، ولا يتغيَّر علىٰ مرِّ الزمان رَسْمُها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن من كَرِيم سجايانَا التى جُبِلنا عليها ، وشريف شِيَمِنا التى يَجْذِبُنا طيبُ العُنْصُر إليها ، أن نَخُصَّ أخصَّ الأولياء بأسْنىٰ الوِلايات ، ونُتْحِفَ أصفَى الأصْفياء بنهايةِ غَيْرِه فى البِدايَات ؛ ونرفَعَ قدْرَ من لم يزَلْ ظهرُه للمُلوك مِحْرابا ، ونُنَوِّهَ بذكر من رَغِبت فيه الوظائفُ فعدَلَتْ إليه عن سِواه إضرابا .

وكان المجلس السامىّ ، القاضَوِىّ ، العالِمىّ ، العامِلىّ ، الفاضِلىّ ، الكامِلىّ ، البارِعىّ ، البليغىّ ، الماجدىّ ، الأوْحدِىّ ، الأثيرِىّ ، الأثِيلىّ ، العَرِيقىّ ، الأصِيلىّ ، الخَطِيبىّ ، الناصرىّ ؛ مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ؛ شرفُ الرؤساء ، أوحدُ الكبراء ؛ صدْرُ الأعيان ، جَمال الخُطَباء ، جَلال النُّظَّار ، صَفوةُ الملوك والسلاطين ، أبُو عبد الله محمد ، آبن المجلس السامىّ ، الجمالىّ ، المرحوم عبدالله الطَّنَاحى ، إمام المقام الشريف : أدام الله تعالىٰ رفعته ـــ قد طالَتْ فى المخالصة قُدْمته ، ووفُرَت من صِدْق المُوالاة قِسمَتُه ؛ فرُفِع علىٰ الاْبتداء خَبَرُه ، ونصب علىٰ ... ...[1] تقدّمه فحُمِد فى الاْختيار

(١) بياض بالأصل ، ولعله "المدح أو التعظيم" .

أثَرُه، وكانت وظيفتا نظرِ الصادر وخَطَابة الجامع الغَرْبىّ بثغر الإسكندرية المحروس ـ حرسه الله تعالىٰ وحماه، وصانَ من طُروق العدوّ المخذُول حِماه ـ من أرفع الوظائف قَدْرا، وأميَزِها رُتْبة وأعْلاها ذِكْرا ـ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُسند وِلايتَهما إليه، ونَعتَمِد فى القيام بمصالحهما عليه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ آراؤُه مسدَّده، ونِعَمُه على الأولياء فى كلِّ حينٍ مُجَدّده ـ أن يَستقرّ المشارُ إليه فى الوظيفتين المذكورتَين عوضًا عمن كانتا بيده، بما لَهما من المعلوم، ويُفْسَح له فى الاستنابة علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذلك : ٱستنادًا إلىٰ أمانتِه التى بلغَتْ به من العِفَّة مُنتهاها، وكِفايتِه التى عَجَز المتكلّفون عن الوُصول إلىٰ مَدَاها، وفصاحتِه التى أعجزَتْ ببراعتها الخُطباءَ الأماثل، وبلاغتِه التى قضَتْ بالعِىّ علىٰ قُسِّ إيادٍ وحكَمَتْ بالفَهَاهة علىٰ سَحْبانِ وائل .

فليتلقَّ ماأسند إليه بيَده الطُّولىٰ وباعِه المَديد، ولْيقابِلْ هذه النعمةَ الجليلةَ بالشُّكر فإنَّ الشكر مستلزِمٌ للمزيد، عالما أنَّ نظَر الصادر يقدِّمه أهلُ الثغر علىٰ عامَّة الوظائف مادَقَّ منها وما جَلّ، ويتبرَّكُ المرتَّبون عليه بما يأخُذونه من راتِبه وإن قلّ، فلْيُحسِنِ النظرَ فيه وِرْدا وصَدَرا، ويميِّزْ رَيْعه بحُسن النظر فيه حتَّى يقول المعاندُ : ما أحْسَنَ هذا نَظرا ! .

والجامعُ الغربىّ فهو أجلُّ جوامع الثغر الإسكندرىِّ قَدْرا، وأعظمُها فى الأقطار صِيتًا وأسْيَرُها فى الآفاق ذِكْرا، يحضُر الجُمعةَ فيه أهلُ الشَّرق والغَرْب، ويُلِمُّ بخُطبته سُكَّان الوِهَادِ والهَضب، فلْيرْقَ منبره رُقِىّ مَن خَطبه المِنبر لخُطبته، وعلِم عُلُوَّ مقامه فقابله بعلُوّ رُتْبته، ويشنِّف الأسماعَ بوعْظه، ويَشْجِ القلوبَ بلفْظه، ويُحْيِ العُقُول بتذْكيره، ويُبْكِ العيونَ بتحْذيره، ولْيُعِدْ للجامع ما تعوّده من الإسعاد،

ويجدّد مادَرَس من معالم خَطَابته حتَّى يقال : هذا ٱبنُ المُنَيِّر قد عاد؛ وعمادُ الوصايا تقوى الله فهى مِلاكُ الأمور كلِّها، وعليها مدارُ أحوال الدُّنيا والآخرة فى عقْدها وحَلِّها؛ وهاتان مُقدِّمتَا خيرٍ فليَكُن لنتيجتهما يرتَقِب، ولا يَقْطع بالوقُوف معهما رجاءه «فأوّلُ الغيث قَطْر ثم يَنْسَكِب»؛ والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعْلاه، حجةٌ فيه بمقتضاه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

الصنف الثالث

(من الوظائف التى يُكتَب بها بثغر الإسكندريَّة المحروس، الوظائفُ الدِّيوانيةُ، وهى علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ

(مَنْ يكتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامىّ» بالياء وهو ناظر المباشَرة بها، وعنه يعبَّر بناظر الإسكندرية، دون ناظر الأصْل[1] المقدّم ذكره فى جملة الوظائف الديوانية بالحضرة)

وموضوعُ هذه الوظيفة التحدّثُ فى الأموال السلطانية بالإسكندريَّة مما يتحصَّل من المأخوذ من تِجَار الفَرَنج، وسائر المَتَاجِر الواصلة بَرًّا وبحرًا بالقَبْض والصَّرْف والحملِ إلى الأبوابِ السلطانية.

وهذه نسخةُ توقيع بنظر ثَغْر الإسكندرية، كُتِب به للقاضى «جمالِ الدين ٱبن بَصَّاصة» وهى :

---

(١) وهو ناظر الخاص المتحدّث فى الأموال السلطانية كما تقدّم.

الحمدُ لله الذى أضحكَ الثُّغُور بعد عُبُوسها[1] ، وردّ إليها جَمالَها وأنار أُفُقَها بطلوع شُمُوسها ، وأحيا معالمَ الخَيْر فيها وقد كادت أن تُشرفَ علىٰ دُرُوسها ، وأقام لمصالح الأمّةِ مَن يُشرِق وجهُ الحق ببيَاضِ آرائه ، وتلتذُّ الأسماع بتلاوةِ أوصافِه الجميلةِ وأنبائِه .

نحمَدُه حمدَ من أُسبِغت عليه النَّعماء ، وتهادتْ إليه الآلاء ، وخَطَبتْه لنفسها العَلْياء ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً ترفع قـدْرَ قائلها وتُعْليه ، وتُعِزُّ جانب منتَحِلها وتُدْنيه ، وأن محمدًا عبده ورسوله أفضلُ نبيٍّ رابَطَ وجاهَد ، وأكرمُ رسول جنَحَ للسِّلْم بأمر ربِّه فهادَنَ وعاهد ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ، وأشياعه وحِزْبه .

وبعـدُ ، فأحقُّ مَن ماسَ فى أرْدية الرياسة عِطْفا ، وآستَجْلىٰ وجُوهَ السعادة من حُجُب عزِّها فأبدَتْ له جمالا ولُطْفا ، وآصـطفَتْه الدولةُ القاهرة لمهمَّاتها لَمَّا رأتْه خيرَ كافل ، وتنَقَّل فى مَراتبها السنيَّة تنقُّل النيِّرَيْنِ فى المَنازِل[2] .

ولمـا كان فلان أدام الله رفعته ممن أشارت إليه هذه المناقب الجليله ، وصارت له إلىٰ كل سؤل نعم الوسـيله ، رسم بالأمر الشريف ـ لا زال ... ... أن يستقرّ فى نظر ثغر الإسكندرية المحروس ويباشرَ هذا المنصبَ المبارَك بعَزَماته المـاضيه ، وهِمَمه العاليه ، برأْى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك : ليُصْبح هـذا الثغرُ بمباشَرته باسمًا حاليا ، وتعُودَ بهجَتُه له بجميلِ نظرِه ثانيا ، و ينتصبَ لتدبير أحوالِه علىٰ عادته ، و يقرّرَ قواعدَه بعالِى همَّته ، و يجتهدَ فى تحصيل أموالِه وتحصينِ ذخائِره ، وآستخراج زكاتِه

(١) تقدّمت فى صفحة ٤٠٠ و ٤٠١ من هذا الجزء ببعض زيادة وتغيير وآختصار .

(٢) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل أحق من ماس ... ... من كان لحلل العفاف لابسا ، ومن نور الايقان قابسا ، الى غير ذلك من الأوصاف .

وتمية متاجره، ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألفوه منه، والرفق الذى نقلوا أخباره السارّة عنه؛ فإنهم هدايا البحور، ودوالبة الثغور؛ ومن ألسنتهم يُطَّلع علىٰ ما تُجِنُّه الصدور، وإذا بَذَر لهم حَبَّ الإحسان نشروا له أجنحة مراكبهم كالطيور؛ وليعتمد معهم ماتضمّنته المراسيمُ الشريفةُ المستمرّةُ الحكم إلىٰ آخر وقت، ولا يسلُكْ معهم حالةً تُوجب لهم القلقَ والتظلّم والمقت؛ وليواصِلْ بالحمول إلىٰ بيت المال المعمور، وليملأ الخزائن السلطانية من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه بكل ما تستغنى به عن الواصل فى البرور والبحور؛ وليصرف همّته العالية إلىٰ تدبير أحوال [المتاجر بهذا الثغر بحيثُ ترتفع رءوسُ أموالها وتنمى، وتجود سحائب فوائدها وتهمى، وليراع أحوال](١) المستخدَمين فى مباشراتهم، ويكشِفْ عن باطن سَيْرهم فى جهاتهم؛ ليتحقّقوا أنه مهيمِن عليهم، وناظر بعيْن الرأفة إليهم؛ فتنكفُّ يدُ الخائن منهم عن الخيانه، وتحلَّى أنامل الأمين بمحاسن الصِّيانه؛ وليطالع بالمتجدّدات فى الثغر المحروس، ليرد الجواب عليه منا بما يشرح الصُّدو ر[ويُطيِّب النفوس](١) وليتناول من المعلوم علىٰ ذٰلك فى غرّة كل شهر ما يشهَدُ به الديوانُ المعمور؛ والله تعالىٰ يتولّاه ويُعضِّده، ويؤيده ويسدّده؛ بمنّه وكرمه!

قلت: وربما كُتِب لناظرها توقيعٌ مفتتَح بـ«أما بعد حمد الله» فى قطع الثلُث.

❖ ❖ ❖

وهذه نسخة توقيع بنظر ثغر الإسكندرية، وهى :

أما بعدَ حمد الله مفيض حُلَل إنعامِنا علىٰ من أخلَصَ فى طاعتِنا الشريفة قَلْبه ولسانه، ومُولِى فضل آلائنا العميمةِ علىٰ من أرهَفَ فى مصالحنا عزْمَه وبنانَه؛

---

(١) الزيادة مما تقدّم فى صفحة ٤١ من هذا الجزء.

ومُحَلِّى رتب عليائنا الشريفة بمن أشرق فى سماء المعالى بدْره و إنسانُه ، وأينعتْ فى غصون الأمانىِّ قطوفُه وأفنانُه ؛ ومُبلِّغ أقصىٰ غايةِ المجد فى أيامنا الزاهرة بمن تبتسم بجميل نَظَره الثغور، وتعتصم بحميد خبَرِه وخِبْرته الأمور ؛ وتُشْرِق من جميل تدبيره البدُور ، وتعتمد علىٰ هِمَمه الأيامُ والدهور . والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الهادى إلىٰ الحق و إلىٰ طريقٍ مستقيم ، والناشِر لواءَ العدل بسَنَنه الواضح وشرعِه القويم ؛ والمُنْجزِ لمن ٱقتفىٰ سُبُلَه أوفىٰ تكريم ، وأوفرُ حظٍّ عظيم ؛ وعلىٰ آله وأصحابه ما ٱهتدىٰ بهديهم ذَوُو البصائر والأبصار، وٱرتدَىٰ بأرديتهم المُعْلَمة مقتفِى الآثار ـ فإنَّ أَوْلىٰ من أسنَدْنا إلىٰ نظره الجميل رُتْبة عزٍّ مازالت طيورُ الآمال عليها تحُوم، وعدَقْنا بتدبيره الجليل منصِبَ سِيادة مابَرِحت الأمانِىُّ له تروم؛ وٱعتمدنا علىٰ هِمّتِه العالية فصدَّق الخُبْرُ الخبَرَ، وركَنَّا إلىٰ حميد رأْيه فشَهِد السمعُ وأدَّى النظر(١) .

ولما كان فلانٌ هو الذى ٱتَّسق فى ذِرْوة هذه المعالى ، وٱنتظم به عِقْد هذه اللآلى، وحَوىٰ بفضيلة اللسان والبيان مالم تُدْرِكه المُرهَفَات والعَوالى ؛ فما حل ذِروةَ عزٍّ إلا وحلَّاها بنظره الجليل ، ولا رَقِىَ رتبةَ سيادةٍ إلا وأسفَر فى ذروتها وجهُ صُبْحه الجميل، ولا عُدِق بنظره كفايةُ رتبةٍ إلا وكان لها خيرَ كفيل .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال ينتصِى(٢) للرتب العلية خيْرَ مُنْجد ومُمِير، ويمتطِى للمناصب السنيَّة نِعم المَوْلىٰ ونعم النصير ـ أن يستقرّ ... ... فإنه القوىُّ الأمين، والمتمسِّك من تقوىٰ الله تعالىٰ ومراقبته بالسبب المتين؛ والمستنِدُ بجميل كِفايته ، وحميد ديانته ، إلىٰ حِصْن حصين ؛ والمستذْرِى بأَصالته و إصابته إلىٰ الجُنَّة الواقيةِ والحَرَم الأمين؛ فليقدِّم خيرةَ الله تعالىٰ فى مباشرة الوظيفة المذكورة بعزم

(١) لم يذكر خبرا لإنّ وهو معلوم من نظائره السابقة أى من كانت صفته كذا وكذا الخ .
(٢) بالصاد المهملة أى يختار و ينتق .

لا ينْبُو، وهمّـة لاتَخْبُو ، وتدبير يتضاعفُ علىٰ ممرّ الأيام ويرْبُو ، ونظرٍ لا يعزُب عن مباشرته فيه مثقالُ ذرّة إلا وهى من خاطره فى قرار مكين ، وضَبْطٍ لا تمتدّ معه يدٌ لامس (١) [اليهـا] إلا ويجد من مرهَفه مايكُفّ كفّها عن الخيانة بالحقّ المبين ؛ وليُضاعِفْ همّتــه فى مصالح هذه الجهة التى عدَقْناها بنظره السعيد ، وليوَفِّر عزْمتَه فإن الحازم من ألقى السمْعَ وهو شهيد ؛ والوصايا كثيرةٌ ومثـله لا يُدَلّ عليها ، والتنبيهات واضحةٌ وهو ــ وفقه الله ــ أهدىٰ أن يُرشَــدَ إليها ؛ والله تعالىٰ يوفّقــه فى القول والعمَل ، ويُصْلِــح بجميل تدبيره وحميد تأتّيه كلَّ خلل ؛ بمنّه وكرمه ! .

الطبقـــــة الثـانية

(مَنْ يُكتب له فى قَطْع الثلث بـ«ـالمجاس السامى» بغــير ياء أو «مجلِس القاضى» وفيها وظيفتان)

الوظيفـــــــة الأُولىٰ

(كتابة الدّرج)

وصاحبُها هو الذى يقومُ بالإسكندرية مَقـامَ كاتب السرّ بالأبواب السـلطانية فى قراءةِ المُكاتبة علىٰ النائب ، وكتابةِ الأجوبةِ وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك :

رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال شاملاً فضـلُه ، كاملاً عدلُه ، هاملاً بالإحسان وبْلُه ، متّصلا بالجميل حَبْلُه ، ملاحظًا بعين العنايةِ للبيتِ الزاكِى فَرعُه الطيِّب أصلُه ، معليا نَجمَه إلىٰ أسنىٰ المراتِب التى لا ينبغِى أن يكون محلّها إلا محلُّه ــ أن يستقرّ فلان

---

(١) فى الأصل ملتمس الا الخ .

فى كتابة الدَّرْج بثغر الإسكندرية المحروس علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته ، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخر وقت : لأصالته المُعْرِقه ، وغُصون نَسبه المُورِقه ، وآدابه الجَمَّه ، وفضيلته التى أبدىٰ بها عِلْمَه ، وكتابتـه التى حَلَّت المَهَارق ، وأبدَتْ من الجواهر ماتَمَنَّى لمسه المَفَارِق ، وتَذْوِى لنَضارته أزاهِرُ الروض النَّضير ، وتتفرَّد فى الحسن فلا تَجِد [لها] من نظير ، وتبرُز كالعقُود فى أجياد الترائب ، وتُنْشِئُ كُتُبا تغنِى عن الكتائب ، مع ماله من رآسة أثبتَت مَعاليَه ، ونفاسةٍ أضحتْ بجواهرها الأوصافُ حاليَهْ ، وصَـدَارةٍ توالتْ منه فاستوجب بهـا مزيدَ الحسنىٰ المتواليــه ، قد خُوِّل فى كرم الأصل فلا غَرْوَ أن أمسىٰ نجيبا ، ودعا بديعَ اللفظ ولطيفَ المعنىٰ فغدا كُلٌّ منهما لأمره طائعًا وبالإذعان مُجيبا ، وعلَا كوكبُه فأضحىٰ فى الرِّفعة بعيــدا وإن كان فى مَرْأَىٰ العين قريبا ، وزكا من أكابِره إلىٰ كل فريدٍ فى سُؤْدَده ، واحدٍ فى عُلَاه يَفُوق الجمعَ فى عَدَدِه ، فهو إنسانُ عينِ زمانه ، ومالكُ زِمام الإنشاء ومُصَرِّف عِنَان بنانه ، ومُبْرِز الحسناتِ بسفارته المقبولةِ وإطلاقِ بَيانه ، فلا غروَ أن ٱستوجبَ منَّـا مايقْضى له بالمَزيد ، وٱستحقَّ بٱتِّباع أصـلِه العالِم التقىّ إدراكَ مايُريد ، وتحلَّى بمناقبه ومآثره ، ونقل عن عَفَافه ومَفاخره .

فليستمرَّ فى ذٰلك علىٰ أجمـل عوائده ، وأجزل فوائده ، سالكًا فى ذٰلك طرائقَــه الحميـدَه ، ومناهجَه ومناهجَ أسلافه السَّديده ، مُبْرِزا من خَطِّه مايُخْجِل به الطُّروس ، ويَسُرّ بمزاياه النفُوس ، ويُنظِم كالعقُود ، ويلوح للأبصار حسنُ رونقه [المشهود] ، والله تعالىٰ يجعل إحسانَنا لدىٰ بيته الكريم مستمرّا ، وٱمتِنانَنا العميمَ عنده مستقِرّا ، وثغرُ العِناية به مفترًّا ، بمنّه وكرمه ! إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثانيـــة

(نظرُ دار الطِّراز بثغر الإسكندريّة)

وهذه نسخةُ توقيع بذلك ، كُتِب بها لصلاح الدين بن علاء الدِّين علىّ بن البرهان، سنةَ إحدىٰ وأربعين وسبعمائة ، من إنشاء الشريف شهابِ الدين كاتب الإنشاء، وهى :

رسم بالأمر الشريف ـ لا زالَ إيثارُه، يُكْرِم منْ غدا صلاحُه لحُلَّة العُلىٰ طِرازا، وآختيارُه، يقدِّم للمناصب الجليلة من ورِثَ من أبيـه نهضةً وآحترازا ـ أن يستقر فلان فى كذا : لكفايتـه المعروفة المحقَّقه ، ودرايتِه المألُوفة بركاتها الموفَّرةُ وحركاتُها الموفَّقه، وديانته التى منها الأ كابرُ علىٰ ثِقَه ، وأمانتِـه التى تعتمِدُ الحقَّ مستَدْعِيةً ومنفِقه ، وصيانتِه التى هى للواصل حافظةٌ وعلى الحاصل مُشْفِقه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى كانت فى سالفِ الزمان إلى الحُكَّام تُضَاف، وللعلمـاء الأعلام عليها نظرٌ وإشراف ؛ ومنها يُسْدَل علىٰ أوليائنا لباسُ الإنعام وترسَلُ أجناس الإتحاف، وتُسربَلُ الكعبةُ البيتُ الحرامُ فى كلِّ عام بجِلْبابهـا المحكم النَّسْج المُعْلَم الأطراف؛ وليصُنْ ذَهَبها عند صَرْفه وقَبْضه ، وليَزِنْ خزَّها بتقريبِ مَشُوبه وتحرير مَحْضِه ، ولْيُبِن عن حسن التدبير فى إبرامِ حريرِها ونَقْضِـه؛ وليستَجْلِب رجالَهـا وصُنَّاعها ، وليُجنِّبْ أحوالَهَا ضَيَاعها ، ولْيستجِدْ أصنافَها وأنواعَها، وليتفقَّد أ كافها وبِقَاعها؛ حتَّى يُظْهِر فى أعمالها آثارَ الصلاح، وتُشكَر مباشرتُه التى هى محمودةُ الآنتهاء مسـعودةُ الآفْتتاح ؛ والله يَقْرُن رجاءه بالإرباح ، ويُؤذِن له حيثُ سـلَك بإصابة الصواب والفلاح، بمنه وكرمه ! .

قلت : ودارُ الطِّراز هذه هى التى تُعمَل فيها المستعملاتُ السلطانية : ممـا يُحمَلُ إلىٰ خزانة الخاصِّ الشريف من الأقْمِشـة المختلفةِ الصِّفات : من الحرير والمقترح المخوَّص بالذهب، والتَّفاصيل المنقُوشة بضروب النقوش المختلفـة، وغير ذلك من رقيق الكتَّان وغيره ممـا لايُوجد مثلُه فى قُطْر من أقطار الأرض؛ ومنه[1] تُتَّخذ الأقمشةُ التى يلْبَسها السلطان وأهل دُورِه؛ ومنه تعمَلُ الخِلَع والتشاريفُ التى يَلْبَسُها أكابر الأمراء وأعيانُ الدولة وسائرُ أهل المملكةِ؛ ومنه تُبْعَثُ الهدايا والتُّحف إلىٰ ملُوك الأقطار . وقد كان يُكتب لناظر هذه الدار توقيعٌ عن الأبواب السـلطانية خارج عن توقيع ناظر الإسكندرية علىٰ ما تقـدّم ذكره . أما الآن فقـد صار ذلك تحتَ نظر ناظر الإسكندرية يتحدّثُ فيـه كما يتحدّثُ فى سائر أمورِها، ومرجع الكلِّ إلىٰ ناظر الخاصِّ بالأبواب السلطانية .

الجهـــة الثانيـــة

(ممـا هو خارج عن حاضرتَىْ مصر والقاهرة بالديار المصرية ــ بلادُ الرِّيف)

والمراد بالرِّيف فى أصل اللغة موضعُ المِيـاه والزَّرْع .

وقد تقدّم أنَّ رِيفَ الديار المِصريَّة وجهان :

الوجـــه الأوّل

(الوجه القِبْـلى ، وهو المعبَّر عنه بالصَّعيد)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك أنه ينقَسِم إلىٰ صعيدٍ أعلىٰ، وصعيدٍ أسفَل . وقد كانت ولايتُه العامَّةُ فى الزمن المتقـدّم يعبَّر عن صاحبها

---

(١) الضمير عائد على ماتقدم من الحرير والكتان .

بـ«والى الوُلاة بالوجه القبلى» ثم آستقرّتْ نيابةَ سلطنة علىٰ حدِّ تَقْدِمة العسكر بغَزَّة فى رُتْبة المكاتبة، فى الأيّام الظاهرية « برقوق » وهى علىٰ ذٰلك إلى الآنَ . ونائبُها يكتب له تقليدٌ بنيابة السلطنة بها فى قطع النصف .

وهذه نسخة تقليـدٍ شريفٍ من ذلك ، من إنشاء الشريف « شهاب الدين » كاتبِ الإنشاء ، وهى :

الحمـدُ لله الذى رَحِم بتعاهُدِ نظرِنا البلادَ والعِباد ، وحَسَم بموارِدِ زواجِرِنا موادَّ الفَساد ، وأحمدَ فى هذا الوجهِ لنا الآثارَ ووطَّأ بنا المِهاد ، وأفردَ آراءَنا بجميع المصالح على الجَمْع والإفراد، وأوْلَىٰ بنا الرعيةَ الخيرَ فى آسترعاء مَنْ يبذُل فى صيانتهم الآجتهاد، وأعْلىٰ بنـا كلمةَ العدل فهى تُنشَر وتُذَاع وأوهىٰ بنا كلمةَ الظُّـلم فهى تُقْهر وتُذَاد ، وأجلى بانتقامِنا فِئةَ الضلال فلها عن مُلكِنا الشريف آنْدفاع وآنْطِراد (١) .

نحمده علىٰ أنْ قرَن بآرائنا السَّداد، ونشكره علىٰ أنْ ضَمَّنَ آصطفاءنا حُسنَ الآرتياد؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة تَقُوم حُجَّتُها، يوم يقُوم الأشهاد، وتدُوم بهْجَتُها، علَمًا للإرشاد؛ ونشهد أنَّ سيد البشر محمدًا عبدُه ورسولُه الذى فَضَل العالَم وساد، وأجزل المكارمَ وجاد، وهَدىٰ بشَرْعه مَن حَادْ، وأردىٰ بَرْدعه من حادّ، وأجرى بجُوده النفْع حيثُ كان وأبدىٰ ببأْسِه القَمْع لمن كاد، وأخمدَ بأسيافه الباطلَ فبَادْ، وجعل لِأنْفِ مخالفِه الإرغامَ ولجيش مجانفه الإرعاد؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبـه الأنْجاب الأنْجاد، صـلاةً لهـا تضاعُفٌ وتَعداد، وبفتَكاتهم (؟) للنوائب إخْماد، وسلَّم تسليما كثيرا .

(١) دعته مراعاة السجع الى استعمال الانفعال من طرد ونص أهل اللغة على أنها لغة رديئة . فتنبه .

وبعد فإنَّ الله تعالىٰ لما أعلىٰ هِمَمنا وأصعَدَها، ووَفَّى عزائمنا من النصر مَوْعِدَها، وأسعف بمُلْكِنا الرعيةَ وأسعَدَها، وضاعف بنا لديهم النِّعمة وجدّدَها، وأوضح بنا سُبُل المَعْدَلة وجَدَّدَها، وأنجح بسُلْطانِنا آمالَ الخليقة وأنجدها — لم نُخْلِ من ملاحظتِنا أدْنىٰ الأقطار ولا أبعَدَها، ولم نُغْفِل من ممالكنا ناحيةً إلا نَحَاها فضْلُنا وقصدَها فأقرَّبها الصالحاتِ وخلَّدها، وأثَّرَبها المسامحات وأبَّدها، ونصر الشريعةَ وأيَّدها، وسدَّ الذَّريعةَ بأفعال حزْمٍ سدَّدها، ووطَّن أهلها ووطَّدَها، وأوردَ مَنْ بها موارد الأمن لما وردَها.

ولما واجَه إقبالُنا فى هذه الأيَّام الوجْهَ القِبْلىّ، وصعد إلى الصعيد الأعلىٰ ركابُنا العَلِىّ، لَمحْنا بلادَه وتعدُّدَها، وتعيَّنَ ملاحظتِه وتأكُّدَها، وكثرةَ السُّلَّاك لسُبُله، والمُلَّاك لحَوَله، والوُرَّاد لنَهَلِه، والوُفَّاد من قِبَله، وهو مَنْهج التجَّار فى التوجه من أبوابنا الشريفة والجواز، وبابُ اليَمَنِ والحجاز، وفى الحقيقة هذا المجازُ يتعين له الحفْظُ وفيه الاحتراز، وبه كَرَاسِىُّ منها السَّيارة تمتارُ وعلىٰ سِواها من البِلاد تمتاز، وبه مَراكِزُ وُلاة ينفرِد كلٌّ منها عن الآخَر ويَنْحاز، وهى: إطْفِيحُ، والبَهْنَسىٰ، والأُشْمُونين، ومَنْفَلُوط، وسُيُوط، وإخْمِيمُ، وقُوص. وهذه الأقاليم مجتمعةٌ متفرِّقه، وحدودُ بعضِها ببعضٍ متعلِّقه، وبها إقطاعاتُ مقدَّمى الألُوف والطَّبلخاناه والمماليك والحَلْقه، وإليها تَرَدَّدُ الرَّكَّاضة والمرتَزِقه، ورُبَّما أخاف المفسِدُون من بعضها سُبُلَه وقطَع طُرُقَه، فاتُّهِم البَرِىّ، وسَلِم الجَرِىّ، ولُبِّس علىٰ من هو عن الخيانة عَرِىّ؛ فرأينا أنْ ننْصِب بهذه الأقاليم والِىَ وُلاة يجُوس بنَفْسه خِلَالَها، ويدُوسُ بخَيْله سَهْلَها وجبالَها، ويَفْجَأ مُفْسِدها، ويَبْعَثُ(١) بَغْتَه بها، ويُخْمِد نفاقَها، ويُحْمِد وِفاقَها، ويُنصِف ضِعافَها، ويُذْهِب خلافَها، ويُزِيل شَكْواها، ويَكُفُّ عَدْواها، ويُصْلِح

(١) فيه تصحيف ولعله «ويفجأ مفسديها، ويبغت معتديها».

فسادَها ، ويُوضِّح سَـدَادها ، ويوصِّل حقُوقَها ، ويستأْصِل عُقُوقَها ، ويُواصِـل طُرُوقَها ، ويقابِل بالعِقاب فُسوقَها ، ويمنَع بإهتمامه أهواءَها ، ويَشْفِي بحُسامه أدْواءَها .

ولما كان المجلس السامىّ الأميرىّ الحُسَامىّ هو الذى عَرَف أحوالها وخبَرَها ، ووَلِىَ من أقاليمها ما علِم به مصالحَها وآعتبَرَها ، وعُهِدت منـه الأمانةُ والكِفايه ، وتُحُقِّقتْ نهضتُه فى كل عمل ويقظَتُه فى كل وِلَايه ـ آقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن تُفوَّض إليـه نيابةُ السلطنة الشريفة بهذه الأعمـال المذكورة والأقاليم كُلِّهـا ، وأن يَنْتضِى فيها حُسامَه الذى ينبغى أن يُرتضَىٰ ويُنْتضَىٰ لمثلها ، وأنْ يُحَلَّ محَـلَّه إذ آختَرْناه لأعلىٰ رُتَب الوُلاة وأجلِّها ، وأن نصِلَ أسبابَ النعمة لديه بهذه النعم التى كلُّ ولايةٍ فرْعٌ لأَصْلها .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زالتْ أيامه الشريفـة تخُصُّ الرتبَ العليـة بأهلِها ، وتشْمَل ذَوِى الآهتمام بإحسانِها وفضْلِها ـ أن يُفوَّض إلىٰ المشار إليه ولايةُ الوُلَاة بالوجْه القبلىّ . فلْيباشِرْ ذٰلك بهمَّة تَمْضِى فى البلاد عزائمُها ، ونهضـةٍ تسير إلىٰ دانيها وقاصيها صوارِمُها ، وشهامةٍ يُدْهِش المتمرّدين قادمُها ، ويَفْقِدُ موادَّ الفساد من حُسَامها حاسِمُها .

ونحن نَرسُمُ له بأمور يُلازِمهـا ، ونُوصِـيه بوصايَا يُداوِمُها ، أن يكون بتقوىٰ الله تعالىٰ عامِلا ، وللنُّصْح باذِلا ، وللشريعة معَظِّما ، ولمراقبة الله تعالىٰ مقَـدِّما ، وللحقِّ متَّبِعا ، وإلىٰ الخير مُسْرِعا ، وللؤمنين مؤَمِّنا ، وللمنافقين مُوَهِّنا ، وللرَّعايا موَطِّنا ، وللنَّزاهة مُظْهِرا ومُبْطِنا ، وعن الأبْرياء كافًّا ، وعن الأتقياء عافًّا ، وعن الأموالِ متنَزِّها ، وإلىٰ ما يُصلح الأعمـالَ من صالح الأعمـال[1] موَجِّها . وليَغْـدُ فى الأمور متثَبِّتا ، ولذوى

(١) فيه شبه استخدام فالأول بمعنى الجهات والثانى بمعنى الفعل . فتنبه .

الفجور مشتِّتا، ولسَماع حُجَج الخُصوم منصِتا، ولا يجعلْ لحُلوله الأقاليمَ حِينًا مؤقّتا، بل يدخُل المدينةَ علىٰ حينِ غفلةٍ من أهلها، وليَبْغَتْ بحُلُوله هذه النواحىَ ليَعْلَمَ ما هم عليه من ترك الفواحِش أو فِعْلها، ولْيُقِم بكل جهةٍ مَنْ يُعْلِمه بما يحتاجُ إلىٰ عِلْمه، ويُبكِّر له بما يفتقِر أهلُ البلاد إلىٰ السّتْر عنه وكَتْمه، وليَلْحظِ المَحارسَ والأَدْراك، وليجعَلْ لكل شاردٍ من بَطْشه أسرَعَ إدْراك — وقد رسَمْنا لوُلاة الأعمال المذكورة ومَنْ فيها من نوّاب الأُمَراء والمشايخ بهذه الصورة وأنْ لا يُجِيرُوا مفْسِدا ولا يُئْوُوه، ولا يُنْزِلوا خائنًا ولا يَحْوُوه، ولا يستُرُوا مختفيا ولا يَخْبُوه، ولا يُحِلُّوا نازحًا ولا يُوطِّنوه، بل يحضِرُوه ولا يؤخِّروه، ويُمسِكوه ولا يَتْرُكوه، ويُسْلِموه ولا يَحْمُوه، ومَنْ خالف هذا المرسومَ، أو اعتمد غير هذه الرُّسوم، فهو لنفسه ظَلُوم، وقد برِئَت منه الذِّمه، وزالتْ عنه الحُرْمه، وزلَّتْ قَدَمُه، وذهبَ مالُه ودَمُه، وقُرِئت مراسيمُنا بذلك هنالك علىٰ منابر الجوامع، وسمِعها كلُّ سامع، وهُم لك علىٰ امتثالِ أوامرِنا مساعِدُون، وعلىٰ اجتنابِ نَواهينا معاضِدُون، وللإصلاح ما استطاعُوا مُرِيدونَ وقاصدُون، فلا تمكِّنْ أحدا من العُرْبان ولا من الفلّاحين أن يركبَ فَرسا، فإنما يُعِدّها للخِيانة مختَلِسا، ولا يكونُ لها مرتَبِطا ولا محتَبِسا، وكُنْ لهم مُلاقيا مُراقِبا، فمن فعل ذلك فانتقِمْ منه بما رسَمْنا معاقِبا، ولا تمكِّنْهم من حمل السلاح ولا ابتياعِه، ولا استعارتِه ولا استيداعِه، وتفقَّدْ مَنْ بالأقاليم من تُجّاره وصُنّاعه، فخُذْ بالقيمة ما عند التُّجّار، واقمَعْ بذلك نفسَ الفُجّار، وأضْرِم نارَ العذاب علىٰ من أضرَمَ لعمل ذلك النار، وأْمُر كلَّ فِئتين متعاديتين بالمصالحه، واكفُفْ بذلك يَدَ المكافحه، وحلِّف بعضهم لبعضٍ بعد تحليف أكابرهم لنا على السِّيرة الحميدة والنِّيّة الصالحه، وخُذْهم فى الجنايات بالعَدل والمشاحّه، وفى المطالبات بالرِّفْق إن لم تكنْ مُسامَحه، واحمِلْهم علىٰ محجّة الحق الأبلَج والشريعة الواضحه. وإذا رُفِعت إليك شكوىٰ فأزِلْها، أو سُئلتَ إقالةَ

عثرة لذى هيئة فأقِلْها؛ أو وجب حدٌّ فأقِمْه لحينه؛ أو ٱرتبْتَ فى أمر فتروَّ حتّى تهتدى ليقينه؛ ولا تعتقِلْ إلا من أجرم جُرْما يُوجب الاعتقالَ والحَبْس؛ ولا تُسرعْ إلىٰ ما تَخْشىٰ فيه اللَّبْس؛ وٱعملْ علىٰ براءة الذِّمّه؛ وٱجهَدْ أن لايكون أمرُك عليك غُمَّه؛ ولا تُرجِّح للهَوىٰ علىٰ خَصْم خَصْمَه؛ ولا تَظْلِمه فانَّ الظُّلم ظُلْمه؛ وخَفْ نقمة الله فهى أعظمُ نِقْمه؛ ولا تأخُذْك علىٰ البرىء غِلظةٌ ولا قَسْوةٌ كما لا ينبغى أن تأخُذَك فى الجرىء رأفةٌ ولا رحمه؛ والله تعالىٰ يرفعُ لك بالطاعة رُتَبا؛ ويُنْجِح لك بالخِدْمة طلبا؛ ويبلِّغ بك فى الإصلاح أرَبا؛ ويردُّ بك أمرَ كل مفسِد مخيَّبا؛ ويُوضِح لك من الهداية مُغَيَّبا؛ ويُنْزِل بك من الخيرات صَيِّبا؛ والخطُّ الشريف أعلاه؛ حجة بمقتضاه . إن شاء الله تعالىٰ .

❖

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالوجه القِبْلىّ أيضا؛ من إنشاء الشريف شهاب الدين؛ كُتِب به «لعلاء الدين المُرادى» وهى :

الحمدُ لله الذى جعلَ إقبالَنا مُسْفِر الوجُوه؛ ونوالَنا مبلِّغا كلًّا من الأولياء ما يؤمِّلُه من القُرْب من أبوابنا الشريفة ويَرْجُوه؛ وإفضالَنَا يوفِّر أقسامَ النِّعم لمن وَفَّر دواعيه علىٰ طاعتنا فلا يزال ٱستحقاقه يُعيِّنه ويدْعوه؛ وإجمالَنا يُنْجِز وعود التقديم لمن تعدّدتْ خدَمُه فلا يتجاوزُه التكريم ولا يعدُوه .

نحمَدُه علىٰ أنْ جعل إنعامَنا يَهَبُ الجزيل ويحْبُوه؛ ونشكره علىٰ أن أقامَنا نُحِقُّ الحق فنرفَعُه فيدمغُ الباطلَ ويعلُوه .

ونشهد أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً هى خيرُ ما ينطِق به الإنسان ويَفُوه؛ لا يبرحُ اللسان يكرِّر إخلاصَها ويتلُوه؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبده ورسوله

الذى رفع الله ببعثته عن هذه الأمة كلَّ مكروه، وحمىٰ بشرعته الدينَ الحنيفَ فلا يُلم به التبديلُ ولا يَعْرُوه ، وأفاضَ ببركاته فى كل وجهٍ ما يُوسِع الخيرَ ويُدِرّه ويمنع الشَّر ويَدْرُوه ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله الذين هم عِترتُه وأقربُوه ، وصَحْبه الذين آستمعُوا قولَه وآتَّبعوه، صلاةً لا يزال وافدُها يَتْبع سبيلَ الإجابة ويَقْفُوه، ويصلُ إلىٰ محل القَبُول ولا يَجْفُوه ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد، فإنَّ الله تعالىٰ لما قَرَن آراءَنا بالسَّداد ، وأحسَن بنا النظرَ فى صَلاح البلادِ ومَصالحِ العِباد، لم نَزَلْ نرفَع أقدار المخلِصين بمزيَّة الآختيار والآرتياد، ونجمعُهم فى صعيد الإحسانِ ونُحِلُّهم رُتَبَ الإصْعاد ، ونُدْنِى منهم من له تامُّ آهتمام وشادُّ اجتهاد ، ونميز منهم من حَسُن حالًا بالجمع والإفراد .

والولايةُ علىٰ الوُلاة بالوجه القبلىِّ من أهم ما يُلْمَح، وأعمِّ ما يختار له مَنْ للحق يَنْصُر وللخلق ينصَح ؛ إذ بهـذا الوَجْه عُيون البُلْدان ، ووجُوه العُرْبان، وكراسِىُّ الأقاليم الحِسان، ومراكزُ الوِلايات التى تُحِلُّ دائرةَ السَّوْء بأهل العُدْوان، وإقطاعاتُ الجند والأمَراء، والخواصُّ الشريفـةُ التى علىٰ عمارتها إجماعُ الآراء، وعليه تتردَّدُ التُّجَّار، وإليه بالمِيرة يُتْمار ، ومنه تتعدّدُ المنافعُ فيتعيَّن أن ندفَع عنه المَضارّ، ونُلقِىَ أمورَه لمن يُنْتقىٰ حزمُه وعزْمُه ويُختار .

ولمّا كان فلان هو الذى له وِلاياتٌ آقتضتْ تقديمَـه ، وسبقَتْ منـه سوابِقُ خِدَم أجزلَتْ تكريمه، وما زالَ فى الشامِ علىّ الهِمّة حسنَ الشِّـيمه، وطهَّر البرّ من كل فاجر، ورأىٰ أن التَّقوىٰ أربحُ المتاجر، وأعذبَ للرعية من المَعْدَلة الموارِدَ فصدَر من أبوابنا إلىٰ أحمَدِ المصادر ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نجعلَ له من إقبالنا النصيبَ الوافر . فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لابَرِح يزِيد الأقدارَ علاء ويُظْهرها

من تكريمه فى أحسنِ المَظَاهر ـ أن تفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالوجه القِبلىّ وجميع نواحيه، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك ومستقرِّ قاعدتِه إلىٰ آخرِ وقت .

فليتلَقَّ هذه الولايةَ المباركة بقَبُولٍ حسَن، وليُوقِظْ جَفْن سَيْفِه الذى لم يعْرِف الوسَن ؛ وليتّق الله ربَّه فى السِّرّ والعلَن ، وليْحكم بما شَرع الله وسنّ ؛ وليجتهد فى إخماد العواقِب وإخماد الفِتَن ، لِيَسْكُن من تردّد إليها أو سَكَن . وليلاحظ هذه الأقاليمَ بعزائمه السَّيّاره ، وليحافِظْ علىٰ سلوكِ سِيرته الساره ؛ وليستَطْلِع من كل بلد أخبارَه ، ويتتَبَّعْ من كل والٍ آثارَه ؛ وإن رأىٰ منكرًا أزالَه ، أو وجد مُبْطِلا أذاله أو حقًّا أدالَه ؛ وليُعظّم أحكام الشرع وحُكّامه ، وليجعَلْه إمامَه ليَسْعىٰ نورُه أمامَه ؛ وليطالِعْنا بما تتعيَّن فيه المطالَعه ، ويراجعْ أوامرَنا فيما تجب فيه المراجَعه ؛ وليستجلِبْ لأيامنا الأدعيةَ النافعه ، وليباشرْ بنفسه الأمورَ التى هى له راجعه ؛ وليُراعِ فى القضايا المصلحةَ الجامعه ، ولتكُن حِمايتُه للؤمنين واقية وفَتْكتُه بالمجرمين واقعه ؛ وليَسَعِ الرعايا بالمَعْدَلة الواسعه ، ويمنع المجترئين بالأخْذة الرابيـة والهَيْبة الرادعه ؛ ولا يمكّنْ أحدًا من العُرْبان بجميع الوجه القبلىّ أن يركَبَ فرسا ولا يقتَنِيَه ، ويكف بذٰلك الأيدىَ المعتـدِيةَ فإنّ المصلحة لمَنْعهـم من ركُوبها مقتضِيَه ؛ وليُقِم الحُرمـةَ والمَهابه ، وليُدِم قيامَه فى الخدمة وانتصابَه ، وليُرهِفْ حدّ عَزْمه ويُمضِيه ، ويجرِّدْ سيفَ الانتقام على المُفْسِدين وينتَضِيه ؛ ومن وجده من العُرْبان خالفَ المرسوم الشريفَ من منْعه من ركوب الخيل كائنًا من كان ضرب عُنُقه ، وأرهقَه من البطش بما أرهقَه : ليرتَدِعَ به أمثالُه ، ولا يتّسِع لأحدٍ فى الشرِّ مجالُه .

وقد كتبْنا إلىٰ سائر وُلاة الأقاليم بمساعدته ، وأمرْناهم بمعاونَته ومعاضدته ، وأكّدْنا عليهم فى المبادَرة إلىٰ مايراه من جميع الأمور ، من غير تهاونٍ ولا تقصيرٍ

ولا فُتُور، حتّى لا تفوتَ مصلحةٌ عن وقتها، ولا تزال جموعُ المعتدين معاجلة بكَبْتها، وقد حذَّرنا العُربان من مخالفة مارسمْنا بالتعرّض لما يوجب هلاك نفُوسهم، وقطْعَ رءُوسهم .

وليُقْرأ هذا المرسومُ الشريفُ على المنابر بجميع نواحى الوجه القبلى لتمتَثلَ مراسمُه، ويتَلَقَّ بالقبول قادمُه، وليقفوا عنده، ويَقْفُوا رُشْده، ويرهبُوا من الشرّ وعيده ويستَنْجِزوا من الخير وَعْدَه، وهو ـ بحمد الله ـ ما برح مهذَّبا، وبأ كمل الآداب مؤدَّبا، وبما يفعله إلىٰ رضا الله تعالىٰ ورِضانا مقرّبا، والله تعالىٰ يجعلُه مختارا مجتبىٰ، ويُوزِعُه شكرَ مَنْحنا الذى أجزل له الحِبا، وخصَّ به هـذا العملَ الجليلَ فضاعف خِصْبَه واْهتزَّ ورَبَا، ويُطلِعه مباركا ميمونًا حيثُ حلَّ قيل له : مَرْحبا، ويَصْعَدُ به هذه الرتبةَ ويهَبُه توفيقًا مستصْحَبا، ويمهّد به الطرُقَ للسالكين حتّى يتلُوَ عليه لسان التأمين : ﴿ فتيمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبا ﴾ ، والخطُّ الشريف أعلاه، حجةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهـذه نسخة تقليد شريف بنيابتـه أيضا ، من إنشـاء المَقرّ الشهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله مطلِق التصرّف فيما كان ممنُوعا، ومُنطِق المتصَرِّف ليكون قولُه الصوابُ مسموعا، ومُوسِّع نطاقِ المَصْرِف فى جميع ما تعيَّن أن يكونَ له مجمُوعا .

نحمدُه حمدًا يعذُب ينْبُوعا ، ويُنبِت بمزيد الشكر زُرُوعا ، ويُدِرّ ضُروعا، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً تتفرّعُ فُروعا ، وتسكِّن جمُوعا وتسكِّتُ جُمُوعا، ونشهد أنَّ محمدًا عبـده ورسولُه الذى أقْوىٰ لأهْل الطُّغْيان رُبُوعا، وأجرىٰ

لعيُون الزَّرَد عليهم دُمُوعا ؛ وأغْرىٰ القِسِيّ بالحَنين إليهم وُرُوعا ، وأسقط علىٰ لَبَّاتهم طُيورَ السِّهام وُقُوعا ؛ ومهَّد البلاد بقتْلاهم فآمَن مَنْ خاف وأطعَم من تشكَّى جُوعا ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تعمُّ دِرْع الفجْر بشفَقها المخلَّق صُدُوعا ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنَّه لايستقيم نجَاحُ الأمور ، ويُستدامُ صَلاحُ الجمهور ، إلا بتفقُّد أحوال وُلَاتِهم ، وتعهُّد سُلوكِ الرعايا مع رُعاتِهم ، وردُّ مجُموع كلِّ عمل إلىٰ من لا يبيتُ طَرْفه فى مصالحهم مملوءًا من الوسَن ، ولا يَقرّ له فى التنقُّل فى مُهِمَّاتهم جَوَادٌ فى رَسَن ؛ ولا تهْدأُ سيوفُه فى الأغماد ما بَرَقت بارقةُ فِتَن ، ولا يَشْربُ المـاءَ إلا ممزوجًا بدمٍ ولا يبيتُ [إلا] علىٰ دِمَن ؛ وكانتِ الديارُ المصريةُ المحروسة أحوجَ شىء إلىٰ هذا الموصُوف ، وأكثرَ اضْطِرارا إلىٰ ما تُشامُ له فى صَلَاح رعاياها لوامعُ سُيوف ؛ والوجهُ القبلىّ بهـا هو الجامعُ ما يَزيد على السَّبعة الأقاليم ، الحائزُ من أهل الحضَر والبادية لكلِّ ظاعنٍ ومُقيم ؛ قد امتدَّ حتَّى كاد لاينتهِى إلىٰ آخر ، ولا يلْتَهِى بما يكْنُفه من برٍّ مُقْفر وبحرٍ زاخر ؛ قد جاوَرَ بالأوْدِية العميقة الحُوتَ فى المـاء وجاوَرَه فى السماء برفعة الجبال ، وتَطاولَ حتَّى اتّصل طرَفَاه الجنوبىُّ بالجَنُوب والشّمالىّ بالشَّمال ؛ وحوَتْ مَجَارِيه من النيل المبـارَك [ما]مَدَّ الرِّزْق الممتـدّ ، وأمدّ المَدّ المبيَضّ علىٰ عَنْبرة ثَراها المُسْودّ ؛ وهو الوجْهُ الذى تُعْرَف فى كوْثَر نيله نَضرةُ النَّعيم ، ويبْهَر حُسْنا من أوّل قَطْرةٍ تقع من مَرْآه الجميل علىٰ وَسِيم ؛ قد حالَ فيه الماءُ محمراًّ كأنمـا يَشْربُ نَدىٰ وَرْد الخدُود ، وحَلَا كأنما ضُربَ الضَّربُ فى لَمىٰ رِيقه المورُود ؛ وكان لا ينْهَض بأعبائه ، ويُرَدّ بالغَيْظ متقرِّحةً عيُونَ رُقَبائه ، ويمنع كلَّ مِنْسَر مُنْسَرٍ يحْذَر أن ينتهب وَذِيلَ (١) خِبَائه ؛ إلا مَن تقـدّمت له دُرَبٌ يتَعلَّم فى جليل الخُطُوب من مَضائها السَّيفُ

(١) فى الأصل «أن ينته وديل» .

المُدَرّب، ويقتدى فى دقيق التلطُّف بسياستها القَلَمُ المجرَّب ؛ وكان فلانٌ هو الذى تَتهادىٰ كفايتُه الأعمال، ويتعادىٰ نفعُه والسُّحبُ فلا يُدْرَىٰ لمن منهما التروِّى ولمن الآرتجال ؛ وقد وَلِيَ الأعمالَ البَهْنساويّةَ وهى فى هذا الوجهِ الجميلِ أبهجُ صُوره ، وأبهىٰ فيما تكْثُر منافعُه المشهوره ؛ فأضحىٰ المَغَلُّ فى بَيادِره يتَبادر ، والإقبال يتكاثرُ إقبالُه والمَحْل يتنازَر ، ومُزْدَرَعاتها تُعرَف سيماها فى وجُوهها من أثَرِ سجوت الليل كَزَرْع أخرَجَ شَطْأَه فاستآزر ؛ فاقتضىٰ حسنُ رأينا الشريف أن نُطلِق تصرُّفه فيما جاوره من الأعمال ، وأن نَشْغَل له يمينًا باليمين وشمالا بالشِّمال .

فخرج الأمر الشريفُ العالى ـ لا زال يؤيّد عزَّ الدين ظُهورا ، ويُتِمّ له فى أعماله نُورا ـ أن يكون فلان كاشفًا ووالِيَ الوُلاة بالوجه القبليّ بأجمعه : معطَّله ومزْدَرَعه ، وبَرّه وبحرِه ، وعامرِه وقَفْره ، وأهلِ حضَره وباديته ، وأصحاب زَرْعه وماشيته ؛ علىٰ عادَة من تقدّمه وقاعدَته فى ذٰلك ، ليأمَنَ المقيمُ والسالك ، ويجمعَ على الطاعة مَنْ قِبلَه هُنالك ، وينتظِمَ عِقْدُ عقائدهم المُتهالك ، ويقوىَ الله أجْره ، والشرعُ الشريفُ يكون نهيَه وأَمْرَه ، والحُكّام والأحكامُ هما ماهما فليحفَظْ زِمامَهما ، ولينَفِّذْ إلى الأغراض سِهامَهما ، وليوصِّل الحقوقَ إلىٰ أربابها ، ويسهِّل المطالبَ علىٰ طُلّابها ، ولْيُنصف إنصافا لا يُشتكىٰ معه حَيْف ، ولْيُقِم المهابةَ حتَّى لا يَقْدِر علىٰ التعدّى طارقُ طَيْف ، وليجرِّد عزائمَه فإنَّ من العزائم ماهو أمضىٰ من السَّيْف ، وليُحسِنْ قِرَى النِّيل القادمِ فى كل قريةٍ فإنّه ضَيْف .

فعلَيْك بما نأمُرك به من تعْبِئة صُفُوف الجُسور لأمْداده ، والآستعداد لجَرِّ عَوالى صَواريه ومَجْرىٰ جِياده ، وتفَقَّدْ قبلَ قُدومه طريقَه ، وآترُكْ عن رَىِّ البلاد تعويقَه ، وأقِم الجُسور ، فهى قِيَام الجَسُور ، وآحْفِر التِّراع(١) فإنها تُراعىٰ ، وأسْفرْ له

(١) لم نعثر على هذا الجمع فى كتب اللغة وإنما الترعة كغرفة إفرادا وجمعا .

عن عرائس قُرَاها المجلُوّة وُجُوها كُلّما قِسْنَ له إصْبَعا يَقِيسُ ذِرَاعا، وٱقطَعْ بإيصال حقّ كلِّ ناحيةٍ إليها من الماء مُنازَعة الخُصُوم، ونَبِّهُم أنَّ الماءَ قِسْمةٌ بينَهم لكلٍّ منهم شِرْبُ يومٍ مَعْلُوم، ولا تَدَعْ [به أحدا] من أهل المَفَاسد، ومن جرَتْ لهم بسوابق الفتَن عوائد، ومَنْ يتعزَّز بربِّ جاه، ومن لا يكونُ(١) له إلىٰ حمايةٍ ٱتّجاه، ومَنْ خرَج بوجهه للشرِّ مُصَرِّحا، أو لبابِ عقابٍ مستَفْتِحا، أو وقَف علىٰ دَرْب أو قَطع طريق، أو توعَّدَ أهلَ رِفاقٍ أو أهلَ فَرِيق، أو أقدَمَ علىٰ ضررِ أحدٍ فى نفس أو مال، أو خُشِيت له عاقبةٌ فى بِدَايَةٍ أو مآل، أو نزلَ فى بلدِ أميرٍ ليتغطَّىٰ بجناحه، أو ترامَىٰ إلىٰ عُصْبة يحمِلُ منهم حَدّ سِلَاحه، فسُلَّ عليهم سيْفَك الماضى، وأحسِنْ إلىٰ الناس إذا خَشِيتَ أن تُسىءَ إليهم التقاضى، ومَنْ أمسكتَه منهم فأمْضِ حكمَالله فيهم، وأقِمِ الحدُودَ علىٰ متعدّيهم، وطَهِّر الأرضَ بماء السُّيوف من أنجاسهم، وعَلِّق منهم أُناسًا بحبْل الوريد إلىٰ مَدَارج أنفاسهم، وٱصْلُبْ منهم على الجُذُوع من تناوَحُ الرياحُ بسَعَفِهم، وأوْثِقْ منهم بالسَّلاسل والأغلال من لاتقتضِى جرائمُهم إيصالَهم فىالمقابلة إلىٰ حدّ تلفِهم . وأكرِمْ قُدومَ من يَرِدُ عليك من الكارم، وقرِّر بحُسنِ تلَقِّيك أنك أوّلُ ما قدَّمْناه لهم من المَكارم، فهم سُمّار كلِّ نادِى، ورِفاقُ كلِّ مَلّاح وحادِى، ولا بُدّ أن يتحدّث السُّمّار، وتُتَداوَلَ بينَهم الأسْمار، فاجعلْ شُكرَنَا دأبَ ألسِنَتِهم، ومِنَنَنا حِلْية أعناقِهم، ومنَحنا سببًا لٱستجلاب رِفاقِهم، فهم من موادِّ الإرفاق، وجَوادِّ ما يُحمَل من طُرَف الآفاق، وقد بقِىَ من بقايا أهل العقائد الفاسده، والمَعاقد البائده، مَن يتعيَّن إقعادُ قائمهم، والتيقُّظُ لمتيقِّظهم والنومُ عن نائمهم. ونحن نُنَبِّهك علىٰ هذه الدّقائق، ونُوقِفك علىٰ أطرافها ولك رأْيُك إذا حَقَّتْ الحقائق، وطالِعْ أبوابَنا العاليةَ بما أشْكل عليك، تتنزَّلْ أنوارُ هُدانا أقربَ من رَجْع نَفَسك إليْك،

(١) لعل حرف النفى زيادة من قلم الناسخ .

*

واقْدُر حقَّ هذه النِّعمة فإنّا أولَيْناك منها ما لا يُضاهىٰ، ووَلَّيناك من بلادنا قِبْـلةً تَرْضاها، وتوَلَّيناك حيثُ وجَّهتَ وجْهك شَطْر المسجِد الحرام، ونُوِّعت لك أرواحُ الحجاز وأنتَ فى مصرَ وريفِها العامّ، والله تعالى يديم منك سَيْفا يَرُوع مَهَزُّه، ويؤيِّد بك الدِّين فإنه بك يقوم جاهه ويدُومُ عزُّه، والاعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه. إن شاء الله تعالىٰ.

الوجـــــه الثـانى

(من وجهى الديار المصرية البحرىُّ، وهو الشَّمالىّ)

وكانُوا فى الزمن القديم يخصُّونه بٱسم الرِّيف، مثل ٱختِصاص الوجْه القبلىِّ بالصعيد. وأربابُ الولايات فيه علىٰ ضربين[1] :

الضـــــرب الأوّل

(أرباب السيوف)

وتختَصُّ الكتابةُ منهم الآنَ عن الأبواب السُّلطانيـة بنائِب السلطنة بالوجْه البحرىّ، ومَقَرُّه مدينةُ دَمَنْهُور من البُحَيرة. وكان فى الزمن المتقدّم يكتفىٰ فى البُحيرة بواليها، وكذٰلك فى كلٍّ من سائر الأعمال بالوَجْه البحرىّ، وفوقَ الكلِّ ولايةٌ عامّة، يعبَّر عن صاحبها بوالِى الوُلاة، وربما [زِيدَ] بالوجه البحرىّ، ورُبّما عُبِّر عنـه بالكاشف. ثم ٱستقرّتْ نيابةً فى رُتْبة تقْـدِمة العسكر بغَزّة فى أيام الظاهر بَرْقُوق، علىٰ ماتقدّم ذكره فى المَسالك والممالك فى المقالة الثانية.

وهذه نسخةُ تقليد تصلُح لنائب الوجه البحرىّ، ممـا كان كَتَب به المقرُّ الشهابىّ ابنُ فضل الله لوالى الولاة بها، وهى :

(١) لم يذكر الثانى. فتنبه.

الحمدُ لله الذى أقام بنا كاشفًا لكلِّ شكْوَىٰ ، كاسفًا بَالَ كُلِّ عَدْوىٰ ، عارفًا بنهاية كلِّ دَعْوىٰ، عاطفًا بعَدْلنا إلىٰ إزاحة كل لأْوىٰ، و إزالةِ كلِّ بَلْوىٰ .

نحمدُه وهو أهلُ الحمد والتَّقْوىٰ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادة نأمَنُ بهـا الدانيةَ والقُصْوىٰ، ونُؤْمِن بها على السِّرِّ والنَّجْوىٰ، ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه و رسولُه أشرفُ من مَهَّد له جَنَّـةَ المأْوىٰ ، وأشرَفَ به علىٰ شَرَفِ المَثْوىٰ ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابِه الذين فَطَمَ بشريعته نُفُوسَهم عمَّا تَهْوىٰ، وفَطَرَ فِطَنَهم عليهـا حتَّى لا تَضِلَّ ولا تَغْوىٰ ، صلاةً ترتَوِى بفائضها السُّحُبُ ما تَروىٰ ، وسـلَّم تسليما كثيرا .

و بعـدُ فإن من سَجَايا أيَّامنا أنْ نكشِفَ كلَّ كَرْب ، ونُحْسِنَ إلىٰ رعايا بلادِنا إحسانًا يُنَوِّعُ فى كلِّ ضَرْب ، ونُدِيمَ الأمنَ حتَّى لا نَدَعَ سِـوىٰ النِّيل قاطعَ طريقٍ أو خارجًا علىٰ دَرْب؛ ونجرِّدَ من المَهابة سيفًا يُخْشَىٰ من قُرْبه ، وطَيْفا يَبِيتُ به طيرُ الكَرا متَمَلْمِلا علىٰ جَنْبـه ، وخَوْفًا لُبابُه من الخصائص المحمَّدية أنه يتقَدَّمُ إلىٰ قلُوب الأعداء مَسيرةَ شهرٍ [جيشُ] رُعْبِه؛ وكانت الديارُ المصريه المحروسةُ هى التى لا يُجْحَدُ سِوَاها ذُو وَجْهين، ولا يُوجَد لها فى جانبَيْها مماثل فى شيئين؛ والوجهُ البحرىُّ أوسعُهما عَرْضا، وأقربُهما من الرِّىِّ أرضًا ، وأصدَقُهما للبَـارق المُحْمَرِّ وَمْضا ، وأجمعُهما للذَّهب مَذاهبَ وللفضَّـة إِفْضا ، وأثبتُهما وطأةً لمجرىٰ النيل إذا أقبَـلَ فى تيَّـاره يتدافَعُ وآشـتدّت خيلُه رَكْضا ؛ وهو الوجهُ المتهلِّل بِشْرا ، المتضوِّعُ بِطيب رِياحه نَشْرا، المتزيِّن بمدائنه أكْثَرَ ممـا زيَّنه فى مَقاصِيره قيصَرُ وفى مدائنه كِسْرىٰ، المُتَهَنِّى بعروس كلِّ قريةٍ زُفَّ بهـا النِّيلُ فى مَسْرىٰ ؛ و به الثغور التى لا تُشام لهـا برُوق ، والمحَـارس التى ما لعاديةٍ إليها طُروق؛ وله من البَحْرَيْن حاجزان، ومن الجـانبَيْن بَرٌّ مُقْفِر وريفٌ مُقْمِر متبارزان ؛ وفيـه من الشُّعوب والقبائل فى الحَضَر والبادِيَة من

لا يُؤْمَن منه باترُه، ولا يُخْمَد بغير ما يُراق من دَمِ مُفْسِديهم ثائرُه . وكان لا يقُوم بها (١) كلَّ القيام، ويجمَعُ فرائدَها المشذَّرةَ فى أكمل نظام، إلا من تقلَّبت الأمورُ بقلْبه كلَّ التقليب، وجَرَّدت النُّوَب عَزْمه فى النوائب فجرَّدتْ سيفا يُحمَدُ فى التجريب؛ ولم يَزَلْ منذُ بلغَ الحُلُمَ أميراً مُطاعا، ومنْدُوبا لا يَفْرَق فى المهمَّات إذا طارَتْ نُفوس الأنظار شَعَاعا، وأوْقَدتِ الأسِنَّة سُوَاعا، وهُمَامًا لو أومض البرقُ ساعةَ بُؤْسه لَارتعدَتْ فرائِصُه زَمعا لا إزْمَاعا، أو قابلَه الرِّيح المعتدلُ عند أحكامه لأطبقَت الأممُ على أنه لا يُماثِلُه فى العدل قَطْعا وأجمَعَتْ علىٰ تفَرُّده إجْماعا . (٢)

وكان فلان هو العلِىَّ همًا، الجَزْلَ مداومةَ الجزيل دِيَمَا، المَلِىَّ بما لا يَقْدر علىٰ مثل دفْعه البحرُ متدَفِّقا وهَمْىُ الغَمَامِ منْسجِما؛ وقد حَمِدْنا له فى كلِّ ما باشرَه أثرًا، وأحْمَدْنا بجميل ملاحظته كلَّ برّ ضرا؛ فباشر الوجه القبلىَّ فملأ عينَ الناظر المتوسِّم، وعمّ سرُورُه حتَّى غامرَه جارُه الوجهُ البحرىُّ ببنانه المخَضَّب وضاحَكَه بثَغْره المتَبَسِّم؛ فلما تنقَّل فيهما ٱستقرار(؟) الوجهين وما وَالاهُما، وعُرِف فى وَجْهه نَضْرةُ النعيم بما أولاهما، وأخصَب جانبَاهما، وجَدَّ بهذا كلِّه ثم جدَّ بهذا فطاب الواديان كلَاهما؛ فٱقتضى حسن الرأى الشريف أن لا يخلُوَ الوجهان معًا من نظره الجلىّ الجميل، وأن يجْلُو عليه محاسِنَهما الكاملةَ ليُفارِقَ علىٰ وجه جميلٍ ويواصلَ علىٰ وجهٍ جميل .

فخرج الأمر الشريف ــ لازال يختارُ عليًّا، ويختالُ كلَّ غمامٍ يرتَضِى له وليًّا ــ أن يكون والِىَ الوُلاة بالوجه البحرىّ جميعه، متفرّدا بأفْراده ومجُموعه، ومحكّما فى قبائله وجمُوعه؛ وبعيده وقريبه، وبديعه وغريبه؛ وكلُّ ما هو داخل فيه، عائدٌ إلىٰ أعماله وراجع إلىٰ متوليه، علىٰ عادة مَنْ تقدّم وقاعدته فيما يَلِيه؛ وهى ما يُذْكَر من الأعمال:

(١) لم يتقدّم ما يعود اليه الضمير وان كان الغرض واضحا .
(٢) خوفا ودهشا .

الغربيّة ، الشّرقية ، البُحَيْرة ، المَنُوفيّة ، إبْيار، أَشْمون ، قَلْيوب . ولا أمْر ولا نَهْىَ إلَّا إليه راجع ، وله فى متجَدِّداتِ الأُمور مَراجع ؛ ولا أرباب تصريفٍ إلا وله عليهم تَصرُّف ، ولا صاحبَ جِدٍّ ولا حَدٍّ إلَّا فيه يَمْضِى ويتوقَّف ؛ وتقوى الله تعالىٰ أوّلُ ما نُوصيه بسببها ، ونُوصِّله إلىٰ رُتَبها ؛ وإقامةُ الشرع الشريف وإدامةُ مبارّه وإعلاء مَناره ، ومعاضدةُ حكْمه وحكّامه وأعوانه وأنصاره ؛ والوقوفُ معه فى إيرادِه وإصداره ، وإعلانه وإسراره ، والعملُ به فإنه مايَضلُّ من مَشىٰ فى ضوء نهاره ؛ وعمارةُ البلاد ، بادامة العدل وتكميل الرّىّ وتوْطين السُّكّان وقَمع الفساد ؛ واعتمادُ حكم التذاكر الشريفة لأمر الجراريف التى تُعْمل ، والتُّرَع التى تُراعىٰ والجسور التى لا يُقْدِم جَسُور علىٰ أنها تُهْمَل ؛ فهما قانونُ الرّىّ الكامل ، والضامنُ لخصْب البرّ السابل ؛ وإذا أجرى اللهُ النيلَ علىٰ عاداته الجميلة لا يدَعُ للمحل عيْنا حتّى يوارِىَ بالرّىّ سَوْءَته ، ويخفّف بتيسر وُصوبِ حقّ كلّ مكانٍ إليه وَطْأته ؛ ولا يَدَع عاليا إلا مستفلا ، ولا معطّلا إلَّا معتملا ؛ ولا طَوْقَ بحر إلا تمتدُّ يدُ النيل إلىٰ زرِّ جُيوبه ، ولا طائفَ رَمْل إلا يطوف طائف شِربٍ[(1)] علىٰ جَرْعائه وكَثيبِه ، حتّى يعُمَّ الجميعُ ، ويَعْمُر ربُوعَها بما ينسِجُهُ لها من ملابس حُلَل الربيع . وعليه بالإنصاف بينَ المساكين ، والإنصات إلىٰ الباكينَ منهم والمُتباكين ؛ ووَصْلِ أمورِهم علىٰ الحق الذى نَشَر اللهُ فى أيّامنا الزاهرة عَلَمَه ، ومقتضَى الشرع الشريف فإنه ما خاب من أدامَ عليه حُكْمَه وأدار إليه عَمَله . وأما أهلُ الفساد والاشتباه ، ومن يحتمى بصاحب شوكة أو يتمسّك برَبِّ جاه ؛ أو ينْزِل بلَدَ أميرٍ كبيرٍ مستظِلًّا بذَراه ، أو ملتجئا من خوفٍ أو مستطِعا من قِرىٰ قُراه ؛ فجميعُ هؤلاء تتبّعْ فِرقَهم ورِفاقَهم ، وطهّر الأرض منهم واْمسَحْ بالسُّيوف أعناقهم ؛ وأسجم[(2)] فى قتْلاهم ، وأثقلِ بالقُيود أسْراهم ،

(١) فى الأصل شر بيب . (٢) لعله وأثخن .

وشدِّد وَثَاقهم وكذلك مَنْ حَمَاهم وَوالاهم، أو ٱستحسَنَ أو مَنَّ عليهم أو مانَعَ عنهم، أو قالَ ماهُو منهم وهو منْهم، وكلُّ أجْرِهم فى الحكم مُجراهم، وأطل تحت أطباق الثَّرىٰ ثَوَاهم، ونَبِّه منهم أُناسا علىٰ رُءوس الجُذُوع وأنِمْ آخرين نومةً لاينتبهون بها من كَرَاهم، حتّىٰ يتأدّبَ بهم كلُّ مَنْ أعرض، ويتداوىٰ بمداواته كلُّ مَنْ فى قلبه مَرَض. وما أشكَلَ عليك فاسترشِدْ فيه بمطالعة أبوابنا الشريفة : لتجدَ هدى واضحا، وحقًّا لائحا، والله تعالىٰ يجعلك من الممهِّدين لأرضه، القائمين فى أنواعِ الجهاد بفَرْضه، والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه .

الجهـة الثـالثـة

(درب الحجاز الشريف)

وقد تقدّمَ أنه كان فى الزمن المتقدّم يُكْتَب عن السلطان تقليدٌ لأمير الرَّكْب فى الدولة الفاطمية وما تلاها . أما الآنَ فقد تُرِك ذلك ورُفِض كما رُفض غيرُه من الكتابة لأرباب السُّيوف بالحَضْرة السلطانية ، ولم يَبْقَ الآنَ من يُكتب له من ديوان الإنشاء شيءٌ سوىٰ قاضى الرَّكْب . وقد جرت العادةُ أن يُكتَب له توقيعٌ فى قطع العادة مفتَتَحا بـ«رُسِم» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك، كُتِب به للشيخ «تَقِيّ الدين السبكى» رحمه الله فى مبدإ أمره، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف - لا زال يُعينُ على البِرّ والتَّقْوىٰ، ويرتادُ لوفْد الله مَن يتمسَّك فى نَشْر الأحكام الشرعية بينَهُمْ بالسبيل الأقومِ والسببِ الأقْوىٰ - أن يستقرّ فلانٌ فى كذا : لما ٱختُصَّ به من غَزَارة علومه، وإفاضة فضائله المتنوّعةِ إلىٰ قُوّته

فى الحق وتصميمه ؛ فإنَّ مثله مَن يُختار لهذه الوظيفةِ الجاريةِ بينَ وفدِ الله الذين هم أحقُّ ببراءة الذِّمَم ، وأَوْلىٰ بمعرفة حكم الله تعالىٰ فيما يجبُ على المتلبِّس بالإحرام والداخلِ إلى الحَرَم ، وأحْوجُ إلىٰ الاطلاع علىٰ جزاءِ الصيد فيما جزاءُ المتعرِّض إليه مثلُ ماقتلَ من النَّعَم ؛ إلىٰ غير ذٰلك من ثُبوت الأهلَّة التى تترتَّبُ أحكامُ الحجِّ عليها ، والحكْم فى محظورات الإحرامِ وما يجبُ على المتعرّض إليها ؛ فليباشِر هذه الوظيفةَ فى الوقتِ المشارِ إليه علىٰ عادةِ من تقدّمَه فيها ، مجتهدًا فى قواعدها التى هو أَوْلىٰ من نَهَض بها وأحقُّ من يُوفِّيها .

قلت : أمَّا شهودُ السبيل المعبَّر عنهم بشهود المَحْمَل ، فإنما تكتب لهم مربَّعات شريفةٌ من ديوان الوزارة .

تم الجزء الحادى عشر . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الثانى عشر

وأوله القسم الثانى

(مما يُكتَب من الولايات عن الأبواب السلطانية ـ أربابُ الوظائف بالممالك الشامية)

والحمد لله رَبِّ العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خَاتَم الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه والتابعين ، وسلامُه

وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل

(المطبعة الأميرية ٥٠٧٠/١٩١٧/٣٠٠٠)

فهـــــرس

الجـــزء الحـادى عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

(تم فهرس الجـــزء الحادى عشر من كتاب صبح الأعشىٰ)

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الثانى عشر

طبـــع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٦ هـ
١٩١٨ م

صبح الأعشى

الجـــزء الثانى عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثانى

(مما يُكتَب من الولايات عن الأبواب السلطانية - [مايكتب لأ] رباب الوظائف بالممالك الشامية)

واعلم أنَّ نُوّاب السلطنة فى التولية علىٰ ضربين :

الضربُ الأوّل

(مَنْ لا تصدُر عنه منهم توليةٌ فى عمل نيابته)

وهم نُوّاب الديار المصرية : من النائبِ الكافل ، ونائبِ الإسكندرية ، ونائبِ الوجه البحرىّ ، ونائبِ الوجه القِبْلىّ ، فليس لأحد منهم تصرُّف فى ولايةٍ ولا عَزْل لنائبٍ ، ولا كاشفٍ ، ولا والِى حرْبٍ . إنما النائبُ الكافلُ يكتُب فى بعض الأمور علىٰ القِصَص ، والسلطانُ هو الذى يباشر الكتَابةَ على الوِلايات بنَفْسه ، والنائبُ الكافل يكتُب بالاعتماد علىٰ ما يكتُبُ عليه السلطان ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى موضعه .

الضـــــرب الثـانى

(من تصدُر عنه التوليةُ والعزلُ فى عمل نيابتـــه)

وهم نُوّابُ السلطنة بالممالك الشاميةِ السبعةِ المقدّمِ ذكرُها : من النِّيابات الصِّغار، والوظائفِ الدِّيوانية، والوظائفِ الدِّينيَّة، ووظائفِ مَشايخ التصوُّف ، والوظائفِ العادِيَّة : كرِيَاسة الطِّبِّ ونحوها، ووظائف زُعَماء أهلِ الذِّمَّة : من رِيَاسة اليهودِ، وبَطْرَكِيَّة النصارىٰ، وغير ذٰلك .

فأمّا النياباتُ الصِّغار التى فى أعمـال النِّيابات العِظَام : فمـا كانت نيابتُه إمْرةَ عَشَرة فأكثر يولِّى فيه النوّابُ ، وربمـا وَلّى فيه السلطانُ . وما كانت نيابتُه إمرةَ طبلخاناه فأكثر : يولِّى فيه السلطانُ، ورُبَّمـا وَلَّى فيه النوّابُ . وما كانت نيـابتُه تقدِمةَ ألف، فولايته مختصَّة بالسلطان دُونَ النوّاب .

وأما الوظائفُ الديوانيَّـــةُ، فمـا كان منها صغيرا ككتابة الدَّرْج وما فى معناها ، فأكثرُ ما يوليها النُّوّاب . وما كان منهـا جليلًا : ككتابه السِّرّ وما فى معناها، ونظَرِ الجيش، ونظَرِ المـال ، فتوليتُه مختصَّـة بالسلطان . وما كانَ منها متوسِّطا بين الطَّرفين : ككتابة الدَّسْت ونحوها : ففى دِمَشْقَ تارةً يولِّى فيها السلطانُ، وتارةً يولِّى فيهـا النائبُ . وفيما دُونَهـا من النيابات غالبُ من يولِّى فيها النُّوّابُ، وقد يولِّى فيها السلطانُ .

وأما الوظائف الدينيَّة، فمـا كان منها صغيرًا : كالتداريس الصِّغار، والخَطَابات بالجوامع الصِّغار ، وأنظار المَـدَارس والجوامع الصِّغار ، ونحو ذٰلك، فإنه يولِّى فيها

النوّابُ ولا يولّى فيها السلطانُ إلا نادرًا . وما كان منهـا جليلًا : كقضاء القُضاة ، فإنّ توليتَه مختصّة بالسلطان . وما كان منها متوسّطا بينَ الرتبتين : كقضاء العسكر ، و إفتاءِ دار العَدْل ، والحِسْبة ، ووَكالةِ بيت المال ، ومَشْيَخة الشيوخ ، ونحو ذٰلك : فتارةً يولّى فيها السلطانُ ، وتارةً يولّى فيها النُّوّاب . إلا أنَّ توليةَ السلطان فيها فى النيابات الكِبَار كالشام أكثَرُ ، وتوليةَ النوّاب فيها فيما دُونَ ذٰلك أكثَرُ .

وأما مشيخةُ الخَوانق فقد يُولّى فيها السلطانُ ، وقد يُولّى فيها النوّابُ : إلا أن توليةَ السلطان فى مَشْيَخة الشيوخ بالشام أكثَرُ، وتوليةَ النوّاب فى غير مشْيَخةِ الشيوخ بدِمَشْقَ وفى غيرها من وظائف الصُّوفية فى غيرِ دمَشْقَ أكثَرُ .

وأما الوظائف العاديَّة : كرِيَاسة الطب ونحوها ، ففى جميع النيابات تَوْلِيتُها من النوّاب أكثَرُ ، وربّما ولّى فيها السلطان .

وأما وظائفُ زعماء أهل الذمّة : كرِياسة اليهود ، وبَطْرَكِيَّة النصارىٰ ، فيستبدّ بها النوّابُ دُونَ السلطان : لزيادة حَقَارتها فى الوظيفةِ والبُعْد عن حضرة السلطان .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الممالك بالبلاد الشامية أنه كان بها سبع ممالك عظامٍ ٱستقرّتْ سبع نِيابات :

النيابة الأولىٰ

(نيابةُ دِمَشْق ويعبَّر عنها بكَفَالة السلطنة بالشام)

ووظائفُها علىٰ نوعين :

النـــــوع الأوّل

(ما هو بحاضرة دِمشْــقَ ، ويشتمِلُ ما يُكتَب به من وظائفها
عن الأبواب السلطانية علىٰ أربعة أصناف)

الصـــنف الأوّل

(أربابُ الســيوف ، وهــمْ علىٰ طبقات)

الطبقـــة الأُولىٰ

(مَنْ يكتب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بـ«المَقَرّ العـالى» مع الدعاء
بـ«عِزّ الأنصار» : وهو نائب السلطنة بها)

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ، كُتِب به عن السلطان الملكِ العادل «كُتْبُغا» للأمير «سَيف الدين غرلو العـادِلى» من إنشاء الشـيخ شهاب الدين محمودٍ الحلبىّ ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل لسيفِ دولتِنا علىٰ عاتقِ المُلْك الأعَزّ نِجادًا ، وآدّخر لكَفَالة مملكتِنا من الأولياء مَن تَناسبَ وصْفاه آجتهادًا فى مصَالح الإسلام وجِهادًا ؛ وعَدَق أمورَ رعايانا بمن أيْقَظ لها سيْفَه وجَفْنَه فآمتلأَتْ عيونُهم بمـا وَهَب وسَلَب من نومه ونَوْمِ العِـدا رُقَادا ، ورفَع ألويَةَ إحساننا علىٰ مَنْ زادَ برفعها ظِلُّ عدْلِه آنبِساطًا على الرعية وآمتِـدادا ، ووطَّد قواعدَ ممـالكِنا بمن أجَلْنا الفِكْرَ فى حُسن آختياره آنتقاءً لمصالح الإسـلام وآنتِقَادا ، وأدّى لشُـكْرِ نعِم الله التى لا يؤدَّى شـكْرُ بعضها ولو أنَّ ما فى الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ أو كان البحرُ مدَادا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلَتْ عزائمنَا على الأبد منْصُورَه، ومقاصِـدَنا علىٰ مصالح المسلمين مقْصُوره، وآراءَنا تفوّض زَعَامَة(١) الجيوش إلىٰ من تُصْبِح فِرَقُ الأعداء بِفَرَقِه مغزوّةً وممالكُهم بمهابته محْصُوره .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لانَزال نَنْشُر دَعوتَها فى الآفاق، ونُرْهف لإقامتها فى ممالكِنا سَيفا يَصِـلُ ما أمَرَ اللهُ بقَطْعه ويَقْطَعُ إلّا الأرزاق، ونُرهِبُ من ألحدَ فيها بكل ولىٍّ لرُعْبِـه فى القلوب رَكْض ولرايته فى الجوانح خَفْق ولأسِنَّته فى الصُّدور إشْراق؛ ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله أشرفُ من فَوّضَ حُكْما فى أيّامه إلىٰ من ٱعتَمَد عليه، وأرأَفُ من ٱستخْلَف علىٰ من بَعْدَ عنـه من أُمَّته مَنْ يعلم أنَّ صلاحهم فى يدَيْه، وألطَفُ من عَدَق شيْئا من أمور أهل ملَّته بمن أعانَه الله وسدّدَه فى دَفْع عدوّهم وصلاح ما يرْفَع من أحوالهم إليـه؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين وُلّوا على الأمَّة فعدَلُوا، وأُمِروا بمـا جبلَه الله عليـه من الرأْفة والنِّعمة والرحمة فامتثَلُوا، وعلِمُوا أنَّ الحق فيما نَهَج لهم من طُرُق طريقته المُثْلىٰ فمـا مالُوا عن ذٰلك ولا عدلُوا؛ صلاةً لاتَغْرُب شمْسُها، ولا يَعزُب أُنْسُها، ولا تُعْتَبر أوقاتُ إقامتها إلا ويُقَصِّر عن يومها فى الكثْرة أمسُها؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإن أوْلىٰ ما أعملْنا إليه ركائبَ الآراء المؤيّده، وصرَّفْنا إليـه أزِمَّة نجائب الأفكار المسَدّده؛ وأجَلْنا فيه طِرْفَ النظر الذى لايُشَقُّ فى بلوغ الغاية غُبارُه ولا يُدْرَك، وأحَلْنا الأمرَ فيـه علىٰ التأييـد الذى هو عمدتُنا فيما يؤخَذُ من ثَواقب الآراء وما يُتْرَك؛ وقدّمْنا فيـه مُهِمَّ الٱستخارة الذى يتلُوه التوفيق، وعلِمْنـا أنَّ ألذَّ أسبابِ الٱهتداء إليه سلوكُ طريقِ النُّصح لله ولرسوله وللإسلام فسلَكْنا إليه من ذٰلك

(١) فى الأصل «بفرض عامة» وهو تصحيف .

الطريق ؛ وقصَرْنا النيَّة فيه علىٰ مصالح الأمة التى هى فرضُ العيْن بل عَيْن الفرض، وأطلْنا الآرتيادَ فيه لتعيُّن من نرجُو له ممَّن عناهم الله بقوله : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ . وندَبْنا له سيفًا لم يزَل فى صدُور الأعداء صَدْرُه وفى يَد جَبَّار السموات قائمُه، وأردْنا لتقدِمة الجيوش فيه زعِيمًا طالمَا مَلَّ ضَوءُ الصبح مما يُغَيِّره وملَّ سوادُ الليل مما يزاحِمُه؛ وقدّمْنا له من نَشَأ فى حَجْر وَلائِنا ، وغُذِّى بلبان بِرِّنا وآلائِنا ؛ وشهِدَ الوقائعَ بين يدَيْنا ، وخَبَرْنا من سيرته النُّهُوضَ فى الرعايا بما كتَبَ الله لهم من الرأْفَة والرحمة علينا ـ أمرُ نيابةِ ساطنتنا الشريفة بالممالك الشاميَّةِ التى نابَتْ فيها مهابَتُنا، عن الإقامة فيها، وجعلَتْها عنايتُنا ، من أشرف ممالِكنا التى نَخُصُّها على البُعْد بدوام الملاحظة ونُصْفِيها ؛ وهى واسطةُ عِقْد ممالِكنا ، ومَحطُّ رحال طُرقُنا إلىٰ جهادِ الأعداء ومَسالِكنا، وهالةُ أهِلَّة سَرَّىٰ القصد إلىٰ لحْظها فى أَديم الأرض مواقِعُ سَنابِكنا ؛ ومواطنُ القُرُبات التى نصَّت الآثارُ الصحيحةُ عليها ، ومظانُّ العبادات التى طَالمَا نَصَّتْ ركائبُ العِبَاد العُبَّاد إليها ؛ومقامُ الأبدال الذين هم أهلُ دارِ المُقامَه ، ومستقرُّ طائفة الدِّينِ الذينَ لا يزالون ظاهرين علىٰ أعدائهم لا يَضُرُّهم من خَذَلهم إلىٰ يوم القيامه ؛ وفَلَكُ الثغورِ الذى تُشْرِقُ منه كواكبُ سعودها ، وتتصرَّف من نوئه إلىٰ مَنْ جاورها من العدا خاطفاتُ بروقِها وقاصفاتُ رُعُودِها ؛ فكَمْ ذى جنودٍ أمَّها فهَلَك وما ملك ،وسلك إليها بجيوشه فزَلَّت وتزلزلت قدمه حيثُ سلَكْ ،ولجَيْشها البأسُ الذى وجُودُ الأعداء به عدم ، والحدُّ الذى يعرفه أهلُ السِّياق و[ان] أنكرَتْه أعناقهم «فما بالعَهْد من قِدَم» .

وأن نفوّض [أمرها] إلىٰ من ينْشُرُ بها على الأمة لواءَ عدلنا ، و يبسُطُ فيها بالرأْفَة والرَّحْمَة ردَاءَ فَضْلنا ، ويُحْيِي بها سُنَنَ الإحسان التى مَبْدَأُ أيامها غَايةُ من سَلَف من قبلنا ؛

ويقيم مَنَـار المُلْك من بَأْسه على أرفع عِمَاد ، ويُنيم الرعايا من عَدْله فى أَوْطَإ مِهَاد ، ويَكُفُّ أَكُفَّ الظُّلم إلى ما يتجاسر(١) إلى إعادة يده إليها عادٍ ومَنْ عاد ، ويُجَرِّدُ إلى العِـدَا من خَيَاله وخَيْله سرايَا تَطْرُدُ عن موارد جفونهم بقوائِمِها الرُّقَاد ؛ وتَسْتَعيد عَوَارِىَ أرواحهم من مُسْتَوْدَعَات أجسادِهم فهى بحكم العارِيَّة غيرُ مُسْتَقِرَّةٍ فى الأجساد ، ويَصُونُ الرُّتَبَ عن تَطَرُّقِ مَنْ يُفْسِد أحوالها لعدم أهليته : فإنَّه ماسَلَكَ أَحَدٌ فى أيامنا طُرُقَ الفَسَاد فَسَاد ؛ ويُعْلَم به أنَّا جَرَّدْنا على العِدَا سيفًا يَسْبِقُ إليهم العَذَل ، ويزاحِمُ على قَبْض نفوسهم الأَجَل ، وتَتَحَلَّى بتقليده الدُّوَل ، ويُتَحقَّق بفتكه أنَّه لا حاكِمَ بيننا وبينهم إلّا السَّيْفُ الذى إن جَارَ فيهم فقد عَدَل .

ولذلك لما كان المجلسُ العالى الفلانىّ : هو الذى آخْتَرْناه لذلك على عِلْم ، وقَلَّدْناه أمور الممالك : لما فيه من حِدَّة بأْسٍ وآيةِ حِلْم ؛ وعَجَمْنا عُودَه فكان لَيِّنًا على الأولياء فَظًّا على العِدَا ، وبَلَوْنا أوْصَافَه فعلمنا منه السَّدَادَ الذى لا يَضَعُ به النَّدَى فى مَوْضع السَّيف ولا السَّيْفَ فى مَوْضع النَّدَى ، وعرضنا سَدَادَه على حُسْن آعتبارنا للأكفاء فكان سميرًا (وحُمِلَ ، فزَيَّنَ مَعْرُوضًا ورَاعَ مُسَدَّدا) ؛ وهَزَزْناه فكان سَيْفًا يُنَصِّل حَدُّهُ الخَطْبَ إذ أعْضَل ، وأعطيناه أمر الجُيُوش فلم يختلف أَحَدٌ فى أنَّه أفضلُ من الأفضل .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال يَصْطَفِى من الأولياء كلَّ كُفْءٍ كريم ــ أن تفوّضَ إليه نيابةُ السَّلْطنة الشريفة بالممالك الشامية : تَفْوِيضًا يُعْلِى قَدْرَه ، ويبسُط فى مصالح الملك والممالك أمْرَه ؛ ويُطْلِق فى مصالح الدولة القاهرة سَيْفَه وكَلِمَه ، ويُدِرُّ على الأولياء إحسانَنَا الذى إذا جَارَى الغَيْثَ أخْجَل دَوَامُه دِيَمَه ؛ ويرفعُ بالعدل

(١) الصواب «حتى لا يتجاسر» الخ .

مَنَارَ دوامِ مُلْكنا الذى قرنه الله للأمة بجُودِنا ، ويضيف باسترفاع الأدْعِيَـة الصالحةِ لدولتنا من كل لسان جُنُودَ اللَّيل إلىٰ جنودنا ، وينظرُ فى أمور الممالك الشامية نَظَرًا عامًا ، ويُعْمِلُ فى سِدَادِ ثغورها وسَدَادِ أمورها رَأْيًا ثاقِبًا وفكْرا تامًا ؛ ويأمر النُّوّاب من سدّ خَلَلِها بما كِفَايَتُه أدْرَىٰ به منهم ، وينبِّهُهم من مصالحها علىٰ ماظهر لفكره المُصيبِ وخَفِيَ عنهم ؛ ويُلَاحظُ أموال ما بَعُدَ من البلاد كمُلَاحَظَتِه أموالَ مادَنَا ، وينظرُ فى تفَاصِيل أمورها : فإنَّها وإن كانت على السَّدَاد فليس بها عن حُسْنِ نَظَرِه غِنَىً ؛ ويَسْلُكُ بالرعايا سُنَنَ إنصافه التى وَكَلْتُه معرفَتُنَا به إليها ، ويُجْرِيهم علىٰ عوائد الإحسان التى كانت من خُلُقِه سَجِيَّةً وزدناه تَحْرِيضًا عليها .

وهو يعلم أن الله تعالىٰ قد أقامنا من الجهـاد فى أعدائه بسُنَّته وفَرْضِـه ، ومَكَّنَ لنا فى الأرض : لإقامة دعوته وإعلاء كلمته وتطهير أرْضِه ؛ وعَضَّدَنا بتأييده لنُصْرَة الإسـلام ، وأمدّنا من عُدَدِ نصره بكلِّ سَـيْفٍ تروِّع الأعداء به اليَقَظَةُ وتَسُلُّه عليهم الأحلام ، وبثَّ سرايا جيوشنا برّا وبحرا : فهى إمَّا سَوَارٍ فى البرّ تمر مَرَّ السَّحَاب أو جَوَارٍ مُنْشَآتٌ فى البَحْر كالأعلام ؛ ويتعاهد أحوال الجيوش الشامية كُلَّ يوم بنفسـه ، ويعِدُهم فى غَدِه باعادة ما اعتبره من عرضهم فى أمْسِه ؛ ويرتب أمْرَ كلِّ إقليم وحَالَه ، ويَتَفَقَّدُ مَنْ يباشر بالتقدمة تقدّمه إلى الأطراف وارتحـاله ؛ ويأمُرهم كل يوم بالتأهُّب للعَرْض الذى يباشره غدا بين يدَيْنا ، إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ؛ كتب به للأمير « جمال الدين أقُوش الأشرفيّ » فى جمادىٰ الأولىٰ ، سنة إحدىٰ عَشْرَةَ وسبعمائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ رحمه الله تعالىٰ ، وهى :

الحمــدُ لله الذى جعلَ الدِّينَ فى أيامنا الزَّاهرةِ زَاهيًا بجمَــاله ، سَاميًا بتقــديم مَنْ إذا أَرْهَفَ فى الذَّبِّ عنه بسيفِ عَزْمِه غَدَتِ الجنَّة تحتَ ظِلَاله ، حَاليًا بتفويض زَعَامَةِ جُيُوشــه إلىٰ مَنْ لو فَاخَرَ به البُدُورَ تعجَّبتْ من نُقْصانها وكماله ، عاليا بإيالة من تتولَّد معانى النصرِ والظفر بين الكَامِلَيْن : من رَوِيَّةِ رأْيِه وآرتجَاله ، راقيًا علىٰ هَامِ الكُفْر بعزائم من لا يزال تُصَبِّحُ مَهَابَتُه العِدَا بطلائع خَيْلِه وتُبَيِّتُهم بطوارق خَيَاله ، ناميا بإسناد الحكم فيه إلىٰ من يقطع إنْصَافُه بين المُبْطِل ورَجَائه و يَصِلُ العَدْلُ[منه] بين المُحِقِّ و بين آمَاله .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى أَنَامَتِ الرَّعايا من مَعْدِلَتِنا فى أَوْطَإِ مِهَاد ، وأدامتِ الدُّعَاءَ الصالحَ لأيامنا بإعلاءِ كَلِمَتَي العَدْلِ والجِهَاد ، وأقامت الإيالة فى أسْنَىٰ ممالِكِنا بمَنْ هو أجْرَىٰ من الغُيُوث ، وأجْرَأُ من اللُّيُوث ، فى مصالح البلاد والعباد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزالُ الألْسُنُ لإقامتها مُديمه ، والضمائرُ علىٰ إدامتها مُقيمه ، والقلوبُ تَعْقِدُ من كَلِمة إخلاصها و إخلاص كلمتها فى جِيدِ الإيمان تَمِيمَه ، والتوحيــدُ يُظْهِر أنوارَهَا فى الوُجُوه الوســيمه ، بمأْمَنِ مطالع القلوب السليمه .

ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى جَبَلَه علىٰ خُلُقٍ عَظِيم ، وجعله وإنْ تأخَّرَ عَصْرُه من مَقَام النبوّة فى أعلىٰ رُتَبِ التقــديم ، ومَنَّ على الأمّة بإرساله إليهــم من أنفسهم وأنه بالمؤمنين رَءُوفٌ رحيم ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين دُعُوا إلىٰ طاعته وأجابوا ، وحَكَمُوا بسنته وأصابوا ، وجَاهَدُوا المُعْرِضِين عن مِلَّته حَتَّى رجعوا إلى الهدىٰ وأنابوا ، صـــلاة لا تَغيبُ أنْواؤُها ، ولا يُفَارِقُ وجوهَ أهلهــا وقلوبهـــم رُوَاؤُها وإرواؤُها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنه - لما أجرانا اللهُ عليه من عوائد نَصْره، وأغرانا به من حَصْد الشِّرْك وحَصْره، ومنَحَنَا من بَسْطَة ملك زُيِّنَتْ بها أسَارِيرُ البسيطة وأَسِرَّتُها، ووَهَبَنا من فواتح فتوحٍ عَلَت علىٰ وجوه الكفر مَسَاءَتُها وبَدَتْ علىٰ وجوه الإسلام مَسَرَّتُها - لم نَزَلْ نُؤَدِّى شكر نعم الله بالإحسان إلىٰ عباده، ونَسْتَزِيد منها بتفويض أمورهم إلىٰ من يقومُ فى الذَّبِّ عنهم مقامَ الجَيْش على ٱنفراده؛ فلا نقدّم على الرأفة بخَلْقِ اللهِ أمرا، ولا نُحَابِى فى بَسْطِ المَعْدِلَة عليهم زَيْدًا ولا عَمْرا؛ ولا نعدِلُ بهم عمَّنْ إذا رَكِبَ فى مَوْكِب نيابتنا زَانَهُ وجَمَّلَه، وإذا جلس علىٰ بِساط عَدْلِنا زَاده وكَمَّلَه؛ وإذا رَسَم بأمرنا أصْغَتِ السُّيُوفُ إلىٰ مَرَاسِمِه، وإذا نظر بعَيْنِ عنايتنا ثَغْرًا أهدَىٰ الشَّنَبَ إلىٰ مَبَاسِمِه؛ وإذا رام فى مصالح الإسلام أمْرًا قَرُب علىٰ رَأْيِه بَعِيدُه، وإذا رمىٰ فى حماية الممالك عدوّا سَبَقَ إلىٰ مقاتله قَبلَ السيوفِ وَعِيدُه؛ وإذا جرّدَ جيشا إلىٰ أعداء الإسلام جَرَّتْ قبل اللّقاء ذُيُولَ هزائِمِها، وَرأَتِ الفِرَارَ أمْنَعَ لها من صَوَارِمها، ونَثَلَتْ مافى كَنَائِنِها من سِهَامٍ ضَعُفَتْ عن الطَّيَرَان قُوَىٰ قوادِمها .

ولما كان الجناب العالى الفلانىّ هو معنىٰ هذه الفرائد، وسِرّ هذه الأوصاف التى للشِّرْك منها مَصَائِبُ هى عند الإسلام فوائد، وفارسَ هذه الحَلْبة، التى أحرز [قصَبَ] سبقها، وكُفْءَ هذه الرُّتبة، التى أخَذَها دون الأكفاء بِحَقِّها؛ لاتأخذُه فى الحَقِّ لَوْمَةُ لَائم، ولا يأخذ أمر الجهاد إلا بجِدِّه «وما ليل المُجِدِّ بنائم» يسْرِى إلىٰ قلوب الأعداء رُعْبُه وهو فى مَكَانه، وتُؤَدّى مهابَتُه فى نكاية الكُفْر فَرْضَ الجهاد قبل إمكانه؛ ويَشْفَعُ العَدْلَ فى الرعايا بالإحسان إليهم، ويجمع بين إرهاب المعْتَدِينَ وشِدّة الوَطْأَة عليهم؛ ويقِف فى أحكامه مع الشريعة التى أعلى اللهُ تعالى مَنَارَها، ويَسْتَضِىءُ بأحكامها التى هى لابصار النُّظَّار تُعِير انوارَها .

وكانت المملكة الشامية المحروسة من الممالك الإسلامية بمنزلة القُوّة فى اليمين ، والواسطةِ فى العِقْدِ الثمين ، والإدراكِ فى الصُّدور ، والإشراقِ فى البُدُور ، وبها الأرضُ المقدّسه ، والحُصُونُ التى هى على نكاية الأعداء مؤسَّسه ، ولها الجيوش التى أَلِفَتْ فى الجهاد السُّرَى ، وأنِفَت لِسيوفها فى الجُفُون الكَرَى ، ومَرَّتْ على مَقَاتِلِ العِدَا أسِنَّتُها ، وصُرِّفَتْ فى مَسَالك الحربِ أَعِنَّتُها ، وراعَتْ مُلُوكَ أهْلِ الكُفر سُمْعَةُ أمرائها ، وحاطَتْها أمدادُ النَّصر فى حروبها من بين يديْها ومن ورائها ، وفيها من الأئمة العلماءِ الأعيانِ من يعدِلُ دَمَ الشهداءِ مِدَادُ أقلامهم ، ومن الأتْقِياءِ الصُّلَحاءِ مَنْ لا تَطِيش دونَ مقاتل أهل الكفر مواقِعُ سِهَامِهم - آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُمَتِّعَ هذه الرتبة السنيَّة بجمالها ، وأن نُبَلِّغَ هذه الدرجة السريَّةَ بمن حوى هذه الأوصافَ الفاخرةَ غايةَ آمالها ، لِيُصْبِحَ بها لِواءُ عدلِنا ، مَرْفُوعَ الذوائب ، ومَنْهَلُ فَضْلِنا ، مَدْفُوعَ الشوائب ، وكلمةُ جهادنا ، نافذةً فى المشارق والمغارب ، وقبضةُ بَأْسنا ، آخذةً من أعداء الدين بالذُّرَا والغَوَارِب ، وطليعةُ كتائبنا مؤتَمَّةً بمن تُوقِنُ الطَّيرُ أنَّ فَرِيقَه إذا ما آلتقى الجمعَانِ أوّلُ غالب .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالتْ صوارمُه للشِّرك قامِعَه ، ومراسمُه لمصالح الدين والدنيا جامعه - أن تفوّضَ إليه تفويضًا يرفع عَلَمَه ، ويُمْضِى فى مصالح الإسلام سَيْفَه وقَلَمَه ، ويَنْشُرُ فى آفاق الممالك الشامية عَدْلَه ، ويبسُطُ على رعايا تلك الأقاليم المحروسةِ فَضْلَهُ وظِلَّه ، فيَطْلُعُ فى أُفُقِ المواكب هَالَةَ أهِلَّتها ، وطِرَازَ حُلَّتِها ، وطَلْعةَ لوائها ، وواسطةَ عقودِ مقدّمها وآرائها ، وزينةَ تسييرها ووقوفها ، وحِلْيَةَ طلائعها وصُفُوفها ، ويَجْلِسُ فى مواطن الجلوس صَادِعًا بالحق فى حكمه ، آمرًا بإدامة التأنيب للعدوّ فى أيام سِلْمِه ، مُعْطيا مَنْصبَ النيابةِ الشريفة حَقَّه من الجلاله ، مُوفِيًا رُتْبَتَها المنيفةَ مايجب لها من أُبَّهَةِ المهابة وكفاءةِ الكَفَالَه ، ولا يزالُ

لمصالح الجيوش المنصورة مُلاحِظا، وعلىٰ إزاحة أعذارهم مُحافِظا؛ وإلىٰ حركات عُدوّ الإسلام وسكّاته متطلّعا، وإلىٰ مايتعين من إبطال مكايده متسرّعا؛ ولِبواطن أحوالهم بحسن الاطلاع مُحقّقا، ولجموعهم بيمن الاجتماع للقائهم مُفرّقا؛ فلا يُضمِرون مكيدةً إلّا وعلمُها عنده قبل ظهورها لديهم، ولا يُسِرّون غارة إلا وراياتُ خيله المُغيرة أسبقُ منها إليهم .

ولْيكن لمَنار الشّرع الشريف مُعْليا، ولأقدار أربابه مُغْليا؛ ولرُتَب العلماء رافعا، ولأقوالهم فى الأحكام الشرعية سامعا؛ ولِذوِى البيوت القديمة مُكْرِما، ولأهل الوَرَع والصّلاح مُعَظِّما؛ وعلىٰ يد الظالم ضارِبا، وفى اقتناء الأدعية الصّالحة لدولتنا القاهرة راغبا؛ وبجميل النّظر فى عِمارة البلاد مُديما، وبحُسْن الفِكر فى أمور الأموال مُعْمِلًا رأْيًا بمصالحها عليما؛ ولجهات البرّ بجليل العناية والإعانة عامرا، وعن كُلّ مالا يجب اعتمادُه ناهيا وبكل مايتعين فعلُه آمرا . وفى كمال خِلَالِه، وأدوات جَماله، مايُغْنِى عن الوصايا إلّا علىٰ سبيل الذّكرىٰ التى تنفع المؤمنين، وترْفع المتقين؛ ومِلاكُها تقوى الله تعالىٰ وهى من خصائص نَفْسه الكريمه، وعوائد سِيرته الحديثة والقديمه؛ والله تعالىٰ يُسَدِّدُه فى القول والعمَل، ويُؤيّده وقد فعل؛ إن شاء الله تعالىٰ .

***

وهذه نسخة تقليد بكَفالة السلطنة بالشام، كتب بها للأمير «سيف الدين تنكز الناصرىّ» فى ربيع الأوّل سنة اثنتَىْ عَشْرَةَ وسبعمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبىّ»، وهى :

الحمد لله مُفَوِّض أسْنَى الممالك فى أيامنا الزاهرة إلىٰ مَنْ تَزْهو بتقليده، ومُشَيِّد قواعد أسْمى الاقاليم فى دولتنا القاهرة بمَنْ يعلو بإيالتــه ما يُلْقِىْ إليه مَعاقِدُ مَقاليده؛

ومُسَدِّدِ الآراء فى تصريف أَعِنَّة جيوشنا المنصورة بتقديم مَنْ تَغْدُو سيوفُه من عنق كُلِّ مُتَوَّج من العِدا قِلَادَةَ جِيده ، ونَاشِرِ لِوَاءِ العَدْل فى رعايانا وإن بَعُدُوا بمن تُنيم كلًّا منهم فى مَهْد الأَمْنِ والدَّعَةِ يَدُ مَهَابَتِه وتمهيده ، ومُعْلِي مَنَارِ الجهاد فى سبيله بمَنْ إذا جرّد سَيْفَه فى وغًى تَهَلَّلَتْ نَوَاجِذُ أفواه المنايا الضواحِك بين تَجْرِيبِه وتجريده .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى أَيَّدَت آراءَنَا بوضْعِ كُلِّ شَيْءٍ فى مُسْتَحِقِّه ، وقَلَّدت سَيْفَ النَّصر من أوليائنا مَنْ يأخذه فى مصالح الإسلام بِحَقِّه ، وجدّدت آلاءنا لمن إذا جارت الحُتُوفُ سُيُوفَه إلىٰ مقاتل العِدا فاتها وفاقها بمَزِيَّتَيْ كِفَايَتِه وسَبْقِه .

ونشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لاشريك له شهادةً لا تَزَالُ أَلْسِنَتُنا تَرفع مَنَارَها ، وسُيُوفُنا تصلى من جَحَدها قبلُ نَارَها ، وآراؤُنا تُفَوِّض مصالِحَ جُمْلَتِها إلىٰ مَنْ إذا رَجَتْه لنُصْرَةٍ أنالها وإذا أَسْدَىٰ مَعْدِلَةً أَنَارها .

ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله الذى أيّده الله بنَصْره ، وجعله سابق مَنْ تقدّم من الرُّسُل علىٰ عَصْره ، وآتاه من الفضائل ما يَضِيقُ النُّطقُ عن إحصائه ومن المعجزات مايَحُولُ الحَصَرُ دون حَصْره ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين تَمَسَّكُوا بهُدَاه ، وهجروا فى طاعته مَنْ عاداه ، ونَهَضُوا فى رضا الله تعالىٰ ورضاه إلىٰ مظَانِّ الجهاد وإن بَعُدَ مَدَاه ، صلاة يشْفَعُها التسليم ، ونَبْتغِى إقامتَها عند اللهِ واللهُ عنده أجْرٌ عظيم ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإنَّ أولىٰ ما أعْمَلْنا فى مَصَالِحِه الفِكَر ، وتَدَبَّرنا أحواله بكل رَأْيٍ يُسَدِّدُه الحَزْم المُرَوَّىٰ ويؤيده الإلْهَامُ المُبْتَكَر ، وقَدَّمنا فيه الآستِخَارةَ علىٰ ماجَزَم اليَقينُ بأنّ الخِيرَةَ للإسلام والمسلمين فى آعتماده ، وتَمَسَّكْنا فيه بحَبْلِ التوفيق الّذى مازال نَتَكَفَّل

لنا فى كُلِّ أمْرٍ بسَدَادِه وفى كُلِّ ثَغْرٍ بسِدَادِه ـ أمرُ الممالك الشامية التى هى وَاسِطَةُ عِقْد الممالك، ومُجْتَمع مايُفْضِى إلىٰ مواطن النَّصْر من المسالك؛ ومَرْكَزُ فَلَكِ الأقاليم الذى تَنْتَظِمُ عليه بُرُوجُ ثغُورِها ، ونُقْطةُ دائرة الحُصُون التى منها مادّتُها وعليها مَدَارُ أمورِها ؛ وغِيلُ لُيُوثِ الحرب التى كم أَنْشَبت أظفارَ أسِنَّتِها فى طُرَّةِ ظَفَر، ومَوَاطِنُ فُرْسَان الوَغَى التى كَمْ أسفَرَ عن إطلاقِ أَعِنَّتِها إلىٰ غايات النَّصْر وجهُ سَفَر؛ وأن نَرْتَادَ لكَفَالة أمورِها، وكِفَاية جُمْهُورِها، وحمايةِ مَعَاقلِها المَصُونَةِ وثُغُورِها؛ وزَعَامة جُيُوشِها، وإرْغَام طَارِقِى أطرافها من أعداء الدين وَثَلِّ عُرُوشِها، مَنْ جَرَّده الدِّينُ فكان سَيْفًا علىٰ أعدائه، وٱنتقاه حُسْنُ نَظَرِنا للمسلمين فكان التوفيقُ الإلٰهيُّ مُتَوَلِّيَ جميل ٱنتقاده وٱنتقائه؛ وعَجَمْنَا عُودَ أوصافه فوجدْناه قَوِيًّا فى دِينِه، مُتَمَكِّنًا فى طاعته بإخلاص تَقْوَاه وصِحَّـةِ يَقِينِه؛ متيقِّظا لمصالح الإسلام والمسلمين فى حالَتَىْ حَرَكَتِه وسُكُونِه، آخذًا عِنَانَ الحَزْم بيُسْرِ يُسْرَاه وسِنَانَ العَزْم بيُمْنِ يَمِينِه؛ وَاقِفًا مع الحق لذاتِه، مقدّما مَشَاقَّ الجهاد علىٰ سائرمآربه ولَذَّاتِه، مَاضِيًا كَسَيْفِه إلَّا أنه [لا] يألف كالسيف الجُفُون، رَاضِيًا فى رَاحة الآخرة بمتاعِبِ الدُّنيا ومصاعبها فلا يَرْعىٰ فى مَوَاطِن الجهاد إذا حَلَّها أكْنَافَ الهُوَيْنَا ولا رَوْضَ الهُدُون، مَانِعًا حِمَى الإسلام لا "حِمَى الوَقَبىٰ بِضَرْبٍ" يُفَرِّقُ بين أسباب الحياة و "* يُؤَلِّفُ بين أشْتَاتِ المَنُون*" .

ولمـا كان فلان هو الذى تشوّفت هذه الرتبة إلىٰ أن تَتَجَمَّل به موا كِبُها، ونتكمل به مَرَاتِبُها، وتَنْتَظِم علىٰ دَسْتِه هَالَةُ أمرائها كما تنتظم علىٰ هالة بَدْرِ السماء كَوَا كِبُها ؛ فإذا طلع فى أُفُقِ مَوْكِبٍ أعْشَت الأعداءَ جَلَالَتُه، وأعْدَت الأولياءَ بَسَالَتُه؛ وسَرَىٰ إلىٰ قُلُوب أهل الكُفر رُعْبُـه، وفعل فيهم سِلْمُـه مايفعلُ من غيره حَرْبُه؛ وإذا جلس علىٰ بِسَاط عَدْلٍ خَرِسَ الباطل، وأنجز مافى ذِمَّته المَـاطِل؛ وتكلَّم الحقُّ بمِلْءِ فيه، وتبرأ البـاطل حتَّى ممَّن يُسِرُّه ويُخْفِيه ؛ وإن نَظَر فى مصالح البلاد أعان الغَيْثَ علىٰ

رَيِّها بِرِفْقه ، وأعاد رَوْنَق عمـارتها بكَفّ أكُفّ الظلم ووصول كلّ ذى حَقٍّ إلىٰ حَقِّه ـ آقتضت آراؤنا الشريفة أن نَجْعلَ فُنُون أفْنَانه بيُمْـنِ إيالَته دَانيةَ القُطُوف ، وأن نُصَيِّر جَنَّتَها تحت ظِلَال سَيْفه : فإن «الجنة تَحْتَ ظِلَال السُّيوف» .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال زَمَنُ عَصْره ، مؤَرَّخًا بالفُتُوح ، وسَيْفُ نَصْره ، علىٰ من كَفَر دَعْوَةَ نُوح ـ أن تفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس : تَفْويضًا يُحْسِنُ به المَنَـابَ فى تلك المـالك عنّا ، ويَنْشُرُ فيها من العَدْل والإحسان ما يُلقّاه منّا ، ويُلْبِسُها من حُلَلِ المَهَابة ما يُضَاعِفُ به أَمْنَ سِرْبِها ، وتُصْبِحُ به السُّيوف المجرّدةُ أَحْفَظ لها من قُرْبِها ، ويطلُعُ فى أفُقِ مواكبها الجليلة طُلُوعَ الشَّمس التى يَعُمُّ نَفْعُها ، ويُعْشِى النَّوَاظِرَ لَمْعُها ، ويجلسُ فى دَسْتِ نيابَتِنا حاكما فيهـا بأمرنا ، جَازمًا بحُكْم الشرع الشريف الذى قد عَلِمَ أنه حِلْيَـةُ سِرِّنا وجَهْرِنا ، نَاشرًا من مَهَابَة المُلْك ما تَرْجُفُ له القلوب من العِدا ، وتُصَبِّحُهم به سَرَايَا رُعْبِه علىٰ بُعْد المَدَى ، مُلْزِمًا مَنْ قِبَـلَه من الجيوش المنصورة بمُضَاعَفَة إعْداد القُوَّه ، وإدامة التَّأَهُّب الذى لا تبرح بسُمْعَتِه بِلَادُ أهلِ الكُفْر مَغْزُوَّه ، مُطَّلِعا علىٰ أحوال العدا بلُطْف مقاصده ، ونِكَاية مَكَايِدِه ، وحُسْن مصادره فى التدبير ومَوَارِدِه ؛ فلا يبرِمُون أمْرًا إلا وقد سبَقَهم إلىٰ نَقْضِ مُبْرَمِه ، ولا يقدّمون رِجْلًا إلا وقد أخَّرها بوَثَبَاتِ إقْدَامه وثَبَاتِ قَدَمه . وليعظِّم مَنَـارَ الشرعِ الشريف بتكريم حُكَّامه ، والوُقُوف مع أحكامه ؛ ويرفَعْ أقدارَ حَمَلَة العلم بترفِيهِ أسرارهم ، وتسهيلِ مَآرِبِهـم وأوطارِهم ؛ ولْيَعُمَّ الرعايا بعَـدْله وإنْصافه ، ويسترفِعْ لنا أدْعيَـةَ الأولياء والصُّلَحَاء بإسْعاده وإسْعَافه . وفى خصائص أوصافه الكريمه ، وسَجَايَاهُ التى هى لمصالح الإسلام مُسْـتَدِيمَه ؛ ما يُغْنِى عن تَشَدُّدٍ فى القول والعمل ، والله تعـالىٰ يؤيده وقد فعل ، ويجعله مـن أوليائه المتقين وقد جعل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام، كتب به للأمير «يلبغا الكاملى» بعد نيابته بحَلَب وحَمَاة، من إنشاء المقرّ الشِّهابىّ بن فضل الله ، وهى :

الحمد لله مُجْرِى الأقدار ، برِفْعَةِ الأقدار ، ومُثْرِى آمالِ مَنْ حَسُنَتْ له فى خدمتنا الآثار، بمَوَاهِبِ العطايا والإيثار، ومُمْرِى غُرُوسِ نِعَمِ أوليائنا التى رَعَىٰ عَهْدَها عِهَادُ سُحُبِ جُودِنَا الغِزار، جَاعِلِ أصفياء مملكتنا الشريفة كُلَّ حين فى ٱزدياد، ومانِحِ المخلصين فى خدمتنا مَزِيدَ الإسعاف والإسعاد، وفاتِحِ أبواب التأييد بسيوف أنصارنا التى لا تَهْجَعُ فى الأغْماد .

نحمده علىٰ مواهب نَصْره ، ونشكره علىٰ إدراك المآرب من جُوده الذى يَعْجِزُ لسانُ القَلَم عن حَصْره ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤيد قائلَها فى مَوَاقِفِه ، وتَجمعُ له من خَيْرِ الدُّنيا بين تَالِدِه وطَارِفِه ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى هَدَى اللهُ به هذه الأمةَ من الضَّلَال ، وفَضَّل به المجاهدين حيثُ جعل الجَنَّةَ تحت ما لِسُيُوفهم من ظِلَال . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً لا ٱنفصامَ لعُرْوَتِها ولا ٱنفصال ، ولا ٱنقضاءَ لأسبابها ولا زَوَال ؛ وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن أوْلىٰ مَن ٱنْتُدِبَ لحِفْظِ ممالك الإسلام ، وأُتُمِنَ علىٰ صَوْنِها بعَزْمِه الذى لا يُسَامىٰ ولا يُسَام ؛ وأُسْنِد إليه من أمور الرعايا بأجَلِّ الممالك ما يَقْضِى بمَزِيد التكريم ، وٱعْتُمِد علىٰ صِيَانته ودِيَانَتِه لَمَّا شَهِد الٱختبارُ بأنه أهْلٌ للتقديم ؛ وجَرَّبَتِ الدول مُخَالَصَتَه ، وحُقِّقَ ٱهتمامُه الذى بلَّغَه من العِزِّ غَايَتَه ؛ وأَثْنَتْ علىٰ حُسْنِ سِيرَتِه وسَرِيرَتِه سوابقُ خِدَمِه ، وشُكِرَ ٱهتمامُه فى المخالصة التى أعربَت عن عزمه ؛ ففاق أشْباهًا وأنْظَارا ، وكَفَلَ الممالك الشريفة الحَلَبِيَّة والحَمَوِيَّة فأيدها أعوانا وأنصارا ؛

وبسط فيها من العَدْل والإنصاف ما أعلىٰ له شأنًا ورَفَعَ له مِقْدارا ، وسلك فيها مَسْلَكًا شَنَّفَ أسماعا وشَرَّفَ أبصارا .

ولما كان المقر الكريم (إلىٰ آخره) هو صَاحبَ هذه المناقب ، وفَارِسَ هذه المَقَانِبْ ، ونَيِّرَ هذه الكواكب ، كم أبهج النفوس بمَالَهُ من عَزْمٍ مشكور ، وحزم مَأْثُور ، ووَصْفٍ بالجميل مَوْفُور .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لازال لسيفِ أوليائه مُرْهِفًا ، ولا بَرِحَ لأخصائه مُسْعِدًا ومُسْعِفا ـ أن تفوّض إلىٰ المشار إليه نِيَابَةُ السَّلطنة الشريفة بالشام المحروس ، علىٰ أجمل عوائد من تقدّمه فى ذٰلك وأكمل قواعده . فليتناولْ هذا التقليد الشريف بيدٍ لم يَزَلْ لها فى الوَلَاءِ البَاعُ المديدُ الطويل ، ويتلَقَّ هذا الإحسانَ بالشُّكْرِ الذى هو بدوام النعمة خَيْرُ كَفِيل ، ويضاعفْ ماهو عليه من اهتمامٍ لم يزل منه مألوفا ، واعتزامٍ إذا لَاقىٰ غَيْرُه مُهِمًّا واحدًا لَاقىٰ هو أُلُوفا ، ويُمْعِن النظرَ فى مصالح هذه المملكة الشامية المحروسه ، ويعتمدْ من حُسن تدبيره ما تغدو رُبُوعُها بحسن ملاحظته عَامِرَةً مأنوسه . وهو يعلم أن العَدْلَ من شِيَم دولتنا الشريفه ، وسَجِيَّة أيامِنَا التى هِىَ علىٰ هَامِ الجَوْزَاء مُنِيفَه ، فليسلك سَنَنَه ، ويتبع فَرْضَه وسُنَنَه ، ويعلمْ أنَّ عدل سَنَةٍ خيرٌ من عبادة ستين سَنَه ، ولينشُرْ على الرعايا مَلَابِسَه الحَسَنَه ، ويعظِم الشَّرعَ الشريفَ وحُكَّامه ، ويُعَيِّنِ الإقطاعات لمن يستحقها من الأيتام أو يوجبُ الاستحقاق إكْرَامَه ، والله تعالىٰ يجعل السَّعْد خَلْفه وأمامه ، ويؤيِّدُه تَأْيِيدًا يُبَلِّغُه مُرَادَه من النَّصْرِ ومَرَامَه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام :

الحمد لله الذى طَهَّرَ الشَّامَ وقَدَّسَه ، وصَانَه وحَرَسَه ، وجعل لسلطاننا فيه قواعِدَ بالنَّصْر مُؤَسَّسه ، وأنوارا للهُدىٰ مقتبَسه ، وكَفَلَه بمن إذا صَفَّ له العدوُّ آفترسه ، وأذَلَّه وأرْكَسَه ، وأرغم مَعْطِسَه ، وقَطَفَ بسَيْفه أرْؤُسَه ، ومَنْ يُعْطَى النَّصْرَ إذا آمْتَطَىٰ فَرَسَه ، ومن كَرَّم الله نَفْسَه ، وكَثَّر أُنْسَه ، وعَطَّر نَفَسَه ، ومن يُنْصِفُ المظلومَ من ظالمه ويبلِّغ السائلَ مُلْتَمَسَه ، ومن لَبِس ثوبَ العفاف والتُّقَىٰ فكان خيرَ ثَوْبٍ لَبِسَه .

نحمده علىٰ أَصْلِ جُودٍ غَرَسَه ، وعارِضِ سَوْءٍ حَبَسَه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً أزالت الشِّرْكَ ومَحَتْ نَجَسَه ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أنبع الله من أصابعه عَيْنًا مُنْبَجِسَه ، وآخْضَرَّ العُودُ اليابسُ لَمَّا لَمَسَه ، وأضعف الوساوِس المُخْتَلَسه ، وآنتزعَ الحَقَّ ممن بَخَسَه ، وحماه الله من الشيطان لما وُلِدَ فما نَخَسَه ، ونَوَّرَ القَلْبَ الذى خيم عليه الضلالُ وطَمَسَه ، وكان الشِّرْكُ قد آنْبَثَّ فى الأرض فطواه دينُه وكَبَسَه ، ومحاه ودَرَسَه ، وجاء بالقرءان فطُوبىٰ لمن تلاه ودَرَسه ، وأنزل عليه : ﴿ وآعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَه ﴾ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أولَجَ اللهُ اللَّيْلَ فى النهار وغَمَسَه ، وميَّز بنصف العدد من الثلث سُدُسَه ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن الشَّامَ هو عِقْدُ النِّظَام ، وأجَلُّ ممالك الإسلام ، ومَعْدِنُ النَّصْرِ الذى بُرُوقه تُشَام ، ومُسْتَقَرّ البركات الوِسَامِ ، وعَسْكَرُه أفضلُ عَسْكَرٍ فى حسن الآعتزاء والآعتزام ، لا يَرْهَبُون الحِمَام ، ويخوضون لُجَجَ المَنُون بالحُسَام ، ونيابةُ السلطنة الشريفة به من أجَلِّ النيابات مقْدَارا ، وأكْرَمِها آثارا ، وأعَزِّها أنصارا ،

إذ هو تِلْقَاء أوامرنا الشريفة المنطويةِ عليها أسرارُ البَريد، ومن عِنْده تتفرّع المهمات للقريب والبعيد، وعنه يَصْدُرُ البريد، وإليه يَرِدُ بكل ثناء جديد، ومنه يأتى إلىٰ مسامعنا الشريفة بما نُرِيد، فلا يَحُلُّ دارَ سعادتها إلا من هو منصورٌ سعيد، وذُو رَأْيٍ سديد، وحزمٍ حديد، وقد آخترنا لها بحمد الله كُفْأَها المعيد.

ولما كان فلان هو الضَّارِىَ علىٰ العِدا، وٱلغَيْثَ المتوالِىَ النَّدىٰ، والهمامَ الذى جَرَّد سيفَ عَزْمِه أبدا فلا يُرىٰ مُغْمَدا، وٱتَّصَفَ بحسن الصفات فما سَادَ سُدَىٰ؛ قد تجملت الممالك بآرائه ورَايَاتِه، وثَبَاتِه ووَثَبَاتِه، ورَوْضِ تَدْبِيره وطِيبِ نَبَاتِه، وحُسْنِ آعتماده فى خدمة مُلْكنا الشريف ومهِمَّاته؛ إن ذُكِرَت المُوَالاة الصادقة كان رَاوِىَ مُسْنَدِها، وحَاوِىَ جَيِّدها، والآوِىَ إلىٰ ظِلِّها المَدِيد وطِيبِ مَوْرِدِها؛ وإن ذُكِرَت الشجاعةُ كان زعيمَ كتائبها، ومَظْهَرَ عجائبها، ولَيْثَ مَضارِبِها، ومُجرِّد قَوَاضِبِها، وفارسَ جَنَائِبِها، ومُطْلِبَ أطلابها ومُنْجِحَ مَطَالِبها، ومُجَلِّىَ غَيَاهِبِها — آقتضى حُسْنُ الرأىِ الشريف أن يُعقَد عليه لواء الاحتشام، فى الشام؛ وأن يُخَصَّ بالبركات، المُخَلِّصَة من الدَّرَكَات.

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف أن تفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته، وأن يكونَ داخلا فى نيابته الشريفة ما هو مضافٌ إلى الشام المحروس: من مَمَالِكَ وقِلَاع، ومُدُنٍ وضِياع، وثُغُورٍ ومَوَانِى، وسَوَاحِلَ فى أَقَاصٍ وأدانى؛ تفويضا آتَّسَقَتْ دُرَرُه، وأشرقت غُرَرُه، وتُلِيَتْ آياتُه وسُوَرُه.

فلْيُمهِّد بالعدل أكْنَافَ البلاد، ولْينظرْ بعين الرعاية والسَّدَاد؛ ولْيَنْشُرْ لواء الإنصاف، لتكون الأمّة تحت ظلّه الضّافِى وإليه الحَقُّ مضاف. ولْيُدِرّ الأرزاق

من الأخلاف ، وليأمُرْ بإقامة الحدود علىٰ شارب السُّلَاف ، وعلى السارقين بالقطع من خِلَاف ؛ وليَسْتَرْهِف عزائمَ العَسَاكِر المنصورة فى القِتَال والجهاد ، وليأخُذْهم بحسن الآستعداد ، وليَعْرِف للأمراء منازلهم : فإنهم أركانٌ وأعضاد ، وأنصارٌ وأمْجاد، وأوليـاءُ دَوْلَتِنا الشريفـة المَاحُونَ للفَسَاد، وممَّن تتجملُ بهـم المَوَاكِب وتتفَطَّر بهـم للعِدا الأكباد ؛ واللهَ اللهَ فى الشَّرعِ الشريف وإقامة مَنَارِه ، وتنفيـذ كَلِمَة أحكامِه وإزَالَةِ أعذاره؛ والتَّقْوىٰ فهى أفضل شعَارِه، وقُرَّةُ أبصاره؛ والوصايا فمنه يُشْرِقُ هِلَالُهـا إلىٰ أن يَتِمَّ فى إبداره، ويتكمَّل بأنواره ، وهو غَنِيٌّ عن إكْثاره . فخُذْ تقليدَنا هذا باليمين ، وآلْبَسْ من هذا التفويض المَلْبَسَ الأسْنَى الثمين ؛ وأخْبَارَ البريد المنصور فلا تَقْطَعْها عنا ، فمنه إلينا تَرِدُ أخبارُ البريد وإليه تَرِدُ المهماتُ مِنَّا ، واللهُ تعالىٰ يخوّله كُلَّ يومٍ من إحساننا فى الزيادة والحُسنىٰ ؛ والخط الشريف أعلاه .

الطبقة الثانيـــــة

(مَنْ يُكتب له تقليدٌ شريفٌ فى قَطْع النصف بـ«المجلس العالى»
وهو الوزير من أرباب السيوف، وهو بالمملكة الشامية
علىٰ حدّ الوزير بالديار المصرية)

وهذه نسخة مرسوم من ذلك :

الحمد لله مُسَدِّدِ سهام الآختيار، ومُسَيِّرِ الأولياء إلىٰ منازل العَلْياء مَسِيرَ الأهِلَّةِ إلىٰ منازل الإبْدَار، الذى جدّدَ نِعَما ، وعدّد كَرَما ، وعَلِم مَوَاقِـعَ الآضطرار، إلىٰ مَوَاقِـعِ الأوزار، فَأَرسل إليها مَنْ تستهلُّ آراؤه دِيَمـا .

نحمـده حمدا كثيرا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يَتَّخِذْ صاحبًا ولا وزيرا ؛ ونصلِّي علىٰ سيدنا محمد الذى عَمَّر الله به البلاد تَعْمِيرا ، وأحسن بالعَـدْل

تقريرا ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين ظَاهَرُوه بالسيوف والأقلام كاتبا وأميرا ؛ صلاةً لا ينقطع تَوَاليها ، ولا تزال الآفاق تَتَنَاقلُها وتَسْتَهْدِيها .

وبعد ، فانَّ أولىٰ من عَظُم شانُه ، وكَرُم مكانُه ، وثبت إمكانُه ، وأُنْبِتَ فى مَنَابِت الرماح قلمُه الذى هو ترجمانه ، وبُسِطَتْ فى تشييد الممالك يَدُه وأُطْلِق لِسَانُه ـ من كان علَامة العِلْم ، وغَدَا بالنشاط فى كِبَرِه فَتِيَّ السِّنِّ كَهْلَ الحِلْم ؛ الذى فاق جلالةً ونَسَبا ، وآستعلىٰ هِمَّةً وأدبا ، وعُرِفَ بالديانة التى طار صيتُها فى الآفاق شرقا ومغربا ، والهِمَّةِ التى سواء عليها أَحَمَلت قلمًا أم آنتضت قُضُبا .

ولما كنتَ أيُّها المجلس الفلانى ـ أدام الله تأييدَك ، وتسديدَك وتمهيدَك ؛ وكَبَتَ حَسُودَك ، وضاعف صُعُودَك ـ أنتَ المَعْنِيَّ بهذه المآثر ، المُنَضَّدَةَ عليك هذه الجواهر ، الدالةَ علىٰ مناقبك هذه المَفَاخر ؛ الذى وجَدْناك علىٰ الآنتقاد تزيد آستخلاصا ، وتَعْدُو على السَّبْك خَلَاصًا .

فلذلك خرج الأمر الشريف أن تُوَزَّر ، وتُحْمَىٰ مواردُ آرائك لتُسْتَغْزَر ؛ ويكونَ لك الحكم فى المملكة الشامية عموما ، وتَتَصَرَّفَ فى معاملاتها مجهولا ومعلوما ؛ علىٰ أكمل قواعد الوزراء وأتمها ، وأجملها وأعمِّها ؛ متصرِّفًا فى الكثير والقليل ، والحقير والجليل ؛ تَعْزل وتُوَلِّى مَنْ شيت ، وتَكْفِي وتَسْتَكْفِي من آرتضيت . ونحن نُوصيك بالرِّفْقِ الذى هو أخْلَق ، والعدلِ الذى تُسْتَدَرُّ به سُحُب الأموال وتُسْتَغْدَق ؛ والحَقِّ فإن كل القضايا به تتعلَّق ، ويُمْنِ السياسة فإن الرِّياسةَ بها تكمل وتُغْدَق ؛ وإيَّاك والغرضَ الذى هو يَهْوِى بصاحبه ، ويُرْدِيه فى عواقبه ؛ وآتَّقِ اللهَ الذى لا تتم الصالحات إلا بتقواه ، وآحذر أن تكون مع من ضَلَّ سبيلَه وآتبع هواه ؛ واللهُ تعالىٰ يُنْجِحُ رجاءَك ويُوَضِّح منهجك ، ويُعْلِي دَرَجك ، ويلقِّنُك إذا خاصمت وآختصمت حُجَجَك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثالثة

(من يُكْتَبُ له مرسومٌ شريف، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(من يُكْتَبُ له فى قطع النصف وهو نائب قَلْعة دِمَشْق)

إن كان مقدّم ألْفٍ كما كان أوّلا، كتب له بـ «المجلس العالى». أو طبلخاناه كما هو الآن، كتب له بـ «السامى» بغير ياء. وبالجملة فإنه يكتب له مفتتحا بـ «الحمد لله».

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريف بنيابة قَلْعة دِمَشْق المحروسة، من إنشاء المقرّ الشّهابىّ ابن فضل الله رحمه الله، وهى:

الحمد لله مُشَرِّف القِلاع، ومُصَرِّف رجالها فى الآمتناع، ومُعَرِّف من جادَلَها أنّ الشّمْسَ عاليةُ الآرتفاع.

نحمده حمْدًا يُشَنِّف الأسماع، ويُشَرِّف الإجْماع، وتُحَلِّق فى صُعُودِه الملائكةُ أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وثُلَاثَ ورُبَاع؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرجو بها لِمَا بَقِى من قِلَاع الكُفْر الآقتِلاع، وآستِعَادةَ ما قَرَّ معهم من قُرًى وضَاعَ من ضِيَاع؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى حَمىٰ به دِرّة الإسلام من الآرْتِضَاع، وصَانَ به حَوْزَةَ الحق أن تُضَاع، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً دائمةً ما أُسْبِلَ لِلّيلِ ذَيْلٌ وآمْتَدّ للشّمس شُعَاع؛ وسلم تسليما كثيرا.

وبعد، فإن للحُصُونِ حواضِرَ كما للبِلَاد، وحَوَاضِنَ تَضُمُّ بقاياها ضَمَّ الأمّهاتِ للأولاد؛ ومَعَاقِلَ يُرْجَعُ إليها إذا نَابَتِ النُّوَبُ الشّدَاد، ومَعَاقِدَ يعتصم من مَنَعَتِها بجِبال ويتمسك بأطواد؛ وقلعةُ دِمَشْق المحروسةِ هى التى تفتخر بقايا البِقَاعِ(١) بالآتّصال

(١) لعله القلاع.

بسَبَبِها، والتَّمسُّك فى الشدائد بذَيْل حَسَبِها، لايُهْتَدىٰ فى السِّلْم والحَرْب إلا بمَنَارها، ولايُقْتَدىٰ فى التسليم والآمتناع إلا بآثَارِها، ولا يُسْتقىٰ إلا بما يَفيضُ علىٰ السُّحُب من فَيْضِ أمْطارها، قد تَرَجَّلَتْ لتُبَارِز، وتَقَدَّمَتْ لتُنَاهِز، ودَلَّتْ بقُوَاها فما آحْتَجَبَتْ من سُجُوفِ الجَبَل بحِجَاب ولا آحْتَجَزَت من الغمام بحَاجِز، بل ألْقَتْ إلىٰ قَرارِ الماء حِجْلَها، وأثبتت فى مستَنقَع الموت رجلها، وكَشَفَتْ للحَرْبِ العوَان قِنَاعها، وأشعلت أبْنِيَتُها من الذهب شُعَاعها، وأشغلت أفنيتُها البروقَ أن تُطَاوِلَ باعَها، أوتُحَاولَ آرتفاعَها، قد جاورت قُبَّتُها الزَّرْقَاءُ أخْتَهَا السَّماء، وجَاوَزَتْ بُرُوجها مِنْطَقَةَ البُروج آعْتِلَاء، وهى مَعْـقِلُ الإسلام يومَ فَزَعِهِم، وأَمْـنُ قُلُوبهم أعاذها الله من جَزَعِهِم، وقد نزل العَدُوُّ عليها ونَازَلَها زمانا بجُمُوعه وأعَانَهُ عليه قَوْمٌ آخرون، وأقْدَمُوا وتقـدّموا وهم مُتَأخّرون، وطَاوَلُوها فكانت حَسْرَةً عليهـم، ونَكَالًا لما خَلْفَهم ومابين يَدَيْهِم، وثَبَّتَ اللهُ بها أقدامَ بقيَّةِ القلاع، وقَوّى بعَزَائمِها إقْدَامَ من فيها علىٰ الآمتناع، وقَلْعـةُ الجَبَلِ المحروسةُ وإيَّاها كالأخْتَيْنِ، وهى لها ثَانيـةُ آثْنَيْن، وكِلْتَاهُما لكُرْسِيِّ مُلْكنا الشريف منزلُ سعيد، ومتَـنَزَّه يودُّ صَفِيحُ الأفلاك لو تَرَامَى إليه من مكان بعيد .

فلمَّا رسمنا بنقل من كان فى النيابة الشريفة بها فى مَنَازِلها من مكان إلىٰ مكان، وقَدَّمْناه أمَامَها كما يهتز فى قَادِمَة الرمح السِّنَان، وآتَّخَـذْنا من بُرُوق عَزَائمه لبعض ثُغُورِها الضاحكة شَنَبا، ومن هِمَمِه المُتَّصلة المَدَدِ بها ما نَمُـدّ منها إلىٰ سَمَائها سَبَبا ــ آقتضىٰ رَأْيُنا الشريفُ أن نُعَوِّل فى أمرها المُهِـم، وبَرِّها الذى به مصالحُ كثيرٍ من ممالكنا الشريفة تَتِم، ونُحَلِّيَ مَشَارِفَها بمن تُضَاحِكُ البروقَ سُيُوفُه فى لَيْلِ كُلِّ نَقْعٍ مُدْلَهِمّ، ونَحْمِيَ حِمَاها برجل تَمْنع مَهابَتُه حَتّى عن نَقْل الأسـنة (؟) طَارِقَ الطَّيْف أن يُلِم، وهو الذى لا تزعزَعُ له ذُرَا، ولا يُنَاخ لبادرة سيْله فى ذَرَا، ولا يَقْدِرُ معه

الأسَـدُ أن يَبِيتَ حول غَابِهِ مُصْحِرا، ولا الطَّيرْ أن يُحَلِّقَ إليه إلا مَاسحًا بجنَاحِه على الثَّرىٰ، ولا أدْلَجَتْ إليه زُمَرُ الكواكب إلا تقاعست فلا تَسْتَطِيعُ السُّرىٰ .

وكان فلانٌ هو حَامِىَ هذا الحِمَىٰ، ومَانِـعَ ما يَحْلُو فى الثُّغُور من مَوَارِدِ اللَّمَىٰ ، وغَيُورَ الحَىِّ فلا تبْرُزُ له إلا من عَقَائِل المَعَاقِل قاصِرَاتُ الطَّرْف كالدُّمَىٰ ، وحَافِظَ ما ٱسْتُودِعَ من مَصُون، وٱسْتُجْمِع من حُصُون، وٱستجهرَ من مَوَارِد تَرِدُها من زَرَدِ الدروع عيون، ويُفَرِّق منها المجانيقَ سَحَائِبَ مُمْطِرَةً بالمَنُون؛ فصَمَّمَ رأيُنا الشريفُ على ٱختياره لِيُوَقِّلَ(١) صَهْوَةَ هـذا الجواد، ويُوَفِّيَ ما يجب لهـذه العقيلة من مرتمق لحظ ومرتمىٰ فؤاد، ويبحث من الشغف بها عن أمل آمل أو مراد مراد، ويُعجَب من عقيلتها المصونة أن أبراجها تَتَبرَّج وما لنُعْمَاهَا إنعامٌ ولا لسُعَادِهَا إسْعَاد .

فرسم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكى، الفلانىّ ــ أعلاه الله وشرّفه، وأدام فى الأرض ومَنْ عليها تَصَرُّفَه ــ أن تفوّض إليـه النيابة بقَلْعة دِمَشْقَ المحروسة : علىٰ عادة من تقدّمه وقَاعِدَتِه، ومُقَارَبته ومُبَاعَدَته، وتَخَايُلِه ومساعدته؛ وكل ما جرت به العوائدُ فى رجائها و رجالها، وما لها ومآلها؛ وهـذه نِيَابَةٌ شريفه، وسَحَابَة مُطِيفَه؛ ونعمةٌ تُقَابَلُ برعايتها، وتُكْتَمُ نوافِحُها بإذاعَتِها؛ وتقوىٰ الله حلْيَـة عنقها، وحُلَّة أُفقِها، ومَجْرَى المَجَرَّة إجلالا فى طُرُقها .

فعليك بحفظها لَيْلا ونهارا، وتَفَقُّدِ أحوال مَن فيها سِرًّا وجِهَارا؛ وفَتْحِ بابها وغلقها مع الشمس، وتَصَفُّحِ ما بها من لِبْس، وتَتَبُّعِ أسبابها كما فى النفس؛ والتَّصَدِّى لملازمة الخدمة الشريفة فى أبوابنا العالية ببابهـا، والأخْذِ فى أدوات حِفْظها بمجامع أطرافها دون التمسك بأهدابها؛ والتَّجَسُّسِ علىٰ مَن يُلِمُّ فيها جَفْنُه بكَرًى وما أثقله مناما،

(١) ليوقل ليصعد .

وإِلْزَامِ كُلِّ واحدٍ بما يلزمه من الوظائف فى ليلِه ونَهارِه، وإِدْلَاجه وابتكاره، ومن عليه فى هذا المعقِل إشراف من شُرُفَاتِه أو تَسَوُّرٌ علىٰ أسواره؛ وإظهار الرَّهَج والصِّيتِ والسُّمْعة بالاهتمام فى كُلِّ ليلة بِزِفَافِ عَرُوسِها، وضَرْب الحَرَس لنواقيسها، والإعلانِ لصَبَاحِ الخَيْر لنا فى صُبُحَاتِها والدعاءِ الصَّالح فى تَغْلِيسِها؛ وصيانةِ ما فيها من حَوَاصِل، أو يصلُ إليها من وَاصِل؛ وما فيها من ذخائر، وما فى خَزَائِنِها العاليةِ من مَدَدِ البَحْرِ الزَّاخِرِ؛ وما تشتملُ عليه دَارُ الضَّرْبِ من أموالٍ تُضْرَبُ للهِبَاتِ برَسْمِنا، وأموالِ الناس [التى] حُمِلتْ إليها لتُشَرَّفَ نقودُها باسمنا؛ وخزائنِ السلاحِ المنصورة وما يُسْتَكْثَر فيها من عَدد، وما يُسْتَغْزَر من مَدَد، والمَجَانيقُ التى تَخْطِرُ منها كُلُّ خَطَّارَة كالفَنِيق، وتصْعَد ومرماها إلى السماء كأَنَّما تَخْطَفُه الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فى مكان سَحِيق؛ شائلَةَ عقَارِبُها، آفلة بالأعْمَار كَوَاكِبُها؛ والحدُوج والقِسىّ والرايات وغير ذٰلك من سِلَاح، أو دُرُوع تَرُدُّ السِّهامَ علىٰ أعقابها وتَحْنِى قَامَاتِ العَوَالِى وتُضَيِّقُ صُدُورَ الصِّفَاح. والبحريَّةُ وغيرهم من رجال هذه القلعة المحروسة من نجوم آفاقها، وغُيُومِ إرْعَادِها وإِبْرَاقِها، ودِيَمِها إذا أسبلت المسالمةُ ذيولَها وأعوانُها إذا شَمَّرَتِ الحَرْبُ عن سَاقِها. وبقيَّةُ المستخْدَمين وأرباب الصنائع الذين هم عمارة أوطانها، وأمارةُ العنايةِ بها من سلطانها؛ فكل ذلك مذخورٌ لمنافع الإسلام، وما رِيشَ السَّهْمُ لأنَّه فى كل ساعة يُرْمَىٰ ولا طُبِعَ السَّيْفُ لأنه فى كل بَارِقَة يُشَام؛ فاحفظْ لأوقاتها تلك المَوَادَّ المذخوره، والْحَظْ هؤلاء الرجالَ فإنهم ظَهْرُ العساكر المنصوره؛ وخُذْ بقلوبهم وأَوْصِلْ إليهم حُقُوقَهم، وٱجْمَعْ علىٰ طاعتِنا الشريفةِ مُتَفرِّقَهم وأَكْرِمْ فَرِيقَهم؛ ومنهم المماليكُ السلطانيةُ وهم إخْوَانُك فى ولائنا، والذين تَشْرَكُهم فى آلائنا؛ وبَالِغْ فى حفْظ المعتَقلين فى سُجُونها، ولفظِ المعتقدين خلافا فى مكنونها؛ ونَحْنُ نُعيذُها بالله ان تقول: تَفَقَّدْها بالترميم والإصلاح، ولٰكِنَّا نأْمُرُك

أن نتعهّدها بما نتعهده من الزّيَنِ المِلَاح ؛ ولك مِنْ معاضدة مَنْ فى ذلك الإقليم ، مَنْ لَكَ برأيهِ طريقٌ مستقيم ؛ ومَنْ تُرَاجِعُه فيما أشكل عليك من الأمور ، وتَجِدُ به فى طاعتِنا الشريفةِ نورًا علىٰ نُور ، وآتبعْ مَرَاسِمَنا المُطَاعةَ فهى شِفَاءٌ لِمَا فى الصُّدُور ؛ والوصايا كثيره ، والله تعالىٰ يجعلك علىٰ بَصِيره ، ويتولّاك بما فيه حُسْنُ السِّيره ، وصَلَاحُ السريره ؛ والاعتماد ... ...

***

وهذه نسخة مرسوم شريف بنيابة قلعة دِمَشْقَ المحروسة ، كُتِب بها لِحُسَام الدين «لاچين الإبراهيمىّ» من إنشاء الشريف شِهَابِ الدين ، رحمه الله ، وهى :

الحمد لله الذى صان الحُصُون بانْتِضَاء الحُسَام ، وزَانَ المُلْكَ بارتضاء ذَوِى اليَقَظةِ من الأولياء والاهتمام ، وأبَانَ سبيلَ السّعادة لمن أحْسَنَ بفروض الطاعة وأجْمَلَ القيام .

نحمده علىٰ أن جعل نِعَمَنا لأصفيائنا وَافِرةَ الأقسام ، ونَشكره علىٰ أن أقبل عليهم بأوْجُه إقبالنا الوِسَام ، ونشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً لعُقُود إخلاصها انتظام ، ولسعود اختصاصها التئام ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى مَنَحَه الإجْلَالَ والإعظام ، ومَدَحَه بالإفضالِ والإكرام ، ورَجَّحه بمزايا الفضل علىٰ جميع الأنام ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه بُدُورِ التمام ، ورَضِىَ عن أصحابه الذين لهم صِدْقُ الاعتزام ، صلاةً ورضْوانًا لهما تجديدٌ ومزيدٌ وتأييدٌ ودوام ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد : فإن آلاءَنا لا تزال تَخْتارُ الأكفاء ، وآرَاءَنا لا تَبْرَحُ تمنحُ ذَوِى المناصحة الإصفاء ، ونَعْماءَنا تُدِيمُ لملابسِ إجلالها علىٰ أُولى الخِدَم الإفاضةَ والإضْفَاء ، وتَفِى بوُعُود جودها لمن أدام لمناهِجِ المُخَالصة الاقتفاء .

ولما كان فلانٌ هو الذى عُرِفَتْ له فى مُهِمَّاتنا خِدَمٌ سالفه ، وأُلِفَتْ منه هِمَّةٌ عَلِيَّةٌ خَصَّتْه بكلِّ عَارِفَه ، وخَوَّلْناه نِعَمَنا الوَاكِفه ، وأهَّلْناه لٱستحفاظ الحصون فساعده تَوَفُّرُ التوفيق وسَاعَفَه ، ونقَّلْناه فى الممالك فسار سيرةً حميدةً ٱقتضت لمَوَاهِبِنا لَدَيْه المضاعفه ــ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نَرْفَعَ محلَّه بأعزِّ القِلَاع ، ونُطْلِعه بأفُقِ سعدها أيْمَنَ إطلاع ، وننْدُبَه لضَبْطها فيَحْسُنُ له فيها الٱستقرارُ ويُحْمَدُ منها له الٱستيداع .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لا زالت صدقاتُه تُحَقِّقُ الأطماع ، وهِبَاتُه تُفِيضُ ملابِسَها التى ليس لها ٱنْتِزاع ــ أن يستقرَّ فى نيابة قلعة دِمَشْق ... .

فليباشر النيابة بالقلعة المذكورة بَاذِلًا الٱجتهاد ، مُوَاصِلًا للعَزْم والسَّدَاد ، عاملًا بالحَزْم فى كلِّ إصْدَارٍ وإيراد ، كَافِلًا منها بحسن الٱعتماد ، حافظًا حَوَاصِلَها من الضَّياع ، مقرِّرا أحوالَها علىٰ أجمل الأوضاع ، ولْيَأْخُذْ رجالَها بالٱئتلاف على الخدمة والٱجتماع ، ولْيُحَرِّضْهم على المبادرة إلى المراسيم والإسراع ، ولْيُطالِعْ من أمورها بما يتعين عليه لأبوابنا العالية فيه المطالعة ويَجِبُ لعلومنا الشريفة عليه الٱطِّلاع ، وليراجعْ كافل الممالك الشامية بما جَعَلْنا لآرائه فيه الإرجاع ، وليكنْ له إلىٰ إشارته إصْغاءٌ وٱستماع ، وإلىٰ سبيل هَدْيه ٱقْتِفَاءٌ وٱتِّبَاع ، ولْيَقِفْ عند ما يَتَقَدَّمُ به إليه فبذٰلك يحصل له الرُّشْد والٱنتفاع ، والله تعالىٰ يجدِّدُ عليه سَوَابِغَ نِعَمِنا التى جادت بأجْناسٍ وأنواع ، ويجرِّدُ فى نُصْرَتِنا حُسَامَه الذى من بأسه الأعداءُ تَرْهَبُ وتَرْتَاع ، ويديمُ له ولجميع الأولياء من صَدَقَات دَوْلَتِنا الشريفة الإمتاع ، والخط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه وصية نائب قلعة أوردها فى "التعريف" :

وعليه بحفظ هذه القلعة التى زُفَّتْ إليه عقيلتها المُمَنَّعه، وجاءت عليه سافرة ودُونَها السماء بالسُّحُب مُقَنَّعه، وسُلِّمت إليه مَفَاتِيحُها، وخواتيم الثُّرَيَّا أقفال، وأُوقِدَتْ له مَصَابِيحُها، وفَتَائِل(١) البروق لا تُشَبُّ لقَفَّال . فليبدأ بعمارة ما دَعَتِ الحاجة إليه من تجديدِ أبنيتها، وتشييدِ أقْبِيَتِها، وشدّ عقُودها، وعدِّ مالا يحصىٰ [فى الذخائر](٢) من نُقُودها، [وتنبيه أعينِ رجالها والكواكبُ قد هَمَّتْ بِرُقُودها](٢)، والأخذ بقلوب من فيها، وتَدَارُكِ بقية ذَمائهم وتَلَافيها، وجَمْعِهِم على الطاعه، وبَذْرِ الإحسان فيهم إذا عَرَفَ أرضًا تزكو فيها الزراعه، والتَّمادِى لهم : فَرُبَّ رجال تجزىٰ عن عِدّةِ سنين فى سَاعَه، وتَحْصِينِ هذا الحِصْن المنيع بما يُدَّخَر فى حواصله، ويُسْتَمَدُّ بعمارة البلاد المختصة به من وَاصِلِه، وما يكون به من المجانيق التى لا تُرْقَىٰ عقَارِبُها، ولا تُوقَىٰ منها أقارِبها، ولا تُرَدُّ لها مَضَارِب، ولا يُكَفُّ من زُبَانَى زَبَانِيَتِها كلُّ ضَارِب، ولا يُخْطِئُ سَهْمُها، ولا يَخْفَىٰ بين النجوم نَجْمُها، ولا يُعْرَفُ ما فى صُنْدوقها [المقفل]، من البلاء المُرْسَل، ولا ما فى نِخَذِها المُشَمِّرِ السَّاقِ من النشاط الذى لا يكسل، وغيرها من الرايات التى فى غيرها لا تُشَدّ، ولسوَى خَيْرِها لا تُعْقَد، وما يُرْمَىٰ فيها من السهام التى تَشُقُّ قلبَ الصَّخْر، وتُبْكِى خَنْسَاءَ كلِّ فاقدة علىٰ صخر، وكذلك قِسىُّ اليد التى لا يَدَ بها ولا قِبَل، وكَنَائِنُ السِّهام التى كم أصبح رَجُلٌ وبه منها مِثْلُ الجبل، وما يُصَان من اللَّبوس(٣)، ويعدّ للنعيم والبُوسِ، وما يمدّ من الستائر التى

(١) الذى فى "التعريف" «وقناديل» .

(٢) الزيادة من "التعريف" (ص ٩٥) .

(٣) فى "التعريف" «من العدد والعدد واللبوس» .

هى أَسوارُ الأسوار ، ولمعَاصِم عقائِل المَعَاقِل منها حِلىً سِوى كلِّ سِوار ؛ وهى التى تُلَاثُ لُثمُها علىٰ مَبَاسِم الشُّرُفَات ، وتُضْرَبُ حُجُبُها علىٰ أعالى الغُرُفات ؛ وسوىٰ هــذا مما تعتصِم به شوامخُ القِلال ، ويُتَبوّأ به مَقَاعِد للقتال ؛ فكُلَّ هذا حَصِّلْه وحَصِّنْه ، وٱحْسِبه وحَسِّنْه ؛ وأَعِدَّ منه فى الأمْنِ لأوقات الشدائد ، وٱجْرِ فيه علىٰ شَأْوِ مَنْ تقدّم وزِدْ فى العَوَائِد ؛ وهكذا مايُدَّخَرُ من عُدَد أرباب الصنائع ، ومَدَد التحصين المعروف بكثرة التَّجَارِبِ فى الوقائع ، والأزواد والأقوات ، وما لا يُزال يُفَكَّرُ فى تحصيله لأجل بعض الأوقات ؛ وكُنْ من هــذا مُسْتَكْثِرا ، وله علىٰ ما سواه مُؤْثِرًا ؛ حتَّى لا تزالَ رِجَالُك مُطْمَئِنَّةَ الخَوَاطِر ، طيِّبة القلوب ماعليها إلا السُّحُب المَوَاطِر ؛ وٱعمل بعادة القِلَاع فى غَلْق أبْوَابِ هذه القلعة وفَتْحِها ، وتَفَقُّد متجدّدات أحوالهـا فى مَسَاء كُلِّ ليلة وصُبْحِها ؛ وإقامة الحَرَس ، وإدامة العَسَس ، والحِذَارَ ممَّن لعلّه يكونُ قد تَسَوّر أو ٱخْتَلَس ؛ وتَعَرَّفْ أخبارَ مَن جاورك من الأعداء حتى لاتزال علىٰ بصــيره ، ولا تبرح تُعِدُّ لكلِّ أمرٍ مَصيرَه ؛ وأَقِم نُوَبَ الحَمَام التى قد لاتَجِد فى بَعْضِ الأوقات سواه رَسُولا ، ولاتَجِدُ غيرَه مخبرًا ولاسِواه مسْئُولا ؛ وطالِـعْ أبوابنا العالية بالأخبار ، وسَارِعْ إلىٰ ما يَرِدُ عليك منها من ٱبْتِدَاءٍ وجَوَاب ؛ وصُبَّ فِكْرَكَ كُلَّه إليها وإلىٰ ماتَتَضَــمَّنُه من الصواب .

المرتبة الثـانيــــة

(من المراسيم التى تكتب بحاضرة دمشق لأرباب السيوف ـ ما يكتب فى قطع الثلث ، وفيها وظيفتان)

الأولىٰ — شَــدُّ الدواوينِ بدِمَشْق . وصاحبُــا يتحدّث فيما يتحدّث فيه شادّ الدواوين بالديار المصرية ، وقد تقدّم .

وهذه نسخة مرسوم شريف بشدّ الدّواوين بدِمَشْق :

الحمــد لله الذى أرْهَفَ لمصالح دولتنا القاهرةِ من الأولياء ، سَيْفًا مَاضيا ، وجَرَّد لمهِمّات خِدْمَتِنا الشريفة من الأصفياء، عَضْبًا يَغْدُو المُلْك عن تَصَرُّفه الجميل رَاضِيا ، وجدّد السُّعود فى أيامنا الزاهرة لمن لا تحتاج هِمَمُه فى عمارة البلاد المحروسة مُتَقَاضِيا .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى تستغرقُ المحامد ، وتستوجبُ الشُّكْر المستأنَفَ علىٰ الحامد ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ لَه شهادةَ مُجاهِدٍ لأعدائها، مُجَاهِرٍ لإعلائها ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ الأنبياء قَدْرا، وأوّلُهم فى الرتبة مكانَةً وإن كان آخرَهُم عَصْرا؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين نَهَضُوا بما أُمِرُوا، وعَمَرُوا الدِّينَ قبل الدنيا فلم تمكن الأيَّامُ من [نقض] ما عَمَرُوا ؛ صَــلَاةً يتأرّج نَشْرُها ، ويتبلَّج بِشْرُها؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعــد، فإن أولىٰ من عُدِقَ به من مهماتنا الشريفة أعَمُّهَا نَفْعا، وأحْسَنُهَا فى عِمارة البلاد وَقْعا ، وأكْثَرُها لخزائن الأموال تَحْصيلًا وجَمْعا ؛ وأجمعُها لمصالح الأعمــال، وأضــبطُها لحواصل الممــالك التى إذا أعدّ منها جِبَالًا تَلَا عليها لِسَانُ الإنفاق : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾ مَنْ زانت عَزْمَه نَزَاهَتُه، وكَمَّلَتْ قُوَّتَه فى الحَقِّ خِبْرَتُه ونباهته ؛ وكان من أولياء دولتنا المُعَدّين لشدّ أركانهــا، وإشَادَةِ بُنْيانها ؛ والنُّهُوض بمصالحها المتنوعه ، ونَشْرِ كلمةِ عدلها التى تَغْدُو بالأدعية الصالحة مبسوطةً وبالأَثْنِيَةِ العاطرة مُتَضَوِّعَه .

ولـمـا كان فلان هو الذى أُشِيرَ إلىٰ مَحَاسِــنه ، ونُبِّهَ عَلَىٰ إبريز فَضْــله المُظْهَرِ من معادنه ؛ مع صَرَامَةٍ تُخِيفُ اللُّيُوث ، ونَزَاهَةٍ تُعِين علىٰ عِمارَةِ البلاد الغُيُوث ؛ وخِبْرَةٍ بإظهار المصالح الخفية وَفِيَّــه ، وبإبراز معادن الأموال من وجوهها الجليَّة مَلِيَّــه ؛

ومَعْرِفَةٍ تَعُمُّ البلادَ بين الرغبة والرهبه ، وتجعل مَثَلَ ما يُودَعُ فيها بالبركة والنمـاء مَثَلَ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّة ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نُنَبِّهَ على حسن ٱعتنائنا بأمره ، وٱعتمادنا بما قدّمه من أسباب إسناء رُتبته ورفعة قَدْره ؛ فلذلك رسم ـ زاد الله فى علائه ـ أن يفوّض إليه ... ...

فليباشِرْ ذلك مُظْهِرًا من مصالح الدولة القاهرة ما كان فى ضَمير كفَايَته مَكْنُونا ، مُبْرِزًا من تثمير الأموال وتَعْمير الأعمـال مايُحَقِّقُ به : من خِصْبِ البلاد بمشيئة الله تعالى ما كان مظنونا ، مُوَالِيًـا إلى الخزائن المعمورة من حُمُول تدبيره مايُمْسِى به طَائِرُ تَصَرُّفه ميمونا ، وسبَبُ توقفه مأمونا . ولْيَكُنِ النَّظَرُ فى عِمَـارَةِ البلاد هو المهِمَّ المقدّمَ لَدَيْه ، والأمْرَ الذى يتعـينُ تَوَفُّرُ ٱهتمامه عَلَيْه ، فَلْيَجْتَهِدْ فى ذلك ٱجتهادًا يَظْهَرُ أثَرُه ، ويُجْتَنَى ثَمَرُه ، ويُحْمَـد وِرْدُه وصَدَرُه ، وتتفرّعُ عنـه أنواعُ المصالح ، وتَتَرَتَّبُ عليه أسبابُ المَنَاجِح ، وملاك ذلك بَسْطُ المَعْدَلَة التى هى خيرٌ للبلاد من أن تُمْطَرَ أربعينَ يوما ، وٱعتمادُ الرِّفْقِ الذى لايَضُرُّ معـه البأسُ قوما ، ولا يجلُبُ على فاعله مع الحزم لَوْما ، ولا يَطْرُد عمنْ أَنَامَه العَـدْلُ فى مِهَادِ الدَّعَة نَوْما ؛ ولْيَصْرِفْ إلى ٱسْتِجْلَابِ الأموال ومُوَالَاة حَمْلها هِمَّةً ناهِضَه ، وعَزْمَةً إلى ماقرُب ونَأَى من المصالح رَاكِضَه ، وقُوَّةً بأسـباب الحَزْمِ آخِذَةً وعلى أَعِنَّـةِ التدبير قَابِضَـه ؛ وفيما خَبَرْنَاهُ من عزائمه المشكوره ، وسيرتِهِ التى ما بَرِحَتْ بين أولياء دولتنا القاهرة مَشْهُوره ؛ ما يُكْتَفَى به عن الوصايا المُؤَكَّدَه ، ويُوثَقُ به فيما عُدِقَ به من الأمور المسدّده ؛ لَكِنْ تقوَى الله تعالى أوْلَى الوَصايا وأوّلُهـا ، وأحقُّ ما تُلِيَتْ عليه تَفَاصيلُها وجُمَلُها ؛ فَلْيقدِّمْ تقوَى الله بين يديه ، ويجعَلْهَـا العُمْدَةَ فيما ٱعتِمد فيـه عليه ؛ بعْـد الخط الشريف أَعلاه الله تعالى أَعلاه .

الوظيفة الثانية — شدّ المهمّات . وصاحبها يتحدّث فيما يُطْلَب للأبواب السلطانية من المستعملات وغيرها . وقد ذكر فى "التثقيف" أنّ عادته أن يكون مقدّم ألْف .

وهذه نسخة توقيع بشدّ المهمات بدمشق ، وهى :

الحمد لله الذى شَدّ عُرَا المَصَالح من الأوليـاء بكل ذى أَيْد ، وكُلِّ مَنْ هو فى المهمات أبطَشُ بعمْرٍو من زَيْد ، ومن له تدبيرٌ كَمْ أغنىٰ باقتناصه لشَوارد الأمور عن حِبالَةِ صَيْد .

[وبعد](١) فإن أحق من آسْتُخْلِص لآستخلاص الأموال ، وآختِيرَ لصَوْنها من الآختزال وحِفْظِها من الآختلال ، وأُهِّلَ قَلَمُه وكَلِمُه : هذا للتمثيل وهذا للامتثال ؛ وفُوِّضَ إليـه التَّصرّف فى الترغيب والترهيب ، والآجتهادُ فى التَّمييز والتَّحرير والتَّوْفير إذ كلُّ مجتهدٍ مُصيب — من آشتهر بأنه ذُو حَزْم لا يَنِى ، وعَزْم عن المصالح لا يَنْثَنِى ، وآحتفالٍ بالأحوال التى منها نُكْرٌ لمن يَجْنِى وشُكْرٌ لمن يَجْتَنِى ؛ وله نَبَاهَةٌ يدرِكُ بها كلَّ إيهامٍ وكلَّ إبهام ، ويطّلِع [بها] علىٰ فَلَتَاتِ ألْسِنَةِ الأقلام ، ويفهمُ بها مقاصدَ كُلِّ من هو من الجِنَّة فى كل وَادٍ يَهِيم ، ولايخفىٰ عليه جَرَائِرُ الجَرَائد ولامَخَازى المَخَازيم ؛ وفيه رحْمةٌ كم أصْبَحَ بها وهو الأتقىٰ ، ولم يَأْتِ قَسَاوةً يكون بها هو المُنْبَتَّ الذى لا أَرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أبْقَىٰ ؛ وكم ساسَ الأمورَ ودَبَّرها فأحسنَ فيها السياسةَ وأجْمَلَ التـدبير ، وآستخرج [الشَّىْءَ الكثِير] بالتخويف اليسير ؛ حتّى جمع حُسْنَ تَدْبيرٍ وآسْتِرْعا ، وصنع حَسَنًا وأحْسَنَ صُنْعا .

(١) زدنا هذه اللفظة للزومها واستقامة الكلام بها . فتنبه .

ولما كان فلان هو لهذا الأمر الجليل المُسْتَرْعَى، وٱسْمُه فى أوّل مَدارِج التَّنْوِيه والتَّنْوِيل خَيْرُ مُسْتَدْعَى؛ وفيه من جميل الأوصاف ما يُرْضِى حسن الاقتراح وقد خَبَرَ أمور الكَتَبَه، وقد عَلِمَ من أحوالهم ما هو أحْرَى لهم بالتَّجْرِبه؛ وعَرَفَ خَفَايا المعاملات معرفةً تامَّه، وأحاط بجزئيات الجهات وكُلِّيَّاتها إحَاطَةً خاصَّة وعَامَّه ــ ٱقتضى حُسْنُ الرَّأْىِ المُنِيف، أن رسم بالأمر الشريف ــ لا بَرِحَ يَشُدُّ عَضُدَ كلِّ مُهتَمٍّ من الأولياء بِأَخى كل عَزْم، ويجعلُ له سلطاناً لا يَكِلُ مصلحةً إلى حزمِ ذى حزم ــ أن يفوّض إليه شدّ المهمات بالشامِ المحروس .

فلْيَضْبِطِ الأمورَ ضَبْطًا مُسْتَوْعِبا، ولْيَنْتَصِبْ لذلك ٱنْتِصَاباً مُتَرَتِّبا؛ ولْيَحْتَرِزْ مُنَفِّذًا ومُصَرِّفا، ومُسْرِعا ومُسْتَوْقِفا؛ ومَتَى ظهر حَقٌّ يتمسكُ به تَمَسُّكَ الغَرِيم، ولا يُحَابِ فيه ذَا بَأْسٍ قَوِيٍّ ولا ذَا مَنْهَجٍ إلى المَنْع والدَّفْع غيرِ قَوِيم؛ وما مِنْ جِهَة إلا ولها شروطُ صَوْبَ الصَّوَاب، ولا يعتمدْ على غَيْرِ الحقِّ منكِّبا عن تَرْوِيج الكِتَّاب؛ ولْتَكُنِ الحمولُ مُسَيَّره، والمتخرّجات مُتَوَفِّره؛ وجهات الخاصِّ مقرّره، إذ الضَّمَانُ لا يُنْتَظَرُ لهم نَظِرَةٌ إلى مَيْسَره؛ فإنهم سُوسُ المعاملات، وكَوَاسِرُ الجهات؛ ومنهم يُحْفظ أو يُضَاع، وبهم يَتَرَقَّى أو يَنْحَطُّ الارتفاع؛ وجِهَاتُ المُقْطَعِينَ الواجبُ له أن يجعل عليها وَاقِيَةً بَاقِيَه، ولْتُحْمَ لهم حَتَّى لا يتطاول إلى ذِرْوَتِها ٱمتدادُ الأيدى المُخْتَرِلَة ولا خُطَا العُدْوان الرَّاقِيَه؛ ولْيَصْرِفْ وجْهَهُ بحفظه إلى مراقبة من فى باب الشَّدّ من مُقَدَّمين ومن رُسُلٍ يأكلون أموال الناس بالبَاطِل، ويَبِيعُون الآجِلَ بالعَاجِل؛ ويُخِيفُونَ العامَّ والخاص، وكل منهم يروم الغِنَاءَ وهو رَقَّاص .

هذه زُبْدَةٌ من الوصايا مُقْنِعَه، وعَزَمَاتٌ غَنِيَّة عن تكثيرٍ فى القَوْل أو تَوْسِعَه؛ والله تعالى يكونُ له ويُعِينُه، بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى .

الصـــــنف الثـانى

(من الوظائف بدمشق الوظائف الدينيـة ، وجميع ما يكتب فيهـا تواقيـــعُ ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبـــــــة الأولىٰ

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلِس العَالِىّ بالياء» مفتتحا بـ«الحمد لله»)

وبذٰلك يُكتَب للقضاة الأربعة بحاضرة دِمَشْق .

وهــذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعيــة بدمَشْقَ المحروسة، كُتِبَ به لقاضى القضاة «بهاء الدين أبى البقاء السُّبكى» وهى :

الحمد لله الذى أَقَرَّ أحكام الشَّرع الشريف، فى أيامنا الزاهرة علىٰ أكمل القَوَاعِد ، وأَمَرَّ مَدَارَ الحُكم المنِيف، فى دولتنا القاهرة علىٰ أجمـل العوائد، وأمضىٰ فَصْـلَ القَضَاءِ فى ممَـالِكنا الشامية بيَـد إمَامٍ غَنِيَتْ فَضَائِلُه عن الشواهد ، وَأَمَّتْه الأَئِمَّـةُ لاقتباس الفوائد، وعُدِقَتْ أحكامُ المِلَّة منه بمُجَاهِرٍ فى الحق مجاهد، مُسَدِّدٍ فى الدِّين سَهْمَ اجتِهَادٍ رَمىٰ به شَاكِلَةَ الصَّواب عن أثبت يَدٍ وأشدّ سَاعِد .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى حَلَّتْ مَنَاصِبَ الدين فى ممـالكنا الشريفة بأَكْفَائِها، وعَلَّتْ رُتَبَ العـلْم فى دَولتنا القاهرة باسـتقرار من جَعَلَتْه فضَـائِلُه غَايَةَ اختيارها ونِهَايَةَ اصْـطِفَائِها ، ودَلَّتْ على اعتنائنا بتنفيذ أحكام مَنْ أَتعبتْ سِيرَتُه الجَمِيلَةُ مَن سَعِد فى اتباعها وجَهَد فى اقتفائهـا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شَريكَ له شهادةً لا تزال أعلامُنا بهـا تنْتَصِر ، وأيامُنا على الجهـاد لتَكُونَ كَلِمَتُها هِيَ العُلْيا تقتصر ، وأقلامُنَا لنَشْرِ دَعْوَتِها فى الآفاق تُسْهِبُ ولا تُوجِزُ وتُطْنِبُ ولا تَخْتَصِر؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ من قَضَتْ أمّتُه بالحقّ فعَدَلَت، وتَلَقَّتْ عنه أَحْكَامَ مِلَّتِه

فَفَاقَتْ بذلك الأُمَمَ وفَضَلَتْ ، وحَكَمَتْ بمـا أراهَا اللهُ من شِرْعَتِـه فمـا مَالَتْ عن سَنَنِهِ القويم ولا عَدَلَتْ ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين أسْلَمُوا لله فَسَلِمُوا ، وعَمِلُوا فى دينِ اللّهِ بمـا عَلِمُوا ، وبَذَلُوا النفوس فى طاعته فمـا ٱسْتَكَانُوا لِمَـا أَصَابَهُم فى سَبِيلِ اللّهِ وَلَا أَلِمُوا ؛ صلاةً نؤدّى بها من أمرِ الله المُفْتَرَض ، ونُرْغِمُ بإقامتها الذين فى قلوبهم مَرَض ؛ وسَلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعــدُ ، فإن أَوْلىٰ من تَنَقَّل فى رُتَبِـهِ السَّنِيَّه ، ووُطِّدَتْ له بمِصْرِ والشَّامِ قواعدُ سيرته السَّرِيَّه ؛ وأَطْلَقَتْ جِيَادُ البَرَاعَةِ فى إمضاء حكمه فى المملكتين مَثَـانِىَ أَعِنَّتِها ، وأنطقتْ صِعَادُ البَرَاعَةِ فى إعلاء بهائه فيهما [ألسنةَ] أسنَّتِها ؛ وأَرَدْنَا أن نَرُدَّه إلىٰ أعزِّ الممالك علَينا لِنُقِرَّ عَيْنَها ، وقَصَدْنَا أن نُعِيدَه إلىٰ رُتْبَتِه بها لِنُوَفِّى باستعادته دَيْنَها ؛ وٱخترنا أن نجدّد لهذه الوظيفة سَالِفَ عَهْده ، وأن نُرِيَه ٱعتناءنا بأمْرِ مَنْصِـبِه الذى لم يَلِهِ مثْلُه من الأئمَّـةِ من بعده ؛ وعلمنا أنَّ الديارَ المِصْرِيةَ قد ٱختصت بفضائله زمنًـا طويلا ، وأَنَّ البلادَ الشَّامِيَّةَ قد أَلِفت من أحكامه ما لم تُرِدْ به بَدِيلا ــ من ظَهَرَتْ فضـائِلُه ظُهورَ نَعْتِه ، وتَهَـادَتْ فَوَائِدَه رِفَاقُ الآفَاقِ : من علماء زمانه وأَئِمة وقته ، وعُلِمَتْ أوصافُ الصُّدُورِ الأُوَلِ من عِلْمِه ووَرَعِه وسَمْته ؛ ونَشَرَت الأيامُ من عُلُومه ما لم يُطْوَ بل تُطْوَى إليـه المراحل ، ونَقَلَت الأقلامُ من فُنُونِه ما يُرْوَى نَيْرُوَى به السَّمْعُ الظَّامى ويَخْصَبُ به الفِكْرُ المَاحِل ؛ وأَلِفَتِ الأقاليمُ من حُكْمِه ما غَدَتْ به بين مسرورٍ بإشْرَاقِه ، ومُرَوَّعٍ بفِرَاقِه ، فمِنْ أَقْضِيَةٍ مُسَدَّدَه ، وأحكامٍ مُؤَيَّده ؛ وأقوالٍ مَنَزَّهَةٍ عن الهَوَىٰ ، وأحوالٍ صادرةٍ عنْ زَهَادَةٍ مُحْكَمَةِ القواعدِ ونزاهةٍ مُجْتَمِعَةِ القُوَىٰ ؛ وإِصَابَةٍ دالَّةٍ علىٰ ما وراءها من عِلْمٍ ووَرَع ، وإجابةٍ فى الحقِّ تَحْيَا بها السُّنَنُ وتموتُ البِدَع ، وشِدَّةٍ فى الدِّينِ تَصْدَعُ فى كل حُكْمٍ بالحقِّ وإن صَدَع ؛ وعَدْلٍ لا يُسْـتَلانُ

جَانبُه، وحَزْمٍ لايُسْتَزَلُّ صاحبُه، ولايُستَنْزَلُ رَاكِبُه؛ وقُوَّةٍ فى الحقّ تمنع المُبْطلَ من الإقدام عليه، ولِينٍ فى الله يُفْسِحُ للحقّ مَجَالَ القَوْلِ بين يديه؛ ومَجالسَ غَدَتْ بالعِلْم طَيِّبَةَ الأَرَج، وفَضَائِلَ يُحَدَّثُ فيها عن موادّ فكره عَن البَحْرِ ولَا حَرَج؛ وبَدائِعَ تُضْرَبُ إلىٰ ٱستماعها أَكْبَادُ الإِبِل، وبَدَائِهَ تَهْرَمُ الأيامُ وعُمْرُ شَبَابِها مُقْتَبِل.

ولما كان المجلس العالىُّ ـ أدام الله نِعْمَتَه ـ هو الذى وَرَدَ علىٰ أبوابِنَا العالية ونُورُ وَلَائِهِ يسعَىٰ بين يَدَيْه، وصَدَرَ الآنَ عَنْها وحُلَلُ آلَائِنَا تَضْفُو عَلَيْه؛ وأقام فى خِدْمتنا الشريفةِ مَعْدُودًا فى أكرمِ مَنْ بها قَطَن، وعَادَ إلىٰ الشّامِ مجموعًا له بين مُضَاعَفَةِ النِّعَم والعَوْدِ إلىٰ الوَطَن. وهو الذى تختال به المَنَاقِب، وتَخْتار فَضْلَه العواقب؛ ويُشْرِقُ قلمُه بالفَتَاوَىٰ إشراق النَّهَار، وتُغْدِقُ مَنَافِعُه إغْدَاقَ السُّحُب بالأَمْطَار، وتُحْدِقُ الطَّلَبَةُ به إحداق الكِمَامَة بالثَّمَرِ والهَالَات بالأَقْمَار؛ وهو شَافِي عِيِّ كُلِّ شَافِعِيٍّ، ودَوَاءُ أَلَمِ كُلِّ أَلْمَعِيٍّ؛ طَالَمَا جَانَبَ جَنْبُه المَضَاجِعَ سُهادا، وقَطَعَ اللَّيلَ ثم ٱستمدّه لَمَدَدِ فَتَاوِيهِ مِدَادا؛ وجمع بين المَذْهَبَيْنِ نظرا وتقليدا، والمُذْهَبَيْنِ من القَوْلَيْن قديما وجديدا؛ وسَلَكَ جميعَ الطُّرُق إلىٰ مَذْهَبِ إمَامه، ومَلَكَ حِسَانَها فأسْفَر له كُلُّ وَجْهٍ تَغَطّى منْ أوراق الكُتُبِ بِلِثَامِه؛ وٱنفَتَحت بفَهْمه للتصانيف أبوابٌ شَغَلَت «القَفَّالَ» أَقْفَالُها، ونفَحَتْ [له] نَفَحَاتٌ ما «للمَاوَرْدِىّ» مِثالُها، ومَنَحَت حُلَلا يَفْخَرُ «الغَزَالِىّ» إذا نُسِجَ علىٰ مِنْوَالِهِ سِرْبَالُها؛ فلو أدركه «الرَّافِعِىُّ» لشَرَح "الوَجيزَ" من لفظه، وأمْلَىٰ أحكامَ المَذَاهِب من حِفْظِه؛ وصَدَّرَ المسائل بأقواله، وأَعَدَّ لكُلِّ سُؤَالٍ وَارِدٍ حُجَّةً من بَحْثِه وبُرهانًا من جِدَالِه؛ فلَه فى العِلْمِ المُرْتَقَى الّذى لا يُدْرَك، والمنتَهَىٰ الذى لا يُنَازَعُ فى تَفَرُّدِه ولا يُشْرَك، والغايَةُ التى أحرزها دون غيره فلولا المشقةُ لم تُتْرَك؛ وهو الذى ما زال بهذه الرّتبة مَلِيًّا، وبما عُدِقَ بذِمَّتِه من أحكامها

وَفِيّا، وبكلّ ما يُرْضِى الخَلِيقَةَ عنه من أحوالها قائما وكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا، وبأعْبَائِها مُسْتَقِلًّا من حينَ منحه ٱللهُ العلمَ نَاشِئًا وآتَاهُ الحُكْمَ صَبِيّا . وما بَرِحَ تدعوه التَّقْوىٰ فيُجِيبُها، ويترك مالا يُرِيبُ نفْسه تنزيهًا عمَّا يُرِيبُها، فكَمْ فَجَّر بالبِلَاد الشَّامية من علمه عُيُونا، وغَرَس بها من أفْنَانِ فَضْله فُنُونا؛ وكان لها خَيْرَ جارٍ ترك لها ماسوَاها، وأكْرَمَ نَزِيل نَوىٰ بالوصول إليها مَصْلَحَةَ دِينِهِ فلم يُضَيِّع اللهُ له نِيَّتَه التى نَوَاها؛ وأَلِفَ قَوَاعِدَ أهلِهَا وعَوَائِدَهم، وعَرَفَ بحُسْنِ اطلاعه ما جبل الله عليه غَائِبَهم وشَاهِدَهُم؛ وعَدُّوهُ من النِّعَم المقبلة عليهم، واقْتَدَوْا فى مَحَبَّتِهِ بالذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ؛ ثم قَدِمَ إلى الدِّيار المصرية وما كان قُدُومُه إلا علينا، ووَفَدَ إليها بحُسْنِ مَوَدَّته ومحبته اللَّتَيْن ماوفَدَ بهما إلا إلينا؛ فرأينا منه إمَامًا لا يُحَكِّمُ فى توليته الحكمَ بالهوىٰ، ولا يَنْوى فى تقليده القضاءَ غيرَ مصلحةِ المسلمينَ «ولِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوى»؛ وهو ـ بحمد الله ـ لم يَزَلْ بقواعد هذا المَنْصِبِ خَبِيرا، وبعوائد هذه الرتبة بَصِيرًا، وبإجرائها علىٰ أكمل السُّنَن وأوضح السَّنَنِ جديرا، وبإمضاء حُكْمِ الله الذى يُحَقِّقُ إيجادُ الحَقِّ فيه للأمة أنَّه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾؛ مع ماتكملت به فضائِلُه من الوقوف مع الحَقِّ المُبِين، والتَّحَلِّي بالوَرَع المَتِين، والتَّخَلِّى للعبادة التى أصبح مَنِ اتصف بها مع النَّبِيِّين والصِّدِّيقِينَ والشُّهَداء والصَّالِحِين .

فلذلك رسم بالأمر الشريف الأَشْرَفِىّ النَّاصِرِىّ ـ لازال عَلَمُ العِلْمِ فى أيامه مرفوعا، وَأَلَمُ الجَهْلِ بما خص الله به دولته من الأئمة الأعلام مدفوعا ـ أَنْ يفوّض إلىٰ المشار إليه قَضَاءُ القضاة الشافعيَّة، ونظرُ الأوقاف بدمشق المحروسة وأعمالها بالبلادالشامية، وما هو مضاف إلىٰ ذلك من الصدقات والتَّدَارِيس والتصدير وغير ذلك، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه فى ذلك وقَاعِدَتِه ومعلومه .

فلْيُقَابِلْ هذا التقليدَ السعيدَ بيَدٍ زِيدَ فى الحَقّ تمكّنُها، وعلَى الخير تمرّنُها، وفى العَدْل آنبِسَاطُها، وفى احكام الله تعالىٰ بحسن المعاضدة على الحَقّ قوّتُها وآحتياطُها، ولْيمْض علىٰ ما أُلِفَ من سِيرَته التى زان العِلْمُ أوصافَها، وزان الوَرَعُ آتّصافَهَا، وحَلّى العَدْلُ مَفَاخِرَها، وأحْيا التُّقىٰ مآثِرَها، وتناقلت رِفَاقُ الآفاق أحْكَامَها، وآستَصْحَبَتْ من هدايا هُدَاهَا ماتُحِفُ به حُكّامها، وفيما نُعِتَ من محَاسِنه مايُغْنِى عن الوصايا المجدّده، والإشارات المردَّده؛ لكن الذكرىٰ بتقوى آلله تنفع المؤمنين، وتَرْفَعُ المُتّقين، وتجمع مصالح الدنيا والدين؛ فلْيَجْعَلْها خُلُقَه ما استطاع، ولْيَرَ حُكْمَها هو الحُكْمَ المتبعَ وأمْرَها هو الأمْرَ المُطَاع؛ والآعتماد ... ... رابع عشر المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

قلتُ : ولم أقف علىٰ تفويض لقَاضٍ من كتابة من تقدّم سوىٰ تفويض واحد، من إنشاء المقر الشّهابىّ بن فضل الله، كتبه لقاضى القضاة «شهاب الدين بن المجد عبد الله» بالشام المحروس، علىٰ مذهب الإمام الشافعىّ. وهذه نسخته :

الحمد لله على التّمَسُّكِ بشرائعه، والتّنَسُّكِ بذَرَائعه، والتّوَسُّلِ إلى الله بتأييد أحكام شارعه، والتوصل به إلىٰ دِينٍ يُقطَع به من الباطل أعْنَاقُ مَطَامِعه .

نحمده حمدًا يأخذ من الخَيْر بمجَامِعِه، ويُضَاهِى الغَمَامَ فى عموم مَنَافِعِه، ويُبَاهِى السيف بقلم الشرع فى قَهْرِ عاصِيه وحماية طَائِعِه . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤدّى للإيمان أمَانَةَ وَدَائِعِه، وتَهْدِى إلىٰ صِيَانَةِ مَشَارِعِه، وتقيمُ من العلماء كُلَّ شِهَابٍ تُقْسِم الأنوارُ بلوَامِعِه، وتُقْسِم الأبصارُ ببدَائِعِه، وتُجُولُ الفَتَاوَىٰ فى صدره الفسيح وتَتَجَوَّلُ فى شوارعه، وتُرْهِف منهم للحكم العزيز كُل قَلَمٍ يَدُلُّ السهمَ علىٰ مَوَاقِعِه، ويُنَبِّه الرُّمح من مَقَاتِلِ الأعداء علىٰ مَوَاضِعِه، ويَسْرى

غَمَامُه إلى الأعداء بصواعقه وإلىٰ الأولياء بهوَامِعه ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أسعد الأمّة بطَالِعه، وأصْعَدَ الأئمة فى مَطَالِعه، وأسْعَفَ المِلَّةَ بما أبقى الله فيها من حسن صنائعه ويُمْن طلائعه، ومن شَرِيعته التى أَمِنَ حَبْلُها الممدودُ من جذب قاطعه، وكُفِيَ شَرَّ قَاطِعِه ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاة [تتوالىٰ إليه توالِيَ] العذب إلىٰ مَنَابِعه ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن الله لَمَّا أقامنا لحماية شَرْعِه الشريف أَنْ يُسْتَبَاحَ حِمَاه، أو يُبَاحَ لأحد من حُكَّامِه أن يركَب هواه، أو يَتَعَدَّى حُدُودَه فى سُخْطه أو رِضَاه، أو يُحْدِث فى أمره ما ليس منه إلا أن يكون رَدًّا علىٰ سِوَاه ـ [جعلنا] نُجِدُّ علىٰ إقامة مناره أن يُطْمَس ؛ وإدامة مبَارّه أن يُقْلَعَ مَنارُها أو يُبْخَس ؛ آستدامةً لتأبيس حُكَّامِه، وتأبيد أحكامه ؛ لأنَّه سَحَائِبُ أنْوَاءٍ يَعُمُّ الربيعَ رُبُوعَها ، ومِشْكَاةُ أنوارٍ يكَاثِرُ الصَّبَاحَ لُمُوعُها، وأَفَاوِيقُ وِفَاقٍ تُنِيم به الأمّةَ ضروعُها، وشجرة مباركة إسلامية زَكَتْ أُصُولُها ونَمَتْ فُرُوعُها ؛ شُكْرًا لله علىٰ ما خَصَّنا به : من تَحْصِينِ ممالك الإسلام، وتَحْسِينِ مَسَالكِ دَار السلام ؛ لِنَمْنَعَ المِحَنَ أن تُسَام، وبُرُوقَ الفتَنِ أن تُشَام، ووُجُوهَ الفَتْوَىٰ أن تَتَزَيَّنَ إلَّا بِشَامَةِ الشَّام؛ غِبْطَةً بأن الله جعل للإسلام منها ما هو خَيْرٌ وأَبْقىٰ، وأشْرَفُ وأَتْقىٰ، وأعْلَام بَلَدٍ تتشعَّبُ بالمذاهب طُرُقا ، وتَوَدُّ المَجَرَّةُ لو وقَفَتْ بها علىٰ الشريعة نَسَقا. تَتَزَاحَمُ فى مركزها الأعلام، وتَتَضَافَرُ علىٰ الجهاد فى الله بالجلاد والجدال تَارةً بالسيوف وتَارَةً بالأقلام . ودِمَشْقُ حرسها الله هى أمّ ذلك الإقليم ، ومَدَدُه الذى يَحْنُو علىٰ مشارعها حُنُوَّ الوالدةِ على الفَطِيم ، وتنبت بها فوائدُ لا تأمن معها الغوانى حَتَّى تَلْمُسَ «جانب العِقْدِ النَّظِيم» ؛ وهى دَارُ العِلْمِ ، ومَدَارُ الحُكْمِ ، ومَوْطِنُ علماءَ تتعاقب

فيها كواكبهم ، وتتناوب سحائبهم ؛ وتتناهى إلى حكمها العزيز الشكوى ، وتنفصل بحكم حاكمها الدعوى ، ويمتدّ جناح طيلسانه على رضوى ، ويحلّق البرق وراء فهمه ولا يبلغ غايته القصوى ؛ ويطول قلمه على السيف المشهّر ، ويرفرف سجلّه على الشرع المطهّر ؛ كم حلّت فى صدوره صدور ، وكم طلعت منهم شموس وبدور ، وكم حمدت منهم أمور عاقبة ولله عاقبة الأمور ؛ كم أداء درس بهم ذكر ، وكم أدب نفس شكر ؛ كم بهم مجد رسخ ، وجدّ لملّة ممالأة نسخ ؛ كم أقضية لهم بالحق وصلت ، وقضيّة للحقّ فصلت ، ومهنة من غلبهم اللاحق حصلت ؛ كم سجلّ صاحب هذا المنصب حامل علمه المنشور ، ومصباح ديمه الحافلة على ممرّ الدهور ؛ بشرف مدرّس علم يطلع من محرابه ، ونسّاك حلم يبدو بدره التمام خلف سحابه ؛ ومجلس إفادة ، انعقد عليه فيه الإجماع ، ومحفل سادة ، كان فيهم واسطة عقد الاجتماع .

[ولما] تزلزلت قدم منابره ، وانتهك حجاب ضمائره ، واستزلّه الشيطان بكيده المتين ، وأضله على علمه المبين ؛ وسبق القلم الشرعىّ ، بما هو كائن ، ومضى الحكم القطعىّ ، بما هو من تصرّفه بائن ـ تردّد الاختيار الشريف فيمن نحلّى جيده بتقليدها ، ونؤهّل يراعه لتسليم مقاليدها ؛ وصوّبنا صواب النظر فيها مصرا وشاما ، واستشرفنا أعلاما ، وتيقّنا لأقوى ما يكون [لها] قواما ؛ وابتكرنا أنه لا يصلح إلا من كان لحلّة المجد طرازا ، ويزيد العمل إليه اعتزاء والعلم به اعتزازا ؛ إلى أن أجمع رأينا العالى على من لا ينكر ذو قدم ولا قدم ولا قلم ، أنه السابق ؛ ولا يجحد ربّ علم ولا عمل ولا علم ، أنه الباسق . ولا يشكّ أنّ من فوائده يستمدّ المطر ومن توقّد ذهنه يقدح زناد البارق ، ولا يرتاب البحر أن فرائده ما يطوّق العنق ويشنّف الأذن ويتوّج المفارق ؛ ولا يمارى فى فضله الذى لو طلب له مثيل لم يصب ، ولو ادّعى الكوكب السارى أنّه له شبيه لمسّه النصب ، أو تلفّتت أعناق القنا إلى قلمه لأيقنت أنها كلّ على القضب ؛

وهو الذى أفنىٰ عُمْرَه فى تحصيل العلم آشتغالا ، وجدّ فى الطَّلَب لصالح العَمَلِ وإن تَغَالَىٰ ، وبَقِىَ فَقِيهَ قَوْمٍ ما جَدَّ منهم مِثْله مَاجِد ، ولا جَادَتْ يَدُ كَرِيمٍ منهم تمتدّ بما هو جَائِدْ ، ودَرَجَ أقْرَانُه إلى الله وخُلِّىَ دونهــم شَرْعًا لا يردّ واردا ، وخُلِّفَ بعــدهم سَهْمًا فى الكنانة وَاحِدَا .

وكان المجلس العالى ــ أدام الله تأْيِيــدَه ــ هو الذى تَخْتَالُ به المَنَاقِب ، وتَخْتَــار فَضَــائِلَه العواقب ، وتُشْرِقُ بقَلَمِــه الفَتَاوَىٰ إشراق النَّهار ، وتُغْدِق مَنَافِعُــه إغداق السُّحُب بالأمطار ، وتُحْــدِقُ به الطَّلَبَــةُ إحداق الكِمَامَة بالثَّمَر والهَــالاَتِ بالأقمار ، وهو شَافِى عِىِّ كُلِّ شَافِعِىّ ، ودَوَاءُ ألَمِ كُلِّ أَلْمَعِىّ ؛ طالمــا جَانَبَ جَنْبُــه المضَاجِعَ سُهادا ، وقَطَعَ الليلَ ثم آستمدّه لمدد فتاويه مِدَادًا ، وجَمَع بين المذهبين نَظَرًا وتقليدا ، والمُذْهَبَيْنِ من القولين قَدِيمًــا وجديدا ، وســلك جَمِيعَ الطرق إلىٰ مذهب إمامــه ، وملك حِسَانَها فأســفر له [كل] وجه تَغَطَّى من أوراق الكتب بلِثَامِه ، وآنْفَتَحَتْ [بفهــمه] للتصانيف أبواب شَــغَلَت « القَــفَّالَ » أَقْفَالُهَــا ، ونَفَحَتْ له نَفَحَاتٌ ما « للمَــاوَرْدِىّ » مِثَالُهَا ، وسفحت دِيَمُ غَزَارُ يسق «المزنى» سجالُهَا ، ومنحَتْ حللا يَفْخَر «الغزَالِى» إذا نُسِج علىٰ مِنْواله سربالُهَــا .

فرسم بالأمر الشريف ــ لا زال يجــدّد مَلاَبِسَ فَضْلِه ، ويقلِّد كُلَّ عَمَلٍ لصالح أَهله ــ أن يفوّض إليه قضاءُ قضاة الشافعيــة بدمشق المحروسة وأعمالهــا وجُنْدِها وضَوَاحِيها ، وسَائِر المــالك الشامية المُضَافَةِ إليها والمَنْسُوبةِ لها والمحسوبَةِ فيها ؛ يُوَلَّى ذلك ولايةً صحيحةً شَرْعيه ؛ علىٰ عادة من تقدّمه وقَاعِدَته المَرْعِيَّه ؛ مع ماهو مضاف إلىٰ من كان قبله من تدريس المدارس ، تَفْوِيضًا لا يُنَافِسُه فيه مُنَافِس ، ولا يجالسه فى درسه إلا من ارتضىٰ من النجوم ان يجــالس ؛ وأَذنًا له أن يَسْتَنِيبَ عنــه من

لا يَخْجَلُ عند الله ولا عِنْدَنا باسْتِنَابَتِه ، ولا يُدَاخِلُه ظَنٌّ فى خَلَاص ذمته بإنابته إلىٰ الله فى نيابته ؛ علىٰ أنَّه يتفقدُ أعْمَالَهم ، ويَتَصَفَّحُ أحْوَالهم : فمن نَقَلَ إليه ثِقَاتُه أنه علىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ أقرّه ، وإلا صَرَفَه ثم لايكون لَهُ إلىٰ عَمَلِه كَرَّه ؛ وهو القائم بحُجَّةِ الشرع الشريف وحجةُ الله عليه قائمه ، وعليه إن قَصَّرَ ــ والعياذ بالله ــ فى أموره تَعُودُ اللَّائِمَه ؛ وأنت تعلم أنَّا مَا كُنَّا نعرفك عِيَانا ، وإنَّما وُصِفْتَ لنا حتى كأنَّا نَرَاك وسَمِعْتَ بما نحن عليه حتىٰ كأَنَّك تَرَانا ؛ فَشَيِّدْ لمن شَيَّدَ لك شُكْرُهم أركانا ، وأعْلِ ذِكْرُهُم لِمَجْدِك بنيانا ، وجَعَلَ لك قَدْرُهُم الجميــلُ مِنَّا سلطانا ؛ وأَقِمْ بحُسْنِ سُلُوكِكَ علىٰ ماقالوا فيك بُرْهَانا ؛ وآعْرِفْ لهم حَقَّ معروفهم وجَازِهِمْ عن حُسْن ظَنِّهِم بالحسنات إحسانا .

ونحن نُوصِيك بِوَصَايَا تشهد لنــا يوم القيامة عَلَيك ببَلَاغِها ، ويَعْتَرِضُ منهــا فى الخُلُوقِ شَجًا : فَأَيُّ الرجالِ يَقْدِر علىٰ مَسَاغِها ؛ فإن قُمْت بها كَانَ لَنَــا ولك فى الأجر آشتراك ، وإنْ أَضَعْتَ حقوقَها فآلله يَعْلَمَ أننا أخرجنا هذه الأَمَانَةَ من عُنُقِنَا وقَلَّدْنَاك ، وَاللهُ وملائِكَتُــه بيننا وبينك شهود علىٰ ماأوليناك وما وَلَّينــاك ؛ فعليك بتَقْوى الله فى السِّرِّ والإعلان ، والعَمَلِ بمــا تعلمه سَوَاءٌ رَضِيَ فُلَانٌ أو سَخِطَ فُلَان ؛ والآنتهاءِ إلىٰ ما يقتضيه عُمُومُ المصالح ، وإمْضاءِ كل أمْرٍ علىٰ ماأمر الله به رســولَه صلَّى اللهُ عليه وســلَّم وكان عليه السَّلَفُ الصَّالِح ؛ وإقَامَةِ حُدُودِ الله ولا تَتَعَدَّ حدودَه ، وقَمْعِ البِــدَعِ لإظهار الحق لا لإثارة فِتْنَةٍ مَقْصُودَه ؛ فقد عَلِمْتَ ما أنكرتَه أنْتَ وأمْثَــالُك من الأئمة العلمــاء علىٰ من تَقَدَّمَك من تَسَرُّعِه فى مِثْــل ذَلِك ، وتَطَلُّعه إلىٰ مَطَالِبَ سقط دُونَها فى مَهَاوِى المَهالِك ؛ فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أن تَتَّبِــعَ فى هذا النَّحْوِ سُبُلَه ، أو «تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأْتِيَ مِثْلَه» .

والصدقات الحكمية على مادّة المساكين، وجادّة الشاكين، ففرّقها على أهلها، وأجمع لك الحسنات عند الله بتبديد شملها، ولا تُبْقِ منْها بقيةً تَبْقىٰ معرَّضةً لأ كلها، فلو أراد وَاقِفُوهَا ـ رحِمَهُم الله ـ أنها تَبْقىٰ مَخْزُونَةً، لمَا سَمَحُوا ببَذْلها، وبَقِيَّة الأوقاف شَارِفٌ فِي أمُورِها، وشَارِكِ الوَاقفينَ ـ رحِمهم اللهُ ـ فى أجورها، وخُصَّ الأسَارَىٰ ـ أحسَنَ اللهُ خَلَاصَهُم ـ بمَا يصل به إحسانُك إليهم، ويَضَعُ عنهم إصْرَهُمْ والْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم .

والأيتام ـ جَبَرَهُمُ اللهُ ـ : منهم الطِّفْل والُممَيِّز والُمرَاهِقُ ومَنْ لم يملك رُشْدَه، أومن يحتاج أن يبلُغَ فى جواز التصرّف أَشُدَّه، وكُلُّ هؤلاء فيهم من لا يعلم من يضرّه ممن ينفعه، ولكن الله يعرّفه وفى أعمـاله يرْفَعُـه، فاجتهد أن تكون فيهم أَباً بَرّا، وأن تَتَّخِذَ فيهم عند الله أَجْرا، وأَنْ تُعامَلَ فى بَنِيكَ بمثـل ماعَامَلْتَهم إذا انقلبت إلى الدّار الأُخْرىٰ، واحْفَظْ أموالَهُم أن تَنْهَكَهَا أُجْرَةُ العُمَّال، وترجع فى قِراضها إلىٰ مايُجْحِف برءوس الأموال، ومَثِّل أَعْمَـالَكَ [المعروضة] على الله فى صحائفها المعروضه، واحْذَرْ من المعاملة لهم إلا بفَائِدَةٍ ظاهـرة ورُهُنٍ مَقْبُوضَه .

والجِهَاتُ الدِّينِيَّةُ هى بِضَاعَةُ حِفْظك، ووَدَاعَة لَحْظك، فلاتُوَلِّ كُلَّ جِهَةٍ إلا مَن هو جامعٌ لشرطها، قَائِمٌ بموازين قِسْطِها .

والشهود هم شهداءُ الحَقّ، وأُمَنَاءُ الخلق، وعلىٰ شَهَادَاتِهم تُبْنَىٰ الأحكام، فإيَّاكَ والبِنَاءَ علىٰ غير أَسَاسٍ ثابِتٍ فإنّه سريعُ الانهدام، ومنهـم من يشهدُ فى قِيمَةِ المِثْـل ويتعين أن يكون من أَهْلِ البَلَدِ الأَمْثَل، لأنه لايَعْرِفُ القيمةَ إلَّا مَن هو ذُوسَـعَةٍ مموَّل، ومنهم مَنْ أُذِنَ له فى العُقُود فامنع منهم من تسهل بسَبَبٍ من الأسباب، وما تمهَّلَ إشْـفَاقا لاختـلاط الأنسال والانساب، يقبـل بالتعريف مايخلو من الموانع

الشرعية مَنْ كان، ولا يُحْسِن فى تزويجه يُمْسك إِمْسَاكًا بمَعْرُوفٍ ولا يُسَرِّحُ تَسْرِيحًا بإحسان؛ وهؤلاء مَفَاسِدُهم أكثرُ من أن تُحْصَىٰ، والبلاء بهم أكبر من أن يُسْتَقْصَر أو يُسْتَقْصَىٰ؛ فاعْتَبِرْ أحوالَهُم آعتبارا جليًا، وفكِّرْ فى آستدراك فَارِطهم فِكْرًا مَليًّا؛ ومَنْ لم يكنْ له من العِلْمِ والدِّينِ ما يُوضِّحُ له المُشْتَبِهات، فإيَّاكَ وتَرْكَه فَرُبَّ مُعْتَقِدٍ(١) أنه يَطَأُ وطأً حَلالا وقد أوقعه هذا ومثْلُه فى وَطْءِ الشُّبُهات؛ ومنهم من يعمدُ إلىٰ التَّحْليل، ويرتكبُ منه مَحْذُورًا غيرَ قليل؛ وهو بعَيْنِه نِكَاحُ المُتْعَةِ الذى كان آخرَ الأمرين من رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم النَّهْىُ عنه، وقام أمير المؤمنين عُمَرُ آبن الخطاب رضى الله عنه مُحَذِّرًا منه؛ فاحْسِمْ هذه المادّة الرَّدِيَّة التى تُؤْلِمُ عضوا فيسرى إلىٰ سائر الأعضاء أَلَمُهَا، ويَبْقَىٰ فى كثير من الذَّرارِىِّ المولودة من هذه الأنكحة الفاسدة ثَلْمُها.

والرُّسلُ والوكلاءُ بمجلس الحكم العزيز ومَنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقَات، وما نزل فى أُمُورٍ ما يريدون بها تقليدَ حكمك بل ما يقضون به الأوقات؛ فلا تَدَعْ ممن تريد منهم إلا كلَّ مَشْكُورِ الطريق، مشْهُورِ القصة بين الخصوم بطلب التوفيق.

والمَكَاتِيبُ هى سهامك النَّافذه، وأحكامك المؤاخذه؛ فسَدِّدْ مَرَاميها، ولا تُرْدفها ماعرض عليك من الأحكام حتى لا يسرع الدخول فيها؛ والمَحَاضِرُ هى محل التقوِّى، فاجتهد فيها آجتهادا لا تَذَرُ معه ولا تُبْقِى.

وأما قضايا المتحاكمين إليك فى شَكَاوِيهم، والمُحَاكَمين فى دَعَاوِيهم، فأنْتَ بهم خَبِير، ولهم نَاقِدٌ بصير؛ فإذا أَتَوْكَ لتَكْشف بحكمهم لَأْوَاءَهُم، فاحْكُمْ بينهم بما أَرَاكَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهْواءَهُمْ؛ وقد فَقَّهَكَ الله فى دِينِه، وأوردَكَ من مَوَارِدِ يَقِينِه، ماجعله لك

(١) فى الاصل: منفعة وهو خطأ.

نُورًا، وجَلَاه لك سُفُورًا، وأقَامَه عليك سُورًا، وعَلَّمَك مالم تكُنْ تعلمُ منه أمُورًا، فإن أشْكَلَ عليك أمْرٌ فرُدَّهُ إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلم وإجْمَاع أصْحَابِه فإن لم تجِدْ فعِنْدك من العلماء من تَجْعلُ الأمر بينهم شُورَىٰ؛ ولأمير المؤمنين عمرَ بنِ الخَطَّاب رضى الله عنه كتابٌ كَتَبه إلىٰ بعض القُضَاه، فَاعْمَلْ بمقتضاه، وٱعلم بأنَّ الله تعالىٰ قد ٱرتضاك لخلْقِه فاعمل علىٰ رِضَاه.

والأئمة العلماء هم إخوانك فى الدِّين، وأعوانُك علىٰ رَدْعِ المُبْتَدِعين، ولِسَانُك فى المَحْفِلِ وجَنَاحُك إذا جلسوا ذَاتَ الشمال وذَاتَ اليَمِينِ، فَنَزِّلْهم منازلهم التى أحلهم الله فى شُرُفَاتِها، وبَوِّأْهُم رفيعَ غُرُفاتِها، وتَأَلَّفْ خَوَاطِرَهم فإنَّك تنظر إلىٰ كثير من الأمور فى صَفَاءِ مُصَافَاتِها.

ومن نُسِب إلىٰ خِرْقة الفقر وأهل الصلاح هم أولياء الله المُقَرَّبُون، وأحبَّاؤه الأقربون، فعَظِّمْ حَيَاتَهم، وجَانِبْ محاباتَهم، فما منهم وإن ٱختلفت أحوالهم إلا من هو علىٰ هُدًى مُبِين، وٱحْرِص أن تكون لهم حِبًّا يملأ قلوبهم(١) فإنَّ الله ينظر إلىٰ قَوْم من قُلُوب قَوْمٍ آخَرِين.

وٱنْتَصِبْ للدروس التى تَقَدَّمْتَ بها علىٰ وافد الطلبة فإنَّ الكرم لا يمحقه الٱلتماس، والمصباحَ لا يُفْنِي مُقَلَه كثرةُ الٱقتباس، والغمام لا يَنْقُصُه تَوَالِى المَطَر ولا يَزِيدُه طُولُ الٱحتباس، والبحر لا يتَغَيَّرُ عن حاله وهو لا يخلو عن الوُرَّادِ فى عَدَد الأنفاس.

والوَصَايا كثيرة وإنَّما هذه نُبْذَةٌ جامعه، وبارِقَةٌ لَامِعَه؛ ومنك يُسْتَفَاد بَسَاطُ القَوْل، وٱنبساط الطَّوْل؛ ولهذا يُكْتَفَىٰ بما فِيك، والله تعالىٰ يَكْفِيك، ويُحْصِى حِسَابَ أعمالك الصَّالِحة ليوفيك؛ حَتَّى تجِدَّ فلا يتخلَّفُ بك السير، وتَسْتَعِدَّ ليُخْتَمَ لك بخاتمة الخَيْر، والٱعتماد على الخط الشريف.

(١) فى الأصل «حبلا يملا فى قلوبهم» فتأمل.

* * *

قلت : وهذه نسخة توقيع بقضاء، أنشأته بدمشق للقاضى «شرف الدين مسعود» وهى :

الحمد لله الذى شيد أحكام الشرع الشريف وزاد حكامه فى أيامنا شرفا، ورفع منار العلم على كل منار وبوأ أهله من جنات إحساننا غرفا، وأباح دم من ألحد فيه عنادا أو وجه إليه طعنا، وأوجب الانقياد إليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾؛ وألهم الصواب فى اختيار من لم يزل لهذه الرتبة معدا ومن رجالها معدودا، وصرف وجه إقبالنا إلى من ارتضيناه للسلمين حاكما فأصبح بنظرنا مسعودا .

نحمده حمد من اعتنى بالقيام بشرائع الإسلام وتعظيم شعائره، ونصح للرعية فيمن ولاه عليهم وأعطى منصب الشرع حقه بتقديم أكابره. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة يقضى لصاحبها بالنجاة من النار، ويسجل لقائلها بالثبوت فى ديوان الأبرار؛ وأن محمدا عبده ورسوله الذى شرط الإيمان بالرضا بحكمه وأوجب طاعته أمرا ونهيا واستجابة وتحكيما، فقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نحن بسيرهم مهتدون، وبآثارهم مقتدون، وعلى آله وصحبه الغر الكرام الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون؛ صلاة لا يختلف فى فضلها اثنان، ولا يتنازع فى قبولها خصمان؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فلما كانت مرتبة الشرع الشريف هى أعلى المراتب، ومنصب حكامه فى الورى أرفع المناصب؛ إليه تنتهى المخاصمات فيفصلها ثم لاتعدوه، ويحكم فيه على

الخصم فيُذْعِنُ لِحُكْمِه ثم لا يَشْنُوه ؛ بل يتفرق الخَصْمَانِ وكلٌّ منهما بما قُضِيَ له وعَلَيْه رَاض، ويقولُ المُتَمَرِّدُ الجَائِرُ لحاكمه : قد رَضِيتُ بحُكْمِكَ فاقْضِ فِيَّ مَا أَنْتَ قَاض، وناهِيكَ بِرُتْبَةٍ كان النبيّ صلَّى الله عليه وسلم هو المتصدّى للقيام بواجبها، والخلفاءُ الراشدون ـ رِضْوَانُ الله عَلَيهم ـ محافظين علىٰ أَدَاءِ رَوَاتِبها ؛ ثم آختصَّ بها العلماءُ الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء من الخليقه ، وآسْتَأْثَروا بها دون غيرهم من سائر الناس فهم أهلها على الحقيقه ؛ إذ لا يُؤَهَّل لهذه الرتبة إلا من آرْتَقَىٰ إلىٰ درجات الكمال، وآتَّصَفَ بأَحْسَنِ الأوصاف وآحْتَوىٰ علىٰ أَنْفَسِ الخصال؛ وتَضَلَّع من العلم الشريف بما يُرْوِيه ، وفاق فى العقل والنقل بما يحثه ويَرْوِيه .

ولما كان المجلس الفلانىّ : هو عَيْنَ هذه القِلاَدَة وَوَاسِطَةَ عِقْدِها ، وقُطْبَ دائرتها ومِلاَكَ حَلِّها وعَقْدِها، إذ هو «شُرَيْحُ» الزمان ذكرا، و «أَبُو حَامِد» سيرةً و«أبو الطَّيِّبِ» نَشْرا، لاجَرَمَ أَلْبَسَتْهُ أَيَّامُنا الزاهرةُ من الحُكْمِ ثَوْبًا جَدِيدًا، وأفاض عليه إنْعَامُنا نِحْلَةً نُعْقِبُها ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ مزيدا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لازالت الشريعة المُطَهَّرة بمناصرته فى أَعَزِّ صِوَان، وحُكَّامُها بمَعَاضَدَتِه فى أَعلىٰ درجة وأَرْفَعِ مكان ـ أن يفوّض إليه ... ...

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مِثْلِه لِمِثْلِها ، ولْيَعْمَلْ بما يعلمه من أحكامها فهو آبن بَجْدَتِها والخبيرُ بمسالك وَعْرِهَا وسَهْلِها؛ فهو الحَاكِمُ الذى لايُسَاوَىٰ ، والإمامُ الذى يقتدىٰ به فى الأحكام والفَتَاوَىٰ؛ فعَلَيْه بالتأنِّى فى الأحكام، والتَّثَبُّت فيما يصدُر عنه من النَّقْضِ والإبرام ؛ ولْيَنْظُر فى الأمر قبل الحكم الْمَرَّةَ ثم الأخرىٰ، ويُكَرِّرِ النَّظَرَ فى ذلك ولو أَقَامَ شَهْرا ؛ ويُرَاجِعْ أَهلَ العلم فيما وقف عليه ويُشَاوِرْهم فما نَدم من آستشار، ويُقَدِّمِ آستخارة الله تعالىٰ فى سائر أموره فما خَابَ من آسْتَخَار ؛ ولْيَدْرْ

مع الحقِّ كيف دَار ، ويَتّبع الصَّـوَابَ أَنَّى توجّه ويَقْتَفِى أَثَرَه حَيْثُ سار ؛ وإذا ظهر له الحقُّ قَضَىٰ به ولو علىٰ ٱبْنِه وأَبِيه ، وأَعَزِّ أَصْدِقَائِه وأَخَصِّ ذَوِيه ؛ غيرَ مُفَرِّقٍ فى فَصْلِ القضاء بين القَوِىّ والضَّعِيف ، والوَضِيع والشَّرِيف ؛ ولا مُمَيِّزٍ فى تنفيـذ الحكم بين الغَنِىّ والفَقِير ، والسُّوقَةِ والأَمِير ؛ ولْيُسَوِّ بين الخصوم حتَّىٰ فى تقسيم النظر إليهم ، كما فى موقف الحكم وسَمَاعِ الدَّعْوَىٰ وردِّ الأجوبة فيما لهم وعليهم ؛ ولْيَسْتَخْلِفْ من النوّاب من حَسُنَتْ لديه سِيرَتُه ، وحُمِدَت عنده طَرِيقَتُـه ؛ ويُوصِ كُلًّا منهم بمـا نوصـيه به ويُبَالِـغْ فى تأْكِيد وصيته ، ويَسْتَحْضِرِ السرَّ فى قوله صلى الله عليـه وسلم : « أَلَا كُلُّكُمْ راعٍ وكلكم مسئول عن رَعِيَّتِه » . ولْيُمْعِنِ النَّظرَ فى أمر الشهود الذين تترتب علىٰ شهادتهم أمور الدنيا والفُرُوج والأموال ، ويَتَفَقَّدْ أَمْرَهم فى كل وقت ولا يغْفُل عنهـم فى حال من الأحوال ؛ ويحمِلهـم من الطرائق علىٰ أحسن وجهها ، وأَحَقُّهم بإمعان النظر شهودُ القِيمَةِ والعَمَائِر ، الذين يُقْطَع بقولهم فى أَملاك الأَيتام والأَوقاف ممـا تنفِر عنه القلوب وتَنْبُو عنه الضَّمَائِر .

والوكلاء والمُتَصَرِّفُون فهم قوم فَضَـلَ عنهم الشرُّ فباعُوه ، وٱسْتُحْفِظُوا الوُدَّ فلم يرعَوْا حقـه وأَضَاعُوه ؛ فهـم آفةُ أبواب القضاة بلا نِزاع ، كيف وهم الضِّـبَاعُ الضَّارِيَة والذِّئَابُ الجِيَـاع . وما تَحْتَ نظره من أوقاف المـدارس والأَسْرىٰ والصَّدَقات ، وغيرها ممـا يَقْصِدُ به وَاقِفُوه وجهَ البر وسبيل القُرُبَات ؛ يُحْسِنُ النظر فى وجوه مَصَارِفها ، مع حفظ أَجوالهـا الذى هو أَغْيَا مرادِ واقفها .

وأهل العـلم أَبْنَاءُ جِنْسِه الذين فيهم نَشَأَ ومنهم نَجَم ، وجُنْـدُه الذين يقصِـدونه بالفَتَاوىٰ فيما قَضَى وَحَكَم ؛ فلْيُوَفِّرْ لهم الإحسان ، ويَصْنَعْ معهم من المعروف ما يبقىٰ ذكره علىٰ ممرّ الأزمان ؛ ومِثْـلُهُ لايحتاج إلىٰ كثرة الوصايا ، وثوقًا بمـا عنده من العِلْمِ

بالأحكام والمَعْرِفَة بالقضايا ؛ لَـكِنْ عليه بتقوى الله ومراقبته يكن له ممـا يَتَبوّءه ظهيرا ، ويَسْتَرْشده فى سائر أموره يجعـلْ له من لَدُنْه هادِيا ونصـيرا ؛ والله تعالىٰ يبلغ وَاثِق أَمَلِه من كَرَمِنا مَرَاما ، ويُوَطِّئُ له المِهَادَ ببلدٍ حَسُنتْ مسـتقَرّا ومُقاما . إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة توقيع بقضاء قُضَاة المـالكية بالشام ، من إنْشَاء الشيخ شِهَاب الدّين محمود الحلبيّ تَغَمَّده الله برحمته ، وهى :

الحمد لله جاعل المَذَاهِبِ الشَّرعيَّـة فى أيامنا الشريفة زَاهِيَةً بأركانهـا الأربَعَه ، مستقرّةً على النِّظامِ الذى غدتْ به قواعدُ الحُجَّة محكمَةً ومَوَاقِعُ الرحمة مُتَّسِعه ، فإذا خلا رُكْنٌ من مُبَاشَرَةٍ أَقَمْنَا من تكون القلوب علىٰ أَولَوِيَّتِه مُجْتَمِعَه ، وٱنتقينا له من الأتقياء من تَغْدُو به الأمّةُ حيث كانت مُنْتَفِعَه ، وٱستدعينا إليه من تَغْدُو الأدعية الصالحة لنـا بتفويض الحكم إليـه مُرْتَفِعَه ؛ الّذى خَصَّ مذهبَ « إمام دار الهجرة » بكل إمام هَجَرَ فى التَّبَحُّر فيه دواعى السُّكُون وبَوَاعِثَ الدَّعَه ، وجَمَّلَ مَنْصبَ حُكْمِه بمن كَمُلَ بعلوم الدين نَحْرُه فإذا حكم غَدَت الأَقْضيَةُ لحكمه مُنَفَّذَةً وإذا قَضَىٰ أَضْحَتِ الأحكام لأقضيته متَّبِعه .

نحمـده علىٰ نِعَمه التى جَعَلَت مُهِمَّ الشَّرع الشريف لَدَيْنَـا كالاستفهام الذى له صدر الكلام ، وبِمَثَابَةِ النِّيَّة المقدّمة حتَّى [علىٰ] تكبيرة الإحرام ؛ ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة أَثْبَتَ الإخلاص حُكْمَها ، وأَحْكَمَ الإيمـانُ عِلْمَها ، وأَبْقَ اليقـينُ علىٰ صَفَحَاتِ الوُجُوهِ والوُجُودِ وَسْمَها المُشْرِقَ وٱسْمَها ؛ ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى أَخَذ الله ميثاق النَّبِيِّـينَ فى الإقرار بِفَضْلِه ، وأرسله ﴿بالهدىٰ

و ينِ الحقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه﴾؛ وخَصَّه بالكتاب الذى أَخْرس الأُمَمَ عن مُجَارَاته فلو ﴿ٱجتمعت الإنْسُ والجنُّ علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرءان لَا يأْتُونَ بمثْلِه﴾؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين تمسكوا بسَنَنِه وسُنَّته، وأَوْضَحُوا شَرْعَه الشريفَ لمن تلَقَّاه بعدهم من أئمة أمته؛ صلاة لا تزال بِقَاعُ الإيمـان لأحكامها منْبِته، وأنواء الإيقان لأُوَامها مُقْلِته(١)؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فإنه لمـا كانت الأحكامُ الشرعيةُ تتوقفُ علىٰ ملاحظةِ قَضَاء قُضَاتِها فى غالب الأمور، وتستند إلىٰ مُرَاجَعَةِ أُصُول حُكَّامها فى أكثر مصـالح الجمهور ، لم يكن بُدٌّ من مُرَاعَاةِ أُصُولهـا التى إنمـا تَنُوبُ الفروعُ عنها، وتَدَبُّرِ أحوال أحكام حُكَّامِها التى تَنْشَأُ أَقْضية النوّاب منها؛ ولذلك لمَّـا أَصبح منصب قضاء القضاة علىٰ مذهب الإمام « مَالكِ بن أَنَسٍ» رضى الله عنه بالشَّام المحروس لضَعْف مباشره المتـدّ ، فى حكم الخـالى، وتعطل بعجزه المشتدّ، ممـا أُلِف به قديمـا حال حكمه الحالى؛ وتَمَـادَى ذَلك إلىٰ أن تَرَقَّى الناسُ منه إلىٰ دَرَجة اليَقين؛ وتَنَاهَى الحكمُ فيه إلىٰ أن يعين أن يُرْتَادَ من يَتَعَيَّنَ لمثله من الأَئمّة المُتَّقين ؛ لِئَلَّا يخْلُوَ هذا المذهبُ من قاضى قضاة يُقِيمُ مَنَارَه ، ويُدِيمُ أنوارَه ، ويرفع شِعَارَه ، ويُحْيِي مآثِرَ إمَامِه وآثارَه، ويُؤَمِّنُ كَمَالَ أفقه أن يُعَاوِدَ سِرَارَه ؛ وكان المجلس السامى ، القاضوىّ ، الفخرىّ ، هو الذى لا يَعْدُوهُ الٱرْتِيَاد، ولا يَقِفُ دونَه الٱنتِقاءُ والٱنْتِقاد، ولا تجاوَزُه الإصابة فى الٱجتهاد : لمـا عليه من عِلْمٍ جعله مخطوبا للناصب، وعَمَلٍ تركه مَطْلوباً للراتب التى لا تُذْعِنُ لكلِّ طالب ؛ وتُقًى أعاده مُرْتَقِياً لكلِّ أُفُقٍ لا يصـلح له كلُّ شارق ، ووَرَعٍ فتح له أبواب التَّلَقِّ بالٱسـتدعاء وإن لم تُفْتح لكلِّ طارق ؛ وقد هَجَرَ الكَرا فى تحصـيل مذهب «إمام دار الهجرة» إلىٰ أن وَصَل إلىٰ ما وَصَـل، وأَنْفَقَ مُدَّة

(١) الأوام شدّة العطش ومقلته مهلكه .

عُمْره فى آقتناء فوائده إلىٰ أن حَصَل من الثَّرْوَة بها علىٰ ما حَصَل ؛ فسارت فتَاويه فى الآفاق ، ونَمتْ بَركَات فَوَائده التى أَنفقها على الطَّلبَـةِ فزكَتْ على الإنفـاق - آقتضت آراؤنا الشريفة أَن نُبْقِي نَخْرَ هذا المنصب الجليل بفَخْرِه ، وأن نُخُصَّ هذا المذْهَبَ النبيل بذخره ، وأَنْ نُحَلِّيَ جِيدَهُ بمن نَقَلْنا إلىٰ وِشَام الوسام ما كان من حُسْن شَنَبِ العلم مُخْتَصًّا بثَغْرِه .

فرسم بالأمر الشريف - لا زالَ لأحكَامِ الشرع مُقِيما ، وللنظر الشريف فى عموم مصالح الإسـلام وخصوصها مُدِيمًا ، أن يفوّض إليـه ... ... لمـا تَقَدَّم من تَعَيُّنِه لذلك ، وتَبَـيَّنَ من أَنَّه لحكم الأولوية بهـذه الرتبة فى مذهب الإمام مالك مالِك .

فَلْيَلِ هـذه الوظيفةَ حَاكِمًا بمـا أَراه الله من مَذْهَبِه ، مُرَاعِيًا فى مباشرتها حقَّ الله فى الحكم بين عباده وحَقَّ مَنْصِبِه ، مجتهدا فيما تَبْرَأُ به الذمةُ من الوقوف مع حكم الله فى حَالَتَيْ رضاه وغَضَـبِه ، وَاقِفًا فى صِفَةِ القَضَاء علىٰ ما نُصَّ فيه من شروطه وأُوضِحَ من قواعده وشُرِح من أَدَبِه ، مُمْضِياً حقوقَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فيما يقتضيه رَأْيُ إمَامِه ، مُتَوِّجًا الحكَمَ بنصوصه المجمع دليها من أَئِمَّة مذهبه فى نَقْضِ كُلِّ أَمْرٍ وإِبْرامه ، جَارِيًا فى ذلك علىٰ قواعد أَحْكام هذا المَذْهَب الذى كان مُشْرِقا فى ذلك الأُفُق بجماله وزَيْنه ، وَاقِفًا فى ذلك جميعه مع رضا الله تعالىٰ فإنَّه فى كُلِّ مايَأْتى ويَذَر بعَيْنه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى قوله وعمله ، ويبلّغه من رضاه نِهَايَةَ سُولِه وغَايَةَ أَملِه ؛ بمنّه وكَرَمِه ! إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهـذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنـابلة ، كُتِبَ بها للقاضى عَلَاءِ الدِّين «منجى التنوخى» وهى :

الحمد لله الذى رفع بعَلاءِ الدِّينِ قَضَاءَ قُضَاتِه، وأَوْضَح الهُـدَىٰ فى القيام فى توليتهم بمفترضاته، وأعلىٰ مَنَـارَ الشَّرع بمـا أَوْقَفَهم عليه من أَحْكامه ووَفَّقهُـم له من مَرْضَـاتِه .

نحمده حمدا نَسْتَعِيدُ من بَرَكَاتِه، ونَسْتَعِيذُ به أَن نَضِلَّ فى ضَوْءِ مِشْكَاتِه، ونستعينُ عليه برَبِّ كل حُكْمٍ يُمِدُّنَا قَلْبُه بسُكُونِه وقَلَمُه بحَرَكَاتِه، ويُثْبِتُ من جميل مَحْضَرِه لدينا ما يرفع مَسَّ شَـكَاتِه؛ ونشهدُ أنْ لَا إِلٰه إلا الله وحْدَه لا شريك له شَهَادَةً يستودِعُ إِخْلاصها فى قلوب تُقَاتِه، وتفَوِّضُ أحكامُها إلىٰ ثِقَـاتِه، ويُحْمىٰ سَرْحُها من أَبْطَالِ الجِلَاد والجِدَال بكل مُشْتَاقٍ إلىٰ مُلَاقَاتِه؛ ونشهد أَنَّ محمدًا عبده ورسوله أَفضَـلُ من حكم بمـا أَنزل اللهُ من آياته، وجَاهَـدَ فى الله بَرأْيِه ورَايَاتِه، وشَرَع من الدِّينِ مايُنَجِّى المتمسكَ به من غَوَايَاتِه؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصحبه الذين أَقام شَرْعَه منهم بكُمَاتِه، وجعل حُكْمَهم دَائِمَ النُّفُوذ أَبدا بأَقلام علمـائه وسيوفِ حُمَاتِه؛ وسَلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعد، فَمَنْصِبُ الحكم الذى به تُفْصَلُ الأُمور، وتَنْفَرِجُ له الصُّدُور، وتَتَسَدَّدُ أَقْلام حُكَّامه سِهَاما، وتُفِيضُ غَمَـاما، وتَتَعَلَّمُ منه الأُسُودُ زَئِيرا، ويطول السَّيْفَ صَـلِيلًا والرمحَ صَرِيرا، وتَنْتَصِب بين يَدَىْ حُكَّامه الأقْدَام، وتنتصف علىٰ أَحْكامه الخِصَـام(١)، وتُنَكِّس الرُّءُوس لِهَيْبَتِه إطراقا، وتَغُضُّ المُقَلُ فمـا تُديرُ جُفُونا ولا تُقَلِّب أَحْدَاقا، ويَجْرِى بتَصْرِيفه قَلَمُ القَضَاء، ويُجَارِى مُرْهَفُه البُروقَ فتُقِرّ له بالمَضَـاء؛ وقد شَـيَّدَ اللهُ مَبَانِيَهُ فى ممـالكنا الشريفة مِصرًا وشَامًا علىٰ أَربعـة أَرْكَان، وجمع فى قضائه الأَئمَّةَ الأربعـةَ لتكمل بهم فُصُولُ الزمان؛ ومَذْهَبُ الإمام أَبِى عبـد الله «أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ» رضى الله عنه هو بالسُّـنَّة النبوية الطِّرَازُ المُذْهَب، وطريقة

(١) الخصام جمع خصم كبحر وبحار. انظر المصباح.

السلف الصالح فى كُلِّ مَذْهب؛ وقد تَجَنَّبَ من سَلَف من علمائه التَّأْويلَ فى كَثير، ووَقَفَ مع الكِتَاب والسُّنَّة وكلٌّ منهما هو المصباح المنير.

وكانت دِمَشْقُ المحروسةُ هى مَدَارَ قُطْبِهِم، ومَطْلَع شُمُوسِهِم ونُجُومِهم وشُهُبِهِم؛ وأَهْلها كثيراً مَّا يحتاجون إلىٰ حاكم هذا المذهب فى غالب عقد كل بيع وإيجار، ومُزَارَعَةٍ فى غِلَالٍ ومُسَاقَاةٍ فى ثِمَار، ومُصَالحَةٍ فى جوائحَ سماويَّةٍ لا ضَرَر فيها ولا ضِرَار، وتَزْوِيج كلِّ مَمْلُوكٍ أَذِنَ له سَيِّدُه بِحُرَّةٍ كَرِيمَه، وٱشتراطٍ فى عَقْدٍ بأن تكون الأَمْرَأَةُ فى بلدها مُقيمه؛ وفَسْخ إن غاب زوجُها ولم يترك لها نفقةً ولا أَطْلَقَ سَرَاحَها، وبَيْع أَوْقَافٍ دَاثِرَةٍ لا يجد أَربابُ الوَقْفِ نَفْعًا بها ولا يستطيعون إِصْلَاحَها.

فلما ٱستأْثَرَ اللهُ بِمَنْ كان قد تَكَمَّلَ هذا المَنْصِبُ الشريفُ بشرَفِه، وتَجَمَّلَ منه بَبَقِيَّة سَلَفه؛ حصلَ الفِكْرُ الشريفُ فيمَن نقلده هذه الأَمَانَةَ فى عُنُقِه، ونُهَنِّئُ هذا المنصب بطلوع هلاله فى أُفُقِه؛ إلىٰ أن ترجح فى آرائنا العالية المُرَجَّحُ المُرَجَّى، وتَعَيَّنَ واحدا لمَّا ٱبْتُلِيَ الناس بالقضاء كان المُنَجَّى ٱبنَ المُنَجَّى؛ طالما تطرَّزَتْ له الفَتَاوىٰ بالأقلام، وٱلْتَفَّتْ به حَلْقَةُ إِمَام، وخاف فى طَلَبِ العِلْمِ من مُضَايَقَةِ اللَّيالى فما نام ـ ٱقتضىٰ حُسْنُ الرأى الشريف أن يفوّض إليه قضاء القضاة بالشام المحروسة علىٰ مذهب الإمام الربانىّ «أَحْمَدَ بنِ حَنْبَل» الشيبانىّ، رضى الله عنه.

فلْيَحْكُم فى ذلك بما أَرَاه الله من عِلْمِه، وآتاه من حُكْمِه؛ وبَيَّنَه له من سُبُلِ الهُدَىٰ، وعَيَّنَه لبصيرته من سُنَنِ نَبِيِّه صلَّى الله عليه وسلم التى مَن حادَ عنها فقد جار وٱعْتَدىٰ؛ ولْيَنْظُر فى أُمور مَذْهبِه ويَعْمَلْ بكل ما صَحَّ نَقْلُه عن إمامه، وأَصْحَابِه من كان منهم فى زَمَانِه ومن تَخَلَّفَ عن أَيَّامِه؛ وقد كان ـ رحمه الله ـ إِمَامَ حَقٍّ

نَهَضَ وقَدْ قَعَدَ الناسُ تِلْكَ الْمُدَّه، وقام نَوْبَةَ المِحْنَة وقام «سَيِّدُ تَيْمٍ»(١) رضى الله عنه نَوْبَةَ الرِّدَّه، ولم تَهُبَّ به زُعَازِعُ «المَرِّيسِيِّ» وقد هَبَّتْ مَرِيسًا، ولا «آبنُ أَبِى دُوادٍ» وقد جَمَع كلَّ ذَوْدٍ وسَاقَ له من كُلِّ قُطْرٍ عِيسًا، ولا نَكَث عهدَ ماقَدَّم إليه «المأمونُ» فى وَصِيَّةِ أَخِيهِ من المَوَاثِق، ولا روّعه صوتُ «المعتصِم» وقد صَبَّ عليه عذابَه ولا سَيْفُ «الواثق»؛ فلْيُقَفِّ علىٰ أَثَرِه، ولْيَقِفْ بمسنده علىٰ مذهبه كله أَوْ أَكْثَرِه؛ ولْيَقْضِ بمُفْرَدَاتِه وما آختاره أصحابُه الأخيار، ولْيُقَلِّدْهم إذا لم تختلف عليه الأخبار؛ ولْيَحْتَرِزْ لدِينه فى بَيْع مادَثَرَ من الأوقاف وصَرْفِ ثَمَنِه فى مِثْله، والآستبدال بما فيه المصلحة لِأَهْلِه؛ والفَسْخِ علىٰ مَن غَابَ مدّةً يَسُوغُ فى مِثْلها الفَسْخُ وتَرَكَ زَوْجَةً لم يترك لها نَفَقَه، وخَلَّاهَا وهى مع بقائها فى زَوْجِيَّتِه كَالْمُعَلَّقه، وإِطْلَاقِ سَرَاحِها لَتَتَزَوَّجَ بعد ثبوت الفَسْخِ بشروطه التى يبقىٰ حكمها به حكم المُطَلَّقَه؛ وفيما يمنع مُضَارَّةَ الجار، وما تَفَرّع علىٰ قوله صلَّى الله عليه وسلَّم : «لَاضَرَرَ ولَاضِرَار» . وأَمْرِ وَقْفِ الإنسان علىٰ نَفْسه وإن رآه سِوَىٰ أَهْلِ مَذْهَبِه، وطلعت به أَهِلَّة عُلَمَاءَ لولاهم لما جَلَا الزمانُ جُنْحَ غَيْهَبِه . وكذلك الجوائح التى يخفَّف بها عن الضعفاء وإن كان لا يرىٰ بها الإلزام، ولاتَجْرِى إلا مَجْرَى المصالحة دَلِيلَ الآلتزام . وكذلك المُعَامَلَةُ التى لولا الرُّخْصَة عندهم فيها لَمَا أَكَل أكثرُ الناس إلا الحرام المحض، ولا أُخذَ قسم الغلال والمُعَامَلُ هو الذى يزرعُ البذر ويَحْرُثُ الأرض؛ وغير ذلك مما هو [محيط] بمفرداته التى هى للرفق جامعه، وللرعايا فى أكثر مَعَايِشِهم وأَسْبَابِهم نَافعه، وإذا آستقرّت الأُصُولُ كانت الفُرُوع لها تَابِعَه؛ والخط الشريف أَعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) سيد تيم هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

المرتبة الثانية (١)

(من تواقيع الوظائف الدينية بدمشق ، ما يُكتب فى قطع الثلث مفتتحا بـ«الحمد لله» إن علَتْ رُتْبَةُ المُتَوَلِّى أو بـ«أمّا بعد حمد الله» إن انحطت رُتْبَتُه عن ذلك بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفة الأولىٰ — قَضَاءُ العَسْكر . وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ، كما بالديار المصرية .

الوظيفة الثانية — إِفْتَاءُ دار العدل بِدِمَشْقَ . وبها أربعة : من كل مذهبٍ واحدٌ، كما بالديار المصرية .

الوظفية الثالثة — الحسبة .

وهذه نسخة توقيع بالحسبة الشريفة :

الحمد لله مُجَدِّدِ النِّعَمِ فى دَوْلَتِنا الشريفةِ لِمَن ضَفَتْ عليه مَلَابِسُها ، ومُضَاعِفِ المِنَنِ فى أيامنا الزاهرة لمن سَمَتْ به نَفَائِسُها ، ومُولِى الآلاءِ لِمَن بَسَقَ غَرْسُها لَدَيْه فزهت بجماله ثَمَرَاتُها وزَكَتْ مَغَارِسُها .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى تُؤْنِسُ بالشكر أَوَانِسُها ، وتُؤَسَّسُ علىٰ التَّقْوىٰ مَجَالِسُها ؛ ونشهد أَنْ لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً آستضاء بنور الإيمان قَابِسُها، وآجْتَنَىٰ ثَمَرَ الهُدَىٰ غَارِسُها ؛ ونَشْهَدُ أَنَّ مجدًا عبدُه ورسولُه أَشْرَفُ من أَشْرَقَتْ به معالمُ التوحيد فعَمَرَ دَارِسُها ، وَأَشْرَقَ دَامِسُها ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين قلوبهم مَشَاهِدُ الذِّكْرِ وأَلسِنَتُهم مَدَارِسُها ، وسَلَّمَ تسليمًا كثيرا .

(١) فى الأصل الطبقة الثانية .

وبعـد، فإنَّ أَوْلىٰ من أُمْضِىَ له ما كان به أَمرٌ ورُسِم، وجُدِّدَ له من المَنَاصِب الدِّينية ماعُرِف به من قَبْـلُ ووُسِم، وأُثْبِتَ لتَرَقِّيه ماحُتِم له به من المراتب السنية بمقتضىٰ الاستحقاق وحُكِم ـ من رَقَتْ أَوَامِرُنا له حُلَّةَ مَنْصِبٍ يجدّدها الإحسان، وأَمَرَتْ له مَرَاسِمُنا بوظيفة تُؤَكِّد عَوَارِفَنا الحِسَان، وأَثَّلَتْ[له] نِعَمُنا مَنْصِبًا أَعَدَّ له من كَمَالِ الأَهْلِيَّة أَكْمَلَ ما يُعِدُّه لذلك الإنْسَانُ .

ولما كان فلان هو الذى تحلَّىٰ من إِحْسَانِنَا بما يأمن [معه] سعيد رتبته [من] العَطَل، واتَّسَمَ من بِرِّنَا وامْتِنَانِنا بمـا هو فى حكم المسـتقِر له وإن ألوىٰ به الدَّهْرُ ومَطَل ـ اقتضىٰ إِحْسَانُنا أَنْ نُجَدِّدَ له مَوَاقِـعَ النِّعَم، ونُشَيِّدَ من رجائه مَوَاضِعَ ما شَمِلَه من البِرِّ والكَرَم، ونُرِىَ من عَدَقَ بِنَا رَجَاءَ أَمَلِه أَنَّنَا نَتَعَاهَدُ سُقْيَا آمَالِ الأَوْلِياءِ والخَدَم .

فلذلك رسم ... ـ لازال بِرُّه شامِلًا، وبَدْرُه فى أُفُقِ الإحسان كامِلًا ـ أن يُفَوَّضَ إليه نظر الحِسْبَة ويَسْتَمِرَّ فى ذلك علىٰ حكم التوقيع الشريف الذى بيده: لِمَـا سبق من اختياره لذلك واصْطِفَائِه، وادِّخَاره لهذا المَنْصِبِ من كُفَاة أَعْيَانِه وأَعْيَان أَكْفَائِه؛ ولِمَـا تَحَلَّىٰ [به] من رِيَاسَـةٍ زانته عُقُودُها، وتَكَمَّلَ له من أَصَالَةٍ ضَفَتْ عليه حِبَرُها وسَمَتْ به بُرُودُها؛ وتَجَمَّلَ به من نَزَاهَـةٍ أَشْرَقت فى أُفُقِ صُعُودِها إلى الرتبة الجَلِيلة سُعُودُها، واتَّصَفَ به من كَمَال مَعْرِفَةٍ نُجِّزَتْ له به من مَطَالِبِ المَنَاصِبِ وُعُودُها .

فَلْيُبَاشِرْ ذلك مُعْطِيًا هـٰذه الوظيفةَ من حُسْنِ النَّظَرِ حَقَّها، مُحَقِّقًا بجميـل تَصَرُّفه تَقَـدُّمَ أَوْلَوِيَّتِه وسَـبْقَها؛ ولْيَكُنْ لأَمْرِ الأقوات مُلَاحِظا، وعلىٰ مَنْع ذَوِى الغَـدْرِ من الاحتكار المُضَيِّقِ على الضُّعَفَاءِ مُحَافِظا؛ وعلى الغِشِّ فى الأَقْوَاتِ مُؤَدِّبًا؛ ولإجراء المَوَازِين علىٰ حُكْمِ القِسْط مُرَتِّبًا؛ ولمن يَرْفَعُ الأسعارَ لغَيْرِ سَبَبٍ رَادِعا، ولمن لا يَزَعُه الكلام من المُطَفِّفِينَ بالتَّأْديب وَازِعا؛ ولِقِيَمِ الأشـياء مُحَرِّرًا، ولقانون الجَوْدَة

فى المَزْرُوع والمَوْزُونِ مُقَرِّرا ؛ ولِذَوِى الهيئات بلزوم شرائط المُرُوءَة آخِذا ، وعلىٰ تَرْك الجُمَع والجَمَاعَاتِ لعامة الناس مُؤَاخِذا ؛ ولتَقْوَى الله تعالىٰ فى كُلِّ أَمْرٍ مُقَدِّما ، و بما يُخَلِّصُه من اللهِ تعـالىٰ لكل ما تقع به المعاملات بين الناس مُقَوِّما ؛ وفى خَصَائِص نَفْسه مايُغْنيه عن تَأْكِيد الوَصَايا ، وتَكْرَارِ الحَثِّ علىٰ تقوى الله تعالى التى هى أَشْرَفُ المزايا ؛ فلْيَجْعَلْها شِعَارَ نَفْسه ، ونَجِيَّ أُنْسِه ، ومُسَدِّدَ أَحْوَالِه التى تظْهَر بها مَزِيَّةُ يَوْمِه علىٰ أَمْسِه ؛ والخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أَعلاه ، حُجَّةٌ بمقتضاه .

* * *

وهذه نسخة توقيع بنظر الحِسْبَة الشريفةِ ، من إنشاء المَقَرِّ الشِّهابى بن فضل الله ، مضافا إلىٰ نظر أَوقاف المُلُوك ، وهى :

الحمد لله مُثِيبِ من ٱحْتَسَب ، ومُجِيب المُنِيب فيما ٱكتسب .

نحمده حمدا رسب الأدب صرب الطَّرب(١) (؟) ونشهد أَنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً ظَاهِرَةَ الحَسَب ، طاهرة النسب ؛ ونشهد أَن سيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أَفْضَلُ مَن ٱنتدىٰ وٱنتدب ، وأَدَّبَ أُمَّتَه فَأَحْسَنَ الأَدَب ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آلِه وصَحْبِه صَـلاةً يُكْتَتَمُ أَجْرها فيكتتب ، ويستتم بها كل صـلاح [ويغتنم بها كل فلاح] ؛ وسَلَّم تَسْليماً كثيرا .

وبعـد ، فانَّ الحِسْـبَةَ الشَّريفَـةَ هى قَانُونُ جَوَادِّ الأوضاع ، ومَضْمُون مَوَادِّ الإجماع ، تَجْمع إلى الشريعة الشريفة سِيَاسَةً يُرْهَبُ جِدُّها ، ويُرْهَفُ حَدُّها ؛ وتخشى الرعايا سطواتِ مباشِرها ، وتَتَنَحَّىٰ عمـا تصُبُّه سيول بوادرها ؛ وأَصحابها الآلة التى هى أُخْتُ السَّـيْف فى التَّأْثير ، ولكُلٍّ منهما سَطْوَةٌ تُخَافُ لافرق بينهـما إلَّا ما بَيْنَ

(١) كذا فى غير نسخة بالاهمال ولم نهتد الى تثقيفه .

التَّأْنِيث والتَّـذْكِير، وله التَّصَرُّفُ المُطْلَق ، والتَّعَرُّفُ الذى يَفْتَحُ من الحَوَانِيتِ علىٰ أَرْبَابِها كُلَّ بَابٍ مُغْلَق ؛ ولِرُكُوبِهِ فى المدينة زِينَةٌ يُحْشَر لهـا النَّاسُ ضُحًىٰ ، ورَهْبَـةٌ يَغْدُو بها كُلُّ أَمِينٍ لشَأْنِه مُصْلِحا ؛ وإليه الرجوعُ فى كُلِّ تَقْوِيم ، وهو المَرْجُوُّ فى كلِّ أَمْرٍ عظيم ؛ وهى بدمَشْق ـ حَرَسَها اللهُ تعالىٰ ـ من أَجَلِّ المناصب التى تَتَعَلَّق [عو]اليها بيَد مُتَوَلِّيها وتُؤمل مَنَازِلَ البُدُور ، وإنَّ رَبَّهـا تَرْجِع إلىٰ تَصْرِيفِـه أَزِمَّة الأُمور ، ويَنْتَجِعُ سَحَابَه الهَطِلَ غَمَـامةُ الجمهور؛ وتَحْيَا به سُنَّةٌ عُمَرِيَّةٌ لولاها لَضَاقَتْ رِحَابُ المعاملات ، وضَاعَتْ بالغِشِّ المَعَايِشُ المتداخلات ؛ وظَهَر الغَبْنُ فى غالب مايُشْرى ويُبَاع ، وانتشر التطفيف [الذى] يُزِيل راجحة الميزان ونو الزُّرَّاع ؛ ولَكَمْ نَابَ بحُسْنِ تَدْبِيرِه عن الغَمَام ، ونَظَر فى الدَّقِيقِ والجَلِيل للخاصِّ والعَام ؛ طَالَمَـا ٱنْحَطَّ به سِـعْرٌ غَلَا أَنْ يُقَوَّم ، ووُجِدَ من الأقوات صِـنْفٌ لا يُوجَد واو بُذِل من الشمس دِينَـارٌ والبَدْرِ دِرْهَم .

وكان المجلس السَّـامِىّ، القَضَائىّ، الأجَلِّىّ، الكَبِيرِىّ، الصَّـدْرِىّ، الرَّئِيسِىُّ، العـالمِىّ، الكَافِلِىّ، الفَاضِـلِىّ، الأَوْحَدِىّ، الأَثِيرِىّ، المَـاجِدِىّ، الأَصِـيلِىّ، العِمَادِىّ؛ مَجْدُ الإسلام، شَرَف الرؤَساء، بَهَاءُ الأَنَام، جَمَال الصُّدُور، فَخْر الأَعيان، خَالِصَة الدَّوْلة، صَفْوَة الملوك والسَّلاطِين : أَدَام اللهُ عُلُوَّه، هو الذى رَبَّتْه السِّيَادَة علىٰ وِسَادِها ، ولَبَّتْه السَّـعادة إلىٰ مُرَادِها ؛ وبَنَت العَلْيَـاء قَوَاعِدَها علىٰ عِمَـادِه، وثَنَت المراتبُ أَعْنَاقَها مُتَشَوِّقَةً إلىٰ حُسْنِ ٱعْتِمَاده؛ وباشَر الجَـامِعَ المَعْمُور خصوصا والأوقافَ الشَّامِيَّةَ عموما فعَمَرَها، وكَثَّرَ أعدادها وأَنْمىٰ من بركات نَظَرِه متحصلاتها وثَمَرَها؛وشيد فى كلٍّ منها مَوَاطِنَ عِبَادَه، ومُلْتَقَ حَلْقَةٍ ومَدَارَ سُبْحَةٍ ومَفْرَشَ سَجَّادَه، وأَبَى اللهُ أَنْ يُقَاس به أَحَدٌ والجَـامِعُ الفَارُوق ولِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا الحُسْنَىٰ وَزِيَادَه ؛ فَأَوجب له جميـلُ نظرنا أَنْ نُضَاعِفَ له الأجرَ فى كلِّ عَمَلٍ إليـه يَنْتَسِبْ ، ونَزِيدَه

فى رِزْقه سَعَةً : من حَيْثُ يَحْتَسِبُ ومن حَيْثُ لايَحْتَسِبُ؛ فَرَأَيْنا أَنَّه أحَقُّ أنْ يُقَلَّد من أمور الحِسْبَة الشريفة حُكْمَها المُصَرَّف، وحَكَمَها المُعرَّف؛ ويقام فيها بهَدْي من تَقَدَّمه فى تقرير أُمُورِها علىٰ أَثْبَتِ القواعد، وتَقْدير مصالحها علىٰ أَجْمَلِ ما جرت به العوائد؛ ويُطَهِّرَ اقْوَاتَهـا من الدَّنَس فيما يحضر على الموائد، وإخافـة الأعناق من مضاربه التى تقطع ماغفَا السيف عنه من مَنَاط القلائد .

فرُسِمَ بالأمر الشَّريف العالى ـ لا زالت بَمَراسِيمِه تَتَلَقَّىٰ كُلُّ رُتْبَه، وتَتَوَقَّى الدنايا بمن يقوم بالحِسْبَه ـ أَنْ يفوّض إليه النَّظَرُ على الحِسْـبَة الشَّريفة بدِمَشْقَ وما معها من المـالك الشامية المضافة إليها، بالمعلوم المستقرّ، الشاهد به الديوانُ المعمور إلىٰ آخر وقت : مضافا إلىٰ ما هو بيده : من نظر الأوقاف المَبْرُورَة بالشَّام، وأَوْقَاف الملوك . خَلَا نَظَر الجـامع المَعْمُور إلىٰ آخر وقت بحكم إفراده لمن عين له، تَفْويضًا يَضُـمُّه إلىٰ رَبَائِب كَنَفِه، ويَعُمُّه بمَواهِبِ شَرَفِه، ويُحِلُّه فى أَعْلىٰ غُرَفِه، ويُحَلِّيه بمـا يَحْسُدُ الدُّرُّ مارَمىٰ من صَدَفِه .

فَاتَّقِ اللهَ فى أَحْوَالك، وٱنْتَقِ من يُجْمَع عليـه من النُّوَّاب فى أَعْمَـالك، وَأْمُرْ بالمعروف وَٱنْهَ عن المُنْكَر، فمِنْك المُنْكَرُ لا يُعرَفُ والمَعْرُوف منك لا يُنْكَر؛ وٱعْتَـبِرْ أَحْوَال أَرْباب المَعَايِش ٱعْتِبَارًا يُصْلِحُ للناس أَقْوَاتَهـم، ويُرْغِدُ أَوْقَاتَهم؛ ولا تَدَعْ صَاحِبَ سِلْعَةٍ يتعدَّىٰ إلىٰ غير ماأَحَلَّه اللهُ له من المَكَاسِب، ولا صَاحِبَ مَعِيشَةٍ [يقدم] علىٰ تَخَلُّل خَلَلٍ فى المَآكِل والمَشَارِب؛ وٱقْصِدِ التَّسْوِيَةَ بالحقِّ فإنه سواء فيه البائـعُ والمشـترى، ولا فَرْقَ بين الرَّخِيص والثمين؛ وأَقِمِ المَوازِين بالقِسْطِ حَتَّى لا تُمكن كِفَّاتها أن تُحامل ولا تتحمل، ولا يستطيع قَلْبُها أن يَمِيلَ مع من يَتَموَّل، ولا يَقْدِرُ لِسَانُها أَنْ يَكْتُمَ الشهادة بالحَقِّ وإنْ كَانَ مثْقَالَ حَبَّـةٍ مِنْ خَرْدَلٍ؛ وٱجعـلْ لك علىٰ

أَهْلِ المبَايَعات حَفَظَةً لِتَظَلَّ أَعْمَالُهم لك تُنْسَخ . وتَفَقَّدِ الأسواقَ مما يَتَوَلَّدُ فيها من المفاسد فإنَّ الشَّيْطَان رُبَّما بَاضَ فى الأسواق وفَرَّخ. وأَربابُ الصنائع فيهم من يُدَلِّس، وفُقَهاءُ المَكَاتِب منهم مَن لعِرْضه يُدَنِّس، والقُصَّاصُ غَالِبُهم يتعمَّدُ الكَذِب فى قَصَصِه، وأَهْلُ النَّجَامَةِ كَمْ منهم من لَعِبَ مَرَّةً بعَقْل ٱمْرَأَةٍ وأَمَاتَ رَجُلا بغُصَصِه؛ وآخرون ممن تَضِلُّ بهم العُقُول، وتَظَلُّ حَائِرَةً فيهم النُّقُول؛ وكثيرٌ ممن سوَى هؤلاء يَدُكَ مبسوطةٌ عليهم، وأَحْكَامُك مُحِيطة بهم من خَلْفِهم وبَيْنَ يَدَيْهِم؛ فَقَوِّمْ منهم مَن مَال، وقَلِّدْ مَالِكًا رضى الله عنه فيما رآه من المعاقبة تَارَةً بإنهاك الجسد وتارةً بإفساد المال؛ فرُبَّما أَطْغَى الغِنَىٰ والمصباحُ فربما قَطَّب ... ...(1) وثَمَّ من لا يستقيم حتَّى يُؤَدَّب، ومن لَا يُلَمُّ علىٰ شَعَثٍ وَأَىُّ الرِّجَالِ المُهَذَّب؛ وفيك من الألمعية نورٌ باهر، وكَوْكَبٌ زاهر؛ فلا حاجة إلىٰ أَن تُلْقِىَ الوَصَايَا أَقْلَامَها أَيُّها يَكْفُلُك، ولا تنبِّهك علىٰ زينة العفاف فيها وهو حُلَلُكَ؛ والله تعالىٰ يُوَفِّق ٱعتمادك، ويُوَفِّر من التَّقْوىٰ زَادَك؛ والاعتماد على الخط الشريف أَعلاه الله تعالىٰ أعلاه، حجة بمقتضاه . إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الرابعة — وكالة بيت المال المعمور .

وهذه نسخة توقيع بوَكَالَة بَيْتِ المال، من إنشاء القاضى تاج الدين البارنبارى، للقاضى نجم الدين أبى الطَّيِّب .

الحمد لله الذى جَعَل الطَّيِّباتِ للطَّيِّبين، وهَدَىٰ بالنَّجْمِ المُنِيرِ السَّبيلَ المُبِين، وعَدَق بأئمة الدِّين مصالحَ المسلمين، وآتانا بتَفْوِيضنا إليه، وتوكُّلنا عليه، شَرَفًا فى الشَّأْن وقُوَّةً فى اليقين .

---

(1) بياض بالأصل .

نحمده على أَنْ أَعَان بخيره وهو خير مُعين ، ونَشْكره على أَنْ بصَّرنا فى الإرادات ، بالملائكة المُقرَّبين ، ونَصَرنا فى الولايات ، بالقَوىّ الأمين ؛ ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادةً أَنوَارُهـا فى القلب مُشْرِقَةٌ على الصَّفحَات والجَبين ، وأَذْكَارُها على اللّسَان جَعلَت الإنسان من صَالح المؤمنين ؛ ونشهد أَنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه هَادى المهتدين ، ومُوَضِّحُ شِرْعة الإحسان للمحسنين ، و « أَبُو الطَّيِّب » و « أَبُو القاسِم » كُنِّىَ بأولاده المُطَهَّرين ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من كان من السَّابِقين الأوّلين ، ومنهم من كان مَهِيبًا للكُفْريِّين ، ومنهم من تَزَوَّج بابْنَتَىِ الرسولِ ولم يتَّفِقْ ذلك لغيره فى سَالِف السنين ، ومنهم من كان الخيرُ مِلْءَ يَدَيْه : فشُمُولُ البَرَكة بشِمَالِه وذو الفَقَارِ فى اليمين ؛ وسَلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فأَكْرَمُ التفويض ما صادف مَحَلًّا ، وأَبْرَكُ الوِلَايَاتِ ماوَجَد قَدْرًا مُعَلًّى ، وأَحْسَنُ الإحسان ماأَصْبَح به الحال مُحلًّى ، وأَسْنَى الأَنْجُمِ ما أَشْرَق فى مَطْلَعِه وتَجَلَّى ، وأَحَقُّ [الولاة] بإعلاء مَنْصِبِه مَن أَقْبَلَت عليه وجوهُ الإقبال حين تَوَلَّى ؛ وأَوْلَى [الولايات] بإجْمَال النَّظر وإِمعانه ، فى تشييد شانه ، وتَمْكين مَكَانَتِه ومكَانِه ، وحِفْظ حَوْزَتِه من سائر أَرْكَانِه ـ وَكَالَةُ بيْت المال المعمور التى بها تُصَان الأرض المقيسَه ، ومنها تُسْتَبْصَر الآراء الرئيسه ؛ وبها يُؤْمَنُ الاستيلاء على المَحَالّ والأَبْنِيَة من كُلِّ جائِر ، وبها تُزَادُ قِيَمُ المَبِيعَاتِ ممـا هو لبيْتِ المـال ما بين عَامِرٍ ودَاثِر ؛ وإلى مُتَوَلِّيها تأْتِى الرَّغَباتُ ممن يَبْتَاعُ أَرْضا ، وبه تُمْضَى المصالح وتُقْضَى ، وبه يَظْهَر التميـيزُ فى الثَّمَن الأَرْضَى ؛ وهى فى الشَّام نَخِيمَةُ المِقْدار ، كَرِيمَة الآثار ، مَرْضِيَّة بالربح فى كل أَرْض بَيِّنَـةُ المصالح فى كلِّ بِنَاء دائِرَةٌ بالنجح فى كل دار ؛ فلا يَشِيمُ بَرْقَها ، ويُتَوِّجُ فَرْقَها ، ويُوَفِّيها حَقَّها ، إلَّا مَن له عِـلْمٌ وتَبْصِرَه ، وعِرْفَانٌ أَوْضَحَ الطريق وأَظْهَرَه ، وحُسْنُ رَأْىٍ فيها آثَرَه وأَثَّرَه ، وصَدَارَةٌ ورد بها مَنْهَلَ الكرَام البَرَرَه .

وكان فُلَانٌ هو ذُو السُّؤْدُد العَرِيق ، والبَاسِقُ فى الدَّوْحِ الوَرِيق ، والمُنْتَسِبُ إلىٰ أَعَزِّ فريق ، والطَّيِّبُ أَصْلًا وفَرْعًا على التَّحْقِيق ، والإمَامُ فى عُلُومه التى أَصَّلَت التَّفْرِيعَ ووَصَّلَتِ التَّفْرِيق ، والمُوَفَّقُ فيما يَأْتِى ويَذَرُ واللهُ وَلِيُّ التَّوْفِيق ؛ قد أَشْرَق بدِمَشْق نَجْمُه نُورا ، وٱبْتَسَم البرقُ الشَّامِيُّ به سُرُورًا ، وتَصَدَّر بمَحَافِلِها فشَرَح صُدُورا ، وٱبْتَنَىٰ له سُؤْدُدا وجعَلَ مكَارِمَ الأخلاق عَلَيه سُورًا ؛ تُلْقىٰ بمَحْضَره المسائلُ فَتَلْقىٰ منه وليًّا مُرْشِدا ، وتُذْكَر لَدَيْه المَبَاحِثُ فتَجِدُ علىٰ ذِهْنِه المُتَوَقِّد هُدَىٰ ، وإذا ٱضْطَرَب قَوْلُ مُشْكِلٍ سَكَن بإبانَتِه وهَدَا ؛ إنْ تَأَوَّلَ أَصَاب فى تَأْوِيلِه ، وإن نَظَر فى مَصْلَحَةٍ كانَ رَأْيُه فى السَّداد مُوافِقًا لِقِيلِه ، وقد ٱستخرنا الله تعالىٰ ــ وهو نِعْمَ الوكِيل ــ فى تَوْكِيلِه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه ... ...

فَلْيَأْتِ هذا المَنْصِبَ المُنْصَبَّ وَبْلُ بَرَكَتِه من بَابِه ، ولْيُخَيِّمْ فى فسيح رحابه ، ولْينعمْ بجنَّاتِه فى جَنَابِه ؛ ولْيُحَرِّرْ ما يباع من أَمْلَاك بيت المـال بشروطه ولَوَازمه المسطورة فى كِتابه ، ولْيَرْدَعْ من ٱسْتَوْلىٰ علىٰ أَرْضٍ باغتصابه ، فليس لعِرْقِ ظَالِمٍ حَقٌّ : وهو إما بِنَاءٌ بإنْشَائِه وإمَّا غِرَاسٌ بإنْشَابِه ؛ وما يرتَجِعُ إلىٰ بَيْت المـال المعمور من أَرْضٍ وعَقَار ، وروضاتٍ ذَاتِ غِرَاسٍ وأَنْهار ، وقُرًى ومايُضاف إلىٰ ذلك من آثار ؛ فلْيُحَرِّرْ مجموعَه ، ولْيَسْلُكْ فى ذلك الطريقَةَ المَشْرُوعه . ولْيُشْفِقْ إشْـفَاقَ المتَّقِينَ المـاهدين لمآلهم ، ولْيَنْصَحْ لَنَـا وللسلمينَ فهو وَكِيلُ بيْتِ مَا لهم . ومن مَاتَ ولا وَارثَ له من عَصَبَةٍ أو كَلالَه ، فإنَّ لبيتِ المَـال أَرْضَه ودَارَه ومَالَه .

وقد وَكَلْنا إليك هذا التقليد وقلَّدناك هذه الوَكَالَه ، ووَالدُك ــ رحمه الله ــ كانت مُفَوَّضَةً إليه قديمـا فلذلك أَحْيَيْنَا بك تلك الأَصاله .

وٱعْلَمْ ــ أَعَزَّكَ الله ــ أَنَّ الوَصَايا إنْ طالت فقــد طاب سَبْحها ، وإن أُوجِزَتْ فقــد كَفىٰ لَمْعُها ولَمْحُها ، وعَلَى الأَمْرَيْنِ فقد أَنَارَها هنــا بالتوفيق صُبْحُها ، وحَسُنَ بالتصديق شَرْحُها ، وأَطْرب من حَمَــامِ أَقْلامها صَــدْحُها ، والتَّقْوىٰ فهى أَوّلُهــا وآخِرُها وخَتْمُها وفَتْحُها ، والله تعالىٰ يَسْقِى بك كُلَّ قَضْبَةٍ [ذَوَى] صَيْحُها[(١)] ، والخير يكون إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة توقيع شريف بوكَالة بيْتِ المَـالِ بالشّأمِ أَيْضا :

الحمد لله كَافِى مَنْ تَوَكَّلَ عليْهْ ، ومُحْسِنِ مَآلِ مَن فَوّضَ أَمْره إليه ، ومُجَمِّلِ مآبِ مَن قَدَّم رَجاءَنا عند الهِجْرَة إلىٰ أبوابنا بين يديه ، ومُقَرِّعِيْن من أَسْهر فى ٱستمْطار عَوَارِفنا بكمال الأَدواتِ نَاظِرَيْه .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى جعلت سَعْىَ مَنْ أَمَّ كَرَمنا ، مَشْكُورا ، وسَعْدَ من قَصَد حَرَمنا ، مَشْهُورا ، وإقْبَالَ مَن أَقْبَل إلىٰ أَبوابنا العالية مُحَقَّقا يتقلَّب فى نِعَمِنَا مَحْبُورا ، ويَنْقَلِبُ إلىٰ أَهْلِه مَسْرُورا ، ونشهد أَنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شَهادَةً نَعْتَضِــدُ فيها بالإخلاص ونَعْتَصِم ، ونَتَمسَّك فى الدُّنيا والآخرة بعُرْوَتها ، التى لاتَنْفَصِم ، ونُوَكِّلُ فى إقامة دعوتها ، سُيُوفَنا التى لاتزال هى وأَعْنَاقُ جَاحِدِيها تَخْتَصِم ، ونشهد أَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أَضَاءتْ شريعته ، فلم تَخْفَ علىٰ ذِى نَظَر ، وأَنَارَتْ مِلَّتُه ، فأَبْصرها القلب قبل البَصَر ، وعَمَّتْ دعوتُه ، فاستوىٰ فى وجوب إجَابَتِها البَشَر ، وٱخْتَصَّت أُمَّتُه ، بعلماء يُبَصِّرُون من فى طَرْفِه عَمًى ويُظْهِرُون حَقَّ مَن فى بَاعِه قِصَر ، صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله الذين عَمِلُوا بمَــا عَلِمُوا ، وعَدَلوا فِيما حَكَمُوا ، وحَفِظُوا بالحَقِّ بيوتَ أَمْوال الأُمَّة

(١) القضبة الرطبة من النبات وذوى يبس والصيح فى الأصل خروج العنقود من كامه .

فاشترك أهل الملّة فيما غنموا، صلاةً توكّل الإخلاصُ بإقامتها، وتكفّل الإيمانُ بإدامتها، وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعد : فإن أهمّ ماصُرفت إليه الهِمَم، وأعمّ مانوجب فى اختيار الأكفاء له براءة الذِّمَم، وأخصّ ما اتّخذنا الاستخارة فيه دليلا، وأحقّ ما أقمْنا عنّا فيه من أعيان الأُمّة وكيلا، لا يَدَعُ حقًّا للأمّة ما وجد إليه سبيلا - أمرُ بيْت مال المسلمين الذى هو مادّةُ جِهادِهم، وجادّةُ جِلادِهم، وسببُ استطاعتهم، وطريقُ إخلاصهم فى طاعتهم، وسِدادُ ثُغورِهم، وصلاح جُمْهُورِهم، وجِمَاعُ مافيه إتْقان أحْوالهم واستقْرارُ أمورِهم، ومن آكد مَصالحه وأهمّها، وأخصّ قواعِده وأعمّها، وأكمل أسْباب وُفوره وأتمّها، الوكالةُ التى تصون حقوقه أنْ تُضاع، وتمْنعُ خواصّه أن تُشاع، وتُحسِنُ عن الأُمّة فى حفظ أمْوالها المَناب، وتتولّى لكُلٍّ من المسلمين فيما فرض الله لهم الدعوىٰ والجواب، ولذلك لم نزلْ نتخيّر لها من ذخائر العلماء من زانَ الورَعُ سجاياه، وكَمّلَ العِلْمُ مزاياه، وانعقد الإجْماعُ علىٰ كَماله، وقصُرت الأطماع عن التّحلّى بجمالِ عِلْمه : وهل يُبارىٰ من كان عِلْمُه من جَمالِه .

ولما كان المجلس السامىّ، الشّيْخىّ، الفلانىّ، هو الذى ظهرت فضائلُه وعلومُه، ودلّ علىٰ بلوغ الغايةِ منْطُوق نعْتِه ومفْهومُه، وحلّىٰ عِلْمَه بالورَع الذى هو كمال الدين على الحقيقه، وسلَك طريقةَ أبِيه فى التّفرُّد بالفضائل فكان بحكم الإرث من غير خلافٍ صاحبَ تلك الطّريقه، مع نسب لنسيب مامرّ حلاله، وتُقىً ما ورِثه من أبِيه عن كلاله، وثبَاتٍ فى ثُبُوت الحقّ لاتستفزّه الأغراض، وأناة فى قبُولِ الحكم لا تُحيل جواهِره الأعْراض، ووُقُوفٍ مع الحَقّ لا يُبْعِدُه إلىٰ ما [لا] يجب، وبَسْطةٍ فى العِلْمِ بها يَقْبَلُ مايقبل ويجْتنِب مايجْتنَب، وتحْقيقٍ تجرى الدّعاوى الشرعيّةُ علىٰ محجّتِه، وإنْصافٍ لا يضُرّ خصْمه معه كوْنُه ألْحَنَ منه بحُجّته، مع وفادة إلىٰ

أبوابنا العاليـة تَقاضَتْ له كَرَمنا الجَمّ ، وفَضْلَنا الذى خَصَّ وعَمَّ ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أن يَرْجِع إلىٰ وَطَنِه مشـمُولا بالنِّعَم ، مَخْصُوصًا من هـذه الرتبة بالغاية التى يَكْبُو دُونَها جَوَادُ الهِمَم ؛ مَنْصُوصا علىٰ رِفْعَـةِ قَدْره التى جاءت هـذه الوظيفةَ علىٰ قَدَر ، مُداوِمًا [لشكر أبوابنا](١) علىٰ ٱختياره لَهَـا بعد إمْعَان الاختِبَار و إنْعَامِ النَّظَر .

فرسم بالأمر الشريف أَنْ تُفَوّض إليه وَكَالةُ بيْتِ المَـال المعمور بالشَّامِ المحروس .

فَلْيَرْقَ هذه الرتبةَ التى هى من أَجَلّ ماُيْرتَقىٰ ، و يتَلَقَّ هذه الوَكَالةَ التى مَدَارُ أَمْرِها على التُّقىٰ وهو خير ماُيْنتَقىٰ ، ويُبَاشِرْ هـذِه الوظيفةَ التى مَنَاطُ حُكْمِها فى الوَرَى الذى لاتَسْتَخِفُّ صَاحِبَه الأهواءُ ولا تَسْتَفِزُّه الرُّقىٰ ؛ ولْيَنْهَضْ بأَعْبائِها مُسْتَقِلًّا بمصالحها ؛ مُتَصَدِّيًا لمجالس حكمها العزيز لتَحْرِير حُقُوقِ بيت المَـال وتَحْقِيقِها ، مُتلَقِّياً مايَرِد من أَمْرِ الدَّعَاوَى الشَّرعيـة التى يُبَتُّ مِثْلُها فى وجهـه بطريقها ؛ مُنَقِّباً عن دَوَافِـع ما يثبت له وعليه ، مُحْسِـنًا عن بَيْت المَـالِ الوَكَالَةَ فيما جَرَّه الإرْثُ الشرعىُّ إليـه ؛ مُسْتَظْهِراً فى المعاقَدَة بمـا جرت به العادة من وجوه الاحتراز ، مُجَانِبًا جَانِبَ الحَيْف فى الأَخْذِ والعَطَاءِ بأَبْوَاب الرُّخَص وأَسْبَاب الجَوَاز ؛ مُنَكِّبًا فى تَشَدُّده عن طريق الظُّلْم الذى من تَحَلَّىٰ به كان عَاطِلا ، سَالِكًا فى أُمُوره جَادَّةَ العَدْل فإنَّه سِيَّانِ مَن تَرَك حَقَّه وأَخَذَ بَاطلا ؛ مُجتَهِـدًا فى تحقيق ما وَضَح من الحقوق الشرعيـة وكَمَن ، مُتَتَبِّعًا ماغَالَتِ الأيامُ فى إخْفَائِه فإنَّ الحَقَّ لايَضِيعُ بقدَمِ العَهْد ولا يَبْطُل بطُولِ الزَّمَن .

وفى أَوْصافه الحَسَنه ، وسَجَايَاه التى غَدَت بهـا أَقْلام أَيَّامنا لَسِـنَه ، وعُلُومه التى أسْرَت إليها أَفْكَارُه والعُيُون وَسِنَه ، مايُغْنِى عن وَصَايا يُطْلَقُ عِنَانُ البَرَاعَة فى تَحْديدها ، أَو قَضَايَا ينطقُ لسانُ البَرَاعة فى تَوْكِيدها ؛ مِلَاكُها تَقْوَى الله وهى سَجِيَّة نَفْسِـه ،

(١) فى الأصل « مداوما لهـا على الخ » .

وَنَجِيَّةُ أُنْسِه، وحِلْيَةَ خِلَالِه المعروفة فى يَوْمه وأَمْسِه؛ فليقدِّمْها فى كُلِّ أَمْر، ويَقِف عِنْد رضا الله فيها لا رِضَا زَيْد ولا عَمْرو؛ واللهُ الموفق بمنّه وكَرَمه :

[الوظيفة الخامسة — الخَطَابه[1]] .

وهـذه نسخة توقيع بالخَطَابة بالجامع الأُمَوِىّ، كُتِب بها لزَيْن الدِّين الفارقىّ، من إنشاء الشيخ شِهَاب الدِّين محْمُود الحَلَبِىّ :

الحمد للهِ رافِع الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَات، وجَاعِلِ أَرْجَاءِ المَنَابِر بفضائل أَئِمَّة الأُمَّة أَرِجَات، وشَارِح الصُّدُور بذِكْرِه بعد أَنْ كانت من قَبْل المواعظ حَرِجَات؛ الَّذى زان الدِّينَ من العلماء بمن سُلِّمت له فيه الإمَامَه، وصَانَ العِلْمَ من الأئمة المتقين بمن أَصْحَبَ[2] له جَامِحُ الفَضْل يُصَرِّفُ كَيْفَ شَاءَ زِمَامَه؛ ووَطَّدَ ذِرْوَةَ المِنْبَر الكَرِيم لمن يحفَظ فى هِدَاية الأُمَّة حَقَّه ويَرْعَىٰ فى البِدَايَة بنَفْسِه ذِمَامَه، ووَطَّأ صَدْر المحراب المنير لمَن إِذَا أَمَّ الأُمَّة أَرَتْه خَشْيَةُ اللهِ أَنَّ وجْهَ اللهِ الكرِيم أَمَامَه .

نَحْمَده علىٰ ما مَنَحَنا من صَوْنِ صَهَوَاتِ المَنَابِر إلا عن فُرْسَانِها، وحِفْظِ دَرَجَات العِلْم إلا عَمَّن ينظر بإِنْسَانِ السُّنَّة وينْطِقُ بلِسَانِها . ونشهد أَنْ لا إِلٰه إِلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لاتزال أَفْوَاهُ المَحَابِر، تُثْبِتُ طُرُوسَها، وأَنْوَاءُ المَنَابِر، تُنْبِتُ غُرُوسَها، وأَلْسِنَةُ الإخلاص تُلْقِى على المَسَامِع من صُحُف الضَّمَائِر دُرُوسَها . ونشهد أَنَّ محمدًا عبده ورَسولُه الذى شُرِّفتِ المَنَابِر أَوَّلًا برُقِيِّه إليها، وآخِرًا بذِكْرِ آسْمِه الكَرِيم عَلَيْها؛ فهى الرُّتبةُ التى يَزِيدُ تَبْصِرَةً علىٰ ممَرِّ الدُّهور بَقَاؤُها، والدَّرَجَة التى يطول إلا علىٰ ورثة عِلْمِه آرْتِقَاؤُها؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الَّذِين ذَكَّرهم بأَيَّامِ اللهِ فذَكَرُوها،

---

(١) أضفنا هذه الزيادة لاقتضاء الكلام لها .

(٢) أى ذلّ وانقاد بعد صعوبة .

وبَصَّرَهُم بآلاءِ اللّهِ فشَكَرُوها، وعَرَّفَهُم بمَواقِع وحْدَانِيَّتِه فجَادلوا بسُنَّتِه وأَسِنَّتِه الّذِينَ أَنْكَروها، صلاةً لا تَبرَحُ لها الأرض مَسْجدا، ولا يَزالُ ذِكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنْجِدا، وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّه لمَّا كانت الخَطَابَة من أَشْهر شَعَائِر الإسلام، وأَظْهَر شعَارِ مِلّةِ سيِّدنا محمدٍ عليه أَفْضل الصلاة والسلام، شرعَها اللّهُ تعالىٰ لإذكار خَلْقِه بنِعَمِه، وتَحْذيرِ عبَادِه من نِقَمِه، وإِعْلام بَرِيَّتِه بما أعَدّ لمن أَطَاعه فى دَارِ كَرَامَتِه من أَنْواعِ كَرَمِه، وجعلها من وَظَائف الأمة العامّه، ومن قَوَاعِد وِرَاثَة النُّبوّة التامّه، يَقِفُ المتلبِّس بها مَوْقِفَ الإِبْلَاغِ عن اللّهِ لعِبَادِه، ويَقُومُ النَّاهِض بفَرْضِها مَقَام المُؤَدِّى عن رسول اللّه ـ صلَّى اللّه عليه وسلم ـ إلىٰ أُمَّته عن مُرَادِ اللّهِ ورسولِه دون مُرَادِه، ويُقِيمُها فى فروض الكفايات علىٰ سنن سُبْلِه (١)، ويستنزلُ بها مَوادَّ الرحمة إذا ضنّ الغيثُ على الأرض بوَبْلِه؛ وكان المسجدُ الجامع بدِمَشْق المحروسةِ هو الذى سَارَتْ بذِكْرِه الأَمْثال، وقيلَ هَذا من أَفْرَاد الدَّهْرِ التى وُضِعَتْ علىٰ غَيْرِ مثَال؛ قد تَعَيَّن أَنْ نَرْتَاد له بحكم خُلُوِّه من الأَئمة مَن هو مِثْلُه فَرْدُ الآفاق، ووَاحِدُ العَصْرِ عند الإطلاق؛ وإِمَامُ علماء زَمَانِه غيرَ مُدَافَع عن ذلك، وعَلّامَةُ أَئِمَّة أَوَانِه الذى يُضِيءُ بنُورِ فَتَاوِيه لَيْلَ الشَّكِّ الحَالِك؛ ونَاصِرُ السُّنَّة الذى تَذُبُّ علُومُه عنها، وحَاوِى ذَخَائِرِ الفضائِل التى تَنْمِى علىٰ كَثْرة إِنْفَاقِه على الطَّلَبَة منها؛ وشَيْخُ الدُّنيا الذى يُعْقَدُ علىٰ فَضْله بالخَنَاصر، ورُحْلَةَ الأقطار الذى غَدَتْ نِسْبتُه إلىٰ أَنْوَاع العلوم زَاكِيةَ الأَحْسَابِ طَاهِرَةَ الأَوَاصر؛ وزَاهِدُ الوَقْتِ الذى زان العِلْمَ بالعَمَل، ونَاسكُ الدَّهْرِ الذى صَانَ الوَرَعَ بامتداد الفضائل وقِصَرِ الأَمَل؛ والعَابِدُ الذى أَصْبح حُجَّة

(١) فى الأصل "نبيه".

العَارِف وقُدْوَة السَّالِك ، والصَّادِعُ بالحقِّ الذى لا يُبَالِى من أَغْضَب إذا رَضِىَ اللهُ ورَسُولُه بذٰلك .

ولما كان فلانٌ هو الذى خَطَبَتْه لهذه الخَطَابة علومُه التى لا تُسَامَىٰ ولا تُسَام، وَعيَّنَتْه لهذه الإمَامَة فَضَائلُه التى حَسُنَت بها وجُوهُ العِلْمِ الوِسَامُ، حتَّىٰ كأَنَّها فى فَمِ الزمن ٱبْتِسَام، وأَلْقَىٰ إليه مَقَاليدَها كَالُه الذى صَدَّ عنها الخُطَّاب، وسَدَّ دونَها أَبوابَ الخِطَاب ، وقيل : هذا الإمام الشافعىّ أَوْلَىٰ بهذا المِنْبَر وأَحْرَىٰ بهذا المِحْرَاب ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أَنْ نُحَلِّىَ أَعْطَاف هذا المِنْبَر بفَضْلِه الذى يُعِيدُ عُودَه رَطِيبا ، ويُضَمِّخُ طِيباً منه مَاضَمَّ خَطِيبا ، وأَنْ نصَدِّرَ بهذا المِحْرَابِ مَن نعلم أَنَّه لَدَى الأَمَّة مُنَاجٍ لرَبِّه ، واقِفٌ بين يَدَىْ مَن يَحُولُ بين المَرْءِ وقَلْبِه .

فلذلك رُسِم ... ... ـ لا زال يُوَلِّى الرُّتَب الحسان ، ويَجْرِى بما أَمَرَ اللهُ به من العَدْل والإحْسان ـ أَنْ تفوَّض إليه الخَطَابة والإمامة بجامع دِمَشْق المحروس علىٰ عادة من تقدّمه .

فَلْيَرْقَ هذه الرُّتْبَةَ التى أَمْطَاه اللهُ ذِرْوَتَها ، وأَعْطَاه الفَضْلُ صَهْوَتَها ، وعَيَّنَه تَفَرُّدُه بالفضائل لإذْكَار الأَمَّة عليها ، ورَجَّحه لها ٱنعقادُ الإجْمَاع علىٰ فَضْلِه حتَّىٰ كادت للشَّوْقِ أَن تَسْعىٰ إليه لَوْ لَمْ يَسْعَ إليها ، حتَّىٰ تَخْتَالَ منه بإِمَامٍ لا تَعْدُو مَوَاعِظُه حَبَّاتِ القلوب، لأنها تَخْرُجُ من مِثْلها ، ولا تَدَعُ خُطَبُه أَثَراً للذُّنُوب ، لأَنَّها تُوَكِّلُ مَاءَ العُيُون بَغْسلِها ، ولا تُبْقِى نَصَائحُه للدُّنيا عند المُغْتَرِّ بها قَدْرًا : لأَنَّها تبَصِّره بخِدَاعِها ، ولا تترك بَلاَغَتُه لمُقَصِّرٍ عن التَّوبَة عُذْرًا : فإِنَّهَا تُحَذِّره من سُرْعَة زوال الحياة وٱنْقِطَاعِها ، ولا تجعل فَوَائِدُه لذَوِى النَّجْدَة والبَأْس ٱلْتِفَاتاً إلىٰ أَهْل ولا وَلَدٍ لأَنَّها تُبَشِّرُه بما أعدَّ اللهُ

لمن خَرَج فى سَبِيلهِ، ولا تُمكِّنُ زَوَاجِرُه مَنْ نَشَر الظلم أَنْ يَمُدَّ إليه يَدًا لأَنَّها تُخْبِره بما فى الإقدام علىٰ ذلك من إغضاب الله و رسوله .

فَلْيُطِلْ ـ مع قِصَرِ الخُطْبَة ـ للظَّالِم مجَالَ زَجْرِه ، ولْيُطِبْ قَلْبَ العالم العامل بوصف ما أَعَدَّ اللهُ له من أَجْرِه ؛ ولْيَجْعَلْ خُطَبه كلَّ وَقْتٍ مَقْصورةً علىٰ حكمه ، مقصودةً فى وُضوح المقاصد بين من يَنْهَضُ بسُرْعَة إدْرَاكه أَوْ يَقْعُدُ به بُطْءُ فَهَمه ؛ فخيرُ الكلامِ مادَلَّ ببَلاَغَتِه و إنْ قَلّ ، و إذا كَانَ قِصَرُ خُطْبَةِ الرجلِ وطُولُ صَلاَته مَئِنَّةً من فِقْهِهِ فَمَا قَصَّرَ مَن حَافَظَ علىٰ حُكْم السُّنَّة فيهما ولا أَخَلّ .

* * *

[وهذه] نسخة توقيع بالخطابة بالجامع الأُمَوِىّ ، كُتِبَ به للقَاضِى «تَقِىّ الدِّين السبكى» .

الحمد لله الذى جعل دَرَجَاتِ العلماء آخذَةً فى مَزِيد الرُّقِى ، وخَصَّ برفيع الدرجات من الأئمة الأعلام كُلَّ تَقِى ، وأَلْقَىٰ مَقَالِيدَ الإمَامَة لمن يصون نَفْسَه النَّفيسَةَ بالوَرَع ويَقِى ، وأَعَاد إلىٰ معَارِج الجَلاَل ، مَن لم يَزَلْ يختار حميد الخلاَل ، ويَنْتَقِى ، وأَسْدَلَ جِلْبَابَ السُّؤْدَدِ علىٰ من أَعَدَّ للصَّلاَة والصِّلات من قَلْبِه وثوبِه كلَّ طاهرٍ نَقِى .

نحمده علىٰ أَنْ أَعْلىٰ عَلَم الشَّرْع الشَّريف وأَقَامَه ، وجعل كَلمةَ التَّقْوىٰ بَاقيةً فى أَهْلِ العِلْمِ إلىٰ يَوْم القِيامَه ؛ ونشهد أَنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عَدْلٍ(١) قَيَّد الفَضْلَ بالشكر وأَدَامَه ، وأَيَّد النِّعْمة بمزيد الحَمْد فلا غَرْوَ أَنْ جَمَع بين الإمامة

(١) فى الأصل «شهادة عدل فيها قيد الخ» وضبب علىٰ لفظة «فيها» .

والزَّعَامَه ، ونشهد أَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أَعْلَى اللهُ به عَقِيرة مُرَتِّل الأَذَان ومُدْرِج الاقامه ، وأَغْلَىٰ ببركَته قِيمَةَ مَن تَمَسَّك بسَبِيلِ الهُدَىٰ ولَازَمَ طَريق الاستقامه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين عَقَدُوا عُهُودَ هذا الدِّين وحَفِظُوا نِظَامَه ، وعلىٰ أَصْحابه الذين مامنهم إلا مَن اقْتَدَىٰ بطَرِيقِه فاهْتَدَىٰ إلىٰ طُرُقِ الكَرامه ، صلاةً لاتزال بَرَكَاتُها تُؤَيِّد عَقْد اليَقِين وتُدِيمُ ذِمَامَه ، وسلَّم تسليماً كثيرا .

أَمَّا بعدُ ، فإنَّ من شِيَم دَوْلَتِنا الشريفةِ أن تَرْفَعَ كُلَّ عَالِي المِقْدَار مَكَانًا عَلِيًّا ، وتجعَلَ له من اسْمِه وصِفَتِه قَوْلًا مسموعًا وفِعلًا مَرْضِيًّا ، وتُوَطِّدَ له رُتَبَ المعالى وتَزِيدَ قَدْرَه فيها رُقِيًّا ، وتَكْسُوَهم من جِلْبَابِ السُّؤْدُدِ مِطْرَفًا مباركا وَطِيًّا ، وتُطْلِقَ لِسَان إمَامه بالمواعظ الّتى إذَا تَعَقَّلَها أُولُو الأَلْبَاب خَرُّوا لِطَاعَةِ رَبِّهم سُجَّدًا وَبُكِيًّا .

ولما كان المجلسُ العالِي هو الذى أَعَزَّ أَحْكام الشريعةِ الشَّريفة وشَادَها ، وأَبْدَىٰ من أَلْفاظه المباركةِ المَوَاعِظَ الرَّبَّانِيَّةَ وأَعَادها ، وأَذَاع فيها أَسْرارَ اليَقِين وزَادَها ، وأَصْلَح فسادها ، وقوّم مُنْآدَهَا ، وكَيْفَ لَا وقد جَمَع من العُلُوم أَشْتَاتا ، وأَحْيَا من مَعَالِمِ التُّقَىٰ رُفَاتا ، وأَوْضَح من صفات العلماء العاملين بِهَدْيِه وسَمْتِه هَدْيًا وسِمَاتا ، فلذلك خرج الأمر الشريف الصالحىّ العمادى ... ...

* * *

قلتُ : وهذه نسخة توقيع بخَطَابتِه أيضا ، أَنْشأْتُه للشَّيخ « شِهَاب الدين ابن حَاجِّى » :

الحمد لله الذى أَطْلع شِهَابَ الفَضَائِل فى سَمَاءِ مَعَالِيها ، وزَيَّن صَهَواتِ المَنَابِر بمن قَرَّتْ عُيُونُها من وِلَايَتِه المباركة بتَوَالِيها ، وجَمَّلَ أَعْوَادَها بأَجَلِّ حَبْرٍ لو تَسْتَطِيع فوق

قدرتها لسعت إليه وفارقت ـ خرقًا للعادة ـ مبانيها، وشرف درجها بأكمل عالم ماوضع بأسافلها قدمًا إلا وحسدتها على السبق إلى مس قدمه أعاليها .

نحمده على أن خص مصاقع الخطباء من فضل اللسن بالباع المديد، وقصر الجامع الأموى على أبلغ خطيب يشيب فى تطلب مثله الوليد، وأفرد فريد الدهر باعتبار الاستحقاق برقى درج منبره السعيد . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تخفق على مواكب الصفوف أعلامها، وتتوفر من تذكير آلاء الله تعالى أقسامها، ولا تقصر عن تبليغ المواعظ حبات القلوب أفهامها ؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أفضل نبى نبه القلوب الغافلة من سناتها، وأيقظ الخواطر النائمة من سباتها، وأحيا رميم الأفئدة بقوارع المواعظ بعد مماتها ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين علا مقامهم، ففاتت أعقابهم الرءوس، ورفعت فى المجامع رتبهم، فكانت منزلتهم منزلة الرئيس من المرءوس ؛ صلاةً لا تزال الأرض لها مسجدا، ولا يبرح مفترق المنابر باختراق الآفاق لاجتماعها موردا .

وبعد، فإن أولى ماصرفت العناية إليه، ووقع الاقتصار من أهم المهمات عليه ـ أمر المساجد التى أقيم بها للدين الحنيف رسمه، وبيوت العبادات التى أمر الله تعالى أن ترفع ويذكر فيها اسمه ؛ لا سيما الجوامع التى هى منها بمنزلة الملوك من الرعيه، وأماثل الأعيان من بين سائر البريه ؛ ومن أعظمها خطرا، وأبينها فى المحاسن أثرا، وأسيرها فى الآفاق النائية خبرا ؛ بعد المساجد الثلاثة التى تشد الرحال إليها، ويعول فى قصد الزيارة عليها ـ جامع دمشق الذى رست فى الفخر قواعده، وقامت على ممر الأيام شواهده ؛ وقاوم الجم الغفير من الجوامع واحده ؛ ولم تزل الملوك تصرف العناية إلى إقامة شعائر وظائفه، وتقتصر من أهل كل فن على رئيس ذلك الفن وعارفه ؛

فما شَغَرَتْ به وَظِيفَةٌ إلا آختاروا لها الأَعْلىٰ والأَرْفَع، ولا وَقَع التَّرَدُّدُ فيها بين آثنين إلَّا تَقَيَّلُوا منهما الأَعْلَمَ والأَوْرَع ؛ خصوصًا وظيفةَ الخَطَابَة التى كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم للقيامِ بها مُتَصَدِّيا ، وعَلِم الخلفاءُ مَقَامَ شَرَفِها بعدُ فباشروها بأنفسهم تَأَسِّيا .

ولما كان المجلس العالى ، القَاضَوِىّ، الشَّيْخِىّ، الكَبِيرِىّ، العَالِمىّ، الفَاضِلىّ، الأَوْحَدِىّ ، الأَكْمَلِىّ ، الرَّئِيسِىّ، المُفَوَّهِىّ ، البَلِيغِىّ ، الفَرِيدِىّ ، المُفِيدِىّ ، النَّجِيدِىّ، القُدْوِىّ، الحُجِّىّ، المُحَقِّقىّ، الوَرَعِىّ، الخَاشِعِىّ، النَّاسِكِىّ، الإمَامِىّ، العَلَّامِىّ، الأَثِيلِىّ، العَرِيقِىّ ، الأَصِيلِىّ، الحَاكِمِىّ ، الخَطِيبِىّ، الشِّهَابِىّ : جَمَال الإسلام والمسلمين ، شَرَف العُلماء العَامِلين ، أَوْحَد الفُضَلاء المُفِيدين ، قُدْوَة البُلَغَاء المجتهدين ، حُجَّة الأُمَّة ، عُمْدَة المُحَدِّثين ، فَخْر المَدَرِّسين ، مُفْتِى المسلمين ، مُعِزّ السنة ، قَامِع البِدْعَة ، مُؤَيِّد المِلَّة ، شَمْس الشَّرِيعة ، حُجَّة المتَكَلِّمين ، لِسَانُ المُنَاظِرين ، بَرَكَة الدَّوْلة ، خَطِيبُ الخُطَبَاء ، مُذَكِّر القُلُوب ، مُنَبِّه الخَوَاطِر ، قُدْوَة الملوك والسَّلَاطِين ، وَلِىُّ أَمِير المُؤْمنين « أَبُو العبَّاس أَحْمد » أَدَام اللهُ تعالىٰ نِعْمَتَه : هو الذى خَطَبَتْه هذه الخَطَابَة لنَفْسها ، وعَلِمَت أَنَّه الكُفْءُ الكَامِلُ فنَسِيَت به فى يَوْمها ما كان من مَصَاقِعِ الخطباء فى أَمْسِها ؛ إذْ هو الإمَامُ ، الذى لا تُسَامَىٰ عُلُومُه ولا تُسَام ، والعلَّامة الذى لا تُدْرَك مَدَارِكُه ولا تُرَام ؛ والحَبْر الذى تُعْقَد علىٰ فَضْله الخَنَاصِر ، والعَالم الذى يعترفُ بالقُصُور عن مُجَارَاةِ جِيَادِه المُنَاظِر ؛ والحَافِظُ الذى قَاوَمَ عُلَماء زَمَانِه بلا مُنَازِع ، وعَلَّامَةُ أَئِمة أَوَانِه من غير مُدَافِع ؛ ونَاصِرُ السُّنَّة الذى يَذُبُّ بعلومه عنها ، وجَامِعُ أَشْتَاتِ الفُنُون التى يَقْتَبِس أَمَاثِلُ العُلَمَاء منها ، وزَاهِدُ الوَقْتِ الذى زَانَ العِلْمَ بالعَمَل ، ونَاسِكُ الدَّهْر الذى قَصَّر عن مَبْلَغ مَدَاهُ الأَمَل ؛ ورُحْلَةُ الأَقْطار الذى تُشَدُّ إليه الرِّحَال ، وعَالِمُ الآفَاق الذى لم يَسْمَح الدَّهْرُ له بمِثَال ــ آقتضىٰ

حسن الرأى الشريف أن نَرْفَعَه من المنابر علىٰ علىّ دَرَجِها ، ونَقْطَع ببَرَاهِينه من دَلَائِلِ الإلباس المُلَبِّسَة دَاحِضَ حُجَجِها ؛ ونُقَدِّمَه علىٰ غيره ممن رَامَ إِبْرَامَ البَاطل فنقض ، وحَاوَل رَفْعَ نَفْسِه بغير أَدَاةِ الرَّفع فخفض .

فلذلك رسم بالأَمْرِ الشَّريف العَالِى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكِىّ ، المَنْصُورِىّ ، المُعِزِّىّ ـ لا زال يَرْفَع لأَهْل العِلْم رَاسا ، ويُحَقِّق لذَوِى الجَهْلِ من بلوغ المَرَاتِب السَّنِيَّة يَاسا ـ أن يفوّض إلى المجلس العالى المشار إليه خَطَابَة الجَامِع المذكور بانفراده ، علىٰ أَتَمِّ القواعد وأَكْمَلها ، وأَحْسَن العوائد وأَجْمَلها .

فلْيَرْقَ مِنْبَرَه الذى عَاقَب فيه رَامِحُهُ الطَّالِعُ أَعْزَلَ غَيرِه الغَارِب ، ولْيَتَبَوَّأْ ذِرْوَة سَنَامِه الأَرْفع من غير شريك له ولا حَاجِب ؛ ولْيَقْصِد بمَوَاعِظه حَبَّاتِ القُلُوب ، ويَرْشُقْ شِهابَ قَرَاطِيسِها المَانعة فإنَّهَا الغَرَضُ المطلوب ؛ ولْيَأْتِ من زَوَاجِرِ وَعْظه بما يَذْهَبُ مَذْهَبَ الأَمْثَال السائره ، ويُرْسِلُهَا من صَمِيم قَلْبِه العَامِر فإنَّ الوَعْظَ لا يَظْهر أَثَرُه إلَّا من القلوب العَامِره ؛ ويُقَابِلْ كلَّ قَوْم من التذكير بما يناسب أَحْوَالهم علىٰ أَكْمَل سَنَن ، ويخصّ كُلًّا من أَزْمَان السَّنَة بما يوافق ذلك الزَّمَن ؛ والوَصَايَا كَثيرةٌ وإنَّما تَهْذِيبُ العِلْم يُغْنِي عنها ، وتَأْدِيبُ الشريعة يَكْفِي مع القَدْر اليسير منها ؛ وتَقْوَى الله تَعالىٰ مِلَاك الأمور وعنده منها القَدْر الكَافِي ، والحَاصِل الوافى ؛ والله تعالىٰ يُرَقِّيه إلىٰ أَرْفَع الذُّرَىٰ ، ويرفعُ على الجوزاءِ مَجْلِسَه العالى : «وإنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلكَ مَظْهَرا» .

✣

الوظيفة السادسة — التَّدَارِيسُ الكِبَارُ بدِمَشْقَ المحروسة .

وهــذه نسخة تَوْقيــع بتَدْرِيس المدرســة الرَّيْحانية ، كُتِب به لقــاضى القضاة «عماد الدين الطَّرَسُوسىّ» الحَنَفِىّ، عوضا عن جَلَال الدِّين الرَّازىّ . كُتِبَ بسؤال بعض كُتَّاب الإنشاء، وهى :

الحمد لله الذى جعل عِمَادَ الدِّين عَلِيّا ، وأَحْكَم مَبَانِىَ مَن حَكَم فلم يُدْعَ عَصِــيّا ، وقَضَىٰ فى سَابِق قَضَائِه لإمْضَاء قضَائِه أَنْ لا يُبْقِىَ عَتِيّا .

نحمده علىٰ ما وهب به من أَوْقات الذِّكْر بُكْرَةً وعَشِــيّا ، ونشهد أَنْ لا إِلٰه إِلَّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُنَبِّــه بالعِلْم بوَحْدَانِيَّتِــه من كان غَبِيًّا، وتَكْبِتُ لمَقَــاتِل سيوف العلمــاء مَنْ كان غَوِيًّا، ونشهدُ أَنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى كان عند رَبِّه رَضِيّا ، وعلىٰ ذَبِّه عمّــا شَرَع من الدين مَرْضِيّا، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يزال فَضْلُ قَدِيمِها مِثْلَ حَدِيثِها مَرْوِيًّا، وسلَّمَ تَسليماً كثيرا .

وبعــد، فلمَّا كانت رُتَبُ العِلْم هى التى يُتَنَافَسُ عليها، ويُتَطَاوَلُ إلى التَّنَقُّل إليها، ويُخْتارُ منهــا ما كُسِىَ بمباشرة المتقدّم مَلَابِسَ الجَلَال ، وآنَ له أَنْ ينتقل إليه البَدْر بعد الهلال، وكانت المدرسة الرَّيْحانيَّة بمحروسة دِمَشْقَ هى رَيْحَانَةَ المَجَالِس، ورَوْضَة العِلْم الزَّاكِيَةُ المَغَارِس، وبَحْرُ الفَوَائِد الذى يُخْرِجُ الفرائد، ومَسْرَحُ العلمــاء الذى قد آن أَنْ يظْفَر به منهم من الأَلْف زائد .

ولمّــا تُوُفِّى من آلت إليه، وعَالَت مَسْأَلَتُها إِلَّا عَلَيْه، وكان ممَّن قد وَلِىَ الأَحكام اسْتِقْلالا ، وكان لبَصَر الدُّنْيــا جلاءً وللدِّين جَلَالا ، لم تَكُن إِلَّا لمن يُنْسَىٰ به ذلك

الذَّاهبُ ، و ينسب إليه عِلمُ مذْهَبِه كلّه و إن كان لا يقتصر به علىٰ بَعْض المذاهب ؛ و يعْرَفُ مَن هُوَ و إِن لم يُصَرّح باسْمِه ، و يعرفُ مَن(١) هُوَ وإن لم يُذْكر بعَلَاءِ قَدْرِه العَلِيّ وعِلْمِه ؛ وَلَا يُمْتَرَىٰ أنَّه خَلَف «أَبَا حَنِيفَةَ» فيمن خلف ، وحَصَل علىٰ مِثْل ما حَصَل عليـه القَاضِي «أَبُو يُوسُفَ» وذهب ذلك فى السَّلَفِ الأَوّل مع من سَلَف ؛ وأَعْلَمَ بجِدَالِه أَنَّ «محمدَ بنَ الحَسَن» ليس من أَقْرَان أَبِي الحْسَن ، وأَنَّ «زُفَر» لم يُرْزَق طِيبَ أَنْفَاسِـه فى بَرَاعة اللَّسَـنِ ؛ وأَنَّ «الطَّحَاوِيَّ» ما طَحَا به «قَلْبٌ إِلَى الحِسَان طَرُوب» و «القَاضِي خَان» لَدَيْه منه الأَنْبُوب ؛ وتَلَقَّب «شَمْسَ الأَئمة» لمـا طلع عِلْمَ أَنَّهُ قد حَانَ من شَمْسِ النَّهَـار غُرُوب ، و «الرَّازِي» لمـا جاء تَيَقَّن أَنَّه يروزه(٢) عن علم الجيوب ، و «المَرْغِينَانِيّ» مُسَّ ولم يُرْغَنْ لَهُ(٣) فى مطلوب ؛ و «الثَّلْجِيّ» ما بَرَّد لطَالِبٍ غُلَّه ، و «الخَبَّازِيُّ» لم يُوجَدْ عنده لطَعَامٍ فَضْلَه ، و «الهُنْدُوَانِيّ» ما أَجْدَىٰ فى جِلَاد الجِدَالِ ولَا هَزَّ نَصْـلَه ؛ ولم يَزَلْ يُشَار إليـه والتَّقْلِيدُ الشريف لَه بالحكم المُطْلَق بمـا تَضَمَّنَه من مَحَاسِنِ أَوْصَافه شَاهِد ، ودَسْتُ الحُكْم علىٰ عُلَىٰ كِيوَانَ شائد ؛ ومدارس العلم تُسِرّ من حُبِّه ، ما حُنِيت عليه من محاريبها الأَضَالع ، ومَجَالِسُ القضاء تُظْهِرُ بقُربِه ، مالم يكن تُدَانىٰ إليه المواضع .

وكان الجناب الكريم ، العالى ، القَضَائىّ ، الأَجَلىّ ، الإمامىّ ، الصَّدْرِىّ ، العَالمىّ ، العَامِلىّ ، العَلَّامىّ ، الكَامِلىّ ، الفَاضِلىّ ، الأَوْحدىّ ، المُفِيدىّ ، الوَرَعِىّ ، الحَاكمىّ ، العِمَادِىّ ؛ ضِيَاءُ الإِسلام ، شَرَف الأَنام ، صَدْر الشَّام ، أَثِير الإِمَام ، سيد العلمـاء والحكَّام ؛ رَئِيسُ الأَصْحاب ، مُعِزُّ السُّـنَّة ، مُؤَيِّد المِلَّة ، جَلَال الأَئِمَّة ؛ حَكَم الملوك والسلاطين ، خالِصة أَمِيرِ المؤمنين ، أَبُو الحسن علىّ بن الطَّرَسوسىّ الحَنَفِىّ ، قَاضِى

(١) كذا فى الأصل ولعله من زيادة قلم الناسخ .
(٢) يروزه يسأله و يختبره . يريد يسأله عن علم الجيوب الفلكية .
(٣) من أرغن له فى كذا . أطاعه فيه .

القُضَاة بالشَّام ـ نشر مُلَاءَةَ مَذْهَبِه ، وحَلَّى بجلوسه للحكم طَرَفَى النَّهار إضَاءَةَ مُفَضَّضه وتوشيع مُذْهَبِه ؛ طَالَمَا سَاسَ الرَّعِيَّةَ بحُكْمِه ، وسَاد نُظَرَاءَه فى معرفة العلوم الشَّرْعِيَّة بعِلْمه وحِكَمِه ؛ وسَار مَثَلُ فَضْلِه فى الأَقطار وضَوْءُ الشَّمس مَرَدُّ شُعَاعِه ، فطَالَ إلى السَّماء وقَصُر الأُفق الممتدّ علىٰ طُول بَاعِه ، وفَاضَ فَيْضَ الغمام وما آكْتَال البَحْرُ بكَيْلِه ولا صَار مِثْلَ صَاعِه ؛ وعُرِضَت عليه هذه المدرسة التى لم يكن لغيره أَنْ يحيىٰ ريحانَتَهَا ، ولا أَنْ تؤدّى إلىٰ يَدِ سِوَاه فيُودَعَ أَمَانَتَهَا ؛ فآثَرَها علىٰ أَنَّه ترك المدرسة المُقَدَّمِيَّة المتقدّمَ له دَرْسُها ، المُعَظَّم به فى كُلِّ حِينٍ غَرْسُها ؛ لِيُوَسِّعَ بها على الطالب مَذْهَبَه ، ويَفْرُغَ لها سَاعَةً من أَوْقَاتِه المُنْتَهَبَة ، ويَهَب [لها] من حَقِّه الذى هو فى يده مالو شاء ما وَهَبَه .

فرُسِم بالأمر الشريف ـ لاَ زالَ يُقَرِّبُ الآماد ، ويُرْضِى القَوْم وأَقْضَاهُم عَلِيٌّ وأَثْبَتَهم طَوْدًا العِماد ـ أن يفوّض إليه تَدْريسُ المدرسة الرَّيْحَانية المعيَّنة أَعْلاه ، علىٰ عادة من تَقَدَّمه وقاعِدَتِه إلىٰ آخر وقت ؛ بحكم تَرْكه للمقدَّمية لِيَهُبَّ عليه رَوْحها وتهب له السَّعادةُ رِيحَها ؛ ولها من البُشْرىٰ بعلْمِه ما تَميس به رَيْحَانَةٌ رِيحها سُرُورا ، وتَمِيدُ وقد أَكَنَّتْ جَبَلًا من العِلْمِ وَقُورا ؛ وتمتدّ وقد نَافَحَت فى مِسْكَة اللَّيل عَبِيرا ، وفى أُقْحُوانَة الصَّبَاحِ كافُورا ؛ وما نُوصِى مِثْلَه ـ أَجَلَّ الله قَدْرَه ـ بوصِية إلا وهو يَعلَمُها ، ويُلَقِّنُها من حِفْظِه ويُعَلِّمُها ؛ ومن فصْل قَضَائِه تُؤْخَذُ الآداب ، وتُنْفَذُ سِهَامُ الآراء والآرَاب . وتَقْوَى اللهِ بها بَاطِنُه مَعْمُور ، وكُلُّ أَحَدٍ بها مَأْمور ؛ وما نُذَكِّرُه بها إلا علىٰ سبيل التَّبَرُّك بذِكْرِها ، والتَّمَسُّك بأَمْرِها . والفُقَهاء والمُتَفَقِّهة هم جُنْدُه ، وبهم يَجِدُّ جِدُّه ، [فليجعلهم له فى المشكلات عُدَّه ، وليصرف فى] الإحسان إليهم جُهْده ؛ والله تعالىٰ يُعِينُه علىٰ مَا وَلِى ، ويُعَيِّنُه لكلِّ عَلْيَاءَ لا يصلح أَنْ يَحُلَّها إلَّا عَلِي . وسبيلُ كلِّ وَاقِفٍ عليه العملُ به بعد الخطِّ الشريف أَعْلاه .

* * *

الوظيفة السابعة — التصادير بدمَشْق المحروسة .

وهـذه نسخة توقيع أَنشأتُه لقاضى القضاة «بَدْر الدِّين محمد» ٱبن قاضى القضاة بَهاء الدِّين أَبِى البَقاء، وولده جَلَال الدِّين محمد، بإعادة تصديرين كانا باسمهما، بالجامع الأموىّ بِدمَشْق : أَحَدُهما ٱنْتَقل إليهما عن سَلَفِهما، والثانى بنُزُول، وخرج عنهما عند ٱستيلاء «تنم» نائب الشَّام على الشَّام فى سنة ٱثنتين وثمـانمـائة، ثم أعيدَ إليهما فى شوّال من السنة المذكورة، فى قَطْعِ الثُّلُث، وهى :

الحمد لله الذى جعل بَدْرَ الدِّين فى أَيَّامنا الزاهِرةِ مُتَوَاصِـلَ رُتَبِ الكمال، متَرَدِّدًا فى فَلَك المَعَـالِى بأَكْرَم مَسَاغٍ بين بَهاءٍ وجَلَال؛ مُنَزَّهًا عن شَوَائِب النَّقْص فى جميع حالاته : فإما مُرْتقَب الظهور فى سِرَارِه، أَو مُتَّسِمٌ بالتَّمـام فى إِبْدَارِه، أَو آخِـذٌ فى الٱزدياد وهو هِلَال .

نحمده علىٰ أَنْ أَقرَّ الحقوقَ فى أَهْلِهـا، وٱنتزع من الأَيدى الغَاصِـبَة ما ٱقتطعته الأيامُ الجائرةُ بجَهْلِها؛ ونشهدُ أَنْ لا إِلٰه إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَحْمِى قَائلَها من شَوَائِب التَّكْدير، وتَصُونُ مُنْتَحِلَها من عَوَارِض الإصدار إذَا وَرَدَ أَصْفَىٰ مَنَاهِل التصـدير؛ ونشهدُ أَنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه أَفْضلُ نَبِيٍّ ٱقتفت أُمَّتُهُ آثَارَه وٱتَّبَعَتْ سَنَنَه، وأَكْرَمُ رَسـولٍ دَعَا إلىٰ سبيل رَبِّه بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أَئِمَّةِ الحَقِّ وأَعْلَامِ الهُدَىٰ، وحُمَاةِ الدِّين وكُماةِ الرَّدىٰ؛ صَلاةً يبقىٰ علىٰ مَدىٰ الأَيَّام حُكْمُها، ولا يَنْدَرِسُ علىٰ مَرِّ اللَّيالى رَسْمُها؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أَوْلىٰ من رُعِيتْ له الحقوقُ القَدِيمَه، وحُفِظَتْ له مَسَاعيه الكَرِيمَه، وخُلِّدتْ عليـه النِّعَم التى حقٌّ لهـا أَنْ تكونَ بأَهْلِها مُقِيمَه، من كَرُم أَصْلًا وطَابَ

فَرْعا ، وزَكَا مَنْبَعًا وعَذُبَ نَبْعا ، ووقع الإجْمَاعُ علىٰ فَضْلِه المتَوَاتِر فأُعْدِقَ الحُكْمُ بتفْضِيلِه قَطْعا ، ومن إذا تكَلَّم فَاقَ بفضْلِه نَثْرَ اللآلِى ، وإذا قُدِرَ قَدْرَه انْحطَّت عن بلوغ غايته المَعَالِى ، وإذا طَلَعَ بَدْرُه المُضِىءُ من أُفُقِ مجلسه الموروث عن أبِيه وأعْمَامه قال : لَيْتَ أَشْيَاخى شَهِدُوا هٰذا المجْلِسَ العَالِى ، ومَن إذا جَلَس بحَلْقَتِه البهِيَّة غَشِيَتْهُ من الهَيْبَة جَلَالَه ، وإذا أَطَافَتْ به هَالَة الطَّلَبَةِ والمُسْتَفِيدِين قِيل : ما أَحْسَنَ هذا البَدْرَ فى هَذِه الهَالَه ! ، ومَن تَتِيهُ طَلَبَتُه علىٰ أَكابر العلماء بالانتمَاء إليه ، وتَشْمَخُ نُفُوس تَلَامذَتِه علىٰ غيره من المتصدِّرين بالجلوس بين يَدَيْه ، ومَن إذا أَقَام بمِصْرَ طلع بالشَّام بَدْرُه ، ولو أَقَام بالشَّامِ بَقِىَ بمِصْرَ على الدَّوامِ ذِكْرُه .

وكان المجلس العالى ، القَاضَوِىّ ، الكَبِيرِىّ ، العَالِمِىّ ، العَامِلِىّ ، الأَفْضَلِىّ ، الأَكْمَلِىّ ، الأَوْحَدِى ، البَلِيغِىّ ، الفَرِيدِىّ ، المُفِيدِىّ ، النَّجِيدِىّ ، القُدْوِىّ ، الحُجِّىّ ، المُحَقِّقِىّ ، الإمَامِىّ ، الأَصِيلِىّ ، البَدْرِىّ ، جَمَال الإسلام والمسلمين ، شَرَف العلمَاء العاملين ، أَوْحَدُ الفُضَلاء المُفِيدِين ، قُدْوَةُ البُلَغَاء ، حُجَّة الأَدَب ، عُمْدَة المحَدِّثين ، فَخْرُ المدرِّسين ، مُفْتِى الفِرَق ، أَوْحَد الأَئِمَّة ، زَيْنُ الأُمَّة ، خَالِصَة المُلُوك والسلاطين ، ولِىُّ أَمِيرِ المؤْمنين ، أَبُو عبد الله ، محمد ابن المجلس العالى ، القَاضوِىّ ، الكَبِيرِىّ ، المرْحُومِىّ ، البَهَائِىّ ، أَبِى البَقَاء الشَّافعِىّ ، السُّبْكِىّ ، ضَاعَفَ اللهُ تعالىٰ نِعمَتَه : هو عَيْن أَعْيان الزَّمان ، والمحَدَّثُ بفَضْله علىٰ مَمَرِّ اللَّيالى ولَيْس الخبرُ كالعِيَان ؛ ماوَلِىَ مَنْصِبًا من المَنَاصب الدِّينِيَّة إِلَّا كان له أَهْلا ، ولا أَرَاد الانصرافَ من مَجْلِس عِلْم إِلَّا قَالَ له مَهْلا ، ولا استُبدِلَ به فى وظِيفَة إِلَّا نُسِبَ مُسْتَبْدِلُه إلى الحَيْف ، ولا صُرِفَ عن وِلَايَةٍ إِلَّا قَالَ استحقاقُه : كَيْفَ سَاغَ ذلك لمُتَعَاطِيه فكَيْفَ وكَيْفَ .

وكان ولده المجلس السّامىّ، القَضائىّ، الكَبيرىّ، العالىٌّ، الفَاضلىّ، الكَاملىّ، البَارعىّ، الأَصيلىّ، العَريقىّ، الجَلالىّ، ضِياءُ الإسلام، فخر الأنَام، زَيْن الصدور، جَمال الأَعْيان، نُجْلُ الأَفاضل، سَلِيلُ العُلَماء، صَفْوَةُ الملوك والسلاطين، خالصة أَمير المؤمنين، أبو (١) محمد بلَّغ الله تعالىٰ فيه [عارفيه] غَايَةَ الأَمَل، وأَقَرَّ به عَيْنَ الزَّمان كما أَقَرَّ به عَيْنَ أَبيه وقَدْ فَعَل؛ قد أُرْضِعَ لِبَانَ العِلْمِ ورُبِّيَ فى حِجْرِه، ونَشَأَ فى بَيْتِه ودَرَج من وَكْرِه؛ وكَمُلَ له سُؤْدُدُ الطَّرَفَيْن: أَبًا وأُمًّا، وحصل علىٰ شَرَف المحْتِدَيْنِ: خَالًا وعَمًّا؛ لم يقَعْ عليه بَصَرُ مُتَبَصِّرٍ إلّا قال: نِعْمَ الوَلَد، ولاَ تَأَمَّلَه صَحِيح النَّظَرِ إلّا قال: هذا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأَسَد؛ ولا رَمىٰ والِدُه إلىٰ غَايَةٍ إلّا أَدْرَكَها، ولا أَحَاط به مِنْطَقَةُ طَلَبَةٍ إلا هَزَّها للبحث وحَرَّكَها؛ ولا ٱقْتَفىٰ أَثَرَ أَبِيهِ وجَدِّهِ فى مَهْيَعِ فَضْلٍ إلّا قال قائِلُه: أَكْرِمْ بِها من ذُرِّيَّةٍ مَا أَبْرَكَها! .

وٱتَّفَق أَنْ خرج عنهما ما كان باسمهما من وَظِيفَتَى التَّصدير بالجَامِع الأُمَوىّ المعمور بذكر الله تعالىٰ بدِمَشْق المحروسة: المُنْتَقِلَة إحْدَاهما إليهما عن سَلَفِهِما الصَّالح قِدَما، والصَّائِرَة الأخرىٰ إليهما بطريقٍ شَرْعىّ مُعْتَبَرٍ وَضْعًا وثَابِتٍ حُكْمًا ـ ٱقتضى حسن الرَّأْى الشريف أَنْ يحفظ لهما سَالِفَ الخِدْمه، ويُرْعىٰ لهما قَدِيمُ الوَلاء فالعِبْرة فى التَّقْديم عند الملوك بالقُدْمَه .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زال لِذَوِى البُيُوت حَافِظا، وعلى الإحسان لأَهْلِ العِلْم الشَّريف علىٰ مَمَرِّ الزمان مُحافِظَا ـ أَنْ يُعَادَ ذلك إليهما، ويُوَالىٰ مَزِيدُ الإحسان عليهما؛ فلْيَتَلَقَّيَا ذلك بالقَبُول، ويَبْسُطَا بالقَوْل أَلْسِنَتَهُما فمَن شَمِلَه إنْعَامُنَا الشريفُ حقَّ له أَنْ يَقُولَ ويَطُول؛ ومِلاَكُ أَمْرِهما التَّقوىٰ فهى خَيْر زَاد، والوَصَايا

---

(١) بياض بالأصل .

و إن كَثُرَتْ فعنهما تؤخذ ومنهما تُسْتَفَاد؛ والله تعالىٰ يُقِرُّهما بهذا الآستقرار عَيْنا، ويُبْهِجُ خَوَاطِرَهُما بهذه الوِلَاية إِبْهَاجَ من وَجَدَ ضَالَّتَه فقال : ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ . والآعتماد فى ذلك على الخطّ الشّريف أعلاه الله تعالىٰ أَعْلاه، حُجَّة بمُقْتضاه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثامنة — النَّظَــر .

وهذه نسخة تَوْقيع بنظر البِيمَارَسْتان النُّورىّ، كُتِب بها لمن لَقَبُه «شِهَابُ الدِّين» وهى :

رُسِمَ ... ... ـ لا زَالَ يُطْلِـعُ فى سماء المناصب السَّنِيَّة من ذَوِى الأَصَالَةِ والْكِفَايَة شِهَابا، ويُوزِعُ المُسْتَحِقِّين بِجِهَات البِرِّ شُكْرَه إِذِ اختارَ لهم من أَهْل النَّهْضَة من ارتدىٰ العَفَاف جِلْبَابَا، ويُودِعُ صَحَائِفَ الأَيَّام ذِكْرَه الجَميلَ حين أَحْيا قُرُبَاتِ المُلُوك السَّالِفين بآنْتِخَاب مَن يُجَدِّد لهم بحسْنِ المُبَاشَرَة ثوَابا ـ أَنْ يُحْمَل « مجْلس الأَمير» فُلَان : أَعَزَّه الله تعالىٰ فِيما هو بيده من نظر البِيمَارَسْتَان النُّورِىّ بدِمَشْقَ المحروسة، علىٰ حُكْمِ التَّوْقيع الكريم والوِلَاية الشَّرْعية اللَّذَيْن بيَدِه، وآستقراره فى ذلك بمُقْتَضَاهما آستقرارا يَبْسُط فى هذا المَنْصِبِ يَدَه ولِسَانَه، ويُظْهِرُ شِهَابَ عَدْله الذى يُحْرِقُ من الجَوْرِ شَيْطَانَهُ؛ ويُبْرِزُ من مُبَاشَرتِهِ ما عُرِفَ جَوْهَرُه بحُسْنِ الآنتِقاء وإِبْرِيزُه بحسْنِ الآنتقاد، ومن تَأْثِيره ماتَبْلُغ به الأَنْفُسُ المُرَادَ بأَوْسع مَرَاد؛ ويُبْــدى من تدبيره، ما يُنْتِج تمييز الوقف وتثميره .

فَلْيُبَاشِرْ ذلك علىٰ عادة مُبَاشَرَتِهِ الحَسَــنَه، ولْيَسْلُكْ فيها ماعُهِدَ من طَرِيقَتِـه المُسْتَحْسَنَه؛ مُحَصِّلًا من المفردات مايصرفها لمُسْتَحِقِّها وقت الحاجة إليهـا، مُثَابِرًا

علىٰ حُسْن مُعَالَجَة المَضْرُور الذى لا تَقْدِرُ يَدُه من العَجْزِ عليها ؛ مُوَاصِلًا فِعْلَ الخَيْرِ بآستمرار صدقات الواقف ليُشارِكه فى الأَجْرِ والثَّوَاب ، مُسْتَجْلِبًا له من الدعاء ولنا بمُشَارَكَته فى الأَمْرِ بالعَمَل بسُنَّته إلىٰ يَوْم المَآب ، ضَابِطًا أَمْوال هـذه الجهة بتحرير الأُصُول والمطلق والحِسَاب والحُسَّاب ، متقدّما إلى الخُدَّام والقَوَمَة بحسن الخدْمة للعَاجِز والضَّعِيف ، مُؤَكِّدا عليهم فى أَخْذِهم بالقَوْل اللَّيِّن دُونَ الكلام العَنِيف ؛ مُلْزِمًا لهم بجَوْدَةِ الخدمة لَيْلًا ونَهَارا ، مُؤَاخِذًا لهم بما يُخِلُّونَ به من ذلك إهْمَالا وإِقْصَارًا ، مُتَقَدِّمًا إلىٰ أَرْباب وَظَائف المعالجة ببَذْلِ النَّصِيحه ، وآستدراك الأَدْواء المُسْقِمَة بإتقان الأَدْوِية الصَّحِيحَه ؛ وليَتَفَقَّد الأَحْوال بنَفْسِه : ليعلَم أَهْلُ المكان أَنَّ وَرَاءَهم من يقابلهم على التَّقْصير ، وليَبْذُلْ فى ذلك جُهْدَه فإنَّ الآجتهاد القَلِيـل يُؤَثِّر الخَيْرَ الكَثِير . والوَصَايَا كَثِيرَةٌ وعنده من التَّأَدُّب بالعِلْم وحُسْنِ المُبَاشَرة ما فيـه كِفَايَه ، وفى أَخْلَاقه من جَمِيل المَآثر وما حَازَه فى البِدَايَة ما يَنْفَعُه فى النِّهَايَه ؛ ولكنْ تَقْوى اللهِ عَزَّ وجَلَّ هى السَّبَبُ الأَقْوَىٰ ، والمَنْهَلُ الذى مَن وَرَدَه يَرْوَىٰ ؛ فلْيَجْعَلْها له ذَخِيرَةً لِيَوْم المَعَاد ، ومَعْقِلًا عند الخُطُوب الشِّدَاد ، واللهُ تعالىٰ يُبَلِّغُه من التوفيق الأَمَلَ والمُرَاد ؛ بمنّه وكَرَمه ! ، والآعتماد ... ... إنْ شاء اللهُ تعالىٰ .

الصــــنف الثـالث

(من تواقيع أرباب الوظائف بحاضرة دِمَشْقَ ـ تَوَاقِيعُ أَرْباب الوظائف الدِّيوَانِيَّة ، وفيهـا مرتبتَان)

المرتبـــة الأولىٰ

(ما يكتب فى قطع النصـف بـ«ـالمجلس العالى» وهى علىٰ ضربين)

الضـــــرب الأوّل (١)

(تواقيع الوزارة بالمملكة الشَّامِيَّة علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحـال)

فقد ذكر فى "التعريف" أَنَّه يكتب بالشَّام للصـاحب [عِز] (٢) الدين أَبِى يَعْلىٰ «حَمْزَة بن القَلَانِسىّ» رحمه الله بـ«ـالجناب العالى» لجَلَالَة قَدْره ، وسَابِقَة خدَمه ، وعناية من كَتَب له بذلك . لٰكنّه لم يُبَيِّن مقْدار قَطْع الورق لذلك . ولا يخفىٰ أنه كُتِب به فى قَطْع الثُّلُثَيْن ، علىٰ القاعدة فى أَنَّه يُكْتَب للجَنَاب فى قَطْع الثلثين . وقد ذكر بعـد ذلك أَنَّ الذى ٱستقرّ عليه الحال أَنَّه يكتب للوزير بالشَّام «المجلس العـالى» بالدعاء ، كما كُتِب للصَّاحب أَمينِ الدِّين أَمِينِ المُلْك .

[وفيـــه وظائف :

الوظيفة الأولى ــ ولاية تدبير الممـالك الشامية] (٣) .

وهــذه نسخة تَوْقِيع للصاحب «أَمِينِ المُلْك» المذكور بتدبير الممـالك الشَّامِيَّة والخَوَاصِّ الشريفة والأَوْقاف المَبْرُورة ، من إنشاء الصَّلَاح الصَّفَدىّ ، وهى :

---

(١) لم يذكر الثـانى .

(٢) بياض بالأصل والتصحيح من "التعريف" (ص ٧٥) .

(٣) زدنا ما بين القوسين لٱقتضاء المقام وتميم الكلام .

الحمد لله الذى جعل وَلِىَّ أَيَّامِنا الزَّاهِرةِ، أَمِينَا، وأَحَلَّه من ضَمَائِرنا الطاهِرةِ، مَكَاناً أَيْمَا تَوجَّهَ وجَدَه مَكِينَا، وخَصَّه بالإخلاصِ لدَوْلَتِنا القَاهِرَةِ، فهو يَقِيناً يَقِينَا، وعَضَد بتَدْبِيره مَمَالِكَنا الشَّرِيفةَ فكان علىٰ نَيْلِ الأَمَلِ الذى لا يَمِينُ يَمِينَا، وزَيَّن بِهِ آفَاقَ المَعَالِى فما دَجَا أَمْرٌ إلَّا كان فِكْرُه فيه صَحِيحًا مُبِينَا، وجَمَّلَ به الرُّتَبَ الفَاخِرَةَ فكَمْ قَلَّدَ جِيدَهَا عِقْدًا نَفِيسًا ورَصَّعَ تَاجَها دُرًّا ثَمِينَا، وأَعَانَه علىٰ ما يَتَوَلَّاه فهو الأَسَد الأَسَدُّ الذى ٱتخذ الأَقْلَامَ عَرِينَا .

نَحْمَده علىٰ نِعَمِه التى خَصَّتْنَا بوَلِىٍّ تَتَجَمَّلُ به الدُّوَلُ، وتَغْنَى المَمَالِكُ بتَدْبِيره عن الأَنْصَار والخَوَل، وتَحْسُدُ أَيَّامَنَا الشَّرِيفَةَ [عليه] أَيَّامُ من مَضَىٰ من الدُّوَلِ الأُوَل . ونشهدُ أَنْ لا إِلٰه إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَسْتَمْطِر بها صَوْبَ الصَّوَاب، ونَرْفُلُ منها فى ثَوْب الثَّوَاب، ونَعْتَدُّ بِرَّهَا وَاصِلًا ليوم الفَصل والمَآب، ونَشْهدُ أَنَّ محمدًا عبدُه الصَّادِقُ الأَمين، ورَسُولُه الذى لم يكن على الغَيْب بضَنِين، وحَبِيبُه الذى فَضَلَ المَلَائِكَةَ المُقَرَّبِين ، ونَجِيُّه الذى أَسْرَى به من المَسْجد الحَرَام إلى المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ حُجَّةً علىٰ المُلْحِدِين؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين صَحِبوا ووَزَرُوا، وأَيَّدُوا حِزْبَه ونَصَرُوا ، وعَدَلُوا فيما نَهَوْا وأَمَرُوا، صلاةً تكونُ لهم هُدًى إذا حُشِرُوا ، وتُضَوِّعُ لهم عَرْفَهُم فى العُرْف وتُطَيِّبُ نَشْرَهم إذا نُشِرُوا ؛ وسلَّمَ تَسْليما كثيرا إلىٰ يَوْم الدِّين .

وبعد، فإنَّ أَشْرَفَ الكَواكِب أَبْعَدُهَا دَارًا ، وأَجَلُّهَا سُرًى وأَقَلُّهَا سِرَارًا ، وأَعْلاها مَنَارا، وأَطْيَبَ الجَنَّاتِ جَنابًا ما طاب أَرَجًا وثِمَارًا ، وتُجْرِ خِلَالَه كُلُّ نَهْرٍ «يروعُ حَصَاه حَالِيةَ العَذَارىٰ» ، ورَنَّحَتْ مَعَاطِفَ غُصُونِه سُلَافُ النَّسِيم فَتَرَاها سُكَارَىٰ، ومدَّت ظلالَ الغُصُونِ فتخال أَنَّهَا علىٰ وَجَنَاتِ الأَنْهارِ تدبُّ عِذَارا .

وكانت دِمَشْقُ المحروسةُ لها هذه الصِّفَات ، وعلىٰ صَفَاها تَهُبُّ نَسَمات هذه السِّمَات ، لم يتَّصِفْ غيرُها بهذه الصِّفَه ، ولا ٱتَّفَق أُولُوا الألْباب إِلَّا علىٰ مَحاسِنها المُخْتَلِفَه ؛ فهى البُقْعَة التى يَطْرَبُ لأَوْصَافِ جَمَالِها الجماد ، والبَلَد الذى ذَهَب بعضُ المُفَسِّرِينَ إِلىٰ أَنَّها إِرَمُ ذَاتُ العِمَاد ، وهى فى الدُّنيا أُنْمُوذَجُ الجَنَّة الَّتِى وُعِدَ المُتَّقُون ، ومِثَالُ النَّعِيم لِلَّذِين عندَ رَبِّهم يُرْزَقُون ؛ وهى زَهْرَة مُلْكِنَا ، ودُرَّةُ سِلْكِنَا ؛ وقد خَلَتْ هذهِ المُدَّةَ مِمَّن يُرَاعِى تَدْبِيرَها ويَحْمِى حَوْزَتَها ويُحَاشِيها من التَّدْمِير ويَمْلأُ خَزَائِنَها خَيْرًا يُجْلىٰ ، إِذَا مَلأْنَا سَاحَتَها خَيْلًا ورَجْلًا ـ تَعيَّن أَنْ نَنْتَدِبَ لها من جَرَّبْنَاه بُعْدًا وقُرْبًا ، وهَزَزْنَاهُ مُثقَّفًا وسَلَلْنَاه عَضْبًا ، وخَبَأْنَاه فى خَزَائِنِ فِكْرِنا فكان أَشْرَفَ مايُدَّخَر وأَعَزَّ مايُخْبَىٰ ؛ كَمْ نَهَىٰ فى الأَيَّام وأَمَر ، وكَمْ شَدَّ أَزْرًا لَمَّا وَزَر ، وكم غَنِيَتْ به أَيَّامُنا عن الشَّمْس ولَيَالِينا عن القَمَر ، وكَمْ رفَعْنا رَايَةَ مَجْدٍ تَلَقَّاها عَرَابَةُ فَضْلِه بِيَمِين الظَّفَر ، وكَمْ عَلَا ذُرَا رُتَبٍ تَعِزُّ علىٰ الكَوَاكِب الثَّابِتَةِ فَضْلًا عمن يَتَنَقَّل فى المباشرات من البَشَر ، وكَمْ كانتِ الأَمْوالُ جُمَادىٰ وأَعَادَها ربيعا غَرَّدَ به طَائِرُ الإقبال وصَفَر .

و[لما] كان [الصاحب أمين الملك] (١) هو مَعْنى هذه الإشَارَه ، وشَمْسُ هذه الهَالَة وبَدْرُ هذه الدَّارَه ؛ نَزَل من العَلْيَاء فى الصَّمِيم ، وتَخَرْنَا بأَقْلامه الَّتى هى سُمْرُ الرِّماح كما تَخَرَتْ بقَوْسِها تَمِيم ؛ وحُفِظَت الأَمْوال فى دَفَاتِره التى يُوَشِّيها فَأَوَتْ إِلَى الكَهْف والرَّقِيم ، وقَالَ لِسَانُ قَلَمِه : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيم ﴾ وعَقِم الزَّمَانُ أَن يَجِىءَ بمِثْله «إِنَّ الزمانَ بِمِثْلِه لَعَقِيم» وتَشَبَّه به أَقْوامٌ فبَانُوا وبَادُوا ، وقام منهم عُبَّاد العِبَاد فلَمَّا قام عَبْدُ اللهِ كَادُوا ـ أَرَدْنا أَنْ تَنَال الشَّامُ فَضْلَه كما نَالَتْه مصْر فما تَسَاهَم فيه سوَاهُما ، ولا يقولُ لِسَانُ المُلْكِ لغيْره :

حَلَلْتَ بهٰذا حَلَّةً ثُم حَلَّةً * بهٰذَا فطَابَ الوَادِيَانِ كِلَاهُما

(١) بياض بالأصل والتصحيح مما تقدم .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه تدبير الممالك الشريفة، ونظر الخواص الشريفة والأوقاف المبرورة على عادة من تقدمه فى ذلك .

فليتلق هذه الولاية بالعزم الذى نعهده، والحزم الذى شاهدناه ونشهده، والتدبير الذى يعترف الصواب له ولا يجحده؛ حتى يثمر الأموال فى أوراق الحساب، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج فى البحار وتفوت القطر من السحاب؛ مع رفق يكون فى شدته، ولين يزيد مضاء حدته، وعدل يصون مهلة مدته؛ والعدل يعمر، والغدر يدمر، ولا يثمر؛ بحيث إن الحقوق تصل إلى أربابها، والمعالم تطلع بدور بدرها كاملة كل هلال على أصحابها؛ والرسوم لا تزداد على الطاقة فى بابها، والرعايا يجنون ثمر العدل فى أيامه متشابها؛ وإذا أنعمنا على بعض أوليائنا بنحل فلا يكدر ورودها بأن تؤخر، وإذا استدعينا لأبوابنا بمهم فليكن الإسراع إليه يخجل البرق المتألق فى السحاب المسخر، فما أردناك إلا لأنك سهم خرج من كنانه، وشهم لا ينهى إلى الباطل عيانه وعنانه؛ فاشكر هذه النعمة على مانحها، وشنف الأسماع بمدائحها؛ متحققا أن فى النقل، بلوغ العز والأمل، وأنه لو كان فى شرف المأوى بلوغ منى «لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل»؛ فاستصحب الفرح والجذل، بدل الفكر والجدل .

الوظيفة الثانية — كتابة السر بالشام .

ويعبر عنها بصحابة ديوان الإنشاء الشريف بدمشق . وشأنه هناك شأن كاتب السر بالأبواب السلطانية .

وهذه نسخة توقيع بصحابة ديوان الإنشاء بالشام، كتب بها لفتح الدين بن الشهيد، من إنشاء القاضى ناصر الدين بن النشائى، فى مستهل ذى القعدة سنة أربع وستين وسبعمائة، وهى :

الحمدُ لله مُجزِل المَنّ والمَنْح، ومُرسِل سَحائِب العَطاء السَّمْح، ومُعْمِل فِكْرِنا الشَّريف فى ٱنتخاب مَن أَوْرَىٰ زَنْدَ الخَيْر بالقَدْح، ومُنَقِّل السِّرّ بين الأفاضل من صَدْرٍ إلىٰ صَدْرٍ بِحِمًى يصونُ له السَّرح، ويُغْنِي مَشْهُورُ أَلْفَاظِه عن الشَّرْح، ومُجَمِّل بِنَاءِ الدِّين، بما سَكن به مِن صَمِيم الفَضْل المُبِين، وما ٱقْتَرَنَ بِأَبْوَابه من حَرَكَة الفَتْح .

نحمده علىٰ نِعَم عَاطِرَةِ النَّفْح، ونَشْكُره علىٰ مِنَنٍ عَالِيَةِ السَّفْح . ونَشهدُ أَنْ لَا إِلٰه إِلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ شهادةً تُنَجِّي قَائِلَهَا من حَرِّ الجَحِيم وتَقِيه شَرَّ شَرَرِ ذَلك اللَّفْح، وتَخْطُبُ بها أَلْسِنَةُ الأَقْلام علىٰ مَنَابِرِ الأَنَامِل فَتُنْشِئُ عندها من مُطْرِبات الوُرْق علىٰ غُصُون الأَوْراق هَدِيلَ الصَّدْح . ونشهدُ أَنَّ مُحمّدًا عَبدُه ورسولُه الذى بَلَّغَ الرِّسالةَ وأَدَّى الأَمَانَةَ وعَامَلَ الأُمَّةَ بالنُّصْح، وأَزَالَ عنهم التَّرَحَ وأَمِنَه اللهُ علىٰ أَسْرَار وَحْيِهِ فكانَ أَشْرَفَ أَمِينٍ خَصَّه اللهُ فى مُحْكَمِ آيَاتِه بالمَدْح، وجعلَه أَعْظَمَ من أَمَرَ بالمعروف ونَهَىٰ عن المُنْكَرِ فلم تَأْخُذْه فى اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ممَّن لَحَا وممَّن لم يَلْح؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأَصْحَابه أَهْلِ الوَفاء والصَّفَاءِ والصِّفَاحِ والصَّفْح، والَّذين جَاهَدُوا فى اللهِ حَقَّ جِهَادِه بالنَّفْسِ والمَالِ والْكَدِّ والكَدْح؛ ورَفَعوا أَعْلَامَهم المُظَلَّلَه، ونَصَبُوا أَقْلَامَهم المُعَدَّلَه، فكَمْ لَهم فى المُشْرِكين من جِرَاحٍ لا تَعرِف الجَرْح؛ وذَادُوا عن حَوْزَةِ الدِّين، بإِرَاقَة دَمِ الكُفَّار المُتَمَرِّدِين، فحَسُن منهم الذَّبُّ والذَّبْح؛ وكانُوا فُرْسَانَ الكَلَام، وأُسُودَ الإِقْدَام، الَّذين طَالَمَا خَسَأَتْ بهم كِلَابُ الشِّرْكِ فلم تُطِق النَّبْح؛ صلاةً دائمةً باقيةَ الصَّرْح، ما ٱقْتَرَن النَّظَرُ باللَّمْح، وما هَطَل السَّحَابُ بالسَّح؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا .

وبعد، فإِنَّ أَوْلىٰ من خَطَبَت المَنَاصِبُ العَلِيَّه، مَحَاسِنَه الجَلِيلةَ الجَلِيَّه، ورَغِبَت المَرَاتِبُ التى هى بالخَيْر حَرِيَّه، فى جَمِيل حَالَتِه التى هى بعُقُود المَفَاخِرِ حَالِيَّه، وسَحَبَت

سَحائبُ الإقبالِ الوابِليَّه، ذُيولَ فضائلِه الفاضليَّه، واكتسبَ العلومَ الفرعيَّةَ والأصليَّه، من مجاميعِ فنونِه التى تُعرِب عن أنواعِ الفوائدِ الجُمْليَّةِ والتفصيليَّه - من شهدت المفاخرُ بأنَّه لم يزلِ الشهيدَ لها وابنَ الشهيد، وحُمِدت المآثرُ التى هو الشهيرُ بها فما عليها فى جميلِ الأدواتِ من مزيد؛ وتشيَّدت مبانى معاليه التى اقترن بابُ خيرِها منه بالفتحِ المُبين، وتمهَّدت معانى أماليه بالتخيُّلِ اللطيفِ واللفظِ المتين؛ وتعدَّدت أوصافُ شِيَمِه فهى لمحاسنِ الدهرِ تزيدُ وتزين، وغدا من الكاتبين الكرامِ والكرامِ الكاتبين؛ الذين تضِحُ باطِّلاعِهم مراصدُ المقاصدِ وتبين. طالما اتَّسقَ عِقْدُ نظمِه المتين، وبسَقَ غُصْنُ قلمِه المُثمِرِ بالدِّين، وأضافَ إلى أدبِ الكُتَّابِ حِلْيةَ العلماءِ المُتقنين، وارتقبَ أفعالَ الجميلِ التى استوجبَ بها حُسْنَ الترقِّى إلى أعلىٰ درجاتِ المُتَّقين، وقلَّدَ أجيادَ الطُّروسِ جواهرَ ألفاظِه التى تفوقُ الجوهرَ عن يقين؛ فهى بنُضارِ خطِّه مصوغةٌ أبهجَ صِياغه، وفى طريقِ الإنشاءِ سالكةٌ نهجَ البلاغه، وكذا بحارُ الفضائلِ واردةٌ مناهلَها المُساغه؛ كم أعربَ كَلِمُه الطيِّب، عن سحِّ سحابِ الصوابِ الصيِّب؛ وكم أغنى فى المُهِمَّاتِ بكُتُبِه، عن جيشِ الكتائبِ وقُضُبِه؛ وكم هزأت صحائفُه بالصفائح، وكم أغنت راشقاتُ فكرِه الثابتةِ العلمِ عن سهوِ السهمِ الرائح؛ وكم تشاجرت أقلامُه البيضُ الفِعالِ هى وسُمْرُ الرماحِ فكان نصرُها اللائح، وكم تعارضَ نشرُ وصفِه وشذا الطيبِ فألفى الزمانُ ثناءَه هو الفائح، وكم اشتملَ على أنواعٍ من النفاسةِ فاستوجبَ منامنًا يقضى له بأجزلِ المُنىٰ والمنائح.

ولما كان المجلسُ العالى، القاضوىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، الأوحدىّ، الأثيرىّ، الرئيسىّ، البليغىّ، المُفيدىّ، المجيدىّ، الأصيلىّ، العريقىّ، العابدىّ، الزاهدىّ، المؤتمنىّ، الفتحىّ؛ جمالُ الملوكِ والسلاطين، ولىّ

أَمير المؤْمنين ، محمد بنُ الشَّهيد ؛ أَدام الله نِعْمته : هو الذى أَعْرب القَلَمُ عن صِفَاتِه ، وأَطْرب المَسَامِعَ ما أَدّاه اليَرَاعُ عن أَدَوَاتِه ؛ وَرامَ البَنَانُ أَنْ يَسْتَوْعِبَ بيَانَ شُكْرِه فلم يُدْرِكْ شَأْوَ غاياته ، وتَسَارَعَتْ بَدَائِعُ البَدَائِهِ من أَفْكاره فسَابَقَت جَرَيانَ يَرَاعِه فى أَبياتِه ؛ ورَاقَتْ أَمَاليه ، لنَاقِلِى أَلْفَاظِه ومَعَانيه ، فشَكَر السَّمْعُ والفَهْمُ بهما هِبَّاتِ هِبَاتِه ؛ فآدَابُه مَشْهُوره ، وعُلُومُه مَذْكُوره ؛ وتَحَلِّيـه بمَذَاهِب الصُّوفية آرتاضت به نَفْسُه الخَيِّرَةُ الخَبِيرَه ، وإِخْلَاصُه فى عِبَادة اللهِ تعالى حَسُنَتْ به مِنْه السِّيرَة والسَّرِيرَه ؛ وصِيَانَتُه للأَسْرار الشَّرِيفة آستحق بها إِسْنادَ أَمْرِها إليه ، وإِيدَاعَ غَوَامِضها لَدَيْه ، والتَّعْوِيلَ فى حِفْظِها وفى لَفْظِه للفظِها عليه ـ آقتضى حسْنُ الرَّأْيِ الشَّرِيف أَنْ نَجْتَبِيَه لِمَا تَحَقَّقْنا منه من ذلك ، ونَخُصَّه بصَحَابَة دِيوانِ الإِنْشاء الشَّرِيف فى أَجَلِّ الممالك ، ونَجْعَلَ قَدَمه ثابتَةَ الرُّسوخ ، والصُّعُودِ فى مَشْيَخَة الشُّيُوخ ، لِيَسْلُكَ فيها أَحْسن المَسَالك .

فلذلك رسم بالأمر الشريف (١) الأَشْرفىّ ، النَّاصِرىّ ـ لا زَالَ لأَبْوابه الشريفـة فَتْحٌ فى الخَيْر يَقْدُمُه النَّصْر ، ولسَحَابِه مَنْحٌ ما يعْرِف مَدَدُ أمدَادِه القَصْر ـ أَنْ تفوَّضَ إليه صَحَابة دِيوَانِ الإنشاء الشَّرِيف ، ومشيخةُ الشيوخ بالشام المحروس ، علىٰ عَادَة من تَقَدَّمه وقَاعِدَتِه ومَعْلومِه الشاهِد به الدِّيوانُ المعمورُ إلىٰ آخر وَقْت .

فَلْيُباشِرْ ذٰلك بوَافِر عَفَافِه ، ووَافِى إِنْصافِه ؛ ومَشْهُور أَمَانَتِه ، ومَشْكُور صِيَانَتِه ؛ كَاتِمًا للأَسْرار ، كَاتِبًا لِلْبَارّ ، لِيكُونَ من الأَبْرار ؛ عَالِقًا مَصَالِحَ الأَنَام بإِرْشاد رَأْيِه وصَوَابِه ضَابِطًا أَحْوال دِيوَانِه ، مُتَحَرِّيًا فى كَثِير الأُمُور وقَلِيلِها : فإِن الكِتَابَ يَظْهَر من عُنْوَانِه ؛ مُحَرِّرًا لِمَا يُمْلِي مُعْتَبِرًا لِمَا يَكْتُب ، مُجَمِّلًا لِلْمطَالَعات الكريمة بفِكْرِه المُتَسَرِّع

(١) بياض بالأصل ولعله "العالى" .

وتصوّره الأَرْتَب ، حَافِظًا أَزِمَّةَ ما يصدُر من مِثَال وما يَرِدُ فى المُهِمَّات الشَّريفة فهو أدرَىٰ وأَدْرَبُ بما علَىٰ ذلك يَتَرتَّب ؛ مُحَافِظًا كعَادَته علىٰ دِينِه ، لازِمًا لصِدْق يَقِينِه ؛ خَافِضًا لأَهْلِ الخَيْر جَنَاحَه ، مَانِحًا لهم نَجَاحَه ؛ مُعَامِلًا للفقراء بكَرَم نَفْس بالله غَنِيَّه ، مُلَاحِظًا لأَحْوالهم بالقَوْل والفِعْل والعَمَل والنِّيَّه ؛ مُحْتَرِمًا لكَبِيرِهم ، حَانِيًا علىٰ صغيرهم ؛ مُفَكِّرًا فيما يعودُ نَفْعُه عليهم ، رَاكِنًا فى البَاطِنِ والظَّاهِرِ إليهم ؛ مُعْنِيًا لهم بالاشْتِغَال بالعِبَاده ، مُسَلِّكًا لهم الطَّرِيق إلَى اللهِ فإنَّها الطريقُ الجَادَّه ؛ مُسْتَجْلِبًا لدَعَواتهم الصَّالِحَه ، مُسْتَفِيدًا من مَتَاجِر بَرَكَاتِهم الرَّابِحَه . والوَصَايا كثيرةٌ ومن نُورِ إِفَادَته تُقْتَبَس ، ومن مَشْهُورِ مَادَّته تُلْتَمَس ؛ ومِلَاكُها التَّقْوىٰ وهى أَوَّلُ كُلِّ أَمْرٍ وآخِرُه ، وبمُلَازَمَتِها تَتِمُّ له مَفَاخِرُه ؛ واللهُ تعالىٰ يَحْرُسُه فى السِّرِّ والنَّجْوىٰ ، ويُظْهِر بإرشاده للمَعانِى والبَيَان كُلَّ نَجْوَىٰ ؛ بمنّه وكَرَمه ! إنْ شاء اللهُ تعالىٰ .

***

وهذه نسخةُ توقيع بِكِتَابة السِّرِّ بالشَّام ، كُتِبَ به للقَاضِى « شَرَف الدِّين عبد الوَهَّاب » بن فَضْل الله ، عند مارُسِم بنَقْله من القَاهِرَة إلىٰ دِمَشْق ، فى ذِى الحِجَّة سنة إِحْدَىٰ عشرة وسَبْعِمائة ، من إِنْشاء الشَّيخ شِهَاب الدِّين « محمود الحَلَبِىّ » وهى :

الحمد لله الذى خَصَّ دَوْلَتَنا الشَّرِيفَة برِعَاية الذِّمَم ، وحِفْظ ما أَسْلَفَ الأَوْلِياءُ من الطَّاعات والخِدَم ، وإِدَامَة ما أَسْدَتْه إلىٰ خَدَم أَيَّامنا الزَّاهِرةِ من الآلاءِ والنِّعَم ؛ وإِفَاضَة حُلَل اعْتِنَائِها ، التى هى أَحَبُّ إلىٰ مَن شَرُفَ بوَلَائِها ، من حُمْر النَّعَم ؛ وأَبْقَىٰ عَوارِفَها علىٰ مَن لم يَزَلْ مَعْرُوفًا فى صَوْنِ أَسْرَارِها بسَعَةِ الصَّدْر وفى تَدْبِير مَصَالِحِها بصِحَّة الرَّأْى وفى تَنْفِيذ مَرَاسِمِها بطاعة اللِّسَان والقَلَم .

نَحمده علىٰ نِعَمِه التى ما ٱستهلّتْ علىٰ وَلِىّ فأقلع عنه غَمامُها، ولا ٱستقرّت بيدِ صَفِىّ فانْتُزِعَ من يَده حَيثُ تَصرَّفُ زِمامُها، ونَشْهدُ أَنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا نزَالُ نَعْتصِم بحَبْلِهَا المَتِين، ونَتَلَقّىٰ عَرَابَةُ إخْلَاصِنا رَايَةَ فَضْلِها باليَمين؛ ونشهدُ أَنّ محمدًا عبدُه ورسولُه أكرمُ مَبْعُوثٍ إلىٰ الأُمَم، بالإحْسَان والكَرَم؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الّذين كَرُمت أَنْسَابُهم، وأَضَاءَت لَهُم وُجُوهُهم وأَحْسَابُهم؛ فرَفَلُوا فى حُلَلِ ما ٱكْتَسَوْه من سُنَنِه، وٱكْتَسَبُوه من سَنَنِه، فحَسُنَ منها ٱكْتِسَاؤُهم وٱكْتِسَابُهم؛ صلاةً لا تزال لها الأَرْض مَسْجِدا، ولا يَبْرَحُ ذِكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنجدا؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعد، فإنّ أَوْلىٰ من خَوَلْتَه مَكَارِمُنا الإقامةَ حيثُ يَهْوىٰ من وَطَنِه، وبَوّأته نِعَمُنا الجَمْعَ بين ذِمَامِ بِرِّنا وبين ما فَارَقَهُ من سَكَنِه؛ ومَلَّكَتْه عَوَاطِفُنا، زِمامَ التّصرّف حَيْثُما أَمْكَن من خِدْمتنا الشريفه، وعَرّفَته عَوارِفُنا، أَنّ مَكَانَتَه عندنا علىٰ حالها حيثُ أَدّىٰ ما عُدِق به من وَظيفه - مَن لَمْ يَزَلْ قَلَمُه لِسَانَ مَرَاسِمِنا، وعِنَانَ ما نُجْرِيه فى الآفاق من سَوَابِق مَكَارِمِنا، وتَرْجُمَانَ أَوَامِرِنا، وخَطِيبَ آلائنا التى غَدَتْ بها أَعْطَافُ التَّقاليد من جُمْلَةِ مَنَابِرِنا .

ولمّا كان المجلس العالى : هو الذى لم يَبْرَحْ صَدْرُه خِزَانَةَ أَسْرارِنا، وفِكْرُه كَنَانَةَ إعْلَانِنا فى المَصَالِح وإسْرَارِنا، وخَاطِرُه مِرْآةَ آرائنا، ويَرَاعُه مِشْكَاةَ مايُشْرِقُ: من أَنْوار تَدْبيرِنا، أو يَبْرُق: من أَنْوَاءِ آلائنا؛ يَنْطِق قَلَمُه فى الأَقاليم عن أَلْسِنَةِ أَوامرنا المُطَاعه، ويَنْفُذُ كَلِمُه عن مَرَاسِمِنا فى دِيوانِ الإنْشَاء بما تُقَابِلُه أَقْلَام الجَمَاعة بالسَّمْع والطّاعه؛ وكانت سِنُّه قد عَلَتْ فى خِدْمَتِنا إلى أَنْ رَأَيْنَا تَوْفيرَ خاطِرِه علىٰ البَرَكَات، عن كثير ممّا يَتْبَع رِكَابَنا الشّريفَ من لَوَازِم الحَرَكَات، وأَنْ نُعْفِيَه ممّا يُلْزِم الإقامةَ بأَبْوَابِنا

الشريفــةِ من كَثْرة المُثُول بين يَدَيْنا، وأَنْ تقْتَصِر به عَلىٰ أخَفِّ الوَظيفتَيْن إذْ لا فَرْق فى رُتْبَة السِّرِّ بينَ ما يَصْدُر عنَّا أَوْ ما يَرِدُ إليَنا .

فرُسم بالأَمْرِ الشَّريف، العَالى، المَوْلوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكىّ، الفُلانِىّ، الفلانى، أَنْ يكونَ فلانٌ صاحبَ دِيوانِ الإنْشاء الشَّريف بالشَّام المَحْرُوس، بمَعْلومه الشَّاهد له به الديوان المعمور بالأَبْواب العَالِية، عِوَضًا عن أَخِيه المجلس السامىّ، القضائىّ، المُحْيوىّ «يَحْيي بن فَضْــل اللّه» ويستـمرّ أَخُوه القاضى «مُحْيِي الدِّين» المــذكور مع جُمْـلة الكُتَّاب بدِيوان الإنشاء الشَّرِيف بالشَّام المحروس، بالمعــلومِ الشَّاهد به الدِّيوانُ المَعْمُور .

فلْيُبَاشِرْ هذه الرُّتْبَةَ التى تَأَثَّلَتْ به قوَاعِدُها وعن تَقْرِيره وتَحْرِيره أَخَذَ كُلّ مَن كَانَ بأَنْواعها وَأَوْضَاعِها عليما؛ فإنَّه لم يخرج عن أَخِيه شَىْءٌ وَصَل إلَيْه، ولا فُوِّضَ له إلَّا ما هو بحكم عموم الأَوْلَوِيَّة والأَوّلِيَّة فى يَدَيْه؛ وأَمَّا ما يتعلَّقُ بذلك من وَصَايا تُبْسَط، وقَواعِدَ تُشْرَط؛ فإنَّها منه آستفادها من رَقَّمها، وعَنْه آرْتَوىٰ بها ورَوَاها من تَعَلَّمها؛ ونَحْنُ نعلَمُ من ذلك ما لا يحتَاجُ إلىٰ أَنْ يزدَادَ فيه يَقِينًا، ولا أَنْ نَزِيدَه بذِكْرِه مَعْرِفَةً وتَمْكِينًا؛ والاعتماد ... ...

قلتُ: ومن غَرِيب ما وقع: أَنَّه كتب لِلمَقرِّ الشِّهابِىّ بن فَضْــل اللّه بكِتَابَة السِّر بالشَّام، حين وَلِيَها بعد آنفصاله من الديار المصرية تَوْقِيعٌ مُفْتَتَح بـ«أَمَّا بعدَ حَمْد اللّه» من إنشاء المَوْلَى «تاجِ الدِّين بن البارنبارى» وكَأَنَّه إنَّما كُتِب بذلك عند تَغَيُّر السلطان الملكِ النَّاصِر «محمدِ بن قَلاوُون» عليه، علىٰ ما هو مذكور فى الكلام علىٰ كُتَّاب السِّر فى مُقَدِّمة الكِتَاب .

وهذه نسخة تَوْقيع بكِتَابة السِّر بالشَّام المَحْروس :

أَمَّا بعد حَمْدِ اللهِ مُنَقِّلِ الشُّهُب فى أَحَبِّ مَطَالِعِها ، ومُعْلِى الأَقْدار بتصريف الأَقْدارِ ورافِعِها ، ومُبْهِجِ النُّفوس بمَعَادِها إلىٰ أَوْطَانِها ومَوَاضِعِها ، ومُمْضِى مشيئَتِه فى خَلِيقَتِه بالخِيرَة فيما يشاء لطَالِعِها ، والشَّهادَةِ له بالوَحْدانيَّة الآخذةِ من القُلُوب بمَجَامِعِها ، والصَّلاةِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى بصَّر الأُمَّةَ بهَدْيِها ومَنَافِعِها ، وصَانَ شِرْعَتَه الشريفة تِلْوَ المِلَلِ بنَسْخِ شَرَائِعِها ، وعلىٰ آله وصَحْبِه الَّذين آسْتُودِعُوا أَسْرار المِلَّة فحَفِظُوا نَفِيسَ وَدَائِعِها ـ فإنَّ مَمَالِكَنَا الشريفةَ هى سَوَاءٌ لَدَيْنا فى التَّعْظِيم ، وأَوْلِياءَ دَوْلَتِنا الشريفة يتَنَقَّلُون فيها فى مَنَازِلِ التَّكْرِيم ، وعِنْدنا من « فَضْلِ اللهِ » رِعَايَةٌ للعهْدِ القديم ، وتأْكِيدٌ لأَسباب التَّقْديم ، فلا غَضَاضَةَ لمَنْ نَقَلْناه من أَبْوَابِنا إليها ، ولاوَهَنَ يَطْرأ علىٰ عُلُوِّ المَرَاتِب ويَعْتَرِيها ، حَيْثُ صَدَقَاتُنا دَائِمَه ، وثُغُورُ إقْبَالنا بَاسِمَه ، ومَرَاسِمُنا لمساعدة الأَقْدار فى الأَيَّام حَاكِمَه ، و « الشِّهَابُ » لَوْ لَمْ يَسِرْ فى سَمَائِه ، لَمَا آهتدىٰ الناظرون بضِيَائِه ، والدُّرَّةُ لو مَكَثَتْ فى صَدَفِها ، لما حَظِيَتْ فى العُقُود بشَرَفِها .

وكان المجلسُ العالِى ، القَضَائِىّ ، الشِّهابِىّ ، قد أقام فى خِدْمَتِنا الشريفة بالأَبْوَاب العالية حَافِظًا للأَسْرار ، قَائِمًا بما نُحِبُّ ونَخْتَار ، ثم لَمَّا أَخَذَ حَظَّه من القُرْب من أَيْدِينا الشَّريفة : رَأَيْنا أَنَّ عَوْدَه إلىٰ أَوْطَانِه ، وأَهْلِهِ من تَمَام إيمَانِه ، وأَنَّ مَرْجِعَه إلىٰ مَحَلِّه ، من نعَمِ اللهِ عليه وفَضْلِه ، وما سَارَ إلَّا والإقْبَال يُزَوِّدُه ، والآستقبال به وأَهْل بَيْتِه يُسْعِدُه ويُصْعِدُه .

فلذٰلك رُسِمَ بالأَمْر الشَّريف أَنْ يُنْقَلَ إلىٰ كِتَابَةِ الإنشاء الشَّريف بدمَشْق المحروسة ، وأَنْ يكونَ مُتَحَدِّثًا عن وَالِده ، علىٰ ما كان عليه بالديار المصرية ، ولْيُقَرَّرْ له من المعلوم كذا وكذا .

فَلْيَسِرْ إلىٰ دارِ كَرَامَتِه ، وليَسْتقرَّ فى مَوْطِن إقَامَتِه ، قَرِيرَ العَيْن ، مَمْلُوءَ اليَدَيْن ، مَسْرُورًا برفْعِ المحَلِّ فى المَمْلَكتَيْن ؛ وليَكُنْ لوالده ـ أعزّه اللهُ تعالىٰ ـ عَضُدا ، وليُصْبِحْ له فى مهماتنا الشريفة سَاعِدًا ويَدا ، وليُضْحِ به اليومَ بَرًّا ليَجِدَ رِضَا الله غَدًا ؛ فإنَّ والدَه بركةُ الممالك ، وله قَديمُ هِجْرَة ، وسَالِفُ خِدْمَة ، وحُسْنُ طَوِيَّة ، فنحن نَرْعَاه لذلك ، والمُهِمَّاتُ الشريفةُ يتَلَقَّاهَا بنَفْسه ، وليُصْدِرْ فُصُول المطالعة مُدبَّجة علىٰ عَادَتِه فى تَدْبِيج طِرْسِه ؛ وليَسْتَعِنْ بالله فهو وَلِيُّ الإعَانَه ، وليَعْتَمِدْ على الرِّفْق فى أمْرِه فما كان الرِّفْقُ فى شَىْءٍ إلَّا زَانَه ؛ وما بَعُدَ عنّا ، مَن كان بَعِيدًا بالصورة قَرِيبًا بالمَعْنىٰ ، والله تعالىٰ يزيده مِنًّا مَنّا ! ؛ والخط الشريف أعْلاه حُجَّة فيه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثالثة — نَظَر الجيوش بالشَّام .

وشَأْن صَاحِبِها كِتَابة المُرَبَّعَات التى تُنْشَأُ من الشَّام ، وتَنْزِيلُ المنَاشِير الشريفة التى تصدر إليه .

وهذه نسخة تَوْقِيع شريفٍ من ذلك ، كُتِبَ به «لموسىٰ بن عبد الوهاب» من إنْشَاء السيِّد الشريف شِهَاب الدِّين ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل إحْسَانَنَا عَائِدًا بِصِلاَتِه ، وفَضْلَنا يجمع شَمْلَ الإسْعاد بَعْد شَتَاتِه ، وعَوَاطِفَنا تُنَبِّه جَفْنَ الإقْبال من إغْفَائِه وسِنَاتِه .

نحمَدُه علىٰ أنْ نَصَرَ بِنَا جَيْشَ الإسلام فى أرْجاء مُلْكِنا الشَّرِيف وجِهَاتِه ، وجعل البَرَكَة واليُمْنَ بِأمْرِنا فى حَالَتَىْ مَحْوِه و إثْبَاتِه ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً زادت فى جَزَاء المُخْلِص وحَسَنَاتِه ، وأضْحتْ نُورًا يَسْعَىٰ بين يديه إلىٰ رحمة رَبِّه وإلىٰ جَنَّاتِه ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه و رسُوله الذى أظْهَرَ اللهُ به وَاضِحَ آيَاتِه ،

وأصْبحَ النَّشْرعَابِقًا من نَشْرِ رَايَاته ، ومحَا الفَتْرَةَ بهدْيِه وسَرَّ سَرائِرَ أوْلِيَائه وأكْمد قُلُوبَ عُدَاته ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه ماتأرّج النَّسيمُ فى هَبَّاته ، وأبْهج العَطَاءَ بجزيل هِبَاته ، وسلَّم تسليمًا .

وبعــدُ ، فإنَّ من النِّعَم ما إذا عَادَتْ أقرَّت العُيون ، وحَقَّقَت الآمَالَ والظُّنُون ، ورَفَعَت الأقْدار وإنْ لم يزَلْ رَفِيعًا محَلُّها ، وجَمعت المَسارَّ الممتدَّ على الأفْئِدَة ظِلُّها ، وعَمرت رُبُوعَ الإحْسان ، وغَمَرتْ بمَنَائِحِها الحِسَان ، كهٰذه النِّعْــمَةِ التى تَلَقَّت الإقْبال من حَافِل غَمَامه ، وجَمعَتْ شَمْــل التَّقْديم مَشْفُوعا بإكْرَامه ، وأعَادت سَماءَ التَّكْريم هَادِيَةً بقُطْبِها ، مُشْرِقَةَ الأرْجاء بنُورِ ربِّهــا ، وسَــفَرَتْ بُدُورُها بمن هو أوْلىٰ باجْتِلَائها ، وتَهيَّأت رُتبُها لمن هو جَديرٌ باَعْتِلَائها ، وحَقِيقٌ بأنْ تعُودَ المواهبُ بعــدَ فَتْرَتها ، وأنْ تُقبِــلَ عليه وُجُوه المَنَائِح بعــد لَفْتَتِها ، لتُصْبِح كوَاكِبُ الإسْــعاد كأنَّها ما أفَلَتْ ، وعَطَايَا التَّخْويل كأنَّهــا ما اَنْتَقَلَتْ ، ويعُودَ عليه اليَوْمُ كأمْسه ، ويرجع أُفُقُ العَوَارِف الجِسَامِ مُشْرِقًا ببَدْرِ الاَجتباء وشَمْسه .

ولَمَّــا كان فلانٌ هو الذى حَسُنَتْ فى الخِدَمِ الشَّريفَــة آثاره ، وحُمِدَ إيرَادُه فى المُهِمَّات الشريفة وإصْدَارُه ، وشَكَرَه شَامُه ومِصْرُه ، وسَمَا فى كُلِّ جِهَةٍ حَلَّها محَلُّه وقَدْرُه ، وتُحُقِّقَتْ منه رَآسَــةٌ قَضَت له بإبْدَاءِ النِّعَم وإعَادَتها ، وأنْ تَجْرِى له الدَّوْلَةُ من الإكرام علىٰ أجْمَلِ عَادَتِهــا ، وأن تُرْعىٰ له حُقُوقٌ أَلِفهَا حَدِيثًا وقَديمــا ، وتُنْشر عليه ظِلَالُ الفَضْل حَتّى لايفْقِدَ منها علىٰ طُولِ المَدىٰ تكْريمــا .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشَّريف ... ... لازال ... ... أن يستقر... ... تجديدًا لمَلَابِس سَــعْده ، وتأكيدًا لقَواعِد مجْده ، وتَرْديدًا للفَضْل الذى حَلَا مَنْهَلُ وِرْده ، ورِعَايَةً لخِدَمه التى أكَبَّتْ عليهــا السيوفُ والأقْلام ، وشَكَرت تأْثِيرَها جُنُودُنا ـ نصرها اللهُ

تعالىٰ - بمِصْرَ والشَّام ؛ ولمَـا له من حُسْنِ سَمْتٍ زَادَه وقَارُه ، وأصْلٍ صَالِحٍ طَابَتْ منه ثِمَـارُه .

فلْيَسْتَقِرّ فى هذه الوظيفة المباركة : عَالِمًـا أنَّ لِسَانَ القَلَمِ أمْسَك عن الوصايا لأنَّه خَبَرَ هٰذِه الوظيفةَ فَرْعاً وأصْلا ، وألِفَتْ منـه نَاظِرًا عَلَا قَدْرًا وكَرُم مَحْتِدًا وفَصْـلا ؛ وهو بحمد اللّهِ أدرىٰ بسُلُوكِ مِنْهَاجِهَا القَوِيم ، وأدْرَبُ باقتفاء سَنَنِها المُسْتَقِيم ؛ والخير يكون ، والاعتماد فى ذلك علىٰ الخَطِّ الشَّرِيف إن شاء الله تعـالىٰ أعْلاه ، حُجَّة بمقتضـاه .

المرتبـــــة الثـانية

(من مَرَاتب أرْباب التَّواقيع الديوانية بدِمَشْق - مَن يُكْتَب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامىّ» باليـاء مفتتحا بـ«الحمد لله» إن عَلَت رُتْبته وإلا بـ«أما بعدُ» ، وتشتملُ علىٰ وظائفَ)

منها - نَظَر الخِزَانَة العاليـةِ ، وشأْنها هناك نظير الخِزَانَة الكُبرىٰ بالديار المصرية فى القديم ، ونَظِيرُ خِزانة الخاصّ الآن .

وهذه نسخة توْقيع بنَظَر الخِزانة العَالِية :

أمَّا بعدَ حمـدِ الله علىٰ نِعَمِه التى خَصَّت المَنَاصِبَ السنيةَ فى أيَّامنا الزَّاهرة بكُلِّ كُفْءٍ كريم ، وجعلت علىٰ خَزَائِن الأرْض من أوْلياء دَوْلَتَنا القاهرة كلَّ حَفِيظٍ عَلِيم ؛ وأفَاضت ظِلَّ إنْعامنا علىٰ من إذا أُنْعِمَ النَّظَر فى حقِّ ذَوِى البُيُوت القديمة كان أحَقَّ بالتَّقْدِيم ؛ والصَّلاةِ علىٰ سيدنا محمد أفْضل من حَبَاه بفَضْله العَمِيم ، واجْتَباه لهِـدَاية خَلْقِه إلىٰ السَّنَنِ القَوِيم ، وجعل سلامةَ الصَّلاة المقبولة من النقص مقرونةً بالصلاة عليه والتَّسْـليم - فإنَّ أوْلىٰ من رجَّحه لِخِدْمَتِنا الاختيار ، وقدَّمه فى دَوْلَتِنا الاخْتبار ؛

وأَخْلَصَـه حسنُ نَظرنا الشَّريف رُتْبَةَ أَبيه من قَبْل ، وأغْدق له سَحَابُ بِرِّنا صَوْبَ إِحْسانٍ فلم يُصبْه طَلٌّ بَلْ وَبْل ـ من حُمِدَ سَـيْره وسِيَرُه ، وشُـكِر فى طَاعَتِنا وِرْدُه وصَدَرُه ، وزَانَ الأصالةَ بالنَّبَاهه ، والرَّآسَةَ بالوَجَاهه ، والمعرفةَ بالنَّزَاهه ، وجمع بين الصَّلَف والاَطِّلاع ، والتَّضَلُّع من العِفَّة والاَضْطِلاع ، والصِّفات التى لو تَخَيَّرها لنَفْسه لم يَزِدْها علىٰ مافيه من كَرَم الطِّبَاع .

ولمـا كان نَظَرُ الخزانة العاليـة بدِمَشْق المحروسةِ رُتْبَـةً لا يَرْقَىٰ إليها من الأَكْفَاء إلا مَنْ ومَنْ ، ولا يُقدَّم لهـا من الأولياء إلا مَن تَعَـيَّن من رُؤَساء العَصْر وفُضَـلاءِ الزَّمن ، وكان فلانٌ هو الذى عَيَّنه لهـا آرْتيادُ الأَكْفاء ، وآصْطُفِى هو من أَهْـل الصَّفَاء ، وتَقَدَّم من وَصْف مَحَاسِـنه ما لا يروِّع تَمَـامُ بَدْره وظُهُورُه بالنَّقْص والاَخْتِفَـاء .

فلذلك رسم بالأَمْر الشَّريف أنْ يفوّض إليه نَظَرُ الخزانة المذكورة .

فلْيُبَاشِرْ ذلك مباشرةَ من يحقِّقُ فى كِفَايَته وفَضِيلَتِه التَّأْمِيل ، ويُظْهِرُ حسنَ نَظَرِه الذى هو كالنهار لا يحتاجُ إلىٰ دَلِيل ؛ ولْيَجْرِ علىٰ جميل عادته فى النهوض فى خِدْمَتِنا بالسُّـنَّة والفَرْض ، ويُضَاعِف آجْتِهَـادَه الذى بمثله جُعِـل مَنِ آخْتِيرَ علىٰ خَزَائِن الأَرْض ؛ وهو يعلم أنَّ هذه الرتبةَ مآلُ الأَمْوال ، وذَخَائِرِ الإسلام التى هى مَادَّة الجُيوش ومَوَارِدُ الإِفْضَال ؛ فلْيُعْمِلْ فى مَصَالِحها فِكْرَه ودَأْبَه ، وإذا كان حسنُ نَظَرِنا الشريف قدجعله المُؤْتَمَن عليها: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِى آؤْتُمِنَ أَمَانَتَه ولْيَتَّقِ اللّٰهَ رَبَّه﴾ . وفى سيرَتِه التى عُرِّفت ، وصِفَاتِه التى إِنْ وُصِفَت فمـا أُنْصِفَت ؛ مايُغْنِى عن تَفَاصِيل الوَصَايا وجُمَلِها ، وإِعَادَة مزايا التأكيد : قَوْلِهـا وعَمَلِها ؛ لٰكِنْ مِلاَكُها الصِّيانَة التى هو بها مَوْصوف ، والتَّقْوى التى هو بها مَعْروف ؛ والاَعْتماد علىٰ الخط الشَّريف أَعْلاه .

ومنهـا ـ صَحَابة دِيوانِ النَّظر، وصَحَابة دِيوانِ الجَيْش ونحو ذلك من الوظـائف الديوانية بِدمَشْق .

قلتُ : هـٰذا إن كتب من الابْواب الشَّريفة السُّلطانية ، و إلَّا فالغالبُ كِتَابة ذلك عن نائب السَّلطنة بدمَشْق .

الصـــــنف الرابع
(من الوظائف بِدمَشْـــق وظائفُ المُتَصَوِّفة ومَشَايخ الخَـوَانِق ، وفيهـا مَرْتبتان)

المرتبـــــــة الأولى
(ما يكتب فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالمجلس السَّامىّ» بالياء، مفتتحا بـ«ـالحمدُ لله» . وبذلك يُكْتَب لشَيْخ الشُّيُوخ بالشَّام، وهو شَيْخ الخَانِقاه الصَّلاحية، المسماة بالشميصاتية)

وهذه نسخة تَوْقِيع بذلك ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى اختار لعِمَارَة بُيُوته أوْلِياءَ يُحِبُّونَه ويُحِبُّهم ، وأصْـفِيَاءَ حَفَّهُم برَحْمته فاجْتَهدوا فى طَاعَتِه فازداد قُرْبُهم ، وأتْقِيَاءَ زَهِدُوا فى الدُّنيا وابْدلوا الفَانِىَ بالبَـاقى وطَابَ فى مَوْرِدِ الصَّفَاءِ شِرْبُهم .

نحمدُه حَمْدَ من جعل حُبَّ الله دثَارَه ، ومَلَابِس التَّقْوىٰ شعَارَه ، ونَشْكُره والشُّكْرُ لمَزِيدِ النِّعَم أمَارَه، وللقُلُوب الدَّائِرَة عِمَارَه، ونشهدُ أنْ لَاإله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مخْلِصٍ فى التَّوحِيد، يَتَبَوَّأُ بهـا جِنَانَ الخُلْدِ ويَخْلُص من سَماعِ قَوْلِ جَهَنَّمَ :

هَلْ مِنْ مَزِيد ؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أسْرَىٰ به إلىٰ حَضْرَة أُنْسِه، وحَظِيرَة قُدْسِه ؛ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَن سَبَق الأُمّةَ بشَيْءٍ وقَرَّ فى صَدْره ، ومنهم من دَلّت وَاقِعَةُ سَارِيَةَ علىٰ عُلُوِّ شَأْنه ورِفْعة قَدْره ؛ صلاةً لا تزالُ الأرْض لها مَسْجِدا ، ولَا يبرحُ ذِكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنْجِدًا ؛ وسَلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فإنّ أحَقَّ مَن عُومِل بالتَّقديم ، وأجْدَرَ مَن يُخَصُّ بالتَّكْرِيم ؛ مَن كَان قَدْرُه فى الأولياء عَظِيما ، وذِكْرُه فى الآفاق بين أهْل المَعْرفة قَديما ؛ وتَجْرِيدُه عن الدنيا مَشْهورا ، وسَعْيُه علىٰ قَدَم الطاعة مَشْكورا ؛ وشُهُودُه لمَقَام الكَمَال مُسْتَجْليا ، وٱسْتِجْلَاؤُه لمَوادّ الأُنْس مُسْتَمْليا ؛ فهو فى هذه الطائفةِ الجليلةِ سَرِيُّ المِقْدار ، مَعْرُوفُ الصفة فى حلْيَة الأوْلياء ومَنَاقِب الأبْرَار ، والمُتَقَدِّم من الإمامة فى مجمع الأخْيار .

ولما كان المجلسُ السامىّ ، الشَّيْخىّ ، الكَبِيرىّ ، العَالِمىّ ، العَامِلىّ ، الأوْحَدىّ ، الزَّاهدىّ ، الوَرَعىّ ، الأصِيلىّ ، الفُلَانِىّ ؛ جَلَالُ الإسلام والمسلمين ، وشَرَفُ الصُّلَحاء فى العالَمين ، شيخُ الشُّيوخ ، قُدْوَة السَّالكين ، مُعْتَقَد الملوك والسَّلَاطين ، أعاد اللهُ تعالىٰ من بَرَكاته : هو المقصودَ من هٰذه العِبَارة ، والملْحُوظَ بهذه الإشَارة ــ ٱقتضَىٰ حسنُ الرَّأْى الشريف أنْ يُخَصَّ فى الدنيا بالتَّعظيم ، ويُمَيَّزَ فى هذه الأُمَّة بالتَّكْرِيم .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشَّريف ــ لا زالَ له من جُنُود اللَّيل جيْشٌ لا تَطِيشُ سِهَامه ، ومن فُرْسان المَحَارِيب مَدَدٌ لا تَزِلُّ فى مُلَاقاة الرِّجال أقْدَامهُ ــ أنْ يستقرّ فى كذا .

فلْيُقَابِلْ هٰذه النعمةَ بالسُّرور ، وليتأَثَّلْ هٰذه الفَضِيلة بحَمْدِ اللهِ الشَّكُور ، ولْيُوَاظِبْ علىٰ وظيفة الدعاء بدَوَام أيَّامنا الزَّاهِره ، ولْيَسْتَمْطِرْ جَزِيل الفَضْل من سَحَائب جُودنا

المَاطِرَه؛ ولْيَبْسُطْ يدَه فى عَمَل المَصَالح، ولْيَسْتَمِرَّ على السَّعْيِ الحَسَنِ والعمَل الصَّالح؛ فإنّ هٰـذه البُقْعَةَ مَأْوَى القَادِمِ والقَاطِن، وتَسْمُو علىٰ أمْثالهـا من المَوَاطن؛ ولْيكُنْ لأسْرَارِهم مُوَقِّرا، ولِأقْوَاتِهـم المُعِينَةِ على الطَّاعَة مُيَسِّرَا؛ والله تعالىٰ يجعـل خَلَوَاتِه مَعْمُوره، وأفْعَالَه مَبْرُوره؛ والاعتماد فى ذلك علىٰ الخطِّ الشَّريف .

قلتُ : هٰذا إن وليهـا شَيْخٌ من مَشَايخ الصُّوفية، علىٰ عَادَة الخَوَانق . وقد يَليها كاتبُ السِّرّ بالشَّام، فيُكْتَب تقليده بكِتَابة السِّرّ فى قَطْع النِّصف «بالمجلس العَالى» علىٰ عادة كُتَّاب السِّرّ، ويُشَارُ فى تَقْليده إلىٰ بَعْض الألْفاظ الجامعة بين المقامين، ويُضَاف إلىٰ ألْقَاب كِتَابة السِّرّ بعضُ ألْقَـاب الصُّوفية المُنَاسِـبةِ لهذا المقام . علىٰ أنَّه رُبَّمـا كُتِبَ بولَايَتها عن نائب السَّلطنة بالشَّام لكَاتِب السِّرّ أو غيره .

المرتبـــــة الثـانية

(من يكتب له فى قَطْع العادة مفتتحا بـ«رُسم»)

وهذه نسخة تَوْقيع من ذلك، وهى :

رُسِمَ بالأمْرِ الشَّريف ــ لا زالت أوَامِرُه تُحِل القُرُبات مَحَلَّها، ومَرَاسِمُه تُسْنِد الرُّتَبَ الدِّينيةَ لمَن إذا خُصُّوا بمَوَاقِعها كانوا أحَقَّ بهـا وأهْلَها ــ أنْ يُرَتَّب فلانٌ فى كذا : إذ هو أوْلَى من خُصَّ بمَوَاطِن العِبَاده، ونَصَّ بتَرْفِيـه الأسْرار على التَّحلِّى بافَاضَـةِ الإفاده؛ ووَفَّر كَدَّه علىٰ اجتلاء وجوه المعارف من أفق المراقبـه، وجَمع خَاطِرَه لاجتناء ثَمَرة الأُنْسِ من أفْنان الطَّاعات النَّابِتَة فى رِيَاض المُحَاسَبَه؛ مع تَمَسُّكه بعُلُوم الشريعة الذى [خلص] معرفته من الشَّوَائِب، وأحْيَا الدُّجَىٰ من اقتبال شَبِيبَة

ظَلَامه إلىٰ أن تَشِيبَ منه الذَّوَائِب ؛ ونَفْعٍ متعَدٍّ إلىٰ كلّ طَالِب فَضْلٍ وملتمس ، ودين باهر من مصباح مِشْكَاة العِلْم والعَمَل لِكُلّ بَاغِى نُورٍ ومُقْتَبِس .

فليَسْتَقِرّ شَيْخًا بالمكان الفُلَانىّ : لتعمُرَ أرجاؤه بتَهَجُّده ، وتُشْرِق خَلَوَاتُه بتَعَبُّده ؛ وتَعْذُبَ مَوَارِدُه بأوْرَادِه ، وتُطْلِعَ مَجَالِسُه نُجُومَ مَعْرفته البَازِغَةَ من أُفُق إيرادِه ؛ [و] لتَغْدُوَ هـذه البُقْعَة رَوْضَةَ أفكار ، وقِبْـلَةَ أذْكَار ؛ ومَرَاقِىَ دَعَوات ، ومَرَافِعَ بَرَكَات ، تُسْتَنْزَل بين صَلَوات مَقْبولة وخَلَوات ؛ ولْيَتَنَاوَلِ المعلومَ المسـتقرَّ له تَرْفِيهًـا لِسِرِّه ، وتَنْزِيهًا لِفِكْرِه ؛ وإعَانَةً علىٰ الآنقطاع بهـذه البقعة التى تتصل به أسْـبابُ السَّعادة فى أرْجَائِها ، وتَخْصِيصًا لها منه بإمَامٍ تُقَّى لو كان لِبُقْعَةٍ أنْ تَجْتَنِىَ بَرَكَتَه لكان مُنْتَهىٰ رَجَائِها ؛ ولْيَرْفَعْ من الأدْعِية الصالحة لأيَّامِنا المباركة مالا تَزَال مَوَاطِنُ القَبول لنَفَحَاته المترَقِّبَـة مُتَلَقِّيه ، وما لا تَبْرَحُ النفوسُ لخَشْيَتِه المَـانِعَةِ مُتَوَقِّيه ؛ والآعتماد علىٰ الخطّ الشَّريف أعْلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

قلتُ : هٰذا إن كُتب عن الأبواب السُّـلطانية . وإلَّا فالغالبُ كِتَابة ذلك عن نائب السلطنة بالشَّام .

النـــوع الثـانى

(من وظائف دِمَشْق ماهو خارج عن حاضرَتها)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية : انّ لدِمَشْق أرْبعَ صَفَقات ، وهى : الغَرْبية ، والشَّرْقية ، والقِبْلية ، والشَّمالية .

فأمَّا الصَّفْقة الغَرْبية : وهى المعبَّر عنها بالسَّاحِليَّة والجَبَلِيَّة ، على ماتقدّم فيها ، ففيها من وظائف أرْباب السيوف عدّةُ وظَائِف ، وتُوَلَّى فيها الأبْوابُ السُّلْطانية .

منها ــ نِيَابَة القُدْس . وقد تقــدّم أنَّها كانت فى الزَّمن المتقدّم وِلَايَةً صغيرةً يَلِيها جُنْدِىٌّ، ثم آستقرّت نيابةَ طَبْلَخَاناه، فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وأنَّ العادةَ جرت أنْ يُضَاف إليها نَظَر الحَرَمَيْن : حَرَمِ الخَلِيل عليه الســلام، وحَرَمِ القُدْس . والذى يكتب له مرسومٌ فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالسَّامِىّ» بالياء .

ومنها ــ نيابة قلعة الصُّبَيْبَة . وقد تقدّم أنَّها من أجَلِّ القِلَاع وأمْنَعِها، وأنَّه كان يَلِيها نَائبٌ مُفْرَد من أجْنَاد الحَلْقَــة أو مُقَدَّمِيها عن نائب دِمَشْــقَ ، ثم أُضِيفت إلىٰ وَالِى بَانِيَــاسَ . ثم آستقرّت فى ســنة أرْبعَ عَشْرةَ وثمــانمــائة فى الدولة الناصرية « فرج » نِيَابَةً .

ومنها ــ نيابة قَلْعة عَجْلُونَ . وقد تقــدّم أنَّها علىٰ صِغَرِها حِصْنٌ حَصِينٌ، مَبْنِيَّــةٌ علىٰ جَبَل عوف[(١)]، بناها أُسَامَة بن مُنْقِذ، أحَدُ أُمَرَاءِ السُّلطان صَلَاحِ الدِّين «يوسف ابن أيُّوب» فى سَــلْطَنة العادل أبِى بَكْر، وأنَّه كان مَكَانَها رَاهِبٌ آسمه عَجْلُون، فسُمِّيت به . ثم آستقرّت فى الدولة الناصرية « فَرَج » فى سنة أرْبعَ عَشْرَةَ وثمانمائة إمْرَةَ طَبْلَخَاناه .

وقد تقدّم أوّلَ هذا القِسْم ما يُكْتَب للمقدّمين، وما يكتب للطَّبْلَخَاناه، وما يكتب للعَشَرات .

أمَّا أرْباب الوظائف الدِّينيَّة .

فمنهــا ــ مَشْيَخَة الخَانِقَاهِ الصَّلَاحية بالقُدْس . وتَوْقِيعُها يُكْتَب فى قَطْع الثلث مفتتحا بـ«ـالحمــد لله» .

(١) فى تقويم البلدان ص ٢٢٨ أن جبــل عوف كان أهله عصاة فبنىٰ عليهم أسامة حصن عجلون وهو معقل حصين مشرف على الغور .

ومنها ـ خَطَابَة القُـدْس ، وتوقيعها كذٰلك .

ومنها ـ مَشْيخة حَرَم الخليل ، وتَوْقِيعُها فى العَادَةِ يكتب مفتتحا بـ«رُسِم» .

وأمَّا الصَّفْقة القِبْلِيَّـة ، فالّتى يولّى بها من الأبْواب السُّـلطانية نِيَابةُ صَرْخَد . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشَّاميَّـة أنَّه قد يجعـل فيها من يَقْرُب من رُتَبِ السَّلْطنة ، وحينئذٍ : فإن وَلِيَها مُقَدَّم ألْفٍ ، كان مَرْسُومُه فى قَطْع النِّصف بـ«ـالمجلس العالى» . وإنْ وَلِيَها أميرُ طَبْلَخَاناه ، كان مَرْسُومه فى قَطْع النِّصف أيْضا ، بـ«ـالسَّامىِّ» بالياء .

وأما الصَّفْقة الشَّرْقية فالنِّيابات بها على طَبَقَتَيْن :

الطبقـــــة الأولىٰ

(ما يُكْتَب به مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع النِّصف ، وهو ما يَلِيه مُقَدَّمُ ألْفٍ أو طبلخاناه ، وفيهـا نيابات)

النيـابة الأولىٰ ــ نيـابة حِمْص .

وقد تقدّم أنَّها كانت نِيَابَةً جليلةً ، كان يَليها فى الدَّولة النَّاصرية «محمد بن قلاوون» مقدّمُ ألْفٍ ، وأنه ذكر فى "التَّثقيف" أنَّها صارت الآن طَبْلَخَاناه . وحينئـذ : فإن كان بها مُقَدَّمُ ألْفٍ ، كان مَرْسومُه فى قَطْع النِّصف بـ«ـالمجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه ، كان مَرْسومُه فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالمجلس السامىّ» بالياء .

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بنيابة السلطنة بِحِمْص :

الحمد لله مُقَدِّرِ كلِّ أجلٍ إلىٰ حِين ، ومُقَرِّرِ أُمُورِ الممالك فى عبَاده الصَّالحين ، الذى جعل بِنَا أَوْلِيَاءَنا من الرَّابِحين ، وحَفِظَ ما ٱسْتَرْعَانا من أُمُور عِبَاده بولَايَةِ النَّاصحين .

نحمده على اختيار لا يصل إليه قدح القادحين ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نكون بها فى غمرات الحروب على السوابح سابحين ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أكرم المانحين ، وأعظم الفاتحين ، وأشرف من ولى الأعمال الكفاة الوفاة المكافحين ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة لا تزال فيها الحفظة على أعمالنا مماسين ومصابحين ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن مراسيمنا الشريفة وإن تأخر وقتها إلى أجل معدود ، وأمد ممدود ؛ ومضت أيام وليال ولها باب مسدود ، وعمل سببه غير مشدود ـ فإنا كالسيف يتلاهى ثم إذا صمم لا يرجع ، وكالغمام تتمادى مدد مده ثم يجود فلا يقلع ؛ ولم نزل منذ فوض الله أمور بلاده إلينا ، وصرف أمور جمهور عباده بيدينا ؛ نرى أن نحمى غاباتها بأشد الأسود ، ونرمى غاياتها بمن هو لأمر ما يسود ؛ ونحوط جنباتها بمن لا يستبيح حرمه إلا الوفود ، ونحط ركائب رعاياها منه على من هو المقصود ؛ وننيب إلى ما يترجح من مصالحهم لدينا ، ونستنيب لمن يترجى الحسنى إذا عرضت متجددات أمورهم علينا ؛ وإذا انفرد بحكم لا يظن إلا أنه بمسمع من أذنينا ، ومرأى من عينينا ؛ لأن نواب الممالك الشريفة فروع عدلنا الشريف ونحن أصلها ، وأسباب إحسان بأوامرنا المطاعة قطعها ووصلها .

وكانت حمص المحروسة من أكبر الممالك القديمه ، والمدن العظيمه ؛ تغرق الأقاليم فى مدها ، وتمتد عساكرها فتعد حماة حماة من جندها ؛ وهى من الشام المحروس فى ملتقى مواكبه ، ومجر عواليه ومجرى سوابقه ومجمع كتائبه ؛ طالما كان بها الحرب سجالا ، وطالما سابقت بها الرجال آجالا ؛ وكان لنا بها فى الحرب يومان عوضنا الله أدناهما بما حفظت المعارك ، وضاقت الأرض بدماء القتلى ففاض إلى

السَّماء ما ٱلتقىٰ بالشفق من [تلك المسالك](١)، وٱتَّصلتْ بالبَرِّ والبَحْر من جَانِبَيْهـا ؛ وٱتَّصفَت بأنَّها مَهَبُّ الرِّياح، ومَرْكَزُ الرِّماح؛ لِمَا يَهُبُّ لنا من بُشْرَى النصر ويَخْفِق من عَصَائِبِنا المنصورة عليهـا .

فلمَّـا تَطَاوَلَ الأَمَدُ علىٰ خُلُوِّها ممَّن يَنُوب عن السَّـلْطنة الشَّريفة فى أحْكَامها، ويَئُوبُ إلىٰ تَسْـديد مَرَامِى سِهَامِها ؛ لم تَزَلْ آراؤُنا العاليـةُ تَجُولُ فيمَن يَصْلُح أنْ يُقَـدِّم قَدَمَه إلىٰ رُتْبَتِها العَليـه، ويُجَرِّد منها عَزَائِمَه المَشْرَفيَّه؛ ويَجْمع بها علىٰ طَاعَتِنا الشَّريفة مَن فِيها من العَسَاكر المَنْصُورَه، والقَبَائِل المَشْهُوره، والطَّوائف المَذْكوره، ويَبْسُط بِسَاط العَـدْلِ فى كافَّة جُنُودها ورَعَايَاها فإنَّهـا بهٰؤُلاءِ مَحْروسـةٌ وبهٰؤُلاءِ مَعْمورَه ـ فَرَأينا أنَّ أوْلىٰ من حَكَم فى عَاصِيها والمُطِيع، وٱتُّخِذَ لسُوريا السُّورَ المَنِيع؛ مَن هو المَوْثُوق بمـا أَمْضَت السُّيوفُ من هِمَمِه، وأرْضَت التَّجارِبُ من سَـوَابِق خدَمِه ؛ وَطارَتْ سُمْعَـةُ شُكْرِه فى الآفاق، وطَابَتْ أَثْنِيَتُـه فجاءت بمـا يُعْرف من الطَّرب لإسحاق(٢) ؛ وكان قد تقدّمت له فى عَيْنتَاب، نِيَابَةٌ كَمْ أصابه فيها رَجُلٌ بالعَيْن ثم إنَّه من العَيْنِ تَاب ؛ وقَام بين أَيْدى كفلاء مَمَالِكنا الشريفـةِ حَاجبا، وفَهِم من أحْكَامهم التى تَلَقَّوْها منَّا ما أصْبحَ لهـا صَاحِبا ؛ فمـا للنِّيابَةِ إحْكَام أحْكَام إلَّا وهو به عَالِم، ولا تَوْلِية حُكْم إلا وقد اسْتَحَقَّها لِقُرْب ما بَيْن الحَاجب والحَاكم .

وكان فلانٌ هو المُرْتَضَىٰ لِلبْسِ هـذهِ المَفَاخِر، والمُنْتَظَرُ الذى كَمْ تَرَكَ الاوَّلُ فيه للاٰخِر ـ فاقتضتْ مَرَاسيمنا المُطَاعةُ أنْ يُزَانَ جِيدُه بهٰذا التقليد، وتُلْقىٰ إليه المَقَاليد؛ وتُمَدَّدُ هذه الرتبة لَتَلقِّيه، وتخضعَ عُنُق هذه المرتبة لترَقِّيه؛ وتحوّل اليه هٰذه النِّعمة

(١) بياض بالأصل .

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلى مُغَنِّى الخلفاء المشهور .

التى أَلْحَقَت قَدْرَه بالأَكْفَاء، وأهَّلت هِمَمَه للاكْتِفَاء، وشَرَّفَتْ مَكَانَه بمـا أجْمَعت عليـه آراؤُنا الشريفةُ له من الاَصْطفَاء، وأحْسنَتْ به الظَّنّ لمـَّا رأتْ نِيَّتَه الجميلةَ مُمَثَّلةً من خاطره فى مِرْآة الصَّفَاء .

فرُسِم بالأمْر الشَّريف ـ لَا زالَ مرفوعًا به كلُّ عَلَم، مَمْنُوعًا به حِمَىٰ كُلِّ حَرَم ـ أنْ تُفَوَّضَ إليه نيابةُ السَّلْطنة الشَّريفةِ بحمْص المحروسةِ وأعْمَالها، وجُنْدِها وعُمَّالها، وعَسَاكرها وعَشَائرها، وعَامرِها وغَامِرِها، وأوَّلها وآخِرها، ودَانِيها، وقَاصِيها، وكُلِّ ما فى حدودها الأرْبعه، ودَاخِلٍ فى جهاتهـا المُمَنَّعه، علىٰ أكْمَل ماجَرَت به عوائدُ مَن تَقَدَّمه، واسْتَقَرَّت عليه القَوَاعِدُ المُتَقَدِّمه .

فاتَّقِ اللّهَ فى أُمُورِك، واْجْعَلِ الشَّرْعَ الشَّرِيفَ مِشْكَاةَ نُورِك، وعَظِّم حُكَّامَه، ونَفِّذْ أحْكَامَه، فهُـمْ أمْنعُ سُورِك . واْعْدِلْ فهو قَرَار خَوَاطِر جُمْهورك، وتَيَقَّظْ لسَـدَادِ سِدَادِ ثُغُورِك، واْرْفُق لتطلق به نُطْق نطاق شُكُورِك . وأقِمِ الحُدُودَ فإنّهـا زيادةٌ فى أُجُورِك. وأمَّا العساكرُ المنصورةُ، فجَمِّلْ بهم فى خِدْمَتِنا الشريفةِ مَوَاكِبَك، وكَثِّرْ بعَزَائمِهم مَضَارِبَك، ولا تَسْتَخْدِمْ منهم إلا مَن يَسُرُّك أنْ تراه فى يَوْم العَرْض، وتَعْقِدُ هَوَادِى جِيَـادِه السماء بالأرْض، واْحِمِ أطْرَافَ بِلادك من عَادِيَة الرِّجال، واْحفظْ جَانِبَيْها من تَخَطُّفِ الغارات فسر قيامها [لايدفعه] غير احتيال، واْهْتَمَّ بالجِهاد تَحْتَ صَنَاجِقِنا المنصورة لأعْداء اللّه متىٰ أجْمَعوا، وضَرِّسْهُمْ بأنْيَابِ أسِـنَّتِكَ فأنت صاحبُ العصا وهى تَتَلَقَّفُ ماصَنَعُوا، وعَمِّرْ بلادَها بمُلَاحَظَتِك الجميله، ونَمِّ أُمُورَها فهى قِوَامُ الجُنُود وهم إلىٰ الثقة فى النَّصْر الوَسيله، وسَارِعْ إلىٰ ما تَرِدُ به مَرَاسِمُنـا الشَّرِيفَةُ عليك لتَهْدِيَكَ إلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقيم، وعَجِّلِ البَرِيدَ فإنَّك تعلم به مالَسْت بعَلِيم،

وبَقِيَّةُ الوصايا لاحَاجَة إليها لمـا تعرفه من قديم، واللّهُ تعالىٰ يُمَتِّعك بكلِّ خُلُق كريم؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه ... .

النيـابة الثانية — نيـابة الرَّحْبـة .

وهـــذه نسخةٌ بنيابتهـا :

الحمدُ لله الذى أمدَّنا بنَصْره، وشمِل بجُود سلطاننا أهلَ عَصْره، وأيَّده بجنودٍ أوّلُها متَّصلٌ بأوّل عِراقه وآخِرُها بآخِرِ مِصْره، وفرّق بسهامِهِ الأعداءَ فى حَواصل الطير بين حِضْنه وخَصْره .

نحمَدُه حمدًا يقومُ بشكره، ويحافِظُ علىٰ حُسْن ذكره، ويُستعاذ به إلّا ممّـا يُدَمِّر على العِدَا من عواقب مكره؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُرْغِم مَن جَادَلَه بكُفْره، وتُمَزِّقه بين كل نَابِ سيف وظُفْرِه؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أرسـله مُقِيًا لأمره، ومُدِيمًـا فى الجهاد لإعمـال بِيضه وسُمْره، صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه حَمَلَة سِرِّه، ونَقَلَة هَدْيِه بأسْره؛ صـلاةً باقيةً فى الوجود بقاء دَهْرِه، راقيةً آرتقاءَ زُهْرِه .

وبعـدُ، فإنّ الثغورَ بسِدَادِها، والبُحُور بِأمدادِها، والنُّحُور لا تحلّٰى بأحسنَ من حلْية نِجَادِها؛ والممـالكَ المحروسـةَ لا تُحْرَس إلا بشُهُب خُرْصَانِها، ولا تُسْقىٰ بأنقع ممـا تُطِلّه من الدِّماء سُحُبُ فُرْسَانِها؛ والفُرات لا تُحْمىٰ مَوارِدُها إلا بأمثـال سيوفها القَوَاضِب، ولا تمنعُ مَخَاوِضَها[(١)] إلّا بِدَمٍ خاضب، والحصُونَ لا يَرضىٰ بها كلُّ مَنْجَنِيق غضْـبانَ إلا بوِصَال مُغَاضِب، والقِـلَاع لا تتطلّع عيونُ دِيَادِبها إلا لمن ماءُ الكَرىٰ

(١) فى الأصل مخالصها .

فى جُفُونه نَاضِب ، والمَعَاقِلَ لا تَسْـمَح بعقَائِلها إلّا لمن هو علىٰ خِطْبَتِها مُوَاظِب ؛ وكانت الرَّحْبة ـ حَرَسها الله تعالىٰ ـ هى أوسَعُ مكانٍ رِحَابا ، وأدْنىٰ إلىٰ مطرٍ سحابا ؛ وأوْثَق ماأغْلَق على البـلاد بَابا ، وأقـرب ما سَمِـع حُرَّاسُها فى السماء دُعَاءً مُجَـابا ؛ قد مُلِئَت سَمـاؤُها حَرَسًا شَـديدا وشُهُبا ، ومَدّتْ كواكِبَ الدلو واسْتَقتْ من الغَمام قُلُبـا ، وعدَّت ماوراء المَجَرَّة فعُمِّيَت دونهـا المَسَالك ، وحُسِبَت لملك ونُسِبَت إلىٰ مالك ؛ ومالكٌ ـ لا أعنِى إلّا آبن طَوْقٍ ـ خَازِنُهـا ، ومَنْزِلُ أمْنٍ وفى غَاب الأُسْـد مَسَاكنُها ؛ قد وقَفَت لبَغْدادَ فى فَمِ المَضِيق ، وهَمّت بلادُ العِدا أن تَخُوضَ الفُرَاتَ إليها فقالت : مالَكِ إلىَّ طَرِيق ؛ قد آفْتَرّ فىوَجْهِ العساكِرِ المنصورةِ ثَغْرُها الضَّاحك ، ورَدّ قَرْنَ الشمسِ فَرْعُها المُتَمَاسِك .

فلمـا أُغْمِد حُسَامها المسْلُول ، وأقْلع غَمَامُها وكلُّ هُدْبٍ بالبكاء عليـه مبْلُول ـ آقتضىٰ رأيُنا الشريفُ أن نجـدّد لعَرُوسها زِفَافا ، ولبيوتها أفْوَافا ؛ ولسُيُوفها جلاء ، ولسقوفها إعْلاء ؛ ونُولِّيَها لمن تكون هِمَّتُه فيها جَدِيدةَ الشَّباب ، أكيدةَ الأسْـباب ؛ ليكون أدْعىٰ لمصالحها ، وأرْعىٰ لمَنَاجِحها ؛ وأوْعىٰ لمـا يجْمعه سَمْعه من مَصَالِحهـا ، وأسْـعىٰ فى حِمَاية مَمَاسِيها ومصَابِحها ؛ وكان فلانٌ هو أصْلَبَ مَن فى كَنَائننا الشريفة عُودا ، وأنْجزَ وُعُودا ؛ وأصْدقَ رُعُودا ، وأيْمَن إذا طلع نجْمه فى أُفُقٍ سُعُودا .

فرسم بالأمر الشريف أنتفَوَّض إليه نيابَةُ الرَّحْبة المحروسةِ ، علىٰ عادة من تَقَدّمه وقاعِدَته ؛[فليتول ذلك]مقدّمًا تقْوَى الله والعملَ بما شَرَع ، وآتباعَ مَرَاسِمنا الشريفة فمِثْلُه مَن آتّبع ؛ وحِمَايةَ أطْرافِها ، من كل طَارِق إلا طَارِقًا يَطْرُقُ بخَيْر ، وصيانَةَ أكْنَافِها ، من كل عِصَابة مُحَلِّقةٍ إلىٰ جَوّها كالطَّيْر ، وحِفْظَها من عَادِيَةِ كلِّ أفَّاك وسَفَّاك ، وبَادِيَة أعْراب وأتْراك ، وكلِّ فارس فَرَس وراكب بَعير ، وكلِّ وقفة محاصِرٍ وحَفْطة مُغِيرٍ ؛

وجَانِبَىْ برٍّ وبحرٍ : فى أحدِهما المسالكُ تَعْمَىٰ والآخرلا يُعَام ، وصاحِبَىْ سرٍّ وجَهْر : هذا تخشىٰ له عاقبة كَلَامٍ وهذا معَاقبة كَلَام .

وليتخطّف من الأخبار ما تلمع لدَيْنا بوارِقُه ، ويتقطّف من الأقوالِ ثمرَاتِها ولا يَدَعْ كلّ ما تجمعه حدَائقُه ، وليجعلْ له من المناصِحين طلائعَ ما منهم إلّا مَن هو فى انتهاب الأخبار أبُو الغارَات ، ومَن إذا ألجَمه الخوفُ كان له فى لمْعِ البُرُوق إشارات ، وليتّخذْ من الكشّافة من يَسْبِقُ قبلَ أن يرْتَدَّ إليه طَرْفُه ، ومن الخيّالة من لا يرتدّ عن وَقْدِ الرِّماحِ طِرْفُه ، ومن القُصّاد مَن لا يَطْوِى عنه خَبَرا ، ومن الدَّيَادِب من يُعِيرُه وقلّ أن تُعَار العيونُ نَظَرا ، ولْيَحْفَظ التُّجّار فى مذاهبهم غُدُوًّا ورَوَاحا ، ومَسَاءً وصَبَاحا ، وليستوص بهم خيراً فإنّهم طالمَا ٱزدانَتْ بهم صدُورُ الخزائن على ٱمتِلَائها ٱنْشراحا ، وليأْخُذْ منهم مالبَيْتِ المَالِ فكَمْ وجَدُوا بعطائه أرْبَاحا ، وليُوصِّلْ إلىٰ أرْباب القَرَاراتِ ما لهم من مُقَرَّرٍ معلوم ، وليُعْطِهم ما تَصَدَّقْنا به عليهم وهو مَشْكُورٌ وإلّا أعْطَاهم وهو مَذْموم ، وليُعَمِّر البِلادَ بتَوْطِين أهْل القُرىٰ ، وإنَامتِها بالعَدْل مَلَاءَةَ الجُفُونِ من الكَرىٰ ، وليَكُنْ للفُرَاتِ متيقّظا لئلّا يطغىٰ بها التَّيّار ، ويغلبَ بمدِّها المُخَمِّر علىٰ سَكْرِها من السُّكْر الخُمَار ، ويقْوىٰ علىٰ سَدِّها قبل أن لايَقْدِرَ علىٰ مُقَاواة البِحَار ، ويتفقّد مَبَانِيَها فإنّها من أسنىٰ ما تتفقّدُه الأبصار ، وليغلق زُروعها لتكون : ﴿ كَمَثَلِ زَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِه يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾ وليَعِفَّ فإنّ العَفَافَ هو الغِنىٰ ، وليُؤَمِّنْ من يَلِيه فإنّ الأمانَ هو المُنَىٰ ، وليُقِرَّ ما ٱستقرّ بيننا وبين القَوْم من صُلْح أُكِّدَتْ أوَاخيه ، وأصْبَحَ كلٌّ من أهل الجَانِبَين لا يَفِرُّ من أخيه ، ولا يرخِّصْ لأحَدٍ فيما ينْقُضُه لا فى عَاجل أمْرٍ ولا فى تَرَاخيه ، حتّىٰ إذا كَشَفَتِ الحربُ عن سَاقها ، وشدّتْ عَقْدَ نِطَاقها ، فليكُنْ بحسب مَرَاسمنا الشريفة ٱعتمادُه فى شَنّ كلّ غَارَه ، وسَنّ كلّ مَاض

مُرْهِفًا غِرَارَه ، وجَوْس خِلَال دِيَارِ العِدا وٱخْتِطَاف كلِّ قَمَرٍ من دَارَه ؛ والمُحْرِقَات التى لا تُحْرِقُ نبَاتا حتَّى تَشِبَّ فى ضلوعهم ، والعَيَّارة فهى الزَّلازل التى تَتَساقَطُ منها مَبَانِى رُبُوعِهم ، ومُوالاة البُعُوث : فإنَّ كلَّ بَعْثٍ يتكَفَّل بشَتَاتِ جُمُوعِهم ؛ والعمل بكلِّ ما تَرِدُ به مَرَاسِمُنا العاليه ، والمُواصَلة بكُتُبِه التى نَرْفُض ما سوىٰ أخْبارها المُتَواليه ، وإرسال كل بريد وحمام تُحَلِّقُ بهما : إمَّا رِيحٌ ظاهرة وإمَّا رِيحٌ عَادِيَه ، والله تعالىٰ يقرب له الغايات المنادية ، بمنه وكرمه ! .

النيابة الثالثة — نيابة مِصْيافَ .

وهٰذه نسخة مَرْسوم بنِيَابتها :

الحمدُ للهِ الذى صرّف ممالِكَنا الشَّرِيفَةَ فى المَمَالِك ، وشَرَّف بنا كلَّ حِصْنٍ لا تَعْرِضُ له المَجَرَّةُ فى المسالك ، وعَرَّف بالتَّرْبِيَة فى خِدْمة أبْوابنا العاليةِ إلىٰ أيْنَ يَنْتَهِى السَّالِك .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى نعْتَدُّ بها الحمد من ذلك ، ونَرْغَب أن نَلْقَى اللهَ علىٰ أداء الأمانة فيها كذلك ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له فيما هو مَالك ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أضاء به كلَّ حَالٍ حَالك ، وأنْجَىٰ به من مَهَاوِى المَهَالِك ، وجَمَع به من الأُمَّة ما وَهَىٰ وهْىَ كالعِقْد المتهالك ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة يَجِدُ بها قائِلُها فى الدار الآخرة كُلَّ هَنَاءٍ هُنالك ، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ النظرَ فى أُمُور المَمَالك هو أوّلُ مايقدّمه الملك ، وأولىٰ مايتقدّم إليه مَن سَلَك ؛ ومملكة بَيْتِ الدَّعْوَة هى من أجَلِّ ماتفَرَّدت به مَمَالِكُنا الشَّريفَه ، وامتدّت به فى الأمَاكِن المُخِيفَه ، وأرْسَلت من قِلَاعِها من يَقْتَلِعُ العِدا بوُثُوبه ، ويُسَابِق السَّهْم إلىٰ مَطْلُوبه ، ويتَعَبّد بمُوَالاتِنا التى وَرِثَها عن سَلَفه فى طَاعَة أئِمَّتهم ،

وعَلِمُوا بهـا أن الدَّوْلة العلويةَ ما انقضت حتَّى آنتقلت إلينا الوِلَايةُ علىٰ شِيعَتِهم ؛ وأن المُلْك الإسْماعِيلىّ فينا قد آنحصر مِيرَاثُه ، وأن كلَّ مَن مات من الخلفاء الفَاطِميِّين ـ رحمهم الله ـ نحن وُرَّاثُه ؛ فهمْ بهذا يبْذُلون نفُوسَهم فى الطاعة الشَّريفةِ التى يَرَوْنها فرضًا عليهـم ، ويَبْلُغون بنـا أعلىٰ مَراتبِ الإيمـان : لأنهم إذا رَأَوْا مُنْكرا أزالُوه بيَدَيْهم ؛ كَمْ هجمُوا علىٰ عدوّ من أعْداء اللهِ هَجْمة طَيْف ! ، وكَم آسْتَطالُوا بسِكّين لا يتطاوَلُ إلىٰ مُبَارَاتِهـا سَيْف ! ، وكَمْ أوْقَدوا لهم بَارِقةَ عَزْمٍ فقيل : هذه سحابة صيف ! ، وكم ورّدُوا بالدِّماءِ خَدًّا غَدَا ينَادِى : يا كِرام الوِرْدِ ضَيْف ! . وكانت مَصْياف ـ حرسها الله تعـالىٰ ـ هى كُرْسِىَّ هـذه المَمْلكه ، وقَلْعتُها هى التى بذَوَائِب الجَوْزاءِ مُتَمسِّكه ؛ وآقتضتْ مَرَاسِمُنا المُطاعةُ نقْلَ النائب بها إلىٰ مارسَمْنا به الآن ، نخلتْ ممَّن يترقّىٰ فيها إلىٰ أعَزِّ مكان ، واحتاجَتْ إلىٰ مَن تَغْنىٰ به عمـا يقال : من آعْتِقَال رُمْحٍ وتَجْرِيدِ سِنَان .

فحَصَل الفِكْرُ الشريفُ فيمَن نُقَلِّده هٰذه النِّيـابَه ، ويتقلد أمْر هـذه العِصَابَه ؛ ويَتَصَرَّف فى أُمُورها بمُقْتَضَىٰ ما تَرِد به مَرَاسِمُنا المُطاعَه ، ويُعـلم أنَّه من شِيعَتِنا : لأنَّه دَاعِينَا فى هَذِه الجَماعَه ؛ فرأَيْنا أنَّ أحَقَّ [الناس بها] من قدّمه وَلَاؤُه ، وعظَّمه آنْتِمـاؤُه ، ونَبَّهَ عليه آهْتِمَامُ هِمَمه التى لا تُشابِهُها الكَواكِبُ فى سَيْرِها ، وعَزائِمه التى طَالَمـا كان بها فى خِدمَتنا الشريفةِ «يَظَلُّ بمَوْمَاةٍ ويُمسِى بغَيْرِها» ؛ ولم تَزَلْ به مَساعِيهِ حتَّىٰ وصل إلىٰ المَزِيد ، وأسْرعَ له الشَّيبُ فى طاعتنا الشَّرِيفَةِ : لأنَّه فى كلِّ وقتٍ [كان] يسمعُ قَعْقَعةَ لجامِ البَرِيد ؛ وكان فلانٌ هو الذى أشار إليـه القَوْل بوَصْفِه ، ودلَّ عليه ثَنَاؤُه بعَرْفِه .

فرسم أن تفوّضَ إليه النيابةُ بمِصْيَافَ وأعْمالهـا ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته . فليقَدِّم تقْوى الله تعالىٰ فيما وُلِّيه ، ولْيَنْشُرْ جَنَاحَ عدْلِنا الشريف علىٰ من يليه ، ولْيَعْمَلْ

بالأحكام الشَّرعيـةِ فى كل ما يَقْضِـيه ، ولْيَسْلُك فى أهلها أَوْضَح المَرَاشِـد ، ولْيبيِّن لهم أنَّه يدعوهم إلىٰ سبيل الرشاد إلا ما آدعاه راشـد ، ولْيوصِّلْ إلى المجاهدين أرْزاقَهم التى هى أثْمـانُ نفوسهم ، وثِمَـار مادَنَّى القِطَاف من رُءُوسِهم . وأهـلُ من مات أو يموتُ منهـم علىٰ طاعتنا الشَّريفــة فكُنْ عليهـم متَعَطِّفا ، ومَن طلب منك الإنْصَافَ فكُنْ له مُنْصِفا ، وآفعـلْ معهم أحْسنَ الأُسْوَه ، وقلْ لهم عَنَّا : إنَّ الصَّدَقاتِ الشَّريفةَ قد آسْتَجابَتْ لكم يا أهلَ الدَّعْوه ، وخُذْ بقُلُوبِهـم ، لتزْدادَ من حُبِّهم ، وقل للمُجاهِدين : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِين قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَـاءٌ عِنْدَ رَبِّهِـمْ ﴾ . والأَمْوال فصُنْها من الضَّيَاع ، وعِمَـارة البِلاد عَلَيْك بها فإنَّ القَلْعة لا تكون إلا بالمدينَة والمدينةَ لا تكونُ إلا بالضِّيَاع ، وآمْتِثال مَرَاسِمنا الشَّريفةِ وكُلُّ ما يُرسَم به سَارِعْ إلىٰ اعتماده ، وطائفة المُجاهِدين لا تَدَعْ منهـم إلا مَن هو معتـدّ لجهاده ، والكِتْمانَ الكِتْمانَ ! فبه تُنَـالُ المَطالِب ، وتُدْرَكُ المآرِب ، وعَلَيْك بقَمْع المُفْسدِين ، ورَدْع المُعْتَدِين ، وإقامةِ الحدُودِ : فإنَّ بها أقام اللّهُ هـذا الدِّين ، ونحن نَغْتَنِي بمـا فيـك من المَعْرفه ، وبمـا انت عليـه ــ بحَمْد الله تعـالى ــ من كمالِ كُلِّ صفَه ، عن آستيعاب الوصايا التى لم تَبْرحْ سَجاياك بها متَّصـفَه ، والله تعالىٰ يزيدُك من كلِّ نَوْعٍ أشرفه ، والخط الشريف أعلاه .... .

* * *

وأما الصَّفْقة الشَّمالية ، فالذى يولَّى بهـذه الصَّفْقة عن الأبواب السلطانية ، نِيابَةُ بَعْلَبَكَّ فقط . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشَّامية أنَّهـا كانت أوّلًا إمْرةَ عشرة ، ثم صارت طبلخاناه ، وأن نائبَ الشَّام يولِّى بها ، وربمـا ولِّيتْ من الأبواب الشَّريفَةِ السُّلطانية . وحينئذ فيكون مَرْسومُ نائِبها فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالمجلس السامىّ » بالياء .

وهذه نسخة مَرْسوم بنيابة بَعْلَبكّ :

أما بعـد حمدِ الله علىٰ أملٍ حقّق مُناه ، وصدّق غَناه ، وفرّق عليه سُحُبَ ٱعْتِناءٍ أَوْرَقَ به عُودُه وطاب جَنَاه ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ نَبِيِّه سيدِنا محمدٍ الذى كَمَّل بِناه ، وعلىٰ آله وصحبه ما شَيَّد مَعْقِلُ فَخَارٍ مَبْناه ـ فإنَّ من أعْظم مُدُن الشَّام القَديمه ، ودُورِ المُلك التى ذهب مَن يَحُلُّها من الملوك وبَقِيَت آثارُه مُقيمَه ، مدينةَ بَعْلَبَكَّ وهى التى تَحصَّن الإسلامُ بقَلْعَتِها ، وتَحصَّلَ الرعْبُ فى قُلوب الأعداء [بمَنَعَتِها](١) بنيت علىٰ عهد سُلَيمان بن داود عليهما السلام وأَتقَن بَنَّاؤُها ، وهَالَت أسْوارُها حتَّى نُسِب إلىٰ صَنْعة الجنِّ بِناؤُها ، ودَعَمتِ السَّماءَ عَمَدُها ، فطالت شُرَفُها حتَّى كادت تُخَضْخِض فى سَجْلِ السحاب يَدُها ، وجَمعتْ مَحاسِنَ فى سـواها لا تُوجَد ، وتقرّر بمُلْكها من الملوك : تارةً سـعيدا وتارة أمْجد ، وما خلَتْ من علماء عظيمى الشان ، وصلحاء يلُمُّهم الجَبَـلان : سِيسُ ولُبْنان ، وهى بابُ دِمَشْق المَفْتوح ، وسحابُ الأنواءِ المَسْفُوحُ بالسُّفُوح ، وباب البُروقِ التى آلَتْ أنَّها بأَسْرارها لا تَبُوح ، ومآبُ السِّفارَةِ التى تَغْدُو مُحَمَّلَةً أَوْقارَ ركائِبِها وتَرُوح ، ولهـا العين المُسبَّلة الرَّواتِب ، والجبال الرَّاسِـية الوَقَارِ لمَفْرِقها الشَّائِب ، العالية الذُّرىٰ ... ...(٢) من قِطَعِ السَّحائب ؛ و[لما] كان مَن فيها الآنَ مِمَّن لا تَسْـتغنِى الدولةُ القاهرةُ عن قُرْبِه ، ولا تَسْتَثْنِى أحدًا معه فى تَجْريده سَيْفَه المشهورَ من قُرُبِه ، أَجَلْنا الرَّأْىَ فى كُفْءٍ لعَرُوسها ، ومماثل لمركز تأوُّد غروسها ، فلم نَجِدْ أدْرىٰ بأحوالها ، وأدربَ بما يُؤَلِّف علىٰ الطَّاعة قُلوبَ رجالها ، كمن ٱستقرّ به فيها مع أبيه المـاضى ـ رحمه الله ـ الوطن [ونالا منه الوطر] ، ومرت [عليهم فيه]

(١) بيـاض بالأصل والتصحيح من المقام .

(٢) « « ولعله : التى كأنهـا متلفعة من الخ .

سنون وأيامٌ هتف بها دَاعِى قصر ؛ ولا غِنًى [عنه] مع مالَهُ من وِلَايَاتٍ صَحِب فيها الناسَ وفَارَقهم علىٰ وَجْهٍ جَمِيل ، ورَافَقَهم ثم ٱنْصرفَ وٱنصرفوا عنه وما ذَمَّهُ فى النَّازِلِين نَزِيل ؛ وكان فلانٌ هو المَتوقِّدَ الشِّهاب ، المُتَوقِّل فى تلك الهِضَاب ؛ المشْكورَ قولًا ودِينا ، المشهورَ بوَضْعِ كلِّ شَيْءٍ فى مَوْضعه شِدَّةً ولِينا .

فلذلك رسم ... ... ـ لا زال إحسانه أحمـد وٱختياره مُقَدَّما ـ أن يُرتَّبَ فى نيابة بَعْلَبَكَّ علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، مُبْتَدِئًا حُسْن النظر فى الأمور العامه ، لا يَدَعُ ظُلامَه ، ولا يَدُعُّ سالكَ طريقٍ إلىٰ سلامه ، ولا يُعِدُّ سَمعًا إلا لسَماع شُكرٍ لا مَلامه ؛ ولْيَنْظُرْ فى المظالم نظرًا ينجلى به سَدَفها ، وليشكر العشير توطيأ يوطأ به هدَفُها ؛ ولْيلَاحِظِ الأمورَ الديوانية بما يُنَمِّى به أمْوالَها ، ويُنَدِّى بسحابه المُتَدَفِّق أحْوالَها . والأوقاف فليشارِكْ واقِفِيها فى إحسانهم ، وليُجْرِ حَسَنَاتِها علىٰ ما كانت عليه فى زَمانِهم ؛ وليكن لهـا نعم الكفيلُ فى دوام المحافظـة ولْيَتَفَقَّدْ ما فيها من الحواصـل والزَّرَدْخاناه ممـا يُدَّخَر لوقته ، ويُؤَخَّر لفَرْط الشَّغَف به لا لمَقْته . ومن أَهَمِّ ما يُحْتَفَظُ به قلوبُ الرجال ، وعِمَـارَةُ الأَسْوار فإنهـا للفُرسان المُقَاتِلَة مجَال ، وعليهـا تُنْصب المجانيق وتُتَخَطَّف الآجال . وأمّا الشَّريعـةُ المطَهَّرة : فإنَّ من تعدَّى غَرِق أو أوْشـك أنْ يَغْرَق ، وٱتِّباع أوَامِرها : وإلّا ففِيمَ يُعـذَّبُ من يعـذَّبُ ويُحْرق من يُحْـرق ؛ وتقوى الله تعالىٰ هى الوَصِيَّة الجامعه ، والتَّذْكِرة التى تَرْتَدُّ بهـا الأبصارُ خَاشعه ؛ ولْيفْهَم هَـذه الوَصَايا ولا يُخْرِجْ شيئا منها من قَلْبه ، ولْيَتَبيَّنْ معانِيَها ليكونَ بها علىٰ بَيِّنَـةٍ من رَبِّه ؛ والله تعالىٰ يَكْشف عنـه غِطَاءَ حُجَّتِـه ، ويَزَعُه عمـا يأْخُذُه ويؤاخذه من نِيَّتِـه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى (١)

(ممّن [هم] خارجَ دِمَشْق : ممّن يُوَلّى عن الأبواب السلطانية ـ
أمراءُ العُرْبان ، وهم علىٰ طبقتين :)

الطبقـــة الأولىٰ

(من يُكْتَبُ له منهم تقليدٌ فى قَطْع النِّصف بـ«المجلس العالى» وهو أمير آل
فَضْل خَاصَّةً : سواءٌ كان مستقلًّا بالإمارة أو شريكًا لغيره فيها)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشاميـة نقلا عن "مسالك الأبصار" أنّ ديارَهم من حِمْصَ، إلىٰ قلعة جَعْبَر، إلىٰ الرَّحْبَة، آخذين علىٰ شِقّ الفُرات وأطراف العِـرَاق .

* * *

وهذه نسخةُ تقليـدٍ بإمْرة آل فَضْل : كُتبَ به للأمير شجاع الدين « فضل بن عيسىٰ » عوضًا عن أخيه مُهنّا ، عنـد ما خرج أخوه المذكور مع قَرا سنقر الأفرم ومن معهما من المتسحبين، وأقام [هو] بأطْراف البلاد ولم يُفَارق الخِدْمة، فى شهور سنة آثنتى عَشْرة وسَبْعِمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبىّ، وهو :

الحمد لله الذى مَنَح آل فَضْل فى أيّامنا الزاهرةِ بحسْنِ الطاعة فَضْلا، وقَدَّم عليهم بقـديمِ الإخلاص فى الوَلاءِ من أنْفسِهم شُجَاعًا يجمعُ لهم علىٰ الخـدْمة أُلْفَةً ويَنظِم لهم على المخالصة شَمْلا ، وحَفِظ عليهم من إعْزَازِ مكان بيتهم لَدَيْنا مكانَةً لا تَنْقُضُ لهـا الأيامُ حُكْمًا ولا تنقُص لهـا الحوادثُ ظِلًّا .

(١) لم يتقدم تقسيمه الى أصـناف ولعل مراده أن ما تقدّم من التولية فى الصفقات صنف أول وهذا صنف ثان . فليتنبه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى شَمِلَت بِرِّنا، الحَضَر والبَدْو، وألهجَتْ بشُكرنا، ألْسِنَةَ العَجَم فى الشَّـدْو والعَرَبِ فى الحَدْو، وأعْمَلَتْ فى الجهاد بين يدينا من اليَعْمَلَاتِ ما يُبَارِى بالنَّصِّ والعَنَقِ الصَّافِنَاتِ فى الخَبَبِ والعَـدْو؛ ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً نَدْرأُ بها الأمورَ العظام، ونُقَلِّد يُمْنها ماأَهَمَّ من مصالح الإسلام لمَن يَجْرِى بتَدْبيره علىٰ أحسن نِظَام؛ ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسولُه المبعوثُ من أعلىٰ ذَوائِب العَرَب وأشْرَفِهـا، المرجُوُّ الشَّـفاعةِ العُظْمىٰ يوم طُولِ عَرْضِ الأُمَمِ وهَوْلِ مَوْقِفها؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِـه الذين كَرُمت بالوَفَاء أنسابُهم، وأضاءَت بتقْوَى الله وجوهُهُـم وأحْسابُهم؛ صلاةً لا تَزال الألْسُنُ تُقِيم نِدَاءَها، والأقلامُ تَرْقُمُ رِدَاءَها؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلىٰ من أجْنَته الطاعةُ ثمرةَ إخْلاصِه، ورَفَعته المخالصـةُ إلىٰ أسْنىٰ رُتَبِ تَقْريبه واْختِصاصه؛ وألَّف بمُبَادَرته إلىٰ الخدْمة الشريفة قلوبَ القَبَائِل وجمعَ شَمْلها، وقلَّده حسْنُ الوَفاء من أمْر قومه وإمْرتِهم ما يُسْتَشْهَدُ فيه بقول الله تعالىٰ : ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ ــ من اْرْتَقىٰ إلىٰ أسْنىٰ رُتَب دنياه بحِفْظ دِينِـه، ودَلَّ تمسُّكُه بأيمـانه علىٰ صِحّة إيمـانه وقُوّة يَقينه؛ ولاحَظَتْه عيونُ السَّعادَة فكان فى حِزبِ الله الغالِب وهو حِزْبُنَا، وقابلَتْـه وجُوهُ الإقبال فأرَتْه أنَّ المغْبُونَ من فاته تَقْرِيبُنـا وقُرْبُنا؛ ورأىٰ إحْسانَنَا إليه بعين لم يَطْرِفْها الجُحود، ولم يَطْرُقْها إعراضُ السُّعود؛ فسَلَك جَادَّة الوَفاءِ وهى من أيمن الطُّرُق طَرِيقًا، واْقْتدىٰ فى الطاعة والولاء بمن قال فيهم بمثل قوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ .

ولمَّـا كان المجلسُ العالى ... هوالذى حَازَ من سعادَةِ الدُّنيا والآخرة بحُسْن الطَّاعة ما حَازَ، وفَازَ من بِرِّنا وشُكْرنا بجميل المُبَادَرة إلى الخدْمة بمَـا فَازَ؛ وعلم مَوَاقِع إحْسانِنا

إلَيه فعَمِل على آستدامة وَبْلها ، وآستِزَادَة فَضْلِها ؛ والآرتِواء من مَعْرُوفها الذى بَاء بالحِرْمانِ [منه] من خَرج عن ظلّها ؛ مع ما أضاف إلىٰ ذلك : من شَجاعَةٍ تَبِيتُ منها أعداءُ الدِّين علىٰ وَجَل ، ومَهَـابَةٍ تَسْرِى إلىٰ قلوب من بَعُدَ من أهْـل الكُفْر سُرَىٰ ما قَرُب من الأَجَل ـ آقتضتْ آراؤنا الشريفة أن نمدّ علىٰ أطْراف الممـالك المحروسة منه سُورًا مصَفَّحًا بِصفَاحِه ، مشَرَّفا بأسِنَّةِ رِمَاحِه .

فرُسم بالأمر الشريف العالى ـ لا زال يقلد وَلِيَّه فَضْلا ، ويَمْلَأُ ممـالِكَه إحسانا وعَدْلا ـ أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت : لِمَـا تقدّم من أسْباب تَقْديمه ، وأُومِئَ إليه من عِنَايَتِنا بهـذا البيت الذى هو سِرُّ حَدِيثِـه وقَدِيمه ؛ ولِعِلْمنا بأوْلَوِيَّتِه التى قُطْبُها الشَّجَاعَه ، وفَلَكُها الطَّاعه ، ومادَّتُهـا الدِّيانةُ والتُّقَىٰ ، وجادَّتُها الأمانةُ التى لا تستَزِلُّها الأهواء ولا تَسْتَفِزُّها الرُّقَىٰ .

ولْيَكُنْ لأخبار العَدُوِّ مُطَالِعا ، ولنَجْوَىٰ حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم علىٰ البُعْد سَامِعا ، ولديارِهِم كلَّ وَقْت مُصَبِّحًا حتَّىٰ يظنونه من كل ثَنِيَّةٍ عليهم طَالِعا ؛ ولْيُدِم التَّأَهُّبَ حتَّىٰ لا تفُوتُه من العَدُوِّ غارةٌ ولا غِرَّه ، ويُلْزِمْ أصحابَه بالتيقُّظ لإدامة الجِهادِ الذى جَرَّب الأعداءُ [منه] مَوَاقِعَ سيوفهم غيرَ مَرَّه ؛ وقد خَـبَرْنا من شَجَاعَتِه و إقْدَامِه ، وسياسته فى نَقْضِ كلِّ أمْر وإبْرامه ، ما يُغْنِى عن الوصايا التى مِلاكُها تقوى الله تعالىٰ وهى من سَجاياه التى وُصِفَت ، وخَصَائِصه التى أُلِفَت وعُرِفَت ؛ فلْيَجْعَلْها مِرْآة ذِكْره ، وفاتِحَةَ فِكْرِه ، والله تعالىٰ يؤيِّدُه فى سِرِّه وجَهْرِه ، بمنه وكرمه ! : إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريفٍ بإمْرة آل فَضْل ، كُتب بها للأمير حُسام الدين «مُهَنَّا بن عيسى» من إنشاء الشيخ شهَاب الدِّين محمود الحلبيّ ، وهى :

الحمــد لله الذى أرهَف حُسَام الدِّينِ فى طاعتنا بيَدِ من يُمْضِى مَضَارِبَه بيَدَيْه ، وأعادَ أمْرَ القَبَائِل وإمْرَتَهُم إلىٰ من لا يَصْلُح أمْرُ العَرَب إلّا عَلَيْــه ؛ وحَفظ رُتْبَةَ آلِ عيسىٰ باستِقْرارِها لمن لا يزالُ الوَفاءُ والشَّجاعةُ والطَّاعةُ فى سائر الأحوال منْسُوباتٍ إلَيْه ، وجعلَ حُسْنَ العُقْبىٰ بعنايتنا لمن لم يَتَطَرّق الْعَدُوُّ إلىٰ أطْراف البِلاد المحروسة إلّا وردّه الله تعالىٰ بنَصْرنا وشَجَاعَتِه علىٰ عَقِبَيْه .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى ما زالت مُسْتَحَقَّة لمن لم يَزَل المقدَّمَ فى ضَمِيرنا ، المعوَّلَ عليــه فى أُمُورِ الإسلام وأُمُورنا ، المُعَيَّنَ فيما تنطَوِى عليــه أثْنَاءُ سَرائِرنا ومطَاوِى صُدُورنا ؛ ونشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُوجِبُ علىٰ قائلها حُسْنَ التَّمَسُّك بأسْبابها ، وتَقْتَضِى للخالِص فيها بَذْلَ النُّفوس والنَّفائس فى المحافظة علىٰ مَصَالِح أرْبابها ، وتكونُ للحافظ عليها ذَخِيرةً يوم تتقدّمُ النُّفوسُ بطَاعتِها وإيمَانِها وأنْسابِها ؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ من أشْرف ذَوَائِب العرب أصْلا وفَرْعا ، المفروضَــةُ طاعَتُــه علىٰ سائر الأمَم دِينًا وشَرْعا ، المخصوصُ بالأئمَّة الذين بَثُّوا دَعْوتَه فى الآفاق علىٰ سَعَتِها ولم يَضِيقُوا لجهاد أعْداء الله وأعْدائه ذَرْعا ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حازُوا بصُحْبَتِه الرُّتَبَ الفاخِرَه ، وحَصَلُوا بطاعة الله وطَاعَتِه علىٰ سعادة الدنيـا والآخره ، وعَلِمُوا أنَّ الجنة تحت ظلالِ السُّيُوف فلم يُزَحْزِحْهم عن ظِلِّها الرُّكونُ إلى الدُّنيا السَّاحِره ؛ صلاةً تقطعُ الفَلَواتِ ركائِبُها ، وتَسْرِى بسالِكِى طُرُقِ النَّجَاة نجائِبُها ، وتَنْتَصِر بإقامتها كتَائبُ الإسلام ومَوَاكِبُها ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أما بعــدُ ، فإن أوْلىٰ من تَلَقَّتْه رُتْبَتُــه ، التى توَهَّم إعْراضَها بأيْمَن وَجْهِ الرِّضَا ، وٱستقبلته مكانَتُه ، التى تَخَيَّل صُدُودَها بأحْسَنِ مواقع القَبُول التى تَضَمَّنت الآعتداد من الحسنات بكل ما سلف والإغْضاءَ من الهَفَوات عَمَّا مَضىٰ ، وآلَتْ إليه إمْرَتُه ،

التى خافَتِ العَطَلَ منه وهى به حَالِيَه، وعادَتْ منْزِلَتُه إلىٰ ما أَلِفَتْــه لدينا : من مَكَانَةٍ مكينةٍ وعَرِفَتْه عندنا : من رُتْبَةٍ عَالِيه ــ من أَمِنَت شَمْسُ سعادَتِه فى أيَّامنا من الغُرُوب والزوال، ووثِقت أسْـبَابُ نِعَمِه بأن لا يُرَوَّعَ سَرِيرُها فى دَوْلتنا بالآنتقاض ولا ظِلَالُهـا بالآنتِقال؛ وأغْنَتْه سوابقُ طاعَتِه المحفوظةُ لَدَيْنا عن تَوسُّط الوسائل، وآحْتَجَّتْ له مواقِع خِدَمِه التى لا تُجْحَدُ مواقِفُها فى نِكايَةِ الأعْداء ولا تُنْكَرُ شُهْرتُها فى القَبائِل؛ وكَفَل له حُسْنُ رَأينا فيه بمـا حَقَّق مَطَالِبَه، وأَحْمَد عوَاقِبَه، وحَفِظَ له وعليه مكانَتَه ومَرَاتِبَه؛ فمـا تَوهَّم الاعداءُ أَنَّ بَرْقَه، خَبَا حتَّىٰ لَمَع، ولا ظَنُّوا أَنَّ وَدْقَه، أَقْلَع حتَّىٰ هَمىٰ وهَمَع، ولا تَخَيَّلوا أنَّ حُسَامَه نَبَا، حتَّىٰ أَرْهَفَتْه عنايَتُنا فحيثما حَلَّ من أوْصالِهِم قَطَع؛ وكيف يُضَاعُ مثْلُه ؟ وهو من أركان الإسلام التى لا تنزل الأهواء ولا تَرتَقِى الأطْماعُ مُتُونَها، ولا تسـتقر(؟)(١) الأعداءُ عند جهادها وآجتهادها فى مصالح الإسلام حَسبَها ودِينَها .

ولمـا كان المجلس العالى ... هو الذى لايَحُولُ آعتقادُنا فى وَلَائِه، ولا يَزُولُ اعتمادُنا علىٰ نَفَاذِه فى مصالحنا ومَضَائِه؛ ولا يتَغَيَّر وُثُوقُنا به عمَّـا فى خَواطِرنا من كمال دِينِه وصِحَّة يَقِينِه، وأنَّه ما رُفِعت بين يَدَيْنا رايَةُ جِهَادٍ إلَّا تلقَّاها عَرَابَةُ عَزْمِه بيَمِينِه؛ فهو الوَلِىُّ الذى حسُنت عليــه آثارُ نِعَمِنا، والصَّفِىُّ الذى نَشَأ فى خِدْمة أسْلافنا ونَشَأ بَنُوه فى خدَمنا، والتَّقِىُّ الذى يَأْبىٰ دِينُــه إلا حِفْظَ جانبِ الله فى الجهــاد بين يدى عزيمتنا وأمام هممنا ــ آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُصَرِّحَ له من الإحسان بمـا هو فى مَكْنُون سرائِرنا، ومَضْمُونِ ضمـائرنا؛ ونُعْلِنَ بأنَّ رتبتَــه عندنا بمكانٍ لاتَتَطاوَلُ إليه يَدُ الحوادث، ونُبَيِّنَ أن أعْظم أسباب التقدّم ما كان عليــه من عنايتنا وآمتناننا أكْرَمُ بواعث .

(١) لعله "ولا تستقل" .

فلذلك رُسم أنْ يعادَ إلى الإمرة علىٰ أُمراء آل فَضْـل ، ومشايخهم ومقدّميهم ، وسائر عُرْبانهم ، ومَن هو مضافٌ لهم ومنسوبٌ إليهم ، علىٰ عادته وقاعدته .

فليَجْرِ فى ذٰلك علىٰ عادته التى لا مَزِيدَ علىٰ كمالها ، ولا مَحِيدَ عن مَبْدئها فى مصالح الإسـلام ومآلِهـا ؛ آخذًا للجهاد أُهْبَتَـه من جَمْع الكلمة وٱتّحـادِها ، وٱتّخاذِ القُوّة وإعدادها ، وتَضافُرِ الهِمَم التى ما زال الظَّفَـر من مَوَادّها والنَّصْرُ من أمْـدَادِها ؛ وإلزامِ أُمَراءِ العُرْبان بتكميل أصْحابهم ، وحِفْظ مراكزهم التى لا تُسدّ أبوابُها إلّا بِهم ؛ والتَّيقُّظ لمَكَايِد عدُوِّهم ، والتَّنَبُّه لكَشْف أحوالهم فى رَوَاحهـم وغُدُوِّهم ؛ وحفظ الأطراف التى هم سُورُها من أنْ تَسوَّرَها مَكَايِد العِـدا ، وتَخَطُّف من يتَطَّرق إلى الثغور من قبـلِ أنْ يرفعَ إلىٰ أُفُقِها طَرْفًا أو يمدّ على البعـد إلىٰ جِهَتِها المَصُونَةِ يَدًا ؛ ولْيَبُثَّ فى الأعداء من مَكَايِد مَهَابَتِـه ما يمنعهم القَرَار ، ويُحَسِّنُ لهم الفِرَار ، ويَحُولُ بينهم وبين الكَرىٰ لٱشتراك ٱسم النَّوْمِ وحَدِّ سَيْفِهِ فى مُسمَّى الغِرَار .

وأما ما يتعلقُ بهـذه الرتبةِ من وصايا قد أُلِفَت من خِلَالِه ، وعُرِفَت من كماله ، فهو ٱبن بَجْدَتِها ، وفَارِسُ نَجْدَتِها ، وجُهَيْنة أخْبارها ، وحَلْبة غايتها ومِضْمارها ، فَيفْعلُ فى ذلك كلِّه ماشُكِر من سيرته ، وحُمِد من إعْلانِه وسَرِيرَته ؛ وقد جعلنا فى ذلك وغَيرِه من مصالح إمْرَتِه أمْرَه من أمرِنا : فيعتَمِدُ فيه ما يُرضِى اللهَ تعالىٰ ورسوله ، ويَبْلُغُ به من جهاد الأعداء أمَلَه وسُولَه ؛ والله الموفق بمنه وكرمه ! والآعتماد ... .

الطبقة الثانيـــــــة

(من عرب الشام ــ من يكتب له مرسومٌ شريفٌ)

وهم على مرتبتين :

المرتبة الأولى ــ من يُكْتب له فى قَطْع النِّصف، وهم ثلاثة :

الأوّل ــ أمير آل عَلِيّ، ورتبته «السامىّ» بالياء . وقد تقدّم أن منازلهم مَرْجُ دِمَشْق وغُوطَتُها، بين إخوانهم آلِ فَضْل وبَنِى عَمِّهم آلِ مِراء، ومنتهاهم إلى الحَوْف والجبابنة، إلى السكة، إلى تَيْماء، إلى البرادع . وأنه ذكر فى "التعريف" : أنهم إنما نزلوا غُوطَةَ دِمَشْق حيث صارت الإمْرَة إلى مُهَنا بن عيسى .

وهـذه نسخةُ مرســوم شريف بإمْرة آل عَلِيّ، كُتبَ به للأمير عِزِّ الدِّين « جماز » بعد وفاة والده محمد بن أبى بكر، من إنشاء المقر الشِّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمد لله الذى أنْجَح بنا كلَّ وَسِيلَه، وأحْسن بنا الخَلَفَ عمَّن قَضَى فى طاعتنا الشريفة سَبِيلَه، ومَضَى وخَلَّى ولَده رَسِيلَه، وأمْسك به دَمْعَةَ السُّيوف فى خُدُودِها الأسِيلَه، وأمْضَى به كلَّ سيفٍ لا يُرَدُّ مَضَاءُ مَضَارِبِه بحِيلَه، وأرْضَى بتقليده كلَّ عُنُقٍ وجَمَّل كلَّ جَمِيلَه .

نحمده على كلِّ نعمةٍ جزيله، ومَوْهبَةٍ جميله، ونشهد أن لا إله إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُرشِدُ من آتخـذ فيها نُجوم الأسِنَّة دليلَه، وتجعلُ أعداءَ اللهِ بعزِّ الدِّين ذَلِيلَه، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أكْرم قَبِيلَه، وشَرَّف به كُلَّ قَبِيلَه، وأظهر به العَرَبَ على العَجَمِ وأخْمد من نَارِهم كلَّ فَتِيلَه، صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبِه صلاةً بكلِّ خَيرٍ كَفِيلَه، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ دولتَنا الشريفــةَ لمَّـا خَفق على المَشْرِق والمَغْرب جَنَاحُها، وشَمِلَ البَــدْوَ والحَضَر سَمــاحُها؛ ودخَل فى طاعَتِها الشريفةِ كُلُّ راحِلٍ ومُقيم فى الأقطار، وكُلُّ سَاكِنِ خَيْمَةٍ وجِدَار ـ تَرْعَى النِّعَم بإبقائها فى أَهْلهــا، وإلْقائِها فى مَحَلِّها؛ مع ما تقدّم من رِعايَةٍ تُوجِب التَّقديم، وتُودَعُ بها الصَّنائــعُ فى بَيْتٍ قَدِيم؛ وتُزَيِّن بها المَواكِبُ إذا تعارضت جَحافِلُها، وتَعارَفَتْ شُعُوبُها وقَبائِلُها؛ وآستَوْلَتْ جِيادُها على الأمَــدِ وقد ســبقت أصَائلُها، وتَداعَتْ فُرْسانُها وقد آشتبهت مَناسِبُها ومَناصِــبُها ومَناصِلُها؛ وكانتْ قبائلُ العُرْبانِ ممَّن تعُمُّهم دَعْوتُنا الشَّريفَــه، وتَضُمُّهم طاعتُنا التى هى لهم أكْمَلُ وَظِيفَه؛ ولهم النَّجْدَةُ فى كلِّ بادِيَةٍ وحَضر، وإقامةٍ وسَفَر؛ وشَامٍ وحِجازٍ، وإنْجادٍ وإنْجاز؛ ولم يَزَلْ (لآلِ عَلِيٍّ) فيهم أعْلىٰ مَكَانَه، وما منهم إلا من تَوَسَّد سَيْفَه وآفترش حِصَانَه؛ وهم من دِمَشْق المحروسةِ رَدِيفُ أسْوَارِها، وفرِيدُ سِوارِها؛ والنَّازلون من أرْضِها فى أقْرب مكان، والنَّازِحُون ولهم إلى الدار بها أقْطار وأوْطان؛ قد أحْسَنُوا حَوْل البلاد الشامية مُقَامَهم، وآسْتَغْنَوْا عن المُقارَعَة على الضِّيفَانِ لمــا نصــبوا بقَارِعَةِ الطريق خِيَامَهُــم؛ وباهَوْا كلَّ قبيلةٍ بقَوْمٍ كاثَرَ النُّجومَ عَدِيدُهم، وأوْقَدوا لهم فى اليَفَاعِ نارًا إذا هَمَى القَطْر شَبَّتْها عَبِيدُهم؛ وهم مِن آلِ فَضْلٍ حيث كان عَلِيًّا، وحديثُــه فى المسامع حُلِيًّا؛ فلمــا آنتهت الإمْرَة إلىٰ الأمــير المرحوم شمس الدين، محمد بن أبى بكر رحمــه الله ـ جمعهم علىٰ دَوْلتنا القاهره، وأقام فيهم يَبْتَغِى بطاعتِنا الشريفةِ رِضا اللهِ والدَّارَ الآخره؛ ثم أمدّه الله من ولده بمن ألْقَىٰ إليه هَمَّه، وأمْضىٰ به عَزْمَه، ونَفَّذ به حُكْمَه، ونَفَّل قَسْمَه.

وكان الذى يتحمل دُونَه مشقَّاتِ أمورهم، ويتلقَّىٰ شكاوىٰ آمِرِهم ومأمورهم؛ ويردُ إلىٰ أبوابنا العاليــة مستمطرا لهــم سحائِبَ نِعمنا التى أخصب بهــا مَرَادُهم،

وساروا فى الآفاقِ ومن جَدْوَاها رَاحلَتُهم وزَادُهم ؛ وتفرّد بما جَمعه من أُبُوّته وإبائه ، وركَز فى كلّ أرْض مُنَاخ مَطيّه ومَرْسَى خِبائه ؛ وضَاهى فى المُهاجَرَة إلى أبوابنا الشريفةِ النّجومَ فى السُّرى ، وحافظ على مَرَاضِينا الشّريفةِ فما انْفَكّ من نار الحَرْب إلا إلى نار القِرَى ؛ ووَرَد عليه مَرْسُومنا الشريفُ فكان أسْرعَ من السّهْم فى مَضَائِه . كَمْ له من مَنَاقِبَ لا يُغَطّى عليها ذهَبُ الأصِيل تَمْوِيهَا ! ، وكَم تَنَقّل من كُورٍ إلى سَرْجٍ ومن سَرْج إلى كُورٍ فتمنّى الهِلالُ أنْ يكونَ لَهُما شَبِيها ! ؛ كم أجْمل فى قَوْمه سِيرَه ! ، وكم جَمّل سَرِيرَه ! ؛ كَمْ أثْمر لها أملا ! ، كم أحْسن عملا ! ؛ كم سَدّ خَلَلا ! ، كَمْ جمع فى مُهِمّاتنا الشريفةِ كلّ مَن امْتطى فرسا وركب جَمَلا ! ؛ كَمْ صفوفٍ به تقدّمتْ ، وسيوفٍ أقدمت ، وحُتُوفٍ حمائمُ الحِمَام بها على الأعداء ترنّمتْ ! ! .

وكان المجلسُ السامىّ الأميرىُّ ، الأجَلىّ ، الكبيرىّ ، المُجاهِدىّ ، المؤيّدىّ ، العَضُدى ، النصيرىّ ، الأوْحدىّ ، المقدّمىّ ، الذُّخْرىّ ، الظّهيرىّ ، الأصِيلىّ : مجدُ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ الأمراء فى العالَمين ، هُمَامُ الدّوله ، حُسام المِلّة ؛ رُكْنُ القبائِل ، ذُخْر العشائِر ، نُصْرةُ الأُمراء والمجاهدين ، عضدُ الملوك والسلاطين « جماز بن محمد » أدام الله نعمته - : هو المُرادَ بما تقدّم ، والأحَقّ بأنْ يتقدّم ، والذى لَوْ أنّ الصباحَ صَوارِمُ والظّلامَ جَحافِلُ لتقَدّم ؛ فلمّا مات والدُه رحمه الله نحَا إلى أبْوابنا العالية ، ونُورُ وَلائه يَسْعى بين يَدَيْه ، ووقف بها : وصدَقَاتُنا الشريفةُ تُرَفْرِفُ عليه ؛ فرأينا أنّه بقيةُ قَومه الذين سَلَفُوا ، وخَلَفُ آبائه الذين عن زَجْر الخيل ماعَزَفُوا ؛ وكبيرُهم الذى يعْترِفُ له والِدُهم ووليدُهم ، وأمِيرُهم الذى به تُرْعَى عُهودُهم ؛ وشَجرتهم التى تَلْتَفّ عليه من أنسابهم فُروعُها ، وفَرِيدُهم الذى تجتمع عليه من جَحافِلِهم جُموعُها .

فرسم بالأمْر الشَّريف أنْ تفوّض إليه إمْرة آل عَلىٍّ : تامَّةً عامَّة ، كاملةً شاملة ، يتصرّف فى أُمورهم ، وآمِرِهم ومأْمورِهم ؛ قُرْبًا وبُعْدا ، وغَوْرًا ونَجْدا ، وظَعْنًا وإقامَه ، وعِرَاقًا وتِهَامَه ؛ وفى كلِّ حَقِيرٍ وجَلِيل ، وفى كلِّ صاحب رُغَاءٍ وثُغَاء وصَرِير وصَلِيل ؛ علىٰ أكمل عوائد أُمَراء كلِّ قبيله ، وفى كلِّ أُمُورهم الكثيرةِ والقَليله .

ونحنُ نأْمرك بتقوى اللهِ فبِها صلاحُ كلِّ فريق ، وإصلاحُ كلِّ رَفيق ، ونَجاحُ كلِّ سالكٍ فى طريق . والحكمُ : فليكُنْ بما يوافق الشَّرعَ الشَّريف . والحقوقُ : تخلِّصْها علىٰ وجه الحق من القَوِىِّ والضَّعيف . والرِّفْقُ بمن وَلِيتَه من هَذا الجَمِّ الغَفير، والجمعِ الكَبير ، وإلزامُ قَوْمك بما يلزمهم من طاعتنا الشَّريفةِ التى هى من الفُروض اللازمةِ عليهم ، والقيامُ فى مُهِمَّاتِنا الشريفةِ التى تَبْرُزُ بها مَراسِمُنا المطاعةُ إليك وإليهم ؛ وحفظُ أطْراف البلاد والذَّبُّ عن الرَّعايَا من كلِّ طارق يَطْرُقهم إلا بخَيْر، والمسارعةُ إلىٰ ما يُرسَم لهم به ما دامت الأسفار فى عَصَاها سَيْر ؛ والإفْراج لعَرَبك لاتسمحْ به إلا لمَن له حقيقةُ وُجُود، وله فى الخِدْمة الشريفةِ أثَرٌ موجود؛ ومَنْعُهم: فلا يكونُ إلا إذا تَوَجَّه منعهم، أو تَوَانَتْ عزائِمُهم وقَلَّ نَفْعُهم؛ والمَهابَةُ : فانْشُرْها كسُمْعتِك فى الآفاق، ودَعْ بَوارِقَ سيوفها تُشَام بالشَّامِ ودِيَمَها تُراقُ بالعِرَاق؛ وخيولَ التَّقادم : فارتَدْ منها كلَّ سابِقٍ وسَابِقة تَقِفُ دونهما الرِّياح ، ويحسُدُهما الطَّير إذا طَارَا بغَيْر جَنَاح ؛ ولا تَتَّخِذْ دونَنا لك بِطَانَةً ولا وَلِيجَه ، ولا تقطعْ عنَّا أخْبارَك البَهِيجَه؛ ولْيَعْرِفْ قَوْمُه له حَقَّه، ويُوفُوه من التعظيم مُسْتَحَقَّه ؛ فإنه أميرهم وأمْره من أمْرِنا المُطاع ، فمن نَازَع فقدْ خَالَفَ النَّص والإجماع ، والله تعالىٰ يُوَفِّقه ما اسْتطاع، بمنه وكرمه! والخط الشريف ... ...

[الثانى — أمير آلِ فضل] (١) .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريفٍ بالتَّقدِمة علىٰ عَرَبَىْ آل فَضْلٍ وآل عَلِىّ، كتب به للأمير فَخْر الدين « عثمان بن هبة » وهو :

الحمدُ للهِ الذى خصَّ مَن وَالَىٰ هَـذه الدَّولةَ بالتَّقْدمة والفَخْر، ورَمىٰ من عَاداها بالمَذَلَّة والقَهْر، ومدّ فى عُمْـر أيَّامِها حتَّى يُسْتَنْفَد الدَّهْر، وحتَّى تُوصَف أيَّامها ــ وإن قصرت ــ بالمسارّ : كلُّ شَهْرٍ يمرّ منها كالعام واليومُ كالشَّهر .

نحمدُه علىٰ مامَنَحنا : من تَأْييد وظَفر، وطَوىٰ دَعْوة من عَانَدَنا بعد النَّشْر، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً إن دَخَلتْ شَواهِدُها تحت الإحصاء فلا تدخلُ فَوَائِدُها تحت الحَصْر، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جعل اللهُ به الهِدَايةَ فى المَبْدَإ والشَّفاعةَ فى المَعَاد يَوْم الحَشْر، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تُسْعِدُ بعد الشَّقَاء وتَجْبُرُ بعد الكَسْر .

وبعــدُ ، فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالىٰ لمـا مَكَّن لنا فى الأَرْض، وجعل بيدنا البَسْطَ والقَبْض ، وأَرَانا كَيْف نَصْنَعُ الجميلَ ونُجمِّلُ الصُّنْع ، وكَيْفَ نَجْبُرُ قَلْبَ من جُعِـل فى أيامنا جَبْره بعد الصَّـدْع ، وكيف تُصْبِحُ أَنْجُمُ ذَوِى الأقـدار فى سمـاء مملكتنا نَيِّرَةَ المَطالِع ، وكَيْفَ نُلَقِّ الخيرَ فى عِرَاصِها من رَامَهُ إذا كان على الخَيْر فى غَيْر أيَّامنا مَانِع ؛ وكيف نُحِلُّ التقدمةَ فيمَن إذا عَقَل فى حُلَلِها قيل : هـذا هو أَحَقُّ بها ممَّن كان ، وهذا الذى ما بَرِحَتِ التقدمةُ فى بَيْتِه فى صَدْرِ الزَّمان ، وهَذا الذى إذا ذُكِرَ آلُ فَضْـل وآلُ عَلِىّ كانت له مرتبـةُ الشَّرَف ولا غَرْوَ أَنْ تكون مرتبة الشَّرَف

(١) الزيادة من المقام .

لعُثمان، وأنّنا لا نُمطِى صَهْوَةَ العِزِّ إلّا لأهلها، ولا نَنْسَخُ الآيةَ لمن تَقَدَّمَ فى التَّقدمة إلا بخَيْرٍ منها أو مِثْلِها، ولا نُسَلِّم رايَتَها، إلا لمن تُعْقَد عليه الخَناصر، ولَا يتَسنَّمُ ذِرْوتَها، إلا من هو أحَقُّ بها وأهْلُها فى الأوّلِ والآخِر.

ولما كان المجلسُ السّامىّ، الأميرىّ، فخرُ الدين، عثمان بن مانع بن هبة: هو المُرادَ بهذا القَوْل الحَسَن، والمَمْدُوحَ بحَشْدِ هذا المَدْحِ الذى يَسُرُّ السِّرَّ والعَلَن، والحَقِيقَ من الإحسان بكُلَّما والخير بِأن، والخصيصَ من سَوَالِف الخِدَمِ بما والمُفَضَّلَ علىٰ سائر النُّظَراءِ ولو قيسَ بمَن ـ آقتضىٰ حسنُ الرَّأْيِ الشَّريف، أن رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال ذُو القَدْر فى أيّامه يرْتَفِع، وذُو الفَضْل فى دَوْلَتِه لا يَعِزُّ عليه مَطْلَبٌ ولا يَمْتَنِع، وذُو الأَصَالةِ التى يجتمِعُ له فيها من النَّعْماءِ ما لا يَلْتَئِم له فى غَيْرِها ولا يجْتمع ـ أن تُفوَّضَ إليه التقدمةُ على العُرْبان بالشّام المحروس، وهم من يأتى ذكره، علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ فى تَرْتِيبهم، وأنّ مَنازِلَه الدّارُوم: بُعْدًا وقُرْبا، حَضَرا وبَدْوا، عامِرًا وغامِرا، رائحًا وغاديا، من الرَّسْتَنِ إلى المَلُّوحة. والعَرَبُ: آل فَضْل وآلُ عَلِيّ حيثُ ساروا نزلوا منزلة المذكور، أو بمنزلة الأمير شمس الدين محمد بن أبى بَكْر، والخدمةُ واحدَه، والكَلمةُ علىٰ آتِّفاقِ المصالح مُتعاضِدَه.

فليكن لِلقُوىٰ جسدَ رُوحِها لا بَلْ رُوحَ جَسَدِها، ومجموع القبائل أوْحدَ عُدَدِها إذا صح الأوّل من عَدَدِها، وقُطْبَ فَلَكِها الذى علىٰ تدبيره مَدارُها، وعلىٰ تقريره آقْتِصَارُها، وعلىٰ تَقْدِمَتِه تَعْوِيلُها، وإلىٰ نسبة إمارته جُمْلَتُها وتَفْصِيلُها، ولْيَجْمَعْهم على الطّاعة فإن الطّاعةَ مِلاكُ الأمْرِ للآمر، وأُسُّ الخير للبادى والحاضر، وليعلم أن لِكلٍّ منهم نِقَابَةً تُعرف، وعَلَمِيَّةَ أصالَةٍ بها يُعَرَّف، ومَنزلةً يرِثُها الوَلَد عن الوالد، ومَشْيَخةً ترجع من ذلك البَيْت إلىٰ ذلك الواحد، فلْيَحْفَظْ لهم الأنْساب، ولْيَرْعَ لهم

الأسباب، وإذا أُمِرُوا بأمرٍ من مَهامِّ الدَّوْلَة يتْلُو عليهم : ﴿ ٱدْخُلُوا الْبَابَ ﴾ . والألزام له ولهم مَخَاوِض تحفظ، ومَفَاوِز تُلْحَظ، ومَطَارِحُ لا تُلْفَظ، ومَشَاتٍ ومَصَايِف، ونفائض ومَصَارف، ومَرَابِع، ومَرَاتِع، ودُنُوٌّ وٱقْتِراب، وتَوَطُّن وٱغْتِراب، وإغَارَةٌ ونَهِيض، وبَرْقٌ ووَمِيض .

فلْيُرَتِّبْ ذلك أجْمل تَرْتيب، ولْيَسْلُكْ فيه خَيْرَ مَذْهب وتَهْذيب، ولْيَدُعَّ العَادِى، ويُلَاحِظِ الرَّائِحَ والغَادِى، ولْيُؤَمِّن ذلك الجانب فأمْنُنا تُطْرِب أبْيَاتُه المَحْدُوَّ والحَادِى، وعليهم عداد مقرر، وقَانُونٌ مُحَرَّر، ولْيَكُن علىٰ يَدِ شَادِّه شَادًّا، ولسَبَبِ تَأْيِيدِهم مَادًّا، ويعلم أنَّه وإن كان قد أغْمِض من جُفُونه فيما مَضىٰ، وأعْرِض عنه فى الزَّمن الأوّل الذى ٱنْقضىٰ، وقُدِّمَ عليه من كان دُونَه، فقد ردّ الله له أبْكَارَ الأمْر وعُونَه، فلا يجعَلْ لقائلٍ عليه طَرِيقا، ولا يَدْخُلْ فى أمْرٍ يقال عنه فيه : كان غَيْرُه به حَقِيقا، بل يَفُوقُ مَن تَقَدّم فى الخِدْمة والهِمَّه، والصَّرامَة والعَزْمه، والله يُوزِعُه شكرَ هذه النِّعمه، والخط الشريف ... ... :

الثالث — أمير آل مِراء، ورتبته «السامىّ» بالياء .

وقد تقدّم أنَّ منازلهم حَوْرَانُ . وعن "مسالك الأبصار" أنَّ دِيارَهُم بين بلاد الجيدور والجولان، إلى الزرقاء، إلىٰ آخر بُصْرىٰ . ومشَرِّقا إلىٰ حَرَّة كشت، علىٰ القرب من مَكَّة المشرّفة، زادها الله شرفا .

وهذه نسخةُ مَرْسُومٍ شريف بإمْرَة آل مِراء، كتب بها للأمير بدر الدين « شطى بن عمر» وهى :

الحمد لله الذى زَيَّنَ آفاقَ المَعَالِى بالبَدْر، ورفع بأيَّامنا الشريفة خَيْرَ وَلِىٍّ أضحىٰ بين القبائِل جليلَ القَدْر، ومنَحَ من أخْلص فى خِدَم دَوْلَتِنا الشريفة مَزِيدَ الكَرَم

فأصْبح بإخلاصِه شديدَ الأزْر، وأجزل بِرّه لأصَائل العَرَب العَرْبَاءِ فوفّر لهم الأقْسام، وأسْبغ ظلالَ كَرَمه علىٰ من يَرْعَى الجارَ ويحفَظُ الذِّمام .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمٍ هطَل سَحابُها ، ومنَنٍ تفتَّحَتْ بالمسارّ أبوْابُها ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُقَرِّبُ صاحِبَها يوم الفَزَع الأكبر، من المحَلِّ الآمِن ، وتُورِدُه نَهْر الكَوْثَر، الذى ماؤُه غيرُ آسن ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثَـه اللهُ من أشْرف القَبـائِل ، وأوْضح بنُورِ رسالتِـه الدَّلائِل ؛ فأنقذ الله به هذه الأمّةَ من ضَلالِهـا ، وبَوَّأها من قُصُور الجنَانِ أعلىٰ غُرَفِها وأشْرَف ظِلَالِهـا ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أوْضَحُوا مناهجَ الإيمـان ، وشيَّدُوا قواعدَ الدِّين إلىٰ أن عَلَتْ كلمتُـه فى كلِّ مكان ، [فكان] عَصْرُهم أجْمَلَ عَصْر وقَرْنُهم خيرَ أوَان ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من أدْنَيْنا من بِسَاطِ الاصْطِفاء مَحَلَّه ، وارْتَشف من سَحَاب مَعْروفِنا طَلَّه فوَبْلَه ؛ ونَالَ من عواطِفِنا منزلةَ القُرْبِ علىٰ بُعْد الدار، وحكم له حسنُ نَظَرِنا الشريفِ بتوالى غَزِير كَرَمنا المِدْرار (١) .

ولمـا كان المجلس الفلانىّ : هو المشارُ إليـه بهذا النَّعْت الحَسَن ، والمَوْصوفَ بالشَّجاعة فى السِّرِّ والعَلَن ــ رسم بالأمر الشريف ــ لا زال بَدْرُه ، ساطعَ الأنوْار ، وبِرُّه ، هامِعَ القِطَار ، وخيرُه يشمَلُ الأولياءَ بجَزِيل الإيثَار وجميلِ الآثَار ــ أن يستقرّ المشارُ إليـه فى كَيْت وكَيْت : لأنَّه البَطَل الشَّـديد ، والفَارس الصِّـنْديد ؛ وليثُ الحرب المذكور ، ومَن هو عندنا بعَيْن العِنايَة مَنْظُور .

---

(١) لم يذكر خبرا لإن ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل « من كرم أصلا ومحتدا ، وسل سيف عزيمته حتى خضعت له رقاب العدا » أو نحو ذلك .

ولْيَثِق من صَدَقاتنا الشَّريفة بما يُؤَمِّل ويَعْهَد ، ولْيَتَحقّق قُرْبَه من مَقامِنا الشَّريف والعَوْدُ أحْمد ؛ ولْيتلَق هذا الإحسان بقَلْب منْشَرِح ، وأَمَل مُنْفَسِح ؛ وليجتهِدْ فى أمْر عُرْبانِه الذين فى البلاد ، فإنَّا جعلنا عليه فى أُمُورهم الاعْتِماد ، وقد أقَمْناه أميرا علىٰ عَرَب آلِ مِراء ؛ فلْيُشَمِّرْ عن ساعد الاجتهاد فى مصالح دولتنا الشَّريفة بغير زُورٍ ولا مِرَاء ؛ وليَقْمَع المُفْسدَ من عُرْبانِه ويقابلْه بالنَّكَال ، والصَّالحُ الخيِّرُ منهم يُجزِلُ له النَّوَال ، والوصايا كثيرةٌ ولِمثْله لاتُقال ؛ والخط الشريف أعلاه حجة فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريف بنِصْف إمْرَة آل مِراء ، كُتِب به لقناة بن نجاد ، فى العشر الأخَر من شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . من إنشاء المقرّ الشِّهابِىّ بن فَضْل الله ، وهى :

الحمدُ لله الذى آستخدَم لنَصْرنا كلَّ سَيْف وقَنَاه ، وكلَّ سُرْعةٍ وأَناه ، وكُلَّ مُثَقَّف تُسْلَى(١) جناياتُه ويَعْذُب جَنَاه ، وكُلَّ ماضٍ لا يعُوقُه عن مَقَاصِده الصالحةِ يَعُوقُ وهو عَبْد مَنَاه .

نحمدُه حَمْدَ من أغْناه ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَستمِدّ من قَبَلها فَلَقُ الصَّباح سَنَاه ، ويُفَكُّ منها من قَبْضة السُّيوف عُنَاه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى [بَوَّأه منازل الشرف] وبِنَاه ، وأحَلَّه من العَرَب فى مكان يَخْضَع له رَأْسُ كلِّ جَبَّار ويَخْشَعُ بَصَرُه وتستَمِعُ لما يُوحَىٰ أُذْناه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَخُصُّهم من كل شَرَف بأسْماه وأسْناه ، وسلم تسليما .

---

(١) سلى جناياته ــ تترك فلا يقتص منه .

وبعــد، فإنَّ لكلّ ثاكلةٍ قرارا، ولكلّ هاجرةٍ مزارا؛ ولكلّ معصمٍ سوارا لا يليق إلا بزنده، ولكلّ عنقٍ درًّا لا يصلح إلا لعقده، ولكلّ سيفٍ طال هجوعه فى غمده آنسلالا، ولكلّ قنــاةٍ لم تُعتقل مُدّةً آعتقالا؛ وكانت إمرةُ آلِ مِراء قد ثُبّتت من البيت الأحمديّ بأوثق أوتادها، ووصلت منه فى الرِّفعة إلىٰ نجادها؛ ولم تزل تنتقل فى آفاقها بدورهم الطّالعه، وتُضيء عليها من صفاحهم بروقهم اللّامعه؛ وتجول فيها من سوابقهم السُّحب الهـامعه، وتُغنى فى حروبها عزائمهــم إذا وقعت الواقعه؛ وتقدّمتْ للمجلس السامىّ، الأميرىّ، الفلانىّ، بركابنا الشّريف صُحبــةٌ حمدَ فيهـا السُّرىٰ، وخدمةٌ أوقــدتْ له نارَ القرىٰ؛ وهاجر إلينا فى وقتٍ دلَّ علىٰ وفائه، وسهر إلىٰ قصدنا اللّيــلَ وله النجم محيط المُقَلِ بإغفائه؛ وآنقطعَ إلينا بأمله، ولازم من عهدنا الشريف صالحَ عمله؛ وآســتحق تعجيلَ نِعَمنا الشريفة وإن تأخرت لأجل موقوت، وأمل نجاحه لا يفوت.

فلما آن أن تُفاضَ عليه ثيابُها، ويُضافَ إليه ثوابُها؛ ويُصرَّفَ فى قومه أمره، ويشرَّفَ بينهم قدره؛ ويعرفَ من لم يعرف المســكَ أنّه عندنا ذكره، ومن جهل البرَّ: أنه علىٰ ما يُحمَد عليه شكره، ومن أنكر أنّ شيئًا أصعبُ من الموت: أنّه فى مجال الموت صــبره، ومن خالف فيما هو أمضىٰ من القضاء: أنّه فى البيعة صدره، ومن آدّعى أنّه لا تصيبه البيضُ والسُّمر: أنّها مثقّفته وبتره؛ وزال من هذا البيتِ العريق الطّودُ وهو ثابت، ونُزِعَ منــه السِّنان لولا أنّه فى قنَاته نابت؛ و[لولاه] لهــاجت هذه القبيلة إلىٰ من يُقبِل على نباتها، ويَقيلُ بها: تارة يُنجِدُ فى نجدها وأُخرىٰ يجول فى جولَاتها ــ رسم بالأمر الشريف أن يُقلَّد من إمرة آلِ مِراء ما كان الأمير «ثابتُ ابن عسَّاف» رحمه الله يتقلده إلىٰ آخر وقت، ويُرفَعَ فيها إلىٰ كلِّ مُسامتةٍ وسَمت؛ ليُكمّل ما نقصَ من التّمــام وصْفه، ويعلَم أنّه حلّق إليه حتّىٰ أتىٰ دون نِصف البدر

فاخْتطف النِّصفَ وذلك النِّصْفُ هو نِصْفُه ، ليكون لهم إحدىٰ اليدين ، وأخرىٰ تقع لسيف بحَدَّين .

وتقوىٰ اللهِ أَبْرَكُ ما آشتملت عليه عُودُها ، وآنتخِبت له زَبِيدُها ، فلْيتَّخذْها له ذِرْوةً يهْتَدِى بها أنَّىٰ سلك من الفِجَاج ، وآقتحم من حَلَك العَجَاج . وعليه بحُسْن الصُّحْبة لِرَفيقِه ، ويُمْن القَبُول علىٰ فَريقِه ، وإقامةِ الحُدُود علىٰ ما شرع الله من دِينِه القَوِيم ، وإدامَةِ التَّيَقُّظ [لِلثَّأرِ] المُنِيم ، وإنزال عَرَبه ومن يتزل عليه أو ينزل عليهم فى منازلهم .

وليجْمَعْ قَوْمَه علىٰ طاعتنا الشَّريفةِ كُلَّ الجَمْع ، ويُقَابِلْ ما تَرِدُ به مَراسِمُنا المطاعةُ عليه بمـا أوْجب اللهُ لهـا من الطَّاعة والسَّمْع ، وليأْخُذْ للجهاد أُهْبتَه ، ويعجِّل إليه هَبَّتَه ، ولْيقِفْ من وراء البلاد الشامية المحروسة دَرِيئَةً لأسوارها المَنيعَه ، ونطاقا علىٰ مَعَاقِلها الرفيعه ، وسَدًّا من بين أيْديها وخلفِها لباب كُلِّ ذَرِيعَه ، وخَنْدَقًا يحوطُ بلادها الوَسِيعَه ، وحِجابًا يمنع فيها مَن تَعدَّى الحَقَّ وخَاضَ الشَّرِيعَه ، ولا يُفَارِقِ البلادَ حتَّى يُعبِّس فى وجوهها السَّحاب ، ولا يَعُود حتَّى تُؤْذِنَ زُرُوعُها المخيِّمة بذَهَاب ، والكَرَمُ هو فيه سجايَا ، والعَزْم ما بَرِح لوِشَان(؟) أسِنَّتِه بكلِّ قَناةٍ حَايَا(١) ، والحَزْمُ بيده المَرَاوِيَّة من آل مِرَاءٍ يظْهِرُ له الخفايا ، والشجاعةُ هو فى رُباها المنيرةِ «ابنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنايا» ، وما رضع المُرمِل كأفاوِيق الوِفَاق ، ولا وضع شَيْئًا فى موضعه كمُدَارَاة الرِّفاق ، فلْيكن لرَفِيقِه أكْثَرَ مساعدةً من الأخ لأخيه ، وأكْبرَ مُعاضَدَةً من المِصْرَاعِ لقَسِيمه والجَفْنِ لجَفْنِه والشَّيْءِ لمـا يُؤاخيه . هذا يجب ويتعيَّن وليس يجمعهما فردُ طاعه ، ولا يلزمهما لشيءٍ واحدٍ آستطَاعَه ، فكيف وهو [و] رفيقه إلينـا آعْتزاؤُهما ومنَّا إعْزازُهما ، وهما فَرْعان معْتَنِقانِ : لَدَيْنا إجْناؤُهما وبيدنا إهزازُهما .

---

(١) يريد الحاء بالهمز فاضطر للقلب مراعاة للسجع .

وليحصِّل من الخيل كلَّ سابقةٍ تليق أن تقــدّم إلينا، وسابحةٍ فى كل مَهْمهٍ حين يَقْدَمُ علينا . والشَّرْعُ الشريفُ يكون إليه مآبُك، وعليه عَفْوُك وعِقابُك؛ وبمقتضاه عَقْدُ كلِّ نِكاح لا يصح إلا علىٰ وَجْهِه المَرْضِىِّ وإلَّا فهو سِفاح، والميراثُ علىٰ حُكْمه لمن جَرَّه إليه وإلا فهو ظُلْمٌ صُراح، وبقيةُ ما نوصيه به إذا ٱنتهىٰ منه إلىٰ هذه النُّبْذَة فما عليه فى سواها جُنَاح . وسبيلُ كلِّ واقِفٍ علىٰ تقليدنا هذا أن يُنيبَ إلىٰ نُصُوصه، ويؤوبَ إلىٰ عُمومه وخُصُوصه؛ والحَذَرَ من الخُروج عنــه بقَوْلٍ أو عَمَل ، فالسَّيْفُ أسْبقُ من العَذَل ؛ والله تعالىٰ يُمتِّعه بمــا وهبه من العزِّ فى النُّقَل، والمَحاسن التى هى يَدُ المسامع والأفواه والمُقَل؛ والخط الشريف أعلاه ... ...

المرتبـــــة الثـانيـــــة

(من أرباب المراسيم من العرب ـ من يُكْتَبُ له فى قَطْع الثُّلث بـ«السَّامى» بغير ياء، مفتتحا بـ«أمَّا بعدُ» وهم ثلاثة أيضا)

الأول ـ أُمَراء بَنِى مَهْدِىّ ، وهى مقسومة بين أرْبعــة . ورتبةُ كلٍّ منهــم «مجلس الأمير» .

وقد تقدّم أنَّ منازلهم البَلْقاءُ، إلىٰ مائر، إلى الصوان، إلىٰ عَلَم أعفر .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريفٍ برُبْع إمْرَةِ بنى مَهْدِىّ، وهى :

أمَّا بعــدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى حقّقت فى كَرمِنا المآرب، وأجْزلتْ من آلائنــا المَواهِب ، وقرَّبَتْ لمن رَجانا بإخْلاص الطاعة ما يأْبَىٰ عليه من المَطَالِب؛ والصَّلاةِ والسـلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ المبعوثِ من أشْرف ذَوَائِب لُؤَىِّ بن غَالِب، المخصوص باللِّواء الذى لا يَضْحَىٰ من أَوىٰ إلىٰ ظِلّه والحَوْض الذى لا ظَمأ بعــدَ وُروده

لشَارِب ، وعلىٰ آله وصَحْبِـه الذين فَازُوا من صُحْبته وطاعتِـه بأسْمى المَراتب وأسْنى المَنـاقِب ــ فإنَّ أَوْلىٰ من رَفَعت رعايَتُنا قَدْرَه ، وأطْلعتْ عِنايَتُنا فى أُفُق السـعادَة بَدْرَه، وحقَّقَتْ آلاؤُنا سُولَه ، وبلَّغَتْه صدَقاتُنا مَرامَه ومأْمُوله ــ من أحْكم فى طاعتنا أسْبابَ وَلائِه ، وأتقن فى خِدْمَتِنا ٱنتساب بعيده وٱنتمـائه ؛ وتقَرَّب إلينا بإخْلاصه فى ٱجتهاده، ومَتَّ بمـا يُرْضِينا من ٱحْتِفالِه بأمورِ جِهاده؛ مع ما تميَّز به من أسْباب تَتقاضَىٰ كَرَمنا فى تَقْـديمه ، وتَقْتضِى إجراءَه علىٰ ما أَلِفَ أوليـاءُ الطاعة من حَدِيث إحساننا وقَديمه .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى ٱختصَّ بهذه المقاصـد ، وعُنِيَ بمـا ذكر من المصادِر والمَوارد ــ رُسِمَ أن يُرتَّب فى رُبْع إمْرة بَنِي مَهْدِيّ .

فلْيُرتَّبْ فيما رُسِم له به من ذلك قائمـا من وظائفها بما يَجِب، عالمـا من مصالحها بما يأْتِى وما يَجْتنِب، واقفًا لاعتماد مايَرِد عليه من المَراسِم وُقوفَ المنتَظِر المُرْتقِب، مُلْزِمًا عَرَبَه من الخِدَم بمـا يُؤَكِّد طاعتَهم ، ومن إعداد الأُهْبَـة بمـا يُضاعف ٱستِطاعَتَهم، ومن المُحافَظة علىٰ أسْـباب الجهاد بمـا يجعل فى رِضَا الله تعالىٰ ورضانا قُوَّتَهم وشَجاعَتَهم؛ ولْيُقَدِّم تقوى الله تعالىٰ بين يديه ، ويجعلْ توفيقَه العُمْدَةَ فيما ٱعتُمد فيه عليه ؛ والخَيْر يكون، إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخةُ مَرسومٍ شريف برُبْع إمْرة بَنِي مَهْدِيٍّ أيضا :

أمَّا بعـدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى جدَّدتْ لمن أخلص فى الطَّاعة رُتَبَ السُّـعود ، ورَفَعتْ مَن نَهض فى الخِدَمِ الشَّريفةِ حقَّ النُّهوض إلىٰ مَناصب الجُدود ؛ والصَّلاة والسَّـلامِ علىٰ سيدنا محمد المخصوصِ بلِواءِ الحَمدِ المَعْقود ، وظلِّ الشَّـفاعة المَمْدود ،

والحَوْض الذى لا يَنْضُبُ علىٰ كَثْرة الوُرود ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَفَّوْا بالعهود ، وبَدَتْ سِيمَاهُم فى وجوهِهم من أثَرِ السُّجود ـ فإنَّ أوْلىٰ من آجْتلىٰ وُجوهَ النِّعِم ، وآجْتَنىٰ ثَمرَة ما غَرَس من الخِدَم، وآرْتَقىٰ إلىٰ ما أُنْعِم به عليه من التَّقدُّم الذى أقامه السَّعْدُ لاستحقاقه علىٰ أثْبتِ قَـدَم ـ من نشأ فى طاعتنا الشَّريفـةِ يَدِينُ بوَلائِهـا ، ويتَقلَّب فى خَيْرِ نِعَمِها وآلائِها ، ويتَعبَّدُ بمـا يُؤَهَّل له من خِدَمها ، ويبادِرُ إلىٰ مايُنْدَب له من المَهَامِّ الشَّريفةِ بين يَدَىْ مراسمنا أو تحتَ عَلَمِها .

ولمَّا كان فلانٌ هو الذى ذُكِرتْ طاعَتُه، وشُكِرت خِدَمُه وشَجاعَتُه ـ رُسم ... ... أنْ يُرتَّب فى رُبْعِ إمْرة بَنِى مَهْدِىّ ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعِدَته .

فليرتَّبْ فى ذلك ، قائمًا بمـا يجب عليه من وظائفها المَعْروفةِ المأْلُوفَه ، وخِدَمِها التى هى علىٰ ما تبرُزُ به أوامِرُنا الجاريةُ موقُوفَه؛ وليكنْ هو وعَرَبُه بصَدَدِ مايُؤْمَرون به : من خِدْمةٍ يبادرون إليها ، وطاعةٍ يُثَابِرون عليها، وتأَهُّبٍ للجهاد، حيثُ سَرَت الجيوشُ المنصـورةُ لم يَبْقَ لهم عائقٌ عن التَّوجُّه بين يديها ؛ وسِياسَـةٍ تَأْخذُهم من الطرائقِ الحميدةِ بسُلُوك مايَجِب، ويعرفُ بها سلُوكَ مايَسْلُك وآجتنابَ ما يَجْتَنِب؛ والخير يكون، إن شاء الله تعـالىٰ .

الثـانى ــ مقدّم زُبَيْـد . ومنازلُ بعضهم بالمَرْج وغُوطَةِ دمَشْق ، وبَعضهم بصَرْخَد، وحَوْران .

⁂

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريفٍ بتَقْدِمة عرب زُبَيْد، وهى :

أمّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى أبقىٰ بنا للنِّعم تأْبِيدا ، وأحْسن العَاقِبَة لأحسن عَاقِبَةٍ أدام لهم فيها تَخْليدا ، وأحْيا به منهـم حَيًّا نكتب لأميرهم وإمْرَتِهم فى كُلِّ حِينٍ تَقْليدا ؛

ونَفَّل منهم نوفَلاً فلا نزالُ نجدِّدُ فيهم مَلَابِسَ الفَخَار بذكر اسمه تجْديدا، ورَعَىٰ بنا أبناءَ بيْتٍ تناسَقُوا أبناءً وجُدُودا، وتباشَرُوا بولَدٍ لمَّا خَلَفَ وَالِدَه بأنَّ ٱبنَ سَعيدٍ لا يكون إلَّا سَعيدا؛ والصَّلاةِ والسَّلامِ علىٰ نبيه محمدٍ الذى أهْلك بسَيْفه كلَّ غاشِمٍ، وأنْجل بسَيْبِه كلَّ غمام لوَجْنَةِ الرِّياض وَاشِم، وأسْعد بسَبَبِه نوْفلًا وعبْدَ شَمْسٍ بأُخوتِهما لهاشم؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه خُلَاصَةِ العَرَب، صلاةً لا يُعَدُّ ضَريبا لها الضَّرب؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا.

وبعدُ، فإنَّ العساكرَ المنصورةَ الإسلاميةَ: منهم حاضِرَةٌ أهلُ جِدَار، وبادِيَةٌ فى قِفَار، وقومٌ هم المُدُن المُمَدَّنَةُ وقومٌ عليها أسوار؛ وهم صنفان: صِنفٌ لا تَمَلُّ السيوفَ عَواتِقُهُم، وصنفٌ سيوفُهم تُحبَس بها مَناطِقُهم؛ والعَرَبُ أكرم [أهل] البَوادى، وأعظمُ قَبائِلهم تضرُّمًا كالبَرْق مُباراةً للسُّحُب الغَوادِى؛ قد نَصَبُوا بقارعَة الطَّريقِ خيامَهم، وسَرَّحوا مع أسراب الظِّباء سَوَامَهم؛ ووقفُوا دُونَ الممالك المحروسة كَتَائِبَ مصْفُوفه، ومَواكِبَ بما تُعرفُ به العربُ من الشَّجاعة موصوفه؛ وزُبَيْد من أنخْرِها قَبِيله، وأكْثَرِها فوارسَ: [فأمَّا أحْسَابها] فكريمةٌ وأمَّا وجوهها فجميلَه؛ شَامِيَّةٌ أعْرقَتْ أنْسابا فى يَمَنِها، وأتْهمَتْ بشَطْء أسنَّتِها ماتَفتَّح فى المَجَرَّة من سَوْسَنِها؛ فما يَبِيتُ بَطَلٌ منهم علىٰ دِمَن، ولا يُعْرفُ فارسٌ إلا إذا تَمَلَّى فى الخَلِيطَيْن من شَامٍ ومن يَمَن؛ كَمْ فيهم بمَواقِعِ الطِّعانِ فَطِنٌ ذو كَيْس، وكَمْ صَبَغ منهم بالدِّماء رايةً حَمراءَ يَمَنِيٌّ لا يُنْسب إلىٰ قَيْس؛ كَمْ كَرَب علىٰ مَعْدِيكَرِبَ منهم فَارس، ونُسِب إلىٰ زُبَيْدٍ وهو خَشِنُ الملابس؛ منهم صاحب الصَّمْصامة يَقِى مثلها السَّيفَ فردا، وكَمْ قتل من أقْرانه الشُّجْعان مِن أخٍ صالحٍ وبَوَّأه فى العَجَاج بيديه لَحْدا؛ ومن نجومهم الزواهرُ السُّراه، وغيومهم الأكابر السَّراه، من لم يَزَلْ حَوْل دِمَشْق وما يليها من حَوْرَان، مَنارَةَ مَنازِلَ وأوْطان؛ حَامَوْا عن جَنابِها المَصُون، وحَامُوا حَوْلَ غُوطَتِها تَشَبُّهًا بحمائمها

علىٰ الغُصُون ؛ وماثَلُوا بسيوفهم أنْهارَها ، ورِمَاحِهم حَوْلَ دَوْحاتِ الأيْك أشْجارَها ؛ وآسْتَلأَمُوا بِمِثْلِ غُدْرانِها دُرُوعا ، وحَكَوْا بما أطَلُّوا من دِماء الأعْدَاء شَقائق رَوْضِها ، وبما جَرُّوا من حُلَلهم المُسَهَّمَة سيلا ؛ ولم يَزَلْ لهم من البَيْت النَّوْفَلِيّ مَن يجمع جماعَتَهم ، ويضُم تَحْتَ راية الدولة الشريفة طاعَتَهم ؛ يَخْلُفُ آبنٌ منهم لأبيه أو أخٌ لأخيه ، وينْتظِم كلُّ فَرْقد مع من يناسِبُه وينضاف كلُّ كَوْكَبٍ إلىٰ مَن يُؤاخيه .

وكان مجلس الأمير الأجلّ ، فلان بن فلان الزُّبَيْدى ـ أدام الله عزه ـ هو بَقِيَّة من سلف من آبائه ، وعرف مثل الأَسَد القَسْوَرة بإبائه ؛ وآنْحَصَر فيه مِن آستِحْقَاقِ هذه الرتبة مِيراثُ أبيه ، وآستغْرَقَ جميع ما كان من أمْر قَوْمه وإمْرَتِهم يَلِيه .

فرسم بالأمر الشريف ـ زاده الله تعالىٰ شَرَفا ، وذَخَر به لكلّ سَالِفٍ خَلَفا ـ أن يرتب فى إمْرةِ قَوْمه من زُبَيد النَّازلين بظاهر دِمَشْق وبلاد حَوْرانَ المحروس ، علىٰ عادة أبيه المستقرّه ، وقاعِدَته المستمرّه ، إلىٰ آخر وقت ، من غير تَنْقِيص له عن نَجْم سَعْدِه فى سِمَةٍ ولا سَمْت ؛ تَقْدمةً تَشملُ جميعَهُم ممَّن أعْرَقَ وأشْأم ، وأنْجَد وأتْهَم ؛ لا يخرج أحَدٌ منهم عن حُكْمه ، ولا ينفردُ عن قِسْمه ؛ لا ممَّن هو فى جِدَار ، ولا ممَّن هو مُصْحِرٌ فى قفار ؛ يَمْشِي علىٰ ما كان عليه أبُوه ، ويقومُ فيهم مَقَامَه الذى كان عليه هو وأُولُوه .

ونحن نُوصِيك بتقْوَى اللهِ تعالىٰ ، وباتِّبَاعِ حكْم الشَّريعةِ الشريفة ما أقَمْتَ علىٰ بلد أو أزْمَعْتَ آرْتحالا ، وجَمْع قَوْمِك على الطاعة فُرْسَاناً ورُكْبانا ورِجَالا ؛ واتباعِ أوامِرها الشَّريفةِ وأمْر نُوّابِنا الذين هم بإزائهم ، وما آعْتِزازُ من قَبْلك إلا لِمَا مالوا إليه فى آعتزائهم ؛ والتَّأهُّبِ أنت وقَوْمك لما رسم به فى لَيْل أو نهار ، وحِمَايَةِ حِمىً أنتم حوله فى صَحْراءَ مُصْحِرة أو مِن وَرَاء جِدار ؛ والمطالعةِ بمن يَنْتقِلُ من أصْحابك

بالوَفَاه، والوصايا كثيرة ومِثْلُك أيْسَرُ ماقال له آمْرُؤُ كَفاه، والله تعالىٰ يوفقك لما يرضاه، ويُؤْثِرُك فى كلِّ أمْرٍ للعمل بمقتضاه، وسبيل كلِّ واقفٍ عليه العملُ به بعد الخط الشريف شرّفه الله تعالىٰ وأعلاه أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

النيابة الثانية

(من نيابات البلاد الشامية ـ نيابة حلب . ووظائفها التى يكتب بها من الأبواب السلطانية علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(من بحَاضِرَة حَلَب، وهم علىٰ أصناف)

الصنف الأوّل

(منهم أرْباب السُّيُوف، وهم علىٰ طبقتين)

الطَّبَقة الأولىٰ

(من يُكْتب له تقليدٌ، وهو نائب السَّلْطنة بها ؛
وتَقْليده فى قَطْع الثُّلثين بـ«الجناب الكريم»)

وهذه نسخةُ تَقْليدٍ شريفٍ بنيابَة السلطنة بحَلَب، كُتِب به للامير استدمر، من إنشاء الشَّيخ شهاب الدِّين محمود الحلبىّ، وهى :

الحمدُ لله حافظ ثُغُور الإسلامِ فى أيَّامنا الزَّاهرَة، بمن يَفْتَرُّ عن شَنَب النَّصْرِ سَيْفُه، وناظِمِ نِطاق الحُصُون فى دَوْلَتِنا القاهرِة، علىٰ هِمَم من لم يَزَلْ يغْزُو عدوّ الدِّينِ قبل طُلوعِ طَلاَئِعه طَيْفُه، وناَشرِ لِواءِ العَدْل فى أسْنىٰ ممالكنا بيَد من لا يُؤمَنُ فى الحق قوّته

ولا يُرْهَبُ فى الحُكْم حَيْفُه، ومدَّخر [أجر] الرِّباط فى سَبِيله لمن لم يبِتْ لَيْلَةً إلا والتَّأْييد نَزِيلُه والنَّصْر سَمِيرُه والظَّفَرُ ضَيْفُه؛ الذى جعلَ الجِهاد فى أطْراف الممالك المحروسة سُورًا لعَواصِمِها، والصِّعادَ فى مَقَاتِل أعْداء الدِّين شَجًا فى صُدُورها وشَجًى فى غَلاصِمِها؛ والسُّيُوفَ الحِدَادَ تُزْهَىٰ بمشاركتها لأسم من بُلِيَتْ منه أجْساد أهْلِ الكُفْر بقاسِمِها، ورُمِيتْ منه أعْمارُهم بقَاصِمِها؛ وأرْهفَ لهذا الأمرِ من أوْلِيائنا سيفًا تتحلَّى الشَّهْباء بجواهر فِرِنْده، وتَتَوقَّع الأعْداء مواقعَ فَتَكَاته قبلَ تألُّق بَرْقِه من سُحُب غِمْده؛ ويعرفُ أهْلُ الكُفْر مَضَاربَه التى لا تُطِيقُ مَقَاتِلُهم جَحْدَها، وتتفرّقُ عُصَب الضلال فَرَقًا من مهابته التى طالما أغارَتْ علىٰ جيوشهم المتعدِّدَة وحْدَها .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت النَّصْر لأجياد ممالكنا عُقُودا، والكُفْرَ للَهَبِ صَوارِمِنا وَقُودا، والتَّأْييدَ من نتائج سُيوفنا التى تَأْنَفُ أن تُرىٰ فى مَضاجِع الغُمُود رُقُودا؛ ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُعْلِى مَنارَ الهُدىٰ، وتُطفِئ أنْوار العِدَا، وتُخْلِى أجْسادَ أهلِ الكُفْر من قُوىٰ أرْواحِهم فتَغْدُو كدِيارِهم التى لا يُجِيبُ فيها إلا الصَّدَىٰ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أعْلَى الله بِناءَ الإيمان بتأذينه، وأيَّدنا فى الذَّبِّ عن مِلَّته، بكل وَلِيٍّ يتلقَّ رايةَ النَّصْر بيَمِينه، وأعاننا علىٰ مصالح أمَّته، بكلّ سيفٍ تتألّق نارُ الأجل من زَنْدِه ويَتَرَقْرقُ ماء الحياة من مَعِينه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَسَمَتْ أسِنَّتُهم من وجوه الكُفْر أغْفالا، وكانتْ سُيُوفُهم لَمعاقِلِ أهْلِ الشِّرك مَفاتِحَ فلمَّا فُتِحَت غَدَت لها أقْفالا؛ فمنهم مَن فَازَ بمَزِيَّة السَّبْق إلىٰ تَصْديقه، ومنهم من كان الشيطانُ يُنَكِّبُ عن طَرِيقه؛ ومنهم مَن أمَر بإغْماد سَيْف الأنتصار لدَمه عن مُرِيقِه، ومنهم من حاز رُتْبَة أختانِه وصِهْره دون أُسْرته الكرام وفَرِيقه؛ صلاةً دائمةَ الخُلود، مُسْتَمِرَّة الإقامة فى التَّهائم والنُّجود؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولىٰ من حُلِّيت التقاليدُ بلآلئ أوصافه، ومُلِئَت الأقاليمُ بمواقع مَهَابتِه وإنْصافِه؛ وريعَتْ قلوبُ العدا بطُروقِ خَيالِه قبْلَ خَيْله، وخافَ الكُفْرُ كلَّ شيءٍ أشْبه ظُبَاه من توقُّدِ شموسِ نهارِه أو حكَىٰ أسنَّته من تألُّقِ نجومِ ليله؛ ومُدَّ على الممالك من عزماتِه سُورٌ مُصَفَّحٌ بِصِفاحِه، مُشَرَّفٌ بأسنَّةِ رِماحِه؛ سَامِيَةٌ علىٰ مِنْطَقَةِ الجَوْزاءِ مِنْطَقَةُ بُروجِه، نائِيَةٌ علىٰ أماني العدا مسافةُ رِفْعتِه فلا يقْدِر أملُ باغٍ علىٰ ارْتِقائه ولا رجاءُ طاغٍ علىٰ وُلُوجِه - من تمهَّدتْ بسَدادِ تَدْبِيرِه الدُّوَل، وشهِدَت بسِيَرِ محاسِنِه السِّيَرُ الأُوَل؛ وتوطَّدتِ الممالكُ علىٰ أسِنَّتِه فحقَّقت أنَّ أعْلَى الممالك ما يُبْنىٰ على الأسَل، وسارَتْ في الآفاقِ سُمْعَتُه فكانت أسْرىٰ من الأحْلامِ وأسْبقَ من الأوْهامِ وأسْيَرَ من المَثَل؛ وصانَتِ الثُّغورَ صَوارِمُه فلم يَشِمْ بَرْقَها إلا أسِيرٌ أو كَسِير، أو مَن إذا رَجَع إليها بصَرَه انْقلبَ إليه البَصَرُ خاسِئًا وهو حَسِير؛ وزانَت الأقاليمَ مَعْدِلَتُه فلا ظُلْمَ يغْشَى ظَلامُه، ولا جَوْرَ يُخْشَىٰ إلْمامُه، ولا حَقَّ تُدْحضُ حجَّتُه ولا باطِلَ يَعْلُو كلامُه؛ فالبلادُ حيثُ حَلَّ بعَدْلِه مَعْمُوره، وبإيالَتِه مغْمُوره؛ وسُيوفُ ذَوِي الأقْلامِ وأقْلامُهم بأوامِرِه في مَصالِحِ البلادِ والعبادِ مَنْهِيَّةٌ ومأمُوره .

ولما كان الجنابُ العالي هو الذي عانقَ الملكَ الأعزَّ نِجادُه، واللَّيْثَ الذي لم يزَلْ في سبيلِ اللهِ إغارَتُه وإنْجادُه؛ والكَمِيَّ الذي كَمْ له في جهادِ أعْداءِ اللهِ من مَوْقِفِ صِدْقٍ يضِلُّ فيه الوَهْمُ وتَزِلُّ فيه القَدَم، والهمامَ الذي إنْ أنْكرتْ أعْناقُ العدا مواقِعَ سيُوفِه «فما بالعَهْدِ من قِدَم»؛ والمِقْدامَ الذي لا تُنْكَرُ مَشاهِدُه في إرْغامِ الكُفْرِ ولا تُكْفَر، والزَّعيمَ الذي حَمَتْ مَهابَتُه السَّواحِلَ فخافَ البَحْرُ: وهو العَدُوُّ الأزْرَق، من بأسِه الأحْمَرِ، علىٰ بَنِي الأصْفر؛ والمُقدَّمَ الذي كَمْ ضاقتْ بسَرايا شيعتِه الفِجَاج، ! وكَمْ أشْرقتْ نُجُومُ أسِنَّتِه من أُفُقِ النَّصْرِ في ظُلَمِ العَجَاج، ! وكَمْ حَمَى العَذْبَ الفُراتَ على البُعدِ بسُيوفِه وهي مجاورةٌ للمِلْحِ الأُجَاج ! ! ؛ مع سَطْوَةٍ أنامَت الرَّعايا في مِهادِ أمْنِها،

ورأفةٍ غَمرت البرايا بعاطفةِ إقْبالها ويُمْنها ، ورِفْقٍ تكفَّل لسَهْلِ البلاد وحَزْنِها بإعانة مُزْنِها ، وشَجاعةٍ أعدَّت الجيوشَ التى قِبَله فغدَتْ آحادُها أُلُوفا ، وفتكاتٍ عوّدت الطَّيْر الشِّبَعَ من وَقائِعه فباتَتْ علىٰ راياته عُكُوفا ، ومَعْدِلَةٍ عَمَّت مَن فى إيالَتِه فأَضْحىٰ الضَّعيفُ فى الحَقِّ قَوِيًّا عنده والقوىُّ فى الباطل ضَعِيفًا .

وكانت البلاد الحَلَبِيَّة المحروسةُ هى المملكةَ التى لا تُجارىٰ شَهْباؤُها فى حَلْبَة نَخَار ، والرُّتْبَةَ التى لا يُؤَهَّلُ لها من خَواصِّ الأَوْلياء الأَعِزَّةِ إلَّا مَن آستخرنا اللهَ تعالىٰ فى تَقْليد جِيد مَفاخِره بلآلئ كَفالتِها نَخَار ؛ فهى سُورُ الممالكِ الذى لا تَتَسوّرُه الخُطوب ، وأمُّ الثُّغور التى ما بَرِح يُسْفِر بابْتِسامِها عن شَنَب النَّصْر وجْهُ الزمن القَطُوب ، ومَوْطِنُ الرِّباط الذى كلُّ يوم وليلة [فيه] خير من الدُّنْيا وما فيها ، وعقيلةُ الأقاليم التى لَمْ أشْجىٰ قلوبَ الملوكِ الأكابرِ صُدُودُها وأسْهرَ عيونَ العظماءِ الأكاسرةِ تجافِيها ؛ بل هى عِقْدُ دُرُّه حُصُونُه ، ورَوْضٌ سيوفُ الكُماة جَداولُه ورِماحُ الحُماةِ غُصُونُه ؛ وحِمًى لم تَزَلْ عيونُ عنايتِنا بعَوْن الله تَحُفُّه وأيدى تأييدنا بقُوّة الله تَصُونُه ـ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُرْهِفَ بحمايتِها هذا السَّيفَ الذى تُسابِقُ الأَجَلَ مَضارِبُه ، وتبطل الحِيَلَ تَجارِبُه ، ويتَقَدَّم خَبَرَ عَزائِمه خَبَرُها فلا يُدْرَىٰ : هلْ ريحُ الجَنوب أَسْرىٰ وأَسْرع أَمْ جَنائِبُه ؛ وتبُثُّ مَهابَتُه أمام سراياه إلىٰ العِدَا سرايا رُعْبٍ تَفُلُّ جَمْعَهم ، وتَسْبِقُ إلىٰ التَّحرُّزِ من بَأْسه بَصَرهم وسَمْعَهم ؛ وتسفر بكل أفق عن تنعتها (١) مغيره ، أو كَتِيبةٍ تجعلها لمعالى النصر الكامنة مُثيره .

فلذلك رُسِم بالأمر الشَّريف العالى ـ لا زالت أَوامرُه مبْسُوطةً فى البَسيطَه ، ومَمالِكُه مَحُوطَةً بمهابَتِه الشَّامِلَة ومَعْدلته المُحيطه ـ أنْ تفوّض إليه نيابةُ السَّلطنة الشَّريفة بالمملكة الحَلَبِيَّة : تفْويضًا يعوِّذُها من عيون العِدا بآيات عَزائِمه ، ويعوِّدُها

(١) كذا فى نسختين ولعل الصواب "عن شيعة" إلخ .

ٱجتناءَ ثَمر المُنىٰ والأمْنِ من وَدْقِ صَوارِمِه ؛ وينْظِم دَرارِىَّ الأسِنَّة من أجْياد حُصُونها فى مَكان القَلائد ، ويجعلُ كُماةَ أعدائها لخَوْفه أضْعفَ من الوُلْدانِ وأجبنَ من الوَلائد ؛ ويُجَرِّدُ إلىٰ مُجَاوِريها من هِمَّته طلائعَ تحصُرُهم فى الفَضاء المتَّسِع ، وتسُدُّ عليهم مَجالَ الأرْض الفسيحةِ فيغْدُو لهم حَزْنُها الحَزَن الشّامِل وسَهْلها السَّهْل المُمتَنِع .

فليتَقلَّدْ هـذه الرتبةَ التى بمِثْلِها تُزْهَى الأجْياد ، وبتَقلُّدِها يَظْهَر حسنُ الٱنْتِقَاءِ لجواهرِ الأوْلياء والٱنْتِقَاد ، وبتَفْوِيضِها إلىٰ مِثْـله يُعلَم حسن الٱرْتياد لمصالح البلاد والعِباد ؛ ولْيزِدْ جيوشَها المنصورة إرْهابا لعَدُوِّهم ، وإرْهافاً لصَوارِمِ الجِهاد فى رَواحِهِم وغُدُوِّهم ، وإدامةً للنَّفيرِ الذى حَبَّبَه اللهُ إليهم ، وقُوَّةً علىٰ مجاوريهم من أهْل النِّفاق الذين يَحْسَبُون كُلَّ صَيْحةٍ عليهم ؛ فإنَّهم فُرْسان الجِلاد الذين ألِفُوا الوقائع ، وأسْوار الفُراتِ الذين عُرِفُوا فى الذَّبِّ عن مِلَّتِهِـم بحِفْظِ الشَّرائع ، وكَشَّافةُ الكُرَبِ الذين لا يزالُ لهم فى سائر بلاد العِـدا سرايا وعلىٰ جميع مطـالع ديار الكُفْـر طلائع ؛ وهم بتَقْدمته تتضاعفُ شَجاعَتُهُـم ، وتَزِيدُ ٱسْـتِطاعَتُهم وطَاعَتُهم ؛ وليأْخُذْهم بمضاعفة الأُهَب وإدامةِ السَّـعْى فى حِفْظ البلاد والذَّب ، والتشبُّه بأُسُود الغابات التى هَمُّها فى المَسْلُوب لا السَّلب ؛ وليهتَمَّ بكَشْفِ أحْوال عَدوِّ الإسلام ليَبْرحَ(١) آمنًا علىٰ الأطراف من حَيْفِهم ، متيقِّظًا لمَكايِدِهم فى رِحْلَتَىْ شتائِهم وصَيْفِهم ؛ مُفَاجِئًا لهم فى كلِّ منْزِل بسَيْرٍ يُرَوِّعُ سِرْبَهم ، ويُكَدِّرُ شِرْبَهم ؛ ويجعـلُ رُوحَ كلٍّ منهم من خَوْف قُدُومه نافرةً عن الجَسَد ، ويَسْلُبهم بتَوَقُّع مُفاجَأته القَرارَ « ولا قَرار علىٰ زَأْرٍ من الأسَد » ، ولا تزالُ قُصَّادُه بأسْرار قُـلوب الأعْداء مُناجِيـه [ولا تبرح له من أعيـان عيونه بين العـدا فرقة ناجيـه](٢) وليحْتَفِل بتَـدْرِيجِ الحَمَـامِ التى هى رُسُـل أعِنَّته ،

(١) مراده ليبقى على الدوام آمنا الخ إلا أن هذه المـادة لاتؤدى هذا المعنى إلا بسبق النفى . تأمل .

(٢) الزيادة ممـا يأتى قريبا ليستقيم الكلام .

وإقامة الدَّيادب الذين إذا دَعَوْا هَمْهَمَةً بألْسِنَةِ النِّيران لبَّتْهُم ألْسِنَة أسِنَّته ؛ ولْيُمِتْ قلوبَ أعْدائه بوَجَل لِقائه قبْل الأجَل ، وليَزِدْ في الحَزْم علىٰ ٱبن مزْيَدٍ الذى لم يُرَ فى الأمْن إلا فى درْعٍ مُضاعَفَة « لا يأْمَنُ الدَّهْرَ أنْ يُدْعَى علىٰ عَجَل » (١) ؛ ولْيَجْعَلْ أحْوال القِلاعِ المَحْروسةِ دائما بمرأًى منه ومَسْمَع ، ويُشَيِّدْها من مُلاحَظَته باحْتِفالٍ لا يَدَعُ لشَائِم بَرْقها وحمول أموالها [مطمعا] فقد ٱستكمل حُسْنَ النَّظر فى مصالحها أجْمع ؛ وليُقِم مَنارَ الشَّرعِ الشَّريف بمُعاضَدَةِ حُكَّامه ، والآنقيادِ إلىٰ أحْكامه ، والوُقُوف مع نَقْضه وإبْرامه :

فَلْيَجْعَلْ حكْمَ الشريعةِ المطهَّرةِ أمَامه وإمامَه ، وليُقِمْ أمْرَ اللهِ فيمَن ٱقتاده الشرعُ إلىٰ حكمه بجَاذَب زِمامَه ؛ وليُعَظِّم حَمَلةَ العِلْم الذى أعلىٰ اللهُ مَنارَه ، وأفاض علىٰ الأُمَّةِ أنْوارَه ، وحَفِظ بهم على المِلَّة سُنَّة نبيهم صلَّى الله عليه وسلم وآثارَه ؛ وليَكُنْ لأقدارِهم رَافِعا ، ولمضَارِّهم دَافعا ، ولأوْقافِهم بجميل الآحْتِفال عَامِرا ، وفى مصالحهم بتَحْلية الأحْوال آمِرا ؛ ولينْشُر لِواءَ العَدْل الذى أمر اللهُ بنَشْره ، ويشْفَعْه بالإحسان الذى هو مَأْلُوفٌ من سجاياه ومَعْروفٌ من طَلاقَة بِشْره ؛ ويمدَّ على الرَّعايا ظِلَّ رأْفتِه الذى يُضْفِي فى النِّعَم لِباسَهُم ، ويُديمُ إلْفهم بالرَّفاهية وٱستِئْناسَهم ؛ ويُقِمْ حُكْمَ سياسته علىٰ مَن لم يَسْتَقِم ، ويَقِفْ مع رِضَا اللهِ تعالىٰ فى كلِّ أمْر : فإذا رَحِم فللَّهِ فلْيَرحَمْ وإذا ٱنتقم فلِغَيْر اللهِ لا يَنْتَقِم ؛ ولْيَعْتَنِ بعمارة البلاد ببَسْط العَدْل الذى ما ٱحْتَمىٰ به مُلْكٌ إلَّا صَانَه ، والرِّفْقِ الذى لم يكن فى شَيْءٍ إلَّا زَانَه ، وتَوَخِّى الحقِّ الذى مَن جعله نُصْبَ عَيْنَيه وفَّقه اللهُ له وأعانَه . وكذلك أمْر الأمْوالِ : فإنَّها ذَخيرة المُلْك وعَتَادُه ، ومادَّةُ الجَيْش الذى إذا صُرِفَتْ إلىٰ مصالحهم هِمَمُه لم يُخْشَ عليه ٱنْقِطاعُه ولا

(١) يشير إلى بيت من قصيدة لمسلم بن الوليد يمدح بها يزيد بن مزيد الشيباني وهو :

تراه فى الامن فى درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

نَفَادُه، وجميعُ الوصايا قد ألِفْنا من سِيرَتِه فيها فَوْقَ مانَقْتَرِح، وخَبَرْنا من مَقاصِدِه فيها ما يقولُ للسانِ قَلَمِها : قد عرفتُ ما أَوْمَأْتَ إليه من مَقاصِدِك فاسْتَرِح ؛ وملاكُها تَقْوَى اللهِ تعالىٰ ورِضَانا ، وهو المَأْلُوف من عَدْلِه وإنْصافه ؛ واللهُ تعالىٰ يُديمُها بتأْييده وقد فعل ، ويجعله من أرْكان الإسلام وأعْلامِ المسلمين وقد جَعل ؛ بمنّه وكَرَمه، والاعتمادُ ... ... إن شاء الله تعالى[1] .

❖

وهذه نسخةُ تقليدٍ شريفٍ بنِيابَة حَلَبَ أيضا، كُتب بها عن السلطان المَلِك النَّاصر «محمد بن قلاوون» للأمير شَمْس الدِّين «قراسُنْقر» باعادته إليها . من إنشاء الشيخ شِهاب الدِّين محمود الحَلَبيّ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى جعل العَواصِمَ بإقامَةِ فَرْض الجِهَادِ فى أيَّامنا الشريفةِ مُعْتَصِمَه ، والثُّغُورَ بما تفْتَرُّ عنه من شَنَبِ النَّصْرِ فى دَوْلتنا القاهِرةِ مُبْتَسِمَه ، والصَّوارِمَ المُرْهَفة فى أطراف الممالك بأيْدى أوْليائنا لأرْواحِ مَن قَرُب أو بَعُد عنها من الأعْداء مُقْتَسِمَه ، والحُصونَ المُصَفَّحَة بصِفَاحِنا بأعْلام النَّصْر مُعْلَمَةً وبسِيمَا الظَّفَر متَّسِمَه ، مُعْلِي قَدْرِ مَن أحْسن فى مصالح الإسلام عَمَلا ، ورَافِعِ ذِكْرِ مَن يبسط إلىٰ عِزِّ طاعةِ اللهِ ورسولِه وطاعَتِنا أمَلا ، ومُجَدِّدِ سَعْدِ مَن تَلْبَس الأقلامُ من أوْصافه أنْفَرَ الحُلَل إذا خَلعَتْ من المحامد علىٰ أوْصافه حُلَلا، ومُفَوِّضِ زَعامَةِ الجُيوش بمواطن الرِّباط فى سبيله إلىٰ من إذا فَلَّلَتْ مَقاتِلُ العِدا سيوفَ الجِلادِ كانت عَزائِمُه من السيوف المُرْهَفَةِ بَدَلا .

نَحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت طاعَتَنا من آكَدِ أسْباب العُلُوّ ، وخِدْمَتَنا من أنْجَحِ أبْواب الرِّفْعة بحَسَبِ المبالغة فى الخِدْمة والغُلُوّ، ونِعَمَنا شاملةً للأوْلياء بما يُرْبِى علىٰ

طَوامِحِ الآمَال فى البُعْد والدُّنُوّ ؛ ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُستنزلُ بها موادُّ النَّصر والظَّفَر ، وتُستَجْزَلُ بها ذخائرُ التأييدِ التى كَمْ أسْفر عنها وَجْهُ سَفَر ، وتُرْهَفُ بهـا سيوف الجهاد التى كم آلَفَتْ من آمَن وكَفَّتْ من كَفَر ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسولُه الذى أنْزل سَكِينَتَه عليـه ، وزُوِيَتْ له الأرضُ فرأىٰ منهـا مايَبْلُغ مُلْكُ أُمّتِه إليه ، وعُرِضتْ عليه كُنوزُ الدُّنيا فأَعْرَضَ عمَّا وُضِع من مقاليدها بيَدَيْه ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين رضى الله عنهم ، ونَهَضُوا بمـا أُمِروا به من طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه وطاعةِ أُولى الأمْر منهم ؛ صـلاةً دائمة الظِّلَال ، آمنة شَمْسُ دَوامِها من الزَّوال ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمَّا بعدُ ، فإن أوْلىٰ من طُوِّقَتْ أجْيادُ الممالك بفرائد أوْصَافه ، وفُوِّقَتْ إلىٰ مَقَاتِلِ العِدا سِهامُ مَهابَتِه التى تَحُولُ منهم بين كُلِّ قَلْبٍ وشِغَافه ؛ وخُصَّتْ به أُمُّ الثُّغور التى دَرّ لها حَلَبُها ، ومَدّت عليها أفْياءَ النَّصر المَمْدودةَ ذَوابِلُها وقُضُبُها ، وأهْدَىٰ أرجَ التَّبلُّج افْتِرَارُها وشَنَبُها ــ مَن تقومُ مَهابَتُه مقامَ الأُلُوف ، وتَجْتَنِى سُمْعتُه من ذَوابِلِ العزائم ثَمَرَ النَّصْر المَأْلُوف ؛ ويَسْبِقُ خَيالُه سرايا خَيْلِه التى هى أسْرىٰ من هُوجِ الرِّياح إلىٰ هَزْم الجُمُوعِ وتَفْرِيق الصُّفُوف ، وتَنْظِمُ أسِـنَّةُ رِماحِه فى الوَغَىٰ قلوبَ العِدا نَظْمَ السُّطورِ وتَنْثُرُ صِفَاحُه رءُوسَهم نَثْرَ الحُرُوف ؛ وتُحِيطُ بنِطَاق المَمَـالك المُتَطَرِّفَة صَوارِمُه إحاطةَ الأسْوار بالحُصُون ، والخَمائِل بالغُصُون ، والهَالاتِ بالأقْمَـار ، والجَوانِح بالأسْرار ؛ ولا تَبِيتُ ملُوكُ العِـدا منه إلَّا علىٰ وَجَل ، ولا يُرىٰ فى الأمْن إلا فى دِرْعٍ مُضَاعَفَة «لا يَأْمَنُ الدهرَ أنْ يُدْعَىٰ علىٰ عَجَل» ؛ ولا يَخْفَىٰ عن أَلْمَعِيَّتِه ما يُضْمِرُ الأعداءُ من الحركات قبلَ إظْهارها ، ولا يَبْعُد علىٰ عَزَماتِه ماهى مَلِيَّةٌ به من بِدَارِها أعْدَاءَ الدِّين

بَدارِها؛ وإذا جلس لنَشْر المَعْدِلَة تبرَّأ الظلم من فكر [ ](١) البغى والجَوْر علىٰ إنسان، وشَفَع ما تَصَدَّىٰ له من ذلك بمـا أمَر اللهُ به من العَدْل والإحسان .

ولمـا كان الجناب العالى الفُلانىّ هو الذى مُلِئَتْ قلوبُ العِـدا بُرعْبِه، وٱنْطَوتْ قلوبُ الرعايا علىٰ حُبِّه؛ وتَهلَّلتْ وجوهُ المُنَىٰ فى سِلْمِه وٱستَهلَّت سُحُب المنايا فى حَرْبِه، وجمع بين حِدَّةِ البَأْسِ ولُطْف التُّقَىٰ؛ فكان هو الكَمِىَّ الذى شَفَع الشَّجاعةَ بالخُضوعِ لربِّه؛ وحَاطَ ماوَلِيَه من الأقاليم بسُورَىْ بأْسِه وعَدْلِه فبـات كلُّ أحَدٍ وَادِعًا فى مِهَادِه آمِنًا فى سِرْبِه ؛ وأغارَتْ سَرايَا مَهابَتِه قبل طُلوعِ طَلائعِه فأصْبَح كلُّ من العِدا أسِيرَ الذُّعْرِ قبلَ إمْساكِه ـ قَتِيلَ الخَوْفِ قبـلَ ضَرْبِه ؛ مع ٱحْتفال بعمارة البِلادِ، أعَان السُّحُبَ علىٰ رَيِّها، وٱشتمالٍ علىٰ مصالح العِباد، قام فى تَيْسِيرِ أرْزاقِهم مقامَ وَسْمِىِّ الغمائم ووَلْيِها؛ وتَيَقُّظٍ لمصالح الثُّغورِ أنامَ عنها عيونَ الخُطُوب ، وإشراقٍ فى أُفُقِ المَواكِب كَسَا وجْهَ الدِّين نُورَ البِشْرِ ووَجْهَ الكُفْر ظلامَ القُطُوب .

وكانت المملكة الحَلَبِيَّـة عقيلَةَ المَعـاقِل ، وعِصْمَةَ العَواصِم ، ووَاسِـطَةَ عُقود الممالك، وسِلْكَ فرائد النَّصْر التى كم أضاءَتْ بها إلى الكُفْر وجُوهُ المسالك، لا تُدْرَكُ فى مِضْمار الفَخَار شَهْباؤُها، ولا تُرىٰ إلا كما تُرى النجوم فى عيون العِـدا حَصْباؤُها؛ ولهـا من الحُصونِ المَصُونَةِ كلُّ قَلْعة يتَهَيَّبُ الطَّيْفُ سلوكَ عِقَابِها ، ويتقاصرُ لَوْحُ الجوّ عن منال عُقابِها؛ فهى عَزيزَةُ المَنالِ، إلَّا علىٰ كريم كَفَاءَته، بعيدةُ مَجال الآمال، إلَّا علىٰ ما ألِفَت من إيالة كفايَتِـه؛ ساميـةُ الأُفُق إلا علىٰ شَمْسِه ، تَابيَـةُ الطَّرْف إلا علىٰ ما عَرَفت من سلوكه فى أمْسِه ، ظَاميـةُ الغُروسِ التى أنْشَأها فى مصالحها إلىٰ ما ٱعْتادَتْه من سُقْيَا غَرْسِه ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أنْ نَزِيدَها إشراقًا بشمْس

(١) بياض بالأصل .

جَلاله ، وٱعتلاءً بسَيْفه الذى رياضُ الجَنَّة تحتَ ظِلاله ؛ وأن نُعيدَ أمْرها إلىٰ مَن طالمـا حَسَّن عَدْلُه بُقْعتَها ، وحصَّن بَأْسه قَلْعتَها ؛ وأطَارت مَهابَتُه سُمْعتَها ، وأطَالتْ سِيَرتُه سُكُونَ رعاياها فى مِهادِ الأمْن وهَجْعتَها ؛ وأعاد وُجودُه أحْوال مُجاوِريها من العِدا إلى العَــدم ، وأبَاد سَيْفُه أرْواح مُعانِدِيهـا : فلو أنْكَرْتْه أعْناقُهم لم يكن بالعَهْد من قدَم .

فلذلك رُسم بالأمْرِ الشَّريف ـ لا زالتْ شَمسُ عَدْله ، مُشْرِقَةً فى الوجود ، وغَيْثُ فَضْله ، مستهِلَّ الجُود فى التَّهائِم والنُّجود ـ أنْ تفوّضَ إليه ... ... تفويضًا يُجَدِّد ٱرْتِفاعها ، ويُعمِّر وِهادَها وبِقاعَها ، ويُؤَيِّد ٱنْدفاعَ مَضَارِّها وٱنْتِفَاعَها ؛ ويُعيدُ الإشْراقَ إلىٰ مَطالِعِها ، والأُمُورَ إلىٰ مواقِعها من سَدَادِ التدبيرِ ومَواضِعِها ؛ والإقدامَ إلىٰ جُيُوشِها وأبْطالها [والشجاعة الى حماتها ورجالها] .

فلْيَطْلُعْ فى أُفُق مَواكِبِها طلوعَ نَعْتِه الكريم ، ويُجْرِ فى جَوانِبِها ما ألِفَتْه من موارد عَدْله الذى فَارقَها غَمامُه وأثَرُ سَيْلِه مُقيم ؛ ويُعاوِدْ مصالِحَ تلك المَمْلكةِ التى لا تصلُح أُمورُها إلّا عليه ، ويُراجِعْ عِصْمةَ تلك العَقِيلةِ التى لا تطمَحُ أبْصارُ عَواصِمِها إلّا إليه ، ويُلْقِ فى قُلوبِ مُجَاوِرِيها ذلك الرُّعْبَ الذى نَعَىٰ إلىٰ كلٍّ منهم نَفْسَــه وأسْلاه عمّـا فى يَدَيْه ؛ ويُثَبِّتْ تلك المهابَةَ التى جعلت مَنايا العِدا براحَتِه يأْمُرها فيهـم ويَنْهاها ، ويَنْشُرْ فى الرعايا تلك المَعْدِلةَ التى هى كالشَّمس : لا تَبْتَغِى بمـا صَنعتْ مَنْزِلةً عندهم ولا جَاها ؛ ولْتَكُنْ أحْوالُ عدوِّ الإســلام بمرأًى منه علىٰ عادته ومَسْمَع ، ويَكُفَّ أطماع الكُفّار علىٰ قاعدته فلا يحدُثُ لهم إلىٰ شَــيم بَرْق الثُّغور مطْمَحٌ ولا فى العــلم بشَنَبِها مَطْمَع ؛ وليكنْ من أرصادِه ، نَهارُ عدوِّ الدِّين ولَيْلُه ، ومن أمْدادِه ، مجازُ الجهاد وحقيقَتُه فلا يبرحُ يُبَيِّتُهم خَيالُه إذا لم تُصَبِّحْهم خَيْلُه ؛ ولا يبرحُ له من أعْيان عُيُونه

بين العِدا فِرْقةٌ ناجِيَــه ، وطائفــةٌ بأسْرار قُلوبِ القَوْم مُناجِيَــه ، لتكونَ له مَقاتِلهُم علىٰ طُول الأَبَد بَادِيَه ، وتَغْدُو مَنازِلُهم خاوِيَةً بين سراياهُ الرائحــةِ والغادِيَه . ولْيَتَعاهَدْ أَحْوالَ الجيوشِ بإدامةِ عَرْضِها ، وإقامةِ واجِبـاتِ القُوَّةِ وفَرْضِها ، وإطالةِ صِيتِ السُّمْعةِ المشهورةِ لكُمَاتِها فى طُولِ بلاد العِدا وعَرْضِها ، وإزاحةِ أَعْذَارِها للرُّكوب ، وإزَالَةِ عَوائِقِ ٱرتيادها للوُثُوب ، وإعْدادِ العُدَد التى لهــا من أيْديهم طلوعٌ و[فى] مقاتل أعْدائهم غُروب . وليتفقدْ أحْوالَ الحُصونِ المَصُونة بسِدَاد ثُغُورِها ، وسَدَاد أُمُورِها ، وإزاحَةِ أعْذار رجالهــا ، وإرهاف هِمَمِ حُماتِهــا التى تضيقُ علىٰ آمالِ العدا سَعَةُ مجالهــا ، وتَوْفير ذخائرِها ، وتَعْمير بَواطِنها وظَواهِرِها ، وتَحْصينِ مَسَالِكِها التى يَرْهَبُ الخيالُ المتولى إلىٰ العيونِ سلوكَ مَحاجِرِها .

ولْيُعْلِ مَنــارَ الشَّرعِ الشريف بتَشْييد مناره وإحْكامه ، وتنفيذه لقَضاياَ قُضَاته وأحْكام حُكَّامه ، والوُقوفِ فى كلِّ أمْرٍ مع نَقْضِــه فى ذلك وإبْرامه ، ورَفْعِ أقْدار حَمَلةِ العِلْم علىٰ ما ألِفُوه من الرِّفْعــة والسُّموِّ فى أيَّامه . ولْتَكُن وطْأةُ بأســه علىٰ أهل الفَساد مُشْتَدَّه ، وأوامِرُه مُتَقَدِّمَةً بوَضْع الاشــياء فى مواضعها : فلا تُوضَع الحِــدَّةُ موضعَ الأَنَاةِ ولا الأَنَاة موضع الحِــدَّه . وليراع عُهودَ المُوادِعِين مهــما استقاموا ، ويجمع عليهم إن يَكُفُّوا أنامِلَ بأْسه التى هم فى قَبْضَتِها رَحلُوا أو أقامُوا ، ولتخبر ألْسنةُ النيران بشَبِّها على اليَفَاع [والآكام] مَنْ قدم لمكيدة أو طعن بمَطَارِ الحمَامِ ــ وجميع ما يتعلَّق بهــذه المَرْتَبة السنية من قواعِدَ فإلىٰ سالفِ تَدْبيره يُنْسب ، ومن ســوابق تَقْريره وتَحْريره يُحْسَب ، فهو ٱبن بَجْدَتِها ، وفَارِس نَجْدَتها ، ومُؤَثِّلُ قواعدها ، ومُوَثِّر ماحُمِد من ٱمتداد عَضُدِها إلىٰ مصالح الإسلام وسَاعِدِها ، فلْيفعلْ فى ذلك ما يشكره الله والإسلام عليــه ، ويُثبِّت الحجَّةَ عند الله تعالىٰ فى إلْقاء المقاليد إليــه ، وملاكُ

الوصايا تقوى الله وهى سَجِيَّة نَفْسِه، وثَمَرَة ما ٱجْتَنىٰ فى أيَّام الحياة من غَرْسه، ونَشْرُ العَدْل والإحسان فبِهما تظهرُ مَزِيَّة يَوْمه الجميلِ علىٰ أمْسه؛ والله تعالىٰ يجعل نِعَمَه دائمة الٱستقبال، وشَمْسَه آمنة من الغُروب والزَّوال؛ والٱعتماد ... ... :

الطبقة الثانيـــــة

(من يكتب له فى قَطْع الثُّلث بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفـــــة الأولىٰ

(نيابة القَلْعَة بها)

وهذه نسخةُ مَرْسُومٍ شريفٍ بنيابة قَلْعة حَلَب :

الحمدُ للهِ مُعْلِي قَدْرِ من تحلَّىٰ بالأمانة والصَّوْن، ورافعِ مكانةِ من كان فيما عَرَض من العَوارِض نِعْمِ العَوْن؛ ومُؤَهِّلِ من أرْشَدَنا إليه لِلاجْتِباءِ حسنُ الٱختبار، ومُبَلِّغِ الإيثار من شُكِرَتْ عنه محامدُ الآثار .

نحمدُه حمدَ الشَّاكرين، ونَشْكره شكْرَ الحامدين؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِصٍ فى اعتقاده، مُبَرَّإٍ من افْتِراء كلِّ جاحِدٍ وإلْحادِه؛ ونشْهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أرْسله بالحقِّ بشيرًا ونذيرا، وأيَّده بسُلْطانٍ منه وطَهَّر[به] الأرْضَ من دَنَسِ الضَّلالِ تَطْهيرا، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يزال عَلَمَ العِلْمِ بها مَنْشورا، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ العنايَةَ بالحصُون تُوجِب أن لايُخْتارَ لهـا إلا من هو مَلِيٌّ بحِفْظِها، مُوَفِّر[لهـا] من حُسْنِ الذَّبِّ غايةَ حَظِّها؛ حسَنُ المُرَابَطَه، مبرَّأٌ من دَنَس الأفعال

السَّاقِطَه ، ذو قَلْبٍ [قوىّ] وقَالِب ، وعَزْمٍ مازال لمهمات الأمور أشْجعَ مُغالِب ، إذْ هو للْمُرابِطين بها أوْثقُ حِرْزٍ حَرِيز ، وأصْوَنُ حِجابٍ لمُبارَزَة ذَوِى التَّبريز ، [فتصبح به] مستورا عَوارُها ، كاتمةً لأسْرارِها أسْوارُها ، تخاطب مُنازِلِيها من مَجانيقها بأبْلغ لِسان ، وتُشافِهُ مُلاجيها من أنَفَةِ أنْفِها إلا أنه بأعلىٰ مكان .

ولما كانت القلعةُ الفلانية بهذه المَنْزِلة الرَّفيعه ، والمَكانَةِ التى كلُّ مَكانَةٍ بالنِّسْبة والإضافة إلىٰ عُلُوِّ مكانها المَكانَةُ الوَضِيعَه ـ ٱخْتَرْنا لها وٱبْتَغَيْنا ، وٱسْتَوْعَبنا بالتَّأْهيل لنيابتها ولم نترك فى ٱسْتِيعَابِنا ولا أبْقَيْنا ، فلم نَجِدْ لولايَتِها كُفْأً إلا من نُظِمَتْ عُقود هذا التَّقْليدِ لتَقْليده ، ورُتِّلَتْ سُوَرُ هذه المحامدِ بمُبْدِئِ لسان تَقْريظه ومُعِيده ، إذ هو أوْثقُ من يُلْقىٰ إليـه إقْلِيدُها ، وأكْفَأُ من يُنْجِزُ به مَوْعُودُها ، إذ كان المَكِين ، والثِّقةَ المُتَحَلِّىَ إذ كان التحلِّى مما يَزِينُ العاطِلَ المَشِين ، إن ذُكِر الرَّأْىُ فهو المتَّصِفُ بسَدِيده ، أو العَزْمُ فهو الموسُومُ بشَدِيده ، أو التَّثَبُّت فهو من صِفة شَجاعَتِه ، أو حُسْنُ المُظافَرة فهو الباذل فيها جُهْدَ ٱستطاعته .

ولما كانت هذه المناقبُ مَناقِبَه ، وهذه المَذاهِبُ مَذاهِبَه ، رُسم بالأمر الشَّريف العالى ـ زاده الله مَضَاءً ونَفاذا ، وٱسْتِحْواءً وٱسْتِحْواذا ـ أن تفوَّضَ نيابة السَّلْطنة بالقَلْعة الفُلانِيَّـة وما هو منسوبٌ إليها من رُبُضٍ ونَواح ، وقُرًى وضَواح ، للمجلس السَّامى فُلان .

فلْيَرقَ إلىٰ رُتبتِها المُنِيف قَدْرُها ، المُهِمِّ سِرُّها وجَهْرُها ، ولْيَكُن من أمْرِ مصالحها علىٰ بَصِـيرَه ، ومن تَفَقُّدِ أحْوالهـا علىٰ فِطْنةٍ مازالت منـه مَخْبُورَه ، ولْيأْخُذْ مُحْرِزَها من الجُنْـد وغيرِهم بالمُلازمَةِ لمـا عُدِق به من الوظائف ، ويتَقَدَّمْ إلىٰ واليهـا مع طَوَّافيهـا أوّل طائف ، وليتفقَّدْ حواصِـلَها من الذَّخائر ، وواصِلَها من التَّبْـذِير بمن

يرتِّبــه علىٰ حفظها من الأخاير؛ ومهــما عَرضَ يُسْرِعْ بالمطالعة بأمْره، والإعلام بنَفْعه وضَرِّه .

هذه نُبْذَةٌ كافيــةٌ للوثُوق بِكفايته، والعِلْم بسَدِيدِ كفالَتِه ؛ والله تعـالىٰ يحسن له الإعانَه، ويجزل له الصِّيانَه ؛ والخط الشَّريفُ أعْلاه ... ... :

الوظيفــــة الثانيـــــــة
(شدُّ الدَّواوِين بحَلَب)

وهذه نسخةُ تَوْقيع بشدِّ الدَّواوين بحَلَب :

الحمدُ للهِ الذى أرْهفَ فى خِدْمةِ دَوْلَتِنا كلَّ سَيفٍ يُزْهَى النَّصرُ بتَقْليده ، ويُرْوَىٰ نَبأُ الفَتْحِ عن تَجْرِبَتِه فى مصالح الإسلام وتَجْرِيدِه، ويَرْوَىٰ حَدُّه إذا قابله عَدُوُّ الدِّين من قُلُبِ قَلْبِه ومَوَارِدِ وَرِيدِه .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه السابغةِ حمدَ متعرِّضٍ لمزيده، ونشكره علىٰ مِنَنِه السَّائِغَة شكرَ مسْتَنْزِلٍ موادَّ تأْبيدِه؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةَ مُقِرٍّ بتَوْحِيدِه، مُسِرٍّ مثل ما يُظْهِرُ من الخضوع لِكبْرِياءِ تَقْديسِــه وتَمْجِيدِه، مُصِرٍّ علىٰ جهادِ من ألْحَــدَ فى آياته بنَفْسه وجُنُودِه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه أشْرفُ من دَعتْ دَعْوتُه الأُمَمَ إلىٰ الآعتراف بخالقها بعد جُحُودِه، وأنْجزَ لأُمَّتِه من الآستيلاء علىٰ الكُفْر سابِقَ وُعُودِه، وأمالَ به عَمُودَ الشِّرْكِ فأهْوىٰ إلى الصَّعيد بعد صُعُودِه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا من بَذَل فى طاعة اللهِ وطاعتِه نِهايةَ مجْهودِه، وأطْفَأ نارَ الكُفْرِ بعد وُقُودها بإيقَادِ لَهَبِ الجهاد بعــد خُمُودِه ؛ صــلاةً تقترن بركوع الفَرْض وسُجُودِه، وتُقامُ أرْكانُها فى أغْوارِ الوجود ونُجُودِه؛ وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعـد ، فإنّ أولىٰ ما أجملنا فى مصالحه النَّظر ، وأعملنا فى آرتياد الأكفاء له بوادر الفكر ، وآخترنا له من الأولياء من كان معـدودا من خواصّنا ، محبُوًّا بمزيد تقريبنا ومزيّة آختصاصنا ، أمرُ الأموال الدِّيوانيّه بالمملكة الحلبيّـه وتفويضُ شدّ دواوينهـا المعمورةِ إلىٰ من تُضاعِفُها رتبتُـه المكينه ، ونزاهتُه المتينه ، ويده التى هى بكمال العفَّة مبسوطه ، وخبرتُه التى بمثلها يحسُنُ أن تكونَ مصالحُ الدولةِ القاهرةِ منُوطه ، ومنزلتُـه التى تكُفُّ عن الأموال الأطماعَ العاديَه ، ومهابتُـه التى تكفى الأولياءَ من ضَبْط الأعمال بما يَروِى الآمالَ الصَّاديَه ؛ لأنَّها موادُّ الثُّغور التى ما برِحت عن شَنَبِ النَّصر مُفترَّه ، وأمدادُ الجيوشِ التى جعل الله لها أبدًا علىٰ أعدائه الكرَّه ، ورياضُ الجهادِ التى تُجتنَىٰ منها ثمراتُ الظَّفر الغضّـه ، وكُنوزُ المُلْك التى يُنفَقُ منها فى سبيل الله القَناطيرَ المُقنطَرَةَ من الذَّهب والفضّه .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى آخترناه لذٰلك علىٰ علم ، ورجَّحناه لمـا آجتمع فيـه من سُرْعَة يقَظَةٍ وأناةِ حِلْم ، وندَبناه فى مُهِمّاتنا الشريفةِ فكان فى كلِّ موطنٍ منها سَـيْفا مُرْهَفا ، وآخترناه فكان فى كلِّ ما عدَقْناه به بين القوىِّ والضَّعيف مُنْصفا ، وعلِمْنا من معرفته مايَستثيرُ الأموال من مكامِنِها ، ومن نزاهته مايُظْهِرُ أشتات(؟)المصالح من معادِنِهـا ، ومن معْدِلَتِـه ما يمتِّع الرعايا بآجتناء ثمَر المُنَىٰ من إحسان دولتنا القاهرة وآجتلاء محاسنِها ــ آقتضت آراؤُنا الشريفـةُ أن نُحَلِّيَ جيدَ تلك الرتبة بعقُود صفاته الحسَنه ، وأن نُنبِّه علىٰ حُسْن هِممه التى ما برحت تَسْرى إلىٰ مصالح الدولة القاهرة والعيونُ وَسِنَه .

فلذٰلك رُسم أن يُفوَّض إليه ذلك تفويضًا يبسُـط فى مصالح الأموال لِسانَه ويَدَه ، ويَقْصُرُ علىٰ مضاعفة آرتفاعِ الأعمال يومَه الحاضرَ وغَدَه ، ويُحسِّنُ بسدّ الخلَلِ

وتَتَبُّعِ الإهمـال مصْدَرَه الجميلَ ومَوْرِدَه ؛ ويجعل [له] فى مصالحها العقْدَ والحَلّ ، والتَّصَرُّفَ النافذَ فى كلِّ مادَقَّ من الأمْوال الدِّيوانية وَجَلّ .

فليُباشِرْ ذٰلك بِهِمَّةٍ عِلمْنا فى الحق مَواقِعَ سَيْفِها ، وأمِنَّا على الرعايا بمـا ٱتَّصفَتْ به من العدل والمعرفة من مواقع حَتْفها ، وأيقظتِ العيونَ الطَّامحةَ لسلوك ما [لا] يحب بما لم تزلْ تَتَخيَّلُه من روائع طَيْفِها ؛ ولْيُثَمِّرِ الأمْوالَ بالجَمْع فى تحصيلها بين الرَّغْبَة والرَّهْبه ، ويجعَلْ مايَستخرِجُ منها ببركة العِفَّةِ والرِّفْق : ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّه﴾ . وليُعَفِّ أثَرَ الحمايات ورَسْمَها ، ويُزِلْ بالكلِّية عن تلك الممالك الحَسَنَة وَسْمَها القَبيحَ وٱسْمَها ؛ وليكُنْ مُهِمُّ الثغورِ هو المُهِمَّ المقـدَّمَ لَدَيه ، والنَّظَرُ فى كُلَفِ القِلاعِ المحروسةِ هو الفَرْضَ المتعيِّنَ أداؤُه عليه ، فيحْمِلُ إليها من الأموال والغِلَال ما يَعُمُّ حواصِلَها المَصُونَه ، ويكْفِى رِجالَهـا الفِكْرَ فى المَئُونَه ؛ ويضـاعِفْ ذَخائِرَها التى تُعَدُّ من أسْباب تَحْصِينِها ، ويُصْبِح به حملُ عامِها الواحدِ كفَايةَ مايستقبلُه مع موالاة الحُمول من سِنِينِها ؛ وماعدا ذلك من الوصايا فقد ألْقَينا إلىٰ سَمْعِه ما [عليـه] يعتمد ، وعَرَّفْناه أنَّ تقوى الله أوفىٰ مابه يَسْتبِدُّ وإليه يَسْتَنِد ؛ بعد الخط الشَّريف :

الصـــــنف الثـانى

(من أرباب الوظائف بحَلَب ــ أرْبابُ الوظائف الدِّينية)

وهم علىٰ طبقتين أيضا :

الطبقــــة الأولى

(من يُكْتب له فى قَطع الثلث بـ«السَّامى» بالياء ، وتشتمل علىٰ وظائف)

منهـا ــ قَضَاء القُضَاة . وبها أرْبعة قُضاةٍ : من كل مذهب قَاضٍ ، كما فى الديار المصْرية والشَّام . والشافعىُّ منهم هو الذى يولِّى بالبلاد كما فى مِصْر والشَّام .

وهذه نسخةُ توقيع بقَضاء قُضاة الشَّافعية :

الحمد لله الذى رفع منارَ الشَّرع الشريف وأقامَه، ونَوَّر به كلَّ ظلامٍ وأزالَ به كلَّ ظُلامَه، وجعله صِراطًا سَوِيًّا للإسلامِ والسَّلامه؛ الذى جعل القُضَاة أعْلامًا، بهم يُهتَدىٰ، ونَصَبهم حُكَّاما، بمراشدهم يقتاد ويُقْتَدىٰ، وأَخذَ بهم الحقَّ من الباطل حتَّى لا يُعْتَلُّ فى قَضِيَّةٍ ولا يُعْتَدىٰ؛ والصَّلاةِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أوْضح اللهُ به الطَّريق، وأبْدىٰ به بين الحلال والحرام التَّفْرِيق، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تتكفل لرغَبَاتِ قائلها بالتَّحْقيق .

وبعدُ، فإنَّ أَحَقَّ ما وَجَّهت الهِمَمُ إلىٰ تصريفه وجْهًا مُسْفِرا، وقرّبتْ(١) إلىٰ يَدِ الأقتطاف من شجرته المباركة غُصْنا مُثْمِرا، وسَهَّدت فى الأختيار له والأصطفاء لَحْظًا ما زال للفِكْرِ فى مصالح الأُمَّة مُسْهِرا ـ الشرعُ الشريفُ الذى حرس اللهُ به حَوْمَةَ الدِّينِ وحَمىٰ جانِبَه، وحَفِظ به أقْوالَ الهُدَى عن المجادلة من المُبْتَدِعين وأطْرافَه من المُجاذَبَه؛ وكانت حِراسَتُه معدُوقةً باختيار الأئمَّة الأعْلام، ومَوْقوفةً علىٰ كلِّ مَن يُطاعِنُ البِدَعَ عند الأستفتاء بِرماحِ الخَطِّ وليست رماحُ الخطِّ غيرَ الأقْلام؛ ومُصَرَّفةً إلىٰ كلِّ مُنصِفٍ فى قضاياه حتَّى لو ترافعت إليه اللَّيالى لأَنْصفها من الأيَّام.

ولمـا كان فلانٌ هو مَدْلولَ هذه العِبارَه، ومُرْتمىٰ هذه المشَارَه، ومُرْتَمَق هذه الإشارَه؛ وقد حَلَّ من المَمَادح فى محل صَعْبِ المُرْتَقىٰ علىٰ مُتوَقِّله، وطلع من منازل سعودها فى بُرُوج بَعِيدَةِ الأَوْج إلا علىٰ سَيْرِ بَدْره وتَنَقُّله؛ وطالما حَكَم فأحْكم؛ وَفَصَل فَفَصَّل؛ ورُوجِعَ فما رَجَع وعَدَل فعدَّل؛ وشهدت مراتبُه الشريفةُ بأنَّه خيرُ من تنوّلها ميراثا وآستِحْقاقا، وأَجَلُّ مَن كادت تَزْهُو به مَطَالِعُ النجوم إشْراقًا وإشراقا؛ وكانت حَلَبُ المحروسةُ مركزَ دائرة لأيَّامه، وسلكَ جوهرِ تصريفه الذى

(١) فى الأصل «وصلت» ولم نفهم له معنى يناسب .

طالما تقلدت أحسنَ العقود بنظامه، وقد آفتخرتْ به آفتخارَ السماءِ بشَمْسِها، والرَّوْضةِ بغَرْسِها ؛ والأفهامِ بإدْراكِ حِسِّها ، والأيَّام بما عَمِلَتْه من خَيرٍ فى يومها وأسْلَفته فى أمْسِها ؛ وقد آشتاقتْ إلىٰ قربه شَوْقَ النَّفْس إلىٰ تردّد النَّفَس ، واللَّيلةِ إلىٰ طلوع النَّجم أوْلَا فإلىٰ إضاءَةِ القَبَس .

فلذلك خرج الأمرُ الشَّريفُ بأن يُجَدَّد له هذا التوقيعُ بالحكم والقضاء، بالمملكة الحَلَبِيَّة وأعمالها وبلادها ، علىٰ عادته .

فلْيَسْتَخِرِ اللّهَ تعالىٰ ولْيَسْتَصْحِبْ من الأحكام ما هِمَّتُه مَلِيَّةٌ باسْتِصْحابِه ، ويَسْتَوْعِبْ من أُمُورها ماتتوضح المصالحُ باسْتِيعَابِه ؛ ويُقِمْ بها مَنارَ العَدلِ والإحسان ، ويَنْهَضْ بتدبيرِ ما أقْعدَه منها زَمانَةُ الزَّمان . وعنده من الوصايا المباركه ، مايسْتَغْنِى به عن المُساهَمة فيها والمُشارَكه ؛ لكن الذِّكْرَى النافعةُ عند مِثْله نَافِقه ، فإن لم يكن شُعاعُ هِلالٍ فَبارِقه ؛ وليتَّقِ الله ما آستطاع ، ويُحْسِنْ عن أمْوال اليتامَى الدِّفاع ، ويحْرُسْ مَوْجودَ من غاب غَيْبَةً يجب حِفْظُ ماله فيها شرعا ، ويقْطَعْ سَبَبَ من رام لأسباب الحقّ قَطْعا ، ولا يراع لحائفٍ حُرْمَةً فإنّ حُرمات الحائفين لا تُرْعىٰ ؛ ويَنْظُرْ فى الأوقاف نَظَرا يحرُسُها ويَصُونُها ، ويبحثْ عنها بَحْثًا يَظْهَرُ به كَمِينُها ؛ والله تعالىٰ يسدِّدُه فى أحْكامه بمنه وكرمه ! .

قلتُ : وعلىٰ ذلك تُكْتَبُ تواقيع بقية القُضاة بها من المذاهب الثلاثة الباقية .

ومنها — وَكالةُ بيْتِ المال المعمور .

وهذه نسخة تَوْقيع من ذلك، كُتب بها لمن لقبه «كمال الدِّين» وهى :

الحمْدُ للهِ الذى جعل كمالَ الدِّين موجودا ، فى آقتران العِلْم بالعَمَل ، وصلاحَ بَيْتِ المال مَعْهودا ، فى استناده إلىٰ مَن ليس له غيرَ رضَا اللهِ تعالىٰ و براءَة الذِّمة أمَل ،

وٱرْتقاءَ رُتَبِ المتَّقِين مقصورًا علىٰ من بارتقاءِ مِثْلِه من أئمَّة الأمَّة تُزْهىٰ مناصبُ الدُّول، والاكتفاءَ بالعلماء محْصُورًا فى الآراء المَعْصُومة بتوفيق الله من الخَلَل .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمه التى جعلت مُهِـمَّ مصالحِ الإسلام، مُقَدَّمًا لَدَيْنا، وٱختصاصَ المَرَاتب الدِّينية بالأئمَّة الأعْلام، مُحبَّبا إلينا ؛ ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً رفَع الجهادُ عَلَمها، وأمضىٰ الآجتهادُ كَلِمَها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أشْرقتْ سماءُ مِلَّتِه، من علماء أُمَّتِه، بأَضْواءِ الأَهِلَّه، ونطقتْ أحْكامُ شِرْعَتِه، علىٰ أَلسِنَةِ حَمَلَةِ سنَّتِه، بأَوْضحِ الأدِلَّه ، و بزغَتْ شمْسُ هِدايَتِه فى تَهائِمِ الوُجود ونُجُودِه فانطوت بها ظُلَمُ الأهواءِ المُضِلَّه ؛ صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نصحوا لله ولرسـوله ، وآثروا رضاه علىٰ نفوسهم فلم يكنْ لهم مُرادٌ سوىٰ مُراده ولا سُولٌ غير سُولِه ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

و بعــدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ من تَلَقَّـاه كرَمُنا بوَجْه إقباله ، وٱختارتْ له آلاؤنا من الرُّتَبِ ما صدّه الإجْمال فى الطَّلبِ عن تَعَلُّقه ببَالِه ؛ ورَأىٰ إحسانُنا مكانَه من العِلْمِ والعَمَل فعَـدَق به من مَصالح المسـلمين مالم يتركْه أوّلًا إلَّا موافقةً له لا رَغْبةً عن خَيالِه ، ورَعىٰ بِرُّنا وِفادَتَه فاقتضى إعادته من مَناصِبِه إلىٰ مالم يَزَلْ مُشْرِقَ الأُفُقِ بكمال طَلْعته وطَلْعـة كماله ــ مَن ظهرتْ لَوامِعُ فوائده ، وبَهرتْ بدائعُ فرائِده؛ وتَدَفَّقتْ بِحـارُ فَضائِله ، وتألَّقتْ أشِعَّة دلائِله ؛ وتَنَوَّعَتْ فُنُونه : فهو فى كلِّ عِلْمٍ آبنُ بَجْدَته ، وفارسُ نَجْدَتِه ، وحامِل رايَتِه ، وجَوادُ مضماره الذى تَقِفُ جيادُ الأفْكار دُون غَايته .

ولمـا كان فلانٌ هو هذا البحرَ الذى أُشير إلىٰ تَدَفُّقه ، والبَدْرَ الذى أُومِئَ إلىٰ كمال ما تألَّق به من أُفُقِه؛ وكانت وكالَة بيْتِ المـال المعمورِ بحَلَب المحروسةِ من المناصب التى لايتعَيَّنُ لها إلا من تُعقَدُ الخناصر عليه ، ويُشارُ ببَنان الآختِصاص إلَيه ، ويُقْطَعُ

بجميل نُهوضِـه فيما يُوضَع من المصالح الإسـلامية بيَدَيْه ؛ وله فى مباشرتها سَوابِق ، وآثارٌ [إن] لم تَصِفْها ألْسِنَةُ الأقْلام أوْحتْ بها تلك الأحْوالُ الحاليةُ وهى نَواطِق ـ آقتضتْ آراؤُنا الشريفـةُ إنْعام النَّظَر فى الإنعام عليـه بمكانٍ ألِفَه ، ومنْصبٍ رَفَع ما أسْلفه فيه من جميل السِّيرة قدرَه عندنا وأزْلَفَه .

فرسم بالأمر الشريف ـ لازال بَابُه ثِمالَ الآمال ، وأُفُقَ السَّعْدِ الذى لَو أَمَّهُ البَدْرُ لَمَا فارق رُتَبَ الكمال ـ أنْ يفوّضَ إليه كذا : لمـا ذكر من أسْبابٍ عَيَّنَتْه ، وفَضائِلَ تَزيَّنتْ به كما زَيَّنَتْه ؛ ووِفَادَةٍ تقاضَتْ له نُزُلَ الكرامَه ، واقتضتْ له موادّ الإحسان وموارِدَه فى السَّرَىٰ والإقَامَه .

فلْيَلِ هذه الرتبـةَ التى علىٰ مِثْله من الأئمَّة مَدَارُ أمْرِها ، و بمِثْل قُوَّته فى مصالحها يَتَضاعَفُ دَرُّ آحْتِلابِهـا ويترادفُ آحتـلاب دَرِّها ؛ مُراعِيًا حقوقَ الأُمَّة فيما جرّه الإرْثُ الشرعىّ إليهم ، مُناقشًا عن المسلمين فيما قَصَره مذْهبُه المُذْهَبُ من الحقوق المَـالِيَّة عليهـم ؛ وَاقِفًا بالحقِّ فيما يثْبُت بطَرِيقه المُعْتَبَر ، تابِعًا لحكْمِ اللهِ فيما يختلف سبيله [و]فيما يحرّر بالعِيانِ أو يُحَقَّقُ بالخَبَر ، مُحافِظًا علىٰ مايئُـول إلىٰ بيْتِ المال بلُطْفِ تَدْقيقه ، وحُسْن تَحْقيقِه ، وقبولِ الدَّافِع بوجْهِه ودَفْعِـه بطَرِيقه ؛ ولا يَمْنعُ الحقَّ إذا ثبت بشروطه التى أعذر فيها ، ولا يَدْفَع الواجب إذا تعيَّن بأسْبابِه التى يتقاضاها الشَّرْعُ الشَّريفُ ويقْتَضيهـا ؛ وهو الوكيل عن الأُمَّة فيما لهم وعليهـم ، ومتولِّى المدافَعـة عنهم فيما يُقِرُّه الشرعُ فى يَدَيْهم ؛ فلْيُؤَدِّ عنهم أمانَةَ دينِـه ، ويجْتهِدْ لهم فيما وضعناه من أمْر هذه الوكالة الشريفة بيَمِينه ؛ ومِلاكُ هذا الأمْر الوقوفُ مع الحقِّ الجلىّ ، والتَّمسُّكُ بالتَّقْوى التى تظهر بها قُوَّةُ الأمين وأمانةُ القوِىّ ؛ والله تعالىٰ يوفِّقه ويسـدِّده .

قلتُ : وفى معنىٰ ما تقدّم من قَطْع الورق والألقاب الحسبةُ ، ونظرُ الأوْقاف الكِبار، وخَطابَةُ الجوامع الجليلة ، وكِبارُ التَّدارِيس ، وما يجرى مجرىٰ ذلك : إذا كُتِب به من الأبْواب السُّلطانية . وإلّا فالغالبُ كتابةُ ذلك جَميعِه عن نائب السَّلْطنة بها .

الطبقة الثانية

(من يكتب له فى قَطْع العادة «بالسامى» بغير ياء، أو «بمجلس القاضى»)

قال فى "التثقيف": وهم مَن عَدا القضاة الأرْبعة من[أرباب] الوظائف الدينية، فيدخلُ فى ذلك قَضاءُ العَسْكر، وإفْتاءُ دار العَدْل ، وما يجرى مجرىٰ ذلك ، حيثُ كُتِب من الأبواب السلطانية .

الصنف الثالث

(من أرباب الوظائف بحَلَب ـ أرْباب الوظائف الديوانية،
وهم علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ

(من يكتب له فى قطع الثلث بـ«ـالسامىّ» بالياء . وتشتمل علىٰ وظائف)

منها ـ كتابة السرّ. ويعبَّر عنها فى دِيوَانِ الإنشاء بالأبواب السلطانية ـ بصاحب دِيوانِ المُكاتَبات، ورُبَّما قيلَ : صاحبُ ديوان الرسائل . قال فى "التثقيف" : ورُبَّما كُتب له فى قَطْع النِّصف .

وهذه نسخة تَوْقيع شريفٍ من ذلك، وهى :

الحمـدُ لله الذى زان الدَّوْلةَ القاهرةَ، بمَن تغدُو أسرارُها من أمانَتِـه فى قرارٍ مَكِين، وحلَّىٰ أيَّامنا الزاهرةَ، بمن تَبْدُو مَراسِمُها من بلاغَتِه فى عِقْد ثَمِين، وجُمَّـل الكُتب السائرة، بمَن إذا وَشَّتْها بَراعتُه ويَراعَتُه قيل : هذا هو السِّحْر البَيانِىُّ إن لم يكن سِحْرٌ مُبِين .

نحمـدُه علىٰ نِعَمِه التى خصَّت الأسْرار الشريفة بمن لم يَرِثها عن كَلالَه، ونَصَّتْ فى تَرقِّى مناصبِ التَّنفيـذِ علىٰ من يَسْـتَحِقُّها بأصالَةِ الرَّأْى وقِدَمِ الأصَاله ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً رقَمَ الإخْلاصُ طُروسَها، وسَقَى الإيمـانُ غُروسَها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى آتاه جَوامِعَ الكَلِم، ولَوامِعَ الهُدىٰ والحِكَم ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِـه الذين كَتَبَ فى قلوبهم الإيمـان، وكَبَتَ بهم أهلَ الطُّغْيان ؛ صلاةً يشْفَعُها التَّسليم، ويَتْبَعُها التَّعظيم ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلىٰ الرُّتبِ بارتيادِ مَن تُعْقَدُ علىٰ أوْلَوِيَّتـهِ الخَناصِر، ويُعْتَمدُ علىٰ أصالَتِه التى ما بَرِحَتْ فى الاتِّصال والاتِّصاف بها ثابِتَةَ الأواصِر ؛ ويعتَقَدُ فى أمانَتِه التى تَأْوِى بها الأسْرارُ إلىٰ «صَخْرةٍ أعيا الرِّجالَ انْصِداعُها» ويعتَضَدُ بفضائله التى يَقِلُّ فى كثيرٍ من الأكْفاء اجْتِماعُها ؛ ويعوَّلُ فيها علىٰ بَلاغَتِه، التى أعْطتْ كلَّ مقامٍ حقَّه من الإطْنابِ والإيجاز، ويرجَعُ فيها إلىٰ بَديهَتِه، التى جَرَتْ بها سوابِقُ المعالى إلىٰ غاية الحَقيقَةِ فى مِضْمار المَجاز ـ رُتْبَـةٌ هى خِزانةُ سِرِّنا، وكِنَانَةُ نَهْيِنا وأمْرِنا ؛ فلا يتعـينُ لبلوغها إلَّا مَن ومَن، ولا يعين لتَلَقِّيها وتَرقِّيها إلَّا أفراد قلَّ أنْ يكثُرَ مثْلُهم فى زَمَن ؛ ولا يَحْسُنُ أنْ تكونَ إلَّا فى بَيْتٍ عريقٍ فى أنْسابها، وَثِيقٍ فى تَمكُّنِ عُرَا أسْبابها، علمٍ بقواعدها التى إذا اشْتبهت طُرُقُ آدابِها كان أدْرَىٰ بها .

ولما كان فلانٌ هو الذى ذُكرتْ أسباب تَعَيُّنه تعيِّنه لهذه الرُّتبة وتعْيِينه ، وفُتِحتْ أبْواب أوْلَوِيَّتهِ بتَلَقِّى رايةِ هذا المنصب بيَمِينه ؛ مع أدواتٍ كَمَّلَتْ مفاخِرَه، وصِفاتٍ جَمَّلت مآثِره ؛ وكِتابةٍ ،إذا جادت أنْواؤُها أرْضَ طِرْسٍ أخذت زُخْرُفَها ، وإذا حاذَتْ أنوارُها وجْهَ سَماءٍ ودَّتِ الدَّرَارِىُّ لو حكتْ أحْرُفَها ؛ وبلاغةٍ ، إن أطْرتْ بوَصْفٍ أغارَت الفَرائِدَ ، وأعارَت دُرَرَها القَلائِد ، وأتت من رِقَّة المعانِى بما هو أحْسنُ من دُموعِ التَّصابِى فى خُدودِ الخرائِد ؛ وإن أغْرتْ بعَدُوٍّ أعانتْ علىٰ مَقَاتِله السُّيوف ، ودَلَّتْ علىٰ مَكامِنِه الحُتوف ؛ ودِيانةٍ ، رفعَتْه عند الله وعنْدنا إلىٰ المكان الأسْنىٰ ؛ وصِيانةٍ ، جمعتْ له من آلائنا وآعْتِنائنا بين الزِّيادة والحُسْنىٰ ؛ وأمانةٍ ، أغْنَتْه بجَوْهرِ وصْفِها الأعْلىٰ عن التَّعرُّض إلى العَرَضِ الأدْنىٰ ؛ وبَراعَةٍ ، آعْتضَدَ بها يَراعُه فى بُلُوغ المقاصد آعتِضادَ الرَّقْص بالمَغْنىٰ .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف أن يفوَّضَ إليه كذا فلْيُبْشِرْ بتَلَقِّى هذا الإحسان ، بيد الآسْتِحْقاق ، ولْيَتَلَقَّ عقودَ هذا الآمتنان ، الذى طالما قلَّد نَحْرَه الأعْناق ؛ ولْيُباشِر ذلك مباشَرةً يَسُرُّ خُبْرُها ويَسْرى خَبَرُها ، ويُشَنِّفُ الأسْماعَ تأْثيرُها وأثَرُها ؛ ولْيسْلُكْ فيها من السَّدادِ ، ما يُؤَكِّد حَمْدَه ، ومن حسن الآعْتِماد ، ما يُؤَيِّد سَعْدَه ؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها خَبِيرٌ عليم ، حائزٌ منها أوْفَرَ الأجْزاء وأوْفى التَّقْسِيم (١) ؛ ومِلاكُها تقْوَى الله فلْيجْعلْها عُمدَته ، وليتَّخذْها فى كلِّ الأُمور ذخيرته ؛ والله تعالىٰ يضاعفُ له من لدُنَّا إحسانا ، ويرفع له قَدْرًا وشانا ؛ والآعْتماد فى ذلك علىٰ الخطِّ الشَّريف أعْلاه اللهُ تعالىٰ أعْلاه .

ومنها — نظر المملكة الحلبيَّة القائم مقام الوزير .

---

(١) فى الاصل : وأوفى التقصير، ولا معنى له .

* * *

وهـذه نسخةُ توقيعٍ من ذلك : كُتِب به لعماد الدِّين « سعيد بن ريان » بالعَوْد إليها ، وهى :

الحمدُ للهِ رافعِ قَدْرِ مَن جعل عليه آعْتِمادا ، ومُجَدِّدِ سَعْدِ مَن غدا فى كُلِّ مايُعْدَقُ به من قواعد النَّظرِ الحَسَنِ عِمادًا ، ومُسَنِّى حَمْدِ مَن تكَفَّلَ له جميلُ التَّصرُّف أن لا تُبْعِدَ الأيامُ عليــه مُرادا ، ومُجزِلِ مَوادِّ النِّعم لمَن إذا آستَمْطر قَلَمَه فى المصالح همىٰ فافتَنَّ أفْنانًا وأَيْنع تَمْيِرًا وأثْمر سَدادا ، وإذا أيْقظ نظَرَه فى مُلاحظَةِ الأعمال آستجْلَىٰ وُجوهَ المصالح آنتقاءً لِمَـا خَفِىَ منها وآنْتِقادا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى لا تزالُ النِّعَمُ بها مُجَدَّدَة ، والقواعِدُ مُوَطَّدة ، والكرمُ مُعادا ؛ وآلائِه التى جعل لهـا الشُّـكْرُ آزديادا علىٰ الأبَد وآزدِيادا ؛ ومِننِه التى لا يقومُ بهـا ولا بأداءِ فَرْضِها الحَمْـدُ ولو أنَّ ما فِى الأرْض مِنْ شَجَرَةٍ أقْلامٌ أو كان البَحْرُ مِدَادا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهـادةً لا تَألُو هِمَمُنا آجْتِهادا فى إعْلاءِ منارِها وجِهادا ، ولا تَكْبُو جيادُ عَزائِمِنا ، دُون أنْ تُسْكِنَها من الجاحِدين قُلوبًا وتُجرِىَ بها من المُنْكِرين ألْسِنَةً وتُقَلِّدَها من المشركين أجْيادا ، ولا تَنْبُو صَوارِمُنا ، حتَّى تتَّخِذَ لهـا من وَرِيدِ كلِّ مُعانِدٍ مَوْرِدًا ومن قِمِمِ كلِّ نا كِثٍ أغْمادا ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسوله الذى أسْرى اللهُ به إليه فبَلغ فى الآرتقاء سَـبْعًا شِدَادا ، وأنْزل عليه أشْرفَ كُتُبِه بيانًا وأعْجَزها آيةً وأوْضَحها إرْشادا ، وبعَثَه إلىٰ الأحْمر والأسْـوَد فسَعِد من سَعِد به إيمَـانًا وشَقِىَ من شَقِىَ به عِنادا ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين لم يأْلَفُوا فى طاعة الله وطاعتــه مِهادا ، صلاةً لا تستطيعُ لهـا الدُّهور نَفَادا ، ولا تَملُّها الأسْماعُ تَعْدادًا وتَرْدادا ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإن أوْلىٰ من سَمَا به مَنصِبُه الذى عُرِف به قَديما، وزُهِيَتْ به رُتْبَتُه، التى لم يزَلْ فيها لاَقْتِناءِ الشُّكرِ مُسْتديمـا ؛ وتحلَّتْ به وظيفَتُه، التى لم يبرحْ يلْبَس بها ثَوْب الثناء قَشيباً ويجرُّ بها رِداءَ السَّعد رَقِيما، وتقاضَتْ له عَوارِفَنا معارِفُه التى لم يزَلْ عِقْدُها فى جِيدِ المراتب السَّنِيَّةِ نَظِيما ؛ وتَطَلَّع إليـه مكانُهُ فكأنَّه بقَدم هِجْرتِه لم يبرحْ فيه وإن بَعُدَ عنه مُقِيما ـ من لم يزَلْ قلمُه بصَرْفه فى أسْنىٰ ممـالكنا الشَّريفـةِ كاسْمِه سَعيدا، وطَرْف نَظَرِه فيما يَليـه من المناصب السَّنِيَّة يُرِيهِ من المصالح ما كان غائبـا ويُدْنِى إليـه من أسْباب التَّدْبير ما كان بعيدا ؛ فمـا أعْمل فى مصالح الدولَةِ القاهـرةِ قلَّمـا إلا وأقْبلتْ نحوَه وجوهُ الأمْوال سافِرَه، ولا لحَظَ فى مُهِمَّات وظائفها أمْرًا إلَّا وعاوَدَتْه أسْـبابُ التَّثمير النافِرَه، ولا آعترض(١) قلَمُـه بنُطْقِه وفكْرِه إلَّا وغَدَت الثلاثةُ علىٰ كلِّ مافيه عِمارَةُ ما يُفَوَّضُ إليه من الأعمال مُتَضافِرَه؛ وذلك لِمـا آجتمع فيـه من عِفَّة نَفْسه وكمال معرفته وطهارة يَراعِه، وآتَّصفَ به من حسن اضْطِلاعِه وجميـل آطِّلاعه، وجُبِلَتْ عليه طباعُه من نَزاهَةٍ زانت خِبْرَته ومَنْ يَنقُلُ مشكورا عن طباعه .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى حَنَّت إليـه رُتبته وتَلَفَّت إليه مَنْصِبُه ودَعَتْه وظيفتُه النَّفيســةُ إلىٰ نَفْسها، وآعْتذَرتْ بإقبالها إليه فى يَوْمها عن نُشُوزها عنه فى أمْسِها، وآشْتاقَتْ إلى التَّحَلِّ بفضائله التى لم تزلْ تُزْهَىٰ بما ألِفَته منها علىٰ نُظَرائِها من جِنْسِها ـ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُجَمِّل لها عادتها ونُجَدِّدَ له من الإحسان بمباشرتها السَّعيدة إعادَتَه، ونُعِيدَ إليه بمباشرة نَظَرِه الجميل مَسَرَّته التى ألِفَها وسعادَتَه .

فلذلك رسم ... ـ لا زال بِرُّه لعِماد الدِّين رافعا، وأمْره بالإحسان شافعا ـ أن يفوّضَ إليه نظر المملكة الحَلَبِيَّة علىٰ عادة من تقدّمه .

(١) لعله : "آعتضد" .

فليباشرْ هذه المملكةَ التى هى من أشْهر ممالِكنا سُمْعَه ، وأيْمنِها بُقْعَه ؛ وأحْسنِها بِلادا ، وأخْصبِها رُبًا ووِهَادَا ، وأكْثرِها حُصونًا شَواهِق ، وقِلاعًا [سوامى] (١) سوامق ، وثُغورًا لا تَشِيمُ ما آفْترَّ منها البروقُ الخوافق ؛ مباشَرةً تزيد مصالِحَها علىٰ ما عَرفَتْه ، وتُرِيها من خِبْرته فوق ما ألِفتْه ؛ وتدلُّ علىٰ مافيه من كفاءة هذَّبَتْها التَّجارِب ، وهدَتْها الأنوارُ الثَّواقِب ، وصرفَتْها الأفكارُ المطَّلِعة على الطوالع من المغارب ، وسدّدها إلى الأغْراض الجميلةِ الخُلوُّ من الأغْراض ، ووقَّفها علىٰ جواهر الصَّواب عدَمُ آعتراض النَّظر إلى الأعْراض ؛ وأراها التَّوفيقُ ما تأْتِى من وجوه التدبير وما تَذَر ، وعَرَّفَتْها المعرفةُ الآحتراسَ من مخالفة الصَّواب فما تزالُ من ذٰلك علىٰ حَذَر ، وفَتحَتْ لها الدُّرْبَةُ أبْوابَ التَّثْمير فما لحظت أمْرًا من الأُمور الديوانية إلا وبدت البِدَر ؛ ولتكن النعمِ المصونةُ المقدّم لديه ، والنظرُ فى مصالح القِلَاع المحروسةِ هو الغَرَضَ المنْصُوصَ عليه ؛ فليُضاعفْ ذخائرها ، ويتفقَّدْ موارِدَ أمورِها ومَصادِرَها ؛ وفى معرِفَتِه بقواعد هذه الوظيفة ما يُغْنِى عن الوصايا ، لكن ملاكُها تقوى الله ، فليَجْعَلْها نَجِيَّ نَفْسه ، وسميرأُنْسِه ؛ والخط الشريف ... .

* * *

ومنها ــ نظر الجيش بها .

وهذه نسخة تَوْقيع بنظر الجيْش بالمملكة الحَلَبِيَّة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل أُفُقَ السعادة بطلوع شَمْسِه مُنِيرا ، وأقرَّ فى رُتَب العَلْياءِ مَن يغْدُو ناظِرُها بحسْنِ نَظَرِه قَرِيرا ، وحَلَّىٰ مفَارِقَ المناصب السَّنِيَّة بصَدْرٍ إذا تغالَى

(١) الزيادة مما يأتى بعد نحو عشر صفحات .

اللسانُ فى وَصْفه كان بَنَانُ البيانِ إليه مُشيرا ، وآختار لأمصارِ ممالكنا الشريفة من إذا فُوِّض إليه نظَرُها كان بنِسْبَتِه إلىٰ الإبْصار حَقِيقًا به وجَدِيرا .

نحمدُه وهو المحمود، ونشكُره شكرًا مُشْرِقَ السُّعود، ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً عذْبةَ الوُرود ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضحت به شيوخٌ من الإسلام منْشُورة البُنُود ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أوْرق عُود ، وأُوِلجَ نهارُ السيوف فى لَيْلِ الغُمُود، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإن الله تعالىٰ لما خصَّ كُلَّ مملكةٍ من ممالكنا الشريفة بكَثْرة الجُيُوش والأنصار ، وجعَل جُيُوشَنا وعساكِرَنا تُكاثِرُ عددَ النُّجومِ فى كلِّ مِصْرٍ من الأمْصار، وكانت المملكةُ الشريفةُ الحلبيَّةُ هى ركنٌ من أرْكان الإسلام شَديد، وذُخْرٌ مادعاهم دَاعٍ إلَّا ولبَّاه منهم عَدَدٌ عَديد ــ وجب أن يُخْتارَ للنَّظر عليها من الأكْفاء من سَمَا فى الرآسة أصْلُه وزَكا فَرْعُه ، فاستحقَّ بما فيه من المعرفة تَمْييزَ قَدْره ورَفْعه، وفَاقَ فى فَضْل السِّيادَةِ أبْناءَ جِنْسِه ، وأشْرقتْ أفْلاكُ المعالى بطُلوع شَمْسِه، وأقرَّ [بنظره] نظرَ الجيوش المنصوره، وسارت الأمْثِلَةُ بما آتُّفِق عليه [فيه] من حُسْنِ خِبْرة وخِيَرَه، وكان فلان هو الذى طلع فى أُفُق هذا الثَّناء شَمْسًا مُنِيرَه ، وآختبر بالكفايَةِ والدِّرايَةِ وآختِير لهذا المَنْصِب علىٰ بَصِيرَه ، وهو الذى له من جميلِ المباشرة فى المناصب السَّنية ما هو كالشَّمْسِ لا يَخْفىٰ، والذى أحسنَ النَّظرَ فى الأوْقاف المبْرورَةِ حتَّى تَمَنَّىٰ كُلُّ منصبٍ جليلٍ أن يكونَ عليه وقْفا ، وهو الذى حَوَىٰ من الفضائلِ ما لا يُوجَدُ له نَظيرٌ ولا شَبِيه ، والذى سما إلىٰ رتبة من المعالى رَبيعَةٍ وكان ذا الجَدِّ النَّبيه والأبِ النبيه .

فلذلك رُسم ... ... ـ لا زالَ يُقرُّ الناظر بجُوده ، ويُحسِنُ النظر فى أمْر جُيُوشه وجُنوده ـ أن يفوّض إليه كذا : علماً بأنه أحَقُّ بذلك وأوْلىٰ ، وأنَّ كفايتَه لا يُستثنى فيها بإلَّا ولا بلَوْلا ، وأنَّ السَّدادَ مقترنٌ بحسن تَصْرِيفه ، وعلْمَه قد أغْنىٰ عن تعليمه بمواقع التَّسْديد وتَوْقِيفه .

فليباشِرْ ذلك بصدْرٍ مُنْشرِح ، وأمَلٍ مُنْفَسِح ، عاملًا بالسُّنة من تقوى الله تعالىٰ والفَرْض ، عالمًا بأنَّا عند وُصولنا إلى البلاد نَأْمُر بعَرْض الجيوش : فلْيعْمَل علىٰ مايُبَيِّضُ وجْهَه يوم العَرْض ، ولْيُلْزِمْ عِدّةً من المباشرين بعَمَل مايلزمُهم من التَّفْريع والتَّأْصيل ، والتَّجْريد والتَّنْزيل ، وتَحْريرِ الأمْثلة والمقابلة عليها ، وسُلُوكِ الطَّريق المُسْتقيم التى لا يتطرَّقُ الذَّمُّ إليها ، والملاحظةِ لأُمُور الجيوش المنصورة فى قَليل الإقطاعات وكَثيرها ، وجَليلِها وحَقيرها ، بحيثُ يكون علْمُه محيطًا بذلك إحاطَةَ اللَّيل ، ويشْتَرِطْ علىٰ من يتعيَّن تنزيلُه ما آستطاع من قُوّةٍ ومن رِباطِ الخَيْل ، ويقابِلِ الأُمور المضطربَةَ بالإضْراب ، ويسلكْ أحْسن المسالك فى سَيْره وسِيرَته : فإنَّنا فوّضْنا إليه الجيوشَ المنصورةَ من جُنْد المملكة الحَلَبيَّة ومن أهْل المدِينَة ومَن حَوْلهم من الأعْراب . والوَصايا كثيرةٌ وإن كَثُرتْ فعلْمُها عِنده ، وقد ضُرِب له منها مَثَلٌ فلْيكُنْ علىٰ سياقَتِه فيما لم يُذْكر فى العِدّه ، وأهَمُّ الأُمور أنْ يتمسكَ من خَشْيةِ الله بالسَّبَب الأقْوَىٰ ، ويجعلَ تقْوَى الله عمادَه فى كلِّ الأمور : فإنَّ خيرَ الزَّاد التَّقْوَىٰ ، والخطُّ الشريفُ أعْلاه حجةٌ فيه .

الطبقــــة الثــانية

من يكتب له من أهْل المملكة الحَلبيَّــة فى قَطْع العادة مفتتحًا بـ«رسم» إمَّا مع «مجْلِس القاضى» أو مع «القاضِى الأجَلّ» ككُتَّاب الدَّرج ومن فى رُتْبتِهم ، إن كُتب

لأحد منهم من الأبواب السلطانية . وإلّا فالغالبُ ٱستبدادُ نائب السَّلْطنة بها بالكتابة فى ذلك . فإن كُتب شَىءٌ منها من الأبْواب السلطانية، فلْيمش فيه علىٰ نحو ما تقدّم فى الديار المصرية والمملكة الشامية التى قاعدتُها دِمشق .

النـــــوع الثانى

(من أرباب الوظائف بالمملكة الحلبية ــ من هو خارجٌ عن حاضرتها ، وهم علىٰ أصناف)

الصـــنف الأوّل

(أرْباب السيوف، وهم غالبُ مَن يكتب لهم عن الأبْواب السُّلْطانية)

وقد تقدّم أنَّ العادةَ جاريةٌ بتَسْمِية مايُكْتب لمن دون أرْباب النيابات العِظام: من دمَشْق، وحَلَب، وطَرَابُلُس ، وحَماة ، وصَفَد ، وغَزَّة ، والكَرَك ــ مراسيم . وأنَّ التقاليدَ مختصـةٌ بالنُّوّاب العظام المقدّم ذكرهم . ولا يخفىٰ أنَّ النياباتِ الدَّاخلةَ فى المملـكة الحَلَبِيَّة : ممـا هو تحت أمْر نائب السَّـلْطنة بحَلَب أكثر من كل سائر الممالك الشامية .

وبالجُمْـلة فأمْرهم لا يخرُج عن ثلاثة أضْرب : إما مُقَـدّم ألْف ، كنائب البِيرَة ، ونائب قَلْعـة الرُّوم المعبرِ عنها فى ديوان الإنشاء بقَلْعة المسـلمين ، ونائب مَلَطْيَة ، ونائب طَرَسُوس ، ونائب البُلُسْتَيْن ، ونائب البَهَسْنَىٰ ، ونائب آياس المعبَّر عنها بالفتوحات الجاهانية . وإمَّا طبلخاناه، كنائب جعبر، ونائب دَرَنْدَة ونحوهما . وإما أميرعشرة ، كنائب عين تاب ، ونائب الرَّاوَنْدان ، ونائب كَرْكَر ، ونائب بَغْـراس، ونائب الشُّغْر وبَكَاس ، ونائب الدَّرْبَساك، ونائب سرْفَنْـدكَار، ومن فى معناهم .

وقد تقـدّم فى الكلام على المكاتبات نقلًا عن "التثقيف" : أنَّ هؤلاء النوّابَ تختلف أحْوالهم فى الارتفاع والانحطاط : فتارةً تكون عادةُ تلك النيابة أميرَطبلخاناه، ثم يولّى فيها عشرةٌ وبالعكس . وقد تكون عادتُها طبلخاناه فيستقرّ بها مقـدّمُ ألْف وبالعَكْس . والضابط فى ذلك أنَّ من يُكْتب له المرسوم : إن كان مقدّمَ ألْف، كُتِب مَرْسومُه فى قَطْع النصف بـ«المجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه، كُتِب له مرسومُه فى قَطْع النصف أيْضا بـ«السامىّ» باليـاء . وإن كان أميرَ عشرةٍ كُتِب مَرْسومُه فى قَطْع الثُلْث . فأمَّا ما يُكْتَب فى قطع النِّصف، فإنَّه يفتتح بـ«الحمد لله» سواء كان صاحبُه مقدّمَ ألْفٍ أو أميرَ طبلخاناه .

***

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريفٍ بنيابة آياس، وهى المعبَّرُ عنها بالفُتوحات الجَاهانيَّة، يستضاء بها فى ذلك، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل من أوْلياءِ دَوْلتِنا الشَّريفة كلَّ سيْفٍ لا تَنْبُو مَضارِبُه، واصْـطفَىٰ لبوادر الفُتوحات من أنصارنا من تُحمَـدُ آراؤه وتَجارِبُه، وألْهمنا حسْنَ الاختيار لمن تُؤْمَن فى المحافظة مآرِبُه، وتَعذُبُ فى المخالطة مَشَارِبُه، وحقَّق آمالَنـا فى مضاعفة الفَتْح التى أغْنَى الرُّعْبُ فيها عما تُدافِعُه سيوف الإسلام وتُحارِبُه .

نحمدُه حمدًا يضاعِفُ لنا فى التَّأْييد تَمْكينا، ونشكُره شـكْرًا يستدْعِى أن يزيدنا من فضله نَصْرًا عزيزًا وفَتْحًا مُبِينا ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُخلِصُ فيهـا يقيناً من المخاوف يَقِيناَ، ونَرِدُ من نَهَلِها مَعِينا ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيده الله بالملائكة والرُّوح، وزَوَىٰ له الأرضَ فرأىٰ مشارِقَها ومَغارِبَها ونَرْجُو أنْ يكونَ ما زَواهُ له مُدَّخَرًا لنـا من الفُتوح؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه

الذين هم خَيْرُ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للإسلام ، والذين ما زال الإيمَـانُ بهم مرفوعَ الألْوِيَة والأعْلام ، والذين لم يبرحْ دَاعِى الضَّلالة تَحْتَ قَهْرِ سُيوفهم : فإذا أغْفَىٰ «جَرَّت عليه سيوفَها الأحْلام» ، صلاةً يطيب اللِّسانُ منها فيُطْرِب ، ويُعْرِب عن صِدْق الإخلاص فى تكرارها فيُغْرِب ، وسلَّمَ تسليماً .

أمَّا بعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من تَسْتَنِدُ أُمورُ الممالك لَعَزْمته ، ويُلْقىٰ أمْر بَوادِرِ الفتوحات السَّعيدة لِهمَّته ، ويُعتَمَدُ فى تدبير أحْوال البلاد والعباد علىٰ يُمْنِ تصرُّفه ويُمْتَدُّ نَهْضَته ـ مَن لم يزلْ معروفاً سَـدادُ رأْيه ، مشْكوراً فى الخِدْمةِ الشريفةِ حُسْنُ سَعْيه ، مؤيَّدا [فى] عَزْمِه ، مظفرا فى حَزْمِه ، مَأْمُونَ التَّأْثير ، ميمون التـدبير ، كافياً فى المهمات ، كافلاً بعلُوِّ الهِمَّات ، إذا همّ ألْقَىٰ بين عينيه [صادق] عَزْمه ، وإذا ٱعْتُمِد عليه فى مُهِمٍّ تلقَّاه بهمَّته وحَزْمِـه ، وإذا جُرِّدَ كان هو السَّيفَ ٱسْمًـا وفعْلا ، وإذا دارَتْ رَحَى الحَرْبِ الزَّبُون فهو الشهمُ الذى لا يخافُ سهْمًا ولا يرهبُ نَصْلا .

ولمـا كان (١) هو بَدْرَ هذا الأفُق ، ومُقلَّدَ هذا العِقْد ولا يصلُح هـذا الطَّوْق إلا لهـذا العُنُق ، وهو الذى فاق الأوْليـاءَ ٱهتماما ، وراقَ العُيونَ تقدّمًا وإقْداما ، وأرْضَى القلوبَ نُصْحًا ووَفاء ، وأنْضَى الهِمَمَ ٱحْتفالا للمصالح وٱحتِفاء ، طالمـا جُرِّبَ فَحُمِد عند التجارب ، وجُرِّدَ فأغْنَىٰ عن القواضب ، وٱختُبِر فاختِير ، ونُظِر فى خَصائِصه فلم يُوجَدْ له نظير ـ ٱقتضَىٰ حسنُ الرَّأْيِ الشريف أن نقـلِّده فتوحاتٍ أنْقـذَها الله تعـالىٰ من شَرَكِ الشِّرْك ، وأخْرجها إلىٰ النُّور بعد ظلام الإفْك ، وبشَّرها أنَّ هـذه سحـابةُ نَصْرٍ يأْتِى وَابِلُه إن شاء الله تعـالىٰ بعد رَذاذه ، وأنَّها مقدِّمةُ سَعْدٍ تتلو قولَه تعالىٰ : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ .

---

(١) بياض بالأصل والمراد المولى بٱسمه ولقبه .

فلذلك رُسم ... ... ـ لا زال الفتح فى دولته يَزْهُو بانتظام سِلْكه، وأيامُه الشريفةُ تستردّ مغْتَصَبَ البلاد من يَدِ الكفر إلىٰ بَسْطَةِ مُلْكه وقَبْضة مِلْكه، وإحسانُه يحمى الحصونَ بسَيْفٍ يُروِّعُ العِدا ببأسه وفَتْكه ـ أن يُفوّض ... ... اعتمادًا علىٰ مَضائه الذى لا ينكر مثله للسَّيف، وركونًا إلىٰ هِمّته التى تَسْرى برُعْبها إلىٰ قلوب الأعْداء سُرَى الطَّيْف .

فلْيباشِرْ النيابةَ المذكورة : مُعْمِلًا رَأْيَه فى تَمْهيد أحْوالها، وتَقْرير أُمورها التى رَاقَ الأوْلياء وراعَ الأعداءَ ما كان من مآلها ؛ مُجْتَهِدًا فى حِفْظ ما بها من القِلاعِ والحُصون، مُبادِرًا [إلى] كلِّ ما يَحْمِى حِماها ويَصُون ؛ قائمًا حقَّ القيام فى مصالح تَقْرِيرها، وأحْوال تَحْرِيرِها ؛ وأُمور تُمَهِّدُها، ومنافِعَ تُشَيِّدُها ؛ وحواصِلَ تَكْفِيها، وأسْبابِ مصْلَحةٍ تُوافِيها بمزيد الاهْتمام وتُوَفِّيها ؛ وليكنْ بأحْكام الشَّرعِ الشريفِ مقْتَديا ، وبنُور العَدْل والإحسان مهْتَديا ؛ وبتقوى الله عزَّ وجلَّ مُتَمَسِّكا ، وبخَشْيَة الله مُتَنَسِّكا؛ وهو يعلم أنَّ هذه الفتوحات [قَذًى] فى حدَقَة العَدُوِّ المخذول وشَجًا فى حُلُوقِهم، وعِلَّةً فى صُدورهم وحَسْرَةً فى قُلوبهم .

فليكن دَأْبُه الاجتهادَ الذى ليس معه قَرار، والتَّحرُّزَ الذى يحلّيها أو يحْميها فيكونُ عليها بمنزلة سُورٍ أوسِوَار؛ ويُصَفِّحُها من عَزْمِه بالصِّفاح، ويجعلْ عليها من شُرُفات حَزْمه ما يكون أحدَّ من أسِنَّة الرِّماح؛ ثم لا يزالُ احتياطُه محيطًا بها من كلِّ جانب، وتيقُّظُه لأحْوالها بمنزلة عَينِ مُراقِب، واحتِفَالُه الاحتفالَ الذى بمِثْله يُصانُ رِداؤُها من كلِّ جاذِب؛ ثمَّ لا تزالُ قُصّادُه وكُشّافُه وطَلائِعُه لا يقَرُّبهم السُّرىٰ، ولا يعرِفُون طَعْمَ الكَرىٰ؛ يَطَّلِعون من أخْبار العِدَا علىٰ حقائقها، ونتحيَّلُ كلُّ فِرْقَة منهم علىٰ معرفة الأحوال بينهم بمكْرٍ من تعَدُّد طُرُقِها واتِّساع طرائقها، لتكونَ المتجَدِّداتُ عنده بمنزلة مايراه

فى مِرْآة نَظَره، وسِرُّ أُمور العِدا لَديه قبلَ أنْ يشيع بينهم ذِكْرُ خَبَره، والوصايا كثيرةٌ وهو بحمد الله لا يحتاج مع معرفته إلىٰ تَبْصِرَه، ولا يفْتَقِرُ مع حسن بصيرته إلىٰ تَذْكِرَه، والله تعالىٰ يتولَّاه، ويُعِينُه علىٰ ما وَلَّاه، بعد الخطِّ الشريف أعْلاه .

وأما من يكتب له فى قَطْع الثلث بـ«ـمجلس الأمير» وهم العشرات [فقد ذكر فى "التعريف" : أنَّه يكتب لهم من الأبواب السلطانية علىٰ ذلك .

قلت : وقد تقدّم فى الطبقة السابعة أنَّ الكَخْتا، وكَرْكر، والدَّرْبَساك، قد تكون عشرةً أيْضا . وفى معنىٰ ذلك نيابة عين تاب، والراوَنْدان، والقُصير، والشُّغْر بَكَاس، إذا كانت عشرة . ونيابة دَبْركى إذا كانت عشرة] (١) فيفتَتَح فيها بـ«أما بعد حمد الله» علىٰ عادة ما يُكْتب للعشرات .

* * *

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف من هذه الرتبة، كُتب به لنائب حَجَر شَغْلان من معاملة حَلَب، وهى :

أما بعد حمد اللهِ الذى شيَّد المعاقلَ الإسلامية بأكْفائِها، وصان الحُصونَ المحروسةَ بمن شُكِرتْ هِمَّتُه فى إعادتها وإبدائِها، وحَمىٰ سَرْحَها بمن أيْقظ [فى] الخِدْمةِ الشَّريفة عيونَ عَزْمِه فما ألمت بعد إيقاظه بإغفائها، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى انْتَضىٰ سيوفَ التَّأْييد فأعَزَّتِ الهدىٰ وأذلَّت العِدا حين انتضائها، وعلىٰ آله وصَحْبِه ما بدَت النجومُ فى ظَلْمائها، وسرت الغيوم فى فَضائِها ــ فانَّ من شُكِرت هِمَمُه، وثبَتَتْ فى الطاعة الشريفةِ قَدَمُه، وأشْبه عَزْمُه فى مَضَائه صارِمَه، وأضْحت

(١) ما بين القوسين المربعين [ ] وجد ملحقا بهامش نسخة ومؤشرا عليها بالتصحيح فأثبتناه فى الصلب عملا بتلك الاشارة .

ثُغُور تَقْدِيمه بَاسْمِه ، أوْلىٰ بأنْ تَرْفعَ هذه الدولةُ الشريفةُ من مَحَلِّه ، وتَنْشُر عليه [من] تكْرِيمها وارِفَ ظِلِّه ، وترتَضِيه لقلاع الإسلام وتَشْيِيدها ، وتَجْتَبِيه لصَوْنِها وتأْيِيدِها ، وتجعلُه قُرَّةَ عَيْنِها وحِلْيةَ جِيدِها ، وتُمْضِي كلمتَه فى مصالحها ، وتُعْدِق به أسْباب مَنَاجِحِها ، فيُصْبِحُ ولقَدْرِه منَّا إعلاءٌ وإعْلان ، ويُمْسِى وله شُغْلٌ بطاعتنا العالية الشَّان ، وشغل بالمَعْقِلِ الذى يُحْرَز بعَزْمِه ويُصان ، فلأجْلِ ذلك غَدا وله من هَذِه النيابة على الحقيقة شُغْلان .

وكان [فلان] هو الذى جادَتْ عليه دَوْلَتُنا الزاهِرةُ بسَحائِبِها ، وأشْرقَتْ علىٰ حظوظه سُعودُ كواكِبِها ، وأسْمتْ له قَدْرا ، وجعلت له إمْرةً وأمْرا ، وصَرَفَتْه إلىٰ نيابة مَعْقِلٍ معدودٍ من قلاع الممالك الإسلامية وحُصُونِها ، ومَعاقِلِها التى علَتْ محلًّا فالجبالُ الشُّمُّ من دُونِها ، قد أصْبح شَاهِقًا فى مَبْناه ، ممنَّعًا فى مَغْناه ، مُحَصَّنًا برجاله ، مَصُونًا من ماضِيَيْن : السَّيف فى مَضَائِه والعَزْم فى ٱحتِفاله ــ ٱقْتضىٰ حُسن الرأْيِ الشريف أن نُوَقِّله رتبةَ هذه النيابه ، ونَنْشُر عليه من إحساننا سَحابَه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لا زال ... ... أن يستقرّ ... ...

فليحُلَّ هذه النيابةَ المباركةَ مُظْهِرًا من عَزْمه ما تُحْمَد عَواقِبُه ، وتَعْلُو مَراقِبُه ، وتَسْمو مَراتِبُه ، وتَتوضَّحُ سُبلُه ومَذاهبُه ، مُحَصِّنًا لسَرْحه ، معزِّزًا موادّ نُجْحه ، مُراعِيًا[(١)] أحْوالَ رجاله ، المُعَدِّين من حُماتِه وأبْطاله ، حتَّى يغْدُوا يَقِظين فيما يَنْدُبهم إليه ويَسْتَنْهِضُهم فيه ، مبادِرين إلىٰ كل ما يَحْفَظُ هذا الحِصْنَ ويَحْمِيه ، ومَن بهذا المَعْقِل من الرّعية فليَرْفُق بضُعَفائِهم ، وليُعامِلْهم بما يَسْتَجْلِب لنا به صالحَ دُعائِهم ، والوصايا كثيرةٌ ومِلاكُها التَّقْوىٰ ، فليتمَسَّكْ بها فى السِّرِّ والنَّجْوىٰ ، وليَغْرِسْها فى كل

(١) فى نسخة : مُرتقبا والمعنى واحد .

قول يُبْدِيه ، وفِعْـل يرتَضيه ، فإنَّ غُروسَها لا تَذْوَىٰ . واللهُ يوفقـه لِصالح القَوْل والعَمَل ، ويصُونُه من الخَطَإِ والخَطَل ؛ والخطُّ الشريفُ أعْلاه ، حجة بمقْتضاه ؛ إنْ شاء الله تعالىٰ ، والحمدُ لله وحده .

قلتُ : وقد تقـدّم أنّه لا يكتب عن السـلطان مَرْسومٌ بنيابة فى قَطْع العادة ، لأنَّ ذلك لا يكون إلا لِجُنْدِىٍّ وهو دون ، ومثل ذلك إنمـا يُكْتب عن نوّاب الممـالك .

الصـــنف الثـانى

(ممَّـا هو خارجٌ عن حاضرة حَلَب ـ الوظائفُ الدِّينية بمعاملتها : من القِلاع وغيرها)

وهى فى الغالب إنَّمـا تصدر الكِتابةُ فيها عن نائب حَلَب أيْضا أو قاضِيها ، إنْ كان مرجِعُ ذلك إليه . فإن صَدَر شَىْءٌ منها عن الأبْواب السُّلطانية ، كان فى قَطْع العادة مفتتحًا بـ«رُسِم» .

وهـذه نسخةُ تَوْقيعٍ من هٰذا النَّمَط يُنْسج علىٰ مِنْواله ، كُتِب به لقاضى قلعة المسلمين ، وهى :

رُسِم بالأمْر الشريف ـ لا زال عَدْلُه مؤَيِّدًا للحُكّام ، ورَأْيُه مسـدَّدًا فى النَّقْض والإبْرام ، وسُلْطانُه يَخْتـار للمناصب الدِّينية مَن نطقَتْ بشُكْرِه ألْسـنةُ الأنَام ـ أن يسـتقرَّ فى كذا : لِمَـا ٱشْتَهر عنـه من عِلْم ودين ، وظهر من حُسْنِ سِيرَةٍ ٱقتضتْ له التَّعْيين .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركَة بالحقِّ حَاكِما ، وللرِّفْقِ مُلازِما ، وللتَّقْوىٰ مداوما ؛ وهو غَنِيٌّ عن الإسهاب فى الوصايا ، مَلِيٌّ بسُلُوك تَقْوى الله فى القَضايا ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُه تأْيِيدا ، ويضاعِفُ له بِمَوَادِّ السعادة تَجْدِيدا ؛ والعلامةُ الشريفةُ أعْلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

الصــــنف الثـالث

(ممـا هو خارج عن حاضرة حَلَبَ ـ الوظائفُ الدِّيوانية)

وهى إنَّمـا تصدُرُ فى الغالب أيْضا عن نائب حَلَب . فإن كُتب شىءٌ منهـا عن الأبواب السلطانية ، كان فى قَطْعِ العادة مفتتحا بـ«رُسم بالأمْر» .

وهذه نسخةُ تَوْقيع من ذلك ، يستضاءُ به فيما يُكْتَب من هٰذا النوع ، كُتب بها بنَظَر جَعْبَر ، من مُعاملة حَلَب ، وهى :

رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال مُنْهَلَّ النَّدىٰ ، مُسْتَهَلَّ الجَدىٰ ، مُعيدًا للإحسان كما بَدا ـ أن يُعادَ فلانٌ إلىٰ وظيفته : لمـا أَلِفَتْ من سِيرةٍ له لم تَزلْ تُحْمَد ، وسِيما خَيْرٍ منه علىٰ مِثْل الشَّمْس تَشْهَد ؛ ولِأمَانَتِه التى لم تزلْ تَفْتَرُّ بها الثُّغور ، وتَخْضَرُّ بها المَعاهِدُ : تارةً فى طَوْقِ النَّحْر وتارةً فى نُحُور البُحور ؛ وأصالةٍ آمتـدّ ظلُّها الظَّليل ، وعُرِف منها فى العَصْر حسنُ الأصِيل ، وأينعَتْ أكْرَمَ فَرعٍ زَكَا مَنْبِته(١) فى الأرْض المُقَدّسة وجِوار الخَلِيل ؛ ولِمَـا أسْلف فى هذه المباشرة من عَمَلٍ صالح ، وسَـدَادِ آعتمادٍ لم يخرجْ عن تحريرِ تَقْريرٍ وتقريرِ مصالح ؛ وكِتَابةٍ رآها الرَّائى ونقلها النَّـاقِل ، وكفايَةٍ حفَّتْ عليه مثل العروس المجلُوَّةِ من عقائِل المعاقل .

---

(١) فى الأصل « منبتها » بالتأنيث .

فليباشر هذه العَرُوسَ فقد أنْقدها(١) سالفَ الخِدَم وأمهرها ، وليُثابِرْ سُقْيا الغُروس التى أنْشأها فى هذه الجهة وثَمَّرها ، وليَسْلُكْ مَسْلَكه الذى لم يزلْ مُخَيِّمًا علىٰ رءُوس القُنَن ، ومهوِّما به طَرْفُ الأمن لليقظة الذى لا يُلِمُّ به الوَسَن ، مُخَوَّلًا فى وظيفته المبرَّات ، مُسْتقبلًا للمَسَرَّات ، مفْتخرًا بمباشراته التى تَجْرِى مَجارِىَ البحار : تارةً المِلح الأُجاجَ وتارةً العذْبَ الفُرات ، وهو أعرف بما يقدّمه من أمانَةٍ بها يتقدّم ، ودِيانَة يُرَجَّب بها ٱستِكْفاؤُه ويُحَكَّم ، وتَقْوى الله جماعها فليكُنْ بها مُتَمَسِّكا ، وبمشاغلها مُتَنَسِّكا ، والله تعالىٰ يجعل عطاءه مُوَفَّرا ، وعَمَله مُتَدَفِّقًا ليُرِدَّ جَعْبرًا جَعْفَرا .

النيابة الثالثة

(نيابة طَرَابُلُس ، ووظائفها التى جرت العادةُ بالكتابة فيها من الأبْواب السُّلطانية علىٰ نَوْعين)

النوع الأوّل

(ما هو بحاضرة طَرابُلُس ، وهو علىٰ ثلاثة أصْناف)

الصِّنف الأوّل

(أرباب السيوف ، وهم علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ

(من يكتب له تقليد)

وهو نائب السلطنة بها . ومرسومه فى قَطْع الثُّلثين ، ولقبُه « الجناب العالى » مع الدعاء بمُضاعَفَة النعمة .

---

(١) الذى ورد فى القاموس وغيره أن النقد بمعنى الاعطاء من باب الثلاثى فلعل الهمز من زيادة الناسخ فتنبه .

وهذه نسخةُ تَقْليد شريف بنيابتها :

الحمـدُ للهِ الذى جعل لنـا التّأْييدَ مَدَدا ، والنّصْرَ عَتَادًا لا نَفْقِـدُ مع وجوده من الأوليـاء أحَدا ، والعِزَّ وَزَرًا تُصِمُّ شُهُبه مسامِعَ العِدا : ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِـدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدا﴾ . والفَتْحَ ذُخْرًا لحيثُ ما نشاء مدَدْنا إليه بقوّةِ اللهِ يدا ، وشَدَدْنا عليه بمعُونَته عضُـــدا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت مَراتِبَ دَوْلتنا فَلَكًا تُشْرِقُ فيــه رُتَبُ الأَوْلياء إشْراقَ البــدُور ، وثُغُورَ ممـالكنا أُفُقًا حيثما شامَتْه العِــدا ضُرِبَ بينهم وبينه من سـيوف مَهابَتِنا بسُور ، وفَواتِحَ الفُتوحِ النَّائيةِ دَانيَةً من هِمَمِ أصْفيائنا فإذا يَمَّمُوا غَرَضًا طارتْ إليه سهامُهم بأجْنِحَة النُّسُور ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يرفعُ الجهادُ عَلَمها ، وينْصُر الإيمانُ كَلِمَها ، ويُزْجِى الإيقانُ إلىٰ رياض التّأْييد دِيَمَها ، ويَسْتَنْطِقُ التوحيدُ بإعلائها وإعْلانها سيفَ أيّامنا الزاهرةِ وقَلَمَها ؛ ونشهدُ أنّ محمّدًا عبــدُه ورسولُه الهـادِى إلى الحقّ وإلىٰ طريق مُسْتقيم ، ونَبِيُّه المخصوصُ بالآيات والذِّكْر الحَكيم ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نصرُوا اللهَ فنَصَرهم ، وأظْهروا دِينَــه فأعَزَّهم وأظْهرهم ، ويَسَّرُوا لأُمّتِه سبُلَ الهُــدىٰ فهداهم وللسَّبيل يَسَّرهم ، صلاةً لا يزال اليقينُ يُقيمُ دعوتَها ، والتَّوْحيدُ يعْصِمُ من الانْفِصام عُرْوتَها ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعْـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من تَفْتَرُّ الثُّغورُ بإيالَتِــه ، عن شَنَب النَّصْر ، وتَرْمى الحصونُ بكفالته ، مَن شَامَ من العِدا بَرْقَها بشَرَرٍ كالقَصْر ، وتُقَسِّمُ السَّواحِلُ بمَهابتِه ، مَن جاور من أهْلِ الكُفر بَحْرها بين الحَصْـد والحَصْر ، وتَمْنع عَزَماتُه شَوانِىَ العدا أن تَدِبَّ عقارِبُها ، أو تَرْكَبَ اللُّجَجَ بغير أيّامه (١) مَرا كبُها ، أو يَنْتَقِلَ عن ظَهْر البَحْر إلىٰ غير

(١) لعله « بغير أمانه » تأمل .

سيوفه أو قُيوده مُحاربها ــ من لم يزلْ فى نُصْرةِ الدِّين لامعًا كالبَرْق شِهابُه ، زَاخرًا كالبَحْر عُبابُه ، وَاصِبًا علىٰ الشِّرك عَذابُه ؛ ظَامِيًا إلىٰ مَوارِدِ الوَرِيد سَيفُه ، سارِيًا إلىٰ قلوب أهْلِ الكُفْر قبل جُفونهم طَيْفُه ؛ قائمةً مقام شُرَفِ الحُصون أسِنَّة رِماحه ، غَنِيَّة بُروجُ الثُّغورِ عن تَصْفيحِها بالجَلْمَدِ بصَفا صِفَاحه ؛ مع خِبْرة بتَقْدِمَة الجُيوش تُضاعِفُ إقْدامَها ، وتُثَبِّت فى مَواطِنِ اللِّقاءِ أقْدامَها ؛ وتُسَدِّدُ إلىٰ مقاتل أهْل الكُفْر سِهامَها ، وتُقَرِّبُ عليها فى البرّ والبحر مَنالَها وتُبْعِدُ مَرامِيَها علىٰ مَن رَامَها ؛ ومَعْدِلةٍ للرَّعايا السُّكونُ فى مهاد أمْنِها ، والرُّكونُ إلىٰ رُبَا إقْبالها ووِهَادِ يُمْنها ؛ فسِرْبُ الرعايا مَصُونٌ بعَدْلِه ، والعَدْلُ مكنونٌ بين قَوْله وفِعْله .

ولما كان فلانٌ هو اللَّيثَ الذى يُحْمىٰ به غَابُه ، والنَّيِّرَ الذى يُزْهىٰ أُفُقٌ تَألَّق فيه شِهابُه ؛ والهُمامَ الذى تُعْدِى هِمَمُه فُرسانَ الوَغىٰ فتُعدُّ آحادُها بالأُلُوف ، والشُّجاعَ الذى إذا ٱستعانَتْ سَواعِدُ الشُّجعانِ بسُيوفِها ٱسْتَعانَتْ بقُوَّة سَواعِده السُّيوف ــ ٱقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُحَلِّيَ به جِيدَ مملكةٍ ٱنتظمتْ علىٰ وِشَام البَحْر ، وأحاطت بما فى ضميره من بلاد العِدا إحاطَةَ القلائد بالنَّحْر .

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... ... أنْ يفوّضَ إليه كَيْت وكَيْت : لِمَا أشير إليه من أسْباب تَعَيُّنه لهذه الرُّتبة المَكينَه ، وتَحَلِّيه بما وُصِف من المحاسن التى تُزْهىٰ بها عقائلُ الحصون المصُونَه .

فلْيَلِ هذه النيابةَ الجليلةَ بعزْمَة تُجَمِّلُ مواكِبَها ، وهِمَّة تُكَمِّلُ مراتِبَها ؛ ومَهابَةٍ تَحُوط ممالِكَها ، وصَرامَةٍ تُؤَمِّن مسالِكَها ؛ ومَعْدِلةٍ تُعَمِّر ربوعَها ورِباعَها ، ويَقَظة تَصُون حُصونَها وقِلاعَها ؛ وشَجاعَة تَسْرى إلىٰ العِدا سرايَا رُعْبِها ، وسَطْوَة تُعْدِى السُّيوفَ فلا تستطيع الكُماةُ الدُّنُوَّ من قُرْبِها ، وسُمْعَة تُرهِبُ مُجاوِريه حتى يُخَيِّل البَحر [أنه] من أعوانه علىٰ حَرْبِها .

وليُؤْتِ تَقْـدِمة الجيوش الإسلامية حقَّها من تَدْبير يجمَعُ على الطاعة أمْرها وأُمَراءَها، ويرفَعُ فى مَراتِبِ الخدْمةِ الشَّريفةِ علىٰ مايجب أعْيانَها وكُبراءَها، ويُرهِبُ بإدامة الآستعداد قُلوبَ أعْدائِها، ويربِطُ بأيْزاكِها شَوانِىَ البَحْر حتَّى تعْتَدَّ الرباط فى ذلك من الفُروض التى يُتَعبَّدُ بأدائِها؛ فلا يَلُوحُ قِلْع فى البحْر للعدا إلا وهو يَرهبُ الوقوعَ فى حِبالِها، ولا تلحظُ عيْنُ عَدوٍّ سَنا البرّ إلا وهى تتوقَّعُ أن تُكْحَل بنِصالِها؛ ولْيُقِمْ مَنـار العَدْلِ بَنْشرِ لوائِه، ويعضِّدْ حكم الشَّرعِ الشريف برجوعه إلىٰ أوامره وآنتهائه؛ وليكُفَّ يدَ الظُّلْمِ [عنها] فلا تمتدّ إليها بنان، وليشْفَعِ العَدْلَ بالإحسان إلىٰ الرعِيَّة فإن الله يأْمُر بالعَدْل والإحْسان؛ وفى سِيرَته التى جعلته صَفْوةَ الآختيار، ونُخْبةَ ما أوْضَحَتْـه الحقيقةُ من الآختبار، ما يُغنِى عن الوَصِـيَّة إلا علىٰ سبيل الذكرىٰ التى تَنْفعُ المؤمنيـن، وترفَعُ قَدْرَ المُوقنين؛ ومِلاكُها تَقْوى الله تعالىٰ: فلْيجْعَلْها أمام آعتماده، وإمام إصْدارِه وإيراده، والله تعالىٰ يُديمُ موادَّ تأْييده وإسعاده؛ إن شاء الله تعـالىٰ.

الطبقة الثانيــــــــة

(من يُكْتب له مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع الثُّلث بـ«المجلس السَّامى» بغير ياء، وتشتمل علىٰ وظائف)

منها — شدُّ الدَّواوين بطَرابُلُسَ.

وهذه نسخةُ تَوْقيع بها:

الحمـدُ لله مُجدِّدِ الرُّتَبِ لمَن نهضَ فيها إخْلاصه بمـا يَجب، ومُولِى المِنَنِ لمَن إذا آعْتُمد عليـه من مُهمَّات الدَّوْلة القاهرة فى أمْرٍ عَرفَ ما يأْتِى فيـه وما يجْتَنِب؛

ومُؤَكِّدِ النِّعَمِ لِمَن إذا ٱرْتِيدَت الأكْفاءُ فى الخِدْمة الشَّريفةِ كان خِيرَةَ مَن يُخْتار ونُخْبةَ من يُنْتَخَب .

نحمَدُه على نِعَمِه التى سَرَتْ إلى الأوْليـاءِ عَوارِفُها ، وٱشْتَمَل على الأصْـفياءِ وافِرُ ظِلَالها ووارِفُها ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُزْلِفُ لديه ، وتكونُ لقائلها ذَخِيرةً يوم العَرْض عليه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه أشْرفُ مَبْعوث إلى الأُمَم ، وأكْرم منعُوتٍ بالفَضْـل والكَرَم ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه الذين وُلُّوا أمْرَ الأُمَّة فعَدلُوا ، وسَلَكُوا سَنَن سُنَّته فما مالُوا عنها ولا عَدلُوا ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ ما ٱختِيرَله من الأوْلياءِ كلُّ ذى هِمَّة عَلِيَّـه ، وعَزْمَة بمصالح ما يُعْدقُ به من مُهِمَّات الدَّولة القاهِرة مَلِيَّه ؛ وخِبْرة بكلِّ ما يُرَاد منها وَفِيَّه ، ويَقَظة تلْحَظ فى كلِّ ما قرب ونَأىٰ من المصالح الأُمُورَ الباطنةَ والأحْوالَ الخَفِيَّه ؛ وصَرامَة تُؤْيِسُ من ٱستلانة جانِبِه ، ونَزاهَـة تُؤَمِّنُ من إمالة رَأيِه فى كلِّ أمْرٍ عن سـلوك واجِبِـه ؛ ومعْرِفَة مُطَّلِعـه ، ونَهْضه بكلِّ ما إن حُمِّلَه من أعْباء المهمَّات الشَّريفـةِ مضطلِعَه ـ أمْرُ الأموال الديوانية : فإنَّها معادنُ الأرْزاق ، ومَوادُّ مصالح الإسلام على الإطـلاق ؛ وخزائنُ الدَّولة التى لو ملكَتْها الغمائمُ لأمْسكتْ خَشْـية الإنْفاق ، وذخائرُ الثُّغورِ التى مواقعها من أعْداء الدِّين مواقع الشَّـجَا فى القُـلوب والقَذَىٰ فى الأحْداق .

ولما كان المجلس السامى هو الذى سَمَتْ به هِمَمُه ، ورَسَخَتْ فى خِدَم الدَّولة القاهِرةِ قَدَمُه ، وتبارَىٰ فى مصالح ما يُعْدقُ به من المُهِمَّات الشَّريفةِ سيفُه وقَلَمُه ؛ وكانت المملكة الطَّرابُلُسِيَّة من أشْهر ممالكنا سُمْعَـه ، وأيْمَنِها بُقْعَه ، وأعْمرِها بلادا ،

وأخْصبِها رُبًّا ووهادا، وأكْثرِها حُصونا شَواهِق، وقِلاعًا سَوامِيَ سَوامِق، وثغورا لا تشيمُ ما آفتَرَّ من ثُغُورها البروقُ الخَوافِق؛ ولها الخواصُّ الكثيره، والجهات الغَزِيرَه، والأموالُ الوافِرَه، والغَلّاتُ المتكاثِفةَ المُتكاثِرَه ـ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نَرْتادَ لها من يسُدُّ خلَلَ عطَلِها، ويشُدُّ عَضُد مَيَدها ومَيَلها، وينْهَض من مصالحها بما يُراد من مِثْلِه، ويعيدُ لها بحُسْنِ المباشرة بَهْجَةَ مَن فَقَدَتْه (١) من الأكْفاء من قَبْلِه .

فلذلك رسم ... ... أن يفوّض إليه شَدُّ الدواوين المعمورة بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة والحصون المحروسة، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك .

فلْيباشِرْ ذلك بمعْرِفة تستخرج الأموال من معادِنِها، وتَسْتثِيرُ كوامِنَ المصالح من مَكامِنها؛ وتُثمِّرُ أموالَ كلّ معاملة بحسن الآطلاع عليها، وصَرْف وَجْه الآعتناء إليها؛ وتفقُّد أحْوالِ مُباشِريها، ومُباشَرةِ مايتجدَّدُ من وجوه الأموال فيها؛ وضَبْط آرتفاعها بعَملِ تَقْديره، وحِفْظ متَحصِّلِ ضِياعِها من ضَياعِه وصَوْنِ بِذارِها عن تَبْذيره؛ ولْيَجْتَهِدْ فى عمارة البلاد بالرِّفْقِ الذى ما كان فى شَيْءٍ إلا زَانَه، والعَدْلِ الذى ما آتَّصفَ به مُلْكٌ إلا صَانَه، والعِفَّةِ التى ما كانت فى امرئٍ إلّا وفقه الله تعالىٰ فى مقاصِده وأعَانَه؛ ولْيُقَدِّم تَقْوى اللّهِ بين يديه، ويعتَمِدْ علىٰ تَوْفيقِه فيما آعتُمِدَ فيه عليه، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وعلىٰ ذلك يكتبُ شدُّ مراكز البريد ونحوها .

---

(١) لعله "مافقدته من عمل الأكفاء" .

الصـــنف الثـانى

(من الوظائف بطَرَابُلُس التى يكتب لأربابها من الأبواب السلطانيـة ـ الوظائف الدِّينيَّة ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبـــة الأولىٰ

(مَن يُكْتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامىّ» بالياء، وتشتمل علىٰ وظائف)

منها ـ القضاء . وبها أربعةُ قُضاة من المذاهب الأرْبعة : من كُلِّ مذهب قاض .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بقَضاء قُضَاة الشَّافعيَّة بها، يُنْسجُ علىٰ منواله ، وهى :

الحمــدُ لله الذى أعَزَّ الدِّينَ بعُلَمــائه، وعضَّدَ الحكْمَ بالمتَّقين من أوْليائه، وأوْضح الرُّشْد للمُقْتَدين بمن جعلهم فى الهِـدايَةِ كنجُوم سَمائِه، وجعل لكلٍّ من الأئِمَّةِ من مطالع الظهور أُفُقًا يهتدىٰ فيه بأنْوارِه ويُقْتدىٰ بأنْوائِه .

نحمدُه علىٰ أنْ جعل سَهْم آجتهادنا فى الآرتياد للأحْكام مُصيبا ، وقَسَم لكلٍّ من أُفُقٍ من ممالكنا من بركة علماء قَسيمه الآخَرِ نَصيبا؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تعصِمُ من الهوىٰ فى الحُكْم لعباده، وتَفْصم العرا ممن جاهر فيهـا بعناده ؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءتْ أنْوار ملَّته ، فاسْتَشَفَّ العلماءُ لَوامعَها، ووَضَحتْ آثارُ سُنَّتِه ، فأحْرز أئمَّــةُ الأُمَّة جَوامعَها ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين دُعُوا إلى الله فأجابُوا، ودَعَوْا إلى الحُكْم بسنَّته فأصابُوا ؛ صلاةً لا تزال الألْسُن تُقيمها، والإخْلاصُ يُديمُها ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ أوْلىٰ ماأدَّىٰ فيه الآجتهادُ جُهْدَه، وبلغَ فيه الآرتيادُ حَدَّه ؛ واسْتُضِىء فيه بنور التَّوْفيق ، وآسْتُصْحبَ فيه من آستخارة اللهِ خيْرُ رَفيق ـ أمْرُ الحُكْم العزيز

وتَفْوِيضُه إلىٰ من وسَّع اللهُ تعالىٰ مجالَ عِلْمِه، وسدَّد مَناطَ حُكْمِه؛ وطَهَّر مَرامَ قَلْبِه، ونوَّر بصَرَه فى الحكم وبَصيرَتَه فأصْبح فيهما علىٰ بَيِّنَة من ربِّه؛ فأجرىٰ الحق فى البحث والفُتْيا علىٰ لسانه و يمينه، ونَزَّهه عن إرادة العلم لغير وجْهِه الكريم، ونبَّهه على ٱبتغاء ما عند الله بذٰلك واللهُ عنده أجر عظيمٌ .

ولمـا خَلا مَنْصِبُ قَضاء القُضاة بطَرابُلُس المحروسةِ علىٰ مذهب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه : وهو المَنْصِب الذى يُضِىءُ بالأئمَّة الأعلامِ أُفُقُه، وتَلْتَقِى بالفُضَلاء الكرام طُرُقُه ؛ وتَحْتوِى علىٰ أرْباب الفُنون المتعدّدة مَجالِسُه، وتَزْكو بالفوائد المختلفةِ مَغارِسُـه ؛ وكان فلانٌ هو الذى أُشِيرَ إلىٰ خصائص فَضْله، ونُبِّه علىٰ أنَّ الاجتهاد للأُمَّة أفْضىٰ إلىٰ إسـناد الحكم منـه إلىٰ أهْلِه ؛ وأنَّه واحدُ زَمانِه، وعَلّامة أوانِه ؛ وجامعُ الفضائِلِ علىٰ ٱخْتـلافِها، وقامعُ البِـدَعِ علىٰ ٱفتراق شُبَهِها منـه وأْتِلافِها ؛ وحاوِى الفروع التى لا تتناهىٰ، والمُرْبِى علىٰ رَبِّ كلِّ فضـيلةٍ لا يَعْرِف غيرها ولا يَأْلَفُ سواها ــ ٱقتضت آراؤُنا الشريفـة أن نجزم من ٱرْتِيـادِه لهذه الرتبـة بهذا الرَّأْىِ [السديد] ، وأن نُقرِّب سُراهُ إلىٰ هذا المَنْصِبِ الذى ناداه بلسان الرَّغبة من مَكان بَعيد .

فلذلك رُسِم بالأمْرِ الشَّريفِ ــ لا زال إحسانُه كالبَدْرِ، يملأ المشارقَ والمغارب، وبِرُّه كالبَحْرِ، يَقْـذِف للقَريبِ الجواهر، ويبْعثُ للبعيـد السَّحائب ــ أنْ يفوض إليـــه كذا .

فليطْلُعْ بذلك الأفق الذى يترقَّبُ طلوعَه رِقْبَـةَ أهلَّةِ المواسم ، ويُسْرِعْ إلىٰ تلك الرُّتْبة التى تكاد تَسْتطلِـعُ انْباءه من الرياح النَّواسم؛ وينْشُرْ بها فَرائِدَه التى هى أحَقُّ

أن تطوى إليها المراحل ، ويَقْدُمْ بها على الأسماع الظّامية لعَذْبِ فوائِدِه قُدومَ الغَمامِ علىٰ الرَّوض الماحِل ؛ ويَلِ هـذا المَنْصِبَ الذى هو فيـه بين عَدْل ينْشُره ، وحقٍّ يظهره ، وباطِل يزْهِقُه ، وغالب يُرْهِقُه ، ومظلوم ينْصُره .

وليكُنْ أمرُ أمْوال الأيْتام المُهِمَّ المقدّمَ لديه ، وحَديثُ أوْقاف البِرِّ من أوَّل وأوْلىٰ ما يَصْرِف فِكْرَه الجميلَ إليه ؛ ويتعاهَدُ كَشْفَ ذلك بنَفْسِه ، ولا يكتفى فى عِلْمه فعلَ اليوم باطّلاعه عليه بأمْرِه فى أمْسِه (١) ؛ وهو يعلَمُ أنَّ الله يجعله بذٰلك مشاركًا للواقفين فى الأجْرِ المختصِّ بهم والشُّكْرِ المنسوب إليهم ، خارجًا من العُهْدَة فى أمْرِ اليتامىٰ باستعمال الذين يَخْشَوْنَ لَو تَرَكُوا من خَلْفِهِم ذُرِّيَّةً ضِعافًا خَافُوا عَلَيْهِم ؛ وليُقِمْ مَنارَ الحق علىٰ ما يجب وإن سَرَّ قومًا وساء قَوْما ، ويَقُمْ بالعَدْلِ علىٰ ما شُرِع : فإنَّ « عَدْلَ يومٍ خيرٌ للأرْض من أنْ تُمْطَرَ أرْبعين يَوْما » .

وأمَّا ما عدا ذلك من أحْوال الحكم وعَوائِده ، وآداب القَضاء وقَواعِده ، فكُلُّ ذلك من خصائصه يُسْتفاد ، ومن مَعارِفه يُسْتَزاد ؛ وملاكُ ذلك كلِّه تقوى الله وهى من أظْهرِ حِلاهُ الحَسَنَه ، وأشْرفِ صِفاته التى تَتَداوَلُها الألْسِنَه ؛ فلْيَجْعَلْها وسيلةَ تَسْدِيدِه فى القَوْل والعَمل ، وذَخِيرةَ آخرتِه التى ليس له فى غيرها أمَل ، ويقلد العلىٰ فيما حَدَّثَتْه من أسْباب نُقْلَتِه فإنَ كَمالَ العزِّ فى النُّقَل ؛ والله تعالىٰ يمدّه بموادّ تَأْييدِه وقد فعل ، ويجْعَلُه من أوليائه المتَّقين وقد جعَل ؛ بمنّه وكَرَمه ! ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وعلىٰ ذلك تكتب تواقيع القُضاة الثلاثة الباقين .

ومنها ــ وكالة بَيْتِ المال .

---

(١) لعله « على أمره فى أمسه » .

* * *

وهذه نسخة توقيع من ذلك، وهى :

الحمـــدُ للهِ الذى عَمر بيْتَ مال المسلمين بسَدَاد وَكِيله ، ونمو تحْصيـلِه ومَزِيد تَمْويلِه ، وتمسُّكِه بالصِّدْق من قِيلِه ، وسُلُوكِه ماتبيَّنَ [من] سبيله ، وآعتماده الحق فى دليله ، ودَفْعِه المَضَارَّ وجَلْبِه المسارّ بتَخْوِيله .

نحمدُه علىٰ بِرِّه وتَفْضيله ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلٰهٌ تنزَّه عن نِدِّه ومَثِيلِه ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه الله لتمـام هذا الدِّينِ وتَكْمِيلِه ، وأنزل عليه المُعْجِزات فى تنزيله ، وحَفِظ به الذِّكْرَ الحكيمَ من تَبْديلِه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه وقَبِيلِه ، وسلَّمَ تسليماً .

وبعـدُ ، فإن بيْتَ المالِ المَعْمورَ هو نِظامُ الإسلام ، وذُخْرُ الأنَام ، وفيه مَحْصولُ المسلمين تحتَ نَظَرِ الإمام ، وفيـه مادَّةُ المجاهدين فى سبيل الله علىٰ تَطاوُلِ الأيَّام ، وإليه تُجْبَى القَناطِيرُ المُقَنْطَرةُ من الأمْوال ، وعنه تصدُر المبيعاتُ من الأملاك ما بين أراض وأبْنِية ومَحال . والوكِيلُ علىٰ ذلك عنَّا بالمَمْلَكَةِ الطَّرابُلُسِيَّة المحروسةِ هو الذَّابُّ عن حَوْزَته ، القائمُ بتأْمين رَوْعَتِه ، المجتَهِدُ فى تمييز رَجْعَتِه ، وينبغى أن يكونَ من العلمـاء الأعْلام الأئمَّـه ، المعوَّلِ عليهم فى الأُمور المُهِمَّه ، البَصيرِ بمـا يترجح به جانِبُ بيتِ المـال المعمورِ ويَكْشِف كلَّ غُمَّه ، العَرِيقِ فى السِّيادةِ التى آنقادت إليها السجايا الجميلةُ بالأزِمَّه .

ولمـا كان فلانٌ هو الرَّاقِىَ هَضْبَة [هذه] المـآثِر ، الطَّالِـعَ كَوكَبُ مجْدِه السَّافِر ، المستَحِقَّ لكلِّ آرتقاءٍ على المنابر ، ويَعُدُّ سَلفًا كريمًـا نَصيرًا فى المفاخر ، ويَمُتُّ ببَيْتِ

بحره زاخر؛ وله فى مذهب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه بَحْثٌ فاق به الأشْباهَ والنظائر، وعنده عِلْمٌ بالمسائل المضروب مَثَلُها السَّائِر ـ فلذلك رسم ... ...

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مُحْترِزًا فى كلِّ ما يأْتيه ويَذَرُه، ويقْصِدُه ويُحرِّرُه، ويُورِدُه ويُصْدِرُه، ويُبيِّنه ويُقدِّرُه، ويُخْفيه ويُظْهِرُه، ويُبْديه ويَسْتُرُه، ويُدْنيه ويُحْضِرُه؛ ويقتِرْ جانِبَ بيْت المال المَعْمور، بمـا فيه الحظُّ الموْفُور؛ والغِبطَة فى كلِّ الأُمُور، وهو عالِمٌ بمـا فيه صـلاحُ الجُمْهُور؛ ومن رَغِب فى ٱبْتِياعِ أرَاض وقَرَاح، وأبْنِيَـة وأمْـلاك ورِحاب فِسَاح؛ ممـا هو جَارٍ فى مِلْك بيْتِ المـال فلْيُوفِّرْ جانِبَ القِيمَةِ علىٰ ما فيه الصَّلاح، وهو بحمد الله من بَيْتِ الدِّين والصَّلاح والإصْلاح، وهو يُقوِّى بإسناده الأحاديثَ الصِّحاح؛ ومن له حقٌّ فى بيْتِ المـال فلْيَسْمَعْ دعوىٰ مُدَّعيه، ولا يصرفْ دِرْهَمًا ولا شَيْئًا إلا بحقٍّ واضِحٍ فيما يثبته فيه، وهو وَكِيلٌ مَأْمونٌ فى تَأَتِّيه، ومَعْنى الوكيل الذى يُوكَلُ إليه الأمْر الذى يَليه.

والوصايا كثيرةٌ وأجلُّها تَقْوَى الله بالسَّمْع والبَصَر واللسان، فمَن تَمَسَّك بهـا من إنْسـان فإنَّه يفوز بالإحسان؛ وهو غَنِيٌّ عن الوصايا بمـا فيه من البيان، واللهُ يجعـله فى كِلاءَة الرَّحْمن؛ بمنِّـه وكَرَمه! . والخطّ الشريف أعلاه ... ...، إن شاء الله تعالىٰ.

قلتُ : وقد يُكتب لوكالة بيت المـال ونحوها بالآفتتـاح بـ«أمَّا بعـدُ» علىٰ قاعدة أصْل الكتابة فى قَطْع الثلث. والكاتب فى ذلك علىٰ مايراه بحسب مايقتضيه الحـال.

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بطَرابُلُسَ ـ مَن يُكْتب له في قطع العادة ، مفتتحا بـ«رُسم»)

وهذه نسخةُ تَوْقيع من هـذه الرتبة بوظيفـة قراءة الحديث النَّبوِيّ ، علىٰ قائله أفضل الصلاة والسلام، لمن آسمه « يحيى » يستضاء به فى ذلك، وهى :

رُسم بالأمْر الشريف ـ لا زال رَمِيمُ الفَضْل بأرْواحِ عنايته يَحْيا، وأحاديثُ مِنَنه الحِسانِ تَعِيها أُذُنٌ وَاعِيةٌ من طِيبِ السَّماعِ لا تَعْيَا ؛ ولا بَرِحتْ أوْليـاءُ خِدَمه تُثْنى علىٰ صدقاته بألْسِنَة الأقْلام ، وتُدِيرُ على الأسْمـاع من رَحِيقِها كُئُوسًا مِسْكِيَّةَ الخِتَام ـ أنْ يستقرَّ فى كذا آستقرارًا تَرشُف الأسماعُ ، كُئُوسَ روايتها فلا تَرْوىٰ، ورتب كماله يقْصُر عن طلوعها كلُّ باعٍ ، فمُناواتُه (١) لا تُنْوَىٰ؛ ورُبُوعُ معروفه لا تَبِيد، وآياتُ صِـلَاتِه ينْطِقُ بتلاوتها كلُّ بليغ فيُبْدِئُ ويُعِيد ؛ لأنَّه العـالِمُ الذى أحْيا من مَدَارِس العُلوم مادَرَس، والفاضلُ الذى أضاءَ ببَصَر عُلُومه ليلَ الجَهْـل ولا غَرْوَ : «فَطُرَّةُ الصُّبْحِ تَمْحى آيَةَ الغَلَس» ؛ والكاملُ الذى لا يَشُوبُ كمالَه نَقِيصَه، والأمْثَلُ الذى أنَتْه المعالى رَخِيصَه ؛ والإمام الذى تَأْتَمُّ وراءَه الأفاضِـل ، وتَأخَّر عصْرُه ففاقَ الاوائِل؛ مادَرَّسَ إلا وجَمع من فوائد «أبِي حَنِيفة» و«آبن إدريس» ، ولا عَرَّس بأيْلِ الطَّلَبِ إلَّا حَمِد عنـد إدراك طَلَبِه ذلك التَّعرِيس ؛ ولا أعاد الدُّروسَ للطَّلَبـة إلا وترشَّحتْ منه بالفَوائِد ، ولا جَمع ما فصَّله العلماءُ إلا وأتىٰ بالجَمْع الذى لا نظيرَ له فى القَرائِد .

---

(١) فى الأصل : وقدمرّ وهو تحريف واضح .

فليباشر هذه الوظيفة مُباشَرةً أنوارُ هداها لا تَخْمَد(١) ، وليُلازِمْها ملازمةً تشكره عليها الألْسِنة وتَحْمَد ؛ وأنْت ـ أدام الله تعالىٰ فوائدك ـ لا تحتاج إلىٰ الوصايا إذْ أنْت بها عَالِم ، و بأسْبابِها مُتَمَسِّكٌ و بالقيامِ بها يَقِظٌ غيرُ نائم ؛ لكن التقوىٰ [أوْلىٰ] بمن عرف الأمور ، ولِباسُ سَوابِغِها يُبْعِدُ كلَّ محْذُور ؛ والاعتماد علىٰ الخطّ الشريف أعْلاه .

الصنف الثالث

(من الوظائف بطَرابُلُس التى يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية ـ الوظائف الدِّيوانية ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ

(ما يكتب فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامىّ» باليـاء ، وتشتمل علىٰ وظائف)

منها ـ كِتَابَةُ السِّرّ ، ويعبَّر عنه فى ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بـ«صاحب ديوان المكاتبات» .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ من ذلك ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى جعل الأسْرارَ عند الأحْرار ، وطَوَى الصُّحُفَ علىٰ حَسَنات الأبْرار ، وأجْرى الأقْلامَ تَرْجُماناً للأفْكار ، وجعل الحَفَظَةَ يكْتُبون الأعمالَ مع تَطاوُل الأعْمَار ، آناءَ اللّيلِ وأطْرافَ النَّهار ، و بَسط المَعانِى أرواحا ، والألْفاظَ لها أشْباحا ، مع التَّكْرار ، وأبْهج الصدور بصُدُور الكُتُب والإيراد والإصدار .

(١) فى القاموس خمدت النار كنصر وسمع .

نحمده علىٰ فضله المدرار ، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له شهادة إقرار ، وعملٍ بالجوارح بلا إنكار ؛ ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله المصطفىٰ من مُضَر بن نزار ، المخصوص بالمهاجرين والأنصار ، الثاوى بأشرف بقعة تُزار ، المُشَرِّف كُتّاب الوحي : فهم يكتبون بما يُمليه عليهم المختار ، وجبريل يُلْقِي علىٰ قلبه الآيات والأذكار ، عن ربّ العزة المُسْبِل الأستار ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ما نفح روضٌ معطار ، وسحّ صوبُ أمطار ، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّ ملاكَ المُلك الشريف حفظُ سرّه ، والاحتفالُ بكتبه الشريفة ولفظها ودُرّه ، وخطابها ونثره ، وخطها ونشره ، وختمها وعطره ، وتجهيزها مع الأمناء الثقات الذين تؤمن غائلة أحدهم فى كلّ أمره ؛ وما أُلقيَ السّرُّ الشريفُ إلّا لأكمل الأعيان ، وصدر الزّمان ، وبليغ كسَحْبان ، وفصيحٍ كقُسٍّ فى هذا الزمان ، وأصيل فى الأنساب ، وعريق فى كرم الأحساب ، وفاضلٍ يعنو له فاضلُ بَيْسان ، ويُنْشى لفظُه الدرّ والمرجان ، وكاتبُ السّرّ فلا يفُوه بلسان .

ولما كان فلانٌ هو واسطة عقد الأفاضل ، ورأس الرؤساء الأماثل ، وحافظ السرّ فى السّوَيْداء من قلبه ، وناظمَ الدُّرّ فى سطور كُتْبه ؛ والمُوردَ علىٰ مسامعنا الشريفة من عبارته ألفاظًا عذابا ، القائلَ صوابا ، والمُجيدَ خطابا ، وإذا جهّز مُهمًّا شريفًا راعاه بعينه عوْدا وذَهابا ، وإذا استعطف القلوبَ النافرةَ عادت الأعداء أحبابا ، وإذا أرْعد وأبْرق علىٰ مأْزِقٍ أغنىٰ عن الجيوش وأبدىٰ عَجَبًا عُجابا ، وإذا كتب أنبت فى القرطاس رياضا خِصابا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يفوّض إليه كذا . فليَحُلَّ هذا المنصبَ الشريفَ حلُولَ القمر هالَتَه ، وليُعدْ إليه أيّام سرّه وسُروره الفائتَه ، وليُعربْ عن أُصول ثابتَه ،

وفُروعٍ فى منابت الخيرْ نَابِتَه ؛ ولينفِّذ المهماتِ الشَّريفةَ أوّلًا فأوّلا من غير أنْ يَعْدِق مُهِمًّا بغيره أو يُبَيِّتَه إلىٰ غَدِه ، وليُحَرِّر البَرِيدَ المنصورَ بيديه غير معتمد فيه علىٰ غير رَشَدِه ، ولا يَغِبْ عن وظيفته طَرْفةَ عَيْنٍ بل يكون كالنَّجْم فى رَصَدِه لمرْتَصِدِه ؛ وليُوصِ كُتَّاب الإنشاء لديْه ، والمتَصَرِّفين بين يديه ، بكتم السِّرّ فإن ذلك إليه ؛ فإذا أفشىٰ أحدٌ من السِّرّ كَلِمَه ، فليزْجُرْه وليأمُرْه أن يحفظ لسانَه وقَلَمه ، وليُعْطِ كلَّ قَضيَّة ماتستحقها من تَنْفِيذ كَلِمه ؛ والابتداءاتُ والأجوبةُ فلتكُنْ ثغورها بألْفاظه متشنِّبة وعُقودُها بإملائه مُنْتظِمَة ؛ فأمَّا الابتداءُ فهو على اقْتِراحه ، وأمَّا الجوابُ فهو علىٰ ما يقتضيه الكتابُ الوارد باصْطِلاحه ، ولا يملى إلّا إلىٰ ثقاته ونُصَّاحه ؛ والكتبُ الملوكية فليوفِّها مقاصِدَها ، وليراعِ عَوائدَها ؛ والتَّقْوىٰ فهى الْمامُّ [من] أمْره ، وخِتامُ عِطْره ، وتَمامُ بَدْرِه ؛ والوصايا فهى كثيرةٌ لديْه وفى صَدْره ، والله تعالىٰ يكمِّل به أوْقات عَصْرِه ؛ بمنِّه وكرمه ! والخطُّ الشَّريف أعْلاه ... .

ومنها ــ نظر المملكة ، القائمة بها مقامَ الوِزَارة .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ من ذلك ، وهى :

الحمدُ لله مُفِيض حُلَلِ إنْعامِنا علىٰ مَن أخْلص فى طاعتنا الشَّريفةِ قَلبَهُ ولِسانَهُ ، ومُولِى فَضْلِ آلائنا العَمِيمةِ علىٰ مَن أرْهَف فى مصالحها آلةَ عَزْمه وبنَانَه ؛ ومُحَلِّى رُتَبِ عَلْيائنا الشَّريفةِ بمن أشْرق فى سماء المَعالى بَدْرُه وإنْسَانُه ، وأينعتْ فى غصون الأمان قُطوفُه وأفْنانُه .

نحمدُه حمدًا يَبلُغُ [به] أقْصىٰ غاية المَجْد مَن تَبْتَسِم بجميل نَظَرِه الثُّغور ، وتَعْتَصِمُ بحميد خَبَره وخِبْرَتِه الأُمور ؛ ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُشْرِق بها

البُـدور، ويُعْتَمَدُ عليها فى الايّام والدُّهور؛ ونشهدُ أنَّ سـيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الهـادى إلى الحقِّ وإلىٰ طريق مُسْـتقيم، والنّاشِرُ لواءَ العَدْل بسَنَنِه الوَاضِح وشَرْعِه القويم؛ وعلىٰ آله وصَحْبِـه الذين آهتدىٰ بهَدْيِهِـم ذَوُو البصائرِ والأبْصار، وآرْتَدىٰ بأرْدِيَتِهِم المُعْلَمَةِ مقتفى الآثار من النُّظَّار، وسلَّمَ تسليماً .

وبعــدُ، فإنَّ أوْلىٰ من أسْندنا إلىٰ نَظرِه الجميلِ رُتْبَةَ عِزٍّ ما زالتْ بنُو الآمال عليها تَحُوم، وعدَقْنا بتَدْبِيره الجميلِ مَنْصِبَ سِيادَة ما برِحَتْ الأمَانِيُّ له تَرُوم، واعتَمَدْنا علىٰ هِمَمِه العلِيَّة فصَـدَّق الخُبْرُ الخَبَر، ورَكَنَّا إلىٰ حَمِيـدِ رَأْيِه فشَهِد السَّمعُ له وأدَّى النَّظَــر .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى رَقِىٰ فى ذِرْوَةِ هَذِه المعالى، وانْتَظَم به عِقْدُ هذه اللّآلى، وحَوىٰ بفَضِيلة البيانِ واللِّسانِ مالم تدركه المُرْهَفاتُ والعَوالى؛ فمـا حلَّ ذرْوةَ عزٍّ إلَّا حلَّاها بنَظرِه الجميــل، ولا رَقىٰ رُتْبة سِـيادَة إلا وأسْفر فى ذرْوَتِها وجْهُ صُبْحه الجميل، ولا عُدِق بنَظَرِه كَفالَةُ رُتْبة إلا وكان لهـا خيْرَ كَفيل .

فلذلك رُسِم بالأمْرِ الشَّريف ـ لا زال ينْتَصِي للرُّتَبِ العَلِيَّــة خيرَ مُنْجد ومُغِــير، ويَخْتارُ للمناصب السَّنِيَّةِ نِعْمِ المَوليٰ ونِعْمِ النَّصِير ـ أن يفوّضَ إليه كذا فإنَّه القَوِىُّ الأمين، والمتمسكُ من تَقْوى الله تعالىٰ وكِفايَتِه بالسَّبَب المَتِين، والمُسْتَنِدُ بجميـلِ كَفالَتِه وحَمِيدِ ديانَتِه إلىٰ حِصْنٍ حَصِين، والمُسْتَذْرِى بأصالَتِه الطَّاهرة وإصابَتِه إلى الجُنَّةِ الواقِيَةِ والحَرَمِ الأمِين .

فليقَدِّمْ خِيرَةَ الله تعالىٰ ويُباشِرْ الجهةَ المذكورةَ بعَزْمٍ لا ينْبُو، وهِمَّة لا تَخْبُو، وتَدْبِيرٍ يتضاعفُ علىٰ مَمَرِّ الأيَّام ويَرْبُو؛ ونظَر لا يعزُب عن مبـاشرته مثقالُ ذَرَّة إلا وهى من خاطرِه فى قَرارٍ مَكين، وضَبْط لا تمتدُّ إليــه يدُ ملْتَمس إلا ويجِدُ من مُرْهَفه

ما يكُفّ كَفَّها بالحدّ المَتين . ولْيضاعِفْ هِمَّته، فى مصالح هذه الجهة التى عَدَقْناها بنظره السعيد، ولْيُوفِّرْ عَزْمَته، فإنَّ الحازِمَ من ألْقَى السَّمْعَ وهو شهيد ؛ والوصايا كثيرةٌ ومثله لا يُدَلُّ عليها، والتَّنْبيهاتُ واضحَةٌ وهو ـ وفقه الله تعالىٰ ـ أهْدىٰ من أنْ يُرشَدَ إليها ؛ واللهُ يوفِّقه فى القَوْل والعَمَل، ويُصْلِحُ بجميل تدبيره وحَميدِ تأثيلهِ كلَّ خَلَل ؛ والاعتماد علىٰ الخطِّ الشريف، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها ـ نظر الجَيْش بها :

* * *

وهذه نسخة توقيع بها لمن لقبه «شَمْس الدِّين» وهى :

الحمدُ للهِ الذى أطْلع فى سماء المَعالِى شَمْسًا مُنيرَه، وأيْنع غُروسَ أُولِى الصَّدارَةِ بعِهادِ سُحُب عَوارِفهِ الغَزِيرَه، وأبْدع الإحْسانَ إلىٰ من قَدمه الاختبارُ والاختيارُ علىٰ بَصيره .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى عمّ فَضْلُها، ومُدَّ علىٰ أوْلياء الدولة القاهرة ظِلُّها ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُزْلِفُ لَدَيْه، وتُسْلِفُ ما يَجِدُه المتمسِّكُ بها يَوم العَرْض عَلَيْه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من بُعِثَ إلى الأُمَم كافَّه، وأكْرمُ مَن غدَتْ أمْلاكُ النَّصر بآيته حَافَّه ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حازوا بصُحْبته الشَّرف، وفازُوا بطاعة اللهِ وطاعَتِه من الجنان بغُرَف من فَوْقها غُرَف .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ ما عُدِقَ بالأكْفاء، وأحَقَّ ما صُرِف إليه وجه الاعْتِناء، وأجْدرَ ما أُوقِظَ له طَرْفُ كافٍ لا يُلِمُّ بالإغْفاء ـ أمْرُ الجيوشِ المنصورة بطَرابُلُس

المحروسة التى لا ينهض بأعباء مصالحها إلا من عُرِف بالسَّداد فى قلمه وكَلِمه ، وأُلِف منه حُسْنُ التصرُّف فيما يُبْـدِيه من نزاهته ويُظْهِره من هِمَمه ؛ بخِبْرة مُؤَكَّده ، وآراء مسَدَّده ؛ ومعرِفة أوْضاع تَرْتِيبها وأحْوالها ، وقواعد مُقَدَّميها وأبْطالها ، وكفاية تفْتح رحاب حالها .

ولما كان فلانٌ هو الصَّـدْرَ المَلِيَّ بوَافِى الضَّبْط ووافِر الاْهتِمام ، والكَافِىَ الذى نطقَتْ بكفايَتِه ألْسِنَةُ الخِرصان وأفْواهُ الأقْلام ، والضَّابِطَ الذى لا يَعْجِزُ فَهْمُه عن إحاطة العِلْم بذَوِى الآلام .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال يقَدِّمُ للمراتب، كَافِيًا مَشْكُورا ، ويُرَشِّح للمناصب ، صَدْرًا أضْحَى بالأمانَة مَشْهُورا ـ أنْ يفوِّض إليه كذا : لأنَّه الصَّدْر الذى تزاحَمَتْ ألْسِـنةُ الثَّناءِ عليـه ، وترادَفَتْ بين أيْدينـا مَحامِدُه فقرَّرنا العوارِفَ لَدَيْه ؛ وشُكِرَتْ عندنا هِمَمُه فى سَداد كُلِّ ما يُباشِرُه ، وذُكِرَتْ لدَيْنا بالخيْر سيرَتُه وسَرائِرُه .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفـةَ الجليلةَ مُتَحَلِّيًا بين الأنام بعُقُودِها ، مُطْلِعًا شَمْسَ نزاهَتِـه فى فَلَكِ سُـعودِها ؛ ناهِضًا بأعْباءِ مَنْصبه السعيد ، ضَابِطًا قَواعِدَه بكُلِّ تحرير تَلِيد ؛ متْقِنًا دِيوانَ الجيوش المَنْصوره ، مُعْمِلًا فى ملاحظتها نَافِذَ البَصَر وحُسْنَى البَصِيره ؛ مُحَرِّرًا أوْراق العِدَّة والعُـدَّه ، باذِلًا فى ضَـبْط الحِلَى اهْتِمامَه وجُهْدَه ؛ والله تعـالى يُسْعِدُ جَدَّه ، ويُجَدِّدُ سَعْدَه ؛ والخطُّ الشريفُ أعْلاه ... ... إن شاء الله تعالى .

قلتُ : ورُبَّما كُتِب مفْتتَحًا فى هـذه الرتبة بـ«أمَّا بعد» فإنها أصْل ما يكتب فى قَطْع الثلث .

———

المرتبـــة الثـانية

(من مراتب أرباب الوظائف الديوانية بطرابُلُس ـ مَن يُكْتب له فى قَطْع العادة بـ«مَجْلس القاضى»)

وهو قليلُ الوقوع . والغالب فى ذلك أن يكتب عن نائب السلطنة بها .

وهذه نسخةُ تَوْقيع من هذه الرتبة بكتابة الدَّسْت بطرابُلُس ، يقاسُ عليه ما عداه من ذلك ، وهى :

رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال أمْره الشريفُ ، يزيد من يَصْطَفِيه شَرَفا ، وبِرُّه المُنِيفُ ، يُفيد من يَجْتَبِيه تُحَفا ، وخَيْرُه المُطِيفُ ، يُجِيد لمن يختاره جُودا ، ويسُرُّ قَلْبَ مَن رفعه إلىٰ صَـدْر الدَّسْت صُعودا ، فيبَوِّئُه من جَنَّات العَلْياء غُرَفا ـ أنْ يَسْتقرَّ فى كذا : آستقرارًا تُجْتَنَىٰ منه ثِمـار الخيرات ، وتُجْلَىٰ عليه عَروسُ المَسَرَّات ؛ لأنَّه الرَّئيسُ الذى تَفْتخِرُ هـذه الوظيفةُ بآنتسابها إليه ، وتتجمَّلُ حُلَلُها وألْوِيَتُها إذا نُشرت عليه ؛ والفَاضِلُ الذى ألْقَتْ إليه البلاغةُ زِمامَها ، والكامِلُ الذى ملك بيانَها ونِظامَها ؛ والأدِيبُ الذى لا يُدْرَكُ فى الآداب ، واللَّبِيبُ الذى يقصُر عنه طُولُ عامَّة الطُّلَّاب ؛ كَمْ له من كِتابَةٍ حَسَنة الآتِّساق ، وبَلاغَة حصَل علىٰ فَضْلِها الآتِّفاق ، وديانَةٍ أطْلَقَ فيها لِسانَهُ ويَدَه فشكرها الناسُ على الإطْلاق ؛ فهو مُسْتَنَد الرآسـه ، وآبنُ من حاز كلَّ فَخار ورَاسَـه ؛ والعَلَمُ المشهورُ عِلْمُه ، وصاحبُ القَلَمَ المشكورُ رَقْمُه ؛ فالمناصِبُ بارتِفاعه إليها مُفْتخِرَه ، والمراتِبُ بعَلاَئه مُسْتَبْشِرَه ؛ والأسْمـاعُ بفضائله مُشَـنَّفه ، والأسْجاعُ بكَلِمِه مُشَرَّفه .

فليباشِرْ هـذه الوظِيفَه ، ولْيَسلُكْ فيها طَرِيقَ نَفْسـه العَفِيفَه ؛ ولْيُدَبِّج القِصَصَ بأقْلامه ، ولْيُبهِج التَّواقِيعَ بمـا يُوقِّع مُبْرَمُ فصيحِ كَلامه ؛ ولْيزَيِّن الطُّروسَ بكتابَتِه ،

ولْيُنْعِش النُّفوسَ ، ببلاغَتِـهِ ؛ وليَجَمَّلْ من المبـاشرة ما تُصْبح منـه مطالعُ شَرَفه مُنِيره ، وتُمْسى به عينُ مُحِبِّه قَريرَه ؛ والوَصايا فهو خَطيبُ منْبَرِها ، ولَبِيبُ مَوردِها ومَصْدَرِها ؛ والتَّقوىٰ فلْيلازمْ فيها شِـعَارَه ، ولْيداومْ بها علىٰ ما يَبْلغُ به أوْطارَه ؛ واللهُ تعالىٰ يجعـلُ سُعودَه كلَّ يَوم فى آزدياد ، ويسهلُ له ما يرفعُ ذِكْرَه بين العباد ، بمنّه وكرمه ! . والآعتماد فى ذلك على الخطِّ الشريفِ أعْلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الثـانى

(من الوظائف بطرابُلُس ـ ما هو خارِجٌ عن حاضرتهـا ،
وهــم علىٰ ثلاثة أصْناف أيضـا)

الصِّـــنْف الأوّل

(أرْباب السيوف)

وقد تقـدّم أنّه ليس بها مقدّمُ ألْف سوىٰ نائب السَّلْطنة بها ، وحينئذ فالنيابات بمعاملتها علىٰ طبقتين :

الطبقـــة الأولىٰ

(الطَّبْلَخاناه)

ومَرَاسِيمُهم تُكتبُ فى قَطْع الثلث بـ«ـالسَّامىّ» بالياء، مفتتحة بـ«الحمد لله» .

وهـذه نسخةُ مرسوم شَريف من ذلك بنيابة قَلْعة ، تصلح لنائب اللّاذِقيَّـة ، يُنْسج علىٰ منوالهـا ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل الحُصونَ الإسْلاميَّةَ فى أيَّامنا الزَّاهرةِ ، مصَفَّحةً بالصِّفاح ، والثُّغورَ المَصُونَةَ فى دَوْلتنا القاهرةِ ، مشَرَّفةً بأسِنَّة الرِّماح ، والمعاقِلَ المحروسةَ مخصوصةً من أوْليائنا بمن يُعَدُّ بَأْسُه لها أوْقَى الجُنَنِ وذَبُّه عنها أقْوَى السِّلاح .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى عَوارِفُها عَميمَه ، وطوارِفُها كالتَّالدةِ للمَزيد مُسْتَديمَه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تنطقُ الضمائرُ قبل الألْسنة بإخلاصِها ، وتُشْرِقُ القلوبُ بعموم إحاطَتِها بها وٱخْتِصاصِها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أشْرقتْ بنور مِلَّتِه الظُّلَمَ ، وٱرتوت بفَوْر شَريعتِه الأُمَم ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ٱمْتَطَوْا إلىٰ جهاد أعْداء الله وأعْدائه غارِبَ الهِمَم ، صلاةً سارِيةً كالرِّياح هامِيَةً كالدِّيَم ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ ما عُقِدَ عليه فى صِيانةَ الحُصونِ الخناصِر ، وٱعْتُمدَ علىٰ مِثْله فى كفاية المَعاقِل إذا لم يكُنْ غيرَ تأْييد اللهِ وحدِّ السَّيف ناصر — من هو فى حِفْظ ما يليه كالصُّدور التى تصونُ الأسْرار ، والكَمائِم التى تحُوط الثِّمار ، مع اليَقظَة التى تَذُود الطَّيْفَ أنْ يُلمَّ بحُماةِ حماه ، والفِطْنة التى تَصُدُّ الفِكْرَ أنْ يتخيَّلَ فيه ما ٱشتمل عليه وحَواه ، والأمانَةِ التى ينِوى فيها طاعةَ الله وطاعةَ رسوله صلَّى الله عليه وسلم وطاعتَنا الشريفة ولكلِّ ٱمرِئٍ ما نواه .

ولما كان فلانٌ هو السيف الذى تروق تجرِبَتُه ويَرُوع تجريدُه ، وإذا ورد فى الوَغىٰ مَنْهَلَ حَرْبٍ فَمَشْرَعُه من كلِّ كَمِيٍّ وَرِيدُه — ٱقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُرهِفَ حدَّه بحِفْظ أسْنَى الحصونِ عندنا مكانًا ومكانَه ، وأسْمى المعاقل رِفْعةً وعِزَّةً وصِيانَه .

فرُسِم بالأمْرِ الشَّريفِ أن تفوّض إليه النيابةُ بقلعة كذا .

فليباشِرْ هذه النِّيابةَ السَّامِيَ قدرُها ، الكاملَ فى أُفُقِ الرُّتب بدْرُها ؛ مباشرةً تصُدُّ الأفْكار ، عن تَوهُّمِها ، والأبصارَ ، عن تَوسُّمِها ؛ والخواطِرَ ، عن تَخَيُّـل مَغْناها ، والسَّرائِرَ ، عن تَمثُّل صورتها ومَعْناها .

ولْيكُنْ لمصالحها متَلَمِّحا ، ولنَجْوىٰ رجالهـا متصَـفِّحا ؛ ولأعْذار حُماتِها مُزِيحا ، ولخواطر من أسْـباب كفايتها مُرِيحـا ؛ ولمواطِنهـا عَامِرا ، وبمـا قَلَّ وجلَّ من مصـالحها آمِرا ؛ ولوَظائفها مُقيما ، وللنَّظَر فى الكبير والصغير من أُمُورها مُديمـا ؛ ولِخدْمَتِها مُضاعِفا ، ولكلِّ ما يتعينُ الاحتفال به من مُهِمَّاتها وَاقِفا ؛ ومِلاكُ الوصايا تقْوَى الله : وهى أوَّلُ ما يقـدّمه بين يديه ، وأوْلَىٰ ما ينبغى أن يصْرِفَ نظرَه إليه ؛ فلْيجعَلْ ذلك خُلُق نَفْسه ، ومَزِيَّةَ يوْمهِ علىٰ أمْسه ؛ والخير يكونُ . والخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقـــــة الثـانية

(العشرات)

ومراسيمهم إن كُتبت من الأبْواب السُّلطانية فنى قَطْع الثلث بـ«السَّامى» بغير ياء ، مفتتحة بـ«أمَّا بعد» إلا أنَّ الغالبَ كتابتُها عن نائب السَّلطنة .

وهذه نسخةُ مَرْسوم شَريف بنيابة قَلْعة بَلاطُنُس ، من معاملتها وهى :

أمَّا بعـدَ حمد اللهِ علىٰ نِعَمٍ توالَىٰ رِفْدُها ، ووجب شكْرُها وحَمْدُها ، وعَذُب لذَوِى الآمالِ ورْدُها ؛ والصَّلاةِ والسـلامِ علىٰ سـيدِنا محمدٍ الذى رُفع به لقُرَيْش مَجْدُها ، فعَلَا جدُّها ، وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً لايُحصىٰ عَددُها ولا يحصَرُ حَدُّها ـ فإنَّه لمـَّا كان فلانٌ ممن قَدُمَتْ تقادمُ خدمِه ، وتعالَىٰ به إلىٰ العَلْياء سَامِى هِمَمِه ، وترَفَّع به حُسْنُ

ولائِه حتّٰى أعْلت الدوْلَةُ من شَأنِه ورفعتْ من عَلَمِه، وٱسْتَكْفَتْه لَصُون الحصُون، وجادَتْ عليــه بصَوْب إحسان روّى الأمانِىَّ فأضحت نَضرَةَ الغُصون؛ وكانت قلعةُ فلانة هى القلْعةُ التى شمَخَتْ بأنْفها علىٰ القلاع عُلُوّا، وسامَتِ الجَوْزاءَ سُمُوّا؛ فوجب أن لا يُسْتَحْفَظَ عليهـا وفيها، إلّا مَن عُرِف بحسْن المحافظة وتَوفِّيها؛ وكان المشار إليه هو عينَ هــذه الأوْصاف، والوارِدَ من حُسْن الطاعة المورِدَ الصَّاف ـ ٱقتضىٰ حسنُ الرأىِ الشَّريفِ أن نُنَوِّه بذكره، ونَرفَعَ من قَدْرِه .

ولذلك رُسم ... ... ـ لا زال ... ... أن تفوَّضَ إليه النيابةُ بهذه القلعة المحروسه، وأن تكون بأوَانِسِ صِفاتِه مأنُوسه .

فلْيكن فيما ٱستُحْفِظَ كُفْوا، وليُورِد الرَّعيَّة من حُسْن السِّــيرة صَفْوا، وإذا تعارَضَ حكْمُ الٱنتقامِ وكان الذنْبُ دُونَ الحدِّ فلْيقَدِّمْ عَفْوا . وعليــه بالعَدْل، فإنَّه زِمامُ الفَصْل؛ والقَلْعةَ ورِجالَهــا، وذَخائِرَها وأمْوالَهــا، فليُمعِنِ النظر فى ذلك بُكْرةً وأصيلا، وإجْمالا وتَفْصيلا، وتَحْصِينًا وتَحْصِيلا . وعليه بالتَّمسُّك بالشَّريعة المطَهَّره، وأحْكامها المحرَّره؛ وليَرْدعْ أهْــل الفساد، ويقابِلْ من ظَهر منه العِناد، بمــا يُؤَمِّن المناهِج، ويجدِّدُ المَبَاهِج؛ والوصايا كثيره، فليَكُنْ ممَّــا ذكر علىٰ بَصيره؛ أعانَه الله علىٰ ما أوْلاه، ورَعاه فيما ٱسْترعاه؛ والخطُّ الشريف أعلاه، حجَّةٌ بمقتضاه؛ والخير يكون إن شاء الله تعالىٰ .

الصــــنف الثــانى

(ممَّــا هو خارج عن حاضرة طرابُلُس ـ الوظائفُ الدِّينية)

والغالبُ كِتابتها عن نائب السلطنة بطَرَابُلُس . فإن كُتب شَىْءٌ منها عن الأبْواب السلطانية، كان فى قَطْع العادة «بمجلس القاضى» مفتتحًا بـ«رُسم» .

وهـذه نُسخة توْقيعٍ من ذلك بنظَر وَقْفٍ علىٰ جامع بمعاملة طرابُلُس، كُتب به لمن لقبه «زَيْن الدِّين» وهى :

رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال كَريمُ نَظَرِه يستَنيبُ عنه بمصالح بيُوت الله تعالىٰ من تَزْدادُ بنظره شَرَفًا وزَيْنا ، ويعيّنُ لهـا من الأعْيـان من تُسَرُّ به خاطِرًا وتَقَرُّ به عَيْنا ، ويمنَحُها مَنْ إذا باراه مُبَارٍ وُجِد بينهما بوْنا وبَيْنا ، ويقرّر لهـا كلَّ كافٍ إذا فاه رَاءٍ بوصْفِ آرائه المُمُوحَةِ عَيَّن صَوابَها ولا يَجِدُ عليها عَيْنا ـ أنْ يستقرّ بالنَّظرِ علىٰ كذا : آستقرارًا يَرَى الوقْفُ بنَظَرِه علىٰ رَبْعه طَلاوَه ، ويجِدُ بمباشرته فى صَحْنِه حَلاوَه، ويُعرِب عن آستمراره علىٰ حُسْن الثَّناء، ويَجِدُ من نيلِ رَيْعه أكْمل وَفاء، لأنَّه الناظرُ الذى لا يَمَلُّ إنْسانُه، من حُسْن النَّظر، ولا يكلُّ لِسانُه، عن الأمْر بالمصالح ولفْظُه عن إلْقاءِ الدُّرَر، والشَّريفُ الذى وُجِدَتْ مخايِلُ شَرفه من فَضْـلِ خِلالِه ، والجَوَادُ الحائزُ بجُوده قَصَب السَّبْق علىٰ أمْثاله ، والكامِلُ الذى لا تُوجدُ فى صفاته نَقِيصَه، والفاضِلُ الذى أتَتْه الفضائل علىٰ رَغْمِها رَخِيصَه .

فلْيباشِرْ هذا النَّظَر مباشرةً ما تكحَّل ناظِرُه فيها بالوَسَن، ولْيُقابِلْها من جميل سُلوكه بكل وَجْه حَسَن ، ولْيَبْـدَأْ أوْقاف الجـامع المذكور بالعِمارَه ، ولْيقطَعْ بمُدْيةِ أمانَتِه يَدَ من يَشُنُّ علىٰ ماله الغَاره ، ولْيأمُرْ أرْبابَ وظائفـه باللُّزوم، وليخُصَّ كلًّا منهـم من فَضْـله بالعموم، وليتَّقِ اللهَ تعـالىٰ فى القَوْل والعَمَل، وليجتَهِدْ علىٰ أن لا يَتخلَّل مباشرته الخَلَل ، والآعتمادُ علىٰ الخطِّ الشَّريف أعْلاه ... .

الصـــــنف الثالث

(مما هو خارجٌ عن حاضرة طرابُلُس ـ أرْباب الوظائفِ الدِّيوانية)

وقلَّ أن يُكْتب فيها شَىْءٌ عن الأبْواب الشَّريفةِ السُّلطانية، وأنَّ الغالبَ كتابةُ ما يكتب فيها من نائب السَّلْطنة بطرَابُلُس . فإن اتَّفق كتابةُ شَىْءٍ من ذلك عن الأبواب السلطانية ، مَشَىٰ الكاتِبُ فيه علىٰ نَهْج ما تقدّم فى الوظائف الدِّينيَّة : من كتَابتِـه فى قَطْع العادة بـ«مجلس القاضى» مفتتحًا بـ«رُسم» لا يختلف الحال منـه فى ذلك إلَّا فى الفَرْق بين التَّعلُّقات الدِّينية والدِّيوانيَّـة . والكاتب المـاهر يصَرِّفُ قلمه فى ذلك وفى كلِّ مايحدُث من غيره علىٰ وَفْق ماتقتضيه الحال، وبالله المستعان .

النيـابة الرابعـــــة

(نيابة حَماةَ . ووظائِفُها التى تُكْتب بها من الأبواب السلطانية، ما بحاضرتها خاصّة ، وهى علىٰ ثلاثة أصْناف)

الصـــــنف الأوّل

(أرباب السيوف)

وليس بهـا منهم إلَّا نائبُ السلطنة خاصَّة . ويُكْتَب له تقليـدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«الجناب العالى» مع الدعاء بمضاعَفَة النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة حَمَاة :

الحمدُ لله ذِى التَّدْبير اللَّطِيف ، والعَوْن المُطِيف ، والحِياطَةِ التى تَسْـتوعبُ كُلَّ تَصْريف وكلَّ تكْليف .

نحمده بمحامدَ جميلةِ التَّفْويف، حَسَنةِ التَّأْليف، مُكمَّلةِ التَّكْييف، بَريَّةٍ من التَّطْفِيف، حَرِيَّةٍ بكلِّ شكرٍ مُنِيف، وذِكْرٍ شريف؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خلص تحريرها عن كلِّ تَحْرِيف، وتنَزَّه مقالُها عن تسويد تفنيد أو تسويف؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه صاحبُ الدِّين الحَنِيف، والمبعوثُ بالرَّحْمة والتَّخْفيف؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً مُتناوِبةً تناوُبَ الصَّرِير والصَّرِيف، والشِّتاء والمَصِيف؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ من شِيَمِ الدَّولَةِ وسجاياها، وأَحكامِها وقَضاياها؛ تَقْدِيمَ الأَهَمِّ فالأَهَمّ، وتَحْتِيمَ الأَتَمِّ من الرَّأْي وتَحْكِيمَ التَّدبير الأَعَمّ؛ وفِعْلَ كلِّ ما يَحُوط المَمالك ويَحْفَظُها، ويُذْكِي العيونَ لملاحظتِها ويُوقِظُها: لِمَا أَوْجبه اللهُ من حُقوقِها، وحَظَره من عُقُوقِها؛ ولا يكونُ ذلك إلا باختيار الأَوْلياء لضَبْطِها، والتَّعْويل على الأَمْلياء بالقيام بشَرْطِها، والاسْتِنادِ من الزُّعَماءِ إلىٰ من يُوَفِّي من الخَرَّاجة(١) والعُيون وافِيَ قِسْطِها .

ولما كانت المملكةُ الحَمَوِيَّةُ جديرةً بالالْتِفات، حقيقةً بالحِياطَة من جميع الجِهات؛ مُسْتَدْعِيةً من جميل النَّظر كلَّ ما يحْرُس رَبْعَها، ويُديمُ نَفْعها، ويُحَفِّلُ ضَرْعَها، ويَلُمُّ شَعَثَها ويَشْعَب صَدْعَها، ويَسُرّ سَمْعَها، ويُفْعِم شِرْعَها، ويُعَظِّم شَرْعَها؛ ويَكْتَنِفُها اكْتِناف السُّور والسِّوار، والهَالَةِ للبَدْر والأَكْمامِ للثِّمار؛ وكان فلانٌ هو المتقشِّعُ سحابُ هذا الوَصْف عن بَدْرِه المُنير، والمتقلِّع ضَبابُ هذا التَّفْويض عن نُورِ شَمْسِه المُنْعِشَةِ قُوىٰ كلِّ نبت نضير، والذى بأَهْلِيَّته لرُتبة هذا التفويض ما خاب المسْتَخِير، ولا نَدِم المسْتَشِير، والذى يُفْرِدُه استحقاقُه بهذه الرتبة فلا يقُول أحدٌ من كبيرٍ ولا صغيرٍ امتثالًا للمراسيم الشَّريفةِ فى حَقِّه : « منَّا أميرٌ ومنكم أمِير » ـ اقتضىٰ

(١) فى القاموس "رجل خرّاج ولّاج كثير الظرف والاحتيال" ولعله المراد هنا .

جميلُ الرأيِ المُنيف ، أن خرج الأمْر الشريف ـ لا برح يُحسِن التَّعْويل ، ويَهْدى إلىٰ سواء السبيل ، ويَمْضى مَضاءَ القضاءِ المُنَزَّل والسيف الصَّقيل ـ أن تقوّضَ إليه نيابةُ السلطنة المعظمة فى مملكة كذا وكذا .

فليقَــدِّمْ خيرَةَ الله قَائِلًا وفاعلا ، ومُقيما وراحلا ، ومُوجِّهًا ومواجِهًا ومُسَــجِّلا وساجلا ، وعالِمًــا وعاملا ؛ ومعتمدًا على الله فى أمْرِه كلِّه . وليكُنْ من هذه المعرفة قريبًا ، وعلىٰ كلِّ شىءٍ حتَّىٰ علىٰ نفسهِ رَقيبا ؛ وإذا ٱتَّقى اللهَ كفاه اللهُ الناس ، وإن ٱتقى الناس لَمَ يُغْنُوا عنه من اللهِ شيئًا فلْيَقِسْ علىٰ هذا القياس ، ويقْتَبِسْ هذا الاقتباس .

وأما الوصايا فالعساكر المنصورة هم مِخْلَبُ الظَّفَر وظُفْره ، وبهــم يُكْشَف من كل عَدُوٍّ سرُّه ، ويُخَلِّىٰ وطنُــه ووَكْره ، ويضْرَبُ زيْدُه وعَمْره ، ويبَدَّدُ جَمْعه ، ويُساء صُنْعه ، ويعمىٰ بصَرُه ويَصَمُّ سَمْعه ؛ وهم أسْوارٌ تُجاه الأسْوار ، وأمواجٌ تنْدفِعُ وتنْدَفقُ أعظم من ٱندفاق البحار ، ومامنهم إلا مَن هو عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخْيار ؛ فَأحسِن اســتِجلابَ خواطِرِهم ، وٱستِخْلاب بواطنهم وسرائرهم ، وٱســتِحْلاب الشائع(١) من طاعاتهــم فى مواردِهم ومصــادِرِهم ؛ وكُنْ عليهــم شَفُوقا ، وبهــم فى غير الطاعة والاستعباد رَفُوقا ، وأوْجب لهــم بالجهاد والاجْتهــاد حُقُوقا ، وٱصرف لهم حِمْــلا لأعباء المِهِمَّات والملمَّات مُطِيقا ؛ وٱستَشِرْ منهم ذوى الرأْيِ المصيب ، ومن أحْسن التَّجْرِيب ، ومن تَحَقَّقُ منــه النُّصْحَ من الكُهُول والشِّيب ، ممن كلل بغيرة منــه ما شَبَّ فإنَّ المرءَ كثيرٌ بأخيه ، وإذا ٱجْتمعتْ غُصونٌ فى يد أيِّدٍ عَسَتْ(٢) علىٰ قَصْفِه وقَصْفُ كلِّ واحدَة فواحِدَة لا يُعْييه .

---

(١) فى الأصل "السامع مع من" الخ وهو تحريف كما لايخفى .

(٢) فى اللسان "عسى القضيب يبس" . وهو مناسب للقام .

والجهـادُ(١) فهو مِلاكُ كلِّ آستِحواءٍ وآستِحْواذ ، و به تُميَّزُ أفعـال الكُفَّار بالنَّفاد وأفْعالُ الدِّين الحنيف بالنَّفاذ؛ وماجعل اللهُ للمدافعين عن دِين الله سواه، ولا مُزْجِى صَوْبِ صَوا بٍ إلا إيَّاه ؛ وعلىٰ ذلك جعـل الله أرْزاقَهم ، وهيَّأ لهم به إرْفاقَهـم ؛ فليُكْرِمْهم بأخْذِ الأُهْبَه، فى الآعتلاء والآنْصِبا بٍ فى كلِّ هَضْبه، والآستعداد برباط الخَيْل وكلِّ قُوَه .

ومن الوصايا التى ينبغى أنهـا ترسَمُ فى جبهات الفِكَر [دون توانٍ] أو ركون أن لا يسْتَحْقِر عدوّا، ولا يَسْتَهزِئَ بقلَّته لا رَواحًا ولا غُدُوًّا، وليكُنْ للاستظهار مُسْتَوعِبا، ولإعْمـالِ المكايد مسْتَوثِبا، وللكَشْف بعـد الكَشْف مُسْتَصْحِبا؛ وغير ذلك من الأُمور، التى بها صلاحُ الجُمْهور .

والشَّرع الشريف وتنفيذ أحْكامِه، وتَقْوِية أيْدى حُكَّامه ؛ فهو مِيزانُ الإسلام والسَّـلامه، وقِوامُ الصَّلاح والآستقامه ، وأخُوه المُرْتَضِعُ من ثَدْي الحَقِّ ، العَـدْلُ الذى كم شَاق وكثيرا ما علىٰ أهـل الباطل شَقّ ؛ وعمَّ القريبَ والبعيـدَ ، والسَّائِق والشَّهيد، والمُرِيبَ والمريد، وكلَّ ذِى ضَعْف مُبِيد، وكلَّ ذِى بأْس شَـدِيد، وكلَّ مُسْتَشِيرٍ ومُسْتَرِيد، فإنَّ ذلك إذا شَمِل حاط، وتمّ به الآرتيـادُ والآرْتباط، وهدَىٰ إلىٰ أقْوَمِ صِراط .

والحدُود فهى حياةُ النفوس، و بها تُزَالُ البُـؤس ؛ فأقِمْهـا ما لم تُدْرأْ بالشُّبُهات الشَّرعيه، والأُمور المَرْعِيَّه .

والأموالُ فهى مَجْلَبَـة الرِّجال ، ومَخْلبةُ الآمال ؛ وبهـا يُشَـدُّ الأزْر ، ويَقْوَى الآستظهارُ [و]الظَّهْر، فيَشُـدّ من الذين أمْرُها بهم معْدُوق ، ويُقَوِّى أيْديهم بكلِّ طريق فى كلِّ طُرُوق، بحيث لا يؤخَذ إلا الحق ولا يترك شَيْءٌ من الحقوق .

(١) فى الأصل "والاجتهاد" وهو غلط .

والرعيةُ فهُم عند وَالِى الأمْر ودَائِـعُ : ينبغى أنَّها تكون مَحْفوظه، وبعين الاعْتِناء ملْحُوظَه ؛ فأحسن جِوارَهم، وأزِلْ نِفَارَهُم، واكْفُفْ عنهم مَضارَّهم، ولا تعامِلْهم إلَّا بمـا لا تُسْأَلُ عنه غدًا بين يَدَى ربِّك فإنَّه يراكَ حِين تقُوم ، وأعْدِدْ جواباً لذلك فكلُّ راعٍ مَسْئُول .

وأمَّا غير ذلك فلا بدّ أن تُطْلِعَك المباشرةُ علىٰ خفايا تُغْنِيك عن المُؤَامره، وستَتَوالَىٰ إليك الأجْوِبةُ عنـد المُسافَرَة فى المكاتبات الوَارِدَةِ والصَّادره؛ واللهُ يوفقك فى كلِّ مَنْهجٍ تسلكُه وتقْتَفِيه ، ويسدِّدُك فيما من ذلك تَنْتَحِيه .

قلتُ : أمَّا سائر أرْباب الوظائف بهـا : كشَدِّ الدواوين ، وشدِّ مراكز البَرِيد وغيرهما، فقد جَرتِ العادة أنَّ النائب يستقلُّ بتوليتها . فإن قدِّر كتابةُ شيءٍ من ذلك لأحد بهـا ، كُتب لمن يكون طبلخاناه فى قَطْع النصف ب« السامى » بغير ياء، ولمن يكون عشرة فى قَطْع الثلث بـ«مجلس الأمير» كما فى غيرها .

الصـــــنف الثـانى

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم علىٰ مَرْتبتين)

المرتبة الاولىٰ — من يُكْتب له فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ بالياء» . وهم قُضاة القُضاة الأرْبعة .

المرتبة الثانية — مـن يُكتب له فى قَطْع العادة : إمَّا فى المنْصُورىّ، مفتتحًا بـ«أما بعدُ» وإما فى الصَّـغير مفتتحًا بـ«رُسِم» . وعلىٰ ذلك تُكْتب تواقيع قضاةِ العَسْكر بهـا ، ومفتى دار العَـدْل ، والمُحتَسِب ، ووَكِيل بيْت المـال ، ووظائف

التَّدارِيس والتصادير، ونظر (١) إن كتب شيءٌ من ذلك عن الأبواب السلطانية، وإلّا فالغالبُ كتابةُ ذلك عن النائب بها (٢) .

النيابة الخامسة

(نيابة صَفَد)

قد تقدّم فى الكلام على المكاتبات أنَّها فى رتبة نيابة طرَابُلُس وحَماةَ فى المكاتبة، وأنَّها تُذْكر بعد حَماةَ فى المطلقات .

ووظائفها التى تولّى من الأبْواب السُّلطانية علىٰ ثلاثة اصناف .

الصنف الأوّل

(أرْباب السيوف، وفيه وظيفتان)

الوظيفة الأولىٰ

(نيابة السلطنة بها، ويكتب تقليده فى قطْع الثلثين)

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السَّلطنة بصَفَد، كُتب به لسيف الدين «قطلقتمش» السلحدار الناصِرى، فى سابع رمضان سنة عَشْر وسبعمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى صانَ الثُّغورَ المحروسةَ من أوْليائنا بسَيْف لا تَنْبُو مَضارِبُه، وخصَّ أسْنى الممالك المصُونة من أصْفيائِنا بعَضْب لا يَفُلُّ غَرْبَه مُحَارِبُه، وقدّم علىٰ زَعامَة

(١) بياض بالأصل ولعله الأحباس .

(٢) ترك الكلام على الصنف الثالث وهم أرباب الوظائف الديوانية كما يؤخذ من نظائره السابقة واللاحقة .

الجيوش من خواصنا لَيْثًا يسكُنُ إليه كلُّ أَسَدٍ من أُسدٍ ذائلة (١) تُغالِبُه ، حافِظ (٢) نطاق البَحْر من أبْطال دولَتنا بكلِّ كَمِىٍّ تصُدّ البحرَ مهابتُه أنْ يَسْتقلَّ بِراكبه أو تستقر علىٰ ظهره مَراكبُه ، وناشر (٢) لِواءِ عدْلِنا فى أقاليمنا بما يُغْنى كلَّ قُطْر [عن] أن تتدفّق جَداولُه أو تستهلَّ به سَحائبُه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى جعلتْ سيْفَ الجهاد رائِدَ أوامرِنا ، وقائِدَ جيوشنا إلىٰ مواقف النَّصر وعَسا كرنا ، وذائِدَ أعْداءِ الملة عن أطْراف ممالكنا التى أسْبَقُ إليها من رَجْع النَّفَس فى الدُّجَىٰ تأَلُّقُ نجوم ذَوابِلنا ، وفى الضُّحَىٰ تبَلُّجُ غُرَرِ صَوارمنا ؛ ونَشْهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يستظلُّ الإيمان ، تحت لِوائِها ، وتَعْبَق الأكْوانُ ، بما تنطق به الألْسنةُ من ارْوائِها ، ويُشْرق الوجودُ بما يبدُو على الوجوه من رُوَائِها ، وتُجادِلُ أعداءَها فى الآفاق لرفْع كَلِمة مِلَّتها على المِلَل وإعْلائها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه خاتَمُ الأنْبياءِ ، وأشْرف حَمَلَة الأنْباء ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه المخصوصِين بأسْنىٰ مراتِب الاجْتِباء ، صلاةً دائمةً بدوام الأرْض والسماء ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمَّا بعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من فُوِّضتْ إليه زَعامةُ الجيوش بأسْنَى الممالك ، وعُدِق به من تَقدُّم العساكر ما يُرجِفُ بمهابته هُناك أرْضَ العدُوِّ هُنالك ؛ وعُقِدَ به للرعايا لِواءُ عدل تَجَلَّىٰ بإشراق لَيْل الظُّلْم الحالك ، وعُوِّلَ عليه من جميل السيرة فيما تَعْمُر به البلادُ وتأمنُ به الرعايا وتَطْمئنُّ به المسالك ــ من لم يزَلْ فى خدمة الدولة القاهرة سيفًا تَرْهَبُ العِدا حدَّه ، ويخافُ أهلُ الكُفر فَتَكاته تحقُّقًا أنَّ آجالهم عِنده ، ويتوقَّعُ كلُّ كَمِيٍّ من عظماء الشِّرك أنَّ رأسَه سيكونُ غِمْده ؛ مع سياسة تشتملُ على الرعايا

(١) ذائلة طويلة الذيلة .

(٢) حق التركيب «وحفظ عطفا على صان» ... ونشر لواء .

ظلالُهـا الممتدّه، وسِيرة تضعُ الأشياءَ مواضِعَها فلا تَضَعُ الحِدّةَ موضع اللِّين ولا اللِّينَ موضعَ الحِدّه، وتَوفُّرٍ علىٰ عِمـارة البلاد يُعِينُ علىٰ رَيِّها طَلَّ الأنْواء والوابل ، وبراءة تجعلُ ما يودَعُ فيها بالبركَة والنَّمـاءِ : ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ﴾ .

ولمـا كان الجناب العالى هو السيفَ الذى علىٰ عاتِقِ الدَّولة نِجَادُه، واللَّيثَ الذى لم يزلْ فى سبيل الله إغارَتُه وإنْجادُه، والغيْثَ الذى يُخْصِبُ بمعدلَتِه البلَدُ المـاحل ، والأسَــدَ الذى تَصُدّ ساكنى البَحْر مهابَتُه فيتحقَّقُون أنّ العَطَبَ لا السلامةَ فى الساحل ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نزيدَ حدَّ عزمه إرْهافا، وأن نُرهب العدا بَبأسه الذى يردُّ آحادَ ما تَقَدَّم عليـه من الجيوش آلافا ، وأن نُفَوِّضَ إليه من أمور رعايانا ما اذا أسند إليه يُوسِعُهم[١] عَدْلًا وإنْصافا .

فلذٰلك رسم بالأمْر الشريف : أن تفوَّضَ إليـه نيابةُ السلطنة الشريفة بصَـفَد المحروسة : تفويضًا يُعلِى قَدْرَه، ويُمضِى فى عموم مصالحها وخُصوصِها نَهْيَه وأمْرَه، ويُرْهِفُ فى حفْظِ سواحلها وموانيها بِيضَه وسُمْرَه، ويُصْلِى مُجاورَها من ساكنى المـاء من بَأْسِه المُتَوقِّدِ جَمْرَه .

فلْيَتَلَقَّ هذه النعمةَ ببَاعِ شُكرِه المَدِيد، ويترَقَّ هذه المرتبةَ بمزيّةِ ٱعْتزامِه التى ليس عليها فيما يُعَدَّقُ به من مصالح الإسلام مَزِيد، وينشُرْ بها من عموم مَعْدلَتِه مالا يَخُصُّ دونَ قومٍ قَوْما، ويعمرْ بلادَها بالعَدْل : فإنَّ «عدْلَ يومٍ واحدٍ خيرٌ للأرض من أنْ تُمطَرَ أرْبعين يَوْما» ؛ ويبسُطْ فيها من مَهابَتِه مايكُفُّ أكُفَّ البُغاةِ أن تَمْتدّ، ويمنع رُخَاء أهْويَةِ أهْلِها أن تشتدّ ؛ ويؤَمِّنُ المسالك أن تُخاف ، والرعايا أنْ يُجار عليهـم أو يُحاف ؛ ولْيكُنْ مَن فى تَقْدِمَته من الجيوش المنصورةِ مكَمَّلى العَدَد والعُدَد ،

(١) فى الأصل "رعايا أسند اليه ما" الخ وهو خلط من الناسخ .

ظَاهِرِى اللَّأْمَةِ التى هى مادّةُ المجالدَةِ وعَوْنُ الجَلَدِ، مُزاحِى الأعْذارِ فيما يُرْسم لهم به من الرُّكوب، مُزالِى العوائِق فى التَّأهُّبِ لما هم بصَدَدِه من الوُثوب، حَافِظى مَراكِزِهم حفْظَ العيونِ بأهْدابِها، آخِذِى أخْبار ما يشْغَلُ البَحْر من قِطَع العِدا فى حال بُعْدها كحال اقْترابِها، بحيثُ لا يُشْرِفُ علىٰ البرّ من قِطَع المخْذُولين إلا أسِيرٌ أو كَسِير، أو مَن إذا رَجَعَ بَصَرَه إلى السَّواحل ينقلب إليه البَصَرُ خاسِئًا وهو حَسِير؛ وليكُنْ أهْلُ الجبالِ بمهابَتِه كأ[هل ا]لسَّهل فى حُسن انقيادهم وطَاعَتِهم، ويصدّ عنهم بسطوته مَجَال الأوْهام المتَّصِلةِ فلاتَنْصرِف إلىٰ غيرمُجاوِرِيهم من الأعْداء مواقعُ بأْسِهِم وشَجاعَتِهم؛ ومِلاكُ الوصايا تقوَى اللهِ : وهى من أخصِّ أوْصافه، والجمعُ بين العَدْلِ والإحسان وهما من نتائج إنْصافِه؛ فلْيجْعَلْهما عمدَتَىْ حُكْمِه فى القول والعمل، والله تعالىٰ يجعلُه من أوليائه المتَّقِين وقد فَعل؛ والاعْتماد ... ... إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــة الثانيـــة
(نيـابةُ قَلْعة صَفَد)

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريفٍ بنيابة قَلْعة صَفَدَ المحروسةِ، من إنشاء المقرّ الشهابىّ ابن فضل الله، كُتب به للأمير سيف الدين «أزاق الناصرى» خامس المحرّم سنة أرْبعٍ وثلاثين وسبعمائة، وهى :

الحمدُ للهِ الذى خصّ الحصونَ برِفْعةِ ذُراها، وسُمْعَةِ مَن فيها من رجالٍ تَحْمِيها؛ وتَخْطَفُ أبصارَ السيوف بسَناها، وتُصيبُ برميها حتىٰ قَوْسَ قُزَحَ إذا راماها.

نحمدُه حمدًا تبرُزُ به المعاقلُ فى حِلاها، وتفْخَرُ به عقائل القِلاع علىٰ سوَاها؛ وتشْرُفُ به شُرُفاتها حتّىٰ تجرى المَجَرَّةُ فى رُباها؛ ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يطيبُ جَناها، ويطنب فى السماء مُرْتقاها؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا

محمدًا عبدُه ورسولُه الذى كَتَب به للأُمَّة هُـداها ، وكَبت عِداها ، وبوَّأها مقاعدَ للقتال تَقْصُر دُونَها النجومُ فى سُراها ، صلَّى اللهُ عليـه علىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا ينقَطِع عنهم قِرَاها ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا دائمًـا إلىٰ يوم الدين .

وبعـدُ ، فإنَّ صفَدَ صَفَتْ ، ووفَتْ ووَفَتْ ، وكَفَّتْ وكَفَتْ ، وجاورت البَحْرَ فمـا غَمَضَتْ عنـه لدَيادِبها عُيون ، ولا خيطَتْ لسيوفها بالكَرىٰ جُفُون ، ولا وَنَتْ لرماحها عَزائِمُ شابَتْ لِمَمُها ، ولا آنتَشَتْ من السِّهام نِبالٌ تَفيضُ دِيَمُها ، ولا أطالَتْ مجانيقُها السُّكوتَ إلا لتَهْدِرَ شَقاشِقُها ، وتُهَدَّ بها من الجبال شَواهقُها ، وتَهولَ العدا بمـا تُرِيهم من التَّهْويل ، وتَرْمِى به من كِفَّاتِها الحِجارةَ من سِجِّيل .

وهى القَلْعةُ التى يضْرَب المثَـلُ بحَصَانَتِها ، ويَطْمَئِنُّ [أهْلُ] الإسـلامِ فى إيداع أمْوالهم وأهْلِهم إلىٰ أمانَتِها ، قد أطَلَّتْ على الكواكب نزولا ، وجَرَّدَتْ علىٰ مِنْطَقَة بُروجِها من البُروق نُصُولا ، وأتْعبتِ الرياحَ لمَّـا حلَّقَتْ إليها ، وأخافَتِ الهِلالَ حتَّى وقَف رَقِيبًا عليها ، وفيها من جنودنا المؤيَّدةِ مَنْ نَزِيدُهم بها مَدَدا ، وتَطيبُ قُلُوبُهم إذا خرجُوا لجهاد أعداء الله وخَلَّوْا لهم فيهـا مالًا وولَدا . وكانت النيابةُ بهـذه القلْعةِ المحروسةِ قد كادتْ تَنطِقُ بِشَكْواها ، وتَتَظلَّمُ ممَّن أساء صُحْبَتَها لمَّـا تولَّاها ، وآقتضَتْ آراؤُنا العاليةُ أن نُزَحْزِحَ ظَلامَه ، عن صَباحِها ، ونُقَوِّضَ خِيامَه ، عمَّا فَرَش على الفُلْك الشاهقةِ من بِطاحِها ، وفكَّرْنا فيمَن له بالقِلاع المحروسة دُرْبَةٌ لايخفَىٰ عليه بها سُلُوك ، ولا يُخاف معه علىٰ هذه الدُّرّة الثمينة فى سُلوك ، ممَّن حُمِـد فى دَوْلَتنا الشريفة مَساءَ صَباح ، ومَن كان فى أبْوابنا العاليـة هو الفَتَّاح ، ومَن له هِمَّةٌ تُناطُ بالثُّرَيَّا مطالِبُها ، وعَزْمَةٌ ما آلقضاءُ إلا قَواضِبُها ، ومعرِفَةٌ ما الرُّمْحُ المثقَّفُ إلَّا تَجارِبُها ، وكِفايَةٌ ما الغُرُّ الزواهرُ إذا عدِّدت إلَّا مناقبُها .

وكان المجلس الساميّ ـ أدام الله عِزَّه ـ هو المحَلَّق إلىٰ هذه المرْتَبَه، والمخَلَّق بالأصيل أرْدِيَتَها المُذْهَبه ؛ والمحقّق فى صفاته الوَرَع، والمنَزَّه عن تَدْنِيس طِباعه بالطَّمَع ؛ وله فى الأمانة اليَدُ المشْكُورَه، وفى الصِّيانَةِ مايمتع به ذُيولَ السَّحاب المجْرُورَه ؛ ومن التَّقْوىٰ ما قرَّب عليه المطالِبَ البَطِيَّه، ومن الفُروسيَّة ما آتخذ كلَّ ذِرْوةٍ صَهْوَةً وكلَّ جَبَلٍ مَطِيَّه، ومن الآستحقاق مايُسَهِّل له من صدقاتنا الشريفة صَفَدَ : وفى اللُّغة أنَّ الصَّفَد هو العَطِيَّه .

فرسُم بالأمْر الشريف ـ شرَّفه الله وعظمه، وأحْكمه وحَكَّمه ـ أنْ يرتَّبَ فى النيابة بقَلْعة صَفَد المحروسة : علىٰ عادة من تقدّم وقاعدته فى التقرير، وأمَّا كيفَ يكون آعتماده، فسنُرْشِدُه منه بصُبْحٍ مُنِير .

فقدّم تقوَى اللهِ فى سِرِّك ونَجْواك، وآقْصُر على القَنَاعة رَجْواكَ(١) ؛ وآحْفَظْ هذه القلعةَ من طوارِقِ اللَّيل والنَّهار، وأعِدَّ مَنْ قِبَلَك للقتال فى قُرًى مُحَصَّنَة أو من وراء جِدَار، وآملأ سَماءَك حَرَسًا شديدًا، وشُهُبًا وكَثِّر رجالَها لتُبارِىَ بهم النُّجومَ فى أمْثالها من بروج السماء عَدِيدا، وخُذْ إلىٰ طاعَتِنا الشريفةِ بقُلُوبهم وهم علىٰ ذلك ولٰكِنَّا نُرِيدُ أنْ نزيدَهم تَوْكِيدا، وتَألَّفْهم علىٰ مُوالاتِنا حتَّىٰ لا تَجِدَ أنت ولاهم إلىٰ المزيد مزيدا ؛ وتَفَقَّد الذخائرَ والآلات، وتيقَّظْ لما تُلْجِئُ إليه الضائِقَةُ فى أوْسع الأوْقات ؛ وحَصِّنْ مبانِيَها، وحصِّلْ فيها من الذخائر فوقَ ما يَكْفيها ؛ ومن السِّلاحِ ما هو أمْنَعُ من أسْوارِها، وأنْفعُ فى أوْقات الحاجة ممـا تَكْنِزُه الخزائن من دِرْهَمِها ودِينَارِها : من مَجانِيقَ كالعَقارِب شائِلةً أذْنابَها، دافِعَةً فى صَدْر الخَطْبِ إذا نابَها ؛ تَرْمِى بشَرَرٍ كالقَصْر، وتنْزِل من السماء بآيات النَّصْر ؛ ومن قِسِيٍّ : منها ما تُدَافَعُ بالأرْجُل مَرامِى

(١) مراده واقصر رجاءك على القناعه ولكن اضطره السجع فاستعمل مصدرا للرجاء ليس فيما بأيدينا من كتب اللغة فتنبه .

سهامه ، ومنها ماتُدوِّر بالأيْدى كأْسُ حمامه ؛ ومنها مايَسْكُت إذا أُطْلق حتّى لايسمعَ كَلامُ كَلامه ، ومنها ما يترنّم إذا غنّى بالحَمـامِ صَوْتُ حَمامه ؛ و[من] سَتائِرَ يستُرُ بها وجْهُها المصُون ، ومَنائِر يُشاهَدُ منها أقْربُ مَن يكونُ أبْعدَ مايكُون ؛ ورهجية تُجلَىٰ بها فى كلِّ ليلة عروسُها المُمنَّعه ، ودرّاجة تحاط بهم من جهاتها السِّتِّ وحدودها الأرْبعه ؛ وأقرَّ نُوَبَ الحَمـامِ الرَّسائِلِيِّ فيها تَسْقُط علينا وعليك الأخْبار ، ويُطْوَى المَـدَى البَعيدُ فى أوَّل ساعة من نَهار ؛ وآفتَح البابَ وأغْلِقْه بشَمْس ، وآحترز علىٰ ماآشتملت عليه من مَال ونفْس ؛ وبقيةُ الوصايا أنت بهـا أمَسّ ، والله تعالىٰ يزيل عنـك اللَّبْس ؛ والآعتماد ... .

الصـــــنف الثـانى

(أرباب الوظـائف الديوانيـــة)

والذين يكتب لهـم من الأبواب السـلطانية صاحبُ ديوان الرَّسائل ، وناظرُ المـال ، وناظِرُ الجَيْش ، ووكيل بيْتِ المال . وما عدا ذلك فإنّه يكتب عن نائبها ، وربمـا كتب عن الأبْواب السلطانية .

الصـــــنف الثـالث

([أرباب] الوظائف الدينية ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبـة الأولىٰ : مايُكتب فى قَطْع الثلث بـ«السَّامىّ» باليـاء ، وهم القضاة الأرْبعـــة .

المرتبـة الثانية : من يُكْتب له فى قَطْع العـادة ، وتشتمل علىٰ قَضَاء العَسْكر ، وإفتاء دار العَدْل ، والحِسْبة ، ووكالة بيت المـال .

الصـــنف الرابع (١)

(أرباب الوظـائف الديوانيـــة)

والذى يكتب به من الوظائف الديوانية بهـا ـ ثلاث وظائف، يُكْتَب لكلٍّ منهـم فى قطع الثلث بـ«السامىّ» باليـاء، وهم : صَحابَةُ ديوان المكاتبات ، ونَظَرُ المَـال، ونظَرُ الجَيْش . فإن كُتب لأحد غير هؤلاء ، كتب له فى قَطْع العادة .

النيـابة السادســـة

(نيـابة غَزَّة)

وقد تقدّم أنَّها تارةً تكون نيابةً، وتارة تكون تقدمةَ عَسْكر ، ومُقدَّمُ العسْكَر بهـا يراجِع نائبَ الشَّام فى أُموره . وبكلِّ حال فالوظائف التى تُولَّىٰ بها من الأبْواب السلطانية علىٰ صِنْفين :

الصِّـــنْف الأوّل

(أرْباب السُّيوف)

وليس بهـا منهم إلَّا نائبُ السَّلطنة إن كانت نيابةً، أو مُقَدَّمُ العَسْـكر إن كانت تَقْدِمةَ عسكرٍ . فكَيْفما كان فإنَّه يُكتب له تقليدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«الجناب العالى» مع الدعاء بدوام النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابتهـا : كُتِب به للأمِير « عَلَم الدِّين الجاولى » من إنشاء الشَّيخ شِهاب الدِّين محمود الحلَبىِّ، وهو :

---

(١) هذا الصنف زائد على مافى التقسيم ومع ذلك هو بمعنى الصـنف الثانى وغاية مافى هـذا أنه بين فيه اللقب وقطع الورق فتنبه .

الحمدُ للهِ رافعِ عَلَمِ الدِّين فى أيَّامنا الزَّاهرةِ ، بإقامة فَرْض الجهاد و إدَامَته ، وجامعِ رُتَب التَّقْديم فى دَوْلتنا القاهرةِ ، لمن تَفْتَرُّ الثُّغورُ بين تَرَقْرُق عَدْله وتألُّق صَرامَتــه ، وقاطِعِ أطماعِ المُعْتدين بمَن يتَوَقَّد بأْسُــه فى ظِلالِ رِفْقِه توقُّدَ البرْقِ فى ظُلَلِ غَمامَته ، وقامِعِ أعْدائه الكافرين بتفويض تَقْدمة الجُيوش بأوامِرنا إلىٰ كلِّ وَلىٍّ يُجْتَنَى النَّصْرُ ويُجْتَلَىٰ من أفْنان عَزَماتِه ووَجاهَة زَعامَتِه .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى سدَّدَتْ ما يصــدُر من الأوَامِر عَنَّا ، وقلَّدت الرُّتَبَ السَّنِيَّة بتقْليدها أعَزَّ الأوْلياء مِنَّا مَنًّا ، ورَجَّحتْ مُهِمَّاتِ الثُّغور لدَيْنا علىٰ ما سواها فلا نَعْدقُ أُمورَها إلا بمن تُعْقَدُ عليــه الخناصرُ نَفاسَةً به وضَنًّا ، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَهُ شهادةً لا تزالُ القلوبُ بإخلاصها مُتَدَيِّنه ، والألْسِنَةُ بإعْلانِها مُتَزَيِّنه ، والأسِــنَّة والأعِنَّة مُتباريَيْن فى إقامة دَعْوتِها التى لا تحتاج أنْوارُها البَيِّنةُ إلىٰ البَيِّنه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ مَبْعوثٍ إلى الأُمَم ، وأكرمُ مَنْعوتٍ بالفَضْــل والكَرَم ، وأعَزُّ مَنْصورٍ بالرُّعْبِ الذى أُغْمِــدتْ سُيوفُه قبــل تَجْريدها فى القِمَم ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين نَهَضُوا بجهاد أعْداء اللهِ وأعْدائه علىٰ أثْبتِ قَدَم ، وسَرَوْا لفَتْح ما زُوِى له من الأرْض علىٰ جِياد العزائم ونَجائِبِ الهِمَم ، وبذَلُوا نفائسَهم ونُفوسَهــم للذَّبِّ عن دِينه فلم تَسْــتَزِلَّ أقْدامَهم حُمْرُ النَّعَم ، ولم يَثْنِ إقْدامَهم بِيضُ النِّعَم ؛ صــلاةً لا يَمَلُّ السامعُ نِداءَها ، ولا تَسْأمُ الألْسُنُ إعادَتَها وإبْداءَها ؛ وســلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ ، فإنَّا من حِينِ مَكَّن اللهُ لنا فى أرْضه ، وأنْهضَنا بمَسْنُون الجهاد وفَرْضه ؛ وقلَّدنا سَيْفَ نَصْره الذى آنْتَضاه ، وأقامَنا لنُصْرةِ دِينــه الذى آرْتَضاه ؛ لم يَزلْ مُهِمُّ كلِّ ثَغْرٍ مقدَّمًا لَدَينا ، وحِفْظُ كلِّ جانب جاوَر العــدُوَّ برًّا وبحرًا مُتَعَيِّنًا على آعْتِنائنا

ومُحَبَّباً إلينا ؛ فلا نُرهِفُ لإيالة الممالك إلّا من إذا جرّد سيفَه أغمده الرُّعْبُ فى قلوب العِدَا ، ومَن إنْ لم تَسلُكِ البَحْرَ خَيْلُه بَثَّ فى قلوب ساكِنيه سَرايَا مَهابَةٍ لا تَرْهبُ مَوْجاً ولا تستبعِدُ مَدىٰ ؛ ومَن إذا تقدَّم على الجُيوش أعاد آحادها إلىٰ رُتَبِ الأُلُوف ، وجعل طلائعَهم رُسُلَ الحُتُوف ؛ وأعْداهم بأْسُه فاستَقَلُّوا أعْداءَهم وإن كَثُرُوا ، وأغْراهم بمعنَى النِّكَايَةِ فى كَتائِبِ العِدا : فكَمْ من قَلْب بالرِّماح قد نَظَمُوا وكَمْ من هَامٍ بالصِّفاح قد نَثَرُوا .

ولذٰلِكَ لمَّا كان فلانٌ هو الذى ما زال الدِّين يرفَعُ عَلَمَه ، والإقْدامُ والرَّأْىُ يبُثَّان فى مقاتِل العِدا كُلُومَه وكَلِمَه ، والعَدْلُ والبَأْسُ يتَوَلَّيانِ أحْكامه فلا يُمْضِيان إلَّا بالحقِّ سَيْفَه وقَلَمَه ؛ فكَمْ نكَّس رايَةَ عدُوٍّ كانت مُرْتَفِعَه ، وأباح عَزْمُه وحَزْمُه معاقِلَ شِرْكٍ كانت مُمْتَنِعَه ؛ وكَمْ زلزَلَ ثَباتُه قَدَم كُفْر فأزالَها ، وهزَم إقْدامُه جيُوشَ باطِلٍ ترهبُ الآسادُ نِزالَها ؛ فهو العَلَمُ الفَرْد ، والبطَلُ الذى لأوْليائه الإقْبالُ والثَّبات ولأعْدائِه العَكْسُ والطَّرْد ؛ والوَلىُّ الذى لولا احْتِفالُنا بنِكايَةِ العِدا لم نسمَحْ بمِثْله ، والهُمام الذى ما عدَقْنا به أمْرًا إلا وقع فى أحْسن مواقعه وأُسْنِد إلىٰ أكْمل أهْلِه .

وكانت البلادُ الغَزَّاوِيَّة والسَّاحِلِيَّة والجَبَلِيَّة علىٰ ساحلِ البَحْر بمنزلة السُّورِ المشَرَّف بالرِّماح ، المصفَّح بالصِّفاح ؛ مُرُوجُه الحُمَاه ، وقُلَلُه الكُمَاه ؛ لا يَشِيمُ برْقَه من ساكنى البَحْرِ إلا أسِيرٌ أو كَسِير ، أو مَن إذا رجع إليه طَرْفه ينْقَلِبُ إليه البَصرُ خاسِئًا وهو حَسِير ؛ وبها الجيشُ الذى كَمْ لسيوفه فى رِقابِ العِدا من مَواقِع ، ولسُمْعته فى قلوب أهْل الكُفْر من إغارَة تَركَتْها من الأمْن بَلاقِع ؛ وبها الأرض المقَدَّسه ، والمَواطِنُ التى هى على التَّقْوىٰ مُؤَسَّسه ؛ والمعابِدُ التى لا تُعْدَقُ أُمورُها إلا بمِثْلِه من أهْلِ الدِّين والوَرَع ، والأعْمالُ التى هو أدْرىٰ بما يَأْتِى من مصالحها وأدْربُ بما

يَدَع ـ ٱقتضَتْ آراؤُنا الشريفةُ أنْ نَعْدِقَ به نيابةَ مُلْكِها ، ونزيِّن بلالئ مفاخره عُقودَ سِلْكها ، وأنْ نفوِّض إليه زَعامةَ أبْطالها ، وتَقْدِمةَ عساكرها التى تلْقَى البَحْر بأزْخَرمن عُبابِه والأرْض بأثْبَتَ من جِبالها ، وأنْ نرمِىَ بَحْرَها من مَهابَتِه بأهْوَلَ من أمْواجِه ، وأمَرَّ فى لَهَواتِ سَاكِنيه من أُجَاجِه ، لتَغْدوَ عقائلُ آهِلِه ، أرِقَّاءَ سيْفِه الأبْيض وذَابِلِه ، ويُتَبِّر العَدُوَّ الأزْرقَ من بنى الأصْفرِ ، خوفُ بأْسِه الأحْمر .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشَّريف أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت : تفويضًا يحقِّق فى مثله رجاءَها ، ويزيِّنُ بعدْله أرْجاءَها ، ويصونُ ببأْسه قاطِنَها وظَاعِنَها ، ويعمُر ويغْمُر برِفْقِه وإنْصافِه مساكِنَها وساكِنَها .

فلْيباشرْ هذه الرُّتبةَ التى يُكمَّل به سُعودُها ، وتُجَمَّل به عُقُودُها ، مباشرة يُخِيفُ بأْسُها اللُّيوثَ فى آجامِها ، ويُعِينُ عَدْلُها الغُيوثَ علىٰ دَفْع أزْماتها ، ويغْدُو بها الحقُّ مرفُوعَ العَلَم ، مسْمُوعَ الكَلِم ، ماضِىَ السَّيف والقَلَم ، ممدودَ الظِّلِّ علىٰ من بها من أنْواع الأُمَم . ولْيأْخُذ الجيوشَ التى بها من إعْداد الأُهْبة بما يُزيلُ أعْذارَهم عن الركوب ، ويُزيحُ عوائِقَهم عن الوُثوب ، ويجعلُهم أوّلَ مُلَبٍّ لدَاعى الجهاد ، وأسْرعَ مُجِيب لنداء ألْسنة السُّيوف الحِداد ، وينَظِّم أيْزاكهم علىٰ البَحْر ٱنْتِظام النُّجوم فى أفْلاكها ، والشُّذُور فى أسْلاكها ، فلا تَلُوح للأعْداء طريدةٌ إلا طُرِدت ، ولا قِطْعةٌ إلا قُطِعَتْ ، ولا غُرابٌ إلا حُصَّتْ قَوادِمُه ، ولا شَامِخ عمارة إلا وأُتِيحَ له من اللَّهاذِم هادِمُه . ولْيُعْلِ منارَ الشَّرع الشَّريف بإمْضاء أحْكامه ، ومُعاضَدة حُكَّامه ، والانْقيادِ إلىٰ أوامِره ، والوُقوف مع مَوَارد نَهْيِه ومَصادِره ، ولتَكُنْ وطْأتُه علىٰ أهْل العناد مشْتَدّه ، ومعرفَتُه تضَعُ الأشْياء مواضعها : فلا تَضَعُ الحِدَّةَ موضِعَ اللِّين ولا اللِّينَ موضعَ الحِدّه ؛ وليَعْلَمْ أنّه وإن بَعُد عن أبْوابنا العالية مخصوصٌ منَّا

بمزيَّة قُرْبه ، مختصّ بمنزلَة إخلاصه التى أصْبح فيها علىٰ بَيِّنَة من ربِّه ؛ وجميعُ مايذكر من الوصايا فهو مما يُحْكىٰ من صفاته الحَسَنه ، وأدَواته التى مابَرِحت الأقْلامُ فى وصف كمالها فَصِيحَة الألْسِنَه ؛ وملاكُها تقوَى الله وهى فى خصائصه كَلمة إجماع ، وحِلْيَةُ أبصار وأسْماع ؛ واللهُ تعالىٰ يُعلِى قدْرَه وقد فعل ، ويؤيِّده فى القوْل والعمل ، والاعتماد ... .

وهذه نسخةُ تقليد بتَقْدمة العَسْكر بغَزَّة المحروسة :

الحمـدُ لله مُبْدئِ النِّعَم ومُعيدِها ، ومُؤَكِّد أسْبابها بتَجْديدِها ، ومُعْلِى أقْدارِها بمزايا مَزِيدِها ؛ الذى زيَّن أعناقَ الممالك من السُّيوف بتَقْلِيدها ، وبيَّن من ميامنه ما رُدّت إليه بمقاليدِها .

نحمدُه بمحامِده التى تَفُوت الدَّرارِىَّ فى تَنْضِيدها ، وتفُوق الدُّرَّ فيتمنَّى منه عِقْدَ فريدها ، ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نافعةً لشَهيدها ، جامعةً لتَوْحيدها ، ناقعةً لأهل الجُحود ممَّا يُوَرِّدُ الأرضَ بالدِّماء من وَرِيدها ، ونشهدُ أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى كاثَر الأُمَم بأُمَّتِه فى عَديدِها ، وظاهَر علىٰ أعْداء الله بمن يَفُلُّ بأْسَ حديدها ، فيُرسِلُ من أسنته نُجُومًا رُجومًا لمُرِيدها ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً تتظافر بتأْييدها ، وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ من عوائد دَوْلتنا القاهرةِ أنْ تعُودَ بإحْسانِها ، وتَجُود بثُبوتِ كلِّ قَدَم فى مكانها ، وإذا ولَّت عرف سَحابِها عن جهة عَادتْ إليها ، أو سَلَبت لها رَوْنَقًا أعادت بهجَته عليها ؛ وكانت البلاد الغَزَّاوِيَّة وما معها قد تمتَّعتْ من قدماء ملوك(١)

(١) فى الأصل «ممالك» وهو لايناسب المقام .

بيتنا الشَّريف بسَيف مشهور، وبَطَل تُشامُ بَوارِقُ عَزْمِه فى الثُّغور؛ وهو الذى عمّ بَصَيِّبِه بلادَها سَهْلًا وجَبَلًا ، وعمَّر روْضَها بعدْل أغناها أن يَسقِيَ طَلٌّ طَلَلًا ؛ وجَمع أعمالَها برًّا وبَحْرا، ومنع جانِبَيْها شامًا ومِصْرا ؛ وألِف أهْلُها منه سِيرةً لولا ما آستأْثرنا الله به من سِرِّه لما أفْقدناهم فى هذه المدّة حلاوةَ مَذاقِها ، وسَرِيرةً لا نَرْضَىٰ معها بكَفِّ الثُّرَيَّا إذا بُسِطت لأخْذ مِيثاقِها ؛ ولم نَرْفَعْ يدَه إلا لأمرٍ قضَى اللهُ به لأجَل موْقُوت ، ومَضَىٰ منه ما يُعْلَم أنّه بمرجُوعِه القَرِيب لا يَفُوت ؛ لأنّ الشمسَ تَغِيبُ لتطلُعَ بضَوْءٍ جديد، والسَّيفَ يُغْمَدُ ثم يُنْتَضَىٰ فيقُدُّ القَدَّ والجِيد ؛ والعُيونَ تُسهَّدُ ثم يُعاوِدُها الرُّقاد، والماءَ لو لم يُفْقَدْ فى وَقْت لما وُجِد لمَوْقِعه بَرْدٌ على الأكْباد .

فلمَّا بلَغَ الكِتابُ أجلَه ، وأخذَ حقَّه من المَسْألَة ؛ وآنتقل مَن كان قد استقرّ فيها إلىٰ جِوارِ رَبِّه الكريم، وفارق الدُّنيا وهو علىٰ طاعَتِنا مُقِيم ـ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن يُراجِعَ هذه العقيلةَ كفؤُها القديم ، وتَرجِعَ هذه الأرضُ المقدَّسةُ إلىٰ مَن فارقها وما عَهْدُه بذَمِيم ؛ مَن لم تزلْ به عقائِلُ المَعاقِل تُصان ، وخُصُورُ الحُصون بحمائل سُيُوفِه تُزان، ومَباسِمُ الثُّغور تُحْمَىٰ فى كلِّ ناحية من أسِنَّته بلِسان؛ وحَمَى الثَّغْرَيْنِ وما بينهما من الفِجاج ، وجاوَر البَحْرَيْن فمَنَعَ جانِبَيْهما : فهذا عَذْبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجاج؛ وله فى العِدا وقائعُ زُلزِلَت لمواقعها الأُلُوف، ومواقِفُ لولا ما نَعَقَتْ فيها من غِربان البَيْنِ لطالَ على الدِّيار الوُقوف؛ وهو الذى مُدِحتْ له فى بَيْتِنا المنصور المنصوريّ من الخِدْمة سَوابِق ، وحُمِدتْ طرائق ؛ وكَثُرتْ محاسن ، وكَبُرَتْ مَيامِن؛ ولَمَعتْ كواكب، وهَمَعَتْ سَحائِب؛ وصدَحَتْ حمائم ، وفُتِّحتْ كمائِم ؛ وعزّت جيوشُنا المؤيّدةُ له بمضارب، وهزّتْ سيوفًا حِدادًا وهو بالسَّيف ضارب .

وكان المجلس العالى ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمته ـ هو الذى حُمِدتْ له آثار، وحسُنَتْ أخبـار ، وعَمّتْ مِدَح ، وتَمّتْ مِنَح ؛ فرسَمْنـا بإقراره(١) منهذا المَنْصِب الشّريف فى مَحلّه ، وإعادَتِه إلىٰ صيِّب وَبْلِه ، وإنامَةِ أهْلها مُطْمَئِنِّين فى عَدْله ، وإقرار عُيون من أدْرك زمانهُ بعودِه ومَن لم يدرك زَمانَه بمـا سَيَرَوْنَه من فَضْله .

فرُسِم بالأمر الشريف ـ لازالتْ ملابِسُ نِعَمِه، تُخْلَع وتُلْبَس بُرودُها، وعَرائِس كرمه، تُفَارَق ثم تُراجَع غِيدُها ـ أنْ تفوّضَ إليه أُمور غَزّة المحروسة وأعْمالها وبِلادِها، والتَّقْـدِمَةُ علىٰ عساكرها وأجْنادها، والحكْمُ فى جميع ما هو مُضافٌ إليهـا من سَهْلٍ ووعْر، وبَرّ وبَحْر، وسَواحِل ومَوَانى ، ومَجْرى خُيول وشَوانى؛ ومَن فيها من أهْل عَمَد، ورعايا وتُجّار وأعيان فى بَلَد، ومن يتعلق فيها بأسْباب ، ويعدُّ فى صف كتِيبَة وكتّاب؛ علىٰ عادة من تقدّم فى ذلك، وعلىٰ ما كان عليه من المسالك .

وسنخْتَصِر له الوصايا لأنّه بها بَصِير، وقد تقدّم لهـا علىٰ مسامعه تَكْرِير، ورأْسُ الأُمورِ التَّقْوىٰ وهو بها جَدِير، وتأْييدُ الشّرع الشريف فإنّه علىٰ هُدًى وكتاب مُنِير، والاطّلاع علىٰ الاحوال ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خَبِير .

والعدْلُ فهو العُرْوَةُ الوُثْقىٰ، والإنْصاف حتّى لايَجِد مسْتَحِقّا، والعَفافُ فإنّ التّطلع لمـا فى أيْدى النـاس لا يَزِيدُ رِزْقا ، والاتّصافَ بالذّكر الجميـل هو الذى يَبْـقَىٰ ؛ وعَرْضُ العَسْكرِ المنصور ومن ينْضَمُّ إليـه من عَرَبه وتُرْكُمانه وأكْرادِه، وكلِّ مكَبِّرٍ فى جَحافِله ومكَثّرٍ لسواده ؛ وأخْذهم بالتأهُّب فى كلّ حركةٍ وسُكون ، والتيقُّظ بهم لكلّ سيف مشْحوذ وفُلْكٍ مشْحُون؛ والاحتراز من قِبَـل البرِّ والبَحْر، وإقامة كلّ يزك فى موضعه كالقِلادة فى النَّحْر ؛ ولا يعَيِّنُ إقطاعًا إلا لمن يَقْطَع باستحقاقه ،

(١) فى الأصل «من اقراره فى» وهو تصحيف الا أن يكون الأصل فرسمنا مارسمنا من الخ .

ويقمعُ العدا بما يعرَفُ فى صَفَحات الصِّفاح من أخْلاقه؛ ولا يُخْلِ المباشرين من عنايةٍ تمدُّ إليهم ساعدَ المساعده، فلا يُخلُّوا فى البلاد بعمارةٍ تغدُو فى حُلَلِها مائِدَه؛ وليحْفَظ الطُّرُقات حفظًا تكون به مَمْنوعه، ويمسك المسالكَ فإنَّه فى مفرَّق طرقاتها المجموعه؛ وليُقدِّمْ مُهِمَّات البَرِيد وما ينْطِق علىٰ جناح الحمام، وليتَّخذْهما نُصْب عيْنَيه فى اليَقظة والمَنام؛ فرُبَّ غفلةٍ لا يَسْتدرِكُ فائتَها رَكْض، ورسالةٍ لا يبلِّغها إلّا رسولٌ ينزل من السماء وآخرُ يَسِيحُ فى الأرْض؛ ويرصُد ما تَرِدُ به مراسِمُنا العالية ليسارع إليه مُمتثِلا، ويطالعُنا بما يتجدَّدُ عنده حتَّى يكون لدينا مُمَثَّلا؛ وهو يعلم أنَّه واقفٌ من بابنا الشريف بالمَجاز، وقُدّام عينينا حقيقةً وإن قيل علىٰ طريق المجاز؛ فليؤاخِذْ نفْسَه مؤاخَذَةَ من هو بين يدينا، ويعمَلْ بما يسُرُّه أنْ يقدَّمَ فيما يُعرَضُ من أعْماله علينا؛ والله تعالىٰ يَزيدُه حُظْوَةً لدينا، ويؤيِّد به الإسلامَ حتَّى لا يَدَعَ علىٰ أعْداءِ الله للدِّين دَيْنا، والاعتماد ... .

الصنف الثانى

(الوظائف الديوانية بغَزَّة)

وبها ثلاثُ وظائفَ : يُكْتب لكلٍّ منها فى قَطْع العادة بـ«السامى» بغير ياء . وهى : كتابةُ الدَّرج القائمةُ مقام كتابة السِّرّ، ونظرُ المال، ونظرُ الجيش . قال فى "التثقيف" : أمَّا قاضيها ومحتَسِبُها ووكيلُ بيت المال بها، فإنَّهم نوَّابٌ عن أرباب هذه الوظائف بالشَّام، فلا يكتَبُ لأحد منهم شيءٌ عن المواقف الشريفة .

قلتُ : وما ذكره بناءً علىٰ أنَّها تَقدِمةُ عسْكَر . أمَّا إذا كانت نيابةً فإنَّ هذه الوظائفَ يكتَبُ بها عن الأبواب السُّلطانية . وقد يكْتَب حينئذ بوكالة بيْت

المال والحِسْبة عن النَّائب ، ويكون ذلك جميعُه فى قطع العادة ، مفتتَحًا بـ«أمّا بعدُ» فى المنصوريّ ، أو بـ«رُسِم» فى الصَّغير، علىٰ حَسَب ما يقتضيه الحالُ . علىٰ أنَّه قد حدث بها فى الدولة الظاهرية قاض حَنَفىٌّ يكْتَب له من الأبْواب السُّلْطانيـة .

النيابة السابعة

(نيابة الكَرَك . وأرْبابُ الولايات بها من الأبْواب السلطانية علىٰ أصْناف)

الصنف الأوّل

(أرْبابُ السيوف)

وليس بها منهم غيرُ نائب السَّلطنة، ويكْتَبُ له تقليدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«المجلس العالى» .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السَّلطنة بالكَرَك، كُتب به للأمير «سيف الدين ايتمش» من إنشاء الشيخ شِهاب الدِّين محمود الحلبىِّ، وهو :

الحمدُ لله الذى خصَّ بعَزائمنا معاقِلَ الإسلام وحُصُونَه، وبصَّرنا باختيار من نُرتِّبُه فى كلِّ مَعْقِل منها من أمْجاد الأُمَراءِ ليحْفَظَه ويَصُونَه ، وجعلَها بعنايَتنا روْضًا تَجْتلِى أبصارُ الأولياءِ من بيض صِفاحنا نُوره وتَجْتنِى من سُمْر رِماحنا غُصُونَه، وعوّذَها من آيات الحَرَس بما لا تزالُ حُماتُها وكُماتُها يَرْوُونَ خبره عن سَيْفنا المنْتَضىٰ لحفظها ويقُصُّونه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى أعلَتْ بِنا بِنَاءَ الممالك، وحاطَتْها من نَبْل مهابَتِنا، بما لو تَسَلَّلَتْ بينه الأوْهامُ ضاقتْ بها المسالِكُ، وصفَّحَتْها من صِفاح عنايَتنا، بما يَحُولُ برْقُه

بينها و بين ما يستر طَيْفَ العدا من الظّلام الحالك ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تعْصِمُ من أَوىٰ إلىٰ حَرَمِ إخلاصِها ، وتُنْجِي غدًا مَن غدَا من أهْل تقريبها وٱخْتِصاصها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءَتْ ملَّتُه ، فلم تَخْفَ علىٰ ذى بَصَر ، وعلَتْ شِرْعَته ، فغدا باعُ كلِّ ذى باعٍ عن معارضتها ذَا قصَر ، وسَمَتْ أُمَّتُه ، فلو جالدها مُعاد أَوْبقَه الحصْرُ أو جادَلها مُناو أوثَقَه الحَصَر ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانت مَعاقِلُهم صَهَوات جِيادِهم ، وحُصُونُهم عَرَصاتِ جلادهم ، وخيامُهم ظلالَ سُـيوفهم وظلالُهم أفيْاء صعادهم ؛ صلاةً لايزال الإخلاصُ لهـا مُقيما ، والإيمـانُ لها مُديمـا ، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

و بعـدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ الحُصون الإسلامية بأنْ تَحُوطَ عنايَتُنا أركانَه ، ونتعاهَدَ رعايَتُنا مكانَه ؛ وتُلاحظَ مهابَتُنا أحوالَه فتُحَلِّيها ، وتشاهِدَ أوامِرُنا قواعِدَه فتشيِّدُها بجميـل النَّظر وتُعْليها ؛ وتَحُول سَطواتُنا بين آمال الأعداءِ وتوهُّمه ، وتَحْجُبَ مخافَةُ بأْسنا أفكارَ أهـلِ العِناد عن تأمُّلِ ما فى الضَّمير وتوَسُّمِه ـ حِصْنٌ ٱنعقد الإجمـاعُ على ٱنقطاع قَرينِه ، وٱمتناعِ نَظيره فيما خصَّه الله به من تَحْصِينِه ؛ فهو فَرْد الدَّهْرِ العزيزُ مثالُه ، البعيدُ مَنَالُه ؛ المُسْتَكِنَّةُ فى ضمـائر الأَوْدِيَةِ الغوامض بُقْعته ، المُسْتَجِنَّة بقُلَلِ الجبـال الشواهِق نَقْعتُه ، السَّائرُ فى أقْطارِ الأرْض صِيتُه وسُمْعتُه .

ولمـا كانت قَلْعـةُ الكَرَك المحروسـةُ هى هذه العَقِيلَة التى كَمْ ردَّتْ آمالَ المُـلوك رَاغِمَـه ، ومَنَعَتْ أهواءَ النُّفوس أن تُمثِّلها فى الكَرَى الأجْفانُ الحالمَه ؛ وكان فلانٌ مِمَّن ينهضُ مِثلُه بحِفْظِ مِثْلِها ، و يعلم أنَّ أمانَتَها التى لا تَحمِلُها الجبالُ قد أُودعتْ منه إلىٰ كُفْئِها ووضعت كفايَتها فى أهْلِها ؛ فهو سَيْفُنا الذى يَحُوطها ذُبابُه ، ووَلِيُّنا الذى مَن طَمَحَ بَصَرُه إلىٰ أُفُق حَلَّه أحْرقه شِهابُه ؛ ونَشْوُ أيَّامنا التى تُنَشِّئُ كلَّ لَيث يَقْنِصُ

الظَّفَر ظُفْرُه وينْبو بالسيوف نَابُه ، وغَذىٌّ دَوْلتنا الذى ما آعتمَدْنا فيه على أمرٍ إلّا كَرُم به نُهوضُه وحَسُن فيه مَنَابُه ـ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نَخُصَّها بمهابة سَيْفه ، ونُحَصِّنَها بما فيه من قُوّة فى الحقِّ تكُفُّ كلَّ باغٍ عن حَيْفه .

فلذلك رُسم بالأمر الشَّريف ـ لازالت الحصونُ المصونَةُ تختالُ من ملكه فى أبْهَى الحُلَل ، وتعْلُو معاقلَ الكُفْر بسُلْطانه عُلُوَّ ملَّة الإسلام على المِلَل ـ أنْ تفوّضَ إليه نيابَةُ السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس تفْوِيضًا يُعْلِي قَدْرَه ، ويُطْلِعُ فى أُفُقها بَدْرَه ، ويُطْلقُ فى مصالحها سيْفَه بالحقِّ وقلَمه ، ويُمْضِى فى حمايتها أفْعالَه وكَلِمَه ، ويسدِّدُ فى أُمورها آراءَه المقْرونَةَ بالصَّواب وهِمَمه .

فلْيباشِرْ هذه الرُّتبةَ العَليَّة صورةً ومَعْنَى ، المليَّةَ إذا طاولَتِ الكَواكبَ بأنْ لا يعلم لها(١) أسْمىٰ وأسْنىٰ ؛ ولْيجتهِدْ فى مصالحها آجتهادًا يُوالى له من شُكْرنا المِنَح ، ويأْتِى فيه من مَواضِينا بالغَرَض المُقْترح ؛ ويزيدُها إلىٰ حَصانَتِها حَصانَةً وقُوَّه ، ويَزِينُها بسياسته التى تَغْدو قلوبُ أهْل العِناد بمخافَتِها مَغْزُوَّه . ولينظُرْ فى مصالح رجالها فيكونُ لحُماتِهم مُقَدِّما ، ولمقدَّميهم مُكْرِما ، ولأعذارهم مُزِيحا ، ولخواطِرِهم بتَيْسِير مقرّراتهم مُرِيحا . وليكُنْ لمَنار الشَّرع الشريف مُعَظِّما ، ولأحْكامه فى كل عَقْد مُحَكِّما ؛ ولِما قَرُب وبَعُد من بلاد نيابته عَامِرا ، ولأكُفِّ الجَوْر عن الرعية كَافًّا : فلا يبرحُ عن الظُّلْم ناهِيًا وبالعَدْل آمِرا ؛ ومِلاكُ الوصايا تقوَى الله فلْيجعَلْها حِلْيَةَ نَفْسه ، ونجىَّ أُنْسِه ، ووظيفةَ آجتهادِه التى تَظْهَر بها مَزِيَّةُ يومه على أمْسِه ؛ والله تعالىٰ يسدِّدُه فى أحْواله ، ويعَضِّدُه فى أفعاله وأقواله ؛ بمنِّه وكرمه ! .

---

(١) لعله «بأن لايعلم أسمى منها وأسنى» .

* * *

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السَّلطنة بالكَرَك ، كُتب به للأمير «تلكتمر الناصرىّ» عند ما كان المقرّ الشِّهابىّ أحمد ولدُ السلطان الملك النَّاصر بالكَرَك ، وهو :

الحمــدُ لله الذى جعل بنا المَــالِكَ مُحصَّنةَ الحُصون ، مَحْمِيَّةً بكلِّ سَيف يقْطُر من حَدِّه المَنُون ، مُمَنَّعةً لا تتخطَّىٰ إليها الظُّنون ، مُحجَّبةً لا تَراها من النجوم عُيون ؛ رَافِلَةً من الكواكب فى عقْــد ثَمِين ، مَنِيعَةً أشْبهت السَّماءَ وٱشْتَبهت بهــا فأصْبحتْ هذه البروجُ من هذه لا تَبِين .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى رفَعت الأقْدار ، وشرَّفَتِ المقْدار ، وحَلَّت فى ممالكنا الشَّريفة كلَّ عَقِيــلةٍ ما كان مِعْصَمُها المُمتَــدُّ إلى الهلال لِيُتْرَكَ بغَيْرِ سوار ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً رفعت للحصون العاليــةِ رُتَبا ، ومُلِئَتْ بهــا سَماؤُها حَرَسًا وشُهُبا ، وأعْلتْ مكانَهــا فاقتَبسَتْ من البرق نَارًا وورَدتْ من السَّحاب قُلُبًا ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ مَن بعثَ وُلاةً على الأمْصار ، وكُفاةً على الأقْطار ، صلَّى اللهُ عليــه وعلىٰ آله وصَحْبِه ما صدَحت الحَمَــائِم ، وسفَحتِ الغمائِم ؛ وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

أمَّا بعدُ ، فإنَّ خيرَ من حُمِيتْ به المَمَــالك ، وحُمِدتْ ــ ولله المِنَّة ــ منه المسالك ، وٱرْتَقتْ هِمَمُه إلى الشَّمس والقَمر والنُّجوم وما أشْبه ذٰلك ، مَنْ حصل الوُثُوقُ به فى أشْرف مملكة لَدَيْنا ، وأفْضل ما يُعرض فى دَوْلتنا الشريفة من أعْمالهــا الصالحة علينا : وهى التى قعدتْ من الجبال علىٰ مَفارِقِها ، وٱتَّصلتْ من النُّجوم بعلائِقها ؛ وتحدَّرت الغَمائِمُ من ذُيولِها ، وطفَتْ على السماء وطافَتْ على الكواكب بِحَرَت المَجَرَّةُ

من سُبُولها . وكان الكَرَك المحروسُ هو المُراد، ومدينتُه التى لم يُخْلَق مِثْلُها فى البلاد، وقَلْعتُه تَتَشكَّى الرِّياحُ لهـا طلوعَ وَاد ونُزول وَاد، وهى أرْضٌ تَمُتُّ بأنَّها لنا سَكَن، ونَمَّت مناقبُها بمـا فى قلوبنا من حُبِّ الوَطن، وآستقرّت للمقامات العاليـة أوْلادنَا ـ أعزَّهم الله بنَصْره ـ فانتقَلَتْ من يَمينٍ إلىٰ يسار، وتقابلت بين شُموسٍ وأقْمـار، وجادَ بها البَحْر علىٰ الأنهار .

فلمّـا خَلَتْ نيابةُ السلطنة المعظمة بها عَرَضْنا علىٰ آرائنا الشَّريفة مَن تَطْمئِنُّ به القلوب، ويحصـلُ المطلوب، وتَجرِى الأُمُور به علىٰ الحُسنَىٰ فيما ينُوب؛ وتُبارى عزائِمُه الرياح بمرمى كل مقلة وهزّة جيد، ولا يُشَكُّ فى أنَّه كُفْؤُ هـذه العَقيله، وكَافى هذه الكَفالَةِ التى ما هى عند الله ولا عندنا قَليلَه، وكافلُ هذه المملكة التى كَمْ بها بَنِيـَّةٌ أحْسنُ من بَنِيَّة وخَمِيلَةٌ أحسن من خَميلَه؛ من كان من أبْوابِنا العالية مَطْلَعُه، وبين أيْدينـا الشَّريفةِ لا يُجْهلُ مَوْضعُه؛ طالمـا تكَمَّلتْ به الصفوف، وتَجَمَّلَتْ به الوقوف، وحَسُنَ كلّ موصوف، ولم تخف محاسِـنُه التى هو بهـا معروف؛ كَمْ له شِيمَةٌ عَلِيَّه، وهِمَّةٌ جَلِيَّه، وتَقْدِماتُ إقدام بكلِّ نهايةِ غاية مَلِيَّه، وعَزائِمُ لهـا بنَعْتِه مَضاءُ السَّـيف وباسمه قُوَّةُ الحديد وهى بالنسـبة إليه مُلْكِيَّه؛ وكان المجلس العالى ـ أدام الله نِعْمته ـ هو لابِسَ هذه البُرود التى رُقِمَتْ، والعُقودِ التى نُظِمَت، وجامِعَ هذه الدُّرَرِ التى قُسِمت، والدَّرارِىّ التى سَمتْ إلى السماء لمـا وُسِمَت؛ وهو من المَلائِك فى الوَقار، وله حُكْمٌ كالمَـاسِ وبأْسٌ يقْطَعُ الأحْجار، وهو مَلَكٌ نِصْـفُه الآخَرُ من حَديد كما أنَّ لله مَلائِكَةً نِصْـفُهم من الثَّلج ونصفهم من نَار؛ وهو الذى آقتضت آراؤُنا الشريفـة أن نجعلَه فى خدمة ولدنا ـ أمْتعه الله ببقائنا ـ نائبا بهـا، وقَائمـا بحسن مَنابِها؛ والمتصرِّف فيها بين أيديه الكريمه، والمتَلَقِّ دُونَه لأُمورها التى قلَّدنا بها عُنُقَه أمانةً عظيمه .

فلذلك خرج الأمْر الشريفُ ـ لا زال به سَـيْفُ الدِّين ماضِيا ، ولا بَرِحَ كلُّ واحد بحكْم سَـيْفِهِ فى كلِّ تَجْرِيد وقلَمِه فى كلِّ تَقْلِيــد راضِيا ـ أن تفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس وما معه علىٰ عادة من تقــدّمه فيها ، وقاعدته التى يتكفل لهــا بالإحسان و بكَفِّ العُــدْوانِ و يَكْفِيها ؛ وكلُّ ما فيها من أمْرٍ فهو به مَنُوط ، وكلُّ عمــل لهــا به مَحُوط ، وحكْمُه فى مصالحنا الشريفة فى جميــع بلادها مبْسُوط ، وله تُطالَعُ الأُمُور ومنه تصــدر المطالعه ؛ و به تُزالُ كلُّ ظُلامَه ، وتُزاحُ كلُّ مَلامَه ؛ ويُؤَيَّد الشرعُ الشريفُ ويؤَبَّد حُكْمه ، وينشر عِلْمه ويُنْشَر عَلَمُه ؛ وتُقامُ الحدودُ بحَــدِّه ، والمهابَة بِجدِّه . ورجالُ هذه القَلْعة به تَتألَّف علىٰ طاعتنا الشريفة قُلُوبُهم ، والرعايا يعمهم بالعَــدْلِ والإحسان وأيْسَرُ ما عنــدنا مَطْلُوبُهم ؛ وهؤلاء هم شيعتنا قبلك ، ورعِيَّتُنا الذين هم لنا ولَك ؛ فرَفْرِفْ عليهم بجَناحِك ، وخُذْهم بسَماحِك ؛ والمُسارَعةُ إلىٰ آمتثال مراسِمنا الشريفةِ هى أوّلُ ما نُوصِيك باعتماده ، وأوْلىٰ ما يُقْبَس من نُورِه ويُسْتمدُّ من أمْدادِه ؛ فلا تُقَدِّمْ شيئًا علىٰ الآنتهاء إلىٰ أمْره المُطاع ، والعَمَلُ فى السَّمع والطاعة باكرله ما يمكنُ أنْ يستطاع ؛ وخِدْمَةَ أولادِنا فلا تَدَعْ فيها مُمْكِنًا ، وآعلم بأنَّ خدْمتهم وخدمتَنا الشريفةَ ســواءٌ لأنَّه لا فَرْقَ بينهم وبيننا ؛ وهذه القلْعةُ هى التى أودعناها فى يَمِينِ أمانَتِك ، وحَمَيْناها بسَيْفِك وصُنَّاها بِصِيانَتِك ؛ فاللّهَ اللّهَ ! فى هذه الوَدِيعــَه ، وأدِّ الأمانَةَ فإنَّهــا نِعْمتِ الذَّرِيعَه ؛ وآحْفَظْها بقوّةِ اللهِ وتَحَفَّظْ بأسْوارِها المَنِيعَه ، وعليك بالتَّقْوىٰ لتَقْوىٰ والوُقُوف عند الشَّرِيعَه ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُك علوّا ، ويبلِّغك مَرْجُوّا ؛ والآعتماد ....

قلتُ : ورُبَّمــا ولى نيابةَ الكَرَك من هو جَليــلُ الرتبة رَفِيعُ القَــدْر ، من أوْلاد الســلطان أو غيرهم ، فتَعظُم النيــابةُ بعِظَمِه ، ويُرفَعُ قدْرُها بارتفاع قَدْرِه ، وتكونُ مكاتَبتُه وتقليدُه فوقَ ما تقدّم ، بحسب مايقتضيه الحال من «الجناب» أو غيره .

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك، كُتب بها عن السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» لولده الملك الناصر «أحمد» قبل سَلْطَنته، وكتب له فيه بـ«الجناب العالى»، من إنشاء الشريف شِهاب الدِّين، وهى :

الحمدُ لله الذى أسْعدنا بوِراثة المُلْك والممالك، وأرْشدنا للرَّأى المُصيب فى أنْ نَسْتَنيبَ من نشاء من ذلك ؛ وأيَّدنا بالعَوْن والصَّوْنِ فى حِفْظ ما هُنا ولَحْظِ ما هنالك، وعوَّدَنا الإمدادَ بيُمْنِه المتداوَل والإنْجادَ بمنِّه المتدارك ؛ وسدَّدَنا بالفَضْل والإسعاف إلىٰ أن نَتَّبع من العَدْل والإنصاف أنجحَ السُّبل وأوْضح المسالك، وعَضَّدنا من ذُرِّيَّتنا بكلِّ نَجْل مُعْرِق، ونَجْم مُشْرِق، يَرْشُقُ شِهابُه، فى الكَرْب الحَالِّ ويأْتلقُ صَوابُه، فى الخَطْب الحَالِك ؛ وأفردَنا بالنَّظَر الجميل، والفِكْر الجليل، إلىٰ أسعد تَحْويل تنير بمِرآته فى الآفاق الشُّهبُ الطوالِعُ وتَسيرُ ببُشْراه فى الأقْطار النُّجُب الرَّواتِك (١) .

نحمَدُه ! وكيف لا يَحْمد العبْدُ المالك ! ، ونشكُره علىٰ أنْ أهَّلنا لإقامة الشَّعائر وإدامة المَناسك ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له جل فى جَبَرُوته، عن مُشابِهٍ وتَعالَىٰ فى مَلَكُوتِه، عن مُشارِك ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أنْجد جنودَه من المَلإِ الأعلىٰ بالمَلائِك ، وأمدَّ بُعوثَهُ بالنَّصر والظَّفَر فى جميع المواقف والمَعارِك ؛ وأيَّد أُمَّتَه بولاية ملوك يجلِسُون فى النَّعيم على الأرائِك، ويَحْرُسُون حِمَى الدِّين بجِهادِهم واجْتِهادِهم من كلِّ فَاتِنٍ وفَاتِك ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله سُفُن النَّجاة المؤَمِّنين من المخاوف والمُنقِذين من المَهالِك ، ورَضِىَ الله عن أصْحابه الذين نظَمُوا شَمْلَ الإيمانِ، وهزَموا جَمْع البهتان، بكلِّ باترٍ وفاتِك ؛ صلاةً ورضواناً يُضْحِى لقائلهما

(١) أى القريبات الخطا .

فى اليوم العَبُوسِ الوَجْهُ الطَّلْق والثَّغر الضَّاحك ، ويُنْشر فيُحشَر مع النَّبيِّين والصدّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحَسُن أُولئك ، ما ٱبتَهَل بصالح الدُّعاء ، وناجح الاستدعاء ، لأَيَّامنا كلُّ عابد وناسك ، وعَوَّل حُسْنُ آرائنا على تقديم مَن هو لجميل آثارنا سَالك ، وأقبل بالإقبال سَنَا شِهابِه المُنير يجلو ماأُثِير من ليل نَقْعِها السَّنابِك ، فحصل للكَرَك والشَّوْبَك بهذا القُدوم فخار مَسيرك بينهما وبين النجوم الشَّوابِك .

أمَّا بعدُ ، فإن الله تعالى آثرنا بتوفير التوفيق ، ويسَّرنا من الهُدى إلى أقْوم طريق ؛ ووهَبنا فى الملك النَّسبَ العلىَّ العَريق ، والحسبَ الذى هو بالتَّقديم والتَّحكيم حَقِيق ؛ وقلَّدنا من عَهْد بَيْعة السَّلطنة ما لحمده فى الآفاق تَطْريق ، ولِعقْده فى الأعْناق تَطْويق ؛ نفَيَّأنا من شَجَرة هذا البَيْت الشريف النَّاصرىّ المنْصُورىّ كلَّ غُصْن وَريق ، وهيَّأ للبَرِيَّة تكريمًا عميًّا بتقديم من له المَجْد يتعيَّن وبه السُّؤْدُدُ يَلِيق ؛ وأطْلَع فى أُفُق أعزّ الممالك علينا من بيتنا شِهابَ عُلًا هو للبدْرِ فى الكمال والجمالِ شَبِيهٌ وشَقِيق ، وأطَعْنا أمْرَ الله تعالى فى معاملة الولَد البارّ معاملة الوالد الشَّفيق ؛ وأوْدعْنا لدَيْه ما أوْدعه الله تعالى لدينا : مملكةً مرتفعةً متسعةً ليرتَفِعَ محلُّه ويتَّسِعَ أملُه ولا يَضِيق ، وجَمعْنا له أطْرافَها لتكونَ لكلمته العُلْيا بها الاجتماعُ من غير تَفْريق .

ولما كان الجناب العالى ، الولدىّ ، الشهابىّ ، سليلُ الملوك والسلاطين ، خليل أمير المؤمنين : هو الذى تُشِير رُتَب الكَفَالة بترقِّيه ، وتَقَرُّ عيونُ الأولياء بتَعَيُّنه لإلقاء أمرنا المُطاعِ وتَلَقِّيه ؛ وتلْهَجُ الألْسِنةُ ضارعةً إلى الله تعالى أنْ يخلِّدَ مُلكَ بيته الشريف ويُبْقِيه ، وتعرُجُ إلى السموات دَعَواتُ الأتقياء أن يُوقِّيَه اللهُ مما يتَّقِيه ؛ ونُمْسِكُ فى هذا المقام لِسانَ المَقالِ عن مَدْحه أدَبا ، ونترُكُ الافتخارَ بالمال والعَدِيد إيثارًا لثواب الله وطَلَبا ؛ ونُدْرِك موعظةَ الله سبحانه فى كتابه قَصْدًا وأرَبا :

﴿ والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وخَيْرٌ عُقُبًا﴾(١) . وبِبَرَكَةِ هذا القَصْدِ يتِمُّ لنا فيه المراد، ويعُمُّ هذه المملكةَ النفعُ بهذا الإفْراد؛ فإنها مَعْهَدُ النصرِ والفَتْح، ومشْهَدُ الوَفْرِ والمَنْح، ومصْعَدُ العِزِّ الذى لما وطِئْنا صَرْحَه تَدَكْدكَ للعدا كلُّ صَرْح، وتَمَلَّكَ للهُدىٰ كلَّ سَرْح، ونَشِقْنا بها لقُرب المزار من طِيب طَيْبَةَ أعْظَمَ نَفْح، وقد بقينا بِجَاه الحالِّ بها فى تيسير التَّأْييد فكان كاللَّمْح، وجرىٰ خَلَفُنا السَّمْحُ بعد ذلك علىٰ عادته فى الحِكَم والصَّفْح، وسرىٰ ذِكْرُنا فى الشَّرقِ والغَرْب وللحُدَاةِ به أطْربُ صَدْح، وآتى اللهُ من فَضْله مُلْكًا نِعمًا تَجِلُّ عن العدّ والشَّرح؛ فيها مَنْشَأُ دولَةِ الدُّول ومنها فَتْح الفتوح، وبإضافته إلينا تفاؤُلُ خيرٍ مَشْهورٍ ملْمُوح؛ كما قيل قبلها كَرَك نُوح، فبتطهير الأرض من الكُفَّار، عزائِمُنا تغْدُو وتَرُوح، وبالاستناد بأطْول الأعمار، أمارَةٌ باديَةُ الوضوح؛ وآثارُ بركةِ الاسمِ الشَّريف المُحمَّدِىّ تظهر علينا فى الحركات والسَّكَنات وتَلُوح، ونَخارُ هذه المملكة المباركة: لاختصاصها بالحَرَمَيْن الشَّريفَيْن عليها طَلاوَةٌ وسعادةٌ وفيها رُوح؛ وكنَّا قد سلَكْنا بهذا الوَلد النَّبيل، سنَّةَ أبى الأنْبياء إبراهيمَ الخَلِيل، فى ولده إسماعيل، عليهما السلامُ التامُّ فى كلِّ بُكْرة وأصِيل؛ حيثُ فارقه وأفْرده، وتَفَقَّده فى كلِّ حين وتَعهَّده؛ حتَّى شدَّ اللهُ تعالىٰ به عَضُدَه ورفع هُو وأبُوه قواعِدَ البَيْتِ وأعانه لَمَّا شَيَّده، فأجْمل اللهُ لنا هذا القَصْدَ وأحْمده، وكمَّل هذا الشُّروع وأسْعده، وأجْزل [له] من فوائِدِه أوْفَر هِبَةٍ وأنْجز له من عوائده أصْدقَ عِدَه؛ فأحْللناه فى هذه المدَّة بمملكة الكَرَك فسَلَكَ من حُسن السجايا أحْسن مَسْلَك، وملك قلوبَ الرَّعايا وبِمَا وَهَبَ من المنح تَمَلَّك؛ وبسُنَّتِنا فى التَّواضُع للحقِّ مع الخَلْقِ تَمسَّك، وبشِيَمِنا وخُلُقِنا فى الجُودِ تَخلَّق فبذَل وما أمْسك .

---

(١) التلاوة «وخير أملا» أما وخير عقبا فهو فى آية قبلها .

ولما بلغ أشُدَّه وآستوىٰ، وبزغ شِهابُ عُلاه الذى هو وبَدْرُ السماءِ سَوا، وحاز مكارمَ الأخلاقِ وحَوىٰ، وفازَ سلطاننا فى نجابته بحسن النية : "وإنَّما لِكُلِّ آمْرِئٍ ما نَوَىٰ" ـ حكَّمناه فى هذه النيابة التى ألِفَها ودَرَّبها، وعرف أُمُورَها وجَرَّبها، وآستمال خواطِرَ أهْلِها وآستجْلَبها، وأدنىٰ لهم لمَّا دَنَا منهم المَيامِنَ ولمَّا قَرَّبها منهم قَرَّبها، وآستحقَّ كَفالَتَها وآستوْجَبها، وأظهرَ اللهُ تعالىٰ فيه من الشَّمائِل أنْجبها، ومن الخلائق أرْحَبَها، ومن الأعراق أطْيَبَها، ومن العوارف أنْسَبَها، ومن العَواطف أقْرَبَها، ومن البَسالة أرْهَفَها وأرْهَبَها، ومن الجلالة أحبَّها إلى القلوب وأعْجَبَها، ومن السيادة ما أخذَتْ نفْسُه لها أُهَبَها، ومن الزيادة ما يتعيَّن [له] شكرُ الله الواهبِ الذى وهَبَها، ومن السَّعادة ما رفَعتِ الأقْدارُ علىٰ مناكِبِ الكواكبِ رُتَبَها، وأطْلعتْ لِحُماته سماءُ العَلْياء شُهُبَها، ورقَّتْ علىٰ هَامَةِ الجوزاء مَنْصبَها، وآستصحبتْ من العناية لهذا البَيْت مَزِيَّةً فرض اللهُ بها له الطاعةَ وكَتَبها؛ فاستَخَرْنا الله تعالىٰ الذى يختار لنا ويَخير، وسألْناه التَّأْييدَ والتَّيسير، وفوَّضْنا إليه وهو الكَفيلُ لنا بالتدبير، فى كلِّ مَبْدَإٍ ومَصِير، واستَعَنَّا به وهو نِعْم النَّصير، وآقتضىٰ حسنُ الرَّأْيِ الشريف أن نُسْرِج شِهابَه المُنِير، ونُنتج للأَوْلياء يمن التَّأْثِيل بحسن هذا التَّأْثِير، ونُنْهِجَ فى بِرِّه سُبُلًا تقدَّمنا إليها كلُّ ذِى منْبَرٍ وسَرير، ونُثْلِجَ الصُّدورَ ونُقرَّ العيونَ بسَعيد هذا الإصدار وحَميد هذا التَّقْرير.

فلذلك رسم بالأمْر الشريف ـ لا برح أمْرُه يصيب السَّدادَ فيما إليه يصير، وخَبَرُه يحمل الموافاة فللأَلْسنة عن مكافأة بِرِّه تَقْصير ـ أن تفوّضَ نيابةُ السَّلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس والشَّوبك للجناب العالى، الولدىّ، الشهابىّ، وما ينضم إلىٰ ذٰلك ويَنْضَاف، من جميع الأقْطار والأكْناف؛ وجمعنا له من هذه المملكة الأطْرَاف، وجعلنا له علىٰ سَهْلها وجَبَلِها إشْراف، وصَرَّفناه منها فيما هو عن علْمه

الكريمِ غيرُ خاف ؛ نيابةً كامِلَه ، كافِلَةَ شامِلَه ؛ عامَّه ، تامَّه ؛ وافِرَه ، سافِرَه ؛ يستلزمُ طاعَتَه فيها الأفْتِراض ، وتنحسم عنه فيها موادُّ الأعتراض ، وتَنْفُذ مراسمه من غير تَوَقُّف ولا آنْتِقاض ، وتُبْسَطُ يدُه البيضاءُ من غير آنْقِباض ، ويرتفع رأيه من غير آنْخِفَاض .

فلتقْدُرْ رَعِيَّةُ هذه البلاد نِعْمةَ هذا التفويض قَدْرَها ، ولْيسألُوا الله أن يُوزِعَهُمْ لحُسْنِ هذا التفويض شُكْرَها ؛ فقد أنشأ لهم يُسْرَها ، وأفاء لهم بِرَّها ؛ وألْقىٰ إليهم جُودَها وخَيْرَها ، وأبقىٰ عندهم عِزَّها ونَصْرَها . ولْيَتَّبِعوا السَّبيلَ القَوِيم ، ولْيُجْمِعُوا على الطاعَة التى تُبْقِى عليهم نِعْمَةَ العافية وتُدِيم ؛ ولْيَسْمَعُوا ويُطِيعُوا لما يَرِد إليهم من المَرَاسِيم ، فمن لم يَسْتَقِمْ كما أُمِر لا يَسْتَمِرُّ بهذه البلاد ولا يُقِيم ؛ والعاقِلُ لنفْسه خَصيم ، والجاهلُ مَن عَدِمَ النِّعمةَ وحُرِمَ النَّعيم ؛ وفِراسَتُنا تَلْمَحُ نتائِجَ الخيْرِ من هذا التَّقْديم ، وسِياسَتُنا تُصْلِحُ ماقَرُب منَّا وما بَعُد بتعْريف أحْكام التَّحْكيم ؛ وكَيْف لا ؟ وهو الكَرِيم بن الكَرِيم ، المؤمَّلُ لتمام السُّؤْدُد قبل أن يُعْقَد عليه التَّميم ؛ المشتمِلُ على الخِلالِ المُوجِبَة له الفَضْلَ العَميم ، المتوصِّلُ بيُمْنِ حركاته إلىٰ أنْ يكونَ لمثل هذا المُلْكِ العظيم ؛ وإلىٰ أمَانَتِه آستيداعٌ وإلىٰ صِيانَتِه تَسْليم ، المقْبِلُ وجهدنا الإقبال فتتلو الرِّجال : ﴿ماهذَا بَشَرًا إنْ هَذَا إلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ .

ونحن نَأْمُرك من التَّقْوىٰ بما به من الله أُمِرْنا ، ونبصِّرُك من الهدىٰ بما له هُدِينَا وبُصِّرْنا ، ونُبْقِى لديك من بدائعها مابه خُصِصْنا وأُوثِرنا ؛ ونُوصِيك آتِّباعًا للكِتَاب والسُّنَّه ، ونُؤْتِيك من الهداية مالله فى الإرشاد إليه المِنَّه : فقد وَعظ ووَصَّىٰ لُقْمانُ ـ عليه السلام ـ آبْنه ، وأوْصىٰ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم مُعَاذَ بنَ جَبَل لمَّا بعثَه إلى اليَمَنِ فحقَّق اللهُ تعالى فى نجاحه رَجاءَهُ وفى فَلاحِه ظَنَّه ؛ ونُذَكِّر جنابك ، ونرجو أن

تكون ممن تنفعه الذِّكرىٰ، ونُسَيِّر شهابَك، إلىٰ أُفُق السَّعد ونأمُل أن تُيَسَّر لليُسْرىٰ، ونُؤَمِّرك فنزيدُ عَلَم عِزِّك رفعًا ولواءَ مَجْدك نَشْرا، ونأْمُرك ثقةً بحسْنِ أخْلاقك، فيتلُو لسانُ وِفَاقِك : ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ . فمثلك من أيَّدتْه العِصَم، وأصْعدتْه الهِمَم، وحَمِدتْه الأُمَم، وأرْشَدتْه إلىٰ الحُكْم ما عَهِدَتْه فِكْرتُه من الحِكَم، وسدَّدتْه أعْراقُه وأخْلاقُه فلا يُزَاد علىٰ ما فيه من كَرَم؛ فلا نُذَكِّر منك نَاسِيا، ولا نُفَكِّر لَاهِيا، ولا نَأْمُر ونَنْهىٰ إلَّا مَن لم يَزَلْ بالمعروف آمِرًا وعن المُنْكر نَاهِيا .

فاتَّقِ اللهَ تعالىٰ : فعلَى التَّقْوىٰ مَرْباك، و راقِب اللهَ تعالىٰ : فالمراقبةُ للملوك من بيْتِك مِلَاك، وجِدَّ فى نُصْرة الحقِّ ولا تأْبَ : فقد أنْجد الله تعالىٰ بذٰلك جَدَّك وأباك، وآعْدلْ فبالعَدْل تعْمُر الدُّوَل وأقِمْ مَنارَ الشَّرع، فهو الأصْل الذى يُرَدُّ إليه من القضايا كُلُّ فَرْع، ومجالُه الرَّحْبُ إذا ضاق الذَّرْع؛ فأيِّدْ حاكِمَه، وشَيِّدْ معالِمَه؛ وأكِّد الإلزامَ بأحْكامه اللَّازمَه .

والأُمراءُ والجُنْد فهم جَناحُ النَّجاح، وصِفَاحُ الصِّفاح؛ فاعتمِدْ أحْوالَهم بالصَّلاح، وأرِدْ فيهم ما آستطَعْتَ الإصْلاح . والخَيَّالةُ والرَّجَّالةُ الذين يُحْمىٰ بهم مَصُون الحُصون أن يُستباح، فالْحَظْ أُمُورهم بعَيْن فِكْرك فى كلِّ مَساءٍ وصَباح، فَمَن نَهض فى الخِدْمة تعيَّن من النِّعمة أن يُزادَ ومَن قَصَّر فى العَزْم قضَى الحَزْمُ أن يُزاح . والرعايا فهم للإحسانِ ودَائِع، وللآمتِنانِ صَنائِع؛ فأعْذِبْ لهم من المَعْدلة المشارِع، وآنْصِبْ لهم من إقامة الحُرْمة الزواجِرَ والرَّوادِع؛ وأخْصِبْ لهم من النِّعمة مَرْبعًا يُرَغِّبُ الجامِحَ ويُقَرِّبُ الطائع . وأهْلُ الذِّمَّة فآوِهِم إلىٰ كَنَف العَدْل الواسِع، وآحْمِهم أن تمتدَّ إلىٰ أنْفُسِهم يَدُ جَانٍ وإلىٰ أموالهم يَدُ طامِع، وأقِمْ عليهم بَأْسًا يَحِلُّ بهم إذا آعْتَدَوْا

القَواصِمَ والقَوارِع ، وأَدِمْ لهم مهابة تَسُدُّ من فساد الذَّرائِـع ، وعاوِدْ آراءَنا الشَّريفَةَ ورَاجِع ، وواصِلْ بأَنْبائِك السارَّةِ وأَفْعالِك البارَّةِ وتَابِـع ، وبمـا نتطَلَّع إليه خَواطِرُنا العاطفة من مُتَجَدِّداتِك المباركة أَتْحِفْ وطالع ، والله تعـالىٰ يشَنِّف بحسْنِ سيرتِك المسامع ، ويشَرِّفُ بحلُول عَدْلِك المحافِلَ والمَجامِع ، ويُوزِعُك شكْرَ نعمتِه ويجعلُ لك من عِصْمَتِه أعظَمَ وازِع ، ويمتِّعُـك بأَيَّامِنا التى فيها الخـيْرُ الشَّامِلُ والبِرُّ الجـامِع ، ويصونُ بجلالك الحُسنىٰ ما آستَطْعَتَ(١) من أسْنى الودائع ، ويُزَيِّن سمـاءَ العَلْياء بجلالك فمنهـا لك قمـراها والنجوم الطوالع ، ويوفِّقُ بجميل قصـدك إلىٰ أن تأْخذ من القـلوب بالمجامع ، ويحقِّقُ فى إسْـعاد جَنابِك المطالب ويُشْرِق بإصْعادِ شِهابِك المطالع ؛ والعلامة ... .

الصنف الثـانى — أَرْباب الوظائف الدِّينيـة . وبهـا قَاض واحدٌ شافعىّ ، وتوقيعُه فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ» بالياء .

الصنف الثـالث — الوظائف الدِّيوانية . وهى ثلاثُ وظائِفَ ، يكْتَب لكلٍّ منهـا تَوقيعٌ فى قَطْع العادة . الأُولىٰ كتابة الدَّرج . الثانيـة نَظَر المـال . الثالثـة نَظَر الجَيْش .

القســـــم الثـالث

(ممـا يكْتَب من الولايات عن الأبْواب السلطانية بالديار المصرية — ما يكتب لأرباب الوظائف بالمملكة الحجازية)

وقد تقدّم أنّهـا تشتملُ علىٰ ثلاث قواعد :

---

(١) لعله «ما آستحفظت» .

القاعـــدة الأولىٰ

(مكة المشرّفة ، وبها وظيفتان)

الوظيفـــة الأولىٰ

(الإمارة)

وقد تقدّم أنّ إمارتها فى بنى الحَسَنِ بن علىّ بن أبى طَالِب رضى الله عنهما ، وأنّها كانت تُولّىٰ من أبْواب الخلافة ببغْدَادَ إلىٰ حينِ آنْقِراضِها ، إلّا ما تغلّب عليه الفاطِميّون أصْحابُ مِصْر فى خلال ذلك . ثم آستقرّت آخرًا من جهة ملوك مِصْر إلى الآن . ويُكْتب له تقليدٌ فى قَطْع النِّصف بـ«المجلس العالى» بزيادة ألْقاب تخُصُّه ، وقد تقدّمت ألْقابه فى أوّل هذا الطَّرَف .

وهذه نسخةُ تَقْليد بإمْرة مَكَّة المشرّفة : كُتب بها عن الملك الناصر « محمد بن قلاوون» لأسَد الدِّين «رميثة» بن أبى نُمَىٍّ ، بإمرة مَكَّة المشرّفة ، عِوضًا عن أخيه «عطيفة» عند قتل الأمير الدمرجان دار وولَده خليل ، من إنشاء المولىٰ تاج الدين آبن البارنبارى رحمه الله ، فى المحرّم سنة إحدىٰ وثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله الحكيم : فالشَّريفُ من آتبع أوامِرَه ، العظِيم : فالسَّعيدُ من آتّقىٰ غَضَبه بأعْماله الزاكية ونيَّاتِه الطاهِرَه ، الكَرِيم : فالفائزُ من سلك مَراضِيَه فى الدنيا ليأْمَنَ فى الآخره ، ومن أخاف عاكِفَ حَرَمِ الله وبادِيَه فقد بَاءَ بالأفْعال الخاسره ، ومن عَظَّم شعائِرَ الله فقدْ رَفَل فى حُلَلِ الإقبال الفَاخِرَه .

نحمدُه علىٰ ألْطافه الباطنة والظَّاهِرَه ، ونشكُرُه ونرجُوه وما زال يُنْجِحُ راجِيَه ويَزِيدُ شاكِرَه ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ من آتخذ الحق ناصِرَه ،

وأودع إخلاصها ضمائره؛ ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله الذى بعثه الله من الحرم فألّف القلوب النافره، وفتح مكّة فطهّرها من الزُّمرة الكافره، وقال فى ذلك اليوم : «من أغلق عليه بابه فقد أمِن» فأمسىٰ أهلُها ونفوسهم بالأمْن ظافره؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله بنى الزهراء العترة الزاهره، وعلىٰ صَحْبه النُّجوم السافره؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

أمّا بعدُ، فإنّ الحكْمَ [بالعدل] شعارُنا ، وبالله ٱقتداؤُنا وٱقتدارُنا؛ وفى الإحْسان رَغْبَتُنا ، وفى كلّ عُنُق مِنّتُنا؛ نَصْفَح ونَمْنح ، ونَرْعىٰ مَن أمسىٰ قديمَ الهجرة فى ولايتنا وأصْبح ؛ ونُقيم من أهل البيْت لحفْظ ذلك البيت الأصْلَحَ فالأصْلَح ، ونُقدِّمُ من لم يزل مقدَّمًا وإلىٰ صَوْب الصواب يجْنَحُ فينْجَح ، ونُنْجِى من الهَلَكةِ مَنْ لاح له مَنْهَجُ الخير فسلكه فأفْلح .

وكانت مكّةُ المعظمةُ هى أُمَّ القُرىٰ ، والبَلَدُ الامينُ المُجْزَلُ فيه القِرىٰ؛ نَشأ الإسلامُ فى بطْحائها ، وحَرّمها اللهُ فلا ينَفّر صَيْدُها ، ولا يُعْضَدُ شجرها ، ولا تَحِلُّ لُقَطَتُها إلّا لمُنْشِد تأكيدًا لتَشْريفها وإعْلائها؛ وطلعَتْ شمسُ النُّبوّة من شِعابها، وغُسلت الذُّنوبُ بوَبْل سَحابِها؛ فيها زَمْزَمُ وكَرّةُ جبْرِيل، وفيها بدأ الوَحْىُ والتّنزيل، وإليها أعْنقت الرِّكابُ ففى كلّ أبْطح لمَطىٍّ مَسيرٌ ومَسِيل؛ فكَمْ أتىٰ إليها من سائر الناس سائرٌ، وكم أتَىٰ إليها الناسُ رِجالًا وعلىٰ كلّ ضامِر؛ فالرّحمة مُستقرّة بين نواحيها والعُيونُ تَمَلَّىٰ بأنوار تلك الأسْتار حتّى تَجْتليها، والشِّفاهُ تتشرّف بتَقْبِيل ذلك الحَجَر الذى يشهدُ لها فى غَدٍ ويَقِيها؛ فطُوبىٰ لمتّقيها، وسُحقًا لمن أخاف وفْدَ اللهِ فيها؛ ونحنُ قد بصّرنا اللهُ بخِدْمة بيتِها المحرّم ، وحَرَمِها المعظّم ، وكَرّر إليها حجّنا وكرّمه : فلله الحمدُ أن كَرّر حجّنا وكَرّم؛ وما بَرِحْنا نُقيمُ فى إمارَتِها من العتْرة النّبويّة كلّ شريف النّسب،

وكلّ من يكْتَسِب فيها رضَا الله تعالىٰ : وكلُّ آمْرِئٍ وما آكْتَسب ؛ فمن أصْلح منهم أقَمْناه ، ومن حَاد عن الطاعة وجَحَد النِّعمة أزلْناه ؛ ومن أخاف فيه السبيلَ لم نجعلْ له إلى الخَيْر سبيلا ، ومن آستقام على الطريقة توكَّلْنا على الله ووَلَّيناه : وكَفَىٰ بالله وَكِيلا .

وكان فلانٌ هو الذى مازالت خواطرُنا الشريفةُ تقدِّمُه علىٰ بَنِى أبيه ، وتَخْتارُه أميرًا وتَجْتَبِيه ؛ ورُبَّما سلَفتْ من بَيْته هَنَاتٌ صفَحْنا عنها الصَّفْح الجميل ، وما قابلْناهُم إلا بما يَلِيقُ لمجْدِهم الحَسنِيِّ الحَسَنِ الأصِيل ؛ والإمْرةُ وإن كانت بيَد غيره هذه المدّة فما كان فى الحقيقة أميرٌ عندنا سواه ، لأنَّه كبيرُ بيْته المشكورُ من سائر الأفْواه .

والآن قد آقتضَتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُقيمه فى بلده أميرًا مُفْرَدًا إليه يشار ، وأنْ نَصْطَفِيَه : وإنَّه عِنْدنا لَمِنَ المصْطَفَيْنَ الأخيار ، وأن نجعلَ الكلمةَ واحدةً ليأْمَن النَّزِيلُ والجار ؛ ومَتىٰ تَجاذب الأمْرَ كلمتان فَسَدَ نِظامُه ، ومَتىٰ أُفْرِد الحكْمُ حسُنَتْ أحكامُه ؛ ومتىٰ توَحَّد الأمْرُ زال الآختلاف ، وزاد الآئْتِلاف ، وأقبلتْ أيَّامهُ .

فلذلك رسم بالأمْر الشَّرِيف أن تفوّضَ إليه إمْرةُ مكَّةَ المشرّفة ، علىٰ عادة والده . فلْيتقلَّد ما فوّضناه إليه من الإمْرة والنيابة بمكة المعظمة : شاكرًا ما أنعم اللهُ به عليه من مراضينا التى لا نَجاةَ لمَن لم ينَلْ منها نَصيبًا موفُورا ، ولا فوْزَ لمَن لم يُدْركْ منها حظًّا كبيرا ؛ ولْيشْرَعْ فى تمهيد البلاد من إزالة المَظْلَمه ، ولْيُطَهِّرها من كلّ مُجتَرِئٍ على الله تعالىٰ فى البُقْعة المحَرَّمه ؛ ولا يُقَرِّبْ مَن فى قَلْبه مرضٌ فيُعْديه ، ولا يرجعْ لمن فيه شقاقٌ ظاهرٌ فى صفَحَات وجْهه وفَلَتات فيه ؛ ولْيعلَمْ أن هذا بلدٌ حرامٌ حرّمه اللهُ يوم خَلَق السَّموات والأرْض ، وصيَّرحَجَّ بَيْته علىٰ مستَطيعه من الفَرْض ؛ وجعله للنَّاس مَعادًا ومَعاذا ، وقال صلَّى الله عليه وسلم يَوْم

عَرَفَةَ : « إنَّ دماءَكُم وأموالَكُمْ وأعراضَكُمْ عليكُم حرامٌ كحُرْمَةِ يومِكُم هــذا فى شهرِكُم هَذا فى بَلَدِكُمْ هذَا » .

فليَمْنع الدِّماء من أنْ تُراق ، والأمْوالَ من أن تُؤْخذَ بغير ٱستِحْقاق ، والظُّلْمُ فى البَلَد الحرامِ حَرام ، وبنُو حَسَن أحَقُّ باتباع سُنَّة الإسلام ، وٱتّق اللهَ لتَلْقاه بالوَجْه الأبْيض والعَمل الأغَرّ ، وٱتّبع سُنَّة جَدِّك : فعلَى ٱتّباعها حَثَّ وأمر ، وٱلْقَ وفْدَ الله فى البرّ والبَحْر بالحُسْنىٰ فهم أضْيافه ، وأمِّن الحَجَّ ليَتِمَّ نُسُكُه وطَوافُه .

هذا تَقليدُنا لك أيُّها الشَّريف : فطِبْ نَفْسًا بمَراضِينا ، وصَفَحنا عما مَضىٰ ومَنَحنا الرِّضا حقًّا يَقِينا ، لأنَّا نتحقَّقُ أنَّ الإحسانَ يَحرُسُنا ويَقينا ، إنْ شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسخةُ تَقْليد شريف لأمير مَكَّةَ المشَرَّفة :

الحمدُ للهِ الذى جعل البَيْتَ مثَابَةً للناس وأمْنا ، ونَصَب فيه للقانِتين رُكْنا ، وجعل أرْضَ الحَرم لا تَبِيدُ بركاتُها ولا تَفْنىٰ ، وجعل لشَجَرة النَّسبِ الهاشميّ فيها أصْلًا شريفًا كَمْ أخرج غُصنا ، وآتَىٰ بَنِي الحَسَن فيها إحسانًا من لَدُنْهُ وحُسْنا ، وأقام منهم أميرًا فى ذلك المحلِّ الأسْنىٰ .

نحمَــدُه فُرادىٰ ومَثْنىٰ ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً كاملةَ اللَّفظ والمَعنىٰ ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورســولُه الذى شيَّد اللهُ به للدِّين خير مَبْنىٰ ، وأضْحتِ الضُّلوع علىٰ مَحبَّتِه تُحْنىٰ ، وثِمارُ الخَيْر مما بين رَوْضَته ومِنْبره تُجْنىٰ ، وخصَّه اللهُ بالشَّرعِ المستقيم والدِّين الأهنىٰ ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً فى الصــدور لهــا سُكْنىٰ ، وسلَّمَ تسليماً .

وبعـدُ ، فإنَّ أمَّ القُرىٰ ، خَيرُ البِلاد بلا مِرَا ، قد جعل اللهُ للناس إليهـا رِحلَةً وُسرىٰ ، وهجُروا فى قَصْدِهم إليها لَذيذَ الكَرىٰ ، ونصَبَ فيها بيْتًا مَتِينَ العُرىٰ ، وأنْبع فيها بِئْرًا ماؤُها يشفِى السَّـقيمَ ويُبْرِئُ الوَرَى (١) ، وجعل فيها للشَّرف بيتًا عالِىَ الذُّرىٰ ؛ فأميرُها المُطاع ، من أهْل بيْتِ النُّبوّة لا يُخَيَّبُ ولا يُضَاع ، ذُو هِمَّة تخافُها السِّباع ، ويرهَبُها البَطَلُ الشُّجاع ؛ يَعُدّ من الآباء أسْلافا كراما ، كمصابيح السماء تجلو ظَلاما ، وقد طيَّب اللهُ مُقَامَهم وأعلىٰ مَقَامَهم حين جاوَرُوا مَقاما .

ولمـا كان ... ... هو شريفَ العَرَب ، المُعْرِقَ فى النَّسَب ، الطَّيِّبَ الحَسَب ، المُحْيِيَ من آثار آبائِه ما ذَهب ، الشَّريفَ النَّفْس : فلا يلْتفتُ إلىٰ العَـرَض الأدْنىٰ من الرِّقَة وأكَّد شكْرَه الحَـرمُ وأهلُه ، وأثنىٰ علىٰ صَـفاءِ سيرتِه الصَّفَا وعلىٰ مُروءَته المَرْوةُ إذ طاب أصْلُه ؛ قد ٱقتفىٰ فى الكَرم أباه وجدّه ، وأمَّن سَبِيلَ الحاجِّ من جهـة البرّ ومِن جِهَة البَحْر من جُدَّه .

فلذلك رُسم أن يفوّضَ إليـه ... ... فليحُلَّ البـلَدَ الحرامَ حاكمًا وآمِرا ، وليسْتَجْلِبْ له من العاكف والبَـادِ شاكِرا ؛ ولْيُحسِنْ للطَّائفين والعاكِفين والرُّكَّع السُّجود ، وليتَّبِـع آثارَ آبائِه أهْـلِ الكَرَم والجُود ؛ وليؤَمِّن الخائفَ فى تلك التهـائِم والنُّجود ، ولْيَرْدَعِ الحائِفَ عن حَيْفه فلا يَعُود ، وليعلَمْ أنَّه بوَادٍ غيرِذى زَرْعٍ ولكن فيه للبركات ظِلٌّ مَمْدُود ، وخيرٌ مَشْهُود ؛ وبمكة مولِدِ أشرفِ مَوْلُود ، وجدّه الحَسَن رضى الله عنه فلْيكُنْ حسَنَ الفِعال فكما سَاد يَسُود ، وليُعرِبْ عن الثَّناء الأبْيض عند ما يمَسك بتلك السُّتورِ السُّود ؛ وليتَلَقَّ المَحْمَلَ الشريفَ فى كلِّ عام ، بالٱحتفال والإكْرام ، والطاعةِ التى يَبلُغ بهـا المرام ، ولْيَقِفْ مع أُمراء الحـاج مقيما لحُرْمَتِهـم بجميل الٱحترام ؛ ولْيكُفَّ الأشرارَ من العبيد والمَوالِى ، عن النَّهْب والتَّخَطُّف لوَفْد

(١) الورى اسم للقيح يكون فى الجوف .

الله الذى قَطَع السُّرىٰ بالأيّام والليالى ؛ ولْيُلازِمْ خدَمَة المَحْمِل الشريف علىٰ مايناسب شَرَفَه ، حتَّى يقِفَ بعرَفَه ، ثم يدْفع إلى المزْدَلِفَه ، إلىٰ أنْ يقضِىَ الحَجَّ ويرحلَ من مَكَّة المشَرَّفه ؛ ولْيكُنْ سِياجًا على الحُجَّاج ، فى تلك الفِجاج ، حتَّى لا يفقد أحَدُهم عِقالا ، ولا يجِدَ ٱخْتزالا ، ويرحَلُون عن مَكَّة المعظمَة من الذُّنوب خِفافًا وبمَننِه ثِقالا . والوصايا كثيرةٌ وهو غنىٌّ عن أن نُطيلَ له فيها مَقالا ، وتقوَى الله فمن تمسَّكَ بها حَسُنَ حالا ، وأنتم أهْلها كَرَّمكم اللهُ أهْلًا وآلا ، واللهَ اللهَ فى حِفْظ جانب الصَّحابة رضى الله عنهم فلْيردَعْ عن الخَوْض فيهم جُهَّالا ، واللهُ يجعلُه مغمورًا مسرورًا بنِعَم الله تعالىٰ ، بمنِّه وكرمه ! .

* * *

وهذه وصِيَّةٌ لأمير مكَّة ، أوردها فى "التَّعريف" :

وليعلَمْ أنَّه قد وُلِّىَ حيثُ وُلِد بمكَّة فى سُرَّة(١) بَطْحائِها ، وأُمِّر عليها ما بين بَطْنِ نَعْمانِها إلىٰ بَحْوَة رَوْحائِها ، وأنَّه قد جُعلتْ له ولايَةُ هذا البَيْت الذى به تَمَّ شرفُه ، وعلَتْ غُرَفُه ، وعَرَفَ حَقَّه له أبْطحُه ومُعرَّفُه ، إذ كان أَولىٰ وُلاةِ هذا الحَرَم بتعظيم حُرُماتِه ، وسُرور جوانبه بما يلُوح من البِشْر علىٰ قَسَمَاته ؛ ولأنَّه أحقُّ بنى الزَّهْراء بما أبْقته له آباؤُه ، وألْقته إليه من حديث قُصَىٍّ جدِّه الأقصىٰ أنْباؤُه ؛ وهو أجْدرُ من طهَّر هذا المسْجِدَ من أشْياءَ يُنزَّه أن يَلحَق به فُحْشُ عابِها ، وشَنعاءَ هو يعرف كيف يتتبَّعها «وأهلُ مكَّة أعْرفُ بشِعابها» .

فليتلقَّ رَايةَ هذه الوِلايةِ باليَمين ، ولْيتوقَّ ما يَتَخَوَّف به ذلك البَلَدُ الأمين ؛ ولْيعلَمْ أنَّه قد أعطى الله عَهْدَه وهو بين رُكْن ومَقام ، وأنَّه قد بايَع اللهَ : واللهُ عزيزٌ ذُو ٱنْتقام ؛ وليعْمُرْ تلك المَواطِن ، ويغْمُرْ ببِرِّه المارَّ والقَاطِن ؛ وليعملْ فى ذلك

(١) فى الأصل «ثمرة» والتصحيح من "التعريف" (ص ١٠٤) .

بمـا يُنَجِّث عنـه نِجارُه[1] ، ويأمَنُ به سُكَّانُ ذلك الحَرَم الذى لا يُرَوَّعُ حَمامُه فكيف جَارُه ، ولْيُنصِتْ إلى ٱسْمِه [عزّ وجلّ] حيث يُعلِنُ به الدَّاعِى علىٰ قُبَّة زَمْزَم فى كلِّ مَساء ولْيَعْرِفْ حقَّ هذه النِّعمه ، ولْيعامِلْ من وُلِّىَ عليهم بما يليق أنْ يعامَلَ به من وقَفَ تحْتَ ميزا بِ الرَّحْمـه ، وقد أكَّد مَوْثِقَه واللّهَ اللّهَ فى نَقْضـه ، ومدَّ يدَه على الحجَر الأسْود يَمينِ اللهِ فى أرضه ، وليَتبصَّرْ أيْن هُو فإنَّ اللّهَ قد ٱستأمَنه علىٰ بيْته الذى بَناه ، وسلَّمه إليه بمَشْعَرِه الحَرامِ ومَسْجد خَيْفه ومِناه ، وإنَّه البَيْتُ المقصود : وكلُّ من تَشَوَّق حِمىٰ لَيْلَىٰ فإنَّمـا قصَدَه او تَعَلَّقَ بلَعْلَعٍ فإنَّمـا عَناه ، وفى جَمْعه يجتمعُ كلُّ شَتيت ، وفى ليالى مِناه يَطيبُ المَبيت ، وبمُحصَّبِه تُقام المواسِم ، وتفْتَرُّ الثُّغور البَواسِم ، وتَهُبُّ من قبل نَعْمانَ الرِّياحُ النَّواسِم ، وفى عَقْوَة دارِه مَحَطُّ الرِّحال فى كلِّ عام ، ومقَرُّ كل ذات عُود تُجْذَبُ بقِلْعٍ وعُودٍ تُقادُ بزِمام ، وإليه تضرِبُ التِّجَار البرارِىَّ والبِحار ، وتأْتِيه الوُفودُ علىٰ كلِّ قِطار يُحَدىٰ من الأقطار ، وكلُّ هؤلاء إنَّمـا يأْتُون فى ذِمَام الله بيتـه الذى مَنْ دخله كان آمِنـا ، وإلىٰ مَحَلِّ ٱبن بنْت نَبِيِّه الذى يلزمه من طريق بِرِّ الضيف ما أخذ لهم و إن لم يكُنْ ضَامِنا .

فليأْخُذْ بمن أطاع مَن عَصىٰ ، وليرْدَعْ كلَّ مفْسِـد ولا سِيَّمـا العَبيدُ فإنَّ العبـدَ المفسِدَ لا يزْجُره إلا العصا ، ولْيتلَقَّ الحُجَّاجَ بالرُّحْب والسَّعَه ، فهم زُوَّارُه وقد دعاهم إلىٰ بيْتِـه وإنَّمـا دعاهم إلىٰ دَعَه ، وليتلَقَّ المَحْمِلَ الشريفَ والعصائبَ المنصوره ، وليخْدُمْ علىٰ العادة التى هى من الأدب مع الله تعـالىٰ مَعْنًى ومَعَنا صُـورَه ، وليأْخُذْ بخواطر التُّجَّار فإنَّهم سبَبُ الرِّفقِ لأهل هذا البلد وتَوْسِعَةِ ما لَدَيْهم ، والمُسْتَجَابُ فيهم دَعْوةُ خليـله إبراهيم ــ صلوات الله عليـه ــ إذ قال : ﴿ وٱجْعَلْ أفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إلَيْهِمْ ﴾ . ولا تُحَيَّفْ أمْوالَهم بغرامَةٍ يَقِلُّ بها الغُنْم ، ولا بظُلامَة فإنَّه بإزاء هذا

(١) يجث يستخرج ونجاره أصله .

البيْتِ الذى يُرَدُّ دُونَه من أراد فيه إلحادًا بظُلْم ؛ ولْينظُرْ كيف حُبِس دُونَه الفيل ، وليكُفَّ عادِيَةَ مَنْ جاوره من الأعْراب حتَّى لا يخاف ٱبْنُ سَبِيل ؛ ولْيُقِمْ شعائِرَ الشَّرع المطَهَّر ، وأوامِرَ أحْكامه التى قامت بأبويه : بحُكْم جدِّه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم وسَيْفِ أبِيه حَيْدر . ولْيأْمُرْ طوائِفَ الأشْراف وأشْياعَهم وسائرَ أهْلِ موالاتهم وأتباعهم بلزُوم ما كان عليه صالحُ السَّلَف وما عليه الإجْماع ، وتَجَنُّبِ ما كانت الزَّيْدِيَّةُ زادت فيه وكَفِّ الأطماع ، وليتّق اللهَ فإنّه مسئُولٌ لديْه عما ٱسترعاه وقد أصْبح وهو له رَاعٍ ؛ وإيَّاه أن يتَّكلَ علىٰ شرف بَلَدِه ، فإن الأرْض لا تُقَدِّسُ أحدا ، أو شَرِفِ مَحْتِدِه ، فإنَّ فى يوم القيامة لا ينفعُ وَلَدٌ والدًا ولا وَالدٌ ولَدًا .

الوظيفة الثانية

(قَضاءُ مكّة ، ويكْتَب به تَوْقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ» بالياء)

وهذه نسخةُ تَوْقيع بقضاء مَكّة المشرّفة :

الحمدُ لله الذى أنفذ الأحكام ، بالبَلَد الحَرَام ؛ وأيَّد كلمةَ الشَّرعِ فى بَلَدِه ومنْشَئِه بين الرُّكْن والمَقَام ، وجعلَ الإنصافَ الجَزِيل ، حَوْل حِجْرِ إسْماعِيل ؛ مُتَّسِق النِّظام .

نحمدُه حمدًا حَسَنَ الدَّوام ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ قائمٍ بحقِّها أحْسنَ القيام ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه السّامِى من ولد سَام ، والذى قام لله حتَّى ورِمَت منه الأقْدام ؛ وأُسرِىَ به من مَكّةَ إلى السماء مرَّتَينِ : فى اليَقَظة والمَنَام ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أئمَّة الصَّلاة والصِّيام ؛ وسلَّمَ تسليمًا .

وبعـد، فإنَّ وظيفةَ القضاءِ بمكّة المعظمةِ هى أجَلُّ مَنْصِبٍ بتلك الأباطح، ونُورُها فى الجَبينِ لائح؛ فإنَّ الشَّرع نَشَأ منهـا والوَحْىَ أُنزل فيها فَزُهِيت البطائحُ، وظهرت النَّصائح، وأطْربت الصَّوادِح، وأسكتت النَّوائح، وغمرت المَنائح، وانتشرت المَصالح، فمن وَلِىَ الحكْمَ بها وعدَلَ فذلك هو العَدْلُ الصالح، وكيف لا؟ وماءُ زَمْزَم شَرابُه، وأستارُ البَيْت تَمَسُّها أثوابُه، وعلى اللهِ أجْرُه وثوابُه؛ وفى ذلك الجناب الشريف كَرُم جَنابُه، وإذا دَعا اللهَ عند المُلْتَزَمِ جاءَه من القبول جَوابُه.

ولمَّا كان فلانٌ هو فرعُ الدَّوْحَةِ المثمِرَه، ومحَصِّـل من العلوم الشَّرعيةِ المَادَّةَ المُوَفَّرَه، وله البُحوثُ التى [هى] عن أحْسن الفوائد وغُرَرِ الفرائد مُسْفِرَه؛ ورَضِىٌّ أهْلِ الحَرَم، لِمَا جُبِلَ عليه من خَيْرٍ وكَرَم، [تمسك] بالعروة الوثقىٰ والقوىٰ الأتقىٰ فلا جَرَم.

فلذلك رسم ... ... - لا زال ... ...

فليكن فى أُمِّ القُرىٰ، كالوالِدِ المُشْفِق علىٰ الوَرىٰ؛ وليَتَمَسَّكْ من التَّقْوىٰ بأوْثق العُرا، وليخْشَ رَبَّ هـذا البيْتِ إنَّه سميعٌ يسـمَعُ ويَرىٰ، ووَفْد اللهِ قطعُوا إليـه المَراحِلَ فى السُّرىٰ، ليصافِحُوا كَفَّه المضَمَّخَ عنبَرا؛ وليقْضِ بين الخصوم بالحقِّ فمِثْلُه من دَرَأَ الباطِل: قد جعله اللهُ جارَ بَيْتٍ عَالِى الذُّرا، وفى أرضٍ شرَّف الله جبالهـا وقدّس غِيرانها فمنها غَارُ ثَوْرٍ وغَارُ حِرَا، لأنَّ النبىَّ صلَّى الله عليه وسلم كان يتَعبَّدُ فى غَارِ حِرا، وأوىٰ إلىٰ غَارِ ثَوْرٍ لمـا هَاجَرَ مُؤَيَّدا مظَفَّرا؛ والوصايا كثـيرةٌ ومِلاكُها تقوى الله فلْيتمسَّكْ بها من أمامٍ ووَرا، والله تعالىٰ يجعلُ نهاره منوّرا، ولَيلَه مقْمرا؛ بمنّه وكرمه!.

القاعدة الثانيــــة

(المدينةُ النبويةُ، وبها ثلاث وظائف)

الوظيفـــة الأولىٰ

(الإمارةُ)

والأمرُ فيها علىٰ مامرّ فى إمارة مكّة المشرّفة .

وقد تقـدّم أن إمارَتها فى بَنِى الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهـما ، ويكتَبُ لهـا تقليدٌ فى قَطْع النِّصف بـ«ـالمجلس العـالى» أيضا بألقاب مخصوصة ، وقد تقدّم ذكر ألْقابه .

وهـذه نسخةُ تَقْليـد شريف بإمارة المدينة النبوية، كُتب به للأمير بدر الدين «وُدَىّ بن جماز»(١) من إنشاء المقرّ الشهابىّ بن فَضْل الله ، سقى اللهُ عَهْده :

الحمدُ للهِ الذى صرَّف أمْرنا فى أشْرف البِقاع ، وشرَّف قَدْرَنا بمُلْكِ ما آنعقد علىٰ فَضْلِه الإجماع ، وعرَّف أهلَ طَيْبَةَ الطيِّبةِ كيف طلع البدْرُ عليهم من ثَنِيَّات الوَداع ، وأمدّها بوُدَىّ صُغْر للتَّحَبُّب وإلّا فهو وَاد متدفِّقُ الأجْرَاع .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى أغْنتْ مَهَابطَ الوَحْيِ عن آرتقاب البَرَد اللَّمّاع ، وآرتقاء النظر مع بدره المنير إلىٰ كلِّ شمس سافرة القِنَاع ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُخْمِد من الضلال ما شاع ، ومن البِدَع ما آستطار له فى كلِّ أُفُقٍ شُعاع ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبــدُه ورسولُه أشْرفُ من أنِفَت به حَمِيَّة الآمتناع ، وألِفَت

(١) سبق ضبطه مرارا فى ج ٤ بالتكبير تبعا لضبط النسخة والظاهر ماهنا .

بنا سُنَّته أن ترعىٰ لأهْلها ولا تُراع ، وعصَفت ريحُها بمن يمالى دينه فمال إلىٰ الآبتداع ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ليس فى فَضْل أحدٍ منهم نزاع ، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإن الآهتمام بكلّ جهةٍ علىٰ قَدْر شَرَفِها ، وعلىٰ حَسَب الدُّرَّةِ الثمينة كرامَةُ صَدَفِها ، والكِمَامةُ بثَمَرِها ، والغَمَامة بمطَرِها ، والهالَةَ بما يجلو الدُّجىٰ من قَمرِها ، والمدينة الشريفة النبويَّة لولا ساكِنُها ما عاجَتْ إليها الركائب ، ولا ناجَتْ حدائقَها غُرُّ السَّحائِب ، ولا وقفت بتأرُّج شَذَا الرَّوضة الغَنَّاء بها الجَنائِب ، ولا بكى متيَّمٌ دِمَنَ العقيق بمثله من دم ذائب ، ولا هاج إليها البرقُ متألِّقا ، ولا هام صَبٌّ فيها بظَبياتِ سَلعٍ والنَّقا ، ولكنَّها مَثْوَى النُّبوّة تُرابُها ، ومَهْوَى الرُّسل جَنابُها ، ومأْوَىٰ كتاب الله الفَسِيحُ رِحابُها ، دارُ الهِجْرة التى تعالتْ شمسُ الشريعة بأُفُقِها ، وتوالَتْ سُحُب الهُدىٰ من بين أُبَيرِقِها ، وهى ثانيةُ مكَّة المعظمة فى فَضْلها إلَّا ماذهب إليه فى تَفضِيلها علىٰ مَكَّة مالكُ بن أنَس ، ومنها آنبعَثَتْ للهُدىٰ نُوَارة كلِّ نُور وشُعاعُ كلِّ قَبَس ، وكانتْ لنبىّ هذه الأمَّة صلَّى الله عليه وسلم أبْقَىٰ دارَيْه ، وأعلىٰ سماءٍ حوتْ ثلاثةَ أقْمارٍ منه ومن جارَيْه .

ولما كان بها لبعْضِ الوُلاة من الشِّيعة مُقَام ، ولهم فيها تحامُلٌ لا يجوز معه من الآنتقاد إلَّا الآنتقالُ أو الآنْتِقام ، حتَّى إنَّه فيما مضىٰ لمَّا كَثُر منهم علىٰ بُغْض الصاحِبَيْن ــ رضى الله عنهما ــ الإصْرار ، وآشْرأَبُّوا فى التَّظاهُر بسَبِّهما إلىٰ هَتْك الأسْتار ، دَبَّ من النار فى هذا الحَرَم الشريف ما تَعَلَّق بكلِّ جِدار ، وأبَتْ لها حَمِيَّة الغَضب إلَّا أنْ يطَهِّر ما سَنَّتْه أيدى الرَّوافِض بالنَّار ، فلما آتَّصل بنا الآن أنَّ منهم بقَايَا وَجَدُوا آباءَهم علىٰ أُمَّه ، وآقتدَوْا بهم فى مَذْهب الإماميَّة بما لاأراده اللهُ تعالىٰ

ولا رسولُه صلّى الله عليه وسلم ولا أولئك الأئمّه ؛ وحضَر المجلسُ العالى الأميرىُّ، الأصيلىُّ، الكَبيرىُّ العادلِىُّ، المجاهدىُّ، المؤيَّدىُّ، الزَّعيمىُّ، المقَدَّمىُّ، الذُّخْرىُّ، الكافِلىُّ، الشَّريفىُّ، الحَسيبىُّ، النَّسيبىُّ، الأوحدىُّ، البَدْرىُّ : عزُّ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأُمراءِ فى العالمين ، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ؛ جمالُ العِتْرة الطاهره، جلالُ الأُسْرة الزّاهره ؛ طِرازُ العِصابة العَلَويّه، كَوْكَبُ الذُّرِّيَّة الدُّرِّيّه، خُلاصةُ البقية النَّبوِيّه ؛ ظهيرُ الملوك والسلاطين ، نَسيبُ أمير المؤمنين ؛ وُدَىّ بن جَمّاز الحسينى ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمته ـ بين أيدينا الشريفة بمحضر قُضاة القُضاة الأربعة الحُكّام، وتَذَمَّم بأنَّ مع طُلوع بَدْره المنيرِ لا تَبْقىٰ ظُلامةٌ ولا ظُلّام؛ وتكفَّل لأهلِ السُّنة بما أشْهدْنا اللهَ به عليه ومَنْ حضر، وتلقَّىٰ بإظهار فَضْل الترتيب كما هم عليه : النبيُّ صلّى الله عليه وسلم ثم أبو بكْرٍ ثم عُمَر؛ فما آختصَّهما الله بجِوارِه إلا لِيُثبِتَ لهما علىٰ غيرهما إفْضالا، ولِيجْعلَ قبورَهُما فى معرفة أقربهم منه درجةً مثالا؛ لما تواترتْ به الأحاديثُ الشريفةُ فى فضائلهما ممّا هو شِفاءُ الصُّدور، ووفاءً بعهْده إذ يقولُ : « عليكُم بسُنَّتى وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الراشدين من بعْدى عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ وإيّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمور » ؛ فلَم يسَعْنا إلا أن نجعلَ له منّا تقليدًا يمحُو بجِدِّه ما حدث من أحداثِ البِدَع ، ويجدِّدُ من عَهْد جَدِّه نبينا صلّى الله عليه وسلم فى مَعْرِفة حَقِّ أصحابه رضى الله عنهم ماشَرَع ؛ وُثُوقًا بأنّه من بَيْتٍ كان أوّلُ هذا الدِّين الحنيف من دَلِّه (١) ، ومبدأُ هذا الحقِّ الظاهر ماأثَّلته ومثَّلته فى سلفه الشريف بأقارب متصِله ؛ وأنّه هو المورَّثُ من الفَخار ما وَرِثَه عن آبائه الكرام، المحدِّثُ عن كرم الجدود بما لا يُحْقَرله جِوارٌ أو يُخْفَرُ ذمام ؛ المشرِقُ من الأُسرة العَلَوِيّة بدْرًا تماما، المحدِقُ به من الكواكب العُلْوِيّة ما يظن به(؟) أبا تسمّى وابْنا

(١) فى الدّلّ الهَدْىُ .

تساميٰ ؛ المنتخَبُ من آباء صِدْق أحْسن فى ديارهم الصنيع ، وحَفظ من حَسَبِهم الكريم ما أوْشك أنْ يَضيع ؛ واستضاء بلامِعَةٍ من هُدَىٰ سَلَفه السابق ، وهامِعَةٍ من نَدَىٰ ما يرْوِيه السَّحابُ عن الجُودِ والبَرْقُ عن المَهارق ؛ تَهتَزُّ بمقْدَمِه المدينةُ سرورا ، وتفْتَرُّ رُباها منه بنَسَب كأنَّ علىٰ نَسَبِه من شَمسِ الضُّحىٰ نُورا ؛ ويتباشَرُ ما بين لابَتَيْها بمن يحْمِي حِماها، ويُحَيِّ مُحيَّاها ؛ وتتشوّف منه رُبا كلِّ ثَنِيَّة إلىٰ ٱبن جَلاها ، وطَلاَّعِ ثَنايَاها ؛ مع ما لا يُجحَدُ من أنَّ له فيها من أبيه حقّ الوِراثَه، وأنّه لما كان هذا ثانِيَ المسجِدَيْن ٱحتاج إلىٰ ثانِي ٱثْنَين تعظيماً للواحد وفِرارًا من الثَّلاثَه ؛ ليكونَ هو ومَن فيها الآن بمنزلة يدَيْن كلتاهُما تقْبَل الأُخْرىٰ، وأُذُنَيْنِ كلتاهما تُوعِى دُرّا ؛ وعَيْنَين مامنهما إلا مايُدرِك أمْرًا بعيدا ، وفَرْقَدَيْن لايصلُح أن يكون أحدُهما فَرِيدا ؛ وقَمرَيْنِ لا يغْلَبُ أحدُهما على الآخر فى التَّسمية بالقَمَريْن، وعُمَريْن وكفَىٰ شرفًا أن لا يُوجَد فى الفَضْل ثالثٌ للعُمَريْن .

فرُسم بالأمر الشريف العالى، المولوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفُلانىّ ـ زاد الله به المواطنَ شرفا ، وزاد به البواطن الشريفةَ حبا وشَغَفا ـ أن يفوّضَ إليه نِصْف الإمْرة بالمدينة الشريفة علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام، شريكًا للأمير سَيْف الدين ابن أخيه ، ورَسيلًا معه فيما يَليه ، ولكلٍّ منهما حقٌّ لا يكاد الآخرُ يُخْفيه ، هذا له برُّ الوَلَدِ وهذا له حرمةُ الوالِد لأنَّ ابن الأخ ولدٌ وعمُّ الرَّجل صِنْوُ أبِيه؛ فتُقْسَم الإمرة بينهما نِصفَيْن ، وتوسَم جِباهُ الكُتب الصادرةِ عنهما لهما بٱسْمَيْن .

والوصايا تمدّ من عنانها ، وتعدّ من أعْيانها ؛ فأوّلها تَقْوَى الله فإنّها من شعائر القلوب ، وبشائر الغُيوب ، وأمائر نجاحِ كلِّ مَطْلوب ؛ والاعتصامُ بالشَّريعة الشريفةِ : فإنّها الحبلُ الممدود ، والجَبَل الذى كَمْ دُونَه من عَقَبة كَئُود ؛ والانتهاءُ إلىٰ مانص عليه

الكتابُ والسنةُ والإجماع ، وقصُّ جَناحِ مَن مالَ به الهوىٰ إلىٰ مجاذَبَة الأَطْماع ؛ وتَلَقِّ وفْدِ الله الزائر بمـا أَلِفه نزيلُ هـذا الحِمىٰ من كرامة المُلْتقىٰ ، وتوقِّي المَذَمَّة فإنَّها دَنَسٌ لا يَحْمَـدُ مثْلَه نَقاءُ هذا النقا ؛ ونعنِي بالمَذَمَّةِ ما نُسب إلى الرَّوافِض من البِـدَع التى لا تُطَهِّرها غُرُّ السحاب ، ولا يستبيح معها لدخول المَسْجِد الطَّاهِر من قَنِـع بمقامه حَوْله التيممَ بالتراب ؛ ولا يَدَعُ أحدًا من هٰـذه الفِرْقَة الضَّالَّة يعـلى ولا يعيِّره بمـا يكون به مُثْلَه ، ولا يشبِّه قلْبَه فى محبَّةِ أهلِ البَيْت ـ سلام الله عليهـم ـ بإناءٍ ٱمْتلأَ ماءً ولم تبق فيه فَضْلَه .

ولا يظنُّ جاهلٌ منهـم أنَّ عليًّا ـ كَرَّم الله وجْهَه ـ كان علىٰ أحد من الصاحِبَيْن معاتبا أو عاتِب ، أو أنَّه تأوَّل فى خِلافتهما معْتَقِدًا أنَّ أحدًا منهم غَاصِب ؛ فمـا تأخَّر عن البَيْعةِ الأُولىٰ قليلًا إلَّا لاشتغاله بمـا دَهَمه بمَوْتِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم من المَصائِب ، وإلَّا فقد ٱتخذ أُمَّ وَلَدٍ من سَبْيِ أبى بكْرٍ رضى الله عنـه لا كما يدَّعيه كلُّ كاذِب ، وقد تزوَّج عمرُ بن الخطَّابِ رضى الله عنه ٱبنتَه أُمَّ كُلْثُوم وأقام بأمْره الحدُودَ وناب عنه وهو غائب ؛ فيكُفُّ منعادِيَة هؤلاء الروافِض الأشْرارِ ما سيَصْلَوْنَ فى المُوافقة بنَارِه ، وسَيصلُون إلىٰ الموافقة علىٰ ما طار من شَرارِه ؛ ولا يَدَعْ للإماميَّة إمامًا يقْتدى به منهم قومٌ شِرار، ولا قاضيًا يقْضِى بينهم : فإنَّه إنَّمـا يقطعُ لمن قضَىٰ له أو عليه قِطْعةً من نار ؛ ولا عالِمًـا يرفَعُ له عَلَم ، ولا يُفْتح لهم بفَتْوىٰ علىٰ مذاهبهم فم ، حتَّى ولا ما يتحرّكُ به فى فَمِ الدواة القَلَم .

ولْيَطَهِّرْ هذا المسجِدَ الشريفَ من دَنَسِهم ، وليُمِطْ مايحمِلُه أدِيمُ مجلَّداتِ التَّصانيف من نَجَسِهم ؛ وسُكَّانُ هذا الحرم الشريف ومن أقام عندهم من المجاورين ، أو خالطَهُم من زُمَرِ المقيمين والسائرين ؛ يُحسِنُ لأُمورِهم الكَفالَه ، ولا يتعرضُ لأحدٍ منهـم بمـا يؤْذِى نفْسَـه ولا ينَاله ؛ فهم فى جوار نبينا صلَّى الله عليـه وسلم وفى شفاعَتِه ،

وكلٌّ منهم نَزِيلُ حَرَمِه ومكَثِّر سَوادِ جماعَتِه ؛ وحَقُّهم واجب علىٰ كل مُسْلِم فكيف علىٰ حَامِي ذلك الحِمَىٰ ، بل من له إلىٰ نسبه الشَّريف مُنْتَمىٰ .

واْصْحَبْ رفيقَك بالمعروف فإنَّكما مفترقان والسعيد من لا يُذَمُّ بعد فِراقه ، ومُسْتَبِقَان إلىٰ كلِّ مَوْرِدٍ لا يُدْرَىٰ أيُّكما المُجِدّ فى سِبَاقِه ؛ ومتَّفِقَان علىٰ فَرد أمرٍ وأفضَلُكما من داوم صاحبَهُ علىٰ إرفاقه ، وصَحْبُه علىٰ وِفَاقِه .

وأمَّا ما للمدينة الشريفة من تَهائِمَ ونُجودٍ مُضافةٍ إليها ، ومُسْتظِلَّة بجُدُرِها أو متقدِّمة فى الصَّحراء عليها ، فهى ومَن فيها : إما أنْ تُوجدَ بقلوبهم فهم أعْوان ، وإما أن تَنفرَ فهم أشبَهُ شَيءٍ بالإبل إذا نَفَرتْ تعلَّق بذَنَب كلِّ بَعيرٍ شيطان ؛ فأقربُهما إلى المصلحة تقريبهم ، وتَأْلِيفُهم بما يُقْرِبُ به بعيدُهم ويَزْدادُ قُرْبىٰ قَرِيبهم ؛ والرُّكبان التى تتَّقد بهم جَمَراتُ الأَصْباح(١) والعَشايا ، ويعْتَقِدُ كلُّ منهم فى مَعاجِه إلى المدينة الشريفة أنَّ تمامَ الحَجِّ أن تَقِفَ عليها المَطايا ؛ فهم هُجُودُ سُرىً ، ووُفودُ قِرىً ، ورُكُودٌ فى أُفُق الرِّحال خَلَعتْ مُقَلُهم على النجوم الكَرىٰ ؛ ومعهم المَحامِلُ الشريفة التى هى مُلْتَفُّ شِعارِهم ، ومحتَفُّ رِكابِهم ؛ وهى من أسِرَّتِنا المرفوعه ، ومَبَرَّتِنا المَشْروعه ؛ فعَظِّمْ شعائرَ حُرُماتِها ، وقَبِّلْ أمام منابرها الممثلة مَراكِزَ راياتها ؛ وأَكْرِمْ من جاء فى خِفارَتِها ، ومن جال فى دُجى اللَّيل لا يَسْتضِيءُ إلّا بما يبدو من إشارَتِها ، وقد أشهدْنا عليك مَن هو لك يَوم القيامة خَصِيم ، وأنت وشأنَك فيما أنْت به عَليم .

وباقى الوصايا أنْت لها مُتَفطِّن ، وعليها مُتوطِّن ، وما ينتفع الشريفُ بحَسَبِه ، إنْ لم يكُنْ عملُه بحَسَبه ؛ ولا يرتفِعُ بنَسَبِه ، إن لم يتجنَّب مكان نَشَبه ، واللهُ تعالىٰ يُمتِّعُ بدوام شرفه ، ولا يضيِّع له أجْرَ حَالِّ عمله الصالح وسَلَفِه ؛ والاعتماد ... .

---

(١) فى الأصل «الأجناح» .

وهـذه نسخةُ تقليد شريف بإمْرة المدينة النبوية ، علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسـلام :

الحمدُ للهِ الفَرْدِ بلا شريك، الواحدِ لا من أعْداد تقْتَضِى التَّشْرِيك ، المليكِ الذى يتناهَىٰ إليه تقليدُ كلِّ مَلِيك .

نحمَـدُه حمدًا يكمِّلُ مواهِبَ التَّمليك ، ويُحْمِد عواقِبَ التَّسليك ، ونشهدُ أن لاإلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تصدَعُ التَّشْكيك ، وتصدُّ كلَّ أفِيك ، وتسُدُّ خَلَلَ التَّـدريك ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسـولُه خيرُ من حُمِى به عريك ، وحمى عليه تريك ، وحمل حتَّى تأتَّىٰ له التحريرُ فى التَّحْريك ، وتأنَّىٰ وما فاته على أعدائه النَّصْر الوَشِـيك ؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه صـلاة تخْلُص كالذَّهب السَّبِيك ، وترفَعُ ما شُيِّدَ وتمنَعُ ماشيك ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمَّا بعـدُ ، فلمَّـا كانت المدينة الشريفة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصـلاة والسلام ـ حَرمًا لا يُسْتباح ، وحمًى ليس إلّا لمن آنْتهكه دَمٌ مُباح ، وجَنابًا ما علىٰ من حَلَّه جُناح ، ومَهْبِط وَحْيٍ لا يُمسَّحُ بأرْكانِه لغيرِ الملائكة جَنَاح ؛ ولا يُمسَّكُ بعِصْمَة من أغْضىٰ فيه على قَذىٰ ، وسكت لساكِنيه على أذىٰ .

ولمَّـا آتصل بنا عن الرَّوافِض مالا صَبْرَ لمسْلِم يرجُو اللهَ واليومَ الآخرعليه ، ولا وَجْهَ لمن قَنِـع فيها بإخراج يديه ؛ ولا عُذْرَ لمن لَقِيَ اللهَ مُغْضَبا لما يُنْهَى إليه ، لامغضبًا لمـا ينال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من التعرّض إلىٰ صاحبيه ، ممـا تقاضىٰ منَّا ما يمحو ظَلَامه الممتدّ ، وظُلْمه المشْتَد ، وبِدَعَهم فسواءٌ من آبتَدَعَها ومن آرْتَد ـ فمكَّنَّا بتقليدنا الشريف من أعْطى اللهَ وأعْطانا على قَوْله مَوْثِقا ، وجرَّد عزائِمَ لا تَرُدُّها من

خدعهم الرُّقَىٰ ؛ وأشهدَ اللهَ عليه ومَن حضر انَّه لايَدَعُ هذه الفرقةَ الضالَّة حتى يَدُعَّ يَتِيمَها ، ويُعِدّ لَمقَاتِل السُّيوف حَطِيمَها : ممـا تضمنه نَصُّ ماضِي ذلك التَّقْليـد ، وما ضم ذِكْرىٰ لمن كان له قَلْبٌ أو أَلْقَ السَّمعَ وهو شَهِيد ؛ ونَبَّهنا علىٰ أنَّه بدْرٌ لم يبقَ مع طلوعه ظُلْمَةٌ ولا ظَلامَــه ، ولا إضاعةٌ ولا إضامه(١) ، ولا ما تتجنَّبُ به الرَّكائبُ تمام الحَجِّ فى مواقِفِها ، ولا تُنْكِر ما جهِلتْ فى قِبَاب قُبَاءٍ من معارفها ؛ وتَرِدُ أعطانَها ولا يَسُوقها إلىٰ الأبرقِ بارقٌ على أطْلالِه ، ولا يُعجِبها إن خيل لهـا فى النخيل مَقيل فى ظِلاله .

وكان المجلس العـالى ــ أدام الله تعالىٰ نِعْمتــه هو المتكَفِّلَ بتطْهِير ذلك الحَرَم الشريف من ألَم كلِّ قولٍ يُفْترَىٰ ، ولَم كلِّ باطِلٍ يُلِمُّ يقَظةً أو طيْفَ كَرىٰ ؛ وإزالةِ كلِّ شُحٍّ فيها على من أمَّل قِرَىٰ أُمِّ القُرىٰ ؛ وإماتَةِ كلِّ بِدْعة تُسْكَبُ على مِثْلها العبَرات ، وإماطَةِ كلِّ أذًى من طريق منًى والجَمرات ، ومَنْع شَقاشِقِ شيعَةٍ تَغْلِي مَراجِلُها من الزَّفرات ، وقَطْع كلِّ نَجْوىٰ يُنـادُون بها من وراء الحُجُرات ، وقَلْع طائفــةٍ لولا إقامةُ حُدود الله لكفاهم ما يُقَطِّع أكْبادَهم من الحَسَرات ؛ وكان بها من أولاد أخيه ، بل بعضُه منه وبعضُه من بنى أبيه ، من ٱنْتهىٰ عمَّا تَحلَّىٰ به شِيَمُ الشريف الشريفه ، وٱنتهىٰ إلى ما لا يَعْنِيــه ولا يُغْنِيه فى تَأخير خَلِيفة وتقــديم خليفه ، وأهْمل حقوقاً عواقبُها مع الله تعالى ورسولِه صلَّى الله عليــه وسلم مُخِيفَه ، وأوْهم عقوقا لأصْحابه بل له لقوله : «دَعُوا لِى أصْحابى فلو أنْفق أحَدُكم مِثْلَ أُحُد ذَهبًا ماأدرك مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه» . وبقى يتَّصِل بنا فى هــذا المعنىٰ مالا يُقالُ ممَّـا يقالُ عنهم ، ويَصِل أذاهم إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فى صاحِبَيْه وقد قال : «إن أهل الدرجات

(١) مراده اضاعة الحق كله أو نقص شيء منه الا أنا لم نجد فيا بأيدينا من كتب اللغة من هــذه المـادة فعلا رباعيا ليكون هذا مصدرا له ولعله استعمل اللغة العامية ترويجا للسجع .

العُلَى لَيَرَاهم مَنْ تحتهُم كما يَرَوْنَ النَّجْمَ الطالع فى أفق السماء، وإنَّ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ منهم» يطلبون فى التقـديم على من قَدَّمه الله رَدّ فائتِ ما جرىٰ به القَدَر(١)، ويضْرِبون صَفْحًا عمـا لا أراده الله ولا رسولُه صلَّى الله عليه وسلم فى قوله : « لا أَدْرِى ما قد بَقِيَ لى فيكم فاقتدُوا باللَّذيْن من بَعـدى : أَبِى بَكْرٍ وعُمَر» . مع ما أضـيف إلى هذا من قَوادِح نواب، وفواتح أبواب؛ وحَوادِثَ تُزعِجُ مقرَّ النبوّة أنباؤُها، وتمتدُّ على مشارق الأنْواء ظَلْمـاؤُها ؛ وتُغَـيِّر عوائد الوفـود فى كرامة زَائِرِهم ، وإدامَةِ بشاشَـةِ الملْتَقىٰ لسائرهم ؛ وأَمْن سِرْبِهم أن يُراع ، وشِرْبِهم أن يتمثَّـلَ به لغيْر برق شُعاع ، وضَمِّهم إلىٰ ذلك الحمىٰ الذى لا يُضامُ نَزِيلُه ، ولا يُرام فى طَرِيق المجرَّة سَبِيلُه ؛ ولا يضِـلُّ سارٍ إليـه ووُجوهُ سكَّانِ الحمىٰ دَليـلُه ، ولا يضيع وقَدْ تلقَّاه من النَّسيم بِلَيْله بَلِيلُه ، ولا يقِفُ وقْفَة المُرِيبِ وضَوْءُ الصباح من أَيْمَن النَّقَا قِنْديلُه ، ولا يَخْشىٰ وشَعْبُ ذلك الحيِّ شَـعْبُه وقَبِيلُه قبيله ؛ وإراحة رِكَابِهـم التى أزْعجها حَادى السرىٰ ، وإمْتاعهم بقرب الجِوار عِوضًا من دُموعِهم عمَّا جَرىٰ .

فلمَّـا لم يَبْقَ لمن أشَرْنا إليه ــ مِمَّنْ أعطانا عَهْدَ مَوْثِقِه ، وسارَ لا يُريد إلا نَقَاءَ نَقَاه وبراءة أَبْرقِه ــ إلَّا أن يَحُطَّ بالمدينة الشريفة رِكابَه ، ويُبْعِدَ الشَّكْوىٰ ممـا لاعَهِدَ من معاهدها ٱقترابَه ــ أَصَرَّ مَن فيها من ذَوِى قَرابَتِهِ علىٰ مَنْعه أن يدْخُلَها إلَّا بقتال يَحُل مَقاعدَ الحَرَم ، ويَحُلُّ معاقد(٢) الحُرَم ؛ ويُشْعِلُ نارًا يصْلىٰ بها من لم تمتدَّ له يدٌ إليها إلى وقود ، ويَروعُ من الآلِف فيها من يمتـدّ له فى غير مراتع غزْلان النَّقا سِجاف قيام معقود ، وقدِم إلىٰ أبْوابنا العاليـة مَنْ كان فيها مقيما ، وأنْعمنا عليـه بإبقاء النِّصْف

(١) مراده أنهـم يطلبون فى تقديم علىّ رد فائت ما أراده الله من تأخيره عنهما و يتركون أيضا ما ورد فى الحديث من الأمر بالاقتداء بعده بأبى بكر وعمر . الا أن العبارة سطت عليها يد النساخ فزادت فيها ما غير مبناها وشوش معناها . تأمل .

(٢) فى الأصل مقاعد وهو تصحيف .

ففاته الكُلُّ لمَّا لم يقْنَعْ أنْ يكون قسيما ؛ فأبَتْ حميَّتنا لله ولرسوله صلَّى الله عليه وسلم ولتلك المواطن المعظمة إلّا أن نُطَهِّرها ممّا أسبَلت علىٰ سريره أذيالَها ، وما أطاقت (١) علىٰ مضَضِه الأليم آحتمالَها .

فرُسم بالأمر الشريف ـ لازال قَدْرُه عاليا ، وبِرُّه لايخل بوُدَى ولا يخلى مُواليا ـ أن تفوَّض إليه إمْرَةُ المدينة الشريفة النبوِيَّة على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام : مستَقِلًّا بأعْبائها ، مستَهِلًّا سَحابُه علىٰ أرجائها ؛ إمْرةً تَسْتَوْعِبُ جميعَها ، وتَسْتوعى لمراسمه رُباها ورُبوعَها وعَاصِيَها ومُطِيعَها ، وتَهائمها ونُجودَها ، وقَرِيبَها وبَعيدَها ؛ وكلَّ مايدخلُ لها فى حَدّ ، وينتَظِمُ لها فى عَدّ ، وأهْلَ حاضرَتِها وباديَتِها ، وما تقف عليه من السحب(؟) ركائب رواعيها وغاديَتِها ؛ ومن تتبسَّم بهم ثناياها ، وتتنَسَّم لهم أرواح بُكَرِها وعشاياها ؛ ومن يضُمُّهم جَناحُها المفضَّل ، ويلُمُّهم وِشاحُها المفَصَّل ؛ ويجمعهم جَيْشُها السائر ، ويلُفُّهم فى شَمْلة الدُّجىٰ قَمرُها الزّاهر ـ تفويضًا يدخل فيه كلُّ شريف ومَشْروف ، ومجهول ومَعْروف ، ومستوطن من أهْلها ، وغَرِيبٍ آنتهت [به] إليها مطارح سُبُلها ؛ مافيه تأويلٌ ، ولا تَعْليلٌ ، ولا آستثناءٌ ، ولا آنْثناء ، ولا تخرج منه الأرْض المغبَرَّةُ ولا الرَّوْضَة الغَنَّاء ؛ لاشُبْهَةَ فيه لداحِض ، ولا حُجَّةَ لمعارِض ؛ يستقلُّ بها جَميعِها بَدْرُه التمام ، وبِرُّه الغَمام ، وبَحْرُه الذى يأبىٰ فَرِيدُه أن يُؤَاخىٰ فى نِظام ؛ وأمْره الذى يتلَقَّىٰ به عن الثقة من سادات بيته مَقاليدَ الأحْكام ، وتَقاليدَ مايجرى به القَلَمُ ويَمْضى السيفُ الحُسام ؛ إفرادًا له فى التحكيم ، وأنَفَةً لمثْله من ضرر التَّقْسيم ، وفِرارًا من الشَّرِكَة المشتقة من الشِّرْك : ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ . ولاية تامه ، عامه ، كامِلَه ، شامِلَه ؛ لايبقىٰ من أهْل نَجْدٍ من لايدخل فى حُكْمها ، ويَنْضافُ

(١) فى الأصل « وأطفأت » .

إلى قِسْمِها؛ تَقابَلُ السَّوابِقُ فى غاياتها، وتُقاتِلُ الجَحافِلُ تحت رَاياتِها؛ ويعدُّ مع أهْل بَدْر فيها، ويُعِدّ من حقوقها ما يُوَفِّيها .

وقد سبق من الوصايا ما فيه غِنَىً، إلّا ما لا تخل العوائد به مما يُذْكر هنا؛ وقد حَوَيْتَ بحمد الله فى جميع طباعك، وجميل آنْطباعِكَ؛ من حقِّ آعتزامك، وصدق آلتزامك؛ ما هو كالسَّنا للشَّمْس، والمُنَىٰ للنَّفس؛ مما تحسدُ علىٰ شَرَفه النُّجوم، وتنافسُ العَلْياء ما تعلق به الغُيُوم .

فكَمِّل بتَقْوَى اللهِ شَرفَك، وآتَّبِعْ فى الشريعة الشَّريفةِ سَلَفَك؛ وكتابُ الله المنَزَّل، أنْتم أهل بَيْت فيكم تَنَزَّل، وسنةُ جدِّكم سيدِنا رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم لاتُهمَلْ، وهى مجدكم المؤثل؛ ومعرفة حقِّ من مضَىٰ عنكم، وإلا فعمَّن تُنقل، ومنكم، وإلا فممَّن تُؤَمَّل؛ وإزالةُ البِدَعِ وإلَّا فلأىِّ شَيْءٍ سيوفكم تُصْقَل، و[لماذا](١) رماحُكم تُعدَّل؛ والرافضةُ وغلاةُ الشِّيعة هم دنَس من انتمى إلىٰ هذا البَيْتِ الشريف بولائه، وسبَبُ وقُوف من يقصد الدُّخول تحت لِوائه؛ فهم وإن حُسبوا من امداده، لَيْسُوا ـ وحاشىٰ نورُه الساطع ـ إلّا من المكثِّرين لسواده؛ أرادُوا حفْظ المودّة فى القُربىٰ فأخلُّوا، وقصدُوا تكثيرَ عدَدِهم فقلُّوا؛ وأنِفَ من هو برىءٌ من سُوءِ مذْهَبهم، أن يتظاهَرَ بالوَلاء فيُعَدَّ من أهْل البِدَعِ بسَبَبهم؛ مع أنَّهم طمعُوا فى رِضا الله فأخطَأتْهم المَطامِع، وصحيحٌ أنَّهم زادُوهم عددًا إلّا أنَّها كزيادة الشَّغياء(٢) أو كزيادة الأصابع .

فصَمِّمْ عَزْمَك على ماعاهدْتَ اللهَ عليه من رَفْع أيْدى قُضَاتهم، ومَنْعِهم هُم ومَن آتَّبع خُطُواتِ الشَّيطانِ فى سبيل مَرْضاتهم؛ وحذِّرْهم ممَّا لا يعودُ معه علىٰ أحد منهم سِتْرٌ يُسْبل، ولايبقىٰ بعده لغيرِ السَّيفِ حُكْمٌ يُقْبل؛ فمَن خاض للسَّلَف الصالح يَمَّ ذَمٍّ

(١) الزيادة من ''التعريف'' ص ١٠٧ .

(٢) فى القاموس : الشغياء السن المخالفة الخارجة عن نبتة الأسنان .

أُغرق فى تيّاره ، أو قَدَح فيهم زنادَ عِناد أُحرِق بنَارِه ؛ وألْزِمْ أهلَ المدينة الشريفة ــ على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ــ بكلمة السنة فإنّها أوّل ما رُفعت بتلك المواطِن المعظَّمة أعْلامُهــا ، وسمعت فى تلك الحُجْرة المكرَّمة أحْكامُها ؛ مع تَعْفِيَة آثارِ ما ينْشأُ علىٰ هذه البِــدْعة من الفتَن حتّى لا ينْعقِد لها نَقْعٌ مُثار ، وتَوْطِئَةِ أكْناف الحِمىٰ لِئَــلّا يبقىٰ به لمُبطل فى مَدَارج نُطْقه عثَار ؛ والوصية بسُكّان هذا الحَرَم الشريف ومَن ينزل به من نَزِيل ، ويُجـاوِرُ به مستقرًّا فى مِهادِ إقَامَة أو مُسْتوفِزًا علىٰ جَناح رَحِيــل ؛ ومَن يَهْوِى إليهم من ركائب ، ويَأْوِى إليهم من رُفْقَة مالتْ من نَشَواتِ الكرىٰ بهــم رَاقصاتُ النَّجائِب ؛ ومن يَصِــلُ من رُكْبَانِ الآفاق ، وإخْوانِ نَوًى يتَشاكَوْن إليهم مُرَّ الفرَاق ؛ ومن يتلاقىٰ بهــم من طوائِفَ كلُّهم فى بيوت هذا الحَىِّ عُشّاق ، وأُمَم شَتّىٰ جُمُوعُهم : من مِصْرٍ وشَام ويَمَن وعِراق ؛ وما يصل معهم فى مَسِيل وُفُودِنا ، وسبِيلِ جُودِنا ؛ ومَحامِلِنا الشريفة التى يُنْصَب لنا بهــا فى كلِّ أرْض سَرِير ، وأعْلامِنا التى ما سُمِّيتْ بالعِقْبانِ إلّا وهى إليها من الأشْواق تَطِير ؛ فمتى شَعَرْتَ بمَقْدَمِ رِكابِهم ، أو بَرَقَتْ لك عوارِضُ الأقْمار من سَماءِ قِبابِهم ؛ فبادِرْ إلىٰ تلَقِّيهم ، وقبِّلْ لنا الأرضَ فى آثارِ مَواطِيهم ، وقُمْ بمــا يجبُ فى طاعة الله وطاعةِ رســوله صلّى الله عليه وســلم وطاعَتِنا [وأخرج عنهم كلَّ يد ولا تُخْرِجْهم عن جمــاعتنا](١) .

وأهــل البادية هم حِزْبُك الجَيْش اللُّهام ، وحَرْبُك إذا كان وقُودَها جُثَثٌ وهَام ؛ وهم قوم لم يؤَدِّبْهم الحَضَر ، ولا يَبِيتُ أحدٌ منهــم لأنَفَتِه علىٰ حَذَر ؛ فاسْــتَجْلِبْ بمُدَاراتِك قلوبَهم الأشْتات ، وبادِرْ حبال إبِلهم النّافِرة قبل البَتات ؛ وتَرَقَّبْ مراسِمَنا المُطاعة إذا ذَرَّتْ لك مَشارِقُها ، وتأهَّبْ لجهــادِ أعداءِ الله متىٰ لمعَتْ لك من الحُروب بَوارِقُها ؛ وأحسِنْ كما أحْسنَ اللهُ إليك ، ولولا أنَّ السيْفَ لا يحتاج إلىٰ حِلْية

(١) الزيادة من الوصية الآتية بعد ومن التعريف (ص ١٠٨) .

لأطلْنا حمائل ما نُمليه عليك؛ فما شَهِد للشَّريف بِصحَّة نَسَبه ، أزكىٰ من عمله بَحَسبِه ؛ واللهُ تعالى يقوّى أسْبابَك المَتِينَه ، ويُمْتِعُ العيونَ بلوامِعك المُبِينَه ، ويُمسك بك ما طال به إرْجافُ أهلِ المدينه ؛ والاعتماد ... .

✤

وهذه نسخةُ تقليد بإمْرة المدينة النبوية ، وهى :

الحمدُ لله الذى خصَّ بالنُّصْرةِ ، دارَ الهِجْره ، وأطْلع للإيمانِ بَحْرَه ، بتلك الحُجْره ، وطيَّب طَيْبَةَ وأوْدع فيها سليل الأُسْره .

نحمدُه حمدًا نأمن به مَكْرَه ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبد تمسَّكَ بالحَجِّ وتنسَّك بالعُمْره ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شرَّف اللهُ قَدْرَه ، وأنفذَ أمْرَه ، وأيَّده فى ساعة العُسْره ، وكان أكْرَمَ الناسِ فى العِشْره ، وأسخَى العالَمِين إذْ يبسُطُ بالجُود رَاحَتَيْه فما أسْمح عَشْرَه ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة ثَبَتَتْ شَجَرتُها من الأرْض فاتَّصلتْ فروعُها بالسِّدْره ؛ وسلَّم تسليما .

وبعدُ ، فإنَّ المدينةَ النبويةَ مَعدنُ الهُدىٰ والوَقار ، ومَسْكَنُ الرِّضوانِ والأنوار ، ومَهبِطُ الملائكة الأبرار ، ومنْزِلُ الوَحْى فى اللَّيل والنهار ، ودارُ الهِجْرةِ للنبيّ المختار ، وتُرْبةُ مَدْفَنِه الزَّاكِى المِعْطار ، تُشَدُّ الرِّحالُ إليها من أقاصى الأقْطار ، ويأْتِى إليها الظَّالمون لأنْفسهم بالاسْتِغْفار ، فيرجعون وقد مُحِيتْ عنهم الأوْزار ، فقُلوبُ أهل الاشْتياق مُقيمةٌ فى فِناءِ تلك الدَّار ، وإن كانت أجْسامُهم بعيدةً من وَراءِ البِحار ، وبها من آلِ البَيْت سادةٌ أطهار ، وأُمراءُ كِبار ، يُتقرَّبُ إلى اللهِ بِحُبِّهم فى الإعْلان والإضْمار ، ويُتَوسَّلُ بوَلائِهم فى دَعْوةِ الأسْحار ، قد ضَمُّوا إلىٰ كَرَم الراحَه ، وسَماحَة

الأنْفُس المُرْتاحه ، شَجاعةً و بَساله ، وعَلَوِيَّةً فَعَّاله ، وتَمَسُّكا بالمُروءَة المعروفة بشَرَف الأصالَه ، وهم يتوارَثُون إمْرتها عن آباءٍ سادات ، وكِرام لهم فى الفَضْل عادات .

ولما كان فلان هو بَقِيةَ الأُسْرة المتضوِّعه ، وثَمَرة الشَّجرة المُتَفَرِّعَه ، والمخصُوصَ بالوَصْف الذى رَفَعـه ، والقَولِ الذى ٱتَّبعه حين سَمِعَه ـ ما زال فى المدينـة النبويَّة علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسـلام مشكورَ الطَّريقَه ، محفوظَ الوَثيقَه ، مَعْروفَ الحَقِيقَه ، مَوْصوفَ الآثار الحَسَنةِ بين الخَلِيقَه ، يَجْتنِى لكلِّ صالحة من تلك الرَّوضة الشريفة المُثْمرة الوَرِيقَه ، ويَحْمِى السَّرْحَ أنْ ينتهب ، ويطْفِئُ نارَ الفتَنِ فما تلتهِب ، ويُعظِّم المجاورين والواردين والقادمين علىٰ حِمىٰ سيِّد العَجَم والعَرَب .

فلذلك رسم أن يستقرّ ... ...

فليَحُلَّ هذا الرَّبْـع المعمورَ بالتُّقىٰ ، وليُباشِرْ هذه الإمْرَةَ الشَّريفةَ زادها اللهُ عُلُوًّا وٱرْتِقا ، ولْيسْـتعمِلِ السكينةَ فإنَّهـا جميلة اللِّقا ، ولْيسْلُكِ الأدبَ مع ساكن النَّقا ، وليعتَمِدْ علىٰ حُسن اليَقِـينِ فإنَّه له وِقَا ، وقد جاورَ العَقِيقَ فأصْـبح بقلائِدِه الفَاخرةِ مُطَوَّقا ، ولْيحْكُمْ بالعَدْل فى بلدٍ نشأ منه العَدْلُ والإنصافُ فَمُنْذُ ٱجتمعا فيه ما ٱفْترقا ، وليصُنْ شَرفَه من الوُلوج فى فِتْنَه ، وليغْمِدْ سيْفه ولا يَشْهرْه فى وقْت مِحْنَه ، ويحقِنِ الدِّماءَ أن تُراق ، وليَتَلَقَّ الزُّوّارَ بالإرفاق ، فإنَّهم جاءوا من أقاصى الآفاق ، رجالاً وعلىٰ النِّياق ، تحثُّهم الصَّبابَةُ والأشْواق .

وكلمـةُ الشَّرعِ وشِـعارُ السُّنَّة فليكُنْ معظِّماً لها باتفاق بغير شِقَاق ، وشـيخَ الحَرم الشَّريف وخدّامَه ومُجاوِرِيه فليُكرِمْ مُحسِـنَهم ويعامِلْه بحسـن الأخلاق ، ويتجاوَزْ عن مُسِيئِهم بطِيبِ أخْلاق ، وحواصلَ الحَرَم الشَّريف المخزونةَ فيه فلتكُنْ محميَّةً من التبذيرِ فى وَقْت الإنفاق ، وتِلك دَارُهم سُكَّانُها الطيِّبو الاعراق ، والتَّقْوىٰ فمن يتهم

الشَّريف آثارُها الإشراق ، وعليهم نَزل الفُرْقانُ والتَّحْريم والطَّلاق ، فماذا عسَى أن نُوصِيَه وهو أهل الفَضْل على الإطلاق ، والله تعالىٰ يجعلُ نِجارَه فى الفخر مُجَلِّيه فى السِّباق ، بمنّه وكَرَمه! .

وهذه وصية لأمير المدينة أوردها فى "التعريف" ، وهى :

فكَمِّل بتقوَى الله شَرَفك ، وٱتَّبِعْ فى الشريعة الشريفةِ سَلَفك ، وكتابُ اللهِ المنَزَّل ، أنتم أهْلُ بيْت فيكم تَنَزَّلَ ، وسنةُ جدِّك سيدِنا رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم لاتُهْمل ، وهِى مجْدُكم المؤَثَّل ، ومَعْرفَةُ حقِّ مَن مضىٰ عنكم ، و إلا فعمَّن تُنْقل ، ومنكم ، و إلّا فمَن تُؤَمَّل ، و إزالةُ البِدَعِ و إلّا فلأىِّ شىءٍ سُيوفكم تُصْقَل ، ولماذا رِماحُكُم تُعَدَّل ؛ والرافِضةُ وغُلاةُ الشِّيعة هم دَنَس من ٱنتمىٰ إلىٰ هذا البَيْت الشريف بولَائه ، وسبَبُ وقُوف من يقصِد الدُّخول تحت لِوائه ؛ فهم وإن حُسبوا من أمداده ، ليسوا ــ وحاشىٰ نوره الساطع ــ إلا من المكَثِّرِينَ لسَوادِه ؛ أرادُوا حِفْظ المودَّة فى القربىٰ فأخَلُّوا ، وقَصدُوا تكْثيرَ عددهم فقَلُّوا ؛ وأنِف مَن هو بَرِىءٌ من سُوءِ مَذْهَبِهم ، أنْ يتظاهَرَ بالوَلاءِ فيُعَدَّ فى أهْل البِدَع بسَبَبِهم ؛ مع أنَّهم طمِعُوا فى رضا الله فأخْطأتْهم المطامِع ، وصحِيحٌ أنَّهم زادوهم عددًا إلّا أنَّها كزيادة [الشَّغياء أو كزِيادة] (١) الأصابِع .

فصمِّم عَزْمَك علىٰ ماعاهدْت اللهَ عليه من رَفْع أيدى قُضَاتِهم ، ومَنْعِهم من ٱتِّباع خُطُوات الشيطان فى سبيل مَرْضَاتِهم ؛ وحَذِّرْهم مما لا يعود معه علىٰ أحد منهم سِتْر يُسْبل ، ولا يبقىٰ معه لغيرالسَّيف حُكْمٌ يقبل ؛ فمن خاض للسَّلَف الصالح يَمَّ ذَمٍّ أغْرق فى تيَّاره ، أو قَدح فيهم زِنَادَ عِناد أُحْرِق بناره ؛ وألزِمْ أهلَ المدينة الشريفة النبويّة

(١) الزيادة من "التعريف" . (ص ١٠٧) ومن التقليد الذى سبق ، انظر (ص ٢٥٢) .

بكلمة السُّــنَّة فإنَّها أوّل ما رُفعتْ بتلك المَواطِنِ المعظمة أعلامُها ، وسُمِعتْ فى تلك الحُجْرة المكَّرمة أحكامُها، مع تعفِيَة [آثار] ما ينشأُ علىٰ هذه البِـدْعةِ من الفِتَن حتَّى لاينْعَقد لها نَقْعٌ مُثار، وتَوْطِئة أكْناف[ذلك] الحِمىٰ لئلَّا يَبْقَىٰ به لمُبْطل فى مدارج نُطْقه عِثَار ؛ والوَصيَّةُ بسُكَّان هذا الحَرَم الشريف علىٰ الحالِّ به أفضل الصــلاة والسلام ومن ينزل به من نَزِيل ، ويجاوِرُ به مُسْتَقِرًّا فى مِهادِ إقامة أو مُسْتَوْفِزًا علىٰ جَنـاح رَحيل؛ ومن يَهْوِى إليهم من ركائب، ويأْوِى إليهم من رُفْقَة مالَتْ من نَشَواتِ الكَرىٰ بهــم رَاقِصاتُ النَّجائِب ؛ وَمن يَصِلُ من رُكْبَان الآفاق ، وإخوانِ نَوًى يَتَشا كَوْن إليهم مُرَّ الفِرَاق؛ ومن يتلاقىٰ بهــا من طوائِفَ كُلُّهم فى بُيوتِ هذا الحَيِّ عُشَّاق، وأُمَم شَتَّىٰ جُموعُهم مِن مِصْرٍ وشام [ويَمَن][(١)] وعِراق؛ وما يصل معهم فى مَسِيل وُفُودِنا، وسَبيل جُودِنا ؛ ومَحامِلنا الشريفةِ التى يُنْصَبُ لنا بها فى كلِّ أرضٍ سَرير، وأعْلامِنا التى ما سُمِّيتْ بالعِقْبان إلَّا وهى إليها من الأشْواق تَطير .

فمتىٰ شَعَرت بمَقْدَمِ رِكابِهم ، أو بَرَقتْ [لك][(١)] عوارِضُ الأقْمــار من سَماءِ قِبابِهم؛ فبادِرْ إلىٰ تَلَقِّيهم، وقبِّــلْ لنا الأرضَ فى آثار مَواطِيهم، وقُمْ بمــا يجبُ فى طاعة الله وطاعة رســوله صلَّى الله عليه وســلم وطَاعَتِنا ، وأخْرِجْ عنهم كلَّ يَدٍ ولا تُخْرِجْهم عن جمــاعَتِنا .

وأهْلُ البادية هم حِزْبُك الجَيْشُ اللُّهام ، وحَرْبُك إذا كان وَقُودَها جُثَثٌ وهَام ؛ وهم قوم لم يُؤدِّبْهــم الحَضَر ، ولا يَبِيتُ أحدٌ منهم لأنفَتِه علىٰ حَذَر ؛ فاسْـتجلِبْ بمداراتك قُلُوبَهم الأشْـتات ، وبادِرْ حبــال إبِلهم النَّافِرةِ قبــل الأنْبِتات ؛ وتَرَقَّبْ مَراسِمَنــا المطاعةَ إذا ذَرَّت لك مَشارِقُها ، وتأهَّبْ لِجهادِ أعداءِ الله متىٰ لَمعتْ لك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٠٨) .

من الحُروب بَوارِقُها ، وأحْسِنْ كما أحْسن اللهُ إليك ، ولولا أنَّ السَّيف لا يحتاج إلىٰ حِلْيَة لأطَلْنا حَمائِل ما نُمليه عليك ، فما شَهِد للشَّريف بِصحَّة نَسَبِه، أزْكىٰ من عَمَله بحَسَبِه ، والله تعالىٰ يُقَوِّى أسْبابَك المَتِينه ، ويُمَتِّعُ العيونَ بلَوامِعِك المُبِينَه ، ويُمْسِكُ بك ماطال به إرْجاف أهلِ المَدِينَه .

الوظيفـــة الثـانيـــة
(القَضـاء)

وكان فى الزّمن القديم بها قَاض واحدٌ شافعىٌّ ، ثم آستقرّ بها قاضيان آخران : حَنَفىٌّ ومالِكىٌّ، يُكتَبُ لكلٍّ منهم تَوْقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ» بالياء .

وهذه نسخةُ تقليد بقضاء الشافعية بالمدينة النبوية :

الحمـدُ لله الذى جعل الشرعَ الشريفَ دافِقَ السُّيول، وفى طَيْبَـةَ له الأُصول ، ومنها نَشأ وتفَرَّع فله فى البَسِيطة عُمومٌ وشُمُول، وكلُّ قُطْر به مَشْمُول، وكل رَبْع به مَأْهُول، وتأكَّد به المعلومُ وتبدَّد به المَجْهول ، وزالَتِ الشرائِـعُ كلُّهـا وهو إلىٰ آخر الدُّهور لا يَزُول .

نحمدُه وحمدُه يَطول ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً عَمرتْ [بها] طُلُول، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ رَسول، وأكرمُ مَأْمول، وأفضلُ مَسْئُول ، ومُهَنَّدٍ من سيوف الله مَسْلُول، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الطيبى الفُروع والأُصول، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ الشرعَ الشريفَ مَعْدِنُه فى أرضٍ ثوىٰ خيرُ الرُّسلِ فيهـا ، ومنْشَأه فى بَلَدٍ ملائكةُ الله تَحْميها ، فلا يَلِى أقْضيةَ الناس إلّا مَن طالَتْ ذَوائِبُ عِلْمـه،

وأشْرقتْ ثَواقِبُ فَهْمه ، وبُنِيتْ على الأُصول قَواعِدُ حُكْمِه ، وتحلَّىٰ بالورع فتَجَلَّىٰ في سمـاء النجاة كنَجْمِه .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى جذَبَتْه السعادةُ إلىٰ مَقَرِّها ، وخَطبَتْه المغْفرَةُ إلىٰ مَوْطِنِ بِرِّها ، وأهَّلتْـه الأقْدار إلىٰ جوار نَبِيٍّ هو خاتَم الأنبياء وفاتِحُ أمْرِها ؛ وأصْبح للحُكْم فى المدينه ، مستحقًّا لمـا فيـه من سَكِينَه ، وتَحْصيل للعِلْم ومَن حَصَّـلَ العِلْمَ كان الله مُعينَه .

فلذلك رسم أنْ يستقرّ... ... ...

فلْيباشِرْ مَنْصباً جليلًا فى مَحَلٍّ جَليـل ، ولْيَعلمْ أنَّ سائر الأمْصار تَغْبِطُه وتَحْسُـدُه وما لِمَنصِبه من مَثِيل ؛ أينَ يُوجد سواه فى كلِّ سبيل ؟ من قاض هو بسيِّد المرسلين نَزِيل ، ومن يُصْبِحُ ويُمْسِى جارًا للمُستجير فى المَحْشَرِ الطَّويل .

فاحْكُمْ بين نَاس طَيْبَةَ بورَعٍ وتَأْصِيل ، وتَحْرِيرٍ فى تَحْريم وتَحْلِيل ، وٱتَّق اللهَ فى كلِّ فِعْل وقِيل ، وٱسْتَقِمْ على الحقِّ حِذارَ أن تَمِيل ، فصاحِبُ الشَّرع أنت منـه قريب والنبيُّ من الله قَرِيبٌ وحَبِيبٌ وخَلِيل ، وما ذا عسىٰ أن نُوصِـيه وهو بحمد الله تعالىٰ كالنَّهار لا يحتاج إلىٰ دَلِيل .

وأما الخَطَابة : فارْقَ دَرَجَ مِنبَرِها ، وشَنِّف الأسْماعَ من ألْفاظِك بدُرِّها ؛ وحَرِّرْ ما تقوله من المواعظ فإنَّ صاحب العِظَات يسْمَعُك ، وتواضَعْ لله فإنَّ اللهَ يرفعك ؛ وهذا المَرْقىٰ فقد قام فيه النبيُّ الأُمِّىُّ سـيدُ الثَّقلين ، ومِن بعده الخليفَتان قُرَّتَا العيْن ، ومن بعدهمـا عُثْمان ذو النُّورين ، وعلِيٌّ رضى الله عنه أبو الحَسَنيْن ؛ فاخْشَعْ ، عنـد المَطْلَعْ ؛ وٱصْدَعْ ، بمـا يَنْفَع ؛ وٱنظُرْ لمـا تقولُه فإنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم

هناك يسمع، وقاضِى المدينـة وخَطِيبها يرجو أن ليس للشيطان فيـه مطمع، والله تعالىٰ يحوز له الخيرَ ويَجْمع؛ بمنّه وكَرَمه !.

الوظيفـــة الثالثـــة

(مشيخة الحرَم الشريف)

وقد جرت العادةُ أن يكون له خادمٌ من الخِصْيانِ المعبَّر عنهم بالطَّواشيَّة، يُعيَّن لذٰلك من الأبْواب السلطانيـة، ويُكْتب له توقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«ـالمجلس السامىّ» بالياء مفتتحا بـ«ـالحمد لله».

وهذه نسخةُ تَوْقيع شريف من ذٰلك :

الحمـدُ لله الذى شرَّف بخِدْمة سيِّد الرُّسل الأقْدار، وفَضَّـل بالتأهُّل للدُّخول فى عداد كرمه بخِدْمته مَن آختاره لذلك من المُهاجِرين والأنْصار، وجعل الآختصاصَ بمجاوَرةِ حَرَمه أفْضلَ غايةٍ تُهجَرُ لبلوغها الأوْطانُ والأوْطار، وعجَّلَ لمن حلَّ بمسجِده الشريف تبَوُّأ أشْرفِ رَوْضة تَرِدُها البَصائرُ وتَرُودُها الأبصار.

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى أكْمَلُها خدمةُ نَبِيِّه الكريم، وأفْضلُها التوفُّرُ علىٰ مَصالح مُجاوِرِى قَبْرِ رسوله الهادِى إلى الحقِّ وإلىٰ طريق مُسْتقيم، وأجْملُها الآنْتظامُ فى سِلْكِ خَدَمة حَرَمه [لأنها] بمنزلة واسطة العـقد الكريم النَّظيم؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً مُزْلِفةً لديه، مُقرِّبَةً إليه، مدَّخَرَةً ليوم العَرْض عليه، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرف نَبِيٍّ بُعث إلى الأسود والأحمر، وأكْرمُ من أنار لَيْلَ الشِّرك بالشَّرع الأقْمر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصْحابه الذين نَخَرت الحَبَشَةُ بِهجْرتِهم الأُولىٰ، ونَجا النَّجاشيُّ بما آتَّخذ عندهم من السَّابِقة الحَسَـنة واليَد الطُّولىٰ، وأُولىَ

بِلَالُهُم من السَّبْق إلىٰ خِدْمة أشرَف الأنبياء عليه وعليهم أفضلُ الصلاة والسلام أفْضلَ مايُولىٰ؛ صلاةً لا يزال شهابُها مُرْشِدا، وذِكْرُها فى الآفاق مُغِيرًا ومُنْجِدا؛ وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ ما[1] آعْتمد عليه مَنْ أفَاء اللهُ عليه من نِعَمه، وأفاض عليه من مَلابِس كَرَمِه، وشرَّف قَدْرَه بأن أهَّله لِخدْمةِ سيدِ الرُّسل بل لِمَشْيَخة حَرَمِه؛ وخَصَّه برُتْبة هى أسْنى الرُّتَب الفاخِرَه، وأجْمعُ الوَظائِف لشَرف الدُّنيا والآخره ـ من رجَّحه لذٰلك دِينُه المَتِين، ووَرَعُه المَكِين، وزُهْدُه الذى بَلَغ به إلىٰ هذه الرتبة التى سيكونُ بها ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ وَجِيهاً فى الدُّنيا والآخِرَة ومن المُقَرَّبِين .

ولمَّا كان فلانٌ هو الذى ادرك من خِدْمة سيِّد الرسل غاية سُولِه، وزَكَتْ عند الله هِجْرَتُه التى كانت على الحقيقة إلىٰ الله ورسوله؛ وسلك فى طريقِ خِدْمتِه الشَّريفة أحْسنَ السُّلوك، وآنْتهَتْ به[2] السَّعادةُ إلىٰ خِدْمةِ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم لِيُعرِضَ بجَوْهَرِها الاعْلىٰ عن عَرَضِ خدْمَة الملوك؛ وفَازَ من مُجاوَرَة الحُجْرة الشريفةِ بما عَظُمَتْ عليه [به] المنَّه، وحلَّ به مما بين القَبْر والمِنْبَر فى رَوْضَة من رِياضِ الجَنَّه؛ وأقام فى مَقامِ جبْرِيل، ومَهْبِطِ الوَحْيِ والتَّنزيل؛ يَتَفَيَّأُ ظِلالَ الرَّحمة الوَارِفَه، ويَتَهَيَّأُ من تلك النِّعمة بالعَارِفَة بعد العَارفَه ـ تَعيَّن أن يكونَ هو المحلَّىٰ بعُقُود مَشْيَخةِ ذٰلك الحَرَم، والمتولِّيَ لمصالح هذه الطائفة التى له فى التَّقدُّم عليهم أثْبتُ قَدَم .

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... ... أن تفوّض إليه المَشْيَخة علىٰ خُدّام الحَرَم الشريف النَّبوىِّ: للْعِلْم بأنَّه العامِلُ الوَرِع، والكافِلُ الذى يعْرِف أدبَ تلك

(١) لعله "من آعتمد عليه من" الخ .

(٢) فى الأصل "اليه" .

الوظيفة : من خدْمة الرسول صلى الله عليه وسلم ــ علىٰ ما شُرِع ؛ والزّاهدُ الذى آثر جَوارَ نبيِّه علىٰ ما سواه ، والخاشعُ الذى نوىٰ بخِدْمتِـه الدُّخولَ فى زُمْرة من خَدَمه فى حياته : « ولكُلِّ آمْرِئٍ مانَواه » .

فلْيستقِرّ فى هذه الوظيفةِ الكَريمةِ قائمًـا بآدابِها ، مشَرِّفًا بها نفْسَه التى تشبثت من خدمته الشريفة بأهدابِها ؛ سالِكًا فى ذٰلك مايجِب ، مُحافِظًا علىٰ قواعد الوَرَع فى كلّ ما يَأْتِى وما يَجْتَنِب ؛ قاصِدًا بذٰلك وجهَ اللهِ الذى لايُخَيِّبُ لراجٍ أملا ، ولا يُضَيِّعُ أجْرَ مَنْ أحْسن عَمَلا ؛ مُلزِمًا كلًّا من طائفة الخُدَّام بما يُقَرِّبُه عند اللهِ زُلْفىٰ ، ويُضاعِفُ الحسنةَ الواحِدةَ سبعين ضِعْفا ؛ هادِيًا من ضَلَّ فى قوانينِ الخِدْمة إلىٰ سواء السبيل ، مُبْدِيًا لهم من آداب سُلُوكه ما يغدُو لهم منه أوْضحُ هاد وأنْورُ دَلِيل ؛ وفيه من آداب دِينِـه مايُغنِى عن تَكْرار الوصايا ، وتَجْـديد القَضايا ؛ واللهُ تعالىٰ يسـدِّده فى القَوْل والعَمل ، ويوَفِّقه لِخدْمةِ سيِّد المرسلين صلَّى الله عليه وسلم وقد فعَل ؛ بمنِّه وكرمه .

القاعدة الثالثـــة اليَنْبُع

(وبهـا وظيفـــةٌ واحدةٌ ، وهى النيابة)

وقد تقدّم أنَّ نيابتها فى بَنِى الحَسَن ، من بنى قتادةَ أيضا . وعدل بهـا عن لفظ الإمارة إلىٰ لفظ النيابة تصغيرا لشأْنها عن مَكّة والمدينة . ويُكتَبُ لنائبها مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع الثلث «بالمجلس السامى» بغير ياء .

وهذه نسخةُ مرسوم شريف بنيابة اليَنْبُع ، كُتب به «لمخذم بن عقيل» فى عاشر رجب الفرد سنة أرْبع وثلاثين وسبعمائة ، من إنشاء المقرّ الشِّهابىِّ بن فضْل الله ، وهو:

الحمـدُ للهِ الذى أتمَّ لدولتِنا الشريفةِ أنْعُما، وأحْسن فى تقـديم شَرِيفِ كلِّ قوم تَقَدُّما، وأمْضَىٰ فى كفِّ كفِّ الأعداء رُمْحًا سَمْهَرِيًّا وسيفًا مِخْذَما .

نحمَدُه حمدًا يكاثِرُ عددَ القَطْرِ إذا هَمَىٰ، ونشهدُ أن لاإلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادة تؤمِّن بالإدمان عليها مُنْجِدًا ومُتْهِما ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شَرَّف من إليه ٱنْتمىٰ ، وعلىٰ نَسَبِه الشريفِ ٱرْتَمىٰ ، وبجوارِه المَنِيعِ ٱحْتَمىٰ ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين طَلَعوا فى صباح كلِّ نَهَارٍ شُموسًا وفى عَشِيَّة كلِّ لَيَل أنجما ؛ وسَلَّم تسليمًا .

وبعـدُ ، فإنَّ أولىٰ من أعدْنا له سعادة جَدِّه، وعُدْنا إلىٰ عَوائِدِه الحُسنىٰ لأبيـه وجَدِّه ؛ ورَعَتْ صدَقاتُنا الشريفةُ له قَصْدَه الجَميل، وشَرَفه الذى سما به من أصْلِه إلى النَّجْم فَرْع لا يُنالُ طَوِيل ؛ وأُقِرَّت عينُه بسَكَنِه ، وٱستقرّتْ به مراسمنا العالية فى مَسْكَنِه، وأغْنَتْه عِنايَتُنا الشريفةُ عن ٱنتظار كلِّ نَجم سعادة يَطْلُع ،وبعَثَتْ إليه كلَّ خير إلىٰ وَطَنِه وهو «يَنْبُع» ؛ منزلةُ نسبه الصَّميم، والحسَبِ الذى يتمسَّكُ به فى قومه كلُّ كَرِيم ؛ والشَّرف الذى أنارت كَواكبُه، والوَصْف الذى ينظم الدُّرَّ ثاقبُه (١) .

ولـمَّـا كان المجلسُ السَّـامى، الأميرُ، الأجلُّ، الكبيرُ، الشريفُ ، الحَسِيبُ، النَّسيبُ ، الأوحدُ ، العضُدُ، النصيرُ، الأصيلُ ، فلان الدين ، مجدُ الإسلام، زين الأنام، شرفُ الأُمراء الأشْراف ، فخرُ العِـتْرة الطَّاهره، جمـالُ الأُسرة الزاهره ، نَسِيبُ الخلافة ، عَضُدُ الملوك والسلاطين «مِخْذَم بن عقيل» أيده الله تعالى ـ هو الذى تقدّمت إليه كلُّ إشاره ، وحسُنَتْ به كلُّ شارَه ، وتعجَّلَتْ له بمراضينا الشريفة من مُخَلَّق الشَّفَقِ كلُّ بِشارَه ؛ وحصل فى اليَنْبُعِ ما حصل من الاعتـداء، وٱمتَدَّتِ الأيْدى به إلىٰ ما كان لحُجَّاج بيْتِ الله من وَدِيعَه ، وظنَّ أنَّه لا يشيع خبره

(١) لم يذكر خبرا لإن وهو معلوم من نظائره وكثيرا ما ورد كذلك ونبهنا عليه .

فى البَيْداءِ ، نخالف الوَاجِبَ وتعدّى الشَّريعَــه ؛ فاقتضت آراؤنا الشريفة تَفْوِيضَها إلى العارف منها بمـا يجب ، العَالِمِ من طريق سَلَفِه الصَّالِح بمـا يأْتِى فيها ويَجْتَنِب ؛ العامِلِ فى طاعتنا الشريفةِ بمـا هو به وبِمِثْلِه من أهلِ الشَّرف يَلِيق ، المَـاشِى فى خِدْمتنا الشريفة وفى خِدْمَة الوُفود إلىٰ بَيْت الله الحرام على الطَّرِيق .

فرُسِم بالأمرِ الشريف ـ أعلاه الله تعالى وشَرَّفه ، وأنفَــذه وصَرَّفه ـ أن تُفوَّضَ إليه النيابة باليَنْبُعِ على عادة من تقــدَّمه وقاعدَتِه إلىٰ آخر وَقْت :

فليُقَدِّم تقْوى اللهِ فى كلِّ ما تقدَّم ، ويَقِفْ مع حُكْمِ الشرعِ الشريفِ فإنّه المُهِمُّ المقدّم ؛ ولَيَسْتَوْصِ بالحُجَّاج خيْرًا فإنَّهم وَفْدُ اللهِ وهو عليه سَيَقْدَم ، وليؤَمِّنِ الطَّريقَ فإنَّه بين حَرَمَين : بَيْتِ اللهِ ومَسْجِدِ رسوله صلَّى الله عليه وسـلم ؛ وليحفَظْ أمانةَ اللهِ فيما يخَلِّى ويخلِّف عنده الحجاجُ كتب الله سلامتهم من وِدَاعه[1] ، وليأْخُذْ بقلوب الجَلَّابَةِ فإنَّهم فى تَوسيعِهم علىٰ أهْلِ الحرمين كالمُتصَدِّقين وإن كانوا تُجَّارا بِبِضَاعَه ؛ ويُوصِّلْ من تأخَّر من أبْناء السبيل إلىٰ مَأْمَنِهم ، وليخُصَّ بالعَدْل أهْلَ بلَدِه ليستقرُّوا آمنين فى مَوْطِنِهم ، والرِّفق فهو الذى بحُلَلِه يُزيِّن ، وبحَلْيِه يُسْتحسن ، والتَّأنِّى فى معرفة الحقِّ من الباطل فإنَّ به الخيطُ الأبيضُ من الخَيطِ الأسْودِ من الباطل يُبَيَّن ؛ ولزُوم الطاعة ، التى أوْجبها اللهُ لنا علىٰ عباده ونَدَب إليها ، ومُلازَمة الجماعةِ ، التى يكفيه من بركاتها أنَّ يَد اللهِ عليها ؛ وإقامة الخِدْمة فيما قِبلَه من البـلاد ، وكلِّ حاضر وباد ، وكلِّ من كَادَ أو كَاد ، أو تعرَّض لعِنادِ العِبـاد ؛ فمن أقْدم علىٰ محْـذُور ، أو تقدَّم إلىٰ محظُور ، أو ٱرْتكب فى الخـلاف أمْرًا من الأُمور ، جَرَّه بالبَغْيِ إلىٰ مَصْرَعه ، وحَرِّك السيفَ لمضْجعه ، ودَع الرُّمْحَ الذى ٱعتقَـله للشِّقاق يبكِى للإشـفاق عليه بأدْمُعه ؛ وقد رَأيتَ كيف

---

(١) مراده «وديعة» ولكن اضطره السجع الى موافقة اللغة العامية . فتنبه .

طَرِيقَتُنا المُثْلَىٰ، وسِيرتُنا التى لا تجد لها مِثْلا؛ فاسْلُكْ هذه المَحجَّه، وحَسْبُك أن تتَّخذ بينك وبين اللهِ حُجَّه؛ وفى هـذا عن بقية الوصايا غِنَى، والله يُزيل عنك الخَوْفَ فى الخَيْف ويُبَلِّغك المُنىٰ فى مِنىٰ؛ والاعتماد ... .

القســـــم الرابع (١)

(ممـا يُكْتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ـ مايقَعُ علىٰ سبيل النُّدور، وهو الذى يقع فى حين من الأحيان من غير أن يسبق له نظير)

قال الشَّيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحَلَبيُّ فى "حُسْن التوسل": ويحتاج الكاتبُ فيه إلىٰ حُسْن التَّصرُّف على ما يقتضيه الحال .

[فمن ذلك] ما يُكْتَبُ به للنيابة الخارجة عن المملكة إذا رغب فيها مُتَولِّيها .

وهذه نسخةُ تَقْليد شريف من ذلك، كَتب به المولىَ الفاضلُ شِهابُ الدين محمود الحلبيّ لمتملِّك سيسَ، بإقراره على ما هو قاطع النَّهر من بلاده، وهى :

الحمـدُ للهِ الذى خصَّ أيَّامنا الزاهرة، باصْطناع مُلوك المِلَل، وفضَّل دولتَنـا القاهرة، بإجابة من سألَ بعضَ ماأحْرَزَتْه لها البِيضُ والأَسَل؛ وجعل من خصائص مُلْكِنا إطْلاقَ المـالك وإعْطاءَ الدُّوَل، والمَنَّ بالنُّفوس التى جعلها النَّصر لنا من جُملة الخَوَل؛ وأغْرىٰ عَواطِفَنا بتحقيق رَجاءِ مَن مَدَّ إلىٰ عَوارِفنا كَفَّ الأمَل، وأفاض بمواهِبِ نَعْمائِنا، علىٰ من أناب إلى الطاعة حُلَل الأمْنِ بعد الوَجَل؛ وآنتزع بآلائِنا،

---

(١) تقدم له تقسيمه الى ثلاثة أقسام فقط كما ورد فى الصفحة ١٣٤ من ج ١١ من هذه الطبعة فيكون هذا زائدا على الأقسام .

لمن تمسَّك بولائنا ، أرْواحَ رعاياه من قَبْضـةِ الأجَل ، وجعل بَرْدَ العَفْوِ عنه وعنهم بالطاعة نَتيجَةَ ما أذاقَهُم العِصْيانُ من حَرارَةِ الغَضَب : إذ « رُبَّمـا صَحَّتِ الأجْسامُ بالعِلَـــلِ » .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت عَفْوَنا ممَّن رَجَاه قَرِيبـا ، وكَرَمنا لمن دعاه بإخْلاص الطاعة مُجِيبا ، وبِرَّنا لمن أقْبَـل إليه مثيبًا بوجه الأملِ مُنِيبا ، وبَأْسَـنا مصيبا لمنْ لم يجعَل اللهُ له فى التَّمسك بمراحمنا نَصِيبا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَعْصِم دَمَ من تمسَّك بذِمامِها ، وتَحْسِمُ موادَّ مَن عانَدها بانتقام حُسَامِها ، وتَفْصِم عُرَا الأعْناق ممَّن أطْمعه الغُرور فى ٱنْفصال أحْكامها وٱنْفصامِها ، وتَقْصِمُ مَن قَصد إطْفاءَ ما أظْهره اللهُ من نُورِها وٱقْتِطاعَ ما قضاه من دَوَامِها ، وتجعلُ كلمةَ حَمَلتها هى العُليا ولا تزالُ أعناقُ جاحِديها فى قَبْضة أوْليائها وتحت أقْدمها ؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالهُدىٰ ودِينِ الحَقِّ إلىٰ كلِّ أُمَّه ، المنْعوتُ فى الكُتُب المنزَّلة بالرأْفَة والرَّحْمه ، المخصوصُ مع عموم المعجزات بخَمْس : منها الرُّعْبُ الذى كان يتقدَّمه إلىٰ من قَصَـده ويَسْبِقُه مَسِـيرَةَ شَهْر إلىٰ من أمَّه ، المنصوصُ فى الكُتُب المُحْكَمَة علىٰ جِهادِ أُمَّتِه الذين لا حَياةَ لمن لم يتمسَّكْ من طاعتهم بذِمَّه ؛ صلَّى اللهُ عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين فَتحُوا بدَعْوتِه الممـالك ، وأوضَحُوا بشِرْعَتِه إلى اللهِ المَسالِك ، وجَلوْا بنُور سنَّتِه عن وَجْه الزَّمن كلَّ حالٍ حَالِك ، وأوْردُوا من كَفَر برَبِّه ورُسُلِه مَوارِدَ المَهالِك ، ووَثِقُوا بمـا وعد اللهُ نَبِيَّه حين زَوَىٰ له ذلك ؛ صلاةً لا تزال الأرْض لهـا مَسْجِدا ، ولا يَبْرحُ ذكْرُها مُغـيرًا فى الآفاق ومُنْجِدا ، ما ٱسْتَفْتَحَتْ أَلْسِنَة الأسِـنَّة النَّصْرَ بإقامتها ، وأبادتْ أعداءَها باستِدَامَتِها ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّه لمـا آتانا اللهُ مُلْكَ البَسيطَه ، وجعل دَعْوتَنا بأعِنَّة ممـالك الأقْطار مُحِيطَه ؛ ومكَّن لنا فى الأرْض ، وأنْهضَـنا من الجِهاد فى سبيله بالسُّـنَّة والفَرْض ،

وجعل كلَّ يوم تُعرَضُ فيه جيوشُنا من أمْثلة يَوْمِ العَرْض، وأظَلَّتْنا بَوادِرُ الفتوح، وأطَلَّتْ علىٰ الأعْداءِ سُيوفُنا التى هى علىٰ من كَفَر بالله وكفر النِّعْمَةَ دعْوةُ نُوح؛ وأيَّدنا بالملائكة والرُّوح، علىٰ من جعل الواحدَ سبحانه ثلاثةً: فانْتَصر بالأبِ والآبْن والرُّوح؛ وألْقتْ إلينا مُلوكُ الأقطار السَّلام، وبذَلتْ كرائمَ بلادها وتِلادِها رَغْبةً فى الآلتجاء إلىٰ ظِلٍّ أعْلىٰ من الأعْلام؛ وتوسَّلَ من كان منهم يُظْهِر الغِلْظَةَ بالذِّلَّة والخُضُوع، وتوصَّل من كان منهم يُبْدِى القُوَّةَ بالإخْلاصِ الذى رَأوْه لهم أقْوَى الجُنَنِ وأوْقَى الدُّرُوع ـ عاهَدْنا اللهَ تعالىٰ أن لا نَرُدَّ منهم آملا، ولا نَصُدَّ عن مَشارِع كَرمِنا نَاهِلا؛ ولا نُخَيِّبَ من إحساننا رَاجِيا، ولا نُحَلِّئَ عن ظِلِّ بِرِّنا لَاجيا؛ عِلْمًا أنَّ ذلك شكْرٌ للقُدْرة التى جعلها الله لنا علىٰ ذلك الآمِل، ووُثُوقًا بأنَّه حيثُ كان فى قبضتنا متىٰ نَشَاءُ نجْمع عليه الأنامِل؛ اللَّهمَّ إلَّا أن يكونَ ذلك اللَّاجئُ للغِلِّ مُسِرًّا، وعلىٰ عَداوَةِ الإسلام مُصِرًّا؛ فيكونُ هو الجانِىَ علىٰ نَفْسه، والجانِىَ علىٰ مَوْضِع رَمْسه، والمُفَرِّطَ فى مَصْلحة يَومِه وغده بتذكير عَداوَةِ أمْسه.

ولمَّا كان من تقدَّم بالمملكة الفلانية قد زَيَّن له الشيطانُ أعْمالَه، وعَقَد بِحِبالِ الغُرورِ آمالَه؛ وحَسَّن له التَّمسُّكُ بالتَّتار الذين هم بمهابتنا محصورون فى ديارهم، مَأْسُورُون فى حبائل إدْبارِهم؛ عاجِزُون عن حِفْظ ما لَدَيْهم، قاصِرُون عن ضَبْط ما آسْتَلَبَتْه السَّرايا المنصورةُ من يَدَيْهم؛ ليس منهم إلَّا مَن له عند سُيُوفنا ثَار، ولها فى عُنُقِه آثار، ومن يعلَمُ أنَّه لابدَّ له عندنا من خُطَّتَىْ خَسْف: إمَّا القتلُ أو الإسار.

وحينَ تمادَى المذكورُ فى غَيِّه، وحمله الغُرورُ علىٰ رُكوبِ جَوادِ بَغْيِه، أمَرْنا جُيوشَنا المنصورةَ فجاسَتْ خِلَالَ تلك المَمالك، ودَاسَتْ حَوافِرُ خَيْلِها ما هُنالك، وساوتْ فى عُمومِ القَتْل والأسرِ بين العَبْد والحُرِّ والمملوك والمالك؛ وألْحقتْ رَواسِىَ

جِبالِهم بالصَّعيد ، وجعلتْ حُماتَهم كزُرُوعٍ فَلاتِهم منْها قائمٌ وحَصيد ؛ فأسْلمهم الشيطانُ ومرّ ، وتركهم وفرّ ، وما كَرَّهم وما كَرّ ، وأعْلمهم أنَّ موعِدَهم الساعةُ والساعةُ أدهىٰ وأمرّ ؛ وأخْلفهم ما ضَمِنَ لهم من العَوْن ، وقال لهم : ﴿ إِنِّى بَرِىءٌ منْكُم إنِّى أرىٰ مالا تَرَوْنَ ﴾ .

وكان الملكُ فلانٌ ممَّن تدبَّر طُرُقَ النَّجاة فلم يَرَ إليها سِوَى الطَّاعةِ سَبِيلا ، وتأمَّل أسْبابَ النَّجاح فلم يَجِدْ عليها غيرَ صِدْق الآنْتماء دَليلا ؛ فأبْصر بالخدْمَةِ موضِعَ رُشْده ، وأدْرك بسَعْيه نَافِرَ سَعْده ؛ وأراه الإقبالُ كيف ثَبَتَتْ قَدَمُه فى الملك الذى زَلَّتْ عنه قَدَمُ من سَلَف ، وأظْهر له الإشْفاقُ علىٰ رعاياه مصارِعَ من أوْرده سُوءُ تَدْبيرِ أخيه مَوارِدَ التَّلَف ؛ وعرَّفه التمسُّكُ بإحسانِنا كيف ٱحْتوت يدُه علىٰ مالم يُبْقِ غَضَبُنا فى يَد أخيه منه إلَّا الأسَىٰ والأسَف ؛ وحسَّنَتْ له الثِّقةُ بكرمنا كيف يُجْمِلُ الطَّلب ، وعلَّمتْه الطاعةُ كيف يَستنْزِل عوارفَنا عن بعض ماغلبت عليه سُيُوفنا : وإنَّما الدنيا لمن غَلب ؛ وٱنتمىٰ إلينا فصار من خَدَمِ أيَّامنا ، وصنائِعِ إنْعامِنا ، وقَطَع علائِقَه من غيرنا ؛ فلَجأ منَّا إلىٰ رُكْنٍ شَدِيد ، وظِلٍّ مَدِيد ، ونَصْرٍ عَتِيد ؛ وحَرَمٍ تأْوِى المِلَّة إليه ، وكَرَمٍ تُقِرُّ نَضارتُه ناظِرَيْه ، وإحْسانٍ يُمتِّعه بما أقرَّه عطاؤُنا فى يديه ، وامْتنانٍ يَضَعُ عنه إصْرَهُ والأغْلالَ التى كانَتْ عليه ـ ٱقتضىٰ إحْسانُنا أن نُغْضِىَ له عن بَعْض ما حلَّت جُيوشُنا ذُرَاه ، وحَلَّتْ سَطواتُ عساكرنا عُراه ، وأضْعفَتْ عَزَماتُ سَرايانا قُواه ، ونَشَرتْ طلائِعُ جُنُودنا ماكان سَتَره صَفْحُنا عنهم من عَوْراتِ بلادهم وطَواه ؛ وأن نُخَوِّلَه بعضَ ما وردت خُيولُنا مَناهلَه ، ووَطِئَتْ جِيادُنا غاربَه وكَاهِلَه ، وسلَكَتْ كُماتُنا فملَكَتْ دارِسَه وآهِلَه ؛ وأن يبقىٰ مُلْكُ هذا البيْتِ الذى مَضىٰ سَلَفُه فى الطاعة عليه ، ويستمرَّ مَلِكَ الأرْمَن الذى أجْمل السَّعْىَ فى مصالحه

بيديه ؛ لِتَتَيَمَّن رعاياه به ، ويعلموا أنَّهم أمِنُوا على أرْواحهم وأوْلادهم بسَبَبِه ، عن طوية مخلصــة ونفس مطيعة ، ولا تخشى عليه يَدٌ جائِرَه، ولا سريَّةٌ فى طلَبِ الغِرَّةِ سَائِره، ولا تَطْرُق كِنَاسَه أَسْدُ جيُوش مفتَرِسَه، ولا سِباعُ نِهاب مُخْتَلِسَه، بل تستمرُّ بِلادُه المذكورةُ فى ذِمام رعايَتِنا، وحَضانَةِ عنايَتِنا ، وكَنَف إحْسانِنا ، ووَديعَــةِ بِرِّنا وٱمْتِنانِنا، لاتَطْمَحُ إليها عينُ مُعانِد، ولا يمتدُّ إليها إلَّا ساعدُ مُساعِد وعَضُد مُعاضد.

فليُقابِلْ هذه النِّعمة بشُكْر الله الذى هــداه إلى الطاعه ، وصانَ بإخلاص وَلائِهِ نَفْسَــه ونَفائِسَ بلاده من الإضاعَه، ولِيَقْرُنْ ذلك بإصْــفاء مَوارد المَوَدَّه، وإضْفاءِ ملابس الطاعة التى لاتَزْدادُ بحسْنِ الوفاء إلا جِدَّه، وٱستِمْرارِ المُناصَحةِ فى السِّرِّ والعَلَن، وٱجتنابِ المُخادَعة ما ظَهَر منها وما بَطَن، وأداءِ الأمانَةِ فيما ٱستقرَّ معه الحلْف عليه ، ومُبايَنَةِ ما يُخْشىٰ أن يَتَوجَّه بسببِه وجْهُ عَتْب إليــه، وٱسْــتدامَةِ هذه النِّعمة بحِفْظ أسْبابها، وٱسْتِمامَةِ أحْوالِ هــذه المِنَّةِ برَفْض مُوجِبات الكَدَرِ وٱجْتِنابِها، وإخْلاص النِّيَّةِ التى لا تُعتبر ظواهرُ الأحْوالِ الصالحة إلَّا بِها .

* * *

ومن ذلك ما يكتب به لحكم رُماةِ البُنْدق

قد جَرت العادةُ أنَّه إذا كان للسـلطان عنايةٌ برَمْيِ البُنْدق، أقام لرُماتِه حاكمًا من الأمراء الذين لهم عنايةٌ برَمْيِ البُندق .

وهذه نسخةُ تَوْقيع من ذلك :

الحمدُ للهِ الذى خصَّ أيَّامنا الزاهرةَ، باستكمالِ المحاسِنِ فى كلِّ مَرام، وجعل [من] أوْلياءِ دَوْلتِنا القاهرةِ، من أصاب من كلِّ مَرْمًى بَعيد شاكِلَةَ الصَّوابِ حتَّىٰ أصبح

حاكمًا فيه بين كلّ رَام ، وجمع لخواصّنا من أشتات المفاخرِ ما إذا برزُوا فيه للرياضة ليلًا [أغنَتْ] قِسيِّهم عن الأهِلَّة ورُجومُها عن رجُوم الظَّلام ، وسدّدَ مقاصِدَ أصْفيائنا فى كلّ أمْرٍ فما شُغِلوا بمَسَرَّة سِرٍّ إلا وكانت من أقوىٰ أسْبابِ التَّمرُّن علىٰ خَوْض الغَمَرات العِظام ، واقتحامِ الحَرْب اللُّهام ، واشْتِمالِ جلابِيبِ الدُّجىٰ فى مصالح الإسلام .

نحمدُه على نِعَمه الوسام ، وأياديه الجِسام ، وآلائه التى ما بَرِحَتْ بها ثُغُورُ المسارّ دائمةَ الابْتسام ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تعصِمُ من الزَّلَل ، وتُؤَمِّن من الزَّيغِ والخَلَل ، وتُلْبِسُ المتمسِّكَ بها من أنوارِ الجلالة أبْهَى الحُلَل ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المنزَّه عن الهوىٰ ، المخصوصُ بالوَحْيِ الذى علَّمه شَديدُ القُوَىٰ ، الدَّالُّ على اعتبار الأعْمال بِصحَّةِ القَصْد بقوله صلَّى الله عليه وسلم : «إنَّما الأعْمال بالنِّيَّاتِ وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مانوىٰ» . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَفَّق الإخلاصُ مساعِيَهم ، ووفَّر الإيمانُ دَواعِيَهم ، صلاةً دائمةَ الاتِّصال ، مستمرّةَ الإقامة بالغُدُوّ والآصال ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّه لمَّا كان رَمْىُ البُنْدق من أحْسنِ مالَهَتْ به الكُماة ، فى حال سِلْمِها ، ومن أبْهجِ ما حفِظَتْ به الرُّماة ، حياةَ نُفُوسها وعِزَّةَ عَزْمِها ؛ علىٰ ما فيه من اطِّراحِ الراحة واجْتِنابِها ، واسْتِدعاءِ الرِّياضة واجتنائِها ، وخَوْضِ الظُّلُمات فى الظَّلام ، وتَوَخّى الإصابةِ فى غَمَرات الدُّجى التى تَخْفَىٰ فيها المقاتلُ علىٰ حَدَق السِّهام ، وارْتقاب ظَفَر ، يُسْفِرُ عنه وَجْهُ سفر ، ومُهاجَمةِ خَطَر ، تُفْضِى إلىٰ بلُوغِ وَطَر — وله شَرائِطُ تَقْتَضِى التقدُّمَ بين أرْبابِه ، وقَواعِدُ لا يخالفها(١) مَن كان مُبرِّزًا فى أصْحابه ؛ وأدَواتُ

(١) فى الأصل «فى مخالفها» ولا معنى له . تأمل .

كمال، لابُدَّ للمتحلِّى بهذه الرُّتبة منها، وحُسْن خِلال، تُهدَرُ أعمالُ من بَعُد عليه مَرامُها وقَصُرتْ مَساعِيه عَنْها؛ وعوائدُ معلومةٌ، بين أرْباب هذا الشَّأْن وكبرائِه، ومقاصِدُ مَفْهومةٌ، فيما يتميز به المُصيبُ الحاذقُ علىٰ نُظَرائِه .

ولمَّا كان الجنابُ العالى الفلانىُّ ممَّن يشارُ إليه فى هذه الرتبة ببَنانِ التَّرْجيح، ويُرجَع إلىٰ أقواله فيما ٱقتضَى التَّعديلَ فيما بين أرْبابها والتَّجْريح؛ ويُعملُ فيها بإشارَتِه الخالصةِ من الهَوَىٰ والأغْراض، ويُعوَّلُ فيها علىٰ قدَمِ مَعْرفَتِه المميزة بين أقْدار الرُّماة مع تَساوِى إصَابة الأغْراض؛ لاَحْتِوائِه علىٰ غايات الكمال فيها، وسَبْقه منها إلىٰمقاماتٍ حسان لايُعْطيها حَقَّها [الا] مِثْلُه ولا يُوفِّيها ـ ٱقتضىٰ رَأْيُنا الشريفُ أن نَعدِق به أحكامَها، ونَرُدَّ إلىٰ أمْرِه ونَهْيِه كُبراءَها وحُكَّامَها .

فرُسم بالأمر الشريف أن يكونَ حاكمًا فى البُنْدق لما يتعين من ٱخْتِصاصِها بجَنابِه، ويتبين من أولَوِيَّته بالحُكْم فى هذا الفَنِّ علىٰ سائرأرْبابِه .

فَلْيَلِ ذلك حاكمًا بشروطه اللَّازمة بين أهْلِه، المعتَبَرةِ بها خِلالُ الكمال فى قَوْلِ كلِّ أحد منهم وفِعْلِه؛ المُميِّزةِ بين تَفاوُتِ الرُّماة بحسب كيفيةِ الرَّمْيِ وإتْقانه، المرجحة فى كَثْرة الطَّير بإمكانه له فى وَقْتِ البروز ومكانه؛ المُهْدِرَة مايجب بين أهْل هذا الفَنِّ إهْدارُه، المُثْبِتَة مايتعيَّن فى كمال الأدوات إثْباتُه فىقِدَم الكُبراء وإقْرارُه؛ ولْيَعْمَلْ فى ذلك جميعِه بما تقتضيه مَعْرِفَتُه المجمَعُ فى فَنِّه عليها، ويتقَدَّمْ فيه بما تدله عليه خِبْرتُه التى ما بَرِحَ وجْهُ الاختيار مصروفًا إليها؛ واللهُ تعالىٰ يسدِّدُه فى القوْلِ والعَمَل، ويبلِّغه مراتِبَ الرِّفعة فى خلاله الجميلَة وقد فعل؛ والخيرُيكون، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : ورُبَّما كان المرسومُ المكْتَتَب لمن هو دُون من تقدَّم من أميرعشرة أو مَنْ فى معناه، فيفتتح بـ«أما بعد» ويكمل علىٰ نحو ماتقدّم .

وهذه نسخةٌ ثانيةٌ لحاكم البُنْدق، مفتتحةٌ بـ«أما بعدُ» وهى :

أمَّا بعدَ حَمْدِ اللهِ الذى لا مُعَقِّب لحُكْمِه ، ولا يَعْزُب شَىْءٌ عن عِلْمِه ، ولا قُنُوطَ من رَحْمته وَسَعةِ حِلْمِه ، مُلْهِم أهل محاربة أعداء دِينِه بالرِّياضة لهـا فى أيَّام سِلْمِه ، ومُنْجِز وُعُود السُّعود لمن كان النَّجْم مَبْدأ هِمَّتِـه ، والصِّدْقُ حُلَّة سَجِيَّته ، والعزُّ حلْيَةَ ٱسْمِه ؛ والصَّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى هدَى اللهُ بنُورِ مِلَّته العادلة من تردَّىٰ فى ظُلُمات ظُلْمِـه ، ورفَعَ منارَ النُّبوَّة بمـا خصه به من ٱفتتاح التقدّم فى رتبتها وخَتْمِه ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سَرىٰ كلٌّ منهم إلىٰ غاية الكمال علىٰ نجائِبِ هِمتِـه وجِيادِ عَزْمِه ـ فإنَّ أَوْلىٰ من رُعِيَتْ له أسْباب قِدَمِه وتَقَدُّمه ، وفُتِحتْ له أبْواب حُكْمِه فى رُتْبته وتَحكُّمه ، وأُعِيدَ إلىٰ مكانته التى رَقَاها باسْتِحقاقه قَدِيمـا ، ورُفِعَ إلىٰ منزلَتِه التى لم يَزَلْ بقواعدها خَبِيرًا وبأوْضاعها عَلِيما ـ مَن ارتقىٰ فى رتبته إلىٰ نَجْم أُفُقِها ، وٱقْتدىٰ فى مَناهِجِه بدَلِيـل مسالكها وطُرُقِها ؛ فأتَىٰ فى مصالحها بيوتَ الإصابَة من أبوابها ، ونَقَل فيهـا أوْضاعَ الإجادة عمَّن كان أدْرىٰ بها ؛ وتقـدَّم فيها تقدُّمَ هِجْرَتِه وسَبْقِ قِدَمِه ، وبلَغ فى مقاماتها الغايَةَ بين وَثَبَاتِ سَاعِدِه وثَبـاتِ قَدَمِه ؛ وجمع من أشـتات الطَّير ما ٱفترق فى غيره ، وحَوىٰ من السَّبْق إلىٰ أنْواعها ما حكم بسَعْد نَجْمِـه ويُمْن طَيْره ؛ فكَمْ ليلةٍ أسْفر فيما أبْرزُوه عن صباح نَجاحِه ، وكَمْ طائرٍ زاحم النَّسْرَيْنِ بقوادمه أصْبح لدَيْه محمولًا بجَنَاحِه ؛ وكَمْ أنزلت أهِلَّةُ قِسِـيِّه الطيْرَ علىٰ حُكْمِها ، وكم حَكَتْ بَنادِقُه فى رُجوم الطَّيْرِ المُحلِّقَـةِ إلى السماء ٱنقِضَاضَ نَجْمِها ؛ وكَمْ أبصَرَ مقاتِلَ الطَّير وهى من اللَّيل فى ظُلُماتٍ بعْضُها فوقَ بَعْض ، وكَمْ ٱشتغل من الطير الواجب بنَدْب رَمْيٍ لم يشْغَلْه من إعداد الأُهبـة للجهاد عن الفَرْض ؛ حتَّىٰ كاد النَّسْر الطائر إذا توهَّم أنَّ الهِلالَ قَوْسُه يَغْدو كأخِيه واقعا ، والمِرْزَم المحلِّقُ فى الأُفُقِ يُمْسِى لإشارة

بنادقه الصُّمِّ متتبِّعا ؛ حتى أصبحَ وهو الكبير فى فنِّه بآداب التعريف ، وأضحىٰ وهو الخبيرُ بنَوْعِه بطريق النَّقل والتَّوْقيف .

ولمَّا كان فلانٌ هو كبيرَ هـذا الفَنِّ وخبيرَه ، ومُقَـدَّمَ هذا النَّوع الذى لم يزل بَجْلائه عَظِيمَ كلِّ عَصْر وأميره ، وقديمَ هذا المَرْمَى الذى جُلُّ المراد به الجِدُّ لا اللَّعِب ، وأليفَ هذا المَرامِ الذى يَنْشَطُ إليـه اللاَّعِبُ ويستَرْوِحُ إليه التَّعِب ـ ٱقتضى الرأْىُ الشريف أن نجعلَه حاكمًا فى هـذه الرتبة الجليـلة بمـا علم أو عُلِّم منها ، فاصِلًا بين أهْلِها بمعرفتـه التى ما بَرِحَتْ يُؤْخذ بهـا فى قواعدها وينقَلُ عنهـا ـ فرُسم بالأمر الشريف أن يكونَ حاكمًا فى البُندق .

فلْيَسْتقِرَّ فى هذه الرتبة التى تلَقَّاها ، بيمين كِفَايَتِه ويُمْنِه ، وٱرْتقاها ، بتَفَرُّده فى نَوْعه وتَقـدُّمِه فى فَنِّه ؛ ولْيعتَمِدِ الإنصافَ فى أحكام قَواعِدِها ، وإجْراءِ أمْر أربابها على أحوالهـا المعروفة وعَوائِدِها . ويُنافِسِ المعْرُوفين بها على التَّحَلِّى بآدابها ، والتَّمسُّـك من المُروءَة والأُخُوَّة بأفْضَـل أهْدابِها ؛ ويُنْصِفْ بينهم فيما يُعْتَـدُّ به من وَاجِبِها ، ويُلْزِم الداخلَ فيها بالمَشْىِ على المأْلُوف من طُرُقها والمعروفِ من مَراتِبِها ؛ ولا يَحْكُمْ فى التقديم والتأخير بهَوَى نَفْسِه ، ولا يقْبَلْ من لم يَتَحَرَّ الصِّدْقَ فى يومه أنَّه قُبِل منه فى أمْسِه ؛ فإنَّ ٱسْـتِدامةَ شروطها أمانٌ من السُّـقوط عن دَرَجِها ، وإذا حَكَّمتْ نفوسُ أهْلِها الصِّدْقَ فى أقْوالها وأفْعالها فقد خَرجَتْ من خَطِّ حَرَجِها ؛ ولْيَرْعَ لذَوِى التقدُّم فيها قِدَم هِجْرَتِهم ، وٱشْتِهارَ سيرتِهم الحسنة بين أسْرَتِهم ؛ وقد خُبِرَ من أوْصافه الحَسَنه ، وسَابِقِ رُتْبته التى لم تكن عَيْنُ العِناية عنها وَسِنَه ؛ ما ٱقتضَى ٱستقرارَ رُتْبته علىٰ مكانتها ومكانِهـا ، وٱكتُفِى له من مَبْسوط الوصايا بعُنْوانها ؛ فلْيتَّقِ اللهَ فى قوله وعمله ، ويجعلْ الاعتماد علىٰ تَوْفيقه غايةَ أَمَلِه ؛ والخيرُ يكون : إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك ما يُكْتَبُ به فى إلْباس الفُتُوّة .

اِعلم أنَّ طائفةً كبيرةً من الناس يذهبون إلىٰ إلباس لِباس الفُتُوّة، ويقيمُون لذٰلك شروطًا وآداباً جاريةً بينهم . ينْسُبون ذلك فى الأصل إلىٰ أنَّه مَأْخوذٌ عن الإمام علىٍّ كَرَّم اللهُ وجهَه .

والطريقُ الجارى عليـه أمْرُهم الآنَ أنّه إذا أراد أحدُهم أخْذَ الطَّريق عن كَبيرٍ من كبراء هذه الطائفة، ٱجتمع من أهْلها من تَيَسَّر جمْعُه، وتقدّم ذلك الكبيرُ فيُلْبِس ذلك (١) ثِيابًا، ثم يجعلُ فى كُوز أو نَحْوه ماءً ويَخْلِط به بعْضَ مِلْح، ويقومُ كلٌّ منهم فيشربُ من ذلك المـاء وينْسُبه إلىٰ كبيره . وربَّما ٱعتنىٰ بذلك بعضُ الملوك . وقد جَرتِ العادةُ فى ذلك أنه إذا ألْبس السلطانُ واحدًا من الأُمَراء أن يكتبَ له بذلك تَوْقيعًا .

وهذه نسخةُ توقيع بفتوّة، من إنشاء القاضى مُحيِي الدِّين بن عبدالظاهر، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل أنسابَ الفُتُوّه، متصلةً بأشْرف أسْبابِ النُّبوّه، وأفْضلِ من أمدّه منه بكلِّ حَيْلٍ وقُوّه، وأسْعد من سَما فكان عليًّا علىٰ كلِّ من سام عُلُوّه .

نحمدُه حمـدًا تغْدُو الأفواه به مَمْلُوّه، ونشكُره علىٰ مواهبِـه بآيات الشُّكْر المَتْلُوّه ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ من جعـل إلىٰ مَنْهَج التوحيـد رَوَاحَه وغُدُوّه ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شدَّ اللهُ أزْرَه بخيرِ من أفْتىٰ وفتّىٰ فنال كلُّ فَتِوىٍّ من الفِتْيانِ به شَرفَ الأُبُوّة والبُنُوّه، صلّى اللهُ عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين نصروا وَلِيَّه وخذَلُوا عَدُوّه، صلاةً موصِّلةً إلىٰ نَيْلِ الأمانىِّ المرْجُوّه .

(١) بياض بالأصول، ولعله : المريد أو نحوه .

وبعدُ، فإنَّ خيرَ من ٱتَّصل به رجاءُ الرجال الأجْواد، وطَوَى البعيدُ إلىٰ تحْصيل مَرَامه كلَّ طَوْد من الأطْواد، وأماط به عن مكارم الأخلاق لِثَامَ كلِّ جُود وٱمْتطىٰ ظهْرَ خيرِ جَوَاد، وٱسْتمسَكَ من ملابس الشَّرف بمـا يؤمِّن ويؤمِّل وما يشدّ به من كلِّ خيرِ لباسَ التَّقْوىٰ، وما تُؤَيَّد به عزيمته فتقوىٰ، وما يتقيد به علىٰ رءُوس الأحزاب، وما يتنزل به عليـه أحْسنُ آيَةٍ من هذا الكتاب ــ من ٱشْتهر بالشَّجاعَة التى تَقَدَّم بها علىٰ قَوْمِه، وحَمِـدَ أمْسَها فى يَوْمِه؛ وبالشَّهامة التى لهـا ما للسِّهام من تَفْوِيق، ولِزُرْقِ الأسِنَّة من تحْذيق؛ ولِبِيض الصِّفاح من حدَّة مُتُون، وللسَّمْهَرِيَّةِ من ٱزْدحامٍ إذا ٱزْدَحَمَت المَنُون؛ ومن صِدْق العَزِيمَه، مايشهد به كرمُ الشِّيمَه؛ ومن شِدَّة الباس، مايجتمع [به] علىٰ طاعته كثيرٌ من الناس؛ ومن صِدْق اللَّهْجَةِ واللِّسان، ما ٱتَّصف عَفافُه منهما بأشْرفِ مايتَّصِفُ به الإنسان؛ ومن طَهارَةِ النَّفْس مايتنافَسُ علىٰ مِثْله المُتَنافِسُون، ويَسْتضيءُ بأنوارِه القَابِسُون، ويَرْفُلُ فى حُلَلِ نَعْمائه اللَّابِسُون؛ و[كان] من الذين أبانُوا عن حُسْن الطاعة وأنابُوا، وإذا دُعُوا إلىٰ ٱسْتِنفارِ جِهادٍ وٱجتهاد لَبَّوْا وأجابُوا؛ والذين لايَلْوُون ألْسِنَتَهم عن الصِّدْق، ولا يُوَلُّون وُجُوهَهم عن الحَقّ؛ والذين لايُقْعِدهُم عن بلوغ الأوطار مع إيمـانِهم حُبُّ الأوطان، وإذا نَفذُوا فى حَرْب حِزْب الأعْداء لايَنْفُذُون إلا بسُلْطان .

ولمـا كان فلانٌ ذُو المَفاخِر، والمآثِر، أميرُ الفِتْيانِ، مُمَيَّزُ الإخْوان والأعْيان؛ هو صاحِبَ هذا المَحْفِل المَعْقود، والممْدُوحَ بهـذا المَقالِ المحْمود، والممنوحَ بهذا المقـام المشْهُود؛ والثَّنـاءِ الذى سَرَّ بالَهُ بمـا سَرْبَلَه أثوابَ العِزَّة والفَخار، والٱعتناءِ الذى ٱستخير اللهُ فى ٱصْطِفائه وٱخْتيارِه فى ذلك نخار ــ ٱقتضَىٰ حُسْنُ الرأْيِ الشريف ــ كَرَّم اللهُ أنصارَه، وأعلىٰ مَنارَه ــ أن نُجيبَ وَسائِلَ مَن وقَفَ فى هـذا القَصْد وَقْفَةَ سائِل، لِيَنَال بذلك كلَّ إحسان وإحْسانَ كلِّ نائِل؛ ودعا إلى الكريم العامِّ بالإنعام،

والدعاء لسُلْطان يُدعَىٰ له ويدعو كلُّ الأنَام ، فقال : أسْألُ اللهَ وأسْألُ سُلطانَ الأرض، مَلِكَ البَسِيطَةِ إمامَ العَصْر، رَافِعَ لِواءِ النَّصْر، ناصرَ المِلَّة المُحَمَّدِيَّه، مُحيي الدَّولة العبَّاسِيَّه، فاتحَ البلادِ والقِلاعِ والأمصار، قاهرَ الكُفَّار مُبيد الفرنجِ والأرْمَنِ والتَّتار، سُلطانَ الزَّمان، خُسْرُوانَ إيران، شَاهِنْشَاه القان ، سُلطانَ العالَمِ وارثَ المُلْك ، سُلطانَ العَرَبِ والعَجَم والتُّرْك، الذى آنتهىٰ إليه عن أميرِ المؤمنين الإمام الأوّاب، المِغْوار، علىّ بن أبِي طالب ذِى الفَخَار، شَرفُ الفُتُوَّة وآتِّصالُ الأنْساب.

قلتُ : هـذا ما وقفْتُ عليه من نُسْخة هذا التَّوْقيع . وقد ذكر الشيخُ شِهابُ الدِّين محمودٌ الحَلَبِيُّ فى كتابه "حسن التوسل" نسخةَ تَقْليد أنشأه فى الفُتُوَّة ، أسقط منه أوّلَ الخُطبة وهو : ـ وابْتدأ منه بقوله :

نحمَدُه علىٰ ما مَنَحنا من نِعَم شتَّىٰ ، ووَهَبنا من عِلْم وحِلْم غَدَوْنا بهما أشْرف من أفتىٰ، وآتانا ملك خِلال الشَّرَف الذى لا ينبغى لغيرِ ما آختصنا به من الكمال ولا يتأتَّىٰ، وخَصَّنا به من رَفْع أهْـلِ الطاعة إلىٰ سمـاء النِّعَم يَتَبوَّءُون من جِنانِ الكَرَم حيثُ شَاءُوا : وغَيرُهم لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماءِ ولا يدخلون الجنَّةَ حتَّىٰ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةَ من آنتمىٰ فى فخار أُبُوَّة التُّقَىٰ إلىٰ حَسَب عَلِيّ، وآنتهىٰ فى بأوة البُنُوَّةِ إلىٰ سَببٍ قوىٍّ ونَسَب زَكِيّ، وآرْتدىٰ حُلَلَ الوَقار بواسطة الفُتُوَّة عن خيرِ وَصِىٍّ عن أشْرف نَبِيّ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى نور شَريعَته جَلِيّ، وجَاهُ شفاعته مَلِيّ ، وبسَيْفه وبه حاز النَّصْر من آنتمىٰ وفاء إليـه : فلا سَيْفَ إلَّا ذُو الفَقارِ ولا فَتَى إلَّا عَلِيّ .

وبعـدُ، فإنَّ أولىٰ من لَبَّىٰ إحْسانُنا نِداءَ وُدِّه، ورَبَّى آمْتنانُنا نِتاجَ وَلائِه الموْرُوث عن أبِيه وجَدِّه، ورقَّاه كَرَمُنا إلىٰ رُتْبة عَلاءٍ يَقفُ جَوادُ الأملِ عن بُلوغِها عند حَدِّه؛

وتَلَقَّتْ كرائمُنا وَفْدَ قَصْـدِه بالتَّرحيب، وأنزلت جَارَ رَجائه من مصر نَصْرها بالحَرَم الآمِن والرَّبْع الخَصيب، وأدْنتْ لأمَلِه ما نأىٰ من الأغْراض حتى بلَغَهُ بفَضْلِها سَهْمُ ٱجْتهاده المُصيب ، وأعَدَّتْ له من حُلَلِ الجـلالة ما هو أبهىٰ من رِداءِ السماء الذى تَزْدادُ على الأبَدِ جِدّةُ بُردِه القَشيب، وخَصَّـتْه لأبْناءِ المَجْـد بأجَلِّ بُنُوّة جعلَتْ له فى إرْث خِلالِ الشَّرف أوْفر حَظٍّ وأوْفىٰ نَصيب ـ من سَمَتْ مَنابِرُ المَجْـد بذِكْرِه ، وٱبْتسمَتْ أسِرَّةُ الحَمْـد بشُكْر أوصافه ووَصْف شُكْرِه، وٱخْتالَتْ موادُّ الثناء بحسن خِلالِه ، وٱختارتْ كواكبُ السَّناء إقبالَ طوالِعه بطوالع إقْباله ؛ وتَمسَّكَ من طاعَتِنا بأمْثل أسْباب الهُدىٰ ، وٱعْتصم بعُرْوَةِ بُنُوّة الأبناء فأوْطأه التَّوثُّق بها رِقابَ العِـدا ، وٱتَّصف بمحاسن الشِّيَم فى مَوَدَّتِنا فأضحىٰ فَتِيَّ السِّنِّ كَهْلَ الحِلْم يهتَزُّ للنَّـدىٰ ؛ وٱنتمىٰ إلينا فأصْبح لدينا مَلِكًا مقرَّبا ، وأوْجب من حُقوق الطاعة علينا ما أمْسىٰ به لدينـا ـ مع جَلالَةِ الأبْناء ـ ٱبْناً وغَدَوْنا له ـ مع شَرَف الآباء ـ فى نَسَبِ الفَخْرِ العَريق أبا ؛ ونَشأ فى مهاد المُلْك فسَما به للعِلْمِ والعَلَم ، بالسَّيف والقَلَم ، والبأس والكَرَم ، وٱعتزىٰ إلىٰ أُبُوَّة حنوّنا بنُنُوَّة رجائه فتَشَبَّه بعَدْل أيَّامنا : «ومَنْ يُشْبِهْ أبَاه فما ظَلَم» ؛ وتَحَلَّى بصِـدْق الوَلاءِ وهو أوَّلُ ما يطلب فى سرِّ هذا النَّسب ويُعْتَـبر ، وتَخَلَّىٰ لنكاية عدوّ الإسلام بلُطْف مُكايَدَة : السيوف تَجُزُّ الرِّقاب «وتَعْجز عما تنال الإبَر» .

ولمَّـا كان فلانٌ هو الذى زانَ بمُوالاتِنا عُقُودَ مَجْدِه ، وزادَ فى طاعتنا علىٰ ما وَرِث من مكارم أبيه وجَدِّه ؛ وزانَ المُلوكَ فى إقبال شَبابِه ، وصانَ مُلْكَ أبيه عن عوارض أوْصابِه بٱتِّباع ما أوْصىٰ بِه ، وأنِفَتْ صَوارِمُه أنْ تكونَ لغيرِ جِهاد أعْداء الله مُعَدَّه ، وعَزائِمُـه أن تَتَّخذَ عَدُوَّ الله وعدوّه اوليـاءَ تُلْقِي إليهم بالمَوَدَّه ؛ وسِهامُه أن تُسـدَّد [الا] إلىٰ مَقاتِل العِدا ، وأسِنَّته أن يُبَلَّ لهـا من غير مَناهِلِ صُدُورِ الكُفْر صَـدَىٰ ؛ مع ٱجْتماع خلال الشَّرف لشَرف خلاله ، وٱفْتراق أسْـباب السِّرار عن هَالَة كماله ؛

وسُؤاله ما ليس لغيره أنْ يمدّ إليه يدا ، وآلتِماسه من كَرمنا العميم أجلّ ما نَحَل والدٌ ولَدا ، وأنّه وقف علىٰ قَدَم الرَّجاءِ الثّابِت ، ومَتّ بِقِـدَمِ غُروسِ الوَلاءِ التى أصْلها فى رَوْض المَوَدّةِ نَابِت ؛ وقال : أسْأَلُ اللهَ وأسْأَلُ سُلطان الأرض ، القـائِمَ لجِهادِ أعْداء الله بالسُّـنَّة والفَرْض ، فاتِحَ الأمْصار ، الذى لم تَزلْ سُيوفُه تُهاجِرُ فى سبيل الله عن غُمودِها إلىٰ أن صار له من الملائكة الكِرَامِ أنْصار ، الذى كَرَّم الله شرفَ الفُتُوَّة بآنْتمائِها إليه ، وأعْلىٰ قَدْرَ بُنوّة المرُوءَةِ بآتِّصالها به عن الخلفاء الراشدين عن أب أوّاب عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رِضْوانُ الله عليـه ؛ وأورثَه من خُلُقِـه الكَرَمَ والبَأْسَ فتَحَلَّيا منه بأجَلِّ مُوافٍ مُوافِق ، ومنَحَه بحِفْظ العَهْد من خصائِصه ماعَهِدَ به إليه النَّبىُّ الأُمّىُّ من أنَّه مايُحِبُّه إلا مُؤْمنٌ ولا يُبْغضه إلا مُنافق ؛ أعزَّ الله سلطانه ، وأوْطأ جِيادَه مَعاقِلَ الكُفْر وأوْطانَه ، أن يتقبَّـلَ قَصْدى بقَبُول حَسَن ، ويُقْبِـلَ بوَجْه كَرَمِه علىٰ أمَلِى الذى لم يَقْعُدْ به عن فُروض الطاعات وسُننِها وَسَن ، ويَنْظِمَنى فى سلك عقود الفُتُوَّة ملْتزِمًا بأسْبابها ، مقْتَديا بطاعته التى هى أكْمَلُ أنْسابِها ، متَّصِفًا بموالاته التى لايَثْبُت لهـا حُكْمٌ إلّا بها ، آتِيًا بشروط خدْمَتِه التى من لم يَأْتِ بها علىٰ ما يجب فمـا أتَى البيوت من أبوابها .

فاستخرنا اللهَ تعالىٰ فى عَقْد لِواءِ هذا الفَخَار لمجْده نخَار ، ونظمْناه لعقْد هذا المقام الكريم واسطةً لمثْله كان يَزِينُها الآدِّخار .

فرُسِم بالأمر الشريف ـ لازال جُودُه يُعْلِى الجُدُود ، ويُوَطِّدُ لأبْناء ملوك الزَّمن من رُتب الشرف فوقَ ما وطَّدَتِ الآباءُ والجُدُود ـ أن نَصِلَ سَبَبه بهذا السَّبَب الكريم ، ونعقِدَ حَسَبه فى الفُتُوَّة بأواخى هذا الحَسَب الصَّميم ، ونعْدِقَ نَسَبه بأصالة هٰذه الأُبوَّة التى هى إلا عن مثْله عَقِيم ، ويُفاضَ عليه شِعارُ هذا الخُلُق المتَّصل عن أكرم وَصىٍّ بمن قال الله تعالىٰ فى حَقِّه : ﴿ إنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيم ﴾ .

فليحُلَّ هذه الهَضْبَةَ التى أخَذَتْ من مرافق العِزِّ بالمَعاقِل، ويُحَلِّ هذه الرتبةَ التى دُونَ بلوغها من نوع الفَراقِد ألْفُ رَاقِد؛ ويَجُرَّ رِداءَ الفَخْرِ علىٰ أهداب الكواكب، ويُزاحِمْ بمواكب مَجْدِه النجومَ علىٰ وُرُود نَهْر المَجَرَّة بالمناكب؛ ولْيصل شرف هذه النسبة من جِهَتِه بمن رآه أهْلًا لذلك، ولْيُفْتِ فى الفُتُوَّة بما عَلِم من مذهبنا الذى ٱنتهىٰ فيه منَّا إلىٰ مالك؛ وليُطِلْ علىٰ مُلوك الأقْطار، بهذه الرتبة التى تَفانَى الرِّجالُ علىٰ حُبِّها، ويَصُلْ علىٰ صُروف الأقْدار، بهذه العناية التى جعلَتْه ـ وهى حِلْيَةُ حِزْبِ اللهِ ـ من حِزْبها؛ وليصِلْ سِرَّ هذا الفَضْل العميم بإيداعه إلىٰ أهْله، وٱنتزاعه ممن لم يَرَه أهْلًا لحَمْلِه.

قلتُ: وما تقدّم مما يُكْتب عن الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية والممالك الشامية، لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وغيرهم: من التَّقاليد، والتَّفاويض، والتَّواقيع، والمراسيم: المُكَبَّرة والمصَغَّرة، ليس هو علىٰ سبيل الٱستيعاب، بل علىٰ سبيل التَّمثيل والتَّذكير، لِيُنْسَجَ علىٰ مِنْواله، ويُنْهَجَ علىٰ نَهْجه. فإنَّ ٱستيفاءَ ما يكتب فى ذلك مما يَشُقُّ، ويقِفُ القَصدُ دونه. بلْ لا بدّ من حوادثَ تَحدُث لم يسبق لها مثال يقتفىٰ أثَرُه. فيحتاج الكاتب إلىٰ حُسْن التَّصرُّف فى إيراد ما يلائم ذلك ويُناسبُه. وكلُّ كاتب ينفقُ من كَسْبه، علىٰ قَدْر سَعَتِه، والله تعالىٰ هو الموفق إلىٰ نَهْج الصواب، والهادى إلىٰ طريق الحَقِّ فى الأُمور كلِّها، بمَنِّه وكَرَمه.

الفصـــل الثالث

من البـاب الرابــع من المقـالة الخامســة

(فيما يكتب من الولايات عن نوّاب السلطنة ، وفيه طرفان)

الطـــرفُ الأوّل

(فى مقدّمات هذه الولايات ، ويتعلق بها مقاصدُ)

المقصــد الأَوّل

(فى بيان مَن تصدُر عنه الولايات : من نوّاب السلطنة)

اِعلم أنّ نوّاب السلطنة بالديار المصرية لا تصدُر عنهم ولايةٌ فى جَليل ولا حَقير، بل التولية والعَزْل مَنُوطانِ بالسُّلطان ، والكتابةُ فى ذلك مَعْدُوقةٌ به ، سواءٌ فى ذٰلك النائبُ الكافلُ ، ونائبُ الإسكندرية ، ونائِبَا الوَجْهين : القبليّ والبحريّ ، إلا ما يكتبُ عليه النائبُ الكافلُ من القِصَص فى صغائر الولايات : من نَظَر الأوقاف وغيرها ، ثم تُعيَّن ويُكْتب بها تواقيعُ سلطانية .

أمّا نوّاب السلطنة بالممالك الشامية : وهم نائبُ السَّلطنة بالشام ، ونائبُ السَّلطنة بحَلَب ، ونائبُ السلطنة بطرَابلُس ، ونائبُ السلطنة بحَمَاة ، ونائبُ السَّلطنة بصَفَد ، ونائبُ السلطنة بغَزّة ، إذا كانت نيابةً لا تَقدِمَةَ عَسكر .(١)

(١) يظهر أن هنا سقطا ولعله « فتصدر عنهم الولاية » أخذا مما تقدّم .

المقصـــــد الثـانى

(فى بيان الولايات التى تصدر عن نوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدّم فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبْواب السلطانية بالممالك الشامية ، أنَّ نُوّاب هذه الممالك يَسْتَبِدُّون بتَوْلِية وُلاة الأعْمال، وقد يَسْتَبِدُّون أيْضا بتوليــة صِغار النُّوَّاب ، كالقِلاع والبُلْدان التى تكون نيابتها إمْرة عَشَرة . ورُبَّمـا آستبدُّوا بتوليــة بعض النيابات التى تكون نيابتهـا إمْرَةَ طَبْلخاناه ، إلّا أنَّ توليــةَ العشرات عن النوّاب أكْثرُ، وتوليةَ الطبلخاناه عن السُّلطان أكثر . أمّا النيابات التى تكون نيابَتُها تقدِمَةَ ألْف ، فإنّها مختصةٌ بالسلطان . والنياباتُ التى يكون مُتولِّيها جُنْدِيًّا أو مقــدّمَ حَلْقة فإنّهـا مختصةٌ بالنوّاب . وأنَّ توليــةَ أكابرأرْباب الأقلام : كَكاتبِ السِّرّ، والوزيرِ بالشّام، حيث جعلت وزارةً ، وناظرِ النُّظار ، حيث جعلت نَظَرا ، وأصحاب دواوين المكاتبات ، ونُظّارِ المـال بسائر الممالك ، ونُظّارِ الجَيْش ، وقُضاةِ القُضاة بهـا ــ فإنَّ التوليــةَ (١) فى ذلك تَخْتص بالسلطان دون النوّاب . وما عدا ذٰلك يولِّى فيه السلطانُ تارةً، والنوّابُ أخرىٰ . ورُبَّمـا حصلتِ الولاية فى بعض ذٰلك من بعض النوّاب ثم يُكْتب من الأبواب السلطانية بالحَمْـل عليها، علىٰ ما تقدم بَسْطُ القول فيه هناك، فلْيُراجَعْ منه .

---

(١) أعاد هذه الكلمة لطول الفصل .

المقصـــد الثالث

[فى افتتاحات التواقيع والمراسيم بتلك الولايات]

تقدّم فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية أنّه يراعىٰ فيها بَراعةُ الاستهلال فى الافتتاح وأنّ الافتتاح فيها بـ«الحمد لله» أعلىٰ من الافتتاح بـ«أما بعدُ» والافتتاحَ بـ«أمّا بعدُ» أعلىٰ من الافتتاح بـ«رُسِم بالأمْر الشريف» وأنّ لفظَ «أمّا بعدُ» أعلىٰ من لفظ «وبعدُ» وأنه يراعىٰ فى الولايات وصفُ المتولِّى والولاية، ويُؤْتىٰ لكلٍّ أحد من ذلك بما يناسبه من صفات المدح، ثم يقال: "ولما كان فلان هو المشارَ إليه بالصفات المتقدّمة، اقتضىٰ حسنُ الرَّأى أن يستقرّ فى كذا ونحو ذلك". ثم يؤتىٰ من الوصايا بما يناسبُ مقام الولاية والمتولِّى لها، ثم يؤتىٰ بالاختتام: من المَشيئَة والتَّاريخ، والحمْدَلَةِ، والتَّصْلية، والحَسْبَلَة.

والأمر فيما يكتب عن النوّاب جارٍ علىٰ هذا المَنْهج إلّا فى أُمور قليلة:

منها — أنَّ جميعَ ما يُكْتب عن النوّاب بالشَّام يقال فيه «تَوْقيعٌ» ولا يقال فيه «تَقْليدٌ» ولا «تفويضٌ» وربما قيل «مَرْسُومٌ» فى أُمورٍ خاصَّة.

ومنها — أن التَّوقيع يوصف بـ«الكَريم» لا بـ«الشَّريف» فيقال: «توقيعٌ كريمٌ أنْ يستقرّ فلانٌ فى كذا» أو «مرسومٌ كريمٌ لفلان بكذا» بخلاف ما يكتب عن الأبواب السلطانية، فإنَّه يوصف بكونه «شَريفًا» فيقال: «تقليدٌ شريفٌ» و«تَفْويضٌ شريفٌ» و«مَرْسومٌ شريفٌ» و«تَوْقيعٌ شريفٌ» علىٰ ما تقدّم ذكره.

ومنها — أنّ(١) الكاتبَ يأْتِى بنون الجمع [جاريا](٢) فى ذلك علىٰ من تصدر عنه الولاية، كما أنَّ الولايات عن الأبواب السلطانية [يجرى فيها على](٢) العادة فى الكتابة

---

(١) ذكر هذا فى المخالف سهو فانه موافق لما يكتب عن السلطان أو الملك كما لا يخفىٰ. (٢) بياض بالأصل.

عن الملوك . وكأنهم راعَوْا فى ذلك أنَّ المكتوبَ عنه هو السلطانُ فى الحقيقة ، وفعلُ النائبِ كأنَّه فعلُه نَفسه ، كما يقال : هَزَم الأميرُ الجيْشَ ، وفتح السلطانُ المدينةَ ، والذى هَزَم وفتح إنَّما هم جُنْدُه لا هو فى نَفْسِ الأمر .

ومنها ــ أنَّه إذا آفتتح التوقيع بـ«رُسم بالأمر» ــ لا يوصف بـ«الشَّريف» بل بـ«العالى» علىٰ ما تقدّم . فيقال : «رُسم بالأمر العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكِىّ ، الفُلانى الفلانىّ» . وكذلك إذا أُتِى بذكر «رسم» بعد الآفتتاح بـ«الحمد لله وأما بعد» فإنَّه يقال فيه : «العالى» دون «الشريف» .

قلتُ : هذا ما كان الأمرُ عليه فى الزَّمن المتقدّم كما أشار إليه المقرُّ الشِّهابىُّ آبن فَضْل الله فى "التعريف" . ثم آستقرّ الحال علىٰ وَصْفِ الأمر بـ«الشريف» فيقال : «رسم بالأمر الشريف العالى» إلىٰ آخره ، كما يكتب عن السلطان .

ومنها ــ أنَّه يقال فى آخر التوقيع : «والآعتمادُ على الخط الكريم أعْلاه» ولا يقال : «على الخط الشريف» ، كما فى السلطان .

ومنها ــ أنَّه لا يذكر فى تواقيع النّوّاب مستندُ كتابتها ، كما يُكْتب فيما يُكْتب عن السلطان .

المقصد الرابع
(فى بيان الالقاب)

قد تقدّم فى المقالة الثالثة ، فى الكلام على الولايات الصادِرَة عن الأبْواب السلطانية أنَّ أعلىٰ ما يكتب لِأرباب السيوف «المقرّ الكريم» ثم «الجناب الكريم» ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى» ثم «المجلس السامىّ» بالياء ، ثم «المجلس السامى» بغير ياء ، ثم «مجلس الأمير» ثم «الأمير» .

وأن أعلىٰ ما يكتب لارباب الوظائف الديوانية : « الجناب العالى » ثم « المجلس العالى » ثم « المجلس السامىّ » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء، ثم «مجلس القاضى» ثم «القاضى» .

وأن أعلىٰ ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية : «المجلس العالى» . ثم ٱستقرّ أعْلىٰ ما يكتب لهم : «الجناب العالى» و «المجلس العالى» بعده، ثم «السامىّ» بالياء، ثم «السامى» بغير ياء ، ثم «مجلس القاضى» ثم « القاضى» علىٰ ما تقدّم فى أرباب الوظائف الديوانية ، إلّا فيما يقَعُ الٱختلاف فيه من الألقاب والنُّعوت الخاصّة بكلٍّ منهما .

وأنّ أعلىٰ ما يُكْتب لأرباب الوظائف الصُّوفيّة : « المجلس العالى » ثم « المجلس السامىّ» بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس الشيخ » ثم « الشيخ » .

وأنّه يُكتب لأرباب الوظائف العادية : «المجلس السامى ، الصدر الأجل» أو «مجلس الصدر» أو «الصدر» .

وأنّه يُكْتب لزعماء أهل الذِّمة ألْقابُهم المتعارَفةُ . فيُكتب لرئيس اليهود : «الرئيس» ولبطاركة النّصارىٰ : «البَطْرك» ونحو ذلك .

فأمّا ما يُكتب عن نوّاب الشام، فعلى أصْناف، كما تقدّم فى الألْقاب التى تكتب عن الأبواب السلطانية ، مع ٱختلافٍ فى بعض الألقاب بزيادة ونقص ، وعلوّ وهبُوط .

الصــــنف الأوّل

(أرباب الســـيوف، ولألقابهم مَرَاتِبُ)

المرتبة الأُولىٰ — المقرُّ الشريف . وبذلك يُكْتب للطبقة الأُولىٰ من مَقَدّمى الألوف بالشّام، وحَلَب، وطَرابُلُس، إذا وُلِّى أحدٌ منهم نَظَرَ وقف، أو نحو ذلك . أمّا غير هذه الممالك الثلاث ، فقد تقدّم أنّه ليس فى شيءٍ منها تقدمةُ ألْف، ويقال فيه عندهم : « المقرُّ الشريفُ، العالى، الموْلَوِىّ ، الأميرىّ، الكَبيرىّ، العـالمىّ، العادِلىّ ، العَوْنىّ، الغِياثِىّ، الزَّعيمىّ، الظَّهيرىّ ، المَخْدومىّ ، الفُلانىّ، عزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّد الأُمراء فى العالَمين ، ناصِر الغُزَاةِ والمجاهـدين ، زَعِيم جُيوش المَوحِّدين ، عَوْن الأُمَّة، كَهْف المِلَّة ، ظَهِير الملوك والســلاطين ، فلان الفلانى : أعَزَّ الله تعالىٰ أنصاره » .

المرتبة الثانية — المقرُّ الكريم . وبذلك يكتب للطبقة الثانية من مقدّمى الألوف ، ويقال فيــه : « المَقَرُّ الكريم ، العــالى ، المَوْلَوِىّ » . بنحو الألقـاب المتقدّمة .

المرتبة الثالثة — المقرّ العالى . وبه يكتب للطبقة الثالثة من مقدّمى الأُلوف، ويقال فيه : « المَقَرُّ العالى ، المولوىّ » بنحو الألقاب المتقدّمة أيضا [كما](١) يكتبُ لنقيب الأشراف بحَلَب ، وهى : « المَقَرُّ العـالى، الأميرىّ، الكَبيرىّ، النَّقيبىّ، الحَسِيبىّ، النَّسِيبىّ ، العَرِيقىّ، الأصيلِىّ، الفَاضِلىّ ، العلّامىّ، العـارِفىّ، الحُجِّىّ، القُـدْوىّ، النَّاسِكىّ، الزَّاهِدىّ، العَابِدىّ، الفُلانىّ، جَلال الإســلام والمسلمين ، جمال الفُضَلاء البارعين، فَخْر الأُمراء الحاكمين، زَيْن العِتْرة الطاهره، شَرَف الأُسرة

---

(١) بياض بالأصول .

الفاخِرَه، حُجّة العِصابة الهاشميه، قُدْوَة الطائفة العَلَويّه، نُخْبة الفِرْقَة الناجية الحَسَنيّه، شَرَف أُولى المراتب، نَقِيب ذوى المناقب، مَلاذ الطُّلّاب الدّاعين، بركة الملوك والسلاطين، فلان : أسبغ الله عليه ظلاله » .

المرتبة الرابعة — الجَناب الكريم . وبه يُكْتَب للأُمراء الطّبلخاناه، ويُقال فيه : « الجناب الكريم، العالى، المَوْلَوِىّ، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ، المجاهدىّ، المُؤَيِّدىّ، الذُّخْرِىّ، الظَّهيرىّ، الفُلانىّ، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأُمراء فى العالَمِين، نُصْرة الغُزاة والمُجاهِدين، ظَهِير الملوك والسلاطين، فلان : أعَزَّ الله تعالىٰ نُصْرته » .

المرتبة الخامسة — الجناب العالى . وبه يُكْتَب لأُمراء العِشْرِينَات، ويُقال فيه : « الجناب العالى، الأميرىّ، الكَبِيرى، الذُّخْرِىّ، النَّصيرىّ، المجاهِدِىّ، المؤَيِّدىّ، الأوْحَدِىّ، الأكْمَلِىّ، الظَّهِيرىّ، الفُلانى، مَجْد الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء فى العالَمِين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، ظَهِير الملوك والسلاطين، فلان أدام الله تعالىٰ نِعْمته » .

المرتبة السادسة — المجلس العالى . وبه يُكْتَب لأُمراء العَشَرات، ويُقال فيه : « المجلس العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، الأجَلِّىّ، المُجاهِدىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ، الهُمامِىّ، الأوْحدىّ، الذُّخْرىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء فى العالَمِين، نُصْرة الغُزَاة والمجَاهِدين، عَضُد الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ رِفْعَته » .

المرتبة السابعة — المجلس السامىّ بالياء . وبه يُكْتَب لمقدَّمِى الحَلْقة، وأعْيان جُنْد الحَلْقة، ويقال فيه : « المجلسُ السامىّ، الأميرىّ، الأجَلِّىّ، الكَبِيرىّ،

المُجاهدىّ، الأعَزِّىّ، الأخَصِّىّ، الأكْمَلىّ، الأوْحدىّ، الفُلانىّ، مَجْد الأُمراء، زَيْن الأكابر، ذُخْر المجاهدين، فلان : أدام الله تَوْفيقه » .

المرتبة الثامنة — المجلس السامى بغير ياء . وبه يُكْتب للطَّبقة الثانية من جُنْد الحَلْقة ، ويقال فيه : « المجلسُ السامِى، الأمير، الأجلّ، الكَبير، الغَازى، المُجاهد، المرْتَضىٰ، المُخْتار، فلان الدِّين، مَجْد الإسلام، بَهاءُ الأنام، زَيْن الأُمراء، فَخْر المجاهِدين، عُمْدة الملوك والسلاطين، فُلان : أعَزَّه الله تعالىٰ » .

المرتبة التاسعة — مجلس الأمير . وبه يُكْتب للطَّبقة الثالثة من جُنْد الحَلْقة، ويقال فيه : « مجلس الأمير، الكبير» . بنَحْو ألْقاب السَّامى بغير ياء .

المرتبة العاشرة — الأمير . وبه يُكْتب لجُنْد الأُمراء ونَحْوهم ، ويقال فيه : «الأمير الأجلّ» .

الصـــــنف الثـانى

(من أرباب الولايات بالممـالك الشامية ـ أرباب الوظائف الديوانيـــة ، وفيهم مرَاتِب)

المرتبة الأُولىٰ — المقرُّ الشريف . وبه يُكْتب لكَاتِب السِّرّ بالشَّام، وصاحبِ ديوان الرسائل بحَلَب، ومَنْ فى معناهما .

وهذه ألقابٌ كُتب بها لكاتِب السِّرّ بدِمَشْقَ بوِلاية مَشْيَخة الشُّيوخ، وبُولِغَ فيها جِدَّ المبالغــة، إلَّا أنَّها ليستْ حَسَنةَ التَّأْليف، ولَا رائِقَــة التَّرْتيب؛ وهى : « المَقَرُّ الشَّريفُ ، العالى ، المَوْلَوىُّ، القاضَوىّ، الكَبيرىّ، العَالِمىّ، العَامِلىّ، العَـلَّامىّ، الإمامىّ، الفريدىّ، المُفيـدىّ، القُدْوىّ، الحُجِّىّ، الأجَلِّىّ، الحَـبْرِىّ، المُحَقِّقىّ،

المُدقِّقِىّ، الزاهِدِىّ، العارفىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، المُسَلِّكِىّ، العابِدِىّ، المُرْشِدىّ، الرَّبَّانىّ، الورَعِىّ، الممهِّدىّ، المشَيِّدىّ، المُشيرِىّ، السَّفيرىّ، اليَمينِىّ، المَلاذِىّ، الشَّيْخِىّ، الفُلانىّ، جلالُ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأكابِر والرُّؤساء فى العالَمين، عَوْن الأُمَّه، صلاحُ المِلَّه، جمالُ المملكة، نِظام الدَّوْلة، عِزُّ المُلك، لِسانُ الممالك، زَيْن الأوْلِياء، مُظْهِر أنْباء الشَّريعة وناصِرُها، مُؤَيِّد الحقِّ والمُعِينُ علىٰ إظهاره، قَامِعُ البِدَعِ ومُخْفِى أهْلها، رُحْلَة الحُفَّاظ، عَلَم المُفَسِّرين، حُجَّة الطالبين، سَيْف المناظِرين، قُدْوة العُبَّاد والزُّهَّاد، مَلْجأُ الصُّلَحاء والعارِفين، حَسَنةُ الأيَّام، فَرْد الزَّمان، غُرَّة وَجْه الأوان، شيخُ المشايخ، مُفِيد كلِّ غَاد ورَائِح، مُوَصِّل السَّالكين، مُرَبِّى الأتْقِياء والمُرِيدين، كَنْز السَّالِكين والمُرْشِدين، مُمَهِّد الدُّوَل، مُشَيِّد الممالك، مُجَمِّلُ الأمصار، مدَبِّر أُمورِ سُلْطانه فى اللَّيل والنَّهار، مُجْهِدُ نَفْسِه فى رِضا مولاه، مُعين الخلائق علىٰ حُقُوقِهم، مُذِلُّ حِزْب الشَّيْطان، مَلِكُ البُلَغاء والمُتَكَلِّمين، خُلاصَة سَلَف القَوْم المُبارَكين، بَرَكَةُ الملوك والسلاطين، وَلِيُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانىّ : أسْبغ اللهُ تعالىٰ ظلاله» .

المرتبة الثانية — المقَرُّ الكريم . وبه يُكْتب للطبقة الثانية من أرْباب الوظائف الديوانية . ويقال فيه : «المقرُّ الكريمُ، العالى، المَوْلَوىّ، القَاضِوىّ» . بنَحْو الألقاب السابقة مع «المقَرّ الشريف» .

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم . وبه يُكْتب للطبقة الثالثة من أرْباب الوظائف الديوانية . وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض الكُتَّاب بكِتابة الإنشاء والجَيْش بحَلَب ، وهى : «الجناب الكريمُ، العالى، المَوْلَوىّ، القضائىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، الفاضِلىّ، البارِعىّ، الكامِلىّ، الماجدىّ، الأوْحدِىّ، الأثِيرىّ، الأثِيلىّ، الأصيلىّ، القَوامىّ،

النِّظامىّ، الفُلانىّ، ضياء الإسلام والمسلمين، أوْحد الفُضلاء فى العالَمين، خالِصَةُ الملوك والسلاطين، فلان : ضاعف الله تعالىٰ نعمته» .

المرتبة الرابعة — الجناب العالى. وبه يُكْتب لكُتَّاب الدَّسْت ونحوهم . وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض كُتَّاب الدَّسْت بالشَّأم، وهى : «الجناب العالى، القضائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأكْملىّ، البارعىّ، الأوْحدىّ، القوَامِىّ، النِّظامىّ، المُفَوَّهِىُّ، الرَّئيسِىّ، الماجدىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام والمسلمين، شرف الرُّؤَساء فى العالَمين، أوحد الفضلاء الماجدين، قُدْوة البُلَغاء، جمال الكُتَّاب، زَيْن المُنْتشِئين، خالِصَة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ نِعْمته» .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى . وهذه ألْقاب كُتب بها لكاتب دَرْجٍ بالشام جَلِيلِ القَدْر، وهى : «المجلسُ العالى، القضائىّ، الأجَلِّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضِلىّ، البارِعىّ، الكامِلىّ، الرَّئيسىّ، الأوْحدىّ، الأثِيرىّ، الأصيلىّ، العَرِيقىّ، الفلانىّ، مَجْد الإسلام، شَرَف الرُّؤَساء فى الأنام، حُجَّة البُلَغاء، قُدْوة الفضلاء، أوْحد الأُمناء، زَيْن الكُتَّاب، رَضِىُّ الدَّولة، صَفْوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام اللهُ علوّه» .

المرتبة السادسة — المجلس السامىّ بالياء . وهذه ألقابٌ كتب بها لبعض كُتَّاب دِمَشْق بنَظَر الرِّباع وهى : «المجلسُ السامىُّ، القَضائىّ، الأجلىّ، الكبيرىّ، الرئيسىّ، الأوْحدىّ، الأكْملىّ، الماجِدىّ، الأثِيرىّ، الأثيلىّ، الأصيلىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام، شَرَف الرُّؤَساء، أوْحد الفُضلاء، صَفْوة الملوك والسلاطين، أدام الله تعالىٰ علوّه» .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامِى بغير ياء. وهذه ألقابٌ كُتب بها لكُتَّاب دَرْجٍ بالشام، وهى : «المجلسُ السامى، القاضى، الأجلّ، الكبيرُ، الفاضلُ، الأوحدُ،

الأثيرُ، الرئيسُ، البليغ، الأصيل، فلان الدِّين، مجدُ الإسلام، بهاء الأنَام، شرفُ الرؤساء، أوحد الفُضلاء، زَيْن الأعيان، فَخْرُ الصدور، نَجْلُ الأكابر، سَلِيلُ العلماء، صَفْوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعته » .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلسُ القاضِى، الاجلّ، الكَبيرُ» والباقى من نسبة ألْقاب السامى بغير ياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . ويقال فيها : «القاضى، الأجلُّ» . ورُبَّما زيد علىٰ ذلك قليلا ، كما تقدّم فى السلطانيات .

الصنف الثالث

(من أرباب الولايات بالممالك الشأمية ـ أرباب الوظائف الدِّينية ، وفيه مراتب)

المرتبة الأُولىٰ — المقرُّ الشريف . وبذلك يُكْتب لقُضاة القضاة ومن فى معناهم .

وهذه ألقابٌ كُتب بها لقاضى القضاة المالكىّ بدِمَشْقَ بتصديرٍ، وهى : «المقرُّ الشريفُ ، العالى ، المَوْلَوِىُّ ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، الإمامىّ ، العالِمىّ ، العلّامىّ ، الفريدىّ ، المُفِيدىّ ، الخاشعىّ ، النّاسكىّ ، الرُّحْلِىّ ، القُدْوِىّ ، المَلاذىُّ ، العابدىّ ، المحقِّقِىّ ، المدقِّقىّ ، المحسنىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ، جلالُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ العلماء فى العالَمين ، قُدْوة البارِعين ، سيِّدُ المناظرين ، لسانُ المتكلِّمين ، مَلاذُ الطالبين ، كَنْز المتفقِّهين ، إمام الأئمَّه ، حجة الأُمَّه ، ناصِرُ الشريعة ، فَرْد الزمان ، أوحد الوَقْت والأوان ، رُحْلة القاصدين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، فلان : أسبغ الله ظلاله » .

المرتبة الثانية — المقرُّ الكريم . وبه يُكْتب لمن دُونه من هذه الرتبة .

وهذه ألْقاب كُتب بهـا لقاضى القُضاة بحَلَب بوظيفة دِينيَّـة ، وهى : « المقرُّ الكريم ، العالى ، المَوْلَوِىُّ ، القـاضَوىُّ ، الكَبِيرىُّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، الأصِـيلىّ ، العَرِيقىّ ، القوَامِىّ ، النِّظامىّ ، الإمامىّ ، العلَّامىّ ، القُدْوىّ ، المُفِيدىّ ، الشَّيخىّ ، الرُّكنىّ ، الصاحبىّ ، الحاكمىّ ، المحسنىّ ، الفُلانىّ ، فلانُ الإسلام والمسلمين ، شَرَف الفُضَلاء فى العالَمين ، قُدْوة العلماء العاملين ، لسانُ المتكلمين ، بُرْهان المناظرين ، صَدْر المدرِّسين ، رُحْلَة الطالبين ، بَقيَّة السلف الكرام الدارجين ، بَرَكَةُ الملوك والسلاطين ، خالِصةُ أمير المؤمنين ، فلان : أعزَّ الله تعالىٰ أحكامه » .

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم . وهـذه ألْقابٌ كُتب بهـا لبعض المشايخ بتَدْرِيسٍ بالشَّام ، وهى : « الجنابُ الكريم ، العالى ، المَوْلَوِىّ ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، الفاضلىّ ، المُفِيدىّ ، الفريدىّ ، المحَقِّقِىّ ، المدَقِّقِىّ ، الأوْحدىّ ، الأكْملىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسـلام والمسلمين ، شَرَفُ العلماء فى العالَمين ، جمالُ الفُضَلاء المدرِّسين ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، فلان : أسْبغ الله تعـالىٰ ظِلَّه » .

المرتبة الرابعة — الجناب العالى . وهذه ألقابٌ من ذلك كُتِب بها لقاض من قضاة العسـكر بالشام ، وهى : « الجنابُ العـالى ، القضائىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىُّ ، الفاضلىُّ ، الرئيسىُّ ، الأكملىّ ، الإمامىّ ، العَلَّامى ، المفِيدىّ ، المحقِّقىّ ، الفَرِيدىّ ، البارعىّ ، المدَقِّقِىّ ، الأوحدىّ ، القُدْوىّ ، الحَبْرِىّ ، الحافظىّ ، الأصِيلىّ ، الأثيرىّ ، النَّاسكىّ ، الوَرَعِىّ ، العَلَّامىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شَرفُ العلماء العاملين ، زَيْن الحُكَّام فى العالمين ، حُجَّةُ المذهب ، إمام البلغاء ، مُفْتى المسلمين ، مُفِيد الطالبين ، قُطْب الزُّهَّاد ، مَلاذُ العُبَّاد ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالىٰ نعمته » .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى . وهى : « المجلسُ العالى ، القضائىُّ ، الأجلىُّ، الكبيرىُّ ، العالِمىّ ، الفاضِلىّ ، الكامِلىّ ، الرَّئيسىّ ، الأوحدىّ ، الأثيرىّ ، الأثيلىّ ، الأصيلىّ ، العَرِيقىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام ، شَرفُ الرُّؤَساء فى الأنام ، حُجّة الفُضَلاء ، صَدْر المدرِّسين ، مُرْتَضَى الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالىٰ عُلوّه » .

المرتبة السادسة — المجلس السامىّ بالياء . وهى : «المجلسُ السامىُّ، القضائىُّ، العالمىّ، الفاضِلىّ، الكامِلىّ، الأوحدىّ ، الأصِيلىّ، العَرِيقىّ ، المحقِّقىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، أوحدُ الفضلاء فى العالَمين ، صَدْر المدرِّسين ، أوحد المُفيدين، مُرْتَضَى الملوك والسلاطين، فلانٌ : أدام اللهُ سعادتَه » .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامِى بغير ياء . وهى : «المجلس السامى، القاضى، الأجلُّ ، الكبيرُ، الأحد، المرتضىٰ ، الأكملُ ، فلانُ الدين، مجدُ الإسلام، بهاءُ الأنام، زَيْن الفُضَلاء، أوحدُ العلماء، رَضِىُّ الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله عِزَّه» .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلسُ القاضِى، الأجلُّ » بنَحْوِ الألقاب المذكورة فى «السامى» بغير ياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . وهى : «القَاضِى الأجلُّ» علىٰ ما تقدّم .

الصـــنف الرابع

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ مشايخُ الصوفية)

ولم أقِف علىٰ شَىْءٍ من ألقـاب ما كُتِب من هـذا الباب . سوىٰ [ما كُتِب] فى مَشْيخة الشيوخ بالشام لكاتب السِّرّ، وقد تقدّم ذِكْرُه فى أوّل الألقاب الديوانية

هناك. وألْقابِ الجناب العالى فيما كُتِب به فى مشيخة الزاوية الأمينيَّة بِدِمَشْق، وهى: « الجنـابُ العالى، الشيخىُّ، العالِمىّ، العامِلىُّ العَلَّامىّ، الأوحدىّ، القُـدْوىّ، العابِدىّ، الزاهدىّ، الوَرَعىّ، الناسِكىّ، الخاشعىّ، المُسَلِّكىّ، المُرَقِّىّ، الربانىّ، الأصِيلىّ، الفلانىّ، مجدُ الإسلام، حَسَنةُ الأيام، قُدْوة الزُّهّاد، ملاذ العُبَّاد، جمالُ الوَرِعيـن، مُرَبِّى المريدين، أوْحد السالكين، خلفُ الأولياء، بركة السلاطين، فلانٌ: أعاد الله تعالىٰ من بَرَكته ».

ومن هذا يُؤْخذ ما حدث كتابته ممـا هو فوق ذلك أو دُونه.

الصـــنف الخـامس

(من أرباب الولايات بالممـالك الشامية ـ أُمراء العُرْبان)

ولم أقِفْ علىٰ شىءٍ ممـا كُتِب به من ألْقابهـم، سِوَىٰ ألْقابِ «السَّامِى» بغير ياء لبعض أُمَراء بنى مَهْـدِىّ، وهى: « المجلسُ السامى، الأميرُ، الأجلُّ، الكبيرُ، المجاهدُ، الأصيلُ، العَرِيقُ، الأوْحد، فلانُ الدين، مَجْدُ الإسلام، بهـاءُ الأنَام، شرفُ العُرْبان، زَيْنُ القبائل، عُمْـدة الملوك والسلاطين، فلانٌ: أعَزَّه الله تعالىٰ». وعليه يُقاسُ ما عساه يُكْتب من هذا النَّمَط.

الصـــنف السادس

(من أرباب الولايات بالممـالك الشامية ـ أربابُ الوظائف العادية، كَرآسة الطِّبِّ ونحوها)

وألْقـاب رئيس الطِّبِّ: « المجلسُ العـالى، القضائِىُّ » علىٰ نَحْو ما تقـدّم فى الدِّيوانيات.

الصنف السابع

(من أرْباب الولايات بالنيابات الشامية ـ زعماءُ أهلِ الذِّمّة)

وهى رآسة اليهود، وبَطْرَكيَّة النَّصارَىٰ .

أما رئيسُ اليَهُود، فالذى رأيتُه لهم من ألقابِهِ فى عَهْدٍ قديم، كَتَبه آبن الزكىّ فى الدولة الأيُّوبية . قال فى ألقابه : «الرئيسُ، الأوحدُ، الأجلُّ، الأعزُّ، الأخَصُّ، الكَبير، شَرَفُ الداووديين، فُلانٌ» .

وأما بَطْرَك النَّصارَىٰ ، فرأيتُ لهم فيه طريقتين :

الطريقة الأُولىٰ : « البَطْرَكُ المحتَشِمُ ، المبَجَّلُ ، فلانٌ ، العالِمُ بأُمورِ دِينِه ، المُعَلِّمُ أهْلَ مِلَّته ، ذُخْرُ المِلَّة المسيحِيَّه ، كبيرُ الطائفة العِيسَوِيَّه ، المشكورُ بعَقْله عند الملوك والسلاطين ، وفقه الله تعالىٰ » .

الطريقة الثانية : «مجلسُ القِسِّيسِ ، الجليل ، الرُّوحانِىّ ، الخطير ، المتبتل ، ابن المِطْران ، النَّاصِب ، الخاشِع ، المبجَّل ، قُدْوةُ دِينِ النَّصرانِيَّه ، فَخْرُ الملة العِيسَوِيَّه ، عمادُ بنى المَعْمُوديَّه ، جمالُ الطائفة الفُلانيه ، صَفْوة الملوك والسلاطين ، فلان : أدام اللهُ تعالىٰ بهْجَتَه » .

المقصد الخامس

(فى بيان مقادير قَطْع الوَرَق المستعمل فيما يُكْتب عن نوّاب الممالك الشامية)

قد تقدّم فى المقالة الثالثة ، فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الوَرَق ، أنَّ الورقَ المستعملَ فى دواوين الممالك الشامية علىٰ ثلاثة مقادير : قطع الطلحية الشامية الكاملة ، وهو

فى عَرْض الطَّلحية المعبر عنها بالفَرْخة وطُولها. وقطع نصف الحَموِىّ، وهو فى نصف عَرْض الطلحية التى فى قَطْع الحموىّ وطُولِها، ورُبّما نقصتْ فى الطول. وقَطْع العادة، وهو علىٰ نَحْوٍ من قَطْع العادة البلدى. وقد تقدّم ذكره.

فما كان منها فى طول الشامىّ الكامل كُتب بقلم الثلث. وما كان فى قَطْع نِصْف الحموىّ كُتب بقَلَم التوقيعات. وما كان فى قَطْع العادة كُتب بقَلم الرِّقاع. ثم ما كان فى قَطْع الطلحية، آفتتح ما يكتب فيه بـ«الحمدُ لله». وما كان فى قَطْع نِصْف الحَموِىّ، آفتتح ما يكتب فيه بـ«أمّا بعد حمد الله». وما كان فى قطع العادة، آفتتح ما يُكْتب فيه بـ«رسُم بالأمرِ الشريف» سواء فى ذلك علَتِ الألقابُ أو آنْحَطَّتْ، حتّىٰ إنه رُبَّما كتب بـ«المقرّ» فى قَطْع العادة، آعتباراً بحال الوَظيفة.

المقصد السادس

(فى بيان ما يكتب فى طُرَّة التواقيع)

اعلم أنّ النوّابَ بالممالك الشاميّة عادتُهم فى العلامة كتابة اسم النائب، كما أنّ السلطان فيما يُكْتب عنه من الولاية يكتب فى العلامة اسمه. وحينئذٍ فيحتاجُ الكاتبُ إلىٰ أنْ يكتُبَ فى أعْلى الدَّرْج فى الوسط ما صورته: «الآسم الكريم» ثم يكتبَ من أوّل عَرْض الدَّرج ما صورته: «توقيعٌ كريم باستقْرارِ المقرِّ الشريف أو الكريم، أو الجناب الكريم أو العالى، أو المجلس العالى أو السامى، أو مجلس الأمير أو القاضى، أو الشيخ، ونحو ذلك، فى كذا وكذا إلىٰ آخره». فإن كان فيه معلومٌ كُتب آخرا: «بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور، أو الشاهد به كتابُ الوَقْف» ونحو ذلك ثم يكتب: «حَسَب ما رُسم به علىٰ ما شُرِح فيه». ولفظ:

«حَسَب ما رُسم به» ممـا جَرَتْ به عادة كُتَّابهم، بخلاف ما يكتب به من الأبواب السلطانية علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه .

وهذه طُرّة تَوْقيع بنقابة الأشْراف بحَلَب المحروسة ، كُتب به للشريف «غياث الدين احمد» بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن الممدوح ، وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بآستقرار المقرّ العـالى ، الأميرىِّ، الكَبِيرىّ، الشَّريفىّ ، النَّقِيبىّ، الحسيبىّ، الأصِيلىّ، العِزّىّ، بَركة الملوك والسـلاطين ، أحمد آبن المقرّ العـالى ، الشَّريفىّ، النَّقيبىّ، الشِّهابىّ، أحمد الحسينى، أسبغ الله ظلالهما ، فى وظيفـة نقابة السَّادة الأشراف، ونظر أوْقافها، والحكم فى طوائفهم على آختلافهم أجمعين، عِوَضًا عن والده المشار إليه برِضاه ، علىٰ عادته فى ذٰلك ومُسْتقرّ قاعِدَته، وتعاليمه المستمرة إلىٰ آخر وَقْت، حسَب مارُسم به بمقتضَى الخَطّ الكريم، علىٰ ما شُرح فيه .

✤ ✤ ✤

وهذه نسخة طرة توقيع بكشف الصفقة القبلية بالشام، ممـا كُتِب به لـ«غرس الدين خليل الناصرىّ» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ الجنابُ الكريمُ ، العالى ، المَوْلوِىّ، الأميرىّ، الكَبيرىُّ، الغَرْسىّ، ظهير الملوك والسـلاطين ، خليـل الناصرى ، أدام الله تعـالىٰ نعمته ، فى كَشْف البـلاد القبلية المحروسـة بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك ومسْتَقِرّ قاعدته، حسب ما رُسم به، علىٰ ما شرح فيه .

✤ ✤ ✤

وهذه نسخة طُرّة تَوْقِيع بالمِهْمِنْدارِيّة بالشام المحروس، كُتب به لـ«غرس الدين خليل الطناحى» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ باستقرار الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الغَرْسِىّ، عَضُد الملوك والسلاطين، خليل الطناحى، أدام الله تعالىٰ نعمته، فى وظيفة المِهْمِنْدارِيَّة الثانية بالشام المحروس، عِوضًا عن حُسام الدِّين حَسَن بن صارُوجا، بحُكْم شُغُورِها عنه، لما آتفق من الغَضَب الشَّريف عليه، وآعتقاله بالقَلْعة المنصورة بحَلَب المحروسة، علىٰ أجْمل عادة، وأكْمل قاعدة، حسب ما رُسِم به، علىٰ ما شُرِح فيه .

وهذه نسخةُ طرَّة توقيع بتَصْدير الجامع الأُمَوىّ بالشام، كُتِب به للقاضى «ناصر الدين» بن أبى الطَّيِّب كاتِبِ السِّر بالشام، وهى :

توقيعٌ كريمٌ بأن يستقرَّ المقرُّ الشريف، الناصرىُّ، محمدُ بن أبى الطيب العمرىّ، العثمانىّ، الشافعىّ، صاحبُ ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشاميَّة المحروسة، عظَّم اللهُ تعالىٰ شأْنَه، فى وظيفة التَّصدير بالجامع الأُموىّ المعمور بذِكْر الله تعالىٰ، عِوَضًا عن القاضى صَدْر الدِّين عبد الرحمن الكَفَرىّ الشافعىّ، بحُكْم وَفَاتِه إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، بمالَه من المعلوم الذى يشهدُ به دِيوان الوقف المبرور، حسب ما رُسِم به، علىٰ ما شرح فيه .

وهذه نسخةُ طُرَّة تَوْقيع بإعادة مَشْيخة الشُّيوخ بالشام إلى القاضى «ناصر الدين ابن أبى الطَّيِّب» المذكور أعلاه، وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن تُفوَّضَ إلى المقرِّ الشريفِ العالى، المَوْلَوِىّ، القاضوِىّ، النَّاصرىّ، محمد بن أبى الطيب العمرىّ، العثمانىّ الشافعىّ، صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، أعاد اللهُ تعالىٰ من بركاته، وأسْبغ

ظلاله، مشيخةُ الشُّيوخ بالشام المحروس، وَظِيفتُه التى خرجتْ عنه، المرْسُومُ الآن إعادتها إليه، عوضًا عمن هى بيده، بمعلومه فى النظر والمشيخة، الشاهِدِ بهما ديوانُ الوَقْف المبرور، إلىٰ آخر وقت، علىٰ أجْمل العوائد، وأكْمل القواعد، حسب ما رسم به، علىٰ ما شرح فيه .

***

وهذه طُرَّةُ توقيعٍ بالحَمْل على النُّزُول والتقرير الشَّرعىّ، بالزاوية الأمِينيَّة، بالقُدس، كُتب به للشيخ «برهان الدين المَوْصِلىّ» وهى :

توقيعٌ كريمٌ بأن يُحْمَل الجناب العالى، الشيخىّ، البرهانىّ، إبراهيم ٱبن سيدنا المرحوم الشيخ القطب، تقىّ الدِّين أبِى بكر المَوْصِلىّ، رضى الله عنه وأعاد من بركاتهما، فىوظيفتى النظر والمشيخة، بالزاوية الأمِينية بالقُدس الشريف، علىٰ حُكْم النزول الشَّرعىّ، وٱستمرار ذلك بمقتضاهما، ومَنْع المنازع بغير حُكْم الشَّرع الشَّريف، حسب ما رُسم به، علىٰ ما شُرح فيه .

***

وهذه طُرَّة مَرْسومٍ بِرُبْعِ تَقْدمة إمْرة بنى مَهْدِىّ، كُتب به لـ«عيسى بن حناس» وهى :

مَرْسومٌ كريمٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامى، الأميرُ، شرفُ الدِّين، عيسى بن حناس(؟)، أعزَّه الله تعالىٰ، فى رُبْع تَقْدمة بنى مَهْدِىّ، علىٰ عادة من تقدّمه، حملا علىٰ ما بيده من التَّوقيع الكريم، علىٰ ما شُرِح فيه .

***

وهذه طُرَّةُ توقيع ببَطْرَكية النَّصارىٰ المَلَكِيَّة بالشام، كُتِب به لـ«دَاوُد الخورى» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ البطريرك ، المُحْتَشِمُ ، المبَجَّلُ ، داود الخُورى ، المشكور بعَقْله لدى الملوك والسلاطين ، وفّقه اللهُ تعالىٰ ، بطريركَ المَلَكيَّة بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة ، حسَب ما آختاره أهلُ ملّتِه المقيمُون بالشام المحروس ، ورَغِبوا فيه ، وكتبوا خُطُوطَهم به ، وسألُونا تقْريرَه دون غيره ، حسب ما رُسِم به ، علىٰ ما شُرِح فيه .

المقصد السابع

(فى بيان كيفية ترتيب هذه التواقيع)

قَدْ جرتْ عادةُ كُتَّاب هذه النيابات أنْ تُكْتب الطُّرّةُ بأعْلى الدَّرْج كما تقدّم . ثم يترك وَصْلان بياضًا بما فى ذلك من وَصْل الطُّرة ، ثم تُكْتب البسملة فى أوّلِ الوَصْل الثالث ، ثم يُكْتب تحت البَسْمَلة علىٰ سمت الجلالة : «المَلَكِيُّ الفلانِيُّ» ثم يخلّىٰ بيت العلامة نحو ستة أصابع معترضة ، ثم يُكتب السطر الثانى ويوافى كتابة السَّطر ، ويكون ما بينهما بقَدْر أصبعين ، والباقى علىٰ نحو ما تقدّم فى السلطانيات .

الطرف الثانى

(فى نُسَخ التواقيع المكتتبة عن نُوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدّم فى المقالة الثانية أنّ بالبلاد الشامية سَبْعَ نيابات : دِمَشْق ، وحَلَب ، وطَرَابُلُس ، وحَمَاة ، وصَفَد ، وغَزّة إن كانتْ نيابة ، والكَرَك . وأنّ اعلاها دمَشْق ، ثم حَلَب ، ثم طَرَابُلُس . وفى معنىٰ طَرَابُلُس حَماةُ وصَفَدُ .

وقد آقتصرت فى نسخ التواقيع علىٰ ما يكتب فى ثلاث نيابات [تقديما لها](1) علىٰ ما عداها .

(١) بياض بالأصل .

النيابة الأولى الشام

(والتواقيع التى تُكْتب بها على خمسة أصناف)

الصنف الأوّل

(ما يُكْتب بوظائف أرباب السيوف، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(ماهو بحاضرة دِمَشْق، وهو على مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح بـ«ـالحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة تَوْقيع بولاية دِمَشْق :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الأيّامَ الزاهرةَ تنقُلُ أوْلياءَ آلائه الشريفة إلى أعْلى المراتب، وتُجْزِل لهم من مِنَنِه الجمّة المواهب، وتُضاعف لهم النِّعمةَ بكرمها الذى إذا انْهمَلَ كان كالغَيْث السّاكب .

نحمدُه على أنْ جعل نَظَرنا يلْمَحُ أهلَ الهِمَم ويُراقب، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَبْلُغ قائلُها ببركتها المُنى والمآرب، وتَهُونُ عليه كلَّ المَصاعب، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ بِبِعْثَته الحقَّ فى المشارق والمغارب، وأنار به ظُلَمَ الغَياهِب، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وأصْحابه الذين شيّدُوا مَنَار الإسلام وأقاموه بالسيوف القَواضب، وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ المناصب بمُتَولِّيها ، والمَعالِيَ بمُعلِّيها ، والعُقودَ ليْسَتْ بمن تُحَلِّيه بل بمن يُحَلِّيها ؛ وأطْيَب البِقاعِ جناباً ماطاب أرَجاً وثمـارا ، وبُحِّر خلالَه كلُّ نَهْرٍ «يروع حَصاه حَاليَـةَ العَذارَىٰ» ورنَّحتْ مَعاطفَ غُصُونه سُلافُ النَّسيم فتراها سُكَارَىٰ ، وتمتدُّ ظلالُ الغُصون فيخال أنَّها علىٰ وجَنات الأنْهار عذَارا .

ولمَّـا كانت دمَشْقُ المحروسة لهـا هـذه الصفات ، وعلىٰ ضَـفَّاتها تَهُبُّ نَسَماتُ [هذه] السِّمات ، لم يتَّصِفْ غيرُها بهذه الصفه ، [ولا اتفق أولو الألباب إلا علىٰ محاسـنها المختلفه](١) وكان الجنـابُ الكريمُ هو من أعيان الدَّولة وأماثِلِهم ، ووُجُوه رُؤَسائهم وأفَاضلهم ؛ وله فى طاعتها آسـترسالُ الأمْنِ من سُوء مَواطِن المَخَـاوف ، ووَصل فى وَلائها القـديمَ بالحديث والتَّالدَ بالطَّارِف ؛ وتَولَّىٰ مُهِمَّاتِ الخِـدَم فأبانَ فى جميعها عن مَضاءِ عَزْمه ، وكان من حُسْنِ آثاره فيهـا ما شَهَر غُفْلَها بوَسْمه ؛ فمن نَاوَاه من أقْرانِه أرْبىٰ عليه وزاد ، ومن بَارَاه من أنْظارِه أنْسىٰ ذِكْرَه أو كَاد .

فلذلِك رُسم بالأمر الشَّريف أنْ يستقرَّ فى ولاية مدينة دِمَشْق المحروسة .

فلْيباشِرْ هـذه الولاية : عاملاً بتقْوَى الله تعالىٰ التى أمَر بهـا فى مُحْكَم الكِتَاب ، حيثُ يقولُ : ﴿ وتَزَوَّدُوا فَإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ ياأُولِى الأَلْبَابِ ﴾ . ولْيشْمَلْ كافَّةَ الرَّعايا بالحِفْظ والرِّعايه ، ويُجْزِلْ حَظَّهم من الملاحظة والعِنايَه ؛ ولْيُساوِ فى الحقِّ بين ضعيفهم وقَوِيِّهم ، وفَقِيرهم وغَنِيِّهم ؛ ولْيُلْزِمْ أتباعَه بحِفْظِ الشوارع والحارات ، وحِراسَتها فى جميع الأزْمنَة والأوْقات ؛ مع مُواصَلة التَّطْواف كلَّ ليلة بنَفْسه فى أوْفىٰ عِدَّه ، وأظْهَرِ عُدَّه ، مُنْهِيا فى ذلك وفيما يُجارِيه إلىٰ مايَشْهد باجتهاده ، ويُعرِبُ عن سَـدَادِه ، ويُعْلَم منه صَوابُ قَصْده وآعْتِماده ، وبَذْلُ مُناصَحَته فى إصْداره وإيرادِه ؛ واللهُ تعالىٰ يُعينُه علىٰ ماوَلَّاه ، ويَحفَظُ عليه مانَوَّله وأوْلاه ؛ بمَنِّه وكرمه .

---

(١) الزيادة مما تقدّم فى الصنف الثالث فى تواقيع أرباب الوظائف فى حاضرة دمشق ليستقيم الكلام .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنَظَر الجامع الأَمَوِىّ، لصاحب سَيْف : كُتِب به فى الدَّولة الظَّاهِرِية « برقوق » لناصر الدين « محمد » آبن الأمير جمال الدين، عبد الله ابن الحاجب، عند مُصَاهَرته الأمير بطا الدوادار، وهى :

الحمدُ لله الذى قدَّم أعْظَمَ الأُمراءِ لِيَعُمَّ مَواطِنَ الذِّكر بنَظَرِه السَّعيد، وأقام لتَعْظِيم بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرفَعَ، [أميرا] فى الاكْتساب للأُجور أسْرعَ من البَرِيد، وأطْرب المَسامِعَ بِسيرَتِه فى أحْسن مَعْبَدٍ جُلِيَتْ فيه عَرُوسٌ مَهْرُها كتابُ الله تعالى والنُّورُ من زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّة ومَرْئِىّ(١) عليه من مكانٍ بَعِيد .

نحمَدُه علىٰ أنْ أحلَّ ناصرَ الدين بجمَاله الأسْنىٰ أشْرفَ المراتب، وبوَّأه المحلَّ الرَّفيعَ الذى بَلَّغ به الأُمَّة المحمديةَ المآرب، وسارَ خبرُ سِيرَته فى المشارق والمغارب، وبَلَّغَ بمُشارَفَة نَظَره السعيدِ الشَّاهِدَ والغَائب، حمدًا نرفَعُه على النَّسْر الطائر، ونتمثَّلُ بقول القائل : كَمْ تَرَكَ الأوَّلُ للآخِر، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى خلق العباد لعبادته، وفضَّلَ بعضَ المساجد علىٰ بعضٍ لِمَا سبق فى عِلْمه من إرَادته؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمَّدا خيرَ الخلائق عبدُه ورسولُه الذى سنَّ الجُمعة والجَماعه، وعَمر المساجِدَ بالرُّكوع والسُّجود إلىٰ قيام السَّاعَه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحْبه الذين آتَّبَعُوه فى قيام الليل إلَّا قليلا، ولا زَمُوا المساجِدَ بُكْرَةً وأصيلا، وحضُّوا على الجماعة إلىٰ يومٍ تَكُونُ الجبالُ فيه كَثِيبًا مَهِيلا؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فلمَّا كان جامعُ دِمَشْقَ المحروسةِ رَابِعَ المساجد، ومَوْطِنَ كلِّ راكِع وساجد؛ وتَقْصِدُه الأُمَمُ من الأقطار، ولم يَخْلُ من العبادة فى اللَّيل والنهار، ورَواتِبُ حُكَّام الشريعة عليه، والعُلماءُ الأعْلام تَبُثُّ فيه العلومَ وتأْوِى إليه؛ وغالبُ المساجد

(١) فى الاصل «ومزية» ولم نفهم معناه .

إلىٰ سِمَـاط وقْفِه مُضافَه، وخَطابَتُـه تُضاهِى مَرْتبـةَ الخلافه ؛ وهو أجلُّ عجائب الدُّنيا التى وُضِعت علىٰ غير مِثال، وبه يَفْتخِرُ أهلُ الهُدىٰ علىٰ أهلِ الضَّلال ـ تَعيَّن أنْ يكونَ الناظِرُ فى أمْرِه مَن عَظُم قَدْرا ، وطاب ذِكْرا ؛ وفَتح لوَقْفِه بابَ الزِّيادَة علىٰ مُضىِّ الساعات، وجَمع أمْوالَه بعـد الشَّتات؛ ووصَل الحُقُوقَ لأربابِهـا الذين كأنَّهم جَرادٌ منْتَشِر، ولم يُضِعْ من ماله مِثْقالَ حَبَّـةٍ ومن قال : إنَّه صدَقَةٌ فيومُه يومٌ عَسِر؛ وعمّ جميعَ المساجد المضافةِ إليـه بالفَرْشِ والتَّنْوِير، وبَدَّأ الأئمَّـة والمُؤَذِّنِين والخَدَمةَ بعد العمارة على الكبير والصَّغير .

وكان الجنابُ الكريم ـ ضاعف الله تعالىٰ نِعْمَته ـ هو الذى يقوم فى هذا الأمرِ أحسن مَقَام، ويَصْلحُ له فى مَصْلَحَتِه الكَلَام .

رُسِم بالأمْرِ العالى، المَوْلَوِىّ، السُّلْطانِىّ، المَلَكِىّ، الظَّاهِرِىّ، السَّيْفِىّ ـ لازال هـذا الدِّين القَيِّمُ قائمًـا بحُمَّدِه ، والمساجِدُ المعمورةُ [معمورةً] بإكرام مسْجِدِه ـ أنْ يستقرَّ الجنابُ الناصِرِىُّ المشار إليه فى النَّظَر السعيدِ على الجامع الأُمَوِىّ المعمور بذِكْر الله تعالىٰ ، وأوْقافِه المبرورة ، علىٰ أجْمَلِ العوائد ، وأكْمل القواعد ؛ بالمعـلومِ الشاهِدِ به ديوانُ الوقْفِ المبرور، إلىٰ آخر وقت .

فلْيُباشِرْ ذلك : لِمَـا يُعْرفُ من فِعالِه الحَسَـنَه، وخِبْرته التى نَطقَتْ بها من المحابِرِ الأفْواهُ ومن الأقْلام الألْسِنَه ؛ ولِمَـا حازه من فَضِيلتَىِ السَّيْف والقَلَم ، وأعمالِ التى بَدَتْ للْمُهْتدِى بها كنُورٍ لا نَارٍ علىٰ عَلَم؛ ولْيُعمِّرْ مادَثَر من الأوقاف ولْيُوَصِّل الحُقُوقَ إلىٰ أربابها ، ولْيَـدْفَعِ الأموالَ إلىٰ مَن هو أوْلىٰ بهـا ؛ ويكُفَّ كَفَّ الظُّلْمِ ولْيُبلِّغِ المستَحِقَّ المآرِب ، ولِيحْجُبِ الخَوَنَةَ عن التَّوصُّـلِ إلىٰ مِثْقال ذَرَّةٍ بجِدِّه فهو بجَدِّه حَاجِب؛ ولْيَبْـدَأ بالعمارة والفَرْشِ والتَّنْويرِ فى جميـع الأوقات ، وأرباب الصَّـلاة

والصّلات . والوَصايا كثيرةٌ وهو بها أدْرَى، وتقوى الله عزّ وجلّ مِلاكُها ولا زال يُفيدُها كما يُعَلِّمُ الشّجاعَةَ زيدًا وعَمْرا، والله تعالى يجعَلُه أبدًا للدِّين ناصِرا، ويُصْلِحُ عَمَلَه أوّلًا وآخرا، والاعتماد فى معناه، على الخطّ الكريم أعْلاه .

المرتبـــــة الثانية

(ما يُفتتح بـ«أما بعـــدَ حمدِ الله» وفيها وظائف)

وهذه نسخة توقيع ... ... الزكاة(١)، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، وهى:

أمّا بعدَ حمدِ الله مُسْعِدِ من زَكّاه عَمَلُه، ووَفّاهُ وعْدَ الخيرِ أملُه، ومُصْعِدِ من وَفّتْ فى تدبير الوظائف تَفاصيلُ أمْرِه ووَفُرَتْ فى تثمير الأموال جُمَلُه؛ والصّلاةِ والسلامِ على سيدِنا محمدٍ عبدِه ورسولِه الذى أمَرَنا بالصّلاة والزّكاه، وشفَى جانبَ الدِّين القَيِّم من الشّكاه، وعلى آله وصَحْبه الذين سارَ على نَهْجِه القَويم سائرُهم، وتزكّى ـ وإنّما يتزكّى لنفْسِه ـ مُنْجِدُهم وغائرُهم ـ فإنّ أحقّ الوظائف أنْ يُنـدَبَ لحمايتها الحُسام، ويَترتّبَ لِكفايتِها من تحلّت بالمحامد شِيَمُه الجِسام ـ وَظيفةُ الزّكاة التى وصلت سبب مكانها بإمكانها، وبُنِيتْ شريعة الإسلام على أحَدِ أرْكانِها، ومُدِحَت المملكةُ بمعالِى البِرِّ والإحسان المُنَظّمَة من دِيوانِها .

ولمّا كان فلانٌ ممّن زكَتْ صِفاتُه، وسَمَتْ بالجميـل سِماتُه؛ ووَضَحَتْ كَفاءَتُه ودرايَتُه، وصَلحَتْ حِمايَتُه الحُساميّة ووِقايَتُه؛ وكان اليُمْنُ فى قَبْضة مَضائه، وتجريدِه وانْتضائه، وكان نُفُوذ أمْرِه واقفًا عند حدّه واقعًا على وَفْقِ ارْتِضائه ـ تعيّن أنْ يُوصَلَ سَبَبُ الشّدّ بأسْبابِه، ويُرْجَعَ إليه فى الزكاة المستَحَقّ نِصابُها حتّى يقال: رَجَع الحقّ بالحُسام إلى نِصابِه .

---

(١) بياض بالأصل ولعله: بتولية وظيفة الزكاة الخ .

فلذلك رُسِمَ أن يرتب ... ... عِلْمًا بأنّه الكافِى الذى إذا شَدَّ سَدّ، وإذا قَصَر رَأْيَه علىٰ الصُّنْع الجميـل مَدّ، والخبـيرُ الذى إذا جَمـع مالًا وعَدّده كان مَشْكُورا، وإذا فَرّقه فى مُسْتَحِقِّيه كان خِلافَ الغَيرِ بالخَيْرِ مَذْكُورا؛ والنّاهِضُ الذى ما تَبرّم بمَضايِق المُهِمّات ولا شَكاها، والمَهِيبُ الذى قد أَمِن مَن سار بالبضاعة إليـه وقد أفْلَح من زَكّاها .

فليستَقِرّ فى هذه الجِهة آسْتِقرارًا يَزِيدُ مَكانه وإمْكانَه، ويُثَمِّـرُ عمَلَه ودِيوانَه، ولْيُوصِّلْ كُلَّ ذى حقٍّ إلىٰ حَقّه فإنّمـا بُسِطتْ أيْدى وُلاةِ الأُمورِ لِيَبْسُطَ عَدْلَه مُتَوَلِّيها وإحْسانَه . وتقْوَى اللهِ تعالىٰ هى العُمْدَة : فلْيُحَقِّقْ باعتمادها فيـه ظُنونَ الرّاجين، ولْيَسْتَعِنْ بها علىٰ رِضا المستَنْهِضين له وعلىٰ رِضا المحتاجين، واللهُ تعـالىٰ يلْهِمُه الخيرَ فى ذَوِى الصادِر والوَارِد حتّى يكونُوا إلىٰ خيرِ «لاچين» خيرَ لاجين .

⁂

وهـذه نسخةُ توقيع بشَـدِّ الحوطات بدِمَشْق . كُتب به لشَرف الدين يحي بن العفيف، [باجرائه] علىٰ عادته، وحمله علىٰ مابيده من التَّوْقيع الشّريف، وهى :

أمّا بعـدَ حمدِ اللهِ الذى سَهّل الخيْراتِ بأسْبابها، وأقَرّ فى الوظائف السَّنية كُفَاة أرْبابِها، وكَمّل أدَواتِ من حَنّكَتْه التّجارِبُ فى المُباشرات حتّىٰ دخل المَناصِبَ العَلِيّةَ من أبوابها؛ والصلاةِ والسـلامِ الأَتَمّين الأكْمَلَيْن علىٰ سـيدِنا محمدٍ الذى جاءَ برشد الشريعـة وصَوابِها، وعَرّفَ بحسْنِ الصَّنِيعة وثَوابِهـا؛ وعلىٰ آله وصَحْبـه وعِتْرته الطاهرين ـ فإنّ أوْلىٰ من لَفَتْنا إليه جِيـدَ الإحْسان، وألْقينا إليه طُرَفَ التّكْرِيم فبلغ الأمانِىّ والأمان، ولحَظْناه بعَيْنِ عِنايَتِنا فنال من فَضْلِنا ما أخْجل الغَيْثَ الهَتّان؛ ومَنَحْناه من بِرِّنا ما شَرح له صَدْرا، وآستَصْحَبْنا له ما ألِفه من كَرَمِنا وجعلْنا له بعدَ

عُسْرٍ يُسْرا، وأيْقظْنا حَظَّه وقد كاد أن يَغْفَىٰ، وأطْلَعْنا كَوْكَبَ سَعْده بعد أن كاد يَخْفَىٰ - من ألِفَتْ مُهِمَّاتُنا منه الهِمَمَ العَلِيَّه، وسلك بين أيدينا المَسالكَ المَرْضِيَّه، وأُتُمِنَ علىٰ أموال الحَوْطات الدِّيوانية فنَمَتْ بحُسْنِ أمانَتِه، وشَكَرتِ الدولَةُ جميلَ تَدْبيره ودِرايَتِه .

وكان المجلس العالى فلانٌ - أدام الله عِزَّه - هو الذى أخْبَر عنه الوَصْفُ بما أثْبته العِيان، وأظْهر الاختبارُ منه حُسْنَ السِّيرَة والسَّريرة والسَّجايا الحِسان .

فلذلك رُسِم بالأمر العالى - أعْلاه الله تعالىٰ، وضاعف إحْسانَه علىٰ أهلِ الهِمَم ووَالىٰ - أنْ يَستمرَّ المشارُ إليه فى شَدِّ الحَوْطات الديوانية بِدمَشْق المحروسة، علىٰ عادته، ومُسْتقِرِّ قاعدته، وحَمْله علىٰ مابيده من التَّوقيع الشريف المُسْتَمِرّ حُكْمُه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ علىٰ أجْمل عوائده، وليَعُدْ إليها علىٰ أكْمل قَواعده؛ إلَّا أنَّ التَّذْكرة بتَقْوَى الله تعالىٰ لابُدَّ من ٱقتباس ضِياها، والتَّنبيه علىٰ سُلوك سبيل هُداها؛ فلْتكُنْ قاعِدَةَ أمله، وخاتِمَةَ عَمَلِه . والاعتمادُ فى معناه، علىٰ الخطِّ الكريم أعلاه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبـــة الثـالثة

(من تواقيع وظائف أرباب السُّيوف بِدمَشْق - ما يُفْتَتح بـ«رُسِم بالأمْر العـالى» وفيه وظائف)

وهذه نُسخُ تواقيعَ من ذلك :

نسخةُ تَوْقِيع بشَدِّ مراكز البريد، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، كُتِب بها لمن لقبه «بدر الدين» فى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، وهى :

رُسم بالأمْر العـالِي ـ لا زالت البُرُدُ سائرةً بأوامرِ عَدْله المَديد ، وهَوَامِر جُوده المَجيد ، وسوائر الأخْبار عن بأْسه ونَدَاه المَرْوِىّ سَنَدُهما عن ثَابتٍ ويَزِيد ، ولا بَرِحت جَوامِعُ عطاياه وقضاياه : هذه فاتحةً لمصالح الآمال بَابَ الزِّيادة وهذه فاتحةً لمصالح الإسلامِ بابَ البَريد ـ أنْ يستقرَّ المجلسُ علىٰ عادته الأُولىٰ ، وقاعِدته التى ما بَرِحتْ قَدَمُ مساعيــه فيها المقدَّمةَ ويَدُ أمانتِه الطُّولىٰ ؛ علمـًا بكَفَاءتِه التى شَهِدتْ بها حتّى الخيل المـاثلاتُ خُرْسا فأفْصَحتْ ، المواصلاتُ سَعْيًا فأنْجحتْ ، المُورِياتُ قَدْحًا إلا أنَّ ألْسِنةَ الأحوالِ فى شهادتها ماقَدَحتْ ، المُغيراتُ علىٰ السُّرىٰ صُبْحًا مادار عليها شَفَقُ العَشِىِّ فٱغْتبقتْ ، حتّى دار عليها شَفقُ الفَجْر فٱصْطبَحتْ . ومَرا كِزُ الطُّرُق التى حَمتْها مَهابَتُه فكأنَّها مَراكِزُ الأَسَل ، ومَراكِضُ السُّبَل ، كلُّ وادٍ منها وما حمل وكل حَدَبٍ وما نَسَل ؛ وٱعتمادًا علىٰ سَدادِ عَزْمِه الذى وافق خُبْرُه الخَبَر ، ورَشادِ سَعْيه الذى كلُّ أوقاتِه من وُجوه الإجادة ووُجُوهُ الجيــادِ غُرَر ؛ ورُكُونًا إلىٰ أنَّه الكافى فيما يعتَمِدُه ويراه ، السَّارِى فى المُهِمَّات لا يَمَلُّ وهَيْهاتَ أنْ يَملَّ البَدْرُ من سُراه ؛ كَمْ (١) أعان الإسلامَ علىٰ ماٱتَّخذه من قُوَّةٍ ومن رِباطِ الخَيْل ، وكَمْ جَاد علىٰ الجِياد علىٰ الغَيْث حتّى سارَتْ بين يديه كالسَّــيْل ، وكم حَفِظ عليها قُوتَها وقُوَّتَها فبعدَ ما كانت تموتُ بالعَدَد صارت تَعِيشُ بالكَيْل .

فلْيباشرْ ما عُوِّل فيه عليه ، وأُعِيد من حَقِّه وإن كان خرج عنه إليه ، ولْيُطلِقْ يدَ أمْره ونَهْيِــه بمـا يَسُرّه أنْ يُقَــدِّمَه بين يديه ؛ حَرِيصًا علىٰ أنْ تَنْطقَ هذه الدَّوابُّ الخُرْسُ غَدًا بثَنائه ، مُجْرِيا اقوائمها وللإقامة بهـا علىٰ عادة إجْرائه ؛ متَخيرًا لهـا كلَّ حَسنِ الإمْرة والسِّياسة عند رَحِيلها وقُدُومها ، ومَن إذَا عُرِضَتْ عليه بالعَشِىِّ الصَّافِناتُ الجِيادُ طَفِق مَسْحًا ولٰكن بإماطَةِ الأذىٰ عن جُسُومها ؛ مُوسِّعًا عليها من

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

المبانى والأحوال كلَّ مَضيق، آمِرًا بما يحتاج إليه نَوْعُها البديعُ من صِناعَتَىْ تَرشيح وتَطْبِيق ؛ مُسْتأْمِنًا من الأيْدِى من يَرُدُّ عنها الأيادِىَ الضَّائمه ، ومن يُساوِى بينها فى الأقْوات حتَّى لا تكونَ كما قال الأوَّلُ : «خَيْلٌ صِيامٌ وخَيْلٌ غيرُ صائمه» ؛ مُتَحرِّيًا فى تَكْفِيتها أجْمل الطُّرق والطَّرائِق ، مُسْتَجْلِبًا صُنوف العليق فلا تَنْقطع من بِرِّه العلائق ؛ واللهُ تعالىٰ يمدُّه بعَوْنه ورَشَده ، ويجعلُ عَزْمه سابِقًا إلى التوفيق «سَبْق الجَوادِ إذا ٱسْتَولىٰ علىٰ أمَده» ؛ بمنّه وكرمه .

⁂

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنِقابة النُّقباء، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا، كُتِب بها لشهاب الدين «بولاقى» عوضا عن أبيه، فى سنة أربع وثمانمائة، وهى :

رُسم بالأمر العالى ـ لازال بإنْعامه يُسْفِرُ عن وَجْه الأملِ نِقابَه ، ويَحْفَظُ لكافى الخِدْمة أعْقابَه ، ويَلْوِى بٱستمرار النِّعم أدْوارَ الزَّمان وأحْقابَه ، ويُطْلِعُ فى آفاق دَوْلته شهابَ كلِّ عَزْمٍ تَحمَدُ عساكِرُه المنصورةُ ٱرْتقاءَه وٱرْتِقابَه ـ أن يرتَّب المجلسُ السامى، الأمير : ... ... علمًا بأوصافه الحَسَنه ، وأوْضاعه التى لا يحتاجُ الحكْمُ بفَضْلها إلىٰ إقامة بَيِّنه ، وكَفاءَته التى تَنْطق بها ألْسنةُ الأحوال المُؤَمِّنة وقُلوبُ العَساكِر المُؤْمنه، وهِمَّتِه التى إذا وَقَّفت المواقفُ علىٰ الأعْداءِ عَرَّفَتْه أصحابَ المَيْمنَة ما أصْحاب المَيْمَنه، وتَصْديقًا لدلالة عَزْمِه الوَاعد، وتَحْقيقًا لحماية شِهابِه الوَاقد ، ورُكونًا إلىٰ قيامه مَقام أبيه رحمه الله فى الخِدْمة حتَّىٰ كأن لم يَفْقِدْه من الجَيْش فَاقِد ؛ وأنَّه لدَرجات الاستحقاق رَاقِى، وأنَّه العِوَضُ عن أبٍ لاقىٰ مَنيَّته وكلُّ ٱمرئٍ لاقِى المَنِيَّة وٱبْنُ لَاقِى ؛ وأنه كُفْءُ هذه المنزلة كما حكم الرأْىُ وٱقْتضىٰ ، وكما شَهِد(؟) لغرّته بغُرَرِ الفوائد وكيف لا وهو ٱبن النَّقِيب المرْتَضىٰ ! .

فلْيَتلقَّ بشِهابِه المُضيءِ هذا المَطْلَعَ الأسنىٰ ، ولْيُقِمْ فىهذه الوظيفةِ علىٰ قَدَمِ الخِدْمة صُورَةً ومَعْنىً ، مُقَدِّمًا علىٰ النُّقباء تَقْديم إمامِهم ، مُعلِّمًا لجُنْد الإسلام معلوم مَقامِهم ؛ مالئًا بإتْقانِ معرفةِ الحِلىٰ سَمْع مَن آسْتَملاه ، مُحْظِياً للجُنْدىّ مُعِينًا له علىٰ حُصول الخَيْر حتّىٰ يشكُرَه شُكْر من أطْعَمه وحَلّاه ، نَاظِمًا للمواكب عِقْدَ مُجْتَمعها الثَّمين ، مُصاحِباً لها صُحْبةً يُثْنىٰ بها عليه وحَسْبُه أن يكونَ من أصْحاب اليَمين ، مُرَتِّباً لها أحْسن تَرْتيب ، مُنَقِّبًا عن مَحاسنَ تُجَمِّلُها : فإنَّ آسمَ النَّقيبِ مُشْتَقٌّ من التَّنْقيب . ولْيُكاثِرْ حَمَلَةَ السُّيوف فإنَّه حامِلُ سَيْفٍ وعَصا ، وإنَّه بهذه مُخَلِّصُ حقوقَ من أطاع وبهذا مُوبِقُ نَفْسَ من عَصىٰ ؛ ولْيَحْرِصْ علىٰ أن يقومَ بوَعْدِ الآجتهاد المُنْجز ، وعلىٰ أن يكونَ سيفَ تَحْرِيضٍ علىٰ جَرْحَى الأعداءِ مُجْهِز ، وعلىٰ أن يحصُلَ فى مَواطِن الجهاد على الأجْرين : أجرِ المُقاتِلِ وأجْرِ المُجهِّز ؛ واللهُ تعالىٰ يُحمِدُ فى الخير طرائِقه ، ويؤيِّد عَزْمه الجَيْشيَّ حتّىٰ تلهجَ بشُكْره ألْسِنةُ الأعلام الخافِقه ؛ والآعتماد ... .

* * *

وهذه نسخة توقيع بشَدِّ خزائن السلاح ، من إنشاء آبن نُباتةَ أيضا ، وهى :

رُسم بالأمرِ الشريف ـ لا زالتْ أسِنَّة نجوم السَّعد من سِلاحِه ، وصَواعِقُها من أعْوان صِفاحِه ، وسِماكُها الرَّامحُ من أنصارِ رِماحِه ؛ ولا بَرِحَ يُعمِلُ معادنَ الأرض حتَّىٰ يَفْنَىٰ ذَهبُها وحَديدُها على يدَىْ بَأْسه وسَماحِه ـ أن يرتَّب ... ... لأنَّه الناهِضُ الذى تتزيَّنُ الوظائفُ بسَمْته وباسْمه ، وتتعيَّنُ المصالحُ والمناجِحُ بعَزْمِه وحَزْمِه ؛ والمُسدِّدُ من آرائه سِهاما ، والمُجرِّدُ من آهتمامه كلَّ ماضى الحَدِّ إذا كان بعضُ الآهتمام كَهاما ؛ والوَفِىُّ فى شَدِّ الجهات قولًا وعَملًا ، والملِىُّ بحَمْلِ السلاح وآستعمالِه علىٰ رَغْم القائِل : «أصْبَحْتُ لا أحْمِلُ السِّلاحَ ولَا» ؛ والخبيرُ بمحاسِن الآقتراح ، والكافى ولا

عَجَبَ إذا سَلَّمت له ذَوُو الوظائف وألقت عليه السلاح! ؛ ذُو العَزْم الأشدّ، والرَّأْيِ الأسَدّ ، والذَّكِيُّ الذى إذا تناولَ بعضَ الأسْلِحَة وآنتسبت شجاعَتُـه رَأيتَ القَوْس فى يَدِ عُطَارِدٍ فى بَيْتِ الأسد .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ المُبـاركةَ بعزْمٍ أقْطعَ من حُسام، وأمانَةٍ أقْومَ من ألِف وصِيانَةٍ أحْصَنَ من لَام؛ مُعْتبرًا لأحوالهـا ، مُقَرِّرًا لمطالب مآلها من مالهـا ؛ مُوَفِّرًا من أسْلحتها التى تتوفَّر بها من الخَيْر سِهامُه ، مُنْصِفًا لصُنَّاعِها الذين يُحمَدُ عند آستعمالهم صَنِيعُه وآهْتِمامُه؛ مُكثِّرًا لخزائنها من ذخائر العُدَد ، مُجهِّزًا لجيوش الإسلام من مادّة عَمَلِها بأنْفع مَدَد : من قِسِيٍّ تقضى أهلها بقَطْع أعمـار العدا ، وسُيوفٍ صَقيلَةٍ إذا نادَتْ دِيارُ النَّاكثين أجابت النـدا ؛ ودُرُوعٍ تموّجت غُدْرانُها إلا أنها فى مَهَالك الحرب لا تُغَوِّر ، ورِماحٍ آطَّرَدَتْ كُعُوبُها فكأنَّها علىٰ عَدُوّ الإسْـلام كَعْبٌ مدَوِّر ؛ إلىٰ غير ذلك ممـا يدُلُّ علىٰ عَزْمِه الحميـد ، ويَقْضِى للنِّعمة عليه بالمَزِيد ؛ والله تعالىٰ يثَقِّفُ عَزْمه ، ويُوفِّرُ من السِّلاح والنَّجاح سَهْمَه .

✤ ✤ ✤

وهذه نسخةُ تَوقيع بشَدِّ الجَوالى، من إنشاء ابن نُباتَة أيضا، وهى :

رسم بالأمرِ الشريف ـ لا زالَتْ سُعودُ أوامِرِه واضِحةَ الأدلَّه ، نافِذَةَ الحُكم علىٰ كلِّ مِلَّه ، قائمةً لخصْبِ البِلاد بالعَدْل مَقام السُّحُب المُسْتَهِلَّه ـ أن يرتَّب فلانٌ فى شَدِّ الجوالى بدِمَشْق المحروسة : لمـا ظهر من نَجابَتِه ، وآشْتهر من حَزْمه ومَهابَتِه ؛ وبَدا من هِمَمه العَوالِى ، وعَزائِمِه التى تَجْلُو صَـدأَ الهَمِّ بالجوالى ، وإذا قيل لحاسده : له ولأبِيه إمْرَةُ الخَيْل قال : والجَوَىٰ لِى ، وأنَّه الكافِى الذى إذا آسْتُنْهِضَ كانت عَزائِمُه شَابَّه ، ونَفَحاتُ ذِكْرِه الجميلِ هَابَّه ؛ ونَجْلُ الهُمامِ الذى أشْهد على كَفاءَتِه النَّهارَ وعلى

تَعَبُّـدِه اللَّيل ، وأعدّ لمصالح الإسلام مَا ٱستَطاعَ من قُوَّةٍ ومن رِبَاطِ الخَيْل ؛ وأنَّ مَرْباه جَميل ، ومَنْشَاه فى منازل الخير دَلِيل .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ بعَزْمٍ يُثَمِّـر مالهـا ، ويقرِّرُ على السَّداد أحْوالها ؛ ويَسْتَخلِصُ الحقَّ من أهلِ الآعتقاد الباطل ، ويَسْتَخْرِج الوَفْر من أهْل الجَلَد المـاطل ؛ فلا نَصْرانِىَّ إلَّا وهو يتضرَّع تحت الزَّرْقاء من بَأسِه ، ولا يَهُودِىَّ إلا وهو يشْكُو الصَّفْراء فى رَاسِـه ، ولا سَامِرِىَّ إلَّا والنارُ الحَمْراءُ مُطِلَّةٌ علىٰ أنْفاسِـه ، حتَّىٰ تكون أوْصافُ شدِّه مَتْلُوه ، وعَزائِمُه فى الحَوالى مَجْلُوَّه ؛ وهِمَمُه جارِيةً علىٰ إيلافها ومَأْلُوفِها ، مُجَزِّئَةً لأقْلام الحساب والدَّراهِم علىٰ حُرُوفها ؛ صَحِيحةَ الوَزْن غير مَنْهوك ، آخِذَة الدِّينـار من وَازِنِهِ وهو كالمَأْخُوذِ منـه مَصْكُوك ؛ شَـدًّا تنعقِدُ علىٰ ٱختياره الخناصِر ، وكما أنَّ للإسلام منه قُوَّةً فليكُنْ للوظائف الدينية منه ناصر .

الضـــرب الثـانى

(ممن يكتب له عن نائب السلطنة بالشام من أرباب السيوف ـ من هو بأعمال دمشق ، ومَواضِعُهم علىٰ ثلاثِ مراتِبَ أيضا)

المرتبـــة الأولىٰ

(ما يُفْتتح بـ«ـالحمـدُ لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ تَوْقيعٍ بنيابة بَعْلَبَكَّ كُتب بها لركن الدين «عمر بن الطحان» وهى :

الحمدُ للهِ الذى جمَّلَ بمحاسن زَينِهِ من ٱستحقَّ الصُّعودَ إلىٰ أعْلَى المنازل ، وجَعل نَجْمَ سَعْده بارتقائه إلىٰ سماء المناصب طالِعًا غير آفِل ، وصانَ بعَقْلِه الراجِح أحْصنَ المَعاقِل .

نحمَده علىٰ إحْسانِه الواصِـل ، وغَيْثِ جُودِه الذى هو على الدَّوام هاطِل ؛ حمدًا ينطِقُ بمَدْحِ مَعْدِلتـه كلُّ لسانٍ قائل ، ويَزِيدُ خَيْرُه علىٰ كلِّ عامٍ قابِل ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى ألْحق جِيادَ الأواخِر بالأوائِل ، وجعلَ أجْمـل الأُمراءِ يَفُوقُ البُدورَ الكَوامِل ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه الذى جعـله لَدَيْه أعْظمِ الوَسائِل ، وتَلازَم هُو وجِبْريلُ فى عُلُوِّ المنـازل ، والتَّقدُّمِ فى المَحـافل ؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه ساداتِ العَشائِرِ والقَبائِل ، والمُجاهِـدِين فى سبيل الله بالبِيض البَواتِرِ والسُّمْرِ الذَّوابِل ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فلمَّا كانت بَعْلَبَكُّ المحروسةُ من أعزِّ بلاد الإسلام ، وأبْهج مُدُن الشَّام ـ تعيَّن أن نُعيِّن لهـا حاكمًا دينًا خَبِيرا ، أمِينًا أميرا ، شُجاعًا مُهتابا(١) ، بَطَلًا بُرُمْحِه وسَـيْفِه فى صُدُور الأعداء ورقابِهم طَعَّانًا ضَرَّابا ؛ وكان الجنابُ الكريم فلان : ـ ضاعف اللهُ تعالى نِعْمته ، وحَرس من الغِيَرِ مُهْجَته ـ من بَيْتٍ كان على التَّقْوىٰ أساسُه ، وعُدَّتْ لدَفْع المُعضِلاتِ أُناسُه ، وٱشْتهرتْ هِمَّتُهم فلا يُرَدُّ لهم سَهْمٌ ولا يُطاق باسُه ؛ طالمَـا نَفَوْا عن الدِّين الحَنِيفيِّ خَبثَ الكُفْر بعـد ما تمكنتْ أدْناسُه ، وشَمَّروا عن ساعِد الاجْتهـادِ فمُحِىَ بسيوفهم ضَلالُ الشِّرْكِ وأرْجاسُه ؛ وهو أعزَّه اللهُ تعالى ممَّن شَجِىَ بشجاعَتِه ، حُلُوقَ الكَتائب ، ووَفَّىٰ بعَدْله وحُسْنِ سياسته ، حُقوقَ المناصب ؛ وقام فى خِدْمة الدَّولة الشريفةِ أحْسن قيـام ، وهَذَّبَتْـه بمُرُورِها اللَّيالى والأيام ؛ وتأهَّل لحُلُولِ الرتب العَلِيَّه ، وتَعيَّن لٱرتقاء المراتب السَّنِيَّه ؛ فأرَدْنا أن نَخْتبِره فيما نُوَلِّيه ، ونَخْبُر عَزْمه فيما نُولِيه .

فلذلك رُسم بالأمر العـالى ـ لا زال أمْرُه مستمرَّ الإحسان ، مُجْزِلًا لذَوِى الٱستحقاقِ عوارِفَ النِّعَم الحِسَان ـ أن يستقرَّ الجنابُ الكريمُ المشار إليه ـ ضاعفَ

(١) فى الأصل «مهابا» ولم يجئ من هذه المادة فعل رباعىّ بهذا المعنى بل الوارد هابه وٱهتابه .

اللهُ تعالىٰ نِعْمتَه ـ فى نيابة السَّلطنةِ الشريفةِ ببعلَبَكّ المحروسةِ والبِقَاعين المعمورَيْن، علىٰ عادة من تَقدّمه فى ذلك، ومُسْتَقِرِّ قاعدته، بالمعلوم الذى يشهدُ به الديوان المعمورُ، إلى آخر وَقْتٍ .

فْليباشِرْ هذه النيابةَ الشريفةَ بخَاطِرٍ مُنْفَسِحٍ حَاضِرٍ، وقَلْبٍ مُنْشَرِحٍ على الخَيْرات مُثابِرٍ، ولْيتَّخِذِ الشرعَ الشريفَ إماما، ولْيَتَوَخَّ أوامِرَه ونَواهِيَه نَقْضًا وإبْراما؛ وليقِفْ عند حُدوده المشروعه، ولا يَتَعَدَّها ومن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فيَدُه من الإيمان مَنْزُوعَه، ولْيُلِنْ جانِبَه للرَّعِيَّه، ولْيَحْمِلْهم من العَدْل والإنصاف على المَحجَّةِ الواضِحَة الجَلِيَّه؛ فإنَّهم الرعية الضعفاء الصالحون(١) الذين أنْعم اللهُ عليهم بتَفْويض أمورِهم إليه، ولْيعرِّفْهم قولَ النبي صلَّى الله عليه وسلم : «اللَّهُمَّ من وَلِىَ من [أُمور](٢) أُمَّتِى شيئًا فرفَقَ بهم فارْفُقْ به ومن شَقَّ عليهم فاشْقُقْ عليه»؛ ولْيعمِّر البلاد، وليقْمَع أهلَ الفساد، ولْيمهِّدْ البِقاع، ولْيُحْيِ مَواتَ الضِّياع؛ ولْيُقِمْ على القَلْعة المنصورة الحَرَس، ولا يغْفُلْ عن حِفْظها بمعرفته التى أكَّدتْ له من السَّعادة سَبَبا، واللهُ تعالىٰ يبلِّغه من إحساننا أرَبا، ويُنْجِحُ له من فَضْلنا طَلَبا، ويَحْرُسُه بسورَتَىْ فاطرٍ وسَبا؛ والاعْتمادُ فى معناه، على الخط الكريم أعْلاه .

⁂

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بكَشْف البلاد القبلية، كُتب به لغَرْس الدين خليل الناصرىّ فى الدولة الظاهرية «برقوق» وهى :

الحمدُ للهِ الذى جرَّد من أوْلياءِ هذه الدَّولة الشَّريفة سُيوفًا تَحْسِمُ موادَّ الفَسَاد، وتُبيدُ أهلَ الزَّيْغ والعِناد، وتَعُمُّ ببأْسِها وبعَدْلها البِلاد . حمدًا مستمرًّا على الآباد،

(١) فى الأصل : العلماء، والتصحيح من الرسالة الآتية بعد .

(٢) الزيادة من الرسالة الآتية بعد .

مُزَوِّدًا غَرْسَها النافِعَ ونِعْم الزَّاد ، ونشهدُ أنْ لَا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له رَبُّ العِباد، القَائِمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بما كَسبَتْ والمُجازِى لها بما عَمِلَتْ يوم يَقُوم الأشْهاد؛ ونَشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا خيرَ الخلائِقِ عبدُه ورسولُه الذى بلَّغه فى الدنيا والآخرة أقْصَى المُراد، وفَضَّلَه على الخلائق : الآلافِ والمِئِينَ والعَشَراتِ والآحاد؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين فتَحُوا البلاد، بسيوفِهم الحِداد ، ومَزَّقَتْ رِماحُهم من مُخَالِفِى دينِهم القَويم القُلوبَ والأكْباد، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم التَّناد .

وبعدُ ، فلمَّا كانت المملكةُ القِبْلِيَّة جُلَّ البلادِ الشاميه ، وبها أرْزاقُ العَساكِر الإسلاميه ؛ وطَرِيقَ الحاجِّ إلىٰ بَيْت اللهِ الحَرام ، وزِيارةِ نَبِيِّه عليه أفضلُ الصَّلاةِ والسلام ؛ وإلى الأرْض المُقَدَّسه ، التى هى على الخَيْراتِ مُؤَسَّسَه؛ وإلى الأبْواب الشريفة السلطانيه، ومَمَرَّ التِّجَّار قاصِدِين الدِّيارَ المِصْرِيَّة؛ ومَنازِلَ العُرْبان، ومَواطِن العشران[1] ــ وجب أن يُفَوِّضَ حُكْمُها إلىٰ من عُرِف بالشَّهامَة والشجاعه، واليقَظَة التى لا يغْفُلُ بها عن مصْلَحة المُسْلمين ساعَه ؛ من أثْمر غَرْسُه وما يفوّه ، وأيْنع بالمُروءَة والفُتُوّه ؛ وتقدَّم فى الكمال علىٰ زَيْدٍ وعَمْرو ، وأضْرمَ فى قُلوب الأعداء نارًا أحَرَّ من الجَمْر .

وكان الجنابُ الكريمُ ــ أدام اللهُ نِعْمته ــ هو المشهورَ بهذه الصِّفات، والمنْعوتَ بالشَّجاعَةِ والإقْدامِ وحُسْن الأدوات .

فلذلك رُسِم بالأمْرِ العالى ــ لا زَال إحْسَانُه يُثْمِرُ غَرْسا، وجُودُه يسُرُّ نَفْسا ــ أنْ يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليه فى كَشْف البِلاد القِبْلِيَّة المحروسةِ على مِنْوال من تَقَدَّمه وعَادَتِه، وحُدوده فى ذلك ومُسْتَقرِّ قاعِدَتِه .

(١) لم يرد هذا الجمع فيما بأيدينا من كتب اللغة ولعله ارتكب القياس فى اللغة بجعله كرغيف ورغفان وقطيع وقطعان .

فلْيُباشِرْ ذلك بهِمَّتِه العَلِيَّه، وشَجاعَتِه الأحْزَمِيَّه، ونَفْسه الأبِيَّـه؛ ولْيُبيِّضْ وجْهَه في هـذه النَّوْبَةِ حتَّى يَطْرَب الناس بالنَّوْبَة الخَلِيلِيَّه؛ ولْيَعْدِلْ في الكبير والصـغير، ولْيَقْمَعْ رءُوسَ عَشِـيرٍ آتخذُوا رأسَهم مَوْلًى: فَلَبِئْسَ المَوْلَىٰ ولَبِئْسَ العَشِير؛ ولْيَدْفَعْ أذَىٰ العَرَب، ولْيُحذِّرْهم شَرًّا آقْتَرب؛ ولْيُكْثِر الركوبَ إلىٰ المعـاملات، ولا يَخْشَ من كَثْرة الحركات، ولْيَعْلَمْ أنَّ كلَّ ما هو آتٍ آت؛ وليتخذِ الشَّرعَ الشريفَ إماما، وليَتوخَّ أوامِرَه ونَواهِيَه نَقْضًا وإبراما؛ وليَقِفْ عند حُدودِه المشْرُوعه، ولا يتعدَّها: ومن يَتَعَدَّ حُدودَ اللهِ فيَدُه من الإيمـان مَنْزُوعه؛ ولْيُلِنْ جانبَه للرَّعِيَّه، ولْيَحْمِلْهم من العَـدْلِ والإنصافِ على المَحجَّةِ الواضحة الجَلِيَّه؛ فإنَّهم الرعيةُ الضُّعفاء الذين أنْعم الله عليهم بتَفْوِيض أُمورِهم إليه، ولْيَعتمِدْ قولَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ من وَلِيَ من أُمورِ أُمَّتِي شيئًا فرَفَق بِهم فآرْفُقْ به ومن شَقَّ عليهم فآشْقُقْ عليه»؛ والوصايا كثيرةٌ وتقْوَى اللهِ عزَّ وجلَّ نِظامُها وقِوامها، وآتِّبـاعُ سُنَّة نَبِيِّه سيدِنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم قِيادُها وزِمامُها، والآعتمادُ في معناه، على الخطِّ الكريم أعلاه.

⁂

وهذه نسخةُ تَوْقِيع بكَشْف الرَّمْلة، كُتِب به لأبِي بَكْر «أمير علم»، في الدولة الظاهرية «برقوق» وهي:

الحمدُ لله الذي قلَّد أجْياد المُجاهِدين، سَـيْفَ نَصْرِه، وأكَّد بعزائم أهلِ اليَقِين، حِمايَةَ حَوْزَةِ الإسلام وصِيانَةَ ثَغْرِه؛ وجعل ألْسِنَةَ أسِنَّة المُرابِطين في فَم الثَّغْر زَيْنًا إذا آزْدان بغُرَّةِ بَدْرِه، وأنزل بأعْداءِ الدِّين قَوادِحَ نِقَمِه وقَوارِعَ قَهْرِه.

أحْمدُه أن حمىٰ بأُولِي النَّجْدة والبَأْس للسلمين حِمَىٰ، وأشْكُره علىٰ ماهَمَع من صَيِّب نَعْمائِه وهَمَىٰ؛ وأشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً أتَّخِذُها عنـد الله

ذُخْرا ، وأرْجو بهـا فى العُقْبىٰ أجْرا ؛ وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبـدُه ورسولُه الذى آيدَ يدَه بالسَّيف وأمدَّه أيدا ، وعلىٰ آله الذين حَلَّىٰ بهم للإسلام جِيدا ، وصَحْبِـه الذين جَلَا بَبَوارِق صِفاحِهم ، وخَوارِق رِماحِهم ، غُمَمَ المجال ، وغَمَم القتـال ؛ فلم يُهمِل الأعداءَ ولم يُمْهِلْهم رُوَيْدا .

وبعـدُ ، فإنَّ أولىٰ مَن جُعِل فى نَحْر البَحْر هُمامًا صَارِمْ[1] ، وأشدَّ من قاطع أعداء الدين وصارَمْ ؛ من تُضرَبُ بشجاعته الأمثـال ، ويُورِدُ فى صـدور الأبْطال صُمَّ الأسَل النِّهال ؛ ويَحْمِى حِمَى الثَّغْر فلا يَدَعُ عدوًّا ولا يَرْهَبُ نَهْبا ، ويَرْقَىٰ رِقابَ الكُفْر فيُؤْمنون وإن كان وراءَهم مَلِكٌ يأخذُ كلَّ سَفِينة غَصْبا .

ولمـا كان الجناب الكريم فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ نِعْمته ـ هو الذى أخلص فى الطَّاعه ، ونصح سُـلْطانَه حسب الطاقة والاْسْـتِطاعَه ـ رُسم بالأمر الشريف العالى ـ لازال سـيفُ عدله ماضِيا ، وكُلٌّ بحُكْمِه راضِيا ـ أن يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليه كاشفًا بالرَّملة المعمورة ، علىٰ عادة من تقدَّمه فى ذلك .

فلْيُباشِرْ ذلك مُعَمِّرًا تلك البـلادَ بعَدْلِه ، مُجتهِدًا علىٰ إيصال الحقِّ إلىٰ أهْـلِه ؛ وليتخِذِ الشَّرعَ الشريفَ إماما ، ولْيَتوَخَّ أوامِرَه ونَواهِيَه نَقْضًا وإبْراما ؛ ولْيقِفْ عند حدوده المشروعه ، ولا يتعدَّها : ومن يَتَعَدَّ حُدودَ اللهِ فيَدُه من بِرّ الإيمان منْزُوعه ؛ ولْيُلِنْ جانبَه للرَّعِيَّـه ، وليحملهم من العَدْل والإنْصاف على المَحَجَّة الواضحة الجليَّه ؛ [فإنَّهم الرعيةُ الضُّعفاء الذين أنْعم اللهُ عليهم بتَفْوِيض أُمُورِهم إليه][2] ولْيعتمِدْ فيهم قولَ النَّبي صلَّى الله عليه وسـلم : «اللَّهمَّ من وَلِيَ من أُمُورِ أُمّتى شيئًا فرفَق بِهِم فاْرفُق به ومن شَقَّ عليهم فاْشقُق عليـه» . والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التَّقوَىٰ فليلازمْ عليها فإنَّهـا

(١) وقف عليه بلغة ربيعة . (٢) الزيادة مأخوذة ممـا تقدّم .

تحفَظُه ، و بالسيادة والسعادة تَلحظُه ؛ واللهُ تعالىٰ يكَمِّلُ توفيقَه ، ويسهِّلُ إلىٰ نُجْحِ المقاصد طَرِيقَه ؛ والاعتماد فى معناه ، على الخط الكريم أعلاه .

قلتُ : ومن تأمَّل وصايا هذه التواقيع الثلاثة المتقدِّمة الذكر ، علم ما كان عليه كُتَّاب الزمان ، من انتزاع الفقرات من تَوْقيع ، وتَرصيعها فى تَوْقيع آخر ، من غير تغيير لفظ فى أكْثرها .

المرتبــــة الثـانية

(من تواقيع أرباب السيوف ممَّن بأعمال دِمَشْق ـ مايُفتتح بـ«أما بعــدَ حمد الله» وفيهــا وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنيابة بعلَبَكَّ لمن دون من تقدّم فى المرتبة الأولىٰ ، من إنشاء الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة ، كُتب به لمن لقبه «ناصر الدين» : وهى

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى لم يُخْلِ مملكةً إسْلاميةً من قُوَّةٍ ولا ناصر ، ولم يُحِلْ أمرَها على ذِى عَزْمٍ قاصر ، ولم يُحَلِّ وَجْهَها إلا بمن نُسِىَ به القديمُ وشَهِد له المُعاصر ، ولم يُلْقِ مقاليدَها إلا لمن وَضَح برأيه الإبهامُ وثَبتتْ بفَضْلِه الشهادةُ وعُقِدَتْ علىٰ ذِكْره الخَناصر . والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى شيَّد معالِمَ الدِّين وأرْكانَه ، وجدَّد مكان الحقِّ و إمْكانه ؛ وعلىٰ آله وصَحْبِـه الذين تابعوا فى الخلق عَدْلَه و إحْسانَه ، وشايعُوا فى النَّصر نَصْلَه وسِنانَه ؛ ما آستناب الوَدْقُ فى سُقْيا الرِّياض غُدْرانَه ، وخَلَع على الغُصونِ خِلعًا خَطَر فيهـا الزَّهر بأكْمامِه وعَقَد من الثَّمرِ تيجانَه ـ فإنَّ شَرَفَ الأماكِن بساكِنيها ، وجُسُومَ الديار بنُفُوس قَاطِنيها ؛ والمَنازِلَ بكواكِبها ، والمناصبَ

بنَصيبها من الكفاءة ونائبها ؛ وإنَّ مدينة بعلبَكّ عَلَمٌ فى المدائن مرفوعُ الخطّه ، وجِسْمٌ من جُسوم الديار قد آتاه اللهُ بَسْطَه ، بِنْيَةُ سليمانَ عليه السلام فهى بالملك قديمة الاختصاص ، ومُبتَنَى الجانِّ المنسوبةُ عُقودُها العليةُ والدُّرِّية إلى كلِّ بنَّاءٍ وغوّاص ؛ وشامُ الشّام المُعجبه ، ورَوْضَةُ نَداه المُعشِبَه ، وثَنِيَّة ثغرِه الباسم ، وعَرْفُ أعْراق حياه النَّاسم ؛ ومأوَى صُلَحائه أحياءً بين أوْطانها ، وأمواتًا بين صَفيح لُبْنانها ؛ لو عُرِضَتِ البِلادُ سُحُبًا لقيل لسَحابِها : يا كثيرَ المِنَن ، ولو صُوِّرَتْ أناسيَّ لقيل لإنسانها : ياطَيِّبَ النَّجْرِ واللَّبَن ؛ لا يُمنع ماعُونُها ، ولا يَنْقطِعُ عَوْنُها عن البلاد وما أدراك ماعَوْنُها ؛ ولا تليق من النوّاب إلّا بكُلِّ سَرِىِّ العَزْمِ والهِمَّه ، عَلِىِّ الآراءِ فى المُلِمَّة المُدْلَهِمَّه ؛ ناجح القَوْل والعمل ، صالِح لأن يُثْنِى على نيابته البَعْلَبَكِّيَّة صالِحُو المدينة والجَبَل ؛ مُكمَّل لسلوك الحقِّ الأنجى والعزم الأنجد ، مُؤَهَّلٍ لارتقاء الرُّتب التى تماحدنا(١) ولها الأمجد .

وكان فلانٌ هو جُملةَ هذا التَّفصيل ، وجَمالَ هذا التَّفضيل ؛ وكُفْءَ هذه العَقِيلَه ، وسَعْدَ هذه المنزلة التى مَدّتْ بالسَّيف والقَلَم ذِراعَه ونظَّمتْ من البناء إكليلَه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زالتِ الممالكُ بمحاسِنِ أيَّامه إرَمَ ذاتِ العِماد ، والبِلادُ ذاتَ الخِصْبِ السَّنِىِّ لا ذاتَ السَّنةِ الجَماد ــ أن يرتَّبَ فى نيابة بعلبَكّ المحروسة : مُجدِّدًا بهمَّته العالية عُلُوَّ صَرْحِها ، وحِمايةَ سَرْحِها ؛ ورِعايةَ جَبَلِها وسَفْحِها ، مُورِيًا فى مصالحها زِنادَ فِكْره التى لا تمكِّنُ أقوالَ العُداة من قَدْحِها ؛ مُصَرِّفًا أوامِرَه كيف شاءتْ ، مُنْصِفًا للأحوال المُنوطَةِ برِعايَته إن دَنَتْ أو تَناءَتْ ؛ باسِطًا لعَدْلِ قلمه على المُجيدين ، وسَطَواتِ سَيْفِه على المعتدين ، وَازِعًا بمهابَته مَن جاور جبال

---

(١) لعله "التى إذا خلت من ماجد تناولها" الخ .

العَمَل من الضَّالِّين، ﴿فعسىٰ أُولٰئك أن يَكونُوا من المُهْتَدِين﴾ وليَتبوّأ منها مَعْقِلًا يحمُده المُناصِر والمُهاجِر، وليَحُطْ منها ثَغْرًا مَساوِيكُه الأسَلُ والمَسْعَىٰ إليه علىٰ المَحاجِر، ولْيُجْرِ أُمور الديوان علىٰ سَنَنِ التَّمييز والتَّثمير، وليـدَبِّرِ الأوقافَ المبرورةَ بمحاسن التَّدْبير، ولْيشارِكْ أهلَها فى الأجْر الأوّل بالأجْر الأخير؛ والأسْوار هى وقُلوبُ الرِّجال من أهَمِّ ما يُعَمِّرُه، ووُفورُ الحَواصِل والسِّلاح ممَّـا للوَلِيِّ ولِقاءِ العَدُوِّ يدَّخِرُه، وتقْوَى الله عزَّ وجلَّ ممـا لا يزال لِسانُه يَسْتَحْلِي القولَ فيه فيُكَرِّره؛ واللهُ تعالىٰ يمدُّه بإعانته ولُطْفِه، ويكْفِيه ما أهَمَّ من الأُمور فمـا كُفِي مَن لم يَكْفِه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بولاية الولاة بالشَّام المحروس لمن لقبُه «عزُّ الدِّين» من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا، وهى :

أمَّا بعد حمد اللهِ الذى جعل للوُلاة فى هذه الدَّولة عِزًّا يَتجَدَّد، وعَزْمًا يتشدَّد، وعلاءً لا يتَعدَّىٰ إذا حكم وزيدا لا يتَعَدَّد (١)، وكَافِيَ وُلاةٍ يتَلَذَّذُ الوَاصِـفُ بذكر آهتمامه الذى إذا آهْتَمَّ لا يتَلَدَّد، وإذا آعْتبِر عَزْمُه وحَزْمُه فهذا فَضْلٌ يتجدَّد، وهذا وصف لا يتَحَدَّد . والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِ الخلقِ محمد، وعلىٰ آله وصَحْبِه ذوى العزِّ المؤبَّد، والعَزْم المؤَيَّد، ما كَتَبَ قلَمُ الغَيْثِ الجائد علىٰ طِرْسِ الرَّوْض بخَـوَّد ــ فإنَّه لمـا كانت الوُلاة فى خدمة البلاد جَيْشًا يَحْمُون سَرْحَها، ويَعْمُرون صَرْحَها، ويُخْصِبُون بالعَدْل قبل العِمارَة سَفْحَها؛ ويَحْكُمون فى رعاياها، ويَمكُثُون فى قَضَاياها، ويقْرَعُون ثُغُورها ويفْرعُون ثَناياها ــ تعيَّن أن نقـدِّمَ علىٰ هذا الجَيْش المذكورِ أميرًا يَقَرِّرُ أمرها، ويُنَسِّق من مَيْمنتِه ومَيْسرتِه يُمْنَها ويُسْرَها؛ ويُجَرِّدُ من الرَّأْى سِـلاحَه، ويَسُرُّ قلْبَه بالتَّدْبير ويَرِيشُ جَناحَه .

(١) كذا فى الأصل بالاهمال ولعل صوابه «وفعلا اذا حكم لايتعدّى ورأيا لايتعدد» .

وكان المجلسُ السامِى هو الأميرَ الدَّالّ عليه هذه الإماره ، المَعْنِىَّ بهذه الشَّارَة والاشاره؛ المُسْتَحِقّ بشريف نَفْسه مَدَارِجَ الآرتقاء ، ومَباهِجَ الآنْتِقاد والآنْتِقاء ؛ المُسْبِلَ أذْيالَ مَفاخِرِه أىَّ إسْبال، المَرْقُومَ بآسمه ورَسْمِه علىٰ أرْجاء الوِلايات : «عِزٌّ يَدُومُ وإقْبال» ؛ المُقِيمَ من أمانَتِه ومَهابتِه بين حِرْزَيْن، الشَّهْمَ الذى لا يَذِلُّ وهو من نَعْته ومُنْتَسِبِه بين عِزَّيْن؛ الصَّمْصَامَ الذى تُسَرُّ [به] يدُ من آرتضاه وآنْتضاه، والمَاشِىَ على الحقِّ الظَّاهِر حتّىٰ يقال : أهَذا وَالِى الوُلاةِ أمْ قاضِى القُضَاه ؟ .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ شَرَّفه اللهُ وعظَّمه ـ أن يَستقرَّ ... ... آعتمادًا علىٰ شَهامَتِه التى بِمثْلِها تُمَهَّدُ البِلاد ، وكَفَاءتِه التى تُفْصِحُ بالخيرات السَّنِيَّة ألْسِنَةَ الجَماد ؛ وصَرامَتِه التى تَشُدُّ علىٰ أيْدى الوُلاة فيَردُّون الحُقوقَ من أيْدى الآغْتِصاب، ودِرايَتِه التى ينتَسِبُون إليها فيُنْشِدُون :

وكُنَّا كالسِّهامِ إذا أصابَتْ * مَرامِيها فَرَامِيها أصَاب. (١)

فلْيباشِرْ هذه الرُّتبةَ بكُفْئِها : من العَزْمِ العالى، والقَدْرِ الغالى؛ والمَعْدِلَةِ التى تَتَمسَّكُ منها الأحوالُ بأوْثقِ العُرا ، وتَتلُو سَيَّارتها المرفقة : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى القُرَىٰ ﴾ . مُراعِياً لجميع الأحْوال ، مُثَمِّرًا لمَرْبعِ الأمْوال؛ وَالِيًا علىٰ وُلاةٍ إن شَكُّوا فى صُنْعِ الله فما لهم من اللهِ من وَال ، ماشِيًا من تَقْوى الله تعالىٰ فى كلِّ أمرٍ على أقْوىٰ وأقْومِ مِنْوال ؛ واللهُ تعالىٰ يُخْصِب البِلادَ بغَمامِ رَأْيِه الصَّيِّب ، ويُطَيِّبُ الأماكن المُنْبِتَةَ بِمثْلِه : « وكلُّ مَكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّب» .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية البَلْقاء والصَّلْت ، من إنشاء آبن نُباتة، وهى :

(١) الرواية : أصابا بألف الإطلاق ، وحذفت هنا لمراعاة الفاصلة .

أمَّا بعدَ حمدِ الله مُضاعِف النِّعْمه ، ومُرادِف رُتَب الإحْسان لمن أخْلص فى الخدْمه ، ومُجدِّدِ منازِلِ العِزِّ لمن طلعتْ كواكبُ آهْتمامِه فى آفاق الأُمور المُهِمَّه ، ومُؤكِّدِ سِهام الخَيْر المقْتَسمه ، لمن سدَّد فى شَرَف الأغْراض رَأْيَه بل سَهْمَه . والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ النبيّ الأُمِّيِّ هادى الأُمَّه ، وعلىٰ آله وصَحْبه حُماة الدِّين من العوارض المُلِمَّه ، صلاةً تكونُ بين أرْواحِهم الزَّكية مَوَدَّةً ورَحْمه ـ فإنَّ أحقَّ الأولياءِ بمزِيد الآلاء المُتَّصِله ، وتَجْديد النِّعَم المقْبِلَةِ وتَقْديم المساعى التى لاتَلْبَس حُلَلَ الفَخار إلا مُكْتَمِلَه ـ من وَضَحتْ فى صفات الفَضْل آياتُه ، وتقابَلَتْ فى حالَتَيِ التَّدْبير سطَاهُ وأناتُه ، ورَوَّى غُلَّةَ البَلَد الخائف نفاض على المُعْتَدِينَ جَدْوَلُ سيفه وجَرتْ بالدَّم قَناتُه ، وقام علىٰ قَدَم الاجْتهاد ، وقسَّم بين جَفْنِه وجَفْن سَيْفه السُّهاد .

ولما كان المجلسُ هو المقصودَ بهذه الكِنَايَه ، والمشهودَ له فى طَلَق هذه الغَايَه ، والعالِيَ بِهِمَمِه علىٰ ذَوِى الارْتقاء ، والوَالِيَ الذى إذا رَكِبَ الوُلاةُ لاشْتهارِ ذِكْرٍ كان من بينِهم فَارِسَ البَلْقاء ، والنَّاهِضَ بتَثْمير الأموال غَمامُ رَأْيِه الصَّيِّب ، والطَّيِّبَ بسياسته مَحَلُّ الولاية : « وكلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّب » ـ تعين أن تَتَزَيَّد مَنْصِبَه إذا تزيَّدتِ المناصب ، وأن تَستمرَّ مَرْتَبَتُه إذا مَرَّتْ لذَهابِها المَراتِب ، وأن يشتملَ فى آسْتمرارها عليه ، وأن يكون فى إعْراب الدَّولة القاهرة مُضافًا ومُضافًا إليه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ أعلىٰ الله تعالىٰ أبدًا عِمادَه ، وجعل لوُلاةِ أيَّامه الحُسنىٰ وزِيادَه ـ أنْ يستمرَّ علىٰ ولاية البَلْقاء علىٰ عادته ، وأنْ تُضافَ إليه ولِايةُ الصَّلْت (١) : جمعا له بين الأُخْتَين حَلالا ، والذِّرْوَتَيْن مَنَالا ، والرَّايتَيْن نُهوضًا بهما

(١) لم يذكرها القاموس ولا ياقوت وفى تقويم البلدان هى بليدة وقلعة من جند الأردن .

وآستقلالا، وعلمًا بوفاءِ عَزْمه الذى أَمَر أمْرُه، ورَفْعًا لقَدْرِه الذى حَسُن أن يقولَ لَمنْصِب البَلْقاء : « لنا الأبلَقُ الفَرْدُ الذى سار ذِكْرُه »، وتَيَمُّنًا بغرّةِ الصَّلْتِ فإنَّ الصَّلْتَ هو الجبينُ الواضحُ بِشْره ؛ وكَيْف لا؟ وهو الكافِى الذى جمعَ مالَ الجهاتِ فأوْعىٰ، وقَسَم فُنُونَ المصالحِ جِنْسًا ونَوْعا ، وحَسَم أدْواءَها بحُسامِ رِفْقِه كَرْهًا وطَوْعا .

فليباشِرْ بالعِزِّ واليُمنِ جِهتَيْه، وليأْخُذْهما بكلْتَا يَدَيْه، وليفض وَجْه عزمه فى أرض الدَّولة حتَّىٰ يكون شبه البلْقاءِ اللازم لإحدى ولايتيه؛ محصّنًا بسِماكَىْ سَيْفِه وقَلَمِه فنِعْم البَلْدتان، مُثَمِّرًا بسَدادِ قَوْله وفِعْله ومن دُونِهما جَنَّتان؛ مُوفِيًا للحقوق، مُعْفِيًا لاعتراف النِّعمة من العقوق، رَاقِيًا بهمته ــ إن شاء الله تعالى ــ إلىٰ رُتَب لو رامَها نَجْمُ الأُفقِ لعاقَه العَيُّوق ، عاملًا بتَقْوَى اللهِ عزَّ وجلَّ فإنَّ خيرَ الدنيا والآخرةِ بتقوى الله مَعْدُوق؛ واللهُ تعالى يُوضِّح لرأْيه أجملَ الطرائق، ويُنْجِح على البَلْقاءِ وغيرِها سَعْيَه السَّائِق، وفِكْرَه السابق؛ بمنه وكرمه! .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية نَابُلُس، من إنشاء آبن نباتةَ أيضا، وهى :

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ علىٰ ماهَنَّأ من المواهب ، وهَيَّأ من عَلِيِّ المراتب ، وأنْجز من وُعود السُّعود بعد مِطَالِ المَطَالِب ، وزَيَّن من سماء الوظائف عند إزهائها بزِينَةِ الكواكب ، وعَمَّر من صُدُور الوُلاة والولاية بعَلِيٍّ تُثْنِي عليه الرعِيَّةُ «ولو سكَتُوا أثْنَتْ عليه الحقائب» . والصلاةِ علىٰ سيدِنا محمد عبدِه ورسولِه الذى جَرّد لنَصْر الإيمان حَدَّه القاضِب، وحِزْبَه الغالب، ونَدَب لإحْياءِ الحقِّ عَليَّه بعد ماهَمَّت به النَّوادب؛ وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين هم فى المَمَات جمالُ الكُتُب كما كانوا فى الحَياةِ

جَمالَ الكتائب ، صلاةً تتعطر بنفحاتها الصَّبا وتتقطَّر من خَلْف سُراها الجنائب ـ فإنَّ عقائِلَ الولايات أولى بخِطْبَة أكْفائها ، ورَغْبة السَّراة من ذوى اصْطِفائها ، ونِسْبة من يقوم للأمور المُعَلَّلة بقانونها وشِفائها .

ولما كانت بَلَدُ نابُلُس المحروسة من أعلى عقائل البلاد قَدْرا ، وأمْرإ الجهات أمْرا ، وأسْرى الولايات مَحَلًّا وذِكْرا ، وأوفى النَّواحى من زمان بَنِى أيُّوبَ على تكاليف المُلْك صَبْرا ، وأنْزه البِقاع التى لو رآها المَلِكُ المِصْرىّ لما آسْتَغْلى غُوطَةَ الشَّام بشِبْرَيْن من شِبْرا ؛ بَلَدٌ أعارَتْه الحمامةُ طَوْقَها وحمَّلتِ الثَّناء فوقَ طَوقِه ، ونَجَمَ نبات واديها الزَّهْرَ حتَّى تَساوَى النَّجمان من تحته ومن فوقِه ـ تعيَّن أن يُختار لولايتها من تَعيَّن وَلاؤُه ، وتمكن فى الرُّتَب عَلاؤُه ، وتبيَّن فى مصالح الولايات آحتِفالُه وآحْتِفاؤُه ، وشُهِر وَفاؤُه بالخِدْمة فلا شَرَف بسعى إلَّا له مِنْه شِينُه وراؤُه وفاؤُه ؛ من شَهِدَت السَّواحِلُ الشاميَّةُ فى مُباشَرته أنَّه أجْرَى منها المالَ بحْرا ، وأفاض الوَصْف دُرّا ، وشَهِدت الزَّكاة ـ ودِيوانُها المادِحُ ـ أنَّه أفلحُ من زكَّاها خَبَرًا وخُبْرا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يُرتَّب فلانٌ ... ... عِلمًا بأنَّه الأوحَدُ الذى جمع الأوصافَ المتقدِّمه ، وأسْمَعَ من المحامد نَتِيجَةً لها من كلا قَوْله وفِعْله مُقَدِّمه ؛ وأطلع فى آفاقِ الوَظائف كنُجُوم الجَوْزاءِ الثَّلاثَةِ رأيَه وسَيْفَه وقلَمَه ، وآطَّلَع على مَحاسِنِ التَّدْبير فكان فى رَعايا بَلَدِه ممَّن تَواصَوْا بالصَّبْرِ وتَواصَوْا بالمَرْحَمه ؛ وأنَّه الكافِى الذى إذا وَلِىَ ثَمَّر ، وإذا صال على المُفسدينَ دمَّر ، وإذا شامَتِ المُهِمَّاتُ بارِقَ عَزْمٍ ، أسْبَلَ وإذا سامَتْ قُواه شَمَّر ؛ وأنَّه الأمينُ إذا تَصرَّف ، والمأمُونُ إذا تعرَّف ، والشُّجاعُ إذا تحصَّنت البلادُ بنَسَبه الحِصْنِىّ : فَسواءٌ فى شُمولِ الأمْن ماتوسَّط منها وما تَطَرَّف .

فلْيباشِرْ هذه الولايةَ المباركَةَ بعَزْمٍ يُوضِّح بِشْرَها ، ويُنْجِح أمْرَها ، ويُقيمُ فى خِطْبَةِ عُلاه عُذْرَها ، وحَزْمٍ يُثمِّر مالها وغِلالَها ، ويَنْقَعُ غُلَّتَها ويَضَعُ أغْلالَها ؛ وبأْسٍ يَدَعُ

المُفسِدَ من سَيْفِه أو قَيْده فى طَوْقٍ أو حِجْل، ويَذَرُ السَّارِقَ والمَارِقَ يُشِيرُ بلا كَفٍّ ويَسْعىٰ بلا رِجْل؛ مُشَيِّدًا لنَواحِيها بالتَّرغيب والتَّرهيب علىٰ أوْثَق المَبانى، مُصْلِحًا بين أهْلِ الأهْواءِ حتَّى لا يَضُرّ قَوْلُ القَائِل: «رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ وأنْت يَمانِى»؛ مُتَفَقِّدًا من الأحوالِ كُلَّ جَليلٍ وحَقِير، ناهِضًا فى تَلَقِّى المهمات علىٰ قدم التقدم بالعَزْم الأثير، جاعِلًا من لَدَى مَحَجَّةِ عَمَلِه لصلاح العشيرة نِعْم العَشِير، عامِلًا بتَقْوى الله تعالىٰ فى كلِّ أمْرٍ وإليها بالحديث يُشِير.

❖

وهذه نسخةُ توقيع بشد الدَّواوين بغَزَّةَ، من إنشاء ٱبن نُباتة، كُتب به لـ«علاء الدِّين بن الحصنىّ» المقدَّم ذِكْره فى التَّوقيع قَبْله، وهى:

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ علىٰ كلِّ نِعمةٍ جَلَّتْ، ونَعْمَةٍ فى أهْلها حلَّتْ وحَلَّتْ، ورتبة بانتساب كافيها وباسمه تحصنت على الحقيقة وتَعَلَّت؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ خيرِ من سَلَّمتْ عليه الألْسِنةُ وصَلَّتْ، وسُلَّت به سُيوفُ النَّصْر وصَلَّت؛ صلاةً دائمةً ما أُمْلِيَتْ على الأسماع فمَلَّتْ، ولا قابَلَتْها وُجوهُ الملائكة إلَّا تَهلَّلَتْ ولا سُحُب الرِّضْوان إلَّا ٱنْهلَّتْ — فإنَّ منزلةً يُستَقَى [من] مُهِمَّات الدَّولة خَبَرُها، ويُستَدعَى من جَانِبَىْ مِصرَ والشَّام سَبْرُها، ويُحمَد إليها من ناحِيَتَى الساحلِ والجَبَلِ سُراها وسَيْرُها؛ وتلك وظيفةُ شدِّ الدَّواوين المعمورة بغَزَّة المحروسة التى تُلْتَقَطُ من ساحِلِ بَحْرِها دُرَرُ الخير المُقْتَبَل، وتقولُ المهِمَّات الشريفةُ لسَراةِ ٱسْتِنهاضِها: ياسارِيَةُ الجَبَل — حَقِيقَةٌ أن يُتَخَيَّرَ لها من الشاكرين من يُحْمد ٱجتِهادُه وجِدُّه، ومن السَّابقين إلى المقاصد من يَحْسُنُ — كما يقال — تَقْرِيبُه وشَدُّه؛ ومن شُكِرَتْ فى الولايات آلاؤُه، ومَن إذا علا نَظَرُ رَأْيِه فى المصالِح قيل: دَام عَلاؤُه؛ ومَن إذا دَبَّر جهةً قالت بلسان الحال: لقد زاد فى المصالِح حُسْنا، ولقد تَحَصَّنتُ بانتساب ذِكْرِه فلا عَدِمْتُ منه حصنا.

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يستقرّ ... ... لمـا عُرِف من حَزْمِه وعَزْمِه، ولمـا جُدّد فى مقدّمات القَدْرِ من رَفْعِـه و فى إعْلاء المهمّات من جَزْمِه ؛ ولمـا عُهِد من هِمَمِه فى جِهاتٍ دَبَّرها ، وفى وِلَايَاتٍ ثَمَّرها ، وفى وَظائِفَ شـدّها : أمّا على العُتَاةِ فشَـدّدها وأمّا على المُسْتَحِقِّين فيَسَّرَها ؛ ولمـا آشتهر من ذِكْره الذى لا يَبرح عَليّا ، ولمـا ظهر من دِرَايتِه التى جعلتْ كوكبَ سَعْده وسَعْيه دُرِّيّا ، ولمـا بَهَر من تَمَيُّزه الذى إذا هَزَّ عصاه بيَدٍ تُساقِطُ على المقاصد رُطَباً جَنيّاً .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ مباشرةً تُبَيِّضُ لهـا وَجْهًا وعِرْضًا ، و إذا أثْنىٰ عليه المُثْنِي تَبرُّعًا كافَأه حتّى يكونَ قَرْضا ، مجتهدًا فى تَثْمِير الأموال والغلال ، ضَابِطًا لأُمور الدِّيوان حتّى لايشْكُو الخَلَّةَ ولا الآختِلال ، قائمـا بحقوق الخِدْمه ، مُسْتزيدًا ـ بشُكْر الأقوال والأفعال ـ لمـا يرسَخُ له من أقْسام النِّعْمه ، عَليًّا علىٰ كُلِّ حالٍ إذا وَفّت الفِكْرُ قَدْرَه و إذا ذكر اللِّسانُ آسْمَه .

المرتبـــة الثـالثة

(من تواقيع أرباب السيوف بأعمال دِمَشْق ما يفتتح بـ«رُسم» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة القُدْس ، من إنشاء الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة ، كُتب بها لشرف الدين « مُوسى الرّدّادى» وهى :

رُسم ... ... ـ لا زالتْ وُلَاةُ أيّامه عاليةَ الشَّرَف ، ساميةَ المُسْتَشْرَف آويةً من جَنّات خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ إلىٰ غُرَف من فَوْقها غُرَف ـ أن يستقرَّ المجلسُ السامى ... ... علْمًا باهتمامه الوَفِى ، وآعتزامه المتيقِّظ إذا نام حَدُّ المَشْرَفى ؛ وآستنادًا إلىٰ رأيِه الذى

يقولُ نجمُه الطَّالِعُ: «مَا أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصانَ من شَرَفِي» ! ! ؛ وإرْشادِ سَعْيِه إلىٰ أن ٱتَّخذَ من الأرض المُقَدَّسةِ دَارا ، ومن حَرَمِهِ الشَّرِيف جَارا ، وٱتِّقادِ ذِهْنِه وشجاعَته اللَّذَيْن آنس بهما من جَانِبِ الطُّورِ نَارا ؛ وكَيْف لا ؟ وقد قالت هِمَّتُه : يا مُوسَىٰ أقْبِلْ ولا تَخَفْ ، وأخْرِجْ يَدَكَ البَيضاءَ فى النِّيابة تكُنْ أحَقَّ من ٱعْترف بها الإحسانَ وٱعْترَف .

فلْيباشِرْ ما فُوِّض إليـه مُبَاشَرةً يَعْلُو بهـا شَرَفُ ٱسْمِه ومُسَمَّاه ، ويَبْـدُو للاختيار والاختبار فضلُ التقدّم الذى إذا بدا له كفاه ؛ ولْيُجْرِ بهذه الرُّتبة رَأْياً حسَنَ الإحكام ، ولْيُواظِبْ علىٰ حِفْظِ هذه القَلْعة التى فُتِحَ بهـا عليه فإنَّها من أعْظمِ فُتوح الإسلام ؛ ولْيُمـدَّ عليها من كِفايَتِه سُورًا حَوْلَ سُورِها ، ولْيتفَقَّدْ رِجالَها وعُدَدَها تفقُّدَ الشُّهُبِ فى دَيْجُورِها ، ولْيرُدَّ عنها بعَزْمِهِ الرَّدادىِّ عُيونَ الأعادِى الزُّرق حتّٰى لا يراعَ فى أرْضِ الحَرَم ولا حَمامَاتُ طُيُورِها . ولْيَشْكُر نعْمَةً أوَتْه إلىٰ هذه المنازل الطَّاهِرَه ، ولْيقرِّبْ لِيَدِ آمِلِه طَلَبَ خيرِ الدنيا والآخِرَه . ولْيقدِّمْ من الوصايا تقْوَى اللهِ التى عن أصْلها تتفرَّعُ نِعَمُه البـاطِنَةُ والظَّاهِرَه ، حتّٰى يجعلَ له فى الوَادِى المُقَـدَّس رَبْعاً مَأْنوسا ، وجَمْعا مَحْروسا ، وأحاديثَ حَسَنَةً تقولُ لمُسْتَمِعِ مِثْلها فى الآفاق : ﴿هَلْ أتاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ . واللهُ تعالىٰ يمدُّه بإعانته ، ويُلْهِمُه شكْرَ ما رُزِقَ من فَضْلِ مَكانِه ومكَانَتِه ؛ بمنِّه وكَرَمه !

✥

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنيابة قَلْعة صَرْخَد لمن لقبُهُ «جمال الدين» وهى :

رُسِم بالأمر ــ لا زال يَتَخيَّرُ لقلاعِه النَّائِبَ ويَتَحيَّزُ(١) من النَّائِبَه ، ويُمِدُّها بسَحائِبِ بِرِّه وفِكَرِه الصَّائِبه ، ويندُب لخدْمتها كلَّ سَيْفٍ يرضَى النَّادِبَ ويُقيم علىٰ غيرها النَّادِبَه ــ

(١) أى يتنحى .

أن يُرتَّب مجلسُ الأمير ... ... لأنَّه الكافِى الذى تُسَرُّ الحُصونُ بأمْثاله ، وتَبْتسِمُ شُرُفَاتُ القِلاعِ لإقْباله ، وتنشَرحُ منازِلُها بتنَقُّلِ نجوم الهداية من أفعاله وأقوالِه ؛ والمَلِىُّ بأداءِ الخِدْمه ، والمرَشَّحُ لمـا هو أوفَىٰ وأوْفرُ من الأمور المُهِمَّه .

فلْيباشِرْ نيابةَ هذه القَلْعة القـديم أثَرُها ، والشَّهيرِ خَيْرها وخَبَرُها ؛ بعَزْمةِ سَـيفٍ قاطعه ، وحِدَّةِ بأْسٍ ذائِعَه ، ومَهابَةِ ذِكْرٍ لشياطينِ النِّفاق عنها رَادعَه ؛ فإنَّها من بِناء المَرَدَة : فلْيَرُدَّ عنها آفةَ جِنْسِها ، ولْيَحُطْ بُرُقَىٰ عَزائِمه حَوْل نَفاسَـتِها ونَفْسِها ؛ ولْيُجْرِ أمْرها على السَّدد(١) ، وليَبْنِها بلُزومه المَهْدِى أوْثق ممَّـا بناها أُولئك بالصُّفَّاح والعَمَد ، وليرْضِ الآثارَ السُّلَيمانيَّـة بسَلْمـانِ بيت الملازمة علىٰ طُولِ الأبد ، ولْيجْتَهِدْ فيما هو بصَدَدِه حتى تُدمَّر بتَدْمُر جوانحُ الحَسَدَة بالكَمَد ، مكَثِّرًا بذِكْرىٰ مَهابَته لعَـدَدها ، مُوَفِّرًا لعُدَدها ، مُستَوْجِبًا لآستجلاب الإنعام عليه بآستجلاب مَدَدِها .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة الصُّبَيْبة ، وهى :

رُسم بالأمر العالى ــ لا زال إحْسانُه يُعيدُ إلىٰ الحُصون نَاصِرَها وزَيْنَها ، ويُفيـدُ أصحابَ الهِمَم صَوْنَها ، ويَحْرُسُها بمن إذا نَظَر فيها وحَماها كان عَوْنَها وعَيْنَها ــ أن يستقرَّ المجلسُ السامىُّ الأميرىُّ ... ... لمـا أَلِفَتْه هـذه القلعةُ المنصورةُ من تَحْصينه وتَحْسينه ، وعرَفَتْه من تَرْتيبه فى عمارتها وتَزْيينه ؛ ولأنَّه الأدْرىٰ بالمصالح العائِد نَفْعُها ، والأدْربُ بمَناجِحها الحميـدِ وَقْعُها ؛ الذى باشرها من قبلُ فأحْسنَ السُّلوك ، ونَصحَ هذه الدولةَ القاهِرةَ فأثنىٰ علىٰ سِيرته مُلُوكُ الحُصُونِ وحُصونُ المُلوك .

فلْيعُدْ إلىٰ هـذا المَعْقِلِ المَنيعِ عَوْدَ المـاء إلىٰ مَشارِبه ، ولْيَسرْ فى أرجاء أبْراجِهـا مَسـيرَ القَمَر بين كَواكِبه ؛ ولْيتفَقَّدْ أُمورَ رجالهـا المستخدَمين ، ولْيَسْتَجْلِبْ قلوبَ

(١) السدد [بالتحريك] الاستقامة كالسداد .

حَفَظَتِها الأقدَمين، مُتَحاشِيًا من رَأْيِ القاصر الغَبِيّ، قَائِمًا بالمُهِمّات التى تُزَاحِمُ منه بَشَيْخ لا تُزاحِمُ بصَبِيّ، مُقيمًا علىٰ رَفْع الأدْعيةِ لهذه الدولة القاهره، مُسْتَزِيدًا بالشُّكر لِنِعَم الله الباطنةِ والظَّاهره، مُجْتَهِدًا مُعْتمِدًا علىٰ تقْوَى الله تعالىٰ التى جعلت له مكانًا مَكِينًا فى الدُّنيا وطَرِيقًا سَهْلًا إلى الآخره، واللهُ تعالىٰ يُنْجِحُ قَصْدَه، ويتقبلُ جِهادَه وجُهْدَه، بمنّه وكَرَمه! .

قلتُ : هــذا كان شَأْنَها حين كان يُولَّى بهـا مقدَّمُ حَلْقةٍ أو جُنْدىٌّ من الشَّام . لكن قد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الممــالك الشَّاميَّة فى المقالة الثالثة أنَّها آستقرّتْ فى الدولة الناصرية «فَرَج» فى سنة أرْبع عشرة وثمــانِمِائة [ولايةً](١) .

وحينئذٍ فتكونُ ولايتها من الأبْواب السلطانية . فإن عادت إلىٰ ما كانت عليــه أوّلًا، عاد الحكْمُ كذلك .

⁂

وهــذه نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة حِمْصَ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، وهى :

رسم بالأمر - لا زال يَنْدُبُ لِخدْمة قِلاعِه كلَّ سَيْفٍ مُخْتَبَر، ومُجَرِّبٍ عَبرتْ عليه العِبَر، ومُؤَدٍّ لفرائض الخِدْمةِ : إمَّا بقِيامٍ عنــد الصِّبا وإمَّا بقُعود عند الكِبَر - أن يُرتَّب فلانٌ فى نيابة قَلْعــة حِمْصَ المنصورةِ إجابةً لسُؤَاله فيما سأله : من التَّوفُّر علىٰ مواصلة الصَّلَوات، ورَفْع الدَّعوات، وجمع ثَوَابِى الجهاد والخَلَوات، وتَقَضِّى باقى العُمْر وادِعا، متَنَسِّكًا طائِعا، إذا بكىٰ بجِواره حتَّى النَّهْرُ العاصِى رَقَّ عليه فمــا يعْدَم منــه بُــكا .

---

(١) بياض بالأصل والتصحيح من بقية الكلام ومما تقدّم .

فليباشر نيابةَ هذه القَلْعــة العَلِيِّ خَبَرُها ومَخْبرُها، المليِّ سَمــاعُها ومَنْظَرُها؛ المُطِلَّة علىٰ مراكز الرِّماح المشهوره، ومَهابِّ الرياح: إمَّا بغَيْث السِّهام مُمْطِرةٌ وإمَّا بسِهام الغَيْث ممطوره، المُجاوِرَة لسَيْف الله «خالد» فهى بإعْراب المُجــاوَرَة مَنْصورةٌ غير مَكْسُوره؛ مُعْتبِرًا لأحوالهــا، مُسْتَدْعِيًا لمــا تَحْتاج إليــه من عُدَدها وعَدَد رجالها، مُحَصِّنًا باستدعاء السِّلاح وسِلَاح الأدْعية الجديرَيْن بأمْثالها.

* * *

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنيابة قَلْعة جَعْبر، قبل أن تُنْقَل إلىٰ حَلَب، وهى:

رُسم بالأمْر الشريف ــ أعْلَى اللهُ تعالى فى سمــاء الملك كَواكبَه، ونصر فى أقْطار الأرض كُتُبَه وكَتائِبَــه، وصَرَّفَ بأوامِرِه العاليــةِ كلَّ نائبٍ وفرَّق بها كلَّ نائِبَــه ــ أن يُرتَّب ... ... علمــا بأنَّه الكافِى الذى تُعْــقَد علىٰ هِمَّتــه الخَناصِر، ويُثْنِى علىٰ تَقْــديم عزائمه القَــديمُ والمُعاصِر، وتَقْوَى الجِهاتُ وتُنْصر باسْمِه بعد أن كانت بغَــيْرِ قُوَّةٍ ولا نَاصِر، واعتمادًا علىٰ كفاءته النافعه، وشَهامَتِه الرَّائِقة الرَّائعه، ودِرايَتِه التى تُضِىءُ بهــا القَلْعةُ وتَسْمُو حتّٰى يقولَ الآستيقان: ماهــٰذه شُمَيس[1] هذه شمسٌ طالِعَـــه.

فليباشِرْ هذه القلعةَ القديمَ أثَرُها، الحَميدَ خُبْرُها وخَبَرُها، المُصَغَّرُ[2] تَصْغيرَ التَّحبيب والتَّحْسِيــن آسْمُها ومَنْظَرُها؛ المُنْفَرِدَ بَهْلُها بذَيْل الآفاق فتمسك[3] بسحبها، المُنْشِدَةَ لآرتِقاب نَهْضــة حال من علم آبن منصور بهــا؛ راقيًا صَرْحَها، رَاعِيــا بالمصالح

---

(١) كذا فى الأصل وصوابه شميسة.

(٢) هذا الوصف يناسب قلعة الصبيبه فانها هى المصغرة.

(٣) فى الأصل «متمسكا».

سَرْحها ، مُجْتهدًا فيما يقضى لقَدْره بالرِّفْعه ، ولرائد أمله بخصب النُّجْعه ، جاعلًا هذه المنزلةَ أوّلَ دَرَجاته : وحَسْبُه بمنزلةٍ يكونُ أوّلُ درجاتها قُبَّةَ قلعَـه ؛ والله تعالىٰ يُسدِّدُ عَزْمَه وحَزمه ، ويُحْمِدُ فى الكُفَاة خَبَره كما أحمدَ فيهم ٱسْمَه ؛ بمنّه وكرمه ! .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة مَغَارةِ زَلَّايا ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زال يَزِيد قِلاعَ الإسـلامِ عَلاءً فى السِّـمَةِ والاسم ، وفى القُوّةِ والجِسْم ، وفى ٱعْتناء يجمع لعقيلتها بيْن الحُسْن والقِسْم ـ أن يُرتَّب مجلسُ الأمير... ... ... لقيامه بواجب الخدْمه ، ومُلازَمة فَرائِضها المُهِمَّه ؛ وعَزْمَته الوَفيَّة فى النَّفس ، الزَّائدِ وَصْفُها على الأمْس ، العَلِيِّ نَسَبُها وحَسَبُها : فَتارةً إلى العُلَىٰ وتارةً إلىٰ الشَّمْس .

فلْيباشِرْ هـذه القَلْعَةَ التى عَلَتْ بنَفْسها محلًّا وسَكَنًا ، وقال سَاكِنُ مَغَارِها لثَـانِى ٱثنين من حَزْمِه وعَزْمِه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ ؛ وٱسْتَعْلِ ثَنِيَّتَها فأنْشَـد : «أنا ٱبْنُ جَلا وطَلَّاع الثَّنايا» ، ونادَىٰ بُقْعَتَها : هذا عَزْمى وحَزْمى لا يقال ولا يازَلَّايا ؛ مُجْتَهِدًا فى سَداد أُمورها ، وتَحْصِينِها بالمهابة القائمَـةِ مقام سُورِها ؛ مُسْتَجْابًا ما يحتاج إليـه وما يُرتَّب من عُدَّه ، مُلازِمًا لُزومَ الخَمْس لأوقات مُباشَرَتِهـا لا يُوصف بالزَّوال بل بطُول المُدّه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بولاية القُدس ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ... ... لازال يشملُ بِظلِّه وفَضْلِه ، ويُجَمِّلُ بإحسانه وعَدْله ، ويُنَقِّلُ شمس الوُلاة من البُرْجِ الظَّاهِرِ إلىٰ مثْله ـ أن يُنْقلَ فلانٌ من كذا إلىٰ وِلَاية

القُدس الشريف : عِلمًا بكِفَايته التى تقدَّمتْ ، وشَهامَته التى تحكَّمتْ ، وإمامَتِه التى سَلِمت فيما سَلَّمت ؛ وهِمَّته التى وضَحَتْ شَمسًا فلا تُنْفَس ، وقالتْ لِقيامه فى المصالح : ﴿ ٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بالوادِ المُقَدَّس ﴾ .

فلْيباشِرْ هذه الولايَةَ مباشرةً تَمحُو بضِياء شَمْسه ظُلَمًا وظَلاما ، وتقولُ لنَارِ الحوادث فى المَشاهِدِ الجليلةِ : ﴿ يانَارُ كُونى بَرْدًا وسَلَاما ﴾ ؛ مُجتهِدًا فيما هو بصَــدَده ، عارِفًا بوُجُوه المصالح حتَّى يكونَ السَّكْنُ أعْرفَ بشَمْسِ بَلَدِه ؛ ناهِضًا بأُمور الدِّيوان جَلِيِّها وخَفِيِّها ، وعِبْءِ المهمات حَافِلها وحَفِيِّها ؛ مستزيدًا بالشكر لمبادئ النِّعَم ، قائِلًا فى محلِّ البَلَدين المُبارَكَين : ماسِرْتُ مِن حَرَمٍ إلَّا إلىٰ حَرَم .

✤ ✤ ✤

وهذه نسخةُ توقيع بولاية غَزَّةَ ، وهى :

رُسم بالأمر ــ لا زال يُنْشِئُ فى رِياض الإحْسانِ غَرْسا ، ويُحقِّق فى ٱســتحقاق الكُفاةِ حَدْسا ، ويُقــدِّمُ من لا تزال الوِلاياتُ تَحْمَــد له يَوْمًا وتَذْكر لقَوِمه أمْسا ــ أن يُرتَّب ... ... لِمَا عُرِفَ من عَزْمه الذى جَرَّد منه الاختيار والاختبار جَميلا ، وكَمالِ شَخْصه الذى ٱتَّخذه التوفيق فلم يقل : ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلَا ﴾ ؛ وٱعتماده الذى يُصْبِحُ فى المحامد ويُمْسى ، ويناِفسُ مَرْباهُ فهذا يقول : ثَمَرى وهذا يقولُ : غَرْسِى .

فلْيباشِرْ هــذه الولاية بَعَزْمٍ مقْتَبِل الشَّبِيبَه ، وحَزْمٍ لايُقْعِدُ الرأْىُ المحيــلُ تَجْرِيدَه فى المصالح وتَجْرِيبَــه ؛ ونَفْعٍ فى المِهمَّاتِ ورَدْعٍ للمفسدين تُحْمَــدُ مَوارِدُه ومصادِرُه ، وذكرٍ له حَسَنٍ تُلْتقطُ من ساحل الشام جَواهِرُه ؛ مُسْتزيدًا لمَا رَسَخ له من درجات

الأُمور المُهـمّه ، مُنَزّهَ العِرْض عن كلّ لائمَـةٍ مُرَجّحًا تقْوَى اللهِ تعالىٰ فى كلّ مُلمّه؛ واللهُ تعـالىٰ يُحْمِد فى الخِـدْمة آثارَه، ويُعِزُّ فى ولاية حربه الساقةَ إذا هانت الحرب على النَّظّاره .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولايةِ لُدّ، لمن آسمه «نجم الدين أيّوب» وهى :

رُسم بالأمر ــ لا زالتْ نُجومُ أوامرِه سَعيدَه ، وظِلالُ عوارِفه مَديدَه ، ومَنازِل الولايات حامِدَةً لمن يُقَدِّمه وطَوالِـعُ أُفقِها حَميدَه ــ أن يُرتَّب ... ... آعتمادًا علىٰ كَفاءَته التى تُشيِّدُ له مَجْدا ، وتُعقِبُ مَسْعاه حَمْدا ، وتكْفِى من هذه الجهة وأهلها بَلَدًا وقَومًا لُدًّا : لمـا آحْتَوىٰ عليه من مُوجبات الاصطناع ودَواعِيه ، وفاتَ باستقلاله أَمَدَ مُساجِلِه ومُنَـاوِيه؛ وآشْتمَلَ على الخِـلال التى قَضَتْ بتَقْديمه ، والأفْعالِ التى آستدْعَتِ المبالغة فى تَفْخيمه وتَكْريمه ؛ وسَلكَ من المخالصة ما يُوجب الاسْتِحقاقَ والاسْتِيجاب، ويُوصِّلُ حَميدَ مَسْعاه إلىٰ بُلوغ الآمال وإدْراكِ المَحابّ .

فلْيباشِرْ هـذه الولايةَ : عامِلًا بتَقْوَى اللهِ تعـالىٰ فيما يُسِرُّه ويُعلِنُه ، مُعْتمِدًا فيها غايةَ ما يَسْتطِيعُه المُكلَّفُ ونِهايةَ ما يُمْكِنُه ؛ ولْيُسوِّ بين القَوِيِّ من أهلِ هذه الولاية والضَّعيف ، ولا يجعلْ فى الحقِّ فَرْقًا بين المَشْروف والشَّريف ؛ ويَمُدَّ علىٰ كافَّتِهم رِواقَ السُّكون والأَمَنَـه ، وليُجْرِهم فى المَعْدِلة على العادة الجميلة الحَسَـنَه ؛ وليأْخُذْ فى الأُمور الدِّيوانيَّة بالآجتهـاد مُراعيًا فى ذلك حال العِمارَه ، آتيًا من الإحْسان إلى الرَّعية ما يكون للعَدْل شارَه ؛ وافِيًا فى ذلك كلِّه بالمَطْلوب، صابِرًا علىٰ تكاليف المُهمَّات ولا يُنْكَرُ الصَّبْرُ لأيُّوب .

* * *

وهـذه نسخةُ توقيع بولاية بَيْسانَ ، لمن لقبـه « شِهاب الدين » من إنشاء آبن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ شُهُبُ أوقاتِه سَـعِيده ، وسُحُبُ هِبَـاتِه ساحِبَـةَ الجُود مَدِيدَه، وبحورُ نَعْمائه الحقيقيَّةُ كبُحورِ الأعارِيضِ المجازِيَّة : كاملةً مُنْسَرِحَةً مَدِيدَه ـ أن يستقرَّ... ... ...آعتمادًا علىٰ عَزْمِهِ المُنِيرِ شِهابُه، الكثيرِ توَقُّدُه فى أوقات المهمات وآلْتِهابُه ؛ وآستنادًا إلىٰ كَفاءَتِه التى يشهدُ بها وَلاؤُه فى الخِدْمة ووِلَايَتُه ، وشَهامَتِـه التى يُحْزَمُ بهـا فى الأمْرِ رَأْيُه وترفع فى الخِدْمةِ ولايتُـه ومهابتُه ؛ وعِلْمًـا بسياسَتِه التى يقمعُ بها أهْـلَ الفساد ، وتكادُ تفخَرَ بَيْسانُ بفَضْـلها كما فَخَرتْ بـ«فاضِلِها» على البلاد .

فلْيَقُمْ فى وظيفته علىٰ قَدَمِ آجتهاده ، وكَرَم آرْتِيادِه وآعْتيادِه ؛ شَافِياً لأحوال أهْل ناحيته مِن الوَصَب ، مُثَمِّرًا الغِلالَ والأموالَ بعَزْمٍ قد آرتفعَ وآنْتصب ؛ ظاهرًا فى الخدمة مَجْهودُه ، مُلَيِّنًا لحَـدِيد من عَصى عليـه فى عمله كما أورثَه داوُدُه ؛ والله تعالىٰ يوفِّقه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية صَيْدا، لمن لقبـه « شجاع الدين » بـ«ـالمجلس العالى» وهى :

رسم بالأمر العالى ـ أنفذه اللهُ فى الأقطار، ونَجَّم بولاته أيَّام الأوطان والأوْطار، وأجرىٰ بشُكْره سُفُنَ الركائب ورَكائبَ السُّفن إذا سَـفَّ وإذا طار ـ ان يسـتقرَّ فلانٌ : ... ... رُكُونًا إلىٰ عَزْمه وحَزْمه، وسُكونًا إلى آهتمامه الذى حكَم فيه الآختبار

بعِلْمِه؛ وعلْمًا أنّ للولايات به الانتفاع، ولحُصُونِها الامتناع والارْتِفاع؛ وأنّه إذا وَلِىَ رَعىٰ وإذا أقْوىٰ(١) كان أعصم راع، وإذا فكّر فى الرأْى ووقب فى المُهِمّ كان نِعْم الشُّجاع.

فليُباشِر ولايةَ عَمَله نَاهِضًا بأعبائه، رافِعًا بالعَدْل لأرجائه ورَجَائِه، حَرِيصًا علىٰ طِيبِ الأخبار المُنْتشرَةِ من كافُور صُبْحِه ومِسْك مَسائه. ولْيتفَقَّدْ أحوالَ بَرِّه وبَحْرِه، ويتيقَّظْ لذلك البَرّ وجَهْره، وذلك البَحْر وسِرّه؛ حتّىٰ يتحدّث البحْرُ عن عَزْمه ولا حَرَج، ويَسِيرَ ذِكْرُه كنَسِيم الرَّوض لاضائعَ الصُّنع ولكن ضَائعُ الأرَج؛ ويعتَمِدْ مصالحَ النواحِى وسُكّانِها، والأموالِ ودِيوانِها، والجهاتِ وضُمّانِها، ونُجُومِ التقسيطات فى البلدة وتَحْرير ميزانِها، ويَجْمَعْ بين اللِّينِ والشِّـدّةِ بسياسَةٍ لا يخرُجُ بها الرَّأْىُ عن إبّانِها، وتَقْوى اللهِ تعالىٰ هى العمدةُ فعليها يَعْتَمِد، وعلىٰ رُكْنِها يَسْتَنِد؛ حتّىٰ تَجْعلَ له على المصالح أيدا، وحتّى تَثْنِى نحو الثناء عليه عمرًا وزَيْدا، وحتّىٰ تجعلَ له بأْسًا فى الأعداءِ يَكِيدُ كَيْدا، وحُسْنَ ذِكْرٍ فى البَلَد يَصِيدُ «صَيْدا».

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية قاقُون، من إنشاء ابن نُباتة، وهى:

رُسِم بالأمر - لا زال يَنْدُبُ لمصالح الولايات سُيُوفا، ويقدّمُ ظَنًّا فى الكُفَاة يعلم أنّه سَيُوفىٰ، ويُدْنِى من ثَمَرات الإنعام والإرغام لأيدِى المُجْتَنِينَ قُطُوفا - أنْ يستقرّ ... ... اعتمادًا علىٰ هِمّته الشّائدَه، ودرَايَتِه السّائدَه، وأمانَتِه الشّاهده، وصِفاتِ عزْمِه التى هى فى الولايات «مَعْنٌ» وهى «زَائدَه»؛ مُجْتهدًا علىٰ أن يُثمِر عملَ ولايته فتَزْكُو أعمالُه، وتَرِدُ عليه المُهِمّاتُ فتتلقّاها بالكفاءة أفعالُه المعروفةُ وأقوالُه، وتَشْهدُ منه الأحوالُ مَعْنًى بل مَعانِىَ يثبت بها فى الأذهان قَبُولُه وإقبالُه.

(١) أقوى. نزل بالقفر — أعصم — أمنع وأحفظ لرعيته من الاغتيال.

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية صَرْخَد، من إنشائه، لمن لَقَبُه «جمال الدين» وهى :

رُسم بالأمر أعلاه ٱللّه تعالىٰ، وبلّغ بأيّامه الرُّتَبَ وأهْلَها آمالا، وزانَ الولايات بما يُنْتِج من مُقدِّمة فِعْله وقَوْله جمالا ـ أن يُرتَّب مجلسُ الأمير... ... ... لأنّه الكافِى الذى عُرِفتْ فى المِهمّات هِمّتُه، وأُلِفتْ عَزْمَتُه، وأُدِيرَتْ أوصافُه عُقَارًا صَرْخَدِيّةً ولا عجب أن سَرَتْ بالنَّواحِى خدمتُه، والنّاهِضُ الذى وَفَّى الوِلايةَ حَقَّها، وأدّى الأمانةَ وسلَكَ طُرُقَها، وأطلعَ فى سَماء الولاياتِ شُهُبَ رَأْيِه فحَمَىٰ وزان أُفُقَها.

فلْيباشِر هذه الولايةَ بعَزْمٍ سَنِىّ، وحَزْمٍ سَرِىّ، ومَهابةٍ تَأْخذ للضَّعيف من القَوِىّ، ودِيانةٍ تَمْشى من الكفاءة والأمانة على صِراطٍ سَوِىّ، مُثَمِّرًا للمال والغِلال، رَاقِمًا لحُلَلِ الذِّكْر بحُسْن الخِلال، مُحَسِّنًا لذِكْرِ وِلايَتِه حتّىٰ يجمعَ لها بالوَصْفِ والنَّعت بين الحُسن والجمال، وإيّاه والجُبْنَ عن المِهمّات فما كل جُبْنٍ صَرْخَدِىّ مَحْمودُ العاقبة والمآل.

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بولاية سَلَمِيَّةَ، من إنشائه، كُتب به لـ«شهاب الدين الحجازىّ» وهى :

رُسم ... ... ـ لا زال يُطلِعُ شُهبَ الوُلاة مُشْرِقَه، ويُنْشِئُ سُحُبَ الإحسانِ مُغْدِقَه، ولا بَرِحتْ أقْلامُ علائِمِه كالغُصون بأحْسن ثمراتِ الدَّوْحِ مُثْمِرةً مُورِقَه ـ أن يُرتَّب ... ... علمًا أنّه الناهضُ الذى إذا وَلِىَ كَفىٰ، وإذا طَبَّ الوِلايَةَ المعتَلّة بتقديم المعرفة شَفىٰ، ورُكونًا إلىٰ عَزْمه الذى أبَىٰ لشِهابِه أن يخْمَد، وكفاءَتِه التى

قَضتْ لاسْمه بالعَوْد : فإنَّ العَوْد أحْمد ، وٱعتمادًا علىٰ سيرته الحَسَنة السُّمعه ، الحقيقة بالرِّفْعه ، وعلىٰ سَطْوَته بالمُفْسدين التى حَسَّنتْ أن يُقال فيه : «لقد أوْقع الجَحَّاف بالبِشْر وَقْعه»(١) .

فلْيباشرْ هـذه الولايةَ بعزْمه المُتَوالي ، وٱجْتهاد رَأْيه الذى يُطْرِب بارِقُه المُتَعالِي ؛ جارِيًا علىٰ عادة سَـدَده ، مُجتهِدًا فيما هو بصَدَده ؛ مُسَدِّدًا ـ إن شاء الله ـ فى القَوْل والعَمَل ، مانِعًا لناحِيَته الأعرابيَّة من تطرُّق الخَلَل وتطرُّف الخَلَل ؛ مُصْلِحًا بالتَّدْبير عمل مايشْهدُ بعزائمه الوَفِيَّه ، وهِمَمه الجَلِيلَة الجَلِيَّه ، وإذا سأل عن شَدِّ الوُلاةِ واحِدٌ قيل : سَلْ مِيَّة عن سَلَمِيَّه .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ توقيع بشَدِّ مُتَحصِّل قُمامة ، من إنشاء ابن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ـ بسطَ اللهُ تعالىٰ على الأُمَم مهابَتَـه وظِلَّه ، وبأسَه وفَضْلَه ، ووَجَّه إليـه آمالَ الخَلْق من كلِّ قِبْله ، وأعلىٰ آراءَه التى يقال لعَدْلها : «لقد جُدْتَ حتَّىٰ جُزْت فى كلِّ مِلَّه» ـ أن يُرتَّب ... ... مضافًا لمـا بيَده ، وٱستنادًا إلىٰ صحيح خَبَره فى الكفاءة وعُلُوِّ سَنَده ، وٱرْتيادًا لِهمَمه التى إن رواها مُسلمٌ عن طَوْعه رواها نَصْرانِيٌّ عن تَجلُّده ؛ وسُكونًا إلىٰ حَرَكَته التى تُحصِّلُ مَالا ، وتَصِلُ إلىٰ مالا ؛ وتستخْرِجُ الوَفْرَ من مَكْمَنه ، وتأْخذُ الحقَّ [من] قُدَّام يَدَي الماثل ومن خَلْف أُذُنه ؛ وعِلْمًا أنَّ مالمتحصل قُمَامَةَ مثلُ عَزْمه المختـار ، ورِفْقه الذى يستنزل دَرَّ القصـد المِدْرار ، وٱجْتهاده الذى زَرَعه المستنهِضُونَ فٱسْتوىٰ علىٰ سُوقه يُعجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكُفَّار .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ بشِـدَّةٍ ولِينٍ يجعـلُ كلَّ واحدٍ منهما فى مَوْضعه ومَقامه ، وحَقٍّ مُنيرٍ يجعل سَبْتَ نُورٍ كلَّ لياليه وأيامه ؛ وأمانةٍ مُدِلَّه ، وكَفاءةٍ مُظِلَّه ؛ وصِيانَةٍ

---

(١) صدر بيت للأخطل وتمامه «الى الله منها المشتكى والمعوّل» والجحاف اسم رجل والبشر اسم جبل .

تُوجِبُ مَزِيدَ الخير إذًا له ، ومَهابَةٍ إذا أُدخِلَتْ مُسْتَخْرَجَ قُمَامَةَ أَصْلَحَتْه وجَعلتْ أَعِزَّةَ أَهْلِها أذِلَّه ؛ لا يَثْنِي هِمَمَه النَّفِيسَه ، ولا يَلْتَفِت ـ كما يقال ـ لَتَبْخِيرِ الكَنِيسَه ؛ بل يستعمِلُ فِراسَةً تَرُوعُ من حَمَلَ عن أداءِ الحَقِّ بُهتانا ، ومناقَشَةً تكْشِفُ عن جبالِ التَّجَلُّد أَكْنانا ، ورَأْفَةً مع ذلك بالظَّاهِرِى العَجْزِ : ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنهم قِسِّيسِينَ ورُهْبانا ، ومتابعةً للضَّرائِبِ القديمة لا يُصْرف عنها ، وٱستخلاصَ ماعلى الرَّأْس حتَّىٰ يقال : «ليس تَحْتَ الزَّرْقاءِ أَخْضَع منها» ؛ عامِلًا بتَقْوى الله تعالىٰ فإنَّ أهلَ معامَلَتِه أهلُ ذِمَّه ، مُجتهدًا فى ٱستحقاق مايترشح له من ولايات الأُمور المهمَّه .

الصنف الثانى

(ممَّا يكتب لأرباب الوظائف بدمَشْق ـ تواقيعُ أرباب الوظائف الدِّينية ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مايكتب لمن هو بحاضرة دِمَشْق ، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ

(مايُفتتح بـ«الحمدُ لله»)

وهذه نسخ تواقيعَ من ذلك :

تَوْقيعٌ بنَظَر الحِسْبَة بالشّام ، كُتب به للقاضى « نور الدين علىّ بن أبى الفرج » بـ«الجناب الكريم» وهو :

الحمدُ للهِ الذى جعل مقامَ الأولياءِ عليًّا، ورَقىَ بهم إلى طُورِ العناية فأشْرق نُورُهم سَنِيًّا، ووفَّقهم للأمْر بالمعْروف فلم يَزَلْ غَيْثُ النَّدَىٰ بهم وَلِيًّا ، وزَنْدُ سُبُلِ الرَّشاد والحِكْمة وَرِيًّا .

نحمدُه حمدًا كثيرًا طيِّبًا زَكِيًّا ، ونشكُره شُكرًا لا يزال غُصْنُه بالزِّيادة جَنِيًّا ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُكَرِّرها بُكْرَةً وعَشِيًّا، ونسلُك بها صراطًا سَوِيًّا؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه الذى آختاره صَفِيًّا، وقَرَّبَه نَجِيًّا، ورسولُه الذى قام به الحقُّ وأصبح به الباطلُ خَفِيًّا؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً ينال بها المُؤْمنُ يوم العَطَشِ رِيًّا، ويحوزُ بها فى جَنَّة المأْوَىٰ حُلَلًا وحُلِيًّا، وسَلَّم تسليمًا كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّ أولىٰ ما يَلزمُ الفِكْرُ [فيه] ويتعيَّن ، ويَتِمُّ النُّجْحُ بحسْنِ النَّظَرِ فيه ويَتَبيَّن ــ أمْرُ الحِسْبة الشَّريفة : فإنَّها المَنْصب الذى به صَلاحُ أحوال الرَّعيَّه ، وقِوَامُ إقامَةِ الحُدود الشَّرعيَّه ؛ تَسْلُكُ العامَّةُ لمُسْتَوْليه سُبُلَ صَنائعه ذُلُلا ، وتَكْسُو بإتقانها أنْواعَ بضائعها حُلَلا ؛ وينْتَفِعُ بمعرفته الآمِرُ والمأْمور ، وتُحاطُ المَعَايشُ عن غِشْيانِ الغِشِّ من حُرْمته بسُور؛ وتطمئنُّ القلوبُ بإصلاح المطاعم وتَهَنَّىٰ ، وتقولُ الألْسِنَةُ : شُكْرًا لمن سنَّ هذه السُّنَّة الشَّريفةَ وسَنَّىٰ ، وردَع ذَوِى الغِشِّ عن غَوَايَتِهم : فَمَنْ غَشَّنا ليس مِنَّا ، لا سِيَّما بدِمَشْقَ فإنَّها شامةُ البلاد المحروسه ، ومَوْطِنُ البركة المأْثورَةِ والبَهْجةِ المأْنُوسه ؛ بلدٌ شاعَ ذِكْرُها فى المغارب والمشارق ، وإنَّ مَحاسِنَها لن تُقاسَ بغيرها : والجامعُ الفَارِق .

وكان فلانٌ ممن تَحَلَّىٰ من عُقود المحامد بجواهِرِها ، وآرْتَدَىٰ من حُلَلِ المآثر بمفاخِرِها ؛ وعُرِفَ بالنَّهْضة والعَفَاف ، وآتَّصف بجميل المَعْرفة والإنْصاف ؛ وحَسُنَتْ سِيرتُه فى أحكامِه ، وحُمِدَت قواعد تعدّده(١) ونَضَارَةُ نِظامه .

(١) لعله "تعهده" .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ـ لا زال يُولِى جَميلا ، ويُوَلِّى فى الوظائف السَّنِيَّة جَلِيلا ـ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى نَظَر الحِسْبة الشريفةِ بالشَّام المحروس، علىٰ عادة مَن تقدَّمه فى ذلك، والقاعدة المستمرّة، بالمعلوم المستمرّ للوظيفة المذكورة، إلىٰ آخر وقت : وضعًا للشَّىءِ فى مَحَلِّه ، وتفويضًا لجميلِ النَّظرِ إلىٰ أهْلِه .

فليباشِرْ ذلك آمِرًا بالمعروف وناهيًا عن المُنْكَر، سالِكًا من حُسْن الطريقة ما يُحمد به ويُشْكر، ويَسُرُّه حين تُتلىٰ سُوَرُ محاسِنِه وتُذْكر ؛ متفقِّدًا أحوالَ العامَّة ومَعايِشها فى كلِّ آن ، مُلْتفِتًا فى أمْر ما يُكالُ أو يُوزَنُ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ . مُشَمِّرًا عن ساعده فى الإجراء على العوائد المُسْتَحَبَّه ، مُحترزًا فيما يأمر به : فإنَّ اللهَ تعالىٰ لا يَخْفىٰ عليه مِثْقَالُ حَبَّه ؛ ولْيَنظُرْ فى الدَّقيق والجَليل ، والكَثِير والقَليل ؛ ولْيَستَكْثِر الأخْبار ، ولْيَسْتَعْلِم الأسعار ، ولا يَغْفُلْ عن تعاهد السُّوقَةِ آناءَ الليل وأطرافَ النَّهار ؛ ولْيُلاحِظْ أمر السِّكَّةِ السلطانية بإصلاح العِيار ، وضَبْط أحْوالِ النُّقودِ بِمِقْدار ؛ ولْيُقِمْ من خَدَمَتِه رَقيبًا علىٰ من ٱتّهم فى صَنْعتِه أو ٱسْتَرَاب . ولْيُبالِغْ فى النَّظر فى أمر المآكل والمشارب فإنَّ أكْثَرَ الدَّاء من الطعام والشَّراب ؛ ولْيزْجُرْ بتأْدِيبه مَن ٱفترىٰ ، أو تَلَقَّى الرُّكبانَ أو غَدَا فى الأقْوات مُحْتكِرا ؛ ولْيعْلَمْ أنَّه قُلِّد أمْرَ هذه الوظيفةِ المباركةِ : فلْيَخْتَرْ من يَسْتَنِيب ، ولْيُبصِرْ كيف يسلُك برِعايَتِه مَن حكم عليه فما يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلَّا لَدَيْه رَقيب ؛ والوصايا كثيرةٌ وأصْلُها التقْوَى التى هى أجَلُّ ما يَقْتَنِى المؤمنُ ويَكْتَسِب ، وأجْدرُ بالزِّيادة : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَه مَخْرَجًا وَيَرْزُقْه مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِب﴾ . واللهُ تعالىٰ يُديم علاه، ويتولاه فيما تولّاه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بنظر الجامع الأُموىّ، من إنشاء الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة، كُتب به للقاضى «عماد الدين بن الشيرازى» فى الدولة الصالحية «صالح بن الناصر محمد» بـ«ـالجناب الكريم» وهى :

الحمدُ لله الذى أَذِنَ لِبيوتهِ أنْ تُرفَعَ فرفَع عِمادَها، وأعاد أحْسنَها إلىٰ نظر من صَرَّف أُمُورَها بما حَسُن وصرَفها عمَّا دَهىٰ، وأحْيا الآثارَ الأُمَويَّةَ حتّىٰ غدتْ كالهاشمية تدعو أجْوادَها وسُجَّادَها، وأنجز وعدَ أهْلِها بمن أشارتْ إلىٰ مُباشرتِه أعلامُ أعلامِ المنابر بالأصابع ونَصَّت المآذِنُ أجْيادَها .

نحمَدُه علىٰ ماهَيَّأ من الفوائد، وهَنَّأ من العوائد، ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يقومُ بها الخطابُ شاهدًا ويقومُ بها الخُطباءُ فى المَشاهد، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أُوتِىَ الجَوامعَ من الكَلِم وجُعِلتْ له الأرضُ من المساجد؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَمَرُوا بُيوتَ العبادات بهدايتِه، وظَهَرُوا فى مَجالِ الجَمْع وسِجَال الجموع تحت رايتِه؛ صلاةً متصلة السَّير كالسَّيل، مُسْبَلَةَ الغمام كالذَّيل، واضحةً كردْعِ الخَلُوق لدُلُوكِ الشَّمْس فائحةً كفَتيتِ المِسْك إلىٰ غَسَقِ اللَّيل .

وبعدُ، فإنَّ أوْلَى الأُمور الدِّينية بتَقْديم الاهْتمام، وتَقْرير الاعتزاء إلىٰ الاعتزام، وتَشْمير ساعِدِ الرَّأْى وزَهَراتُه علَى الأكْمَام ـ أمرٌ تكونُ إقامَةُ الصَّلَوات أحَدَ أرْكانِه، وتَدْبيرُ المصالح مُشيرًا إلىٰ عُلُوّ شانِه، وأرْزاقُ العُلماءِ والصُّلَحاءِ تُسْتَدَرُّ من هَطّاله وهَتّانِه .

وكان الجامعُ الأُمَوِىّ بدِمَشْق المحروسة لهذه الأرْكانِ بمنزلة الأُسّ الرَّاسخ تمكينُه، والفَرْعِ الشَّامِخ فى وَجْه السَّحاب عِرْنينُه ؛ و بُنْيَةَ زمان بنى أُميــة الذين عَفَا شَرَفُ مَفاخِرِهم وما عَفَا شرفُه وفَخْرُه، ووَكْرَ الإسلام الذى مَضَىٰ لُبَدُ أمْثالِه وما بَقِىَ إلَّا نَسْرُ السماء ونَسْرُه ؛ ذُو المَرْأَى الشارح والفَضْــل المَشْرُوح ، والحُسْنِ الذى إن تغَــالىٰ فى وصــف الجوامع قَوْمٌ قيــل : بابُ الزِّيادَة مفتوح ؛ تَفْخَرُ به دمشْــقُ وحُقَّ لهــا علىٰ كلِّ مِصْرٍ أن تفْخَر، وتبعَثُ نظراتُ حُسْنِه الفَخْرَ من حَمَلة فُصوص التَّرخيم إلى الأسْوَدِ والأحمر ؛ يَحْمَــدُ المُجاوِرُ به مَغْنــاه وغِنَاه ، ويَسَعُ أربابَ العِــلْم والمَقاصِــدِ نَادِيه ونَدَاه ، ويُطالِــعُ المِسْكُ سُطورَ مِياهِه المتَجَعِّدةِ فأوّلُ ما يُقْرَأُ من تنْبِيــه عَزْمِه بابُ المِيَــاه ؛ وقد عُهِــد أنْ يتولّىٰ نظَرَه كلُّ سَــنِىّ المفاخر، سَرِىّ المآثِر، كَرِيمِ الفَرْع والأَصْل، ماضِى العَزْمِ كالنَّصْل، حائزٍ من أقلامه أمَدَ العَلْياء وقَصَبَ الخَصْل .

ولذلك رُسم بالأمرِ الشَّريف ـ لا زال وجْهُ الفَضْــل بدَوْلته الشريفــةِ وَاضحا، وميزانُ العَــدْل والإحسان رَاجحا ، ولا زال فى كَنَف مَن منّ به على الدِّين والدنيا وآتاهما صَالحــا ـ أن يُفوِّض إلىٰ فلان نظَرُ الجامع الأُموِىّ المذكور : لِمَــا عُرِف من أنَّه الرئيسُ الذى ماسَاد سُدَىٰ، والكاملُ الذى إذا آنس [سَارٍ] نارَ فِكْرَتِه وَجَد على النارهُدَىٰ ؛ وأنَّه باشَرَ نظَرَ هذا الجامــع قديمًا فجَمَّلَه ، و رَصَد سَناه فكَمَّلَه ، وٱسْتَشهدَ فى مَحْضَرِ ديوانه على النَّزاهَة أقْلامَه المُعَــدَّلَه ، وتَدْبِيرَه المُعَدَّ له ؛ وكَثَّر أوْقافَه وكانت قد ٱضْمَحَلَّتْ ، وشَــيَّدَ عمائِرَه وكانت قد ٱسْتَقَلَّتْ ، ومَلأ حَواصِــلَه وكانت أقلامُ المُكْتَسِبَة تُنشِدُ: «أَسائِلُها أىّ المَواطِنِ حَلَّتْ» ؛ولِمَــا أَلِفَ هذا الجامعُ المعمورُ من عَواطِفِه، وعَرَفَ من عَوارِفِه، وشَهِدَ من جُلوسِــه لمصالح وقْفِه أحْسنَ الله مكافأةَ جَالِسِه ووَاقِفِه ؛ فأثْبَتَ فى صَدْرِ المحافِلِ أنَّ اللّٰه تعالىٰ قَدْ رزَقَه من الفَضْل جَسِيما،

وكَتَب له من شَرَف الاكْتِساب والانْتِساب حَدِيثًا وقَدِيمًا ، وألْقَىٰ إلىٰ يَدِه قَلَم كفاءةٍ وأمانَةٍ كان كَرمُها للآمِلين حَصِينًا وكان قَلَمها للخائنِين خَصِيما ، كَمْ وفَّر به المصالِحَ فَوَفَّىٰ ، وكَمْ جمعَ بِهِمَّتِه المحاولة مالًا لجُهِّزَ به من جُنْد الدُّعاء صَفًّا ، كَمْ سَرَّ بمَناقِبه سَرَاةَ سَلَفٍ مامنهم إلَّا جَوَادٌ لا يَرْضىٰ فى سَبْق المكارم بحَاتِمه ، وكاتِبٌ يَكْبُرُ عن قَولِ الوَاصِف : إنَّ ياقُوتا فى فَصِّ خَاتَمِه ، ورَئِيسٌ هو أجلُّ ما أهْدتْ شِيرازُ إلىٰ دِمَشْقَ من عَالِى طِراز الفَضْل وعالِمِه .

فليباشِرْ مافُوِّضَ إليه بعَزْمٍ لاتُفَلُّ مَضارِبُه ، ورأْيٍ لاتَأْفُل كَواكِبُه ، ومَعْدِنٍ وَفاءٍ بالمَنْصِبِ لا تبرح لجُنَاةِ الخيانة مَهالِكُه ولجُنَاة الجِنَانِ مَطالِبُه ، ناظِرًا فى حُسْنِ وظيفتها باجتهاد لا يَمَلُّ من النَّظَر ، مُثَمِّرًا لأوْقافِها بغُصْنِ قَلَمِه الذى لاينكر لأصْله الصَّائِبِ أطايِبُ الثَّمَر ، مُلاحِظًا لمَبانى هـذا الجامع بسعادته : وإنَّ السَّعادَةَ لتَلْحَظُ الحَجَر ، صارِفًا لذَوِى الاسْتِحْقاقِ مُسْتَحَقَّهم كما عَهِدُوا من إمام بَرَاعَتِه المُنْتَظَر ، مجتهدًا علىٰ أن يُرضِىَ الوَظِيفةَ والقَوْم ، مُعِينا عَدْوىٰ أنامله الخَمْس علىٰ عَدَدِها من فريضة اللَّيلة واليَوْم ، عالِمًا أنَّ الله تعالىٰ قد أحْيا هـذا الدِّيوانَ فإنَّه كما عَلِم أصْلٌ فى بابه ، آمِرًا بما يقترح لنِظامِ هذا الدِّيوانِ وكُتَّابِه ، منْتَقِدًا حال من إذا عَمَّر دواةً فى وَقْفٍ كانت سَبَبًا لعُمْرانه أو سَبَبًا - والعياذ بالله تعالىٰ - لخَرَابِه ، مُطالِبًا مَن ظَنَّ أنَّ حسابَه يُهْمَلُ فى دَهْرِ هذه المباشرة «فكان حِسَابُ الدَّهرِ غيرَ حِسَابِه» ، مُتَخيرًا من الكُفَاةِ كلَّ مأْثُور الفَضِيلَه ، ومن الأُمَناءِ كلَّ مَأْمُون الرَّذِيلَه ، ومن القُوَّامِ كلَّ مَن لايقْعُد عن الواجِب ، ومن الوَقَّادِينَ كلَّ مَن لايُعابُ بطُولِ الفَتِيله ، جاعِلًا تَقْوَى الله تعالَىٰ فى كلِّ ما يأْتِى ويَذَرُ سائِقَه إلى الفوْزِ ودَلِيلَه ، والله تعالىٰ يُمِدُّه بالسداد ، ويَصِلُ مَفاخِرَه بالسَّنَد ويحرُس شَرَفَ بَيْتِه من السِّناد ، ويجعلُ كلَّ مَنْصِبٍ كَريم باسْمِه وقَلَمِه كما قال الأوَّلُ : «رَفِيعَ العِمادِ طَوِيلَ النِّجَاد» .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بنَظَر مدرسة الشيخ أبى عمر، من إنشاء آبن نُباتة، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين» بالجناب العالى، وهى :

الحمدُ لله الذى عَمر عَهْد التُّقَىٰ بتَقِيِّه ، وأقرّ نظَرَه بمشاهدة أبيْض العِرْض نَقيِّه ، وأخصب مَنازِلَ الأولياءِ بمن ينُوب تَثْميرُه وتَدْبيرُه عن الغَيْث مَنابَ وليِّه، ومَن إذا شَهِد مقامُ الزُّهّاد بمعْرُوفه شَهِد سَدادُ العَزْم بسَرِيِّه .

نحمَـدُه علىٰ جَلِيِّ اللُّطْف وخَفِيِّه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ وافِى الحقّ و فِيِّه، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه أكْرِمْ بعَبْده ونَبِيِّه ، ورَسوله وصَفِيِّه، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً يمزُجُ أرَجُها كافُورَ صباح النهار بمِسْك عَشِـــيِّه .

وبعدُ ، فخيرُ النظر ما كان به الثَّوابُ مَأْمُولا ، والعمَلُ مَقْبولا ، والآخِرةُ للناهِض فيه خيرا من الأُولىٰ، وتَخَيُّرُ الأَكْفاءِ لمناصبِ الدِّينية سَبَبًا لخير الدَّارَيْن مَوْصُولا .

ولمَّـا كانت المدرسة الصالحية بجَبَل الصالحية المعروفة بالشيخ العارف أبِى عمر: رضى الله عنه وأرضاه،وسَقَىٰ سَبَلُ الغيث آثارَه الطاهِرَةَ وثَرَاه، مما يتعيَّن فى مصالحها حُسْنُ النَّظر، و يتبيَّن فى القيام بأمْرِها فَضْـلُ الآراء والفِكَر، إذْ هى زاوية الخـير النافعه ، ومدرسـةُ الذكر الجامعه ، وعُشُّ القُرآن المترنِّمـةُ أطْيارُه بخَفَقان القُلُوب الخاشعه، وصُفَّةُ الفقراءِ الذين لا يسألُون النَّاس إلْحافا، والأصْفياءِ من الطَّمَع الذين لا يتقاضَوْن الدهر إنْصافا و إن صَافىٰ، ومُرتَكَضُ سوابق الأعمال والأقوال، ومَقَرُّ

القُرَّاء والقِراءَةِ على مَمرّ الليالى الطوال ، ومَعْدِنُ التِّلاوَةِ المأثُور غناؤُها فى ذلك الجَبَل وما كلُّ المعادِنِ ولا كلُّ الجبال ، والبِنْيَةُ لله وتَحتاجُ مَن ينظرُ بنُور الله فى وَقْفِها ، ويحفظُ مَسالِكَ جَمْعِها وصَرْفِها ، ويَنمّى حالَ دِرْهَمِها بتَدْبِيرِه الوَافِى : فرُبَّما أبقَتْها الأحوالُ منه على نِصْفِها .

وكان فلانٌ ممَّن لحَظَ أُمورَها على بُعْـد فشُغِفَ المَلْحُوظ باللَّاحِظ ، وحَفِظَها على نَأْيٍ فكأنَّما رَوتْ بالإجَازة عن الحافظ ، وأدارَ عليها من رَشَفَات قلمه نَغْبَةَ السَّاقِى ، وأنْهلها شَرْبةً مضى بهـا ما مضىٰ مِن تَعدُّد المـال : وفى الجرائد باقٍ يطلبُ البَاقِى ؛ وسأل أهْلُها بعد ذلك ملازَمَتَه للنَّظر فلَزِمُوا ، ورَفعُوا قِصَصَهم فى طَلَبه لهذه الوظيفة فجَزَمُوا ؛ وكَيْف لا ؟ وهو نِعْم الناظِرُ والإنسان ، وفى مصالح القَوْل والعَمَل ذُو اليَدَيْنِ واللِّسان ، وذُو العزائم التى تَقَيَّدتْ فى حُبِّه الرُّتَبُ : "ومَنْ وَجدَ الإحْسَان" ، والمتقدِّمُ فِعلُه ورَأْيُه فى العاجل والآجل ، والمأمُون الذى يُعزىٰ إلىٰ عقيلة نسبة الرشيد ولا عَجَب أنْ يُعزَى المأمونُ إلىٰ مَرَاجل[1] ، كَمْ جَرتْ ألْسِنَةُ الأوْقاف بأوصافه ، وكَمْ رَوى الجامعُ الصحيحُ خبرًا عن مُسلَّم عَفافه ، وكَمْ جدَّد لِبنائه زُخْرُفًا بعدَ ما كاد نَادِبُ الرُّسومِ يَقِفُ على أحْقافه ، كَمْ وَفَّر على الأيْتام ميراثَ وَفْرِها ، وكَمْ قال اختبارُ الملوك البَاقيـة : «لأشْكرَنَّك ماحَيِيتُ» فقال مَاضِى المُلوكِ ذَوِى الأوْقاف : «ولتَشْكُرَنَّك أعْظُمِى فى قَبْرِها» ـ فاقتضَى الرأْىُ أنْ يجابَ فى طَلَبه المُهِمِّ سؤالُ القَوْم ، وأن يتَّصلَ أمْسُ الإقبال باليَوْم ؛ وأن تَبلُغَ هذه الوظيفةُ أمَلَها فيه بعد مامَضتْ عليها من الدَّهر مَلاوَه ، وهذه المدرسةُ التى لولا تَدارُكُه لكانتْ كما قال الخُزَاعِىُّ : «مَدارِسُ آيات خَلَتْ من تِلاوَه» .

---

(١) يشير الى المأمون بن هرون الرشيد العباسى وأمه مراجل .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يُراعى مصالح المؤمنين ـ أن يفوَّض إليه النَّظرُ علىٰ هذه المدرسة المعموره، وأوْقافها المبروره؛ إجابةً لسؤال مَن فيها من جماعة الفُقَراء ورَغْبَتِهم فيه، وآرْتقابِهم لعَزْمه الذى إذا نَظَر حالَها الأوّل تَلا فيه تَلافيه؛ علىٰ أنْ يتَّبِعَ فى أمْرِها شَرْطَ الوَاقِف بَرأْيٍ غير قاعد، وإن كان لايزيد فيها علىٰ أربعمائةِ نَفَرٍ إلَّا أن يَزِيدَ رَيْعُ الوَقْف وهو ـ إن شاء الله ـ ببركَتِه وهِمَّتِه زائد.

فلْيباشِرْ ما فُوِّض إليه مباشرةَ مَن إذا بَدَأ أعاد، وإذا دُعِىَ لمثل هذا الحال الضَّعيف طَبَّ وعَاد؛ مثمرا لِمَالها ـ علىٰ عادة غُصْنِ قَلَمِه الأخْضَر ـ أثمارا، مُسْتخْلِصًا للبَواقِى من أرْبابها التى تَنْهبُ العيْنَ وتَدَّعى لفَتَراتها آنْكسارا؛ قائلًا فى حال هذه المدرسة بالعَطْف، مُساوِيًا فى المُواسَاة بين فُقَرائها عند الميزانِ والصَّرْف، نَازِلًا بنُور بِشْره ووُدِّه بينهم منازِلَ القَلْبِ والطَّرْف؛ مُجهِّزًا لجَيْش عُسْرَتِهم فإنَّهم جمع للتِّلاوة والصلوات، مُتَطَلِّعًا لخبَرِهم فإنَّهم أجْنادُ صُفوفِ الأسْحارِ وسِلاحُهم الدَّعَوات؛ وتَقْوَى اللهِ تعالىٰ مُشْتَقٌّ منها آسْمُه فلْتكُنْ شَقِيقَةَ نَفْسه فى الخَلَوات؛ واللهُ تعالىٰ يحفظُ عليه حَظًّا نَفِيسا، وقَدْرًا للنجوم جَلِيسا، ويُحيِي به مَيِّتَ الوظائفِ حتَّىٰ يقالَ: أسُلَيمانُ أنت أمْ عِيسىٰ؟.

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بخَطابة الجامِع الأُمَوِىّ، من إنشاء آبن نُباتة، كُتِب به باستمرار القاضى تاج الدين، «بالجناب العالى» وهى:

الحمدُ للهِ الذى رفع للمنابِرِ رَأْسًا باسْتقرار تَاجِها، وجمع لصُدُور المحاريبِ شَمْلًا بعوائد آبْتهاجِها، وزَيَّنَ مواقعَ النِّعم بالتَّكْرارِ كما تُزانُ لآلِئُ النِّظامِ بازْدِوَاجِها، وبيَّن مطالِعَ الفَرَجِ بعدَ الغَمِّ: وما الدَّهْرُ إلَّا لَيلُ غُمَّةٍ ثم صُبْحُ آنْفِراجِها.

نحمده على معاد الآمال ومعاجها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تمشى البصائرُ إلى الحقّ بسراجها ، ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسولُه القائمُ على المنابر لمداواة الفهوم وعلاجها ، ومداراة الخصوم وحجاجها ، القائلُ له تأديبُ ربّه : ﴿واْصْبِرْ وما صبرُكَ إلّا باللهِ﴾ آيةٌ يَسْرى الفطنُ على منهاجها ، صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه بحور النِّعَم والنِّقَم عذبها وأجاجها ، وبُدورِ مساجدِ التُّقى ومشاهدِ الوغى عند عجاج ليلها وليل عجاجها ، صلاةً كصلاتهم آمنةً من خداجها ، ما مدّت نفحاتُ الروض إلى مخالطة سيرهم يدَ احتجاجها ، ومازجت معاليهم النُّجومَ فحُسن بكأس الثُّريّا شرفُ امتزاجها .

وبعدُ ، فإنّ أولى الناس باستقرار مناصب الدِّين العريقه ، واستمرار عُلوّ الدّرجاتِ : إمّا من المراتب مجازًا وإمّا من المنابر حقيقه ، واستمطار الوظائف بعيادة فضله ولا سيّما أعوادُ الخطابَه ، واستبصارها بلفظه ولا سيّما إذا سُلّمت الرايةُ العباسيّةُ من نُطقه لعرابَه - مَن درج من عُشّ فروعها خافقًا عليه جناحا علَمَيه ، وصعِد إلى عرشها مقبلةً بنظرات الجفون المتسامية آثارَ قدميه ، وأعرق نسبُه فى موطن مكانها المكين ، وبلغ مقامُه مقامَ سلفه أربعين سنةً فى الطُّلوع بأفقها المبين ، وقال استحقاقُ ميراثه : "وماذا تدّرى الخطباءُ منّى"[1] * "وقد جاوزتُ" بمقام السّلف "حدَّ الأربعين" ؛ ومَن إذا سُمعت خطابتُه قال الحفل : لافُضّ فوه ، ولا عدم البيتُ ولا بنوه ، ومَن إذا طلع درجَ المنبرِ قال المستجلون لسناه : أهلّ البدرُ؟ قيل لهم : أخوه ؛ ومَن إذا قام فريدًا عُدّ بألف من فرائد الرجال تُنظّم ، وإذا أقبل فى سوادِ طيلسانه واحدًا قيل : جاءَ السّوادُ الأعظم .

(١) الرواية الشعراء وهو نثر بيت لسحيم الرياحى .

ولمـا كان فلانٌ هو مَعْنىٰ هذه الإشاره ، وفَحْـوىٰ هذه العبارَه، وصَدْرَ هذا التَّصْـدير : ومَن سِواهُ أحَقُّ بصفات الصَّداره؟ ، ومن إذا ضُرب المَثَلُ بالخَطابَةِ النُّبـاتيَّة فى حَلَبَ قال لخطابَتِه بدِمَشْق : «إيَّاكِ أعْنِى فاسمَعِى ياجَارَه»؛ ومن نَشَأَ فى مَحلِّ نَحار طيب المَعاقِد ، ومَن وَضع رِجْلَه على المنـابر ومَدّ عَزْمه إلى الفَراقِد، ومن شَمَّر فى أوائِلِ عُمْره إلىٰ العَلْياءِ وَحِيدًا وخَلَّف دُونَهـا من أنْداده ألْفَ رَاقد ؛ ومَن إذا صَعِد للخَطابَة أنْشَدَ الحَفَدَةُ :

ولمَّـا رَأيتُ الناسَ دُون مَحَلِّه * تيقَّنْتُ أنَّ الدَّهْرَ للنَّاسِ نَاقِد

وكانت خطابَة[1] الجامِع الأُمَوىّ المعمور بذكر الله تعالىٰ بدِمَشْقَ المحروسةِ هو الذى كلُّ بَنانٍ إلىٰ حُسْنِه يُشِير، وكلُّ ذِى مَذْهَبٍ إذا عَايَن تَصْنيفَ وَضْعِه قال هذا لفِقْهِ المحاسن هو الجامعُ الكَبِير؛ مِيزابُه (؟) المسلم لرشده، المُعْلَم بطِرَازَى نَسَبِه و رشده، المقدّم لِيَد نصرته سَيْفُ خطابة لايخرجُ بيَدِ الاسْتِحقاقِ عن حَدِّه؛ تكاد المنابرُ تَعُود للنَّشْأة الأُولَىٰ طَرَبًا لسَجْع بَيانِه ، يُسْهِب ويقولُ الناس لَيْته لا آخْتَصر، ويَوَدُّونَ لو لَبِسَ كلَّ يَومٍ سَوادَ أُهْبَتِه وزِيدَ فيــه منهم سَوادُ القَلْب والبَصر؛ وعَارِضَــهُ من العظماءِ الكُفاة مَن نَوىٰ بَدَلًا فأبىٰ حُنُــوُّ الدَّولة إلا عَطْفا ، ونَازَلَه وَاردٌ من القَضاء ولكن أنْزل اللهُ عليه مع القَضَاء لُطْفا .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يستقرّ علىٰ عادته فى خَطابَةِ الجـامع المذكور، وما يتعلق بذلك : من تَدْرِيسٍ وتَصْدِير، وتَقْرِير وتَقْدِير، وتأْثِيلٍ وتأثِير؛ ومحكومٍ بالتفويض إليه ومُحَكَّم، ومَرْسومٍ لا يُغيَّر عليه ما رُسم به وما يُرسَم؛ وأن يُمنَع دليـلُ

[1] الكلام هنا غير مستقيم ولعل الصواب «ولما كان فلان هو معنى اخ وكان الجامع الأموى هو الذى اخ تعين أنه المسلم ليده .

الأعتراض ويُدْفع، ويُكَفّ حتّىٰ تتصل العنايةُ بهذا البَيْت الذى هو من بُيوتٍ أذن اللهُ أن تُرفَع؛ وحتّىٰ يعلَم أنّ قوماً أحْسنوا صُحْبة الدُّوَلِ فسَعِدُوا، ونَبَّهوا عهود الخدْمة لأعْقابِهم وَمَجَدُوا، وحتّىٰ يقولَ هـذا النَّجْلُ الظافِرُ بعد آبائه وأخيه : لَيْتَ أشْياخى بَبَدْرٍ شَهِدُوا .

فليُعِدْ حديثَ مَنْصِبِه القديم، وليَقُمْ إلىٰ تَشْنيف الأسماعِ من نَثِير لَفْظه بأبْهىٰ من العقْد النظيم، ولْيفُكَّ أسْرَى القُلوبِ برواتب إشارَته : فإنّه «الفاضل عبدُ الرَّحيم»؛ ولْيُبــكِ العُيونَ بوَعْظِه وإنْ أقرَّها بمُشاهَدَتِه، وليَحْرِصْ علىٰ نَخْر الدولة الشريفة به كما نَخَر سَيْفُ الدَّولَةِ بآبن نُباتَتِه .

ووصايا هذه الرُّتبةِ متَشَعِّبةٌ وهو علىٰ كلِّ حالٍ أدْربُ وأدْرَىٰ بهـا، وما آستقرّت علىٰ قَبْض سـيوفها يَدُه إلّا ورجَعتِ الحُقوقُ إلىٰ نِصابِها؛ وكذلك ما هو مَعْـدوقٌ بوظائفه : من مَدارس عُلُوم، ومجالِسِ نَظَرٍ طالمَـا نظر فى كُتُبها وهو الصَّحيحُ نَظْرةً فى النُّجوم ـ لا يَحْتاجُ فيها إلىٰ مُطالعة الوصايا فإنّه من كلِّ أبوابِها دَخَل، ولا يمُرُّ بها علىٰ أُذُنه فَمُ المُبَلِّغ فإنّها من فِمِه أحلىٰ ومن تَسْويغ فَمِه أحَلّ؛ ولٰكنّ التَّذْكارَ بتَقْوى اللهِ تعالىٰ فيما يأْتِى ويَذَرُ أُسٌّ جَليل، ووَجْهٌ تتفاضَلُ وُجُوه الألْفاظِ من ذِكْره علىٰ لَفْظٍ جَميل، وألفاظُ الخَطيبِ المُتَّقِى إذا وصلتْ من القَلْب إلى القَلْبِ وفَتْ بِرَىِّ الغَليل؛ والله تعالى يُمِدُّه بألْطافِه، ويُجْرِيه علىٰ عوائد إسْـعاده وإسْعافه، ويُرْوِى بصَواب كَلِمه الأسْمـاعَ وبِصَوْب الغمام عُهُودَ أسْلافه .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بتَدْرِيسِ المدْرَسة المسرورية بدمَشْقَ، من إنشاء الشَّيخ صلاح الدين الصَّفَدِىّ، كُتب به للشيخ «تقِىِّ الدين السُّبْكى» بـ «ـالمقرِّ الكريم» وهى :

الحمدُ لله الذى جعل تقِيَّ الدِّينِ عَلِيّا ، وأوْجده فرْدًا فى هــذا المَلاَ فكان بكلِّ علمٍ مَلِيّا ، وأظهر فضْلَه الجليلَ فكان كالصَّباح جَلِيّا .

نحمُده علىٰ نِعَمِه التى تكاثرتْ فانْجلَت الغمائم ، وتوفَّرتِ الألْسِنَةُ علىٰ حَمْدِه فتعلَّمتْ أسْجاعَها الحَمائم ، وتأثَّرت بمُوافقِها الأحْوالُ فأنْملت زَهْرِ الخَمائِل فى الكَمائم . ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا شُبهةَ تُعكِّر ما صَفَا من لُجَّتِها ، ولا رِيبةَ تُوعِّرُ ما تَسَهَّلَ من مَحَجَّتِها ، ولا ظُلْمــةَ باطِلٍ تُكدِّر ما أنارَ من حُجَّتِها . ونشهدُ أنَّ سـيدَنا محمدًا عبدُه ورسـولُه الذى جُمِعتْ فيه مكارِمُ الأخلاق ، وتَفَرَّد بمزايا منهـا أنَّه حَبِيبُ الخَــلَّاق ، وشَارَك الأنْبياءَ فى مُعْجِزاتِهـم وزاد عليهـم بمـا أُتِيحَ له من خَمْسٍ لم يعْطَهُنَّ غيرُه منهم على الإطْلاق . صــلَّى اللهُ عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تفقَّهوا فى الدِّين ، وحازُوا الأُجورَ لمَّــا جَرَوْا إلى جَزِّ الغَلاصِم من المُلْحِدين ، وأنْزلُوا لمَّــا نَازلُوا أبْطالَ الباطلِ والمُعْتَلِين من المُعْتَدِين ؛ صلاةً يفُوحُ نَسِيمُ رَيَّاها المتأرِّج ، ويَلُوحُ وَسِيمُ مُحيَّاها المتضَرِّج ؛ ما فرَّجَ العلماءُ مَضايِقَ الجدالِ فى الدُّروس ، وقبَّلتْ ثُغورُ الأقلامِ وَجَناتِ الطُّروس ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدِّين .

وبعــدُ ، فإنَّ المــدارِسَ ــ عَمَرها اللهُ تعالىٰ بالعلماء ــ لِوَاقِفِيها شُروط ، ولأهْلها هِمَمٌ أَنْزلُهــا بالنجوم مَنُوط ؛ يَغُوصُونَ بُحورَ البُحوثِ فى طَلَب اللَّآلِى ، ويقْطَعُون ظُلَلَ الظَّلامِ بالسَّهرَ فى حُبِّ المَعالى ؛ سِيَّما المدرسةُ المَسْرُورِيَّة : فإنَّ واقِفَها ــ أثابَه اللهُ تعالى ــ شَرطَ فى المُدَرِّس بها شُروطًا قَلَّ من يُقلُّها ، أو يَتحلَّىٰ بعُقُودِها أو يَحُلُّها ؛ وكان مَفْرِقُها قد تَحــلَّى بتَاجٍ تَجوْهَر ، ومُغْلَقها قد ضَمَّ منه فَاضِلًا تَمَهَّدتْ به قواعدُ المَذْهَبِ لمَّــا تمهَّر ؛ فأعرضَ عنها ، ونَفَض يَدَه منها ؛ رَغْبةً فى الإقبال علىٰ شَانه ، وآنْقطاعًا إلىٰ مَالكِ الأمْر ودَيَّانه ؛ فَخَلا رَبْعُها من أُنْسِه ، وكادتْ تكون طَلَلًا بعد دَرْسه .

وكان فلانٌ ــ أسْبغَ اللهُ ظِلَّه ــ قد وَافقَ بعضَ ما فيه شَرطُ الواقف ، وشَهِد بنَشْرِ عُلُومه البَادِى والعَاكِف ، وطافَ بكَعْبَةِ فَوائِده كلُّ طَائِف ، ينصَرِف عنه باللَّطائِف ؛ أمَّا "التَّفسيرُ" فإنَّه فيه آيَه ، وأمَّا "الحديثُ" فإنَّه الرُّحْلة فى الرِّوايةِ والدِّرايَه ؛ وأمَّا "الأُصول" فإنَّه زَأر بـ«الرَّازِىّ» حتَّىٰ آختفىٰ ، وأمَّا "الفِقْه" فلو شاء أمْلَىٰ فى كلِّ مَسْألةٍ منه مُصَنَّفا ؛ وأمَّا "الخلاف" فقد وَقَع الآتِّفاقُ علىٰ أنَّه شيخُ المذاهب ، وأمَّا "العربية" فـ«الفارِسِىُّ» يعتَرِفُ له فيها بالغرائب ؛ إلىٰ غير ذلك من العلوم التى هو لها حَامِلُ الرَّايَه ، وله بالتَّدْقِيق فيها أتَمُّ عِنايَه ، وإذا كان أهل كُلِّ عِلمٍ فى المَبادِى كان هو فى الغَايَه .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ــ أعلاه الله تعالىٰ ــ أن يفوّضَ إليه كذا وكذا : وَضْعًا للشَّىءِ فى مَحَلِّه ، ومنعًا لتاريخ وِلايَةِ غيره أن يَفْجَأ فى غير مُسْتَهَلِّه ؛ فالآنَ أمسَىٰ الواقِفُ مَسْرورًا علىٰ الحَقيقَه ، والآنَ جَرى الخلافُ فيها على أحْسنِ طَرِيقَه ؛ وهو ــ أسْبغ الله تعالىٰ ظِلَّه ــ أجَلُّ خَطَرًا من أن يذَكَّر بشَىْءٍ من الوصايا ، وأعظَمُ قَدْرًا من أن تُدَلَّ ألْمَعِيَّتُه علىٰ نُكَتِها الخَفَايا ؛ لأنَّه بَرَكَةُ الإسلام ، وعَلَّامةُ الأعلام ، وأوْحد المجْتَهِدين والسَّلام ؛ واللهُ تعالىٰ يمتِّع المسلمين ببَقائِه ، ويُعْلِى درجاتِ آرْتِقائِه ؛ والخَطُّ الكريم أعلاه الله تعالىٰ أعلاه ، حجةٌ فى ثبوت العمل بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْريس المدرسة الناصرية الجوّانية ، من إنشاء الصَّلاح الصَّفَدِىّ أيضا ، كُتب به للقاضى ناصر الدين «محمد بن يعقوب» كاتب السِّرِّ يومئذ بالشام ، حين عاد إلىٰ تَدْريسها بعد آنْفصاله عنه ، بـ«المقرّ الكريم» وهى :

الحمـدُ لله الذى بَدأ النِّعم وأعادها ، وأَفاءَ المِنَنَ وأفادَها ، وزَان المناصِبَ السَّنِيَّةَ بمن يَلِيها وزَادَها ، وشادَ عِمادَ المَعالى بأرْبابِها وصانَها عمَّا دَهىٰ .

نَحمدُه علىٰ نِعَمِه التى بدأتْ بالمعروف وتَمَّتْ ، وخَصَّصتْ بالإحسان وعَمَّمتْ ، وبَرَّأتْ من النَّقائِص وسَلَّمَتْ ، وفَلَّتْ بالألْطاف الخَفِيَّةِ صَوارِمَ الحوادث وثَلَّمَتْ . ونشهـدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُضيءُ بهـا الحَنادِس ، وتَزْكُو بأنْوائِها مَنابِتُ الإيمـان والمَغارِس ، وتَسْـمُو بٱقْتنائِها إلىٰ عِلِّيِّينَ النفوسُ النَّفائِس ، ويُرْغِمُ المؤمنون بإعلائِها من الكُفَّار المَعاطِس ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى تَمَّم للناس مَكارِمَ الأخْلاق ، وأخْجلَ بجُودِ كَفِّه الفَيَّاض صَوْبَ الغَيْث الدَّفَّاق ، وفَضَح البَدْر اللِّيَاحَ فى الدُّجىٰ بنُورِ جَبِينه البَرَّاق ، وتَقدَّم النَّبيين والمُرْسَـلين فى حَلْبَةِ الشَّرفِ علىٰ جَوَادِ فَضْـله السَّبَّاق ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِـه أعْلىٰ مَن نَصَبُوا للهُدىٰ أعْلاما ، وأرْقىٰ من أصْبح العِلْمُ لفَضْلِهم البَاهِرِ رَقَّاما ، وأحْلىٰ من كان الزمانُ بُوجودِهم وجُودهم للعُفَاة أحْلاما ، وأقْوىٰ من كان الإيمـان بهم إذا ٱسْتَنْجَدَ على الكُفْر أقْداما ؛ صلاةً لا ينْفَد لهـا أمَد ، ولا يَفْنَىٰ لهـا مَدَد ، ما شَبَّ بارِقٌ وخَمَد ، وشَفَىٰ الغَمامُ طَرْف زَهْرٍ من الرَّمد ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم الدِّين .

وبعدُ ، فإنَّ مدارِسَ العِلْمِ الشريفِ لها الذِّكْر الخالِد ، والشَّرفُ الطَّارِفُ والتَّالِد ؛ بها تَتَبيَّنُ فَوَارِسُ الجِلادِ فى مَضايِقِ الجِدَال ، وتَتَجلَّىٰ بُدُورُ الكلام فى مَطالِعِ الكَمال ، وتَبْدُو شُموسُ الجمال فيما لها من فَسِيحِ المجال ؛ والمدْرسةُ الناصرية ــ أثاب اللهُ تعالىٰ وَاقِفَها ــ هى الواسـطةُ فى عُقودِها ، والدُّرَّةُ الثَّمِينة بلا كُفْءٍ لهـا بين قِيَمِ نُقُودِها ؛ قد تَدبَّج فيهـا البِناء ، وتأرَّج عليها الثَّناء ، وتَخَـرَّج عنهـا الحُسْنُ فإنَّ له بها مَزِيدَ آعتِناء .

وكان المقرُّ الفلانىُّ قد نَفَض يَدَه من عِنانها، ورَفَض عن ٱختيار بهاء جِنانها؛ وثَنَىٰ طَلِبَتَه عن مُحاوَرتها، ورمىٰ أُمْنيَّته من مُجاوَرتها؛ فساءَ مَن بها من أهلِ العِلْم فِراقُه، وأوحَشَهم وجْهُه الذى أخجَلَ البُدورَ رَوْنَقُه والبَحْرَ ٱندفاقُه، وفقَدوا مكارِمه التى ما سمع «السَّمْعانىُّ» بمثْلها ولا وصلت إلى «الصُّولِىِّ» ولا ضَمَّتها أوْراقُه.

فلذٰلك رُسم بالأمْر العالى أن يُعاد إلىٰ تَدْريسها: لأنَّ العَوْدَ أمْدَحُ وأحْمَد، والرُّجوعَ إلى الحَقِّ أسْعفُ وأسْعد.

فليباشِرْ ما فُوِّض إليه مباشرةً أُلِفَتْ من كمال أدَواتِه، وعُرِفَتْ من جمال ذَاتِه؛ نَاشِرًا أعلامَ عُلومِه المتنوِّعَه، وفضَائِله التى تَقْصُر عن الثَّناء عليها أنْفاسُ الرِّياضِ المتضوِّعَه؛ فلو عاصَره «ٱبن عَطيَّة» أمْسك عنه فى تَفْسيرِه(١)، أو «صَاحِبُ الكَشَّاف» لغَطَّىٰ رأْسَه من تَقْصيره؛ أو «الرَّافعىّ» لأصْبحتْ رايةُ رأْيِه فى الفقه خَافِضَةً رَافِعه، أو «النَّوَوىّ» رحمه الله لٱستعار منه زَهَراتِ رَوْضَته اليَانِعَه؛ أو «الآمِدىّ» لمَا ٱمْتدَّتْ له معه فى أُصولِه خَطْوَه، أو «ٱبنُ الحاجِب» لمَا كان له مع ٱبن الحاجب حُظْوه؛ أو «ٱبنُ يَعيشَ» لمَات ذِكْرُه فى النَّحْوِ فكان فَقيدا، أو«ٱبنُ مالكٍ» لأمْسىٰ "وتَسْهيلُه" تَعْقيدا؛ أو«الشِّبْلِىّ» لعلم أنَّه ما شَبَّ له فى التَّصرُّف مِثْلُ شِبْلِه، أو «ٱبنُ عَرَبىّ» لأعرب عن عُجْمَةٍ وما تَمسَّكَ صُوفىٌّ بحَبْلِه، إلىٰ غير ذلك من إنْشاءٍ إنْشاءٍ ساد فيه العَبْدين: «عَبْدَ الحميد» و «عَبْدَ الرَّحيم»، ونَظْمٍ كُلَّما نَظْمأُ إلىٰ رَشْفه طافَتْ علينا قوافِيه بكَأْسٍ مِزاجُها من تَسْنيم؛ وعلَى الجُمْلة فتَفْصيلُ مَعارِفه يَضيقُ عن فَضِّها فَضاءُ هذا التَّوقيعِ الكريم، وسَرْدُ مَحاسِنه لاتَتَّسعُ له حَواشِى هذا البُرْدِ الرَّقيم؛ ولٰكنْ أشارتْ أُنْمُلَةُ القَلَمِ منها إلى نُبْذَه، وعلِمْنا أنَّ القلوبَ تَشْتاقُ إلى أوْصافه فَلَذْنا لها من ذلك فِلْذَه.

(١) لعله «عن تفسيره».

وأما الوصايا فمِثْلُه لا يذَكَّرُ بشَيْءٍ منها ، ولا يقالُ له : دَعْ هـذه الوَدَعَةَ وهذه الدُّرَّةَ صُنْها ؛ لأنَّ الأمرَ والنَّهىَ له فى ذلك ، وإذا أطْلع بُدُورَ وَصِيَّةٍ ضَوّأ أحْوالَ الدَّياجِى الحَوَالِك ؛ ولكن تقْوى اللهِ عزَّ وجلَّ ذِكْرُها فى كلِّ توْقيعٍ طِرازُه المُعْلَمَ ، ونُكتَتُه التى طَوْدُها لا يُثَلُّ وحَدُّها لا يُثْلم ، فليكُنْ مُسْتَصْحِبَ حالِها الحالى ، مُسْتَصْعِبَ فِراقِها الذى يُهوِّنه البالُ البالِى ؛ واللهُ تعالى لايُخْلى رُبوعَ العِلْمِ من أُنْسِه ، ويجعلُ سَعْدَه فى غَدٍ زائدًا كما زاد فى يَوْمِه علىٰ أمْسِه ، والخطُ الكريم أعلاه ، حجَّةٌ فى ثُبوت العَمَل بمُقْتضاه .

* * *

وهـذه نسخةُ توْقيعٍ بتَدْريس المدرسة النُّورِيَّة ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نُباتة ، كُتب به لقاضى القضاة «نجم الدين الحنفىّ» بنزول والده عنها بـ«الجناب الكريم» وهى :

الحمـدُ للهِ الذى أنْمَىٰ أهِـلَّةَ العِلْمِ فأبْدَرتْ ، وفُروعَه فأثْمَرتْ ، ونُجُومَه فاسْتَقلَّت مَطالِعُها النُّورِيَّةُ وتنَوَّرتْ ، ولآلِئه فى بِحارِ اللَّفظِ والفَضْلِ فتَجوْهَرتْ ، وأنْهارَه التى أخذت فى المدِّ مآخِذَ تلك البِحارِ فاسْتَرْحَبَت واسْتَبْحَرَتْ .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمِه التى قَرَّتْ وقَرَتْ ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً إذا خَصَّلها اليَقينُ وفرَتْ ، وإذا نَصَّلها الإخْلاصُ مَضَتْ فى أوْداجِ الباطل وفَرَتْ ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الحاكمُ فى فَصْلِ الأقْضية لمَّا شَجَرتْ ، والنَّاظِمُ دُرَرَ الإيمانِ حتَّىٰ زَهَتْ فى أعناقِ العَقائد وزَهَرتْ ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه فِئَةِ الحقِّ التى ظَهَرتْ وطَهُرتْ ، وعِصابةِ الإسْلامِ التى سَرتْ خَلْفَها

(١) مستعار من نصل السيف والرمح والسهم ركب فيه النصال وهو حديد .

سَرايا الدِّين نهاجرت فى الله ونصرت، صلاةً طيِّبةً تحلو إذا تكرَّرت، وتحيةً باقيةً تُشرِق شمسُها إذا الشَّمسُ كُوِّرت، وتعبق نفحاتُ نشرِها إذا الصُّحُفُ نُشرت .

أما بعدُ، فإنَّ منازلَ العِلْم من خيرِ ما أبقى الآباءُ للأعقاب، وأكملِ ما ذُخر لنُجباءِ الأبناءِ على مَدى الأحقاب، وأعدل ما شَهِد بلسانِ حاله المتمثِّل أنَّ وكْرَ العُقابِ لابن العُقاب؛ وكانت المدرسةُ النُّوريَّة الكُبرىٰ بدمشق المحروسةِ هى الواسطةُ والمدارسُ دُرَر، والصُّبحُ وأوطانُ العِلْم غُرَر، ومنزِلةُ الحكم الأمنع، وبيتُ القضاء الذى أذِنَ اللهُ لقَدْرِه أن يُرفَع، ومكانُ ذى اليَدِ الماضى سَيْفُ حكمه إذا قُرِعت العَصَا لذى الإصْبَع؛ وذاتُ العِمادِ التى ادَّخرها لنَجْلِه، وأعدَّ فَضْلها فى العِبادِ والبِلاد لفَضْلِه؛ وكان ذلك(١) قد نَزَلَ لولده فلانٍ عن الحُكْم علىٰ هذا الحُكْم، ونطق بمزِيَّةِ الاستحقاقِ وقُلوبُ بعضِ الأعداءِ صُمٌّ بُكْم؛ ورَغِبَ ـ أجَلَّه اللهُ ـ فيما يَرغَبُ فيه من الانقطاع ذُو السِّن(٢) العالى، والقَدْرِ الغالى، وانتظم تقليدَه الشريفَ فكان أجودَ حِلْيةٍ علىٰ أحسنِ جيدٍ حالٍ؛ ثم التَّوقيعَ بتدْريس هذه المدرسة التى زُكِّيَ فى أهلِ الفَضْل شهيدُها، ونَظَرِها الذى خَلَفَ فى حُكْمه ولىُّ عَهْدِه عن أبيه: فلِلَّهِ أمينُ هذه الخلافة ورَشِيدُها .

ولذلك رُسم بالأمرِ الشريف أنْ يفوّضَ إلىٰ فلانٍ تدْريسُ المدرسة النُّوريَّة ونَظَرُها : لاستحقاقه لها بشُفْعَةِ مَنصب الحُكْم العزيز، ومَنْشَإِ الفَضْل الحَرِيز، ووجيز النزول المكتتَب، وقَبُول هِبَةِ والده الذى يعتادُ أن يَهَبَ الجليلَ لمن يَهَب؛ وتَشْريفه بإنعامها النَّفيس، وإجْلاسه بها علىٰ مَرْتَبةِ حُكْمٍ وبِساطِ نَظَرٍ وسجَّادةِ تدْريس؛ وعِلْمًا بأنَّ نجمَ ذلك النَّيِّرِ أوْلىٰ بهذه المنازل، وشِبْلَ ذلك الأسَدِ أحقُّ

(١) لعله «وكان ذلك الامام الموصوف» أى والد نجم الدين .

(٢) نص أهل اللغة على أن السن بمعنى العمر مؤنثة .

بهذا الغَابِ المائِل؛ وأنّه كوكبُ هذا المَذْهَبِ المُنِير، وإمامُ جامِعيّه المعروفين : كبيرٍ وصَغيرٍ؛ وصاحبُ شَبِيبَة العَزْم المقْتَبل ، والرَّأْيِ المُوفِي علىٰ قياس الأمل ؛ وتَجْنيس الجُود والإجادَه ، وتَكْميل بَحْرَي العِلْمِ والبِرِّ وآجتهاد الزِّياده ؛ وأنّه ممَّن آتاه اللهُ رِفْعَةً فى القَدْر والآسم ، وزاده بَسْطَةً فى العِلْم والجِسْم ؛ وأحكم بَدِيهَةَ عِلْمه فما تَسْتوقِفُ الأسماعُ رويَّته ، وأعْلاه وعَظَّمه فما هو النَّجْم الذى تَسْتَصغِرُ الأبصار رُؤْيَتَه .

فليباشِرْ تَدْرِيسَ هذه المدرسة ونَظَرها بعَزْمِهِ الباهر وَصْفا ، التَّالِي بلسان الحَمْد : ﴿وإبْراهِيمَ الَّذِي وفَّىٰ﴾ ؛ جارِيًا علىٰ أعْراقِ نَسَبِه المشهور، فائِضَ اللَّفْظ والفَضْل فإنَّه بَحْرٌ من البحور ، مظهِرًا من مَباحِثِه التى تقلِّد العُقولَ بأبْهىٰ مما تُقلَّد النُّحور، مهْتَدِيًا من رَأْيِهِ ومن بركَةِ الواقِفِ - رضِىَ اللهُ عنه - بنُورٍ علىٰ نُور، واللهُ تعالىٰ يَزِينُ بنَجْمِه أُفُقَ السِّياده، ويَزِيدُ فيما وهَبَه من الفَضْل إن كان التَّمَامُ يقبلُ زِيادَه .

* * *

تَوْقيع بتَدْرِيس المدرسة الرَّيحانية الحَنَفِيَّة، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به للقاضى «عماد الدين الحنفى» بـ«الجناب الكريم» وهو :

الحمدُ لله الذى جَمَّل مدارِسَ العِلْمِ بذَاتِ عِمادِها ، وصاحِبِ نَقْلِها وآجْتِهادِها ؛ ومُنْشِرِ عَهْدِها ومُنْشِئِ عِهادِها ، وواصِلِ مَناسِبِها التى لو آدّعاها دُونَه زَيْدٌ لكانت دَعْوىٰ زِيادِها ، ومُفْصِحِ فتاويها علىٰ مِنْبرِ قَلَمٍ آهتز عُوده ونَفَح وأطْرَب : فناهِيكَ بثلاثة أعْوادِها ! .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى قَضَى الحمدُ بآزْدِيادِها ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُعِدُّها النفس لمَعادِها، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه هادى الأُمَّة

إلىٰ سبيل رَشادِها ، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه بِحارِ العِلْمِ وأطْوادِها ، ما قامت الطُّروسُ والسُّطورُ لعُيونِ الألفاظِ مَقام بياضها وسَوادِها .

أمّا بعدُ ، فإنَّ لمذاهِبِ العِلْمِ رِجالًا يوَضِّحونَ طُرُقَها ، ويمدّون فى المباحث طَلَقَها ، ويَعْمُرونَ مدَارِسَها : فيالَهَا من ذَاتِ دُروسٍ يكون العُمْرانُ مُعْتَلِقَها ومُعْتَنِقَها ! .

ولمّا كانت المدرسةُ الرَّيحانية بدِمَشْق فى أيدى العُلَماءِ نُخْبَةً رَيْحانيّه ، وشَقيقةَ نَفْسٍ نُعمانيّه ، مأهُولةَ المَنازِهِ والمنازل بكلّ ذى فَضْلٍ جَلِيّ ، وعِلْمٍ مَلِيّ ، ووَصْفٍ كريم ، ونفسٍ نفيس يتلقّاه منها رَوْحٌ ورَيْحانٌ وجَنّةُ نَعيم ، وخَلَتِ الآنَ من إمامٍ كَرُمَتْ خِلالُه ، وعظُمَتْ خِصالُه ، ومَضَى وتمضّى وما يَبْقَىٰ إلا اللهُ جلّ عن الحوادث جَلالُه ـ فتعيّن أن نَخْتارَ لتَدْرِيس مكانها من يفتخر به المكانُ والزّمان ، ويَتَشَيَّدُ بزيادة عِلْمه لصاحبِ مذهبها أضعافُ ما شاده زياد للنُّعمان ؛ من شَيَّد الشريعةَ الشريفةَ مَقالُه ومَقامُه ، وعلا عِمادُه إلىٰ عُقودِ الشُّهُب فلله مُرادُه ومَرامُه ، من لو عاصره «ٱبن الحسين» لَحَسُن أن يعترفَ بقَدْرِه الجليل ، وقال عند محاضرة بَحْثِه كما قال «أبو يوسف» : فصَبْرٌ جَميل ؛ وٱستزاد «شمس الشريعة» فكيف «السراج» من لمعه البريقه ، وقال «ٱبن الساعاتى» : مارأيتُ أرفعَ من هذا القَدْرِ درجةً ولا أبدعَ من هذا الذِّهْن دَقِيقَه .

ولذلك رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لازال عالِيًا بأمْره كلُّ عِماد ، زاهِياً بمحامد مُلْكه كلُّ ناطِقٍ وجَماد ، أن يفوَّضَ لفلان ... ... لأنَّه المَعْنِيُّ بما تقدّم من الأوصاف الحُلْوةِ إذا تكَرَّرتْ ، والمقصودُ بألْفاظها إذا تعنونَتَ الأفْهام وتَيَسَّرت ، والمعَوَّذَةُ فرائدُ مباحِثه المفرّقَةُ بـ« إذا الكَواكِبُ ٱنتثرتْ وإذا البِحَار فُجِّـرَتْ » ؛ وإمامُ المَذْهب الحنفيّ والحُكْم الأحْنَفيّ ، وحَصاةُ القَلْبِ التى تَنْسف بإشارتها جبال «النَّسَفِيّ » ، ولسانُ النَّظَر الذى أشْرف علىٰ بُعْدِه فٱخْتَفَىٰ فى قُرْبِه المَشْرَفِيّ ؛ وصاحِبُ الفُنون وما

وسَقَتْ، وأفنانِ الحُكْمِ والحِكَمِ وما بَسقَتْ، ونُعوتِ الفَضْلِ والفضائِلِ وما عَطَفتْ من البيان ونَسَقَتْ .

فلْيَتَوَلَّ تَدْرِيسَ هــذه المدرســة المعمورةِ مُؤَيَّدَ الولايه، مُجَــدَّدَ البداية لحنيفيَّتِها والنهايه، ســاجِدًا قَلَمُ الفتاوَىٰ والفُتُوَّةِ كلَّما تَلا كَرَمُه وكَلِمُه آيةً بعدَ آيَه؛ مُنْفِقًا من ألْفاظِه حتَّىٰ يَسْتغنى عن "الكَنْز" وصاحِبِه، ويَرُدَّ فَرعَ المقال على الأصْل وطَالِبِه؛ ويُعْرِضَ عن أعارِيضِ "البسيط"، ويُغْرِقَ فى أفْكار وَارِدِه "المحيط". ويمدَّ سماط العِلْمِ الذى وَفىٰ بعد «القُدُورِىِّ» وما خَان، وتَفْخر بقَاضِيها أعظمُ مَدِينةٍ فما يضُرُّها فقــدُ «قاضى خان»، وتتذكَّر المَقَدَّميةُ من طَلَبَتِــه فوائد الحَلْقَه، وينتقل الجناب الكريم من تقدِمَتِها إلىٰ ما هو أوفىٰ فى الغَرَض وأوفَرُ فى النَّفَقَه؛ والله تعالىٰ يَزيدُ رُتَب العِلْمِ به سرورا، ويجعلُ له باستطلاعها كتابَ حُكْمٍ وحِكَمٍ يلقاه مَنْشُورًا .

*
* *

وهذه نسخةُ توقيع بتَصْدِيرٍ بالجامع الأُموِىّ، كُتب به لقاضى القضاة «علم الدين آبن القَفْصى» قاضى قضاة دِمَشْـقَ بـ «المقرِّ الشريف» وهى من تَلْفِيـقِ كُتَّاب الزمان . علىٰ أنها بالمدرّس ألْيَقُ منها بالمصدَّر، وهى :

الحمدُ لله الذى أعلىٰ عَلَم أئمَّة الدِّين إلىٰ أعلى الغُرَف، وميَّزهم بالعِلْمِ الشَّريف الذى يَسْمُو شرفُه علىٰ كلِّ شَرف، وأوضَح بهــم مَنْهجَ الحقِّ القويم فعَلا بإرْشادِهم ســبِيلُ الهُدىٰ وآنْكشَف .

نحمَــدُه علىٰ ما أفاض مِن نِعَمِه المتواترة كلَّ حِين، ونشكُره علىٰ إحْيــاءِ مَعاهِدِ المعابِد بمَن حَذَا حَذْوَ الأوليــاء المُتَّقين، حمــدًا يُظهرُ الآياتِ المحمَّديَّةَ والبراهين، ويَبْسُط ظلَّ مَن هو عن الحقِّ لا يَمِين. ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له

رَبُّ العالمين ، الذى عَلَّم الإنسانَ ما لَم يَعْلَم وهو العالم بما تُخْفِى الصُّدُورُ ويَعْلَمُ عبادَه المؤمنين ؛ ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أُوتِى عِلْمَ الأوّلين والآخِرين ، وكان من دعائه لشَيْبَةَ : « اللّهمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّين » . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَمِلُوا بما عَلِموا فكانوا أئمَّةَ المسلمين ، والعُمْدَةُ علىٰ أقوالهم التى نقلوها عن خَاتَم النبيين ، علىٰ تَوالِى الأيَّام والجُمَع والأشْهُر والسِّنين ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أما بعدُ ، فلمَّا كانت أعلامُ العُلماءِ فى الآفاق مَنْشوره ، ورُبُوعُ الفوائد بطريقتهم المُثْلىٰ معْمُوره ، وصُدُورُ المعابِد الشَّريفة محتاجة إلىٰ صِلَتِها بكُفْئِها الفَرْد مَسْرُوره ؛ وكان فلانٌ ــ أسْبغ اللهُ تعالىٰ ظِلَالَه ، وضاعف جَلالَه ــ هو الذى ملأَتْ مُباشرتُه العُيونَ والأسماع ، وانعقدتْ علىٰ تَفَرُّدِه فى عَصْرِه كَلِمَةُ الإجْماع ، واشتهرَ ذِكْرُه الجميلُ بأنواع المَكْرُمات وأطاعَهُ من مُشْكل المَذْهَب ما هو علىٰ غيره شديدُ الامْتِناع ؛ وأضْحَتْ فضائلُه "المَدَوَّنَة" ولفظُه الجَلَّاب ، وكَنَفُه "المُوَطَّأ" للطَّلَبَة يُغْنيهم عن مَعاهِد « عبد الوهاب » ؛ وعزيمته لا يُلْحقُ غُبارُها فى المعارك ، ولا يَظنُّ خُدَّامُ العلوم الشرعية والأدبية إلا أمَّ مالك وابن مالك .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لازال يجمعُ لِمَن بَرَعَ فى العلوم من ألْوانِ المناصب المختلفه ، ويَرفَعُ قَدْرَ القَوْمِ الذين قُلوبهُم على التقوىٰ مُؤْتَلِفه ــ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفة التَّصْدِير بالجامع الأُمَوىّ بِدمَشْق المحروسة ــ عمرَه اللهُ تعالىٰ بذِكْره ــ عِوَضًا عن فلانٍ بحُكْمِ نزوله عنه برضاه ، حَمْلًا علىٰ ما بيده من النُّزولِ الشَّرعىِّ ، بالمعلوم الذى يشهدُ به ديوان الوَقْف المبرور ، علىٰ أجْمل عاده ، وصرفه إليه مُهَنَّأً مُيَسَّرًا أُسوة أمثاله .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ علىٰ عادة مُباشراته التى حُفَّت بالعُلُوم ، وافتخرتْ بحُسْنِ المَنْطوق الدَّالّ على المعنَى المفْهُوم ؛ ويُمِدَّ مَوائدَ علْمه المحتويةَ علىٰ أنواع الفَضائِل ،

وليُبيِّنْ ما يَخْفىٰ على الطَّلَبـةِ بأوْضحِ الدلائل ؛ وليؤدِّ الفوائدَ الواصلةَ إلى الأذهان علىٰ أحْسنِ أُسْلُوب ، وليُقَرِّرِ الأُصولَ التى آمتدَّتْ فُروعُها بقواعِدِ السُّـنَّةِ المحمَّديَّة وفى ثمرها الجَنِيِّ تَقْويةُ القُلوب ؛ وليُكْرِمْ منهم من يَضِحُ فضله لَدَيْه ويَبِين ، وليُبْسُطْ هِمَمَهم بقوله صلَّى الله عليه وسلم : "مَن يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فى الدِّين" . وليُوَضِّحْ طريقَ إرْشادِه ليَسْهُلَ سُلُوكُها عليهم ، وليَجعَلْ وُفُودَ فوائده فى كلِّ وقتٍ واصِـلَةً إليهم ، وليَتَّبِـعْ «إمامَ دارِ الهِجْرَةِ» فى مَذْهَبه المُذْهَب ، وليخَلِّدْ من صفاته الجميلة ما يَذْهَب الزَّمانُ ولايَذْهَب ؛ وليُسْمَحْ للفقهاء بمواصلة فَضْلِه الأعَم ، فإنَّه أنْ يُهدَىٰ به واحِدٌ خيرٌ من حُمْرِ النَّعَم .

والوصايا كثيرةٌ ومنه يُطلَبُ بيانُها ، وبه تَقْوَىٰ أسْـبابُها ويَعلُو بُنْيانُها ؛ ولٰكِن الذِّكْرىٰ تنفَعُ المُؤْمنين ، ويَظْهَرُ [بها] سِرُّ خبرهم ويَسْتَبِين ؛ وتَقْوى اللهِ تعالىٰ هى العُرْوة الوُثْقىٰ ، والخَصْلةُ التى بها يعظم كلُّ واحدٍ ويَرْقَىٰ ؛ فلْيُواظِبْ عليها ، ولْيَصْرِفْ وَجْهَ العناية إليها ؛ واللهُ تعـالىٰ المسْـئُولُ أن يجعلَ عَلَمَ عِلْمِه دائمًـا فى الآفاق مَنْشُورا ، وذِكْرَه الطَّيِّبَ علىٰ ألْسنَة الخلائق كلَّ أوانٍ مَذْكورا .

المرتبـــة الثـانية

(مـن تواقيع أربابِ الوظائف الدِّينيـة بحاضرة دِمَشْقَ — ما يفتتح بـ«أَما بعدَ حمدِ الله» وفيها عدّةُ وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك .

توقيعٌ بقضاء العَسْكر بِدِمَشْـق ، كُتب به للقاضى شَمْس الدِّين «محمد الإخنائى» الشافعىّ ، بـ«ـالجناب العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله تعالىٰ مضاعِفِ النِّعْمه، ومُرادِفِ رُتَبِ الإحسان لمن أخْلصَ فى الخدْمه، ومُجَدِّدِ مَنازِلِ السَّعْدِ لمن أطْلَعتْ كواكبُ اهتمامِهِ فى آفاق الأمُورِ المُهِمَّه؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمَّينِ الأكْمَلينِ علىٰ سيدنا محمدٍ وآلِه الذى بُشِّر بنَصْرِ هذه الأُمَّه، ووُعِدَ بأنْ سيُكشَفُ به غمامُ كلِّ غُمَّه، وأنَّه يتجاوزُ عن أهْلِها بشفاعته وكيف لا؟ وقد أُرْسِلَ للعالَمين رَحْمَه، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً تُجزلُ لقائلها نَصيبَه من الأجْرِ وتُوَفِّرُ قسْمَه ـ فإنَّ أحقَّ الأولياءِ مَن تأكَّدتْ له أسْبابُ السعاده، وكافَأْناه بالحُسْنىٰ وزيادَه، وبَلَّغْناه من إقْبالنا غايةَ مآرِبِه ومَطالِبِه؛ وعُرِفَتْ منه العلومُ التى لا يُشَكُّ فيها، والنَّباهَةُ التى لا يَقْدِرُ أحدٌ من أقْرانه يُوَفِّيها؛ والخِبْرةُ الوافيةُ الوافِرَه، والدِّيانةُ الباطنةُ والظَّاهِرَه؛ وسار بعُلُومه المَثَل، وسلك مَسْلَكَ الأولياءِ فى العِلْمِ والعَمَل؛ واعْتُبِرت أحوالُه التى تُوجِبُ التقديم، واخْتُبِرت فِعالُه التى ضاعفَتْ له مزيد التكريم.

وكان فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ نِعْمتَه ـ هو الذى أتْقن العُلومَ بَحْثًا وتَهْذيبا، وبَرْهَنَ عن المسائل الشَّرعيـة بأفهامٍ تَزيدُها إلىٰ الطَّالِبين تَقْريبا؛ وأوضحَ عَوِيصَ مُشْكِلاتها، وصحَّحَ من ألْسُنِ العَرب لُغاتِها.

فلذلك رُسِم بالأمرِ العالى ـ لا زالت شَمْسُه بالعناية مُشْرِقَه، وأنْواءُ فضائل أوْليائه مُغْدِقَه ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى وظيفة قضاء العساكر المنصورة الشاميَّة: حَمْلاً علىٰ ما بيَدِه من النُّزول الشَّرعىِّ، علىٰ عادة من تَقدَّمه فى ذلك وقاعدَته، ومَعْلُومه الذى يشهَدُ به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخر وقْتٍ. فهو الحاكِمُ الذى لم يَزَل للعساكرِ المنصورة نِعْمَ الصَّاحِب، والمُورِدُ علىٰ سَمْعِهم من الأحكام الشَّرعيةِ ما يَقْتَدى به الحاضِرُ والغائب؛ والقائِمُ بأعْباءِ العساكرِ المنصوره، والحافِظُ لنِظام المُلْك الشريف علىٰ أحْسن صُورَه.

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ وليَحُلَّ فى قضاء العساكر المنصورة بطَلْعَتِه السَّنِيَّه، وليفصِلْ بينهم فى الأسْفار كلَّ قَضِيَّه، ولْيعرِّفْهم طُرُقَ القواعد الشَّرْعِيَّه؛ وليحترِزْ فى كلِّ ما يَأْتيه ويَذَرُه، ويقْصِدُه ويَحْذَره، ويُورِده ويُصْدِره .

والوصايا كثيرةٌ ومنه تُسْتفاد، وإليه يَرجِعُ أمرُها ويُعاد، ولكن لا بُدَّ للقَلَم من المَرَحِ فى مَيْدان التَّذْكار، والتَّنْبيه علىٰ مِنهاجِ التَّقْوىٰ التى هى أجْملُ شِعار؛ واللهُ تعالىٰ يَمنحُه من إحسانِنا جزيلَ العَطاءِ والإيثار، ويُسْمِعُه من أنْباءِ كَرَمِنا كلَّ آوِنَةٍ أطْيبَ الأخْبار؛ بمَنِّه وكَرَمه ! .

⁂

تَوْقيعٌ بنَظَر جامع يلبغا اليحياوىّ، كُتب به للامير جمال الدين «يوسف شاه» العُمَرىّ الظاهرىّ بـ«ـالجناب الكريم» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى أظْهر جمالَ الأتْقياءِ فى كلِّ مَشْهَدٍ وجامع، وقدَّمه بما أوْلاه علىٰ كلِّ ساجدٍ وراكعٍ، وخَصَّه من فَضْله بما قَصُرتْ عنه الآمالُ والمَطامع؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمَّين الأكْمَلَين علىٰ سيدِنا محمدٍ عبدِه ورسولِه مُولِى الخَيْرِ الواسِع، والإحسانِ المُتَتابِع، ومَن أحْيا جَوْدُ جُودِه النُّفوسَ وسَرَّ القُلوبَ وأطرَب ذِكْرُ عِظَاتِه المَسامِعِ؛ وعلىٰ آله وصَحْبِه النُّجومِ الطَّوالِع، والذين أودَعهم العِلْمَ الذى آتاه لإقامَةِ دِينِه من لا تَخيبُ لَدَيْه الوَدائِع؛ والتَّشْريف و[الإكرام]، والتَّبجيل والإعظام ـ فإنَّ أوْلىٰ من رعَيْنا له حقَّ الخِدَم، ووُقوفَه فى الطاعةِ الشريفةِ علىٰ أثْبتِ قَدَم؛ مَنْ قام بما لم يَقُمْ به غَيرُه، وحَسُنَتْ سِيرتُه وسَيْرُه .

وكانَ فلانٌ أدام اللهُ تعالىٰ نِعْمَته، وحَرَسَ من الغِيَرِ مُهْجَتَه؛ ممَّن جَمَّل المَمالكَ ودَبَّرها، وضَبَط أمْوالَ الأوقاف وحَرَّرها؛ وآرْتفَع على الرءُوس، وحصَّلَ أموالَ

الأوقاف التى فَطَر تحصيلُها أكبادَ الخَوَنة وسرَّ من مُسْتَحِقِّيها النُّفوس ـ تعيَّن أن نَعْرف له مِقْدارَه الذى لا يخفىٰ، ونُوَفِّيه بَعْض حَقِّه فإنَّه الذى بالإحسان قد أوْفىٰ .

فلذلك رُسم بالأمرِ الشريف ـ لا زال يُقْبِلُ علىٰ فَضْل وَلِيِّه ، ويضاعِفُ له البِرَّ المُسْتَمْطَرَ من غَيْثِ جُودِه ووَلِيِّه ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى كذا ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك ومُسْتَقِرِّ قاعدته ، بالمعلومِ الشاهِدِ به دِيوانُ الوَقْفِ المبْرورِ إلىٰ آخر وَقْت .

فلْيباشِرْ هذه الأوقاف ، ولْيَسلُكْ فيها طُرُقَ العَدْل والإنْصاف ، وليتَّبِعْ شَرطَ وَاقِفِها ـ رحمه الله تعالىٰ ـ المُجْمَعَ علىٰ صِحَّتِه من غير خِلاف ؛ وليُحْيِ ما تَشَعَّث وتَخَرَّبَ فى الجامع المُشار إليه وأوْقافِه بعَيْنِ بَصيرَته ، ولْيَقُمْ بالمعروف من مَعْرِفَتِه ؛ وهو أعزَّه الله تعالىٰ أوْلىٰ مَن باشَرَه ، وعَمَر دَاثِرَه ، وأحْرىٰ مَن تَحَرَّىٰ مَبارَّهُ ومآثِرَه ؛ ومَيَّز أوْقافَه ، وتَدارَك بتَلافيه تِلافَه . وهو غَنِيٌّ عن شَرْح الوصايا فإنَّها من آدابِه تُعرَف ، ومن بَحْرِ أدَواتِه تُغْرَف ؛ ومِلاكُها تقوى الله تعالىٰ الرَّءُوف ، فلْيَكُنْ علىٰ مُسْتَحِقِّ هذا الوقف عَطُوف ؛ والله تعالىٰ يُجزِلُ له أجْرا ، ويجعلُ له ما يفعلُه من الخير ذُخْرا .

توْقيعٌ بنظر تُربة أرغون شاه ، كُتِب به « لقجا السيفى بوطا » بـ« الجناب العالى » وهـو :

أمَّا بعد حَمْدِ الله الذى بَلَّغَ الأوْلياءَ من مَبرَّاته الأمَلَ والإرادَه ، وألْقىٰ مَقاليدَ الأُمورِ إلىٰ مَن اسْتَحقَّ بحُسْنِ مُباشرته الزِّيادَه ؛ والصَّلاةِ والسلامِ الأتَمَّينِ الأكْمَلَين علىٰ سيدِنا محمدٍ عبدِه ورسولِه صاحِبِ لِواءِ الحَمْدِ والنَّصْر ، ومَن جاءتْ آياتُ تَفْضيله كفَلَق الصُّبْح وجَلَّتْ محاسِنُه كلَّ عَصْر ؛ وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نَصَرُوه فنَصَرهم

الله ، وحَجَبُوه بأنْفُسِهم عن البَاس ولم يَحْجُبُوه عن النَّـاس خَفْض جَناحِه لمَوْلاه؛ والتَّشريف والتَّكْرِيم، والتَّبجيل والتَّعظِيم .

ولمَّـا كان فلانٌ ـ أدام اللهُ تعـالىٰ نِعْمَته ـ هو المعروفَ بالأوْصاف الجمِيـلَه ، والمَنْعُوتَ بالنُّعوتِ التى أتَتْ فى وَصْفِه بكلِّ فَضِيلَه .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ـ لازال إحْسانُه عَمِيا ، وفَضْلُه لذَوِى الاسْتِحقاق أبدًا مُقِيما ـ أنْ يسـتقرَّ فلانٌ فى كذا ، علىٰ عادة من تقـدَّمه فى ذلك ومُسْـتَقر قاعِدَته ، بالمعلوم الذى يشهدُ به دِيوانُ الوَقْفِ المبرور إلىٰ آخِر وَقْتٍ .

فلْيباشِرْ ذلك بهِمَّتِه العَلِيَّه ، ونَفْسِـه الأبيَّه ؛ والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التَّقْوىٰ : فلْيلازِمْ عليها فإنَّها تحفَظُه ، وبالسِّـيادة تَلْحَظُه ؛ والله تعالىٰ يكَمِّلُ تَوْفِيقَه ، ويُسَهِّل إلىٰ نُجْح المَقاصِد طَرِيقَه؛ بمحمَّدٍ وآله ! .

✤

تَوْقيعٌ بتَدْرِيس الجامع الأُمَوىّ عَوْدًا إليـه ، من إنشاء جمـال الدين بن نُباتة ، كُتب به للقاضى «فخر الدين المصرىّ» وهو :

أمَّا بعدَ حَمْـدِ اللهِ مُعيدِ الحقِّ إلىٰ نِصابِه ، والْغَيْث إلىٰ مَصابِّه ، واللَّيْث ـ وإن غَاب ـ إلىٰ مُسْـتَقرِّ غَابِه ، وشَرَفِ المكانِ إلىٰ مَن هُو أحقُّ وأوْلىٰ به ، وبَحْرِ العلومِ إلىٰ دَوَائر مَحافِلِه فى الدُّروسِ وإلىٰ قوىِّ أسْبابِه ؛ والصَّـلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى هاجر فرَجَع بغَنِيمَتِه وإيابِه ، وطَلَع من ثَنِيَّاتِ الوَداعِ طُلُوع البَدْرِ المُشْرِق فى أثْنـاءِ سَحابِه ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الشائمين سَـبَلَ صَوْبِه السَّالِكين سَبِيلَ صَوابِه ، ما قُطِفَ من غُصُون أقْلامِ العلمـاء ثَمَرُ "البيان والتَّبيين" مُتَشابِهًا وغيرَ مُتَشابِه ـ

فإنَّ شَرفَ الكواكِبِ فى سيرِها ورُجُوعِها ، ونُموّ تَشَعُّلِها ما بين فَتْرةِ مَغيبِها وطُلُوعِها؛ لا سيَّما العلماءُ الذين يُهتَدىٰ بأنوارِهم، ويُقْتَدىٰ بآثارِهم ، ومَصابِيحُ الحقّ التى تُقْدَحُ ولا يُقْدَحُ فى أزْندة أفكارِهم .

وكان من قُصِدَ بهذا التَّلْويح ذِكْرُه، وعُرِفَ من هذا المَعْنىٰ المَفْهومِ نَخْرُه؛ قد حُمِد بمجالس التَّصدير بالجامع الأُمَوىّ ماذكره من سلفِ أعْيانه، وقام بوُجُودِ الدَّليل علىٰ وُجُود مَاضِى بُرْهانه ، وجَادل لِسانُه وقَلَمُ يَدِه عن الشَّريعة : وغَيْرُه من العِىِّ لا من يَدِه ولا من لِسانِه؛ ثم هَجَر مكانَه هِجْرَةً على العُذْرِ مَحْمولَه ، وهاجَر إلىٰ حَرَمِ الله تعالىٰ وحَرَم رَسُولِه صلَّى الله عليه وسلم هِجْرَةً مَقْبُولَه؛ ورَامَ بعضُ الصِّبيانِ التقدُّمَ إلىٰ رتبة الشيخ فقالت : إليك عنِّى، فأنا من مَخْطُوبات الأكابر فما أنا منك ولا أنت منِّى؛ ثم حضر إلىٰ محلِّه الكريم من غاب ، ورجع إلىٰ مُسْتقرّه الأمثل به : وما كلُّ حَمْزَةَ أَسَدُ اللهِ فلْيسكُنْ فى ذلك الغَاب .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالت صلاتُ مَراسِمِه جميلة العوائد، جليلةَ الفوائد، وأقلامُها أغصانُها ممدودٌ بها الرِّزقُ فهى على الوصْفَين موائد ـ أن يستمرّ علىٰ عادته فى كذا وكذا، وإبطالُ ما كُتِب به لغيره : عملًا باختبار الحاضر، وآختيار نَظَرِ الناظر؛ وعِلْمًا بأنَّ هذه المرتبةَ لمن له إتْقانُ عقلها ونقلها ، وتلاوةٌ فى موضع الوقف : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ .

فقولا للممنوع : ما كلُّ عِزّ بدائم ، ولا كلُّ ذى طَلَبٍ بكمال الوُجوبِ قائم؛ ومن أين لهذه الرتبة مثلُ هذا الكُفْءِ الذى آشتهر نخره، وزهَتْ به على الأمْصار شامه ومصره؟؛ وهذا الإمام، وكلُّ مُضاهٍ مأْمُوم ، وهـذا المِقْدام، تحت عَلَمَ العِلْم وكلُّ مُباه مهزوم؛ وهذا الثَّابِتُ وكلُّ نِدٍّ مُشَرَّد ، وهذا الكامل وكل ضدّ مُبرَّد .

فليستمرّ علىٰ عادته الجميلة مُجَمِّلا لزمانه ومكانه، مُكَمِّلا فى وشائع العلم مايَشِى «ٱبن الصَّباغ» من ألْوانه، مالِكًا لما حَرَّره «الشَّافِعى»، جازما بفعل مانَصبه «الرَّافِعىّ»، سامِيًا عن وفاء الوَاصِف: فسواء فى ذكره إسْرافُ بَيانٍ أو إسْرافُ عِىّ؛ شامِلًا للطلبة المعتادين بعَطْفه، مُقابِلًا للمُستَفْتِين بلطائفه ولُطْفه، باحِثًا عن دُرَر الجدال بفكره إذا بحثَ قلمُ بعض المجادلين عن حَتْفه بظِلْفه، داعِيًا لهذا الملك الصالحىّ فإنَّ دُعاء العالِم الصالح سُورٌ من بين يديه ومن خَلْفه؛ والله تعالىٰ يُجرِيه علىٰ خير العوائد، ويمدّه باقبال النعم الزوائد، بمنّه وكَرَمه!.

* * *

توقيعٌ بتَدْريسِ المدرسة الدماغية بدِمَشْق، من إنشاءِ ٱبن نُباتة، كُتب به للقاضى جمال الدين «أبى الطَّيب، الحسن بن على» الشافعىّ، وهو:

أمَّا بعدَ حمدِ الله رافعِ مُنادَى العلم بمُفْرَده، وبَيْتِ التُّقىٰ بقافية سُؤْدده، ونظم المفاخر بمن إذا قيل: «أبو الطَّيب» أصْغى الحَفْلُ لمُنْشِده، ومشهد الفَضْل بإمامه: وحَسْبُك من يكون «الحسن بن على» إمامَ مَشْهده؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه سيدِ الخلقِ وسَندِه، وعلىٰ آله وصَحْبه السائرين فى العِلْم والحِلْم علىٰ جَدَده، ماسَحَب نَسِيمُ الرَّوْض بُرْدَه وٱفترّ لَعَسُ السحابِ عن ثَغْرِ بَرَده ــ فإنَّ للعلم أبناءً ينْشَئُون فى ظِلاله، ويسكُنون فى حِلاله، ويفرّقون للخلق بين حرام المُشْتَبِه وحَلاله، ويُجَمِّلون وَجْهَ الزمانِ: فلا عدِم الزمانُ منهم جمال وَجْهه ولا وَجْه جَماله؛ ترتَشِفُ شِفَاهُ المدارس من كَلِمِهم كلَّ عَذْبِ المَساغ، وتُشافِهُ منهم كلَّ ذى فَضْلٍ ما هو عند البلاغ بَلاغ، وتُشاهد ماخُصُّوا به من الشَّرف والرِّآسة فلا عَجَبَ أنَّ مَحلَّهم منهما محلُّ الدماغ!.

وكانت المدرسة الشافعية الدماغية بدمَشْق المحروسة رأسًا فى مدارس العِلْم، وهامَةً فى أعْضاءِ منازل ذَوِى الحُكْم والحِلْم، لا تَسْمُو هِمَّتها إلا بكلِّ سامى العِمامَه، هَامى الفَضْل كالغَمامَه، ساجِع اللَّفظ إلَّا أنَّه أبْهىٰ وأزْهىٰ من طَوْق الحمامه، كائد للمُلْحِد مُكرِم للطالب ولا كَيْدَ لأبن الخطيب ولا كرامه ـ واسطةً بين العادلية والأشْرفيَّة تليق بمن يكونُ عِقْدُ كلامه المُثمنَ، ونِظامُه الأمْكن، وبيانُه المنشدَ "أجارةَ بَيْتَيْنَا" يعنى بيت النسب و بيت المسكن .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يجدِّدُ لوجوه العِلْم جمالا، ولوجُوب الحَمْد نَوالا، ولوجُودِ الفَضْل كرما ما قال قط ولا نَوىٰ : لا ـ أن يفوَّض إلىٰ فلان ـ أيَّد الله مَجْدَه، وحَرَس للسلمين أباه وأعْلىٰ بالسعادة جَدَّه ـ تَدْريسُ المدرسة الدِّماغية المذكورة : لأنَّه جمالُ العِلْم المعقودةُ علىٰ خِطْبَته الآمال، المَعْدُوقَةُ بمقدّمات فَضْله وفَضْله نتائجُ الأقوال الصالحة والأعمال؛ المحبوبةُ إلى الله والخلق سيماهُ وشِيَمه ولا نُكْر : فإنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجمال؛ ولأنَّه العالِمُ الذى إذا قال لم يترك مقالًا لقائل، وإذا شرح علىٰ قِياسه أتىٰ بما لم تَسْتَطِعْه الأوائل؛ وإذا جارىٰ العلماء كاد «إمامُ الحرمين» يقول : أنا المُصَلِّى وأنت السابق، «والغزالىُّ» : مَنْ لى أنْ أنْسِجَ علىٰ مِنْوال هذا اللفظ الرَّائق؟؛ «وآبن دقيق العِيد» : لَيْت لِى من هذه الدَّقائق بُلْغه؟، و «آبن الصَّبَّاغ» : هذا الذى صَبَغه اللهُ من المَهْد عالما! ومَنْ أحْسنُ من الله صِبْغَه؟؛ ولأنه العالم الذى أحْيا ذكر «آبن نُقْطة» بعد مادارَتْ عليه الدوائر، وأغْنىٰ وحده دِمَشْقَ عمن أتىٰ فى النسب «بعساكر»، ولأنَّه فى البيان ذو الآنتقاد والآنتقاء، والعربىُّ الذى إن كان لرقاب الفضلاء «آبنَ مالِكٍ» فإن قَرِينَه «أبُو البَقاء»؛ والكاملُ حَسَبًا، ومثل جَيِّده المنقود لا يُبَهْرج، والواصلُ نَسبًا، ومثل فَرْعِه يعد أصْلِه : «ولله أوْسٌ آخرون وخَزْرَج» .

فلْيباشِرْ هذا التَّدْريسَ بعزائمَ سَرِيَّه، ومَباحثَ تُستنار منها معارِفُ القَوْل التَّبْرِيَّه، وطَرائِفَ لا تُحْبَس بدِمَشْق علىٰ نقداتها المِصْريه؛ ولْيَنصُرْ مذهبَ الإمام الشافعيّ رضى الله عنه فإنَّ قومَه الأنصار، وليخْفِضْ جَناحَه للطَّلَبة فطالما خَفَضَت الملائكةُ أَجْنِحَتَها لِيَصير فلا عَجَبَ أنْصار! ؛ وليُفِدْ وا فِدِيه وهو قاعدٌ أضْعاف ما أفادَهم صاحِبُ المكان وهو واقف، وتَقْوىٰ الله عزَّ وجلَّ أوْلىٰ ما طالعه فى سِرِّه وجَهْرِه من "عوارف المعارف" والله تعالىٰ يمُدُّه بإسعاده ولُطْفه، ويحُوطُه بمعَقِّباتٍ من بين يديه ومِن خَلْفِه؛ ويُضِىءُ بارقَ كَلِمِه الصَّيِّب، ويُطْرِب أسماعَ الطَّلَبة بالطَّيِّب من معانى «أبِى الطَّيِّب» .

* * *

توقيعٌ بتَدْريس المدرسة الرُّكْنية الحَنَفِيَّة بظاهِر دِمَشْق، كُتب به للقاضى بدر الدين « محمد بن أبِى المنصور » الحَنفِىّ بـ«ـالمقَرّ العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى أطْلع بَدْر الدِّينِ مُشْرِقًا فى منازل السُّعود، وحَرَسَ سماءَ مَجْده فلا يُطِيقُ مَنْ رام جَنابَها الاستطراقَ إليها ولا الصُّعود؛ وجعل رُكْنَه الشديد فى أيَّامنا الزاهرةِ المَشيد وظِلَّه الممدود؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمَّيْنِ الأكْمَلين علىٰ سيدِنا محمدٍ ذى الحَوْضِ المَوْرُود، والكَرَم والجُود؛ وعلىٰ آله وصَحْبه نجومِ الهُدَىٰ وأعْيان الوُجود، ما أوْرق عُود، وحُمِدتْ عُقْبَى الصُّدورِ والوُرُود؛ صلاةً دائمةً إلى اليوم الموعود ـ فإنَّ أعلامَ الهُدَىٰ لم تزلْ مَنْشورةً بمعالِم العُلَماء، وأقْطارَ الأرض ما بَرِحتْ مُشْرِقَةً بمن تَسْتغفِرُ لهم الحِيتانُ فى البَحْرِ والملائكةُ فى السماء، وطُولُ الأرض إلىٰ فضائلهم أشدَّ اضطرارًا وأحوجَ إلى القرب إليهم والانْتماء؛ وكان فلانٌ ـ أدام الله تعالىٰ تأْييدَه ـ من بَيْتٍ شهِدت الأيامُ مَفاخِرَه، وحَمِدَ الأنامُ أوائِلَه وأواخِرَه،

وأضحت عيونُ الزمان إلى مآثره ناظِره، وغُصونُ الفُنون بفرائِده ناضِرَه، وأوصافُه الجليلةُ للأبصار والبَصائِر باهِرَه، وأصنافُ الفَضائِل من إملائِه واردةٌ صادِرَه .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ــ زاده الله تعالى على العلماء إقبالا، وضاعف إحسانَه إليهم ووَالى ــ أنْ يستمرَّ المشارُ إليه فيما هو مستمِرٌّ فيه : من تَدْريس المدرسة الرُّكْنية الحَنفيَّة، بظاهر دِمَشْق المحروسةِ، حملاً على ما بيده من الوِلاية الشَّرعية والتوقيعِ الشريف: رِعايةً لجانِبِه وتَوْقيرا، وإجابة لقَصْده الجميل وتَوْفيرا، وآستمراراً بالأحَقِّ وتَقْرِيرا .

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً أُلِفتْ منه، وآشتهر وَصْفُها الزَّكِىُّ عنه؛ ولْيوضِّحْ للطَّلَبة سُبُلَ الهدايه، ولْيوصِّلْهم من مقاصِدِهم الجميلَة إلى الغايه؛ ولْيَسْلُكْ طريقةَ والِده، فإنَّها الطريقةُ المُثْلىٰ، وليتحلَّ من جواهر فَرائِده، فإنَّها أعلىٰ قِيمَةً وأغْلىٰ، ولْيُمْلِ على الأسماعِ فضائلَه التى لا تُمَلُّ حين تُمْلىٰ .

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْرِيس المدرسة الخاتونية البَرَّانية الحَنَفيَّة بدمَشْق، كُتب بها للشيخ صدر الدين «علىّ بن الآدمىّ» الحَنَفىّ بـ«ـالجناب الكريم» . وكأنَّه فى الأصل لمن لَقبُه . «بدر الدين» لأنَّ البـدْرَ هو المناسب لهذا الآفتتاح؛ فنقله بعضُ جَهَلَة الكُتَّاب إلىٰ «صدر الدين» كما تراه . وهذه نسخته :

أمَّا بعـدَ حمد الله الذى زان أهْلَ العِلْمِ الشريف بصَدْرٍ أخفىٰ نُورُه الشُّمُوس، وأعْلاه ــ لِمَا حازه من الشَّرف الأعْلىٰ ــ على الرُّءُوس، وجعل كلَّ قَلْبٍ يأْوِى إلىٰ تِبْيان بَيانِه يوم الدُّروس؛ والصلاةِ والسلامِ الأتمَّيْنِ الأكْملين علىٰ سيدنا محمد الذى أذهب اللهُ ببركته عن هٰذه الأمَّة كلَّ مَكْروبُوس، وخصَّهم فى الدُّنيـا بِطيب

الحياة وفى الآخِرَة بسُرُور النُّفوس، وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً مُثْمِرةَ الغُروس ـ فإنَّ أَوْلىٰ من تَنْصرِفُ إليه الهِمَم، من تَبْدُو دلائِلُ علْمه كنُورٍ لا نارٍ علىٰ عَلَم؛ وتَسِيرُ فضائِلُه فى الآفاقِ سَيْرَ الشُّموسِ والأَقْمار، وتَبرُزُ إذا يُبدِيها صَدْرُه من حُجُبٍ وأَسْتار .

وكان فلانٌ ـ ضاعف الله تعالىٰ نِعْمته، وحرس من الغِيَرِ مُهْجَتَه ـ هو الذى أُشِيرَ إلىٰ ما حواه صَدْرُه الكريم من الفضائل، وٱشتهر فى دُرُوسه بإقامة الحُجَج وإيضاحِ الدَّلائل؛ وبَرَع فى العـلوم الدِّينيه، وفاق أبناءَ عَصْره فى الصِّناعة الأدَبيَّه؛ وأنْفق كَنْزَه على الطُّلَّابِ، فأصْبح "عمدةَ المحدّثين" وأمسىٰ "مُختار الأصْحاب"، «أبو يَعْلَىٰ» ينزلُ ببابه، و «ٱبنُ عقيل» يرتَدُّ علىٰ أعْقابِه؛ و «ٱبنُ الحاجب» يرفَعُه علىٰ عَيْنه، و «الرَّازِىُّ» يدّخر كَسْـبَه لوفاء دَيْنِـه؛ و «ٱبن بَطَّةَ» يَطِـيرُ من مواقع سِهامِه، و «مُقاتِلٌ» مجروحٌ بحَـدِّ كلامه؛ و «ٱبن قُدَامَةَ» متأخِّرٌ عن مجاراته، و «الأَثْرمُ» يَخْرَس عند سَماع عباراته .

فلذلك رُسم بالأمر العـالى ـ لازال يجمعُ لمن بَرَعَ فى العـلوم من ألْوانِ المناصب المُخْتلفه، ويرفع قَدْر القَوْمِ الذين قُلوبُهم على التَّقْوىٰ مُؤْتَلِفه ـ أنْ يستمرَّ الجنابُ الكريم المشارُ إليه بالمدرسة الخاتونية البرّانية الحَنَفيَّه، حملًا علىٰ مابيده من النُّزول الشَّرعىّ والولاية الشرعيه : لأنَّه الخُلاصةُ التى صَفَتْ من الأقذار، والعُدَّة ليوم الجِدال إذا وَلَّىٰ غيرُه الأَدْبار؛ والمختارُ الذى جَنَحتِ المنـاصبُ السَّـنِيَّة إلى ٱختياره دون من سِواه، رَغْبةً فيما ٱدّخره من الفضائل وحَوَاه؛ "بِدَايَتُه" "نهاية الطلاب"، وعلومه "تُحفةُ الأصحاب"؛ إنْ حدَّثَ «فٱبْن معِينٍ» بصحَّةِ نَقْله يَحْيا، أو فَسَّر «فمُجاهِدٌ» عن مجاراته يَعْيا؛ و «الزَّمَخْشرِىُّ» يبْعُدُ عن الجِوَارِ، و «البَغَوِىُّ» يبْتَغى الوقوف على الآثار؛ و «سيبويه» عند ما يَنْحُو يقصد "التسهيل" من لفظه المُغْرِب المعرِب، و «ٱبن عُصْفورٍ» يكاد يَطِـيرُ طَرَبًا لمـا يُبْـديه من "المُرْقِص المُطْرِب"؛

و « أبو يوسف » أصبح بصُحْبته مَنْصورا ، و « محمد بن الحَسَن » أضحى برفعته مَسْرُورا ؛ هو فى القَدْر « علىّ » وفى الطريقة « محمود » وفى العلوم « محمد » ، وفى النطق والحركة « سعيد » وفى النظر « أسعد » ؛ وفى النَّضارة « النعمان » و « طاوس » يتَحلَّى جزءا من كمال خِصالِه ، و « الحَسَنُ » يقْتَدِى بحسن فعاله ؛ نَشَأ فى العِفَّة والصِّيانَه ، وكَفَلَه التوفيقُ وزانَتْه الأمانَه ؛ فهو بَحْر العلوم ، ومُسْتخْلِصُ دُرِّها المَكْنونِ ومُظْهِرُ سِرِّها المَكْتوم ؛ لو رآه « الإمام » لقاس عُلَاه بالشَّمس المُنيره ، ولو عاصر الأصحابَ لغَدَتْ أعينهم به قَرِيرَه .

فلْيباشِرْ هاتَيْنِ الوَظيفَتَيْنِ اللَّتين ٱكْتَسَتَا به بعد نُورِ الشَّمسِ جَلالا ، ولْيُلقِ عُلومَه التى يقولُ القائلُ عند سَماعها : هكذا هكذا وإلَّا فلا لا ؛ ولْيُعَلِّمِ الطَّلَبَة إذا أدْهشتهم كثرةُ عُلومه أنَّ فوق كلِّ ذِى علْمٍ عليم ، وليتكَرَّم عليهم بكَثْرةِ الإفادة فإنَّ عَلِيًّا هو الكريم ؛ ولْيَفُقْ فى مباشرة النَّظر كلَّ مَثيلٍ ونظير ، ولا يُنَبِّئُك مِثلُ خَبِير ؛ ولْيَجتَهِدْ على عِمارَةِ معاهدها بذكر الله تعالى ، وأداءِ الوظائف بحُسْنِ مُلاحظَتِه : ليزداد عند الخليقَة جَلالا ؛ وفيه ـ بحمد الله ـ ما يُغْنِى عن تأْكِيد الوصايا ، ويُعِينُ على السَّداد وفَصْلِ القضايا ، وكيف لا ؟ وهو الخَبيرُ بما يأْتِى ويَذَر ، والصَّدْرُ الذى لا يَعْدُو الصَّوابَ فى وِرْدٍ ولا صَدَر ، واللهُ تعالى يَسُرُّ القلوبَ بعُلُوِّ مَراتِبِه ، ويُقِرُّ العُيونَ ببُلُوغ مَقاصِدِه ومآربه ؛ بمنِّه وكرمه ! .

***

توقيعٌ بخَطابة جامع جراح ، من إنشاءِ ٱبن نُباتة ، كُتب به لـ « شرف الدين بن عمرون » بـ « المجلس العالى » وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى قَسَم للمنابر شَرَفًا يتَجدَّد ، وعِطْفًا من الفُصَحاءِ يتأكَّد ، وعَلَمًا مَرفوعًا لا يتعدَّى وعَلَمًا مَنصوبًا لا يَتعدَّد ؛ والصلاةِ والسلامِ على سيد الثَّقلَين

وصاحب القِبْلتين محمد ، وعلى آله وصَحْبه القانِتين القائمين الرُّكَّع السُّجَّد، ما عَظُم خَطِيبٌ ومجَّد ، وبَدا فى حِلْيةِ سيادةٍ وأُهْبةِ خَطابةٍ وهو على الحالين مُسَوَّد ـ فإنَّ لصَهَوات المنابر فُرْسانا ، ولصُدُور المحاريب أعْيانا ، ولعُيُونِ المشاهد أنَاسِىَّ يُراعِى منها الاستحقاقُ لكلِّ عَيْنٍ إنْسانا .

ولمّا كان جامعُ جراح المعمورُ بذِكْرِ الله تعالى ممّا أُسِّسَ على التَّقْوىٰ ، ووُسِم بأهلِ الزُّهْد سِمَةً إذا ضَعُفَتْ السِّماتُ تَقْوىٰ ؛ مجمْع الصُّلَحاءِ من كلِّ ناحِيَه، ومُنْتَجع الفُقَراء : فنِعْمَ الجامعُ لهم ونِعْمتِ الزَّاوِيه ! ؛ ومَفْزَع العُظَماءِ عند آستدفاع حَرْبٍ وكَرْب، ومَطْلَعٌ لنُور الهُداة الذى أغْرب فأطلع نُجومَهم من الغَرْب ـ تعيَّن أن نختارَ له الخطباءَ والأئمَّه، وتَنْتخِبَ لمنْصبِه من أفاضل الأُمَّه، وتتناسَبَ حُضَّار مِنْبَرِه بصاحب علومهم وأعْلامهم وإمامهم، المسرورين به يوم يَأْتِى كلُّ أُناسٍ بإمَامِهم .

فرُسم بالأمر ـ لا زالت أعوادُ المنابِرِ بذِكْرِه أرِجَه ، وأعلامُها كالألْسنة بحَمْده لَهِجَه ـ أن يفوّض لفلان ... ... عِلْمًا بآستحقاق شَرَفه لهذه الرُّتبه ، وصُعود هذه الذِّرْوة والهَضْبَه، ولأنَّه الأوْلىٰ بدرجات الرُّتب النَّفائس، والأجْدَرُ بجَنىٰ فروعها المَوائِس ؛ والإمامُ على الحالَيْن إذا قامت صُفوف المساجِد وإذا قعدت صُفُوف المَدارِس، والعَرِبىُّ الذى إذا رَقَىٰ ذِرْوة مِنْبرٍ أُطْلِقتْ عليه لفظةُ فارِس؛ والوَرِعُ الذى آثَر فى مناصبه الباقِيَةَ على الفانيَه ، ومَنابِرَ الحِكَم المُضِيئَة علىٰ مراتب الحُكْم الماضيه ؛ وعلىٰ مجالِس الدَّعاوَىٰ مجالِسَ الدَّعوات ، وعلىٰ مَقامِ الصِّلاتِ مقام الصلوات ؛ وعلى القَضاءِ الفَرْض، وعلَى الرَّحَبةِ (١) ولو كَمَفْحِص القَطاة من الأرْض؛ وعلىٰ عَرَض الدُّنيا القليلِ جَوْهَرَ الفَضْلِ الكثير، وعلىٰ "كِتَابِ أدب القاضى" "كِتَابَ الجامع الصغير" .

(١) لعله وعلى الرحبة المحل الأرقى ولو الخ

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركة : خطيبا تَدْرَأُ مواعظُه الخُطُوب ، وَاعِظًا من قَلْبٍ تَقِيٍّ تَصِلُ هدايا تُقَاه إلى القلوب ؛ فَصِيحًا تكاد المنابِرُ تهتزُّ طَرَباً ببيانه ، نَجِيحًا تكاد أَجْنِحَةُ أعلامها تَطِيرُ فَرَحًا بمكانه ؛ شاملًا بنفحات فضله النَّواسِم ، كامِلًا ! لو تقدّم زَمانُه لم يُقَلْ : « فلا الكَرَجُ الدُّنْيا ولا النَّـاسُ قَاسِم » ؛ والله تعـالىٰ يسدِّدُ أقوالَه وأفعالَه ، ويرفَعُ على المنابر والرُّتَب والمراتب مقامَه ومقَالَه ، ويُمَتِّعه بهـذه الرُّتبة التى أشبهتْ معنًى فى الخلافة : «فلم يكن يصلُحُ إلَّا لهـا ولم تكن تصلح إلا له» .

المرتبـــــــة الثـالثة

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بحاضرة دِمَشْقَ ـ ما يفتتح بـ«ـرسم بالأمر» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بالتَّدْريس بالجامع الأُمَوِيّ والإفتاء به ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ٱبن نُباتة ، كتب بها للشيخ «فخْر الدين المصريّ» ٱستمراراً ، بـ«ـالمجلس العالى» وهى :

رُسِم بالأمر الشَّريف ـ لا زال لدَوْلَتِه الفَخْر على الإطلاق ، والمَنُّ على الأعناق ، والكَرَم لطالِبِي الإرْفاد والإرْفاق ، والتَّكْريمُ والتَّقْديمُ لذَوِى التَّأهيل والٱسْـتِحْقاق ؛ ولا بَرِحتِ النِّعمُ الثابتةُ للسَّاجِعِينَ بمَدْحه المُطْرب قائِمـةً مقام الأطْواق ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ ... ... نفع اللهُ ببقائه ، ورَفَع عُيونَ الأنْجُم لدرجات ٱرْتِقائه ؛ : لفوائده التى شَمِلَتِ الوَرَىٰ ، وعَلَت الذُّرا ، وحَمِدَت الأفهامُ عند صَبَاحها السُّرىٰ ، وقَعد بها مُسْبِلُ ذَيْل الحَيـاءِ وسار بذِكْرِه من لا يَسِيرُ مُشَمِّرا ؛ ومَنْزِلَتِـه التى نَصَبت للهُدىٰ عَلَما ، وألفاظه التى أعْربت عن بَدائِـعَ بَهرتْ فما فَتح بمثْلِها العلماءُ فَمـا ، وٱسْتِنباطه

الذى يقول للأول : قال وقلتم ، وأقام وزُلتم ؛ وآحتياطه الذى يقول للسائلين : آهبطوا من آنتساب حَلْقته مِصْرًا فإنَّ لكم ما سَألتُم ؛ وأنَّه الفاضِلُ الذى ما آستنار بعلمه فَتًى فَتاه ، والنَّافِعُ الذى ما آستَطَبَّ بكلماته سَقِيمُ ذِهْنٍ فلمَّا تحرَّكتْ شَفَتاه شَفَتاه ؛ كَمْ جلس للأشغال فتىٰ أنْفُسَ المـارَّةِ عن أشْغالها ! ، ونصر العِلْمَ فى حَلْقته المجنَّدَة فكان من أمرائها المنصور ولم يكن للأنداد من رجالها ! ؛ كَمْ سُلِّمَ لبيان بَحْثه الحَقِيقِّ والمجازِى ! ، وكَمْ سُطِّرتْ لمُناظَرته المحمدية مع أهْلِ الزَّيْغِ سِيَرٌ ومَغازِى ! ، وكَمْ خَلَصَ دِينارُ فَهْمِه المِصْرِىّ على النَّقْدِ فهَيْهاتَ أنْ يُروزَ مِثْله «الرَّازِى» ! ؛ كَمْ فخرت مِصْرُ بانتسابه ! ، ودِمَشْقُ بسُقْيا سَحَابه ! ، وكَمْ قال الرازى : لَيْتَ لِى هـذا الفَخْرَ فأرْوِى فى الأوَّلِ بفتىٰ خطيبه وفى الآخربفتيِّ خِطابِه .

فليستمِرَّ ــ نفع اللهُ به ــ علىٰ وظيفته المأثُورَه ، وحَلْقَته التى نُصبتْ علىٰ مَصايِدِ كَلمـاته المَشْهُورَه ، ومائِدَةِ عِلْمِـه المَنْصوبَة وذُيُولُ منـافعها فى الآفاق مجْروره ؛ ولْيُواظِبْ على جُلُوسه بالجامع المُنْشَرِح المشروح ، ودَرْسه المُتَضَمِّنِ فَتْحَ أبوابِ العُلوم وغَيْرِه كما يقال : على المفتوح ؛ سالِكًا من نَهْجِ الإفادةِ مَسالِكَه ، مُكاثِرًا بأجْنِحَةِ فَتاوِيه الطَّيارَةِ ما يُبْسَطُ لديه من أجْنِحَةِ الملائِكه ؛ متَصَرِّفًا علىٰ عادة عبادته فى مَواطِنِ العِلْمِ والعَمَلِ ، مُسْتَنِدًا فى جِلْسَتِه إلىٰ سارِيَة يقولُ لهـا وَقارُه وحِلْمُـه : يا سارِيةُ الجبَلَ الجَبَـلَ ، داعِيًا لهذه الدَّولة الشَّريفة : فإنَّ دعاء العالِمِ مِثْـلِه طائِرٌ لآفاق القَبُول من أوْكار القِبَلِ ؛ والله تعالىٰ يُمِدّه بعَوْنِه ولُطْفه ، ويحوطُ مجالِسَ عِلْمِه بالملائكة المقرَّبين من بين يديه ومن خَلْفه ؛ بمنِّه وكَرَمه ! .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ تَوْقيع بتَدْرِيس مَدرسة القَصَّاعين ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به لفخر الدين «أحمد بن الفصيح» الحَنَفِىّ المُقْرِى بـ«ـالمجلس السامى» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يقدِّمُ من العلماء أنْخَرَهم ذِكْرا، وأحْمَدهم أمْرا، وأفْصَحَهُم نَسَبَ فَضائِلَ وفَضائِلَ نَسبٍ يقولُ الآستحقاق : كِلاهُما وتَمْرا ـ أنْ يرتَّب فلانٌ ... ... : لما شُهِر من علومه السَّنيَّه، وفوائده السَّرِيَّه ؛ ووجوه فضائِله الحَسَنه ، وعيونِ كلماتِه المتيقِّظةِ إذا كانت بعضُ العُيونِ مستوسِنَه ؛ ولأنَّه غريبٌ فى الوَصْف والمكان، وصاحِبُ عِلْمٍ لا يكاد يُوجَد له شَقِيقٌ وإن كان منسوباً إلى « النُّعمان » ؛ وإمامُ قِراءاتٍ ثَبَتتْ له فيها علىٰ «أبِى علىّ» الحُجَّه ، وتوضَّحتْ ببيانه المَحجَّه ؛ وتعيَّن محلُّه الأثير ، ورَوَى الطالبُ من عِلْمِه عن « نافع » ومن ذِهْنِه فى الفوائد عن « آبن كَثِير » ؛ وأنَّه فَخْرُ الحنفيَّة القائمُ فى السُّمْعة مقام « رَازِيها » ، المُطِلُّ بِمنْسَرِ قَلَمِه على المعانى إطْلالَ بَازِيها ؛ « الأكْمَلُ » الذى له من علوم صَدْرِه خِزانه ، « الصَّدْرُ » الذى كلُّ صَدْرٍ يشهدُ له بعلُوِّ المَكانَه .

فلْيباشِرْ تَدْريس هذه المدرسة المباركة : حقيقًا بجلوس صَدْرِها ، خَلِيقًا بتَجْدِيد شرفها وذِكْرها ؛ مُظْهِرًا لخَبايا النُّكَت فى زَواياها ، جَديرًا بأنْ يكونَ فى خفايا المسائل آبنَ جَلَاها وطَلَّاعَ ثَنايَاها ؛ يَمْلأُ ببيان بُحُوثِه فِكَرَ الواعِى وسَمْعَه ، ويُشِيرُ ببنَانِ قَلَمِ فُتْياه ما يتجدَّدُ له من رِفْعَه ، ويبْسُط إدْلالَ الطَّلَبة حتَّىٰ يأْكُلُوا فى القَصَّاعية معه فى القَصْعه ؛ واللهُ تعالىٰ يَسُرُّه من مدارس الحنفيَّة بهذه البدايه ، ويُقِرُّه بما يتجدّد من وظائفها التالية : ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَة﴾ بمنه وكرمه ! .

✦ ✦ ✦

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْريس المدرسة الطَّرْخانية، من إنشاء آبن نُباتة، كُتب به للقاضى جمال الدين «يوسف الحَنَفىّ» بنزولٍ من والده ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ مَواطِنُ العِـلْمِ مُكَمَّلةً بذِكْره ، مُبجَّلةً بأمْرِه ، مُؤَهَّلةً (١) لكلِّ يوسُفيِّ الجمال يذَكِّر عَزِيزُ شامه عَزِيزَ مِصْره ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى كذا ، بحكم ما قرّره مجلسُ الحكم العزيز الشافعىّ ، ونعم المَـالكُ لمذهب شَافِع ، وٱتّباعاً لِمَـا حرّره الجناب الشريف التَّقوِىّ ذُو النَّسَب الصَّحابىّ الذى كلُّ أمرٍ لأمْرِه تَابِـع ، وعَملًا بمـا رآه رَأْيُه الكريمُ الذى إذا كان الجمالُ شافِعًا كانَ هو للجمال شَافِـع ؛ وإذا أنْشأ من أبْنـاء العلماء فُروعًا [لا] تميل عليهم الأيام ميله ، وإذا وقفت فى طريقهم الأنداد قال ٱقتصار نسـبه الأنصـارىّ : يأْبَى الله ذاك وبنو قيلة (٢) ؛ وقبولا لنزول هذا الوالِدِ الذى أعْرقَتْ فى آفاقِ العِلْمِ مَطالِعُه ، وإقبالًا على هذا الوَلَد الذى نَجحَتْ فى ٱسْتِحقاق التَّقديم مَطامِعُه ؛ وعِلْمًا بنجابة هـذا الفاضل الذى طاب أصْلًا وفَرْعا ، وقَدَّم نَفْسَــه ووالِدَه وَتْرًا وشَـفْعا ؛ وهـذا البَادِى الشَّبِيبَةِ الذى يَأْمُر بفضائله على الشِّيبِ ويَنْهىٰ ، وهـذا الوَاضِحُ الدِّلالَةِ علىٰ مَفاخِرِ قَوْمِه : فَحَبَّـذَا الدَّعْوىٰ وبيِّنَتُها منها ؛ وهذا النَّجِيبُ الذى قَدَّمه أبُوه مُنْجبا ، وذَكاؤُه معجبا ؛ وقَلَمُـه فى الأوْراق مُعْشِبا ، وٱشْتِغالُه : إذْ قال يُوسُفُ لأبِيـه يا أبَتِ إنى رَأيتُ من محفوظات كُتُبِى ما يقارب أحَدَ عَشَر كَوْكَبا ؛ وإذا دَرَّس كان لِطَلَبَتِـه مَلاذا ، وإذا عانَدَه مُعانِدٌ قال برفيع هِمَّتِه : يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هٰذَا ؛ وإذا قَرأ كُتُبَ فَصاحَتِه أذْهل ذَوِى الألْباب ، وإذا فتح لتفسير كِتَاب الله فَاتِحةً ، عُوِّذَ بفضل : ﴿الٓمٓ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ وإذا رَوى الأحاديثَ أطربتْ حَقِيقَتُه السماع ، وإذا أخذ فى دَقائِق النَّقْـلِ والعَقْل عُلِم وعُقِل أنَّ الفِكْرة صَنَاع .

---

(١) فى القاموس «أهله لذلك رآه له أهلا» .

(٢) هى قيلة بنت كاهل أم الأوس والخزرج .

فلْيباشِرْ هذه المدرسةَ المباركَةَ ببيان عَرَبىٍّ وإن كان نَسَبُها طَرْخانيًّا، وعِلْم رَوْضِىٍّ لا يَعْرِفُ العلماءُ شقيقَه وإن كان مَذْهبُه نُعمانيًّا ؛ ومَباحِثَ تُذْكِى نارَ قريحَته : فكَمْ طَبَخَ لأنْداده من أصْحاب «القُدُورِىّ» قِدْرا ، ولُزومِ دَرْسٍ يسُرُّ أباه بمذهبه : فإنَّه القاضِى «أبو يُوسف» خَبَرًا فى الحقيقة وخُبْرا ؛ واللهُ تعالىٰ يصُونُ شبيبتَه المقبلَةَ من طَوارِقِ الحَدَثان، وينفَعُ بعلوم بيْتِه التى من شَكَّ منها فى الحَقِّ فكأنه من الحُدْثان.

* * *

وهـذه نسخةُ توقيع بتَصْدِيرٍ بالجامع الأَمَوِىِّ، من إنشاء ٱبن نُبـاتة ، كُتب به لـ«شمس الدين بن الخطيب» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ نِعَمُه ظاهِرةَ الفَضْـل كالشَّمْس ، طَـاهِرة الوُضُوح من دَنَسِ اللَّبْس، وَافرةَ النُّمُوِّ فيَوْمُها قاصِرٌ عن الغَدِ زائدٌ على الأمْس ـ أنْ يرتِّب فلانٌ فى كذا ويرتِّبَ له كذا على المصالح، فكم للسلمين فى جامع عِلْمِه مَصالِح، وفى مَنافِـعِ قَصْده مَناجِح ؛ وفى فَوائده نَصيب، وفى طُرُق هُـداه معالِم : ولا تُنْكر "المَعالِم" لابن الخَطِيب ؛ ليتناوَلَ هـذا الرَّاتِبَ المُسـتَقرَّ من أحَلِّ الجهات وأجَلِّها، وتكونَ شَمْسُـه المباركةُ خيرَ شَمْسٍ تَجْرِى لمُسْتَقَرٍّ لَهَا ؛ عِوَضًا عما نزل عنه من تَدْرِيس الحَلْقَـة المعدوقَة بصاحب حِمْص وتصـديرًا بالجـامع الأَمَوِىّ يبســط به أنواره الشَّمْسِيَّه ، وينقلُ ٱسمـه إلىٰ إمْرةِ العِلْم بدِمَشْق عوَضًا عن الحلْقَـةِ الحِمْصيَّه ؛ فلْيعتمد ما رُسم به ، ولا يَتحوّلْ عما قَضَى العدلُ والإحسانُ بمُوجَبِه .

الضـــرب الثـانى

(من تواقيع أربابِ الوظائف الدِّينية بالشام ـ
ما يُكتَب به لمن هو بأعمـال دِمَشْق ، وهو علىٰ مرتبتين)

المرتبـــــة الأُولىٰ

(ما يُفْتتح بـ « أما بعدَ حمد الله » وفيها وظائف)

توقيعٌ بتَدْرِيس المدرسة النُّورِيَّة بِدَمَشْقَ(١) ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة ، كُتب به للقاضى زين الدين «عمر البلفيانى» بـ«المجلس العالى» وهو :

أمَّا بعـدَ حمدِ الله الذى جعل لُوجوه العِلْم زَيْنًا وأىّ زَيْن ، وأقرّ لأما كِنِها عَيْنًا بَمن يكونُ التَّنْبِيهُ علىٰ فَضْل مكانته فَرْضَ عَيْن ، ونَشَر أحادِيثَها بَمن إذا حدَّث عن يَدِ تَمكُّنِه فى العَقْل والنَّقْل قيلِ : صدق «ذُو اليدين» ، وأحْيا مذاهِبَها بَمن إذا عُقِدتْ الخَنـاصِرُ علىٰ أمْثاله العُلمـاءِ كان أوّل العِقْدِ وثَانِىَ الغَيْث وثالثَ « العُمَرَيْن » ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ عبـدِه ورسولِه الذى أوْضح تَبْيِينَ الهُـدىٰ وسَنَّه ، وأرهف شَبَا الحَقِّ وسَـنَّه ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم « عَلِىٌّ » مفتاحُ مَدِينةِ العِلْم و « عُمَرُ » سراجُ أهـلِ الجَنَّه ، ما جَرتْ أقلامُ العِلْمِ والجُودِ فى هذه الأَيَّام الصَّالِحيَّة طَلْقَة العِنانِ مُطْلَقة الأعِنَّه ـ فإنَّ أوْلَى العلماءِ بمدارس عِلْمٍ لا خَلَتْ ، ومَجالِسِ فَهْمٍ عَزَّتْ بأهْلِها فلا تعزَّلَتْ ، ومَشاهِدِ عَقْلٍ ونَقْلٍ لاعُقِلتْ ألسِنَتُها بعد مُسْتَحِقِّيها ولا آنْتَقلتْ ـ من أضاءتْ مِشْكاتُها النُّورِيَّة بمصابيح كَلِمِه ، وفَتَّحت كَمائِمُـها النَّوْرِيَّة عن زَهراتِ الهُدَىٰ بقَطراتِ قَلَمِه ، وتذكرت بأوْقاتِه الأخيرة عُهُودَ أهْلِها من هُدَاة الاسلام وأوْقات ذِى سَلَمِه .

---

(١) صوابه بحمص ، كما يؤخذ من التوقيع .

ولمّا كان فلانٌ هو المقصودَ بخلاصة هذا المعنىٰ، والممدودَ إليه نَظَرُ هذا الوَصْف الأسْنىٰ؛ والعَالِمَ الذى تشبثت بأسباب محاسِنه بلَدُ «الهرمَيْن»، والسابقَ وإن خَلا وقْتُه الطاهِرُ خلف وقت «إمام الحرَمَيْن»؛ كَم ٱجْتَنَىٰ ثمرَ الفوائِدِ من أصْلٍ وفرْع!، وكَمْ بات قَلَمُه من وَرَقِ فَتاوِيه وإسكاتِ مُناوِيه بين وَصْلٍ وقَطْع!؛ كَم صدَق برْقُ بَدِيهَتِه الأفْكارَ حين شَامَتْ!، وكَم نَبَّهتْ عند ليالى المُشْكِلات «عمر»(١) ثم نامَتْ!؛ وكم تهادت نَظَرَه كُتبُ العِلْم حتَّىٰ قال "كتاب الأمّ": نِعْم الولَدُ النَّجيب، وقال "كتاب الروضة": نِعْم أخُو الغائث الصَّائب علىٰ رِياض القَوْل المُصيب؛ وقال "الشامل" من فضله: هذا لطلبته "نهاية المطْلَب"، وقال "التنبيه" علىٰ محاسِنه: لَيْتَ «النَّابِغَةَ» رآه فدَرَىٰ أىُّ الرِّجال «المُهَذَّب» وكانت المدرسة الشَّهيدية النُّورِيَّة بحِمْص المحروسةِ قد شَهِدتْ مع مَن شَهِد بفَضْلِه، وسَعِدَتْ بنُبْلِه؛ ووُسِمَتْ بعَلَم عِلْمِه، وسَمَتْ سُمُوَّ الشهباء: هـذه بمقرِّ تَدْرِيسِه وهذه بمجلس حكمه؛ ثم زار دِمَشْقَ زَوْرَةً تشوَّقَتْ [إليه] بعدها تلك المشاهد، وتَشَوَّفَتْ إلىٰ العَوْدِ هَاتِيكَ المَعاهِد؛ وقضى الوفاءُ أن يُعادَ إليها أحْسنَ إعادَه، وأن يَرجِعَ إلى الأماكن الشهيدية الشاهدة بِبِرِّه فتكون منه عادةً ومنها شَهادَه، وٱقْتضَىٰ الٱستحقاق أن يَرِدَها بالمعلوم المسْتقِرّ وزيادة وأحْسنُ ما وُرِدَ البَحْرُ فى الزِّيادَه.

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ أعلاه اللهُ وشرَّفه، وحَلَّىٰ بسِيَرِه الصالِحَة سَمْعَ الدَّهرِ وشَنَّفَه ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى تَدْرِيس المدرسة النُّورِية بحِمْص المحروسة علىٰ

(١) يشير الى بيت بشار فى مدح عمر بن العلاء أحد عمال المهدىّ.

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبـه لها عُمَرًا ثم نم

وبعـده

فتى لا ينام على غـرة * ولا يشرب الماء إلا بدم

عادته ، وعلىٰ نَهْج إفاءته وإفادته ؛ بالمعلُوم المقرَّر له بمجلس الحكم العزيز الشافعىّ بدِمَشْق المحروسة : رِعايةً لتلك المعاهد النُّورِيَّة التى تتأرَّجُ بها الآصالُ والبُكَر، وأنوارِ القبول القَائِلةِ لوَفْدها الطارق : «عَلَيْك سلامُ اللهِ ياعُمَر» .

فلْيعُدْ إلىٰ هذه الوظيفة عَوْدَ الحُلِيِّ إلى العاطِل ، ولْيقْبِلْ علىٰ رُتْبته المرَتَقبة إقْبال الغَيْثِ على الْماحِل، ولْيقُلْ بلسان تقدُّمِه لمعانِديه : إنْ كان أعْجبكم عَامُكم فعُودُوا إلىٰ حِمْص فى قَابِل، ولْينصُرْ بقاعَها الحِمْصِيَّةَ بجِلادِ جِدَالِه فإنَّها من أوَّل جُنْدِ الإسلام ، ولْيَقُم الآنَ فى هذه الأوقات الشَّاميَّة فإنَّه بَرَكَةُ الوَقْت والبركَةُ فى الشَّام؛ مُثْمِرًا من أقلام علومه أزْكَى الغُرُوس، مُظْهِرًا من مَباحِثِه النَّفائِسَ مُبْهِجًا من طَلَبتِه النُّفوس، عَامِرًا لمعاهدها بدُرُوسه : ويا عَجبًا لمَعاهِدَ تُعْمَرُ بالدُّروس! ؛ ذاكِرًا للوصايا الحسنة التى لا تُقَصُّ عليه فهو أخْبر بها، والتى من أوَّلِها وأوْلاها تَقْوَى الله تعالىٰ وهى بأفْعالِه أمْسَكُ من تفاعيل العَرُوض بسَبَبِها؛ واللهُ تعالىٰ يُعَضِّدُه فى رِحْلَتِه ومُقَامه، ويمتع الرُّتَب تَارَةً بمجالس دُرُوسه وتارةً بمجالس أحْكامه ، ويُرْوِى صَدَىٰ مِصْرَ والشَّامِ من موارد عِلْمِه : هذه بأوْفىٰ من نِيلِها وهذا بأوْفَر من غَمامه .

المرتبة الثانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بأعمال دِمَشْقَ — ما يفتتح بـ«رسم بالأمر» ، وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بحِسْبَة بَعْلَبَكَّ : من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب بها لـ«شهاب الدين بن أبى النور» ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ شُهُب أوامره عاليةَ السَّنا والسَّناء، وفيَّةً لذوى الاستحقاق بمزيد الاعْتناء والاغْتِناء ، جاليَةَ البرّ بمن شهد بحُسْن حِسْبته حتَّىٰ لسانُ الميزان وفَمُ الكَيْل وشَفَةُ الإناء ـ أن يستمرَّ فلانٌ ... ... لِمَا ذكر من أوصافه التى ضاعَفتْ فيه الرَّغْبه ، وحالفَتْ به سُموّ الرُّتبه ، وشَهِدتْ بهـا حِسْبَتُه تِلْو الشُّهود : وحَسْبُك من اجتمعَتْ علىٰ فضـله شهادةُ الفَرْض وشهادة الحِسْـبَه، ولِمَا صحّ من كَفَاءته وتَجْرِيبه، ووَضَح فى هـذه الوظيفة من تَدْرِيبـه التى تَدِرى به ؛ ولِمَا تعيَّن من استمرار شِهابِه فى المنزلة التى تَكْتَسِى من أضْوائِه وتَكْتَسِب، وهـذه الرتبة التى تعلو بمعرفته : وكفاه أنَّه يرزق من حَيثُ يَحْتَسِب ومن حَيثُ لا يَحْتَسِب ! ؛ وأنَّه فيهـا ذُو الرَّأْى الزَّائد، والنَّفْع الوارد ، والشِّهابُ الذى نُورُ هُداه فى وجه المريد وأثَرُ كَيِّ حِسْبته فى وَجْه المـارد ؛ وأنَّه وَلِيَها ولايةً لا تزال تُذْكَر وتُشْكَر ، وعُرِفَ بوفائها وكان أوْفىٰ مَن أمَر بمعروف أوْ نَهىٰ عن مُنْكَر ؛ وأنَّه قام حقَّ القيامِ حتَّىٰ قال البـلد : رَعَى اللهُ زَمانك ، واجْتَهد حتَّىٰ قال الاعْتبار للميزان : لا تَذْكُر الزَّيْغَ ولا تُحَرِّكْ به لِسانَك .

فلْيستَمِرَّ فى حِسْبته المباركةِ استمرارًا يُستحلَىٰ ذِكْرُه ، ويُسْتجْلَىٰ فى الاسْم شِهابهُ وفى السِّمَة بَدْرُه ، ولْيَحتَسِبْ فى نَفْع المسلمين حِسْبَةً يَحْتسِبُ بِها عنـد المملكة ثَناءَه وعند الملائكة أجْره ؛ سالكًا علىٰ نَهْج العَزْم الجميـل ، جاعلًا أوَّل نَظَره من أقْوات الرَّعِيَّة فى الدَّقيق والجليل؛ مُسْتَبِينًا لما التبس من غِشِّ المطاعم والمشارب فلم يَسْتَبِن، حاكمًا ـ ولا سيَّمـا فى قاعات بعلبك ـ بِرَأْيٍ يُفَرِّقُ بين المـاء واللَّبَن ؛ حاثًّا علىٰ بَيْع المآكلِ بخِبْرةٍ من مَلاِ بصَرِه، حَريصًا علىٰ أن لا يُنْشِدَ لِسانُ الدَّاخِلِ فيـه « ومَن لم يَمُتْ بالسَّيف مات بغَيْره» ؛ دافعًا ضَرر المُجْتَرِى البائـع عن المُشْتَرِى المسكين، ذكيًّا فيما يُذَكِّى فيـذْبَح بسِكِّين ويذبح مُتَناوِلَه بغير سكّين ؛ قاضيًا بالحقِّ فى كلِّ ما يُشْتَرىٰ

ويباع ، متكلمًا فى أنواع الملابس وغيرها بالباع والذِّراع ؛ وَازِنًا بالعَدْل فى كلِّ مَوْزون ومَكيُول ، رَادِعًا لكلِّ عَمَّالٍ مُداهِنٍ فى كلِّ مَدْهون ومَعْمول ، حامِلًا على الحـال المستقيم كلَّ حَيٍّ لديه وكلَّ من هو علىٰ آلةٍ حَدْباءَ مَحْمول ؛ ومَن زاد فى الإِضْرارِ فلْيَمنَعْ زائده ، ومن زاد فى الآشتطاط وتجبير الشراء فلْيقطَعْ بالنَّكال زائدَه ؛ ومن دَنَّسَ فى الأشربة فلا يلبث أن يُغلِّظ التأْديبَ وأن يُريقه ، ومن سَقَى الضُّعفاءَ منها كما يقال : سـقيةً فلْيَسْقه من السَّوْط ما يكاد يَنْثُر جِسْمَه على الحقيقـه ؛ ومن عَانَىٰ صِـناعَةً ليس له فيها يَدٌ فلْيلْزِمْه بما بَسط فى إفْسادِه اليَدَيْن ، ومن حَكم فى صِناعَةِ الطِّبِّ بما لم يَسُغْ فى المسائل فلْيَصْرِفْه منهـا بخُفَّىْ حُنَيْن ؛ ومن تَمَرَّد فى مُعامَلَته فليردَّه بالقَهْرِ إلىٰ صالح مَرَدِّه ، ومن عَدَا وعَتَا فلْيُعامِلْه بمـا يخرجه من التَّرح لا من الفَرَح من جِلْدِه ؛ مقْدامًا فى الأمر بالمعروف والنَّهْيِ عن المُنْكر ولا جَزَع ، مُسْـتعينًا بالديوان فيما أَهَمَّ : فإنَّ اللهَ يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَع ؛ مجتهدًا فيما يزيد تَقَدُّم سَـعْيه المشكور ، وصُـنْعِه المبرور ، مُنيرًا لآفاقِ مَنْصِـبه وكيف لا وهو الشِّهـاب بن أَبِي النُّور ؟ ؛ وتَقْوى الله تعـالىٰ هى السبيلُ الأقوم فلْيكُنْ لها مِنْهاجا ، ولْيواظِبْ علىٰ طريقة الحقِّ : فكَمْ شَرٍّ عنها حاد وكَمْ خيرٍ منها جَا ! .

* * *

توقيعٌ بنظر السبيل بدرب الحجاز ، بالركب الشامىّ ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به للقاضى «قطب الدين السبكىّ» وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زال يُقِرُّ بالوظائف الدِّينيـة من يُحِبُّها وتُحِبُّه ، ومَن يتواردُ علىٰ ذِكْره بادِى الشُّكر ورَكْبُه ، ومن إذا بَدَتْ مطالِـعُ الخَيْر فهو نَيِّره وإذا دار فَلَكُ الثناء فهو قُطْبُه ـ أن يستقرَّ ... ... : لمـا ذُكر من وَصْفه الجميل ، وآستحقاقه الذى دلَّ عليه

البرهانُ فى مَحْفِلِه و برهَنَ فى مَوْكِبِه الدليل ؛ ودِيانَتِه التى هى لمبانِى الأوْصاف الرَّفيعة أسَاس، وكفَاءَتِه التى لهـا من نَفْسِه نَصٌّ ومن نَفْسِ قومه قِياس؛ ومَرْباه فى بَيْتٍ تقِىٍّ صَحَّت تَجارِبُ مَعْدنِه على السَّبْك، و[دلت] مَناقِبه على استحقاق الرُّتَب التى يقول بَشِيرُها : قِفَا نَبْتَسِمْ ! ويقولُ حاسِدُها : قِفَا نَبْك ؛ ولِمَا تقدَّم من تَشَوُّفه لهـذه العَزْمة الناجحه ، وتَشَوُّقه من هـذه المبرَّة الشريفة الصالحيَّـة بسُلوك تلك الفِجاج الصَّالحه ؛ ولأنَّ الضَّعْفَ عاقه عن المـاضى فأطْلقتْه الآنَ هذه القُوَّه ، وجعلتْ له بأوْفَى القادرين على الحسنات والإحسان أُسْـوَه ، ومكَّنته فى هذه الشُّقَّة الطويلة علىٰ سَحْب أذيال المعروف من منزل الكُسوة إلىٰ منازل ذات الكُسْوه .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ المبرورةَ بعَزْمٍ يُبِيرمن الوَجْد مَاكِنَه(١)، وحَزْمٍ يُثِيرمن المَدْح المشكوركَامِنَه ، وسُمْعة علىٰ ألْسنة التذكار يَمْضى وتَبْقىٰ حتَّى تكاد تكون للكواكب السبعة ثَامِنَـه ؛ مُتَصرِّفًا فى الإرفاد والإرفاق ، بآراء يؤيد الله [بها] الذين هم رِفاقٌ وأىُّ رِفاق؛ مُنْفِقًا فى سبيل الله علىٰ يده أعْدلَ إنْفاق ، حاميا عَدْله من لَفْظة نِفَاق؛ مُخْصِبا بإنعام الدَّولة الشريفـة فى القَفْر المـاحل ، حامِلًا للمنقطع علىٰ أنهض وأبرك الرواحل؛ مُواصِلًا لنَقْل الأزْواد إقامَته ومَسِيرَه، وبالماء والشَّراب الطَّيبين الطَّهُورين ضَعِيفَه وفَقِيرَه، وبأنواع الأدْوية والعقاقير التى تعُمُّ متتابع الرَّكْب [و] عقيره، وتَجبُر على الحالين كَسِيرَه ، وبوَفاءِ جميع المستحقِّين تَالِيًـا عن لسان الدولة الشريفة : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِـيرَه ﴾ داعيا بخُلُود مُلْكها فى تلك المشاهـد التى هى بقَبُول مَصَاعِدِ الدَّعوات ونُزُول مواعد البركات جَدِيرَه؛ واللهُ تعـالىٰ يتَقَبَّلُ دعاءه وسعيه، ويُحْسن كِلاءَتَه ورَعْيَه، بمنه وكرمه ! .

---

(١) يريد مكينه ولكنه اضطره السجع الى موافقة العامة .

الصـــــنف الثـالث

(من التواقيع التى تُكتب لأرباب الوظائف بِدمَشْقَ ـ مايكتب لأرباب الوظائف الدِّيوانية، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يكتب لمن بحاضرة دِمشْق منهم ، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبـــــة الأولىٰ

(ما يفتتح بـ«الحمــــد لله» وفيهـا وظائف)

وهذه نسخ تواقيع منْ ذلك :

نسخةُ توقيعٍ بكتابة الدَّسْت بدِمَشْق ، كُتب به لتـاج الدين « عبـد الوهاب » ابن المنجا التنوخىّ، عِوضًا عن شمس الدين «محمد بن حميد» بالوفاة، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل تاجَ الأولياء أيْما حلّ حلَّى المراتِبَ وزانَها، وغَدا على التَّحقيق كُفْأهَا ووِزَانَها ، وألْبسها من براعَتِــه ويَراعَتِه عقودًا تزُرُّ دُرَرها وجُمانَها ، ومَنح دَسْــتَها العلىَّ من ألْفاظها المَجيدَةِ بيانَها ، وزادها بأصالَته فخَــارًا يستصحِبُ وقْتَها وزَمانَها، وٱرتقىٰ ذِرْوتَها التى طالَمَـا زاد بالمعالى أرْكانَها، فتبوَّأ بمزيد المَجْدِ مكانَها .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى أجزلَتْ إحسانَها، وأجْماتِ ٱمْتِنانَها؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تشهدُ القلوبُ إيمـانَها ، ويَدَّخِرُ القائلُ إلىٰ يوم المَخـاف أمانَها ، ويَتَبَوَّأُ بهـا فى الدّار الآخرة من يُخلص فيها جَنَانُه جِنانَها؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ تعالىٰ به الشريعةَ المطهرةَ وأبانَها ، وشرَّف هذه الأُمّةَ ورفع علىٰ جميع الأمم شانَها ، وبعثه رحمةً إلىٰ كافَّة الخلقِ فأقام بمعجزاته دليلَ

الهِـدايَةِ وبُرهانَها ، وأطْفأ بنُورِ إرشادِه شَرَرَ الضَّلالة ونيرانَها ؛ وأخْمد بدينـه القَويم وصراطِه المُستقيم مُعْتَقَـداتِ [طوائف] الشِّركِ وأديانَها ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَن نَزَّه نفسه النَّفيسةَ وصانَها ، وسلَكَ فى خِدْمتـه وصُحْبته الطريقةَ المُثْـلىٰ فأحسن إسْرارَ أُمورِه وإعلانَهـا ، صلاةً دائمةً باقيةً تحمـد بالأُجُور آقْترانَها ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فانَّ أولىٰ من جَدَّدنا رِفْعةَ تَاجِه ، وسدَّدْنا قولَه فى مجلس عَدْلٍ ينشر فيه بكلمة الحقِّ ما آنْطوىٰ من أدْراجِه ، وحدَّدْنا له محلَّ سفارة يلْحَظُ فيه حوائج السائل فيُغْنيه عن إلْحاحِه ولَجاجِه ـ مَنْ هو فى السُّؤدد عَرِيق ، ولسانُه فى الفضائل طَلِيق ، وقلمه حلَّى الطروسَ بمـا يفُوقُ زَهْرَ الرِّياضِ وهو لهـا شقيق ؛ وكان فلانٌ هو الذى عَلا تاجُه مَفْرِقَ الرآسه ، وجَلَا وصفه صُوَرَ المحاسِنِ والنَّفاسَه .

فرُسم بالأمرِ العالى ـ لا زال يُولِى جميلا ، ويُوَلِّى المناصِبَ الجليلةَ جليـلا ـ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفة تَوْقيعِ الدَّست الشريف بالشام المحروس ، عِوضًا عن فلانٍ بحكم وَفاتِه إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، بالمعلوم الشاهِد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخر وَقْت .

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً تُشْكر مَدَى الزمان ، وتُحمدُ كلَّ وَقْتٍ وأوان ، وليَملأْ بالأُجور لنا صُحُفًا بمـا يُؤَدِّيه عنَّا من خيرٍ وإحسان ؛ والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التقوىٰ ، فليلازم عليهـا فى السِّرّ والنَّجوىٰ ، والله تعالىٰ يحرسه ويرعاه ، ويتولَّاه فيمن تولاه ، والاعتماد ... ...

[وهذه نسخةُ] توقيع بنَظَر الخـاصّ ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به للقاضى «بهاء الدين بن ريان» ، وهي :

الحمـدُ لله مُعْلى رُتَبِ الأعيان ، ومبْقِ أحبَّـاء السِّيادة علىٰ ممرّ الأحْيان ، ومُبْدِى "بهاءِ" المنـاصب ، بمن فَضلُه الواضح والصُّبحُ سِيَّان ، ومُنْشى ثَمرات المَناقب ، فى مَنابِتِ أهْلِها حيثُ الفَرْعُ باسِقٌ والأصل "رَيَّان" .

نحمدُه علىٰ أنْ يسَّر البَيْتَ المعلَّىٰ بحسَنِه ، وأيْقظ جَفْن الآمال من وَسَنِه ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تجمع لنـا من خيرى الدُّنيا والآخرة كَرَم المَطْلَبين ، وشَرَف المَنصِبَين ، ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه المشْرِقُ فضـلُه علىٰ أهل المَشْرِقَين والمَغْرِبَين ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أصبح الثناءُ عليهم وقفا ، وآشتمالُ الذِّكر عليهم عَطْفا ، صلاةً تُضِيءُ آفاقَ القَبُول بشَمْعة صُبْح لا تُقَطُّ ولا تُطْفىٰ ؛ وسلَّم .

أما بعـدُ ، فإنَّ للمناصب الدينية نِسْبةً ببيوت أهْلِ الدِّيانه ، ولخاصِّ الرُّتَب تَعلقًا بالخاصِّ من ذوى الكَفَاءة والأمانَه ، والمنازلُ بكواكبِها المتألِّقَه ، والحدائقُ بمغارِسِها المتأنِّقه ، ونفوسُ الدِّيار بسُكَّان معاهدها المُتَشَوِّفة المتشوِّقه .

ولمَّـا كان الخـاصُّ الشريفُ والوقف المنصوريُّ لوجْهِ المناصب الشامية بمنزلة حُسْن الشامَتَيْن ، ولِرَائد الخِصْبِ من جِهَتَي الدنيا والآخرة بمحلِّ نَفْع الغمامتين ؛ هـذا علىٰ صُنْعِ البِرِّ الممدودِ مَقْصور ، وهذا لسَحابِ الخَيْر سَفَّاحٌ لأنهرِ جِهَةِ لـ«ـلمنصور» ؛ يعْلُو هـذا بالنَّاظر فى دقائقه إلىٰ أعْلَى الدَّرَج ، ويَتْلُو هـذا بلِسانِ مِيزانه المُنْفِق على المـارستان : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ ـ لايليق الجَمْعُ بين رتبتيهما إلَّا لمن يجمع بسَـعْيِه فضْلَ الدَّارَيْن ، ومن يُجِيدُ بَنانُ قَلَمه الحَلَبِيّ حَلْبَ ضَرْعَيْهما الدَّارَّيْن ؛ ومَن نَشأ فى بَيْتِ سعادةٍ أذِنَ اللهُ لقَدْره أنْ يُرفع ، وأقْلَامِ بيته أن تَنْفع ، ولمحاسِنِ ذَوِيهِ أن تَشْفَعَ بجمالهـا إلىٰ قلوب الأوْلياء فتُشَفَّع ؛ ومَن يَسُرُّ برواية فَضْله وبرُؤْيتِه السَّمْعَ والعَيْن ، ومَن يفْترِض شَرَفُه وشرفُ

إخائه حُبَّ «الحَسَن» و «الحُسَين» ؛ ومن تَبْتهجُ جوانحُ المحاريب بتَعبُّده ، وتَلْهَجُ الْألسنةُ مصابيح المساجد بالثَّناء على تردُّده وتَودُّده ، وتَسْتبِقُ جيادُ عَزْمه : فبينَما الكُمَيْتُ فى الشَّهْباء تابِعُ أدَبِه إذا بآبن أدْهَم رَسِيلُ تَزهُّده ؛ ومن تقولُ مناصبُ حَلَب : لله درُّ بهائه المقْتَبَل ! ؛ ومن ينشدُ ثباتُ وقَاره مع لطافة خُلُقه : «ياحبَّذا جبَلُ الرَّيَّانِ من جبَل» ! ؛ ومن تَنْفَحُ أخْبارُه مَنافِحَ الأزْهار ، ومن يشهدُ بفَضْله جيشُ المحراب فى اللَّيلِ و بمباشرته جَيْشُ الحَرْب فى النهار ؛ ومن تأْسى بلدةٌ فارقها فِراقَ العيْنِ للوَسَن ، ومن يَروى صامِتُ دِمَشْق وغيرها من تدْبِيره عن «عامرٍ» وعن «حَسَن» .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زال من ألْقابِه الشريفة صالِحُ المؤْمنين ، وعِمادُ الدَّاعِينَ لدَوْلته القاهرة والمُؤَمِّنين ــ أنْ يفوَّضَ للجناب العالى .... فإنَّه المَعْنِىُّ بهذه الأوصاف المتقدِّمه ، والمقصودُ بإفاضَةِ حُلَلِها المُعْلَمَه ؛ والموصوفُ الذى يحلُو وَصْفُه إذا كُرِّر ، ويَسْتَعْبِدُ الأوصافَ والأسماع إذا حُرِّر ، والأحقُّ برتْبةِ عِزٍّ فى النُّظار مَضَى وأبْقى ثناءَه ، ومكانِ نَظَرٍ إن لم يقُلِ الدعاءُ اليَوْم : أدام اللهُ عِزَّه ! قال : أدام اللهُ بَهاءَه ؛ واللَّائِقُ بتَقْرِيرِ مَنْصِبٍ تقصُرُ دونَه المطامع ، وتَصْدِيرِ ديوانٍ إن آنقطعَتْ رِوايَتُه عن «حَمْزة» فقد آتَّصلتْ رِوايَتُه عن «نافِع» .

فلْيباشِرْ هٰذيْن المَنْصِبين المُنْجبين ، مجتهدًا فى مصالح الخاصِّ الشريف ، والوَقْف الذى لا تحتاج هِمَّتُه فيه إلى تَوْقيف ؛ حتَّى يكونَ خيرُ الخاصِّ عامًّا ، وأمْرُ الوقف تامًّا ؛ ورَيْعُهما بالبركات خيرَ محفوف ، والمنصورىُّ من جهة المعاضدة قد أضْحَى وهو بالعَضُدَيْن موصوف .

والوصايا متعدّدةٌ وهو أدرى وأدْربُ بها ، وتَقوى الله تعالى أوْلى وَصِيَّةٍ تمسَّكَ المرءُ بسَبَبِها ، وشكرُ النعمة أدلُّ على نَبِيهِ هِمَمِ الرجال وعلى فضل مُهَذِّبِها ؛ واللهُ تعالى يسدِّدُ قلَمه ، ويثبِّتُ فى مطالع العزِّ قدَمه ؛ بمنّه وكرمه ! .

* * *

توقيعٌ بنظر الخزانة العاليـة ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين ٱبن أبى الطَّيِّب» بـ«ـالجناب العالى» وهو :

الحمدُ لله الذى له خزائنُ السموات والأرض ، وبحكمته يَهَبُ منها مايشاءُ لمن يشاءُ رَضِىَ المُعانِدُ أمْ لم يرْض ، وبمِنَّته فُضِّلتْ مراتبُ أهلِ التُّقىٰ على الرُّتبِ كما فُضِّلَ على النافلة الفَرْض ، وبعنايَته بُنِيتْ بيوتُ أهـلِ السِّيادة على الطُّولِ وبَقِىَ صالحُ عملهم إلى العَرْض ، وبهدايَته سمـا إلىٰ أعْلَى الخزائنِ من تُقْرِضُها أوصافُ قَلَمِـه وقَلَمِ أبيه أحْسَنَ القَرْض .

نحمدُه علىٰ مامنح من خزائن فَضْلِه ، ونشكُره والشُّكْرُ ضامِنُ المَزيد لأهْلِه ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً يدَّخِرُها الإنسان لنِيَّتِه وقَوْله وفِعْله ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جمع بفَيْئِه وفَرَّق ببَذْلِه ، وأعطىٰ مالم تَنْطَوِ ضمـائر الأكياس فى صُـدُور الخزائن علىٰ مِثْـلِه ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه السَّالِكين سَنَنَ فضيلته وفَضْله ، التابعين فى الكَرَم والبأْسِ قِياسَ بيَانِه ونَصَّ نَصْلِه ؛ ما أطْلَعَتْ خِزانَةُ الوَسْمِىّ آثارَ نُقَطِ الغَيْث كالدَّراهِم ، وخَلَعَتْ على الدنيا خِلَعَ الروض مُتَقَلْنِسَةً بمُسْتَديرِ الظِّلال مَزْرُورَةً بمعقودِ الكمائم ؛ وسَلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ الرُّتَبَ ذَخائِرُ قومٍ فى خزائن الٱختيار ، وأخايِرُ أهْلٍ تزكو نقودُ شِيَمِهم علىٰ مَحَكِّ الٱعتناء والٱعتبار ، وفروعُ خَلَفٍ تظهر مَظاهِرُ أُصولِها الزكيَّة سابغةَ الظِّلِّ رائقةَ الزَّهر فائقةَ الثِّمار ، إذا ٱحتيج منهم إلىٰ ذخيرة نَفَعَتْ ، وإلىٰ أخير وَقْتٍ أرْبىٰ علىٰ عزائم الأُوَلِ وما صَنَعَتْ ، وإلىٰ فُروعِ شجرةٍ سَرَتْ محامدُها الضَّائِعةُ : لا ممَّا ضاعَتْ بل ممَّا تَضَوَّعَتْ .

ولما كانت رتبةُ نَظَرِ الخزانة العالية بدِمَشْق المحروسةِ أحَقَّ بمَن هٰـذا وَصْفُه ، وهذا نَعْته فى مُقدِّمة الذِّكر الجميل وهذا إليه عَطْفُه ؛ إذْ هى مرتبةُ العَلْياء ومَكانُها ، وزُهَرة سَمـاءِ المملكة وميزانُها ؛ ومَنْشأُ غُيوثِ صِلاتِها الهَـامِره ، ومَنْبِتُ رياض خِلَعِها الزَّاهِره ؛ وأُفُق السعادة ومَطْلَع نجمها المُنير ، وجَنَّة أولياءِ الدَّوْلة ولِباسُهُم فيها حَرِير ؛ ومَعْنىٰ شَرَف الاكْتِساء والاكْتِساب ، ومأْوَى الفاضلِ ـ والحمد لله ـ الذى يَحْفظها التحصيلُ بحساب ويُعْطِيها الجُودُ بغيرِ حساب .

وكان الجناب ... ... (١) ممن تضم أعطافه أنوار السَّعاده ، وتَحُفُّ أطرافه و ... ... (١) السِّياده ، وتَنْتقلُ جَلْسته : إمَّا من تنفيذ الديوان لمَرْتَبةٍ و إمَّا من تَدْريس العِلْم لسَجَّادَه ؛ ذُو الفَضْل والفضائل حَسَنُ التَّجْنِيس والتَّطْبِيق ، والكتابةُ : من حساب و إنْشاءٍ زاكيةُ النَّـثْرِ علَى التَّعليق ؛ ونفحات البِر من نفحات العيش أجود ، والشبيبة فيها النهىٰ فكانه كما قال البحترىّ : نسبٌ أسْوَد ؛ والهِمَم التى حاوَلَتْ مَنال الشُّهُب المَمتنِعَة وَلاتَ حِينَ مَنـاص ، والكلمة التى لو عَايَنَ « البَصْرِىُّ » فرائد نَحْرِها لقال : كلُّ هـٰـذه دُرَّة الغَوَّاص ، والعَزائِم التى رامَتِ المناصبَ فمـا قَبِلَتْ من خِزَانَتِها سوَى الرَّفِيعِ وما رَضِيَتْ من دِيوانِهـا سِوَى الخـاص ؛ كَمْ نبَّهتْ منه المَقاصِـدُ « عُمَر » (٢) ثم نَامَتْ ! ، وكَمْ أجلَسَتْه كواكبُ اليُمْنِ فى صَـدْرِ مَحْفِلٍ ثم قَامَتْ ! ؛ كَمْ حَوىٰ من الحَمْـد سَنِيًّا ! ، وملأ الرِّباعَ خيرًا وَفِيًّا ! ، وقَيَّضَ اللهُ للفقراءِ والأيتامِ حَنانًا من لَدُنْه وزَكاةً وكان تَقِيًّا .

(١) بياض بالأصل فى الموضعين .

(٢) أخذه من بيت بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبـه لهـا عُمَـرا ثم نم

يريد عمر بن العلاء أحد عمال المهدىّ وكان على طبرستان .

فلذلك رُسم بالأمر الشَّريف – لا برِح صَالِحَ الدهر كالزَّهْر، مالكَ نُفُوس الأوليـاء والأعْداء : هاتيكَ بِالإنعامِ وهاتيك بالقَهْر – أنْ يفوّضَ إليه نظرُ الخزانة العالية مُضافًا إلىٰ ما بيَده من نظر الخاصّ الشريف : لأنَّ مِثْلَه لا يُصْرفُ عن وَظِيفَة بِسَناهُ تعترَف، ومن نَداهُ تغترِف، وأنَّ اجْتماعَ العَدْلِ والمَعْرِفَة قَاضٍ بأنَّ «عُمَـر» لا يَنْصرِف ؛ وأنَّ الخاصَّ لخـاصِّ الأولياءِ أمَسُّ مَكانَه، وأنَّ الخِزانَةَ أنْسبُ بمَن عُرِف بالصِّيانَه ؛ وأنَّ خَزائِنَ الأرضِ وهى مِصْرُ لو نَطق نَظِيرُها لقال : ليسَ لِى مِثْلُ هـذه الخِزَانَه ؛ وأنَّ عينَ الأعيان أوْلىٰ بالنَّظَر، وأنَّ الأنْظار لا بل الصَّحابَةُ أحقُّ بـ«عمر» ؛ لِمَـا عُلِمَ من سِيرَتِه النَّقِيَّه، وسَرِيرَتِه التقِيه، وصِفاتِه التى يمتدُّ فيها نَفَسُ القَوْلِ حتَّى ينقطِعَ وفى الأوْصافِ بعدُ بَقِيَّةٌ وبَقِيَّه .

فلْيبا شِرْ مافُوِّضَ إليه من أعْلَى المراتِبِ المُنْجبات، والوظائف المُعْجِباتِ المُعْشِبات، والجهاتِ التى مالَهـا كَبْتِه الطَّيِّبِ : والطَّيِّبون للطَّيِّبات ؛ مُسْتَجِدًّا من نَظَر هـذه الخزانة ثَوْبَ سَعْدِه الجديد، مُعْمِلًا فى مصارف الذَّهَب والفِضَّة بَصرآرائِه الحَدِيد ؛ مُنَبِّهًا لهـا عَزْمَه العُمَرِىَّ ونعم من يُنَبِّه، مُشْبِهًا فى الكَفاءَة أباهُ المَرْحُومَ وما ظَلَم من أشْبَه ؛ مُقرِّرًا من أحوالِها أحْسن مُقَرِّر، مُحَرِّرًا من أُمورِها أوْلىٰ ما اعْتُمِدَ والخـزانةُ أوْلَىٰ بالمُحرَّر ؛ حافِظًا لما لها بقَلَم التَّحصيلِ حتَّى ينفّذ قلَمَ الإطلاق، صائنًا لوَفْرِها حتَّى يُنْفِقَه الـكرمُ خَشْيَةَ الإمْساكِ بعد ما أمْسكَه الصَّوْنُ خَشْيَةَ الإنْفاق ؛ مُسْتَدْعِيًا من أصْنافِها كلَّ ماتنوَّعَ وتَصنَّف، وتَوشَّع وتَفَوَّف، مُثْبِتًا كلَّ ماخَلـع من ديوانها العَزِيزِ وتخلَّف ؛ مُؤَلِّفًا للكَساوَىٰ(١) فى رِحْلَةِ كلِّ صَيْفٍ وشَتْوَه، مُواصِلًا للأحمال من دِمَشْقَ علىٰ كلِّ حال من جهة الكُسْوَه ؛ مُنْهِيا لإنعامها بقَلَم الإطلاق التَّام، مُتَلَقِّفًا بعَصَا قَلَمه فى يَدِه البيضاءِ ماتأْفِكُ عَصَا الأقلام، حَرِيصًا على أن يكونَ بابُها فى الكَرَم كما يقال :

(١) لم يرد هذا الجمع فيما بأيدينا من كتب اللغة . والظاهر أنه جارى العامة فى استعمالهم .

«سَهْلُ الحِجاب مُؤَدَّبُ الخُدَّام» ؛ عاملًا بتَقْوَى اللهِ تعالى التى بها يُبْدَأُ الذِّكْر الجميلُ ويُخْتَم ، ويُلْبَس بها فى الدُّنيا والآخرة رِداءُ الخير المُعْـلَم ، غَنِيًّا عن تبيين بقايا الوَصايا التى هو فيها بَحْرٌ ، وآبنُ بَحْرٍ بكتاب "البيان والتبيين" أعْلم ؛ واللهُ تعالىٰ يمدّه بفَضْله ، ويحفظُ عليـه الفَضْل الذى هو من أهْلِه ؛ ويملأُ آمالَه بغَمامِ الخَيْر الصَّيِّب . ويُديمُ سعادةَ بَيْتِه الذى لا يَرْفَع الشُّكْر لطيبه إلا الكَلِمُ الطَّيِّب .

المرتبـــة الثـانية

(من تَواقيع أرْباب الوظائف الديوانية بحاضرة دِمَشْق ـ ما يُفتتح بـ«أمَّا بعدَ حمدِ الله»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

[نسخة] توقيع بنَظَر الأسْرىٰ ونَظَرِ الأسْوار، كُتب بها لدوادار الأمير «سودون الطرنطاى» كافِلِ الشَّام، وإن كانت هى فى الأصْل ديوانية أو دِينِيَّة، وهى :

أمَّا بعـدَ حمدِ الله الذى خصَّ أولياءَه بفَضْلِه الوَافِر، وعَمَّهم بحُسْن نَظَرِه فأشْرق صُبْحُ صَبَاحِهِم السَّافِر، وآنْتَضىٰ من عَزائِمهم لنُصْرةِ الدِّين سَيْفًا يسرُّ المؤْمِنَ ويَغيظُ الكافِر، وآجْتَبىٰ من الكُفَاةِ من يشَـيِّدُ مَعاقِلَ الإسلامِ بفَضْله المتظَافِر ؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمين الأكْمَلين علىٰ سـيدِنا محمدٍ الذى أضاء برسالته الوُجُود ، وخصَّه اللهُ تعالىٰ بالصِّفات الفَائِقَة والمآثر الحَسَنة والجُود ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حَرَسُوا المِلَّة الحَنِيفِيَّة من جهادهم بأمْنع سُور، وأوْهَنُوا جانبَ الكُفْر وأنقذُوا الأسِيرَ وجَبَرُوا المكسور ؛ صلاةً دائِمـةً مَدَى الأيَّام والشُّهور ، مُعْلِيَةً للأولياءِ عَلَم النَّصْرِ المنْشُور ـ فإنَّ أوْلىٰ من عَدَقْنا به المناصبَ السَّنِيَّة ، وفوَّضْنا إليـه جَلِيلَ الوظائف الدِّينيَّـه ؛

ونُطْنَا به فَكَّ رَقَبَـةِ المُسْلِم من أسْرِه ، وخَلاصَـهُ من عَدُوِّه الذى لا يَرْثِى لمسْكَنَتِه ولا يَرِقُّ لكَسْرِه، وأجْرِيْنا قَلَمَـه ببَذْل الفِدَاء، وجعلنـا مِدَادَه دِرْياقًا لمرَض الأسْرِ الذى يعدِلُ ألْف دَاء، وأقمناه للعانِى من شَرَك الشِّرْك مُنْقِذا، وللدافع فى بَيْداء العِدَا بحُسْن إعانته مُنْجِدا ، وللأسْوارِ المُمَنَّعةِ بجميـل نظره مُتَفَقِّدا ــ من أضحىٰ فَضْلُه ظَاهِرا، وجلالُه باهِرَا، وخِلالُه مَوْصوفةً بالمحـاسن أوّلًا وآخِرا .

وكان فلانٌ هو الذى بَهَرتْ مآثِرُه الأبصارَ ومَلأَتِ الأسْمـاع ، وانْعقَـدتْ علىٰ تَفرُّدِه فى عَصْره بالمفاخِرِ كلمةُ الإجْماع ، وسارَتِ الرُّكبان بِذِكْره الذى طاب وجُودِه الَّذى شاع، وصَفَتْ سَرِيرتُه، فأضحىٰ جميـلَ الإعلان، وحُمِدتْ سِفارَتُه، فكانتْ عاقِبةُ كلِّ صَعْبٍ ببركتها أنْ لَان .

فلذلك رُسم بالأمر العـالى ــ لازال يُولِى جميلا، ويُوَلِّى فى الوظائف جَليـلا ــ أن يستقرَّ المشارُ إليـه فى وظيفتَىْ نَظَرِ الأسْرىٰ والأسْوار بدِمَشْقَ المحروسـةِ ، علىٰ أجمـلِ عادة ، وأكمل قاعدة ، بالمعلوم الشاهـد به دِيوان الوقْف المبرورِ إلىٰ آخر وَقْت : وضْعًا للشيءِ فى محلِّه، وتَفْويضًا لجميل النَّظَر إلىٰ أهْلِه .

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً تَسُرُّ النفوس، وتَزِيدُ بها الغِلالُ وتَزْكُو بها الغُروس، ولْيُجْرِ أحوالَ الوَقْفِ المـبرورِ علىٰ مقتضىٰ شَرْط الواقف والشَّرع الشريف ، ولْيَتَصَرَّفْ فى تحصيل المـال وإنْفاقه أحسنَ تَصْرِيف، ولْيجْتَهِدْ علىٰ تَخْليص المأْسُور، وإغاثةِ مَن ضُرِب بينه وبينه بسُور، ويُسارِعْ إلىٰ تَشْييد الأسْوار المُمَنَّعه، وإتقان تَحصِينِها : لِيَتضاعَفَ لمن حَوَتْه منَّا الأمْنُ والدَّعه، والوصـايا كثيرةٌ ومِلاكُها تَقْوىٰ الله تعالىٰ وسُلُوكُ صِراطِ الحَقِّ المستقيم : فلْيوَاظِبْ عليها ، ولْيصْرِفْ وَجْهَ عنايته إليها ، والله تعالىٰ يُديم عُلاه ، ويتولَّاه فيما تولاه ، بمنِّه وكرمه .

توقيعٌ بصحابة ديوان الأسرى، من إنشاء ابن نُباتة، كُتب به للقاضى شرف الدين «سالم بن القلاقِسى» ، وهو :

أمّا بعد حمد الله الذى جدّد بطالع الشّرف قواعد بَيْت السّياده، ومشاهد حوْك السّعاده، ومصاعد ذُرا الأقلام التى قسّمتْ مجانِى قصبها للإفاءة والإفاده، ومعاهد القوْم الذين سلكوا مسالك سَلَفهم الحُسْنىٰ: ولو كان التّمامُ يقبلُ هنا مَزيدًا قيل: وزيادَه. والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى شدّ الله برسالته أزْرَ الحقّ وشادَه، وعلىٰ آله وصحْبه ذوِى الأقدار المُسْتزادَة المُسْتجادَه، ما اتّصل بحديث الفضْل سَنَدُه وأمِن بَيْتُ التقوىٰ سِنادَه ـ فإنّ البيُوتَ المُنتَظِمَ نخارُها، المأْمُونَ من عَروض الأيّام زِحافُها وانْكسارُها، أوْلىٰ بأنْ تنْتخَب لهم المناصبُ كما تُنْتخَبُ للبيُوت المَعانِى، وتُستَقْرَى الوظائفُ العَليّة كما تُسْتقْرىٰ لمواضع كَلِمها المَبانِى؛ وتختار لنجل الأصحاب(؟) بينهم كلُّ جِهةٍ مأْمُونة الصّحابَه، مَوقُورَة السّحابَه، مجْرورَة ذَيْل الخيراتِ السّحّابَه؛ مَصُونةٍ عن غير الأكفاء كما يُصان للجهات حُجُبا، لائقةٍ بالأفاضل لأنّ لأوقاف الأسْرىٰ بالفاضل نَسَبا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يرتّب فى كذا : علْمًا بأنّه الرئيسُ الذى إذا وَلِىَ وظيفةً كَفَاها، وإذا وعَدها بصلاح التّدْبير وَفّاه وفَاها، وإذا وصل نَسَبها بنَسَبه كان من إخْوانِ صَفَائِها لا من إخْوانِ صَفَاهَا؛ والخبيرُ الذى استوضح بيُمْنِ الرّأْى مَذاهِبَه ومَسالِكَه، والعالِمُ الذى إذا مَشّى الأُمورَ بسط جَناحَ الرّفْقِ وإذا مَشَى بسطتْ له أجْنِحَتَها الملائكه؛ والجليلُ الذى إذا نظر ذِهْنُه فى المشكلات دقّق، والكاتب الذى تعينَتْ أقلامُ عِلْمِه وكفاءته إلّا أنّ كلّها فى الفَصْل مُحقّق؛ هـذا وخَطُّ عِذارِه ما كَتَب فى الخَدّ حواشيه، وليلُ صِباهُ ما اكْتَمل! فكيف إذا أطلَعتْ كواكب

المَشيبِ دَياجيــه، وكَيْف لا؟ وأبوه ـ أعلَى اللهُ تعالىٰ جَدّه ـ صاحِبُ المَجْدِ الأثيل، والفَضْل الأصِـيل، ووكيلُ السلطنة الذى إذَا تأمّلت محاسِـنَه قالتْ: حَسْبُنا الله ونِعْم الوكِيل.

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ برأْيٍ يُسَهِّلُ ـ بمشيئة الله ـ عَسيرَها، ويفُكُّ ـ بعَوْن الله ـ أسِـيرَها، وآجتهادٍ سَنِيٍّ يُحسنُ قلمُه فى الأُمور مَسْرىٰ، وآعتمادٍ سَرِيٍّ لا يرىٰ دِيوانُ أسْرىٰ منه أسْرىٰ، مُشْـبِهًا أباه فى عَدْلِه ومن أشْبه أباه فـا ظلم، وتوقُّد رَأْيه لَدَىٰ طَوْدِ حِلْمٍ وعِلم «فيالك من نَارٍ علىٰ علَمَ!»، حتَّى يَأْمَنَ دِيوانُ مباشرته من ظُلْم الظالم، ويُشْعِل ذكاءَه حتَّىٰ يقال: عجبا للمُشْعِل نَارًا وهو سالم!، ويُثَمِّر مالَ الجِهَةِ بتَدْبيره، ويشْتَرِك لفظُ إطلاقِ الديوان فى مالِه وأسِيرِه، وتَنْتقلُ الأسْرىٰ من رُكُوب الأداهِمِ إلىٰ رُكوب الشُّهْب والحُمْرِ من دَراهِمِه ودَنانيرِه، ويُحمد على الإطلاق، وينفِقُ خَشْيَةَ الإمساك إذا أمْسك [غيره] خَشْيةَ الإنْفاق، ويمشِى بتَقْوَىٰ اللهِ ـ عزّ وجلَّ ـ فى الطَّريق اللَّاحِب، ويُنْسَب إلىٰ ديوانه وقوْمه فيقال: صَـاحِبٌ طَالَـا آنتسب من سَلَفِه لصاحب، واللهُ تعالىٰ يُنْجِح لكواكب رَأْيِه مَسيرا، ويَجْبُر به من ضَعْف الحال كَسيرا، ويُكافِئُ ساداتِ بَيْتِه الذين ﴿يُطْعِمُون الطعامَ علىٰ حُبِّه مِسْكِينًا ويَتِيمًا وأسِيرا﴾.

المرتبـــــة الثـالثة

(من تَواقيع أرْباب الوظائف الديوانية بحاضرة دمَشْق ـ ما يُفتتح بـ«رُسِم بالأمْر الشريف»)

وهذه نُسخ تواقيع من ذلك:

نسخة توقيع ... ...(١) من إنشاء آبن نُباتة، كُتب به للقاضى «علاءالدين بن شرفالدين بن الشهاب محمود» عند موت أبيه وهو صغير، وهى:

(١) بياض فى الأصل ولعله « توقيع بكتابة السر ».

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يَجْبُرُ بِرِّه مُصابَ الأبْناءِ بآبائهم ، ويَسُرُّهم بما يتجدَّد فى كواكب الشَّرَف من عَلائِهم ، ويُعْتِق قُلوبَهم من إسَارِ الحُزْن حتَّىٰ ينشَئُوا من الصِّغَر علىٰ أنساب عِفَّتِهم ووَلائِهم ـ أنْ يستقرَّ ... ... آعتماداً علىٰ نجابَتِه الشاهده ، ومَخايِل هِمَّته السائده ، وآستناداً إلىٰ أصالَتِـه التى لا يُبْدِى فَرْعُها إلَّا زَكِىَّ الثَّمَر ، ولا يهْـدِى بَحْرُها إلَّا أنفسَ الدُّرَر ، ولا يخلِّف أُفقُها إلَّا كبيراً تَسْتصغِرُ الأبصارُ رُؤْيته : والذَّنْبُ للطَّرْفِ لا للكَوْكَبِ فى الصِّغَر ، وعِلْماً أنَّه من أُسْرةٍ شهابيَّة لا يهتدىٰ فى الإنشـاء إلَّا بنُورِهم ، ولا يُـحَدَّثُ بالعجائب إلَّا عن بُحُورِهم ، ولا يُنْبِتُ أقْلامَ البلاغة إلَّا عُشْبُهم ، ولا تُعشِب روضاتِ الصحائف إلا سُحُبُهم ، ولا تُثْبِت أفْلاكَ الكتابة إلا كُتُبُهم ، صَغِيرُهم فى صـدور الإنشاء كبير ، ومُلَقَّن آيات فَضْلِهم يَرْوِى أعْداد الفوائد عن «آبن كثير» ، وعليهم بعد «أبى بكر» تقول المحـامد لسَلَفه وخَلَفه : منَّا أمِيرٌ ومنكم أمير ، وأنَّه اليومَ لا سَيْفَ إلَّا «ذو الفَقار» من أذهانهم ، ولا فَتًى إلَّا «عَلِىٌّ» من وِلْدانِهم ، وأنَّ فَرْخ البطِّ سابح ، وسَعْد القوم للأنْدادِ ذَابح ، وخواتم صُحُف الجمع الظاهر أشْـبَهُ بالفواتح ، والبلاغةُ فى الدنيـا كنوزٌ والأقلام فى أيديهم مفاتح ، وأنَّ الكلام حليته وَسَمْتُه (١) ، وأنَّه إذا خدم دَوْلةً بعد مُخَلِّفه قيل للذاهب : لقد أوحَشَنا وجهُه وللقادم : لقد آنسَتْنا خِدْمَتُه .

فلْيأْخُذْ فى هـذه الوظيفـة بقُوَّةِ كِتَابَهْ ، ولْيتَناوَلْ باليُمْن واليمين قَلَمَ جَدِّه كما تناول رَايَةَ مَجْده عَرَابَهْ ، ولْيتقلَّدْ بقلائد هذه النِّعَم عقيبَ ما نَزَع التمائم ، ولْيَجْهَدْ فى إمْرارِ كَلِمه الحُلْوِ الذى أوَّلُ سمائه قَطْرٌ ثم صَوْبُ الغمائم ، مُجوِّداً خَطَّه ولَفْظَه حتَّىٰ تتناسبَ عُقَدُه ، ناشِئاً علىٰ كَتْم السِّرِّ حتَّىٰ كأنَّ الفؤادَ قبرُه والجَنْبَ لَحْدُه ، مُهْتدِياً بالعَلَم الشِّهابىِّ فى بِرِّ أخيه الأكبر فإنَّه من بوارق المزن ، مُبْتدِياً مع أخيه الآخَرِ السُّرورَ إذْ يَنْزع

(١) فى الأصل هكذا "وأن الكلا محاهم" .

عنهما لباسهما من الحزْن ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُ فى فَضْلِه ، ويُتِمّ عليه النعمةَ كما أتمّها علىٰ أبِيه من قَبْلِه ، ويفقِّهه فى السيادة حتّىٰ يُحْسِنَ فى الفَخار رَدّ الفَرْعِ إلىٰ أصْلِه .

* * *

توقيعٌ بنَظَر مَطَابخ السُّكّر ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، كُتِب به للقاضى « شَرَف الدِّين ٱبن عَمْرون » وهو :

رُسم ... ... ـ لا زالَتْ سِمَةُ المناصب فى دَوْلَتِه الشَّريفة مُشَرَّفه ، وأقلامُ الكُفاةِ مُصَرَّفه ، وألفاظُ الشّكْر ثابتةً عنـد ذَوِى الاستحقاق ومُصَـنَّفه ، والنَّعْماء المُنْصِـفَة لأمثالهم حُلْوَةَ المذاقَيْنِ من نَوْعٍ ومن صِفَه ـ أنْ يستقرّ ... ... لمـا عُرِف من شِيَمِه المُستجاده ، وهِمَمِه المُسـتزاده ، وكَفَاءَتِه اللّائق بها حُسْنُ النَّظَر الثّابتِ بفَضْلِها رَقْمُ الشَّهاده ، وأصالَتِه التى نَهض أوّلُهـا بمهمّات الدُّوَل فلو رآه مُعاوِية ـ رضى الله عنه ـ لقال : يا عَمْرونُ أنت عمرٌو وزياده ؛ ولِمَـا أُلِفَ من مُباشرته المُنِيفَـة خُبْرًا وخَبَرا ، وأنظارِه السَّامِيَةِ إلىٰ معالى الأُمور نَظَرا ؛ ووظائِفِه التى لا يكاد يَبْلُغ العُشْرَ منها ذَوُو الهِمَمِ العَلِيَّه ، وجهاتِه التى عُرِف بها سَلَفُه وخَلَفُه فلا غَرْوَ أنْ لَبِس عمامةَ مَفاخِرِه بيضاءَ وسُكَّرِيَّه .

فلْيباشر هـذه الوظيفةَ الحُلْوَةَ مَعْنًى ومَذَاقا ، الحَلِيَّـةَ عِقْدًا ونِطاقا ، المحسُوبَةَ علىٰ مطالع الشَّرَف وَفْقًا وآفاقا ، جاعِلًا شُكْرَ النِّعمة من أوْفىٰ وأوفَرِ مزاياه ، وصَلَفَ الهِمّةِ من أوْلىٰ وأوّل وصاياه ؛ حافِظًا للطـابِخ وإنْ كان عادةَ آبائه بَذْلُهـا ، مُدّخِرًا للجفان وإنْ كانت سِمَةَ قِراهُمْ إزالَتُها ونَقْلُها ؛ حَرِيصًا علىٰ أن لايجعل لأيْدى الأقلام الخائنة مَطْمَحا ، وعلىٰ أنْ يُنْشَدَ كلَّ يومٍ للتَّدْبِير لا للتّبذير .

* [لنا] الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ فى الضُّحَىٰ *

مُحرِّرًا لحساب دِرْهَمِها ومَحْمُولها، ومَصْروفها ومَحْصولها؛ مُحتَرِزًا علىٰ مُباشَرتِه من الخَلَلِ فى هذين المكانين، حَذِرًا من كِفتَّيها وقَبَّانها فإنَّها تتكلَّمُ فى الحَمْد أو فى الذَّم بلسانَيْن؛ بل تُعْلِنُ ـ إن شاء الله ـ بحمده المُقَرَّر، وتُكَرِّر الأحاديثَ الحلوةَ عنه فمن عندها خرج حَدِيثُ الحُلْوِ المكرَّر، والله تعالىٰ يُمِدّ مَساعيَه بالنُّجْح الوَفِي، ويُلْهِم هِمَّتَه أن تُنْشِد : «ما أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصانَ من شَرَفِى !» .

* * *

توقيعٌ بنَظَر دار الطِّراز، من إنشاء ٱبن نُباتة، وهو :

رُسم بالأمر ـ لازالتْ سِيَرُه بمرقُومِ المحامد مُطَرَّزَه، ودَوْلتُه بمحاسن التَّأْييد والتَّأْبِيد مُعَزَّزه، ونِعَمُه ونِقَمُه : هذه على الأعْداء مُجْهِزَة وهذه إلى الأولياء مُجَهَّزه ـ أنْ يرتَّب فلانٌ : لكتابَتِه التى رقَّتِ الطُّروس، وطرَّزَتْ بالظَّلْماءِ أرْدِيَةَ الشُّموس، وأثْمَرتْ أقْلامُه بمحاسن التَّدْبير فكانت فى جهات الدُّوَل نِعَم الغُرُوس؛ وحِسَابِه الذى ناقَشَ ونَقَش، ورَقَمَ الأوراقَ ورَقَش؛ وٱعْتِزامِه الذى عَلِمَ رَشَدا، وسَلَك طرِيقاً فى الخِدْمة جَدَدا، وقَوِيَ ٱسْمُه وتكاثرتْ أوصافُه فما كان من أنْداده أضْعفَ نَاصِرًا وأقلَّ عَدَدا؛ وأنَّه الكَافِى الذى إذا قُدِّم نَهَض، وإذا سدَّد سَهْمَ قَلَمه أصاب الغَرَض؛ والسَّامِى إلىٰ سماء رُتَبِه بالقَلْب والطَّرْف، والمنزَّهُ لقلمه الحُرِّ من أنْ يستعبدَ علىٰ حَرْف .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ بكَفَاءةٍ عليها المُعَوَّل، وأقلامٍ إذا تمشَّتْ فى دار الطِّراز على الوَرَق قيل : «شُمُّ الأُنُوف من الطِّرَاز الأوَّل»؛ مُسْتَدْعِيًا لأصْنافها ومالها، عادلًا فى قِسْمةِ رَجائِها ورِجالها؛ مُعْمِلًا راحَتَه بالقَلَم فإنَّ كتابتها مُتْعِبَه، مُهْتديًا فى طُرُق حسابِها فإنَّها طرقٌ متشَعِّبَه؛ ماشِيًا علىٰ نَهْج الاحتراز، ساعِيًا إلى الرُّتَب بإرْهاف عَزْمٍ كالسَّيف الجُراز، سَعِيدَ السَّعْيِ ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ حتَّىٰ يقولَ سَناءُ الملك

المُسْتَنهِضَ له : هٰذا القاضى السَّعِيدُ وهٰـذه دَارُ الطِّراز ؛ والله تعالىٰ يوفِّقُه فى جميع أحْواله ، ويؤيِّدُ مَساعِيَ قلَمِه الذى تَنْسِجُ أقْلام الكُفاةِ علىٰ منْوالِه .

* * *

توقيعٌ بنظر الرِّباع ، من إنشاء الشيخ صلاح الدِّين الصَّفَدِىّ ، باسم القاضى نجم الدين «أحمد بن نجم الدين محمد بن أبى الطَّيِّب» ، وهو :

رُسِم بالأمر العالى ــ لا زال نَجْمُ أوليائه (١) يتَّقِدُ نُورا ، وخاطِرُ أوليائِه يتَّحِـدُ بالآمال سُرورا ــ أنْ يرتَّب المجلس السامىّ القضائىّ ــ أدام الله تعـالىٰ عُلُوَّه ــ فى نَظَر الرِّباع الدِّيوانية ، ومباشرة الأيْتام ــ حرسهم الله تعالىٰ ــ علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت : لأنَّه النَّجْمُ الذى بَزَغ فى أُفُق الرِّآسه ، وحَمَّل ماآثَره قَبِيلُهُ وأَنَاسَه ؛ والأصيلُ الذى شاد الفَضْلُ مَجْـدَه ، وأحْكم الفَخْرُ عَقْدَه ؛ والرَّئِيسُ الذى يَصْـدُق التَّفَرُّسُ فى شمائله ، ويحْـكُم الظن الصائِب فى أثْناء مخايِله .

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً هى معروفَةٌ من هـذا البَيْت ، مَأْلُوفَةٌ من كبيرهم وصغيرهم : فإنَّهم لا لَوَ فيهم ولا لَيْت ، مُعْتمِدًا علىٰ سُلوك طريقة أخِيه وأبِيه ، مُجْتهِدًا على اتِّباع اعتمادهما فى تَوَخِّيه الصَّوابَ أو تأبِّيه ، حتَّى يقال : هذا صِنْوُ ذلك الغُصن الناضِر ، وهذا شِبْل ذلك اللَّيْث الخادِر ، وتُصْبِح الرِّباعُ بحُسْن نظره آهِلَةً بالأهِلَّه ، كامِلةً بالمحاسن التى تُمْسِى الأقْـمارُ منها مُسْتَهِلَّه ؛ وتعود الأيْتام بمشارَفَتِه كأنَّهم لم يفْقِدُوا بِرَّ والدهم ، ولم يحتاجُوا مع تَدْبيره إلىٰ مُساعِدِهم . والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها تَقْوَى الله عزَّ وجلَّ فإنَّها الحِصْنُ الأوقَىٰ ، والمَعْقِلُ المَنيعُ المَرْقَىٰ ؛ فلْيتَّخِذْها لعَيْنَيه نُصْبا ، ولْيشْغَلْ

(١) كذا بالأصل ، ولعله : آلائه .

بهـا ضَمِيرَه حتّىٰ يكون بها صَبًّا ؛ والله تعالىٰ يُنَمِّى غُصْنَه الناضر، ويُقِرُّ بكماله القَلْب والنَّاظِر! والخطُّ الكريم أعلاه الله تعالىٰ أعْلاه، حُجَّةٌ فى ثُبوت العمل بمـا ٱقْتضاه، والله الموفِّقُ بمنِّه وكَرَمه ! .

✥

تَوْقيعٌ باستيفاء المقابلة وٱستيفاء الجَيْش، وهو :

رُسم بالأمر ـ لازالتِ المناقبُ فى دَوْلَتِه الشريفة شَمْسِيَّةَ الأنوار، قُرَشِيَّةَ الفَخَار، مُشْتَقَّةَ المحامد من الأسمـاء والآثار، مُحصِّلةً بأقْلام اليمين ما يَبْـذُله الكرم من أقْسام اليسار ـ أنْ يستقرَّ ... ... حَسَبَ الٱستحقاق المُقْتضىٰ ، والٱختيار المُرْتَضَىٰ ؛ وعَيْنِ الرَّأْىِ الذى ما بينه و بين الرَّائِى حاجِب، وتَقَدُّمِ السُّـنَّةِ القديمة فإنَّ التقديمَ لقُرَيْش وَاجِب، ولأنَّ الصفاتِ الشَّمْسيَّةَ أَوْلىٰ بشَرَف آفاقها، ومَنازِلِ إشْرافِها و إشْراقِها، ومطالع سَـعْدِها المُنَزَّهة عن اللَّبْس ، وجلائل قَلَمِها العُطـارِدِىِّ فى يَدِ الشَّمْس ؛ ولأنَّ المشارَ إليــه أحَقُّ بمَصاعِدِ المُرْتَقِين ، ولأنَّه تَرَبَّى فى بَيْتِ التُّقىٰ فكان الله معه إنَّ الله مع المُتَّقين .

فلْيباشِرْ هاتَيْنِ الوظيفتَيْنِ على العـادة المعروفة بعَزْمِه السـديد، ومَدَّات قَلَمِه التى بَحْرُها فى السبع بَسِيطٌ وظِلُّها فى النَّفْع مَدِيد، ولْيَتَمَثَّلْ بديوان مُقابلة فريدًا لا يَرْهَب مُماثَلَه، وليجْبُرْ أحوالَها بضَبْطه حتّىٰ يجمعَ بين الجَبْرِ والمُقَابَلَه ؛ وليُمِدَّ الجيوشَ المنصورةَ من أوْراقِه بأعْلامِه ، ومن قَصَباتِ السَّـبْقِ برماحٍ تُعرَفُ بأقْلامه ؛ ولْيَسْـتَرْفِعْ من الحُسْبانات ما يمحو بإيضاحه وتكميله من مُقَدِّماتِ ظُلْمٍ و إظلام، وليجمَعْ بين ضَرَّتَيِ الدنيا والآخرة فى شريعة الإسلام؛ والله تعالىٰ يُمِدُّ قُرَشِيَّتَه بأنْصار من العَزْم، وتابعين بإحسانٍ من نوافذ نوافل الحَزْم .

***

تَوْقيعٌ بصَحَابة ديوان الأسْواق ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتَةَ ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ أسْواقُ نِعَمه قائِمَـه ، وأجْلابُ كَرَمه دائِمَه ، ولا بَرِحَتِ المناصِبُ مُكَمَّلَةً بكُفَاةِ أيَّامِه الذين يُحقِّقون ظُنُونَها الساميـة ويَرْعَوْنَ أحوالَهـا السَّائِمه ـ أنْ يرتَّب فلانٌ ... ... : عِلْمًـا بكِتَابته التى وَسَمَت الدَّفاترَ أحسنَ سِمَه ، وٱسْتَبَقَتْ إلىٰ صُنْع الخير المُسَوَّمَه ، وكفاءَته التى لا تزالُ تَنْمو لديه وتَنْتَمِى ، ويراعَته التى إذا سُئِل عنها السُّوقُ قال : هِىَ عَصَاىَ أتَوَكَّأُ عليها وأهُشُّ بها على غَنَمِى ، ودرايَتِه التى تُعِينُ المملكة على المِيَرْ ، ويَشْهَدُ تَيمُّنُها أنَّ الخَيْـلَ فى نَواصِيها الخَيْرْ ، وتُحَقِّق فيه الظَّنَّ والأمل ، وتَحُوطُ السُّوقَ عن الخائن حتَّىٰ يقولَ : لانَاقَةَ لى فى هَذا ولا جَمَل ، وأنَّه الكَافِى الذى إن قال أو فعل كان مُسَدَّدا ، وإن ضَبَط دِيوانَ الشَّدِّ السعيدِ كان على الزَّائغِينَ من الكَتَبةِ حَرْفًا مُشَدَّدا .

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ المباركَةَ مُتَمَكِّنَ الأسباب ، مَالِكَ الحَزْمِ والرِّفْق حتَّى تكْثُر لَدَيه الجُلَّاب ، مُعِيناً لبيْتِ المـال على الإنفاق ، قائِمًـا بحقوق ذَوِى الٱسْتِحْقاق ، عَالِمًا أنَّه [متولى] أكْثَرِ جهات الخير المُطْلَق فليكُنْ بها مشكُورًا على الإطلاق ، مُجْتَهِدًا فى رِضا المطالبين حتَّى يتَّبِعُوا سَنَن المُرسلين فى هذه [الصفة] يأْكُلُون الطَّعامَ ويَمْشُونَ فى الأسْواقِ ، مُواظِبًا على الديوان الذى هو بصَحَابَتِه مَعْذُوق ، سالِكًا سُبُلَ الصِّيانَة والكفاءة فكلاهما نِعْمَ السَّبِيلُ المَطْرُوق ، مُحْترِزًا من ذِى خِيانَةٍ إن غفل عنه طَفِقَ مَسْحًا بالسُّوق ، والله تعالىٰ يوفِّق عزائمه التى هى أشْهر من عَلَمٍ ، وهِمَّته التى قاسَمَتْ « أبا الطَّيِّب » : «والخيلُ تَشْهدُ والقرْطاسُ والقَلَم» .

نسخةُ توقيعٍ بشهادة الخزانة العالية ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتِبَ به لجمال الدين «عبد الله بن العماد الشيرازى» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ سِمَةُ المناصب فى دَوْلته بأسْماء الكُفَاةِ مُجَمَّلَه ، وخِلَعُ المَفَاخِرِ علىٰ بُيُوت السيادة مُكَمَّلَه ، وخَزائِنُ المُلْك بين نَقيضَيْنِ من جِنْسٍ واحِدٍ: فبينما هى بأقلام الكُفاةِ مُحْتَفَظَةٌ إذا هى بأقْلام الكُفَاةِ مُبَذَّلَه ـ أن يستقرّ المجلس السامى ... ... : علما بمحاسِنه التى وَضَح جَمالُها ، وتَفَسَّح فى العَلْيـاء مجَالُها ، ونَجَح فى مَنابِتِ الفَضْل أصْلُها ، وشَرُف بكواكب اليُمْن آتّصالُها ؛ ومَعالِيه التى تهلَّلَ بهـا وَجْهُ الأصَـالَه ، وكمل بيْت الرَّآسَـةِ والجَلالَه ، ومَساعِيه التى آستوفىٰ بها أجناسَ الفَضْلِ وتَوْرِيثَه فما أخذها عن كَلالٍ ولا وَرِثَها عن كَلالَه ؛ وسِـيرَتِه التى تَطْوِى فَخَـارَ الأقْرانِ حينَ تُنْشَر ، وهِمَّتِه التى أنشدتِ السَّعادةُ فَرْعَها الكَرِيمَ : «مَبَادِيكَ فى العَلْياءِ غَايَةُ مَعْشَر» ؛ومَكانَتِه من بَيْت السيادة الرَّفِيع عِمادُه ، البَدِيع سَنَدُه المَنِيع سِنادُه ، المَدِيدِ من تلقاء المَجَرَّة طُنُبُه الثَّابتَة من حَيِّز النُّجوم أوْتادُه ؛ وأنّه نَجْل السَّراةِ الذين أخذُوا من الفَضْل فى كلِّ وَاد ، وآسْتَشْهدوا علىٰ مَناقِبِهم كلَّ عَدُوٍّ وكلَّ وادّ ؛ وحَمَلُوا من صناعاتهم رَاياتٍ عبَّاسِـيَّةً سارتْ بهـا رِماحُ أقلامِهِم تحت أبْدعِ سَواد ، ومَلَـُوا قَدِيمَ الأوطان بشَرَف الأخير : فسواءٌ علىٰ شِيرازَ محـاسِنُ « آبن العميد » ومحاسن « آبن العماد » ؛ وتَبيَّنتْ مناقبُهم بهـذا النَّجْلِ السَّعيدِ طُرُقَ المراتِبِ كَيفَ تُسْـلَك ، وإحْرازَ المناصب كَيف يكونُ لهـا يَدُ أرباب البُيُوت أمْلَك ، ودَرجاتِ الوظائف كيف تَسُرُّ الوالِدَ بالوَلَد حتّىٰ يقولَ : لا أُبالِى هى اليَـوْمَ لِى أمْ لَكَ ؟ ؛ كَم آستَنْهِضَ والدُه لجليل فكَفَىٰ ، وجَمِيلِ قَصْدٍ فوَفىٰ ؛ وأوْقاتٍ عَلَتْ حتى أضْحت

إلىٰ عُلاه تنْتَسب، ومناصبَ رُزِقَ ــ بتقْواه فيها ــ من حَيْثُ يَحْتَسب ومن حيثُ لا يَحْتَسِب، وجاء هذا الوَلَدُ ذخيرةَ والِدِه فحَسُنَتْ للخزانة الذَّخِيره، وعُضِّدَت الأوّلَة من السيادة بالأَخِيرَه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً هي أعلىٰ منها وأشْرفُ سِيرَه، مُجتهدًا فيما يُبَيِّضُ وَجْهَ عِلْمِه ونَسَبِه، عارفاً قَدْرَ هـذه الرُّتبةِ من أوائِلِ رُتَبِه، متيقِّظَ الأفكار والطَّرْف، متأرِّجَ المَعْـرِفة إذا ذَكَرُوا العَرْف، زاكِيًا تبرُ شهـادته على التَّعْليقِ فلا يُنْتَقَدُ عليـه فى مُتَحصَّلٍ ولا صَرْف، حتّىٰ تقولَ الخِزانَةُ : نِعْم العَزْم الشاهد ! وحَتّىٰ يشهدَ بوفاءِ فَضْلِه المَضْمُون، وحتّىٰ يُعْلَمَ بأمانته أنَّ عبد الله هو «المأْمُون» ؛ وتَقْوى اللهِ تعالىٰ فى الوصايا أوَّل وأوْلىٰ ما تَمَسَّـكَ به، وآستقام علىٰ شَرَفِ مَذْهَبِه، واللهُ تعالىٰ يُسُرُّ الإسلامَ بتَنْبِيه قَدْرِه ويُقِرُّ الأوصافَ بمُهَذَّبِه ! .

✦✦✦

تَوْقيعٌ بشهادة الأسْوار، وهو :

رُسم بالأمر ــ لا زال يَمُدُّ على الإســلام من عنايَتِه سُورا، ويُجَدِّدُ للأولياء بِرًّا مَيْسُورا، ويُسْـعدهم بكلِّ تَوْقيع يكونُ بالحساب يوم القيامة كتابًا يلْقاهُ مَنْشُورا ــ أن يرتَّب المجلسُ ... ... : عِلمًا بعزْمه الساهد، وحَزْمه الشاهد ؛ وكفاءَته وأمانَته التى ما كان وَصْفُهما حدِيثًا يُفْتَرىٰ، ونظَرًا لحاله وحالِ الأسْوارِ : فيالَها شهادةً كان أصْلُها نَظَرا .

فلْيباشِرْ هـذه الرتبةَ المباركةَ كما عُهِد منه مباشرةً حَسنةَ الآثار، مُشْرِقَةَ الأنْوار، جاعِلةً تلكَ العَمائرَ حِلْيةً لِدِمَشْق : فبينما هى سُــورٌ إذا هى سِوَار ؛ ضابِطًا لمتَحَصّلِها ومَصْرُوفها، محرِّرًا لوقفِها مُحْترِزًا من وُقُوفِها، جارِيًا علىٰ جميل عادته، زاكِيًا بكرم الله

تعالىٰ على التّوفيق تبرّ شهادته ؛ حتّىٰ تشهدَ هذه الوظيفةُ بهمّته المتمكّنةِ الأسباب، ويُضْرَب بين المَدينة وبين من كادَها بسُورٍ باطنُه فيه الرّحمةُ وظاهرُه من قِبَلِه العذاب؛ واللهُ تعالىٰ يسدّدُه فى كلّ أمر، ويحفظُ هِمّتَه وبركَته «ليوم كَرِيهَةٍ وسِدادِ ثَغْر» .

❖

تَوْقيعٌ بمشارفَةِ خزائن السّلاح، لمن لَقبُه «جمال الدين إبراهيم» وهو :

رُسم بالأمر العالى ـ أعْلى اللهُ تعالىٰ أعلامَ حَمْدِه، وجعل أحكام المَقادِير من جُنْدِه، ولا زالتْ أفلاكُ الشُّهُبِ من خزائن سلاح سَعْدِه ـ أن يُرتَّب ... ... : حَمْلًا علىٰ حكم النُّزول الشَّرْعىّ، والطُّلوعِ إلىٰ رُتَبِ الاستحقاق المَرْعىّ؛ وعِلْمًا بكفايته التى بَلَّغتْه آمالا ، وجَعلتْ للوظائف بذِكْرِه جَمالا، وثَمَّرتْ بقَلَمِه للجهات مالا، وأوْصلَتْه علىٰ رَغْمِ الأنْداد لِمَا لا ؛ واعتمادًا علىٰ أمانَتِه التى أعدّها مَلاذا، واكْتفىٰ بها سِلاحُ عَزْمه نَفاذا؛ وصِيانَتِه التى طَالَمَا اعترض [لها] عَرَضُ الدُّنْيا فقالتْ : يإبْراهِيمُ أعْرِضْ عن هٰذا؛ واستِنادًا إلىٰ نَشْأتِه فى بَيْتٍ عَلَتْ فى المناصب أعْلامُه، وصَدقَتْ فى المراتب حُلُومه وأحْلامُه، وتَناسَبتِ الآنَ تَصرُّفاتُه السعيدةُ: فإمَّا فى تَدْبِير الجيوش وإمَّا فى تَثْمِيرِ السلاح أقْلامُه .

فلْيباشرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ بعَزْمٍ بَادِى النَّجا[1] والنَّجاح، وقَلَمٍ علىٰ حَالَتَىْ وَظيفَتِه وهِمَّتِه مَاضِى عزم السِّلاح؛ مقرِّرًا لعَمَلِها ومَعْمولها، ضابِطًا اواصلها ومَحْمولها؛ حتّىٰ يَذْهبَ لسانُ سَيْفِها بشُكْرِه، وتَطْلُعَ أهِلَّة قِسيِّها بميامِنِ ذِكْرِه، وتَكُون كُعُوبُ رِماحها كُلُّهـا كَعْبٌ مُبارَكٌ بمباشرته وبِشْرِه؛ واللهُ تعـالىٰ يسدِّدُ قَلَمَـه فى وظيفته تَسْديدَ سِهامِها ، ويُوَفِّر له من أنْصباءِ المَراشِد وسِهامِها .

---

(١) هو مصدر نجا نجاءً بالمدّ وقد يقصر،

* * *

قلتُ : وهذا توقيعٌ بوظيفةٍ بكتابة ديوانيّة لسامريٍّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، وهو :

رُسِم بالأمر – لا زال قلمُ أوامره الفضّيّ يُظْهِرُ ثمره ، مُسْمِعاً حديثَ الإنعام الشامل حتّى سَمَره – أن يرتّب فلانٌ فى كذا : عِلْماً بكفايته التى يُعْذَر بها فى قومه على سُلُوك التِّيه ، وحِذْقِ حسابِه الذى هو ألذُّ من السَّلْوَى لمُجْتَنِيه ومُجْتَبِيه ؛ وقريحته التى إذا آختارها آختيارَ قومِ موسى فازَ من العمل بمطْلُوبِه ، وإذا قيلَ : يا سامرىُّ ما قدّمك على القُرَناءِ فى الحساب ؟ قال : بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ؛ وأمانته التى حاطَت حياطةَ الصَّعْدَةِ السَّمْراء ، ورفعتْ رايتَه على الأنداد قائلةً : ما حاطَ البَيْضاءَ والصَّفْراءَ كصاحب الحَمْراء ! ؛ وآعتمادًا على كتابته التى شهدتْ بها من حُسْبانَاته الأسْفار المُبَيَّنَه ، وإقراءا لصناعاته التى سحرت الفِكْرَ حتّى قيلَ : هذا من شَعْبِ القَرَابِينَ والكَهَنَه .

فليباشِرْ هذا الآستيفاءَ لأوفى منه مُتَرَقِّيا ، ولكلماتِ الآختيار مُتَلَقِّيا ، ناهضًا بالخدْمه ، مجدّدا باعتزامه الإسرائيلىّ ذِكْر النِّعْمَه ، عارفًا قَدْر الإنعام الذى رَعَى وشَمِلَ كلَّ ذِمَّه ، سالكًا من الآجتهاد فى خِدْمَةِ حسابِه كلَّ طريقه ، غائظا للحُسَّاد من أهل مِلَّته : فيَعْبُدُون العِجْلَ مجازًا وحَقِيقَه ، مجتهدًا فى آستنزال المَنِّ لا المَنْع ، مُعَوِّذًا الآلافَ الحواصل بعَشْرِ كلماتٍ راتبةٍ منه فى السَّمْع ، مُعَلِّقًا على جميعها هَيْكَلًا من أمانته فهو أدرَى فى الهَيْكَلِ بشَرْط الجَمْع ، صائنًا لنَفْسه من عُدْوانِ الخيانة حتّى لا يَعْدُو فى سَبْتٍ ولا فى أحَد ، مُتَنَزِّهًا عن أكْلِ المال مع الخَوَنَة حتّى يقال : نِعْمَ السَّامِرِىُّ الذى لا يأْكُلُ مع أحَد .

الضـــرب الثانى

(من الوظائف الديوانية بالشام ـ ما هو خارجٌ عن حاضرة دِمَشْق .
وغالبُ مايكتب فيها من التواقيع مفتتح بـ«رُسم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنظر غَزَّة، وهى :

رُسم بالأمر ـ لازال النَّصرُ المكرَّر، يَحْلُو بذِكْرِه، والسَّعْد المقرّر، يَجْلُو وُجوهَ الآمالِ بذَهْرِه، ولا بَرِحَ سِراجُ الخدَمِ مُضِيأً عند ليالى نَهْيه الحالِكِ وأَمْرِه ـ أن يستقرّ فلانٌ ... ... : لِمَا عُرِف فى المناصب من نُهوضِه الذى رَاق وراج، وفى المهمَّات من رَأْيِه الذى يمشِّى أحوالَ الجهاتِ المستقيمة بسِراج؛ ولِمَا شُهِر له فى الأَنْظار المتعدّدة من عُلُوّ الهِمَم، وفى الوظائف المتردّدة من العَزَماتِ التى يقول السَّدادُ : نَبِّهْ [لها] عُمرًا[(1)] ثم نَمْ؛ ولِمَا وُصِف من أمانَتِه ودِرايَتِه وهُما المراد [تان] من مِثْلِه، ورآسة خَلْقِه وخُلُقِه المُشيدَيْنِ عن حُسْنِ الثناء وسَهْلِه، وآثاره الحميدة المنتقِلات وكيف لا ؟ وهو المنتسِب إلىٰ سلفٍ يحمَد لسانُ الإسلام أثرَ عَقْلِه ونَقْلِه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المبارَكةَ على العادة مباشرةً يُحمد أثرُها، ويُسْنَدُ عن صحيح عزمه خُبْرها وخَبَرُها، ويُورق بغُصون الأَقْلام وَرَقُ حِسابِها ويَرُوق ثَمَرُها؛ مُجْتَهِدًا فهو من نَسْل المجتَهِدين فى عوائد التَّحْصين والتَّحْصيل، والتَّأثير والتَّأثيل، مَلِيًّا بما يجبُر كَسْر هذه البلاد بالصِّحّة ويأْسو جُرْحَها بعد التَّعْديل، حَرِيصًا علىٰ أنْ يُحْيِيَ ـ بمشيئة الله تعالىٰ وتدبيره ـ عَمَلَها الذى لم يُبْقِ الموتُ من ذَمائِه غيرَ القَليل؛ سالِكًا

(١) أُنظر حاشية ٢ ص ٣٨٨ من هذا الجزء .

من النَّزاهَةِ والصِّيانة طَرِيقَته المُثْلىٰ، ومن الكَفَاءة والأمانَةِ عادته التى ترفع دَرجَته ـ إن شاء الله ـ إلىٰ ما هو أعْلىٰ وأغْلىٰ؛ مُسْترفِعًا للحساب ولقَدْره فى الخِدْمه، شاكِرًا: فإنَّ الشُّكْرَ ضَمِينٌ لازدياد النِّعمة بعد النِّعْمه، سِراجًا وَهَّاجَ الذَّكاء على المَنَار ولا ظُلْمَ مع وُجوده ولا ظُلْمه؛ والله تعالىٰ يُعلى قَدْرَه، ولا يُطْفِئُ ذِكْرَه .

* * *

تَوْقيعٌ بصَحابَةِ ديوان الحَرَمَيْن، من إنشاء ٱبن نُباتة، لمن لَقَبه «شمس الدِّين» وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ أوامِرُه نافِذَةً فى الآفاق، عاطِفَةً عَطْف النَّسَقِ علىٰ ذَوِى الاَستحقاق، مُطْلِعةً شَمسَ التُّقىٰ والعِلْم فى منازل الإشراق ـ أنْ يستقرَّ المجلس ... ... : علمًا باستِحْقاقه لما هو أكْثر وأكْبر، وأوْفىٰ وأوْفر، وإطْلاعًا لشَمْسِه وإن ٱعترضها غمٌّ غَيْمٍ فى مَطَالع شَرَفها الأنور؛ وإعلامًا بأنَّه غَيْمٌ يزُورُ ويزُول، ونَقصٌ لا يُقِيم إلا كما يذْهَبُ عارِضٌ من أُفُول؛ وٱعتمادًا علىٰ ما عُرِف من وَفاءِ صَحابَته، وأَلِفَ من سَناء دِرَايَتِه ودَرَابَته، ووُصِفَ من أيَّام دَيونَتِه (١) بعد أيَّام حُكْمه بعد أيَّام خَطابَته!؛ وٱستنادًا إلىٰ نَشْأتِه فى بَيْت العِلْمِ المستفاد، والحُكْمِ المُسْتجاد، والفَضْلِ المُسْتزاد، وتَرْبِية الوالد الذى كان الاَختيار يحْلِفُ بالفَخْر أنه ما يرَىٰ أظْهرَ من ذَاتِ العِماد .

فلْيباشِرْ صَحابَةَ ديوان هَذَيْنِ الحرمين الشَّريفين بأمَلٍ مَبْسوط، وحَالٍ بينما هو مَنْحوسُ حَظٍّ إذا هو ـ إن شاء الله ـ مَغْبُوط؛ وٱجْتهادٍ مَضْمونٍ لجَدْواه فَضْلُ الزياده، وسَيْرٍ لا يزال بشَمْسِه حتَّى تَجْرِى لمستقَرٍّ لها من مَنازِلِ السَّعاده، ومُباشَرةٍ لأوقافها تُعان وتُعادُ أجْمَلَ إعانةٍ وأكْمَلَ إعادَه، وصَحابَة يَتنوَّعُ فى نَفْعها ويتعين حتَّى تكونَ [منه] عادةً ومنها شهاده .

(١) أيام كان بديوانه . وهو لفظ سخيف ليس بعربى .

⁂

تَوْقِيعٌ بنظر الشّعْرا و بانياس ، من إنشاء آبن نُباتة ، لمن لقبه «صَدْر الدِّين» وآسمه «أحْمد» بالعَوْد ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالت صُـدُور الكُفاة مُنْشرِحةً فى أيّامه ، مُنْسرِحَةَ الآمال فى إنعامه ، ولا بَرِح عَوْدُه أحمدَ إلى المناصب فى ظلال سُيُوفه وأقْلامه .

ومنـه : فلْيباشرْ هـذه الوظيفة الشاكِرَة له أوّلًا وآخرا ، ولْيجتَهِدْ فيما يَزِيدُه من الاعْتناء والاغْتناء باطِنًا وظاهرا ، وليستَزِدْ بشُكْره من النِّعمة فما أخلفَ وعْدُ المَزِيد شاكرا ، ولْيَحْرِصْ على أن يُرى أبدًا فى المراتب صَدْرًا ولا يُرى عن وُرُود الإحسان صَادرا .

⁂

تَوْقِيعٌ بنظر حِمْص ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به لآبن البَدْر ناظِرِ حِمْصَ بالنُّزول من أبيه عند ما أسَنَّ ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زال حسنُ النَّظَر من مَواهِبه ، ويُمْنُ الظَّفَر من مَراكِبه ، وسَقْيُ البلاد صَوْبَ العَدْل من سحائِبِـه ، ولا بَرِح سنا البَدْرِ من خَدَمه فإذا أحسَّ بالسِّرار ألْقَى الخَدَمة إلى أزْهَرِ كواكبه ـ أنْ يستقرَّ المجلسُ ... ... : لِمَا عُلِم من رأيه الأسدِّ ، وعَزْمه الأشدِّ ، ومَرْبَى والده حتَّى يبين عِظَمُ الهَناء بالشِّبْل عند ماوَهَن عَظْمُ الأسَد ، ورُكونا إلى نَجابتِه التى سَمَتْ أصـلًا وفَرْعا ، وقَدُمتْ غَناءً ونَفْعا ، وتَبسَّمتْ كمائمُ أصْلِها المستأنَفَة حيثُ كاد الزمانُ يَنْعَى منه يَنْعا ، وآستنادًا إلى أنَّ الصِّناعة شَابَّة ، ونَسماتِ التَّمكِينِ هَابَّة ، وإلى أنَّ أغصانَ العزائم نَضِرَة ، وإلى أنَّ مع القُدْرة قُدْرَه ، وإلى أنَّ كوكَبَ العِزِّ فى المنزلة قد خَلَف بَدْرَه ، وآعتمادًا على سِهام تَنْفيذه الصائبه ،

وأحكام هِمَمِه الواجبه ، وأقْلام يَدِه التى تُحسِنُ إخراج الأمل فيه وكيف لا ؟ وهى الحاسِبَةُ الكاتبه .

فلْيباشِرْ هـذا النَّظَر المفَوَّضَ إليـه سامِيًا نَظَرُه ، زاكِيًا فى الخِدْمة خُبْره وخَبَرُه ، شاكِرًا هـذا الإنعامَ الذى بَرَّ أباه (١) وأسْـعد جَدَّه ومَزِيدُ الإنعام مضمونُ المزيد لمن شَـكَرَه ، عالِمًـا أنَّ هـذه المملكة الحِمْصِـيَّة من أقْـدم ذخائر الأيام ، وأكْرم ما أفاءَ اللهُ من غَنِيمَتِهـا وظِلِّها علىٰ جُنْدِ الإسـلام ، وأنّهـا من مراكـز الرِّماح كما شُهِر فلْيُمِدَّهـا من تَدْبيره برماح الأقْـلام ؛ ولْيواظِبْ بحُسْنِ نَظَرِه علىٰ تَقْرير أحْوالهـا ، وتَقْرِيب آمالهـا ، وتأْثير المصالح فى أعْمالها ، ولا يمحِّص أمرها فى التَّضْييق فكفىٰ ما مَحَّصَتْها الأيامُ علىٰ تعاقُب أحْوالهـا ؛ بلْ يجتهِدُ فى إزاحَةِ أعْذارها بسَـدادِ الرَّأْيِ الرابح ، وإشاعة الذِّكر الحَسَن مع كلِّ غادٍ ورائح ، ورفْعِ الأيْدى بالأدْعيةِ الصالحة فى تلك المشاهد للمَلِك «الظاهر» فى هـذا الوقت والملك «الصالح» ؛ حتَّى يشهـدَ سَيفُ الله «خالد» بمَضاءِ سَيْف حَزْمه وعَزْمه ، وحتَّىٰ يتوفَّر من غَرَضِ الخَيْر والحَمْد نَصِيبُ سَهْمِه ، وتقوى الله تعالىٰ أوّلُ الوصايا وآخرها فلْتكُن أبدًا فى هِمَّة فَهْمِه .

⁂

تَوْقيعٌ بنَظَر الرَّحبة ، من إنشاء آبن نُباتة لمن لقبه «تاج الدين» وهو :

رُسِم بالأمر ــ لا زالَ مَلِيءَ السَّحاب ، بسُقْيا الآمال الوارده ، مَمْلُوءَ الرِّحاب ، بكُفاة الأعمال السَّائده ، مَخْدوم الممـالك والأيَّام بأقلام الدواوين الحاسِبة وأقلامِ الدواوين الحامدَه ــ أنْ يسـتقرّ ... ... : لكفاءته التى وافق خُبْرها الخَبَر ، ونُشِر ذكْرُها نَشْرَ الحِبَر ؛ وصِناعة حِسَابِه التى لو عاش «أبُو القاسم المَعَرّى» لم يكن له فيها قَسِيمًا ،

(١) لعل هذه الكلمة زائدة من قلم الناسخ .

ولو عاصرها «ٱبْن الجَرَّاح» بقَـدَمِه وإقـدامه لَا نقلب عنها جريح الفِكْر هَزِيمـا؛ بل لو نَاوأه الشَّدِيد المـاعِزُ لَذُبِحَ بغير سِكِّين ، والتَّاج الطويلُ لَرجع عن هذا التَّاج الطائل رُجوعَ المِسْكِين .

فلْيباشِرْ ما فُوِّض من هذه الوظيفة إليه، ونَبَّه الٱختبار فيها نَظَره الجميلَ وناظِرَيْه؛ جارِياً علىٰ عوائد هِمَمِه الوثيقه ، ماشِياً علىٰ أنْجح طريق من آرائه وأوْضح طَرِيقَه ، نازِلًا منزلةَ العَيْن من هذه الجهة التى لو صُوِّرَتْ بَشَرًا لكان ناظِرَها على الحقيقَـه ؛ مُفَرِّجًا لمَضَايقها حتّىٰ تكون كما يقال رَحبه ، مُقْتحِماً من حُزُون أحوالهـا العَقَبة وما أدْراكَ ما العَقَبه؟ ؛ فَكَّ من رقابِ السُّـفَّار المعَوَّقين رَقَبَـه ؛ وأطْعِم أربابَ الٱستحقاقات فى يومٍ ذِى مَسْغَبه ، وساعَف بتَيْسِير المعلوم كلَّ كاتبٍ ذِى مَتْرَبَه ؛ حَرِيصًا علىٰ أن يُغْنِيَ الديوان بوَفْرِه ، وتُغَنِّى حُداةُ التُّجّارِ بشُـكْرِه ، وعلىٰ أنْ يقومَ رجالُ الٱستخدام فى المُهِمّات بنَصْرِه ؛ وعلىٰ أن تُساقَ بفِضِّىِّ قلَمِه الأموالُ أحْسنَ سَـوْق ، وعلىٰ أنْ يكونَ لأهلِ الرَّحبَـة من إحسانه «مَالِكٌ» ومن جَدْوَىٰ تَدْبِيره «طَوْق» ؛ والله تعالىٰ يُوضِّح فى المصالح مِنْهاجَه، ويُعلِي علىٰ رُءُوس الأوصاف تَاجَه .

٭٭٭

تَوْقِيعٌ بنَظَر جَعْبر قبل أن تُنْقَل إلىٰ عمل حَلَب ، من إنشاء ٱبن نُباتة، كُتب به «لِهبَة الله بن النفيس» ، وهو :

رُسم بالأمر ــ لا زالتِ المناصِبُ فى دولته الشريفة تَسْتقبِلُ هِبةَ الله بشُـكْرِها ، ونَتائِجَ الذِّكْر النَّفِيس بمقدّمات نَشْرها وبِشْرها ــ أنْ يرتَّب ... ... : لكفاءته التى ٱشتهرتْ ، وأمانتِـه التى طَهُرت فظَهرتْ ، ومُباشَرتِه التى ضاهتْ نُجُوم السماء إذا زَهَرتْ ، ونُجُومَ الأرضِ إذا أزْهرتْ ؛ وأنّه الذى جُرِّب عَزْمُه فزكا على

التَّجْرِيب، ورَقِيَ فى مطالع التَّدْرِيج والتَّدْرِيب، ونَصَّ حَدِيثُ ٱجتهاده المقرّب فكان سابِقًا على النَّصِّ والتَّقْرِيب؛ وأنَّ هـذه البُقْعة المباركة مِمَّن أطاب التَّارِيخُ خَبَرَها، وقَصَّ سِيَرَها، وحَمِدَ صاحِبُها العقيليّ من قَدِيمِ أثَرِها، وعَرَف بركَتَها لمَّـا ٱستسقىٰ بها من السَّماءِ علىٰ لسان بَعْض الحيوان مَطَرَها .

فلْيباشِرْ هذا الثَّغْر المحروس بكفاءة باسِمَه، وعَزْمةٍ كالحُسامِ لأدْواءِ الأمور حاسِمَه؛ ورَأْيٍ للنَّجاح حَسَنِ الاَسْتِصحاب، وتَثْمِيرٍ كما مَلأَ الرَّحبَة فلْيَمْلأْ بمضاعَفَتِه الرِّحاب؛ مُوفِّرًا العَدَدَ للحواصِل وحَواصِل العِدَاد، فاتِحًا لأفواه القُفُول بذكره الجميل فى التَّهائم والنِّجاد، ماشيًا فيما يأتِى ويَذَر علىٰ سَدادِ الطُّرُق وطُرُقِ السَّداد .

✥

تَوْقيعٌ بنَظَر البِقاع، من إنشاء ٱبن نُباتة، وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زال يُهَنِّئُ للكُفَاة رِزْقا، ويُهَيِّئُ لتَجْدِيد المناصب مُسْتَحِقًّا، ولا بَرِحَتِ البِقاع بأيّامه الكريمة تَسْعَد كما تَسْعَد الرِّجالُ ولا تَشْقىٰ ـ أن يرتّب ... ... حَسَبَ ماتضمنته مُكاتَبة الجناب الفلانى : مُنَبِّهًا علىٰ قَدْر هذا الناظر المُهَذَّب وصْفُه، المرتَّب علىٰ نَحْوِ الثناء نَعْتُه وعَطْفُه؛ المشهورِ بمباشرته ٱنتفاعُ الوظائف وٱرْتفاعُها، الشاهدِ بكفاءته وأمانته مَسالكُ الأعمـال وبِقاعُها؛ وٱعتمادًا علىٰ مباشرته الزكيه، وكتابته التى لا يُداهِنها المداهِنُون وهى نِعم البَعْلَبَكِّيه (١) .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المتَيَمِّنَةَ بمطالع رَشَده، ومَطَالب سَدَدِه، عالمًـا أنَّ البقاعَ كالرِّجال تَسْـعَد وتَشْقىٰ : فلْيَكُنْ سَعْدُها علىٰ قَلَمِـه ويَدِه؛ مجتهدًا فيما يُبَيِّض وَجْهَ

(١) نسـبة الى بعلبك عند من يجعله اسمـا واحدا و يمنعه من الصرف فأما من يضيف الأوّل الى الثانى ويجرى الأول بوجوه الاعراب فالنسبة عنده بعليّ .

شَاكِرِه، حَرِيصًا على آزدياد الصفات التى كانت فى عقد حساب العمل مَحلَّ بَنَانه بجعلته الآن مَحلَّ نَاظِرِه؛ مُثَمِّرا لأموال النواحى وغِلالِها، واضِعًا عن أرباب الاستحقاقات ما عليها من سُوءِ التدبير: من إصْرِها وأغلالِها؛ محتاطًا لنفْسه فى الحوطات حتّىٰ لا يُذْكَر إلا بخَيْر، ولا يُعرف قَلَمُه إلا بمَيْر؛ ناثرا حَبَّ حُبِّه حتّىٰ تَهْوِى إليه ألفاظُ الثَّناء هُوِىَّ الطَّير؛ جاعِلًا تَقْوى الله مَقْصَدَه: فإنَّها السبيلُ إلىٰ فَوْز الدارين لا غَيْر.

الصنف الرابع

(مما يُكتب لأرباب الوظائف بالشام ــ تواقيعُ مشايخ الخَوَانق، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما هو بحاضرة دِمَشْق، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح بـ«الحمد لله»)

وهو توقيعُ شَيخ الشيوخ بِدمشق: وهى مَشْيخةُ الخانقاه الصلاحية المعروفة بالشُّميصاتية. وقد تقدّم أنها يكتب بها أيضا من الأبواب السلطانية. ثم هى تُفْرد تارةً عن كتابة السِّر بالشام، وتارة تُضافُ إليها.

تَوْقيعٌ بمَشْيَخةِ الشُّيوخ بالشام، من إنشاء الشَّيخ جمال الدين بن نُباتة، كُتب به للشيخ «علاء الدين علىّ» مفردة عن كتابة السِّرّ، وهو:

الحمدُ للهِ الذى جعل شَرَف أوْليائه عَليا، وفَضْلَه الجليـلَ جَليّا ، وٱتّصالَ علائهم كٱتّصال كَوْكبِ الشّرَف بإيلاءِ الخيرات مَليّـا ، وحاضِرَ أُفقِهم كغائِبِه إذا سُطِّرت دَعَواتُه وٱسْتمطرت هِباتُه كان علىٰ كِلا الحالَين وَليّا .

نحمـدُه علىٰ توالى النِّعم الأنيقَـه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تستَمِرُّ بأصْلِها فُروعُ الحقيقه ، ونشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسـولُه أجْدرُ الخَلق بكَرَم الخَليقَـه ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين سَلَكوا بهُدَاه أحسنَ طَرِيق وسُلِكُوا فى أحْسن طَريقَه ، صلاةً دائِمةً لا تزالُ بها عقائِد الإخْلاصِ مُوثقَة وألْسِنة الذِّكر طَلِيقَه ، وتَحيَّـةً إذا بَدتْ فى حَضْرةِ الأذْكار كانت للأعْين من النُّور نهـارَه وكانت للأنْجم من القَدْر شَقِيقَه .

أما بعدُ، فإنَّ أوْلَى المراتب الدينية بتَقْديم العِنايَه ، وتَفْخيم الرعايه ، وتكريم التولية ولا سيما إذا كانت منتسبة إلىٰ أهْل الوِلايَه ـ مَرْتبةُ مَشْيخة الشيوخ التى يجمع عبادَ الله الصالحين نِطاقُها ، ويَضُمُّهم رِواقُها ، وتطلعهم مطالِـعَ كواكب الهُدَىٰ آفاقُها المُنيرة وأوْفاقُهـا .

ولمـا خَلَتِ الآنَ هـذه الرتبةُ بالشام المحروس من شَـيْخ تَدُور هذه الطائفة علىٰ قُطْبِه ، وتجتمعُ علىٰ مائدة قُرُباته وقُرْبه ، وتَمْشى علىٰ قَدَمِه وتُناجِى صلاحَ أحوالهـا عن قَلْبِـه ـ تَعيَّن أنْ نختار لهـا مَن كَمَلت بالله أدَاتُه ، وصَفَتْ فى مشاهد الحقِّ ذَاتُه ، وزَكَتْ فى عِلْمَيِ الإبانَةِ والأمانة شهادتُه المُفْصِحةُ ومشاهَداتُه ، وأجْمع الناسُ علىٰ فوائد تَسْليكه واسْلاكِ قَلَمِـه حيث بَدتْ فى وجوه الحسن حَسَـناتُه ، ووُجُوه الشام شَاماتُه ؛ لمـا شُهِر من مَعْرفته وعِرْفانِه ، ولمـا دُعِىَ له ببَقَاءِ نُوح لمـا فاض

فى العِلْم من طُوفانِه ؛ ولِمَـا قام فى الأذهان من طبقة قَدْرِه الموصوف ، ولمـا سار من رِسالة أخْباره فإذا قالَتِ الآثارُ : «هذا السِّرىُّ» قال الإيثارُ : «وفَضْلُه مَعْروف» .

فلْيباشِرْ هـذه المشيخةَ المباركةَ بصَدْرٍ للسَّالكين رَحِيب ، وبِرٍّ للسائلين مُجِيب ، وفَضْلٍ يقولُ الرائدُ والمرِيدُ بدار إقامَتِه : قِفَا نَبْك من ذِكْرىٰ مَنْزِلٍ وحَبِيب ؛ وبِشْر وبُشْرىٰ يملآن عَيْنَ المُجتَلِى ويَدَ المُجْتَدِى ، وعَطْفٍ ولُطْفٍ إذا قال الذَّاكِر لمن مَضَىٰ : راح مالِكِى ! قال المُعايِنُ : وجَاء سَيِّدِى ؛ ولْيُراعِ أمور الخَوانِقِ الشاميَّة ما غاب منها وما حَضَر ، وما سَمِع منها وما نَظَر ، ولْيُهذِّبْ قُلوبَ ساكِنيها حتَّىٰ يَعودَ كإخْوان الصَّفاءِ من المودَّةِ قَومٌ كانُوا إخوانَ الصَّفَا من الحَجَر ؛ قائِمًـا بحقوق الرُّتبة قِيام مِثْله من أئِمَّة العِلْم والعَمَل ، داعيًا لهذه الدَّولة العادِلَة فإنَّه أقصىٰ دَواعِى الأمل ، مُعْرِبًا ـ لأنَّ العَرِبيَّة من عُلومه ـ عن الإيضاحِ غَنِيًّا عن تَفْصيل الجُمَل ؛ وهو المسَلِّك فما يحتاج لتَسْـليك دُرَرِ الوصايا ، المَخْبُوءُ لمِثْل هـذه الزَّوايا المبرورة : فنِعْمَ الزَّوايا المَحْبُوَّة بنِعَم الخَبايا ؛ واللهُ تعالىٰ يُعيد على الأُمَّة بركاتِه ، ويُمتِّعهم باَسْتِسْقاء الغُيُوث : إمَّا ببَسْطِها عِنْد بِرِّه ! وإمَّا ببَسْطِها عند دَعَواتِه .

⁂

وهذه نسخةُ تَوْقيع بمشيخة الشيوخ بالشام أيضا ، مضافةٌ إلىٰ كِتَابة السِّرِّ به ، كُتب بها للقـاضى ناصر الدين « محمـد بن أبى الطَّيِّب » كاتِبِ السِّرِّ بالشام بـ«المَقَرِّ الشريف» وهى :

الحمدُ للهِ الذى شَرح صُدور أوْليائه بمعرفة الحقِّ واتِّباعه ، وجعلهم خَواصَّه الذين غَدَوْا من أتْباع الحَبِيب وأشْياعه ، ورفَع ذِكْرَهم علىٰ رُءُوس الأشهاد وآواهُم إلىٰ مَقام الأُنْس فى محلِّ القرب بالتَّسْليك المُحَمَّدىِّ الذى أوْصل إليه مَزِيدَه بانْقطاعِه ، وخَصَّهم

ببركات من حَضَّهم على الأعمال الصالحة بقَصْده الجميل وعلمه الغزير واتّضاعه، ومَنَحهم بمن أوْضح لهم الطَّريقَ المستقيمَ بإبدائه الحقَّ وإنْذار إبْداعه، وغَذاهم بالحكْمة فنَشَئُوا بالمعْرفة وصار لهم العَقْل السَّليم بالتَّحفُّظ من الأهْوِية الرَّدِيَّة فسَلمتْ لهم الطِّبية علىٰ قانون الصِّحَّة بحُسْن تركيبه وأوْضاعه، وأفاض عليهم من بَحْر علْمه ما نالوا به الرُّشْد فصاروا أوْلياءَ بملازمة أوْراده ومُتابَعة أوْزاعه .

نحمدُه علىٰ ما ألْهمنا من وَضْع الشَّيْء في محلِّه ، وإيصالِ الحَقِّ إلىٰ أهْلِه ، وإجابة سُؤال الفُقراء وإعانَتِهم بمَن أغناهم عن السُّؤالِ بفَضائِله وفَضْلِه ؛ حمدًا يعيد كَشَّاف الكُرَب علىٰ مُرِيدِيه وطَلَبته ، ويَرفَعُ مَقام من قام بشِعارِ الدِّين بتَعْظيم قَدْرِه وعُلُوِّ دَرَجته ؛ ونشهدُ أن لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى مَن تقرّب منه ذِراعا ، تَقرَّب منه باعا ، ومن أتاهُ يَمشى أتاه هَرْوَلة وإذا تقرَّب إليه عَبْدُه بالنوافل أحبَّه ، ﴿وعِنْدَه مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يعْلَمُها إلَّا هُوَ ويَعْلَمُ مَا فِى البَرِّ والبَحْرِ وَما تَسْقُطُ من وَرَقَةٍ إلَّا يَعْلَمُها ولَا حَبَّه﴾. ونشهد أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءَتِ الأكْوانُ من نُورِ هَدْيِه فاْهتدتْ به أصْحابُ المَعارِفِ المُسَلِّمُون لمُوجِدِهم الأمْرَ والإرادَه ، ومن هو رُوحُ الوجود الذى أحْيا كلَّ مَوْجُود وسَلَّك طَرِيقَ سُنَّتِه المُوصِّلَةَ إلىٰ عَالِمِ الغَيْب والشَّهادَة ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين صَفَتْ قلوبُهم من الأكْدار وإلىٰ التَّقْوىٰ سَبقوا ، وصَدَقُوا فى المَحبَّة فاستحقُّوا ثناءَ مَوْلاهم : ﴿مِنَ المُؤْمِنينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ ؛ فمنهم من شُمَّتْ من فِيه رَائحةُ كَبِدٍ مَشْوِيَّةٍ من خَشْيَةِ الله ، ومنهم من حَدَّث بما شاهده ببَصَرِه وبَصِيرَتِه على البُعْدِ ورآه ؛ ومنهم مَن أحْيا لَيْلَه واْسْتَحْيَتْ منه مَلائِكةُ السماء ، ومنهم من اتَّخذه أخًا إذْ هو بابُ مدينةِ العِلْم ورُكْن العلماء ؛ صلاةً دائِمةً تُطَيِّبُ أوقات المحِبِّين ، وتُطْرِبُ بسماعها قُلوبَ المتَّقينَ أهْلِ اليَقِين ؛ وسلَّمَ تسليما .

أمَّا بعدُ، فإنَّ أولىٰ من قدّمناه، إلىٰ أهْل الصلاح، ورفَعْناه، إلىٰ محلِّ القُرْب ورُوح الأرواح؛ وحَكَّمناه، علىٰ أهْل الخَيْر، ومكَّنّاه فى حزب الله الذى غَلَب لمَّا آجتهدُوا علىٰ إخراج حزب الشَّيْطان من قلوبهم وزحَفُوا علىٰ قرارِه بجَيْش التَّقْوىٰ وسِمَتُهم الزُّهْـدُ وحُسْن السَّيْر؛ ووَلَّيناه أجلَّ المناصب الذى تجْتمعُ فيه قلوبُ الأولياء على الطَّاعه، وأحْلَلناه أرفعَ المراتِبِ الذى خطبه منهم خِيارُ الجَمْـع بخَلْوةِ عَرُوس الجمال فى الخَلْوة بعَقْد ميثاق سُـنَّةِ المحبَّةِ وشهادة قُلوب الجماعَه ـ مَن جَمَّلَه صورةً ومعنىٰ، وآفتخَرَ به أحاد ومَثْنىٰ؛ وباشره علىٰ أحْسنِ الوُجوه، وبلَّغَ كلًّا من مُرِيديه وطَلَبَتِه من فضائله وفَضْـله ما يُؤَمِّلُه ويَرْجوه؛ ومَدَّ موائِدَ عُلومه المحْتوِيَةَ علىٰ أنْواع الفضائل المُغَـذِّيَةَ للقـلوب، وجلس فى حُلَلِ الرِّضا فكَسَا القَوْمَ الذين لا يَشْـقىٰ بهم الجَليِسُ ملابِسَ التَّقوَى المطهرةَ من العُيوب؛ وظهر فى محْفِلِهـم للهدَايَةِ كالبَـدْرِ وهم حولَه هَالَه، وكان دَلِيلَهم إلى الحقِّ فغَـدَوْا بتَسْليكه من مشايخ الرِّساله؛ وجاهـد فى بيان معانى القرآن العَظِيم حتّىٰ قيل لمَّـا فَسَّره: هذا «مُجاهِد»، وآستدَلَّ علىٰ تَنْزيه من تكلم به ـ سبحانه ـ عن التشبيه والتعليل "وفى كلِّ شىْءٍ له آيةٌ تدلُّ علىٰ أنَّه واحِد"؛ ونقَل الحديثَ المحَمَّدِىَّ الذى هو "مُوطّأ" لتفهيم "الغريب" منه وميز "صَحِيحَه" لكلِّ "مُسْلِمٍ" فأطرب بسماعه الوُفُود، وأفاد العِباد "تنبيه الغافلين" فقاموا فى الخِـدْمة فأصْبحوا تَعْرِفُهم بسِيماهُم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾؛ وخَفَض جَناحَه الذى عَبَر به الشِّعْرى العَبُورَ والنَّسْر الطائر، وسار إحْسانُه إلىٰ طوائف الفُقَراء فصار مَثَلًا فحَبَّذا "المَثَلُ السَّائر".

وكان فلانٌ ـ أعاد الله تعالىٰ من بركاته وأسْبغ ظِلالَه ـ هو الذى أقامه اللهُ تعالى لهذه الطائفة المباركة مَرَّةً بعد مَرَّه، وذُكرتْ صفاتُه الجميلة فكان مَثَلُه للعيون قُرَّه؛

واتّصف بهذه الصّفاتِ التى ملأت الأفواهَ والمَسامعَ كما مَلأتْ مرءآته المُقل، وحصل البِشْر بمعروفه الذى تتبعه السرىّ أبو يَزِيدَ يجرى على عادة القَوْم الكرام ووصل؛ ونَبعتْ عناصِرُ فضائله فكانت شَرابَ الذين صَفَتْ قلوبُهم من كَدَرِها، وأمْطرتْ سَحائبُ علومِه الإلٰهيَّة الدارّةُ من سماء الحقيقة فسالَتْ أوْدِيَةٌ بقَدَرِها؛ وظهرتْ لُمْعَةُ أنوارِ شَمْسِ معارفه عند التَّجَلّى على المُريد، وسَاق نُفوسَ القائمين لمّا عَزَّ مَطْلَبُهم بأصْلِه الذى شرح طَلاسِمَ قَلْبِ الفَانِى بذِكْر الباقِى فغَرِقُوا فى بحار المحبّة ﴿وجاءَتْ كلُّ نَفْسٍ مَعها سَائِقٌ وشَهِيدٌ﴾ .

فلذلك رُسِم بالأمر العالى – لا زال يرفَعُ أهلَ العِلْم والعَمَل إلى أعلى مَقام، ويَبْنِى لهم فى جَنّات القُرْب قُصورَ الرِّضا: ﴿لهم ما يشاءُون فيها﴾ ومَزِيدُهم الإكرام – أن تُفوّضَ إليه مشيخةُ الشيوخ بالشام المحروس: وَظِيفَتُه التى خرجتْ عنه، المرسومُ الآنَ إعادتُها عليه، عوضًا عمّن كانتْ بيده، بمعلُومَى النَّظر والمشيخة الشاهِد بهما ديوان الوَقْف المبرور إلى آخر وَقْت، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد؛ تفويضًا نُظمتْ بالقَبول عُقودُه، ودامَتْ فى دار السعادة سُعُوده، وفى دَرج المعالى صُعودُه .

فلْيَتلَقَّ ذلك بالقَبول، ولْيبلّغ الفقراءَ من إقْبالِه الجَمّ الذى ألْجم عَدُوَّه المُنَى والسُّول؛ ولْيعامِلِ المُريدينَ بالشَّفَقَةِ المعروفَةِ من رَحْمة دِينِه وإفضاله، ولْيشمَلْ كلًّا منهم بعنايته ولُطْفه فإنَّ الخَلْق عِيالُ الله وأحبُّهم إليه أشْفَقُهم على عِيالِه؛ ولْيأمُرْهم بملازمة إقامة الصَّلاة طَرَفَى النهار وزُلَفًا من اللَّيل، وإذا مالوا – والعياذُ بالله تعالى – يومًا إلى مُنافَسَةٍ بينهم فلْيقُلِ: ٱتّقوا اللهَ ما ٱستطعتم وكُونُوا عِبادَ الله إخْوانًا ولا تَمِيلُوا كلَّ المَيْل؛ ولْيفْسَحْ لهم حَرَم الخَيْرِ الذى وقَفُوا فيه تُجاهَ قَصْر تَعبُّده الذى عَلَا بالجَوْهر

الفَرْدِ وقُوَّة الإخلاص ، ولْيُدْخِلْهم منه جَنَّـةَ إقبال فوائده التى فيها من أبْكار معانيه حُورٌ مقصوراتٌ فى خِيامِ أدائِه لم يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قبلهـم ولا جَانٌّ وأعْجز قَصْرُه العالى وجَوْهَرُه الغالِى كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاص ؛ ولْيجعلْهُم له علىٰ جَبَـل ٱعْتمادِه ومَرْوَةِ مُرُوءَتِه إخْوانَ الصَّفا ، ولْيُقِمْهُم فى رُكْنِ مقام المُنـاجَاة اذا زَمْزم مُطْرِبُ حَيِّهِم تِلْقاءَ أهل الوفا ؛ ولْيقَـدِّم السابِقِينَ بمعرفة حَقِّهِم ونجدتهم بالوَرَع الذى يَغْلبون به الشـيطانَ فإنَّ حِزْبَ الله هم الغالبون ، ولْيُـداوِ قُلوبهم المَرْضَىٰ بشراب المَحبَّة وتَرْكيب أدْوِيَة الأمتلاء من الدنيا ليغتذُوا وقْتَ السَّحَرِ [بحديث] (هلْ من تائِب) ولا يَسْقِهم كاساتٍ تَضْعُفُ عنها قوَّتُهم حتّىٰ يَنْقَوْا من بَرَدَةِ الهَوى المُضِرَّة ويَغْتَسلوا بحَـارِّ مجارِى دُمُوعِ الخُشوع ويَلْبسوا جَدِيدَ ملابِسِ التّقىٰ ويغدوا من الحَبائب . ومنه تُعرف الوصايا ، وعنه تُنْقل المزايا ، وكَرَمُ الأخلاق والسَّجايا ؛ ولْيأمُر السالكينَ بمداومة الأعمـال التى قامت بحُسْن العقائد وٱسْـتَقلَّتْ ، ولْيَحُضَّ المُرِيدينَ أوائِلَ التَّسْليك علىٰ ذلك فإنَّ أحبَّ الأعمـال إلى اللهِ تعالىٰ أدْومُها وإنْ قَلَّتْ ؛ وليعرِّفهم المحبةَ بذكرِ الله لئَلَّا يقُومُوا علىٰ قَدَم الهُيام ، وليبيِّنْ لهم المَعْنىٰ إذا لم يعرفوا المَعْنىٰ ليقطعُوا الهَواجِرَ فى طلب الصِّـيام ؛ وليفرِّقْ بين الواردات بملازمة الأوْرادِ لئَلَّا يقَعُوا من الأشتباه فى حَيْرَه ، ولْيأمُرهم بآدِّخار العَمَلِ الصالِح لتكونَ التقوىٰ لقلوبهم قُوتاً والزُّهـدُ مِيره ؛ وليَقْمَعْ أهلَ البِـدَع ، وليَرفَعْ مَن ٱتَّضع ؛ وليتفقـد أحوالَ أوقافِهم بجميع الخوانق والرُّبُط والزوايا بالجميل من النَّظَر ، وليَزِدْ فى الأُجور بما يؤثِّر فيها نظَرُه الذى مازال لهم منه أوْفَرُ نصيبٍ فحبَّذا العَيْنُ والأثَر ؛ والوصايا وإنْ كثرتْ فهو مُفيدُها وعنده مَنْبَعُها ، وتَقْوى الله الذى هو شَيْخُها ومُرِيدُها فى بيتـه المبارك حلاوَةَ ذَوْقِها ومَجْمَعُها ؛ والله تعـالىٰ يَكْلَؤُه فى اللّيل والنهار بآياته البيِّنات ، ويرفَعُه بها ويُرَقِّيه إلىٰ أعلى الدَّرجات .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع مشايخ الأمكنة بحاضرة دِمَشْق ـ ما يفتتح بـ«أمَّا بعد حمـــد الله» وفيها وظائف)

نسخةُ تَوْقيعٍ بمشيخة إقْراء القرآن، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، كُتب به للشيخ شهاب الدين «أحمد بن النقيب» بـ«المجلس العالى» وهى:

أمَّا بعدَ حمدِ الله رَافعِ شُهُبِ الهدىٰ أعْلاما، وجاعِلِ رُتَبِ أفْضلها أعلىٰ ما، ومُحِلِّ أحمدها من مَدارِس الآياتِ مَنازِلَ بَدْرٍ إذا محا المحاقُ من هذا ٱسمًا أثبت من سُمُوِّ هذا قمرًا تَمَاما، ومُسْكِنِه من مواطن الذكر جَنَّاتِ قَوْمٍ بارتقائهم وبَقَاءِ ذِكْرهم خالدين فيها حَسُنَتْ مستقرًّا ومُقاما؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ أرفعِ من ٱتَّخذ القرآنَ إماما، وأنْفعِ من عَقد ٱستحقاقُ النُّبوَّةِ علىٰ حَمْده خِنْصَرًا وجَلَا الحقُّ بهداه إبْهاما؛ وعلىٰ آله وَصَحْبِـه أمْنعِ من لَبِسَ بسَرْدِ الآيات دِرْعًا وٱقتسم من بركتها سِهاما ـ فإنَّ وظيفـةً يكونُ القرآنُ الكريمُ، رَبِيعَ فَصْلِها وفَضْلِها، ورُتْبةً يكون الذِّكر الحكيمُ، مُداوِيَ قُلوبِ جَفْلِها، ومَشْيخةً يكون مُرِيد الآيات البيِّناتِ وارِدَ زوايا أهْلِها ـ لأحَقُّ أن نُتَخَيَّرَ لها الأكفاءُ من ذَوِى الفَضْل الأثِير، والأدِلَّاءُ علىٰ أشرفِ نِتاجِ الهداية من ذَوِى الحِلْمِ الساكِن والعَزْم المُثِير.

ولمـا كانتْ مشيخةُ إقراءِ القُرآن بالتُّربة المعروفة بأُم الصالح بدِمَشْق المحروسـةِ: هى كما يقال: أُمُّ العِلْمِ وأبوه، وأخوه وحَمُوه، وصاحِبَتُه وأهْلُ الكتابِ والسُّنةِ بَنُوه؛ وخَلَتِ الآنَ من شيخ [كان] يحمِى حِماها، وتُقْسِمُ الخلواتُ والآياتُ من بركته وتِلاوَتِه بـ«الشَّمْسِ وضُحاها والقَمَرِ إذا تَلَاهَا» وكان فلانٌ هو الذخيرةُ المخبوءةُ لهذا الأمر، وذو السِّيرة المحْبُوَّة بهذا الشَّرف الغَمْر، وصاحِبُ القراءة والبيان الذى لا يُعْوِزُ زمانَ

طَلَبته [أبو] عُمَر(١) ولا أبو عَمْرو ، والجامعُ لعلوم كتاب الله تعالىٰ جَمْع سلامةٍ فى فَنّه ، وصحّة فى شَرَف ذِهْنه ، وجَواز أمْرٍ يشهد أنَّ البَحْرَ يَخْرج [لدى] المشكلاتِ من صَدْرِه ويدخل عند عَقْد الحُبَا فى رُدْنه ، والقارئُ الذى إذا قال مُبَيِّناً قال الذى عنده عِلْمُ الكتاب ، والتّالى الذى اذا قَصر أو مدّ ، مدّ إلىٰ سموات العُلَىٰ بأسْباب ، والمُشيرُ إلىٰ علمه المرسوم بمُصْحَفِه فلا عَدِمَ إشارتَه ومَرْسومَه أُولُو الألْباب ، والمُجلّى و إن سَمّاه العُرْفُ تاليا ، والمُنَقّب عن غوامض التّفْسير : و «ٱبنُ النقيب» أولىٰ بسند التّفْسير عاليا ، والإمام السُّنّى و إن سمّاه الشرعُ الإمامَ الحاكِمَ دهرا وأقام له فى أُفق كلّ فضل داعيا ، والسّامى الذى يَسْلُك بفَخْرِه على "العِراقِىّ" أوْضح مَحَجّه ، والعَرَبِىُّ الذى ما "للفارِسِىّ" دخولٌ فى باب تَيَقُّنه و إن جاء بحُجَّه ، وذو الرِّوايات المَرْوِيةِ سحائبُه ، وخَلَفُ العلماءِ الأبْيضُ فما «خَلَفُ الأحْمر» مما يُقارِبُه ، ولا «ثَعلَبٌ» مما تَضِجُّ لديه ثَعالبُه ، ولا «ٱبن خَرُوفٍ» مما يُدانيه وهو «اللَّيْث» ومن الأقْلام مَخالبُه ، وبقيّةُ السادةِ القُرّاءِ المنشدُ قولَ الحَماسِىّ .

وَإنّى من القَوْم الّذين هُمُ هُمُ * إذا ماتَ منهم سَيِّدٌ قام صَاحِبُه !
بُدُورُ سماءٍ ، كلّما غابَ كَوْكَبٌ ، * بَدا كَوكَبٌ ، تأْوِى إلَيْه كواكِبُه !

تَعيّن أن يُخْطبَ لهذه المَشْيخة خِطْبَة الفَتَىٰ لاقتبال مَجْده والشَّيْخ لتَوْقيره ، ويُطْلبَ لهذه الرتبة طلبا يَقْضِى الأملُ فيه بعنوان تَيْسيره .

فرُسم بالأمر الشريف أنْ يستقرّ... ... : وضْعًا للأشياء فى مَحلّها ، ورفعًا لأقْدار الأفاضِلِ إلىٰ أعلىٰ رُتَب الفَضْل وأجلّها ، وعِلمًا بمقدار هذا العالم السابِقِ فى أُفُق الهُدىٰ شهابا ، المُدَفِّقِ علىٰ رِياض العِلْم سَحابا ، النّاقِلِ إلىٰ مجالس الاشْتغال خُطًا يقولُ لها المؤْمنُ بالإكرام والكافِرُ بالإرغام : ﴿ يالَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابا ﴾ .

---

(١) هو حفص بن عمر الدّوْرى .

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ مباشرةَ مِثْله من ذَوِى الأناةِ والإفادَه ، وكُفاةِ المناصب الذين علىٰ سَعْيِهم الحُسْنَىٰ وعلى الدَّولة تَصِلُ الزِّياده؛ ولْيَسلُكْ فى الأشغال عادة نُطْقه الأَحسن ، ولْيعامِلْ طَلَبَته فى المباحث بغير ما أَلِفُوا من الخُلُق الأخْشَن ، ولْيعلَمْ أنّه قد جُمِـع بين بِرِّه وتُرْبة الأُمِّ كى تَقَرَّ عينُها ولا تَحْزن؛ فلْيسُرَّها بنُبْلِه ، وليبرَّها بفَضْلِه ؛ ولْيُوفِّرِ السَّعْىَ إليها كلَّ وقْتٍ فى المَسِير، ولْيُفَسِّرْ أحلامَ أمامها فيه فمَنْ مُفردات علومه التَّفْسير، ولْيُحسِنْ لتلامذته الجَمْع ، ولْيَحْمِ حِمىٰ رواياتهم من الخطإ ولا عَجَب أنْ يُحْمىٰ حِمَى السَّبْع ! ، تالِيًا كلام رَبِّه كما أُنْزِل وحَسْـبه ، داعِيًا بِنَسَب قراءتِه إلى ٱبْن كَعْبٍ فحبذا نَسَـبُه المباركُ وكَعْبُه ؛ ناصِبًا بمنظرِ شَخْصه أشخاص أمْثاله الأوَلِ بعد ما ضمهم صَفِيح اللَّحْدِ وتُرْبُه، حتَّىٰ يَمِيسَ «الكِسَائِىُّ» فى بُرْدِ مَسَرَّته الفـاخر، ويفتحَ عيونَ «حَمْزَة» علىٰ زَهراتِ رَوْضِ عَبِق المباخر، ويترنَّم وَرَشَانُ «وَرْشٍ» فى الأوراق علىٰ بَحْرِه الزَّاخر؛ ويظهرَ بفَضْلِه ذِكْرُ «الشَّاطِبىّ» فيكون «القاضى الفاضل» رحمه الله قد أظْهره فى الزمن الأوّلِ و«القاضى الفاضل» أجلَّه الله قد أظْهره فى الزمن الآخر، وتَقْوى الله تعالىٰ كما عَلِم خِتامُ الوصايا البِيض فلْيَتَناوَلْ مِسْكَها الذى هو بشَـذَا المِسْك سَاخِر؛ واللهُ تعـالىٰ ينفع بعلوم صَـدْرِه الذى ما ضاقَ عن السُّؤال فَمَلَّه ، ويمتعُ بعلوّ قَدْرِه الذى إن لم يَكُنْ هو لفَضْل الثناءِ فَمَنْ لَه .

المرتبــــة الثالثـــــة

(من تواقيع مشايخ الأماكن بحاضرة دِمَشْقَ ـ ما يُفتتح بـ«رُسِم بالأمر»)

تَوْقِيعٌ بمشيخة الجَوَالِيقية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ؛ وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زال حُسْن ٱعتقاده يَسْـتَنزِلُ النَّصْر فيُنْصَر ، ويَسْتَبْصِرُ مطالع الفَوْز فيُبَصَّر ، ويَسْتجْلِبُ الأدْعيـةَ الصالحةَ من كلِّ زاهدٍ إذا حام فى أُفُق العبادة

حلَّق وما قَصَّر ـ أنْ يستقرَّ ... ... : حملاً على الوصية التامَّة الحكم والأساس، وعلمًا بأنَّه ممَّن حلَّ فى مشيختِه لباسُ بَلاَس (١)، ونزع فى الزُّهد عمـا عُدّ زينـةً فى النَّاس؛ وسرّح شَـعْره حقيقة التَّسريح فأطْلقه، ومحا رِقَّ سَوادِه وبَياضه فأعْتقه؛ ولازَمَ طرِيقَ مشايخه فما، وشكرِ الحالَ بجعل فى مَنْبِت كلِّ شَعْرةٍ لساناً للشُّكروفَا؛ وسَرَّ طائفةً ورَدُوا علىٰ آثاره مَناهِلَ الوَفا، وصَفَتْ قلوبهُـم ووجوهُهم فدارت عليهـم كُئُوسُ إخوان الصَّفا؛ حتّىٰ مَشَوْا إلىٰ مطالب الخير مَشْىَ الرِّخاخ، وفَاخرُوا أقواماً دنَّسُوا عِزَّة رُتْبتهم فلولا أدبهُم لأنشدُوهم : «عُقولُ مُرْدٍ ولِحَىٰ أشْياخ».

فلْيقُمْ فى مَشْيخَتِه قياماً يُحْيِي القَومَ بأنفاسِه، ويُبْهِجُهم بكرامة الكَشْف من قَلْبِـه وتكريم الكَشْف من رَاسِه؛ سالِكًا بهم فى طرائق الخير مُسْتبشرين، آمِرًا بتَقْصير الملابس وَرَعًا حتّىٰ يدخل بهم إلى النُّسُك مُحَلِّقين ومُقَصِّرين؛ واللهُ تعالىٰ ينفعُ به، ويُغْنِي حالَه بمُذْهَبِ مَذْهَبِه.

الضـــــرب الثـانى

(من تواقيع مَشْيخة الأماكن ـ ماهو بأعمال دِمَشْق، وفيه مرتبة واحدة، وهى الافتتاح بـ«رسم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ تَوْقيع بمَشْيخة الحَرَم الخَليلىّ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، كُتب به للشيخ «شمس الدِّين بن البرهان» الجعبرىّ بـ«المجلس» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ أعلاه الله تعالىٰ، وبَسَط عَدْلَه الذى لا يبلغه الوَاصِفُ ولو تَغالىٰ، وسَرَىٰ لأولياء بِنِي الأولياءِ بِرِّه الذى تَسَنَّن بسُـنَّة الغَيْث ثم تَوالىٰ ـ أن

(١) البلاس كسحاب المِسْح فارسىّ معرب.

يستقرّ ... ... ـ أدام الله تعالىٰ ببركته الأنْتفاع، وباقتداء سَلَفِه الأرتفاع، وأعاد من بَركاتِ بَيْتِه الذى قام البُرهانُ بفَضْله وقال بوُضُوح شَمْسه الإجماع ـ فى مَشْيخة حَرَم سيدنا الخَليل صلوات الله عليه وسلامه، علىٰ عادته القديمة المقدّمه، ومستقرّ قاعدته المعلومة المعلمه؛ بعْد إبطال ما كُتب به لغيره فإنَّ هذا الوَلِىَّ أوْلىٰ، ولأنَّ الحقَّ معه وبَاعُ الحقِّ أطْوَلُ على المُعْنَيَيْن إطالةً[1] وطَوْلا؛ وضْعًا للشَّىْءِ فى محلِّه الفاخر، وحملًا علىٰ ما بيده من تواقيعَ شريفة تَوارثَ برَكَتَها مُلوكُ البسيطة فى الأوّل والآخِر، وعِلْمًا أنّه بقيَّةُ العِلْمِ المَشِـيد، والزُّهْد العَتِيد؛ وخَلِيفَة السَّلَف الصالح وما منهم إلَّا مَن هو «أمين».العَزْم «رَشِيد»، وأنَّه الشيخُ وكلُّ مَن عرفه فى بَقائِه ولِقائِه مُرِيد؛ والقائمُ بالمَقام الخليلىّ ـ صلوات الله تعالىٰ علىٰ سَاكِنِه ـ مقامًا مُجْتبىٰ، والمنْتَسِبُ إلىٰ خِدْمة الحَرَم الإبراهيمىّ مَخْدوما صلى الله عليـه ونسبا؛ والقَدِيمُ الهِجْرة فلا تتركه الأوْطان ولا تَهْجُره، والمُقِيمُ بالبَلَد الخَلِيلىِّ علىٰ إقامة الخَيْر: فما ضَرَّه أنَّ العَدُوَّ يشْكُوه إذا كان «الخَلِيلُ» يشْكُره؛ وقد سبقتْ له مباشراتٌ فى هـذا الحرم الشريف فكان عَزْمُها تَماما، وشُكْرُها لِزاما، وكانتْ على الصَّادِرينَ والوَارِدينَ كتِلْكَ النَّار النبويَّة بَرْدًا وسَلَاما.

فلْيُعُدْ إلىٰ مباشرة وظائفه المذكورة فى التواقيع الشريفة التى بيَـده، ولْيكُنْ يومُه فى الفضـل زائدًا علىٰ أمسِـه مُقَصِّرًا عن غَده؛ بثناء يتَلَقَّ أضيافَ أبِى الأضْـياف، بأليفِ أحْوالِ الداخلين إليه شِتاءً وصَيْفًا وإن لم تكُن رِحلَةَ إيلَاف، جارِيًا فى برَكة التَّدْبير والتثمير علىٰ عادته وعادة سَلَفِه فنِعْم الخَلَفُ ونِعْم الأسْلاف؛ مُواظِباً علىٰ عادة تَقْواه ورفْع الأدعية لهـذه الدَّولة الشريفـه، جاعلًا ذلك منـه أوَّلَ وآخِرَ كلِّ وَظِيفَه؛ والله تعالىٰ ينفع ببركات سَلَفه وبه، ويكافئُ عن الأضياف بَسْطَ راحَتِـه بالخيرات وفَضْلَ تَعَبِه .

(١) الأنسب «طُولا وطَوْلا» .

⁂

تَوْقيعٌ بمَشْيَخة الزاوية الأمِينية بالقُدْس ونظَرِها، كُتب به للقاضى «برهان الدين» آبن المَوْصِلى بـ«ـالجناب العالى» وهو :

رُسم ... ـ لازال يُجْرى الأولياءَ فى مقاصدهم علىٰ أجْمل عادَه، ويَخْتار منهم لمَواطِنِ الخيْر مَنْ يرعاها بنَظَرٍ يُثمِّرُ لها السعادَه ـ أن يُحمَلَ فلانٌ فى وظيفَتَىِ النظر والمَشْيَخة بالزاوية الأمينِيَّة بالقُدْس الشريف، علىٰ حكم النُّزول والتقرير الشرعيَّين المستمرِّ حُكْمُهما إلىٰ آخر وَقْت، وآستمراره فى الوظيفتين المذكورتين بمقتضاهما، ومَنْع المنازِع بغير حكم الشرع الشريف.

فلْيباشِرْ ذلك بما يُقْتدىٰ به من تَسْليكِه وتَأدِيبه، وتَسرُّعِ رَغْبته فى هذا المقام ومن عناية تَهْذِيبه؛ والوصايا كثيرةٌ ولكن لا تُقال لِمثْلِه إذ هو مُعَلِّمُها، وتَقْوىٰ الله سبحانه أهَمُّها وأعظَمُها؛ والله تعالىٰ المسْئُولُ أن يرشِدَنا إليها، وأنْ يجعلَ فى كلِّ الأُمور آعتمادنا عليها؛ بمنّه وكرمه!.

الصنف الخامس

(ممّا يُكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تَواقيع العُرْبان)

والذى وقفت عليه من ذلك مَرسومٌ مكْتَتَب برُبْع تَقْدمَة بنى مَهْدىّ بـ«ـالمجلس السامى» بغير ياء، كتب به لـ«موسىٰ بن حناس» مفتتحا بـ«أمَّا بعد» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله تعالىٰ الذى جمع على الطاعة الشريفة كُلَّ قَبِيلَه، وبسطَ علىٰ ذوى الإخلاص ... ... الظَّليلَه[1]؛ والشهادةِ بأنّه الذى لا إلٰه إلّا هو وحدَه لا شريكَ له

(١) بياض فى الأصل ولعله «ظلال نعمه الظليلة».

شهادة أتخذُها للتوحيد دَلِيلَه، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه الذى آتخذه الله تعالىٰ حَبِيبَه وخَلِيـلَه ، وآتاه الدَّرجة الرفيعةَ والوَسِـيلَه ، وعلىٰ آله وصَحْبه صـلاةً مباركةً أصِـيلَه ـ فإن الأولىٰ لتزكِيـة القوم تُرعىٰ (١) ، وذَا الإخْلاص ينجحُ له كلُّ مَسْعىٰ ، والجديرَ بالنِّعم من يُجيب بالطَّاعة حِينَ يُدْعىٰ ؛ مَن سَـلكَ فى الخِدْمة الشريفة مَسْلَكَ الأسْـلاف ، وتَجنَّب ما يُفْضِى إلى الشِّقاق والخِلاف ؛ فعند ذلك رَفَعْنا مَراتِبَه ، وضاعَفْنا مَواهِبَه ، وأنَرْنا بالإقبال الشَّريف كواكِبَه ، وأجْملنا مكَاسِبَه ؛ وبَسطْنا فى رُبْع تَقْدِمة بنى مَهْدِىٍّ كلامَه ، ونَفَّذْنا أمره علىٰ طائِفَتِه : قولَه وإبرامَه ؛ مَن أضحىٰ مَشْكورًا من كلِّ جانب ، مُجتهدًا فى المصالح وبلوغ المآرِب ؛ مَن عُرِف بالأمانَةِ فسلَكها ، وآشْـتَهر بالصِّيانَة فملَكَها ؛ وحاز أوصافًا حَسَـنه ، وسيرةً نطقَتْ بهـا الألْسِنَه ؛ وكان فلانٌ هو الذى أضحىٰ علىٰ عُرْبانه مقدّما ، ومن أكابِرهم معظّما .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ مراسِمُه الشريفةُ عاليةً نافذَه ، وأوامِرُه بصلة الأرزاق عائده ـ أنْ يستقرَّ ... ... علىٰ عادته وقاعدته : حَمْلًا علىٰ ما بيده من التوقيع الكريم .

فلْيباشِرْ هـذه الإمْرةَ مع شُركائه مُباشَرةً حَسَنه ، ولْيَسِرْ فيها سـيرًا تشكُره عليه الألْسِنَه ؛ ولْيُظْهِر السَّداد ، ولْيبذُلِ الطَّاعةَ والآجْتهاد ؛ ولْيَسْلُكِ المسالكَ الحَسَنَه ، والله تعـالىٰ يجعـله من الذين يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَـنَه ؛ والوصايا كثيرةٌ ومِلاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ ، والله تعالىٰ يجعلُ إحساننا إليه يتوالىٰ .

قلتُ : وقد تقدّم أنَّه يُكتب بإمْرة بنى مَهْدِىّ من الأبواب السلطانية أيضا . علىٰ أنَّ هذا التوقيعَ من التواقيع الملَفَّقةِ ، ليس فيه مطابقــة للتواقيع ، وليس برائق اللفظ ، ولا مُؤْنِق المعنىٰ .

(١) هذا الكلام كما نبه عليه المؤلف بعد غير منسجم بل غير مستقيم .

الصـــــنف السـادس

(ممـا يكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تواقيع زعمـاء أهل الذِّمة : من اليهود والنصارىٰ)

وهـذه نُسخة تَوْقيعٍ لبطرك النصارىٰ مفتتحًا بـ « أمَّا بعـد » كُتب به للبطرك « ميخائيل » وهى :

أمَّا بعدَ حمـدِ اللهِ الذى جعلنا نَشْملُ كلَّ طائفـةٍ بمزيد الإحسان، ونُفِيضُ من دولتنا الشريفـة علىٰ كلِّ بَلَدٍ آطمئنانًا لكلِّ مِلَّةٍ وأمان ، ونُقِرُّ عليهـم من آختاروه ونُراعِيهـم بمزايا الفَضْـل والآمْتِنان ؛ والشَّهادةِ بأنَّه اللهُ الذى لا إلٰه إلَّا هو الواحدُ الذى ليس فى وحدانيته قَوْلان ، والفَرْد المنزَّه عن الجَوْهر والأقنوم والوالد والولد والحُلول والحَدَثان ، [شهادةً] أظهر إقْرارَها اللِّسان ، وعَمِلَتْ بها الجوارِحُ والأركان ؛ والصَّلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه المبعوث إلىٰ كافَّة المِلَلِ والإنْس والجانّ ، الذى بَشَّر به عيسىٰ وآمن به مُوسىٰ وأنزل عُمومَ رسالته فى التَّوراة والإنْجيل والزَّبور والفُرقان ، فصَحَّ النَّقْل بنبوّته وآدَمُ فى المـاء والطِّين وأوْضح ذلك البُرْهان ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سادوا بإخلاص الوحدانيـه ، وشادُوا أركان الملة المحمَّديَّه ، وأعزُّوا الإيمان وأذلُّوا الطُّغيان ، صلاةً ينفَحُ طِيبُها ، ويُفْصِحُ خَطِيبُها ، ويَفْرح بها الرحْمٰن ـ فإنَّ أوْلىٰ من أقْمْناه بِطْريكا علىٰ طائفة النصارىٰ الملَكيَّه ، علىٰ ما يقتضيه دِينُ النصرانية والمِلَّة العِيسَويَّه ؛ حاكِمًا لهم فى أمورهم ، مُفْصِحًا عمـا كَمَن فى صُدُورهم ـ من هو أهلٌ لهذه البِطْريكيه ، وعارف بالمِلَّة المسيحيَّه ؛ أخذَهُ[1] لها أهْلُ طائفَتِه ، لمـا يعلمون من خِبْرَتِه ومعرفته ، وكِفَايته ودُرْبَتـه ؛ ونُدِب إلىٰ وِلايَةٍ يسـتحقُّها علىٰ أبناء جِنْسه ، ورَغِب فى سلوكه لهـا مع إطَابة نَفْسِه ، مع ماله من مَعْرفةٍ سَرَتْ

(١) يريد اختاره لهـا .

أخْبارُها ، وظهرتْ بين النَّصارىٰ آثارُها ؛ وكان فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ بهْجته ـ هو من النصارىٰ المَلَكِيَّة بالمعرفة مَذْكور ، وسَيرُه بينهم مَشْكور ، القائِم فيهم بالسِّيرة الحَسنَه ، والسَّالِك فى مذاهبهم سِيَراً تشكُره عليها الألْسِنَه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال إحسانُه العميمُ لكلِّ طائفةٍ شامِلا ، وبِرُّه الجسِيمُ لسائر الملك بالفَضْل مُتواصِلا ـ أنْ يستقرَّ بَطْرَكا على النصارى الملَكِيَّة بالشام وأعماله ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك ، وتقوية يده علىٰ أهل مِلّته ، من تقادم السنين بحُكْم رضاهم ، ومنع من يعارضه فى ذلك : حملًا علىٰ ما بيده من التوقيع الكريم المستمرّ حكمه إلىٰ آخر وَقْت .

فلْيباشِرْ هذه البَطْركيَةَ مباشرةً محمودةَ العواقب ، مشكورةً لِمَا تحلَّتْ به من جميل المناقب ، ولْيحكُمْ بينهم بمقتضَىٰ مَذْهبِه ، ولْيسِرْ فيهم سَيراً جَمِيلًا ليحصلَ لهم غايةُ قَصْده ومَأْربِه ؛ ولْينظُر فى أحوالهم بالرحْمه ، وليعملْ فى تعلُّقاتهم بصدْق القَصْد والهِمَّه ؛ ولْيسلُكِ الطرقَ الواضِحةَ الجليَّه ، ولْيتخلَّقْ بالأخلاق المرضِيَّه ، وليفْصِلْ بينهم بحُكْم مذْهَبِه فى مواريثهم وأنْكحتهم ، ولْيعْتمِدِ الزُّهدَ فى أموالهم وأمْتعتهم ؛ حتَّىٰ يكون كلُّ كبيرٍ منهم وصغير ممتثلًا لأمْرِه ، واقِفًا عندما يُقدّم به إليه فى سِرِّه وجَهْرِه ؛ مُنْتصِبينَ لإقامة حُرْمته ، وتنفيذ أمْره وكَلِمَتِه ؛ ولْيحْسِن النظرَ فيمن عنده من الرُّهبان ، وليرفُقْ بذوِى الحاجات والضُّعفاء : من النِّساء والصِّبيان ، والأساقِفَة والمَطارنة والقِسِّيسينَ زيادةً للإحْسان ، إحسانًا جاريًا فى المَساء والصَّباح ، والغُدُوِّ والرَّواح .

فلْيمتثلوا أمْره بالطَّاعة والإذعان ، ولْيُجِيبُوا نَهْيه من غير خلاف ولا تَوان ؛ ولا يُمكِّن النَّصارىٰ فى الكنائس من دَقِّ الناقوس ، ورَفْعِ أصواتهم بالضَّجيج ولا سيما عند أوقات الأذان لإقامة النَّاموس ؛ ولْيَتقَدَّمْ إلىٰ جميع النصارىٰ بأنَّ كلًّا منهم يلزم

زِيّه، وماجاءت به الشروط العُمَرِيَّةُ ـ عمرُ بن الخطّاب رضىَ الله عنه ـ لتكونَ أحوالُهم فى جميع البلاد مَرْعِيَّـه؛ ولْيَخْشَ عالِمَ الخفِيّات، ولْيستعْمِل الأناةَ والصَّبْرَ فى جميع الحالات؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها عارف، والله تعالىٰ يلْهِمُه الرُّشْد والمعارف .

قلتُ : وهـذا التوقيع فيه ألْفاظٌ ومعانٍ غيرُ مستَحْسَنةٍ، وألفاظٌ ومعانٍ مُنْكَرةٌ، أفْحُشها قولُه : مُفْصحًا عمـا كَمَن فى صُدُورِهم . فإنَّه لا يعلم ماتُخْفِى الصدورُ وتُكنّه إلَّا الله تعـالىٰ .

واعلم أنَّه ربمـا ٱفْتتح تَوْقيعُ البطريك عندهم بـ«رُسِم بالأمر» .

توقيـع لبَطْرك النصارىٰ بالشام أيضـا، كُتب به للبطريك «داود الخُـورى» بـ«ـالبَطْرك المحتشم» وهو :

رُسم بالأمر ـ لازال يَعِزُّ بالٱلْتجاء إلىٰ حَرَمِهِ من يَأْوِى إليه، ويَقْصِد عَدْلَه من أهْل المِلَلِ ويعتمدُ عليه ـ أن يستقرَّ فلانٌ ـ وفَّقه الله تعالىٰ ـ بطريكَ المَلَكية، بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، حَسَب ما ٱختاره أهلُ ملَّتِـه المقيمون بالشام المحروس ورَغِبوا فيه، وكَتبُوا خطُوطهم به، وسألُوا تقريره فى ذلك دونَ غيره؛ إذْ هو كبير أهل مِلَّته، والحاكِمُ عليهم ما ٱمتد فى مدّته؛ وإليه مَرْجِعُهم فى التَّحريم والتَّحليل، وفى الحكم بينهم بمـا أنزل اللهُ تعالىٰ فى التَّوراةِ ولم يُنْسخْ فى الإنجيل؛ وشِرعَته مبنِيَّة على المسامحة والٱحتمال، والصَّبر على الأذىٰ وعَدَم الٱكتراث [به] والٱحتفال .

فخُـذْ نفسَكَ فى الأوّل بِهذه الآداب، وٱعلَمْ بأنَّ لك فى المَـدْخل إلىٰ شريعتك طَريقًا إلى البـاب؛ فتخلَّقْ من الأخلاق بكلِّ جميل، ولا تَسْتَكْثِرْ من متاع الدنيا

فإنه قَليل ؛ وقَدِّم المصالحَة بين المتحا كمِينَ إليك قبل الفَصْل البَتِّ فإنَّ الصُّلح كما قِيل : سيِّد الأحكام، وهوقاعدة دِينِك المَسِيحىِّ ولم تخالِف فيه المحمديَّة الغَرَّاءُ دِينُ الإِسلام ، ونَظِّف صُدُور إخوانك من الغِلِّ ولا تَقْنع بما يُنَظِّفه ماءُ المعمودية من الأجْسام؛ وإليك الأمرُ فى البِيَع ، وأنت رَأْس جماعتك والكلُّ لك تَبع ؛ فإيَّاك أن تَتَّخِذَها لك تِجارةً مُربِحه، أو تَقْتطِعَ بها مالَ نَصْرانىٍّ تقرّبُه فإنَّه ما يكونُ قد قَرَّبه إلى المَذْبَح وإنَّما ذَبَحه ؛ وكذلك الديارات والقَلاَلى؛ [يتعين عليه أن يتفقَّدَ فيها كل أمر فى] [(١)] الأيام والليالى ؛ ولْيجْتَهِدْ فى إجراءِ أُمُورها علىٰ ما فيه رَفْع الشبهات، ولْيعلَمْ أنَّهم إنَّما ٱعتزلُوا فيها للتَّعبُّد فلا يَدَعْها تُتَّخذُ متنَزَّهات ؛ فهُم إنَّما أحدثُوا هذه الرَّهبانية للتَّقلُّل فى هذه الدنيا والتَّعفُّف عن الفُروج ، وحَبَسُوا فيها أنْفُسَهم حتَّىٰ إنَّ أكثرهم إذا دخل إليها ما يعودُ يبْقىٰ له خُروج ؛ فلْيحذِّرْهم من عَمَلها مِصْيَدَةً للمال، أوْ خَلْوةً له ولٰكِنْ بالنِّساء حرامًا ويكونُ إنَّما تنزُّه عن الحلال ؛ وإيَّاه ثم إيَّاه أن يُؤْوِى إليه من الغُرَباءِ القادمين عليه من يُرِيب، أو يَكْتُم عن الإنْهاء إلينا مُشْكِلَ أمرٍ ورد عليه من بَعِيدٍ أو قريب ؛ ثم الحَذَر الحَذَر من إخْفاء كتابٍ يرد [اليه] من أحَدٍ من الملوك، ثم الحَذَرَ الحذَر من الكتابة إليهم أو المشى علىٰ مثل هذا السُّلوك ؛ ولْيتجنَّبِ البَحْر وإيَّاه من ٱقْتحامه فإنَّه يَغْرَق، أو تَلَقِّى ما يُلْقِيه إليه جَناح غُرابٍ منه فإنَّه بالبَيْن يَنْعَق ؛ والتَّقوىٰ مَأْمور بها أهلُ كلِّ مِلَّة ، وكلُّ مُوافِقٍ ومُخالِفٍ فى القِبْلَه ؛ فلْيكُنْ عملُه بها وفى الكناية ما يُغْنِى عن التصريح ، وفيها رضا الله تعالى وبها أمر المَسِيح .

⁂

تَوْقيعُ برآسة اليهود بالشام، مفتتحا بـ«رسم» من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نُباتة، وهو :

(١) مأخوذ من «التعريف ص ١٤٥» .

رُسم بالأمر ـ لا زال جُودُه فى كلِّ مِلَّه ، وغَمامُ كرمه على الخَلْق كأنه ظُـلَّه ، وذِمامُ نِعَمه يُبَلِّغ المسْلِمَ والذِّمِّىَّ من الاستحقاق محـلَّه ، أن يستقرَّ الحكيم (١) ... ...

ومنـه : ـ وأن يعامِلَهم على ما أُلِفُوه من الأحْكام ، ويُنْصِفَ صاحِبَ حَقِّهم من مُتَظَلِّمهم : حتّىٰ لا يَعْـدُوَ أحدٌ فى سَبْتٍ ولا فى سائر الأيَّام ؛ ويُهـذِّبَ وَحْشِيَّ جاهلهم بإيناسه ، ويعالِجَ سَقَم كاهِلِهم حتَّى تطلُعَ الصَّفْراءُ من رَأسه .

فلْيقُمْ مقامًا فى هذه الطائفة القديمه ، ولْيَعبِّر من أسْفارٍ عبرانِيَّة عن عوائد قضاياهم النظيمه ، مُفَرِّجًا بمعرفته كلَّ حَزّان ، جامعًا كلَّ شَعَثٍ علىٰ عَدْلٍ عنـده وإحْسان ؛ شاكِرًا لظُلَلِ النِّعمه ، عارِفًا بالعوارف التى تَرْعىٰ يمينَها كلَّ ذِمَّه .

النيـابة الثـانيـــة

(من النيابات التى يُكتب عن نوابها بالولايات ـ نيابة حَلَب)

وهى علىٰ نَحْوٍ من نَمَط دِمَشْق فيا يكتب عن نائبهـا . فيكتب عن نائبها أيضا بالتواقيع لأرباب الوظائف بحاضرة حَلَب وأعْمالها : من أرباب السُّيوف ، وأرباب الأقلام الدِّينية ، وأرباب الأقلام الديوانية ، ومشايخ الأماكِن وغيرهم ، مُرَتَّبةً علىٰ المراتب الثـلاث : من الافتتاح بـ«الحمد لله» ، والافتتاح بـ«أمّا بعد حمد الله» ، والافتتاح بـ«رُسم بالأمر» .

وهذه نُسخُ تَواقِيعَ ممـا كتب به لأرباب السيوف بحاضرة حَلَب وأعمالهـا ، يُستضاءُ بها فى ذلك :

(١) بياض بالأصول .

تَوْقيعٌ بنقابة الأشراف، كُتب به للشريف عِزِّ الدِّين «أحمد بن أحمد الحُسَيْنى» بـ«المقرِّ العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى خَلَّد السيادةَ فى بيوت الشَّريف أحمدَ تَخْليد، وقَلَّد تقاليد السَّعادة، لأهْلِ الإفادة، أسْعد تَقْليد، وجدَّد الوِفادَة، لحَرم العبادَة، بعزِّ العِصابَةِ المحمدية آكَدَ تَجْديد، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِ الخلقِ الذى عقد العَهْدَيْن لأمَّته، بالثَّقلَيْن: من كتاب الله وعِتْرَتِه، وسرَّ النفوسَ المُؤْمنةَ هُداه بكلِّ أبِيٍّ من أُسْرتِه، وأقَرَّ العيونَ المراقبةَ بكلِّ سَرِيٍّ من أهلِ بَيْتِه تَبرُق أنوارُ النبوّة من أسِرَّتِه، وعلىٰ آله حَبْلِ النَّجاةِ للتمسِّك، وسُبُلِ الهُداة للتَنَسُّك، وصَحْبِه نجومِ الهُدىٰ، ورُجومِ العِدَا، وأئمَّةِ الخَيرِ لمن بهم اَقْتدىٰ، صلاةً وسلاما، يتعاقَبان دَواما، ويتلازَمان على الألْسِنة مدَى المَدىٰ لِزاما، ما حَلا بعين وَطَف، وما علا عَلَوِىٌّ ذُرا شَرف ـ فإنَّ أهمَّ ما اَعْتنىٰ به وُلاةُ أُمورِ الإسلام، وأعمَّ ما اَقْتنَى منه رُعاةُ أجورَ الحكَّام ـ رعايةُ مصالحِ أهْلِ البَيْت، واَنتهازُ الفُرْصة فى مُوالاتِهم حتَّىٰ لا يقالَ لفَواتِها: لَيْت، وتَعْظيمُ ما عَظَّم الله تعالىٰ من حُقوقِهم، وتكْريمُ ما كَرَّم رسولُه من بِرِّهم واَجْتنابِ عُقوقِهم، وتَقْديمُ أحَقِّهم بالتقديم لاحق سَبَّاقِهم إلىٰ غايات الغَلوات وسَبُوقِهم؛ والتَّعبدُ بالتَّعَبِ والاَجتهاد فى نَفْعِهم، ونَصْبُ النفوس للنَّصَبِ لتجُرَّ ذُيولَ الفَخْر بمُوالاتِهم، وإعْلائهم على الرءُوس ورَفعِهم؛ اَختيارًا لرَأْىِ مَن زاد فى العناية بالعِتْرةِ الطاهرة وأرْبَىٰ، وأْتمَارا بقوله تعالىٰ: ﴿قُل لَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ﴾ خصوصًا نِقابةَ الأشراف، والنَّظر فيما لهم من الأوقاف؛ فهى شاملةُ جَمْعِهم، وجامعةُ شَمْلِهم، وواصِلَةُ نَفْعِهم، ونافعةُ كُلِّهم؛ وبفضْلِ مباشرِها تُسْبَغُ عليهم النِّعمه، وتُسْتَدَرُّ ببركة إجماعهم عليه سُحُبُ الرَّحْمه؛ وبكَفالته تجمع المِنَّة لمراتبهم وأحْسابهم، وبإيالَتِه تُدفعُ الظِّنَّة عن مَناقِبِهم وأنْسابِهم؛ وهو القائمُ عن وُلَاة الأمور من خدَمهم

بفروض الكفايه، والدَّائمُ الدَّأْبِ لمرآة أدبهم لتَحْسُن لهم الرِّعايه ، فوجب الاحتفال باختيار من يُحلِّي هـذا المَنْصبَ الشريف، وتَعيَّن الابتهالُ فى آمتياز مَن يُسبَغُ عليه هـذا الظِّلُّ الوَرِيف؛ ممَّن قَدُم فى هذه السيادةَ بَيْتُه، وآرتفع بخفْض العَيْش لقرابَتِه بعَفَافِه ودِيانَتِه صِيتُه؛ وتنزَّه عن كلِّ ما يَشِـينُ وتبرَّا، وآكتسىٰ حُلَلَ الفَخار العليـة ومن أعْراضِ الدنيا الدَّنِيَّةِ تعرّىٰ .

وكان فلانُ بن فلانٍ ــ أسبغ الله تعالىٰ ظِلَالَهم ، وضاعف بمعـالى الشَّرف جَلالَهم ــ ممَّن حازَ فى هـذه الخلال المَنَازع ، وجاز نِهايةَ هذه الخِصَال بلا مُنَازِع ، ووَرد من حِياض المناقب الجميلة أعْذبَ المَشَارع ؛ ودَرَى المراقِيَ إلى المَجْد ودَرِب ، وبلغتْ نفوس مُحِبِّيه من مخايل سُعُودِه الأرَب ، وقَرَّتْ عيونُ أقاربِه بما حصل له من القُرَب ؛ ونَشَأ فى حِجْر السَّعاده ، وآرْتضع لِبَان الإفادَه ، ولحَقَ بالسابِقينَ الأوّلينَ من أهْـل بَيْته فى الزَّهاده ، وتَبَتَّلَ بالإخلاصِ فظهرتْ علىٰ وَجْهـه أنوارُ العِباده ؛ وآنْقطع على العمل ، وبَلَغ من العـلوم الأمل : فؤوم تشبث بالمجـرّة وهو شـامة فى شامه المنسوب :

وَرِثَ السِّيادَةَ كابِرًا عن كابِرٍ! * كالرُّمْحِ أُنْبوبٌ علىٰ أُنْبـوب.

أصْلُ نَخارٍ سَما، وفَرْعُ نِجارٍ نَما، وغَيْثُ فَضلٍ همَىٰ؛ أثْبتَ فى أعلَى المعالى قَدَما، ونَاسب قَدْرَه سَعْيُه كَرَما ؛ وَجلَّتْ صفاتُ محاسِـنه اللّائِقَه ، وَحلَّتِ الأفواهَ مَدائحُ سجاياه الرَّائِقَه ، وتَملَّت الألْسنُ وما مَلَّتْ ما تُملى عنه بالخير كلُّ ناطقَه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لا زالتْ أوامِرُه بِبرِّ آل مُوالاتِه ماضِيَه، ونَواهيه بقَهْر أهلِ مُعادَاتِه قاضِيَه ــ أن يستقر ... ... آستقرارًا يُقِرُّ عينَ العُلَا ، ويسرُّ نفوسَ أهلِ الوَلا ؛ ويَضعُ الأشياءَ فى محلِّها، ويُسنِدُ الأُمور إلىٰ أهْلها ؛ ويَسْتجلبُ الأدعيه،

ويحملُ بالوَلاءِ الجميـل ألْوِيَه ؛ ويشرَحُ خواطر الأشرافِ ويُطَيِّب نفُوسَهم، ويرفعُ بعد سُجودِ الشُّكر بالدعاء رُءوسَهم .

فلْيُبَاشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً يقْفُو بها آثارَ بيْتِه الطاهر، بعزْمٍ كَرِيم : لكلِّ مُصلح بالخير غامِر، ولكلِّ مُفْسِدٍ بالضَّـيْر قاهِر ؛ وحَزْمٍ حَالِم : لكلِّ حقٍّ ناصر، ولكلِّ كَسْرٍ جابِر ؛ ولْيصِـلْ بالبِرِّ رَحِمه، ولْيلِنْ للضعيف كَلِمَـه ؛ وليُقُمْ بأعْباء هذه الوظيفة قيامَ عَمِّه الشَّريفِ وأبيـه ، وليَصُمْ عن أموال الأوقافِ صِـياماً يُقَرِّبُه الله تعالىٰ به ويَجْتَبِيه؛ ليَحْمَد، هـذا المنصبُ الجليل ، فى بيتـه الأصيل ، عودَهُ علىٰ أحمد ؛ ولْينفَعْ قرابَته بتَثْمير أمْوالهم ، ولْيشفَعِ النهضة بالمعرفة فى تثْمِيرِ غلالهم ؛ : لتُدِرَّ بركَتُه أخلافَ أرْزاقِهـم ، وتَقِرَّ خَواطِرُهم بمضاعفة أرْزاقهم وإطْلاقِهـم ؛ ويُخْصِبَ فى جَنابِه مَرْعاهم ، ويُقَرِّب فى بابه مَسْعاهُم ؛ وتَنْطِقَ بشكره ألْسنَتُهم الشريفه، وتَنْطبِق علىٰ صُحْبته ظِلالُ بيوتهم الوَرِيفه ؛ ولْيعْتَبِرْ ويَخْتَبِرْ أشغالهم ولْيمنَعْ شُبَّانَهم من الاحتراف بحِرَفِ الأدنياء ، وليأْمُرِ الآباءَ بتعهُّد تربية الأبناء؛ وليأْمُرْهم من العَمَل بما يناسب مَعاليهم ، ولْيَجْبُرهم بتدْبيره السَّـدِيد جَبراً يُميِّزهم بحُسْنِ السَّمْت من أوْليائهم : وكُلُّنا من مَواليهـــم .

والوصايا كثيره، وعَيْن عُلومه بتَعْدادها بَصيره؛ وتَقْوى الله تعالىٰ لا يُهمَلُ النَّصُّ عليها، والإشارةُ بحُسْـن البيان وحَسَـنِ البَنان إليها ؛ فلْتكُنْ رُكْنَ آستِناده، ورأْسَ مال آعتماده؛ والله تعالىٰ يُديمُه فى صُعود دَرَجِ السُّعودِ مُدَّةَ حياته ، ويجمع له خيرى الدنيا والآخرة برَفْع دَرجاته .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بنقابة الجيوش بحَلَب ، كُتب به لـ«ناصر الدين بن ايتبك» بـ«السامى» بغير ياء، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال أمْرُه الشريفُ يُعَضِّد الجيوشَ بأعْضَـدِ ناصر، ويُرشِـدُ أولياءَ الخِدْمة إلى ٱرْتقاء رُتَب المعالى فكلُّ إنسانٍ عن إدراك محلِّها قاصِر ـ أن يستقرَّ فلانٌ ـ أدام الله توفيقَه، وجعل اليُمْنَ والسَّعْد قرينَه ورَفيقَه ـ ... ٱستقرارًا يُظْهِر مالم يَخْفَ من نَهْضَتِه وكِفَايته، ويُشْهِر مُعْلَن سرِّ يَقَظَته ودِرايَتِه؛ لأنَّه الفارسُ الذى أعزَّ كلَّ راجِلٍ بشَجاعته، والمُمـارِسُ الذى خَبَر الوقائعَ بحُسْن دُرْبَتِه ودراية صِناعَتِه؛ والعارِفُ الذى ٱتَّصف بالخِبْرة وحُسْن الصِّفه، وعُرِفَ فى أُموره بالعَدْل والمَعْرفه؛ والهامُ الذى عَلَتْ هِمَّته فوقَ كلِّ هِمَّه، وكَشف بجزِيلِ مُروءَته من الكُرُبات كلَّ غُمَّه؛ وسار فى الجيوش سَيرَةَ والِده، فشَهِد كلٌّ بمـا حواه من طَارِف الفضل وتَالِدِه.

فلْيباشِرْ ذلك: سائِرًا فى الجنود أحسنَ سيرَه، مُراقِبًا الله تعالىٰ فيما يُبْدِيه من القَوْل والفِعْل والعَلانيَة والسَّريره؛ مُلازِمًا مايلزمه من حُقوق هذه الوظيفه، قائمًا بمـا يجب من أداءِ الخِدْمة الشَّريفه؛ ولْينفِّذْ ما يُؤْمَر به من الأوامر، عالِمًـا بمـا يتعيَّن من حقوق المأْمُور والآمِر؛ [وليجتهد] فى جَمْع العساكر وإعلامِهم بالمُهِمَّات، ولْيتفَقَّدْ أحوالَ الجُنْـد فى سائر الأوقات؛ ولْيُسْفِرِ النِّقابَ عن الوُجوه بالحِلْيَة يوم العَرْض، ولْيُسبِلْ حِجابَ السَّتْرِ علىٰ من أدركه العَجْزُ عن أداء الفَرْض؛ والوَصايا كثيرةٌ لاتحتاج إلى التَّعداد، وتَقْوَى الله تعالىٰ هى العُمْدَة فى كلِّ الأُمور وعليها الٱعْتماد.

***

تَوْقيعٌ بالمِهْمَنْدارِيَّة بحَلَبَ، كُتب به لـ«غَرَس الدين الطناحى» بـ«ـالجناب العـالى» وهو:

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عزائِمُه تَنـدُب للمهمَّات من غُرِسَتْ برياض وِلِّيه أدْواحُ الهِمَم فزكا غَرْسا، وتُقرِّرُ لهـا من شاب فَوْدُه فى إفادة الوُفُود فأجاب

قَصْدًا وأطاب نَفَسًا، ولا بَرِحت عنايته تشمل من أولياء خِدَمها كلَّ شَهْم اذا سل عضبا أزال نفسا وأسال نَفْسا ، وتُعيِّن من أعْيانهم كلَّ جميلٍ يودُّ المُنافِسُ لو شاهده ولا تَبْخَس يَدُ الرُّقِيّ منه نَفْسا ـ أنْ يستقرّ ... ... لأنَّه ذُو الهِمَم التى لا تُلْحَق جيادُها، ولا تُسْبَق جَوْدةً جيادُها(١)؛ لا مُنْتهىٰ لصغار هِمَمه فأنَّىٰ تُدرك كِبارُها، ولا تُدْرك سَوابِقُه فأنَّىٰ تُقْتفىٰ آثارُها؛ له قَدَمُ إقدامٍ(٢) فى الثَّرىٰ لا يزال رَاسِخا، وهَامةُ هِمَّةٍ لم يَزَلْ شَرفُها على الثُّريَّا بَاذِخا؛ ولأنَّه الفارِسُ الذى تُفُرِّسَتْ فى مخايِله الشَّجاعه، وتَبضَّعَ الشَّهامةَ فى الحروب فكانتْ أربَحَ بِضاعَه؛ كَمْ أزْرتْ سُمْرُ رِماحِه بِهِيف القُدود، وأخْجلتْ بِيضُ صِفاحِه كلَّ خَوْدٍ أُمْلود؛ وكَمْ جُرِّدت من مُطْرِبات قِسِيِّه الأوتارُ فتراقَصتِ الرُّءُوس، وشَرِبتِ الرِّماحُ خَمْر الدِّماء فعَرْبدتْ على النُّفوس:

له هِمَمٌ تعلُو السَّحائبَ رِفْعَةً، * وكَمْ جاد منها بالنَّفائِس والنَّفْس!
وتُجْنىٰ ثِمارُ الفَضْلِ من دَوْح غَرْسِه! * ولا غَرْوَ أن تُجْنَى الثِّمارُ من الغَرْس!

فلْيباشِر هذه الوظيفةَ مباشرةً تَحْمَده فيها الوُرَّاد، وتَشْكره بالقَصْد ألْسنةُ القُصَّاد، وتَذْكُره البَرِيديَّةُ بالخير فى كلِّ وَاد؛ ولْيُهيِّئْ لهم [من القرىٰ ما يهيِّئُه](٣) المَضِيف، ولْيحصِّل لهم التَّالِدَ منه والطَّرِيف، ولْيتلقَّهم بوَجْه الإقبال، ولْيَبدأْهم بالخير ليحْسُن له المآل، ولْيَجْعَلِ التَّقْوىٰ إمامه فى كلِّ أمرٍ ذى بَال، وليتَّصِفْ بالإنصاف فهو أحْمَدُ الأوصاف فى جميع الأحوال.

✣

تَوْقيعٌ بتَقْدِمة البَرِيديَّة بحَلَب، كُتب به لعماد الدين « إسماعيل » بـ«المجلس العالى» وهو :

---

(١) كذا فى الأصل مشيرا إليه بعلامة التوقف ولا توقف لان الأولى جمع جيّد نقيض الرديء والثانية جمع جواد للفرس الرائع السابق.

(٢) ذكر القدم وهى أنثى مجاراة للعامة. (٣) زيادة تطلبها صحة المعنى.

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عنايَتُـه الكريمةُ تقدِّمُ إلى الرُّتَب العَليّة مَنْ بَنىٰ أُسَّ إقْدامِه من المُروءَةِ علىٰ أشرف عِمَـاد ، وتُعَيِّن للمِهمّات الشَّريفةِ من آمْتطَىٰ من جِياد العَزْم أسْبق جَواد ، وتَنْدُب لها من أولياء خَدَمِه كلَّ نَدْبٍ لم يزَلْ ساعِدُ سَعْده مَبنيًّا على السَّـداد ، وتُصْعِد إلىٰ أُفقِها من ذَوِى الشَّهامة من فاقَتْ بيَمِينه الصِّعاد ـ أن يسـتقرّ ... ... : لأنَّه ذُو الهِمَم التى سامىٰ بهـا الفَراقِد ، والكُفْءُ الذى نَشِط إلى القيام بالعزائم إذا قَعد عنهـا من ذَوِى الهِمَم ألْفُ راقِد ، والمقـدَّمُ الذى قدَّمه الإقدامُ علىٰ قَضَاء الأُمور المُعْضِـلات ، وحلّىٰ أجْيادَ ذَوِى المآرب إذْ حَلَّ لهم منها بيُمْنِ عَزْمِه المُشْكلات ، ماعَلا جَوادَ بَرِيدٍ إلَّا وسابَقَ الطَّرْفَ بل الطَّرْفَ إلى المراد ، ولا نُدِب إلىٰ مُهِمٍّ للحـكم فيه نيلًا لأمَلٍ إلَّا قدح من رأْيه فى قَضائه أوْرىٰ زِنَاد ؛ والفارسُ الذى تمـايلَتْ بكَفِّه العواملُ عُجْبًا فأخجلت الأغْصان ، وحَلَتْ إذْ حَلَّتْ بقـلوب الأعداءِ وإن كانت من المُرَّان ؛ والشَّهْمُ الذى سـبق السَّهمَ إلى الغَرَض ، والشُّجاعُ الذى ما أعْرَض عن مُحاربَة الأقْرانِ : فصفَّىٰ جَوْهَرَ شجاعته من العَرَض ؛ واليَقِظُ الذى لم يكن يناظره إنْسان ، ولا آنطبق علىٰ أسيافه المُسَهَّدةِ بيَمِينه أجْفان .

فلْيباشِرْ هذه التَّقْدمَة مباشرةً يشهَدُ الحاسِدُ له فيها بالتقديم ، ويُقِرُّ الجاحِدُ أنَّه أُهْدِى لمـا أُسْدِى إليه إلىٰ صراط عَزْمٍ مُسْتقيم ، ولْيَطِرْ إلىٰ قَضاءِ المُهِمَّات الشريفة بأجْنِحَة السَّداد ، ولْيمتَطِ من جَوادِ الجَوَادِّ أسبقَ جَواد ، ولْيُسَوِّ بين البريدية فى الأشغال ، ولْيُقبِلْ عليهم فيما يرومونه من حُسْن السِّفارة بوَجْهِ الإقبال ؛ ولْيسْلُكْ سَنَن الصِّدْق والتَّقْوىٰ ولْيجْعلْهما له أحْسنَ سُنَّه ، ولْيلْبَس سَوابِـغَ الإنصاف فإنَّها من سهام الخَلَل جُنَّه .

* * *

نسخةُ توقيع بنيابة عينتاب ، كُتب به لناصر الدين «محمد بن شعبان» بـ«ـالمجلس العالى» عوضًا عمن كان بها ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال إحسانُه العميمُ، يرفَعُ لناصرالدين قَدْرا، وامْتِنانُه الجسيمُ، ينفِّذُ له فى حِفْظ المَـالكِ المنصورة أمْرا، ويُوَلِّى أمْر الرَّعيةِ مَن حَسُنَتْ سيرته سِرًّا وجَهْرا ـ أن يستقرّ ... ... : لأنه شَهمٌ سَهْمُ عِرْفانه مُصيب، وفارسٌ رَبْع خَبَرِه وخُبْرِه خَصِيب؛ له مَناقِبُ جَليلَه؛ وسِيرةٌ محمودةٌ جَمِيلَه؛ تَنقَّلَ فى المراتب تَنقُّلَ البَـدْر فى سُعُوده، وآرْتَقىٰ ذِرْوةَ السيادة آرتقاءَ الكوكب فى منازِلِ صُعُوده؛ ماباشَر مُباشَرةً إلّا ونُشِرتْ له بها أعْلامُ شُكْرِه، ولا علاَ مَنْزلةً إلّا تُلِيتْ بها سُوَرُ حَمْدِه وذِكْرِه؛ لم يزلْ متَّبِعًا للحقِّ فى أحكامه، سالِكًا سُـبُلَ الصَّوابِ فى نَقْضِه وإبْرامِه؛ فَتح له إقْبالُنا الكريمُ بابَه، فلِذلك قُدِّم علىٰ غيره فى هذه النِّيابه .

فلْيباشِرْها مُقْتفيًا آثار العَفَاف، مُرْتَدِيًا أرْدِيةَ العَـدل والإنصاف؛ مُقِيمًا مَنَـار الشرع الشريف، مُنْصِـفًا من القَوِىِّ الضَّعيف؛ واللهُ تعـالىٰ يوفِّقه للصواب فيما تَوَلّاه، والخطُّ الكريمُ شاهد أعْلاه .

قلتُ : وعلىٰ نيابة عينتاب هذه يُقاس مافى معناها من نيابات العَشَرات، فيَجْرِى الحكم فى تواقيعها كذلك . أمّا الطبلخانات فقد تقـدّم أنَّ الأصلَ أنَّه لا يولَّىٰ فيها إلّا من الأبواب السلطانية .

* * *

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ بإمارة الرَّكْبِ الحَلَبِىّ المتوجِّه إلى الحجاز الشريف، كُتب به لِشهاب الدين « أحمد بن الطنبغا » بـ«ـالجنـاب الكريم » . والبياض فيه وصـلٌ واحد، وهى :

رُسم بالأمر العالى ـ لا زال يمنحُ وَفْدَ اللهِ تعالى بمَن لم يزلْ شِهابُ هِمَمِه فى أُفُق الصيانة مُنِيرا، ويُسْنِدُ أمرَهم إلىٰ كلِّ نَدْبٍ لايزالُ علىٰ الحقِّ ظاهرًا وعلىٰ ذَوِى الباطل

ظَهيرا ـ أنْ يستقرّ فلان من أعْيان المَوالِى الأمراءِ الطبلخانات بحَلَب المحروسة ـ أعزّ اللهُ تعالىٰ نُصْرتَه ـ أميرًا علىٰ رَكْب الحاجّ الحلَبِىّ فى هذا العام المقبل، علىٰ أجْمل العوائد، وأكْمل القواعد، حَسَب ما رُسم به. ٱستقرارًا يَحْمَدُ به الوَفْدُ عند صَبَاح هِمَمه السُّرَىٰ، ويَبْلُغ بهم قِرىٰ الغُفْران بأُمّ القُرىٰ؛ ويَنالُ به طِيبَ العَيْش بطَيْبَة وطَابَه، ويُدرِكُ بجياد فَضْلِه آرَابَه؛ ويُمْنَح به زِيارةَ سَيِّد البَشَر عليه أفضل الصلاة والسلام، ويُفَوِّق به سَهْم إصابته من البِشْر إلىٰ مَرامِى المَرَام؛ ويشهد به بين قَبْره ومِنْبره رَوْضَةً من رِياض الجَنَّه، ويلبَس به سَوابِغَ القَبُولِ لتكون له من سِهام الذُّنوب أوْقَىٰ جُنَّه؛ ويتَردَّىٰ [به] بُرودَ التُّقَىٰ حِينَ يَنْزِعُ مُحَرَّماتِ الإحْرام، ويُقْبِلُ به علىٰ ذِكْرِ الله تعالىٰ فى الوِهَادِ والبِقَاعِ والآكام، ويَسْتقبلُ به حَرَمَ بَيْتِ اللهِ الحرام، ويشبُّ له الهنا حِينَ دخوله المسجدَ من باب بنى شَيْبَه، ويَتَعاطَىٰ به أسباب التَّوبة، لينالَ من العَفْوِ من الله الكريم سَيْبَه؛ ولا يقتصر به عن التَّطاول إلى الدعاء إلى الله تعالىٰ لتَعُمَّه الرحمةُ بفضْلِه وطَوْلِه، ويدخلُ به حرمًا آمِنًا يُتَخَطَّفُ الناسُ من حَوْلِه، ويَفْتح به إلى المقام بابًا من الأمْن إلىٰ يَومِ القيامة مُقيم، ويذْكُر بوقُوفه بعرَفاتٍ وُقُوفَه ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

فلْيباشِرْ هذه الإمْرةَ المباركةَ مباشرةً يتيقظُ منها لهَجْرِ المنام، ولْيَصْرِفْ وَجْهَ سِهامه إليها فى المَسِير والمُقام؛ ولْيُنفِقْ علىٰ الحاجّ من كُنوزِ مَعْدِلته، ولْيَجْعَلِ القيام بمصالحهم من أكْبرِ هِمَّته؛ ولْيَسْعَ بالصَّفا فى حِراسَتِهم من أهْلِ الفساد، ولْيعْتَمِدْ صَوْنَهم من ذَوِى العِناد؛ ولْيعامِلْهم بالإرْفادِ والإرْفاق، ولْيقْطَعْ من بينهم شُقَّة الشِّقاق؛ ولْيجعَلْ تقوَى الله إمامه فى القول والعمل.

* * *

وهذه نسخ تواقيع لأرباب الوظائف الدينية بحلب :

توقيعٌ بقضاء القُضاة، كُتب به لقاضي القضاة جمال الدِّين «إبراهيم بن أبي جَرادة» قاضي قضاة حلب المحروسة الشهير بـ«ابن العديم» من إنشاء ... ...(١) الحنفي بـ«المقرّ الكريم» وهو .

الحمدُ لله الذي رَفع مَراتبَ المناصب العَليَّة وكساها من مَلابِس أهْلها حُلَلَ الجمال، وجَمع شَمْلها فاقترنت بإلْفها اقترانَ النَّيِّرَيْنِ: شَمسِ الضُّحىٰ وبَيْتِ الكَمال، ورَفع عَنْها يَد المُتطاوِل والمُتناوِل فأصْبح رَقْمُ طِرازِها المُوَشَّىٰ منْتَسِجًا علىٰ أحْسنِ منْوال، وقطع الأطماعَ عن إدراك شأْوِها فلا يَصِلُ إليها إلَّا كلُّ فَحْلٍ من الرجال .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التي اعترف من بَحْرها الوَافِرِ بالخَيْرِ الكامل والفَضْلِ المَديد، واقْترف من اقتطف ثِمارَ جُودِها جَميلَ النَّوالِ المُفيد، وجَزِيلَ الإحسان العَديد، حمدًا يُوافِي نِعَمَه ويُكافِي مَزِيدَه، ويعُمُّ بالإنعام الشَّامِلِ نَائِلَه ومُرِيدَه؛ ونَشكُرُه علىٰ مِنَنِه التي يقصُر لِسانُ الإطناب عن حَصْرِها وتَعْدادِها، وتَعْجِزُ بَنَاتُ الفكْرِ عن إدراك وَصْفِها وتَرْدادِها، شُكْرًا ينالُ به العَبْدُ رِضا المَعْبود، ويبلغُ به من مقاصِد الكَرَم والجُود غايةَ المقصود؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا ضِدّ، ولا وَالدَ له ولا وَلَد ولا نِدّ؛ شهادةً تُبيِّضُ وَجْهَ قائلِها عند العَرْض، ويَنْطِقُ بها لِسانُ التوحيد يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيْرَ الأرْض؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذي أظْهر اللهُ به الحقَّ وأعْلنه، وبَهَرَ بحقائق مُعْجِزاته العُقولَ فاعترف

---

(١) بياض في الأصل .

كلٌّ بِصحّةِ ماعَرَّفه وبَيَّنه؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصْحابه الذين نَصر اللهُ بهم الإسلامَ وأبَّد أحْكامه، وأحْكَم بهم مَبانِىَ الإِيمان المُنيرةَ وأيد إحْكامه؛ صلاةً تتعطَّرُ بنفحَات عَرْفِها أرْجاءُ المدارِس، ويُنادِى لسانُ فَضْلها لرَائد فرائِد المَعالِى علىٰ طُول المَدَا. رِسْ[1]؛ وسلَّم ومجَّد وكَرَّم، وشَرَّف وبَجَّل وعظَّم.

وبعدُ: فإنَّ أوْلىٰ من لَحظتْه عَينُ العِنايَة والقَبُول، وأجْدَرَ من بَلَغ من مقاصد المناصب العلية غايةَ القَصْدِ والسُّول؛ وأعزَّ مَن رَقِىَ ذُرا المَعَالى وآرْتقىٰ، وأجَلَّ مَن وُصِف بالأوصاف الجميلةِ ونُعِتَ بالدِّيانة والتُّقىٰ - مَن سَارتْ سيرةُ فَضْلِه فى الآفاق، ودَلَّ علىٰ صَفاءِ السريرة منه حُسْنُ الأخلاق؛ وآشتهر بالعلوم الجزيلة، والمناقب الجليله، وعُرِف فى الإنصاف بالأوْصاف المحمودة والخِصالِ الجميلة؛ وأظْهر من العلوم الشريفة، ماحَيَّر العقول، وحقَّق من المسائل اللَّطيفَة، ماجمع فيه بين المَنْقُول والمعقول؛ ودقَّق المباحِثَ حتَّىٰ آعترف بفَضْلِه الخاصُّ والعام، وفَرَّق بين الحقيقة والمَجازِ فلا يحتاجُ إلى آستعارة إذا تَشَبَّه الأخصام؛ وحَكَم بما أراهُ اللهُ فأحكامُه مَرْضِيَّه، وقَضاياهُ فى الجملة قد أُنْتِجت فهى مُقَدَّمةٌ فى كلِّ قَضِيَّه؛ وثابَرَ علىٰ إلقاء الدُّروس فى وقْتِها وأوانِها، وقَرَّر كلَّ مَسْألةٍ فى محلِّها ومكانِها؛ وأفاد طُلَّاب العلْمِ الشريف من فوائده الجَمَّه، وكَشَف لهم عن غَوامِض المباحث فجَلَا عن القلوب كلَّ غُمَّه؛ وجَال فى ميادِينِ الدُّروس فخَيَّر الأبطال، وحاز قَصَبَ السَّبْقِ فى حَلْبَة اللِّقاءِ فَرَدَّ مُتأسِّفًا كلَّ بَطَّال؛ ونظر فى أُمور الأوقاف بما أراهُ اللهُ فأتْقن بحُسْن النظر وَجْهَ ضَبْطِها، وأجْرَىٰ أُمورَ الواقفينَ على القواعد المَرْضِيَّة فوافق المَشْروطَ فى شَرْطِها؛ وجَمَع ما تفرَّق من شَمْلها فأجْمَل وفَصَّل، وحَفِظ أموالَها فحَصَّل

(١) مراده ارس من رسايرسو.

وأصَّل ؛ فهو الحاكم المشهورُ بالعَدْل والمَعْرِفَه ، والناظِرُ الذى حَمِدت الأُمُورُ تَصرُّفَه ؛ والإمامُ الذى ٱئتمَّ الأنامُ بأقوالِه وأفعاله ، والعالِمُ الذى يَحمَدُ الطالِبُ إليه شَدَّ رِحَالِه ؛ والمدرِّس الذى أفاد بِفقْهِه المُفيدِ النافع ، وترفَّعَ فى البِداية والنِّهاية فهو المختارُ فى المنافع ؛ وسلَكَ مِنهاجَ الهِدايَه ، فنال من العلومِ الغايَه ؛ فبدائعُ ألفاظِه لعقائد الدِّين منظومه ، وكَنْزُ عِرْفانِه عَزيزُ المَطْلَب ومحاسِنُه المشتملةُ على الكمال مَعْلُومه .

ولما كان فلانٌ ـ أعزَّ الله تعالىٰ أحكامَه ، وقرَنَ بالتوفيق والسَّدادِ نَقْضَه وإبْرامَه ؛ هو المشارَ إليه بالأوصاف والنُّعوت ، والمعوّلَ عليه إذا نَطَق بالفضائل والحاضِرونَ سُكُوت ؛ والمشكورَ أثرُ بَيْتِه المشهور ، والمنْشُورَ عَلَمُ عِلْمِه من السَّنَة والشُّهور ؛ يالَه من بَيْتٍ لم يزلْ معمورًا بالتَّقوىٰ والصَّلاح ، مَحْمِيًّا بأسْلِحة أهْلِه : فمِن أحْكامِهم السُّيوفُ ومن أقْلامهم الرِّماح ؛ فهو العديمُ المِثْل وبَيْتُه العديم ، وحَرَم فَضْلٍ يحُجُّ إليه الرَّاحِلُ والمُقِيم ؛ فٱستحقَّ أنْ تقابَلَ مقاصِدُه بالإقبال ، ويُقابَل بما يُؤَمِّله مُقابَلَةَ مِثْلِه ولا كسائرِ الأمْثال .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لازالتْ مراسِمُه المُطاعة تُقِرُّ الحقَّ فى يَدِ مُسْتحِقِّه ، وتَرُدُّ الأمرَ إلىٰ وَلِيِّه ومالكِ رِقِّه ؛ وتَسُوق هَدْيَ الإحْسانِ إلىٰ مَحِلِّه ، وتَضَعُ الٱسْتِحقاقَ فى يَدِ مُسْتَحِقِّه والحقُّ وَضْعُ الشَّيْءِ فى محَلِّه ـ أن يستقِرَّ ... ... بحكم ظُهورِ الحقِّ بيده المباركه ، وخَفاءِ الباطِلِ الذى ليس له فى الحقِّ مُشارَكه ؛ ٱستقرارًا مباركًا مَيْمونًا ، بالخيْرِ والسَّعد مَقْرونا ؛ لأنَّه الأحقُّ بأمرِ وظائفه ، والطائف حول حَرَمِها الممنوع طائفه ؛ وأوْلىٰ من عُقِلَتْ عليه عَقِيلَتُه ، ورُدَّتْ إليه فَرِيدَتُه ؛ وباشَر بنفسه الكريمةِ ما عَهِد إليه سَلَفُه ، وٱنْفرد به فلا ينالُه ـ إن شاء الله ـ إلَّا خَلَفُه ؛

طالما أَلِفَتْ منه الأوقافُ مَنَّ الشَّفَقة والخَيْر، وحَفِظ جِهاتِها المَحْمِيَّةَ عن تطاوُلِ يدِ الغَيْر، ونَعِمَ بحُسْن نَظَرِه من المدارس كلُّ دارِس، وفازتْ منه الدُّروسُ بالعالِمِ العارِفِ والبَطَلِ المُمارِس .

فلْيباشِرْ ذلك علىٰ ما تقدّم له من حُسْن المباشره، ولْيجْتَهِدْ — علىٰ عوائده — فى تحصيل رَيْعه مُثابِرًا على الأُجُور أشدَّ مُثابَره؛ ولْيصْرِفْ أموال الأوقاف فى مَصارِفها، بعد العِمارة والتَّثْمير المَبْدَأيْن فى شَرْط واقِفها؛ ولْيسَوِّ — علىٰ مُقتضَىٰ معْدِلته — بين القَوِىّ والضعيف، والشابِّ الصَّغير والشَّيخ النَّحيف، على قَدْر تفاوُتِهم فى العِلْم الشريف؛ ولْيُطْلِقْ لسانه فى إلقاء الدُّروس علىٰ عادته، ولْيُمَهِّدْ للمشتغلين طَريقَ الفَهْم لِينالوا القَصْدَ من إفادته؛ وهو بحمد الله تعالىٰ أَوْلىٰ من أدّى الأُمور علىٰ الوَجْه المستقيم، ووَفَّى المناصِبَ حَقَّها فإنَّ الوفاءَ جَديرٌ بـ«إبراهيم»(1) .

والوصايا كثيرةٌ وإليه مَرْجوعُها، ومن بِحارِ عِلْمه ودِينه المَتين يَنْبُوعُها؛ والله تعالىٰ يُؤَيِّد به المناصِب، ويرفعُ بعلُوِّ رُتبته المَراتِب .

❖

نسخةُ تَوْقيع بخَطابَة جامع، كُتب به لقاضى القُضاة «كمال الدين عمر» ابن قاضى القضاة جمال الدين إبراهيم بن أبى جرادة الحَنَفىّ، الشهير بابن العديم بـ«المقَرِّ الشريف» وهى :

رُسم بالأمر الشريف — لا زالتْ عِنايتُه تُرَقِّى فى مَنازِل المَجْد من تَأَثَّل بفَضْله بَهْجةً وكمالا، وتُذَلِّلُ جِيادَها لفُرسانِ الفضائل فتُجيدُ لهم فى مَيْدانِ البلاغة مَجالا،

---

(1) يشير الى قوله تعالى : (وإبراهيم الذى وفىٰ) .

وتُسَلِّم رايَتَها [إلىٰ من صدق بارق سعده ، ووُهِب من العلم](١) ملكا لا ينبغى لأحَدٍ من بَعْده ـ أن يَستقِرّ... ... لأنَّه الإمامُ الذى [لو] تقدّم عَصْرَه لكان أحَدَ أئمّـة الآجْتِهاد، والعارِفُ الذى بلغ بولايَتِه مُرِيدُ الفَضْل غَايَةَ المُراد، والعالِمِ الذى وَجَدتْ أخْبارُ علومه نسـبة يطابقها فى الخارج صالحُ العمل ، وآتبع سَـنَن الكِتَاب والسُّنَّة فلم يتخلَّل طريقتـه المُثلىٰ خَلَل ، والمُحقِّقُ الذى وَجَد إلىٰ كُنْه الحقيقةِ أكْمَلَ مجاز ، والمُفَوَّهُ الذى بلغ من البـلاغة فى كلام البَشَرِ حَدَّ الإعْجاز ؛ إنْ خطبَ شَنَّفَ بدُرَرِ مواعِظه الأسْمـاع ، وشَرَّف بغُرَرِ فرائِده الأسْجاع ، وآهـتَزَّتْ أعواد المنـابر طَرَباً لكَلِمه الطَّيِّب ، ورَوَّى أُوَامَ(٢) القـلوب سَحُّ فَضْلِه الصَّيِّب ؛ وإن قرأ فى مِحْرابِه أقَرّ بفَضـلِه الجَمعُ الجامِع ، وآستَقلَّ « آبْنَ كَثِير » حين وَجد « الكِسَائِىّ » عارِيًا ممـا لَدَيْه وفَضْلُه الجمّ أكمل « نافع » :

خَطيبٌ إذا الصَّادِى تَصَدَّىٰ لفَضْلِه : * ليَرْوَىٰ ، فأنْواءُ العُـلُومِ تُغيثُـــه !

وإنْ يَروِ للجُلَّاسِ أخْبارَ أحْمَدٍ ، * نخَـــيْرُ جَليسٍ لا يُمَـلُّ حَديثُـه !

وهو الكامل الذى أدْركَ دَرَجاتِ الكمال فى البِـدايَة فأمِن فى النِّهايَة وهو قاصٍ من النقص ، وسارت عِيسُ الطُّلّاب إلىٰ حضرته الكريمـة وَاخِدَةً ولكن بالنَّص ؛ والصَّاحِبُ الذى آستصحب يَسار العُفَاةِ باليَمِين ، وأزَال ظَنَّ قاصده فى بِرِّه الشامل باليقين ؛ كَمْ أطلق بأقْلامِه المُفيـدة مكرمةً بِصلَةِ الأرزاق ، ونَسَخَ بمُحقَّقِ فَضْلِه رِقاعَ الأُوَل بالعَطاءِ على الإطْلاق ؛ ولو نَظر المَلَكانِ : هَـارُوتُ ومَارُوتُ ما ملكه من

(١) الزيادة يقتضيها المقام .

(٢) الأوام بالضم العطش .

كتابته السَّاحِرَةِ لأقرّوا أنّه السِّحْر الحلال ، ولو قابَله «آبْن هلَالٍ» لآنْخَسف بَدْر فَضْله عند الكمال :

فَفِى كَفِّــه الأقلامُ تَهْزأُ بالقَنَـا ، * وتَخْشَىٰ سطَاهَا الأسْدُ فى غَابِ غَابِها!
يَرُوعُ سُيوفَ الهِنْـدِوِرّى يَراعِه(١)، * وقَدْ طارَ مِن خَوْفٍ حَدِيدُ ذُبَابِها!

فلْيباشِرْ هذه الخَطابَةَ مُباشرةً تَرْشُف منها كُئُوسَ كَلِمه الأسْماع ، ولْيكْشِفْ لهـا عن وُجوه فضائله القِناع ؛ ولْيَنْـثُرْ عليهم من دُرَرِ بلاغته ما تَلْتقِطُه أفواهُ المسامع ، ولْيَنْشُرْ من طَىِّ لسانِه عَلَمَ عِلْمه الذى لا يقاس عليـــه غيره أبَى اللهُ والفَارِقُ الجامع ؛ ولْيُطرِبْ بمواصيل أسْجاعِه القاطعة بفضَائِله المكَمَّلة ، ولْيظهِرْ ما جَمعه من محَاسِنه التى هى الجَمْع الذى لا نَظيرَ له ؛ ولْيُنفِقْ علىٰ الجَمْع يوم الجُمُعة ممـا آتاه الله تعالىٰ من كُنوز الفضائل ، ولْيبلِّغْهم من بلاغته التى أخْملتْ ذِكْر «قُسٍّ» و «سَحبانِ وَائِل» ؛ وأنْت ـ أسْبغ اللهُ تعالىٰ ظِلالَك ـ مَعْدِنُ الفضائل فأنَّىٰ تُهدىٰ إليك الوصايا؟ ، والمُتَّصِفُ بصفات الكمال فكَيْف تُعرَضُ عليك المزايا؟ ؛ ولكنّ الوصيةَ بتَقْوى الله تعـالىٰ من شعائر الإسلام ، واللهُ تعالىٰ يُديمُك غُرَّةً فى جَبْهة الأيَّام .

✦ ✦ ✦

وهــذه نسخةُ تَوْقيع بتَدْريس بالجـامع المذكور ، كُتِب به للقاضى علاء الدين «علىّ الصَّرْخَدِىّ» الشافعىّ ، نائب الحكم العزيز بحَلَب بـ«المقرّ العالى» وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ صَدَقاتُه تَمنحُ دروسَ العِلْم الشريف بعَلِىّ العلوم ، وتَنْدُب لهـا من ذَوى الآجتهاد من سايَرَ بهِمَمِه البرْقَ وسائرَ النُّجوم ، وتُقرِّرُ للطَّلَبـة من

(١) فى الأصل «دوىّ» بتشديد الياء وهو تحريف .

أُولِي العناية من حَقَّق الفضائِلَ وٱطَّلع علىٰ سِرِّها المكتوم، وتُديرُ عليهم من مَشْرَب فوائده مايُخالُ أنَّه الرَّحيقُ المختُوم ـ أن يستقر فلانٌ ... ... آستقرارًا تَقَرُّ به أُعيُنُ الطُّلَّاب، وتُلمَحُ من صَوْبِ فَضْله عَينُ الصَّوَاب؛ ويُشَيَّدُ به دَارِسُ الدروس، ويَطْلعُ به فى سماء الفضائل أنْوَرُ شُموس؛ وتُنْشر به أعلامُ العلوم من طَىِّ الألْسِنَه، ويُذْهِبُ من كلِّ الطَّلَبَة فى تحصيل العِـلْم الشريف وَسَنَه؛ لأنَّه الحَـبْر الذى شَهِدت بِفَضْله الأسفار، ورَحَلَتْ إلىٰ فوائده الجَمَّة السُّـفَّار؛ والبَحْرُ الذى جَرتْ سُفُنُ الأذهان به فلم تُدْرِكْ غاية قَرارِه، وعجزت الأمثالُ عن خَوْض تيَّاره؛ والعالِمُ الذى أقرَّ بعِلْمه الأعلام، وشَهِدَت بإحكامِ أحْكامِه الأحكام؛ مابَرَزَ فى مَوْطِنِ بَحْث إلَّا وبرَّز على الأقْران، ولا جاراه مُجتهِـدٌ إلَّا وكانا كَفَرَسَىْ رِهَان، ولا نَطق بمَنْطِقٍ إلَّا وأنْتجتْ مُقـدِّماتُ هِمَمه العليَّـةِ وٱجتهاده علىٰ فَضْلِه أكمَلَ بُرهان، ولا أجْرىٰ جِيادَ عُلُومه إلىٰ غايَةٍ إلَّا مُطلقةَ العِنان، ولا رآه من أخبر عن فَضْـلِه إلَّا تمثلَ له: ليس الخَـبَرُ كالعِيان؛ إنْ تصدَّر للفوائد ٱلْتقطَتِ الأسماعُ دُرَّ عِلْمِـه النفيس، وإنْ دَرَّس تَخالُ الطَّلَبَةُ أنَّه «ٱبنُ إدْرِيس»؛ فهو طَوْدُ فَضْلٍ لايُسامىٰ عُلوًّا ورِفْعه، ولايَنْوِى مُناوأته مُنَاوِئٌ ولو كان «ٱبنَ رِفْعه»:

إمامٌ غَدا للسَّالكينَ مُسَلِّكًا، * عَلِيمٌ، وَكَمْ أوْلَى الفَضائِلَ مَنْ وَلِى!

عَلَا فَأسال البَحْرَ من فَيْضِ عِلْمِه! * وذلك سَيْلٌ جاء بالفَضْل من عَلِى!

فلْيباشِرْ هـذا التَّدْريسَ المبـاركَ مباشرةً يُثبِتُ بها فوائِدَه، ويَنْـثُرُ بها فَرائِدَه؛ ويُطرِبُ الطُّلَّابَ بطَرِيفِ العلْم وتالِدِه، ويجمَعُ لهم من صِلَةَ الفَضْل وعائِده؛ ولْيلازِمِ المباشرةَ ملازمةً لا يَنْفكُّ عنها أيَّام الدُّروس، ولْيُنِرِ القلوبَ بمصابيح الكِتَاب والسُّنة ويَسُرِّ النفوس.

وأنت ـ أمْتع اللهُ بفوائِدك ـ من نُورِك الوصايا تُقْتبس، وكم آنَس الطَّالِبُ نارَ فَضْلِك فأتَىٰ منها بأنْورِ قَبَس، واللهُ تعالىٰ يُبقيك للعلوم كَنْزًا لاتَفْنىٰ مَواهِبُه، ويُديمُك للطُّلَّاب بَحْرًا لا تَنْقضِى عَجائِبُه.

✦✦✦

وهذه نسخةُ تَوْقيع بتَدْرِيس بالجامع المذكور لحَنفِىٍّ، كُتِب به للشَّيخ شمس الدين «محمد القرمى» الحنفى، بـ«ـالجناب العالى»، وهى:

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ عِنايتُه الكريمةُ تُطْلِعُ شَمسَ الدِّين للهداية فى أُفق المدارس، وتُشَيِّد بالعلمـاء الأعْلام من رُبوعها كلَّ دارِس، وتمنَحُ الفُقَهاءَ بمَن إذا تَصـدَّىٰ للإفادة جادَتْ نَفْسه بالدُّرَر النَّفائس، وتَنْدُب لهـا من أولِى البلاغة مَن إذا ألَّف فَصْــلًا وُجِدتْ غُصون أقْلامِه فى رَوْضاتِ الطُّروس أحْسَنَ مَوائس ـ أن يستقرَّ فلانٌ: آستقرارًا تُجمَّل به الدُّروسُ بالفوائد، وتَمنَحُ الطَّلَبةَ منها بالصِّلَة والعائِد، ويمدُّ لهم من مَوادِّ العلوم أشْرفَ مَوائد، ويُورِدُهم من مَناهِلها أعذبَ مَوارِد؛ لأنَّه شمسُ العلومِ ومِصْباحُها، وقَمرُ لَيلِ المُشْكلاتِ وصَباحُها، وساعِدُ الفَتاوىٰ الطائِرةِ بفضائله فى الآفاق وجَناحُها، ورُوحُ كُئُوس العلوم ورَاحُها، وطَليعَةُ الحقائق وعُنْوانُهـا، وعَيْنُ الدقائق وإنْسانُهـا، والإمامُ الذى آئتمَّ به الطُّلَّابُ فاستحقَّ الإمامَه، والعالِمُ الذى آجتهد علىٰ فَضْل العُلوم فآستوجب أنْ يُنْعتَ بالعَلَّامه، والفاضِلُ الذى ضُبِطتْ أقواله: للآطِّلاع علىٰ سِرِّها المكْتُوم، فآختصَّ فِعْلُ عِلْمه المُتعدِّى باللُّزوم لآتِّصافِه بالعُموم، كَم آلتُقِطتْ من دُروسه الجَواهِر، وتمثَّلَ لأبكار فوائده: كَمْ تَرَك الأوَّلُ للآخِر، قابَلتْه الأسْفارُ عن وجُوه فوائدها بالإسْفار، وأظهرتْ لذُكاء ذَكائه ما ضَمَّته أحْشاؤُها من الإضمار، فهو المُختارُ لهذا التَّدريس: إذْ دُرَرُ فوائِده مَنْظُومه، والمُجْتبِىٰ للإفَادَة بسُلُوكه طُرُقَ الهداية إلىٰ دقائقها المَكْتومَه، وكَم آستنارَتِ الطَّلبَــة

من سَمَرِ فَضْله حتّىٰ كاد أنْ يكون ثالِثَ القَمَرَيْن، وجَمع فى صَـدْرِه بَحْرَى المنقُولِ والمَعْقول حتّىٰ قيل : هذا "مَجْمع البَحْرَيْن" :

هُو البَحْرُ، إلّا أنّ فيه عَجائبًـا، * وَوافِرَ فَضْلٍ ليس يُوجَدُ فى البَحْرِ!
بلاغَتُه السِّـحْرُ الحَلالُ، وإنَّمـا * بَديـعُ معانِيها يَجِلُّ عن السِّـحْرِ!

فلْيباشِرْ هذا التَّدْرِيسَ ناثِرًا دُرَرَ فَرائِده، ناشِرًا غُرَرَ فوائِده، جائِدًا بجِياد فَضائِله السَّابقة إلى الغايات، عائدًا بصِلات حقائِقِه لتَكْمُلَ للطَّلَبة به المَسَرّات، ولْيلازِمْ أيّامَ الدُّروس ما أُسْدِىَ إليه من هـذه الوظيفه، ولْيَرتَقِ من دَرَج التَّقْوىٰ لغُرَفِ المعارف الشَّريفه .

* * *

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بإمامةٍ وتَصْـديرٍ بجامع منكلى بغا الشَّمْسى بحَلَب، كُتِب به للشيخ شمس الدين «محمد الإمام»، بـ«الجناب العالى»، وهى :

رُسِم بالأمر ـ لا زالتْ صَدَقاتُه العميمةُ تُطالِـعُ شَمسَ الدِّينِ فى أُفُق المعالِى، وتَرْفَعُ من أوليائه خِدْمةَ مَن جِيدُه بالفَضْلِ حَالِى؛ وتَمنحُ بِرَّها مَن أعربَتْ عن لَحْنِه الطَّيِّب وتَنَفَّستْ من فيه باللآّلِى، وتَسْفَحُ غَيْثَ جُودِها علىٰ من أجمع علىٰ طِيبِ مُسامَرتِه ورَفْعِ أدْعيتِه الأسْماعُ واللَّيالى ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ ضياء شَمْسه، وبَنىٰ له رَبْع السَّـعد من جُودِه علىٰ أُسِّـه ـ ... ... لأنّه الإمامُ الذى شهدتْ بحُسْن قِراءته المَحاريب، والآتِى من فَضْلِ فضائله بالأغارِيب؛ والفاضلُ الذى سلَكَ طُرقَ الفَضائل أحْسن سُلوك، وشَهِد بسَبْق جِياد جُوده فى حَلْبة الاختبار كلُّ حتَّى المُلوك؛ والكاملُ الذى كَملتْ أوصافُه المحمودةُ فأمِنَ النَّقائِص، واختصَّ بجميل الشِّيَم وحُسْن الخصائص؛ ما أمَّ إلّا وشَهِد بفَضْلِه كلُّ مأْموم، وأقرّوا أنَّ أسماعَهم ارْتشفَتْ رَحِيقَ فضائله من

كَأْسِها المَخْتوم ، وما سَامَر الخواصّ إلّا وشَهِدَ العوامُّ بحُسْن صفاته ، ولا حدَّث إلّا وكانَت الملوكُ من رُواتِه .

فليباشِرْ هذه الوظائفَ المباركةَ مباشرةً تَقَرُّ بها النَّواظِر ، وتَجْتمعُ الألْسِنةُ على أنَّه أكْرمُ إنسان وخَيْر ناظِر ؛ ولْيتَصدَّرْ لإلْقاء الفوائد ، ولْيُكْسِبِ الأسمـاعَ من عِلْمه بالطَّرِيف والتَّالد ؛ وليتناوَلْ مَعْلومَه أوان الوُجودِ والآسْتحقاق ، هَنِيًّا مُيسَّرًا من غير تَقْييد على الإطلاق ؛ وليتّقِ اللهَ فيما أُسْدِىَ إليه من ذلك ، ولْيسْلُكْ من سَنَن التَّقْوىٰ ـ بقَدَم الصِّدْق ـ أحْسنَ المسالك .

وهذه نسخ تواقيع لأرباب الأقلام الديوانية بحَلَب وما معها :

تَوْقيعٌ بكِتَابة الدَّست بحَلَب ، كُتب به لـ«بهـاء الدين بن الفرفور» ونظر بيْتِ المـال بحَلَب ، بـ«ـالجناب العالى» ، وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زال يَنْظِم عُقودَ الإحسان فى أجْيادِ أوليائِه ، ويُجْزِلُ لهم بوافِر نَظَرِه وَافِىَ عَطائِه ، ويُجْرِى بهـاءَ الدِّينِ علىٰ أحْسنِ نظام فيُنْجِزُ له عِدَةَ وَفائِه ـ أنْ يسـتقرّ ... ... آستقرارًا يبلُغ به وُجوه الآمال ، ويَكْسُو الدَّواوِينَ ملابِسَ البَهاءِ والكَمال ، ويَزِيدُها رِفْعةً بمـا يفضلُه من ذلك الجمـال ؛ لأنَّه الفاضِـلُ الذى إذا قَصد المَعانِىَ أصاب ، وإذا سُـئِل عن كلّ مَعْنًى لطيف أجاد وأجاب ؛ والفَصِيحُ الذى إذا تكلَّم أجْزل وأوْجز ، وأسْكتَ كلَّ ذِى لَسَنٍ بفصاحته وأعْجز ؛ والبليغُ الذى أبْدع فى مكاتَبَاته بمَنْثورِه ومَنْظومِه ، واللّبيبُ الذى أطلعَ من أزْهار كَلِمِـه المسموعةِ فى رِياض الطُّروس مايُخْجِلُ الرَّوضَ إذا آفتخرتْ بمَشْمُومه ؛ والكاتبُ الذى قَطعتْ بمعرفَتِه الأقلام ، والحاسِبُ الذى عُقِدَت علىٰ خِبْرَتِه خناصِرُ الأنام ؛ والأديبُ الذى

جمع بين قَلَم الإنشاء الشّريف(؟)، وحازَ مافى ذٰلك من تَالِدٍ وطرِيف؛ فللهِ دَرُّه من كاتبٍ زَيَّن الطُّروسَ بحُسنِ كتابته، وجَمَّل الألْفاظ والمعانِيَ بجميل درايَتِه وفَصاحَتِه.

فليُباشِرْ ما عُدِق به من ذٰلك مُباشرةً مقْرونةً بالسَّداد، مشْكورةَ المساعى والاعْتماد؛ مُظهِرًا براعةَ يرَاعِه، باسِطًا يَدَ إيداعِه الجميلِ وإبْداعِه؛ مُفَوِّفًا حَواشِىَ القِصَصِ بتَوْقيعاته، مُوَشِّيًا بُرودَ الطُّروسِ بتَرْصيعاتِه وتَوْشيعاته؛ ناظِرًا على آعتماد مصالحِ بَيْت المال المعمور، وتَحْصيل حواصِلِه على الوَجْه المشْهور والطَّريقِ المشْكُور؛ عامِلًا بتَقْوى الله عزّ وجلَّ فى ضَبْط مصالح ديوان الجُيوش المنْصُوره، سالِكًا من حُسْن الاعْتماد طُرقًا على السَّداد والتَّوْفيق مَقْصُوره؛ والوصايا كثيرةٌ وتَقْوى اللهِ تعالىٰ عِمادُها، فلْيجْعلْها عُمْدَتَه فيما يَتِمُّ به للنفس المطمئنة مُرادُها؛ ولْيتناوَلْ مَعْلومَه المستقرّ لذٰلك أوانَ وجُوبِه، واللهُ تعالىٰ يُبلِّغه غايةَ قَصْدِه ومَطْلُوبِه.

* * *

تَوْقيعٌ بصَحابة ديوان الأموال بحَلَب، من إنشاء آبن الشِّهاب محمود، كُتب به للقاضى شَمس الدِّين «محمد بن محمد»، أحدِ كُتّاب الدَّست بحَلَب، بـ«المجلس العالى»، وهو:

رُسم بالأمر ــ لازالتْ صَدَقاتُه العَميمةُ تَسُرّ نفوسا، وتُطْلِعُ فى هَالاتِ الوظائف السَّنِيَّة عِوَضَ الشَّمْس شُموسا؛ وتَسْقِى غَرْسَ نَعْمائِها الهِبَاتِ الهَنِيَّةَ فتزْهِى أغْصانًا يانعةً وغُروسا ــ أنْ يستقرّ ... ...: لأنَّه الأوْحدُ الكامل، والرئيس الفاضل؛ ولأنّه حاز قَصَبَ السَّبْق فى المُباشرات، والمَناصِب الجَليلةِ والمراتب السَّنِيَّات؛ طالمَا بَذَل جُهدَه فى خِدْمة الدُّول، وسلك بجميل مُباشرتِه طَرِيقَ السَّلَف وسَبيلَ الأُوَل؛ فأدْرك بحُسْن سيرَتِه ويُمْنِ طَرِيقَتِه نِهايَةَ السُّؤْلِ وغاية الأمَل، وأتىٰ الأُمور علىٰ

قَدَرٍ ولا يقال : علىٰ عَجَل ؛ ولأنّه الأمينُ فى صَـنْعة الإنشاء، والتابِـعُ فى فَنّه فُنونَ الأدباء؛ إنْ رقَم الطُّروسَ طرّز ، وإنْ بارَز الأقْران فى مَواطِن الآفْتِخار برّز ؛ وإن بَسط الجرائد ، تَغارُ من حُسْنِهنّ الخَرائِد ؛ طالَمَا نَطق بالحِكَم ، وآشْتهر بين أصْحابِه مِثل آشْتهار النّار علىٰ علَم؛ نَظم المحاسنَ فى نَثْره البَديع ، وجَمع بين الأضْداد فيما يُبْدِيه من الإنشاء ويُحَلِّيه من التّصْريع ؛ قَدُمت هِجْرتُه فى الخِدْمة الشريفه ، وآقْتطف من زَهَر الصّدَقات الشريفة أحْسنَ مَنْصِب وأجْمـلَ وَظِيفه ؛ وتَحلّىٰ جِيدُه بالقلائد ، وحَصَّل بسَعْيه مجموعَ الفرائد ، فعادتْ عليه الصّدَقاتُ الشريفةُ بأجْمل العوائد ؛ قد آستحقّ التقديم ، وآستوجَبَ من الصّدَقات العميمةِ نِهايةَ التّكريم .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً حسنةَ الآثار ، جميلةَ الإيراد والإصْدار ؛ ناظمًا بقَلَمه الحِسابَ علىٰ أنواعه ، مُحكِمًا له علىٰ سداد أوْضاعه ؛ ولْيُطْلِعْ شمسَه فى سماء هذه الوظيفه ، ولْيَجْنِ من رَوْضها الأرِيضِ كلَّ يانِعةٍ لَطيفَه ؛ ولْيعلَمْ أنَّ هذه بَوادرُ خَيْرٍ سَرَتْ إليه ، وسَوابِغُ نِعَمٍ خُلِعتْ عليـه ؛ وأنَّ الصدقاتِ العميمةَ لا بُدَّ أنْ تُولِيَه بعد ذلك بِرّا ، وتَترادَفَ عليـه تَتْرىٰ ، وتُعْلى له بين رِفَاقه المرفقين قَدْرا ؛ ومِثْلُه لا يُنَبَّه علىٰ وَصِيَّه ، لا دَانيةٍ ولا قَصِـيَّه ؛ لكن التقوىٰ لا بُدَّ منها ، ولا يجوز أنْ يُغْفل عنها ؛ فلْيَجْعلْها آعتمادَه فى كلِّ الأُمور ، ولِيَتَناوَلْ معلومَه المقـرَّرَ له على الوظيفـة المذكورة فى غُرَرِ الشهور ؛ والله تعالىٰ يضاعفُ له بمضاعفة الصدقات عليه أوقاتَ السُّرور ، ويقيـه بلُطْفِه كلَّ محذور .

* * *

توقيع بنظر بَهَسْنَىٰ ، من عمل حَلَب ، كُتب به لفَتْح الدين «صَدَقة بن زين الدين ، عبد الرحيم المصرىّ» ، بـ«المجلس السامى» ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ صدَقاتُه العميمةُ تفتح لأولياء خِدْمته أبوابَ الخَيْرات ، ولا بَرِحتْ تُهْدِى إليهم أنواعَ المَسَرَّات ـ أنْ يستقرّ... ... ... فى وظيفة النظر بمدينة بَهَسْنَىٰ المحروسةِ عِوَضًا عمَّن بها ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلىٰ آخر وقت ، على العادة فى ذلك والقاعدة ، آستقراراً يَسُرُّ خاطِرَه ، ويُقِرُّ ناظِرَه ؛ لأنَّه الماهِرُ فى صناعته ، والرَّابِحُ فى مَتاجِرِ بضاعته .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً حسنه ، لتُصْبِح الألْسِنة بشُكْرها مُعْلِنه ؛ وليُصرِّفْ قَلَمه فيما يعود نَفْعُه عليه ، ولْيجتهِدْ فيما يستجلِب الأثْنِية إليه ؛ وليقْبِضْ معلومه أوانَ وُجوبِه هَنِيًّا ، ولْيتناوَلْه بيَدِ آستحقاقه مَرِيًّا ؛ والوصايا كثيرةٌ وهو ـ بحمد الله تعالىٰ ـ غيرُ محتاجٍ إليها ، لأنَّه الفاعلُ لها والدَّالُّ عليها ؛ وتقوَى الله تعالىٰ عِمادُها ، وبه قِوامها وسِنادُها ؛ فلْيتَمسَّكْ بسَبَبِها فى الحركات والسَّكَنات ، واللهُ تعالىٰ يُهيِّئُ له أسْباب المَسَرَّات .

* * *

توقيع بكتابة الإنشاء ونظر الجيش بدَبْرَكى ، كُتب به للقاضى شهاب الدين «أحمد آبن أبى الطيِّب العُمَرىّ العُثمانى» ، بـ«ـالجناب الكريم» ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لازال يجمِّلُ الثغورَ بمَن تَزْهو برَحيق كَلِمه الطيب [المناصب] ، ويُكمِّلُ محاسِنَها بمَن لم تَزل الصُّحفُ تَقودُ من جياد فَضْله أجملَ جنائب ، وحَباها بشِهابٍ يُهتدىٰ إلى المقاصدِ بَنجْم رَأْيِه الثَّاقِب ؛ وسرَّها بكلِّ نَدْبٍ لم تزلْ كُتبه تَرُدُّ من الدُّعَّار الكتائب ـ أن يستقرّ... ... فى وظيفتى كتابة الإنشاءِ الشريف والجَيْش المنصور بدُوْرَكى(١) المحروسة ، عوضًا عن فلان ، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخر

(١) لغة فى دبركى كما سلف قريبا وتقدّم فى ج ٤ ص ١٣٢ من هذا المطبوع .

وقتٍ . لأنّه من بَيْتٍ رُفِع علَمُ قَدْره على السحائب ، وٱنْتصبَتْ رايَةُ آرائِهم بالتميز فى مَوا كِبِ العِزة عن المواكب ، وأُضِيفَ إلىٰ مَجْـدِهم شرفُ الكمال فانْجَرَّ بالإضافة ذَيْلُ مَجْدِهم على الكواكب ، وجَزم أُولُو الفَضْـل بنسبتهم إلى المعالى لحازُوا قَصَبها ٱستحقاقًا وما زاحَمُوا عليها بالمَنَاكب ، وأُسِّسَ أَصْلُه علىٰ عمـاد شرف «الفاروق» و«ذى النُّورَيْن» فتفرّع علىٰ أكملِ تناسُل بتناسب .

النيـــابة الثالثـــة

(ممـا يكتب من التواقيع بالولايات عن نوّاب السلطنة بها ـ نيابةُ طرابُلُس)

وهى علىٰ ماتقدّم فى دمَشْق : من تقسيمها إلىٰ تواقيع أرباب السيوف، وتواقيع وظائف أرْباب الأقلام الدينيـة ، وتواقيع أرْباب الوظائف الديوانية ، وأرباب الوظائف بمشيخة الأماكن وغيرهم ، وتقسيم ذلك إلىٰ مايفتتح بـ«الحمد لله» ، ومايفتتح بـ«أما بعد حمدالله» ، وما يفتتح بـ«رُسم بالأمر» .

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بشدّ الدواوين بطرابُلُس ، كُتب به لصلاح الدِّين «صلاح الحافظى» ، بـ«الجناب الكريم» ، وهى :

الحمدُ لله الذى أيَّدَ هذه الدولةَ وسدَّدها بأنواعِ الصَّلاح ، وعَمَر العالمَ بعدْلِ سُلطانها وجعل أيَّامَه مقرونةً بالنَّجاح ، وأقام لتَدْبير المملكة [كل] كُفْء كافٍ مشهور باليُمْن والفَـــلاح .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه الغامرةِ فى المَساء والصَّباح ، ونشكُره علىٰ آلائه فى كلِّ غُدُوٍّ ورَواح ، ونشـهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهـادةً خالصةً ضَوْئيَّةً كالمِصْـباح ،

وأنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من اصطفاه وأرسله بالدين الحنيفيّ فبشر وأنذر وحلَّل وحرَّم ... ... (١) وأباح ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه صلاةً دائمةً مستمرّةً ما حيْعَل الدَّاعى إلى الفَلاح .

وبعدُ ، فإنّ أوْلَى الأولياءِ بمُضاعَفةِ الإحْسان ، وأن يعلىٰ له فى المكان والإمكان ـ مَن عُرِفَ بأجلِّ المباشرات فى الفُتوحات ، واشْتهر فيها بالكفاية والصِّيانة وجَميلِ التَّدْبير وحُسْن الصِّفات .

ولمَّا كان فلانٌ هو المُنْفرِدَ بهذه الصِّفات الحَسَنه ، واتَّفقتْ علىٰ نُعوتِه الجميلةِ الألْسنَه ، والوَحيدَ بهذه السَّجايا ، الفَريدَ بشَرفِ المَزايا ، عُقِدت الخناصرُ عليه ، واقْتضت الآراء أنْ يسندَ تَدْبيرُ المملكة إليه : فإنَّها لم تَجِدْ لها كُفْأً غيْرَه ، ولا من يَجمع شَمْلَ شَتاتِ أقْوالها ولم يفَرِّطْ مثقالَ ذَرَّه .

فلذلك رُسم بالأمر ـ لازال ينْدُب لتَدْبير الممالك كلَّ كُفْءٍ كاف ، ويُورِدُ أولياءه من موارِد إحْسانِه مَوْرداً عَذْباً صاف ـ أنْ يفوّضَ إلى الجنـاب الكريم ـ أدام اللهُ عُلوَّ قدرِه ، وأيده بالمَعُونة فى أمْره ـ شدُّ الدَّواوينِ المعمورة بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة ، بالمعلوم المستقرّ ، الشاهد به الديوانُ المعمور إلىٰ آخر وقت ، علىٰ عادة من تقدّمه .

⁂

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بالاستمرار فى شَدِّ الدَّواوين :

الحمـدُ لله الذى قَرن الشِّدَّة بالفَرَجِ وجَبَر بعد الانْكسار ، وامْتحن عِبادَه بأنواعٍ من المِحَنِ ليعلَمَ الصادقين فى الاصْطِبار ، وأطْلع فى أُفُق العُلا سَعْدَ السُّعودِ ساطعًا

(١) بياض بالأصل ولعله : وحظر وأباح ، الخ .

بالنُّور بعد ما غَار، وجَمع لمن ٱنْقطع به حَبْلُ الرَّجاءِ من الخَلْق فتوكَّل عليه بين نَيْل المَطْلوب وتَمْحيص الأوْزار .

نحمدُه وفى مَحامِده تَطِيبُ الآثار، ونَشكُره علىٰ ما أسْبل من النِّعم الغِزَار؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلٰهٌ كشف الغَمّ بعد ما غَمَّ القلوبَ وغَطَّىٰ على الأبصار، وفَرَّج الهَمّ، وقد كان ٱدْلَهَمّ، وأظْلمتْ منه النَّواحِي والأقْطار؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه المصطفىٰ المُختار، سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ فى الدُّنيا وَسيدُهم فى دار القَرار، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الأطهار، وصَحَابَتِه الأخيار، ما أظلم لَيلٌ وأضاءَ نهار .

وبعدُ، فإنَّ الله تعالى لَطَف بهذه الدَّولة المعظَّمة فى المُقامِ والسَّيْر، فما مضىٰ لأحدٍ معها يومُ سُرورٍ إلَّا والذى من بعده خَيْر؛ ونَصب خِيامَ عَدْلِها على الخَلْق وشَرع أطنابها، ورَغَّب العِبادَ فى فَضْلِها العميم وفَتح لهم بَابَها؛ وجعلها كاشفةً للكُروب المُوجِبَة للحَزَن والضِّيق، رَاشِفةً من خزائن مُلْكه ومعادن نَصْره كأْسَ رَحيق؛ تصِلُ بقُوَّتِه وتَقْطع، وتُفَرِّق بإرادته وتَجْمع؛ ثم جعل المالَ نِظامَ مُلْكها القَويم، وقِوامَ سِلْكها النَّظِيم؛ به تَمْضى أوامِرُه ونَواهِيه، وتجرى على السَّداد بما يُحبُّه ويُرْضِيه؛ فتعيَّن إعداد مَن يُقيم بعزمه عَمَده، ويُقْعِد من أخذ منه بغير ٱستحقاق ممن أقعد الدِّينُ زنده؛ وقدَّر الله تعالىٰ فى هذا الوقت ما قضاه، ونَفَّذ حُكْمه فيمن خرج عن طاعته وأمضاه؛ فلم تَبْقَ مملكةٌ إلَّا ومَسَّها وأهْلَها الإِضْرار، ولا بُقْعةٌ إلَّا ولَحِق أهْلَها بَأْسُ أُولٰئك الفُجَّار؛ فأدرك اللُّطفُ الإلٰهىُّ ممالكَ الإسلام، وحلَّ الرِّكاب الشريف بأرْض الشام، فكان بَرْدًا وسلام، ونَجا المخلِصُ وهلك النا كِثُ النَّاكِلُ بقدوم سلطان الإسلام؛ خلَّد الله ملكه [ليقذف] بالحقِّ على الباطل، وأيد اللهُ دَوْلَتَه الشريفةَ بعَوْنِه المُتواصل .

وكان فلانٌ له مباشراتٌ عَديدَه ، وتأثيراتٌ حَميدَه ؛ وآخر ما كان في وظيفة شدّ الدواوين بطرابلس : فباشرها مباشرةً جميلةَ الأثر، مشكورةَ السَّيْر عنْد من وَرَد وصَدَر ، ودبَّر مهماتٍ يَعْجز عن حصرها أولُو العقول والفِكَر ؛ وحَصَّل للديوان المعمور أمْوالًا كالطُّوفان ولكن بلا غَرَق ، واسْتُعْجِب منها كيف حَصَرَتْها الأقلامُ أو وَسِعَها الوَرَق ! ؟ ؛ والذى كان بوظيفة الشَّدِّ الآن زاهدٌ عنها ، ليس له رغبةٌ فيها ولا فى شَىْء منها .

فتعين إعادة الجناب الفلانى إليها . ورسم بالأمر ـ لا زالتْ أيَّام دَوْلَتِه الشريفة تُصْلح الشان ، وتُعيد الخير إلىٰ ما كان ـ أنْ يستقرّ ... .

فلْيعُدْ إليها عَوْد الحُسام إلىٰ غِمْده ، والمـاءِ إلىٰ مَنْهَل وِرْده ؛ ولْيباشِرْها بمباشَرته المعروفه ، وعَزَائمـه المَألُوفه ، وهِمَمِه الموْصوفه ، مُسْترفِعًا المتحصـل ومصروفَه ؛ ولْيتحقَّقْ أنَّ الله تعالىٰ سَيصِلُ رِزْقه فلا يُوجِسْ فى نَفْسه خِيفَه ، ولْيجْعَلْ تقْوى الله تعالى دَأْبَه فى كلِّ قَضِـيَّة ثقيلةً كانت أو خفيفه ، واللهُ تعالى يُمِدّه بألطافِه المُطيفَه ؛ بمنّه وكرمه .

* * *

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنقابة العساكر بطرابُلُس :

الحمـدُ للهِ الأوّل بلا آخِر ، الغَنِىِّ فى مُلْكه عن النَّـاصِر ، المنَزَّه فى سُـلْطانِه عن المُؤَازِر ، المتَوحِّدِ بعدم الأشْـباه والنَّظائِر ، المُبِيد لكلِّ مُظاهِرٍ بالعِنَاد مُجاهِر ، العليم بمـا تُكِنُّه الأفكارُ وتُجِنُّه الضَّمائِر ، الرَّقيبِ علىٰ كلِّ ماتَرَدَّدَ من الأحوالِ بين سَوادَى القَلْب والناظِر .

وأشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالصةً يُرغَم بهـا كلُّ جاحدٍ وكافر ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه المبعوثُ والشِّركُ مُدْلَهِمُّ الدَّيَاجِر ، والرُّشْـدُ

قد خيّم عليه الضّلالُ فما له من قُوّةٍ ولا ناصِر، فأقام به الدّينَ الحنيفِيّ النّيّرَ الزّاهِر، ورفَع ذِكْرَه فى سائر الأقْطار والأمصار علىٰ رُءُوس المنابر، صلّى الله عليه وعلىٰ آله أهْلِ المكارم والمآثر، ماحَمِدَ السُّرىٰ عند الصَّباح سائِر، ونمَد شَرَرُ الشّرّ بكلّ مُناضِلٍ ومناظِر، وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أوْلىٰ من سِيقَتْ إليه وُفُود النِّعَم، ومُنِحَ من الخيرات أجْزَلَ القِسَم، وعُدِقَت الأُمورُ بعزائمه، وآعْتُمِد علىٰ هِمّتِه التى هى فى المَضاءِ كأسِنّته وصَوارِمه، ورُعِيَتْ عُهودُ وَلائِه التى لا تُنْكر، ووُصِفَتْ مَساعِيه التى آستحقّ أنْ يُحمد بها ويُشْكر - مَن إذا عُوِّل عليه فى المُهِمّات كَفاها، وإذا آسْتُطِبَّت المُعضِلاتُ به شفاها، وسارَت أنباءُ مهابته غَوْرًا ونَجْدا، وآتّصف بحُسْن التدبير الذى عليه من الإقْبال أكْمَلُ إجْدا .

ولمّا كان فلانٌ هو الذى تناقَلتْ تَباشِيرَ أخْبارِه الرُّكْبان، وأثْنىٰ علىٰ شهامَتِه السّيْفُ والسِّنان، وشَرُفَتْ بمحاسِنِه الأقلام، وآرتفَع ذِكْرُه بالشجاعة علىٰ رُءُوس الأعْلام .

فلذلك رُسِم ... ... - لا زال للدِّين الحنيفِيِّ ناصِرا، وللأعْداء قامِعًا قاهِرا، وللحقّ مُؤَيِّدًا باطِنًا وظاهِرا - أنْ يستقرّ الجنابُ العالى المشارُ إليه أميرَ نُقَباءِ العساكِر المنصورةِ الطَّرابُلُسِيّة، عِوَضًا عمّن كان بها، علىٰ عادته وقاعدته : لأنّه الحَبْر الذى عُقِدَتْ علىٰ خِبْرتِه الخناصر، ووَرِثَ الشّهامَةَ كابِرًا عن كابِر، وأضْحىٰ بتَدْبيره واضِحَ الغُرَر، شاهِدًا له به العَيْنُ والبَصَر، إنْ جال بين صُفُوف العساكر كان أسَدا، وإن رَتّب جُيوشَها أحْصاها حِلْيةً وعَدَدا .

فليُباشِرْ هذه الوظيفةَ محرِّرًا أحْوالَ العساكر المنصوره، مقرِّرًا لهم فى مَنازِلهم علىٰ أكْمَلِ عادةٍ وأجْمل صُورَه، بمُناصَحةٍ ضُمِّخ بمِسْكها، ومُخالَصةٍ قام مَقامَ واسطَة جَوْهر

سِلْكِها، ومُلازَمةِ خِدْمَةٍ تأزَّرتْ بها أعْطافُه، وصَفاءِ طَوِيَّةٍ شَرُفت بهـا أوْصافُه؛ وَمَحَبَّةِ عَدْلٍ جمع فيها بين قَوْله وفِعْله، وإخْلاصٍ يَحْسُن بالمَرْءِ أنْ يكونَ مُلْتحِفًا بظِلِّه: لِكَيْ يُتِمَّ الله النِّعَمَ عليـه كما أتَمَّها علىٰ أبيه من قَبْله؛ ولْيَقْصِدْ رضا الله تعـالىٰ فى هـذا الأمر، لا رِضَا زَيْدٍ ولا عَمْرو؛ والله تعـالىٰ يتولَّاه فيما تولَّاه، والآعتماد فى ذلك على الخط الكريم أعْلاه، حجةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ.

*
* *

وهذه نسخةُ توقيعٍ بنقابة الأشراف بطرابُلُس بـ«المجلس السامىِّ» بالياء، وكُتِب فيه «القضائىّ» علىٰ خلاف الأصل، وهى:

رُسم بالأمر - لا زال يَرفعُ لذَوِى الأصالة الشَّريفـة قَدْرًا، وينْقُلهم إلى الرُّتَبِ السَّنِيَّةِ ويُعْلِى لهم ذِكْرا، ويشْمَلُهم من إحْسانِه بمـا يسرُّ لهم قَلْبًا ويَشْرحُ صَدْرا؛ ويُبَلِّغهم من المآرب أوْفاها، ومن ملابس القَبُول أجْمَلَها وأسْناها - أنْ يستقرَّ فلانٌ - أدام الله نِعْمته - فى نقابة السَّادَة الأشْراف بالمملكة الطرابُلُسِيَّة، علىٰ ما تقدّم من عادته فى ذلك: آستقرارًا جاريًا فيه علىٰ أجْملِ العادات، وآعتمادًا علىٰ ما عُهِـد من سَلَفه الشَّرِيفِ الذَّات؛ ورِعايةً له فى تَجْديد المَسارّ، وتَرْجِيحًا لمـا آشتمل عليه من حُسْنِ الكِفاية فى كلِّ إيرادٍ وإصْدار؛ ورِفْعةً لِيَده الباسطة علىٰ أبْناءِ جِنْسِه، وتَقْوِيةً يَجِـدُ أثرها فى معنـاه وحِسِّه؛ رَسْمـا يستوجب به النِّعَمَ الجزيله، وولَايةً تُولِيـه من الكَرَم سُولَه، وعِنايةً تُصْبِحُ بها رُبوعُ أُنْسِه مَأْهُولَه؛ لأنَّه أوْلىٰ أن يُقَرَّ فى هـذه الوظيفة ويُزَاد، وأحَقُّ أن يُرعىٰ لمـا سَبق له من السَّـداد، وأجْدرُ أن لا يُضاعَ حَقُّه حيث له إلىٰ رُكْنِ الشَّرفِ المُنِيف آسْتِناد.

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ المُباركة مبسوطًا أملُه فى المَزِيد، مَنُوطًا رَجاؤُه فى نِعَمنا باستئنافٍ وتَجْـديد، محوطًا ما بيده من كَرِمنا العديد؛ وهو غنىٌّ أن نُثَنِّىَ له الوصايا

ونُعيد، مَلِيٌّ بحسن السجايا التى جُبِلَتْ على التّحْقيق والتّوْفيق والتّسْديد؛ والله تعالىٰ يُطوِّقُ بمِنَنِ جُودِنا منه الجيد، ويُغدِقُ له سحائبَ رِفْدِنا التى تُجْريه علىٰ ما ألِف من فضلها العديد؛ والعلامة الشريفة ـ أعلاها الله تعالىٰ ـ أعْلاه، حُجّةٌ بمقتضاه.

***

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بشدّ الشوانى بطرابلس، كُتب به لعلاء الدين «أيد غمش» وهى:

رُسم ... ـ لازالتْ أيامُه، قائمةً بالجهاد فى سبيل الله عَزّ وجَلّ، وأعلامُه، حائمةً على آلْتِقاطِ مُهَجِ العِدَا فى البرِّ والبَحْر بما يُقَرِّبُ لهم الأجل ـ أنْ يستقرّ فلانٌ فى شَدّ الشّوانى المعمورة المنصورة على العادة فى ذلك، بهِمّتِه العليه، وعَزْمَتِه التى هى ببلوغ المقاصـد مَلِيّه؛ وشَهامَتِه التى تُرهِبُ العِـدا، وشجاعَتِه التى تُلْبِسُهم أرْدِيَةَ الرَّدىٰ؛ وبَسالَتِه التى تُبْسِلُهم فى البَحْر فتصيِّرهم كالأسماك لا يُسامُ لهم صدىٰ.

فلْيَجْتَهِدْ فى ذلك جِدّ الاجتهاد، ولْيعمدْ فيه السِّـداد والسَّداد؛ ولْيُوقِظْ أجْفانَ سـيوفه من الغَمْض، ولْيُرهِبْ العِدا بشِـدّةِ وَطْأتِه التى لهـا الثّباتُ فى الأرْض؛ ولْيلازِمْ مُواظَبَة الشوانى لَيلًا ونهارا، ولْيكُنْ هو ومَن حَوْلَه لمن بها أنْصارا؛ والله تعالىٰ يُجزِلُ له مَبارا، ويرْفعُ له مقْدارا، بمنّه وكَرَمه.

***

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بشَدِّ دار الضَّرْب، كُتب به لـ«علاء الدين الدَّوَادار»، وهى:

رُسم ... ـ لا زال إحْسانُه يجُود غَماما، وفَضْلُه الشاملُ على الأولياءِ المتّقين إماما، وسَحائِبُ بِرِّ كَرَمه هامِيةً علىٰ أوْليائِه، هامِلَةً علىٰ أصْفيائِه، فتَراهُمْ يَخِرُّونَ للأذْقان سُجَّدًا وينْتصبُون قِياما ـ أنْ يستقرّ المشارُ إليه فى شدِّ دار الضَّرْب: إعانةً له على الخدمة الشّريفه، وإرْفادًا له بمَعْلومها إذْ هى ليستْ له بوظيفه؛ لأنّه أكبرُ من ذلك قَدْرا،

وأحقّ بكلّ منزلة عليّة وأحرىٰ ؛ ولكنْ هـذه الجهةُ هي قانونُ المُعاملَه ، وسِكَّتُها بشِعار المُلْك مُتّصِلَة و بين الحقّ والباطِل فاصِلَه ؛ ومنها النُّقوشُ التى هى رُسْتاق الأرزاق ، وصَـدْرُكلّ إطْلاق وقنداق ؛ حَكِيمٌ ما أُرسـل فى حاجةٍ إلّا وأُذِنَ لهـا بالنّجاح ، ولا آستؤمن عليه آمْرؤٌ باذن الإمام إلا وحقّ له [الاتصاف] بالصـلاح والفلاح ؛ هذا وهو فى الأصـل مذموم ، وطالبـه محروم : لأنه مقسوم ، والأجل محتوم ؛ ولكن تطهيره من الدنس واجب ، والحسـبة فى عياره حتى يغدو و بودَقُ صفائه من الغِشّ ناضب .

فلْيعْتمِدِ المشارُ إليه فى شَدّ هذه الجِهَة حُسْنَ التقوىٰ و يُلاحِظْ بعزْمه أُمورَها لتكونَ على السَّداد ، و يَعْتمِدْ على السَّيد النَّاظر فإنَّه نِعْم العِماد ، و يُفوِّضْ إليه كَشْفَ الزُّوباص وحَكّ العِيار فهو به أدْرىٰ وأحْرىٰ وأدْربُ بادْحاض غِشّ الفَساد ، ولْيتناولْ مَعْلومه المُقَرَّر له عنـد الوجوب والآسْتِحْقاق ، هَنِيًّا مُيَسَّرًا خالِصًا من التَّنازُعِ والشِّقاق ، ومِثْله فلا يُدَلُّ علىٰ [صواب] : إذْ تَقْوى الله تعالىٰ كَلِمةُ الفَصْل وفَصْلُ الخطاب ، واللهُ تعالىٰ يجعلُها لنا وله زادًا وحِرْزًا ، وذُخْرًا يوم المَعَاد ورِكْزًا (١) .

⁂

وهذه نسخةُ تَوْقيع بشَدّ البَحْر بمينا طَرابُلُس ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زال سَيْفُه قاطعًا من الأعداءِ نَحْرا ، وأمْرُه نافِذًا بَرًّا وبَحْرا ، وفِعْلُه صالحًا دنيا وأُخْرىٰ ـ أنْ يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليه فى شَدّ مِينَا البَحْر بطرَابُلُس .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ شارِحًا لهـا صَدْرا ، فاتِحًا لهـا بحُسْن مُباشَرتِه الجميلة بَصَرًا وفِكْرا ، باعِثًا لهـا فى الآفاق بمباشرته ذِكْرًا جميلا ، باحِثًا عمَّا يتعلق بمتحَصلِ المِينَا

(١) يريد ركزة واحدة الركاز المال المدفون . وذكَّر مراعاة للسجع .

المعمورةِ بُكْرةً وأصِيلا، مُسوِّيًا بين الناس فيما رَزَق اللهُ وفَتح، وبعَث من فَضْله ومَنح؛ بحيثُ لا يقدِّم عزيزًا ولا يُؤخِّر ذَليلا، ولا يُراعِى فى ذلك صَدِيقًا ولا خَليلا.

ولْيقدِّمْ خَوْفَ الله تعالىٰ علىٰ خَوْفِ خَلْقِه، ولْيُسوِّ بين الضَّعيف والقوىِّ فيما بَسَط اللهُ من رِزْقِه؛ وآكَدُ ما نُوصِيه به تَقْوى الله تعالىٰ فيما هو بصَدَدِه، فلْيَجْعلها فى أُمُورِه الباطِنَةِ والظاهِرَةِ من عُدَدِه؛ واللهُ تعالىٰ يقدِّمُه فى مباشَرتِه لاقتناء محاسن المعروف وزُبَدِه، ويرزُقُه من الأجْر على ما يَعْمله من الخَيْر مع تُجّار هذا البَحْر بما هو أكثر من زَبَدِه.

***

توقيعٌ كريمٌ بنيابة اللَّاذِقِيّة، من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارى، كتب به لـ«شمس الدين» ابن القاضى، بـ«ـالجناب العالى»، وهو:

الحمدُ للهِ الذى زاد «شَمْس» الأولياءِ إشْراقا، ومَنَحه فى هذه الدَّوْلة الشريفة إرْفادًا وإرْفاقا، وصَانَ الثُّغورَ المحروسةَ بعزَماتِه التى سَرَّتْ قُلوبًا وأقرّتْ أحْداقا، وجدّدتْ لأوْليائها من مَواهِبِها عَطاءً وِفاقا.

نحمدُه علىٰ حُكْمِه وفِعْلِه، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تمنَحُ قائِلَها مَزِيدَ فَضْلِه؛ ونشهدُ أنَّ سيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيَّده اللهُ بملائكته المُقرَّبين، وشدَّ أزْرَهُ من أصحابه بالآباء والبَنِين؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أئمّة الدِّين، صلاةً تمنحُ قائِلَها غُرَفَ الجِنَانِ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وسلَّم تسليمًا كثيرا.

وبعدُ، فإنَّ من شِيَم هذه الدَّوْلة إذا بَدأتْ تَعُود، وإذا نَظَرتْ تَجُود، وإذا قَدَّمتْ وَلِيًّا لحَظَتْه بأعيُنِ السُّعود.

وكان الجنابُ العالى ـ أدام اللهُ نِعْمَته ـ عَيْنَ القِلادَه ، وبَيْتَ السِّيادَه، ومَعدِنَ السَّعاده، وأهْلاً أنْ يُدبِّر الأُمور، ويَسُدّ الثُّغُور، ونِيابَةُ اللاذقِيَّـة مجاوِرَةُ البُحور، وجَزِيرَةُ العَدُوّ بينها وبينها نَهارٌ فهى فى أمرها له قاعدة فى النُّحور، وقد رَأيناه أهْلاً أنْ يَصُونَ نَحْرها، ويتقلّد أمْرَها، ويحفَظَ بَرَّها، ويَدْفعَ شَرَّها .

فلذلك رُسم بالأمر ـ أعْلى اللهُ تعالىٰ شَرَفَه ـ أنْ تُفَوَّضَ إليه نيابةُ اللاذقية المحروسة، علىٰ عادة من تقدّمه .

فلْيَسِرْ إليها سَيْرَ الشَّمْسِ فى أبْراج شَرَفِها، ولْيُقْبِلْ عليها إقْبالَ الدُّرَّةِ على التَّرائِبِ بعد مُفارَقة صَدَفِها، وأوّلُ ما نأمُره [به] : إرْهابُ العَدُوِّ بالعُدّة والعَدِيد، وإظْهارُ المَهابَةِ فى القريب والبعيد، وتفقُّدُ الأيْزاكِ بنَفْسه من غير آتّكالٍ علىٰ سِواه كما يفعلُ البَطَلُ الصِّنْديد، ولْيَخْلَعْ عنه مَلابِسَ الوَشْيِ ويَلبَسِ الحَدِيد، ولْيَهْجُرِ المضاجِعَ ويَتَّخِذْ ظَهْرَ جَوَادِه مستَقَرَّه العَتِيد، حتَّىٰ ينتَشِرَ له صِيتٌ بين أهْلِ التَّثْليث كما آنتشر صيتُه بين أهْل التَّوحيد .

وآبْسُطْ بِساطَ العَدْلِ ليطَأَه المَوالِي والعبيد، وآحْكُمْ بالحقِّ فالحقُّ مُفِيدٌ والباطِلُ مُبِيد، ومتىٰ تسامعَ التُّجَّارُ بعدْلك جاءُوا بالأصناف والمَتْجَرِ الجَدِيد، وآرْكَنْ إلىٰ حُكْم الشَّرع الشريف فإنَّه يَأْوِى إلىٰ رُكْنٍ شديد، وآتّقِ اللهَ تَجِدْه أمامَك فيما تَرُوم وتُرِيد، وتمسَّـكْ بالسِّيرة الحسـنة يَزِدْكَ اللهُ رِفْعَةً وأنت أحَقُّ بالمزيد، وعقِبَها نَسْتَنْجِزُ لك تَشْرِيفًا شَرِيفًا مَقْرونًا بتَقْلِيدٍ أعْظَمَ من هذا التقليد، والخطُّ الكريم أعلاه حجّةٌ به، إن شاء الله تعالىٰ .

✧ ✧ ✧

تَوْقيعٌ بنيابة قَلْعـة حصْنِ الأكراد، كُتِب به لشهاب الدين «أحْمد الناصرى»، وهو :

الحمدُ لله الذى أطْلع فى سماء الدِّينِ شِهابا، وفتح لمن خافه وآتقاه إلى الخيرات أبْوابا ، وحَبَاه من إفْضالِه وألْبَسه من حُلَلِ إنعامه ونَعْمائه أثْوابا .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى أجزل لنا بمَزِيد حَمْدِها أنْعماً وثَوابا ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نتَّخِذُها من النار حِجابا، ونَعْتدُّ بها فى الآخرة مَفَازًا حدائِقَ وأعْنابا، وكَواعِبَ أتْرابا ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شَرَّفه على الأنبياء مَنْصِبًا ونِصَابا، وسَبىٰ بطَلْعتِه وطَلِيعَتِه قُلُوبًا وأحزابا، وقرَّبَه إلىٰ أنْ كان قابَ قَوْسَيْنِ وأسمعه من لَذِيذِ كلامَه خِطَابا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصْحابه : أكْرِمْ بِه وبِهِمْ آلًا وأصْحابا ! ، وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ من آنْتُدِبَ، لِحفْظِ المعاقل الإسْلاميَّة وآنْتُخِبَ، وأحْرىٰ من لَحَظَتْه عَيْنُ عنايتِنا فكان إليها من العَيْن أقرب، وأحَقَّ من آعْتُمِد علىٰ بَسَالَتِه وإيالَتِه بما سَبَرَ من الأنام والأيام وجَرَّب ــ مَن عُرِفَ بشجاعةٍ أيْنَ منها عَمْرُو بن مَعْدِى، وأَمَانةٍ كَفَّتْ حين كَفَّتْ كَفَّ التَّعدّى ، وعِفَّةٍ جعلها فى أحوالِه كلِّها نُصْبَ العَيْن ، وسِياسَةٍ ما زال يُصْلِحُ بها بين ذَوِى المُشاقَقَة ذاتَ البَيْن ؛ وكان فلانٌ هو الموصول المُقَدَّم ، المَوْصوفَ بهذه الصفات التى سُرَّ السَّاحِلُ بها فتَبَسَّم .

فلذلك رُسِم بالأمر ــ لا زال يُطْلِعُ فى آفاق الحُصونِ المَصُونَةِ شِهابا ، ويَرْفَعُ الأوْلياءَ بإحْسانه الذى يُؤَكِّد لهم فى جُودِه أسبابا ــ أن يستقرّ (١) نائبًا بقلعة حصنِ الأكراد المحروس وأعمالها، علىٰ عادة من تقدّمه ومُسْتَقَرِّ قاعدته .

فليُباشِرْ ما وَلَّيناه وأوْلَيْناه : مُباشرةً تُسْفِرُ عن حُسن فِطْنَتِه وذَكائه ، وتُضِيءُ الآفَاقَ بنُورِ شِهابِها وسَنائه ، وتُظْهِر مَعْروفَها المعروفَ بعدم غَيْبته وخَفائه ؛ مُعْتمِدًا

(١) بياض بأصله ومراده الجناب العالى . أو المجلس العالى .

على الله تعـالىٰ فى إبدائه وإنهـائه ، شارِحًا لكلِّ قَلْبٍ آلائَه إحْسانُه بعـد غِلْظَته وجَفائِه ، مانِحًا من بَحْرِ جُودِه وعَدْلِه بالدُّرِّ لا بُجفائه، مُكْرِمًا لمن بهذا المَعْقِل : من أُمَرائِه وأجْنـادِه وأغْنيائِه وفُقَرائِه ، مُقِيماً لمَنـارِ الشَّرعِ الشريفِ الذى لا تَسْتَقِيمُ الأُمورُ إلّا بمتابعتِـه وإبدائه ؛ ولْيُظْهِرْ من شجاعته وبَسالَتِـه ما لا فائدةَ فى خَفَائِه ، ولْيَشْهَرْ سَيفَه، فى وَجْه من أظْهر حَيْفَه، وعَدِم خوفَه، من سَطْوَةِ رَبِّه وكُرَمائِه .

وأعظمُ ما نُوصِـيه به التَّقْوىٰ، فإنَّه بمُلازَمتها يقْوىٰ، علىٰ دَفْعِ الشَّرِّ وفِعْـلِ الخير وإسْدائِه ، والوصايا كثيرةٌ وهو المجرِّب بالعَمَلِ بهـا لمن يرغب فى آستِيلائِه ، والله تعالىٰ يُحرِقُ بِشهاب عَدْلِه كلَّ مُتَمرِّد ... ...

* * *

وآعلم أنَّه ربَّمـا كُتب تَوْقِيع نائبِ حِصْنِ الأكراد مفتتَحًا بـ«أمَّا بعدَ حمدِ الله» .

وهذه نسخةُ تَوْقِيعٍ بنيابة حِصْنِ الأكراد، كُتب به باسم «شِهابِ الدين الحاكى» بـ«الجناب العالى» ، وهى :

أمَّا بعـدَ حمدِ الله الذى جعل شِهابَ الدِّين يتَنَقَّلُ فى مَطـالِـع سَعْدِه، وجَدَّد أثواب النَّعماء لمن قَدُمَتْ هِجْرَتُه وظهر خَيْره فأنجز له الإقبالُ صادِقَ وَعْدِه، وأشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُبَلِّغ قائلَها إنالَةَ قَصْدِه، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيَّده اللهُ بنَصْرٍ من عِنْده ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين كانوا من أنْصاره وجُنْدِه، صلاةً دائمةً يبلغُ المؤمنُ بها غايةَ رُشْدِه ؛ وسلَّم تسليماً كثيرا ــ فإنَّ أوْلىٰ مَن شَمِله إحْسانُ هذه الدَّوْلة الشريفة وتَوَلَّه مُرادَه ، وأجْزل عليه النِّعَم فكان أحَقَّ بهـا لحُسنِ طَوِيَّتِه فأجْراه اللهُ علىٰ أحسَنِ عادَه ، وبلَّغه غايةَ القَصْـدِ ومَعْدِنَ السعاده ــ من سَلَكَ مسالكَ الأُمناءِ الثِّقات، وآشْتهرَتْ عنه العِفَّةُ وحُسْنُ الصِّفات، فتعيَّن تَقْديمُه وتَقْرِيبُه إلىٰ أجلِّ ولايات الفُتُوحات .

ولمّا كان فلانٌ ـ أدام الله عِزّه، وأنجح قَصْدَه ـ هو المَنْعُوتَ بصفات السَّداد، المشْهورَ بالنَّهْضةِ والشَّجاعة فى هذه البلاد؛ الذى حَوىٰ المكارِمَ والإفْضال، ووافَق خُبْرُه خَبَرَه فى سائِر الأحوال .

فلذلك رُسِم بالأمر ـ لا زال شِهابُ فَضْلِه سَاطِعا، ونُورُ إحسانِه لَامِعا ـ أنْ يستَقِرّ المجلسُ العالى الشِّهابىُّ المشارُ إليه فى وِلَاية الأعمال الحِصْنيَّة والمناصف عِوَضًا عمّن بها، علىٰ عادته وقاعدته: لأنَّا وجَدْناه شَمْسَ أعيان الأماثِل، وألْفَيْناه قَلِيلَ النَّظِير والمُضاهى والمُماثِل؛ وعليه عُقِدَت الخَناصِر، وآتَّفقَتِ الآراءُ الثاقبةُ فى الباطن والظاهر؛ ولمَا جَمع من كَرَمِ الشِّيَم وجَميل الخِلَال، وحازَ من النَّباهَةِ الرفيعةِ الذُّرَا المَدِيدَةِ الظِّلَال .

فليَتوجَّهْ إلىٰ محلِّ وِلَايَتِه، ولْيُظْهِرْ ما أكْمَنَه من العَدْل والإنْصاف فى ضمائره بحُسْنِ سياسَتِه؛ ولْيُنْصِفِ المَظْلُومَ ممَّن جارَ عليه وآعْتَدىٰ؛ ويَتَّبِعْ فى ذلك مايُوضِّح له من طريق مَنَارِ الهُدىٰ؛ ولْيَبْسُطِ المَعْدِلَة ويُمدَّ باعَه، ولْيُبِدِ الظُّلْمَ ويَقْصِمْ ذِرَاعَه؛ ولْيَصْرِفْ هِمَّته فى عمارة البلاد، وتأْمِينِ العِباد، وسُلُوكِ سُبُلِ الرَّشاد؛ ولْيَجْتَهِدْ فى سَدِّ الخِلال، وإصْلاح ما فَسَد بغَيْره من الأحْوال؛ وليجْعَلْ تَقْوى اللهِ مَحَجَّتَه، وآتِّباعَ العَدْلِ حُجَّته، وسُلُوكَ الحَقِّ عُدَّتَه؛ فقد جاءت التَّقوىٰ فى التنزيل مُؤكَّدَه، ووردَتْ فى كَثِيرٍ من السُّوَر مُرَدَّده؛ واللهُ تعالىٰ يُعِينُه علىٰ ما وَلَّاه، ويَحْرُسُه ويتولَّاه، بعد الخط الكريمَ أعلاه .

⁂

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة المَرْقَب والولاية بها، كُتب به لصلاح الدين «خليل»، بـ«ـالجناب العالى»، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الدَّولةَ الشريفةَ مَقْرونَةً بالتَّأْييد والنَّجاح، ووفَّقَ أوْلياءَها إلىٰ سُلُوكِ سُبُلِ السعادة وشَيَّدها بالصَّلاح، وخَوَّلَهم فى أيَّامها المراتبَ العلية ليبْتَهِلُوا بأَدْعِيَتِهم وبدوامها فى المَساءِ والصَّباح .

نحمُده علىٰ نِعَمِه التى لايبْرَح مُخْلِصُها فى ٱزْدِيادٍ وٱرْتِياح، ونشكُره علىٰ آلائه شُكْرًا نستَحِقُّ به المَزِيدَ كما أُوضِح فى القُرآن أكْمَلَ إيضَاح، ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً مُعْلِنَةً بالفَلاح، وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه الذى أنزل عليه فى مُحْكَم كتابه العزيز : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ مَثَـلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَـا مِصْبَاحٌ ﴾ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الغُرِّ الكِرَامِ الأشْباح، ما ترنَّم طائِرٌ علىٰ غُصْنٍ وحَيْعلَ الدَّاعِى الى الفَلاح، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعــد، فإن أوْلىٰ من عُدِقَت به نِيابَةُ أجَلِّ المعاقِلِ والثُّغور وفُوِّضت إليه، وعُوِّل فى حِفْظِها ومباشرتِها الحَسَنة الجميلة عليه ـ مَن عُقِدَتْ علىٰ حَزْمِه الخَناصِر، ووَرِثَ الشَّجاعةَ والشَّهامَةَ كابِرًا عن كَابِر، وهو الذى نَمَا فَرْعًا وزَكا [أصْلا]، وفاقَ فى المكارم علىٰ نُظَرائِه قَوْلا وفِعْلا، فأضحىٰ وافِرَ الثَّناءِ واضِحَ الغُرَر، شاهِدًا له به العَيْن والبَصَر .

ولمـا كان فلانٌ هو المَنْعوتَ بهـذه الصِّفات، والمَوْصُوفَ فى مَواقِفِ الحروب بما لَدَيْه من الثَّبات والوَثَبات، المَشْكُورةَ خِدْمَتُه، شامًا ومِصْرا، المَشْهورةَ بين الهِمَم هِمَّتُه، بَرًّا وبَحْرا .

فلذلك رُسِم ... ـ لازالتْ مراسِيمُه الشريفةُ مَبْثوثَةً بالعَدْل والإحْسان، ومَعْدلَتُه تَسْـتدْعى بدوام دولته الشريفــة لِسَانَ كلِّ إنْسان ـ أنْ تفوَّضَ إليــه نيابة قَلْعــة المَرْقَب المحروس، والولاية بالأعْمال الشَّرْقِيَّــة، وما هو منسوب إليها، علىٰ العادة فى ذلك ومستقرِّ القاعدة : إذْ هو أحقُّ بها وأهْلها، وأكْمَلُ [من] يجمَعُ شَتَاتَ شَمْلِها .

فلْيباشِرْ ما نُدِب إليــه من هــذه الجهات مُباشَرةً تَقْصُر الأفكارُ عن توَهُّمها ، والأبْصارُ عن تَوَسُّمِها ، والخَواطِرُ عن تَخَيُّلِ مَبْناها ، و [الأذْهانُ] عن تَمثُّلِ صُورَتِها ومعناها ، ولْيكن لمصالحها مُتَلَمِّحا ، ولأحْوالِ رجالها مُتَصَفِّحا ، ولأقْدار جهاتها مُرْبِحا ، وللخَواطِر بأداء أحْوالها على السَّداد مُرِيحا ، ولوظائِفِها مُقِيما ، وللنظر فى الكبير والصَّغير من مصالحها مُدِيما ، ولحُرْمَتِها مُضاعِفا ، وعلىٰ كلِّ ما يتعيَّن الاحتفالُ به من مُهمَّاتها واقفا ، ويُعِدّ للعَدُوّ المَخْذولِ عند تَحرُّكه العَزْمَ الشديد ، ويَهْجُرْ لِبْسَ الوَشْيِ ويتألَّفْ لِبْسَ الحَدِيد ، ويَتَّخِذْ ظَهْر جَوادِه مُسْتَقَرّه العَتِيد ، ويُشَمِّرْ للجهاد ذَيْلا ، ومَعاذَ اللهِ أنْ يَمِيلَ عنه مَيْلا ، ويَبْسُطِ العَدْلَ للرَّعِيَّــه ، ويُعامِلْهم المعاملةَ المَرْضِيَّه ، ويُحْسِنْ إلى الأُمَراء البَحْرِيَّه ، ويُلاحِظْ مصالِحَهم فى كلِّ قَضِيَّة ، ويتفَقَّدِ الرِّجال ، وأرْبابَ الأدراك والشَّوانى ويُحَذِّرْهم من الإهْمــال ، ويأمُرْهم باليَقَظَة والاحتراز فى اللَّيــل والنهــار وسائِرِ الأحوال ؛ وليعمَلْ ما يحتاج إليه من آلات الجهاد ولْيَكُنْ علىٰ حَذَر ممــا يتجدّد كلَّ يوم ، ولْيُوقِعِ الرَّهْبةَ فى قلوب الأعداء بخَيْله فى اليَقَظَة وخَياله فى النَّوْم ؛ ويتفَقَّد الموانى فى سائر الأوقات فى اللَّيل والنهار ، وليُحَذِّرْ أُمَراء الأيْزاك من الغَفْلَة فإنَّ الغافِلَ لا يزال علىٰ شَفَا جُرُفٍ هَار .

ولْيتَّقِ اللهَ فى أقواله وأفعاله . والوصايا كثيرةٌ وهو أدْرَبُ بهــا وأدْرَىٰ ، وأبوابُ الخيرات واسِعَةٌ وهو إليها أسْرعُ وأجْرىٰ ؛ ولْيشكر الله تعالىٰ علىٰ ما ولّاه ، والاعتماد على الخط الكريم أعلاه .

⁂

وهــذه نسخةُ تَوْقيع بنيابة حِصْن عكَّار ، كُتب به لـ « ناصر الدين الكُردى » ، بـ« بالجناب العالى » ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى نَصر هذا الدِّينَ الحنيفيَّ بسيِّد البَشَر، وخصَّ هذه الدولةَ الشريفةَ بالتأْييدِ والظَّفَر، ووافَى الأولياءَ بجُودها الذى لم يزلْ من ذِمَّة الوَفَاء يُنْتظر .

نحمدُه علىٰ مَنِّه الذى طالما بدا فى جَبَهات الأولياء بِشْرُه وظَهر، ونشكره علىٰ جُودِه الذى أغنىٰ عن التَّحْجِيل والغُرَر، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادة تُنْجِى قائِلَها يوم الفَزَع الأكبر، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أقام اللهُ بسَيْفِه الإيمانَ فاشْتَهر، وكَفَّ به يَدَ الطُّغيان وزَجَر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله ما اتَّصلتْ عَيْنٌ بنَظَر وأُذُنٌ بخَبَر، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أَوْلىٰ من (١) رُعِيتْ له خِدَمٌ عَدِيدَه، وعُرِفَتْ له فى أجَلِّ الثُّغور مباشراتٌ سَعِيدَه، واشْتهرتْ شَهامَتُه وكِفايَتُه فى الآفاق، وظهرتْ أمانَتُه ظُهورَ الشَّمس فى الإشراق، وتقدّم بذلك علىٰ نُظَرائِه وفَاق .

ولمَّا كان الجنابُ العالى هو المنعوتَ بهذه الصفات الجميله، والمُحْتوِىَ علىٰ هذه المزايا الجليله؛ الذى شَاعتْ شجاعَتُه مع طهارة يَد، ولا عَجَبَ فانَّ هذا الشِّبْلَ من ذاك الأسَد! ؛ وسارتِ الرُّكْبانُ فى الممالك بنَهْضَتِهما فى المباشرات، وسَدِّ الخَلَل فى المُهِمَّات المُعْضِلات .

فلذلك رُسِم ... ـ لازالتْ أيَّامُه مَبْثُوثةً بالعَوارِف والإحْسان، ومَعْدِلَتُه تستدعى بدوام دَوْلته الشريفةِ لِسَانَ كلِّ إنسانْ ـ أنْ تفوّض إليه نيابة قَلْعة حِصْنِ عكَّار المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته، بالمرتَّب الشاهدِ به الديوانُ المعمورُ .

فلْيُقَدِّمْ خِيرَةَ اللهِ تعالىٰ ويَتَوجَّهْ إليها، ويَصْرِفْ وَجْه الإقبال عليها، ويَنظُرْ فى عمارتها ومصالحها، ويَسْتَدْرِكْ ما استَهْدَم من بيوت حَواصِلها؛ لِيُصْبحَ وَجْهُ هذا الثَّغر

(١) لعل الصواب «فان أولى الأولياء بالمناصب من رعيت» الخ ليستقيم الكلام .

بحُلُوله به بَاسِما ، ويَنْشُر له من حُسْن تدبيره وجميل تأْثِيره عَلَما ؛ وليُحسنْ إلى الأمراء البَحْرِيَّه ، ويُنْزِلْهم منازلَهم على العادات المَرْضِيَّه ؛ وليَعدِلْ فى الرَّعِيَّه ، ويُنْصِف المظلومَ من الظالم فى كلّ قَضِيَّه ؛ ويُلْزِمْ أربابَ الوظائف من المقدَّمين والرَّجَّالة بالخِدْمة بالنَّوْبة على العاده ، ويُوَصِّلْ إليهم معْلُومَهم من جهاتهم المعتاده ؛ ويَتَّبِع الحقَّ المَحْضَ فى كلّ أمر ، لا يَقْتدى برَأْيِ زيد ولا عَمْرو ؛ وليَعلَمْ أنه مُطالَبٌ بالعَدْل فى وظيفته ، فإنَّ كلَّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِه ؛ والوصايا كثيرةٌ ومُعْظَمها تقوى الله فى سائر الأُمور : فليَتَمَسَّكْ بها يقوىٰ ، فإنَّها السَّبَبُ الأقْوىٰ ، واللهُ تعالىٰ يتولاه فى السِّرّ والنَّجْوىٰ ؛ بعد الخطِّ الكريم أعلاه .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بنيابة بَلاطُنُس بـ«ـالجناب العالى» ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى أَسْبغَ نِعَمَه علىٰ أَوْليائِه ، وأَجْزَلَ كَرَمه علىٰ أَصْفِيائِه ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُنْجِى قائِلَها من وَبِيلِ العذاب ، وتُجَدِّدُ له أَسْبابَ السعادة فى الدُّنيا ويومَ الحساب ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالنُّور المُبِين ، المخصوصُ بالدِّين المَتِين ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأَصْحابه ، وأَهْله وأَصْفيائِه وأَتْرابِه .

وبعدُ ، فإنَّ القِلاعَ المنصورةَ ممَّا يتعيَّنُ الاَحتفالُ بأمْرِها ، والاَهْتمامُ بحِفْظ رجالها فى سِرِّها وجَهْرها ؛ ومن أَجَلِّ قِلاعِ الساحل المحروس ، وأَجْمَلِ مساكن البَحْر المأْنوس ، قلعة بَلاطُنُس .

فلذلك رُسِم ... ـ لا زالتْ صَدَقاتُه تشملُ كلَّ أوْحَد ، وتَجْبُرُ كلَّ وَلِيٍّ أمْجد ـ أنْ يستقرَّ ... ... إذْ هو الخبيرُ ، الذى ليس لمَعْرِفَتِه نَظِير ، والضَّابِطُ الذى يُحاقِقُ على

الجليل والحقير، والنَّقِير والقِطْمِير، والشُّجاعُ الذى هو فى يوم النِّضالِ علىٰ أخْذ العَدُوِّ لَقَدِير، والضِّرْغامُ الذى أعطاه الله القُوَّةَ والمَعْرِفَةَ التامَّةَ فهو بهما جَدِير .

فلْيَسِر إلىٰ الثَّغْر المحروس، ويَعْتَمِدْ فى أُمُوره ما هو فيه من الخِبْرة مَغْرُوس .

* * *

وهذه نسخةُ تَوْقِيع بتَقْدِمَة العَسْكر بجَبَلَةَ، كُتب به لـ«صلاح الدّين الحافظى»، بـ«ـالجناب العالى»، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل هـذه الدَّوْلَة الشريفةَ تَنْقُل كلَّ وَلِىٍّ إلىٰ درجات سَعْده، وتُؤَكِّد أسبابَ الارتقاء لمن حُمِدَت مآثِرُه وحَسُنَتْ سِيرتُه فى اليوم والذى من بَعْده، وتُجَدِّدُ أثوابَ النَّعماء لمن ظَهر خَيْره وخِبْرتُه فأنْجز له الإقبال صَادقَ وَعْده .

نحمدُه علىٰ نِعَمِـه التى أجْزلتْ لمُسْتحِقِّها مَواهِبَ رِفْده، ونشـكُره علىٰ مِنَنِه التى خَصَّتْ كلَّ كافٍ بتأْثِيل مَجْدِه، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يبلُغُ بها قائلُها غايةَ قَصْده، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيَّده الله تعالىٰ بنَصْرٍ من عِنْده، وآمَنَه علىٰ وَحْىِ الرِّسالة فنصح الأُمَّة غاية جُهْده، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانوا من أنْصاره وجُنْده، صلاةً دائمـةً باقيةً يبلُغُ بها المُؤْمنُ غاية رُشْده، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ الجنابَ العالِىَ لمـَّا تقدَّمَتْ له مباشرات، فى أجَلِّ الولايات وأحْسَنِ النيابات، وهو يَسِيرُ فى كلٍّ منها أجْمَلَ سَيْر، ويُحْسِنُ إلىٰ رَعِيَّتها فلا غَرْوَ أنْ يذكروه بكلِّ خَيْر، كَمْ قام بمُهِمَّات من غَيْر عَسْف أهْلِ البلاد، وكَمْ أعانَ الدِّيوان المَعْمورَ من غير ضَرَرٍ للعباد، وكَمْ ميَّز أمْوالًا فكانت أيَّامُ مباشراته أعْياد، وكَمْ له من خِدَم سار بهـا الرِّكابُ وبلَغ بها المُرَاد، وكَمْ أثنىٰ عليـه لِسانُ القَلَم حتَّى نَفِدَ المِـدَاد،

وكَمْ وُصِفَتْ هِمَمُه وحُسنُ تأتِّيـه فى كلّ تَوْقيع وتَقْليدٍ على أنّ الكاتِبَ ما زاغ عن الحقِّ ولا مالَ عن الصِّدْقِ فيها ولا حَاد .

فاقتضى محمودُ رأْيِنا الذى ما بَرِحَ بعَوْن الله يُصيب، وجَميلُ فِكْرِنا الذى ما دَعَوْناه لأمْرٍ إلّا و بالإصابة بحمد الله يُجيب، أنْ نُعيِّن له وظيفةً نُرِيحُه فيها من التَّعَب، ونُوَفِّره من تَبِعاتِ الطَّلَب ؛ وكان مَن فى تَقْدِمَةِ العسكر بجبلة يَعْتَريه أَلَمٌ يَعوقُه عن الرُّكوب فى الخِدَم الشريفة والنزول، سِيَّما فى هذا الوقت الذى فيه يتحرّكُ العَدُوُّ المَخْذُول .

فلذلك رسم ... ـ لا زالتْ أيّامُه الشَّريفةُ تُيَسِّر أسْبابَ النَّجاح، وعَوارِفُه تُطوَى لهـا أرْضُ البُعْدِ عن أوليائها كما تُطْوَى لِذى الصَّلاح ـ أنْ يستقرّ الجناب ... ... فى تَقْدِمة العَسْكر المنصور بجَبَلَةَ ، على عادة مَن تقدّمه وقاعِدَته .

فلْيباشِرْها مباشَرةً تَليقُ بشَجاعَتِه ، وتُعْهَدُ من حُسْن سِياسَتِه ؛ ولْيُكْرِم الشَّرْعَ الشريف ، ولْيَردَعْ من يَحِيدُ عن الحقِّ أو يَحِيف ؛ ولْيَجْمَعِ الأمراءَ المقدّمين والحلقة المنصورة على الركوب فى الخِدْمة الشَّريفه ، وليشكر نِعْمةَ الله تعالى المُطِيفَه ؛ ولْيَتيقَّظْ لِرَدْعِ العَدُوِّ المخذول ، ولْيَعْلَمْ أنّا ٱسترعيناه أمْر ذٰلك وكُلُّ رَاعٍ مَسْئُول ؛ ولْيَتحقَّقْ أنّ العدُوَّ المخذولَ طالِبٌ للهالكين منهـم بالثّار ، وهم قاصدون جَبَلَةَ فلْتكُنْ عنـده يَقَظَةٌ وٱستبصار ؛ وليرتب الأيزاك ولْيُعَمِّر الموانى بالرجال ، ويتفقَّدْهم فى الليل أكثر من النهار ؛ ولْيَهجُرِ النَّوْمَ فى طَلَب الظَّفَر والمُنَى فمن سَهِر لذلك ما خَاب ، ولا يَأْمَنْ مَكِيدَتَهم ويَغْتَرَّ بهم فيقولُ : قد ضُرِبُ بينهم و بينها بسُـورٍ له بَاب ؛ و باقى الوصايا فهو بها أعْلم ، ولم يَبْرحْ مُتَلفِّعًا بثَوْبِها المُعْلَم ؛ ومِلاكُها تقوى الله تعالى فمن لم يعمل بها يأْثَم ، ومن تركها يَنْدَم ، ومن لَزِمها فهو فى الدارين مُقدَّم ؛ والله تعالى يتولاه ، والاعتماد على الخطّ الكريم أعلاه ؛ إن شاء الله تعالى .

وآعلَمْ أنّه ربَّما آفتتح تَوْقيعُ مقدّم العسكر بجَبَلَةَ بـ«أمَّا بعدَ حمد الله» .

تَوْقيعٌ بتقدمة العسكر بجبلة ، ممَّا كُتب به لحسام الدين العلائىّ بـ«الجناب العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى تُجْزِلُ لكلِّ وَلِىٍّ من مَوادِّ فَضْلِها إنْعامًا ، وتَمْنَحُ من عَوارِفِها أقْساما ؛ وتُبَلِّغ من النُّجْح لذوى الآستحقاق آمالا وتجعلُ فى نُحُورِ الباغين حُسَاما ؛ والشَّهادةِ له بالوحدانية التى لم تزلْ للأولياء المُتَّقِين لِزاما ، وترفعُ لهم فى الجَنَّاتِ مَقاما ؛ والصَّلاةِ علىٰ سَيِّدنا محمدٍ الذى محَا اللهُ بنبوَّته عن الأُمة المحمديَّة آثاما ، وشرّفَه علىٰ سائرِ خَلْقِه وجعله للأنْبياء خِتاما ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ظافَرُوه وبايَعُوه دُهُورا وأعْواما ، صلاةً دائمةً تَزِيدُ مُرَدِّدَها عِزًّا وإكراما ـ فإنَّ الآهْتمام بكلِّ جِهَةٍ هو علىٰ قَدْرِها ، والعناية بقُطْرِها .

ولما كانت مدينةُ جبلةَ المحروسةِ مخصوصةً بمقام بر (١) السَّند ، الزَّاهد الذى ترك الدُّنيا والأهْلَ والوَلد ، والوَلِىِّ المَبِّرزِ فى عِبادة الخالق ، والمتوكِّلِ الذى لم يدَّخِر قُوتَ ساعَةٍ لساعةٍ آعتمادًا على الرَّازق ـ تعيَّن النظرُ فى أمْرِها وحِفْظِها من العَدُوِّ المخذول ، وإن كان بهـذا السَّيِّد السَّنَد قد تبين حفظها ؛ وكان فلانٌ ممَّن باشرها فأحْسنَ فيها المُباشَره ، وكلأ حِفْظَها بيقَظَتِه وعَيْنِه السَّاهِرَه ـ آقتضىٰ رَأْيُنا أن نُعِيدَه إليها ، ونُسْبِغَ ظِلَّه عليها .

فلذٰلك رُسِم بالأمر ـ لا زال حُسَامُه قاطِعًا من الأعْداءِ نَحْرا ، وفِعْلُه صالحًا دُنيا وأُخْرىٰ ـ أنْ يُعادَ المشارُ إليه إلىٰ تَقْدِمة العَسْكر المنصور بجبلَةَ المحروسة ، عوضًا عمَّن بها ، وعلىٰ عادته وقاعدته .

(١) بياض بالأصول ولعله بركات السيد السند .

فلْيَعُدْ إليها عَوْدَ الحُسام إلىٰ غِمْدِه، والمَاءِ إلىٰ مَنْهَلِ وِرْدِه ؛ ولْيُقَدِّم خيرةَ الله فى المَسير إليها، ولْيَبْسُطِ العَدْل ليأْمَنَ أهلُها بقدومه عليها؛ ولْيُكْرِمْ من بها من العسكر المنصور، ويُحْسِنْ إلى الرَّعِيَّة بها ليُصْبِحَ خَيْرَ مَشْكُور؛ ولْيُنصف المظلوم ممَّن ظَلَمه، ويَنْشُر للشَّرع الشريف عَلَمه ؛ ولْيُخَلِّص الحقَّ من القَوِىِّ والضَّعيف ، والدَّنِىِّ والشريف؛ ولْيَلْزَمْ من بهذا الثَّغْر بعمل اليزك المعتاد، والتَّيقُّظ لأمْرِ العَدُوّ المخذول ومضاعفة الاجتهاد، ولْيلازِمْ تقْوَى الله تعالىٰ فى الأقوال والأفعال ، واللهُ تعالىٰ يَمْنَحُه من فَضْلِه ما يرجو من الآمال .

❖

وهذه نُسَخُ تواقيعَ لأرباب الوظائف الدينية بطَرَابُلُسَ .

تَوْقيعٌ بنظر الحِسْبَة بِطَرَابُلُس، كتب به للقاضى «ناصر الدين بن شيصة» وهو :

الحمدُ لله مُبَشِّرِ الصابرين، ومُوَصِّل الأرزاق علىٰ يَدِ أصْفِيائِه من العالمين، ومُعيد كلِّ ولِىٍّ إلىٰ مَنْصِبه ولو بعد حين .

نَحمدُه علىٰ فَضْلِه المُبين، ونشكُره علىٰ أنْ جَعلَنا من عباده المؤمنين؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً ندَّخِرُها ليَوْم الدِّين ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الصادِقُ الوَعْدِ الأمين، الذى أرسله بواضح الحُجَج ومُحْكَم البراهين، وأنزل عليه كتابًا عَربيًّا مبين ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الغُرِّ المُحَجَّلين ، صلاةً مستمِرَّةً علىٰ ممرّ الأيام والشُّهور والسِّنين؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من غَزَّرْنا موادَّ رِفْدِه ، وأجْزلْنا له حُظُوظَ سَعْدِه ، وبلَّغْناه من إقبالنا غايةَ قَصْدِه ، وحَمِدْنا تَصَرُّفَه من قبلُ عند مارَسم لما جُدِّد [من] بعدِه؛ وأعدْناه إلىٰ رتْبة أَلِفَتْ منه حُسْنَ السياسة والتَّدْبير، وعُرِفَ فيها بالكفايَةِ والصِّيانَة

ويُمْنِ التأثير ــ مَن له واسلفه فى المباشرات الجليلة يَدٌ طُولَىٰ ، فكان بوظيفته أحقّ وأَوْلىٰ .

ولما كان المجلسُ العالى هو المُتّصِف بصفات الكمال ، المَشْكُورَ فى سائر الأحوال ؛ فلذلك رُسم بالأمر ــ أنْفذه الله فى الآفاق ، وأجراه بصِلَةِ الأرْزاق ــ أن يُعادَ فلانٌ ــ أدام الله نِعْمته ــ إلىٰ نَظَرِ الحِسْبة الشريفة بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة علىٰ عادته وقاعدته ، مُضافًا إلىٰ ما بيده من بَيْت المال المَعْمور : لأنَّه الفاضِلُ الذى لا يُجارَىٰ ، والعالِمُ بأحْوال الرَّعِيَّة فلا يُناظَرُ فى ذلك ولا يُمارَىٰ ؛ والفَيْلَسُوفُ الذى يُظْهِر زَيْفَ كلِّ مُرِيب ، والنِّحْرِيرُ الذى بخِبْرته يَسِيرُ كلُّ حَبِيبٍ ولَبِيب .

فلْينظُرْ فى الدَّقِيق والجَلِيل ، والكَثِير والقليل ؛ وما يُحْصَر بالمقادير وما لا يُحْصَر ، وما يُؤْمَر فيه بمعْروفٍ أو يُنْهىٰ عن مُنْكَر ؛ وما يُشْترىٰ ويُباع ، وما يُقرِّبُ بتَحْريره إلى الجنَّة ويُبْعِدُ عن النار ولو لم يكُنْ قد بَقِيَ بينه وبينها إلا قَدْرُ باعٍ أو ذِرَاع ؛ وكلِّ ما يُعْمل من المَعايِش فى نَهارٍ أو لَيْل ، وما لا يُعْرف قَدْره إلا إذا نطق لِسانُ الميزانِ أو تَكَلَّم فَمُ الكَيْل ؛ وليَعْمل لَدَيْه مُعَدَّلًا لكلِّ عَمَل ، وعِيارًا إذا عُرِضَتْ عليه المعايير يَعْرِفُ من جَار ومن عَدَل ، ولْيتَفَقَّدْ أكْثَرَ هذه الأسْباب ، ويُحَذِّرْ من الغِشّ : فإنَّ الدَّاءَ أكثَرُه من الطعام والشَّراب ؛ وليتعرَّفِ الأسعار ، ويَسْتَعْلِمْ الأخبارَ من كلِّ سُوقٍ من غير إعلام لأهْلِه ولا إشْعار ؛ ولْيُقِمْ عليهم من الأمَناءِ من يَنُوب عنه فى النَّظَر ، ويَطْمَئِنُّ به إن غاب أو حضَرَ ؛ ودارَ النُّقود والضرب التى منها تَنْبَثّ ، وقد يكون فيها من الزَّيْف مالا يظهر إلا بعد طُولِ اللّبْث ؛ فلْيتَصَدّ لمُهِمّها بصَدْرِه الذى لا يَحْرَج ، ولْيَعْرِضْ منها على المَحَكِّ [من رأيه] ما لا يجوز عليه بَهْرَج ، وما يعلق من الذهب المكسور ويروبص من الفضة ويخرج ؛ ولْيُقِم الضَّمّانَ على العَطّارِين والطُّرُقيَّة

فى بَيْع غرائب العقاقير إلّا ممن لايُسْتراب فيه وهو معروف ، وبخَطّ طَبِيبٍ ماهِرٍ لمريض مُعَيَّنٍ فى دواء موصوف ؛ والطُّرقِيَّة وأهْلُ النّجامَةِ وسائرُ الطوائف المنسوبة إلىٰ سَاسَان ، ومن يأخذُ أموالَ الرِّجالِ بالحِيلَةِ ويأكُلُهم باللِّسان ، وكلّ إنْسان سُوءٍ من هذا القبيل هو فى الحقيقة شَيْطانٌ لا إنسان ؛ فامْنَعْهُمْ كلَّ المَنْع ، وٱصْدَعْهُم مِثْلَ الزُّجاجِ حتَّىٰ لاينجبر لهم صَـدْع ، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلّا فما تُجدى فى تأْدِيبِهِم ذاتُ التَّأْدِيبِ والصَّفْع ؛ ومن وَجَدتَه قد غَشَّ مُسْلِمـا ، أو أكل بباطِلٍ دِرْهما ؛ أو أخْبَرَ مُشْتَرِيًا بزائِد ، أو خرج عن مَعْهُود العوائد ؛ اشْهِرْه بالبَـلَد، وأرْكِبْ تلكَ الآلَةَ قَفاهُ حتَّىٰ يَضْعُف منه الجَـلَد ؛ وغيرِ هٰؤُلاءِ [من فقهاء المكاتب ، وعالمـات النساء وغيرهما من الأنواع](١) ممن يُخَاف من ذئبه العائث فى سِرْب الظباء والجآذِر ، ومن يُقْـدِمُ علىٰ ذلك أو مِثْـلِه وما يُحـاذِر ؛ ٱرْشُقْهُم بسِهامِك ، وزَلْزِلْ أقْدامَهُم بإقْدامِك ؛ ولا تَدَعْ منهم إلّا مَن ٱختَرتَ أمانَتَـه ، وٱختبرت صِـيانَتَه ؛ والنوّابُ لا تَرْضَ منهم إلا من يُحْسِن نَفَاذا ، ويُحْتسب لك أجْرُ ٱسْتِنابَتِه إذا قيـل لك : مَن ٱسْتَنَبْتَ ؟ فقلت : هذا ؛ وتَقْوَى الله هى نِعْم المسالك ، وما لك فى كلِّ ماذكرناه بل أكثره إلّا إذا عَمِلْت فيه بمَذْهَبِ مَالِك ، والله تعالىٰ يُسَدِّدُكَ ويُرْشِدُك ويوفِّقُك إلىٰ أحْسنِ المسالك .

✤

تَوْقيعٌ بالخَطابَةِ والإمامة بالجـامع المَنْصورىّ بطَرَابُلس ، كُتِب به للخطيب «جمال الدين إبراهيم» ، بـ«ـالمجلس السامى» بغير ياء ، وهو :

رُسِم بالأمر الشَّريف ـ لا زالَ عُودُ مَنابِرِ الإسلام بمـاءِ إحْسانه رَطِيبا ، وبُرْدُ شعائر الدين الحَنِيفىِّ فى أيَّامه الزاهرة قَشِيبًا ، ومَواهِبُه ومَنَاقِبُه تُقِيم لِمَـادِحِه فى كلِّ

(١) الزيادة من «التعريف صفحة ١٢٦» وهى لازمة لاستقامة الكلام .

وَادٍ شَاعِرًا ولمحامده فى كلِّ نَادٍ خَطِيبا ـ أنْ يُرتَّب المجلسُ السامى، الإمام، العامل: ـ رَحِم الله تعالىٰ السَّلَف، وزاد مَجْدَ الخَلَف ـ خَطِيبًا وإمَامًا بالمَسْجد الجامِع المعمور المَنْصورىّ بطرابلس المحروسـة، عِوَضًا عن فلان، وعلىٰ عادته وقاعدته، وبمَعْلومه الشاهِد به الديوان المعمور المستقِرّ بآسمه، إلىٰ آخر وَقْت: رعاية لأهْلِيَّتِـه الواضحة الدلائل، وفَضِيلَتِه الناطقَةِ الشَّواهد الصَّادقَةِ المَخايِل، وأوْصافه الجميلةِ التى بها تُعْرفُ من أبِيه الشَّمائل؛ ولأنَّه الصَّدْر آبن الصدرِ النَّجِيب، والخَطِيبُ الإمامُ آبن الإمامِ الخطيب؛ والوَلَدُ النَّجِيبُ الذى حَذَا حَذْوَ والدِه فى الصَّلاح ما خَابَ ولا يَخِيب، والنَّجلُ النَّبِيهُ المُهَذَّبُ الذى أشْـبه أباهُ فى الدِّينِ والوَرَع: ومَن أشْبَه أباهُ فما ظَلَمَ فى النَّباهَةِ والتَّهذِيب.

فلْيباشِرْ هذه الخَطابَةَ والإمَامَةَ التى هو آبنُ جلَاها، وطَلَّاعُ ثَنايَاها؛ زَائِنًا حِلاها، زائِدًا عُلَاها؛ وليَرْقَ ذِرْوَة هـذا المَنْصِبِ الذى هو أعْلىٰ المناصِبِ الدِّينيَّـه، وليَتَلَقَّ نِعَمَ اللهِ عَزَّ وجلَّ بالشُّـكْرِ الذى يُوجِبُ المَزِيدَ ويُكْسِبُ المَزِيَّه؛ وليقُمْ مقامَ والِده فى هذه الرُّتْبَـةِ السَّنِيَّه، بإخلاص العَمَل وصِدْقِ النِّيَّه؛ مُجَلِّيًا فى مِضْمارِ البيان الذى سُلِّمَتْ إليه أعِنَّتُهُ، وأُلْقِيَتْ إليه أزِمَّتُهُ؛ مُحَلِّيًا بقلائِد المَواعِظِ وفَرائِدِ الأمْثال أعْوادَ المِنْبرِ الذى لو أمْكنه لسَعىٰ إليه، مُشَنِّفًا الأسْماعَ بجَواهِرِ الأوامِر وزَواهِرِ الزَّواجِرِ التى يَصْدَعُ بها عليه.

ولْيَسِرْ كسِيْرَةِ والده فى الطَّريقة المُثْلىٰ وسُلُوكِ المَنْهَج الأسَدِّ، ولْيَجْتَهِدْ فى إحْيـاءِ رُسُومه فى العبادة وآقتِفاءِ آثاره فى العِلْمِ والزَّهادَة حتَّىٰ يقولَ الناسُ: هـذا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأسَد؛ جارِيًا علىٰ أفْضَل العوائد فى دِيانَتِه، سارِيًا بأجْمَلِ القَواعِد من صِيانَتِه؛ ولْيُوصَّلْ إليه مَعْلُومُه الشاهدُ به الدِّيوانُ المعمورُ المستَقِر إلىٰ آخر وَقْتٍ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته: لآسْتِقْبال مُبـاشرته أحْيان الوُجوب وأزْمان الآسْتِحْقاق،

رزقًا دارًا ، سارًا ، هنيًا ، مرضيًا ؛ من غير تنغيص ، ولا تنقيص ؛ والاعتماد على العلامة الكريمة أعلاه ، وثبوته إن شاء الله تعالى .

✤

وهذه نسخة توقيع بخطابة ، كتب به للشيخ «صدر الدين الخابورى» ، بـ«المجلس السامى» بالياء ، وهى :

رسم ... ... ـ لا زالت أيامه الشريفة تضع الأشياء فى محلها ، وتفوض المناصب المنيفة إلى أهلها ، وتشرف صدور المحافل بصدر العلماء فى حزنها وسهلها ـ أن تفوض إلى فلان الخطابة بالجامع الناصرى المعروف "بجامع التوبة" بطرابلس المحروسة وجوبًا وتعينًا ، اقتضى فى تقدم الفاضل على المفضول تيقنًا وتبينًا ؛ لأنه الحبر الذى لا يجارى فى فضائله ، والبحر الذى يجود فيجيد بفواضله ، والصدر الذى ملئت بفوائده وفرائده بزمانه محافل صدوره وصدور محافله ؛ كم نطقت ألسن الأقلام بأفواه المحابر بفضله فى الأقاليم والآفاق ، وكم من عبارة بفصاحة وبلاغة حققت أنه بها فات الفصحاء والبلغاء وفاق ؛ لقد أصبح شمل هذا الجامع بهذا الفاضل الذى طال ارتقابه له جامعا ، وأمسى وقد ظفرت يمناه من اليمن به والبركة بما لم يكن بشىء منه فى مثل هذه الأيام طامعا ، فلذلك بادر منبره المنيف وحل له حقوته مسارعا ؛ ووطأ ـ لامتطائه إياه ـ صهوته ، وغفر للدهر بهذه الحسنة الجميلة فيما سلف منه هفوته ؛ وعلم أنه الخطيب الذى استقر يطالع المنابر من خطبته بما يفجر من العيون منابع المدامع ، ويشوق إلى الآخرة : من ألفاظ يشنف بها المسامع ؛ وأن قسًا لا يقاس به فى خطبه وعظاته ، وأن سحبان يود من خجله أن يسحب ذيله على مآثره المأثورة عنه ليعفى آثار فلتات كلماته ولفتات لفظاته .

فليباشرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ باللهِ تعالىٰ مُذَكِّرا، ولِمَا أمر عِبادَه ونَهاهُم عنه علىٰ أسْماعِهِـم مُكَرِّرا ؛ ويَعْلَمْ أنّه فى المِحْراب مناجٍ لربه ، وَاقِفٌ بين يَدَىْ من يَحُول بين المَرْءِ وقَلْبِه ؛ فلْيعْتَصِمْ بالله عزّ وجلّ فى قَوْله وفِعْلِه ، ويتَيَقَّنْ أنَّ الكلمة إذا خرجت من قَلْبٍ لا تَقَعُ إلا فى مِثْلِه .

وفى إحاطة عِلْمِه المَشْهور ، وفَضْـلِه المَشْهُود المَشْكُور ؛ ما يُغْنِى عن وَصيَّةٍ بهـا يَتذَكَّر ، وتَذْكَرَة فى صَحِيفَـةِ فِكْرِه تُرْقَم وتُسَطَّر ؛ ولْيُوصَّلْ إليـه مَعْلُومُه علىٰ هـذه الوَظِيفة الشاهدُ به الديوانُ المعمورُ . وليوفَّر خاطِرُه من التَّبَذُّلِ فى تَحْصِـيل مَعْلومه الجارى له وطَلَبِه ، وليُعامَلْ بمـا يَلِيقُ من الإجْلال والإعْظام بوَظِيفته الشَّرِيفَةِ والمَحَلِّ العـالى الرَّفِيع من مَنْصِـبِه ؛ والعلامةُ الكريمةُ أعْلاه ، حجّـةٌ بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخُ تواقِيعَ لأرباب الوظائف الديوانية بطرابلس :

نُسـخةُ تَوْقيع بشهادة الجيوش بطرَابُلُس ، كُتِب به للقـاضى بَدْر الدين «محمد ابن الفرفور» ، ووالِدُه يومئذ ناظر الجيوش بها ، بـ«المجلس العالى» ، وهى :

أما بَعْدَ حمدِ الله الذى زَيَّن سماءَ المَعَالى ببَدْرِها ، وأنْبت فى رِياض السَّعادة يانِعَ زَهْرِها ، ورَفَع المناصِبَ السَّنِيَّة إلىٰ شَرَف مَحَلِّها ومَحَلِّ شَرفها ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالِصَةً فى قَوْلِهـا وفِعْلِها ، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أرْسله بالمِلَّة الحنِيفِيَّة قائمًـا بفَرْضِها ونَفْلِها ، آمِرًا بالمَعْروف ناهِيًا عن المُنْكَر مُبَلِّغًا لرسالاتِ رَبِّه كُلِّها ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يَنحصِرُ عَدَدُها ، ولا يَنْقَضِى أمَدُها ، وسلَّم تسليمًا كثيرا ـ فإنَّ أوْلىٰ من خَطبَتْه المَناصِبُ من هو أحقُّ بها وأهْلُها (١) فيها

(١) بياض بالأصل ولعله : وله فيها ، الخ .

نِسْبةٌ لا يُنْكر فضلُها، ومُباشراتٌ فى المَمالِك الإسلامية مَشْهُوراتٌ بالكِفَاية والعفَّةِ فى بَرِّها وبَحْرِها .

ولمَّا كان فلانٌ ـ حرس الله جَنابَه وأسْبغ ظِلَّ والده ـ هو المَعْنِيَّ بهذه الإشارَه، وشَمْسَ هذه الهَالَةِ وبَدْرَ هذه الدَّارَه .

فلذلك رسم ... ... ـ زاده الله تعالىٰ عَظَمةً وشَرفا ، ومنحه فى الجَنَان قُصُورًا وغُرَفا ـ أن يستقر ... ... : اقرارا لعَيْن والده، وجَمْعًا له بين طَرِيفِ السَّعْدِ وتَالِده؛ لأنَّه النَّبْعةُ التى نشأتْ فى رِيَاشِ السِّياده ، والزَّهْرةُ التى بَرَزَتْ فى كِمامِ السَّعاده ؛ فلا يزالُ فَرْعُه ـ إن شاء الله ـ بسعادة هذه الدَّولة الشريفة يَنْمِى إلىٰ أنْ يَتأصَّل ، وزهْرَتُه تَزْهىٰ إلىٰ أنْ تَبلُغَ الإثْمارَ وتَتوصَّل .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ مُباشَرةً تَظْهرُ فيها كِفايَتُه عند الانْتقاد، وتَحمَدُ فيها عُقْبىٰ الاختيار والاختبار والرَّشاد؛ ولْيَسْلُكْ فى أمانَتِه سنن أبِيه ـ أسبغ اللهُ ظِلَّه ـ التى أحكمها فى كل ما أبْدَىٰ وأعاد ، ويَتَّبِعْ طُرُقَه الهاديةَ إلىٰ سبيل السعادة والإرْشاد ؛ ويُبْدِ ما اكتسبه من والِده عن سَلَفِه من هذه الصِّناعَةِ وهو أحقُّ بهذا السَّنَد ، ولا يَخْرُجْ عن رَأْيِ أبيه ـ أيَّده الله ـ حتّىٰ يقولَ الناسُ : هذا الشِّبْل من ذَاكَ الأَسَد؛ ولْيُشَمِّرْ فى تحصيل الفضائل التى تُبْلَغ بها الآمال ، وتَصلُحُ الأحوال؛ ولْيَتَلَقَّ هذه المباشرَةَ بعَزْمِه الشديد ، بنَفْسِه لا بالتَّقْليد، فإنَّه شاهِدٌ ومَسْئُول، بقوله يوفَّق فى الاستحقاق وفى النُّقود والكُيول ؛ وتَقْوى الله هى السَّبَبُ الأقْوىٰ ، فلْيتَمَسَّكْ بحَبْلِها يَقْوىٰ ؛ والوصايا كثيرةٌ فى ذلك ووالِدُه بها أعْلم، والله تعالىٰ يُسَلِّكُه سَبيلَ الهدىٰ فإنَّه أنْجَحُ الطُّرُق وأسْلم ؛ والله تعالىٰ يتولىٰ عَوْنَه ، ويُدِيمُ صَوْنَه ؛ والاعتماد ... .

توقيعٌ بكتابة الدَّرْج بطرابُلُس ، كُتب به بـ«المجلس الساميّ» بالياء، وهو :

رُسم بالأمر الشَّريف ـ لا زالتْ مَراسِمُه العاليَةُ تُطْلِع فى أفلاكِ المعالى بَدْرًا مُنيرا هادِيًا إلى الفضائل مأْمُونًا من السِّرار، ومكارِمُه الوافِيَةُ ترفَعُ من أعْلام المعانى صَدْرًا كبيرًا رَشيدًا فى البيان أمينًا على الأسْرار ، ومَراحِمُه الكافيةُ تُقِرُّ عيونَ الأعيانِ والأخْيار ـ أنْ يُرتَّب فلانٌ ـ ضاعف الله تعالىٰ أنوارَ فضائله التى يَأْتَمُّ بها المُستَضِىءُ والمُهتدى ، ويَعْشُو إلىٰ قِراهَا المُسْتَعِينُ والمُقْتدى ـ فى كتابة الدَّرْج السعيد بطرابُلُس المحروسةِ بما قُرِّرَ له من المعلوم الوارد فى الآستِئمار الشَّرِيف علىٰ مايتَعيَّنُ بقلَمَ الآستيفاء جِهتُه ، ويُبيِّنُ تَفصِيلُه وجُمْلته ؛ نَظرًا إلى آستحقاقه الظَّاهِر ، وفَضْلِه الباهِر ، وبَلاغَتِه التى أفْصحتْ عن بيان البَليغ القادر ، وفَصاحَتِه التى بلغت الكمالَ بعَوْن الملك القادر ، وإطْرابِه ، فى إطْنابِه ، وإعْجازِه ، فى إيجازِه ، فله فى الدلائل قُدْرة «المَنْصور» وفى الفضائل قُوَّةُ «الناصِر» ؛ طالما أزْهر بقلمه «المَهْدىّ» للصواب ، « السَّفَّاح » كالسَّحاب ، رَوْضُ العُلومِ والآداب ، وأظهر ببيانه « المُنْتَصِر » فى الخطاب ، « المُقْتَدِر » على الآقتِضاب ، طُرُقَ الفُنون ، وَاضِحةَ العيون ، مُحْكَمَة الأسْباب ، وسُبُلَ الحِكَمِ مُفَتَّحةَ الأبواب ؛ فهو بالسنا والسناء بَدْر « المُستَرْشِد » ، وبالجَدا والجَداءِ « مُعِزٌّ » « المُسْتنجِد » ، وبفَرْط الحَيا والحَياءِ سَحابُ المُسْتمْطِر و«المُسْتظهِر» ، وبغَرْب الذَّكا والذَّكاء برق « المُسْتَبْصِر» و «المُسْتَنصِر» .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ «مُعْتصِمًا» بحَبْل التَّقوىٰ ، «مُستعصِمًا» من المُراقبة بالسَّبَب الأقْوم الأقوىٰ ، مُجدِّدًا رُسومَ هذه الصناعةِ التى رَبْعُها قد دَرَس ومَحلُّها قد أقْوىٰ ؛ فإن « المُتقِي لله » « الرَّاضى » به هو « الرَّاشِدُ » « الفَائِزُ» بالسَّعادة ،

و «المُتوكِّلَ» عليه «المُطيعَ» له هو «الوَاثِقُ» ببُلُوغِ القَصْد الحائزللاراده ؛ ولْيَطرِّزْ حُلَل البيان بوَشْيِ بَنَانِه الذى أصبح دِيباجُ الطِّرْسْ به «مُعْتَزًّا» ، ولْيقوِّمْ مَعانِىَ البَدِيع بعامل قَلَمه الخَطِّىّ الذى أمسَى الفَضْـلُ به كالسَّمْهَرِىّ قائمًـا مُهتَزًّا ؛ «مُسْتَكفيا» بمـا يصَرِّعُه ويُرَصِّعه نَظْماً ونثْرا من البدائع ، «مُستعليا» لمـا يرَفِّعه ويفَرِّعه من غُرَرِ الفِقَر، ودُرَرِ الفِكَر ، بخاطره الوَقّاد النَّقّادِ المنقاد الطائع ؛ «مُقْتفِياً» فيما يُنْشِـئُه آثارَ ما يصْدُر عن «الحاكم» و «الآمر» ، «مكتفيا» فيما يُبْديه بمقدار ما تبرُز به المراسِيمُ والأوامر ، «حافِظا» للسِّرِّ «العزيز» كاتِبًا كاتِمًـا فلا يعْضُده فيه «عاضد» ولا يظْفَر به «ظافر» ؛ «معتمدا» على الكِتْمان فى جميع ما يُورِدُه ويُصْدِرُه ، مقتصِداً بالتَّوفيق فى سائرما يُخْفِيه ويظهره .

والوَصايا فمن آدابه تُسْتفاد ، والنَّصائح فلَها منه المَبْدأ وإليه المَعَاد ؛ فلْيَتَسَنَّمْ ذِرْوَةَ أعْلاها ، ولْيَتَنَسَّمْ نَفْحةَ رَيَّاها ... .

⁂

توقيعٌ بشهادة دَارِ الضَّرب بطرابُلُس ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زال رَأْيُه الشريف يقَرِّبُ من الأمورصَوَابا ، ولا بَرِحَ أُفُقُ سماء مَمْلكته الشريفة يُطْلِـع بفَلَكِه بدْرًا مُنِيرًا وشِهابا ـ أنْ يُرَتَّبَ فلانٌ ... ... : لأنه العَدْل الذى آشتهرتْ عدَالَتُه ، والأمينُ الذى بَهَرتْ فظهرتْ أمانَتُه ؛ والرَّئِيسُ الذى ما بَرِحَ صَدْرَ المحافل ، والفاضلُ الذى فاق بفَضْلِه على الأقْران والأماثِل ، وشَهِدَتْ بنَزَاهته المشهورةِ الأواخرُ والأوائِل .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً مطابِقَةً لعَدالَتِه المشهوره ، مُعْرِبَةً عن أصالَتِه المَخْبوره ، مُوَضِّحةً عن ديانَتِه التى غَدَتْ فى العالَمِين معروفةً غيرمَنْكُوره ؛ لِيُصْبِحَ هذا المَنْصب

مُشْرِقًا بنُوره ، سَنِيَّ الأرْجاءِ بسَاطِعِ ضياء شِهابِه ونُورِ بُدُورِه ؛ وهو ـ أعَزَّه الله ـ غَنِيٌّ عن وَصِيَّة منه تُسْتفاد، أو تَنْبِيه علىٰ أمْرٍ منه يُبْدأ و إليه يُعاد؛ ولْيتَناوَلْ مَعْلُومه الشاهِدَ به الديوانُ المَعْمور هَنِيًّا مُيَسَّرا ، ولا يَقِفْ أملَهُ عنده : فإنا لَنَرْجُو فوق ذلك مَظْهرا .

* * *

تَوْقِيعٌ بنَظَر اللَّاذِقيَّة ، كُتب به للقاضى «بُرْهان الدين» الأذرعىّ ، وهو :

رُسم بالأمر ـ أنْفذه اللهُ فى الآفاق ، وطَوَّق بمَنّه وفَواضِل بِرّه الأعناق ـ أنْ يستقرَّ المجلسُ السامى ـ حرس الله مُهْجَتَه ، وأهْلَكَ حَسَدَتَه ـ فى نظر اللَّاذقية المحروسة، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته، بالمَعْلوم الشاهدبه الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخِر وَقْتٍ : عِلْمًا بأمانَتِه المَشْهوره ، وكِتابَتِه التى هى بين أهْل الصِّناعَةِ مَشْكُوره ، وخِبْرَتِه التى هى فى المُباشَرات مَعْروفَةٌ غير مَنْكُوره ، وكِفَايَتِه المأْلُوفة المَوْفُوره؛ فإنَّه باشَر الحِسْبَةَ الشَّريفةَ ونَهَىٰ وأمَر، واتَّبع فى أحْكامِه ما أمَر به «أميرُ المؤمنين عُمَر» ؛ وضَبَط أموالَ بَيْتِ المـال بحُسْنِ نَظَره ومَيَّز وثَمَّر .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المُباركَةَ مُباشَرةً علىٰ أجْمـل العادات، و يَسْترفِعْ مالها من الحُسْبانات، و يُوَصِّلْ إلىٰ أرباب الآستحقاق ما لَهم من الحُقُوقات، علىٰ مايشهدُ به الديوانُ المعمورُ فى سائر الأوقات؛ فإنَّ هذه الوظيفةَ من أجَلِّ المُباشَرات، ولْيتناوَلْ مَعْلُومه الشاهِدَ به الديوانُ المعمورُ هَنِيًّا مُيَسَّرا علىٰ جارِى العَادة لمن تَقَدَّمه فى الفُروع وسائر الجِهات ، ولْيعْتَمِدْ علىٰ تَقْوَى الله تعـالىٰ فى سائر الحركات والسَّكَنات ؛ والله تعالىٰ يتولَّاه، والآعتماد على الخط الكريم أعلاه .

توقيع أيضا فى المعنىٰ .

لا زالتْ صَدَقاتُه الشريفةُ تقيمُ لأتباع الحقِّ بُرْهانا، وتُسْدِى إلىٰ كلِّ أحدٍ خَيْرا وإحْسانا ـ أن يرتَّبَ فلانٌ ناظِرًا باللَّاذِقيَّة المحروسةِ وما هو مضافٌ إليها، علىٰ عادة من تَقدَّمه وقاعِدَته ومعلومِه الشاهدِ به الديوانُ المعمور : لأنَّه طالَما باشَر نَظَر بَيْت المال فوَفَّر الأموال ، وأصْلح ما فَسد من الأحْوال ، وسَدَّد بحُسْنِ تَدْبيره الأقوال والأفعال، وأظْهر من الأمانة ماتَميَّز به فى مباشراته، وفاقَ به على قُرَنائِه وأهْلِ زَمانِه وأوْقاتِه ؛ ثُم باشَر الحِسْبَة فسَلَك فيها مَسْلَك السِّرِّ والجَهْر وصِدْقِ الخَبَر، وسلك مَسْلك أمير المؤمنين عُمَر .

فلْيباشِرْ هذا النَّظَر بقَلْبٍ مُنْشَرِح ، وأمَلٍ مُنْفَسِح ؛ ولْيُظْهِرْ فيه ما جُرِّب به من الأمانَه ، وتَجنُّبِ الخِيَانه ؛ ولْيجتَهِدْ فى تَحْصِيل أموال الدِّيوانِ المعمور ، ويَبْسُطْ قلَمَه فى إصلاح الأمور، ولْيُوصِّلْ إلىٰ أرباب المُرتَّباتِ ما هو لهم مُسْتَحَق، فانَّهم به أوْلىٰ وأحَق ؛ ولْيوصَّل إليه معْلومُه أوَانَ وُجُوبه وآستِحْقاقه ... .

تَوْقيعٌ بمشارفة حِصْن الأكراد ، كُتب به للقاضى « بَدْر الدين » بـ«ـالمجلس العالى» ، وهو :

رُسم بالأمر الشَّريف ـ لا زالتْ مَراسِمُه العاليةُ تُولِى الأنامَ بِرًّا ، وتُجدِّدُ بإسْباغ الإنعام بِشْرا، وتُضَوِّعُ فى كلِّ نَادٍ من أنْدِية الثَّناء والدعاء نَشْرا، وتُطْلِع فى كلِّ أُفُق من آفاق السِّيادة من صُدُور الأعيان وأعْيان الصُّدُورِ بَدْرا ـ أن يُرتَّبَ فلانٌ فى مُشارَفة حِصْن الأكْراد المحروس : لما هو عليه من العِفَّةِ والصَّلَف ، والنَّزاهَة

التى عُرِف بها واتّصف ، والرّآسة التى انتقلتْ إلى الخلف عن السّلف ، والعَدالَة التى لا يتكلّف لسُلوك نَهْجها : ومن العَجَب خُلوُّ البَدْرِ عن الكَلَف ! ، كَمْ حُفِظَتْ بمباشرته الأموال ، وصَلَحتْ بملاحَظَتِه الأحوال ، وعُقِدَت الخناصرُ على سيرته وحُسْن سَيْره ، واشتهر بجميل تَدْبيرٍ أوْجب تَقْديمَه على غَيْره .

فليُباشر هذه الوظيفةَ التى هى من أجَلِّ الوظائف ، ولْيشْكُرْ ما أُولِى من المعروف وأُسْدِىَ إليه من العوارف ، ولْيبذُلْ جُهْدَه فى صلاح الأحوال ، وتَثْمير الأموال ، وتَقْرير القواعد على السَّداد ، وإجْراءِ العَوائد على وَفْقِ المُراد ، فانّه ممّن دَلَّت خِبْرتُه على جَميل آثاره ، ولاحَتِ الغِبْطَةُ فى اختياره الذى أغْنى عن تَقْديم اخْتباره ، كَيْفَ لا ؟ وهو ممَّن نَشَأَ فى خُدُورِ فُنُون الكِتابَه ، واشْتَهر فى مَواطِن النِّضال مع وُفُورِ الانتقال بحُسنِ الإصابَه ، فهو إن شاء الإنْشاءَ بَلَغ منه المَرام ، وإن بَسَط الجرائِدَ للتَّصَرُّف قيل : هذا الكَاتِبُ النَّظّام ، كَمْ له من يَدٍ بيْضاءَ فى التَّبييض والتَّسويد ، وهِمَّةٍ عَلْياءَ بلغ بها من السِّيادة ما كان يُريد .

فليُقَدِّمْ خِيرَةَ الله تعالى فى هذا الأمر ويجْعلْها إمامه ، ولْيتَمسَّكْ بها مُقْتديًا بمن قدمها أمامَه ، ولْيكُنْ عند حُسْنِ الظَّنِّ به ليبلُغَ من سعادة الدَّارَيْنِ مَرامَه .

والوَصايا التى يعُمُّ نفعُها ، ويتعيَّنُ على تَناسُبِ الأعْمال جَمْعُها ، به نُسْلَكُ سُبُلُها ، وعنه تُؤْخذ تَفاصيلُها وجُمَلُها ، فليَسْلُكْ منها الأقْوَمَ الأرْشَد ، وليتَمسَّكْ بالأفود الأحْمد ، بحَزْمٍ وافر ، وعَزْمٍ غير قَاصِر ، ولْيتناوَلْ مَعْلومَه الشاهِدَ به الديوانُ المعمورُ أحْيان الوُجوب والاستحقاق رِزْقًا دارّا ، هَنيًّا مُيَسَّرًا سَارّا ، من غير تَقْتير ولا تكْدير ، ولا تَنْغِيصٍ ولا تأْخير .

تَوْقيعٌ بمشيخة المقام الأدْهَمِىِّ ، كُتِب به باسم الشيخ « عبد الله السطوحى » بـ«سالمجلس العالى» ، وهو :

أما بعد حمدِ الله الذى سَقىٰ مَحْلَنا بإيَابِه ، وأنبتَ عُشْبَنا بسَحابِه ، وأقرأنا كِتابَ وَجْهِه وأغنانا عن وَجْهِ كتابه ، وجعَلَ لكلِّ مَقامٍ مَقالًا من صِدْق أوليائه ، ومَنَحَهم بما آختار لهم من سرائرِ مَواهِبِه وعَطائِه ، وجمع قُلُوبَ الفُقَراء علىٰ العِبادة والدعاء بواسطةٍ من أحْبابِه وأخِصَّاءِ نُجَبائه ، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ نَجْم السُّرىٰ ، ولَيْثِ الشَّرىٰ ، وسَيِّدِ من وَطِئَ الثَّرىٰ ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من لو أقْسم لأبَرَّ قَسَمَه ربُّ السما ، وسلَّم تسليما كثيرا ـ فلمَّا كان الاعْتِناءُ بالأمور الدِّينيَّة من الواجبات ، والمحافظةُ عليها [مما] تُبادِرُ إليه من النُّفوس الرَّغَبات ، وبُيُوت الله تعالىٰ فهى قِوامُ الدِّينِ المَتِين ، ولا يَنْهَضُ بعِمارتِها إلا الذين آتَّقَوْا وآمنوا بربِّ العالَمِين ، فطُوبىٰ لهم ونِعْم أجْرُ العاملين .

ومن البيوت العامِرَه ، والسَّراة الطَّاهِرَه ، والمقامات التى إذا حَلَّ بساحتِها أكْمَهُ العيْن بَصَّرتْه نُجومًا زاهِرَه ـ مقامٌ من ذِكْرُ كرامتِه أشْأمَ فى أقْطارِ الأرض وأيْمن وأنْجد وأتْهم ، السَّيِّدِ الجليل وَلىِّ الله « إبراهيم بن أدْهم » ؛ سَيِّدِ الأولياء ، وسُلْطانِ الأتْقياء ، رَحْمةُ الله عليه ما سَارَ على الطَّرِيقِ سائر ، وما آمْتَطىٰ ظَهْرَ قَلُوصٍ مُسافِر ؛ مَقَامٌ بالزُّهْدِ موصوف ، وبالبَرَكاتِ مَعْرُوف ؛ وله الإطلاقاتُ المَشْهوره ، والمَناهِلُ المأْثُوره ، فى وِرْدِها المَبْروره ؛ قد آسْتولَتْ عليه يَدُ التَّبْذِير ، وعَاد بَعْدُ طُولِ سِماطِه فى تَقْصِير ، وآخْتَلف فيه النُّيَّاتُ فكان فى كيس الفقير (١) ؛ فكَشَف الله هذه النِّقْمَه ، وأدام سَوابِغَ النِّعْمه ، وأسْبَل على هذا المقام ظِلالَ الحُرْمه ؛

(١) لعلّ الصواب «فكان فى كيس الغنى بعد أن كان فى كيس» الخ .

وأرسَلَ اللهُ علىٰ عباده المتّقينَ باعثًا من عنده ، وأيقظَهم لعلمه بأن كلًّا واقِفٌ عند أمْرِه وحَدِّه ؛ وأنطق لِسانَ من لا رادّ لأمْرِه ، فكشف غُمَّة هـذا المقام وعَزَل من يُخافُ عليه من سُوءِ تَدْبيره وشَرِّه .

فلذلك رُسم ـ أن تفوّضَ مشيخةُ المقام الجليـل الأدهميّ بثَغْر جَبلَة المحروس ـ علىٰ ساكنه الرحمة والرضوان ـ إلىٰ فلانٍ ـ نفع الله ببركاته ، وأعاد على المسلمين من صالح دعواته ـ عِوَضًا عمن كان بها بحكم انفصاله حَسَب ما وردتِ المراسيم الشريفة ـ شرفها الله تعالىٰ وعظمها ـ عند اتصال العلوم الشريفة ـ زادها الله تعظيما ـ بأمر المقام المشار إليه واعتماد المتصرفين فيه : إذْ وُضِعَت الآنَ الأشياءُ فى محلّها ، وأُسندت الأمور إلىٰ أهلها ، وقُلِّدتْ هذه المَثُوبَةُ إلىٰ من يُظْهِر سرائِرَ فَضْلِها ؛ ولحظت الآراء حَجَر هـذا المقـام والأثر ، ولا شكَّ أنَّ السَّعادة تَلْحَظُ الحَجَر ؛ كَمْ له من آيات مَشْهورَه ، وكرامات بلسانِ الحَمْـد مَذْكوره ، ومساعٍ فى الخيرات مَبْروره ؛ وقد عَمَّ الزَّوايَا بأجْناسِ المَكارِم ، وبَسَـط ... من إكرامه سِماطًا يقول الزّائرُ : هـذا ولا حاتِم :

نَزُورُ دِيارًا زارَها جُودُ كَفِّهِ ، * ومن دُونِها للزَّائِرينَ مَراحِلُ ،

ونَرْجِعُ عنهـا والجُفُونُ قَرِيرَةٌ : * كما رَاجَعتْ مَأْوَى الحُقُوفِ المَساحِلُ !

فلْيَتلَقَّ ـ أعاد الله من بَرَكَتِه ـ هذه التوليه . وليجعلْ للمقامِ المُشارِ إليه من خاطِرِه الكريم أوْفَرَ عِنايَه ؛ ويستخلفْ عَنْه إذا توجَّه إلىٰ (١) بحِصْنِ الأكراد فإنَّها مُسْتَمِرَّةٌ بيده وولايتها باقية عليه ؛ وأمْرُها فى إبْدائه وإعادته عليه ؛ واللهُ تعالىٰ يتولّاه ، فيما وَلّاه ؛ والاعتماد ... .

(١) بياض بالأصل ومراده الى مشيخة ... ... بحصن الأكراد .

قلتُ : وقد أتيتُ علىٰ جُمْـلةٍ من تواقيع أرباب الوظائف : بدمَشـق وحَلَب وطَرَابُلُس وأعمال كلٍّ منها، يَسْتغنِى بها الماهِرُ عمَّا سواها، ويَقِيسُ عليها ما عَداها؛ إذْ لا سبيلَ إلىٰ آستيفاء جَميعها ، والإتيانِ علىٰ جُمْلتها .

وفيما ذُكِر من هذه الممالك الثلاثِ تَنْبِيهٌ علىٰ ما يكتب بحَماةَ وصَفَدَ اللَّتين هما فى رُتْبة طَرابُلُس ، وتَلْويحٌ إلىٰ ما عداها، مما هو دونها كغَزَّة إذا كانت نيابة ، والكَرَك التى هى دون ذلك .

والله تعالىٰ هُو الهادى إلىٰ التوفيق، والمُرْشِدُ للسَّداد ، بمَنِّه وكَرَمه .

تم الجزء الثانى عشر . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الثالث عشر

وأوله المقالة السادسة

(فيما يكتب فى المسامحات، والاطلاقات السلطانية، والطَّرْخانيات وتحويل السنين والتذاكر، وفيها أربعة أبواب)

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الاميرية ١٩١٦/٥٠٧١/٣٠٠٠)

فهــــــرس

الجـــزء الثانى عشر

من كتاب صـــبح الأعشى للقلقشـــندى

صفحة

(تم فهرس الجزء الثانى عشر من كتاب صبح الأعشى)

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجزء الثالث عشر

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٧ هـ
١٩١٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقالة السادسة

فيما يكتب في [الوصايا الدينية[1]، و] المسامحات، والإطلاقات السلطانية والطرخانيات، وتحويل السنين والتذاكر؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الوصايا الدينية، وفيه فصلان

الفصل الأول

فيما لقدماء الكتاب من ذلك

اعلم أنه كان لقدماء الكتاب بذلك عناية عظيمة بحسب ما كان للملوك: من الإقبال على معالم الدين، ومن أكثرهم عناية بذلك أهل الغرب: لم يزالوا يكتبون بمثل ذلك إلى نواحي ممالكهم، ويقرأ على منابرهم؛ ولهم في ذلك الباع الطويل والهمة الوافرة.

وهذه نسخة من ذلك كتب بها أبو زيد الداراوي: أحد كتاب الأندلس عن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين المنصور[2]: أحد خلفاء بني أمية بالأندلس، وهي:

---

(١) الزيادة من ج ١ ص ٢٦ من هذا المطبوع.

(٢) ليس في خلفاء بني أمية بالأندلس من اسمه المنصور، وإنما المنصور هو ابن أبي عامر كان تغلب على هشام بن الحكم الأموي واستبد بالأمر وتغلب من بعده ابنه المظفر ثم أخوه المظفر عبد الرحمن الملقب بالناصر لدين الله، ثم انقرضت دولتهم وعادت الدولة الى بني أمية فخلع هشام هذا وبويع ابنه محمد الملقب بالمهدي. انظر "نفح الطيب" ج ١ و"العبر" ج ٤ و"صبح الأعشى" ج ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ من هذا المطبوع.

الحمدُ لله الذى جعل الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر أصلين تتفرع عنهما مصالحُ الدنيا والدِّين ، وأمر بالمعروف والإحسان إرشاداً إلىٰ الحق المبين ، والصلاةُ علىٰ سيدنا محمد الكريم المبتَعَث بالشريعة التى طهَّرت القلوبَ من الأدران واستخدمتْ بواطنَ القلوب وظواهرَ الأبدان طَوْرا بالشِّدّة وتارة باللين ، القائلِ (ولا عُدولَ عن قوله عليه السلام) «مَنِ ٱتَّقَى الشُّبُهاتِ ٱسْتَبْرأ لِدِينه» تنبيها علىٰ تَرْك الشكِّ لليقين ؛ وعلىٰ آله الكرام أعلام الإسلام المتلقِّين رايةَ الاهتداء فى إظهار السُّنَن وإيضاح السُّنَن باليمين ؛ الذين مكَّنهم الله تعالىٰ فى الأرض فأقامُوا الصلاة وآتَوُا الزكاةَ وأمَرُوا بالمعروفِ ونَهَوْا عَن المنكَر : وفاءً بالواجب لذلك التمكين .

والرِّضا عن الأئمة المُظْهِرين للدِّين المَتِين ، البالغين بالبلاد والعباد نشرا للعَدْل وإتماما للفضل إلى أقصىٰ غاية التمهيد والتأمين ، رضى الله عنهم أجمعين ! وعن تابعيهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين ! .

وإنَّا كتبْناه لكم ـ كتب الله لكم ٱتِّباعا إلىٰ ما يُنْهىٰ من المصالح إليكم ، وٱستماعاً إلىٰ ما يُتْلىٰ من المواعظ عليكم ـ من حضرة إشْبِيلِيَةَ ـ كَلأَها الله ـ .

والذى نُوصيكم به تقوى الله تعالىٰ والعملُ بطاعته والاستعانةُ به والتوكُّلُ عليه ، وأن تعلَمُوا أنا لم نَقُم هذا المقامَ الذى حَفِظ الله به نظامَ الحق من انتثاره ، وأمدّنا بعَوْنه الجميلِ علىٰ إحياء الدِّين وإفاضةِ أنوارِه ، إلا لنستَوْفِيَ كلَّ نظر يعودُ على الأمة باستقامة أُخْراها وأُولاها ، ونُهِيبَ بها إلىٰ أسْمىٰ رتب السعادة وأعْلاها ، ونُوقظَ بصائرَها بنافع الذكرىٰ من كَرَاها . فعلينا لها بحكم ما تقلَّدناه من إمامتها ، وتحمَّلناه من أمانتها ، أن نتخوّلها بالحكمة والموعظة الحسَنه ، ونُرشدَها إلىٰ المَنَاهج الواضحة والسُّبُل البيِّنه ، ونُضْفِى علىٰ خاصَّتها وعامَّتها ظلَّ الدَّعَة والأَمَنة ؛ وإذا كنَّا نُوفِّيها تمهيدَ دُنْياها ،

ونعتني بحمـاية أقصاها وأدناها ، فالدِّين أهمّ وأولىٰ ، والتهمّم باحياء شرائعـه وإقامة شـعائره أحقّ أن يُقدّم وأحرىٰ . وعلينا أن نأخُذ بحسَب مانأمُر به ونَدَع ، ونتّبع السُّنن المشروعةَ ونَذَر البِـدَع . ولهـا أن لا ندّخر عنها نَصيحه ، ولا نُغبّها ارادةً من الأدواء مُريحـه . ولنا [عليهـا] أن تُطيع وتَسْمَع ، وقد علم الله أنا لم نتحمَّل أمانةَ الإسـلام، لنستكثِرَ من الدنيا وزُخْرُفها ، ولم نتصَدّ لهذا المَقَام ، لنسـتأثر بنعيمها وتَرَفها ، وإنمـا كان قصدُنا قبلُ وبعـدُ إقامةَ الكافَّة فى أوْثَر قُراها وأوْطَإ كَنَفِها ، وبحَسَب هذه النية التى طابقَها العمَل ، ولم يتعَـدّها الأمَل ، نِيلتْ من الخـيرات نِهايات ، كانت الخواطِرُ تستبْعِد مَنالَها ، وتيسَّرت إرادات ، كانت الأُمَّة منذُ زمانٍ لم تر مِثَالَهـا ، وساعدتِ العنايةُ الربَّانيَّة فلم تُؤْنِ مقصودًا جميلا ، ولا مَنًّا جزيلا .

وإلىٰ هذا ـ أدام الله كرامَتَكم ـ فإنا لم نزَلْ مع طُول المباشرة للأحوال كلِّها ، وتَردُّد المشاهدة لعقْد الأمور وحَلِّها ، نَقِف وقُوفَ المتأمل علىٰ جُزْئِيَّات الأمور وكليَّاتهـا ، ولا يَغيبُ عن تصفُّحنا وتعرُّفنا شيءٌ من مصالح الجهات وكَيْفيَّاتها ، ولم نمُرّ بمـائل إلا تولَّينا إقامتَـه ، وأعَدْنا إليه ٱعتـدالَه وٱستِقامتَه ، ولا ٱنتهينا إلىٰ صَوابِ قولٍ أو عملٍ إلا شِدْنا مَبْناه ، وأظهرنا لفْظَه ومعْناه .

والآنَ حينَ ٱسـتوفىٰ إشرافُنا علىٰ البلاد قاطبه ، ولزِمَنا بحكم القيام لله فى خَلْقه بحقِّه أن نتعهَّد الكافَّة دانيَةً ونائيةً وشاهدةً وغائبه ، ورجونا أن نتخلَّص من القِسْم الأوّل فى قوله عليه السلام : «اللّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فرَفَق بهم فَارفُقْ به» بأعمـالٍ علىٰ الرِّفق دائبَـه ، وعلى الحقِّ مواظِبه ـ صَرَفْنا أعِنَّةَ الٱعتناء بجوامع المصالح فرأينا الدِّين ينظِمُ تبدُّدَها ، ويستوعِب تعَدُّدَها ، لاتشذُّ مصلحةٌ عن قوانينه ، ولا تُنال بركةٌ إلا مع تحصينه وتحسينِه ، والله تعالىٰ يُعيننا وإياكم علىٰ إقامة حدُوده ، وإدامة

عُهُوده . وأوّل مايتناول به الأمرُ كافّةَ المسلمين الصلاةُ لأوقاتها ، والأداءُ لهـا علىٰ أكمل صفاتها ، وشهودُها إظهارًا لشرائع الإيمان فى جماعاتها ، فقد قال عليه السلام : «أحَبُّ الأعْمَال إلىٰ اللهِ الصَّلاةُ ، فَمَنْ حَفِظَها وحافَظَ عليها حَفِظَ دِينَه ، ومن ضَيَّعها فهو لِمَا سِوَاها أضْيَعُ» . وقال عمر رضى الله عنه : «ولا حَظَّ فى الإِسْلام لِمَنْ تَرَكَ الصَّلاة» فهى الرُّكن الأعظم من أركان الإيمان ، والأُسُّ الأوْثَقُ لأعمال الإنسان ، والمُواظبةُ علىٰ حضُورها فى المساجد ، و إيثارُ مالِصلاة الجماعة من المَزِيَّة علىٰ صلاةِ الواحد ، أمرٌ لايُضَيِّعه المُفْلحون ، ولا يحافِظُ عليه إلا المؤمنون . قال ٱبن مسعود رضى الله عنه : «لقد رَأَيْتُنا ومَا يَتَخَلَّف عنها إلا مُنافِقٌ مَعْلُوم النِّفاق ، ولقـد كان الرجل يُؤْتىٰ به يُهـادَى بين الرَّجُلين حتّىٰ يُقام فى الصَّف» وشُهودُ الصبح والعشاء الآخرةِ شاهدٌ بتمحيص الإيمـان ، وقد جاء : «إنَّ شُهودَ الصُّبْح فى جمـاعةٍ يَعْدِل قِيَامَ لَيْلةٍ» وحَسْبُكم بهذا الرُّجْحان . والواجبُ أن يُعتنىٰ بهـذه القاعدةِ الكُبْرىٰ من قواعد الدِّين ، ويُؤْخَذَ بهـا فى كافَّةِ الأمصار الصغيرُ والكبيرُ من المسلمين ، ويُلْحَظَ فى التزامها قولُه عليه السلام : «مُرُوا أوْلادَكُمْ بالصَّلاةِ لِسَبْع واضْربُوهُمْ عليها لِعَشْر سِـنِين» . وبِحسَبِ ذٰلكم رأينا أن نُلْزِم جارَكلِّ مسْجِد ، وأميرَكلِّ سُـوق وشَيْخَ كلِّ زُقَاق ومُعَلِّمَ كلِّ جهة الاِنتـدابَ لهذا السعْى الكريم ، والبِدارَ لمـا فيه من الأجْر العظيم ، وأن يَحُضَّ كلَّ مَن فى جِهته أو سُـوقِه أو حَوْمة مسجده أو موضِع صنعته أوتجارتِه أو تعليمه علىٰ الصَّلاة وحضُورها ، والاعتناء بأحكام طُهُورها ، وأن لا يتخلَّفَ عن الجماعة إلا لِعُذْرٍ بيِّن ، أو أمْرٍ يكون معه الشُّهودُ غَيْرَ ممكن . وعليهم أن يلتزمُوا هذه الوظيفةَ أتَمَّ ٱلْتزام ، ويقُومُوا بهـا مُؤْتجِرين أحسَنَ قِيام ، ويُشَمِّروا عن سَاعِدِ كلِّ جِدٍّ وٱعْتِزام ، ويتعَرَّفُوا كُلَّ من تحتَوِى عليـه المنازِلُ ممن بَلَغ حدَّ التكليف من الرجال ، ويتعهَّدوهم الحِينَ بعـد الحِينِ والحالَ إثْرَ الحال ، ويطْلُبوهم بالذِّكر بملازمة

هذا العمل الذى قدّمه الله على سائر الأعمال . وليَحْذر المسلم أن يواقِعَ بإضاعة المكتوبة أمْرا إمْرا ، ويَتْرُكَ من فرائض الإسلام ما يُقْتَل متعمِّدُ تركه حَدًّا أو كُفْرا . وعلى معلّمى كتاب الله أن يأخذوا الصّبيان بتعلّم الصلاة والطهارة والإدامة لإقامتها والموالاة وحفظ ماتُقام به وأقلّ ذلك سورةُ فاتحة الكتاب . وعلى كل إنسانٍ فى خاصّته أن يأخُذَ صِغارَ بنيه وكِبارَهم وسائرَ أهله ومَنْ إلى نظره بذلك ويأمُرَهم به ، قال الله تعالى : ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : «كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِه» .

ثم اعلموا أنَّ الصلاة بما آثَرها الله به من وظائفها الشريفه ، وخَصائصها المُنيفه ، تَنْتَظِم من أعمال البِرّ ضُرُوبا لا تُحْصَر ، وتَعْصِم من مُواقعة ما يُشْنأُ ويُنْكَر ، وتُحْظى من الخيراتِ العميمةِ الجسيمةِ بالقِسْم الأوْفَى الأوْفَر ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ . ونحن لا نُوسِع تارِكَها بحالٍ عُذْرا ، ولا نُؤَخّر له عِقابا وزَجْرا ، ولا نزال نَجْبُره على إقامتها قَسْرا ، واذا استمرَّ التعهُّدُ لها مع الأحيان ، وعمِل الناسُ بما جدَّدناه من إجراءِ التذكيرِ بها بينَ القَرابة والصَّحابة والجيران ، وتَواصَوْا بالمحافظة عليها حَسَبَ الإمكان ، لم تزلْ بيوتٌ أذن الله تعالى أن تُرْفَع ويُذْكَر فيها اسمه معمورةً بتلاوة القرءان ، ولم تنْفَكَّ إلا للإقامة عن الأذان .

ومما يَزيد هذه الوظيفةَ تأكيدا ، ويُوَفّى قواعدَها تَشْييدا ، دَرْسُ كتاب الصلاة والطهارةِ حتّى يستكملوه وَعْيا وحِفْظا ، ويُؤدُّوا مُضَمَّنَه لفظا فلَفْظا ، ففى ذلك من الإشراف على أحكام العبادتين ما تَبين مزيَّتُه وفضلُه ، ولا يَسَع المؤمنَ بحال جَهْلُه ، ثم إذا أحكموه انتقلُوا إلى دَرْس كتاب الجهاد ، وعَمَروا الآناءَ بتعرُّف ما أعَدَّ الله للجاهدين من الخير المستَفَاد ، فالجهادُ فى سبيل الله فرضٌ على الأعيان ، وقدتأكّد

تعيّنه لهذه البلاد المجاورة لعبَدَة الأصنام والصُّلبان، ونرجو أن يُنجز الله ماوعدَ به من الفتح القريب لأهل الإيمان، وليطلبوا الناس بعَرْض مايتدارَسون تثبيتاً لمحفوظاتهم، واستزادةً لقِسْمهم من الأجر وحُظُوظهم .

ومن مقدّمات الجهاد، وأقوى أسباب الاعتداد، تعلُّم الرِّماية التى ورَد الحَضّ عليها، وندَبَ الشرعُ إليها، قال عليه السلام فى قوله تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مااستَطَعْتُمْ من قُوَّة﴾ « ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْىُ » قالها ثلاثا : فأَظْفِرُوا الناسَ بتعلمهم، ولْترتِّبوهم طبقاتٍ علىٰ قدر إجادتهم وتقدُّمهم، قال عليه السلام : «مَنْ تَرَكَ الرَّمْىَ بَعْدَ مَاعَلِمَهُ رَغْبةً عنه فإنَّها نِعْمةٌ تَرَكَها أو قال كَفَرَها» . وقال عليه السلام : « مَنْ رَمىٰ بسَهْم فى سبيل الله فبَلَغ العَدُوّ أَوْ لم يَبْلُغْ كَانَ له كعِتْقِ رقَبةٍ » .

ولْيعْلَمُوا أنهم يُطْلَبون فى وقت الحاجة بما يُثْمِره هذا التأكيدُ من بِدَارهم، ويترتَّب عليه مِن آثَمارهم ؛ وليَحْرِصُوا علىٰ أن يُلْفىٰ عددُهم وافراً فى حالتَىْ إيرادِهم وإصدارِهم .

ومما فيه مصلحةٌ كريمةُ الأثر، واضحةُ الحُجُول والغُرَر، يكونُ ذِكْرها جميلا، وأجرُها جزيلا، تعَهُّد الضُّعفاء والفقَراء، وإسهامُهم من الكثير كثيراً ومن القليل قليلاً بحَسَب الإصابة والرَّخاء، ووضْعُ الصدقات فى أهل التعفُّف الذين لا يَسْأَلون الناس الحافا أوّلَ ما يجىءُ حينُ العطاء، فقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ المِسْكينُ بهذَا الطَّوَّافِ الذى يَطُوف عَلى الناسِ فتَرُدُّه التَّمْرةُ والتَّمْرتانِ وإنَّما المِسْكينُ الذى لا يجِدُ غِنًى يُغْنِيه ولا يُفْطَنُ له فيُتَصَدّقَ عليه ولا يَقُوم فيَسْأَلُ النَّاس » فتفقَّدوا هذا الصِّنف فهو أَوْلىٰ بالإيثار، وأَحَقُّ أهلِ الإقتار، والمؤمنون إخوة ويُعْنَى الجارُ بالجار، ولْيُعِن الغَنىُّ الفقيرَ فذلك من مكارم الآثار .

والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر وظيفةٌ تعيَّنت إقامتُها علىٰ المسلمين جميعاً فمن رأىٰ منكرا فلْيُنْهِه إليكم وعليكم تغييرُه وتَعفيةُ أثَرِه علىٰ ما يُوجبه الدِّين ويقتضيه ، ولْيأخُذُوا الحقَّ من كل من تعيَّن عليه سواءٌ فى ذٰلك القويُّ والضعيف ، والمشْرُوف والشريف . وكُلُّ من ارتكب منكَرا كائنًا من كان ، عزَّ قدْرُه أو هان ، فليبالَغْ فى عِقابه ، ويُنَكَّل علىٰ قَدْر ما ارتكَب من المُنكَر وأتَىٰ به ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إنَّمَا أَهْلَكَ الَّذين مِنْ قَبْلِكم أنَّهم كانُوا إذا سَرَق فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوه واذا سَرَق فيهم الضَّعِيفُ أقامُوا عليه الحَدَّ ، وإنِّي والَّذِي نَفْسي بِيَدِه لو أنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ محمدٍ سَرَقتْ لقَطَعْتُ يَدَها » وقال لأسامة فى الحديث نفْسه « أتَشْفَعُ فى حَدٍّ من حُدُود الله » وقد حدّ عمرُ رضى الله عنه ولَدَه ، وحدّ عثمانُ رضى اللهُ عنه أخَاه . فلتكُن هـٰذه الوظيفةُ منكم بمَرْأًى ومسْمَع ، ولتَسْلُكُوا فى إقامتها علىٰ الخامل والنَّبِيه أوْضَحَ مَهيَع ، ووَفُّوا المعروفَ حقَّه من الإظهار ، وتلَقَّوا المنكر بأتَمِّ وجُوه الإنكار ، ثم عليكم أجمعين بالتَّواصِى بالخير والتَّعاوُن علىٰ البرّ والتقوىٰ ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ . وقال عليه السلام : « لاتَبَاغَضُوا ولا تَحَاسَدُوا ولا تَدَابَرُوا ولا تَجَسَّسُوا وكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَانا » .

وبالجملة فعلىٰ المؤمن أن يستَنْفِد وُسْعه فى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والسَّلَف من بعده ، ولقد كان لكم فى رَسُولِ الله أُسْوةٌ حسنة ، ولم يَنْشأ ما نَشَأ من الأهوال ، ولا طرأ فى هذه الأمة ما طرأ من الاختلال ، إلا بمُفارقة الاقتداء الذى هو للدِّين رأسُ المال ، ورَضِى الله عن عمر حيث قال : « فُرِضتِ الفرائِضُ وسُنَّت السُّنَنُ وتُرِكْتُم علىٰ الواضِحةِ إلا أن تَضِلُّوا بالناس يَمِينا وشِمَالا » .

ومن أشدّ المنْكَرات بغير نكير وجُوبَ تغييرِ الخمرُ التى هى أُسُّ الإثم والفُجور ، وأمُّ الخبائث والشُّرور ، وأُسُّ كلِّ خَطِيئة ورأسُ كل محظُور ، فليشتَدّ أتَمَّ الاشتداد

فى أمرها ، ويَبْحث غايةَ البحث عن مَكامن عَصْرها ، ويتفقَّد الأماكنَ المُتَّهمة ببَيْعها، ويتسبَّب بكلِّ وجه وكل طريق إلىٰ قطعها . ولْيبادرْ حيث كانتْ إلىٰ إراقة دِنَانها ، ولْيبالغْ إلىٰ أقصىٰ غاياتِ الاجتهاد فى شَانها ، وإنَّ الله لعَنَ الخمْرَ وعاصرَها ومعتَصِرَها وحاملَها والمحمولةَ إليه ؛ فلْيتَّقِ الله مُدْمِنُ شُرْبها فإنها رِجْس من عمل الشيطان، ولْيحْذَرْ ما فى قوله عليه السلام : « لَا يَشْرَبُ المُؤْمِنُ الخمرَ حينَ يَشْرَبُها وهو مُؤْمِن» : من إخراجه عن أهلِ الإيمان؛ وشُرْبُ الخمر لجَاجٌ فى الطَّبع، فلا خير فيها مع الاعتناء المبنىّ على الشَّرْع ، ولو نُهِىَ الناسُ عن فَتِّ البَعر لَفَتُّوه حرصًا غالبا علىٰ ما تقدّم فيه من الزَّجْر والمَنْع ؛ فمن عُثِر عليه بعدُ من شارِبٍ لها أو عاصِر ، مستَسِرٍّ بها أومجاهِر، فلْيُضْرَبِ الضربَ المبَرِّح، ويُسْجن السجنَ الطويل، وليُبقَّ إلىٰ أن تَصِحّ توبتُه صحةً لا تحتمل التأويل ؛ ثم إن عاد فالحُسَام المصَمِّم يحْسِم داءَه إذا أعْضَل ، ويُصَدّ به سواه عما ٱستَحَلَّ من هذا الحَرام وٱستَسْهل .

ومن أشدّ ماحُذِّرَ منه، وأُكِّدَ النهىُ عنه ، كُتُب الفَلْسفة لعَن الله واضعَها ! فإنهم بنَوْها علىٰ الكُفْر والتعطيل ، وأخْلَوْها من البرهان والدَّليل، وعَدَلُوا بها ضَلالا وإضْلالا عن سَواءِ السبيل ، وجعلُوها تُكَأَةً لعقائدهم ومقاصِدِهم المُخَيَّلة ركونًا إلى الباطل وتمسُّكا بالمستحيل . وقدكان سيدنا الإمام المنصور رضى الله عنه قد جدّ فيها بالتحريق والتَّمزيق، وسَدّ بإمضاء عَزْمه المسدَّد ورأيه المؤيَّد وجُوهَ طُلَّابها بكل طريق ، فحَسْبُنا أن نقتدىَ فى ذٰلك بأثَره الجميل، ونأخُذَ فى إحراقها حيث وُجِدت وإهانة كاتبِيها وطالِبِيها وقارِيها ومُقْرِيها، ولا يُعدَلُ عن السيف فى عِقَاب منٱنتحاها وٱستَوْهبَها وإنَّ السيف فى حقِّه لقليل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « تَرَكْتُ فيكم أمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا ما تمسَّكْتُم بهما كِتَابَ الله وسُنَّةَ نبيِّه » وبحَسْب العاقل كتَابُ الله وسنّةُ الرسول .

ويتعلق بهذا المنهيِّ عنه ما ٱسترسل فيه مَرَدَةُ أهل الأهواء ، والمتنكِّبون فيما تلبَّسوا به من الأدْرَانِ عن سَنَن الاهتداء ، أولئك قومٌ ٱعتقدُوا إباحةَ المحظُورات كلِّها ، وعدُّوا بإيهاماتهم السخيفةِ ، وتخيُّلاتهم الضعيفةِ ، كلَّ واهِي العُقَد منْحَلَّها ، وٱدَّعَوْا أنهم من الملة وأعمالُهم تقضِي بأنهم لَيْسُوا من أهلها ، فلْيُبْحَثْ عن ذٰلك الصِّنف الأوّل وهذا الثاني ، فمذهبُنا أن نطَهِّر دينَ الله ممّا لَصِق به من الأدران ، وأنْ نُعيده إلىٰ ما كان عليه قَبْلُ واللهُ المستعان .

ومن الوظائف التي يجبُ أن تعتَنُوا بها غايةَ الاعتناء ، وأن تُقدِّموا النظرَ فيها علىٰ سائر الأشياء ، أمْرُ أسواق المسلمين فقد ٱتَّصل بنا ماتطَرَّق للتِّجارات من مُسامحاتٍ تَعَفَّى عليها الخِدع ، ولا يَنْشُرها إلا الحِرْص والطمَع ، ولا تُوافِق الشرْعَ ولا يُطابِقها الوَرَع ، حتى شابَ أكثرَ المعاملات الفساد ، ولا يجرِى علىٰ القانون الشرعىِّ فى كثير من المُبايعات الانعقاد ، وتصدَّى المتحيِّلُون فيها لحِيَل يقصدُونها ، وأنواعٍ لاجتلاب السُّحْت يرصُدُونها ، ورُبَّما ورَدَ التاجرُ من القطر الشاسِع ، وحَسَّن الظنَّ بالمشترِى منه أو البائع ، فيَبْلُغُ فى خدْعته ، والإضرار به فى سِلْعته ، أسوَأَ المَبَالغ ، ويرتكبُ من مُحرَّم الخِلَابة ماليس بالسائِغ ، وسُمِع من ذلك أن من لايتَّقِي الله تعالى يُلابِس الرِّبا فى تِجارته ، ويَبْنِي عليه جميعَ إدارته ، وحفظُ المَكاسب من الخبائث أوجبُ الواجبات ، والحلالُ بَيِّنٌ والحرَامُ بَيِّن وبينهما أمورٌ متشابِهات ، ويَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبِي الصدقات ، فَلْتَلْزِموا الأُمناءَ المعروفين بالدِّيانة ، المشهورِين بالأمَانة ، تفقُّدَ هذه الأسواق ، ولْيُحْصِ كلَّ أمين من تشتمِلُ عليه سُوقُه من التُّجّار ، ولْيَعْرِف المُخْتار منهم من غير المختار ، ومن لا يصْلُح للتجارة فى سوق المسلمين يُقَام منها علىٰ أسوإ حال ، ومَنْ عُثِر منهم علىٰ ربًا فى معاملته عاجلْتُموه بأشدّ العقاب وأسْوَإ النَّكال ، خلِّصُوا المَتاجِرَ من الشوائِب ، ومُرُوهم بأن يَسيروا فى بَيْعهم وشرائهم وٱقتِضائهم علىٰ

أجمل المَذَاهب ، وأن يحْذَرُوا الغِشّ فقد قال عليه السلام : «مَنْ غَشَّنا فلَيْس مِنّا» والآنتفاءُ من الإيمان من أعظم المصائِب ، وإذا اعتُبِرتْ فى المبايَعات الوجوهُ الشرعيَّة ولُحِظت الأحكام زَكَّى الله عمل التاجر، وبُورِك له فيما يُدِير من المَتَاجر . ثم لتُوصُوا كلَّ من تُقدِّمونه لشُغْل من الأشغال أن يبْدَأ بصَلَاح نفسه قبل سواها ، وأن يلتزم الأعمال التى يُؤْثِرُها الله تعالىٰ ويَرْضاها ، وحَذِّروهم كلَّ الحَذَر أن تَقِفُوا لهم علىٰ مايَشِين ، أو تسْمَعُوا لهم قَبِيحا يخْفىٰ أو يبِين ، فمن سمِعْتم عنه أدْنىٰ سبَب من هذا فعاجلُوه بالعقاب الشَّدِيد ، والنَّكال المُبِيد ، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

قلت : وعلىٰ هذه المعانى والأمور المأمور بها فى هذا الكتاب قد كانت الخلفاءُ تكتب بها فى المكاتبات علىٰ أنحاءٍ متفرّقة علىٰ ماتقدّم فى مَقاصد المُكاتبات من المقالة الرابعة ، وكانوا يُولُّون علىٰ الصلاة والمساجد مَن يقومُ بأمرها علىٰ ماتقدّم ، وإنّ أكثر هذه الأمورِ الآنَ مضَمَّنة فى تواقيع أصحاب الحِسْبة علىٰ ما تقدّم ذكرُه فى الكلام علىٰ الولايات فى المقالة الخامسة وبالله التوفيق .

الفصل الثانى

من الباب الأوّل من المقالة السادسة

(فيما يُكتب من ذٰلك فى زماننا)

وهو قليل : لقلَّة الآعتناء بأمر الدين والآكتفاء فى ذٰلك بالتفويض إلىٰ متولِّى الحِسْبة ، إلا أنه رُبَّما كُتِب فى ذٰلك فى الأمور المهمة عند تعدِّى الطَّوْر فى أمرٍ من الأمور الدِّينيَّة ، والخُروج فيه عن الحدّ .

ثم هو علىٰ ضربين :

الضـــــرب الأوّل

(ما يُكتَب عن الأبواب الســـلطانية)

وهذه نسخةُ توقيع شريفٍ من هذا النوع كُتِب به فى الأيام   أن لايبَاع علىٰ أهل الذمّة رقيقٌ حين كَثُر شراءُ أهل الذمة من اليهود والنصارى العبيدَ والجَوارِيَ وتهويدَهم وتنصيرهم (١) .

---

(١) لم يذكر نسخة التوقيع بل كتب بهامش غير نسخة ما نصه "بياض مقدار ورقة" .

الضـــــرب الثـــانى

(ممـــا يُكْتب فى الأوامر والنَّواهى الدينيـــة ـ ما يُكتَب عن نوّاب الســـلطنة بالممـــالك)

وهذه نسخة توقيع كريم بمنع أهل صَيْدا وبَيْرُوتَ وأعمالها من آعتقادِ الرافضة والشِّيعة ورَدْعِهم، والرُّجوع إلىٰ السنَّة والجماعة، وآعتقادِ مَذْهَب أهل الحق، ومنْع أكابرهم من العُقُود الفاسـدة والأنكحة البـاطلة، والتعرّض إلىٰ أحدٍ من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وأن لا يَدْعُوا سلوكَ [طريق] أهـل السنة الواضحة، ويَمْشُوا فى شَرَك أهل الشك والضَّلال، وأن كل مَن تظاهر بشىءٍ من بِدَعهم قُوبِل بأشدِّ عذاب وأتمِّ نَكَال، ولْيُخْمِدْ نيرانَ بِدَعهم المُدْلَهِمَّه، ولْيُبادِرْ إلىٰ حسم فَسادِهم بكل هِمَّه، وتصريفهم عن (١) آعتبره، وتطهير بواطنهم من رُذَالة آعتقادهم الباطل إلىٰ أن يُعْلِنُوا جميعُهم بالترضِّى عن العَشَره . ولْيَحفَظْ أنسابَهـم بالعقود الصحيحه، ولْيُدَاوِمُوا علىٰ آعتقاد الحقِّ والعمل بالسنَّة الصريحه . فى خامس عِشْرِينْ (٢) جمادى الآخرة سنة أربع وستين وسبعمائة، وهى :

الحمـدُ لله الذى شَرَع الحـدُودَ والأحكام، وجَدَع بالحق لأُنُوفَ العَوَامِّ الأغْتَام الطَّغَام، وجمع الصَّلاح والنَّجَاح والفَلاح فى الأخذ بسُنَّة خير الخلق وسيِّد الأنام، وقَمَعَ الزائغين عمَّا عليه أهلُ السنة من الحق فى كلِّ نقضٍ وإبرام .

نحمـده علىٰ نِعَمه الجِسام، ومِنَنه التى تُومض بروقُها وتُشام، وآلائه التى لا تُسْأَم ولا تُسَام، ونشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له شهادةً ليس لمن تَمَسَّك

(١) بياض فى الأصل ولعله «عن التهوّك فى مهالك أهوائهم إلى ما نص عليه الشرع واعتبره» .

(٢) كذا فى الأصل باثبات النون ونقل الصبان عن آبن هشام تلحين الكتّاب فيه .

بعُروتها الوُثقىَ انفصالٌ ولا انفصام؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الداعى إلى المَلِك العَلّام، والهادِى إلى الحق بواضح الإرشادِ والإعْلام؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم أئمةُ الإسلام، وهُداةُ الخلق إلى دار السَّلام؛ خصوصًا أبا بكر الصدّيقَ الذى سبَق الناس بما وَقَر فى صدره لا بمَزِيَّة صلاةٍ ولا بمَزِيد صيام، وعُمرَ بنَ الخطَّاب الذى كان له فى إقامة الحق أعظَمُ مقَام، ومن أهل الصلاح والفساد انتقاءٌ وانْتِقام، وعُثمانَ بنَ عَفَّان الذى جمع القرءان فحصَّل لشَمْل سُوَره وآياته بما فعل أحسَنُ الْتِئام، وأنفَق مالَه محتسبا لله تعالى فحاز من الثواب رتبة لا تُرام، وعلِيَّ بنَ أبى طالب الذى كان صِهْرَ النبىّ صلى الله عليه وسلم وابنَ عمه ووارثَ عِلْمه اللُّهَام، والمجادِلَ عن دِينه بالعِلْم والمجاهِدَ بين يدَيْه بالحُسام، والباقين من العَشَرة الكِرام، صلاةً تُستَمدُّ بركاتُها وتُستَدام، ويَنْمو فضلُها بغير انقضاءٍ ولا انصِرام .

وبعد، فإن الله تعالى بعثَ محمدا صلى الله عليه وسلم بشَرْعه الذى ارتضاه، ودِينه الذى قَضاه، وحُكْمه الذى أبْرمه وأمْضاه؛ فبلَّغ الرساله، وأوضح الدِّلاله، وأفصَح المَقَاله؛ وجاهد فى الله طوائفَ الأعداء، وأمال اللهُ تعالى إلى قَبُول قوله وتصديقه من سبقَتْ له العنايةُ من الأوِدّاء؛ ونَصَره على مخالفيه من المشركين والحاسِدين حتَّى ماتَ كل منهم بما فى نَفْسه من الداء؛ وبيَّن الطريق، وبرْهَن على التحقيق، فأعلَن النِّذارة والبِشاره، ومهَّد قواعدَ الدين تارةً بالنص وتارةً بالإشاره؛ وتمَّ الدينُ بإحكام أحكامه، وشُيِّدت قواعدُه بإعلاء أعلامه؛ وعمَّت الدعوةُ وتمَّت، وفشَت الهدايةُ ونَمَت؛ ودخل الناسُ فى الدين أرْسالا، وبلغَتْ نفوسُ المؤمنين من إعلاء كلمة التوحيد آمالَا، وأصبحت الخيراتُ والبركاتُ تتواتَرُ وتتوالَى، وخَمَدت نارُ الشِّرك وطَفِئَت مصابيحُ الضلالة ووُحِّد اللهُ تبارك وتعالى .

فلمّا تكامل ماأراد اللهُ تعالىٰ إظهارَه فى زمانه، وتمّ ماشاء إبرازَه فى إبّانه، وأُعلنت الهداية، ومُحيت الغَوَايه، وقام عمودُ الدين، ودَحَضَت حجةُ المُلْحدين، وآستوْسَق أمرُ الإسلام وآستَتَبّ، وتبّت يدَا مُناوِئه وتبّ ــ آختار الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم جِوارَه وقُربَه، فقضَىٰ نَحْبه ولَقِيَ ربَّه، فقام خلفاؤُه بعده بآثاره يَقْتَدُون، وبِهَدْيِه وإرشاده يَهْتَدُون، ولأحكامه يَتّبِعون، ولأوامره يستَمِعُون، ولِمَعانى ماجاء به يَعُون، وإلىٰ قضاياه يرجِعُون، لا يُغيِّرون ولا يبَدِّلون، ولا يتعرَّضون ولا يتأوَّلُون، فقَضىٰ علىٰ ذٰلك الخلفاءُ الراشدون، والأئمّة المَهْدِيُّون، لم يَتَّبِـع أحدٌ منهم فى زمانهم عقيدةً فاسده، ولم يُظْهِر أحدٌ مقالةً عن سَواء السبيل حائدَه، ثم تفرّقت الآراء، وتعدّدَت الأهواء، وآختلفَت العقائد، وتبايَنت المَقاصِـد، ووَهَت القواعد، وتصادَمت الشَّواهِـد، وتفرّقتِ الناس إلىٰ مُقِرّ بالحقّ وجاحد، وظهَرتِ البِدَع فى المَقالات، وضَـلَّ كثيرٌ فى كثير من الحالات، وتهافَتَ غالِبُهـم فى الضَّلالات، وقال كلُّ قوم مَقالةً تضمّنت أنواعًا من الجَهَالات، وكان من أسْخَفِهم عَقْـلا، وأضْعَفِهم نَقْلا، وأوْهَنِهم حُجَّه، وأبْعدِهم من الرَّشَد مَحجَّه، طائفةُ الرافضة والشّيعه، لآرتكابهم أمورا شَنيعه، وإظهارِهم كلَّ مقالةٍ فظيعه، وخَرْقِهم الإجماع، وجمعِهم قَبِيح الآبتداع، فتبدّدُوا فِرَقا، وسلَكُوا من فواحش الاعتقادات طُرُقا، وتنوّعَ ناسُهم، وتعـدّدَتْ أجناسُهُم، وتجرّءُوا علىٰ تبديل قواعد الدِّين، وأقدموا علىٰ نَبْذ أقوال الأئمة المرشِدِين، وقالوا مالم يُسْبَقُوا إليـه، وأعظَمُوا الفِريةَ فيما حَمَلُوا كلامَ الله ورسولِه عليه السلام عليه، وباءُوا بإثم كبير وزُورٍ عظيم، وعَرَّجُوا(1) عن سواء السبيل فخرَجُوا عن الصراط المستقيم، وفاهُوا بمـا لم يَفُهْ به قبلهم عاقِل، وآنتحَلُوا مذَاهِبَ لا يُساعِدُهم عليها نقْلُ ناقل، وتخيَّلُوا أشـيَاءَ فاسدةً حالُهم فيما نُخَيِّلُهـا أسوأُ من حالِ باقل، وتمسَّكُوا بآثارٍ

(١) أى عدلوا عنه . انظر المصباح .

موضوعه، وحكاياتٍ إلى غير الثقات مرفوعه، يُنْقَل عن أحدهم ماينقُلُه عن مجهول غير معروف، أو عمن هو بالكذب والتدليس مشهورٌ وموصوف، فأدّاهم ذلك إلى القول بأشياء ـ منها مايُوجِب الكفرَ الصُّراح، ويُبِيح القتلَ الذى لاحرجَ على فاعله ولا جُناح ـ ومنها ما يقتضى الفِسقَ إجماعا، ويَقْطَع من المتَّصِف به عن العَدَالة أطماعا ـ ومنها ما يُوجِب عظيم الزَّجْر والنَّكال ـ ومنها مايُفْضِى بقائله إلى الوَيْل والوبال. لَعِب الشيطانُ بعقُولهم فأغواهم، وضَمَّهم إلى حِزْبه وآواهُمْ، ووعَدَهم غُرورا ومَنَّاهم، وتمنَّوْا مغالبةَ أهل الحق فلم يَبْلُغوا مُناهم، مَرَقُوا من الدِّين، وخرقُوا إجماع المسلمين، وآستحلُّوا المَحارم، وآرتكَبُوا العظائم، وآكتسبُوا الجَرائم، وعدَلُوا عن سـواء السبيل، وتبوّءُوا من غضب الله شرَّ مَقِيل. مذهبهم أضعفُ المذاهِب، وعقيدتُهم مخالفةٌ للحق الغالِب، وآراؤُهم فاسده، وقرائحُهم جامِده، والنُّقول والعُقول بتكذيب دَعاويهم شاهده، لا يرجِعُون فى مقالتهم إلى أدلَّة سليمه، ولا يُعرِّجون فى آستدلالهم على طريق مستقيمه، يعارِضُون النُّصوص القاطعه، ويُبْطِلون القواعدَ لمجرّدِ المنازعة والمُدافَعه، ويفسِّرون كلامَ الله تعالى بخلاف مُراده منه، ويتجرّءُون على تأويله بما لم يُرِدْه اللهُ ولم يَرِدْ عنه، فهم أعظمُ الأمة جَهَاله، وأشدُّهم غَوَاية وضَلَاله، ليس لهم فيما يدّعُونه مستَنَد صحيح، ولا فيما ينقُلونه نَقْلٌ صريح.

فلذاك كانوا أقلَّ رتبةً فى المناظره، وأسوأَ الأُمّة حالًا فى الدنيا والآخره، وأحقَرَ قَدْرا من الآحتجاج عليهم، وأقلَّ وضْعا من توجيه البحث إليهم، أكابرهم مخلِّطون، وأصاغِرُهم مثلُهم ومعظَمُهم مخبِّطون، بل كلُّهم ليس لأحد[منهم]حَظٌّ فى الجدال، ولا قَدَم فى صحة الآستدلال، ولو طُولِب أحدٌ منهم بِصحّة دعواه لم يجِدْ عليها دليلا، ولو حُقِّق عليه بحث لم يَلْقَ إلى الخَلَاص سبيلا، غايةُ متكلّمهم أن يَرْوِىَ عن منكر من الرجال مجهول، ونهاية متعلّمهم أن يُورِد حديثًا هو عند العلماء موضُوع أو مَعْلول، يطْعَنُون

فى أئمة الإسلام، ويسبُّون أصحابَ النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، ويَدَّعون أنهم شيعةُ أميرالمؤمنين عليّ بنِ أبي طالب رضى الله عنه وهو برىء منهم، منزّه عما يصْدُر عنهم، فقدرُه أرفَعُ عند الله والناس، ومحَلُّه أعلىٰ بالنص والقياس، ويحُرم أن يُنْسَب إليه الرِّضا بهذه العقائد، أو التقريرُ لهذه المَفَاسد، فإن طريقته هى المُثْلىٰ، وسيرته هى العُلْيا، فالأخْذُ بالحق إليه يَئُول، والصوابُ معه حيث يفعَل أو يقُول، ولا يصِحُّ نقلُ شيءٍ من هذا عنه، ولا يحل نسبةُ شيء إليه منه، ومنصِبُه أجلُّ من ذلك، ومكانُه أعزُّ مما هُنالك، غير أنَّ هؤلاء يعرِض لأحدهم فى دينه شُبْهه، يقلّد فيها مثلَه فى الضلالة وشِبْهَه، ويتردَّدُ فى نفْسه من الغَمِّ بُرْهةً لا يجد للخلاصِ منها وجْهه، ولا يوجِّه قلبَه إلىٰ طلب النجاة منها وَجْهَه، ولا يقَع نظرُ بصيرته علىٰ طريق الصواب ولايحقِّق كُنْهَه، فيرتكبُ خَطَرا يُوجب توبيخَه فى القيامة وجَبْهَه، وتَسْودُّ فى الموقِف ناصيةٌ منه وجَبْهه، ويَعْدَم لتحيره فى الضلال عقْلَه وفهمه وفقْهه، قد صَرَفوا إلىٰ الطعن فى العلماء، ومخالفة ربِّ الأرض والسماء، هَمَّهم وهِمَمَهم، وافتَرَوْا علىٰ الله كذبا فذَمَّهم وأباح دَمَّهم، وقال لسانُ حال أمرِهم أرا قَدَمهم أراقَ دَمَهم، وهانَ دَمُهم فيها نَدَمُهم .

وقد بلَغَنا أن جماعةً من أهل بيْروتَ وضواحيها، وصَيْدا ونواحيها، وأعمالها المضافةَ إليها، وجهاتِها المحسوبةَ عليها، ومَزارِعَ كل من الجهتين وضِياعَها، وأصقاعها وبِقاعَها، قد انتحلُوا هـذا المذهبَ الباطل وأظهَرُوه، وعمِلوا به وقرّروه، وبثُّوه فى العامّة ونشَرُوه، واتخذوه دينًا يعتقدُونه، وشرْعا يعتمِدُونه، وسلكُوا منهاجَه، وخاضُوا لجاجَه، وأصَّلوه وفرَّعوه، وتديَّنوا به وشَرَعوه، وحصَّلوه وفصَّلوه، وبلَّغوه إلىٰ نفوس أتباعهم ووصَّلوه، وعظَّموا أحكامَه، وقدّمُوا حُكّامه، وتمَّموا تبجيله وإعظامَه، فهم بباطله عاملُون، وبمقتضاه يتعاملُون، ولأعلام علْمِه حاملُون، وللفساد

قابلون، وبغير السَّداد قائلون، وبحَرَم حرامه عائذُون، وبحِمىٰ حمايته لائذُون، وبكَعْبة ضلاله طائفُون، وبسُدّة شدّته عاكفون. وإنهم يسُبُّون خيرَ الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، ويستحلُّون دمَ أهل السنَّة من المسلمين، ويستبيحُون نكاحَ المُتعة ويرتكبُونَه، ويأكلون مالَ مخالفيهم وينتهبُونه، ويجمعُون بين الأختين فى النكاح، ويتدينُّون بالكفر الصُّرَاح، إلىٰ غير ذٰلك من فروع هذا الأصلِ الخبيث، والمذهبِ الذى ساوىٰ فى البُطْلان مذهبَ التثليث ـ فأنكرنا ذٰلك غايَةَ الإنكار، وأكبَرْنا وقوعَه أشدَّ إكبار، وغضِبْنا لله تعالىٰ أن يكون فى هذه الدولة للكُفْر إذاعَه، وللمعصية إشادةٌ وإشاعه، وللطاعة إخافةٌ وإضاعه، وللإيمان أزْجىٰ بِضاعه؛ وأردنا أن نجَهِّز طائفةً من عسكر الإسلام، وفرقةً من جُنْد الإمام، تستأصل شأْفَةَ هذه العُصْبة المُلْحده، وتطهِّرُ الأرضَ من رِجْس هذه المَفْسَده، ثم رأينا أن نقَدِّم الإنذار، ونسبِق إليهم بالإعذار، فكتَبْنا هذا الكتاب، ووجَّهْنا هذا الخطاب، ليُقْرأَ علىٰ كافَّتهم، ويُبلَّغ إلىٰ خاصَّتهم وعامَّتهم، يُعْلِمهم أن هذه الأمورَ التى فعلُوها، والمذاهبَ التى انتَحلُوها، تُبيح دماءَهم وأموالَهم، وتقتضِى تعميمَهم بالعذابِ واستِئْصالهم، فإنَّ من ٱستحَلَّ ما حَرَّم الله تعالىٰ وعُرِف كونُه من الدين ضرورةً فقد كفَر، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا ما قَدْ سَلَف ﴾ عطْفا علىٰ ما حَكَم بتحريمه، وأطلق النصَّ فتعيَّن حملُه علىٰ تعميمه، وقد ٱنعقد علىٰ ذٰلك الإجماع، وٱنقطعت عن مخالَفته الأطماع، ومخالفةُ الإجماع حرام بقول من لم يزَلْ سميعا بصيرا ﴿ ومَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ماتَبيَّنَ له الهُدَىٰ ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّه ماتَوَلَّىٰ وَنُصْلِه جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيرا ﴾. ونكاح المُتعة منْسوخ، وعَقْده فى نفس الأمر مَفْسُوخ، ومن ٱرتكبه بعد علمه بتحريمه واشتهاره، فقد خرج عن الدِّين بردّه الحقَّ وإنكاره؛ وفاعلُه ان لم يتُب فهو مقتول، وعُذْره فيما يأتيه من ذٰلك غيرُ مقبُول. وسَبُّ الصحابة رضوانُ الله عليهم

مخالِفٌ لما أمَر به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من تعظيمهم ، ومنابذٌ لتصريحه باحترامهم وتبجيلهم ، ومخالفتُه عليه السلام فيما شَرَعه من الأحكام ، موجبةٌ للكفر عند كل قائل و إمام ، ومُرتكبُ ذٰلك علىٰ العقوبة سائر ، و إلىٰ الجحيم صائر . ومَنْ قذَف عائشةَ أُمَّ المؤمنين رضى الله عنها بعد ما بَرَّأها الله تعالىٰ فقد خالف كتابَه العظيم ، وآستحقَّ من الله النَّكالَ البليغَ والعذابَ الأليم ، وعلىٰ ذٰلك قامتْ واضحاتُ الدلائل ، وبه أخذ الأواخرُ والأوائل ، وهو المَنْهَج القَويم ، والصِّراطُ المستقيم ، وماعدا ذٰلك فهو مرْدُود ، ومن المِلَّة غيرُ معْدُود ، وحادثٌ فى الدين ، و باعثٌ من المُلْحدين ، وقد قال الصادق فى كل مَقَاله ، والمُوضِّح فى كل دِلاله ، «كُلُّ مُحْدَثة بِدْعةٌ وكلُّ بِدْعةٍ ضَلاله» . فتوبُوا إلىٰ الله جميعا ، وعودُوا إلىٰ الجماعة سريعا ، وفارِقُوا مذهبَ أهل الضَّلاله ، وجانبُوا عُصْبةَ الجَهَاله ، واسمَعُوا مقالَةَ الناصح لكم فى دينكم وَعُوا ، وعن الغَيِّ ارجعُوا ، و إلىٰ الرَّشادِ راجعُوا ، و إلىٰ مغفرةٍ من ربِّكم وجنةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ باتِّباع السنة بادِرُوا وسارِعُوا . ومن كان عنده امرأةٌ بنكاح متعة فلا يَقْرَبْها ، ولْيحذَرْ من غشْيانها ولْيتجَنَّبْها . ومَنْ نكح أختين فى عقْدَيْن فليُفارق الثانيةَ منهما فإنَّ عقدَها هو الباطل ، وان كانتَا فى عقدٍ واحدٍ فليُخْرِجْهما معا عن حِبَالته ولا يُماطِلْ ، فإنَّ عذاب الله شديد ، ونَكالَ المجرم فى الجحيم كلَّ يوم يَزيد ، ودارَ غضب الله تُنادى بأعدائه هل من مَزِيد ، فلا طاقَةَ لكم بعذَابه ، ولا قُدرةَ علىٰ أليم عقابه ، ولا مَفَرَّ للظالم منه ولا خَلَاص ، ولا ملجأَ ولا مَناص . فرحِم اللهُ تعالىٰ امْرأً نظر لنفْسه ، واستعدَّ لرَمْسه ، ومَهَّد لمَصْرَعه ، ووطَّأ لمَضْجَعه ، قبلَ فَوات الفَوْت ، وهُجوم المَوْت ، وانقطاعِ الصَّوْت ، واعتقالِ اللسان ، وانتقال الإنسان ، قبل أن تُبْذَل التوبةُ ولا تُقْبل ، وتُذْرىٰ الدمُوعُ وتُسْبَل ، وتنقضى الآجالُ وينقطع الأمل ، ويمتنِعَ العَمَل ، وتزهَق من العبد نَفْسُه ، ويضُمَّه رَمْسُه ، ويَرِدَ علىٰ ربه وهو عليه

غَضْبان، وإنَّ سُخْطه عليه بمخالفة أمرِه قدْ بان، ولا ينفعُه حينئذٍ النَّدَم، ولا تُقال عثرتُه إذا زلَّت به القدَم، وقد أَعْذر من أنْذَر، وأنصَف من حذَّر، فإنَّ حزب الله هم الغالبون، والذين كفَرُوا سيُغْلَبُون، وسَيَعْلَمُ الَّذين ظلَمُوا أيَّ منقَلَبٍ ينْقَلِبُون، ألهمنا الله وإيَّاكم رُشْدَنا، ووفَّق إلىٰ مَرَاضِيه قصْدَنا، وجمَعَنا وإيَّاكم علىٰ الطاعه، وأعاننا جميعا علىٰ السُّنَّة والجماعه، بمنِّه وكرمه!.

* * *

وهـذه نسخة مرسوم كُتِب به عن نائب المملكة الطرابُلُسيَّة إلىٰ نائب حِصْن الأكراد، بإبطال ما أُحْدِث بالحصن: من الخمَّارة، والفَوَاحش، وإلزام أهل الذِّمَّة بما أُجْرِي عليهم أحكامُه من أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه — فى أواخر جُمادىٰ الأولىٰ سنة خمس وستين وسبعمائة، وهو:

المرسومُ بالأمر العالى — لازال قصدُه الشريفُ المثابرةَ علىٰ تغيير المنكَر، وشَدِّ أزر المُنْكِر، مشمِّرا فى إراحة القلوب بإزاحة مَوَاطن الفواحش: من سِفَاح ومخدِّر ومَيْسِر ومُسْكِر — أن يتقدّمَ الجنابُ الكريم باستمرار ماوفَّقنا الله تعالىٰ له ورَسَمْنا به، وأعطيناه دُستُورا يجِدُه من عَمِل به يوم حِسابِه: من إبطال الخمَّاره، وهدْم مبانيها بحيثُ لا يبقىٰ للنَّفْس الأمَّارة عليها أَمَاره، وإخفاءِ معالمِها التى توطَّنها الشيطانُ فقَطَن، وإزالةِ ما بها من الفَوَاحِش التى ما ظهر منها أقلُّ مما بَطَن، وإخلاءِ تلك البلاد من هذا الفَسَاد الموجِب لكثرةِ المِحَن والاختلاف وإراقة ما بها من الخُمور، التى هى رأْس الإثم والشُّرور، وإحراقِ كل مخدِّر مذْمُوم فى الشَّرْع محْذُور، وإذهاب اسم الحانة بالكليَّة بحيث لا يتلفَّظ به مسلِمٌ ولا كافر، ولا يُطمِع نفسَه فى الترتيب عليها مَنْ هو علىٰ خِزْيه وبَغْيه مُظَافِر. وقد غيَّرنا هـذا المنكر بيدٍ أطال الله بفضله فى الخير باعَها، وغنِمْنا إزالةَ هذه المَفْسَدة فأحرَزْنا بِرَّها واَصطناعَها، خوفًا من وعيد

قوله تعالىٰ : ﴿كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عن منكرٍ فَعَلُوه لَبِئْسَ ما كَانُوا يَفْعَلُون﴾ ورجاءَ أن نكونَ من المراد بقوله تعالىٰ : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلىٰ الخيرِ ويَأْمُرُونَ بالمَعْرُوف ويَنْهَوْنَ عنِ المُنْكَرِ وأُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ وعملًا بقوله عليه السلام : «مَنْ رأىٰ منكم مُنْكَرًا فلْيُغَيِّرْهُ بيده» . وعلما بأنَّ أميرَ الرعية إذا لم يُزِل المنكرَ من بينهم فكيف يُفْلِح في يومِه وحالِ السُّؤال عنهم في غَدِه .

وقد صار حِصنُ الأكراد بهذه الحسنةِ في الحِصْن المَنِيع ، وأهلُهُ المتمسِّكُون بالعُروة الوُثْقىٰ في مَرْبَعٍ خَصِيبٍ مَرِيع ، وضَواحِيه مطَهَّرةً من خُبْث السِّفاح ونَجاسة الخُمور ، ونَواحِيه كثيرةَ السُّرور قليلةَ الشُّرور ، قد أعلى الله تعالىٰ به كلمتَه ، وأجاب لصغيرِه وكبيرِه في هذا الأمر دَعْوتَه ، وما ذٰلك إلا بتوفيقِ مَن أهَّلَنا لذٰلك ، وألهَمَنا رُشْدنا وطَهَّرَنا من هذه المَفاسد تلك المَسالك ، وله الحمدُ علىٰ ما وفَّق إليه ، وأعانَ عبدَه في ولايتِه عليه ، فإن المنكرَ إذا فشا ولم يُنْكَرْ آنَ خَرابُ الديار ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ الله لَيَغَار » ، فعند ذٰلك تمنَعُ السماءُ دَرَّها ، وتُمسِك الأرض بَذْرَها ، ويَجِفُّ الضَّرع ، ويَيْبَس الزَّرْع ، وتَعْطَش الأكباد ، وتَهْلِك البِلاد .

فليبْسُط الجنابُ الكريم يدَه في إزالة ما بَقِيَ من مُنْكَر ، متفقِّدا لجَليلِه وحقيرِه بالفَحْص الشديد وما علىٰ ذٰلك يُحمَدُ بكل لسانٍ ويُشْكَر ، مترقِّبا من يُدْخِل البلَدَ ذٰلك ليقابلَه بالضرب بالسياط ، آخذًا في تتبُّع حِلاله بالحَزْم والتحرِّي والاحتياط ، إلىٰ أن تَصِل بنا أخبارُه ، ويعلُوَ لدَيْنا في سياستِه ونَهْضته منارُه ، وتُحمَد عندنا إيالتُه وآثارُه ، وهو بحمد الله كما نعهد شديدٌ علىٰ كل مُفْسِد ومعانِد ، سديدُ الآثار والأثارة والمقاصد .

وأما أهلُ الذمَّة فما رُفِع عنهم السيفُ إلا باعطاء الجزية والتزامِ الأحكام ، وأخْذِ عهود أكيدةٍ عليهم من أهل النقض والإبرام .

فليتقدّم الجنابُ الكريمُ بإلزامِهِم بما ألزمهم به الفارُوق رضوانُ الله عليه، ولْيُلْجِئْهم في كل أحوالِهم إلىٰ ما ألجأهم إليه : من إظهار الذِّلّة والصَّغار ، وتغْيِير النَّعْل وشدِّ الزُّنَّار، وتعريفِ المرأة بِصَبْغ الإزار، ولْيُمْنَعُوا من إظهار المنكَر والخمرِ والناقُوس وليُجعل الخاتَمُ أو الحديدُ فى رقابهم عند التجرُّد فى الحمَّام، ولْيُلْزَموا بغير ذٰلك من الأحكامِ التى ورد بها المرسوم الشريف من مُدّة أيَّام، ومن لم يلتزم منهم بذٰلك وآمتنع، وأعلن بكفْرِه وأعلى كلمتَه ورَفَع، فما له حَكَم إلا السيف، وغُنْم أمواله وسَبْيُ ذرارِيِّه وما فى ذٰلك علىٰ مثله حَيْف، فهاتانِ مَفْسَدتانِ أمرْنا بالزامهما فِرارا من سُخْط الله تعالىٰ وحِذَارا، إحداهُما إبطالُ الحانة والثانيةُ إخفاء كلمةِ اليهود والنَّصارىٰ.

فليتقدّمِ الجنابُ المشارُ إليه باستمرار ما رسَمْنا به فهو الحق الذى لا شكَّ فيه، والنُّور الذى يَتْبَعُه المؤمنُ ويَحْكِيه، ونرجُو من كرم الله تعالىٰ استمرارَ هذه الحسنة مَدَىٰ الأزمان، وآستِثْمارَ شجرِها المائدِ الأغصان، و إبطالَ هذا الحُزْن المسمَّى ظلما بالفَرَح، و إعمالَ السيف فى عُنق من آرتضاه بين أظهر المسلمين فانهتك سِرُّه وآفتضح.

وليَقْمَعْ أهلَ الشرك والضلال، بما يُلزِم الصَّغارَ عليهم والإذلال، إلىٰ أن لا يُرفَع لهم راس، ولا يُشَيِّدوا كيدا إلا علىٰ غير أساس، وليستجلِبِ الجنابُ الكريم لهذه الدولة الشريفةِ ولنا الدعاءَ من المسلمين، والفقراءِ والصالحين والمساكين، ولْيُطِبْ قلوبَهم باستمرار ما أزَلْناه، ومَحَوْنا آثاره وأبطلْناه، وقصدْنا بابطاله من تلك الأرض، مسامحةً من الحَكَم العَدْل يوم العَرْض؛ ومَن أعاد ما أبطلناه أو أعان علىٰ إعادته، أو أمر بتشييده وبناء حِجارته، أو رتَّب مرتَّبا علىٰ خِدْرِ بَغِيٍّ ومَوَّه ودلَّس بالأفراح، أو أطلق أن يُباعَ منكَر أو سوّل له شيطانُه أنه من الأرباح، فإن الله تعالىٰ يُحا كمه وهو أحكم الحاكمين؛ وعليه لعنةُ الله والملائكةِ والناسِ أجمعين.

الباب الثانى

فيما يكتب فى المسامحات والإطلاقات، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

فيما يكتب فى المسامحات

والمُسامَحات جمع مُسامَحة، وهى [الجُود (١) والموافقةُ علىٰ ما أُرِيد منه] . والمراد المسامحةُ بما جَرَتْ به عادةُ الدواوين السلطانية : من المقررات واللوازم السلطانية، وهى علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(ما يُكتَب من الأبواب السلطانية)

وقد جرتِ العادةُ أنّ السلطانَ إذا سَمَح بترك شىءٍ من ذٰلك كُتِب به مرسومٌ شريف وشمِلتْه العلامة الشريفة، وهو علىٰ مرتبتين :

المرتبة الأُولىٰ — المسامحاتُ العِظام .

وقد جرت العادةُ أن تُكتَب فى قطع الثلث مفتتحةً بـ«الحمد لله» .

وصورتُها أن يُكتب فى أعلى الدَّرْج بوَسَطِه الاسمُ الشريف كما فى مراسيم الولايات، ثم يكتب من أول عَرْض الورق إلىٰ آخره «مرسومٌ شريفٌ أن يُسامَح بالجهة الفلانية وإبطال المُكوس بها، أو أن يسامح بالباقى بالجهة الفلانية، أو أن يُسامَح أهلُ الناحية الفلانية بكذا وكذا، ابتغاءً لوجه الله تعالىٰ، ورجاءً لنَواله الجسيم

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المصباح .

علىٰ ما شُرِح فيه» ثم يُترك وصلانِ بياضًا غير وَصْل الطُّرّة، ويُكتَب فى أوّل الوصل الثالث البسملة، ثم الخطبةُ بالحمدُ لله إلىٰ آخرها، ثم يقال : وبعدُ، ويؤتى بمقدّمة المسامحة : من شكر النعمة، والتوفيـة بحقها ومقابلتها بالإحسان إلىٰ الخلق، وعمل مصالح الرعية وعمارةِ البلاد، وما ينخرط فى هذا السِّلك، ثم يقال : ولذلك لما كان كذا وكذا اقتضت آراؤنا الشريفة أن يُسامَح بكذا، ثم يُقال : فرُسِم بالأمر الشريف أن يكون الأمرُ علىٰ كذا وكذا، ثم يقال . فلتستقرَّ هـذه المسامحةُ ويؤتىٰ فيها بما يناسب، ثم يقال : وسبيلُ كلِّ واقف علىٰ هذا المرسوم الشريف العمَلُ بمضمونه أو بمقتضاه، ويُخْتَم بالدعاء بما يُناسِب .

❁❁❁

وهذه نسخة مرسوم بمسامحةٍ ببواقي دِمَشْق وأعمالها، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ رحمه الله تعالىٰ، وهى :

الحمدُ لله الرءوف بخَلْقه، المتجاوزِ لعباده عما قصَّروا فيه من حَقِّه، المُسامِح لبَرِيته بما أهمَلُوه من شُكْر ما بَسَط لهم من رِزْقه، جاعلِ دولتِنا القاهرةِ مَطْلَع كرم، تُجتَلىٰ أنوارُ البرِّ فى البَرايَا من أُفُقه، ومَنْشأَ دِيَم، تُجتَابُ أنواءُ الرِّفق بالرعايا من بَرْقه، ومِضمارَ جُود يحتوِى علىٰ المعروف من جميع جهاته ويشتَمِل علىٰ الإحسان من سائر طُرُقه، فلا بِرَّ تنتهى إليه الآمالُ إلا ولكرمنا إليـه مزِيَّةُ سَـبْقه، ولا أجْرَ يتوجَّه إليه وجهُ الأمانىِّ إلا تلقَّته نعمُنا بمُتهلِّل وجه الإحسان طَلْقه، ولا معروفَ تُجْدِب منه أرجاءُ الرجاءِ إلا واستهلَّتْ عليه آلاؤُنا من صَوْب بِرِّنا المألوفِ لآلئُ وَدْقه .

نحمَده علىٰ نِعمه التى عمَّت الرَّعايا بتوالِي الإحسان إليهم، وأنامَتْهم فى مِهاد الأمن بما وضعَتْ عنهم مسامحتُنا من إصرهم والأغلال التى كانَتْ عليهم، وأنالَتْهم ما لم

تطْمَحْ آمالُهم إليه : من رَفْع الطَّلَب عن بواقى أموالٍ أخَّرُوها وراءَ ظهورِهم وكانَتْ كالأعمال المقدّمة بين يديْهِمْ .

ونشهد أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شــهادةً تبعَثُ علىٰ نَشْر رحمتِه ، التى وَسِعت كلَّ شيءٍ فى عباده ، وتحُثُّ علىٰ بثِّ نعمتِه ، التى غَمرَت كلَّ حىّ علىٰ اجتماعه وسَعَتْ إلىٰ كل حىٍّ علىٰ انفرادِه ، وتحُضُّ علىٰ ما ألهمنا من رأفةٍ بمن تابله بتوحيدِه وشِدّةٍ علىٰ من جاهَرَه بعِناده .

ونشهد أنَّ محمَّدا عبده ورسوله الذى أسكَتَ ألْسِنةَ الشرك وأخْرَسَها ، وعَفّىٰ معالِمَ العُدْوان وطَمَسها ، وأثّل قواعدَ الدين علىٰ أركانِ الهــدىٰ وأسَّسَها ، وأوْضَح سُــبُلَ الخيرات لسالِكيها فإذا سَعِدت بالملوك رَعايَاها فإنمــا أسْعدتِ الملوكُ بذٰلك فى نَفْس الأمر أنْفُسَها . صــلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين شَــفَعُوا العَدْل بالإحسان ، وجمَعُوا بين مُلْك الدنيــا والآخرة بإحياء السُّــنَن الحِسانــ ، وزرَعُوا الجِهادَ بالإيمــان فى كل قلبٍ فأثمَر بالتوحيد من كلِّ لسان ، صلاةً جامعةً أشتاتَ المُراد ، سامعةً نداءَ أربابها يوم يقومُ الأشهاد ، قامعــةً أربابَ الشكِّ فيها والإلحْــاد ، وسلم تســليما كثيرا .

وبعــد ، فإننا لمـّا آتانا الله من مُلْك الإســلام ، وخَصَّنا به من الحُكْم العامّ ، فى أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأيّدَنا به من النصر علىٰ أعداء دِينه ، وأمدّنا به من تأبيــد تأييده ودَوامِ تمكينه ، وجعــل دَوْلَتنا مَرْكَزا مَدارُ مُلك الأمة الإسلامية عليه ، وفَلَكًا مآلُ أمور الأمّة المحمدية فى سائر الممالك علىٰ اختلافِها إليه ، ورزَقنَا من النصر علىٰ أعدائه ما أعزَّ المســلمين وأذلهُمْ ، وأذَلَّ المشركين وأذَاهُم ، وكَفَّ بالرُّعب أطماعَهم ، وأعمىٰ بمـا شاهَدُوه أبصارَهم وأصَمَّ بمـا سمِعُوه أسماعهم ،

وحَصَرهم بالمَهابة فى بلادهم، وأيْأَسَهم بالمَخافة من نُفوسهم قبل طارِفهم وتِلادِهم ـ لم نزلْ نرْغَب فى حسنات تُحَلَّىٰ بها أيامُنا، وقُرُباتٍ تجْرِى بها أقلامُنا، ومَكْرُمات تكمُلُ بها عوارِفُنا وإنعامُنا، ومآثِرَ يخُلَّد بها فى الباقياتِ الصالحاتِ ذِكْرُنا، ومواهِبَ تُجَمَّل بها بين سِيَرِ العصور الذاهبةِ سِيرتُنا الشريفةُ وعَصْرُنا، ومَصالحَ يُصْرَف بها إلىٰ مصالح البلاد والعباد نظرُنا الجميل وفِكْرُنا، نُهوضًا بطاعة الله فيما ألقىٰ مَقَاليـدَه إلينا، وأداءً لشُكْرِه فيما أتمَّ به نِعمَه العميمةَ علينا، واكتساباً لثوابه فيما تُقدِّمه من ذخائر الطاعات بين يدَيْنا، ونظرًا فى عمـارة البلاد بخِفَّة ظهور ساكِنيها، وإطابةً لقلوب العباد من تَبِعاتِ البواقِى التى كانت تمنَعُهم من عِمارة أراضيهم وتُنَفِّرهم من التوطُّن فيها، ورَغبةً فيما عند الله واللهُ عنـده حُسْن الثواب، وتحرِّيا لإصابة وجهِ المصلحة الإسـلاميَّة فى ذٰلك واللهُ الموفِّقُ للصواب .

ولذٰلك لَمَّـا ٱتَّصـل بنـا [أنَّ] باقىَ البلاد الشامية من البواقِى التى يُتْعِب ألسنةَ الأقلام، إحصاؤُها، ويُثْقِل كواهلَ الأفهام، تَعدادُ وجوهها وٱستقصاؤُها، ممـا لايُسْمَح بمثله فى سالِف الدُّهور، ولا يَسْخُو به إلا من يرغَبُ مثلُنا فيما عندَ الله من أُجورٍ لاتُخْرِجه عن مصـالح الجُمْهور ـ اقتضت آراؤُنا الشريفة أن نُعْفِى منها ذِمَمـا كانت فى أغلالِ إسارها، وأثقالِ انكسارِها، ورَوْعة اقتِضائها، ولَوْعةِ التردُّدِ بينَ إنظارِ المطالبة وإمضائها؛ وأن نُعْتِق منها نفُوسا كانت فى سِـياق مَساقِها، وحِبَال إزهاقِها وإرهاقِها، لتتوفَّر الهِمَمُ علىٰ عمـارة البِلاد، بالأمن علىٰ الطارف والتِّلاد، وتُجَمَع الخواطرُ علىٰ حُسْن الخلَف، بمـا حصَل لهم من المسامحة عما عليهم من ذٰلك سـلَف، بذمم بريَّة من تلك الأثقـال، عريَّة عن عَثَرات تلك البواقى التى ما كان يُقال إنها تُقَال .

فُرِسم بالأمر الشريف ـ زاده الله تعالىٰ عُلُوّا وتشريفا ، وأمضاه بما يَعُم الآمالَ رِفْقا بالرعايا وتخفيفا ، وأجْراه من العدل والإحسان بما يعمّ البلاد ، ويجبرُ العباد ، فإن الأرض يُحييها العدْلُ ويَعْمُرها الاقتصارُ علىٰ الاقتصاد ـ أن يسامح ... ...

فليستقرّ حكمُ هذه المسامحةِ استقراراً يُبقي رَسْمَها ، ويمحُو من تلك البواقي المُساقة رَسْمها واسْمَها ، ويضع عن كواهل الرعايا أعباءَها ، ويُسَيِّر بين البرايا أخبارَها الحسنةَ وأنباءَها ، ويُسْقِط من جرائد الحساب تفاصيلَها وجُمَلَها ، ويحقّق بتعفيته آثارَها رجاءَ رعيَّةِ بلادنا المحروسة وأمَلَها .

فقد ابتغَيْنا بالمسامحة بهذه الجُمَل الوافرة ثوابَ الله وما عندَ الله خيرٌ وأبقىٰ ، وأعتقنا بها ذِمَم من كانت عليه من مَلَكة المال الذي كان له باستيلاء الطَّلَب واستمرارِه مسترقًّا ، تقرُّبا إلىٰ الله تعالىٰ لِمَا فيه من إيثار التخفيف ، ووَضْع إصْرِ التكليف ، وتقْويةِ حال العاجز فإنَّ غالبَ الأموال إنما تُساقُ علىٰ الضعيف ، وتوفيرِ هَمِّ الرعايا علىٰ عِمارة البلاد وذٰلك من آكَد المَصالح وأهمِّها ، وتفريغ خواطِرِهم لأداء ما عليهم من الحقوق المستقْبَلة وذٰلك من أخصِّ المنافع وأعَمِّها ، فلْيقابِلوا هذه النِّعَمَ بشكر الله على ماخَصَّ دولتَنا به من هذه المحَاسن ، ويُوالُوا حمدَه علىٰ مامتَّعهم به من موادِّ عَدْلها التي ماءُ إحسانها غيرُ آسن ، ويبتهلُوا لأيَّامنا الزاهرة بالأدْعيَة التي تُخَلِّد سلطانَها ، وتشيِّد أركانَها ، وتُعْلِي مَنارَ الدين باعتلائها ، وتُؤَيِّدها بالملائكة المقرّبين علىٰ أعداء الله وأعدائِها . وسبيلُ كل واقِف علىٰ مرسُومنا هذا : من وُلَاة الأمر أجمعين العمَلُ بمضمونه ، والانتهاءُ إلىٰ مكْنُونه ، والمبادرةُ إلىٰ إثبات هذه الحسنة ، والمسارعةُ إلىٰ العمل بهذه المسامحة التي تستَدْعِي مسارّ القلوب وثَناء الألْسنة ، وتعفيةِ آثار تلك البواقي التي عفَوْنا عن ذِكْرها ، ومَحْوِ ذكر تلك الأموال التي تعوّضْنا عن استيفائها بأجْرِها .

*
* *

وهـذه نسخة مرسوم شريف بالمسامحة بالبواقى فى ذِمَم الجُنْـد والرَّعايا بالشام ، كُتِب به فى الدولة النـاصرية محمد بن قَلاوُون فى شهور سـنة ٱثنتين وسبعمائة بخط العـلّامة كمال الدين محمد الزَّمْلِكانى (١) من إنشائه ، وقُرِئَ علىٰ المِنْبر بالجـامع الأُمَوىّ بدمَشق المحروسة ، وهى :

الحمدُ لله الذى وَسِع كلَّ شىء رحمةً وعِلْمـا ، وسَمِـع نداءَ كلِّ حىٍّ رأفةً وحِلْما ، وخصَّ أيامَنـا الزاهرةَ بالإحسان فأنْجح فيها مَنْ عـدَل وخابَ منْ حَمل ظُلْمـا ، وزانَ دوْلتنا بالعَفْو والتجاوُزِ فهى تعْتـدّ المسامحةَ بالأموال الجسيمه غنْما إذا ٱعتدَّتْها الدُّولُ غُرْما .

نحمدُه علىٰ نعمه التى غَمرت رعايانا بإدامةِ الإحسان إليهـم ، وعَمَرت ممالكَنا بمـا نتعاهَدُ به أهلَها من نَشْر جَناح الرأفة عليهم ، وخفَّفتْ عن أهل بلادنا أثقالَ بواقِى الأموال التى كانُوا مطلُوبين بها من خَلْفِهم ومن بيْنِ يدَيْهم ؛ ونشهد أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً لم تزل تشْـفَع لأهلها العَدْلَ بالإحسـان ، وتجمع لأربابها بالرأفـةِ والرِّفق أشـتاتَ النِّعَم الحِسان ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى جَلَا الغُمَّه ، وهدَى الأُمَّه ، وسَنَّ الرأفَةَ علىٰ خلْق الله والرحْمه ، وحثَّ علىٰ الإحسان إلىٰ ذَوِى العُسْرة لمـا فى ذٰلك من براءةِ كل مشغُول الذِّمَّه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أُمروا بالتيسير ، وٱقتنَعُوا من الدنيا باليسير ، وأوْضَحوا طُرُق الإحسان لسالكيها فسَهُل على المقتدى بهم فى الخُلُق علىٰ الأمة الصعْبُ ويُسِّر العَسير ، صلاةً تُدَّخَر ليوم الحساب ، وتُعَدّ للوقت الذى إذا نُفِخ فى الصُّور فلا أنْساب ، وسلَّم تسليما كثيرا .

---

(١) نسبة إلى زملكان وقد ضـبطها صاحب القاموس بالـكسر وضـبطها ياقوت فى معجمه بالفتح فلعل فيها روايتين .

وبعـدُ ، فإن الله تعالىٰ لمَّا خَصَّ أيامَنـا الزاهرةَ بالفُتُوح التى أنامَت الرعايا ، فى مِهادِ أمْنها ، وأنالتِ البرايا ، مواقِعَ يُمْنِها ومَنِّها ، وكَفَّت أكُفَّ الحوَادث عن البلاد وأهلها ، ونشَرتْ عليهم أجنحةَ البشائر فى حَزْن الأرض وسَهْلها ، وأعذبَتْ من الطُّمأنينة مواردَهم ، وعمَّت بالدَّعَة والسكونِ قاطِنَهم وراحِلَهم ، وبَدَّلتهم من بعد خَوْفهم أمنـا ، ونوَّلتهم باجابة داعى النَّدَبَ عنهم مِنًّا مَنًّا ، رأينا أن نُفَسِّح لهم مجَـال الدَّعة والسكون ، وأن لانَقْنَع لهم بمـا كان من أسباب المَسَارّ حتَّى نُتْبِعَها بما يكون ، وأن نُصَفِّى بالإعفاء من شوائب الأكدار شِرْبَهم ، ونُؤَمِّن بالإعفاء عن طلَب البواقِى التى هى علىٰ ظُهورهم كالأوزار سِرْبَهم ، وأن نشْفَعَ العـدلَ فيهم كما أمر اللهُ تعـالىٰ بالإحسان إليهم ، ونضَعَ عنهم بوَضْع هذه الأثقالِ إصْرَهم والأغلالَ التى كانتْ عليهم ، وأن نُوفِّر علىٰ عمـارة البلاد هِمَمَهم ، ونُبْرِئَ من تَبِعات هـذه الأموالِ اللازمة لهم ذِمَمَهم ، ونُرِيحَ من ذلك أسرارَهم ، ونُطْلِق من رِبْقَة الطلب المستمرِّ إسارهم ، ونُسامِحَهم بالأموال التى أهمَلُوها وهى كالأعمال محسوبةٌ عليهم ، ونُعْفِيَهم من الطلب بالبَواقى التى نسَوْها كالآجال وهى مقدّمةٌ بين يدَيْهم ، لتكونَ بُشْراهم بالنصر كامله ، ومَسَرَّتُهم بالأمن من كل سبيلٍ شامله .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لازال بِرُّه عميما ، وفضـلُه لِحُسْن النظر فى مَصالح رعاياه مُديمـا ـ أن تُسامَحَ مدينةُ دمشق المحروسـة وسائرُ الأعمال الشامية بمـا عليها من البواقى المُساقَة فى الدواوين المعمُورة إلىٰ المُدَد المعينة فى التذكرة الكريمة المتوَّجة بالخط الشريف ، وجملةُ ذلك من الدراهم (١) ألفُ ألفٍ وسبعُمائةِ ألفٍ وستةٌ وأربعون ألفا ومائةُ ألف وخمسةٌ وأربعون درهما ، ومن الغلال المنوّعة تسعةُ آلاف وأربعمائة واثنتانِ وأربعون غِرَارة ، ومن الحبوب مائتان وثمـانٌ وعشرون غِرارة ، ومن الغَنَم

(١) لعله « من الدنانير » وحينئذ يستقيم الكلام .

خمسُمائة رأس ، ومن الفُولاذ ستُّمائة وثمــانيةُ أرطال ، ومن الزَّيْت ألفــان وثلثمُائة رِطْل ، ومن حَبِّ الرُّمَّان ألفٌ وستُّمائة رِطْلٍ .

فلْيتلقَّوْا هذه النعمةَ بباع الشكر المَديد ، ويستقبلُوا هذه المِنَّةَ بحمد الله تعــالىٰ فإنَّ الحمد يســتَدْعى المَزِيد ، ويرْفُلوا فى أيامنا الزاهرة ، فى حُلَل الأمن الضافِيه ، ويَرِدُوا من نِعَمنا الباهرة ، مَناهِلَ السعد الصافيه ، ويُقْبِلوا علىٰ مصالحهم بقُلوبٍ أزال الأمنُ قَلقَها ، وأذهبتْ هــذه المسامحةُ المبرورةُ فَرَقَها ، ونفوسٍ أمِنَت المؤاخذَةَ من تلك التَّبِعات بحِسابها ، ووثِقَتْ بالنجاة فى تلك الأموال من شــدّة طالِبٍ يأْبىٰ أن يُفارِق إلَّا بها ، وليتوفَّروا علىٰ رفْع الأدعية الصالحة لأيَّامنا الزاهره ، ويتيمَّنُوا بمــا شَمِلهم من الأمن والمَنّ فى دولتنا القاهره ، فقد تصدّقْنا بهذه البواقى التى أبقَتْ لنا أجرَها وهى أكمل ما يُقْتنىٰ ، وخفَّفتْ أثقالَ رعايانا وذٰلك أجملُ ما به يُعتنىٰ . وسبيلُ كل واقفٍ علىٰ هــذا المرسوم الشريف ٱعتمادُ حُكْمِه ، والوقوفُ عند حدِّه ورَسْمه ، ويُعفِّى آثارَ هذا الباقى المذكورِ بمَحْو رسْمِه وٱسْمِه ، بحيثُ لا يُترك لهذه البواقى المذكورة فى أموالنا ٱنْتِساب ، ولا يبقىٰ لها إلىٰ يوم العَرْض عرضٌ نُورِده ولا حِساب ؛ والخط الشريف شرفه الله تعالىٰ أعلاه حجةٌ بمقتضاه .

* * *

وهذه نسخةُ مسامحةٍ بمُكُوس علىٰ جهاتٍ مستقْبَحة بالمملكة الطرابُلُسية ، وإبطالِ المنكَرات ، كُتِب بها فى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » أيضا فى شهور ســنة سبعَ عشرةَ وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل الدِّينَ المحمَّدىَّ فى أيامنا الشريفة علىٰ أثبتِ عِمَاد ، وٱصطفانا لإشادة أركانه وتنفيــذ أحكامه بينَ العباد ، وسهَّل علينا من إظهار شعــائِره ما رَامَ

مَنْ كان قبلنا تسهيلَه فكان عليه صَعْبَ الانقياد ، وٱدّخرلنا من أجُور نَصْره أجلّ ما يُدَّخر ليوم يفتقَر فيه لصالح الاستِعْداد .

نحمَدُه علىٰ نِعَم بلَّغتْ من إقامة مَنَار الحق المُراد، وأخمدَتْ نارَ الباطل بمُظافرتنا ولولا ذٰلك لكانت شديدةَ الاِتّقاد ، ونكَّست رُءُوس الفحشاء فعادَتْ علىٰ ٱستحياء إلىٰ مُسْتَسِنِّها أقْبَحَ مَعَاد ، ونشكُره علىٰ أن سَطَّر فى صحائفنا من غُرَر السِّيَر ما تبقى بهجتُه ليوم المَعَاد ، ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً يجدُها العبدُ يوم يَقُوم الأشهاد ، وتَسْرى أنوارُ هَدْيِها فى البرايا فلا تزال آخذةً فى الازدياد ، ونشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه اللهُ بالإنذار إلىٰ يَوْمِ التَّنَاد ، والإعذار إلىٰ مَن قامتْ عليه الحجةُ بشهادَة المَلَكين فأوْضَح له سبيلَ الرَّشَاد ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَنْ رَدّ أهلَ الرِّدّة إلىٰ الدِّين القويم أحسَنَ تَرْداد ، ومنهم مَنْ عَمَّم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سائرَ العِباد والبِلاد ، ومنهم من بَذَل مالَه للمجاهدين ونفْسَه للجِهاد ، ومنهم من دافَع عن الحق فلا بَرِح فى جِدالٍ عنه وفى جِلَاد ، صلاةً تَهدى إلىٰ السَّداد ، وتقوّم المُعْوجَّ وتثقِّف المَيَّاد ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا .

وبعدُ ، فإن الله تعالىٰ منذُ مَلَّكنا أمورَ خلْقِه ، وبسَط قُدرتَنا فى التصرُّف فى عباده والمطالبةِ بحقِّه ، وفوّضَ إلينا القيامَ بنُصرة دِينه ، وفَهَّمَنا أنه تعالىٰ قَبَض قبل خَلْق الخلائق قَبْضتين فرَغبْنا أن نكونَ من قَبْضة يمينِه ، وألقىٰ إلينا من مَقَاليد الممالك ، وأقام الحجةَ علينا بتمكين البسطةِ وعدَمِ المُشاقق فى ذٰلك ، ومهَّد لنا من الأمر ما علىٰ غيرنا توعَّر ، وأعدّ لنا من النَّصْر ما أجرانا فيه علىٰ عوائد لُطْفه لاعن مَرَح فى الأرض ولا عن خدٍّ مُصَعَّر ـ ألهمَنَا إعلاءَ كلمةِ الإسلام ، وإعزازَ الحلال وإذلالَ الحَرام ، وأن تكونَ كلمةُ الله هى العُلْيا ، وأن لا نَختارَ علىٰ دار الآخرة دارَ الدُّنيا ، فلم نَزَل نُقيم

للدِّين شعارا، ونُعَفِّى للشِّرْك آثارا؛ ونُعْلِن فى النصيحة لله تعالىٰ ولرسوله صلى الله عليه وسلم جَهْرا وإسْرارا؛ ونتّبع أثَر كرم نقتفيه، وممطولٍ بحقّه نُوفّيه؛ ونَعلم حق قُرْبة نُشَيِّده، ومخذولا آستظهرَ عليه الباطلُ نؤيِّده؛ وذا كُرْبة نَفْرِجها، وغَريبةَ فحشاءَ آستطْرَدتْ من أدؤر الحق نُخْرِجها؛ وسنّةً سيئةً تستعظِم النفوسُ زوالَها فنجعلُها هباءً منثُورا، وجملةً عظيمة أُسِّست علىٰ غير التقوىٰ مبَانيها فيَحْطِمها كرمُنا فنؤدى الجزاء عنها موفورا؛ فاستقصينا ذٰلك فى ممالكنا الشريفة مملكةً مملكه، وآستطرَدْنا فى إبطال كل فاحشةٍ مُوبِقة مُهْلِكه؛ فعفَّينا من ذٰلك بالديار المصرية ماشاع خَبرُه، وظهَر بين الأنام أثرُه؛ وطُبِّقت بمحاسنه الآفاق، ولهِجتْ به ألسنةُ الدُّعاة والرِّفاق: من مُكوس أبطلناها، وجهاتِ سُوءٍ عطَّلناها، ومظالمَ رددناها إلىٰ أهلها، وزجَرْناها عن غيِّها وجَهْلها، وبَواقٍ سامحنا بها وسَمَحْنا، وطَلبات خفَّفنا عن العباد بتركها وأرَحْنا؛ ومعروفٍ أقمنا دعائمَه، وبيُوتٍ لله عز وجل أثرْنا منها كل نائمَه؛ ثم بَثثْنا ذٰلك فى سائر الممالك الشامية المحروسه، وجنَيْنا ثمراتِ النصر من شَجَرات العدْل التى هى بَيدِ يقظتِنا مغْروسه.

ولما آتّصل بعلومنا الشريفة أنّ بالمملكة الطرابُلُسية آثارَ سُوء ليستْ فى غيرها، ومواطِنَ فِسق لايقدِرُ غيرُنا علىٰ دَفع ضررها وضَيْرها؛ ومَظانَّ آثامٍ يجدُ الشيطان فيها مجالا فسيحا، وقُرًى لا يُوجَد بها من [كان] إسلامُه مقبولًا ولا مَنْ [كان] دينُه صحيحا؛ وخمورا يُتظاهَر بها، ويتصل سبَبُ الكبائر بسببها؛ وتُشاع بين الخلائق جُهْرا، وتُباع علىٰ رءُوس الأشهاد فلا يُوجَد لهذا المنكرِ مُنْكِرا؛ ويُحتَجُّ فى ذٰلك بمقرّراتِ سُحْت لا تُجْدِى نفعا، وتُبقِى فى يد آخذها كأنها حيَّة تَسْعىٰ.

ومما أُنْهِى إلينا أن بها حانةً عُبِّر عنها بالأفراح قد تطايَر شررُها، وتفاقم ضررُها، وجُوهِر فيها بالمعاصِي، وآذنَتْ لولا حِلْمُ الله وإمهالُه بزلزلة الصَّياصِي، وغَدت لأهل الأهوية مَجْمَعا، ولذوى الفساد مرْبعا ومرْتَعا، يُتظاهر فيها بما أُمِر بسَتْره من القاذورات، ويُؤتىٰ بما يجب تجنُّبه من المحذورات، ويُسترسَل فى الأفراح بها بما يُؤدِّى إلىٰ غضَب الجبَّار، وتهافَتُ النفوسُ فيها كالفَراش على الاقتحام فى النار.

ومنها — أن المسْجُونَ إذا سُجِن بها أُخِذ بجميع ماعليه بين السجن وبين الطَّلَب، وإذا أُفْرِج عنه ولو فى يومه انقلَب إلىٰ أهله فى الخَسارة بشرِّ منقلَب، فهو لا يجد سُرُورا بفَرَجه، ولا يَحْمَد عُقْبىٰ مُخْرَجه.

ومنها — أنَّ بالأطراف القاصية من هذه المملكة قُرًى سُكَّانُها يعْرفُون بالنُّصَيرية لم يَلِج الإسلامُ لهم قَلْبا، ولا خالَط لهم لُبًّا، ولا أظهَرُوا له بينهم شِعَارا، ولا أقامُوا له مَنَارا، بل يُخالِفُون أحكامَه، ويجهلون حَلَاله وحرامَه، ويَخْلِطون ذبائحَهم بذبائح المسلمين، ومقابِرَهم بمقابر أهـلِ الدِّين، وكل ذٰلك مما يجب ردْعُهم عنه شرعا، ورجوعُهم فيه إلىٰ سَواء السبيل أصْلا وفَرْعا، فعند ذٰلك رَغِبنا أن نفْعل فى هذه الأمور مايَبقىٰ ذكرُه مَفْخَرة علىٰ ممرّ الأيَّام، وتدُومُ بهجتُه بدوام دولةِ الإسلام، ونمحُوَ منه فى أيامنا الشريفة ما كان علىٰ غيرها به عارًا، ونسْتَرجعَ للحق من الباطل ثوْبا طالَما كان لدَيْه مُعارا، ونُثْبِتَ فى سيرة دولتنا الشريفة عوارفَ لا تَزال مع الزمن تُذْكَر، ونتلو علىٰ الأسماع قولَه تعالىٰ: ﴿إنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذِى القُرْبىٰ ويَنْهىٰ عن الفَحْشاءِ والمُنْكَر﴾.

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف — لا زال بالمعروف آمِرًا، وعن المُنْكَر ناهيًا وزاجِرا، ولامتثال أوامرِ الله تعالىٰ مُسارعا ومبادِرا — أن يُبْطَل من المعاملات بالمملكة الطرابلسية ما يأتى ذكره:

جهات

الأفراح المحذورة بالفتوحات خارجا عما لعله يستقرّ من ضمان الفرح الخ . وتقديرها

السجون

بالمملكة الطرابلسية خارجا عن سجن طرابلس بحكم أنه أبطل بمرسوم شريف متقدّم التاريخ وتقديرها

سجن الأقصاب

المُحْدَث بأمر أقصاب الديوان المعمور التى كان فلَّاحُو الكُورة بطرابلس يعملُون بها ثم أُعْفُوا عن العمل وقرّر عليه فى السنة

أقصاب

للأمراء بحكم أن بعض الأمراء كان لهم جهات زرع أقصاب وقرّروا علىٰ بقية فَلَّاحيهم العملَ بها والقيام بنظيره آخر العمل . وتقدير ذلك

عفاية الشام

بكور طرابلس واقفة والسرون وما معه بحكم أن المذكورين كانوا ثبتوا على المراكز بالبحر فلما شكت المراكز بالعساكر المنصورة قرّر علىٰ ذلك فى السنة

حق الديوان

بصهيون بطرابلس وقصريون بطرابلس عمن كان معا فى حصنها وتقدير متحصل ذلك

هبة الشاد

بنواحى الكهف تُشَدّ فيما كان يستأدى من كل مدير وتقدير متحصله

ضمان

المَشْعل بطرابلس مما كان أوّلا بديوان الشام بالفتوحات ثم استقر بالديوان المعمور فى شهور سنة ست عشرة وسبعمائة وتقديره

المستحدث

إقطاعا من بعض الأمراء على الفلاحين مما لم تجر به عادة : من حشيش ومِلْح وضيافة . وتقديره

فليُبْطَلْ هــذا علىٰ مَمَرّ الأزمنة والدُّهور، إبطالًا باقيًا إلىٰ يوم النُّشور، لا يُطْلَب ولا يُسْتادى، ولا يَبْلُغ الشيطانُ فى بقائِه مُرادا .

ويُقْرأ مرسومُنا هــذا علىٰ المنابر ويُشاع ، وتُستجْلَب لنا منهم الأدعيةُ الصالحةُ فإنها نِعم المَتَاع .

وأما النُّصَـيريَّة فلْيَعْمُروا فى بلادهم بكل قَرْيةٍ مسـجدا، ويُطْلَق له من أرض القرية رُقْعــةُ أرضٍ تقومُ به وبمن يكون فيــه من القُوّام بمصالحه علىٰ حَسَب الكِفَاية، بحيثُ يستفزُّ الجناب الفلانىُّ نائبُ السلطنة بالمملكة الطرابُلُسيَّة والحصُونِ المحروسة ضاعف الله تعالىٰ نعمته مِنْ جِهتِه من يَثِق إليه لإفراد الأراضى وتحديدِها وتسليمِها لأئمّة المساجد المذكُورة، وفَصْلِها عن أراضى المُقْطَعين وأهل البلاد المذكورة ويَعْـمَلُ بذٰلك أوراقا وتُخَلَّد بالديوان المعـمور حتى لا يبقىٰ لأحد من المُقْطَعين فيهـا كلام، ويُنادى فى المقْطَعين وأهـل البلاد المذكورة بصُورة ما رسَمْنا به من ذٰلك .

وكذٰلك رسَمْنا أيضا بمَنْع النُّصيريَّة المذكورين من الخطاب وأن لا يُمكَّنُوا بعــد وُرُود هذا من الخطاب جمـلةً كافية ، وتُؤخَذ الشهادة علىٰ أكابرهم ومشايخ قُراهم لئلا يعُودَ أحدٌ منهم إلىٰ التظاهر بالخطاب ومَنْ تظاهر به قُوبِل أشدَّ مقابلة .

فلتُعتَمدْ مراسمُنا الشريفــة ولا يُعْدلْ عن شيء منها ، ولْتجْرِ المملكة الطرابلسـيَّة مَجْرى بقيَّة الممـالك المحروسة فى عدم التظاهر بالمُنْكرَات، وتعفيــة آثار الفواحش وإقامة شعائرِ الدِّين القويم : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَه بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّمَـا إِثْمُهُ علىٰ الَّذين يُبَدِّلُونَه إِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .

* * *

وهذه نسخةُ توقيع بالمسامحةِ فى جميع المراكز بمـا يُســتأدىٰ على الأغنام الدغالى الداخلةِ إلىٰ حلب ، وأن يكونَ ما يُستخْرَج من تِجَار الغنم على الكِبار منها خاصّة ، من إنشاء المقـرّ الشهابىّ بنِ فضل الله ، ممـا كُتِب به فى شهور سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله ذى المَواهِب العَميمه ، والعَطايَا التى لاتجُودُ بهـا يدُ كريمه ، والمِنَن التى عَوّضَنا منها عن كل شىءٍ بخَيْرٍ منـه قيمه ، والمسامحةِ التى ادَّخرلنـا بها عن كل مال حُسْنَ مآل وبكُلِّ غَنَم غَنيمه .

نحمده علىٰ نِعَمه التى غَدتْ علىٰ كَثْرة الإنفاق مُقِيمه ، ونشهد أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أكرمُ من سَمحَ وسامح فى أمورٍ عظيمه . صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً مستدِيمه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعــد ، فمنذُ مَلَّكنا اللهُ لم نزَلْ نرغَب إليــه ، ونعامِلُه بمـا نَهَبُه له ونرْبَح عليه ، ولم نُبْقِ مملكةً من ممالكنا الشريفة حتى سامَحْنا فيها بأموال ، وسامَيْنا فيها بنَفْع أرضها السُّحُب الثِّقال ، وكانت جهةُ العِـدَاد بالمملكة الحلبيَّة المحروسة مُثْقَلةَ الأوزار بمـا عليها ، مَشْدُودةَ النِّطاق بمـا يَغُلُّ من الطلب يَدَيها ، مما هو علىٰ التُّرْكُمان بها محسُوب ، وإلىٰ عديدهم عَدَدُه منسوب ، ونحن نظُنُّه فى جملة ما أسقطتْه مسامحتُنا الشريفة وهو منهم مطلُوب ، وهو المعروف بالدغالى زائدًا علىٰ الرّءوس الكِبار ، ومعدُودا عند الله من الكبائر وهو فى حساب الدَّواوين من الصِّغار ، فلمَّا آتصل بنا أنَّ هـذه المَظْلمةَ ما آنجلى عنهـم ظُلَمُها ، ولا رُفِـع من الحساب عنهم قلَمُها ـ أكبَرْنا مَوْقِـعَ بقائها ، وعلمْنا أنهـا مدّةٌ مكتوبةٌ لم يكن بُدٌّ من المَصير إلىٰ آنقضائها ؛ واستجلَبْنا قلوبَ

طوائِف التُّرْكُمان بها ، وأوثَقْنا أسبابَهم فى البلاد بسَبَبها ، لأمرين كلاهما عظيم : لرغْبتِنا فيما عنـد الله ولِمَا لهم من حقّ وَلاءٍ قديم ، كم صارُوا مع الجيوش المنصورةِ جُيُوشا ، وكم سارُوا إلىٰ بلاد مُلُوك الأعداء فثَلُّوا لهم عُرُوشا ، وكم كانُوا علىٰ أعقابِ العساكر المؤيَّدة الإسـلامية رِدْفا ومقدِّمتهم فى محاصَرة جالِيشَا ، وكم قَتَـلُوا بسِهامهم كافرا وقدّموا لهم رِمَاحَهم نُعوشا ، ومنهم أمراءُ وجُنود ، ونُزولٌ ووُفُود ، وهم وإن لم يكونُوا أهلَ خِباء فهم أهلُ عَمُود ، وذَوُو أنسابٍ عريقه ، وأحسابٍ حقيقـه ، إلىٰ القَبْجاق انخُلَّص مرجعهم ، والفُرْس بفرسان دولتنا الشريفةِ تجمَعُهم ــ فاقتضىٰ رأيُنا الشريف أن نَرْعىٰ لهم هـذه الحقوقَ بإبطال تلك الزيادةِ المراده ، وأن نتناسىٰ منها ما هو فى العَدَد كالنَّسِيء فى الكُفْر زِيادَهْ .

فرسم بالأمر الشريف ــ لا زالَتْ مواهِبُـه تشمَلُ الآفاق ، وتَزِيد علىٰ الإنفاق ، وتُقَدِّم ما ينفَدُ إلىٰ ما هو عِنْـد اللهِ باق ــ أن يُسامَح جميعُ التَّراكمينَ الدَّاخِل عِدَادُهم فى ضَمان عِدَاد التُّركُمان بالمملكة الحلبية المحروسةِ بما يُستأْدى منهم على الأغنام الدغالى ، وأن يكون مايُستخْرَج منهم من العدد على الكِبَار خاصَّـةً : وهو عن كل مائة رأسٍ كِبار ثلاثةُ أرؤُس كِبار خاصَّةً لاغير من غير زيادةٍ علىٰ ذلك ، مسامحةً مستمرّه ، دائمةً مستقرّه ، باقيةً بقاءَ الليالى والأيام ، لا تُبَدَّل لهـا أحكام ، ولا تتغيَّر بتغَيُّر حاكم من الحُكّام ؛ نرجو أن نُسَرَّ بها فى صحائف أعمالنا يومَ العَرْض ، لا يُتأوّل فيها حِسَاب ، ولا تمتدّ إليها [يَدُ] حُسَّاب ، ولا يبقىٰ عليها سبيلٌ للدواوين والكُتَّاب ، ولا تُسيَّب أغنامُهم ليَرْعاها منهم أُولٰئك الذِّئاب ؛ كُلَّما مَرَّ علىٰ هذه المسامحة زمانٌ أكَّد أسبابَها ، وبَيَّض فى صحائف الدفاترِ حِسَابَها ، لا تُعارَض ولا تُناقَض ولا يَتَأوَّلُ فيهـا متأوِّل فى هـذا الزمان ولا فيما بعدَه من الزمان ، ولا يدخل حُكْمُها فى النسيان ، ولا يُنْقَص أجرها المضمُون ، ولا تُطلَب أصحابُ هذه الدغالى عليها بعِدَاد فى قَرْن من القُرون ،

ولا يُستحقَر بما يُستأدىٰ منها جليلةً ولا حقيره، ولا يَسْمَح لنفسه من قال إنها صغيرةٌ وهى عِنـدَ الله كبيره: لتَطيبَ لأهلِها ومن تسَامَعَ بمـا شَمِلهم من إحساننا الشريف النُّفوس، ولا تُصَدَّع لهم بسبب هـذا الطَّلَب رُءُوس، فمَن تعرّض فى زماننا أمدّنا اللهُ بالبقاء أو كَشَفَ فى هذه الصدقة الجارية وجْهَ تأويل، أو سكن فيها إلىٰ مُداومةٍ بقليل، أو طلَبَ من ظالم بعَيْنِه مُداواةَ قولِه العليل، فسيجِدُ ما يُصْبِح به مُثْـلَةَ، ويتوبُ به مثْلُه ويكون لمن بعده عِبْرةٌ بمن قُدِّم قبْلَه، ونحن نبرأُ إلىٰ الله ممن يتعرّضُ بعدَنا إلىٰ نَقْضها، وهذه المسامحة عليه حجَّتُنا التى لا يَقْدِر عندَ الله علىٰ دَحْضِها.

ولتُقْرأْ علىٰ المنابر وتُعلَ كلمتُها، وتمَدَّ فى أقطار الأرض كما آمتدّ السحابُ تَرْجَمَتُها، وسبيلُ كل واقفٍ عليها من أرباب الأحكام: أصحاب السـيوف والأقلام، ومن يَتَناوبُ منهـم على الدَّوام، العملُ بمـا رسمنا به واعتمادُ ما حكم بموجبه، بعد الخط الشريف شرفه الله تعالىٰ أعلاه. إن شاء الله تعالىٰ.

المرتبة الثـانية ـــ من المسامحـات أن تُـكتَب فى قطع العادة مفتتحةً برسم بالأمر الشريف.

وغالبُ ما يُكتَب ذلك للتّجار الخَواجكية بالمسامحة بمـا يلزمُهم مـن المُكُوس والمقرَّرات السلطانية عن نظير ثمنِ ما يُبتاع منهم من الممـاليك.

والعادةُ أن يكتب فى طُرَّتها «توقيعٌ شريفٌ بمسامحةِ فلان بمـا يجبُ عليـه من الحقوق الديوانية بالديار المصرية والبلاد الشامية» بحسَب ما يُرسَم له به.

وهذه نسخة توقيع من ذلك، وهى:

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُتْبِـع السَّماحَ بمثله، ويشْمَل الرعايا كلَّ وقتٍ فى ممـالكه الشريفة بعَدْله، ويُواصل إليهم رفْقـه ورفْدَه فلا يبرحُون فى مهادٍ من

نِعَمِه وإسعادٍ من فضله ـ أن يُسامَحَ المجلسُ السامى (إلى آخر ألقابه) أدام الله تعالى رفعته بما يجبُ عليه من الحقوق الدِّيوانيــة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وسائر الممالك الإسلامية، فيما يَبيعه ويبتاعُه ويتعوَّضُه من سائر الأصناف خَلَا الممنوعات: صادرًا لاغيرُ أو صادرًا وواردًا، بنظير المماليك الذين ابتاعهم برَسْم الأبواب الشريفة بكذا وكذا ألفَ درهم .

فليَعتَمِدْ هــذا المرسومَ الشريف كلُّ واقف عليه ويعمَلْ بحَسبِه ومقتضاه، من غير عُدُول عنه ولا خُروج عن حكمه ومعناه، والخطُّ الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه حجةٌ بمقتضاه . إن شاء الله تعالى .

*
* *

وهذه نسخةُ دعاءٍ آخر يفتَتَح به توقيعُ مسامحة، وهو: لازالَتْ نِعمُه عميمه، وسَجَاياه كريمه، ومواهِبُه فى الآفاق سائرةً وفى الأقطار مُقيمه، أن يُسامَح فلان بكذا وكذا .

آخــــر: لا زالتْ صدقاتُه الشريفة تحقِّق وسائلَ طالبها، وأوامِرُه المطاعةُ نافذةً فى مَشَارق الأرض ومَغَاربها، أن يسامح فلان بكذا وكذا .

قلت: والعادةُ فى مستَنَد ذلك أنه تُحَضَّر به قائمة من ديوان الخاص الشريف فيَكْتُب عليها كاتبُ السر بالتعيين، ويخَلِّدها كاتبُ الإنشاء عنده شاهدا له بذلك كما فى غيره من سائر المستَنَدات .

الضـــــرب الثـانى

(ما يُكتَب عن نوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

وغالب مايكونُ فى مسامحات التِّجار بمقَرَّر ما يبتاعونه أو يشْتَرُونه، أو بقَدْرٍ معيَّن يحصل الوقوفُ عنـده، ويعبَّر عمـا يُكتب فيه بالتواقيع كما فى الولايات عندهم، وأكثَرُ ما يُفتَتح برَسم بالأمر .

وهذه نسخة مرسوم شريف بمسامحة كُتِب بها عن نائب الشام فى الدولة الناصرية «فرج» لخواجا محمد بن المُزَلِّق، وهى :

رسم بالأمر العالى ـ لا زال قصْدُ ذَوِى الحقوق عنده ناجحا، وإحسانُه للمُقَرَّب إليه مسامِحا ـ أن يُسامَحَ الجناب العالى، الصَّدْرِىّ، الكبيرِىّ، المحتَرَمِىّ، المؤتمنِىّ، الأوحدىّ، الأكملىّ، الرئيسىّ، العارِفىّ، المقرَّبِىّ، الخواجَكِىّ، الشمسِىّ؛ مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شرفُ الأكابر فى العالمين، أوحدُ الأمناء المقرّبين، صدرُ الرؤساء، رأسُ الصُّدور، عينُ الأعيان، كبيرُ الخَواجَكيه، سفيرُ الدوله، مؤتَمَن الملُوك والسلاطين: محمدُ بن المزَلِّق، عينُ الخواجَكية بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة ـ أدام الله تعالىٰ نعمتَه ـ بما يجب عليه من الحقوق الديوانية بالطُّرقات المِصْرية، وجميع البلاد الشامية المحروسة والركاه بدِمَشْق، وحلَبَ، وطرابُلُس، وحماةَ، وصفَدَ، وغَزَّةَ، وحِمْص، وبَعْلَبَكَّ المحروسات، والبروك، والمقطعين، وقَطْيا، مما يَبيعه ويبتاعه ويتعوّضُه من جميع الأصناف خلا الممنوعات صادرًا وواردًا، ويُثَمَّن عليه بقيمة ما يشتريه بما مَبْلَغُه من الدراهم النُّقرة الجيِّدة مائتا ألف درهم، ولا يُطالَبُ عن ذٰلك بحقٍّ من الحقوق ولا بمقرَّرٍ من المقرّرات، مسامحةً باقيةً مستمره، دائمة أبدًا مستقِرّه، لا يَنتقضُ حكمها، ولا يغيَّرُ رسمُها، لخدْمتِه الدُّوَل على ٱختلافها، ولمبالغته فى التقرّب بما يُرضِى الخواطرَ الكريمةَ وينفع الناس بما يُحْضِره من أنواع المتاجر وأصنافها، ولٱستحقاقه لهذا الإنعام، ولٱختصاصه به دُونَ الخاصّ والعام.

فليتَلَقّ ذٰلك بالحمد والٱبتهال، والله تعالىٰ يُبلِّغه من مَزيد إنعامنا الآمال، والٱعتمادُ فى معناه، علىٰ الخط الكريم أعلاه. إن شاء الله تعالىٰ.

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الثـانى من المقـالة السادسة

(فيما يكتب من الإطلاقات : إمَّا تقريرا لمـا قرّره غيرُه من الملوك السابقة ، وإمَّا ابتداء لتقريرٍ مالم يكن مقرّرا قبلُ ، وإما زيادةً علىٰ ماهو مقرّر ، وفيــه طرفان)

الطــــــرَف الأوّل

(فيما يُكتَب عن الأبواب السلطانية ، وهو علىٰ ثلاث مراتِبَ)

المرتبـــــة الأولىٰ

(ما يُكتَب فى قطع الثلُث مفتتحًا بالحمد لله ، وهو أعلاها)

وهــذه نسخةُ توقيع شريفٍ باستقرار ما أطلقه السـلطان صلاحُ الدين يوسفُ آبنُ أيوب بالديار المصرية للعُمَرِيِّين أعصابِ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنــه ، كُتِب به فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، من إنشاء المقرّ الشِّهابىّ بن فضل الله ، وهى :

الحمدُ لله الذى أبْدأ الجميل وأعاده ، وأجرىٰ تكرُّمنا علىٰ أجمل عادَه ، وقفَّىٰ بنا آثارَ الذين أحسنُوا الحُسْنىٰ وزيادَه .

نحمَدُه علىٰ أن جعل جُودَنا المقدَّمَ وإن تأخّر أياما ، والمُطَيِّب لذِكْر من تقدّم حتّى كأنما حالُه مثلُ المِسكِ خِتاما ، والصَّيِّبَ الذى تقدّمه من بَوادر الغيث قطْرٌ ثم آستهَلَّ هو غَمــاما ؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نرفَع أعلامها ونمنعُ أن تَطْمِس الليالى لمن جاهد عليها من ملوك الزمان أعْلاما ؛ ونشهد أن سـيدنا محمدًا

عبدُه ورسوله الذى هدَىٰ به إلىٰ أوضح المسالك ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين فتحُوا من الأرض ماوُعِد أنه سيبلغُ مُلْك أمّته إلىٰ مازُوِى من ذٰلك ، وسلم .

وبعدُ ، فإن أفضل النِّعم ما قُرِن بالإدامه ، وأعظمَ الأجور [أجْر] من سَنَّ سنةً [حسنةً] فله أجْرُها وأجْرُ من عَمِل بها إلىٰ يوم القيامه ، وأحسَنَ الحسناتِ ما رَغَّبت السلفَ الصالحَ فى خَلَفهم ، وأمَرَّتْ بأيديهم ماحازُوه من ميراثِ سَلَفهم ، وكان المولىٰ الشهيدُ الملكُ الناصرُ صلاح الدين ، منقذُ بيت المَقْدس من المشركين ، أبو المظَفَّر يوسفُ بن أيوب ـ قدّس الله رُوحَه ـ هو الذى كان علىٰ قواعد العُمَريِّين بانيا ، والفاتحَ لكثيرٍ من فتوحاتِ أميرِ المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فُتوحًا ثانيا ، ولما اعلى اللهُ بمصر دولتَه المُنيره ، ومحا به من البِدَع الإسماعيلية عظائمَ كثيره ، حَبَّس ناحيةَ « شَبَاس المِلْح » وما معها جميعُ ذٰلك بحدّه وحُدُوده وقريبِه وبعيده ، وعامرِه وغامرِه ، وأوّلِه وآخرِه ، على المُقيمين بالحرمين الشريفيْن من الذُّرِّية العُمَريَّة ، كما قاله فى توقيعه الشريف المكتَتَب بالخط الفاضل عمر الأنام ، وٱقتفى بهداه بعده من إخواننا الصالحين ملوكُ الاسلام ، فجَدّدْنا لهم هذا التوقيعَ الشريف تبرُّكا بالمشاركة واستدراكِ ما فاتنا مع سَلَفهم الكريم بالإحسان إلىٰ أعقابِهم . ومرسومُنا أن يُحمَلُوا علىٰ حكم التوقيع الشريف الصَّلاحىِّ وما بعده من تواقيع الملوكِ الكِرام ، ولا يُغَيِّر عليهم فيه مُغَيِّر من عوائد الإكرام ، ولا يُقبَلَ فيهم قولُ معترِض ولا تتعرّضَ إليهم يدُ متعرّض ، ولا يُفْسَح فيهم لمستعصٍ إن لم يكن رافضًا فإنه برفض حقِّهم مترَفِّض ، وليُعامِل اللهَ فيهم بما يزيدُ جَدَّهم رضى الله عنه رِضًا ، ويُحبِّس تحبيسا ثانيًا لولانا لقِيلَ لمن يُطالِب بها كيف تُطالب بشىءٍ مضىٰ مع مَنْ مَضىٰ ، ونحن نبْرأ إلىٰ الله ممن سعىٰ فى نقْضِها بسببٍ من الأسباب ، أو مدّ فيها إلىٰ فتح بابٍ ، أو تأوّل فى حكم هذا الكتاب عليهم وقد وافق حُكمُ جَدّهم حكْمَ الكِتاب ، وأن لا يُقْسَم شىءٌ من رَيْع

هـذه الناحية علىٰ غير المقيمين منهم بالحرمين الشريفين . ومَنْ خاف علىٰ نَفْسه في المُقام فيهما ممن كان في أحدهما ثم فارقه علىٰ عَزْم العَوْد إلىٰ مكانه، وأقام وله حنينٌ إلىٰ أوطانه، ولم يُلْهِه استبدالُ أرض بأرض وجيرانٌ بجيرانٍ عن أرضه وجيرانه، إتباعا لشرطها الأول بمثله، وآتباعا فيها (؟) فاز مع السابقين الأوّلين بمَزيد فضله .

وليكُنِ النظرُ فيه لأمْثل هذا البيتِ من المستحقين لهذا الحُبُس كابراً عن كابرٍ، ناظرًا بعد ناظر، اتِّباعا للمراد الكريم الصَّلاحيّ في مرسومه المقدّم، وتفسيراً لمن لا يَفْهَم، من غير مشاركةٍ معهم لأحدٍ من الحُكّام، لا أربابِ السيوف ولا أربابِ الأقْلام: لنكونَ نحنُ ومحبِّسُها ـ أثابه الله علىٰ هذه الحسنةِ ـ متناصِرَيْن، ولتجِد البقيّةُ التي قد ناصرها ناصريْن الناصرُ الأوّلُ منهما بناصرين، وليحْذَر من تَتَبَّع عليهم تأويلا، ومن وجَدَ في قلبه مرضًا فأعداهُمْ به تعليلا، فما كتبناه لتأويلٍ حصل عليهم، ولا لتعليل المراسيم المُلوكية التي هي في يدَيْهم، وإنما هو بمثابةِ إسجال آتّصل من حاكمٍ إلىٰ حاكم، وسيفٍ جدّدنا تقليدَه ليُضْربَ به علىٰ يَدِ الظالم، وجُودٍ أعلمنا من يجيءُ أنه علىٰ مدَى الليالي والأيام ضَرْبٌ لازم، وفضلٍ إن تقدّمَنَا إليه من الملوك الكِرامِ حاتِم، فإنّ كَرَمنا عليه خاتِم، فقد نَبّهوا رحمهم الله مكافأةً علىٰ إحسانهم إلىٰ الذرِّية العُمَرية عُمَرا، ثم ماتُوا وأحالُوا علىٰ جُودِنا المحمديّ فإنهم ببركاتِ من سُمِّينا باسمه صلى اللهُ عليه وسلم لأنواع الحسنات أُسَرا . فكان توقيعُنا هـذا لهم بمنزلة الخاتمة الصالحه، والرحمةِ التي أرْبَتْ أوائلُها علىٰ الغيوثِ السالفه، فلقد تداركْنا رمَقَ بِرِّهم المعَلّل، ولحِقْنا سابقَ معروفهم فلم نتمهّل، وأعدْنا ما بَدَأُوا به من الجميل فتكمل، وقَرَنَّا مراسيمنا المطاعةَ بعضَها ببعض وربما زاد الآخرُ علىٰ الأوّل، فأمدَدْناها منه بما لو لم يكن مِدادُه أعزَّ من سَواد القَلْب والبصر لما كان قُرّةَ عين لمن يتأمّل: ليرتفع عن هذه الناحيةِ وعُمَرُفيها كُلُّ كارثٍ كارث، ويُزالَ عنهم إلا ما يكونُ من مجدّدات

الخير خيرَ حادثٍ ، و يعــلمَ المَلِكان المتقدّمان أمامَنا أن نُعزِّز بثالث . و بجميع النوّاب والولاة والمتصرفين ، والمسارعين إلىٰ الخيرات ونعوذُ بالله من المتوقّفين ، ومن يدخُلُ فى دائرة الأعمــال ، وينضمُّ إلىٰ راية العُمّال ، فانا نُحذِّره أن يتعرّضَ فيهــا إلىٰ سُوء مآل ، أو يردّ منها يَدَه إلىٰ جيبه بمال ، أو يُشَوِّش علىٰ أهلها ما ٱستقامُوا علىٰ أحسن حال ، و إن يحمَدِ اللهَ من تقدّمنَا من الملوك واتَّبعُوا فيه التوفيقَ فى علاماتهم فإنا نحمَدُه وهو أملُنا ولنا فى الغيْب آمال ، والله تعالىٰ يجعلُ هذه الحسنةَ خالصةً لوجهه الكريم ، معَوّضَة منه بالثواب العظيم ، واصلةً بالرحمة لرميم هــذا البيتِ القديم ، إن شاء الله تعالىٰ ، والأعتماد ... ...

المرتبـــــة الثـــانية

(ما يُفْتتح بـ«أما بعد حمــــد الله »)

وهو علىٰ نحو ما تقدّم فى الولايات : إما فى قَطْع الثلث أو فى العادة المنصوريِّ .

وهذه نسخة توقيع شريفٍ من ذلك ، وهى :

أما بعْدَ حمد الله الذى جعل أيّامنا مطْلَعا للسّعاده ، وجعل لأوليائها ، من إحسانِنا الحُسْنىٰ و زِياده ، وأضْــفىٰ حُلَل بهائِهــا ، علىٰ من لم يجتَمِع لغــيره ما ٱجتَمَع له من أوصاف السِّياده ، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِه و رسوله الذى شَيَّد اللهُ به مَبانِيَ الدين الحنيفىِّ و رفَع عِمــاده ، ونَصَر جيوشَ الإسلام ومَهّد مِهاده ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين مامنهم إلا من جعــل طاعتَه ونُصرتَه عمدتَه وٱعتِمادَه ، وٱتخذ مُظافَرتَه ومُؤازَرَته فى كل أمر عَتادَه ، صــلاةً مستمرّةً علىٰ كَرِّ الجديدين إلىٰ يوم الشَّهاده ـ فإنَّ أوْلىٰ من تلحَظُه دولتنا الشريفةُ فى أقْبالها بمزيد إقْبالهــا ، وتُعلِي قدرَه إلىٰ غاية

تقْصُر الأفلاكُ عن إدراك مَنَارها وبُعْدَ[1] مَنَالِهـا ، وتُضاعِفُ له أسبابَ الإحسان من حُسْن نَظَرها وٱشتمالها ، وتُشَيِّدُ مبانِيَ عِزِّه فلا تصل يدُ الزمن إلىٰ بعض تصرُّمها ، وتُسْبِغ ملابسَ النِّعم عليه فيختالُ فى أضْفاها ومُعْلَمِها ، وتُجدّد من مزايا جُودِها ما يحسُن به الجزاءُ عما أسلفَه من خِدَمها — مَنْ نظرَ فى مصالح أحوالها المنصورة فأحسَنَ النظر ، وعَضَّد أنصارَها بآرائه التى تُشْرِق بها وجوهُ الأيَّام إشراقَ الدَّرارِىِّ والدُّرَر ، وأضحىٰ وله فى العَلْياء المحلُّ الأثيل ، والمناقبُ التى هى كالنهار لا تحتاجُ إلىٰ دليل ، والسيادةُ التى تكسُو الزمنَ حُلَل البَهاء فيَجُرّ منها على المَجَرَّة ذيلا ضافِيًا ، والمآثرُ التى لولا ما أحيَتْه من مَعَالم الرياسة كان طَلَلا عافيا ، معَ ماله من الحقوق التى تشكُرها الأيَّامُ والدُّول ، والخِدَمِ التى كم بلغَ بمخالصته فيها من قَصْد وأمَل ، والسَّجايا التى إذا خلعْتَ عليها حُلَلا من الثناء وجدْتَها منه فى أبهىٰ الحُلَل .

ولما كان فلان هو الذى تحَلّى من هذا الثناء بدُرِّه الثَّمين ، وتلقّى رايةَ هذا المجد كما تلقَّاها عَرَابةُ باليمين ، وتنضَّدتْ كواكبُ هذا المَدْح لتنتظم سِلْكا لمآثِرِه ، وٱتَّسقتْ فرائدُ هذا الشكر لترُصَّع عقودًا لمَفاخِره — وجب علينا أن نُجدِّد له فى أيامنا ماتَتضاعف به أسبابُ النِّعم لدَيْه ، ويتحقَّق منه إقبالنا بوجْه الإقبال عليه .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف — زاد اللهُ تعالىٰ فى عَلَائه ، وأضْفىٰ علىٰ أوليائه حُلَلَ آلائه ، وأبقىٰ على الزمن بوُجُوده رَوْنَق بَهائه — أن يستقرّ للشار إليه فى الشهر كذا وكذا مُضافًا إلىٰ غير ذٰلك من لحم وتوابِل وعَليق علىٰ ما يشهَدُ به الديوانُ المعمُور إلىٰ آخرِ وقت ، فليتلَقَّ إحسانَنا بيد استحقاقٍ لها فى الفضل باعٌ شديد ، ويثِقْ مِنَّا بالإقبال الذى لا يزَالُ عنده إن شاء الله وهو ثابتٌ ويَزيد ، ويتناوَلْ ماقُرِّر باسمه فى كل شهر من ٱستقبالِ تاريخه بعد الخطِّ الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) لعله لارتفاعها وبعد الخ .

المرتبـــة الثـالثة

(ممـا يكتب به فى الاطـلاقات)

أن يُكتَب فى قطع العـادة مفتتحا برُسِم بالأمر الشريف ، والرسمُ فيـه علىٰ نحو ماتقدّم فى الولايات ، وهو أن يقـال : « رسم بالأمر لا زال ... ... أن يستقرّ باسم فلان كذا وكذا : لأنه كذا وكذا » ونحو ذلك .

وهـذه نسخة توقيع شريف بمرتَّب على الفَرَنْج الجُرْجان الواردين لزيارة القُدْس أنشأْته لشرف الدّين قاسم ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال عدْلُه الشريفُ لمال الفَىْء بينَ ذَوِى الآستحقاق قاسمـا ، وفضلُه العميمُ لأُولى الفضـل فى سِلك الصِّلات ناظِما ، ومعروفُه المعروفُ لمواقع البِرّ يَؤُمّ عالمـا ويبيت غانما ـ أن يستقرّ لمجلِس القاضى فلانِ الدين علىٰ الفَرَنْج الجُرْجان الواردين لزيارة قُمَـامةَ بالقُدْس الشريف كذا وكذا : لمـا آشتَمَل عليـه : من مُبِين العلم ومَتِين العمل وجميلِ السِّيره ، واجتمع لديْه : من طَيِّب الذِّكْر وجميل الأثَرِ وصَفْو السَّريره ، ولإقامته بالمسْجِد الأقْصىٰ الذى هو أحدُ المساجد الثلاثة التى تُشَدّ الرحالُ إليها ، وإحدى القبلتين المعوّلُ فى أوّل الإسلام عليها ، ومُجاورةِ الصَّخرة المعظَّمه ، والآثارِ الشريفةِ والأماكن المكَّرمه ، وقيامه بمـا يجِبُ من الدعاء لدولتنا القاهره ، والآبتهالِ إلىٰ الله تعالىٰ بدَوام أيَّامنا الزاهره .

فليتناوَلْ هذا المعلومَ مُهَنَّأ مُيَسَّرا ، وليَرْجُ من كرمنا الوافِر فوقَ ذٰلك مَظْهَرا ، ولْيَشْهَرْ سلاحَ دعائه بتلك الأماكن الشريفة علىٰ أعداء الله وأعداء الدِّين ، ويَرْمِهم بسِهام الليل التى لا تُخْطِئ إن شاء الله تعالىٰ الطُّغَاة المتمرّدين ، فبذٰلك يستحقُّ هذا السَّهْم من الفىْء حقًّا ، ويُعَدّ من المقاتِلةِ الذَّابِّين عن الإسلام صِدْقا ، وليَقُمْ علىٰ جادَّة

الاستقامة فى الدِّين وليُكنْ مما سوىٰ ذلك بريًّا ، ويقابِلْ هو ومثلُه إنعامنَا بالشكر يتلُو عليهم لسانُ كرمنا فكلوه هنيًّا مَرِيًّا، والخط الشريف أعلاه ... ...

* * *

وهذه نسخة توقيع شريف أيضا أنشأته باسم بهاء الدِّين أبى بكر بن غانم كاتب الدَّسْت الشريف بالشام المحروس باستمرار مُرَتَّبه على الفَرَنْج الجُرْجان الواردين إلىٰ ثَغْر الرملةِ المحروسِ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال إحسانُ كَرمه يَزين ببَهاء حسنِه المكارم، وكَرَمُ إحسانه تتراكم سحائبُه الهاميةُ فتُزْرِى بالسُّيول وتَهْزأ بالغمائم ، وفَىْءُ نَواله يُقْسَم فى أوليائنا خَلَفًا بعد سَلَف فهم من فضله بينَ غانمٍ وآبنِ غانم ـ أن يستقرّ مرتّب المجلس السامى ... ...(١)

---

(١) لم يذكر الطرف الثانى وهو ما يكتب عن النوّاب فتنبه .

الباب الثالث

من المقالة السادسة فى الطَّرْخانيّات

والمرادُ بها أن يصيرَ الشخصُ مسمُوحا له بالخِدَم السلطانية : يُقيم حيثُ شاء ، ويرتحِلُ متىٰ شاء : تارةً بمعلوم يتناوَلُه مجّانا ، وتارةً بغير معلوم ، وفيه فصلان :

الفصل الأوّل

فى طَرْخانيّات أربابِ السُّيوف

وآعلم أنَّ الطرخانية تُكتَب للأمراء تارةً وللأجناد أُخْرىٰ ، وأكثرُ ما تُكتب لمن كبِرتْ سِنُّه وضعُفت قُدرتُه وعَجَز عن الخدمة السلطانية .

وقد جرتِ العادةُ أن يسمّى مايكتب فيها مراسيم ، وهى علىٰ ثلاث مراتِبَ :

المرتبة الأولىٰ

(أن يُفتَتَح المرسوم المكتَتَبُ فى ذلك بالحمدُ لله)

والرسمُ فيه علىٰ نحوٍ من الولايات : وهو أن تُستوفى الخطبةُ إلىٰ آخرها ، ثم يقال : وبعدُ ، ثم يقال : ولما كان فلانٌ ونحو ذلك ، ثم يقال : آقتضىٰ رأينا الشريف ، ثم يقال : فلذلك رُسِم بالأمر الشريف أن يستقِرّ فلانٌ طرخاناً يتصرَّف على آختياره يسيرُ ويُقِيم فى أىِّ مكان اختاره من بلاد المملكة ، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك .

وهذه نسخة مرسوم شريف بطرخانيةٍ لأمير ، وهى :

الحمدُ لله اللطيفِ بعباده الرءُوفِ بخَلْقه ، المانِّ بفضله الغامرِ بجُوده العائد برِزْقه ، المتفضّل علىٰ العبد : فى الصِّبا بصَفْحه وفى الكُهولة بعَفْوه وفى الشَّيخُوخة بعتْقه .

نحمده على أن جبلنا على اصطناع الصنائع، وخصّنا برفع العوائق وقطع القواطع، وألهمنا عطف النّسق وإن كثرت مما سواه التّوابع؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً تُسْكِن الرحمةَ فى قَلْب قائلها، وتَرْفَع سطوةَ الغضب عن منْتحِلها فى أواخر السَّطْوة وأوائِلها؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله أفضلُ نبيٍّ أوْعد فعَفَا، وأكرمُ رسول وَعَد فوَفَى. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين سلكُوا فى المعروف سَنَنه، ونهجُوا فى الإحسان إلى الخَلْق نَهْجَه فكان لهم فى رسولِ الله أُسْوَةٌ حسَنَه، صلاةً تُقيل العَثَرات، ونتلو بلسان قَبُولها ﴿إنَّ الحَسَنات يُذْهبْنَ السَّيِّئات﴾ وسلم تسليما كثيرا.

وبعد، فإن أولى مَن رمَقَتْه المراحم الشريفة، بعيْن عِنايتها، ولحَظَتْه العواطفُ المنيفة، بلَحْظ رعايتها، (١) مالا يُفارقه ولا يُباين، وأن لا يُحَطَّ من قدْره العالى بسبب ما اتَّفق إذ كلُّ مقدَّر كائن، وأن يُصَرَّف اختياره فى الإقامة حيثُ شاء من الممالك المحروسة والمَدَائن.

فلذلك رسم بالأمر الشريف – لا زال من شِيَمِه السَّماح، ومن كرمه بلُوغُ النجا والنَّجاح، ومن نِعَمه الصَّفْحُ عن الذَّنْب المُتَاح، حتَّى يَحفَظ على الأنفس النفيسة الأموالَ ويُرِيحَ لها الأرواح، [ولا برح يُولى](٢) من قِسْمة المكْرُمات ما يُنْسَى به الذَّنب فكأنَّه كان برقًا أوْمض ولَمَح وراح – أن يكونَ المُشارُ إليه طَرْخانًا يُقيم حيثُ شاء وأين أرادَ من البلاد الإسلامية المحروسة مُعامَلا بمزيد الإكرام والاحترام، وأوفرِ العِناية والرِّعاية حسَبَ ما اقتضته المراسيمُ الشريفة فى ذٰلك عند ماشملتْه الصدقاتُ العميمةُ والمراحِمُ الشاملةُ بالعفو الشريف، والحُكْم المنيف، والإقبال والرِّضا،

(١) بياض فى الأصل ولعله «من أهله اخلاصه فى الخدم لأن يقوم مقاما الخ».

(٢) زدنا هذه الجملة لينتسق الكلام.

والصَّفح عمَّا مَضىٰ، لما رأيناه من ترفيه خاطره، وقرار قلبه برفع التكليف عنه وقُرَّة ناظره. ولما تخلَّقتْ به أخلاقُنا، من التيمُّن الذى ألبَسه أثوابَ الأمَان، وجُبلت عليه طِباعُنا، من الرأفة والرحمةِ والراحمُون يرحَمُهم الرحْمٰن؛ ولما مَهَّده له عندَنا اعترافُه الذى هو له فى الحقيقة أقوى شَفاعه، ولمَا تحقَّقناه من أنه لم يفعَل ذلك الا لوفُور الطاعة التى أوجبتْ له الإرهابَ إذ الهَرَب من الملوك طاعه، وكيف لا وقد تيقَّن سُخْطَنا الشريف وعلِم، وخشِىَ مهابَتَنا الشريفةَ ومَنْ خاف سَلِم.

فليتقلَّدْ عقُودَ هذه المِنَن التى طوَّقت جِيدَه بالجُود، وليشكُرْ مواقِعَ هذا الحِلْمْ الذى سرَّ وسار كالمَثَلَ السائر فى الوُجُود، وليُقابِلْ هـذا الإقبال بالدعاء لأيَّامنا الزاهره، وليحْظَ بمواهبنا العميمة وصَـدَقاتنا الباهره، وليُحِطْ علمًا بأنَّ إحساننا العميمَ قد أعاد إليه ما ألِفَه من الإسـعاد والإصعاد، وأنَّ صَفْحنا الشريفَ قد أضربَ عمَّا مضىٰ والمـاضى لا يُعاد، فليُقِمْ حيثُ شاء من البلاد المحروسه، متفيِّئًا ظلالَ مواهبنا التى يَغْدو وسرائِرُه بها مأنُوسـه، وارِدًا بحارَ عطايانا الزاخره، ممتَّعًا بملابس رضانا الفاخره، طيِّبَ القلب منبسط الأمَل، مُنْشرِح الصدر بما عمَّه من الإنعام وشَمَلْ، مَرْعِىّ الجنابِ فى كل مكان، معظَّم القَـدْر علىٰ تَوالِى الأزمان، مبتَهِجا بِغَمْد ما عَرَض من ذلك التقطيب، مستبشرا بإقبالنا الذى يلَذُّ به عيشُه ويَطيب، والله تعالىٰ يُديم له عوارِفَنا المُطْلَقه، وغمـائم كرمنا المُغْـدِقه، ومواهبَنَا التى انتشَرتْ له فى كلِّ قُطْر فهى لأنْواع العطايا مستغرِقَه، ومِنَنَنا التى تسير معه حيثُما سار وتُقيم لدَيْه أنَّى أقام فلا تزالُ عنده مخيِّمةً فى الأماكن المتفرِّقه، والاعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه.

المرتبـــــــة الثـانية

(أن يفتتح مرسومُ الطَّرْخانية بـ«أما بعد»)

والرسمُ فيه كما فى الولايات أيضا يقال فيه [أما بعد] فإن كذا وكذا، ثم يُقـال : ولـما كان كذا وكذا ، اقتضى رأينا الشريف ، ثم يقـال : ولذٰلك رُسِم بالأمر الشريف، ويكمَّل عليه .

وهذه نسخة مرسوم من ذٰلك ، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمه التى أوزَعَتْنا بالإحسان إلىٰ عباده أداءَ شُكْرها، وآلائِه التى ألهمَتْنا بالتخفيف عن برِيَّته اقترانَ محامده بذِكْرها، ومِنَنِه التى وفَّقَ بهـا دولتَنا الشريفةَ لأن يكونَ العـدلُ والإحسان أوْلىٰ ما أجرَتْه بفكْرها، وأحقَّ ما أمَرَّتْه بذُكْرها . والصلاةِ والسـلامِ علىٰ رسوله الذى أوضح سُـبُل المعْروف ، وشَرَع سَنَن العَدْل المألوف ، ووصفَه الله تعالىٰ بالرأفة والرحمة فبه يَقْتدى كلُّ رحيم وبه يأتَمُّ كلُّ رءُوف ، وعلىٰ آله وصحْبه الذين رفعُوا مَنَار العدل لسالكِه ، وقرّبُوا مَنـالَ الفضل لآخذه وبيَّنوا الحَيْف والاشـتِطاط لتاركه ـ فإن الله تعـالىٰ خصَّ أيامنا الزاهرة بتعاهُدِ أهل خدْمتنا بالعَدْل والإحسـان ، وتفَقُّد رعايانا بإزالةِ ما يكدِّر عليهم مواردَ النِّعم الحِسان ، فلا نزال نُنْعِم النظرَ فى أمورِهم ، ونُفيض عامَّ إحسـاننا علىٰ خاصِّهم وجُمْهورهم ، ليناموُا من عدلنا فى مِهَاد الدَّعَة ، ويبيتَ ضعيفُهم من مراحمنا الشريفة فى أتمِّ رأفة وفقيرُهم فى أوفَرِ سَعَة .

ولـما كان فلان ممن توفرَّ فى الخدمة الشريفة قِسمُه ، وكَبِر فى الطاعة سِنُّه ووهَن عَظْمُهُ ، وعجزتْ عن الركُوب والنزول حركتُه ، وذهبتْ مواقِفُ حَرْبه ولم يبقَ إلا أن تُلْتمَس بركتُهُ ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يُضاعَف إليه الإحسان ، ويُعامَل بوافر البِرِّ وجزيل الامتنا ن .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُوالى المِنَن، ويُولِى الأولياء من المعروف كلَّ جميلٍ حسَن ـ أن يستقرّ المذكورُ طَرْخاناً لا يُطلَب لخدمة فى نهارٍ ولا ليل، ولا يُلْزَم بالقيام بنَزْك[1] ولا خيل، فليُمْضَ حكمُ هذه الطَّرْخانية لاتتأوّلُ ألسنةُ الأقلام فى نصِّه، ولا تتطرّق أوهامُ الأفهام إلى ٱعتراضٍ ماثبت من إعفائه بنقْضِه ولا نَقْصِه، وسبيلُ كل واقف عليه ٱعتماد مضمونِه والوقوفُ عند حكمه، والأنتهاءُ إلى حدّه وٱتّباعُ رسْمه، إن شاء الله تعالى[2].

الفصل الثانى
من الباب الثالث من المقالة السادسة
(فيما يكتب فى طَرْخانيّات أرباب الأقلام)

وهو قليل نادر قلَّ أن يُكتَب، وإذا كتب فغالب ما يفتَتَح برسم، ويسمّى ما يُكتَب فيه تواقيع.

وهذه نسخة طَرْخانية كُتِب بها عن الملك الناصر محمد بن قلاوون للقاضى قُطْب الدين بن المكرَّم أحد كُتَّاب الدَّرج الشريف بالأبواب الشريفة، عند إقامته بالحِجاز الشريف، بأن يستقِرّ طَرْخانا بنِصْف معلومه الذى كان له على كتابة الدَّرْج الشريف وأن يقيم حيث شاء، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يأمُر فيُطَاع، ويصِل فيُعين على الأنقطاع، ويُرى على ٱقتراح الآمل جُودُه المكررُ المكرَّم فالآمل يقترِح ما ٱستطاع ـ أن يستقرّ للمجلس السامى القضائى فلانِ بنِ المكرَّم نفع الله به من معلومه عن كتابة الدرج

(١) النزك الطعن بالنيزك وهو رمح صغير .
(٢) لم يذكر المرتبة الثالثة ولعلها ما يفتتح برسم بالأمر الشريف .

الشريف الشاهد به الديوان المعمور إلىٰ آخر وقتِ النِّصف من كل شهر، علىٰ الأدعية الصالحة لهذه الدولة القاهرة، ويُقيم حيثُ شاء، ثم يستقرّ ذلك لأولاده من بعده، ثم لأولاد أولاده بالسَّوِيَّة إعانةً له علىٰ بلوغ قصده ورغائبه، وآستعانةً بحاضر الجُود دُونَ غائبه، وإكرامًا لجانبه، وطالبُ وجهِ الله تعالىٰ [يُعان] علىٰ الفَوْز بكنوز مَطالبه .

وما كنا لِنَسْمحَ ببُعْده عن أبوابنا الشريفه، ولا نُجيبَه لمفارقة مابيده من وَظيفه، لأنه ما يُدرِك أحدٌ من أبناء عَصْره مُدّه ولا نَصيفه، ولديوان إنشائنا جمالٌ بعُقود كتابته النظيمة ومعانِي ألفاظه اللطيفه، وإنّما لإقْباله علىٰ الآجلَه، وإعراضه عن العاجله، وآستيعاب أوقاته بأداءِ الفريضة والنافله، أسعفنا سُؤالَه بالإجابه، وأعنّاه علىٰ الإنابَه، وأجزلنا سَهْمَه من الإحسان فبلغ سهْمُه الإصابه، ومن أحسَنُ سبيلا ممن أخَذ لنَفْسه قبل الحَيْن، ونَفَض يدَيْه من الدنيا فراحَ بالخير مَمْلُوءَ اليديْن، فنظر إلىٰ مَعادِه فأقبلَ على الله قريرَ العين، وها نحن قد كَرَّمناه في وقتٍ واحدٍ بإنشاءِ ولَدَيْن .

فلْيَشْكُر لصدَقَاتنا هذه النِّعَم المتزايدَه، والصِّلاتِ العائده، والإحسانَ إليه وإلىٰ بَنِيه جملةً واحده، ولْيَدْعُ لدولتنا القاهرة حينَ يقوم لله قانتًا، وحينَ يقُول ناطقًا وحيث يُفَكِّر صامتا، وعند فِطْره من صَوْمه، وفي أعقابِ الصلوات في ليلته ويومه، ولْيُوصَّل إليه هذا المرَتَّب مُيَسَّرا لا يُكدَّر موردُه بتأخير، ولْيُصْرَف إليه مُهَنَّأ لا يُشانُ طولُه بتقصير، ولا يُحْوَج إلىٰ عناءٍ وطَلَب، ولا يُلْجأ في تناوُله إلىٰ كَدٍّ وتَعَب، بل يُرَفَّه خاطرُه عمَّا فاز به من حُسْن المنقَلَب، والله تعالىٰ يمُدّه بعَوْنه وفضلِه، ويُنْجِب فرعَه ببركةِ أصله، والخطُّ الشريف أعلاه حجةٌ فيه، إن شاء الله تعالىٰ .

الباب الرابع
من المقالة السادسة

(فيما يُكتَب فى التوفيق بين السِّنين الشمسيَّة [والقَمَرِيَّة] المعبَّر عنه فى زماننا بتحويل السِّنين، وما يُكتَب فى التذاكر، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

[فيما يكتب فى التوفيق بين السنين، وفيه طرفان

الطرف الأوّل] (١)

(فى بيان أصل ذلك)

اِعلم أنّ ٱستحقاقَ الخراج [و]جبايَتَه منُوطان بالزُّروع والثّمار من حيثُ إن الخَرَاج من متحصَّل ذلك يُؤْخَذ، والزُّروعُ والثّمار منوطةٌ بالشُّهور والسنين الشمسيَّة من حيث إن كل نوعٍ منها يظْهَر فى وقتٍ من أوقاتها ملازمٍ له لا يَتحوّلُ عنه ولا يَنتقِل لُزُوم كل شهر منها وقْتًا بِعينِه من صيف أو شتاءٍ أو خريفٍ أو ربيع؛ وٱستِخراجُ الخراج فى المِلّة الإسلامية مَنُوطٌ بتاريخ الهجرة النبوية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وشهورُه وسِنُوه عربية . والشهورُ العربية تنتقِل من وقتٍ إلىٰ وقت، فربما كان ٱستِحقاقُ الخَرَاج فى أوّل سنةٍ من السِّنين العربية، ثم تراخى الحالُ فيه إلىٰ أن صار ٱستحقاقُه فى أواخِرها، ثم تراخى حتّى صار فى السنة الثانية فيصيرُ الخَرَاج منسوبا للسنة السابقةِ، وٱستحقاقُه فى السنة اللاحِقةِ، فيُحتاجُ حينئذ إلىٰ تحويل السَّنة الخراجيَّة السابقةِ إلى التى بعدها علىٰ ماسيأتى ذكرُه .

---

(١) الزيادة مأخوذ مما سيأتى له من التقسيم .

قال فى "موادّ البيان" : والسببُ فى ٱنفِراج ما بينَ السنين الشمسية والهلالية أنَّ أيّام السنة الشمسية هى المُدّة التى تَقْطَع الشمسُ الفلكَ فيها دَفْعة واحدة، وهى ثلثمائة وخمسةٌ وستون يوما ورُبع يوم بالتقريب حسَبَ ما تُوجبه حركتُها، وأيّامُ السنة الهلاليَّة هى المُدة التى يقطع القمرُ الفَلَك فيها ٱثنتَىْ عشرة دَفْعة ، وهى ثلثمائة وأربعةٌ وخمسون يوما وسُدُسُ يوم ؛ فيكون التفاوُتُ بينهما أحدَ عشرَ يوما وسُدسَ يوم، فتكون زيادةُ السنين الشمسيةِ على السنين الهلاليةِ فى كل ثلاثِ سنين شهراً واحدا وثلاثةَ أيام ونصفَ يوم تقريبا . وفى كل ثلاثٍ وثلاثين سنةً سنةً بالتقريب ؛ فإذا تَمادىٰ الزمان تفاوَتَ ما بين السنين تفاوتا قَبِيحا ؛ فيرىٰ السلطانُ عند ذٰلك أن تُنْقَلَ السنة الشمسيةُ إلى السنة الهلاليَّة بالاسم دُونَ الحقيقة توفيقًا بينهما ، وإزالةً للشبهة فى أمرهما ؛ ومتىٰ أُوعِزَ بذٰلك لم يَقِفْ على الغَرَض فيه إلا الخاصَّةُ دُونَ العامّة ؛ وأسرع إلىٰ ظنِّ المُعامَلين وأرباب الخَراج والأملاك أنَّ ذٰلك عائدٌ عليهم بظُلم وحَيْف ، وإلىٰ ظَنِّ مستحِقِّ الإقطاع أنه منتقِصٌ لهم، ونسبُوا الجَوْرَ إلى السلطان بسبب ذٰلك وشَنَّعُوا عليه، فرَسَم بُلَغاءُ الكُتّاب فى هذا المعنىٰ رُسُوما تعودُ بتفهيم الغَبِي، وتَبْصير العَمِى، وتُوصل المعنىٰ المرادَ إلى الكافّة إيصالًا يتساوَوْن فى تصديقه وتيقُّنه، ولا تَتَوجَّه عليهم شبهةٌ ولا شكٌّ فيه .

قلت : وقد ذكر أبو هلال العسكرىّ فى الأوائل : أنَّ أوّل من أخَّر النَّيروزَ المتوكِّلُ على ٱلله أحدُ خلفاء بنى العَبَّاس، وذٰلك أنه بينَما هو يطُوفُ فى مُتَصيَّد له إذ رأىٰ زرْعا أخضَرَ، فقال : قد ٱستأذَنَنى عبيدُ الله بنُ يحيىٰ فى فتح الخَراج وأرى الزَّرْع أخضَرَ؛ فقيل له : إن جِبايةَ الخراج الآنَ قد تَضُرُّ بالناس إذ تُلْجِئُهم إلىٰ أنهم يَقْترِضُون مايؤدُّون فى الخراج، فقال : أهذا شيءٌ حدَثَ أو لم يَزَلْ كذا؛ فقيل له : بل حَدَث، وعُرِّف أنَّ الشمسَ تقْطع الفلكَ فى ثلثمائة وخمسةٍ وستين يومًا ورُبعِ يوم،

وأنّ الروم تَكْبِس فى كل أربع سنين يوماً فيطرَحُونه من العَدَد ، فيجعلُون شَبَاطَ ثلاثَ سنين متواليات ثمانيةً وعشرين يومًا . وفى السنة الرابعة يَنْجبِرُ من ذلك الرُّبُعُ اليومِ يومٌ تامّ ، فيصير شباطُ تسعةً وعشرين يومًا ، ويُسمُّون تلك السنة الكَبِيسةَ . وكانت الفرس تكبِسُ للفَضْل الذى بين سِنِيها وبين سَنةِ الشمس فى كل مائةٍ وستَّ عشرةَ سنةً شهرا ؛ فلما جاء الإسلامُ عُطِّلَ ذلك ولم يُعْمَل به فأضر بالناس ذلك ، وجاء زمنُ هِشام بن عبد الملك فاجتمعَ الدَّهاقنةُ إلى خالدِ بن عبدالله القَسْرىّ وشرحُوا له ذلك (ولم يَعْمَل به فأضَرَّ بالناس ذلك)[1] ، وقد سألوه أن يُؤَخّر إليه [فأرسل][2] الكُتُب إلى هشام سرًّا فى ذلك ، فقال هشام : أخافُ أن يكونَ ذلك من قول الله تعالى : ﴿ إنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فى الكُفْر ﴾ .

فلما كان أيَّامُ الرشيد اجتمعُوا إلى يحيىَ بنِ خالد البَرْمَكِىِّ ، وسألوه فى تأخير النَّيْروزِ نحوَ شهر فعزَم على ذلك ، فتكلم أعداؤُه فيه وقالوا : تَعَصَّب للمَجُوسية ، فأضربَ عنه فبقِيَ على ذلك إلى اليوم ؛ فأحضر المتوكِّلُ حينئذ إبراهيمَ بنَ العباس ، وأمَرَه أن يكْتُب عنه كتابا فى تأخير النَّيْروز بعد أن تُحْسَب الأيام ، فوقع الاتِّفاق على أن يُؤَخَّر إلى سبعة وعشرين يوما من حَزِيرانَ ، فكتب الكِتابَ على ذلك . قال العسكرىّ : وهو كتابٌ مشهورٌ فى رسائل إبراهيم بن العباس ، ثم قُتِل المتوكل قَبل دخُول السنة الجديدة ، ووِلىَ المنتصِرُ واحتيجَ إلى المال فطُولِب به الناسُ على الرسم الأوّل ، وانتقَضَ ما رسَمَه المتوكل فلم يُعمَل به حتّى وِلىَ المعتضد ، فقال لعلىّ بن يحيى المنجِّم : تَذْكُرُ ضجيجَ الناس من أمر الخَراج فكيف جعلتِ الفُرْس مع حِكْمَتِها وحُسنِ سِيرتِها افتتاحَ الخراج فى وقتٍ مالا يتمكَّن الناس من أدائه فيه ؟ فشرح له أمْرَه ، وقال :

(١) لعل مابين القوسين مكرر من قلم الناسخ .

(٢) بياض فى الأصل بقدر كلمة .

ينبغى أن يُردَّ إلىٰ وقته ، ويَلْزَم يوما من أيام الرُّوم فلا يقع فيه تَغيُّر، فقال له المعتضد سِرْ إلىٰ عبيد الله بن سليمان فوافقْه علىٰ ذلك ، فصرت إليه ووافقته ، وحسَبْنا حسابَه فوقع فى اليوم الحادى عشر من حزيران ، فأُحْكِم أمرُه علىٰ ذلك ، وأُثْبت فى الدواوين ، وكان النَّيْروزُ الفارسيّ إذ ذاك يومَ الجمعة لإحدىٰ عشرةَ ليلةً خَلتْ من صفر سنةَ آثنتين وثمانين ومائتين . ومن شهور الروم الحادى عشر من نَيْسانَ .

وقد قال أبو الحسين علىّ بن الحسين الكاتب رحمه الله : عَهِدتُ جبايةَ الخراج فى سنين قبل سنةِ إحدىٰ وأربعين ومائتين فى خلافةِ أمير المؤمنين المتوكِّل رحمة الله عليه تجْرِى لكل سنةٍ فى السنةِ التى بعدَها بسببِ تأخُّر الشهور الشمسيَّة عن الشُّهور القَمَرية فى كل سنة أحدَ عشَرَ يوما ورُبُعَ يوم وزيادةَ الكسر عليه ، فلما دخلَتْ سنةُ آثنتين وأربعين ومائتين ، كان قد آنقضىٰ من السِّنين التى قبلها ثلاثٌ وثلاثون سنة ، أوّلهن سنة ثمان ومائتين من خلافة أمير المؤمنين المأمون رحمة الله عليه ، وآجتمع من هذا المتأخِّر فيها أيامُ سنةٍ شمسيَّة كاملةٍ : وهى ثلثمائة وخمسةٌ وستون يوما ورُبُعُ يوم وزيادةُ الكسر، وتهيَّأ إدراكُ غلَّاتِ وثمارِ سنةِ إحدىٰ وأربعين ومائتين فى صدرِ سنةِ آثنتين وأربعين [ومائتين] ، فأمر أمير المؤمنين المتوكل رحمة الله عليه بالغاء ذكر سنة إحدىٰ وأربعين ومائتين ، إذ كانت قد آنقضت ونُسِب الخراجُ إلىٰ سنة آثنتين وأربعين ومائتين .

قال صاحب "المنهاج فى صنعة الخَرَاج" : ولما نُقِلت سنةُ إحدىٰ وأربعين ومائتين إلىٰ سنة آثنتين وأربعين ، جَبَىٰ أصحابُ الدواوين الحَوالِيَ والصدقاتِ لسنتَىْ إحدىٰ وآثنتين وأربعين ومائتين فى وقتٍ واحدٍ ، لأن الحَوالِيَ بسُرَّ مَنْ رأىٰ ومدينةِ السلام ومُضافاتهما كانت تُجْبىٰ علىٰ شهور الأهلة ، وما كان عن جماجِم أهل القُرىٰ

والضِّياع والمستغَلّات كانت تُجْبىٰ علىٰ شهور الشمس، فأُلْزِم(١) أهـلُ الجوالى خاصّةً في مدة الثلاثِ وثلاثين سنة، ورفَعَها العُمّال في حُسْباناتهم فاجتمع من ذٰلك ألوفُ ألوف دراهم، فجرت الأعمـالُ بعد نقل المتوكّل علىٰ ذٰلك سنةً بعد سـنةٍ، إلىٰ أن ٱنقضتْ ثلاثٌ وثلاثون سـنةً آخرتُهن ٱنقضاءُ سنة أربع وسبعين ومائتين؛ فلم يُنبِّه كُتّابُ أمير المؤمنـين: المعتمدِ على الله رحمة الله عليـه علىٰ ذٰلك، إذ كان رؤساؤُهم في ذٰلك الوقتِ إسمعيلَ بنَ بُلْبـل وبَني الفُرات، ولم يكونوا عملُوا في ديوانِ الخَرَاج والضِّياع في خلافة أمير المؤمنين المتوكل رحمه الله، ولا كانتْ أسنانُهم أسنانًا بلغَتْ معرفتُهم معها هـذا النَّقْل، بل كان مولدُ أحمدَ بن محمد بن الفُرات قبل هذه السـنة بخمس سنين، ومولِدُ عليٍّ أخيه فيها؛ وكان إسماعيل يتعلّمُ في مجلسٍ لم يبلُغْ أن يَنْسَخ، فلمـا تقلّدتُ لناصر الدين رحمةُ الله عليه أعمالَ الضِّياع بقَزْوِين ونواحيها لسنةِ ستٍّ وسبعين ومائتين، وكان مقيما بأَذْرَبِيجانَ، وخليفتُه بالجبل والقرى جَرَادَةُ بن محمد، وأحمدُ بنُ محمد كاتبه، واحتجْتُ إلىٰ رفع جماعَتِي إليه ـ ترجمتُها بجماعةِ [سنةِ] ست وسـبعين ومائتين [التي أدركت غَلّاتها وثمـارها في سنة سبع وسـبعين ومائتين](٢)، ووجب إلغاء ذكر سنةِ ستٍّ وسبعين ومائتين؛ فلمـا وقفَا علىٰ هذه الترجمة أنكراها وسألاني عن السبب فيهـا فشرحتُه لهما، ووكّـدت ذٰلك بأن عَرَّفتهـما أني قد ٱستخرجْتُ حسابَ السنينَ الشمسيةِ والسنين القمريةِ من القرءان [بعد] ما عرضته علىٰ أصحاب التفسـير، فذكروا أنه لم يأْتِ فيـه شيءٌ من الأثر، فكان ذلك أوْكَد

(١) عبارة المقريزى ج ١ ص ٢٧٦ «وفى ثلاث وثلاثين سنة اجتمعت أيام سنة شمسية كاملة فألزم أهل الذمة خاصة بالجوالى ورفعها الخ» وهى أوضح .

(٢) الزيادة من "المواعظ والاعتبار" للقريزى ج ١ ص ٢٧٦ وقد اعتمدناها فى كثير من التصحيف فى هذا الموضع .

فى لُطف استخراجى : وهو أن الله تعالىٰ قال فى سورة الكهف : ﴿وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعًا﴾ . فلم أَجِدْ أحدًا من المفسّرين عَرَفَ ما معنىٰ وازدادوا تِسْعا ، و إنما خاطبَ اللهُ جل وعز نبيَّــه بكلامِ العرب وما تَعْرِفُه من الحِسَاب ؛ فمعنى هذه التسع أن الثلثمائة كانت شمسيةً بحساب العَجَم ومن كان لا يعْرِف السنينَ القمرية ، فإذا أُضيف إلىٰ الثلثمائة القمريَّة زِيادةُ التسع كانت سنينَ شمسيَّةً [صحيحة] فاستحْسَناه ؛ فلما انصرف جَرادةُ مع الناصر رحمة الله عليه إلىٰ مدينة السلام وتُوفِّيَ الناصر رضوان الله عليــه وتقلد أبو القــاسم عُبَيْدُ الله بن سليمان رحمه الله كتابةَ أمير المؤمنين : المعتضِد بالله صلوات الله عليه ، أجرىٰ له جرادةُ ذِكْرَ هذا النقل ، وشرح له سبَبَه : تقرّبًا إليه ، وطَعْنا علىٰ أبى القاسم عُبيد الله رحمه الله فى تأخيره إيَّاه .

فلما وَقَفِ المعتضد بالله رحمه الله علىٰ ذلك تقدّم إلىٰ أبى القاسم بإنشاء الكُتُب بنقل سنةِ ثمــانٍ وسبعين ومائتين إلىٰ ســنةِ تِسْع وسبعين ومائتين ، فكَتَب ، وكان هــذا النقلُ بعدَ أربعِ سنين من وجُوبه ، ثم مضت السنونَ ســنةً بعد سنة إلىٰ أن ٱنقضتِ الآنَ ثلاثٌ وثلاثون ســنةً أُولَاهن السنةُ التى كان النقل وجب فيهــا : وهى سنة خمسٍ وسبعين ومائتين ، وآخرُتهن ٱنقضاءُ سنة سبع وثلٰثمائة ، فوافق ذٰلك خلافةَ المُطيع لله فى وِزارة أبى محمد المهلَّبى ، فأمر بنقْل سنة ستٍّ وثلٰثمائة إلىٰ سنةِ ســبع وثلثمائة ، ونسبةِ الخراج إليها فنُقلَتْ ، وأمر بالكتابة بذٰلك من ديوان الانشاء فكُتِب به .

وقد حكىٰ أبو الحسين هلال بن المُحْسن بن أبى إسحق إبراهيم الصابى عن أبيــه أنه قال : لمــا أراد الوزيرُ أبو محمّد المهلّبى نقلَ السنة أمرَ أبا إسحقَ والدى وغيْرَه من كُتّابه فى الخراج والرسائل بإنشاء كتابٍ عن المُطيع لله رحمة الله عليه فى هذا المعنىٰ ، وكلٌّ منهــم كتَب ، وعُرِضت النُّسَخُ على الوزير أبى محمّد فاختار منها كتابَ والدى

وتقدّم بأن يُكْتَب إلىٰ أصحاب الأطراف . وقال لأبي الفَرَج بن أبي هاشم(١) خليفته : اكْتُبْ إلى العُمَّال بذلك كُتُبا مخففة ، وآنسَخْ في أواخر[ها] هذا الكتابَ السلطاني فغـاظَ أبا الفَرَج وقوعُ التفضـيل والآختيار لكتّابِ والدِي ، وقد كان عمِل نسخةً اطُّرِحت في جمـلة ما اطُّرِح ، وكتب : «قد رأينا نقْلَ سـنة خمسينَ [إلىٰ إحدىٰ وخمسين](٢) فاعمل علىٰ ذلك » ولم ينسخ الكتاب السلطاني ، وعرَف الوزير أبو محمد ما كتب به أبو الفرج ، فقال له : لماذا أغفَلْتَ نسخَ الكتاب السلطاني في آخر الكتاب إلى العُمَّال و إثباتَه في الديوان ؟ فأجاب جوابا علَّل فيه ، فقال له يا أبا الفرج : ما تركْتَ ذلك إلا حسَدا لأبي إسحق علىٰ كتابِه ، وهو والله في هذا الفن أكتَبُ أهلِ زمانه .

قال صاحب "المنهاج في صنْعة الخراج": وقد كان نقلُ السنين في الديار المصرية [أُغْفِل](٣) حتى كانت سنةُ تسع وتسعين وأربعمائة الهلاليَّةُ فنُقِلت سنة تسع وتسعين الخراجية إلىٰ سنة إحدى وخَمْسِمائة فيما رأيتُه في تعليقات أبي . قال : وآخر ما نُقِلت السنةُ في وقتنا هـذا أنْ نُقِلت سنةُ خمس وستين وخمْسمائة إلىٰ سـنة سبع وسـتين وخمْسمائة الهلالية ، فتطابقَت السنتانِ . وذلك أنني لما قلْتُ للقاضي الفاضِل عبد الرحيم البَيْساني : إنه قد آنَ نقلُ السـنة ، أنشأ سِجِلًّا بنقلها نُسِخ في الدواوين ، وحُمِل الأمر علىٰ حُكْمه ، ثم قال : وما بَرِح الملوكُ والوزراء يُعْنَوْن بنقل السنين في أحيانها ، ومطابقة العامَيْنِ في أوّل زمان اختلافِهما بالبُعد وتقاربُ اتفاقِهما بالنَّقْل .

قلت : والحـاصل أنه إذا مضىٰ ثلاثُ وثلاثون سـنة من آخر السنة ، حُوِّلت السـنةُ الثالثةُ والثلاثون إلىٰ تلْو السنة التي بعدها ، وهي الخامسةُ والثلاثُون ، وتُلْغَىٰ

(١) في المقريزى «هشام» .

(٢) الزيادة من المقريزى ج ١ ص ٢٧٧ .

(٣) من المقريزى ص ٢٧٦ — ج ١ .

الرابعةُ والثلاثون ؛ ومقتضىٰ البناء على التحويل الذى كان فى خلافة المُطيع فى سنة سبْع وثلثمائة المقدّم ذكُره أن تحوّل سنةُ سبع وثلثمائة إلىٰ سنة تسع وثلثمائة ؛ ثم تحوّل سنةُ أربعين وثلثمائة إلىٰ آثنتين وأربعين وثلثمائة ، وتُلْغىٰ سنةُ إحدىٰ وأربعين ؛ ثم تحوّلُ سنةُ ثلاث وسبعين وثلثمائة إلىٰ سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، وتلْغىٰ سنة أربع وسبعين ؛ ثم تحوّل سنة ست وأربعمائة إلىٰ سنة ثمـان وأربعمائة ، وتلغىٰ سنة سبع ؛ ثم تحوّل سنةُ تسع وثلاثين وأربعمائة إلىٰ سنة إحدَىٰ وأربعين وأربعمائة ، وتلغىٰ سنةُ أربعين ؛ ثم تحوّلُ سنة آثنتين وسبعين وأربعمائة إلىٰ سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وتلغىٰ سنةُ ثلاث وسبعين ؛ ثم تحوَّل سنةُ خمس وخمسمائة إلىٰ سنةِ سبع وخمسمائةٍ ، وتلغىٰ سنة ستٍّ ؛ لكن قد تقدّم من كلام صاحب "المنهاج فى صنعة الخراج" أن التحويل كان تأخّر بالديار المصرية إلىٰ آخر سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، فحُوِّلتْ سنةُ تسع وتسعين الخراجية إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسمائة ؛ فيكون التحويل بالديار المصرية قد وقع قبل استحقاقه بمقتضى الترتيب المقدّم ذِكْره بستِّ سنين من حيثُ إنه كان المستحَقُّ مغَلَّ سنة خمس وخمسمائة إلىٰ سنة سبع وخمسمائة كما تقدّم ، فنقلت سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسمائة . والأمر فى ذلك قريبٌ إذ التحويل على التقريب دُونَ التحديد .

ثم مقتضىٰ ترتيب التحويل الرابع فى الديار المصرية بعد تحويل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسمائة أن تحوّل بعد ذٰلك سنةُ ثنتين وثلاثين وخمسمائة إلىٰ سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وتلغىٰ سنة ثلاثٍ وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة خمس وستين وخمسمائة إلىٰ سنة سبع وستين وخمسمائة ، وتلغىٰ سنةُ ستٍّ وستين ؛ ثم تحوّل سنةُ ثمـانٍ وتسعين وخمسمائة إلىٰ سنة ستمائة ، وتلغىٰ سنة تِسْع وتسعين وخمسمائة ؛ ثم تحوّل سنة إحدىٰ وثلاثينَ وستِّمـائة إلىٰ سنة ثلاثٍ وثلاثين وستمائة ، وتُلْغىٰ سنةُ

آثنتين وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة أربع وستين وستمائة إلىٰ سنةِ ستٍّ وستين وستمائة ، وتلغىٰ سنةُ خمس وستين؛ ثم تحوّل سنة سبْع وتِسعين وستمائة إلىٰ سنة تسع وتسعين وستمائة، وتلغىٰ سنةُ ثمانٍ وتسعين ؛ ثم تحوّل سنة سبْعِمائة وثلاثين إلىٰ سنةِ سبعمائة وآثنتين وثلاثين ، وتلغىٰ سنةُ إحدىٰ وثلاثين؛ ثم تحوّل سنةُ ثلاثٍ وستين وسبعِمائة إلىٰ سنةِ خمس وستين وسبْعِمائة ، وتلغىٰ سنةُ أربع وستين وسبعمائة ؛ وتحوّلُ سنة ست وتسعين وسبعِمائة إلىٰ سنة ثمانٍ وتسعين وسبعمائة، وتُلْغىٰ سنةُ سبع وتسعين ؛ ثم لايكون تحويل إلىٰ سنة تسع وعشرين وثمانمائة، فتحوّل إلىٰ سنة إحدىٰ وثلاثين وثَمانِمائة ، لكن قد حوّلَ كُتَّاب الدواوين بالديارِ المصرية وأربابُ الدولة بها سنةَ تِسع وأربعين وسبعمائة : (وهي سنةُ الطاعون الجارِف العامّ) إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسين وسبعمائة ، وألغَوْا سنة خمسينَ . وكان يقال : مات في تلك السـنةِ كلُّ شيءٍ حتّىٰ السنة ، وسيأتي ذكر المرسوم المكتتب بها في تحويل السنين في هـذه المقالةِ، إن شاء الله تعالىٰ .

ونُقِل ذلك لتأخيرٍ وقع من إغفال تحويل سنة سبعمائة وثلاثين المتقدّمة الذكر ، وآخِرُ سنةٍ حُوّلت في زماننا سنة ... ...(١)

---

(١) بياض في الأصل .

الطـــــرف الثـانى

(فى صورة ما يُكتَب فى تحويل السنين، وهو على نوعين)

النـــــوع الأوّل

(ما كان يكتب فى ذلك عن الخلفاء، وفيه مذهبان)

المـــــذهب الأوّل

(أن يُفتتح ما يكتَب بـ«أمَّا بعـــد»)

وعلى ذلك كان يُكتَب من ديوان الخلافة ببغدادَ .

وهذه نسخةُ ماذكر أبو الحسين بنُ على الكاتبُ المقدّم ذكُره أنه كُتِب به فى ذلك فى نقل سنة ثمـانٍ وسبعين ومائتين إلى سنة تسع وسبعين ومائتين فى خلافةِ المعتضِد بالله أمير المؤمنين، وهى :

أمَّا بعــدُ، فإنَّ أوْلى ماصَرَف إليه أميرُالمؤمنين عنايَتَه، وأعملَ فيه فِكْرَه ورَوِيَّتَه، وشَـغَل به تفَقُّدَه ورعايتَـه، أمرُ الفَيْء الذى خصَّــه الله به وألزمه جَمْعَه وتوفيرَه، وحياطَتَه وتكثيرَه، وجعله عِمادَ الدِّين، وقِوَامَ أمر المسلمين، وفيما يُصْرف منه إلى أعطياتِ الأوليـاءِ والجُنود، ومَنْ يُستعانُ به لتحصين البَيْضــة والذَّبِّ عن الحَريم، وحَجِّ البيتِ، وجهاد العدوّ، وسَدِّ الثُّغُور، وأَمْن الســبل، وحَقْن الدِّماء، وإصْلاح ذاتِ البَيْن . وأميرُ المؤمنين يسألُ الله راغبًا إليه، ومتوكِّلا عليه، أن يُحْسِن عَوْنَه على ماحمَّله منه، ويُديمَ توفيقَه لمـا أرضاه، وإرشادَه إلى مايَقْضى عنه وله .

وقد نَظَر أميرُ المؤمنين فيما كان يجْرِى عليه أمرُ جِباية هــذا الفَيْء فى خلافة آبائه الراشـدين فوجَدَه على حَسَب ما كان يُدْرِك من الغَلّات والثِّمـار فى كل ســنة أوّلا

أوّلًا علىٰ مَجارِى شُهورِ سِنِى الشمسِ فى النُّجوم التى يَحِلُّ مالُ كلِّ صنف منها فيها ، ووجدَ شُهورَ السنة الشمسية تتأخّر عن شهور السنة الهلاليّة أحدَ عشَرَ يوما ورُبُعا وزيادةً عليه ، ويكونُ إدراكُ الغلات والثّمار فى كل سنة بحسَب تأخُّرها .

فلا تَزالُ السنونَ تَمْضى علىٰ ذٰلك سنةً بعد سنةٍ حتى تنْقَضِىَ منها ثلاثٌ وثلاثون سنةً وتكونُ عدّة الأيام المتأخِّرة منها أيامَ سنةٍ شمسيّة كاملة ، وهى ثَلٰثمائة وخمسةٌ وستون يوما ورُبُع يوم وزيادةٌ عليه ، فحينئذٍ يتهيّأ بمشيئة الله وقُدرته إدراكُ الغَلّات التى تجرِى عليها الضرائبُ والطُّسُوق فى ٱستقْبال المحرَّم من سِنِى الأهِلّة . ويجب مع ذٰلك إلغاءُ ذِكرِ السنةِ الخارجةِ إذ كانتْ قد ٱنقضتْ ونسبتَها إلىٰ السنة التى أدركتِ الغَلّات والثمارُ فيها . وإنه وَجَدَ ذٰلك قد كان وقع فى أيام أمير المؤمنين المتوكّلِ على الله رحمة الله عليه عند ٱنْقضاء ثَلاثٍ وثلاثين سنةً ، آخرتُهُن سنة إحدىٰ وأربعين ومائتين ، فاستُغْنِىَ عن ذكرها بالغائها ونسبتها إلىٰ سنة ٱثنتين وأربعين ومائتين ؛ فجرَت المكاتباتُ والحُسْبانات وسائرُ الأعمال بعد ذٰلك سنةً بعد سنةٍ إلىٰ أن مضتْ ثلاثٌ وثلاثون سنةً ، آخرتُهُنّ انقضاءُ سنة أربع وسبعين ومائتين ، [ووجب إنشاء الكتب بإلغاء ذكر سنة أربع وسبعين ومائتين] (١) ونسبتها إلىٰ سنة خمس وسبعين ومائتين . فذهب ذٰلك علىٰ كُتّاب أمير المؤمنين [المعتمدِ على الله وتأخّر الأمرُ أربع سنين الى أن أمر أمير المؤمنين] (١) المعتضدُ بالله رحمه الله فى سنة سبع وسبعين ومائتين بنقل خَرَاج سنة ثمان وسبعين ومائتين إلىٰ سنة تسع وسبعين ومائتين ؛ فجَرىٰ الأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ أن انقضتْ فى هذا الوقت ثلاثٌ وثلاثون سنةً : أُولاهُنّ السنة التى كان يجب نقلُها فيها ، وهى سنة خمس وسبعين ومائتين ، وآخرتُهن انقضاءُ شهور خراج سنةِ سبْع وثلثمائةٍ ؛ ووجب افتتاحُ خراج ما تجْرى عليه الضرائبُ والطسوقُ فى أوّلها

(١) الزيادة من المقريزى ص ٢٧٧ ج ١ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

[وإن] من صَواب التدبير وآستقامة الأعمال، وآستعمالِ مايخِفُّ على الرعية معاملتُها به نقلَ سنة الخراج لسنة سبع وثلثمائة إلىٰ سنة ثمانٍ وثلثمائة، فرأىٰ أميرُ المؤمنين (لمـا يُلزمه نفسه ويؤاخِذُها به، من العناية بهذا الفيء وحياطةِ أسبابه، وإجرائها مجاريها، وسُلوكِ سبيلِ آبائه الراشدين رحمة الله عليهم فيها) أنْ يُكْتَبَ إليكَ وإلىٰ سائر العُمَّال فى النواحى بالعمل علىٰ ذٰلك، وأن يكونَ ما يَصْدُر [إليكم] من الكُتُب وتُصْدِرونه عنكم وتجرى عليه أعمالُكم ورُفُوعكم وحُسْباناتُكم وسائرُ مُناظَراتكم علىٰ هذا النَّقْل.

فآعلَمْ ذٰلك من رَأْى أمير المؤمنين وآعمَلْ به مستشْعِرا فيه وفى كلِّ ما تُمضيه تقوى الله وطاعتَه، ومستعمِلًا [عليه] ثقاتِ الأعوان وكُفاتَهم، مُشرفا عليهم ومقَوِّما لهم، واكتب بمـا يكونُ منك فى ذٰلك، إن شاء الله تعالىٰ.

* * *

وهذه نسخةُ ماكتَب به أبو إسحقَ الصابى عن المُطيع لله بنَقْل سنة ستٍّ[(1)] وثلثمائة إلىٰ سنة سبع وثلثمائة، وهى :

أما بعْـدُ، فإنَّ أمير المؤمنين لا يزالُ مجتهِدا فى مصالح المسلمين، وباعِثًا لهم علىٰ مَرَاشِـد الدنيا والدِّين، ومهيِّئـا لهم إلىٰ أحسَنِ الآختيار فيما يُورِدون ويُصْدِرون، وأصْوبِ الرأْى فيما يُبْرِمون وينقُضُون، فلا تَلُوحُ له خَلَّةٌ داخلةٌ علىٰ أُمورهم إلا سَدَّها وتلافاها [ولا حالٌ عائدة بحظٍّ عليهم إلا اعتمدَها وأتاها][(2)] ولا سُنَّةٌ عادلةٌ إلا أخذَهم بإقامة رَسْمِها، وإمضاء حُكْمِها، والآقتـداءِ بالسلف الصالح فى العمل بهـا والآتباع لهـا، وإذا عرض من ذٰلك ما تعْلَمه الخاصَّة بوفُور ألبابها، وتجهَلُه العامّةُ بقُصُور أفهامها، وكانت أوامِرُه فيــه خارجةً إليك وإلىٰ أمثالك من أعيانِ رجاله، وأماثِل

(١) صوابه «بنقل سنة خمسين وثلثمائة الى إحدى وخمسين وثلثمائة» كما يفيده نص الكتاب بعد اه.

(٢) الزيادة من "رسائل الصابى" ص ٢٠٩ ومن المقريزى ص ٢٧٨ ج ١ .

عُمَّاله ، الذين يكتفُون بالإشاره ، و يجتزءُون بيَسير الإبانة والعباره ، لم يَدَعْ أن يبلُغ من تَلْخيص اللفظ و إيضاح المعنىٰ إلى الحـدّ الذى يُلْحِق المتأخِّر بالمتَقدِّم ، ويجمعُ بين العالم والمتَعلِّم ؛ ولا سيَّما إذا كان ذٰلك فيما يتعلَّق بمعاملات الرعيَّه ، ومن لا يَعْرِف إلا الظَّواهِرَ الجليَّـة دُونَ البواطن الخفِيَّه ، ولا يَسْهُل عليـه الآنتقال عن العادات المتكرره ، إلىٰ الرُّسوم المتغيِّره ، ليكون القولُ بالمشْرُوح لمن بَرَّز فى المعـرفة مذَكِّرا ، ولمن تأخَّر فيهـا مبصِّرا ، ولأنه ليس من الحق أن تُمنَع هـذه الطبقةُ من بَرْد اليقين فى صُـدُورها ، ولا أن يُقْتَصر علىٰ اللَّمْحة الدالَّة فى مخاطبـة جُمْهورها ، حتَّى إذا ٱستَوتِ الأقدامُ بطوائف الناس فى فَهْم ما أُمِروا به وفِقْه ما دُعُوا إليه وصارُوا فيه علىٰ كلمةٍ سواء لا يعترِضُهم شكُّ الشاكِّين ولا ٱستِرابة المستَرِيبين ، ٱطمأنَّتْ قلوبُهم ، وٱنشرحَتْ صدُورُهم ، وسقَط الخلافُ بينَهم ، وٱستمرّ الآتفاق فيهم ، وٱستيقَنُوا أنهم مَسُوسُون على ٱستقامةٍ من المِنْهاج ، ومحرُوسُون من جرائر الزَّيغ والآعوجاج ؛ فكان الآنقيادُ منهـم وهم دَارُون عالمون ، لا مقلِّدون مُسَلِّمون ؛ وطائعُون مختـارُون ، لا مُكْرَهُون ولا مُجْبَرُون .

وأميرُ المؤمنين يستمِدُّ الله تعـالىٰ فى جميع أغراضـه ومَرَاميه ، ومطالِبـه ومَغَازِيه ، مادَّةً من صُـنْعه تَقِف به علىٰ سَنَن الصَّلاح ، وتَفتَحُ له أبوابَ النَّجاح ، وتُنْهِضه بما أهَّله لحَمْله من الأعباء التى لا يَدَّعى الاستقلالَ بها إلا بتوفيقه [ومَعُونته] ، ولا يتوجه فيها إلا بدلَالته وهدايته ، وحَسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعْم الوكيل .

وأميرُ المؤمنين يرىٰ أنَّ أوْلى الأقوالِ أن يكون سَدَادا ، وأحرىٰ الأفعال أن يكونَ رَشَادا ، ماوُجِد له فى السابق من حكْم الله أصولٌ وقَواعد ، وفى النَّص من كتابه آياتٌ وشواهد ؛ وكان مُفْضِـيًا بالأمة إلىٰ قَوَام من دينٍ ودُنْيا ، ووِفَاقٍ فى آخرةٍ وأُولىٰ ،

فذلك هو البناءُ الذى يثبُتُ ويعلو، والغَرْس الذى ينبُتُ ويزكُو، والسَّعىُ الذى تَنْجَح مَبادِيه وهَوادِيه، وتُبْهِج عواقبُه وتَواليه، وتستنير سُبُلُه لسالكيها، وتُورِدُهم موارد السعود فى مَقَاصدهم فيها، غير ضالِّين ولا عادِلين، ولا مُنْحرِفين ولا زائِلين .

وقد جعل اللهُ عزَّ وجلَّ لعباده من هذه الأفلاك الدائره، والنُّجُوم السائره، فيما تَتَقلَّب عليه من اتِّصالٍ وافتراق، ويتَعاقبُ عليها من اختلافٍ واتِّفاق، منافعَ تظْهَر فى كُرُور الشُّهور والأعوام، ومُرُور اللَّيالى والأيَّام، وتَنَاوُب الضِّياء والظلام، واعتدالِ المَساكنِ والأوطان، وتَغايُرِ الفُصول والأزمان، ونَشْء النَّبات والحيوان، فما فى نِظَام ذلك خَلَل، ولا فى صَنْعة صانعه زَلَل، بل هو مَنُوط بعضُه ببعض، ومَحُوط من كلِّ ثُلْمة ونقْص، قال الله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ وقال جل من قائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ . وقال : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . وقال عزَّت قدرتُه : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ . ففَضَّل الله تعالىٰ فى هذه الآيات بيْنَ الشمسِ والقمرِ، وأنبأنا فى الباهرِ من حِكَمه، والمُعْجِز من كَلِمه، أنَّ لكلٍّ منهما طريقًا سُخِّر فيها وطبيعةً جُبِل عليها، وأن كلَّ تلك المباينةِ والمخالفةِ فى المَسير، تُؤدّى إلىٰ موافقةٍ وملازمةٍ فى التدبير، فمن هُنالك زادتِ السنةُ الشمسيةُ فصارت ثلثمائة وخمسةً وستين يومًا ورُبُعا بالتقريب المعمُول عليه، وهى المدّة التى تقطَع الشمسُ فيها الفَلَك مرَّة واحدة، ونقصَتِ السنةُ الهلالية فصارت ثلثمائة وأربعةً وخمسين يوما وكَسْرا، وهى المُدّة التى يُجامِع القمرُ فيها الشمسَ اثنتىْ عَشْرةَ

مرة ، واحتيج اذا آنساق هذا الفضلُ إلى استعمال النقل الذى يطابِقُ إحدى السنتين بالأخرى اذا افترقتا ، ويُدانِى بينهما اذا تفاوتتا .

وما زالت الأُمَم السالفة تَكْبِس زياداتِ السنين على افتنانٍ من طُرُقها ومذاهبها ، وفى كتاب الله عز وجل شهادةٌ بذلك إذ يقول فى قِصَّة أهل الكهف : ﴿ ولَبِثُوا فى كَهْفِهِمْ ثَلٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعاً ﴾ . فكانت هذه الزيادة بأن الفضْل فى السنين المذكورة على تقْرِيب التقريب .

فأما الفُرْس فإنهم أجْرَوْا معاملاتهم على السنة المعتَدلة التى شهورُها اثنا عشر شهرا ، وأيامُها ثلثمائة وستون يوما ، ولَقَّبوا الشهورَ اثنَىْ عشَر لَقَبا ، وسَمَّوْا أيام الشهر منها ثلاثين آسما ، وأفردوا الأيَّام الخمسةَ الزائدة ، وسَمَّوْها المسترقَةَ وكَبَسوا الرُّبْع فى كل مائة وعشرين سنةً شهرا .

فلما آنقرض مُلْكُهم ، بطل فى كَبْس هذا الربع تدبيرُهم ، وزال نَوْرُوزُهم عن سُنَّته ، وآنفرج ما بينه وبين حقيقةِ وقْته ، انفراجا هو زائدٌ لا يقف ، ودائم لا ينقطع ، حتّى إنَّ موضوعهم فيه أن يقع فى مَدْخَل الصيف وسينتهى إلى أن يَقَع فى مَدْخَل الشتاء ، [ويتجاوز ذلك ، وكذلك موضوعهم فى المهرجان أن يقع فى مدخل الشتاء] (١) وسينتهى إلى أن يَقَع فى مَدْخَل الصيف ويتجاوزه .

وأما الروم فكانُوا أتقنَ منهم حكْمةً وأبعدَ نظرا فى عاقبةٍ : لأنهم رَتَّبوا شهورَ السنة على أرصادٍ رصَدُوها ، وأنواءٍ عرَفُوها ، وفَضُّوا الخمسةَ الأيام الزائدةَ على الشُّهور ، وساقُوها معها على الدُّهور ، وكَبَسُوا الرُّبُع فى كل أربع سنينَ يوما ، ورَسَمُوا أن يكون إلى شُبَاطَ مضافا فقرّبوا ما بَعَّده غيرُهم ، وسَهَّلوا على الناس أن يقتَفُوا أثرَهم ، لا جرم

(١) الزيادة من "المقريزى" ص ٢٧٩ ج ١ ومن الرسائل وهى من سقطات الناسخ .

أن [المعتضد بالله صلواتُ الله عليه علىٰ أصولهم بنىٰ ، ولمثالهم احتذى] (١) فى تصييره نَوْرُوزَه اليومَ الحادىَ عشَرَ من حَزِيران ، حتّى سَلِم مما لحَقَ النواريزَ فى سالف الأزمان ، وتلافَوُا الأمرَ فى عَجْز سِنِى الهلال عن سِنِى الشمس ، بأن جَبَرُوها بالكَبْس ، فكُلّما اجتمع من فُضُول سِنِى الشمس ما يَفِى بتمام شهرٍ جعلوا السنةَ الهلاليَّة التى يتَّفِق ذلك فيها ثلاثةَ عشَرَ هلالا ، فرُبَّما تَمَّ الشهر الثالث عشر فى ثلاثِ سنين وربَّما تَمَّ فى سنتين بحَسَب ما يُوجِبه الحساب ، فتصير سنَتَا الشمس والهلال عندهم متقاربتين أبدًا لا يتباعَدُ ما بينَهما .

وأمّا العربُ فإنَّ الله جل وعزَّ فضَّلها على الأُمَم الماضية ، وورَّثها ثمراتِ مساعيها المتعبة ، وأجرىٰ شهرَ صيامها ومواقيتَ أعيادِها وزكاةَ أهل ملَّتها ، وجزية أهل ذِمَّتها ، علىٰ السنة الهلاليَّة ، وتعبَّدها فيها برُؤْية الأهلة ، إرادةً منه أن تكون مناهِجُها واضحه ، وأعلامُها لائحه ، فيتكافأ فى مَعْرِفة الغَرَض ودخُول الوقت الخاصُّ منهم والعام ، والناقِصُ الفِقْه والتام ، والأنثىٰ والذكَر ، وذو الصِّغَر والكِبَر ، فصاروا حينئذ يَجْبُون فى سنة الشمس حاصلَ الغلّات المَقْسُومة وخراجَ الأرض الممسوحة ، ويَجْبُون فى سنة الهلال الجَوالِىَ والصدَقات والأرجاء (٢) والمُقَاطعات والمستَغَلَّات ، وسائرَ ما يجرى على المُشاهَرات ، وحدَث من التعاظُل والتداخُل بين السنين ما لو استمر لقَبُح جدّا ، وازداد بُعْدا ، إذ كانت الجبايةُ الخراجيةُ فى السنة التى تنتهى إليها تُنْسَب فى التسمية إلىٰ ما قبلَها فوجبَ مع هذا أن تُطْرَح تلك السَّنَةُ وتلغىٰ ، ويُتجاوزَ إلىٰ ما بعدها ويَتخطّى ، ولم يجُزْ لهم أن يقتدُوا بمخالفيهم فى كَبْس سنة الهلال بشهرٍ ثالث عشر ؛ لأنهم لو فعلوا ذلك لتزحزحت الأشهرُ الحُرُم عن مواقِعِها ، وانحرفَت المناسكُ

---

(١) الزائد من ''رسائل الصابى'' و''المقريزى'' .

(٢) كذا فى المقريزى أيضا والذى فى الرسائل الخطية «والأرحام» .

عن حقائقها ، ونقصت الجبايةُ عن سنِي الأهلة القِبْطية بقِسْطِ ما استغْرَقه الكبسُ منها ، فانتظَرُوا بذٰلك الفضلِ إلىٰ أن تتمّ السنة ، وأوجبَ الحسابُ المقرِّب أن يكون كل آثنتين وثلاثين سنةً شمسيةً ثلاثا وثلاثين سنةً هلالية ؛ فنقلُوا المتقدّمة إلىٰ المتأخِّرة نقلا لا يتجاوزُ الشمسيةَ ، وكانتْ هذه الكُلْفةُ فى دُنياهم مستَسْهَلة مع تلك النعمة فى دينهم .

وقد رأىٰ أميرُ المؤمنين نقلَ سنة خمسين وثلثمائة الخراجيّة إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسين وثلثمائة الهلالية جمعًا بينهما ، ولزوما لتلك السُّنّة فيهما .

فاعمَلْ بما ورد به أمرُ أمير المؤمنين عليْك ، وما تضمنه كتابُه هذا إليك ، ومُرِ الكُتّاب قِبَلك أن يحتذُوا رسمَه فيما يكتبُون به إلىٰ عُمّال نواحيك ، ويخلّدونه فى الدواوين من ذُكُورهم ورُفُوعهم ، ويقرِّرونه فى دُرُوج الأموال ، وينظِمُونه فى الدفاتر والأعمال ، ويبنُونَ عليه الجماعات والحُسْبانات ، ويُوعِزون بكَتْبه من الروزنامجات والبراآت ، وليكن المنسوبُ كان من ذٰلك إلىٰ سنة خمسين وثلثمائة التى وقَع النقلُ [عنها معْدُولا به إلىٰ سنة إحدى وخمسين التى وقع النقل] (١) إليها ، وأقِمْ فى نفوس من بحضْرتك من أصناف الجُنْد والرعية وأهلِ الملّة والذمّة أنّ هذا النقلَ لا يغيّر لهم رَسْما ، ولا يُلْحق بهم ثَلْما ، ولا يعودُ علىٰ قابِضِى العطاء بنُقْصان ما آستحقُّوا قبضه ، ولا علىٰ مؤدّى حقِّ بيتِ المال بإغضاء عما وجبَ أداؤُه ، فإن قرائحَ أكثرِهم فقيرةٌ إلىٰ إفهام أمير المؤمنين الذى يُؤْثِر أن تُزَاح فيه العِله ، وتُسَدّ به مِنْهم الخَلّة ، إذ كان هذا الشأنُ لا يتجدّدُ إلا فى المُدَد الطِّوال التى فى مثلها يُحتاجُ إلىٰ تعريف الناشِى ، وإذكار الناسى ، وأجِبْ بما يكون منك جواباً يحسُن موقعُه لك ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) الزيادة من رسائل الصابى الخطية .

المـــذهب الثـانى

(ممـا كان يُكْتَب عن الخلفاء فى تحويل السنين أن يُفْتَتَح ما يكتب بلفظ : « من فلانٍ أمير المؤمنين إلىٰ أهل الدولة » ونحوِ ذٰلك)

ثم يُؤتىٰ بالتحميد وهو المعبَّر عنه بالتصدير، وعليـه كان يكتُب خلفاء الفاطميين بالديار المصرية .

قال فى "موادِّ البيان" : والطريقُ فى ذٰلك أن يفتتح بعد التصدير والتحميد ...(١)

... ...

الضـــرب الأوّل

(ما كان يُكْتب فى الدولة الأيوبيـــة)

وكانت العـادةُ فيه أن يفتَتَح بخرجت الأوامرُ ونحو ذٰلك ، ثم يذكر فيـه نحوا ممـا تقـدّم .

وهـذه نسخةُ مرسوم بتحويل السـنة القبطية [إلى السنة العربية] ، من إنشاء القاضى الفاضل عن الملك النـاصر « صلاحِ الدين يوسفَ بنِ أيوب » تغمَّده الله برحمته ، وهى :

خرجتِ الأوامرُ الصَّلاحيَّة بكَتْب هـذا المنشورِ وتلاوةِ مُودَعه بحيث يستمِرّ، ونَسْخه فى الدَّواوين بحيث يستقرّ، ومضمُونُه .

إنَّ نظرنا لم يزَلْ تتجلَّىٰ له الجلائلُ والدقائق ، ويتوخّى من الحسـنات ما تَسيرُ به الحقائبُ والحقائق ، ويُخَلِّد من الأخبار المشروعةِ، كلَّ عذْبِ الطرائق رائق، ويجدّد

(١) هنا بياض فى الاصل بقدر كلمات ولعل بعدها وهو علىٰ ضربين» الضرب الخ .

من الآثار المتبُوعة، ما هو بثَناء الخلائق لائق، ولا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً من الخير إلا جَهَدنا أن نكتَسِبها، ولا يُثَوِّب بنا الداعي إلىٰ مَثُوبة إلا رأينا أن نحتَسِبها، لا سيَّما ما يكون للسنينَ الماضية مُمْضِيا، وإلىٰ القضايا العادلة مُفْضِيا، ولمَحَاسن الشريعة مُجَلِّيا، ولعوارض الشُّبَه رافعا، ولتناقُض الخَبَر دافعا، ولأبواب المُعاملات حافظا، ولأسباب المُغالطات لافِظا، وللخواطر من أمراض الشُّكُوك مصَحِّحا، وعن حقائق اليقين مُفْصِحا، وللأسماع من طَيْف الآختلاف مُعْفِيا، ولغاية الإشكال من طُرُق الأَفهام معفِّيا .

ولما آستهلَّتْ سنةُ كذا الهلاليةُ، وقد تباعَدَ ما بينها وبيْنَ السنة الخراجية إلىٰ أن صارتْ غَلَّاتها منسوبةً إلىٰ ما قبلها، وفى ذٰلك مافيه: من أخْذ الدِّرْهم المنقُود، عن غير الوَقْت المفْقُود، وتسمية بيتِ المال مُمْطِلا وقد أنْجَز، ووَصْف الحق المُتْلَف بأنه دَيْنٌ وقد أعْجَز، وأكْل رِزْق اليوم وتسميته منسوبًا إلىٰ أمْسِه، وإخراج المعتَدّ لسنةِ هلالِه إلىٰ حسابِ المعتَدِّ إلىٰ سنةِ شمْسِه .

وكان اللهُ تعالىٰ قد أجرىٰ أمرَ هـٰذه الأمّة علىٰ تاريخ منَزَّه عن اللَّبْس، مُوَقَّر عن الكَبْس، وصرَّح كتابهُ العزيز بتحريمه، وذَكَرَ ما فيه من تأخيرِ وقْتِ النَّسِيء وتقديمه؛ والأمّةُ المحمديةُ لا ينبَغى أن يُدرِكَها الكسر، كما أنَّ الشمس لا ينبغِى أن تُدْرِكَ القَمَر، وسُنَنُها بين الحق والباطل فارِقَه، وسَنَتُها أبدًا سابِقَه، والسِّنُون بعدها لاحِقَه، يتعاوَرُها الكَسْر الذى يُزَحْزِح أوقاتَ العبادات عن مواضِعِها، ولا يُدْرِك عملَها إلا من دَقَّ نظَرُه، واستُفْرِغت فى الحساب فِكَرُه، والسنةُ العربيةُ تَقْطَع بجَناجِر أهِلَّتها الآشتباه، وتَرُدُّ شهورَها حاليةً بعقُودها موْسُومَةَ الجِباه، وإذا تقاعسَت السنةُ الشمسية عن أنْ تَطأ أعقابَها، وتُوَاطِئَ حِسابَها، اجتذبَتْ قِراهَا قَسْرا، وأوجبَتْ

لَحَقّها ذكرا، وتزوّجَتْ سنةُ الشمس سنةَ الهلال وكان الهلالُ بينهما مَهْرا، فسنّتُهم المؤنثةُ وسنّتُنا المذكَّره، وآيةُ الهلال هُنا دُونَ آية الليل هى المُبْصَرَهْ، وفى السّنة العربيَّة إلىٰ ما فيها من عَرَبيَّة الإفصاح، وراحةِ الإيضاح، الزيادةُ التى تظهر فى كل ثلاثٍ وثلاثين سنةً تُوفى علىٰ عدد الأُمَم قَطْعا، وقد أشار اللهُ إليها بقوله: ﴿ وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَمِاْئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾. وفى هذه السنةِ الزائدةِ زيادَه، من لطائف السّعاده، ووظائِفِ العِبَاده، لأن أهلَ ملّة الإسلام يمتازُونَ علىٰ كل ملة بسَنَة فى نظير تلك المدّة قصَدُوا صَلاتَها، وأدَّوْا زكاتَها، وحجُّوا فيها البيتَ العتيقَ الكريم، وصامُوا فيها الشهرَ العظِيم، وآستوجَبُوا فيها الأُجُورَ الجليله، وأَنِسَتْ فيها أسماعُهُم بالأعمار الطويله، ومخالِفُوهم فيها قد عُطِّلت صحائفُهم فى عُدْوانِهم، وإن كانت عاطله، وخلَتْ مواقِفُهم فى أديانِهم، وإن لم تكُنْ قطُّ آهِلَهْ.

وقد رأينا باستخارةِ الله سبحانه والتيمُّن بآتّباع العوائد التى سلَكَها السَّلَف، ولم تَسْلُك فيها السَّرَف، أن ينسَخُوا أسماءَها من الخَرَاج، ويذهبَ ما بين السنِينَ من الآضْطِراب والآعوجاج، لا سيما والشهورُ الخراجيَّة قد وافقَتْ فى هذه الشهور الشهورَ الهلالية، وألقى اللهُ فى أيامنا الوِفاقَ بين الأيَّام، كما ألقىٰ باعتلائنا الوِفاقَ بين الأنام، وأسكَنَ بنظرنا ما فى الأوقات من آضطرابٍ وفى القلوب من اضْطِرام.

فلْيُستَأْنَف التاريخُ فى الدواوين المعموره، لآستقبال السنة المذكوره، بأن تُوسَم بالهلاليَّة الخراجيَّةُ لإزالة الالتباس، ولإقامة القِسْطاس، وايضا [حا] لمن أمْرُه عليه غُمّةٌ من الناس، وعلىٰ هذا التقرير، تُكْتَب سجِلَّات التحضير، وتنتظِم الحُسْبانات المرفُوعه، والمَشارِعُ الموضُوعه، وتَطّرد القوانينُ المشْرُوعه، وتُثَبَّت المكلَّفات المقطوعه، ولو لم يكُنْ بين دَواعى نقْلها، وعَوارض زَلَلِها وزوالها، إلا أنَّ الأجناد

إذا قبَضُوا واجباتِهم عن منشورٍ إلىٰ سنةِ خمس فى أواخرِ سنةِ سبع وسقَط ساقِطُهم بالوفاة، وجرىٰ بحكم السمْع لا بالشَّرْع إلىٰ أن يرث وارثُه دُونَ بيت المـال مستغَلّ السنة الخراجيـة التى يلتقى فيهـا تاريخ وفاتِه من السـنة الهلالية وفى ذٰلك ما فيه، ممـا يُبايِنُ الإنصاف وينافيه [لكفى] .

وإذا كان العدلُ وضْعَ الأشـياء فى مواضعها فاسنا نحْرِم أيّامنا المحرّمةَ بذِمَامِنا، مارُزِقَتْه أبناؤُها من عدل أحكامنا، بل نخْلَع عن جديدها المس كل المس، و[تمْنَع] تَبِعة الضَّلال أن تُسند مهادنَتُه إلىٰ نُور الشمس، ولا نجعلَ أيامنا معمورةً بالأسقاط التى تجمعها، بل مَغْمورةً بالأقساط التى تنفَعُها، فلْيُبْنَ التاريخُ علىٰ بُنْيانه وليُحْسَم الخُلْف الواقع فى السنين، بهذا الحقِّ الصادِع المبين، ولْيُنْسَخ المشهودُ به فى جميع الدواوين، ولْيكاتَبْ بحُكْمه من الخراج إلىٰ من يمكِنُه من المستَخْدَمين ــ ومنهـا أن المستجِدّ من الأجناد لو حُمِل على السنة الخراجية فى استِغْلاله، وعلى الهلاليّة فى استِقْباله، لكان مُحالًا علىٰ مايكون مُحالا، وكان يتعَجَّل استِقْبالا، ويُباطِن استعلالا، وفى ذٰلك ماينافِرُ أوصافَ الإنصاف ويصُون الفلاح إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــرب الثـانى

(ما يُكتَب به فى زماننـــا)

وقد جرتِ العادةُ أن يُكتَب فى قطع الثُّلُث وأنه يفتَتَح بخطبة مفتتحة بـ«الحمدُ لله» ثم يقال : وبعـدُ فإنا لِمَا اختصَّنا الله تعالىٰ به من النظَر فى أمر الناس ومصالِحِهم، ويذكر ماسنح له من ذٰلك ثم يُقال : ولمـّا كان، ويذكُر قصـة السنين : الشمسية والقمريَّة، وما يطْرَأ بينهما من التباعُد الموجب لنَقْل الشمسية إلى القَمَرية،

ثم يقال : اقتضى الرأىُ الشريفُ أن يحوّلَ مُغَلُّ سنةٍ كذا إلىٰ سنة كذا وتُذْكر نسخة ذٰلك ، ثم يقال : فرُسِم بالأمر الشريف الفلانى لا زال ... ... أن تحوّل سنةُ كذا إلىٰ سنةٍ كذا .

وهذه نسخة مرسوم بتحويل السنة القِبْطية إلى العربية ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعلَ الليلَ والنهارَ آيتين ، وصيّرَ الشهورَ والأعوام لابتداء المُدَد وانتهائها غايتيْن ، ليَعْلَمَ خلقُه عدَدَ السنينَ والحساب ، وتعمل بريّتُه علىٰ توفيةِ الأوقات حقَّها من الأفعال التى يحصُل بها الاعتداد ويحسُن بها الاحتِساب .

نحمدُه علىٰ ما خَصَّ أيامنا الزاهرةَ من إنعام النظَر فى مصالح خَلْقِه ، وإمعانِ الفِكْر فى تشييد ما بَسَط لهم من رِزْقِه ، وإزالة الضَّرر فى تيسير القيام بما أوجبَ عليهم من حقِّه ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً عاصمةً من الزيغ ذا هَوىٰ ، معتصمةً من التوفيق بأقْوىٰ أسباب التوثيقِ وأوثَقِ أسباب القُوىٰ ، شافعةً حُسنَ العمل فى مصالح العباد بحُسْن النية ، فإنَّ الأعمالَ بالنيات وإنَّما لكُلِّ امرئٍ ما نوىٰ ؛ ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه الله رحمةً للعالمين ، وحجةً على العامِلين ، ونشر دعْوتَه فى الآفاق فأيَّده لإقامتها بنَصْره وبالمؤمنين ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أُمِروا فأطاعُوا ، ونُهُوا فاجتنَبُوا ما نُهوا عنه ما استطاعُوا ، صلاةً تنمى نَماءَ البُدور ، وتَبْقىٰ بقاءَ الدُّهور ، وتُطْوى بنشرها مراحلُ الأيام إلىٰ يوم النُّشور .

وبعد ، فإنَّا لمَا اختصَّنا اللهُ تعالىٰ به من التوفُّر علىٰ مصالح الإسلام ، والتناوُل لما تنْشَرح به فى مواقِف الجهاد ، صدُورُ السيوف وتنطِقُ به فى مصالح العِبَاد ، ألسنةُ الأقلام ، نَتْبَع كلَّ أمر فنَسُدّ خَللَه ، ونُثَقِّف مَيلَه ، ونُقيم أوَدَه ، وننظُر ليومه

بما يصلح به يومُه ولغده بما يُصْلِح غَدَه، إصلاحًا لكل حالٍ بحسَبِه، وتقريبًا لكل شيءٍ علىٰ ما هو أليَقُ بشأنه وإقرارا لكلِّ أمر علىٰ ما هو الأحسَنُ به .

ولما كان الزمنُ مقسومًا بين سنِينَ شمسيةٍ يتَّفِق فيها ما أخرج الله تعالىٰ من الرِّزْق لعباده، ويحصُلُ بها ميقاتُ القُوت الذى قال الله تعالىٰ فيه : ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِه إذا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّه يَوْمَ حَصَادِه﴾ وقمريَّة لا يُعَوَّل فى أحكام الدِّين إلا عليها، ولا يُرجَع فى تواريخ الإسلامِ إلَّا إلَيْها، ولا تُعتبر العبادةُ الزمانيَّة إلا بأهِلَّتِها، ولا يُهتدىٰ إلىٰ يومِ الحجِّ الأكبرِ إلا بأدلَّتِها، ولا يعتَدُّ فى العِدَد التى تُحفَظ بها الأنسابُ إلا بأحكامِها، ولا تُعْلَم الأشهرُ الحُرُم إلا بوُجُودِها فى الأوقات المخصوصة من عامِها . وكان قد حصل بينَهما من تفاوُت الأيام فى المُدَد، واختلاف الشُّهور الهلالية فى العَدَد، ما يلزم منه تداخُلُ مُغَلّ فى مُغَل، ونسبةُ شيءٍ راح وانقضىٰ إلىٰ ما أدرك الآنَ وحصَلْ، ويؤدِّى ذٰلك إلىٰ إبقاء سنةٍ بغير خَرَاج، وهَدْر ما يجب تركُه فليس الوقتُ إليه محتاج، وإلغاءِ ما يتعيَّن إلغاؤُه، وإسقاطِ ما تلتفتُ إليه الأذهان وهو لا يمكِنُ رجاؤُه، وإن كان ذٰلك الإسقاط لاضَرَرَ فيه على العِباد والبِلاد، ولا نقْص يَنْتُج منه للأُمَراء والأجناد، ولا حقيقةَ له ولا معنىٰ، ولا إهمالَ شيء أفْقر تركُه ولا إبقاؤُه أغنىٰ، ولٰكن صار ذٰلك من عوائد الزَّمن القديمه، ومُصطَلَحا لا تزال العقُول بالاحتياج إلىٰ فِعْله عَليمه، وأمْرا لا بُدّ للمُلْك منه، وحالا لامنْدُوحة للدُّوَل عنه، لتغدو التصرُّفاتُ على الاستقامة ماشيَه، والمعاملاتُ من الحق ناشيَه، ويُعْفىٰ رسمُ مالم يكن فى الحقيقة رابطْ، ويزال اسمُ مالو توسَّمه الفضلُ لأضحىٰ كأنه يُغالِط — اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن تحوَّل هذه السنةُ التى يحصُل بها الكَبْس، وأن يَدْحَضَها يقينُ النفس، وأن يُرفَع ما بها من أشكال الإشْكال، ويُزالَ هذا السببُ الذى نشأ عنه دخولُ الأكثر باستِدْراج الأقلّ فلا يكونُ للأذهان عليه اتّكال .

نظرًا بذلك فى مصالح الأمة ، ودفعا لما يجدونه من أوهام مُدْلَهِمَّة ، وعملًا يطابق به الدليلُ حكمَه ، ويوافقُ فيه اللفظُ معناه والفعلُ ٱسمَه ، وتخفيفًا عن الرعية من لزوم مالا يلزم فى الحقيقة عملًا بقوله تعالى : ﴿ ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لازال عدلُه سائرا فى الأيّام والأنام ، وفضلُه [سائدا] بالرِّفق الذى تغْدُو به العقُول والعيُونُ كأنها من الأمْن فى منَام ــ أن يُحوّل مُغَلّ سنة تسع وأربعين وسَبْعمائة بالديار المصرية المحروسة ، لمُغَلّ سنة خمسينَ وسبعمائة ، ويُلْغىٰ ٱسمُ مُغَل السنة المذكوره ، من الدَّواوين المعموره ، ولا يُنْسَب إليها مُغَلٌّ بل يكون مُغَلُّ سنة خمسين وسبعمائة تاليًا لمُغَل سنة ثمانٍ وأربعين وسبعمائة ، وتستقرّ السنةُ حينئذٍ هلاليَّةً خَراجيَّةً بحكم دَوَرانِ السنين ، وٱستحقاقُ هذا التحويل من مدّة خمسَ عشرةَ سنة ، حيث ٱتفاقُ مبدإ السنين الشمسيةِ والقمريّة ، ووُقوع الإغفال عن هذا المُبْهَم فى الدول الماضية ، لتكون هذه الدولة الشريفة قائمةً بما قَعد عنه من مَضَىٰ من الدول ، مُقَوِّمةً بعَوْن الله لكل متأوِّدٍ من الزَّيْغ والخَلَل ، لما فى ذٰلك من المصلحة العامّه ، والمِنْحة التامّه ، والحقّ الواضح ، والقَصْد الناجح ، والمَنْهَج القَويم ، والصِّراطِ المستقيم ، والاعتماد على الشهور القمريّة قال الله تعالىٰ : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ .

فليُعْتمَدْ حُكْمُ ماقرّرْناه ، وليُمتثَلْ أمرُ ماأمَرْناه ، وليُثبَّت ذٰلك فى الدّواوين ، وليُشْهَر نَبَؤُه المبين ، وليُسْقَطْ ماتخلَّل بين هاتين السنتين من المُغَلّ الذى لاحقيقةَ له ، وليُتْرَكْ ما بينهما من التفاوُت الذى لا تَعْرِف الحُسْبانَاتُ مُعَدّله ، وليُمحَ ٱسمُ هـذه الأيام من الدفاتر ، وليُنْسَ حكمُها فإنها أَوْلىٰ بذٰلك فى الزمن الآتى والغابر ، فليس المُغَلُّ سوىٰ للعام الذى وُجد فيه سببُه ، وظهر فيه حصولُه وتعيّن طلَبُه ، وأَدْرَكَ فى إبّانه ، وجاء

فى زمانه، وأينع به ثمرُ غَرْسه، وآستُحِقَّ فى وقته لا كما يَلْزَم أن يكون اليومُ فى أمْسه؛ وفى ذلك من الأسباب الباعثة على مارسَمْنا به، والدَّواعى اللازمة لذَهَابه، والبراهين القاطعة بقَطْعه، والدلائل الواضحة على دَفْعه، ماقدّمناه : من المصالح المعيَّنه، والطُّرُق المبيَّنه، وإزالة الأوْهام، وتأكيد الأفْهام، وإراحة الخَوَاطر، وإزاحة ما تتشوّق إليه الظُّنونُ فى الظاهر؛ وليُبْطَل ذلك من الآرتفاعاتِ بالكُلِّيَّة، ويُسْقَط من الجرائد لتغدُوَ الحُسْبانات منه خَلِيَّه، ولا يُذْكَرُ مُغَل السنة المدحوضة فى سِجِلٍّ ولا مَشْروح، ولا مشهودٍ يغْدُو حكمه ويَرُوح، ولا مكلَّفات تُودِعها الأقلام شيئاً على المَجَاز وهو فى الحقيقة مَطْرُوح، لتَثْبُتَ الحسناتُ لأيامنا الزاهرة فى هذا المَحْو، ويُكْشَف مايَنْتج بسماء العقل من غيم الجَهالة بما وَضَح من هذا الصَّحْو، ويتَمَسَّكَ فى صحة العبادات والمعاملاتِ بالسنِينَ العربية من غير خُروج عن ذلك النحو، والله تعالى يُبَيِّن بِنَا طُرُقَ الصواب، ويُحْسِن ببقاء مُلكنا الشريف المآلَ والمآب، ويجعَلُ دولتنا تُوَضِّح الأحكام على آختلاف الجديدين : ﴿ إنَّ فى خَلْق السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وآخْتِلاف اللَّيْل والنَّهارِ لآيَات لِأُولِى الأَلْبَاب ﴾ .

والآعتمادُ فيه على الخط الشريف ـ أعلاه الله تعالى ـ أعلاه، إن شاء الله تعالى .

حادى عِشْرين(١) جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة .

حسَبَ المرسوم الشريف؛ بالإشارة الكافلية السيفيَّة، كافل الممالك الشريفة الإسلامية، أعزَّ الله تعالى نُصْرته؛ ثم الحَمْدلة والتصلية والحَسْبلة .

قلت : وهذه النسخةُ صدْرُها إلى قوله : والشهورُ الهلالية أجنبيٌّ عما بعدَ ذلك من تتمة الكلام . وذلك أنى ظَفِرت بعَجُز النسخة، وهو المكتَتَب فى تحويل

(١) كذا فى الأصل باثبات النون وهو كثير فى كتابات الكتّاب وهو لحن .

سـنة تسع وأربعين فى نفس المرسومِ الشريفِ الذى شملتْه العلامةُ الشريفة ، وقد قُطِع أوّله فركَّبتها علىٰ هذا الصدْر .

ومن عجيبِ ما يُذْكَر فى ذٰلك أن سنة تِسع وأربعين التى حُوِّلت إلىٰ سنةِ خمسين هى السنة التى وقَع فيها الطاعونُ الجارفُ الذى عمّ الأقطارَ خلا المدينةَ النبويَّةَ ، علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام التى أخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنه لا يَدْخُلها الطاعون ، وكَثُر فيها الموتُ حتى آنتهىٰ إلىٰ عشرين ألفًا فى اليوم الواحد ، وكان يُقال فى هذه السنة لما حُوّلت : [مات كلُّ شىء حتى السنة] لإلغائها . وجَعْل مُغَلّ سنة خمسين تاليا لمُغَل سنة ثمانٍ وأربعين كما تقدّم .

الفصـــل الثانى

من البـاب الرابـع من المقـالة السادسـة

(فيـما يُكتَب فى التـذاكر)

والتَّـذاكر جمـع تَذْكِرة .

قال "فى موادّ البيان" : وقد جرتِ العادةُ أن تُضَمَّن جملَ الأموال التى يُسافِر بها الرسولُ ليعودَ إليها إن أغفل شيئًا منها أو نسيه ، أو تكونَ حجةً له فيما يُورِده ويُصدِره ، قال : ولا غنًى بالكاتب عن العِلم بعُنْواناتها وترتيبها .

فأما عُنوانُ التـذْكِرة فيكون فى صَدْرها يتلوَ البسملة ، فإن كانت للرسول يعْمَل عليها ، قيل : تَذْكِرة مُنْجِحة صدرتْ علىٰ يد فلان عند وصوله إلىٰ فلان بن فلان ، وينتهى بمشيئة الله تعالىٰ إلىٰ ما نُصَّ فيها . وإن كانت حجةً له يَعْرِضها لتَشْهد بصدق

ما يورده، قيل : تذكرة مُنْجِحة صدرتْ علىٰ يد فلانِ بنِ فلان بما يحتاجُ إلىٰ عَرْضه علىٰ فلان .

وأما الترتيبُ فيختلف أيضا بحَسَب آختلاف العُنوان : فإن كانتْ على الرسم الأوّل ، كانَ بصدرها « قد آستخَرْنا الله عزَّ وجل وندَبْناك ، أو عوّلْنا عليك ، أو نفّذناك ، أو وَجَّهناك إلىٰ فلان : لإيصال ما أودَعْناك وشافَهْناك به من كذا وكذا» ويَقُصُّ جميع الأغراض التى أُلْقِيت إليه مجملة . وإن كانت محمولةً علىٰ يده كالحُجة له فيما يَعْرِضه ، قيل : «قد آستخرْنا الله عزّ وجل وعوّلْنا عليك فى تحمُّل تَذْكِرتنا هذه والشُّخُوص بها إلىٰ فلان ، أو النُّفُوذ ، أو التَّوجُّه ، أو المَصير ، أو القصد بها وإيصالها إليه ، وعَرْض ما تضمَّنته عليه ، من كذا وكذا» ويقُصُّ جميع أغراضها .

ثم قال : وهذه التذاكرُ أحكامُها أحكامُ الكتب فى النُّفوذ عن الأعلىٰ إلى الأدْنىٰ ، وعن الأدنىٰ إلى الأعلىٰ ، فينبغى أن تُبْتَنىٰ علىٰ ما يَحفَظُ رتَب الكاتب والمكتوب إليه : فإن كانتْ صادرةً عن الوزير إلى الخليفة مثلا فتُصَدَّر بما مثاله «قد آستخرتُ الله تعالىٰ ، وعوّلتُ عليك فى الشُّخُوص إلىٰ حضرة أمير المؤمنين ــ صلواتُ الله عليه ــ متحَمِّلا هذه التَّذْكِرة ، فإذا مَثَلْت بالمواقف المطهَّرة ، فوفِّها حقَّها من الإعظام والإكبار ، والإجْلال والوَقار ، وقدِّم تقبيلَ الأرض والمطالعةَ بما أشاءُ مواصلتَه من شُكْر نِعَم أمير المؤمنين الضافيةِ علىّ ، المتتابِعةِ لَدَىّ ، وإخْلاصِى لطاعته ، وآنتصابى فى خدمته ، وتَوْفيرِى على الدعاء بثَبات دولته ، وخُلُود مملكتِه ، وطالِعْ بكذا وكذا» وعلىٰ هذا النظام إلىٰ آخر المراتب يعنى مراتب المكاتبات .

قلت : والذى جرىٰ عليه آصطلاحُ كُتَّاب الزمان فى التذاكر أنَّ التذْكرة تكتب فى قطع الشامى ، تُكْسَر فيها الفَرْخة الكاملةُ نصفين ، وتجعل دفترًا وورقةً إلىٰ جنب

أخرىٰ لا كُرَّاسةً بعضُها داخلُ بعض ، وتكون كتابتُها بقلَم الرِّقاع ، وتكون البسملة فى أعلىٰ باطن الورقة الأُولىٰ ببياضٍ قليلٍ من أعلاها وهامش عن يمينها ؛ ثم يُكتَب السطر التالى من التذْكرة علىٰ سَمْت البسملة ملاصِقًا لها ، ثم يُخَلَّىٰ قدرُ عرض إصبعين بياضا ويُكتَب السطر التالِى ، ثم يخلَّىٰ قدر إصبع بياضا ويكتب السطر التالى ، ويجرى فى باقى الأسْطُر علىٰ ذلك حتى يأتى علىٰ آخر الورقة ، ثم يُكتَب باطنُ الورقة التى تليها كذٰلك ، ثم ظاهرها كذلك ، ثم الورقة الثانيةُ فما بعدها علىٰ هذا الترتيب إلىٰ آخر التذكرة ، ثم يكتب « إن شاء الله تعالىٰ » ثم التاريخ ، ثم الحمدلة والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم الحسبلة ، علىٰ نحو ماتقدّم فى المكاتَبات والولايات وغيرها علىٰ ماتقدّم بيانه فى المقالة الثالثة فى الكلام على الخواتم .

* * *

وهذه نسخةُ تذْكرة أنشأها القاضى الفاضلُ عن السلطان صلاح الدين يوسفَ ابن أيُّوب ، سيَّرها صُحْبَةَ الأمير شمس الدين الخطيب : أحدِ أمراءِ الدولة الصلاحية إلىٰ أبواب الخلافة ببغْدادَ فى خلافة الناصر لِدين الله ، وهى :

تَذْكرةٌ مباركة ولم تزل الذِّكْرىٰ للمؤمنين نافعه ، ولعَوارِض الشكِّ دافعه ، ضُمِّنت أغراضًا يُقَيِّدها الكِتَاب ، إلىٰ أن يُطْلِقَها الخطاب . علىٰ أن السائر سَيَّار البيان ، والرسولَ يَمْضِى علىٰ رِسْل التبيان ، والله سبحانه يُسدّده قائلا وفاعلا ، ويحفَظُه بادِئًا وعائدًا ومُقِيما وراحِلا .

الأميرُ الفقيهُ شمسُ الدين خطيبُ الخطباء ــ أدام الله نعمتَه ، وكتب سلامتَه ، وأحسن صَحَابَته ــ يتَوجَّه بعد الاستخارة ويقْصِد دارَ السلام ، والخِطَّةَ التى هى عُشُّ بيضة الإسلام ، ومجتَمَع رجاء الرِّجال ، ومتَّسَع رحاب الرِّحال ؛ فإذا نظَر تلك الدارَ

الدارّ سحابُها ، وشافَهَ بالنظر مَعَالِمَ ذٰلك الحَرَم المحرّمِ على الخُطوب خِطابُها ؛ ووَقَف أمامَ تلك المواقِفِ التى تحسُد الأرجلَ عليها الرُّءوس ، وقام بتلك المنازِلِ التى تُنافس الأجسامَ فيها النُّفُوس ، فلو ٱستطاعَتْ لزارَتِ الأرواحُ محرِمةً من أجسادِها ، وطافَتْ بكَعْبتِها متجرّدةً من أغمـادِها ، فلْيُمطِر الأرضَ هناك عنَّا قُبَلًا تُخَضِّبُها ، بأعداد لا نُحصِّلها ؛ ولْيُسَلِّم عليها سلامًا نعتدُّه من شعائر الدين اللازمه ، وسُنَن الإسلام القائمه ، ولْيُورِدْ عنا تحيَّةً يستنزِلهـا من عند الله تحيةً مباركةً طيِّبه ، وصـلاةً تخترِق أنوارُها الأستارَ المحجَّبه ، ولْيُصافِح عنَّا بوجْهِه صَفْحةَ الثَّرىٰ ، وليَستشرِفْ عنَّا بنظره فقد ظَفِر بصباح السُّرىٰ ، ولْيستَلِم الأركانَ الشريفة ، فإن الدِّين إليها مستَنِد ، وليستَدِم الملاحظاتِ اللَّطِيفة ، فإنَّ النُّور منها مستَمَدّ ، وإذا قضَى التسـليمَ وحقَّ اللقاء ، وٱستدعى الإخلاصُ جَهْد الدعاء ، فلْيعُدَّ ولْيُعِدْ حوادثَ ما كانتْ حديثًا يُفترىٰ ، وجَوارِيَ أمور إن قال منها كثيرًا فأكثَرُ منـه ما جرىٰ ، وليشْرَحْ صـدرا منها لعلَّه يشرَحُ منا صَدْرا ، ولْيُوضِّح الأحوالَ المستسرة فإنَّ الله لا يُعْبَدُ سِرّا :

وَمِن الغَرائِب أنْ تَسِـيرَ غَرائِبٌ * فى الأرض لَمْ يَعْـلَمْ بهـا المأْمُول

كالْعِيس أقتَـلُ ما يكونُ لهـا الظَّمَا * والمـاءُ فَـوْقَ ظُهُورِهـا محْمُول

فإنَّا كنا نقتَبِس النارَ بأيدينا ، وغيرنا يستنير ، ونستَنْبِط الماء بأيْدِنا ، وغيرُنا يستَمِير ، ونَلْقَ السِّهام بنحورنا ، وغيرُنا يغيِّر التصوير ، ونُصافِح الصِّفاح بصُدُورنا ، وغيرنا يَدَّعى التصدير ، ولا بدّ أنْ نستَرِدَّ بضاعتنا ، بموقف العدْل الذى تُرَدّ به الغُصوب ، ونُظْهِر طاعتنا ، فنَأخُذُ بحظ الألسنة كما أخذْنا بحظِّ القُلُوب ، وما كان العائقُ إلا أنَّا كنا ننْظُر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمه ، يُضاهى ابتداءَنا بالخِدْمه ، وإيجابًا للحق ، يشاكل إيجابَنَا للسَّبْق ، إلىٰ أن يكون سَحابُها بغيرِ يدٍ مستَنْزَلا ، وروْضُها بغيرِ غَرْس مُطْفلا .

كان أوّلُ أمرِنا أنا كُنّا فى الشام نفْتَح الفُتوحاتِ مُباشِرين بأنفسنا ونُجاهد الكفّارَ متقدّمين لعساكره نحنُ ووالدُنا وعمُّنا، فأىُّ مدينة فُتِحت، أو مَعْقِلٍ مُلِك، أو عسكر للعدُوّ كُسِر، أو مَصَافٍّ للإسلام معه ضرب، فما يجهَل أحد، ولا يجحَدُ عدوّ، أنّا نَصْطلِى الجَمْره، ونملك الكَسْره، ونتقدّمُ الجماعة، ونرتّب المقاتلة، وندبّر التعبئة، إلىٰ أن ظهرَتْ فى الشام الآثارُ التى لنا أجْرُها، ولا يضُرُّنا أن يكون لغيرنا ذِكْرُها .

وكانت أخبارُ مصرَ تتّصِل بنا بما الأحوالُ عليه فيها من سُوء التدبير، ومما دوْلتُها عليه من غَلَبة صغيرٍ علىٰ كبير، وأن النِّظام قد فَسَد، والإسلامَ بها قد ضَعُف عن إقامته كلُّ قائم بها وقَعَد، والفرَنْج قد احتاج مَنْ يُدَبِّرها إلىٰ أن يُقاطِعَهم بأموال كثيره، لها مَقاديرُ خَطِيره، وأنّ كلمة السُّنَّة بها وإن كانت مجمُوعه، فإنها مَقْمُوعه، وأحكامَ الشريعة وإن كانت مُسَمَّاه، فإنّها مُتَحاماه، وتلكَ البِدَع بها علىٰ ما يُعْلَم، وتلك الضَّلالاتِ فيها علىٰ ما يُفْتَى منها بفراق الإسلام ويُحْكَم، وذٰلك المذهَبُ قد خالط من أهْلِه اللَّحْمِ والدَّم، وتلك الأنصابُ قد نُصِبت آلهةً تُتَّخذ من دُون الله تُعَظَّم وتُفَخَّم، فتعالى الله عن شَبَه العِباد، ووَيْلٌ لمن غَرَّه تقلُّب الذين كفَرُوا فى البِلاد .

فسمَتْ هِمَمُنا دُونَ هِمَمِ ملوك الأرض إلىٰ أن نستَفْتِح مُقْفَلَها ونسترجِعَ للإسلام شارِدَها ونُعِيد على الدِّين ضالّته منها فسِرْنا إليها بعساكر ضَخْمه، وجموعٍ جَمَّه، وبأموالٍ ٱنتَهَكَت الموجُود، وبلغَتْ منّا المجهُود، وأنفَقْناها من خالص ذِمَمِنا وكَسْب أيدينا، ومن أَسارَى الفرَنْج الواقعين فى قبْضتِنا، فعرَضَتْ عوارِضُ مَنعتْ، وتوجَّهت للمصريين حِيَل باستنجاد الفرَنج تمّت : ﴿ولكُلِّ أجلٍ كِتاب﴾ . ولكلِّ أملٍ باب .

وكان فى تقدير الله سبحانه أنّا نمْلِكُها على الوجه الأحسن، ونأخُذُها بالحكم الأقْوى الأمْكَن، فغَدَر الفرَنج بالمصريين غَدْرة فى هُدْنةٍ عظُم خطْبها وخَبْطُها،

وعُلِم أنَّ استئصال كلمة الإسلام محطُّها، وكاتَبَنا المسلمون من مصر فى ذلك الزمان، كما كاتبنا المسلمون من الشام فى هـذا الأوان، بأنَّا إن لم نُدْرِك الأمرَ وإلا خرج من اليـد، وإن لم ندْفع غريمَ اليومِ لم يُمْهِل إلى الغـد، فسرْنا بالعساكر الموجودة والأمراءِ الأهل المعروفةِ إلىٰ بلادٍ قد تمهَّد لنا بها أمران، وتقرَّر لنا فيها فى القُلوب وُدَّان: الأوّلُ لما علِموه من إيثارنا المذهبَ الأقوم، وإحياءِ الحقِّ الأقدم، والآخَرُ لما يرجونه من فَكِّ إسارهم، وإقالة عِثارهم، ففعل اللهُ ما هو أهلُه، وجاء الخبرُ إلى العدوّ فانقطع حَبْلُه، وضاقَتْ به سُبُله، وأَفْرَج عن الديار بعد أن كانت ضِياعُها ورساتيقُها وبلادُها وإقليمُها قد نفَذَت فيها أوامرُه، وخفَقَتْ عليها صُلْبانه، وأَمِن من أن يُسْتَرْجَع ما كان بأيديهم حاصلا، وأن يُستنْقَذ ماصار فى مِلْكهم داخلا، ووصلْنا البـلاد وبها أجنادٌ عدَدُهم كثير، وسَوَادُهم كبير، وأموالهم واسعه، وكلمتهم جامعه، وهم علىٰ حربِ الإسلامِ أقدرُ منهم علىٰ حرْبِ الكُفْر، والحيلةُ فى السِّرِّ منهم أنفَذُ من العزيمة فى الجهر. وبها راجلٌ من السُّودان يزيد علىٰ مائةِ ألف رجل كلهـم أغْتامٌ أعجام، إنْ هُمْ إلا كالأنْعام، لا يعْرِفُون ربّاً إلا ساكنَ قَصْره، ولا قِبلةً إلا مايتوجَّهُون اليـه من رُكْنه. وبها عسكرٌ من الأرْمن باقونَ على النَّصْرانية موضوعةٌ عنهم الجِزْية كانت لهم شَوْكة وشِكَّة، وحَمِيَّـة وحُمَة، ولهم حواشٍ لقَصْرهم من بين داعٍ تَلَطُّف فى الضَّلال مَداخِلُه، وتُصيب العقولَ مخاتِلُه، ومن بين كُتَّاب أقلامُهم تفعل أفعالَ الأَسَل، وخُدَّامٍ يجمعُون إلىٰ سَوادِ الوجُوه سَوادَ النِّحَل، ودولةٍ قد كَبِر عليها الصغير، ولم يعرِفْ غيرَها الكبير، ومهابةٍ تمنع خَطَرات الضمير، فكيفَ لحَظَاتُ التدبير.

هذا إلى استباحةٍ للمَحارِم ظاهرة، وتعطيلٍ للفرائض علىٰ عادة جارية، وتحريف للشَّريعة بالتأويل، وعُدُول إلىٰ غيرِ مُراد الله فى التنزيل، وكُفْر سُمِّى بغـير اسمه، وشرع يُتستَّر به ويُحكَم بغير حُكْمه.

فما زلنا نَسْحَتُهم سَحْتَ المَبَارِد للشِّفار، ونَتَحَيَّفُهم تَحَيُّفَ الليل والنهار للأعمار، بعجائبِ تدبيرٍ، لا تحتملها المَسَاطِير، وغرائبِ تقريرٍ، لا تَحْمِلها الأساطِير، ولطف تَوصُّل ما كان فى حيلةِ البشرِ ولا قُدرتِهم إلا إعانةُ المقادير، وفى أثناء ذٰلك استنجَدُوا علينا الفرَنْج دَفعةً إلىٰ بُلْبَيْس، ودَفْعة إلىٰ دِمْياط، فى كل منهما وصَلُوا بالعدوِّ المُجْهَر، والحَشْد الأوفَر، وخصوصا فى نَوْبة دِمْياطَ فإنهم نازَلُوها بحرًا فى ألفِ مَرْكَبٍ مُقاتِل وحامل، وبَرًّا فى مائتى ألف فارس وراجل، وحصَرُوها شهرين يباكِرُونها ويُراوِحُونها، ويُماسُونها ويُصابِحُونها، القتالَ الذى يُصْليه الصَّلِيب، والقِرَاعَ الذى يُنادَىٰ به من مكانٍ قريب، ونحن نُقاتِلُ العدُوَّين : الباطنَ والظاهِر، ونُصابِرُ الضِّدَّيْن : المنافقَ والكافِر، حتَّى أتَى الله بأمره، وأيَّدَنا بنَصْره، وخابتِ المَطامع من المِصْرِيِّين ومن الفَرَنْج ومن مَلِك الرُّوم ومن الحَنَوِيِّين وأجناسِ الرُّوم لأن أنْفارهم تنافَرَتْ، ونَصارَاهم تناصَرَت، وأناجِيلَ طَوَاغيتِهم رُفِعتْ، وصُلُبَ صَلَبُوتِهم أُخْرِجَتْ، وشَرَعْنا فى تلك الطوائفِ من الأجنادِ والسُّودان والأرمن فأخرجْناهم من القاهرة تارةً بالأوامِر المُرْهِقة لهم، وبالذُّنوب الفاضحةِ منهم، وبالسُّيوف المجرَّدة وبالنار المُحْرِقة، حتَّى بقِيَ القصرُ ومَنْ به من خَدَمِه قد تفرّقتْ شِيَعُه، وتمزَّقت بِدَعُه، وخفَتَتْ دعْوتُه، وخَفِيَت ضلالَتُه . فهنالك تمَّت لنا إقامةُ الكلِمة والجهرُ بالخطبة والرفْعُ لِلِواء السَّواد الأعظم، والجمعُ لكلمةِ السَّواد الأعظم، وعاجلَ اللهُ الطاغيةَ الأكبرَ بفَنائه، وبَرَّأَنا من عُهْدةِ يمينٍ كان حِنْثُها أيسَرَ من إثْم إبقائِه، إلا أنه عُوجِل لفَرْط رَوْعته، ووافَقَ هلاكُ شخْصه هَلاكَ دَوْلته .

ولما خَلا ذَرْعُنا، ورَحُبَ وُسْعُنا، نظرْنا فى الغَزوات إلىٰ بلاد الكُفَّار، فلم تخرُجْ سَنَة إلا عن سُنَّة أُقِيمَتْ فيها بَرًّا وبحرا، ومَرْكَبا وظهرا، إلىٰ أن أوسَعْناهم قتْلا وأَسْرا، ومَلَكْنا رقابهم قَهْرا وقَسْرا، وفتَحْنا لهم معاقلَ ماخطَرَ أهلُ الإسلام فيها

منذُ أُخِذت من أيديهم ، وما أوجفَتْ فيها خيلُهم ولا رِكابُهم مُذْ مَلَكها أعادِيهم ، فمنها ماحكَمتْ فيه يدُ الخراب، ومنها ما آستولَتْ عليه يدُ الاكتساب، ومنها قَلْعة بثغر أيْلَة كان العدُوّ قد بَنَاها فى بحر الهِنْد، وهو المسلوكُ منه إلى الحرمين واليَمَن، وغزا ساحلَ الحَرَم فسبىٰ منه خَلْقا ، وخَرَق الكفرُ فى هذا الجانبِ خَرْقا، فكادَت القبلة أن يُستولىٰ علىٰ أصلها ، ومساجدُ الله أن يسكُنَها غيرُ أهلِها ، ومَقامُ الخليل صلواتُ الله عليه أن يقومَ به مَنْ نارُه غيرُ بَرْدٍ وسَلام، ومَضْجَعُ الرسولِ شرَّفه الله أن يتطرّقَه من لايَدِينُ بما جاء به من الإسلام ، ففتَح اللهُ هذه القلعةَ وصارتْ مَعْقلا للجِهاد ، ومَوْئِلا لسُفَّار البِلاد، وغيرِهم من عُبّاد العِباد، فلو شُرِح ما تمّ بها للسلمين من الأثَرِ الجليل، وما آستَدَّ من خَلّاتِهم، وأُحْرِق من زُروع المشركين ورُعِي من غَلّاتِهم ، إلىٰ أن ضَعُفَت ثغورُهم ، وآختلَّت أُمورُهم ، لاحتيج فيه إلىٰ زمن يشْغَل عن المهمات الشريفة لسَماع مَوْرِده، وإيضاح مَقْصِده .

وكان باليَمَن ما عُلِم من آبن مَهْدىٍّ الضالِّ وله آثارٌ فى الإسلام، وثارٌ طالبُه النبىُّ عليه الصلاةُ والسلام ، لأنه سبَى الشرائفَ الصالحاتِ وباعَهُنَّ بالثمن البخس ، وآستباحَ منهن كلَّ ما لاتَقِرّ عليه نفس، وكان بِبِدْعِه دَعا إلىٰ قبرِ أبيه وسَمّاه كَعْبه ، وأخذ أموالَ الرعايا المعصومة وأجاحَها، وأحلَّ الفروجَ المحرّمةَ وأباحها ، فأنهضْنا إليه أخانا بعسكرِنا بعد أن تكلَّفْنا له نفقاتٍ واسعه، وأسلحةٍ رائعه، وسار فأخذْناه ولله الحمد، وأنجح اللهُ فيه القَصْد، ووردَتْنا كُتبُ عساكرنا وأُمَرائنا بما نَفَذ فى آبن مهدىٍّ وبلاده المفتتحة ومَعاقِله المستضافة ، والكلمةُ هنالك بمشيئة الله إلىٰ الهند سارِيَهْ، وإلىٰ مالم يقْتَضّ الإسلامُ عُذرتَه مُذْ أقام الله كلمتَه مُتَمادِيَهْ .

ولنا فى المَغْرب، أثرٌ أَغْرب ، وفى أعماله أعمالٌ دُونَ مَطْلَبها كما يكُون المَهْلَك دُونَ المطْلَب ، وذلك أن بنِى عبد المُؤمن قد آشتهر أنَّ أمْرَهم أمر ، ومُلْكَهم

قد عَمِر، وجُيوشَهم لا تُطاق، وأوامِرَهم لا تُشاق، ونحن والحمدُ لله قد ملَكْنا مما يُجاوِرنا منه بلادًا تزيد مسافَتُها علىٰ شهر، وسيَّرْنا عسكرًا بعد عسكر رجع بنصْرٍ بعد نَصْر، ومن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير — لُكُّ — بَرْقَة — قَفْصة — قَسْطيلِيَة — تَوْزَر، كلُّ هذه تُقام فيها الخُطبة لمولانا الإمام المستضيء بالله سلامُ الله عليه، ولا عَهْدَ للإسلام باقامتها، وتُنَفَّذُ فيها الأحكام بعَلَمِها المنصورِ وعلامتِها. وفى هذه السنة كان عندنا وَفْدٌ قد شاهده وُفُود الأمصار، مقدارُه سبعون راكبًا كلُّهم يطْلُب لسلطان بلده تقليدًا، ويرجُو منّا وعْدا ويَخاف وَعِيدا.

وقد صدرَتْ عنا بحمد الله تقاليدُها، وأُلقيتْ إلينا مقاليدُها، وسيَّرنا الخِلَع والألْوِيه، والمَناشِير بما فيها من الأوامر والأقْضِيه.

وأما الأعداءُ الذين يُحْدِقُون بهذه البلاد، والكُفَّارُ الذين يُقاتلونَها بالممالك العِظام والعزائم الشِّداد، فمنهم صاحب قُسْطَنْطِينيَّةَ وهو الطاغية الأكْبَر، والجَبَّار الأكْفَر، وصاحبُ المملكة التى أكلَتْ على الدَّهْر وشَرِبت، وقائمُ النَّصرانية التى حكَمَتْ دولتُه علىٰ ممالكِها وغلَبَتْ، وجرَتْ لنا معه غَزَواتٌ بحريّة، ومُناقلَات ظاهريَّة وسرِّية، وكانت له فى البلاد مطامعُ منها أن يجبى خراجا، ومنها أن يملِكَ منها فِجَاجا، وكانت غُصَّةً لا يُسِيغها الماء، وداهيةً لا تُرْجىٰ لها الأرضُ بل السَّماء، فأخذْنا ولله الحمدُ بكَظَمِه، وأقمْناه علىٰ قَدَمه، ولم نَخْرُج من مصر، إلىٰ أن وصلَتْنا رسُلُه فى جمعةٍ واحدة فى نوبتَيْن بكتابين كُلُّ واحد منهما يُظْهِر فيه خفضَ الجَنَاح، وإلقاءَ السِّلاح، والانتقالَ من مُعاداه، إلىٰ مُهَاداه، ومن مناصَبَه، إلىٰ مناصَحَه، حتّى إنه أنْذَر بصاحب صِقِلِّيَة وأساطيله التى يَرِدُ ذِكْرُها، وعساكرِه التى لم يَخْفَ أمرُها.

ومن هؤلاء الكفّار صاحبُ صِقِلّيّة هذا كان حينَ علم أن صاحبَ الشام وصاحبَ قُسطَنْطِينيّةَ قد آجتمعَا فى نَوْبة دِمْياط فغُلِبا وهُزِمَا وكُسِرا، أراد أن يُظْهِر قوّته المستقِلّة بمُفْردِها، وعزمته القائمةَ بمجرَّدها، فعَمَر أسطولاً آستوْعَبَ فيه مالَه وزَمانَه: فإنه الى الآنَ منذُ خمس سنين يكَثِّر عِدَّته، وينتخِبُ عُدَّته، ويجتلِبُ مقاتِلته الىٰ أن وصل منها فى السنة الخالية إلى إسكندريّة أمرٌ رائع، وخَطْب هائل، ما أثقَلَ ظهرَ البحر مثلُ حِمْله، ولا ملأ صَدْرَه مثلُ خيله ورَجْله، ماهو إقليمٌ بل أقاليمُ نَقَله، وجيشٌ ما آحتَفَل ملكٌ قطُّ بنظيره لولا أنَّ الله خَذَله؛ ولو ذهبنا نَصِفُ ما ذهبَ فيه من ذَهَب، وما أُخِذَ منه من سِلاحٍ وخيل وعُدَد ومجانيقَ، ومَنْ أُسِرَ منه من خَيَّالةٍ كِبار، ومقدَّمينَ ذَوِى أقدار، وملوكٍ يُقاطِعُون بالجمل التى لها مِقْدار؛ وكيف أَخْذُه وهو فى العَدَد الأكثرِ بالعَدَد الأقلِّ من رجالنا، وكيف نصر اللهُ عليه مع الأصعب من قتاله بالأسْهَل من قتالنا، لعُلِم أنَّ عنايةَ الله بالإسلام تُغْنيه عن السلاح، وكِفايَةَ الله لهذا الدِّين تكْفِيه مَئُونةَ الكِفَاح؛ ومن هؤلاء الجَنَويِّين الذين يُسَرِّبون الجيوش ــ البنادقةُ ــ البياشنه ــ الجنوية كلُّ هؤلاء تارةً لاتُطاق ضراوةُ ضُرِّهم، ولا تُطفأُ شرارةُ شَرِّهم؛ وتارة يُجَهِّزون سُفَّارا يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلُوبه، وتقصُر عنهم يدُ الأحكام المرهُوبه؛ وما منهم الآنَ إلا من يجلُب إلىٰ بلدنا آلةَ قتاله وجِهاده، ويتقرّبُ إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده؛ وكلُّهم قد قرِّرت معه المواصَفَه، وانتظمتْ معهُ المسالمه؛ علىٰ ما نريد ويكرَهُون، ونُؤْثِر ولا يُؤْثِرون.

ولما قضى اللهُ بالوفاة النُّوريّة، وكنَّا فى تلك السنة علىٰ نيَّة الغزْو، والعساكرُ قد ظهرَت، والمَضَاربُ قد برَزَت، ونزل الفِرَنْج بَانْيَاس وأشرفُوا على آحتيازها، ورأَوْها فرصةً مدُّوا إليها يدَ آنتهازها، استصرخَ بنا صاحبُها للمانَعَه، وآستنهضَنَا لتفريج الكُرَب الواقعه؛ فسرْنا مراحلَ آتَّصل بالعدو أمرُها، وعُوجل بالهُدْنة الدِّمَشْقيّة

التى لولا مسيرُنا ما انتظم حكمُها ولا قُبِل كثيرُها ولا قليلُها ؛ ثم عُدْنا إلى البلاد فتوافتْ إلينا الأخبارُ بما الدولة النُّوريّة عليه من تشعُّب الآراء وتوزُّعها، وتشتُّت الأمور وتقطُّعها؛ وأن كلَّ قلعة قد حصَل فيها صاحب، وكلَّ جانب قد طَمَح إليه طالب ؛ والفَرَنْج قد بنَوْا بلادا يتحيَّفُون بها الأطرافَ الإسلاميه، ويضايقون بها البلاد الشاميَّه ؛ وأمراءُ الدولة قد سُجِن أكابرُهم وعُوقِبوا وصُودِرُوا ، والمماليكُ الذين للتوقِّى أغرارٌ خُلِقوا للأطراف لا للصُّدور، وجُعِلوا للقيام لا للجلُوس فى المَحْفِل المحصُور ؛ وقد مَدُّوا الأعيُنَ والأيدىَ والسُّيُوف ، وساءتْ سيرتُهم فى الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ؛ وكلُّ واحد يتَّخِذ عند الفَرَنْج يدا ، ويجعلُهم لظهره سَنَدا ؛ ويرفَع عنهم ذخيرةً كانت للإسلام ، ويُفَرِّج لهم عن أسير من أكابر الكُفَّار كان مُقامُه ممايدفَع شرا، ولا يَزيدُ نار الكفر جَمْرا، وإطلاقه يجلُب قطيعةً تُقَوِّى إسلاما وتُضْعِف كفرا؛ فكثُرت إلينا مكاتباتُ أهل الآراء الصائبه، ونظرْنا للإسلام ولنا ولبلاد الإسلامِ فى العاقبه؛ وعرَفْنا أن البيتَ المقدّس إن لم تتيسَّر الأسبابُ لفتْحه، وأمْرَ الكفر إن لم يجرَّد العَزْمُ فى قلْعه؛ وإلا ثبتَتْ عُرُوقه، وآتسعت علىٰ أهل الدين خُرُوقه؛ وكانت الحجةُ لله قائمه، وهِممُ القادرين بالقُعود آثمه؛ وإنا لا نتمكن بمصْرَ منه مع بُعْد المسافة ، وآنقطاع العِمارة وكَلاَل الدواب ، وإذا جاوَرْناه كانت المصلحة باديَة ، والمنفعة جامعة ، واليدُ قادرة، والبلادُ قريبة ، والغَزْوةُ ممكنة ؛ والمِيرةُ متسعةً والخيلُ مستريحة ، والعساكر كثيرة ، والجموعُ متيسرة ، والأوقاتُ مساعدة؛ وأصْلحنا مافى الشام من عقائدَ معتلَّه ، وأمور مختلَّه ؛ وآراءٍ فاسده، وأمراء متحاسده؛ وأطماعٍ غالبه، وعقولٍ غائبه؛ وحفظْنا الولَدَ القائم بعدَ أبيه ، وكفَلْناه كفالةَ من يقضى الحقَّ ويُوفيه ؛ فإنَّا به أوْلىٰ من قوم يأكُلُون الدنيا باسمه ، ويُظهِرون الوفاء بخِدَمه وهم عاملون بظُلْمه ؛ والمرادُ الآنَ هو كل ما يُقوِّى الدوله ،

ويؤكِّد الدعوه، ويجمع الأمه، ويحفَظ الألفه، ويضمَن الزُّلفه، ويفتح بقيَّة البلاد، ويطَبِّق بالاسم العبَّاسيّ كلَّ ما تُخْطِئُه العِهاد ــ ونحن نقترح على الأحْكام المعهُوده، وننتظر أنْ يأتِيَ الإنعامُ على الغايات المَزيده، وهو تقليدٌ جامعٌ لمصر والمَغْرِب واليمن والشام، وكلِّ ماتشتمل عليه الولايَةُ النُّورية، وكل ما يفتحهُ الله للدولة بسُيوفِنا وسُيوفِ عساكِرنا، ولمن نُقيمه من أخٍ وولدٍ من بعدنا، تقليدًا يضمَن للنِّعمة تخليدا، وللدَّعْوة تجديدا، مع مايُنْعَم به من السِّمات التى يقتَضيها المُلْك، فإنَّ الإمارة اليوم بحُسْن نِيَّتنا فى الخِدْمة تُصَرَّف بأقلامنا، وتُستفادُ من تَحْت أعلامنا، ويتَبَيَّن أنَّ أمراء الدولة النُّورية يُحتاج اليهم فى فتح البلاد القُدْسية ضرورةً: لأنها منازلُ العساكر، ومجمَعُ الأنفار والعشائر، فمتىٰ لم يكنْ عليهم يدٌ حاكمه، وفيهم كلمة نافذه، منَعهم وُلاةُ البلاد، وبُغاة العناد.

وبالجملة فالشامُ لاينتظمُ أمرُه بمن فيه، وفتحُ بَيْت المَقْدس ليس له قِرْن يقومُ به ويكفيه، والفَرَنْج فهم يعرِفُون منا خَصْما لا يَمَلُّ الشرَّ حتَّى يملُّوا، وقِرْنا لا يزَالُ يحرِّم السيف حتَّى يحِلُّوا، حتى إنا لَمَّا جاوَرْناهم فى هذا الأمدِ القريب، وعلموا أنَّ المُصحفَ قد جاء بأيدينا يُخاصِم الصليب، استشعرُوا بِفِراق بلادهم، وتهادَوْا التعازِيَ لأرواحهم بأجسادهم، وإذا سدَّد رأيَنا حسنُ الرأى ضربْنا بسيفٍ يقْطَع فى غِمْده، وبلغنا المُنىٰ بمشيئة الله ويَدُ كلِّ مسلم تحتَ بُرْده، واستنقذنا أسيرًا من المسجد الذى أسرىٰ اللهُ اليه بعَبْده.

هذا مالاح طَابَهُ علىٰ قَدْر الزمان، والأنفُس تطْلُب علىٰ مقْدار الإحسان؛ فإنَّ فى استنهاض نِيَّات الخُدَّام بالإنعام مايعُود على الدولة منافِعُه، وتَتْكأ الأعداءَ مواقعُه، وتبعثُ العزائمَ من موتِ مَنامِها، وتنفُض عن البصائر غُبارَ ظَلامِها؛ والله تعالىٰ يُنْجِد إرادتنا فى الخدمة بمضاعفة الاقتدار، ومساعدة الأقدار، إن شاء الله تعالىٰ.

الضـــرب الثـانى

(ما كان يُكتَب لنوّاب السلطنة بالديار المصرية عند سَـفَر السلطان عن الديار المصـرية)

والعادة أن يُكتَب فيما يتعلق بمُهِـمَّات الديار المصرية وأحوالهـا ومصالحِها ، وما يترتَّب فيها ، وما يُمشَىٰ علىٰ حكمه بمصر والقاهرة المحروستين ، وسائر أعمال الديار المصرية ، وما تَبْرُز به المراسيم الشريفةُ فى أمورها وقضاياها ، وآستخراج أموالها وحُمُولها ، وعَمَل جُسُورها وحفائرِها ، وما يتجدّدُ فى ذلك ، وما يجرى هـذا المَجْرىٰ من سائر التعلُّقات ، وتصدُر بذلك التذكرة .

وهذه نسخة تذكرة سلطانية كُتِب بها عن السلطان الملك الصالح علىّ ابن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، لكافل السلطنة بالديار المصرية ، الأمير زين الدين كتبغا ، عند سفر السلطان الملك الصالح الى الشام ، وآستقرارِ كتبغا المذكور نائبًا عنه فى سنة تسع وتسعين وستمائة ، من إنشاء أحمدَ بنِ المُكَرَّم بن أبى الحسن الأنصارىّ ، أحد كُتَّاب الدرج يومئذ ومن خَطّه نقَلْتُ ، وهى :

تذكرة نافِعة ، للخيرات جامِعه ، يعتمِد عليها المجلسُ العالى ، الأميرىُّ ، الزَّينىّ ، كتبغا المنصورىّ ، نائب السـلطنة الشريفة ــ أدام الله عزه ــ فى مُهِمَّات الديار المصرية وأحوالها ومصالحها ، وما يترتَّب بها ، وما يُبَتُّ ويُفْصَـل فى القاهرة ومصر المحروستين وسائر أعمال الديار المصرية ، صانها الله تعالىٰ ، وما تُستخرَج به المراسيمُ الشريفة ، المَوْلوية ، السلطانية ، المَلَكية ، الصالحيّة ، الفلانية ــ أنفذها الله تعالىٰ ــ فى أمورها وقضاياها ، وولاياتها وَوُلاتها ، وحمولِها وحفيرها وحِفْظِها ومتجدِّداتها علىٰ ماشُرح فيـــه :

فصـــل الشَّرع الشريف :

يَشُدّ من حُكّامه وقُضاته فى تنفيذ قضاياه وتَصْريف أحكامه ، والشّدّ منه فى نَقْضه وإبرامه .

فصـــل العَدْل والانصاف والحق :

يعتَمِدُ ذٰلك فى جميع المملكة الشريفــة : مُدُنِهـا وقُراها وأعمالهـا وولاياتِها : بحيث يشْـمَل جميعَ الرعايا من خاصٍّ وعامّ ، وبعيـدٍ وقريب ، وغائب وحاضر ، ووارِدٍ وصادِر ، ويستجْلِب الأدعيةَ الصالحة من جميع الناس لهذه الأيّام الزاهرة ، ويَستَنطِق الألسنةَ بذٰلك ، فإنَّ العدل حجةُ الله ومَحَجَّة الخير، فيدفع كلَّ ضَرَرٍ ويرفَع كلَّ ضَـيْر .

فصـــل الدماء :

يعتَمِد فيها حكمَ الشرع الشريف . ومن وجب عليه قصاصٌ يسلَّم لغريمه ليقتَصَّ منه بالشرع الشريف ، ومن وجَب عليه القطعُ يُقطَع بالشرع الشريف .

فصـــل الأمور المختصّة بالقاهرة ومصر المحروستين حرسهما الله تعالىٰ :

لا يَتجوَّرُ فيهـا أحدٌ ، ولا يَقْوىٰ قَوِىٌّ علىٰ ضعيف ، ولا يتعـدّىٰ أحدٌ علىٰ أحد جملةً كافية .

فصـــل

يتقدّم بأن لا يَمشِىَ أحدٌ فى المدينة ولا ضواحيها فى الحُسيْنيَّة والأحكار فى الليل إلا لضَرُورةٍ ، ولا يَخرُجَ أحدٌ من بيتــه لغير ضرورةٍ ماسّــةٍ ، والنساء لا ينْصرفن فى الليل ولا يخرُجْن ولا يمشِينَ جملةً كافية .

فصـــل المحبوس :

تُحرَس وتُحفَظ بالليل والنهار، وتحلَق لحى الأَسارىٰ كلِّهم : من فرَنْج وأنطاكيِّين وغيرهم ، ويُتعهَّد ذلك فيهم كلما تَنْبُت ، ويُحترَز فى أمر الداخل إلىٰ الحُبوس ، ويُحترَز على الأسَارىٰ الذين يُستعْمَلون ، والرجال الذى يخرُجون معهم ، وتُقام الضُّمَّان الثِّقاتُ على الجانْدارِيَّة الذين معهم ، ولا يُستخدَم فى ذٰلك غريب ، ولا مَنْ فيه رِيبة ، ولا تبيت الأَسارى الذين يُستعمَلُون إلا فى الحُبوس ، ولا يخرج أحدٌ منهم لحاجة تختص به ولا لحَّام ولا كنيسة ولا فُرْجة ، ونُتفقَّد قيودُهم وتُوثَّق فى كل وقت .

ويضاعَف الحرس فى الليل علىٰ خِزانة البُنُود باظهار ظاهِرِها وعلوّها وحوْلَها وكذلك خِزانةُ الشمائل وغيرها من الجُيوش .

فصـــل

يُرتِّب جماعة من الجند مع الطُّوَّاف فى المدينة لكَشْف الأزقَّة وغَلْق الدُّروب وتفقُّد أصحابِ الأرباع ، وتأديبِ من يُخِلُّ بمركَزه من أصحاب الأرباع ، وتكون الدُّروب مغْلَقه . وكذٰلك تجرّدُ جماعة الحُسينيَّة والأحكار وجميع المراكز ، ويعتَمَد فيها هذا الاعتماد ، ومن وُجد فى الليل قد خالف المرسومَ ويمشِي لغير عُذْر يُمْسَك ويؤدَّب .

فصـــل

يَحْترِز على الأبواب غايةَ الاحتراز ، ويَتَفَقَّد فى الليل خارجَها وباطِنَها وعند فَتْحها وغَلْقها .

فصـــل

الأماكنُ التى يجتمع فيها الشَّباب وأولُو الدَّعارة ومن يتعانَى العَيْثَ والزَّنْطرة ، لا يُفْسَح لأحد فى الاجتماع بها فى ليلٍ ولا نهار ، ويَكُفُّون الأكُفَّ اللئامَ بحيث تقوم المهابةُ وتعظُم الحرمة ، وينزجرُ أهل الغيّ والعَيْث والعبث .

فصـــل

يرتَّب المجرِّدُون حولَ المدينتين بالقاهرة ومصر المحروستين على العادة، وكذلك جهةُ القَرافةِ وخلْفَ القلعةِ وجهةُ البحر، وخارجُ الحسينية، ولا يهمَلُ ذلك ليلةً واحدة، ولا يفارِقُ المجرَّدُون مراكزهم إلا عند السُّفُور وتكامُلِ الضوء .

فصـــل

يتقدّمُ بأن لا تجتمعَ الرجالُ والنساءُ فى ليالى الجُمَع بالقرافتين، ويمنَعُ النساءَ من ذلك .

فصـــل

مُهِمَّات الغائبـين فى البِيكار المنصور تُلْحَظ ويَشُــدّ من نوّابهـم فى أُمورهم ومصالحهم، ويَستخْلِص حقوقَهم لنوّابهم وغِلْمانهم ووُكَلائهم؛ ومن كانت له جهةٌ يستخلِص حقَّه منها ولا يتعرَّضُ إلىٰ جهاتهم المستقِرّة فيما يستحِقُّونه؛ ويُقَوِّى أيْدِيَهم، وتُؤخَذ الحُجج علىٰ وكلائهم بما يقْبِضُونه حتى لايقولَ موكِّلُوهم فى البِيكار : إنَّ كُتُب وكلائنا وردَتْ بأنهم لم يقْبِضوا لنا شيئا ، فيكون ذلك سببا لردّ شكاويهم .

فصـــل

خليجُ القاهرة ومصرَ المحروسـتين يُرْسَم بعَمَله وحَفْره وإتقانِه فى وقته : بحيث يكون عَمَلا جيِّـدا مُتْقَنا من غير حَيْف علىٰ أحد، بل كُلُّ أحدٍ يعمل ما يلزَمُه عملا جيِّـــدا .

فصـــل

جُسورُ ضواحى القاهرة يُسْرِع فى إتقانها وتعريضها ، ويجتهِد فى حُسْن رَصْفها وفتْح مَشارِبها ، وحِفْظها من الطارِق عليهـا ، وتبقىٰ متْقَنَةً مكملة إلىٰ وقتِ النِّيـل المبارك ؛ ولا يخرُجُ فى أمرها عن العادة، ولا يحتَمِى أحدٌ عن العمل فيها بمـا

يلزَمه ؛ ويحمَـلُ الأمرُ فى جَرَارِيفها ومُقَلْقِلاتِها علىٰ ما تقـدمَتْ به المراسيمُ الشريفة فى أمر الجسور القريبةِ والبعيدةِ .

فصـــل فى الأعمـال والولايات .

تُنتجَّز الأمثلةُ الشريفةُ السـلطانية ، المولويةُ ، المَلَكية ، الصالحية ، الفلانية ، شرفها الله تعالىٰ ، بإتقان عملِ الجُسور وتجويدها وتعريضها وتفقُّد القناطر والتِّراع ، وعملِ ماتهدَّم منها وترميم ماوهىٰ ، وإصلاح ماتشعَّث من أبوابها ، وتحصيلِ أصنافها التى تدعو الحاجةُ اليها فى وقتِ النِّيل ، وتعتمدُ المراسيمُ الشريفة من أنَّ أحدا لا يعمل بالجاه ، ومَنْ وجب عليه فيها العملُ يعْمَل على العادة فى الأيام الصالحيَّـة ، ويُؤكَّد على الوُلاة فى مباشَرَتها بنفُوسهم ، وأن لا يتَّكلوا على المُشَدِّين ، وأىُّ جهةٍ حصل منها نقصٌ أو خَلَل كان قُبَـالةَ ذٰلك رُوحُ والِى ذٰلك العملِ ومالُه ؛ ويُشدِّد على الولاة فى ذلك غايةَ التشديد ، ويحذِّر أتمَّ التحذير ، وتؤخَذُ خطوطُ الولاة بأنَّ الجسورَ قد أُتْقِن عملُها على الوضع المرسومِ به ، وأنها أُتقِنَتْ ولم يَبْق فيها خَلَل ، ولا ما يخْشَوْن عاقبتِه ، ولا ما يخافُون دَرَكه ، وأنها عُمِلت علىٰ ما رُسِم .

فصـــل

يتقدّمُ إلىٰ الوُلاة ويستخْرج الأمثـلَة الشريفَة السـلطانية بترتيب الخُفَراء علىٰ ما كان الحالُ رُتِّب عليـه فى الأيام الظاهريَّة : أن يُرتَّب من البلد إلى البلد خُفراءُ ينزلون ببيوتِ شَعَر على الطُّرُقات على البلدين ، يَخْفُرُون الرائحَ والغادِىَ ، وأىُّ مَنْ عُدم له شىء يلزمه دَرَكُه ، ويُنادىٰ فى البلاد أن لا يسافِرَ أحدٌ فى الليل ولا يُغَرِّر ، ولا يسافِر الناس إلا من طلوع الشمس إلىٰ غُرُوبها ، ويؤكَّد فى ذٰلك التأكيد التام .

فصـــل الثغور المحروسة :

يُلاحِظ أمورَها ومهمَّاتِها، ويستخرج الأمثلةَ الشريفة السلطانية فى مُهِمَّاتها وأحوالِها وحفْظِها، والاحترازَ على المعتَقَلين بها، والاستظهار فى حِفْظهم، والتيقُّظ لمهمَّات الثغر، واستجلاب قُلُوب التِّجار، واستمالةِ خواطِرهم، ومعاملتِهم بالرِّفق والعدل حتى تتواصلَ التجار وتَعْمُر الثغور، ويؤكِّد عليها فى المستخْرَج وتحصيل الأموال، وأصناف الذَّخائر، وأصناف الخزائن المعمورةِ والحَوَائج خاناه، ويُوعِز إليهم بأنَّ هذا وقتُ انفتاح البحر وحضور التِّجار وتَزْجيةِ الأموال، وصلاح الأحوال، والنهضةِ فى تكثير الحُمُول، ويُؤكِّد عليهم فى المُواصلَة بها، وأن تكون حُمُولا متوفِّرة، وأنه لا يُفرَّط فى مستخْرَج حقوقِ المراكب الواصلة، ولا يُقَلَّل متحصِّلُها، ولا ينقَصُ حِملُها، ويسَيِّر بحِمْلها حَمْلًا إلىٰ بيت المالِ المعمورِ على العادة، ويؤكِّد عليهم فى الاستعمالات، وتحصيل الأقمشة والأمتعة علىٰ اختلاف أصنافها وإزالةِ الأعذار فيها : بحيثُ لا يتوقَّف أمر الاستعمالات ولا يؤخَّر مهمُّها عن وقته، ومهْمَا وصل من المماليك والجوارى والحريرِ والوبَرِ والأطلس والفِضَّة الحجر، وأقصابِ الذهب المغْزُول يعتَمَدُ فى تحصيله العادة .

فصـــل

يؤكِّد علىٰ وُلاة الأعمال فى استخلاص الحُقُوق الديوانية من جهاتها، والمواصلةِ بالحمول فى أوقاتِها، ومباشرةِ أحوال الأقصابِ ومَعَاصِرها فى أوقاتها، واعتِمادِ مصلحة كل عملٍ علىٰ مايناسبه وتقتضيه مصلحتُه : من مستخْرَج ومستَغَل، ومحْمُول ومُزْدَرَع، ومستعمل ومُنْفَق، ويحذِّرهم عن حصول خَلَل، أو ظهور عَجْز، أو فُتُور عَزْم، أو تقصير رَأْى، أو ما يقتضى الإنكارَ ويُوجِب المؤاخذة، ويشَدِّد فى ذٰلك ما تقتضيه فرصُ الأوقات التى ينبغى انتهازُها علىٰ ما يطالعون به .

فصـــل [أموال] الخراج الديوانية :

يحترز عليها وتُربَّى وتنمّى، ولا يطلَقُ منها شيءٌ إلا بمرسوم شريفٍ منّا، ويُطالِع بأنَّ المرسوم ورد بكذا وكذا ويعود الجواب بما يعتمَد فى ذلك .

فصـــل حقوق الأُمراءِ والبحرية والحَلْقةِ المنصورة والجُنْد وجِهاتهم :

يستخْلِصُ أموالَهم ووكلاءَهم، ويُوجِد الشهادات بما عليهم من غَلَّة ودراهم، وغير ذلك، ولا يحوِجُ الوكلاءَ إلىٰ شكْوىٰ منهم تتصل بمن هو فى البِيكار، ويحْسِم هذه المادّة، ويَسُدّ أبواب المماطلة عنهم .

فصـــل

يتقدّمُ إلىٰ الوُلاة والنُّظّار والمستخْدَمين بعمل أوراق بما يتَحصَّل للمُقْطَعين الأصلية(؟) فى كل بلد، ولِمُقْطَع الجهة، ولمن أُفْرِد له طينٌ بجهة، وان جِهتُه على الرسوم : ليُعلَم حالُ المقطَعين فى هذه السنة الجيشيَّة والجِهاتيَّة وما تحصَّل لكل منهم، ولا يحصُلُ من أحد من الوُلاة مكاشرةٌ ولا إهمالٌ، ولا يطْمَع فى الوكلاء لأجل غَيْبةِ الأمراء والمقْطَعين فى البِيكار، ولا يُحوَج أحدٌ من المقطَعين إلىٰ شكْوىٰ بسبب متأَخّر ولا ظليمةٍ ولا إجْحاف .

فصـــل

إذا خرج جانْدار من مصر إلى الأعمال لا يُعطىٰ فى العمل أكثَر من درهمين نُقْرةً، ويوصِّل الحقَّ الذى جاء فيه لمستَحِقِّه، فإن حصل منه قالٌ وقيلٌ أوحيفٌ أوتعنُّت يُرسَم عليه، ويُسَيّر الحقّ مع صاحبه مَعه، ويطالِعُ بأن فلانا الجاندار حضر وجرىٰ منه كذا وكذا، ويشرحُ الصورةَ ليحْسِم الموادّ بذلك .

فصـــل

إذا سَيَّر أحدٌ من الولاة رسولا بسببِ خلاص حقٍّ من بعض قرىٰ أعماله فيكون ما يُعْطىٰ الجاندار عن مسافة سفر يومٍ نصفَ نُقْرة ، وعن يومين درهمٌ واحدٌ لاغيرُ، وأيُّ جاندار تعدّى وأخذ غير ذٰلك يؤدَّبُ ويُصْرَف من تلك الولاية .

فصـــل :

تُكتبُ الحُجج علىٰ كل وكيل يقبِضُ لمخدُومه شيئًا من مُغَلّه أو جِهتِه : من الديوان أو الفلّاحين ، ولا يسلَّم له شيءٌ إلا بشهادةٍ بحُجَج مكتتبة عليه ، تُخَلَّد منها حجَّةُ الديوان المعمور بما قَبَضه من جِهته أو إقطاعه ، وتبقَى الحججُ حاصلة حتى إذا شكا أحد إلينا وسيّرْنا عَرَّفناهم بمن يشكو مِن تأخُّر حقه ، يُطالعونَنا بأمر وكيله وما قَبَض من حقه ، وتُسيَّر الشهادةُ عليه طَيَّ مطالَعته ، (ويُحترَز من الشهادات) بما وصل لكلِّ مُقْطَع ، حتّى إنا نعلم من مضمون الحجج والشهادات متحَصَّل المُقْطَعين من البلاد والجهات مُفَصَّلا وجملةَ ما حصل لكل منهم : من عين وغلة وما تأخَّر لكل منهم ، ويَعمل بذٰلك صورةَ أمور البلاد والمُقْطَعين وأحوالِهم ، ويُزِيلُ شكوىٰ من تجب إزالةُ شكواه ، وتُعلم أحوالهم علىٰ الجلِيَّة .

فصـــل

تقرأ هـذه التذاكر على المنابر فصلا فصلا ، ليسمعَها القريبُ والبعيدُ ، ويُبلِّغها الحاضرُ والغائب ، ويَعمَل بمضمُونها كل أحد . ومَنْ خَرج عنها أو عمِل بخلافها فهو أخبَرُ بما يلقاه من سَطواتنا وشدّة بأسنا ، والسلام .

الضـــــــرب الثـالث

(ما كان يُكتَب لنُوّاب القِلاع ووُلَاتها : إما عند آستقرارِ النائب بها ، وإما فى خلال نيابتـــه)

والعادةُ فيها أن يُكتب فيها باعتماد الكَشْف عن أحوال القَلْعة وأسوارِها وعَرْض حواصِلها، ومقدَّمى رجالها ، وترتيبِ الرجال فى مراكزِهم ، وكشفِ مَظَالِم الرعايا ، والنظرِ فى الاحتراز على القلعةِ وعلىٰ أبوابها ، والآحتفاظِ بمفاتيحها على العادة ، وتحصيلِ مايُحتاج إليه فيها من الزاد والحَطَب والمِلْح والفَحْم وغير ذٰلك . والمطالعةِ بمتجدِّدات الأخبـار .

⁂

وهذه نسخةُ تذكرة كُتِب بها عن السـلطان الملك المنصور قلاوون بسبب قلعة صَرْخَدَ من الشام ، عند آستقرار الأمير سيف الدين باسطى نائبًا بها ، والأمير عز الدين واليًا بها فى سنة تسع وسبعين وستمائة ، من إنشاء القاضى محيى الدِّين بنِ عبد الظاهر صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية ، وهى :

تذكرةٌ مباركة نافعه ، لكثيرٍ من المصالح جامعَه ، يعتَمِد عليها الأميران : سيفُ الدين وعزُّ الدين عند توجُّهِهما إلىٰ قلعة صَرْخَدَ المحروسة :

يعتَمِدان العدلَ فى الرعيه ، وسلُوكَ مَنْهَج الحق فى كل قضيَّه ، وآعتمادَ ما يُرضِى اللهَ تعالىٰ ويُرْضِينا ، ولْيكُنِ الإنصافُ لهما عقيدةً والتقوىٰ دِينا ، ولا يتطَلَّع أحدُهمـا إلىٰ ما فى يدِ أحد من مال ولا نَشَب ، ولا يعـارِضْ أحدٌ أحدا بلا سَبَب ، وليتقُوا اللهَ ويخشَوْه ، ويتجَنَّبُوا الباطل ولا يَغْشَوْه ، ولا يظُنَّ أحدٌ منهم أن قد بَعُد عنا فيطمَحَ إلى الظلم أو يطْمَع ، فإنا منهم بمرأًى ومَسْمَع ، وليكونُوا على المصالح متفقين ، وبأذيال الحق متعلِّقين ، وعلى الرعيَّة مشفِقين .

فصل

يتقدّمان بكَشْف أسوار القلْعة المنصورةِ وأبراجها وبَدَناتها وأبوابها ، وما يحتاجُ إلى إصلاح وترميم وعمارة ، ويحرِّران أمرَ ذلك تحريرا ، ويجتهدان فى إصلاح ما يجب إصلاحُه وترميم مايجب ترميمُه ، والمطالعةِ بما كشفَاه وما ٱعتمَداه .

فصل

يتقدّمان بعَرْض حَواصل القَلْعة المنصورة ، والخزانة المعمُورة ، ويحقِّقون ما بها من الأموال والغِلال والذخائر والحواصل ، ويعملون بذلك أوراقاً محرّرة ، ويُسَيِّرون نسختَها إلى الباب الشريف .

فصل

يتقدّمان بعَرْض مقدَّمى رجال القلعة ، وأرباب الجامكيّات والرواتب بها ، ويُحرِّران أمرَ مقرَّراتهم : من جامِكية وجِراية ، ويجْريان فى صَرْف ذلك على العادة الجارية المستقِرّة .

فصل

يستَوْضحان من الأمير عزّ الدين والأمير عَلَم الدين المنصرِفَيْن عن المصالح المختصّة بهذه القلعة وعن أُمورها ، جليلِها وحقيرِها ، فإنهما قد أحسنا فى ذلك التدبير ، وأجملا التأثير ، وسلَكَا أجملَ مَسْلَك ، ويهتديان بما يوَضِّحانه لهما من المصالح والمهمّات ليكون دُخولُهما فى هذا الأمر على بَصيرة .

فصل

يكونُ أمرُ النيابة والحُكْم العامّ فى القلعة المنصورة ، وتنزيلِ الرجال وٱستخْدامِهم وصَرْفِ من يجب صرْفُه — للأمير سيف الدِّين بَلَبان الطبّاخى بمشاركة الأميرِ عزالدين فى أمر الرجال والاستخدامِ والصَّرف ، ويكون أمرُ النيابة راجعا للأمير سيف الدين

باسطى والحكمُ فيها له ، ويكون أمرُ ولاية القلعة للأمير عزّ الدين ، ويَجْريان فى ذٰلك علىٰ عادة من تقدّمهما فى هذه النيابة والولاية ، ويكونُ الأمير سيفُ الدين فى الدار التى كان يسكُنها الأميرُ عزّ الدين ، وحكمُه فى النيابة كحكمه ، ويسكُنُ الأميرُ عزّ الدين فى الدار التى كان يسكُن فيها الأمير عَلَم الدّين ، وحُكْمُه فى الولاية كحكمه . ولا يتعدّىٰ أحدٌ طَوْره ، ولا يخرجُ عما قُرّر فيه ، ويَرْعىٰ كلٌّ منهما لصاحبه حقَّه فيما رُتّب فيه ، و يتفقانِ على المصالح كلّها ، ويكونان كرُوحيْنِ فى جسدٍ واحدٍ .

فصـــل

يتقدّمانِ بأن يترتَّبَ الرجال فى مراكزِهم ومنازلهم على العادة فى الليـل والنهار ، والحَرَسيَّة على العادةِ فى الليل والنهار . وإن كان ثَمَّ خَلَل فى ذٰلك أو تفريطٌ أو إهمالٌ ، فليستَدْرَك الفارطُ ويرتِّبِ الأمرُ فيه علىٰ أحسن ترتيب .

فصـــل

يتصبان فى أوقاتِ العادة فى بابِ القلعة لكَشْف مظالِمِ الرعيـة فى القَلْعة والبَرّ ، ويعتمدانِ إنصافَهم ، وتلبيةَ داعِيهم ، وسَمـاعَ كَلِمِهم ، وكفَّ ظالِمِهم وإعانة مظلومِهم ، واعتمادَ ما يجبُ من العدل وبسْطِه فى الرعِية ، وكَفَّ الأيدى العادية .

فصـــل

أبوابُ القلعة إذا أُغْلقتْ فى كل ليلة تُبيَّت المفاتيحُ عند النائب فى المكان المعتادِ بعد خَتْم الوالى عليها على العادة ، وإذا تسلّمها يتسلَّمها بخَتْمها على العادة .

فصـــل

الذّخائر والغِلَال يُجتَهَد فى تحصيلها بالقلعة ، ولا تُخْزَن غلةٌ جديدةٌ علىٰ غلةٍ عتيقة . وكلُّ هُرْيٍ يُخْزَن فيـه غَلَّة يحرّرُ أمرُها وتُشال عيِّنَتُها فى كيس وتجعـل فى الخزانة ويُخْتَم عليها ، ولا يُصرَف من الجديد قبل نَفَاد العتيق ، ولا يُتْرك العتيقُ ويُصْرف من الجديد . وكذٰلك بقيةُ الحواصل يُسْلَك فيها هذا المَسْلَك .

فصـــل

مَهْما جرت العادةُ بتثمينه علىٰ أرباب الجامِكِيَّات والمقرَّرات ، فليُجْرِ الأمرُ فيه على العادة من غير حَيْف ، وليَدْخُل الديوانُ والمباشِرُون فى التثمين لئلاَّ يُسْلَكَ أمرُ التثمين على الرَّجَّالة والضُّعَفاء مع قلّة معلومهم ويُوَفَّر من ذلك أربابُ الدَّواوين مع كثرة معلومهم ، بل يكُونوا أوّلَ من يُثَمَّن عليه ؛ ومن لا قُدرةَ له : مثلُ راجل ضعيف أو رَبِّ معلومٍ قليل ، فليُرْفَق به فى ذلك ، نظرًا فى حقِّ الضعفاء .

فصـــل

يُكَثِّرون من الأحطاب ومن الفَحْم والمِلْح بالذخائر ، وكذلك من كلِّ ما تدْعُو الحاجةُ إليه ، ويجتهِدُون فى تحصيل الأموال وتوفيرِها بالخزانة المعمورةِ : بحيث لا يكون لهما شُغْل يَشْغَلُهما عن ذلك ، بل يَصْرِفان الهمَّة فى غالب أوقاتهما إلى الفِكرة فى مالٍ يحصِّلُونه ، أو صِنْفٍ يدَّخِرُونه ، ولا يهملان ذلك .

فصـــل

يُطالعانِ الأبوابَ العاليـةَ فى غالب أوقاتِهما بما يتجدّدُ عندَهما من المصالح ، وبما يَتَميَّز من الأموال ، و[بما] حُمِل إلى الخزائن وإلى الأهراء من الأموال والغِلال . وكذلك يُطالعان نائبَ السلطنة بدِمَشْق المحروسة على العادة فى ذلك ، ولْتكن مطالعتهما جامعةً وعليها خطُّهما . ومَنْ لاحت له مصلحةٌ فى بعض الأوقات وآختار أن يطالِع بانفراده فليُطالِعْ .

فصـــل

لا يمكِّنانِ أحدا من الرجال المرتَّبين بالقلعة المحروسة وأربابِ النُّوَب أن يُخِلَّ بنَوْبته ولا يفارِقَها ، ولا يخرُج من القلعة أحدٌ من الرجال إلا بدُسْتور ويعودُ فى يومه والله الموفق .

قلت : وبالجملة فالتذاكر مَنُوطة بحال المكتوبِ له التذْكرة، والمكتوبِ بسببه؛ فيختلفُ الحــال باختلاف الأسـباب، ويُؤْتىٰ لكل تذْكرة بفصُول تُناسِبها بحسَب ماتدعُو الحاجة إليه .

وٱعلم أنَّ اللائق بالتذاكر الخارجةِ من ديوان الإنشاء أن تكونَ فى الفصاحة والبلاغة علىٰ حدِّ الرسائل، فيعلو شأنُ التَّذْكِرة باعتبار ٱشْتمالها على الفَصَاحة والبلاغة، ويَنحَطُّ بفواتهما ؛ وٱنظرْ إلىٰ تذكرة القاضى الفاضلِ المبتدَإ بها ، وما ٱشتملتْ عليــه من الفَصَاحة والبلاغة ، وأين هى من التذكِرتين اللتين بعدَها ؛ فإنه قد أُهْمِل فيهما مراعاةُ الفصاحة والبلاغة جملةً، بل لم تُراع فى الأخيرة منهما قوانينُ النحو، إذ يكون يتكلَّم بصيغة التثنية علىٰ سـياق ما عُقِدت له التذْكِرة لا شتمالهـا علىٰ ٱثنين فإذا هو قد عدل إلىٰ لفظ الجمع ، ثم يعود إلىٰ لفظ التثنية، هذا، وهى منسوبةٌ إلى القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، صاحب ديوان الإنشاء يومَئذ، وهو من بيت الكتابة والبلاغة ، إلا أنه قد يُرِيد بعُــدُوله من التثنية إلى الجمع أن ينتقِل إلىٰ خطاب جمع المتحدِّثين فى القلعة فيما يتعلَّق بذٰلك الفصل الذى يكون فيه، وإلا فلا يجوزُ صدُور مثلِ ذٰلك عنه وتكرارُه المرّةَ بعد الأخرىٰ .

المقالة السابعة

في الإقْطاعات والقَطَائع ، وفيها بابان

الباب الأوّل

في ذكر مقدّمات الإقطاعات ، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

في ذكر مقدّماتٍ تتعلّق بالإقطاعات ، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأوّل

(في بيان معنى الإقطاعات وأصلها في الشرع)

أما الإقطاعاتُ فجمعُ إقطاع ، وهو مصدر أقطع ، يقال : أقطعه أرض كذا يقطعه إقطاعا ، وٱستقطعه إذا طلبَ منه أن يُقْطِعه ، والقَطيعة الطائفةُ من أرض الخَرَاج .

وأما أصلُها في الشرع فما رواه الحافظ ٱبن عساكر في تاريخ دِمَشْق بسنَده إلى ٱبن سيرينَ عن تميم الداريّ أنه قال : « ٱستَقْطعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أرضًا بالشأم قبل أن تُفْتَح فأعطانيها ، ففتحها عمرُ بنُ الخطاب في زمانه فأتيتُه ، فقلتُ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني أرضًا من كذا إلى كذا ، فجعل عمرُ ثلثها لٱبن السبيل ، وثلثًا لعمارتها ، وثُلُثًا لنا » .

وفي رواية : ٱستقْطَعتُ أرضًا بالشام فأقطعَنيها ، ففتحها عمرُ في زمانه فأتيته ، فقلت : إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطاني أرضًا من كذا إلى كذا ، فجعل عمر ثلثَهَا لٱبن السبيل ، وثُلُثها لعمارتها ، وترَك لنا ثُلُثا .

وذكر الماوردىُّ فى "الأحكام السلطانية" : أنَّ أبا ثَعْلبة الخُشَنِىّ رضى الله عنه سأل النبىَّ صلى الله عليه وسلم أن يُقْطِعَه أرضًا كانت بيَد الروم فأعجبه ذلك ، وقال ألا تَسْمَعُون ما يقول ؟ فقال : والذى بعثَكَ بالحق لَيُفْتَحَنَّ عليك ، فكَتَب له بذلك كتابا .

وذكر أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : أقطَع الزُّبَيْرَ بنَ العوَّام رَكْضَ فرسه من مَوَاتِ البَقِيع فأجراه ورمىٰ بسَوْطه رغبةً فى الزيادة ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «أَعْطُوه منتَهَىٰ سَوْطِه» .

وذكر أنَّ الأبيضَ بن حَمَّال آستَقْطعه مِلْحَ مَأْرِب فأقطَعَه ، فأخبره الأقرعُ آبنُ حابس أنه كان فى الجاهلية [وهو بأرض ليس فيها غيره مَنْ وَرَده أخَذَه ، وهو مثلُ الماء العِدِّ بالأرض ، فاستقالَ الأبيضَ فى قطيعة المِلْح فقال قد أقلتُكَ على أنْ تجعَلَه مِنِّى صَدقةً ، فقال النبىّ عليه الصلاة والسلام : هو منك صَدَقةٌ ، وهو مثل الماء العِدِّ من وَرَده أخذه] (١) .

وذكر أبو هلال العسكرىُّ فى كتابه "الأوائل" : أنَّ أوّلَ من أقطع القطائعَ بالأَرَضِين أميرُ المؤمنين عثمانُ بن عفَّان رضى الله عنه ـ ولا وَجْهَ له بعد ما تقدّم ذكره ؛ اللهم إلا أن يُرِيد أنَّ عثمان أوّلُ من أقطع القطائعَ بعد الفَتْح ، فإنَّ ما أقطعه النبىُّ صلى الله عليه وسلم كان قبل الفَتْح كما تقدّم .

قال بعد ذلك : ويروى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم : أقطع قطائعَ فاقتدىٰ عثمانُ به فى ذلك وأقطَعَ خَبَّابَ بنَ الأرَتِّ وسعْدَ بنَ أبى وَقَّاص وسعيدَ بنَ زيد

(١) ترك فى الأصل بياضا فى هذا الموضع وقد تداركناه من كتاب الأحكام السلطانية ص ١٧٤ تتميا للكلام .

والزُّبيرَ، وأقطع طلحة أَجَمَةَ الجُرْف (١) : وهو موضع النَّشَاسْتَج ، فكتب إلىٰ سعيد آبن العاص وهو بالكوفة أن يُنَفِّذها له .

الطــــرف الثــانى

(فى بيان أوّل من وَضَع ديوانَ الجيش، وكيفيَّةِ ترتيب منازل الجُنْد فيــه، والمساواةِ والمفاضــلةِ فى الإعطاء)

ذكر أبو هلال العسكرىّ فى "الأوائل" والماوَرْدىُّ فى "الأحكام السلطانية" أن أوّل من وَضَع الديوان فى الإسلام أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطّاب رضى الله عنه . قال الماوردىّ : وآختلف [الناس] فى سبب وضْعه [له] : فقال قومٌ : سببُه أن أبا هُرَيرة قَدِم عليه بمالٍ من البَحْرينِ، فقال له عمر : ماجِئْتَ به ؟ قال خَمْسُمائةِ ألفِ دِرْهم، فآستكثره عُمَرُ، وقال : أتدرى ما تَقُول ؟ قال نَعَمْ ! مائةُ ألفٍ خَمْسَ مرات ، فقــال عمر : أَطَيِّبٌ هو ؟ قال لا أدْرى . فصَعِد عمرُ المِنبرَ، فحمِد الله وأثنىٰ عليه ، ثم قال : أيُّها الناس ! قد جاءنا مالٌ كثيرٌ، فإن شئتم كِلْنا لكم كَيْلا ، وإن شئتم عَدَدْنا لكم عَدّا ، فقام اليــه رجل فقال ياأميرَ المؤمنين : رأيتُ الأعاجِمَ يُدَوِّنُون دِيوانًا، فدَوِّن أنتَ لنا دِيوانا .

وذهب آخَرُون إلىٰ أن سبَبَ وَضْع الديوان أنّ عمر بعث بَعْثا وعِنده الهُرْمُزان ، فقال لعمر : هـذا بَعْثٌ قد أعطيْتَ أهلَه الأموالَ ، فإن تخلَّف منهم رجل وأَخَلَّ بمكانه ، فمِن أيْنَ يعلم صاحبُك به ؟ فأثْبِتْ لهم ديوانا، فسأله عن الدِّيوان ففَسَّره له .

---

(١) فى الأوائل "الجوف" .

ويُروىٰ أنَّ عمرَ رضى الله عنـه آستشار المسلمينَ فى تَدْوين الدواوين ، فقال علىٌّ آبن أبى طالب كرَّم الله وجهه : تَقْسِم كلَّ سنة ما آجتمَع اليك من المـال ، ولا تُمْسك منه شيئا . وقال عثمان : أرىٰ مالًا كثيرا يَسَع الناس ، فإن لم يُحصَوْا حتّى يُعْلَم من أخَذَ ممن لم يأْخُذ ، خَشِيت أن ينتشِر الأمْرُ ـ فقال خالدُ بنُ الوليد رضى الله عنه : قد كنْتُ بالشام فرأيتُ ملوكَها دوَّنوا ديوانا وجنَّـدوا جنُودا ، فدوِّنْ ديوانًا وجنِّد جُنُودا ، فأخَذَ بقوله ودعا عَقيلَ بنَ أبى طالب ، ومَخْرمةَ بنَ نوْفل ، وجُبَير بنَ مُطْعِم ، (وكانوا من شَبابِ قريش) فقال : آكتبوا [الناسَ] علىٰ مَنازِلهم ، فبدءوا ببنى هاشم فكتَبُوهم ، ثم أتْبعُوهم أبا بكر وقوْمَه ، [ثم عمرَ وقومَه] وكتَبُوا القبائل ووضَعُوها على الخلافة ، ثم رفعُوه إلىٰ عمر ، فلما نظر فيه ، قال : لا ! وما وَدِدْت أنه هكذا ، ولكن آبْدَءوا بقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأقربَ فالأقربَ حتّى تضعُوا عمرَ حيثُ وضعه الله . فشكره العَبَّاس علىٰ ذلك ، وقال : وصَلَتْك رَحِمٌ .

وروىٰ زيدُ بن أسـلَمَ عن أبيـه : أن بَنِى عَدِىٍّ جاءُوا إلىٰ عمر ، فقالوا : إنك خليفةُ أبى بكر ، وأبو بكر خليفة رسول الله ، فلو جعلتَ نفسَك حيثُ جعلك هؤلاء القومُ الذين كَتَبُوا؟ فقال : بَخٍ بَخٍ يابنى عَدِىٍّ ! إنْ أردْتُم إلّا الأكْلَ علىٰ ظهرى ، وأنْ أُذْهِب حسناتى لكم ، لا والله ! حتّى تأتيكم الدعوةُ ولو آنطبَق عليكم الدفترُ . يعنى ولو أن تُكْتَبوا آخرَ الناس . إنَّ صاحِبَىَّ سلَكَا طريقا ، فإن خالفتُهما خُولِفَ بى ، والله ماأدركنا الفضلَ فى الدنيا والآخرة ، ولا نرجُو الثوابَ عند الله علىٰ عملنا إلا بمحمد صلَّى الله عليه وسلم ، فهو أشرَفُنا ، وقومُه أشرَفُ العرب ، ثم الأقربُ فالأقربُ ، ووالله لَئِن جاءتِ الأعاجِمُ بعَمَلٍ وجئنا بعملٍ دُونَهُم ، لَهُم أَوْلىٰ بمحمد صلى الله عليه وسلم منّا يومَ القيامة : فإنّ من قَصَّر به عملُه لم يُسْرِع به نسَبُه .

ورُوِى أنَّ عمر رضى الله عنه حينَ أراد وضْعَ الديوان، قال : بمن أبدَأُ؟ فقال له عبدُ الرحمن بنُ عوف : ٱبْدَأْ بنَفْسِك، فقال عمر : أذكر أنِّى حضرتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يَبْدأُ ببنى هاشم وبنى عبدِ المُطَّلب، فبدأ بهم عمرُ، ثم بمن يليهم من قبائل قُرَيش بَطْنا بعد بَطْن، حتى ٱستوفىٰ جميع قُريش، ثم ٱنتهىٰ إلى الأنصارِ، فقال عمرُ : ٱبدَأُوا برهْطِ سعدِ بنِ مُعاذ من الأوس، ثم بالأقرب فالأقرب لسَعْد.

* * *

وأما المُساواةُ والمفاضلةُ فى العطاء فقد ٱختُلِف فيه : فكان أبو بكر رضى الله عنه يرىٰ التسوية [بينهم] فى العطاء [ولا يرىٰ التفضيلَ بالسابقة] كما حكاه عنه الماوَرْدىّ فى "الأحكام السلطانية".

قال أبوهلال العسكرىّ فى "الأوائل" : وقد رُوِى عن عَوَانة أنه قال : جاء مالٌ من البَحْرَيْن إلىٰ أبى بكر رضى الله عنه فَساوىٰ فيه بينَ الناس، فغَضِبت الأنصارُ، وقالوا له : فَضِّلْنا، فقال : إن أردْتُم أنْ أُفَضِّلَكم فقد صار ماعملتُموه للدُّنيا، وإن شئْتم كان ذلك لله، فقالوا : والله ما عمِلْناه إلا لله! وٱنصرَفُوا . فرَقِىَ أبو بكر رضى الله عنه المِنْبر، فحمِدالله وأثنىٰ عليه، ثم قال : يامَعْشَرَ الأنصار لوشئتم [أن] تقُولُوا : إنا آوَيْناكم وشارَكْناكم أموالَنَا ونَصَرْناكم بأنفُسِنا لقُلْتم، وإنَّ لكم من الفضل مالايُحصىٰ له عَدَد، وإن طال الأمَد، فنحنُ وأنتم كما قال الغَنَوِىّ :

جَزَى اللهُ عنَّا جعْفَرا حين أَزْلَقَتْ * بنا نَعْلُنا فى الواطئين فزَلَّتِ
أَبَوْا أنْ يَمَلُّونَا ولَوْ أنَّ أُمَّنَا * تُلَاقِى الَّذِى لاقوْه منَّا لَمَلَّتِ
هم أسكنونا فى ظلال بيوتهم * ظلالِ بيوتٍ أدفأت وأَكَنَّتِ

قال الماوردى : وإلى ما رأى أبو بكر رضى الله عنه ذهب على رضى الله عنه فى خلافته ، وبه أخذ الشافعى ومالك .

وكان عمر رضى الله عنه يرى التفضيل بالسابقة فى الدين ، حتى إنه ناظر أبا بكر رضى الله عنه فى ذلك ، حين سوى بين الناس ، فقال : أتساوى بين من هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف ؟ ! ـ فقال أبو بكر : إنما عملوا لله ، وإنما أجورهم على الله ، وإنما الدنيا [دار] بلاغ [للراكب][1] ، فقال له عمر : لا أجعل [من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ؛ فلما وضع الديوان جرى][1] على التفضيل بالسابقة ؛ ففرض لكل رجل شهد بدرا من المهاجرين [الأولين] خمسة آلاف درهم كل سنة ، ولكل من شهد بدرا من الأنصار أربعة آلاف درهم ، ولكل رجل هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ، ولكل رجل هاجر بعد الفتح ألفين ؛ وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار أسوة من أسلم بعد الفتح ؛ وفرض للناس على منازلهم ، وقراءتهم القرآن ، وجهادهم بالشام والعراق ؛ وفرض لأهل اليمن وقيس : لكل رجل من ألفى درهم إلى ألف درهم ، إلى خمسمائة درهم ، إلى ثلثمائة درهم ، ولم ينقص أحدا عنها ، وقال : لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم : ألفا لفرسه ، وألفا لسلاحه ، وألفا لسفره ، وألفا يخلفها فى أهله ؛ وفرض للنفوس مائة درهم ، فإذا ترعرع فرض له مائتين ، فإذا بلغ زاده . وكان لا يفرض للمولود شيئا حتى يفطم ، إلى أن سمع ليلة امرأة تكرِه ولدها على الفطام ، وهو يبكى ، فسألها عنه ـ فقالت : إن عمر لا يفرض للمولود حتى يفطم فأنا أكرهه على الفطام حتى يفرض له ـ فقال ياويح عمر ! كم احتقب من

(١) الزيادة من "الاحكام السلطانية" ص ١٧٧ .

وِزْر وهو لايدرى ، ثم أمر مناديا فينادى : ألَا لاتُعْجِلوا أولادَكم بالفِطَام ، فإنا نفرض لكلّ مولُودٍ فى الإسلام . قال المـاوردىّ : ثم رُوعى فى التفضيل عنـد آنقراض أهل السوابِق التقدُّم فى الشجاعة والبَلَاء فى الجهـاد .

وأما تقـديرُ العطاء فمعتبر بالكِفَاية حتّى يستغْنِيَ بها عن آلتمـاس مادَّة تقْطَعه عن حماية البَيْضـة . ثم الكفايةُ معتـبرةٌ من ثلاثة أوجه : أحدُهـا عَدَدُ من يعُوله من الذَّرارِىّ والممـاليك ـ والثـانى عَدَد ما يرتَبِط من الخيـل والظَّهْر ـ والثـالث : الموضعُ الذى يَحُـلُّه فى الغَلاء والرُّخْص فتقدّر [كفايتُه فى] نفقَتِه وكسوتِه لعامِه كلِّه . ثم تُعتَـبر حالُه فى كل عام ، فإن زادتْ نفَقاتُه زِيد ، وإن نَقَصَت نُقِص ؛ فلو تَقدّر رزقُه بالكِفاية ، فمنع الشافعىّ من زيادته على الكفاية وإن آتّسع المـال ، لأن أموال بَيْت المـال لا توضَع إلا فى الحقوق اللازمـة ؛ وأجاز أبو حنيفـة زيادَتَه حينئذٍ .

الطـــرف الثـالث

(فى بيان من يستَحِق إثباتَه فى الديوان ، وكيفيةِ ترتيبِهم فيه)

فأما من يستَحِق إثباتَه فى الديوان ، ففيه خمسةُ أمور :

أحدها ـــ البُلُوغ . فلا يجوز إثباتُ الصَّبىّ فى الدِّيوان ، وهو رأْىُ عمر رضى الله عنه ، وبه أخذ الشافعىُّ رضى الله عنه ، بل يكونُ جاريًا فى جملة عطاءِ الذَّرارِىّ .

الثـانى ـــ الحُرِّيَّةُ . فلا يُثْبَت فى الديوان مملوكٌ ، بل يكون تابعًا لسيِّده داخِلا فى عطائه ، خلافًا لأبى حنيفة فإنه جوَّز إفرادَ المملوك بالعطاء ، وهو رأْىُ أبى بكر رضى الله عنـــه .

الثالث — الإسلامُ ، ليَدْفَع عن المِلَّة باعتقاده ، حتَّى لو أُثْبِت فيهم ذمِّىّ لم يجز ، ولو آرتد منهم مُسْلِم سَقَط .

الرابع — السَّلامة من الآفاتِ المانعة من القتال . فلا يجوز أن يكون زَمِناً ولا أعْمَى ولا أقْطَع ، ويجوز أن يكون أخْرَس أو أصَمَّ . أما الأعْرَج ، فإن كان فارسا جاز إثباتُه أو راجِلاً فلا .

الخامس — أن يكون فيه إقدامٌ على الحرب ومَعْرِفةٌ بالقِتال ، فإن ضَعُفت هِمّته عن الإقدام ، أو قَلَّت معرفتُه بالقتال لم يجز إثباتُه .

فإذا وُجِدتْ فيه هذه الشروطُ ، آعتُبِر فيه خُلُوُّه عن عمل وطَلَبُه الإثباتَ فى الديوان ؛ فإذا طَلَب فعلىٰ وَلىّ الأمرِ الإجابةُ إذا دعتِ الحاجةُ إليه . ثم إن كان مشهورَ الآسم فذاك ، وإلا حُلِّىَ ونُعِت ، بذكر سِنِّه وقَدِّه ولَوْنِه وصفةِ وجْهِه ، ووُصِف بما يتميَّز به عن غيره ، كى لا تتفق الأسماءُ ، أو يَدَّعِىَ فى وقت العطاء ، ثم يُضَمُّ إلىٰ نقيبٍ عليه أو عريفٍ يكونُ مأخُوذا بدَرَكه .

* * *

وأما ترتيبُهم فى الديوان فقد جعلهم الماوَرْدِىّ فى "الأحكام السلطانية" علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل — الترتيبُ العامُّ . وهو ترتيبُ القَبائِل والأجناس حتَّى تتميَّز كلُّ قبيلةٍ عن غيرها وكلُّ جِنْسٍ عمن يخالفه ، فلا يُجمَع بين المختلفين ، ولا يُفرَّق بين المُؤتلِفين : لتكونَ دعوةُ الديوان علىٰ نَسَقٍ معروفِ النسب يزولُ فيه التنازُع والتجاذُب . فإن كانُوا عَرَبا رُوعِىَ فيهم القُرْب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فعل عمرُ

رضى الله عنه : فتُقدَّمُ العربُ المُسْتعْربة : وهم عَدْنانُ من ولد إسماعِيلَ عليه السلام، على العَرَب العاربة : وهم بنو قَحْطانَ عَرَبُ اليَمَن : لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم من عَدْنانَ . ثم عَدْنانُ تجمع ربيعةَ ومُضَرَ، فتقَدّم مُضَرُ على ربيعةَ : لأن النُّبوّة فى مُضَر، ومُضَرُ تجمع قُرَيْشا وغيرقُرَيش ، فتقدّم قرَيْشٌ على غيرهم : لأن النبوّةَ فيها ، فيكون بنُو هاشِم هم قُطْب الترتيب، ثم من يليهم من أقرب الأنساب إليهم حتّى يستوعِب قريشا، ثم مَنْ يليهم فى النَّسَب حتّى يستوعِبَ جميعَ مُضَر، ثم من يليهم حتى يستوْعب جميع عَدْنان .

وإن كانوا عَجَمًا لا يجتمِعُون على نسَبٍ ، فالمرجوعُ إليه فى أمرهم : إما أجْنَاسٌ وإما بِلَاد ، فالمميَّزُون بالأجناس كالتُّرك والهِند، ثم تَمَيَّزُ التُّرك أجناسا ، والهندُ أجناسا . والمُمَيَّزون بالبلاد : كالدَّيْلم والجَبَل، ثم تُمَيَّز الديلم بُلْدانا ، والجبل بُلْدانا . فإذا تميَّزُوا بالأجناس أو البُلْدان : فإن كانت لهم سابقةٌ ترتَّبوا عليها فى الديوان ، وإن لم تكن لهم سابقة ترتَّبوا بالقُرْب من وَلِىِّ الأَمر ، فإن تساوَوْا فبالسَّبْق إلى طاعته .

الضرب الثانى — الترتيبُ الخاصُّ : وهو ترتيبُ الواحد بعدَ الواحد ، فيقدّم فيه بالسابقة بالإسلام كما فعل عُمرُ رضى الله عنه ، فإن تساوَوْا ترَتَّبُوا بالدِّين ، فإن تقارَبُوا فيه رُتِّبوا بالسِّن ، فإن تقاربُوا بالسِّن رُتِّبوا بالشَّجاعة ، فإن تقاربوا فيها ، كان وَلِىّ الأمر بالخيار بين أن يرتِّبهم بالقُرْعة أو على رأيه واجتهاده

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الأوّل من المقـالة السابعة

(فى بيان حُكْم الإقطـاع)

قال فى "الأحكام السلطانية" : وإقطاعُ السلطان مختصّ بما جاز فيه تصرُّفه، ونفَذتْ فيه أوامِرُه، دُونَ ماتعيَّن مالِكُه وتميَّز مُسْتحقُّه .

ثم الإقطـاع علىٰ ضربيــن :

الضـــــرب الأوّل

(إقطاع التمليــك)

والأرض المقْطَعة بالتمليك إمَّا مَوَاتٌ، وإمَّا عامِرٌ، وإمَّا معْدِن .

فأمَّا المَوَاتُ فإنْ كان لم يَزَلْ موَاتا علىٰ قديم الزمان، لم تجْرِ فيه عِمارةٌ، ولم يَثْبُت عليـه مِلْك، فيجوزُ للسلطان أن يُقْطِعـه مَنْ يُحْيِيه ويَعْمُره. ثم مذهَب أبى حنيفةَ أنَّ إذنَ الإمام شرطٌ فى إحياء الموات، وحينئذٍ فيقومُ الإقطاع فيـه مَقَام الإذن . ومذهبُ الشافعىّ أن الإقطاعَ يجعَـلُه أحقَّ بإحيائه من غيره . وعلىٰ كِلَا المذهبين يكون المُقْطَع أحقَّ بإحيائه من غيره .

وأما إن كان المواتُ عامرًا فخرِب وصار مَوَاتا عاطِلا، فإن كان جاهليًّا : كأرض عادٍ وثمودَ، فهى كالمَوَات الذى لم تَثْبتْ فيه عِمَارة فى جَواز إقطاعه . قال صلى الله عليه وسلم : « عادَتِ الأرضُ للهِ ولرَسُوله، ثم هِىَ لَكُم مِنِّى، يعْنِى أرضَ عادٍ » . وإن كان المَواتُ إسلاميًّا جرىٰ عليه مِلْكُ المسلمين، ثم خَرِب حتَّى صار مَوَاتا عاطِلا،

فمذهبُ الشافعىّ أنه لا يُملك بالإحياء، عُرِفَ أربابُه أم لم يُعْرَفُوا، ومذهبُ مالك أنه يُمْلَك بالإحياء، عُرِف أربابُه أم لم يُعْرَفوا، ومذهبُ أبى حنيفة أنه إن عُرِف أربابُه لم يُملك بالإحيـاء، وإلّا مُلِك . ثم إذا لم يجز أنْ يُمْلَك بالإحياء على مذهب الشافعى[(١)]، فإن عُرِف أربابُه لم يجُزْ إقطاعُه، وإن لم يُعْرفوا جاز إقطاعُه وكان الإقطاعُ شرطًا فى جَواز إحيائه . فإذا صار المواتُ إقطاعًا لمن خَصَّه الامامُ به لم يستقرّ مِلْكُه عليـه حتى يُحْيِيَه ويكْمُلَ إحياؤُه ، فإنْ أمسك عن إحيائه كان أحقَّ به يدًا وإن لم يَصِرْ له مِلْكا .

وأمَّا العامر : فإن تعيّن مالِكُوه، فلا نَظَر للسلطان فيه إلا ما تعلّق بتلك الأرض من حقُوق بَيْتِ المـال إذا كانتْ فى دار الإسلام، سواء كانتْ لمسلم أو ذمّىّ، وإن كانت فى دار الحربِ التى لم يثْبُتْ عليها للسلمين يدٌ جاز للإمام أن يُقْطِعَها ليملِكَها المُقْطَع عند الظَّفَر بها ، كما أقطعَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم تميمًا وأصحابَه أرضًا بالشأم قبل فتحه، على ماتقدّم ذكره فى أوّل الباب .

وإن لم يتعيّنْ مالِكُوه: فإن كان الإمامُ قد آصطفاه لبَيْتِ المـال من فُتُوح البلاد: إما بحَقّ الخُمس ، أو بآستطابة نفوس الغانمين ، لم يَجُزْ إقطاعُ رقبته : لأنه قد صار باصطفائه لبيتِ المـال مِلْكا لكافّة المسلمين، فصار[(٢)] على رَقَبته حكمُ الوقْف المؤبَّد، والسلطانُ فيه بالخيار بينَ أن يستغِلَّه لبَيْت المـال وبين أن يتخيَّر له من ذَوى المَكنَة والعمل من يَقُوم بعمارة رقَبته ، ويأخُذُ خَراجه ، ويكونُ الخراجُ أجرةً عنـه تُصْرَف فى وجوه المصالح .

---

(١) عبارة الأحكام السلطانية «وان لم يجز على مذهبه أن يملك» الخ والضمير عائد على أبى حنيفة ، وحرر .

(٢) عبارة "الأحكام" السلطانية «بجرى على رقبته حكم الخ» وهى أوضح .

وإن كان العامر أرضَ خراجٍ لم يجُزْ إقطاعُ رِقابِها تمليكًا .

وأما إقطاعُ خراجِها فسيأتى فى إقطاع الاستغلال فيما بعْدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

وإن كان المَوَاتُ قد مات عنه أربابُه من غير وارث، صار لبَيْت المال مِلْكًا لعامَّة المسلمين . ثم قيل : تصيرُ وَقْفا على المسلمين بمجرَّد الانتقال الىٰ بيت المال، لا يجُوز إقطاعُها ولا بيعُها . وقيل : لاتصيرُ وقْفا حتَّى يَقفها الإمام، ويجوز للإمام بيعُها اذا رأىٰ فيه المصلحةَ ويُصْرَف ثَمَنها فى ذَوِى الحاجات . ثم قيل : يجوزُ إقطاعها كما يجوز بيعها، ويكون تمليك رَقَبتها بالإقطاع كتمليك ثَمَنها . وقيل : لايجوز إقطاعها وإن جاز بيعُها : لأن البيع معاوَضةٌ والإقطاعَ صِلَة .

الضــــرب الثــانى

(من الإقطاع إقطاع الاســتغلال)

وهو : إمَّا خَرَاجٌ أو عُشْر .

فأما الخَرَاج : فان كان من يُقْطِعه الإمامُ من أهل الصَّدَقات لم يجز أن يُقْطَع مالَ الخراج : لأن الخراج فَيْءٌ لايستحِقُّه أهل الصدقة كما لايستحِقُّ الصدقَةَ أهلُ الفَيْءِ وأجاز إقطاعَه أبو حنيفة .

وإن كان من أهل المصالح ممن ليس له رِزْق مفرُوض فلا يصحُّ أن يُقْطَعه على الإطلاق وإن جاز أن يُعْطىٰ من مال الخراج : لأنهــم من نَفْل أهل الفَيْءِ لا من فَرْضــه، وما يُعْطَوْنه إنمـا هو من غَلَّات المصالح ، فإن جُعِل لهم من مال الخراج شيءٌ أُجْرِى عليه حكمُ الحَوالة لاحُكْم الإقطاع .

وإن كان من مُرْتَزِقة أهـلِ الفَىْء وهم أهلُ الجَيْش، فهم أخَصُّ الناس بجواز الاقطاع : لأن لهم أرزاقا مقدّرةً تُصْرف اليهم مَصْرِف الاستحقاق، من حيُث إنها أعواضٌ عما أرْصَدُوا نفوسهم له من حماية البَيْضة والذَّبّ عن الحريم .

ثم الخراج : إما جِزْيةٌ وهو الواجب على الجَماجِم، وإما أُجْرة وهو الواجِبُ على رِقَاب الأرض . فإن كان جزيةً لم يجز إقطـاعُه أكثَرَ من سَـنَةٍ ، لأنه غير موثُوق باستحقاقِه بعدَها لاحتمال أن يُسْـلِم الذمِّىّ فتزولَ الجزيةُ عنه . وإن كان أجرةً جاز إقطاعُه سنينَ لأنه مستقرّ الوجوبِ على التأبيد .

ثم له ثلاث أحـــوال :

إحداها ــ أن يُقدِّر بسنينَ معلومةٍ، كما إذا أقطعَه عَشْر سنين مثلا، فيصحُّ، بشرط أن يكون رزْق المُقْطَع معلومَ القَدْر عند الإمام، وأن يكون قدرُ الخراج معلومًا عند الإمام وعند المُقْطَع، حتّى لو كان مجهُولا عندهما أو عندَ أحدهما لم يصحَّ . ثم بعد صحَّة الإقطاع يُراعىٰ حالُ المقْطَع فى مُدّة الإقطاع : فإن بقى إلى انقضاء مُدّة الإقطاع علىٰ حال السـلامة فهو على استحقاقِ الإقطاع إلى انقضاء المدّة، وإن مات قبـل انقضاء المُدّة بطل الإقطاعُ فى المدّة الباقية، ويعودُ الإقطاع إلىٰ بيت المـال . وإن كان له ذرِّية دخَلُوا فى عطـاء الذرارِىّ دُونَ أرزاق الأجناد ، ويكون ما يُعْطَوْنه تسبُّبا لا إقطاعا . وإن حدَث بالمُقْطَع زمانةٌ فى تلك المدّة ففى بقاء الإقطاع قولان : (أحدهما) أنَّ إقطاعه باقٍ عليه إلىٰ انقضاء المدّة (والثانى) أنه يُرْتَجَع منه .

الثـانية ــ أن يُقْطَعَه مدّة حَياته ثم لعَقِبه وورثته بعد موته ، فلا يصحُّ : لأنه يخرُج بذلك عن حقُوق بيتِ المـال إلى الأملاك المورُوثة، فلو قبَض منه شيئا برِئَ أهلُ الخراج بقَبْضه : لأنه عقدٌ فاسدٌ مأذُونٌ فيه ويُحاسَب به من جملة رِزْقه : فان

كان أكثرَ ردَّ الزيادة، وإن كان أقلَّ رجَع بالباقى ، وعلى السلطان أن يُظهر فسادَ الإقطاع حتَّى يمتنِعَ هو من القَبْض ويمتنع أهل الخراج من الدَّفْع ولم يبرءُوا بما دفعوه إليه حينئذ .

الثالثة — أن يُقطعه مدّة حياته . ففى صِحَّة الاقطاع قولان للشافعى بالصحَّة والبطلان، ثم إذا صَحَّ الإقطاع فللسلطان آسترجاعُه منه فيما بَعْدَ السنة التى هو فيها، ويعودُ رِزْقه إلىٰ دِيوان العطاء . أما السنةُ التى هو فيها : فإن حَلَّ رزْقُه فيها قبل حلول خراجها لم يسترجع منه فى سنته لآستحقاق خراجها فى رزْقه ، وإن حل خراجُها قبل حلول رزقه جاز آسترجاعُه منه : لأنَّ تعجيلَ المؤجَّل وإن كان جائزا فليس بلازم .

وأما العُشْر فلا يصحُّ إقطاعُه، لأنه زكاةُ الأصناف، فيعتبر وصفُ آستحقاقِهم عند دفعها إليهم، وقد يجوز أن لا يُوجدَ فلا تجب .

قلتُ : هذا حكم الإقطاع فى الشريعة، وعليه كان عملُ الخلفاء والملوكِ فى الزمن السالف، أما فى زماننا فقد فَسَد الحالُ وتغيَّرت القوانينُ ، وخرجتِ الأمورُ عن القواعد الشرعية، وصارت الإقطاعاتُ تَرِد من جهة الملوك علىٰ سائر الأموال : من خَرَاج الأرضينَ، والجِزْية ، وزكاةِ المواشِى، والمَعادنِ، والعُشْر، وغير ذٰلك . ثم تفاحَشَ الأمرُ وزاد حتَّى أقطعُوا المُكُوس على آختلاف أصنافها ، وعمَّت بذٰلك البَلْوىٰ، والله المستعانُ فى الأمور كلِّها ! .

الباب الثانى

من المقالة السابعة

(فيما يُكْتَب فى الإقطاعات فى القديم والحديث، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

فى أصل ذلك

والأصل فيه مارُوِى أنّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلم أقطع تَميمًا الدَّارِىَّ أرضًا بالشأم وكَتَب له بها كِتابًا.

وقد ذكر الحافظ ٱبن عساكر فى تاريخ دِمَشْق فيه طُرُقا مختلِفة. فروىٰ بسنده إلىٰ زياد بن فائد، عن أبيه فائد، عن جدّه زيادِ بنِ أبى هند، عن أبى هندٍ الدارىّ أنه قال: قَدِمْنا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ ونحن سِتَّةُ نَفَر [1]: تَميمُ بنُ أوس، ونُعَيم بنُ أوْس أخوه، ويزيدُ بنُ قيس، وأبو هندِ بنُ عبد الله، وهو صاحب الحديث، وأخوه الطيِّبُ بنُ عبد الله [كان ٱسْمُه برا] [2] فسماه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن [3]، وفاكِهُ بنُ النعمان، فأسلَمْنا وسألْنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يُقْطِعَنا أرضا من أرض الشأم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «سَلُوا حيْثُ شِئْتُم». فقال تميمٌ: أرَىٰ أن نسألَه بيتَ المَقْدِس وكُوَرَها، فقال أبو هند: [هذا محلُّ مُلْك العجم] [4] وكذٰلك يكون فيها مُلْك العرب وأخاف أن لا يَتِمَّ لنا هذا، فقال تَميم: فنسأله

(١) فى "سيرة ٱبن هشام" عدهم ثمانية.

(٢) الزيادة من "سيرة ٱبن هشام" ج ٢ ص ١٩٥ وهى لازمة لصحة المقام.

(٣) فى "سيرة ٱبن هشام" ـ عبدالله ـ وأن الذى سماه عبدالرحمن إنما هو عرفة بن مالك ولم يذكر هنا.

(٤) الزيادة من "السيرة الحلبية وتاريخ ابن عساكر المحفوظ بدار الكتب الأزهرية".

بيت جِبْرِينَ وكُورَتها ، فقال أبو هِندٍ : هـذا أكبر وأكبر . فقال : فأين ترى أن نسأله ؟ فقال : أرى أن نسأله القُرى التي يقع فيها تلٌّ مع آثار إبراهيم . فقال تميم : أصبْتَ ووُفِّقت ـ قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم : «أتُحِبُّ أن تُخْبِرَنى بمـا كنتُم فيـه أو أُخبِرَك ؟ » ـ فقال تميم : بل تُخْبِرنا يارسولَ الله نزدَادُ إيمـانًا ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أردتُمْ أمرًا فأراد هذا غيْرَه» ونِعم الرأْىُ رَأَى ـ قال : فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم بقِطْعةِ جِلْدٍ من أَدَم ، فكَتَب لنـا فيها كتابا نُسْخته :

« بسم الله الرحمن الرحـيم »

«هـذا [كتابٌ] (١) ذُكِر [فيه] (١) ما وَهَب محمدٌ رسولُ الله للدَّارِيِّين إذا»
«أعْطاه اللهُ الأرضَ . وَهَب لهم بيتَ عيْنُونَ وحَبْرُونَ ، و بيتَ إبراهيمَ»
«بمَنْ فيهِنَّ لهم أبدًا» .

«شهِد عبَّـاسُ بنُ عبد المطَّلب ، وجَهْم (٢) بنُ قيس ، وشُرَحْبيلُ بنُ»
«حسَنةَ ، وكَتَب» .

قال : ثم دخل بالكتاب إلى منزله فعالَج (٣) فى زاويةِ الرُّقعةَ وغَشَّاه بشىءٍ لا يُعْرَف ، وعَقَده من خارج الرُّقْعة بسَـيْرٍ عُقْدتين ، وخرج إلينـا به مَطْويًّا وهو يقول : ﴿ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بإبْراهِيمَ لَلَّذِين ٱتَّبعُوه وهذا النَّبِىُّ والَّذين آمَنُوا واللَّهُ وَلِىُّ المُؤْمِنِينَ ﴾

(١) الزيادة من "السيرة الحلبية" ج ٣ ص ٢٩٦ وتاريخ ابن عساكر .
(٢) فى "السيرة الحلبية" ص ٢٩٦ ج ٣ « وخزيمة بن قيس » .
(٣) بياض فى الأصل بمقدار كلمة ، والتصحيح من تاريخ ابن عساكر .

ثم قال : ٱنْصرِفُوا حتَّى تسمَعُوا بِى قد هَاجَرْتُ . قال أبو هند : فانصَرَفْنا . فلما هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، قَدِمْنا عليه فسألْناه أن يُجَدِّد لنا كِتابا ، فكتب لنا كتابا نُسْخَتُه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

«هذا ما أنْطَى محمدٌ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لتَمِيمٍ الدَّارِيِّ»
«وأصحابِهِ ، إنِّى أنْطيْتُكم عَيْنُونَ وحَبْرُونَ والرطوم وبيْتَ إبراهِيمَ بِرُمَّتِهِم»
«وجميع مافِيهِم نَطِيَّةَ بَتٍّ ، ونَفَّذْتُ وسَلَّمت ذٰلِك لهم ولأعْقابِهِم مِنْ»
«بَعْدِهِم أَبَدَ الأَبَدِ ، فَمَنْ آذاهُمْ فيها آذاه اللهُ» .

«شهِد أبو بكْر بنُ أبِى قُحَافة ، وعُمَرُ بنُ الخطَّاب ، وعثمانُ بنُ عَفَّانَ ،»
«وعلِيُّ بنُ أبِى طالِبٍ ، ومعاوِيةُ بنُ أبِى سُفْيانَ ، وكَتَب» .

فلما قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ووَلِى أبو بكر ، وَجَّه الجنودَ إلى الشأم ، فكتب لنا كِتاباً نُسْخَتُه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

«مِن أبِى بكرٍ الصدِّيقِ إلىٰ عُبَيدةَ بنِ الجَرَّاح ، سلامٌ عليك فإِنِّى»
«أحْمَدُ إليكَ اللهَ الَّذِى لا إلٰهَ إلَّا هُو» .

«أما بعد ، ٱمْنَعْ مَنْ كان يُؤْمِن بِاللهِ واليَوْم الآخِرِ من الفَسَاد»
«فى قُرَىٰ الدَّارِيِّينَ ؛ وإنْ كان أهْلُها قد جَلَوْا عنها وأرادَ الدَّارِيُّون»

« أن يَزْرَعُوها فَلْيَزْرَعُوها، فإذا رجَع أهلُها إليها فَهِى لهُمْ وأحقُّ بِهِمْ »
« والســلامُ عليْكَ » .

وروىٰ بسنده أيضا إلى الزُّهرِيّ وثَورِ بنِ يزِيدَ عن راشد بن سَعْد، قالا : قام تميمٌ الدارِيُّ وهو تميمُ بنُ أوْسٍ، رجلٍ من لَخْمٍ، فقال يارسولَ الله، إنَّ لى جِيرةً من الرُّوم بِفلَسْطِينَ لهم قريةٌ يقال لهـا حَبْرىٰ، وأُخرى يقال لهـا بيْتُ عَيْنُون : فإنْ فتحَ الله عليك الشأم فهَبْهُما لى، قال : هُمَا لك، قال : فاكْتُبْ لى بذٰلِك، فكتَبَ له :

« بسم الله الرحمٰن الرحــيم »

« هــذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسـلم لتميمِ بنِ أَوْسٍ »
« الدارِيّ، إنَّ له قَرْيةَ حَبْرىٰ وبَيْتَ عَيْنُون قَريَتَها كلَّها سَهْلَها وجَبَلَها »
« وماءَها وحَرَّتَها وأنْباطَها وبَقَرها ولعَقِبه من بعــده لا يُحاقُّه فيهــا أحدٌ »
« ولا يلِجُه عليهم أحدٌ بظُلْمٍ . فمن ظَلَمَهم أو أخذَ من أحدٍ منهم شَيْئا »
« فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين » وكتب علىّ .

فلما وَلِى أبو بكر كتب لهم كتابا نُسْخته :

« هذا كتابٌ مِن أبى بكرٍ أمينِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الذى »
« آستُخْلِف فى الأرضِ بعدَه، كتَبه للدَّارِيّين أن لا تُفْسَدَ عليهم مَأْثُرتُهم »
« قريةُ حَبْرىٰ وبيتُ عَيْنُون، فمن كان يَسْمَع ويُطِيع فلا يُفْسِد منها شيئا »
« ولْيَقُمْ عمرُو بنُ العاصِ عليهما فلْيَمْنَعْهُما من المُفْسِدين » .

وروى ابن منده بسنده إلى عمرو بن حَزْم رضى الله عنه أنه قال : أقطعَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم تميماً الدارىّ، وكَتبَ :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله لتميم بنِ أوْس الدارىّ، إنَّ له صِهْيَوْنَ»
«قريَتَها كلَّها سَهْلَها وجبَلَها وماءَها وكُرُومها وأنْباطها وورَقها، ولعقِبه من»
«بعده لا يُحاقُّه فيها أحدٌ، ولا يَدْخُل عليه بِظُلْمٍ، فمن أراد ظُلْمَهم»
«أوْ أخْذَه منهم فإنّ عليه لعنةَ الله والملائكةِ والناسِ أجمعِين» .

قلتُ : وهذه الرُّقعةُ التى كَتَب بها النبىّ صلى الله عليه وسلم موجودةٌ بأيدى التميميين خُدَّامِ حَرَم الخليل عليه السلام إلى الآنَ، وكُلّما نازعَهم أحدٌ أتَوْا بها إلى السلطان بالديار المِصريَّة ليقِفَ عليها ويكُفَّ عنهم من يَظْلِمهم . وقد أخبرنى برؤيتها غيرُ واحدٍ، والأديمُ التى هى فيه قد خَلِق لطُول الأمَد .

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الثـانى من المقالة السابعة

(فى صورة ما يُكتَب فى الإقطاعات، وفيـــه طرفان)

الطـــــرف الأوّل

(فيما كان يُكتَب من ذٰلك فى الزَّمن القديم)

وكانتِ الإقطاعات فى الزَّمن الأوّل قليلةً، إنَّمـا كانت تُجْبىٰ الأموالُ إلىٰ بَيْت المـال ثم يُنْفَق منه على الجُنْد علىٰ ما تقـدّم ذِكره، ورُبَّمـا أقطعُوا القريةَ ونحوَها وقرّرُوا علىٰ مُقْطَعِها شـيئا يقومُ به لبَيْتِ المـال فى كل سـنةٍ، ويُسَمُّونـ ذٰلك المقاطعـــةَ .

ثم ما كان يُكتَب فى ذٰلك علىٰ ضربين، كِلاهما مفتتَح بلفظ «هذا» :

الضـــــرب الأوّل

(ما كان يُكتَب عن الخلفاء، ولهـــم فيه طريقتان)

الطريقـــــةُ الأُولىٰ

(طريقة كُتَّاب الخُلفاء العبَّاسيِّين ببغدَادَ)

وكان طريقُهم فيها أن يُكتَب « هـذا كتابٌ من فلان (بلَقَب الخليفـة) إنك ذكرتَ من أمْر ضَيْعَتِك الفلانية كذا وكذا، وسألتَ أميرَ المؤمنين فى كذا وكذا، وقد أجابك أميرُ المؤمنين إلىٰ سُؤالك فى ذٰلك ونحوه » .

وهــذه نسخةُ مُقاطعةٍ، كُتِب بها عن المُطِيع لله الخليفةِ العبَّاسىّ، من إنشـاء أبِى إسحاقَ الصابِى، وهى :

هذا كتابٌ من عبد الله الفَضْلِ، الإمامِ المُطِيع لله أمير المؤمنين، لفلان بن فلان.

إنّك رفعْتَ قِصَّتَك تذكُر حالَ ضَيْعتِك المعروفةِ بكذا وكذا، من رُسْتاق كذا وكذا، من طَسُّوج كذا وكذا، وأنها أرضٌ رَقيقةٌ قد تَوالىٰ عليها الخَرَاب، وٱنغلَق أكثرُها بالسَّدّ والدَّغَل، وأنَّ مِثْلَها لاتَتَّسِع يدُ الليالى للإنفاق عليه، وقلب بالاسله(؟) وٱستخراج سُدُوده وقَفْل أَرْضه، ولا يرغَبُ الأَكَرَةُ فى ٱزْدِراعِه والمعاملةِ فيه. وإن أميرَ المؤمنين مُقاطِعُك عن هذه الضَّيْعة علىٰ كذا وكذا من الوَرِق المُرْسَل فى كلِّ سنةٍ، على ٱستقبال سنة كذا وكذا الخراجيَّة، مُقاطَعةً مؤبَّدة، ماضيةً مُقَرَّرةً نافذة، يُستخْرَج مالُها فى أوّل المحرَّم من كلِّ سنة، ولا تُتْبَع بنقصٍ ولا يتأوّلُ فيها متأوِّل، ولا تُعترَضُ فى مستأنَفِ الأيّام، [إن] ٱجتهَدْتَ فى عِمارتِها، وتكلَّفْتَ الإنفاقَ عليها وٱستِخراجَ سُدُودها، وقَفْلَ أراضيها وٱحتِفارَ سواقِيها، وٱجْتِلابَ الأَكَرة إليها، وإطلاقَ البذُور والتقاوى فيها، وإرْغابَ المُزارعين بتخفيف طُسُوقها بحق الرقبة ومُقاسماتِها، وكان فى ذلك توفيرٌ لحقِّ بَيْت المال وصلاحٌ ظاهر لايخْتَلّ.

وسألتَ أميرَالمؤمنين الأمْرَ بذلك والتَّقدُّم به والإسْجالَ لك به، وإثباتَه فى ديوان السَّواد ودَواوِين الحَضْرة وديوان الناحية، وتَصْيِيره ماضيًا لك ولعَقِبك وأعقابِهم، ومَنْ لعَلَّ هذه الضَّيْعةَ أو شيئًا منها ينتَقِلُ اليه ببيع أو ميراثٍ أو صَدَقةٍ أو غير ذلك من ضُروب الٱنتقال.

وإنَّ أمير المؤمنين بإيثاره الصَّلاح، وٱعتمادِه أسبابَه، ورَغْبته فيما عادَ بالتوفير علىٰ بَيْت المال، والعمارةِ والتَّرفيهِ للرَّعية، أمَرَنا بالنظر فيما ذكرتَه، وٱستقصاءِ البَحْث عنه، ومَعْرفةِ وجهِ التدبير، وسبيلِ الحظِّ فيه، والعملِ بما يُوافق الرُّشْد فى جميعه. فرُجِع إلى الدِّيوان فى تعرُّف ماحكيتَه من أحوال هذه الضَّيعة، فأُنفذ منه رجلٌ مختارٌ ثقةٌ

مأمونٌ، من أهل الخِبْرة بأمور السَّواد وأعمال الخَرَاج : قد عَرَف أميرُ المؤمنين أمانَتَه وعِلْمَه ومعرفَتَه، وأُمِر بالمَصِير إلىٰ هٰذه الناحيةِ، وجَمْع أهلِها : من الأدِلَّاء والأَكَرَة والمُزارعين ، وثِقاتِ الأمَنـاء والمُجاوِرين ، والوُقوفِ علىٰ هـذه الأقرحة ، وإيقاعِ المِساحة عليها ، وكَشْفِ أحوال عامِرِها وغامِرِها ، والمَسِـيرِ علىٰ حُدودها ، وأخْذِ أقوالِهم وآرائِهم فى وجهِ صَلاح وعمارةِ قَراحٍ قَراحٍ منها ، وما يُوجِبُه صوابُ التدبير فيما ٱلتمستَه من المقاطعة بالمَبْلغ الذى بذَلْته . وذكرتَ أنه زائدٌ علىٰ الآرتفاع ، والكِتاب بجميع ذٰلك الى الديوان ، ليوقَفَ عليه ويُنْهىٰ الىٰ أمير المؤمنين فينظُرَ فيه : فما صَحَّ عنده منه أمْضاه ، وما رأىٰ الآستظهار علىٰ نَظَر الناظرِ فيه آستظْهَر فيما يرى منه، حتَّى يقِفَ علىٰ حقيقته، ويَرْسُم مايُعمَل عليه .

فذكر ذلك النـاظرُ أنه وقَفَ علىٰ هـذه الضَّيْعةِ ، وعلىٰ سائر أقْرِحَتِها وحُدُودها ونِطاقِها، بمَشْهَدٍ من أهل الخِبْرة بأحوالها : من ثِقاتِ الأدِلَّاء والمجاوِرين ، والأَكَرَة والمزارعين، والأُمَنـاء الذين يُرجَع الىٰ أقوالهم، ويُعمَلُ عليها، فوجد مِساحَةَ بُطُونِ الأقْرِحة المزدَرَعة من جميعها، دُونَ سَواقيها وبُرُورها وتِلالِها وجنائبِها ومستنقعاتِها، وما لا يُعتَمد من أرضها، بالجَرِيب الهاشميّ الذى تُمْسح به الأرضُ فى هذه الناحية كذا وكذا جَرِيباً : منها جميعُ القَرَاح المعروف بكذا وكذا، ومنها قَراحُ كذا وكذا، ومنها الحِصْن والبُيوتُ ، والساحاتُ ، والقَرَاحات ، والخَزَّانات، ووجد حالَها فى الخَراب والآنْسِداد ، وتعذُّرِ العِمارة ، والحاجةِ الىٰ عظيم المَئُونة وفَرْط النَّفقة علىٰ ما حكَيْتَه وشكَوْته ، ونظر فى مِقْدار أَصْل هذه الخَزَّانات من هذه الضَّيعة ، وما يجب عليها، وكشفَ الحالَ فى ذلك ..

ونَظَر أمير المؤمنين فيما رفعه هـذا المؤتَمَنُ المُنفَذُ من الديوان، وآستظهر فيه بمـا رَآه من الآستظهار، ووجبَ عنده من الآحتياط، فوجد مارفَعه صحيحًا صحَّةً عرَفها أميرُ المؤمنين وعَلِمها، وقامتْ فى نَفْسه، وثبَتَتْ عنده، ورأىٰ إيقاعَ المُقاطَعة التى آلتمَسْتَها علىٰ حقِّ بَيْت المال فى هذه الضَّيعة، فقاطَعَك عنه فى كلِّ سنةٍ هلاليَّة، على آستقبال ســنة كذا وكذا الخراجية، علىٰ كذا وكذا : دِرْهما صِحَاحًا مُرسَلَة بغير كَسْر ولا كعابه (؟) ولا حقِّ حَرْب ولا جَهْبذة، ولا مُحاسَبةٍ ولا زيادةٍ، ولا شَىْءٍ من جميع المُؤَن وسابق التواقيع والرُّسُوم . تؤدَّىٰ فى أوّل المحرَّم من كلِّ سنة، حسَبَ ما تُؤَدّىٰ المقاطعةُ، مقاطعةً ماضيةً مُؤَبَّدة، نافذةً ثابتة، علىٰ مُضِىِّ الأيام، ولُزُوم الأعوام، لا تُنْقَض ولا تُفْسَخ، ولا تُتْبع، ولا يُتأوَّل فيهـا، ولا تُغَيَّر. علىٰ أن يكون هــذا المــالُ : وهو من الوَرِق المرسَــلِ كذا وكذا فى كل ســنة مؤدًّى فى بيت المــال، ومصحَّحا عند من تُورَد عليه فى هذه الناحية أموالُ خَراجهم ومقاطعاتُهم وجباياتُهم، لا يُعْتَلُّ فيها بآفةٍ تَلْحَق الغَلَّات، سماويّةٍ ولا أرضيَّة، ولا بتعطُّلِ أرض، ولا بقُصُور عِمارة، ولا نُقْصانِ رَيْع، ولا بانحطاطِ سِــعْر، ولا بتأخُّر قَطْر، ولا بِشرْب غَلَّة، ولا حَرَق ولا شَرَق، ولا بغير ذٰلك من الآفات بوجْه من الوجوه، ولا بسَبَبٍ من الأسباب؛ ولا يحتجّ فى ذٰلك بحُجَّة يحتجُّ بها التنا (؟)، والمُزارِعُون، وأربابُ الخَراج فى الآلتِوَاءِ بمـا عليهم، وعلى أن لا يدخُلَ عليك فى هذه المقاطعة يَدُ ماسِح ولا مُخَمِّن، ولا حازِر، ولا مقدِّم، ولا أمينٍ، ولا حاظِر، ولا ناظِرٍ، ولا متتَبِّع، ولا متعرِّف لحال زراعةٍ وعِمارة، ولا كاشفٍ لأمر زَرْع وغَلَّة، ماضِيًا ذٰلك لك ولعَقِبك من بعدك، وأعقابِهم، وورَثَتِك ووَرَثتِهم، أبدًا ما تناسَلُوا، ولمن عسىٰ أن تنْتقِلَ هذه الأَقْرِحةُ أو شيءٌ منها إليه بإرْثٍ، أو بيْع، أو هِبةٍ، أو نَحْل، أو صَدَقةٍ، أو وَقْف، أو مُناقَلَة، أو إجارة، أو مُهايأَة، أو تمليك، أو إقْرار، أو بغير ذٰلك من الأسباب التى تنتقِلُ بها

الأملاكُ من يَدٍ إلىٰ يَدٍ، ولا يُنقضُ ذٰلك ولا شيءٌ منه، ولا يغيَّر ولا يفْسَخ، ولا يُزال ولا يبــدَّل، ولا يعقَّب، ولا يعترَض فيه بسَبَب زيادةِ عمَــارةٍ، ولا ٱرتفاعِ سِعْر ولا وُفُور غَلَّة، ولا زَكاءِ رَيْع، ولا إحياءِ مَوَاتٍ، ولا ٱعتمالِ مُعطَّلٍ، ولا عمــارةِ خَراب، ولا ٱستخراج غامرٍ، ولا صَــلَاح شِرْبٍ، ولا ٱستحداثِ غلَّات لم يَجْرِ الرسمُ باستحداثها وزراعتها، ولا يُعَدُّ ولا يُمْسَحُ ما عسىٰ أن يُغْرس بهذه الأقرحة: من النَّخْل وأصناف الشَّجَر المعدُود والكَرْم، ولا يُتأوَّل عليك فيما لعلَّ أصلَ المساحة أن تزيدَ به فيما تُعمِّره وتستـخرجُه من الجَبَـابين(١) والمستنقَعات، ومواضِع المَشارِب المُسْــتغنىٰ عنها، إذْ كان أميرُ المؤمنين قد عرَف جميعَ ذلك، وجعــل ما يجب علىٰ شيءٍ منه عند وجوبه داخلًا فى هذه المُقاطَعة، وجَارِيا مَعَها.

علىٰ أنَّك إن فصَّلْت شيئًا من مال هــذه المُقاطَعة علىٰ بعض هــذه الأقْرِحةِ من جميع الضَّــيعة، وأفردْتَ باقِيَ مال المقاطَعة بباقيها عنــد مِلْك ينتقلُ منها عن بَدَل، أو فعَل ذٰلك غيرُك ممَّن جُعِل له فى هذه المقاطَعَة ما جُعِل لك من وَرَثتك ووَرَثتهم، وعَقِبك وأعقابهم، ومَنْ لعلَّ هذه الضَّيعةَ أو شيْئًا من هذه الأقرحة ينتقلُ إليه بضَرْب من ضُروبِ الانتقال، قُبِل ذلك التفصيلُ منكم عند الرِّضا والاعتراف ممَّن تَفْصِلُون باسمه، وتُحيلون عليه، وعُومِلْتم علىٰ ذٰلك، ولم يُتأوَّل عليكم فى شَيْءٍ منه.

وعلىٰ أنك إن ٱلتمستَ أو ٱلتمس مَن يقُوم مَقامك ضَرْبَ مَنَارٍ علىٰ هذه الضيعةِ، تُعرَف به حدُودُها ورسومُهــا وطُرُقها، ضُرِب ذٰلك المَنَــار أيَّ وَقْتٍ ٱلتمَسُوه، ولم يُمنَعُوا منــه، وإن تأخَّر ضربُ المَنَــار لم يُتأوَّل عليكم به، ولم يُجعَلْ عِلَّة فى هــذه المقاطعة، إذْ كانت شهرةُ هذه الضيعةِ وأقْرِحتها فى أماكنها، ومعرفةُ مجاوِرِها بمــا ذُكر من تسميتِها ومِساحتِها، تُغْنى عن تَحْديدها أو تَحْديد شيءٍ منها، وتَقوم مقام المَنَار

(١) الجبابين الصحارى.

فى إيضاحِ معالمِها ، والدِّلالةِ علىٰ حُدُودِها وحُقُوقِها ورسُومِها . وقد سَوَّغك يافلانُ آبن فلان أميرُ المؤمنين وعقِبَك من بعدك وأعقابَهم ، ووَرثَتَك وورثتَهم أبدًا ماتناسَلُوا ، ومَن تنتَقِل هذه الأقرحةُ أو شىءٌ منها إليه ـ جميعَ الفضْل بين ما كان يلْزَم هـذه الضَّيعةَ وأقرحتَها من حقِّ بيت المـال وتوابعِه ، على الوَضيعة التامة ، وعلى الشروطِ القديمة ، وبين ما يلزمها علىٰ هذه المقاطعةِ ، وجعل ذلك خارجًا عن حاصل طَسُّوج كذا وكذا ، وعما يرفَعُه المؤتَمَنون ، ويُوافِق عليه المتضمِّنُون ، علىٰ غابِر الدهر ومَرِّ السنين ، وتعاقُبِ الأيَّام والشهور .

فلا تُقْبل فى ذٰلك سِعايةُ ساعٍ ، ولا قَدْحُ قادِحٍ ، ولا قَرْفُ قارِفٍ ، ولا إغْراءُ مُغْرٍ ، ولا قولُ معنِّف ، ولا يُرْجَع عليك فيما سُوِّغتَـه ونُظِرَ لك به فى حالٍ من الأحوال ، ولا يُرْجَع فى التقريرات ، ولا تنقَضُ بالمعاملات وردِّها إلىٰ قِوام أُصُولها ، ولا ضَرْب من ضُرُوب الحُجَج والتأويلات ، التى يتكلم عليها أهلُ العَدْل علىٰ سبيل الحُكْم والنظَر ، وأهل الجور علىٰ سبيل العُدْوان والظُّلْم . ولا تكَلَّف يافلان بن فلان ، ولا عقبُك من بعدك ، ولا ورثَتُك ، ولا أعقابُهم ، ولا أحدٌ ممن تخرُج هذه الضَّيعة أو هذه الأقْرِحة أو شىءٌ منها إليه ، على الوجوه والأسباب كلِّها ـ إخراجَ توْقيعٍ ، ولا كتابَ مجدَّد ، ولا منشورٍ بانفاذ شىءٍ من ذٰلك ، ولا إحضارَ سِجِلٍّ به ، ولا إقامةَ حُجَّة فيه فى وقتٍ من الأوقات .

وعلىٰ أن لا يلْزَمَك ولا أحدًا ممن يقُوم مَقامَك فى هذه المقاطَعة مَئُونةٌ ، ولا كُلْفةٌ ، ولا ضَريبةٌ ، ولا زيادةٌ ، ولا تقسيـط كراء منـه ، ولا مصلحةٌ ، ولا عاملُ بريد ، ولا نفقةٌ ، ولا مئونةُ جماعة ، ولا خفارةٌ ، ولا غيرُ ذلك . ولا يلْزم بوَجْه من الوجوه فى هذه المقاطَعَة زيادةٌ على المبلغ المذكور المؤدَّىٰ فى بيت المال فى كلِّ سنةٍ خراجية ،

وهو من الوَرِق المُرْسَل كذا وكذا، ولا تمنعُ من رَوْزِ(١) جِهْبِذ أو حُجَّة كاتب أو عامل بما لهذه المقَاطَعة إذا أدّيتَه أو أدّيْتَ شيئا منه أوّلا أوّلا، حتّى يتكمَلَ الأداءُ، وتحصُلَ فى يَدِك البراءةُ فى كلّ سنةٍ بالوفاء بجميع المالِ بهذه المقاطعةِ .

وعلىٰ أن تُعاوَنوا علىٰ أحوال العمارة ، وصلاح الشِّرْب ، وتُوفَّر عليكم الضِّيافةُ والحِمايه، والذَّبُّ والرِّعايه .

ولا يَتَعقَّبَ ما أمر به أميرُ المؤمنين أحدٌ من وُلاة العهود والأمراءِ والوُزراءِ وأصحاب الدواوين، والكُتّاب والعُمّال والمُشْرفين، والضُّمَناء والمؤتَمَنين، وأصحاب الخراج والمَعَاوِن، وجميع طَبَقات المُعاملين، وسائر صُنوف المتصرِّفين ـ يُبْطله أو يُزيلُه عن جهته، أو ينقُضُه، أو يفسَخُه، أو يغيِّره، أو يبدِّلُه، أو يوجبُ عليك أو علىٰ عَقِبك من بعدك وأعقابهم وورثتهم أبدا ما تناسلُوا ومن تخرُجُ هذه الضيعةُ أو شيءٌ منها [اليه] حجةً علىٰ سائر طُرُق التأويلات؛ ولا يُلزمُكَ شيئا فيه، ولا يكلِّفكم عِوَضًا عن إمضائه؛ ولا ينظُر فى ذٰلك أحدٌ منهم نَظَرَ تتبُّع ولا كَشْف، ولا بَحْثٍ، ولا فَحْص . فإن خالف أحدٌ منهم ما أَمر به أميرُ المؤمنين، أو تعرَّض لكَشْف هذه المقاطعة أو مساحتها أو تخْمينها أو آعتبارها والزيادةِ فى مبلغ مالها، أو ثَبَت فى الدَّواوين فى وقتٍ من الأوقات شيءٌ يخالِفُ ما رسمه أميرُ المؤمنين فيها : إما علىٰ طريق السَّهْو والغَلَط، أو العُدْوان والظُّلْم والعِناد والقَصْد، فذٰلك كلُّه مردُود، وباطلٌ، ومُنْفَسِخٌ، وغيرُ جائز، ولا سائغ، ولا قادِحٍ فى صِحّة هذه المقاطَعة وثُبوتها ووجوبها، ولا معطِّلٍ لها، ولا مانعٍ من تلافى السَّهْو وآستدْراك الغَلَط فى ذٰلك، ولا مغيِّرٍ لشيء من شرائط هذه المقَاطَعة . ولا حجَّةَ تقُوم عليك يافلانُ بنَ فلان، ولا علىٰ مَن يقومُ فى هذه المقاطعة بشيءٍ من ذٰلك : إذ كان ما أَمر به أميرُ المؤمنين

(١) الروز التجربة .

من ذلك على وجه من وجوه الصلاح، وسبيل من سُبُله رآهما وأمضاهما، وقطع بهما كلَّ اعتراض ودعوى، واحتجاج وقذف، وأزال معهما كلَّ بحث وفحص، وتبعة وعلاقة، وإن كان من الشرائط فيما سلف من السنين وخلا من الأزمان ما هو أوكد وأتمّ وأحكم وأحوط لك، ولعقبك وورثتك، وأعقابهم وورثتهم؛ ومن تنتقل هذه الأقرحة أو شيء منها إليه مما شُرط في هذا الكتاب بحال، أوجبها لك الاحتياط على اختلاف مذاهب الفقهاء والكُتّاب وغيرهم مما للخلفاء أن يفعلوه وتُنفّذ فيه أمورهم، وحُمات وحُملوا عليه، وهو مضاف إلى شروط هذا الكتاب التي قد أتى عليها الذكر، ودخلتْ تحت الحصر، ولم يكلّف أحدٌ منكم إخراجَ أمرٍ به .

وإن التمست [أنت] أو أحدٌ من ورثتك وأعقابك، ومَنْ عسى أن تنتقلَ هذه الضيعة والأقرحةُ أو شيءٌ منها إليه في وقتٍ من الأوقات تجديدَ كتابٍ بذلك، ومكاتبةَ عاملٍ أو مشرف، أو إخراجَ توقيع ومنشورٍ إلى الديوان بمثل ماتضمّنه هذا الكتابُ، أُجبتم إليه ولم تُمنعوا منه .

وأمَرَ أمير المؤمنين بإثبات هذا الكتاب في الدّواوين، وإقراره في يدك، حُجةً لك ولعقبك من بعدك وأعقابهم، وورثتك وورثتهم، ووثيقةً في أيديكم، وفي يد من عسى أن تنتقلَ هذه الضيعةُ أو الأقرحةُ أو شيءٌ منها إليه، بضرب من ضروب الانتقال التي ذُكرتْ في هذا الكتاب والتي لم تُذْكَر فيه، وأن لا تُكلَّفوا إيراد [حجة] من بعده، ولا يتأوّلَ عليكم متأوِّلٌ فيه .

فمَن وقف على هذا الكتاب وقرأه أو قُرئَ عليه : من جميع الأمَراء، وولاة العهود والوُزراء، والعُمّال، والمشرفين، والمتصرِّفين، والناظرين في أمور الخَرَاج، وأصحاب السيوف على اختلاف طبقاتهم، وتباين منازلهم وأعمالهم . فليمتثل ما أمَرَ به أمير

(١) متعلق بأوكد وما بعده .

المؤمنين ولينفِّذْ لفلانِ بن فلان وورثته وورثتهم ، وعقبِه وأعقابهم ، ولمن تنتقل هذه الأفرحةُ أو شيءٌ منها إليه ــ هذه المقاطعةَ ، من غير مراجعةٍ فيها ، ولا آستئمارٍ عليها ، ولا تكليف [له] ولا لأحدٍ ممن يقُوم بأمرها إيرادَ حُجَّة بعدَ هـذا الكتاب بهـا . وليَعْمَلْ بمثل ذٰلك مَن وَقَف علىٰ نسخة من نُسَخ هذا الكتاب فى ديوانٍ من دواوين الحضرة ، وأعمالهـا أو الناحية ، وليُقَرَّ فى يد فلانِ بن فلان أو يَدِ من يُورِده ويحتجُّ به ممن يقُوم مقامه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطريقـــــة الثانيـــــة
(ما كان يُكْتَب فى الإقطاعات عن الخُلَفاء الفاطميين بالديار المصرية)

وهو علىٰ نحوٍ ممـا كان يُكْتَب عن خلفاء بنى العَبَّاس .

قال فى "موادّ البيان" : والرسْم فيها أن يُكْتَب :

أميرُ المؤمنين بمـا وهَبه الله تعالىٰ : من شَرَف الأَعْراق ، وكَرَم الأخْلاق ؛ ومَنَحه من علُوِّ الشان ، وآرتفاعِ السُّلطان ؛ يَمْتدى بإذن الله سبحانه فى إفاضة إنعامه وبِرِّه ، على الناهضين بحقُوق شكرِه ؛ ويُوقع أياديَه عند من يقُوم بحقِّها ، ويتألَّفُها بحَمْدها ، وشُكْرِها ، ولا يُنَفِّرها ويُوحِشُها بكُفْرها ، وجَحْدها ؛ ويتحرَّىٰ بعوارفه المَغارِسَ التى تُنْجِب شَجَرتُها ، وتَحْلَوْلِى ثمرتُها ؛ والله تعالىٰ نسألُه أن يوفِّقه فى مقاصِده ، ويُرِيَه مخايلَ الخير فى مَصادِره ومَوارِده ؛ ويُعِينَه علىٰ إحسانٍ يُفيضُه ويُسْبِغُه ، وآمتنانٍ يُضْفيه ويُفْرِغُه .

ولمـا كان فلانُ بنُ فلان ممن غَرَس أميرُ المؤمنين [إحسانَه] لدَيْه فأثْمر ، وأولاه طَوْلَه فشَـكَر ؛ ورآه مُسْـتَقِلًّا بالصَّنيعه ، حافِظًا للوَديعه ؛ مقابِلًا العارفةَ بالإخلاص فى الطاعه ، مُستَدِرًّا بالانْقِياد والتِّباعه ، أخلافَ الفَضْل والنِّعمة (ويُوصَف الرجل

المَقْطَع بمـا تقتضـيه منزلتُه) ثم يقال : رأىٰ أميرُ المؤمنين مضاعفـةَ أياديه لدَيْه ، ومُواصلةَ إنعامه إليه ، وإجابةَ سُؤاله ، وإنالتَه أقاصِيَ آماله ، وتنويلَه ما نَحَتْ إليه أمانيُّه ، وطمَحَت نحوَه راحتُه ، وإسْعافَه بمـا رَغِب فيه من إقطاعه الناحيةَ الفلانيةَ ، أو الدارَ أو الأرضَ ، أو تسويغَه ما يجب عليـه من خَراج مِلْكه ، وما يجرى هـذا المجرى . ثم يقال : ثقةً بأنَّ الإحسانَ مغروسٌ منه فى أكرم مَغْرِسٍ وأزكاه ، وأحقِّ مَنْزِلٍ بالتنويل وأَوْلاه . وخرج أمْرُه بإنشاء هـذا المنشُور بأنه قد أقْطَعه الناحيـةَ الفلانية ، لاستقبال سنة كذا بحقُوقها وحدُودِها ، وأرْضِها العامرةِ ووجُوه جِباياتها ، (وينص علىٰ كلِّ حق من حقُوقها ، وحدّ من حدُودها) فإذا ٱستوفىٰ القول عليه ، قال : إنعامًا عليه ، وبَسْطا لأمله ، وإبانةً عن خَطَره .

فلْيعلَمْ ذٰلك كافَّةُ الولاة والنُّظّار والمستخْدَمين من أمير المؤمنين ورَسْمه ، ليعمَلُوا عليه وبحَسَبه ، ولْيحْذَرُوا من تجاوُزه وتعدّيه ، وليُقرّ بيده بعد العمل بمـا نُصَّ فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : والتحقيق أنَّ لهم فى ذٰلك أساليبَ : منهـا ما يفتتَح بلفظ « هذا » والمعروفُ أنه كان يسمّى ما يُكتَب فى الاقطاعات عندهم سِجِلَّات كالذى يُكتَب فى الولايات .

* * *

وهذه نسخةُ مَنْشور من مَنَاشيرهم ، من إنشاء القاضى الفاضـل لولدٍ من أولاد الخليفة ٱسمُه حسَن ولقَبُه حُسامُ الدين مفتَتَحٌ بلفظ «هذا» وهى :

هـذا كتابٌ من أمير المؤمنـين لولَدِه الذى جَلَّ قَـدْرا أن يُسامىٰ ، وقرّ فى ناظر الإيمـان نُورا وسَلَّته يدُ الله حُسَاما ، وحَسُن به الزمانُ فكان وجُودُه فى عِطْفـه

حليةً والغُرّة ٱبتساما، وأضاءتْ وجوهُ السعادة لِمَنْحِها(١) بكريم اسْمه ٱتِّساما، وتهيَّأت الأقدارُ لأن تُجْرِىَ علىٰ نَقْش خاتَم إرادته ٱمتثالًا وٱرْتِساما ـ الأمير فلان، جَرْيًا علىٰ عادة أمير المؤمنين التي أوضحَ اللهُ فيها إشراقَ العوائد، وٱتِّباعًا لسنَّة آبائه التي هي سَنَن المكارم والمراشد، وٱرتفادًا مع ٱرتياح [إلىٰ موارد] كرمه التي هي موارد لا يُحَلَّأُ عنها وارد، وٱختصاصًا بفضله لمن كَفَاه من الشَّرَف أنَّه له والد، وعموما بما يسُوقُه الله علىٰ يده من أرزاق العباد، وإنعامًا جعل نَجْلَه طريقَه إلىٰ أن يُفيض علىٰ كلِّ حاضرٍ وبَاد .

وأميرُ المؤمنين بحرٌ ينتَشِئ من آله السَّحابُ المنَزَّل، ويَمُدّهم جَوادَّ العطاءِ الأجْزَل.

أمر بكَتْبه لما عُرِضتْ لمَقامه رُقْعةٌ بكذا وكذا، وخرج أمرُ أمير المؤمنين إلىٰ وَليِّه وناصره، وأمينه علىٰ ما ٱستأمنَه اللهُ عليه ومُوازِره، السيدِ الأجلِّ الذى لم تزل آراؤُه ضوامنَ للَصالح كوافل، وشُهُبُ تَدْبيره من سماء التوفيق غيرَ غاربةٍ ولا أَوافل، وخِدَمُه لأمير المؤمنين لا تَقِف عند الفرائض حتّى تتخطَّى إلى النَّوافل، وجاد فأخْلافُ النِّعم به حَوافل، وأقبلَ فأحزابُ الخلاف به جَوافل، وأيقظَ عيونا من التدبير على الأيَّام لا تَدَّعِي الأيَّامُ أنها غَوافِل، بأن يُوعِزَ إلىٰ ديوان الإنشاء بإقطاع ناحيةِ كذا بحَدِّها، والمعتاد من وصفِها المعاد، وما يدُلُّ عليه الديوان من عِبْرَتها، ويتحصَّل له من عَيْنها وغَلَّتها، إلى الديوان الفُلانيِّ : إقْطاعا لا ينقَطِع حكمه، وإحسانا لا يعفُو رَسْمه، وتسويغًا لا يطيش سَهْمُه، وتكميلًا لا يُمحىٰ وَسْمُه، وتخويلًا لا يُثْنىٰ عَزْمُه، يتصَرَّف فيه هذا الديوانُ ويستبِدُّ به مالكا، ويُفاوِض فيه مُشارِكا، ويزرَعُه متعمِّلا ومضمِّنا، ويستَثْمِره عادلًا فى أهله مُحْسنا، لا تتعقَّبه الدواوين بتأوُّلٍ مّا، ولا الأحوالُ بتحوُّلٍ مّا، ولا الأيَّام بتقلُّبها، ولا الأغْراض بتعقُّبها، ولا ٱختلافُ الأيدى بتنقُّلها، ولا تعترضُه الأحكام بتأوُّلها .

(١) فى الأصول هكذا «بحها» باهمال نقط الكلمة بتمامها .

وقد أوجبَ أميرُ المؤمنين على كلِّ والٍ أن يتحامى هذه الناحيةَ بضرره، ويقصدها بجميل أثَره، ويُحيطَها بحُسْن نظَرِه، ويتّقِيَ فيها رُكوبَ عواقب غَرَره، ويَجْتنبَ فيها مطالبَ وِرْدِه وصَدَره، ونزول مستقرّه؛ ولا يمكِّن منها مُسْتخْدَما، ولا يكلِّف أهلَها مَغْرما، ويُجرِيَها مُجرى ما هو من الباطل حِمى؛ مالم يقل فيها بميل، أو يُخَف من سُبُلها سبيل، وله أن يتطلَّب الجانِيَ بعَيْنه، ويقتضِيَه بأداء ما آستوجَبَ من دَيْنه، وأخْذُه مَسُوقا بجرائم ذَنْبه إلى مَوْقف حَيْنه، فمَن قرأه فليعمَلْ به.

⁂

وهذه نسخة سجِلّ بإقطاع، عن العاضد آخرِ خلفاء الفاطميين أيضا لبعض أُمَراء الدولة، من إنشاء القاضى الفاضل أيضا، وهى:

أميرُ المؤمنين — وإن عَمّ جودُه كما عمّ فضلُ وجُودِه، وسار كثيرُ إحسانه وبِرّه فى سُهول المعمُور ونُجُوده، ورحِمَ اللهُ الخلقَ بما آستأثره دُونَ الخلائق من قُرْبه فى سُجُوده — فإنه يخُص بنى القُرْبى من جَدِّه، والضاربِينَ معه فى أنصباء مَجْده؛ : من سُلالته الزكيَّه، وطينته المِسْكيَّه، وأعْراقه الشريفه، وأنسابه المُنيفه؛ فكُل غَرّاءَ لا تخفى أوضاحُها، إلا إذا فاضَتْ أنوارُهم، وكل عَذْراء لا يُعْهَد إسْماحُها(١)، إلا إذا راضَتْ أخطارُهُم.

ولمّا عُرِضت بحضْرته ورقَةٌ من ولده الأمير فلان الذى أقرّ اللهُ به عينَ الإسلام، وأنجزَ به دَيْنَ الأيّام؛ وأطلعه بَدْرًا فى سماء الحَسَب، وجلَا بأنواره ظَلَامَ النُّوَب؛ وآمتاحَ من مَنْبَع النبوّة وآرتَوى، وآستَولى على خصائص الفَضْل الجَلِيّ وآحتَوى،

(١) أى انقيادها.

وأعدّ اللهُ لسعد الأئمة ذا مِرَّةٍ شـديدَ القُوىٰ ، وأدْنىٰ الآستحقاقَ من الغايات حتّى تأهَّب لأن يكون بالوَادِ المُقَدّس طُوىٰ ؛ وأضحتْ كافَّةُ المؤمنين مؤَمِّنين علىٰ مكارمه ، وأمستْ كافَّةُ الخائفين خائفينَ من سَيْل أنفسهم علىٰ صَوَارمه ؛ وآراؤه أعْلىٰ أن يُضاهيَها [رأْيٌ] وإن جلَّ خَطَرُه ، وأعطيَتُه أرْقىٰ أن يُدانيهَا عطاءٌ وإن حَسُن فى الأحوال أثَرُه ؛ وإنما يُنْبِـع بمُلْكه منها ما راقَ بعَيْن آختياره وإيثاره ، وسَعِد بالآنتظام فى سِلْك جُوده الذى يعرِّضُه أبدًا لآنْتثارِه ، وتضمَّنتْ هذه الرُّقْعة الرغبةَ فى كذا وكذا ، وذكر الديوانُ كذا .

خرَج أمرُ أمير المؤمنين إلىٰ فَتاه وناصِره ، ووَزيره ومُظاهِره ؛ السـيدِ الأجلّ الذى آنتصر اللهُ به لأمير المؤمنين من أعدائه ، وحَسَم بحُسَامه ما أعضَل من عارض الخَطْب ودائه ، ونطقَتْ بفضـله ألْسُن حُسَّاده فضْلًا عن ألسنة أوِدَّائه ، وسخَتِ الملوكُ بأنفُسها أن تكونَ فِداءً له إذا حَوَّزها المجـدُ فى فِدائه ؛ الذى ذخَره الله لأمير المؤمنـين من آدمَ ذَخيره ، وجمع له فى طاعتـه بينَ إيقاظ البَصيرة وإخْلاص السَّريره ، وفُضِّلت أيامُه علىٰ أيّام أوليائه بما حَلَّاها من جميـل الأُحْدوثة وحُسْن السِّيره ؛ وسهَّل عليـه التَّقَوِّىَ فى المنافع والعُكُوفَ على المصالح ، وأجْنىٰ من أقلامه ورِمَاحِه ثمراتِ النَّصائح ، وفازَ بما حاز من ذخائر العـمل الصالح بالمَتْجَر الرَّابح ؛ وألهمه من حِراسَة قانُون المُلْك ما قضىٰ بحِفْظ نِظامِه ، ولم ينصَرفْ له عَزْمٌ إلا إلىٰ ما صُرِف إليه رضا ربِّه ورِضا إمامِه .

ونفَذتْ أوامِرُه بأن يُوعَزَ إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هـذا السِّجل إلى الديوان الفلانىّ بإقطاعه الناحيـةَ وما معها منسوبًا إليها وداخلًا فيها لآستقبال [سنة] كذا ، مِنْحةً سائغه ، لا يَعترِضُها التكدير ، ونِعمةً سابغه ، لاينقُضُها التَّغْيير ؛ وحِباءً موصولَ

الأسباب، وعَطاءً بغير مَنٍّ ولا حِساب؛ يتحكّم فيه علىٰ قضايا الآختيار، وتنفُذ فيه أوامرُه الميمونةُ الإيرادِ والإصدار .

ومنها ــ أن يفتتح السِّجلّ بلفظ : « إنَّ أميرَ المؤمنين» ويذكُرَ من وصْفه ما سَنح له، ثم يذكُر حكمَ الإقطاع، وكيفيةَ خُروجه .

وهــذه نسخة سِجِلٍّ من ذلك كُتِب به لبعض وزرائهــم، من إنشاء القــاضي الفاضل، وهي :

إنَّ أميرَ المؤمنين لمَــا أطلقَ الله يدَ بِرِّه من أمْيالٍ تبدُو على الأحوال شواهِدُ آثارِها، وتَرُوض الآمالَ سحــائِبُها بسائب مِدْرارِها، وتتنزَّه مواعِدُها عن إنْظارِها، ومواردُها عن أن يُؤتىٰ بأنْظارِها، ويقُوم بناصِرِها فيكونُ أقوىٰ أعوانِها على الشكر وأنصارِها؛ وألهمَه من مُواصَــلة المِنَن التي لا تنقطع رِوايتُها ولا تتناهىٰ مراتِبُها، ومُوالاة المِنَح التي تَهُبُّ علىٰ جَناب الخــير شمــائِلُها وجنائِبُها، وتَلْتقِي في مَسَارح المــدائح غرائِبُها ورغائِبُها؛ وحَبَّبه إليــه من آنتهاز فُرَص المَكارِم في الأكارِم، وآبتــداءِ المعرُوف وآبتدارِ مَغانِمه التي لا تَعقُبها مَغارم ــ يُولِي الآلاءَ من يَجْزِي عن حسَنتِها عَشْرا، ويعقِلُ عقائلَها عنــد من يَسُوق إليهــا من آستحقاقِها مَهْرا، ويقــابلُ بالإحسان إحسانَ أجلِّ أوليــائه قدرا، ويُضاعِف الآمتنان عنــد من لم يَضْعُف في مُوازَرَته أزْرا؛ ويُودِع ودائعَ جُودِه في المَغارس الجيِّدة بالزَّكاء والنَّماء، ويُزكِّي أصولَ معروفه لمن يفتَخِر بالآنضواء إلىٰ مُوالاته والآنتماء، ويستكْرِم مستقَرَّ مِنَنِه وآلائه، ويُحْسِن إلى الإحسان ثم يبتَهِج بموالاته لديْه وإيلائه .

ولمــا كان الســيدُ الأجلُّ أميرُ الجيوش آيةَ نَصْرِ أميرِ المؤمنــين التي آنبرَتْ فمــا تُبارىٰ، ونعمةَ الله التي أشرقَتْ أنوارُها وأورَتْ فمــا تتَوارَىٰ؛ وسيفَ حقِّه الذي

لا تكِلُّ مَقاطعه ، و بحرَ جُوده الذى لا تُكدِّر مَشارعُه ؛ والمستقلَّ من الدِّفاع عن حَوْزته بما عَجزت عنه الأُمَم ، والعليَّ علىٰ مقْدار الأقْدار إذا تفاوَتت قِيمُ الهِمَم ، والكاشفَ الجُلَّى عن دَوْلته وقد عَظُمت مظالِمُ الظُّلَم ، والجامعَ على المُماراة والمُواراة قَلْبَ المُؤَالف والمُخالِف ولِسانَ العَرَب والعَجَم ؛ والمتَبوِّئَ من المُلْك مُلْكا لا ينبغى لأحدٍ من بعْده ، والمتوَقِّل من الفخْر مَحَلًّا لايطمَعُ النَّجمُ فيه من بُعْده ؛ والمُغيرَ على الحرْب العَوانِ بقَبْلِيَّة البِكر ، والمنفِّذَ بمبتَدَع العَزَمات ما لولا وقُوعُه لمَا وقع [فى] الفِكَر ، والقاضِىَ للدِّين بحدِّ سُيوفه مطْلُولَ حقِّه وممطولَ دَيْنه ، والقائمَ لأمير المؤمنين مَقَامًا قام به أَبُوه فى نُصْرة جدِّه صلى الله عليهما يوم بَدْره و يومَ حُنَيْنه .

ولقد أظهر اللهُ آياتِ نَضارةِ نَظَره على الأرض فأخَذَتْ زُخْرُفَها وٱزَّيَنَتْ ، وٱبتدَتْ أيْديه الجَنىٰ فتظاهرَتْ أدلَّتُها علىٰ دَوْلته وتبينَتْ ؛ وٱستَلأَمتِ المملكةُ من تدبيره بجُنَّة تتَحاماها الأقدارُ وهى سِهَام ، ووَثِقَتْ من عنايته إلىٰ هَجْر الخُطوب بما يعِيد نارَها وهى بَرْدٌ وسَلام ؛ وما ضَرَّها مع تيقُّظ جَفْنه أن يَهْجَع فى جَفْنه طَرْفُ الحُسَام ، ولا ٱحتاجَتْ وقلبُه يُساوِر جَسِيمَ أمورها أن تَتْعَب فى وَأْدها الأجْسام ؛ فأىُّ خيرٍ يُولىٰ ـ وإن عَظُم ـ يناهِضُ ٱستحقاقَه ؟ وأىُّ غايةٍ وإن جَلَّت تَرومُ نَيْل مدىٰ مَسْعاه ولَحاقَه ؟ ؛ وأنَّى لأعْراض الدنيا أن تُهدىَ لجَوْهره عَرَضا ، ولا تَبْلُغُ مبالِغُ النعم الجلائل أن تعتَدَّ اليومَ من مَساعيه عِوَضا ؟ ؛ وهل لأمير المؤمنين أعمالٌ فى مُجازاته عن قيامه بغِمْد رأْيه ومُجَرَّد عَضْبه ، ودِفاعه عن حَوْزة عُدَّته وذَبِّه ، وكَرِّه فى مواقِف كَرْبه ، وكفايتِه للأمة فى سِلْمه وحَرْبه ، وإيالتِه التى خَصَّ الأرضَ منها فضلُ خِصْبه ، إلا أن يَذْكُره بقَلْبه عند ربِّه ، وأن يرفَعَ الحُجُب عند كلِّ سُؤَال كما يرفع اللهُ عند دعائه مُسْدَل حُجُبه ؟ .

وعُرِضتْ بحَضْرة أمير المؤمنـين مطالعةٌ منـه عن خَبرٍ باسمه الكريم مَقْصورٍ على الرَّغبة فى خُرُوج الأمر بتمليك جهتِه التى تقومُ عِدّتُها عِدّة ألفٍ، مستخْرِجا بها الخطَّ الشريف بإمضاء التمليك وإجازتِه، وتَسْليم المِلْك وحِيازتِه .

فتلقَّى أميرُ المؤمنين هـذه الرغبةَ بإفرازٍ جَرىٰ فيه من الأوامر علىٰ أفضل سَنَن، وتقبَّلها منـه بقَبُولٍ حَسَن، وتهلّلتْ عليه لسُؤاله مصابيحُ الطَّلاقة والبِشْر، ونفذت (١) مَواقِعُ توقيعِه مالا تَبلغُه مواقِعُ ماءِ المُزْن فى البَلَد القَفْر . وشَمِله خطُّه الشريفُ بمـا نُسْخَتُه : خَرج أمرُه اليـه بأن يُوعَز إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السِّجلّ بتمليك الجهةِ المقدّمِ ذكْرُها بجميع حُدُودها وحُقُوقها، وظاهرِها وباطنِها، وأعاليها وأسافلها، وكلِّ حقٍّ لها، داخلٍ فيها وخارجٍ عنها، وما هو معروفٌ بها ومَنْسوبٌ إليها، تمليكاً مخلَّدا، وإنعامًا مؤبَّدا، وحقًّا مؤكَّدا، يَجرِى على الأصل والفرع، ويُحْكم أحكامَ الكَرَم والشَّرْع، ماضـيًا لا تُتعقَّب حدودُه بفَسْخ، جائزا لا تُتَجاوَز عقُودُه بنَسْخ، مَوْصولةً أسـبابُه فلا تتطرّقُ أسبابُ التغيـير إليها، موروثا حتّى يرثَ اللهُ الأرض ومَن عليهـا .

فليعتَمِدْ كافَّةُ وُلاة الدَّواوين، ومَنْ يليهم من المتصرِّفين، حملَ الأمر علىٰ مُوجَبه، والحذَرَ من تعدِّيه وتَعقُّبِه، وآمتثالَ مارَسمه أمير المؤمنين وحَدَّه، والوقوفَ عند أمره الذى عَدِم مَنْ مالَ فَرَدَّه، وليقرّ فى يد الديوان حُجَّة لمودَعِه بعد نَسْخه فى الدواوين بالحَضْرة، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله «و بلغت مواقع» الخ .

الضـــــرب الثـانى

(ممـا كان يُكتب فى الإقطاعات فى الزمن المتقدّم ما كان يُكْتب
عن ملوك الشرق القائمين علىٰ خُلَفاء بنى العبَّاس)

وطريقتُهم فيـه أن يُكتَب فى الآبتداء: «هـذا كتابٌ» ونحوُ ذٰلك، كما كان يُكتَب عن خُلَفاء بني العبَّاس فى ذٰلك، ثم يُذكر عرْضُ أمْره على الخليفـة، وآستكشافُ خبر ما تقَع عليـه المقاطعةُ من الدواوين، وموافقـةُ قولهم بمـا ذكره فى رُقْعته، ويذكَرُ أنَّ أمير المؤمنين وذٰلك السُّلطانَ أمْضيَا أمرَ تلك المقاطعةِ وقرَّراه. ثم ربَّمـا وقَع تسويغُ ما وجب لبيتِ المـال لصاحبِ المقاطعـة زيادةً عليها ليكون فى المعنىٰ أنَّه باشَرَها.

وهذه نسخةُ مقاطعةٍ بضَيْعةٍ كُتِب بها عن صَمْصام الدولة بن رُكْن الدولة بن بُوَيْه، وهى:

هذا كتابٌ من صَمْصام الدولة، وشَمْس المِلَّة، أبي كَالِيجار، بنِ عَضُد الدولة وتاج المـلة أبي شجاع، بن رُكن الدَّولة أبي علىّ مَوْلىٰ أمير المؤمنـين، لمحمد بن عبد الله آبن شهرام.

إنك ذكرتَ حالَ ضِـياعك المعروفة برسدولا والبَـدْريَّة من طَسُّوج نَهْر المَلِك، والحظائر والحِصَّـة بنهر قُلَّا من طَسُّوج قُطْرَبُّل، وما لَحِقها: من آختـلال الحال ونُقْصان الآرتفـاع، وآندواب(١) المَشارب، وآستِئْجام المَزَارع، وطَمَع المجاورِين، وضَـعْف الأَكَرَة والمُزارِعين، وظُلْم العُمَّال والمتصرِّفين، لتطَاوُل غَيْباتك عنهـا، وآنقطاعك بالأسفار المتصـلة عن آستيفاءِ حقُوقها، وإقامة عماراتها، والإنفاق علىٰ

(١) كذا بالأصل، ولا معنى لها ولعلها: «واندثار المشارب».

مصالحها، والآنتصاف من المجاورينَ لهـا والمُعَامَلين فيها، ووصـفْتَ ما تحتاج إلىٰ تكَلُّفه من الجملة الوافرة: لآحْتِفار أنهارها، وإحياء مَوَاتِها، وآعتمال مُتَعطِّلها، وإعادة رُسُومها، وإطلاق البُذُور فيها، وآبتياع العوامل لها، وآختلاف الأَكَرَة إليها .

وسألت أن تُقَاطَع عن حقِّ بَيْتِ المـال فيها وجميع توابعه، وسائر لزُومه، علىٰ ثلاثة آلافِ دِرْهم فى كلِّ سـنة، معونةً لك علىٰ عمـارتها، وتمكينًا من إعادتها إلىٰ أفضل أحوالهـا، وتَوْسِعةً عليك فى المَعيشة منها .

فأنهينا ذٰلك إلىٰ أمير المؤمنين الطائع لله، وأفَضْـنا بحَضْرته فيما أنت عليه من الخلائق الحميده، والطرائق الرَّشِـيده، وما لك من الخِدْمات القَديمة والحديثـة، المُوجبة لأن تُلْحق بنظرائك من الخَدَم المختصِّين، والحواشى المستخْلَصين، بإجابتك إلىٰ ماسألْتَ، وإسعافك بما آلتمَسْتَ . فخرج الأمر ــ لازال عاليا ــ بالرجوع فى ذلك إلىٰ كُتَّاب الدواوين، وعُمَّال هذه النَّواحى، وتَعَرُّف ما عندهم فيه مما يَعُود بالصَّلاح، ويدْعُو إلى الآحتياط . فرُجِع إليهم فيما ذكرتَه وحكَيْتَه، فصَدَّقُوك فى جميعه، وشهِدُوا لك بصحَّته، وتردَّد بينك وبينهم خِطابٌ فى الآرتفاع الوافر القـديم، وما تُوجبه العِبَرُ لعـدّة سنين، إلىٰ أن آستقرّ الأمْرُ علىٰ أن توقَّعتْ علىٰ هـذه الضِّياع المسمَّاة فى هذا الكتاب خمسةُ آلافِ دِرْهم ورِقًا مرسَلا بغـير كسر، ولا كفايةٍ، ولا حقِّ خزن، ولا جَهْبذَة ولا محاسَبة، ولا غيرِ ذٰلك من المُؤَن كلِّها .

ثم أنهينا ذٰلك إلىٰ أمير المؤمنين الطائع لله، فأمر ــ زاد الله أمْرَه علُوًّا ــ بإمضاء ذٰلك، علىٰ أن يكون هذا المـال، وهو خمسـة آلاف درهم مؤدًّى فى الوقت الذى تُفْتَتَح فيـه المُقَاطعات : وهو أوّلُ يَوْمٍ من المحرّم فى كلِّ سـنة، على آستقبال السنة الجارية، سـنةِ ثلاثٍ وسبعين وثلثمائةٍ الخراجية، عن الخَرَاج فى الغَلَّات الشَّتْويَّة

والصَّيْفية، والمُحْدَثة والمبكِّرة الجارية على المِسَاحة، والحاصلِ من الغَلَّات الجارية على المُقاسَمة والجَوَالى، والمَرَاعى، والأَرْحاء، وسائر أبواب المـال، ووُجُوه الجِبايات، وتقْسِـيط المصالح، والجِمَـاية، مع ما يلزمُ ذٰلك من التوابع كلِّها: قليلِها وكثيرِها، والرسومِ الثابتة فى الدواوين بأَسْرِها؛ وعن كلِّ ماأُحدِث ويُحْدَث بعـدها علىٰ زيادة الآرتفاع ونُقْصانه، وتَصَرُّف جميع حالاته: مقاطعةً مقرّرة مُؤبَّده، مُمْضاة مخلَّده؛ علىٰ مُرُور الليالِى والأيَّام، وتعاقُب السنين والأعْوام. لك ولَوَلَدك، وعَقِبك من بعدك، ومَنْ عسىٰ أن تنتقِلَ هذه الضِياعُ إليه بميراثٍ، أو بَيْعٍ، أو هِبةٍ، أو تمليك، أو مُنَاقلةٍ، أو وَقْفٍ، أو إجارةٍ، أو مُبَاذَرة، أو مزارَعة أو غير ذٰلك من جميع الوجوه التى تنتقل الأملاكُ عليها، وتجرِى بين الناس المعاملاتُ فيها، لا يُفْسَخُ ذٰلك ولا يغيَّر، ولا يُنْقَضُ ولا يبدَّل، ولا يُزال عن سَبِيله، ولا يُحَال عن جهته، ولا يُعترَضُ عليـك ولا علىٰ أحدٍ من الناس فيـه ولا فى شيءٍ منـه، ولا يتأَوَّل عليـك ولا علىٰ غيرك فيـه، بزيادةِ عِمـارةٍ، ولا زَكاءِ رَيْع، ولا غُلُوِّ سعْر، ولا إصْلَاح شِرْب، ولا آعتمال خَرَاب، ولا إحياءِ مَوَاتٍ، ولا بغـير ذٰلك من سائر أسبابِ وُفُور الآرتفاع ودُرُور الآسـتغلال.

وحظَر مولانا أميرُ المؤمنين الطائعُ لله، وحظَرْنا بحَظْره علىٰ كُتَّاب الدَّوَاوين: أصُولهـا وأزِمَّتها، وعُمَّال النواحى، والمشْرفين عليها، وجميع المتصرِّفين على آختلاف طبقاتِهم ومنازِلهم، الآعتراضَ عليك فى هذه المقاطَعة، أو إيقاعَ ثَمن أو مساحةٍ علىٰ ما كان منها جارِيًا على الخراج، أوتقريرٍ أو حَزْرٍ، أو قسمة علىٰ ما كان منها جاريًا على المقاسمة، أو أن تدخُلَها يَدٌ مع يدك لناظر أو حاظِر أو مستظْهِر أو معتَبِر أو متصَفِّح، إذ كان ما يظهر منها من الفَضْل علىٰ مُرُور السنين مسوَّغًا لك، لا تُطالَب به، ولا بمَرْفَقٍ عنـه، ولا علىٰ ماظَهَر عليه وعلىٰ شيءٍ منه؛ ولا يُلتَمَس منك تجديدُ كتاب،

ولا إحضار حجّةٍ، ولا توقيعٌ به ولا منشورٌ بعد هذا الكتاب : إذْ قد صار ذٰلك لك وفى يدك بهذه المقاطَعة، وصار مايجبُ من الفَضْل بين ماتُوجِبه المسائحُ والمقاسماتُ وسائرُ وجوه الجبايات، وبينَ مالِ هذه المقاطعة المحدودةِ المذكورةِ فى هذا الكتاب خارجًا عمّـا عليه العُمّال، ويرفَعُـه منهم المؤتَمَنون، ويوافقُ عليه المتضمِّنون ؛ علىٰ مُرورِ الأيّام والشهور، وتعاقُبِ السنينَ والدُّهور؛ فلا تُقْبَل فى ذٰلك نصيحةُ ناصحٍ، ولا تَوْفير موفِّر، ولا سِعايةُ ساعٍ، ولا قَذْفُ قاذِف، ولا طَعْن طاعِنٍ .

ولايلزَم عن إمضاء هذه المقاطَعة مَئُونةٌ، ولاكُلْفةٌ، ولا مُصانَعةٌ، ولا مصالَحة، ولا ضَريبـةٌ، ولا تَقْسيطٌ، ولا عمـلُ بَريد، ولا مصلحةٌ من المصالح السلطانية، ولا حقُّ حماية، ولا خِفارة، ولا غيرُ ذٰلك من جميع الأسباب التى يتَطَرّق بها عليك، ولا [على مَن] بعدَك، لزيادةٍ علىٰ مالها المحصورِ المذكورِ فى هذا الكتاب، ولا حقُّ خَزْن ولا جَهْبَذة، ولا مُحاسَبة ولا مَئُونةٍ ولا زيادة . ومتىٰ ٱستُخْرِج منك شىءٌ أو من أحدٍ من أنسبائك، أو ممَّن عَسَى أن تنتقل إليه هذه المقاطعةُ بشىءٍ زائدٍ عليها علىٰ سبيل الظلم والتأوّل والتعنُّت لم يكنْ ذٰلك فاسخا لعَقْدها، ولا مُزيلا لأمرها، ولا قادِحًا فى صحّتها، وكان لك أنْ تطالِب بردّ المأخُوذ زائدًا علىٰ مالهـا، وكان علىٰ من ينْظر فى الأمور إنصافُك فى ذٰلك وردُّه عليـك، وكانت المقاطعـةُ المذكورة ممضاةً علىٰ تصرُّف الأحوال كلِّها .

ثم إنّا رأينا بعـد ماأمضاه مولانا أميرُ المؤمنين، وأمضيناه لك من ذٰلك وتمـامه وإحكامِه ووُجوبِه وثُبوته، أنْ سوّغناك هذه الخمسـةَ آلاف درهمٍ المؤدّاةَ عن هذه المقاطعة على ٱستقبال سنة ثلاثٍ وسبعين وثلثمائة الخراجية، تَسْويغًا مؤبّدًا، ماضيا علىٰ مرّ السـنين : ليكون فى ذلك بعضُ العِوَض عن باقى أملاكِك وضِياعك التى

قُبِضت عنك ، وبعضُ المَعُونة فيما أنت متَصَرِّف عليه من خِدْمتنا ، ومتردّدُ فيه من مهمّات أمورنا؛ وأوجَبْنا لك فى هذا التَّسْويغ جميعَ الشروط التى تُشْـتَرَط فى مثله؛ ممـا ثبت فى هذا الكِتاب وممـا لم يَثْبُت فيه : لينحسِم عنك تَتَبُّع المتتبِّعين، وتعقُّب المتعقبين، وتأوُّلُ المتأوّلين على الوجوه والأسباب .

وأمرنا ــ متىٰ وَقَع علىٰ مال هذا التَّسْويغ (وهو خمسةُ آلاف درهم) ٱرتجاعٌ، بحدَثٍ يحْدُث عليك، أو بتَعْويض تُعَوَّض عنه، أو بحالٍ من الأحوال التى تُوجب ٱرتجاعَه ــ أن يكون أصلُ المُقاطَعة ممضًى لك، ورسْمُها باقيًا عليك وعلىٰ مَن تنتقل هذه الضياعُ إليه بعدك، علىٰ ما خَرَج به أمرُ أمير المؤمنين فى ذٰلك، من غير نَقْضٍ ولا تأوّل فيه، ولا تغييرٍ لرسْم من رسومه، ولا تجاوُزٍ لحدّ من حدوده، علىٰ كلِّ وجه وسبب .

فلْيُعلَمْ ذٰلك من رَأْيِ أمير المؤمنين الطائع لله وأَمرِه ، ومن ٱمْتثالنـا وإمضائنا ، وليَعْمَلْ عليه جماعةُ مَن وقف علىٰ هذا الكتاب : من طبقات الكُتَّاب، والعمَّال، والمشْرفين، والمتصرفين فى أعمال الخراج والحماية والمصالح، وغيرهم . وليحْذَرُوا من مخالفته ، وليُمْضُوا بأسْرهم لمحمد بن عبد الله بن شهرام ومن بعده جميعه، وليحْمِلُوه علىٰ مايُوجِبه . ولْيُقَرّ هذا الكتابُ فى يده وأيديهم بعدَه حجةً له ولهم، وليُنْسَخْ فى جميع الدواوين، إن شاء الله تعالىٰ .

الطريقة الثانيـــة

(ممـا كان يُكتَب فى الإقطاعاتُ فى الزمن المتقدّم ـ ما كان يُكْتَب عن الملوك الأيوبيّـة بالديار المصرية)

وكانوا يُسَمُّون مايُكتب فيها تواقيع ، ولهم فيه أساليبُ :

الأســـلوب الأوّل

(أن يُفْتتح التوقيعُ المكتتَب بالإقطاع بخطبة مفتتحة بـ«الحمد لله»)

وكان من عادة خُطَبهم أن يُؤتىٰ فيها بعد التحميد بالصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم يُؤتىٰ ببَعْديّة ، ثم يُذْكَر ماسنَح من حال السلطان ، ثم يُوصَف صاحبُ الإقطاع بمـا تقتضيه حالُه من صفات المدح ، ويُرتَّب علىٰ ذلك آستحقاقُه للإقطاع . وقد كان من عادتهم أنهم يأتُون بوَصية علىٰ ذلك فى آخره .

وهـذه نسخةُ توقيعٍ علىٰ هذا الأسلوب ، كُتِب به عن السلطان صـلاح الدين «يوسفَ بن أيوب» رحمه الله ، لأخيه العادل «أبى بكر» بإقطاع بالديار المصرية ، وبلاد الشام ، وبلاد الجزيرة ، وديار بَكْر ، فى سنة ثمـانين وخمسمائة ، بعد الآنفصال من حَرْب الكفار بعَكّا وعَقْد الهُدْنة معهم ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل أيّامنا حِسانا ، وأعلىٰ لنا يدًا ولِسانا ، وأطابَ مَحْتِدَنا أوْراقًا وأغصانا ، ورفع لمَجْدنا لواءً ولجَدّنا بُرْهانا ، وحقّق فينا قوله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُـدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ .

نحمَدُه علىٰ سُبوغ نِعْمته ، ونسأله أن يجعَلَنا من الداخلين فى رَحمته .

ثم نُصلِّى علىٰ رسوله محمد الذى أيَّده بحِكْمته ، وعَصَمَه من الناس بعِصْمته ، وأخرج به كُلّ قلْب من ظُلْمته ، وعلىٰ آله وأصحابه الذين خَلَفُوه فأحسنوا الخلافة فى أُمَّته .

أما بعدُ ، فإن فُروعَ الشَّجَرة يأْوِى بعضُها إلىٰ بعضٍ لمكان قُرْبِه ، ويُؤْثِر بعضُها بعضا من فَضْـل شِرْبه ؛ ونحن أهـلُ بَيْتٍ عُرِف منا وِفاقُ القلوب وُدّا ، وإيثارُ الأيدى رِفْدا ؛ وذلك وإن كان من الحسَنات التى يكثُر فيها إثباتُ الأقلام ، فإنه من مصالح المُلْك التى دلَّت عليها تجاربُ الأيَّام ؛ وكلا هٰذين الأمرين مشكورةٌ مَذَاهبُه ، محمودةٌ عواقبُـه ، مرفوعةٌ علىٰ رُءُوس الأشهاد مَناقبُـه ؛ وما من أحَدٍ من أدَانِينـا إلا وقد وَسَمْناه بعوارِفَ يختـالُ فى مَلَابسها ، ويُسَرُّ فى كلِّ حِينٍ بزِفاف عرائسها ، ولم نَرْضَ فى بَلِّ أرحامهـم بمواصلة سَـلامها دُون مواصَـلةِ بِرِّها وإدناء مجالسها ؛ ولإخْوتنا من ذٰلك أوفَرُ الأقسام ، كما أنَّ لهم منَّا رَحِمًا هو أقربُ الأرحام ؛ وقد أمَرْنا بتَجْديد العارفة لأخينا الملكِ العـادل ، الأجلِّ ، السيد ، الكبير ؛ سـيف الدين ، ناصرِ الإسلام « أبى بكر » أبقاه الله . ولو لم نفعلْ ذٰلك قضاءً لحقِّ إخائه الذى تَرِفُّ عليه حَوانِى الأضالع ، لَفعلْناه جزاءً لذائع خِدَمه التى هى نِعْمِ الذَّرائع ؛ فهو فى لُزُوم آدابِ الخِدْمة بَعِيدٌ وقَفَ منها علىٰ قَدَم الاجتهاد ، وفى لُحْمَة شوابِك النَّسب قريبٌ وصَلَ حُرمةَ نَسَبِه بحُرْمة الوِداد ؛ وعنـده من الغَناء ما يحكُم لآماله ببَسْطة الخيـار ، ويرفَعُ مكانَتَه عن مكانة الأشـباه والأنظار ، ويجعـلُه شريكًا فى المُلْك والشريكُ مساوٍ فى النَّقض والإمرار ؛ فكَم من موْقِفٍ وقَفَه فى خِدْمتنا فجعـل وَعْره سَهْلا ، وفاز فيه بإرضائنا وبفَضِـيلة التقدّم فانقلب بالحُبَّيْن إرضاءً وفَضْـلا ؛ ويكفِى من ذٰلك ما أبلاه فى لِقاء العدوّ الكافر الذى استَشْرَى فى هِيَاجه ، وتمـادىٰ فى لَجَاجِه ، ونزل علىٰ ساحل البحر فأطلَّ عليه بمثل أمْواجه ، وقال : لا بَرَاح ، دُون استِفْتاح ، الأمْرُ الذى عَسُرتْ معالجـةُ رِتَاجه ؛ وتلك وقائـعُ استضأْنا فيها برأيه الذى يَنُوب مَنَاب الكمِين فى مُضْمره ، وسَيْفِه الذى يُنْسَب من الاسم إلىٰ أبيضه ومن اللَّون إلىٰ أخْضَره ؛ ولقد استغنينا عنهما بنَضْرة لَقَبِه الذى تولَّتْ يدُ الله طَبْع فضْلِه ، وعُنِيت يدُ

السِّيادة بَرْوَنق صَقْله ؛ فهو يَفْرِى قلوبَ الأعداء قبلَ الأجساد، ويَسْرى إليهم من غير حامل لمَنَاط النِّجاد، ويستَقْصِى فى آستِلابهم حتّى ينتزِع من عُيُونهم لَذّة الرُّقاد؛ وليس للحديد جَوْهَرُ معدِنه المستخْرَج من زكاء الحَسَب ، وإذا آستُنْجِد قيل له : ياذا المَعَالِى ! كما يُقال لسَمِيِّه : ياذا الشُّطَب ؛ ولو أخذْنا فى شرح مناقبه لظلَّ القَلَم واقفًا على أعواد منبره، وآمتدّ شأْوُ القول فيه فلم يثْنِه مَوْرِدُه إلى مَصْدَره ؛ فمهما خوّلناه من العَطايا فإنه يَسِيرٌ فى جَنْب غَنائه، ومهما أثنَيْنا عليه فإنَّه سَطْرٌ فى كتاب ثَنائه .

وقد جعلْنا له من البلاد ما هو مقْتَسم من الديار المصرية والشاميّة، وبلاد الجزيرة وديار بَكْر : ليكون له من كلِّ منها حظٌّ تُفيض يَدُه فى أمواله ، ويَرْكَب فى حَشْدٍ من رجاله ؛ ويُصْبِحُ وهو فى كلِّ جانب من جوانب مُلْكنا كالطَّليعة فى تقَدُّم مكانِها، وكالرَّبيئة فى إسهارِ أجفانِها .

فليتسَلَّمْ ذٰلك بيدِ معَظِّم قَدْرا، ولا يستكْثِرْ كُثْرا، ويحمِل منها رِفْدها غيثا أو بحرا؛ وكذٰلك فليعْدِل فى الرعيَّة الذين هم عنـدَه وَدَائع ، ولْيجَاوِز بهم درجةَ العَـدْل إلىٰ إحسانِ الصنائع ؛ فإذا أسنَد هذا الأمرَ إلىٰ وُلَاته فلْيكُونُوا تُقاةً لا يَجِدُ الهوىٰ عليهم سَبِيلا ، ولا يجَدُ الشيطانُ عندهم مَقِيلا، وإذا حُمِّلوا ثِقْلًا لا يجدون حَمْله ثقِيلا .

وقد فَشَا فى هذا الزمن أخْذُ الرَّشوة وهى سُحْتٌ أمَر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنَبْذه، ونهىٰ عن أخْذِه؛ وعن الرغبة فى تَدَاوُله، وهو كأخْذِ الرِّبا الذى قُرِنت اللَّعنةُ بمُؤكله وآكِله .

وأما القُضاة الذين هم للشريعة أَوْتاد، ولإمضاءِ أحكامها أجْناد، ولِحفْظ عُلومها كنوزٌ لا يتطرّق إليها النَّفاد ؛ فينبغى أن يُعوَّل فيهـم على الواحد دُون الآثنـين ، وأن يُستعانَ منهم فى الفَصـل بذِى الأيدى وفى اليَقَظة بذِى اليدَين، ومن رام هذا

المنْصِبَ سائلا فَلْيَلُمْهُ وليغلِظ القولَ فى تَجْريع ملامِه ، وليعْرِف أنه ممّن رام أمْرا فأخطأَ الطَّريقَ فى آستجلاب مَرَامه ؛ وأمْرُ الحكّام لايتوَلّاه من سأله ، وإنما يتَوَلّاه من غَفَل عنه وأغْفَله .

وإذا قضيْنا حقَّ الله فى هذه الوصايا فلْنَعْطِفْها علىٰ ما يكون لها تابعا ، ولقواعد المُلْك رافعا ، وذاك أنَّ البلادَ التى أضفْناها اليك : فيها مدنٌ ذاتُ أعمالٍ واسعه ، ومعاقِلُ [ذات] حَصانةٍ مانعه ؛ وكلُّها يفتقر إلى آستخدام الفِكْر فى تَدْبيره ، وتصريفِ الزمان فى تَعْميره ؛ فوَلِّ وَجْهَك إليها غيْرَ وانٍ فى تكثير قليلها ، وترويضِ مُحِيلها ؛ وبثِّ الأَمَنة علىٰ أوساطها ، وإهداء الغِبْطة إلىٰ أفْئِدَةِ أهلها حتّى تسمع باغتباطها ؛ وعنـدَ ذٰلك يتحدّثُ كلٌّ منهم بلسان الشّكُور ، ويتمثل بقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ .

وآعلم أنه قد يُجاوِرُك فى بعضها جيرانٌ ذُو بِلادٍ وعساكِر ، وأَسِرَّة ومنابِر ، وأوائلَ للَمجْد وأَوَاخِر ؛ وما منهم إلا من يتمسَّك منّا بوُدٍّ سليم ، وعَهْـدٍ قديم ، وله مساعدة نَعْرِف له حقَّها (والحَقُّ يعرِفُه الكريم) .

فَكُنْ لهؤلاء جارًا يَوَدُّون جِوارَه ، ويحمدون آثارَه ؛ وإن سألوك عهدا فابذُلْه لهم بَذْلَ وفِيٍّ واقفٍ على السُّنَن ، مساوٍ بين السِّر والعَلَن ؛ ولا يكُنْ وفاؤُك لخوف تتّقى مَراصِدَه ، ولا لرجاء ترْقُب فوائِدَه ؛ فاللهُ قد أغناك أن تكونَ إلى المُعاهدة لاجيا ، وجعلك بنا مَخُوفا ومَرْجُوًّا لاخائِفا ولا راجِيا ؛ وقد زِدْناك فَضْلةً فى محلك تكون بها علىٰ غيرك مُفَضَّلا ، وقد كنتَ من قبلها أغَرَّ فأوْفَتْ بك أغَرَّ مُحَجَّلا ؛ وذاك أنّا جعلناك علىٰ آية الخيل تَقُودها إلىٰ خَوض الغِمار ، وتُصرِّفها فى منازل الأسفار ، وترتِّب قلوبَها وأجْنِحتَها على آختلاف مراتبِ الأطوار ، فنحنُ لانلْقىٰ عدُوّا ولا نَنْهَد إلىٰ

بلدٍ إلا وأنت كوكبُنا الذى نهتدِى بمَطْلَعه، ومفتاحُنا الذى نستفتح المُغْلَق بيُمْن موقِعه، ونُوقن بالنصر فى ذَهَابه وبالغنيمة فى مَرْجِعه؛ والله يشرحُ لك صدْرا، ويُيَسِّر لك منَّا أمْرا، ويشُدّ أزْرَنا بك كما شَدّ لموسىٰ بأخيه أزْرا، والسلام .

الأسلوب الثانى

(أن يُفتتَح التوقيع بالإقطاع بلفظ : «أما بعد فإنَّ كذا»)

ويذكُر ماسنَح له من أمر السلطان أو الإقطاع أو صاحبه، ثم يتعرّض إلىٰ أمر الإقطاع، وهو دُون الأسلوب الذى قبله فى الرتبة .

وهذه نسخةُ توقيع بإقطاع من هذا الأسلوب، كتِب بها لأميرٍ قدم على الدولة فاستخدمَتْه، وهى :

أما بعدُ، فإنَّ لكلِّ وَسِيلةٍ جزاءً علىٰ نِسْبةِ مكانها، وهى تتفاوَتُ فى أوقات وجُوبها ومثاقِيل مِيزانها؛ ومِن أوجَبِها حقًّا وسيلةُ الهجرة التى طَوَى لها الأمَلُ من شُقّته ماطَوىٰ، وبَعَث بها علىٰ صِدْق النِّية «ولكُلِّ آمْرِئٍ ما نَوىٰ»؛ فالأوطانُ إليها مُودَعه، والخَطواتُ مُوسَّعه، والوجُوه من بَرْد الليل وحَرِّ النهار مُلَفَّعه؛ وقد توخَّاها قومٌ فى زَمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحَظُوا فى الدُّنيا باعتلاءِ المَنَار، وفى الآخرة بعقْبىٰ الدار، وقُدِّموا علىٰ مَنْ آوى ونَصَر فقال تعالىٰ : ﴿ والسَّابِقُون الأَوَّلُونَ من المُهَاجِرِين والأنْصار ﴾ . ثم صارتْ هذه سنَّةً فيمن هاجَرَ من أقوام إلىٰ أقْوام، وآستبدَل بأنام عن أنام؛ وكذٰلك فعلْتَ أيُّها الأميرُ فلان ـ وفقك الله ـ وقد تُلُقِّيَتْ هِجرتُك هذه بالكَرَامه، وزُخْرِفَتْ لها دارُ الإقامه؛ فما آبتغَيْتَ بها بُغْيةً إلا سُهِّلت لك فِجَاجُها، أو عاجَ عليك مَعاجُها، وحُمِد لدَيْك تأوِيبُها وإدلاجُها؛ وأصبحتَ

وقد وجدتَ خَفْضا غِبَّ السُّرىٰ، وخِيطتْ منك الجفُونُ علىٰ أمْن الكَرىٰ، وتبَوَّأتَ كَنَف الدولة التى هى أمُّ الدُّوَل إذ صِرْتَ إلى القَرْية التى هى أُمُّ القُرىٰ . ونحن قد أدْنيناكَ منَّا إدناءَ الخليط والعَشير، ورَفَعْناك إلىٰ محلِّ الاختصاص الذى هو المحَلُّ الأثير، وآخَيْنا بينَك و بين عَطَايانا كما وُوخِىَ بينَ الصَّحابة النَّبويَّة يومَ الغَدِير .

هذا ولك وسيلةٌ أخرىٰ تُعَدّ من حِسان المناقب، وتُوصَف بالصِّفات الأطايب؛ وما يُقال إلا أنها من الأطْواد الرَّواس، وأنها تَبْرُز فى اللباس الأحمر وغيرُها لا يبْرُز فى ذٰلك اللِّبـاس؛ وهى التى تجعلك بوَحْدتها فى كَثْره، ونتأمَّر بها من غير إمْره؛ وطالمـا أطالَتْ يدَك بمَناط البِيض الحِـداد، وفرَّجَتْ لك ضِيقَ الكَرِّ وقد غَصَّ بهَوادِى الجِيـاد، وحسَّنَتك العُيون وقد رُمِيتْ منـك بشَرَق القَذا ونَبْوة السُّهاد؛ ومن شَرَف الإقْدامِ أن العدُوّ يُحبُّ العدوّ من أجْله، ويَضْطرُّه إلىٰ أن يُقِرّ بفَضْله؛ ومذ وصلْتَ إلينا وصَلْناك بأمرائنا الذين سلفَتْ أيَّامُهم، وثبَتَتْ فى مَقامات الغَناء أقْدامُهــم؛ وتوسَّمْنا أنك الرجلُ الذى يزكُو لديْك الصَّنيع، وأنك ستشْفَعُه بحقوق خِدْمتِك التى هى نِعْمَ الشفيع .

وقد عَجَّلنا لك من الإقطاع ما لا نرضَىٰ أن تكونَ عليه شاكِرا، وجعلناه لك أوّلا وإن كان لغـيرك آخِرا؛ وهو مُثْبَتٌ فى هـذا التَّوْقيع بقلم الديوان الذى أُقِيم لفَرْض الجُنْد كتّابا، ولمعرفة أرزاقهم حِسَابا، وهو كذا وكذا .

فتَناوَلْ هذا التَّخْويلَ الذى خُوِّلتَه باليمين، وٱستمسِكْ به ٱسْتِمساكَ الضَّنين .

وٱعلم أنه قد كَثُر الحواسـدُ لِمَـا مَدَدْناه من صُـنْعك، وبسَطْناه من ذَرْعك؛ فأشْجِ حلُوقَهم بالسَّعْيِ لٱستحقاق المَزِيد، وٱرْقَ فى درجات الصُّعود وألْزِمْهم صَفْحة الصَّــعيد .

والذى نأمرك به أن [تُعِدّ] نَفْسَك للخِدْمة التى جُعِلتَ لهـا قِرْنا وأنت بها أغْنىٰ، وأن تنتهِىَ فيها إلى الأمَـد الأقصىٰ دُونَ الأدْنىٰ؛ فلا تَضْمُمْ جَناحَك إلّا علىٰ قوادِمَ من الرجال لا علىٰ خَوَاف ، وإذا استُنْفِرْتَ فٱنفِرْ بثِقالٍ من الخيْـل وخِفَاف؛ وكُن مذْخُورا لواحدةٍ يقال فيها : ياعزائِمُ ٱغْضَبِى، وياخيلَ النَّصر ٱرْكَبِى؛ وتلك هى التى تتَظَلَّم بها الجماجِمُ من الضِّراب، وتَلاقىٰ فيها عُصَب الغِرْبان والذُّباب؛ ولا تحتاجُ مع هذه إلىٰ مَنْقَبة تجمَّل بتفْوِيفِها، ونتكثَّر بتعرِيفِها، وتنتمى إلىٰ تليدِها باستحداث طرِيفِها .

والله تعـالىٰ يَشُـدّ بك أزْرا ، ويملأُ بك عَيْنا وصَدْرا ، ويجعـل الفَلَج مقْرونا برأْيك ورايتِـك حتّى يقـال : « ومَكَرُوا مَكْرا » وجَرَّدنا بِيضا وسُمْرا ؛ والسـلامُ إن شاء الله تعالىٰ .

الأسـلوب الثـالث

(أن يفتتَح التوقيعُ المكتَتَب بالإقطاع بمـا فيه معنىٰ الشجاعة والقتال
وما فى معنىٰ ذٰلك ، وهو أدنىٰ من الذى قبله رُتبةً)

وهذه نسخةُ توقيعٍ بإقطاع من هـذا النَّمَط ، كُتِب به لبعض الأمراء الصِّغار ، وهى :

القَلَم والرُّمْح قَلَمـان كِلاهما أَسْمر، وكما تشابَهَا فى المَنْظَر فكذٰلك تشَابَها فى المَخْبَر، غيرَ أنَّ هذا يرْكَب فى عَسْكرٍ من القَوْل وهـذا يحمِل فى عَسْكر؛ وقد نطَق أحدُهمـا بالثناء علىٰ أخيـه فأحسَن فى نُطْقـه ، وأقَرّ له بالفضـيلة ومن الإنصـاف أن يُقَرّ لذى الحق بحَقّه ، غير أنّ هذه الفضـيلةَ تُعْزىٰ إلىٰ من يُقيم أَوَدَ الساعى بتقويم

أوده، ولا يَرىٰ لهـا سبيلًا قَصْدا إلا بالوَطْء علىٰ قَصْده، وهو أنت أيُّها الأميرُ فلان أيّدك الله ! .

وقد ٱخترناك لخدْمتنا علىٰ بَصيره، وأجْرَيْناك من ٱعتنائنا علىٰ أكرم وَتِيرَه، ورَفَعْنا دَرَجتك فوق درجة المعَلّى لمن سبَقك وإنها لكَبِيره .

ولم يكُنْ هـذا الآختيارُ إلا بعد آختبارٍ لا يُحتاج معـه إلىٰ شهاده ، ولو كُشف الغِطاءُ لم يجِد اليقينُ من زياده، فطالما عُجِمتْ نَبْعتُك، وتُيُمِّنت طَلْعتُك، ولم تُعرَض سِلعةُ الغَنَاء إلا نفَقَت سِلْعتُك، ومِثْلك من تُبَاهِى الرجالُ بمكانه، وتُخَلِّى له فضـلةَ عِنانه ، ويتَّسِع مَيْدان القَوْل فى وصْـفه إذا ضاقَ بغيره سَعةُ مَيْدانه ، وما يُقال إلا أنّك الرجلُ الذى تَقْذف الجـانبَ المهِمَّ بعَزْمك، وتَرمِى برأْيك قبـل رِمَاء سَهْمك ، وبك يُحْسَر دُجى الحَرْب الذى أعْوزَه الصَّباح، ويُحْمىٰ عُقابُها أن يُحَصّ له جَناح ، فأســبابُ الآعتضاد بك إذَنْ كثيرةُ الأعداد ، وأنت الواحدُ المشارُ إليـه ولا تكْثُرُ إلا مناقِبُ الآحاد .

وقد بدَأْناك من العطَاء بمـا يكُون بِبِسْم الله فى صَـدْر الكتّاب ، وجعلناه كالغَمامَة التى تَأْتى أوّلا بالقِطَار ثم تأخُذ فى الآنْسِكاب ، وخيرُ العطاء مارُبَّ بعـد ميلاده ، وأينع ثمُره بعـد جَدَاده، وإن صادف ذلك وَسائلَ خِدَم مستأنَفة كان لهـا قِرانا، وصادفَ الإحسانُ منـه إحسانًا ، وقد ضَمِن الله تعالىٰ للشّاكر من عبـاده مَزِيدا ، ولم يرضَ له بأن يكونَ مُبْدِئا حتَّى يكون مُعِيـدا ، وكذٰلك دَأْبه فيمن عَرَف مواقِعَ نِعَمه، وعَلِم أن صحَّتها لاتُفارِقُه مالم يُعْدِها بسَقَمِه .

ونحنُ أَوْلىٰ مَن أخذ بهـذا الأدَبِ الكريم، وألزم نفْسَـه أن تتحلَّى بخُلُقِـه وإنه لَلخُلُقُ العظيم ، وعَطاؤُنا المنعَم به عليـك لم يُذْكَر فى هذا التوقيع علىٰ حكم الآمتنان ،

بل إثباتا لِحِسَاب الجُنْـد الذين هم أعوانُ الدَّوْلة ولا بدّ من إحصاءِ الأعوان ؛ وهو كذا وكذا .

فامدُدْ له يدًا تجمع من(١) الشُّكْر مُواظَبه ، ومن(١) الطَّاعة مُراقَبَه ؛ وكُنْ فى التأهُّب للخدمة كالسَّهْم الموضُوع فى وَتَره ، وأصغ بسَمْعك وبصرك إلىٰ ما تُؤمَر به فلا آئتمارَ لمن لم يُصغ بسَمْعه وبَصَره .

ومِلاكُ ذٰلك كلّه أن تتكثر من فُرْسان الغوَار ، وحُماةِ الذِّمار ، والذين هم زينةُ سِلْم ومَفْزَعُ حِذَار ؛ ومثلُ هؤلاء لا يضُمُّهم جَيْشٌ إلا تقدّمه جيشٌ من الرُّعْب ، ودارتْ منه الحربُ علىٰ قُطْبها ولا تدُور رحًى إلا علىٰ قُطْب ؛ وإذا ساروا خلْفَ رَايَتك نُشِرت ذوائبُها علىٰ غابةٍ من الآساد ، وخفقتْ علىٰ بَحْر من الحديد يسيرُ به طَودٌ من الجِياد .

ومن أهمِّ الوصايا إليك أن تُضيف إلىٰ غَنَائهم غِنًى يُبْرِزُهم فى زَهْرة من اللِّبَاس ، ويُعينُهم علىٰ إعداد القُوّة ليوم الْبأس ، ويُقَصِّر لديهم شُقَّة الأسفار التى تذهَب بنَزَقات الشِّماس ، وينقطِع دُونَ قَطْعها طُولُ الأنفاس ؛ وأىُّ فائدةٍ فى عسكرٍ يأخذ بعد المَسْرَىٰ فى حَوْرِه ، ولا يزيدُ صَبْرُه بزيادة سَفَرِه ، ويكون حافرُه وخُفُّه سواءً فى آنتساب كلٍّ منهما إلىٰ شدّة حَجَره .

فانظُرْ إلىٰ هذه الوصية نظَرَ من طالَ علىٰ صَحْبه بالكَفِّ الأوْسَع ، وعَلِم ما يَضُرُّ فيهم وما ينْفَع ؛ والله يمنَحُك من لَدُنه توفيقا ، ويَسْلُكُ بك إلى الحُسْنىٰ طريقا ، ويجعلُك خَليقًا بما يُصْلِحك وليس كلُّ أحدٍ بصلاحِه خَليقا ، والسلام .

---

(١) لعله «مع» بدل «من» فى الموضعين .

الطـــرف الثـانى
(ما يُكتَب فى الإقطاعات فى زماننـا)

وهـــو علىٰ ضَرْبين :

الضـــــربُ الأوّلُ
(ما يُكتَب قبـــل أن يُنْقَل إلىٰ ديوان الإنشـاء)

وفيـــه جملتان :

الجملة الأُولىٰ — فى ابتداء مايُكتب فى ذٰلك من ديوان الجَيْش .

اِعلم أنَّ مَظِنَّة الإقطاعات هو دِيوانُ الجيش دُونَ ديوان الإنشاء، ومايُكْتب فيه من ديوان الإنشاء هو فَرْع مايُكْتَب من دِيوان الجَيْش .

ثم أوّل مايُكتَب من ديوان الجَيْش فى أمر الإقطاع إما مِثـالٌ ، وإما قِصَّة ، وإما نزول (١) .

فأما المِثـال، فإنه يكتُب ناظرُ الجيش فى نِصْف قائمةٍ شامىّ، بعد ترك الثلثين من أعلاها بياضا، فى الجدْول الأيمن من القائمة ما صُورته :

«خُبْز فلان المتوفَّى إلىٰ رحمة الله تعالىٰ» أو «المرسوم ٱرتجاعه» أو «المنتقِل لغيره» ونحو ذٰلك . ويكون «خُبْز» سطرا، وباقى الكلام تحتَه سطرا . وتحت ذلك ماصُورته : «عبرة كذا وكذا دينارا» بالقلم القبطى . وفى الجَدْول الأيسر ما صورته :

« بٱسم فلان الفلانى » وإن كان زيادة عُيِّن ، ثم يشـمَلُه الخط الشريف السلطانى بما مثاله : «يُكتَب» ثم يكتُب تحته ناظِرُ الجيش ما مثاله : «يمتَثِل المَرسُوم

(١) أى إشهاد بنزول كما يؤخذ من التفصيل الآتى .

الشريف » ويُعيِّنه علىٰ مَن يَختاره من كُتَّاب الجيش ، ثم يُترك بعد ذٰلك بديوان النظر ، ويُكتَب تاريخُه بخطِّ كاتب ناظر الجَيْش بذَيْل المثال ، ويخلِّده الكاتب المعيَّن عليه ، ويكتُبُ بذٰلك مرَبَّعة ، علىٰ ما سيأتى ذِكْره .

وأما القِصصُ فتختلفُ بحسَب الحال : فتارة يُنهىٰ فيها وَفاةُ من كان بيده الإقطاع ، وتارة آنتقالُه عنه ، وتارةً آرتجاعُه ، وتارة طلبُ إعادة ما خَرج عنه ، وتارةً طلبُ تجديدٍ ، ونحو ذلك .

ويكْتُب ناظرُ الجَيْش علىٰ حاشيتها بالكَشْف . ويُكْتَب الكشفُ بذَيْل ظاهرها من ديوان الجيش بما مثاله :

« رافعُها فلان أنهىٰ ما هو كذا وكذا ، وسأل كذا وكذا » ويذكُر حالَ الإقطاع . ثم يشمَلُها الخطُّ الشريف السلطانى بما مثاله : « يكتب » وباقى الأمر علىٰ ما تقدّم فى ذكر المثال .

وأما الإشهادات فتكون تارةً بالنزول ، وتارة بالمقايَضَة ، وربَّما وقع ذٰلك بالشركة ، ثم يكْتُب ناظر الجيش علىٰ ظاهر الإشهاد بالكَشْف ، ويُعمَل فيه علىٰ ما تقدّم فى القِصَّة .

الجملة الثانية — فى صورة ما يكتَب فى المرَبَّعة الجَيْشية .

قد جرتْ عادةُ ديوان الجيش أنه إذا عَيَّن ناظرُ الجَيْش المثالَ أو القصةَ أو الإشهادَ علىٰ أحَدٍ من كُتَّاب ديوان الجيش ، يخلِّد الكاتبُ ذٰلك عنده ، ثم تُكتَب به مَربَّعةٌ من ديوان الجَيْش وتَكَمَّل بالخطوط علىٰ ما تقدّم ، وتجَهَّز إلىٰ ديوان الإنشاء ، فيعيِّنها كاتبُ السِّرّ علىٰ من يَكْتب بها منشورًا علىٰ ما سيأتى .

وصورة المربَّعة أن يَكْتُبَ فى ورقة مربَّعة، يجْعلُ أعلىٰ ظاهر الوَرَقة الأَولىٰ منها بياضا، ويَكْتُب فى ذيلها معتَرِضا : آخذا من جهة أسفل المربعة إلىٰ أعْلاها أسطرا قصيرةً علىٰ قَدْر عَرْض ثلاثة أصابع ما صورته :

«مثالٌ شريف — شَرَّفه الله تعالىٰ وعظمه ـ بما رُسِم به الآنَ : من الإقطاع» باسم من عين فيه من الأمراء أو من المماليك السلطانية بالديار المصرية ، أو بالمملكة الفلانية ، أو من الحَلْقة المِصرية أو الشامية، أو نحو ذٰلك «علىٰ ما شُرِح فيه حسَبَ الأمر الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظمه» .

وتحت ذلك كلِّه ما صُورته :

«يحتاج (١) الشريف أعلاه الله تعالىٰ» .

ثم يَكتُب داخل تلكَ الورقة بعد إخلاء هامِش عَرْض إصبعين البَسْملةَ ، وتحتها فى سطرٍ ملاصِقٍ لها : «المرسُومُ بالأمر الشريف العالى، المولَوِىّ، السلطانىّ» ثم ينزل إلىٰ قدر ثلثى الصفحة، ويكتب فى السَّطر الثانى بعد البياض الذى تركه علىٰ مُسامتة السَّطر الأوّل : «المَلَكِىّ الفلانىّ الفلانىّ» بلَقَب السلطنة : كالناصِرِىّ، ولقب السلطان الخاص كالزَّينىّ «أعلاه الله تعالىٰ وشرَّفه ، وأنْفذه وصَرَّفه، أن يُقْطَعَ من يُذْكَر : من رجال الحلْقة بالدِّيار المصرية أو المملكة الشامية أو نحو ذٰلك، ما رُسِم له به الآنَ فى الإقطاع، حسَبَ الأمر الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه» .

ثم يكتبُ فى الصفحة الثانية مقابل البسملة : «فلان الدِّين فلان الفلانِىّ، المرسومُ إثباتُه فى جُمْلة رجال الحَلْقة المنصورة بالديار المِصْرية أو الشامية، بمقتضى المثال

(١) بياض فى الأصل ولعله «إلى الخط الشريف» .

الشَّريف أو المرَبَّعة الشريفة المشمولة بالخط الشريف» . ثم يكتب تحتَ السَّطر الأخير فى الوسط ماصورته : « فى السنه كربستا » إن كان جميع البَلَد أو البلاد المقْطَعة لا يُستثنىٰ منها شىءٌ ، أو يكتب : « خارجاً عن المِلْك والوَقْف » أو نحو ذلك «علىٰ ما يقتضيه الحقُّ» .

ثم يكتب تحت ذلك علىٰ حيال السُّطور ممتدّا من أوّل السَّطر إلىٰ آخره : « خــبز » .

ثم يكتب تحته : «فلان بن فلانى الفلانىّ، بحكم وفاته ، أو بحكم نزوله برضاه» ونحو ذلك علىٰ عادته ـ ناحية كذا . ناحية كذا . ناحية كذا .

وإن كان فيه نَقْد ونحوه ذكره ، ويستوفى ذلك إلىٰ آخر : « بعد الخط الشريف ــ شرفه الله تعالىٰ ــ إن شاء الله تعالىٰ » .

ثم يُؤَرّخ فى سَطْرين قصيرين ويُحضَر إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء، فيعَيِّنه علىٰ مَن يكتُبه من كُتَّاب الإنشاء، علىٰ ماسيأتى بيانُه .

الضـــــــرب الثـانى

(فيما يُكتَب فى الإقطاعات من ديوان الإنشاء، وفيه خمس جمل)

الجمـــــلة الأولى

(فى ذكر آسم ما يُكْتَب فى الإقطاعات من ديوان الإنشاء)

قد اصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ تَسْمية جميع ما يُكْتَب فى الإقطاعات: من عَالِيها ودَانِيها، للأمراء والجُنْد والعُرْبان والتُّرْكُمان وغيرهم ـ مَنَاشِـيرَ، جمع مَنْشـور. والمنشورُ فى أصـل اللُّغة خلافُ المَطْوِىِّ. ومنـه قوله تعالىٰ: ﴿وكِتَابٍ مَسْطُورٍ فى رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾.

وآعلم أن تَخْصيص ما يكتَب فى الإقطاعات باسم المناشِير ممـا حدَث الاصطلاحُ عليه فى الدولة التُّرْكية.

أما فى الزَّمَن المتقـدِّم فقد كانوا يُطلِقُون آسم المَناشِـير علىٰ ماهو أعَمُّ من ذٰلك: ممـا لا يَحتاجُ إلىٰ خَتْم: كالمكتوب بالإقطاع علىٰ ما تقـدّم، والمكتوبِ بالوِلاية، والمكتوب بالحمـاية، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك. ورُبَّمـا سمِّى ما يُكْتَب فى الإقطاع مُقاطعةً، وربمـا سمِّى سِجلّا وغير ذٰلك.

أما الآنَ فإذا أُطْلِقَتِ المناشيرُ لا يُفْهَم منها إلا ما يكتَب فى الاقطاعات خاصّة، وخَصُّوا كلَّ واحدٍ ممـا عداها باسمِه، علىٰ ماهو مذكُور فى مواضعِه دُونَ ماعداها، ولا مشاحَّةَ فى الاصطلاح بعدَ فَهْم المعنىٰ.

قلتُ: ومن خاصَّة المناشير أنَّهـا لاتُكتَب إلا عن السـلطان مشمولةً بخَطِّه، وليس لغيره الآنَ فيها تصرُّفٌ، إلَّا ما يَكتُب فيه النائبُ الكافلُ آبتداءً.

الجملـــــة الثـانية

(فى بيان أصناف المناشير، وما يخُصّ كلّ صِنْف منها: من مقادير قَطْع الورَق، وما يختصّ بكلّ صِنْف منها من طَبَقات الأمراء والجُنْد)

اِعلم أنّ المناشيرَ المصطَلَح عليها فى زمانِنا علىٰ أربعةِ أصناف: يختصّ بكلّ صِنف منها مِقدارٌ من مقادير قَطْع الورق .

الصِّنف الأوّل — ما يكتب فى قَطْع الثُّلُثين وهو لأعْلَى المراتب من الأمراء .

قال فى "التعريف" : ومن كان مُؤَهّلا لأن يُكتَبَ له تقليـدٌ كان منشورُه من نوعه ومِن دُونِ ذٰلك إلىٰ أدْنى الرُّتَب .

قال فى "التثقيف": وفى قَطْع الثُّلُثين يُكْتَب لمقـدَّمى الألوف بالديار المِصرية، سواء كان من أولاد السلطان أو الخاصكيَّة أو غيرهم، وكذٰلك جميعُ النوّاب الأكابر بالممـالك الإسلامية، والمقدّمُون بدِمَشْقَ . وكلُّ من له تقليد فى قَطْع الثلثين يكون منشورُه فى قَطْع الثلُثين .

الصِنف الثانى — ما يُكتب فى قَطْع النِّصف .

قال فى "التثقيف" : وفيه يُكْتَب لأُمَراء الطَّبْلخانات بمصر والشـام، سواءٌ فى ذلك الخاصكيَّة وغيرهم . وكذٰلك الأمَراء المقدَّمُون من نُوّاب القِـلاع الشامية . وفى معناهم المقدّمون بحَلَب وغيرها : من نوّاب القِلَاع وغيرهم .

الصنف الثالث — ما يُكتَب فى قَطْع الثلث .

قال فى "التثقيف" : وفيه يُكْتَب لأمراء العَشَرات مطلقًا بسائر الممـالك، يعنى مصْر والممـالكَ الشاميـة بجملتها . قال : وكذلك الطَّبْلَخانات من التُّرْكان والأكراد بالممـالك الإسلامية .

الصنف الرابع — ما يكتب فى قَطْع العادة المَنْصورىّ .

قال فى "التثقيف" : وفيه يُكْتَب للمماليك السُّلطانية، ومقدّمِى الحَلْقة، ورجال الحَلْقة . إلا أنه يختَلِف الحالُ بين المماليك السلطانية، ومقدّمِى الحَلْقة، وبين رجال الحَلْقة بزيادةِ أوصال الطُّرّة، والإتيانِ بالدُّعاء المناسِبِ: يعنى أنه يُتْرَك فى طُرّة مناشِير المَمَاليك السلطانية ثلاثةُ أوصال بياضًا، وفى مناشير رجال الحَلْقة وَصْلان .

قلتُ : ولا فرقَ فى ذٰلك بين حَلْقة مِصرَ وغيرها من المَمَالك الشاميَّة .

الجملة الثالثة

(فى بيان صُورة ما يكتَب فى المناشير فى الطُّرّة والمَتْن)

قال فى "التثقيف" : إن كان المنشور فى قطع الثُّلثَين، كُتِب فى طرَّته من يَمِين الورق بغير هامش ما صُورتُه :

«منشورٌ شريفٌ بأن يَجْرِى فى إقطاعات المَقرّ الكريم» أو «الجناب الكريم العالى الأميرىّ الكبيرىّ» وإن كان نائبا زِيدَ بعدها : «الكافلىّ الفلانىّ» يعنى بلقَبه الخاصّ «فلان الفلانى» بلقَب الإضافةِ إلىٰ لقَب السلطان : كالناصِرىّ ونحوه . ثم الدعاءُ بما جرتْ به عادتُه دَعوةً واحدة« ما رُسِم له به الآنَ من الإقطاع » ويَشْرح ما تضمَّنته المربَّعةُ إلىٰ آخره، فمن ذٰلك جميعه سطران بقَلَم الثلث .

قال : والأحسن أن يكون آخِرُ السطر الثانى الدعاءَ والتتمةُ بالقلم الرِّقاع أسْطُرا قصارًا بهامِشٍ من الجانبين، ثم يَكتُب فى الوسط سَطْرا واحدًا بالقلَمَ الغليظ : «والعدّة» وتحته بالقلم الدقيق «خاصته، ومائة طواشىّ أو تسعون طواشيًّا أو ثمانون طواشيًّا أو سبعون طواشيا » حسَبَ ما يكون فى المربَّعة . ويترك ثلاثةَ أوصال بياضا بما فيه من وصل الطُّرة؛ ثم تُكتَب البسملة فى أوّل الوَصْل الرابع، وبعدها

خُطْبة مفتتَحة بالحمد، ويكمَّل بما يناسبه ، ثم يقال : « أما بعدُ » ويَذْكُر ما ينبغى ذِكْرُه علىٰ نحو ما تقدّم فى التقاليد .

قال فى "التعريف" : إلا أن المناشيرَ أخصر، ولا وصَايَا فيها .

قال فى "التثقيف" : ثم يذكُر بعد ذٰلك آسمَه بأن يقول : «ولمّا كان الجناب» وبقيةُ الألقاب والنعوتِ والدُّعاء ـ ولا يُزاد علىٰ دَعْوة واحدة « هو المرادَ بهذه المِدَح ، والمخْصُوصَ بهٰذه المِنَح » أو نحو ذلك ـ « آقتضىٰ حسنُ الرَّأى الشريف أن نُخَوّله بمزيد النعم » .

وإن كان المنشورُ فى قَطْع النِّصف كُتِب علىٰ ما تقدّم ، إلا أنه لا يقال : «أن يُجرىٰ فى إقطاعات» . بل إن كان مقدَّما بحلَبَ أو غيرِها أو طبلخاناه خاصَكيا، أو كان من أولاد السُّلطان، كُتِب : «أن يجرى فى إقطاع المجلس العالى أو السامىّ» . وإن كان طبلخاناه ممَّن عدا هؤلاء، كُتِب « منشورٌ شريفٌ بما رُسِم به من الإقطاع للمجلس السامى» والتّتِمة علىٰ حكم ما تقدّم من غير فَرْق .

وأمَّا ما يُكتب فى قطع الثلث فيُكْتَب : «مَنْشُورٌ شريفٌ بما رُسِم به من الإقطاع لمجلس الأمير» .

وأما التجديداتُ فيُكتَب فى طُرَّتها : «مَنْشُورٌ شريفٌ رُسِم بتَجْديده بآسم فلان بنِ فلان الفلانى ، بما هو مُسْتقِرٌّ بيَده من الإقطاع الشاهِد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخر وقت» ويُشْرَح حَسَب ما تضمنَتْه المربَّعة، ثم يقال : «علىٰ ما شُرِح فيه» .

وأما الزياداتُ والتَّعْويضـاتُ، فقال فى "التعريف": إذا رُسِم للأمير بزيادة أو تعويضٍ : فإن كان من ذَوى الأُلُوف : كالنُّوّاب الأكابر، ومقدّمى الأُلُوف بمصر والشام، كُتِب له فى قَطْع الثلث الطُّرّةُ على العادة ، وبعد البسملة : «خَرَج الأمرُ

الشريف العالى، المولوىّ ، السلطانىّ، المَلَكى، الفلانىّ ، الفلانى، ويُدْعىٰ له بما يناسبُ الحالَ «أن يُجْرىٰ فى إقطاعات المقر الفُلانىّ أو الجناب الفُلانى» . وفى التَّتِمَّة نظيرُ ما تقدّم فى المناشير المفتَتَحة بالخُطْبة، علىٰ ما تقدّم بيانه .

والذى ذكره فى "التعريف" : أنه يُكتَب فى ذلك لمقدَمى الأُلوف أو مَن قاربهم : «أما بعدَ حمدِ الله» .

وإن كان من أمراء الطبلخاناه الصغار فَمَن دُونَهم حتَّى جُنْد الحلْقة ، كتب له فى قطع العادة : «خرجَ الأمرُ الشريفُ» .

قال فى "التثقيف" : وكذلك الزيادات والتعاويضُ ، سواءٌ فى ذلك كبيرهُم وصغيرهُم . قال : ويمكن أن يميَّزَ أميرُ آل فضل فيُكْتَبَ له ذلك فى قطع الثلث . قال فى "التعريف": أما إذا انتقل الأميرُ من إقْطاعٍ إلىٰ غيره، فإنه يُكتَب له كأنَّه مبتدَأٌ علىٰ ما تقدّم أوّلا .

وآعلم أنه لم تَجْرِ العادةُ بأن تُكتَب فى أعلى الطرّة إشارةٌ إلىٰ العَلَامة السلطانية ، كما يُكتَب فى الولايات الآسمُ الشريف فى أعلىٰ الطُّرّة . قال فى "التثقيف" : والسببُ فيه أنَّ العلامةَ لاتخرُج عن أحدِ ثلاثةِ أمور : إما الآسمُ الشريف مفردًا، كما فى الأمْثلة السلطانية إلىٰ مَن جرَتِ العادةُ أن تكونَ العلامةُ له الآسمَ الشريفَ ، وما يتعلّق بالتقاليد والتواقيع والمراسيم الشريفة، وأوراقِ الطريق . أو يضافُ إلىٰ الآسم الشريف والدُه ، أو أخوه ، وذلك ممَّا يتعلق بالأمثلةِ الشريفة خاصة إلىٰ من جرَتْ عادتُه بأن تكون العلامةُ إليه كذلك . وذلك بخلاف المناشير فإنَّ العلامةَ فيها علىٰ ما جرتْ به العوائدُ، أن يَكتُبَ السلطانُ : «اللهُ أَمَلِى» أو «اللهَ ولِيِّى» أو «اللهُ حَسْبِى» أو «المُلْكُ لله» أو «المِنَّة لله وحْدَه» لا يختلِفُ فى ذلك أعلىٰ

(١) لعله « وذلك مما يتعلق » الخ .

ولا أدنى، فلا يُحتاج إلى إشارة بسببها يُنَبه عليها، لأن ترك الإشارة إليها دليلٌ عليها، وإشارةٌ إليها، كما ذكر النحاةُ علاماتِ الاسم والفِعْل ولم يذكروا للحَرْف علامةً، فصار تركُ العلامة إليها علامةً ؛ بخلاف الأمثلة : فإنها تختلف : فتكون العلامةُ فيها تارةً الاسمَ، وتارةً أخوه، وتارةً والده .

الجملة الرابعة

(فى الطُّغْرَى[1] التى تكونُ بين الطُّرّة المكتَتَبة فى أعلى المنشُور وبين البسملة)

قال فى "التعريف" : قد جرت العادة أن تُكتَب للمناشير الكبار كمُقَدَّمى الأُلوف والطبلخانات طُغْرى بالألقاب السلطانية، ولها رجُل مفْرَد بعَمَلها وتحصيلها بالدِّيوان . فإذا كَتَب الكاتبُ منشوراً أَخَذ من تلك الطُّغْراوات واحدةً، وألصقها فيما كَتَب به . قال فى "التعريف" : وتكونُ فوقَ وصلِ بياضٍ فوقَ البسملة . قال فى "التثقيف" : فبعدَ وصلَيْن أو ثلاثةٍ من الطُّرَّة .

قلتُ : ولم تَزلْ هذه الطُّغرى مستعملةً فى المناشير إلى آخر الدولة الأشرفيَّة «شعبانَ بنِ حُسَين» ثم تُركتْ بعد ذلك ورُفض استعمالُها وأُهْمِلتْ . ولا يخفى أنه يرِدُ عليها السُّؤالُ الواردُ على الطُّغْرى المكتَتَبة فى أوّل المكاتبات إلى سائر مُلُوك الكُفْر من تقديم اسمِ السلطان على البَسْملة، على ما تقدّم بيانُه فى موضِعه .

وقد تقدّم الاحتجاجُ لذلك بقوله تعالى فى قِصَّة بِلْقِيس : ﴿إنِّى أُلْقِىَ إلىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰنَ وإنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ﴾ . وأنه يحتمل أن يكون قولُه :

---

(١) نص فى التاج على أن الطغرى بضم الطاء وسكون الغين وفتح الراء مقصورة كلمة أعجمية استعملتها العرب .

﴿ إنَّه مِنْ سُلَيمٰن ﴾ حكايةً عن قول بِلْقِيس ، ويكونُ ﴿ بسم الله الرحمنِ الرحيم ﴾ هو أوّلَ الكِتاب ، فلا يكون فى ذٰلك حجةٌ علىٰ تقدّم الاسم على البَسْملة . وأنه إنما يَتَّجِه الاحتجاجُ بذٰلك على القَوْل بأنَّ قولَه : ﴿إنَّه مِنْ سُلَيمٰن﴾ من كلام سُلَيمان عليه السلام . وأنه إنما قَدّم اسمَه على البَسْملة وقايةً لاسم الله تعالىٰ، من حيثُ إنه كان عادةُ ملوكِ الكُفْر أنهم إذا لم يَرْضَوْا كتابًا مزّقُوه أو تَفَلُوا فيه ، فجعل اسمَه حالاً محلَّ الوقاية . ولا شكَّ أنَّ مثلَ ذٰلك لا يجِيءُ هنا ، لأن المحذورَ فيه مفقُود ، من حيث إنَّ هذه المناشيرَ إنما تُلْقىٰ إلى المسلمين القائمينَ بتعظيم البَسْملة والمُوفِين لها حَقَّها . وحينئذ فيكونُ لتَرْك استعمالها وجْهٌ ظاهرٌ من جهة الشرع ، بخلاف ما فى المكاتبات إلىٰ مُلُوك الكُفْر .

واعلم أن هذه الطُّغْراوات تختلف تركيباتُها باعتبار كَثْرة منتصِباتها من الحروف وقِلَّتها ، باعتبار كثرة آباء ذٰلك السلطان وقِلّتهم ، ويحتاجُ واضِعُها إلىٰ مُراعاة ذٰلك باعتبار قلّة منتصِبات الكلام وكثْرتها . فإن كانت قليلةً أُتِى بالمنتصِبات كما سيأتى بيانُه بقلمٍ جليلٍ مَبْسوط ، كمختَصَر الطُّومار ونحوه ، لتَمْلأ علىٰ قلّتها فضاءَ الورق من قَطْع الثلُثَيْن أو النِّصف . وإن كانت كثيرةً أُتِى بالمنتصِبات بقلمٍ أدقَّ من ذلك ، كجليل الثُّلُث ونحوه اكتفاءً بكثرة المنتصِبات عن بَسْطها .

ثم تختلف الحالُ فى طُول المنتصِبات وقِصَرها باعتبار قَطْع الورَق : فتكون منتصِباتُها فى قَطْع النِّصف دُونَ منتصِباتِها فى قَطْع الثلثين .

ثم قد اصطلَح واضِعُوها علىٰ أن يجعلوا لها هامِشًا أبيضَ من كلٍّ من الجانبين بقدر إصبعيْن مطبوقَيْن ، وطرّةً من أعلى الوصل قدرَ ثلاثة أصابعَ مطبُوقة .

ثم إن كانت فى قَطْع النصف جُعِلت منتصباتُها مع تصوير الحروف بأسفلها فى الطول بقدر (١) ذراع، وفى العَرْض بقَدْر (١) ذراع .

وإن كانتْ فى قطع الثلثين جُعِل طولُها مقدارَ (١) ذراع ، وعرضها مقدار (١) ذراع . ثم تارةً تكون منتصباتٍ مَحْضةً يقتَصر فيها من آسم السلطان علىٰ ما هو مَذْكور من آسْمِه وآسمِ أبيه ، وتارةً يجعل آسْمُ السلطان وآسْمُ أبيه بأعالى المنتصبات فى الوَسَط بقَلَم الطُّومار قاطعًا ومقطوعًا ، بحيث يكونُ ما بين أعلىَ الآسم وآخرِ أعْلى المنتصبات قدْرَ أربعة أصابعَ أو خمسة أصابعَ مطبوقة . ثم إذا ألْصَق الكاتبُ الطُّغْرىٰ ، كَتَب بأسفلها فى بَقِية وَصْلها فى الوَسَط ، بعد إخلاء قدر إبهام بياضا ماصُورتُه : « خَلَّد الله سلطانَه » .

وهذه صورةُ طُغْرىٰ منشورٍ بألقاب السلطان الملكِ الناصر « محمدِ بنِ قلاوون » مضمُونها .

« السلطانُ الملك الناصرُ، ناصر الدُّنيا والدِّين ، محمد آبنُ السلطان الشهيد الملك المنصور، سيف الدين قلاوون » .

وعددُ منتَصِباتها من الألِف وما فى معناها خمسةٌ وثلاثون منتصِباً بقَلَم النِّصف ، وهو بقَدْر قَلَم الثلثِ الثقيلِ وقدْرِ نصفه .

وترتيبُ منتصِباتها [مُنتصِبانِ] متقاربانِ بينهما بياضٌ لطيفٌ بقدْر مِرْودٍ دقيق ، ثم منتصبٌ يحفُّه بياضان ، كلٌّ منهما أعرضُ من المنتصِب الأسودِ بيسيرٍ . وبعد ذٰلك مُنْتَصِبانِ متقاربانِ بينهما علىٰ ماتقدّم . وكذٰلك إلىٰ آخر المنتصباتِ ، فتُختَتم

(١) بياض فى الأصل فى هذه المواضع .

بمنتصبين مُزْدَوِجين ، كما ٱفتُتِحت بمنتصبين مُزْدَوِجين ، على ما ٱقتضاه تحريرُ التقسيم ، وهى فى طُول نصف ذراعٍ بذراع القُماش القاهرىّ مع زيادة نحو نصف قيراط ، وعرْض مثل ذلك . وتحتها فى الوسط بقَلَم الثُلث الجليل بعد خُوّ عَرْض إصبع بياضًا ما صورته : « خلَّد الله سلطانَه » وهى هذه :

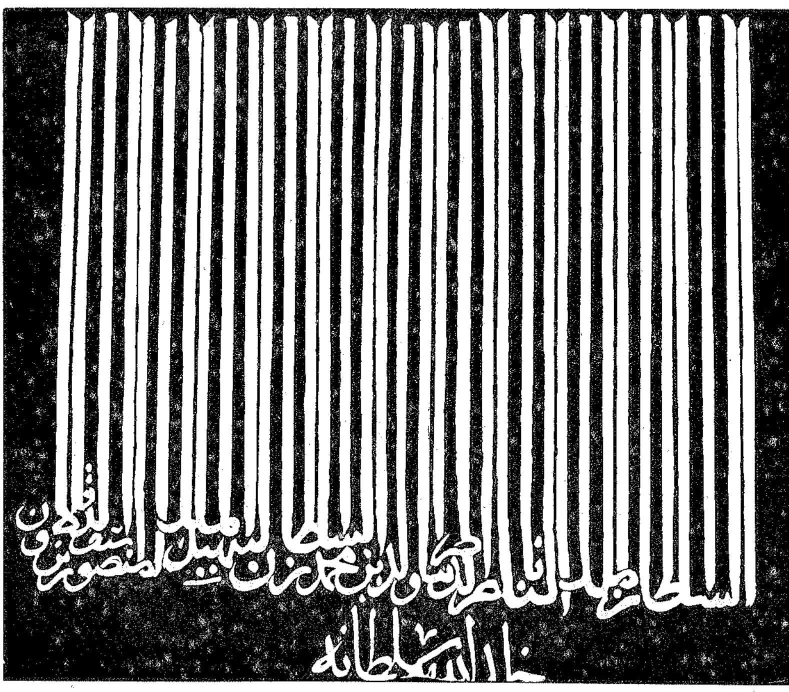

وهذه نسخةُ طُغرىٰ منشور أيضًا بألقاب السلطان الملكِ الأشرف شعبانِ بن حُسَين بن الناصر محمد بن قلاوون ، مضمُونها .

« السلطانُ الملك الاشرفُ ناصرُ الدنيا والدين ٱبن الملكِ الأمجد ٱبن السلطان الملك الناصر ٱبن الملكِ المنصور قلاوون » .

وعدد منتصباتها من الألِفات وما فى معناها خمسةٌ وأربعون منتصبًا ، بقَلَم جليل الثُّلُث ، بين كلِّ مُنْتَصِبيْنِ قدْرُ منتصبٍ مرَّتين بياضًا ، وطولُها ثلثُ ذراع وربعُ ذراع بالذراع المقدّم ذكره ، وعرضُها كذلك ، وآسمُ السلطان بأعاليها بقَلَم الطُّومار بالحبر قاطع ومقطوع كما أشار إليه فى التعريف .

مثاله : شعبان بن حسين ــ الشين والعين والباء والألف سَطْر ، والنون من شعبان وآبن سَطْر مركب فوق الشين والعين ، وحُسَين سَطْر مركبٌ فوق ذلك ، وطُولُ ألف شعبان تقدير سُدُس ذراع ، وقد قطعت النون الألفَ وخرجت عنها بقدْرٍ يَسِير ، وأوّلُ الآسم بعد المنتصب السادسِ عشر من المنتصبات ، وآخرُ النون من حسين البارزة عن ألف شعبان إلىٰ جهة اليسار بعدها أحدَ عشَر منتصبا من جهة اليسار ، وهى هكذا :

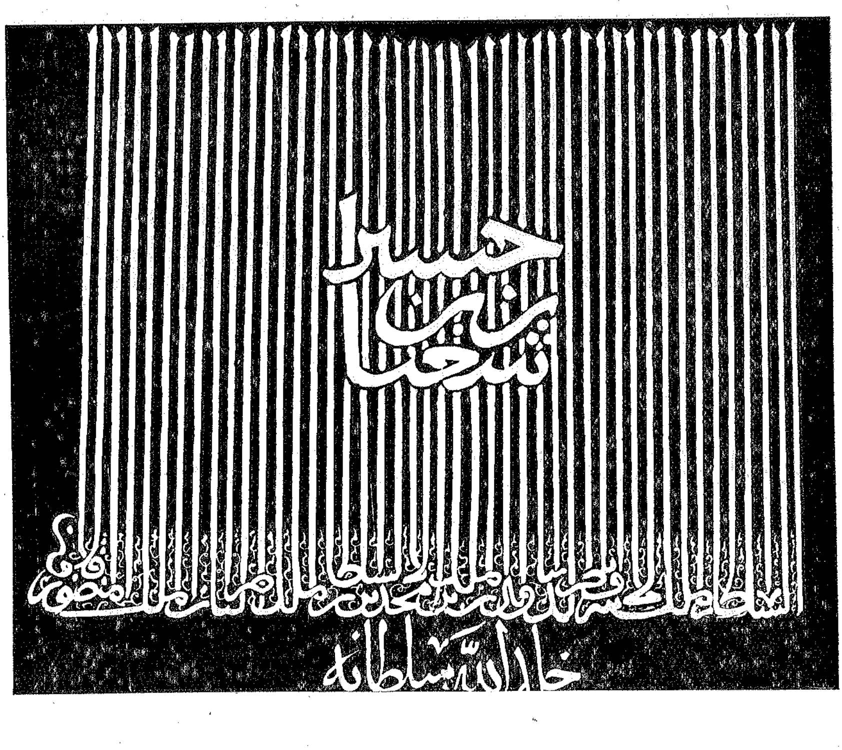

الجملة الخامسة

(في ذكر طرف من نسخ المناشير التي تكتب في الإقطاعات في زماننا)

قد تقدّم الكلام في الجملة الثالثة على صورة ما يكتب في المناشير وما تفتتح [به] وذكر ترتيبها، واختلاف حالها باختلاف حال مراتب أصحابها صعودًا وهبوطا، فأغنى عن ذكر إعادته هنا.

واعلم أن الأحسن بالمناشير أن تكون مبتكرة الإنشاء، ليراعى فيها حال المكتوب له في براعة الاستهلال وغيرها من المناسبات والمطابقات. فإن تعذّر ذلك فالأحسن أن تكون براعة الاستهلال منقولة في الاسم والكنية واللقب ونحوها ليكون ذلك أقرب إلى الغرض المطلوب. فإن تعذّر ذلك فينبغي أن تكون براعة الاستهلال قاصرة على معنى الإقطاع وما يجرّ إليه من ذكر كرم السلطان ومنّه وإحسانه إلى أخصّائه، وما ينخرط في هذا السلك.

ثم نسخ المناشير على ثلاثة أنواع:

النوع الأول

(ما يفتتح بـ«الحمد لله»، وهو على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(مناشير أولاد الملوك)

وهذه نسخ مناشير من ذلك:

نسخة منشور، كتب به عن الملك المنصور قلاوون لابنه الناصر محمد في سلطنة أبيه المذكور، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وهي:

الحمدُ لله الذى زيَّن سمـاءَ المُلْك بأنورِ كوكبٍ بزَغ ، وأعزِّ مَلِكٍ نبَغ ، وأشرَف سلطان بلغ إلىٰ ما بلَغ ذَوُو الاكتهال من آختيار شرفِ الخلال وما بلَغ .

نحمَدُه حمـدًا تَزيدُ به النعماءُ وتنْمى ، وتَهْمِل به الآلاءُ وتَهْمِى ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً خالصةً من كلِّ رَيْب ، واقصةً كلَّ عَيْب ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه اللهُ تعالىٰ بمكارمِ الأخلاق ، ومُعاداة ذَوى النِّفاق ، وساوَىٰ بين الصَّغير والكبير من أُولِى الآستِحقاق ، فى الإرفاد والإرفاق . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه مارَقَّ نَسيمٌ وراق ، وما خُصِفَتْ أوْراق .

وبعـدُ ، فإن الهَواتِف أبينُ ما تشْـدُو ، إذا حَفَّت الرياضُ بها من كلِّ جانب ، والسماءَ أحسنُ ماتبدُو ، إذا تزيَّنتْ بالكواكب السيَّارةِ والشُّهُبِ الثَّواقِب ، والسعادةَ أحمدُ ما تحْدُو ، إذا خُصِّصت بمَنْ إليه ، وإلَّا ماتُشَدّ الركائب ، وعليه ، وإلا ماتُثْنِى الحقائقُ والحَقائب ؛ ومَنْ هو للمَلِكِ فِلذة كَبِده ، ونُورُ مُقْلته وساعِدُ يَده ؛ ومَنْ تتيمَّن السـلطنةُ بملاحظة جبينِـه الوَضِى ، وتستنيرُ بالأنور المُضِى ، ومَنْ تغضَبُ الدنيا لغَضَبِه وتُزْهىٰ إذا رَضِى ؛ ومن نشأ فى رَوْض المُلْكِ من خيرِ أصْـلٍ زكىّ ، وفاحَتْ أزاهِرُه بأعْطَر أرَجٍ وأطيبِ نَشْرٍ ذكىّ ؛ وطلَع فى سماء السَّلْطنة نجمًا ما للنيِّريْن ما له من الإضاءه ، ويزيدُ عليهما بحُسْن الوَضَاءه ؛ ومن تشوّف النصْرُ له من مَهْده ، وتشوّقَ الظَّفَر إلىٰ أنه يكونُ من جُنْده ؛ وآستبشرتِ السـلطنةُ بأنْ صارلها منه فرعٌ باسِق ، وعِقْد متَناسِق ؛ وزَندٌ وارٍ وجَناحٌ وارِف ، ونَجَار تَليدٌ وعزٌّ طارف ، وطَرَفَان مُعْلَمان تُنْشَر فيهما المَطَارف .

ولهـذه المحاسِنِ التى تشْرَئِبُّ إلىٰ قَصْدِها آمالُ الخلائق المنْتَجِعَة ــ آقتضىٰ حسْنُ البِرِّ الوَصُول ، وشرفُ الإقبال والقَبُول ، أن خرجَ الأمرُ العـالى ــ لابرَحَتْ مَراسِمه

متزينةً زينةَ السماء بكواكبها، ومُزَاحِمةً سَمْكَ السِّماك بمَنَاكبها ـ أن يُجْرىٰ فى ديوان الجناب العالى المولَوِىِّ، الملَكِىّ، الناصرىّ ... ...

قلت : كما أنَّ هذا المنْشُورَ منشورُ سلطان فهو فى البلاغة لحُسْن إنشائه سلطانُ المَنَاشير .

الضرب الثانى

(من نسخ المناشير المفتَتَحة بالحمد مناشيرُ الأمَراء مقدّمِى الألوف)

وهذه نسخ مناشيرَ منها .

نُسخةُ منشور، كُتِب به للأمير بَدْر الدين بيدرا استادار الملك المنصور قلاوون، من إنشاء القاضى مُحْيِى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل بَدْر الدين تمامًا على الّذى أحسَن، وإمامًا تَقْتَدى النجومُ منه بالضِّياء الأبْين والنُّور الأزْيَن ، ونظامًا يجمَعُ من شَمْل الذُّرى ما يغدُو به حماه الأحْمىٰ وجنابُه الأَصْوَن .

نحمدُه حمدَ مَن أعلىٰ صوْتَه وصيتَه أعْلَن؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحْدَه لاشريكَ له شهادةً تغدُو وتبدُو عند الذَّبِّ وفى القلب مَكانُها الأمكَن ؛ ونشهدُ أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه ونبيُّه الذى أوْهَى الله به بِناءَ الشِّرك وأوْهَن . صلَّى الله عليه وعلىٰ آلِه وصَحْبِه ورضِىَ عمَّن آمن به وعمَّن أمَّن .

وبعدُ، فإنَّ خير النَّعماء ماأُتِىَ به على التَّدرِيج، وأَتىٰ كما يأتى الغيثُ بالقَطْر والقَطْر لإنباتِ كل زَوْجٍ بَهيج، وأقبل كما تُقْبِل الزيادةُ بعد الزيادة فبيْنَا يُقال : هذا خليجٌ

يَمُدّه البَحْر إذ يقال : هـذا بحرٌ يَسْتمِدُّ منه كلُّ خَليج ، وبينَا يُقال : هذا الأمير ، إذ يُقال : هذا المُمير، وبَيْنَا يُقال : هذا الهلال، إذ يقال : هذا هو البَدْر المُنير .

ولَمَّا كان فلانٌ من هـذه الدَّوْلةِ بموضع الغُرَّة من الجَبِـين ، ومكان الرَّاحة من اليَمين ؛ وله سوابقُ خِدْمة لا يزاحِمُـه أحدٌ فى طُرُق طُرُوقها، ولا تُستكثَرُ له زيادةٌ بالنسـبة إلىٰ مُوجَبَات حقُوقها ؛ وهو من التَّقْوىٰ بالمحـلِّ الأسْمىٰ ، علىٰ غيره من الطُّرَّاق، والمكانِ الأحْمى، الذى مكانُه منه ــ وإن كان أميرَ مجلس ــ صَدْرُ الرُّواق ؛ وله الكراماتُ التى تُرىٰ الخُدودُ لهـا صُعْر ، وكم سَقَتْ من سُم العُدَاة دَافَةَ الذُّعْر ؛ وكم قابَلَ نُورُه ناراً فصارتْ بَرْدا وسـلَاما ، وكم تكَلَّم علىٰ خاطِر فشاهدَ الناسُ منه شـيْخا من حيثُ الشبيبة أجلَّ الله قدْرَه غُلَاما ؛ فهو المجاهد للكُفَّار ، وهو المتهَجِّد فى الأسْحار ، وهو حاكُم الفُقَراء وإن كان سلطانُه جعَله أسْتاد الدَّار ؛ وهو صاحبُ العصا التى أصبح بحمْلها مضافةً إلىٰ السَّـيْف يتشرَّف ، ومُعْجِزها لايُستكثَرُ له أنهـا لكلِّ حيَّـة تتلقَّف ؛ وهو الذى تحمَدُ الكُشوفُ والسُّـيوفُ فُتوحَه وفَتْحَه ، والذى يشْكُر يَدَه عِنانُ كلِّ سابِح وزِمامُ كلِّ سُبْحه ؛ وكم أسال بيدَيْه مِن دماء الأعداء ماءً جَرىٰ ، وعُمِل بين يديْه للفقراء ما جَرىٰ ، وكَمْ ولىٌّ لله خَفِىَ شخصُه فأظهر محضَــه فقال الولى : وما أدرى دَرَا لولا بَيْـدَرا ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يحمِّل إحسانُ الدولة القاهرةِ له عَملا ، وأن يُحْسِن له عَلَّا ونَهَـلا ، وأن يختار له إذ هو صاحبُ العصا كما آختار مُوسىٰ قَوْمه سَبعين رَجُلا .

وخرج الأمر العـالى ــ لا زال ظلُّه ظليلا ، بامتداد الفىء بعـد الفَىْء، وعطاؤه جزيلًا ، بتنويل الشىْءِ بعد الشىْء ــ وهو ذُو الكَرم والكرامات ، وصـاحبُ العصا بالأستادارية ولا يُستكثَرُ لصاحبها سِحْرُ الحيَّات .

* * *

وهذه نسخة مَنْشور من ذٰلك لمن لَقَبُه سيفُ الدِّين، من إنشاء المَقَرّ الشّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله الذى جَرَّدَ فى دَوْلتنا القاهرةِ سَيْفا مَاضيا ، ووفَّق من جعل فعلَه لمزيد النِّعَم متقاضِيًا ، وأسعدَ بإقبالنا الشريف مَنْ أصبح به سلطانُه مَرْضيًّا وعيْشُه راضيا .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى تَسُرُّ مُواليا وتسُوءُ مُعادِيا، وتُقدّم من أوليائِنَا من يقُوم مَقامَنا إذا سَمِع منادِيا ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً كم أرْوَتْ فى مَوارِد الوَرِيد من الرِّماح صادِيا ، وأوْرَتْ هادِيا ، ورفعَتْ من أعيان الأعلامِ هادِيًا ، ونشهد أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى أُنزِل القُرآنُ بصفاته حالِيا، وأحَلَّنا ببركة المشاركة فى آسْمِه المحمّدىّ مكانًا عاليًا. صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يبْرَح كُلُّ لِسانٍ لها تالِيًا، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فانَّ صدَقاتِنا الشريفةَ لم تزَلْ تُجَدِّد إنعاما، وتزيدُ إكراما، وتُضاعِف لكلِّ من أضحىٰ ناصِرَنا بحقيقةِ وَلائِه إجلالًا وإعظاما، ليترَقَّىٰ إلىٰ أعْلى الدَّرَج، ويَعْلَمَ أنه قد ورَدَ البَحْرَ فيُحدِّثُ عن كَرَمه ولا حَرَج ؛ ومَنْ رأى التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ بمراضينا الشريفة فتقَرَّب إليها ، وأقبل بقَلْبٍ مُخْلِص عليها، وأشبَه البدُورَ فى مَواقفه توسُّما، وحكَى السَّيفَ بارقُ ثَغْره لمَّا أومَض فى حَوْمة الحرب متَقَسِّما، وأقدَمَ حين لم يجِد بُدًّا أن يكونَ مُقدِّما، ووُصِفت الطَّعَنات التى أطلعَتْ أسِنَّتُها الكواكبَ بها دُرِّيَّة، والحَمَلاتُ التى تُقِرّ العِدَا لفَعَلاتها أنها بَهادِريَّة ؛ كَمْ له من محاسِن، وكم عُرِفَت له من مَكامِن؛ وكم له من صفاتٍ كالعُقُود يَصْدُق بها من قال : الرجالُ معادن؛

كم له من هِمَّة تترقَّى به إلى المَعَالى، كم له من عَزْمة يُرْوَىٰ حديثُها المسنَدُ عن العَوَالى، كم به أمورٌ تُنَاط، وكَمْ جُمْهورٌ يُحَاط، كَمْ له من ٱحتِفاء وٱحتفال، وكَمْ له من قَبُول وإقبال، وكَمْ له من وَثَبات وَثَبات، وكم له من صِفاتٍ وصِفات، وكم له إماتَةُ كُماة، كم له من مناقبَ تُصْبِح وتُمْسِى، وكم له من معارِفَ لَمَّا علم بها مَالِكُهُ ـ خلَّد الله مُلْكه ـ قال الملِكُ: ٱئتونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْه لِنَفْسِى.

فلذٰلك لاتزال آراؤُنا العاليةُ تَعْقِد له فى كلِّ وقْتٍ رايَه، وتسعَىٰ به إلىٰ أبْعدِ غايَه، وتُتْبِع له عنايةً بعد عِنَايه، حتى لا تخلُوَ دولتُنا الشريفةُ من سَيْف مَشْهور، وعلمٍ منْشُور، وبَطَل لا يُرَدُّ عن الصَّمِيم تصميما، ولا تُعَدُّ أكابرالأُمَراء إلا ويكونُ على العساكر مقدَّما وعلى الجيوشِ زعِيما: ليعلَم كلُّ مأمور وأمير، وكلُّ مُمَاثِل ونظِير، أنَّ حُسنَ نظرنا الشريف يضاعِفُ لِمَنْ تَقرَّب إلينا بالطاعة إحساناً، ويُوجِب علىٰ مَنْ وجَد الميْسورَ بهذا المنشُور ٱمتِنانا: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِين أُوتُوا الكِتَابَ ويَزْدَادَ الَّذِينَ آمنُوا إيمَاناً﴾.

ولَمَّا كان فلان هو المْعنِيَّ بهذه المقاصِد، والمخصوصَ بهذه المَدائح والمَحامد، والواحدَ الذى ما قُدِّم على الألْف إلَّا وكالألف ذلك الواحِد.

فلذلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا زالت أيَّامه موصُولةَ الخُلُود، موسومةً بمزايا الجُود ـ أن يُجرىٰ فى إقطاعه ... ...

* * *

وهذه نُسخةُ مَنْشور من ذلك لمن لقَبُه «شمس الدين» كُتِب به فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وهى:

الحمـدُ لله الذى جعـلَ دولتَنا القاهرةَ مَطْلَعَ كلِّ قمرٍ مُنِـير ، ومجمَعَ كلِّ مأمور وأمير ، وموْقِعَ كلِّ سَحابٍ يظْهَر به البرقُ فى وجه السَّحاب المَطِير ، الذى شرَّف بنا الأقْدار ، وزاد الاقتِـدار ، وجعلَ ممـالِكَنا الشريفةَ سَمـاءً تُشْرِق فيها الشُّـموسُ والأقمـار .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى تختالُ أولياؤُنا بها فى مَلاَبِسها ، وتختصُّ بنَفائسها ؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً نجرِّدُ سيفَ الدِّين لإقامتها ، ونُحافِظُ بوقائعه فى الحرب علىٰ إدامَتها ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى خَصَّه بمزيَّة التقريب ، وشرفه على الأنبياءِ بالمكان القَرِيب ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين عَظَّمهم بقُرْبه ، وكَرَّمهم بحُبِّـه ، وقدَّمهم فى السَّـلَف الصَّالح إذا جاء كلُّ مَلِكٍ بأتْبـاعه وكلُّ مَلَكٍ بصَحْبه ، وسلم .

وبعـدُ ، فإن أَوْلى الأولياء أن تشمَلَه صدقاتُنا الشريفةُ بحسن نظرِنا الشريف ، وبرِفْعة قَدْره المُنِيف ؛ ليتِمَّ له إحسانُها ، ويَزِيدَ إمكانُها ؛ حتَّى ينتقلَ هلالُه إلىٰ أكمل مراتب البُدُور ، ويمتدَّ بحِصْـنه المستظِلِّ به كثيرٌ من الجمهور ؛ ويتقدَّمَ فى أيَّامنـا الشريفة إلى الغايةِ التى يرجُوها ، ويقدِّمَ قَدَمه إلىٰ مكانةِ أمثاله التى حَلُّوها ، وتتكَمَّلَ بنا نعمةُ الله : ﴿وإنْ تعُدُّوا نعمةَ اللهِ لاتُحْصُوها﴾ ـ الناصرىُّ بحقيقةِ ولائه ، البَهادرىّ شجاعةً فى لِقائه ؛ مَن تكفَّلتْ صـدقاتُنا العميمةُ له بمـا لم يكُنْ فى أمَلِه ، وجمَّلتْ حمايتُنا الشريفةُ مَعاطِفَه بأبهىٰ ممـا يَنْسِجه الربيعُ من حُلَله ، وتوسَّمنا فيه من معرفة تُقرِّبُ إلىٰ مراضينا الشريفة بها دَرِيًّا ، وهمَّةٍ جرَّدنا بهامنه سـيْفًا بهَا دريًّا ، وطَلعةٍ أطلعتْ منه بالبَهاء كوكبًا دُرِّيًّا ؛ مع ماتخوّل فيه من نِعَمنا الشريفه ، وقامَ به فى أبوابنا العالية من أحسَن القيام فى كلِّ وَظيفه .

ولما كان فلانٌ هو الذى أشرْنا إليه، ونبّهنا مُقَل النجُوم عليه . فاقتضَتْ آراؤنا الشريفةُ أن نبلغّه أقصىٰ رُتَب السعاده ، ونُعجِّل له بحظِّ الذين أحسنُوا الحُسنىٰ وزيادَه ؛ لِيُعدّ فى أكابر أمَراء دَوْلتنا الشريفة إذا ذُكِرُوا ، والمُقَدّمينَ علىٰ جيوشنا المنصورة إذا بادَرُوا إلىٰ مُهِمٍّ شريفٍ أو ٱبتَدَرُوا ؛ ليعلَمَ كلُّ أحَدٍ كيْف يُجازىٰ كلُّ شَكُور، وكيف يتحلّى بنعمنا الشريفةِ كلُّ سَيْفٍ مشهور ، وكَيْفَ نذكرُ واحدا منهم فيغْدُو فى زعماء العساكر المؤيَّدة وهو مذكُور؛ ليبذُلُوا فى خدمة أبوابنا الشريفة جُهْدَهم ، ويتوكّلُوا على الله تعالىٰ ثم علىٰ صدَقاتِنا العميمة التى تُحقِّق قصْدَهم .

فلذلك خرج الأمرُ الشريفُ ... ...

وهذه نُسخةُ منشورٍ من ذلك ، كُتِب به فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» لمن لقبُه «بدرُ الدين» وهى :

الحمدُ لله الذى زَيّن أُفُق هذه الدَّولة القاهرة بِبَدْرها ، وسَيَّره فى دَرَج أَوْجها ونَصْرها ، ونَقَّله فى بروج إشراقها ومنازِل فَخْرها .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه المُنْهَلّةِ بِرِّها ، المتهلِّلةِ بِبِشْرها ، المتزَيِّدةِ كُلَّما زِدْنا فى حمدها وشُكْرها ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تنطق بها القلوبُ فى سرِّها وجَهْرها ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ إلى الأمم بأَسْرها . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تملأُ الوجُودَ بأجْرها ، وتضْمَن لأُمَّتها النَّجاةَ يوم حَشْرها .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من تنعَّمت النُّعمىٰ بتواليها عليه ومَرِّها ، وخيرَ من ٱستقرّت الخيراتُ عنده فى مستقَرِّها ، وأعلىٰ مَنْ عمَّمته أَلْسنةُ الأقلامِ ببدائع نَظْمها ونَثْرها ،

وخصَّصتْه بمحامِدَ تتأرَّج المناشيرُ بنَشْرها ـ من كان للدولة القاهرة يشْرَح صدرَها، بتيسير أمرِها، ويَشُـدّ أزْرَها، بحَمْل وِزْرِها، ويتكفَّل بأداء فرائض إتمـامها ونَصْرِها، ويُوصِّل حِمْلَ ما يَفتحه من الحصون الضَّيِّقة إلىٰ مِصْرِها .

ولمـا كان فلان هو بدْرَ هذه السماء ومُنيرَ زُهْرِها، ونَيِّرَ نجوم هذه المقاصد ومُبْتَدأَ فخْرِها، وفريدةَ عِقْد هـذه القلائد ويتيمةَ دُرِّها، وصاحبَ هـذه الألغاز ومفتاحَ سِرِّها ـ ٱقتضت الآراءُ الشريفةُ أن تُزَفَّ إليـه عرائسُ العَوارف، ما بينَ عَوَانِهـا وبِكْرِها، وتَرِفَّ عليه نفائسُ اللَّطائف، ما بينَ شَفْعها ووَتْرِها، وتتهادَىٰ إليه الهدايا ما بين صُفْرها وحُمْرها، وتتوالىٰ عليـه الآلاءُ ما بين ثَمَرِها وزَهْرِها، وأن تزاد عدّتُه المبـاركةُ فى كَمِّيَّتها وقَـدْرِها، وأن تَكَمَّل عشراتُه التِّسع بعَشْرِها، ليُعْـلَم أنه لا يبْرَح فى خَلَدها وسِرِّها، وأنها لا تُخْليه ساعةً من سعيد فِكْرِها .

فلذلك خرج الأمرُ العالى ـ لا زالت الأقدارُ تخُصُّ دولتَه القاهرَة بإطابة ذِكْرِها، وإطالةِ عُمْرِها، ولا برِحتِ الأملاكُ كفيلةً بنَصْرِها، بمَضاء بِيضها وإعمال سُمْرِها ـ أن يجرى ... ...

* * *

وهذه نُسخةُ منشور من ذلك كُتِب به فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» لمن لَقَبُه «صلاحُ الدين» وهى :

الحمدُ لله الذى أتْحَفَ المـالكَ الشريفةَ من سَعيد تدبيرنا، بصَلاحِها، وصَرَف حميدَ تأثيرنا، بإنجاب الأوْلياء وإنْجاحِها، وأسعَفَ طَرائِحَ أمانِيِّهم : من ٱقترابهم من خواطرنا الشريفة فى بُعْدهم وتَدانِيهم باجابة سُؤَالهـا وإصابة ٱقتراحِها .

نحمدُه علىٰ أنْ جعـل نَصْرَ دَوْلتنا الشريفـة قَرِيبا من نُصَّاحِها، ونَشْكُره علىٰ أن وصل أراجِيَّهم بإرْباحِها، ونشهد أنْ لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُحْسِن

المآلَ والعاقبةَ لذَوِى الإخلاص كما أحسنَتْ فى ٱبتدائهـا وٱفتتاحِها ، ويُؤْذِنُ حسنُ ٱعتنائها لأحوال أُولِى الاختصاص بإصلاحها ؛ ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى عمَّت مَواهبُه ، بإبراق سَمائها وإغداق سَماحها ، وسَمَتْ مناقبُه ، بائتلاق غُررِها وإشراقِ أَوْضاحِها ، وأَمَّتْ مواكبُه ، ديارَ العِدا فشَدّتْ عليهم مَشْهورَ قِراعها ومنصورَ كِفاحِها . صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين أصابتْ أكُفُّهم فى السِّلْم بمسْعِفات أقلامِها وصالَتْ أيْديهـم فى الحرْب بمُرْهَفاتِ رِماحِها ، ما جرتِ الأقـدارُ بمُتاحِها ، وسَرتِ المبارُّ لمُتاحِها ، وظهرتْ آثارُ الإقبال التامّ على من له بخِدْمتنا ٱهتمامٌ وٱحتفالٌ فَلاح على مقاصده معهودُ فَلاحِها . وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أَوْلى مَنْ لحَه نظرنا الشريفُ حيثُ كان ، ورجَّحه فِكرُنا الحَسَـنُ الجميـلُ فمَنحه الإجمالَ والإحسان ، من لم يزل شُكْرُه أَرِجًا بكلِّ مكان ، وذِكْرُه بَهِجًا تَسْرى به الركائبُ وتَسيرُ به الرُّكْبان ، وصـدْرُه الرحيبُ مستوْدَعَ الأسرار فلا تُصابُ إذ كانتْ فيه تُصان ، وقدْرُه عندنا المحفوظَ المكانة ، فإنْ بَعُد فهو قريبٌ دان ، وأمْرُه منَّا الملْحوظَ بالإعانة ، فلا نزالُ نُوليه البِرَّ ونُعْلى له الشَّان .

ولمـا كان فلان ... ...

* * *

وهذه نُسخةُ منشورٍ ، كُتِب به للأمير سعد الدين مسْعود بن الخَطِيرى ، من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء ، وهو :

الحمدُ لله على نِعَمه التى زادتْ سُعودا ، وضاعَفَتْ صُعودا ، وكَرُمت فى أيّاما مَنْ لاحاجبَ له عَن أن نمْنَحه من إنعامنـا مَزيدا ، وقدَّمت بين أيدينا الشريفـة من أوليائنا مَنْ غدا قدْرُه عندنا خَطيرًا وحَظُّه لدينا مسْعُودا .

نحمَدُه علىٰ أنْ أنْجز لأصفيائنا من وَفائنـا وُعُودا ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَحْمَدُ لمُخْلصِها صُدُورا ووُرُودا ، وتَلْقىٰ مُؤْمِنَهـا بالبِشْر إذا جمع المَوْقفُ وُفُودا ، ونَشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شَرَّف بإنجاده مطرودًا ، وأُرْدِف بالملائكة جُنُودا ، وأَوْصَل به حقُوقا وأقامَ حُدُودا ، وحَجَب ببركاته وفَتَكاتِه الأسواءَ فغَدا العدلُ موجودا ، وأضْحَى الحكْمُ مقْصُودا . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَنْ كان بالمؤمنين رحيمًا وعلى المشْرِكين شديدا .

أما بعـدُ ، فنِعَمنا إذا أَوْلت وليًّا ، مَنَحَها والَتْ ، وإذا قَدَّمَتْ صـفِيًّا ، وهَبَتْه مَزِيدهَـا وأنالَتْ ، وإذا أقبلَتْ بوجه إقبالهـا علىٰ مُخْلِصٍ تتابعتْ إليـه المَسَرَّات وآنْثالَتْ ، لا سيَّـما من أطابت الألسنةُ الثناءَ عليـه وأطالَتْ ، وجُبلت سَجَاياه على العَدْل والمعرفة فما حافَتْ ولا مالَتْ ، وأوصلَتْ رأفتَه منَّا المستضعَفين وعلى المجرمين سَطْوتُه صالَتْ ، فبِيُمْن مقَاصِدِه هانَتِ الخطوبُ وإن كانت فَتَكاتُه فى الحروب كَمْ هالَتْ ، وهِمَمُه فى السِّلم قد جَلَّت ويَوْمَ الرَّوْع كم جالَتْ ، وعزائمُه كم غارَتْ فأغارَتْ وللمعتـدِين كَمْ غالتْ ، وكم سـبقَ إلىٰ خدمتِنا صاحبُ الشمس وكيف لا وهو البدْرُ ولكنه لم يَزُل وإنْ هى زالَتْ .

وكان فلان هو الذى نَقَّلناه فى دَرَجات التَّقْديم حتّىٰ كَمَل بدرُه ، ووقَّلناه فى مراتب التَّكْريم حتّىٰ أصـبَح وهو المسـعُود حظُّه المحمودُ ذِكْرُه ، وخوّلْناه مواهِبَ جُودِنا العميمةَ فاستَدّ باعُه وآشتَدّ أَزْرُه .

فلذٰلك خرج الأمرُ الشريفُ ـ لا بَرِح إنعامُه يَحِلُّ عن الحَصْر ، ودولتُه يخدُمُها العزُّ والنَّصر ، وإكرامُـه يقضِى بمَسَرَّات الأولياء بالجمع ويُفضِى إلىٰ أعمـار الأعداءِ بالقَصْر ـ ... ...

وهذه نُسخةُ مَنْشور، كُتِب به لعلاء الدين إيدغمش أمير اخور الناصرىّ [كُتِب به فى الدولة الناصرية] محمد بن قلاوون، من إنشاء الشريف، وهو :

الحمد لله الذى زادَ عَلاءَ دَوْلتنا الشريفَه، وأفادَ النَّعماء التامَّة مَنْ قام بين أيدينا أتَمَّ قيامٍ فى أتَمِّ وَظيفه، وأجاد الآلاءَ المتواليةَ بمَنْ أعِنَّةُ الجيادِ بإشارته مُصَرَّفَةٌ ومِنَّة الجُود بسفارته مَصْرُوفه، وأرادَ الاصطفاءَ لأعَزِّ هُمَام : فى قلُوب الأولياء له محبّة وفى قُلُوب الأعداء منه خِيفَـه، وأبادَ أولِى العِناد بفَتَكاته التى بها الغوائلُ مكفيَّة والطَّوائلُ مكْفُوفه، وشادَ المُلْكَ الأعزَّ بإرفاد وَلِىٍّ له الشجاعةُ المشكورةُ والطاعةُ المعرُوفه .

نَحمَدُه علىٰ أنْ جعلَ ٱختياراتنا بالتَّسْـديد محفُوظةً وبالتأييد محفُوفه؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شـهادةً السَّرائرُ لإخلاصها ألُوفَـه، والضَّمائرُ على ٱختصاصها معْطُوفه؛ ونشهدُ أنَّ سـيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى نَسَـلَه من النَّبعة المُنيفَه، وأرسَـلَه بالشِّرْعة الحَنيفَه، وفَضَّله بالرِّفْعة علىٰ ظَهْر البُراق إلى السَّبْع الطِّباق وجُنودُ الأملاكِ به مُطِيفه . صلّى الله عليه وعلىٰ آله ذَوِى الهممِ العاليَّة والشِّيَمِ العَفِيفه، ورضِىَ الله عن أصحابه الذين لو أنْفَق أحدٌ مثـلَ أُحُدٍ ذهَبًـا ما بَلَغ مُدَّ أَحَدِهم ولا نَصيفَه، صلاةً تُبَيِّضُ بالأُجور الصَّحيفه، وتعَوِّض بالوُفُور من مَبَرَّاتنا الجليلة بفكْرتنا الجميلةِ اللطيفه، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعـدُ، فكرمُنا يُسْبِـغُ المواهبَ والمَنائح، ونِعمُنا تُبَلِّغ المآربَ والمَنَاجح؛ فلا نَبْرَح نَنْقُل فى درجات الصُّعود مَن هو فى خِدْمتنا لا يُبارِح، ويتَكَفَّلُ صالحُ نظرنا الشريفِ صَلاحَ حال مَن أجْمَلَ النصائحَ وأثَّل المصالح؛ فكَمْ راضَ لنا من جامح، وخاض بَحْرَ الوغَىٰ علىٰ ظهرِ سابِح، وحَمىٰ رُواقَ الإسـلام من رُعْبـه بذَبٍّ ورمىٰ

أعناق الكُفَّار من عَضْبِه بذابح ، وأصْمى المَقاتِل بكل نابِل يسْتَجِنُّ فى الجَوانح ، وآنتَمىٰ إلىٰ سعادة سُلْطاننا الناصر الفاتح ، وسَمَا عَزْمُ إعلائه بتقريبه وإدنائه إلى السِّماك الرامح . طالمَا مَسّ الكفَّارَ الضُّرُّ إذ مَسَّاهم بالعاديات الضَّوابح ، وأَحسّ كلُّ منهم بالدَّمار لما ظَنَّ أنه لحَرْبه يُكابِد ولحِزْبه يُكافِح ، وصَبَّحهم بإغاراته على المُورِيات قَدْحًا فأغرىٰ بهم الخُطُوب الفَوادِح ، وطَرَحهم بالفَتَكات إلى الهَلَكات فصافَحت [رِقابُهم] رِقابَ الصَّفائح ، وأخْلىٰ من أهل الشِّرك المَسارِبَ والمَسارِح ، وأجْلى أهلَ الإفْك عن المَطارد والمَطارِح .

ولمَّا كان فلان هو الذى آستثار إليه شَأْنَ هذه المَدَائح ، وسار بذِكْره وشُكْره كلُّ غادٍ ورائح .

خرج الأمر الشريفُ ــ لا بَرِح سبيلُ هُداه الواضح ، وجزِيلُ نَدَاه يَغْدُو كالغَوادى بالعائِد والبادِى من فَضْله وهو الناصح ، ... ...

❖

وهذه نُسخةُ مَنْشورٍ، كُتِب به للأمير شمس الدين سنقر البكتوتى الشهير بالمَسَّاح ، وهى :

الحمدُ لله الذى أجزَلَ المَواهِب ، وجَدَّد من النِّعم ما لا تَزالُ الألْسِنةُ تتحدَّثُ عن بَحْرها بالعجائب ، وأطْلَع فى أُفُق الدولة الشريفة شَمْسا تستَمِدُّ من أنوارها الكواكب .

نحمدُه علىٰ نِعَم يتوالَى دَرُّها تَوالِيَ السحائب ، ويُغالَى دُرُّها عن أن تُطوِّق به الأذْنَان (١) والتَّرائب ، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تختَصُّ قائلَها من

(١) المراد بالتطويق هنا مطلق التحلية وكان الأولى «أن تقرط به الأذنان وتطوق به الأعناق وتحلى به الترائب» .

درجات القَبُول والإقبـال بأسْمىٰ الدَّرَجات وأسْنَى المراتب ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسوله الذى آصطفاه من لُؤَىِّ بنِ غالب ، وصان بِبِعْثتِه الشريفـةِ رِداءَ النُّسْك عن كلِّ جاذِب ، وخَصَّـه بأشرفِ المَوَاهب ، وصَيَّر الإيمـانَ بنُور هدايتـه واضِحَ السُّبُل والمَذَاهب . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يَمْضِى جُزْءٌ من الدَّهر إلا ووُجُودُها فيه وجُودُ القَرْضِ الرَّاتِب ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أحقَّ من حُلِّىَ من النَّعماء بأفضـلِ العُقُود ، وخُصَّ بأضْفَىٰ ملابِس الإقبال وأصْفَىٰ مَناهل الإفضال : فاستعْذَبَ من هـذه الوُرُود ، وآختالَ من هـذه فى أجمـلِ البُرُود ، ومُنِح من الإقبـال بكلِّ غاديةٍ تُخْجِل السحابَ إذ يَجُود ، وإن رَقَمَتْ بها الأقلامُ سطورا فى طُرُوس أزْرَتْ بالزَّهَرِ اليـانِـع والرَّوض المَجُود ، ونُقِل قَدْرُه من منزل عزٍّ إلىٰ منزل أعزَّ فكان كالشَّمْس تنتَقَّل فى منازل الشَّرَف والسُّعود ـ مَن ظَهَرتْ مكارِمُ سِماته ، وآشتهرَتْ محاسِنُ صِفاته ، وطلعَتْ فى سماء العَجَاج نُجومُ خُرْصانِه ولمعَتْ فى دُجى النَّقْع بُروق ظُبـاتِه ، وقُدِّم على الجُيوش والجَحافِل فظهَرَتْ نتـائجُ التأييدِ والتَّسْـديدِ من تَقَدُّمه وتَقْدِماته ، وهَزَم جيوشَ الأعداء ، فى مواقف الهَيْجاء ، بثَبات أقْدامـه فى إقدامِه وثَبَاته ، وتجرّد فى المُهِمَّات والمُلِمَّـات تجرّد المـاضِيَيْنِ : من سُيُوفه وعَزَماته .

ولمـا كان فلانٌ هو الموصُوفَ بهذه الأوصاف الجَليله ، والمنْعوتَ بهذه المَحاسن الجميله ، والمشارَ إليه بهذه المحامِد والمَمَـادح التى تَزْهُو علىٰ زُهْرِ الكَواكِب ، وتسمُو بمـا لَهُ من جميـل المـآثر والمناقِب ـ أوجَبَ له الآختيارُ المَزيد ، وقضى له الآمتنانُ بتَخْوِيلِه نِعَمًا وتَنْوِيلِه مِنَنًا : تُضْحِى هذه عِقْدا فى كلِّ جِيد ، وتُمْسى هذه مُقَرِّبةً له من

الآمال كلَّ بعيد — واقتضىٰ حسنُ الرَّأى الشريف أن يُمنح بهذا المنشور : ليُخَصَّ من الأولياء بالسعد الجديدِ والجَدِّ السعيد .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف ... ...

* * *

وهذه نسخة منشورٍ، كُتب به للأمير خاص تُرْك فى الرّوك الناصرىّ، وهى :

الحمدُ لله علىٰ نِعَمه التى سَرت إلىٰ الأولياء ركائبُها ، وهَمَتْ علىٰ رِياض الأصفياءِ سحائبُها ، وتوالَتْ إلى مَنْ أخلص فى الطاعة بغرائبِ الاحسان رغائبُها ، وتكفَّلتْ لمن خُصَّ بأسْنى رُتَب البِرِّ الحِسانِ مكارمُها العميمةُ ومواهبُها ، وغمرَتْ بحارُ كَرَمها الزاخرةُ من يُحَدَّث عن شجاعتِه ولا حرجَ كما يُحدَّث عن البُحور التى لا تَفْنَى عجائبُها .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى إذا أغبَّتْنا سحائبُ النَّدىٰ أعقبَتْ سحائب ، وخَصَّت الخواصَّ من دَرَج الآمتنان بمراتبَ تُزاحِمُها الكواكبُ علىٰ نَهْر المجَرَّة بالمَناكب ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا يَزال الجهادُ يرفَع ألْوِيتَها ، والجِلادُ يَعْمُر بوفُود الإخلاص أنْدِيَتَها ، والإيمانُ يُشَيِّد فى الآفاق أركانَها الموطَّدةَ وأبنِيتَها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيده الله بنَصْره ، وخصَّه بمزِيَّة التَّقدُّم على الأنبياء مع تأخُّر عَصْره ، وآتاه من المعْجِزات ما تَكِلُّ ألْسِنةُ الأقلام عن إحصائِه وحَصْره . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حاطُوا دِينَه بالمحافظة علىٰ جهادِ أعدائِه ، وأيَّدُوا ملَّته بإعادة حُكْم الجلاد فى سبيل الله وإبْدائِه ؛ صلاةً لايزالُ الإيمانُ يُقيم فرْضَها ، والإيقانُ يملأُ بها طُولَ البسيطة وعَرْضَها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإن أوْلَى من ضُوعِفتْ له النِّعم ، ووُطِّدت له الرُّتَبُ التى لاتُدْرَك غاياتُها إلا بسوابِق الخِدَم ، وأشرقَتْ به مطالِعُ السُّعود ، وحُقِّقت له مطالبُ الآعتلاء

والصُّعود، ورَفَعتْه مواقعُ الإحسانِ إلىٰ أسنى المراتب التى هو مَلِىٌّ بارتقائها، ونولَتْ له هَوامِعُ البِرِّ والآمتنان آنتقاءَ فرائد النِّعم التى هو حقيقٌ باختيارها وآنتقائها؛ وبلّغتــه العنايةُ بأجلّ مما مَضىٰ قَدْرا، وآستقبلَتْه الرعايةُ من أُفُق الإقبال بمــا إذا حُقِّق التأمُّلُ وُجِد هــلالُه بَدْرا ـ مَنْ رُبِّى فى ظِلِّ خِدْمتنا التى هى مَنْشأ الآساد، ومَرْبَى فُرْسان الجهاد، وعرينُ ليُوث الوغَىٰ التى آجامُها عَوالِى الصِّعاد؛ وبَراثِنُها مَواضِى السُّيوف الحِــدَاد، وفرائسُها كُمَاةُ أهل الكُفْر وحُماةُ أرباب العِناد؛ فكَمْ له فى الجهاد من مواقِفَ أعزّت الدِّين، وأذَلّت المُعْتَدِين؛ وزلْزَلت أقدامَ الأبطال، وزَحْزحتْ ذَوِى الإقدام عن مواقِفِ المَجَال؛ وحكَّمتْ صَفَاتَه فى القِمَم، وأنبتَتْ صِفاحَه فى مَنابت الهِمَم؛ وفَرَّقت ما لأهل الكفر من صُفُوف، وأرَتْهم كيف تُعَدّ أُلوفُ الرجال بالآحاد وآحادُها بالأُلوف .

ولمــا كان فلان هو الذى أُشيرَ إلىٰ مناقبه، ونَبَّه علىٰ شهرة إقدامه فى كل موْقف يُمْنُ عواقِبــه، وأُومِئَ إلىٰ خصائص أوصافِه التى ما زال النصرُ يلحَظُها فى مَشاهِد الجهاد بعــيْنِ مُلاحِظه ومُراقِبه ـ آقتضَتْ آراؤُنا الشريفــةُ أن نُجَدّد آعتلاء مَجْده، ونَزِيدَ فى أُفُق الآرتقاء إضاءةَ إقباله وإنارةَ سعْدِه .

فلذلك خرج الأمر الشريف لا زال ... ... :

* * *

وهــذه نسخةُ منشور كُتِب به فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون لجمــال الدِّين أقوش الأَشْرَفِى، المعروفِ بنائب الكَرَك عند خرُوجه من الجُبِّ، وهى :

الحمدُ لله مفرِّح القلوب، ومُفَرِّج الكُروب، ومُبهِج النفوس بذَهاب غَياهِب الخُطُوب، ومُبلِّغ مَنْ تقادَم عَهْدُه فى حفظ ولائنا نِهايةَ المرغُوب، وغايةَ المطْلُوب؛ الذى أعاد إلى المخْلِصين فى طاعتنا النعمةَ بعد شُرودِها، وعوَّضَهم عن تقطيب الأيَّام بابتسامها وعن خُمُولها بسُعُودها، وألقىٰ على الأُوَل منهم جَمَالا لا يَسَع الأذهانَ أن تتَّصِف بإنكار حقُوقِه وجُحُودِها .

نحمَدُه علىٰ ما وَهَبنا من الأَنَاة والحِلْم، وخصَّ به دولتَنا من المَهابة التى تُخْشىٰ يوم الحرب والمواهِب التى تُرْجىٰ يوم السِّلْم؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تكفَّلَتْ بالنجاة لقـائِلِها، وأغنَتْ مَنْ حافظ عليهـا عن ضَراعات النُّفُوس ووسائِلِها؛ ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه المبعوثُ بِرعاية الذِّمم، والمنعوتُ بحُسْن الرأفة التى هى شِعارُ أهل الوفاء والكَرَم، [صلى الله عليه] وعلىٰ آله وصحبه ما تلافَت الأقدارُ نفوسا من العَدَم، وتوافَتِ الأمانىُّ والمَنَاجِحُ فأظفَرَتْ من أخاص نيَّتَه الجميلةَ بردّ ضالَّة النِّعَم، صلاة تُضْفِى على الأولياءِ حُلَل القَبُول والرضا، وتُصْفى من الأكدار مَناهِلَ سُرورِهم فكأنَّ الخَطْبَ أَبْرق وأَوْمَض فمضىٰ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أولىٰ من انتظَمَتْ بعد الشَّـتَات عقُودُ مَسَارِّه، وابتسمَتْ بعـد القُطُوب ثُغورُ مَبارّه، واشتملَتْ عواطفُنا عليه فجلَبَتْ أسبابَ منافعه وسلَبَتْ جِلْباب مَضارّه، واحتفلَتْ عوارِفُنا بالملاحظة لعهْـده الوثيق العُرا، والمحافظة علىٰ سالف خدمته التى ما كان صِـدْقُ ولائها حديثًا يُفْتَرَىٰ؛ وسبَقَ له من الاختصاص فى الإخلاص ما يرفَعُه من خاطرنا مكانَةً عاليـةَ الذُّرا ـ من أضْحىٰ من السابقين الأوَّلينَ فى الطاعه، والباذِلين فى أداء الخِدْمة والنَّصيحة لدولتنا جُهْدَ الاسـتِطاعه، والمـالكين للماليك بحُسْن الخَلَّة وجميل الاعتزام، والمحافظين علىٰ تشييد قواعد المُلْك

بآرائه وراياته التى لا تُسامىٰ ولا تُسَام ، وأمسىٰ هو الولىَّ الذى لا يُشاركه أحدٌ فى إخلاص الضمير فى موالاتنا وصفاء النِّيَّه ، ولا يُساهِمُه وَلِىٌّ فيما آشتمل عليه من صِدْق التعبُّد وجميل الطَّوِيَّه ، والمُخْلِص الذى انفرد بخصائص الحُقوق السابقة والآنِفَه ، وآمتازَ بمُوجَبات خِدَمٍ لا تُجْحَدُ محافظَتُها التالدةُ والطارِفَه ، وطلعتْ شمسُ سعادته فى سماء مملكتنا فلم يَشُبْها الغُروب ، وأضاء بدْرُه فى أُفُق عزِّه فكان سِرارُه مُذْهِبا لأَعْيُن الخطوب .

ولما كان فلان ... ...

الضربُ الثالث — مما يفتَتح بالحمد مناشيرُ أمراء الطبلخاناه .

وقد تقدّم أنَّها كمناشير مقدَّمى الألُوف فى الترتيب إلا أنها أخصَرُ منها .

وهذه نسخ مناشيرَ من ذٰلك :

نسخة منشور كُتِب به لبعض الأمراء ، وهى :

الحمدُ لله رافِع الأقدار ، ومُجْزِل المَبَارّ ، وجاعل يمينِ كرمنا مبْسوطةً باليَسَار .

نحمده علىٰ غيث فضلِه الدَّارّ ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً سَرَّت الأسْرار ، وأذهب نُورُها ما كان للشرك من سِرَار ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أنجدَ له فى نَصْر الحق وأغار ، وأرْهَفَ من سيف النَّصر الغِرَار . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَن كان ثانِىَ اثنين فى الْغار ، ومنهم مَنْ سبقَتْ له دعوةُ سيد المرْسَلين من سالف الأقدار ، ومنهم من كَرَّم الله وجْهَه فكان له من أعظم الأَنْصار .

وبعـدُ، فإنَّ العطايا أيسرُ ما يكونُ تنويلُها، وأسرُّ ما يُلفىٰ تخويلُها، إذا وَجَدتْ مَنْ هو لرايتها متلَقِّيا، وفى ذُرَا الطاعة مترَقِّيا، ومَنْ إذا صدَحَتْ حمائمُ التأييد كانتْ رِماحُه الأغصان، وألْوِيتُـه الأفْنان، ومَنْ تردّىٰ ثيابَ الموت حُمْرا فما يأتى لها الليلُ إلا وهى بالشهادة مُخْضَرَّة من سُنْدُس الجِنان، وإذا شَهر عَضْبه، أرضىٰ ربَّه، وإذا هَزَّ رُمْحَه، حَمىٰ سَرْحه، وإذا أطلق سَهْما، قتل شَهْما، وإذا جَرّد حُسَاما، كان حَسَّاما، وإذا سافرَتْ عزائمُه لتَطْلُبَ نَصْرا، حلَّت سُيوفُه فجاءتْ بالأوْجال جمعا وبالآجال قَصْرا .

ولما كان فلانٌ هو الذى جَمَع هذه المناقبَ الجمَّه، وآمتاز بالصَّرامة وعُلو الهِمَّه، آستَحَقَّ أن يُنظَر إليـه بعينِ العِنايه، وأن يُجعلَ آبتداؤُه فى الإمْرة دالَّا علىٰ أسـعد نِهَـايه .

فلذٰلك خرج الأمر الشريفُ ـ لا زال يرفَع الأقْدار، ويُجْزِل المَبارّ، أن يُجْرَىٰ فى إقطاع ... ...

* * *

وهذه نسخة منشور لمن لَقَبه زَينُ الدين، وهى :

الحمدُ لله الذى وَهَب هذه الدولةَ من أوليائها أحسَنَ زَيْن، ومنَحها منهم من يَشْكُر السيفُ والعِنانُ منه اليدَيْن، ومَنْ يملأُ وَلاؤُه القلبَ وثناؤه السَّمْعَ وبَهاؤُه العين .

نحمده علىٰ نِعَمه التى نفَتْ عن نُورِ المُلْك كلَّ شيء من شَيْن، وأبقَتْ له من كُماته وحُماته مَنْ لا فى إخلاصه رَيْبٌ ولا فى محافظتِه مَيْن، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ متبرِّئٍ من اتخاذِ إلٰهَيْن اثنين، ونشهدُ أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه شهادَةَ متَمسِّكٍ من هذِه وهذِه بعُروتَيْن . صلَّى الله عليه وعلىٰ آلِه وصَحْبـه صلاةً دائمة

ما جَمَع المسافِرُ من الصلوات بينَ الأُخْتين ، وما جلَس خطيبٌ بين خُطْبتين، وسلم تسليما كثيرا .

وبعــد، فإنَّ خيرَ من رَقِى خطيبُه إلى أرفع رُتْبه، وأُنْجح فى تخويل النِّعم على كل طَلِبةٍ ورَغبه، لا بلْ أُهْديت إليه عرائسُ النَّعْماء وقد ابتدأتْ هى بالخِطْبه ، وكُثِّر له فى معروفٍ أصــبح ببَذْله معرُوفا ، وأُعِينَ على جُودٍ أمسى به موْصُوفا ، وذُلِّلت له قُطوفُ إحسانٍ كم ذَلَّل الأولياءُ [من أجله] فى مَرَاضى الدولة ومَحَابِّها قَطُوفًا فقَطُوفا ـ مَنْ خَلَفَ المَلِك أحسَنَ الخَلَف ، ومَنْ له بفعل الخير أعظَمُ كَلَف ؛ ومَنْ يَشْهد له بالشَّجاعة الخَيْلُ واللَّيْل والبَيْدَاء، والسَّــيْفُ والرُّمْحُ والأعداء، فلا غَزْوةَ إلا له فيها تأثيرٌ وأثَر، ولا نَدْوةَ إلا وبها من وَصْــفه بالذكر الجميل سَمَر، تتشوّفُ إلى ملاحظة غُرَّته كلُّ عين ويتبيَّن لحياطتِــه فى الوجود كلُّ أثَر، ما أنارَ وجْهُــه فى نَهار سلم إلا وقيل الشمسُ ولا بَدَا فى ليلِ خَطْبٍ إلَّا وقيل القَمَر .

ولمــا كان فلان هو بدْرَ هذه الهــاله ، وجَلَّ هــذه الجَلَاله ، ونُورَ هذه المُقْله ، ولابِسَ هــذه الحُلَّه ـ اقتضى حسنُ الرأى الشريفِ أن تُكَثَّر لديه النِّعم وأن يَجْرى بتَنْميةِ الإحسانِ هذا القلم .

فلذلك خرج الأمر الشريف ـ لا بَرِح يَجُود، وبالخيرات يعُود ـ أن يُجْرى فى إقطاعه ... ...

وهذه نسخة منشور من ذلك ، وهى :

الحمدُ لله الذى أيَّد دولتَنا القاهرةَ بكل رايةٍ تُعْقَد ، وأميرٍ يُؤمَّر وجنودٍ تُجَنَّــد ، وكلِّ بطَل إذا جرَّد عَزْمَه سُلِّم إليه المهنَّد، واشتَبَه الرمْحُ بمعاطِفِه فلم يُدْرَ أيُّهما تأوَّد .

نحمَدُه كما يجبُ أن يُحمَد ، ونمْدَحُه بمـا لا يُمـاثِلُه الدُّرُّ المنضَّد؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له أفضـلَ مابه نَشْهَد؛ ونصلى علىٰ نبيِّه وعبده سيدنا محمد . صلَّى الله عليه وعلىٰ آلِه وصَحْبه فى كل مَقالٍ يتجَدَّد، صـلاةً فيها الأقلامُ لا تَتردَّد فيما تتردَّد ، ورضى الله عن أصحابه وسَـلَّم وكَرَّم ومجَّـد، ما غَرَب فَرْقَدٌ وطلعتْ شمسٌ ثم ما غربَتْ شمسٌ وطلَع فَرْقد .

وبعـدُ ، فإنَّ لآرائنا العاليةِ المَزيدَ فى كل ما تقتضيه ، وفى كل مَنْ ترتضيه ، من جميع أوليائها، لجميل آلائها ، ممن فاق أبنـاءَ جنْســه ، وكان فى أمثاله وحِيدًا لأنه لا يُوجدُ له نظيرٌ وهو كثيرٌ بنَفْســه ، وتسابقت الخيـلُ إلى ٱرتقائه علىٰ صَهَواتها ، والتطَمَتْ بحارُ الوغىٰ لمـا ألْقىٰ له كلُّ سابح فى غمراتها ، وٱفتخَرتِ القِسِىّ بمدّه الذى لا تخرج به الأقمارُ عن هالاتِها، والسيوفُ لأنه إذا ٱشتركتْ معه فى لَقَب كان أسْمىٰ مسمَّياتِها ، والرماحُ لأنه كَمْ له عليها من مِنَّة لما أطْلَقَها فى الحروب من ٱعتقالِ راياتِها؛ وتجدّدتِ الأسنَّة فيما يتلُوه من سُورات الفُرْسان لأنه أكْبَرُ آياتها، وهو الذى ٱنتظمَتْ به المَعالِى والعَوالِى قَصْدَها الذى به يَرى غمراتِ الموت ثم يَزُورُها علىٰ ما هى عليه من إهالاتِها (١) ، مع ماله فى خدمتنا الشريفة من سوابِقَ لا تُجارىٰ فى سبيل ، ولا يَلْحَق لها شَأْوًا أشهبُ الصبح ولا أدْهَمُ الليـل ولا أشقَرُ البرق ولا أصْفَرُ الأَصيل . فاقتضت صدقاتُنا الشريفةُ له الإحسان ، وتقاضَتْ عوارِفُنا الحِسان، فرفعَتْ له رتبةً لا يبلُغها كثيرٌ من الناس إلا باللسان ، وكان فلانٌ هو الذى حَسُن وصـفا، وشكَرت مساعيه سَجاياه وهو أوْفَرُ وأَوفىٰ .

فلذٰلك خرج الأمر الشريف ... ...

(١) يريد من هولها ولكن السجع ٱضطره إلى أن يجارى العوام فى لغتهم .

*
* *

وهذه نسخة منشور، وهى :

الحمدُ لله علىٰ نِعَمه التى أسْنتِ المَواهِب ، وأغنَتِ الأولياءَ بآلائها عن دَوْم الدِّيَم وسَحِّ السحائِب .

نحمده علىٰ غَرائب الرَّغائِب ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تتكَفَّل لقائلها ببُلُوغ المآرِب ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى آفتخرَتْ باسمه المَناقِب ، وآنتصرتْ بعَزْمه المَقَانِب ، وقَهرَ بباسه كلَّ جانٍ وعَمَر بناسه كُلَّ جانِب ، وكشفَ اللهُ ببركته اللَّأْواء ، وغلَب بفَتَكاته الأعداء ، وكيف لا وهو سيِّد لُؤَىِّ بن غالب . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أذلَّ بجهادهم المُحارِب ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من أعذَبْنا نَهَله ، وأنجحْنا أَمَله ، وأجزَلْنا [له] من هِبات جُودِنا [وأغدقنا عليه من مِنَن عطائنا ورِفْدنا ــ من نازل الأعداء يوم الوغىٰ فراح](١) إلىٰ أعلامهم فنَكَّسها وإلىٰ أعناقِهِم فوَقَصها(٢) ، وحَكَّم سيفَه فى أشلائِهم وأرواحِهم : فهذه آقتناها وهذه آقتنَصَها ؛ ما فَوَّق يومَ الرَّوْع سَهْمَه إلا أصابَ المَقَاتل ، ولا شَهَر سيْفَه إلا قَهَر بِبأْسه كلَّ باسِل ، ولا سارَتْ عِقْبانُ راياته إلىٰ معْتَرك الحرب ضُحًى إلا ظُلِّل بعِقْبان طَيْرٍ فى الدماء نَواهِل .

ولما كان فلان هو الذى يُشِير إليه بَنَانُ هذا المَدْح ، ويَسير إليه إحسانُ هذا المَنْح .

---

(١) زدنا هذه الكلمات لاحتياج المقام اليها .

(٢) فى الأصل "فنكصها" وهو لا يفيد ما يريد .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا بَرِحت ظلالُ كرمه وارِفه، وسَحائبُ نِعَمه واكِفَه ـ أن يُجْرى فى إقطاعه ... ...

***

وهذه نسخة منشور تصلُح لمن مات أبُوه، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل سَمـاءَ كرمِنا، على الأولياء هامِيةَ السَّحاب، وعوارِفَ نعمِنا، جميلةَ العُقْبىٰ للأعقاب، وعواطِفَ أيامنا الشريفةِ تُجْزل العطاء وتَجْبُر المُصاب .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى ما سَخُنت العُيونُ إلا أقرَّتها، ولا آكتأبَت النُّفوس بمُلِمَّة إلا سَرَّتها، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا يَزالُ رَبْع الأُنس بها معمُورا، وصَدْعُ النَّفْس بها مجْبُورا، ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى أصبح شَعَثُ الإيمان به ملْمُوما، وحِزْبُ الطُّغيان به مهْزُوما، وداءُ البهتان بحُسامه محْسُوما. صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصحبه الذين كان [هو] بَدْرَ السيادة وكانوا نُجوما ، صلاةً لا يَبْرَح ذكرها فى صحائف القَبُول مرْقُوما، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلىٰ من دَرّت أخلافُ جُودنا لخَلَفه، ورعىٰ كَرَمُنا خِدَم سلَفِه، ونَقَّلنا هلاله من تقريبنا إلىٰ منازل شَرَفه، وأجراه إحسانُنا علىٰ جميل عوائده، وسوّغه نوالُنا أعذَبَ موارِده، وجمـع له إنعامُنا بين طارِفه وتالِده، مَن آستمسك من سَبَب إخلاصنا بآكَدِه، وحَذَا فى ولائنا أحسَنَ حذْو ولاغَرْو أن يحذُوَ الفتىٰ حَذْوَ والِده، وآشتهر بالشَّهامة التى أغنَتْ بمفْرَدها عن الأُلوف ، وعُرِف بالإقدام الذى طالمَا فَرَّق الجموع وآخترقَ الصُّفوف، مادَنَا من الأعداء إلا دنَتْ منهم الحُتُوف، ولا أظلم ليْلُ النقع إلا جلَتْه أنْجُم الصِّعاد وأهِلَّة السُّيوف .

ولما كان فلان هو المَدُوحَ بجميل هذه الشِّيَم، والممنوحَ جزيلَ هذه النِّعم، والشبيهَ في موالاتنا بأبيه ومَنْ أشْبَه أباه فما ظَلَم .

فلذٰلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا بَرِحت سُحُبُ كرمه هاطِلةَ الأنواء، شاملةَ الآباء والأبناء ـ أن يُجْرى في إقطاعه ... ...

النـــوع الثـانى

(من المناشيرِ مايفتتح بـ«أما بعدُ» ويختَصُّ بأمراء العَشَرات ومَنْ في معناهم : كأُمَراء العِشْرينات ونحوهم ممَّن لم يبلُغ شأوَ الطَّبْلخانات)

وهي علىٰ ضربين :

الضـــرب الأوّل

(في مناشير العَشَرات كائنًا ذٰلك الأميرُ مَنْ كان)

وهذه نسخُ مناشيرَ من ذٰلك :

نسخة منشور من ذٰلك، وهي :

أما بَعْـدَ حمـدِ الله علىٰ نِعَمِه التي يُبْدِيها ويُعيدها، ويُفيئُها ويُفيدُها، ويُديمها علىٰ مَنْ شَكر ويَزيدُها، والصلاةِ والسلام علىٰ سـيدنا محمد الذي نزلَتْ لنَصْره ملائكةُ السماء وجنودُها، وأُخذتْ على الإقرار بنُبوّته مواثيقُ الأملاك وعُهودُها، وعلىٰ آله وصحبه الذين هم أُمَناء هذه الأمَّة وشهُودُها ـ فإنَّ أحقَّ من تقلَّب في إنعامنا، وتقدَّم في أيَّامنا، وتوالَتْ اليـه آلاؤُنا تَتْرىٰ، وتكرَّرت عليه نَعْماؤنا مَرَّة بعـدَ أُخْرىٰ، مَن ظهرَتْ آثارُ خدمتِـه، وصَحَّت أخبارُ نَجْدته، وشُكِرت مَساعيه الجليله، وحُمِدتْ

دَواعِيه الجميله ، وكان له من صِـفاتِه الحُسْنَى ، ما يُنِيـله من الدَّرجات الأعْلىٰ ومن المطالب الأَسْنىٰ .

ولمـا كان فلانٌ ممَّن زانَتْه طاعتُه ، وقَدَّمه إقدامُه وشجاعتُه ، وشهِدَتْ له مواقِفُ الحرُوب ، أنه مُجْلِي الكُروب ، وأُقِرَّ له يومَ الوغىٰ ، بإبادة مَنْ بغىٰ ، وكان له مع الشهامة الرأْيُ الثاقِب ، والسَّهم الصائِب ، يُصيب ولا يُصاب ، جَذَعُ القريحه ، رابطُ الجأش عنـد تغيُّر الأذهانِ الصحيحه ـ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن تُرفَعَ درجتُه ، وتُعلىٰ رتبتُه ، ويُنْظَم فى عقود الأمراء ، ويُسْلَك به جادَّةَ الكبراء ، لتُرَقِّيه فى دَرَج السعاده ، وتَبْلُغَ به رُتْبةَ السياده .

فلذٰلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا بَرِحت هاميةً غَوادِى آلائه ، سابغةً ملابِسُ نَعْمائه ـ أن يُجْرىٰ فى إقطاعه ... ...

***

وهذه نسخة منشور من ذٰلك ، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمه التى فسَّحتْ فى كَرَمِها مَجالَ المَطالِب ، وفَتَّحت لخدَمها أبوابَ نُجْح المآرِب ، وحَقَّقت فى عوارِفها آمالَ من تقرّب اليها من الخِدْمة والطاعة بأنجح ماتقرَّب الراغب إلى الرغائب ، والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمد الذى زَوَى اللهُ له [الأرض] ليَرىٰ ماتنتهى اليه الكواكب ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ٱستَسْهلوا فى جهاد أعدائه المَصَاعب ، ورَمَى الله مَنْ ألْحَـدَ فى دينه من سَطَواتهم بعـذابٍ واصب ، فإنَّ أَوْلىٰ من تلقَّتـه وجُوه النِّعم السوافر ، واسـتقبَلَتْه نِعَم العَوارف التى هى من غير الأكْفاء نَوافِر ، وأتَتْه السُّعُود المقبله ، ووافَتْه الآلاء المُقِيمةُ والمستَقْبَله ، مَنْ صَحَّت شجاعتُه فى مواقف الجهاد المُدْلَهِمَّه ، وسَمَحت شهامتُه فى الوغىٰ بمجال السُّيوف المُرْهَفة

عن أحمدَ . وذهب أبو حنيفة إلىٰ أنه الحَلِف على المـاضى من غير قَصْدِ الكَذِب فى يمينه، مثل أن يَظُنَّ شيئا فيحْلِفَ عليه؛ وهو الرواية الثانية عن أحمـد، وحُكى عن مالكٍ أن هذه هى اليمين الغَمُوس .

الطـــــرف الثـانى

(فى التَّحذيرِ من الوُقوع فى اليمين الغَمُوس)

أما اليمين الغَمُوس فإنَّها من أعظم الكبائر، وناهيكَ أنها تَغْمِسُ صاحِبَها فى الإثْم . وقد قال تعـالىٰ : ﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فى أَيْمَـانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَـا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَـانَ﴾ . وقال جلَّ وعزَّ : ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَـانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ . وفى الحديث أن النبىَّ صلَّى الله عليه وسلم قال : «مَن حَلَفَ علىٰ يَمِينٍ وهو فيها فاجِر ليقتَطِعَ بها مالَ آمرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وهو عليه غَضْبانُ» .

وقد قيـل إن التوحيـدَ (وهو : الذى لَا إله إلا هو) إنمـا أُوصِلَ فى اليمين رِفْقًا بالحالف كَىْ لايَهْلِكَ لوَقْتِه، فقد رُوِىَ عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : « إذا حَلَفَ الحالِفُ بالله الذى لاإله إلا هو، لم يُعاجَلْ لأنه قد وحد الله تعـالىٰ» .

ويُروىٰ أن جَعْفَرَ بنَ محمد عليه السلام : آدّعى عليه مُدَّعٍ عند قَاضٍ، فأحْلَفه جعفرٌ باللهِ، لم يَزِد علىٰ ذلك، فهَلَكَ ذلك الحالِفُ لوَقْتِه، فقال القاضى ومَن حضر : ماهذا ؟ فقال : إن يَمِينَه بما فيه ثَناءٌ على اللهِ ومَدْحٌ يؤخِّر العقوبةَ كَرَمًا منه عزَّ وجلَّ وتَفَضُّلا . وقال أمير المؤمنين علىُّ بن أبى طالِبٍ رضى الله عنـه : « أحْلِفُوا الظَّالِمَ إذا أردتُّم يَمِينَه بأنه بَرِىءٌ من حَوْلِ الله وقُوَّتِه، فإنه إذا حَلَفَ بها كاذباً عُوجِلَ » .

ومن غريب ما يُحكىٰ فى ذلك أن عَبْـد الله بن مُصْعَب الزُّبَيْرِىّ سعىٰ بيَحْيىٰ بن عبد الله بن الحسن إلى الرشيد، بعد قيام يحيىٰ بطلب الخلافة، فجمعَ بينهما وتواقفَا، ونسَبَ يحيىٰ إلى الزُّبيْرىّ شعرًا يقول منه :

قُومُوا ببَيْعَتِكم نَنْهَضْ بطاعتها * إنَّ الخِلَافة فيكم يا بَنِى حَسَن

فأنكر الزبيرىّ الشِّعر، فأحلفه يحيىٰ، فقال : قل قد بَرِئْتُ من حَوْلِ اللّهِ وقُوَّته، وآعْتَصَمْتُ بحَوْلِى وقُوَّتى، وتَقَلَّدتُ الحَوْلَ والقُوَّة من دُون الله آستكبارًا على الله، وآسْتِغناءً عنــه، وآستعلاءً عليه، فامْتَنَع . فغضب الرشــيد وقال : إن كان صادقًا فلْيحلِف، وكان للفَضْل بن الربيع فيه هَوًى، فرفَسَه برِجْله، وقال : وَيْحَكَ احلِفْ ! فحلَفَ ووَجْهُه متَغَيِّر وهو يَرعُد، فمــا بَرِحَ من موضعه حتَّى أصابه الجُـذَامُ فتقطَّع ومات بعــد ثلاثة أيام، ولمـا حُمِل إلىٰ قَبرِه ليُوضعَ فيه آنخسف به حتَّى غاب عن أعْيُن الناس، وخرجتْ منه غَبَرةٌ عظيمة، وجعلوا كلَّما هالُوا عليه التُّرابَ آنْخَسف، فسقَّفُوه وآنصرفوا .

الباب الثانى
من المقالة الثامنة
(فى نُسَخ الأَيْمانِ المُلُوكيَّة، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل
فى نُسَخ الأَيْمانِ المتعلِّقة بالخُلَفاءِ، وهى على نوعين

النوع الأوّل
(فى الأَيْمان التى يُحَلَّفُ بها على بيعة الخليفة عند مبايعته،
وهى الأصل فى الأيمان الملوكية بأَسْرها)

وأَوّلُ من رَتَّبَها الحَجّاجُ بنُ يُوسفَ حين أَخْذِه البَيْعةَ لعبد المَلِك بن مَرْوانَ على أهل العِراق، ثم زِيدَ فيها بعد ذلك، وتنقَّحَت فى الدولة العبَّاسية وتنضدت. وكان عادتُهم فيها أن يجرى القَوْل فيها بكَافِ الخطاب، كما فى مكاتباتهم يَوْمئذ، وربَّما أُتِى فيها بلَفْظ المتكلم.

وهذه نُسخةُ يَمينٍ أوردها أبو الحُسَين الصَّابِى فى كتابه "غُرَر البلاغة" وهى :

تُبايعُ عبدَ الله أميرَ المؤمنين فلاناً : بَيْعةَ طَوعٍ واختيار، وتبرُّعٍ وإيثار، وإعْلان وإسَرار، وإظْهارٍ وإضمار، وصحَّةٍ من غير نَغَل، وسَلامةٍ من غير دَغَل، وثَباتٍ من غير تَبْديل، ووَفاءٍ من غير تأْويل، واعترافٍ بما فيها من اجتماع الشَّمل، واتِّصال الحَبْل، وانتظام الأمور، وصلاح الجُمْهور، وحَقْنِ الدِّمَاء، وسُكُونِ الدَّهْماء، وسَعادة الخاصَّة والعامّة، وحُسْنِ العائدة على أَهْل المِلَّة والذِّمَّة ـ على أن عبدَالله فلانًا

أميرَ المؤمنين عبــدُ الله الذى ٱصطفاه ، وأَمينُه الذى ٱرْتضاه ، وخَليفَتُه الذى جعل طاعتَه جارِيَةً بالحقّ ، ومُوجَبَــةً على الخَلْق ، ومُورِدَةً لهم مَوْرِدَ الأمْن ، وعاقِدةً لهم مَعاقِدَ اليُمْن ، وولايتَه مُؤْذِنَةً بجميل الصُّنع ، ومُؤَدِّيةً لهم إلىٰ جَزِيل النَّفْع ، وإمامتَه التى اقترن بها الخيرُ والبَرَكه ، والمصلحةُ العامّةُ المُشْتَركه ، وأُمِّلَ فيهــا قَمْعُ المُلْحِد الجاحد ، ورَدُّ الجائِر الحائد ، ووَقْمُ العاصِى الخالع ، وعَطْفُ الغَاوِى المُنازِع . وعلىٰ أنك وَلِىُّ أوليائه ، وعدوّ أعْدائه : من كُلِّ داخِلٍ فى الجُمْله ، وخارِجٍ عن المِلَّه ؛ وعائِذٍ بالحَوْزه ، وحائِدٍ عن الدَّعْوه ؛ ومتمسِّكٌ بما بذلته عن إخلاص من رَائِك ، وحَقيقةٍ من وَفَائِك ؛ لاتَنقُضُ ولا تَنْكُث ، ولا تُخْلِفُ ولا تُوارِى ولا تُخــادِع ، ولا تُداجِى ولا تُخاتِل ؛ عَلانِيَتُك مِثلُ نِيَّتِك ، وقولك مثل طَوِيَّتِك . وعلىٰ أن لا تَرجِعَ عن شيءٍ من حقوق هذه البَيْعة وشرائطها علىٰ ممرّ الأيام وتطاوُلهــا ، وتَغيُّرِ الأحوال وتنقُّلِها ، وٱختلاف الأوقات وتَقَلُّبِها . وعلىٰ أنك فى كلِّ ذٰلك من أهل المِلَّة الإسلامية ودُعاتِها ، وأعْوانِ المملكة العباسيَّةِ ورُعاتِها ، لا يتداخَلُ قولَك موارَبَةٌ ولا مُداهَنَه ، ولا يعترِضُه مغالطةٌ ولا يَتعقَّبُه مخالفه ؛ ولا تُخبَسُ به أمانه ، ولا تقلُّه خيانه ؛ حتّى تلقى اللهَ تعالىٰ مُقِيما علىٰ أمْرِك ، ووَفِيًّا بعَهْــدِك ؛ إذ كان مُبــايِعُو وُلاةِ الأمْرِ وخُلفــاء الله فى الأرض ﴿ إنَّمــا يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمــا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ ومَنْ أَوْفَىٰ بِمَــا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً ﴾ .

عليك بهذه البَيْعةِ التى أعْطيْتَ بهــا صَفْقَةَ يَدِك ، وأصْفَيتَ فيها سَرِيرةَ قَلْبِك ؛ والتزمت القيام بها ما طال عُمُرُك ، وٱمتدّ أجَلُك ـ عَهْدُ الله إنَّ عَهْدَ الله كان مَسْئُولا ، وما اخذَه علىٰ أنبيائه ورسُلِه ، وملائكته وحَملة عرشــه : من أَيْمــانٍ مغلَّظة وعهود مؤكَّده ، ومَواثيقَ مشدَّده ؛ علىٰ أنك تسمع وتُصْــغِى ، وتُطيعُ ولا تَعْصِى ؛ وتعتدِلُ

ولا تَميد، وتَستقيمُ ولا تَميل؛ وتَفِي ولا تَغْدر، وتَثْبُت ولا تَتغيَّر؛ فمتى زُلْتَ عن هذه المَحَجَّة خافِرًا لأمانَتك، ورافِعًا لديانَتك؛ فجحدتَ الله تعالىٰ رُبوبِيَّتَه، وأنكرتَ وَحْدانِيَّته، وقطعتَ عِصْمَةَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم منكَ وجَذَذْتَها، ورَمَيْتَ طاعَتَه وراءَ ظَهْرِك ونبذْتَها، ولقيتَ الله يوم الحَشْرِ إليه، والعَرْضِ عليه، مخالفًا لأمره، وناقضًا لعهْده؛ ومقيما على الإنكارِ له، ومُصِرًّا على الإشْراكِ به؛ وكلُّ ما حلَّله اللهُ لك محرَّمٌ عليك، وكلُّ ما تَملكه يومَ رجُوعِك عن بَذْلِك، وآرتِجاعِك ما أَعطيتَه في قَوْلك: من مالٍ مَوجُودٍ ومَذْخور، ومَصْنوعٍ ومَضْروب، وسارِحٍ ومربوط، وسائمٍ ومَعْقول؛ وأرضٍ وضَيْعة، وعقارٍ وعُقْدة، ومملوكٍ وأمة، صَدَقةٌ على المساكين، محرَّمةٌ علىٰ مَرِّ السنين؛ وكلُّ آمرأةٍ لك تَملِكُ شَعْرَها وبَشَرَها، وأخرىٰ تتزوّجها من بعدها طالقٌ ثلاثًا بتاتًا، طلاق الحرج والسنة، لا رَجْعةَ فيها ولا مَثْنَوِيَّة؛ وعليك الحجُّ إلىٰ بَيْت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين دَفْعةً حاسِرًا حافِيًا، وراجلًا ماشيا، نَذْرًا لازما، ووَعْدا صادقا؛ لا يُبْرِئُك منها إلا القضاءُ لها، والوفاءُ بها؛ ولا قَبِلَ منك تَوْبةً ولا رَجْعه، ولا أَقالك عَثْرةً ولا صَرْعَه؛ وخَذَلك يوم الآستنصار بحَوْله، وأسْلمك عند الآعتصام بحَبْله؛ وهذه اليمينُ قولُك قلتَها قولًا فصيحا، وسَرَدْتَها سَرْدا صَريحا؛ وأخلصتَ فيها سِرَّك إخلاصا مُبينا، وصَدَقْتَ بها عَزْمك صِدْقًا يَقينا؛ والنِّيَّة فيها نيَّة فلان أميرِ المؤمنين دُون نِيَّتِك، والطَّوِيَّة دون طَوِيَّتك؛ وأشهدتَ اللهَ علىٰ نَفْسِك بذلك ﴿ وكَفَىٰ باللهِ شَهِيدًا ﴾ يوم تَجِدُ كلُّ نفس عليها حافظًا ورَقيبا.

* * *

وهذه نُسخةُ يَمينِ بَيْعةٍ أوردها آبنُ حَمْدونَ في "تَذْكِرَتِه" وأبو الحسن بن سعد في "تَرَسُّله"؛ تواردت مع البَيْعة السابقة وأيمانها في بعض الألفاظ، وخالفت في أكثرها، وهي:

تُبايع الإمامَ أميرَ المؤمنين بَيْعةَ طَوْعٍ وإيثار، ورِضًا وآختيار، وآعتقادٍ وإضمار، وإعلانٍ وإسرار؛ وإخلاصٍ من طَويَّتك، وصِدْقٍ من نيَّتك، وآنشراحِ صَدْرِك وصحَّةِ عَزِيمَتِك؛ طائعا غيرَ مُكْرَه، ومُنقادًا غيرَ مُجْبَر؛ مُقرًّا بفَضْلها، مُذْعِنا بحَقِّها، مُعْتِرفا ببَرَكتها، ومُعْتدًّا بحُسْنِ عائدتها؛ وعالمًا بما فيها وفى تَوْكيدها من صَلاح الكافَّة، وآجتماعِ الكَلِمة الخاصّة والعامّة، ولَمِّ الشَّعَث، وأمْنِ العواقب، وسكون الدَّهْماء، وعِزِّ الأولياء، وقَمْع الأعداء ــ علىٰ أن فلانًا عبدُ الله وخَليفتُه، والمفترَضُ عليك طاعتُه، والواجب على الأمة إقامته وولايته، اللّازم لهم القيامُ بحقّه، والوفاءُ بعَهْده، لا تَشُكُّ فيه، ولا ترتابُ به، ولا تُداهن فى أمره ولا تميل؛ وأنك وَلِيُّ وليِّه، وعَدُوُّ عدوِّه: من خاصٍّ وعام، وقريبٍ وبَعيد، وحاضرٍ وغائب، مُتَمَسِّكٌ فى بَيْعته بوفاء العَهْد، وذِمَّة العَقْد؛ سَريرتُك مثل عَلانيتك، وظاهرُك فيه مثلُ باطِنك، وباطِنُك فيه وَفْق ظاهِرك . علىٰ أنَّ إعْطاءَك اللهَ هذه البَيْعةَ من نَفْسك، وتَوْكيدَك إيّاها فى عُنُقك، لفلان أمير المؤمنين عن سلامةٍ من قَلْبك، وآستقامةٍ من عَزْمك، وآستمرارٍ من هواك ورأيك . علىٰ أن لاتتأوَّلَ عليه فيها؛ ولا تَسْعىٰ فى نَقْض شيءٍ منها، ولا تَقْعُدَ عن نُصْرته فى الرَّخاء والشِّدّة، ولا تَدَعَ النُّصرَله فى كلِّ حال رَاهنةٍ وحَادِثةٍ، حتَّى تَلْقى الله تعالىٰ مُوفِيًا بها، مؤدِّيًا للأمانة فيها إذ كان الذين يبايعون وُلاةَ الأمر وخُلَفاءَ الله فى الأرْض ﴿ إنَّما يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْديهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ ﴾ .

عليك بهذه البَيْعة التى طوَّقتَها عُنُقَك، وبسطتَ لها يَدَك، وأعْطيْتَ بها صَفْقَتَك؛ وما شُرِط فيها من وَفاءٍ ومُوالاة، ونُصْحٍ ومُشايَعة، وطاعةٍ ومُوافَقة، واجتهاد ومبالغة ــ عهدُ الله إنَّ عَهْدَ اللهِ كان مَسْئُولا، وما أخذَ اللهُ علىٰ أنبيائه ورُسُلِه عليهم

السلام، وأخذ على عباده من وكيدات مواثيقه، ومحكمات عهوده؛ وعلىٰ أن تتمسك بها ولا تبدّل، وتستقيم ولا تميل .

وإن نكثت هذه البيعة، أو بدّلت شرطًا من شروطها، أو عفّيت رسمًا من رسومها، أو غيّرت حكمًا من أحكامها، معلنًا أو مسرًّا، أو محتالًا أو متأوّلا، أو زغت عن السبيل التي يسلكها من لا يخفر الأمانه، ولا يستحلّ الغدر والخيانه؛ ولا يستجيز حلّ العقود ـ فكلّ ما تملكه من عين أو ورق أو آنية أو عقار أو زرع أو ضرع أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتقده[1]، والأمور المدّخره، صدقةٌ على المساكين، محرّمةٌ عليك أن ترجع من ذلك، إلىٰ شيء من مالك، بحيلة من الحيل، علىٰ وجه من الوجوه وسبب من الأسباب، أو مخرج من مخارج الأيمان؛ وكلّ ما تفيده في بقيّة عمرك : من مال يقلّ خطره أو يجلّ، فتلك سبيله إلىٰ أن تتوفّاك منيّتك، ويأتيك أجلك . وكلّ مملوك لك اليوم أو تملكه إلىٰ آخر أيامك أحرارٌ سائبون لوجه الله تعالىٰ، ونساؤك يوم يلزمك الحنث، ومن تتزوّج بعدهنّ مدّة بقائك طوالق ثلاثًا بتاتًا، طلاق الحرج والسّنّة، لا مثنويّة فيها ولا رجعة، وعليك المشي إلىٰ بيت الله الحرام ثلاثين حجّة حافيًا حاسرًا راجلًا، لا يرضى الله منك إلا بالوفاء بها، ولا يقبل الله منك صرفًا ولا عدلا، وخذلك يوم تحتاج إليه، وبرّأك الله من حوله وقوّته، وألجأك إلىٰ حولك وقوّتك، والله تعالىٰ بذلك شهيدٌ ﴿ وكفىٰ بالله شهيدًا ﴾ .

---

(١) أى التى اعتقدها صاحبها ملكا، انظر القاموس .

الضـــــرب الثـانى

(الأيمـان التى يُحَلَّف بهـا الخلفــاء)

وقلَّ من تعرَّضَ لها لقِلَّة وقوعها ، إذ الخليفة قلَّما يُحَلَّف : لعلوّ رتبته ، وآرتفاع محله . ومَدَار تحْليف الخلفاء بعد القَسَم بالله على التَّعليق بوقوع المحذور عليهم، ولزومه لهم، مثل البراءة من الخلافة والانخلاع منها، وما يجرى مجرىٰ ذلك . ولم أقف علىٰ ذلك إلا فى ترسل الصَّابِى، وذلك حين كان الأمر مَعْدُوقا بالخلفاء .

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الثـانى من المقـالة الثـامنة

(فى نُسَــخ الأَيْمـان المتعلقــة بالملوك ، وفيه خمســة مَهَايِـع)

المهيـــع الأوّل

(فى بيان الأَيمـان التى يُحَلَّف بها المسلمون، وهى علىٰ نوعين)

النــــوع الأوّل

(من الأيمـان التى يُحَلَّف بها المسلمون أيمانُ أهْلِ السُّنَّة)

وهى اليَمِين العـامةُ التى يُحَلَّف بها أهلُ الدولة : من الأمراء والوزراء والنوّاب، ومن يجرى مجراهم .

وهذه نُسْخةُ يَمينٍ أوردها فى "التعريف" وهى :

أقولُ وأنا فلان : واللّهِ واللّهِ واللّهِ ، و باللّهِ و باللّهِ و باللّهِ ، وتاللّهِ وتاللّهِ وتاللّهِ ، والله العظيم الذى لا إلٰهَ إلا هُوَ ، البـارِئُ الرحمنُ الرحيم ، عالِمُ الغَيْب والشهادة ، والسِّر

والعلانية، وما تُخْفِي الصُّدُورُ، القائمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بمـا كَسَبَتْ، والمُجازِي لها بمـا عَمِلَتْ . وحقِّ جلالِ اللهِ، وقُدرَةِ اللهِ، وعَظَمةِ اللهِ، وكِبْرياءِ اللهِ، وسائرِ أسماءِ الله الحسنىٰ، وصفاته العُلْيا إنَّني من وَقْتِي هذا، وما مَدّ اللهُ في عُمْري، قد أخلصتُ نِيَّتِي، ولا أزالُ مجتهدًا في إخلاصها ، وأصْفَيتُ طَوِيَّتِي ، ولا أزال مُجْتهِدا في إصْفائِهـا ، في طاعة مَوْلانا السلطان فلان الفُلاني ــ خلَّد الله مُلْكَه ــ وخِدْمتِه ومَحَبَّتِه، وآمْتِثالِ مَراسِيمِه، والعَمَلِ بأوامره . وإنني واللهِ العظيمِ [حَرْبٌ لمن حَاربَه، سِلْمٌ لمَن سالَمَه، عَدُوٌّ لمن عاداه، وَلِيٌّ لَمن والاه من سائر النّاس أجمعين . وإنني والله العظيم](١) لا أُضْمِرُ لمولانا السـلطان فلانٍ سُوءًا ولا غَدْرا ، ولا خَديعَـةً ولا مَكْرا، ولا خيانَةً في نَفْسٍ ولا مال، ولا سَلْطَنةٍ، ولا قِلاعٍ ولا حُصونٍ ، [ولا بِلادٍ ولا غيرِ ذلك](٢) ولا أسعىٰ في تَفْريق كلمة أحَدٍ من أمرائه، ولا مَماليكِه ، ولا عساكِرِه، ولا أجْنادِه، ولا عُرْبانِه ولا تُرْكُمانه ولا أكرادِه ، ولا آسْتِمالةِ طائفةٍ منهـم لغيره ، ولا أُوافِقُ علىٰ ذلك بقولٍ ولا فِعْـل ولا نِيَّةٍ ولا بمكاتبة [ولا مراسـلةٍ](١) ، ولا إشارة ولا رَمْزٍ ، ولا كِنايةٍ ولا تَصْريح . وإن جاءني كِتابٌ من أحدٍ من خَلْق الله تعالىٰ بمـا فيه مَضَرَّةٌ علىٰ مولانا السلطان أو أهْلِ دَوْلته لا أعملُ به ، ولا أصْغَىٰ إليـه ، وأحمِلُ الكِتابَ إلىٰ ما بين يَدَيْه الشريفتين هو ومن أحْضَره إن قدرتُ علىٰ إمساكه .

وإنني والله العظيم أَفِي لمولانا السلطان بهذه اليَمينِ من أوّلها إلىٰ آخرها، لا أنْقُضُها ولا شيئًا منها ، ولا أسْتَثْنِي فيها ولا في شيءٍ منها، ولا أُخالِفُ شرطًا من شروطها؛ ومتى خالفتها أو شيئا منهـا ، أو نَقَضتُها أو شيئًا منها ، أو آستَثْنيتُ فيها أو في شيءٍ منها طَلَبًا لنَقْضها، فكلُّ ما أَملِكُه : من صامتٍ ونَاطِقٍ صدقةٌ على الفقراء والمساكين،

(١) الزيادة من "التعريف" صفحة ١٤٧ .

وكلُّ زَوْجةٍ فى عَقْد نكاحه أو يتزوَّجُها فى المستقبل فهى طالق [ثلاثا بتاتا على سائر المذاهب] (١)، وكلُّ عَبيدى وإمائى أحرارٌ لوَجْه الله، وعليه الحجُّ إلى بَيْت الله الحرام بمكَّةَ المعظَّمة، والوقوفُ بعرفَةَ ثلاثين حَجَّةً متوالياتٍ متتابعاتٍ كوامل، حافيًا ماشيًا، وعليه صَوْمُ الدَّهر كلِّه إلا المَنْهِىّ عنه، وعليه أن يفُكَّ ألفَ رَقَبةٍ مؤمنةٍ من أسْر الكُفَّار، ويكونُ بَريئًا من الله تعالى ومن رسوله صلى الله عليه وسلم ومن دِين الإسلام إن خالفتُ هذه اليمينَ أو شَرْطًا من شروطها .

وهذه اليمينُ يَمِينى وأنا فلان، والنِّيَّةُ فيها بأسْرِها نِيَّةُ مولانا السلطان فلانٍ، ونيَّةُ مُسْتَحْلِفِىَّ له بها، لا نيَّةَ لى فى بَاطِنى وظاهرى [سواها]، أُشْهِدُ الله علىّ بذلك، وكَفَى بالله شهيدا، والله على ما أقولُ وَكِيلٌ .

قلتُ : عجيبٌ من المقرّ الشِّهابىّ رحمه الله ما أتى به فى نُسْخةِ هذه اليمين، فإنه أتى بها بلَفْظ التكلم إلى قوله : «وكلُّ زوجةٍ» فعدَل عن التكلم إلى الغَيْبة، وقال فى نكاحه، وكذلك ما بعده إلى قوله «من أسْر الكفار ويكونُ بريئًا من الله ومن رسوله صلى الله عليه وسلم إن خالفتُ هذه اليمينَ» وأتى بصيغة التكلم إلى آخر الكلام . فإن كانَ فَرّ فى قوله : وكل زوجة فى نكاحه خَوْفًا من أن يقولَ فى نكاحى فتطْلُقَ زوجتُه هو، فلا وَجْه له : لأن الحاكِىَ لا يقع عليه الطَّلاق، وكذا ما بعده من العِتْقِ وغيره .

وأعجب من ذلك كلِّه قولُه : ويكونُ بريئًا من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ومن دِينِ الإسلام إن خالفتُ، فجَمَعَ بين الغَيْبةِ والتَّكلُّم فى حالة واحدة ! ! . على أن ما ذكره بلفظ الغَيْبة إنما هو فيما سَطَّره فى النُّسْخة . أما إذا كُتبت اليمينُ

(١) الزيادة من "التعريف" صفحة ١٤٧ .

التى يُحَلَّف بهـا ، فإنها لا تكونُ فى الجميع إلا بلَفْظ التكلُّم ، فمـا المعنىٰ فى أنَّه خاف من الوُقوع فى المَحذورِ عنـد حكاية القَوْل ، ولم يَخَفْ مثـل ذلك فيما يكتبه فى نَفْس اليمين؟ .

وقد ذكر صاحبُ "التثقيف" جميع ذلك بلَفْظ التكلم ، مع المخالفـة فى بعض الألفاظ وزيادةٍ ونَقْصٍ فيها .

وهذه نسختها ، وهى :

أقولُ وأنا فلانُ بن فلان : واللّهِ واللّهِ واللّهِ ، وباللّهِ وباللّهِ وباللّهِ ، وتاللّهِ وتاللّهِ وتاللّهِ ، واللهِ الذى لا إله إلا هو ، البـارئُ الرحمنُ الرحيمُ ، عالِمُ الغَيْب والشَّـهادة ، والسِّر والعلانية ، وما تُخْفِى الصُّدور ، القائمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بمـا كَسَبتْ ، والمُجازِى لهـا بمـا اكْتَسَبتْ . وحقِّ جلال الله ، وعظمةِ اللهِ ، وقُدرةِ الله ، وكِبْرياءِ الله ، وسائر أسماء الله الحُسْنىٰ ، وصفاته العُلْيا ، وحقِّ هذا القُرءان الكريم ومَن أنزلَه ، ومن أُنزِلَ عليـه ــ إننى من وَقْتى هذا ، ومن ساعَتِى هذه ، وما مدَّ اللهُ فى عُمْرى قد أخْلَصْتُ نِيَّتى ، ولا أزال مجتهدًا فى إخْلاصها ، وأصْفَيتُ طَوِيَّتِى ، ولا أزالُ مجتهدًا فى إصْفائهاـ فى طاعة السُّـلْطانِ الملِكِ الفلانىّ ، فلانِ الدنيـا والدِّين فلان ــ خلَّد اللهُ مُلْكه ــ وفى خِدْمته ومَحبَّته ونُصْحه ، وأكونُ وَلِيًّا لمن والاه ، عدُوًّا لمن عاداه ، سِلْمـًا لمن سالمه ، حَرْبًا لمن حاربه : مِن سائر الناس أجمعين ، لا أُضمِرُ لَه سُوءًا ولا مَكرًا ، ولا خَديعةً ولا خِيانةً فى نَفْسٍ ، ولا مالٍ ، ولا مُلْكٍ ، ولا سَلْطنةٍ ، ولا عَسَاكرَ ، ولا أجنادٍ ، ولا عُربان ، ولا تُرْكُمان ، ولا أكراد ، ولا غير ذلك ، ولا أسعىٰ فى تَفْريق كَلِمة أحَدٍ منهـم عن طاعته الشريفة . وإنَّنى واللّهِ العظيم أَبْذُل جُهْـدى وطَاقَتِى فى طاعة مولانا السلطان الملِك الفُلانىّ ، فلان الدنيا والدين المشار إليه . وإن كاتَبنى أحَدٌ من سائر النـاس أجمعين بمـا فيه مَضَرّةٌ علىٰ مُلْكه لا أوافِقُ علىٰ ذلك بقَوْلٍ

ولا فِعْلٍ ولا نِيَّةٍ ؛ وإن قدرتُ علىٰ إمْساكِ الذى جاءنى بالكِتَاب أمْسكْتُه ، وأحْضَرتُه لمولانا السلطان الملك الفلانىّ المشار إليه ، أو النائبِ القَريبِ منِّى . وإنِّى واللهِ العظيمِ أَفِى لمولانا السُّلطان المشارِ إليه بهذه اليمينِ من أوّلها إلىٰ آخرها ، لا أَسْتَثْنِى فيها ولا فى شَىْءٍ منها ، ولا أَسْتَفْتِى فيها ولا فى شَىْءٍ منها . وإن خالفتُها أو شَيئًا منها ، أو آسْتَثْنيتُ منها ، أو آسْتَفْتَيْتُ طلبًا لنَقْضها أو نَقْضِ شىءٍ منها ، فيكون كلُّ ما أَمْلِكه من صَامِتٍ ونَاطِقٍ صَدَقةً على الفُقَراء والمساكينِ من المسلمين ؛ وتكونُ كلُّ زَوْجةٍ فى عَقْدِ نِكاحِى أو أتزوَّجُها فى المُسْتقبلِ طالقا ثلاثًا بَتاتًا علىٰ سائر المذاهِب ، وتكونُ كلُّ أمةٍ أو مَمْلُوكٍ فى مِلْكِى الآنَ أو أَملِكُه فى المستقبلِ أحْرارًا لوَجْه الله تعالىٰ ؛ ويَلْزمُنى ثلاثُونَ حَجَّةً متوالياتٍ متتابعات ، حافيًا حاسرًا ؛ وعلىّ صَوْمُ الدَّهْر بجُمْلته إلا الأيامَ المَنْهِىَّ عن صَوْمها .

وهذه اليمينُ يَمِينِى ، وأنا فلانُ بنُ فلانٍ ، والنِّيَّة فى هذه اليمين بأسرها نِيَّةُ مولانا السلطانِ الملكِ الفلانِىِّ المشارِ إليه ، ونِيَّةُ مُسْتحْلِفِىَّ له بها ، لا نِيَّةَ لى فى غيرها ، ولا قَصْدَ لى فى بَاطِنى وظَاهِرى سِوَاها . أُشْهِدُ الله علىّ بذلك ، وكَفَى باللهِ شهيدًا ، واللهُ علىٰ ما أقولُ وَكِيلٌ .

قلتُ : وربَّما كان للسلطان ولىُّ عَهْدٍ بالسَّلْطنةِ فيَقَعُ التَّحليفُ للسُّلطان ولولده جميعًا ، وهى علىٰ نَحْو ما تقدّم ، لا يتغير فيها إلا نَقْلُ الضمير من الإفراد إلىٰ التَّثْنِية .

⁂

وهذه نُسخةُ يمينٍ حُلِّف عليها العساكرُ للسلطان الملك المنصور "قلاوون" فى سنة ثمان وسبعين وستمائة له ولولده ولىّ عهده الملك الصالح علاء الدين "على" أوردها آبن المُكَرَّم فى تَذْكرته ، وهى :

واللّهِ واللّهِ واللّهِ ، وباللّهِ وباللّهِ وباللّهِ، وتاللّهِ وتاللّهِ وتاللّهِ ، واللهِ العظيمِ الذى لا إله إلا هو، الرحمٰنُ الرحيم، الطَّالِبُ الغالِبُ، المُدرِكُ المُهلِكُ، الضارّ النافع، عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادة، والسِّرِّ والعلانيةِ وما تُخْفِى الصـدورُ، القائمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بمـا كَسبتْ، والمُجازِى لها بمـا ٱكْتَسَبتْ . وحقِّ جلالِ اللهِ، وعِزَّةِ اللهِ، وعظَمَةِ اللهِ، وسائرِ أسماء الله الحسنىٰ، وصفاتِه العُلْيا ـ إنَّنِى من وَقْتِى هٰذا ، ومن ساعتِى هٰـذِه ، وما مدّ الله فى عُمْرى قد أخلصتُ النِّيَّـة ، ولا أزال مُجتهِـدًا فى إخلاصها ، وأصْفَيتُ طَوِيَّتِى ولا أزالُ مُجتهِدًا فى إصفائِها، فى طاعة السُّلطانِ فلان، وطاعة ولَدِه وَلِىِّ عَهْدِه فلان، وخِدْمتِهما ومُوالاتِهـما ، وٱمْتِثالِ مراسيمِهما ، والعَملِ بأوامرِهمـا . وإنَّنى والله العظيم حَرْبٌ لمن حارَبهما، سِلْمٌ لمن سالَمهما ، عَدوٌّ لمن عاداهما، وَلِىٌّ لمن والاهما . وإنَّنِى واللهِ العظيمِ لا أسْعَىٰ فى أمرٍ فيـه مَضَرَّةٌ علىٰ مولانا السـلطان، ولا فى مَضَرَّةِ وَلَدِه، فى نفْسٍ ولا سَلْطنةٍ ، ولا ٱسْتِمالَةٍ لغيرهما ، ولا أُوافِقُ أحدًا علىٰ ذلك بقَوْلٍ ولا فِعْلٍ، ولا مُكاتَبةٍ ولا مُشافَهةٍ ، ولا مُراسَلَة، ولا تَصْرِيحٍ . وإنَّنِى واللهِ العظيم لا أدّخِرُ عن السُّـلطانِ ولا عن ولده نَصِيحةً فى أمْرٍ من أمورِ مُلكِهما الشريف ، ولا أُخْفِيهـا عن أحَدِهما ، وأنْ أُعْلِمَه بهـا فى أقْرَبِ وقْتٍ يُمكِنُنِى الإعلامُ له بها ، أو أُعْلِمَ من يُعلِمُه بها، وأن الخ (١) ... ...

---

(١) كذا فى الأصل ولعله ترك الباقى اتكالا على ما سبق فى الأيمـان قبله .

النـــوع الثانى

(من الأيمانِ التى يُحَلَّف بها المسلمون أَيْمانُ أهـــل البِدَع . والذين منهم بهذه المَمْلكةِ ثلاثُ طوائِف)

الطائفـــة الأولىٰ

(الخَـــوارِجُ)

وهُم قَومٌ ممن كانوا مع أمير المؤمنين عَلِيّ بنِ أبى طَالِبٍ رضى الله عنه ، حَمَلُوه علىٰ أنْ رَضِىَ بالتَّحْكيم بينه وبين مُعاوِيَةَ ، وأشارُوا بإقامة أبى مُوسَى الأشْعَرىّ حَكَماً عن عَلِىّ ، وإقامةِ عَمْرو بن العَاص حَكَماً عن مُعاوِيةَ ، فَخَدَع عَمْرٌو أبا مُوسَى : بأن ٱتَّفق معه علىٰ أن يَخْلعا عَلِيًّا ومعاويةَ جميعا ، ويُقيمَ المسلمون لهم خَلِيفةً يختارونه ، فتقـدّم أبو مُوسَىٰ وأشهدَ مَن حَضَر أنه خَلَعَهُما ، فوافق عمرٌو علىٰ خَلْع عَلِىّ ، ولم يَخْلَعْ معاويةَ ، وبَقِىَ الأمرُ لمعاوية . فأنكروا ذٰلك حينئذ ، ورَفَضُوا التَّحْكيم ، ومنعوا حُكْمَه ، وكَفَّروا عليًّا ومعاويةَ ومَن كان معهما بِصِفِّينَ ، وقالوا : لا حُكْمَ إلا لِلهِ ورَسوله ، وخرجُوا علىٰ عَلِىٍّ ، فسُمُّوا الخوارج ، ثم فارقوه وذهبوا إلىٰ النَّهْروانِ فأقامُوا هُناك ، وكانوا أربعةَ آلافٍ غَوْغَاءَ لا رَأْسَ لهم ، فذهب إليهـم عَلِىٌّ رضى الله عنـه فقاتلهم ، فلم يُفْلِتْ سِوَى تِسـعةِ أنْفسٍ : ذهب منهم ٱثنان إلىٰ عُمَان ، وٱثنان إلىٰ كَرْمان ، وٱثنان إلىٰ سِجِسْتانَ ، وٱثنان إلىٰ الجَزيرة ، وواحدٌ إلىٰ اليَمَن ، فظهرتْ بِدْعَتُهـم بتلك البـلاد وبَقِيتْ بهـا .

ثم من مَذْهبِهم مَنْعُ التَّحْكيم علىٰ ما تقدّم ، وتَخْطِئَةُ عَلِىٍّ وأصحابِه ، ومُعاويةَ وأصْحابه بصِفِّينَ فى ٱعتقادهم إيَّاه ، بل تَكْفيرهُم علىٰ ما تقدّم ، ومنها ٱمتناع ذلك عن رِضًـا أصْـلا (؟) وأنهم يَمنعُون التأويل فى كِتَاب الله تعالىٰ . ومنهم من يقولُ : إن سُورَةَ

يوسف عليه السلام ليست من القرءان، وإنما هي قصة من القصص، ومن أدخلها في القرءان فقد زاد فيه ما ليس منه، على ما سيأتي ذكره . ويقولون : إن إمارة بني أمية كانت ظلما، وإن قضاءهم الذي رتبوه على التحكيم باطل . ويذهبون إلى تخطئة عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري فيما آتفقا عليه عند تحكيمهما، ويشنعون على معاوية وأصحابه، ويقولون : آستباحوا الفروج والأموال بغير حق .

ثم منهم من يكفر بالكبائر، ومنهم من يكفر بالإصرار على الصغائر بخلاف الكبائر من غير إصرار على ما يأتي ذكره . ويصوبون فعلة عبد الرحمن بن ملجم في قتله عليا رضي الله عنه، وينكرون على من ينكر ذلك عليه، لا سيما من ذهب من الشيعة إلى أن ذلك كفر . وفي ذلك يقول شاعرهم :

ياضربة من ولي[1] ما أراد بها * إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكره يوما فأحسبه * أوفى الخليقة عند الله ميزانا

وكذلك يصوبون فعل عمرو بن بكر الخارجي في قتل خارجة بن أبي حبيبة[2] صاحب شرطة عمرو بن العاص بمصر، حين قتله على ظن أنه عمرو بن العاص، لما لهم عنده من الإحن والضغائن . وأنهم يصوبون فعل قطام زوج عبد الرحمن بن ملجم في ... ...[3]، وأنهم يستعظمون خلع طاعة رءوسهم، وأنهم يجوزون كون الإمام غير

(١) في الملل ص ٦٩ "من منيب" وفي كامل آبن الأثير ج ٣ ص ١٧١ «من شقي» .

(٢) في الأصل حنيفة وهو تصحيف والتصحيح من كامل ابن الأثير ج ٣ ص ١٧٠ .

(٣) بياض بالأصول ولعله «في اشتراطها على آبن ملجم حين خطبها ثلاثة آلاف وعبدا وقينة وقتل علي» أنظر كامل ابن الأثير ج ٣ ص ١٦٨ و ١٦٩ .

قُرَشِيٍّ، بل هم يجوّزون إمامة الحُرّ والعَبْد جميعا، ويَنْسُبونَ من خالفهم إلى الخطإ، ويستبيحون دِماءهم بمقتضَى ذلك .

واعلم أن ما تقدّم ذِكْرُه من معتَقَدات الخوارج هو مُقْتضَى ما رتّبه من يمينهم في "التعريف" على ماسيأتى ذكره . على أن بعضَ هذه المعتقداتِ يختصُّ بها بعض فِرَقِ الخوارج دون بَعْضٍ على ما سيأتى بيانُه، ولكلٍّ منهم معتقداتٌ أخرى تَزِيدُ على ماتقدّم ذكره .

وهأنا أذكر بَعضَ فِرَقِهم، وبَعْضَ ما آختصَّتْ [به] كلُّ فِرْقةٍ منهم، ليَبْنِيَ على ذلك مَن أراد تَرْتِيبَ يمينٍ لفِرْقةٍ منهم :

فمنهم المُحَكِّمَةُ — وهم الذين يمنعون التَّحْكيم .

ومنهم الأزَارِقَةُ — وهم أَتْباعُ نَافِعِ بن الأزْرَق، وهم الذين خرجُوا بفارِسَ وكَرْمانَ أيّام آبنِ الزُّبَير، وقاتلهم المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرَة، وهم الذين يكَفِّرون عَليًّا مع جَمْعٍ من الصحابة، ويُصَوِّبون فِعْل آبن مُلْجَم، ويكَفِّرون القَعَدَةَ عن القتال مع الإمامِ وإن قاتل أهْلَ دِينه، ويُبِيحُون قَتْلَ أطفالِ المخالفين ونِسَائِهم، ويُسْقِطون الرَّجْمَ عن الزَّاني المُحْصَن، وحَدَّ القَذْفِ عن قاذف الرَّجل المُحْصَن دون قاذف المرأة المُحْصَنة، ويُخْرِجون أصحاب الكبائر عن الإسلام، ويقولون : التَّقِيَّة غيرُ جائزةٍ .

ومنهم النَّجَداتُ — وهم أصحاب نَجْدَةَ بن عامر، يكَفِّرون بالإصرار على الصغائر دون فعل الكبائر من غير إصرار، ويستَحِلُّون دماءَ أهلِ العَهْدِ والذِّمّة وأموالَهم في دار التَّقِيَّة، ويتبرّءُون ممن حَرَّمها .

ومنهم البَيْهَسِيَّة ـ وهم أصحاب أَبِي بَيْهَس بن خالد(١)، يَرَوْنَ أنه لاحرامَ إلا مَاوقَع عليه النَّصُّ بقوله تعـالىٰ : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ الآية . ويكَفِّرون الرَّعِيَّة بكُفْر الإمام .

ومنهـم العَجارِدَة ـ وهـم الذين يُنْكِرون كَوْنَ سورةِ يُوسُـفَ من القُرءان ، ويقولون : إنمـا هى قِصَّةٌ من القِصَص، ويُوجِبُون التَّبَرِّىَ من الطِّفْل فإذا بلغ دُعِىَ إلى الإسـلام .

ومنهم المَيْمونية ـ وهم فِرْقَةٌ يقولون : إن الله تعالىٰ يريد الخَيْر دون الشَّر ، ويُجَوِّزون نِكاحَ بناتِ البَناتِ وبَناتِ أَوْلادِ الإخْوَةِ والأخوات .

ومنهم الإباضِيَّة ـ يَرَوْنَ أنَّ مُرتَكِب الكَبِيرة كافِرٌ للنعمة لامُشرِكٌ ، ويَرَوْنَ أنَّ دار مخالفيهم من المسلمين دَارُ تَوْحيد، ودَارَ السلطانِ منهم دارُ بَغْيٍ .

ومنهم الثَّعالبة ـ يَرَوْنَ وِلايَةَ الطِّفْل حتَّى يظهرَ عليه إنْكارُ الحَقِّ فيتبرءُون منه .

ومنهم الصُّفْرِيَّة ـ يَرَوْنَ أنَّ ما كان من الكبائر فيـه حَدٌّ كالزِّنا لا يُكَفَّر به، وما كان منها ليس فيه حَدٌّ : كَترك الصَّلاة يكَفَّر به .

وكأن الذى أورده فى "التعريف" مُتَّفَقٌ عليـه عندهم ، أوهو قولُ أكثرِهم فاكْتفَىٰ به .

وقد رتب فى "التعريف" تَحْلِيفَهم علىٰ مُقتضى ما ذكره من آعتقادهم فقال :

وأَيْمـانُهم أَيْمـانُ أهل السُّـنَّة ، ويزاد فيها : وإلا أَجَزْتُ التَّحكِيمَ ، وصَوَّبْتُ قول الفَرِيقَين فى صِفِّينَ، وأَطَعْتُ بالرِّضا مِنِّى حكمَ أَهْلِ الجَوْر ، وقلتُ فى كتاب الله

(١) كذا بالأصول ، والذى فى "القاموس" و "الملل والنحل" للشهرستانى أن أبا بيهس آسمه "الهيصم آبن جابر" ولعل ما فى الأصول تصحيف .

بالتأويل : وأدخلتُ فى القرءان ماليس منه . وقلت : إن إمارة بنى أُمَيَّة عَدْلٌ ، وإن قَضاءَهم حَقٌّ ، وإن عَمْرو بنَ العَاص أصاب ، وإنَّ أبا مُوسَى ما أخْطأَ ، وٱسْتَبَحْتُ الأموال والفروجَ بغـير حقٍّ ، وٱجترحْتُ الكَبَائِر والصَّـغائر ، ولَقِيتُ الله مُثْقَـلا بالأوزار ، وقلتُ : إن فَعْـلة عبد الرحمن بن مُلْجَم كُفْر ، [وإن قاتلَ خارجة آثم ، وبرِئت من فَعْلة قطامِ ،](١) وخلعتُ طاعة الرُّءُوس ، وأنكرتُ أن تكونَ الخلافةُ إلَّا فى قُرَيْشٍ ، وإلَّا فلا رَوَّيْت سَيْفِى ورُمْحِى من دماء المُخْطِئِينَ .

الطـائفة الثانيـــة
(الشِّـيعَةُ)

وهم الذين شايَعُوا أَمِيرَ المؤمنين علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقالُوا بإمامته وخلافته : نَصًّا ووِصَايةً : [إمَّا] جَلِيًّا أو خَفِيًّا ، وإن الامامةَ لاتخرج عنه وعن بَنِيه إلا بظُلْمٍ من غير ذلك الإمام ، أو بتَقِيَّةٍ منه لغيره(٢) .

قال الشَّهْرَسْتانِىُّ فى "النِّحَل والمِلَل" : ويجمَعُهم القول بوجوب التَّعيينِ للامام والتنصيص عليـه ممَّن قَبْلَه ، وثُبوتِ عِصْمةِ الأَئِمَّـة وجوبًا عن الكبائر والصغائر ، والقَولُ بالتَّوَلِّى للأَئِمَّة والتَّبَرِّى من غيرهم .

وقال فى "التعريف" يجمعُهم حُبُّ عَلِىّ رضى الله عنه ، وتختلِفُ فِرَقُهم فيمَن سواه .

فأما مع إجماعهم علىٰ حُبِّه فهم مختَلِفون فى ٱعتقادهم فيـه ، فمنهم أَهْلُ غُلُوٍّ مُفْرِط وعُتُوٍّ زائد : ففيهم من أدّىٰ به الغُلُوُّ إلىٰ أن ٱتَّخذ عَلِيًّا إلهًـا وهم النُّصَيْرِيَّة ـ قال : ومنهم

---

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٦٢ .

(٢) عبارة الشهرستانى «بظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده» وهى أوضح .

من قال : إنه النبيّ المُرْسَل وإنَّ جِبْريلَ غَلِط . ومنهم من قال : إنه شريكٌ فى النُّبوَّة والرسالة . ومنهم من قال : إنه وَصِىُّ النُّبوَّة بالنَّصِّ الجَلِىّ ، ثم تخالفوا فى الإمامة بعده وأجمعوا بعده علىٰ الحَسَنِ ثم الحُسَين . وقالتْ فرقة منهم : وبعدهما محمد بن الحَنَفيَّة .

ثم قد ذكر فى "التعريف" أن الموجود من الشيعة فى هذه المملكة خَمْسُ فِرَق :

الفـــرقة الأولىٰ
(الـــزَّيْديَّة)

وهم القائلون بإمامة زَيْد بن علىّ بن الحُسَين السِّبْط ، ابن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو الذى رأْسُه مدفونٌ بالمَشْهِد الذى بين كِيمانِ مِصْر ، جَنُوبِىّ الجامع الطُّولُونىّ ، المعروفِ بمَشْهِد الرَّأْس ، فيما ذكره القاضى مُحْيِى الدِّين ابن عبد الظاهر فى خِطَط القاهرة . قال فى "التعريف" : وهم أقربُ القَوْم إلىٰ القَصْد الأَمَم . قال : ولهم إمَامٌ باقٍ باليَمَن إلى الآنَ ، وصَنْعاءُ دارُه ، وأُمراءُ مكّة المُعظَّمةِ منهم . ثم قال : وحدّثَنِى مُبارَكُ بن عُطَيْفةَ بن أبى نُمَىّ : أنهم لا يَدِينون إلا بطاعة ذلك الإمام ، ولا يَرَوْنَ إلا أنَّهم نُوّابُه ، وإنما يتّقون صاحِبَ مِصْر لخوفهم منه وللإقْطاع ، وصاحِبَ اليَمَن لمُداراتِه لواصِلِ الكارم ورُسُوم الأنعام . ومن ثَمَّ عدَّهُم فى جملةِ مَن بهذه المملكة من طوائف البِدَع .

وكان من مَذْهبِ زَيْدٍ هذا جوازُ إمامة المفضول مع قيام الأفْضَل ، ويقول : إنَّ عليًّا رضى الله عنه كان أفضلَ الصَّحابة رضوانُ الله عليهم ، إلا أنَّ الإمامةَ فُوِّضتْ إلىٰ أبى بَكْرٍ وعُمَر رضى الله عنهما لمصْلَحةٍ رَأَوْها ، وقاعِدَةٍ دِينيَّةٍ راعَوْها : من تَسْكين نائرة الفتْنة ، وتَطْيِيبِ قُلوب العامَّة ، مع تَفْضيلِ علىّ على الشَّيْخَيْن عندهم فى أوانهم .

وأتباعُه يعتقدون أنَّ هـذا هو المعتَقَدُ الحقُّ ، ومن خالَفَه خرج عن طريق الحَقِّ ، وضل عن سَواءِ السَّبِيل .

وهم يقولون : إن نَصَّ الأذَانِ بَدَل الحَيْعلَتَينِ : «حَيّ على خَيرِ العَمَلِ» يقولونها فى أَذانِهم مَرَّتين بدل الحَيْعلَتَيْن ، وربَّمـا قالوا قبل ذلك : «محمدٌ وعَلِيٌّ خير البَشَر ، وعِتْرتُهما خير العِتَر » ومن رأىٰ أن هذا بِدْعةٌ فقد حاد عن الجَادَّة .

وهم يسوقون الإمامةَ فى أَوْلاد عَلِيّ كَرَّم الله وَجْهَه من فاطمة رضى الله عنهـا ، ولا يُجَوِّزونَ ثُبوتَ الإمامة فى غير بنيهما ، إلا أنَّهـم جَوَّزُوا أن يكونَ كُلُّ فاطمىٍّ عالِمٍ زَاهِدٍ شُجاعٍ خَرج لطَلَب الإمامة إمامًا مَعْصومًا واجِبَ الطاعة ، سواء كان من ولد الحَسَنِ أو الحُسَينِ عليهما السلام ، ومن خلع طاعتَه فقد ضَلَّ . وهم يَرَوْن أن الإمام المَهْدِىَّ المُنَتَظَر من ولَد الحُسَين رضى الله عنه دون ولَد الحسَن ، ومن خالف فى ذلك فقد أخْطَأ . ومن قال : إنَّ الشيخينِ أبا بَكْرٍ وعُمَر رضى الله عنهما أفضلُ من عَلِيٍّ وبَنِيه فقد أخْطأَ عنـدهم وخالفَ زيدًا فى مُعْتَقَدِه . ويقولون : إن تَسْلِيم الحَسَنِ الأمْرَ لمَعاوية كان لمَصْلَحةٍ ٱقتضاها الحال ، وإن كان الحقُّ له .

قال فى "التعريف" : وأَيْمـانُهم أَيْمـانُ أهْلِ السُّنَّة ، يعنى فيحلّفون كما تقدّم ، ويزاد فيها : وإلَّا بَرِئْتُ من مُعْتَقَدِ زَيْد بن عَلِيّ ، ورأيتُ أنَّ قَوْلِى فى الاذان : "حَيّ علىٰ خَيْرِ العَمَل" بِدْعةٌ ، وخَلَعتُ طاعة الإمام المعصوم الواجِب الطَّاعة ، وٱدّعَيْتُ أن المَهْدِىَّ المنتَظَر ليس من وَلَد الحُسَـينِ بن علىّ ، وقلتُ : بتَفْضِيل الشيخين على أمير المؤمنيـن عَلِيٍّ وبَنِيه ، وطعَنتُ فى رَأْى ٱبنه الحسن لمـا ٱقتضته المَصْلَحةُ ، وطعَنتُ عليه فيه .

الفــرقة الثانيــــة
(من الشّـيعَةِ الإماميــــة)

وهم القائلون بإمامة ٱثْنَىْ عشر إماما : أوّلُهم أميرُ المؤمنين علىٌّ المرتضى، ثم ٱبنــه الحَسنُ المُجْتبَى، ثم أخُوه الحُسَيْنُ شَهِيدُ كَرْبَلاء، ثم ٱبنــه علىّ السَّجَّاد زيْنُ العابِدِين، ثم ٱبنــه محمد البَاقِر، ثم ٱبنه جَعْفر الصَّادِق، ثم ٱبنه مُوسَى الكَاظِم، ثم ٱبنه، عَلِيّ الرِّضَا وهو الذى عَهِد إليه المَأْمونُ بالخلافة وماتَ قبلَ أن يموتَ المأمونُ، ثم ٱبنه محمد التّقِى، ثم ٱبنه علِيٌّ النقى، ثم ٱبنــه الحَسَن الزَّكىّ المعروفُ بالعَسْكَرىّ، ثم ٱبنُه محمدٌ الحُجَّة، وهو المَهْدِىّ المنتَظَر عندهم، يقولون إنه دخل مع أمّه صَغيرا سِرْدابًا بالحِلَّة على القُرْب من بَغْداد ففُقِد ولم يَعُدْ، فهم ينتظرُونه إلىٰ الآنَ، ويقــال : إنهم فى كلّ ليلةٍ يقِفُون عنــد باب السِّرْداب ببَغْلة مَشْدُودةٍ ملجمة من الغروب إلىٰ مَغِيبِ الشَّفَقِ ينادُون : أيُّهــا الإمامُ! قد كَثُر الظُّلْمُ! وظهر الجَوْر فاخْرج إلينا ! ثم يرجعون إلى اللّيلة الأخرىٰ، وتُلَقّب هذه الفِرْقَة بالاَثْنَى عَشْريَّة أيضــا، لقولهم بامامة ٱثْنَىْ عشَرَ إماما، وبالمُوسَوِيَّة لقولهــم بانتقال الخلافة بعــد جَعْفَر الصادق إلىٰ ٱبنــه مُوسَى الكاظم المقــدّم ذكره دون أخيه إسمعيلَ إمامِ الإسْماعِيلِيَّة الآتى ذكره، وبالقَطْعِيَّةِ لقولهم بموت إسمعيــلَ المذكورِ فى حياة أبيــه الصادقِ والقَطْع بانتقال الإمامة إلىٰ مُوسىٰ .

قال فى " التعريف " : وهم مُسْلمون، إلا أنهم أهلُ بِدْعةٍ كبيرة سَبَّابة .

وهم يقولون : بإمامة عَلِيٍّ رضى الله عنــه نصًّا ظاهِرًا، وتعيينًا صادقا، ٱحتجاجا بأنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : «من يُبايِعُنِى عَلىٰ مَاله، فبايَعه جماعةٌ، ثم قال :

من يُبايِعُنِي علىٰ رُوحِه وهو وَصِيِّي ووَلِيُّ هـذا الأمْرِ من بَعْدِي ، فلم يُبايِعْـه أحدٌ، حتَّى مدّ أمير المؤمنين عَليٌّ عليه السلام يَدَه إليه فبايَعَه علىٰ رُوحِه ووَفىٰ بذلك » .

قال فى "العبر" : وهذه الوَصِيَّة لا تُعرفُ عن أحَدٍ من أهل الأثَر، بل هى من موضوعاتهم ؛ ويُخُصُّونه بوِرَاثة علم النبىّ صلى الله عليه وسلم .

ويروون أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم غَدِيرخُمٍّ : «مَن كنتُ مَوْلاه فعَلِيٌّ مَوْلاه، اللهُمَّ وَالِ مَن وَالَاه ، وعَادِ مَن عَاداه ، وأدِرِ الحقَّ علىٰ لِسَانه كَيْفما دَار» ويرَوْن أنَّ بَيْعةَ الصِّـدِّيق رضى الله عنه يوم السَّـقِيفة غيرُ صحيحة : حين اجتمع الأنصارُ بعد مَوْت النبىّ صلى الله عليه وسـلم علىٰ سَعْد بن عُبَادة فى سَقِيفَة بنى سَاعِدةَ ليُبايِعوه ، وذهب إليهم أبُو بَكْرٍ رضى الله عنه ومعه عمرُ بنُ الخطاب وأبُو عبيدة ، ورَوَىٰ لهم أن النبىّ صلَّى الله عليه وسلم قال : «لا يَصْلُح هذا الأمْرُ إلَّا لهذا الحَىِّ من قُرَيْشٍ» فرجعُوا إلىٰ قوله وبايعَه عُمرُ، ثم بايعه النـاسُ علىٰ ما تقـدّم ذِكْرُه فى الكلام علىٰ مبايعاتِ الخُلَفاء فى المقالة الخامسة ، وأنَّ القائمَ فيها مجترمٌ لا سيَّـا أوّلُ بادٍ بذلك . ويقولون : إن الحقَّ كان فى ذلك لعَلِيٍّ بالوَصِيَّة . ويقولون : إن القيامَ على أمير المؤمنين عثمانَ بنِ عَفَّانَ رضى الله عنه وحَصْرَه فى الدار كان واجبًا لاعتقادهم عدمَ صِحَّة خلافته مع وجود عَلِيٍّ رضى الله عنـه ، وإن المتأخِّر عن حَصْرِه كان مُخْطِئا . ويَرَوْنَ جَوازَ التَّقِيَّةِ خوْفًا على النَّفس ، وأنَّ عليًّا رضى الله عنه إنمـا تأخّر عن طِلَب الإمامة عنـد قيامِ من [كان] قَبْله بها تَقِيَّةً علىٰ نَفْسه . ويَرَوْنَ أنَّ مَن أعان أميرَ المؤمنين عُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنـه على الخلافة كان مُخْطِئًا : لبُطلان خلافتِه بتَرَتُّبِها علىٰ خلافة أبِى بكرٍ ووُجودِ عَلِيٍّ الذى هو أحَقُّ بها . ويزعُمون أنَّ الصِّدِّيقَ رضى الله عنه مَنَع فاطمةَ رضى الله عنها حَقَّها من إرْثِها من رسول الله صلَّى الله عليه وسلم تَعَدِّيًا ، وأنَّ

مَن ساعد فى تَقْديم تَيْمٍ بخلافة أبى بكر ، أو تقديم عَدِىٍّ بخلافة عمر ، أو تَقْديم أُمَيَّةَ بخلافة عثمان كان مُخْطِئًا . ويزعُمون أنَّ عمرَ رضى الله عنه لم يُصِبْ فى جَعْل الأمْرِ شُورَى بين بَقِيَّة العَشَرةِ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لاستحقاق تَقَدُّم علىٍّ على الجميع .

ويصوِّبُون قولَ حسان بن ثابت رضى الله عنه فيما كان من موافَقَته فى حديث الإفْكِ فى حَقِّ عائِشَةَ رضى الله عنها ، ولا يَرَوْنَ تَكْذيبَه فى ذلك . ويَرَوْنَ أنَّ عائِشَةَ أمَّ المؤمنين رضى الله عنها كانت مُخْطِئةً فى قيامها علىٰ علىٍّ يوم الجَمَل ، وأنَّ مَن قام معها كان مُخْطِئًا للموافقة على الخَطَإ .

ويقولون إنَّ من قام مع معاوية علىٰ علىٍّ بصِفِّينَ وشَهَر السَّيْفَ معه عليه فقد ٱرتكب محظورا . وينكرون ما وقع من زِيَادِ بن أبيه من الدَّعوى الباطلة . وذلك أنه بعد قَتْل الحُسَين عليه السلام جهَّز جَيْشًا إلى المدينة النبوية مع مُسْلِم بن عبد الله فقتلُوا وسَبَوْا وبايعُوا من تَبِعهم علىٰ أنَّهم خَوَلٌ ليَزيدَ .

ويقولون : ببُطلان حُكْم ٱبن مَرْجانَةَ . ويعُدُّون من العظائم قِيامَ عُمَر بن سعد فى قتال الحُسَينِ ، وحَقِيقٌ أن يُنْكِروا عليه ذلك ويَسْتعظِمُوه ! فقد قِيلَ : إنه بعد قَتْله أمَر جَماعةً فوَطِئُوا صَدْر الحُسَيْنِ وظَهْرَه بالخَيْل ، وكان يَزِيدُ قاتله الله قد أمره بذٰلك .

ويَرَوْن أن الأمْر صار بعد الحَسَنِ عليه السلام إلىٰ أخيه الحُسَيْنِ ، ويقولون : إنَّ الإمامة عند الحَسَنِ مُسْتَوْدَعةٌ لامُسْتَقِرَّةٌ ، ولذلك لم تَثْبُتْ فى بَنِيه . ويعُدُّون من العظائم فِعْلَ شَمِر بن [ذى] الجَوْشَن : وهو الذى ٱحْتَزَّ رأْسَ الحُسَينِ ، وأنَّ مَن ساعده علىٰ ذلك مُرتَكِبٌ أعظَمَ محظوراتٍ بأشَدِّ بَلِيَّة ، وحَقِيقٌ ذلك أن يستعظموه ! فأىُّ جَرِيمَةٍ أعظَمُ من قَتْل سِبْطِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

وقد ذكر صاحبُ "نَظْم السِّمْط فى خَبَر السِّبْط" : أنه وُجِد فى حَجَرٍ مَكْتُوب قبل البِعْثةِ بألْفِ سَنَةٍ ما صُورَتُه :

أتَرجُو أُمَّـةٌ قَتَلَتْ حُسَيْناً * شَفاعَةَ جَدِّهِ يومَ الحِسَابِ؟

ويُقال : إنَّ الذى ٱحْتَزَّ رأسَ الحُسَينِ إنما هو سِنانُ بن أَنَس النَّخَعِىّ . ويعُدُّون من العظائم أيضـا سَبْىَ مُعاوِيَةَ أهْـلَ البَيْت عند غَلَبَةِ علىٍّ رضى الله عنـه بصِفِّينَ وسَوْقَهُم معه إلىٰ دِمَشْق سَوْقًا بالعِصِىِّ . ويَرَوْن أنَّ خِلافةَ يَزِيدَ بنِ مُعاوِيةَ كانت من أعْظَم البلايا ، وأن المُغِيرةَ بنَ شُعْبة أخطَأَ حيثُ أشار علىٰ معاوية بهـا . ويقولون بالتَّبَرِّى من عَمْرو بن العاص رضى الله عنه لٱنْتِمائه إلىٰ معاوية ، وخَدِيعَتِه أبا مُوسى الأشْعرىّ يوم الحَكَمَيْنِ حتى خَلَع عَلِيًّا ، وإنَّ من ظَاهَره أو عَاضَدَه كان مُخْطِئًا .

وكذلك يتبَرَّءُون من بُسْر بن [أبى] أرْطاة : لأنَّ معاوية بعثه إلىٰ الحِجَاز فى عَسْكَرٍ فدخل المدينةَ وسفَكَ بها الدِّماء ، وٱستكره الناسَ علىٰ البَيْعة لمعاوية ، وتوجه إلىٰ اليَمَن بعد ذلك فوجد صَبِيَّيْنِ لعبيد الله بن عَبَّاسٍ عامِلَيْنِ (١) علىٰ اليَمَن فقتلهما .

ويرَوْن تَخْطِئةَ عُقْبَةَ بن عبد الله المُزَنى ، ويَقْدحُون فى رَأْىِ الخوارج : وهم الذين خَرجُوا علىٰ عَلِىٍّ رضى الله عنه بعـد حَرْبِ صِفِّينَ ، علىٰ ما تقدّم ذكره [فى الكلام علىٰ أَيْمـانِ الخوارج : وهو مُفارَقَتُهم عَلِيًّا رضى الله عنه ، وتَخْطِئَتُهم له فى الغنائم .

ويقولون : إنَّ الامامة ٱنتقلت بعـد الحُسَينِ السِّبْطِ عليـه السلام فى أبنائه إلىٰ تَمـامِ الٱثْنَىْ عَشَر . فٱنتقلت بعد الحُسَينِ إلى ٱبنه زَيْنِ العَابِدِين ، ثم إلىٰ ٱبنـه محمد

(١) صوابه "عامل علىّ على اليمن" والصبيان هما قثم وعبد الرحمن ٱبنا عبيد الله انظر ج ٣ ص ١٦٦ من الكامل لٱبن الأثير .

البَاقِر، ثم إلىٰ ٱبْنِه جَعْفَر الصَّادِق، ثم إلىٰ ٱبنه مُوسى الكاظِم، ثم إلىٰ ٱبْنِه علىّ الرِّضا، ثم إلىٰ ٱبنه محمد التَّقِىّ، ثم إلىٰ ٱبنه على النَّقِى، ثم إلىٰ ٱبنه الحَسَن الزَّكِىّ، ثم إلىٰ ٱبنه محمد الحُجَّة، وهو المَهدِىُّ المنتَظَر عندهم، علىٰ ما تقدّم ذكره فى أوّل الكلام علىٰ هذه الفِرْقَة، وإنَّ من خالَفَ ذلك فقد خالف الصَّواب .

ويستعظمون دَلالةَ من دَلَّ بَنِي أُمَيَّةَ وبنى العَبَّاس علىٰ مَقَاتل أَهْلِ البَيْت . أما دَلالةُ بَنِي أُمَيَّة، فبعد غَلَبةِ مُعاوِية بِصِفِّينَ . وأما دَلَالةُ بَنِي العَبَّاس، فعند تَنازُع بَنِي العَبَّاس وأَهْلِ البَيْت فى طَلَب الخلافة، زمنَ أبى جَعْفَر المنصور وما بعده .

ويقولون : ببقاء حُكْم المُتْعة : وهى النكاح المُؤَقَّتُ الذى كان فى صَدْر الإسلام .

ويُشَنِّعون علىٰ نَجْدة بن عامر الحَنَفى الخارِجىّ حيث زاد فى حَدِّ الخَمْر، وغَلَّظ فيه تَغْلِيظًا شديدا، كما حكاه الشَّهْرَسْتانىُّ عنهم .

ويستعظِمُون البراءة من شِيعَة أمير المؤمنين علىٍّ رضى الله عنه، وٱتِّباعَ أَهْوِيَة أهل الشام من مُتابِعى بنى أُمَيَّةَ والغَوْغاء القائمين بالنَّهْروان : وهُم الخوارجُ الذين خالفُوا عَلِيًّا بعد قَضِيَّة التحكيم بِصِفِّينَ، وأقاموا بالنَّهروان من العراق لقتال علىٍّ، ورئيسُهم يومئذ عبدُ الله بنُ وَهب، فسار اليهم علىٌّ وكانوا أربعةَ آلافٍ فقُتِلوا عن آخرهم[(1)]، ولم يُقْتَل من أصحاب عَلِىٍّ سِوَىٰ سبعة أَنْفُس .

ويرون أن أبا موسى الأَشْعَرِىَّ رضى الله عنه أخطَأَ فى مُوَافقتِه عَمْرو بن العَاص رضى الله عنه : حيثُ حكم بخَلْعِ عَلِىّ ولم يَخْلَع عَمْرٌو معاوية .

ويعتمدون فى القُرءان الكريم علىٰ مُصْحَف عَبْد الله بن مسعود رضى الله عنه، دون المُصْحَف الذى أجمع عليه الصحابة رضى الله عنهم، فلا يُثْبِتُونَ مالم يَثْبُتْ فيه قُرءانا .

(1) أى ولم يبق منهم سوى تسعة تفرّقوا فى الجهات كما تقدّم .

ويتبرءون من فعل ابن مُلْجَم فى قَتْله أميرَ المؤمنين رضى الله عنه، وحقّ لهم التّبَرّى من ذلك .

ويرون أنّ مُوالاةَ ٱبن مُلْجَم وإسعافَه فى صَداقِ زَوْجَتِه قَطامِ جَرِيرَةٌ .

ويرون محبة قبيلة هَمْدَانَ من المَحْبوبِ المطلوب : لمشايَعَتِهم عليًّا رضى الله عنه ومَحَبّتهم أهْلَ البَيْتِ كما هو المشهور عنهم ؛ حَتّى يُحكَىٰ أنّ أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه صَعِدَ يومًا المِنْبَر وقال : أَلَا لا يُنْكِحَنّ أحَدٌ منكم الحسَنَ بنَ عَلِىٍّ فإنه مِطْلَاقٌ ، فنَهضَ رَجلٌ من هَمْدَانَ وقال : واللهِ لنُنْكِحَنّهُ ثم لَنُنْكِحَنّهُ ! إنْ أَمْهَر أَمْهَرَ كَثيفًا ، وإنْ أَوْلَدَ أَوْلَدَ شَرِيفا ! . فقال علىٌّ رضى الله عنه حينئذ :

لو كُنتُ بَوّابًا على باب جَنّةٍ ✻ لقُلْتُ لهَمْدانَ ٱدْخُلى بسَلَامِ !

ويقولون باشتراط العِصْمَة فى الأَئِمّة ، فلا يكونُ من ليس بمعْصُومٍ عندهم إماما .

وقد رَتّب فى "التعريف" يَمينَهم علىٰ هذه العقائد، فقال : وهؤلاء يَمينُهم هى :

إنّنى واللهِ واللهِ العظيم ، الرّبِّ الواحدِ الأَحَدِ ، الفَرْدِ الصّمَدِ، وما أعْتَقِدُه من صِدْق محمدٍ صلى الله عليه وسلم ونَصِّه علىٰ إمامة ٱبن عَمّه ووَارِثِ عِلْمه علىِّ بن أبى طالبٍ رضى الله عنه يوم غَدِيرِ خُمٍّ ، وقولِه : « مَنْ كنتُ مولاه فعَلِىٌّ مولاه ٱللّهمّ وَالِ مَن وَالاه ! وعَادِ مَن عَادَاه ! وأَدِرِ الحَقّ علىٰ لِسانه كَيْفَما دَار ! » . وإلّا كنتُ مع أوّل قائمٍ يوم السّقيفة ، وآخِرَ مُتأخّرٍ يوم الدّار ، ولم أَقُل بجواز التّقيّة خوفًا على النّفْس ، وأَعَنتُ ٱبْنَ الخطّاب ، وٱضطهدتُ فاطمةَ ، ومَنَعتُها حقّها من الإرْث ، وساعدتُ فى تَقْديم تَيْمٍ وعَدِىٍّ وأُمَيّةَ ، ورضيتُ بحُكْم الشّورَىٰ ، وكَذّبتُ حَسّانَ بنَ

ثابتٍ يوم عائشةَ، وقمتُ معها يومَ الجَمَلِ، وشَهرتُ السَّيفَ مع مُعاوِيةَ يوم صِفّينَ، وصــدَّقتُ دَعْوىٰ زِيادٍ، ونزلْتُ علىٰ حُكْم آبن مَرْجَانَةَ، وكُنْتُ مع عُمَر بن ســعد فى قتال الحُسَيْنِ، وقلتُ : إنّ الأمْرَ لم يَصِرْ بعدَ الحَسَنِ إلىٰ الحُسَيْنِ، وساعدتُ شَمِر آبن [ذى] الجَوْشن علىٰ فعلِ تلك البَلِيَّة، وسَبَيْتُ أهلَ البيتِ وسُقْتُهم بالعِصِيِّ إلىٰ دمَشْقَ، ورَضِيتُ بإمارة يَزِيدَ، وأطَعْتُ المُغيرةَ بنَ شُعْبَة، وكنتُ ظهيرًا لعَمْرو بن العَاصِ، ثم لبُسْر بن [أبى] أَرْطاةَ، وفعلتُ فِعْل عُقْبة بن عبدالله [المزى](١) وصدّقتُ رأىَ الخَوارِج، وقلتُ : إن الأمْرَ لم ينْتقِلْ بعد الحُسَيْنِ بن عَلِيٍّ فى أبنائه إلىٰ تمام الأَئِمَّة، إلىٰ الإمام المَهْدِيِّ المنتَظَر، ودلَلْتُ علىٰ مَقاتل أهْلِ البَيْت بَنِي أُمَيَّة وبَنِي العَبَّاس، وأبطلْتُ حُكْم التَّمتع، وزدتُ فى حَدِّ الخَمْر مالم يكُنْ، وحَرَّمتُ بَيْعَ أُمَّهاتِ الأولاد، وقلتُ : برَأْيِي فى الدِّين، وبَرِئْتُ من شِيعَة أمير المؤمنين، وكنتُ مع هَوىٰ أهْلِ الشَّامِ والغَوْغاءِ القائمَة بالنَّهْروان، واتَّبعتُ خَطَأَ أبِي مُوسَى، وأدْخلْتُ فى القُرءان مالم يُثْبِتْه آبنُ مَســعود، وشركْتُ آبن مُلْجَم وأسعدته فى صَــداق قَطامِ، وبَرِئْتُ من مَحَبَّــة هَمْدَانَ، ولم أقُلْ باشتراط العِصْمَة فى الإمام، ودخلْتُ مع أهْلِ النصب الظُّلَّام .

قلتُ : قد ذكر فى "التعريف" فِرْقة الإمامية هذه من الشِّيعةِ الذين بهذه المملكة، ولم أعلم أين مكانُهم منها .

الفــرْقة الثـالثــة
(من الشِّيعَة الإسماعيلية)

وهم القائلون بإمامة إسْماعِيلَ بن جعفر الصَّادق، وأنَّ الأمامةَ آنتقلتْ إليــه بعد أبِيه دون أَخِيــه مُوسى الكاظم المقدّم ذكرُه فى الكلام علىٰ فِرْقة الإمَامِيَّــة . وهم

---

(١) الزيادة من "التعريف" (ص ١٥٩) .

يوافقون الإماميَّةَ المقدّمَ ذِكْرُهم فى سَوْقِ الامامة من أمير المؤمنين عَلِيّ بن أبى طالب رضى الله عنه إلىٰ جَعْفر الصَّادِق، ثم يَعْدِلُون بها عن مُوسَى الكَاظِم الذى هو الامام عنـد الإماميَّة إلىٰ إسْماعِيلَ هـذا ، ثم يَسُوقونَها فى بَنِيـه ، فيقولون : إنَّ الإمامة ٱنتقلَتْ بعد أمير المؤمنين علىٍّ رضى الله عنه إلىٰ ٱبْنِه الحَسَن، ثم إلىٰ أخيه الحُسَيْن، ثم إلىٰ ٱبنه عَلِيٍّ زَيْنِ العَابِدِينَ ، ثم إلىٰ ٱبنه محمد البَاقِر، ثم إلىٰ ٱبنه جَعْفر الصَّادِق ، ثم إلىٰ ٱبنه إسماعيلَ ــ الذى تُنْسَبُ إليه هذه الفِرْقَةُ ــ بالنَّصِّ من أبيه . فمن قائل : إن أباه مات قبله ، وٱنتقلت الإمامةُ إليه بمَوْته . ومن قائلٍ : إنه مات قبل أبيه . وفائدة النَّصّ ثُبوتُها فى بَنِيه بَعـدَه . ثم يقولون : إنها ٱنتقلت من إسماعيلَ المذكورِ إلىٰ ٱبْنِه محمد المَكْتُوم، ثم إلىٰ ٱبنه جَعْفر الصدق(١)، ثم إلىٰ ٱبنه محمد الحبيب، ثم إلىٰ ٱبْنه عُبَيدالله المَهْدِىّ أوّل خلفاءالفاطميين ببلادالمَغْرب، وهو جدّ الخُلفاء الفاطِمِيِّينَ بمِصْر، ثم إلىٰ ٱبنه القـائم بأمْرِ الله أبى القاسم محمد : ثَانِى خُلفَاءِ الفاطِميِّين ببـلاد المَغْرِب، ثم إلىٰ ٱبنـه المنصور بالله أبى الطاهر إسمـاعيل : ثالث خلفاء الفاطِميِّين ببلاد المغرب ، ثم إلىٰ ٱبنه المُعِزِّ لدين الله أبى تَمِيم مَعَـدّ : أوّلِ خلفاء الفاطِمِيِّينَ بمِصْر بعد قيامه ببلاد المَغْرب (وهو بانِى القَاهِرَة)، ثم إلىٰ ٱبنه العزيز بالله أبى المنصور نِزَار : ثانى خلفائهم بمصر، ثم إلىٰ ٱبنه الحـاكم بأمْرِ الله أبى عَلِيٍّ المنصور : ثالث خُلَفائِهم بمصر، ثم إلىٰ ٱبنه الظاهر لإعزازِ دِينِ الله أبى الحَسَن عَلِيٍّ : رابع خلفائهم بمصر، ثم إلىٰ ٱبنه المُسْتَنْصِر بالله أبى تَمِيم مَعَدّ : خامس خلفائهم بمصر .

ثم من هَاهُنا ٱفترقتِ الإسماعيليةُ إلىٰ فِرْقَتَيْنِ : مُسْتَعْلَوِيَّة ونِزارِيَّة .

فأمّا المُسْتَعلَوِيَّة فيقولون : إن الإمامةَ ٱنتقلتْ بعـد المُسْتَنصِر بالله المقدّمِ ذِكْرُه إلىٰ ٱبنه المُسْتَعلِي بالله، أبى القاسِم أحمد : سادس خلفائهم بمصر، ثم إلىٰ ٱبنه الآمِرِ

(١) كذا فى الأصول ووقع فى العبر «الصادق» .

بأحكام الله أبي عَلِيٍّ المنصور : سابع خُلَفائهم بِمِصْر؛ ثم إلىٰ ٱبنه[(١)] الحافظ لدين الله أبي المَيْمُون عَبدِ المَجِيدِ بن أبي القاسم : ثامن خلفائهم بِمِصْر؛ ثم إلىٰ ٱبنه الظافر بأمْرِ الله أبي المَنْصور إسْماعِيلَ ، تاسع خلفائهم بمصر؛ ثم إلىٰ ٱبنه الفَائِز بنَصْرِ الله أبي القاسم عِيسَى بن الظّافِر : عاشر خُلَفائِهم بِمِصْر؛ ثم إلى العاضِد لدين الله أبي مُحَمد عَبْد الله بن يُوسفَ بنِ الحَافِظ : حادِي عَشَر خُلَفائهم بِمِصْر، وهو آخرهم حتّى مات .

وأما النِّزارِيَّة فانهم يقولون : إنّ الإمامةَ ٱنتقلتْ بعد المُسْتَنْصِر إلىٰ ٱبنه نِزَارٍ بالنَّصِّ من أبيه دونَ ٱبنِهِ المُسْتَعلِي ؛ ويستَنِدُون فى ذلك إلىٰ أنَّ الحَسَن بن الصَّبَّاح كان من تَلامِذَة أحمَد بن غطاش صاحِبِ قَلْعةِ أصْبهان وألموت، وكان شَهْمًا عالمًا بالتَّعالِيم والنُّجوم والسِّحْر، فٱتَّهمه ٱبن غطاش بالدَّعوة للفاطِمِيِّين خُلَفاءِ مِصْر، فخاف وهَرَب منه إلىٰ مِصْر فى خلافة المُسْتَنصِر المقدَّمِ ذِكْرُه، فأكرمه وأمَرَه بدعاية النَّاس إلىٰ إمامَته ، فقال له ٱبن الصَّباح : من الإمام بعدك ؟ فقال له : ٱبني نِزَار، فعاد ٱبنُ الصَّباح من مِصْر إلى الشَّامِ والجَزِيرةِ وديار بَكْرٍ وبلاد الرُّوم، ودخل خُراسَانَ ، وعبر إلىٰ ما وراء النَّهر، وهو يدعو إلىٰ إمامةِ المستنصر وٱبنه نِزَار بعدَه . قال الشَّهْرَسْتانيُّ فى "النِّحَلِ والمِلَل" : وصَعِد قَلْعةَ ألموت فى شَعْبان سنة ثلاثٍ وثمانين وأرْبعِمائة وٱسْتَظْهر وتحصَّن .

ثم النِّزارِيَّة يزعُمون أنَّ نِزارًا المذكورَ خرج من الإسكندرية حَمْلًا فى بَطْنِ جارية، تَقِيَّةً علىٰ نَفْسِه ، وخاضَ بِلادَ الأعداء حتَّى صار إلىٰ ألموت . ورأيتُ فى المُغْرب

(١) الصواب «ثم الى الحافظ» وفى المقريزى ج ١ ص ٣٥٧ «ومن بعده الحافظ ... ... ٱبن الأمير أبي القاسم محمد» ووقع فى ج ٣ ص ٤٣١ من هـذا المطبوع «ثم ولى بعده ٱبن عمه الحافظ ... ... عبد الحميد بن الآمر أبي القاسم محمد الخ» وفيه بعض التصحيف فتنبه .

لأبن سَعِيد أنه إنّمـا صار من عَقِبِه مَن وَصل إلىٰ تِلْك البـلاد ، وصارت الإمامةُ فى بَنِيه هُنـاك .

والمستعلوية يُنْكِرون ذلك إنكارا ، ويقولون : إنه قُتِل[1] بالإسكندرية : سار إليه الأفضلُ بنُ أميرالجُيوش وَزِيرُالمسْتَعلِي وحاصره بالإسكندرية ، ثم ظَفِر به وأتىٰ به إلىٰ المستعلى ، فبنَىٰ عليـه حائطين فمـات ، ثم فرَّ بعضُ بَنِي نِزَارٍ إلىٰ بلاد المشارق[2] وأقام بالمَغْرِب ، والقائِمُون بها الآنَ من وَلَدِه ، وهو الذى تَشهدُ به كُتبُ التواريخ : كمُغْرِب آبن سَعيد وغيره .

ثم الإسماعيليَّـةُ فى الجمـلة : من المُسْتَعْلويّة والنِّزارِيَّة يسـمُّون أنْفُسَهم أصحابَ الدَّعوة الهَادِيَة ، تبعاً لإمامهم إسْمـاعِيلَ المذكور ، فإنه كان يسمَّى صاحِبَ الدَّعوة الهـادِيَة .

قال فى "التعريف" : وهم وإن أظهرُوا الإسلامَ وقالوا بقَوْل الإمامية ، ثم خالفُوهم فى مُوسى الكاظم وقالوا : إنَّ الامامة لم تَصِرْ إلا إلىٰ أخِيه إسْماعِيلَ ، فإنَّهم طائِفةٌ كافِرَةٌ يعتقِدُون التَّناسُخَ والحُلُول .

وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن مُلَخَّصَ مُعتَقِدِهم التَّناسُخُ . ثم قال : ولقـد سألتُ المقدَّمَ عليهـم والمُشارَ إليـه فيهم : (وهو مُبارَك بن عُلْوان) عن مُعتَقَدِهم وجاذَبْتُه الحديثَ فى ذلك مِرَارًا ، فظهر لى منـه أنَّهم يرَوْنَ أنَّ الأرواحَ مَسْجونةٌ فى هذه الأجسام المكَلَّفةِ بطاعة الإمام المطَهَّر علىٰ زَعْمِهم . فإذا آنتقلَتْ على الطاعة

---

(١) لعل الصواب «فر الى الاسكندرية» ليستقيم الكلام بعد وقد ذكر المقريزى خبره ج ١ ص ٤٢٣ على وجه الصحة فتنبه .

(٢) كذا بالأصل ولعل مراده بلاد مشارق أفريقية كما سيأتى .

كانتْ قد تخلَّصَتْ وآنتقلت للأنوار العُلْوِيَّة ، وإن آنتقلتْ على العِصْيانِ هَوَتْ في الظُّلُماتِ السُّفْلية .

وذكر في "العبر" : أنَّ منهم مَن يدَّعي أُلُوهيَّة الإمام بنَوْع الحُلُول، ومنهم من يدَّعي رَجْعةَ من مات منَ الأئمَّة بنَوْع التناسخ والرَّجْعة ، ومنهم من ينْتظِر مجيءَ من يُقْطَع بمَوْته، ومنهم من ينتظر عَوْدَ الأمر إلىٰ أهْلِ البيْت .

ثم المستَعْلوِيَّة والنِّزاريَّة يتَّفِقون في بَعض المعتَقَدات ويخْتلِفُون في بَعْضها .

فأمَّا مايتفقون عليه من الآعتقاد، فهم يتَّفِقُون علىٰ أنه لا بدَّ من إمامٍ معصومٍ: ظاهِرٍ أو مَسْتُور . فالأئمَّة الظاهِرُون هم الذين يُظهِرُون أنفُسَهم ويدْعُون الناسَ إلىٰ إمامتهم ، والمَسْتُورونَ هم الذين يَسْتَتِرُون ويُظهِرُون دُعاتَهم . وآخرُ الظَّاهرين عندهم إسماعيلُ الذى يُنْسَبون إليه، وأوّلُ المستورين آبنُه المكتوم . ومن مُعْتَقَدهم أنَّ مَن مات ولم يَعرِف إمامَ زَمانِه أو لم يكن في عُنُقه بَيْعةُ إمامٍ، مات ميتةً جاهِليَّةً . ويَرَوْن أن العِلْمَ لا يكون إلا بالتعليم من الأئمَّة خاصَّة، وأنَّ الأئمَّة هم هُداةُ الناس . ويقولون : إن للأئمَّة أدْواراً في كلِّ دَوْرٍ منها سبعةُ أئمَّة : ظاهرين أو مستورين . فإن كان أهلُ الدَّوْرِ ظاهرينَ يسمَّىٰ ذلك الدَّوْرُ دَوْرَ الكَشْف ، وإن كانوا مستورين يسمَّىٰ دَوْرَ السَّتْر . ويقولون بوجوب موالاة أهْلِ البَيْت، ويتبرءُون ممَّن خالفهم، ويَنسُبُونهم إلى الأخْذِ بالباطل، والوُقُوع في الضَّلال، لا سيَّما النَّواصِب، وهم الطائفة المعروفة بالناصِبيَّة أتباعُ [1] ، ويرمُونَهم بالعظائم، ويَنْسُبونهم إلى آعتِقادِ المُحَال والأخْذِ به . ومن خرج عندهم عن القَوْل بانتقال الإمامة بعد الحَسَن

(١) بياض في الأصول .

السِّبْط عليه السلام ، ثم أخيه الحُسَيْن ، ثم فى أئمّتهم المتقدّم ذكْرُهم ، إلى إمامهم (١) إسماعيلَ الذى يُنْسَبون إليه بالنَّصّ الجَلِيّ ، فقد حادَ عن الحَقّ . وهم يعظمون ويستعظمون القَدْح فيه ، وأن من وقع فى ذلك فقد ٱرتكب خَطَأً كبيرا .

ولدُعاة الأئمّة المستورين عندهم من المَكَانة وعُلُوّ الرُّتْبة الرُّتْبةُ العُظْمىٰ ، لا سيّما الداعى القائمُ بذلك أوّلًا : وهو الداعى إلىٰ محمد المكتوم أوّلِ أئمّتهم المستُورين علىٰ ما تقدّم ذكره ، فإن له من الرُّتْبة عندهم فوقَ ما لغيره من الدُّعاة القائمين بعده .

ومِمّا ٱشتهر من أمْرِ الدُّعاةِ لأئمّتهم المستورين أنه كان مِمَّن يُنْسَب إلى التَّشَيُّع رجُلٌ ٱسمه رَمضان ، ويقال : انه صاحب كتاب "الميزان" فى نُصْرة الزندقة ، فوُلِد له وَلَدٌ يقال له : مَيْمونٌ ، نشأ علىٰ أُهْبَةٍ فى التَّشَيُّع والعِلْم بأسرار الدُّعاء لأهْلِ البيت ، ثم نَشَأ لمَيْمُونٍ وَلَدٌ يقال له : عبدُالله ، وكان يعالج العيُونَ ويَقْدحُها ، فسُمِّيَ القَدّاح ، وٱطّلع علىٰ أسرار الدَّعْوة من أبيه ، وسار من نواحى كَرْخٍ وأَصْبهانَ إلى الأهواز والبَصْرةِ وسَلَمْيَةَ من أرْضِ الشام يدعُو الناسَ إلىٰ أهْلِ البَيْت ، ثم مات ونشأ له وَلَدٌ يسمّى أحمد فقام مقام أبيه عبدِ الله القَدّاحِ فى الدَّعْوة ، وصَحِبه رجلٌ يقال له رستم ٱبن الحُسَين بن حَوْشَب النَّجّارِ من أهل الكُوفَة ، فأرسله أحمدُ إلى اليَمَن ، فدعا الشِّيعَةَ باليَمن إلىٰ عبد الله المَهْدىِّ فأجابوه ، وكان أبو عبد الله الشِّيعىُّ من أهل صَنْعاءَ من اليَمَن ، وقيل من أهْلِ الكُوفة ، يَصْحَبُ ٱبنَ حَوْشب ، فحَظِىَ عنده وبعثه إلى المغرب . ومن نسب أحدًا من هذه الدعاة إلىٰ ٱرتكابِ مَحْظُورٍ أو ٱحتقِاب إثْم فقد ضلّ وخرج عن جادّة الصواب عندهم . ويَرَوْن تَخْطِئة من مالأَ على الإمام عُبيدالله المَهْدِىّ : أوّلِ أئمّتهم القائمين ببلاد الغَرْب علىٰ ما تقدّم ، وٱرتكابَه المحظورَ وضَلالَه عن

(١) بياض فى الأصول ولعله «امامهم إسماعيل» .

طريق الحقّ؛ وكذلك من خَذَل الناسَ عن ٱتّباع القائم بأمر الله بن عُبَيد الله المهدىّ ثانى خلفائهم ببلاد المَغْرب، أو نقض الدولة علىٰ المُعزّ لدين الله: أوّل خُلَفائهم بمصر؛ و يَرَوْنَ ذلك من أعظم العظائم، وأكبر الكبائر.

ومن أعيادهم العظيمة الخَطَر عندهم يَوْمُ غَدِيرِخُمٍّ (بفتح الغَيْنِ المعجمة وكَسْر الدال المهملة وسكونِ المُثنَّاة تَحتُ وراءٍ مُهمَلةٍ فى الآخر، ثم خاء معجمة مضمومةٍ بعدها ميمٌ): وهو غَيْضَة بين مَكّة والمدينة علىٰ ثلاثة أيام من الجُحْفَة. وسَبَبُ جَعْلِهم له عِيدًا أنهم يذكرون أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم نزل فيه ذات يوم فقال لعَلِىٍّ رضى الله عنه: «أللّهُمَّ من كنتُ مولاه فعَلِىٌّ مولاه، أللّهمّ وَالِ من وَالَاه، وعَادِ من عَادَاه، وٱنْصُرْ من نَصَره، وٱخْذُل من خَذَله، وأَدِرِ الحقَّ معه حَيْثُ دَار» علىٰ ما تقدّم نَحْوُه فى الكلام علىٰ يَمين الإمامية.

وقد كان للخلفاء الفاطميِّينَ بمصر بهذا العيد ٱهتِمامٌ عظيمٌ، ويكتُبون بالبِشَارة به إلىٰ أعمالهم، كما يكتبُون بالبِشَارة بعيدِ الفِطْر وعيدِ النَّحْر ونحوهما. ويَعْتقدون فى أَئمّتهم أنهم يعلمون ما يكون من الأمور الحادثة.

وقد ذكر المؤرِّخون عن عُبيد الله المهدىّ جَدِّ الخلفاء الفاطميِّين بمصر أنه حين بَنَى المَهْدِيَّة بمشارق أفْرِيقية من بلاد المَغْرِب طَلَع علىٰ سُورِها ورَمَىٰ بسَهْم وقال إلىٰ حَدِّ هذه الرمية ينْتَهِى صاحِبُ الحِمَار، فخرج بالمَغْرب خارِجىٌّ يُعرَفُ بأبى يَزِيدَ صاحبِ الحِمَار، وقصد المَهْدِيَّةَ حتَّى ٱنتهىٰ إلىٰ حَدِّ تلك الرمية؛ فرجع ولم يَصِل المَهْدِيَّة.

وكان الحاكِمُ بأمر الله أَحَدُ خُلَفاءِ مِصْر من عَقِب المهدىِّ المذكور يدَّعى عِلْمَ الغَيْب علىٰ المِنْبر بالجامع المعروف به على القُرب من باب الفُتوح بالقاهرة، فكتبوا له بِطَاقَةً فيها:

بالظُّلْمِ والجَوْرِ قد رَضِينَا * وليس بالكُفْر والحَماقَه

إن كنتَ أُوتيتَ علم غيب * بَيِّنْ لنا كاتِبَ البِطاقَه

فترك ما كان يقوله ولم يَعُدْ إليه ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

وهم يَقْدحون فى عَيَّاش(١) بن أبى الفُتوح الصِّنْهاجِىّ وزيرِ الظّافِر : أحَدِ الخلفاء الفاطِميِّين بمِصْر . وذلك أنّه كان له وَلَدٌ حسَنُ الصُّورة ٱسمه نَصْر ، فأَحبَّه الظافرُ المذكورُ حتّى كان يأتى إليه لَيْلًا إلىٰ بَيْته ، فرَمَىٰ عيَّاشٌ الظافرَ بٱبْنه ، وأمره أن يَسْتدعِيَه فاستدعاه ، فأتى إليه ليلَةً على العادة ، فٱجْتمع عيَّاشُ بن السلار(٢) هو وٱبنُه نَصْرٌ على الظافر وقَتَلاه ، وهربا إلى الشام ، فأسرهما(٣) الفرنج ، ثم فُدِيَ ٱبنُه وصُلِبَ علىٰ باب زويلة .

وهم يقدحون فى عَيَّاشٍ المذكورِ ويَرْمُونه بالنِّفاق بسَبَبِ ما وقع منه فى حَقِّ الظافر من رَمْيِه بابنه وقتله إياه .

قلتُ : وعَيَّاشٌ هذا هو الذى أشار إليه فى "التعريف" فى صُورَة يَمِينِ الإسماعيلية بابْنِ السلار . وهو وَهَمٌ منه ، إذ ليس عياشٌ بٱبن السلار ، وإنما ٱبنُ السلار هو زَوْج أمّ عَيَّاشٍ المذكور ، وكان قد وُزِّرَ للظّافرِ المذكورِ قبل رَبِيبه عَيَّاش وتلقَّبَ بالعادل ، وٱسْتولَىٰ على الأمْر حتّى لم يَكُنْ للظافر معه كلامٌ ، ثم دَسَّ عليه رَبِيبُه

---

(١) كذا فى الأصول بالمثناة التحتية والشين المعجمة ووقع فى ٱبن الأثير والمقريزىّ بالموحدة والسين المهملة .

(٢) سيأتى بعد أسطر التنبيه على هذه النسبة .

(٣) عبارة ٱبن الأثير (ج ١١ ص ٧٩) باختصار : فقتل عياشا الفرنج وأسروا ٱبنه ثم فداه الملك الصالح طلائع بن رزيك منهم وصلبه على باب زويلة .

عَيَّاشٌ مَنْ قَتَلَه ، ووُزِّر للظَّافِر بعـده . فابنُ السلار هو العادلُ وَزِيرُ الظافر أوَّلًا لا عَيَّاشٌ رَبِيبُه .

ومن أكبر الكبائر عندهم وأعظم العظائم أن يُرمَىٰ أحَدٌ من آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم لا سيَّما الأَئِمَّةُ بكبيرة ، أو ينْسُبها [أحد] إليهم ، أو يُوالى لهم عَدُوًّا أو يُعادِى وَلِيًّا .

⁂

وأما مايختص به المُسْتعلَوِية ، فانهم يُنْكِرون إمامة نِزَارِ بن المُسْتَنْصِر المقدّمِ ذِكْرُه ، ويكذِّبون النِّزارِيَّة فى قولهم : إن نِزارًا خرجَ حَمْلًا فى بَطْنِ جاريةٍ حتَّى صار إلىٰ بلاد الشَّرقِ . ويقولون : إنه مات بالإسكندرية مِيتَةً ظاهرة . ويقولون : إنه نازع الحَقَّ أَهْلَه وجاذب (١) من حيث إن الحقَّ فى الإمامَةِ والخلَافةِ كان لإمامهم المُسْتعلِي بالله فادَّعاه لنَفْسه . ويقولون : إن شِيعَتَه على الباطل ، وموافَقَتَهم فى ٱعتقادهم إمَامَتَه خَطَأٌ . ويَرَوْنَ من الضَّلال ٱتباعَ الحَسَن بنِ الصَّبَّاح داعيةِ نِزَارٍ والنَّاقِلِ عن المُسْتَنْصِر النَّصَّ علىٰ إمامته ، ويَرَوْنَ الكَوْنَ فى جُملةِ النِّزارِيَّة من أعظم الأضَالِيل ، لا سيَّما مَن كان فيهم آخِرَ أدْوار الأَئِمَّة التى هى فى كلِّ دَوْرٍ سبعةُ أئِمَّة ، علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه فى صَدْر الكلام علىٰ أصْلِ معْتَقَد هذه الفِرْقة .

ثم هم يعظِّمُون راشِدالدين سِنَان : وهو رَجلٌ كان بقِلَاع الدَّعْوة بأعمال طَرَابُلُس من البلاد الشاميـة فى زَمَنِ السلطان صَـلاحِ الدِّين يوسُـفَ بن أيُّوب ، ٱنتهت رِياسَتُهم إليه . قال فى "مسالك الأبصار" : وكان رَجُلًا صاحبَ سِيميا ، فأراهُم بها ما أضَلَّ به عُقولَهم : من تَخْييلِ أشخاصِ مَن مات منهم علىٰ طاعة أَئِمَّتِهم فى جَنَّاتِ النعيم ، وأشْخاصِ مَن مات منهم علىٰ عِصْيانِ أئِمَّتِهم فى النـار والجحيم ؛ فثَبَت ذلكَ

(١) بياض بالأصول ولعله : الخلافة ربّها ، كما سيأتى نقلا عن التعريف .

عندهم وآعتقدوه حَقًّا . ومن قدح فى ذلك فقد دَخَل فى أهْلِ الضلال . ويَقْدَحُون فى آبن السلار المقدَّمِ ذكْرُه ويسَفِّهون رَأْيَه[1] فيما كان منه : من إزالَة الخُطْبَة للفَاطِمِيِّين وحَطِّ رَايتِهم الصَّفْراء والخُطْبةِ لبَنِى العَبَّـاس ورَفْعِ رَايَتِهم السَّوْداء ، وما كان منــه من الفَعْلة التى آستولىٰ بها علىٰ قَصْر الفاطِمِيِّين ومَن فيه ، وأخْذِ أموالهم بعــد مَوْتِ العاضـــد .

وأما ما يختص به النِّزارِيَّة ، فانهــم يقولون : إنَّ الأمْرَ صار إلىٰ نِزَارٍ بعــد أبِيه المُسْتَنْصر علىٰ ماتقدّم ذكره ، وإن مَن جَحَد إمامتَه فقد أخْطَأَ ، ويزعمون أنه خرج من الإسكَنْدريَّة حَمْلًا فى بَطْنِ أَمَةٍ وخاضَ بلادَ أعْدائِه الذين هم المُسْتَعلَوِيَّة بمِصْر حتَّى صار إلىٰ بلاد الشرق . ويقولون : إن الآسم يغــير الصورة بمعنًى ؛ ويَرَوْن أن الطَّعْنَ على الحَسَن بن الصَّباح المقدّم ذكْرُه فيما نَقَله عن المُسْتَنْصِر من قوله : الإمَامَة بَعْدى فى وَلَدِى نِزَارٍ من أعْظَم الآثام ، ويعظِّمُون عَلَاء الدِّين صاحِبَ قَلْعَة ألموت ؛ وهى قَلْعــةٌ بالطَّالَقَان بناها الســلطان مَلِكْشاه السَّلْجُوقِىُّ . وذلك أنه أَرْســل عُقَاباً فبَرَّز فى مَكانِها ؛ فلمَّــا وَافَى مكانَها بَنَىٰ فيــه هذه القَلْعَــةَ وسمَّــاها ألموت ، ومعناه تَعْليمِ العُقَاب .

وعَلاءُ الدِّين هذا هو آبن جلال الدِّين الحَسَــن المَلقَّب بإلكِيَا ، وهو من عَقِب الحَسَن بن الصَّبَّاح المقدَّمِ ذكْرُه ، وكان أبوه جلالُ الدِّين قد أظهر شعائرَ الإسلام ، وكَتَب بذلك إلىٰ سائر بلاد الإسْماعِيلِيَّة بالعَجَم والشَّام فأُقِيمَتْ فيهــا ، ثم تُوُفِّى بقلعة أَلَموت المذكورةِ فى سنة ثمــان عشرةَ وستمائة ، فاستولَى آبنُه علاءُ الدِّين هذا علىٰ قَلْعة

(١) لعل الصواب « ويسفهون رأى صــلاح الدين يوسف بن أيوب » فانه هو الذى عمل ذلك العمل كما يشير إلىٰ ذلك فى اليمين الآتى والا فابن السلار قتل فى زمن الظافر .

أَلَموت المذكورة، وخالَف رَأْيَ أبيه المذكورِ إلىٰ مَذْهب النِّزارِيَّة، وصار رَأْسًا من رُءوسهم، والتَّبرِّى منه عندهم من أَشَدِّ الخَطَإ .

وٱعْلم أنَّ أصْلَ هـذه الفِرْقة كانتْ بالبَحْرَيْنِ فى المـائة الثانية وما بعدها ، ومنهم كانت القَرامِطَةُ الذين خَرجُوا من البَحْرَيْنِ حينئذ، نِسْبَةً إلىٰ رجلٍ منهم ٱسمه قَرْمط ، خرجَ فيهم وٱدّعَى النُّبوّةَ وأنَّه أُنْزِل عليـه كِتابٌ ؛ ثم ظهروا بالمَشْرِق ”بأَصْبهانَ“ : فى أيام السلطان مَلِكْشاه السَّلْجُوقِىِّ ، وٱشتهروا هنـاك بالباطنية : لأنهـم يُبْطِنون خلافَ ما يُظْهِرون ، وبالمَلاحِدَة : لأن مذهَبَهم كلَّه إلحْادٌ ؛ ثم صارُوا إلى الشَّام ، ونزلوا فيما حَوْلَ طَرَابُلُسَ ، وأظهروا دَعْوتَهم هناك ، وإليهم تُنْسب قِلاعُ الإسماعيلية المعروفةُ بقلاع الدَّعْوة ، فيما حَوْل طَرَابُلُس ، كَمِصْيافٍ ، والخَوَابِى ، والقَدْمُوس ، وغـــيرها .

ولـمَّا ٱفترقوا إلىٰ مُسْتَعلَوِيَّةٍ ونِزَارِيَّةٍ كما تقدّم، أخَذَ مَن منهم ببلاد المَشْرِق بمذْهَب النِّزارِيَّة، عملاً بدعوة ٱبن الصَّباح المقدّم ذِكْرُه ، وأخذ مَـنْ منهم بالشَّام بقلاع الإسماعيلية بمذْهَب المُسْتَعلَوِيَّة، وصاروا شِيعَةً لمَن بعد المُستَعْلى من خُلفاء الفاطميِّين بمصر، وٱشتهروا باسم الفِدَاوِيَّة، ووَثَبُوا على السُّلطان صلاح الدِّين يوسفَ بنِ أَيُّوبَ بالشام مَرَّاتٍ وهو راكِبٌ ليقتلوه فلم يتمكّنوا منـه . ثم صالحهم بعـد ذٰلك علىٰ قِلاعِهم بأعْمال طَرَابُلُس فى سَنة ٱثنتين وسبعين وخمسمائة ؛ ثم ٱنْتَمَوْا إلىٰ ملوك مِصْر فى أيام الظاهر بِيبَرْس، وٱشتهروا باسم الفِدَاوِيَّة لمفاداتهم بالمـال علىٰ مَن يَقْتُلونَه .

وقد ذكر فى ”مسالك الأبصار“ نقلاً عن مقدّمهم : مُبارك بن عُلْوان : أن كلَّ من مَلَك مِصْر كان مَظْهَرًا لهم . ولذلك يَروْنَ إئْتلافَ نُفُوسهم فى طاعته : لمـا ينتقلون إليـه من النعيم الأكبر فى زَعْمِهم . ورأيتُ نَحْوَ ذلك فى ”أَسَاس السِّياسة“ لابن ظافر ؛ وذكر أنّهم يرَوْن أن مُلوكَ مصْر كالنوّاب لأئِمَّتِهم : لقيامهم مَقَامهم .

أما أَيْمانُهم التى يُحَلَّفون بها فقد قال فى "التعريف" جَرْيًا على مُعْتَقَدِهم المتقدّم :
إن اليَمينَ الجامعــةَ لهم أن يقولَ : إنّنى وَاللهِ واللهِ الواحدِ الأحد ، الفَرْدِ الصَّــمَد ، القَادرِ القَاهرِ ، الذى لاإلٰه إلا هُوَ ، وحَقِّ أَئِمَّة الحَقِّ ، وهُداةِ الخَلْق ، عَلِيٍّ وَبنِيهِ أئمة الظُّهورِ والخَفَاءِ ، وإلّا بَرِئْتُ من صحيح الوَلَاء ، وصَدّقتُ أهْلَ الأباطيل ، وقُمْتُ مع فِرْقَةِ الضَّلال ، وآنتصبتُ مع النَّواصِبِ فى تَقْرِيرِ المُحال ، ولم أَقُلْ بآنتقالِ الإمامة إلى السَّيد الحُسَينِ ، ثم إلى بَنِيهِ بالنَّصِّ الجَلِيِّ ، مَوصُولة إلى جَعْفَر الصادق ، ثم إلى آبنه إسماعيلَ صاحِبِ الدَّعْوةِ الهَـادِية ، والأَثَرةِ الباقية ، وإلّا قَدحْتُ فى القَدَّاح ، وأَثَّمتُ الدَّاعِىَ الأوّل ، وسَعَيتُ فى آختــلاف الناس عليــه ، ومالأْتُ على السَّــيِّد المَهْدِىّ ، وخذَلْتُ الناسَ عن القـائم ، ونَقَضتُ الدَّولة على المُعِزّ ، وأنكرتُ أن يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ لايُعَدُّ فى الأعياد ، وقلتُ : أن لاعِلْمَ للائِمَّةِ بمـا يكون ، وخالفْتُ من آدَّعَى لهم العلم بالحِدْثان ، ورَمَيْتُ آلَ بَيْتِ محمدٍ بالعظائم ، وقلتُ فيهم بالكبائر ، ووَالَيْتُ أعداءَهم ، وعاديتُ أوْلياءَهم .

قال : ثم من هنا تُزادُ النِّزارِيَّة : وإلّا جَحَدْتُ أن يكونَ الأمْرُ صار إلى نِزَارٍ ، وأنه أتَى حَمْــلًا فى بَطْنِ جاريةٍ لخَوْفِهِ خَوْضَ بلادِ الأعداء ، وأنَّ الآسْم لم يُغَيِّر الصورة . وإلا طَعَنْتُ على الحَسَن بن الصَّـبَّاح ، وبَرِئْتُ من المَوْلَى علاءِ الدِّين صاحب الألَمُوت ، ومن ناصِرِ الدِّين سِـنَانٍ المُلَقَّبِ براشِـد الدِّين ، وكنتُ أوَّلَ المُعْتَـدِين ، وقلتُ : إنَّ مارَوَوْه كان من الأباطيــل ، ودَخَلْتُ فى أهْــلِ الفِرْيَة والأضَالِيل .

قال : وأمَّا مَن سِــواهم من الإسمــاعيلية المُنْكِرِين لإمامة نِزَارٍ ، فيقال لهم عِوَض هذا : وإلا قُلْتُ : إن الأمرَ صار إلى نِزَارٍ ، وصدَّقْتُ القائلين أنَّه خرج حَمْلًا فى بَطْن

جاريةٍ، وأنكرتُ ميتَتَه الظاهرةَ بالإسكندرية، وادَّعَيْتُ أنَّه لم يُنازِع الحقَّ أهْلَه، ويجاذِب الخلافة رَبَّهـا، ووافَقْتُ شيعَتَه، وتبِعتُ الحَسَن بن صَبَّاح، وكنتُ فى النِّزارِيَّة آخِرَ الأدْوار .

قال : ثم يجمعهم آخِرَ اليمين أن يُقـال : وإلَّا قلتُ مقالةَ ٱبن السَّـلار فى النِّفاق وسَدَّدْتُ رَأْىَ ٱبن أَيُّوبَ، وألْقَيتُ بِيَدِى الرَّايةَ الصَّفْراءَ، ورَفَعْتُ السَّوْداءَ، وفعلتُ فى أهْلِ القَصْرِ تِلْكَ الفِعالَ، وتمحَّلْتُ مثل ذلك المُحَال .

قلتُ : ما ذكره فى "التعريف" فيما تُزَادُه النِّزارية : «ومِنْ ناصِرِ الدِّينِ سِنَان المُلقَّبِ براشد الدِّين» وَهَمٌ : فانَّ سنانا المذكورَ إنَّمـا هو من إسماعيلية الشَّام الذين هم شِيعَةَ المُسْتعلَوِيَّة لا من الإسماعيلية النِّزَارِيَّة الذين هم ببلاد المَشْرق، علىٰ ما تقدَّم بيـانه . فكان من حَقِّه أن يُلْحِقَ ذلك بيَمِينِ مَن سـواهم من الإسماعيلية الذين هم المستعلوية . وكذلك قوله : ثم يجمعهم آخِرُ اليمين أن يقال : «وإلَّا قلتُ مقالة ٱبن السَّلار فى النِّفاق، وسَدَّدْتُ رَأْىَ ٱبن أَيُّوبَ» إلىٰ آخره، فإنَّ ذلك ممـا يختص بالمُسْتَعْلَوِيَّة، لأن ٱبن السَّلار كان وَزِيرَ الظافر كما تقـدّم، والظافرُ من جُمْلة الخلفاء القائمين بِمِصْر بعد المُسْتعلِي، الذين خالَفتِ النِّزارِيَّةُ فى إمامتهم . وكذلك قَضيةُ ٱبن أيُّوبَ إنمـا كانت مع العَاضِد آخِر خُلَفَائِهم بمصر، وكلُّ ذلك مختصٌّ باسماعيلية الشَّام الذين هم شِيعَةُ المستعلوية دون النِّزارِيَّة، وحينئذٍ فكان من حقِّه أن يقتصِرَ فى زيادة يَمِين النزارية علىٰ آخر «وبَرِئْتُ من المَوْلىٰ علاءِ الدِّين صاحِبِ ألموت» ويَزِيدَ فى يَمِين مَن سواهم من الإسمـاعيلية بعـد قوله آخر الأدوار : «وإلَّا بَرِئْتُ من ناصر الدِّين سنان المَلقَّبِ براشِـد الدِّين، وكنتُ أوَّلَ المُعْتَـدِينَ، وقلتُ : إنَّ ماراه كان من الأباطيل، ودَخَلْتُ فى أهْلِ الفِرْيَةِ والأضاليل» ثم يقول بعد ذلك : «وإلَّا قلتُ

مَقالةَ ٱبنِ السَّلار فى النِّفـاق ، وسدَّدْتُ رَأْىَ ٱبن أيُّوبَ ، وألقيْتُ بيَـدى الرَّاية الصَّفْراءَ ، ورَفَعْتُ السَّوْداء ، وفعلتُ فى أهـل القَصْر تلك الفعال ، وتمحَّلْتُ مثل ذلك المُحَال » .

الفِرْقة الرابعـــة
(من الشِّـيعةِ الدُّرْزيَّة)

قال فى " التعريف " : وهُم أتباعُ أبى محمدٍ الدُّرْزىّ . قال فى " التعريف " : وكان من أهْلِ مُوالاةِ الحاكم أبى علىٍّ المنصورِ بن العَزيز خَليفةِ مصر . قال : وكانوا أوّلًا من الإسمـاعيليَّة ، ثم خرجوا عن كلّ ما تمحَّلُوه ، وهَـدَموا كلَّ ما أثَّلُوه ، وهم يقولون برَجْعــةِ الحاكم ، وأن الألوهية ٱنتهتْ إليــه وتديرت ناسُوتَه ، وهو يَغيبُ ويظْهر بهَيْئته ويقتلُ أعْداءَه قتْـل إبادةٍ لامَعادَ بعده ، بل ينكرون المَعادَ من حيثُ هو ، ويقولون نحْو قولِ الطبائعيــة : إن الطبائع هى المُولِّدة ، والموتَ بفَناء الحرارة الغريزية ، كانْطفاءِ السراج بفَنَـاء الزَّيْت إلا من ٱعْتُبِط ، ويقولون : دَهْرٌ دائم ، وعالَمٌ قائم ؛ أرحامٌ تدفع ، وأرضٌ تَبْلع ؛ بعد أن ذكر أنهم يستبيحون فُروجَ المحارم وسائر الفروج المحرَّمة ، وأنهم أشـدّ كُفْرا ونِفاقًا من النُّصَيرِيَّة الآتِى ذكْرُهم ، وأبعدُ من كلِّ خَيْرٍ وأقْربُ إلىٰ كلِّ شَرٍّ .

ثم قال : وأصـلُ هذه الطائفة هم الذين زادوا فى البَسْملةِ أيَّام الحاكم ، فكتبوا : باسم الحاكمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم ، فلما أُنْكر عليهم كتبوا : باسم اللهِ الحاكم الرحمنِ الرحيم ، فجعلوا فى الأوّل اللهَ صِفَةً للحاكم ، وفى الثانى العكس . وذكر أن منهم أهل كِسْروان ومَنْ جاوَرَهم . ثم قال : وكان شَيخُنا ٱبن تَيْمِيَةَ رحمه الله تعالىٰ يَرىٰ

أنَّ قِتالَهم وقِتالَ النُّصَيْرِيَّةِ أَوْلىٰ من قتال الأَرْمَنِ : لأنهم عَدُوٌّ فى دار الإسلام وشَرُّ بقائِهم أَضَرُّ .

وقد رتَّب علىٰ هذا المُعْتَقَدِ أَيْمَانَهم فى "التعريف" فقال : وهؤلاء أيمانهم .

إنَّنى واللهِ وحَقِّ الحاكِم ، وما أعتقده فى مَوْلاىَ الحاكِم ، وما آعْتَقَده أبُو محمد الدُّرزِىّ الحجةُ الواضحه ، ورآه الدُّرْزِىّ مثل الشَّمس اللَّائحَه ، وإلا قلتُ : إن مَوْلاى الحاكِمَ مات وبَلِى ، وتفرَّقَتْ أَوْصالُه وفَنِى ، وآعتقدتُ تبديلَ الأرض والسماء ، وعَوْدَ الرِّمَم بعد الفَناء ، وتبِعْتُ كُلَّ جاهل ، وحظَرْتُ علىٰ نَفْسى ماأُبِيحَ لى ، وعملتُ بيَدِى علىٰ ما فيه فَسادُ بَدَنِى ، وكفَرتُ بالبَيْعةِ المأخوذه ، وأَلْقيتُها ورائى مَنْبُوذه .

الفِــرْقة الخامســة

(من الشِّيعة النُّصَيْرِيَّة بضم النون وفتح الصاد المهملة)

قال فى "إرشاد القاصد" : وهم أتباع نُصَيرٍ غُلامِ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهم يدَّعون ألوهية علىٍّ رضى الله عنه مُغالاةً فيه . قال الشَّهْرَسْتانِىُّ : [ولهم جماعةٌ ينصرون مَذْهَبَهم ويَنُوبُون عن أصحاب مقالاتهم] (١) قال : وبينهم خلافٌ فى كَيْفية إطلاقِ الأُلوهيَّة علىٰ الأئمة [من أهل البيت] (١) وآختلافهم راجع (٢)

(١) الزيادة من «الملل والنحل» للشهرستانى ص ١٠٩ .

(٢) بياض فى الأصول مقدار ثلاثة أسطر .

ويزعمون أن مَسْكن علىّ السَّحاب ، وإذا مرّ بهم السَّحابُ قالوا : السلامُ عليك ياأبا الحَسَن ، ويقولون : إن الرَّعدَ صَوْتُه ، والبرقَ ضحكُه ، وهم من أجْلِ ذلك يعظِّمُون السَّحابَ ؛ ويقولون : إن سَلْمَانَ الفارِسىّ رَسُولُه ، وإن كَشْفَ الحجابِ عمّا يقولُه من أىِّ كتابٍ بغير إذْن ضلالٌ ، ويُحبُّون آبن مُلْجَم قاتِل علىٍّ رضى الله عنه ، ويقولون : إنه خَلَّص اللاهُوتَ من النَّاسُوت ، ويُخَطِّئُونَ من يلعنه .

قال فى "التعريف" : ولهم خطابٌ بينهم ، مَنْ خاطبوه به لا يَعودُ يرجع عنهم ولا يُذيعه ولو ضُرِب عنقُه . قال : وقد جُرِّب هذا كثيرا ، وهم ينكرون إنكاره .

قال فى "إرشاد القاصد" : وهم يُخفون مقالتَهم ، ومن أذاعها فقد أخْطأ عندهم ، ويرَوْن أنهم على الحقِّ ، وأنَّ مقالتَهم مقالةُ أهل التَّحقيق ، ومن أنْكر ذلك فقد أخطأ .

قال فى "التعريف" : ولهم [آعتقاد] فى تعظيم الخَمْر ، ويَرَوْن أنها من النُّور . ولَزِمهم من ذلك أن عظَّمُوا شَجَرة العِنَبِ التى هى أصْلُ الخَمْر حتَّى آستعظَمُوا قَلْعَها . ويزعمون أن الصِّدِّيق وأميرَ المؤمنين عُمَر وأميرَ المؤمنين عُثمانَ رضى الله عنهم تعدَّوْا عليه ومنعُوه حقَّه(١) من الخلافة ؛ كما تعدَّىٰ قابيلُ بن آدمَ عليه السلام علىٰ أخيه هابيل ، وكما آعْتَدىٰ النُّمرود على الخليل عليه السلام ، وكما يقوم كلُّ فِرْعَوْن من الفراعنة علىٰ نَبِيٍّ من الأنبياء عليهم السلام .

قال فى "التعريف" : وهى طائفةٌ ملعونةٌ مَرْذُولة مَجوسِيَّةُ المعْتَقَد ، لا تُحَرِّم البناتِ ولا الأَخَواتِ ولا الأُمَّهاتِ . قال : ويُحكَىٰ عنهم فى هذا حكايات .

وقد رَتَّب فى "التعريف" حَلِفَهم علىٰ مقتضىٰ هذا المعْتَقَد ، فقال : وأَيْمانُهم : إنَّنى وحقِّ العلىّ الأعْلىٰ ، وما أعْتقِدُه فى المَظْهرِ الأسْنىٰ ؛ وحقِّ النُّور وما نَشَأ منه ،

(١) الضمير راجع الى "على بن أبى طالب" وان لم يذكر .

والسَّحابِ وساكِنِه . وإلّا بَرِئْتُ من مولاى علىٍّ العلىِّ العظيم، وولَائِى له، ومظاهر الحقِّ، وكشفْتُ حجابَ سَلْمانَ بغير إذْن، وبَرِئْتُ من دَعْوة الحُجّة نُصَيْر، وخُضتُ مع الخائضين فى لَعْنة آبن مُلْجَم، وكفرتُ بالخطاب، وأَذعْتُ السِّرَّ المصُونَ، وأنكرتُ دعوىٰ أهْل التَّحقيق، وإلّا قَلعتُ أصْلَ شَجرةِ العِنَب من الأرْض بيَدى حتّى أجتَثَّ أصُولَهَا وأمنع سَبيلَها، وكنتُ مع قابيلَ علىٰ هابيلَ، ومع النُّمرودِ علىٰ إبراهيم، وهكذا مع كل فِرْعَوْن قام علىٰ صاحبه، إلىٰ أن ألقىَ العَلِىَّ العظيمَ وهو علىَّ ساخِطٌ، وأبرأُ من قَوْل قَنْبَر، وأقول : إنه بالنار ما تَطَهَّر .

الطائفة الثالثة

(من أهل البِدَع القَدَرِيَّة)

وهم القائلون بأن لا قَدَر سابِقٌ، وأن الأمر أُنُفٌ : يعنى مُسْتأنَفًا، ولكنهم لما سمعوا قولَ النَّبىّ صلى الله عليه وسلم « القَدَرِيَّة مجُوسُ هذه الأمَّة » قَلَبُوا الدليل وقالوا بمُوجَب الحديث، وقالوا : القَدَرِيَّة آسمٌ لمن يقول بسَبْقِ القَدَر . ثم غلَب عليهم آسم المُعْتزِلَة بواسطة أن وَاصِلَ بنَ عَطاءٍ أحَدَ أئمَّتِهم كان يقرأ علىٰ الحَسَن البَصْرِىّ فاعْتزله بمسْألةٍ خالفَه فيها . وهم يُسَمُّون أنفسهم أهْلَ التَّوحيد [وأهلَ العَدْل] ويَعْنُون بالتوحيد نَفْىَ الصفات القديمة عن الله تعالىٰ : كالحياة والعِلْم والإرادة والقُدْرة، وأنه تعالىٰ حَىٌّ بذاته، [عالم بذاته] مُرِيدٌ بذاته، قادرٌ بذاته، لا بحَياةٍ وعِلْمٍ وإرادةٍ وقُدْرةٍ، ويَعْنون بالعَدْل أنّهم يقولون : إنَّ العبدَ إنما يستحقُّ الثَّوابَ والعِقابَ بفعْله الطاعةَ والعِصْيانَ، باعتبار أنَّه الخالقُ لأفعال نَفْسه دُونَ الله تعالىٰ، تَنْزِيهًا له تعالىٰ عن أن يضاف إليه خَلْقُ الشَّرِّ : من كُفْرٍ ومَعْصِية . وإذا كان العبدُ هو الخالقَ لأفعال نَفْسه المُوجِدَ لها فليس قَدَرٌ سابِق .

ولهم أَئِمَّةٌ كثيرةٌ ، لهم مُصَنَّفات فى الأصول والفروع : منهم وَاصِلُ بنُ عَطَاء ، وأبو الهُذَيْل العَلَّافُ ، وإبراهيم النَّظَّام ، وبِشْرُ بنُ المُعْتَمِر ، ومَعْمَر بن عَبَّاد ، وأبو عُثمان الجاحظ ، [وأبو عَلِيٍّ الجُبَّائِى] (١) وابنُه أبو هاشم ، وغيرُهم . وعندهم أنَّه لا قَدَرَ سابقٌ بل الأمر أُنُف ، وأن الله تعالىٰ إنما يخلق الأفعال والمشيئة ، وأن العبدَ هو المُكْتسِبُ لأفعاله كما تقدّم .

وممّن عَلَتْ رُتْبَتُه فيهم الجَعْدُ بن دِرْهَم ، ٱجتمع علىٰ مَرْوانَ بنِ محمـدٍ آخرِ خُلَفاء بنى أُمَيَّة ، وأخذ عنه مَرْوانُ مَذْهَبَــه فى القَوْل بالقَدَر وخَلْقِ القرءان ، وعَلَتْ رُتْبَتُه عنده ، وبه سُمِّى مَرْوانُ المذكورُ الجَعْدِىَّ . وكانت له واقعةٌ مع هشام بن عبد الملك ٱبن مَرْوانَ . ويستعظمون الإيمـانَ بالقَدَر : خَيْرِه وشَرِّه ، ويتبرءون منه ، وينكرون القول بأنَّ ما أصاب الإنسان لم يكن ليُخْطِئَه وما أخطأَه لم يكن ليُصيبَه . ويقولون : إذا كان أَمْرٌ مفروغٌ منه ففيمَ يُسَدِّدُ الإنسانُ ويُقارِب؟ . ويطعنون فى رُوَاة حديث : « ٱعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لمـا خُلِقَ له » . ويتأوّلُون قولَه تعالىٰ : ﴿وَإِنَّه فى أُمِّ الكِتَاب لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيم﴾ . ويَستعظِمُون البراءةَ من ٱعتقادهم ، ولِقاءَ الله تعالىٰ على القَوْل بأن الأَمْرَ غيرُ أُنُف .

وقد رتَّب فى "التعريف" أَيْمـانَهم علىٰ هذا المُعْتَقَد ، فقال :

ويَمِينُهم : واللهِ واللهِ واللهِ العظيمِ ذِى الأَمْرِ الأُنُف ، خالقِ الأَفعالِ والمَشِيئَة . وإلّا قلتُ : بأن العبــدَ غيرُ مُكْتَسِبٍ ، وأنَّ الجَعْــدَ بنَ دِرْهَم محتَقِبٌ ، وقلتُ : إن هشامَ بنَ عَبــدِ المَلِك أصاب دَمًا حلالًا منه ، وإن مَرْوانَ بنَ محمد كان ضالًّا فى ٱتِّباعه ، وآمَنتُ بالقَــدَرِ خيرِه وشَرِّه ، وقلتُ : إن ما أصــابنى لم يكن ليُخْطِئَنى

(١) الزيادة عن «خطط المقريزى» ج ٢ ص ٣٤٨ .

وما أخْطَأَنِى لم يكن لِيُصيبَنى ، ولم أَقُلْ : إنه إذا كان أمْرٌ قد فُرِغَ منه ففِيمِ أُسَدِّد وأقارِبُ ، ولم أطعَنْ فى رُواةِ حديث « آعمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لمـا خُلِقَ له » ولم أتأوَّلْ معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ . وبَرِئْتُ ممـا أعتقد ، ولَقِيتُ اللهَ وأنا أقول : إنَّ الأمرَ غيرُ أُنُف . وبالله التوفيق والعِصْمة .

المهيـــــع الثـانى

(فى الأَيْمـان التى يُحَلَّف بها أهلُ الكُفْر ممَّن قد يُحْتاج إلىٰ تَحْليفه ، وهم علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(مَن زعم منهم التَّمسُّكَ بشريعة نَبِيٍّ من الأنبياء عليهم السلام ، وهـــم أصحـاب ثلاث ملَل)

المـــلّة الأولىٰ

(اليَهُـــود)

وآشتِقاقُها من قولهم : هَادَ إذا رَجَع . ولزِمَها هذا الأسْمُ من قَوْلِ مُوسَىٰ عليـه السـلام : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى رجَعْنا وتضرَّعْنا . ومُنْتَحِلُها اليَهُودُ المتمسِّكون بشريعة مُوسَى عليه السلام . قال السلطان عِمـادُ الدِّين صاحِبُ حماةَ فى تاريخه : وهم أعَمُّ من بنى إسرائيل : لأن كثيرًا من أجناس العَرَبِ والرُّوم وغيرهم قد دخلوا فى اليَهُودِيَّة وَليسُوا من بنى إسرائيل . وكِتابهـم الذى يتمسكون به "التَّوراة" وهو الكتاب الذى أُنْزل علىٰ مُوسَى عليه السلام .

قال أبو جعفر النَّحّاس، فى "صناعة الكُتّاب" : وهى مُشْتَقَّةٌ من قولهم : وَرَتْ نَارِى ووَرِيَتْ، وأوريْتُها إذا آستخرجْتَ ضَوْءَها : لأنه قد آستخرج بها أحكام شِرْعة موسىٰ عليه السلام، وكان النَّحّاس يجنح إلىٰ أن لفظ التَّوراة عَرَبِىّ، والذى يظهر أنه عِبْرانىٌّ مُعَرَّب : لأن لغة مُوسَى عليه السلام كانت العِبْرانية، فناسب أن تكون من لُغَته التى يفهمُها قَوْمُه، قال الشَّهْرَسْتَانِىُّ فى "النِّحَل والمِلَل" : وهى أوّل مُنْزَلٍ علىٰ بنى إسرائيل سُمِّى كتابا، إذْ ماقبلها من المُنَزَّل إنما كان مَواعِظ ونحوها . قال صاحبُ حماة : وليس فيها ذِكْر القيامة ولا الدّارِ الآخرةِ ولا بَعْثٍ ولا جَنَّةٍ ولا نَارٍ، وكلُّ وَعِيدٍ يقع فيها إنمـا هو بمجازاة دُنْيوِيَّة، فيُوعَدُون علىٰ مجازاة الطّاعةِ بالنَّصر علىٰ الأعداء، وطُولِ العُمْر، وسَعَةِ الرِّزق ونحو ذلك، و يوعدُون علىٰ الكُفْرِ والمعْصيَةِ بالموت ومَنْع القَطْر والحُمَّيـات والحَرْب، وأن يَنْزِلَ عليهـم بدل المَطَرِ الغُبَارُ والظُّلْمة ونحو ذلك، يشهدُ لما قاله قوله تعالىٰ : ﴿فبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ . الآية، فجعـل الظُّلْم سببًا للتحريم . قال : وليس فيها أيضًا ذمُّ الدنيا، ولا طَلَبُ الزُّهْد فيها، ولا وظيفةُ صَلَواتٍ معلومة، بل فى التوراة الموجودة بأيديهم الآنَ نسبةُ أمورٍ إلى الأنبياء عليهم السلام من الأسباط وغيرهم لا تَحِلُّ حكايَتُها .

وآعلم أنَّ التَّوراةَ علىٰ خَمْسةِ أسفار :

أوّلُهـا — يشتملُ علىٰ بَدْءِ الخليقة والتاريخ من آدَمَ إلىٰ يُوسُفَ عليه السلام .

وثانيها — فيه آســتخدامُ المِصْرِيِّين بنى إسْرائيل، وظهورُ موسى عليــه السلام عليهم، وهَــلاكُ فِرْعَونَ، ونَصْبُ قُبَّة الزمان وهى قُبَّة [كان ينزل علىٰ مُوسَى فيهـا الوَحْيُ] (١) وأحوالُ التِّيه، وإمامةُ هٰرُونَ عليه السلام، ونزولُ العَشْرِ كلمات فى الألواح

(١) بياض فى الأصل والتصحيح مما سيأتى قريبا . انظر ص ٢٥٨ من هذا الجزء .

علىٰ موسى عليه السلام ، وهى شبه مختصر ممّا فى التوراة يشتمل علىٰ أوامرَ ونَواهٍ وسماعُ القَوْم كلامَ الله تعالىٰ . وقد أخبر الله تعالىٰ عنها بقوله : ﴿وَكَتَبْنا لَهُ فى الْأَلْوَاحِ من كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ﴾ . قال مجاهد : وكانت الألواح من زُمُرُّذَةٍ خضراء، وقال ابن جُبَير : من ياقوتة حمراء، وقال أبو العالِيَة : من زَبَرْجَدٍ، وقال الحَسَن : من خَشَبٍ نزلتْ من السماء، ويقال : إنها كانت لَوْحَين . وإنما جاءت بلفظ الجَمْع : لأن الجمع قد يقع علىٰ الاثنين، كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ وإنْ كَانَ لَهُ إخْوَةٌ ﴾ والمراد اثنان .

وثالثها — فيه كيفية تَقْرِيب القَرَابِين علىٰ سبيل الإجمال .

ورابعها — فيه عَدَدُ القَوْمِ، وتَقْسيمُ الأَرض بينهم، وأحوالُ الرُّسُل الذين بعثهم مُوسَى عليه السلام من الشام، وأخبارُ المَنِّ والسَّلْوَىٰ والغَمام .

وخامسها — فيه أحكامُ التَّوْراةِ بتفصيل المُجْمل، وذِكْرُ وفَاةِ هٰرُونَ ثم مُوسَى عليهما السلام، وخِلافةُ يُوشَعَ بن نون عليه السلام بعدهما .

ثم قد ذكر الشَّهْرَسْتانِىُّ وغيره أن فى التَّوراة البِشارةَ بالمَسِيح عليه السلام، ثم بنَبِيِّنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، إذ قد وردَ ذِكْرُ المَشِيحا فى غير مَوْضِع ، وأنه يخرج واحدٌ فى آخر الزمان ، هو الكَوْكَبُ المُضِىءُ الذى تُشْرِق الأرض بنُوره . وغير خافٍ علىٰ ذى لُبٍّ أنَّ المرادَ بالمَشِيحا المَسِيحُ عليه السلام، وأنَّ المرادَ بالذى يخرجُ فى آخر الزمان نَبِيُّنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم ؛ بل ربَّما وقعت البِشَارة بهما جميعًا فى موضع واحدٍ، كما فى قوله : إن الله تعالىٰ جاءَ من طُورِسَيناء وظهر من سَاعِير وعلن بفَارَان[1] .

---

(١) كذا فى الشهرستانى أيضا وفى معجم البلدان لياقوت : وأشرق من ساعير واستعلن الخ .

وسَاعِير هى جبال بَيْت المَقْـدس حيثُ مَظْهرُ المَسِيح عليه السـلام، وفَارَانُ جِبالُ مَكَّةَ حيثُ ظهر النبىُّ صلى الله عليه وسلم .

قال الشَّهْرَسْتَانِىُّ : ولمـا كانت الأسرارُ الإلهيّـة ، والأنوارُ الرَّبانيَّـة، فى الوَحْىِ والتنزيل، [والمناجاة والتَّأْويل] (١) علىٰ ثلاث مراتب : مَبْـدَإٍ ووَسَطٍ وكَمَال ، وكان المَجِىءُ أشـبهَ شَىْءٍ بالمبدإ ، والظهورُ أشْـبهَ بالوَسَط ، والعَلَنُ أشبه بالكمال ، عبَّر فى التوراة عن ظهور صُبْح الشريعة [والتَّنْزِيل] (١) بالمَجِىءِ [علىٰ طورسيناء] (١) ، وعن طلوع شمْسِها بالظهور [علىٰ ساعير] (١)، وعن بلوغ دَرَجَة الكمال [والاْستواء] (١) بالعلن [علىٰ فاران] (١)، وقد عَرَفوا النبىَّ صلى الله عليه وسلم بوَصْفِه فى التَّوْراةِ حَقَّ المَعْرفة : ﴿ فَلَمَّـا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ . وقد ذكر المفسِّرُونَ عن ٱبن عَبَّاس رضى الله عنه أن مُوسَى عليـه السلام لمـا ألقَ الألواح عند رجوعه إلىٰ قومه ، تكَسَّرتْ فلم يَبْقَ منها إلا سُـدُسها . ويروى أن التَّوراة كانت سـبعين وَسْق بَعِيرٍ (٢) وأنها رُفِع منها سِـتّةُ أسباعِها وبَقِيَ السُّـبع ، ففى الذى بَقِيَ الهُـدَىٰ والرحمة ، وفى الذى رُفِعَ تَفْصِيل كلِّ شَىْءٍ .

وليعلم أنَّ اليهودَ قد ٱفترقوا علىٰ طَوائِفَ كثيرةٍ، المشهورُ منها طائفتان :

الطائفـــة الأولىٰ

(المُتَّفِق علىٰ يَهُودِيَّتِهـم ، وهم القَرَّاءُون) (٣)

وهم وإن كانوا فرقتين، فإنَّهم كالفِرْقة الواحدة، إذْ تَوْراتُهم واحدةٌ، ولا خلافَ فى أصْـلِ اليَهُودِيَّة بينهـم . وقد ٱتفقَ الجميعُ علىٰ ٱستخراج ستمـائة وثلاثَ عَشْرةَ

(١) الزيادة عن «الملل والنحل» للشهرستانى (ص ١٢٥) .

(٢) بيـاض بأصـــله .

(٣) أى قرائين وربانيين بدليل ما يأتى .

فَرِيضةً من التَّوراة يتعبَّدُون بها . ثم كلُّهم متفقُونَ علىٰ نُبُوَّةِ مُوسَىٰ وهَرُونَ ويُوشَعَ عليهم السلام ، وعلىٰ نُبُوَّةِ إبراهيم وإسْحٰق ويَعْقوب : وهو إسْرائيل ، والأسْباطِ : وهم بَنُوهُ الاْثنا عشر الآتى ذكرهم آخرا (١) . وهم يَنْفرِدُون عن الطائفة الثانيــة الآتى ذكرها : وهى السَّامرة بنُبوَّة أنبيــاءَ غيرِ مُوسَىٰ وهٰرُون ويُوشــع عليهم الســلام ، وينقلون عن يُوشَعَ تسعةَ عَشَرَ كِتاباً زيادةً على التَّوراةِ يعبِّرون عنها بالنُّبوَّات تعرفُ بالأُوَل .

ثم الرَّبَّانيُّون يَنفرِدُون عن القَرَّائِين بشُرُوحٍ موضوعةٍ لفرائِضِ التَّوْراة المتقــدِّمة الذِّكر ، وضَعَها أَحْبارُهم ، وتَفْريعاتٍ على التَّوْراة ينقلُونها عن مُوسَى عليه السلام .

ويتَّفِقُ الرَّبَّانيُّون والقَرَّاءُون علىٰ أنَّهم يستقبلون صَخْرةَ بَيْتِ المَقْدِس فى صَلاتهم ، ويوجِّهُون لهــا مَوْتَاهُم ، وعلىٰ أن الله تعالىٰ كلَّم مُوسَىٰ عليه السلام علىٰ طُورِسيناءَ : وهو جَبَلٌ فى رأس بَحْرِ القُلْزُم فى جهة الشَّمال علىٰ رأْسِ جَزِيرةٍ فى آخره ، داخلٌ بين ذراعين يكْتَنِفانه .

وهم مختلفون فى أمْرينْ :

أحدهما — القولُ بالظَّاهرِ والجُنُوحِ إلى التأويل . فالقَرَّاءُون يَقِفُون مع ظواهرِ نُصوصِ التَّوْراةِ ، فيَحْمِلُون ما وقع فيها منسوباً إلى الله تعالىٰ : من ذِكْرِ الصُّورَة ، والتكلُّم ، والاْستِواءِ على العَرْش ، والنُّزولِ علىٰ طُورِسيناءَ ، ونحو ذٰلك علىٰ ظواهره ، كما تقوله الظاهرِيَّة من المســلمين ، ويَنْجَرُّونَ من ذلك إلى القَوْل بالتَّشْبيه ، والقَوْلِ بالجِهَــةِ . والرَّبَّانيُّون يذهبون إلىٰ تأوِيلِ ماوقع فى التَّوراة من ذلك كلِّه ، كما تفعــل الأشْعَرِيَّة من المسلمين .

(١) أى فى ص ٢٦٤ من هذا الجزء .

الثانى — القَوْلُ بالقَدَر . فالرَّبّانيُّون يقولون بأن لا قَدَرَ سابِق وأن الأمْر أُنُفٌ كما تقوله القَدَرِيَّة من المسلمين . والقَرَّاءُون يقولون بسابِق القَدَر كما تقوله الأشْعَرِيَّة . أما ماعَدا ذلك فكِلا الفريقين يقولون : إن الله تعالىٰ قَديمٌ أَزَلِيٌّ واحِدٌ قادِرٌ ، وإنه تعالىٰ بعث مُوسَى بالحقّ ، وشَدَّ أَزْرَهُ بأخيه هٰرُون . ويعظِّمُون التوراةَ التى هى كتابهم أتَمَّ التعظيم ، حتَّى إنهـم يُقْسِمون بها كما يُقْسِم المسـلمون بالقُرءان ، وكذلك العَشْر كلمـات التى أُنْزِلتْ علىٰ مُوسى عليه السـلام فى الألواح الجَوْهر ، وقد تقـدّم أنها مُخْتَصَرُ ما فى التوراة ، مشتملةٌ علىٰ أوامِرَ ونَوَاهٍ وسَماعِ كلامِ الله تعالىٰ ، وهم يحْلِفُون بها كما يحلِفون بالتَّوراة ، ويعظِّمونَ قُبَّة الزَّمان وما حَوَتْه : وهى القبةُ التى كان ينزلُ علىٰ مُوسى فيها الوَحْىُ .

ومن أعظمِ أنواع الكُفْر عندهم تَعَبُّـدُ فِرْعونَ وهامان لعنهما الله . (وكان آسمُ فِرْعونِ مُوسى فيما ذكره المفسرون الوَلِيدَ بنَ مُصْعَب ، وقيل : مُصْعَبُ بن الرَّيَّان . وآختلف فيه : فقيل كان من العمالقة . وقيل من النَّبَط . وقال مجاهد : كان فَارِسيًّا وهامانُ وَزِيره) والتَّبَرِّى من إسرائيلَ (وهو يعقوبُ عليه السلام) ومَعْنَى إسرائيلَ فيما ذكره المفسرون «عبد الله» كأَنَّ « إسْرا» عبد، و« إيل » آسم الله تعالىٰ بالعِبرانية . وقيل : إسرا من السِّرِّ(١) ، وكأَنَّ إسرائيلَ هو الذى شدّده الله وأتْقَنَ خَلْقَه .

ومن أعْظَمِ العظائم عندهم الأَخْذُ بدِينِ النَّصْرانية ، وتَصْديقُ مَرْيَمَ عليها السـلام فى دعواها أنهـا حملَتْ من غير أن يَمَسَّها بَشَرٌ ، ويَرْمُونَها بأنها حَمَلتْ من يُوسُـفَ النَّجَّار ، وهو رجلٌ من أقاربها كان يَخْدُم البَيْتَ المقَـدَّس معها ، ويَرَوْنَ تبرِئَتَها من ذلك جَرِيرَةً تُقْتَرَف .

ويستعظمون الوُقُوعَ فى أمورٍ :

(١) لعله من الأسر كما يفيده ما بعده .

منها ــ القَوْلُ بإنكار خِطَابِ الله تعالىٰ لمُوسَى عليه السلام وسماعه له .

ومنها ــ تعمُّدُ طُورِسَيْنَاءَ الذى كلّم اللهُ تعالىٰ مُوسَى عليه بالقاذُورات، ورَمْىُ صَخْرةِ بيْتِ المَقْدس التى هى قِبْلَتُهــم بالنَّجاسَة، ومُشَاركةُ بُخْتُنَصَّرَ فى هَــدْمِ بيْتِ المَقْدس وقَتْلِ بَنِى إسرائيلَ، و إلْقاءُ العَذِرة علىٰ مَظَانِّ أسفار التَّوراة .

ومنها ــ الشُّرْبُ من النَّهَرِ الذى ٱبْتُلِىَ به قَوْمُ طالُوتَ مِلكِ بنى إسرائيل، والمَيْلُ إلىٰ جَالُوتَ مَلِكِ الكَنْعانِيِّين : وهو الذى قتله داودُ عليه السلام، ومُفارَقةُ شِيعَةِ طَالُوتَ الذين قاموا معه علىٰ جَالُوت . وذلك أنّه لمَّــا رُفِعت التَّوراةُ وتَسَلَّط علىٰ بنى إسرائيل عَدُوُّهم من الكَنْعانِيِّين الذين مَلِكُهم جَالُوتُ، كانتِ النُّبُوَّةُ حينئذٍ فيهم فى شَمْعونَ، وقيلَ فى شَمْوِيلَ، وقيل فى يُوشَعَ بن نُون، فقالوا له : إن كُنتَ صادقًا فابعث لنــا مَلِكًا نُقاتِلْ فى سَبِيل الله، فقــال لهم ما أخبر اللهُ تعالىٰ به : ﴿ إنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ ولم يكن من سِبْطِ المُلْك، إذ كان المَلِك من سِبْطٍ مَعْروفٍ عندهم، فقيل : كان سَقَّاءً، وقيــل : كان دَبَّاغًا، فأنكروا مُلْــكَه عليهم، وقالوا كما أخبر الله تعالىٰ : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ الآية؛ فلمــا فَصلَ طَالُوتُ بالجُنُود أراد الله تعالىٰ أن يُرِيَه مَن يُطِيعُــه فى القتال مِمَّن يَعْصِيه، فسلَّط عليهم العَطَشَ وٱبْتلاهم بنَهَرٍ من حَوْلهم، قيل : هو نَهْر فِلَسْطِينَ، وقيل : نَهْر بين الأُرْدُنِّ وفِلَسْطِينَ، فقال لهم طَالوتُ : ﴿ إنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بنَهَرٍ فمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى ومَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإنَّه مِنِّى ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ .

ومنها ــ إنكارُ الأنبياء الذين بَعَثَهم اللهُ تعالىٰ إليهم : وهم مُوسَى وهٰرُونُ و يُوشَعُ ومَن بعدهم : من أنبيائهم عليهم السلام، ومَن قَبْلَهم : من إبراهِيمَ و إسْحٰق و يَعْقُوبَ صــلواتُ الله عليهم، والأسْــباطِ الاثنى عشر الآتى ذِكْرُهم، والدِّلالَةُ علىٰ دَانيالَ

النَّبِيِّ عليه السلام حتَّى قُتِل ، وإخْبارُ فِرْعونِ مِصْرَ بمكان إرْمِياء النَّبِيِّ عليه السلام عند اختفائه بها ، والقيامُ مع البغى والفَوَاجِر يوم يَحْيَىٰ بن زَكَرِيَّا عليهما السلام فى المُساعَدَةِ عليه .

ومنها ــ القَوْلُ بأنَّ النارَ التى أضَاءَتْ لمُوسى عليه السلام من شَجَرة العَوْسَجِ بالطَّريق عند مَسِيرِه من مَدْيَنَ حتَّى قصدها وكانَتْ وَسِيلَةً إلىٰ كلام الله تعالىٰ له نارُ إفْكٍ لا وُجودَ لها ، وكذلك أخْذُ الطُّرُقِ علىٰ مُوسىٰ عليه السلام عند تَوجُّهِه إلىٰ مَدْيَنَ فارًّا من فِرْعَونَ ، والقَوْلُ فى بَنَاتِ شُعَيْبٍ اللَّاتِى سَقَىٰ لَهُنَّ مُوسَىٰ عليه السلام بالعظائم ورَمْيُهنَّ بالقَبِيح .

ومنها ــ الإجلابُ مع سَحَرةِ فِرْعونَ علىٰ مُوسَى عليه السلام والقيامُ معهم فى غَلَبته ، والتَّبرِّى ممن آمَن منهم بمُوسَىٰ عليه السلام .

ومنها ــ قولُ مَن قال من آل فرعون : اللَّحاقَ اللَّحاقَ : لنُدْرِكَ من فَرَّ : من مُوسى وقَوْمه عند خُرُوجهم ، كما أخبر الله تعالىٰ عن ذلك بقوله : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُشْرِقِينَ فلمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ .

ومنها ــ الإشارةُ بتَخْليف تَابُوتِ يُوسُفَ عليه السلام بمِصْر حين أراد مُوسىٰ عليه السلام نَقْلَه إلى الشَّام ليَدْفِنَه عند آبائه : إبراهيمَ وإسحقَ ويعقوبَ : وذلك أنَّهم جعلوا تَابُوتَه فى أحَدِ شِقَّى النِّيلِ فأخْصَبَ وأجْدَبَ الجانبُ الآخَر ، فحوّلوه إلى الجانب الآخَرِ فأخْصَب ذلك الجانبُ وأجْدَبَ الجانبُ الأوَّلُ ، فجعلوه وَسَط النِّيل فأخصَبَ جانبَاهُ جميعا ، إلىٰ أن كان زَمَنُ مُوسىٰ عليه السلام وضَربَ النِّيلَ بعَصاه فانْفلَق عن التَّابُوتِ . فأخذ فى نَقْله إلى الشام ليدفنه عند آبائه كما تقدّم . فأشار بعضُهم ببَقَائه بمِصْر فوقَع فى مَحْظُورِ لمخالَفَةِ مُوسىٰ عليه السلام فيما يُرِيدُه .

ومنها ــ التَّسْلِيمُ للسَّامِرِىِّ وتَصْـدِيقُه على الحوادث التى أحدثَها فى اليَهُودِيَّة علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام على السَّامرة فى الطائفة الثانية من اليَهُود .

ومنها ــ نُزولُ أَرِيحَا : مَدِينَةِ الجَبَّارِينَ من بلاد فِلَسْطِينَ .

ومنها ــ الرِّضا بِفِعْل سَكَنَةِ سَدُومَ من بلاد فِلَسْطِينَ أيضا وهم قوم لُوطٍ .

ومنها ــ مخالفةُ أحكامِ التَّوْراةِ التى ورد [الحَثُّ] فيها عليها .

ومنها ــ ٱسْتِباحَةُ السَّبْتِ بالعَمَلِ فيــه والعَدْوِ فيه : إذ ٱستباحَتُه عندهم تُوجِبُ هَـدْرَ دَمِ مُسْتَبِيحِه من حَيْثُ إنه مُسِخَ مَنْ مُسِخَ بٱسْتِباحَتِه قِرَدَةً وخَنازِيرَ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى السَّبْتِ وأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

ومنها ــ إنكار عِيدِ المَظَلَّةِ وهو [سبعة أيام أوّلها الخامس عشر من تشرى](١) وعيد الحنكة وهو [ثمانية أيام يوقدون فى الليلة الأولىٰ من لياليه علىٰ كل باب من أبوابهم سراجا وفى الليلة الثانية سراجين وهكذا حتى يكون فى الليلة الثامنة ثمانية سرج](١) وهما من أعظم أعيادهم .

ومنها ــ القَوْلُ بالبَداءِ على الله فى الأحكام، وهو أن يَخْطُرَ له غيرُ الخاطر الأوّل، وهو تعـالىٰ مُنَزَّهٌ عن ذٰلك، ورتّبوا عليــه مَنْعَ نَسْخِ الشرائع ، ويزعُمُون أن النَّسخَ يستلزم البَدَاء، وهو ممـا ٱتَّفَقَ كافَّةُ اليَهُودِ علىٰ مَنْعه، علىٰ ما تقدّم أوّلا .

ومنها ــ ٱعتقادُ أنّ المسيحَ عليه السلام هو الموعُودُ به علىٰ لسان مُوسَى عليه السلام، المذكور بلَفْظ المَشِيحَا وغير ذلك، علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليه .

ومنها ــ الأنتِقالُ(٢) من دِينِ اليَهُودية إلىٰ ماسواها من الأديان، إذْ عندهم أنَّ شريعةَ مُوسَى عليه السلام هى التى وقَعَ بها الابتداءُ، وبها وقع الاختتامُ .

(١) بياض بالأصول والتصحيح من ج ٢ ص ٤٢٦ و٤٢٨ من هذا المطبوع
(٢) هو عين ما بعده فى المعنى .

ومنها ـ الانتقالُ من اليَهُودِيَّة إلى ما عداها من الأديان : كالإسلام والنَّصرانية وغيرهما، فإنه يكون بمثابة المُرْتَدّ عند المسلمين .

ومنها ـ استباحةُ لَحْم الجَمَل : فإنه محرَّمٌ عندهم، ومن استباحَه فقد ارتكب محظوراً عظيماً عندهم، وقد دخل ذلك في عموم قوله تعالى إخباراً بما حَرَّم عليهم : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ﴾ . يعني ما ليس بمُنْفَرِج الأصابع كالإبل وما في معناها .

ومنها ـ استباحةُ أكْلِ الشَّحْمِ خَلا شَحْمَ الظَّهْر، وهو ما علا فإنه مُباحٌ لهم، وعن ذلك أخبر اللهُ تعالى بقوله : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ .

ومنها ـ استباحةُ أكْلِ الحَوَايا . قال ابن عباس وغيره : هي المَبَاعِرُ . وقال أبو عُبَيْدَةَ : هي ما تَحَوَّى من البَطْنِ أي استدار، والمراد شَحْم الثَّرْب . وكذلك استباحَةُ ما اختلَطَ من الشَّحْم بعَظْمٍ وهو شَحْم الأَلْيَة، وعنه أخبر تعالى بقوله : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ عطفًا على الشُّحوم المحرَّمة . على أن بعض المفسِّرين قد عطف قولَه تعالى : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ على المستثنى في قوله : ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا ﴾ . فحمله على الاستباحة، والموافقُ لما يَدَّعُونه الأَوَّلُ، ويَرَوْنَ أن سَبَب نزولِ هذه الآية أنَّ اليهودَ قالوا لم يحرِّمْ علينا شيءٌ إنما حَرَّم إسرائيلُ على نَفْسه الثَّرْبَ وشَحْمَ الأَلْيَة فنَحْنُ نُحَرِّمه، فنزلت . على أنَّ اليهودَ القرَّائين والرَّبَّانيِّين يَجْمُلُونَها فيبيعونها ويأكلون ثَمَنَها، ويتأوَّلون أن آكلَ ثَمَنِها غيرُ آكلٍ منها، وإلى ذلك الإشارةُ بقوله صلى الله عليه وسلم : «قَاتَلَ اللهُ اليهودَ! حُرِّمَتْ عليهم الشُّحُومُ فباعوها وأكلوا ثَمَنَها» والسامِرَة مخالفون في ذلك، ويقولون بتَحْرِيم الثَّمَن أيضًا، على ما سيأتي ذكره .

ولْيُعْلم أن القَرَّائين والرَّبَّانيِّين يُحَرِّمُون من الذَّبيحة كلَّ ما كانت رِئَتُه ملتصقةً بقَلْبِه أو بضلعه، والسَّامرة لا يُحَرِّمون ذلك .

ومنها — مقالة أهل بابِلَ فى إبراهيم عليه السلام، وهى قولهم (١) ... ...

ومنها — أن يُحَرِّم الأحْبارُ الذين هم عُلماؤُهم علىٰ الواحد منهم، بمعنىٰ أنهم يمنعونه من مُباحَاتِهم فى المآكِلِ والمشارِبِ والنِّكاح وغير ذلك حُرمةً يُجْمِعُون عليها، وتتأكَّد بقَلْبِ حُصُرِ الكنائس عليها؛ إذْ من عادتهم أنهم إذا حَرَّموا علىٰ شخصٍ وأرَادُوا التَّشْديدَ عليه قلَبُوا حُصُر الكنائس عند ذلك التَّحْريم تَغْليظًا علىٰ المحرَّم عليه .

ومنها — الرُّجوعُ إلى التِّيهِ بعد الخروج منه، فإنهم إنما خَرجُوا إليه عند سُخْط الله تعالىٰ عليهم بمخالفة مُوسى عليه السلام عند ٱمتناعهم عما أُمِرُوا به من قتال الجَبَّارين، كما أخبر تعالىٰ عن ذلك بقوله : ﴿ قَالَ فإنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَىٰ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال المفسِّرون : وكان تِيهُهُم ستَّة فراسخَ فى أربعةِ فَراسخَ، يمشُون كلَّ يومٍ ويَبِيتُون حيثُ يُصْبِحُون، فأمر الله تعالىٰ مُوسَىٰ عليه السلام فضرَبَ الحَجَر بعَصَاه فانفَجَرَتْ منه ٱثنتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، وكانوا ٱثنَيْ عشَر سِبْطًا لكُلِّ سِبْطٍ عَيْنٌ، فإذا أخذُوا حاجَتَهم من الماء ٱحتبس وحَمَلُوا الحَجَر معهم، وكانت ثِيابُهم فيما يُروَىٰ لا تَخَرَّق ولا تَتَدنَّس، وتَطُولُ كلَّما طالَ الصِّبْيانُ .

ومنها — تَحْرِيمُ المَنِّ والسَّلْوَىٰ الذى ٱمتَنَّ الله تعالىٰ عليهم به كما أخبر بذٰلك بقوله تعالىٰ : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ والسَّلْوَىٰ ﴾ ويقال إنه التَّرَنْجَبِينُ . وقال ٱبن عَبَّاسٍ : والمراد بالمَنِّ الذى يسقُط على الشَّجَر وهو معروف . قال قتادة : كان المَنُّ يسقُطُ عليهم من طلوع الفَجْر إلىٰ طلوع الشَّمْس كسُقوط الثَّلْج، فيأخذ

(١) بياض بالأصول ولعله «إنه لمن الظالمين فى تكسير أصنامهم» .

الرجلُ منهم ما يَكْفيه ليومه، فان أخذَ أكثرَ من ذلك فَسَد . وأما السَّلْوَىٰ، فقيل: هى طائرٌ كالسُّمَانَى، وقال الضَّحَّاك : هى السُّمَانَى نَفْسُها، وقال قَتادَةُ : هو طائرٌ إلى الحُمْرة كانت تَحْشُرُه عليهم الجَنُوب .

ومنها ــ التَّبَرُّؤُ من الأسْباط : وهم أولادُ يَعْقُوبَ عليهم السلام، وعددُهم آثنا عَشَر سِبْطًا : وهم يُوسُفُ، وبَنْيامِينُ، ونَفْتالِى(١)، ورُوبِيلُ، ويَهُوذَا، وشَمْعونُ، ولاَوِى، ودَان، وزَبْلُونُ(٢)، ويشجر، وجاد، وأشر؛ ومنهم تفرَّع جميعُ بَنِى إسرائيلَ ولَدَ كلٌّ منهم أُمَّةً من الناس . وسُمُّوا أسباطا أخْذًا من السَّبْط وهو التتابع، إذْ هُمْ جماعةٌ متتابعون . وقيل : من السَّبَط وهو الشَّجَرُ، فالسِّبْطُ الجماعة الراجعون إلىٰ أصْلٍ وَاحِدٍ .

ومنها ــ القعودُ عن حَرْبِ الجَبَّارين مع القُدْرة علىٰ حَرْبِهِم : وذلك أنهم أُمِرُوا بدخول الأرض المقَدَّسة : وهى بَيْتُ المَقْدِس فيما قاله آبن عباس والسُّدِّىّ وغيرهما، والشامُ فيما قاله قَتادَةُ، ودِمَشْقُ وفِلَسْطِين وبَعضُ الأُرْدُنِّ فيما قاله الزَّجَّاج، وأَرْضُ الطُّورِ فيما قاله مُجاهِدٌ، وكان فيها قومٌ جبَّارُون من العَمالِقَة كما أخبر الله تعالىٰ، والجَبَّار هو المتَعظِّم المتَنِعُ من الذُّلِّ والقَهْر أخْذًا من الإجْبار : وهو الإكراهُ كأنَّه يجبُرُ غيره علىٰ ما يُريدُه .

قال آبن عبَّاس : لما بَعَث مُوسَىٰ عليه السلام من قَومه آثْنَىْ عَشَر نَقيبًا ليُخْبِروه خَبَرَهم، رآهم رَجُلٌ من الجَبَّارينَ فأخذَهُم فى كُمِّه مع فَاكِهَةٍ كان قد حَمَلها من بُسْتانه وجاء بهم إلى المَلِك فنَثَرهم بين يَدَيْه، وقال : إن هٰؤُلاءِ يُريدون قِتالَنَا، وكان من أمْرِهم ما قَصَّه اللهُ تعالىٰ فى كِتَابِه بقوله : ﴿ وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِه يا قَوْمِ آدْخُلُوا

(١) كذا فى الكشاف للزمخشرى (ج ١ ص ٣٨٠) وفى الأصل «نفتاى» .
(٢) فى الأصل : ربولى، والتصحيح من الخطيب الشربينى (ج ٢ ص ٩١) .

الْأَرْضَ المقَدَّسَــةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبارِكُم فَتنقلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَامُوسَىٰ إنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فإنْ يَخْرُجُوا مِنْها فإنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِما ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فإذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وعَلَى اللهِ فَتوكَّلُوا إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَامُوسَىٰ إنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَدًا مَادَامُوا فِيهَا فَاْذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلكُ إلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَاْفْرُقْ بَيْنَنَا وَبينَ الْقَوْمِ الفَاسِــقِين ﴾ . فكان فى قعودهم عن حَرْب الجبارين مع القُدرَةِ والنَّشاط مخالَفَةٌ لمـا أُمِرُوا به .

وقد رتَّب فى "التعريف" أَيْمـان اليَهُود علىٰ هذا المقتضىٰ، فقال : وَيمِينُهم .

إننى واللّهِ واللّهِ واللّهِ العَظِيمِ ، القَــدِيمِ الأَزَلِىِّ الفَرْدِ الصَّمَدِ الوَاحِدِ الأَحَدِ المُدْرِكِ المُهْلِكِ ، باعِثِ مُوسىٰ بالحَقِّ ، وشَادِّ أَزْرِه بأخيه هٰرُونَ ، وحقِّ التوراة المكَرَّمةِ وما فيها وما تضَمَّنَتْه ، وحقِّ العَشْرِكَلماتِ التى أُنزلَتْ علىٰ مُوسَى فى الصُّحُفِ الجَوْهَر ، وما حَوَتْه قُبَّــة الزَّمان ، وإلَّا تعبَّدتُ فِرْعونَ وهَامَان ، وَبرِئْتُ من بَنِى إسْرائيلَ ، ودِنْتُ بدِينِ النَّصرانية ، وصــدَّقْتُ مَرْيَمَ فى دعواها ، وبَرَّأْتُ يُوســفَ النَّجَّار ، وأنكرتُ الخطاب ، وتعمدتُ الطُّورَ بالقاذُورات ، ورَمَيتُ الصَّخْرة بالنَّجاسَــةِ ، وشَرِكْتُ بُخْتُنَصَّرَ فى هَدْم بيْتِ المَقْــدِس وقَتْلِ بنى إسرائيل ، وألقيتُ العَــذِرة علىٰ مَظَانِّ الأســفار ، وكنتُ ممَّن شَرِب من النَّهَر ومال إلىٰ جَالُوتَ ، وفارقتُ شــيعةَ طَالُوتَ ، وأنكرتُ الأنبياء ، ودلَلْتُ علىٰ دَانيَالَ ، وأعلَمتُ جَبَّار مِصْر بمكان إرْمِياءَ ، وكنتُ مع البَغِىِّ والفَواجِر يومَ يَحْيَى ، وقلتُ : إن النَّار المُضيئة من شجرة العَوْسج نارُ إفْكٍ ، وأخذتُ الطُّرُقَ علىٰ مَدْيَنَ ، وقلتُ بالعَظائم فى بنات شُعَيْبٍ ، وأجلبْتُ مع السَّحَرَةِ علىٰ مُوسَىٰ ، ثم بَرِئْتُ ممن آمن منهم ، وكنتُ مع من قال : اللَّحاقَ اللَّحــاقَ

لِتُدرِكَ من فَرّ، وأشرتُ بتَخْليف تابُوتِ يُوسُفَ فى مِصْر، وسلَّمت إلىٰ السَّامِرِىّ، ونزلتُ أَرِيحَا مَدِينةَ الجَبَّارِينَ، ورضِيتُ بفِعْل سَكَنَة سَـدُومَ، وخالفتُ أحكامَ التَّوراة، وٱستبحْتُ السَّبْتَ وعَدَوْتُ فيـه، وقلتُ إن المَظَالَّةَ ضَلال، وإن الحنكة مُحال، وقلتُ بالبَـدَاءِ علىٰ الله تعالىٰ فى الأحكام، وأجزتُ نَسْخَ الشرائع، وٱعتقدْتُ أنَّ عيسىٰ بنَ مريمَ المَسِـيحُ الموْعُودُ به علىٰ لسان مُوسىٰ بن عِمْرانَ، وٱنتقلتُ عن اليهودية إلىٰ سِوَاهَا من الأديان، وٱستبحْتُ لَحْم الجَمَلِ والشَّحْمَ والحَوَايَا أو ما ٱختلط بعظم، وتأوَّلتُ أنَّ آكِلَ ثَمَنِه غيرُ آكِلِه، وقلتُ مقالةَ أهْـلِ بَابِلَ فى إبراهـيم، وإلَّا أكونُ مُحَرَّمًا حُرمةً تُجْمِـع عليها الأحْبَار، وتُقْلَبُ عليها حُصُر الكَنَائِس، ورُددتُ إلىٰ التِّيه، وحُرِمْتُ المَنَّ والسَّلْوىٰ، وبرِئْتُ من كلِّ الأسباط، وقعدتُ عن حَرْبِ الجبَّارِينَ مع القُدرَة والنَّشاط.

قلتُ: قوله فى هذه اليمين فى حُرْمة الشَّحْم وما فى معناه: وتأوَّلْتُ أنّ آكلَ ثَمَنه غيرُ آكِله، بمعنى أنه يستعظم الوقوع فى تأوُّلِ ذلك، وهو خلاف مُعْتَقَدِهم: لأنهم يتأوَّلون أن آكل ثَمَنِه غيرُ آكله كما تقدّم عنهم، وإنما تَمْنع ذلك السَّامِرَةُ، فكان من حَقِّه أن يُورِد ذلك فى يَمِين السَّامرة وأن يقولَ هنا: ولم أتأوَّلْ أن آكلَ ثَمَنه غيرُ آكِله فتنبه لذلك.

وٱعْلم أنَّ أوّلَ ما ٱستُحْدِثتْ هذه الأَيْمَـانُ لأهْلِ دِين اليهوديَّة فيما ذكره محمدُ بن عمر المدائنىّ فى كتاب "القَلَم والدَّوَاة" فى زمن الفَضْلِ بن الرَّبيع وَزِيرِ الرَّشِـيد، أحدثهـا كاتبٌ له قال له: كيف تُحَلِّف اليَهُودِيَّ قال: أقول له: وإلَّا بَرِئتَ من إلٰهِـكَ الذى لا تعبـدُ غيرَه ولا تَدِينُ إلَّا له، ورَغِبْتَ عن دِينك الذى ٱرتَضَيته، وجحدتَ التَّوراةَ وقلتَ: إنَّ حِمَارَ العُزَيْرِ راكبُ جَمَلِ مُوسَى، ولعنكَ ثمـانُمـائة

حَبْرٍ علىٰ لسان دَاوُدَ وعِيسَى بن مَرْيَمَ ، ومسخك الله كما مَسَخ أصحابَ السَّبْتِ ، فجعل منهم القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ ، وخالفت ما دوّنه دانيالُ وأشلوما ويُوحَنَّا ، ولقيتَ الله بدَمِ يَحيى بن زَكَرِيا ، وهدمتَ الطُّورَ صَخْرةً صَخْرةً ، وضربتَ بالنَّاقوس فى بَيْت المَقْدس ، وتبرأ منكَ الأسباطُ وآباؤهم : إسرائيلُ ، وإسحقُ ، وإبراهيمُ ، وغمستَ لِحْيَةَ الجاثَلِيقِ فى مَعْمودِيَّة النَّصارىٰ ، وآنقلبتَ عن السَّبْت إلىٰ الأَحد ، وإلَّا قدَّر اللهُ لكَ أن تلقَى الذى يخرج من الماء لَيْلَةَ السَّبْتِ ، وصيَّر الله طعامَكَ لَحْمَ الخِنْزِيرِ وكُرُوشَ الجِمَالِ ومِعَدَ الخنازير ، وسلَّط اللهُ عليك وعلىٰ أهْلِك بُخْتُنَصَّر ثانيةً يقتُلُ المقاتِلَةَ ويَسْبِي الذُّرِّيَّة ويُخَرِّب المَدَائنَ ، وأراكَ اللهُ الأَيدى التى تنالُ الرُّكَب من قبيل الأسباط ، وآخذكَ اللهُ بكلِّ لسانٍ جحدتَه وبكلِّ آيةٍ حَرَّفتها ، وقلتَ فى مُوسَى الزُّورَ ، وإنَّه فى محلِّ ثُبُورٍ ، وفى دَارِ غُرُورٍ ، وجحدت إهْيَا أَشَرْ إهْيَا[1] أصبئوت آل شدّاء . وهذه اليَمِينُ لازمةٌ لكَ ولبَنِيكَ إلىٰ يوم القيامة .

قلتُ : هذه اليمينُ فى غاية الإتْقان والتَّشْديد ، إلا أنَّ قولَه : وآخذَكَ اللهُ بكلِّ لِسانٍ جَحدتَه وبكلِّ آية حَرَّفتَها غير مناسب لتحليفهم : لأنهم يَرَوْن أن لا إثْمَ عليهم فى الجَحْدِ ولا يعترفون بالتَّحْرِيف بل يُنْكِرونه . علىٰ أن أكثَرها غيرُ متوارِدٍ علىٰ اليَمين التى أوردها فى "التعريف" : فلو ألحقها بها مُلحِقٌ فى آخرها علىٰ صيغة اليمين الأولىٰ من إيرادها بصيغة التكلم ، مثل أن يقولَ : وإلا بَرِئْتُ من إلهى الذى لا أَعْبُدُ غيرَه ولا أدِينُ إلَّا لَه ، وإلا رَغِبتُ عن دِينى الذى آرتضيتُه ، وعلىٰ ذلك فى الباقى ، لكان حَسَنا .

---

(١) هكذا ضبطها فى القاموس ، ثم قال : و يقولون اهيا شراهيا وهو خطأ ، على ما يزعمه أحبار اليهود .

الطائفـــــــــة الثـانية
(من اليَهُود السَّامِرَةُ)

وهم أتْبـاعُ السَّامِرىِّ الذى أخبر اللهُ تعـالىٰ عنه بقَوْله فى سُـورَة الأعْراف : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ ﴾ . قال بعض المفَسِّرينَ : وآسمه مُوسَى بن ظفرٍ، وكان أصله من قَوْمٍ يعبدُون البَقَر فرَأَىٰ جبريلَ عليه السلام مَرَّةً وقد جاء إلىٰ مُوسىٰ راكبًا علىٰ فَرَس الحَيَـاةِ ، فأخذ قَبْضَــةً من ترابٍ من تَحْت حافر فرَسه . وكان بَنُو إسرائيلَ قد خَرجُوا معهم حُلِىٌّ [اسـتعارُوه] من القِبْطِ ، فأمرهم هٰرُونُ أن يحفروا حُفْرةً ويُلْقُوا فيهـا ذلك الحُلِىَّ حتَّى يأتِىَ مُوسىٰ فيرىٰ فيــه رأْيَه ، فجمعوا ذٰلك الحُلِىَّ كلَّه وألقَوْه فى تلك الحُفْرة، فجاء السَّامِرىُّ فألقىٰ ذلك الترابَ عليه، وقال له : كن عِجْلا جَسَــدًا له خُوَارٌ، فصار كذٰلك . قال الحَسَن : صار حَيَوانًا لَحْـا ودَمًا . وقيل : بل صار يَخُور ولم تَنْقلب عَيْنُــه . فقال لهم السَّامِرىُّ : هـذا إلٰهُكم وإلٰهُ مُوسَىٰ، فعَكَفوا علىٰ عبادته ، ونهاهُم هٰرُونُ فلم ينتهُوا (١) وحَرَّق العِجْلَ وذرّاه فى اليَمِّ كما أخبر الله تعـالىٰ عنــه بقَوْله : ﴿ وآنْظُرْ إلىٰ إلٰهِـكَ الَّذى ظَلْتَ عَلَيْــهِ عَاكِفًا لَنحرقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فى اليَمِّ نَسْفًا ﴾ . فأُمِروا بقَتْل أنفسهم كما أخبر تعـالىٰ بقوله : ﴿ فَتُوبُوا إلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ الآية . فقُتِلَ منهــم سبعُون ألفا ثم رُفِع عنهم القَتْلُ بعد ذلك .

وقد آختُلِف فى السَّامِرَة : هل هم من اليَهُود أم لا؟ والقَرَّاءُون والرَّبَّانيُّون يُنْكِرون كون السَّامِرَة من اليَهُود . وقد قال أصحابنا الشافعية رحمهم الله : إنهم إن وافقت أصُولُهم أُصُولَ اليهود فهم منهم حتَّى يُقَرُّوا بالجِزْيَة وإلا فلا .

(١) بياض بالأصل ولعله "فجاء موسىٰ وحرق الخ" .

ثم السَّامِرَة لهم تَوْراةٌ تختصُّهم غيرُ التوراة التى بيد القَرَّائين والرَّبَّانيين ، والتَّوراة التى بيد النَّصارىٰ ؛ وهم ينفردون عن القرائين والربانيين بإنكار نُبوّة مَن بعدَ موسى ما عدا هٰرُونَ ويُوشَع عليهما السلام ، ويخالفونهم أيضا فى آستقبال صَخْرة بَيْت المَقْدِس ، ويستقبلون طُورَ نَابُلُس ويوجِّهون إليه مَوْتاهُم ، زاعمين أنَّه الذى كلَّم الله تعالىٰ موسىٰ عليه ، ويزعمون أنَّ الله تعالىٰ أمر داودَ عليه السلام ببناء بَيْت المَقْدِس عليه ، فخالف وبَناهُ بالقُدْس : قَاتَلَهُمُ اللهُ أنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . وهم قائلون أيضا : إن الله تعالىٰ هو خَالِقُ الخَلْق البارئُ لهم ، وإنه قادرٌ قاهرٌ قديم أزَلىٌّ . ويوافقون علىٰ نُبوّة موسَى وهٰرُون عليهما السلام ، وأن الله تعالىٰ أنزل عليه التَّوْراةَ ، إلا أنَّ لهم توراةً تخصُّهم تُخالِفُ تَوْراةَ القَرَّائين والرَّبانيِّين المتقدّمة الذِّكْر ، وأنه أنزل عليه أيضًا الألْواحَ الجَوْهرِ المتضمِّنَةَ للعشر كلمات المتقدّمة الذِّكْر ، ويقرّون أنَّ الله تعالىٰ هو الذى أنقذَ بَنِى إسرائيل من فِرْعَونَ ونَجّاهم من الغَرَق ، ويقولون : إنه نَصَبَ طُورَ نَابُلُس المقدَّمَ ذِكْرُه قِبْلَةً للتعبّد .

ويستعظمون الكُفْر بالتَّوراة التى هم يعترفون بها ، والتَّبرِّى من مُوسَى عليه السلام دون غيره من بَنِى إسرائيل ، ويعظِّمون طُورَهُم طُورَ نَابُلُس المقدَّم ذِكْرُه ؛ ويستعظمون دَكَّه وقَلْعَ آثار البَيْت الذى عُمِر به ؛ ويستعظمون آستباحَةَ السَّبْت كغيرهم من اليهود ؛ ويوافقون القَرَّائين فى الوقوف مع ظَواهر نصوص التَّورَاة ؛ ويمنعون القَوْل بالتأويل الذاهب إليه الرَّبانيُّون من اليَهُود ؛ وينكرون صِحَّةَ توراة القرَّائين والرَّبانيِّين ، ويجعلون الآعتماد علىٰ تَوْراتِهم ؛ ويقولون : لا مِسَاسَ : بمعنى أنه لا يَمَسُّ أحدًا ولا يمسُّه . قال فى "الكشاف" : كان إذا مَسَّ أحدًا أو مَسَّهُ أحدٌ حصلت الحُمَّى للماسِّ والمَمْسُوس . وقد أخبر الله تعالىٰ عن ذلك بقوله تعالىٰ حكايةً عن مُوسى عليه السلام للسَّامِرِىِّ ﴿ آذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾

ويُحرِّمون من الذَّبائح (١) ، ويحرِّمون أَكْلَ اللحم مختلطًا باللَبَنِ ، زاعمـين أنَّ فى تَوْراتِهم النَّهْىَ عن أكْلِ لَحْمِ الجَدْىِ بلَبَنِ أمِّه؛ ويستعْظِمُون السَّعْىَ إلىٰ الخروج إلىٰ الأرض التى حُرِّم عليهم سُكْنَاها وهى مدينة أَرِيحَا .

ومن أكْبَرِ الكبائر عندهم وَطْءُ المَرْأةِ الحائض، والنَّوْمُ معها فى مَضْجَعٍ واحِدٍ، لا سيما إذا فَعَلَ ذلك مُسْتَبِيحًا له . ومن أعْظَمِ العظائم عندهم إنْكارُ خلافَةِ هَرُون عليه السلام، والأَنَفَة من كَوْنِها .

وقد رتَّب فى "التعريف" : يَمِينَهم علىٰ مقتضىٰ ذلك، فذكر أنَّ يَمِينَهم :

إننى واللّهِ واللّهِ واللّهِ العظيم، البَارِئ، القادِرِ، القاهِرِ، القَديم، الأزَلِىِّ، رَبِّ مُوسَىٰ وهرونَ، مُنْزِلِ التورَاةِ والألواح الجَوْهر، مُنْقِذِ بنى اسرائيلَ، وناصِبِ الطُّورِ قِبْلَةً للمتعبِّدينَ . وإلَّا كفرتُ بما فى التوراة، وبَرِئْتُ من نُبُوَّةِ مُوسَىٰ، وقلتُ : إنَّ الإمامة فى غَيْرِ بنى هَرُون، ودكَّيتُ الطُّورَ، وقلعتُ بيـدى أثرَ البَيْتِ المَعْمورِ، واستبحْتُ حُرْمَةَ السَّبْت، وقلتُ بالتأويلِ فى الدِّين، وأقْرَرْتُ بصِحَّةِ تَوْراةِ اليَهُود، وأنكرتُ القول بأَن لَا مِسَاسَ، ولم أتَجَنَّبْ شيئًا من الذَّبائح، وأكلتُ الجَدْىَ بلَبَنِ أُمِّه، وسَعَيْتُ فى الخروج إلى الأرض المَحْظُورِ علىَّ سَكَنُها، وأتَيْتُ النِّساءَ الحُيَّضَ زمانَ الطَّمْثِ مُسْتَبِيحًا لَهُنَّ، وبِتُّ معهنَّ فى المَضَاجع، وكُنتُ أوّلَ كافِرٍ بخـلافة هَرُون، وأنِفْتُ منها أن تَكُون .

---

(١) بياض بالأصل .

الفِـــرْقة الثالثـــــة
(ممَّن تدعُو الضرورةُ إلىٰ تحْليفه ـ النَّصْرانيَّة)

وقد ٱخْتُلِف فى ٱشـتقاقها، فقيـل : أخْذًا من قَوْلِ المَسِيح للحَوارِيِّين : ﴿ مَن أَنْصَارِى إِلَى اللهِ ﴾ وقَوْلِ الحَوارِيِّين : ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ﴾ . وقيل : من نُزُوله هُو وأمّه ـ بعـدَ عَوْدِها به من مِصْر ـ بالنَّـاصِرَة : وهى قَرْيةٌ من بلاد فِلسْـطِينَ من الشام : وقيل غير ذلك .

والنَّصارَىٰ ـــ هم أُمَّةُ عِيسَى عليـه السلام ، وكِتَابُهم الإنْجِيلُ . وقد ٱختُلِف فى ٱشتقاقه علىٰ ثلاثة مذاهِبَ حكاها أبو جَعْفر النَّحَّاسُ فى "صِناعة الكُتَّاب":

أحدها ـــ أنه مأخوذٌ من قَوْلهم : نجلتُ الشَّيْءَ إذا أَخْرجْتَه، بمعنىٰ أنه خرج به دَارِسٌ من الحَقِّ .

والثـانى ـــ أنه مأخوذٌ من قولهم : تَناجَلَ القومُ إذا تَنازَعُوا ، لأنه لم يَقَعْ فى كِتَابٍ من الكُتُب المَنَزَّلة [مِثْلُ] التنازعِ الواقعِ فيه . قاله أبو عمرو الشَّيْبانِىّ .

والثالث ـــ أنه مأخوذٌ من النَّجْلِ بمعنَى الأصْـلِ : لأنه أصْلُ العِلْمِ الذى أطْلَعَ الله تعالىٰ فيه خَلِيقَتَه عليه ، ومنه قِيل للوالد نَجْلٌ : لانه أصل لولده .

ثم ذِكْرُ هذه الاشتقاقاتِ جُنُوحٌ من قائلها إلىٰ أن لَفْظ الإنْجِيل عَرَبِىٌّ ، والذى يظهر أنه عِبْرانِىٌّ : لأنَّ لُغَةَ عِيسَى عليه السـلام كانت العِبْرانيَّـة ، وقد قال صاحب "إرشاد القاصد" : إنَّ معنَى الإنجيلِ عندهم البِشَارَة .

وٱعلم أنَّ النَّصارَىٰ بجُمْلَتِهم مُجْمِعُونَ علىٰ أن مَرْيَمَ حَمَلَتْ بالمَسِـيح عليه السـلام ، وولَدتْه ببَيْتِ لَحْمٍ من بلاد القُـدْسِ من الشَّام ، وتكلَّم فى المَهْدِ، وأنَّ اليَهُودَ حين

أنْكروا علىٰ مَرْيَمَ عليها السلام ذلك فَرَّتْ بالمسيح عليه السلام إلىٰ مِصْر، ثم عادتْ به إلىٰ الشام، وعمرُه آثنتا عشرةَ سنة، فنزلت به القَرْيةَ المسمَّاةَ ناصِرَةَ المقدّم ذِكْرُها، وأنه فى آخر أمْرِه قَبَضَ عليه اليهودُ وسَعَوْا به إلىٰ عامِل قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّوم علىٰ الشام، فَقَتله وصَلَبه يوم الجمعة، وأقامَ علىٰ الخَشَبة ثلاثَ ساعات، ثم آستوهبه رجلٌ من أقارب مَرْيَم آسمُه يوسفُ النَّجّار من عامل قَيْصَر، ودفَنَه فى قَبْرٍ كان أعدّه لنَفْسه فى مكان الكنيسة المَعْروفةِ الآن بالقُمَامَة بالقُدْس، وأنَّه مكثَ فى قَبْرِه ليلةَ السَّبْت ونَهارَ السَّبْت وليلةَ الأحَد، ثم قام من صَبِيحة يوم الأحَد، ثم رآه بُطْرس الحَوَارِىُّ وأوصَىٰ إليه، وأنَّ أمَّه جمعت له الحَوَارِيِّين فبعثهم رُسُلًا إلىٰ الأقطار للدِّعاية إلىٰ دِينِه، وهم فى الأصل آثنا عَشَر حَوارِيًّا: بُطْرس ويقال له: سَمْعان، وشَمْعُون الصَّفا أيضا. وأندراوس وهو أخو بطرس المقدَّم ذِكْرُه، ويَعْقُوبُ بن زيدى، ويُوحَنَّا الإنجيلىُّ، وهو أخو أندراوس[1]، وفيلبس، وبرتلوماوس، وتوما: ويُعرف بتوما الرسول، ومَتَّى ويعرفُ بمَتَّى العَشَّار، ويعقوبُ بن حلفا، وسمعانُ القنانى ويقال له شمعون أيضا، وبولس ويقال له تداوس، وكان آسمه فى اليَهُودية شاول، ويَهُوذَا الإسخر يوطى (وهو الذى دَلَّ يَهُودَ علىٰ المَسِيح حتَّى قبضوا عليه بزَعْمِهم) وقام مقامَه بنْيامينُ، ويقولون: إنه بعد أن بعث مَن بَعَث من الحوَارِيِّين صَعِد إلى السَّماء. وهم متَّفقون علىٰ أن أربعةً من الحَوارِيِّين تَصَدَّوْا لكتابة الإنْجِيل: وهم بطرس، ومتَّى، ولُوقا[2]، ويُوحَنَّا. فكتبوا فيه سِيرَة المَسِيح من حين وِلادَته إلىٰ حِينِ رَفْعه، وكتب كُلٌّ منهم نُسخةً علىٰ ترتيب خاصٍّ بلُغَةٍ من اللُّغات.

(١) سيأتى قريبا كما فى "العبر" (ج ٢ ص ١٤٧) أن يُوحنا الإنجيلى أخو يعقوب بن زيدى وكذلك فى "المقريزى" ج ٢ ص ٤٨٣.

(٢) كذا فى "الملل والنحل" أيضا ولكن لم يرد فى الحواريين المذكورين قبل هذا الأسم.

فكتب بطرس إنجيلَه باللُّغة الرُّوميَّة فى مدينة رُومِيَةَ قاعدةِ بلادِ الرُّوم، ونسبه إلىٰ تِلْميذِه مُرقَس أوّلِ بطاركة الإسكندرية، ولذلك يعرَفُ بمُرقُس الإنْجيلىّ، وقيل : إن الذى كتبه مُرقُس نَفْسُه . وكتب متَّىٰ إنْجيلَه بالعبْرانيَّة فى بَيْت المقْدس، ونقلَه بعد ذلك يُوحَنَّا بن زيدى إلى اللُّغة الرومية . وكتب لوقا إنجيله بالرُّومية وبعث به إلىٰ بَعْض أكابر الرُّوم، وقيل : بل كتبه باليُونانيَّة بمدينة الإسكندرية . وكتب يُوحَنَّا إنجيله باليونانية بمدينة أفْسُس، وقيل مدينة رُومِيَة .

قال الشَّهْرَسْتانِىُّ : وخاتِمةُ إنجيل مَتَّى : « إنى أُرْسلُكُم إلىٰ الأُمَم كما أرْسَلنِى أَبِى إليكم فاذْهبوا وٱدْعُوا الأُمَمَ بٱسم الأب والابن ورُوحِ القُدُس» ثم ٱجتمع برُومِيَةَ من توجَّه اليها من الحَوارِيِّينَ ودَوَّنُوا قوانينَ دِينِ النصرانية علىٰ يد أقليمش (١) تِلْميذِ بطرس الحَوارِىّ ، وكتبوا عدد الكُتُب التى يجب قبولها والعمَلُ بمقتضاها ، وهى عِدّةُ كتبٍ : منها الأناجيلُ الأربعةُ المتقدمةُ الذِّكْرِ، والتَّوراةُ التى بأيديهم، وجملةُ كُتُبٍ من كُتُب الأنبياء الذين قَبْلَ المَسِيح عليه السلام، كيُوشَع بن نُون، وأيُّوبَ، وداودَ، وسُليمانَ عليهم السلام، وغيرهم .

ثم لما مات الحواريُّون أقام النَّصارىٰ لهم خَلائِفَ ، عُبِّر عنهم بالبَطارِكَة جمعُ بَطْرِكٍ، وهى كلمة يونانية مُرَكَّبةٌ من لفظين، أحدهما بَطْر ومعناه (٢) ، والثانية يَرْك ومعناه (٢) ، ورأيتُ فى ترَسُّلِ العَلاء بن مُوصَلايَا : كاتبِ القائم بأمر الله العبَّاسىّ "فَطْرَك" بإبدال الباء فاء، والعامة يقولون : "بَتْرَك" بإبدال الطاء تاء، وهو عندهم خليفة المَسِيح، والقائم بالدِّين فيهم .

(١) فى المقريزى ص ٤٨٣ ج ٢ "قليموس" وفى العبر ج ٢ ص ١٤٨ "اقليمنطس" .

(٢) بياض بالأصول، وكذلك بيض له فيما تقدّم عند الكلام على ألقاب وظائف النصارى انظر (ج ٥ ص ٤٧٣) من هذا المطبوع .

وقد كان لبَطارِكَتِهِم فى القــديم خَمْسَةُ كَرَاسِىَّ(١)، لكُلِّ كُرسِىٍّ منها بَطْرَكٌ . الأوّل منها بمدينة رُومِيَة، والقائم به خَلِيفَةُ بطرس الحَوَارِىّ المتوجه إليها بالبِشَارَة . والثانى بمدينة الإسْكَنْدرِيَّة . والقائم به خَلِيفَةُ مرقس تِلْمِيذُ بطرس الحَوارِىّ المقدّم ذكره وخليفته بها . والثالث بمدينة بِزَنْطِيَة : وهى القُسْطَنْطِينِيَّةُ . والرابع بمدينة أَنْطاكِيَة من العواصم التى هى فى مُقَابَلة حَلَبَ الآن . والخامس بالقُدْس . وكان أكبرَ هذه الكَرَاسِىِّ الخمســة كُرْسِىَّ رُومِيَةَ لكَوْنه محلَّ خلافة بُطْرس الحَوارِىّ، ثم كُرسِىّ الإسكندرية، لكونه كُرْسِىَّ مرقس خَلِيفَتِه .

ثم ٱصطلحوا بعد ذٰلك علىٰ أسماءٍ وضعوها علىٰ أرباب وظائف دياناتهم، فعبروا عن صاحب المَذْهَبِ بالبِطْرِيقِ، وعن نائِبِ البَطْرَكِ بالأُسْقُفِّ، وقيــل الأُسْقُفُّ عندهم بمنزلة المُفْتِى، وعن القاضى بالمَطْرَانِ، وعن القَارِئِ بالقِسِّيس، وعن صاحِبِ الصلاة وهو الإمامُ بالجَاثَلِيق، وعن قَيِّمِ الكنيسة بالشَّمَّاس، وعن المنقطع إلى المَوْلى للعِبَــادَة بالرَّاهِب .

وكانت الأساقِفَةُ يُسَمُّون البَطْرَكَ أباً، والقُسُوسُ يسمُّون الأُسْــقُفَّ أباً، فوقع الٱشتراكُ عندهم فى ٱسْم الأَبِ، فوقع اللَّبْس عليهم، فاخترعوا لبَطْرَكِ الإسكندرية ٱسم البَابِ، ويقال فيه البَابَا بزيادة ألف، والبابه بإبدال الألف هاء، ومعناه عندهم أبو الآباء : لتميِيزِ البَطْرِكِ عن الأُسْقُفِّ، فاشتهر بهــذا الٱسم، ثم نقل ٱسمُ البَــابِ إلىٰ بَطْرَكِ رُوميَــةَ لكَونِه خليفــةَ بطرس الحَوَارِىِّ، وبقى ٱسم البَطْرَكِ علىٰ بَطْرَكِ الإسكندرية وغيره من أصحاب الكَرَاسِىِّ .

---

(١) تقدّم فى (ج ٥ ص ٤٧٣) من هذا المطبوع أنها أربعة ولم يذكر كرسىّ بزنطية .

وٱعلم أن النَّصارَىٰ مُجْمِعُون علىٰ أن الله تعـالىٰ وَاحِدٌ بالجَوْهَر ثلاثةٌ بالأُقْنُومِيَّة، ويُفَسِّرُون الجَوْهر بالذَّاتِ والأُقْنُومِيَّةَ بالصِّـفاتِ : كالوُجودِ والعِلْمِ والحَيَـاة ؛ ويعبرون عن الذَّاتِ مع الوُجودِ بالأَبِ ، وعن الذَّاتِ مع العِـلْمِ بالآبْنِ ؛ ويعبرون عن الذَّاتِ مع الحَياةِ برُوحِ القُدُس ؛ ويعبِّرون عن الإِلٰه باللَّاهُوت ، وعن الإنسان بالنَّاسُوت ؛ ويُطْلقون العِـلْم على الكلمة التى أُلْقِيت إلىٰ مَرْيَمَ عليها السلام فَحَملَتْ منها بالمَسِيح عليه السلام ؛ ويُخُصُّونَه بالآتِّحاد دون غيره من الأقانيم .

وٱجتمع منهم ثلثُمائة وثمانيةَ عَشَر ، وقيل وسبعةَ عَشَر(١) أُسْقُفًّا من أساقِفَتِهم بمدينة نيقِيَـةَ من بلاد الرُّوم بحضرة قُسْطَنطِينَ مِلِكِ الرُّوم عنـد ظهور أَرْيوش الأُسْقُفّ وقوله : إن المَسِيح مخلوقٌ ، وإنَّ القَدِيمَ هو الله تعالىٰ ، وألَّفُوا عقيدةً آستخرجُوها من أَنَاجِيلِهم لقَّبوها بالأمانة ، من خَرَج عنها خرج عن دِينِ النَّصْرانية ؛ ونَصُّها علىٰ ما ذكره الشَّهْرَسْـتَانِيّ فى "النِّحَلِ والمِلَل" وٱبنُ العَمِيد مُؤَرِّخُ النَّصارىٰ فى تاريخه ما صُـــورَتُه .

نُؤمنُ باللَّهِ الوَاحِدِ الأَبِ ، مالكِ كُلِّ شَيْءٍ ، وصَانِـعِ ما يُرىٰ وما لا يُرَىٰ ، وبالآبْنِ الوَاحِدِ أيْشوعَ المَسِيحِ ٱبنِ اللَّهِ ، بِكْرِ الخلائق كُلِّها ، وليس بمَصْنُوع ؛ إلٰهٍ حَقٍّ من [إلٰهٍ حق من](٢) جَوْهَرِ أَبِيهِ الذى بيَدِه أُتْقِنَت العَوالِمُ وكُلُّ شَيْءٍ ، الذى من أجْلِنا و[من](٢) أجْلِ خَلاصِنَا نَزَلَ من السَّماء ، وتجسَّد برُوحِ القُـدُس ، ووُلِدَ من مَرْيَمَ البَتُول ، وصُلِبَ أيام فيلاطوس ، ودُفِنَ ثم قام فى اليَوْم الثالث وصَعِدَ إلىٰ السَّماء ، وجلسَ عن يَمِينِ أبيـهِ ، وهُو مُسْـتَعِدٌّ للمجيء تَارَةً أخرىٰ للقَضَاء بين الأمْواتِ

(١) الذى فى "الملل والنحل" للشهرستانى (ص ١٣٢) وثلثمائة وثلاثة عشر رجلا . وفى "العبر" ج ٢ ص ١٥٠ أنهم كانوا ألفين وأربعين اسقفا واتفقوا منهم على ثلثمائة وثمـانية عشر .

(٢) الزيادة من العبر (ج ٢ ص ١٥٠) .

والأحياء . ونؤمن بروح القدس الواحد الحيّ الذى يخرج من أبيه ، و بمعمودية واحدة لغفران الخطايا ، وبجماعة [واحدة] قدسية مسيحية جاثليقية ، وبقيام أبداننا، وبالحياة الدائمة أبد الآبدين .

ووضعوا معها قوانين لشرائعهم سمّوها الهيمانوت (١) . ثم اجتمع منهم جمع بقسطنطينية عند دعوى مقدونيوس المعروف بعدوّ روح القدس، وقوله : إن روح القدس مخلوق، وزادوا فى الأمانة المتقدّمة الذكر مانصه : "ونؤمن بروح القدس المحيي المنبثق من الأب" ولعنوا من يزيد بعد ذلك على كلام الأمانة أو ينقص منها .

وافترق النصارى بعد ذلك إلى فرق كثيرة، المشهور منها ثلاث فرق :

الفرقة الأولى
(الملكانية)

قال الشهرستانى : وهم أتباع ملكان الذى ظهر ببلاد الروم؛ ومقتضى ذلك أنهم منسوبون إلى ملكان صاحب مذهبهم . ورأيت فى بعض المصنّفات أنهم منسوبون إلى مركان قيصر أحد قياصرة الروم، من حيث إنه كان يقوم بنصرة مذهبهم، فقيل لهم مركانية، ثم عرّب ملكانية؛ ومعتقدهم أن جزءا من اللاهوت حلّ فى الناسوت، ذاهبين إلى أن الكلمة وهى أقنوم العلم عندهم اتحدت بجسد المسيح وتدرّعت بناسوته ومازجته ممازجة الخمر [اللبن] أو الماء اللبن؛ ولا يسمّون العلم قبل تدرّعه ابنا، بل المسيح وما تدرّع به هو الابن؛ ويقولون : إن الجوهر غير الأقانيم كما فى الموصوف والصفة، مصرّحين بالتثليث، قائلين بأن كلّا من الأب والابن وروح القدس إله، واليهم وقعت الإشارة بقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ .

(١) فى "العبر" : الهيايون .

وهم يقولون : إن المَسيح قديمٌ أزَلِىٌّ من قَديمٍ أَزَلِىٍّ ، وإن مَرْيَمَ ولدتْ إلهًا أزليًّا ، فيطلقون الأبوَّة والبُنُوَّةَ على الله تعالىٰ وعلى المَسيح حقيقةً ، متمسِّكين بظاهر ما يزعمون أنه وقع فى الإنجيل من ذِكْر الأَبِ والآبن : ﴿ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إن كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْدًا ﴾ .

ثم هم يقولون : إن المَسِيحَ ناسُوتٌ كُلِّىٌّ لا جُزْئِىٌّ ، وإن القتلَ والصَّلْبَ وقعا على الناسُوتِ واللَّاهُوتِ معا كما نقله الشَّهْرَسْتَانِىُّ فى « النِّحل والمِلَل » وإن كان الشيخُ شَمسُ الدِّين بن الأكفانى فى كتابه "إرشاد القاصد" قد وَهِم فنَقَل عنهم القولَ بأن الصَّلْبَ وقع على النَّاسُوت دونَ اللَّاهُوت .

ومن مُعْتَقدِهم أيضا أنَّ المَعَادَ والحَشْر يكون بالأبدان والأرواح جميعا ، كما تضمَّنَتْه الأمانةُ المتقدّمةُ ، وأنَّ فى الآخرة التَّلذُّذاتِ الجُسمانيَّةَ بالأكلِ والشُّرب والنِّكاح وغير ذلك كما يقوله المُسْلِمُون .

ومن فُروعهم أنهم لا يَخْتَتِنُون ، وربَّما أكلَ بعضُهم المَيْتَةَ . وممَّن تَمذْهَبَ بمذْهَبِ المَلْكَانِيَّة الرُّومُ والفَرَنْجةُ ومَن وَالاهُم .

والمَلْكَانية يَدِينون بطاعة البـاب : وهو بَطْرَكُ رُوميَةَ المقـدّمُ ذِكْرُه ، قال فى "الروض المِعْطار" : من قاعدة الباب أنه إذا آجتَمَع به مَلِكٌ من ملوك النَّصارىٰ ينبطح علىٰ بَطْنِه بين يدَيْه ، ولا يزال يُقَبِّلُ رجْلَيْه حتَّى يكون هو الذى يأمُرُه بالقيام .

الفِـــرْقة الثـانية
(اليَعْقُوبيَّـــة)

وهم أتْباعُ دِيسَقْرس بَطْرَكِ الإسكَنْدريَّة فى القَـديم : وهو الثامنُ من بَطاركَتِها من حينِ بَطْرَكِيَّةِ مُرْقُس الإنجيلىِّ نائبِ بُطْرس الحَوَارِىِّ بهـا . قال آبن العَميـد فى تاريخه : وسُمِّىَ أهلُ مَذْهَبِـه يعقوبية : لأن آسمه كان فى الغِلْمـانية يَعْقوب . وقيل : بل كان له تِلْميذٌ آسمُه يعقوبُ فنُسِبوا إليه . وقيل : بل كان شَاوِيرشُ بَطْرَكُ أنطاكية علىٰ رأى دِيسَقْرس ، وكان له غلامٌ آسمُه يَعقوبُ فكان يبعثُه إلىٰ أصحابه : أن آثبُتُوا علىٰ أمَانة دِيسَقْرس فنُسِبوا إليه . وقيل : بل نُسِبوا إلىٰ يَعْقُوب البردغانى تِلْميذ سويرس بَطْرَكِ أنْطاكِيَةَ ، وكان رَاهِبًا بالقُسْطَنْطِينِيَّة فكان يطوفُ فى البـلاد ويَدْعو إلىٰ مَذْهب ديسَقْرس . قال آبن العميد : وليس كذلك فإنَّ اليعاقبةَ يُنسَبُون إلىٰ دِيسَقْرَسَ قبل ذلك بكثير ، ومُعتَقَدُهم أن الكَلمة آنقلبتْ لَحْمًا ودَمًا فصار الإلٰهُ هو المَسِيحَ .

ثم منهم من قال إن المَسيحَ هُو الله تعالىٰ . قال المؤَيَّد صاحب حماة : ويقولون مع ذلك إنه قُتِل وصُلِب ومَاتَ وبَقِىَ العالَمُ ثلاثةَ أيَّامٍ بلا مُدَبِّر . ومنهم من يقول : ظَهر اللَّاهُوتُ بالنَّاسُوتِ ، فصار نَاسُوتُ المَسـيح مَظْهَر الحَقِّ لا علىٰ طريق حُلول جُزْء فيه ، ولا علىٰ سَبِيل آتِّحاد الكَلمة التى هى فى حُكْم الصِّفَة ، بل صار هو هو ، كما يقال : ظَهَرَ المَلَكُ بصُورَةِ إنْسانٍ ، وظهر الشَّيْطانُ بصُورةِ حَيَوانٍ ، وكما أخبر التَّنزيلُ عن جِبْريل عليه السلام بقوله تعالىٰ : ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ .

وأكثرهم يقولُ : إن المَسيحَ جَوْهَرٌ واحدٌ إلا أنَّه من جَوْهَرَينِ ، وربَّما قالوا : طبيعةٌ واحدةٌ من طبيعتين . فجَوْهَرُ الإلٰهِ القَدِيم وجَوْهرُ الإنسان المُحدَث تركَّبَا تركُّبَ

النَّفْس والبَدَن فصارا جَوهَرًا واحدا أقنُومًا واحدًا وهو إنسانٌ كلُّه و إلٰهٌ كلُّه، فيقال : الإنسانُ صار إلهًا ولا ينعكس، فلا يقال : الإلٰهُ صار إنساناً، كالفَحْمة تُطرَح فى النار فيقال : صارت الفَحْمةُ نارا، ولا يقال : صارت النارُ فَحْمةً، وهى فى الحقيقة لا نارٌ مطلقة ولا فَحْمةٌ مطلقة، بل هى جمرة .

ويقولون : إنَّ الكلمةَ اتَّحدَتْ بالإنسان الجزئيِّ لا الكلِّيِّ، وربَّما عبَّروا عن الاتحاد بالامتزاج والادِّراع والحُلُول، كحلول صورة الإنسان فى المرآة .

ومنهم من يقول : إن الكلمةَ لم تأخُذْ من مَرْيَمَ شيئا لكنَّها مرَّت بها كمُرُورِ الماءِ بالميزابِ، وإنَّ ما ظهر من شَخْص المَسِيح عليه السلام فى الأعْيُنِ هو كالخيال والصُّورةِ فى المرآة، وإن القَتْل والصَّلْبَ إنما وقعا على الخيال .

وزعم آخرون منهم أنَّ الكلمةَ كانتْ تُداخِلُ جَسَدَ المَسِيح أحيانا فتصدُرُ عنه الآيات : من إحياء المَوْتَى، وإبْراءِ الأكْمَهِ والأبْرصِ، وتُفارِقُه فى بعض الأوقات فتَرِدُ عليه الآلامُ والأوجاعُ . ثم هم يقولون : إن المَعَاد إنما هو رُوحانىٌّ فيه لَذَّةٌ وراحَةٌ وسُرورٌ، ولا أكْلَ ولا شُرْبَ ولا نِكاحَ .

ومن فروعهم أنهم يختَتِنُون، ولا يأكلون الحَيَوانَ إلا بعد التَّذْكِيَة . وقد حكَى ابنُ العميد مؤرِّخُ النَّصارَىٰ أن دِيسَقْرس صاحِبَ مَذْهبِ اليعقوبية حينَ ذهبَ إلىٰ ما ذهب : من مَذْهبِه المقدّم ذِكْرُه، رُفِع أمره إلىٰ مَرْكانَ قَيْصَرَ مَلِكِ الروم يومئذ، فطلَبه إلىٰ مَدينة خَلْقَدُونِية(١) من بلاد الرُّوم، وجمعَ له ستَّمائَةٍ وأربعةً وثلاثين أُسْقُفًّا، وناظروه بحضْرة المَلِك فسَقَط فى المُناظرة، فكلمتْه زوجةُ الملك فأساء الرَّدَّ فلطمتْه بيدها، وتناوله الحاضرون بالضرب، وأُمِرَ بإخراجه، فسار إلىٰ القُدْس،

(١) كذا فى "العبر" أيضا بإثبات مثناة تحتية بعد النون والذى فى معجم ياقوت بحذفها .

فأقام به وٱتبعه أهـل القُدْس وفِلَسْطين ومصر والإسكندرية ، وقد ٱتَّبعه علىٰ ذلك أيضا النُّوبَةُ والحَبَشةُ، وهم علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

الفِــــرْقة الثـالثة
(النَّسْــطُورِيَّة)

ومقتضىٰ كلام ٱبن العميد أنَّهم أتْبَاعُ نُسْطوريوس بَطْرك القُسْطَنْطِينِيَّة . ويُحكَىٰ عنه أن من مَذْهبِه أن مَرْيَمَ عليها السلام لم تَلِدْ إلٰهًا ، وإنمـا وَلدتْ إنْسانا ، وإنَّمـا ٱتَّحد فى المَشِيئَةِ لا فى الذَّات ، وأَنه ليس إلٰهًا حقيقةً بل بالمَوْهِبة والكرامة . ويقولون بجَوْهَرَيْنِ وأُقْنُومَيْنِ ، وإن كِرلس بَطْرَكَ[(1)] الإسكندرية وبَطْرَكَ رُومِيَةَ خالفاه فى ذلك ، فجمع لهم مائتَىْ أُسْقُفٍّ بمدينة أَفْسس وأبطلوا مقالة نُسْطوريوس وصَرَّحوا بكُفْره ، فنفى إلىٰ إخميم من صعيد مِصْر ومات بها ، فظهر مَذْهبُــه فى نصارىٰ المَشْرق : من الجزيرة الفُراتيَّة والمَوْصِل والعِرَاق وفَارِس .

والذى ذكره الشَّهْرَسْتانِىُّ فى "النِّحل والمِلَل" أنهم مَنْسوبون إلىٰ نُسطور الحكيم الذى ظهر فى زمان المأمون ، وتصرَّف فى الأناجيل بحُكْم رأْيه ، وقال : إن الله تعالىٰ واحدٌ ذو أقانيم ثلاثة : الوُجودِ والعِلْمِ والحَيَاة ، وإن هذه الأقانيمَ ليستْ بزائدة على الذَّاتِ ولا هِى هِى ، وإنَّ الكلمةَ ٱتَّحدتْ بجَسَد المسيح عليه السـلام لا علىٰ طريق الٱمتزاج ، كما ذهبتْ إليــه المَلْكانيَّة ، ولا علىٰ طريق الظُّهور كما قالته اليَعْقوبيَّة ،

---

(١) عبارة ٱبن خلدون فى العبر (ج ٢ ص ١٥٢) وبلغت مقالة نسطوريوس إلى كرلس بطرك الاسكندرية ، فكتب إلى بطرك رومية وهو اكليمس ، وإلى يوحنا وهو بطرك أنطاكيــة ، والى يونالوس أسقف بيت المقدس ، فكتبوا الى نسطوريوس ليدفعوه عن ذلك بالحجة فلم يرتجع ولم يلتفت الى قولهم ، فاجتمعوا فى مدينة افسيس فى مائتين أسقفا الخ .

ولكن كاشراق الشَّمسِ فى كُوَّة ، أو كظهور النَّقْش فى الخاتَم : قال الشَّهْرَسْتانِىُّ : ويعنى بقوله إنه واحدٌ بالجَوهر أنه ليس مركَّبًا من جِنْس بل هو بَسِيطٌ واحد . ويعنى بالحياة والعلم أُقْنومَيْن جوهرين أى أصلين مبدأَيْن للعالَم . قال : ومنهم من يثبت لله تعالىٰ صفاتٍ زائدةً على الوجود والحياة والعِلم : كالقدرة والإرادة ونحوهما . ومنهم من يطلق القول بأن كلَّ واحدٍ من الأقانيم الثلاثةَ حَىٌّ ناطقٌ إلٰهٌ . ومنهم من يقول : إن الاله واحد ، وإن المسيح ٱبتدأ من مَرْيَمَ عليها السلام ، وإنه عبدٌ صالح مخلوق ، خلقه الله تعالىٰ وسماه ٱبنًا على التَّبَنِّى لا على الوِلادَة والاتّحاد . ثم هم يخالفون فى القتل والصَّلْب مذهَبَ المَلْكانية واليَعْقوبية جميعا ، فيقولون : القَتْل والصَّلْب وقعا على المسيح من جهة ناسُوته لا من جهة لَاهُوته : لأن الإلٰهَ لا تَحُله الآلام . قال صاحب حَمَاةَ : وهم عند النصارىٰ كالمعتزلة عندنا .

وليُعلَمْ أن للنَّصارىٰ أشياءَ يعظِّمُونها و [أشياء] يستعظِمُون الوقوع فيها .

فأما التى يُعظِّمونها فإنهم يعظمون المَسيح عليه السلام حتَّى ٱنتَهَوْا فيه إلىٰ ما ٱنْتَهَوْا : من دعوى الأُلوهِيَّةِ والبنوّة لله سبحانه ، تعالىٰ الله عما يشركون ، وٱسْمُه عندهم أيشوع فعُرِّب عيسى . وإنما سُمى المسيحَ لكَوْنه مَمسوحَ القَدَمَين لا أخْمَصَ له .

ويعظِّمون مَريَمَ عليها السلام لولادتها المَسِيحَ عليه السلام ، ويعبِّرون عنها بالسَّيِّدة ، وبالبَتُول ، وبالعَذْراء .

ويعظمون مَرْيُحَنَّا المعمدان ، وهو عندهم يَحْيَى بنُ زكَرِيَّا عليه السلام ، ومعنى مَرْ السَّيِّد ، ويُحَنَّا يعنى يَحْيىٰ ، ويسمُّونه المعمدان لأنهم يزعُمون أنَّ مريمَ عليها السلام حين عَوْدِها من مِصْر إلى الشأم ومعها السَّيِّدُ المَسِيحُ تلقَّاه يَحْيىٰ عليه السلام فعمَّده فى نَهر الأُرْدُنِّ من بلاد فِلَسْطِينَ ، يعنى غَمَسه فيه ، ويجعلون ذلك أصلا

للمَعْمُودِيَّة : وهو الماء الذى يُغْمَسُون فيه عند تَنَصُّرهم ، ويقولون : إنه لا يصح تَنَصُّر نَصْرانىّ دون تَعمُّد . ولماء المعمودية بذلك عندهم من التَّعظيم مالا فوقه . وبعضُهم يقول : إن المرادَ بمَرْيحُنَّا المعمدان غيرُ يحيىٰ بن زكريّا عليهما السلام .

ويعظمون الحَوَارِيّين : وهم أصحاب المَسِيح عليه السلام . وقد تقدّم أن عِدّتهم ٱثنا عشَر حَوارِيًّا ، ومعنى الحَوَارِىّ الخاصُّ ، ومنه قيل للدَّقيق النَّاصِع البَياض دَقيقٌ حُوَّارِىٰ ، سُمُّوا بذلك لأن المَسِيح عليه السلام ٱستخلصهم لنَفْسه .

ويعظِّمُون البَطارِكَةَ لأنهم خُلَفاء الدِّين عندهم ، ويَرَوْن لهم من الحُرْمة مالِلدين النَّصْرانية عندهم من الحُرْمة ، بل يجعلون أمْرَ التَّحْليل والتَّحْريم مَنُوطًا بهم ، حتَّى لو حَرَّم البَطْرَكُ علىٰ أحدهم زَوْجَتَه لم يقرَبْها حتَّى يُحِلَّها له . وسيأتى مالبَطْرك (١) اليعقوبية عند صاحب الحَبَشة من الحُرْمة عند ذكر المكاتبة إليه فيما بعدُ ، إن شاء الله تعالىٰ .

وكذلك يعظِّمُون أربابَ الوظائف الدِّينية عندهم : من البِطْرِيق ، والأُسْقُفّ ، والمَطْران ، والقِسِّيس ، والشَّمَّاس ، والراهب ؛ وقد تقدّم تَفْسِيرُهم فيما مرّ .

ويعظِّمُون يُوسفَ النَّجّار : وهو قريبٌ لمريمَ عليها السلام ، يقالُ : إنه ٱبنُ عَمِّها ، كان معها فى خِدْمة بَيْت المَقْدِس ، وهو الذى ٱستوهبَ المَسِيحَ بعد الصَّلْب بزَعْمِهم حتَّى دفَنَه . واليَهُودُ يرْمُون مريَمَ عليها السلام معه بالفُجُور علىٰ ما تقدّم .

ويعظِّمُون مَرْيم المَجْدَلانِيَّةَ المقدّم ذِكْرُها ، ويزعمون أنها (٢) أخرج منها سبعة شياطين ، وأنها أوّلُ من رأَى المَسِيحَ حين قام من قَبْره .

---

(١) سبق الكلام على المكاتبة اليه فى ج ٨ ص ٣٩ فهذا الوعد سهو عما سبق .

(٢) بياض بالأصول .

ومن عادتهم أنه إذا مات منهم أحدٌ ممن يعتقدون صلاحه صوّروا صورته في حيطان كنائسهم ودياراتهم يتبركون بها .

ويعظّمون قسطنطين بن قسطنطين ملك الروم ، وذلك أنه أوّل من أخذ بدين النصرانية من الملوك وحمل على الأخذ به . وقد اختُلف في سبب ذلك فقيل : إنه كان يحارب أمّة البرجان بجواره وقد أعجزه أمرهم ، فرأى في المنام كأنّ ملائكةً نزلت من السماء ومعها أعلامٌ عليها صلبان ، فعمل أعلامًا على مثالها وحاربهم بها فظهر عليهم . وقيل : بل رأى صورة صليبٍ في السماء . وقيل : بل حملته أمّه هيلانى على ذلك .

ويعظمون هيلانى أم قسطنطين المقدّم ذكره ، ويقولون : إنها رحلت من قسطنطينيّة إلى القدس ، وأتت إلى محلّ الصّلب بزعمهم ، فوقفت وبكت ، ثم سألت عن خشبة الصّلب ، فأُخبرت أن اليهود دفنوها وجعلوا فوقها القمامات والنّجاسات ، فاستعظمت ذلك ، واستخرجتها وغسلتها وطيّبتها وغشّتها بالذهب ، وألبستها الحرير ، وحملتها معها إلى القسطنطينيّة للتبرّك ، وبنت مكانها كنيسةً ، وهى المسمّاة الآن بالقمامة ، أخذا من اسم القمامة التى كانت موضوعةً هناك .

ويعظّمون من الأمكنة بيت لحم حيث مولد المسيح عليه السلام ، وكنيسة قمامة حيث قبره ، وموضع خشبة الصّلب التى استخرجتها هيلانى أم قسطنطين بزعمهم .

وكذلك يعظّمون سائر الكنائس : وهى أمكنة عباداتهم كالمساجد للمسلمين . وأصلها في اللغة مأخوذٌ من قولهم : كناس الظّبي : وهو المكان الذى يستتر فيه ، سمّيت بذلك لاستتارهم فيها حال عبادتهم عن أعين الناس . وكذلك يعظّمون الدّيارات : وهى أمكنة التّخلّي والاعتزال كالزّوايا للمسلمين .

ويعظِّمون المَـذْبَح : وهو مكانٌ يكون فى الكَنِيسـةِ يقرِّبُون عنـده القَرابِينَ ويَذْبحون الذَّبائح، ويعتقدون أنَّ كلَّ ماذُبِحَ عليه من القُرْبان صار لَحْمُه ودَمُه هو لَحْمَ المَسِيح وَدمَه حقيقة .

ويعظمون من الأزْمِنَـة أعْيادَهم الآتى ذِكْرُها عنـد ذكر أعْيادِ الأمم : كعِيـدِ الغِطَاسِ من أعيادهم الكِبَار، ومَوْقِعُه فى الحادى عَشَر من طُوبه من شُهور القِبْط . وعِيدِ السَّيدةِ من أعيادهم الصِّغار . ومَوْقِعُه فى الحادى والعشرين من بؤُونة منها . وعيد الصَّليب . وموقعه عندهم فى السابعَ عَشَر من تُوت، إلىٰ غير ذلك من الأعياد الآتى ذِكْرُها (١) مع أعياد الأمم، فى الكلام على الأَزمنـة من هـذه المقالة، إن شاء الله تعـالىٰ .

وأما الأشياءُ التى [يتَعبَّدُون] بها، فإنهم يُصَلُّون سـبْع صلوات فى اليَوْم واللَّيلة، وهى : الفَجْر، والضُّحَىٰ، والظُّهْر، والعَصْر، والمَغْرب، والعِشَاءُ، ونِصْفُ اللَّيل؛ ويقرءون فى صَلاتِهم بمزامير دَاوُدَ عليه السلام كما تفعل اليَهُود . والسُّجود فى صلاتهم غيرُ مَحْدودِ العَـدَد، بل قد يَسْجُدون فى الرَّكْعة الواحدة خَمسين سَجْـدة . وهم لايتوضئُون للصلاة، ولا يغتسلون من الجَنَابَة، وينكرون الطُّهْر للصَّلاة على المسلمين وعلى اليهود، ويقولون : الأَصْـلُ طَهَارة القَلْب . وإذا أرادوا الصَّـلاة ضَرَبُوا بالنَّاقُوس، وهو خَشَبَةٌ مستطيلة نَحْو الذراع يُضْرب عليها بخَشَبةٍ لَطِيفَةٍ فيجتمعون . وهُمْ يستقبلون فى صَلاتِهم المَشْرِق، وكذلك يُوجِّهون إليه مَوْتاهُم . قال الزَّمَخْشَرِىُّ : ولعلَّ ذَهابَهـم إلىٰ ذلك لأخْذِ مَرْيم عليها السلام عنهم مَكَانًا شَرْقِيًّا كما أخبر تعـالىٰ بقوله : ﴿ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّـا ﴾ .

(١) لم يذكر شيئا من الأعياد فى هذه المقالة وقد سبق ذكر ذلك فى الفصل الثالث من المقالة الأولى فما هنا سهو .

ولهم صِيامَاتٌ فى أوقات مُتَفرِّقَة .

منها ــ صَوْمُهم الكَبِير : وهو سِتُّون يوما أوّلها يوم الاْثنين . وموقع أوّله فى شباط أو أذار من شُهور السُّريان ، بحَسَب مايقتضيه حِسابُهم ، يُفْطِرون فى خِلالها يوم الأحَدِ ، تبْقَى مدّة صيامهم منها تسعةٌ وأربعون يَوما .

ومنها ــ [صَوْمُهم الصَّغير] : وهو سِتّة وأربعون يَوْمًا يصُومُونها بعد الفصح الكبير بخمسين يوما ، أوّلها يوم الاْثنين أيضا ، وعندهم فيه خِلافٌ .

ومنها ــ صَوْمُ العَذَارَىٰ : وهو ثلاثة أيام ، أوّلُها يوم الاْثنين الكائِن بعد كَانُون الثانى ، فى صيامات أخرىٰ يطول ذِكْرُها ، ولكثرة صِيامِهم قِيل : إذا حُدِّثْتَ أن نَصْرانيًّا مات من الجُوع فصَدِّقْ .

وأمّا ما يحرِّمُونه ، فإنهم يقولون بتحريم لَحْم الجَمَل ولَبَنِه كما يقُولُه اليهود ، ويقولون : بحلِّ لَحْمِ الخِنْزِيرِ خِلافًا لليهود ، وهو مما يُنْكِره اليهود عليهم من مخالفة أحكام التوراة .

ويحرِّمون صَوْمَ يوم الفِصْحِ الأكْبر ، وهو يومُ فِطْرِهم من صَوْمِهم الأكبر .

ويحرِّمُون على الرجل أن يتزوّج آمرأتين فى قَرَنٍ واحِدٍ .

ويحرِّمون طلاقَ الزوجةِ بل إذا تزوّج أحدُهم آمرأةً لا يكون له منها فِراقٌ إلا بالموت .

وأما الأشياء التى يستعظمون الوُقُوع فيها :

فمنها ــ جحودُ كَوْن المَسِيح هو المُبَشَّر به علىٰ لسان مُوسَى عليه السلام .

ومنها ــ إنكارُ قَتْل المَسِيح عليه السلام وصَلْبِه ، فإنهم يعتقدون أن ذلك كان سَبَبًا لخلاص اللّاهُوت من النّاسُوت ، فمن أنكر عندهم وُقُوعَ القَتْل والصَّلْب على المَسِيح

خرج عن دِينِ النصرانية، بل إنكارُ رُؤْيَتِهِ مَصْلُوباً عندهم ٱرتكابُ مَحْظور، على أنَّهم يُنْكِرون على اليَهُود ٱرتكابَهم ذلك، ويستَعْظِمُون مُشارَكتهم فى ذلك، فيالها من عُقُولٍ أضلَّها بارِئُها! .

ومنها ـ كَسْر صَلِيب الصَّلَبُوت، وهو الخَشَبة التى يزعمون أن المَسِيح عليه السلام صُلِب عليها . وقد تقدّم أن هيلانى أمّ قُسْطنْطِينَ ٱستخرجتها من القُمامة وغَسَلَتْها وطَيَّبتها وغَشَّتْها بالذَّهب وألبسَتْها الحرِيرَ وحَمَلَتْها معها للتَّبرك .

ومنها ـ الرُّجوع عن متابعة الحَوارِيِّين الذين هم أصحابُ المَسِيح عليه السلام .

ومنها ـ الخروج عن دِينِ النَّصرانيـة أو التَّبرى منـه ، والقولُ بدِين التوحيـد أو دين اليهودية .

ومنها ـ الوقوعُ فى حَقِّ قُسْطنطينَ وأمِّه هيلانى : لقيامهما فى إقامة دِينِ النَّصْرانية أوّلا على ماتقدّم ذكره . وكذلك الاَسْتِهانَةُ بالبطاركة أو أَحَدٍ من أرباب الديانات عندهم : كالأَسَاقِفَةِ ونحوهم ممن تقدّم ذِكْرُه .

ومنها ـ القُعودُ عن أهْلِ الشَّعانِين : وهم أهل التَّسْبيح الذين كانوا حَوْل المَسِيح عليه السلام حين رَكِبَ الحمـارَ بالقُدْس ودخل صِهْيَوْن يأمُر بالمَعْروف ويَنْهَى عن المُنْكَر وهم حوله يسبّحُون الله تعالىٰ ويُقَدِّسُونه .

ومنهـا ـ صَوْم يوم الفِصْح الأكبر، وصَرْفُ الوَجْه فى الصـلاة عن الشَّرْق، وٱستقبالُ صَخْرة بيْت المَقْدِس موافقةً لليهود .

ومنها ـ هَدْمُ كَنِيسة قُمـامَةَ : لكونها عندهم فى مَحَلِّ القبر بزعمهم . وكذلك غيرُها من الكنائس والدِّيَرَة .

ومنها ـ تكْذيبُ أحَدٍ من نَقَلَةِ الإِنْجِيلِ الأربعـة الذين كتبوه كَمَتَّى وغيره ، أو تكذيبُ أحَدٍ من القُسُوس : وهم الذين يقرءون الإِنْجِيلَ والمَزَامِيرَ، وتكذيبُ مَرْيَم المجدلانية فيما أخبرتْ به عن المَسِيح من قِيامِه من قَبْرِه الذى كان دُفِنَ فيه بزَعْمِهم، فإنهم يزْعُمونَ أنَّها أوّل من رآه عند قِيامِه .

ومنها ـ القولُ بنجاسـة ماء المَعْمُودِية : وهو الماءُ الذى ينْغَمِسُون فيـه عند تَنَصُّرِهم .

ومنها ـ عَدَمُ ٱعتقاد أن القُرْبانَ الذى يُذْبَح فى المَذْبَح لا يصـير لَحْمُه ودَمُه هو لَحْمَ المَسِيح ودَمَه، ولعَمْرِى إن هذه لَعُقُولٌ ذَاهِبَة .

ومنها ـ ٱسْتِباحةُ دِماء أهْـلِ الديارات ، والمشاركةُ فى قَتْـلِ الشَّمامسة الذين هم خُدَّامُ الكنائس .

ومنها ـ خِيانَةُ المَسِيح فى وَدِيعَتِه . وذلك أنَّهم يزعمون أن كلَّ ماخَالَفَتْ فيه فِرْقةٌ من الفِرَقِ الثـلاث الفِرْقةَ الأُخْرىٰ كقول المَلْكانية بأنَّ المَعادَ جُسْمانِىٌّ ، وقول اليعقوبيـة : إن المعاد رُوحَانِىٌّ ، فإنَّ الفِرْقة الأُخْرَىٰ يستعظمون الوقوع فيما ذهب إليه مُخَالِفُها، وكذلك كلُّ ماجرىٰ هذا المجرىٰ .

وقد رتَّب الكُتَّابُ أيْمانَ النَّصارىٰ علىٰ هذه المعتقَدات . قال محمد بن عمر المدائنىُّ فى كتاب "القَلَم والدَّواة" : وقد يذهَبُ علىٰ كثير من الكُتَّاب ما يُسْتَحْلَفُ به اليَهُود والنصارىٰ عند الحَاجَةِ إلىٰ ذلك منهم، فيُسْتَحلَفُون بأيْمـانِ الإسلام وهم مُسْتَحِلُّون للحرام ، ومُجـتَرِئُون علىٰ الآثام ، ويتأثَّمون من أَيْمَـانِهم ، والٱسْتِقْسام بأدْيانِهـم . ثم أشار إلىٰ أنَّ أوّلَ ما رُتِّبت الأَيْمـانُ التى يُحَلَّفُ بها النصارىٰ علىٰ هـذه الطريقة فى زَمَنِ الفَضْـلِ بنِ الرَّبيع ، فحَكَى عن بَعْض كُتَّاب العِراق أنه قال : أراد الفَضْلُ

ٱبْنُ الربيع : يعنى وَزِيرَ الرَّشِيد أن يَسْتَحْلِفَ كاتبه "عَوْنا النصرانى" فلم يَدْرِ كيف يَسْتَحْلِفُه ، فقلت : ولِّنى ٱسْتِحْلافَه ، قال : دُونك ، فقلتُ له : إحلف بالهك الذى لا تعبد غيرَه ، ولا تَدِينُ إلّا لَه ، وإلا انخلَعْتَ النَّصرانيَّةَ ، وبَرِئْتَ من المَعْمُودية ، وطرحْتَ على المَذْبَحِ خِرْقَة حِيضَةٍ يهوديَّة ، وقُلتَ فى المسيح ما يقوله المسلمون ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ . وإلا فلَعنكَ البطريك الأكْبَرُ، والمطَارنة، والشَّمامِسَة، والقَمَامسة، والدَّيْرانيُّون ، وأصحابُ الصوامع عند مجتمع الخنازير وتَقْريبِ القُرْبانِ، وبما ٱسْتغاثَتْ به النَّصارىٰ لِيَسُوع ، وإلّا فعليكَ جُرْمُ ثلثمائة وثمانيةَ عَشَر أُسْقُفًّا الذين خرجوا من نِيقِيَةَ حتى أقاموا عَمُود النصرانية، وإلا فشَقَقْتَ الناقُوسَ وطبخْتَ به لَحْمَ جَمَلٍ وأكلته يوم الاثنين مَدْخَلَ الصَّوم وٱلحمت من كل بركه يوما (؟) ورَمَيْتَ الشاهِدَ بعشرين حَجَرًا جاحِدًا بها ، وهَدمْتَ كنيسة لُدٍّ، وبنَيْت بها كنيسة اليهود، وخَرقتَ غِفارَةَ مريمَ وكهنونة داود، وأنتَ حَنِيفٌ مسلم؛ وهذه اليمينُ لازمةٌ لك ولعَقِبِك من بَعْدِك . قال فقال عَوْنٌ : أنا لا أستَحِلُّ أن أسمعَ هذه فكيف أقولها! وخرج من جميع ماطالبه به الفَضْلُ ، فأمر بها الفَضْلُ فكُتِبتْ نُسَخًا وفُرِّقتْ على الكُتّاب وأمرهم بحِفْظِها وتَحْليفِ النصارىٰ [بها] .

قلتُ : وقد أكثر الناسُ من تَرْتِيبِ نُسَخِ الأيْمانِ لتَحْليفِ النَّصارىٰ ، فمن مُطْنِبٍ ومن مُوجِزٍ ، على ٱختلاف مَقَاصِدهم فيما يقع به التَّحليفُ ويوافق آراءهم فيه . وقد رتَّب المقرُّ الشِّهابىُّ ٱبن فَضْلِ الله فى "التعريف" لهم أيمانًا علىٰ مقتضى آراء فِرَقِهم الثَّلاثِ المتقدّمة الذِّكْرِ : من المَلْكانيَّة، واليعقوبية، والنَّساطرَة .

فأما المَلْكانيَّة، فقال : إنَّ يَمِينَهم : واللهِ واللهِ واللهِ العظيم، وحقِّ المَسيح عِيسَى ٱبن مريم، وأمِّه السَّيدةِ مَرْيَمَ، وما أعتقدُه من دِينِ النَّصرانيَّة، والمِلَّة المَسِيحية. وإلَّا أبرأُ من المَعْمودية، وأقولُ : إن ماءها نجس، وإن القَرابِينَ رِجْسٌ، وبَرِئْتُ من مَرْيُحَنَّا المعمدان والأناجيل الأربعة، وقلتُ : إن متَّى كَذُوب، وإن مريم المَجْدَلانيَّةَ باطِلةُ الدَّعوىٰ فى إخبارها عن السَّيد اليَسُوع المَسيح، وقلتُ فى السيدة مَريَمَ قولَ اليَهُود، ودِنْتُ بدِينهم فى الجُحُود، وأنكرتُ ٱتِّحادَ اللَّاهُوت بالنَّاسُوت، وبَرِئْتُ من الأبِ والآبن ورُوح القُدُس، وكَذَّبْتُ القُسوس، وشاركتُ فى ذَبْح الشَّمامِس، وهدمتُ الدياراتِ والكنائس؛ وكنتُ ممَّن مال علىٰ قُسطنطينَ بن هيلانى، وتعمَّدَ أمَّه بالعظائم، وخالفتُ المَجَامِعَ التى أجمعت الأسَاقِفةُ برُومِيَةَ والقُسْطَنطِينِيَّة، ووافقْتُ البَرْذَعانِيَّ بأنْطاكِيَةَ، وجحدتُ مَذْهبَ المَلْكانيَّة، وسفَّهتُ رَأْىَ الرُّهبان، وأنكرتُ وقوعَ الصَّلْب على السَّيِّد اليَسُوع؛ وكنتُ مع اليهود حين صَلَبُوه، وحِدْتُ عن الحَوارِيِّين، وٱستبحْتُ دِماءَ الدَّيْرانيِّين؛ وجذبتُ رِداءَ الكِبْرياء عن البطريك، وخرجتُ عن طاعة البَابِ، وصُمْتُ يوم الفِصْح الأكبر، وقعَدْتُ عن أهْلِ الشَّعانين، وأبَيْتُ عِيد الصَّليب والغِطاس، ولم أَحْفِلْ بعِيد السَّيدة، وأكلتُ لَحْمَ الجَمَل، ودِنْتُ بدِين اليَهُود، وأبَحْتُ حُرْمة الطَّلاق، وخُنْتُ المَسِيح فى وَدِيعَتِه، وتزوجتُ فى قَرَنٍ بامرأتين، وهدمْتُ بيَدِى كنيسةَ قُمامةَ، وكسرتُ صَليبَ الصَّلَبُوت، وقلتُ فى البُنُوَّة مقالَ نُسْطورس، ووجَّهْتُ إلى الصَّخْرة وَجْهِى، وصدَّيت عن الشَّرق المُنِير حيثُ كانَ المَظْهَر الكريم، وإلَّا برِئْتُ من النورانيين والشعشعانيين، ودِنْتُ غيرَ دِينِ النَّصارىٰ، وأنكرتُ أنَّ السَّيدَ اليَسُوع أحيا المَوْتَى وأبْرَأَ الأَكْمَهَ والأبْرَصَ، وقلتُ بأنَّه مَربوب، وأنَّه ما رُؤِىَ وهو مَصْلوب، وأنكرتُ أن القُرْبانَ المقدَّس على المَذْبَح ما صار لَحْمَ المَسِيح ودَمَه حقيقة، وخرجْتُ

فى النصرانية عن لاحِبِ الطريقة ، وإلّا قلتُ بدِينِ التَّوْحيد ، وتعبدْتُ غيرَ الأرباب ، وقَصَدْتُ بالمظانيات غيرْ طَرِيقِ الإخلاص ، وقلتُ : إنَّ المَعَاد غيرُ رُوحانىٍّ ، وإن بَنِى المعمودية لا تَسِيح فى فَسِيحِ السماء ، وأثْبَتُّ وُجودَ الحُورِ العِينِ فى المَعَاد ، وأن فى الدار الآخرة التَّلَذُّذاتِ الجُسْمانيــة ، وخرجتُ خروجَ الشَّعرة من العَجِين من دِينِ النَّصْرانية ، وأكونُ من دِينِى مَحْرُوما ، وقلتُ إن جرجس لم يُقْتَل مظلوما .

وأما اليعاقبة ، فقال : إنه يُبدِّل قوله : آتحاد اللَّاهُوتِ بالنَّاسُوت بقَوْله : مُمَاسَّة اللَّاهُوت للنَّاسُوت . ويُبْطِلُ قولَه : ووافقْتُ البَرْذَعانىّ بأنطاكية ، وجحدت مذهب المَلْكَانيَّة ويبدِّلُ بقوله : وكَذَّبْتُ يعقوبَ البرذَعانىّ ، وقلتُ : إنه غير نصرانى ، وجحدت اليعقوبيــة ، وقلت إن الحق مع المَلْكانيــة . ويبطل قوله : وخرجت عن طاعة البَابِ ، ويُبدِّل بقوله : وقاتلتُ بيَدَى عمدشيون ، وخرَّبْتُ كنيسةَ قُمَامة وكنتُ أوّل مفتون .

وإن كان من النساطرة أبدل القَوْلين وأبقَى ما سواهما ، وقال عوض مماسة اللَّاهُوت للنَّاسُوت : إشراق اللَّاهُوت على النَّاسُوت ، ويُزَاد بعد ما يُحْذَف : وقلتُ بالبراءة من نُسْطورس وماتَضَمَّنه الإنجيلُ المقَدَّس .

✤ ✤ ✤

وهذه نُسْخة يَمينٍ حُلِّفَ عليها مَلِكُ النُّوبَةِ للسلطان الملك المَنْصور « قلاوون » عند آستقراره نائبًا عنه فى بلاد النُّوبَة ، وهى :

واللهِ واللهِ واللهِ ، وحَقِّ الثَّالُوثِ المقدَّس ، والإنْجِيلِ الطَّاهِر ، والسيدةِ الطَّاهِرة العَذْراءِ أمِّ النُّور ، والمَعْمودية ، والأَنْبياءِ ، والرُّسُلِ ، والحَوَارِيِّينَ ، والقِدِّيسينَ ،

والشُّهداءِ الأبْرارِ، وإلّا أجْحدُ المَسيحَ كما جحده بودس؛ وأقولُ فيـه مايقولُ اليَهُود، وأعتقدُ مايعتقدونه؛ وإلّا أكونُ بُودس الذى طَعَن المَسيحَ بالحَرْبَةِ ـ إنّنى أخلَصْتُ نِيَّتِي وطَوِيَّتِي من وَقْتِى هذا وساعَتِي هذه للسُّلطان الملك فلان، وإنى أبذُل جُهْدِى وطَاقَتِى فى تحصـيل مَرْضَاته، وإننى مادُمْتُ نائبَه لا أقطعُ المَقَرَّرَ علىّ فى كلِّ سنة تَمْضِى: وهو مايفضُـلُ من مشاطرة البلاد علىٰ ما كان يتحصَّلُ لمن تقدَّمَ من ملوك النُّوبَة، وأنْ يكونَ النِّصفُ من المتَحَصِّلِ للسلطان مخلَّصًا من كلِّ حقٍّ، والنِّصفُ الآخَرُ مُرْصَـدًا لعمارة البلاد وحفْظها من عَدُوٍّ يَطْرُقُها، وأن يكون علىّ فى كلِّ سنةٍ كذا وكذا. وإنَّنى أقرِر علىٰ كلِّ نَفَرٍ من الرَّعِية الذين تحت يَدِى فى البلاد من العُقَلاء البالغين دينارًا عَيْناً. وإنَّنِي لا أترك شيئًا من السِّلاح ولا أُخْفِيه، ولا أمكِّنُ أحدًا من إخفائه. ومتىٰ خرجتُ عن جميع ما قرَّرْتُه أوعن شَيْءٍ من هذا المذكور أعلاه كلِّه، كنتُ بَرِيئًا من الله تعـالىٰ ومن المَسيح ومن السَّـيِّدَةِ الطاهِرَة، وأخْسَرُ دِينَ النَّصْرانية، وأُصَـلِّى إلىٰ غيرِ الشَّرق، وأكْسِر الصَّليبَ، وأعتقدُ مايعتقدُه اليَهُود. وإنِّنِي مهما سمعتُ من الأخبار الضَّارّة والنافعة طالعتُ به السُّلطانَ فى وَقْته وساعَته، ولا أنفردُ بشَيْءٍ من الأشـياء إذا لم يكن مصلحة. وإنِّنِي وَلِيُّ مَن وَالى السـلطان وعَدُوُّ من عاداه، والله علىٰ ما نقولُ وَكِيلٌ.

قلتُ: وسيأتى ذكر أَيْمـان الفَرَنْج على الهُدْنَة عند ذكر ما أهمله فى "التعريف": من نُسَخِ الأيمـان فى آخر الباب، إن شاء الله تعالىٰ.

الملـــــلة الثالثـــــة

(المَجُوسِيَّة : وهى المِلَّة التى كان عليها الفُرْس ومَن دَانَ بدينهم)

وهـــم ثلاثُ فِـــرَق :

الفرقة الأولى — الكُيُومَرْثِيَّة ـ نسبةٌ إلىٰ كُيُومَرْث ، ويقـال : جُيُومَرْث بالجيم بدل الكاف . وهو مَبْدأُ النَّسْلِ عندهم كآدَمَ عليه السلام عِنْد غيرهم ، وربّمـا قِيل : إن كُيُومَرْث هو آدم عليه السلام . وهؤلاء أثبتوا إلهًـا قديمًا وسَمَّوه يزدان ، ومعناه النُّور ، يعنُون به اللهَ تعـالىٰ ، وإلهًـا مَخْلوقًا سَمَّوْه أهرمن ، ومعناه الظُّلْمة ، يعنون به إبليس . ويزعمون أن سَبَب وُجُود أهرمن أنَّ يزدان فكَّر فى نَفْسـه أنه لو كان له مُنازِعٌ كيف يكون ، فحدثَ من هذه الفكرة الرَّدِية أهرمن ، مَطْبوعًا على الشَّرِّ والفِتْنة والفَساد والضَّرَرِ والإضرار ، فخرج علىٰ يزدان وخالَف طبيعَته ، فجَرتْ بينهما مُحارَبَةٌ كان آخر الأمر فيها علىٰ أن ٱصطلحا أن يكون العَالَمَ السُّـفْلِيُّ لأهرمن سبعةَ آلاف سنة ، ثم يخلّى العالَمَ ويُسَلِّمه ليزدان . ثم إنه أباد الذين كانوا فى الدُّنيا قبل الصُّلْح وأهلكهم ، وبدأ برجُلٍ يقـال له كُيُومَرْث ، وحَيَوانٍ يقال له الثَّوْر ، فكان من كُيُومَرْث البَشَر ومن الثَّور البَقَر وسَائرُ الحَيَوان .

وقاعدة مَذْهبهم تَعْظيمُ النور ، والتَّحرُّزُ من الظُّلمة ، ومن هنا ٱنْجَرُّوا إلى النار فعبدوها : لمـا ٱشتملت عليـه من النور . ولمَّـا كان الثَّوْرُ هو أصْلَ الحَيَوان عندهم المُصادِف لوجود كُيُومرث ، عظَّمُوا البقر حتَّى تَعبَّدُوا بأبوالهـا .

الفرْقةُ الثانية — الثَّنَوِيَّة ـ وهم علىٰ رَأيِ الكَيُومَرْثِيَّة فى تفضيل النُّور والتحرز من الظُّلْمة ، إلا أنهم يقولون : إن الآثنين اللذين هما النور والظلمة قديمـان .

الفِرْقة الثالثة — الزَّرادشتية الدائنُون بدِينِ المَجُوسِيَّة — وهم أتْبَاعُ زرادَشْت الذى ظهر فى زَمَنِ كيسْتَاسِفَ السَّابع من مُلُوك الكيانية، وهم الطَّبَقة الثانيةُ من ملوك الفُرْس، وٱدَّعَى النبوّةَ وقال بوَحْدانيَّـة الله تعالىٰ، وأنَّه واحدٌ لا شريكَ له ولا ضِدَّ ولا نِدَّ، وأنه خالقُ النُّورِ والظُّلْمة ومُبْدِعُهما، وأنَّ الخَيْر والشَّرَّ والصَّلاح والفَسَادَ إنما حصل من ٱمتزاجهما، وأنَّ اللهَ تعالىٰ هو الذى مزجهما لحكْمة [رآها] فى التركيب، وأنهما لو لم يمتزجا لمـا كان وُجودٌ للعـالَم، وأنَّه لا يزَالُ الاَمتزاجُ حتَّى يغلبَ النُّورُ الظُّلْمَةَ، ثم يخلُص الخَـيْرُ فى عالَمِه ويَنْحَطُّ الشَّر إلىٰ عَالَمِه، وحينئذٍ تكونُ القيامة. وقال باستقبال المشرق حيثُ مَطْلَعُ الأنوار، والأمْرِ بالمعروف، والنَّهيِ عن المُنْكر، وٱجْتنابِ الخبائث. وأتىٰ بكِتَابٍ قيل صَنَّفه، وقيل أُنْزِل عليه. قال الشَّهْرَسْتانى: ٱسمه "زندوستا". وقال المسعودىّ فى "التنبيه والإشراف": وٱسم هذا الكتاب "الإيستا" وإذا عُرِّب أثبتت فيه قافٌ فقيل: "الإيستاق" وعدد سُوَره إحدىٰ وعشرون سُورَة، تقع كلُّ سورة فى مائتى وَرَقة، وعددُ حروفه ستُّون حَرْفًا، لكلِّ حَرْفٍ سُورةٌ مفردة، فيها حروفٌ تتكرر وفيها حُروفٌ تَسْقُط. قال: وزرادشت هو الذى أحدث هذا الخطَّ والمجوسُ تسميه: دين تبره، أى كتاب الدين.

وذكر أنه كُتِبَ باللغة الفَارِسِـيَّة الأولىٰ فى اثْنَىْ عَشَر ألفَ جِلْدِ ثَوْرٍ بقُضْـبان الذَّهب حَفْرًا، وأن أحدًا اليومَ لا يعرِفُ مَعْنىٰ تلك اللغة، وإنمـا نقلَ لهم إلىٰ هذه الفارسية شَيْءٌ من السُّوَر فى أيديهم يقرءونها فى صَلَوَاتهم: فى بَعْضِها الخَبَرُ عن مُبْتَدَإِ العالَمِ ومنتهاه، وفى بعضها مَواعِظُ. قال: وعَمِل زرادشت لكتاب "الإيسـتا" شرحًا سمـاه "الزند" ومعناه عندهم: ترجمةُ كَلامِ الرَّب، ثم عَمِل لكتاب "الزند" شرحا سماه: "بادزنده" وعملَتْ علماؤُهم لذلك الشَّرْح شَرْحا سموه: "يازده".

ومن حيثُ آختلافُ النـاس فى كتاب زرادشت المقدّم ذكره هذا : نُزِّل عليـه أو صَنَّفَه قال الفقهاءُ : إن للمَجُوسِ شُبهَةَ كِتَاب : لأنه غيرُ مقطوعٍ بكَوْنه كتاباً مُنَزَّلًا .

وأتىٰ زرادشت كيستاسف المَلِك بمُعْجِزات .

منهـا ـ أنه أَتَى بدائرةٍ صحيحةٍ بغير آلة، وهو ممتنع عند أهل الهَنْدَسةِ .

ومنهـا ـ أنه مَرَّ علىٰ أعمىٰ، فأمرهـم أن يأخذوا حَشِيشَةً سمّـاها و يَعْصِرُوها فى عَيْنيه، فأبصر . قال الشَّهْرَسْتانِيُّ : وليس ذلك من المُعْجِزة فى شيءٍ، إذ يحتملُ أنه كان يعرف خاصّةَ الحشيشة .

وهم يقولون : إن الله تعالىٰ خلق فى الأوّلِ خَلْقًا رُوحانياً ، فلمـا مضَتْ ثلاثة آلاف سَـنَةٍ أنفذ الله تعالىٰ مشيئته فى صورة من نور متلالئٍ علىٰ [تركيب] صورة الإنسان ، وخلقَ الشَّمْسَ والقَـمَر والكَواكِبَ والأَرض (وبنُو آدم حينئـذٍ غيرُ متحَرِّكينَ) فى ثلاثة آلاف سَنَةٍ .

ثم المَجُوس يفضِّلُون الفُرْس على العَرَب وسائر الأُمَم، ويفضِّلون مالهم : من مُدُن وأَبْنِيةٍ علىٰ غيرها من الأبنية، فيفضِّلُون إقليم بَابِلَ علىٰ غيره من الأقاليم، ومَدِينَتَه علىٰ سائر المُدُنِ ، من حيثُ إنَّ أوشهنج أوّلَ طَبَقَةِ الكِيَانية من مُلُوك الفُرْس هو الذى بناها ، ويقولون : إنه أوّلُ من جَلَس على السَّرير، ولَبِس التَّاجَ ، ورفع الأعمال، ورتَّبَ الخراج ، وكان مُلْكُه بعـد الطُّوفان بمـائَتَى سَنَة، وقيـل : بل كان قبـل الطوفان .

ويفضِّلُون الكِتَابة الفَهْلوية وهى الفارسية الأولىٰ علىٰ غيرها من الخُطُوط ، ويزعُمُون أن أوّل مَن وضعها طهمورث : وهو الذى مَلَك بعد أوشهنج المقدَّمِ ذكْرُه .

ويجحدُون سِـيَاسَة بَنِي سَاسَانَ ، وهم الطَّبقةُ الثالثةُ (١) من مُلُوكِ الفُرْس مَنْسوبون إلىٰ سَاسَان . ويَسْخَطون [على] الروم ، لغَزْوِهم الفُرْس وتَسلُّطِهم عليهـم ببلادِ بابِل . ويعبُدون النَّـارَ ، ويَرَوْن أنَّ الأفلاكَ فاعلةٌ بنفسها ، ويستبيحُونَ فُرُوجَ المحـارم من البَنَاتِ والأُمَّهات ، ويرَوْن جواز الجَمْع بين الأُخْتَين إلىٰ غير ذلك من عقائدهم .

ويعظِّمُون النَّـيْروزَ : وهو أوّلُ يَوْم من سَنَتِهم وعِيـدُهم الأكبر . وأوّلُ من رَتَّبه جمشـيد أخو طهمورث . ويعظِّمون أيضـا المِهْرَجان : وهو عِيـدٌ مشهور من أعيادهم .

ويسـخطون [علىٰ] بيوراسب : وهو رابِـعُ مُلُوكهم : وهو الضـحاك يقال له بالفارسية : الدهاش ، ومعناه عَشْر آفات . وكان ظَلُوماً غَشُوما ، سار فيهم بالجَوْرِ والعَسْفِ ، وبسـطَ يده بالقَتْل ، وسَنَّ العُشُورَ والمُكُوسَ واتَّخذ المغَنِّينَ والمَلاهِيَ ، وكان علىٰ كَتِفِه سِلْعتان مستورتان بثيـابِه يُحرِّكهما إذا شاء ، فكان يَدَّعِي أنهـما حَيَّتانِ ، تَهْويلًا علىٰ ضُـعَفَاء العقول ، ويزعم أن ما يأخذُه من الرَّعِيـة يُطْعمه لهما ليُكَفَّهما عن الناس ، وأنهـما لايشـبعان إلا بأدْمِغةِ بَنِي آدم ، فكان يقتـلُ فى كلِّ يومٍ عددا كثيرا من الخَلْق بهـذه الحجة . ويقال : إن إبراهيم الخليـلَ عليه السلام كان فى آخر أيامه .

وكان من شأنه أنه لمـا كَثُرَ جَوْرُه وظُلْمه على الناس ، ظهر بأَصْبهانَ رجلٌ اسمه كَابِي ، ويقال : كابيان من سِفْلة الناس ، قيل حدّاد ، كان الضَّحَّاك قد قتل له ابنين فأخذ كَابِي المذكورُ دِرَفْسًا وهو الحَرْبَةُ وعلَّق بأعلاها قِطْعَةَ نِطَعٍ كان يَتَّقِي بها النَّارَ ،

---

(١) فى "العبر" ج ٢ ص ١٦٩ أنها الرابعة .

ونادىٰ فى النـاس بمحاربة الضَّحَّاك ، فأجابه خلقٌ كثيرٌ، وآستفحل أمْرُه ، وقصدَ الضَّحَّاكَ بمن معــه ، فهرب الضَّحاك منه ، فسأله الناسُ أن يتملَّك عليهــم ، فامتنع لكونه من غير بَيْت المُلْك ، وأشار بتولية إفريدون من عقب جمشيد المقدّم ذكره ، فوَلَّوْه ، فتَبِــع الضَّحاكَ فقبضَ عليه وقَتَله ، وسار فيهم بسِيرة العَدْل وردّ ما آغتصبه الضحَّاك إلىٰ أهْلِه ، فصار لكَابِى المذكور عندهم المقامُ الأعْلىٰ ، وعظَّمُوا دِرَفْسَــه الذى علق به تِلك القِطْعَــةَ من النِّطَع ، وكللوه بالجَواهِر ، ورصَّــعُوه باليواقيت ، ولم يَزَلْ عنــد ملوكهم يَسْــتفْتِحون به فى الحروب العظيمة حتَّى كان معهــم أيام يَزْدَجِرْدَ آخرِ ملوكهم عنــد محاربة المسلمين لهم فى زَمَن عُثْمان ، فغلبهم المســلمون وآقتلعوه منهم .

وهم يعظمون افريدون مَلِكَهم المقدّمَ ذِكْرُه ، لقيامه فى هَلاكِ الضَّحاك وقَتْله . وفى أوّل مُلْك افريدون هذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام . ويقال : إنه ذو القَرْنَيْنِ المذكورُ فى القرءان الكريم .

وهم يعظمون أيضا من ملوكهم سَابُورَ الملقَّبَ بذى الأكْتَاف ، لأخْذه بثار العَجَم من العَرَب . وذلك أنه كان يتْبَعُ العَرَبَ بالجزيرة الفُراتِيَّة وما جاورها ، وسار فى طَلَبِهم حتَّى بلغ البَحْرَيْنِ ، لِيُهْلِكَهم قتْلا ، لايقبلُ من أحَدٍ منهم فِدَاءً ، ثم أخَذَ فى خَلْع أكْتافِهم ، فلذلك سُمِّى ذا الأكْتاف .

ويعظمون مانِى بن فاتن (١) : وهو رجلٌ ظهر فى زَمَنِ سَابُورَ بنِ أرْدَشير بعد عِيسى عليــه السلام ، وآدَّعَى النبوّة وأحدث دِينًا بين المجوسية والنَّصْرانية . وكان يقول : بنبوَّةِ المسِيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوّة مُوسى عليــه السلام ، وقال : إنَّ العالَمَ

(١) فى "الملل" آبن فاتك بالكاف .

مَصْنوعٌ من النُّور والظُّلْمة، وإنَّهما لم يزالا قديمين حَسَّاسَيْنِ سَمِيعَيْنِ بَصيريْنِ . وله أتباعٌ يعرفون بالمَـانَوِيَّة .

ويتبرءُون من مزدك : وهو رجلٌ مَشْهورٌ منسوب عنـدهم إلى الزَّنْدَقَةِ أيضا ، ظهر فى زَمَن قُباذَ أحدِ مُلوكِ الفُرْس من الأكاسرة، وآدَّعى النبوّةَ ونَهَىٰ عن المخالفة والمباغَضَة، وزعم أنَّ ذلك إنمـا يحصلُ بسَبَب النساء والمـال، فأمر بالآشـتراك والمساواة فيهما، وتَبِعه قُبَاذُ علىٰ ذلك ، فتوصَّلت سِفْلَةُ الرجال إلىٰ أشراف النِّساءِ ، وحصـل بذلك مَفْسَدَةٌ عظيمة . وكان يقولُ : إن النُّور عالِمٌ حساسٌ ، والظلامَ جاهِلٌ أعْمَى، والنُّور يفعلُ بالقَصْد والآختيار، والظُّلمة تفعلُ على الخَبْط والآتفاق، وإنَّ آمتزاجَ النُّور والظُّلْمة كان بالآتفاقِ والخَبْط دون القَصْـد والآختيار، وكذلك الخلاص . وله أتباع يقالُ لهم المزدكية ، ولم يَزَلْ علىٰ ذلك حتَّى قتلَه شرْوانُ بنُ قُبَاذَ هو وأتباعه ، وقتل معهم المَـانَوِيَّةَ أتباعَ مَانِي المقـدّمِ ذكْرُه ، وعادت الفُرْس إلى المجُوسيَّة القديمة .

وقد رتَّب فى "التعريف" للمَجُوس يَمِينًا علىٰ مقتضى ما عليه عَقِيدةُ المَجُوس أتْباعِ زرادشت المقدَّمِ ذكْرُه، وهى :

إنَّنِي واللهِ الرَّبِّ العَظِيمِ، القَدِيم، النُّورِ، الأوّلِ، ربِّ الأرباب، وإلهِ الآلِهَـةِ، ماحِي آيةِ الظُّـلَم ، والمُوجِدِ من العَـدَم ، مقدِّرِ الأفلاك ومُسَـيِّرِها، ومُنَوِّرِ الشُّهب ومُصَوِّرِها، خالِقِ الشَّمسِ والقَمَرِ، ومُنْبِت النجوم والشَّجَر، والنَّارِ والنُّور، والظِّلِّ والحَرُور، وحقِّ جيُومَرْت وما أوْلَد من كرائم النَّسْل، وزرادشت وما جاء به من القَوْل الفَصْل، والزَّنْد وما تضمنه، والخَطِّ المُسْتدِيرِ وما بَيَّن . وإلَّا أنكرتُ أنَّ زرادشت لم يَأْت بالدائرةِ الصحيحة بغير آله ، وأن مملكة إفريدون كانت ضَـلَاله ، وأكونُ

قد شاركتُ بيوراسب فيما سفَك طُعْمًا لحَيَّتَيْه، وقلتُ إن كابيان لم يُسلَّط عليه ؛ وحرقْتُ بيدى الدِّرَفْسَ ، وأنكرتُ ما عليه من الوَضْع الذى أشرقت عليه أجْرَام الكواكب، وتمازَجَتْ فيه القُوَى الأرْضية بالقُوَى السَّماوية، وكَذَّبتُ مانى وصدَّقْتُ مزدك ، وآستبَحْتُ فُضُول الفُروج والأموال ، وقلتُ بانكار الترتيب فى طَبَقات العَالَم، وأنه لا مَرْجع فى الأبوّة إلّا إلىٰ آدَمَ، وفضَّلْتُ العَرَبَ على العَجَم، وجعلتُ الفُرْس كسائر الأمم ، ومسحْتُ بيَدى خطوطَ الفَهْلَوِيَّة ، وجحدتُ السِّياسَةَ السَّاسَانيَّة ، وكنتُ ممَّن غَزا الفُرْسَ مع الرُّوم ، وممن خَطَّأَ سابُورَ فى خَلْع أكتاف العَرب ، وجلبت البلاءَ إلىٰ بابل ، ودِنتُ بغير دِين الأوائل ؛ وإلّا أطْفَأْتُ النار ، وأنكرتُ فِعْل الفَلَك الدَّوَّار ، ومالأْتُ فاعلَ الليلِ علىٰ فاعلِ النَّهار ، وأبطلتُ حُكْمَ النَّيْروزِ والمهرجان ، وأَطْفَأْتُ ليلةَ الصَّدَقِ مَصابِيحَ النِّيران ؛ وإلّا أكونُ ممَّن حرَّم فُروجَ الأمهات ، وقالَ بأنَّه لا يجوز الجَمْع بين الأخَوَات ؛ وأكونُ ممَّن أنْكَر صوابَ فِعْل أردشير ، وكنتُ لقَوْمى بِئْسَ المَوْلَى وبِئْسَ العَشير .

المهيع الثالث

(فى الأيْمان التى يُحَلِّف بها الحُكَماء)

وهم المعبَّر عنهم بالفَلاسِفَة، جمْعُ فَيْلَسُوف : ومعناه باليُونانيَّة مُحِبُّ الحِكْمَة . وأصْلُه فِيلاسُوف ، ففَيْلا معناه مُحِبّ ، وسُوف معناه الحِكْمة ، وهم أصحاب الحِكَم الغَرِيزيَّة والأحْكام السماوية ، فمنهم مَن وقف عند هذا الحَدِّ، ومنهم من عَرَف الله تعالىٰ وعَبَده بأدَبِ النَّفْس .

قال الشَّهْرِسْتَانِيُّ : وهم علىٰ ثلاثة أصناف :

الصِّنف الأوّل — البَراهِمَة، وهم لا يُقِرُّون بالنُّبُوَّات أصْلا، ولا يقولون بها .

[الصِّنف الثانى — حكماء العرب][1] ، وهم شِرْذِمَةٌ قليلةٌ ، وأكثر حِكَمِهم فَلَتاتُ الطَّبْع ، وخَطَرات الفِكْر ، وهؤلاء ربَّما قالوا بالنبوّات .

[الصِّنْفُ الثالث — حكماء الروم][1] ، وهم على ضربين :

الضرب الأوّل

(القُدَماء منهم الذين هم أَساطين الحِكْمة)

وهم سَبْعة حكماء : ثاليس المَلَطى ، وانكساغورس ، وانكسمانس ، وانباديقلس[2] ، وفيثاغورس ، وسقراط ، وأفلاطون . ومذاهبهم مختلفة ، وبعضهم عاصر بعض الأنبياء عليهم السلام ، وتلقَّف منه ، كانباديقلس : كان فى زمن داوُد عليه السلام ، ومضى اليه وتلقَّى عنه ، واختلف إلى لُقْمان واقتبس منه الحِكْمة . وكذلك فيثاغورس : كان فى زمن سُلَيمان عليه السلام ، وأخذ الحِكْمة من مَعْدِن النبوّة .

الضرب الثانى

(المتأخرون منهم ، وهم أصحاب أرَسْطاطاليس ، وهم ثلاث طوائف)

طائفةٌ منهم تُعرَف بالمشائين : وهم الذين كانوا يَمْشون فى رِكابه يقرءون عليه الحِكْمة فى الطريق وهو راكب . وطائفةٌ تُعرف بالرُّواقيين : وهم الذين كان يجلس لتعليمهم بالرُّواق . والطائفة الثالثة فَلاسِفَةُ الإسلام : وهم حكماء العَجَم . أما قبل الإسلام فإنه لم يُنْقَل عن العَجَم مقالة فى الفَلْسَفَة ، بل حِكَمُهم كلُّها كانت مُسْتفادةً

---

(١) الزيادة عن الشهرستانى بالمعنى ليستقيم الكلام .

(٢) فى الملل والنحل : انبذقلس .

من النُّبوّات : إما من المِلَّة القديمة ، وإما من غيرها من المِلَل . ومُعْتَقَدُهم أن الله تعالىٰ واجبُ الوجود لذاته ، وأنه ليس بجَوْهَرٍ ولا عَرَضٍ ، وأن ما سواه صادرٌ عنه على ترتيب ، وأنه تعالىٰ واحدٌ فَرْدٌ ، ليس له شريكٌ ولا نَظِير ، باقٍ أبَدِيٌّ سَرْمَدِيٌّ ، وأنه الذى أوجد الأشياءَ وكَوَّنها ، ويُعبِّرون عنه بعِلَّة العِلَل ، وأنه قادرٌ ، يفعلُ إن شاء ولا يفعلُ إن لم يَشَأْ ، فاعل بالذات ليس له صِفَة زائدةٌ علىٰ ذاته ، مريدٌ ، له إرادةٌ وعنايةٌ لا تزيد علىٰ ذاته ، وأنه أوّلٌ لابِدَايةَ له ، آخِرٌ لا نهايةَ له ، وأنه يستحيلُ أن يتغيَّر ، منَزَّهٌ عن أن يكون حادِثًا أو عَرَضًا للحوادث ، حَيٌّ متَّصِفٌ بصفات البقاء السَّرْمديَّة ، وأنه حكيمٌ بمعنى أنه جامع لكلِّ كمالٍ وجلال ، وأنه خالقُ الأفلاك بقُدْرَته ، ومدَبِّرها بحكْمته ، ويقولون : إن الأرضَ ثابتةٌ لا تتحرَّكُ ، والماءُ مُحِيطٌ بها من سائر جهاتها على ما اقتضته الحِكْمة الإلٰهية ، وكشفَ بعضَ أعلاها لسُكْنَى الخلق فيه ، فهى كبِطِّيخَةٍ مُلْقاةٍ فى بِرْكَةِ ماءٍ ، ويُحِيطُ بالماء الهَوَاء ، ويحيطُ بالهواء النَّار ، ويحيطُ بالنار فَلَكَ القَمَرِ وهو الأوّل ، ويُحيطُ بفلك القَمَر فلكُ عُطارِدَ وهو الثانى ، ويحيطُ بفَلَكِ عُطارِد فلكُ الزُّهَرَةِ وهو الثالث ، ويحيطُ بفَلَكِ الزُّهَرة فلكُ الشَّمس وهو الرابع ، ويحيطُ بفَلَكِ الشَّمس فلكُ المِرِّيخ وهو الخامس ، ويحيطُ بفَلَكِ المِرِّيخ فلك المُشْتَرِى وهو السادس ، ويُحيطُ بفلك المُشْتَرِى فلكُ زُحَلَ وهو السابع ، ويحيطُ بفَلَكِ زُحَلَ فلكُ الكواكب وهو الثامن ، وهو الذى فيه الكواكب الثابتة بأسْرِها ، وهى ما عَدَا الكواكبَ السَّبعةَ التى فى الأفلاك السَّبْعة المقدّم ذِكْرُها : من البروج الاثنى عشر ومَنَازِلِ القَمَر الثمانية والعشرين وغيرها . ويُحِيط بالكواكب الفَلَكُ الأَطْلَسُ وهو الفلك التاسع ، والأفلاكُ التسعةُ دائرةٌ بما فيها من المَشْرق إلى المَغْرب ، بحيث تقطع فى اليوم والليلة دَوْرةً كامِلَةً ، والكواكب السبعة

التى فى الأفلاك السبعة الأوّلة ، وهى : زُحَل ، والمُشْتَرِى ، والمِرِّيخ ، والشَّمس ، والزُّهَرة ، وعُطَارِد ، والقَمَر ؛ متحركةٌ بالسَّيْر إلىٰ جهاتٍ مخصوصة : الشَّمسُ والقَمَرُ يسيران بين المَشْرِق والمغرب وبقيَّةُ الكواكب يختلف سَيْرها ٱستقامةً ورُجوعًا ، والكواكب التى فى الفَلَك الثامن ثابتةٌ لا تتحرّك ، والله تعالىٰ هو الذى يُسَيِّر هذه الأفلاكَ والكواكِبَ ويُفِيضُ القُوَىٰ عليها .

ويقولون : إن الشمسَ إذا سَخَّنت الأرضَ بواسطة الضَّوْءِ صعِدَ من الرَّطْب منها بُخَارٌ ، ومن البَارِد اليَابِس دُخَانٌ . ثم بعضُه يخرجُ من مَسَامِّ الأرضِ فيرتفع إلى الجَوِّ ، وبعضُه يَحْتَبِس فى الأرض بوجود ما يمنعه من الخروج منها : من جبل ونحوه .

فأما ما يخرج من مَسَامِّ الأرض ، فإن كان من البُخار ، فما تصاعد منه فى الهواء يكون منه المَطَر والثَّلْج والبَرَد وقَوْسُ قُزَحَ والهالةُ ؛ ثم ما ٱرتفع من الطبقة الحارّة من الهَوَاء إلى الباردة تكاثف بالبَرْد وٱنعقد غَيْمًا ، وإن كان ضعيفا أثَّرت فيه حرارةُ الشمس فاستحال هَوَاءً ، ومهما ٱنتهىٰ إلى الطَّبَقة الباردة تكاثَف وعادَ وتقاطر وهو المطر . فإن أدركها بَرْدٌ شديدٌ قبل أن تجتمع ، جَمَدتْ ونزلتْ كالقُطْن المَنْدوف وهو الثَّلْج ، وإن لم تدركها بُرودةٌ حتى ٱجتمعتْ قَطَراتٌ من الجوانب أَذْهبتْ برودتَها ، ٱنعقدت بَرَدا ؛ وإذا صار الهواءُ رَطْبًا بالمَطر مع أدنىٰ صَقَالةٍ ، صار كالمرآة فيتولد من ضَوْءِ الشمسِ الواقِع فى قفاه قَوْسُ قُزَحَ ، فإن كان قبل الزَّوال رُؤِىَ فى المَغْرِب ، وإن كان بعد الزوال رُؤِىَ فى المَشْرق ، وإن كانت الشمسُ فى وَسَط السماءِ لم يُمْكِنْ أن يرىٰ إلا قَوْسا صغيرًا إن ٱتّفق . وفى معنىٰ ذلك الهالةُ المحيطةُ بالقَمَر ، إلا أنَّ الهالة إنما تحصل من مجرّد بُرودَة الهواءِ وإن لم يكن مَطَر .

وإن كان مايخرج من مَسَامّ الأرض دُخَاناً : فإن تصاعَدَ وآرتفع فى وَسَط البُخَار وضربه الرِّيحُ فى آرتفاعه، ثَقُل وآنتكس فحرَّكه الهواءُ فحصل الرِّيح . وإن لم يَضْرِبْه الرِّيحُ، تصاعد إلىٰ عُنْصُر النار وآشتعلت النارُ فيــه فصار منه نارٌ تشاهد ، وربمــا استطال بحسب طُولِ الدُّخَان فيسمَّى كوكبا منْقَضًّا . وإن كان الدُّخَانُ كَثِيفاً واشتعل بالنــار ولكنه لم يستحِلْ على القُرْب، بل بقى زمانا ، رُؤِىَ كأنَّه كوكبٌ ذو ذَنَبٍ . وإن بَقِىَ شىءٌ من الدخان فى تضاعيف الغَــيْم وبَرَد ، صار رِيحًــا فى وسَــط الغَيْم فيتحرّكُ فيــه بشدّة فيحصل منه صَوْت وهو الرَّعْد، فإن قَوِيَتْ حركتُه آشتعل من حرارة الحَركة الهــواءُ والدُّخانُ فصار نارًا مُضيئةً وهو البَرْق . وإن كان المُشْــتَعِلُ كثيفًا ثقيــلًا مُحرِقًا ، آندفع بمصادفة الغَــيم إلىٰ جِهَةِ الأرض وهى الصاعقة : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ .

ويُقِرُّون أن الله تعالىٰ مُكَوِّنُ الأكوان، ومُنَمِّى المعادن والنَّباتِ والحَيَوان .

فأما المعادنُ — فهى التى تتكوَّنُ فيها جواهِرُ الأرض : من الذَّهَب والفِضَّــة وغيرهما . وذلك أن البُخارَ والدُّخَان فى الأرض فإنها [إن] تجتمعْ وتمتزجْ، فإن غلب الدخانُ كان الحاصلُ منه مثلَ النُّوشادِر والكِبْريت، وربَّمــا تغلَّبَ البخار فى بعْضه فيصير كالمــاء الصَّافِى المنعقِد المتحَجِّر، فيكون منــه الياقُوتُ والبِــلَّوْرُ ونحوه ممَّــا لا يتطرَّقُ تحْتَ المَطَارق . وإن آستحكم آمتزاج الدخان منه بالبُخَار وقلَّت الحرارةُ المحققة فى جواهرها ، آنعقد منه الذَّهب والفِضَّة والنُّحاس والرَّصاص ونحوُها ممــا يتطرّق بالمِطْرَقَة .

وأما النبات — فانهم يقولون : إن العَنَاصِر قد يقعُ بها آمتزاجٌ وآختِلاطٌ أتَمُّ من آمتزاج البُخَار والدُّخَان المقدّم ذكره ، وأحسنُ وأقربُ إلى الاعتدال ، فيحصُل من ذلك النُّمُوُّ الذى لايكون فى الجمادات .

و ينشأ عن ذلك ثلاثةُ أُمورٍ :

أحدها — التَّغْذِيَةُ بقوّة مُغَذِّيةٍ : وهى قُوَّةٌ مُحِيلَةٌ للغذاء تخلعُ عنها صُورتَها وتكسوها صورة المتَغَذِّى، فتنتشر فى أجزائه وتلتصق به وتَسُدُّ مَسَدَّ ما تَحَلَّل من أجزائه .

وثانيها — التَّنْمية بقوّة مُنَمِّيةٍ، بأن يزيد الجِسْم بالغِذَاءِ فى أَقْطارِه على التناسب اللائق بالنامى حتّى ينتهى إلىٰ مُنْتَهىٰ ذلك الشىء .

وثالثها — التَّوْلِيدُ بقوّة مولِّدة : وهى التى تَفْصِل جِسْماً من جِسْمٍ شَبِيهٍ به .

وأما الحيوان — فإنهم يقولون إن تَكَوُّنَه من مِزَاجٍ أقربَ إلى الاعتدال وأَحْسنَ من الذى قبله ، من حيثُ إن فيه قوّة النباتية وزيادةَ قوّتين، وهما المُدْرِكَة والمتحرّكة ، ومهما حصل من الإدراك ٱنْبَعَثَ الشَّهوةُ والنُّزوعُ ، وهو إما لِطَلَب ما يحتاج إليه فى طَلَب المُلائم الذى به بقاءُ الشَّخْص : كالغِذَاءِ، أو بقاء النَّوْع : كالجماع، ويسمَّى قُوَّةً شَهْوانية . وإما للهَرَب ودَفْع المُنافِى، وهى قوّة غَضَبِيّةٌ، فإن ضَعُفَت القوّة الشَّهْوانية فهو الكراهة، وإن ضَعُفَت القوّة الغَضَبِيّة فهو الخَوْف .

والقوّةُ المُدْرِكَةُ تنقسم إلىٰ باطنة : كالخيالية والمُتَوَهِّمة والذَّاكرة والمُفَكِّرة ، وإلىٰ ظاهرةٍ : كالسَّمْع والبَصَر والذَّوْق والشَّمّ واللَّمْس. فاللَّمْس قوّةٌ مُنْبَثَّةٌ فى جميع البَشَرة، تُدْرِك الحرارةَ والبُرودةَ والرُّطوبةَ واليُبُوسةَ والصَّلابةَ واللِّينَ والخُشُونَةَ والمَلاسَةَ والخِفَّةَ والثِّقَل . والشَّمُّ فى زائدتَىِ الدِّماغ الشبيهتين بحَلَمَتَىِ الثَّدْى. والسَّمْع فى عَصَبة فى أقْصَى الصِّماخ . والذَّوْقُ فى عَصَبةٍ مَفْروشَةٍ علىٰ ظاهر اللِّسان بواسطة الرُّطُوبَة العَذْبة التى لا طَعْم لها، المنبسطة علىٰ ظاهِر اللِّسان . والإبصار يحصلُ عن ٱنطباع مِثْل صُورَة المُدْرَك فى الرُّطوبة الجُلَيْدِيَّة التى تُشْبِه البَرَد والجَمَد فإنَّها كالمِرْآة ، فاذا قابَلَها يكون ٱنطبع فيها مثلُ صُورَتهِ فتحْصُلُ الرُّؤْيَةُ .

ويَرَوْنَ أنَّ النفسَ محلّها العُلْو. ويقولون : إن النفسَ في أوّل الصبا تكونُ عالمةً بالمعقولات المجرَّدة والمَعَاني الكُلّيّة بالقُوَّة، ثم تَصيرُ بعد ذلك عالمةً بالفِعْل .

ثم إن سَعِدَتْ بالاستعداد للقَبُول، انقطعتْ حاجتُها عن النَّظر إلى البَدَن ومُقتضى الحَوَاسّ، إلا أنَّ البَدَنَ لايزالُ يجاذِبُها ويشْغَلها ويمنَعُها من تمام الاتصال بالعُلْويّات، فاذا انْحَطَّ عنها شُغل البَدَنِ بالمَوْتِ ارتفع عنها الحِجابُ، وزالَ المانعُ، ودام الاتصالُ، وكَمُل حالُها بعد فِراقِ البَدَنِ، والتذَّتْ به لَذَّةً لا يُدرِكُ الوَصْفُ كُنْهها . وإن كانت النفسُ محجوبةً عن هذه السعادة فقد شَقيت .

وعندهم أنه إنَّما تُحْجَبُ باتِّباع الشهوات، وقَصْرِ الهمة علىٰ مُقتضى الطَّبْع، وباقامته في هذا العَالَم الخَسيس الفَاني، فتَرْسَخُ في نَفْسه تلك العادةُ ويتأكَّد شَوْقُه إليها، فتفُوتُ بالموْتِ آلَةُ دَرْكِ ذلك الشَّوْق ويبقَ التشوُّقُ وهو الأَلَم العظيمُ الذي لاحَدَّ له، وذلك مانِعٌ من الوصال والاتصال . وهذه النفس ناقِصَةٌ بفَقْد العِلْمِ، ملطَّخَةٌ باتباع الشَّهَوات، بخلاف النَّفْس السابقة .

ويقولون : إن الهَيُولَىٰ قابِلةٌ لتركيب الأجسام، ويُخالِفُون أهْلَ الطبيعة في قولهم: بانكار المَعَاد وفَنَاءِ الأرواح، فيذهبون إلىٰ أنَّ الأرواحَ بَاقِيةٌ وأن المَعَادَ حَقٌّ .

ويَرَوْنَ أن التَّحْسينَ والتقْبيح راجعان إلىٰ العَقْل دُون الشَّرْع، كما هو مَذْهب المُعْتزلة وغيرهم .

ويقولون : إن الإله تعالىٰ فاعل بالذاتِ ليس له صِفَةٌ زائدة علىٰ ذَاتِه، عالِم بذاته وبسائر أنواع الموجودات وأجْناسها، لا يَعْزُب عن علمه شيءٌ، وإنه يعلم الممكنات الحادثة .

ويقولون بإثبات النبوّات لأن العالَم لا ينتظمُ إلا بقانونٍ متبوعٍ بين كافّةِ [الناس] يحكُمُون به بالعَدْل ، وإلّا تقاتلوا وهَلَكَ العالَمُ ، إذ النبيُّ هو خَليفةُ الله فى أرضه ، بواسطته تنتهى إلى الخَلْق الهِدَايَةُ إلىٰ مصالح الدُّنيا والآخِرَة ، من حيثُ إنه يَتَلَقّىٰ عن المَلَك والمَلَكُ يتلقّىٰ عن الله تعالىٰ ، إلا أنهم يقولون : إن النبوّاتِ غير مُتَناهيةٍ وإنها مكتسبةٌ ينالُها العَبْد بالرياضات . وهاتان المقالتان من جملة ما كَفَرُوا به : بتجويز النُّبوّة بعد النّبيِّ صلى الله عليه وسلم الذى أخبر تعالىٰ أنه خَاتَمُ النبيين ، وقَوْلِهم إنها تُنَال بالكَسْب .

وقد حَكَى الصَّلاحُ الصَّفَدِىُّ فى "شَرْح لامية العجم" أن السلطانَ صَلاحَ الدِّين يُوسَفَ بن أيُّوبَ إنما قتلَ عُمارَةَ اليَمَنِيَّ الشاعر ، حين قام فيمن قام بإحياء الدولة الفاطِمِيَّة بعد انقراضها ، علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه فى الكلام علىٰ ترتيب مملكة الديار المصرية فى المقالة الثانية ، مُسْتَنِدًا فى ذلك إلىٰ بَيْتٍ نُسِب إليه من قصيدةٍ ، وهو قوله :

وكانَ مَبْدَأُ هذا الدِّينِ من رَجُلٍ * سَعَى فأصْبَح يُدْعَىٰ سَيِّدَ الأُمَمِ

فجعل النبوّة مكتسبة (١) علىٰ أن الله تعالىٰ ليس بجِسْم ولا جُسْمانى ، وأنه ليس فى جِهَةٍ ولا يدخل تحت الحَدِّ والمَاهِيَّة .

* * *

وهذه نسخة يمين رتبها لهم فى "التعريف" وهى :

إننى واللهِ واللهِ واللهِ [العظيم] (٢) ، الذى لا إله إلا هُو ، الواحدُ الأحَدُ ، الفَرْدُ الصَّمَد ، الأبدىُّ ، السَّرمدىُّ ، الأزَلِىُّ ، الذى لم يَزَلْ عِلّةَ العِلَل ، ربُّ الأرباب ،

(١) بياض فى الأصل ، ولعله « وهم مجمعون علىٰ أن » الخ .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٦٢ .

ومُدَبِّرُ الكلِّ [القديرُ] القـديم ، الأوّلُ بلا بدَايَة ، والآخِرُ بلا نهـاية ، المنَزَّهُ عن أن يكونَ حادثا أو عَرَضًا للحوادث ، الحَيُّ الذى اتّصف بصفات البقاء والسرمدية والكمال ، والمتردِّى برداء الكِبْرياء والجَلال ، مُدَبِّر الأفلاك ومُسَيِّر الشُّهُب ، مُفيض القُوَىٰ على الكواكب ، وباثُّ الأرواح فى الصُّـوَر ، مكوِّنُ الكائنـات ، ومُنَمِّى الحيوان والمَعْدنِ والنبات . وإلّا فلا رَقيَتْ رُوحى إلىٰ مكانها ، ولا اتّصلتْ نَفْسِى بعالَمِهـا ، وبَقِيتُ فى ظُلَم الجَهَالة وحُجُب الضَّلالة ، وفارَقْتُ نَفْسِى غير مُرْتَسِـمَةٍ بالمعارف ولا مُكَمَّلةٍ بالعِـلْم ، وبَقِيتُ فى عَوَزِ النَّقْص وتحت إمْرةِ الغَىِّ ، وأخذتُ بنَصيبٍ من الشِّرْك ، وأنكرتُ المَعَاد ، وقلتُ بفَنَاء الأرواح ، ورضيتُ فى هذا بمقالة أهـل الطبيعة ، ودُمْتُ فى قيد المركَّبات وشـواغل الحس ، ولم أُدْرِك الحقائقَ علىٰ ماهى عليه ؛ وإلا فقلتُ : إن الهَيُولَىٰ غيرُ قابلةٍ لتركيب الأجسام ، وأنكرتُ المـادّةَ والصُّورَة ، وخَرقْتُ النواميسَ ، وقلتُ : إن التَّحْسِـينَ والتَّقْبيح إلىٰ غير العَقْل ، وخُلِّدتُ مع النفوس الشِّرِّيرة ، ولم أجِد سبيلا إلى النَّجاة ، وقلتُ : إن الإلٰهَ ليس فاعلا بالذات ، ولا عالِمًـا بالكُلِّيات ، ودِنْتُ بأن النبوّاتِ مُتَناهيةٌ وأنها غير كَسْبِيَّة ، وحِدتُ عن طرائق الحكماء ، ونَقَضْتُ تَقْريرَ القدماء ، وخالفتُ الفلاسـفة ، ووافقتُ علىٰ إفساد الصُّوَر للعبث ، وحَيَّزْتُ الرَّبَّ فى جهـة ، وأثبتُّ أنه جِسْمٌ ، وجعلتُـه فيما يدخل تحْت الحَدِّ والمـاهية [ورَضِيتُ بالتَّقْليد فى الأُلوهية](١) .

---

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٦٣ .

المهيــــع الرابـــع

(فى بيان المَحْلوف عليه، وما يَقَع على العموم، وما يختصّ به كلُّ واحد
من أرباب الوظائف ممـا يناسبُ وَظيفَتَه)

اِعلَمْ أن المحلوفَ عليه فى الأَيْمـان المُلوكيَّة تارَةً يشتَرِكُ فيه جميعُ من يُحَلَّفُ من أهـل الدولة، وتارةً يختلِفُ بٱختـلاف ما يمتـازُ به بعضُهم عن بعضٍ ممـا لا تَقَعُ الشَّرِكَة بينهم فيه .

فأما مايقع فيه الاشْـتِراكُ، كطاعَةِ السلطان وما فى معناها : من إخْلاص النيَّـة وإصْفاءِ الطَّوِيَّة، وما يجرى مجرىٰ ذٰلك، فذلك ممـا يشترِكُ فيه كلُّ حالِفٍ يحلفُ للسلطان على ٱختـلاف عقائدهم : من مسـلم : سُـنِّىّ أو بِدْعِى، وكافِرٍ : يَهُودِىّ أو نَصْرانِى، أو غيرهما . فكلُّ أحدٍ يحلِّفُ بمـا تقتضِيه عقيدتُه فى التعظـيم، علىٰ ما تقدّم بيانُه فى أَيْمـان الطوائف كلِّها .

فاذا ٱنتهى إلى المحلوف عليه، قال : إنَّنِى من وَقْتِى هذا ومن سَاعَتِى هذه وما مدّ الله فى عُمْرِى قد أخلصتُ نِيَّتِى ولا أزالُ مجتهـدًا فى إخْلاصِها، وأصْفَيتُ طَوِيَّتِى ولا أزالُ مجتهـدًا فى إصْفائها، فى طاعةِ مولانا السلطان المَـالِك المَلِك الفُلانِىّ فلانِ الدنيـا والدِّين فلان، ٱبن السلطان السَّعيدِ الشَّهيدِ المَلِك فلان الدُّنيا والدِّين فلانٍ خلد الله تعالىٰ مُلْكه، وفى خِدْمَتِه ومَحَبَّتِه ونُصْحِه، وأكونُ وَلِيًّـا لمن وَالاه، عَدُوًّا لمن عاداه، سِلْمًـا لمن سالمه، حَرْبًا لمن حَارَبه من سائر الناس أجمعين، لا أُضْمِرُ له سُوءًا ولا مَكْرُوها ولا خَديعَـةً ولا خِيانَة، فى نَفْسٍ ولا مَالٍ ولا مُلكٍ ولا سـلطنةٍ ولا عَسـاكِرَ ولا جُنْدٍ ولا عُرْبانٍ ولا تُرْكُمانٍ ولا أكْرادٍ ولا غيرِ ذلك، ولا أسْـعَىٰ فى تَفْريق كلمـةِ أحدٍ منهم عن طاعته الشريفـة . وانَّنِى والله العظيم أبْذُل جُهْدِى

وطَاقَتِي فى طاعة مولانا السلطان المَلِك فلانِ الدُّنيا والدِّين المشار إليـه ، وإن كاتَبَنى أحدٌ من سائر الناس أجمعين بمـا فيه مَضَرَّةٌ علىٰ مُلْكِه لا أُوافِقُ علىٰ ذلك بقَوْلٍ ولا فِعْلٍ ولا عَمَلٍ ولا نِيَّةٍ ، وإنْ قدرتُ علىٰ إمْساكِ الذى جاءَنِى بالكِتَاب أمسكْتُه وأحضرتُه لمولانا السلطان المَلِك فلانٍ المشار إليه أو لنائبه القَريبِ مِنِّى .

وأما ما يقعُ فيـه الاختلاف فمـا يتبايَنُ الحالُ فيه باختصاص رَبِّ كلِّ وَظِيفـةٍ بمـا لايشاركه فيه الآخر. وقد أشار فى "التَّعريف" إلىٰ نُبْـذةٍ من ذلك فقال : وقد يُزاد نُوَّابُ القِلاع ونُقَباؤُها والوُزَراءُ وأرباب التَّصَرُّف فى الأموال والدواداريّة وكُتَّاب السِّرِّ زيادات ، يعنى علىٰ ما تقدّم .

فأما نُوّابُ القِلاع ونُقَباؤُها فيزاد فى تَحْليفهم : وإنَّنِى أجمعُ رجالَ هذه القَلْعة علىٰ طاعة مولانا السلطانِ فلانٍ وخِدْمته فى حِفْظ هذه القلعة وحِمايَتِها وتَحْصِينِها ، والذَّبِّ عنها ، والجِهادِ دُونَها ، والمُدافَعَة عنها بكلِّ طريق . وإنَّنى أحفظُ حَوَاصِلَها وذَخائِرَها وسِلاحَ خاناتِهـا على اختلاف ما فيها من الأقوات والأسلحة . وإنَّنِى لا أُخرِجُ شـيئًا منها إلا فى أوقات الحاجة والضَّرورةِ الدَّاعيـة المتَعَيِّنِ فيهـا تَفْرِيقُ الأقوات والسلاح ، علىٰ قَدْر ما تدعو الحاجةُ إليـه . وإنَّنِى أكونُ فى ذلك كواحدٍ من رجال هـذه القَلْعة ، وكلُّ واحدٍ ممن يَتْبعنى كواحِدٍ ممن يتبع أتباعَ رجالِ هذه القَلْعة ، لا أتَخَصَّصُ ولا أُمَكِّنُ من التخصيص . وإنَّنِى واللهِ واللهِ واللهِ لا أفتحُ أبوابَ هذه القَلْعة إلا فى الأوقات الجارى بهـا عادةُ فَتْح أبواب الحُصُون ، وأُغْلِقُها فى الوقت الجارى به العادةُ ، ولا أفتَحُها إلا بشَمْسٍ ، ولا أُغْلِقُها إلا بشَمْس . وإنَّنِى أُطالِبُ الحُرَّاسَ والدراجة وأرباب النُّوَبِ فى هذه القلعة بمـا جَرَتْ به العوائدُ اللازمة لكلٍّ منهم مما فى ذلك جميعِه مصلحةُ مولانا السلطان فلان . وإنَّنِى لا أُسَلِّم هذه القلعةَ إلا

لمولانا السلطان فلانٍ، أو بمَرْسُومه الشَّريف وأمارته الصحيحة وأوامره الصريحة . وإنِّي لا أستخدِمُ في هذه القَلْعة إلا مَن فيه نَفْعُها وأهْلِيَّةُ الخِدْمة، لا أعمل في ذلك بغَرض نَفسِي، [ولا أُرَخِّص فيه لمن يعمل بغَرَض نَفْسٍ له](1)، وإنَّني أبذُلُ في ذلك كلِّه الجهْدَ، وأشمِّر فيه عن ساعِد الجِدِّ، قال : ويسمِّي القَلْعةَ التي هو فيها .

وأما الوزراء وأرباب التَّصَرُّف [في الأموال] فما يزاد في تَحْليفهم : وإنَّني أحفظُ أموالَ مولانا السلطانِ فلانٍ - خلَّد الله مُلْكه - من التَّبذِير والضَّياع، والخَوَنة وتَفْريط أهْلِ العَجْز، ولا أستخدِمُ في ذلك ولا في شَيْءٍ منه إلا أهْلَ الكِفاية والأَمانَة، ولا أُضَمِّنُ جهةً من الجهات الديوانية إلا من الأمناء الأتْقياءِ القادرين، أو ممن زاد زيادةً ظاهِرةً وأقام عليه الضُّمَّانَ الثِّقَاتِ، ولا أُؤَخِّر مطالبةَ أحَدٍ بما يتعينُ عليه بوَجْهٍ حقٍّ من حقوق الديوان المعمور والمُوجَبات السلطانية على آختلافها . وإني واللهِ العظيم لا أُرَخِّص في تَسْجيلٍ ولا قياس، ولا أُسامِحُ أحدًا بموجَبٍ يجبُ عليه، ولا أَخرُجُ عن كلِّ مصْلَحةٍ تتعيَّن لمولانا السلطان فلانٍ ولدَوْلَته، ولا أُخْلي كلَّ دِيوانٍ يرجع إليَّ أمْرُه، ويُعْدَقُ بي أمْرُ مُباشَرتِه من تَصَفُّح لأحواله، وآجتهادٍ في تَثمِير أمواله، وكَفِّ أيدي الخَوَنة عنه، وغَلِّ أيديهم أن تصلَ إلىٰ شَيْءٍ منه، ولا أدَعُ حاضِرًا ولا غائبًا من أمور هذه المباشرة حتَّى أجِدَّ فيه، وأبذُلَ الجُهْدَ الكُلِّيَّ في إجراء أُمورِه على السّداد وحُسن الآعتماد . وإنَّني لا أستَجِدُّ على المستقرّ إطلاقَه ما لم يُرْسَمْ لي به إلا ما كان فيه مَصْلحة ظاهرة لهذه الدَّولة القاهرة، ونَفْعٌ بيِّنٌ لهذه الأيام الشريفة . وإنِّي واللهِ أُؤَدِّي الأمانة في كلِّ ماعُدِقَ بي ووُلِّيتُ : من القَبْض والصَّرْف، والوِلايَة والعَزْل، والتأْخير والتقديم، والتقليل والتكثير، وفي كلِّ جَليلٍ وحَقِيرٍ، وقَليلٍ وكثيرٍ .

(1) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٩ .

وأما الدَّوَادَارِيَّة وكُتَّابُ السِّرِّ فيزاد فيهما : وإنَّنِي مهما اطلعتُ عليه من مصالح مولانا السلطان فلانٍ ـ خلَّد الله مُلْكه ـ ونَصائحِه، وأمرِ دَانِي مُلْكه ونَازِحه، أُوصِّلُه إليه، وأَعْرِضُه عليه، ولا أُخْفِيه شيئًا منه ولو كان عَلَيّ، ولا أَكْتُمُه ولو خِفْتُ وصول ضرره إليّ.

ويفرد الدَّوادَارُ : بأنِّي لا أُؤَدِّي عن مولانا السلطان رِسالةً في إطْلاق مال، ولا ٱسْتِخدام مُسْتخْدَم، ولا إقْطاعِ إقْطاعٍ، ولا تَرْتِيب مُرَتَّب، ولا تَجْدِيد مُسْتَجِدٍّ، ولا شادّ شاغِرٍ(١)، ولا فَصْلِ مُنازَعَةٍ، ولا كتابةِ تَوْقيع ولا مَرْسومٍ، ولا كِتَابٍ صغيرا كان أو كبيرًا إلّا بعد عَرْضِه على مولانا السلطان فلانٍ ومُشاوَرتِه، ومعاودةِ أَمْرِه الشريف ومُراجَعتِه.

ويفرد كاتب السر : بأنَّه مَهْما تأخرتْ قِراءَتُه من الكتب الواردةِ على مولانا السلطانِ فلانٍ من البعيد والقريب، يعاوِدُه فيه في وَقْتٍ آخَر، فإن لم يُعاوده فيه بمجْموع لفظه، لطوله الطُّولَ المُمِلَّ، عاوده فيه بمعناه في المُلَخَّصات، وأنه لا يُجاوِبُه بشَيْءٍ لم يَنُصَّ المرسومُ الشريفُ فيه بنَصٍّ خاصٍّ، وما لم تَجْرِ العادةُ بالنصِّ فيه لا يُجاوِب فيه إلا بأكمل ما يَرَى أن فيه مَصْلحةَ مولانا السلطان فلانٍ ومَصْلحةَ دَوْلته بأَسَدِّ جَوَابٍ يَقْدِر عليه، ويَصِلُ ٱجتهادُه إليه. وأنه مهما أَمْكَنه المراجعةُ فيه لمولانا السلطان فلانٍ راجَعَه فيه وعمِل بنص ما يرسم له به فيه. هذا ما ٱنتهى إليه كلامه.

قال في "التثقيف" : ويزادُ النُّوَّاب مثل قَوْله : ولا أَسْعَىٰ في تَفْريقِ كلمةِ أحَدٍ منهم عن طاعته الشريفة، وعليَّ أن أبْذُلَ جُهْدِي وطاقَتِي في ذلك كلِّه وفي حفْظِ المملكة التي ٱستنابني فيها، وصِيانَتِها وحِمايَتِها، وما بها من القِلاع والثُّغُور والسواحل. ثم يأتي بعده : وإن كاتَبَنِي أحدٌ الخ.

---

(١) في "التعريف" ص ١٥٠ «ولا سداد ثاغر».

قلتُ : والمراد أنه يُؤتىٰ باليمين العامة التى يحلف عليها كلُّ أحدٍ، ثم يزاد لكلّ واحدٍ من أرباب الوظائف ما يُناسِبُه مما تقدّم ، ثم يؤتىٰ علىٰ بقيّة اليمين من عند قوله : وإنّني أَفِي لمولانا السلطانِ بهذه اليمينِ ، إلىٰ آخرها أو ما فى معنىٰ ذلك من أَيْمان أهل البِدَع وأصحاب المِلَل علىٰ ما تقدّم ذكره .

ثم قال فى "التثقيف": وقد تتجدّد وَقائعُ وأمورٌ تحتاج إلى التَّحْليف، بسببها تتغيّر صِيغَةُ المحلوف عليه بالنسبة إلىٰ ما رُسِم به فيها . ثم أشار إلىٰ أنه لم يَرَ مدّةَ مُباشَرته بديوان الإنشاء أحدًا ممن ذكره فى " التعريف " : من أرباب الوظائف حُلِّفَ ، وإنما ذكرها لاحتمال أن تَدعُوَ الحاجةُ إليها فى وقْت من الأوقات ، أو أنها كانت مستعملة فى المتقدّم، فيكون فى تَرْكها إهمالٌ لبعض المصطلح .

قلت : وقد أهملا فى " التعريف " و" التثقيف " : ذِكْرَ يمينين مما رتبه الكُتَّابُ وحلَّفوا به فى الزمن المتقدّم مما لا غِنًى بالكاتب عنه .

الأولىٰ — اليمينُ على الهُدْنةِ التى تنعقِد بين مَلِكَينِ أو نائبهما ، أو مَلِكٍ ونائب مَلِك آخر، علىٰ ما سيأتى ذكره فى المقالة التاسعة، إن شاء الله تعالىٰ .

وتقع اليمين فيها علىٰ ما فيه تأكيدُ عَقْدِ الهُدْنة والتزامُ شروطها والبقاءُ عليها وعدمُ الخروج عنها أو عن شيءٍ من ملتزماتها، وغيرُ ذلك مما يدخل به التَّطرقُ إلى النَّقْض والتَّوصُّلُ إلى الفَسْخ .

* * *

وهذه نسخةُ يمينٍ حُلِّف عليها السلطانُ المَلِكُ المنصورُ «قلاوون» على الهُدْنةِ الواقعة بينه وبين الحُكَّام بمملكة عَكَّا وصَيْدَا وعَثْليثَ وبلادها، من الفرنج الاستبارية ،

فى شهر ربيع الأوّل سنة ٱثنتين وثمانين وستمائة، فى مباشرة القاضى فَتْح الدِّين بن عبد الظاهر كِتَابةَ السِّر، علىٰ ما أورده ٱبن مُكَرَّم فى تَذْكِرَته، وهى :

أقولُ وأنا فلانٌ : واللهِ واللهِ واللهِ، و باللهِ و باللهِ و باللهِ، وتاللهِ وتاللهِ وتاللهِ، واللهِ العظيمِ، الطَّالبِ، الغَالِبِ، الضَّارِّ، النافِعِ، المُدْرِكِ، المُهْلِكِ، عالِمِ ما بَدا وما خَفِىَ، عالِمِ السِّر والعلانِيَةِ، الرَّحمٰنِ الرحيمِ، وحقِّ القُرآن ومن أنزله ومن أُنْزِلَ عليه، وهو محمدُ بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وما يقالُ فيه من سُورةٍ سُورةٍ، وآيةٍ آيةٍ، وحقِّ شَهْر رمضان، إنّنى أَفِى بحفْظ هـذه الهُدْنةِ المباركةِ التى ٱستقرّتْ بَيْنِى وبين مَمْلكة عَكَّا والمقدّمين بهـا علىٰ عَكَّا وعَثْليتَ وصَيْدا و بلادها، التى تَضَمَّنتْها هذه الهُدْنة، التى مُدَّتُها عَشْرُ سِنِينَ كوامِلَ، وعشرةُ أَشْهُرٍ، وعشرةُ أيام، وعَشْرُ ساعات، أوّلها يومُ الخميس خامسُ ربيعِ الأوّل سَنةَ ٱثنتين وثمانين وستمائة للهجرة من أوّلها إلىٰ آخرها، وأَحْفَظُها وألتزمُ بجميع شُروطِها المشروحةِ فيها، وأُجرِى الأمورَ علىٰ أحكامها إلى ٱنقضاءِ مُدَّتِهـا ولا أتأوّلُ فيها ولا فى شَىْءٍ منها، ولا أَسْـتَفْتِى فيها طَلَبًا لنَقْضها مادام الحاكمُون بمدينة عَكَّا وصَيْدا وعَثْليث ـ وهم كافِلُ المملكة بعَكَّا، ومقدّمُ بَيْت الرُّوم، ومقدَّمُ بيت الٱستبار، ونائبُ مقدَّمِ بَيْت الٱسـتبار إلى الآن، ومن تولى بعدهم فى كَفَالة مَمْلكةٍ، أو مقدَّمِ بَيْتٍ بهـذه المملكة المذكورة ـ وافين باليمين التى يُحَلَّفُون عليها (فى وَلَدِى الملك الصالح، ولأولاده، على ٱستقرار هذه الهُدْنة المحرَّرة الآن) عاملين بها و بشروطها المَشْروحةِ فيها إلى ٱنقضاءُ مُدَّتِها، مُلْتزمينَ أحكامَها، وإن نكثتُ فى هـذه اليمين فيلزمُنِى الحجُّ إلىٰ بَيْت الله الحَرامِ بمكَّةَ حافِيًا حاسرًا ثلاثين حَجّة، ويلزمُنى صَوْمُ الدَّهر كلّه إلا الأيامَ المنْهِىَّ عنها .

ويذكر بقية اليمين إلىٰ آخرها، ثم يقول : واللهُ علىٰ ما نَقُولُ وَكِيل .

⁂

وهذه نسخةُ يَمينٍ حُلِّف عليها الفَرنْجُ المعاقَدُون علىٰ هذه الهُدْنة أيضا، فى التاريخ المقدّم ذكره علىٰ ما أورده ٱبنُ مكَرَّمٍ أيضا، وهى :

واللّهِ واللّهِ واللّهِ ، وباللّهِ وباللّهِ وباللّهِ ، وتاللّهِ وتاللّهِ وتاللّهِ ، وحقِّ المَسِيحِ وحَقِّ المَسِيحِ ، وحقِّ الصَّليب وحَقِّ الصَّليب ، وحقِّ الأقانيم الثلاثةِ من جَوْهرٍ واحدٍ المَكَنَّى بها عن الأَبِ والاَبْنِ ورُوحِ القُدُس إلٰه واحد، وحقِّ الصليب المكَرَّم الحالِّ فى النَّاسُوت، وحقِّ الإنجيلِ المطَهَّر وما فيه، وحقِّ الأناجيل الأربعة التى نقلها مَتَّى ومُرْقُس ولُوقا ويُوحَنَّا ، وحقِّ صَلَواتهم وتَقْدِيساتِهم ، وحقِّ التلامذة الاَثْنَى عَشَر، والاَثنين وسبعين، والثلثمائة وثمانيةَ عَشَر المجتمعين للبيعة، وحقِّ الصَّوْتِ الذى نزل من السماء علىٰ نَهْر الأُرْدُنِّ فزجره ، وحقِّ اللّهِ مُنْزِل الإنجيل علىٰ عيسى بن مَرْيَمَ رُوحِ الله وكَلِمَتِه، وحقِّ السيدةِ مَارِيَةَ أمِّ النُّور (ومارية مَرْيم) ويُوحَنَّا المعمودى ومرتمان ومرتمانى، وحقِّ الصَّوْم الكبير، وحقِّ دِينِى ومعبودى وما أَعْتَقِدُه من النَّصْرانية ، وما تَلَقَّيتُه عن الآباء والأقِسَّاءِ المعمودية ــ إنَّنِى من وَقْتِى هذا وساعَتِى هذه، قد أخلصتُ نيّتى، وأصْفيتُ طَوِيَّتِى فى الوَفاءِ للسلطان المَلِكِ المنصور ولولده المَلِكِ الصالح ولأولادهما ، بجميع ماتَضَمَّنته هذه الهُدْنَة المباركةُ التى ٱنعقد الصُّلْحُ عليها، علىٰ مملكة عَكَّا وصَيْدا وعَثْلِيث وبلادها الداخلة فى هذه الهُدْنة، المسماة فيها، التى مدّتُها عَشْرُ سنين كوامِل، وعشرةُ أشْهر، وعشرَةُ أيّامٍ، وعَشْر ساعاتٍ، أولُها يومُ الخميس ثالثُ حَزِيرَان سنة أَلْفٍ وخمسمائة وأربع وتسعين للإسْكَنْدَر بن فيلبس اليونانى، وأعملُ بجميع شروطها شَرْطًا شَرْطًا، وألتزمُ الوَفَاءَ بكلِّ فَصْلٍ فى هذه الهُدْنة المذكورة إلى ٱنقضاء مُدّتها . وإنَّنِى واللّهِ واللّهِ وحقِّ المَسِيح ، وحقِّ الصَّليب ،

وحقِّ دِينِي لا أتعرّضُ إلىٰ بلاد السُّلطان ووَلَده، ولا إلىٰ من حَوَتْه وتَحْوِيه من سائر الناس أجمعين، ولا إلىٰ من يتردّدُ منهم إلى البـلاد الداخلة فى هذه الهُدْنَة بأذيّة ولا ضَرَرٍ فى نَفْسٍ ولا فى مال . وإنّنى واللهِ وحَقِّ دِينِي ومَعْبودى أسْلُك فى المعاهـدة والمُهَادَنَة والمُصَافاة والمصادَقَة وحِفْظ الرَّعِيـة الإسلامية، المتردّديـن فى البلاد السلطانية، والصادرينَ منها وإليها ـ طَرِيقَ المُعاهَدين المُتصادِقِينَ المُلْتَزِمين كَفَّ الأذيّة والعُـدْوانِ عن النُّفوس والأموال، وألْزَمُ الوَفاءَ بجميع شروط هذه الهُدْنَة إلى ٱنقضائها، مادام المَلِك المنصورُ وافيًا باليمين التى حَلَف بهـا على الهُدْنةِ، ولا أَنْقضُ هذه اليمينَ ولا شيئًا منها، ولا أسْـتَثْنِي فيها ولا فى شيءٍ منهـا طلبًا لنَقْضها، ومتىٰ خالفتُها ونَقَضتُها فأكونُ بَريئًا من دِينِي وٱعتقادِى ومَعْبودِى، وأكونُ مُخالِفًا للكَنيسة، ويكونُ علىَّ الحجُّ إلى القُدْس الشريف ثلاثين حَجَّةً حافيًا حاسرًا، ويكونُ علىّ فَكُّ أَلْفِ أسِـيرٍ مُسْلِمٍ من أسْرِ الفَرَنْج وإطْلاَقُهم، وأكونُ بَرِيئًا من اللّاهُوت الحـالِّ فى النّاسُوت، واليمين يَمِينى وأنا فلانٌ، والنيةُ فيها بأسْرِها نِيَّـة الملك المنصور، ونيةُ وَلَدِه المَلِكِ الصالح، ونيةُ مُسْتَحلِفِيَّ لهما بها على الإنجيل الكَرِيم، لا نِيَّـةَ لى غيرُها، واللهُ والمَسِيحُ علىٰ ما نقول وَكِيل .

وكذٰلك كتِبت اليمينان، من جهة السلطان الملك الظاهر بِيبَرْس، ويمين صاحب بَيْرُوت وحِصْنِ الأكراد والمَرْقَب من الفَرَنج الاستبارية فى شهر رمضانَ سنة خَمْسٍ وستين وستمـائة .

قلتُ : ومقتضى ما ذكره ٱبن المُكَرَّم فى إيراد هذه الأيمان أن نُسخَةَ اليمين تكون مُنْفصلةً عن نسـخة الهُدْنة كما فى غيرها من الأيمـان التى يُستحلَف عليها، إلا أنّ مقتضىٰ كلامِ "موادّ البيان" : أن اليمين تكونُ متّصلةً بالهُـدْنة . والذى يتّجِه أنه

إن تيسّر الحلِفُ عقِبَ الهُدْنة ـ لوُجُود المتحالفين ـ كُتِب فى نفس الهدنة مُتَّصلا بها ، وإلّا أفرد كلُّ واحدٍ من الجانبين بنُسْخة يمين ، كما فى غيرها من الأيمان . وربّما جُرِّدت الهُدْنةُ عن الأيْمان ، كما وقع فى الهُدْنة الجارية بين الظاهر بيبَرْس وبين دون حاكم الريدأرغون ، صاحب بَرْشَلونه من بلاد الأَنْدَلُس ، فى شهر رمضان سنة سبع وستين وستمائة علىٰ مُقْتضى ما أورده ٱبن المُكَرَّم فى تَذْكِرَتِهِ .

وٱعلم أنه قد يكتفىٰ باليمين عن الهُدْنة [باليمين] فى عَقْد الصُّلْح .

وقد ذكر القاضى تَقِيُّ الدِّينِ ٱبنُ ناظر الجَيْش فى "التثقيف" : أنه رتَّب يمينا حُلِّفَ عليها الفَرَنجُ بالأبواب السلطانية بالديار المصرية عند عَقْد الصُّلْح معهم ، فى سنة ٱثنتين وسبعين وسبعمائة ، فيها زياداتٌ علىٰ ما ذكره المَقَرُّ الشِّهابىُّ بن فضل الله فى "التعريف" وهى :

واللّهِ واللّهِ واللّهِ العظيمِ ، إلٰهِ إبراهيمَ ، مالك الكُلِّ ، خَالِقِ ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ ، صانعِ كلِّ شيءٍ ومُتْقِنِه ، الربِّ الذى لا يُعْبد سواه ، وحقِّ المَسيح ، وحقِّ المَسيح ، وحقِّ المَسيح ، وأمِّه السيدةِ مَرْيَمَ ، وحقِّ الصليب ، وحقِّ الصليب ، وحقِّ الصليب ، وحقِّ الإنْجيل ، وحقِّ الإنْجيل ، وحقِّ الإنْجيل ، وحقِّ الأَبِ والاَبْنِ ورُوحِ القُدُس إلٰهٍ واحدٍ من جَوْهرٍ واحدٍ ، وحقِّ اللّاهُوت المُكَرَّم ، الحالِّ فى النّاسوت المُعظَّم ، وحقِّ الأناجيل الأربعة التى نقلها مَتَّى ومُرْقُس ولُوقا ويُوحَنَّا ، وحقِّ اللّاهُوت والنّاسوت وصَليبِ الصَّلَبوت ، وحقِّ التلاميذ الاثْنَىْ عَشَر ، والاثنين وسبعينَ ، والثلثمائة وثمانيةَ عَشَر المجتمعين علىٰ البِيْعَة ، وحقِّ الصَّوْتِ الذى نزل علىٰ نَهْر الأُرْدُنِّ فزجره ، وحقِّ السيدة مارِيَةَ أمِّ النُّور ، وحقِّ بِيْعَةِ وقديس وثالوث ، وما يقولُه فى صلاته كلُّ معمدانىٍّ ، وحقِّ ما أَعتَقِدُه من دِينِ النصرانية ، والمِلَّة المسيحية ـ إنّى أفعلُ كذا وكذا ، ومتىٰ

خالفتُ هذه اليمينَ التى فى عُنُق ، أو نقضتها أو نكثتها ، أو سَعَيْتُ فى إبطالها بوجْهٍ من الوُجُوه ، أو طَرِيقٍ من الطُّرُق ـ برئْتُ من المعمودية ، وقلتُ : إن ماءَها نَجِسٌ ، وإن القَرَابِينَ رِجْس ، وبرئْتُ من مَرْيُحَنَّا المعمدان ، والأناجيلِ الأربعة ، وقلتُ : إنَّ متَّىٰ كَذُوب ، وإن مَرْيَمَ المجْدَلانية باطلةُ الدَّعوىٰ فى إخبارها عن السَّيدِ اليَسُوع المَسيح ، وقلتُ فى السيدة مَرْيَمَ قولَ اليَهُود ، ودِنْتُ بدينهم فى الجُحُود ، وبَرِئْتُ من الثالوث ، وجحدتُ الأَبَ ، وكذبتُ الآبْنَ ، وكفرتُ برُوحِ القُدُس ، وخلعتُ دِينَ النصرانيــة ، ولَزِمْتُ دِين الحَنِيفيَّة ، ولطخت الهَيْكَل بحَيْضَــةِ يَهُودِيَّة ، ورفضتُ مَرْيَمَ ، وقلتُ : إنهــا قُرِنَتْ مع الأسخريوطى فى جَهَنَّم ، وأنكرتُ آتحاد اللَّاهُوت والنَّاسُوت ، وكَذَّبتُ القُسوسَ ، وشاركتُ فى ذَبْحِ الشَّمامِس ، وهَــدَمتُ الديارات والكَنائس ، وكنتُ ممن مال علىٰ قُسْــطَنْطِينَ بن هيلانى ، وتعمدتُ أمَّه بالعَظائم ، وخالفتُ المَجــامِعَ التى آجتمعتْ عليها الأسَاقِفُ برُومِيَــة والقُسْطَنْطِينيَّة ، وجحدتُ مَذْهبَ المَلْكانيَّة ، وسفَّهتُ رَأْيَ الرُّهْبان ، وأنكرتُ وقُوعَ الصَّلْبِ على السَّــيدِ اليَسُوع ، وكنتُ مع اليَهُود حينَ صلبوه ، وحِدتُ عن الحَوَارِيِّين ، وآستبَحْتُ دِماءَ الدَّيْرانيِّــين ، وجَذَبْتُ رِدَاءَ الكِبْرياء عن البطريك ، وخرجتُ عن طاعة البَــابِ ، وصُمْتُ يوم الفِصْحِ الأكبر ، وقعدتُ عن أهْلِ الشَّــعانين ، وأبيتُ عِيدَ الصليب والغِطاس ، ولم أحْفِلْ بعيد السَّــيِّدة ، وأكلتُ لَحْمَ الجَمَــل ، ودِنْتُ بدِين اليَهُود ، وأبَحتُ حُرْمَةَ الطَّلاق ، وهدمْتُ بيَدِى كنيسة قُمَــامَة ، وخُنْتُ المَسِيحَ فى وديعته ، وتزوّجْتُ فى قَرَنٍ بامرأتين ، وقلتُ : إن المسيح كآدَمَ خلقه اللّهُ من تُرَابٍ ، وكفرتُ بإحْياءِ العَيَازِرة ، ومجىء الفارِقْلِيط الآخر ، وبرئْتُ من التلامذة الاثنى عَشَر ، وحرّم علىَّ الثلثمائة وثمــانية عشر ، وكسرتُ الصُّلْبانَ ، ودُسْتُ برِجْلِى القُرْبان ، وبَصَقْتُ فى وجوه الرُّهْبان عند قولهم : كَيْر اليصُون ، وآعتقــدْتُ أن نعمه كفر الجون (؟)

وأنَّ يُوسفَ النَّجَّار زَنَىٰ بأم اليَسُوع وعَهر، وعطَّلتُ النَّاقوس، وملتُ إلىٰ ملة المَجُوس، وكسرتُ صَليب الصَّلبُوت، وطبختُ به لَحْمَ الجَمَل، وأكَلْتُه فى أوّلِ يومٍ من الصَّوْم الكَبير، تحتَ الهَيْكَلِ بحضْرَة الآباء، وقلتُ فى البنوَّة مقالَ نُسْطُورس، ووَجَّهتُ إلى الصَّخْرة وَجْهى، وصدَّيتُ عن الشَّرْق المُنِير حيثُ كان المَظْهَر الكريم . وإلَّا بَرِئْتُ من النُّورانيين والشَّعْشَعانيين، وأنكرتُ أنَّ السَّيدَ اليَسُوعَ أحْيا المَوْتىٰ وأَبْرأَ الأكْمَهَ والأبْرَصَ، وقلتُ : إنَّه مَرْبُوب، وإنه ما رُؤِىَ وهو مَصْلوب، وأنكرتُ أن القُرْبانَ المقدَّسَ على المَذْبَح ماصار لَحْمَ المَسِيح ودَمَه حَقيقه، وخرجتُ فى النَّصرانية عن لاحِبِ الطريقه . وإلَّا قلتُ بدِينِ التوحيد، وتعبَّدْتُ غيرَ الأرْباب، وقصدْتُ بالمظانيات غير طريق الإخلاص، وقلتُ : إن المَعادَ غيرُ رُوحَانِىٍّ، وإن بَنِى المعمودية لا تَسِيح فى فَسِيح السماء، وأثبتُّ وُجُودَ الحُورِ العِين فى المَعاد، وأنَّ فى الدار الآخرة التلذذاتِ الجُسْمانية، وخرجتُ خُروجَ الشَّعْرة من العَجِين من دِينِ النصرانية، وأكونُ من دِينِى مَحْروما، وأقولُ : إن جرجيس لم يُقْتَلْ مَظْلوما، وخرقتُ غفارة الرَّب، وشاركتُ الشِّر[ير] فى سَلْبِ ثيابه، وأحْدَثْتُ تحت صَلِيبه، وتجمَّرْتُ بخَشَبَته، وصَفَعْتُ الجاثَلِيق . وهذه اليَمينُ يَمِينى وأنا فلانٌ، والنِّيَّةُ [فيها] بأسْرِها نيةُ مولانا السلطان الملك الأشرف، ناصِرِ الدُّنيا والدِّين «شعبان» ونِيَّةُ مُسْتَحْلِفِىَّ، والإلٰهُ والمَسِيح علىٰ ما أقول وَكِيل .

قلتُ : خلَطَ فى هذه اليمين بعضَ يَمِينِ اليعاقبة الخارجة عن مُعْتقد الفَرَنج الذين حَلَّفهم من مَذْهب المَلْكانية، يظهرُ ذلك من النَّظَر فيما تقدّم من مُعْتقدات النصرانية قبل ترتيب أيْمانهم . علىٰ أنه قد أتَىٰ فيها بأكْثَر مارتَّبه المَقَرُّ الشِّهابىّ بن فَضْلِ الله فى تَحْليفهم علىٰ صداقته، وزاد ما زاد من اليَمين المرتَّبة فى التَّحاليف على الهُدْنة السابقة وغيرها .

اليمين الثانيــة — ممــا أهمله فى "التعريف" يمينُ أميرِ مَكَّة .

والقاعدة فيهــا أن يحلّف علىٰ طاعةِ الســلطان، والقيامِ فى خِدْمة أمير الرَّكْب، والوَصِيَّةِ بالحُجَّــاج، والاحتفاظ بهم .

وهذه نسخة يمين حُلِّف بها الأمير نَجْمُ الدِّين أبو نُمَيٍّ أميرُ مَكَّة المشرَّفة، فى الدَّولة المنصورية قلاوون الصالحى، فى شعبان سنة إحدىٰ وثمــانين وستمــائة .

ونُسْختها علىٰ ما ذكره آبن المُكَرَّم فى تَذْكِرته بعد آستيفاء الأقسام :

إنِّى أخلصتُ نِيَّتِى، وأصفَيْتُ طَوِيَّتِى، وساوَيْتُ بين باطنى وظاهرى فى طاعة مولانا الســلطانِ الملكِ المنصور، وولدِه السلطانِ المَلِك الصالح، وطاعةِ أولادهمــا وَارِثِى مُلْكِهما، لاأُضمرُ لهم سُوءًا ولا غَدْرًا فى نفسٍ ولا مُلْكٍ ولا سَــلْطنة . وإنَّنى عدوٌّ لمن عاداهم، صديقٌ لمن صادقهم، حَرْبٌ لمن حاربهم، سِلْمٌ لمن سالمهم . وإنَّنى لا يُخْرِجُنِى عن طاعتهــما طاعةُ أحدٍ غيرِهمــا، ولا أتَلَفَّتُ فى ذلك إلىٰ جهــةٍ غير جهتهما، ولا أفعــلُ أمرًا مخالفًا لمــا آستقرّ من هذا الأمر، ولا أُشْرِكُ فى تحكمهما علىّ ولا علىٰ مَكَّة وحَرَمِها ومَوْقِف جبلها زيدًا ولا عَمْــرًا . وإنَّنى ألتزم ما آشــترطتُه لمولانا الســلطان ولولده فى أمر الكُسْوة الشريفة المنصورية الواصلةِ مِنْ مصر المحروسة وتعليقِها على الكَعْبة الشريفة فى كل مَوْسِم، وأن لا يعلُوَها كُسْوة غيرها، وأن أقدّم عَلَمــه المنصور علىٰ كلِّ عَلَمٍ فى كلِّ مَوْسِم، وأن لا يتقــدّمه عَلَمٌ غيره . وإنَّنى أُسَهِّلُ زيارةَ البَيْت الحرامِ أيامَ مواسم الحجِّ وغيرها للزَّائرين والطَّائفين والبادين والعاكفينَ، والآمِّينَ لحَرَمه والحــاجِّين والواقفين . وإننى أجتهد فى حِراسَتِهم من كلِّ عادٍ بفعله وقوله، ومُتَخَطِّفٍ للنــاس من حَولِه . وإنَّنى أُؤَمِّنهم فى سِرْبِهم، وأُعْذِبُ لهم مَناهِلَ شُرْبِهم؛ وإنَّنى واللهِ أستمرُّ بتفرّد الخطبة والسِّكَّة بالأسم الشريف

المنصوري"، وأفعلُ في الخِدْمة فِعْلَ المخلِص الوَلىّ . وإنّنى واللهِ واللهِ أمتثلُ مراسيمه آمتثالَ النائبِ للمستنيب ، وأكون لداعى أمْرِه أوّلَ سامع مُجيب . وإننى ألتزم بشروط هذه اليمين من أوّلها إلىٰ آخرها لا أنقُضُها .

المهيــــع الخامس

(فى صُورة كتابة نُسخ الأيمـان التى يحلف بهـا)

وقد جرت العادةُ أنه إذا آستقرّ مَلِكٌ فى المُلْك يُحَلَّفُ له جميعُ الأمراءِ والنوّابِ فى المملكة، وإذا آستقرّ نائبٌ من النوّاب فى نيابةٍ حُلِّفَ ذلك النائبُ عند آستقراره، وربّمـا آقتضت الحالُ التحليفَ فى غير هذه الأوقات .

ثم الأَيْمـان التى يُحَلَّف بها علىٰ ضربين :

الضـــرب الأوّل

(الأَيْمـانُ التى يحلَّفُ بها الأمراءُ بالديار المصرية)

وقد جرت العـادةُ أن كُتّاب دِيوانِ الإنشـاء يجتمع من يجتمعُ منهم بالقَلْعـة ، ويتصدّىٰ كلُّ واحدٍ منهم لتَحْليف جماعةٍ من الأمراء والممـاليك السلطانية وغيرهم ، وينصَبُ المُصْحَفُ الشريفُ علىٰ كُرْسِىٍّ أمامَ الحـالفين، ويحلِّفُ كلُّ كاتبٍ من كُتّاب الإنشاء من يُحَلِّفه تُجاهَ المصحفِ بألفاظ اليمين المتقدّمةِ الذِّكر على الوَجْه الذى يُرْسَم تَحْليفُهم عليـه ؛ ويكتبُ كلُّ واحدٍ من أولئك الكُتّاب أسمـاءَ الذين حلَّفهم فى وَرَقةٍ ويُؤَرِّخها ويحملها إلىٰ ديوان الإنشاء فتخلَّدُ فيه .

الضـــــرب الثـــانى

(الأَيْمــان التى يحلّف بها نوّابُ السلطنة والأمراءُ بالممالك الشامية وما ٱنضمّ إليها)

وقد جَرَتِ العادةُ أنه إذا أُرِيدَ تحليفُ نائبٍ من نوّاب الممالك الخارجةِ عن الحَضْرة بالدِّيار المصرية أو أميرٍ من أمرائها أن تكتبَ نسخةُ يمين من دِيوانِ الإنشاء بالأبواب السلطانية ، وتجهَّز إلى النائبِ أو الأميرِ الذى يُقْصَدُ تَحْليفُه فيحْلِفُ علىٰ حكمها متلفظا بألفاظها جَمِيعِها . قال فى "التثقيف" : وصِفَةُ مايكتب فى النُّسخة بعد البسملة من يمين الورق «أقول وأنا» ثم يخلى بياضا قليلا بقدر أصبعين لموضع كتابة الحالف ٱسمه ، ثم يكتبُ تحتَه من يمين الورق بهامش دَقِيقٍ جدّا «والله والله والله» وتكَمَّلُ تتِمّة النسخة علىٰ ما تقدّم ذكره . وتكون سُطورُها متلاصقةً سَطْرًا إلىٰ سَطْرٍ إلىٰ عند قوله «وهذه اليمين يمينى وأنا» فيخلّى بعد ذلك بياضًا قليلًا لموضع كتابة ٱسْمِ الحالف أيضا ؛ ثم يكْتُبُ من يمين الورق : « والنِّية فى هذه اليمين بأسرها » إلىٰ آخر النسخة .

قلت : وكذلك نُسخُ الأَيْمان التى تكتبُ ليحلَّفَ بها فى الهُدَنِ التى تُفْرد الأيمانُ فيها عن الهُدَن، يخلَّى فيها بياضٌ لكتابة الاسم بعد قوله « أقول وأنا » وبعد قوله «وهذه اليمين يمينى وأنا» سواء فى ذلك اليمين التى يحلَّف بها السلطان أو الملك الذى تقع معه المهادنة : من ملوك الإسلام أو ملوك الكُفْر .

وقد جرتِ العادةُ أن يكون الوَرَق الذى تكتب فيه نُسَخ الأَيْمـان التى يحلَّف بها النوّاب وغيرهم من الأمراء الخارجين عن الحَضْرة فى قَطْع العادة . أما ما يحلَّفُ به على الهُدَن فلم أَقِفْ فيه علىٰ مقـدار قَطْع الوَرَق . والذى يظهر أن كلَّ يمينٍ تكون فى قَطْع الورق الذى يكاتَبُ بها ذلك الملِكُ الذى يُحَلَّف .

المقالة التاسعة

فى عقود الصلح والفسوخ الواردة على ذلك، وفيها خمسة[1] أبواب

الباب الأوّل

فى الأمانات، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

فى عقد الأمان لأهل الكفر

قال فى "التعريف": وهو أقوى أمور الصُّلح دلالةً على اشتداد السُّلْطان، إذ كان يُؤَمِّن الخائفَ أمْنًا لا عوَضَ عنه فى عاجلٍ ولا آجل، وفيه طرفان:

الطرف الأوّل

(فى ذكر أصله وشرطه وحُكْمه)

اعلم أن الأَمَانَ هو الأمرُ الأوّلُ من الأمور الثلاثة التى يُرْفَعُ بها القتلُ عن الكُفَّار. قال العلماء: وهو من مَكايِدِ القتال ومَصالحِه وإن كان فيه تَرْكُ القتال: لأن الحاجةَ [داعيةٌ] إليه. والأصل فيه من الكِتَاب قولُه تعالىٰ: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾. ومن السُّنَّة قولُه صلى الله عليه وسلم: «المُؤْمِنُون تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُم، ويُجِيرُ عَلَيهِم أدْنَاهُم، وهم يَدٌ علىٰ مَنْ سِوَاهُم».

(١) كذا وقع أيضا فى فهرست المؤلف ج ١ ص ٢٩ من هذا المطبوع ولكن سيذكر آخر المقالة بابا سادسا فى الفسوخ.

وقد ذكر الفقهاءُ له أركانا وشرائط وأحكاما .

فأما أركانُه، فثلاثة :

الأوّل ـــ العاقد للأمان من المسلمين . وليُعلَم أنَّ الأمانَ علىٰ ضربين : عامٍّ وخاصٍّ . فالعامُّ هو عَقْدُه للعَدَد الذى لا يُحْصَر كأهْلِ ناحية؛ ولا يصِحُّ عَقْدُ الأمانِ فيه إلا من الإمامِ أو نائبِه كما فى الهُدْنة . والخاصُّ هو عَقْدُه للواحد أو العَدَدِ المحصور؛ ويصحُّ من كلِّ مُسلِمٍ مكلَّفٍ [وإن لم تكن] له أهليةُ القِتال، فيصح من العَبْد والمرأة والشَّيْخِ الهَرِمِ والسَّفِيهِ والمُفْلِس، بخلاف أمانِ الصَّبيِّ والمجنون .

الثانى ـــ المعقود له، ويصح عَقْدُه للواحد والعَدَدِ من ذكور الكُفَّار وإناثهم . نَعَم فى تأْمينِ المرأة عن الاْسترقاق خلاف .

الثالث ـــ صِيغة العَقْد . وهى كُلُّ لفظٍ يُفْهِم الأمانَ كنايةً كان أو صريحًا، وفى معنى ذلك الاشارةُ المُفْهِمة . ويعتبرُ فيه قَبُول الكافر، فلا بدّ منه حتى لوردَّ الأمانَ لم ينعقد، وفيما إذا سكت خلافٌ . نَعَم لو دخل للسِّفارة بين المسلمين والكُفَّار فى تَبْليغ رسالة ونحوها، أو لسماع كلام الله تعالىٰ لم يُعتبر فيه عَقْد الأمان، بل يكون آمِناً بمجرد ذلك، أما لو دخل لقَصْد التجارة بغير أمانٍ فإنه لا يكون آمِنـًا إلَّا أن يقولَ الامامُ أو نائبُه : من دخل تاجِرًا فهو آمِنٌ .

وأما شرطه، فأن لا يكونَ على المسلمين ضَرَرٌ فى المسْتَأْمِنِ : بأن يكون طَلِيعةً أو جَاسُوسًا، فإنَّه يقتل ولا يُبالَىٰ بأمانه، ويعتبرُ أن لا تَزِيدَ مدّةُ الأمان (١)

(١) عبارة "المنهاج" ويجب أن لا تزيد مدته على أربعة أشهر" وفى قول يجوز مالم تبلغ سنة" قال صاحب التحفة : فان بلغتها امتنع قطعا .

علىٰ سَـنَةٍ بخلاف الهُـدْنة، فقد تقدّم أنها تجوزُ عند ضَـعْف المسلمين إلىٰ عَشْرِ سنين .

وأما حكمه، فإذا عُقِد الأمانُ لزم المَشْروط ، فلو قتله مسـلمٌ وجبت الدِّيَةُ . ثم هو جائز من جهة الكُفَّار ، فيجوز للكافر نَبْذُه متىَ شاء ، ولَازِمٌ من جهـة المسلمين ، فلا يجوز النَّبْذُ إلا أن يُتَوقَّعَ من المُسْتَأمِنِ الشَّرُّ، فإذا تُوُقِّع منه ذلك جاز نَبْذُ العَهْد اليـه و يلحق بمأمنه؛ وبَقِيَّةُ فِقْهِ الفَصْل مستوفًى فى كُتُب الفِقْه .

الطـــرف الثـانى

(فى صـــورة ما يكتب فيـــه)

والأصل مارواه ابن إسحق أنَّ رِفاعَةَ بن زَيْدٍ الخزاعى[1] قَدِم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هُدْنة الحُدَيْبِيَة ، فأهدىٰ لرسول الله صلى الله عليه وسلم غُلاما ، وأسلم وحَسُن إسلامُه؛ وكتب له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كِتَاباً إلىٰ قومه فيه :

« بسم الله الرحمن الرحـيم »

«هذا كِتَابٌ من محمد رسولِ اللّهِ لِرفاعةَ بنِ زَيْدٍ : إنى بعثتُه إلىٰ قَوْمه»
«عامَّةً ومَنْ دَخَل فيهم يدْعُوهم إلى الله تعالىٰ و إلىٰ رسوله ؛ فمَنْ أقْبَلَ»
«منهم ففِى حِزْبِ اللّهِ ورسولِه ، ومن أدبر فلَهُ أمَانُ شَهْرين» .

فلما قدم رِفاعَةُ علىٰ قومه أجابوا وأسلموا .

(١) فى الأصل الجذامى والتصحيح من السيرة النبوية ص ٣٣ ج ٣ وقد ضبطها بالعبارة .

ثم للكُتَّاب فيه مذهبان :

المذهب الأوّل — أن يُفتَتَح الأمانُ بلفظ : « هذا كتابُ أمانٍ » أو « هذا أمانٌ » وما أشبه ذلك، كما آفتتح النبيُّ صلى الله عليه وسلم ما كَتَب به لرفاعة بن زَيْد على ما تقــدّم .

وعلى ذلك كتب عمرُو بن العاص رضى الله عنــه الأمانَ الذى كتب به لأهــل مِصْرَ عند فَتْحها، ونَصُّه بعد البسملة :

"هذا ما أعطى عمرُو بنُ العاص أهلَ مِصْر من الأمان على أنْفُسِهم ومِلَّتِهم[(1)] وأموالهم وكنائسهم وصُلُبهم وبَرِّهم وبَحْرهم، لا يدخل عليهم شيءٌ من ذلك ولا يُنْتقصُ، ولا تُساكِنُهم النُّوبَةُ . وعلى أهْــلِ مِصْر أن يُعْطُوا الجِزْيَةَ إذا آجتمعوا على هــذا الصُّلْح، وآنتهتْ زِيادةُ نَهْرِهم ــ خمسين ألفَ ألفٍ . وعليه مِمَّنْ جَنَى نُصْرَتُهم، فإن أبى أحدٌ منهم أن يُجيب رُفِع عنهم من الجَزَى بقدر [هم وذِمَّتُنا مِمَّن أبَى بَرِيَّةٌ ، وإن نَقَص نَهْرُهم عن غايته إذا آنتهى رفع عنهم بقدر[(2)]] ذلك؛ ومن دخل فى صُلْحهم : من الرُّوم والنُّوبَةِ فلَهُ مالَهُم وعليه ما عليهم؛ ومن أبَى وآختار الذَّهابَ فهو آمِنٌ حتى يبلُغَ مَأْمَنَه أو يخرجَ من سُلْطاننا . وعليهم ما عليهــم أثلاثًا فى كلِّ ثُلُثٍ جِبــايةُ ثُلُثِ ما عليهــم . على ما فى هذا الكتاب عهدُ اللهِ [وذِمَّتُــه[(2)]] وذِمَّةُ رسوله وذِمَّةُ الخليفــة أميرِ المؤمنين [وذِمَمُ المؤمنين[(2)]] . وعلى النُّوبَةِ الذين آســتجابوا أن يُعِينوا بكذا وكذا رَأْسًا، وكذا وكذا فَرَسًا، على أن لا يُغْزَوْا ولا يُمْنَعُوا من تجارةٍ صادرةٍ ولا واردَةٍ .

شَهِد الزُّبير وعبدُ الله ومحمدٌ ابناه، وكَتَبَ وِرْدَانُ وحَضَر" .

---

(١) فى العبر ص ١١٥ بقية الجزء الثانى «ودمهم» وفيه بعض التغيير من زيادة ونقص .

(٢) الزيادة من العبر ص ١١٥ بقية ج ٢ .

وعلىٰ ذلك كتب الحافظُ لدين الله أحد خُلَفاء الفاطميِّين الأمانَ لبَهْرامَ الأرمَنِيّ، حين صُرِف من وزارته وهرب عنه إلىٰ بلاد الأَرْمَن، وكَتَب إلى الحافظ يُظْهر الطاعةَ ويسأل تَسْيِيرَ أقاربه، فكتب له بالأمان له ولأقاربه .

فأما ما كُتِب له هو فنَصُّه بعد البسملة .

هـذا أَمَانٌ أمَر بكَتْبِه عبدُ الله ووَلِيُّه عبدُ المَجِيد أبو المَيْمونِ الحافظُ لدين الله أميرُ المؤمنين، للأمير المقدَّمِ، المُؤَيَّد، المنصورِ، عِزِّ الخلافة وشَمْسِها، وتاج المملكة ونِظامِها، فخْرِ الأمراء، شَيْخ الدولة وعِمادِها، ذِى المَجْدَيْن، مُصْطفىٰ أميرِ المؤمنين بَهْرامَ الحافظى : فإنك آمِنٌ بأمان الله تعالىٰ، وأمانِ جَدِّنا محمدٍ رسوله، وأبينا أميرِ المؤمنين عَلِيِّ بن أبي طالب صلى الله عليهما؛ وأمانِ أميرِ المؤمنين، علىٰ نَفْسك ومَالك، وأهْلِك وجميع حالك، لا يَنالُك سُوءٌ، ولا يَصِلُ إليك مَكْروه، ولا تُقْصَد باغتيال، ولا يُخْرَج بك عن عادَةِ الإحسان والإنعام، والتَّمييزِ والإكرام، وحِراسـةِ النَّفْس، والصَّوْنِ للحريم والأهْلِ، والرِّعاية فى القُرْب والبُعْد، مادُمْتَ متحيِّزًا إلىٰ طاعة الدولة العَلَوِيَّة، ومُتَصَرِّفًا علىٰ أحكام مُشايَعَتِها، مُواليًا لمُواليها، ومُعاديًا لمُعاديها، ومُسْتَمِرًّا علىٰ مَرْضاة إخلاصك . فثِقْ بهـذا الأمانِ وَاسْكُنْ إليـه، وَاطْمَئِنَّ إلىٰ مَضْمونه، واللهُ بمـا أُودِعَه كَفيلٌ وعليه شَهيد، وما تَوْفيقُ أميرِ المؤمنين إلا بالله، عليه يتوكَّلُ وإليه يُنيب .

وأما الأمانُ الذى كُتِب لأقاربه فنَصُّه :

هذا أمانٌ تقدّم بكَتْبِه عبـدُ الله ووَلِيُّه، لبسيل وزرقا، وبهرامَ ٱبن أُخْتِهما، ومن يَنْتمِى إليهم ويتعلَّقُ بهم، ويلتزمون أمْرَه ممن دُونَهم، ومن يَتَمَسَّكُ بسَبَبِهم .

مضمونه : إنكم مَعْشَرَ الجماعة بأسْرِكُم لما قصدتُم الدَّوْلةَ ووفَدْتم عليها، وتَفَيَّأْتُم ظِلَّها وهاجرتُم إليها، شَمِلَكم الصُّنْع الجميل ، وغَمَرَكُم الإنعامُ السَّابغُ والإحسانُ الجَزيل ، وكُنِفْتم بالرِّعاية التامَّة، والعنايةِ الخاصَّة لا العناية العامَّة، ووُفِّر حَظُّكم من الواجبات المقرّرةِ لكم ، والإقْطاعاتِ الموسُومة بِكُم ؛ وكنتم مع ذلك تَذْكرون رَغْبَتكم فى العَوْد إلىٰ ديارِكم، والرُّجُوعِ إلىٰ أوْطانِكم، وٱلْتِفاتاً إلىٰ مَن تركتموه من ورائكم. وقد سِرْتُم من الباب علىٰ قَضِيَّة المخافة، وقد أمَّنَكُم أميرُ المؤمنين ، فأنتم آمنون بأمانِ الله تعالىٰ وأمانِ جَدِّنا محمدٍ رسولِه وأَبِينا أميرِ المؤمنين : علىِّ بن أبى طالبٍ، صلى الله عليهما ، وأمانِ أمير المؤمنين ، علىٰ نُفُوسكم وأهْلِيكم وأموالِكم وما تَحْوِيه أيديكم ويحوزه مِلْكُكم، ويشتملُ عليه ٱحتياطكم ؛ لا يَنَالُكم فى شَىْءٍ من ذلك مَكْروه، ولا سَبَب مَخُوف، ولا يَمَسُّكم سُوءٌ، ولا تَخْشَوْن من ضَيْم ، ولا تُقْصَدُون بأذيَّة ، ولا يُغَيَّر لكم رَسْمٌ، ولا تُنقضُ لكم عادة، وأنتم مُسْتَمِرُّون فى واجِبَاتِكم وإقْطاعاتِكم علىٰ ما عَهِدتموه، ولا تُنْقَصُون منها ، ولا تُبْخَسون فيها . هـذا إذا رَغِبتم فى الإقامة فى ظِلَالِ الدَّولة، فإن آثَرْتُم ما كنتم تذكرونَ الرَّغبةَ فيه من العَوْدةِ إلىٰ دِيارِكم عند ٱنْفتاحِ البَحْر ، فهذا الأمانُ لكم إلىٰ أن تتوجَّهُوا مَشْمُولين بالرعاية، مَلْحُوظِين بالعناية، ولكم الوَفاءُ بجميع ذلك، واللهُ لكم به وَكِيلٌ وكَفِيلٌ، وكَفَىٰ به شهيدا .

المذهب الثانى — أن يُفتتح الأمانُ المكْتَتَب لأهْلِ الكُفْر بالتَّحْميد ، ثم يقال : « ولما كان كذا وكذا ٱقتضَى حُسْنُ الرَّأْىِ الشريف كذا وكذا » ثم يقال : « فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يكون كذا وكذا » علىٰ نحو ما يُكْتَب فى الولايات .

وعلى ذلك كُتِبَ عن السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» أمانٌ لفراكس صاحب السّرب، من ملوك النصارى بالشّمال وزوْجته ومن معهما من الأتباع، عند طَلَبِهم التّمكينَ من زيارة القُدْس الشريف، وإزالة الأعْراض عنهم، واسْتِصْحاب العناية بهم، إلى حين عَوْدِهم آمِنِينَ على أنفسهم وأموالهم، من إنشاء الشريف شهاب الدّين كاتب الإنشاء.

ونَصُّه بعد البسملة:

أمّا بعد حَمْد الله الذى أمَّنَ بمهابتنا المَناهِجَ والمَسالك، ومكّنَ لكلمتنا المُطاعَة فى الأقْطارِ والآفاقِ والمَمالك، وأعان على لِسانِنا (١) بدَعْوةِ الحَقّ التى تَنْفِى كلَّ كَرْبٍ حَاكٍ وتَكْفِى كلَّ كَرْبٍ حالك، والشّهادةِ له بالوَحْدانية التى تَنْفِى المُشابِهَ والمُشارِكَ، وتَفِى بالميعادِ من الإصْعادِ على الأرائك؛ والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ الذى أنجده ببُعُوث الملإ الأعلى من المَلائك، وأيّده بالصَّوْنِ المُلازِمِ والعَوْنِ المُتَدارِك، ووَعَده أنْ سَيَبْلُغ مُلْكُ أمّته ما بين المَشْرِق والمَغْرِب وأنْجَز له ذلك، وعلى آله وصحبه الذين زَحْزَحُوا عن المَهالك، ونَصَحُوا لله ورَسوله وأكْرِمْ بأولئك!!! — فإن كَرَمنا يَرْعى الوُفُود، وشِيَمنا تُدْعَى فتَجُود، وذِمَمَنا بها حِفْظ الحقوق وحِفْظ العُهود، فبِخِدَمنا يَنْجَحُ كلُّ مقصود، وبنِعمنا تُمْنَحُ الأمانِيُّ والمُنَى وهُما أعظمُ نعمتين فى الوجود؛ فليس آمِلٌ عن أبواب سَماحنا بمَرْدُود، ولا مُتَوَسِّلٌ إلينا بضراعة إلا ويرجع بالمَرام ويَعُود.

ولما كانت حَضْرة المَلك الجَليل، المُكَرَّم، المبجّل، العَزيز، المُوَقّر، "إستيفانوس فراكس": كَبير الطائفة النّصْرانية، جَمالِ الأمّة الصَّلِيبيّة، عِمادِ بَنِى المعمودية،

(١) لعله «وأعان لساننا على دعوة الخ».

صديقِ المُلُوكِ والسلاطين، صاحبِ السِّرْب - أطال الله بقاءه - قد شمله إقْبالُنَا المَعْهود، ووَصَلَه إفْضالُنا الذى يَحْجِزُ عن مَيامِنِه السُّوءَ ويُنْجِز الوُعُود - ٱقتضىٰ حُسْنُ الرَّأْيِ الشريف أن نُيَسِّرَ سَبيلَه، ونُوَفِّرَ له من الإكرام جَسِيمَه كما وَفَّرنا لغيره من الملوك مَسُولَه؛ وأن يُمكَّنَ من الحضور هو وزوجته ومن معهما من أتباعهما إلىٰ زِيَارَةِ القُدْس الشريف، وإزالة الأعْراضِ عنهم، وإكرامهم ورعايتهم، وٱسْتِصْحاب العناية بهم، إلىٰ أن يعودُوا إلىٰ بلادهم، آمنِينَ علىٰ أنفسهم وأموالهم، ويُعامَلُوا بالوَصِيَّة التامَّة، ويُواصَلُوا بالكرامة والرعاية إلىٰ أن يعُودوا فى كَنَفِ الأَمْنِ وحَرِيم السَّلامه؛ وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه أن يسمَعَ كلامه، ويَتْبَعَ إبْرامَه، ولا يَمْنَعَ عنهم الخَيْرَ فى سَيْرٍ ولا إقامه، ويدفَعَ عنهم الأَذَىٰ حيثُ وَرَدُوا أو صدَرُوا فلا يَحْذَرُوا إلْمَامَه؛ والله تعالىٰ يُوَفِّرُ لكلِّ مُسْتَعِينٍ من أبوابنا أقْساط الأَمْنِ وأقْسامَه، ويُظْفِرُ عَزْمَنا المحمديَّ بالنَّصْرِ السَّرْمدِيِّ حتَّى يُطَوِّق الطائعَ والعاصِيَ حُسامَه. والعلامةُ الشريفة أعلاه حُجَّةٌ فيه، والخيرُ يكونُ إن شاء الله تعالىٰ :

الفصـــل الثـانى

من البـاب الأوّل من المقالة التاســعة

(فى كتابة الأمانات لأهل الإسلام وما يُكْتب فيها، ومذاهِب الكُتَّاب فى ذلك فى القديم والحديث، وأصلِه؛ وفيه طرفان)

الطـــرف الأوّل

(فى أصْــلِه)

اِعلم أنَّ هذا النوعَ فَرعٌ ألْحقَه الكُتَّاب بالنوع السابق، وإلا فالمُسْلِم آمِنٌ بقضِيَّة الشَّرْع بمجرَّد إسلامِه، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يقُولوا لا إلٰهَ إلا اللهُ فإذا قالُوها عَصَمُوا منِّى دِماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها». وإنما جَرَت عادةُ الملوكِ بكتابة الأمانِ لكلِّ من خاف سَطْوتَهــم، لا سيَّما مَن خرج عن الطَّاعة، وخِيفَ ٱسْتِشْراءُ الفساد باستمرار خُرُوجِه عن الطاعة خَوْفًا؛ حتَّى صار ذلك هو أغْلبَ ما يُكْتبُ من دواوين الإنشاء.

وقد ورد فى السُّنَّة ما يدلُّ لذلك، وهو مارواه أبو عُبَيدٍ فى "كتاب الأموال" عن أبى العلاء بن عبد الله بن الشِّخِّير أنه قال: كنا بالمِرْبَد ومعنا مُطَرِّف، إذ أتانا أعرابىٌّ ومعه قِطْعةُ أَدِيم، فقال: أَفِيكُمْ مَن يقرأ؟ قُلنا: نعم، فأعطانا الأَدِيمَ فإذا فيه:

«بسم الله الرحمٰن الرحــيم»

«من محمدٍ رسُولِ اللهِ لبَنِى زُهَيْر بن أُقَيْش من عُكْلٍ. إنَّكم إن شَهِدْتُم»
«أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ، وأقَمْتُم الصلاةَ، وآتَيْتم الزَّكَاةَ، وفارَقْتُم المشركينَ،»

«وأعطيتم من الغنائم الخُمُس، وسَهْمَ النَّبيّ صلى الله عليه وسلم والصَّفِيّ»؛ «أو قال: وصَفِيَّه، فأنتم آمِنُون بأمان اللّهِ ورسُوله».

الطـــــرف الثـانى
(فيما يكتب فى الأمانات)

وللكُتَّاب فى ذلك مذهبان:

المذهب الأوّل — أن يفتتح الأمانُ بلفظ: «هــذا كِتَابُ أمانٍ» أو «هذا أمانٌ» ونحو ذلك، علىٰ ما تقدّم فى الفصل السابق.

قال فى "مَوادّ البيان": والرسمُ فيه: «هذا كتاب أمانٍ، كتبه فلانُ بن فلانٍ الفلانىّ أميرُ المؤمنــين أو وزيرُه، لفلان بن فلان الفلانىّ الذى كان من حاله كذا وكذا، فإنه قد أمَّنــه بأمَانِ الله تعالىٰ وأمانِ رسُولِه صلى الله عليــه وسلم وأمَانه». فإن كان عن الوزير قال: «وأمان أمير المؤمنين فلان بن فلان وأمانه، علىٰ نَفْســه وماله، وشَعْرِه، وبَشَرِه، وأهْــلِه، ووَلَدِه، وحُرَمِه، وأشياعِه، وأتْباعه، وأصحابِه، وحَالِه، وذاتِ يَده، وأملاكِه، ورِباعِه، وضِــياعِه، وجميعِ ما يخصُّه ويخصُّهم — أمانًا صحيحًا، نافذا واجِبًا لازِمًا، لا يُنْقَضُ ولا يُفْسَخُ ولا يبَدَّلُ، ولا يُتَعقَّب بمخاتلةٍ، ولا دِهَانٍ ولا مُوارَبة، ولا حِيــلَةٍ ولا غِيلَةٍ. وأعطاه علىٰ ذلك عَهْدَ الله وميثــاقَه وصَــفْقَةَ يَمِينه، بنيّةٍ خالصــةٍ له ولجميع من ذُكِر معه، وعَفَــا له عن كلِّ جَرِيرَةٍ متقدِّمَة، وخَطِيئةٍ سالفــة، إلىٰ يوم تاريخ هــذا الأمان، وأحَلَّه من ذلك كُلِّه، وٱســتقبله بسلامة النَّفْس ونَقَاءِ السريرة، وأوجب له من الرِّعاية ما أوجبه لأمثاله،

ممن شَمله ظِلُّه ، وكَنَفَته رِعايَتُه ، حاضرًا وغائبًا ، وملَّكه من آختياره قريبًا و بعيدًا ، وأن لا يُكْرِهَه علىٰ ما لا يريده ، ولا يُلزِمَه بما لا يختارُه» .

قلتُ : هـذا ما أصَّلَه صاحبُ "مواد البيان" : فى كتابة الأمانات . ومقتضاه آفتتاحُ جميع الأمانات المكْتَتَبة عن الخليفة أو الوزير أو غيرهما بلفظ « هذا » . وسيأتى أن الأماناتِ قد تُفْتَتَحُ بغير هـذا الآفتتاح : من الحمد وغيره ، علىٰ ما سيأتى بيانُه ، ولعل هذا كان مُصْطلَح زمانِه فوقَفَ عنده .

و بالجملة فالأماناتُ المكْتتبةُ لأهل الإسلام علىٰ نوعين :

النــــوع الأوّل

(ما يُكْتب عن الخلفاء ، وفيه مذهبان)

المذهب الأوّلُ — طريقة صاحب "مواد البيان" المتقدّمةُ الذِّكْر ، وهى أن يُفْتتحَ الأمانُ بلفظ « هـذا » وحينئذ فيقال : « هذا كتابُ أمانٍ كتَبه عبد الله فلان أبو فلانٍ أميرُ المؤمنين الفلانىُّ ، أعزَّ اللهُ تعالىٰ به الدِّينَ ، وأدام له التَّمْكين ، لفلان الفلانىّ ، فإنَّه قد أمَّنه بأمانِ الله تعالىٰ ، وأمانِ رسولِه صلى الله عليه وسلم وأمانِه ، علىٰ نَفْسه ، ومالِه ، وشَعْرِه ، و بَشَرِه ، وأهْلِه ، ووَلَده ، وحُرَمِه ، وأشْياعِه ، وأتباعه ، وأصحابه ، وحالِه ، وذاتِ يَدِه ، وأملاكه ، ورِباعِه ، وضِياعِه ، وجميع ما يخُصُّه ويخُصُّهم — أمانًا صحيحًا ، نافذًا واجبًا لازمًا ، لا يُنْقَضُ ولا يُفْسخُ ، ولا يُبدَّلُ ، ولا يُتعقَّبُ بمخاتَلة ، ولا دِهانٍ ولا مُوارَبة ، ولا حِيلةٍ ولا غِيلَة ؛ وأعطاه علىٰ ذلك عَهْدَ اللهِ وميثاقَه وصَفْقَة يَمينِه ، بنيَّةٍ خالصةٍ له ولجميع من ذُكر معه ، وعَفا له عن كلِّ جريرةٍ متقدّمةٍ ، وخَطِيئَةٍ سالفة ، إلىٰ يوم تاريخ هـذا الأمان ،

وأحلَّه من ذلك كلِّه ، وآستقبله بسلامة النَّفْس ونَقَاءِ السريرة ، وأوجب له من الرِّعايةِ ما أوجبه لأمثاله : ممَّن شَمِلَه ظلُّه ، وكَنَفَتْه رعايتُه ، حاضرا وغائبا ، وملَّكه من آختياره قريبًا وبعيدًا ، وأن لا يُكْرِهَه علىٰ مالا يريدُه ، ولا يُلْزِمَه بما لايختارُه» .

وغير ذلك ممـا يَقْتضيه الحالُ ويَدْعُو إليه المقام .

المذهب الثـانى — أن يفتتح الأمان بخُطْبةٍ مفتتحةٍ بالحَمْد . والرسم فيـه أن يُستفتَح الأمانُ بخُطْبةٍ يكَرَّرُ فيها الحمدُ مرتين أو ثلاثا فأكثر، بحسب مايقتضيه حالُ النِّعمة علىٰ من يصْدُر عنه الأمانُ فى الآستظهار علىٰ مَن يُؤَمِّنه . يحمدُ اللهَ فى المَرَّة الأُولىٰ علىٰ آلائه ، وفى الثانية علىٰ إعْزازِ دينِه ، وفى الثالثة علىٰ بِعْثَة نَبِيِّه ، وفى الرابعة علىٰ إقامةِ ذلك الخليفة من بَيْتِ النبوّة لإقامة الدِّين . ويأتى مع كلِّ واحدة منهـا بمـا يناسب ذلك ، ثم يذكُرُ الأمانَ فى الأخيرة .

*
* *

وهذه نُسخةُ أمانٍ من هذا النَّمَطِ ، كُتِب به عن بعض متقدّمى خُلَفاء بنى العبَّاس ببَغْـداد ، أوردها أبو الحُسَين أحمدُ بن سَعِيدٍ فى ''كتاب البلاغة'' الذى جمعه فى الترسُّـل :

الحمدُ للهِ المَرْجُوِّ فَضْـلُه ، المَخُوف عَدْلُه ، بارئِ النَّسَم ، ووَلِىِّ الإحسانِ والنِّعَم ، السابقِ فى الأُمُورِ عِلْمُه ، النَّافذِ فيها حُكْمُه ، بمـا أحاط به من مُلْك قُدْرتِه ، وأنفذ من عزائم مَشيئَتِه ؛ كلُّ ماسِواهُ مدَبَّرٌ مخلوق وهو أنشاه وآبْتَداه ، وقدّر غايتَه ومُنتهاه .

والحمدُ للهِ المُعِزِّ لدينـه ، الحافِظ من حُرماته ماتربَّصَ المتربِّصُون[(١)] عن حياطتـه ، المُـذْكِى من نُوره ما دأب الملحِدُون لإطْفـائه حتّى أعلاه وأظهره كما وعَد فى مُنْزَل

(١) فى اللسان « رجل رُبْضة ومتربِّض عاجز» ولعل ماهنا منه وهى فى الأصل بالصاد المهملة .

فُرقانه بقوله جَلَّ ثَنَاؤُه : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَه بالْهُدىٰ ودينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ولَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾ .

والحمدُ للهِ الذى بعث محمدًا رحْمَةً للعالمين ، وحُجَّةً علىٰ الجاحِدين ، نختم به النبيين والمرسلين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، وجعله الدَّاعىَ إلىٰ دينِ الحَقِّ ، والشَّهيدَ علىٰ جميع الخَلْق ، فأدَّىٰ إليهم ما آستُودِع من الأمانة ، وبلَّغهم ما حُمِّلَ من الرِّساله ؛ فلما أنقذَ اللهُ به من التَّوَرُّط فى الضَّلاله ، والتَّهوُّر فى العَمَىٰ والجَهَاله ؛ وأوضح به المَعَالِمَ والآثار ، ونَهَج به العَدْل والمَنَار ، آختار له ما لديه ، ونقله إلىٰ ما أَعدّ له فى دَارِ الخُلُود : من النَّعِيم الذى لا يَنْقَطِعُ ولا يَبِيد . ثم جعله فى لُحْمَتِه وأَهْله وراثة بما قلدهم من خلافته فى أُمَّتِه ، وقدّم لهم شَواهِدَ ما آختصَّهم به من الفضيله ، وزُلْفة الوَسيله ، فى كِتَابه النَّاطق ، علىٰ لسان نَبِيِّه الصادق ، صلى الله عليه وسلم ــ منها ما أخبر به من تَطْهِيره إيَّاهُم : ليجعلهم لِمَا آختاره مَعْدِنًا ومَحَلًّا ، إذ يقول جَلَّ وعَزَّ : ﴿إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ . ومنها ما أمر الله به رسولَه صلى الله عليه وسلم من مَسْألته أُمَّتَه المَوَدَّة ، فقد أوضح لذوى الألباب أنهم مَوْضِعُ خِيرَتِه ، بتطهيره إياهم ، وأَهْلُ صَفْوته ، بما آفترض من مَوَدَّتِهم ، وولاةُ الأمرِ الذين قَرن طاعتَهم بطاعته .

ولم يزلِ اللهُ بعظيم مَنِّه وإنْعامه يُدْعِم أَرْكانَ دِينِه ، ويُشَيِّدُ أعلامَ هُداه ، باعزاز السلطان الذى هو ظِلُّه فى أرْضه ، وقِوَامُ عَدْله وقِسْطه ، والحِجَازُ الذَّائدُ لهم عن التَّظالُمِ والتَّغاشُم ، والحِصْن الحَرِيزُ عند مَخُوف البَوائِق ومُلِمِّ النَّوائِب ؛ فليس يَكِيدُ وُلَاتَه المُسْتَقِلِّين بحَقِّ الله فيه كائد ، ولا يجحدُ ما يجبُ لهم من حقِّ الطاعة جاحد ، إلّا من آنطوى علىٰ غِشِّ الأُمَّه ، ومُحَاوَلَةِ التَّشْتِيت للكلمه .

والحمدُ لله علىٰ ما تولَّىٰ به أميرَ المؤمنين فى البَدْءِ والعاقبة : من الإِدْلاءِ بالحُجَّة ، والتَّأْيِيدِ بالغَلَبة ، عند نَشْوه من حيز وطأة الخفض (؟)، متَّبِعا لكتاب الله حيثُ سلك به حُكْمُه ، مُقْتفِيًا سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيثُ ٱنْسابَتْ أمامَه ، باذلًا لله نَفْسَه ، لا يصُدُّه وعيدُ مَنْ تكبَّر وعَتا ، ولا يُوحِشُه خِذْلانُ من أدْبر وتَولَّىٰ ، مُنْتظِرًا لمن نكثَ عَهْدَه وغدر ببَيْعتِه وٱلْتمس المَكْر به فى حَقِّه الآياتِ الموجبة فى قوله : ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ . ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ . مُكْتفِيًا بالله ممَّن خَذَله ، مُسْتعينًا به علىٰ من نصَب ، لا يَسْتفِزُّه ما أجْلبَ به الشيطانُ من خَيْلِه ورَجْلِه ، وهو فى أنصاره المعتصمين ، لا تستَهْويهم الشُّبَه فى بصائرهم ، ولا تَخُونُهم قَواعِدُ عزائمهم فى ساعة العُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَتْ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُم ، فكَتَّبَهُمْ أميرُ المؤمنين ، وأنْهدهُم لعَدُوِّه ، ينتظرون إحْدَى الحُسْنَيَيْنِ : من الفَلْجِ المُبين ، والفَوْزِ بالشَّهادة والسعادة ، فليس يُلْفِتُهم عن حقِّهم ما يَتَلَقَّوْنَ به من الترغيب والترهيب ، ولا يزدادون علىٰ عَظِيمِ التَّهاوِيل والأخطار إلا تَقَحُّمًا وإقداما ؛ مُتَمَثِّلِين لِسيَرِ إخوانهم قبلهم فيما ٱقتص الله عليهم من شأْنهم ، إذ يقول جلَّ وعَزَّ : ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ .

وكان بِدايَةَ جُنْد أميرِ المؤمنين فى حَرْبهم التَّقدُّمُ بالإِعْذارِ والإِنْذار ، والتَّخْويف بالله جلَّ وعزَّ وأيَّامه ، وماهُم مسئولونَ عنه فى مَقامه : من عُهودِه المؤكَّدة عليهم فى حَرَمِه ، وبين رُكْنِ كَعْبتِه ومقام خَليلِه ، المعلَّقَةِ فى بَيْته ، الشاهِدِ عليها وُفُودُه .

فكان أوّلَ ما بَصَّرهم اللهُ به حُجَّتُه التى لا يقطعُها قاطِع ، ولا يدفَعُها دافع ، ثم ما جعلهم الله عليه من التناصُر والتَّوازُر الذى فَتَّ فى أعْضادِهِمْ ، ورماهم به من

التَّخاذُل والتَّواكُل ؛ فكلَّما نَجَمتْ لهم قُرونٌ ٱجتثَّها اللهُ بجدّ أوليائه ، وكلَّما مَرَق منهم مَارِقٌ أسالَ اللهُ مُهْجَتَه ، وأورثهم أرْضَه ودِيارَه .

ومخلوعُهم المُبْتدئ بمـا عادتْ عليهـم نِقْمتُه ونَكَالُه قد أعْلَق بالرِّدَّة ، وصرَّحتْ شياطينُهُ بالغَدْرِ والنَّكْثِ ، يرى بذلك الذُّلَّ فى نَفْسه وحِزْبه ، وتَنْتقِصُ عليه الأرضُ من أطْرافِها وأقْطارِها ، ويُؤْتَىٰ بُنْيـانُه من قواعده ، ويَرُدُّ اللهُ جُيوشَهم مَفْـلولة ، وجُنودَهم مُخَلَّاةً عن مراكِزِها ، مَقْموعًا باطِلُهـا . وليس مع ما ناله من سُخْط الله جلَّ وعزَّ نازِعًا عن ٱنْتهاكِ مَحَارِمه ومآثِمِـه ، ولا مُحْدِثًا عن جَائحةٍ يُحِلُّها به إِحْجامًا عن التَّقحُّم فى ملاحمه الملبسـة له فى عاجل ما يُرْدِيه ويُوبِقُه ، وآجل ما يرصُـدُ الله به المُعانِدينَ عن سبيله ، النَّاكبين عن سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأميرُ المؤمنين ــ إذْ جمعَ اللهُ له مُتبايِنَ الأُلْفه ، وضمَّ له مُنْتشِرَ الفُرْقه ، علىٰ معْرفته بحَرْبه وحِزْبِه ، وعَدُوِّه ووَلِيِّه ، ومن سَعىٰ له أو عليه ، أو أطاع اللهَ أو عصاه فيه : من وَافٍ ببَيْعـة ، أو خَاترٍ بإلٍّ وذِمَّة [جَديرٌ] أن يعُمَّ بجميـل نَظَره كافَّةَ رعيَّتِـه ، ويتعطَّفَ عليهم بحُسْن عائِدتِه ، ويشْمَلَهم بمبْسُوطِ عَدْله وكريم عَفْوِه ، وتَقْديم أهل الأفكار المحموده ، فى المواطن المَشْهوده ، بمـا لم تَزَلْ أنفُسُهم تَشْرَئِبُّ إليه ، وأعْيُنُهم تَرْنُو نَحْوه ، لتُحْمدَ عنهم عاقِبةُ الطاعة ، ويُعَجَّلَ لهم الوَفاءُ بمـا وَعَدهم من الجزاء ، إلىٰ ما ذخره لهـم من حُسْنِ المَثُوبَة ومَزِيد الشُّكْران . وأمر لفلان بكذا ، ولمن قِبَله من أهل الغَنـاء بكذا ، وأمَّن الأسْودَ والأحْمَرَ ، ما خلا المُلْحدَ ٱبن الربيع ، فإنَّه سعىٰ فى بلادِ الله وعبادِه سَعْيَ المفسدين ، وٱلْتمس نَقْض وَثائِقِ الدِّين .

فجميعُ من حلَّ مدينةَ السـلام آمِنونَ بأمان الله ، غير مُتْبَعِين بتِرَةٍ ، ولا مَطْلوبين بإِحْنَة ، فلا تَدْخُلَنَّ أحدًا وَحْشةٌ منهم لضَغِينةٍ يظُنُّ بأميرالمؤمنين الآنطواءَ عليها ، ولا

يحملنّه ماعفا له عنه من ذَنْبه علىٰ [خلاف] ما هو مستوجب من ثواب طاعته أو نكال مَعْصِيَته، فإنّ اللهَ جلّ وعزّ يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فاحمَدُوا الله علىٰ ما ألهم خليفَتَكم، من إثابَةِ أهـلِ السوابق منكم بأَوْفَىٰ سَعْيِهم، والتطوُّل علىٰ عامَّة جُنْـده بمـا شَمِلهم برِفْقه وحسنت عليهم عائدته، وما تعطَّف به علىٰ أهل التفريط: من إقالة هَفَواتهم وعَثَراتهم، حتىٰ صرتم بنعمة الله إخوانا مُتَرافدين، قد أذهب الله أضْغانَكم ونزع حَسائكَ صُدُوركم، وردَّ أُلْفَتَكم إلىٰ أحْسَنِ ما يكون، وصِرْتُم بين مُتَقدِّمٍ بغَناء، ومُقْمَع بإحْسان. فحافِظُوا علىٰ ما يُرْتَبَطُ به رَاهنُ النِّعمة، ويُسْتَدْعَىٰ به حُسْنُ المَزيد، إن شاء الله تعالىٰ.

النـــوع الثـاني

(من الأمانات التي تُكْتب لأهل الإسلام، ما يُكْتب به عن الملوك، وهو علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(ما كان يُكْتب من هذا النَّمَط في الزمن السابق، ممـا كان يصْدُر عن وزراء الخلفاء والملوك المتغلِّبين على الأمر معهم، ولهم فيه أسلوبان)

الأســلوب الأوّل

(أن يُصَـدَّر بالتمـاس المُسْتأْمِن الأمان)

وهذه نُسْخة أَمَانٍ من هذا الأُسْلوب، كتب بها أبو [إسحق بن] هلال الصابي، عن صَمْصام الدَّوْلة، بن عَضُـد الدَّوْلة، بن رُكْن الدَّوْلة، بن بُوَيْهِ الدَّيْلَميّ لبَعْض من كان مُتَخَوِّفًا منه، وهو:

هذا كِتَابٌ من صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلَّة أبى كَالِيجَار ، بن عَضُدِ الدَّوْلة وتَاجِ المِلَّة أبى شُجَاع ، بن رُكْنِ الدَّوْلة أبى عَلِىٍّ مَوْلَىٰ أمير المؤمنين ـ لِفُلان بن فُلان .

إنَّك ذكَرْتَ رَغْبتكَ فى الانْحِيازِ إلىٰ جُمْلتِنا ، والمَصِير إلىٰ حَضْرتِنا ، والسُّكُونِ إلىٰ ظِلِّنا ، والسُّكْنَىٰ فى كَنَفِنا ؛ والْتَمسْتَ التَّوْثِقَةَ منَّا بما تَطِيبُ به نَفْسُك ، ويَطْمئنُّ إليه قَلْبُك ؛ فتقَبَّلْنا ذلك منك ، وأوْجَبْنا به الحقَّ والذِّمامَ لك ، وأمَّنَّاك بأمَانِ الله جلَّ ثناؤُه ، وأمانِ رَسُولِه صلى الله عليه وسلم ، [وأمانِ](١) أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وأمانِنا ـ علىٰ نَفْسِك ، وجَوَارِحِك ، وشَعْرِك ، وبَشَرِك ، وأهْلِك ، ووَلَدِك ، ومالِك ، وذَاتِ يَدِك : أمانًا صحيحًا ماضِيًا نافِذًا ، واجبا لازما ؛ ولك علَيْنا بالوفاءِ به إذا صِرْتَ إلينا عهدُ الله وميثاقُه ، من غير نَقْضٍ له ولا فَسْخٍ لشَىْءٍ منه ، ولا تأوُّلٍ عليك فيه علىٰ [كلِّ](١) وَجْهٍ وسَبَب .

ثم إنّا نَتَناوَلُكَ إذا حَضَرتَ بالإحسانِ والإجمال ، والاصْطِناع والإفْضال ، مُوفِينَ بك علىٰ أمَلِك ، ومُتَجاوِزِين حَدَّ ظَنِّك وتَقْدِيرِك . فَاسْكُنْ إلىٰ ذلك وثِقْ به ، وتَيَقَّنْ أنك محمولٌ عليه ، ومُفْضٍ إليه . ومَنْ وقف علىٰ كتابنا هذا : من عُمَّال الخَرَاج والمَعاوِن وسائرِ طَبَقات الأولياء والمُتَصَرِّفِينَ فى أعمالنا ، فلْيعمَلْ بما فيه ، وليَحْذَرْ من تَجاوُزِه أو تَعَدِّيه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

⁂

وعلىٰ نَحْوٍ من ذلك كتب أبو إسحٰق الصابى ، عن صَمْصام الدَّوْلة المقدَّمِ ذِكْرُه ، الأمانَ لجماعةٍ من عَرَبِ المنتفق ، بواسطة محمد بن المسَيَّب ، وهو :

---

(١) الزيادة من رسائل الصابى الخطية .

هذا كتاب مَنْشُور من صَمْصام الدَّوْلة، وشَمْس المِلَّة، أبى كَالِيجَار، بن عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلَّة أبى شجاع، بن رُكْن الدَّوْلة أبى عَلِيٍّ، مَوْلَىٰ أمير المؤمنين لجماعةٍ من العَرَب من المنتفق، الرَّاغبين فى الطاعة والداخلين فيها مع أولياء الدَّوْلة .

إن محمدَ بن المسيَّب سألَ فى أَمْرِكم، وذكر رَغْبَتكم فى الخِدْمَه، والآنحيازِ إلىٰ الجُمْله ، والْتَمَسَ أمانَكُم علىٰ نُفُوسكم وأموالكم، وأَهْلِكُم وعَشِيرتِكم ؛ علىٰ أن تَلْزَمُوا الآستقامه، وتَسْلُكوا سَبِيل السَّلامه ؛ ولا تُخِيفُوا سبيلا ، ولا تَسْعَوْا فى الأرض فَسادًا ، ولا تُخالِفوا للسلطان ووُلَاةِ أعْمَاله أمْرا، ولا تُؤْوُا له عَدُوًّا، ولا تُعادُوا له وَلِيًّا ، ولا تُجِيرُوا أحدًا خرج عن طاعته ، ولا تَذُمُّوا لأَحَدٍ طلبه ، ولا تَخُونُوه فى سِرٍّ ولا جَهْرٍ، ولا قَوْلٍ ولا عَمَلٍ . فرأينا قَبُولَ ذلك منكم ، وإجابةَ محمدٍ إلىٰ مارَغِب فيه عنكم، وتَضَمَّنَتْه العُهْدَةُ فيما عُقِد من هذا الأمان لكم علىٰ شرائطه المأخوذة عليكم : فى الكَفِّ عن الرَّعِيَّة والسَّابِلة، وأهْلِ السَّوادِ والحاضِرة ؛ وتَرْكِ التَّعرّض للمال والدَّم، أو الآنتهاكِ لذِمَّةٍ أو مَحْرَم، أو الآرتكابِ لمُنْكَرٍ أو مَأْثَم .

فكونوا علىٰ هذه الحُدُودِ قائمين، وللصِّحَّة والآستقامة مُعْتَقِدين ، ولأَحْداثكم ضابِطِين، وعلىٰ أيدى سُفَهائِكم آخِذين؛ وأنتُم مع ذلك آمِنُون بأمانِ الله جلَّ جلالُه ، وأمانِ رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمانِ مولانا أمير المؤمنين، وأمانِنا : علىٰ نُفُوسكم وأمْوالِكم وأحْوالِكم ، وكلِّ داخِلٍ فى هذا الأمانِ وشرائِطِه معكم : من أَهْلِكم وعَشِيرَتِكم وأتْباعِكم ، ومَن ضَمَّتْه حَوْزَتُكم .

ومن قرأ هذا الكِتَاب من عُمَّال الخَرَاج والمَعاوِن، والمتَصَرِّفين فى الحَمَّارة والسَّيارة وغيرهم من جميع الأسباب ، فلْيعمَلْ بمتضَمَّنه، وليَحْمِلْ جماعةَ هؤلاء القَوْم علىٰ مُوجَبِه، إن شاء الله تعالىٰ .

الأســـلوب الثـانى
(أن لا يتعرض فى الأمان لالتماس المُسْتأمِنِ الأمانَ)

وهذه نُسْخةُ أمانٍ علىٰ هذا الأُسْـلوب، أورده أبو الحسـين بن الصابى فى كتابه "غرر البلاغة" ونصه بعد البَسْملة :

هذا كتاب من فلان مَوْلَىٰ أمير المؤمنين لفلان .

إننا أمَّنَّاكَ علىٰ نَفْسِك ومَالِك ووَلَدِك وحُرَمِك، وسائر ما تَحْويه يَدُك، ويشتمل عليـه مِلْكُك، بأمانِ الله جَلَّتْ أسمـاؤُه، وعَظُمتْ كِبْرياؤُه، وأمانِ محمدٍ رسولِه صلى الله عليه وسلم، وأمانِنَا ـ أمانًا صحيحًا غير مَعْلُول، وسَلِيما غيرَ مَدْخُول، وصادقًا غير مَكْذوب، وخالصًا غير مَشُوب، لا يتَداخَلُه تَأْوِيل، ولا يتَعقَّبهُ تبْديل، قد كَفَلَه القَلْبُ المحفوظ، وقام به العَهْـدُ الملْحُوظ ـ علىٰ أن تَشْمَلَك الصِّـيانةُ فلا يلحَقُك ٱعتراضُ مُعْتَرِض، وتَكْنُفَك الحِراسَةُ فلا يَطْرُقُك ٱغتِماضُ مُغْتَمِض، وتُعِزَّك النُّصْرةُ فلا ينَالُك كَفُّ مُتَخَطِّف، ولا تمتدُّ إليـك يَدُ متَطَرِّف، بل تكونُ فى ظلِّ السلامة راتِعًا، وفى مُحاماة الأمانة وَادِعًا، وبعَيْنِ المراعاة مَلْحوظا، ومن كلِّ تَعقُّبٍ وتَتبُّعٍ محفوظا، لك بذلك عَهْدُ الله الذى لا يُخْفَر، ومَواثِيقُه التى لا تُنْكَث، وذِمامُه الذى لا يُرْفَض، وعَهْدُه الذى لا يُنْقَض :

المـــذهب الثـانى
(مما يُكْتب به فى الأمانات لأهل الإسلام ـ أن يُفْتتح الأمانُ بلفظ : «رُسِم» كما تُفْتَتحُ صِغارُ التواقيع والمراسيم، وهى طريقة غريبة)

وهـذه نُسْخةُ أمانٍ علىٰ هـذا النَّمَط، أوردها محمدُ بن المكَرَّم أحدُ كُتَّاب ديوانِ الإنشاء فى الدَّوْلة المنصورية «قلاوون» فى تذْكِرَتِه التى سمـاها : "تَذْكِرَةَ اللَّبيب"

كتب بها عن المنصور قلاوون المقدّم ذِكْرُه ، للتُّجّار الذين يصلون إلىٰ مصرَ من الصِّينِ والهِنْد والسِّنْد واليَمَنِ والعِراقِ وبلاد الرُّوم، من إنشاء المولىٰ فَتْح الدِّين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية ، وهى :

رُسِم ـ أعلَى اللهُ الأمرَ العالِيَ ـ لا زال عَدْلُه يُحِلُّ الرعايا من الأَمْنِ فى حِصْنٍ حَصِين، ويَستخْلِصُ الدعاءَ لدَوْلَتِه الزاهرةِ [من] أهْلِ المَشَارق والمَغَارب فلا أحَدٌ إلا وهو من المخلصين ، ويُهَيِّئُ برحابها لُلْمُعْتَفِينَ جَنَّةَ عَدْنٍ من أىِّ أبوابها شاء الناسُ دُخولًا : من العِراق من العَجَم من الرُّوم من الحجاز من الهِنْد من الصِّين ـ أنَّه مَن أراد من الصُّدور الأجِلّاء الأكابر التُّجّارِ وأربابِ التَّكَسُّب، وأهل التَّسَبُّب ، من أهل هذه الأقاليم التى عُدِّدَتْ والتى لم تُعَدَّد ، ومن يُؤْثِر الوُرُودَ إلىٰ ممالكنا إن أقام أو تَرَدَّد ـ النُّقْلَةَ إلىٰ بلادنا الفَسِيحةِ أرْجاؤُها ، الظَّلِيلَةِ أفياؤُها وأفناؤُها ، فلْيعزِمْ عَزْمَ من قَدَّر اللهُ له فى ذلك الخَيْرَ والخِيرَه ، ويَحْضُرْ إلىٰ بلادٍ لا يحتاج ساكِنُها إلىٰ مِيرَةٍ ولا إلىٰ ذَخِيره : لأنها فى الدنيا جَنَّةُ عَدْنٍ لمن قَطَن، ومَسْلاةٌ لمن تغرّب عن الوَطَن، ونُزْهَةٌ لا يَمَلُّها بَصَر، ولا تُهْجَرُ للإفْراط فى الخَصَر[(١)]، والمُقِيم بها فى ربيع دائم، وخَيْرٍ مُلازِم، ويَكْفِيها أن من بَعْض أوصافها أنّها شامَةُ اللهِ فى أرْضه ، وأن بَرَكَةَ اللهِ حاصلةٌ فى رَحْلِ من جعل الإحسانَ فيها من قِراضه والحَسَنَةَ من قَرْضه ؛ ومنها ما إذا أُهْبِط إليها آمِلٌ كان له ما سَأَل ، إذ أصبحَتْ دارَ إسلامٍ بجُنُودٍ تَسْبِقُ سُيوفُهم العَذَل، وقد عَمَّر العدْلُ أوْطانَها ، وكَثَّر سُكَّانَها، واتَّسعتْ أبْنِيَتُها إلىٰ أن صارتْ ذاتَ المَدَائن، وأيْسَر المُعْسِرُ فيها فلا يَخْشَىٰ سَوْرة المُدَاين ، إذ المَطَالِبُ بها

(١) الخصر بالتحريك البرد .

غير مُتَعَسِّره ، والنَّظِرةُ فيها إلىٰ مَيْسَره؛ وسائرُ الناسِ وجميعُ التّجَار، لا يَخْشَوْن فيها من يَجُور فان العَدْل قد أجار .

فمن وقَفَ علىٰ مَرْسومنا هذا من التّجَار المقيمين باليَمَنِ والهِنْد، والصِّين والسِّنْد، وغيرهم، فليأخُذ الأُهْبَةَ فى الارْتحال إليها، والقُدوم عليها؛ ليجد الفَعَالَ من المَقَالِ أكْبَر، ويَرىٰ إحساناً يقابَلُ فى الوفاء بهذه العهود بالأكْثَر، ويَحُلَّ منها فى بَلْدةٍ طَيِّبةٍ ورَبٍّ غَفُور، وفى نعمةٍ جزاؤُها الشُّكْر وهل يُجازَىٰ إلا الشَّكُور؛ وفى سلامةٍ فى النَّفْس والمال، وسعادةٍ تُجَلّى الأحوالَ وتُمَوِّلُ الآمال؛ ولهم منا كلُّ مايُؤْثِرونَه : من مَعْدَلةٍ تُجيبُ دَاعِيَها ، وتحمَدُ عِيشَتُهم دَواعِيَها، وتُبْقِى أموالَهم علىٰ مُخَلَّفِيهم ، وتستخْلِصُهم لأن يكونوا متفَيِّئين فى ظلالها وتَصْطفيهم ؛ ومن أحضر معه بضائع من بهارٍ وأصنافٍ تُحضِرُها تُجَّار الكارم فلا يُخَاف عليه فى حَقّ ، ولا يُكَلَّفُ أمْرًا يَشُقّ، فقد أبْقىٰ لهم العَدْلُ ما شَاقَ ورفع عنهم ما شَقّ؛ ومن أحضر معه منهم مماليكَ وجَوارِىَ فله فى قِيمَتِهم مايَزِيدُ علىٰ ما يُريد، والمُسامَحةُ بما يَتَعَوَّضُه بثَمَنِهم على المعتاد فى أمر من يَجْلِبُهم من البَلَدِ القريبِ فكيف من البَعيد : لأَن رَغْبَتَنا مَصْروفةٌ إلىٰ تكثير الجنود، ومَن جلَب هؤُلاء فقد أوجب حقًّا علىٰ الجود ؛ فلْيسْتَكْثِرْ من يَقْدِرُ علىٰ جَلْبهم ، ويَعلَمْ أن تكثير جُيُوش الإسلامِ هو الحاثُّ علىٰ طَلَبِهم : لأنَّ الإسلامَ بهم اليوم فى عِزٍّ لواؤُه المَنْشور ، وسُلْطانُه المَنْصور ، ومن أُحْضِر منهم فقد أُخرِجَ من الظلمات إلىٰ النُّور، وذَمَّ بالكُفْر أمْسَه وحَمِد بالإيمان يَوْمَه، وقاتَلَ عن الإسلام عَشِيرَته وقَوْمَه .

هذا مَرْسومُنا إلىٰ كلّ واقِفٍ عليه من تُجَّارٍ شأْنُهم الضَّربُ فى الأرض : ﴿ يَبْتَغُونَ من فَضْلِ الله وآخَرُونَ يُقاتِلُونَ فى سَبِيلِ الله ﴾ . ليقرأوا منه ما تَيَسَّر لهم

من حُكْمِه، ويهتدون بنَجْمِه، ويَغْتَذُون بعِلْمِه، ويَمْتَطُون كاهِلَ الأَمَلِ الذى يَحْمِلُهم علىٰ الهِجْرَه، ويَبْسُطون أيْدِيَهم بالدُّعاءِ لمن يَسْـتَدْنِى إلىٰ بلاده الخلائقَ ليفُوزُوا من إحسانه بكُلِّ نَضَارةٍ وبكُلِّ نَظْرة، ويَغْتَنِمُون أوقات الرِّبْح فإنَّها قد أَدْنَتْ قِطافَها، وبعَثَتْ بهذه الوُعود الصادِقَة اليهـم تُحَقِّقُ لهم حُسْنَ التَّأْمِيـل، وتُثْبِتُ عندهم أن الخطَّ الشريفَ حاكِمٌ بأمر الله علىٰ ما قالته الأقلامُ ونِعْم الوَكِيل .

قلتُ : هذا المكتوبُ وإن لم يكنْ صَرِيحَ أَمَانٍ فإنه فى مَعْنى الأمان، كما أشار إليه ٱبنَ المُكَرَّم . وفيه غرابتان : إحداهما ـ الآفتتاح «برُسِم»، والثانية ـ الكتابةُ به إلىٰ الآفاق البعيدة والأقطار النائية، إشارةً إلىٰ ٱمتداد لسان قَلَم هذه المملكة إليهم .

الضـــــــرب الثـانى

(من الأمانات التى تُكْتب لأهْلِ الإسلام ماعليه مصطلحُ زماننا، وهى صنفان)

الصـــــنف الأوّل

(ما يُكْتب من الأبواب الســـلطانية)

والنظر فيــه من جهة قَطْعِ الوَرَق، ومن جهة الطُّرّة، ومن جهة ما يُكْتب فى المَتْنِ .

فأما قَطْع الورق فقد قال فى "التثقيف": إنّ الأمانَ لا يُكْتب إلا فى قَطْع العادة.

قلتُ : والذى يتَّجِـهُ أن تكونَ كتابةُ أمانِ كلِّ أحدٍ فى نَظِير قَطْع وَرَق المكاتبة إليه . فإن كان ممن تُكْتب المكاتبة إليه فى قَطْع العادة، كُتِب له فى قَطْع العادة . وإن كان فى قَطْعٍ فَوْقَ ذلك، كتب فيه .

وأما الطُّرَّة فقد قال فى "التثقيف" : إنه يُكْتب فى أعْلَى الدَّرْج فى الوَسَط الاْسمُ الشَّريفُ ، كما فى المكاتبات وغيرها ، ثم يكتب من أوّل عَرْض الوَرَق إلىٰ آخره كما فى سائر الطُّرَرِ ما صُورتُه :

« أمانٌ شَريفٌ لفلان بن فلان الفُـلانىّ بأن يَحْضُر إلىٰ الأبواب الشريفـة ، أو إلىٰ بَلَدِه أو مكانه ، أو نحو ذلك آمنًـا علىٰ نَفْسه وأهْلِه ومَالِه ، لا يُصيبُه سُوءٌ ، ولا ينالُه ضَيْمٌ ، ولا يَمَسُّه أذًى ، علىٰ ما شُرِح فيه » .

قلتُ : والعلامةُ فى الأمان الاْسم ؛ والبياضُ بعـد الطُّرَّة علىٰ ما فى المكاتبـات إما وَصْلانِ أو ثلاثةٌ ، بحسب ما تقتضيه رُتْبةُ صاحبِ الأمان ، وبحسب ما يقتضيه الحال : من مُداراة مَن يُكْتب له الأمان : لخَوْفِ اسْتِشْراءِ شَرِّه وما يُخالِفُ ذلك .

وأما مَتْن الأمانِ : فإنَّه تُكْتَبُ البَسْملة فى أوّلِ الوَصْل الثالثِ أو الرابعِ ، بهامِش من الجـانب الأيْمنِ كما فى المكاتبات ، ثم يُكْتب سَـطْرٌ من الأمانِ تحتَ البَسْملة علىٰ سَمْتها ، ويخلَّى موضِعُ العلامة بياضًا كما فى المكاتبات ، ثم يكتب السَّطْر الثـانى وما يليه علىٰ نَسَق المكاتبات .

قال فى "التعريف" : ويجمعُ المقاصدَ فى ذلك أن يُكْتَب بعد البَسْملة : «هذا أمانُ اللهِ تعالىٰ وأمانُ نَبِيِّه محمدٍ [نَبِيِّ الرَّحمة](١) صلَّى الله عليـه وسلم وأمانُنا الشَّريفُ ، لفلانِ بن فلانٍ الفُلانىِّ [ويذكُر أشْهرَ أسمـائه وتعريفَه](١) ، علىٰ نَفْسِه وأهْلِه ومَالِه ، وجميع أصحابِه وأتْبـاعِه وكلِّ ما يتعلق به : من قليلٍ وكثيرٍ ، وجَليلٍ وحَقيرٍ ــ أماناً لا يَبْقَىٰ معه خَوْفٌ ولا جَزَعٌ فى أوّل أمْرِه ولا آخره ، ولا عاجِله ولا آجِله ، يخصُّ ويعُمُّ ، وتُصانُ به النَّفْسُ والأهْـلُ والوَلَد والمَـالُ وكلُّ ذاتِ اليَـد . فليحْضُرْ هو

(١) من "التعريف" ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

وبَنُوه، وأهْلُه وذَوُوه وأقْرِبُوه ، وغِلْمانُه وكُلُّ حاشِيتِه ، وجميعُ ما يَمْلِكُه من دَانِيَته وقاصِيَتِه ؛ ولْيصِلْ بهم إلينا ، ويَفِدْ علىٰ حَضْرتِنا فى ذِمام الله وكلاءته وضَمَانة هـذا الأمانِ، له ذِمَّةُ اللهِ وذمةُ رسولِه صلى الله عليه وسلم أن لا ينالَه مَكْرُوهٌ منَّا ، ولا من أحدٍ من قِبَلِنا ، ولا يُتعرَّضَ إليه بسُوءٍ ولا أذًى ، ولا يُرَنَّقَ له مَوْرِدٌ بقَذًى ؛ وله منَّا الاحسانُ ، والصَّفاءُ بالقَلْب واللِّسان ؛ والرعايةُ التى تُؤَمِّن سِرْبه [وتُهَنِّئُ شِرْبَه](1) ويَطْمَئِنُّ [بها](1) خاطِرُه ، وتُرفرفُ عليه كالسَّحاب لا ينالُه إلا مَاطِرُه .

فلْيحضُرْ واثِقًا بالله تعالىٰ وبهذا الأمانِ الشريف ، وقد تلفَّظْنا له به ليزْدادَ وُثُوقا ، ولا يجدَ بعده سُوءُ الظَّنِّ إلىٰ قَلْبه طَرِيقا . وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه إكرامُه فى حال حُضُوره ، وإجراؤُه علىٰ أحسنِ ما عُهِدَ من أُموره ؛ ولْيكُنْ له ولكلِّ من يَحْضُرُ معه أوفَرُ نَصيبٍ من الاكرام ، وتَبْليغُ قُصَارَى القَصْدِ ونهاية المَرَام ؛ والاعتمادُ علىٰ الخطِّ الشريف أعلاه » .

وذُكِر فى "التثقيف" : بصِيغَةٍ أخرىٰ أَخْصَرَ من هذه ، وهى :

«هذا أمانُ اللهِ عَزَّ وجلَّ ، وأمانُ رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأمانُنا الشريفُ لفلانِ بن فلانٍ الفلانىِّ ، بأن يحضُرَ إلى الأبواب الشريفةِ آمنًا علىٰ نَفْسه وأهْلِه ومالِه ، لا يُصيبُه سُوءٌ ، ولا ينالُه ضَيْمٌ ، ولا يَمَسُّه أذًى . فلْيثِقْ بالله وبهذا الأمانِ الشريف ويحضُرْ إلى الأبواب الشريفة ، آمنًا مُطْمئنًّا ، لا يُصيبُه سُوءٌ ، ولا ينالُه أذًى فى نَفْسٍ ولا مالٍ ولا أَهْلٍ ولا وَلَدٍ . والاعتماد علىٰ الخطِّ الشريف أعلاه ، واللهُ الموفِّق بمنه وكرمه» .

وزاد فقال : ثم التاريخُ والمستندُ والحَسْبَلَةُ . ولا يُكْتَب فيه : «إن شاء الله تعالىٰ» لأنها تقتضى الاستثناء فيما وقع من الأمانِ المذكور .

(١) من "التعريف" ص ١٦٥ .

ثم قال : هذا هو الأمرُ المستقرُّ من ٱبتـداء الحال وإلىٰ آخر وقْتٍ ، لم يُكْتبْ خلافُ ذلك . غيرَ أنَّ القاضِيَ شهابَ الدِّين ذكر النُّسخةَ المذكورةَ بزيادات حَسَنةٍ لا بَأْسَ بها، لكنَّنِي لم أرَ أنه كُتِب بها فى وَقْتٍ من الأوقات . ثم قال : وهى فى غايةِ الحُسْنِ ، وكان الأولىٰ أن لا يُكْتَب إلَّا هِى .

قلتُ : وقد رأيتُ عِدَّةَ نُسَخِ أماناتٍ فيها زياداتٌ ونقْصٌ عمَّا ذكره فى "التعريف" و"التثقيف" . والتحقيق ما ذكره صاحب "موادِّ البيان" : وهو أن مقاصدَ الأمان تختلفُ بٱختلاف الأحوال، والذى يُضْبطُ إنَّما هو صورةُ الأمانِ، أما المقاصدُ فإن الكاتِبَ يُدخِلُ فى كلِّ أمانٍ ما يليق به ممـا يناسبُ الحال .

وهذه نُسخةُ أمانٍ، كُتِب بها لأسَدِ الدِّين رُمَيثَةَ أميرِ مكَّة، فى سنة إحْدىٰ وثلاثين وسبعمائة، من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارى، وهى :

هذا أَمانُ اللهِ سبحانه وتعالىٰ، وأمانُ رَسُولِه سـيدنا محمدٍ صلى الله عليـه وسلم، وأمانُنا الشريفُ، للمجلس العـالى الأَسَدِىّ رُمَيثَةَ ٱبن الشريفِ نَجْمِ الدِّينِ محمد بن أبى نُمَىٍّ : بأَن يحضُر إلىٰ خِدْمة السَّنْجق الشريفِ المجَهَّزِ صُحْبةَ الجناب السَّيْفِىّ ايتمش الناصرىّ، آمِنًا علىٰ نَفْسه ومالِه وأَهْلِه ووَلَدِه وما يتعلَّقُ به ، لا يخْشَىٰ حُلُولَ سَطْوةٍ قاصِمَه ، ولا يخافُ مُؤَاخذةً حاسِمَه ، ولا يَتوقَّعُ خَديعـةً ولا مَكْرا ، ولا يَجِدُ سوءًا ولا ضُرّا ، ولا يستَشْعِرُ مَهابةً ولا وجَلا ، ولا يَرهَبُ بأسًـا وكيف يرهَبُ مَن أحسن عملا ؟، بل يحضُر إلىٰ خِدْمة السَّنجق آمِنًا علىٰ نَفْسـه ومالِه وآلِه ، مُطمئنًّا وَاثِقـًا بالله وبرسولِه وبهـذا الأمانِ الشريفِ المؤكَّد الأسـباب، المبيِّض للوجُوهِ الكريمة الأحساب، وكلُّ مايخطُر بباله أنَّا نؤاخِذُه به فهو مَغْفور، ولله عاقبةُ الأمور،

وله منّا الإقبالُ والتأميرُ والتقديم ، وقد صَفَحْنا الصَّفْحَ الجميلَ : ﴿ إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ ﴾ .

فلْيَثِقْ بهذا الأمانِ الشَّريف ولا تَذْهَبْ به الظُّنون ، ولا يَصْغَ إلى الذين لا يعلمون ، ولا يَسْتَشِرْ في هذا الأمرِ غيرَ نَفْسِه ، ولا يظنَّ إلَّا خيرًا فيَوْمُه عندنا ناسِخٌ لأَمْسِه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [فيما يرويه عن ربه] : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي فَلْيَظُنَّ بِي خَيْرًا » .

فتَمَسَّكْ بعُرْوةِ هذا الأمانِ فإنها وُثْقَىٰ ، واعْمَلْ عَمَلَ من لا يَضلُّ ولا يَشْقَىٰ ، ونحنُ قد أمَّنَّاكَ فلا تَخَفْ ، ورَعَينا لك الطاعةَ والشَّرَف ، عفَا اللهُ عما سَلَف ، ومن أمَّنَّاه فقد فاز ، فطِبْ نفْسًا وقَرَّ عيْنًا فأنتَ أميرُ الحجاز .

قلتُ : هذا الأمانُ إنشاء مبتكَرٌ مطابِقٌ للواقع ، وهكذا يجبُ أن يكونَ كلُّ أمانٍ يُكْتب .

* * *

وهذه نُسْخةُ أمانٍ كُتِب بها عن السلطان الملك الظاهر « برقوق » عند مُحاصَرتِه لدِمَشْقَ بعد خروجه من الكَرَك بعد خَلْعه من السَّلطنة : أمَّنَ فيها أهْلَ دِمَشْقَ خلا الشيخَ شِهابَ الدِّين بن القُرَشيِّ وجردمر الطاربي ، كُتِبَ في لَيْلةٍ يُسفِرُ صباحُها عن يوم الأربعاء السادس والعشرين من شَهْر ذي الحجة الحرام ، سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، وهي :

هذا أمانُ اللهِ سبحانه وتعالىٰ ، وأمانُ نَبِيِّه سيدِنا محمدٍ نَبِيِّ الرَّحْمه ، وشَفيعِ الأُمَّه ، وكاشِفِ الغُمّه ، صلى الله عليه وسلم ، وأمانُنَا لكلِّ واقِفٍ عليه من أهل مدينة دِمَشْقَ المحروسة : من القُضَاة ، والمفْتِينَ ، والفُقَهاء ، وطالبي العِلْم الشَّريف ، والفُقَراء والمساكينِ ، والأُمَراءِ ، والأجْنادِ ، والتُّجَّارِ ، والمتَسَبِّبينَ ، والشُّيوخ ، والكُهول

والشُّبَّان ، والكِبَار والصِّغار ، والذُّكور والإناث ، والخـاصّ والعامّ من المسلمين و[أهلِ] الذمة ، إلا جرذمر الطاربى ، وأحمد بن القُرَشِىّ ـ علىٰ أنْفسِهم ، وأموالِهم ، وأوْلادِهم ، وأهْلِهم ، وحُرَمِهم ، وأصحابِهـم ، وأتباعِهم ، وغِلمـانِهم ، وقَبائلهم ، وعشائرِهم ، ودَوَابِّهم ، وما يملكونه من ناطقٍ وصَامِتٍ ، وكلِّ مايتعلق بهم : من كثيرٍ وقليلٍ ، وجليلٍ وحقيرٍ . أمانٌ لايبقىٰ معه خوْفٌ ولا جَزَع ، فى أوّلِ أمْرِه ولا فى آخره ، ولا فى عاجلِه ولا فى آجِله ، ولا ضُرٌّ ، ولا مَكْرٌ ، ولا غَدْرٌ ، ولا خَديعــةٌ ، يخُصُّ ويَعُم ، وتُصانُ به النفْسُ والمـالُ ، والولَدُ والأهْلُ ، وكلُّ ذاتِ يدٍ .

فليحْضُروا ببَنِيهم ، وأَهْلِهم وذويهم ، وأقْربائهم ، وغلْمانِهم ، وحاشِيَتِهم ، وجميع ما يملكونه من ناطقٍ وصامتٍ ، ودَانٍ وقاصٍ ؛ ولْيصِلُوا بهم إلينا ، ولْيفِدُوا بهم على حَضْرتنا الشريفةِ فى ذمام الله تعالىٰ وكَلاءَته ، وضمانِ هذا الأمان . لهم ذِمَّةُ الله تعالىٰ وذمَّةُ رسولِه سـيدنا محمدٍ نبىِّ الرَّحْمة ، صلَّى الله عليه وسلم ـ أنْ لا ينالَهم مكْروهٌ منّا ، ولا من أحدٍ من قِبَلنا ، ولا يُتعرَّضَ إليهم بسُوءٍ ولا أذًى ، ولا يُرَنَّق لهم مَوْرِدٌ بقَذًى ؛ ولهم مِنّا الإحسان ، والصَّفاء بالقَلْب واللِّسان ، والرعايةُ التى نُؤَمِّنُ بها سِرْبَهم ، ونُهَنِّئُ بها شِرْبَهم ، ويَطْمَئِنُّ بها خاطِرُهم ، وتُرفرِفُ عليهم كالسَّحاب لا ينالهم إلا ماطِرهم .

فليحْضُروا واثقِينَ بالله تعـالىٰ وبرسولِه صلى الله عليه وسـلم ، وبهذا الأمان الشريف . وقد تلَطَّفْنا بهم ليزدادُوا وُثُوقا ، ولا يَجِدَ سُوءُ الظَّنّ بعد ذلك إلىٰ قلوبهم طَرِيقا . وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه إكرامُهم فى حال حضورهم ، وإجراؤُهم على أكْمَلِ ما عَهِــدُوه من أمورهم ؛ وليَكُنْ لهم ولكلِّ من يحضُر معهم وما يُحْضَر أوْفَرُ نصيب من الإكرام ، والقَبُول والاحترام ، وتَبْليغُ قُصارَى القَصْد ونهـايةِ المَرَام ، والصَّفْح والرِّضا ، والعَفْو عما مَضىٰ ؛ ولْيتمسَّكُوا بعُرْوة هذا الأمان المؤكَّدِ الأسباب ، الفاتح

إلى الخيرات كلّ بَاب، ولْيَثِقُوا بعُروته الوُثْقىٰ، فإنّه من تمسَّكَ بها لا يَضِلُّ ولا يَشْقىٰ، ولْيشْرحُوا بالصَّفْح عما مَضىٰ صَدْرا، ولا يخْشَوْا ضَيْمًا ولا ضُرّا، ولا يَعْرِض كلُّ منهم على نَفْسِه شيئًا ممـا جَنَىٰ وٱقْتَرَف، فقد عفا اللهُ عما سلف.

ونحنُ نعرِّفُهم أن هذا أمانُنا بعـد صَبْرِنا عليهم نَيِّفًا وأربعين يومًا مع قُدْرتِنا على دَوْس ديارهم وتَخْرِيبهـا، وٱستئصالِ شَأْفَتِهم، ولـكنَّا مَنَعنا من ذلك الكتابُ العزيزُ والسنةُ الشريفة، فإنّا مستَمْسِكون بهما، وخَوْفُنا من الله تعالىٰ ومن نَبِيِّه سـيدنا محمدٍ صـلى الله عليه وسـلم واليومِ الآخر ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وهم يغالِطُون أنفُسَهم ويظنون أن تأخيرَنا عنهم عن عَجْزٍ منّا.

فلْيَتَلَقَّوْا هذا الأمان الشريفَ بقَلْبِهم وقالَبِهم، وليرجِعُوا إلىٰ الله تعالىٰ، وليصُونُوا دِماءَهم وأموالَهم وأَوْلادَهم، وحُرَمَهم ودِيارَهم، فقد رَأَوْا ما حلَّ بهم من نَكْثِهم وبَغْيِهم. قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَـا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِه ومَنْ أَوْفَى بِمَـا عَاهَدَ عَلَيْـهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيماً﴾. وقال عزَّ من قائلٍ: ﴿ وَالْمُوفُونَ بعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَـدُوا ﴾ فى مَعْرِض المَدْح لمن وَفَى بعَهْده: وقال جلَّ وعلا: ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللّهُ ﴾. وقال تَبارَكَ وتَعالىٰ: ﴿ يٰأَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّمَـا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾. وقال تعـالىٰ: ﴿ ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللّهُ واللّهُ خَيْرُ المَاكِرِين ﴾. وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المَكْرُ والبَغْيُ والخَدِيعَةُ». وقال عليه السَّلام: «المَرْءُ مَجْزِىٌّ بعَمَلِه». وقال عليه السَّلام: «الجَزاءُ من جِنْس العَمَل». وقال أهل التصَوُّف: (الطَّرِيقُ تأْخُذُ حقَّها). وقال أهلُ الحِكْمة: (الطَّبِيعَة كَافِيَةٌ). وقال الشاعر:

قَضَى اللهُ أَنَّ البَغْيَ يَصْرَعُ أَهْلَه * وأَنَّ على البَاغِى تَدُورُ الدَّوَائِرُ!

ثم إنهم يُعَلِّلُون آمالهم بعَسَىٰ ولَعَلّ، ويقولون : العَسْكرُ المِصْرىُّ واصِلٌ إليهم نَجْدَةً لهم، وهذا واللهِ من أكبر حَسَراتنا أن تكون هذه الإشاعة صحيحة، وبهذا طمعت آمالُنا، وصَبَرنا هذه المدّةَ الطَّويلةَ، وتمنَّيْنا حُضُورَه ورَجَوْناه، فإنَّه بأجْمعه ممـاليكُ أبوابنا الشريفـة، وقد صارت الممـالكُ الشريفةُ الإسـلاميةُ المحروسةُ فى حَوْزَتنـا الشريفة، ودخل أهْلُها تحتَ طاعتنا المفْتَرضَة علىٰ كلِّ مُسْلِمٍ يُؤْمِن بالله تعالىٰ وبنَبِيِّه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسـلم وباليوم الآخِر : من حاضِرٍ وبَادٍ، وعُرْبانٍ وأكْراد وتُرْكمانٍ، وقاصٍ ودَانٍ؛ وهم يتحققون ذلك ويُكابِرُون فى المَحْسوس ويتَعلَّلُون بعَسَىٰ ولَعلَّ، ويقولون : ياليْتَ، فيقالُ لهم : هَيْهات .

فلْيَسْتَدْرِكُوا الفارِطَ قبل أن يَعَضُّوا أيديَهـم نَدَما، وتَجرِيَ أعينُهم بدَلَ الدُّموعِ دَما؛ وهذا مِنَّا واللهِ أمانٌ ونَصيحةٌ فى الدنيا والآخرة، واللهُ تعالىٰ رَبُّ النِّيَّات، وعالِمُ الخَفِيَّات، يعلمون ذلك ويَعْتمِدُونه؛ والله تعـالىٰ يُوفِّقُهم فيما يُبْدِئُونه ويُعِيـدونه؛ والخطُّ الشريفُ شرَّفَه اللهُ تعـالىٰ وأعلاه، وصَرَّفه فى الآفاق وأمْضاه ــ أعلاه، حجّةٌ فيـــه .

قلتُ : وهذا الأمانُ أوّله مُلَفَّقٌ من كلام "التعريف" وغيره، وآخِرُه كلامٌ سُوقِىٌّ مُبْتَذَلٌ نازِلٌ، ليس فيه شىءٌ من صِناعةِ الكلام .

(تنبيه) من غرائب الأمانات ماحكاه محمدُ بن المُكَرَّم فى كتابه : "تَذْكِرة اللَّبيب" أنَّ رُسُل صاحب اليَمَنِ وفَدَتْ على الأبواب السلطانيـة، فى الدولة المنصورية «قلاوون» فى شهر رمضان، سنة ثمـانين وستمائة، وسألُوا السلطان فى كَتْب أمَان لصاحب اليَمَنِ، وأن يُكْتَب على صَدْره صورةُ أمانٍ له ولأولاده، فكتب له ذٰلك وشَمِلَتْـه علامةُ السلطان، وعلامة ولَدِه وَلِيِّ عَهْدِه « الملك الصالح على » وأعلمهم

أنَّ هذا ممَّا لم تَجْرِ به عادَةٌ ، وإنَّما أجابهم إلىٰ ذلك إكراماً لمَخْدُومهم ، ومُوافقةً لغَرَضِه وٱقْتراحه .

الصـــنف الثـانى

(من الأَمانات الجارى عليها مُصْطلح كُتَّاب الزَّمان ، ما يُكْتب عن نوّاب الممـالك الشامية)

وهو على نَحْوِ ما تقدّم ذكْرُه مما يُكْتب عن الأَبواب السلطانية ، إلا أنه يُزاد فيه : « وأمانُ مَوْلانا السُّلطان » وتُذْكر ألقابُه المعروفة ، ثم يُؤْتَىٰ على بقيَّـة الأَمان ، على الطريقة المتقدّمة ، ويقالُ فى طُرَّته : «أمان كريم» . ويقال فى آخره : «والعلامة الكريمة» كما تقدّم فى التواقيع .

وهذه نُسـخةُ أمانٍ كُتِب به عن نائب السَّلطنة بحَلَبَ فى نيابة الأَمير قشتمر المنصورىّ ، فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» لبعْضِ من أراد تَأْمِينَه ، وهى :

هذا أمانُ الله سبحانه وتعالىٰ ، وأمانُ نَبِيِّه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وأمانُ مولانا السـلطانِ الأعظمِ ، العالِمِ ، العادِلِ ، المُجاهِـد ، المُرابط ، المُثاغِرِ ، المؤَيَّدِ ، المَـالِك ، المَلِك الأشرف ، ناصِرِ الدُّنيا والدِّين ، سلطانِ الإسـلام والمسلمين ، مُحْيِي العَدْل فى العالمين ، مُنْصِفِ المظلومين من الظالمين ، قامِعِ الكَفَرةِ والمُشْركين ، قاهِرِ الطُّغاةِ والمُعْتَدين ، مُؤَمِّنِ قلوبِ الخائفين والتائبين ، مَلِكِ البَحْرَيْنِ ، صاحبِ القِبْلَتين خادِمِ الحَرَمين الشريفـين ، وَارِثِ المُلْك ، سُـلطانِ العَرَبِ والعَجَمِ والتُّرك ، مَلِكِ الأَرض ، الحاكم فى طُولها والعَرْض ، سيِّد المُلوك والسلاطين ، قَسِيمِ أميرِ المؤمنين «شعبان» ٱبن المَلِكِ الأمْجدِ جمال الدُّنيا والدِّين «حسين» ٱبن مولانا السلطان الشَّهيد

الملِكِ الناصر، ناصرِ الدُّنيا والدِّين، سلطانِ الإسلامِ والمسلمين «محمد» ٱبن مولانا السلطانِ الشهيدِ الملكِ المنصورِ «قلاوون» ـ خلَّد اللهُ مُلْكَه، وجعلَ الأَرْضَ بأَسْرِها مِلْكَه ـ إلى فلانٍ بالحضور إلى الطاعة الشريفة : طَيِّبَ القَلْب، مُنْبسِطَ الأمَل؛ آمِنًا على نَفْسِه ومالِه وأَوْلادِه، وجماعتِه وأصحابِه ودَوابِّه؛ لا يخافُ ضَرَرًا ولا مَكْرا، ولا خَدِيعــةً ولا غَدْرا؛ وله مَزِيدُ الإكرام والاحترام، والرعايةِ الوافِرة الأَقْسام، والعفوُ والرِّضا، والصفح عمّــا مَضَىٰ .

فليتَمَسَّكْ بعُرْوةِ هــذا الأمانِ المؤكَّد الأســباب، الفاتحِ إلى الخيرات كلَّ باب، ولْيَثِقْ بعُرْوته الوُثْقَىٰ، فإنَّه من تمسَّكَ بها لا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ؛ ولْيَشْرَحْ بالصَّفْح عمــا مضَىٰ صَدْرا، ولا يخشَ ضَيْمًا ولا ضُرّا؛ ولا يَعْرِضْ على نَفْسِه شيئًا مما جَنَىٰ وٱقترف، فقد عفا اللهُ عمَّا سَلَف؛ والخطُّ الكريم أعلاه الله تعالى أعلاه حُجَّةٌ فيه .

قلتُ : ومما ينبغي التنبيهُ عليه في الأمانات، أنه إن ٱحتاج الأمر في الأمان إلى الأَيْمــانِ، أتى بها بحسب ما يقتضيه حالُ الحالِفِ والمحلوفِ له، علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه في المقالة الثامنة .

الباب الثانى
من المقالة التاسعة
(فى الدَّفْن)

والمراد به دَفْن ذُنُوب من يُكْتَب له حتّى لم تُرَبعدُ، وفيه فصلان :

الفصل الأوّل
فى أصْله وكَوْنه مأخوذًا عن العَرَب

والأصْلُ فيه ماذكره فى "التعريف" أن العَرَب إذا جَنَى أحدٌ منهم جِنايةً، وأراد المَجْنِيُّ عليه العَفْوَ عما وقع، فالتَّعوِيلُ فى الصَّفْح فيها على الدَّفْن. قال فى "التعريف" : وطريقتُهم فيه أن تجتمعَ أكابرُ قَبِيلةِ الذى يَدْفِن بحضور رجالٍ يثِقُ بهم المدفونُ له، ويقومُ منهم رجُلٌ، فيقول للمَجْنِيِّ عليه : نُريدُ منك الدَّفْنَ لفلانٍ، وهو مُقِرٌّ بما أهاجَك عليه، ويُعدِّدُ ذنوبَه التى أُخِذَ بها ولا يُبْقِى منها بَقِيَّة، ويُقِرُّ الذى يَدْفِنُ ذلك القائلَ على أن هذا جُمْلةُ ما نَقَمه على المدفون له، ثم يَحفِرُ بيده حَفيرةً فى الأرض، ويقولُ : قد ألْقَيْتُ فى هذه الحَفيرةِ ذُنوبَ فلانٍ التى نَقَمْتُها عليه، ودفَنْتُها له دَفْنِى لهذه الحَفيرة، ثم يردُّ ترابَ الحفيرة إليها حتَّى يدْفِنَها بيده. قال : وهو كثيرٌ متداوَلٌ بين العَرَب، ولا يطْمَئِنُّ خاطِرُ المُذْنِب منهم إلا به، إلا أنه لم تَجْرِ للعرَب فيه عادةٌ بكتابة، بل يُكْتَفَى بذلك الفِعْل بمحْضَر كِبَار الفريقين، ثم لو كانت دِماءٌ أو قتلى عُفِّيتْ وعَفَتْ بها آثارُ الطلائب .

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الثـانى من المقـالة التاســـعة

(فيما يكتب فى الدَّفْنِ عن الملوك)

قال فى "التعريف" : وصورته أن يكتب بعد البسملة : «هذا دَفْنٌ لذنوب فلان، من الآنَ لا تُذْكر ولا يطالب بها، ولا يُؤاخَذُ بسببها؛ اقْتضَتْه المَراحِمُ الشَّريفةُ السُّلطانية المَلَكيَّة الفلانية، ضاعف الله تعالىٰ حَسَناتها وإحسانَها : وهى ما بدَا من الذنوب لفلان من الجرائم التى ارْتكبها، والعظائم التى احْتقبها، وحصل العَفْوُ الشَّريفُ عن زَلَلِها، وقابل الإحسانُ العَمِيمُ بالتغمُّد سُوءَ عَمَلِها؛ وهى : كذا وكذا (وتذكر) : دَفْنًا لم تبْقَ معه مُؤَاخَذةٌ بسبَبٍ من الأسباب، ومات به الحِقْدُ وهيلَ عليه التُّراب؛ ولم يَبْقَ معه لمُطالِبٍ بشَىْء منه مَطْمَع، ولا فى إحْيائه رَجاءٌ وفى غيْرِ ماوارَتِ الأرْضُ فاطْمَعْ؛ تَصدّقَ بها سيِّدُنا ومولانا السلطانُ الأعظم (ويذكُرُ ألْقابَه واسْمَه) ـ تقبّل اللهُ صدقَتَه ـ وعفا عنها، وقطع الرَّجاءَ باليَأْسِ منها؛ وأبطلَ منها كُلَّ حَقٍّ يُطْلب، وصفَح منها عن كل ذَنْبٍ كان [به](1) يُستذْنَب؛ ودفَنها تَحْت قَدَمِه، ونَسِيَها فى عِلْمِ كَرَمِه، وخَلَّاها نَسْــيًا مَنْسِيًّا لا تُذْكَرُ فى خِفَارَةِ ذِمَمِه؛ وجعله بهـا مُقيمًا فى أَمْنِ الله تعـالىٰ إلىٰ أن يبعثَ اللهُ تعالىٰ خَلْقَــه، ويتقاضَىٰ كما يشاءُ حَقَّه؛ لا يتعقَّبُ فى هذا الأمانِ مُتَعقِّب، ولا ينتهِى إلىٰ أَمَدٍ له نَظَرُ مترَقِّب؛ لا يُنْبَشُ هذا الدَّفين، ولا يُوقَف له علىٰ أثَرٍ فى اليوم ولا بعدَ حِين؛ ولا يُخْشَى فيه صَــبْرُ مُصَابِر، ولا يُقالُ فيــه :

(1) الزيادة عن "التعريف" ص ١٦٦ .

إلّا وَهْمًا كَشَيْءٍ لم يكنْ أو كَنَازِحٍ به الدّارُ أو مَن غَيَّبَتْه المَقَابِرِ . ورُسِم بالأمر الشريف العالى ، المَوْلَوِىّ ، السُّلطانىّ ، الملكىّ الفلانىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ وشرَّفه ، وغفر به لكلِّ مُذْنِبٍ ما أسلفه ـ أن يُكتبَ له هذا الكِتَابُ بما عُفِيَ له عنه وحُفِر له ودُفِن ، وأصْبح بعَمَلِه غيرَ مُرْتَهِن ؛ ودُفِن له فيه دَفْنَ العَرَب ، وقُطِع فى التّذكُّر له أَرَبُ كلِّ [ذى] أَرَب ؛ ودُرِس فى القُبور الدّوارس ، وغُيِّبَ مكانه فيما طُمِر فى اللّيالى الدّوامِس .

وسبيلُ كلِّ واقفٍ علىٰ هذا الكتاب ـ وهو الحجّةُ علىٰ من وَقَف عليه ، أو بلَغه خَبَرُه ، أو سمعه أو وَضَحَ له أثرُه ـ أن يَتناسَىٰ هذه الوقائع ، ويتّخذَها فيما تَضَمَّنته الأرْضُ من الودائع ، ولا يذكر منها إلا ما ٱقتضاه حِلْمُنَا الذى يُؤْمَنُ معه التّلَف ، وعَفْوُنا الذى شَمِل وعفَا اللهُ عمّا سَلَف .

قال فى "التثقيف" : ولم أكُنْ رأيتُ شيئًا من هذا ولا وجَدْتُه مسطورًا إلا فى كتابة "التعريف" . قال : والذى أعتقِدُه أنه لم يُكْتبْ به قَطُّ ، وإنما الرجلُ بسَعَةِ فَضْلِه وفَضِيلَتِه ، أراد أن يرتِّبَ هذه النُّسخة لاحتمالِ أن يُؤْمر بكتابة شَيْءٍ من هذا المعنى ، فلا يَهْتَدِى الكاتبُ إلىٰ ما يَكْتُبه . ثم قال : على أنه كَرَّر فيها ذِكْر السلطان مرَّتين ، والثالثة قال : رُسِم بالأمر الشريف ، فهى علىٰ غير نَحْوٍ من النِّظام المعهود والمصطلح المعروف ، بحُكْم أن فيها أيضا تَوسُّعًا كثيرًا فى العبارة والألفاظ التى تُؤدِّى كلُّها معنًى واحدا . قال : وكان الأولىٰ بنا ٱختصارَ ذلك وعَدَمَ كتابته ، لكنّنا أردنا التنبيهَ علىٰ ما أشار إليه ، ليكون هذا الكِتَابُ مُسْتوعِبًا لجميع ما ذُكِر ، ممّا يُسْتعمل وممّا لا يُسْتعمَل .

قلتُ : ما قاله فى " التثقيف " كلامٌ ساقِطٌ صادِرٌ عن غير تَحْقيق ، فإنّه لا يلزمُ من عَدَم ٱطّلاعِه علىٰ شيءٍ كُتِب فى هذا المعنىٰ ولا سُطِّر فيــه أن لا يكون مسطوراً لأحدٍ فى الجُمْــلة . وماذا عسىٰ يبلغُ ٱطّلاعُ المطَّلِـع فَضْــلا عن غيره ؟ وإن كان صاحبُ " التعريف " هو الذى ٱبتكر ذلك، كما أشار إليه فى " التثقيف " فنِعْمَت السَّجِيَّة الآتية بمثْلِ ذلك ممــا لم يُسْبق إليه . وأما إنكارُه تَكْرِيرَ ذِكْر السلطان فيها، فلا وجْهَ له بعدَ ٱنتظــام الكلام وحُسْن ما أتىٰ به فى " التعريف " سواءٌ كان فيه مُبْتكِرًا أو مُتَّبِعًا أو مُنْترِعًا له من الأصل السابق .

وأحسن ما يكتب فى ذلك فى تأْمِين العُرْبان : لأنه إنمــا أُخِذَ عنهم، فإذا صدَر إليهــم شيءٌ يعرفونه ويَجْرِى علىٰ قواعِدِهم التى يأْلَفُونها ، تلَقَّوْه بالقَبُول ، وٱطْمأَنَّتْ إليه قُلُوبهم، ووقع منهم أَجَلَّ مَوْقِع، وبالله المُسْتعان .

الباب الثالث

من المقالة التاسعة

(فيما يكتب فى عقد الذّمّة، وما يتفرّع على ذلك؛ وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

فى الأصول التى يرجع إليها هذا العقد، وفيه طرفان

الطرف الأوّل

(فى بيان رتبة هذا العقد، ومعناه، وأصله من الكتاب والسّنّة، وما ينخرط فى سلك ذلك)

أما رتبته، فإنه دون الأمان بالنّسبة إلى الإمام. وذلك أنه إنما يقرّره بعوض يأخذه منهم، بخلاف الأمان.

وأما معناه، فقد قال الغزالىّ فى "الوسيط": إنه عبارةٌ عن التزام تقريرهم فى ديارنا، وحمايتهم، والذّبّ عنهم ببذل الجزية أو الإسلام من جهتهم.

وأما الأصل فيه: فمن الكتاب قوله تعالى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. فجعل الجزية غاية ما يطلب منهم، وهو دليل تقريرهم بها.

ومن السّنّة ما ورد «أن النّبىّ صلى الله عليه وسلم حين وجّه معاذ بن جبل إلى اليمن. قال: إنّك سترد على قوم معظمهم أهل كتاب فاعرض عليهم الإسلام،

فإن آمتنعوا فآعرض عليهم الجزية وخذ من كلّ حالم دينارا ، فإن آمتنعوا فاقتلهم» فجعل القتل بعد الآمتناع عن أداء الجزية يدلّ على تقريرهم بها أيضا .

وقد قرّر أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب رضى الله عنه نصارى الشّام بإيالتهم على شروط آشترطوها فى كتاب كتبوا به إليه ، مع زيادة زادها .

قال الإمام الحافظ جمال الدّين أبو صادق محمد ، آبن الحافظ رشيد الدّين أبى الحسين يحيى ، بن على ، بن عبد الله القرشىّ فى كتابه الموسوم "بالزّبد المجموعه ، فى الحكايات والأشعار والأخبار المسموعه" : أخبرنا الشيخ الفقيه أبو محمد عبد العزيز آبن عبد الوهّاب بن إسماعيل الزّهرىّ المالكىّ وغير واحد من شيوخنا إجازة ، قالوا : أنبأنا أبو الطّاهر إسماعيل بن مكّىّ بن إسماعيل الزّهرىّ ، قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن الوليد الفهرىّ الطّرطوشىّ قراءة عليه ، قال : أخبرنا قاضى القضاة الدامغانىّ ، أخبرنا محمد ، أخبرنا أبو محمد عبد الرّحمن بن عمر بن محمد التّجيبىّ فيما قرأت عليه ، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن عمر بن زياد الأعرابىّ بمكّة سنة أربعين وثلثمائة ، أخبرنا محمد بن إسحق أبو العبّاس الصّفّار ، أخبرنا الرّبيع بن تغلب أبو الفضل ، أخبرنا يحيى بن عقبة بن أبى العيزار عن سفيان الثّورىّ ، والوليد بن روح ، والسّرىّ بن مصرّف ، يذكرون عن طلحة بن مصرف ، عن مسروق ، عن عبد الرّحمن بن غنم ، قال : كتبت لعمر بن الخطّاب حين صالح نصارى الشّام .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

«هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من نصارى مدينة كذا وكذا»
«إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا»
«وأهل ملّتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث فى مدينتنا»

«ولا فيما حَوْلَها قَلِيَّةً[(١)] ولا صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ، ولا نُجَدِّدَ ما خَرِب منها : دَيْرًا»
«ولا كنيسةً، ولا نُخْفِيَ ما كان منها فى خِطَطِ المسلمين، ولا نَمنَعَ كنائسَنا»
«أن يَنزِلَها أحدٌ من المسلمين ثلاثَ ليالٍ نُطْعِمُهم، ولا نُؤْوِيَ فى منازلنا»
«ولا كَنائِسِنا جاسُوسًا، ولا نَكتُمَ غِشًّا للمسلمين، ولا نُعَلِّمَ أولادَنا القُرآنَ»
«ولا نُظْهِرَ شِرْكًا، ولا نَدْعُوَ إليه أحدًا، ولا نمنع من ذَوِى قَرابَتِنا»
«الدُّخولَ فى الإسلام إن أرادُوه، وأن نُوَقِّرَ المسلمين ونقومَ لهم فى مجالسنا»
«إذا أرادوا الجُلوسَ، ولا نَتَشَبَّهَ بهم فى شَىْءٍ من لِباسِهِمْ : فى قَلَنْسُوَةٍ»
«ولا عِمامَةٍ ولا نَعْلَيْنِ ولا فَرْقِ شَعْرٍ، ولا نتكَلَّمَ بكلامهم، ولا نَتَكَنَّى»
«بكُناهُم، ولا نَرْكَبَ السُّروجَ، ولا نتقلَّدَ السُّيوفَ، ولا نَتَّخِذَ شيئًا من»
«السِّلاح، ولا نَحْمِلَه معنا، ولا نَنقُشَ على خواتيمنا بالعَرَبِيَّة، ولا نَبِيعَ الخُمُورَ»
«وأن نَجُزَّ مَقادِمَ رُءُوسِنا، وأن نَلْزَمَ دِينَنا حيثُ ما كُنَّا، وأن نَشُدَّ زَنانِيرَنا»
«على أَوْساطِنا، وأن لا نُظْهِرَ الصَّلِيبَ على كَنائسنا، ولا كُتُبَنا فى شَىْءٍ»
«من طُرُق المسلمين ولا أَسْواقِهم، ولا نَضْرِبَ بنواقيسنا فى كنائسنا»
«إلَّا ضَرْبًا خَفِيفا، ولا نَرْفَعَ أَصْواتَنا بالقِراءَةِ فى كَنائِسنا ولا فى شَىْءٍ»
«من حَضْرَةِ المسلمين، ولا نَخْرُجَ سَعانِينَ ولا باعُوثا، ولا نرفَعَ»
«أَصْواتَنا مع مَوْتانا، ولا نُظْهِرَ النِّيرانَ معهم فى شَىْءٍ من طُرُقِ المسلمين»

(١) القلية هى التى يقال لها القلّاية . وهى من بيوت عباداتهم . والسعانين عيد لهم قبل عيدهم الكبير بأسبوع . والباعوث عندهم كالاستسقاء عندنا . انظر لسان العرب .

«ولا أسْواقِهم، ولا نُجاوِرَهم بمَوْتانا، ولا نَتَّخِذَ من الرَّقيقِ ما يَجْرِى عليه»
«سِهامُ المسلمين، ولا نَطَّلِعَ عليهم فى مَنَازِلهم» .

قال عبد الرحمن : فلما أتيتُ عُمَرَ بالكتَّاب زاد فيه :

«ولا نَضْرِبَ أحدًا من المسلمين . شَرَطْنا ذٰلك على أنْفُسِنا وأهْلِ»
«مِلَّتِنا، وقَبِلْنا عليه الأمَانَ . فإن نحنُ خالَفْنا عنْ شَىْءٍ مما شَرَطْناه»
«لكم وضَمِنَّاه على أنْفُسِنا فلا ذِمَّةَ لنا، وقد حَلَّ لكم مِنَّا ما يَحِلُّ لأهْلِ»
«المُعانَدَةِ والشِّقَاقِ» .

وفى رواية له من طريقٍ أخرىٰ «أن لا نُحْدِثَ فى مدينَتِنا ولا فيما حَوْلها»
«دَيْرًا ولا كَنِيسَةً ولا قَلَّايَةً ولا صَوْمَعَةَ راهِبٍ» .

وفيها : — «وأن لا نَمنَعَ كنائِسَنا أن ينزِلَها أحدٌ فى لَيْلٍ ولا نَهارٍ، وأن»
«نُوَسِّعَ أبوابَها للمارَّةِ وابنِ السَّبِيل» .

وفيها : — «وأن نُنْزِلَ مَن مَرَّ بنا من المسلمين ثلاثةَ أيَّامٍ نُطْعِمُه» .

وفيها : — «وأن لا نُظْهِرَ صَليبًا أو نَجَسًا فى شىءٍ من طُرُقِ المسلمين»
«وأسْواقِهم» .

وفيها : — «وأن نُرشِدَ المسلمين ولا نَطَّلِعَ عليهم فى منازلهم» .

قال أبو صادق المقدّم ذِكْرُه : ومما ذكره أهل التاريخ أن الحاكِمَ الفاطِمىَّ أمر اليهودَ والنَّصارَىٰ إلا الجبابرة بلُبْس العمائم السُّودِ، وأن يحمِلَ النَّصارَىٰ فى أعناقهم

من الصُّلْبان ما يكونُ طولُه ذراعاً ووزْنُه خمسةَ أرْطالٍ ، وأن تحملَ اليهودُ فى أعناقهم قَرَامى الخَشَب على وَزْن صُلْبان النَّصارىٰ ، وأن لا يركَبُوا شيئًا من المراكب المُحَلَّاة ، وأن تَكُون رُكُبُهم من الخَشَب ، وأن لا يَسْتخْدِموا أحدًا من المسلمين ، ولا يركبوا حمارًا لمُكَارٍ مُسْلِم ، ولا سَفِينةً نُوتِيُّها مسلم ، وأن يكونَ فى أعْناقِ النصارَىٰ ـ إذا دخلُوا الحَمَّام ـ الصُّلْبانُ ، وفى أعناق اليهود الجَلَاجِلُ : ليتميزُّوا بها من المسلمين ، وأفردَ حمامات اليهود والنصارَىٰ عن حمامات المسلمين ونُهُوا عن الاجتماع مع المسلمين فى الحَمَّامات ، وخُطَّ على حمامات النَّصارَىٰ صُوَرُ الصُّلْبان ، وعلىٰ حَمَّاماتِ اليَهُود صُوَرُ القَرَامِى .

قال : وذلك بعد الأربعمائة . ثم قال : ولقد أحسن فيما فَعل بهم ، عفا الله عَنَّا وعنه ، ورزقنا من ينْظُر فى أمورنا وأمورهم بالمَصْلَحة .

الطرف الثانى

(فى ذِكْر ما يحتاج الكَاتِبُ إلىٰ معرفته فى عَقْد الذِّمّة)

واعلم أنَّ ما يحتاج الكاتِبُ إليه من ذلك يرجعُ إلىٰ ثمانية أمور :

الأمر الأوّلُ — فيمن يجوزُ أن يتولَّىٰ عَقْدَ الذِّمة من المسلمين . ويختَصُّ ذلك بالإمام أو نائبِه فى عَقْدِها ، وفى آحاد الناس خِلافٌ ، والأَرجَحُ أنه لا يصحُّ منه لأَنه من الأُمور الكُلِّية ، فيحتاج إلىٰ نَظَرٍ واجْتِهادٍ .

الأمر الثانى — معرفةُ من تُعقَدُ له الذِّمة . ويشترَطُ فى المعقود له : التَّكْليفُ والذُّكورَةُ والحُرِّيةُ . فلا تُعقَدُ لصَبِيٍّ ولا مَجْنونٍ ولا امْرأَةٍ ولاعَبْدٍ ، بل يكونون تَبعًا ، حتَّىٰ لا تجب علىٰ أحدٍ منهم الجِزْيةُ ، وفيمن ليس أهْلًا للقتال : كالشَّيْخ الكبير

والزَّمن خلافٌ، والأصحُّ صحّةَ عَقْدِها له . ويعتبر فى المعقود له أيضا أن يكونَ زاعِمَ التَّمسُّك بكتَاب : كاليهوديّ يزعُم تمسُّكَه بالتَّوْراة، والنَّصْرانىِّ يزعُم تمسُّكَه بالتَّوْراة والإنْجيل جميعًا، وفى المُتمَسِّك بغير التَّوراة والإنْجيل : كصُحُف إبراهيم وزَبُور داوُد خِلافٌ والأصحُّ جوازُ عَقْـدِها له . وكذلك المجوسُ، لقوله صلى الله عليه وسـلم : « سُنُّوا بِهِم سُـنَّةَ أهْلِ الكِتَابِ » . والسَّامِرَةُ إن وافقتْ أصولهُم أُصُولَ اليهود، عُقِد لهم وإلاَّ فلا . وكذلك الصَّابِئَةُ إن وافقت أصولُهم أُصُولَ النَّصارىٰ، ولا يُعْقَدُ لزِنْدِيقٍ، ولا عابِدِ وَثَنٍ، ولا مَن يعبدُ الملائكةَ والكَواكِبَ . ثم إذا كَمَلَتْ فيه شروطُ العَقْد فلا بُدَّ من قبوله العَقْدَ . ولو قال : قَرِّرْنى بكذا فقال : قرَّرْتُك صحَّ . ولو طلبها طالِبٌ من الإمام وجَبَتْ إجابتُه .

الأمر الثالث — معرفةُ صِيغَةِ العَقْد : وهى ما يدل علىٰ معنى التَّقْرير من الإمام أو نائِبه، بأن يقول : أقْرَرْتُكم أو أذِنْتُ لكم فى الإقامة فى دَارِنا علىٰ أن تبذُلُوا كذا وكذا وتَنْقادُوا لحُكْم الإسلام .

الأمر الرابع — المدّةُ التى يُعْقَد عليها . ويعتبَرُ فيها أن تكون مطلقةً بأن لا يقيِّدَها بانتهاء، أو بما شاء المعقودُ له من المُدّة . ولا تجوز إضافةُ ذلك إلىٰ مَشيئة الإمام، لأن المقصودَ من عَقْدِها الدَّوامُ . وقولُه صلَّى الله عليه وسلم « أُقِرُّكُمْ ما أَقَرَّكُم اللهُ » إنما وَرَد فى المُهادَنة لا فى عَقْد الذِّمّة .

الأمر الخامس — معرفةُ المَكان الذى يُقَرُّون فيه . وهو ماعدا الحِجَاز، فلا يُقَرُّون فى شىءٍ من بلاد الحِجَاز : وهى مَكّة، والمَدِينَةُ، واليَمَامَةُ، ومَخَالِيفُها يعنى قُرَاها : كالطَّائف بالنِّسبة إلىٰ مَكّة، وخَيْبَرَ بالنِّسبة إلى المَدِينة، ونحو ذلك . وسواءٌ فى ذلك القُرَىٰ والطُّرُق المتخلِّلةُ بينها . ويُمنعون من الإقامة فى بَحْر الحِجَاز، بخلاف رُكُوبه للسفر . وليس لهم دُخولُ حَرَمِ مَكّة لإقامة ولا غيرها، إذ يقولُ تعالىٰ : ﴿فَلَا يَقْرَبُوا

الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا ﴾ . فلو تعدّىٰ أحدٌ منهـم بالدخول ومات ودُفِن فى الحَرَم ، نُبِش وأُخْرِج منه ما لم يتقطّعْ ، فان تقطّعَ تُرِك . وقيـل : تُجمَعُ عِظامُه وتُخْرج . وعليه يدلّ نصّ الشافعىّ رضى الله عنه فى الأُمّ .

الأمر السادس — معرفة مايلزم الإمامَ لهم بعد عَقْدِ الذِّمّة . إذا عَقَد لهم الإمامُ الذِّمّة فينبغى أن يَكْتبَ أسماءَهم ودِينَهم وحِلَاهُم ، وينْصِبَ علىٰ كلّ جَمْع عَرِيفًا : لمَعْرفة من أسْلَمَ منهم ، ومن مات ومن بلغ من صِبْيانِهم ، ومن قَدِمَ عليهـم أو سَافر منهم ، وإحْضارِهم لأداءِ الجِزْيَةِ ، أو شَـكْوىٰ مَن تعدّى الذِّمّىُّ عليه من المسلمين ونحو ذلك ، وهذا العَرِيف هو المعبَّر عنه فى زماننا بالديار المصرية بالحاشر . ثم يَجِبُ الكَفُّ عنهم بأن لا يتعرّض متعرِّضٌ لأنْفُسِهم ولا أمْوالِهم ، ويضْمَنُ ما أتْلَفَ منها ، ولا تُرَاقُ خُمُورُهم إلا أن يُظْهِروها ، ولا تُتْلَفُ خَنازِيرُهم إذا أخْفَوْها ، ولا يُمْنَعون التَّردُّدَ إلىٰ كَنائِسِهم . ولا ضَمَانَ علىٰ من دخل دَارَ أحَدٍ منهـم فأراق خَمْرَه وإن كان مُتعدِّيا بالدُّخول ، وأوجب أبُو حَنِيفَةَ عليـه الضَّمانَ . ويجِبُ ذَبُّ الكُفّار عنهـم ما داموا فى دارنا ، بخلاف ما إذا دخلُوا دَارَ الحَرْب .

الأمر السابع — معرفةُ مايُطْلَب منهم إذا عقد لهم الذِّمّة . ثم المطلوب منهم ستّةُ أشـيـاءَ :

منهـا — الجِزْيَةُ : وهى المـالُ الذى يبْذُلُونه فى مُقابلة تَقْرِيرهم بدار الإسـلام . قال المـاوَرْدىُّ فى "الأحكام السلطانية" : وهى مأخوذة من الجَزَاء : إمّا بمعنى أنها جَزاءٌ لتَقْريرهم فى بلادنا ، وإمّا بمعنى المقابَلَة لهم علىٰ كُفْرِهم .

وقد ٱخْتلف الأَئمةُ فى مِقْدارها : فذهب الشّافعىُّ رضى الله عنه إلىٰ أنها مقدّرةُ الأقلِّ ، وأقلُّها دينارٌ أو ٱثنا عشر درهما نُقْرةً فى كلِّ سـنة علىٰ كلِّ حَالِمٍ ، ولا يجوز

الاقتصار علىٰ أقلّ من الدِّينار، وغيرُ مقدَّرة الأكْثر، فتجوزُ الزيادة علىٰ الأقلّ برضا المعقود له . ويستحبُّ للإمام المُماكَسَةُ : بأن يزيدَ عليهم بحسَب ما يراه . ونقل ٱبنُ الرِّفعةِ عن بَعْض أصحاب الشافعيِّ أنه إذا قُدِّر علىٰ العَقْد غاية لم يجز أن يُنْقَص عنها . ويستحبُّ أن يُفاوِتَ فيها : فيأخذَ من الفقير دينارًا، ومن المتوسِّط دينارين، ومن الغَنِيِّ أربعةَ دنانير .

وذهب أبو حنيفة إلىٰ تصنيفهم ثلاثة أصناف : أغْنياءَ، يُؤْخذُ منهم ثمانيةٌ وأربعون دِرهمًا . وأوساطٍ، يؤخذُ منهم أربعةٌ وعشرون درهما . وفقراءَ، يؤخذُ منهم ٱثنا عشر درهما . فجعلها مقدّرةَ الأقل والأكثر، ومَنَع من ٱجتهاد الإمام ورأْيه فيها .

وذهب مالكٌ إلىٰ أنه لا يتقَدَّرُ أقلُّها ولا أكثرُها، بل هي مَوْكولةٌ إلى الاجتهاد في الطَّرفَيْنِ .

ومنها — الضِّيافةُ : فيجوزُ للإمام بل يستحبُّ أن يشترط علىٰ غير الفقير منهم ضِيافَةَ من يمرُّ بهم من المسلمين زيادةً على الجِزْية، ويعتبرُ ذِكْرُ مُدّةِ الإقامة، وأن لا تزيدَ علىٰ ثلاثة أيام، وكذلك يعتبرُ ذِكْرُ عَدَد الضِّيفَانِ من فُرْسانٍ ورَجّالةٍ، وقَدْرِ طعام كلِّ واحدٍ وأُدْمِه، وقَدْرِ العليقِ وجِنْسِ كلٍّ منهما، وجنْس المَنْزِل .

ومنها — الانقيادُ لأَحْكامِنا، فلو ترافعوا إلينا أمضينا الحُكْمَ بينهم برضَا خَصْمٍ واحد منهم، ونحكُمُ بينهم بأحكام الإسلام .

ومنها — أن لا يركَبُوا الخَيْلَ . ولهم أن يركبوا الحَمِيرَ بالأُكُف عَرْضًا : بأن يجعلَ الرّاكبُ رِجْلَيه من جانبٍ واحدٍ . وفي البِغَالِ النفيسة خلافٌ : ذهب الغَزاليُّ وغيرُه إلى المَنْع منها والراجح الجوازُ، إلا أنهم لا يتخذون اللُّجُمَ المحلّاة بالذَّهَب والفِضّة .

ومنها ــ أن يُنزِلُوا المسلمين صَدْرَ المجلِس وصَدْرَ الطريق . وإن حصل في الطَّرِيق ضِيقٌ [أُلجِئُوا] إلىٰ أضْيَقِه . ويُمْنعون من حَمْلِ السِّلاح .

ومنها ــ التميز عن المسلمين في اللِّباس : بأن يَخِيطُوا في ثيابهم الظاهرةِ مايخالفُ لَوْنَها ، سواءٌ في ذلك الرجالُ والنِّساءُ . والأَوْلىٰ باليهود الأَصْفَر ، وبالنَّصارىٰ الأزرقُ والأَكْهَبُ (وهو المعبَّرُ عنه بالرَّمادِيّ) وبالمَجُوسِيِّ الأَسودُ والأَحْمرُ . ويشُدُّ الرجالُ منهم الزُّنَّارَ من غير الحَرِير في وَسَطِه ، وتشُدّه المرأة تحتَ إزارِها ، وقيل فَوْقَه . ويميِّزونَ ملابِسَهم عن ملابس المسلمين ، وتُغايِرُ المرأةُ لون خُفَّيْها : بأن يكون أحَدُهما أبيضَ والآخَرُ أسْوَدَ ، ونحو ذٰلك . ويجعل في عُنُقه في الحَمَّام جُلْجُلًا أو خاتَمًا من حَدِيد . وإن كان على رَأْس أحدهم شَعْرٌ أُمِر بجَزِّ ناصِيَته . ويُمْنعون من إرْسال الضَّفائِر كما تفعلُ الأشرافُ . ولهم لُبْسُ الحرير والعِمامَة والطَّيْلسان . والذى عليه عُرِف زمانِنا في التَّمييز أنَّ اليهودَ مطلقا تَلْبَسُ العمائِمَ الصُّفْر ، والنَّصارَىٰ العَمائِم الزُّرْق ، ويركبون الحميرَ على البَراذِع ، ويَثْنِي أحدُهم رِجْلَه قُدَّامَه ، وتختصُّ السَّامرةُ بالشَّام بلُبْس العِمامة الحَمْراء ، ولا مُمَيِّزَ يعتادونه الآن سوَىٰ ماقدّمْناه .

ومنها ــ أنهم لا يرفعون ما يَبْنُونه علىٰ [بنيان] جيرانهم من المسلمين ، ولا يُساوونَه به ولو كان في غاية الٱنْخفاض ، ويُمْنع من ذلك وإن رَضِيَ الجارُ المسْلِم ، لأن الحقَّ للدين دون الجارِ ، وله أن يرفع مابناه بمَحَلَّةٍ منْفَصِلة عن أبنية المسلمين . ولو ٱشْترى بِناءً عاليًا بَقِيَ علىٰ حاله ، فلو ٱنهدم فأعاده لم يكن له الرَّفْع على المسلم ولا المُساواَة .

ومنها ــ أنهم لا يُحدِثُون كنيسةً ولا بِيعَةً فيما أحْدَثَه المسلمون من البلاد : كالبصْرة ، والكُوفَة ، وبَغْدادَ ، والقاهِرَة ، ولا في بلدٍ أسلم أهلُها عليها : كالمدينة واليَمَن . فإن أحدثوا فيها شيئا من ذلك نُقِض ، نَعم يُتْرك ماوُجد منها ولم يُعلَمْ حالُه :

لاَحتمال آتصال العمارات به . وكذلك لا يجوز إحداثُ الكنائس والبِيَع فيما فُتِح عَنْوةً ، ولا إبقاءُ القَديم منها لحصول الملك بالاَسْتيلاء . أمَّا ما فُتِح صُلْحًا بخراجٍ علىٰ أن تكونَ الرَّقَبةُ لهم ، فيجوز فيها إحْداثُ الكنائس وإبقاءُ القديمة منها ، فإن الارض لهم . وإن فُتِحَتْ صُلْحًا علىٰ أن تكون لنا : فإن شُرِط إبقاءُ القديمة بَقِيتْ وكأنَّهم آستَثْنَوْها . ويجوزُ لهم إعادةُ المتَهدِّمةِ منها ، وتَطْيِينُ خارِجِها دون تَوْسيعها .

الأمر الثامن — معرفةُ ما يَنْتقضُ به عَهْدُهم .

ويَنْتَقِضُ بأمورٍ :

منها ـ قِتَالُ المسلمين بلا شُبْهةٍ ، ومَنْعُ الجِزْيةِ ، ومَنع إجراءِ حُكْمِنا عليهم ، وكذا الزِّنا بمُسْلِمة أو إصابتُها باَسم نِكَاحٍ ، والاَطلاعُ علىٰ عَوْرات المسلمين وإنهاؤُها لأَهْلِ الحَرْب ، وإيواءُ جاسوسٍ لهم ، وقَطْعُ الطَّريق ، والقَتْلُ الموجِبُ للقِصَاص ، وقَذْفُ مُسلِمٍ ، وسَبُّ نَبِيٍّ جَهْرًا ، وطَعْنٌ فى الإسلام أو القرءان إن شُرِطَ عليهم الاَنتقاضُ وإلا فلا . أما لو أظهر ببلَدِ الإسلام الخَمْرَ أو الخنْزيرَ أو النَّاقوسَ أو مُعْتَقَدَه فى عُزَيْرٍ والمَسيح عليهما السلام أو جَنازَةً لهم أو سَقىٰ مسلمًا خمرًا فإنه يُعزَّر .

الفصل الثانى

من الباب الثالث من المقالة التاسعة

(ما يُكْتب فى مُتعلّقات أهْلِ الذِّمة [عند خُروجهم] عن لوازم عَقْد الذِّمّة)

وآعلم أنه ربّما خرج أهْلُ الذِّمّة عن لوازم عَقْدِ الذِّمة، وأظهروا التميزَ والتّكبّر وعُلُوّ البِناء، إلى غير ذلك ممّا فيه مخالفةُ الشروط، فيأخذُ أهْلُ العَدْلِ : من الخُلَفاء والملوكِ فى قَمْعهم والغَضِّ منهم وحَطِّ مقاديرهم، ويكتبون بذلك كُتباً ويبعثُونَ بها إلى الآفاق ليُعْمَل بمقتضاها، غَضًّا منهم وحَطًّا لقَدْرِهم، ورِفْعةً لدين الإسلام وتَشْريفًا لقدْره، إذ يقولُ تعالىٰ : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

وهذه نُسْخةُ كِتَابٍ كُتِب به عن المتوكِّلِ على الله حين حَجَّ، سَمِع رجلاً يدعُو عليه، فهَمَّ بقتْلِه، فقال : واللهِ ياأمير المؤمنين ماقُلتُ ماقلتُ إلّا وقد أيقنتُ بالقَتْل، فاسْمعْ مَقَالى ثم مُرْ بقَتْلي، فقال : قُلْ ! ــ فشَكَا إليه آستِطالةَ كُتّاب أهْلِ الذِّمّة على المسلمين فى كلام طويل، فخرج أمْرُه بأن تَلْبَس النّصارىٰ واليَهودُ ثِيابَ العَسَلِيِّ، وأن لا يُمكَّنُوا من لُبْس البَياضِ كَىْ لا يتشبّهوا بالمسلمين، وأن تكونَ رُكُبُهم خَشَباً، وأن تُهدَمَ بِيَعُهم المستَجِدّة، وأن تُطْلَقَ عليهم الجزْيةُ، ولا يُفسحَ لهم فى دخول حَمّاماتٍ خَدَمُها من أهْلِ الإسلام، ولا يَسْتخدِمُوا مسلمًا فى حوائجهم لنفوسهم، وأَفْرَدهم بمن يحتسب عليهم . وقد ذكر أبو هِلالٍ العَسْكَرىُّ فى كتابه "الأوائل" : أن المتوكِّلَ أوّلُ من ألزمهم ذلك، وهى :

أما بعــدُ، فإنَّ اللهَ ٱصطفىٰ الإسلامَ دِينًا فشرَّفه وكرَّمه، وأناره ونَضَّره وأظْهره، وفَضَّله وأكْمَله؛ فهو الدِّين الذى لا يَقْبلُ غيرَه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْــهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. بَعث به صَــفيَّه وخِيرتَه من خَلْقه: محمَّدًا صلى الله عليه وسلم، بجعله خاتمَ النَّبيِّين، وإمامَ المُتَّقين، وسيِّد المرسلين: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وأنزل كِتَابًا: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. أسعد به أُمَّته، وجعلهم خَيْر أمَّة أُخرجت للناس يأْمُرون بالمَعْروف ويَنْهَوْن عن المُنْكر ويؤمنون بالله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُــمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. وأهان الشِّركَ وأهْلَه، ووَضَعهم وصَغَّرهم وقَمَعهم وخَذَلهم وتبرَّأ منهم، وضَرَب عليهم الذِّلَّةَ والمَسْكَنةَ، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِيــنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. واطَّلع علىٰ قلوبهم، وخُبْث سَرائِرهم وضمائرهم، فنَهىٰ عن ٱئْتِمانهم، والثِّقةِ بهم: لعَداوتِهم للمسلمين، وغِشِّهم وبَغْضائهم، فقال تعــالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُــدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَــاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾. وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَــاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُــمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد انتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين أنَّ أُناسًا لا رَأْيَ لهم ولا رَوِيَّة يَسْتَعِينون بأهل الذِّمة في أفعالهم ، ويَتَّخِذُونهم بِطَانَةً من دون المسلمين ، ويُسَلِّطونهم على الرَّعيَّة ، فيَعْسِفُونهم ويَبْسُطون أيْدِيَهم إلىٰ ظُلْمِهم وغِشِّهم والعُدْوانِ عليهم . فأعْظَم أميرُ المؤمنين ذلك ، وأنْكَره وأكْبَره ، وتبرَّأ منه ، وأحبَّ التقرُّبَ إلى الله بحَسْمه والنَّهيِ عنه ؛ ورأىٰ أن يكتُبَ إلىٰ عُمَّاله على الكُوَرِ والأمصارِ ، ووُلاةِ الثُّغور والأجْناد ، في تَرْكِ استعمالهم لأهلِ الذِّمَّة في شيءٍ من أعمالهم وأمُورهم ، والإشراكِ لهم في أماناتهم ، وما قلَّدَهم أميرُ المؤمنين واستحفظهم إيَّاه ، إذ جعل في المسلمين الثِّقَةَ في الدِّين ، والأمانةَ علىٰ إخوانهم المؤمنين ، وحُسْنَ الرِّعايةِ لما استرعاهم ، والكِفَايةِ لما اسْتُكْفُوا ، والقِيامِ بما حُمِّلوا بما أغنىٰ عن الاستعانة [بأحد] من المشركين بالله ، المكذِّبينَ بِرُسُلِه ، الجاحدين لآياته ، الجاعلين معه إلهًا آخر ، ولَا إله إلا هُو وحْدَه لاشَريكَ له ، ورَجا أميرُ المؤمنين ـ بما ألْهَمهُ اللهُ من ذلك ، وقذفَ في قَلْبِه ـ جزيلَ الثَّوابِ ، وكريمَ المآب ؛ واللهُ يُعينُ أميرَ المؤمنين علىٰ نيَّتِه علىٰ تعزيز الإسلام وأهْلِه ، وإذلالِ الشِّرْك وحِزْبِه .

فلتَعْلَم هذا من رَأْيِ أمير المؤمنين ، ولا تَسْتعِنْ بأحَدٍ من المشركين ؛ وأنزل أهْلَ الذِّمةِ منازِلَهم التي أنزلهم اللهُ بها . فاقرأْ كِتَابَ أمير المؤمنين علىٰ أهْلِ أعمالِك وأشِعْهُ فيهم ، ولا يعلَمُ أميرُ المؤمنين أنَّك استعَنْتَ ولا أحدٌ من عُمَّالك وأعْوانِك بأحَد من أهْلِ الذِّمَّة في عَمَلِ الإسلام .

* * *

وفي أيام المُقْتدر بالله ، في سنة خَمْسٍ وتسعين ومائتين ، عَزَلَ كُتَّابَ النَّصارَى وعُمَّالَهم ، وأمَر أن لايُستعانَ بأحَدٍ من أهْلِ الذِّمة حتَّى أمَر بقَتْل ابن ياسِرٍ النَّصْرانيِّ عامل يُونُس الحاجب ، وكَتَب إلىٰ عُمَّاله بما نُسْخَتُه :

عَوائِدُ اللهِ عنــد أمير المؤمنــين تُوفِي علىٰ غاية رِضَاهُ ونِهايَةِ أمانيــه ، وليس أحَدٌ يُظْهِر عِصْيانَه إلا جعله اللهُ عِظَةً للأنَام ، وبادَرَه بعاجِل الاصطلام : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنْتِقَامٍ ﴾ . فمن نَكَث وطَغَىٰ وبَغَىٰ ، وخالَفَ أميرَالمؤمنين ، وخالف محمدًا صلى الله عليه وسلم ، وسَعىٰ فى إفْساد دَوْلة أمير المؤمنين ، عاجَلَه أميرُ المؤمنين بسَطْوَتِه وطَهَّر من رِجْسِه دَوْلَتَه ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقد أمَرَ أميرُالمؤمنين بتَرْك الاستعانة بأحَدٍ من أهلِ الذِّمة ، فلْيَحْذَرِ العمالُ تجاوُزَ أوَامرِ أمير المؤمنين ونَواهِيه .

⁂

وفى أيام الآمِرِ بأحكام الله الفَاطِمىّ بالديار المصرية ، آمتدّتْ أيْدى النَّصارىٰ ، وبَســطُوا أيْدِيَهم بالخيــانة ، وتَفَنَّنوا فى أذَى المســلمين وإيصال المَضَرة إليهم . وآسْتُعْمِل منهم كاتِبٌ يعرَف بالرّاهِب ، ولقِّب بالأبِ القِدِّيس ، الرُّوحانىّ النَّفيس ، أبى الآباء ، وسَيِّد الرُّؤساء ، مقدَّم دِين النَّصْرانية ، وسَــيِّد البَتْرَكِيَّة ، صَفِىّ الرَّبّ ومُخْتارِه ، وثالث عشر الحَوَارِيِّينَ . فصادر اللَّعينُ عامَّة مَنْ بالديار المصرية : من كَاتِبٍ وحَاكِم وجُنْــدِىٍّ وعامِلٍ وتاجِرٍ ، وآمتدّت يَدُه إلىٰ النَّاس علىٰ آختلاف طبقاتهم . فخَوَّفه بعضُ مَشَايخ الكُتَّاب من خَالِقه وباعِثِه ومُحاسِبه ، وحَذَّرَه من سُوءِ عواقِبِ أفعاله ، وأشار عليه بتَرْك ما يكونُ سَبَبا لهلاَكِه . وكان جماعةٌ من كُتَّاب مِصْر وقِبْطِها فى مَجْلِسه ، فقال مُخاطِبًا له ومُسْمِعًا للجماعة : نحنُ مُلَّاكُ هــذه الدِّيار حَرْثا وخَراجًا ، مَلَكها المســلمونَ منَّا ، وتغلَّبُوا عليهــا وغَصَبُوها ، وآستملكوها من أيدينا ، فنَحْنُ مَهْما فعَلْنــا بالمسلمين فهو قُبَالَة ما فَعَلُوا بنا ، ولا يكونُ له نِسْــبَةٌ إلىٰ من قُتِل من رُؤَسائنا ومُلُوكنا فى أيام الفُتُوح ، فجميعُ ما نأخُذُه من أموالِ المســلمين وأموال

مُلُوكهم وخُلَفائِهم حِلٌّ لنا ، وهو بَعْضُ ما نَسْتحِقُّه عليهم؛ فإذا حَمَلنا لهم مالًا كانت المِنَّةُ لنا عليهم، وأنشد :

بِنْتُ كَرْمٍ يَتَّمُوها أُمَّها * وأهانُوها فَدِيسَتْ بالقَدَم
ثُمَّ عادُوا حَكَّمُوها بَيْنَهم * وَيْلَهُمْ من فِعْلِ مظْلومٍ حَكَمْ

فاستحسن الحاضرون من النَّصارىٰ والمُنافِقين ماسَمِعُوه منه، وآستعادُوه، وعَضُّوا عليه بالنَّواجذ، حتَّى قيل : إنَّ الذى آحتاط عليه قَلَمُ اللَّعِينِ من أملاك المسلمين مائتا ألْفٍ وآثنان وسبعون ألفًا، ومائتا دَارٍ وحَانُوتٍ وأَرْضٍ بأعمال الدَّوْلة، إلىٰ أن أعادها إلىٰ أصحابها أبُو علىٍّ بن الأفضل؛ ومن الأموال ما لا يُحْصيه إلا اللهُ تعالىٰ .

ثم آنْتَبَه من رَقْدَته ، وأفاقَ من سَكْرته ، وأدركَتْه الحَمِيَّةُ الإسلاميه ، والغَيْرةُ المحمَّديَّه ، فغَضِب للهِ غَضْبَة ناصِرٍ للدِّين، وثَائِرٍ للمسلمين؛ فألبس أهلَ الذِّمَّة الغِيار، وأنزلهم بالمَنْزِلة التى أمر الله أن يُنْزَلوا بها من الذُّل والصَّغَار ؛ وأمر أن لا يُوَلَّوْا شيئًا من أعمال الإسلام، وأن يُنْشَأَ فى ذلك كتابٌ يَقِفُ عليه الخاصُّ والعامّ .

وهذه نُسْخَتُه :

الحمدُ للهِ المعبودِ فى أرْضِه وسمائِه، والمُجيبِ دعاءَ من يَدْعُو بأسمائه؛ المُنْفرِدِ بالقُدْرة الباهره، المتوحِّد بالقُوّة الظاهره، وهو اللهُ الذى لا إله إلا هو له الحمدُ فى الأُولىٰ والآخره؛ هَدَىٰ العِبادَ بالإيمانِ إلىٰ سَبِيل الرَّشاد، ووفَّقهم فى الطاعات لما هو أنفعُ زَادٍ فى المَعَاد؛ وتفرَّد بعِلْم الغُيُوب فعَلِم من كلِّ عبْدٍ إضْمارَه كما عَلِم تَصْرِيحَه ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَه ﴾ . الذى شرَّف دِينَ الإسلام وعَظَّمه، وقَضَىٰ بالسعادة الأَبدِيَّة لمن آنْتحاه ويَمَّمه، وفَضَّله علىٰ كلِّ شَرْعٍ سَبَقه وعلىٰ كلِّ دينٍ تَقَدَّمه؛ فنَصَره وخَذَلها، وأشاده

وأخملها، ورفعه ووضعها، وأطّده وضعضعها، وأبى أن يقبل دينًا سواه من الأولين والآخرين، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وشهد به بنفسه، وأشهد به ملائكته وأولي العلم الذين هم خلاصة الأنام، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

ولمّا ارتضاه لعباده وأتمّ به نعمته، أكمله لهم وأظهره على الدّين كلّه وأوضحه إيضاحًا مبينا، فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وفرّق به بين أوليائه وأعدائه، وبين أهل الهدى والضّلال، وأهل البغي والرّشاد، فقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وأمر تعالى بالثّبات عليه إلى الممات فقال وبقوله يهتدي المهتدون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. وهي وصيّة إمام الحنفاء لبنيه وإسرائيل: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وشهد على الحواريّين عبدالله ورسوله وكلمته عيسى بن مريم وهو الشّاهد الأمين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وأمر تعالىٰ رسولَه أن يدعوَ أهلَ الكتاب إليه، ويُشْهِدَ من تولَّىٰ منهم بأنَّه عليه؛ فقال تعالىٰ وقولُه الحقُّ المُبين: ﴿قُلْ يَـٰأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وصلَّى اللهُ على الذي رَفَعه باصْطفائه إلىٰ مَحلِّه المُنيف، وبعثه للناس كافَّةً بالدِّين القيِّم الحَنيف.

أما بعدُ، فإن الله سبحانه ببَالغ حِكْمَتِه، وتَتابُعِ نِعْمتِه، شَرَّف دِينَ الإسلام وطَهَّره من الأدْناس، وجعلَ أهْلَه خيرَ أمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس؛ فالإسلامُ الدِّينُ القَويمُ الذى اصطفاه اللهُ من الأديان لنَفْسه، وجعلَه دِينَ أنْبيائه ورُسُله وملائكة قُدْسه؛ فارْتضاه واخْتاره، وجعلَ خيرَ عبادِه وخاصَّتَهم هم أولياءَه وأنْصارَه؛ يحافظُون علىٰ حُدُوده ويُثابِرُون، ويَدْعُون إليـه ويُذَكِّرون، وَيَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، فهم بآيات رَبِّهـم يُؤْمنون، وإلىٰ مَرْضاته يُسارِعُون؛ ولمن خَرجَ عن دِينـه مُجاهِدُون، ولعباده بجُهْدِهم ينْصَحون، وعلىٰ طاعَتِه مُثابِرُون، وعلىٰ صَلَواتِهم يُحافِظُون، وعلىٰ رَبِّهم يتَوكَّلون، وبالآخرة هم يُوقِنُون: ﴿أُولَـٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

هـذا وإن أمَّةً لله هداها إلىٰ دِينِه القَويم، وجعلها ـ دُون الأُمم الجاحدة ـ علىٰ صِرَاطٍ مُسْتقيم، تُوفِي من الأُمَم سبعين، هم خيرُها وأكرمُها علىٰ رَبِّ العالمين ـ حَقيقةٌ بأن لا نوالِي من الأمم سواها، ولا نَسْتعينَ بمَن حَادَّ اللهَ خالقَه ورازقَه وعبدَ من دُونه إلهـا، وكذَّب رُسُلَه، وعصَىٰ أمْرَه واتَّبع غيرَ سَبِيله، واتَّخَذَ الشَّيْطانَ وَلِيًّا من دُون اللهِ؛ ومعلومٌ أن اليهودَ والنَّصارىٰ مَوْسومُون بغَضَبِ الله ولَعْنَتِه، والشِّرْك به والجَحْد

لوَحْدانيّتِه ؛ وقد فرض اللهُ علىٰ عبــاده فى جميع صلواتهم أن يَسْأَلوا هــدَايَةَ سبيلِ الذين أنْعم الله عليهم : من النَّبِيِّينَ والصِّدّيقينَ والشُّهَداء والصَّالِحين ، ويُجَنِّبَهم سبيلَ الذين أبْعدهم من رَحْمَتِه ، وطردَهم عن جَنَّتِه ؛ فباءُوا بغَضَبِه ولعنته : من المَغْضُوب عليهم والضالين .

فالأُمة الغَضَبية هم اليهودُ بنَصِّ القرآن ، وأمةُ الضَّــلالِ هُم النصارىٰ المُثَلِّثة عُبَّادُ الصُّلبان ؛ وقد أخبر تعالىٰ عن اليَهُود بأنَّهــم بالذِّلَّة والمَسْكَنَة والغَضَب مَوْسُومون ، فقال تعالىٰ : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ .

وأخبر بأنَّهــم باءوا بغَضَبٍ علىٰ غَضَبٍ وذلك جزاء المُفْتَرِين ، فقــال : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .

وأخبر سُبْحانَه أنه لَعَنهم ولا أصدَقَ من الله قِيلاً ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ .

وحكم سُبْحانَه بَيْنهم وبَيْن المسلمين حُكْماً تَرْتضيه العُقول ، ويتلقَّاه كلُّ مُنْصِف بالإذعان والقَبول ، فقال : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ .

وأخبر عمّا أحلّ بهم من العقوبة التى صاروا بها مثلًا فى العالمين، فقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ .

ثم حكم عليهم حكمًا مستمرًّا عليهم فى الذرارىّ والأعقاب، على ممرّ السنين والأحقاب، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ . فكان هذا العذابُ فى الدّنيا بعضَ الاستحقاق : ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾. وأنهم أنجس الأمم قلوبًا وأخبثهم طويّةً، وأرداهم سجيّة، وأولاهم بالعذاب الأليم، فقال : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ . وأنهم أمّةُ الخيانة لله ورسوله ودينه وكتابه وعباده المؤمنين، فقال : ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وأخبر عن سُوءِ ما يسمعون ويقبلون، وخُبْث ما يأكلون ويحكمون، فقال تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

وأخبر تعالى أنه لعنهم على ألسنة أنبيائه ورسله بما كانوا يكسبون، فقال : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ .

وقطعَ المُوالاةَ بين اليهودِ والنَّصارىٰ وبين المُؤْمنين، وأخبر أنَّ من تولّاهم فإنه منهم فى حُكْمه المبين، فقال تعالىٰ وهو أصْدَق القائلين: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُم مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُم إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وأخبر عن حالِ مُتَوَلِّيهم بما فى قَلْبه من المَرَض المؤدّى إلىٰ فساد العَقْل والدِّين، فقال: ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ .

ثم أخْبَر عن حُبُوط أعْمالِ مُتَولِّيهم ليكون المؤمنُ لذلك من الحَذِرين، فقال: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

ونهىٰ المُؤْمنين عن ٱتِّخاذ أعدائه أولياءَ، وقد كفروا بالحقِّ الذى جاءهم من ربّهم، وإنهم لا يمتنعون من سُوءٍ ينالُونَهم به بأيديهم وألسنتهم إذا قَدَرُوا عليه فقال تعالىٰ: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

وجعل سبحانه لعباده المسلمين أُسوةً حَسَنَةً فى إمام الحُنَفاءِ ومَن معه من المؤمنين، إذْ تبرأ ممَّن ليس علىٰ دينهم آمتثالا لأمر الله، وإيثاراً لمَرْضاته وما عنده،

فقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَه إِذْ قَالُوا لِقَومِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ . وتبرأ سبحانه ممن اتخذ الكفار أولياء من دون المؤمنين فقال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

فمن ضُروب الطاعات إهانتُهم فى الدُّنيا قبل الآخرة التى هم إليها صائرون ، ومن حُقُوق الله الواجبة أخذُ جِزْيَة رءُوسهم التى يعْطُونها عن يَدٍ وهُمْ صاغرُون ؛ ومن الأحكام الدِّينية أن يَعُمَّ جميعُ الأمَّة إلا مَن لا تجبُ عليه بآستخراجها ، وأَنْ يُعتمدَ فى ذلك سلوكُ سَبِيلِ السُّنَّة المحمَّدية ومِنْهاجها ؛ وأن لا يُسامَحَ بها أحدٌ منهم ولو كان فى قَوْمه عظيما ، وأن لا يُقْبلَ إرسالُه بها ولو كان فيهم زَعيما ؛ وأن لا يُحيلَ بها علىٰ أحدٍ من المسلمين ، ولا يُوَكِّلَ فى إخراجها عنه أحدًا من الموحِّدين ؛ بلْ تُؤْخذُ منه علىٰ وَجْهِ الذِّلَّة والصَّغار ، إعْزازًا للإسلام وأهْله وإذلالًا لطائفة الكُفَّار ؛ وأن تُسْتوفىٰ من جميعهم حَقَّ الآسْتيفاء ، وأهْلُ خَيْبرَ وغيرُهم فى ذلك على السَّواء .

وأمّا ما ادَّعاه الجَبابرةُ من وَضْع الجِزْيَة عنهم بعَهْدٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنَّ ذلك زُورٌ وبُهْتان ، وكَذِبٌ ظاهرٌ يعرفُه أهلُ العلْم والإيمان ؛ لَفَّقَه القَوْمُ البُهْتُ وزَوَّرُوه ، ووضَعُوه من تِلْقاءِ أنفسهم ونَمَّقُوه ؛ وظَنُّوا أن ذلك يخفىٰ على الناقدين ، أو يَرُوجُ علىٰ علماء المسلمين ؛ ويأْبَى اللهُ إلَّا أن يكشفَ مُحَالَ المُبطلين ، وإفْكَ المُفْترين ؛ وقد تظاهرت السنَنُ وصحَّ الخبرَ بأن خَيْبَرَ فتِحتْ عَنْوَة ، وأوْجفَ عليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على إجلائهم عنها كما أجْلَى إخوانَهم من أهْلِ الكِتَاب ، فلمّا ذكَرُوا أنهم أعْرَفُ بسَقْيِ نَخْلها ومَصالِح أرْضها ، أقرَّهم فيها

كالأُجَراءِ وجعل لهم نِصْفَ الأرْتِفاع ، وكان ذلك شَرْطًا مُبينا ، وقال : « نُقِرُّكُم فِيهَا مَاشِئْنَا » ، فأقرّ بذلك الجبابِرَةُ صاغرين ، وأقاموا علىٰ هذا الشَّرْط فى الأرض عَامِلين ، ولم يكنْ للقَوْم من الذِّمام والحُرْمَه ، ما يُوجِبُ إسقاطَ الجِزْية عنهم دُون مَن عداهم من أهْلِ الذِّمَّه ؛ وكيف ؟ وفى الكِتَاب المَشْحون بالكَذِب والمَيْن ، شهادةُ سَعْدِ ابن مُعَاذٍ وكان قد تُوُفِّى قبلَ ذلك بأكثر من سَنَتَيْن ؛ وشهادةُ مُعاويةَ بنِ أبِى سُفْيان ، وإنَّما أسلَم عام الفَتْح بعد خَيْبَر سنةَ ثمَان ؛ وفى الكِتَاب المَكْذُوب أنه أسقطَ عنهم الكُلَفَ والسُّخَر ، ولم تكنْ علىٰ زمانِ خُلَفائِه الذين سارُوا فى الناس أحْسَنَ السِّيَر .

ولما ٱتَّسعتْ رُقْعةُ الإسلام ، ودخل فيه الخاصُّ والعام ، وكان فى المسلمين مَن يقوم بعَمَلِ الأرض وسَقْيِ النَّخْل ، أجْلَىٰ عمرُ بنُ الخَطَّابِ اليهودَ من خَيْبَرَ بَلْ من جَزِيرة العَرَب حتَّى [قال] : لا أدَعُ فيها إلا مُسْلِماً .

⁂

وفى شهر رجب سنة سبعمائة وصل إلىٰ القاهرةِ المحروسةِ وَزِيرُ صاحبِ المَغْرِب حَاجًّا ، فٱجتمع بالمَلِك النَّاصِر «محمد بن قلاوون» ونائبُه يومئذٍ الأميرُ سلار ، فتحدَّثَ الوزيرُ معــه ومع الأمير بِيبَرْس الجَاشَنْكِير فى أمر اليَهُود والنَّصارَى ، وأنهم عندهم فى غاية الذِّلَّة والهَوَان ، وأنهم لا يُمَكَّن أحَدٌ منهم من رُكُوب الخَيْل ولا الآستخْدام فى الجِهَاتِ الدِّيوانية ، وأنْكر حالَ نَصارَى الدِّيار المِصْرية ويَهُودِها بسبب لُبْسهم أفْخَرَ الملابس ، ورُكُوبهم الخَيْــلَ والبِغالَ ، وٱستخدامهم فى أجلِّ المناصب ، وتَحْكيمهم فى رِقابِ المســلمين ؛ وذكر أن عَهْــد ذِمَّتهم ٱنقضىٰ من سنة ستمــائة من الهِجْرة النَّبويَّة ، فأثَّر كلامُه عند أهْلِ الدَّولة ، لاسيَّمــا الأميرُ بِيبَرْس الجَاشَنْكِير ، فأمَر بجَمْع النصارىٰ واليهود ، ورَسَم أن لا يُسْتخدَم أحدٌ منهم فى الجهات السلطانية ، ولا عند

الأَمَراء ، وأن تُغَيَّر عمـائمهم : فيلبس النَّصارَى العمائمَ الزُّرْق ، وتُشَـدُّ فى أوساطِهم الزنانيرُ، ويَلْبَسُ اليهودُ العمائمَ الصُّفْرَ ويدقوا (١) فى البيع فى إبْطال ذلك فلم يُقْبلْ منهم ، وغُلِّقت الكنائسُ بمصْر والقاهرة، وسُمِّرتْ أبوابُها، ففُعل بهم ذلك، وأُلْزِموا بأن لا يركَبُوا إلا الحَمـير، وأن يَلُفَّ أحدُهم إحدَىٰ رِجْلَيْـه إذا رَكب ، وأن يقَصَّر بنيانُهم المجاوِرُ للسلمين عن بناء المُسْـلم . وكُتِب بذلك إلىٰ جميع الأعمـال ليُعْمَلَ بمقتضاه ، وأسـلَمَ بسَبَبِ ذلك كثيرٌ منهم ؛ وأُلْبِسَ أهْـلُ الذِّمة بالشام : النَّصارَى الأزرق ، واليهودُ الأصْفر، والسامِرَةُ الأحمر .

ثم عادُوا إلى المباشرات بعد ذلك ، فآنتدبَ السلطانُ المَلِكُ «الصالحُ صالح» آبن الملك النـاصر فى سنة خمسٍ وخمسين وسبعمائة لَمْنعِهم من ذلك ، وألزمَهم بالشروط العُمَرِيَّة ، وكتب بذلك مَرْسومًا شَرِيفًا وبعث بنُسْـخته إلى الأعمـال فقُرِئَتْ علىٰ مَنَابِرِ الجوامع .

وهٰذه نُسختُه ــ صورةُ مافى الطُّرَّة :

«مَرسومٌ شريفٌ بأن يَعْتمِدَ جميعُ طوائف اليَهُود والنَّصارَىٰ والسَّامِرَة : بالديار المصرية ، والبلاد الإسـلامية المحروسة وأعمالهـا ، حُكْمَ عَهْد أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخَطَّاب رضى الله عنـه ، لمن مضىٰ من أهْلِ مِلَّتِهم : وهو أن لا يُحدِثُوا فى البلاد الإسلامية دَيْرا ولا كَنيسَةً ولا صَوْمَعَةَ راهبٍ، ولا يُجدِّدُوا ما خَرِبَ منها، ولا يُؤْوُا جَاسُوسًا ولا مَن فيه رِيبَةٌ لأهْلِ الإسـلام ، ولا يكْتُموا غِشًّا للسلمين، ولا يُعلِّموا أولادَهم القرآنَ، ولا يُظهِرُوا شِرْكًا، ولا يَمْنعُوا ذَوِى قَرابةٍ من الإسلام إن أَرادُوه ، ولا يتشَبَّهوا بالمسلمين فى لِباسِهم ؛ ويلبَسُون الغِيَار الأزْرق والأَصْفَر، وتُمنع نِساؤُهم

(١) بياض فى الأصـل فى غير نسخة والكلام غير ملتئم ولعل الأصل « العمائم الصـفر فبالغوا فى السعى فى إبطال ذلك» الخ .

من التَّشَبُّه بنساء المسلمين ، ولا يركبوا سَرْجًا ، ولا يتقلَّدوا سيفًا ، ولا يركبوا الخيلَ ولا البِغال ، ويركبون الحَمِيرَ بالأُكُف عَرْضًا ، ولا يبيعوا الخُمور ، وأن يلزموا زِيَّهم حيثُ كانوا ، ويشُدُّوا زَنانيرَهم غيرَ الحرير علىٰ أوساطهم ؛ والمرأةُ البارزةُ من النصارىٰ تلبَسُ الإزارَ الكَتَّانَ المصبوغَ أزرق ، واليهُوديةُ الإزارَ الأصْفر ؛ ولا يدخُلُ أحدٌ منهم الحَمَّامَ إلا بعلامةٍ تُميِّزه عن المسلمين فى عُنُقِه : من خَاتَمِ حَدِيدٍ أو رَصاصٍ أو غير ذلك ؛ ولا يَعْلوا على المسلمين فى البِناءِ ولا يُساوُوهم ؛ بل يكونون أدْوَنَ منهم ؛ ولا يضربُوا بالناقوس إلا ضَرْبًا خفيفًا ، ولا يرفعُوا أصواتَهم فى كَنائِسِهم ، ولا يَخْدُمُوا فى دولتنا الشريفة ــ ثَبَّت الله قواعدها ــ ولا عند أحَدٍ من أمرائها ــ أعزَّهم الله تعالىٰ ــ ولا يَلُوا وَظِيفةً يَعْلُو أمرُهم فيها علىٰ أحدٍ من المسلمين ؛ وأن يُحمَلَ الأمرُ فى مواريث مَوْتاهم علىٰ حُكْم الشريعةِ الشريفةِ المحمَّديَّة ، وتوقع عليهم الحَوْطَةُ الدِّيوانيةُ أُسْوة مَوْتَى المسلمين ؛ وأن لا يدخلَ نِسْوةُ أهْلِ الذِّمة الحمَّاماتِ مع المسلمات ، ويُجْعلُ لهنّ حمَّاماتٌ تخصُّهنّ يَدْخُلْنَها ، عملًا فى ذلك بما رَجَّحَه علماءُ الشَّرعِ الشريف ، علىٰ ما شُرح فيه » .

ونصُّه بعد البَسْملة الشريفة .

الحمدُ لله الذى بصَّر سلطانَنا الصَّالح ، باعتماد مَصَالح الدِّين والدُّنيا ، ويَسَّر لرَأْيِنا الراجح ، تَوْفيرَ التَّوفيق إثباتًا ونفيًا ، وتَحْريرَ التَّحقيق أمْرًا ونَهْيا ؛ وقَهر بأحْكامِ الإسلامِ ، من رام نَكْثَ العَهْد ونَقْضَ الذِّمام ، بتَعَدِّى الحُدُودِ عُدْوانًا وبَغْيا ، وَجَسَر علىٰ ٱقتحام ذُنوبٍ عِظَامٍ ، تُحِلُّ به فى الدَّارَين عذابًا وخِزْيا ، وتكَفَّل للأمّة المحمَّدية فى الأولىٰ والأُخرىٰ بالسعادة السَّرْمديَّة التى لا تتناهَىٰ ولا تَتَغَيّا ، وجعلَ كَلمةَ الذين كفروا السُّفلىٰ وكَلمَةَ الله هى العُلْيا .

نحمده أَنْ أصحبَ فِكْرَنا رَشَدًا وأذْهبَ بأمْرِنا غيًّا، ونَشْكُرُه علىٰ أن جبر بأحكام العَدْل للإيمان وَهْنًا وآثر لذَوى البُهْتان بالانتقام وَهْيا، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له واحدٌ أحَدٌ، فَرْدٌ صَمَد، خلقَ ورزق وأنْشأ وأفْنىٰ وأمَاتَ وأحْيا، وتقدَّس وتمجَّد عن الصَّاحبة والولَد، وأوجد عيسى بنَ مَرْيَمَ كما أوجدَ آدَمَ ولم يكنْ شيئًا وجعلَه عَبْدًا صالحًا نَبِيًّا زكِيًّا، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أنزل عليه مع الرُّوحِ الأمينِ قُرآنًا ووَحْيا، وآستأصل به شَأْفَةَ الكُفَّار وأنزل بهم من الأخطار الداهيةَ الدَّهْيا، وآتَّبع مِلَّةَ أبيه إبراهيم الذى أُرِىَ الصِّدْقَ وصدّق الرُّؤْيا، وجمع اللهُ به الشَّتاتَ فهدىٰ قلوبًا غُلْفًا وأسماعًا صُمًّا وأبصارًا عُمْيا، وبلّغ الرسالةَ وأدّى الأمانة، ونصح الأمّة فبُشْرىٰ لمن وُفِّق من أمّتِه فرُزِق لحِكْمَته وَعْيا، ورفَع الضلالةَ، وردّ الضالّة، وأجمل للعَهْد حفْظًا وللذِّمام رَعْيا، ونسخَتْ شريعتُه الشرائع، وسَدّت الذَّرائع، وشمَخت علىٰ النُّجوم الطوالع، فهى أسمىٰ منها رِفْعةً وأنْمىٰ عَدَدا وأسْنىٰ هدْيا، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله فُروعِ الزَّهْراء الذين عُنُوا بقوله تعالىٰ: ﴿رَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه عَلَيكُمْ أَهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ أمْرَعَ سَقْيا، خُصوصًا صِدِّيقَه ورَفيقَه فى المَمَات وفى المَحْيا، ومن آستخلفه فى الصَّلاة عنه إشارةً إلىٰ أنه أحقُّ لرُتْبة الخلافة بالرُّقْيا، ومن فَرَق منه الشَّيطانُ ووافَق الفُرْقَانُ له رَأْيا، ويَسَّر اللهُ تعالىٰ فى أيَّامه المباركة من الفُتُوحات ما لا آتَّفق لغيره ولا تَهَيَّا، وذا النُّورَيْنِ الذى قطَع اللَّيلَ تَسْبيحًا وقُرْآنًا وأحْيا، وآستحْيَتْ منه ملائكةُ السماء لمَّا مِنَ اللهِ آستحْيَا، وعلى الصِّهْرِ وآبنِ العَمِّ المُجاهِدِ الزَّاهد الذى طلَّق ثلاثًا الدَّارَ الفانيةَ التى ليس لها بُقْيا، وسَرَّه لمَّا قَضَى على الرِّضا نَحْبَه، فوجد الأحِبَّة: محمدًا وحِزْبَه، وحَمِدَ اللِّحاقَ واللُّقيا، وعلىٰ تَتِمَّة بَقيَّة العشرة الأبرار، وبَقيَّة المهاجرين

والأنصار، رحمةً تُديم لمضاجعهم صَوْبَها الدَّارَّ السُّقْيا ، صلاةً وافرةَ الأقسامِ سافِرَ القَسَماتِ باهِرةَ المُحيَّا، وسلَّم تسليماً كثيراً .

أما بعدُ، فأحكامُ الشَّرعِ الشريفِ أولىٰ بوجوب الاتّباع، وذِمامُ الدِّينِ الحنيف يُبيرُ من عصىٰ ويُجيرُ من أطاع، وحُرُماتُ المِلَّةِ المحمَّديَّة أحقُّ بأن تحفَظ فلا تُضاع؛ ومن المهمَّاتِ التى تُصْرَف إليها الهِمَّه، ويُرْهَفُ لها حَدُّ العَزْمه، وتُقامُ علىٰ متعدِّى حُدُودِها بالانتقام الجِزْيه؛ اعتبارُ أحْوالِ المِلَّتينِ من أهْـلِ الذِّمَّة الذين حَقَن منهم الدِّماءَ حُكْمُ الإسلام، وسكَّن عنهم الدَّهْماءَ ما التزموه من الأحْكام، مع القيام بالجِزْية فى كلِّ عام، وسلَّموا لأوامرِ الشَّريعَـةِ المطَهَّرةِ التى لولا الانقيادُ إليها والاستسلام، لأُغْمِدَ فى نُحُورِهم حَدُّ الحُسَام. فهم تَحْتَ قَهْرِ سلطانِ الإيمـانِ سائِرُون، ولأمْرِ دِينِ الحقِّ الذى نَسَخ اللهُ تعالىٰ به الأدْيانَ صائِرُون؛ وهم المَعْنِيُّون بقوله تعالىٰ : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ .

ولمَّـا فتح الله تعالىٰ ببركة سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ما فَتَح من البلاد، واسْترجَع بأيدى المهاجرين والأنصارِ من أيْدى الكُفَّار العادِيةِ كثيراً من الأمصار واسْتَعاد؛ وأكثرُ ذلك فى خلافةِ أمير المؤمنين «عُمَرَ بنِ الخطَّاب» رضى الله عنه ، فإنها كانت للفَتْح مَواسِم ، وبالمَنْح بَواسِم ؛ وتظافرتْ فيها للمسلمين عَزائِزُ العزائم ، التى أعادَتْ هَزاهِزُها الكُفَّارَ يجُرُّون ذُيولَ الهزائم ــ عقـدَ أمراؤُه الفاتحونَ لهـا بأمْرِه ــ رضى الله عنه وعنهم ــ لأهْلِ الكتَاب عَهْداً، وحدُّوا لهم من الآداب حَدًّا لا يجوزُ أنـ يتعـدَّىٰ ؛ ولم تزل الخلفاءُ بعد ذٰلك والملوكُ فى جميع بلادِ الإسـلام يُجدِّدُونها ، وبالمحـافظة والملاحظة يتعَهَّدونها ؛ وآخرُ من ألزمهم أحكامَها العادله ،

وعَصَمَهم بذِمَّتِها التى هى لهم ما آستقاموا بالسَّلامة كافله ؛ والدُنا السلطانُ الشَّهيد « الملك الناصر » ناصِرُ الدُّنيا والدِّين، سَقَى اللهُ تعالىٰ عَهْدَه عِهادَ الرَّحْمه، ولَقَّ نفْسَه الخيرَ لنُصْحِه الأُمَّه ؛ فإنه ــ قدّس اللهُ رُوحَه ــ جدّد لهم فى سنة سبعمائة لِباسَ الغِيار، وشدّد عليهم بَأْسَ النَّكالِ والإنكار، وعقد لهم ذِمَّة بها الآعْتِبار، وسَطَّر فى الصحائف منها شُروطًا لهم بالتزامها إقْرار، وبأحكامها أمكنهم فى دار الإسلام الآستقرار ؛ وخذل الفِئَتَينِ المُفْتَرِيَتَيْنِ عملًا بقول الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

ولمَّا طال عليهم الأمَدُ تَمادَوْا علىٰ الآغْتِرار، وتَعَادَوْا إلىٰ الضرِّ والإضرار ؛ وتدرّجوا بالتكبر والآستكبار، إلىٰ أن أظهروا التَّزيُّن أعْظَمَ إظهار، وخرجوا عن المَعهُود فى تَحْسينِ الزُّنَّارِ والشِّعار، وعَتَوْا فى البلاد والأمصار، وأتَوْا من الفَسادِ بأمورٍ لا تُطاقُ كِبار .

ولما وَضَح عندنا منهم الآستمرارُ علىٰ ذلك والإصْرار، أنْكرنا عليهم أشَدَّ إنْكار، ورأينا أن نَتَّبع فيهم ما أمر اللهُ تعالىٰ به فى الكِتَاب والسُّنَّه، وأبيْنا [إلا معاملتهم] بأحكام المِلَّةِ المحمَّديَّة التى كم لها علىٰ المِلَّتين العيسَوِيَّة والمُوسَوِيَّة من مِنَّه، وادَّخر الله تعالىٰ لنا هذه الحَسَنَةَ التى هى من جملة الفتوحات التى يفتحُ اللهُ تعالىٰ بها لنا فى الدُّنيا أبْوابَ السَّعادةِ وفى الآخرةِ أبْوابَ الجَنَّه ؛ فاسْتَفْتَينا فى أمرهم المجالسَ العاليةَ حُكَّامَ الشَّريعة المطَهَّره، وآقتدَيْنا بأقوالِ مذاهبهم المحرَّره، التى لنا بهَدْيها إلىٰ إصابة الصَّواب تَبْصِره ؛ وعَقَدْنا لهم مجلسًا بدار عَدْلنا الشريف، وألزمناهم أحْكامَ أهل الذِّمَّة التى بآلتزام أوائلهم لها جَرَىٰ عليهم حُكْمُ هذا التَّكْليف ؛ وأخذناهم بالعَهْد الذى نَسُوه، وألبسناهم ثَوْبَ الهَوانِ الذى لَبِسُوا [و] لما طال عليهم الزمانُ نزعُوه ولم يَلْبَسُوه ؛ وأجْرينا عليهم الآنَ شروطَه المَضْبُوطَه، وقوانِينَه التى هى من التَّبديل

والتَّغْيير مَحُوطَه ؛ فمن جاوزها ، فقد شاقَّ الشَّريعةَ الشريفةَ وبارَزَها ؛ ومن خالفها ، فقد عاند المِلَّة الإسلاميَّةَ وواقفَها ؛ ومن صَـدَف عن سُبُلها وتنكَّبها ، فقـد ٱقترف الكبائر وٱرْتكبها ؛ وحظرنا عليهم أن يجعـل أحَدٌ منهم له بالمسلمين شَبَهًا ، وصيَّرنا عليهم الذِّلَّة التى ضربها اللهُ تعالىٰ عليهم وأوْجَبها .

فلذلك رسم بالأمْرِ الشريف العالى ، المَوْلَوِىّ ، السُّلطانىّ ، المَلَكِىّ ، الصَّالِحِىّ ، الصَّـلاحِىّ ـ لا زال أمرُه المُمتثَل المُطاع ، وزجْرُه به عن المآثم ٱمتناعٌ وٱرْتِدَاع ، ورَأْيُه الصالحُ يريدُ الإصلاح ما ٱستطاع ـ أن يَعْتمِدَ جميعُ طوائفِ النَّصارىٰ واليَهُودِ والسَّامِرَةِ بالديار المصرية وجميع بلاد الإسلامِ المحروسةِ وأعمالها : من سَائِر الأقطار والآفَاقِ ، ما أُخِذ علىٰ سَالِفِيهم فى عَهْدِ أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطَّاب رضى الله عنه من أكيد العَهْد ووَثِيق المِيثَاق :

وهو أن لا يُحْدِثُوا فى البلاد الإسلامية وأعمالهـا دَيْرًا ولا كَنِيسةً ولا قَلَّايةً ولا صَوْمَعةَ راهبٍ ، ولا يُجَدِّدوا فيها ما خَرِب منها ، ولا يمنعوا كنائسهم التى عُوهِدُوا عليها ، وثَبتَ عَهْدُهم لديها ، أن ينزلهـا أحَدٌ من المسلمين ثلاثَ ليالٍ يُطعِمُونهم ، ولا يُؤْوا جاسُوسًا ولا مَنْ فيه رِيبَـةٌ لأهل الإسـلام ، ولا يَكْتُمُوا غِشًّا للمسلمين ، ولا يُعَلِّموا أولادهم القُرْآنَ ، ولا يُظْهِروا شِرْكًا ، ولا يمنعُوا ذَوِى قرابة من الإسلام إن أرادُوه ، وإن أسلم أحدٌ منهم لا يُؤْذُوه ولا يُسا كِنُوه ، وأن يُوَقِّروا المسلمين ، وأن يقومُوا من مجالِسِهم إن أرادُوا الجلوسَ ، وأن لا يَتَشبَّهوا بشَىْءٍ من المسـلمين فى لِباسهم قَلَنْسُوَةً ولا عِمامةً ولا نَعْلينِ ولا فَرْقَ شَـعْرٍ ، بل يلبَس النَّصرانىُّ منهـم العِمامةَ الزَّرقاء عَشَرة أذْرُعٍ غير الشـعرى (؟) فمـا دونها ، واليهودىُّ العِمامةَ الصَّفراءَ كذلك ؛ وتُمْنع نِساؤُهم من التَّشبُّه بنساء المسلمين ولُبْس العمائم ، ولا يتَسَمَّوْا بأسمـاء

المسلمين، ولا يتكنّوا بكُناهم، ولا يتلقّبوا بألقابهم، ولا يركبوا سَرْجًا، ولا يتقلّدوا سَيْفا، ولا يركَبُوا الخَيْـل ولا البِغالَ، ويركبون الحميرَ بالأُكُف عَرْضًا من غير تزيّن ولا قيمةٍ عظيمةٍ لها، ولا يتخذوا شيئًا من السِّلاح، ولا ينْقُشوا خواتيمَهم بالعربيَّة، ولا يبيعوا الخمورَ، وأن يجُزُّوا مَقادِمَ رُءُوسهم، وأن يلزموا زِيّهم حيثُ ما كانوا، ويشـدُّوا زَنانيرَهم غير الحرير على أوْساطهم، والمرأةُ البارِزَةُ من النصارى تلبَسُ الإزارَ الكتّان المَصْبوغَ أزْرق، واليهُودِيّةُ الإزارَ المصبوغَ أصْفر، ولا يدخلَ أحدٌ منهم الحمّامَ إلا بعلامةٍ تميّزُه عن المسلمين فى عُنُقه : من خاتَم نُحاسٍ أو رَصاصٍ أو جَرَسٍ أو غير ذلك، ولا يستخْدِمُوا مسلمًا فى أعمالهم، وتلبَسُ المرأة البارِزَةُ منهم خُفَّين : أحدُهما أسودُ، والآخَرُ أبيَض، ولا يُجاوِرُوا المسلمين بمَوْتاهم، ولا يرفعوا بِنَاءَ قُبورِهم، ولا يَعْلُوا على المسلمين فى البِناء، ولا يُساوُوهم، ولا يتحيَّلُوا على ذلك بحيلَة، بل يكونون أدْونَ من ذلك، ولا يَضرِبُوا بالناقوس إلا ضَرْبا خَفيفا، ولا يرفعُوا أصواتَهم فى كنائسهم، ولا يُخْرِجُوا شعانين، ولا يرفعوا أصْواتَهم على مَوْتاهُم، ولا يُظْهِروا النِّيرانَ، ولا يَشْتَرُوا مُسْلِمًا من الرَّقِيق ولا مُسْلِمَةً، ولا من جَرَتْ عليه سِهامُ المسلمين، ولا مَن مَنْشَؤُه مُسلِم، ولا يُهوِّدُوا ولا يُنَصِّروا رَقيقًا، ويجتنبون أوساطَ الطريق تَوْسِعةً للمسلمين، ولا يَفْتِنُوا مسلمًا عن دِينه، ولا يَدُلُّوا على عَوْرات المسلمين . ومن زَنَى بمُسْلِمةٍ قُتِل، ولا يضعُوا أيديَهم على أراض مَوَاتٍ للمسلمين ولا غَيْر مواتٍ ولا مُزْدرع، ولا ينْسبُوه لصَوْمَعةٍ ولا كَنِيسةٍ ولا دَيْرٍ ولا غير ذلك، ولا يشْتَروا شيئًا من الجَلَبِ الرقيق ولا يُوكِّلوا فيه، ولا يتحيَّلُوا عليه بحِيلَةٍ . ومتى خالفوا ذلك فقد حلَّ منهم ما يحِلُّ من أهْلِ النِّفاقِ والمُعانَدَة .

وكذلك رسمنا أنَّ كلَّ مَن مات من اليهُود والنَّصارَى والسَّامِرة : الذُّكورِ والإناثِ منهم يحتاط عليهم من ديوان المواريث الحَشْريَّةِ بالديار المصرية وأعمالها وسائر

البلاد الإسْلاميَّة المحروسة ، إلىٰ أن تُثْبِتَ ورَثَتُه ما يستحقّونه من ميراثه بمقتضى الشَّرْع الشريف ، وإذا أثبتوا ما يَسْتحقّونه يُعطونه بمُقْتَضاه؛ ويُحَمل ما فَضَل بعد ذلك لبَيْتِ المال المعمور؛ ومن مات منهم ولا وَارثَ له يَسْتوعِبُ ، حُمِلَ مَوْجودُه لبَيْتِ المال المعمور، ويُجْرُونَ فى الحَوْطةِ علىٰ مَوْتاهُم من دَواوِين المَوارِيث ووُكَلاءِ بَيْتِ المال المعمور مُجْرَىٰ من يموتُ من المسلمين : ليتَبيَّن أمرُ مواريثِهم ، ويُحْمل الأمرُ فيهما علىٰ حُكْم الشَّرع الشريف ، عملًا بالفتاوَى الشَّرعية المتضَمِّنَة إجراءَ مواريثِ مَوْتاهُم علىٰ حُكْم الفَرائِض الشَّرعية بحُكْم المِلَّة الاسلاميَّة المحمَّديَّة : من إعطاءِ كلِّ ذِى فَرْضٍ وعَصَبَةٍ ما يستحقُّه شَرْعًا ، من غير مُخالَفةٍ ولا آمتناع ، ولا مُواقَفَةٍ ولا دِفَاع ، فإنَّ ذلك مما يتعيَّنُ أن يكونَ له إلىٰ بَيْتِ المال المعمور فيه إرجاع ؛ ولتعلُّقِ حقوق المؤمنين بذلك ، ولأنه يعيد حيث تفيا إلىٰ المسلمين ما يَسْتحقُّه بيتُ المال من مال كلِّ هَالِك ، ولأنَّا المطالبُون بما يَئُولُ إلىٰ ميراثِ المسلمين من تُراثِ أولَئِك ، لتكونَ هذه الحَسَنةُ فى صحائفنا مُسَطَّره ، وإن كانت الأيامُ قد تمادتْ عليها ومَعْرِفتُها نَكِرَه ، وتَعادتْ اليها أيْدِيهم العَادِيَةُ فَآختلَسَتْ من الذَّهبِ والفِضَّةِ القَناطِيرَ المقَنْطَرَه .

ورَسَمْنا أن لا يخدمَ نَصْرانِىٌّ ولا سَامِرِىٌّ ولا يَهودِىٌّ فى دَوْلتِنا الشريفة ثَبَّت اللهُ قواعِدَها ، ولا فى دواوين الممالك المحروسة والأعمال ، ولا عِنْد أحدٍ من أُمَرائنا أعزَّهم الله تعالىٰ ، ولا يُباشِرُ أحدٌ منهم وَكالةً ولا أمَانَةً ، ولا ما فيه تَأَمُّرٌ علىٰ المسلمين ، بحيثُ لا يكونُ لهم كلمةٌ يستَعْلُون بها علىٰ أحَدٍ من المسلمين فى أمْرٍ من الأمور ، فقد حَرَّم اللهُ ذلك نَصًّا وتأويلا ، وضمَّن حُكْمَه فى الحال والآستقبال قُرآنًا وتَنْزِيلا ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . وأوضح فى آجتنابهم للمتَّقين علم اليَقين ، فقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ

آتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَٱتَّقُوا ٱللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقد نهى الله عن موالاتهم وأضاف بسخطه كلَّ خزيٍ إليهم ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وقد أذلَّهم الله جلَّ وعزَّ لافترائهم واجترائهم من كتابه العزيز فى مواضع عِدّه ، فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ . فوجب أن لا يكونوا على الأعمال أمنه ، ولا للأموال خزنه : لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليهودُ والنصارىٰ خونه » . وقال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : « لا تستعملوا اليهودَ والنصارىٰ فإنهم أهلُ رُشًا فى دينهم ولا تحِلُّ الرُّشا » فباعتزالهم واختزالهم يُؤمَن من مكرهم وخيانتهم ما يُختشى .

ولما قدم عليه أبو موسى الأشعرىّ من البصرة وكان عامله بها ، دخل عليه المسجد ، واستأذن لكاتبه وكان نصرانيًّا ، فقال له أمير المؤمنين عمر : ـ ولّيت ذمّيًّا على المسلمين ، أما سمعت قولَ الله تعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ هلّا اتخذت حنيفيًّا ؟ ـ فقال يا أمير المؤمنين : لى كتابته وله دينه ، فأنكر أمير المؤمنين عليه ذلك ، وقال : لا أكرمهم إذ أهانهم الله ، ولا أعزّهم إذْ أذلّهم الله ، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله ـ . فاتّبعنا فى صرفهم الكتابَ والسُّنَّة والأثر ، ومنعنا عن المسلمين ـ بِغَلّ أيديهم عن المباشرة ـ الأذى والضَّرر ، ودفعنا عن أمير المؤمنين من سُوء معاشرتهم ما ألِمُوا له من الأذىٰ مع شرّ معشر .

فليعتمد حُكمُ هذا المرسوم ، الذى هو بالعدل والإحسان موسوم ، وليُخلّد فى صحائف المثوبات ليستقرَّ ويستمرَّ ويدوم ، وليُشَعْ ذكرُه فى الممالك ، وليُذَعْ أمرُه فى المسالك ، وعلىٰ حُكّام المسلمين ـ أيدهم الله تعالىٰ ـ وقُضاتهم ، ومتصرّفيهم

وولاتهم ؛ أن يُوقعوا بمن تعدّىٰ هذه الحدود ، من النصارى واليهود ، ويردعوا بسيف الشرع كلّ جهولٍ من أهل الجحود ، ويُحِلُّوا العذابَ بمن حمله العقوقُ علىٰ حلّ العقود ، ويذلّوا رقاب الكافرين بالإذعان لاستخراج الحقوق وإخراج الأضغان والحقود .

وقد رسمنا بأن يُحمَل الأمرُ في هذا المرسوم الشريف علىٰ حكم ما التزم في المرسوم الشريف الشهيدىّ الناصرىّ المتقدّم ، المكتتب في رجب سنة سبعمائة ، المتضمّن للشهادة علىٰ بطركي النصارى اليعاقبة ، والملكيّة ، ورئيس اليهود بالتحريم وإيقاع الكلمة علىٰ من خالف هذا الشرطَ المشروطَ والحدَّ المحدود ، وأن لا يَحُلُّوا ما انبرم من مُحكَم العقود ، فيحلّ عليهم عذابٌ غيرُ مردود ، والله تعالىٰ يُعين سلطانَ الحقّ علىٰ ما يرجع بنفع الخلق ويعود ، ويزين بصالح المؤمنين مُلكَ الإسلام وممالكَ الوجود ، ويُهين ببأسه أعداءَ الدّين ، الذين لهم عن السبيل المبين ، صُدوفٌ وصُدود ، ويَسلُك به شِرعة الشرع الشريف ومنهاجه : من إماتة البدع وإحياء السُّنَن وإدامة الصَّوْن وإقامة الحدود ، ويُهلك بسطوته الكافرين كما هلك بدعوة صالحٍ النبيّ صلى الله عليه وسلم ثمود . والعلامة الشريفة أعلاه حجّةٌ فيه .

تم الجزء الثالث عشر . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الرابع عشر

وأوّله الباب الرابع من المقالة التاسعة

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الاميرية ١٦٩٣/١٩١٨/٣٠٠٠)

دار الكتب السلطانية

صبح الأعشى

الجـــزء الثالث عشر

طبـــع
بالمطبعة الامـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٧ هـ
١٩١٨ م

فهـــــرس

الجـــــزء الثـــالث عشر

من كتاب صـــبح الأعشى للقلقشـــندى

المقالة السادسة

صفحة

المقـالة السابعـــة

المقالة الثامنة

المقالة التاسعة

صفحة

(تم فهرس الجزء الثالث عشر من كتاب صبح الأعشى)

دار الكتب السلطانية

كتاب
صبح الأعشى
تأليف
الشيخ أبى العباس احمد القلقشندى

الجـــزء الرابع عشر

طبـــع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٨ هـ
١٩١٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الباب الرابع
من المقالة التاسعة
(فى الهُدَنِ الواقعةِ بين مُلُوكِ الإسلام وملوكِ الكُفْر ، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل
فى أصولٍ تتعيَّنُ على الكاتب معرِفَتُها ، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأوّل
(فى بيان رُتْبتها ومعناها ، وذِكْرِ ما يُرادفُها من الألفاظ)

أما رُتْبَتُها فإنها متأخرةٌ ــ عند قُوَّة السلطان ــ عن عَقْدِ الجِزْيَةِ : لأن فى الجِزْيَة ما يدلُّ على ضَعْفِ المعقود له ، وفى الهُدْنةِ ما يدلُّ على قُوَّته .

وأما معناها فالمُهادَنة فى اللُّغة المُصالحةُ ، يقال : هادَنه يُهادِنُه مُهادَنةً إذا صالحه والاسم الهُدْنة . وهى إما من هَدَن بفَتْح الدال يَهْدُن بضَمِّها (1) هُدُونًا إذا سكن ، ومنه قولُهم : « هُدْنَةٌ على دَخَنٍ » . أى سُكونٌ على غِلٍّ ، أو تكون (2) قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

---

(1) أى من باب قتل كما فى المصباح و به ضبط بالقلم فى نسخة خطية من الصحاح ولكن ضَبْطُه فى القاموس واللسان وكذا المحكم بالقلم يفيد أنه من باب ضرب ، فلعل فيه لغتين .

(2) هذا هو أحد شق التفصيل . أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفُها ألفاظٌ أخرى :

احدها — المُوادَعة، ومعناها المُصالحَةُ أيضا، أخذًا من قولهم : عليك بالمَوْدوع يريدون بالسَّكينةِ والوَقَار، فتكونُ راجعةً إلىٰ معنى السُّكون . وإما أخْذًا من تَوْديع الثَّوْب ونَحْوِه : وهو جَعْلُه فى صِوَان يَصُونُه، لأنه بها تحصل الصِّيانةُ عن القتال . وإما أخْذًا من الدَّعة : وهى الخَفْضُ والهَنَاء، لأن بسببها تحصلُ الراحةُ من تَعَب الحَرْب وكُلَفه .

الثـانى — المُسالَمَة ومعناها ظاهِرٌ : لأن بوقوعها يَسْـلَمُ كلٌّ من أهْلِ الجانبين من الآخر .

الثالث — المُقاضاةُ، ومعناها [المُحاكَمَةُ مُفَاعَلَةٌ من القَضَاءِ بمعنى الفَصْلِ والحُكْمِ] .

الرابع — المُواصَفةُ، سُميتْ بذلك لأن الكاتِبَ يَصِفُ ما وقع عليه الصُّلح من الجانبين . علىٰ أن الكُتَّابَ يخُصُّون لَفْظ المواصفة بما إذا كانت المهادنة من الجانبين، ولا شَـكَّ أن ذلك جارٍ فى لَفْظِ المُوادَعةِ والمُسالَمَةِ والمُقَاضاةِ أيضـا : لأن المفاعلة لاتكون إلا بين آثنين إلا فى ألفاظٍ قليلةٍ محفوظةٍ، علىٰ ماهو مقرّر فى عِلْمِ العربية .

أما لفظُ الهُدْنَةِ فإنَّه يصدُقُ أن يكونَ من جانبٍ واحدٍ، بأن يَعْقِدَ الأعلىٰ الهدْنةَ لمن هو دُونَه . علىٰ أنها عند التَّحْقيق ترجع إلىٰ معنى المفاعلة، إذ لا تتصوّر إلا من آثنين .

وأما فى الشَّرْع فعبارةٌ عن صُلْحٍ يَقَعُ بين زعيمين فى زَمَنٍ معلومٍ بشروطٍ مخصوصةٍ، علىٰ ماسيأتى بيانه فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

والأصل فيها أن تكون بين مَلِكَيْنِ مُسْلِمٍ وكَافِرٍ، أو بين نائبَيْهما، أو بين أحَدِهما ونَائِبِ الآخر. وعلىٰ ذلك رتَّب الفُقَهاءُ رحمهم الله باب الهُدْنَةِ فى كُتُبِهم. قال صاحب

"موادّ البيان" . وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التَّوادُع والتَّسالُم وٱعْتِقاد المَوَدَّةِ والتَّصافِي، والتَّوازُرِ والتَّعاوُنِ، والتَّعاضُدِ والتَّناصُرِ؛ ويشترطُ الأضْعَفُ منهم للأقوى تَسْليمَ بعض ما في يَدِه والتَّفادِي عنه بمعاطَفَتِه والآنقياد إلى ٱتِّباعه، والطاعة والآحترام في المخاطبة، والمجاملة في المعاملة، أو الإمداد بجَيْشٍ، أو ٱمتثال الأوامر والنواهي وغيرها ممّا لا يُحْصَى .

قلتُ : وقد يكون المَالِكَانِ متساويين في الرُّتْبة أو مُتَقارِبَيْنِ ، فيقَعُ التَّعاقُدُ بينهما على المُسالَمَةِ والمُصافاةِ، والمُوازَرَةِ والمُعاوَنَةِ، وكَفِّ الأَذِيَّة والإِضْرارِ وما في معنى ذلك، دُونَ أن يلتزِمَ أحدُهما للآخَرِ شيئًا يقومُ به أو إِتاوَةً يحملُها إليه ؛ ولكلِّ مَقامٍ مَقالٌ، والكاتِبُ المَاهِرُ يُوَفِّي كلَّ مقامٍ حَقَّه ، ويُعطِي كلَّ فَصْلٍ من الفصول مستَحقَّه .

الطرف الثانى

(في أصْلِ وَضْعِها)

أمَّا مُهادَنَةُ أهْلِ الكُفْرِ فالأصْلُ فيها قولُه تعالى : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ الآية، وقولُه : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ .

وما ثبت في صحيح البُخارِيِّ من حديث عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ رضي الله عنه :

« أنَّ قُرَيْشًا وجَّهَتْ إلى النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلم وهو بالحُدَيْبِيَةِ حِينَ »
« صَدَّهُ قُرَيْشٌ عن البَيْتِ ـ سُهَيلَ بنَ عَمْرو ، فقال للنبيِّ صلى الله عليه »
« وسلم : هاتِ [ٱكْتُب] بيْننا وبَيْنَك كِتَابًا، فدعا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم »
« الكَاتِبَ ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « ٱكْتُبْ بسم الله الرحمن »

«الرحيم» . فقال سُهَيلٌ : أما الرحمٰن فوالله ماأدرى ماهو؟ ولكن اكْتُبْ»
«بٱسمك اللّهُمَّ كما كُنْتَ تكتُبُ . فقال المسلمون : والله لانكتب إلّا»
«بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبىُّ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ : اكتُبْ :»
«بٱسمك اللهم ـ ثم قال : هذا ماقَاضَى عليه محمدٌ رسولُ اللهِ ـ فقال سُهَيْلٌ :»
«وٱللهِ لو كُنَّا نعلمُ أنَّك رسولُ اللهِ ما صَدَدْناك عن البَيْتِ ولا قَاتَلْناك؛»
«ولكن اكتب محمدُ بنُ عبدِالله، فقال النبىُّ صلَّى الله عليه وسلم : وَاللهِ»
«إنى لرسولُ الله وإن كَذَّبْتمونِى ، اكتُبْ محمدُ بنُ عبد الله، ثم قال النبىُّ»
«صلى الله عليه وسلم : على أن تُخَلُّوا بيننا وبين البَيْتِ فَنَطُوفُ به ـ فقال»
«سُهَيلٌ : والله لاتَتَحَدَّثُ العَرَبُ أنَّا قَدْ أُخِذْنا ضُغْطَةً، ولكن ذٰلك من»
«العَامِ المُقْبِلِ ، فكتب ـ قال سُهَيلٌ : وعلى أنه لا يأتيك منَّا رَجُلٌ»
«وإنْ كان على دِينِك إلا رَدَدْتَه إلينا ـ قال المسلمون : سُبْحانَ الله!»
«كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً! فبينما هُمْ كذٰلك، إذ جاء»
«أبو جَنْدَلٍ يَرْسُفُ فى قُيُودِه، وقد خَرَج من مَكَّةَ حتَّى رمىٰ بنفْسه بين»
«أَظْهُرِ المسلمين ـ فقال سهيلٌ : هذا يا محمدُ أوّلُ ما أُقَاضِيك عليه أن»
«تَرُدَّه إلىّ ـ فقال النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم : إنا لم نَقْضِ الكِتَابَ بعدُ ـ»
«قال : فوالله [إذًا] لا أُصالِحُكَ على شَىْءٍ ابدا ـ قال النبِىُّ صلى الله»
«عليه وسلم : فأَجِزْهُ لِى ـ قال : ما أنا بمُجيزِه لك ـ قال بلى فافعَلْ ـ !»

«قال : ما أنا بفاعلٍ . قال مِكْرَز بنُ حَفْصٍ : بلى قد أجَزْناه لك . قال»
«أبو جَنْدلٍ : أى مَعْشَرَ المسلمين : أُرَدُّ إلى المشركين وقد جِئْتُ مُسْلِمًا ؟»
«ألا تَرَوْنَ ما قد لَقِيتُ ؟ وكان قد عُذِّب عذابًا شـديدًا فى الله تعالى .»
«قال عمرُ بن الخَطَّابِ : فأتَيْتُ النبيَّ صـلى الله عليه وسـلم ، فقلت :»
«ألستَ نَبِيَّ اللهِ حقًّا ؟ قال بلى ! قلتُ : ألَسْنَا على الحقّ وعَدُوُّنَا على»
«الباطلِ ؟ قال بلى ! قلتُ : فلِمَ نُعْطى الدَّنِيَّةَ فى دِينِنا إذًا ؟ قال : إنى»
«رسولُ الله ولستُ أعْصِيه وهو نَاصِرِى» .

قلت : هـذا ما أورده البخارىُّ فى حديثٍ طَوِيلٍ [1] . والذى أورَدَه أصحـابُ السِّيَرِ أن الكاتِبَ كان علىَّ بنَ أبى طَالِب ، وأن نُسْخةَ الكتاب :

«هذا ما قاضَى عليه محمدُ بنُ عبدِ اللهِ سُهَيلَ بنَ عمرٍو على وَضْعِ الحَرْبِ»
«عن النـاس عَشْر سنين ، وأنه من أَحَبَّ أن يدخُلَ فى عَقْدِ محمدٍ»
«وعَهْدِه دخلَ فيـه ، ومن أَحَبَّ أن يدخُلَ فى عَقْدِ قُرَيْشٍ وعَهْدهم»
«دخل فيه» .

وأشهد فى الكتاب على الصُّلْح رجالًا من المسلمين والمُشْركين .

---

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من "ارشاد السارى" للقسطلانى ومنه كان التصحيح .

الطـــــرف الثـالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة الهُدَن)

قال فى "موادّ البيان" : وهـذا الفنّ من المكاتبات له من الدّولة محلّ خطير، ومن المملكة موضع كبير، ويتعين على الكاتب أن يُخَلّى له فكره، ويُعمل فيه نظره، ويتوفّر عليه توفّرا يُحكم مبانيه، ويهذّب معانيه .

والذى يلزمُ الكاتبَ فى ذلك نوعان :

النــــــوع الأوّل

(مايختص بكتابة الهُدْنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر)

وهى الشروط الشرعية المعتبرة فى صحّة العَقْد، بحيثُ لا يصحّ عقدُ الهُـدْنة مع إهمال شَىْء منها . وهى أربعة شروط :

الأوّل — فى العاقد . ويختلفُ الحالُ فيه بآختلاف المَعْقود عليه : فإن كان المعقودُ عليه إقليما : كالهند والرّوم ونحوهما، أو مُهادَنَةَ الكفّار مطلقا، فلا يصحّ العَقْدُ فيه إلا من الإمام الأعْظَم أو من نائبه العامّ المفوّض إليه التّحدّث فى جميع أمور المملكة . وإن كان على بعض القُرَىٰ والأطراف، فلآحاد الوُلَاة المجاورينَ لهم عَقْدُ الصُّلْح معهم .

الثـانى — أن يكونَ فى ذلك مَصْلَحةٌ للمسلمين : بأن يكون فى المسلمين ضَعْفٌ أو فى المال قِلّةٌ، أو توَقُّع إسلامهم بسبب آختلاطهم بالمسلمين، أو طَمَعٌ فى قبولهم الجزْيَةَ من غير قتالٍ و إنفاقِ مالٍ . فإن لم تكنْ مصلحةٌ فلا يُهادَنُون بل يُقاتَلُون حتّىٰ يُسْلموا أو يؤدّوا الجزْيَةَ إن كانوا من أهلها .

الثـالث — أن لا يكون فى العَقْد شَرْطٌ يأباه الإسْـلامُ : كما لو شُرطَ أن يُتْرَكَ بأيديهم مالُ مُسلمٍ، أو أن يُرَدّ عليهم أسيرٌ مُسلِمٌ آنفلَتَ منهم، أو شُرِطَ لهم على المسلمين

مالٌ من غير خَوْفٍ على المسلمين ، أو شُرِطَ رَدُّ مُسلِمَةٍ إليهم ، فلا يصحُّ العَقْدُ مع شيءٍ من ذلك ، بخلاف ما لو شُرِطَ رَدُّ الرجلِ المسلم أو المرأةِ الكافرة فإنه لا يمنعُ الصِّحَّة . قال الغزالى : وقد جرَت العادةُ أن يقول : (١) علىٰ أنَّ مَن جاءكم من المُسْلمين رَدَدْتُمُوه ، ومن جاءنا مُسْلمًا رَدَدْناه . فإن كان فى المسلمين ضَعفٌ وخِيفَ عليهم ، جاز ٱلتزامُ المالِ لهم دَفْعًا للشَّرِّ ، كما يجوز فكُّ الأسيرِ المُسلِم إذا عَجَزْنا عن ٱنتزاعه .

الرابع — أن لا تزيدَ مدّةُ الهُدْنةِ عن أربعة أشْهُر عند قُوّة المسلمين وأَمْنِهم ، ولا يجوز أن تَبْلُغ سَنةً بحال ، وفيما دُون سَنَةٍ وفوقَ أربعةِ أشْهُر قَولانِ للشافعيِّ رضى الله عنه ، أصَحُّهما أنه لا يجوز . أما إذا كان فى المسلمين ضَعْفٌ وهناك خَوْفٌ ، فإنه تجوزُ المهادَنةُ إلىٰ عَشرِ سنين ؛ فقد هادَنَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أهْلَ مكّةَ عَشرَ سنين كما رواه أبو داوُد فى سُنَنه . ولا تجوز الزيادةُ عليها على الصحيح ، وفى وجهٍ تجوزُ الزيادةُ علىٰ ذلك للمَصْلَحَة . فلو أطلَقَ المُدّةَ فالصحيح من مَذْهَب الشافعيّ أنّها فاسِدَةٌ ، وقيل : إن كانت فى حال ضَعْفِ المسلمين حُمِلَتْ علىٰ عَشْر سنين ، وإن كانت فى حال القُدْرَة : فقد قيل تحمل على الأقل : وهو أربعةُ أشْهُر ، وقيل على الأكثر : وهو ما يقارب السَّنَة . ولو صَرَّحَ بالزيادة علىٰ ما يجوز عَقْدُ الهُدْنَة عليه : فإن زاد علىٰ أربعة أشْهُر فى حال القُوّة أو علىٰ عَشرِ سنينَ فى حال الضَّعْفِ صح فى المدّة المُعْتَبَرة وبَطَل فى الزائد . فإن ٱحتيج إلى الزيادة على العَشْر ، عقِدَ علىٰ عَشرٍ ثم عَشرٍ ثم عشرٍ قبل تَقَضِّى الأولىٰ ، قاله الفُورانىُّ وغيرُه من أصحابنا الشافعية . وذهب أصحاب مالك رحمهم الله إلىٰ أن مُدّتَها غيرُ محْدودَةٍ ، بل يكون موكولا إلى ٱجتهاد الإمام ورأْيِه .

---

(١) بياض فى الأصل بقدر كلمة ولعله « نهادنكم علىٰ الخ » .

النـــــوع الثـــانى

(ماتشترك فيه الهُدَن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، وعقودُ الصُّلح الجاريةُ بين زعماء المسلمين، وهى ضربان)

الضـــــرب الأوّل

(الشروط العادية التى جَرَتِ العادةُ أن يقعَ الاتّفاق عليها بين الملوك فى كتابة الهُدَنِ خلا ماتقدّم)

وليس لها حَدٌّ يحصُرها، ولا ضَابِطٌ يَضْبِطُها ، بل بحسَبِ ما تَدْعو الضرورةُ إليه فى تلك الهُدْنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يَشْترطَ عليه أن يكون لوَلِيِّه مُوالِيًا، ولعَدُوِّه مُعادِيًا، ولمُسَالِمِه مُسالِمًا، ولمُحارِبِه مُحارِبًا، ولا يُواطِئَ عليه عَدُوًّا، ولا يوقع عليه صُلْحًا، ولا يُوافِق علىٰ ما يَقْدحُ فى أمْرِه، ولا يَقبل سُؤالَ سائِلٍ، ولا بَذْلَ باذِلٍ، ولا رِسَالةَ مُراسِل ممـا يخالفُ الاتفاقَ الجارى ؛ والأَخْذَ علىٰ يَدِ من سَـعىٰ فى نَقْضِ الصُّلح ونَكْثِ العَهْـد إن كان من أهْلِ طاعتِه، والمُقاتَلةَ إن كان من المُخالِفِين له ، وأنَّه إذا جنىٰ من أهْلِ مملكتهم جَانٍ كان عليه إحْضارُه أو الأَخْذُ منه بالجناية .

ومن ذلك — أن يشترطَ عليه أن يَكُفَّ عن بلادِه وأعمالِه ، ومُتَطَرِّف ثُغُورِه، وشَاسِعِ نواحيه ـ أيدىَ الداخلين فى جماعته ، والمُنْضَمِّين إلىٰ حَوْزَتِه ، ولا يُجَهِّز لها جَيْشًا، ولا يُحاولَ لهـا غَزْوًا ، ولا يَبْدأَ أهْلَها بمُنازَعةٍ، ولا يشرع لهم فى مُقارَعة، ولا يَتناوَبهـم بمَكِيدَةٍ ظاهرة ولا باطنـة، ولا يُعامِلَهم بأَذِيَّةٍ جَلِيَّـة ولا خَفِيَّـة ، ولا يُطْلق لأحَدٍ ممَّن ينوبُ عنه فى إمارة جَيْشِه، ومن يُنْسبُ إلىٰ جُمْلَتِه، ويتصرَّف

علىٰ إرَادَتِه – عِنَاناً إلىٰ شَيْءٍ من ذلك بوَجْهٍ من الوجوه، ولا سَبَبٍ من الأسباب، وأن لا يُجاوِزَ حُدُودَ مملكته إلى المملكة الأخرىٰ بنَفْسِه ولا بعَسْكَرٍ من عساكره .

ومن ذلك – أن يشترطَ عليه أن يُفْرِجَ عمَّن هو فى حَوْزَتِه ممَّن أحاطت به رِبْقَةُ الأَسْر، ويُمكِّنَهم من المَسِيرِ إلىٰ بلادهم: بأنفسِهم وخَدَمِهم وعيالِهم وأتْباعِهم، وأصنافِ أمْوالِهم، فى أتمِّ حِراسَةٍ، وأكْمَلِ خِفَارَةٍ، دون كُلْفَةٍ ولا مَئُونَةٍ تَلْحَقُهم علىٰ إطلاقهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك – أن يشترطَ عليه مالًا يحمِلُه إليه فى كُلِّ سَنَةٍ، أو أن يُسَلِّمَ إليه ما يختارُه: من حُصُونٍ وقلاعٍ وأطْرافٍ وسَواحِلَ ممـا وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أَحَبَّ انتزاعَه أو استضافته من بِلادِ مَن يُهادِنُه من مُلوك الكُفْر، وأن يُبْقِيَ مَن بها من أهلها، ويُقَرِّرَهم فيها بحُرَمِهِم وأوْلادِهم ومَواشِيهم وأزْوادِهم وسِلاحهم وآلاتِهم، دون أن يَلْتِمسَ عن ذلك أو عن شَيْءٍ منه مالًا، أو يَطْلبَ عنه بدلًا، وما يَنخَرِطُ فى هذا السِّلْك .

ومن ذلك – أن يشترط عليه عَدَمَ التَّعرُّض لتُجَّار مَمْلَكتِه، والمُسافِرينَ من رَعِيَّته، برًّا وبَحْرًا بنَوْعٍ من أنواع الأَذِيَّةِ والإضْرارِ، فى أنفُسِهم ولا فى أموالهم، وللمُجاوِرِينَ للبَحْرِ عَدَمَ رُكُوبِ المراكب الحَرْبِيَّة التى لا يعتادُ التُّجَّارُ رُكُوبَ مثلها .

ومن ذلك – أن يشترطَ عليه إمضاءَ ما وقعتْ عليه المعاقدةُ، وأَن لا يرجِعَ عن ذلك ولا عن شَيْءٍ منه، ولا يؤخِّرَ شيئًا عن الوقت الذى (١) ... ...

ومن ذلك – أن يشترطَ عليه أنه إذا بَقِيَ من مُدَّةِ الهُدْنَةِ مدّةٌ قريبةٌ ممـا يحتاج إلى التَّعْبِيءِ فيه، أن يعلمه بمـا يُرِيدُه من مُهادَنَةٍ أو غيرها .

(١) بياض بالأصول ولعله «الذى اتفق عليه» .

ومن ذلك — أن يشترطَ عليه أنه إذا ٱنقضىٰ أَمَدُ الهُدْنة علىٰ أحدٍ من الطائفتين وهو فى بلاد الآخرين، أن يكون له الأَمْنُ حتّى يلحَقَ مَأْمَنَه .

ومن ذلك — أن يشترطَ ما لّا يحمله إليه فى الحال أو فى كُلِّ سَنَةٍ ، أو حُصُونًا ، أو بلادا يُسَلِّمُها من بلاده ، أو ممـا يغلب عليه من بلاد مُهادِنِه ، إلىٰ غير ذلك من الأمور التى يجرى عليها الاّتِّفاقُ ممـا لا تُحْصىٰ كَثْرةً .

الضـــــرب الثـانى

(ممـا يَلزم الكَاتِبَ فى كَتابة الهُدْنَةِ ـ تَحْرِيرُ أوضاعها ، وترتِيب قوانِينها ، وإِحْكَامُ مَعَاقِدِها)

وذلك باعتماد أُمُور :

منها ـ أن يَكْتُبَ الهُدْنَةَ فيما يناسِبُ المَلِكَ الذى تجرى الهُدْنَةُ بينه وبين مَلِكه ، ولم أَرَ مَن تعرَّض فى الهُدَنِ لِمِقْدارِ قَطْعِ الوَرَق وإن كَثُرَتْ كتابَتُها فى الزَّمنِ المتقدّم بَيْن ملوكِ الديارِ المِصْرية وبين ملوك الفرنج، كما سيأتى ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ . والذى ينبغى أن يُراعىٰ فى ذلك مقْدَارُ قَطْعِ الوَرَقِ الذى يُكاتَبُ فيه المَلِكُ الذى تَقَعُ الهُدْنة معه : من قَطْعِ العادةِ أو الثُّلُثِ أو النِّصْفِ .

ومنها ـ أن يَأْتى فى ٱبْتِدائها ببراعة الاستهلال : إما بِذِكْرِ تَحْسِينِ مَوْقِعِ الصُّلْح والنَّدْبِ إليه ويُمْنِ عاقِبَتِهِ، أو بِذِكْرِ السلطان الذى تَصْدُر عنه الهدنةُ، أو السُّلْطانَيْنِ المُتَهادِنَين، أو الأمرِ الذى ترتَّبَ عليـه الصُّلْحُ، وما يَجْرى هذا المجرىٰ ممـا يقتضيه الحالُ ويَسْتَوْجِبُه المَقَامُ .

ومنها ـ أن يأْتِىَ بعد التَّصْدير بمقَدِّمَةٍ يذكر فيها السَّبَبَ الذى أوجب الهُدْنَة ودعَا إلىٰ قَبولِ المُوادَعَة .

فإن كانتِ الهُـدنَةُ مع أهْلِ الكُفْر، ٱحْتَجَّ للإجابة إليها بالآئْتِمَـارِ بأمر القرآن والآنقيادِ إليه، حيثُ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلم بالمُطاوَعَةِ على الصُّلْحِ والإجابةِ إلى السَّلْمِ بقوله : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَـا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ . وماوردتْ به السُّنَّة من مصالحَتِه صلَّى الله عليه وسلم قُرَيْشًا عام الحُدَيْبِيَة، وذَكَرَ ما سَنَح له من آيات الصُّلْحِ وأحاديثِه، وما جرىٰ عليه الخُلَفَاء الراشدون من بَعْدِه، وكَفِّهم عن القتال وُقُوفًا عنـد ما حدّ لهم . وأنَّه لولا ذلك لشَرَعُوا الأَسِـنَّةَ إلىٰ مُخالِفِيهـم فى الدِّين، وركَضُوا الجِيادَ إلىٰ جِهادِ من يَلِيهِمْ من المُلْحِدِين .

وإن كان الصُّلْحُ بين مُسْلِمَيْنِ ٱحتجَّ بنَحْوِ قوله تعـالىٰ : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِين ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ . وبأحاديث التَّحْذِيرِ من تَقَاتُلِ المسلمين كقوله صلى الله عليـه وسلم : « إذَا ٱلْتَقَى المسلمانِ بسَيْفَيْهِمَا فقتل أحدُهما صاحبَه فالقَاتِلُ والمقتولُ فى النَّارِ » وما يجرى هذا المَجْرىٰ .

ومنها ـ أن يراعِيَ المقام فى تَبْجِيلِ المتهادِنَيْنِ أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحالُ، ووَصْفِ كلِّ واحِدٍ منهما بمـا يليقُ به : من التعظيم، أو التَّوسُّطِ، أو ٱنحطاط الرُّتْبَة بحسب المقام، ويجرى علىٰ حَسَبِ ذلك فى الشدّة واللين .

فإن كانت الهُدْنةُ بين مُتَكافِئَيْنِ سَـوَّىٰ بينهما فى التعظيم، وجرىٰ بهما فى الشِّدّةِ واللِّينِ علىٰ حدٍّ واحِدٍ، إلا أن يكونَ أحدُهما أَسَنَّ من الآخرِ، فيراعِى للأَسَـنِّ ما يجبُ له على الحَدَثِ من التَّأَدُّبِ معه، ويُراعِى للحَدَث ما يجب له على الكبير من الحُنُوِّ والشَّفَقَة .

وإن كانت الهُدْنةُ من قَوِىٍّ لضَعِيفٍ، أَخَذَ فى الآشْتِدادِ، آتِيًا بمـا يدلُّ علىٰ عُلُوِّ الكلمة، وٱنْبِساطِ القُـدْرةِ، وحصولِ النُّصْرةِ، وٱستكمال العدد، وظهور الأَيْد،

ووُفُور الجُنْـد، وقُصُور الملوك عن المُطاوَلَة، وعَجْزِهم عن المُحاوَلَة، ونحو ذلك مما ينخرط فى هذا السِّلْك، لا سيَّما إذا كان القَوِىُّ مُسْلِمًا والضعيفُ كافرًا، فإنه يَجِبُ الأزدياد من ذلك، وذِكْرُ ما للإسلامِ من العِزَّةِ، وما توالىٰ له من النُّصْرة؛ وذِكْرُ الوقائع التى كانت فيها نُصْرَةُ المسلمين على الكُفَّار فى المواطن المَشْهُورة، والأماكن المعروفة، وما فى معنىٰ ذلك .

وإن كانت الهُدْنة من ضَعِيفٍ لقَوِىٍّ، أخَذَ فى المُلايَنَة بحسب ما يقتضيه الحال، مع إظهار الجَلَادَة، وتَمَاسُك القُوَّة، خصوصا إذا كان القَوِىُّ المعقودُ معه الهُدْنَةُ كافرا . وإن شَرط له مالًا عندَ ضَعْف المسلمين للضَّرورة أتىٰ فى كلامه بما يقتضى أنَّ ذٰلك رَغْبَةً فى الصُّلْح المأمور به، لا عن خَوَرِ طِباعٍ وضَعْفِ قُوَّة، إذ الله تعالىٰ يقول : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ .

ومنها ــ أن يتحفَّظ من سَقَطٍ يُدْخِل على الشريعة نَقِيصَةً، إن كانت المهادنةُ مع أهْلِ الكُفْر، أو يجرُّ إلىٰ سُلْطانه وهِيصَةً، إن كانتْ بين مُسْلِمَين؛ ويتحذَّرُ كلَّ الحَذَرِ من خَلَلٍ يتطرَّقُ إليه : من إهْمالِ شَىْءٍ من الشروط، أو ذِكْرِ شرطٍ فيه خَلَلٌ على الإسلام أو ضررٌ على السلطان، أو ذِكْرِ لفظٍ مُشْتَرك أو معْنًى مُلْتَبِسٍ يُوقِعُ شُبْهةً تُوجِبُ السبيلَ إلى التأوُّل؛ وأن يأخُذَ المأْخَذَ الواضِحَ الذى لا تتوجَّه عليه مُعارَضَه، ولا تتطرَّقُ إليه مُناقَضَه، ولا يَدْخُله تأْوِيلٌ .

ومنها ــ أن يُبَيِّنَ أن الهُدْنةَ وقعتْ بعد آستخارةِ الله تعالىٰ وتَرْوِيَةِ النَّظَرِ فى ذلك وظُهُورِ الخَيْرِ فيه، ومُشاوَرَةِ ذَوِى الرَّأْىِ وأهْلِ الحِجىٰ، ومُوافقَتِهم علىٰ ذلك .

ومنها ــ أن يُبَيِّنَ مدّةَ الهُدْنة . فقد تقدّم أن الصَّحيحَ من مَذْهَبِ الشافعىِّ أنه إذا لم تُبيَّن المدّةُ فى مُهادَنَةِ أهْلِ الكُفْرِ فسدت الهُدْنَة .

قال فى "التعريف" : وقد جرت العادة أن يحسُبوها مدّة سِنين شمسيَّة فيحرِّر حسابَها بالقمريّة . ويذكُر سنين وأشهرًا وأيّامًا وساعاتٍ حتّى يستوفى السنينَ الشّمسية المهادنَ عليها . أما فى عقد الصُّلح بين مسلمين فإنه لايشترطُ ذلك ، بل ربّما قالوا : إن ذلك صار لازمًا للأَبَد ، حتّى فى الوَلَدِ ووَلَدِ الوَلَد .

ومنها ــ أن يبيِّن أن الهُدْنة وقعتْ بين المَلِكَيْن أنفسهما ، أو بين نائبيهما ، أو بين أحدِهما ونائبِ الآخرِ ، ويستوفى ما يجب لكلِّ قِسْمٍ منها .

فإن كانت بين الملكين أنفُسِهما بغير واسطة بين ذلك ، ذكَر ما أُخذَ عليهما من العُهُود والمواثيق ، والأَيْمانِ الصادرةِ من كلٍّ منهما ، وذكَر ماوقَعَ من الإشْهادِ بذلك عليهما ، وما جرىٰ من ثُبُوتِ حكمه إن جرىٰ فيه ثُبوتٌ ونحو ذلك .

وإن كانتْ بين المكتوب عنه ونائبِ الآخرِ ، بيَّن ذلك ، وتعرَّض إلى المُسْتَنَد فى ذلك : من حُضُورِ كتَابٍ من المَلِك الغائب بتفويض الأمْر فى ذلك إلىٰ نائبه ، وأنه وَصَل علىٰ يَده أو يَدِ غَيْره ، والإشارة إلىٰ أنَّه مُعنونٌ بعنْوانه ، مختُومٌ بختْمه المتعارَف عنه أو وكَالَة عنه . ويتعرَّضُ إلىٰ قيام البيِّنَة بها وثُبُوتِها بمجَالِس الحُكْم ونحو ذلك من المستندات .

وإن كانتْ بين نَائبَيْنِ ، بيَّنَ ذلك وذَكَرَ مُسْتَنَد كلِّ نائِبٍ منهما علىٰ ماتقدّم ذكره . ويتعرَّضُ إلىٰ أن النائبَ فى ذلك قام فيه بٱختياره وطَوَاعِيَته ، لاعن إكْراه ولا إجْبارٍ ، ولا قَسْرٍ ولا غَلَبَةٍ ، بل لِمَا رأىٰ لنَفْسه ولِمُسْتَنِيبِه فى ذلك من المَصْلَحة والحَظّ . وأنَّ كتَابَ الهُدْنَة قُرِئَ عليه وبُيِّنَ له فَصْلًا فَصْلًا ، وتُرجِمَ له بموثُوقٍ به ، إن كان لايَعْرِفُ العَرَبيَّة ونحو ذلك .

ومنها ــ أن يتعرَّضَ إلىٰ ما يجرى من التَّحْليف فى آخرها : على الوَفَاء ، وعَدمِ النَّكْث والإخْلالِ بشَيْءٍ من الشروط ، أو الخُرُوجِ عن شَيْءٍ من الٱلتزاماتِ ،

او مُحَاوَلَةِ التأْوِيلِ فى شَىْءٍ من ذلك، أو السَّعْى فى نَقْضِهِ أو فى شَىْءٍ منه، وما فى مَعْنىٰ ذلك :

فإن كانتْ بين مَلِكَيْنِ، تعرّض إلىٰ تَحْلِيفِ كُلٍّ منهما على التَّوْفية بذلك .

وإن كانت بين أَحَدِهما ونائبِ الآخَرِ، حُلِّفَ المَلِكُ كما تقدّم، وسيأتى صُورَةُ الحَالِفِ الذى يقعُ فى الهُدَنِ فى الكلام على الأَيْمَانِ (١) فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها ـ أن يُحَرَّرَ أمْرُ التَّارِيخ بالعَرَبِىِّ وما يُؤَرَّخُ به فى مَمْلَكةِ المَلِكِ المُهادَنِ : من السُّرْيانِىِّ والرُّومِىِّ وغيرهما . قال فى "التعريف" : ولهم عادة أن يَحْسُبُوها مدّة سِنِينَ شَمْسِيَّة فيُحَرَّرُ حسابَها بالقَمَرِيَّة، ويَذْكُرُ سِنِينَ وأشْهُرًا وأيّامًا وساعاتٍ حتّىٰ يَسْتَكمل السنين الشمسية المُهادَن عليها . وقد تقدّم فى الكلام على التَّارِيخ من المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ وٱسْتِخْراجها .

ومنها ـ أن يَقَعَ الإشهادُ علىٰ كُلٍّ من المتعاقدين بذلك، ولا بَأْسَ بإثبات ذلك . وقد جَرَتِ العادةُ أنه يَشْهَدُ علىٰ كُلِّ مَلِكٍ جماعةٌ من أَهْلِ دَوْلتِه لِيُقْضَى علىٰ مَلِكِهم بقَوْلِهم وإن كان مُخَالِفًا فى الدِّين . وقد ثبت فى الصَّحِيح أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم «أشهد علىٰ مُصالَحَتِهِ مع قُرَيْشٍ رجالًا من المسلمين ورجالًا من المُشْرِكين» . وربّما طَلَبَ النائبُ عن المَلِك الغائبِ إحضار نُسْخَةِ مُهادَنَةٍ من جِهَةِ مُسْتَنِيبِه علىٰ ماوقع به العَقْد، مشمولةً بخَطِّ الكُتَّاب، مشهودًا عليه فيها بأهْلِ مَمْلَكته، أو تُجَهَّزُ إليه نسخةٌ يَكْتُبُ عليها خَطَّه، ويَشْهَدُ عليه فيها أهْلُ مَمْلَكَته . والغالبُ الاكْتِفَاءُ بالرُّسلِ فى ذلك .

---

(١) أى الأيمان الواقعة فى عقود الصلح، وإلا فالأيمان بأنواعها تقدمت فى ج ١٣ .

الفصـــــل الثـانى

فى صورة ما يُكْتبُ فى المهادنات والسِّجِلَّات، ومَذاهِب الكُتَّاب فى ذلك، وفيه طرفان

الطــــرف الأوّل

(فيما يَسْتَبِدُّ ملوكُ الإسلام فيه بالكتابة عنهم ـ وتُخَلَّد منه نُسَخٌ بالأبواب السلطانية، وتُدْفَعُ منه نسخٌ إلىٰ ملوك الكُفْر)

ثم ما يُكْتبُ فى ذلك علىٰ نَمَطيْنِ :

النَّمَـــطُ الأوّل

(ما يُكْتبُ فى طُرَّةِ الهُدْنةِ من أعلىٰ الدَّرْج)

وقد جرت العادةُ أن يفتتح بلفظ «هذا» أو لفظ «هذه» وما فى معنىٰ ذلك، مثل أن يكتب : «هذا عَقْدُ صُلْحٍ» أو «هذا كِتَابُ هُدْنَةٍ» أو «هذه مُوادَعة» أو «هذه مُواصَفَةٌ» وما أشبه ذلك. وربَّما حُذِف المبتدأُ وهو «هذا» وٱكتفى بالخَبَر عنه، مثل أن يقال: «كِتَابُ هُدْنَةٍ» أو «كِتَابُ مُوادَعةٍ» أو «عَقْد مُصالحَةٍ» وما أشبه ذلك.

وهذه نسخة بعقْدِ صُلْحٍ أنشأتُها ليُنْسَجَ علىٰ مِنْوالهـا، وهى :

هذا عَقْدُ صُلحٍ ٱنتظمتْ به عُقُود المَصَالح، وٱنْتَسقَتْ بواسطته سُبُلُ المَنَاجِح؛ وتَحدّثَ بحُسْنِ مُقدِّمَتِه الغَادى وتَرنَّم بيُمْنِ نَتيجَتِه الرَّائح. عاقَدَ عليه السلطانُ فلانٌ فلاناً القائمَ فى عَقْدِ هذا الصُّلْح عن مُرْسِلِه فلانٍ، حسَبَ ما فوض إليه الأمْر فى ذلك فى كِتَابِه الواصِـلِ علىٰ يَدِه، المؤرَّخ بكذا وكذا، المُعنْوَن بعُنْوانه، المَخْتومِ بطابَعِـه

المُتعارَف عَنْه ـ علىٰ أن يكون الأمر كَذَا وكَذَا . ويشرحُ مُلَخَّص مايَقَعُ من الشروط التي يقع عليها الاّتفاقُ بينهما في الصُّلْح إلىٰ آخرها؛ ثم يقال : علىٰ ما شُرِحَ فيه .

النَّمَــــطُ الثــانى

(ما يُكْتب فى مَتْنِ الهُــدْنَة ، وهو علىٰ نوعين)

النــــوع الأوّل

(ما تكونُ الهُدْنةُ فيـــه من جانبٍ واحدٍ)

بأن يكون الملكان متكافئين، [فيتعاقدان إما علىٰ حِصْنٍ] (١) وإما علىٰ مالٍ يعطيــه الملك المعقودة له الهُدْنةُ لعاقدها، كما كان يُكْتَبُ عن صاحب الديار المصرية .

وللكُتَّابِ فيـــه مذهبان :

المـــــذهب الأوّل

(أن تُفْتَتَحَ الهُدْنةُ بلفظ : «هذا ما هَادَنَ عليه»
أو «هذه هُدْنةٌ أو مُوادَعَة أو مُواصَفَةٌ أو سِلْمٌ أو صُلْح» أو نحو ذلك
علىٰ نحو ما تقدّم فى الكلام على الطرّة)

وعلىٰ ذلك كُتِبَ كِتَابُ القَضيَّة بين النبيّ صلى الله عليه وسلم وبين قُرَيْشٍ عام الحُدَيْبِيَة، علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ أصْلِ مشروعِيَّتها .

وهــذه نسخةُ هُدْنةٍ كُتِب بها عن سُلْطانٍ قَوِيٍّ ، لِمَلِكٍ مَضْعُوفٍ، باشتراط مالٍ يقومُ به المَضْعُوفُ للقَوِيِّ فى كلِّ سَنَةٍ أو حُصُونٍ يسلِّمها له أو نحو ذلك ، وهى :

هــذا ما هادَنَ عليه ، وأَجَّلَ إليه ، مَولانَا السلطانُ فلانٌ ـ خَلَّد اللهُ سُـلْطانَه وشَرَّفَ به زَمانَه ـ المَلِكَ فلانًا الفلانيَّ . هادَنَه حينَ تَرَدَّدَتْ إليه رُسُله ، وتَوالتْ عليه

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتُبُه ، وأَمَّلَه ، ليُمْهِلَه ؛ وسَأَلَه ، ليكُفَّ عنه أَسَلَه ؛ حين أبَتْ صِفَاحُه أن تَصْفَح ، وسَمَاءُ عَجَاجِه بالدِّماءِ إلا أن تَسْفَح ؛ فرأىٰ ـ سدَّدَ اللهُ آراءَه ـ أن الصُّلْحَ أصْلَح ، وأن مُعاملَةَ اللهِ أرْبَح ؛ وهادَنَ هـذا الملك (ويسميه) علىٰ نَفْسِـه وأهْلِه ، ووَلَدِه ونَسْـلِه ؛ وجَميعِ بِلادِه ، وكلِّ طَارِفِه وتِلَادِه ؛ ومالَه من مِلْكٍ ومال ، وجِهـاتٍ وأعْمال ؛ وعَسْكَرٍ وجُنُود ، وجُموعٍ وحُشُود ؛ ورعايا فى مَمْلَكَتِه من المُقيم والطَّارِى ، والسَّائِرِ بها والسَّارِى ـ هُدْنةً مُدَّتُها أوَّلُ تاريخ هذه الساعة الراهنة وما يَتْلُوها ، مدّة كذا وكذا من سِنِينَ وأشْهُرٍ وساعاتٍ ، يَحْمِلُ فيها هذا المَلِكُ فلانٌ إلىٰ بَيْتِ مال المسلمين ، وإلىٰ تَحْتَ يَدِ مولانا السلطان فلانٍ قَسِيمِ أميرِ المؤمنين ؛ فى هـذه المدّة كذا وكذا ـ يَقُومُ به هذا المَلِكُ من ماله ، وممـا يتكفَّلُ بجِبايَتِه من جِزْيَةِ أهْلِ بلاده وخَرَاجِ أعمـاله ؛ علىٰ أقساط كذا وكذا ـ قِيامًا لا يُحُوجُ معه إلىٰ تَكَلُّفِ مُطالَبَه ، ولا إلىٰ تَناوُلِه بيَدِ مُغالَبَه .

علىٰ أن يكُفَّ مولانا السلطانُ عنه بَأْسَ بَأْسَائِه ، وخَيْلَه المُطِلَّةَ عليه فى صَباحه ومَسائِه ؛ ويَضُمَّ عن بِلاده أطْرافَ جُنُوده وعَساكِرِه وأتْباعِهِم ، ويُؤَمِّنَه من بِطَائِهِم وسِرَاعِهِم ، ويمنَعَ عن بلاد هذا المَلِكِ المُتاخِمةِ لبلاده ، والمُزاحِمَةِ لِدَوَافِق أمْدادِه ، ويرُدَّ عنهـا وعمَّن جاورها من بقيَّـة ما فى مملكته ، وهى كذا وكذا أيْدِىَ النَّهْب ، ويكُفَّ الغـاراتِ ويَمْنَعَ الأذىٰ ، ويرُدَّ من نَزَح من رعايا هـذا المَلِكِ إليـه ، ما لم يدخُلْ فى دِينِ الإسـلام ويشهد الشَّهادَتَينِ ، ويُقِرَّ بالكلمتين المُعْتادتين ؛ ويؤَمِّنَ جَلَّابَةَ هذا المِلكِ وتُجَّارَه المتردِّدينَ من بلاده إلىٰ بلاد الإسـلام فى عَوَارِض الأشغال ، ولا يحصلَ عليهـم ضَرَرٌ فى نَفْسٍ ولا مال ؛ وإن أخَذَتِ المتَجَرِّمَةُ منهم مالًا أو قتلتْ أحدًا ، أمَرَ بانْصافهم من ذلك المتَجَرِّم ، وأن يُؤْخَذَ بحقِّهِم من ذلك المُجْرِم . وعليه مثْلُ ذلك فيمَن يدخلُ إليه من بلاد الإسلام ، وأن لا يفْسَحَ لنَفْسِه

ولا لأحدٍ من جميع أهل بلاده فى إيواء مُسْلِمٍ مُتَنَصِّر، ولا يرخِّص لذى عمًى منهم ولا مُتَبَصِّر .

وأنه كلما وردتْ إليه كتب مولانا السُّلطانِ فلانٍ أو كُتُبُ نُوَّابِه، أو أحد [من المتعلِّقين](١) بأسْبابِه، يسارعُ إلىٰ آمتثاله والعَمَلِ به فى وَقْته الحاضر ولا يُؤَخِّرُه ولا يمهِلُه، ولا يَطْرحُه ولا يُهْمِلُه .

وعليه أن لا يكونَ عَيْناً للكُفَّار، علىٰ بلاد الإسلام وإن دَنَتْ به أو بعُدت الدَّار، ولا يواطِئَ علىٰ مولانا السُّلطانِ فلانٍ أعداءَه [وأوّلُهم التَّتار](٢) وأن يَلْتَزِمَ ما يلزَمُه من المُسْكَةِ بالمَسْكَنَه، ويفعلَ ما تسكتُ عنه به الأَسِنَّة وما أشْبهها من الألْسِنَه .

وعليه أن يُنْهِيَ ما يتجدّدُ عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهْلَ مِلَّته، ويُنَبِّهَ علىٰ سُوءِ مقاصِدِهم، ويعرِّفَ ما يُهِمُّ سماعُه من أحوال ماهُمْ عليه .

هذه هدنةٌ تمّ عليها الصُّلح إلىٰ منتهى الأجَلِ المعيَّنِ فيه ما آستَمسَكَ بشُروطها، وقام بحُقُوقها، ووقف عند [حَدِّها الملتزم به](٣)، وصَرَفَ إليها عِنَانَ آجتِهادِه وبَنَى عليها قَواعِدَ وَفائه، وصان من التكدير فيها سَرائِرَ صَفَائِه؛ سأل هو فى هذه الهُدْنَة المقرَّرَه، وأجابه مولانا السلطانُ إليها علىٰ شُروطِها المحرَّرَه، وشهد به الحضُورُ بالمملكتين وتَضَمَّنته هذه الهُدْنة المُسطَّره؛ وبالله التوفيق .

قلتُ: الظاهر أنه كان يُكْتب بهذه النُّسْخة عن صاحب الديار المصرية والممالك الشامية، لمتَمَلِّك سِيسَ، فإنَّ فى خِلَالِ كلامِ المقرِّ الشِّهابىِّ بعد قوله: ولا يواطئ علىٰ مولانا السلطان فلانٍ أعْداءَه: «وأوّلُهم التَّتار»، وقد تقدّم فى الكلام على الممالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .

(٢) « « (ص ١٦٩) ومما يأتى قريبا .

(٣) بيض له فى الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن متملك سِيسَ كان يمالئُ التّتار ويَميلُ إليهم، ويساعدهم فى حَرْبِ المسلمين ويُكَثِّر فى سَوادِهـــم .

⁂

وعلىٰ مثل ذلك يُكْتَبُ لكلِّ مَلِكٍ مضعوفٍ فى مُهادنة المَلِكِ القوىِّ له .

وهذه نُسْخة هُدنَةٍ من هـذا النَّمَط، كتب بهـا أبو إسحق الصَّابِى، عن صَمْصامِ الدَّولة، بن عَضُـدِ الدَّوْلة، بن رُكْنِ الدَّوْلة، بن بُوَيه الدَّيلَمِىِّ، بأمْرِ أمير المؤمنين الطَّائـع لله، الخليفةِ العبَّاسِىِّ ببَغْدادَ يومَئِـذ، لوردس المعروف بسفلاروس مَلِك الرُّوم، حِينَ حِيلَ بينـه وبين بِلادِه، وٱلتمس أن يُفْرَجَ له طَرِيقُه إلىٰ بلاده، علىٰ شُروطٍ ٱلتزمها، وحُصُونٍ يُسلِّمها، علىٰ ما سيأتى ذكره، وهى :

هذا كِتابٌ من صَمْصامِ الدَّوْلة، وشَمْسِ المِلَّة، أبى كَالِيجَارَ، بنِ عَضُـدِ الدَّولة وتَاجِ المِلَّة أبى شُجاعٍ، بنِ رُكْنِ الدَّولة أبى عَلِىٍّ، مَولَىٰ أميرِ المؤمنين؛ كتبه لوردس ٱبن بينير المعروف بسفلاروس مَلِكِ الروم .

إنك سألتَ بسِفَارَةِ أخينا وعُدَّتنا، وصاحِبِ جَيْشنا (أبى حَرْبٍ ربار بن شَهْراكُويَهْ) تأمُّلَ حالِك فى تطاوُلِ حَبْسك، وٱعْتِياقِك عن مُراجَعَةِ بَلدِك؛ وبذَلْتَ - متىٰ أُفْرِجَ عنك، وخُلِّىَ طرِيقُك، وأُذِنَ لك فى الخروج إلىٰ وَطَنِك، والعَوْدِ إلىٰ مَقَرِّ سُلْطانك - أن تكونَ لَولِيِّنا وَلِيًّا، ولعَدُوِّنا عَدُوًّا، ولِسلْمِنا سِلْما، ولحَرْبِنا حَرْبا : من جميع الناس كلِّهم، على ٱخْتلافِ أحوالهم وأدْيانِهم، وأجْناسِهم وأجْيالِهم، ومَقارِّهم وأوْطانِهم؛ فلا تُصالِحُ لنا ضِـدًّا مُباينا، ولا تُواطِئُ علينا عَدُوًّا مُخالِفا؛ وأن تَكُفَّ عن تَطرُّق الثغور والأعمـال التى فى أيدينا وأيدى الدَّاخلينَ فى طاعَتِنا : فلا تُجَهِّز إليها جَيْشا، ولا تُحاوِلُ لها غَزْوا؛ ولا تَبْدأُ أهْلَها بمُنازَعه، ولا تَشْرَعُ لهم فى مُقارَعه، ولا تَتَناوَلُهم بمَكِيدَةٍ ظاهرةٍ ولا باطنة، ولا تُقابلُهم بأَذِيَّةٍ جَلِيَّةٍ ولا خَفِيَّة؛ ولا تُطلِقُ لأحدٍ ممن

ينوبُ عنك فى قيادة جيُوشك، ومن ينْتَسِبُ إلىٰ حُماتك، ويتَصَرَّفُ علىٰ إرادتك ـ الاجتراءَ علىٰ شَىْءٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كُلِّها ؛ وأن تُفْرِجَ عن جميع المسلمين وأهْلِ ذِمَّتِهم الحاصلين فى محابِسِ الرُّوم، ممَّن أحاطتْ بعُنُقِه رِبْقَةُ الأَسْر، وآشتملتْ عليه قَبْضَةُ الحَصْرِ والقَسْر، فى قديم الأيَّامِ وحَديثِها، وبَعيدِ الأوقات وقَرِيبِها ؛ المقيمين علىٰ أدْيانهم، والمختارِينَ للعَوْدِ إلىٰ أوْطانهم ؛ وتُنْهِضَهم بما يُنْهَضُ به أمثالُهم، وتُمَكِّنَهم من البرُوزِ والمَسِيرِ بنفوسِهم وحُرَمِهم وأولادِهم وعِيالاتهم وأتْباعِهم، وأصنافِ أمْوالِهم ؛ مَوْفُورِين مَضْمُونِينَ، مُتَبَذْرَقِينَ(١) محْرُوسِينَ، غير ممنوعين، ولا مُعَوَّقِينَ، ولا مُطالَبِين بمُؤنَةٍ ولا كُلْفَةٍ صغيرةٍ ولا كبيرة .

وأن تُسَلِّمَ تَتِمَّةَ سبعةٍ من الحُصُون، وهى : حِصْن أرحكاه المعروف بحصن الهندرس، وحِصْن السناسنة، وحِصْن حويب، وحصن اكل، وحِصْن انديب، وحِصْن حالى، وحِصن تل حرم، برَساتيقِها ومَزارِعِها إلىٰ من نُكاتِبُك بتَسْليمِها إليه، مع مَن بها من طبقات أهْلِها أجمعين، المُختارِينَ لسُكْناها والاستِقرارِ فيها، بحُرَمِهم وأولادِهم وأسْبابِهم ومَواشِيهم وأصْنافِ أمْوالِهم وغَلَّاتِهم وأزْوادِهم وسِلاحِهم وآلاتِهم، ليكونَ جميعُها حاصِلًا فى أيدينا وأيْدى المسلمين، علىٰ غابرِ الأيام والسِّنين ؛ من غير أن تَلْتمِسَ عنها أو عن شَىْءٍ منها مالًا، ولا بَدَلًا، ولا عِوَضًا من الأعواض كُلِّها .

وعلىٰ أنك تُمْضِى ما عَقَدْتَه علىٰ نَفْسِك من ذلك كلِّه بابًا بابًا، وتَفِى به أوّلًا أوّلًا، مُنْذ وقت وُصولِك إلىٰ أوائل أعمالك، وإلىٰ غَايَةِ آستِيلائك عليها، ونَفَاذِ أمرِك فيها ؛ ولا تَرجِعْ عن ذلك ولا عن بَعْضه، ولا تُؤَخِّرْ شيئًا منه عن الوَقْت الذى تقدر فيه عليه، ولا تُرَخِّصْ لنَفْسِك فى تَجاوُزٍ له ولا عُدُولٍ عنه . ومتىٰ سمعتْ طائفةٌ من الطَّوائِف التى تَنْتسِبُ إلىالروم والأرْمَنِ وغيرِهم فىأمْرٍ يخالِفُ شرائط هذا الكِتَاب،

(١) البذرقة الخفارة معرّبة .

كان عليك مَنْعُهم من ذلك إن كانوا من أهْـلِ الطاعَةِ والقَبُول مِنْك ، أو مُجاهَدَتُهم ومُمانَعَتُهم إن كانوا من أهْل العُنُود عنك ، والخِلافُ عليهم حتَّى تَصْرِفَهم عما يرومونه ، وتحولَ بينهم و بين ما يُحاوِلُونَه ، بمشيئةِ اللهِ و إذْنِه ، وتَوْفِيقِه وعَوْنِه .

وٱشترطتَ علينا بعد الذى شَرَطتَه لنا من ذلك التَّخْلِيَةَ عن طَرِيقِك وطريقِ من تَضَمَّنَتْه جُمْلَتُك ، وٱشتملَتْ عليه رُفْقَتُك : من طبقات الأصحاب والأتباع ، فى جميع أعمالنـا حتَّى تَنْفُـذَ عنها إلىٰ ما وراءها ، غيرَ مُعَوَّقٍ ، ولا مُعْتَقَلٍ ، ولا مُؤْذًى ، ولا مُعارَضٍ ، ولا مُطالَبٍ بمُـؤُونَةٍ ولا كُلْفةٍ ، ولا مَمْنوعٍ من ٱبْتِياعِ زَادٍ ولا آلَةٍ ، ولا نُؤْثِرُ عليك أحَدًا نَاوَأَك فى أعمـالك ، ونازَعَك سُلْطانَ بِلادِك ، ودافعك عنـه وناصَبَك العَداوَةَ فيه : ممَّن ينتَسِبُ إلى الرُّوم والأرْمَنِ والخزرية وسائر الأمم المُضادَّةِ لك ، ولا نُوَقِّع معه صُلْحًا عليك ، ولامُوافقةً علىٰ مايعُود بثَلْمِك أو قَدْحٍ فى أمْرِك ، ولا نَقْبلُ سُؤالَ سائل ، ولا بَذْل باذِلٍ ، ولا رِسالَةَ مُراسِل فيما خَالَفَ شَرائِطَ هـذا الكِتابِ أو عاد بإعْلالِه ، أو إعْلالِ وَثِيقَةٍ من وثائِقه .

ومتىٰ وَفَد إلينـا رَسُولٌ من جهة أحَدٍ من أضْدادِك ، راغِباً إلينا فى شَيْءٍ يُخالِفُ ما ٱنعقد بيننا و بينك ـ ٱمْتنَعْنا من إجابَتِـه إلىٰ مُلْتَمَسه ، وردَدناه خَائِباً خاليـاً من طَلِبَتِه . وإذا سَلَّمتَ الحُصونَ المقدَّمَ ذِكْرُها إلىٰ من نُكاتِبُك بالتَّسْليم إليه ، كان لك علينـا أن نُقِرَّ مَن فيها وفى رساتيقِها علىٰ نِعَمِهـم ومَنازِلِهم وضِـياعِهم وأمْلاكِهم ، وأن لانُزِيلَهم عنها ولا عن شَيْءٍ منها ، ولا نَحُولَ بينهم و بين ماتَحْوِيه أيديهم من جميع أموالهم ؛ وأن نُجْرِيَهم فى المعاملات والجِباياتِ علىٰ رُسُومهم الجارية المـاضِيةِ التى عُومِلُوا عليها ، علىٰ مَرِّ السـنينَ ، وإلىٰ الوَقْت الذى يَقعُ فيه التَّسْليم ، من غير فَسْخ ولا تَغْيِيرٍ ولا نَقْضٍ ولا تَبْديل .

فأنْهينَا إلىٰ مولانا أميرِ المؤمنين الطائـعِ لله ماسَألْتَ وٱلتمسْتَ ، وضَمِنْتَ وشَرطتَ وٱشْترطْتَ من ذلك كله ؛ وٱسْـتَأْذَنَّاه فى قَبُوله منك ، وإيقاعِ المُعاهَدَةِ عليه معك ؛ فأَذِنَ ــ أدام الله تَمْكينَه ــ لنا فيه ، وأَمَرَنا بأن نُحْكِمَه ونُمْضِيه ؛ لمـا فيه من ٱنتظام الأمور ، وحياطَةِ الثُّغُور ، وصَلاحِ المسلمين ، والتَّنْفيس عن المأسُورِين .

فأَمْضيْنَاه علىٰ شرائطه ، وتراضَيْنا جَميعًا به ، وعاقدْناك عليه ، وحلفْتَ لنا باليمين المؤَكَّدة التى يحلِفُ أهْلُ شَريعتِك بها ، ويتحرَّجُون من الحِنْثِ فيها على الوَفَاءِ به ؛ وأشهدْنا علىٰ نُفُوسنا ، وأشْهدتَ علىٰ نَفْسك اللهَ جلَّ ثَناؤُه ، وملائكتَه المقرّبِين ، وأنبياءَه المُرْسلين ، وأخَانَا وعُدَّتَنَا أبا حَرْبٍ ربار بن شَهْرا كَوَيْهِ مَوْلىٰ أمير المؤمنين ، ومن حَضَر المجلِسَ الذى جَرَىٰ فيه ذلك ، باستقرارِ جَميعهِ بيننا وبينك ، ولُزُومهِ لنا ولك .

ثم حضر بعد تمـام هذه المُوافَقَةِ وٱستمرارها ، وثُبوتِهـا وٱستِقْرارِها ، قُسْطَنْطِينُ ٱبن بينير أخو وردس بن بينير ، وأَرْمانُوسُ بن وردس بن بينير ، فوَقَّعا علىٰ هـذا الكِتَابِ ، وأحاطا به عِلْمًا ، وٱستوعباه مَعْرفة ، وشَهِدا علىٰ وردس بن بينير مَلِكِ الرُّومِ بإقرارِه به ، وٱلتزامِه إياه . ثم تبرَّعَ كلُّ واحدٍ منهما بأن أوْجَب علىٰ نَفْسه ٱلتَّمسُّكَ به والمُقامَ عليه متَىٰ قام وردس بن بينير فيما هو مَوْسومٌ به من مَلِكِ الرُّوم ، وجعل جَميعَ الشرائط الثابتة فى هـذا الكتاب المَعْقودِ بعْضُها ببَعْضٍ أمانةً فى ذِمَّتهِ ، وطَوْقًا فى عُنُقه ، وعَهْدًا يُسْأَلُ عنه ، وحَقًّا يُطالَبُ فى الدُّنيا والآخرةِ به ؛ وصار هذا العَقْد جامعًا لهم ولنـا ، ولأولادِنا وأوْلادِهم ، وعَقِبِنا وعَقِبِهـم ؛ ماعِشْنا وعاشُوا ، يَلْزَمُنا وإيَّاهُم الوَفاءُ بمـا فيه علينا وعليهم ، ولنا ولهم ، علىٰ مُرورِ اللَّيالى والأيام ، وٱختِلاف الأدْوارِ والأعْوام .

أمضَىٰ وأنْفَذَ صَمْصامُ الدَّوْلةِ وشَمْسُ المِلَّةِ أبو كَالِيجَار ذلك كُلَّه علىٰ شرائطه وحدوده ، وٱلتَزمَهُ وردس بن بينـير المعروف بسـفلاروس مَلِكُ الرُّومِ ، وأخوه

قُسْطَنْطِينُ ، وٱبنه أرمانُوسُ بن وردس بن بينير ، وضَمِنُوا الوَفَاءَ به ، وأشهدُوا كلَّ واحِدٍ منهم علىٰ نُفُوسهم بالرِّضَا به ، طائعينَ غير مُكْرَهين ولا مُجْبَرِينَ ، لا عِلَّةَ بهم من مَرَضٍ ولا غيره ، بعد أن قرأه عليهم ، وفَسَّره لهم وخاطبهم باللغة الرُّومية من وُثِقَ به ، وفَهِمُوا عنــه ، وفَقِهُوا مَعْنىٰ لَفْظِه ، وأحاطوا عِلْمًــا ومعرفةً به ، بعــد أن مَلَكُوا نُفوسَهم ، وتَصَرَّفوا على ٱختيارهم ، وتَمَكَّنُوا من إيثارهم ، ورَأَوْا أن فى ذلك حَظًّا لهم ، وصَلاحًا لشأنهم ، وذلك فى شعبان سنة ست وسبعين وثلثمائة .

وقد كُتِبَ هذا الكِتَابُ علىٰ ثلاث نُسَخٍ متساوياتٍ ، خُلِّدت ٱثنتانِ منهــا بدواوين مَدِينَةِ السلام ، وسلمت الثالثةُ إلىٰ وردس بن بينير مَلِكِ الرُّوم وأخيه وٱبنه المذكورَيْنِ معه فيه .

⁂

وهذه نُسْخةُ هُدْنةٍ من مَلِكٍ مضعوفٍ لمَلِكٍ قَوِيٍّ ، كَتَبَ بها الفقيهُ أبُو عَبْدِ الله ابن (١) أحدُ كُتَّابِ الأَنْدَلُسِ ، عن بعض ملوك الأَنْدَلُسِ من المســلمين ، من أتْبــاع « المَهْدِىّ بن تُومَرْتَ » القائمِ بدَعْوة المُوَحِّدِينَ ، مع « دون فرانده » صاحبِ قَشْتالَةَ من مُلُوك الفَرَنْج بعَقْد الصُّلْح علىٰ مُرْسِيَةَ من بلاد الأَنْدَلُسِ ، وهى :

هذا عَقْدُنا بعد ٱستخارة الله تعالىٰ وٱسْتِرْشادِه ، وٱسْتعانَتِه وٱسْتِنْجادِه ، نِيابَةً عن الإمارة العَلِيَّــة بحُكْمِ ٱستنادنا إلى أوَامِرِها العالية ، وآرائِها الهَــادِيَة . عقَدْناه ــ واللهُ الموفِّقُ ــ لقَشْــتالَةَ مع فُلانٍ النائبِ فى عَقْده معنا عن مُرْسِله إلينــا ، المَلِكِ الأَجَلِّ الأَسْنَى المُبَجَّلِ « دون فرانده » مَلِكِ قَشْتالَةَ ، وطُلَيْطِلَةَ ، وقُرْطُبة ، وليُون ، وبَلَنْسِيَةَ ــ أدام الله كرامته ومِيزته بتقواه ــ حين وَصَلَنا من قِبَلِه كتابٌ مختومٌ بطَابَعِه المعلومِ له المُتعارَفِ عنه ، تَفْوِيضًا منه إليه ، فى كل ما يُعْقَدُ له وعليه . وعاقَدَنا علىٰ أن يكونَ

(١) بياض بالأصول .

السِّلْم بيننا وبين مُرْسِلِه المذكورِ لعامَيْنِ ٱثنين ، أوّلها شَهْر المحرَّم الذى هو أوّلُ سَنَة تاريخ هذا الكِتَاب ، الموافِقُ من الأشْهُرِ العَجَمِيَّة شهر كذا ، علىٰ جميع ما تَحْت نَظَرِنا الآنَ من البلاد الراجعة إلى الدَّعْوة المهديَّة ـ أسماها الله تعالىٰ ـ حَواضِرِها وثُغُورِها ، مَوَاسِطِها وأطْرافِها ، من جزيرة شَقْر إلىٰ بَيْرَة والمنصورة وما يليها ـ حرس الله جميعها ـ سِلْمًا محافَظًا عليها من الجهتين ، محفوظًا عَهْدُها عند أهل المِلَّتَيْنِ ؛ لاغَدْر فيها ، ولا إخْلالَ فى معنًى من معانيها ؛ ولا تُشَنُّ فى مُدُنها غَارَه ، ولا تُذْعَرُ سَيَّارَه ؛ ومَهْما وقع اغوار ، أو حَدَث اقدار ، على جهة المجاهره ، إذا ٱتَّصلتْ والمُساتَره ؛ فإن كان من جهة النصارىٰ ، فعلىٰ ملك قَشْتالَةَ تَسْريحُ الأسارىٰ ، وردُّ الغنائم والنَّهْب ، والإنْصافُ من الغنيمة إن عُدِمَت العين ، وأعْوزَ الطَّلَب . وعلينا مثلُ ذلك سَواء ، ليقابَلَ بالوَفَاء ؛ هذا بعد أن يُتَّبَعَ الأمْرُ ويُعلَمَ من أين كان .

ومن هذه المهادنة أن لا يُتَسبَّبَ إلى الحُصُون بالغَدْرِ ولا بالشَّرِّ ، ولا يتجاوزَ النصارىٰ حُدُودَ بلادهم وأرْضِهم بشَيْءٍ من البِنَاء ، ولا يَصِلَ من بَلَدِ قَشْتالَةَ مَدَدٌ لمخَالِفِنا ، ولا مَعُونَةٌ لمُقَاتِلِنا . وكل ما يرجِعُ إلىٰ هذه الدَّعْوة ، ويدخُلُ فى الطَّاعة من البلاد بعد هذا العَقْد فداخِلٌ فى السِّلْم ، بزيادة نِسْبَتِه من المال الذى هو شَرْطٌ فى صِحَّة هذا الحُكْم . وإذا بَقِيَ من مُدَّةِ هذه المُسالَمَة شهرانِ ٱثنانِ ، فعلَىٰ ملِكِ قَشْتالة أن يُعْلِمَنا بغَرَضِه فى المهادَنة أو سِوَاها ، إعلامًا من مذاهب الوَفَاء أوْناها .

وقد ٱلتزَمَ رسولُ المذكورِ لنا هذه الشُّروطَ ، وأحْكَم معنا ـ نِيَابَةً عنه فيها ـ العُقُودَ والرُّبوطَ ؛ علىٰ كلِّ ما ذكرناه . وٱلتزمنا فى هذا السلم المَلِكَ قَشْتالَةَ المذكورة ـ مكافأةً عن وَفاءِ عَهْدِه ، وصِحَّةِ عَقْدِه ـ مائةَ ألفِ دينارٍ واحدةً ، وأربعين ألفَ دينار فى كلِّ عامٍ من عامَيْ هذا الصُّلْحِ المقدَّمِ الوَصْف ، مقسَّمًا ذلك علىٰ ثلاثة أنْجُم

فى العام، ليتقاضاها ثِقاتُه، و يوفِّ عَيْنَها على التمام والكمال، قَبضَ منها كذا ليوصِّلَها إلىٰ مُرْسله ، وٱلتزَم له تخْليص باقى كذا عند ٱنقضاء كذا على أوْفىَ وجْهٍ وأكْمَلِه ؛ فإن وُفِّىَ له بذلك بعد الأربعين يوما المؤقّتة، فالسِّلْم باقيةٌ وحُكْمُها ثابتٌ، و إلا فالسِّلْم مفْسُوخَةٌ ولا حُكْمَ لها إن عُجِزعن الوفَاء له ، بحصول ما بَقِىَ من الشُّروط فى ٱسْتِصحاب الحكم وٱتِّصالِ العمَل؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وعلى ما تَضَمَّنه هذا الكِتَابُ أمْضَىٰ فلانٌ ـ أعَزَّه اللهُ ـ بحُكْمِ النيابة، عن الأمر العَالِى ـ أسماه الله ـ هذا العَقْدَ الصُّلْحِىَّ، وأشهد بما فيه علىٰ نَفْسه وحضَره المصل طور(؟) المذكور، فتُرجِمَ له الكِتَابُ وبُيِّنتْ له مَعانِيه، وقُرِّرَ علىٰ مَضَامِينه، فالتزم ذلك كلَّه عن مُرْسِلِه مَلِكِ قَشْتالَةَ حسَبَ مافوّض إليه فيه؛ وأشْهد بذلك على نَفْسه، فى صِحّتِـه وجَوَاز أمره فى كذا ، واللهُ الموفِّقُ لمـا يرضاه ، ومُقَدِّم الخَـيْرِ والخِيرَةِ فيما قَضَاه، بمَنِّه والسلام .

المـــــذهب الثـانى

(أن تُفْتتحَ المُهادنَةُ قبــل لفظ «هذا» ببعْدِيَّةٍ)

وهذه نُسْخةُ هُدْنةٍ بين مَلِكَين متكافئين دون تقْريرشَىْءٍ من الجانبين، كتَب بها الفَقِيهُ المحدِّثُ أبو الرَّبيع بن سالم من كُتَّاب الأَنْدَلُس، فى عَقْد صُلْح على بَلَنْسِيَةَ وغيرها من شَرْق الأَنْدَلُس، وهى :

وبعدُ، فهذا كتَابُ مُوادَعَةٍ أمْضَىٰ عقْدَها وٱلتزمَه، وأبْرَمَ عهدها وتمه ؛ فُلانٌ لملكِ أرْغُونَ، وقومط بَرْجَلُونة، ويرنسب مقت بشلى، حافظة(؟) بن بَطْرة، بن أدفونش، ٱبن ريموند، أدام اللهُ كرامتَه بتقواه له خاتمـا وعنوانا، المعهود صدوره فى أمثالهـا من المراوضات الصُّلْحِيَّـة تضَرُّعًا و إعلانا ؛ مُتضَمِّنًا من الإحالة فى عقْـدِ المُسالَمَة

عليه، والتَّفويض فى إبرامِ أسبابِها وٱلتزام فُصولِها وأبوابها إليه؛ ما أوجب صحيح النَّظَر، وصريحَ الرَّأْيِ المُعتبر، مُقاربةً فيه، ومُوافقةً منه علىٰ ما يحفظُ حقَّ المسلمين ويُوفِّيه، جُنوحًا منه إلىٰ ما جَنَح إليه من ذلك مُتقاضيه، وتحرّيًا للعمل على شاكِلة الصَّوابِ والإيثارِ لما يقتضيه، بعد مُحاولاتٍ بلغ منها النَّظر غايَته من الاجتهاد، وإراغاتٍ قرَن بها من ٱستخارةِ الله تعالىٰ وٱستنجاده ما رضى فيه من فَضْلِه العميم مَعْهُود التَّسديد والإنجاد؛ فأجْلَىٰ ذلك عن إمْضاءِ عَهْدِ السِّلْمِ لملكِ أرْغُونَ علىٰ بلنسية وكافَّةِ جهاتها أَطرافًا ومَواسِط، وثُغورًا وبَسائِط؛ وكذلك شاطِبَةُ ودانِيَه، وما ينْتَظِمُ معهما من أحْوازِهما ويرجعُ إلىٰ حُكْمِ بلَنْسيةَ وحالِها من الجِهَةِ النَّائِيَة والدانِيَه؛ لمدَّة عامَيْنِ ٱثنين، شَمْسِيَّيْنِ مُتَّصِلَين، وأيام مُتَّصِلةٍ بهما كذلك. وهذا يحصُرُ أمْرَه، ويُحقِّقُ عدَده؛ أن نفتتِحَه بيوم الأحدِ الرابعِ والعشرين لشهرِ نوبر، الموافِقِ لعاشِرِ ذى القَعْدةِ المؤَرَّخ به هذا الكتاب، الذى هو من عامِ أحدٍ وعشرين وسِتِّمائةٍ بتاريخ الهجرة ــ مُسالمةً تضع بها الحَرْبُ بين الجانبين أوْزارَها، وتُمَهِّدُ للهُدْنَة بين الطائفتَين آثارَها، وترفَعُ اللبنة (؟) عمن ذُكِرَ من المِلَّتينِ أذيَّتَها وأضرارَها؛ البَرُّ والبَحْر فى ذلك سِيَّان، والمُساتَرةُ فيها بالأذَىٰ والمُجاهَرةُ ممنوعان، وحقيقةُ اللَّازِمِ من ذلك غَنِيٌّ ببيانِه ووُضوحِه عن الإيضَاحِ والتِّبيان؛ لا ٱلتباسَ ولا إشْكال، ولا غائِلةَ ولا ٱحتِيال؛ ليس إلَّا الأمْنُ الكافِلُ لكافَّةِ من تَشْتَمِلُ عليه كافَّةُ المواضعِ المذكورةِ من المسلمين، ومن تَحْوِيه بلادُ مَلِكِ أرْغُونَ من الطَّوائِف أجمعين. وكلُّ مُنْتَمٍ إلىٰ خِدْمة هذه المملكة الأرْغُونيَّة بما كان من وُجوه الانْتِماء، أو ناظِرٍ فى جُزْءٍ منها كائنًا ما كان من الأجْزاء، فهو فى هذا الحُكْم داخِل، وتحتَ هذا الرَّبْط الصُّلْحِيِّ واصل؛ ولا حُجَّةَ لمن كان له منهم حِصْنٌ ينفَرِدُ به عن هذه المملكة، علىٰ ما لهم فى ذلك من العوائد المُتعارَفة. فإن تقضَّ بجُزْءٍ منه وذهب إلىٰ أن يكون فى حِصْنه مُنْفرِدًا فهو

وما آختار، إذا تنكَّبَ الإضرارَ؛ فإن رام التَّطرُّقَ بشَيْءٍ إلىٰ أحَدِ الجانبَين كان على المسلمين وعلىٰ أهْل أرْغُونَ التظافُرُ على آسْتِنزالِه، والتظاهُرُ علىٰ قِتالِه، حتَّىٰ يَكُفُّوا ضَرَره، ويُعَفُّوا أثَرَه.

والحُدُودُ الفاصلةُ بين الجزأين هي أوساطُ المسافات، علىٰ ما عُرِف من مُتقدِّم المسالمات؛ ويَدُ كلِّ فَرِيقٍ منهم مُطْلَقةٌ فيما وَرَاءَ حَدِّه بما شاء، من آنتشاءٍ برَسْم الإصلاح والانشاء؛ وكلّ من قصد المسلمين من رِجال المملكة الأرْغُونيَّة بريئًا من تَبِعَةِ الفَساد فقَبُولُ قَصْدِه مُبَاح، وليس فى آستخدامه والإحسانِ إليه جُنَاح؛ والطريق للتُّجَّار المعهودِ وُصُولُهم من بلاد أرْغُونَ إلىٰ بَلَنْسِيَةَ فى البَرِّ والبَحْر مُباحَةُ الأنْتِيَاب، مَحْفُوفةٌ بالأَمَنَة التامَّة فى الجَيْئَةِ والذَّهاب؛ وعلىٰ تُجَّارِ البَحْر منهم أن يَتجنَّبوا رُكُوبَ الأجفان الحَرْبِيَّة التى يُمكِنُ بها الإضرار، ويَسْتَغنِي عن (١) التُّجَّار؛ والآسترْهابُ مَرْفوعٌ عن هٰؤلاءِ الواصلين برَسْم التِّجارةِ على آختِلافهم، وتَبايُنِ أصْنافِهم؛ فيما لم تَجْنِهِ أيْديهم، ولا كان مَنْسُوبًا إلىٰ تعَدِّيهم؛ وكلُّ مُعْتَقِلٍ من الطائفتين بأدْنىٰ شَيْءٍ يُطَرِّق إلىٰ حُكْمِ هذه السِّلْمِ خِلافا، أو يُلْحِقُ بعَهْدِها إخْلافا؛ فعلى أهْلِ مَوْضِعه الإنْصافُ ممن جَنَاه، وصَرْفُ ماسَلَبَتْه يَدَاه، وإحْضارُه مع ذلك ليُعاقَبَ بما أتاه. وليس لأحَدٍ من الطائفتين أن يتسبَّبَ بآسْترْسال، إلى الإنْصاف من جنايةِ حَال؛ بل يقومُ بدَفْعِ ذلك حيثُ يُحَب، ويطلبُه فى المَوْضِع الذى ينبغِي فيه الطَّلَب؛ حتَّى يخاطَبَ الناظِرُ على المملكة التى نُسِبَتْ إليها هذه الإذايه، وصدَرتْ عن أهْلِها [تلك] الجنايه؛ بِطلَبِ الإنصافِ من عُدْوانِها، وتعادُ عليه الأَعْذارُ فى شأنِها؛ وعليه ـ ولا بُدَّ ـ التَّخليصُ منها عملًا بالوَفَاءِ الذى يَجِبُ العمَلُ به، وقيامًا بحقِّ العَهْد الذى أُكِّد الآعْتلاقُ بسَبَبِه؛ ومتى غادر مغادِرٌ من أحَدِ المِلَّتين حِصْنًا من حُصُون

(١) بياض بالأصول ولعله «عن ركوبها».

الأخرىٰ فله الأمْنُ علىٰ الكمال، والرَّعْيُ الحافِظُ للنَّفْسِ والمـال، حتى يُلْحَقَ بمأْمَنِه، ويَعُودَ سالمـًا إلىٰ وَطَنِه .

فعلى هـذه الشروطِ المحقَّقه، والرُّبُوط الموَثَّقه، ٱنعقد هذا السِّلْم، وعلىٰ من ذُكِرَ من المسـلمين وأهْـلِ أرغون الحُكْم؛ وهـذا الكِتَابُ ينطِقُ فى ذلك بالحَقِّ اللازمِ للطائفتين، ويُعْرِب عن حقيقة ما ٱنعقَد بين من سُمِّىَ من أهْـلِ المِلَّتين؛ وٱلتزم كُلَّه عن مَلِكِ أرغُونَ النائبُ عنـه بتَفْوِيضِه إليـه، وٱستِنابَتِه إيَّاه عليـه؛ الزعيم بطره آبن فداف بكدريش(؟) على أتم وجوه الٱلتزام، وأبْرَمَ ذلك مَلِكُ أرْغُونَ بأوْثَقِ علائق الإبرام، وكلُّ ذلك بعـد أن بُيِّنَتْ له الفُصولُ المتقـدِّمَةُ غايةَ التَّبْيِينِ وأُفْهِمَها حقَّ الإفْهام؛ وألْزم نفْسَـهُ مع ذلك وُصولَ كِتَابِ هـذا المَلِكِ الذى تولَّى النِّيابَةَ عنـه فى هـذا العَقْدِ، مصرِّحًا بٱلتزامه وإمضائه فيـه عَمَله، وَفْقَ ما تَضَمَّنه كِتَابُه الذى أرسَلَه، وأَشهد مع ذلك زعمـاءَ دَوْلَتِه وكُبراءَ القائمين عليه، تحقيقًا لمَـناه، وتَوْثيقًا لمَبْناه، إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الثـانى

(من الهُدَن الواقعةِ بين مَلِكٍ مُسْلِم ومَلِكٍ كَافِرٍ ـ أن تكونَ الهدنةُ من الجـانبين جميعا)

وفيها للكُتَّاب ثلاثة مذاهب :

المـــذهب الأوّل

(أن تُفتتحَ الهُدْنةُ بلفظ : «هذه هُدنَةٌ» ونحو ذلك)

قال فى "التعريف" : وسبيلُ الكِتابَة فيها أن يُكْتَبَ بعد البَسْملة : هٰذه هُدْنةٌ ٱستقرّتْ بين السُّلطانِ فلانٍ والسُّلطانِ فلانٍ، هادَنَ كلُّ واحدٍ منهما الآخَرعلى الوَفاءِ عليه، وأجَّل له أجَلًا ينتهى إليه؛ لمـا ٱقْتَضَتْه المصلحةُ الجامعه، وحُسِمتْ به موادُّ

الآمالِ الطَّامعه ؛ تأكَّدتْ بينهما أسْبابُها ، وفُتِحتْ بهما أبْوابُها ؛ وعليهما عَهْـدُ الله على الوَفاء بشَرْطِها ، والانتهاءِ إلىٰ أمَدِها ، ومَدِّ حَبْلِ المُوادَعَة إلىٰ آخر مُدَدِها ؛ ضَرَبا لهـا أجَلًا أوَّلُه ساعةُ تاريخِـه وإلىٰ نهاية المُدَّة ، وهى مُدَّة كذا وكذا ؛ علىٰ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يُغْمِدُ بينه وبين صاحِبِه سَيْفَ الحَرْب ، ويَكُفُّ ما بينهما من السِّهام الراشِقَة ، وتُعقَلُ الرِّماحُ الخطَّارة ، وتُقَرُّ علىٰ مرابطها الخَيْلُ المُغيرة . وبلادُ السلطان فلانٍ كذا وكذا ، وبلادُ السلطانِ فلانٍ كذا وكذا ، وما فى بلادِ كلٍّ منهما من الثُّغُور والأطْرافِ والمَوَانِى والرَّساتيق والجهات والأعمال : برًّا وبَحْرًا ، وسَهْلًا وجَبَلًا ، ونائيًا ودانيًا ، ومَن فيها : من مَالِكِها المسَمَّىٰ وبَنِيه ، وأهْلِه وأمْواله ، وجُنْدِه وعَساكِره ، وخاصِّ من يتعلَّقُ به وسائِرِه ؛ ورعاياه على آختـلاف أنواعهـم ، وعلى آنفرادِهم وآجْتماعِهم ؛ البادِى والحاضِر ، والمُقِيم والسَّائِر ، والتُّجَّار والسَّفَّارة ، وجميع المتردِّدين من [سائر] (١) الناس أجمعين . علىٰ أن يكون علىٰ فلان كذا و[على فلانٍ] (١) كذا [ويعين ما يعين] : من مالٍ ، أو بلادٍ ، أو مساعدةٍ فى حَرْبٍ ، أو غير ذلك ، يقوم بذلك لصاحبه ، وينهَضُ من حقِّه المقرَّرِ بواجِبِه ؛ وعليهما الوفاءُ المؤكَّدُ المواثيق ، والمحافظةُ على العَهْد والتَّمَسُّكُ بسَبَبِه الوَثِيق ـ هدنةً صحيحةً صريحةً ، نَطَقا بهـا ، وتَصادقَا عليها ، وعلىٰ ما تَضَمَّنته المواصفَةُ [المستوعَبَةُ بينهما فيها ، وأشهدَا اللهَ عليهما بمضمُونها ، وتَوَاثَقَا علىٰ دُيُونها ، وشهِدَ من حَضَر مقام كلٍّ منهما علىٰ هذه الهُدْنة وما تَضَمَّنته من المواصفه] (١) ، وجرَتْ بينهما علىٰ حُكْمِ المُناصَفه ، رَأَيا فيها سُكونَ الجِماح ، وغَضَّ طَرْفِ الطِّماح .

وعلىٰ أنَّ علىٰ كلٍّ منهما رعايةَ ما جاوره من البِلادِ والرَّعِيَّه ، وحَمْلَهم فى قضاياهم على الوُجُوه الشَّرعِيَّـه ؛ ومن نَزَح من إحْدَى المملكتين إلى الأُخْرىٰ أُعيد ، وما أُخِذَ منها باليَدِ الغاصِبَة آستُعِيد ؛ وبهذا تم الإِشْهاد ، وقُرِئَ على المسامع علىٰ رُءُوس الأشْهاد .

---

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٧٠ .

المـــــذهب الثـانى

(أن تُفتتحَ الهُـدْنة : بلفظ : «ٱستَقَرّت الهُدْنة بين فلانٍ وفلانٍ»
ويقدّم فيـــه ذِكْر الملِكِ المُسْـلِم)

وعلىٰ ذلك كانت الهُدَنُ تُكتَبُ بين ملوكِ الدِّيار المصرية، وبين ملوكِ الفَرَنْج، المتَغلِّبينَ علىٰ بَعْضِ البلاد الشامية .

وهذه نُسْخة هُدْنةٍ علىٰ هذا النَّمَط : دون تَقْرِيرٍ من الجانبين؛ كُتِبتْ بين المَلِك الظَّـاهر «بيبرس البندقدارى» صاحبِ الدِّيارِ المصرية، وبين الاسْبِتَار[1] بحِصْنِ الأكراد والمَرْقَب، فى رابع شَهْر رمضانَ سنة خَمْسٍ وستين وسِتِّمائةٍ، وهى :

ٱستَقَرّتِ الهُـدْنةُ المباركةُ المَيْمونَةُ بين مولانا السلطانِ المَلِكِ الظَّاهرِ رُكْن الدِّينِ أبِى الفَتْح «بيبرس» الصَّالحِىِّ النَّجْمِىِّ، وبين المقدّم الكبيرِ الهُمام فلانٍ مُقدَّمِ بَيْتِ الاسْبِتَار الفلانىِّ بعَكَّا، والبلادِ السَّاحليَّة، وبين فُلانٍ مقدَّمِ حِصْن الأكراد، وبين فلانٍ مُقـدَّم حِصْن المَرْقَب، وجميعِ الإخْوةِ الاسْبِتَار، لمدّةِ عَشْر سـنين مُتَوالية وعَشَرةِ أشْهرٍ وعشرةِ أيّامٍ وعَشْر ساعات : أوّلهـا يومُ الآثنينِ رابعُ رمضانَ سـنةَ خَمْسٍ وستِّين وسِتِّمـائةٍ من الهِجْرة النَّبويَّة علىٰ صاحبِها أفضلُ الصَّلاةِ والسـلام، الموافِقُ لليومِ الثَّلاثين من أيّام[2] سنةَ ألفٍ وخَمسمائةٍ وتسعةٍ وسبعين سنة للإسْكَنْدر بن فيلبس اليُونَانِىّ ــ علىٰ أن جميعَ المَمْلكةِ الحِمْصيَّةِ والشَّيْزَرِيَّةِ والحَمَوِيَّة وبلادِ الدَّعْوةِ المُباركَة، واقِعٌ عليها الآتفاقُ المُبارك، ومُسْتقِرَّةٌ لها هذه الهُدْنة المَيمونَة بجميعِ حُدُود هذه المَمـالك المَعْروفه، وبلادِها الموصوفه، وقُراها وضِياعِها، وسَهْلِها وجَبَلِها، وعامِرِها وغامِرِها، ومَزْرُوعها ومُعَطَّلِها، وطُرُقاتِهـا ومياهِها، وقِلاعِها

(١) الاسبتار بتقديم الموحدة على التاء هو رئيس الطائفة الدينية المعروفة فى الكتب العربية بالاسبتارية .
(٢) بياض بالأصول .

وحُصونها ـ على مايُفَصَّلُ فى كلِّ مملكة، ويُشْرَح فى هذه الهُدْنةِ المباركة للمدّةِ المعيَّنَة إلى آخرِها .

وعلى أن المستقرَّ بمَمْلكةِ حِمْص المحروسةِ أنَّ جميع المَواضِع والقُرَى والأراضِى التى من نَهْرِ العاصِى، وتغرّب إلى الحَدِّ المعروفِ من الغرْبِ لبَلَدِ المُناصَفات : عامِراً وداثِراً، وبما فيها من الغَلَّات صَيْفيا وشَتْويا، والعداد وغيرها من الفوائد جميعها ـ تقرَّر أن يكونَ النِّصفُ من ذلك للسُّلطانِ الملِكِ الظاهرِ رُكْنِ الدنيا والدِّين أبى الفَتْح «بيبرس»، والنِّصف لبَيْتِ الاسبِتار .

وعلى أن كلًّا من الجهتين يجْتَهِدُ ويَحْرِصُ فى عمارة بَلَد المُناصفاتِ المذكورة بجُهْده وطَاقَتِه، ومَن دخل إليها من الفلَّاحين بدَوابَّ، أو من التُّركمان، أو من العَرَب، أو من الأكْرَاد، أو من غيرهم، أو القُنَاة ـ كان عليهم العِدادُ بجَارِى العَادَة . ويكون النِّصْفُ للسلطانِ، والنِّصفُ لبَيْت الاسْبِتَار .

وعلى أن المَلِكَ الظاهرَ يحْمِى بلَدَ المناصفات المقدّمَ ذِكْرُها من جَميع عَسْكَره وأتباعه، وممَّن هو فى حُكْمِه وطاعَتِه، ومن جميع المسلمين الدَّاخلين فى طاعته كافَّة . وكذلك مقدَّمُ بَيْتِ الاسْبِتَار وأصحابُه يحمُونَ بلادَ مولانا السلطانِ الدَّاخلةَ فى هذه الهُدْنة .

وعلى أنَّ جميعَ من يتعدَّى نَهْر العاصِى مُغَرِّبًا لرَعْيِ دوابِّه : سواءٌ أقام أو لَمْ يُقِمْ، كان عليه العِدادُ سِوى قُنَاة البلد ودَوابِّه، ومن يخرجُ من مَدينة حِمْص ويعودُ إليها، ومن غَرَّبَ منهم ومات كان عليه العِدَادُ .

وعلى أن يكون أمْرُ فلَّاحِى بلَدِ المناصفات فى الحَبْس والإطلاق والجِباية راجعاً إلى نائبِ مولانا السلطان، باتِّفاقٍ من نائبِ بَيْت الاسبِتار، على أن يحكُمَ فيه بشريعة الإسلامِ إن كان مُسْلمًا، وان كان نَصْرانياً يحكم فيه بمقتضى دَوْلة حصْن الأكراد .

وأن يكونَ الفلاحونُ الساكنون فى بلاد المناصفات جميعها مُطْلَقين من السُّخَرِ من الجانبين .

وعلىٰ أن المَلِكَ الظاهِرَ لا يأخذُ فى بَلَدِ المناصفات المذكورة : من تُرْكمانٍ ولا عَرَبٍ ولا أَكْرادٍ ولا غَيْرِهِم عِدَادًا ولا حقًّا من حقوق بَلَدِ المناصفات ، إلا ويكونُ النِّصفُ منه للمَلِكِ الظاهر ، والنِّصفُ الآخرُ لبَيْت الاسْبِتَار .

وعلىٰ أن المَلِكَ الظاهِرَ لا يتقـدَّمُ بمنع أحَدٍ من الفَلَّاحين المعروفين بسُكْنَى بلاد المناصفات من الرُّجوعِ إليها ، والسَّكَنِ فيها إذا آختارُوا العَوْدَ . وكذلك بيْتُ الاسْبِتَار لا يمنعون أحدًا من الفَلَّاحين المعروفين بسُكْنىٰ بلاد المناصفات من الرُّجوعِ إليها والسَّكن فيها إذا آختارُوا العَوْد .

وعلىٰ أن المَلِكَ الظاهِرَ لا يمنـعُ أحدًا من العُرْبانِ والتُّركمان وغيرهم : ممَّن يُؤدِّى العِدَاد ، من الدُّخولِ إلىٰ بَلَدِ المناصفات ، إلَّا أن يكونَ مُحارِبًا لبَعْض الفَرَنج الداخلين فى هذه الهُدْنة ، فله المَنْع من ذلك . وأن تكونَ خُشَاراتُ الملك الظاهر وخُشَاراتُ عساكِرِه وغِلمانُهُـم وأهلُ بَلَدِه تَرعَىٰ فى بلد المناصفات آمِنَـةً من الفَرَنج والنَّصارىٰ كافَّة . وكذلك خُشَاراتُ بَيْتِ الاسْبِتَار وخُشَاراتُ عَسْكرِهم وغِلْمانِهم وأهْلِ بَلَدِهم ترعى آمِنةً من المسلمين كافَّةً فى بَلَدِ المناصفات . وعند خروج الخُشارات من المَراعِى وتَسْليمِها لأصحابها ، لا يُؤخَذُ فيها حقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُعارَضُ من الجهتين .

وعلىٰ أن تكونَ مِصْيَدة السَّـمكِ الرُّوميَّة مهما تحصَّلَ منها ، يكونُ النِّصفُ منه للمَلِكِ الظاهِرِ والنِّصفُ لبيْت الاسْبِتَار . وكذلك المَصَايد التى فى الشَّطِّ الغَرْبىِّ من العاصِى يكونُ النِّصفُ منه للمَلِك الظاهر والنصفُ لبيْتِ الاسْبِتَار . ويكونُ لبَيْتِ الاسْبِتَار فى كلِّ سنةٍ خمسُونَ دينارًا صُورِيَّة عن القَشّ ، ويكون القَشُّ جميعُه للمَلِك الظاهر يتصَرَّفُ نُوَّابُه فيه علىٰ حَسَب آختيارهم . ويكونُ اللَّينوفَرُ مناصَفَةً : النِّصفُ

منه لِلَمَلِك الظاهر والنِّصفُ لبَيْت الاسْبِتَار . وتقرّرَ أن الطاحُونَ المستجدَّ المعروفَ بإنشاء بَيْت الاسْبِتَار، الذى كان حصل الحَرْب فيه، والبُسْتانَ الذى هناك المَعْروف بانشاء بيت الاسْبِتَار أيضا يكون مناصفة . وأن يكونَ متولِّى أمْرهما نائبٌ من جِهَةِ نُوّاب السلطان ونائبٌ من جِهَةِ بيت الاسْبِتَار ، يتوليان أمْرَهما والتَّصرُّفَ فيهما وقَبْضَ مُتَحَصَّلِهما . وتقرّر أنَّ مهما يجدِّده بَيْتُ الاسْبِتَار على الماء الذى تَدُور به الطاحُونُ ويَسْقِى البُسْتانَ من الطواحين والأبنية وغير ذلك ، يكون مُناصَفَةً بين المَلِك الظاهِر وبين بَيْتِ الاسبتار .

وأما المستقرُّ بمَمْلَكَةِ شَيْزَر المحروسة ، فهى شَيْزَر ، وأبو قُبَيْس وأعماله ، وعَيْنتابُ وأعمالُها ، ونصفُ زاوية بغْراس المعروفةِ بحماية بَيْت الاسبتار وأعمالُها ، وجميعُ أعمال المَمْلَكةِ الكِسْرويّة والبلادِ المذكورةِ بحُدُودِها المعروفةِ بها ، وقُراها المُسْتقرّةِ بها ، وسَهْلِها وجَبَلِها وعامِرِها وغامِرِها .

وما آستقرّ بمملكة المَلِك المَنْصور، ناصِرِ الدِّين «محمد» بن المَلِك المظَفَّر أبى الفَتْح «محمود» بن الملك المَنْصور «محمد» بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهى : حماةُ المحروسةُ وقِلاعُها ومُدُنها ، والمَعَرَّةُ وقُراها وسَهْلُها وجَبَلُها وأنهارُها ، ومَنافعُها وثِمارُها وعامِرُها وغامِرُها ، وبلادُ رُقَيبة وبلادُ بارِينَ بحُدودها وتُخُومها وعامِرِها ودَاثِرِها وجميع من فيها وما فيها ــ على أن المَلِك المَنْصور لا يرخِّص للتُّركمان ولا للعَرَب أن ينزلوا بَلَد رُقَيبة وبارِينَ سِوَى ثلاثين بَيْتًا يحملون الغَلَّة لقَلْعة بارِينَ ، وإن أرادوا الزيادةَ يكونُ بمراجعة الإخْوة الاسبتارية والآتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنّه إن تعدَّى أحدٌ من أصحابه بأذيّةٍ ، أو تعدَّى أحدٌ من الفَرَنجة فى بِلاده بأذيّة ، كانت المُهْلة فى ذلك خمسة عشر يوما ؛ فإن آنكشفت الأخيذة ،

أعيدت . وإلا تُحلَّف الجهةُ المدَّعىٰ عليها أنها ما علمتْ وما أحسَّت ، وكما لهُم ، كذلك عليْهم .

والمستقرُّ لمملكة الصاحبيْن : نَجم الدِّين وجمال الدِّين ، والأميرِ صارمِ الدِّين نائبِ الدَّعْوة المُباركة ، وولَد الصاحب رَضيِّ الدِّين ، وهى : مِصْياف والرُّصافة وجميعُ قِلاع الدَّعْوة وحُصونها وسَهْلِها ووعْرِها وعامِرِها وداثِرِها ، ومُدُنها وبلادها ، وضياعِها وطُرقاتِها ، ومياهِها ومنَابِعِها ، وجميعُ بلادِ الإسماعيلية بجبلَى بَهْرا واللُّكَّام ، وكلِّ ماتشتملُ عليه حُدود بلادِ الدَّعوة وتُخُومها — أن يكونَ الجميع آمِنِينَ من علىٰ الرَّصيف الذى بشَيزَر إلىٰ نهاية الأراضِى التى بحُصُون الدَّعوة وبلادِها . وحمايةَ القَرْيَةِ المعروفةِ بعرطار (؟) يكونُ له أسوة الاسماعيلية . وإن عَلِم الأصحابُ أن أحدًا من الإسماعيلية قد عَبر إلىٰ بَيْتِ الاسبتار لأذِيَّة ، أَعلمُوا بَيْت الاسبتار قبلَ أن تَجْرِىَ أذِيَّة ، وما لم يُعلِمُوا به عليهم اليمينُ أنَّهم ما عَلِمُوا به ، وإن لم يحلِفُوا ردُّوا الأذِيَّةَ التى تَجْرِى .

وتقرّر أن يكونَ فلَّاحُو بَيْتِ الاسبتار رائحينَ وغادينَ ومتصرِّفينَ فى بَيْعِهم وشرائِهم ، مطمئنِّينَ لا يتعدَّىٰ أحدٌ عليهم . وكذلك جميعُ فلَّاحِى بلاد الإسماعيلية لا يتعدَّىٰ أحدٌ عليهم ، وأن يكونُوا آمنينَ مطمئنِّينَ فى جميع بلاد الاسبتارية ، وإن تعدَّى أحدٌ من الجهتين فى سُوقٍ أو طَريقٍ ، فى لَيْلٍ أو نهار ، تكون المهْلَة خمسة عَشَرَ يوما ، فإن ردَّت الشَّكْوىٰ كلُّها فما يكون إلا الخَيْر بينهم ، ومن توجَّهتْ عليه اليمينُ حَلَف ، ومن لم يفعلْ يحلِّف وإلا يرُدُّ الأذِيَّة . وتكون الضَّيْعةُ التى رهَنَها عبدُالمسيح رَئِيسُ المَرْقَب الاسبتار ، وهى المشيرفة تكون آمنةً إن كان الحال استقرّ عليها إلىٰ آخر وَقْتٍ عند كتابة هذه الهُدْنة المباركةِ بين الأصحاب وأصحابهم . ويحمل الأمْر فى الحقوق .

ويبطُل ما هو علىٰ بلاد الدَّعْوةِ المباركَةِ من جميع مالبَيْت الاسبتار علىٰ حماية مِصْياف والرُّصافة، وهو فى كلّ سنةٍ ألفٌ ومائتا دينارٍ قومصية، وخمسون مُدًّا حِنْطةً، وخمسون مُدًّا شعيرا، ولا تبقىٰ قَطيعةٌ علىٰ بلاد الدَّعْوة جميعها، ولا يتعرَّضُ بَيْتُ الاسبتار ولا نوّابهم ولا غِلْمانُهم إلىٰ طلبِ قَديم من ذلك ولا جَديد، ولا مُنْكَسر ولا ماضٍ، ولا حَاضِرٍ ولا مُسْتقبلٍ علىٰ آختلافه .

وتقرّر أن تكونَ جميعُ المباحات من الجهتين مُطْلقةً ممـا يختصُّ بالمملكة الحِمْصِيَّة، يسترْزِقُ بها الصَّعاليكُ . وأنَّ نوّابَ المَلِك الظاهِرِ يحمونَهم من أذِيَّةِ المسلمين من بلاده المذكورة ، وأن نُوّابَ بَيْتِ الاسبتار يَصُونونَهم ويَحْرُسونهم ويَحْمونَهم من النَّصارىٰ والفَرَنج من جميع هذه البلادِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنة . ولا يتعرّضُ أحدٌ من المسلمين كافَّةً من هذه البلادِ الدَّاخلةِ فى [هذه] الهُدْنة [إلىٰ بلاد الاسبتارية] بأذِيَّةٍ ولا إغارة، ولا يتعرضُ أحدٌ من جَميع الفَرَنْجة من هذه البلاد الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ بحُدُودها الجاريةِ فى يَدِ نُوَّابِ الاسبتار وفى أيديهم، إلىٰ بلاد الملك الظاهر بأذِيَّةٍ ولا إغارَة .

وعلى أنه متىٰ دخل فى بلاد المُناصَفات أحدٌ ممن يَجِبُ عليه العِـدَادُ وآمتنع من ذلك ، وكان عِداد إحْدَى الجهتين حاضرًا : إمَّا عِدَادُ ديوان المَلِك الظـاهر، وإمَّا عِدَادُ بَيْتِ الاسبتار ، فلنائبِ العِـدادِ الحَاضِر من إحدَى الجِهَتَـينِ أن يأخُذَ من ذلك الشَّخْصِ الممتنع عن العِـدَاد أو الخارجِ من بَلَدِ المناصـفات رَهْنًا بمِقْدار ما يجبُ عليه من العِدَادِ، بحضُورِ رئيس من رُؤَساءِ بَلَدِ المناصفات ، ويُتْرَكُ الرَّهْن عند الرَّئيسِ وَدِيعَةً إلىٰ أن يحْضُرَ النائبُ الآخَرُ من الجِهَةِ الأخرىٰ، ويُوصِّلَ إلىٰ كلٍّ من الجهتين حَقَّه من العِدَادِ .

وإن خرج أحدٌ ممن يَجِبُ عليه العِدَادُ، وعَجَز النائبُ الحاضِرُ عن أخْذِ رَهْنِه : فإن دخلَ بلدًا من بلاد المَلِك الظاهر، كان علىٰ النوّابِ إيصالُ بَيْتِ الاسبتار إلىٰ حَقِّهم

مما يجبُ علىٰ الخَارِج من العِدَاد . وكذلك إن دخل الخارجُ المَذْكورُ إلىٰ بَيْتِ الاسبتار، كان عليهم أن يُوصِّلوا إلىٰ نوّابِ الملِك الظاهِرِ حَقَّهُم مما يَجِبُ على الخارج من العِدَادِ . وكذلك يعتمدُ ذلك فى المَمْلكةِ الحَمَويَّة و بلادِ الدَّعوة المحروسة .

وعلىٰ أن التُّجَّار والسُّـفَّارَ والمتردِّدِينَ من جميع هــذه الجهات المذكورة يكونون آمِنينَ من الجِهَتينِ : الجِهَةِ الإسلامية ، والجِهَةِ الفرنجية والنَّصرانيَّة، فى البلاد التى وقعتْ هذه الهُدنَةُ عليها ــ علىٰ النُّفوسِ والأموال والدَّوابِّ وما يتعلقُ بهــم، يحميهم السُّلطانُ ونوّابُه ، ويتعاهدُون البلادَ الداخلةَ فى هــذه الهُدْنة المبـاركةِ الواقعِ عليها الصُّلْح وفى بَلَد المناصفات ــ من جَميع المسلمين . ويحميهم بَيْتُ الاسبتار فى بلادهم الواقع عليها الصُّلْح وفى بلد المناصفات ــ من الفَرَنْج والنصارىٰ كافَّة .

وعلى أن يتردّدَ التُّجَّارُ والمسافِرُون من جَميــع المتردّدين على أىِّ طريقٍ آختاروه من الطُّرق الداخلةِ فى عَقْدِ هذه البلاد الداخِلةِ فى هذه الهُدْنةِ المباركة المختصَّة بالمَلِك الظاهِرِ، وبلادِ مُعاهَديه، وبلادِ المناصفات، وخاصِّ بَيْتِ الاسبتار والمناصفات؛ يكونُ الساكِنُون والمتردِّدُون فى الجِهَتينِ آمِنــينَ مُطْمَئِنِّين على النُّفوسِ والأموال ؛ تحمِى كلُّ جِهةٍ الجهةَ الأُخْرىٰ .

وعلىٰ أنَّ ما يختص بكلِّ جهةٍ من هــذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاسبتارية . لا يكونُ عِدادٌ على ما لَهـا فى المناصفات : من الدَّوابِّ والغَنَم والبَقَرِ والجِمَالِ وغيرها ، على العادةِ المقرَّرةِ فى ذلك .

وعلى أنَّ إطلاقَ الرُّؤساءِ يكونُ باتفـاقٍ من الجهتين : الإســلامية ، والفرنجية الآسبتارية . ومتىٰ وقعتْ دعوى على الجهــة الأخرىٰ، وُقِفَ أمرُها فى الكشف عنهـا أربعين يومًا ، فإن ظهرت أُعِيدتْ علىٰ صاحبها ، وإن لم تظهرْ حَلَفَ ثلاثة

نَفَرٍ مِمَّن يختارهم صاحبُ الدَّعوىٰ على ما يعلمونَه فى تلك الدَّعوَىٰ، وإنْ ظهرتْ بعد اليمينِ أُعِيدَتْ إلىٰ صاحبها، وإن كان قد تَعوَّض عنها أُعِيد العِوَضُ .

وعلىٰ أن يَكْشِفُوا عن الأَخيذة بجُهْـدِهم وطَاقتِهم . ومتىٰ تحققتْ أُعِيـدتْ الىٰ صاحِبها ؛ فإن حَلَفوا يبرءون من الدعْوىٰ ، وإن ظهرتْ بعـد اليمين أعيدتْ علىٰ صاحبها ، وإن ٱمتنع المدَّعىٰ عليـه من اليمين حَلَف المدَّعى، ولا يسـتحق (١) عوض ما عدم من كل شيء مثـله . وكـذلك يجرى الأمْرُ فى القَتْل : عِوَضُ الفَارِس فارِسٌ ، وعِوَضُ الرَّاجِلِ راجِلٌ ، وعِوَضُ البرْكِيلِ برْكِيلٌ ، وعِوَضُ التَّـاجِر تاجِرٌ ، وعِوَضُ الفَـلَّاح فَلَّاحٌ . وإذا ٱنقضت الأربعون يوماً المذكورةُ لكَشْفِ الدَّعوىٰ ولم يَحْلِف المدَّعَىٰ عليه للمدَّعِى وجب عليه العِوَضُ حتَّىٰ يرِدّ، وإن ردّ اليمينَ على المدَّعِى ومَضىٰ علىٰ ذلك عشرةُ أيَّامٍ، ولم يَحْلِف صاحب الدعوىٰ بطلتْ دعواه وحُكْمُهـا ، وإن حلف أخَذَ العِوَض .

ومتىٰ هَرَب من إحْدى الجِهتَينِ إلىٰ الأُخرىٰ أحَدٌ، ومعه مالٌ لغيره أُعِيـدَ جميعُ مامعه، وكان الهـارِبُ مُخيَّراً بين المُقامِ والعود . وإن هرب عبدٌ وخرج عن دِينِه، أعِيدَ ثَمنُه ، وإن كان باقِياً علىٰ دِينِه أعيد .

وعلى أن لا يدخلَ أحدٌ من القاطِنِينَ فى بلَدِ المناصفات : من الفلَّاحينَ والعَرَب والتركمان وغيرِهم، إلىٰ بلادِ الفَرَنْج والنَّصارىٰ كافَّةً لإغارة ولا أذِيَّةٍ بعِـلْم المَلِك الظاهِر وبلاد مُعاهَدِيه ، [ولا يدخُلَ أحدٌ] بلاد المسـلمين لإغارةٍ ولا أذِيَّة بعلم بيْتِ الاسبتار ولا رِضاهُم ولا إذْنِهم .

وعلىٰ أنَّ الدعاوىٰ المتقدّمةَ على هـذا الصُّلْح يحَلُ أمْرُها على شَرْط المُواصَفةِ التى بين الملك الظاهِر وبين مُعاهَدِيه وبين بَيْتِ الاسبتار .

(١) كذا فى الأصل، ولعل الصواب «ويستحق» كما هو ظاهر .

وعلىٰ أن هذه الهدنةَ تكونُ ثابتــةً مُسْتقرّةً، لا تُنْقضُ بموْت أحدٍ من الجهتين، ولا وَفاةِ مَلِك ولا مُقدّمٍ، إلىٰ آخر المدّة المذكورة، وهى : عَشْرُ سنينَ وعشرةُ أشْهرٍ وعشرةُ أيام وعَشْرُ ساعات، أوّلهـا يوم تاريخه .

وعلى أن نُوّابَ الملكِ الظاهرِ ومعاهديه لا يتركونَ أحدًا من التُّركمان، ولا من العُرْبان، ولا من الأكْرادِ، يدخلُ بلادَ المناصَـفَات بغيْرِ اتِّفاقٍ من بيْت الاسبتار أو رِضاه، إلا أن يكْفُلوه علىٰ نُفُوسهم فى هذه الطوائف المذكورة، ويعلَموا حالَه، لئلّا تَبْدُوَ منهــم أذِيّةٌ أو ضَرَرٌ أو فَسادٌ ببلد المناصفات وببلد النصارىٰ . ولنوّاب مولانا السلطان أن تتركهم علىٰ شَرْطِ أنهم يعلَمُ بهم بيْتُ الاسبتار فى غَدِ نزولهم المكَان، إن كان المكانُ قريبا . وإن ظهر منهم فَسَادٌ كان النوّابُ يجاوبون بيْت الاسبتار .

وعلىٰ أن المهادنةَ بحُدُودِها يكونُ الحكمُ فيها كما فى المناصفات، والحُدُودُ فى هذه البلاد جميعِها تكونُ علىٰ ما تَشْهدُ به نسخ الهُـدَنِ، وما استقرَّ الحـالُ عليه إلىٰ آخِرِ وَقْت .

وعلىٰ أن تخلَّىٰ أمورُ المملكَةِ الحِمْصِيَّة علىٰ ما كان مستقرًّا فى الأيام الأشْرفِيَّــة، علىٰ ما قرّره الأمير عَلَمُ الدِّين «سنجر» .

هذا ما وقع الاتِّفاقُ والتَّراضِى عليــه من الجهتين . وبذلك جَرَى القلمُ الشريفُ السلطانىُّ المَلَكىُّ الظاهِرِىُّ : حجّــةً بمقتضاه، وتأكيدًا لمـا شُرِحَ أعلاه . كُتِب فى تاريخ كذا وكذا .

* * *

وهذه نُسْخةُ هُدْنَةٍ من هذا النمَـط، عُقِدتْ بين السلطان المَلك الظاهر «بيبرس» أيضا، وبين مَلِكةِ بيروت من البلاد الشامية، فى شُهُور سنة سبع وستين وستمــائة حين كانت بيدها، وهى :

آستقرّت الهُدْنة المباركةُ بين السُّلطانِ الملِكِ الظاهِرِ رُكْنِ الدين «بيبرس» وبين المَلِـكَة الجليلة المَصُونة الفاخرةِ، فُلانة آبنـة فلان، مالِكَةِ بيروتَ وجميع جبالهـا وبلادها التَّحْتية مدّةَ عَشْرِ سنين متوالية؛ أوّلُهـا يومُ الخميس سادِسُ رمضانَ سـنة سـبع وستين وستمائة الموافِقِ لتاسع إيار سـنة ألفٍ وخمسمائة وثمـانين يونانيـة — علىٰ بيروتَ وأعمالِها المضافة إليهـا، الجارِى عادَتُهم فى التَّصرُّف فيها فى أيام المَلِكِ العَادِل، أبى بَكْرِ بن أيُّوبَ، وأيامِ ولَدِه الملكِ المعظَّم عِيسَى، وأيَّامِ المَلِكِ النـاصِرِ صلاحِ الدِّين يُوسفَ بن الملك العَزِيزِ. والقاعدةِ المسـتقرّة فى زمَنِهم إلىٰ آخر الأيام الظاهرية، بمقتضى الهُدْنَةِ الظاهِرِيَّة. وذلك مدينةُ بيروتَ وأماكِنُها المضافةُ إليها: من حدّ جُبَيْلٍ إلىٰ حدّ صَيْدا، وهى المواضع الآتى ذِكْرُها: جُونِيَة بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراووق بحدودها، وسِنّ الفيل بحدودها، والرح والشويف بحدودها، وانطلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية بحـدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقه، والوَطاءُ المعروف بمدينة بيروتَ، وجميعُ ما فى هـذه الأماكِنِ من الرَّعايا والتُّجّار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصَّادرين منها والواردين إليها من جميع أجْناسِ النَّاس، والمتردّدين إلىٰ بلاد السلطان فلانٍ، وهى: الحميرةُ وأعمالُها وقِلاعُها وبلادُها وكلُّ ماهو مختصٌّ بها، والمَمْلكة الأَنْطاكِية وقِلاعُها وبلادُها، وجَبَلَةُ واللَّاذِقِيَّة وقِلاعُها وبِلادُها، وحِمْصُ المحروسةُ وقِلاعُها وبِلادُها وما هو مختصٌّ بها، ومملكةُ حِصْنِ عَكَّا وما هو مَنْسُوبٌ إليه، والمملكةُ الحَمَوِيَّة وقِلاعُها وبِلادُها وما هو مختصٌّ بها، والمملكة الرَّحَبِيَّة وما هو مختصٌّ بها: من قلاعِها وبِلادها، والمملكةُ البَعْلَبَكِّيَّة وما هو مختصٌّ بها: من قلاعها وبِلادها، والمملكةُ الدِّمَشْقيَّةُ وما هو مختصٌّ بهـا: من قِلاعِهـا وبِلادها ورعاياها

ومَمالِكِها، والمملكة الشَّقِيفِيَّة وما يختصُّ بِها من قِلاعِها وبِلادِها ورعاياها، والمملكةُ القُدْسِيَّة وما يختصُّ بها، والمملكةُ الحَلَبِيَّة وما يختصُّ بها، والمملكةُ الكَرَكِيَّةُ والشَّوْبَكِيَّة وما يختص بها من القِلَاعِ والبلادِ والرَّعايا، والمملكةُ النَّابُلُسِيَّةُ، والمملكَةُ الصَّرْخَدِيَّةُ، ومملكةُ الدِّيارِ المِصْرِيَّة جميعها: بثُغُورِها، وحُصُونِها، ومَمالِكِها، وبلادِها، وسَواحِلِها، وبَرِّها، وبَحْرِها، ورعاياها، وما يختصُّ بها، والسَّاكنينَ فى جميع هـذه المـمالك: المذكورة وما لم يذكر من ممالك السُّلْطانِ وبلادِه، وما سيفتحُه اللهُ تعالىٰ علىٰ يَدِه ويَدِ نُوّابِه وغِلْمانِه يكونُ داخلاً فى هـذه الهُدْنة المباركة، ومُنْتَظِماً فى جُمْلة شروطها، ويكونُ جميعُ المتردّدين من هذه البلاد وإليها آمنينَ مُطْمئِنِّين علىٰ نُفُوسِهِم وأموالِهِم وبضائِعهم، من المَلِكة فلانةَ وغِلمانها، وجميع من هو فى حُكْمِها وطاعتِها: بَرًّا وبحرًا، ليلًا ونهارًا، ومن مَراكِبِها وشوانِيها. وكذلك رعيَّةُ المَلِكَة فلانةَ وغِلْمانُها يكونون آمنين علىٰ أنفُسِهم وأمْوالِهم وبضائعهم من السُّلطانِ ومن جميع نُوّابِه وغِلْمانِه ومَن هو تحت حُكْمِه وطاعَتِـه: برًّا وبحرًا، ليلًا ونهـارًا: فى جَبَلَة، واللّاذِقِيَّة، وجميع بلادِ السلطان، ومن مَراكِبِه وشَوانِيه.

وعلىٰ أن لا يُجـدَّدَ علىٰ أحَدٍ من التُّجّارِ المتردّدين رَسْمٌ لم تَجْرِ به عادةٌ، بل يُجْرَوْنَ علىٰ العوائد المُسْتمِرَّة، والقواعد المُسْتَقَرَّة من الجهَتَينِ. وإن عُدِم لأحَدٍ من الجانبين مالٌ، أو أخذَتْ أخِيـذَةٌ، وصحتْ فى الجِهَة الأخْرىٰ رُدّتْ إن كانت موجودةً، أو قِيمتُها إن كانتْ مفقودةً. وإن خَفِى أمْرُها كانت المدّةُ للكَشْفِ أربعين يومًا، فإن وُجدتْ رُدَّت، وإن لم توجدْ حَلَّفَ وَالى تِلْك الولايةِ المدّعىٰ عليـه، وحَلَّفَ ثلاثة نَفَرٍ ممَّن يختارُهم المُدّعِى، وبَرِئَتْ جهتُه من تلك الدَّعْوىٰ. فإن أبىٰ المدّعىٰ عليه عن اليمينِ حَلَّفَ الوَالى المُدّعِىَ، وأخذ ما يدّعِيه. وإن قُتِلَ أحدٌ من الجانبين خطأً كان أو عَمْدًا، كان علىٰ القاتِلِ فى جهته العِوَضُ عنه نَظِيرَه: فارِسٌ بفارِسٍ،

وبَرْكِيلٌ ببَرْكِيلٍ ، وراجلٌ براجلٍ ، وفَلّاحٌ بفَلّاحٍ . وإن هرب أحدٌ من الجانبين إلى الجانب الآخر بمال لغيره، رُدّ من الجهتين هو والمالُ، ولا يُعتذَرُ بعذرٍ .

وعلى أنه إن تاجر فرنجى صَدَر من بيروتَ إلى بلاد السلطان يكونُ داخلًا فى هذه الهُدْنة، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلًا فى هذه الهُدْنَة .

وعلى أنّ المَلِكَة فلانةَ لا تُمَكِّنُ أحدًا من الفرنج على آختلافهم من قَصْد بلاد السلطانِ من جهة بيروتَ وبلادِها ؛ وتمنعُ من ذلك وتدفَعُ كلَّ متطرِّقٍ بسُوءٍ ، وتكونُ البلادُ من الجهتينِ محفُوظةً من المتجرِّمين المُفْسِدين .

وبذلك آنعقدت الهُدْنة للسلطان ، وتقرَّرَ العملُ بهذه الهُدْنةِ والالتزامُ بعُهُودها والوفاءُ بها إلى آخر مُدّتها من الجهتين : لا ينقُضُها مُرُورُ زمانٍ، ولا يُغَيِّرُ شروطَها حينٌ ولا أوَان ؛ ولا تُنتَقَضُ بموْتِ أحدٍ من الجانبين . وعند آنقضاءِ الهُدْنةِ تكون التُّجّار آمنين من الجهتين مدّةَ أربعين يوما ، ولا يُمنَعُ أحدٌ منهم من العَوْدِ إلى مستقره ، وبذلك شَمِلَ هذه الهُدْنةَ المباركةَ الخطُّ الشريفُ حُجّةً فيها، والله الموفِّقُ، فى تاريخ كذا وكذا .

✦ ✦ ✦

وهذه نُسخةُ هُدْنةٍ عُقِدتْ بين السلطان المَلِكِ الظاهر «بيبرس» وولده المَلِكِ السَّعيد، وبين الفرنج الاسبتارية، على قَلْعةِ لُدّ بالشام، فى سنة تسع وستين وستمائة، وهى :

آستقرّتْ الهدنةُ المباركةُ بين السُّلطانِ المَلِك الظّاهِر رُكْن الدِّين «بيبَرْس الصّالحىّ» قَسِيم أمير المؤمنين ووَلَدِه المَلِكِ السَّعيد ناصر الدِّين «محمد بَرَكه خاقان» خليل أمير المؤمنين ؛ وبين المُباشِرِ المقدَّمِ الجَلِيل افريز أولدكال مقدَّم جميع بَيْتِ آسبتار سرجوان بالبلاد السّاحِلية ، وبين جميع الإخْوَة الاسبتارية ، لمدّة عَشْر سنين

كواملَ مُتوالياتٍ مُتَتابعاتٍ، وعَشَرةِ أشْهُرٍ، أوّلُهــا مُسْتَهلُّ رمضانَ سنةَ تسعٍ وستين وستمائةٍ للهِجْرةِ النبويَّة المحمَّديَّة، الموافِق للثامن عَشَر من نَيْسانَ سنةَ ألْفٍ وخمسمائةٍ وآثنتين وثمــانين للإسْكَنْدَرِ بن فيلبس اليُونانِىّ ــ علىٰ أن تكونَ قَلْعــةُ لُدٍّ بكمالهــا ورَبَضِها وأعمالِها، وما هو مَنْسوبٌ إليها ومحَسُوبٌ منها، بحُدُودِها المعروفةِ بها من تمادُم الزمان، وما آســتقرّ لهــا الآن، وما يتعلّقُ بذلك: من المواضع، والمَصايِدِ، والملّاحات، والبَسَاتينِ، والمَعــاصِرِ، والطَّواحِينِ، والجزائر: سَهْلِهــا وجَبَلِها، وعامِرِها، ودَاثِرِها، وما يجرى بها من أنْهارٍ، ويَنْبُعُ بها من عُيُونٍ، وما هو مَبْنىٌّ بها من عمائرَ، وما آستجدّ بها من القَراحِ وغيرِ ذلك؛ وكلُّ ما عُمِّر فى أراضِى المُناصَفاتِ علىٰ دُورِها وأنهارِها، وما بحدود ذلك من نَهْر بدرة إلىٰ جِهَة الشَّمال، وما آســتقرّ لبَلْدَة من هــذه الجهات إلىٰ آخر الأيام النَّاصِريَّة من الحدود المعروفة بها والمُسْتَقرَّة لهــا، وحِصْن برغين وما يُنْسَبُ إلىٰ ذلك من البلاد والضِّــياع والقُرَى التى كانت مُناصَــفَةً ــ تكونُ جميعُ بَلدة وهــذه الجهات خاصا إلىٰ آخر الزائد للمَلِك الظَّــاهِر، ولا يكون لبَيْت الأسبتار ولا للرقب فيها حقٌّ ولا طَلَبٌ بوجْهٍ ولا سَبَبٍ إلىٰ حين آنقضاء مُدَّة الهُدْنَة وما بعدها إلىٰ آخر الزائد، ولا لأحدٍ من جميع الفرنجة فيها تعلُّقٌ ولا طَلَبٌ بوجْهٍ ولا سبب.

وكذلك مهما كان مُناصَــفةً، كتَمَلْعةِ العليقــة فى بلادها لبَيْتِ الاسبتار، يكون ذلك جميعُــه للدِّيوان المَعْمور والخــاصِّ الشريف، ولا يكون للرقَبِ فيهــا شىءٌ ولا لبَيْت الأسبتار.

وكذلك كلُّ ما هو فى بلاد الدَّعوة المُباركَة جميعها وقِلَاعها من القرىٰ ــ لا تكون فيها مُناصَفةٌ لبيت الاسبتار ولا للرقْب، ولا حقٌّ، ولا رَسْمٌ، ولا شرطٌ، ولا طلبٌ

فى جميع بلادِ الدَّعْوة : مِصْيافِ المحروسة ، والكَهْف ، والمنيقَـة ، والقُدْمُوس ، والخَوابِى ، والرُّصافَةِ ، والعليقَةِ . وكلُّ ما هو فى هذه القِلاع وفى بلادها من مُناصَفَة ، يكون ذلك خاصًّا للملك الظاهر ، وليس لبيت الاسبتار ولا الفرنجة فيه حَدِيثٌ ولا طَلَبٌ .

وعلىٰ أن تكونَ بلادُ المَرْقَب وحُدُودُها من نَهْر لُدٍّ مُقَبِّلًا ومُغَرِّباً إلىٰ حدود بلاد مَرْقَبة المعروفةِ بها ، الدَّاخل جَميعُها فى الفُتُوح الشريف ، وٱسْتِقْرارها بحُكْم ذلك فى الخاصِّ المبارك الشَّريف ، وحَدّ البُيوتِ المحاذيةِ لسُور الرَّبَض ، تستقرُّ جميعُها مناصفةً بين السُّلطانِ و بين بَيْتِ الأسبتار نِصْفينِ بالسَّوِيَّة ، وما فى جميع هذه البلاد : من بَسَاتين ، وطواحِينَ ، وعمائرَ ، ومَصايدَ ، ومَلَّاحات ، ووُجُوهِ العَيْن ، والمُسْتَغَلَّات الصَّيْفِيّة والشَّتْوِية ، والقَطَانِى ، والحُقوقِ المستخرجة ، وما هو مَزْروعٌ من الفدن لأهْـل الرَّبَض وبَيادِرها : يكونُ ذلك مُناصَـفَةً بين السلطان و بين بَيْتِ الأسبتار سرجوان بالسَّوِيَّة نِصْفَين .

وما هو دَاخِل الرَّبِض وداخل المَرْقَب ، فإنه مُطْلَقٌ من المَلِك الظاهِر للمقَـدَّمِ الكبير افريز أولد كال مقـدّمِ بَيْتِ الأسبتار سرجوان وخَيَّالَتِه ، ورِجَالِه وحَمَّالَتِه ورَجَّالَتِـه ورَعِيَّتِه ، برَسْمِ إقامتهم وسُكْناهُم من داخل الأسوار ، وعن سُورِ الرَّبَض المحـاذِيةِ للسُّورِ تكونُ مناصَـفَةً جميعُها ، بمـا فيـه من حقوق طُرُقات وأحْكَار ، ومَراعِى المَواشِى على ٱخْتلافِ أصْوافِها وأوْبارِها ، وجميع السخريات ، وكلّ أَرْضٍ مَزْروعةٍ أو غَيْرِ مزروعةٍ مهما أُخِذَ منه من حَقٍّ أو عِدادٍ يكونُ مُناصَفَةً .

وكلُّ ما هو من المَوَانِى والمَرَاسِى البَحْرِيَّة المعروفةِ جميعِها بحِصْنِ المَرْقَب : من مِينَا بَلْدة إلىٰ مينا القَنْطرة المُجاوِرَةِ لحـدود مَرْقَبة ـ تكونُ هى وما يتحصَّلُ منها من

الحقوقِ المُسْتخْرجَةِ من الصادرين والواردين والتُّجَّار ، وما ينعَقِدُ عليــه آرتفاعُها ، وتَشْهدُ به الحُسْبانَاتُ ـ جميعُه مُناصَفةً . وما يدخُلُ فى ذلك من أجناس البَضَائِــع على آختلافها يؤخذُ الحقُّ [منه] مُناصَفَةً على العادةِ الجارِيةِ من غير تغيير لقاعِدَةٍ من حِينِ أخْذِ بيتِ الآسبتار المَرْقَبَ إلىٰ تاريخ هَــذه الهُدْنةِ المباركةِ مُناصَفَة على العادة الجارية، بل تَجْرِى التُّجَّارُ فى الحقوق علىٰ عادتهــم فى البضائع التى يُحْضِرونها والمَتْجَر كائنا من كان .

يعتمدُ ذلك فى كلِّ ما يَصِــلُ للمتردِّدِينَ والمقيمين بالقَلْعةِ والرَّبَض : من عامَّةٍ وغير عامَّة، وخَيَّالةٍ وغير خَيَّالة، على آختلاف أجناسهم، خَلَا ما يَصِلُ للإخْوَةِ ولِغلْمانِهِم المعروفين بالإخْوَةِ الآسبتارية من الحُبُوب والمَئُونة والكُسْوةِ والخَيْلِ التى هى برَسْم رُكُوبِهم خاصَّةً، لا يكونُ عليها حقٌّ، بشَرْطِ أنه لا يكون فيها للتُّجَّار شىءٌ من ذلك، وماخلا ذلك جميعه يُؤْخذُ الحقُّ منه مناصفةً علىٰ ما شَرَحْناه .

وعلىٰ أنه لا يَحْمِى أحدٌ من الإخْوةِ الخَيَّــالة ، والوُزَراءِ ، والكُتَّاب ، والنُّوَّاب، والمستخدمين شيئًا علىٰ آسم بَيْتِ الآسبتار، ليستطلقَ الحقّ ويمنَعَ من آستِيدَائه، ولو أنَّه أقْربُ أخٍ إلى المُقَدَّم أو وَلَدُ المقدَّم . إذا ظَهَر منه خلافُ ماوقع عليه الشَّرْط، أُخِذَ جميعُ مالِه مُسْتَهلَكًا لِلجِهَتَين : للدِّيوانِ السُّــلْطانىّ المعمور، ولِبَيْت الآسبتار، إن كان خارِجًا من البَحْرِ أو نازِلًا إلى البَحْرِ ، صادِرًا ووارِدًا، وكذلك فى البَرِّ صادرًا ووارِدًا بعد المُحاقَقَة علىٰ ذلك وصِحَّته .

وعلىٰ أنَّ نُوّابَ المُباشِرِ المقدَّمِ الكبيرِ لبَيْت الآسبتار، ووُلاتَه وكُتَّابَه ومُسْتَخْدميه وغِلمــانَه ، يكونونَ آمِنِينَ مُطمَئِنِّينَ علىٰ نفوسِهم وأموالِهم وجميع ما يتعلَّقُ بهــم . وكذلك غلْمانُنَــا ووُلاتُنا ونُوّابُنا ومُسْتَخْدَمُونا وكُتَّابُنَــا ورعايا بِلادِنا يكونون آمِنِينَ

مُطمَئِنِّين علىٰ نفوسهم وأموالهم ، مُتَّفِقِينَ علىٰ مصالح البلاد وأخْذِ الحُقُوق ، وسائر المُقاسَمات والطُّرقاتِ والبَساتِين والطَّواحِين ، والحُقُوق المقرَّرَة على الفدن على ٱخْتِلافِ أجْناسِها . وكذلك الرَّآسة وٱستخراجُ وُجوهِ العينِ ، والحُبُوبِ ، والتصاريفُ الجاري بها العادة المقرَّرَة على الفدن ، من جميع ما يتعلَّقُ بها .

وعلى أن جميعَ الضمانات يكونُ نُوّابُ الساطانِ ونُوّابُ بَيْتِ الأسبتار مُتَّفِقِينَ جُمْلةً علىٰ ذلك ، لا ينفردُ أحَدٌ منهم بشَيْءٍ إلا بٱتفاقٍ وتَنْزِيلٍ فى دفاتر الديوان المَعْمور وديوانِ بَيْتِ الأسبتار ، ولا يُطْلَقُ ولا يُحْبَسُ إلا بٱتِّفاقٍ من الجهتين ، ولا ينفَرِدُ واحدٌ دون آخَر .

وعلىٰ أنَّ أيَّ مُسْلِمٍ تصدُرُ منه أذيَّةٌ يحكَمُ فيه بما يَقْتَضِيه الشرعُ الشريفُ فى تأْدِيبه ، يعتمدُ ذلك فيه نائِبُنا : من شَنْقٍ يجبُ عليه ، أو قَطْعٍ . أو أُدِّبَ بحُكْمِ الشَّرْعِ الشريف : من شَنْقٍ ، وقَطْعٍ ، وكَحْلِ أعْيُنٍ ، بحيثُ لا يُعْمَلُ ذلك إلا بحضورِ نائبٍ من جِهَةِ بَيْتِ الأسبتار ، حاضِرٍ يُعايِنُ ذلك بعَيْنِه ، ويكونُ قد عَرَقَ الذَّنْبَ وتحقَّقَه . وإن كان ذَنْبُه يستوجِبُ جنايةً أو غَرامَةَ دراهِمَ أو ذَهَبٍ أو مَواشٍ أو غيرِ ذلك على ٱختِلاف أجْناسِه ، يكونُ ما يُسْتأْدَىٰ مُناصَفَةً للدِّيوان المَعْمُور ولبَيْتِ الأسبتار وصاحِبِ المَرْقَب . فإن كان فيها(١) قماشٌ وبَضائِعُ على ٱختلاف أجْناسِه ، وصاحبُه مُسْلِمٌ ، يأخذُ بضاعَتَه من غير ٱعْتِراضٍ من الجِهَتَيْنِ بعد أداءِ الحقِّ للدِّيوان المعمورِ ولبَيْتِ الأسبتار . وإن لم يُعْرَفْ صاحِبُ البضاعة وكانَتْ لمُسْلِمٍ ، أعيدتْ للخِزَانة السُّلْطانية ولا يكونُ لبَيْتِ الأسبتار فيها تَعلُّقٌ . وإن كان صاحِبُ البضاعة نَصْرانياً على ٱختلاف أجناس النَّصارىٰ ، تُؤْخذُ بِضاعَتُه من غير ٱعتراضٍ من جهتِنا ، بعد أداءِ الحَقِّ . وإن لم يُعْرفْ صاحبُ البضاعة ، وكانتْ لنَصْرانِيٍّ ،

(١) لعله سقط هنا شىء يعود عليه الضمير .

تَبقَىٰ تحت يَدِ بَيْتِ الأسبتار ، خلا من كان من بلاد مملكة السُّلْطانِ على اختلاف دِينِه : إن كان نَصْرانيًّا أو ذِمِّيًّا ، على اختلاف جِنْسِ دِينِه ، ليس لِبَيْت الأسبتار عليهم اعتراضٌ ، ويحملُ ذلك جميعُه على اختلاف أجْناسِ البضائع للدِّيوان المَعْمُور .

وعلىٰ أنه متى انْكَسر مَرْكَبٌ ، وظهر إلىٰ برّ المَوَانى بِضَاعةٌ ، وقصد صَاحِبُه شَيْلَه إلىٰ جِهَةٍ يختارها فى البَرّ والبَحْر ، ولا يُتْبَعُ ، فيؤخَذُ الحقُّ منه : إن باع يؤخَذُ الحقُّ ، وإن حَمَل يؤخَذُ الحقُّ ، ويكونُ الحقُّ للجهتين : وهو الحقُّ المعروفُ الجارِى به العادة .

وعلىٰ أن التُّجَّارَ السَّفَّارة والمتردِّدِينَ بالبضائع من بلاد المُسْلمين والنَّصارىٰ متىٰ ما خرجُوا من المَوَانِى المحدودة أعْلاه يتوجَّهونَ بخفَارَةِ الجهتين من غير حقٍّ : لا يُتناوَلُ من الخفَارةِ شىءٌ مَنْسوبٌ إلىٰ نفوسهم إلىٰ أن يُخرجَهم ويُحضِرَهم إلىٰ برّ حُدُودِ المَرْقب آمِنِينَ مُطمئِنِّين تحت حِفْظ الجهتين . ومتىٰ وصلَ التُّجَّار من مملكة السُّلطانِ إلىٰ بلاد المَرْقبِ وموانيها ، فالتَّرْتيبُ على الخفَارةِ من الجهتين ، مع تدرُّكِ الرُّؤساء الحِفْظَ للطرقات صادرًا ووَارِدًا ، بحيثُ إنَّهم يحضرون إلىٰ بلاد المَرْقبِ ، وإلى الموانى بالمَرْقَبِ المحدودةِ أعْلاه ، طيِّبينَ آمِنِينَ علىٰ أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين ، علىٰ ما شَرحناه .

وعلىٰ أنَّ غلمانَ المباشِرِ المقدَّمِ لبَيْت الأسبتار والإخْوة والخيَّالة والرَّعيَّة المقيمين بقَلْعة المَرْقب والرَّبَض ، يكونون آمنينَ مُطْمئِنِّين على أنْفسِهم وأموالهم ومن يَلُوذ بهم ويتعلَّق ، فى حال صُدُورهم ووُرُودِهم إلىٰ بلادنا الجارية فى ممالكتنا فى البَرّ منَّا ومن نُوَّابِنا بالمملكة والبلادِ الجارية فى حكْمنا ، ومن وَلَدِنا المَلِك السَّعيد ، ومن أُمَرائنا وعَساكِرنا المنصورة . وإن قُتِلَ قتيلٌ أو أُخذَتْ أَخيذَةٌ فى حدود المناصف ببلاد

المَرْقب ، فيقعُ الكَشْفُ عن ذلك عِشرين يومًا : فإن وُجِد فاعِلُ ذلك ، يؤخَذُ الفاعِلُ بِذَنْبِه . وإن لم يظهَرْ فاعِلُ ذلك مدّةَ عشرين يومًا فيُمْسِكُ رُؤَساءُ مكانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وأَخْذِ الأَخِيذَةِ، وقَتْلِ القتيلِ، إن كان أخْذٌ وقَتْلٌ ـ مكانَ من قتَلَ القتيلَ أو أَخَذَ الأَخِيذَةَ ـ أقربَ القُرباءِ إلى الذى قَطَع عليه الطريقَ أو قتَل قتيلًا. فإن خَفِىَ الفاعِلُ لذلك ، وعُجِزَ عن إحضاره بعد عشرين يومًا ، يُلزِمُ أهْلُ نُوَّابِ الجهتين من القُرباءِ الأقربَ لذلك المكان بألْفِ دينارٍ صُورِيَّة : للدِّيوان السلطانىّ النِّصْفُ ، ولِنَقيبِ الآسبتار النِّصفُ ، ولا تتكاسل الولاةُ فى طَلَبِ ذلك ، ويكونُ طَلَبُه يدًا واحدةً ، ولا يختص الواحِدُ دون الآخَر . ولا يحابى أحد منهم لأخْذِ الفَلَّاح فى هذا أو غيرِه فى مَصْلحةِ عِمارَةِ البلاد ، وآسْتخراجِ الحُقُوق ، ومُقاسَمةِ الغِلال ، وطَلَبِ المُفْسدين ليلًا ونَهارا .

وعلىٰ أن لاتغيَّرَ الهُدنةُ المُباركَةُ بأمْرٍ من الأمور ، لامن جِهتِنا ولا من جِهَةِ ولدِنا المَلِكِ السَّعيدِ ، إلى آنقضاء مُدّتِها المعيَّنةِ أعْلاه وفروغِها . ولا تتغيَّرَ بتَغَيُّرِ المقدَّمِ المُباشِرِ لبَيْت الآسبتار الحاكم على المرقَب وغيره . وإذا جَرَتْ قَضِيَّةٌ فى أمْرٍ من الأمور يعرِفُهم نُوَّابُنا ، ويحقِّقُ الكَشْفُ إلى مدّةِ أربعين يومًا ؛ فمن يكون للبِداية يخرج منها على من سبب(؟) ويكونُ قد عَرَفَ دَيْنَه الذى بدا من جِهَةِ كلِّ واحدٍ . وإذا تغيَّرَ النوّابُ بالمَرْقِبِ وحضَر نائِبٌ مُسْتَجِدٌّ يعتَمِدُ ما تضَمَّنَتْه هذه الهُدْنةُ ، ولا يخرج عن هذه المُواصَفَةِ . وإذا تَسَحَّبَ من المسلمين أحدٌ على آختلاف أجْناسِه ، إن كان مَمْلُوكًا أو غير مَمْلوكٍ ، أو مَعْتوقًا أو غير مَعْتُوقٍ ، أو كائنًا مَن كان من المسلمين على آختلاف مَنازِلِهم ، وإن كان غُلامًا أو غيرغُلامٍ ـ يردُّ بجميع ما يُوجَدُ معه ، إن كان قليلًا أو كثيرًا يردّ . ولو أنَّ المتَسَحِّبَ دخَلَ الكَنيسةَ وجلس فيها يُمْسَكُ بيَده ويخرجُ ويسَلَّمُ لنوَّابِنا بجميع ما مَعَه ، وإن كان خَيْلًا أو قماشًا أو دَراهِمَ أو ذَهَبًا

وما يتعامل الناسُ به، يسلِّمُ بما معه إلىٰ نوابنا على ماشَرَحْناه . وكذلك إذا تَسَحَّبَ أحدٌ من جِهَتِهم من الفَرَنْج أو النَّصارىٰ إلىٰ أبوابنا الشريفة ، أو وَصَلَ إلىٰ جِهَة نُوابِنا يُمْسكُ ويسلَّم بما يحضُر معه : من الخَيْلِ والأَقْمِشَةِ والعدَّة وجميع مايَصِلُ إن كان قليلًا أو كثيرا ، يُمْسِكُه نُوَّابُنا ويُسلِّمون ذلك بما معه لنائِبِ المقدَّمِ الماستر المُقِيم بالمَرْقب ، وأخَذُوا الخطوط بذلك بتَسْلِيمه بما حَضَر معه .

وعلى أنهم لا يكونُ لهم حديثٌ مع قَلْعَةِ العليقة ، ولا الرَّعِيَّة الذين فيها ، ولا مع نُوَّابِ آبن الردَيني المقيمين فيها : لا بكِتَابٍ ، ولا بمشَافَهَةٍ ، ولا برسَالَةٍ ، ولا بقَوْلٍ ، ولا يَطْلُع أحَدٌ من جهتهم إليهم ؛ ولا يمَكِّنُ أحَدٌ من الحضور إليهم ، [والوصول] إلىٰ جِهَتِهم من القَلْعةِ المذكورة ؛ ولا تُسَيَّرُ إليهم مَئُونَةٌ ولا تجارة ولا جَلَب على آختلاف أجناسه ، ولا تكونُ بينهم معاملة . وإن حَضر أحَدٌ من جِهَةِ قَلْعة العليقة إليهم يُمسِكُون ويُسلِّمون لنوابنا ويأخذوا بذلك خُطُوطَهم .

وعلىٰ أنهم لا يجدّدون عِمَارةَ قَلْعةٍ ، ولا فى القَلْعةِ عِمارةً ، ولا فى البدنة ولا فى أبْراجها ؛ ولا [يعتمدون] إصلاح شَيْءٍ منها إلا إذا عاينه نُوابُنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضَّرورة فى ترميمٍ يُرَمِّمونَه بعد أن يُعايِنَه نُوَّابُنا من هذا التاريخ ؛ ولا يجدِّدُون عِمَارةً فى رَبَضِها ، ولا فى سُورِها ، ولا فى أبْراجِها ، ولا يجدِّدُون حَفْرَ خَنْدقٍ ، وعِمارةَ خَنْدقٍ ، أو تُجَدّدُ بناية خَنْدقٍ أو قَطْعُ جَبَلٍ ، أو تُحَصَّنُ عِمارة ، أو تُحَصَّن بقَطْع جبل ، منسوبًا لتَحْصين يَمْنَعُ أو يَدْفَع . ولم نأذنْ لهم بسوَى البناية [على] أثَرِ الدُّورِ التى أحْرِقَتْ عند دُخولِ العَساكر صُحْبَةَ المَلِك السَّعيد . وقد أذنا لهم فى عمارة باطن الرَّبَض علىٰ أثر الأساس القَديم .

وعلىٰ أنَّ صِهْيَوْنَ وأعمالَهَا ، وبرومه(؟) وأعْمالَهَا ، والقليعةَ وأعْمالَهَا ، وعَيْدُوبَ وأعمالَهَا ، الجارية تحت نَظَرِ الأمير سَيْفِ الدِّينِ محمد بن عثمان صاحب صِهْيونَ ـ

يجرى حُكْم هذه البلاد المختصة به حُكْم بلادنا فى المُهادَنَة، بحُكْم أنَّ بلادَه المذكورةَ جَارِيةٌ فى ممالِكِنا الشَّريفة .

وعلىٰ أنه لا يُمَكِّنُ بَيْتُ الأسبتار من دُخُول رِجْلٍ غَرِيبَةٍ فى البَرِّ ولا فى البَحْرِ إلىٰ بلادنا، بأذِيَّةٍ ولا ضَرَرٍ يعودُ على الدَّوْلة ، وعلىٰ بِلادِنا وحُصُوننا ورَعِيَّتِنا ، إلا أن يكونوا يَدًا غالبةً ، صُحْبَةَ مَلِكٍ مُتَوَّجٍ .

وعلىٰ أنَّ البُرْجَ الداخِلَ فى المُناصَفَةِ ، وهو بُرْج مُعاوِيةَ الذى عند المحاصَّةِ الداخلةِ فى مَناصِفِ المَرْقَبِ الآنَ ، يُخَرَّبُ ما يَخُصُّنا منه، وهو النِّصفُ من البُرْجِ المذكورِ أعْلاه . وأن الجِسْرَ المعروفَ بجسرِ بَلْدَةَ لم يكنْ لبَيْتِ الأسبتار فيه شيءٌ من البَرَّيْن، وأنه خالِصٌ للديوان المعمور دُونَ بَيْتِ الأسبتار . وأن الدَّارَ المستجدَّةَ عمارتُها بقَلْعةِ المَرْقَب برسْم الماستر المقدَّمِ الكَبِير، الذى هو عايز تكميل عِمارةِ سَقْفِ القَبْو بالحِجارة والكِلْس، لا تَكَّمَّلُ عِمارتُها، ويبقىٰ علىٰ حاله، وهو فى وَسَطِ القَلْعةِ الظاهر منه قليلٌ إلىٰ البَرِّ الشَّرْقى وهو المذكورُ أعلاه .

وعلىٰ أن نُوّابَ الأسْبتارِ بالمَرْقَبِ لا يُخْفُون شيئًا من مُقاسمات البِلادِ ولا شيئًا من حُقُوقها الجارِى بها العادةُ أن بَيْت الأسبتار يَسْتَخْرِجُونه ولا يُخْفون منه شيئًا؛ وكلُّ ما كان يستأدىٰ من البلاد فى أَيْدى الأسبتار قبلَ هذه الهُدْنَةِ يُطْلِعُون نوّابَنا عليه ولا يُخْفُون منه شيئًا قليلًا ولا كثيرًا من ذلك .

وعلىٰ أنَّ السلطانَ يأمُر نُوَّابَه بحِفْظِ مُناصَفات بلادِ المَرْقَبِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنَة، من المُفْسِدين والمتَلَصِّصينَ والحراميَّة ممن هو فى حُكْمِه وطاعَتِه . وكذلك الماستر المقدَّم افريز أولدكال يلزمُ ذلك من الجِهَةِ الأُخْرىٰ . ومتىٰ وقَع ـ والعياذُ بالله ـ فَسْخٌ بسبَبٍ من الأسْبابِ ، كان التُّجَّارُ والسُّفَّار آمِنِينَ من الجهتين إلىٰ

أن يَعُودوا بأمْوالِهِم ، ولا يُمْنعونَ من السَّــفر إلىٰ أماكِنِهم من الجهتين ، وتكونُ النهايةُ لهم أربعين يومًا . وتكونُ هــذه الهُدْنَةُ منعقدةً بشروطها المذكورةِ ، مُسْتَقَرَّةً بقواعِدِها المسطورة للمدّةِ المعَيَّنة ، وهى : عَشْر ســنين وعشرةُ أشْهُرٍ كواملَ ، أوّلُها مُسْتَهَلُّ رمضانَ ســنة تسع وستّين وستمائة إلىٰ آخرِها ، متتابعةً متواليــةً ، لا تفسخُ بموْتِ أحدٍ من الجهتين ، ولا بعزْلِ وَالٍ وقيامِ غيره مَوْضِعَه ، ولا زَوالِ رجْلٍ غَريبةٍ ، ولا حُضُورِ يَدٍ غَالِبَةٍ ؛ بل يلزمُ كلًّا من الجهَتَينِ حِفْظُها إلىٰ آخِرِها ؛ ومن تَولَّى بعــد الآخَرِ حَفِظَها إلىٰ آخرها ، بالشُّروطِ المشروطةِ فيها أوّلًا وآخرًا . والخطُّ أعلاه ، حجّةٌ بمقتَضاه ، إن شاء الله تعالىٰ . فى تاريخ كذا وكذا .

⁂

وهــذه نُسْخةُ هُدْنةٍ عُقِدتْ بين الســلطان المَلِكِ المنصور « قَلاوُون » الصالحىّ صاحبِ الدِّيارِ المِصْريَّةِ والبلادِ الشاميَّــةِ ووَلَدِه المَلِكِ الصالحِ «علىٍّ» وَلِىِّ عَهْــدِه ، وبينَ حُكَّامِ الفَرَنْجِ بعَكَّا وما معها من بلاد سَوَاحِلِ الشَّامِ ، فى شهور ســنة ٱثنتين وثمــانين وستمائة ، وهى يومئذ بأيديهم . وصُورَتُها :

ٱستقرَّتِ الهُدْنةُ بين مولانا السُّلطانِ المَلِكِ المنصورِ سَــيْفِ الدِّينِ أبِى الفَتْحِ «قلاوون» المَلَكِىّ الصَّالِحِىّ ووَلَدِه الســلطانِ المَلِكِ الصالحِ عَلاءِ الدِّينِ « عَلِىٍّ » ــ خلَّد اللهُ تعالىٰ سلْطَنَتَهما ــ وبين الحُكَّامِ بمَمْلَكةِ عكَّا ، وصَيْدَا ، وعَثْليث ، وبلادِها التى ٱنعقدتْ عليها هذه الهُدْنةُ ، وهم : الشيخَان أو دهيــل المملكة بعَكَّا ، وحضرةُ المقدَّمِ الجليلِ افريز كاسام دسا حول(؟)مقدَّمُ بَيْتِ الديويَّة ؛ وحضرةُ المقدَّمِ الجليل افريز سكفل للورن(؟)مقدَّمُ بَيْتِ الاسبتارية ، والمرشانُ الأجَلُّ افريز كورات نائبُ مقدَّمِ بَيْتِ الاسبتار الآمن ــ لمدّة عَشْرِ سنين كوامِلَ ، وعَشَرةِ أشْهر ، وعشرةِ أيّامٍ ،

وعَشْرِ ساعاتٍ : أوَّلُها يومُ الخميس خامِسُ ربيع الأوّل سنة ٱثنتين وثمانين وستمائة للهِجْرَةِ النَّبوِيَّة، صلواتُ الله علىٰ صاحِبِها وسَلامُه، الموافِقُ للثالثِ من حَزِيرَانَ سنة ألفٍ وخمسمائةٍ وأربع وتسعين لغَلَبةِ الإسْكَنْدَرِبنِ فيلبس اليُونانِيِّ – علىٰ جميع بلاد السُّلطانِ وولَدِه، وهى التى فى مَمْلكتِهما وتَحتَ حُكْمِهِما وطاعَتِهما وما تَحْوِيه أيديهما يومَئذٍ : من جميع الأقاليم والمَمالِك، والقِلاع، والحُصُونِ الإسلامية، وثَغْرِ دِمْياطَ ، وثَغْرِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ المحروستين ، ونَسْتَرُو ، وسَنْتَرِيَّة وما ينسب إليها من المَوَانى والسواحل، وثَغْرِ فُوَّةَ، وثَغْرِ رَشِيدَ، والبلادِ الحِجازِية، وثَغْرِ غَزَّةَ المحروسِ، وما معها من المَوَانِى والبلاد، والمَمْلكةِ الكَرَكِيَّة، والشَّوْبَكِيَّة وأعمالِها، والصَّلْتِ وأعْمالِها ، وبُصْرىٰ وأعمالِها، ومَمْلكةِ بلادِ الخَلِيل صلواتُ الله عليه وسَلامُه ، ومَمْلكةِ القُدْسِ الشَّريفِ وأعمالِها، وبَيْتِ لَحْمٍ وأعمالِه وبلادِه ، وجميع ما هو داخِلٌ فيها ومَحْسوبٌ منها ، وبَيْتِ جبريلَ ، ومملكةِ نَابُلُسَ وأعمالِها ، ومملكةِ الأَطْرُون وأعمالِها ، وعَسْقَلانَ وأعمالِها وموانيها وسَوَاحِلها، ومَمْلكةِ يافَا والرَّمْلَةِ ومِينَاهَا، وقَيْسارِيَّةَ ومِينَاها وسَواحِلِها وأعْمالِها، وأَرْسُوف وأعْمالِها، وقلْعة قَاقُونَ وأعْمالِها وبلادِها، وأعمال العَوْجاءِ وما معها من الملاحة، والفُتُوحِ السَّعيدِ وأعمالِها ومَزارِعِها، وبَيْسَانَ وأعمالِها وبلادِها، والطُّورِ وأعمالِه ، واللَّجُّونِ وأعمالِه ، وجِينِينَ وأعمالِها، وعَيْنِ جالوتَ وأعمالِها ، والقَيْمُونِ وأعمالِه وما يُنْسبُ إليه، وطَبَرِيَّةَ وبُحَيْرتِها وأعمالِها وما معها ، والمَمْلكةِ الصَّفَدِيةِ وما يُنْسبُ إليها ، وتِبْنِينَ وهُونِينَ وما معهما من البلاد والأعمال ، والشَّقِيفِ المحروسِ المعْرُوفِ بشَقِيفِ أَرْنُونَ وما معه من البلاد والأعمالِ وما هو مَنْسوبٌ إليه ، وبلادِ الفرن وما معه خارجًا عما عُيِّن فى هذه الهُدْنةِ المُباركَة، ونِصْفِ مَدِينة إسْكَندَرُونَةَ، ونِصْفِ ضَيْعةِ مأربَ بفُدُنِهما وكُرومِهِما وبَساتِينِهما وحُقُوقِهما ؛ وما عدا ذلك من حُقُوق إسْكَنْدَرُونَة

المذكورة ، يكون جميعه بحُدُوده و بلاده للسلطان الملِك المنصور ولولَدِه النِّصْف ، والنِّصفُ الآخَرُ لمملكة عكّا . والبِقَاع العزيزى وأعماله ، وشَعْرا وأعمالها ، وشَقيف تيرُونَ وأعماله ، والعامر جميعها ولا نا وغيرها (؟)، وبانياس وأعمالها ، وقلْعة الصُّبَيْبَة وأعمالها وما معها من البُحَيْرات والأعمال ، وكَوْكَب وأعمالها وما معها ، وقلْعة عَجْلُونَ وأعمالها ، ودمَشْق والمملكة الدِّمَشْقِيَّة ـ حرسها الله تعالىٰ ـ وما لها من القِلاع والبِلاد والممالك والأعْمال ، وقلْعة بعَلْبَكَّ المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حِمْص وما لها من الأعمال والحدود ، ومَمْلكة حَماة المحروسة ومَدينتها وقلْعتها و بلادها وحُدُودها ، و بلاطُنُس وأعمالها ، وصِهْيَوْنَ وأعمالها ، و بَرْزَيه[1] وأعمالها ، وفُتوحات حِصْن الأكْراد المحروس وأعْماله ، وصَافِيتا وأعْمالها ، و [2] أعمالها ، والعُرَيمة وأعمالها ، وقدقيا وأعمالها ، وحلبا وأعْمالها ، والقليعة وأعمالها ، وحِصْن عكّار وأعْماله و بلاده ، وقلعة شيْزَر وأعمالها ، وأفَامية وأعمالها ، وجَبَلة وأعمالها ، وأبو قُبَيْس وأعماله ، والمملكة الحَلَبيَّة وما هو مُضافٌ إليها من القِلاع والمُدُن والبِلاد والحُصُون ، وأنْطاكِيَة وأعمالها وما دخلَ فى الفُتوح المُبارَك ، و بَغْراس وأعمالها ، والدَّرْبَسَاك وأعمالها ، والرَّاوَنْدان وأعمالها ، وعَيْنتاب وأعمالها ، وحَارِم وأعمالها ، و يَبْرِينَ وأعمالها ، وسِمح الحَدِيد وأعماله ، وقلْعة نَجْم وأعمالها ، وشَقِيف دَرْكُوش وأعماله ، والشُّغْرِ وأعْماله ، و بَكاس وأعْماله ، والسُّوَيْداءِ وأعمالها ، والبَاب و بُزاعا وأعمالها ، والبيرة وأعمالها ، والرَّحْبَة وأعمالها ، وسَلَمْيَة وأعمالها ، وشُمَيْمِس وأعمالها ، وتَدْمُر وأعمالها وما هو منسوبٌ إليها ، و جميع ما هو مَنْسوبٌ لمولانا السلطانِ ولولَدِه من البلاد التى عُيِّنتْ فى هذه الهُدْنة المباركة ، والتى لم تُعَيَّنْ .

---

(١) أوردها ياقوت فى معجم البلدان هكذا : بَرْزُوَيه ، وذكر أن العامة تقول : بَرْزَيَه كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلىٰ جميع العساكرِ، وعلىٰ جميع الرَّعايا من سائر الناسِ أجمعين : على آختلافِهم، وتَغيرُّ أنفارِهم وأجْناسِهم وأدْيَانِهم، للقاطنين فيها، والمتردِّدِينَ فى البَرِّ والبَحْرِ، والسَّهْلِ والجَبَلِ، فى اللَّيلِ والنهار، يكونونَ آمنين مُطْمئِنِّين فى حالتى صُدُورِهم ووُرُودِهم ـ علىٰ أنفسِهم، وأموالِهم، وأوْلادِهم، وحَرِيمِهم، وبَضائِعِهم، وغِلْمانِهم، وأتْباعِهم، ومَواشِيهم، ودَوابِّهم؛ وعلىٰ جميع ما يتعلَّقُ بهم، وكلِّ ما تَحْوِى أيْدِيهم من سائرِ الأشْياءِ على آختلافِها، من الحُكَّامِ بمملكة عَكَّا : وهم كَفِيلُ المملكةِ بها، والمُقَدَّمُ افريز كليام دسا حول (؟) مقدَّمُ بَيْتِ الديوية؛ والمقَدَّمُ افريز بيكوك للورن (؟)، وافريز اهداب نائِبُ مُقَدَّمِ بَيْت الاسبتار الآمِن، ومن جميع الفَرَنْج والإخْوة، والفُرْسان الدَّاخِلينَ فى طاعَتِهم وتَحْوِيهِ مَمْلكتُهم السَّاحِلِيَّة، ومن جميع الفَرَنْج على آختلافهم، الذين يَسْتَوْطِنُونَ عَكَّا والبلادَ الساحِلِيَّة الداخلةَ فى هذه الهُدْنَة من كلِّ وَاصِلٍ إليها فى بَرٍّ أو بَحْرٍ على آختلافِ أجْناسِهم وأنْفَارِهم، لا ينالُ بلادَ السُّلطانِ ووَلَدِه، ولا حُصُونَهما، ولا قِلاعَهما، ولا بِلادَهما، ولا ضِياعَهُما، ولا عَسَاكِرَهُما، ولا جيُوشَهما، ولا عَرَبَهما، ولا تُرْكمانَهُما، ولا أكْرَادَهُما، ولا رَعاياهُما، على آختلاف الأجناس والأنفار؛ ولا ماتَحْوِيهِ أيديهم من المَوَاشى والأمْوالِ والغِلالِ وسائِرِ الأَشياء منهم غَدْرٌ ولا سُوءٌ، ولا يَخْشَوْنَ من جميعهم أمْرًا مكْروهًا ولا إغارةً، ولا تَعرُّضًا ولا أذِيَّة.

وكذلك مايَسْتفتِحُه ويُضِيفُه السلطانُ ووَلَدُه علىٰ يَدَيْهما، وعلىٰ يَدِ نوّابِهما وعَساكِرِهما : من بلادٍ، وحُصونٍ، وقِلاعٍ، ومِلْكٍ، وأعْمالٍ، وولاياتٍ، برًّا وبَحْرًا، سَهْلًا ووَعْرًا.

وكذلك جميعُ بلادِ الفَرَنْج التى آستقرَّتِ الآنَ عليها هذه الهُدْنَةُ : وهى مدينةُ عَكَّا وبساتِينُها، وأرَاضِيها وطواحينُها؛ وما يختصُّ بها من كُرُومِها، وما لها من

حُقُوقٍ حَوْلَهَا ، وما تقرّر لهـا من بلادٍ فى هـذه الهُدْنة وهى : البصة ومَزْرَعتُها[(١)]، مجدل ، حمصين ، رأس عبده ، المَنْواث ومَزْرَعتُها ، الكابرة ومزرعتها ، نصف وبه جعون ، كَفْر بَرَدَى ومَزْرَعتُها ، كَوْكَبُ عمقا ومَزْرَعتُها ، المونيـه ، كفر ياسيف ومَزْرَعتُها ، تُوسيان ، مكر حرسين ومَزْرَعتُها ، الحديدة ، الغياضة ، العطوانية ، مرتوقا الحارثية ، ثمرا الطره ، الرب ، النابوحه ومَزْرَعتُها ، العرج ومَزْرَعتُها ، المزرعة السَّميرية البَيْضاء ، دعوق والطاحون ، كردانه والطاحون ، حدرول ، تل النحل ، الغار ، الرخ والمجدل ، تَلُّ كيسان ، البروه ، الرامون ، ساسا السياسية ، الشبيكه ، المشـيرقه ، العطرانية ، المنيبر ، اكليل ، هريا سيف العربية ، هوشـه ، الزراعة الجديدة الشمالية ، الرحاحيـه ، قسطه ، كفر نبتل ، الدويرات ، ماصوب ، متماس العباسية ، سيعانه ، عين الملك ، المنصورة ، الرضـيفة ، حانانا ، سرطا ، كفرتا ، أرض الزراعة ، رواس ، صغد عدى ، سفرعم . هذه البلادُ المذكورةُ [تكون] خاصا للفَرَنْج . حِيفَا والكُرُومُ والبَسَاتِين التى لهـا جميعها ، والقَصْر وهو الحوش وكَفْر تُوثا ، وهى : الكنيسة ، والطيرة ، والسعبة ، والسعادة ، والمعر ، والناجور ، وسومرا . تكون حِيفَا وهـذه البلادُ المذكورةُ بحُدُودها وأرَاضيها خاصَّـةً للفرنج . وكذلك قرية مارسا باره بها ، المعروفة بهـا وكرومها وغروسها يكون خاصا للفرنج . ودَيْرُ السـياح ، ودَيْرُ مارلباس بأرَاضِيهمَا المعروفةِ بهما وكُرُومِهما وبَسَاتِينِهما يكونُ خاصًّـا للفرنج .

وعلىٰ أن يكونَ للسُّلطانِ المَلِكِ المَنْصور ولوَلَدِه الصَّالح : من بلاد الكِرْمِل ، وهى : الدالية ، ودونه ، وضريبـة الريح ، والكَرَك ، ومعليا ، والرامون ، ولونه ، وسور ،

---

(١) لم نقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها فى معجم ياقوت وتقويم البلدان . لذلك تبعنا الأصول فى الاهمال والنقط .

وخربة يونس، وخربة خميس، ورشميا، ودوابه، يكون خاصًّا للفَرَنْج فى بلادٍ أخرىٰ ذَكَرها . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولَدِه بكمالها .

وتكونُ جميعُ هذه البلاد العَكَّاوِيَّة وما عُيِّن فى هذه الهُــدْنةِ المباركةِ من البلاد السَّاحِليــةِ آمنــةً من السُّلطانِ المَلكِ المنصور ووَلَدِه المَلِك الصَّالح ، وآمنةً من عساكِرِهما وجُنُودِهما ومن خَدَمِهما، وتكونُ هذه البلادُ المشروحةُ أعلاه، الداخِلَةُ فى هذه الهُــدْنةِ المباركةِ : الخاصِّ بها ، وما هو مُنَاصَفَةٌ ـ مُطْمَئِنَّةً هى ورعاياها، وسائرُ أجْناسِ الناس فيها ، والقاطنين بها، والمتَرَدِّدينَ إليهــا على آختلاف أجْناسِهم وأدْيانِهم ، والمتَرَدِّدينَ إليها من جميع بِلادِ الفَرَنْجة والسُّفَّار ، والمتردّدين منها وإليهــا فى بَرٍّ وبَحْرٍ، فى لَيْلٍ أو نَهارٍ، سَهْلٍ وجَبَلٍ، آمنينَ على النُّفوسِ والأموالِ والأوْلادِ، والمَرا كِبِ والدَّوابِّ ، وجميع ما يتعلَّقُ بهم ، وكلِّ ما تَحْوِيهِ أيديهم من الأشْياءِ على آختلافِها ، من السُّلطانِ وولَدِه ، وجميع من هو تحتَ طاعَتِهما : لا ينالُهم ولا يَنالُ هذهِ البلادَ المذْكُورةَ التى آنعقدتْ عليها الهُدْنةُ سُوءٌ ولا ضَرَرٌ ولا إغارةٌ ، ولا ينالُ إحْدَى الجهتينِ المذكورتين : الإســلاميَّةِ والفَرَنْجيةِ من الأخْرىٰ ضَرَرٌ ولا أذِيَّةٌ ؛ ويكونُ ما تقرّرَ أنه يكونُ خاصًّا للفرنج حسب ما بُيِّن أعْلاه لهم، وما تقرَّرَ أن يكونَ للسُّــلطانِ ولوَلَدِه خاصًّا لهما ، والمناصــفاتُ تكونُ كما شُرِح . ولا يكونُ للفرنج من البلاد والمُناصَفاتِ إلا ما شُرِحَ فى هذه الهُدْنةِ وعُيِّن فيها من البِلادِ .

وعلىٰ أنَّ الفرنج لا يُجَدِّدُون فى غير عَكَّا وعَثْليثَ وصَيْدَا : ممَّا هو خارِجٌ عن أسْوار هذه الجهاتِ الثَّلاثِ المذْكُوراتِ، لا قَلْعةً، ولا بُرْجًا، ولا حِصْنًا، ولا مُسْتَجدًّا .

وعلىٰ أنه متىٰ هَرَب أحدٌ ـ كائنًا مَن كان ـ من بلاد السُّلطانِ ووَلَده إلىٰ عَكَّا والبلاد السَّاحليةِ المعيَّنة فى هــذه الهُدْنة ، وقَصدَ الدُّخولَ فى دِينِ النَّصْرانيَّة وتَنَصَّر

بإرادته، يُرَدُّ جميعُ ما يَروحُ معه ويَبْقىٰ عُرْياناً . وإن كان ما يقصدُ الدُّخولَ فى دين النصرانية ولا يتنصَّر، رُدَّ إلىٰ أبوابهما العاليـةِ بجميع مايروحُ معه، بشفاعةِ ثِقةٍ بعد أن يُعْطَى الأمانَ . وكذلك إذا حَضَر أحدٌ من عَكَّا والبلادِ السَّاحليَّةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ، وقصدَ الدُّخولَ فى دِينِ الإسلام وأسْـلَم بإرادته، يردُّ جميعُ ما معـه ويبقىٰ عُرْيانا . وإن كان مايقصدُ الدُّخولَ فى دِينِ الإسلام ولا يُسْـلِمُ، يردُّ إلى الحُكَّامِ بعَكَّا، والمقدَّمِينَ بجميع مايروحُ معه بشفاعةٍ بعد أن يُعْطىٰ له الأمانُ .

وعلىٰ أنَّ الممنوعاتِ المعروفَ مَنْعُها قَديمـًا تَسْـتقرُّ علىٰ قاعِدَةِ المَنْعِ من الجهتين . ومتىٰ وُجِدَ مع أحدٍ من تُجَّـارِ بلاد السُّـلطان ووَلَدِه من المسلمين وغيرهم علىٰ آختلاف أدْيانِهـم وأجْناسِهِم شَىْءٌ من الممنوعات بعَـكَّا والبلادِ السَّاحليَّـةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ، مِثْل عدَّةِ السِّلاح وغيره، يُعادُ علىٰ صَاحِبِه الذى آشتراه منه، ويعادُ إليه ثَمَنُه، ويُردُّ ولا يُؤخَذُ مالُه آستهلاكًا، ولا يُؤذَىٰ . وللسُّلْطانِ ولوَلَدِه أن يفتصلا فى من يَخرجُ من بِلادِهما من رَعِيَّتِهما، علىٰ آخْتِلاف أدْيانِهم وأجْناسِهم، بشَىْءٍ من الممنوعات . وكذلك كَفيلُ المملكَةِ بعكَّا والمقـدَّمُون لهم أن يفْتِصلُوا فى رَعِيَّتِهم الذين يَخرجُونَ بالممنوعاتِ من بِلادِهم الدَّاخلةِ فى هذه الهُدْنَةِ .

ومتىٰ أُخِذَتْ أخيذةٌ من الجانبَين، أو قُتِلَ قَتيلٌ من الجانبين، علىٰ أىِّ وَجْهٍ كانَ ـ والعيـاذُ باللهِ ـ رُدَّتِ الأَخيـذةُ بعَيْنِها إن كانتْ مَوْجودةً، أو قيمَتُها إن كانتْ مَفْقُودةً . والقَتيلُ يكون العِوَضُ عنه بنَظِيرِه من جِنْسه : فارِسٌ بفارِسٍ، وبَرْكِيلٌ ببَرْكِيلٍ، وتاجِرٌ بتاجِرٍ، ورَاجِلٌ براجِلٍ، وفَلَّاحٌ بفَلَّاحٍ . فإن خَفِىَ أمرُ القَتيلِ والأخِيذةِ، كانت المهْلَةُ فى الكَشْفِ أربعين يوماً، فإن ظهرتْ الأخيذةُ أو تعَيَّنَ أمْرُ المقتولِ، رُدَّت الأخيـذةُ بعَيْنِها ويكونُ العِوَضُ عن القَتيلِ بنَظِيرِه، وإن لم تَظْهَرْ

كانتِ اليمينُ علىٰ وَالِي المكانِ المدَّعىٰ عليـه، وثلاثةِ نَفَرٍ يقَعُ ٱختيار المدَّعِي عليهم، من تلك الوِلَايَة . وإن ٱمتَنع الوَالِي عن اليَمِينِ حُلِّف من الجِهَةِ المدَّعِيةِ ثلاثةُ نَفَرٍ تختارهم الجِهَةُ الأخرىٰ وأخذ قيمتها . وإن لم يُنْصِف الوَالِي ولا رَدّ المـالَ، أنْهَى المـدَّعِي أمْرَه إلى الحُكَّامِ من الجِهتَينِ، وتكونُ المهْلَةُ بعدَ الإنْهـاءِ أربعين يومًا، ويُلْزَمُ الوِلاةُ من الجهتين بالوَفَاء بهذا الشَّرْطِ .

ومتىٰ أَخْفَوْا قتيـلًا أو أخِيـذَةً، أو قدَرُوا علىٰ أَخْذِ حَقٍّ ولم يأخُذْه كلُّ واحدٍ فى ولايته، يتعيَّن على الذى يوليه من مُلُوكِ الجهتين إقامَةُ السِّياسَـةِ فيه : من أَخْذ الرُّوحِ والمَـالِ والشَّنْق، والإنكار التـامّ علىٰ من يتَعَيَّنُ عليه الإنكارُ إذا فعل ذلك فى وِلايتِه وأرْضِه .

وإن هَرَب أحدٌ بمـالٍ وٱعْترَف ببَعْضِه وأنْكَر بعْضَ ما يُدَّعَىٰ به عليه، لَزِمه أن يَحْلِفَ أنه لم يأخُذْ سِوَىٰ ماردَّه . فان لم يقْنَع المدَّعِي بيمينِ الهَارِب، حلَفَ وَالِي تلك الولاية أنه لم يَطَّلِـعْ علىٰ أنه وَصَل معه غيرُ ماردَّه . وإن أنْكَر أنَّه لم يَصِلْ معه شَيْءٌ أصْلًا، ٱستحلف الهارِبُ أنه لم يَصِلْ معه للمدَّعِي شَيْءٌ .

وعلىٰ أنه إذا ٱنكسر مَرْكَبٌ من مَرَاكِبِ تُجَّـارِ السُّلطانِ ووَلَدِه التى ٱنعقدت عليها الهُدْنة، ورَعِيَّتِهما من المسـلمين وغيرهم : على ٱختلاف أجْناسِهم وأدْيانهم، فى مِينَا عكَّا وسَواحِلِها، والبِـلادِ السَّاحِلِيَّة التى ٱنعقدتْ عليها الهُدْنة، كان كلُّ من فيها آمِنًا على الأنْفُسِ والأمْوالِ والأتْبَاعِ والمَتَاجِر . فإن وُجِدَ أصحابُ هـذه المراكبِ التى تَنْكسر تُسلَّم مراكِبُهم وأموالُهم [إليهم] . وإن عُدِمُوا بمَوْتٍ أو غَرَقٍ أو غَيْبةٍ، فيُحتَفَظُ بموجودِهِم ويُسَـلَّم لنوّابِ السُّـلطان ووَلَدِه . وكذلك المَرَاكِبُ المتوجِّهةُ من هذه البلاد السَّاحلية المنعَقِد عليها الهُدْنةُ للفَرَنج، يَجْرى لهـا مثلُ ذلك فى بلاد

السُّلْطانِ ووَلَدِه، ويحتَفَظُ بمَوْجُودِها إن لم يكن صاحِبُها حاضِرًا إلىٰ أن يُسَلَّم لكَفِيل المملكة بعَكَّا أو المقَدَّمِ .

ومتىٰ تُوُفِّيَ أحدٌ من التُّجّارِ الصادرين والواردين: علىٰ ٱختلافِ أجْناسِهم وأدْيانِهم، من بلاد السُّلطانِ وولَده، فى عَكَّا وصَيْدَا وعَثْلِيثَ، والبلادِ السَّاحليةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ على ٱختلاف أجْناسِهم وأدْيانِهم [فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده]، وإذا تُوُفِّيَ أحدٌ فى البلاد الإسلاميةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ، يحتَفظُ علىٰ مالِه إلىٰ حِين يسلَّمُ إلىٰ كفيل المملكة بعَكَّا والمقدَّمين .

وعلىٰ أنَّ شَوَانِى السُّلطانِ وولَدِه إذا عمرتْ وخَرَجتْ لا تتعرَّضُ بأذِيَّةٍ إلى البلاد الساحِليَّة التى ٱنعقدتْ عليها هـذه الهُدْنة . ومتىٰ قصدت الشَّوانِى المذكورةُ جِهَةً غير هذه الجهات، وكان صاحبُ تلك الجِهَةِ مُعاهِدًا للحُكّامِ بمَمْلَكَةِ عَكّا، فلا تدخُلُ إلى البلاد التى ٱنعقدتْ عليها هـذه الهُدْنةُ ولا تَتَزَوَّدُ منها . وإن لم يكنْ صاحبُ تلك الجِهَةِ التى تقصِدُها الشَّوانِى المنصورةُ مُعاهِدًا للحُكّامِ بمَمْلَكَةِ عَكّا والبِلادِ التى ٱنعقدتْ عليها الهُدْنَة، فلها أن تدخُلَ إلىٰ بلادها وتَتَزَوَّدَ منها . وإن ٱنكسر شىْءٌ من هـذه الشَّوانِى ـ والعياذُ باللّٰهِ ـ فى مِينا من مَوانِى البلادِ التى ٱنعقدتْ عليها الهُـدْنَةُ وسَواحِلِها : فان كانتْ قاصِـدَةً مَن له مع مَمْلَكَةِ عَكّا ومُقَدَّمِى بُيُوتِها عَهْـدٌ، فيلزَمُ كَفِيلُ المَمْلَكَةِ بعَكّا ومقدَّمِى البُيوت بحِفْظِها، وتَمكِين رجالها من الزوادة وإصْلاحِ ما ٱنكسر منها، والعَوْدِ إلى البـلاد الإسلامية، و[لا] يبطِلُ حركَة ما تَنكَّر منها ـ والعياذُ باللّٰهِ ـ أو يرميه البَحْر . هـذا إذا كانتْ قاصِدةً من له مع مَمْلَكَةِ عكّا ومُقَدَّمِيها عَهْدٌ . فإن [قصدتْ مَن] لم يكنْ لهـا معهم عَهْدٌ، فلها أن تَتَزَوَّدَ وتُعَمِّرَ رجالَها من البلاد المُنعَقِدِ عليها هذه الهُدْنَة، وتتوجَّهَ إلى البلاد المَرْسومِ لها بقَصْدِها، ويعتمدُ هذا الفَصْلُ من الجهتين .

وعلىٰ أنّه متىٰ تَحرَّكَ أحدٌ من مُلوكِ الفَرنجة وغيرهم من جُوّا البَحْرِ لقصْد الحضور لمضَرَّة السُّلطان ووَلَده فى بلادهما المتَّفِقَة عليها هـذه الهُدْنَة، فليلزَمْ نائب المملكة والمقدَّمين بعَكّا، أن يعرِّفوا السلطانَ ووَلَده بحَرَكَتِهم قبلَ وصُولِهم إلى البلاد الإسلاميَّة الداخلة فى هذه الهُـدْنة بمدّة شَهْرين . وإن وصَلُوا بعد آنقضاء مُدّةِ شَهْرين، فيكونُ كَفِيلُ المَمْلَكةِ بعَكّا، والمقدّمونَ بَريئِينَ من عُهْدة اليمينِ فى هـذا الفَصْل . ومتىٰ تحرّك عَدُوٌّ من جِهَةِ البرّ من التَّتَارِ وغَيرِهم، فأَىُّ مَن سَبَق الخبرُ إليه من الجهتين يُعرِّفُ الجِهَةَ الأخرىٰ بما سبق الخبرُ إليه من أمْرِهم .

وعلىٰ أنه إن قصدَ البلادَ الشَّاميَّة ـ والعياذُ باللهِ ـ عدُوٌّ من التَّتَارِ وغيرِهم فى البَرّ، وآنحازَتِ العساكرُ الإسْلاميةُ من قدّام العَدُوّ، ووصـل العَدُوُّ إلى القُرْب من البلاد السَّاحليَّةِ الداخلةِ فى هذه الهُـدْنَةِ وقصَدُوها بمضَرَّةٍ، فيكتب إلى [كفيل] المَمْلَكَةِ بعَكّا، والمقَدَّمِينَ بها أن يَدْرءُوا عن بيُوتِهم ورَعِيَّتِهم وبِلادِهم بما تصلُ قُدْرَتُهم إليه . وإن حَصل ـ والعياذُ باللهِ ـ جفلٌ من البِلادِ الإسْلاميَّة إلى البلادِ السَّاحليَّة الداخلةِ فى هذه الهُدْنة، فيلزم كَفِيل المملكة بعَكّا، والمقدّمين بها حِفْظُهم والدَّفْعُ عنهم ومَنْعُ من يَقْصِدُهم بضَرَرٍ، ويكونون آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ بما معهم .

وعلىٰ أنَّ النَّائِب بمملكة عَكّا، والمقدّمِين بها يُوصُونَ فى سائرِ البِلادِ الساحلية التى وقعتْ الهُـدْنةُ عليها، أنَّهـم لا يمكِّنُون حَرَامِيَّةَ البَحْرِ من الزوادةِ من عندهم ولا من حَمْل ماء . وإن ظَفِرُوا بأحدٍ منهـم يُمْسِكُونه، وإن كانوا يبيعون عنـدهم بَضَائع فيُمْسِكُها كَفِيلُ المملكة بعَكّا والمقدَّمُونَ حتَّى يظهَرَ صاحِبُها وتسلَّمَ إليـه . وكذلك يَعتَمِدُ السلطانُ ووَلَدُه .

وعلىٰ أن الرَّهائِنَ بعَكّا والبلادِ السَّاحليةِ الدَّاخلةِ فى هذه الهُدْنة، كلّ من عليه منهم مَبلغ أو غَلَّة، فيحلف وَالِى ذلك المَكَانِ الذى منه الرَّهينة، ويحلف المُباشِرُ والكَاتِبُ

فى وَقْتِ أَخْذ هـذا الشَّخْص رَهِينةً أنه عليـه كذا وكذا : من دراهمَ أو غَلَّةٍ أو بَقَرٍ أو غيره . فاذا حَلف الوَالِى والْمُباشِرُ والكَاتِبُ قدّامَ نائبِ السلطان وولَدِه علىٰ ذلك يقوم أهْلُ الرَّهينة عنه بمـا للفرنج عليـه ويُطْلِقُونَه . وأما الرَّهائن الذين أَخذُوا منسوبين إلى الجفل والاخْتِشاء أنهـم لا يهرُبون إلىٰ بلاد الإسـلام ويمتنع الولاةُ والمباشِرُون من اليمين عليهم، فأولئك يطلقون .

وعلىٰ أنْ لا يجدَّدَ على التُّجَّار المسافرين : الصادِرِينَ والوارِدِينَ من الجهتين حقٌّ لم تَجْرِ به عادةٌ، ويُجْرَوْا علىٰ عَوَائدهم المستمرّة إلىٰ آخر وقتٍ، وتُؤخَذُ منهم الحقوقُ على العَـادَة المسـتمرَّةِ ، ولا يجدَّدُ عليهم رَسْمٌ ولا حَقٌّ لم تَجْرِ به عادةٌ . وكلُّ مكان عُرِفَ بآستخراج الحقِّ فيه يسـتخرجُ بذلك المكانِ من غَيْر زيادةٍ من الجِهَتَيْن ، فى حالتى سَـفَرِهم وإقامَتِهم؛ ويكونُ التُّجَّار والسُّفَّارُ والمتردّدون آمنين مطمئِّنِّينَ مُخَفَّرين من الجِهَتَين فى حالتى سَفَرِهم وإقامَتِهـم ، وصُدُورِهم ووُرُودهم بمـا صُحْبَتهم من الأصناف والبضائع التى هى غير ممنوعة .

وعلىٰ أنه ينادَىٰ فى البلاد الإسلاميةِ والبلادِ الفرنْجيةِ الدَّاخلَةِ فى هـذه الهدنة : أنه من كان من فَلَّاحِى بلادِ المُسْلمينَ يَعودُ إلىٰ بلاد المسلمين مُسْلماً كان أو نَصْرانياًّ . وكذلك من كان من فَلَّاحِى بلاد الفَرَنج مُسْـلِماً كان أو نَصْرانيًّا، معروفًا قراريًّا من الجهتين، ومن لم يَعُدْ بعد المناداة يُطْرَدُ من الجهتين . ولا يُمَكَّنُ فَلَّاحُو بلاد المسلمين من المُقَامِ فى بلاد الفرنج المنعقِد عليها هذه الهُدْنة، ولا فَلَّاحُو بلاد الفرنج من المُقَام فى بلاد المسلمين التى آنعقدت عليها هذه الهُدْنة؛ ويكون عَوْدُ الفَلَّاح من الجهة إلى الجهة الأُخرىٰ بأمَانٍ .

وعلىٰ أنْ تكونَ كَنيسةُ النَّـاصِرة وأرْبَعُ بيُوتٍ من أقْربِ البُيُوت إليهـا لزيارَةِ الحُجَّاجِ وغيرهم من دِينِ الصَّليبِ : كَبِيرِهِم وصَغِيرهم على آختلاف أجْناسهم وأنْفارِهِم:

من عَكَّا والبلادِ الساحِليَّـة الداخلةِ فى هذه الهُـدنة ، ويُصَلِّى بالكَنِيسـةِ الاقِسَّاءُ (١) والرُّهْبانُ ، وتكونُ البيوتُ المذكورةُ لزُوّارِ كَنِيسة النَّاصِرَة خاصَّة ، ويكونون آمنين مُطْمَئِنِّين فى توجُّهِهم وحُضُورِهم إلىٰ حدود البلاد الداخلةِ فى هـذه الهُدْنَة . وإذا نُقِبتْ الحِجارةُ التى بالكنيسة المذكورة تُرْمىٰ برا ، ولا يُحطُّ حَجَرٌ منها علىٰ حَجَرٍ لأجْلِ بِنَايَتِـه ، ولا يتعرّضُ إلى الأَقِسَّاءِ (١) والرُّهْبانِ ، وذلك علىٰ وَجْه الهِبَةِ لأجل زُوّارِ دِينِ الصَّلِيبِ بغيرِ حقٍّ .

ويلزمُ السـلطانَ وولَدَه حِفْظُ هـذه البلادِ المشروحةِ التى آنعقدتْ عليها الهُـدْنةُ من نَفْسِهِما وعَساكِرِهما وجُنُودِهما ، ومن جميع المتجَرِّمَةِ والمتَلَصِّصِين والمُفْسِدِين : ممَّن هو داخلٌ تحت حُكْمِهما وطاعَتِهما . ويلزمُ كَفيلَ المملكة بعكَّا والمقدَّمِينَ بهـا حِفْظُ هـذه البلادِ الإسلامية المشْروحةِ التى آنعقدتْ عليها الهُـدْنةُ ، من نَفْسِهِم وعَساكِرِهم وجُنودِهم ، وجميعِ المتجَرِّمةِ والمتَلَصِّصِينَ والمُفسدِين : ممن هو داخلُ تحتَ حُكْمِهم وطاعَتِهم بالمملكة السَّاحِليَّةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنَة . ويلزم كَفيلَ المملكةِ بعَكَّا ، ومقدَّمِى البُيُوتِ بها الحُكَّامِ بعَكَّا والبلاد الساحليـة الداخلةِ فى هَذه الهُدْنةِ ـ القيامُ بمـا تَضَمَّنَتْه هذه الهُدْنَة من الشُّروطِ جَمِيعِها ، شَرْطًا شَرْطًا ، وفَصْلًا فَصْلًا ، والعَمَلُ بأحكامها ، والوُقُوفُ مع شُروطِها إلى آنقضاء مُدَّتِها . ويَفِى كلٌّ منهم بمـا حلَفَ به من الأيْمـانِ المؤكَّدةِ : من أنَّه يَفِى بجميع ما فى هذه الهُدْنَةِ علىٰ ماحَلَفُوا به .

تَسْتمِرُّ هذه الهُدْنَة المباركةُ بين السُّلطانِ وولَدِه وأوْلادِهما وأوْلادِ أوْلادِهم ، وبين الحُكَّامِ بمملكة عكَّا ، وصَيْدا ، وعَثْلِيثَ ، وهم الشيخان أودرا(؟) المقدّمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تتغـيَّر بموْتِ مُلوكِ أحَدِ الجهتين ، ولا بتَغَيُّرِ مقَـدَّم وتَوْلِيَةِ غيره ، بل تَسْـتمِرُّ علىٰ حالِهـا إلىٰ آخرِها وآنْقضائِها ، بشُرُوطها المحْدودَةِ ،

(١) لعل الصواب القسوس ، أو القسيسون .

وقواعِدها المقرّرة ، كامِلَةً تامَّة . ومتَى ٱنقضتْ هـذه الهُدنةُ المبـاركةُ ، أو وقعَ ـ والعِياذُ باللهِ ـ فَسْـخٌ ، كانت المهْلَةُ فى ذلك أربعين يومًا من الجهتين . ويُنادَىٰ برجوع كلِّ أَحَدٍ إلىٰ وَطَنِه بعد الإشهادِ، ليعُودَ الناسُ إلىٰ مَواطنِهم آمِنينَ مُطْمَئِنِّينَ، ولا يمنعون من السَّـفَرِ من الجهتين ، ولا تبطُلُ بعَزْلِ أحَدٍ من الجهتين ، وتُشَـيَّدُ أحْكامُها مُتَتابِعةً متوالية، بالسنين والشُّهورِ والأَيَّامِ إلى ٱنقضائها ؛ ويلزم المتولىَ حِفْظُها والعَمَل بشُرُوطِها وفُصُولها ، وفُروعِها وأُصولِهـا ؛ ويَجْرِى الحالُ فيها علىٰ أَجْمَلِ الحالات إلىٰ آخِرِها . وعلىٰ جميع ذلك وَقَع الرِّضا والصَّفْحُ والاتِّفاقُ، وحلف عليها من الجِهَتَينِ، واللهُ الموَفِّق .

* * *

وهذه نُسْخَةُ هُدنَةٍ، عُقِدتْ بين المَلِك الأشْرفِ، صَـلاحِ الدِّين « خليل » ٱبن المَلِك المَنْصورِ سَيْفِ الدِّين « قلاوون » صاحِبِ الديار المِصْرِيَّة والبلادِ الشَّامية ؛ وبين دون حاكم الريدأرغون، صاحِبِ بَرْشَلُونَةَ من بلاد الأنْدلُس؛ علىٰ يَدِ رُسُلِه : أخَوَيْهِ وصِهْرَيْهِ الآتِى ذكرهم، فى صَفَر سنة ٱثنتين وتسعين وسِتِّمائةٍ، وهى :

ٱستَقرّتِ المَوَدّةُ والمُصادقَة بين المَلِكِ الأشْرفِ ، وبين حَضْرة المَلِك الجليـلِ ، المُكَرَّم، الخَطِيرِ، البَاسِـلِ ، الأَسَدِ ، الضِّرْغامِ ، المفَخَّمِ ، المبَجَّلِ « دون » حاكم الريدأرغون ، وأخَوَيْهِ دون ولَذَريك ، ودون بيدرو ؛ وبين صِهْرَيْهِ اللَّذيْنِ طلب الرَّسولان الواصِلَان إلى الأبوابِ الشريفةِ عن مُرْسِلِهما المَلك دون حاكم أن يكونَا دَاخِلَيْنِ فى الهُدْنةِ والمُصادَقةِ، وأن يلتزِمَ الملكُ دون حاكم عنهما بكلِّ ما ٱلتزَم به عن نَفْسه، ويتَدَرَّك أمْرَهما . وهما المَلكُ الجليلُ، المكَرَّمُ، الخَطِيرُ، البَاسلُ، الأسَدُ، الضِّرْغامُ، دون شانجه، مَلِكُ قَشْـتَالة، وطُلَيطُلَةَ ، ولُيُونَ، وبَلَنْسِيَةَ ، وأشْبِيلِيَةَ ، وقُرطُبَةَ، ومُرْسِيَةَ، وجَيَّانَ ، والغرب، الكفيلُ بمَمْلَكَةِ أرغون وبرتقال ـ والمَلكُ

الجَلِيلُ دون أتفونش مَلِكُ بُرْتُقال، من تاريخ يومِ الخميس تاسع عَشْرِ صفر سَنَة آثنتين وتسعين وسِتِّمائة، المُوافِقِ لثلاثٍ بَقِينَ من جنير سنة أَلْفٍ ومائتَين وآثنتين وتسعين لمولانا السَّيِّد المَسِيح عليه السلام. وذلك بحُضُورِ رَسُولَي الملك دون حاكم، وهما: المحْتَشِمُ الكَبِيرُ روصوديمار موند الحاكمُ، عن المَلِكِ دون حاكم فى بَلَنْسِيَةَ، ورَفِيقُه المُحْتَشِمُ العُمْدة ديمون المان قرارى بَرْجَلُونَةَ، الوَاصِلَيْن بكتابِ المَلِكِ دون حاكم، المختومِ بخَتْمِ المَلِكِ المذكور، المُقْتَضِى معناه أنَّه حَمَّلَهما جميعًا أحْوالَهُم ومَطْلوبَهم، وسَأَلَ أن يَقُومَا فيما يقُولانه عنه، فكان مَضْمونُ مُشافَهَتِهما وسُؤَالِها تَقْرِيرَ قَوَاعِدِ الصُّلْحِ والمَوَدَّةِ والصَّداقَةِ. والشُّروط التى يَشْترِطُها المَلِكُ الأشرفُ على الملك دون حاكم، وأنَّه يلتزِمُ بجميع هذه الشُّروطِ الآتى ذِكْرُها، ويَحْلِفُ المَلِكُ المذكورُ عليها هو وأخَوَاهُ وصِهْراه المذْكُورون. ووَضَعَ الرسولان المذكوران خُطُوطَهما بجميع الفُصُولِ الآتى ذِكْرُها، بأمْرِهِ ومَرْسُومه. وأنَّ الملكَ دُون حاكم وأخَوَيْهِ وصِهْرَيْهِ يلتزمون بها، وهى: آسْتقرارُ المَوَدَّةِ والمُصادَقَةِ من التَّاريخ المقدَّم ذِكْره، علىٰ مَمَرِّ السنينَ والأعوامِ، وتعاقُبِ اللَّيالى والأيَّام: بَرًّا وبَحْرًا، سَهْلًا ووَعْرًا، قُربًا وبُعدًا.

وعلىٰ أن تكونَ بِلادُ السلطانِ المَلِكِ الأشرف، وقلاعُه، وحُصُونُه، وثُغُورُه، ومَمَالِكُه، ومَوانِى بِلادِه وسَوَاحِلُها، وبُرُورُها، وجميعُ أقاليمِها ومُدُنِها، وكلُّ ما هو داخِلٌ فى مملكته، ومَحْسُوبٌ منها، ومَنْسوبٌ اليها: من سائر الأقاليم الرُّومِيَّة، والعِرَاقِيَّة، والمَشْرِقِيَّة، والشَّامِيَّة، والحَلَبِية، والفُراتِيَّة، واليَمَنِية، والحِجَازِيَّة، والدِّيار المصرية، والغَرْب.

وحدُّ هذه البلاد والأقاليم ومَوَانِيها وسَوَاحِلها من البَرِّ الشَّامِيِّ من القُسْطَنْطِينِيَّة والبلادِ الرُّومية السَّاحِلِيَّة، وهى: من طَرابُلُسَ الغَرْب، وسَواحِل بَرْقَةَ، والإسْكَنْدرِيَّة، ودِمْياط، والطِّينَة، وقَطْيا، وغَزَّةَ، وعَسْقَلانَ، ويَافَا،

وأَرْسُوفَ، وقَيْسارِيَّة، وعَثْلِيثَ، وحَيْفَا، وعَكَّا، وصُورَ، وصَيْدَا، وبَيْروتَ، وجُبَيْل، والبَيْرون، وأَنفَة طَرَابُلس الشَّامِ، وأَنْطَرسُوس، ومَرَقِيَّة، والمَرْقَب، وساحِلِ المَرْقَب: بَانِياس وغيرها، وجَبَلة، واللَّاذِقِيَّة، والسُّوَيْدِيَّة وجميع الموانى والبرور إلىٰ ثغرِ دمياط وبُحيْرة تِنِّيس.

وحَدُّها من البَرِّ الغَرْبىِّ: من تُونُسَ وإقليم إفْرِيقية وبلادِها وموانيها، وطَرابُلس الغَرْبِ وثُغُورها وبِلادِها وموانيها، وبَرْقة وثُغورِها وبِلادِها وموانيها، إلىٰ ثغْر الإِسْكَنْدَرِيَّة ورَشِيد وبُحَيرة تِنِّيس وسواحِلِها وبِلادِها وموانيها.

وما تَحْوِيهِ هذه البلادُ والمَمَالِكُ المذكورةُ والّتى لم تُذْكَر، والمَدَائِن والثُّغور والسَّواحِل والمَوَانى والطُّرقات فى البَرّ والبَحْر، والصُّدُور والوُرود، والمُقَام والسَّفَر، من عَسَاكِرَ وجُنود، وتُرْكَانٍ، وأَكْرادٍ، وعُرْبانٍ، ورعَايا، وتُجّار، وشَوَانى، ومَرَاكِبَ، وسُفُنٍ، وأَموال، ومَوَاشٍ، علىٰ اختلاف الأَدْيانِ والأَنْفارِ والأجناسِ، وما تَحْوِيهِ الأيدى من سائر أَصْناف الأَمْوال والأَسْلِحَة والأَمْتِعة والبضائِع والمَتَاجِر، قليلًا كان أو كثيرًا، قَرِيبًا كان أو بعيدًا، برًّا كان أو بَحْرًا ــ آمِنةً(١) علىٰ الأَنْفُس، والأَرْواحِ، والأموال، والحَرِيم، والأَوْلادِ من المَلِك دون حاكم ومن أَخَوَيْه وصِهْرَيْه المذكورينَ، ومن أَوْلادِهم، وفُرْسانِهم، وخَيَّالَتِهم، ومُعاهَدِيهم، وعَمَائِرهم، ورِجَالِهم، وكلِّ من يتعلَّقُ بهم. وكذلك كُلُّ ما سيفتحه الله تعالىٰ علىٰ يد المَلِكِ الأشرف، وعلىٰ يد أولاده وعَسَاكِرِه وجُيوشِه، من القِلاعِ والحُصُون، والبلادِ والأقاليم، فإنه يَجْرِى عليه هذا الحُكْم.

وعلىٰ أن تكونَ بلادُ المَلِك دون حاكم وبِلادُ أَخَوَيْه وصِهْرَيْهِ ومَمَالِكُه المذكورةُ فى هذه الهُدْنة، وهى: أَرْغُونُ وأعمالُها وبِلادُها: صَقَلِّية وجَزِيرتُها وبِلادُها

(١) خبر قوله: أن تكون بلاد السلطان الواردة فى الصفحة قبل.

وأعْمالُهـا، بَرْبُولِيَةَ وأعمالُها و بِلادُها، جَزِيرَةُ مالَقَةَ، وقَوْصَرة و بلادُها وأعْمالُهـا، مَيُورَقةُ ويَابِسَـةُ وبلادُها، وأرسويار (؟) وأعمالُها، وما سَيفتَحُه المَلِكُ دون حاكم من بلاد أعْدائِه الفَرَنْج المجـاورينَ له بتلك الأقاليم - آمِنِـينَ من المَلِكِ الأشْرف وأوْلادِه، وعَساكرِه وجُيُوشِه، وشَوانيه وعَمائِرِه، هى ومَن فيها من فُرْسانٍ وخَيَّالةٍ ورعايا . وأَهْلُ بلادِه آمِنِـينَ مطمَئِنِّينَ على الأنفُسِ والأموالِ، والحَرِيم والأوْلادِ، فى البَرِّ والبَحْرِ، والصُّدُور والوُرُودِ .

وعلى أنَّ المَلِكَ دون حاكم هو وأخَوَاهُ وصِهْراه أصْدِقاءُ مَن يُصادِقُ المَلِكَ الأشْرَفَ وأَوْلادَه، وأعْداءُ من يُعادِيهم من سائر المُلُوك الفَرَنْجية وغير الملوك الفرنجيــة . و إن قَصَدَ البَابُ برُومِيَةَ، أو مَلِكٌ من مُلوكِ الفَرَنْج : مُتَوَّجًا كان أو غَيْرَ مُتَوَّجٍ، كبيرًا كان أو صـغيرًا، أو من الجَنَوِيَّةِ، أو من البَنَادِقَةِ، أو من سائر الأجناس على اختلاف الفَرَنْج والرُّوم، والبُيُوت : بيتِ الإخْوَةِ الديوية، والاسبتارية، والرُّوم، وسائرِ أجناسِ النَّصارى - مَضَرَّةَ بلادِ المَلِكِ الأشْرَفِ، بمُحارَبَةٍ أو أذيَّةٍ، يمنعُهُم المَلِكُ دون حاكم هو وأخَوَاهُ وصِهْراه و يرُدُّونَهم، ويعْمُرون شَوانِيَهم ومَراكِبَهم، و يقصِدون بِلادَهُم، و يشْغَلُونهـم بنفُوسِهم عن قَصْـدِ بلاد المَلِكِ الأشْرِف ومَوانِيهِ وسَواحِلِه وثغورِه المذكورةِ، وغَيرِ المذكورة، ويقاتِلُونَهم فى البَرِّ والبَحْر بشوانيهم وعمائِرِهم، وفُرْسانِهم وخَيَّالَتِهم ورَجَّالَتِهم .

وعلى أنَّه متىٰ خرج أحَدٌ من مُعاهدِى المَلِكِ الأشْرف من الفَرَنْج عن شروط الهُـدْنَةِ المستقِرّةِ بينَه و بينَهم، ووقَعَ ما يُوجِبُ فسخ الهُدْنَةِ، لا يُعينُهم المَلِكُ دون حاكم ولا أحَدٌ من أخَوَيْه ولا صِهْرَيْهِ، ولا خيَّالَتِهـم، ولا فُرْسانهم، ولا أَهْـلِ بِلادِهم، بخَيْـلٍ ولا خَيَّالةٍ، ولا سِلاحٍ ولا رَجَّالَةٍ، ولا مال ولا نَجْدةٍ، ولا مِيرَةٍ، ولا مَراكبَ ولا شَوَانٍ ولا غير ذلك .

وعلىٰ أنّه متى طلب البَابُ برُوميَــةَ، وملوكُ الفرَنْج، والرُّومِ، والتّتــارِ، وغيرُهم من الملك دون حاكم أو من أخَوَيْه أو من صِهْرِيْهِ أو من بلادهم، إنْجادًا، أو مُعاوَنَةً: بخَيَّالة، أو رَجَّالةٍ، أو مَال، أو مَراكِبَ، أو شَوانٍ، أو سِلاحٍ - لا يُوافِقُهم على شَيْءٍ من ذلك، لا فى سِرٍّ ولا جَهْرٍ؛ ولا يُعينُ أحدًا منهم ولا يُوافِقُــه علىٰ ذلك. ومتى ٱطَّلعُوا علىٰ أنّ أحدًا منهم يقْصِدُ بلادَ المَلِكِ الأشْرفِ لمُحارَبته أو لمضَرّته بشَيْءٍ، يعرِّفُ المَلِكُ الأشرفُ بخَبَرِهم، وبالجِهَةِ التى ٱتَّفقوا علىٰ قَصْــدِها فى أقْرَبِ وَقْتٍ، قبل حوطتهم من بلادهم، ولا يُخْفيه شيئًا من ذلك.

وعلىٰ أنّه متى ٱنْكسر مَرْكَبٌ من المراكب الإسْلامِيَّة فى بلاد الملك دون حاكم، أو بِلادِ أخَوَيْهِ أو بلاد صِهْرَيْهِ، [فعليهم] أن يَخْفُروهم، ويحفظوا مَراكِبَهم وأموالَهم، ويُساعِدُوهم علىٰ عِمــارةِ مَرَاكِبِهم، ويُجَهِّزوهم وأمْوالَهم وبَضائِعَهم إلىٰ بلاد الملك الأشْرفِ. وكذلك إذا انكسرتْ مَرْكــبٌ من بلاد دون حاكم، وبلاد أخَوَيْهِ وصِهْرَيْه، ومُعَاهِديه فى بلاد المَلك الأشْرف، يكون لهم هذا الحُكْمُ المذكورُ أعلاه.

وعلىٰ أنّه متىٰ مات أحَدٌ من تُجّــارِ المسلمين ومن نصارَىٰ بلادِ المَلِك الأشْرف، أو ذِمَّةِ أهْلِ بلاده، فى بلاد المَلِك دون حاكم وبِلادِ أخَوَيه وصِهْرَيه وأولاده ومُعَاهِديه، لا يعارضوهم فى أموالهم ولا فى بَضائِعهم، ويُحَمِّلُ مالَهُم ومَوْجُودَهم إلىٰ بِلادِ الملك الأشرف: ليفعلَ فيه ما يَختارُ. وكذلك من يَموتُ فى بلاد المَلِكِ الأشرفِ من أهْــلِ مملكة المَلِك دون حاكم وبِلادِ أخَوَيْه وصِهْرَيْه ومُعَاهِديهــم، فلهم هذا الحُكْمُ المذكورُ أعلاه.

وعلىٰ أنّه متى عَبَرَ علىٰ بلاد المَلِكِ دون حاكم أو بلادِ أخَوَيه أو صِهْرَيْه أو مُعَاهِديه رُسُــلٌ من بلاد المَلِكِ الأشْرف قاصِــدين جِهَةً من الجهات القريبة أو البعيــدةِ،

صَادِرِين أو وَارِدِين ، أو رماهم الرِّيحُ فى بلادهم ، تكونُ الرُّسُلُ وغِلمانُهم وأتْباعُهم، ومن يَصِلُ معهم من رُسُل الملوك أو غيرهم - آمِنِينَ مَحْفوظين فى الأنْفُس والأموال، ويُجَهِّزُهم إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشرف .

وعلىٰ أنَّ المَلِكَ دون حاكم وأخَوَيه وصِهْرِيْهِ متى جَرَىٰ من أحدٍ من بلادهم قَضِيَّةٌ تُوجِبُ فَسْخ المهادنة ، كان على كلٍّ من المَلِكِ دون حاكم وأخويه وصِهْرَيْه طَلَبُ من يفعل ذلك وفِعْلُ الواجِبِ فيه .

وعلىٰ أنَّ المَلِكَ دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْه يفسحُ كلٌّ منهم لأهْلِ بلاده وغيرهم من الفرنج، أنَّهم يَجْلُبُون إلى الثُّغور الاسلامية : الحَدِيدَ والبَيَاضَ والخَشَبَ وغير ذلك .

وعلىٰ أنَّه متى أُسِرَ أحَدٌ من المسلمين فى البَرِّ أو البَحْرِ، من مَبْدإِ تاريخ هذه المُهادَنَة من سائر البلاد : شَرْقِها وغَرْبِها ، أقصاها وأدْناها ، ووصلوا به إلىٰ بلاد المَلك دون حاكم وبلاد أخَوَيه وصِهْرِيْه ليبيعوه بها ، فيلزمُ الملك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرِيْه فَكُّ أَسْره وحَمْلُه إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشرف .

وعلىٰ أنَّه متىٰ كان بين تُجَّار المسلمين ، وبين تُجَّار بلاد الملك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْهِ مُعَامَلةٌ فى بضائعهم ، وهم فى بلاد المَلِكِ الأشرف ، كان أمْرُهم محمولًا علىٰ مُوجَبِ الشَّرْعِ الشريف .

وعلىٰ أنَّه متىٰ رَكِبَ أحدٌ من المسلمين فى مَرَاكب بلاد الملك دون حاكم وأخَوَيه وصِهْريه ، وحَمَلَ بضاعَتَه معهم وعُدِمَتْ البِضاعة ، كان على المَلِك دون حاكم وعلىٰ أخَوَيه وصِهْريه ردُّها إن كانت موجودةً ، أو قِيمَتها إن كانت مَفْقُودةً .

وعلىٰ أنَّه متىٰ هَرَب أحَدٌ من بلادِ المَلِك الأشرف الدَّاخلةِ فى هَـذه المُهادَنَة إلىٰ بلاد المَلِك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْريه ، أو تَوَجَّه ببضاعة لغيره وأقام بتلك البلاد ،

كان على المَلِك دون حا كم وعلىٰ أخَوَيه وصِهْرَيْه ردُّ الهاربِ أو المقيم ببضاعة غيره، والمَـالِ معه إلىٰ بلاد المَلِك الأشرف ما دام مُسْلِماً . وإن تَنَصَّر، يردُّ المـالُ الذى معه خاصَّة . ولِمَمْلكَةِ المَلِك دون حا كم وأخَوَيه وصِهْرَيْه فيمن يَهْرُب من بلادهم إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشرف هذا الحُكْمُ المذكورُ أعلاه .

وعلىٰ أنَّه إذا وصل من بلاد المَلِكِ دون حا كم وبلادِ أخَوَيهِ وصِهْرَيه ومُعَاهِدِيه من الفَرَنج من يقصِـدُ زيارة القُدْسِ الشَّرِيفِ، وعلىٰ يَدِه كِتَابُ المَلِكِ دون حا كم وخَتْمُه إلىٰ نائِبِ المَلِكِ الأشرف بالقُدْس الشَّريف، يُفْسَحُ له فى الزِّيارة مَسْمُوحًا بالحَـقِّ ليَقْضِىَ زيارَتَه ويَعُودَ إلىٰ بلاده آمِنًا مُطْمئِنًّا فى نَفْسِـه ومَالِه ، رجلًا كان أو آمْرأةً ؛ بحيثُ إن الملك دون حا كم لا يَكْتبُ لأحَدٍ من أعدائه ولا من أعْداءِ المَلِكِ الأشرف فى أمْرِ الزيارة بشَىْءٍ .

وعلىٰ أنَّ المَلِك دون حا كم يحرُسُ جميعَ بلادِ المَلِك الأشرفِ هو وأخَواه وصِهْراه من كل مَضَرةٍ ، ويجتهِدُ كلٌّ منهم فى أنَّ أحدًا من أعْداءِ المَلِك الأشرف لا يَصِـلُ إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشْرف، ولا يُنْجِـدُهم علىٰ مَضَرَّةِ بلاد الملك الأشْرفِ ولا رعاياه ، وأنه يساعِدُ المَلِك الأشْرَفَ فى البَرِّ والبَحْرِ بكلِّ ما يشتهيه ويختارُه .

وعلىٰ أنَّ الحقوقَ الوَاجِبةَ علىٰ من يَصْدُر ويَرِدُ ويَتردَّدُ من بلاد الملك دون حا كم وأخَوَيْه وصِهْرَيْه، إلىٰ ثَغْرِى الإسْكَنْدريَّة ودِمْياط، والثُّغورِ الإسلامية، والممَـالكِ السُّلْطانية، بسائر أصناف البضائع والمَتَاجِر على آختلافها، تستمرُّ علىٰ حُكْم الضرائبِ المستقِرَّةِ فى الدِّيوان المَعْمُورِ إلىٰ آخر وَقْتٍ ، ولا يُحْدَثُ عليهم فيها حَادِثٌ . وكذلك يَجْرِى الحُكْمُ علىٰ من يتردَّدُ من البلاد السلطانية إلىٰ بلاد المَلِك دون حا كم وأخَوَيْه وصِهْرَيْه .

تَسْتَمِرُّ هذه المودّةُ والمُصادَقة علىٰ حُكْم هذه الشُّروطِ المَشْروحةِ أعلاه من الجهات على الدَّوامِ والاستمرار، وتَجْرِى أحْكامُها وقَواعِدُها علىٰ أجْمَلِ الاستقرار، فإن المَمالِكَ بها قد صارتْ مَملكَةً واحِدَةً وشيئًا واحِدًا ؛ لا تَنْتقِضُ بمَوْتِ أحَدٍ من الجانبين ، ولا بعَزْلِ وَالٍ وتَوْلِيَةِ غيره، بل تُؤَيَّدُ أحكامُها، وتَدُومُ أيَّامُها، وشُهُورُها وأعوامُها . وعلىٰ ذلك آنتظمتْ وآستقرَّتْ فى التاريخ المَذْكور أعلاه، وهو كذا وكذا، واللهُ الموفِّقُ بكَرَمِه إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وهذه النُّسَخُ الخمسُ المتقدِّمَةُ الذِّكْرِ نقلتُها من تَذْكِرَة محمد بن المكَرَّمِ ، أَحَدِ كُتَّابِ الإنشاء بالدَّوْلة المنصورية «قلاوون» المُسَمَّاةِ : «تَذْكِرَةَ اللَّبِيب، ونُزْهَةِ الأَدِيب » من نُسْخَةٍ بخَطِّه ، ذَكَر فيها أن النُّسْخَةَ الأولىٰ منها كَتَبها بخطِّه علىٰ مَدِينَةِ صَفَد . وليس منها ماهو حَسَنُ التَّرتِيبِ، رائِقُ الأَلْفاظِ، بَهِجُ المَعَانِى، بَليغُ المقاصد، غَيرَ النُّسخَةِ الأخيرةِ المعقودةِ بين المَلِكِ الأشْرفِ و بين المَلِك دون حاكم . أما سائرُ النُّسخ المتقدِّمةِ فإنها مُبْتذَلَةُ الألفاظِ ، غيرُ رائِقَةِ التَّرتِيب ، لا يَصْدُر مِثْلُها من كَاتِبٍ عنده أدْنىٰ مُمارَسَةٍ لِصِناعةِ الكلام . والعَجَبُ من صدور ذلك فى زَمَنِ «الظَّاهر بِيبرْس» و«المَنْصورِ قلاوون» وهما من هما من عُظَماءِ المُلُوك ! ! وكِتَابةُ الإنشاءِ يومئذٍ بيَدِ بنى عَبْد الظَّاهِرِ الذين هم بَيْتُ الفصاحةِ ورُءُوسُ أرباب البَلاغة ! ! ! ولَعلَّ ذلك إنما وَقَع، لأن الفَرَنْج كانوا مُجاوِرِينَ للمسلمين يومئذٍ ببلاد الشَّام، فيقَعُ الاتِّفاقُ والتراضى بين الجِهتَين علىٰ فَصْلٍ فَصْلٍ ، فيكتُبُه كاتِبٌ من كلِّ جهةٍ من جهتى المسلمين والفرنج بألفاظٍ مُبْتذَلةٍ غيرِ رائقةٍ، طَلَبًا للسُّرعَة، إلىٰ أن ينتهىَ بهم الحالُ فى الاتِّفاق والتراضى، إلىٰ آخر فُصُول الهُدْنة ، فيكتبها كاتِبُ المَلِكِ المُسلِم علىٰ صُورة ما جَرىٰ فى المُسْوَدّة ، ليطابِقَ ما كتب به كَاتِبُ الفَرَنْج . إذ لو عَدَلَ فيها كَاتِبُ

السلطان إلى الترتيب ، وتَحْسِينِ الألفاظِ وبَلاغةِ التَّركيب ، لاَخْتَلَّ الحالُ فيها عما وافَقَ عليه كَاتِبُ الفَرَنْج أوّلا ، فينكرونَه حينئذٍ ، ويَرَوْنَ أنه غيرُ ما وقع عليه الاتِّفاق ، لقُصُورهم فى اللُّغةِ العربِيَّة ، فيحتاجُ الكاتِبُ إلىٰ إبقاء الحَالِ علىٰ ما توافق عليه الكَاتِبان فى المُسْوَدَّةِ . وبالجُمْلة فإنما ذكرتُ النُّسخَ المذكورةَ ـ علىٰ سَخَافة لَفْظِها ، وعَدَمِ انْسِجام تَرْتِيبِها ـ لاشتمالها على الفُصُول التى جَرىٰ فيها الاتِّفاقُ فيما تقدّم من الزّمان ، لِيَسْتمِدَّ منها الكاتِبُ مالَعلّه لا يحْضُر ببالِه من مَقاصِدِ المُهادَنات ، أغنانا اللهُ تعالىٰ عن الحَاجَةِ إليها .

واعلم أنه قد جَرَت العادةُ ، أنه إذا كُتبت الهُدنةُ ، كُتب قرينها يمينٌ يَحْلِفُ بها السلطانُ أو نائبُه القائمُ بعَقْدِ الهُدْنةِ ، على التَّوْفِيَةِ بفُصُولها وشُروطِها ؛ ويَمِينٌ يحلِفُ عليها القائمُ عن المَلِك الكافِرِ بعَقْدِ الهُدْنةِ ، ممَّن يأذَنُ له فى عَقْدِها عنه ، بكتابٍ يَصْدُر عنه بذلك ، أو تُجَهَّزُ نسختُها إلى المَلِك الكافِرِ ليَحْلِفَ عليها ، ويكتبَ خَطَّه بذلك ، وتُعادَ إلى الأبواب السلطانية .

المَــــذْهَب الثالث

(أن تُفْتتحَ المُهادَنةُ بخُطْبةٍ مبتدأَةٍ بـ« الحمد لله »)

وعلىٰ هذا بَنىٰ صاحبُ "موادّ البيان" أمْرَه فى كتابة الهُدْنةِ ، حيث قال : والرَّسم فيها أن تُفْتتحَ بحمدِ الله تعالىٰ على الهِدايَةِ إلىٰ دِينِ الإسلام الذى أذَلَّ كُلَّ دِينٍ وأعزَّه ، وخَذَل كُلَّ شَرْعٍ ونَصَره ، وأخْفىٰ كلَّ مَذْهبٍ وأظْهَره ؛ والتَّوغُّل فى تَوْحيدِه ، وتَقْديسِه وتَمْجِيدِه ؛ والثَّناء عليه بآلائه ، والصلاة علىٰ خَير أنبيائه ؛ محمد صلى الله عليه وسلم .

قلتُ : ولم يأتِ بصُورة هُـدْنةٍ مُنْتظمةٍ علىٰ هـذا الترتيب ، بَلْ أشار إلىٰ كَيْفيَّةِ عملها . ثم قال : والبَليغُ يكتَفِي بقَرِيحَتِه فى ترتيبِ هذه المعانى إذا دُفِع إلى الانشاء فيها ، إن شاء الله تعالىٰ . ولم أقِفْ لغيره علىٰ صُورة هُدْنةٍ مفتتحةٍ بالتحميد ، ولا يخفىٰ أن الآبتداءَ به فى كلِّ مُهِمٍّ من العُهودِ وجلائِل الولايات ونَحْو ذلك هو المَعْمولُ عليه فى زَمَانِنا .

الطـــــرف الثـانى

(فيما يُشارِكُ فيه مُلوكُ الكُفرِ مُلوكَ الإسلام فى كتابة نُسَخٍ من دواوينهم)

اِعلم أنَّ الغالِبَ فى الهُدَنِ الواقعـةِ بين مُلوكِ الديار المصرية وبين مُلُوكِ الكُفْر أن تُكْتَبَ نسـخةٌ تخلَّدُ بديوان الإنشاء بالدّيار المصرية ، ونُسْـخةٌ تجهَّزُ إلى المَلك المُهادَنِ . ورُبَّمـا كتبتْ نسخةٌ من دِيوانِه مُفْتتحةٌ بيَمِينٍ .

وهذه نسخةُ هُدنةٍ ورَدَتْ من جهة الأشـكرى ، صاحبِ القُسْطَنْطِينيَّةِ فى شَهْر رمضان سـنة ثمـانين وستمائة ، مؤرَّخَةٌ بتاريخ موافقٍ لأواخر المحرَّم من السَّنة المذكورة ، فعُرِّبتْ فكانت نُسْخَتُها علىٰ ماذكره آبن مُكَرَّمٍ فى "تَذْكِرَتِه" :

إذْ قد أراد السلطانُ العَظِيمُ ، النَّسيبُ ، العَالِى ، العَزِيزُ ، الكَبِيرُ الجنْس ، المَلكُ ، المنصورُ ، سَـيْفُ الدِّين «قلاوون» صاحبُ الديار المصرية ودِمَشْقَ وحَلَب ، أن يكونَ بينه وبين مَمْلكَتِي مَحَبَّةٌ ـ فمملَكَتِي تُؤْثِرُ ذلك ، وتختارُ أن يكونَ بينها وبين عزِّ سلطانه مَحَبَّة . ولهذا وجب أن يَتَوسَّطَ هذا الأمْرَ يمينٌ وآتِّفاقٌ : لتَدومَ المَحَبَّةُ التى بهذه الصُّورة فيما بين مَمْلكتِي وعِزِّ سُلْطانِه ثابِتَـةً بلا تَشْوِيشٍ . فمملَكَتِي هذا اليوم ، وهو يَومُ الخميس الثامِنُ من شهر إيار من التاريخ [الرومى] التابع لسنة ستة آلاف

وسبعمائة وتِسْعٍ وثمانين لآدَم ـ تَحْلِفُ بأناجيل اللهِ المقدَّسة، والصَّليبِ المُكَرَّمِ المحيِّ، أنَّ مملكتِي تكونُ حافظةً للسُّلطانِ العظيم، النَّسيبِ، العَالِي، العَزيزِ، الكَبيرِ الجنْس، سَيْفِ الدِّين «قلاوون» صاحبِ الدِّيار المصرية ودِمَشْقَ وحَلَبَ، ولوَلَدِه ولوَارِثِ مُلْكِ عِزِّ سُلْطانه: محبَّةً مُسْتقيمةً، وصَداقَةً كاملةً نَقيَّةً، ولا يُحرِّكُ مُلْكي أبدًا علىٰ عِزِّ سلطانه حَرْبًا، ولا علىٰ بلادِه ولا علىٰ قِلَاعها، ولا علىٰ عساكره؛ ولا يَتحرّكُ مُلْكي أبدًا علىٰ حَرْبِه، بحيثُ إنَّ هذا السُّلطانَ العَظِيمَ، النَّسيبَ، العالِي، العزيزَ، الكَبيرِ الجنْسِ، المَلِكَ المنصورَ سَيفَ الدِّين «قلاوون» صاحبَ الدِّيارِ المِصْرية ودمَشْقَ وحلَبَ، يحفظُ مثلَ ذلك لمَمْلكَتِي ولوَلَدِ مَمْلكَتِي الحَبِيبِ الكمينوس، الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك ايرلنك، ولا يُحرِّكُ عِزُّ سُلطانه علىٰ مَمْلكَتنا حَرْبًا قطُّ، ولا علىٰ بِلادِنا، ولا علىٰ قِلَاعِنا، ولا علىٰ عَساكِرِنا؛ ولا يُحرِّكُ أحدًا آخرَ أيضًا علىٰ حَرْبِ مملكتنا. وأن تكونَ الرُّسُلُ المتردّدون عن عِزِّ سلطانه أيضًا مطلقا [آمنين، لهم] أن يَعْبُروا في بلاد مَمْلكَتِي بلا مانع ولا عَائِقٍ، ويتوجَّهُوا إلىٰ حَيْثُ يَسيرون من عِزِّ سلطانه، وكذلك يعودُون إلىٰ عِزِّ سلطانه. وأن لا يحصُلَ للتُّجَّار الوَاردين من بلاد عِزِّ سلطانه [ضرر] من بلاد مَمْلكَتِي، لايَحْذَرُونَ من أحَدٍ جَوْرًا ولا ظُلْمًا، بل يكون لهم مباحًا أن يعملوا مَتَاجِرَهم. ونظيرُ هذا ـ التُّجَّارُ الواردون إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه من أهْلِ بلاد مُلْكي، يقومون بالحقِّ الواجِبِ علىٰ بضائعهم، وليَقُمْ كذلك التُّجَّار الواردون من بلاد عِزِّ سلطانه إلىٰ بلاد مُلْكي بالحقِّ الواجبِ علىٰ بضائعهم. وإن حضر من بلاد سُوداقَ تُجَّارٌ وأرادوا السَّفَرَ إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه، فلا ينالُ هؤلاء تَعْويقٌ في بلاد مُلْكي، بل في عُبُورِهم وعَوْدِهم يكونون بلا مانع ولا عَائقٍ بعد القيام بالحقِّ الواجِبِ. وهؤلاء التُّجَّارُ الذين من بلاد عِزِّ سلطانه والذين من أهْل سُوداقَ إن حضر صحبتَهم مماليكُ وتُجَّار، فليُعودُوا بهم إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه بلا عائقٍ

ولا مانع ، ماخلا إن كانوا نَصارىٰ ، لأنَّ شَرْعنا وتَرْتِيبَ مَذْهَبِنا لا يسمحُ لنا فى أمر النَّصارىٰ بهذا .

وأمَّا إن كان فى بلاد عِزِّ سلطانه ممـاليكُ نصارىٰ : رُومٌ وغيرُهم من أجنـاس النَّصارىٰ ، متمسِّكون بدِينِ النصارىٰ ، ويحصلُ لقومٍ منهم العِتْقُ ، فلْيكُنْ للذين معهم عَتَائق مباح ومطلق من عِزِّ سلطانه ، أن يَفِدُوا فى البَحْرِ إلىٰ بلاد مَمْلكَتِي . وكذلك إن أراد أحدٌ من أهل بلاد عِزِّ سُلْطانِه أن يبيعَ مملوكًا نَصْرانيًّا هـذه صورَتُه لأحَدٍ من رُسُـل مملكتى ، أو لتُجَّار وأُناس بلادِ مملكتى ، أن لا يجدَ فى هذا تَعْويقًا ، بل يَشْـتروا المذكورَ ويَفِدُوا به فى البَحْرِ إلىٰ بلاد مملكتى بلا عَائِقٍ . وأيضًا إن أراد هـذا السلطانُ العَظِيم النَّسيبُ ، أن يُرْسِـلَ إلىٰ بلاد مُلْكى بضائع مَتْجَرا ، وأرادتْ مملكَتِي أن تُرسِلَ إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه بضائع مَتْجَرا ، فليكُنْ هكذا : وهو إن أراد عِزُّ سـلطانه أن تكونَ بضائع مَتَاجِرِهِ فى بلاد مُلْكِي مُنَجَّاة من القيام بكلِّ الحقوق ، فلتكُنْ أيضـا بَضَائِـعُ متاجر مَمْلكَتِي فى بلاد عِزِّ سـلطانه مُنَجَّاةً مِثْل ذلك من كلِّ الحقوق ، وإن أراد أن تَقُومَ مَتاجِرُ مُلْكِي فى بلاده بالحُقوق الواجبـةِ [يَقُومُ] بمثلِ ذلك . وأيضًا أن يُطْلِقَ عِزُّ سلطانِه لمُلْكِي أن يُرسلَ أناسًا من بلاد مَمْلكَتِي إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه ، فيشترون لى خَيْلًا جيـادًا ويحمِلُونها إلىٰ بلاد مُلْكِي . وكذلك إن أراد عِزُّ سُلطانِه شَيْئًا من خيرات بِلادِ مُلْكى ، فَمَلكَتِي أيضا تُطْلِقُ لعِزِّ سُلْطانِه أن يُرسلَ أناسَهُ ليشتروه ويَحْمِلُوه إلىٰ عِزِّ سُلطانِه .

ولـمَّـا كان فى البَحْرِ كرساليه من بلاد غَريبَـةٍ ، وقد يَتَّفِقُ فى بَعْضِ الأوقات أن يعـمَلُوا خسارةً فى بلاد مُلْكِي ، وكذلك يجدون هؤلاء الكرساليـة قومًا من بلاد عِزِّ سلطانه فيعملون لهم خَسارَة ، ثم إنَّ هؤلاءِ الكرسالية يفعلون هذا فى الآفاق فى تُخُومِ بلاد مُلْـكى . لأجْلِ هذا صار : إذا حَضَر قَوْمٌ من بلاد مَمْلكَتِي إلىٰ بلاد عِزِّ

سُلطانه بمَتْجرٍ يُمْسكُون من أهْلِ بلاد عِزِّ سُلطانه و يغرِّمون . ولهذا فلْيصِرْ مرسومٌ من عِزِّ سلطانه فى كلِّ بلاده أن أحدًا من أهـل بلادِ مَمْلكَتِى لا يغرّم بهذا السَّبَبِ ولا يُمْسك، و إن عَرض أن يقولَ أحدٌ من أهل بلاد عزِّ سلطانه : إنه غُرِّمَ أو ظُلِمَ من أهْـلِ بلاد مُلْكى فليعرّف مُلْكِى بذلك . و إذا كان الذى وضَع الغرامةَ من أهل بلادِ مُلْكى، فمُلْكِى يأمُرُ، وتعادُ تلك الخَسَارةُ إلىٰ بلاد عِزِّ سُلطانه . وكذلك إن قال أحدٌ من أهل بلادِ مَمْلكَتِى : إنه ظُلِمَ أوغُرِّم من أحَدٍ من بلادِ عِزِّ سُلطانه، يأمرُ عِزُّ سُلْطانه، وتعادُ الغَرامَةُ إلىٰ بِلادِ مُلْكِى . وأيضا إذ قد أزْمعَت المحبَّـةُ أن تَصير بهذه الصُّورة، وتكونَ الصَّداقةُ بين مَمْلكَتِى وعِزِّ سلطانه خالِصةً، حتَّى إنه أرسل يقولُ لمُلْكِى علىٰ معُونةٍ ونَجْدةِ مُلْكِى فى البَحْرِ لمَضَرَّةِ العَدُوِّ المشترك، فمَلْكَتِى تفوِّضُ هذا الأمْرَ إلى آختيـارِ عِزِّ سُلْطانه، أن يرتب فى نسخة اليمين مع بَقِيَّةِ الفصول المعيَّنَة فيه، وتأتى الصورة كيف تعين وتنجد مملكتى فى البحر . و إن كان لا يُريد نَجْدةَ ومَعُونةَ مَمْلكَتِى، فمملكَتِى تسمحُ بهذا الفَصْل أن لا يضَعه عِزُّ سلطانه فى نُسْخةِ يَمِينه، وهذه اليمينُ منا بحفظ مُلْكِى لعزِّ سلطانه ثابِتَةً غيرُ مُتَزَعْزِعة إن كان هذا السلطان العظيم يَحْلِفُ لى يمينًا بمثلها، وأنه يحفَظُ المحبَّة لمملكتنا، ثابِتةً غير مُتَزَعْزِعَة، والسَّلام .

⁂

وهذه نُسخةُ آتِّفاقٍ، كتبتْ من الأبواب السلطانية عن المَلِكِ المنصور «قلاوون» عن نظير الهـدْنة المتقدّمة، الواردة من قِبَـلِ صاحب القُسْطَنْطِينيَّةِ، مفتتحةً بيمين موافقَةٍ لها، وهى :

أقولُ وأنا فلانٌ : إنه لمـا رغِبَ حضرة المَلِكِ الجليلِ، كرميخائيل ، الدوقس، الأنجالوس، الكمنينوس، البالاولوغس، ضابطِ مَمْلكةِ الرُّوم والقُسْطَنْطِينِيَّة العُظْمىٰ،

أكبرِ ملوكِ المَسيحيَّة، أبقاه الله ــ أن يكونَ بين مَمْلكته وبين عِزِّ سُلْطانى، محبةٌ وصَدَاقةٌ ومَوَدَّةٌ لاتتغيَّر بتغيُّرِ الأيام، ولا تَزُولُ بزوال السِّنين والأعوام، وأكَّد ذلك بيَمِينٍ حَلَف عليها، تارِيخُها يومُ الخميسِ ثامنِ شهر إيار سنة ستة آلافٍ وسبعمائة وتسع وثمانين لآدَمَ، صلواتُ الله عليه، بحضورِ رَسُولِ عِزِّ سلطانى، الأميرِ ناصرِالدِّين آبن الجَزَرِىِّ، والبَطْرِكِ الجليلِ انباسيوس بَطْرَكِ الاسكندرية، وحضر رسولاه فلان وفلان إلىٰ عِزِّ سلطانى بنُسْخةِ اليمين، مُلتمِسَيْنِ أن يتوسَّطَ هذا الأمْرَ أيضًا يَمِينٌ وآتفاقٌ من عِزِّ سُلْطانى، لتَدُوم المحبَّةُ فيما بين مَمْلكتِه وعِزِّ سُلْطانى، وتكونَ ثابِتةً مستَمِرّةً على الدَّوام والآسْتِمرار.

فعِزُّ سُلطانِى من هذا اليَوْم، وهو يومُ الآثنين مُسْتَهَلَّ رمضانَ المعظمِ، سنة ثمانين وستِّمائة للهجرة النَّبوِيَّة المحمَّدِيَّة، علىٰ صاحبها أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ؛ يحلِفُ بالله العَظِيم، الرَّحمٰنِ الرَّحِيم، عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ، والسِّرِّ والعَلَانِيَةِ وما تُخْفِى الصُّدُور، وبالقُرءان العَظِيم، وبمَن أنْزله، وبمَن أُنْزِلَ عليه، وهو النَّبِيُّ الكريمُ، محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم ــ على آستمرار الصَّداقَةِ، وآستِقْرارِ المَوَدَّة النَّقِيَّة، للمَلِكِ الجليلِ كر ميخائيل، ضَابِطِ مملكَةِ الرُّومِ والقُسْطَنْطِينِيَّة العُظْمىٰ، ولوَلَدِ مملكتِه الحَبِيبِ الكمينيوس الانجالوس، الدُّوقس، البالاولوغس، الملك إيرإندروبنفوس، ولوارِثِى مملكة مُلْكه. ولا يحرّك عِزُّ سلطانِى أبدًا علىٰ مملكتِه حَرْبًا، ولا علىٰ بلادِه، ولا علىٰ قِلاعِه، ولا علىٰ عَساكِرِه: فى برٍّ ولا بَحْرٍ. ولا يحَرِّكُ عِزُّ سلطانِى أحدًا آخَرَ علىٰ حَرْبِه، بحيثُ إن المَلكَ الجليلَ كر ميخائيل يحفظُ مثلَ ذَلك لعِزِّ سُلطانِى، ولمُلْكِى، ولبِلادِى، ولقِلاعِى، ولعَساكِرِى، ولوَلَدِى السُّلطانِ المَلِكِ الصالح علاء الدين «عَلِىٍّ» ولوَارِثِى مُلْكى من أولادى؛ ويستمرُّ علىٰ هذه الصداقَة والموَدَّةِ النَّقِيَّة، ولا يُحرِّكُ مُلْكُه علىٰ عِزِّ سلطانى حَرْبًا قطُّ، ولا علىٰ

بلادى ، ولا علىٰ قِلاعى ، ولا علىٰ عَساكِرى ، ولا علىٰ مَمْلكَتِى ، ولا يحرِّكُ أحدًا آخَرعلىٰ حَرْبِ مَمْلكَةِ عِزِّ سُلْطانى فى البَرِّ ولا فى البَحْر، ولا يساعِدُ أحدًا من أضْدادِ عِزِّ سُلطانى ، ولا أعْدائِى من سائر الأديان والأجناس ، ولا يُوافِقُه علىٰ ذلك ، ولا يَفْسَحُ لهم فى العُبُورِ إلىٰ مملكة عِزِّ سلطانى لمَضَرَّة شَىْءٍ فيها بجُهْدِه وطَاقَته .

وأن الرسلَ المسَيَّرِينَ من مَمْلكَةِ عِزِّ سُلطانِى إلىٰ بَرِّ بَرَكَةَ وأوْلادِه وبِلادهم وتلك الجهات، وبَحْرِ سُوداق وبَرِّه، يكونون آمنينَ مُطمَئِنِّين مطلقًا : لهم أن يَعْبُرُوا فى بلاد مملكَةِ المَلك الجليل، كرميخائيل من أوَّلها إلىٰ آخِرها، بلا مانِعٍ ولا عائِقٍ : أُرْسِلُوا فى بَرٍّ أو بَحْرٍ، علىٰ ماتقتضيه مَصْلحةُ ذلك الوَقْتِ لمملكَةِ عِزِّ سُلطانى، آمِنين مُطمئِنِّين، غير مَمْنوعين بجميع من يَصِلُ معهم من رُسُلِ تلك الجهات وغيرها ، وكلِّ من معهم من مَماليكَ وجَوارٍ وغير ذلك . وأن لايحصُلَ للتُّجَّارِ الواردينَ من مَمْلكَةِ المَلك الجليلِ كرميخائيل إلىٰ بلاد عِزِّ سُلطانِى جَوْرٌ ولا ظُلْمٌ، ويترددون آمِنين مُطمَئِنِّين يعملون مَتاجِرَهم ، ولهم الرِّعايةُ فى الصُّدُورِ والوُرُودِ ، والمُقامِ والسَّفَرِ : بحيثُ يكونُ لتُجَّارِ مملكةِ عِزِّ سُلطانِى فى بلاد مملَكَةِ المَلك الجليل كرميخائيل مثلُ ذلك، ويكونون مَرْعِيِّين، لايجدون من أحَدٍ فى بلاد مملكة المَلك الجليل كرميخائيل جَوْرًا ولا ظُلْمًا . ومن عليه حَقٌّ واجِبٌ فى الجهتين علىٰ ما آستقرَّ عليه الحالُ، يقومُ به من غير حَيْفٍ ولا ظُلْمٍ .

وأنَّ من حضر من التُّجَّار : من سُوداقَ وغيرها بمماليكَ وجَوارٍ تُمَكِّنُهم مملكةُ المَلك الجليلِ كرميخائيل من الحضور بهم إلىٰ مَمْلكَةِ عِزِّ سلطانى ولا تَمْنَعُهم . وأن الكرسالية مَتىٰ تعرّضُوا إلىٰ أخْذ أحَدٍ من التُّجَّار المسلمين فى البَحْرِ ، ونُسِبَتْ الكرسالية إلىٰ رَعيَّةِ مملكة المَلك الجليلِ كرميخائيل، يُسَيِّرُ عِزُّ سُلطانِى إليه فى طَلَبِهم ،

ولا يتعرّض أحَدٌ من نُوَّاب مملكة عِزّ سـلطانى إلىٰ هـذا الجنس بسَببِهم، إلا أن يَتحقَّقَ أنهم آخِذُون، أو تَظْهَرَ عَيْنُ المـالِ معهم، علىٰ ما تضمَّنَتْه نُسْخةُ يمينِ المَلِك الجليلِ كر ميخائيل، ولمملكة الملِك الجليـل كر ميخائيل من بلاد عِزّ سُـلطانى مثلُ ذلك .

وعلىٰ أنَّ الرسُلَ المتردّدين من الجهتين : من مملكةِ عِزّ سُـلطانى ، ومن مملكة المَلِكِ الجليلِ كر ميخائيل، يكونون آمِنينَ مُطمَئِنِّين فى سَفَرِهم ومُقَامِهم : بَرًّا وبَحْرًا، وتكون رَعِيَّةُ بلاد عِزّ سلطانى ، ورعيةُ بلاد المَلِك الجليل كر ميخائيل، فى الجهتين من المسلمين وغيرِهم آمِنينَ مُطمَئِنِّين ، صادِرِينَ وارِدِينَ، مُحْتَرَمين مَرْعِيِّين . وهذه اليمينُ لا تزالُ مَحْفوظةً مَلْحوظةً ، مُسْتمِرَّةً مستقرّةً، على الدَّوامِ والاسْتِمْرار .

قلتُ : وهذه النُّسخةُ والنُّسخةُ الوارِدَةُ من صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة المتقدِّمة عليها، وإن عُبِّرَ عنهما فى خلالها بلَفْظِ اليمين ، فإنهما بعَقْدِ الصُّلْح أشْـبَهُ ، واليمينُ جُزْءٌ من أجْزاءِ ذلك، ولذلك أوردتُها فى عُقُودِ الصُّلْح دون الأَيْمـان .

البـاب الخـامس
من المقـالة التـاسـعة
(فى عُقُود الصُّلْح الواقعة بين مَلِكين مُسْلمين ، وفيه فصلان)

الفصـــل الأوّل
فى أُصـولٍ تُعتَمَـدُ فى ذٰلك

اعلم أنَّ الأصْـلَ فى ذلك ما ذكره أصحابُ السِّيَرِ وأهْلُ التَّـارِيخ ، أنه لمـَّا وقع الحَـرْبُ بين أمير المؤمنين عَلِيّ بن أبى طَالِبٍ كَرَّم اللهُ وجْهَـه ، وبين مُعـاوِيَةَ بن أَبى سُفْيانَ رِضىَ اللهُ عنه ، فى صِفِّينَ ، فى سنة سبع وثلاثين من الهِجْرة ــ تَوافقَا علىٰ أن يُقيما حَكَمْين بينهما ، ويَعْمَلا بمـا يتَّفِقان عليه . فأقام أميرُ المؤمنين عَلِيٌّ أبا مُوسىٰ الأشْعَرِيَّ حَكَمًا عنه ، وأقام مُعاوِيةُ عَمْرو بن العَاص حَكَماً عنه . فاتَّفق الحَكَمان علىٰ أن يُكْتبَ بينهما كِتَابٌ بعَقْدِ الصُّلح ، وآجتمعا عنـد عَلِيٍّ رضى الله عنه ، وكُتِب كِتَابُ القَضِيَّة بينهما بحَضْرتِه ، فكُتِب فيه بعد البَسْملة :

هذا ما تقاضىٰ أميرُ المؤمنين عَلِيٌّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تَمْحُ آسم أمير المؤمنين فإنى أخاف إن مَحَوْتَها أن لا ترجعَ إليك أبدا . لاتَمْحُها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبىٰ ذلك علِيٌّ مَلِيًّا من النَّهار . ثم إن الأشْعَث] (١) آبن قيس قال : أُمحِ آسم أمير المؤمنين ، فأجاب عَلِيٌّ ومحاه . ثم قال عَلِيٌّ : اللهُ أكبر ! سنةٌ بسنةٍ . واللهِ إنى لكَاتِبُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبِيَة ، فكتبتُ : محمدٌ رسولُ اللهِ ، فقالوا : لَسْتَ برسولِ اللهِ ، ولكن آكتبِ آسْمَك وآسْمَ أبيـك .

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثيرج ٣ ص ١٣٨ .

فأَمَرنى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمَحْوِه ، فقلتُ : لا أستطيع أفعل ! فقال إذَنْ أرنيه فأرَيْتُه فمحاه بيَدِه ، وقال : « إنّكَ ستُدْعَىٰ إلىٰ مِثْلِها فتُجيب » .

* * *

وهذه نُسْخَةُ كِتَابِ القَضِيَّة بين أمير المؤمنين علىٍّ وبين مُعاوِيَةَ ، فيما رواه أبو عَبْدِ الله الحُسَيْنُ بن نَصْر بن مُزاحِم المِنْقَرِىّ ، فى "كتاب صِفِّينَ والحَكَمَين" بسَنَدِه إلى محمد بن علىّ الشَّعْبىّ ، وهو :

هذا ما تقاضىٰ عليه عَلِىّ بنُ أبى طالِبٍ ، ومُعاوِيةُ بنُ أبى سُفْيانَ وشِيعَتُهما ، فيما تَرَاضَيَا من الحُكْم بِكِتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبِيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم . قَضِيَّةُ علِىٍّ علىٰ أهْلِ العِرَاقِ ومن كان من شِيعَتِه من شاهِدٍ أو غائِبٍ ، وقَضِيَّةُ مُعاوِيَةَ علىٰ أهْلِ الشَّام ومن كان من شِيعَتِه من شاهِدٍ أو غائِبٍ ، انا رَضِينا أن نَنْزِلَ عند حُكْم كِتاب اللهِ بيننا حُكْمًا فيما آختلفنا فيه من فَاتِحَتِه إلىٰ خَاتِمَته ، نُحْيِي ما أحْيَا ، ونُمِيتُ ما أمات . علىٰ ذلك تَقاضَيْنا ، وبه تَرَاضَيْنا . وانَّ علِيًّا وشِيعَتَه رَضُوا أن يبعَثُوا عبدَ اللهِ بنَ قَيْسٍ ناظِرًا ومُحاكِمًا ، ورَضِىَ مُعاوِيةُ وشِيعَتُه أن يبعثُوا عَمْرَو بنَ العاص نَاظِرًا ومُحاكِمًا ، علىٰ أنهم أخَذُوا عليهما عَهْدَ الله ومِيثَاقَه ، وأعْظَمَ ما أخَذَ اللهُ علىٰ أحَدٍ من خَلْقِه ، لَيَتَّخِذَانِ الكِتابَ إمامًا فيما بُعِثا له ، لا يَعْدُوانه إلىٰ غَيْرِه فى الحُكْمِ بما وَجَدا فيه مَسْطورًا ، وما لم يجِداه مُسَمًّى فى الكِتابِ رَدَّاه إلىٰ سُنَّةِ رسولِ اللهِ الجامعةِ ، لا يَتَعَمَّدانِ لها خِلافًا ، ولا يتَّبِعانِ فى ذلك لهما هَوًى ، ولا يدخلان فى شُبْهةٍ .

وأخَذَ عبدُ اللهِ بنُ قَيْسٍ ، وعَمْرُو بنُ العاصِ علىٰ علىٍّ ومُعاوِيَةَ عَهْدَ اللهِ ومِيثَاقَه بالرِّضا بما حَكَمَا به من كِتَابِ الله وسُنَّةِ نَبِيِّه ، ليس لهما أن ينْقُضَا ذلك تَخالُفًا إلىٰ

غَيْره ، وأنهما آمنَان فى حُكومَتِهما علىٰ دِمَائِهما وأموالِهما وأهْلِيهما ، مالم يَعْدُوَا الحقَّ ، رَضِىَ بذلك رَاضٍ أو أنْكرَ مُنكِر . وأنَّ الأمةَ أنصارٌ لهما علىٰ ما قَضَيا به من العَدْل .

فإن تُوُفِّى أحدُ الحَكَمين قبل آنقضاء الحُكُومَة ، فأميرُ شيعَتِه وأصْحابُه يختارون رَجُلًا ، لا يألُوَان عن أهْلِ المَعْدِلة والإقْساط ، علىٰ ما كان عليه صاحِبُه من العَهْد والمِيثَاق والحُكْم بكِتَاب اللهِ وسُنَّة رسولِه ، وله مثلُ شَرْطِ صَاحِبِه .

وإن مات واحدٌ من الأميرين قبل القَضَاءِ ، فلِشيعَتِه أن يُوَلُّوا مكانَه رجُلًا يرضَوْنَ عَدْلَه .

وقد وَقَعتِ القَضِيَّة بيننا والأمْنُ والتَّفاوُضُ ، ووُضِعَ السِّلاح . وعلى الحَكَمين عَهْدُ اللهِ وميثاقُه : لَيَحْكُمَان بِكِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبِيِّه ، لا يَدْخُلانِ فى شُبْهةٍ ولا يألُوَانِ آجْتِهادًا ، ولا يتَعَمَّدان جَوْرًا ، ولا يتَّبِعانِ هَوًى ، ولا يَعْدُوان ما فى كتاب اللهِ تعالىٰ وسُنَّة رَسُولِه . فإن لم يفعلا برِئَتِ الأمَّةُ من حُكْمِهما ، ولا عَهْدَ لهما ولا ذِمَّةَ . وقد وجبتِ القَضِيَّة علىٰ ما سَمَّينا فى هذا الكِتَابِ من مَوْقِعِ الشَّرْط على الأميرينِ والحَكَمينِ والفريقَينِ ، واللهُ أقربُ شَهيدا وأدْنَى حَفيظا ، والناسُ آمِنُونَ علىٰ أنْفُسِهم وأهْلِيهِمْ وأمْوالِهِمْ إلى آنقضاء مُدَّةِ الأجَلِ ؛ والسِّلاحُ مَوْضُوعٌ ، والسَّبيلُ مُخَلًّى ، والشاهِدُ والغائبُ من الفريقَيْنِ سَوَاءٌ فى الأمْرِ . وللحَكَمين أن يَنْزِلَا مَنْزِلًا عَدْلًا بين أهْلِ العِرَاق وأهْلِ الشَّام ، ولا يَحْضُرُهما فيه إلا من أَحَبَّا عن مَلَإٍ(١) منهما وتَرَاضٍ . وأجَّلَ القاضِيَيْنِ المسلمون إلىٰ رَمَضان : فإن رأى الحَكَمان تَعْجِيلَ الحُكُومة فيما وُجِّها له ، عَجَّلَا . وإن أرادا تأخيرَه بعد رَمَضانَ إلىٰ آنقضاء المَوْسِم ، فإن ذٰلك إليهما . فان هما لم يَحْكُمَا بِكِتَابِ اللهِ وسُنَّة نَبِيِّه إلىٰ آنْقضاءِ المَوْسِم ، فالمسلمون علىٰ

(١) أى تشاور واجتماع .

أَمْرِهِم الأوّلِ فى الحَرْبِ، ولا شَرْط بين واحِدٍ من الفَرِيقَيْنِ . وعلى الأُمَّةِ عَهْدُ اللهِ وميثَاقُهُ على التمـام علىٰ ما فى هذا الكِتَابِ . وهم يَدٌ علىٰ من أراد فى هـذا الكِتَاب إلْحَـادًا أو ظُلْمًا ، أو أراد له نَقْضًا .

شَهِدَ علىٰ ما فى هـذا الكتاب من أصحاب عَلِيٍّ : الأشْعَثُ بن قَيْسٍ ، وعَبْدُ اللهِ ٱبن عَبَّاسٍ ، والأَشْتَرُ بن الحٰرِث، وسَعِيدُ بن قَيْسٍ الهَمْدَانِيُّ ، والحُصَيْنُ والطُّفَيْل ٱبنا الحٰرِثِ بن المُطَّلِب ، وأبو أَسـيد بن رَبِيعَةَ الأنْصارِيُّ ، وخَبَّابُ بن الأَرَتِّ ، وسَهْلُ بن حُنَيف الأنصارِيُّ ، وأبو اليَسَرِ بن عمرو الأنصارِيُّ ، ورِفَاعَةُ بن رافِع ٱبن مَالِك الأنْصارِيُّ ، وعَوْفُ بن الحٰرِث بن المُطَّلب القُرَشِيُّ ، وبُرَيْدَةُ الأَسْلَمِيُّ ، وعُقْبَةُ بن عَامِرٍ الجُهَنِيُّ، ورَافِعُ بن خَدِيج الأنصارِيُّ ، وعَمْرو بن الحَمِق الخُزَاعِيُّ ، والحَسَنُ والحُسَينُ ٱبنـا عَلِيٍّ ، وعبـدُ اللهِ بن جَعْفرٍ الهَـاشِمِيُّ ، واليَعْمَرُ بن عَجْلانَ الأنْصارِيُّ، وحُجْرُ بن عَدِيٍّ الكِنْدِيُّ، ووَرْقاءُ بن سُمَيٍّ البَجَلِيُّ، وعبدُالله بنُ الطُّفَيْل الأنْصارىُّ، ويَزِيدُ بن حجية الدكرىّ (١) ، ومَالِكُ بن كَعْب الهَمْدَانِيُّ ، ورَبِيعةُ بن شُرَحْبِيلَ، وأبو صُفْرةَ، والحارِثُ بنُ مالِكٍ، وحُجْرُ بن يزيد، وعقبة بن حجبةَ .

ومن أصحاب مُعاوِيَةَ : حَبِيبُ بنُ مَسْلَمة الفِهْرِيُّ (٢)، و[أبو] الأعْورِ السُّلَمِيُّ، وبُسْرُ ٱبن أَرْطاة القُرَشِيُّ ، ومعاوِيةُ بن حُدَيج الكِنْدِيُّ ، والمُخَارِقُ بنُ الحٰرِث الحِمْيَرِيُّ، وزُمَيْل بنُ عمرو السَّكْسَكِيُّ، وعبدُ الرحمن بن خالِدِ بنِ الوليد المَخْزُومىُّ، وحَمْزَةُ بن مالك الهَمْدَانِيُّ، وسبع بن زيد الحميرىُّ (٣)، وعبدُ الله بن عمرو بن العَاص، وعلقمةُ بن مَرْثَد

(١) فى الكامل لابن الأثير "ابن حجية التيمى" .

(٢) فى خلاصة أسماء الرجال : الفهرى .

(٣) فى الكامل : "سبيع بن يزيد الأنصارى" .

الكَلْبِيّ، وخالد بن الحُصَيْن السَّكْسَكِيُّ، وعلقمةُ بن يزيد الحَضْرمِيّ، ويَزِيدُ بن الحرّ العَبْسِيُّ، ومَسْروق بن حملة العكيّ، ونُمَيْرُ بن يَزِيدَ الحِمْيَرِيُّ، وعبدُ الله بن عامر القُرَشِيُّ، ومَرْوانُ بن الحَكَم، والوَلِيدُ بن عُقْبة القُرشِيُّ، وعقبةُ بن أبي سُفْيانَ، ومحمدُ بن أبي سُفْيانَ، ومحمدُ بن عَمرو بن العَاص، ويزيدُ بن عمرو الجُذَامِيُّ، وعَمَّارُ ابن الأخوص الكَلْبِيّ، ومَسْعَدَةُ بن عمر القَيْنِيّ، وعاصم بن المستنير الجُذَامِيّ، وعبدُ الرحمن بن ذِي كَلَاعٍ الحِمْيَرِيُّ، والصباح بن جلهمة الحِمْيَرِيُّ، وثُمَامَةُ بن حَوْشَب، وعَلْقمةُ بن حكيم، وحمزةُ بن مالك.

وإنَّ بيننا علىٰ ما فى هذه الصَّحِيفَةِ عَهْدَ الله وميثاقَه. وكَتبَ عُمَيْر يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلةً بقِيتْ من صفر سنة سَبْعٍ وثلاثين.

وأخرج أيضا بسَنَده إلىٰ أبي إسحق الشَّيبانيّ أن عَقْدَ الصُّلْح كان عند سَعِيد ابن أبي بُرْدَةَ فى صحيفةٍ صَفْراءَ عليها خاتَمانِ: خاتَمٌ فى أسْفَلِها، وخاتَمٌ فى أعلاها. فى خاتَمِ عَلِيٍّ «محمدٌ رسولُ الله» وفى خاتَمِ مُعاوِيةَ «محمدٌ رسولُ الله».

قلتُ: وذكر روايات أخرىٰ فيها زيادةٌ ونَقْصٌ أضربْنا عن ذكْرِها خَوْفَ الإطالة، إذ فيما ذَكَرْنا مَقْنعٌ. علىٰ أن المؤرِّخينَ لم يَذْكروا من ذلك إلا طَرَفًا يَسِيرًا.

الفصـــل الثـانى

من البـاب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرتْ العادةُ بكِتَابته بين الخُلَفاء ومُلوكِ المسلمين على تعاقُب الدول، ممّـا يُكْتبُ فى الطُّرَّةِ والمَتْنِ)

أما الطُّرَّة : فليُعلَمْ أنَّ الذى ينبغى أن يُكْتب فى الطُّرَّة هنا : «هذا عقدُ صُلْحٍ» ويكمل علىٰ ما تقدّم فى الهُـدْنةِ . ولا يكتبُ فيه : « هذه هُدنةٌ » لمـا يسبق إلى الأذهان من أن المرادَ من الهُدْنةِ ما يجرى بين المسلمين والكُفَّار .

وأما المَتْنُ فعلىٰ نَوْعين :

النـــوع الأول

(ما يكون العَقْدُ فيـه مـن الجـانبَين)

ولم أَرَ فيه للكُتَّابِ إلا الاستفتاحَ بلَفْظ : «هذا» . وعليه كُتِب كِتابُ القَضِيَّة بين أمير المؤمنين عَلِيِّ بن أبى طالبٍ كَرَّم الله وَجْهَه ، وبين مُعاوِيةَ بن أبى سُـفْيانَ رضى الله عنه، علىٰ ما تقدّم ذكره .

وعلىٰ ذٰلك استكْتبَ هٰرُونُ الرَّشيدُ ولَدَيْه : محمدا الأمِينَ ، وعبدَ الله المَأْمونَ : العَهْدَيْنِ اللَّذيْنِ عَهِدَ فيهما بالخلافة بعده لابنه الأمِينِ ، ووَلَّى خُراسَانَ ابْنَه المَأْمونَ، ثم عَهِدَ بالخلافة من بعد الأمين للمَأْمُون، وأشْهدَ فيهما ، وبعثَ بهما إلىٰ مَكَّةَ فعُلِّقا فى بَطْنِ الكَعْبة، فى جُمْلةِ المعَلَّقاتِ التى كانت تُعَلَّق فيها، على عادة العَرَبِ السَّابِقة : من تَعْليقِ القَصَائِد ونَحْوِها . وبذٰلك سُمِّيتِ القصائِدُ السبْعُ المشهورةُ : بالمعلَّقَاتِ، لتعليقهم إيَّاها فى جَوْف الكَعْبة .

أما عَهْدُ الأمينِ، فنُسْخَتُه بعد البَسْملة ـ على ما ذكره الأَزْرَقِيُّ فى أخبار مكّةَ ـ ما صُـورَتُه :

هذا كِتَابٌ لِعَبْدِ الله هٰرُونَ أميرِ المؤمنين، كتبه [له] محمدُ آبنُ أميرِ المؤمنين فى صِحّةٍ من بَدَنِه وعَقْلِه، وجَوازٍ من أمْرِه، طائِعًا غيرَ مُكْرَهٍ.

إنَّ أميرَ المؤمنين هٰرونَ وَلّانِى العَهْدَ من بعده، وجعلَ لى البَيْعَةَ فى رِقَابِ المسلمين جميعًا، وولَّى أخى عَبدَ الله بنَ أميرِ المؤمنين هٰرونَ العَهْدَ والخلافةَ وجميعَ أُمورِ المسلمين من بَعْـدِى، بِرِضًا منِّى وتَسْـلِيمٍ، طائِعًـا غيرَ مُكْرَهٍ. وولّاه خُراسَانَ بثُغُورها، وكُوَرِها، وجُنُودها، وخَراجِها، وطِرازِها، وبَرِيدها، وبُيُوتِ أموالِهـا، وصَدَقاتِها، وعُشْرِها وعُشُورِها، وجميعِ أعمالِهـا، فى حَيَاتِه وبعد وَفاتِه. فشَرَطْتُ لعبد الله آبنِ أميرِ المؤمنين عَلَىَّ الوَفَاءَ بمـا جعله له أميرُ المؤمنين هٰرونُ: من البَيْعَةِ والعَهْدِ، ووِلَايةِ الخِـلافَةِ وأُمورِ المسلمين بَعْدِى، وتَسْليمِ ذلك له، وما جعـلَ له من وِلَايةِ خُراسانَ وأعْمالِها، وما أقطعَه أميرُ المؤمنين هٰرونُ من قَطِيعةٍ، وجعل له من عُقْدَةٍ أو ضَيْعَةٍ من ضِياعه وعُقَدِه، أو آبْتاعَ له من الضِّياعِ والعُقَدِ. وما أعطاه فى حَيَاتِه وصِحّتِه: من مالٍ، أو حُلِيٍّ، أو جَوْهَرٍ، أو مَتَاعٍ، أو كُسْوَةٍ، أو رَقِيقٍ، أو مَنْزِلٍ، أو دَوَابَّ، قليلًا، أو كثيرًا، فهو لعبد الله آبنِ أميرِ المؤمنين مُوَفَّرًا عليه، مُسَلَّمًا له. وقد عرفتُ ذلك كُلَّه شيئًا فشيئًا بآسْمِه وأصْنافِه ومَواضِعِه، أنا وعبدُ الله آبن هٰرونَ أميرِ المؤمنين. فإن آختلَفْنا فى شَىْءٍ منه فالقولُ فيه قولُ عبدِ الله بنِ هٰرونَ أميرِ المؤمنين، لا أتْبَعُه بشَىْءٍ من ذلك، ولا آخُذُه منـه، ولا أنتقِصُه، صغيرًا ولا كبيرًا [من ماله] ولا من وِلايةِ خُراسانَ ولا غَيرِها ممـا وَلّاه أميرُ المؤمنـين من الأعمال، ولا أَعْزِلُه عن شَىْءٍ منها، ولا أخْلَعُه، ولا أستَبْدِلُ به غيرَه، ولا أُقَدِّم عليه

فى العَهْدِ والخِلافَةِ أحدًا من الناسِ جميعًا، ولا أُدْخِلُ عليه مَكْرُوهًا فى نَفْسِه ولا دَمِه، ولا شَعْرِه ولا بَشَرِه، ولا خَاصٍّ ولا عامٍّ من أموره ووِلايَتِه، ولا أَمْوالِه، ولا قَطَائِعه، ولا عُقَدِه؛ ولا أُغَيِّرُ عليه شيئًا لسببٍ من الأَسْباب، ولا آخُذُهُ ولا أحدًا من عُمَّاله وكُتَّابِه وَوُلاةِ أَمْرِه ـ ممن صَحِبَه وأقام معه ـ بمُحاسَبَةٍ، ولا أَتَتَبَّعُ شيئًا جرىٰ علىٰ يَدَيه وأيديهم فى وِلايَةِ خُراسانَ وأعمالِها وغيرها مما ولاه أميرُ المؤمنين فى حَياتِه وصِحَّتِه: من الجِبَايَةِ، والأَمْوالِ، والطِّرازِ، والبَرِيد، والصَّدَقاتِ، والعُشْر والعُشُور، وغيرِ ذلك؛ ولا آمُرُ بذلك أحدًا من الناس، ولا أُرَخِّصُ فيه لغَيْرى، ولا أُحَدِّثُ نَفْسى فيه بشىءٍ أُمْضيهِ عليه، ولا أَلْتَمِسُ قَطِيعةً له، ولا أَنقُصُ شيئًا مما جعله له هٰرونُ أميرُ المؤمنين وأعطاه فى حَياتِه وخِلافَتِه وسُلْطانِه من جميع ما سَمَّيْتُ فى كِتَابِى هذا. وآخُذُ له عَلَيَّ وعلىٰ جميع الناس البَيْعَةَ، ولا أُرَخِّصُ لأحَدٍ ـ من جميع الناس كُلِّهم فى جميع ما وَلَّاه ـ فى خَلْعِه ولا مُخالَفَتِه، ولا أَسْمَعُ من أحدٍ من البَرِيَّة فى ذلك قَوْلًا، ولا أَرْضَىٰ بذلك فى سِرٍّ ولا عَلانِيَةٍ، ولا أُغْمِضُ عليه، ولا أتغافَلُ عنه، ولا أَقبَلُ من بَرٍّ من العِبَاد ولا فَاجِرٍ، ولا صادِقٍ ولا كاذِبٍ، ولا ناصِحٍ ولا غاشٍّ، ولا قَرِيبٍ ولا بَعِيدٍ، ولا أحدٍ من وَلَدِ آدمَ عليه السلام: من ذَكَرٍ ولا أُنْثَىٰ ـ مَشُورَةً، ولا حِيلَةً، ولا مَكِيدةً فى شىءٍ من الأمور: سِرِّها وعَلانِيَتِها، وحَقِّها وباطِلِها، وظاهِرِها وباطِنِها، ولا سَبَبٍ من الأسبابِ، أُرِيدُ بذلك إفْسادَ شَىْءٍ مما أعطيتُ عبدَ الله بنَ هٰرُونَ أميرِ المؤمنين من نَفْسِى، وأوجبْتُ له عَلَيَّ، وشرطتُ وسَمَّيتُ فى كِتَابِى هذا.

وإن أراد به أحدٌ من الناس أجمعين سُوءًا أو مَكْرُوهًا، أو أراد خَلْعَه أو مُحارَبَتَه، أو الوُصُولَ إلىٰ نَفْسِه ودَمِه، أو حُرَمِه، أو مَالِه، أو سُلْطانِه أو وِلَايَتِه: جميعًا أو فُرادَىٰ، مُسِرِّينَ أو مُظْهِرين له ـ فإنِّى أَنْصُرُه وأَحُوطُه، وأَدْفَعُ عنه، كما أَدْفَعُ عن نَفْسِى، ومُهْجَتِى، ودَمِى، وشَعْرِى، وبَشَرِى، وحُرَمِى، وسُلْطانِى؛ وأُجَهِّزُ الجُنودَ

إليه ، وأُعينُه علىٰ كلِّ من غَشَّه وخَالَفَه ، ولا أَسْلِمه [ولا أخذله] ولا أَتَخَلَّىٰ عنه ، ويكونُ أَمْرى وأَمْرُه فى ذلك وَاحِدًا [أبدا] ما كُنْتُ حيًّا .

وإن حدث بأمير المؤمنين هٰرون حَدَثُ المَوْتِ، وأنا وعبدُالله آبنُ أميرِ المؤمنين بِحَضْرة أمير المؤمنين، أو أَحَدُنا، أو كُنَّا غائِبَيْنِ عنه جميعًا : مجتمعَيْن كُنَّا أو مُتَفَرِّقَيْنِ، وليس عبـدُ الله بنُ هٰرونَ أميرِ المؤمنـين فى وِلايَتِه بخُراسَانَ [فَعَـلَىَّ لعَبْدِ اللهِ آبنِ أمير المؤمنين أن أُمْضِيَه إلىٰ خُراسَانَ] وأَنْ أُسَلِّمَ له وِلاَيتَها بأعمالِها كلِّها وجُنودِها، ولا أَعُوقُه عنها، ولا أَحْبِسُه قِبَلِي ، ولا فى شيءٍ من البُلْدانِ دون خُراسانَ، وأُعَجِّلُ إشْخاصه إلىٰ خُراسَانَ وَالِيًا عليها مُفْرَدًا بهـا ، مُفَوَّضًا إليه جميعُ أعمالهـا كُلِّها ، وأُشْخِصُ معه من ضَمَّ إليـه أمير المؤمنين : من قُوَّادِه ، وجُنُودِه ، وأصْحابِه ، وكُتَّابِه ، وعُمَّـالِه ، ومَوَالِيه، وخَدَمِه، ومن تَبِعَه من صُنُوفِ الناس بأهليهم وأموالِهِمْ؛ ولا أَحْبِسُ عنه أحدًا، ولا أُشركُ معه فى شَيْءٍ منها أحدا ، ولا أُرْسِـلُ أميناً ولا كَاتِباً ولا بُنْدارا ، ولا أَضْرِبُ علىٰ يديه فى قليلٍ ولا كَثِيرٍ .

وأعْطيتُ هٰرونَ أميرَ المؤمنين وعَبْدَالله بنَ هٰرونَ علىٰ ما شرطت لهما علىٰ نَفْسى، من جميع ما سَمَّيْتُ وكتَبْتُ فى كِتَابِى هـذا ـ عَهْدَ اللهِ وميثاقَه، وذِمَّةَ أميرِ المؤمنين وذِمَّتِي ، وذِمةَ آبائِى وذِمَمَ المؤمنين ، وأشَدَّ ما أَخَذَ اللهُ تعـالىٰ علىٰ النَّبِيِّينَ والمرسَلِين وخَلْقِـه أجمعين : من عُهُوده ومَوَاثيقه، والأَيْمـانَ المؤَكَّدَةَ التى أَمَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بالوَفَاءِ بها، ونَهىٰ عن نَقْضِها وتَبْدِيلها .

فإن أنا نقضتُ شيئًا ممـا شرطتُ لهٰرونَ أميرِ المؤمنين ولعَبْدِ الله بن هٰرونَ أميرِ المؤمنين وسَمَّيتُ فى كِتَابِى هذا ، أَو حَدَّثْتُ نَفْسِى أن أنقضَ شيئًا مِمَّـا أنا عليه،

أو غَيَّرتُ أو بَدَّلتُ، أو حُلْتُ أو غَدَرْتُ، أو قَبِلتُ [ذلك] من أحَدٍ من الناس: صَغيرًا أو كبيرًا، بَرًّا أو فاجِرًا، ذكرًا أو أُنثى، وجماعةً أو فُرادَىٰ ـ فبرِئْتُ من اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ومن وِلايَتِه، ومن دِينِه، ومن محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ولَقِيتُ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ يوم القيامة كافرًا مُشْرِكًا. وكُلُّ امْرأةٍ هي اليومَ لِي أو أتزوَّجُها إلىٰ ثلاثينَ سَنَةً طالِقٌ ثلاثًا، البَتَّةَ، طَلاقَ الحَرَجِ، وعلَيَّ المَشْيُ إلىٰ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ ثلاثينَ حَجَّةً: نَذْرًا واجِبًا لله تعالىٰ فى عُنُقِي، حافِيًا راجِلًا، لا يقبلُ الله مِنِّي إلا الوَفاءَ بذلك. وكُلُّ مال هو لى اليَوْمَ، أو أَمْلِكُه إلىٰ ثلاثينَ سنةً هَدْيٌ بالِغُ الكَعْبَةِ الحرامِ. وكلُّ مَمْلوكٍ هُو لِي اليومَ، أو أَمْلِكُه إلىٰ ثلاثينَ سَنَةً أحْرارٌ لوَجْه اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

وكُلُّ ماجعلتُ لأميرِ المُؤْمنينَ ولعَبْدِاللهِ بنِ هٰرونَ أميرِالمؤمنين، وكَتبتُه وشرطتُه لهما، وحَلَفْتُ عليه، وسَمَّيتُ فى كِتَابِى هذا لازِمٌ لى الوَفَاءُ به، لا أُضْمِرُ غيرَه، ولا أَنْوِى إلَّا إيَّاه. فإن أضمرتُ أو نَوَيْتُ غيرَه فهذه العُقُودُ والمواثِيقُ والأَيْمانُ كُلُّها لازِمَةٌ لى، واجِبَةٌ علَيَّ. وقُوّادُ أميرِ المؤمنين وجُنُودُه وأَهْلُ الآفَاقِ والأَمْصارِ فى حِلٍّ من خَلْعِي وإخراجِي من وِلَايَتِي عليهم، حتَّىٰ أكُونَ سُوقَةً من السُّوق، وكَرَجُلٍ من عَرَضِ المُسْلِمين، لاحَقَّ لى عليهم، ولا وِلَايَةَ، ولا تَبِعةَ لى قِبَلَهم، ولا بَيْعَةَ لى فى أعناقهم، وهم فى حِلٍّ من الأيْمانِ التى أعْطَوْنِى، بَرَاءٌ من تبِعَتِها ووِزْرِها فى الدُّنْيا والآخرةَ.

شَهِدَ سُليمانُ بنُ أميرِ المؤمنين المَنْصُورِ، وعيسَى بنُ جَعْفَر، وجَعْفَر بن جَعْفَر، وعبدُ الله بنُ المَهْدِيّ، وجَعْفَرَ بن مُوسىٰ أميرِ المؤمنين، وإسْحٰقُ بن مُوسىٰ أميرِ المؤمنين، وإسْحٰقُ بنُ عيسى بن عليٍّ، وأحمدُ بن إسماعِيلَ بن عليٍّ، وسُليمانُ بن

جَعْفر بن سُلَيمانَ، وعِيسى بنُ صالح بن عليٍّ، ودَاوُدُ بن عيسى بن مُوسَى، ويَحْيي آبنُ عيسى بن مُوسَى، وداودُ بن سُلَيمان بن جَعْفر، وخُزَيمةُ بن حَازِم، وهَرْثَمةُ بن أَعْيَنَ، ويحيي بنُ خالدٍ، والفَضْلُ بنُ يحيي، وجَعْفَرُ بن يحيي، والفَضْلُ بنُ الرَّبيع مولى أمير المؤمنين، والقاسِمُ بن الرَّبيع مَوْلى أمير المؤمنين، ودماثة بن عَبْدِ العزيز العَبْسيّ، وسُلَيمانُ بن عبد الله بن الأصَمّ، والربيعُ بنُ عبدِ اللهِ الحَارثيّ، وعبدُ الرحمٰن آبنُ أبي الشِّمْرِ الغَسَّانيُّ، ومحمدُ بن عبد الرحمٰنِ قاضي مكَّة، وعبدُ الكَريم بن شُعَيْبٍ الحَجَبيُّ، وإبراهيمُ بنُ عبد الله الحَجَبيُّ، وعبدُ الله بن شُعَيْبٍ الحَجَبيُّ، ومحمدُ بن عبد الله آبن عثمانَ الحَجَبيُّ، وإبراهيمُ بن عبد الرحمٰنِ بن نَبيهٍ الحَجَبيُّ، وعبدُ الواحدِ بنُ عبدِ اللهِ الحَجَبيُّ، وإسماعيلُ بن عبدِ الرحمٰن بن نَبيهٍ الحَجَبيُّ، وأبانٌ مولى أمير المؤمنين، ومحمدُ آبن منصور، وإسماعيلُ بن صبيح، والحارثُ مَوْلَى أمير المؤمنين، وخالدٌ مَوْلَى أميرِ المؤمنين.

وكُتِبَ في ذي الحجة سنة ستٍّ وثمانين ومائةٍ.

*
* *

وأما ما كتبه المأْمُونُ، فنصُّه بعد البَسْمَلة:

هذا كِتابٌ لعَبْدِاللهِ هٰرُونَ أميرِالمؤمنين، كتبه له عبدُاللهِ بنُ هٰرُون أميرِالمؤمنين، في صِحَّةٍ من عَقْلِه، وجَوازٍ من أمْرِه، وصِدْقِ نِيَّةٍ فيما كَتَبَ من كِتابِه، ومَعْرفَة ما فيه من الفَضْلِ والصَّلاح له ولأَهْلِ بَيْتِه ولجماعةِ المسلمين.

إنَّ أميرَ المؤمنينَ هٰرُونَ ولَّاني العَهْدَ والخِلافَةَ وجميعَ أُمُورِ المسلمين في سُلْطانه بعدَ أخي محمدِ بن هٰرُون أميرِ المؤمنين، وولَّاني في حَياته وبعده خُراسانَ وكُوَرَها، وجميعَ أعمالها: من الصَّدَقاتِ والعُشْرِ والبَريدِ والطِّرازِ وغيرِ ذلك. وآشترط لي على

محمدَ ٱبنِ أميرِ المؤمنـين الوَفَاءَ بمـا عقَدَ لى من الخلافة والوِلَايةِ للعبادِ والبلاد بعدَه، وولايتى خُرَاسَانَ وجميعَ أعمالها، ولا يَعرِضُ لى فى شَىْءٍ ممَّـا أقطعنى أميرُ المؤمنين، أو ٱبتاع لى من الضِّيَاع والعُقَدِ والدُّور والرِّبَاع، أو ٱبتعْتُ منه [لنفسى] من ذلك، وما أعطانى أميرُ المؤمنين هٰرُونُ من الأموالِ والجوْهرِ والكُسَا والمَتَـاعِ والدَّوَابِّ فى سَبَب مُحاسَنَته [لأصحابى]، ولا يَتتبَّعُ لى فى ذلك ولا لأحَدٍ منهم أثرًا، ولا يُدْخِلُ عَلَىَّ ولا علىٰ أحَدٍ ممَّن كان مَعِى ومِنِّى، ولا عُمَّالِى ولا كُتَّابِى، ومن ٱستعنتُ به من جميع النّاس ـــ مَكْرُوهًا: فى دَمٍ، ولا نَفْس، ولا شَعَرٍ، ولا بَشَرٍ، ولا مَالٍ، ولا صَغِيرٍ، ولا كَبِيرٍ.

فأجابه إلىٰ ذلك وأقرَّ به، وكتب له به كتَابًا كتبه علىٰ نَفْسِه ورَضِىَ به أميرُالمؤمنين [هٰرُون وقَبِلَهُ وعَرَف صِدْقَ نيَّتِـه. فشَرَطتُ لعبـد الله هٰرُونَ أمير المؤمنـين] وجعلتُ له على نَفْسِى أن أسمعَ لمحمد ٱبن أمير المؤمنين وأُطِيعَه ولا أعْصِيه، وأنْصَحَه ولا أغُشَّـه، وأُوَفِّى ببيْعَتِه ووِلايَتِـه، ولا أغْدِر ولا أنْكُث، وأُنَفِّذَ كُتُبَه وأُمُورَه، وأُحْسِنَ مُؤَازَرَته ومُكانَفَتَه، وأجاهِدَ عَدُوَّه فى ناحيتى بأحْسنِ جِهادٍ ما وَفىٰ لى بمـا شَرَط لى ولعَبْدِ الله هٰرُونَ أميرِ المؤمنين، وسَمَّاه فى الكِتَاب الذى كتبه لأميرالمؤمنين ورَضِىَ به اميرُ المؤمنين، ولم ينقصْ شيئًا من ذلك، ولم ينقُضْ أمرًا من الأمور التى ٱشترطها لى عليه هٰرُونُ أميرُ المؤمنين.

وإن ٱحتـاج محمدُ بنُ هٰرُونَ أميرِ المؤمنين إلى جُنْـدٍ وكتب لى يأمُرنى بإشْخاصِهم إليه، أو إلىٰ ناحيةٍ من النَّواحِى، أو إلىٰ عَدُوٍّ من أعْدائه خالَفَه أو أراد نَقْصَ شَىْءٍ من سُلْطانه وسُلْطانِى الذى أسـنده هٰرُونُ أمير المؤمنين إلينا وولَّاناه ـــ أن أُنَفِّذَ أمْرَه ولا أُخَالِفه، ولا أقصِّر فى شَىْءٍ كتب به إلىّ.

وإن أراد محمدُ بنُ أميرِ المؤمنين هٰرُونَ أن يُوَلِّى رجُلًا من وَلَدِه العَهْدَ والخلافةَ من بَعْدِى، فذلك له ما وَفَّىٰ لى بما جعل لى أميرُ المؤمنين هٰرُونُ، وٱشترط لى عليه، وشَرطه علىٰ نَفْسِـه فى أمرِى، وعلىَّ إنْفاذُ ذلك والوَفَاءُ له بذلك، ولا أَنْقُضُ ذلك ولا أُغَيِّرُه، ولا أُبَدِّلُه، ولا أقدّم [قبله] أحدًا من وَلَدِى، ولا قَرِيبًا ولا بعيـدًا من الناس أجمعين، إلا أن يُوَلِّى هٰرُونُ أميرُ المؤمنين أحدًا من وَلَدِه العَهْدَ من بعدى، فيلزمُنِى الوَفاءُ بذلك.

وجعلْتُ لأميرِالمؤمنين ومحمدِ بنِ أميرِ المؤمنين علىّ الوَفاءَ بمـا ٱشترطتُ وسَمَّيْتُ فى كتَابِى هـذا، ما وَفَّى لى محمدُ بنُ أميرِ المؤمنين هٰرُونَ بجميع ما ٱشترطَ لى هٰرُونُ أميرُ المؤمنين عليـه فى نَفْسِى، وما أَعْطانِى أميرُ المؤمنين هٰرُونُ من جميع الأشـياء المسمَّاةِ فى الكتَاب الذى كتبه له. [وعلَىَّ] عهدُالله تعالىٰ وميثاقُه، وذِمَّةُ أميرِالمؤمنين، وذِمَّتِى، وذِمَّةُ آبائى، وذِمَمُ المُؤْمنين، وأشَـدُّ ما أخذَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ على النبيـين والمُرْسلين من خَلْقه أجمعين من عُهُوده ومَوَاثِيقهِ، والأَيْمَـانِ المُؤَكَّدةِ التى أمر الله عَزَّ وجَلَّ بالوَفاءِ بها.

فإنْ أنا نَقَضتُ شيئًا مما ٱشترطتُ وسَمَّيتُ فى كِتَابِى هذا له، أو غَيَّرتُ، أو بَدَّلْتُ، أو نَكَثْتُ، أو غَدَرتُ ـ فبَرِئْتُ مِن الله عَزَّ وجَلَّ ومن وِلايَتِـهِ ومن دِينِه، ومن محمدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وسـلم؛ ولَقِيتُ اللهَ سبحانه وتعـالىٰ يومَ القِيامَةِ كافرًا مُشْرِكًا. وكلُّ ٱمْرأةٍ لى اليومَ أو أتزوّجُها إلىٰ ثلاثين سنةً طالِقٌ ثلاثًا البَتَّة [طَلاقَ] الحَرَجِ. وكلُّ مَمْلُوكٍ لى اليوم أو أَمْلِكُه إلىٰ ثلاثين سنةً أحْرَارٌ لوَجْهِ الله تعالىٰ. وعلىَّ المَشْىُ إلىٰ بَيْت الله الحَرَامِ الذى بمكَّةَ ثلاثين حَجَّـةً، نَذْرًا واجِبًا علىَّ وفى عُنُقِى،

حَافيًا رَاجِلًا ، لا يقبَلُ اللهُ منّى إلا الوفَاء به ، وكلُّ مال هو لى اليومَ أو أَملِكه إلىٰ ثَلاثِين سَنَةً هَدْىٌ بَالِغُ الكَعْبةِ . وكل ماجعلت لعبد الله هٰرُونَ أميرِ المؤمنين أو شرطتُ فى كِتَابِى هذا لازِمٌ لى، لا أُضْمِرِ غيره ولا أنْوِى سِوَاهُ .

شَهِدَ فلانٌ وفلانٌ، بأسماء الشهود المقدّم ذِكْرُهم فى كتَاب الأَمِينِ المبتدإِ بذِكرِه .

قال الأزرقىُّ : ولم يَزَلْ هـذانِ الشرطانِ مَعلقَيْنِ فى جَوْفِ الكَعْبـةِ حتَّىٰ مات هٰرُونُ الرَّشيدُ، وبعد ما مات بسنتين فى خِلافَةِ الأمين . فكَلَّم الفَضْـلُ بنُ الربيع محمدَ بن عبد الله الحَجَبىَّ فى إتْيانه بهما، فنزعهما من الكَعْبةِ وذهب بهما إلى بَغْداد ، فأخذهما الفَضْل فخَـرَّقَهما وحَرَّقَهُما بالنَّار .

قلتُ : وعلىٰ نَحْوٍ من ذلك كتبَ أبُو إسحاق الصَّـابِى مُواصَفَةً بالصُّلْح بين شَرَف الدَّوْلة وزَيْنِ المِلَّة أبِى الفَوَارِس، وصَمْصامِ الدَّوْلة وشَمْسِ المِلَّة أبى كَالِيجَارَ، ٱبْنَىْ عَضُدِ الدَّوْلة بن رُكْنِ الدَّولة بن بُوَيه، فى النِّصف من صَفَر سنة سِتٍّ وسبعين وثلثمائة .

ونَصُّها بعد البَسْمَلةِ الشَّريفة :

هذا ما ٱتّفق وٱصْطلَح وتَعَاهَد وتعاقَدَ عليه شَرَفُ الدَّوْلة وزَيْنُ المِلَّة أبُوالفوَارِس، وصَمْصامُ الدَّوْلَة أبو كَالِيجَارَ ٱبْنا عَضُـدِ الدَّوْلة وتَاجِ المِلَّة أبى شُجَاعِ بنِ رُكْنِ الدَّولةِ أَبِى عَلِىٍّ، مَوْلَيَـا أميرِ المؤمنين الطائـعِ لله ـ أطال اللهُ بَقاءَه، وأدام عِزَّه وتأْيِيدَه، ونَصْرَه وعُلُوَّه وإِذْنَه .

إتَّفقا وتَصالَحَا، وتعاهَدَا وتعاقَدَا، علىٰ تَقْوَى اللهِ تعالىٰ وإيثارِ طاعَتِه، والٱعْتصامِ بحَبْله وقُوَّته ، والٱلْتجاءِ إلىٰ حُسْنِ تَوْفيقه ومَعُونَته ، والإقْرارِ بٱنْفرادِه ووَحْدانيَّته؛ لاشَريكَ له ولا مِثْل، ولا ضِدّ ولا نِدّ؛ والصلاةِ علىٰ محمدٍ رسولِه صلَّى الله عليه وعلىٰ

آله وسلَّم تسليما ، والطَّاعَة لأمير المؤمنين الطَّائِع لله ، والآلتزام بوثائق بَيْعَته ، وعلائق دَعْوته ، والتَّوازُر علىٰ موالاة وَليِّـه ، ومُعاداة عَدُوِّه ، وعلىٰ أن يُمْسِكا [ذات] بينهما بالسِّيَر الحَميده ، والسُّنَن الرشيده ، التى سَنَّها لهما السَّلَف الصالحُ من آبائهما وأجدادهما فى التآلُف والتَّوازُر ، والتَّعاضُد والتَّظافُر ، وتَعْظيم الأصْغرِ للأكْبر ، وإشْبالِ(١) الأكْبر على الأصغر ، والآشتراك فى النِّعَم ، والتَّفاوُض فى الحظوظ والقِسَم ، والآتِّحاد بخُلُوص الطَّوايا ، والخَفَايا ، وسلامة الخَواطِر ، وطهارة الضَّمائر ، ورَفْع ما خالف ذلك من أسْـبابِ المُنافَسَه ، وجَرائِر المضاغَنَه ، وجَوالِب النَّبْوَه ، ودَواعِي الفُرْقَه ، والإقْران لأعْداءِ الدَّوْلة ، والإرْصـادِ لهم ، والآجتماع على دَفْع كُلِّ ناجِم ، وقَمْع كُلِّ مُقـاوِم ، وإرْغامِ أنْفِ كُلِّ ضَارٍ متَجبِّر ، وإضْراعِ خَدِّ كُلِّ مُتطاوِلٍ مُسْتَكْبِر ، حتَّى يكونَ المُوالِي لأحَدِهم منْصورًا من جَماعَتِهـم ، والمُعادِى له مَقْصودًا من سائر جوانِبِهم ، فلا يجدُ المُنابِذ علىٰ أَحَدِهم مَفْزَعًا عنـد أحَدٍ من الباقين ولا آعْتِصامًا به ، ولا آلْتجاءً إليه ، لٰكنْ يكونُ مَرْمِيًّا بجميع سِهامِهم ، ومَضْروبًا بأسْيافِ نِقْمَتِهم ، ومأْخُوذًا بكُلِّيَّة بأْسِهِم وقُوَّتِهم ، ومَقْصودًا بغالِبِ نَجْدَتِهم وشِدَّتِهم ، إذْ كانت هذه الآدابُ القَويمَه ، والطَّرائِقُ السَّليمَه ، جارِيَةً للدُّوَلِ مَجْرَى الجُنَنِ الدَّافعة عنها ، والمَعاقِلِ المَـانِعة لها ، وبِمِثْلِها تَطْمَئِنُّ النعم وتَسْكُن ، كما أنَّ بأضْدادِها تَشْمَئِزُّ وتَنْفِر .

ولمـا وفَّق اللهُ تعـالىٰ شَرَفَ الدَّولةِ وزَيْنَ المِلَّة أبا الفَوارِس ، وصَمْصامَ الدَّولةِ وشَمْسَ المِلَّة أبا كَالِيجار آعْتِقادَ هذه الفَضائِل وإيثارَها ، والتَّظاهُرَ بها وآسْتِشْعارَها ، ودعاهما مَوْلاهُما الطائـعُ لله أميرُ المؤمنين إلىٰ ما دَعاهما إليه من التَّعاطُف والتآلُف ، والتَّصافِي والتَّخالُص ، وأمَرَ صَمْصـامَ الدَّولةِ أبا كَالِيجارَ بمُراسَـلَةِ شَرَف الدَّولة

---

(١) الاشبال العطف والمعونة .

أبِى الفَوارِس فى إحْكَامِ مَعاقِدِ الأخُوَّة، وإبْرامِ وَثائِقِ الأُلْفَة ـ آمْتثَلَ ذلك وأصْغىٰ إليه شَرَفُ الدَّوْلة وزَيْنُ المِلّة أبوالفَوارِس: أصغىٰ إليه شَرفُ الدَّولة إصْغَاءَ المُسْتوثِق المُسْتَصِيب، وتَقبَّله تَقبُّلَ العالم اللَّبِيب، وأنْفذ إلىٰ باب أَميرِالمؤمنين رَسُولَه أبا نَصْر خرشيد بن ديار بن مأفنة بالمعروف من كِفَايَتِه، والمَشْهُورِ من آصْطِناعِ المَلِكِ السَّعيد عَضُدِ الدَّوْلة وتَاجِ المِلَّة رضوانُ الله عليه له، وإيْدَاعه إيَّاه وَدِيعةَ الإحسانِ التى يَحِقُّ عليه أن يُساوِىَ فى حِفْظِها بين الجِهَتَيْنِ، ويُوازِىَ فى رِعايَتِها بين كلا الفَرِيقَيْنِ.

فجَرتْ بين صَمْصامِ الدَّولة وشَمْسِ المِلة أبى كَالِيجَارَ وبَيْنه مُخاطَباتٌ آستقرّتْ علىٰ أمورٍ أتَت المفاوضةُ عليها، وأُثبتَ منها فى هذه المُواصَفَةِ ما آحتيج إلىٰ إثْباته منها [أمْرٌ] عامٌّ للفَرِيقين، وقِسْمانِ يختصّ كلَّ واحِدٍ منهما بواحِدٍ منهما.

فأما الأمْرُ الذى يجمعهما عُمُومُه، ويَكْتَنِفُهما شُمُولُه، فهو: أن يَتخالَصَ شَرَفُ الدَّوْلةِ وزَيْنُ المِلَّة أبو الفَوارِس، وصَمْصامُ الدَّولة وشَمْسُ المِلَّة أبو كَالِيجَارَ فى ذَاتِ بينهما، ويتصَافيَا فى سَرَائرِ قُلُوبِهما، ويَرْفُضا ما كان جَرَّهُ عليهما سُفَهاءُ الأتْباعِ: من تَرْكِ التَّواصُل، وآسْتِعمالِ التَّقاطُع، ويَرْجِعَا عن وَحْشَةِ الفُرْقة، إلىٰ أُنْسِ الأُلْفة، وعن مَنْقَصَةِ التَّنَافُرِ والتَّهاجُر، إلىٰ مَنْقَبَةِ التَّبارِّ والتَّلاطُف؛ فيكونُ كُلُّ واحد منهما مُرِيدًا لصاحِبِه من الصَّلاحِ مِثْلَ الذى يُرِيدُه لنَفْسِه، ومُعْتَقِدًا فى الذَّبِّ عن بلاده وحُدُودِه مِثْلَ الذى يَعْتَقِدُه فى الذَّبِّ عما يختصّ به؛ ومُسِرًّا مثلَ ما يُظهِرُ: من مُوالَاةِ وَلِيِّه، ومُعادَاة عَدُوِّه، والمُرامَاةِ لمن رَامَاه، والمُصافَاةِ لمن صَافاه؛ فان نَجَمَ علىٰ أحَدِهما نَاجِم، أو رَاغَمَه مُرَاغِم، أو هَمَّ به حاسِد، أو دَلَف إليه مُعَانِد، آتَّفقا جميعًا علىٰ مُقارَعَتِه: قَرِيبًا كان أو بَعِيدًا، وتَرافَدَا علىٰ مُدافَعَته: دَانِيًا كان أو قَاصِيًا، وسَمَحَ كُلٌّ منهما لصَاحِبِه عند الحاجة إلى المُواسَاةِ فى ذلك فى سائرِ أحْداثِ الزَّمان

ونُوَبِه، وتَصارِيفِه وغيرِه؛ بما يتّسِعُ ويشتمِلُ عليه طَوْقُه من مال وعُدّة، ورِجَال ونَجْدَة، وٱجْتِهادٍ وقُدْرَة؛ لا يغفُل أخٌ منهما عن أخيه، ولا يَخْذُله ولا يُسْلِمه، ولا يتركُ نُصْرتَه، ولا ينصرِفُ عن مُؤازَرتِه ومُظاهَرتِه بحالٍ من الأحوال التى تَسْتحيلُ بها النِّيَّات: من إرْغابِ مُرْغِب، وحِيلَةِ مُحْتالٍ، ومُحَاولة مُحاوِل. ولا يقبلُ أحَدُهما مُسْتأمِنًا إليه من جِهَةِ صاحبه: من جُنْدىٍّ، ولا عَامِلٍ، ولا كَاتِبٍ، ولا صَاحِبٍ، ولا مُتصرِّفٍ فى وَجْهٍ من وُجوه التصرفاتِ كُلِّها؛ ولا يُجِيرُ عليه هَارِبا، ولا يَعْصِمُ منه مُوَارِبا؛ ولا يتطرف له حَسَدًا، ولا يَتَحيَّفُه حَقًّا، ولا يَهْتِكُ له حَرِيمًا، ولا يتناوَلُ منه طَوْقًا، ولا يُخِيفُ له سَبِيلا، ولا يَتَسبَّبُ إلىٰ ذلك بسَبَبٍ باطن، ولا بٱعْتِلال ظاهر؛ ولا يَدَعُ مُوَافَقَته، ومُلاءَمَته، ومُعاوَنَته ومُظافَرته فى كلِّ قَوْلٍ وفِعْلٍ، وسِرٍّ وجَهْرٍ، علىٰ سائرِ الجهات، وتَصَرُّف الحالات، ووُجُوه التأوِيلات. يلتزِمُ كلُّ واحدٍ منهما ذلك لصاحِبه ٱلتزامًا على التماثُلِ والتَّعادُل، والتَّوازِى والتَّقابُل.

وأما الأمرُ الذى يختصُّ شَرَفُ الدَّولةِ وزَيْنُ المِلَّة به، ويلتزِمُه صَمْصامُ الدَّوْلة وشَمْسُ المِلَّة له، فهو أن يُقدِّمَه صَمْصامُ الدَّولة وشَمْسُ المِلَّة علىٰ نَفْسِه، ويُعْطِيه ما أعطاه اللهُ له من فَضْلِ سِنِّه، ويُطيعَه فى كلِّ ما أفادَ الدَّوْلةَ الجامعة لهما صلاحًا، وهاضَ من عَدُوِّهما جَنَاحا؛ وعاد علىٰ وليِّهما بعِزّ، وعلىٰ عَدُوِّهما بذُلّ؛ وأن يُقيمَ صَمْصامُ الدَّولةِ الدَّعْوةَ علىٰ مَنَابِرِ ما فى يَدِه من مدينة السَّلام وسائرِ البُلْدان والأمْصار، التى أحاطتْ بهما حُقُوقه، وضُرِبَتْ عليهما حُدُودُه، لأمير المؤمنين ثم لشَرَفِ الدَّولة وزَيْنِ المِلَّة أبى الفوارس، ثم لنَفْسه. ويُجْرى الأمْرَ فى نَقْشِ سِكَكِ دُورِ الضَّرْبِ التى يُطْبَعُ بها الدِّينارُ والدِّرْهم فى جميع هذه البلاد على المِثَال. ويُوَفِّى صَمْصامُ الدَّوْلة وشَمْس المِلَّة أبو كَالِيجَارَ شَرَفَ الدَّولة وزَيْنَ المِلَّة أبا الفَوارِس فى المكاتبات

والمخاطبات حَقَّ التَّعظيم، وشِعَارَ التَّفْخيم، على التَّقْرِيرِ بينه و بين خرشيد بن ديار ابن مأفنة فى ذلك .

وأما الأمْرُ الذى يختصُّ صَمْصَامُ الدَّوْلةِ وشَمْسُ الملة أبو كاليجَارَ به، ويَلْتَزِمُه شَرَفُ الدولة وزَيْنِ المِلَّة أبو الفوارِس له، فهو تَرْكُ التَّعَرُّض لسائرِمَمَالِكه، وما يتَّصِلُ بها من حُـدُودها الجـارية معها؛ والإفْراجُ منها عمـا يَوَدُّه ويُسْرِع إليـه أصحابُ شَرَفِ الدولة وزَيْنِ المِلَّة، وتَجَنُّبُ التَّحَيُّفِ لها أو لشَىْءٍ من الحقوق الواجبةِ فيها، ومُرَاعَاتُه فى الأمور التى يحتاج فيها إلىٰ نَظَرِه وطَوْلِه، وإجْمالِه وفَضْـلِه، وما يجب على الأَخِ الأكْبرِ مُرَاعَاةُ أخيـه وتَالِيهِ فيه، ممَّـا ثَبَتت فى هذه المُواصَفَةِ جُمْلته، وآشتملتْ المفاوضة مع خورشيد بن ديار بن مأفنة علىٰ تَفْصِيله .

آتَّفق شَرَفُ الدَّولة وزَيْنُ المِـلَّة أبو الفوارس، وصَمْصَـامُ الدَّوْلة وشَمْس المِلَّة أبو كَالِيجَار، بأمْرِ أميرِ المؤمنـين الطائع لله، وعلى الاخْتِيارِ منهما، والانْشِراحِ من صُدُورِهما، من غيرِ إكْراهٍ ولا إجْبار، ولا آصْطِبارٍ ولا آضْطِرَار ـ على الرِّضا بذلك كُلِّه، والالتزامِ له، ويَصِيرُ جَميعُه عَهْدًا مَرْجوعًا إليه، وعَقْدًا معمولًا عليه؛ وحَلَفَ كُلٌّ منهما علىٰ مايلتزمه من ذلك يَمِينًا عَقَدها بأن يحلِفَ صاحِبُها بمِثْلِها، علىٰ مايلتزمه منه . فقال صَمْصامُ الدَّولة : واللهِ الذى لا إلٰهَ إلا هُو (ويستتم اليمين) .

النـــــوع الثـانى

(ممّـا يجرى عَقْد الصُّلْح فيه بين مَلِكَيْن مُسْلمين ـ ما يكونُ العَقْد فيه من جانبٍ واحدٍ)

وللكُتّابِ فيه مَذْهبانـ :

المَـــذْهب الأوّل

(أن يُفتَتَح عَقْدُ الصُّلْح بلفظ : « هذا » كما فى النوع السابق)

وهـذه نُسْخةُ عَقْد صُلْح من ذلك ، كتب بهـا أبو إسْحٰق الصَّابى ، بين الوزير أبى نَصْر سابُور بن أزدشير، والشَّرِيفَيْنِ : أبى أحْمَد الحُسَينِ بن مُوسى، وأبى الحَسَنِ محمدٍ آبنه الرَّضِىِّ ، بمـا آنعقد من الصُّلْحِ والصِّهْرِ بين الوزير المذكور ، وبين النَّقِيبِ أبى أحمد الحُسَينِ وولده محمدٍ ، حين تزوّج آبنه محمدٌ المذكورُ بنتَ سابورَ المذكورِ ، وجعله علىٰ نُسْختينِ ، لكلِّ جانبٍ نسخةٌ ، بعد البسملة ماصُورَتُه :

هـذا كِتابٌ لسَابُور بن أزْدَشير، كَتَبه له الحسـينُ بن موسىٰ المُوسَوىّ ، وولَدُه محمد بنُ الحسين المُوسَوىّ .

إنَّا و إيَّاكَ ـ عند ما وصـله اللهُ بيننا من الصِّهْر والخُلْطَه ، ووَشَجه من الحـال والمَودّه ـ آثَرْنا أن ينعقِدَ بيننا و بينك مِيثَاقٌ مُؤَكَّد ، وعَهْدٌ مُجَدَّد ؛ تَسْكُن النفوسُ إليهما ، وتطمئِنُّ القُلوبُ معهما ؛ وتزدادُ الأُلْفَةُ بهما على مَرِّ الأيَّام ، وتَعاقُبِ الأعوام ؛ ويكونُ ذلك أصْلًا مُسْتَقِرًّا نرجع جميعًا إليه ، ونُعوِّلُ ونَعْتَمِدُ عليه ؛ ونَتَوارَثُه أعْقابُنا ، ونَتْبَعُنا فيه أخْلَافُنا .

فأعطيناكَ عَهْدَ اللهِ ومِيثاقَه ، وما أخذَهُ على أنبيائه المرسلين ، ومَلائكَتِه المُقَرَّبين ، صلى الله عليهم أجمعين ؛ عن صُـدُورٍ مُنْشَرِحه ، وآمال فى الصَّلاح مُنْفَسِحَه ـ أنَّا

نُخْلِصُ لك جميعًا وكلُّ واحدٍ منّا إخلاصًا صحيحًا يُشاكِلُ ظاهِرُه باطِنَه ، ويوافِقُ خافيه عالِنَه ؛ وأنَّا نُوالِي أوْلياءَك ، ونُعادِي أعْداءَك ؛ ونَصِلُ من وَصَلَك ، ونقْطَعُ من قَطَعَك ، ونكونُ معك فى نَوائِب الزمان وشَدَائِده ، وفى فَوائِده وعَوائِده ؛ وضَمِنّا لك ضَمانًا شَهِدَ اللهُ بلزُومه لنا ، ووُجُوبِه علينا . وأنا نَصُونُ الكريمةَ علينا ، الأثيرةَ عندنا ، فلانةَ بنتَ فلانٍ ــ أدام اللهُ عِزَّها ــ المُنْتقِلةَ إلينا ؛ كما تصانُ العُيونُ بجُفُونِها ، والقُلوبُ بشِغَافِها ؛ ونُجْرِيها مُجْرىٰ كَرائِم حُرَمِنا ، ونَفائِسِ بَناتِنا ، ومن تَضُمُّه مَنازِلُنا وأوطاننا ؛ ونَتَناهىٰ فى إجلالِها وإعْظامِها ، والتَّوسِعَةِ عليها فى مَراغِدِ عَيْشِها ، وعَوَارِضِ أوْطارِها ، وسائرِ مُؤَنِها ومُؤَنِ أسْبابِها ، والنُّهوضِ والوَفاءِ بالحقِّ الذى أوجبه اللهُ علينا لها ولك فيها ؛ فلا نُعْدِمُ شيئًا ألِفَتْه : من إشْبالٍ عليها ، وإحْسانٍ إليها ، وذَبٍّ عنها ، ومُحاماةٍ دُونَها ، وتعهُّدٍ لمَسارِّها ، وتَوَخٍّ لمَحابِّها ؛ ونكونُ جميعًا وكلُّ واحدٍ منا مُقيمين لك ولها على جميع ما آشتمل عليه هذا الكِتَابُ فى حَياتِك ــ أطالها اللهُ ــ وبعد الوَفاةِ إن تَقدَّمْتنا ، وحُوشِيتَ من السُّوءِ فى أُمورِك كُلِّها ، وأحْوالِك أجْمَعِها .

ثم إنا نقولُ ــ وكُلُّ واحدٍ منا ، طائِعِينَ مُخْتارِينَ ، غيرَ مُكْرَهين ولا مُجْبَرِينَ ، بعد تمامِ هذا العَقْدِ بيننا وبينك ، ولُزُومه لنا ولك ــ : وَاللهِ الذى لا إلٰهَ إلّا هُو الطَّالِبُ الغَالِبُ ، المُدْرِكُ المُهْلِك ، الضَّارُّ النَّافع ، المُطَّلِعُ على السَّرائِر ، المُحِيطُ بما فى الضمائر ، الذى يعلم خَائِنَةَ الأعْيُنِ وما تُخْفِى الصُّدور . وحَقِّ محمدٍ النَّبىِّ ، وعلىٍّ الرضىِّ ــ صلى اللهُ عليهما وسلَّم وشَرَّفَ ذِكْرَهما ، وسَادَتِنا الأَئمَّةِ الطيبين ، الطاهرين ، رحمةُ الله عليهم أجمعين . وحقِّ القُرآنِ العَظيمِ ، وما أُنْزِلَ فيه من تَحْليلٍ وتَحْريم ؛ ووَعْدٍ ووَعِيد ، وتَرْغيب وتَرْهِيب ؛ لَنَفِيَنَّ لك يا سابورُ بنَ أَزْدَشِيرَ ، والكَرِيمةِ الأثيرةِ آبْنَتِكَ فُلانة ــ أحسن اللهُ رِعَايَتَها ــ بجميع ما تضمَّنَه هذا الكِتَابُ ، وَفاءً صحيحا ، ولنَلْتَزِمَنَّ لك ولها شرائِطَه ووَثائِقَه ، فلا نَفْسَخُها ، ولا نَنْقُضُها ،

ولا نَتَتَبَّعها، ولا نتعقَّبُها، ولا نتأوّلُ فيها، ولا نَزُولُ عنها، ولا نلتمِسُ مَخْرجًا ولا مَخْلَصًا منها، حتّى يجمَعنا المَوْقِفُ بين يدى الله، والمَقْدَمُ على رَحْمَةِ الله، ونحن يومئذ ثابتَانِ عليها، ومُؤَدِّيان للأمَانَةِ فيها، أداءً يشهدُ اللهُ تعالى به وملائكتُه يومَ يَقُومُ الأشْهَاد، ويُحاسَبُ العباد. فإن نَحْنُ أخلَلْنا بذلك أو بِشَيْءٍ منه، أو تأَوَّلْنا فيه أو فى شَيْءٍ منه، أو أَضْمرنا خِلافَ ما نُظْهِر، أو أسْرَرْنا ضِدَّ ما نُعْلِنُ، أو ٱلْتمَسْنا طَرِيقًا إلى نَقْضِه، أو سَبِيلًا إلى فَسْخِه، أو أَلْمَمْنَا بإخْفارِ ذِمَّةٍ من ذِمَمِه، أو ٱنْتهاكِ حُرْمةٍ من حُرَمِه، أو حَلِّ عِصْمَةٍ من عِصَمِه، أو إبْطالِ شَرْط من شُروطِه، أو تَجاوُزِ حَدٍّ من حُدُوده — فالذى يفعل ذلك مِنَّا يوم يَفْعَلُه أو يَعْتَقِدُه، وحين يدخُلُ فيه ويَسْتجيزُه — بَرِيءٌ من الله جَلَّ ثناؤُه، ومن نُبُوّةِ رسولِه محمدٍ، ومن وِلايَةِ أمير المؤمنين عَلِيِّ بن أبى طَالِبٍ صلى الله عليهما وسَلَّم، ومن القُرآنِ الحكيم العَظِيم، ومن دِينِ الله الصحيح القَوِيم؛ ولَقِيَ اللهَ يوم العَرْضِ عليه، والوُقُوف بين يديه، وهو به — سبحانه — مُشْرِكٌ، ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلم مُخَالِف، ولأهْلِ بَيْتِه مُعادٍ، ولأعْدائِهم مُوَالٍ؛ وعليه الحَجُّ إلى بَيْتِ الله الحَرامِ العَتِيقِ الذى بمكَّةَ: راجلًا، حَافِيًا، حاسرًا؛ وإماؤُه عَوَاتِق، ونِساؤُه طَوَالِق، طلاقَ الحَرَجِ والسُّنَّة، لا رَجْعةَ فيه ولا مَثْنَوِيَّة؛ وأمْوالُه — على ٱخْتِلافِ أصْنافِها — مُحَرَّمَةٌ عليه، وخارِجةٌ عن يَدَيْه، وحَبِيسَةٌ فى سبيل الله وبرأه اللهُ من حَوْلِه وقُوَّتِه، وألجأه إلى حَوْلِه وقُوَّتِه.

وهذه اليمين لازمةٌ لنا، وقد أطلقَ كُلُّ واحدٍ منا بها لِسانَه، وعقَدَ عليها ضَمِيرَه، والنِّيةُ فى جميعها نِيَّةُ فلانِ بنِ فلان، لا يقبلُ الله من كلِّ واحدٍ منَّا إلا الوَفَاءَ بها، والثَّباتَ عليها، والالْتزامَ بشُرُوطِها، والوُقُوفَ على حُدُودِها، وكَفَى بالله شَهِيدًا، وجازِيًا لعِبادِه ومُثِيبا. وذلك فى يوم كذا، من شهر كذا، من سَنَة كذا.

المــــذهب الثـانى

(أن يُفتتَحَ عَقْدُ الصُّلح بخُطبة مُفتَتَحةٍ بـ«الحمدُ لله» ورُبَّما كُرِّر فيها التحميدُ إعلامًا بعظيم مَوْقِع النِّعمة)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلح كتبَ بها أبو الحُسَينِ أحمدُ بن سَعْدٍ عن بعض الأمراء لمن كان (١) ... ...

ونَصُّها علىٰ ماذكره فى "كتاب البلاغة" فى الترسل، بعد البَسْملة :

الحمدُ لله الذى خلق العِبادَ بقُدْرته، وكَوّن الأمُورَ بحِكْمته، وصَرَّفها علىٰ إرادَته. لم يَلْطُفْ عنه خَفِىٌ، ولا آمتَنَع عنه قوِىٌ؛ آبْتدَع الخَلائِقَ على آختلاف فِطَرِها، وتَبايُنِ صُوَرِها، من غير مِثَالٍ آحْتذاه، ولا رَسْمٍ آقتفاه؛ وأيَّدَهُم بنِعْمته، فيما ركبه فيهم من الأَدَواتِ الدَّالَّة علىٰ رُبُوبِيَّته، الناطقَةِ بوَحْدانِيَّته؛ وآكْتَفَوْا بالمَعْرِفَة به ـ جلَّ جَلالُه ـ بخَبَر العُقُول، وشَهادَةِ الأفْهام. ثم آستظهر لهم فى التَّبْصرة، وغلبهم فى الحُجَّة؛ برُسُلٍ أرسلها، وآياتٍ بَيَّنها؛ ومَعالِمَ أوْضَحها، ومَنارَاتٍ لمسَالِكِ الحَقِّ رفَعَها؛ وشَرَع لهم الإسْلامَ دِينًا وآرْتضاه وآصْطَفاه، وفَضَّله وآجْتَباه، وشَرَّفه وأعلاه؛ وجعله مُهَيْمِنًا على الدِّينِ كُلِّه، وقَدَّر العِزَّ لِحِزْبِه وأهْله؛ فقال جَلَّ جَلالُه: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وأيَّدَه بأنبيائه الدَّاعِينَ إليه، والنَّاهِجِين لطُرُقه، والهَادِينَ لفرائضه، والمُخْبِرِينَ عن شَرَائعه؛ قَرْنًا بعد قَرْن، وأُمَّةً بعد أُمَّة، فى فَتْرةٍ بعد فَتْرَة، وبَيِّنةٍ بعد بَيِّنه؛ حتَّى آنتهىٰ تَقْديرُه ـ جَلَّ جلالُه ـ أن بعَثَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ، الفَاضِلَ الزَّكِىَّ؛ الذى قَفَّى به على الرُّسُل، ونَسَخ بشَرِيعتِه شَرَائِعَ المِلَل، وبِدِينه أدْيانَ الأمَم؛ علىٰ حِينِ تَراخِى

(١) بياض بالأصل.

فَتْرَه، وتَرَامِى حَيْرَه؛ فَأَبَاخَ[(١)] به نِيرانَ الفِتَنِ بعد آضْطِرامِها، وأضَاء به سُبُلَ الرَّشادِ بعد إظْلامِها؛ علىٰ عِلْمٍ منه ـ تعالىٰ ذِكْرُه ـ بمـا وجده عنده من النُّهُوضِ بأَعْباءِ الرِّسالَه، والقيامِ بأداءِ الأمَانَه؛ فأزَاحَ بذلك العِـلَّة، وقَطَع المَعْذِرَة؛ ولم يُبْقِ للشَّاكِّ مَوْضِعَ شُبْهة، ولا للمُعانِدِ دَعْوى مُمَوَّهَة؛ حتىٰ مَضَى حَمِيدًا تشهدُ له آثارُه، وتقومُ بتأبيـدِ سُنَّتِه أخْبارُه؛ قد خَلَّفَ فى أمَّتِه، ما أصارَهم به إلىٰ عَطْفِ الله ورَحْمتِه، والنَّجاةِ من عِقابِه وسُخْطِه؛ إلَّا من شَقِىَ بسُوءِ آخْتِيارِه، وحُرِمَ الرَّشادَ بخِذْلانِه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطيبينَ أفضَل صَلاةٍ وأتمّها، وأوْفاها وأعَمَّها .

والحمـدُ للهِ الذى خَصَّ سـيدَنا الأميرَ بالتَّوفيق وتَوَحَّده بالإرْشادِ والتَّسْـديد؛ فى جميع أنْحائه، ومَوَاقِع آرائِه؛ وجعل هِمَّتَه (إذ كانتْ الهِمَمُ منْصرِفَةً إلىٰ هَشِيمِ الدُّنيا وزَخَارِفِها، التى يتحلَّىٰ بهـا الأبناءُ وتَدْعوها إلىٰ نَفْسِها)، مَقْصُورةً علىٰ ما يجمعُ له رِضا رَبِّه، وسَلامةَ دِينِه؛ وآسْتِقامَةَ أُمورِ مَمْلَكَتِه، وصلاحَ أحْوالِ رعِيَّتِه؛ وأيَّده فى هذه الحَـالِ المعارضه، والشُّبْهة الواقعه؛ التى تَحارُ فى مِثْلِها الآراء، وتَضْطرِبُ الأهْواء؛ وتَتَنـازَعُ خَواطِرُ النفوس، وتفتلج وَسَاوِسُ الصُّـدُور؛ ويَخْفىٰ مَوْقِعُ الصَّواب، ويُشْكِلُ مَنْهَجُ الصَّلاح ـ بمـا آختار له من السِّـلْمِ والمُوَادَعه، والصُّلْح والمُوافَقَه؛ الذى أخبر الله تعـالىٰ فى كتابه علىٰ فَضْلِه، والخَيْرِ الذى فى ضِمْنِه، بقوله جَلَّ وعَزَّ : ﴿ والصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وقوْله جلَّ ذِكْرُه : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَـا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ حتَّىٰ أصبح السَّـيْفُ مَغْمُودا، ورِوَاقُ الأَمْنِ مَمْدُودا؛ والأهْواءُ مُتَّفِقَه، والقُلُوب مُؤْتَلِفَه، والكَلِمةُ مُجْتَمِعَه؛ ونِيرانُ الفِتَنِ والضَّلالَة خَامِدَه، وظُنُونُ بُغاتِها والسَّاعِينَ لهـا كَاذِبَه؛ وطَبقاتُ الاولياء والرَّعِيَّة ـ بمـا أُعِيدَ إليهم من

(١) أى سكنها وأطفأها .

الأَمَنة تُعْقِبُ الخِيفَة، والأَنَسَة من بعد الوَحْشَة ـ مُسْتَبْشِرةٌ؛ وإلى الله عزّ وجلّ ـ في إطَالَة بقاء الأمير وإدَامَة دَوْلتـه، وحراسَة نِعْمَتِـه وتَثْبِيت وَطْأَته ـ رَاغِبِين، وفى مُسَالَمَته مُخْلِصين. ولو لم يَكُن السِّلْمُ في كِتَاب الله مأموراً به، والصُّلْحُ مخبَراً عن الخَيْرِ الذى فيه، لكان فيما يَنْتَظِمُ به: من حَقْنِ الدِّماء، وسُكُونِ الدَّهْمـاء، ويجمعُ من الخِلال المَحْمودَة، والفَضائل المَمْدودَة، المُقَـدَّمِ ذِكْرُها ـ ماحَدَا عليه، ومَثَّل للعُقُول السَّليمَة والآرَاءِ الصَّحِيحَة مَوْضِعَ الخَيْرِ فيـه، وحُسْنَ العَائِدَة على الخـاصِّ والعامِّ به؛ فيما يتجلَّى للعُيُونِ، من مشتبهات الظُّنُونِ، إذ الدِّينُ واقِعٌ، والشَّكُّ جانحٌ بين المُحِقِّ والمُبْطِل، والجَائِر والمُقْسِط. وقد قال الله جَلَّ ثَنَـاؤُه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَـئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ناظراً للمسلمين من مَعَرَّةٍ أو مَضَرَّةٍ تلحقُ بعضَهم بغـير عِلْم؛ ومُؤْثِراً تَطْهِـيرَهم من ظَنِّ العُدْوَان، مع رَفْعِـه عنهم فَرَطاتِ النِّسْـيان، وكافًّا أيدى المسلمين عن المشركين، كما كَفَّ أيديَهم عن المسلمين؛ تَحَنُّنا على بريَّتِه، وإبْقاءً على أَهْلِ مَعْصِيَته؛ إلى أن يَتِمَّ لهم الميقاتُ الذى أدْنَاه، والأمْرُ الذى أمْضاه، ومَوْقِعُ الحَمْد في عاقِبَته، والسَّلامة في خَاتِمَته. وبَلَّغهم من غاية البَقَاءِ أمدَها، ومن مَرافِقِ العَيْش أرْغَدَها، مقصورة أيدى النَّوائِب عما خَوَّله، ومعصومة أعْيُنُ الحَوَادِثِ عما نَوَّله؛ إنه جَوادٌ ماجِدٌ.

قلتُ: وعلى هـذا المَذْهَب كُتِبَ عَقْـدُ الصُّلح بين السُّـلطانِ المَلِكِ النَّـاصِر أبِي السَّعادات «فَرَج» بن السُّلطانِ المَلِك الظَّاهِر «برقوق»، وبين المَقَام الشَّريف النُّطْبيّ تَيْمُـور كوركان صاحِب ما وَرَاء النَّهْرِ، بعـد طُرُوقه الشَّامَ وفَتْحِه دِمَشْـق وتَحْرِيقها وتَخْرِيبها، وإرسالِ كِتَابه في مَعنَى طَلَب الصُّلْح، وإرْسال الأمير أطلمش لزمه، المأسورِ في الدَّوْلة الظَّاهِرِيَّة «برقوق» صحبـة الخواجا نظام الدين مَسْـعُود الكججانى. جُهِّز ذلك إليـه قرينَ كِتَابٍ من الأبواب السلطانية صُحْبَـةَ الخواجا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانبيه، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة خمسٍ وثمانمائة، بإشارة المَقَرِّ الفَتْحِىِّ صاحِب دِيوانِ الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدِّين طاهر، ٱبن الشيخ بدر الدين حَبِيبٍ الحَلَبِىِّ، أحَدِ كُتَّاب الدَّسْتِ الشَّريفِ بالأبواب السلطانية، وهو مَكْتوبٌ فى قَطْعِ ... ...(١) بقَلَم ... ...(١) وفى طُرَّتِه ما صُورَتُه :

« مَرْقومٌ شريفٌ جَلِيلٌ عَظِيمٌ، مبجَّلٌ مكَرَّمٌ جَمِيلٌ نَظِيمٌ، مُشْتملٌ علىٰ عَقْد صُلْحٍ ٱفتتحه المَقَـامُ الشريفُ ، العالِى ، القُطْبىُّ ، نُصْرةُ الدِّينِ ، تَيْمُور كوركان ، زِيدتْ عَظَمتُه ، يكونُ بينه وبين المقـام الشريفِ ، السُّلطانِ ، المَـالِكِ ، المَلِكِ النَّـاصِرِ أبِى السَّـعادَاتِ « فرج » بنِ السلطانِ الشَّهيدِ، المَلِكِ الظَّاهِرِ أبى سَعِيد « بَرْقوق» خادمِ الحَرَمَيْن الشريفين، خَلَّدَ اللهُ تعالى مُلْكَه . ٱنعقد بمباشرة السَّـفِيرِ عن المقام الشريفِ القُطْبىِّ، المشارِ إليه ووَكِيله فى ذلك، الخواجا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعود الكَجَجانى، بشَهَادة من حضر صُحْبته من العُدُول بالتوكيل المذكور، علىٰ حُكْمِ إشارةِ مُرْسلِه إليه ومضمون مُكَاتَبتِه ، وقَصْده تجْهيز الأمير أطلمش لزمه . وحَلَفَ المقامُ القُطْبِىّ على المُوافَاة والمُصافاةِ ، وٱتِّحـادِ المَمْلكَتَيْنِ ، وإجراءِ الأُمُور علىٰ السَّـدادِ ، وعمل مصالح العباد والبلاد» .

والبياضُ ثلاثةُ أوصالٍ بوَصْـلِ الطُّرَّة ، والبَسْملةُ فى أوَّلِ الوَصْلِ الرابع بهامِش عن يمينها ، وتَحتَ البسملة سَـطْرٌ، ثم بَيْت العلامة ، والسَّـطْر الثانى بعـد بَيْت العلامة . والعَلَامةُ بجَلِيل الثُّلُثِ بالذَّهَبِ ما صُورَتُه : « اللهُ أَمَلِى » .

(١) بياض بالأصول .

ونُسْخةُ المَكْتوبِ بعد البسملة ما صُورَتُه :

الحمدُ للهِ الذى جعل الصُّلْحَ خَيْرَ ما ٱنعقَدَتْ عليه المَصَالِح ، والإصْلاحَ بينَ النَّاس اولَىٰ ما ٱتَّصلَتْ به أسبابُ المَنَاجِح ، وأحَقَّ ما نَطَقتْ به أَلْسُنُ المحامد وأثْنَتْ عليه أفْواهُ المَدَائِح .

نَحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جمعتْ أشْتَاتَ القُلوب الطَوائِح ، وأضافَتْ إلىٰ ضِياءِ الشَّمْس نُورَ القَمَر فاهتدىٰ بهما كُلُّ غادٍ ورائِح ؛ ونشهدُ أن لا إله إلا الله وَحْدَه لا شَريكَ له شهادةً تُبَلِّغُ قائِلَها أهْنَى المَنَائِح ، وتتعطَّرُ مجالسُ الذِّكْرِ بعَرْفِ روائحها الرَّوائِح ؛ ونشهدُ أن محمَّدًا عبــدُه ورسولُه أفضلُ من آخَى بين المتَحَاكِمين فنصح لله ورَأَى الصُّلْحَ من أعظم النَّصَائِح ، وأكملُ رَسُولٍ ٱنقادتْ لأَخْلاقِه الرَّضِيَّة ، وصِفاتِه المَرْضِيَّة ، جوانح النُّفُوس الجوانح ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا .

و بعدُ ، فإنَّ أولىٰ ما ٱجتمعتْ عليه آراءُ أولِى الألْباب ، ورَكَنتْ إليه قُلوبُ ذَوِى المَعْرفة من أهْــلِ المودَّةِ والأحْباب ــ ٱئتِلافُ القــلوبِ بعد ٱخْتِلافِها ، وٱتصافُها بِالتَّلَبُّسِ بأحْسَنِ أوْصافِها ؛ والعَمَلُ على الصُّــلْحِ الذى هو أصلَحُ للنــاس ، وأرْبَحُ مَتَاجِرِ الدُّنيا والآخرة وأَدْفَعُ لليَأْسِ والباس ؛ إذ هُو مِفْتاحُ أبواب الخيرات الشَّامله ، ومِصْباحُ مَناهِجِ الفِكْرِ الصَّحيحةِ الكامِلَه ؛ والدَّاعى إلىٰ كُلِّ فِعْلٍ جميــل ، والسَّاعِى بكلِّ قَوْلٍ هو شِفَاءُ صَدَى الغليل ونَجاةٌ من دَاءِ العَلِيل .

ولمَّــا كان المقــامُ الشَّريفُ ، العَالى ، الكَبِيرِىُّ ، العَالِمِىُّ ، العَامِلىُّ ، المؤَيدِىُّ ، المظَفَّرِىُّ ، المُلْجَئِىُّ ، المَلاذِىُّ ، الوَالِدِىُّ ، القُطْبِىُّ ؛ نُصْرة الدِّين ، مَلْجَأُ القاصِدِين ، ملاذُ العابِدِين ، قُطْبُ الاسلام والمسلمين ، تَيْمورُ كوركانــ ، زِيدَتْ عظمتُه ــ هو البَادِئَ بإحْياءِ هذه السُّنَّةِ الحَسَنة ، والحَادِىَ إلى العَمَلِ بمقتضى مُفَاوَضَتِه الشريفة

التى هى لذلك مُتَضَمِّنه ، الوَارِدَة إلىٰ حَضْرة عبد الله وَوَلِيِّــه ، السُّلطانِ المَــالِك ، المَلِكِ النَّاصِر ، زَيْنِ الدُّنيــا والدِّين ، أبى السَّعاداتِ « فَرَج» بن السُّلطانِ الشَّهيدِ المَلِكِ الظَّاهِر ، أبى سَــعيد « بَرْقُوق » خادِمِ الحَرَمين الشَّريفَين ـ خلَّد الله تعــالىٰ مُلْكَه ـ علىٰ يَدِ ســفيرِ حَضْرته ، المَجْلِس السَّامىّ ، الشَّــيْخىّ ، النِّظَامِىّ ، مَسْعودِ الكَجَجانى ، المؤرَّخَةِ بمُسْتهَلِّ شهر ربيع الأوَّل سنة تاريخه .

وجُلُّ مَضْمونهــا ، وسِرُّ مَكْنونها ـ قَصْــدُ إيقاعِ الصُّــلْح الشريف بين المُشارِ إليهما ، ونَسْجُ المَوَدَّةِ والمَحَبَّــةِ والمُصادَقَة بينهما ، وإسْــبالُ رِداءِ مَحَاسِنِها عليهما ؛ بمقتضى تَفْويضِ المقامِ الشَّريف القُطْبىِّ المُشارِ إليــه الأَمْرَ فى الصُّلْحِ المَذْكورِ إلىٰ الشَّيخِ نِظَامِ الدِّين مَسْعود المذكور ، وتَوْكِيلِه إيَّاه فيه ، وإقامَتِه مَقَامَ نَفْسه الشَّريفة ، وجَعْلِ قَوْلِه من قوله ، وأنَّه ـ عَظَّم اللهُ تعالىٰ شأْنَه ـ أشهدَ اللهَ العَظيمَ عليه بذلك ، وأشْهدَ عليــه من يَضَعُ خَطَّه من جماعَتِه المجهِّزِينَ صُحبةَ الشَّــيخِ نِظامِ الدِّين مَسْعود المذكور ، وهما : الشَّيخُ بَدْرُ الدِّين أحمدُ بنُ الشَّيْخِ الإمامِ العالِمِ شمْسِ الدين محمد بن الجَزَرِىّ الشَّافِعِى ، والصَّدْرُ الأَجَلُّ كمالُ الدِّين كمال أغا ؛ وأنَّ ذلك صَدَر عن المقام الشريف القُطْبىِّ المشارِ إليــه ، لمُوافقَتِه علىٰ الصُّلْحِ الشريف ، وإجابَةِ القَصْد فيه بإطْلاقِ الأمير أطلمش لزم المَقَامِ القُطْبىِّ المشارِ إليــه ، وتَجْهيزِه إلىٰ حَضْرتِهِ العَالِيَة ؛ وأنَّه عاهدَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ بحُضُورِ جَمٍّ غَفِيرٍ من أُمَرَاء دَوْلته وأكابِرِها ، ومَن حَضَر مَجْلِسَهُ ، باليمين الشَّرْعية الجامعَةِ لأشْتاتِ الحَلِف : باللهِ الذى لا إلٰهَ إلا هُوَ رَبِّ البَرِيَّةِ وبَارِئِ النَّسَم ، علىٰ ذلك جميعــهِ ، وعلىٰ أنه لا يدخُلُ إلىٰ البلادِ الداخلةِ فى مَمْلَكَةِ مولانا السُّلطان المَلِك النَّاصِرِ المشارِ إليه ، وأنَّه مهما عاهَدَ وصالَحَ وعاقَدَ عليه الشَّيخُ نِظَامُ الدِّينِ مسعودُ الوَكِيلُ المذكورُ يقْضِى به المقــامُ القُطْبىُّ المشارُ اليــه ، ويُمْضِيه ويَرْتَضيه . وٱنْفَصَلَ الأَمْرُ علىٰ ذلك .

فعند ما وقف مولانا السلطانُ المَلِكُ النَّاصِرُ المشارُ إليه ـ خلَّد اللهُ تعالىٰ مُلْكَه ـ على المُكَاتَبةِ الشَّريفةِ المشارِ اليها، وتَفَهَّم مَضْمُونَها، ورأىٰ أن المَصْلحةَ فى الصُّلْح: تبرُّكًا بما وَرَد فى كِتَاب اللهِ عزَّ وجلَّ، وسُنَّةِ رَسُولِه صلَّى الله عليه وسلم ـ اسْتخارَ الله عزَّ وجلَّ، وأمَرَ بتجْهيزِ الأميرِ أطلمش المذكور، وتَسْليمه للشَّيْخ نِظامِ الدِّين مَسْعودٍ المذكور، وأذِنَ لهما فى التَّوجُّهِ إلىٰ حضْرةِ المقام الشريفِ القُطْبيِّ المشارِ إليه: بمُوافَقةِ مولانا أميرِ المُؤْمنين المتوكِّلِ على الله ـ أدام الله تعالىٰ أيَّامَه ـ على ذلك، وحُضُورِ الشَّيخِ الإمامِ الفَرْدِ الأوْحَدِ، شيخِ الإسلامِ، سِراجِ الدِّينِ، عمرَ البُلْقِينِيِّ ـ أعاد الله تعالىٰ على المسلمين من بَرَكاته ـ وقُضاةِ القُضاةِ الحُكَّامِ ـ أعزَّ الله تعالىٰ أحْكامَهم ـ ومَشايخِ العِلْمِ الشَّريفِ والصَّلاحِ، وأرْكانِ الدَّوْلةِ الشريفةِ، ومَن يَضَعُ خَطَّه فى هذا الصُّلحِ الشَّريفِ بالشهادة بمَضْمُونه .

وعُقِدَ الصُّلْحُ الشريفُ بين مولانا السُّلطانِ المَلِكِ الناصرِ المشارِ اليه ـ خلَّد اللهُ تعالىٰ مُلْكَه ـ وبين الشَّيخ نِظامِ الدِّينِ مَسْعودٍ الوكيلِ المذكورِ عن المقام الشَّريف القُطْبيِّ المشار اليه ـ زِيدَتْ عَظَمَتُه ـ علىٰ حُكْم مَضمون مُفاوَضَتِه الشريفةِ المقدَّمِ ذِكْرُها، وما قامتْ به البَيِّنَةُ الشَّرْعية، بشهادة العَدْلَيْنِ المذكورينِ الوَاصِلَيْنِ صُحْبَةَ الوَكِيلِ المذكورِ بالتَّوكِيلِ المَشْروحِ فيه . فكان صُلْحًا صحيحًا شَرْعيًّا، تامًّا كاملًا مُعتبرًا مَرْضِيًّا؛ علىٰ أحْسَنِ الأمور وأجْملِها، وأفْضَلِ الأحْوال وأكْملِها .

وحَلَفَ مولانا السلطانُ المَلِكُ الناصرُ المُشارُ اليه ـ خَلَّد الله مُلْكَه ـ وعاهَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ نظيرَ ما حَلَفَ وعاهَدَ عليه المَقامُ الشَّريفُ القُطْبيُّ المشارُ إليه من القَوْلِ والعَمَلِ؛ واسْتقرَّتْ بمشيئَةِ اللهِ تعالىٰ الخَوَاطِر، وسُرَّتِ القُلوبُ وقرَّت النَّوَاظِر؛ لِما فى ذلك من حِفْظِ ذِمامِ العُهُودِ الشريفه، وإقامةِ مَنَارِ الشَّرْعِ الشريف وامْتِدادِ

ظِلالِ أعْلامِه الوَرِيفه ؛ وإجْراءِ كَلِمَةِ الصِّدْقِ ، علىٰ لسانِ أهْلِ الحَقِّ ، وصَوْنِ أمَانَةِ اللهِ تعالىٰ وشِعَارِ دِينِه بين الخَلْق ؛ فلا يَتَغَيَّرَ عَقْدُ هذا الصُّلْحِ الشريف علىٰ مَدَى الليالى والأيام ، ولا يَنْقَضِى حُكْمُه ولا يَنْحَلُّ إبْرامُه علىٰ تَوالى السِّنين والأعْوام .

هذا : على أن لا يدخُلَ أحَدٌ من عساكرهما وجُنْدِهما ومَمَالِيكِهما إلىٰ حُدُود مَمْلَكَةِ الآخَر ، ولا يتعرَّضَ إلىٰ ما يتعلَّقُ به من مَمَالِكَ وقِلاعٍ ، وحُصُونٍ وسَوَاحِلَ ومَوَانٍ وغير ذلك من سائر الأنواع ؛ ورَعَاياهُما من جميع الطوائف والأجناس ، وما هو مختصٌّ ببِلادِ كلٍّ منهما ومَعْروفٌ به بين الناس : حاضِرِها وبادِيها ، وقاصِيها ودَانِيها ، وعامِرِها وغامِرِها ، وباطِنِها وظاهِرِها ، ولا إلىٰ من فيها من الرَّعِيَّةِ والتُّجَّارِ والمسافرين ، وسائر الغادِينَ والرَّائحينَ فى السُّبُلِ والطُّرُق : متفرِّقين ومجتمعين .

هذا علىٰ أن يكونَ كُلٌّ من المَقَامَين الشَّريفين المُشارِ إليهما مع الآخَرِ علىٰ أكْمَل ما يكون فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاء : من حُسْنِ الوَفَاء ، وجَميلِ المَوَدَّة والصَّفاء ؛ ويكونا فى الاتحاد كالوَالِدِ والوَلَد ، وعلى المُبالَغَةِ فى الامْتِزاجِ والاخْتِلاط كرُوحَيْنِ فى جَسَد ؛ مع ما يُضافُ إلىٰ ذلك من مُصادَقَةِ الأصْدقاء ، ومُعادَاةِ الأعْداء ، ومُسالَمَةِ المُسَالمين ، ومُحارَبَةِ المُحارِبين ؛ فى السِّرِّ والإعلان ، والظُّهُورِ والكِتْمان ؛ وبالله التَّوْفيق ، وهو العالِمُ بما تُبْدِى الأعْيُنُ وما تُخْفِى الصُّدور ، وعليه التُّكْلانُ فى كُلِّ الأمور ، فى الغَيْبة والحُضُور ، والوُرُود والصُّدُور .

الباب السادس
من المقالة التاسعة
(فى الفسوخ الواردة على العقود السابقة، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل
الفَسْخُ، وهو ما وقع من أحَدِ الجانبين دونَ الآخَر

قال فى "التعريف" : وقلَّ أن يكونَ فيه إلا ما يبعثُ به على ألسِنَةِ الرُّسل .
قال : وقد كتب عَمِّى الصاحبُ شرفُ الدِّين [أبو محمد][1] عبدُ الوهَّاب رحمه الله ، سنة دخول العساكر الإسلامية مَلَطْيَةَ، سنة أربع عشرةَ وسبعمائةٍ فَسْخًا على التكفور متملك سِيسَ، كان سببا لأن زاد قَطِيعتَه . ولم يذكر صورة ما كتبه فى ذلك .

وقد جرتِ العادةُ أنه إذا كان الفَسْخُ من الجانبِ الواحدِ أن يذكُرَ الكاتبُ فيه مُوجِبَ الفَسْخِ الصادر عن المفسوخ عليه : من ظُهورِ ما يوجب نَقْضَ العَهْد، ونَكْثَ العَقْد، وإقامَةَ الحُجَّة على المفسوخ عليه من كل وَجْهٍ .

قال فى "التعريف": والذى أقولُ فيه : إنه إن كُتِب فيه، كُتِب بعد البسملة :

هذا ما ٱستخار الله تعالىٰ فيه فلانٌ، ٱستخارةً تَبَيَّنَ له فيها غَدْرُ الغادر، وأظهر له بها سِرَّ البَاطِن ما حَقَّقه الظَّاهِر؛ فسخَ فيها علىٰ فلانٍ ما كان بينه وبينه من المُهادنَةَ التى كان آخِرُ الوقتِ الفلانىّ آخِرَ مُدَّتِها، وطهَّر السيوف الذُّكُور فيها من الدِّماء إلى ٱنقضاء عِدَّتِها؛ وذلك حين بدا منه من مُوجِبات النَّقْض، وحَلِّ المُعاقَدَةِ التى كانت يُشَدُّ بَعْضُها ببعض (وهى كذا وكذا، وتذكر وتعدّ) ممـا يوجبُ كلُّ ذلك إخْفارَ

(١) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٧١) .

الذِّمَّه ، ونَقْض العهود المَرْعِيَّة الحُرْمَه ؛ وهَـدّ قواعِدِ الهُدْنه ، وتَخْلِيَـةَ ما كان قد أُمْسِك من الأَعِنَّه ؛ كتبَ إنْذارا ، وقدّم حِذَارا ؛ وممن يشهدُ بوجوب هذا الفَسْخ ، ودخول مِلَّة تلك الهُدْنة فى حُكْم هـذا النَّسْخ ؛ ما تشهدُ به الأيّام ، ويحكم به عليه النَّصْر المكتَتَبُ للإسلام ؛ وكُتِب هذا الفسخُ عن فلانٍ لفلانٍ وقد نبذإليه عَهْده ، وأنْجز وَعْده ؛ وأنفذ إليـه سَهْمه بعد أن صَبَر مَلِيًّا علىٰ مُمَـالَاته ، وأقام مدّة يُدارِى مَرَضَ وَفائه ولا ينجحُ فيه شيءٌ من مُدَاواته ؛ ولَيَنصُرَنَّ اللهُ من يَنصُرُه ، ويَحْذَر مَن يَأْمَنُ مَكْرَه مَن يَحْـذَرُه ؛ وأمر فلانٌ بأن يقرأ هـذا الكِتَابُ علىٰ رءُوس الأشهاد ، لينقلَ مَضْمونَه إلى البلاد ؛ أنَفَةً من أمر لا يتأَدَّىٰ به الإعلان ، وينصبُ به لهذا الغَادِرِ لِواءٌ لا يقال إذا يقال : هذا اللِّواءُ لغَدْرة فلان بن فلان .

الفصـــــل الثـانى

المُفاسَخَة وهى ما يكون من الجانبين جميعا

قال فى "التعريف" : وصورةُ ما يكتَبُ فيها : هذا ما ٱختاره فلانٌ وفلانٌ من فَسْخ ما كان بينهـما من المُهادَنَةِ التى هى إلىٰ آخر مدّة كذا . ٱختارا فَسْخَ بِنائِها ، ونَسْخ أنْبائها ؛ ونَقْضَ ما أبْرِمَ من عقودها ، وأَكِّدَ من عُهُودها ؛ جرت بينهما علىٰ رِضا من كلٍّ منهـما بايقاد نارِ الحَرْبِ، التى كانت أُطْفِئَتْ ، وإثَارةِ تلك التَّوائرِ التى كانت كُفِيَتْ ؛ نبذاه علىٰ سَواءٍ بينهما ، وٱعتقادٍ من كلٍّ منهما ؛ أن المَصْلحةَ فى هذا لِجهَتِه ، وأسْقط ما كان يحْمِله للآخَرِ من رِبْقَتِه ؛ ورَضِىَ فيـه بقضاء السُّـيوف ، وإمضاءِ أمْر القَدَرِ والقَضَاءِ فى مُسَاقَاتِ الحُتُوف ؛ وقد أشهدا عليهـما بذلك اللهَ وخَلْقَه ومن حَضَر ، ومن سَمِـعَ ونَظَر ؛ وكان ذلك فى تاريخ كذا وكذا .

المقالة العاشرة

فى فُنُونٍ من الكِتَابة يَتَداولها الكُتّاب وتَتَنافَسُ فى عملها، ليس لها تعلُّقٌ بكِتَابة الدَّواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأوّل

فى الجِدِّيَّات، وفيه خمسة فصول

الفصل الأوّل

فى المَقَامات

وهى جمع مَقَامَةٍ بفتح الميم، وهى فى أَصْلِ اللُّغة اسمٌ للمَجْلِس والجماعةِ من الناس. وسُمِّيت الأُحْدُوثَة من الكلام مَقامةً، كأنها تُذْكر فى مجلس واحدٍ يجتمعُ فيه الجماعةُ من الناس لسماعها. أما المُقامَةُ بالضَّم، فبمعنى الإِقَامَةِ، ومنه قوله تعالىٰ حكايةً عن أهل الجَنَّة: ﴿الَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

واعلم أن أوّلَ من فتح بابَ عَمَلِ المقامات، عَلَّامةُ الدَّهْر، وإمام الأدَب، البَدِيعُ الهَمَذَانِىُّ: فعَمِل مقاماتِه المشهورةَ المنسوبةَ إليه، وهى فى غايةٍ من البلاغة، وعُلُوِّ الرُّتبة فى الصَّنْعة. ثم تلاه الإمام أبو محمدٍ القاسمُ الحَرِيرىُّ، فعمل مَقَاماتِه الخمسينَ المشهورةَ، فجاءت نهايةً فى الحُسْن، وأتت على الجُزْءِ الوَافِر من الحَظِّ؛ وأقبل عليها الخاصُّ والعامّ، حتىٰ أنْسَتْ مقاماتِ البَدِيع وصيَّرتها كالمرفُوضة. علىٰ أن الوزيرَ ضياءَ الدّين بنَ الأثير فى "المَثَل السَّائر" لم يُوَفِّه حَقَّه، ولا عَامَلَه بالإنصاف، ولا أجْمَل معه القَوْل. فإنه قد ذكر أنه ليس له يَدٌ فى غير المقامات،

حتّىٰ ذَكَرَ عن الشيخ أبى محمدٍ أحمدَ بنِ الخَشَّابِ أنه كان يقول : إن الحَرِيرِىَّ رَجُلُ مقاماتٍ . أىْ إنَّه لم يُحْسِن من الكلامِ المنْثُورِ سواها، فإن أتىٰ بغيرها فلا يقولُ شيئًا . وذَكَرَ أنه لما حضر بَغْدَادَ، ووُقِفَ علىٰ مَقَاماته، قيل : هذا يُسْتَصلَحُ لِكتابة الإنشاء فى دِيوانِ الخِلافَةِ، ويَحْسُن أثَرُه فيه، فأُحْضِر وكُلِّف كِتَابةَ كِتَابٍ فأُفْحِمَ، ولم يَجْرِ لِسانُه فى طويلِه ولا قَصيرِه، حتّىٰ قال فيه بعضُهم :

شَيْخٌ لنا من رَبيعَةِ الفَرَسِ * يَنْتِفُ عُثْنُونَه من الهَوَسِ،

أنْطقَه اللهُ بالمَشَانِ وفى * بَغَدَادَأضْحَى المَلْجُومَ بالخَرَسِ!

وٱعتُذِرَ عنه بأن المقاماتِ مَدَارُها جَمِيعُها علىٰ حكاية تخرجُ إلىٰ مَخْلَصٍ، بخلاف المكاتبات فانها بَحْرٌ لا ساحِلَ له : من حيثُ إن المعانِىَ تتجدّدُ فيها بتَجَدُّدِ حوادث الأيام، وهى مُتَجَدِّدَةٌ علىٰ عَدَدِ الأنفاس .

وهذه المقامةُ التى قَدَّمتُ الإشارة إليها فى خُطْبَةِ هذا الكِتَاب، إلىٰ أنِّى كنتُ أنشأتُها فى حُدُود سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة، عند ٱستقرارى فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة، وأنها ٱشتملتْ ـ مع الٱختِصَار ـ علىٰ جُملةٍ جَمَّةٍ من صِناعَة الإنشاء، وسَمْتُها بـ"الكَواكِب الدُّرِّيَّة، فى المَنَاقِبِ البَدْرِيَّة" ووجَّهتُ القولَ فيها لَتقْرِيظِ المَقَرِّ البَدْرِىِّ، بن المَقَرِّ العَلائىِّ، بن المَقَرِّ المُحْيَوِىِّ، بن فَضْلِ الله، صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالدِّيار المِصْرية يومئذٍ . جعلتُ مَبْناها علىٰ أنه لا بُدَّ للإنسانِ من حِرْفةٍ يتعلَّق بها، ومَعِيشةٍ يتمَسَّكُ بسَبَبِها؛ وأن الكتابةَ هى الحِرْفَةُ التى لا يليقُ بطالِبِ العِلْمِ سِوَاها، ولا يجوزُ له العُدُولُ عنها إلىٰ ما عداها؛ مع الجُنُوح فيها إلىٰ تفضيل كتابة الإنشاء وتَرْجِيحها، وتَقْدِيمها علىٰ كتابة الدِّيوَنَةِ وتَرْشِيحها .

وقد اشتملَتْ علىٰ بَيَانِ ما يحتاجُ إليه كَاتِبُ الإنشاءِ من المَوادّ ، وما ينبغى أن يَسْلُكه من الجوَادّ ؛ مع التَّنْبيه علىٰ جُمْلة من المُصْطَلح بيَّنَتْ مَقاصِدَه ، ومَهَّدتْ قَواعِدَه ؛ علىٰ ماستَقِفُ عليه فى خلال مَطَاوِيها إن شاء الله تعالىٰ، وهى :

حَكَى النَّاثِرُ ابن نَظَّامٍ، قال : لم أَزَلْ من قَبْلِ أن يَبْلُغَ بَرِيدُ عُمْرى مَرْكَزَ التَّكْليف ، ويتفرَّقَ جَمْعُ خاطِرِى بالكُلَف بعد التَّأْليف ؛ أَنْصِبُ لاقْتِناصِ العِلْمِ أشْرَاكَ التَّحْصيل، وأنَزِّهُ تَوْحيدَ الاشتغال عن إشْرَاك التَّعْطيل؛ مُشَمِّرًا عن سَاقِ الجِدّ ذَيْلَ الاجتهاد ، مُسْتَمِرًّا على الوَحْدَةِ ومُلازَمَةِ الانْفِراد ؛ أنتهِزُ فُرْصَة الشَّبابِ قبل تَوَلِّيها ، وأغْتَنِمُ حالةَ الصِّحَّة قبل تجافِيها ؛ قد حَالَفَ جَفْنِى السُّهاد ، وخَالَف طيبَ الرُّقاد ؛ أُمَرِّنُ النَّفْسَ علىٰ الاشتغال كَىْ لا تَمَلَّ فتنفِرَعن الطَّلَبِ وتَجْمح ؛ مُمِيلًا جانبَ قَصْدِها عن رُكُوب الأهواء والمَيْلِ إليها ، صارِفًا وَجْهَ غايَتِها عن المَطَالب الدُّنْيوِيَّة والرُّكُونِ إليها ؛ مُتَخَيِّرًا أَلْيَقَ الأماكِنِ وأوْفَقَ الأوْقات ، قَانِعًا بأدْنى العَيْش رَاضِيًا بأيْسَرِ الأقْوات؛ أُونِسُ من شَوَارِدِ العقول وَحْشِيَّها ، وأشَرِّدُ عن رَوابِضِ المَنْقول حُوشِيَّها؛ وألْتَقِطُ ضَالَّةَ الحِكْمة حيثُ وَجدتُها ، وأقَيِّدُ نَادِرَةَ العِلْمِ حيثُ أَصَبْتُها ؛ مُقَدِّمًا من العلوم أشْرَفَها ، ومُؤْثِرًا من الفُنونِ أَلْطَفَها؛ مُعْتَمِدًا من ذلك ماتألَفُه النفسُ ويَقْبلُه الطَّبْع ، مُقْبِلًا منه علىٰ مايَسْتَجْلِي حُسْنَه النَّظَرُ ويَسْتَحْلِي ذِكْرَه السَّمْع ؛ مُنْتَقِيًا من الكُتُب أمْتَعَها تَصْنِيفا ، وأتَمَّها تحريرًا وأحْسَنَها تأْليفا؛ مُنْتَخِبًا من أشياخ الإفادة أوْسَعَهم عِلْمًا وأكْثَرَهم تحقيقا، ومن أقْرانِ المُذاكَرَة أرْوَضَهم بحْثا وأَلْطَفَهم تَدْقيقا؛ عارِفًا لكلِّ عَالِمٍ حَقَّه ، ومُوَفِّيًا لكلِّ عِلْمٍ مُسْتَحَقَّه ؛ قد استغنيتُ بكِتَابى عن خِلٍّ ورَفِيقٍ ، وآثرت بَيْتَ خَلْوَتى علىٰ شَفِيقٍ وشَقِيقٍ ؛ أجُوبُ فَيافِيَ الفُنُون لتَظْهرَلى طلائِعُ الفوائد فأشْهَدَها عِيانا ، وأجُولُ فى مَيْدَانِ الأفكار لتَلُوحَ لى كَامِنُ المعانى فلا أثْنِي عنها عِنَانا؛ وأَشُنُّ غاراتِ المطالعة علىٰ كَتَائِبِ الكُتُب فأرْجِع

بالغَنيمه، وأهْجُمُ علىٰ حُصُون الدَّفاتِر ثم لا أوَلِّى عن هَزيمَه؛ بل كُلَّما لاحَتْ لى فِئَةٌ من البَحْثِ تحَيَّزْتُ إليها، أو ظهرتْ لى كَتيبةٌ من المعانى حَملتُ عليها؛ إلىٰ أن أُتيح لى من الفَتْحِ ما أفاضته النِّعْمه، وحَصَلتُ من الغنيمة علىٰ ما ٱقْتَضَتْه القِسْمه .

فبَيْنا أنا أرْتَعُ فى رِياضِ ما نُقِّلت، وأجْتَنِى ثِمارَ ما خُوِّلْت، إذْ طَلَع علىَّ جَيْشُ التَّكْليف فحَصرنى، وخرج عَلَىَّ كَمِينُ التَّكْليف فأسَرنى؛ فأمْسَيْتُ فى أضْيَقِ خِناق، وأشَدِّ وَثاق؛ قد عاقَنِى قَيْدُ الاكتساب عن الاشتغال، وصَدَّنِى كَلُّ الكَدِّ عن الاهتمام بالطَّلَبِ والاحْتِفال؛ فغَشِيَنِى من القَبْضِ ما غَشِيَنِى، وأخَذَنى من الوَحْشَة ما أخَذَنى؛ وتعارضَ فِىَّ حُكْمُ العَقْل بين الكَسْب وطَلَبِ العِلْم، وتَساوَيَا فى التَّرْجيح فلم تَجْنَحْ واحدةٌ منهما إلى السِّلْم؛ فَصِرْتُ مَدْهوشًا لا أُحْسِنُ صُنْعا، وبَقِيتُ مُتَحيِّرًا لا أدْرِى أىّ الأمْرَين أقربُ إلىَّ نَفْعا؛ : إن طلبتُ العِلْمَ للكَسْبِ فقد أخْفَقْتُ رُجُوعا، وإن تركتُ الكَسْبَ للعِلْم هَلَكْتُ ضَيْعَةً ومُتُّ جُوعا .

فلما عَلِمتُ أنَّ كُلًّا منهما لا يقوم إلا بصَاحِبِه، ولا يَتِمُّ الواجبُ فى أحَدِهما مالم يُقَمْ فى الآخَرِ بواجِبِه؛ ٱلتمستُ كَسْبًا يكونُ للعِلْمِ مُوافِقا، وبجَمَالَتِه لائِقا؛ ليكونَ ذلك الكَسْبُ للعِلْمِ مَوْضوعًا والعِلْمُ عليه محْمولا، والجَمْعُ ولو بوَجْهٍ أوْلىٰ؛ فجعلتُ أسْبُرُ المَعايِشَ سَبْرَ مُتَقَصِّد، وأسِيرُ فى فَلَواتِ الصَّنائِع سَيْرَ مُتَعهِّد؛ لكَىْ أجِدَ حِرْفةً تُطابِقُ أرَبِى، أو صَنْعةً تُجانِسُ طَلَبِى .

فبينما أنا أَسِيرُ فى مَعاهِدِها، وأرَدِّدُ طَرْفِى فى مَشاهِدِها؛ إذْ رُفِعَ لى صَوْتٌ قَرَعَ سَمْعِى برَنَّتِه، وأخَذَ قَلْبِى بحَنَّتِه؛ فقَفَوْتُ أثَرَه مُتَّبِعا، ومِلْتُ إليه مُسْتَمِعا؛ فإذا رَجُلٌ من أحْسَنِ الناس شَكْلا، وأرْجَحِهم عَقْلا؛ وهو يترنَّم ويُنْشِدُ :

إنْ كُنْتَ تَقْصِدُنِى بِظُلْمِكَ عامِدًا، * فحُرِمْتَ نَفْعَ صَداقَةِ الكُتَّابِ؛

السَّائِقِينَ إلى الصِّديقِ ثَرى الغِنىٰ * والنَّاعِشِينَ لعَـثْرَةِ الأصْحَـابِ،
والنَّاهِضِينَ بكُلِّ عِبْءٍ مُثْقِـلٍ * والنَّاطِقين بفَصْلِ كُلِّ خِطَابِ،
والعَاطِفِينَ على الصَّديقِ بفَضْلِهِمْ * والطَّيِّبِينَ رَوائِحَ الأثْوابِ.
وَلَئِنْ جَحَدتهـم الثَّنـاءَ فطالمَـا * جَحَـدَ العَبِيدُ تَفَضُّلَ الأرْبابِ!

فلما سمعتُ منه ذلك، وأعْجَبِني من الوَصْفِ ما هُنالك؛ دَنوتُ منه دُنوّ الوَاجل، وجَلَستُ بين يديه جُلُوسَ السَّائِل؛ وقلتُ: هذه وأبِيكَ صِفاتُ المُلُوكِ بل مُلُوكُ الصِّفات، وأكْرَمُ الفَضَائِل بل أفْضَـلُ المَكْرُمات؛ ولم أَكُ أظُنُّ أنَّ للكتابة هـذا الخَطَرَ الجَسِيم، وللكُتَّابِ هـذا الحَظَّ العَظِيم؛ فأعْرَضَ مُغْضبا، ثم فَوّق بَصَرَه إلىّ مُعْجبا؛ وقال: هَيْهاتَ فاتَكَ الحَزم، وأخْطَأَكَ العَزْم؛ إنها لمن أعْظَمِ الصَّنائع قَدْرا، وأرْفَعِها ذِكْرا؛ نَطَقَ القرآنُ الكَرِيمُ بفَضْلِها، وجاءت السُّـنَّة الغَرّاءُ بتَقْدِيم أهْلِها؛ فقال تعالىٰ جلَّ ثناؤه، وتبارَكتْ أسماؤه: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ عَلَّمَ ٱلْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْـلَمْ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه عَلَّمَ بالقَلَم، حيثُ وصف نفسه بالكَرَم؛ إشارةً إلىٰ أن تَعْلِيمَها من جَزِيل نِعَمه، وإيذَانًا بأن مَنْحَها من فَائِضِ دِيَمه؛ وقال جَلَّتْ قُدْرَته: ﴿نٓ وَٱلْقَـلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فأقسم بالقلم وما سَـطَّرته الأقلام، وأتىٰ بذلك فى آكَدِ قَسَمٍ فكان من أعْظَمِ الأقْسَام. وقال تقدّسَتْ عَظَمَتُه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾ فجعلَ الكتابةَ من وصْفِ الكِرَام، كما قد جاء فِعْلُها عن جمـاعةٍ من الأنبياء عليهم السلام؛ وإنمـا مُنِعَها النَّبىُّ صلَّى الله عليـه وسلم مُعْجزةً قد بيَّنَ تعـالىٰ سَبَبَها، حيثُ ذكر إلْحَـادَهُم بقوله: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾.

هذا : وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم فى كَثْرةِ الكُتَّاب رَاغِبا ، فقد رُوِىَ أنه كان له عليه أفضَلُ الصَّلاة والسَّلام نَيِّفٌ وثلاثون كاتِبا ؛ هم نُخْبَة أصْحابِه ، وخُلاصَة أتْرابِه ؛ مَن آئْتَمَنَهم علىٰ أسرار الوحْيِ والتَّنْزِيل ، وخاطَبَ بألْسِنَةِ أقْلامِهِم مُلُوكَ الأرض فأجابوا بالإذْعانِ على البُعْدِ والمَدَى الطَّوِيل ؛ وكتبَ المُلُوكُ أيضا إليه آبتداءً وجوابا ، وكاتَبَ أصْحابَه وكاتَبُوه فأحسن آستماعا وأفْخَمَ خِطَابا ؛ وبهذلك جَرَتْ سُنَّة الخُلَفاء الراشدين فمن تَلاهُم ، وعلىٰ نَهْجِهِ مَشَتْ ملوكُ الإسلام ومن ضَاهَاهم .

فالكِتَابَةُ قانُونُ السِّيَاسَه ، ورُتْبَتُها غَايَةُ رُتَبِ الرِّياسَه ؛ عِنْدها تَقِفُ الإنَافَه ، وإليها تَنْتَهِى مَنَاصِبُ الدُّنيا بعد الخِلَافه ؛ والكُتَّابُ عُيُون الملوكِ المُبْصِرة وآذانُهم الوَاعِيه ، وألْسِنَتُهم النَّاطِقة وعُقُولُهم الحَاوِيَه ؛ بل مَحْضُ الحقِّ الذى لا تَدْخلُه الشُّكُوك ، وإن المُلُوكَ إلى الكُتَّابِ أحْوَجُ من الكُتَّابِ إلى المُلُوك ؛ وناهيكَ بالكِتَابَة شَرَفا ، وأَعْلِ بذَلكَ رُتْبةً وكَفَىٰ ؛ أَنَّ صاحِبَ السَّيْفِ والعَلَمِ يُزاحِمُ الكَاتِبَ فى قَلَمِه ، ولا يَزاحِمُ الكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ والعَلَمِ فى سَيْفِهِ وعَلَمِه .

وعلى الجُمْلةِ فهم الحَاوُون لكلِّ وَصْفٍ جَمِيل ، وشَأْنٍ نَبِيل ؛ الكَرَمُ شِعَارُهم ، والحِلْمُ دِثَارُهم ؛ والجُودُ جَادَّتُهم ، والخَيْرُ عَادَتُهم ؛ والأدَبُ مَرْكَبُهم ، واللُّطْفُ مَذْهَبُهم ؛ وللهِ القائِلُ :

وَشَمُولٍ كَأَنَّمَا آعْتَصَرُوها * من مَعَانِى شَمَائِلِ الكُتَّابِ !

فلما آنْقضىٰ قِيلُه ، وبانَتْ سَبِيلُه ، قلتُ : لقد ذكرتَ قَوْمًا رَاقَنِى وَصْفُهم ، وشَاقَنِى لُطْفُهم ؛ ودَعانِى طِيبُ حَدِيثِهم ، وحُسْن أوْصافِهِم ، وجَمِيلُ نُعُوتِهم ؛ إلىٰ أن أَحُلَّ بنَادِيهم ، وأنْزِلَ بوَادِيهم ؛ فأجْعَلَ حِرْفَتَهم كَسْبِى ، وصَنْعَتَهم دَأْبِى ؛ ليَجْتَمِعَ بالعِلْمِ شَمْلِى ، ويتَّصِلَ بالآشْتِغالِ حَبْلِى ؛ فأكُونَ قد ظَفِرْتُ بمُنْيَتِى ، وفُزْتُ ببغْيَتِى .

فأىَّ قَبيلٍ من الكُتَّاب أردت ؟ وإلى أىِّ نوعٍ من الكِتَابةِ أشَرْت ؟ أكِتَابةَ الأمْوالِ ؟ أم كِتَابةَ الإنْشاءِ والخطابة؟ ، أم غيرَهُما من أنْواعِ الكِتَابة ؟ ؛ فنظَرَ إلىَّ مُتَبسِّما ، وأنشد مُتَرنِّما :

قَوْمٌ إذا أخَذُوا الأقلامَ من غضَبٍ * ثم آسْتَمَدُّوا بها ماءَ المَنِيَّاتِ ،
نالُوا بها من أعَادِيهِمْ وإن بَعُدُوا * مالَمْ ينَالُوا بحَدِّ المَشْرَفِيَّاتِ !

فقلتُ : كأنَّك تُرِيدُ كِتَابةَ الإنشاءِ دونَ سائرِ الكِتَابات ، وهى التى تَقْصِدُها بالتَّصْريح وتُشِيرُ إليها بالكِنَايات ؛ فقال : وهَلْ فى أنواع الكِتَابة جُمْلَةً نوعٌ يُساوِيها ، أو فى سائرِ الصَّنائعِ على الإطْلاقِ صَنْعةٌ تُضاهِيها؟ ؛ إنَّ لها لَلقِدْحَ المُعَلَّى ، والجِيدَ المُحَلَّى ؛ والذِّرْوةَ المُنِيفَه ، والرُّتْبَةَ الشَّرِيفَه ؛ كُتَّابُها أسُّ المُلْكِ وعِمَادُه ، وأرْكانُ المُلْكِ وأطْوَادُه ؛ ولِسَانُ المملكَةِ النَّاطِق ، وسَهْمُها المفَوَّقُ الرَّاشِق ؛ ولله حَبِيبُ بن أوسٍ الطَّائِىّ حيثُ يقول :

ولَضَرْبَةٌ من كَاتِبٍ ببَنَانِه * أمْضَى وأقْطَعُ من رَقِيقِ حُسَامِ !
قَوْمٌ إذا عَزَمُوا عَداوةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدِّمَا بأَسِنَّةِ الأَقْلامِ !

قَلَمُها يبَلِّغُ الأَمَل ، ويُغْنِى عن البِيضِ والأَسَل ؛ به تُصانُ المَعَاقِل ، وتُفَرَّقُ الجَحَافل :

فَلَكَمْ يَفُلُّ الجَيْشَ وهو عَرَمْرَمٌ * والبِيضُ ما سُلَّتْ من الأغْمادِ !

فقلتُ : إن كُتَّاب الأمْوالِ يزعمون أن لهم فى ذلك المَقَامَ الأعْلَى ، والطَّرِيقَةَ المُثْلَى ؛ ويَسْتَشْهِدُون لفَضْلِها ، وتَقَدُّمِ أهْلِها ؛ بقولِ الإمامِ أبى محمد القَاسِمِ الحَرِيرِىّ رحمه الله ، فى مقامَاتِه :

«إنَّ صناعَةَ الحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ على التَّحْقِيق ، وصِناعَةَ الإنْشاءِ مَبْنِيَّة على التَّلْفِيق ؛ وقَلَمَ الحَاسِبِ ضَابِط ، وقَلَمَ المُنْشِئ خَابِط ؛ وبين إتَاوَةِ تَوْظِيفِ المُعَامَلات ، وتِلاوَة

طَوامير السِّجلّات ؛ بَوْنٌ لا يُدرِكُه قِياس، ولا يَعْتورُه ٱلْتِباس ؛ إذِ الإتاوةُ تَمْلأُ الأكْياس، والتِّلاوةُ تُفرِّغُ الرَّاس ؛ وخَراجُ الأوارِج ، يُغْنِي النّاظِر ، وٱستِخراجُ المَدارِج ، يُعَنِّي الخاطِر ؛ والحَسَبةُ حَفَظةُ الأموال ، وحَمَلةُ الأثْقال ؛ والنَّقَلةُ الأثْبات ، والسَّفَرةُ الثِّقات ؛ وأعْلامُ الإنْصاف والٱنْتِصاف ، والشُّهودُ المَقانِعُ فى الٱختلاف؛ ومنهم المُسْتَوْفِى الذى هو يَدُ السُّلطان، وقُطْبُ الدِّيوان؛ وقِسْطاسُ الأعمال ، والمُهَيْمِنُ على العُمَّال ؛ وإليه المَآبُ فى السِّلْمِ والهَرْج، وعليه المَدار فى الدَّخْلِ والخَرْج؛ وبه مَناطُ الضُّرِّ والنَّفع، وفى يَدِه رِباطُ الإعْطاءِ والمَنْع؛ ولولا قَلَمُ الحُسَّاب، لأوْدَت ثَمَرةُ الٱكتساب، ولٱتَّصل التَّغابُنُ إلىٰ يوم الحِساب؛ ولَكان نِظامُ المعاملات مَحْلُولا ، وجُرْحُ الظُّلامات مَطْلُولا ، [وجِيدُ التَّناصُف مَغْلُولا](١) ، وسَيْفُ التَّظالُمِ مَسْلُولا ؛ على أنَّ يَراعَ الإنشاء مُتَقَوِّل ، ويَراعَ الحِسابِ مُتأَوِّل ؛ والمُحاسِبُ مُناقِش، والمُنْشِئُ أبو بَراقِش» .

فوصفَ كِتابَةَ الأموال بأتَمِّ الصِّفات، ونَبَّه من شِيَم أهْلِها وشِياتِهم علىٰ أكْرَمِ الشِّيَم وأحْسَنِ الشِّيات .

فقال : هذه الحُجّة مُعارَضَةٌ بِمِثْلِها ، بل باطِلَةٌ من أصْلِها ؛ وأيْنَ ذلك من قوله فى صَدْرِ كلامه ؟ :

«اعلموا أن صِناعَةَ الإنشاءِ أرْفَع، وصِناعَةَ الحِسابِ أنْفَع ؛ وقَلَمَ المُكاتَبَةِ خاطِب، وقَلَمَ المُحاسَبَةِ حاطِب؛ وأساطِيرُ البلاغات تُنْسَخُ لتُدْرَس، ودَساتيرُ الحُسْبانات تُنْسَخُ وتُدْرَس ؛ والمُنْشِئُ جُهَيْنَةُ الأخبار، وحَقِيبَةُ الأسْرار ؛ ونَجِيُّ العُظَماء، وكَبِيرُ النُّدَماء؛ وقَلَمُه لِسانُ أسْرارِ الدَّوْله، وفارِسُ الجَوْلَه ؛ ولُقْمانُ الحِكْمَه، وتَرْجُمانُ الهِمَّه؛ وهو

(١) الزيادة من مقامات الحريرى .

البَشير والنَّذير، والشَّفيع والسَّفير، به تُسْتخلَص الصَّياصى، وتُمْلَكُ النَّواصى؛ ويُقتاد العَاصى، ويُسْتدْنَى القاصى؛ وصَاحِبُه بَرِىءٌ من التَّبِعات، آمِنٌ كَيْدَ السُّعات؛ مُقرَّظٌ بين الجماعات، غير مُعرَّضٍ لنَظْمِ الجمَاعات» .

فهذه أرْفَع المَرَاتب، وأشْرَف المَنَاقب، التى لا يَعْتورُها شَيْن، ولا يَشُوبُها مَيْن، وصَدْرُ الكَلَام يَقْتَضِى التَّرْجيج، ويُؤْذِنُ بالتَّرْشِيح؛ والرَّفْع، أبْلَغُ فى الوَصْف من النَّفْع؛ فقد يُنْتَفَع بالنَّزْرِ اليَسير، ولا يُرْتَفَع إلا بالأمْرِ الكَبير؛ على أنَّه لو ٱعتبر نَفْع كِتَابة الإنشاءِ لكان أبْلَغ، وإقامَةُ الدَّليل عليه أسْوَغ؛ وأنَّىٰ لكُتَّاب الأموال، من التأثير فى فَلِّ الجُيُوش من غير قِتَال، وفَتْح الحُصُون من غير نِزَال؛ فهذه هى الخِصِّيصَى التى لا تُسَاوَىٰ، والمَنْقَبَةُ التى لا تُنَاوَىٰ :

تِلْكَ المَكَارِمُ لا قَعْبَانِ من لَبَنٍ * شِيبَا بمَاءٍ فعَادَا بَعْدُ أبْوالَا !

فقلتُ : الآن قد ٱنقطَعَت الحُجَّه، وبانَتِ المَحَجَّه، فما الذى يحتاج كاتب الإنشاء إلىٰ مُمارَسَتِه ؟ فقال : إذًا قد تَعلَّقتَ من الصَّنْعةِ بأسْبابِها، وأتَيْتَ البُيُوتَ من أبْوابِها .

إعلم أن كَاتِبَ الإنشاء لاتظهر فَصَاحَتُه، وتَبِينُ بَلاغَتُه، وتَقْوىٰ يَرَاعَتُه، وتَجِلُّ بَرَاعَتُه، إلا بعد تَحْصِيلِ جُمْلَةٍ من العلوم، ومَعْرِفة الٱصْطِلاح والإحاطة بالرُّسُوم؛ ثم أَهَمُّ ما يَبْدَأُ بتَحْصِيله، ويَعْتَمِدُ عليه فى جُمْلة الأمْرِ وتَفْصِيله، حِفْظُ كِتَابِ الله العَزِيزِ الذى هو مَعْدِنُ الفَصَاحه، وعُنْصُر البَلاغَه، وإدَامةُ قِراءَتِه وتَكْرِيرُ مَثانيه، مع العلم بتَفْسِيره وتَدَبُّرِ مَعانيه، حتَّىٰ لايزال دَائِرًا على لِسانه حَاضِرًا فى ذِكْرِه، ولا يبرح معناه مُمَثَّلًا فى قَلْبِه مُصَوَّرا فى فِكْرِه، ليكونَ مُسْتَحْضِرًا له فى الوقائع التى يَحْتاج إلىٰ الٱستشهاد به فيها، ويُضطَرُّ إلىٰ إقامة الأَدِلَّة القاطعةِ عليها، فللَّهِ الحُجَّةُ البالغَه، ولآياته الأجْوِبَة الدَّامِغَه، خصوصا السِّيرِ والأحْكام، وما يتعلَّقُ بذلك من مُهِمَّاتِ

الدِّينِ وقوَاعِد الإسلام؛ وما آشتَمَل عليه كَلَامُ النُّبوَّةِ من الألفاظ البَديعَة التى أبْكَمتِ الفُصَحاء، والمعانِى الدَّقيقةِ التى أعْيَتِ البُلَغاء؛ مع النَّظَرِ فى معانيها ومَعْرِفَة غريبها، والآطِّلاعِ علىٰ ما للعلمـاءِ فى ذلك من الأقوال بَعيدِها وقَرِيبِها؛ لتكونَ أبدًا حُجَّتُـه ظاهِرَه، وأدِلَّتُـه قَوِيَّةً مُتظاهِرَه؛ فإنَّ الدَّليلَ إذا آستَنَد إلى النَّصِّ آنقطَعَ النِّزَاعُ وسُـلِّمَ المدَّعَىٰ ولَزِم، والفَصَاحةُ والبَلَاغةُ غايَتُهما ـ بعد كِتَاب الله تعالى ـ فى كلام من أُوتِىَ جَوَامعَ الكَلِم؛ والعِلْمُ بالأحْكَام السُّلطانيَّة وفُرُوعِها، وخُصُوصِها وشُيُوعِها؛ والتَّوَغُّل فى أشْعارِ العَرَب والمولَّدين، وأهْلِ الصِّناعَة من المُحْدَثين؛ وما وردعن كلِّ فَرِيقٍ منهم من الأمثال نَثْرًا ونَظْمًا، وما جرىٰ بينهم من المُحَاوَرَاتِ والمُنَاقَضَاتِ حَرْبًا وسِلْمًا؛ والتَّعْويلُ من ذلك على الأشْعارِ البَديعَةِ التى آختارها العُلماءُ بها، فتَمَسَّكُوا بأوْتادِها وتَعَلَّقوا بسَبَبِها؛ والأمثالُ الغَرِيبَةُ التى آنْتَقَوْها، ودَوَّنُوها ورَوَوْها؛وآستيضاحُ القِسْمَينِ وآسـتكشافُ غَوامضِهما، وآسْـتِظهارُ النَّوْعينِ واسْتِمطـارُ عَوارِضِهما؛ والآطِّلاعُ علىٰ خُطَبِ البُلَغـاء، ورَسَائِلِ الفُصَحاء؛ وما وَقَع لهم فى مُخَاطَبَاتِهـم، ومُكَاتَبَاتِهم؛ والعِلْمُ بأيَّامِ العَرَب وحُرُوبِهم، وما كان من الوقائع بين قَبَائِلِهم وشُعُوبِهم؛ والنَّظَرُ فى التَّوارِيخِ وأخْبارِ الدُّوَلِ المـاضِيَه، والقُرُون الخَالِيه؛ وسِيَرِ المُلُوك وأحْوالِ المَـالِك، ومَعْرِفة مَكَايِدِهم فى الحَرْبِ المُنقِذَةِ من المَهاوِى والمُنْجِيَةِ من المَهَالِك .

مع سَعَةِ البَاع فى اللُّغَةِ التى هىَ رأْسُ مَالِه، وأُسُّ مَقَالِه؛ وكَنْزُه المُعَدُّ للإنْفاق، ومُعِينُه بل مُغيثُه وَقْتَ الضَّرُورة على الإطلاق؛ والنَّحوِ الذى هو مِلْحُ كَلَامِه، ومِسْكُ خِتَامِه؛ والتَّصْرِيف الذى تُعرفُ به أُصُولُ أبْنِيَةِ الكَلِمَةِ وأحْوالها، وكَيفيَّةُ التَّصَرُّف فى أسمائها وأفعالها؛ وعُلُومِ المَعَانِى والبَيَانِ والبَدِيعِ التى هى حِلْيَةُ لِسانِه، وآيَةُ بيَانِه؛ ومَعْرِفة أبْوابِها وفُصُولِهـا، وتَحْقِيقِ فُرُوعِها وأُصُولِهـا : من الفَصَاحة وطَرَائِقها، والبَـلَاغة ودَقَائِقها؛ وآختيارِ المَعَانِى وترتيبِها، ونَظْمِ الألفـاظ وتَرْكيبِها؛ والفَصْل

والوَصْلِ ومواقِعِهما ، والتّقْدِيم والتّأْخير ومواضعهما ؛ ومَوَاطِن الحَذْف والإضمار ، وحُكْم الرَّوابِطِ والأخبار ، وغير ذلك من الحَقِيقَةِ والمجاز ، والبَسْط والإيجاز ، والحَلّ والعَقْد ، وتَمْيِيز الكلام جَيِّده من رَدِيِّه بصِحّة النَّقْد ؛ مع مَعْرفةِ أنواع البَديع وطرائقها ، والاطّلاع على غَوامِض أسْرارِها وفَرائِد دَقائِقِها .

على أن آكَدَ شَيْءٍ يَجِبُ تَحْصِيله قبل كلّ حَاصِل ، ويَسْتَوِى فى الاحتياج إلى مَعْرِفَتِهِ المَفْضُولُ من الكُتّاب والفَاضِل ، العِلْمُ بالخَطّ وقَوانِينه : من الهِجَاء والنَّقْط والشَّكْل ، والفَرْق بين الضّادِ والظّاءِ المتخالفين فى الصُّورَة والشَّكْل ، مع المعرفة بآلات الكِتَابة وصِفَاتها ، وتَبايُنِ أنْواعِها واختلاف صِفَاتها .

هذه أُصولُه التى يُبنَى عليها ، وقَواعِدُه التى يُرْجَعُ إليها ، فإذا أحَاطَ بهذه الفُنُون عِلْما ، وأتْقَنَها فَهْما ، غَزُرَتْ عنده المَوَادّ ، واتّضَحتْ له الجَوَادّ ، فأخَذَ فى الاسْتِعْداد ، وسَهُل عليه الاسْتِشْهاد ، فقال عَنْ عِلْم وتَصَرَّف عن مَعْرِفَة واسْتَحْسَنَ بِبُرْهان ، وانْتَقَدَ بحُجَّة وتَخَيَّر بدليل وصاغ بتَرْتِيب وبَنَى على أرْكان ، واتَّسَع فى العِبَارة مَجَالُه ، وفُتِح له من باب الأوْصَاف أقْفالُه ، وتَلَقّى كلّ واقعةٍ بما يُماثِلُها ، وقابلَ كلّ قَضِيّة بما يُشاكِلُها ، وعَلِم المُجِيدَ فنَسَج على مِنْوالِه ، وظَهَر له القَاصِرُ فأعْرَض عن أقْوالِه ، وحصَلَ له القُوَّةُ على فَهْمِ الخِطَاب ، وأنْشأَ الجَوابَ بحَسَبِ الوَقَائِع والأغْرَاض ، على طِبْقِ المَقَاصِد والأغْراض ، ومتى أخلَّ بشَيْءٍ من ذلك فاتَتْه الفَضَائِل ، وعَلِقَتْ به الرذائل ، وقَلَّتْ بِضَاعَتُه ، ونَقَصَتْ صِنَاعَتُه ، وساءَتْ آثارُه ، وقَبُحَتْ أخْبارُه ، وخَلَط الغُرَر بالعُرَر ، ولم يُمَيِّزْ بين الصَّدَف والدُّرَر ، فأخْرجَ الصَّنْعَةَ عن أمَاكِنِها ، وطَمَس من الكِتَابة وُجُوهَ مَحاسِنِها ، يَجُرّ اللَّوْمَ إلى نَفْسِه ، وأمْسَى مَهْزَأَةً لأبْنَاءِ جِنْسِه .

و وَرَاءَ ذلك علومٌ هى كالنـافلَةِ للكَاتِب ، والزِّيادَة للرَّاغِب :

منهـا ما تكْمُل به صِناعَتُـه ، وتعظُمُ به مكَانَتُـه : كعِلْمِ الكَلَام ، وأُصولِ الفقْهِ وسائرِ الأحكام ؛ والمَنْطِقِ والجدَل ، وأحْوالِ الفِرَقِ والنِّحَلِ والمِلَل ؛ وعِلْمِ العَرُوض والميزانِ المُحْكَم ، وعِلْمِ القَوافِي وحَلِّ المُتَرجَم ؛ والحِسابِ المفتوح وما يترتَّبُ عليه من المُعامَلَه ، وما تُسْتَخرَجُ به المجهولاتُ : من حساب الخطاين والدِّرْهم والدِّينارِ والجَبْرِ والمُقابَلَه ؛ وحِسابِ الدَّوْر والوصايا ، والتَّخْت والمَيْـلِ وما لأعمـاله علىٰ غيرها من المَزَايا ؛ والعِلْمِ بالفِلاحَه ، وأحوال المِساحه ؛ وعِلمِ عُقُود الأبْنِيَة والمَناظِر المحقَّقَه ، ومَرَاكِزِ الأثْقال والمَرَايا المُحْرِقَه ؛ وعِلمِ جَرِّ الأثقال الأَبِيَّه ، والعلِم بالآلات الحَرْبِيَّه ؛ وعلِم المَوَاقِيت والبِنْكامات ، والتَّقَاويم والزِّيجات ؛ وعلِم تَسْطِيح الكُرَة والتَّوصُّل بها إلى آستخراج المَطَالِب الفَلَكِيَّه ، وكيفيةِ الأرْصاد وأحْكامِ النُّجومِ والآلات الظِّلِّيَّه ؛ وعلِم الطِّبِّ والبَيْطَره ، وأحوال سائر الحيوان وعِلْم البَيْزَره .

ومنها ما تكمل به ذاتُه ، وتَتِمُّ به أدَوَاتُه ؛ كعِلْم التَّعْبير وعلم الأَخْلاق وعلِم السِّياسَه ، وعلِم تدبير المَنْزل وعلِم الفِراسَه . وغير ذلك من العلوم التى أضْربْنا عن ذِكْرِها خَشْيَةَ الإطَالَه ، وأعْرَضْنا عن إيرادها خَوْف المَلَاله ؛ فهذه عُلُوم فَضْـلَةٌ يعظُمُ بعِلْمِها أمْرُه ، وفَضِـيلَةٌ يرتفعُ بتحصيلها ذِكْرُه ؛ بل لا يَسْتغنى عن العِلْم برءُوس مَسَائلِها ، و إشارات أرْبابِهـا الآخذَةِ من بِحارِها بأطراف سَـوَاحِلِها ؛ علىٰ أنَّه قد تَرِدُ عليـه أوقاتٌ لايَسَعُه جَهْلُ ذلك فيها ، وتمرُّ عليه أزمانٌ يودُّ لو تُشْتَرىٰ فيشْتَرِيها .

قلتُ : قد بانتْ لى عُلُومُها ، فمـا رُسُومُها؟ . قال : إن أعْباءَها لبَاهِظَةٌ حَمْلا ، و إنها لَكَبِيرَةٌ إلَّا ، ولكن سَأُحدِثُ لك ممـا سألتَ ذِكْرا ، وأُنَبِّئُكَ بمـا لم تُحِطْ به خُبْرا .

فمن ذلك : المعرفةُ بالولايات ولوَاحِقِها ، على آختلافِ مَقَاصدها وتَبَايُنِ طَرائِقِها ؛ من البَيْعاتِ وأحْكَامِها ، والعُهُود وأَقْسامِها ؛ والتَّقاليد وصِفَاتِها ، والتَّفاوِيض ومضاهاتها ؛ والمَرَاسِيم وأوْضاعِها ، والتَّواقِيع وأنْواعِها ؛ والخُطَب ومُناسَباتها ، والوَصايا ومُطابَقاتِها ؛ ثم العِلْمُ بالمَنَاشِيرِ ومَراتِبِها ، والمرَبَّعاتِ الجَيْشِيَّة ومعايِيها ؛ ومعرفةِ رُتَبِ المكاتبات وطَبقاتِها ، ومن يستَحِقُّ من الرُّتَبِ أدْناها أو يستوجب الرَّفْعَ إلىٰ أعْلىٰ دَرَجاتِها : من المكاتبات الصادرةِ عن الأبواب الشريفة الخَليفَتيِّه ، والمكاتباتِ الواردةِ عليها وعلىٰ أرباب المَنَاصِبِ من سائرِ الآلِ والعِتْرةِ النَّبويَّه ؛ ومُلوكِ المسلمين والقَانَات ، ومُلُوكِ الكُفْرِ وأرباب الدِّيانات ؛ وأهْلِ المملكةِ من النُّوّابِ والكُشَّافِ والوُلاه ، والأُمَراء والوُزَراءِ والعُرْبانِ والقُضَاه ؛ وسائرِ حَمَلةِ الأقلام ، وأهْلِ الصَّلاح وبَقِيَّة الأعلام ؛ ونِساءِ المُلُوك والخُونْدات ، ومكاتبات التُّجَّارِ وما عساه يَطْرَأُ من المكاتبات المُسْتَجِدَّات ؛ وكُتُبِ البُشْرىٰ بالجُلُوس على التَّخْتِ والفَتْح والظَّفَر ، والبُشْرىٰ بوَفَاءِ النِّيل والقُدُوم من الغَزْوِ والسَّفَر ؛ وآسْتِرهَاف العزائم ، والبَطَائِق المَحْمولةِ علىٰ أجْنِحَةِ الحَمَائِم ؛ والمُلَطَّفات التى يُضْطَرُّ إليها ، ويُعوَّلُ فى الأمور الباطنة عليها ؛ وأوْراقِ الجَوَازِ فى الطُّرُقات ، والإطلاقات فى التَّسْفير والمثالات المطلقات ؛ ومَعْرفةِ الأوصاف التى يَكْثُرُ فى المكاتبات تَكْرارُها ، ويَتَّسِقُ فى جِيدِ المراسلات إيرادُها وإصْدارُها : كوَصْفِ الأنْواءِ والكَوَاكب ، والأفْلاكِ العَلِيَّةِ المَرَاتِب ؛ والآلاتِ المُلُوكية الجَليلةِ المِقْدار ، والسِّلاح وآلات الحِصار ؛ والخَيْلِ المُسَوَّمه ، والجَوَارِح المُعَلَّمَه ؛ وجَلِيلِ الوَحْش وسِباعه ، وطَيْرِ الوَاجِب وأتْباعه ؛ والأمْكِنَة والرِّياض ، والمياه والغِياض ؛ وغير ذلك مما يَعِزُّ ويَغْلُو ، ويرتفعُ ويَعْلُو ؛ وإخْوانِيَّات المكاتبات وطَبقَاتِها ، وتميز كلِّ طَبَقَةٍ منها عن أخَواتِها ؛ وما تشتمل عليه من الآبْتِداء والجَوَاب ، والتَّشَوُّق والعتاب ؛ والتَّرَفُّق والآعْتِذار ،

والشَّفاعة وطَلَب الصَّفْح والعَفْو عنـد الاقتدار، والتَّهانِي والتَّعازِي، وما يكتبُ مع الهَدِيَّة ويجابُ عنها من المَجازِيّ وغير المَجازِي .

وغير ذلك من مَقاصِـد المكاتبات التي يتعـذَّرُ حَصْرُها، ويمتنعُ على المُسْتقصِي ذِكْرُها؛ ومعرفة الطُّغْراة والطُّرَّة والعُنْوان والتَّعريف، والعَلَامة في الكُتُب علىٰ أماكِنِها الفارقة بين انحطاط القَـدْرِ والتَّشْرِيف؛ وتَرْتِيبِ الكِتَاب وطَيِّه وخَتْمه، وتَعْمِيَة ما في الكُتُب بضَرْبٍ من الحِيـلَةِ وإخْفاءِ ذلك وكَتْمِه؛ ونُسَخ الأَيْمـانِ التي يُسْتَحْلَف بهـا، ويُتَمَسَّكُ للوفَاء بسَبَبِها؛ كيَمينِ البَيْعة العامَّة للموافِقِ والمُخالِف، وما يختصُّ من ذلك بالنُّوابِ وأرْبابِ الوَظَائف؛ وأيْمَـانِ أصحاب البِدَعِ والأهْواء، وأهْلِ المِلَلِ والحُكَماء؛ وكِتَابَةِ الهُدَن والمُواصَفات، والأمانَات والدَّفْن والمُفاسَخات؛ ومَعْرِفة الأسمـاء والكُنىٰ والألقاب، وبيانِ المستندات ومَحَلِّها المصطَلَح عليـه بين الكُتَّاب؛ وكِتَابة التَّارِيخ وما أخذتْ به كلُّ طائفةٍ وثابَتْ إليه تَمَسُّكا، وما يفتتَحُ به في الكتابة تَيُّمنًا ويختم به تَبَرُّكا؛ ومعرفةِ قَطْعِ الوَرَق : من كامِلِ البَغْدادِيّ والشَّاميّ والثُّلُثينِ والنِّصْف والثُّلُث والمَنْصوريّ والعَادَه، ومن يسـتحقُّ من هذه المقـادير أعلاها أو يُوقَف به مع أدنى رُتَبِها من غير زياده؛ والأَقْلامِ المناسبة لهذه الأقدار، من الرِّقَاع والتَّواقيع والثُّلُث ومُخْتَصرِ الطُّومار؛ والعلِم بالأوضاع وكيفيـة الترتيب، ومقادير البياض ومُباعَدَة ما بين السُّـطور والتقريب؛ ومعرفة الرَّزادِيق وقُطَّانهـا، والنَّواحِي والبُلْدان وسُكَّانها؛ والأُمَم ومَمـالِكها، وطُرُق الأقاليم ومَسالِكها؛ ومَراكِز البَرِيد ومَسَافَاتها، وأبراجِ الحَمَام ومطارَاتِها؛ وهُجُنِ الثَّلْج والسُّفُنِ المُعَـدَّة لنَقْـله، والمُحْرِقَات المؤدِّية إلى اجْتِياح العَـدُوِّ وتفْرِيق شَمْله؛ والمَنَاور وأماكنها، والقُصَّاد ومَكامِنِها .

هذه رُسُومها علىٰ سبيل الإجمال، والإشارة إلىٰ مصطلحاتها بأخْصَرِ الأقوال .

وآعلم أنَّ حُسْنَ الخَطِّ من الكتابة واسِطةُ عِقْدِها، وقُوَّةَ المَلَكةِ على السَّجْع والأَزْدواجِ مِلاكُ حَلِّها وعَقْدِها؛ علىٰ أنَّ خَيرَ الخَطِّ ما قُرِئ، وأحْسَنَ السَّجْعِ ما سَلِمَ من التَّكَلُّف وبَرِئ؛ وللكُتَّاب فى بَحْرِ الكتابة سَبْحٌ طَوِيل، وتَفَنُّنٌ يُسْفِر عن كلِّ وَجْهٍ جَمِيل .

قلت : فهل لهذه الرُّتبة الرَّئيسه، والمَنْقَبة النَّفِيسَه، سِمْطٌ يَلُمُّها، أو سِلْكٌ يضُمُّها؟ ؛ فقال : سبحان الله : إن بَيْتَها لأشْهَرُ من قِفَانَبْك، وأظْهَرُ للعِيانِ من شَامِخاتِ جِبَال النَّبْك ؛ أيَخْفىٰ من البَدْرِ ضَوْءُه الباهِر، ونُورُه الزَّاهِر؛؟ إن ذلك لقاصِرٌ علىٰ «آلِ فَضْلِ الله» حقّا، ومُنْحصِرٌ فى المَقَرِّ البَدْرِيّ صِدْقا؛ فهو قُطْبُها الذى تدور عليه، وآبْنُ بَجْدَتِها التى تَرجِعُ فى عُلُومِها ورُسُومِها وسائرِ أمورها إليه؛ فلو رآه «الفَاضِلُ عبدُ الرحيم» لم يَرَ لنَفْسِه فضلًا ولا رَضِىَ لِفِيهِ مَقَالا، أو عَايَنَه «عبدُالحميد الكاتِبُ» لقال : هكذا هكذا وإلّا فلا لا ؛ أو عاصره «قُدامةُ» لجلس قُدَّامَه، أو أدركه «آبن قُتَيْبَةَ» لاتَّخَذه فى "أدَبِ الكَاتب" شَيْخَه وإمامَه؛ أو بَصُرَ به «الصَّابى» لصَبَا إليه ومال، أو قارَنَ زمانَه «الحَسَنُ بن سَهْلٍ» بل «الفَضْلُ» أَخُوه لأقام ببَابِه وما زال؛ أو جنح «آبْنُ العَدِيم» إلىٰ مناوأته لأدركه العَدَم، أو جَرَى «الصاحِبُ بنُ عَبَّادٍ» فى مِضْمارِ فَضْلِه لَكَبَا وزَلَّتْ به القَدَم؛ أو آطَّلَع «آبنُ مُقْلَةَ» علىٰ حُسْن خَطِّه لقال : هذا هو الجَوْهَرُ الثَّمِين، أو نظر «آبنُ هِلَالٍ» إلىٰ بَهْجةِ رَوْنَقِه لقال : إنَّ هذا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِين؛ إن تكلَّم نَفَثَ سِحْرا، أو كَتَب خِلْتَ زهرا أو تَخَيَّلتَ دُرّا :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ المَنْثورَ مَنْطِقُه، * ويَنْظِمُ الدُّرَّ بالأقْلامِ فى الكُتُبِ!

قد عَلَا نَسَبا، وفاق حَسَبا؛ وورِثَ الفَضْلَ لا عن كَلَالَه، وآستَحَقَّ الرُّتبةَ بنَفْسه وإن كانت له بالأَصَالَه :

فَحَيَّهَــلًا بالمَكْرُمات وبالعُــلىٰ، * وحَيَّهَلًا بالفَضْل والسُّؤْدد المَحْض!

فلمــا سمعتُ ذلك زال عَنِّى الإلباس، وقلتُ : ذلك من فَضْــلِ الله علينا وعلى النَّاس. ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذى تُشِــيرُ إليه، إلا تَدُلُّنِي عليه؛ فقال : إنَّه صَفِيُّ المَلِكِ ونَجِيُّه؛ وكاتبُ سِرِّه ووَلِيُّه؛ والقَرِيبُ منه إذا بَعُدُوا، والمخصوصُ بالمُقَامِ إذا طُرِدُوا؛ والموَجَّهُ إليــه الخطابُ إذا حَضَروا، والمُسْتأثِرُ بالوُرُود إذا صَــدَرُوا؛ والمتكلِّم بلِسَانِ المَلِكِ إذا سَكَتوا، والناطِقُ بفَصْــلِ الخطَاب إذا بُهِتوا؛ والصَّائِلُ بحُسَامِ لِسَانه وخَطِّيِّ قَلَمه، والحَامِى المَمَــالك بجُيُوش سُطُوره وجُنْدِ كَلِمه؛ والمُشَتِّتُ شَمْلَ العَدُوِّ ببديع أَلْفاظه ودَقِيقِ حِكَمه؛ والحائزُ قَصَبَ السَّبْقِ بكَرَمِ فَضْله وفَضْــل كَرَمه، والمُرْوِى ظَمَأَ الوافدين إليــه بوَاكِف وَبْله وفائِض دِيَمِه، والمُجْلِى غَياهِب الظُّلَم بنَيِّر بَدْره ومُضِيءِ أَنْجُمِه :

فمــا زالَ بَدْرًا فى سَمــاءِ ســِيَادَةٍ * يُشارُ إليـــه فى الوَرَىٰ بالأنَامل :
بَسِيطَ مَسَاعِى المَجْــدِ يركَبُ نَجْدَةً * من الشَّرَفِ الأعلىٰ وبَذْلِ الفَوَاضل؛
إذا سَالَ أَعْيىٰ السَّامِعِــينَ جَوابُه * وإن قال لم يَــتْرُكْ مَقَالًا لقَائل!

قلتُ : حَسْبُك! قد دَلَّنِي عليه عَرْفُه، وأرْشَدنِى إليه وَصْفُه؛ وبَانَ لى مَحْتِدُه الفَاخِرُ وحَسَبه الصَّمِيم، وعرفتُ أَصْلَه الزَّاكِىَ وفَرْعَه الكَرِيم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ .

ثم عَرَّجتُ إلىٰ حِمَاه، وملْتُ إلىٰ حَيِّه كَىْ أراه؛ فإذا به قد بَرَزَ تتلألأُ أنوارُه، وتُشْرِق بالجَلالة أقْمــارُه؛ قد عَلَتْه الهَيْبــة وغَشِيَتْه السَّكِينَة وحَفَّتْه الرِياســة وجَلَّلَتْه السعاده، وحَكَمَتْ بعِزِّ مَنَال قَدْرِه الأَقْدارُ كما آقتضَتْه الإرادَه .

فلما رأيتُه آستصغرتُ الرُّتبةَ مع شَرَفِها البَاذخ فى جانبِهِ ، وعَلِمْتُ أن ما تقدَّم من المَدْحِ لم يُوَفِّ حَقَّه ولم يَقُمْ ببعض واجِبِه ؛ فَغَلَبَتْ هَيْبَتُه إقْدامِى ، وحالتْ حُرْمته بينى وبين مَرامى ؛ فقلتُ : إنا لله ! قد فَاتَتْنِى مآربى ، ورجعتُ من فَوْرِى إلىٰ صاحِبى ؛ فأظهرتُ له الأسف ، وقَصَصْتُ عليه القِصَّةَ قال : لا تَخَفْ ؛ إنها المَنْقَبةُ عُمَرِيَّه ، وأثرةٌ عَدَوِيَّه ؛ فالفَارُوقُ جَدُّه ، وبَنُو عَدِىٍّ قَبِيلُه وجُنْدُه .

هذا وإنَّه لألْطَفُ وأَرَقُّ من النَّسِيم السَّارى ، والماءِ الجارى ؛ وأحْيَىٰ من العَذْراءِ فى خِدْرِها ، وأشْفَقُ من الوَالِدَة إذا ضَمَّتْ وَلَدَها إلىٰ صَدْرِها ؛ وأحْلَمُ من « مَعْنِ بن زَائِدَه » ، وإن كان أفْصَحَ من «قُسِّ بن سَاعِدَه» :

يُغْضِى حَياءً ويُغْضَىٰ من مَهَابَتِهِ * فَلَا يُكَلَّمُ إلا حِينَ يَبْتَسِمُ!

بالعزائم الفَارُوقِيَّة فُتِحَت الأمصار ، وبالهَيْبةِ العُمَرِيَّة أقرّ المُهاجِرُون والأنصار ؛ ويشهدُ لذلك قِصَّة «آبنِ عَبَّاسٍ» فى العَوْلِ وسُكُوتُه فى خِلَافة عُمَر وصَمْتُه ، وجوابُه بعد ذلك للقائل له : هلَّا قُلتَ ذلك فى زَمَنِ عُمَر؟ بقوله : إنَّه كان مَهِيبًا فهِبْتُه ؛ كيف؟ وما سَلَك فَجًّا إلا وسَلَك الشَّيطانُ فَجًّا غير فَجِّه وضاقَتْ عليه الفِجَاج ، ولم تُماثِلْ هَيْبتُه بهَيْبَةِ غيره وإن عَظُمتْ سَطْوَتُه حتى قال الشَّعْبِىُّ : إن دِرَّةَ عُمَر لأهْيَبُ من سَيْفِ الحَجَّاج ؛ وهو مع ذلك يلطُفُ بالأرامِلِ والمساكين ، ويُعِينُ الفقراءَ والمحتاجين ؛ فقد آتضحَتْ لك القَضِيَّه ، وتحقَّقْتَ أنها سِماتٌ إرْثِيَّه .

فعند ذلك ذهَبَ رَوْعِى ، وقَوِىَ رُوعِى ؛ وقلتُ : فهل له أتباعٌ من الكُتَّاب فأتعلَقَ بحِبَالِهِم ، وأتأَسَّىٰ بهم فى أقوالهم وأفْعالِهم؟ ؛ لكى أتَّسِمَ بِسِمَةِ الكُتَّاب ، وأُثْبَتَ فى جُمْلةِ غِلْمانِ البَاب ؛ قال : أجَلْ ! رأسُ الدَّسْتِ الشريف صِنْوُه الكريم ، وقَسِيمُه فى حَسَبِه الصَّمِيم ؛ به شُدَّ عَضُدُه ، وقَوِىَ كَتَدُه ؛ فآجتمع الفَضْلُ له

ولأخيه ، ووَرِثَا سِرَّ أبيهما « والوَلَدُ سِرُّ أبيـه » ؛ ثم كُتَّابُ ديوانِ الإنشاء جُنْـدُه وأتْباعُه، وأولياؤُه وأشْياعُه؛ وكُتَّابُ الدَّسْت منهم أرْفَعُ فى المَقَـام، وكُتَّابُ الدَّرْج أجْدَرُ بالكِتابة وصَنْعةِ الكَلَام .

قلتُ : القِسْمُ الثانى ألْيَقُ بمِقْدَارِى، وأقْرَبُ إلىٰ أوْطَارِى؛ ثم وَدَّعْتُ صاحِبِي شاكِرًا له علىٰ صَنِيعِه وحامِدًا له علىٰ أدَبِه، وتركْتُه ومَضَيْتُ وكان ذلك آخرَ العَهْدِ به؛ ثم عُدْتُ إليـه هو فرفَعْتُ إليـه قِصَّتِي، وسألتُه الإسْـعافَ بإجابة دَعْوتِى؛ فقابلهـا بالقَبُول ، وأنْعَم بالمَسْئُول ؛ وقَـرَّرنى فى كِتابة الدَّرْجِ الشَّريف ، وٱكْتفىٰ بالعَرْفِ عن التَّعْرِيف ؛ وطَابَقَ الخُبْرُ الخَبَرَ ، وٱستَغْنَيتُ بالعِيَانِ عن الأَثَر؛ ثم قُمْتُ عَجِلا ، وأنْشدتُ مُرْتَجلا :

إذا مابنو الفَارُوقِ فى المَجْدِ أعْرَقُوا ، * ونالوا بفَضْـلِ اللهِ مالَا كَمِثْـلِه ،
وجَلَّتْ دُجىٰ الظَّلْماءِ أنْوارُ بَدْرِهم ، * وعَمَّتْ بِقَاعَ الأَرْض أنْواءُ فَضْلِه ،
تَعَالَتْ ذُرَى العَلْياءِ فيهم وأنْشَدَتْ : * أبَى الفَضْـلُ إلَّا أن يَكُونَ لِمثْلِه !

ثم تشرفتُ بتَقْبِيل يَدِه، ومضيتُ إلىٰ ما أنا بصَدَدِه؛ قد منَعَتْنِى هَيْبَتِي من اللِّيَاذِ به والقُرْبِ إليـه ، وصَيَّرتْ عَاطِرَ مَدْحِى وخَالِصَ أدْعِيتى وَقْفًا عليه ؛ وصِرْتُ إلى الدِّيوان، فوجدتُ قوما قد حَفَّهُم الحُسْنُ وزانَهم الإحْسان ؛ فقلتُ : الحمـدُ لله ! هؤُلاءِ فِتيةُ ذاك الكَهْفِ بلا ٱمْتِراء، وأشْبَالُ ذَاكَ الأسَـدِ من غير ٱفْتِراء؛ فجلستُ جُلُوسَ الغَرِيب ، وأطرقتُ إطْراقَ الكَئِيب ؛ إذ كُنتُ فى هـذه الصَّنْعةِ عِصامِيًّا لا عِظَامِيًّا، ومُتْهِمًا لا تِهامِيًّا ؛ غير أنى تعلقتُ منهـا بحِبال القَمَر، وٱستوقَدْتُ نارَها من أصْغَرِ الشَّرر؛ فتلَقَّوْنِى بالرَّحْب ، وأحَلُّونى من ديوانهم بالمَكَانِ الرَّحْب ؛ وقابلونى بالجميل قبل المَعْرفه ، وعامَلُونى بالإحسان والنَّصَفَه .

فلما رأيتُ ذلك منهم حَمِدتُ مَسْراى ، وشكرتُ مَسْعاى ؛ ودعَوْتُ لصاحِبى أوَّلًا إذ حَبَّبَ صَنْعتَهم إلىَّ وشاقَنِى ، ودلَّنى عليهم وساقَنِى .

ولما تحققتُ أنى قد أُثْبِتُّ فى ديوانه ، وكُتِبْتُ من جُمْلةِ غِلْمانِه ؛ رجعتُ القَهْقَرىٰ عن طَلَبِ الكَسْب ، وآستوىٰ عندى المَحْلُ والخِصْب ؛ وآكتفيتُ بنَظَرِى إليه عن الطَّعامِ والشَّراب ، وتيقَّنْتُ أن نَظْرةً منه إلىَّ تُرَقِّينِى إلى السَّحاب ؛ وتلوتُ بلِسَانِ الصِّدْقِ على المَلَإِ وهم يسمعون : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفيما تضمَّنَته هذه المَقَامة من فَضْلِ الكِتَابة وشَرَفِ الكُتَّاب مَقْنَعٌ من غيرها ، ومُغْنٍ عن سواها ، والحمد لله والمِنَّة .

* * *

وهذه نُسْخة مَقَامةٍ أنشأها أبو القاسم الخُوارِزْمىّ فى لِقائه لأَدِيبٍ يعرفُ بالهِيتِىّ ، وآنقطاعِه فى البَحْثِ ، وغَلَبة الخُوارزْمىِّ له . أوردها آبن حَمْدونَ فى "تَذْكِرَته" وهى :

وَصِيَّةٌ لكلِّ لَبِيب ، مُتيقِّظٍ أَرِيب ، عالِمٍ أَدِيب ؛ يَكْرَهُ مَواقِفَ السَّقَطات ، ويتحفَّظُ من مَصَادفِ الغَلَطات ، ويتلطَّفُ من مُخْزِيات الفَرَطات ؛ أن يَدَّعى دون مَقَامه ، ويقتصر من تَمامه ، ويغضَّ من سِهامِه ؛ ويُظْهِرَ بعض شَكِيمَتِه ، ويُساوِمَ بأيْسَرِ قِيمَتِه ، ويسْتُرَ كثيرًا من بِضَاعَتِه ، ويَكْتُمَ دَقِيقَ صِناعَتِه ، ولا يبلغ دقيق غاية آسْتِطاعَتِه ؛ وأن يُعاشِرَ النَّاسَ بِصِدْقِ المُناصَحه ، وجَمِيلِ المُسامَحه ؛ وأن لا يَحْمِلَه الإعجابُ بما يُحْسِنُه ، علىٰ الآزدراء بمن يَسْتَقْرِئُه ، والآفتراء علىٰ من يَعْتَرِضُه ويُلْسِنُه ؛ ليكونَ خُبْرُه أكثرَ من خَبَرِه ، ونَظْرتُه أرْوَعَ من مَنْظَرِه ؛ ويكونَ أقربَ من الآعْتِذار ، وأبعد من الخَجْلةِ والآنكسار .

فليس الفتىٰ من قال: إنّى أنا الفتىٰ ، * ولٰكنّه من قيل : أنتَ كذلكا.
وكم مُدّعٍ مِلْكًا بغير شهادةٍ * له نَجْلةٌ إن قيل: أن لستَ مالكا!

ولقد نُصرتُ بالاّتّضاع، علىٰ ذى نباهةٍ وٱرْتفاع؛ وذلك أنى أصْعَدْتُ فى بعض الأعوام، مع جماعةٍ من العوَام؛ بين تاجرٍ و زائر، إلىٰ العزْل والحائر؛ حتّى ٱنتهينا إلىٰ قرْيةٍ شارِعَه، آهِلَةٍ زارِعَه؛ وما منّا إلا من أملّتْه السَّمُرِيّة فٱعترضَتْه، وأسْقمَتْه وأمْرَضَتْه، وقَتَّرتْه فقبَضَتْه؛ وكَثُر منا الجُؤار، وٱستولىٰ علينا الدُّوار؛ فخرجْنا منها خُروجَ المَسْجُون، وقد تقوّسْنا تقوّس العُرْجُون؛ فٱسترحنا بالصُّعود، من طُولِ القُعود :

كأنّنا الطَّيْر من الأقْفاصِ * نَاجِيَةً من أَحْبُلِ القنَّاص،
طَيِّبةَ الأنْفُسِ بالخَلَاص * مُنَفِضاتِ الرِّيشِ والنَّواصى!

فما ٱستتمّتْ الرَّاحه، ولا ٱستقرّتْ بنا الرَّاحه؛ حتى وَقَف علينا واقف، وهَتَف بنا هَاتِف؛ أَيُّكم الحُوَارِزْمِىّ؟ فقالوا له : ذلك الغُلام المُنْفرِد، والشَّابُّ المُسْتَنِد؛ فأقبَلَ إلىّ، وسَلَّم علَىّ؛ وقال : إن النَّاظِر يَسْتَزِيرُك، فلْيُعجِّلْ إليه مَصيرُك؛ فقمتُ معه، يتَقدّمُنى وأتْبَعُه؛ حتَّى ٱنتهىٰ بى إلىٰ جِلَّةٍ من الرجال، ذَوِى بهاءٍ وجَلال، وزِينَةٍ و جمال؛ من أشْرافِ الأمصار، وأعْيانِ ذَوِى الأخْطار؛ من أهل وَاسط وبَغْداد، والبَصْرةِ والسَّواد .

ترىٰ كلَّ مَرْهوبِ العِمَامَةِ لاثِمًا * علىٰ وَجْهِ بَدْرٍ تحته قَلْبُ ضَيْغَمِ !

فقام إلىَّ ذُو المعرفة لإكرامه، وسَاعَده البَاقُون علىٰ قِيامه، وأطال فى سُؤاله وسَلامه؛ وجَذَبُونى إلىٰ صَدْر المجلس فأبَيْت، ولَزِمْتُ ذُناباه وٱحْتَبَيت؛ وأخذوا

يَسْتخبِرونى عن الحال، والمَعيشَةِ والمَـال؛ وداعية الارتِحَال؛ وعن النِّيَّة والمَقْصد، والأهْلِ والوَلَد، والجيرانِ والبَلَد .

وما منهُــمُ إلا حَفِيّ مُسائِلٌ، * ووَاصِفُ أشْواقٍ ومُثْنٍ بصالح،
ومُسْتَشْفِعٌ فى أنْ أُقيمَ لَيالِيًا * أَرُوحُ وأغْدُوعنــده غيرَبارِح!

ثم قال قائلُهم : هل لقيتَ عينَ الزَّمانِ وقَلْبه، ومَالِكَ الفَضْلِ وربَّه، وقَلِيبَ الأدبِ وغَرْبَه؛ إمامَ العِرَاق، وشَمْسَ الآفاق؟ . فقلتُ : ومَن صاحِبُ هذه الصِّفةِ المَهُوله، والكِنَايةِ المَجْهُوله؛ فقالوا : أو ما سَمِعتَ بكامِلِ هِيت، ذِى الصَّوْت والصِّيت ؟ :

ذَاكَ الذى لوعَاش[دَهْرًا]إلى * زَمانه ذا وٱبْنُ صُــوحانِ،
وٱبْنُ دُرَيْدٍ وأبو حَاتِمٍ * وسِيبَوَيْهِ وٱبْنُ سَــعْدَانِ،
وعامِرُ الشَّــعْبِىُّ وٱبنُ العَلا * وٱبْنُ كُرَيْزٍ وٱبْنُ صَفْوانِ.
قالوا مجــابُ كُلّهم : إنَّه * سَيِّدُنا، أو قال : غِلْمانِى.

فقلتُ لهم : قد قلَّدتُمُ المِنَّه، وهَيَّجتُمُ الجِنَّه؛ إلى لِقاءِ هذا العَالِمِ المَذْكور، والسَّيِّد المشهور؛ وقد كانت الرياحُ تأتينى بنَفَحاتِ هذا الطِّيب، وهَدْرِ هــذا الخَطِيب؛ فالآنَ لا أثَرَ بعــد عَيْن، سأُصَبِّح لأجْلِه عن سُرى القَيْن؛ ٱغتِنامًا للفَــائِده، والنِّعَمِ البارِدَه، ووُجْدانًا للضَّالَّة الشَّارِدَه .

أيْنَ أمْضِى وما الذى أنا أبْغِى * بعدَإدرا كِ المُنَى والطِّلابا ؟
فاذا ما وجَدْتُ عندكم العِلْـ * ــمَ قَرِيبًا فما أُرِيدُ الثَّوابا .
اِذهَبُوا أنتم فزُورُوا عَلِيًّا : * لأَزُورَ الهِيتِيَّ والآدَابا :
لَنْ أبَالِى إن قيــل الخُوَارزْ * مِىّ أَخْطا فعــله أوأَصَابا !

فقالت الجماعة : بل أصَبْتَ ، ووجدتَ ما طَلَبْتَ ؛ وقديمًا كنا ننشُرُ أعْلاقَك ، ونَتَمَنَّى ٱتِّفاقَك ؛ ونتداوَلُ أوْصافَك ، ونُحِب مُضَافَك ؛ ونُكْبِر لَدَيْه ذِكْرَك ، ونُعَظِّم لديه قَدْرَك ؛ فيتحرَّكُ منك سَاكِنُه ، ونَتَقَلْقَلُ بك أماكِنُه ؛ ونسألُ الله سبحانه أن يَجْمَع بينك وبينه بمَحْضَرِنا ، وتُلامِحَ عَيْنُك عَيْنَه بمَنْظَرِنا ؛ ويلتَفُّ غُبَارُك بغُبارِه ، ويَمْتَزِجُ تَيَّارُكَ بتَيَّارِه ، ويختلِطُ مِضْمارُكَ بمِضْمارِه ؛ فيُعْرَف منكما السَّابِقُ والسُّكَيْت ، والسُّوذَانِقُ والكُعَيْت ؛ ويتبيَّنُ من الذى يَحْوِى القَصَب ، فانكما كما قال الشاعرُ :

هُمَا رُمْحانِ خَطِّيَّانِ كانا * من السُّمْرِ المُثَقَّفَةِ الصِّعَادِ

تُهالُ الأرْضُ أن يَطَآ عليها * بمِثْلِهما نُسالِمُ أو نُعَادِى !

فقال [بعضُ الجماعة] لقد تنَكَّبتم الإنصاف ، وأخْطَأتُم الاعْتِراف ؛ وأبعدتُم القِياس ، وأوقَعْتُم الالتباس ؛ أيْنَ آبنُ ثلاثين ، إلىٰ آبنِ ثمانين ؟ ؛ وآبنُ اللَّبُون ، من البَازِل الأَمُون ؟ ؛ والرُّمْح الرَّازِح ، من الجَوَادِ القَارِح ؟ ؛ والكَوْدن المَبْرُوض ، من المُجَرَّب المَرُوض .

وآبنُ اللَّبُونِ إذا مالُزَّ فى قَرَنٍ * لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيسِ !

كم لديهم بطائحُ وسباخ ، وساكِنُ صرائف وأكْوَاخ ؛ بين يديه سوادية أنباط ، وعُلُوج أشراط ، ورعاعُ أخلاط ، وسِفْلُ سُقَّاط ؛ فى بلدة إن رأيتُ سُوَرها ، وعبرتُ جُسُورَها ، صِحْتُ : واغُرْبتاه ، وإن رأيتُ وجْهًا غَرِيبًا ناديتُ : واأبتاه ؛ لا أعرِفُ غير النَّبَطِيَّة كلاما ، ولا ألقى سِوىٰ والدى إماما ؛ فى مَعْشَرٍ ما عَرَفُوا التَّرْحال ، ولا رَكِبُوا السُّرُوج والرِّحال ، ولا فارقوا الجِدارَ والظِّلال .

أولٰئكَ مَعْشَرٌ كبَنات نَعْشٍ * خَوالِفَ لا تَغُورُ مع النُّجُوم !

[فأنّىٰ له] بمصاولة رَجُلٍ جوَّال، رحَّالٍ حلَّال؛ بهيت وُضِع، وبالكُوفَة أرْضِع؛ وببغدادَ أثْغر، وبواسط أحْفَر، وبالحجاز وتهامَةَ فطامُه، وبمصر والمَغْرِب كان احْتِلامُه؛ وبنَجْدٍ والشَّامِ بقَل عارِضُه، وباليَمَنِ وعمان قَوِيتْ نَواهِضُه؛ وبخُراسَانَ بلغ أشُدَّه، وبُخَارَا وسَمَرْقَنْدَ تناهَىٰ جِدُّه؛ وبغَزْنَة والهِنْدِ شاب واكْتَهل، ومن سَيْحُونَ وجَيْحُونَ علَّ ونَهل؛ وبمَيْسَانَ والبَصْرة عوَّد وقرِح، وبالجبال جَلِه وجاح؛ فهو يعد «المَازِنيّ» إمامه، وابنَ «جِنِّيّ» غُلامه؛ و«المُتَنَبِّي» من رُواتِه، و«المَعَرّي» حامل دَوَاتِه؛ و«الصَّابي» بارِيَ قلَمِه، و«الصَّاحِبَ» رافِعَ علَمِه؛ و«ابنَ مُقْلَةَ» من ناقِلي غاشيَتِه، و«بنى أبي حَفْصَةَ» بعضَ حاشيَتِه؛ وقد قرأ الكُتُب وتَلاها، وحفِظَ العُلومَ ورواها، ودَرَس الآدابَ ووعاها، ودوَّن الدَّواوِينَ وألَّفها، وأنشأ الحِكَم وصَنَّفها؛ وفصَّل المُشْكلاتِ وشَرَحها، وارْتَجل الخُطَبَ ونقَّحها؛ فهو البَحْرُ المَوْرود، والإمامُ المَقْصُود، والعَلَمُ المَصْمُود، هذا بَوْنٌ ومرتقى شديد.

أتلقونَ بالأعْزَلِ الرَّامِحا، * وبالأكْشَفِ الحاسرِ الدَّارعا،

وبالكَوْدَنِ السَّابِقَ السَّابحا، * وبالمِنْجَلِ الصَّارِمَ القَاطعا؟

فما استتمّ كلامه حتى أَقبل: فاذا نحنُ به قد طلع مُهَرْوِلا، وأقبلَ مُسْتَعْجلا؛ فرأيتُ رجلًا أجْلَح، أهْتَم أفْلَح، أفْطَح أرْدَح؛ طَويلًا عَنَطْنَط، يحْكِي ذِئْبًا أمْعَط، أجْمع أحْبَط؛ فتَلقَّوْه مُعظِّمين، وله مُفَخِّمين؛ فقَصَد فى المَجْلس صَدْرَه، وأسند إلى المِخَدَّةِ ظَهْرَه؛ فما استقرّ به المكان، حتى قيل له: هذا فُلَان؛ فقَبَضَ من أنْفه، ونَظر إلىّ بشَطْرٍ من طَرْفِه؛ وقال ببَعْض فيه، هَلُمُّوا ما كنتم فيه؛ تَعْسًا للشَّوْهاءِ وجالِبِيها، والقَرْعاءِ وحالبيها:

جاء زيدٌ مُجَرِّرًا رَسَنَه * فحلٌ لايمنعه سننه (؟)

أحَبَّه قَوْمُه على شَوَهٍ * إنّ القرنبَىٰ فى عَيْنِ أمّها حَسَنَه!

كان لنا شَيْخٌ بالأنبار، كثِيرُ الأخْبار، قد بلغ من العُمْر أمْلاه، ومن السِّنّ أعْلاه، قرأتُ عليه جَمِيعَ الكتَاب، وعِلْمَ الأنْسَاب، و "مَسَائِلَ ٱبْنِ السَّرَّاج "، و "دِيوانَ ٱبْن العَجَّاج"، و "كِتَابَ الإصْلاح "، و "مَشْرُوح الإيضاح"، وشِعْرَ الطِّرِمَّاح، و "العَيْنَ" للفُرْهُودِى ، و " الجَمْهَرة " للأَزْدِى، وأكثر من المصَنَّفَات، المجهولات والمعروفات، ينْفُخُ فى شَقَاشِقِه، ويُزْبِدُ فى بَقَابِقِه، ويتعاظَمُ فى مَخَارقه؛ وجعل القَوْمُ يَقْسِمُون بيننا الألحاظ، ويَحْسُبُون الألفاظ، وما منهم إلا من ٱغْتاظ لسُكُوتِى وكلامه، وتَأَخُّرِى و إقْدامه .

ثم هـذى الشيخُ إذ وُصِـفَ له رجُلٌ على الغَيْبِ ثم رآه ، فاحْتَـقَره وٱزدراه ؛ وأنْشَد مُتَمَثِّـلًا :

لعَمْرُ أبِيكَ تَسْمَعُ بالمُعَيْدِى * بَعِيدَ الدَّارِ خَيْرٌ أن تَراه

فقال : هذا المُعَيْدِىُّ هو ضَمْرة، بنُ ضَمْرة، بن جَابِر، بن قَطَن، بن نَهْشَل، بن دَارِم، بن مَالِك، بن حَنْظَلة، بن مَالِك، بن زَيْدِمَنَاةَ، بن تَمِيم، بن مُرَّة، بن أُدِّ، ٱبن طَابِخَةَ، بن ٱلْيأْس، بن مُضَر، بن نِزَار، بن مَعَدّ، بن عَدْنَانَ . والمُعَيْدِىُّ تَصْغِيرُ مَعْدِىّ، وهو الذى قالتْ فيه نَادِبَتُه :

أنْعى الكَرِيمَ النَّهْشَلِيَّ المُصْطَفىٰ * أكْرَمَ من خَامَرَ أو تَخَنْـدَفا !

فقلتُ : ما بعد هذا المَقال ، وَجْهٌ للاّحتمال ؛ وما يَجِبُ لى بعدَ هذه المُوَاكَهَه ، غيرُ المُكَافَه؛ ولم يَبْقَ لى بعد المُغَالَبه، من مُرَاقَبه :

ما عِلَّتِى وأنا جَلْدٌ نَابِـلٌ (١) * والقَوْسُ فيـه وَتَرٌ عُنَابِلُ

* تَزِلُ عن صَفْحَتِه المَعَـابِلُ ! *

(١) كذا فى اللسان فى مادة ــ علل ــ وفى مادة عنبل "خب خاتل" .

ماعلّتى وأنا [رجل] جَلْدُ * والقَوْسُ فيه وَتَرٌ عُرُدُّ
* مِثْلُ ذِراعِ البَكْرِ أو أَشَدُّ *

فعَطَفْتُ عليه عَطْفَ الثّائرِ العَاسِف، وٱلتفتُّ إليه ٱلْتِفاتَ الطّائرِ الخَاطِف؛ فقلتُ له: يا أَخاهِيت، قد قُلْتَ ماشِيت، فأجِبِ الآنَ إذا دُعِيت، وٱلْزَم مَكانَك، وغُضَّ عِنانَك، وقَصِّرْ لِسانَك؛ إنَّ نادِبَة ضَمْرة خَنْدفَه، لمَّا وَصَفَتْه؛ وما سمعتُ فى نِسْبتك إياه لِخندِف ذِكْرا، فأَبِنْ عن ذلك عُذْرا؛ فقال: إن خِندِفَ هى ٱمرأةُ ٱليَأْسِ بنِ مُضَر، غَلَبَتْ علىٰ بَنِيها فنُسِبُوا إليها، كطُهَيَّةَ ومُزَيْنه، وبَلْعَدَوِيَّةَ وعُرَيْنَه، والسُّلَكَةِ وجُهَيْنه، ونُدْبَةَ وأُذَيْنَه؛ وكَشَبيب بن البَرْصاء وٱبن الدَّعْماء. فقلت له: سُئِلْتَ، فأَجَبْتَ وأَصَبْتَ؛ فأخبرنى عن خِندِفَ هل هو ٱسْمٌ مَوْضُوع، أو لَقَب مَصْنُوع؟؛ فوقَفَ عند ذلك حِمارُه، وخَمَدتْ نَارُه؛ ورَكَد جَرَيانُه، وسَكَن هَذَيانُه، وفَتَر غَلَيانُه، وظَهر حِرانُه؛ وذَلَّ وٱنْقَمع، وٱنْطوىٰ وٱجْتَمع؛ فاضطَّرَّه الحَيَاء، وألجأَه الاْستِجْداء؛ إلىٰ أن قال وهو يُخْفى لَفْظَه، ويُطْرِقُ لَحْظَه: أظُنُّه لَقَباً. فقلتُ: هو كما ظننتَ فما مَعْناه وما سَبَبُه؟ وكيف كان مُوجَبُه؟ فلم يَجِدْ بُدًّا من أن يقولَ: لا أَدْرِى، فقال وقد أذَقْتُه مُرَّ الإمَاتَه، وأَحَسَّ من القَوْم بتَظَاهُرِ الشَّماتَه:

وَوَدَّ بجَدْعِ الأنْفِ لو أنَّ صَحْبَه * تَنَادَوْا وقالُوا فى المُنَاخ له: نَمِ!

ثم أقبلُوا إلىَّ، وعَكَفُوا علَىَّ؛ بأَوْجُهٍ مُتَهَلِّله، وأَلْسِنَةٍ مُتَوسِّله؛ فى شَرْح الحال، والقِيامِ بجواب السُّؤَال؛ فقلتُ: هذا بَدِيعٌ عَجِيب، أنا أَسْأَلُ وأنا أُجِيب؛ إن ٱليأْسَ ٱبنَ مُضَر تزوّج لَيْلىٰ بِنْتَ تَغْلِبَة (١)، بن حُلْوان، بن إلحاف، بن قُضاعةَ، بن مَعَدّ، (فى بَعْضِ النَّسَب)، فوُلِدَ له منها: عَمْرو وعامِرٌ وعُمَيْر. نفقَدَتْهم ذاتَ يَوْمٍ، فألحَىٰ

(١) صوابه بنت حلوان بن عمران.

علىٰ لَيْلىٰ باللَّوْم، فقال: ٱخْرُجى فى أثَرِهم، وأْتِينِي بخَبَرِهم؛ فمَعَنَتْ فى طَلَبِهم، وعادتْ بهم؛ فقالت: ما زِلْتُ أُخَنْدِفُ فى ٱتباعهم، حتى ظفرتُ بلِقَائِهم؛ فقال لها ٱلْيَأْسُ: أنتِ خِنْـدِف . والخَنْدَفة فى الاتبـاع، تَقارُبُ الخَطْوِ فى إسْراع؛ وقال عَمْرو: يا أَبَتِ أنا أدركتُ الصَّيْد فَلوَيْتُه، فقال له: أنتَ مُدْرِكَة إذ حَوَيْتَه. وقال عامِرٌ: أنا طَبَخْتُهُ وشَوَيْتُه . فقال له: أنتَ طابِخَة إذ شَوَيْتَه. فقال عُمَيْرٌ: أنا ٱنْقَمَعْتُ فى الخِبَاء، فقال له: أنتَ قَمَعَةٌ للاّخْتِباء؛ فلَصِقَتْ بها وبهم هذه الألقاب، وجَرَتْ بها إليهم الأنْساب .

فقال حينئذٍ: هذا عِلْمٌ ٱستفدتُه، وفَضْلٌ ٱسْتزدتُه؛ وقد قال الحكيمُ: مُذَاكَرَةُ ذَوِى الألْبابِ، نَمَـاءٌ فى الآداب . فقلتُ له مُتَمَثِّلا :

أَقولُ له والرُّمْحُ يَأْطِرُ مَتْنُه * تَأَمَّلْ خُفَافًا: إنَّنِي أنا ذَلِكا!

ثم لم يَحْتَبِس إلا قليلا، ولم يُمْسِكْ طَويلا؛ حتى عاد إلىٰ هَدِيرِه، وأخذ فى تَهْذِيرِه؛ طَمَعًا بأن يأخُذَ بالثَّار، ويعودَ الفَيْضُ له فى القِمَار؛ فعدل عن العُلُوم النَّسَبِيَّه، وجَالَ فى مَيْدانِ العَرَبِيَّـه؛ ولم يُحِسَّ أن بَاعَه فيها أقْصَر، وطَرْفَه دون حَقَائِقِها أحْسَر؛ فقال: حضرتُ يومًا حَلْبةً من حَلَبَاتِ العُلُوم، ومَوْسِمًا من مَوَاسِم المَنْثور والمَنْظوم؛ وقد غُصَّ بكلِّ خطيبٍ مِصْقَع، وحَكَمٍ مُقَنَّع، وعالِمٍ مِصْدَع؛ ومُلِئ من كلِّ عَتِيقٍ صَهَّال، وفَتِيقٍ صَـوَّال، ومِنْطِيقٍ جَوَّال؛ فأخذُوا فى فُنُون المُعارَضَات، وصُنُوف المُناقَضات؛ وسَلَكُوا فى معانى القَرِيض، كلَّ طَوِيلٍ عَرِيض؛ حتَّى أخَذَ السَّائِلُ منهم بالمُخَنَّق، ببَيْت [الفرزدق] (١):

وعَضّ زَمانٍ يا ٱبنَ مَرْوَانَ لم يَدَعْ * من المَـالِ إلَّا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ!

---

(١) الزيادة من اللسان مادة ـ س ح ت ـ و ـ ج ل ف ـ .

فكَثُرَ فيه الجِدَال، وطَالَ المَقال؛ وما منهم إلا من أجاد القِيَاسَ، وأصابَ القِرْطاس؛ ووَقَع على الطَّرِيق، وأتَىٰ بالتَّحْقِيق؛ فلمَّا رأيتُهم فى غَمْرتِهم سَاهُون، وفى ضَلالَتِهم يَعْمَهُون؛ فناديْتُهم: إلىَّ فَسَارِعُوا، ومِنِّى فاسْمَعوا؛ فإنِّى أنا ٱبنُ بَجْدَتِها، وعالِمُ ماتَحْتَ جِلْدَتِهَا؛ ثم إنِّى أبديتُ لهم سِرَارَه، وأبقيتُ ناره؛ وحَلَبْتُ عُقَدَه، ومَخَضْتُ زُبَدَه، وأطَرْتُ لَبَدَه؛ وبَجَسْتُ حَجَره، وأبْثَثْتهم عُجَرَه وبُجَرَه؛ فقالوا: لله أبوكَ! فإنَّك أسْبَقُنا إلىٰ غَايَه، وأكْشَفُنا لغَيايَه؛ وأجْلَانا لشُبْهه، وأضْوَأُنا فى بَدْهه؛ وما أعلَمُ اليومَ علىٰ ظَهْرها من يَقُوم بعِلْم مافيه، ويَطَّلِع علىٰ خَافِيه.

فأدرَكَنِى الأمتعاض، وأخَذَنِى الأنْتِفَاض؛ فانشدته:

مَنْ ظَنَّ أنَّ عُقُولَ النَّاسِ ناقِصَةٌ * وعَقْـلَهُ زَائِدٌ أزْرَىٰ به الطَّمَع!

وقلتُ له: ٱدَّعَيْت، فَوْقَ ماوَعَيْت؛ فأخْبِرْنِى عن أوَّل هذا البيْت، يا مُجْرِى الكُمَيْت؛ وكيف نُنْشِدُه: وعَضَّ بالفتح أو وعُضّ بالضم؟ فقال: كِلاهُما مَرْوِىّ، فقلتُ: نَبْتَدِئُ بالفِعْل ثم نَعُود إلى الأسْم ياذا الإعجاب، تَهَيَّأْ للسَّائِل فى الجَوَاب؛ وأخْبِرْنى لِمَ فَتَحْتَ آخِرَ المَـاضى؟ فأسْرَع من غير التغاضى، وقال: لأنَّه مبْنِىٌّ عليه، لا يُضاف سِوَاه إليه. فقلتُ: هذا جَوَابٌ نَعْلمُه، ومن صِبْيانِ المَكْتَبِ لا نَعْدَمُه؛ وإنمـا ألْتَمِسُ منك الفائدةَ فيها، وأطلبُ كَشْفَ خَافِيها. فقـال: ما جاء عن أَمِّة النُّحاه، وسائِرِ الرُّواه؛ فى هذا غيرُ ما شَرحْتُه، ولا زَاد علىٰ ما أوضَحْتُه. فقلتُ: دع عنك هذا وأخبرنى عن هذا البِنَاء، ألِعِلَّةٍ أم لغَيْرها؟ فأقبل يتردَّدُ ويتزَحْزَح، ويتثاءَبُ تارةً ويتنَحْنَح. فلما سُـدَّ عليه من طَرِيقه، وحَصَل فى مَضِيقه، وغُصَّ برِيقه؛ قال: لا أعْلَم!. فقالت الجمـاعةُ: أعْذَرَ إليك من ألْقَىٰ سِلاَحَه، وغَضَّ جِماحَه؛ ومن أدْبَرَ بعد إقْباله، عُدِلَ عن قتاله:

والحقُّ أبْلَجُ لا يُحَـدُّ سبيلُه * والحقُّ يعرفُه ذَوُو الألْبابِ!

والآنَ فقـد فازتْ قِداحُك ، وبانتْ غُرَرُكَ وأوْضَاحُك ؛ وأجَدْتَ النِّضال ، وأدْرَكْتَ الخِصَال ؛ فأوْضِحْ لنا عمَّا سَأَلت ، وأرْشِدْنا إلىٰ ما دلَّلت ؛ لئلَّا يقال : هذا بَهْت ، ومُحَالٌ بَحْت ؛ فقلتُ حُبًّا وكَرَامه ، اِسْمَعْ أنتَ ياطَغَامـه ؛ إنَّ الفِـعْل من فاعِلِه ، كالوَلَد من نَاجِلِه ؛ لايخلُو الفِـعْلُ من عَلَامةِ الفَـاعِل ، فى لَفْظِ كلِّ قائِل ؛ وهى الفَتْحة من مَاضِيه ووَاقِعِه ، والزَّوائِدُ فى مُسْتَقْبِلِه ومُضَارِعِه . وبيانُ ذلك : أن الفَتْحةَ لا تكون مع التـاء والنون ... ...(١) فتثبت الفَتْحةَ ، ثم تقولُ : أخْرَجْتُ وأخْرَجْنَا ، فتُسقطُ ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعنًى محال ، لا يوجبهما الحال . فان كانت النونُ التى مع الألف ضَمِيرَ المَفْعول عادَت الفَتْحةُ ، فتقول : أخْرَجَنا الأميرُ ، فهذا بَيِّنٌ . فصَفَّقَتِ الجماعةُ وسمحت ، وحسنت وبجبحت ؛ وجَعَل الأديبُ يضطَرِبُ آضْـطِّرابَ العُصْفُور ، ويتقَلَّبُ تَقَلُّبَ الصُّقور ؛ مُتيقنًا أن أسَـدَهُ صار جُرَذا ، وبازِيَه عاد صُرَدا ؛ ودوره انقلبت مخشلبا (؟) ، وزَيْتُونَه تحوَّلَ عِرْبا ، وقَنَاه تغيَّر قَصبا ؛ وأن مُسْتَقِيمَه تَعوَّج ، وجَيِّـده تَبهْرَج ، وصَحِيحَه تَدَحْرج ، وجَدِيدَه تَكَرَّج ؛ فقال مُنْشِدُهم :

تَرَى الرَّجلَ النَّحِيفَ فتَزْدَرِيه * وتَحْتَ ثِيـابِه أسَـدٌ مَزِيرُ
ويُعْجِبُك الطَّـرِيرُ فتَبْتَلِيــه * فيُخْلِفُ ظَنَّك الرجُلُ الطَّرِيرُ.
فما عِظَمُ الرِّجالِ لهم بفَخْرٍ * ولٰكِنْ فَخْرُهم كَرَمٌ وخِيرُ!

فأخَذَه الأبْلَاس ، وضاقَتْ به الأنْفَاس ، وسَكَنتْ منه الحَوَاسّ ، ورَفَضَـه النـاس ؛ وجعـل يَنْكُتُ الأرْض ، ويُواصِلُ بكَفِّـه العَضّ ؛ ويَتَشاءَمُ بيَوْمه ،

(١) بياض بالأصول .

ويعودُ علىٰ نَفْسه بلَوْمه؛ يَمْسَحُ جَبِينَه، ويُكْثِرُ أنِينَه. فقمتُ فقامتْ معى الجماعة وتَرَكْته، وٱسْتَهانَتْ به وفَرَكَتْه؛ فلما بَقِىَ وَحْدَه، تَمَنَّى لَحْدَه؛ وأسْبَل دَمْعَتَه، ووَدَّ أنَّ الأرض بَلَعَتْه:

وكان كمِثْل البَوَّمايِينَ رُوَّمٍ * تَلُوذ بِحَقْوَيْه السَّراةُ الأكابِرُ،
فأصْبَح مِثْلَ الأَجْرَبِ الجلْدِ مُفْرَدًا * طَرِيدًا فما تَدْنُو إليه الأَبَاعِرُ!

فقام فتَبعنى، ووَقَف ووَدَّعَنِى؛ وأطال الٱعْتِذار، وأظهر التَّوْبَةَ والٱسْتِغْفار؛ وقال: مِثْلُك من سَتَرَ الخَالَ، وأقال العَثْرَةَ والزَّلَل؛ فقد ٱغتررتُ من سِنِّك بالحَدَاثه، ومن أخْلاقِك بالدَّماثه. فقلتُ: كلُّ ذلك مَفْهومٌ مَعْلوم، وأنتَ فيه مَعْذورٌ لا مَلُوم؛ وما جَرىٰ بيننا فهو مَنْسِىٌّ غيرمَذْكُور، ومَطْوِىٌّ غيرمَنْشُور، ومَخْفِىٌّ غيرمَشْهُور:

و[جِدَالُ] أَهْلِ العِلْمِ ليس بِقَادِحٍ * مابين غَالِبِهِم إلى المَغْلُوب!

ثم سكتَ فما أعَاد، ونَزلْتُ وعاد؛ وكان ذلك أوّلَ عَهْدٍ به وآخِرَه، وباطِنَ لِقَاءٍ وظَاهِرَه، وكلَّ ٱجْتِماعٍ وسَائِرَه.

الفصل الثانى

من الباب الأوّل من المقالة العاشرة

(فى الرَّسَائِل)

وهى جَمْع رِسالةٍ، والمرادُ فيها أُمُورٌ يُرَتِّبها الكاتِبُ: من حِكايةِ حَالٍ من عَدُوٍّ أو صَيْدٍ، أو مَدْح وتَقْرِيضٍ، أو مُفَاخَرَة بين شيئين، أو غيرذلك مما يَجْرِى هذا المجرىٰ، وسُمِّيتْ رسائِلَ من حيثُ إنَّ الأديب المُنْشِئَ لها رُبَّما كَتب بها إلىٰ غيره

مُخْبِرا فيها بصورة الحال، مُفْتتحةً بمـا تُفْتَتح به المـكاتباتُ ، ثم تُوُسِّع فيها فافتتحت بالخُطَب وغيرها .

ثم الرَّسائِل علىٰ أصـــناف :

الصــــنف الأوّل

(منها الرَّسائِلُ المُلُوكيَّـــة ، وهى علىٰ ضربيـــن)

الضــــرب الأوّل

(رَسَائِلُ الغَزْوِ ، وهى أعظمها وأجَلُّها)

وهــذه نُسْخة رسالة أنشأها القاضى مُحْيِي الدِّين بن عبد الظَّاهِر رحمه الله، بفَتْح [المَلِك الظَّاهِر] لقَيْسَارِيَّة من بلاد الروم، وآقْتِلاعِها من أيْدى التَّتَار، وآسْتِيلائِه علىٰ مُلْكها، وجُلُوسه علىٰ تَخْتِ بنى سُلْجُوق، ثم العَوْدِ منها إلىٰ مَمْلكة الدِّيار المِصْرية . كَتَب بها إلى الصَّاحِبِ بَهَاء الدِّين بن حَنَّا، وزِيرِ السلطان المَلِكِ الظاهر، ومَعرفَة ما كان فى تلك الغَزْوة، وما آشتملت عليه حالُ تلك السَّفْرَه، وهى :

يُقَبِّلُ الأرضَ بِسَاحَاتِ الأبواب الشريفة السَّيِّديَّه، الصَّاحِبية البَهَائيَّه، لا زالتْ رَكَائِبُ السَّيرِ تَحُثُّ إلىٰ أرجائِها السَّيْر، وصُرُوفُ الزَّمَنِ تُسالِمُ خُدَّامها وتُحِلُّ الغِيرَ بالغَيْر، ولا بَرِحَتْ مَوْطِنَ البِرِّ ومَعْدِنَ الجُودِ وبَحْرَ الكَرَمِ وعُكَاظَ الخَيْر؛ ويُنْهِى بعــد رَفْعِ أدْعِيَتِه التى لاتزالُ من الإجابة مَحُوطه، ولا تَبْرَحُ يداه بها مَبْسُوطَه؛ أنَّ العَبِيــدَ من شأنهم إتْحافُ مَوَالِيهم بما يُشَاهِدُونه فى سَفْرَاتِهم من عَجَائِب، وإطْلَاعُهم علىٰ مايَرَوْنَه فى غَزَوَاتِهم من غَرَائِب؛ ليَقْضُوا بذلك حُقُوقَ الآسترقاق، وتكونَ نِعَمُ ساداتِهم قد أحْسَنَتْ لأفواههم الآسْتِنْطاق ؛ ويَتَعرّضُوا لمـا عساه يَعِنُّ من مَرَاحِمِهِم التى ماعندهم غَيْرُها يَنْفَدُ وما عندها بَاقٍ .

ولمّـا كان المملوكُ قد ٱنتَظم فى سِلْكِ الخَدَم والعَبيد، وأصبح كَمْ له قَصيدٌ فى مَدْح هـذا البَيْتِ الشَّرِيف كلُّ بَيْتٍ منها بقَصِيدِ بَيْتِ القَصِيد ؛ وأنَّ فى مآثِره الرَّسائِلُ التى قد شـاعَتْ ، وضَاعَتْ نَفَحاتُها فى الوجود وكَمْ رِسَالةٍ غيرها فى غيره ضَاعَتْ ـ رأىٰ أن يُتْحِف الخواطِرَ الشَّرِيفةَ من هذه الغَزْوَةِ بلُمَحٍ يختارُ منها من يُؤَلِّف ، ويُسْنِد إليها من يُؤَرِّخُ أو يُصَنِّف ؛ وإنّمـا قصدَ أن يُتْحِفَ بها أبوابَ مولانا مع بَسْطِ القَوْل وٱتّساعِ كَلمـاتِه ، لأن الله قد شَرَّف المملوكَ بعبوديَّةِ مولانا : واللهُ أعلَمُ حيْثُ يجعلُ رِسَالَاتِه ؛ فإنْ كان المملوكُ قد طَوّل فى المُطَارَحه ، فمولانا يَتطوّلُ فى المُسَامَحه ؛ وإن قال أحدٌ : هذا هَذَىٰ ، فـا زال شَرْحُ الوقائِـع مُطَوّلا كذا ؛ وتَاللّهِ ما وُرِّخ مثْلُها فى التواريخ الأوَل ، ولعَمْرِى إنَّ خيرًا من سـيرَة ذلك البَطَّال سيرةُ هـذا البطَل ؛ والأمر أعلىٰ فى قِراءَتِها وٱسْتِمـاعِها، والتَّمهُّلِ فى مجَالها حتَّى تُسْفِرَ حَسَنَ نِقابِها وتَرْفَعَ مَسْدُول قِناعِها ، (١) ... ...

قد أحاطت العلومُ الشريفةُ بالعَزَماتِ الشَّريفة السُّلْطانيـة ، وأنها ٱستصحبت ذلك ، حتى تصفَّحَت المَهالِك ؛ وسِرْنا لا يَسْتقرُّ بنا فى شَىْءٍ منها قَرار ، ولا يُقْتدحُ من غير سَـنَابِك الخَيْل نَار ، ولا نَمُـرُّ علىٰ مَدينـةٍ إلا مُرُورَ الرِّياح على الخمـائل فى الأصَائِلِ والإبْكَار ؛ ولا نُقيمُ إلا بمقدار ما يَتزيَّد الزَّائِرُ من الأُهْبَه ، أو يتَزَوَّدُ الطائِرُ من النُّغْبَـه ؛ نَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ من حيث نَنْتَحِى ، وتَكادُ مَواطِئُ خَيْلنا بمـا تَسْحَبُه أذْيالُ الصَّوافِنِ تَمْتَحِى ؛ تَحْمِل همنا الخَيْـلُ العِتَاق ، ويَكْبو البرْقُ خَلْفَنا إذا حاول بنا اللَّحاق ، وكلٌّ يقولُ لسلطاننا نَصَره الله :

أَيْنَ أزمعتَ أيُّهـذَا الهُمَام؟ * نحنُ نَبْتُ الرُّبَا وأنتَ الغَمَام!

(١) بياض بالأصول .

ومَنْ لا يفعلُ السَّيفُ أفعالَه ، ولا يَسِير فى مَهْمهٍ إلا عَمَّه ولا جَبَلٍ إلا طَالَه ، تُسَايِرُه السَّوارِى والغَوادِى ، ولا ينفكُّ الغَيْثُ من ٱنْسِكابٍ فى كلِّ نادٍ ووَادِى :

فباشَرَ وَجْهًا طالمَا باشَرَ القنا ، * وبَلَّ ثِيابًا طالمَا بَلَّها الدَّمُ!

وكان مولانا السلطانُ من حَلَب قد أمر جميعَ عساكره بٱدِّرَاعِ لامَاتِ حَرْبِهم ، وحَمْلِ آلاتِ طَعْنِهم وضَرْبِهم :

فَجَازَ له حَتّىٰ علَى الشَّمْسِ حُكْمُه ، * وبَانَ له حَتّىٰ على البَدْرِ مِيسَمُ .

يَمُدُّ يَدَيْه فى المُفَاضَة ضَيْغَمٌ * وعَيْنَيْه من تَحْتِ التَّرِيكَةِ أَرْقَمُ!

ورحَلُوا من حَلَب فى يوم الخميس ثانى ذى القعدة جَرَائِدَ على الأمْرِ المعهود ، قد خَفَّفوا كُلَّ شَىْءٍ حتَّى البُنودَ والعَمود ، فسِرْنا فى جِبالٍ نشتهى فيها سُلُوكَ الأرض ، وأوْدِيةٍ تَهْلِكُ الأشْواطُ فيها إذا مُلِئَتِ الفُرُوج من الرَّكْض ؛ نَزُور دِيارًا ما نُحِبُّ مَغْناها ، ولا نَعرِفُ أقْصاها من أدْناهَا ، وٱستقبلنا الدَّرْب فكان كما قال المُتَنَبِّى :

رَمَى الدَّرْبَ بالخَيْلِ العِتاقِ(١) إلى العِدَا * وما عَلِمُوا أنَّ السِّهامَ خُيُولُ ،

شَوَائِلَ تَشْوالَ العَقَارِبِ بالقَنَا * لهَا مَرَحٌ من تَحْتِه وصَهِيلُ .

[وما هِى إلّا خَطْرَةٌ عَرَضَتْ له * بحَرّانَ لبَّتْهَا قَنًا ونُصُولُ

هُمَامٌ إذا ما هَمَّ أمْضَى هُمُومَه * بأَرْعَنَ وَطْءُ المَوْتِ فيه ثَقِيلُ

وخَيْلٍ بَرَاها الرَّكْضُ فى كُلِّ بَلْدَةٍ * إذا عَرَّسَتْ فيها فَلَيْسَ تَقِيلُ](٢)

فَلَمَّا تَجَلَّىٰ من دَلُوكَ وصَنْجَةٍ * عَلَتْ كُلَّ طَوْدٍ رَايَةٌ ورَعِيلُ

---

(١) الذى فى ديوان المتنبى : بالجُرْد الجياد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبى .

عَلىٰ طُـرُقٍ فيها عَلَى الطُّرْقِ رِفْعَـةٌ * وفِي ذِكْرِهَا عند الأَنِيس خُمُولُ!

ومَرَرْنا علىٰ مدينـة دَاُوكَ وهى رُسُوم سُكَّانها ، ضاحِكَةٌ عن تبَسُّم أزْهارِها وقَهْقَهَة غُدْرانِها ؛ ذاتُ بُرُوجٍ مُشَـيَّدَه ، وأرْكانٍ موَطَّدَه ، ونيرانِ تَرَاوِيق مُوقَدَه ، فى عَمَـدٍ من كَنَائسِها مُمَدَّده ؛ وسِرْنا منها إلىٰ مَرْجِ الدِّيباج نَتَعادَىٰ ، وذلك فى لَيْـلَةٍ ذاتِ أنْدِيَةٍ وإن لم تَكُن من جُمَادىٰ ؛ ظُلُماتها مُدْلَهِمَّه ، وطُرُقاتُها قد أصـبح أمْرُها عَلَيْنا غُمَّه ، لا يثْبتُ تُرْبُها تحت قَدَم المَـارّ ، وكأنَّمـا سَالِكُها يَمْشِي علىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ؛ فبِتْنا هُنالك ليـلةً نَسْتَحْقِر بالنِّسْبة إلىٰ شِدَّتِها ليلةَ المَلْسُوع ، وتَتَمَنَّى العَيْنُ بهـا هَجْمَة هُجُوع ؛ وأخَذْنا فى ٱخْتراق غَابَاتِ أشْجارٍ تُخْفِي الرَّفِيقَ عن رَفِيقهِ ، وتَشْغَلُه عن ٱقْتِفاء طَرِيقِهِ ؛ يَنْبَرِى منها كُلُّ غُصنٍ يُرْسِله المتقدِّمُ إلىٰ وَجْهِ رَفِيقه ، كما يَخْرُجُ السَّهْم بقُوَّةٍ من مَنْجَنِيقه ؛ حَوْلَها مَعَاثِرُ أحْجارٍ كأنَّها قُبُور بُعْثِرَتْ ، أو جِبَالٌ تَفَطَّرتْ ؛ بينها مَخَائِض ، لا بَلْ مَغَائِض ، كأنَّها بِحَارٌ فُجِّرَتْ ؛ ما خَرَجْنا منها إلا إلىٰ جِبَالٍ قد تَمَنْطَقَتْ بالجَدَاوِل وتَعَمَّمتْ بالثُّلُوج ، وعُمِّيَتْ مَسالِكُها فلا أحدٌ إلا وهو قائلٌ : فهَلْ إلىٰ خُرُوجٍ من سَبِيلٍ أو إلىٰ سَبِيلٍ من خُرُوجٍ ؛ تَضِـيقُ مَنَاهِجُها بمَشْيِ الواحد ، وتَلْتَفُّ شَجراتها ٱلْتِفافَ الأكمام على السَّاعِد ؛ ذَاتُ أوْعَارٍ زَلِقه ، وصُـدُور شَرِقَه ، وأوْدِيَةٍ بالمُزْدَحِمِينَ مُخْتَنِقَه ؛ بَيْنَما يقولُ مُنْتَحِيها : قد نِلْتُ السَّماءَ بسُـلَّمٍ من هـذه الشَّواهِق ، إذا هُو مُتَضائِلٌ قد هَبَط فى مَأْزِقٍ مُتَضايِق ؛ لم تَزَلْ هـذه الجبالُ تأخُذُنا وتَرْمِينا ، وتلك المَسَارِبُ تَضُمُّنا وتلْك المَشَارِب تُظْمِينا :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضَ أَوْجُهِنَا ، * و[لا] (١) تُسَوِّدُ بِيضَ العُذْرِ واللِّمَمِ ،
[وكانَ حَالُهما فى الحُكْمِ وَاحِدَةً * لَوِ ٱحْتَكَمْنا من الدنيا إلى حَكَمِ] (١)

---

(١) الزيادة من ديوان المتنبي (ص ٤٢٠) .

وَنترُكُ المَاءَ لا ينفكُّ من سَفَرٍ، * ماسَارَ فى الغَيْم منه سَارَ فى الأَدَمِ!

حتى وصلنا الحَدَثَ الحَمْراءَ المُسَّماة الآنَ بكينوك ومعناها المُحْرَقَة ، كان المَلِكُ قُسْطَنْطِينُ والِدُ صاحِبِ سِيسَ قد أخَذَها من أصحاب الرُّومِ وأحْرَقها، وتَمَلَّكَها وعَمَرها، بقَصْدِ الضَّرر لبلاد الإسلام والتُّجَّار . فلما كان فى سَنةِ آثنتين وسبعين وسَبْعمائة سَيَّر مولانا السلطانُ إليها عَسْكَرحَلَبَ فآفتتحها بالسَّيْف وقَتَل من كان بها من الرِّجال وسَبَى الحَرِيمَ والذُّرِّيَّة، وخَرِبَتْ من ذلك الحِين، وما بَقِيَ بها من يَكَادُ يُبِين؛ فشاهَدْنا ما بَنىٰ سَيْفُ الدَّوْلة بنُ حَمْدان منها والقَنَا تَقْرعُ القَنَا ومَوْجُ المَنَايا حَوْلها مُتَلاطِم، وقيل حَقيقةً هُناك : علىٰ قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تأْتِى العَزائِم؛ وهى التى عناها أبو الطَّيِّب بقوله :

غَصَبَ الدَّهْرَ والمُلُوكَ عَلَيها * فبناهَا فى وَجْنَةِ الدَّهْرِ خَالَا

فهِىَ تَمْشى مَشْىَ العَرُوسِ آخْتِيَالَا * وتَثَنَّى عَلَى الزَّمانِ دَلَالَا !

فبِتْنا بها وآبْتَنينا وخَيْلُنا مبْثوثَةٌ فوقَ الأحيدب كما نُثِرَت الدَّراهِم فوقَ العَرُوس ، وجِيادُنا على الرُّكُوب فى أعْلَى العَيْن تَدُوس، إذا زَلِقَت مَشَتْ كالأراقم على البُطُون، وإن تَكاسَلَتْ جَرَّ بعضُها بعضًا بالصَّهِيل: «والحديثُ شُجُون» ؛ وخُضْنا فى أثْناء ذلك مَخَايِضَ سَوابِحَ ، كأنَّها لأجْل عَوْمِ الخَيْلِ بها سُمِّى كُلٌّ منها لأجْل ذلك سَابِح ؛ كلَّما قُلْنا : هذا بَحْرٌ قد قطعناه آعْتَرَضَ لنا جَبَل، وكلَّما قُلْنا : هذا جَبَلٌ طَلَعناه بانَ لنا وَادٍ يُسْتهانُ دُونَ الهُوِىِّ فيه نَفَادُ الأَجَل؛ لم نَزَلْ كذلك حتَّىٰ وصلنا كوكصوا(؟) وهو النَّهْر الأزرق ، وهو الذى رُدّ المَلِكُ الكامِلُ منه سنة الدَّرَبَنْدات لما قصد التَّوجُّهَ إلى الرُّوم . وهذا النَّهر بين الجبال مَهْوىٰ رِجَامِها، ومَثْوىٰ غَمامِها، ومَلْوىٰ زِمَامِها، ومَأوَىٰ قَتَامِها؛ فَلِلْوقت عَبَرناه رَكْضا،وأعْجلت الخَيْلُ فما دَرَتْ هل خاضتْ لُجَّةً أم قطعتْ

أرْضًا ؛ وباتَ الناسُ من بَرِّ هذا النَّهر الآخرِ وأصبحوا مُتَسَلِّين فى تلك الشُّم ، ووَقع السَّنابِك يُسْمَع من تلك الجبالِ الصُّم ؛ حتّىٰ وصلُوا إلىٰ أَقْجادربَنْد فما ثَبَتَتْ يَدُ فَرَس لمصافحة صَفَاها ، ولا نَعْلُه لمكافحة رَحَاها ، ولا رِجْلُه لمطارَحة قُواها ؛ وتمرّنت الخَيْلُ علىٰ الاقْتِحام والازْدِحام فى التَّطَرُّق ، وتعوّدتْ ما تعوّدتْه الأوعالُ من التَّسرّب والتَّسَلُّق ؛ فصارتْ تَحطُّ انْحِطاطَ الهَيْدَب ، وتَرتَفِعُ ارتفاعَ الكَوْكَب ؛ وتَسْرِى سَرَيانَ الخَيال ، وتُمَكِّن حَوَافِرَها الجيادَ فتزولُ منها الجِبَال ؛ حتّىٰ حصلَ الخروجُ من مُنْتَهى أَقْجادربَنْد وهو خِنَاقُ ذلك المَأْزِق الذى كَمْ أمسكَ علىٰ طَارِق ، وفَمُ ذلك الدَّرْبِ الذى كَمْ عَضَّتْ أنيَابُه علىٰ مُساوِقٍ ومُسابِق ؛ وذلك فى يوم الأربعاء ثامنِ ذى القَعْدة ، وباتَ السلطانُ والناسُ فى وَطْأةٍ هناك ، وسَمَحت السُّحُبُ بما شاءتْ من بَرْدٍ وبَرَد ، وجاءت الرِّياحُ بما آلَمَتِ الجِلْدَ واسْتَنْفَدَتِ الجَلَد ؛ وانتشرت العساكرُ فى وَطْأةٍ هناك حتّى مَلأَتِ المَفَاوِز ، ومَلَكت الطُّرُقَ على المَارِّ وأخَذَتْها على الجائز ؛ وقَدّم مولانا السلطانُ الأميرَ شَمْس الدِّين سُنْقرًا الأشْقَر فى الجاليش فى جماعة من العساكر ، فوقع علىٰ ثلاثة آلاف فَارِس من التَّتار مُقَدَّمُهم كراى ، فانهزَمُوا مِن بين يديه ، وأخذ منهم من قُدِّم للسَّيْف السلطانِىّ فأكل نَهْمَته وأسْار ، واستمرّتْ تلك سُنّةً فيمن يُؤْخذ من التَّتارِ ويُؤْسر ؛ وذلك فى يوم الخميس تاسع ذى القَعْدة .

وباتَ التَّتارُ علىٰ أجْمَل تَرْتيبٍ لأنفسهم وأجْمَلِ مَنْظَر ، وباتَ المسلمون علىٰ أتَمّ تَيَقُّظ وأعْظَمِ حَذَر ، ولم يتحقّقُوا قُدُوم مولانا السلطان فى جُيُوش الإسلام ، ولا أنَّه حَضَر بنَفْسه النَّفِيسَةِ ليقومَ فى نُصْرة دِينِ الله هذا المَقَام . فلمّا كان يوم الجمعة عاشرُ ذى القَعْدة تَتَابع الخَبَر بعد الخَبَر بأن القَوْم قد قَرُبوا ، وأنهم ثَابُوا ووَثَبُوا :

وَقَدْ تَمنَّوْا غَداةَ الدَّرْبِ فى لَجَبٍ * أَنْ يُبْصِروه فلمّا أبْصَرُوه عَمُوا !

وشَرَع مولانا السلطانُ فوَصَّىٰ جُنُوده بالتَّثَبُّت عنـد المَصْدَمَه ، والاجتماع عند المُصَادَمه ؛ ورَتَّب جَيْشَ الإسلام اللَّجِب ، علىٰ ما يَجب ، وأرَاهُم من نُورِ رَأْيِه ما لا علىٰ بَصَرٍ ولا بَصِيرةٍ يَحْتَجِب ، فطلعت العساكر مُشْرِفَةً علىٰ صَخَراتٍ هونى من بَلَد أَبُلُسْتَين ، وكان العدوّ لَيلَتَه تلك بائتًا علىٰ نَهْر زمان ، وهو أصْلُ نَهْر جَهَان ، وهو نَهْر جَيْحَان المذكورُ فى الحديث النَّبوِىّ ، وإنّمـا الأرْمَنُ لا تنطق بالهـاء .

فلما أقبل الناسُ من عُلْوِ الجَبَل شاهدوا المُغْل قد ترَتَّبوا أحَدَ عَشَر طَلَبا كلُّ طَلَبٍ يزيدُ علىٰ ألف فارِس حقيقةٍ ، وعَزَلوا عَسْكَر الرُّومِ عنهم خِيفَةً مِنْهم ، وجَعَلُوا عَسْكر الكُرْجِ طَلَبًا واحدًا بمُفْرَدِه . ولمّـا شاهدُوا سَناجِقَ مولانا السـلطان المنصورةَ ومَن حَوْلها من المماليك الظاهرية ، وعليهم الخُودُ الصُّـفْر المُقْترحه ، وكأنَّها فى شُـعاع الشَّمس نيرانٌ مُقْتَدحه ؛ رجَعُوا إلىٰ ما كانوا عَقَـدوا من العزائم فَحَـلُّوا ، وسُقط فى أيْديهِمْ ورَأَوْا أنَّهم قد ضَلُّوا ؛ وأقبـل بعضُهم علىٰ بعضٍ يتساءلون ، وعلى المَوْت يَتَراسَلُون ؛ فانْصبَّت الخَيْلُ إليهم من أعْلَى الجَبَل آنصباب السَّيْل ، وبَطَلت الحِيلَةُ منهم ونُفِي الحَيْل ؛ فشَمَّروا عن السَّواعِد ، ووقفوا وَقْفَةَ رَجُلٍ واحد ؛ وهٰؤُلاءِ المُغْل كان طاغِيةُ التَّتارِ آبغا ـ أهلكه الله ـ قد آختارهم من كلِّ ألْفٍ مائة ، ومن كل مائة عَشَرة ، ومن كلِّ عشرةٍ واحِدًا لأجْلِ هذا اليوم ، وعَرَفهم بسِيمَا الشَّجاعَةِ وعَرَضهم لهذا السَّوْم ؛ وكان فيهم من المقَدَّمين الكِبَار تدلون ، ومعنىٰ هذا الاسم النَّفَّاذ ، يعنى أنه ما كان فى عَسْكرٍ قطُّ إلا نَفَّذه ، والمقدَّمُ الآخر بهوا (؟) وإليـه أمْرُ بلاد الروم وعَساكِر المُغْل بهـا ، وأرختوا أخو تدلون ، وبهادر بخشى . ومن مُقَدَّمى الألُوف ذنرك ، وصِهْر آبغا ، وقراق وخَوَاصُّه :

بيضُ العَوارِض طَعَّانُون مَن لَحِقُوا * من الفَوَارِس شَـلَّالُون للنَّعَمِ !
قَـدْ بَلَّغُوا بقَناهُم فوق طَاقتِـه * وليس يَبْلُغُ مافيهـم من الهِمَم .

فى الجَاهِلِيَّـــةِ إِلّا أَنَّ أَنْفُسَهِمْ * من طِيبِهِنّ به فى الأَشْهُرِ الحُرُمِ!

فعِنْد ما شاهَدُوا نَجْد الملائكه، وتَحَقَّقُوا أن نُفُوسهم هَالِكَه؛ أخْلَدتْ فِرْقَةٌ منهم إلى الأَرْضِ فقاتَلَتْ، وعاجَتِ المَنَايا علىٰ نُفُوسهم وعَاجَلَت؛ وباعَت نُفوسُ المسلمين لهم وتاجَرَتْ، وكَسرت وما كاسَرَتْ؛ وجاء الموتُ للعَـدُوِّ من كلِّ مكان، وأصبح ما هنالك منهـم وقد هَـان؛ وللوقت خُذِلُوا وجُدِّلُوا، ولبُطُونُ السِّباعِ وحَواصِل الطُّيور حُصِّلوا؛ وصارُوا مع عَدَم ذِكْرِ الله بأفواههم وقُلُوبِهِم، يقاتلون قِياماً وقُعُودا وعلىٰ جُنُوبِهِم؛ فكَمْ من شُجاعٍ أَلْصَقَ ظَهْره إلىٰ ظَهْرِ صاحِبِه وحَامىٰ، وناضَلَ ورَامَى؛ وكَمْ فيهم من شَهْم، ماسَلَّم قَوْسَه حتَّىٰ لم يَبْقَ فى كِنَانَتِه سَهْم؛ وذى سِنٍّ طارَحَ به فما طَرَحه حتَّىٰ تَثَلَّم، وذى سَيْفٍ حادثه بالصِّقال فما جَلَىٰ مُحادَثَة حتى تكَلَّم؛ وأبانوا عن نُفُوسٍ فى الحَرْب أبِيَّه، وقُلُوبٍ كافِرَةٍ ونَخْوةٍ عَرَبِيَّه؛ وٱشتدَّتْ فِرْقَةٌ من العَدُوِّ من جِهَـةِ المَيْسَرَةِ مُعَرِّجِينَ على السناجق الشريفـة من خَلْفها، مُنْقلِبين بصُفُوفِهم علىٰ صَـــفِّها:

فَـلَزَّهُم الطِّـرَادُ إلىٰ قِتَـالٍ * أَحَدُّ سِلاحِهم فيه الفِرَارُ!

فثَابَ مولانا إليهم، ووثَب عليهم، فضَحَّىٰ كُلٌّ منهم بكلِّ أشْمَط، وأفْرىٰ الأَجْسادَ فأفْرط؛ ولَحِقَ مولانا السلطانُ منهم من قَصَـد التَّحْصِينَ بالجبال فأخذهم الأَخْذَة الرَّابِيَه، وقتَلهم فهل تَرَىٰ لهم من بَاقِيَه؟ :

وما الفِرَارُ إلى الأَجْبَالِ من أَسَدٍ * تَمْشِى النَّعامُ به فى مَعْقِل الوَعِلِ؟

وٱنهزمت جماعة يسيرةٌ طَمِع فيها من العَوَامّ من كان لايَدْفع عن نَفْسه، وأخذتهم المَهَاوِى فما نجا منهم إلا آيِسٌ من حَياةِ غَده فى أَمْسِه.

مَضَوْا مُتَسَابِقِى الأَعضاءِ فيه * لِأَرْؤُسِهِـمْ بأرْجُلِهم عِثَارُ

إذا فَاتُوا الرِّماحَ تَناوَلَتْهُــمْ * بأرْماحٍ من العَطَشِ القِفَارُ!

وقصدتْ مَيْمنةَ عَسْكرِنا جماعةٌ من المُغْلِ ذَوُو بَأْسٍ شديد، فقاتَلَهم المسلمون حتّىٰ ضَجِرَ الحديدُ من الحَديد؛ وكان مولانا الصاحبُ زَيْنُ الدّين ــ حرس الله جَلالَه ــ لمـا دُعِيتْ نَزَالِ أَوّلَ مُسابِق، وأسْرع رَاشِق؛ وأقْرَبَ مُطاعِن، وأعْظَمَ مُعاوِن؛ فذَكَر مَن شَاهَده أنه أحْسَن فى مَعْرَكَته، وأجْمَلَ فى كَرَّته، وأجَاد فى طَعْنَته؛ وزَأَرَ زَئِيرَ اللَّيْث، وسابَق حتّىٰ لم يَبْقَ حَيْث؛ ووقف دَرِيئَةً للرِّماح من عَنْ يَمِينه وشِمَاله، وخَضَّب بمـا تَحَدَّر من دَمِ عَدُوّه أكْنَافَ سَرْجِه وعِنَانَ لِجَامِه، وكانتْ عليه من الله باقِيَةٌ واقِيَةٌ فى تَقَدُّمه وإقْدامه؛ وشاهَدْناه وقد خَرَج من وَسَطِ المَعْرَكَة وهو شَاكِى السِّلاح، وقد أخَذَ نَصِيبَه ونَصِيبَ فَرَسه من سَالِمِ الجِرَاح؛ وأراد اللهُ أن لايُخْلِيَه من إسَالَة دَمٍ يُعَظِّمُ اللهُ الأجْرَ بسائله، فجَعَله ــ والمِنَّةُ لله ــ من بَعْضِ أطْرافِ أنامِلِه .

ولقد ذكر الأميرعِزُّ الدِّين أيْدُمر الدَّوَادَار الظَّاهِرِىّ، قال : لَقِيتُنِى وقد تَكَسَّر رُمْحِى، وعَادَ ــ لولا لُطْفُ الله ــ إلى الخَسَــارة رِبْحِى؛ فأعطانى المَوْلَى الصاحِبُ زَيْنُ الدِّينِ رُمْحه فإذا فيــه نُصُول، وبسِنّه من قِرَاعِ الدَّارِعِين فُلُول؛ ورَأيتُ دَبُّوسَ المَوْلَى الصاحِبِ زَيْنِ الدِّين وقد تَثَــلَّم، وكان الخوفُ عليه فى ذلك اليوم شَــدِيدًا ولكنَّ اللهَ سَــلَّم؛ ولقد بَلَغ مولانا الســلطانَ خَبرُه فسأله فمـا أجابه بغير أنْ قال : سَيْفُ مولانا السلطانِ هو الذى سَفَك، وعَزْمُه هو الذى فَتَك .

ومَنْ يَكُ مَحفُوظًا من اللهِ فَلْتَكُنْ * سَلامَتُه مِمَّنْ يُحاذِرُ هكَذا،
ويَخْرجُ من بين الصُّفُوفِ مُسَلَّمًا * ولا مَنَّ يُبْدِيه ولا نَالَه أَذَىٰ!!

وأما العَدُوّ فتقاسمتِ الأيْدِى مايَمْتَطونَه من الصَّوَاهِلِ والصَّوَافِن، وما يَصُولُون به من سُــيوفٍ وقِسِىٍّ وكَنَائِن، وما يَلْبَسُونَه من خُوذٍ ودُرُوعٍ وجَواشِن، وما يَتَمَوَّلُونه

من جميع أصناف المَعادن؛ فغُنِم ماهُنَالك، وتَسَلَّم من ٱسْتَشهد من المُسلمين رِضْوانُ وتَسلَّم من قُتِلَ من الكُفّار مَالِك .

وكان الذين ٱسْتَشْهدُوا فى هذه الوَقْعةِ من المُقَدَّمين : شرفُ الدِّين قيرانُ العَلائىُّ، وعزُّ الدِّين أخُو الأمير جَمالِ الدِّين المُحَمَّدى . ومن المماليك السلطانية : شَرَفُ الدِّين فلحق(؟) الجَاشْنَكِير الظَّاهِرىُّ، وأيْبَكُ الشَّقِيفىُّ الذى كان وَزِيرَ الشَّقِيف . وكان المجروحون عِدَّةً لطيفةً لم يُعْلم عَدَدُها لِقلّتها، بل لِخفّتها؛ وأورثَ اللهُ المسلمين مَنَازِلَهم فنزلوها، وطَاقَاتِهم وخَرْكاوَاتِهم فتَمَوَّلُوها؛ وكان مولانا السلطانُ وكان أعداؤه كما قيل :

فَمَسَّاهُـمْ وبُسْـطُهُمُ حَرِيرٌ، * وصَبَّحَهمْ وبُسْطُهُمُ تُرَابُ ! !

وأصْبَح الأعداءُ لا تُرَىٰ إلا أشْلاؤُهم ، ولا تُبْصَر إلا أعياؤُهم ؛ كأنَّمـا جُزُرُ أجْسـادِهم جَزَائِرُ يتخلَّلُها من الدِّماء السَّيْل ، وكأنَّمـا رُءُوسُهم المجموعةُ لَدَى الدِّهْليز المَنْصورِ أكُرٌ تلعبُ بها صَوَالِجةٌ من الأيْدى والأرْجُلِ من الخَيْل :

أَلْقَتْ إلينا دِماءُ المُغْـلِ طَاعَتَها * فلودَعَوْنا بلا حَرْبٍ أجابَ دَمُ !

فكَمْ شاهدَ مولانا السلطانُ منهم مَهِيبَ الهَامَه، حَسَنَ الوَسَامَه، نُتفرَّسُ فى جَهامةِ وَجْهِه الفَخامه، قد فَضَّ الرُّمْحُ فَاهُ فقَرَع السِّنَّ على الحقيقة نَدَامَه :

ووُجُوهًا أخَافَها منكَ وَجْهٌ * تركَتْ حُسْنَها له والجَمـالا !

أوكما قيـــل :

لا رَحِـم اللهُ [(١)] أرْؤُسًا لهُـمُ * أطَرْنَ عَن هَامِهِنَّ أقْحَـافَا !

وأقبل بعضُ الأحْياءِ من الأسَارَىٰ على الأمْواتِ يتَعارفُون، ولأخْبار شَجاعَتِهـم يتَواصَفُون ؛ فكَمْ من قائل : هٰذا فلانٌ وهٰذا فلان ، وهٰذا كانَ وهٰذا كان ؛ وهٰذا

(١) فى ديوان المتنبى "لايرحم" .

كان يُحَـدِّثُ نَفْسَه بأنه يَهْزِمُ الألُوف، وهٰـذا يُمَرِّر فى ذِهْنِه أنه لا تَقِفُ بين يَدَيه الصُّفُوف، وكَثُرت الأسارَىٰ من المُغْلِ فاختار السلطان من كُبرائِهم البَعْض، وعَمِل فيهم بقَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾. فجعلهم للسُّـيوف طُعْمَه، وأُحضِرَت الأسارَىٰ من الرُّومِ فترقَّبَ مولانا السُّـلطانُ فيهم الإلَّ والذِّمَّـــه :

وما قَتَـــلَ الأَحْرارَ كالعَفْوِ عَنْهُمُ، * ومَنْ لَكَ بالحُرِّ الذى يَحْفظُ اليَدَا!

وكان فى جمـلة الأسارَىٰ الرُّومِيِّين مُهذِّبُ الدين بكلارنكى، يَعْنى أميرَ الأمَراء وَلَدُ البرواناه، ونورُ الدِّين جاجا أكبرُ الأمراء، وجماعةٌ كثيرةٌ من أمَرَاءِ الرُّوم ومُقَدَّمِى عساكره، فكان البرواناه أحَقَّ بقولِ أبى الطَّيِّب :

نَجَـوْتَ بإحْدَىٰ مُقْلتيك جَرِيحَـةً * وخَلَّفْتَ إحْدَىٰ مُهْجَتَيكَ تَسيلُ!

أتُسْــلِمُ للخَطِّيَّـــةِ ٱبْنَـكَ هَارِبًا * ويَسْكُنُ فى الدُّنْيا إليـكَ خَلِيلُ؟

لأنه شَمَّرَ الذَّيْل، وٱمْتطَىٰ - هَرَبًا - أشْهَبَ الصُّبْح وأحْمَر الشَّفَقِ وأصْفَرَ الأصِيل وأدْهَم اللَّيل، وثَمَّ يُخبِر من خَلْفِه بما تَمَّ، وهَمَّ قلبه رَفيقَه حِينَ هَمّ :

فنَحْنُ فى جَذَلٍ، والرُّوم فى وَجَلٍ، * والبَرُّ فى شُغُلٍ، والبَحْرُ فى خَجَلٍ!!

ودَخَل البرواناه مَدينــةَ قَيْصَرِيَّةَ فى تاريخ يوم الأحَد ثانى عشر الشَّهْر المذكور، فأفهَم غِياثَ الدِّين سُلطانَها، والصاحبَ فَخْرالدِّين بن علما (؟) والأتابكَ مَجْدالدِّين، والأميرَ جَلالَ الدِّين المُسْتَوفِى، والأميرَ بَدْرَ الدِّينِ ميكائيل النَّائب، والأميرَ فُلانَ الدين الطُّغْرائِى، وهو وَلَد عِزِّ الدينِ أخى البرواناه، وهو الذى يكتُبُ طُرَرَ المناشير - أنَّ المســلمين كَسَرُوا بعضَ المُغْلِ وبَقِيتُهم مُنْهزِمُون، ويُخْشَىٰ منهم دُخُولُ قَيْصَرِيَّة وإتْلافُ ما يكون بها فى طَرَائِفِهم حَنَقًا على الإســلام. فأخذهم جَرَائد، وأخَذَ

زَوْجَتَه كُرْجِى خَاتُون بْنَت غِيـاثِ الدِّين صاحِبِ أَرْزَن الرُّوم، فاستصحبتْ معها أربعمائة جَارِيةٍ لها، وكان لها مالا كان لصاحبِ الرُّوم من البَخَاتِيِّ والخِيَامِ والآلَاتِ، وتوجهوا كلهـم إلىٰ جربه توقات (؟) وهو مكانٌ حَصِينٌ مسـيرةَ أربعـةِ أيامٍ من قَيْصَرِيَّةَ . ولـما خرجوا من قَيْصرِية حَملَهـم علىٰ سُرْعة الهَرَب ، وأنْذَرهم عذابًا قد اقْترب ؛ وهَوَّل على بَقِيَّة أُمَراء الرُّوم فاتَّبعُوه إلا قليلا منهم، وأخْفَى البرواناه أمْرَه وأمْرَ من معه حتَّىٰ ولا مُخْبِر يُخْبِر عنهم .

وكان مولانا السلطانُ قد جَرَّد الأميرَ شَمْس الدِّين سُنْقرًا الأشْقَر فى عَدَد مُسْتَظْهِرًا به لإدراك من فات من المُغْل ، فَمَرُّوا فى طريقهم بفِرْقةٍ معها بُيُوتهم فأخذ منها جانبًا ؛ ودخلَ عليهم اللَّيـل فمرَّ كلٌّ فى سِرْبِه ذاهِلًا ذاهبا . ورحلَ مولانا السلطانُ فى بُكْرة السَّبْتِ حادى عشر ذِى القَعْدة من مكان المَعْركةِ ، فنزل قَرِيبَ القريةِ المعروفة بريَّان، وهذه القريةُ قَريب الكَهْفِ والرَّقِيم حَقِيقة، لا ما يقالُ : إنه قَرِيبُ حُسْبَانَ من بلاد البَلْقاءِ ، وقريبًا منه صَلْدٌ من الصَّفَا عليه كِتَابةٌ بالرُّومِيَّة أو غيرها من الخَطِّ القَدِيم . وأما القَرْيةُ المذكورةُ المسماةُ بريَّانَ فانَّ بيوتَهـا بُنِيتْ حَوْل سِنِّ جَبَلٍ قائم كالهَرَم إلا أنَّه مَلْمُوم، وعُمِّرت البُيُوت فى سَفْحِه حَوْله بَيْتًا فوق بَيْتٍ فبـدَتْ كأنَّها مَجَرَّةُ النُّجوم، وما من بَيْتٍ منهـا إلا وبه مَقَاعِدُ ذوات درابزينات مَنْجُوره ، ورَوَاشِنَ قد بَدَتْ فى أكملِ صُوَره ؛ يختِمُها من أعلاها أحْسَنُ بُنْيان، ويعْلُوها من رأسها مَنْزِلٌ مُسَنَّم الرأسِ كما يعلو الصَّعْدَةَ السِّنان ؛ وتطوفُ بهذه القَرْيةِ جبالٌ كأنَّها أسْوارٌ بل سِوارَ ، وكأنَّها فى وسَـطِها إناءٌ فيه جَذْوةُ نار ؛ ويتفَرَّعُ منها أنهـار، هى فى تلك الأوْدِيةِ كأنَّها بهبُوطِها كَثِيبٌ قد انْهار ؛ ذَواتُ قَنَاطِر لاتَسَـعُ غيرَ راكب، ومَضَايِقَ لا يُلْفَىٰ عبْرها لناكب ؛ قَدَّر اللهُ أنَّ العساكر خَلَصتْ منهـا ولكن بعد مُقَاساةِ الجُهْـد ، وخرجتْ وقد رَقَّ لهـا قلب كلِّ وَهْـد ، ونزلنا قريبًا منهـا حتَّىٰ

تَخَلَّص من تَخَلَّص ، وحَضَر من كان فى المَضَايِق قد تَرَبَّص ، وقال : كُلُّ الأرض حَصْحَص .

ورَحَلْنا من هناك فى يوم الأحَد ثانى عشر شَهْر ذى القَعْدة وكانت السماءُ قد حَيَّتِ الأرضَ بتِيجَانِ أمْطارِها ، وأغْرقَتِ الهَوامّ فى أجْحارِها ، والفُتْخَ فى أوْكارِها ؛ وأصبحتِ الأرضُ لاتَماسَكُ حتّىٰ ولا لمُرورِ الأَراقِم ، والجبالُ لاتَماسَك أن تكونَ للعِصَم عَواصِم ؛ تَضَع بها من الدّواب كُلُّ [ذَاتِ] حَمْل ، وتَزْلَق فى صَقيلها أرْجُلُ النَّمْل ؛ وسِرْنا علىٰ هذه الحالة نَهارنَا كلَّه إلىٰ قريب الغرُوب ، وقَطَعناه بتَسلُّمِنا أيْدى الدُّروب من أيْدى الدُّؤُوب ؛ ونزلنا عِشاءً فى مُنْتقَع أرضٍ تَطُوف بها جِبالٌ شَاهِقَه ، ومِياهٌ دَافِقَه ؛ تُعرف قاعَةُ تلك الأرضِ بوطأة قشلا وسار (؟) من أعمال أصاروس العَتِيق . ويَقْرب من تلك الجِهَةِ مَعْدِن الفضَّة .

وبينما نحنُ قد شَرَعنا فى أُهْبَةِ المَبِيت ، ولم نَقْضِ الشَّمْل الشَّتِيت ؛ وإذا بالصَّادِح قد صَدَح ، والنَّذِيرِ قد سَنَح ؛ رافِعًا عَقيرتَه بأن فَوْجًا من التَّتَار فى بَحْوةٍ هنالك قد آسْتَتَروا ، وفى نَجْوةٍ لِغرَّةٍ قد آنْتَظروا ؛ فركِبَ مولانا السلطان ورَكِب الناسُ فى السِّلاح ، وعَزَموا على المَطَارِ فعاقَهُم تَتَابُعُ الغَيْث وكيف يَطِير مَبْلولُ الجَناح ؟ ؛ ثم لطَفَ اللهُ وعاد مولانا السلطانُ وهو يقول للناس : ، لاباس ، فنِمْنا نومةَ السَّلِيم ، وصدرت أفكارنا شاغِرَةً فى كلِّ وَادٍ تَهِيم ؛ وأصبَحنا فسَلَكْنا جِبالًا لا يحيطُ بها الوَصْف ، وتَنْبَسِط عَذْراءُ الطَّرْف فيها حينَ يَكْبو فيها الطَّرْف ؛ نَنْحَطُّ منها إلىٰ جَنَادِل ، يَضْعفُ عن الهُوِىِّ إليها قِوىٌّ الأجَادِل ؛ بَيْنا نَقولُ : قد أحْسَنَ الله لها نَفَادًا ومنها نَفَاذا ، وإذا بعد الأوْدِيةِ أوْدِيةٌ وبَعْد الجِبالِ جِبالٌ نشكُرُ عند ذاكَ هٰذه وذاكَ عند هٰذا ؛ ومررنا علىٰ قرية أوتراك ، وتحتها قَنَاطِر وخَانٌ من حَجَرٍ مَنْحوت ، ثم خان آخَر

للسَّبِيل علىٰ رَأْسِ رابيــةٍ هناك تعرف باشيبدى ، قَرِيبًــا من حِصْن سَمَنْدُو ، التى عَرَّض بها أبو الطَّيِّب فى قوله :

فإنْ يُقْدِمْ فقدْ زُرْنَا سَمَنْدُو * وإن يُحْجِمْ فَمَوْعِدُه الخَلِيجُ!

وكان مولانا السلطانُ قد سَيَّر إليها خواصَّه بكِتَابٍ إلىٰ نائبها فقبِلَه وقبَّله، وأذْعَنَ لتَسْليم حِصْنِها المَنِيعِ وللنُّزولِ لأمْرِ السلطانِ عنها إن آسْتَنْزله ؛ فشَكَر مولانا السلطانُ له تلك الإجابَه ، ووفَّاه من الشُّكْر حِسَابَه . وكذلك إلىٰ قَلْعــةِ دوندا وإلىٰ دوالوا، فكلُّهــم أجابُوا وأطاعُوا ولِكَلِمةِ الإذْعانِ قَالُوا ؛ ونَزَلْنا فى وَطْأةٍ قريبَ قَرْيةٍ تعرفُ بحمرها، وكان الناسُ قد فرغَتْ عُلوفَاتُ خَيْلِهم أو كادَتْ ، والخَيْــلُ قد باتَتْ ليالىَ بلا عَلِيقٍ فمــا آسْــتَفَادتْ، وشارَكَتْها خيولُ الكسوب(؟) فى عَلِيقها، وما ساعَدَتْها فى طُرُوقها ولا فى طَرِيقِها ؛ فضَعُفتْ عن حَمْلِ نُفُوسِها فمــا ظَنُّك براكِبِيها ، وكاد الفَارِطُ ــ لولا لُطْفُ اللهِ عزَّ وجلَّ ــ أن يفْرِطَ فيها ؛ فصادَفْنا فى هذه اللَّيلةِ بعضَ أتْبانٍ أمسكت أرْماقَها، وأحْسنَتْ إرفادَها وإرفَاقَها .

وأصبحنا فى يوم الثُّلاثاء رابعَ عَشْر ذى القَعْدةِ راحلين فى جِبالٍ كأنها تلك الأُوَل، وهابِطِينَ فى أوْدِيةٍ يَتَمَنَّى سَالِكُها من شِــدَّةِ مَضايِقِها أنْ لو عاد إلىٰ تَرَقِّى أعلىٰ جَبَــل ؛ وما زِلْنا كذلك حتَّىٰ أشْرَفْنا علىٰ خانٍ هناك يعرف بقرطاى يَدُلُّ علىٰ شَرَفِ هِمَّــةِ بَانيه ، وطَلَبِ ثَوابِ اللهِ فيــه ؛ وذلك أنه من أكْبَر الأبنية سَــعَةً وآرْتِفاعا، وأحْسَــنِها شَكْلًا وأوْضَاعا ؛ كلُّه مَبْنِىٌّ بالحَجَر المَنْحوت المَصْــقول الأحْمَر الذى كأنَّه رخام ، ومن ظاهر أَسْوارِه وأرْكانه نُقُوشٌ لا يتمكن أن يرسم مِثْلُها بالأقلام ؛ وله خَارِجَ بَابِه مثــلُ الرَّبَض ببــابَيْنِ بأسْوارٍ حَصِينَة، مُبَلَّط الأرض، فيه حَوَانيت . وأبوابُ الخانِ حَديدٌ من أحْسَنِ ما يمكن آستعماله . ودَاخِلَه أَوَاوِينُ صَيفِيَّه، وأمْكِنةٌ

شَتْوِيَّه ، و إصْطَبْلاتٌ علىٰ هذه الصورة لا يُحْسِنُ الانسان أن يُعَبِّر عنها بكَيْف ، وما منها إلا ما يَجِدُه الانسانُ رِحْلةً للشِّتاءِ والصَّيْف ؛ وفيه الحَمَّام والبِيمارِسْتانُ والأدْوِيةُ والفَرْش والأوَانِى والضِّيافةُ لكلِّ طارقٍ علىٰ قَدْرِه ، حُمِلَ لمولانا السلطان من ضِيَافَتِه لمَّا مَرَّ عليه ، وكثر الناسُ فما وَصَل أحدٌ إليها ولا إليه ؛ وعليه أوقافٌ عَظِيمة ، وضِيَاعٌ كثيرةٌ حَوْله وفى غيره من البِلاد ، وله دَوَاوِينُ وكُتَّابٌ ومُباشِرُون يَتَوَلَّوْن ٱستخراجَ أمْوالِه والإنْفاقَ فيه ، ولم يَتَعرَّض التَّتار إلىٰ إبْطالِ شَىْءٍ من رُسُومِه ، وأبْقَوْه علىٰ عَوائِد تَكْرِيمه ، وأهْلُ الرُّوم يبالغون فى تَبْجِيل بَانِيه ـ رحمه الله ـ وتَعْظِيمه ؛ ونَزَلْنا تلك اللَّيلةَ قَرِيبَ قَرْيةٍ تقربُ من قَيْصَرِيَّةَ من حُقُوق وَادِى صلعومة شَرْقِىَّ الجَبَلِ المعروفِ بعَسِيب ، وفيه قَبْرٱمرئ القَيْس الشاعر ... ...

أجَارَتَنا إنَّ الخُطُوبَ تَنُوبُ ، ✻ وإنِّى مُقِيمٌ ما أقام عَسِيبُ ،

أجَارَتَنا إنَّا غَرِيبانِ هَاهُنا ✻ وكلُّ غَرِيبٍ للغَرِيبِ نَسِيبُ ! !

وهذا الجَبَل يعلُوه جَبلُ أرجاس ، وهو الذى يَضْرِب الرُّوم الأمثالَ بتَسَامِيه ، وتَتَضاءَلُ الجبالُ فى جميع الدُّنيا لتَعَالِيه ؛ لا تُسْحبُ ذُيولُ السَّحائِب إلا دون سَفْحِه ، ولا يُعرف من ثُلُوجِه شِتَاءً وصَيْفًا ومن مثال الأبخرة المُتَصعِّدةِ منه عِشَاؤُه من صُبْحِه .

ولما كان يومُ الأربعاء منتصف ذِى القَعْدة ، وهو يومُ شَرَف الزُّهَرَة رَكبت العساكرُ المنصورةُ مُتَرتِّبَه ، ومَلأت الفَضاءَ مُتَسرِّبَه ؛ ورَكب مولانا السلطانُ فى زُمْرته ، وذَوِى أَمْرِه وإمْرَته ؛ يختالُ جَوادُه فى أفْسَح مَيْدان ، ويَصِيحُ به فَرَحًا ومَرَحًا كأنَّه نَشْوان دَرَىٰ أنه سُلطان :

تَظَلُّ ملوكُ الأرض خَاشعةً له ✻ تُفَارِقُه هَلْكَىٰ وتَلْقاه سُجَّدًا !

وخرج أهْلُ قَيْصرِيَّة وأكابِرُها، وعُلماؤُها وزُهَّادُها وتُجَّارُها، ورعاياها ونِساؤُها وصِغارُها؛ فأكْرَم مولانا السلطانُ مَمْشاهُم، وشَكَر مَسْعاهم؛ وتلقَّىٰ قُضاتَهم وعُلماءَهم رُكْبانا، وحادَثَهم إنْسانًا فإنْسانا؛ وحَصَلتْ لجماعةٍ من الفقراء والناسِ حالاتُ وَجْدٍ مُطْرِبَه، وصَدَحاتُ ذِكْرٍ مُعْجِبَه. وكان دِهْليزُ السلطانِ غياثِ الدِّين صاحبِ الرُّوم وخِيامُه وشِعارُ سَلْطنةِ الرُّوم قد بنى جميع ذلك فى وطأة قريب الجَوْسَق والبُسْتانِ المعروفِ بكيخُسْرَوْ، وترجَّلَ النَّاس على آختلاف طَبَقاتِهم فى الرِّكابِ الشَّريفِ من مَلِكٍ وأمَّةٍ ومأمورٍ وأَميرٍ، وآرتفعتِ الأصواتُ بالتَّهْليلِ والتَّكْبير:

رَجَا الرُّومُ من تُرْجَى النَّوافِلُ كُلُّها * لَدَيْهِ ولا تُرْجَىٰ لَدَيْه الطَّوائِلُ!

ونزل مولانا السلطانُ فى تلك المَضارِب المُعَدَّةِ لكَرَم الوِفادَه، وضُرِبتْ نَوْبَةُ سَلْجُوقَ علىٰ باب دِهْليزِه على العادَه؛ وأذِنَ مولانا السلطانُ للناسِ فى التقرُّبِ إلىٰ شَريفِ فُسْطاطِه، وشَمِلهم بنَظَرِه وآحْتِياطِه؛ وحضر أصحابُ المَلاهِى، فما ظَفِرُوا بغيرِ النَّواهِى؛ وقيلَ لهم: آرْجِعُوا وراءَكُم فالْتَمِسُوا، وآذْهَبوا إلىٰ وادٍ غيرِ هذا الوادِى فآقْتَبِسُوا؛ فهذه الهناة لا تَنْفُقُ هُنا، وما هذا مَوْضِعُ الغِناءِ بَلْ هذا مَوْضِعُ الغِنَىٰ؛ وشرعَ مولانا السلطانُ فى إنْفاقِ اللُّهَىٰ، وعَيَّن لكلِّ جِهَةٍ شَخْصًا وقال: أنتَ لها؛ وحَكَم وحَكَّم، وعَلِم وعَلَّم؛ وآعتمد على الأمير سَيْفِ الدِّين جاليش فى النِّيابه، وأعطىٰ كُلًّا بيمينه كِتابَه؛ وأقام الحُجَّةَ علىٰ من آنْتَزَح بالآسْتِعْطاف، وتأْمينِ مَن خاف؛ فما خرج كَبيرُهم عن المُخاتَله، ولا زَعيمُهم عن المُطاوَله؛ فلمَّا علم مولانا السلطانُ أنهم لا يُفْلِحُون، ولغيرِ التَّتارِ لا يَصْلُحُون؛ وأنَّهم إن أصْبَحُوا على الطاعة لا يُمْسُون وإن أَمْسَوْا لا يُصْبِحُون؛ عاد عن تلك الوُعُود، وآختار أن ما بَدَأَ إليه يَعُود، وأن يبعَثَ نَفْسَه إلىٰ ما بعثه اللهُ إليه من المَقام المحمود؛ فرَكِب يومَ الجُمُعة سابِعَ عَشَر

ذى القَعْدة مستقبلًا من الله كلَّ الخَيْر ، ونَصَب جَتْر بَنِى سَلْجوق علىٰ رَأْسه فشاهدَ النـاس منه صَاحِبَ القُبَّةِ والسَّبع وصاحِبَ القُبَّةِ والطَّيْر ؛ ودخل قَيْصرِيَّة فى بُكْرةِ هـذا اليوم وكانتْ دار السـلطنةِ قد فُرِشَتْ لنُزُولِه ، وتَخْتُ بنى سَلْجُوق وقد هُيِّئَ لحُلُوله ؛ وهى دارٌ تَزْهو، ومنازلُ من يَتَعَبَّدُ أو مَنَازِهُ من يَلْهو؛ أنيقَةُ المُبْتَنىٰ ، تحفُّ بهـا بَساتِينُ عَذْبَة الجَنىٰ ؛ جُدْرانُها بأحْسَنِ أصناف القَـاشَانِى مُصَفَّحه ، وبأجْمَلِ نُقُوشِه مُصَرَّحه؛ فجلس مولانا السـلطانُ فى مرتبةِ المُلْك فى أسْـعدِ وَقْت ، ونال التَّخْت بحلولِه أسْعَدَ البَخْت :

وما كان هٰذا التَّخْتُ من حين نَصْبِه * لغيرِ المَلِيك الظَّاهِرِ النَّدْبِ يَصْلُحُ .
مَليـكٌ على آسْمِ اللهِ ما فَتَحَتْ له * صَوَارِمُه البِيضُ المَواضِى وتَفْتَحُ .
أتَتْـهُ وُفُود الرُّومِ والـكُلُّ قَائِلٌ : * رَأَيْنَاكَ تَعْفُو عن كَثـيرٍ وتَصْفَحُ .
فَأَوْسَـعَهم حِلْمًـا وجَادَ لهم نَدًى * وأمْسَوْا علىٰ مَنٍّ وأمْنٍ وأصْبَحُوا .
وَلَو أنَّهـمْ لم يَجْنَحُوا لمَنَـكَّبٍ * عن الحَقِّ والنَّهْجِ القَوِيم لأَفْلَحُوا ،
ولٰكِنَّهـمْ أعطوا يَدًا فَوْقَهـا يَدٌ * تُصافِحُ كَفًّا زَنْدُها النارَ يَقْدَحُ ! ! !

وأقبـل الناسُ علىٰ مولانا السلطانِ يهنِّؤونَه ، وعلىٰ كَفِّه الشريف يُقَبِّلُونه ؛ وبعد ذلك حضرتِ القُضاةُ والفُقَهاء والعُلماءُ والصُّوفِيَّة وذَوُو المَرَاتب من أصحاب العَمائم علىٰ عادة بنى سَلْجُوق فى كلِّ جُمُعة ، ووَقَف أميرُ المَحْفِلِ وهو كَبِيرُ المِقْدارِ عندهم ، له وَسَامةٌ ونَخَامَه ، وله أكْبَرُكُمٍّ وأوْسَعُ عِمامَه ؛ وأخَذَ فى ترتيب المَحْفِل علىٰ قَدْرِ الأقْدار ، وآنتصبَ قائمًا بين يَدَىْ مولانا السلطانِ مُنْتَظِرًا ماإليه به يُشَار ؛ وشرع القُرَّاءُ يقرءُون جَمِيعًا وفُرَادىٰ بأحْسَنِ تَلْحِين ، وأجْمَل تَحْسِين ؛ فأتَتْ أصواتُهم بكلِّ عَجِيب ، وعَدَلوا عنْ التَّرْتِيل إلى الترتيب . ولمـا فَرَغوا شَرعَ أميرُ المَحْفِلِ صَارِخا ، وبكُورِ فَمِه نَافِخا ؛

فأنْشَد وأوْرَد بالفَارِسيَّة ما يُعجِبُ مَدْلوله، ويَهُول مَقُولُه؛ وأطَالَ وماأطَاب، وٱسْتَصوب من يَعْرف مَقَالَه قوْلَه، والله أعلم بالصواب .

ولما ٱنقضىٰ ذلك مُدّ سِماطٌ ليس يُناسِبُ هِمَم المُلُوك، فأكلَ النَاسُ منه للشَّرفِ لا للسَّرف، ثم عاد كلٌّ منهم إلىٰ مَقَامه فوَقَف؛ وقام مولانا السلطانُ إلىٰ مكانِ الاستراحة فأقام ساعةً أو ساعتين، ثم خرج إلىٰ مُخَيَّمه قَرِيرَ العَيْن؛ وكان بدَارِ المَلِك حُرَم السَّلْجُوقية قد أصْبحوا لا ترىٰ إلا مَسْكَنَتُهم ومَسَاكِنُهم، قد نَبَتْ بهم مَوَاطِئُهم ومَوَاطِنُهم؛ علىٰ أبوابهم أسْمالُ سُتُورٍ من حَرِير، ومَشَايخُ خُدّام يَسْتحقُّ كلٌّ منهم ـ لِكبَرِ سِنّه ـ أن يُدْعىٰ بالكَبِير؛ عليهم ذِلّة الانْكسار، وأمَايِرُ الافْتِقَار؛ فخَبرهم مولانا السلطانُ وآنَسهم، وأحْسَن إليهم؛ وتَوجَّه من توجَّه إلىٰ صَلاةِ الجُمُعة فى قَيْصَرِيَّة وبها سَبْعُ جُمَع تُقام، وبها خُطَباءُ إن هُمْ إلا كالأنعام؛ فصَلَّينا فى جامع السُّلطانِ وهو جامعٌ عَلِيٌّ يدلُّ على ٱحْتِفال مُلُوكها ببيوت عبَادَاتِهم، ورأَيْنا فيه من دَلَائِل الخَيْر ما يقضى بحسن إرَادَاتِهم؛ فحضر أهْلُ المدينة وأكَابِرُها، وجَلَسُوا حِلَقًا لا صُفوفا، وأجْرَوْا من البَحْثِ بالعَجَمِيَّة صُنُوفا؛ وٱجتمعتْ جماعةٌ من حَفَظَة الكِتَابِ العزيز فتخَارجُوا القراءةَ آيةً آيه، وهى قِراءَةٌ بعيدةٌ عن الدِّرايَه؛ بل إنها تُبرِزُها أصواتٌ مُترَنِّمه، وألحَانٌ لتفْريق الكَلِمات مُقَسِّمه؛ ينطقون بالحروف كيف ٱتَّفقَتْ، ولا يَتوقَّفون علىٰ مخَارِج الحُروف أنها بها نطقت أو لا نطقت .

فلما آن وقتُ الأَذَانِ قام صَبيٌّ عليه قَبَاءٌ من وَسَط جماعةٍ عليهم أقْبِيةٌ قعودٍ علىٰ دِكَّةِ المؤذِّنين، فابتدأ بالتَّكْبير أوَّلًا وثانيًا بمفْرَدِه من غير إعانةٍ ولا إبانَه . ولما تَشَهَّد ساعَدُوه جميعُهم بأصواتٍ مُجَمْجِمةٍ مُلَعْلِعَه، ونَغَماتٍ مُتَنوِّعة؛ يُمسِكُون له النَّغَم بأحْسَنِ تَلْحِين، ويترنَّمون بالأصْواتِ إلىٰ آخر التَّأْذِين؛ وفرغَ الأذانُ وكلُّهم قعودٌ ما منهم

أحدٌ غير الصَّبيِّ وَقَف ، وما مِنَّا أحدٌ لكلمةٍ من الأذانِ عَرَف ؛ ولما فرغَ الأذانُ طَلَع شيخٌ كبيرُ السِّنِّ يعرف بأمير مَحْفِل المِنْبَر، فصَعِد إلىٰ ذِرْوةِ المِنْبَر، وشَرَع فى دُعاءٍ لا نَعْرِفُه ، وآدّعاء لا نَألَفُه ؛ كأنَّه مُخَاصِم ، أو وَكِيلُ شَرْعٍ أحْضَره لمُشادَّةِ خَصْمه مُحَاكِمٌ بين يَدَىْ حَاكِم ؛ وطلع الخطيبُ بعد ذلك نَخَطَب ودعا لمولانا السلطانِ بغير مُشَارَكه ، ودعا الناسُ بما تَلَقَّتْه من الأفْواهِ المَلَائكه ؛ وآنْقَضتِ الجُمُعة علىٰ هذه الصُّوره، المَسْطُوره؛ وضُرِبتِ السِّكَّة بآسم مولانا السلطانِ، وأُحضِرتِ الدَّراهمُ إليه فى هذا اليوم، فشاهَدَها فرأى أوجُهَها باسِمَةً بآسْمِه المَيْمُون، وأقرّتِ الألسِنَةُ بهذه النعمة وقَرَّتِ العُيون ؛ وشاهدتُ بقَيْسارِيَّة مَدَارِسَ وخَوَانِق ورُبُطًا تدلُّ على آهتِمامِ بَانِيها، ورَغْبَتِهم فى العُلُوم الشَّرْعيةِ والدِّينية ، مُشَيدةً بأحْسَنِ الحِجارِ الحُمْرِ المَصْقُولة المَنْقوشه، وأَرَاضِيها بأجْمَلِ تلك مَفْرُوشه؛ وأَوَاوِينُها وصُفَفُها مُؤَزَّرةٌ بالقَاشَانِىّ الأجْمَلِ صُورة ، وجَميعُها مَفْروشةٌ بالبُسُطِ الكُرْجيَّة والعالية، وفيها المِياهُ الجَارِية، ولها الشَّبابِيكُ على البَساتِين الحَسَنة ، وسُوقُ قَيْصَرِيَّةَ طائِفٌ بها من حَوْلها، وليس داخَلَ المدينةِ دُكَّانٌ ولا سُوقٌ .

والوَزِيرُ فى بلاد الرُّومِ جميعها يُعرفُ بالصَّاحِب «فَخْرالدِّين خواجا علىّ» ولا يُحْسِنُ الكِتَابةَ ولا الخَطّ ، وخِلْعتُه من ممَاليكه خاصَّةً مائتا مَمْلوكٍ ، ودَخْلُه فى كلِّ يَوْمٍ — غيرُ دَخْلِ أولاده وغيرُ الإقْطاعاتِ التى له ولأولاده وخَواصِّه — سبعةُ آلاف دِرْهم سُلْطانية . ولقد شاهدتُ فى مَدْرَستِه من خِيَامِه وخَرْكاوَاتِه شيئًا لا يكون لأكبر المُلُوك، وله بِرٌّ ومَعْروف، وهو بالخَيْر مَوْصُوف :

وَالْمُسَمَّوْنَ بالوَزِيرِ كَثِيرٌ ✽ والوَزِيرُ الذى لنا المَأْمُولُ!
وعَلِىٌّ هٰــذَا وذَاكَ عَلِىٌّ ✽ وعَلِىٌّ هٰــذا له التَّفْضِيلُ!

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وغَرْبًا * ونَدَاه مُقابِـلِى لا يَزُولُ!
ومَعِى أينَمـا سَلَكْتُ كأنِّى * كُلُّ وَجْهٍ له بوَجْهِى كَفيلُ!

وأمّا مُعِينُ الدِّين سُلَيْمان البرواناه وزَوْجَتُه كُرْجِى خَاتُون، فظهر لهما من المَوْجود البَادِى للعيون كُلُّ نَفِيس، وبحمد الله آستولى مولانا السلطانُ ومَمَالِيكُه من مَوْجُودِه ودَارِ زَوْجَتِه المذكورةِ علىٰ مُلْكِ سُلَيمان وصَرْحِ بِلْقِيس.

ولمـا أقام مولانا السلطانُ بقَيْصَرِيَّة هٰـذه المدّة، فكَّر فى أمر عساكره ومصالحه بمـا لا يَعْرِفه سِـواه، ونظر فى حَالهم بمـا أراه الله؛ وذٰلك لأن الأقْوات قَلَّتْ، والسُّيُوفَ من المصارعة مَلَّتْ، والسَّواعِدَ من المُصَادَمة كَلَّتْ؛ وأنَّه ما بَقِى فى الرُّومِ من الكُفَّار من يُعْزىٰ، ولا بجَزاءِ السُّوءِ يُجْزىٰ؛ ولا بَقِىَ فى البلاد غيرُ رعايا كالسَّوائِمِ الهَامِلَه، ولا دِيَةَ ـ للكُفْر منهم ـ علىٰ عاقِلٍ وعاقِلَه؛ وأنَّه إن أقام فالبلادُ لا تَحْمِلُه، ومَوادُّ بلادِه لا تَصِلُه؛ وأعْشابُ الرُّوم بالدَّوْس قد آضمحلَّتْ، وعُلُوفاتُها قد قَلَّتْ؛ وزُرُوعها لا تُرْتَجىٰ لِكفايَه، ولا تَرْضىٰ خُيولُ العَساكِرِ المنصورةِ بما تَرْضىٰ به خُيولُ الرُّومِ من الرَّعْيِ والرِّعايَه؛ وأن الحُسَام الصَّقِيلَ الذى قُتِـل التَّتار به فى يَدِ القَاتِل، وأنَّهم إن كان أعْجَبهم عَامُهم فيَعُودون إلى الرُّومِ فى قَابِل.

ورَحَل فى يوم الاثنين عِشْرين من ذى القَعْدة بعد أن أعطىٰ أمَراءَه وخَواصَّـه كلَّ ما أُحْضِرَ إليه من الأعِنَّة والأزِمَّه، وكلَّ ما يُطلَقُ علىٰ توليه آسْمُ النِّعْمه؛ فنزل بمَنْزِلةٍ تعرف بعترلوا وفى هذه المَنْزِلة ورَد إلى السلطان رَسُولٌ من جِهَة غِياثِ الدِّين سلطانِ الرُّوم، ومن جِهَةِ البرواناه والكُبَراءِ الذين معه، يسمَّى ظَهِيرَ الدِّين التَّرْجُمان، وفى الحقيقةِ هو من عند البرواناه، يَسْتوقِفُ مولانا السلطانَ عن الحَرَكةِ وما عَلِمُوا إلى أيْن، بل كان الأمرُ شائعًا بين الناس أن الحَرَكة إلى جِهَةِ سِيوَاس. فعَدَّدَ مولانا السلطانُ عليه حُسْنَ وَفَائِه بعَهْدِه، وأنه أجاب دُعاءَهم مَرَّةً بعـد مَرَّةٍ من أقْصىٰ

مُلْكه مع بُعْـدِه؛ وأنهم ما وَقَفُوا عند الشُّروط المُقَرّره، ولا وَفَوْا بمضمونِ الرَّسائل المُسَـيَّره، وأنَّهم لما جاء الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ طَلَبُوا نَظِرَةً إلىٰ مَيْسَره؛ وأن أعِنَّتَهم للكُفْرِ مُسَلَّمه، وأنَّهم منذ ٱستيلاءِ التَّتَارِ هم أصحابُ المَشْأَمَه؛ وعَلِمَ مولانا السلطانُ أن بِلادَ الرُّوم ما بها عَسْكَرٌ يَسْتخلِصُه لنَفْسِـه، ولا مَن يُقابِل المُغْلَ فى غَدِه خَوْفًا ممّا شاهده كلُّ منهم فى أَمْسِه؛ وأنهم أَهْلُ ٱلْتِذاذ، لا أهْلُ نَفَاذ؛ وأهْلُ طَرَب، لا أهْلُ حَرْب [وغَلَب]؛ وأهلُ طِيبَةِ عَيْش، لا قُوَّادُ جَيْش؛ فردَّ السلطانُ إلى سُلَيمان البرواناه مَدَّ يَده، وقال: قُلْ له: إنَّنِي قـد عرفتُ الروم وطُرُقَاتِها، وأخذتُ أُمَّه أسيرةً وٱبنَ بِنْتِه وولَدَه؛ ويَكْفِينا ماجَرىٰ من النَّصْرِ الوَجيز؛ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وما كُلُّ من قَضَى فَرِيضَةَ الحَجِّ تجِبُ عليه المُجاوَرَه، ولا بعدَ هذه المناصَرَةِ مُناصَره، ولا بعد هذه المُحاوَرَة مُحَاوره، ونحنُ فقد ٱبْتَغَيْنا فيما آتانا اللهُ: من حَقْنِ دِماءِ أهْلِ الرُّوم وعَدَمِ نَهْبِ أموالهم الدَّارَ الآخِرَه؛ وتَنَزَّهنا عن أموال كُنتم للتَّتارِ تَسْتَجِبّونها، ومَغَارِمَ كثيرةٍ هى لهم من الجنَّات مَغَانِمُ يَأْخُذونها حين يَأْخُذُونها؛ وما كان جُلُوسُنا فى تَخْتِ سَلْطَنَتِكم لزيادةٍ بتَخْتِ آلِ سَلْجُوق، إلا لِنُعْلِمَكم أنَّه لا عَائِقَ لنـا عن أمْرٍ من الأمور يَعُوق؛ وأنَّ أحدًا لاينبغى له أن يأمَنَ لنا سَطْوَه، ولِيَتحقَّقَ كُلٌّ أنَّ كلَّ مسافةِ جُمْعةٍ لنا خَطْوَه؛ وسُرُوجُنا ـ بحمد الله ـ أعْظَم من ذلك التَّخْتِ جَلالا، وأرْفَعُ مَنالا؛ وكَمْ فى مَمَـالكنا كَرَاسىُّ مُلْكٍ نحنُ آيَةُ ذلك الكُرْسىّ، وكَمْ لنا فَتْحٌ كلُّه ـ والحمد لله ـ فى الإنافَةِ الفَتْحُ القُدْسىّ.

مَنْ كانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُه * فَلَيْسَ يَرفَعُـهُ شَىْءٌ ولا يَضَـعُ!

وٱسْتَصْحَبَ السلطانُ معـه تحْتَ الرِّضا والعَفْوِ من أكابرِ الرُّوميين ـ الأميرَ سَيْفَ الدِّين جاليش النَّائِبَ بالرُّوم، وهو رجلٌ شَـيْخٌ نَبِيهٌ له ٱشتغالٌ بعِلْم، وكان له

فى الرُّوم صُورة، وهو أَمير دار يعنى أميرَ المَظالِم . وٱستصحبَ ظَهِيرَ الدِّين موح(؟) مُشَرِّف المَمَالك، ومَرْتبته دُون الوِزارة وفيه فَضْلٌ، ونَسَخ كثيرًا من العُلوم بخَطِّه، مثل الصِّحاح فى مُجَلَّدٍ واحدٍ، وغير ذلك . وٱستصحبَ الأميرَ نِظامَ الدِّين أوْحَد ٱبن شَرَف الدِّين بن الخَطِير، وإخْوَتَه وجماعتَه وجماعةَ والِده، وأولادَ عَمِّه ضِياءِ الدِّين بن الخَطِير المُسْتَشْهد رحمه الله .

وٱسْتَصْحبَ من الأمراء : الأميرَ مُظَفَّر الدِّين محاف (؟) والأميرَ سَيْفَ الدِّين بَكِيَا الجَاشَنْكِير، والأميرَ نُورَ الدِّين المَنْجَنِيقِىّ، وأصحابَ مَلَطْيَة أولادَ رَشِيدِ الدِّين أمير عارض، وهم : كَمالُ الدِّين وإخْوتُه، وأمير علىّ صَاحِب كَرْكَر .

وٱسْتَصْحبَ قاضِيَ القُضَاةِ بمَلَطْيَة، وهو القاضى حُسَامُ الدِّين ٱبنُ قاضِى العَسْكَر، ووالِدُه الذى كان يَتَرَسَّلُ عن السلطان عَلَاءِ الدِّين إلى المُلُوك، وهو رَجُلٌ عالِمٌ فاضِلٌ . وأكثر هؤُلاءِ حَضَروا ببُيُوتِهم ونِسَائِهم وغِلْمانِهم وحَفَدتهم .

والذين حَضَروا تحت الغَضَب ـ وَلَدُ البرواناه المذكور، ووَلَدُ خواجا يُونُس، وهو ٱبنُ بِنْتِ البرواناه، ووَالِدة البرواناه . والأميرُ نُورُ الدِّين جاجا، وهو أكبر أمَراءِ الرُّوم أصحابُ النِّعمة والنِّعَم، والأميرُ قُطْبُ الدِّين أحمدُ أخُو الأتابك، والأميرُ سَيْفُ الدِّين سُنْقُر حاه الروناسىّ، والأميرُ سِراجُ الدِّين إسْماعِيلُ بن جاجا، والأميرُ نُصْرةُ الدِّينِ صاحِبُ سِيواسَ، والأميرُ كمالُ الدِّين عَارِضُ الجَيْش، والأميرُ حُسامُ الدِّين ركاوك قَرِيبُ البرواناه، والأميرُ سَيْفُ الدِّين الجاويش، والأميرُ سِرَاجُ الدِّين أخُو حُسَامِ الدِّين، والأمير شِهاب الدين غازى بن على شير التُّرْكمانىّ .

ومن المغل : مقدّمى الألوف والمآت ـ زيرك وسرطلق، وحنوكه، وسركده وتماديه (؟) .

ثُمَّ رحلَ السلطانُ فى اليوم الثانى ونَزَل بمَنْزِلَةٍ قَرِيب خانِ السلطان عَلاء الدِّين كيقباذ، ويعرف بكروانى صَراىْ . وهذا الخانُ بِنْيَةٌ عَظِيمةٌ من نِسْبَةِ خان قرطاى، وله أوقافٌ عظيمةٌ . ومن جُملةِ ما وُجِد قرِيبًا منه أذْوادٌ كَثِيرةٌ من الأغْنام عبَثَتْ فيها العساكِرُ المنصورة، سألتُ عنها فقيلَ : إنها وَقْفٌ على هذا الخَان يُذْبَحُ نِتاجُها للواردين على هذا الخانِ ، وهذه الأغنامُ له من جملة الوُقُوف، قَدَّر الله ٱسْتِيفَادَها جُمْلةً لمَّا كثرتْ علىٰ هذا الخَان من الجُيُوش المنصورة الضُّيُوف .

ورَحَلْنا فى اليوم الثالثِ وهو يومُ الأربعاء ثانى عشرين من الشَّهْر، ونزلنا فى وَطْأَةٍ عادَةُ التَّتارِ ينزلون بها تسمَّىٰ روران كودلوا، وكودلوا ٱسم جبال تلك الوَطْأَة .

ورَحَلْنا فى يوم الخميس ثالثَ عشرين من ذى القَعْدة ، فعارَضَنا بها ــ فى وَطْأَةٍ خَلْف حِصْن سَمَنْدُو من طريقٍ غيرِ الطريقِ التى كُنَّا توجَّهْنا منها ــ نَهْرٌ يعرفُ بنَهْر قزل صو، قريب كودلوا الصغير . ومعنىٰ قزل صو النَّهْر الأحْمر، وهذا النَّهْر صَعْب المَخَاض، واسِعُ الاعْتِراض ، عَالِى المَهْبَط ، زَلِقُ المَسْقَط، مُرْتَفِعُ المُرتَقىٰ ، بَعِيدُ المُسْتَقىٰ ، لا يَجِدُ السَّالِكُ منأوحال حَافَتَيْه إلا صَعِيدًا زَلَقا ، فوقَف مولانا السلطانُ بنَفْسِه ، وجَرَّدَ سَيْفه بيَده ، وباشَرَ العملَ بنَفْسه هو وجميعُ خَواصِّه، حتَّىٰ تَهَيَّأَ المكانُ جميعُه، ووقَف راجِلًا يُعَبِّر الناسَ أوَّلًا فأوَّلًا : من كَبِيرٍ وصَغيرٍ وغُلامٍ، وهو فى أثناء ذلك يَكُرُّ على من يَزْدحِم، ويُكَرِّر التَّأْديبَ لمن يطلب بأذِيَّةِ رَفيقه ويَقْتَحِم ، وما زال من رَابِعة هٰذا النهارِ إلى الساعة الثامنة حتَّىٰ عَبرت الناسُ سالمين . ولمَّا خَفَّتِ البُرور، ولم يَبْقَ إلا المُرور، رَكِبَ فرسَه وعَبَر الماءَ والألْسِنةُ له دَاعِيه، وعليه من اللهِ وَاقِيةٌ باقِيَه ، فنزل فى وَادٍ هُناك به مَرْعًى ولا كالسَّعْدان، ومَرْأًى وَلا كَشِعْب بوَّان .

ثم رحلَ فى يوم الجمعة فنزل عند صَحَراتِ قراجار حصار، وهى قَرْيةٌ كانت عامِرَةً فيما مضىٰ، قَرِيبةٌ من هدر رجال (؟) قُبالَة بازَار بَلُّو، وهذا البَازَارُ هو الذى كانت الخلائِقُ تجتمع إليــه من أقْطارِ الأرض، ويُباعُ فيه كلُّ شَىْء يُجْلب من الأقاليم، و يقربُ من كودلوا الكبير.

وسِرْنا فى يوم السَّبت سَوْقًا طُولَ النَّهار، حتَّىٰ نزلنا فى وَطْأةِ الأَبُلُسْتَيْنِ، وفى هذا النهار عَبَر مولانا السلطانـ نَصَره الله ـ علىٰ مكان المَعْركة لمُشاهَدَةِ أُمَمِ التَّار، وكَيْفَ تعاقَبَتْ عليهم من العِقْبانِ كَواسِرُهـا، وكَفَّ بَأسَهُــم من النُّسور مَناسِرُها؛ وكَيْفَ أصْبَحوا لا يَنْدبُهم إلا البُوم، وتَحَقَّقوا أن الَّتى أهلكَتْهم زُرْقُ الأسِنَّة لا زُرْق الرُّوم؛ فرآهُم لمن بَقِىَ عِبْره، وعُرِضُوا علىٰ رَبِّهِــمْ صَفًّا وجَاؤُوه كما خُلِقُوا أوَّلَ مَرَّه؛ وأبْصر الرِّياحَ لأشْلائِهم مُتَخَطِّفَه، والهَوَامَّ فى أجْسادِهم مُتَصرِّفَه، وشاهَدَهم وقــد هذَّأَهم كلُّ شَىْءٍ حتَّى الوُحُوش والرِّياح: فهذه من صَدِيدِهم مُتَكَرِّعةٌ وهٰذه عليهم مُتَقَصِّفه.

قَدْ سَوَّدَتْ شَجَرَ الجِبَالِ شُعُورُهُمْ * فَكَأَنَّ فِيهِ مُسِــفَّةَ الغِرْبَانِ!

ولمَّـا عاينهم مولانا السلطانُ وعاينهم الناسُ، أكثروا شُكْرَ الله علىٰ هٰذه النِّعَم التى أمْسَتْ لكافَّة الكُفْر كافَّةً وشَـالَّةً ودَارِزَه، وأثْنَوْا على مِننه التى سَنَّتْ(١) إليهــم خيارَ العَسَاكِر المنصورة حتَّىٰ أصبحَتْ تلك الأرضُ بهم بارِزَه؛ وحضرتْ مِنـ أهْلِ الأَبُلُسْتَين هنالك جماعةٌ من أهْلِ التُّقىٰ والدِّين، وٱستخْبَرهم مولانا السلطانُ عن عِدَّة قَتْلَى المُغْلِ فقالوا: ﴿ فَٱسْأَلِ العَادِّينَ ﴾؛ فاسْتَفْهم من كبيرهم عن عِدَّة المُغْلِ كَمْ من قَتِيل، فقال: ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِعِــدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ وقال بعضُهم ممن عدّهم وممَّن عنده عِلْمٌ من الكِتَاب: «أنا عَدَدْتُ سِتَّةَ آلاف وسبعمائةٍ وسبعين نَفَرا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سنَّ الإبلَ ساقها سوقا سريعا.

الحِسَاب ؛ هـذا : غير من آوَىٰ إلىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُه من مَاءِ السُّيوف فما عَصَمه ، وغيرُ من آعتقد أن فَرَسَه تُسَلِّمُه فأسْلَمه ؛ فتركهم مولانا السلطانُ ومضىٰ والفَلَواتُ مَزْرَعةٌ لجُسُومِهم، والدُّود ـلأنَّها مُؤْمِنَةٌ وهم كُفَّار ـ قد أثَّرَتْ كالنواسر فى لُحُومِهم؛ فرسم مولانا السلطانُ بتقـدّم الأثْقَـالِ والحُرَّاسِ والدِّهْلِيزِ المَنْصور صُحْبَـةَ الأمير بَدْرالدِّين الخزندار، والدُّخولِ فى أجْه دربند، وأقام مولانا السلطانُ فى سَاقَةِ العَسْكر المَنْصورِ بَقِيَّةَ يوم السَّبت ويوم الأحد :

فهـو يَوْمَ الطِّرادِ أوّلُ سَابِقٍ * وهو يَوْمَ القُفُولِ آخِرُ سائق!

وآنتَظَر فى هذين اليومين صَيْدًا من العَدُوِّ يَعِنّ، وما من دِمَاءِهم إلى السَّيفِ يَحِنّ؛ فلمَّا لم يَجِدْ أحدًا رحلَ فى يوم الآثنين فنزل قريبًا من الخَانِ الذى فى الدَّرْبَنْد، وركِبَ يوم الآثنين من طَرِيقٍ غير التى حَضَر منها، فسَلَك طريقًا من الأوْعَارِ يَبَسا، وسَلَك من قُلَلِ الجبال فى هِضَابٍ كَأَنَّ كُلًّا منها ألِفٌ حملت من الأنْجُم قَبَسا؛ فقاسَى العَالَمُ فى هذا اليَوْم من الشِّدَّة ما لا يَدْخلُ فى قِياس، وكادُوا يَهْلِكُون لولا أن الله عَزَّ وجلَّ تَدَاركَ النَّاس؛ فتَسَابقوا ولكن علىٰ مِثْـلِ حَدِّ السَّيف، وتَسَلَّلوا ولكن سَلَّ حَوَافِرِ الخَيْـلِ كَيْف ؟ ، وهَبَطوا من جِبَـالٍ يَسْتَصْعِبُها كُلُّ شَىْءٍ حتّىٰ طَارِقُ الطَّيْف ؛ يَسْتَصْعِبُ الحَجَرُ المُحَلِّقُ من شَاهِقٍ وُقُوعَه فى عِقابِهـا ، ويَسْتَهْوِلُ النَّجْم الثَّاقِبُ تَرَفُّعَ شِعابِها؛ بالقُرْبِ منها جَبَلٌ شاهِقٌ يُعرفُ بسَقَرَ وما أدراك ما سَقَر، لا يُبْقِى علىٰ شَىْءٍ من الدَّوابِّ ولا يَذَر؛ له عَقَبَةٌ لَوّاحة للبَشَر؛ أعان الله على الهُبُوط منها، وفَازَ بمشيئة الله وبسعادة مولانا السـلطانِ من زُحْزِحَ عنها؛ وعَدّينا كوكصوا وهو النَّهر الأزْرَق، وبات مولانا السـلطان هناك، وكان قَضِيمُ البِغَالِ تلك اللَّيلةَ وَرَقَ البَلُّوط، إلا من أمْسَتْ عناية الله أَنْ تُيَسِّر فى شَعِيرٍ بخمسةَ عَشَر درهمًا كلّ مُدٍّ يَحُوط .

ورحل مولانا السلطانُ فى يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذى القَعْدة فنزل قريبَ كسول(؟) المقـدّم ذِكْرُها، وعدل إلىٰ طريق مَرْعَش فزال بحمد الله الداعى، وقالوا للشَّعِير: ما فِينَا لك مُخَاطِبٌ ولا مِنَّا فيـك بمَـاله مُخَاطِر، وللخيولِ قد حصلَ لَكِ فى مِصْر الرَّبيعُ الأوّل فى شَـعْبان وفى الشَّـامِ فى ذِى الحِجَّـة الرَّبيع الآخِر، فأُرْتِعتْ لا يَرُوعها أصْحـابُ الموازين فى تلك المساجد، وٱسْتمرَّتْ فى مُرُوجٍ يتأسف عليها ٱبن المساجد(؟)؛ وقَسَّم مولانا السلطان تلكَ الأعْشاب كما تَقَسَّمتْ فى آفاق السماء النُّجوم، وأوقفَ كلَّ أحَدٍ فى مقامٍ حتَّىٰ قال: ﴿وَمَا مِنَّا إلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم﴾؛ فكَمْ هنـالك من مُرُوجٍ أعْشَبتْ فأعْجَبتْ، وٱنْجابَتِ السماءُ عنها فأنْجبتْ، وأرْبَتْ علىٰ زُهْرِ النُّجوم فاهْتَزَّتْ وَرَبَتْ:

يَصُدُّ الشَّمْسَ انَّىٰ وَاجَهَتْنا * فَيَحْجُبُها ويَأْذَنُ للنَّسِيمِ!

يَتَخَلَّلُها هنـالك أتْرَعُ الحِياض، ويَلْهُو بها كُلُّ شَىْءٍ فكَمْ قَصَـفَ العَاصِى بهـا فى تِلْك الرِّياض.

هذا كُلُّه: وخَيْرٌ من أرزنْجَان، حَارَةُ بَرْجَوَان؛ وخَيْرٌ من أراضى تَوْرِيز، قِطْعةٌ من ايليز؛ وكَوْمٌ من كِيمانِ سَـفْط مَيْدُوم، خَيرٌ من قَصْرٍ فى قَيْصَرِيَّةِ الرُّوم؛ ونَظْرةٌ إلى المِقْياس، خَيرٌ من سِيوَاس؛ ومَناظِر اللُّوق، خيرٌ من كَيْقباذِ آلِ سَلْجُوق؛ وتُرْبَةٌ من تُرَبِ القَرَافَه، خَيرٌ من مُرُوج العرافه؛ وشِبْرٌ من شَبْرا، خَيرٌ من سطا ومرا(؟)

وجُلوسٌ فى باب دَارِكَ خَـيرٌ * من جُلوسٍ فى[بَاب]إيوَانِ كِسْرىٰ،
وٱلْتِمـاحى لنُـورِ وَجْهِـكَ خَيْرٌ * لِىَ مِنْ أنَّنِى أُشَاهِـدُ بَدْرا!
ياوَلِيًّـا يُـولِى الأيَادِىَ سِرًّا * ووَزِيرًا فَلَيس يَكْسِبُ وِزْرا:
ما رَأَيْنـا واللهِ فِيمَنْ رَأَيْنـا * لَكَ مِثْـلاً من البَرِيَّةِ طُـرّا.

كَمْ خَبَرْنَا الرِّجالَ فى كُلِّ أَرْضٍ * فإذَا أَنْتَ أعْظَمُ الخَلْقِ قَدْرا!
كَمْ فُلانٍ قَالُوا وقَالُوا فُلَانا * فإذا النَّاسُ دُونَ عَلْياكَ حَسْرَىٰ.
لَكَ مَدْحٌ قد طَبَّقَ الأرض سُبحَا * نَ إلٰهٍ به إلى النَّاسِ أسْرَىٰ!
ما رَأَيْنا مِصْرًا كمِصْـرَ ولا مِثْـ * ـلَكَ فِينَا، والحَمْدُ لِلّهِ شُكْرا!

الضـرب الثـانى

(من الرسائل المُلُوكية رَسائِلُ الصَّيْد)

وهـذه نُسْخةُ رسالةٍ فى صَيْدِ السُّلطان الشَّهيد الملكِ الناصر بن السُّلطان الشَّهيد المَلِكِ المَنْصور «قَلَاوُون» من إنْشاءِ القَاضِى تاج الدين البارِزارِى، وهى :

الحمدُ لِلّه الذى نَعَّم النُّفوسَ الشَّريفةَ بإدراكِ الظَّفَر، وأنْعَم علىٰ هذه الأُمَّةِ بمُحَمَّدِها الذى أنار كَوْكَبُ نَصْرِه وسَفَر، وشَرَع لها علىٰ لِسَانِ نَبِيِّها صلى الله عليه وسلم الغَنِيمَةَ فى السَّـفَر، وأسْعَفَ هـذه الدَّوْلَةَ الشريفةَ بدوام سُلْطانِها الذى حُفَّتْ أيَّامُه بالعِزِّ والتَّأْييد والظَّفَر .

نحمَدُه علىٰ أن أقَرَّ العُيونَ بفَضْله بما أقر، ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً ألانَتْ قَلْبَ من نَفَر، وكَرُمتْ أسبابُها فلا يتمسَّكُ بها إلَّا أعَزُّ فَرِيقٍ ونَفَر، ونشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى أعَزَّ من آمَن وأذلَّ من كَفَر، صلى الله عليـه وعلىٰ آله وأصحابه الذين تَجاوز اللهُ عن ذنوبهم وغَفَر، وسلَّم تسليماً .

وبعدُ، فإنَّ فى ٱبتغاء النَّصْر مَلَاذًّا تُدْرِكها كلُّ ذاتٍ شَرُفَتْ ، وتَمْلِكُها السَّجَايا التى تعـارفتْ بالفَخَار وٱئْتَلفتْ ، وتَنالُهـا النُّفوسُ التى مالَتْ إلى العِزِّ وإلىٰ تِلْقائه

صُرِفَت ، ومَنْشَؤُها من حالتين : إمَّا فى مَوْقِفِ عِزٍّ عنـد ما تَلْمع بُرُوق الصِّفاح ، وتَشِيبُ من هَوْلِ الحَرْب رُءُوس الرِّماح ، وتَسْرحُ جَوارِحُ النِّبالِ لتِحلَّ فى الجوارح وتَصِيدَ فى الأرواح ؛ وإمَّا فى مَوْطِنِ سِلْم عند ماتَنْبسِطُ النفوسُ إلى آمتطاء صَهَواتِ الجياد فى الأمْنِ والدَّعَه ، وتَنْشرِحُ الصُّـدورُ إلىٰ معاطاة الصُّيودِ والمَسَرَّاتُ مُجْتَمِعَه ؛ وتُطْلق البُزَاة فتَصِـيد ، وتتَصَرَّف بأمْرِ المُلوكِ الصِّيد ؛ وتُرسَـلُ الحَوامِى المُمْسَكه ، وتُلْقىٰ علىٰ ما سَنَح من الوَحْشِ فلا تُرىٰ إلا مُدْرِكَه ؛ وتُفَاضُ حينئذٍ النِّعَم السُّلطانيةُ وتُجزَلُ مَواهِبُها ، وتَلُوح العِصَابةُ الشَّريفةُ وتَنْبعثُ مَواكِبُها .

وكان الله تعـالىٰ قد جمع لِلْمَواقِفِ الشَّريفةِ ، المُعَظَّمة ، السُّـلْطانيةِ ، المَلَكيَّةِ ، النَّاصرية ، خَلَّد اللهُ سُلطانَها ــ سعادةَ الحالتين حَرْبا وسِلْما ، وآتاه فيهما النَّصْرَ الأرفعَ والعِزَّ الأسْمىٰ ؛ ووَسَم بِصَـدَقاته وعَزَماته الأمْرَين وَسْمـا ، ونَصَره نَعْتًـا وعَظَّمه سُمْعةً وشَرَّفه اسْمـا ؛ فأيَّامُ حُروبِه كلُّها رِفْعةٌ وآنْتِصار ، وآسْتِيلاءٌ وآسْتِظْهار ، وقوة تَحْيا بهـا المؤمنون وتَفْنَى الكُفَّار ؛ وأيَّام سِلْمه كلُّها عَدْلٌ وهِبَه ، وصَـدَقاتٌ مُنْجِيَةٌ مُنْجِبَه ، ورَفْعُ ظُلاماتٍ مُتَشعبه ؛ وقَمْـعُ نُفُوسٍ مُتَوثِّبه ؛ وحَسْمُ خُطُوبٍ مُسْتَدَّه ، وحِفظُ الحَوْزَةِ الإسلامية من كلِّ بأسٍ ووِقَايتُها من كلِّ شِدَّه ؛ وفى خِلالِ كلِّ عام تُصْرف عَزائِمُه الشريفةُ إلى آبتغاء صَيْدِ الوَحْشِ والطَّير : لمـا فى ذلك من تَمْرِين النُّفوس على آكتساب التَّأْييـد ، وحُصُولِ المَسَرَّةِ بكلِّ ظَفَرٍ جَدِيد ؛ فَيَرسُم ــ خلد اللهُ سُلطانَه ــ فى الوَقْتِ الذى يَرْسُمُ به من مَشْتَىً كلِّ عامٍ بإخراج الدِّهْليزِ المَنْصورِ فيُنْصبُ فى بَرِّ الجِيزة بسَـفْحِ الهَرَم ، فى ساعةٍ مُباركَةٍ آخذةٍ فى إقْبال الجُودِ والكَرَم ؛ فتمدُّ بالتَّأْييد أطْنَابُه ، وتُرْفعُ علىٰ عُمُدِ النَّصرِ قِبابُه ، ويُحاطُ بحِراسـةِ الملائكة الكِرام رِحابُه ؛ وتَضرِب خِيامُ الأُمَراءِ حَوْله وِطَاقا ، وتَحُفُّ به [مِثْل] النُّجوم بالبَدْرِ إشْرَاقا ؛ ويَسْتقلُّ الرِّكابُ الشريفُ ــ شرّفه الله ــ بعد ذلك بقَصْدِ عُبورِ النِّيلِ المُبارَكِ فيظهرُ

من القَلْعةِ المحروسةِ والسَّلامةُ تَحْجُبه من المَخَافَه ، والحِراسَةُ تصحَبُه فيما قَرُبَ ونَأَىٰ من المَسافَه ، ولِسَانُ السَّعْدِ قد خاطبه بالتَّحِيَّةِ وشافَه ؛ ومَمَالِيكُه الأُمَراءُ قد حَفُّوا به أَطْلابا ، وسَنِيُّ مَوْكِبِه قد بَعَث أمامَه من الإضَاءَةِ نجَّابا ؛ ولم يزَلْ حتَّىٰ يأتِيَ النِّيـلَ المُبارَكَ ويَسْتَوِيَ على الكُرْسِيّ فى الفُلْكِ المَشْحون ، محُوطًا بالنَّصرِ المَيْمون والجَيْش المَأْمُون ، وقد ٱسْـتَبشر باعْتِـلائه البَحْرُ والنُّون ؛ وأضحىٰ لِظَهر الفُلْكِ من الفخار [بحضْرته] المُكَرَّمه ، ما لِصَهَواتِ أجْيادِه العِتاقِ المُسَوَّمَه ؛ فلهٰذا نَشَر أعْلامَ بُشْراها ، وقال : ﴿ ٱرْكَبُوا فِيهَـا بِاسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ ؛ فسارتْ به فى اليَمّ ، ونَصْرُ الله قد تَم ؛ وصَعِدَ من فُلْكه ، علىٰ ما يَسُرُّ نفوسَ المؤمنين فى كَمَالِ سُلْطانه وعِزَّةِ مُلْكه ؛ وٱستقرَّ علىٰ جَوادٍ شَرُفتْ صَهْوتُه ، وقُرِنَتْ بالأَنَاةِ والسُّكونِ خَطْوَتُه ؛ عَرَبِيّ النِّجار ، يختالُ فى سَيْرِه كأنمـا ٱنْتَشىٰ من العُقَار :

ويختالُ بكَ الطِّـرْفُ * كَأَنَّ الطِّرْفَ نَشْـوَانُ .
تَرَى الطِّرْفَ دَرَىٰ أو ليـ * ـس يَدْرِى أَنَّكَ سُلْطانُ !

وسار فى زُرُوعٍ مُخْضَرّه ، وثُغُورِ نَباتٍ مُفْتَرَّه ؛ وقد طلعتْ للظَّفَرِ شُموسُه وبُدُورُه ، وأُعِدَّتْ للصَّـيْدِ بُزاتُه وصُـقُورُه ؛ من كُلِّ مُتوقِّـدِ اللَّحظ من الشَّهامه ، محمولٍ على الرَّاحات من فَرْطِ الكَرَامه ؛ يُتوسَّمُ فيـه النَّجاح ، قبل خَفْقِ الجَناح ، ويخرُجُ من جَوِّ السَّماءِ ولا حَرَجَ ولا جُنَـاح ؛ وبَازُها الأشْهَبُ ، يَجِيءُ بالظفر ويَذْهَبُ بصَـدْرٍ مُفَضَّضٍ ونَاظِرٍ مُذْهَب ؛ له مِنْسَرٌ أَقْنىٰ ، طالمَـا أغْنىٰ ، كأنَّمـا هو شَبَا السِّنان وقد حَباه الكُمَاة طَعْنا :

وصَـارِم فى يَدَيْكَ مُنْصَـلِت * إنْ كانَ للسَّيْفِ فى الوَغَىٰ رُوحُ ،
مُتَّقِـدُ اللَّحْظِ مِنْ شَهامَتِه * فالجَوُّ من نَاظِرَيْهِ مَجْرُوحُ !

قد راش النُّجْحُ جناحَه، وقَرَن اللهُ باليُمْنِ غُدُوَّه ورواحَه، ونَصره فى حَرْبِه حيث جعل مِنْسَره رُمْحه ومِخْلَبه صِفاحه؛ فى قَوادِمه السَّعْدُ قادم، وفى خَوافِيه النَّصْرُ ظاهِرُ المَعالِم؛ كأنَّما أُلهِم قولَه صلى الله عليه وسلم: «بُورِكَ لأُمَّتِى فى بُكُورِها»، فيسرحُ والطَّيرُ جاثِمَةٌ فى وُكُورِها؛ ويَخْرج فى إغباشِ السَّحَر وعليه سَوَاد، فيَهابُه الصَّادحُ فى الجَوِّ والبَاغِمُ فى الوَاد؛ ويأمر ـ خَلَّد اللهُ سلطانَه ـ أمراءَه فيَضْربون على الطَّيْر حَلْقةً وهى لاهِيةٌ فى الْتِقاطِ حَبِّها، غافلةٌ عمَّا يُرادُ بها، فيَذْعَرُونَها بخَفْق الطُّبولِ وضَرْبِها؛ ومولانا السلطانُ ـ خَلَّد اللهُ مُلْكَه ـ لنافِرِها مُتَرَقِّب، ولطائِرِها بالجارِحِ مُعَقِّب، فما يَدْنُو الكُرْكِىُّ مَقْرُورا، حتَّى يَئُوبَ مَقْهورا؛ ساقطًا من سَمائِه إلىٰ أرْضِه، ومن سَعَتِه إلىٰ قَبْضِه، فسُبحانَ من خَلَق كُلَّ جِنْسٍ وقَهَر بَعْضَه بِبَعْضِه؛ هذا: والجارِحُ قد أنْشَب فيه مَخَالِبَه، وسَدَّ عليه سُبُلَه فى جَوِّ السَّماء ومَذاهِبَه؛ ولم يَزَلْ ـ خَلَّد اللهُ تعالىٰ سُلْطانَه ـ عامَّةَ يَوْمِه مُتَوَغِّلًا فى التَّمَتُّعِ بلَذَّاتِ صُيُودِه، وأوقاتِ سُعُودِه؛ وحُصُولِ أَرَبِه ومَقْصُودِه، وجُنُودُ الملائكةِ حافُّونَ به وبجُنُودِه؛ حتَّىٰ يَنسَخَ النهارَ الليلُ بظَلْمائِه، ويَلْمعَ الطَّارِقُ بأضْوائِه؛ فيعودُ عند ذلك الرِّكابُ الشريفُ إلى المُخَيَّم المَنْصور والجَوارِح كاسِبَه، والأقْدارُ واهِبَه؛ والجَوارِح مَسْرُوره، والطُّيور مَأْسُوره؛ والنُّفوسُ مُمَتَّعه، والمَواهِبُ مُنَوَّعه، والأرْجاءُ مُضَوَّعه، واللهُ تعالىٰ مَعَ سُلطانِه بكَلاءَتِه: «ومن كانَ مَعَ اللهِ كان اللهُ مَعَه»؛ فيرفع أمامَه فانُوسانِ تَوْءَمان، كأنهما كَوْكَبان بينهما اقْتِران، أو فَرْقَدانَ رَفَعَتْهما يَدَان؛ فيدْنُو إلىٰ مُخَيَّمِه المنصورِ فى سُرادِقِ العِزِّ الحَفيل، وعِصابَةِ النَّصْرِ الأثِيل، وتَتَرَجَّلُ الانْصارُ قَبلَ فُسْطاطِه المعظَّمِ علىٰ قَدْرِ مِيل؛ ويُسعىٰ بالشُّموعِ لتَلَقِّيه، ويُسَوِّىٰ تَخْتُ المُلْك لتَرَقِّيه؛ فعند ذلك يطوفُ بالدهليزِ المَنْصورِ أُمَراءُ الحَرَس بالشُّمُوعِ المَرْفُوعه، والمَزاهِر المَسْمُوعه؛ فإذا طلع الفَجْر مُسْتَطِيلا، وجاء الصُّبْحُ شيئًا قَليلا؛ عُرِضَتْ

عليـه النِّعَم فأعطاها ، والمُهِمَّات الإسلامية فقضاها ، وقُدِّمتْ له الجِيـادُ المُسَوَّمة فامْتَطاها ؛ ويسرحُ إلى الصَّـيْد والجَوارح التى صادَتْ بالأمْسِ قد آسْـتأسَدَتْ ، وبسَعادتِه إلىٰ ظَفَرِها قد أُرْشدت ؛ فإذا سار رِكابُه الشَّريفُ فرّقت علىٰ أثَرِه عسَاكر الإسلام ، وقُوِّضَتْ تلك الخيامُ كأنها الأيَّام .

ولم يبرحْ ذلك دَأْبه فى كلِّ يومٍ من أيَّامِ حَركَتِه حتَّىٰ يأخُذَ حَظَّه من صَيْدِ الطَّيْر ، فعنــد ذلك يَثْنِى عِنَانَ السَّيْر ، إلى آقتناص الوَحْش فيعدُّ لإمْساكِها كلَّ هَيْكَلٍ قَيْد الأوابد ، قد عُقِدَ الخيْر بناصِيَتِه فأصْبح حَسَنَ المَعاقِد .

فمن أشْهَب : كريم المَغـار ، ذى إهَابٍ من النَّهار ، وأديم كأنَّه صحيفةُ الأبْرار ، أبيضَ مثـل الهُـدىٰ ، له فى الصُّـبْحِ إثارة النَّصْر وإغارَةٌ على العِـدا ؛ تَلا قَدْرًا وغَلَا قِيمَه ، وله إلى آلِ أعْوجَ نِسْبةٌ مُسْتَقِيمَه ؛ إذا آسْتنَّ فى مِضْمارٍ يسْبِقُ البُرُوق الخَاطِفَه ، ويُخَلِّفُ الرِّيح حَسْرىٰ وهى وَاقِفَه ؛ يجِدُه الفَارِسُ بحْرا ، وله عند مجْرىٰ العَوَالى مع السَّوابِق مَجْرىٰ .

ومن أحْمَر : كأنَّما صبغ بدَمِ الأعْداءِ أديمُه ، وكأنَّمـا هو شَقِيقُ الشَّقِيقِ وقَسِيمُه ؛ كَرُمتْ غُرَرُه وحُجُولُه ، وحَسُنَتْ أعْراقُه وذُيُولُه ، مِكَرٌّ مِفَرٌّ كجُلْمودِ صَخْرٍ حطَّه من عَلٍ سُيُولُه ؛ حكَىٰ لونه مُحْمَرَّ الرَّحيق ، وله كلَّ يومٍ ظَفَرٌ جديدٌ مع أنه عَتِيق .

ومن أدْهَم : مُدْرِكٍ كاللَّيل ، مُنْصَبٍّ كالسَّيْل ؛ كَرِيمِ النَّاصِيَه ، جَوَّابِ قَاصِيَه ؛ كأنّ غُرَّتَه صُبْحٌ تنَفَّس فى الدُّجى الحَـالك ، وكأنَّه من اللَّيلِ باقٍ بين عَيْنيه كوكبٌ يُضِيءُ المَسَالك ، وكأنَّ حُجُولَه بروقٌ تفَرَّقت فى جوانِبِ الغَسَقِ فحُسُنَ مَنْظَرًا لذلك ؛ سَـنابِكُه يُورِى قَدْحُها ، وغُرَّتُه يُنير صُبْحُها ؛ وجَوَارِحُه مُسَوَّدٌ جُنْحُها ، وصَهْوَتُه كَمَن فيها العِزُّ فلا يزالُ ظاهِرًا نُجْحُها .

وممّا سِوَى ذلك من الجياد المُخْتبَرَه ، والصّافِنات المُعْتبره :

إذا ما صَرَفْتَ اللَّحْظَ نحو شِياتِها * وألْوَانِها فالحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ(١) !

وإنما هى بصَبْرِها على الظَّما ، وشِدّة عَدْوِها فى النُّور والظَّلْما ، وسَبْقِها إلى غايات رِهَانِها ، وثَبَاتِها تحت رايات فُرْسانِها .

وتَلِيها الفُهُود الحَسَنُ مَنْظَرُها ، الجميلُ ظَفَرُها ، الكاسِبُ نَابُها وظُفُرُها ؛ تَفَرِّق اللَّيلُ فى أُهَبِها المُجْتمعه ، وأدْرَكَتِ العَوَاصِمَ فى هِضَابِها المُرْتفعه ؛ وجُوهُها كوُجُوهِ اللُّيوثِ الحَادِره ، ووَثَباتُها على الطَّرِيدَة وَثَباتُ الفِئَةِ المُؤْمنة على الفِئَةِ الكَافِرَه ؛ مُقَلَّصةُ الخَوَاصر ، عَزَماتُها على الوَحْشِ حَوَاصِر ؛ ما أُطْلِقَتْ على صَيْدٍ إلا قَنَصته سَرِيعا ، ولا بَصُرَتْ بعَانَةٍ من حُمُرٍ إلا أخَذَتْها جَمِيعا .

ثم الحَوَامِي المُعَلَّمه ، والضَّوارِى التى أضْحَتْ بالنُّجْح مُتَوَسِّمه ؛ ما منها إلّا طَاوِى الخَاصِرَه ، وَثَبَاتُه طَائِلَةٌ غير قاصِرَه ؛ بنُيُوبٍ كالأسِنَّه ، وسَاعِدَينِ مَفْتُولين تَسْبِقُ بهما ذَوَاتِ الأَعِنَّه ؛ لو رآه عَدِىُّ بنُ حَاتِمٍ رضى الله عنه لضَمَّه إلى ما لَدَيه ، وأكَلَ مما أمْسَكَ عليه .

وتَضْرِبُ العساكرُ حَلْقَةً ما يَلْتَقِى طَرَفاها إلا إلى اللَّيْلِ فى اتساعها ، تَحْوِى سائِرَ الأَوَابِدِ على اختلاف أنْواعها .

فمن نَعامٍ : خُضِّبَ ظَلِيمُها لمّا أكَلَ رَبِيعا ، واحْمَرَّتْ أطرافُ رِيشِه فكأنّها سِهامٌ أصابتْ نَجِيعا ؛ طالتْ أعْناقُها النّاحِلَة فكأنّها خَطِّيّه ، واشْتَدَّتْ قَوائِمُها الحَامِلَةُ فكأنّها مَطِيّه ؛ شَارَكتِ الطَّيْرَ فى وُجود الجَناح ، وفارقَتْها فى كَثَافة الأشْبَاح ؛ وأشْبهتِ

(١) الذى فى ديوان المتنبى :

إذا لم تُشاهد غير حسن شياتها * وأعضائها فالحسن عنك مغيب .

الوَحْشَ فى مَسْكَنِ القِفَار، وشِدَّةِ النِّفار؛ قد ٱجْتَمع فى ظَاهِرِها اللَّوْنان من الوَحْشِ والطَّيْرِ وٱئْتَلف فى باطنها الضِّدَّان من ماءٍ ونَار .

ومن ظِباءٍ : مُسْوَدَّةِ الأحْدَاقِ، حَكَتِ الحَبَائِبَ فى كُحْلِ المُقَلِ وحُسْنِ سَوَالِفِ الأعْناق ؛ ٱبيضَّتْ بُطُونها، وٱحْمَرَّتْ مُتُونها ؛ وراقت أوراقُها، وحَاكَتْ آماقُها ؛ نَافِرَةٌ فى صَحْرائِها، طَيِّبٌ مَرْعاها فالمِسْكُ من دمَائِها .

ومن بَقَرٍ وَحْشِـيَّةٍ : عُفْرِ الإهاب، سَاكِنـةِ الهِضَاب؛ لهـا فى حِقَافِ الرَّمْلِ مَرَابِض، حَذَرًا من قَانِصٍ قابِض ؛ كَمْ فى ... ...(١) من لِوًى يَتَهادَىٰ ، كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِه قَلَمٌ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدَادَا .

ومن حُمُرٍ إهابهـا أقْمر مَنْسُوبَةٌ إلىٰ أحد (؟) ولم تُرَكَّبْ مُتُونُها، وقد حَكَى الجَزْعَ الذى لم يُثَقَّبْ فى دُجىٰ اللَّيْلِ عيونُها .

وعند ما تَلْتَقِى حَلْقَةُ العساكر يَلْحقها ـ خَلَّد اللهُ سُلطانَه ـ ومعه الجوارِحُ الصائده، والحوامى الصائِلَه ؛ والأسْهُم النَّـافِذه ، والفُهُود الآخِذَه ؛ فتَمُوجُ الوَحْشُ ذُعْرا ، وتَرَىٰ مَسالِكَها قد سُدَّتْ عليها سَهْلًا ووَعْرا ؛ وضُرِب دُونَ نَجاتِها بسُورٍ من الجِيَاد والفُرْسان، وحِيلَ بينها وبين خَلاصِها بنِبَالٍ وخُرْصان؛ فحينئذٍ تفِرُّ النَّعامُ عن رِمَالها، والظِّباءُ عن ظِلَالهـا ؛ والبَقَر عن جَآذِرِها ، والحُمُر عن بولها ؛ ويَقْبِضُ ـ خَلَّد اللهُ سُـلطانَه ـ من جِنْس الوَحْشِ كلَّ نَوْع ، ولو لم يُمسِكْها بجارحٍ لأمْسَكَها كما تُمْسِكُ عُداةُ الإسلامِ بالرَّوْع ؛ وتُجْزَل منها المَكَاسِب ، وتُمْلأُ منها الحَقَائِب؛ فاذا أخَذَ حَظَّه من القَبْضِ ولَذَّةِ ٱكْتِسَابه ، رَسَم لأمرائه بالصَّيْد عند صُـدُور رِكابِه ؛ فيصيدون ويَقْنصون، زادهم الله من فَضْله ـ فإنهم فى طَاعَتِه مُخْلِصون ؛ فيكثر عند ذلك كلُّ

(١) بياض بالأصل .

قنِص ذَبيح، ويأتى كلٌّ بما اقتنصه ليظْهَر التَّرجيح؛ فاذا استكمل أوقاتَ الصَّيْد من الطَّيْر والوَحْشِ ثنىٰ رِكابَه الشَّريفَ إلىٰ جهة القَلْعة المحروسة والقِفارُ قد شَرُفت بمرور مَواكبه، والوَحْشُ والطَّير قد افتخرتْ بكَوْنها أصْبحتْ من مكاسِبه .

هذا كلُّه وإن كانت النفس تراه لَهْوا، وتَبْلُغ به كلَّ ماتَهْوىٰ، ففى طَيِّه من تَمْرِينِ الجُنُود على الحَرْبِ ما تُشَدُّ به العَزَماتُ وتَقْوىٰ؛ فيَؤُمُّ الركابَ الشَّريفَ عائدًا إلىٰ سَريرِ مُلْكه بالقَلْعة المحروسة، والسَّلامةُ قد قَضَتْ ما يجِبُ عليها من حِراسته، والأقدارُ قد وَفَتْ ما يَنْبغِى من كَلاءَته؛ فلم يَكُ إلا وهو صاعِدٌ إلى القَلْعَةِ المحروسة وألْسِنَةُ السَّعادةِ تُخاطِبُه، وسَريرُه قد اهتزتْ فَرَحًا بمَقْدَمه جوانبُه، والصَّيْد المُبارَك قد سَعِدَتْ مَبادِيه وحُمِدَتْ عَواقِبُه؛ فيُلْقِي أُهْبَةَ السَّفَر، ويأخُذُ فيما بَطَن من المصالح الإسلامية وظَهَر، وتُنْشِدُه ألْسِنةُ السلامةِ ما أملَىٰ عليها العِزُّ والتَّأْييد والظَّفَر :

مَلِكُ البَسيطَةِ آبَ من سَفَرِه * والنَّصرُ والتَّأْييدُ فى أثَرِه،

فَكَأنَّه فى عِزِّ مَوْكِبِه * بَدْرٌ تألَّقَ فى سَنَا خَفَرِه.

ما فى البَرِيَّةِ مِثْلُه مَلِكٌ * أُوتِى الذى أُوتِيه من ظَفَرِه!

يَسْرِى إلىٰ أعْدائه رَهَبٌ * ممَّا يَبُثُّ الناسُ من خَبَرِه.

فاللهُ رَبُّ النَّاسِ فاطِرُنا * يُؤْتِيه ما يُرْبِى علىٰ وَطَره!!

الصنف الثانى

(من الرسائل ما يَرِدُ منها مَوْرِد المَدْح والتَّقْريض)

إما بأن يجعلَ المَدْح مَوْرِد الرِّسالةِ ويُصَدَّر بمَدْح ذلك الشَّخْص المُراد، وإما بأن يُصَدَّر بماجَرِيَةٍ يحكيها المُنْشِئُ ويتخلَّص منها إلىٰ مَدْح من يَقْصِدُ مَدْحه وتَقْريضه

وما يجرى مَجْرىٰ ذلك . وللكُتّاب وأهـلِ الصِّناعةِ فى ذلك أفانينُ مُخْتلفةُ المَقاصِد، وطُرُقٌ متباينة المَوَارِد .

وهذه نُسْخةُ رسالةٍ أنشأها أبو عَمْرو عثمانُ بن بَحْرٍ الجاحظُ سَمَّاها "رسالة الشُّكْر" قَصَد بها تَقْرِيضَ وَزِيرِ المُتوكِّل وشُكْرَ نِعَمه لَدَيْه ، مُصَدِّرًا لهـا بذكر حقيقة الشُّكْر وبيان مَقَاصِده، وهى :

جُعِلتُ فِداكَ، أيَّدكَ اللهُ وأكرمك وأعَزَّك ، وأتَمَّ نِعْمتَه عليك وعِنْدك . ليس يكونُ الشُّكْرُ ـ أبقاك الله ـ تامّا ، ومن حَدِّ النُّقْصانِ خارِجا ، حتَّى يَسْتَصْحِبَ أربعَ خِلَال ، ويشتمِلَ علىٰ أرْبَع خِصَال :

أوّلهـا : العِلْم بمَوْقِع النِّعمة من المُنْعَم عَلَيه ، وبقَدْرِ ٱنتفاعه بمـا يَصِلُ إليه من ذلك : من سَدِّ خَلَّة ، أو مَبْلغ لَذَّةٍ وعُلُوٍّ فى دَرَجة ، مع المعرفة بمِقْدار ٱحتمال المُنْعِم لَمشَقَّة ، والذى حاول من المُعاناةِ والكُلْفةِ فى بَذْلِ جاهٍ مَصُونٍ ، أو مُفـارَقَةِ عِلْقٍ ثَمِينٍ . وكَيْف لا يكون كذلك ؟ وقد خَوَّل من نِعَمه بعضَ ما كان حَبِيسًا علىٰ حَوادِثَ عِدَّة ، فزاد فى نِعَم غيره بما ٱنْتَقَصَ من نِعَمِ نَفْسه ووَلَده . فكلَّما تَذَكَّر الشاكرُ ما ٱحتملَ من مَئُونَةِ البَذْل ، سَهُل عليه ٱحْتِمالُ ما نَهَضَ به من ثِقَلِ الشُّكْر .

والخَصْلة الثانية : الحُرِّيَّة الباعثةُ علىٰ حُبِّ المكافأة وٱسْتِحْسان المُجَازاةِ . والشُّكْرُ من أكْبَرِ أبواب الأمانَه ، وأبْعدِه من أسْبابِ الخيانَه . ولن يبلُغَ أحَدٌ فى ذلك غاية المجد إلا بمَعُونَة الطمع ، وإلا الحَرْب سِجَالٌ بَيْنهما ، والظَّفَرُ مَقْسومٌ عليهما . كذلك حُكْم الأشياء إذا تَساوتْ فى القُوَّه ، وتَقاربَتْ فى بُلُوغ المُدَّه . وقد زعم ناس أن الشَّاكرَ والمُنْعِم لا يَسْتوِيان ، كما أن البَادِئَ بالظُّلْم والمُنْتَصِر لا يَعْتدِلَان ؛ لأنَّ البَـادِئَ أخذَ ما لَيْس له ، والمُنْتصرَ لم يتجاوزْ حَقَّه الذى هو له ؛ ولأن البادئَ لم يكن مُهَيَّجًا على

الظُّلْم بعِلَّةٍ جناها المُنْتَصِر، والمُنْتَصِرُ مُهيجٌ على المُكافأة بعِلَّةٍ جناها البَادِئُ، والمُثَوَّر للطباع المُغْضِب، والمُستَخِفُّ المُهَيِّج أعْذَرُ من السَّاكِنِ الوَادِعِ المُطْمَئِنّ . فلذلك قالوا : إن البَادِئَ أظْلَم، والمُنْتَصِرَ أعْذَر . وزعَمُوا أن المُنْعِم هو الذى أودَعَ صَدْرَ الشاكِرِ المَحَبَّة بانعامه عليه، وهَيَّجَه بذلك علىٰ مُكافَأتِه لإحْسَانه إليه، فقد صار المُنْعِمُ شَرِيكَ الشَّاكِرِ فى إحسانه، وتفرَّدَ بفَضْل إنعامه دُونَ مُشارَكَة غيره، والمُنْعِم هو الذى دَفَع للشاكر أداةَ الشُّكْر، وأعَارَه آلَةَ الوَفَاء، فهو من هٰهُنا أحَقُّ بالتقديم، وأَوْلىٰ بالتَّفْضِيل .

هذا، وقد قال بعضُ الحكماء والأُدَباء والعُلَماء : من تَمَامِ كَرَمِ المُنْعِم التَّغافُلُ عن حُجَّتِه، والإقْرارُ بالفَضِيلة لشاكِرِ نِعْمَتِه ؛ لأن المُحاجَّة مُغَالَبه، ولا تَتِمُّ مودَّةٌ إلا مع المُسامَحَه . ولذلك قال الرَّبَعِيُّ لناسٍ من العَرَب يَخْتَصِمُون : هَلْ لَكُم فى الحَقِّ أو خَيْرٍ منه ؟ قالوا : قد عَرَفنا الحقَّ، فما الذى هو خَيْرٌ منه ؟ قال : التَّغافُلُ فإنَّ الحقَّ مُرٌّ . ألا تَرىٰ إلىٰ بِنْتِ هَرِمِ بن سِنَانٍ لما قالتْ لابنة زُهَيْر بن أبى سُلْمىٰ فى بَعْضِ المَناحَاتِ، أو فى بعض المُزاوَرَاتِ : إنَّه لَيُعْجِبُنى ما أرىٰ من حُسْنِ شَارَتِكُم، ونَقاءِ نَفْحَتِكم . قالت ابنةُ زُهَيْر : أمَا والله لَئِنْ قُلْتِ ماقُلْتِ، فما ذلك إلا من فُضُول ماوَهَبْتُمْ، ومن بَقَايا ما أنْعَمْتُم . قالت بنتُ هَرِم : لابل لكم الفَضْلُ، وعَلَينا الشُّكْر؛ أعطيناكم ما يَفْنىٰ، وأعْطَيْتُمُونا ما يَبْقىٰ . وقيل لعَبْد الله بن جَعْفرٍ حين أجْزَل لنُصَيْب الشَّاعِرِ فى الهِبَة، وكَثَّر له فى العَطِيَّة : أتُنِيلُ هـذا العَبْدَ الأسْوَد كلَّ هـذا النَّيْل، وتَحْبُوه بِمِثْلِ هـذا الحِباءَ ؟ فقـال عبدُ الله بن جَعْفر : أمَا والله لَئِنْ كان أسْوَدَ الجِلْدِ إنه لأَبْيَضُ الشِّـعْر، أعطيناه دَرَاهِمَ تَفْنىٰ، وثِيَابًا تَبْـلىٰ، ورَوَاحِلَ تُنْضىٰ ؛ وأعطانا ثَنَـاءً يَبْقىٰ، وحَدِيثًا يُثْنىٰ، ومَكَارِمَ لاتَبْلىٰ . فلهٰذه الخِصَالِ تكاملتْ خِصَالُ المَجْـدِ فيهـم، فظَهَر عُنْوان كَرَم الخَيْرِ عليهـم، فصاروا فى زَمَانِهم مَنَـارا، ولمن بعـدهم

أعلاما . وليس تتمّ معانى كرم المنعم ، ومعانى وفاء الشاكر ، حتّى تتوافق أقوالهما ، وتتّفق أهواؤهما على تدافع الحجة ، والإقرار بالمعجزة ، فيزداد بذلك المنعم فضلا ، والشّاكر نبلًا .

هذا جملة القول فى خصلتين من الأربع التى قدّمنا ذكرها ، وشهرنا أمرها .

والخصلة الثالثة : الدّيانة بالشّكر ، والإخلاص للمنعم فى تصفية الودّ ، فان الدّين قائد المروءة ، كما أن المروءة خطام الحميّة . وهذه الخصال وإن تشعّبت فى بعض الوجوه ، وافترقت فى بعض الأماكن ، فإنها ترجع إلى نصاب يجمعها ، وإلى إناء يحفظها ؛ منه نجمت ، وعنه انبثّت ، وإليه رجعت . ولاجتماع هذه الخصال على مخالفة الهوى ، ومجانبة الهوينى ، وعلى اتّهام دواعى الشّهوة ، والامتناع من كلب الطّبيعة ـ وفّق الأوّلون بينها فى جملة الاسم ، وقارنوا بينها فى جمهرة الحكم . ولذلك قال عمر بن الخطّاب رضى الله عنه : اعتبر عزمه بحميّته ، وحزمه بمتاع بيته .

ومدار جميع الأحوال المحمودة على الصّبر ، ولن يتكلّف مرارة الصّبر من يجهل عاقبة الصّبر . وقالوا : لمّا صار ثقل الشّكر لا يحتمل إلا بالصّبر ، صار الشّكر من نتاج الصّبر . وكما أنه لا بدّ للحلم ـ مع كرم الحلم ـ من الصّبر ، فكذلك لا بدّ للشّكر ـ مع كرم الشّكر ـ من الصّبر . فالصّبر يجرى مع جميع الأفعال المحمودة ، كما يجرى الهوى مع جميع الأفعال المذمومة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : « خلق الله عزّ وجلّ النّار وحفّها بالشّهوات ، وخلق الجنّة وحفّها بالمكاره » .

والخصلة الرابعة : وصف ذلك الإحسان باللّسان البيّن ، وتخيّره بالبيان النّيّر ، وباللّفظ العذب الشّهىّ ، والمعنى الشّريف البهىّ . فان الكلام إذا كان حسنا ، جعلته الحكماء أدبا ، ووجدت الرّواة إلى نشره سببا ؛ حتّى يصير حديثا مأثورا ، ومجدا

مَذْكورا ، وداخلًا فى أسْمارِ المُلوك ، وسُوقًا من أسْواقِ المُتادِّبين ، ووُصْلَةً فى المَجَالِس ، وزيادةً فى العَقْل ، وشَحْذًا للسان ، وتَرْهِيفًا للقَلْب ، وتَلْطِيفًا للفِكْر ، وعِمَارَةً للصَّدْر ، وسُلَّمًا إلى العُظَماء ، وسَبَبًا إلى الجِلَّةِ الكُبَراء . وإذا لم يَكُنِ اللَّفظُ رائعا ، والمَعْنىٰ بَارِعا ، وبالنَّوادِرِ مُوَشَّحا ، وبالمُلَح مَجْلُوًّا ، لم تَصْغ له الأسْماع ، ولم تَنْشَرِحْ له الصُّدُور ، ولم تَحْفَظْه النُّفوس ، ولم تَنْطِقْ به الأفْواه ، ولم يُخَلَّدْ فى الكُتُب ، ولم يَقَيَّد بالدَّرْس ، ولم يَجْذَلْ به قَائِل ، ولم يَلْتَذَّ به سَامِع . ومتىٰ لم يكُنْ كذلك كان كلامًا ككَلَامِ اللَّغْو ، ومَعَانى السَّهْو ، وكالهُجْرِ الذى لا يُفْهَم ، والمُسْتَغْلَقِ الذى لا يُعْلَم .

وليس ـ أبقاك الله ـ شَىْءٌ أحْوَجَ إلى الحِذْق ، ولا أفْقَرَ إلى الرِّفْق ، من الشُّكْرِ النَّافِع ، والمَدِيحِ النَّاجِع ، الذى يَبْقىٰ بَقَاءَ الوَشْم ، ويَلُوح كما يَلُوح النَّجْم . كما أنَّه لا شَىْءَ أحْوَجُ إلىٰ وُسْعِ الطَّاقَة ، وإلى الفَضْلِ فى القُوَّة ، وإلى البَسْطةِ فى العِلْم ، وإلىٰ تَمام العَزْم ـ من الصَّبْر . وعلىٰ أن الشُّكر فى طَبَقاتٍ مُتَفاوِتَه ، ومنَازِل مُتَبايِنَه ؛ وإن جَمَعَها اسْمٌ ، فليس يجمعها حُكْم ، فرُبَّما كان كلامًا تَجِيشُ به الصُّدُور ، وتَمُجُّه الأفْواه ، وتَجْدِفُ به الألْسِنَة ، ويُسْتعمَلُ فيه الرَّأْىُ المُقْتَضَب ، والخَاطِرُ المُخْتار ، والكَلامُ المُرْتَجَل ، فيُرمىٰ به علىٰ عَوَاهِنه ، وتُبْنىٰ مَصَادِرُه علىٰ غيرِ مَوَارِدِه ، لا يَتَعَذَّرُ فيه الشَّاكِرُون لانْتِفَاعِ المُنْعِمين ، كما تعَذَّرَ المُنْعِمُون لانتفاعِ الشَّاكِرين . وليستْ غايَةُ القَائِلِ إلا أنْ يُعَدَّ بَلِيغًا مُفَوَّها ، أو يَسْتَزِيدَ به إلىٰ نِعَمه السَّالِفَة نِعَمًا آنِفَة ، أوَلَيْس إلا ليَغْتَرَّ كَرِيما ، أو يَخْتَدِع غَنِيًّا لا يَتَفَقَّد ساعاتِ القَوْل ، ولا يَتَعَرَّفُ أقْدارَ المُسْتَمِعين ؟ وليس غايَتُه إلا الكَسْب والتَّعَرُّضَ والانْتِفَاعَ والتَّرَبُّح ؛ وعلىٰ هذا يَدُور شُكْرُ المُسْتأكِلِين ، وإحْمادُ المُتَكَسِّبين .

وهذا البابُ وإن جَعلَتْه العوامُّ شُكْرا ، فهو بغَيْرِ الشُّكْر أشْبَه ، وبذلك أولىٰ ، ورُبَّما كان شُكْره عن تَأَنُّقٍ وتَذْكِير ، وعن تَخَيُّرٍ وتَخْيِير ، وعن تَفَقُّدٍ للحالات ،

وتَحْصِيلٍ للأمور فى المقامات التى تُحِيطُ بمُهْجَتِه ، وبحَضْرة عَدُوٍّ لايزالُ مُتَرصِّدًا لِنعْمَتِه ، فربّما ٱلتمس الزيادةَ فى غَيْظِه ، ورُبّما ٱلتمس شِفَاءَ دائه وإصْلاحَ قَلْبِه ، ونَقضَ المُبْرَمِ من مَعَاقِدِ حِقْدِه ، علىٰ قَدْرِ الرَّد ، وعلىٰ قَدْرِ تَصرُّف الحالات فى المَصْلحة ، لأن الشاكِرَ كالرَّائِد لأهْلِه ، وكَزَعِيم رَهْطِه ، والمُشَارُ إليه عند مَشُورته ، فرُبّما ٱختار أن يكون شُكْرُه شعْرا : لأن ذلك أشْهر ، ورُبّما ٱختار أن يكون كلامًا مَنْثورًا : لأن ذلك أنْبَل ، وربّما أظهر اليُسر وٱنْتَحل الثَّرْوَة ، وجعلَ من الدَّلِيل علىٰ ذلك كَثْرةَ النَّفَقة ، وحُسْنَ الشَّارة ، ويَرىٰ أن ذلك أصْدَقُ المَدْحَيْن ، وأنْبَلُ الشُّكْرين ، ويجعلُ قائِدَه إلىٰ هذا المَذْهَب ، وسَابِقَه إلىٰ هذا التَّدْبِير قولَ نُصَيْبٍ :

فعَاجُوا فأَثْنَوْا بالذى أنْتَ أهْلُه * ولو سَكَتُوا أثْنَتْ عليك الحَقَائِبُ !

وممّا يدخُلُ فى هذا الباب وليس به ــ قولُ العَنَزِىّ :

يابْنَ العَلاءِ ويابْنَ القِرْمِ مِرْدَاسِ : * إنِّى لأُطْرِيكَ فى أَهْلِى وجُلَّاسِى .

حَتَّىٰ إذا قِيلَ : ماأعْطَاكَ من صَفَدٍ؟ * طَأْطَأْتُ من سُوءِ حَالٍ عندها رَاسِى !

أُثْنِى عَلَيْكَ ولِى حَالٌ تُكَذِّبُنِى * بما أقُولُ فأسْتَحْيِى من النَّاسِ !

وبين هذين الشُّكْرَين طبقاتٌ مَعْروفه ، ومَنَازِلُ مَعْلُومه . ومَوْضِعُ الشُّكْرِ من قَلْب السَّامِع فى القَبُول والٱسْتِنامه ، علىٰ قَدْرِ حُسْنِ النِّيَّة ، والذى يعرفُ به الشَّاكِرُ من صِدْقِ اللَّهْجَة ، ومن قِلَّة السَّرَف ، وٱعتِدَالِ المَذَاهِب ، والٱقْتِصَادِ فى القَوْلِ . وهذا بابٌ سِوَى البابِ الآخَرِ من حُسْنِ الوَصْف ، وجَوْدَةِ الرَّصْف . ولذلك لمّا أحْسَنَ بعضُ الوَاعِظِينَ فى المَوْعِظَة ، وأبْلَغ فى الٱعْتِبارِ وفى تَرْقِيقِ القُلُوب ، ولمَّا لَم يَرَ أحدًا يَخْشَع ، ولا عَيْنا تَدْمَع ، قال : ياهؤُلاءِ إما أن يكون بى شَرّ ، أو يكونَ بكم شَرّ .

وقِيلَ لجُلَساءِ الفَضْلِ الرَّقَاشِىّ ، وعَبْدِ الصَّمَد بن الفَضْلِ الرَّقَاشِىّ : مابالُ دُمُوعِكم عنـد الفَضْل أغْزَر ، وعند عَبْد الصَّمَد أنْزَر ، وكلامُ عَبْد الصَّمَد أغْزَر ،

وكَلامُ الفَضْـلِ أنْزَر؟ قالوا : لأن قَلْبَ الفَضْـلِ أرَقّ، فصارتْ قُلوبُنـا أرَقّ، والقُلوب تَتَجارَىٰ .

وقالوا : طُوبَىٰ للمَمْدوح إذا كان للمَـدْحِ مُسْتَحِقّا، وللدَّاعِى إذا كانَ للاسْتِجابَةِ أَهْلاً، وللمُنْعِم إذا حَظِىَ بالشُّكْر، وللشّاكِر إذا حَظِى بالقَبُول .

إنى لَسْتُ أحْتَشِم من مَدْحِك، لأنى لَسْتُ أتَزَيَّدُ فى وَصْفِك، ولستُ أمْدَحُك من جهَةِ مَعْرُوفِك عندى، ولا أَصِفُك بتَقْدِيم إحْسانِكَ إلىَّ؛ حتَّىٰ أقَدِّم الشُّكْرَ الذى هو أوْلىٰ بالتَّقْـدِيم، وأفَضِّلَ الصِّـنْفَ الذى هو أحَقُّ بالتَّفْضِيل . وفى الخَـبَر المُسْتَفِيض، والحَدِيثِ المأْثُور : « ماقَلَّ وكَفَىٰ خَيرٌ ممَّـا كَثُرَ وألْهَىٰ . وقَلِيلٌ باقٍ خَيرٌ من كَثِيرٍ فَانٍ » .

تَذَاكَرَ الناسُ عند بَعْضِ الحُكَماء طَبَقاتِ السَّابقين فى الفَضْل، وتَنْزِيلَ حالَاتِهم فى البِرّ، ومَن كانتِ الخَصْلَةُ المَحْمودةُ فيه أكْثَر، والخَصْلَةَ الثانيةُ فيـه أوْفَر، فقال ذلك الحَكِيم : ليس بعَجَبٍ أن يَسْـبِقَ رجُلٌ إلى الإسْلامِ، وكلِّ شَىْءٍ، فقد سَبَق إلىٰ تَقْدِيمه ناسٌ وأبْطَأَ آخَرُون ؛ وليس بعَجَبٍ أن يَفُوقَ الرَّجلُ أتْرابَه فى الزُّهْـد، وأكْفاءَه فى الفِقْه، وأمْثالَه فى الذَّبِّ : وهذا يُوجَدُ فى كلِّ زمانٍ، ويُصابُ فى كلِّ البُلْدان . ولكنَّ العَجَب العَجِيب، والنَّادِرَ الغَرِيب، الذى تَهَيَّأَ فى عُمَرَ بنِ الخَطَّاب رضى الله عنه واتَّسَق له . وذلك أنه غَبَرَ عَشْرَ حِجَج : يفْتَح الفُتُوح، ويُدَوِّخُ البِلاد، ويُمَصِّر الأمْصار، ويُدَوِّنُ الدَّواوِينَ، ويَفْرِضُ الفُرُوض، ويُرَتِّب الخاصَّـة، ويُدَبِّر العَامة، ويَجْبِي الفَىْءَ، وتَرْمى إليه الأرضُ بأفلاذِ كَبِدها، وأنواعِ زُخْرُفِها، وأصْناف كُنُوزها، ومَكْنُون جَوْهَرِها، ويَقْتُلُ مُلوكَها، ويَلِى مَمـالِكَها، ويَحُلُّ ويَعْقِد، ويُوَلِّى ويَعْزِل، ويَضَع ويَرْفَعُ، وبلَغَتْ خَيْلُه إفْرِيقِيَة، ودخلتْ خُراسَانَ : كلُّ ذلك بالتَّـدْبير الصَّحِيح والضَّبْط، والإتْقَانِ والقُوَّة، والإشراف، والبَصَر النَّافِذ، والعَزْم

المُتَمَكِّن . ثم قال : لا يَجْمـع مَصْلحةَ الأمّة ، ولا يَحُوشهم علىٰ حَظِّهم من الأُلْفَـة وٱجتماعِ الكلمة ، وإقامَتِهم على المَحَجّة ، مع ضَبْط الأطْراف ، وأمْنِ البيْضَة ـ إلا لِينٌ فى غَيْر ضَعْف ، وشِدّةٌ فى غير عُنْفٍ . ثم غبر بعد ذلك سِنيه كُلَّها علىٰ وَتِيرةٍ واحِدَةٍ ، وطَرِيقَةٍ مُطَّرِدَة ، لا يَنْحرِفُ عنها ، ولا يُغيِّرها ، ولا يَسْأَمُها ، ولا يزولُ عنها : من خُشُونةِ المأْكَلِ والمَلْبَس ، وغِلَظِ المَرْكَب ، وظَلَفِ النَّفس عن صَغِيرِها وكَبِيرِها ، ودَقِيقِها وجَلِيلِها ، وكلِّ ما يُناجِزُ الناسُ عليه ، لم يَتَغَيَّرْ فى لِقَاءٍ ولا فى حِجَاب ، ولا فى مُعَامَلةٍ ولا فى مُجالَسَة ، ولا فى جَمْع ولا فى مَنْع ، ولا قَبْضٍ ولا بَسْط : والدُّنيا تَنْصَبُّ عليه صَبّا ، وتَتَدفَّقُ عليه تَدفُّقا ، والخَصْلةُ من خِصَاله ، والخَلَّةُ من خِلاله ، تَدْعُو إلى الرَّغْبة ، وتَفْتَحُ بابَ الأُلْفَة ، وتَنْقُضُ المُبْرم ، وتُفِيد المُرُوءَة وتُفْسِح المُنّة ، وتَحُلُّ العُقْدَة ، وتُورِثُ الٱغْتِرارَ بطُولِ السَّلامة ، والٱتِّكالَ علىٰ دَوامِ الظَّفَر ، ومُواتَاةِ الأيّام ، ومُتابَعَة الزَّمان . وكان ثَبَاتُه عَشْرَ حِجَجٍ علىٰ هـذه الحال أُعْجُوبةً ، ومن البَدَائِـع الغَرِيبَة . وبأقلَّ من هذا يظهرُ العَجَب ، ويُسْتعمَلُ الكِبْر ، ويَظْهَر الجفاء ، ويَقِلُّ التَّواضُع .

ونحنُ وإن كنّا لا نَسْتَجِيزُ أن نُلْحِقَ أحدًا بطِبَاعِ عُمَر ومَذْهَبِه ، وفَضْلِ قُوَّتِه ، وتَمَامِ عَزْمِه ، فإنّا لا نَجِدُ بُدًّا من مَعْرِفة فضلِ كلِّ مَن ٱستقامتْ طَرِيقَتُه ، ودامتْ خَلِيقَتُه ، فلم يتغيَّرْ عند تَتَابُعِ النِّعَم ، وتَظَاهُرِ الصُّنْع ، وإن كانتِ النِّعَم مختلفةَ الأجناس ، ومُتفَاوِتَةً فى الطَّبَقات . وكيف يَلْحقُ به أحدٌ ؟ مع قوله : "لَوْ أنَّ الصَّبْر والشُّكْر بَعيرَان ما بَالَيْتُ أيُّهـما رَكِبْتُ" ولٰكِنّا علىٰ حالٍ لا نَدَعُ تعظيمَ كلِّ من بَانَ من نُظَرائِه فى المَرْتبَة ، وأشْباهِه فى المَنْزِلَة ، إذ كان أدْوَمَهم طَرِيقَه ، وأشَدَّهم مَرِيرَه ، وأمْضاهُم على الجادّةِ الوُسْطىٰ ، وأقْدَرَهُم على المَحَجَّة العُظْمىٰ .

ولا بدَّ من أن يُعطَى كلُّ رَئِيس قِسْطَه، وكلُّ زمانٍ حَظَّه؛ ولا يُعْجِبُنى قولُ القائل : لم يَدَعِ الأوَّلُ للآخِرِ شيئًا، بل لَعَمْرِى لقد تَرَك له العَرِيضَ الطَّوِيل، والثَّمِينَ الخَطِير، واللَّقَمَ النَّهْجَ، والمَنْهَجَ الرَّحْب . ولو أنَّ الناسَ مُذْ جَرَتْ هذه الكلمةُ علىٰ أفْواهِ العَوام، وأُعْجِبَ بها الأغْمارُ من الرِّجال ـ قَلَّدوا هذا الحُكْم، واَسْتَسْلموا لهٰذا المَذْهَب، وأهْملُوا الرَّوِيَّة، ويَئِسُوا من الفَائدة، لقدْ كان ٱرتفَع من الدُّنيا نَفْعٌ كَثِير، وعِلْمٌ غَزِير .

وأىُّ زمانٍ بعد زَمانِ النَّبِىِّ صلى الله عليه وآله أحَقُّ بالتَّفْضِيل، وأَوْلىٰ بالتقديم، من زمانٍ ظهرتْ فيه الدَّعْوة الهاشِمِيَّة، والدَّوْلةُ العبَّاسِيَّة، ثم زَمانِ المُتوكِّلِ على اللهِ، والنَّاصِرِ لدينِ الله، والإمامِ الذى جَلَّ فكْره، وكَثُر شُغْلُه بتَصْفِيَة الدِّينِ وتَهْذِيبه، وتَلْخِيصِه وتَنْقِيحه، وإعْزَازِه وتَأْييده، وٱجْتِماع كَلِمَتِه، ورُجُوع أُلْفَتِه . وقد سَمِعتُ من يقول ـ ويَسْتَشْهِدُ العِيَانَ القَاهِر، والخَبَرَ المُتظَاهِر ـ : مارأيتُ فى زَمَانِنا من كُفَاة السُّلطانِ ووُلَاته، وأعْوانِه وحُمَاتِه؛ من كان يُؤَمَّل لمحَلّك، ويَتَقدَّم فى التَّأَهُّبِ له، إلا وقد كان معه من البَذْخ والنَّفْخ، ومن الصَّلَف والعُجْب، ومن الخُيَلاء، ومن إفْراطِ التَّغَيُّر للأولياء، والتَّهكُّم على الخُلَطَاء، ومن سُوءِ اللقاء، مالا خَفَاء به علىٰ كَاتِب ولا علىٰ عَامِل، ولا علىٰ خَطِيبٍ ولا علىٰ أَدِيب؛ ولا علىٰ خَاصِّىٍّ ولا علىٰ عامِّىٍّ .

فجمعتَ ـ والحمدُ لله على النِّعْمة فيك ـ بين التَّواضُع والتَّحَبُّب، وبين الإنْصافِ وقِلَّة التَّزيُّد؛ فلا يَسْتطيعُ عَدُوٌّ مُعْلِن، ولا كَاشِحٌ مُسِرّ، ولا جَاهِلٌ غَبِىّ، ولا عَالِمٌ مُبرِز، يَزْعم أنه رَأَىٰ فى شَمائلك وأعْطافك ـ عند تَتَابُع النِّعَم، وتَظاهُرِ المِنَنِ ـ تَغيُّرًا فى لِقاءٍ ولا فى بِشْرٍ عند المُساءَلَه، ولا فى إنْصافٍ عند المُعامَلَه، وٱحتِمال عند المطاوَلَه . الأمرُ واحِد، والخُلُق دائِم، والبِشْرُ ظاهِر، والحُجَج ثاقِبَه، والأعمال

زَاجِيـه، والنفوس راضـيَه ؛ والعُيُون ناطقة بالمَحَبَّـه ، والصُّدورُ مأْهولة بالمودّه ؛ والدَّاعِي كثير ، والشاكِي قليل ؛ وأنت بحمد الله تزدادُ فى كلِّ يومٍ بالتَّواضُعِ نُبْـلا ، وبالإنصافِ فَضْلا ؛ وبحسن اللِّقاءِ مَحَبَّه ، وبقلةِ العُجْبِ هَيْبه .

وقال سَهْلُ بنُ هٰرُون فى دعائه لبعض من كان يَعْتَنِي بشأْنِه : اللهم زِدْه من الخيرات ، وٱبْسُطْ له فى البركات ؛ حتّىٰ يكونَ كلُّ يوم من أيامه مُوفِيًا علىٰ أمسِه ، مُقَصِّرا عن فَضِيلة غَدِه . وقال فى هذا المعنىٰ أعْشَىٰ هَمْدانَ ، وهو من المُخَضْرمين :

رَأيْتُـكَ أمسِ خَيْرَ بَنِي مَعَـدٍّ * وأَنْتَ اليومَ خَيْرٌ منـك أَمْسِ ،
وبَعْـد غَدٍ تَزِيدُ الخَـيْرِ ضِعْفًا * كَذاكَ تَزِيدُ سَادةُ عَبْـدِ شَمْسِ !

قد والله أنعم اللهُ عليك وأَسْبَغ ، فاشْكُرِ اللهَ وأَخْلِص ؛ مَحْتِدُك شَرِيف ، وأَرُومَتُك كَرِيمة ، والعِرْقُ مُنْجِب ، والعَدَد دَثْر ، والأمْر جَمِيـل ، والوُجُوه حِسَان ، والعُقُول رِزَان ؛ والعَفافُ ظاهر ، والذِّكْر طَيِّب ، والنِّعمة قَدِيمـة ، والصَّنِيعة جَسِيمَة ؛ وما مَثَلُكُم إلا كما قال الشَّاعر :

إنَّ المَهالِبَة الكِرام تَحَمَّـلُوا * دَفْعَ المَكارِه عن ذَوِى المَكْرُوهِ ،
زَانُوا قَدِيمَهم بحُسْـنِ حَدِيثِهم * وكَرِيمَ أخْلاقٍ بحُسْنِ وُجُوهِ !

النعمة محفوظة بالشُّكر ، والأخْلاق مُقَوَّمةٌ بالأَدَب ، والكفاءة مَحْفُوفة بالحِذْقِ ، والحِذْقُ مَرْدودٌ إلى التوكُّل ، والصُّنْعُ من وراء الجميع إن شاء الله .

هـذا إلىٰ ما ألْبَسك الله من القَبُول ، وغَشَّاك من المَحَبَّة ، وطَوَّقَك من الصَّبْر . فبقِيَ الآنَ أن نَشْتَهِيَ ما أنت فيه شَهْوةً فى وَزْنِ هذه المرتبة ، وفى مِقْدار هذه المَنْزِلة ؛ فإنَّ الرغبـةَ وإن قَوِيَتْ ، والرَّهْبة وإن ٱشـتدّت ؛ فإنهما لا يثمِران من النشاط ،

ويُنتِجان من القُوَّة على المباشرة والكدِّ ، ما تُثمِره الشَّهْوة وإن ضَعُفَت ، والحَرَكة من ذات النَّفْس وإن قَلَّت ، لأن النَّفْس لا تسمح بمكنونها كُلّه ، وتَجُود بمخزون قُوَاها أجْمَع ، إلا بالشهوة دُون كُلِّ عِلَّة مُحرِّكةٍ ، وكُلِّ سَبَبٍ مُهَيِّج .

قال يحيي بنُ خالدٍ لجَعْفر بن يَحْيىٰ حين تقلَّد الوِزَارَة ، وتكلَّف النُّهوضَ بأعْباءِ الخِلَافَة : أَيْ بُنَيَّ ، إنِّي أخافُ عليك العجْزَ : لعَظِيم ما تَقَلَّدتَ ، وجَسِيم ما تَحَمَّلْتَ . إنى لَسْتُ آمَنُ أن تَتَفَسَّخ تَحْت ثِقْلِها تفَسُّخَ الجمَلَ تحْتَ الحِمْلِ الثَّقِيل . قال جَعْفر : لٰكِنِّي أرْجُو القوّة ، وأطمعُ أن أسْتَقِلَّ بهذا الثِّقْل وأنا مُبْتَهِلٌ غير مَبْهُور ، وأجِيءُ قبل السَّوابِق وأنا ثَانِي . يقول : وأنا ثَانِي عِنَانِي ، لأنى لم أجْهد فَرَسِي رَكْضا . قال يحيىٰ : إن لكلِّ رَجاءٍ سَبَبا ، فما سَبَبُ رجائك ؟ قال : شَهْوتِي لما أنا فيه ، والمُشْتهِى للعَمَل لا يجد من أَلَمِ الكَدِّ ما يَجِدُه العَسِيف الأسِيف . قال يحيىٰ : إن نَهَضتَ بثِقْلها فبهذا ، وإلَّا فلا . وأنا أسأل الله أن يصرف شَهْوتَك إلىٰ حُبِّ ذلك ، وهَوَاك إلىٰ الاحتفاظ بنِعْمَتِك : بشُكْر المُصْلِحين ، والتوكُّلِ علىٰ رَبِّ العالمين .

وحقٌّ لمن كان من غَرْس المتوكِّل على الله وابتدائه ، ومن صَنَائِعه واختياره ، أن يُخَرَّج علىٰ أدَبِه وتَعْليمه ، وعلىٰ تَثْقِيفه وتَقْوِيمه ، وأن يُحَقِّقَ اللهُ فيه الأَمل ، ويُنْجِز فيه الطَّمَع ، وأن يَمُدّ له في السَّلامَة ، ويُجْزِلَ له من الغَنِيمة ، ويُطَيِّبَ ذِكْرَه ، ويُعْلِي كَعْبَه ، ويَسُرّ صَدِيقَه ، ويَكْبِت عَدُوّه .

✤

وهذه نسخةُ رسالةٍ تسمَّى الإغْرِيضيَّة ، أرسلها أبو العَلَاء أحمدُ بنُ عَبْد الله بن سليمانَ المَعَرِّى التَّنُوخيّ إلىٰ أبى القاسم الحُسَيْن بن عليّ المَغْربيّ ، وهى :

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه الإعانة](١) .

السلام عليك أيتها الحكمة المغربيه، والألفاظ العربيّه؛ أىُّ هواءٍ رقاك، وأىّ غيثٍ سقاك؛ برقُه كالإحريض، وودقُه مثل الإغريض؛ حلّت الرُّبوه، وجلّت عن الهبوه؛ أقولُ لكِ ما قال أخو نُمَيْرٍ، لفتاةِ بنى عُمَيْر:

زكا لكِ صالحٌ وخلاكِ ذمٌّ * وصبَّحكِ الأيامنُ والسُّعودُ!

لأنا آسفُ على قُربكِ من الغرابِ الحجازىّ، على حُسنِ الزّىّ؛ لمّا أقفر، وركب السَّفر؛ فقدم جبال الرُّوم فى نوٍ، أنزل البِرْسَ(٢) من الجوّ؛ فالتفت إلى عطفه وقد شمط فأسى، وترك النَّعيب أو نسى؛ وهبط إلى الأرض فمشى فى قيد، وتمثّل ببيت دُريد:

صبا ما صبا حتّى علا الشّيبُ رأسه، * فلمّا علاه قال للباطلِ: ابعدِ!

وأراد الإياب، فى ذلك الجلباب؛ فكره الشّمات، فكمد حتّى مات؛ وربَّ ولىٍّ أغرق فى الإكرام، فوقع فى الإبرام؛ إبرام السّأم، لا إبرامِ السّلم؛ فحرس الله سيدنا حتّى تُدغمَ الطاءُ فى الهاء، فتلك حراسةٌ بغير انتهاء؛ وذلك أن هذين ضدّان، وعلى التّضادّ متباعدان، رخوٌ وشديد، وهادٍ وذو تصعيد؛ وهما فى الجهر والهمس، بمنزلة غدٍ وأمس؛ وجعل الله رتبته التى كالفاعلِ والمبتدا، نظيرَ الفعل فى أنها لا تنخفض أبدا؛ فقد جعلنى: إن حضرتُ عرف شانى، وإن غبتُ لم يجهل مكانى؛ كيا فى النّداء، والمحذوف من الابتداء؛ إذا قلتُ: زيدُ أقبل، والإبلَ الإبلَ؛ بعد ما كنتُ كهاءِ الوقف إن ألقيتُ فبواجب، وإن ذُكرتُ فغير لازب.

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريضية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب .

(٢) البرس القطن، والمراد الثلج الشبيه به .

إنّى وإن غَدَوْتُ [فى زمانٍ](١) كثير الدَّد ، كهاءِ العَـدَد ، لَزِمَتِ المُذَكَّر ، فأتت بالمُنْكَر ، مع إلْفٍ يَرَانِى فى الأَصْلِ ، كأَلِفِ الوَصْل ، يَذْكُرُنِى بغير الثَّناء ، ويَطَّرِحُنِى عند الاَسْتِغْناء ، وحَالٍ كالهمزة تُبْدَل العَيْن ، وتُجْعَلُ بَيْنَ بَيْن ، وتكونُ تارةً حرفَ لِين ، وتارةً مثل الصَّامِتِ الرَّصين ، فهى لا تَثْبُتُ علىٰ طَرِيقَـه ، ولا تُدْرَكُ لهـا صورةٌ فى الحَقِيقه ، ونَوائِبَ أَلْحقتِ الكَبِيرَ بالصَّغير ، كأنها تَرْخِيم التَّصْغير ، رَدَّتِ المُسْتَحْلِس إلىٰ حُلَيْس ، وقَابُوسًا إلىٰ قُبَيْس ، لأَمُدَّنَّ صَوْتِى بتلك الآلاء ، مَدَّ الكُوفِىِّ صَوْتَه فى هؤُلاء ، وأُخَفِّفُ عن حَضْرة سيدنا [الوزير](١) الرَّئِيس الحَبْر ، تَخْفِيفَ المَدَنِىّ ما قَدر عليه من النَّبْر ، إن كاتَبْتُ فلَسْتُ مُلْتمِسَ جَواب ، وإن أسْهَبْتُ فى الشُّكْرِ فلَسْتُ طَالِبَ ثَواب ، حَسْبِى ما لَدَىّ من أياديه ، وما غَمَر من فَضْلِ السَّيِّد الأكبر أبِيه ، أدام الله لهما القَدْر ما دام الضَّرْبُ الأوّل من الطَّوِيل صَحِيحا ، والمُنْسرِحُ خَفِيفًا سَرِيحا ، وقَبَضَ الله يَمِينَ عَدُوِّهمـا عن كلِّ مَعْنٍ ، قَبْضَ العَرُوض من أوَّلِ وَزْنٍ ، وجُمِـعَ له المَهَـانَةُ إلى التَّقْيِيد ، كما جُمِعَـا فى ثَانِى المَدِيد ، وقُلِمَ قَلْمَ القَسِيـط ، وخُبِلَ كسُباعِىِّ البَسِيط ، وعَصَبَ [اللهُ](١) الشَّرَّ بِهامَةِ شانِئِهما وهُو مَخْزُوّ ، عَصْبَ الوَافِرِ الثَّالِثِ وهو مَجْزُوّ ، بَلْ أَضْمَرَتْه الأرضُ إضْمارَ ثالثِ الكَامِل ، وعَدَاه أَمَلُ الآمِلِ ، وسلِم سَيِّدانا أعَزَّ الله نَصْرَهما ومن أحَبَّاه وقَرَّباه سَـلامةَ مُتَوسِّطِ المَجْمُوعات ، فإنه آمِنٌ من المُرَوِّعات ، فقد افْتَنَنْتُ فى نِعَمِهما الرَّائِعَه ، كافتنانِ الدَّائِرة الرَّابِعَه ، وذلك أنَّها أُمُّ سِتَّةٍ مَوْجُودين ، وثلاثةٍ مَفْقُودين .

وأنا أعِدُّ نَفْسى مُرَاسَلَةَ حَضْرة سـيدنا الجليلةِ عِدَةَ ثُرَيًّا اللَّيْل ، وثُرَيًّا سُهَيْل ، هٰـذه القَمَر ، وتِلْكَ عُمَر ، وأُعَظِّمُه فى كلِّ وَقْت ، إعظامًا فى مِقَةٍ وبعضُ الإِعْظامِ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

فى مَقْت ؛ فقد نَصَب للآدَابِ قُبَّة صار الشَّامُ فيها كشامةِ المَغيب ، والعِراقُ كعراق الشَّعِيبِ ؛ أَحْسَبَ ظِلالَها من البَرْدَيْن ، وأغْنَتِ العالَمَ عنِ الهِنْدين ؛ هِنْـدِ الطِّيبِ ، وهِنْـدِ النَّسيب ؛ رَبَّةِ الخِمَـار ، وأرْبابِ قِمَـار ؛ أخْدانِ التَّجْر ، وخَدِينَة الهَجْر .

.احامِلَة طَوْقٍ من اللَّيْل ، و بُرْدٍ من المُرْتبِـع مَكْفُوفِ الذَّيل ؛ أَوْفَتِ الأشاء ، فقالَتْ للكَئِيبِ ما شاء ؛ تُسْمِعُه غيرَ مفْهوم ، لا بالرَّمَلِ ولا بالمَزْمُوم ؛ كأن سَجِيعَها قَرِيض ، ومُراسِلَها الغَرِيض ؛ فقد مَادَ لشَجْوِها العُود ، وفَقِيدُها لا يعُود ؛ تَنْدب هَدِيلاً فات ، وأُتِيح له بعضُ الآفات ـ بأشْوَقَ إلىٰ هَدِيلِها من عَبْده إلىٰ مُناسَمة أنْبائه ، ولا أَوْجَدَ علىٰ إلْفِها منه علىٰ زِيَارةِ فِنائه ؛ ولَيْستِ الأشواقُ ، لذَواتِ الأطْواق ؛ ولا عنـد السَّاجِعه ، عَبْرةٌ مُتَراجِعَـه ؛ إنمـا رَأَتِ الشَّرطَيْن ، قَبـلَ البُطَيْن ؛ والرِّشاء ، بعـد العِشاء ؛ فحَكَتْ صَوْتَ المـاءِ فى الخَرِير ، وأتت بِرَاءٍ دَائِمـةِ التَّكْرير ؛ فقال جاهـلٌ فَقَدَتْ حَمِيا ، وثَكِلَتْ وَلَدًا كريمـا : وهَيْهاتَ يا بَاكِيـةُ أصْبَحْتِ ، فَصَـدَحْتِ ؛ وأمْسَيتِ ، فتَناسَيْتِ ؛ لا هَمامَ لا هَمَـامِ ، ما رَأيتُ أعْجبَ من هَاتِفِ الحَمَـام ؛ سَلِمَ فَنَاح ، وصَمَتَ وهو مَكْسُور الجَناح ؛ إنَّمـا الشَّوْقُ لمن يَدَّكِرُ فى كلِّ حِين ، ولا يُذْهِلُه مُضِيُّ السِّنين .

وسيِّدُنا الوزيرُ أطالَ اللهُ بقاءَه القائلُ النَّظْمَ فى ادِّكاءٍ مِثْلِ الزَّهَر ، وفى النَّقاءِ مِثلِ الجَوْهَر ؛ تحْسبُ بادِرَتَه التَّاج ، آرتَفَع عن الحَجاج ؛ وغَابِرَتَه الحِجْل ، فى الرِّجْل ؛ يَجْمَعُ بين اللَّفْظِ القَلِيل ، والمَعْنَى الجَليل ؛ جَمْعَ الأُفْعُوَانِ فى لُعَابِه بَيْن القِلَّه ، وفَقْدِ البِـلَّه ؛ خَشُن ، فَحَسُن ؛ ولان ، فمـا هَان ؛ لِينُ الشَّكِير ، يَدُلُّ علىٰ عِتْقِ المِحْضِير ، وحَرْشُ الدِّينار ، آيَةُ كَرَمِ النِّجار ؛ فصُنُوف الأشْعارِ بعده كألِفِ السَّلام ، يُلْفَظُ بها فى الكلام ، ولا تَثْبُتُ لهـا هَيْئةٌ بعد اللَّام ؛ خَلَص من سَبْكِ النَّقْد خُلُوص الذَّهَب ، من اللَّهَب ؛ واللُّجَـيْن ، من يَدِ القَيْن ؛ كأنَّه لآل ، فى أَعْناقِ حَوَال ؛ وسِواه لُطّ ، فى عُنُقِ ثَطّ ؛

ما خَانَته قُوَّةُ الخاطرِ الأَمين ، ولا عِيبَ بسِنَادٍ ولا تَضْمِين ؛ وأينَ النَّثْرة ، من العَثْره ؛ والغَرْقَد ، من الفَرْقد ؟ ؛ فالسَّاعِى فى أثَرِه فارس عَصًا بَصِير ، لا فَارِسُ عَصًا قَصِير .

وأنا ثابتٌ علىٰ هذه الطَّوِيَّة ثَبَاتَ حَرَكَةِ البناء ، مُقِيمٌ تلك الشّهادةَ بغير ٱسْتِثْناء ، غَنِيٌّ عن الأَيْمان فَلا عَدَم ، مُقْسِمٌ علىٰ ماقلتُ فلاحِنْث ولا نَدَم ؛ وإنَّما تُخْبأ الدُّرَّه ، للحَسْناءِ الحُرّه ؛ ويُجادُ باليَمِين ، فى العِلْقِ الثَّمِين ؛ ما أنْفَسه خاطِرًا ٱمْتَرىٰ الفِضَّه ، من القِضَّه ؛ والوَصَاه ، من مِثْل الحَصَاه ؛ ورُبَّما نَزَعت الأشْباه ، ولم يُشْبِهِ المَرْءُ أباه ؛ ولا غَرْوَ لذلك : الخُضْرَةُ أم اللَّهِيب ، والخَمْرة بِنْتُ الغِرْبِيب .

وكذلك سيدُنا وَلَّد من سِحْر المتقدِّمين ، حِكْمَةَ للحُنَفاءِ المتَدَيِّنِين ؛ كم له من قافية تَبْنِى السُّود ، وتَثْنِى الحَسُود ، كالمَيْت ، من شُرْب العاتقة الكُمَيْت ؛ نُشُوره قريب ، وحِسَابُه تَثْريب ؛ أين مُشَبِّهو النَّاقةِ بالفَدَن ، والصَّحْصَحِ بِردَاءِ الرَّدَن ؛ وَجَب الرَّحِيل ، عن الرَّبْع المُحِيل ؛ نَشَأَ بعدهم وَاصِف ، غُودِرَ رَأْلُه كالمَنَاصِف ، إذا سَمِع الخافِضُ صِفَتَه للسَّهْبِ الفَسِيح ، والرَّهْبِ الطَّلِيح ، وَدَّ أَنَّ حَشِيَّتَه بين الأَحْنَاء ، وخَلُوقَه عَصِيم الهِنَاء ؛ وحَلَم بالقُود ، فى الرُّقُود ؛ وصَاغَ بُرَىٰ ذَوَاتِ الأرْسَان ، من بُرَىٰ البِيضِ الحِسَان ؛ شَنَفا لدُرِّ النُّحور ، وعُيُونِ الحُور ؛ وشَغَفًا بدَرِّ بَكِى ، وعَيْنٍ مِثْلِ الرَّكِىّ ؛ وإعْراضًا عن بُدُور ، سَكَنَّ فى الخُدُور ، إلىٰ مُحُول ، كأَهِلَّة المُحُول ؛ فهُنَّ أشْباهُ القِسِىّ ، ونَعَامِ السِّىّ ؛ وإن أخَذَ فى نَعْتِ [الخَيْل] (١) فياخيبة من سَبَّه (٢) الأَوابِدَ بالتَّقْييد ، وشَبَّه الحَافِرَ بقَعْبِ الوَلِيد ؛ نعتا غَبَط به الهَجِينُ المَنْسُوب ، والبَازِىُّ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حواسَّها . وفى الأصل شَبَّه بالشين .

اليَعْسُوب ؛ إذْ رُزِقَ من الخَـيْر ، ما ليس لكَثِـيرٍ من سِباع الطَّيْر ؛ وذلك أنه على الصِّـغَر ، سَمِيٌّ بعض الغُرَر ؛ وقد مَضَىٰ حَرْس ، وخَفَتَ جَرْس ؛ وللقَالِـع ، أبْغَضُ طَالِـع ؛ والأزْرَق ، يُجَنِّبك عنه الفرَق .

فالآن سَلِمَتِ الجَبْهة من المَعْض ، وشَمِلَ بَعْضَها بَركاتُ بَعْض ؛ فأيْقَن النَّطِيح ، أنَّ رَبَّه لايَطِيح ؛ والمَهْقُوع ، نَجَاءُ رَاكِبِه من الوُقُوع ؛ فلن يُحْرَب ، قائدُ المُقْرَب ؛ ولن يُرْجَل ، سائِسُ الأرْجَل ؛ والعَاب ، وإن لَحِقَ الكِعَاب ؛ فإنَّه ناكِبٌ ، عن نَاقلات المَرَاكِب . وقالت خَيْفَانَة ٱمْرِئِ القَيْس : الدَّبَّاءَه ، لرَاعي المَبَاءَه ؛ والأُثْفِيَّه ، للقِدْر الكَفِيَّه ؛ نَقْمَّاعلىٰ جاعِل غُدَرِها كقُرُونِ العَرُوس ، وجَبْهتِها كَمُحَذِّفِ التُّروس ؛ وأنَّىٰ للكِنْدِي ، قَوَافٍ كهجْمَة السَّعْدِي :

إذا ٱصْطَكَّتْ بِضيقٍ حَجْرَتَاهَا * تَلاقَى العَسْجَدِيَّة واللَّطِـيمُ !

فالقَسِيبُ ، في تَضَـاعِيف النَّسِيب ، والشَّبابُ في ذلك التَّشْبِيب ؛ ليس رَوِيُّه بمَقْلوب ، ولٰكنَّه من إرْواءِ القُلُوب ؛ قد جمع أَلِيلَ مَاءِ الصِّبا ، وصَلِيلَ ظِمَاءِ الظِّبَا ؛ فالمِصْراعُ كوَذِيلَةِ الغَريبَه ، حَكَتِ الزِّينَةَ والرِّيبَه ؛ وأَرتِ الحَسْناء سَنَاها(١) ، والسَّمْجَة ما عَنَاها ؛ فأَما الرَّاحُ فلو ذَكَرها لشَفَتْ من الهرَم ، وٱنْتَفَتْ من الكَرْمِ إلى الكَرَم ؛ ولم تَرْضَ دِنَانُ العُقَار ، بلباسِ القَار ، ونَسْجِ العَنَاكِب ، على المَنَاكِب ؛ ولكن تُكْسَىٰ من وَشْيٍ ثيابا ، ويُجْعَـل طِلَاؤُها زِرْيَابا ؛ ولقـد سَمِعْتُه ذَكَرَ خَيْمَةً يَغْبِطُ المِسْكُ جَارَها من الشِّيام ، ويَوَدُّ سَعْدُ الأَخْبِيَة أنه سَعْدُ الخِيَام .

ووقفتُ على "مُخْتَصَر إصْلاحِ المَنْطِق" الذي كَادَ بسِمَاة الأبْواب ، يُغْنِي عن سَائِر الكِتَاب ؛ فعَجِبْتُ كلَّ العَجَب من تَقْيِيد الأَجْمال ، بطِلاءِ الأَحْمال ؛ وقَلْبِ البَحْر ،

(١) في نسخة أخرىٰ «مناها» .

إلى قَلْتِ النَّحْر، وإجراءِ الفُرات، فى مِثْل الأَخْرات، شَرَفًا له تَصْنيفًا شَفَى الرَّيْب، وكَفَى من ٱبنِ قُرَيْب، ودَلَّ على جَوَامِع اللُّغَة بالإيماء، كما دَلَّ المُضْمَر على ما طَالَ من الأسماء .

أقولُ فى الإِخْبار : أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الجَبَّار، فإذا أَضْمَرتُه، عُرِفَ متَى قُلتُ : أَمَرْتُه، وأَبَلَّ من المَرَض والتَّمْرِيض، بما أُسْقِطَ من شُهُود القَرِيض، كأنَّهم فى تِلْك الحال، شَهِدُوا بالمَحال، عِنْد قَاض، عَرَفَ أَمَانَتَهم بالٱنْتِقاض، علَى حَقٍّ عَلِمَه بالعِيَان، فٱستَغْنَى فيه عن كلِّ بَيَان .

وقد تَأَمَّلْتُ شَواهِدَ " إِصْلاح المَنْطِق " فوجدتُها عَشَرَةَ أنواعٍ فى عِدَّة إِخْوَة الصِّدِّيق، لمَّا تَظَاهَروا على غير حَقيق، وتَزِيدُ على العَشَرة بواحِد، كأَخٍ ليُوسُفَ لم يكن بالشَّاهِد . والشِّعْر الأوّلُ وإن كان سَبَبَ الأَثَره، وصَحِيفَةَ المَأْثُره، فإنه كَذُوبُ القَالَه، نَمُومُ الإطاله، وإنَّ قِفَا نَبْكِ [علَى حُسْنها]، وقِدَمِ سِنِّها، لتُقِرُّ بما يُبْطِل شهادة العَدْل الرِّضَا، فكَيْف بالبَغِيِّ الأُنْثَى، قاتَلَها اللهُ عجوزًا لو كانت بَشَرِيَّه، كانت من أَغْوى البَرِيَّه . وقد تَمَادَى بأبي يُوسُفَ رحمه الله الٱجْتِهاد، فى إقامة الأَشْهاد، حتى أَنْشَدَ رَجَزَ الضَّبّ، وإن مَعَدًّا من ذلك لجِدُّ مُغْضَب، أَعَلَى فصاحَتِه يُسْتعان بالقَرْض، ويُسْتَشْهد بأَحْناش الأَرْض؟، مارُؤْبَةُ عنده فى نَفِير، فما قولك فى ضَبٍّ دَامِي الأظافير؟، ومَن نَظَر فى كِتَاب يَعْقوب وَجَده كالمُهْمَل، إلا باب فَعْلٍ وفَعَل، فإنّه مُؤَلَّفٌ على عشرين حَرْفًا : سِتّه مُذْلَقه، وثلاثة مُطْبَقه، وأربعةٌ من الحروف الشَّدِيده، وواحِدٌ من المَزِيدَه، ونَفِيثَتَيْنِ : الثَّاء والذَّال، وآخَرَ مُتَعال، والأُخْتَينِ العَيْنِ والحَاء، والشِّين مُضَافةٌ إلى حَيِّز الراء. فرَحِمَ اللهُ أبا يُوسُفَ لو عَاشَ لَفَاظَ كَمَدا، أو ٱحْفَاظَّ حَسَدا، سَبَق ٱبنَ السِّكِّيت ثم صَارَ السُّكَيْت، وسَمَق ثم حَار وَتِدًا للبَيْت، كان الكِتَابُ تِبرًا فى تُرابِ مَعْدِن، بَيْن الحُتِّ وبَيْن المُتَدَن، فاستَخْرجه

سَيِّدنا وٱسْتَوْشاه، وصَقَلَه فِكْرُه ووَشّاه، فَغَبطه النَّيِّراتُ على التَّرقيش، والآلِ النَّقِيش، فهو محبوبٌ ليس بِهَيْن، علىٰ أنه ذُو وَجْهَيْن، ما نَمَّ قطُّ ولا هَمّ، ولا نَطَق ولا أَرَم، فقد نَابَ فى كَلَامِ العَرَب الصَّمِيم، مَنَابَ مِرْآةِ المُنَجِّمِ فى عِلْمِ التَّنْجِيم، شَخْصُها ضَئِيلٌ مَلْمُوم، وفيها القَمَرانِ والنُّجُوم .

وأقولُ بعدُ فى إعادة اللَّفْظ : إنَّ حُكْمَ التَّأْلِيف فى ذِكْرِ الكلمة مَرَّتين، كالجَمْع فى النِّكاح بين الأُخْتَين، الأولىٰ حِلٌّ يُرَام، والثانية بَسْلٌ حَرَام، كَيْفَ يكون فى الهَوْدَجِ لَمِيسَان، وفى السَّبَّة(١) خَمِيسَان، يا أُمَّ الفَتَيات حَسْبُكِ من الهُنُود، ويا أَبَا الفِتْيانِ شَرْعُك من السُّعُود، عَلَيكَ أنْتِ بِزَيْنَبَ ودَعْد، وسَمِّ أَيُّها الرَّجُل بِسوَىٰ سَعْد، ما قَلَّ أثِير، والأَسْماء كَثِير .

مَثَلُ يعقوبَ مَثَلُ خَوْدٍ كَثِيرةِ الحُلِيِّ ضاعَفَتْه على التَّراق، وعَطَّلتِ الخَصْرَ والسَّاق، كانَ يومُ قدُومِ تلك النُّسْخة يَوْمَ ضَرِيبِ حَشَرَ الوَحْش مَعَ الإنْس، وأضافَ الجِنْس إلىٰ غيرِ الجِنْس، ولم يَحْكم على الظِّباء، بالسِّباء، ولا رَمَى الآجَالَ، بالأَوْجَال، ولكنَّ الأَضْدادَ تَجْتَمِع، فَتَسْتَمِع، وتَنْصَرِف بلَذَّات، من غَيْرِ أَدَاة، وإن عَبْدَه مُوسىٰ لَقِيَنِى نِقابا، فقال : هَلُمَّ كِتابا، يكونُ لك شَرَفا، وبِمُوَالَاتِك فى حَضْرة سيدنا ــ أطال الله بَقَاءَه ــ مُعْتَرِفا، فَتَلوتُ عليه هاتَيْنِ الآيتين : ﴿ إنَّ لَكَ أَنْ لَاتَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ . وأَحْسَبُه رَأَى نُورَ السُّؤْدد فقال لمخَلِّفيه، ما قاله مُوسىٰ صلى الله عليه لأَهْلِيه، : ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ . فليتَ شِعْرِى : ما يطلب ؟ أَقَبَس ذَهَب ؟ أم قَبَس لَهَب ؟ بل يتشَرَّفُ بالأخلاق البَاهِرَه، ويتبركُ بالأَحْسابِ الطَّاهِره .

(١) السَّبَّة الزَّمَن من الدّهر ، ولعـله يريد بها الأسـبوع كما جاء فى شرح رسائل المعرّى الموجودة بدار الكتب السلطانية .

باتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَىٰ يَقْتَبِسْنَ لها[1] * جَزْلَ الجِذا غيرَ خَوَّارٍ ولَا دَعِرِ!

وقد آب من سَفْرتِه الأُولىٰ ومعه جَذْوَةٌ من نَارٍ قَدِيمة : إن لُمِسَتْ فَنارُ إبراهيم ، أو أُونِسَتْ فنَارُ الكَلِيم ؛ وٱجْتَنى بهارًا حبَتْ به المَرازِبَة كِسْرىٰ ، وحُمِل فى فَكَاكِ الأَسْرىٰ ، وأدرَكَ نُوحًا مع القوم ، وبَقِيَ غَضًّا إلى اليَوْم ؛ وما ٱنْتَجع مُوسَىٰ إلا الرَّوْضَ العَمِيم ، ولا ٱتَّبع إلا أصْدَقَ مُقِيم ؛ ووَرَد عَبْده الزُّهَيْرِىُّ من حَضْرته المطَهَّرَة وكأنَّه زَهْرَةُ بَقِيع ، أو وَرْدَةُ رَبِيع ، كَثِيرةُ الوَرَق ، طَيِّبة العَرَق ؛ وليس هو فى نِعْمَتِه كالرِّيم ، فى ظِلَال الصَّرِيم ، والحَبَاب ، فى السَّحاب المُنْجاب ؛ لأن الظلام يسفر ، والغمام يَنْسَفِر ؛ ولٰكنَّه مِثْلُ النُّونِ فى اللُّجَّه ، والأعْفَرِ تَحْتَ جِرْيَه .

وقد كنتُ عَرَّفتُ سَيِّدَنا فى ما سَلَف أن الأدَب كعُهُود فى غِبِّ عُهُود ، أَرْوَت النِّجَادَ فما ظَنُّك بالوُهُود ؟ ؛ وأَنِّى نزلتُ من ذلك الغَيْثِ ببَلَدٍ طَسْم ، كأَثَرِ الوَسْم ؛ منعه القِرَاع ، من الإمْرَاع ؛ يابُوسَ ، بَنِي سَدُوس ؛ العَدُوُّ حازب ، والكَلَأُ عَازِب ؛ ياخِصْبَ بنى عَبْدِ المَدَان ، ضَأْنٌ فى الحُرْبُث وإبِلٌ فى السَّعْدان ؛ فلما رأيتُ ذلك أَتْعَبْتُ الأَظَلّ ، فلم أَجِدْ إلا الحَنْظَل ؛ فليس فى اللَّبِيد ، إلا الهَبِيد ؛ جَنَيْتُه من شَجَرةٍ ٱجْتُثَّتْ من فَوْقِ الأَرْضِ ما لَهَا من قَرَار . لَبَنُ الإبِلِ عن المُرَارِ مُرٌّ ، وعن الأَرَاكِ طَيِّبٌ حُرٌّ .

هذا مَثَلى فى الأَدَب . فأما فى النَّشَب ، فَلَمْ تَزَلْ لى بحمد الله تعالى وبقاءِ سَيِّدنا بُلْغتان : بُلْغَةُ صَبْر ، وبُلْغَة وَقْر ؛ أنا منهما بين اللَّيْلَةِ المَرْعِيَّه ، واللَّقُوحِ الرِّبْعِيَّه ؛ هٰذه عام ، وتِلْكَ مالٌ وطَعَام ؛ والقَايِل ، سُلَّمٌ إلى الجَلِيل ؛ كالمُصَلى يُرِيغُ الضُّوء ، بإسْبَاغِ الوُضُوء ، والتَّكْفِير ، بإدامَةِ التَّعْفِير ؛ وقاصِدُ بَيْتِ الله يَغْسِلُ الحُوب ، بطُولِ الشُّحُوب .

(١) فى شرح الرسالة : يلتمسن .

وأنا فى مكاتبة حَضْرةِ سَـيِّدنا الجليلَة، والمَيْلِ عن حَضْرةِ سَـيِّدنا الأَجَلِّ والِدِه ـ أعَزَّ اللهُ نصره ـ كَسَبَإ بْنِ يَعْرُب، لما ٱبْتَهَل فى التَّقرُّب، إلىٰ خَالِقِ النُّور، ومُصَرِّف الأُمُور، نَظَر فلم يرَ أشْرَقَ من الشَّمْس يَدا، فَسَجَد لها تَعبُّدا. وغيرُ مَلُومٍ سَيِّدنا لو أعرض عن شَقَائِق النُّعمان الرَّبيعيَّه، ومَدَائحه اليَرْبُوعيَّه؛ مَلَلًا من أهْلِ هٰذه البَلَد المُضَاف إلىٰ هـذا الآسم، فغيرُ مُعْتَذِر، مَن أبْغَضَ لأجْلِهم بَنِى المُنْـذِر؛ وهُم إلىٰ حَضْرته السَّنِيَّة رَجُلان: سَائِل، وقَائِل؛ فأمَّا السَّائِل فألَحّ، وأما القَائِل فغَـير مُسْتَمْلَح؛ وقد سَتَرتُ نَفْسى عنها سَتْرَ الخَمِيص، بالقَمِيص؛ وأَخى الهِتْر، بسُجُوف السِّـتْر؛ فظَهَر لى فَضْلُه الذى مَثَلُه مَثَلُ الصُّـبْح إذا لَمع تَصَرَّفَ الحَيَوانُ فى شُؤُونه وخَرج من بَيْتــهِ اليَرْبوع، وبرز المَلِك من أجَلِّ الرُّبوع، وقد يُولَع الهِجْرِس، بأن يَحْرِس؛ فى البَلَد الجَرْد، قُدَّامَ الأَسَدِ الوَرْد. وإنى خُبِّرتُ أن تلك الرسالة الأولىٰ عُرِضَتْ بالمَعْرِض الكَرِيم: فأوْجَبَ ذلك رَحِيلَ أُخْتِهـا، مُتعرِّضَةً لِمِثْـل بَخْتِها؛ وكَيْف لا تنفع، وفى اليَمِّ تَقَع؛ وهى بمَقْصِد سَـيِّدنا فاخِرَه، ولو نُهِيَتْ الأولىٰ لانْتَهت الآخِرَه:

كملت الرسالة.

⁂

قلتُ: وهذه رسالةٌ أنْشَأتُها فى تَقْرِيض المَقَرّ الكَرِيم الفَتْحِىّ، أبى المعالى فَتْح الله، صاحِبِ دَوَاوِين الانشاء الشريف بالديار المصرية والممالك الإسْلامِيَّة، أدام الله تَعالىٰ مَعالِيَه، فى شُهورِ سنة أرْبَعَ عشرةَ وثَمَانِمائَةٍ، وهى:

الحمدُ لله الذى جَعَل الفَتْح مَحَطَّ رِحَالِ القَرَائِح الجَائِدَة، ومُسْـتَقَرَّ نواها، ومُحِيطَ دَائِرَةِ الأفْكَارِ الوَارِدَة، ومَرْكَزَ شُـعاعِ كُوَاها، ومَادَّةَ عَنَاصِر الأَفْهام الجائِلَة، وعِتَادَ شَكِيمَةِ قُواها.

نحمده على أن خصّ المملكة المصرية من إيداع سرّها المصون بأوسع صدرٍ رحيب، وأنهض بتدبير مصالحها من إذا سرت كتائب كتبه إلى عدوٍّ أنشد من شدّة الفرق: قفا نبك من ذكرى حبيب، وأقام لنصرتها بأسل الأقلام وصفاح المهارق من إذا طرقها على البعد طارقٌ تلا لسان يراعته: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تسير بها برد الهداية إلى آفاق الأخلاق فتشيّد لقلاع الإيمان بأقطار القلوب أركانا، وترقم أسرار شعائرها بنقس القبول فى صحف الإقبال فتبدّل داعيها بإذاعة خبرها من الإسرار إعلانا، وتدين بطاعتها ملوك الممالك النائية خضوعا فتتّخذ كتب رسائلها على المفارق بعد اللّثم تيجانا؛ وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل نبيٍّ سنّ المعروف وندب اليه، وأكرم رسولٍ جعل خير بطانتى الملك التى تأمره بالخير وتحثّه عليه؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين سلكوا فى السّير سبيله واتّبعوا فى السّيرة سننه واقتفوا فيه سننه، واتّبعوا فى المعروف آثاره فتلا عليهم تالى الإخلاص: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. صلاةً تتناقل على مرّ الزمان أخبارها، ويتصدّى لروايتها من الأمّة على تمادى الدّهر أحبارها؛ وسلّم تسليما كثيرا.

وبعد، فان رياسة أهل الدّول تتفاوت باعتبار قرب الرئيس من ملكه فى مخاطبته ومناجاته، واعتماد تصرّفه فى أمور دولته وتنفيذ مهمّاته، والاستناد على رأيه فى جليل خطوبه وعظيم ملمّاته:

فعالٍ تمادت فى العلوّ كأنّما * تحاول ثأرا عند بعض الكواكب!

ولا خفاء أن صاحب ديوان الإنشاء من هذه الرتبة بالمحلّ الأرفع، والمنزلة التى لا تدافع ولا تدفع، والمقام الذى تفرّد بصدارته فكان كالمصدر لا يثنّى ولا يجمع؛

إذ هو كليم المَلِك ونَجِيُّه ، ومُقَرَّبُ حَضْرته وحَظِيُّه ؛ بل عَميدُ المملكة وعِمَادُها ، ورُكْنُها الأعظمُ وسِنَادُها ، حَامِي حَوْمَتِها وسِدَادُها ؛ وعِقْدُها المتَّسِقُ ونِظامُها ، ورَأْسُ ذِرْوتها العَلْياء وسَنَامُها ؛ وجُهَيْنة خَبَرها ، وحَقِيبة وِرْدِها وصَدَرِها ؛ ومُبَلِّغُ أنْبائها وسَفِيرُها ، وزَنْد رَأْيها المُورِى ومُشِيرُها .

فَحَيَّهَلَا بالمَكْرُماتِ وبالعُلَى * وحَيَّهَلًا بالفَضْلِ والسُّؤْدُدِ المَحْضِ!

هذا . وهو الواسطةُ بين المَلِك ورَعِيَّته ، والمتكفِّلُ لقَصِيِّهم بدَرْكِ قَصْده وبُلُوغِ بُغْيَته ، والمُسْعِدُ للمظلوم من عزائم تَوْقيعاته بما يَقْضِي بنُصْرَته ؛ وحينئذ فلا يصلُحُ لها إلا مَن كان مع كَرَمِ الخِيم بارِزَ الخِيَامِ لاْصْطِناع المَعْروف ، ومع سُمُوِّ الرُّتبة سَامِيَ الهِمَّة لإغاثة المَلْهُوف ؛ ومع عِزِّ الجناب لدى مَلِكه لَيِّنَ الجانب لِذِي المَسْأله ، ومع قُرْبِه بحَضْرة سُلطانِه قَرِيبًا من الرَّعِيَّة حتَّى من المِسْكين والأَرْمَله .

وغيرُ خَافٍ أن كُلَّ وَصْفٍ من هذه الأوصاف مع مُقَابِله كالضِّدَّيْن اللَّذَيْن لايَجْتَمِعَانِ بحال ، والنَّقِيضَيْنِ اللَّذَيْنِ قضَى العَقْل بأنَّ الجَمْعَ بينهما مُحَال ؛ وأنَّى يجتمع العالِي والهَابِط ، والمُرْتَفِعُ والسَّاقِط ؛ ؟ أم كَيْف تتَّصِلُ الأرضُ بالسَّماء ، أو يَقَعُ آمتزاجُ عُنْصُرِ النَّارِ بعُنْصُرِ المَاء ؛ ؟ ومن ثَمَّ عَزَّ هذا المَطْلَب لهذه الوَظِيفَة حتَّى إنَّه لأَعَزُّ من الجَوْهرِ الفَرْد ، وقَلَّ وُجُودُه حتَّى لم يُوجَد إلا فى الواحد الفَذّ فلا تراه إن تَرَاه إلا فى حيز النَّادر ، ولا تَظْفَرُ به إلا ظَفَرَكَ ببَيْض الأَنُوق إن كان يظْفَرُ به ظَافِر ؛ إلا أنه رُبَّما سمح الدَّهْرُ فأتَى بالفَذِّ من هذا النَّوع فى الزَّمَن المتباعد ، أو أَسْعد الدَّهْرُ فأسْعَفَ بالواحد بعدَ ألف وَاحد .

ثم قد مضت بُرْهَةٌ من الأيام وجِيدُ دِيوانِ الانشاء من نَظَر من هو مُتَّصِفٌ ببعض هذه الأوصاف عَاطِل ، والدَّهْرِ يَعِدُ بمَن يقومُ فيه بتَفْرِيج كُرْبة المَلْهُوفِين ولكنَّه يُمَاطِل :

يُرَفِّه ما يُرَفِّـه فى التَّقـاضِى * وليس لَدَيْه غيرُالمَطْلِ نَقْدُ!

إلىٰ أن طَلَع نَيِّرُالزَّمان وتَوضَّح شُرُوقه، وظهرتْ تباشِيرُ صَباحِه وأَفَل بطُلُوع السَّعْد عَيُّوقُه؛ فأقْبَلتِ الدولةُ الظاهرية بسَعادَتِها، وتَلَقَّتْها الأيام الناصرية جارِيةً منها علىٰ وَفْقِ عادَتِهـا؛ ووُفِّر للدَّوْلتين من ٱنتخاب الأَصْـفِياء قِسْمَتُها، ومَخَضَتْ لهـا الرَّأْىَ الصائبَ حتَّىٰ ظهرتْ فى الوُجُود زُبْدَتُها؛ فكانَـــ خُلاصَةَ ٱصْطِفَائِهما، وزُبْدَةَ ٱنْتِقائِهما؛ المقرُّ الأشْرفُ، العالى، المَوْلَوِىُّ، القاضَوِىُّ، الكَبِيرِىُّ، السَّفِيرِىُّ، المُشِيرِىُّ، الفَتْحِىُّ، نظامُ الممالك الإسلامية وزِمامُ سِياسَتِها، ومُنَفِّذُ أمورِها، وجامع رَآسَتِها؛ أبُو المعالى فَتْحُ الله صاحِبُ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، زادَ اللهُ تعـالىٰ فى ٱرْتِقائِه علىٰ تَعاقُبِ الدُّوَل، وأجْراه من خَفِىِّ اللُّطْف علىٰ أجْمَـل العَوائد وقد فَعَل؛ فَأُلْقِىَ إليه من أَسْرارِ المَمْلَكة مَقَالِيدُها، وٱتَّفَقَتْ بحُسْن سِفَارَته بٱتِّفاق الرُّواة أَسَانِيدُها؛ فنَفَذَت بتَنْفِيذِه أُمورُها، وكَمَّلَتْ بصَحِيحِ رَأْيه كُسُورُها؛ فَجَرَتِ الأمور بحُسْن تَدْبِيره على السَّـدَاد، ومَشَتِ الأَحْوالُ بلُطْف سِفَارته علىٰ أتَمِّ المُرَاد؛ وٱعترفتْ له الكافَّة بالسِّيادةِ فأطَاعَت، وعَرَفَتْ له الرَّعيةُ تَقَدُّمَه فى الرآسة فرَعَتْ حُرمَتَه ورَاعَتْ.

وإنَّ أُمورَ المُلْك أضْحىٰ مَدَارُها * عَليهِ كما دَارَتْ علىٰ قُطْبِها الرَّحىٰ!

قد ٱسْتَعْبَدَ الخَطَّ فأصبح له كالخَدِيم، وأتَىٰ من المعروف بكلِّ غَرِيبٍ فأنسىٰ من أُثِرَعنه ذلك فى الزَّمنِ القَدِيم؛ فلو رآه «خالدُ بن بَرْمَك» لأَحْجَم عن ملاقاته عِظَما، أو نَاوأَه «يحيىٰ بن خالدٍ» لمـاتَ من مُناوَأَته عَدَما، أو سَابَقه «الفَضْل وجَعْفَرٌ» ٱبناه لسَبقَهما كَرَما:

مَناقبُ لو أَنِّى تكلَّفْتُ نَسْخَها، * لأَفْلَسْتُ فى أقْلامِها ومِدَادِها!

أو سَمِع به "الحسن بنُ سَهْل" لقَطَع إليه الحَزْنَ والسَّهْل، أو بَصُر به "الفَضْل" أخُوه، لمـا رأىٰ أَنه للفَضْل أَهْل ؛ أو عايَنَه "أبو عَلِّي بنُ مُقْلَة" لعلم أنه فاقَه حَظًّا وخَطّا، أو نَظَر "آبْنُ هِلَالٍ" إلىٰ أَهِلَّة نُونَاتِه لتحقَّق أنه سَبَقَه إلىٰ تَحْرِيرِ هَنْدَسَـةِ الحُرُوف وما أَخْطا :

إِذَا أخَذَ القِرْطَاسَ خِلْتَ يَمِينَه ‏ * ‏ تُفَتِّحُ نَوْرًا أو تُنَظِّم جَوْهَرا !

فَإن تكلَّم أتىٰ من بيانه بالسِّحْرِ الحَلَال، أو حَاوَر أتَىٰ من البَلَاغةِ بمـا يُقَصِّر عن رتبته "سَحْبانُ" فى المَقَال، أو ترَسَّل أعْيىٰ "عَبْدَ الحَمِيد" فى رَسَائِله، أو كَتَب رَتَعْت من رَوْض خَطِّه فى زَهْرِ خمائِله :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ المَنْثورَ مَنطِقُـه ‏ * ‏ ويَنْظِمُ الدُّرَّ بالأقْلَامِ فى الكُتُبِ !

فَرَأْيُه السَّيْفُ لا ما صَنَع الهِنْد، وعَقْلُه الصَّارِمُ لا ما آسْتُودِعَ الغِمْد :

فَفِى رَأْيِه نُجْحُ الأُمُورِ ولم يَزَلْ ‏ * ‏ كَفِيلًا بإرْشَادِ الحَيَارىٰ مُوَفَّقا !

أَقْلامُه تُزْرِى بالصَّوارِم وتَهْزَأُ بالأَسَل ، وتَجْرِى بِصِلَةِ الأَرْزَاقِ فتَزِيدُ علَى الأَمَانِى وتَربُو على الأَمَل :

بِتْ جَارَه فالعَيْشُ تَحْتَ ظِلالِه ‏ * ‏ وآسْتَسْقِهِ فالبَحْـرُ من أنْوائِه !

فَمَكَارِمُه تُغْنِى من الإملاق ، وبَوا كِرُه بالإسْعادِ تبادر الغُدُوَّ والإشْراق ، وعَطايَاه تَسِيرُ سَيْرَ السَّحابِ فتُمْطِر الغَيْثَ على الآفاق :

كَرِيمُ مَسَاعِى المَجْـدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً ‏ * ‏ من الشَّرَفِ الأعْلىٰ وبَذْلِ الفَوَاضِلِ !

قد خَدَمتْه الحُظوظُ وأَسْعدتْه الجُدُود ، وقُسِمتِ المنازِلُ السَّنِيَّةُ فكان له منهـا سَعْدُ السُّعود :

لو عدّدَ الناسُ مافيه لما بَرِحَتْ * تَثْنِي الخناصرَ حتّى ينفَدَ العَدَدُ!

فلو غَرَسَ الشَّوْكَ أثمـر العِنَباءَ أنَّى أرادَها ، أو حاولَ العنْقاءَ فى الجوِّ لَصادَها ؛ أو زَرَع فى السِّباخِ لكانَ ذلك العامُ العامَ والسَّنَةَ الخِصْبَه ، ولَضُوعِفَتْ مُضَاعَفَةَ حَسَناتِه فأنْبَتَتْ كلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّه :

وإذا السعادةُ لاحَظَتْكَ عيونُها ، * نَمْ فالمخاوِفُ كُلُّهنَّ أمانُ ،

وآصْطَدْ بها العَنْقاءَ فهى حَبائِل * وآقْتَدْ بها الجَوْزاءَ فهى عِنانُ!

قد لَبِس شرفًا لا تطمعُ الأيامُ فى خَلْعِه ، وتَقَمَّص من الفَضْل جِلْباباً لا تَتَطَلَّعُ الأيامُ إلىٰ نَزْعِه ؛ وآنتهىٰ إليه المجْدُ فوقف ، وعَرَفَ الكَرَمُ مكانَه فانحاز إليه وعَطَف .

فقَصُرتْ عنه خُطَا من يُجارِيه ، وضاق عنه بَاعُ من يُبَارِيه :

نَالَتْ يداه أقاصِيَ الكَرَمِ الّذى * مَدَّ الحَسُود إليـه بَاعاً ضَيِّقا!

فمناقبُه تَسْبِقُ أقلامَ الكاتِب ، وتَسْتغرِقُ طاقَةَ الحاسِب ؛ ليس لآرتفاعها غايه ، ولا لتَداوُلِها نِهايَه ؛ فلا تُوفِى جامِعَةٌ بشَرْطِها ، ولا تَقُومُ جَرِيدَةٌ ببَسْطِها :

وقَدْ وجَدْتَ مَكانَ القَوْلِ ذاسَعَةٍ * فإن وَجَدْتَ لِساناً قائِلًا فَقُلِ!

قد هتف بمَدْحِه خُطباءُ الأقلام علىٰ مَنَابِرِ الطُّروس ، ونَطَقَتْ بفَضْلِه أفْواهُ المَحابِر فنُكِّستْ لِرفْعةِ قَدْره شَوامِخُ الرُّءوس ؛ وطَلَعَتْ فى أفُقِ المَهارِقِ سُعودُ إيالَتِه السعيدةِ فأفَلَتْ لوجوده النُّحوس ؛ ورُقِمَتْ محاسِنُه بنِقْسِ اللَّيلِ علىٰ صَفَحاتِ النَّهار فآرْتَسَمتْ ، وحُمِلَتْ أخبارُ مَعْروفِه فتزاحمت الآفاقُ على آنْتِشاقِ أرَجِ رِيحِه العَبِقَةِ وآسْتَهَمتْ :

لقَدْ كَرُمتْ فى المَكْرُماتِ صِفاتُه * فما دَخَلتْ لاءٌ عليها ولا إلَّا!

اتَّفقَتِ الألْسنةُ علىٰ تقْرِيضِه فمُدِحَ بكلِّ لسان، وتوافقتِ القلوبُ علىٰ حُبِّه فكان له بكلِّ قَلْبٍ مكان، وٱسْتَغْرَقَتْ مَمَادِحُه الأزمِنَةَ والأمْكِنةَ فاستولىٰ شُكْرُه على الزَّمان والمَكَان :

ولم يَخْلُ من إحْسانِه لَفْظُ مُخْبِرٍ * ولم يَخْلُ من تَقْرِيضِه بَطْنُ دَفْتَرِ !

علىٰ أنِّى أسْتقِيلُ عَثْرتى من التَّقصير فى إطْرائه، والتَّعرُّض من مَدْحِه لما لا أنْهَضُ بأعْبائِه؛ فلو أن «الجاحِظ» نَصيرِى، و«ٱبنَ المُقَفَّع» ظَهِيرِى، و«قُسَّ بنَ ساعِدَةَ» يُسْعِدُنى، و«سَحْبانَ وائِلٍ» يُنْجِدُنى، و«عَمْرو بن الأهْتَم» يُرْشِدُنى؛ لكانَ ٱعْترافى بالعَجْزِ فى مَدْحِه أبلغَ مما آتيه، وإقْرارِى بالتَّقْصِيرِ فى شُكْرِه أولىٰ مما أَصِفُه من تَوَالِى طَوْله وأيادِيه :

ولَوْ أنَّ لى فى كلِّ مَنْبِتِ شَعْرةٍ * لِساناً يُطِيلُ الشُّكْرَ فيه لقَصَّرا !

* * *

وهذه نسخةُ رسالةٍ للشيخ الإمام العَالِم مُعِين الدِّين تاج العلماء، خَطِيبِ الخُطَباء، زَيْن الأَئِمة، قُدْوةِ الشَّريعة، الصَّدْرِ أبى الفَضْل يحيىٰ بنِ جَعْفر بن الحُسَين بن محمد الحَصْكَفِى رحمه الله، سمَّاها : "عِتَابَ الكُتَّاب، وعِقَابَ الألْقاب، المُشْتمِلة علىٰ أُصُول الغَرِيب والإغْراب" وهى :

عَذِيرِى من وُزَرَاءِ النصبة وكُتَّابِها، وكُبراء الدُّسُوت وأرْبابِها، وأَوَاخِى الدُّوَل وأَطْنابِها، ونُوَّابِ الدَّواوِينِ وَأَنْيابِها[(١)]، وجُبَاةِ بيُوت الأموال، والسُّعاةِ فى زَمِّ نُشَر الأَحْوال؛ وسَاسَةِ المَمالك، وصُحُفِ أسْرار المَآلك؛ الشَّامِخِينَ بأُنوف التِّيه والكِبْرياء، والسَّاحِبِينَ ذُيولَ العُجْب والخُيَلاء، الرَّافِلين فى حُلَلِ البَهاء، والغَافِلين عن فُروض العلاء، الذين تَبوَّءُوا السُّؤْدَدَ من غير سَدَاد، وتَسَنَّموا الرُّتَبَ بلا إعْداد،

(١) الأنياب جمع ناب وهو سيد القوم وكبيرهم .

فكأنهم الحاصب ، وعدوّ الله المناصب ؛ شَغَلهم الأشَرُ والفُجُور ، وكلٌّ علىٰ بَسْطَتِه يَجُور ؛ همهم محج الأحْراح ، وثَجُّ الراح بالماء القَرَاح ؛ وٱمْتِطاءُ المُرْد ، والعِتاقِ الجُرْد ؛ أَمَلُهم تَنْجِيد الأفنيَه ، وتَشْيِيدُ الأبْنِيه ؛ والزِّيادةُ فى الرَّقِيق والكُرَاع ، والخَوَل والأتباع ؛ وليس بغَال ، كَثْرَةُ خَيْلٍ وبِغال ؛ بما باعوه من الوَرَع والدِّيانَه ، وأضاعُوه من العفة والصِّيانَه :

قَدْ مَلَكُوا الدُّنيا علىٰ غِرَّةٍ * ونَافَسُوا فيها السَّلاطِينَا !
تَوَزَّعوا الدَّولة والمُلْك والْـ * ـحَضْرَةَ والإسْلَام والدِّينَا ،
شَادُوا بأعْمالِهِمُ دُورَهم * وأَخْربُوا فيها الدَّواوِينا ،
عَفُّوا وما عَفُّوا بأقلامِهم * مَسَاكِنًا تَحْوِى مَسَاكِينَا ،
غَرَّتْهم الدُّنيا بأن أظْهَرت * عَنْ غِلْظَةٍ تُضْمِرُها لِينَا ،
والدَّهْرُ كَمْ جَرَّعَ فى مَرَّةٍ * مُرًّا وحَيْنًا سَاقَه حِينَا .
يا أَنْفُسًا ذَلَّتْ بإتْيانِهم * وَيْك أَتَأْتِينَ الأَتَاتِينَا .
لاتَرْغَبِى فى رِسْلِهِم إنَّما * تَمْرِينَ فى القَعْبِ الأَمَرِّينَا !
وكان يُجْدِى القَصْدُ لو أنَّهم * يَدْرُونَ شَيْئًا أو يَدَرُّونَا .
مَوتَىٰ هُمُو فَلْيَكُ تَقْرِيظُهُم * إن كُنْتِ لَا تَأْبِينَ ، تَأْبِينَا ،
لايَعْتَنِى الفَضْلُ بإطْراءِ مَن * يكونُ فيه الهَجْوُ مَغْبُونا ،
لَو رُمْتَ شيئًا دُون أقْدارِهِم * لَهَجْوِهِمْ لم تَجِدِ الدُّونَا ! ! !

قد أخْلَدوا إلى الوَضَاعَه ، عن تَحْصِيلِ البِضَاعَه ، وكَفَاهُم من البَرَاعَه ، بَرْىُ اليَرَاعَه ، وعُنُوا بٱسْوِدَاد اللِّيقَه ، عن سُؤْدُدِ الخَلِيقَه ؛ وأحَالُوا على الرِّمَم ، عند قُصُورِ الهِمَم ؛ ومن أعْظَم الآفَات ، فَخْرُهُم بالعَظْمِ الرُّفَات .

وكأنهم لِصميم هاشِمْ * أو من لهاميم العَباشِمْ ،
غَشِموا فما يَغْشاهمُ * بالطَّوْعِ إلا كُلُّ غاشِم :

لا يُعِينُ أحَدُهم علىٰ مُرُوّه، ولا يُنْعِشُ ذَا أخُوّه ، ولا يَرْعىٰ وارِثَ أبُوّه، ولو آعْتَزىٰ إلىٰ بُنُوّه، فهو غير آسٍ بجُودِه، ولا مُواسٍ بمَوْجُوده؛ يَرُوقُك كِيسُه والغُلَام، وتَرُوعُك دُوِيُّه والأقلام ؛ فإذا آسْتَنْطق قَلَمه الصّامت ، أَجْذَلَ عَدُوَّه الشّامِت ؛ فزاد أدْرَاجَهُ ناقصا، وعاد على أدْرَاجِه ناكصا .

فهو الذى أمْلَىٰ لهم حِلْمُه * مع الخَنا والنَّكَدِ الباهض :
لَوْ أنَّنى وُلِّيتُ تأديبَهم * شَفَيْتُ صَدْرَ النَّقهِ النَّاهِض !
من نَاظِرٍ يُضْحِى بلا نَاظِرٍ، * وعَارِضٍ يُمْسى بلا عَارِض،
ومُشْرِفٍ للدين ماقَصْدُه * فى الوَطْبِ إلا زُبْدَةُ المَاخِض،
وخَازِنٍ إن لَفَّ مَرْضَاتَه * من حُلْوِهِم عَفَّ عن الحَامِض،
ومن خَبِيثٍ جاءنا ذِكْرُه * فى الذِّكْرِ بين البِكْرِ والفَارِض،
وكَاتِبٍ لو أنْصَفُوا مُهْرَهُ * لكَان أوْلىٰ مِنْه بالرَّائِض ! ! !

إن وَقَّع ، رأيتَ اللَّفْظ المُرَقَّع ؛ وإن أطَال وأسْهَب ، أذَال عِرْضَه وأنْهب ؛ وكان أحَقَّ بتَقْلِيد الفُهُود ، عند تَقْلِيد العُهُود؛ وأولىٰ بشَطْرِ المَنَاشِير، عن سَطْر المَنَاشِير؛ وأجْدَر بقَبْضِ الرُّوح ، إذا آنبسط للشُّرُوح، وأخَذَ فى ذِكْر الوقَائِع والفُتُوح؛ كَفُّه بالجَلَم، أوْلىٰ منها بالقَلَم؛ وأخْلَقُ بالمِسْحاه، من السِّحاه؛ وألْيَقُ بالفُؤُوس ، من الطُّروس؛ يَبْرِى ويَقُط، ولا يَدْرِى مايَخُط؛ إذ لَيْس فى السَّفَط ، غير السَّقَط ؛ إن فَاتَحْته، أو طَارَحْته؛ ظَفِرْتَ بغُصَّة المَائِح ؛ وخَشْرِ المُفاتِح ، إن خَطَّ : فَنُونُه كَلَامه، وخَلَط فُنُونَه فى كلامه .

إن وَقَّعُوا وقعُوا فى ذَمِّ كُلِّ فَمٍ، * أو أنفذُوا أنْفَذَتْهم أَسْهُمُ الكَلِم،
أو قَلَّدوا قُلِّدُوا خِزْيًا يُجَلِّلُهُمْ، * أَو أَقْطَعُوا قُطِّعُوا شَتْمًا بجَهْلِهِم.
أَرَاقِمُ المَالِ والأَعْمال إنْ رَقَمُوا * جَاؤُا من الرَّقْمِ والأَلْفاظ بالرَّقِم،
فالله يأخُـذُ مِنْهُـم للدَّواةِ وللأَنْقاسِ بالحَقِّ والقِرْطاسِ والقَلَمْ ! !

فالحَديد بهم سَمَل، والسَّوامُ بينهم هَمَل، ولا عِلْم عندهم ولا عَمَل ؛ لَهَفِي على الفَضْل المُذَال، بِرِفْعةِ الأنْذَال، وضَياعِ الحُقُوق، وٱنْضِياع البَيْضَة عن العُقُوق.

ثم ما علىٰ سيدنا الوَزِير، مع ٱصْطحابِ البَمِّ والزِّير، ونَفَاقِ سُوقِه، وٱنْغماسِه فى فُسُوقِه، وٱتِّصال صَبُوحه بغَبُوقِه، وتَخَلِّيه فى البَهْو، للَّعِب واللَّهْو، من ظَهْرِ غَيٍّ يُرْكَب، وذِى يَسار ينكب، وسَاعٍ يَشِى، ورَاعٍ يَرْتَشِى، ورُسُومِ حَيْفٍ تُجَدَّد، وسَوْآتٍ تعدَّد، ما يَضُرُّه من شَكْوى الجَارِح البُغَاث، وصَرِيخ لا يُغَاث، ووَال يَعْسِفُ بأهْلِ مصره، وإن شَرِكَه فى إصْرِه، وقاضٍ لايُنْصِف الرَّعِيه، ولا يَتَّبع القضايا الشَّرْعيه، وفَقِيهٍ يَسِفُّ إلىٰ تَحْصِيل عَرَضٍ زائل، وتَعْجِيلِ غَرَضٍ من سَائل، ماله ولِحِفْظ المال، ومُحَاسَبَة العمال ؟ :

أَمْ ماعَلى العَامِل بَخْسِ الدَّجَاج * إن نَقَصَ الكَرْمُ وزَادَ الخَرَاج؟
عليه أن يَحْصُلَ فى كُمِّـه * شَىْءٌ وإن أخْلىٰ جَمِيعَ الخَرَاج.
وهُـو خُرَاجٌ عنـد مَاينتَهِى * يُبَطُّ بالمِبْضَع ما فى الخُرَاج ! ! !

شُغلهم بالشَّهْدِ المَشُور، لا بمَشْهدِ يَومِ النُّشور، وقَصْدهم الجَمْع والاكْتساب، ومَتَى الجَمْع والحِسَاب، إنمـا هو مال يُحْتَقَب، لامآل يُرْتَقَب، وفَسادٌ فى الأرض، لا إعداد ليَوْم العَرْض :

وَإنّى لَأَرْثِى لمــراتِبِ تَحْتَوِى * عليهــا قُرُودٌ فوقهــن بُرُودُ،
سِراعٌ إلى السَّوْآتِ فيما يَشِينُهُم * ولٰكنّهم عما يَزِينُ رُكُــودُ،
يِقَاظٌ إذا ما ثَوَّبَ اللُّؤْمُ دَاعِيًــا * وعنــد نِدَاءِ المَكْرُمات رُقُودُ،
وما غَرَّنِى إلّا جَلَاوِز حَوْلَهــم * وإلا قِيَــامٌ بينهــم وقُعُودُ.
لقد حُسِدُوا ظُلْمًــا علىٰ ما أتاهم * وهَلْ لأَخِى نَقْصٍ يَسُودُ حَسُودُ؟
وللسَّيِّد المَحْسودِ كَفٌّ عن العُلَىٰ * تَذُودُ وأخرىٰ بالنَّوال تَجُــودُ.
لَحَا اللهُ دُنْيانا التى ضَلَّ سَــعْيُها * وفيهــا علينا بالضَّلال شُهُودُ.
إذا صُغِّرتْ كاسم الحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ * عَلَتْ وعَلا فِيهــا يَزِيدُ يَزِيدُ.

إنمــا الصَّــدْرُ من صَــدَّره كَمالُه ، وحَسُنَتْ أعْمــالُه ؛ وجَرَّد العَزَمات ، فشَرَّد الأَزْمات ؛ ونَفَىٰ بذَبِّه الكُرُبات ، واْصْطَفىٰ لِربِّه القُرُبات ؛ فسهل الغِنَى ، وأفْعَم الإِنا ، ووَضَع مَوَاضِع النَّقْب الهِنا ؛ فهو يَهَشُّ للنَّوال ، ويَبَشُّ عنــد السُّؤال ؛ لا يَشُوب وِرْدَه القَذَا ، ولا يُبْطِلُ مَنَّه بالمَنِّ والأَذَىٰ ؛ يبشر بِشْره بمَحَاسِنِ الأخلاق ، ويَنْشُر نَشْره الطِّيِّبَ فى الآفاق ؛ ويَحْسِمُ بدواته دَاءَ الإِمْلاق ، ويُحْرِز بقصبته قَصَبَ السِّباق :

يُجَرِّدُها من مِثْلِ وَفْضَــةِ نَابِل * أجنتهــا مِن نَافِذَاتِ المَعَــابِل ،
وفى خَطِّه المَنْسوبِ تُزْرِى شَــبَاتُها * بلَهْذَمَ مَنْسُوبٍ إلى الخَطِّ ذَابِل ،
وإن بذَرَتْ عن حَبَّة القَلْبِ أنبَتَت * مِن البِرِّ قبــل البُرِّ سَبْعَ سَنَابِل ! !

دُؤُوبُه لإقَالةِ العاثر ، وعِمَــارةِ الدَّاثر ، وإشَاعةِ المآثر ؛ هَمُّه فى مُعْضِلةٍ تُراض ، ومَعْدَلَةٍ تُفاض ؛ وخَلَلٍ يُسَد ، وخَلَل يُصَدّ ؛ وعَانٍ بظَهْرِه يُعان ، وعَاتٍ بقَهْره يُهَان ؛ بابُه مَفْتوح ، وخَيْره مَمْنوح ؛ وما أقَلَّ اللّائِم ، لمن أكثر الوَلَائِم ؛ وأغْفَل الحَــادب ،

لمن صَنَع المآدِب، وأَخْلَصَ الإخاء، لمن آستخلص السَّخاء، فبَذَل الرَّغْوة والصَّرِيح، والسَّنَام الإطْرِيح، لا كمن يَشُحُّ بالقُتَار، لفَرْط الإقْتَار، ويَضِنُّ بالوَضَر، على المُحْتَضَر، ويَبْخَل بالعُرَاق، عمَّن رُوحُه فى التَّراق، ويُسِرُّ الغميره، لمن يَبْتَغِى المِيرَه، ويُبْطِنُ الدَّاء، لمن يَنْتَظِر الغَدَاء، ويَسعر الأحْشاء، لمن تَرَقَّبَ العَشَاء:

مســلط ســيرته نقمة * وجائر قِسْــمَتُه ضِيزَىٰ،
ليس بذى لُبٍّ يَمَلّ الثّأَىٰ * ولا لُبَابٍ يملأ الشِّيزَىٰ!

يَحْقِدُ على الإخوان، عِنْد ظهور الخِوَان، فتراه يُحَدِّق، إلىٰ مَن يُشَدِّق، ويَنْتَقِم، ممن يَلْتَقِم، ويُذِلُّ الأكِيل، ويُحِلُّ به التَّنْكِيل، ويُبْغِضُ الشَّرِّيب، وإن كان الخِدْنَ القَرِيب، فالحَائِن من يَرِد، فيَزْدَرِد، والحَائِنُ من يَنْبَسِط، فيَسْتَرِط، يَشْنَأُ من الأجْراس، صَوْتَ الأضْراس، وحَشْرَجَةَ البَلَاعِم، بدَحْرَجَةِ المَطَاعِم، وهَرْهَرَةَ الشُّدُوق، وجَرْجَرَةِ الحُلُوق، وقد صَدَّتْ حَوَاجِزُ بَلْواه، أفْوَاهًا تَصَدَّتْ لحَلْوَاه، وحَكَمَتْ لجَامِه، بحِكَمَةِ لِجَامِه، وعُدَّت بكِيوَانِه، لُهًى وُعِدَتْ بألْوَانه، رَغيفُه أعرز(١) من الغريف، وأغْرَبُ من الشَّىْءِ الطَّرِيف، صَرِيفُ بَابِه، دون صَرِيفِ نَابِه، ويُحْكِمُ صَكَّ بَابِه، عن كَبَابِه، ويُعِدُّ سَدِيفَ جِفَانِه، من سَدِيفِ أجْفَانِه، يُمَانِع بلَدِيدِه، عن سَفُّودِ قَدِيدِه، ويُصافِحُ بصَفْحَةِ وَرِيدِه، عن صَحْفَةِ ثَرِيدِه، حَمَلُه من نُجُوم الحَمَل، وسَمَكُه فوق السِّماكِ الأعْزَل، وحُوتُه بين الحُوتِ والأسَد، وجَدْيُه عند جَدْيِ الفَرْقَد، دون عُجَّتِه آرتفاع العجاجه، وتحت دَجَاجَتِه ذَنَبُ الدَّجَاجَه:

يدرج فى القِــدْرِ دُرَّاجُه * ليَلْقُطَ الحَبَّ وطَيْهوجُه
ففى السَّموات سُمَانَاتُه * وعِنْد دِيكِ العَرْشِ فَرُّوجُه

---

(١) من عَرَزَه يعرِزُه انتزعه انتزاعا عنيفا والغريف الدلو .

يَحرُس مائدَتَه الدَّلْو والعَقْرب، وهُما منَّا أدنىٰ وأقْرَب؛ يُعجِبُه التَّشمير والاْحتِجان، ويَلَذُّ له التَّوفير والاْختِزان؛ وقصر مُفَاجَأة أحوال، تُصَرِّحُ عن أهْوال؛ وكأنَّك بالأيام بعد الاْبتِسَام، شاهرة للحُسام؛ قد كَشرَتْ عن أنيابها العُصُل، فى بُكَرِها والأُصُل؛ وأجْلتْ عن سَلِيبٍ مَسْحُوب، لتَنَكُّر مَصْحوب؛ وآخَر يتردَّدُ فى البُوس، ويُخَلَّد فى الحُبُوس؛ قد حصل علىٰ سَلَّةِ الحاوى، من سلة الحلاوى؛ ومن طَعْمِ العَسَل، علىٰ طَعْنِ الأَسَل؛ ومن العَذْبِ البَارِد، علىٰ حَزِّ المَبارِد:

تقبض من خَطْوِهِ الكُبُول * فهو علىٰ قَيْدِه يبُولُ،
خَلاَ من الخَيرِ فهو طَبْل * وهَكَذا تضْربُ الطُّبُول،
يَشْكُو إلى الله مُسْتغيثاً * وما له عنده قَبُولُ،
ذَاك بما كان مُسْتطِيلاً * تُرْدِى دَوَاهِيه والمُيُول!

فهم بين حصى تعصر، وقفا يقصر، وكِعَابٍ مَثْقُوبَه، وأنواعِ عُقُوبه؛ أو يقال فلانٌ أنارته شَعُوب، ووَارَتْه الجَبُوب، واكْتَفَىٰ بسُلْفَةِ المَمَات، من المُقَدَّمات؛ وما ظَنُّك بالشِّلْوِ الطَّرِيح، فى ضَنْكِ الضَّرِيح؛ تَحْته البَرْزَخُ المَوْصُود، وفوقه الجَبَل المَنْضُود، أنظر كَيْفَ هُجِر بابه المقصود، وجانَبَتْ جَنابَه الوُفُود؛ وأخْلَقت رِبَاعُه، وتَفَرَّقتْ أتْبَاعُه؛ ثم تَشْوِيه الحوب، أبشع من تشويه الشُّحُوب(؟)؛ ووَيْلٌ للقَوْم البُور، من بَعْثَرةِ القُبُور:

ويا خَسَارَ الأنْفُس الغَاوِيَه * من بعد تلك الحُفَرِ الهَاوِيه،
وكُلُّ مَن خَفَّتْ مَوازِينُه * فَأُمُّه فى بَعْثِه هَاوِيَه،
وليس يَدْرِى وَيْحَهُ ماهِيَهْ * نَارٌ علىٰ سُكَّانِها حَامِيَه!

أعاذنا الله من خِلَالٍ يقضى جَهْلُها بالشَّنَار، وأفعالٍ تُفْضِى بأهْلِها إلى النَّار، بكَرَمه وإحسانه، وطَوْلِه وآمْتِنانِه .

الصـــنف الثـالث

(من الرسائل المفاخراتُ ، وهى علىٰ أنواع)

منها : المفاخرة بين العـــلوم .

وهذه نسخةُ رسالةٍ فى المُفَاخَرة بين العلوم ، أنشأتها فى شُهُور سنة ثمـان وتسعين وسبعمائة ، لقاضى القضاةِ شيخ الإســلام ، عَلَّامةِ الزمان ، جلالِ الدِّين ، عبدِ الرحمن آبنِ شيخِ الإسلام ، بَقِيَّة المجتهدين ، أبى حَفْصٍ عمرَ البُلْقينِيِّ الكنانىِّ ، الشَّافعىِّ ، أمْتَع الله تعالىٰ المسلمين ببَقَائِه ، ذكرتُ فيها نَيِّفًا وسبعين عِلْمًا ، آبتدأتها بعِلْم اللُّغة ، وخَتَمتُها بفَنِّ التاريخ ، ذاكرًا فَخْرَ كلِّ علمٍ على الذى قبله ، محتجًّا عليه بفضائلَ موجودة فيه دون الآخر ، وجعلتُ مَصَبَّ القولِ فيها إلىٰ آشتماله علىٰ جميعها ، وإحَاطتِه بكُلِّها ، مع الإشارة إلىٰ فَضْل والدِه ، شيخِ الإسلام ، ومساهمتِه له فى الفَضْلِ ، علىٰ ماستَقِفُ عليه إن شاء الله تعالىٰ ، وهى :

الحمدُ لله الذى جَعَل للعِلْمِ جلالًا تَوَدُّ جلائلُ الفضائل أن تكونَ له أتْباعا ، وأطلق أَلْسِنةَ الأقلام من جميل ثَنَائِه بما أنْطقَ به أَلْسِنةَ العالَمَ ليكونَ الحُكْم بما ثَبَت من مَأْثور فَضْــلِه إجماعا ، وأجْرىٰ من قَامُوسِ فِكْره جَدَاوِلَ أنهار العلوم الزَّكِيَّة فنَعَّش قُلوبًا ونَزَّه أبصارًا وشَنَّفَ أسْماعا .

أحمدُه علىٰ أنْ أفاض نَتَائِجَ الأفكار على الأذهان السَّليمةِ لِذِى النَّظَر الصحيح ، وبَثَّ جيادَ الألْسِنَة فى مَيْدان الجِدال فحاز قَصَبَ السَّبْق منها كلُّ لسانٍ ذَلِقٍ فَصِيح .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى قَهَرتْ بيِّنـاتُ دلائِلِه المُلْحِدَ المعَانِد، وبَهرتْ قَواطِعُ براهِينه الألَدَّ الخَصِيمَ والجَدِلَ المُكايد؛ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهرَ من واضحِ الحُجَجِ الجليّةِ ما سقط بحُجّيّته دَعْوى المُعارِض، وأتىٰ من فَصْـلِ الخطَاب بمـا أفحَم به الخصومَ فلم يستطع أشَدُّهم فى البلاغةِ شكيمةً أن يأتىَ له بمُنَاقِض؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين فازوا من جَليلِ المَنَاقِبِ بكل وَصْفٍ جميـل، وآشتهرتْ فى الوجود مَفَاخِرُهم فلم يُحتجْ فى إثباتها إلىٰ إقامة دَليل؛ صلاةً يُتمسَّكُ فى دَعْوى الشَّرَف بمَتِين حَبْلها، وتَتَّفقُ أدلَّة العَقْل والنَّقْل على القطع بعُلُوّ شأْنِها وتَوَفُّرِ فَضْلها .

وبعـد، فلما كانت العلومُ مشتركةً فى أصْلِ التَّفْضيل، مُتَّفقةَ الفَضْل فى الجملة وإن تَفاوَتَتْ فى التفصيل؛ مُسَلَّمًا أصْلُ الشَّرَف فيها من غير مُنازِع، مُجْمَعًا علىٰ أنه لا شَىْءَ من العِـلْم من حيثُ هو علمٌ بضَارٍّ ولا شىءَ من الجَهْل من حيثُ هو جهلٌ بنَافِع؛ مع آختلافها فى التَّفاضُلِ باختلافِ مَوْضوعاتها، وتَفاوُتِها فى الشَّرَف بحسب الحاجة إليها أو وَثَاقة حُجَجِها أو نفاسة غَاياتِها؛ عَطَس كلٌّ منها بأنْفٍ شامخ غير مُسَلِّمٍ للآخر ولا مُسالِم، ومَدَّ إلَى العَلْيـاءِ يَدَ المطاولة فتناول الثُّرَيَّا قاعدًا غير قَائم؛ وآدّعىٰ كلٌّ منها أن بَحْره الطَّامى، وفَضْله النَّامِى، وجَوَاده الطَّامِح، وسِمـاكَه الرَّامِح؛ زاعمًا أن حُسامَه القاطِع وعَضْبَه القَاضِب، وقِدْحَه المُعَلّىٰ وسَهْمه الصَّائب، ونَجْمَه السارِى وشِهابَه الثَّـاقِب؛ وأن نَشْر الثناء علىٰ مَجامِره مَوْقُوف، وخَطِيبَ المحَـامِد بمَنَابِره معروف؛ وفَلَكَ الفَضْلِ علىٰ قُطْبِه دائر، وكلَّ شَرَفٍ عليه مُحَبَّس وكلَّ فخْرٍ عليه قاصر؛ فمَـاسَ بعِطْفه ومَال، وبَسَط فى الكلام لِسانَه فقال وطَالَ .

هٰذا : وإنَّها آجتمعتْ يومًا آجْتِماعَ مَعنًى لا صُورَه، وقامتْ لهـا سُوقٌ بالبَحْثِ معروفةٌ وعلى الجِـدَال مَقْصوره؛ وتَفاوَضَتْ بلِسانِ الحـال وتَخاطَبتْ، وتحاوَرت

فى دَعْوى الشَّرَف وتجاوَبَتْ ، وألَمَّتْ بالمُنَافَرة فتنافَرتْ ، وتسابقتْ فى مَيْدان الأنْتِخار فتفاخَرتْ ، وأخذَ كلٌّ منها فى نُصْرةِ مَذْهبِه ، وتَحْقيق مَطْلَبِه ، بأنواع الحُجَج والأستدلالات ، وإقامةِ البراهين والأَمارات ، ومايَتَوجَّه علىٰ ذلك من الأسئلة والأعتراضات . فكان أوّلَ باديءٍ بدأَ منها بالكلام ، وفتح بابَ الجِدال والخِصام : —

علمُ اللُّغَــــة فقال :

قد عَلِمْتم مَعْشَرَ العلومِ أنِّى أعَمُّكم نَفْعًا ، وأَوْسعكُم مَجالًا وأكثرُكم جَمْعا ، علىٰ قُطْبِ فَلَكى تَدُور الدوائر ، وبواسطتى تُدْرِك المَقاصِد ويستعلمُ ما فى الضمائر ، وبدلالتى تُعْلَم المَعَانى المفردات ، ويَتَميَّز مايدلُّ على الذوات ممـا يَدُلُّ على الأَدوات ، وتَتبيَّنُ دِلالاتُ العامِّ والخاص ، ويتعرفُ ما يُرْشد إلى الأنواع والأجناس وما يختصُّ بالأشخاص ، علىٰ أن كُلَّكُم كَلٌّ علَىَّ ، ومُحتاجٌ فى تَرْجمة مَقْصودِه إلَىَّ ، فلَفْظى "المُحْكم" وأقوالى "الصِّحاح" ، وكَلامى "الجَامع" وسَيْف لسانى "المُجَرَّد" نَاهيكَ من سِلاح ، وفَضْلى "المُجْمَل" لا يحتاج إلىٰ بيان . اِسْتَأْثر اللهُ تعالىٰ بتَعْليمى لآدمَ عليه السلام ، وآثره بى معرفةً على الملائكة فكان خِصِّيصَة(١) له على الملائكة الكرام .

فلمـا ٱنقضىٰ قِيلُه ، وبانَتْ للستَبِير سَبِيلُه ، ثَابَ إليه علمُ التَّصْرِيف مُبْتدِرا ، ولنَفْسِــه ولسائر العلوم مُنْتَصِرا ، فقال : رُوَيْدَكَ أيُّها المُساجِل ، وعلىٰ رِسْلِكَ ياذا المُناضِل ، فقد ذَلَّ مَن ليس له ناصِر ، وحُطَّ قَدْرُ من تَرفَّع علىٰ أبناء جِنْسه ولو عُقِدَت عليــه الخَنَاصِر ، وما يُجْدِى البَازِى بغـير جَناح ، أو يُغْنِى السَّاعى إلى الحَرْب بغـير سـلاح ، وأنَّىٰ يَطْعنُ رُمْحٌ بغير سِنان ، أو يقطَعُ سَيفٌ لم يُؤَيَّدْ بقائم ولم تَقْبِض عليه بَنَـان ، إنَّك وإن حَويتَ فَضْلا ، وأعْرقتَ أَصْلا ، وكنتَ للكلام نِظاما ، وإلىٰ

(١) الذى فى كتب اللغة «خِصِّيصىٰ» ويمدّ .

بَيَان المقاصد إِمَاما ؛ فأنتَ غير مُسْتقلّ بنفسك ، ولا قائم برَأْسك ؛ بل أنا المتكفِّلُ بتأسِيس مَبَانيك ، والملتزِم بتَحْرِير ألفاظك وتَقْرِيرِ مَعانيك ؛ بى تُعرفُ أصولُ أبْنِيَةِ الكلمة فى جميع أحوالها ، وكيفيةُ التَّصَرُّف فى أسمائها وأفعالها ؛ وما يَتَّصِلُ بذلك من أحوال الحروف البسيطة وتَرْتِيبها ، وآختلافِ مَخَارِجها وبيان تَرْكيبها ؛ والأَصْلِيّ منها والمَزِيد ، والمَهْمُوس والرِّخْوِ والشَّدِيد ؛ و (١) تَقْدِيره ، والصحيح والمُعْتَلِّ وتحريره ؛ وكيفية التَّثنية والجَمْع ، والفَصْل والوَصْل والآبتداء والقَطْع ؛ وأنواعِ الأبنية وتَغَيُّرها عنـد اللَّوَاحِق ، وكيفية تَصْرِيفِ الفِعْل عنـد تَجَرُّده عن العوائق ؛ وأمْثِلة الألفاظ المفردة فى الزنة والهَيْئة وما يَختصُّ من ذلك بالأسماء والأفعال ، وتمييز الجامد منها والمُشْتَقِّ وأصناف الآشتقاق : وكيفَ هو على التَّفصيل والإجمال .

علىٰ أنَّك لو خُلِّيتَ ومجرَّد التعريف ، وبيان المقاصد بالآصطلاح أو التَّوْقيف ؛ لكان عِلْمُ الخَطِّ يقوم مقامك فى الدِّلالة الحـالِيَّة لَدَى المُلْتقىٰ ، ويترَجَّحُ عليك ببُعْد المسافة مع طُول البَقا ؛ مع ما فيـه من زِيادَة تَرْتِيب الأحوال ، وضَـبْطِ الأموال ؛ وحِفْظِ العلوم فى الأدوار ، وآستمرارِها على الأكوار ؛ وآنتقالِ الأَخْبار من زَمانٍ إلىٰ زمان ، وحَمْلِها سرا من مكانٍ إلىٰ مكان ؛ بل رُبَّمـا آكْتُفِىَ عنك بالإشارة والتَّلْويح ، وقامت الكناية منها مَقَامَ التصريح .

فعنـدها غَضِب علمُ النَّحْو وآكْفَهَرّ ، وزَمْجَر وآشْمَخَرَّ ، وقال : يا لله ! "آسْتَنَّتِ الفِصَالُ حتَّى القَرْعا" ، و"آسْتَنْسَرت البُغَاثُ" فكان أشَدَّ ثُلْمَةً وأعظَم صَدْعا ؛ لقد آدَّعيتَ ما ليس لك ففَاتَك الحُبور ، و"مَن تَشَبَّع بما لم يَنَل فهو كلابِس ثَوْبَىْ زُور" ؛ وهل أنت الا بَضْعَةٌ مِنِّى؟ ، تُسْنَدُ إلىَّ وتنقلُ عَنِّى ؛ لم يزل علمك باباً من أبْوابِى ،

---

(١) بياض بالأصول .

وجُمْلتُـك داخلةٌ فى حِسابى؛ حتَّىٰ ميَّزك "المَـازِنىُّ" فأفردك بالتَّصْـنيف، وتلاه "ٱبنُ جِنِّى" فتبِعه فى التأليف؛ وٱقتصر "ابنُ مالك" منك فى تعْرِيفه على الضرورىّ الواجب، وأحْسَن بك "ٱبنُ الحـاجب" فى شافيتـه فرَفَع عنك الحَاجِب؛ وأنت مع ذلك كلّه مَطْوِىٌّ ضِمن كُتُبى، نِسْبَتُك مُتَّصِلةٌ بِنِسْبَتِى وحَسَـبك لاحِقٌ بحَسَبى؛ أنا مِلْح الكلام، ومِسْـكُ الخِتام؛ لا يَسْـتغنِى عنِّى متكلم، ولا يَلِيقُ جَهْـلِى بعالِمٍ ولا مُتَعلم، بى تتبين أحوالُ الألفاظ المركَّبة فى دلالتها على المقاصد، ويرتفع اللَّبس عن سامعها فيرجع من فَهْمِها بالصِّلَة والعـائد؛ فلو أتَى المتكِّلمُ فى لَفْظه بأجلِّ معنًى ولَحَن لذَهَبْت حَلاوَتُه، وزالتْ طلاوته، وعيبَ على قائِله وتغيرتْ دِلالتُه. وقد كانت الخُلَفاء تحثُّ على النَّحْو وترشد إليه، وتَحْذَر اللَّحْن وتُعاقِبُ عليه:

وإذا طَلَبْتَ من العُلُوم أجلَّها * فأجَلُّها عِنْـدِى مُقِيمُ الألْسُنِ!

فَبيْنا هو كذلك إذ بَرَزت علومُ المَعَانى والبَيَان والبَدِيع جُمْلَه، وحَمَلتْ عليـه بِصِـدْق العَزْم فى اللِّقـاء حَمْلَه؛ وقالتْ: جَعْجَعَةٌ رَحًا من غير طِحْن، وتَصْويتُ رَعْدٍ من غير مُزْن؛ لقد أتَيْت بغَـير مُعْرب، وأعْربتَ عن لَحْنٍ ليس بمُطْرِب؛ الحَقُّ أبْلَج، والبـاطِلُ لجْلَج؛ إن الفَوْزَ لِقِـدْحنا، والوَرْىَ لقَـدْحنا؛ نحنُ لُبُّ العَرَبِيَّة وخُلاصتها، والمُعْتَرِفُ لنا بالفَضْـل عامّتُها وخاصّتُها؛ وهَـلْ أنتَ إلا شىءٌ جَرىٰ عليـك الٱصْطلاح، وساعَدَك الٱستعمالُ فأمِنْتَ الٱطِّراح؛ فلو ٱصْطُلِح علىٰ نَصْب الفاعل ورَفْع المفعول لم يخلّ بالتَّفاهم فى المقاصد، وهٰا كلامُ العامّة لذلك أقْوَمُ دليل وأعْظَم شاهِد.

فقال علمُ الشعر: أراكُمْ قد نَسِيتم فَضْلى الذى به فَضَلتم، وصَرَمْتُم حَبْلى الذى من أجله وَصَلْتُم؛ أنا حُجّة الأدَب، ودِيوان العَرَب؛ علىّ تَرِدُون، وعنِّى تَصْدُرون؛

وإليّ تنتسبون، وبى تشتهرون، مع ما اشتملتُ عليه من المدح الذى كم رفع وضعا، وجلب نفعا، ووصل قطعا، وجبر صدعا، والهجو الذى كم حطّ قدرا، وأخمد ذكرا، وجعل بين الرفيع والوضيع فى حطيطة القدر نسبا وصهرا؛ إلىٰ غير ذلك من أنواعى الشعرية التى شاع ذكرها، وأضواعى العطرية التى فاح نشرها؛ بل لا يكاد علمٌ من العلوم الأدبيّة يستغنى عن شواهدى، ولا يخرج فى أصوله عن قوانينى وقواعدى؛ حتّىٰ علم النثر الذى هو شقيقى فى النسب، وعديلى فى لسان العرب، لم يزل أهله يتطفّلون عليّ فى بيت يحلّونه، ويقفون من بديع محاسنى عند حدٍّ لا يتعدّونه.

فقال علمُ القافية: إنّك وإن تألّق برق مباسمك، وطابت أيّام مواسمك، فأنت موقوفٌ علىٰ مقاصدى، ومعترفٌ من رويّ مواردى؛ أنا عدّة الشاعر، وعمدة الناثر؛ لا يستغنى عنى شعرٌ ولا خطابه، ولا يستنكف عن الوقوف علىٰ أبوابى ذو ترسّل ولا كتابه؛ طالما عثر الفحول فى ميدانى، وتشعّبت عليهم طرقى فضلّوا السبيل واختلفت عليهم المبانى؛ فلم يفرّقوا بين التكاوس والتراكب فى التعارف، ولم يميّزوا بين التدارك والتواتر والترادف.

فقال علمُ العروض: لقد أسمعت القول فى الدعوىٰ من غير توجيه فدخل عليك الدخيل، وأوقعك الوصل دون تأسيس فى هوّة النقص: فهل إلىٰ خروج من سبيل؟؛ أنا معيار القريض وميزانه، وعليّ تبنىٰ قواعده وأركانه؛ لم يزل الشعر فى علوّ رتبته بفضلى معترفا ولحقّى متحقّقا، ومن بحورى مغترفا، وبأسبابى متعلّقا؛ فأبياته بميزانى محرّره، وأجزاؤه بقسطاس تفاعيلى مقدّره؛ وبفواصلى متّصله، وبأوتادى مرتبطةٌ غير منفصله.

فقال علمُ الموسيقىٰ: لقد أسرفت فى الافتخار فضللت الطريق وبنت عنها، وورّطت نفسك فيما لا فائدة فيه فلزمت دائرةً لا تنفكّ عنها؛ وأتيت من طويل

الكلام بمـا لاطائل تحته فثقل قولا، وجئتَ من بَسيط القول بمـا لو اقتصرتَ منه على المُتقارَب لكان بك أَولى؛ فأنتَ بين ذي طَبع وَزّانٍ لا يحتاج إلى معيارك فى نَظْم قَريضـه، وآخر نَبَتْ طِباعُه عن الوَزْنِ فلم ينتفع من عِلْمك بضَرْبه ولا عَرُوضه؛ فإذًا لا فائدةَ فيك ولا حاجَةَ إليك، ولا عِبْرة بِكَ ولا مُعوّلَ عليك؛ وكَفَى بك هَضْمًا، ونَقيصَةً وذَمًّا، واستدلالًا على دَحْضِ حُجّتك، وضَعْفِ أدِلّتك، قولُ ابن حَجّاج :

مُسْتَفعِلُن فاعِلُنْ فَعُول * مَسائِلٌ كُلُّها فُضُـول،

قَدْ كان شِعْرُ الوَرىٰ صَحِيحًا * من قَبْلِ أن يُخْلَقَ الخَلِيلُ!

علىٰ أنّه إن ثَبَتَتْ لك فائده، وعاد منك على الشِّعْر أو الشُّعراء عائده، فإنّما تَفاعِيلُك مقدِّمةٌ لألْحانِى، وأوْزانُك وَسيلةٌ إلىٰ أوْزانِى؛ نَعَمْ أنا غِذاءُ الأرواح، وقاعِدَةُ عَمُود الأفراح، والمتكفّلُ ببَسْـطِ النُّفوس وقَبْضِها، والقـائمُ من تَعْدِيلها وتَقْويَتها بنَفْلها وفَرْضها؛ أُحَرِّكُ النَّفْسَ عن مَبْدَئِها فيحدُثُ لها السُّرور وتَظْهر عنها الشَّجاعةُ والكَرَم، وأبْعَثُها إلىٰ مَبْدَئِها فيحدثُ لها الفِكْرُ فى العَواقِبِ وتَزايُدُ الهُمُوم والنَّدم؛ فتارةً أُسْتعمَلُ فى الأفراح وزَوالِ الكُرُوب، وتارةً فى عِلاجِ المَرْضىٰ وأُخْرىٰ فى مَيادِينِ الحروب؛ وآونةً فى محـلِّ الأحْزانِ واجْتماعِ المَآتِم، ومرّةً يَسْتعمِلُنِى قومٌ فى بيوت العبـادات فأبْعَثُهم علىٰ طَلَبِ الطاعات واجْتِنابِ المَحارِم؛ وآتِى من غَريب الألحان، بمـا يَشْبعُ به الجائعُ ويَرْوىٰ به الظّمآن، ويأْنَسُ به المُسْتوحِشُ ويَنْشَطُ به الكَسْلان؛ وتَدْنو لسماعه السِّباع، ويَعْنُو له بعد الشِّدّة الشُّجاع.

مع ما يَتفرّعُ عنى من علم الآلات الرُّوحَانيَّـة التى تُنْعِشُ الأرواح، وتَجْلِبُ الأفراح؛ وتَنْفِى الأتراح، وتؤثرُ فى البَخيل السَّماح، وتَفْعل فى الألباب ما لا تَفْعل فى اللَّبّاتِ بِيضُ الصِّفاح.

فقال عِلْمُ الطِّب : لَقَدْ أضَعْتَ الزَّمانَ فى اللَّهْو، ومِلْتَ مع الأَرْيَحِيَّة فمَاسَ بك العُجْب وزَاد بك الزَّهو؛ وداخَلَك الطَّيْشُ فقَنِعْتَ بالإطراب؛ وعُنِيتَ بمعرفة اللَّحن ففَاتَك الإِعْراب؛ تُذَكِّر العُشَّاق أحوالَ النَّوىٰ فيُسْلِمُها الهَوَىٰ إلى الهَوَان، وتَتنقَّل فى نَوَاحِى الإِيقاع تَنقُّل الهَائِم فتُمْسِى فى حِجَازٍ وتُصْبِحُ فى أصْبِهَان؛ وأنتَ وإن ٱدَّعَيْتَ أنكَ العِلْم الرُّوحانى، والمُسْتَوْلِى بتَحْريك الطبائع الأَرْبَع على النَّوع الإنسانى وغير الإنسانى؛ فأنت غير مُسْتَغْنٍ عنى، ولا فَكُّكَ فى الحقيقة مُنْفَكٌّ عن فَنِّى؛ بَلْ قَوَاعِدُكَ مُرَتَّبَةٌ علىٰ قوَاعِدى، وفوائِدُكَ مُسْتفادةٌ من فَوَائِدى، وأَهْلُ صِناعَتِك يتَطَفَّلون فى معرفة المُلائِم والمُنافِى علىٰ سَاقِطِ لُبَابِ مَوَائِدى؛ وأنَّىٰ تنبسط بك الروح مع وُجود السَّقَم، أو يَسْتريحُ إليك القَلْب مع شِدَّة مُقاسَاة الأَلَم؟؛ بل أنا قِوَام الأَبْدان، وغَايَة مِلاكِ الإِنْسان؛ بى تُحْفَظُ صِحَّةُ الأجسام، وتَمَكَّنُ النفسُ من ٱستكمال قُوَّتَيْها النظريةِ والعَمَلِيةِ بواسطة زَوَال الأسْقام وٱنتفاء الآلام؛ مع مايَتَّضِحُ بالنظر فى التَّشْريح الذى هو أحَدُ أنواعى من سِرِّ قوله تعالىٰ : ﴿وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ . وما يظهر من حَالِ الصِّحة والمَرَض وسرِّ المَوْت من أنه تعالىٰ بَدَأ الخَلْق أَوَّل مَرَّةٍ وإليه يحشرون .

مع مايلتحق بى من علم خَوَاصِّ العَقَاقِير الغَرِيبَه، والأحْجَار التى تُؤَثِّر بتَمْزِيجِها الصِّناعِىِّ التأثير العَجِيبَه، وتَأْتِى من نَوَادِر الأفعال بالأعمال الغَرِيبَه؛ علىٰ أَنِّى لستُ بمختصٍّ فى الحقيقة ببَدَنِ الإنْسان، ولا قاصِرٍ علىٰ نَوْعٍ من أنواع الحَيَوان، وإنما أُفْرِدتُ بنَوْع البَشَر ٱهتمامًا بشانه، وتَنْبِيهًا علىٰ جلالة قَدْرِه وعُلُوِّ مكانه .

ثم أُلْحِقَ بالإنسان فى الاعتناء به الخُيُول فَٱشْتُقَّ لها منِّى عِلْمُ البَيْطَره، وتَلَاها فى الاعتناءِ جَوَارِحُ الطيور لاهتمامِ الملوك بشَأْنِها فَٱسْتُنْبط لها من أجزائى عِلْمُ البَيْزَرَه؛ وأُهملَ ما سِوىٰ ذلك من جِنْس الحيوان، فلم يُعْتَنَ بأمره ولم يُهْتَمّ له بشَان .

فقال علم القَافَة : لقد ٱرتقيت مُرتقًى صَعْبا ، وولجْتَ مَوْلجًا صُلْبا ؛ وأتيت من مُشْكلات القضايا بما ضَاقتْ مَطالِبُه ، وعرّضْتَ نفسك لمغالبة المَوْت والمَوْتُ لا شيْءَ يُغالِبُه ؛ وٱقتصرتَ فى تَشْريحك الأعضاءَ على ذِكْرِ مَنافعها وصِفاتها ، وأضْربتَ عما تدلُّ عليه بصُوَرِها وكَيْفياتِها ؛ أيْنَ أنتَ من إلحاقِ الآبن بالأب بالصِّفات المتماثلة ، والحُكْمِ بثُبُوت النَّسَبِ بدلائل الأعْضاءِ كما يُحْكم بالبَيِّنَة العَادلَه ؟ ؛ فهٰذه هى الفَضيلة التى لا تُسَاوىٰ ، والمَنْقَبَة التى لا تُعادَلُ ولا تُنَاوىٰ ؛ وكَفاكَ لذلك شاهدا ، وعلىٰ ثُبُوته فى الشَّريعة المُطَهَّرة مُساعِدا ؛ وأنه لا يَعْتَور ذلك مُعارَضَةٌ ولا نَقْض ، ٱسْتِبْشارُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بقول مُجَزِّزٍ المُدْلِجِيِّ : « إنَّ هَـذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُها مِنْ بَعْض » .

فقال علم قَصِّ الأثَر : نعم إن شأْنَك لغَريب ، وإنَّ ٱجْتِهادك لَمُصيب ؛ غير أنِّى أنا أَغْرَبُ مِنْك شأْنا ، وأَدَقُّ فى الإدراك مَعْنى ؛ إذْ أنْتَ إنما تُلْحِقُ المحقَّقَ بالمشاهدة بِمثْلِه ، وتَقِيسُ فَرْعًا علىٰ أصْلٍ ثم تُلحِق الفَرْع بأصْله ؛ وأنا فأُدْرِك المؤثِّر من الأَثَر ، وأسْتَدلُّ على الغائب بما يَظْهر من اللَّوائح فى الرَّمْلِ والمَدَر ؛ ورُبَّما ميزْتُ أثَرَ البَعِير الشَّارِد من المَرَاتِع ، وفرَّقْتُ بالنَّظَرِ فيه بين الصحيح والظَّالع ؛ فأدركْتُ من الأمر الخَفِيِّ ما تُدْرِكه أنتَ من الظَّاهِر ، وقضيتُ على الغَائِب بما تَقْضى به على الحَاضِر .

فقال علم غُضُون الكَفِّ والجَبْهَة : ما الذى أتَيْتَ به من الغريب ، أو أظهرته بعِلْمِك من العَجِيب ؟ ؛ فلو ٱبتُليت بأرْضٍ صُلْبةٍ لوقفت آمالُك ، أو مَحَتِ الرِّيحُ مَعالِمَ الأَثَرِ لبطَلتْ أعْمالُك ؛ أو وَلَج مَن تَقْفِّى أثَرَه الماءَ لفَاتَ حَدْسُك الصائب ، أو جعَلَ الماشى مُقَدَّم نَعْلِه مُؤَخَّره لقلتَ : إنَّ الذَّاهِبَ قادمٌ والقَادمَ ذَاهِب ؛ لكن أنا كاشِفُ الأسرار الخَفِيَّه ، والمستدلُّ علىٰ لَوَازِم الإنسان بما رُكِّب فيه من الدلائل الخِلْقيَّه ؛

أَسْتَخْرِج من أسَارِير الجَبْهـةِ وغُضُون الكَفِّ أموراً قد أرْشـدَتِ الحِكْمَةُ الالٰهِيَّة إليها ، وجُعلتْ تلك العلامةُ فى الانسان دِلالةً عليها .

فقال علم الكَتِف : إنه ليس فى الاستدلال على الشَّىءِ بلازِمه أمرٌ مُسْتَغْرب ، ولا ما يقال فيه : هذا من ذَاكَ أعْجَب ؛ وإنمـا الشَّأن أن يقعَ الاستدلالُ على الشَّىءِ بمـا هو أجنبىٌّ منـه ، وخارجٌ عنه ، كما أسـتدل أنا بالخطوط الموجودة فى كَتِف الذَّبِيحَةِ على الحوادث الغريبه ، والأسرارِ العجيبه ؛ ممـا أجرىٰ اللهُ به العادة فى ذلك ، وجعله علامة دالة علىٰ ما هنالك .

فقـال علم خطِّ الرَّمْل : لقـد علمتَ أنكَ لستَ بمحقِّقٍ لمـا أنت له مُتَوَسِّم ، ولا واثقٍ بالإصابة فيما أنت عنه تُتَرجِم ؛ وغايتُك الوقوفُ مع التجارِب ، والرُّجوعُ فيما تُحَاولُه إلى التقارب ؛ مع ما أنت عليه من الرَّفْض والإهمال ، وما رُمِيتَ به من القطيعة وقِلَّةِ الاستعمال ؛ أما أنا ففَارِسُ هذا المَيْدان ، ومالِكُ زِمامِ هذا الشان ؛ فكَمْ من ضَمِيرٍ أبرزتُه ، وأمرٍ خفىٍّ أظهرتُه ؛ ومكان عَيَّنته فوافق ، وأَمَدٍ قدّرتُه فَطابَق ؛ علىٰ أنه ليس لك أصـلٌ ترجعُ إليه ، ولا دَليلٌ تعتمدُ عليه ؛ فأنا أثبتُ منك قواعد ، وأوضح عند الاعتبار فى الدلالة على المَقَاصِد ؛ فان عَدَوْتَ طَوْرَك ، أو جُزْتَ فى الاحتجاج خصمك ، فَمَداك ، أنه كان نَبِىٌّ يخطُّ فمن وافقَ خَطَّه فذاك .

فقـال علم تَعْبِيرِ الرُّؤْيا : إنَّك وإن أظهرتْ السَّرائر ، وأبرزتَ الضمائر ؛ فإنَّ أمرَك موقوفٌ فى حَدْسِك على الدِّلالة الحاليه ، ومَقْصُورٌ فى تَخْمِينك على الأمور الاحتماليه ؛ أَيْنَ أنت مِنِّى حين أُعَبِّر عمـا شاهدتْه النفسُ فى النَّوْم من عالَم الغَيْب ؟ وكَيْف أكْشِفُ عنه الحُجُب بالتَّأْويل فيقعُ كفَلَقِ الصُّبْح من غير شَـكٍّ ولا رَيْب ؛ فأخبر بحوادثَ تَقَعُ فى العالَم قبل وجودها ، وآتِى من حقائق النِّذَارَة والبشارة بمـا يُنَبِّه على التحذير من نُحُوسها والتَّرَقُّب لموافاة سعودها .

فقال علم أَحْكَامِ النُّجومِ : حقيقٌ ما أوّلْت ، وصَحيحٌ ما عنه عَبَّرت وعليه عَوَّلْت ؛ إلا أنك قاصرٌ علىٰ وقائع مخصوصةٍ تُرْشِد إليها ، وأُمورٍ محدودةٍ تُنَبِّه عليها ؛ علىٰ أنه رُبَّما نَشَأَت الرؤيا عن فِكْرة وقعت فى اليَقَظة فاتّصلتْ بالمنام ، أو حَدَثَتْ عن سُوءِ مِزَاجٍ أو رَدَاءةِ مَطْعَم ونحوِ ذلك فكانتْ أَضْغَاثَ أَحْلام ؛ أما أنا فإنى أدل بما أجراه الله تعالىٰ من العَادَه ، على الحوادث العامّة مصاحِبًا لمقتضَيات الإرادَه ؛ ليَظْهَر ما فى الحِكْمة الإلٰهيّـةِ من قضايا التَّـدْبير ، ويَتَبَيَّنَ ما آشتملتْ عليه الأفلاكُ العُلْويّة من تَقْـدِيرِ التَّرتيب وتَرْتيب التَّقْـدير ؛ مع مايترتَّبُ علىٰ ذلك من الأعمال العَجيبه ، والأحوالِ الغَريبه ؛ التى تَبْهرُ العقول ، ويمتنع إليها من غير طَريق الوُصول :

من علم السِّحْر على الإطلاق ، وعلم الطَّلَّسْمَات الغَرِيبة وعلم الأَوْفاق ، وكذلك عِلْم النيرنجيات وعِلْم السِّيمِيا الآخذِ بالأحداق .

فقال علم الهَيْئـةَ : مالَكَ ولأَباطِيلَ تُنَمِّقُها ، وأكاذِيبَ تُزَخْرِفها وتُزَبْرِقُها ؛ وأَمَاثِيلَ يَعْتمدها المُعْتمدُ فتَخِيب ، وأقَاوِيلَ تارةً تُخْطِئ وتارةً تصيب ؛ ولقد وَرَدَتْ الشريعة المطَهَّرة بالنَّهْيِ عن آعْتبارك ، وجاءتِ السُّنَّة الغرّاءُ بمَحْوِ أخْبارِك وإعْفاءِ آثارك ؛ وناهيكَ بفساد هذا الاعتقاد ورَدِّ هذا المَذْهب ، ما ثَبَت فى الصحيح من أنه من قال : مُطِرْنا بنَوْءِ كذا فهو كافرٌ بالله مُؤْمِنٌ بالكَوْكب ؛ علىٰ أنك فى الحقيقة نَوْعٌ من أنواعى ، مَعْـدودٌ من جُنْدِى ومَحْسوبٌ من أتباعى ؛ نعم أنا القَائمُ من دليل الآعتبار فى القدرة بتمام الفَرْض ، والقائدُ بزِمَامِ العَقْل إلى التَّفكُّر فى خَلْقِ السمٰوات والأَرْض ؛ عنّى يتفرّع علم الزيجات والتقاويم الذى به يُعرف مَوْضعُ كلِّ واحد من الكواكب السَّيَّارةِ ومدّة إقامتها ، وزَمَن تَشْرِيقها وتَغْرِيبها ومِقْـدار رُجوعها

وٱسْتِقَامَتِها ، وحال ظهورها وٱختفائها فى كلِّ زمان ، وما يتَّصل بذلك من الاتِّصال والانْفِصال والخُسُوف والكُسُوف وٱختصاص ذلك بمكانٍ دُونَ مكان .

فقال علم كَيْفِيَّة الأَرْصاد : ماعِلْم الزِّيجات والتَّقاوِيم الذى تُقَدِّمه فىالذِّكْرعلىَّ ، وتُؤْثِرُه من الفضل بما لَدَىَّ ، إذ بى تُتَعَرَّفُ كيفيةُ تحصيل مقادير الحَرَكات الفَلَكِيَّه ، والتوصُّلُ إليها بالآلات الرَّصَدِيه ، التى عليها يترتب عِلْم الزِّيجات ، ويُعْرف فى التَّقْويم الاتِّصالات والانْفِصالات والامْتِزَاجات .

مع ما يَلْتَحِق بى من عِلْم الكُرَة الذى منه تُعْرف كَيْفية ٱتخاذ الآلات الشُّعاعِيَّه ، ويتوصَّلُ به الى ٱستخراج المَطَالِب الفَلَكِيَّه .

فقال علم المَوَاقِيت : كيف وأنا سَيِّد عُلُوم الهَيْئة وزَعِيمُها ، وشَرِيفُها فىالشريعة وكَرِيمُها ، بى تُعرف أوقاتُ العبادات ، وتُسْتخرجُ جِهَة القِبْلَةِ بل سائرُ الجهات ، وتُعلَمُ أحوالُ البُلْدانِ ومَحَلُّها من المَعْمُور فى الطُّولِ والعَرْض ، ومَقاديرُ أبعادها وٱنحرافُ بَعْضِها عن بَعْض ، مع ما يَنْخِرط فى هذا السِّلْك من معرفة السُّموت وٱرْتِفاع الكَواكِب ، ومطالعها من أجْزَاء البُرُوجِ والطَّالع منها والغَارِب ، وغير ذلك من الشُّعاعات المَخْروطه ، والظِّلال القَائِمة والمَبْسُوطه ، إلىٰ غير ذلك مما يلتحق بى ، ويُنْسَبُ إلىَّ ويتَعلَّق بسببى :

من علم الالات الظِّلِّيَّة التى تُعرفُ بها ساعات النهار ، ويَظْهر منها الماضى والباقى بأقرب مُلْتَمَسٍ وألْطفِ ٱعتبار ، من نحو الرُّخامات القائمات ، والمَبْسُوطات منها والمائِلات .

فقال علم الهَنْدَسَة : إن فَضْلَكَ لمَشْهُور ، ومَقامَك فىالشَّرف غير مَنْكُور ، إلا أن آلاتِك بى مُقَدَّره ، وأشْكالَك بأوْضاعِى مُحَرَّره ، فأنا إمَامُك الذى به تَقْتَدى ، ونَجْمك

الذى به تهتدى؛ بل جميعُ علوم الهيئة فى الحقيقة موقوفةٌ علىّ، وراجعةٌ فى قواعدها إلىّ؛ لولاى لم يُعرفِ السَّطح والكُرَه، ولم يُميَّز بين الخُطُوط والقِسىّ والدَّوائر المقدّره؛ مع ما ينْشأُ عنى، ويستملى من صحابى ويُقتبس منّى؛ من أحوال المقادير ولواحقها، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونِسَبِها، وخواصّ أشكالها والطُّرُق إلى عمل ما سبيلُه أن يعمل لها؛ وٱستخراج ما يحتاج إلى ٱستخراجه بالبراهين اليقينيَّة القاطعه، وإظهارها إلى الحِسّ بالأشكال البيِّنة والحدود الجامعة المانعه.

فقال علم عُقُود الأبْنِيَة : نعم، إلا أنّى أنا أجلُّ مقاصدك، وأعذب مواردك، ونُورُ عيونك، وعَرُوسُ فنونك؛ منّى يُستفادُ بناء الحُصُون والأسوار، ويتعرّفُ شقُّ الأقنية وحفر الأنهار؛ وعمارةُ المُدُن وعقد القواصر، وسدُّ البُثُوق وبناءُ القناطر؛ وتنضيدُ المساكن ووضعُ المنازل، ونَصْبُ الأشجار وترتيبُ الرِّياض ذوات الخمائل.

فقال علم جَرِّ الأثقال : صدقتَ ولكنّى أنا أساسُ مبانيك وقاعدة سنادك، وحاملُ أثقالك وعمود ٱعتمادك؛ بى تُعرف كيفية نَقْل الثِّقل العظيم بالقُوّة اليسيره، حتّى تُنقل مائةُ ألف رِطْلٍ بقُوّة خمسمائة وذلك من الأسرار النَّفيسة والأعمال الخطيره.

فقال علم مراكز الأثقال : إلا أنّك محتاجٌ إلىّ فى أعمالك، ومتوقّفٌ علىّ فى جميع أحوالك؛ من حيثُ ٱستخراجُ مراكز الأجسام المحموله، وبيانُ مُعادلة الجسم العظيم بما هو دونه لتوسُّط المسافة بالآلات المعموله.

فقال علم المساحة : أراكَ قد غفلتَ عن معرفة المقادير والمسافات التى هى مُقدّمة عليك فى وضع المبانى، ومنفردةٌ عنك بكثيرٍ من المعانى؛ من أ... الخراج والزراعات،

وتَقْدير الرَّساتيقِ والبياعات ، وكَيْفيَّـةِ ذَرْعِ المُثلَّثات ، والمُرَبَّعات ، والمُدوَّرات ، والمُسْتَطيلات ؛ وغير ذلك من دَقائق الأعمال ، وإدْراكِ كَمِّيات المقادير على التفصيل والإجمـال .

فقال علم الفِلاَحة : فإذًا قد آعترفتَ أنَّكَ من جُمْلة لَوَاحِق ، مُنْدَرِجٌ فى حُقُوق ودَاخِلٌ تحت مَرَافِق ، فأنا فى الحقيقة المقصودُ منك فى الوَضْع بالقياس ، والمُتَّحِدُ بك دُونَ غيرى من غَيْر آلتباس ؛ مع ماأنا عليـه من مَعْرِفة كيفية تدبير النَّباتِ من بَدْءِ كَوْنه إلىٰ تمـام تَدْبيره ، وتَنْمِيَةِ الحُبُوب والثِّمـار بإصلاح الأرض وما تَخَلَّلها من المُعَفِّنات كالسَّماد وغيره وما أُبْديه من اللَّطائِف فى إيجـاد بعض الفَوَاكه فى غير فَصْله ، وتَرْكيب بَعْضِ الأشجار على بَعْضٍ وآستخراجِ بَعْضها من غير أَصْله .

فقال علم إنْباطِ المِيَاه : إلا أنِّى أنا بِدَايَةُ عَمَلِك ، وغاية مُنْتَهىٰ أَمَلِك ؛ لايتم لك أمرٌ بِدُونى ، ولا تَنْبُت لك خَضْراءُ ما لم تُسْـقَ من بِئَارِى وعُيُونى ؛ فأنا الكَفِيلُ باحياء الأرض المَيِّتة وإفلاحِها ، والقائمُ بتَلْطِيف مِزَاجِها وإِصْلاحِها .

فقال علم المَنَاظِر : ماآلذى تُجْدِى أنت وطَرْفى عنك مُرْتَد ، ونَظَرى إليك غير مُمْتَدّ ؛ وأنَّىٰ تستَطِيعُ مِياهُك التَّرقِى من الأغوار إلى النُّجُود ، وتَتَنَقَّلُ عُيُونُك وأَنْهارُك بين الهُبُوط والصُّـعُود ؛ إذا لم أكنْ لك مُلاحِظا ، وعلى الآعتناء بأَمْرِكَ مُحافِظا ؛ مع ما أَشْتَمِلُ عليه غير ذلك من تَحْقِيق المُبْصَرات فى القُرْب والبُعْد على آختلاف معانيها ، وما يَغْلَط فيه البَصَر كالأشجار القائمة علىٰ شُطُوط المِيَاه حيثُ تُرىٰ وأسافِلُها أعالِيها .

فقال علم المَرَايا[1] المُحْرِقَة : إنَّك وإن دَقَّقتَ النَّظَر ، وحَقَّقتَ كلَّ ما وقع عليـه حاسَّةُ البَصَر ؛ فأنا مَقْصِـدُك الأعظم ، ومُهِمُّك المُقَدَّم ؛ طالَمـا أحرقتُ القِـلَاع

(١) ذكر فى لسان العرب أن المرآة جمعها مراء كمراع وأن العوام يقولون فى جمعها : مرايا .

بِشُعَاعى، وحَصَّنْت الجيوشَ بدِفَاعى، وقمْتُ بمـا لم يقم به الجَيْشُ العَرَمْرَم والعسكر الجَرَّار، وأَغْنيتُ مع انْفِرادى عن كَثْرة الأعْوانِ ومُعاضَدَة الأنْصار .

فقال علم الآلات الحَرْبِيَّة : وإن حَدَّك لكَلِيل، و إن جَدَاك لقَلِيـل، وإنَّ المُسْتَنْصِر بك لذَلِيل، وماذا عسىٰ تَصِل فى الإحراق إليه، أو تُسَلَّط فى الحروب عليه؟، أنا بَاعُ الحَرْب المَدِيد، والمُحَصِّن من كلِّ بأسٍ شَـدِيد، والتَّالِى بِلِسَان الصِّـدْق على الأعداء : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ . فأنا نَفْسُ المقصود وعَيْن المُراد، وعَمُود الحَقِّ وقاعِدَة الجِهاد .

فقال علم الكِيمِيا : ما أنتَ والقِتَال، ومُواقَعَـة الحُرُوب وقَوَارِع النِّزال، وهَلْ أنتَ إلا آلةٌ من الآلات، لا تَسْـتَقِلُّ بنَفْسِـك فى حالةٍ من الحالات ، وأنَّىٰ يُغْنى السِّلَاح عن الجَبَان مع خَوَرِ الطِّباع، أو يَحْتاجُ إليه البَطَل الصِّنْديد والمُجَرَّب الشُّجاع ، فالعِبْرة بالمُقَاتِل، لا بالذَّوابِل ، والعُمْدة على الرِّجال، لا ببَوَارِق السُّيوف عند النِّزال ، وبكلِّ حالٍ فالعُمْدة فى الحُروب وجَمْع العساكر على النَّقْدَيْن دون ماعداهمـا ، والاَسْتِناد إلى الذَّهَب والفِضَّة بخلاف ماسواهما، وإلىَّ هـذا الحديثُ يُساقُ وعلَىَّ فيه يُعْتمد، وعنِّى يُؤْخذ وإلىَّ فى مثـله يُسْتَند، أُحَاوِل بحُسْنِ التدبير، ما طَبَخَتْـه الطبيعة علىٰ ممرِّ الدُّهور، فآتِى بمِثْله فى الزَّمن القَرِيب، وأُجانِسُ بين المَعَادِن فى مُمازَجَتها فيظهر عنها كلُّ معنًى غَرِيب ، وأُبْرِز من خصائص الإكْسِير ما يَقْلِب المِرِّيخ قَمَرًا من غير لَبْس ، ويُحِيلُ الزُّهَرَة شَمْسًا وناهِيكَ بإحالةِ الزُّهَرة إلى الشَّمْس ، فصاحِبى أبَدًا عَزِيزُ المنال، شَرِيف النَّفْس عن الطَّلَب عَفِيفُ اللسان عن السُّؤال .

فقال علم الحِساب المَفْتُوح : إنَّك وإن دَفَعت عَنا ، وجَلَبتَ غِنًى ، فأموالُك الجَمَّة، وحَواصلُك الضَّخْمه ، محتاجةٌ إلىٰ حُسَّابِى، غير غَنِيَّـة عن كُتَّابِى ، أنا جامِعُ

الأموال وضَابِط أُصُولها ، والمتكفِّل بحِفْظِ جُمْلتها وتَفْصيلها ؛ مع ٱحتياج كثيرٍ من العلوم إلىّ فى الضَّرْب والقِسْمة والإسْقاط .

قد أخذتُ من عِلْم الارِثماطيقى الذى هو أصْـلُ علوم الحساب بجَوانِبِه، وتعلَّقْتُ منـه بأسْهلِ طُرُقه وأقرب مَذَاهِبـه ؛ ونَاهِيكَ بشَرَف قَدْرى ، ورِفْعـة ذِكْرى ؛ قولُ أبى محمد الحريرىّ فى بعض مَقَاماتِه ، مُنَبِّها علىٰ شَرَف قَلَمى وسَنِيّ حالاتِه : «ولَوْلا قَلَم الحُسَّاب لَأَوْدَتْ ثَمرَةُ الٱكْتِسَاب، ولَٱتَّصلَ التَّغابُنُ إلىٰ يَوْمِ الحِسَاب» .

فقال علم حساب التَّخْت والمِيل : مَهْ ! فما أنت إلا عِلْم العامَّة فى الأسْواق، تَدُور بين الكَافَّة على العموم وتَتَـداولُ بينهم على الإطْلاق ؛ تكادُ أن تكونَ بَدِيهيًّا حتّىٰ للأطْفال ، وضَرُورِيًّا للنساء والعَبِيـدِ فى جميع الأحوال ؛ يَتَّسِعُ عليك مَجَالُ الضَّرب فتَقْصُرعنه هِمَّتُكَ المُقَصِّره، وتَتَشَعَّب عليك مَدَارِكُ القِسْـمَةِ فتأتى بها على التَّقْريب غيرمُحَرَّره ؛ أيْن أنتَ من سَعَةِ بَاعى ، وٱمْتَدَادِ ذِرَاعى ، وتَحْرِيرأوْضَاعى؟ ؛ لا يَعْتمِدُ أهلُ الهَيْئة فى مِسَاحة الأفلاكِ والكَوَاكِب غَيْرحقائِقِ أُمورى، ولا يُعَوِّلُون فيها ـ علىٰ سَعَةِ فَضَائِها ـ إلا علىٰ صِحَاحِى وكُسُورِى .

فقال علم حِسَاب الخَطَأَيْنِ : مَالِى ولِعِلْمٍ لا يُوصِّلُ إلى المقصود إلا بعد عَمَلٍ طَوِيل؟، ويحتاجُ صاحِبُه مع زيادة العَنَاءِ إلىٰ ٱستصحاب تَخْتٍ ومِيل، وقد قِيل : كُلُّ عِلْمٍ لا يَدْخلُ مع صاحِبِه الحَمَّام فجَدْوَاه قاصِرٌ ونَفْعه قَلِيل؛ علىٰ أنَّ غيرك يُشارِكُك فيما أنتَ فيه، ويوصِـلُ إلىٰ مَقْصودك بطريق لا يَدْخُله الغَلَط ولا يَعْتَرِيه ؛ وإنما الشَّأْن فى ٱستكشاف غَامِض أو إظْهارِ غَرِيب ، ولا أَعْجَبُ من أن تُصِيبَ إخْراجَ المَجْهول من الأعْداد بخَطَأَيْنِ فيقال : أَتَى بخَطَأَيْنِ وهو مُصِيب .

فقال علم الجَبْر والمُقابَلَة : حَسْبُك فإنَّما أنتَ فى آستخراج المجهولات كَنُقْطة من قَطْر ، أو نُغْبَةٍ من بَحْر ؛ تقتصر منها بطُرُقِكَ القَاصِرة وأعمالك النَّاكِبَه ، علىٰ ما أمْكَن صَيْرورَته من العَدَد فى أربعةِ أعْدادٍ مُتَناسِبَه ؛ نَعَمْ أنا أبو عُذْرَتِها ، وآبْن بَجْدَتِها ، وأخُو نَجْدتِها ، أسْتَخْرِج جميع المجهولات ، من مَسَائِل المُعامَلات ، والوَصَايا والتَّرِكَات ، وغير ذلك ممَّا يجرى هذا المَجْرىٰ ، ويَنْحُو هذا النَّحْو ويَسْرى هذا المَسْرىٰ ؛ ممَّا يدخل تَحْت الأموال والجُذُور ، والأعداد المُطْلَقة من الصِّحَاح والكُسُور .

فقال علم حِسَابِ الدِّرْهم والدِّينَار : مَالَك ولادِّعَاءِ التَّعْمِيم فى آستخراج المجهولات وكَشْفِ الغوامض؟ وإنَّما أنتَ قاصِرٌ على آسْتِعلامِ المجهولات العَدَدِيَّة المعلومةِ العَوَارِض ؛ دون ما تَزِيدُ عِدَّتُه على المعادلات الجَبْرِيَّه ، فقد فَاتَك حِينَئِذٍ الدَّعاوى الحَصْرِيه ؛ لٰكنِّى أنا كاشِفُ هذه الحَقَائق ، ومُبيِّن سُبُلها بأَلْطَفِ الطَّرائق ؛ فَبِي إليها يُتَوَصَّل ، وعلىٰ قَواعِدى لآستخراج مَقَاصِدِها يُجْمَل ويُفَصَّل .

فقال علم حساب الدَّوْرِ والوَصَايا : إنَّ استخراجَ المجهولات وإنْ عَظُم نَفْعا ، وحَسُن وَضْعا ؛ فأنا أعظم منه فَائِدَه ، وأجَلُّ منه عَائِده ؛ أُبَيِّن مِقْدار مايتعلَّقُ بالدَّوْر من الوَصَايا ، حتى يتَّضِحَ لمن يتَأَمَّل ، وأقْطَع الدَّوْرَ فتعود المَسْأَلَة من أظهر القَضَايا ، ولَوْلا ذلك لَدَار أو تَسَلْسَل .

فقال عِلْم الفِقْه : وهل أنتَ إلا نُبْذَة من الوَصَايا التى هى بَارِقَةٌ من بَوَارِق ، تتعلَّقُ بأطْنابِى وتدخُلُ تحت سُرادِقِى ؛ بِى تَتَميَّزُ معَالِمِ الأحكام ، ويَتَبيَّنُ الوَاجِب والمَنْدوب والمُبَاح والمَكْروه والحَرَام ؛ ويُتَعرَّف ما يُتَقَرَّب به إلى الله تعالىٰ من العِبَادَات ، وسَائِر أنواع التَّكاليف الشَّرْعِيَّة العَمَلِية ممَّا تدعو اليه الضرورات

وتَجْرِى به العادات ؛ فأنَا إمامُ العلوم الذى به يُقْتَــدىٰ ، وعَميدُها الذى عليه يُعْتَمَدُ ونَجْمُــها الذى به يُهْتَــدَىٰ ؛ فلولا إرْشادِى لَضَلَّ سَعْىُ المُكَلَّفين ، ولأَمْسَوْا فى دَيْجاء مُدْلَهِمَّةٍ فأصْبَحُوا عن رَكائِبِ الخَيْر مُخَلَّفين .

ونَاهِيكَ أن من جُمْلة أفْرادِى ، وآحَادِ أعْدَادى : ـ

علم الفرائض الذى حَضَّ الشارع علىٰ تعلُّمِه وتَعْلِيمه ، وأخبر بأنَّه نِصْفُ العِلْم مُنَبِّها علىٰ تعظيم شَأْنِه وتَفْخيمه ؛ وبَالَغَ فى إثبـات قَوَاعِده و إحكام أُسِّه ، فقال : « إنَّ اللهَ لم يَكِلْ قِسْمَةَ مَوارِيثِكُم إلىٰ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا نَبِىٍّ مُرْسَلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا فَقَسَمَها بنَفْسِه » .

فقال علم أُصُول الفِقْه : إنَّ مَقَالَك لعَـال ، وإنَّ جِيدَك لحَـال ؛ غير أَنِّى أَنَا المتكَفِّلُ بتَقْرِيرِ أُصُولِك ، وتَوْجِيهِ المسائل الواقعـة فى خِلَال أبْوابِك وفُصُولك ؛ بى تُعْرف مَطَالِب الأحكام الشَّرْعيَّــة العَمَلِية وطُرُق آسْـتِنْباطها ، ومَوَاد حُجَجِها وآسْـتِخْراجها بدَقِيق النَّظَر وتَحْقِيق مَنَاطِها ؛ فبأُصُولِى فُرُوعُك مقــرَّرَه ، وبمَحَاسِنِ آسْتِدْلالى حُجَجُك مُنَقَّحَةٌ مُحَرَّره ؛ قد مَهَّدتُ طُرُقَك حتىٰ زال عنها الإلْبَاس ، وبَنَيْتُ علىٰ أعْظَم الأُصُول فُرُوعك فأسْنَدتها للكِتَابِ والسُّنَّة والإِجْماع والقِيَاس .

فقال علم الجَدَل : قَدْ علمتَ أن الدَّلِيل لا يَقُوم بِرَأْسِه ، ولا يَسْتَقِلُّ بنَفْسِـه ؛ بل لا بُدَّ فى تَقْرِيره من النَّظَرِ فى مَعْرفة كَيْفِيَّــة الآسْتِدْلال ، والطَّرِيق المُوَصِّـل إلى المَطْلوب على التَّفْصيل والإجمال ؛ وأَنَا المتكَفِّلُ بذٰلك ، والمُوَصِّل بكَشْفِ حَقَائِق البَحْثِ إلىٰ هـٰـذه المَـدَارِك ؛ بى تُعْرف كَيْفِيَّــةُ تَقْرِير الحُجَج الشَّرْعِيَّــه ، وقَوَادِحُ الأَدِلة وتَرْتِيب النُّكَتِ الخِلَافِيَّـه ؛ فَمَوْضُوعك عَلَيَّ محْمول ، ونَظَرُك إلىٰ نَظَرِى بكلِّ حَالٍ مَوْكُول .

فقال عِلم المَنْطِق : خَفِّضْ عَلَيك ! فهَلْ أنتَ إلا نَوْعٌ من قِياسَاتِى المَنْطِقيَّة أُفْرِدتَ بالتَّصْنيف، وخُصِصْتَ بالمَبَاحث الدِّينية فخَالَطتَ أصُولَ الفقْه فى التأليف؟؛ فأنتَ إذًا فَرْدٌ من أفْرادِى ، ووَاحِدٌ من أعْدادِى ؛ مع ما آشتمَلَ عليه سِواكَ من القياسات البُرْهانيَّة القَاطِعة فى المُناظرات، والقِياسَاتِ الخَطَابِيَّة والبلاغات النَّافِعة فى مخاطبات الجُمْهور علىٰ سَبِيلِ المُخَاصَمـات والمُساوَرات ؛ وكَذٰلكَ حالُ القياسات الشِّعْرِيَّه ، وكَيْف يُسْتعمَلُ التَّشْبِيه المُفِيد للتَّخَيُّلِ المُوجِب للانفعالات النَّفْسانيَّه ؛ كالإغْراء والتَّحْذِير، والتَّرْغيب والتَّرهِيب والتَّعظِيم والتَّحْقِير؛ وغير ذلك من معرفة الأَلْفاظ والمَعَانى المفْرَدة من حيثُ هى عامَّة كُلِّيَّه ، وتَرْكِيب المَعَانى المُفْرَدة بالنسبة إلى الإيجابية والسَّلْبِيه؛ تَعْصِمُ مُرَاعاتى الفِكْرَ عن الخَطَإ فلا يَزِلّ، وتَهْدِيه سَوَاء السَّبِيلِ فلا يَحِيدُ عن الصِّراط السَّوِيِّ ولا يَضِلّ، وأَسْرى فى جَمِيع المَعْقولات فأتَصَرَّفُ فيما يَدِقُّ منها ويَجِلّ .

فقال علم دِرَايَة الحَدِيث : قد علمتَ بما ثَبَتَتْ به الأدِلَّة بالتَّلْوِيح والتَّصْرِيح ، أنه لا مَجَال للعَقْل فى تَحْسِينٍ ولا تَقْبِيح ؛ وحِينَئِذ فلا بُدَّ من نَصٍّ شَرْعِيٍّ تعتمِدُ عليه ، وتَسْتَنِدُ فى مُقَدِّمَاتك إليه ؛ ولا أقْوَىٰ حُجَّه ، وأوْضَح مَحَجَّه ؛ من كلامِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم ، الذى لا يَنْطِق عن الهَوَىٰ إذا تَكَلَّم ؛ فاذا آستندتَ إلىٰ نُصُوصه ، وآعْتَمدتَ عَليه فى عُمُومه وخُصُوصه ؛ فقد حَسُنَ منك المُقَدَّم والتَّالى ، وكانت مُقَدِّماتُك فى البَحْثِ أمْضىٰ من المُرْهَفَاتِ ونَتَائجُك أنْفَع من العوَالى ؛ وقد تحققتَ أنِّى إمامُ هذا المَقَام، ومالكُ قِيادِ هذا الزِّمام .

فقال علم رِوَاية الحَدِيث : لقد ذكرتَ من الصَّحِيح المتَّفَق عليه بما لا طَعْن فيه لمُرِيب، وتعلَّقتَ من كلام النُّبُوَّة بأوْثَقِ سَبَبٍ فأتَيْتَ بكل لَفْظٍ حَسَنٍ ومَعنًى

غَرِيب ؛ إلا أن الدِّرايه ، مَوْقوفةٌ على الرِّوايَه ؛ وكيف يَقَع نَظَر الناظر فى حديث قَبْلَ وُصُوله إليه ، أو يتأتَّىٰ العِلْم بمَعْناه قبل الوقوف عليه ؟ ؛ وهل يَثْبُتُ فَرْعٌ علىٰ غير أصْلٍ فى مقتضى القِياس ، أو يُرقىٰ من غير سُلَّم أو يُبْنىٰ علىٰ غير أسَاس ؟ ؛ فعَلى المحدِّث تقديم العِلْم بالرواية بشَرْطها ، ومَعْرفة أقواله صلَّى الله عليه وسلم بالسَّماع المُتَّصِل وتَحْريرها وضَبْطِها .

فقال علم التَّفْسير : قد تبيَّن لَدىٰ العلماء بالشَّريعة أن حُكْم الكِتاب والسُّنَّة واحد ، وإن اختلفتْ فى الأسماء فلم تَخْتلِفْ فى المَقَاصد ؛ إلا أنهما وإن اتَّفَقا فى الدِّلالة والإرشاد ، فقد اختصَّ الكِتَابُ فى النَّقْل بالتَّوَاتُر وجاء أكثر السُّنَّة بالآحاد .

فقال علم القِرَاآت : إلا أنه لا يَنْبغِى للمُفَسِّر أن يُقْدِم على التَّفْسِير ما لم يكن بقراءة السَّبْع والشَّاذِّ عالِما ، وبلُغاتها عَارِفًا وللنَّظَرِ فى مَعَانيها مُلازِما ؛ مع ما يَلْتَحِق بذلك من عِلْم قوانين القِرَاءَة المتعلِّق من المَصَاحف بخَطِّها ، والأشْكَال والعلامات المتكفِّلة بتَحْريرها وضَبْطها .

فقال علم النَّوامِيس : (وهو العِلْم بمتعلِّقات النُّبوَّة) : إنَّك لفَرْعٌ من فُروع الكِتَاب المُبين ، وما نَزَل به الرُّوحُ الأمينُ علىٰ قَلبِ سَيِّد المُرْسَلين ؛ وإلىَّ النَّظَر فى أحوال النُّبوّة وحَقِيقَتِها ، ومَسِيس الحَاجَة إليها فى بيان الشَّريعة وطَرِيقَتِها ؛ والفَرْق بين النُّبُوّة الحَقَّه ، والدَّعَاوى البَاطلة غير المُحِقَّه ؛ ومَعْرفة المُعجزات المُخْتَصَّة بالأنْبِياء والرُّسُل عليهم السلام ، والكَرَامَات الصَّادِرَة عن الصِّدِّيقينَ الأَبْرَار والأوْلِياء الكِرام ؛ فأنا المُقدَّم علىٰ سائر العُلُوم الشَّرْعيه ، وإمامُ الأصْليَّة منها والفَرْعِيَّة .

فقال علم الإلٰهي : لقد تَحَقَّقتَ أنَّ اللَّازم المُحَتَّم ، والوَاجِبَ تَقْديمُه علىٰ كلِّ مُقَدَّم ؛ العِلْمُ بمعرفة الله تعالىٰ والطَّرِيقُ المُوَصِّل إليها ، وإثباتُ صفاته المقدَّسة

وما يجب لها ويستحيل عليها، وأنه الواجب الوجود لذاته، وباعث الرسل لإقامة الحجة على خلقه بمحكم آياته، وأنا الزعيم بإقامة الأدلة على ذلك من المعقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والتالي والموضوع والمحمول .

فقال علم أصول الدين : فحينئذ قد فزت من جمعكما بالشرفين، وجمع لى منكما الفضل بطرفيه فصرت بكما معلم الطرفين، وميزت بين صحيح الاعتقاد وفاسده فكان لى منهما أحسن الاختيارين، وبينت طريق الحق لسالكها فكنت سببا للفوز والنجاة فى الدارين، فانا المقصود للإنسان بالذات فى كمال ذاته، وكل علم يستمد منى فى مباديه ويفتقر إلىّ فى مقدماته .

فقال علم التصوف : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا، إذ كان كل امرئ بما عمل مجازى وبما كسب رهينا؛ إنه يجب على كل من كان بمعتقد الحق جازما، أن يكون عن دار الغرور متجافيا ولأعمال البر ملازما؛ فانما الدنيا مزرعة للآخره، إن حصلت النجاة فتلك التجارة الرابحة وإن كانت الأخرى فتلك إذا كرة خاسره؛ فمن لزم طريقتى فى الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم، ومن اغتر بزخرفها الفانى فقد خاب فى القيامة وندم .

فلما كثرت الدعاوى والمعارضات، وتتابعت الحجج والمناقضات؛ نهض علم السياسة قائما، وقصد حسم مادة الجدال وطالما؛ وقال: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، وسائسها الكافى وحاكمها المهذب؛ لقد ذكر كل منكم من فضله ما يشوق السامع، وأظهر من جليل قدره ما تنقطع دونه المطامع، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج فى إثباته إلى دليل ظنىّ ولا برهان قاطع؛ غير أنه لا يليق بالمنصف أن يتخطى قدره المحدود ولا يتعدى جزءه المقسوم، ولكل أحد حد يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم ؛ فلو سَلَكَ كلٌّ منكم سبيلَ المَعْدَلَه ، وأنْصفَ من نَفْسه فوقف عند ما حُدَّ له ، لكان به أَلْيَق ، ولمقام العِلْم أَرْفَق .

فقال علم تَدْبِيرِ المَنْزِل : لقد تَحرَّيتَ الصَّواب ، ونطقْتَ بالحِكْمَة وفَصْلِ الخِطَاب ، لٰكِنَّه لا بُدَّ لكم من حَبْرٍ عالم ، وإمامٍ حاكِم ؛ يكونُ لشَمْلِكم جَامعا ، ولِمَوَاقع الشَّكِّ فى محلِّ التفاضُلِ بينكم رَافِعا ؛ مُحِيطٌ من كلِّ عِلْمٍ بمقْصُودِه ومُرَادِه ، عارِفٌ بما تَشْتملُ عليه مَبادِيه من حَدِّه ومَوْضُوعه وفائِدَته واسْتِمْدَاده ؛ ليبلُغَ به من الفَضْل مُنْتهاه ، ويَقِفَ به من الشَّرف عند حَدٍّ لا يتعدَّاه ؛ فلا يَدَّعى مُدَّعٍ بغير مُسْتَحَقّ ، ولا يطالِبُ طالِبٌ ما ليس له بحَقّ ؛ إلا أنَّ المحيط بكلكم عِلْما ، والقائمَ بجميعكم فَهْما ، أعَزُّ من الجَوَهرِ الفَرْد والكِبْرِيتِ الأحْمَر ، وأقلُّ وجودًا من بَيْض الأَنُوق بل بَيْضُ الأَنُوق فى الوُجْدان أكْثَر .

فقال علم الفِرَاسَة : على الخَبِير سَقَطت ، وبابْنِ بَجْدَتِها حَطَطت ؛ أَنَا بذلكم زَعِيم ، وبمَظِنَّته عَلِيم ؛ فلِلعِلْم عَرْفٌ يَنِمُّ علىٰ صاحبه ، وتلوحُ عليه بوَارِقُه وإن أكَنَّه بين جوانِبِه ؛ فحَامِلُ المِسْك لا تَخفىٰ رِيحُه علىٰ غيرِ ذى زُكَام ، والنَّهار لا يَخْفىٰ ضَوْءه علىٰ ذِى بَصَرٍ وإن تسترتْ شَمْسه بأذْيال الغَمام ؛ ولقد تَصفَّحتُ وُجوه العلماء الكَمَلَه ، الذين طَوَاياهم علىٰ أَجْمَلِ العلوم مُنطَوِيةٌ وعلىٰ تَفَاصيلها مُشْتمله ؛ وسَبَرت وقَسَّمْت ، وتَفَرَّستُ وتَوَسَّمْت ؛ فلم أجِدْ من يَلِيقُ لهذا المقام ، ويَصلحُ لقَطْع الجِدال والخِصام ؛ ويَعْرِف بلُغَةِ كلِّ عِلْمٍ فيُجِيبُ بلسانه ، ويَحْكم فلا يَنْقُض حُكْمَه غيرُه لانْحطاطه عن بُلُوغ مَكانِه ؛ إلا البَحْر الزَّاخِر ، و (١) الذى لا يُعلم لفَضْله أوَّلٌ ولا يُدْرك لمَدَاه آخِر ؛ حَبْر الأمّه ، وعَلَّامة الأَئِمَه (٢) ؛ وناصِرُ السُّنة وحامِيها ، وقامِعُ البِدْعة وقَامِيها ؛ نَجْلُ

(١) بياض بالأصل ولعله : الفاضل أو نحوه .

(٢) أصلُه وقامئها بالهمز نخففه من قَمَأه كمنعه قَمْعه .

شَيْخ الإسلام ، وخُلاصَةُ غُرَر الأيَّام ، جَلال الدِّين ، بَقِيَّة المجتهدين ؛ أبو الفَضْل عبد الرحمن البُلْقِينِيّ الشَّافعيّ ، النَّـاظِر فى الحُكْم العَزِيز بالديار المِصْريه ، وسائر الممـالك الإسلامية وما أُضِيف إلىٰ ذلك من الوَظَائِف الدِّينيـه ؛ لا زالَتْ فواضِلُ الفَضَائل مَعْرُوفَهُ : فهو العَـالِم الذى إذا قال لا يُعارَض ، والحـاكِمُ الذى إذا حَكَم لا يُناقَض ، والإمامُ الذى لا يتخَلَّلُ آجْتِهادَه خَلَل ، والمُناظِرُ الذى ما حَاوَل قَطْع خَصْمٍ إلا كان لِسانُه أمْضَىٰ من السَّيف إذَا يقال : «سَبَقَ السَّيفُ العَذَل» :

إذا قَالَ بَذَّ القَائِلين ولم يَدَعْ * لمُلْتَمِسٍ فى القَوْل جِدًّا ولا هَزْلَا!

إن تـكَلَّم فى الفقه فـكأنمـا بِلِسَان « الشَّافعيّ » تكلَّم ، و « الرَّبيع » عنـه يَرْوِى و « المُزَنّى » منه يتَعَلَّم ؛ أو خاضَ فى أُصول الفِقْه . قال « الغزالىُّ » : هذا هو الإمامُ باتفاق ، وقَطَع السَّيفُ « الآمِدِىُّ » بأنه المُقَدَّم فى هذا الفَنّ على الإطلاق ؛ أو جَرَىٰ فى التَّفْسير . قال « الوَاحِدِىُّ » : هـذا هو العَالِم الأوْحد ، وأعطاه « آبْنُ عطِيَّةَ » صَفْقَة يَده بأن مِثْلَه فى التَّفْسير لا يُوجَد ؛ وآعترف له « صَاحِبُ الكَشَّاف » بالكَشْف عن الغَوامِض ، وقال الإمام « فَخْرُ الدِّين » : "هذه مَفَاتِيح الغَيْب وأسْرارُ التَّنْزِيل" فارتفع الخِلَافُ وآندفع المُعـارِض ؛ أو أخَذَ فى القِراآت والرَّسْم أزْرَى بأبى « عَمْرو الدَّانِى » ، وعَدَا شَأْوَ « الشَّاطِبِىّ » فى " الرَّائية " وتَقَدَّمه فى « حِرْز الأَمانِى » ؛ أو تَحَدَّثَ فى الحَـديث شَهِد له « السُّفْيانَانِ » بعُلُوّ الرتبـة فى الرِّوايَه ، وآعترف له « آبن مَعِين » بالتَّبْريز والتَّقـدُّم فى الدِّرايَه ؛ وهَتَف « الخَطِيبُ البَغْدادِىّ » بذِكْرِه على المَنَابِر ، وقال « آبْنُ الصَّلاح » : لِمثْل هـٰذه الفوائد تَتَعَيَّن الرِّحْلة وفى تَحْصِيلها تَنْفَدُ المحَابِر ؛ أو أَبْدَىٰ فى أُصول الدِّين نَظَرًا تعلَّقَ منه « أبُو الحَسَنِ الأشْعَرِىّ » بأوْفَىٰ زمام ، وسَدَّ بابَ الكلام على المُعْتزِلَةِ حتَّىٰ يقولَ « عَمْرُو بن عُبَيْد » و « وَاصِلُ بنُ

عَطاءٍ » : لَيْتَنا لم نَفتح بابًا فى الكلام؛ أو دَقَّق النَّظَر فى المَنْطِق بهَـر « الأَبْهرِىّ » فى مناظرته، وكتب « الكَاتِبىُّ » علىٰ نَفْسه وَثيقةً بالعَجْز عن مُقاومَتِه؛ أو أَلَمَّ بالجدَل رَمَى « الأَرْموِىُّ » نَفْسه بين يَدَيه، وجعل « العَميدىُّ » عُمْـدَته فى آداب البَحْث عليه؛ أو بَسَط فى اللُّغة لِسانَه ٱعترف له ٱبنُ « سِيدَهْ » بالسِّياده، وأقرَّ بالعَجْزِ لَدَيْه « الجَوْهَرِىُّ » وجلَس « ٱبنُ فَارِس » بين يديه مجْلِسَ الٱستِفاده؛ أو نَحَا إلى النَّحْو والتَّصْريف أربَىٰ فيه علىٰ « سيبَوَيْهِ » ، وصَرَف « الكِسَائىُّ » له عَزْمه فسار من البُعْد إليه؛ أو وَضَع أُنْموذَجًا فى عُلوم البلاغة وَقَف عنده « الجُرْجَانِىُّ » ، ولم يَتَعدَّ حَدَّه « ٱبنُ أبِى الإِصْبَع » ولم يُجاوز وَضْعَه « الرُّمَّانِى » ؛ أو رَوَىٰ أشعارَ العَرَب أزرَىٰ بـ« الأَصْمَعِىّ » فى حِفْظِه، وفاقَ « أباعُبَيْدَةَ » فى كَثْرَة رِوايَتِه وغزيرِ لَفْظه؛ أو تعرّض للعَرُوض والقَوافِى ٱسْتَحقَّهما على « الخَليـل » ، وقال « الأَخْفَش » عنه : أخَذْتُ المُتَـدارَك وٱعْترف « الجَوْهَرِىُّ » بأنه ليس له فى هـذا الفَنِّ مَثِيـل؛ أو أَصَّـلَ فى الطِّبِّ أصْـلًا قال « ٱبْنُ سِينا » : هذا هو القَانُون المُعتَـبرُ فى الأُصول، وأقْسَمَ « الرَّازِىّ » بمُحْيِى المَوْتَىٰ إن « بِقْراطَ » لو سَمِعه لمـا صَنَّف "الفُصول" ؛ أو جَنَح إلىٰ غيره من العـلوم الطَّبيعيَّة فكأنَّمـا طُبِع عليه، أو جَذَب له ذلك العِـلْم بزِمَامٍ فٱنقَاد إليه؛ أو سَلَك فى علوم الهَنْدسَة طَرِيقا لقال « أُوقْلِيدس » : هـذا هو الخَطُّ المُسْـتقيم، وأعْرَض « ٱبن الهَيْثَم » عن حَلِّ الشُّـكُوك ووَلَّىٰ وهو كَظِيم، وحمد « المُؤْتَمن بنُ هُودٍ » عَدَم إكمال كتابه "الٱستكمال" وقال : عَرَفْتُ قَدْر نفسى : وفَوْقَ كُلِّ ذى عِلْمٍ عَلِيم؛ أو عَرَّجَ علىٰ عُلوم الهَيْئة لٱعْتَرف « أَبُو الرَّيْحان البَيْرونِىُّ » أنه الأُعْجوبةُ النَّادره، وقال ٱبنُ أفْلَحَ : هذا العالِم قُطْبُ هذه الدَّائِرَه، أو صَرَف إلىٰ عِلْم الحِسَاب نَظَره لقال « السَّمَوْءَل بن يَحْيَىٰ » لقد أحْيَا هذا الفَنَّ الدَّارس، ونَادَىٰ « ٱبن مجلى المَوْصِلِىّ » قد ٱنجلتْ عن هذا العلم غَيَاهِبُه حتى لم يَبْقَ فيه عَمَهٌ لِعَامِهٍ ولا غُمَّةٌ علىٰ مُمارِس .

وقَدْ وَجَدْتَ مَكَان القَوْلِ ذا سَعَةٍ * فإنْ وَجَدت لِسَاناً قَائِلاً فقُلِ !

وَكَيْف لاتُأْتِي إليه العلومُ مقاليدها، وتَصِلُ به الفَضَائل أسَانيدَها؛ وهو ٱبنُ شَيْخ الإسلام وإمَامِه، ووَاحِد الدَّهرِ وعَلَّامه؛ وجَامِع العُلوم المُنْفرد، ومن حَقَّق وُجُودُه فى أواخر الأعصار أن الزَّمانَ لايَخْلو من مُجْتَهِد؛ ومن لم يَزَل موضوعُ الأوضاع المعتبرة عليه مَحْمولا، ومن كان علىٰ رَأْسِ المـائَة الثَّامنَة مُضاهيًا لعُمَرَ بن عبد العزيز علىٰ رأس المـائَة الأُولىٰ؛ فالخَناصِرُ عليه وعلىٰ وَلَدِه تُعْقد، ولا غَرْوَ إنْ قام مُنْشِدُهما فأنْشَد :

إنِ ٱلمـائَةُ الأُولىٰ علىٰ رَأْسِها أَتَىٰ * لهـا عمرُ الثَّانِى لذَا الدِّينِ صَائِنَهْ،
ووَالىٰ رِجالٌ بعـد ذَاكَ كمِثْلِه * فهٰا عُمَرٌ وافَى علىٰ رأسِ ثَامِنَـهْ
يُظَاهِرُه نَجْلٌ سَعِيدٌ غَدَتْ به * مَعَاقِلُ عِلم فى ذُرا الحَقِّ آمِنَـه.
إذا شَـيْخُ إسلامٍ أضَاءَ سِرَاجُه * رَأيتَ جَلالًا من سَنَا الفَضْلِ قارَنَه !
فلا يَعْدَمِ الإسْـلامُ جَمْعَ عُلاهُمـا * ولَنْ يَبْرحا للدِّين دَأبا مَيامِنَه !

فقال علم الأخلاق : أَصبتَ سَوَاءَ الثُّغْرةِ وجِئْتَ بالرَّأْيِ الأكمل، وعَرفتَ من أيْن تُؤْكَلُ الكَتِف فطَبَّقْتَ المِفْصَلَ بالمِفْصَل؛ إلا أنَّ من مَحاسِنِ الأخلاق، ومَعالِم الإرْفاق؛ أن تَعُودوا بفَضْلِكم، وتَرجِعُوا بمَعْروفكم وبِرِّكُم؛ إلىٰ من جَرَىٰ بكم فى التَّفَاخُر مجرى الإنصاف، وبَسَط لسان كَلِمِه بمـا ٱشتَمَلَ عليه كُلٌّ منكم من جَمِيل الأوْصاف؛ ثم كان من شَأْنِه أن وَصَل بالاتِّفاق والائْتِئَام حَبْلَكم، وجَمَع بالمَحَلِّ الكَرِيم بعد التباعد شَمْلَكم؛ وذَكَّرَكم بحُسْـنِ المُصَافاة أَصْلَ الوِدَاد القَـديم، وتَلا بلِسَان الأُلْفة فيكم : ﴿ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ . بأن يَنْتَصِب كُلٌّ منكم له شفيعًا إلىٰ هذا السَّيِّد الجليل، ويكونَ له وَسِيلةً إلىٰ هذا الإمام الحَفيل؛ أن يَصْرِف إليه وَجْه العِنَايَه، ويَنْظر إليـه بعَـيْن الإقبال والرِّعايه؛ ليَعِز فى النـاس جَانِبُه، ويَطْلُعَ

فى أفُقِ السَّعْد بعد الأُفول غَارِبُه ؛ ويَبْلُغَ من مُنْتَهىٰ أمَلِه ماله جَهِد ، ويَسْعَدَ بالنَّظَر السعيد جَدُّه فقد قيل : «مَن وَقَع عليه نَظَرُ السَّعِيد سَعِد» .

علىٰ أنه ــ أمتع الله الإسلام ببَقَائِه وبقاء والده ، وجَمَع بينهما فى دَارِ الكَرامة كما جمع لهما بين طَارِفِ المَجْد وتَالِده ؛ ــ قد فَتَح له من التَّرقِّى أوَّلَ باب ، ولا شَكَّ أنَّ نَظْرةً منه إليه بعد ذلك تُرقِّيه إلى السَّحاب .

فَأَزْرَقُ الفَجْرِ يَبْدُو قَبْلَ أبْيَضِه * وأَوَّلُ الغَيْثِ قَطْرٌ ثم يَنْسَكِبُ !

فقال علم التاريخ : ٱهْبِطوا مِصْرًا فإنَّ لَكُم ما سَأَلْتُم ، وقَرُّوا عَيْنًا فإلى القَصْد الجليل وَصَلْتم ، وعلىٰ غاية الأمَلِ ــ ولله الحمد ــ حَصَلْتم ؛ فقد بَلَوْتُ الأوائلَ والأواخِر، وخَبَرْتُ حالَ المتقدِّم والمُعاصِر ؛ فلم أَرَ فيمَنْ مَضَىٰ وغَبَر، وشاعَ ذِكْرُه وٱشْتَهر ؛ من ذوى المراتب العَلِيَّه ، والمَنَاصِبِ السَّنِيَّه ؛ مَن يُساوِى هذا السَّيِّد الجليل فَضْلا ، أو يُدانيه فى المعروف قَوْلا وفِعْلا ؛ قد لَبِس شَرَفًا لاتطمع الأيام فى خَلْعِه ، ولا يَتطلَّع الزمانُ إلىٰ نَزْعِه ؛ وٱنتهىٰ إليه المَجْد فوَقَف ، وعَرَف الكَرَمُ مكانَه فٱنحازَ إليه وعَطَف ؛ وحَلَّت الرَّآسةُ بفِنَائه فٱسْتغْنَتْ به عن السِّوىٰ ، وأنَاخَتِ السِّيادة بأفْنائه فألْقت عَصَاها وٱسْتَقرّ بها النَّوىٰ ؛ فقَصُرتْ عنه خُطَا من يُجَارِيه ، وضَاقَ عنه بَاعُ من يُنَاوِيه ؛ وٱجتمعتْ الألْسُنُ علىٰ تَقرِيضه فمُدِحَ بكلِّ لِسان ، وتَوافَقَتِ القُلوبُ علىٰ حُبِّه فكان له بكلِّ قَلْبٍ مَكَان :

وَلَمْ يَخْلُ من إحْسانه لَفْظُ مُخْبِرٍ ، * ولم يَخْلُ من تَقْرِيظه بَطْنُ دَفْتَرِ !

فهو الحَرِىُّ بأن يُكْتَبَ بأقلام الذَّهَب جَمِيلُ مَنَاقِبه ، وأن يُرْقَمَ علىٰ صَفَحاتِ الايام حَمِيدُ مَطالِبِه ؛ فلا يَذْهب علىٰ مَمَرِّ الزمان ذِكْرُها ، ولا يزولُ علىٰ تَوَالى الدُّهور فَخْرُها .

ولما تمَّ للعلوم هذا الاجتماع الذى قارَن السَّعدُ جلالَه، وتفجَّرتْ ينابيعُ الفضل خلالَه، أقْبلوا بوجُوهِهم على الشِّعْر مُعاتِبين، وبما يلزمه من تقْريض هذا الحَبْر ومَدْحِه مُطالِبين، وقالوا: قد أتىٰ النَّثْرُ من مَدْحِه بقَدْر طَاقَتِه، وإن لم يُوف بجَليل قَدْرِه ورَفيع مَكانَتِه، فلا بُدّ من أن تختِم هذه الرسالةَ بأبياتٍ بالمَقام لائقه، ولما نحنُ فيه من القَضيَّة الوَاقعة مُطابِقَه، قائمةً من مَدْحِه بالوَاجب، سالِكةً من ذلك أحْسنَ المَسالكِ وأجملَ المَذَاهب، لتكْمُلَ هذه الرسالةُ نَظْماً ونَثْرا، وتفْتَنَّ فى صناعة الأدَب خَطَابةً وشِعْرا، فقال: سَمْعًا وطاعَه، واسْتِكانَةً وضَراعَه، ثم لم يَلْبَثْ أن قام عَجِلا، وأنْشَد مُرْتَجِلا:

بُشْراكُم معاشِرَ العُلُومِ أنْ * جُمِعْتُمُ بصَدْرِ حَبْرٍ كامِل!
فُنُونُه لم تجتَمِعْ لعالِمٍ * وفَضْله لم يكْتَمِل لفَاضِلِ!
يَشْفِى الصُّدُورَ إن غَدَا مُناظِرًا، * وبَحْثُه فزِينَةُ المَحافِلِ!
كَمْ عَمَّرتْ دروسُه من دَارِسٍ، * وزَيَّنَتْ بحَلْيِها من عَاطِلِ!
وأوْضَحتْ أقوالُه من مُشْكِلٍ * لَمَّا أتىٰ بأوْضحِ الدَّلائل!
وكَمْ غدَتْ آراؤُه حَمِيدَةً، * ونَبَّهتْ بجِدِّها من خَامِلٍ.
وحُكْمُه فكَمْ أقَالَ عَثْرَةً * وجُودُه ففَوْقَ قَصْدِ الآمِلِ!
هٰذَا: وقد فَاقَ الوَرَىٰ رِآسَةً * مَحْفُوفَةً بألْطَفِ الشَّمائِلِ!
مَنْ ذَا يَرُوم أن يَنَالَ شَأْوَه؟ * أنَّى له بأمْثَلِ الأمَاثِلِ؟
مَوْلًى عَلَا فَوْقَ السِّماكِ رُتْبَةً * قَدْ زُيِّنَتْ بأفضل الفَوَاضِلِ!
فما له فى فَضْلِه من مُشْبِهٍ، * وما لبَحْرِ جُودِه من سَاحِلِ!
حَاشَىٰ لراجٍ فَضْلَه أن يَنْثَنِى * صِفْرَ اليَدَيْنِ أو مُمَنَّى الآجِلِ!

قلتُ : ولم أَرَ من تعرّض للمُفاخَرَة بين العُلومِ سوى القاضِى الرَّشِيد أبى الحُسَين آبن الزبير فى مَقَالتِه المقدّم ذكرها(١) علىٰ أنّها لم تكنْ جارِيةً علىٰ هذا النَّمَط، ولا مُرَتَّبةً علىٰ هذا التَّرتيب ، مع الآقتصار فيها علىٰ عُلُوم قليلةٍ ، أشار إلى المُفَاضَلَة بينها علىٰ ما تقدّم ذِكْره . ولكنَّ اللهَ تعالىٰ قد هَدَىٰ بفَضْله إلىٰ وُجوه التَّرجيح التى يَرْجَحُ بها كُلُّ علمٍ علىٰ خَصْمِه ، ويَفْلُجُ به علىٰ غَيْره، والمُنْصِف يعرف لذلك حَقَّه . والذى أعانَنِى علىٰ ذلك جلالةُ قَدْرِ من صُنِّفتْ له وعُلُوُّ رتبتِه ، واتساعُ فَضْلِه ، وكثرةُ علومه، وتَعْداد فُنُونه، إذْ صِفاتُ المَمْدوح تَهْدِى المادح وتُرْشِدُه .

* * *

ومنها المفاخرة بين السَّيْف والقَلَم ، وقد أكثر النـاسُ منها : فمن عالٍ وهَابِط ، وصَاعِد وسَاقِط .

وهذه رسالةٌ فى المفاخرة بين السَّيف والقلَم، أنشأتُها للمَقَرِّ الزَّيْنى أبى يَزِيدَ الدَّوادَار الظَّاهِرِى، فى شهور سنة أربع وتسعين وسَبْعِمائة، وسَمَّيتها : "حِلْيَة الفَضْل وزِينَة الكَرَم، فى المُفَاخَرَة بين السَّيْف والقَلَم" وهى :

الحمدُ لله الذى أعَزَّ السَّيفَ وشَرَّف القَلَم ، وأفْرَدَهما برُتَبِ العَلْياءِ فقَرَن لهما بين المَجْدِ والكَرَم، وساوَىٰ بينهما فى القِسْمة فهذا للحُكْم وهذا للحِكَم .

أحمدُه علىٰ أنْ جَمَع بخَيْرِ أميرٍ بعد التَّفرُّق شَمْلَهما، ووَصَل بأعَزِّ مَلِيكٍ بعد التَّقاطُع حَبْلَهما، وأرْغَبُ إليه بشُكْرٍ يكاثِرُ النجومَ فى عَدِيدِها، ويكونُ للنعمة علىٰ مَمَرِّ الزَّمانِ أبَا يَزِيدها، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يأتَمُّ الإخلاصُ بمَذْهَبِها، ولا يَنْجُو من سَيْفِها إلا من أجاب دَاعِيَها وأقرّ بها، وأن محمدًا عبدُه ورَسولُه

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضىٰ فلعلها سقطت من قلم النساخ .

الذى خُصَّ بأشرف المَنَاقب وأفْضَلِ المآثِر، وآستأثَر بالسُّؤْددِ فى الدَّارينْ فَحَاز أفْخَر المعالى ونَال أعلىٰ المَفَاخِر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين قامَتْ بنُصْرتِهم دولةُ الإسلام فسَمَتْ بهم علىٰ سائرِ الدُّول، وكَرَعتْ فى دِماء الكُفْر سُيُوفُهُم فعادتْ بَخَلُوقِ النَّصْر لابُحْمرة الخَجَل؛ صلاةً ينْقضى دُونَ آنقضائها تعاقُبُ الأيام، وتَكِلُّ ألْسِنةُ الأقلام عن وَصْفِها وَلَوْ أنَّ مَافِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ .

وبعــدُ، فإنَّه ما تقارب آثْنان فى الرُّتبة إلا تَحاسَدا، ولا آجْتَمعا فى مَقَام رِفْعةٍ إلا آزْدَحما على المَجْد وتَوارَدا؛ ورَام كلٌّ منهما أن يكونَ هو الفائزَ بالقِدْح المُعَلَّىٰ، وأن يكونَ مَفْرِقُه هو المُتوَّجَ وجِيدُه هو المُحَلَّىٰ؛ وآدَّعىٰ كلٌّ منهما أن جَوادَه هو السابقُ فى حَلْبة السِّــباق، والفَائزُ بقَصَب السَّبْق بالآتِّفاق؛ وأن نَجْمَــه هو الطالِــعُ الذى لا يأفَل، وسُؤْدُدَه هو الحــاكِمُ الذى لا يُعْزَل؛ وأن المِسْكَ دُون عَبِيره، والبَحْرَ لايجِىءُ نُقْطة فى غَدِيره؛ والدُّرّ لا يَصْلُح له صَــدَفا، ونَفِيسَ الجَوْهَر لا يُعادِلُه شَرَفا؛ وأن مَنابِرَ المَعَالى مَوْقوفةٌ علىٰ قَدَمه، ومَجامِرَ المَفَاخِر فائحةٌ بنَشْرِ كَرَمه .

ولمَّــا كانَ السَّيفُ والقَلَمُ قد تَدَانيا فى المَجْــد وتَقارَبا، وأخذَا بطَرَفَى الشَّرَف وتَجــاذَبا؛ إذ كانا قُطْبَينِ تَدُورُ عليهــما دَوَائِرُ الكمال، وسَــعْدَيْن يجتمعان فى دَائِرة الآعتدال؛ ونَجْمَين يَهْدِيان إلى المعالى، ومِصْباحَيْنِ يُستضاءُ بهما فى حَنادِس اللَّيالى؛ وقاعدَتَينِ تُبْنى الدُّوَلُ علىٰ أركانهما، وشَجَرتَين يُجتنَى العِزُّ من أغصانهما؛ جَرَّ كلٌّ منهما ثوبَ الخُيَلاءِ فَخْرا فمشىٰ وتَبَخْتَر، وأسْبَلَ رِداءَ العُجْب تِيهًا فمــا تَخَبَّل ولاتَعَثَّر؛ وآتسع له المجالُ فى الدَّعوىٰ فجَال، وطاوَعتْه يَدُ المَقالِ فقالَ وطَال؛ وتَطَرَّقتْ إليهما عَقَاربُ الشَّحْناءِ ودَبَّتْ، وتَوقَّدتْ بينهما نارُ المُنافَسة وشَبَّتْ؛ وأظهر كلٌّ منهــما ما كان يُخفيه فكَتَب وأمْلىٰ، وباح بمــا يُكِنُّه صَــدْره والمُؤْمن لا يكون حُبْلىٰ؛ وبدأ القَلَم فتكلَّم، ومضىٰ فى الكلام بصِدْق عَزْمٍ فمــا توقَّف ولا تَلَعْثَم؛ فقال :

باسم الله تعالىٰ أستفتِح، وبحَمْـده أَتيمَّن وأستَنْجِح؛ إذ من شَأْنِى الكتابه، ومن فَنِّى الخَطابَه؛ وكلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لا يُبدأ فيه باسم الله تعالىٰ فهو أجْذَم، وكلُّ كلامٍ لا يفتتح بحمده فأَساسُه غير مُحْكَم ورِدَاؤُه غير مُعْلَم؛ والعاقِلُ من أتَى الأمر من فَصِّه، وأخذ الحدِيثَ بنَصِّه؛ والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع، والباطِلُ أجْدَرُ أن يترك فلا يُصْغىٰ إليه ولا يستمع؛ إنى لأَوَّلُ مخلوقٍ بالنَّص الثابت والحُجَّة القاطعه، والمُسْتحِقُّ لفضل السَّبق من غير مُنازَعه؛ أَقْسم اللهُ تعالىٰ بِى فى كتابِه، وشَرَّفنِى بالذِّكْر فى كَلامِه لرسوله وخطابِه، فقال جلَّ من قائلٍ: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. وقال جَلَّتْ قُدْرتُه: ﴿إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. فكان لى من الفَضْل وَافِرُ القِسْمه، وخُصِصْتُ بكمال المعرفة فجمعت شَوَارِدَ العلوم وكُنتُ قَيِّم الحِكْمه.

فقال السَّيفُ: بسم الله والله أكبر: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. لكلِّ باغٍ مَصْرَع، وللصَّائل بالعُدْوان مَهْلَكٌ لا يَنْجو منه ولا يَنْجَع؛ وفاتحُ باب الشَّرِّ يُغلَق به، وقَادِح زَنْد الحَرْب يُحْرق بلَهَبِه؛ أقولُ بموجَب ٱسْتِدْلالك، وأُوجبُ الاعتراضَ عليكَ فى مَقَالِك:

نَعَم أَقْسَمَ اللهُ تعالىٰ بالقَلَم ولَسْتَ بذلك، وكان أَوَّلَ مخلوقٍ ولستَ المَعْنِىَّ بما هُنالك؛ إنَّ ذلك لمَعنًى يَكِلُّ فَهْمُك عن إدراكه، ويَضِلُّ نَجْمك أن يَسْرِىَ فى أفلاكه؛ وأنتَ وإن ذُكِرتَ فى التنزيل، وتَمسَّكتَ من الامْتِنان بكَ فى قوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ بشُبهة التَّفْضيل؛ فقد حَرَّم الله تعالىٰ تَعلُّمَ خَطِّك علىٰ رسوله، وحَرَمك من مَسِّ أنامله الشريفة ما يُؤْسىٰ علىٰ فَوْتِه ويُسَرُّ بحُصُوله؛ لٰكِنِّى قد نِلْتُ من هذه الرتبة أسْنىٰ المقاصد، فشَهِدْتُ معه من الوقائع مالم تشاهد؛ وحَلَّانى من كَفِّه شرفًا لا يزول

حَلْبه أبدا، وقُمتُ بنَصْره فى كلِّ مُعْتَرَك : وسَلْ حُنَيناً وسَلْ بَدْراً وسَلْ أُحُدا ! ! !؛ ذَكَر اللهُ تعالىٰ فى القرآن الكريم جِنْسى الذى أنا نَوْعه الأكبر، ونَبَّه علىٰ ما فيه من المنافع التى هى من نَفْعِك أعَمُّ وأشهر، وما اجتمع فيه من عَظِيمَيِ الشِّدّة والباس، فقال تقدّست عظمته : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ . علىٰ أنك لو آعتبرت جِنْسَيِ القَصَب والحَديد، وعرفتَ الكَليلَ منهما والجَليد؛ لتحققت تسلط الحَديد عليك قَطًّا وبَرْيا، وتحكُّمَه فيك أمرًا ونَهْيا .

فقال القَلَم : فَرَرتَ من الشريعة وعَدْلِها، وعَوَّلْتَ على الطبيعة وجَهْلِها؛ فافتخرت بحَيْفك وعُدْوانك، وآعتمدتَ فى الفَضْل علىٰ تَعَدِّيك وطُغْيانك؛ فملتَ إلى الظُّلم الذى هو إليك أقْرب، وغلبَ عليك طَبْعُك فى الجَوْر : و «الطَّبْع أغلب»؛ فلا فِتْنَةَ إلا وأنتَ أَساسُها، ولا غارةَ إلا وأنت رأْسُها؛ ولا شَرَّ إلا وأنتَ فاتحُ بابِه، ولا حَرْبَ إلا وأنت وَاصِلُ أسبابِه؛ تُؤَكِّد مواقع الجفاء، وتُكدِّر أوقاتَ الصَّفاء؛ وتُؤَثِّر القَساوَه، وتُؤْثِر العَداوه؛ أما أنا فالحقُّ مَذْهبي، والصِّدق مَرْكَبي؛ والعَدْلُ شِيمَتي، وحِلْية الفَضْلِ زِينَتِي؛ إن حكمتُ أقسطت، وإن آسْتُحفِظْتُ حَفِظْتُ وما فرَّطت؛ لا أُفْشِي سِرّا يريد صاحبُه كَتْمه، ولا أكْتُم عِلمًا يبتغى مُتَعلِّمُه عِلْمَه؛ مع عموم الحاجة إلىّ، والآفتقارِ إلىٰ عِلْمي والاكتسابِ مما لَدَىّ، أُديرُ فى القرطاس كاساتِ خَمْرِي فأُزْرِي بالمَزَامير وأَهْزَأُ بالمَزَاهِر، وأنفثُ فيه سِحْرَ بَيَانِى فأَلْعبُ بالألباب وأَستجلبُ الخَواطِر، وأُنْفِذُ جيوشَ سُطوِرى علىٰ بُعدٍ فأَهْزِم العساكر :

فلَكَمْ يَفُلُّ الجَيْشَ وهو عَرَمْرَمٌ * والبِيضُ ما سُلَّتْ من الأَغْمادِ !

فقال السَّيفُ : أطلتَ الغَيْبه، وجِئْتَ بالخَيْبه؛ وسكتَّ أَلْفًا، ونَطقتَ خَلْفا .

السَّيفُ أَصْدَقُ أَنْباءً من الكُتُبِ * فى حَدِّهِ الحَدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِبِ

إنَّ نِجَادِي حِلْيةٌ للعواتق، ومُصاحَبَتِي آمنةٌ من البوائق؛ ما تَقَلَّدنِي عاتِقٌ إلا باتَ عَزيزا، ولا توسَّدنِي ساعِدٌ إلا كنتُ له حِرْزًا حَرِيزا؛ أَمْرِى المطاعُ وقَوْلِى المُسْتَمع، ورَأْيِى المصوَّبُ وحُكْمِى المُتَّبع؛ لم أزَلْ للنَّصرِ مِفْتاحا، وللظلام مِصْباحا؛ وللعِزِّ قائدا، وللعُدَاة ذَائِدا؛ فأنَّى لك بمُسَاجَلَتِي، ومُقاوَمَتِي فى الفَخْر ومُنافَرَتِى؟؛ مع عُرْيِ جِسْمى ونَحافَة بَدَنِك، وإسراعِ تَلافِك وقِصَرِ زَمَنِك، وبَخْسِ أثْمانك علىٰ بُعْدِ وطَنِك، وما أنتَ عليه من جَرْيِ دَمْعِك، وضِيقِ ذَرْعِك، وتفَرُّقِ جَمْعِك؛ وقِصَرِ باعِك، وقِلَّةِ أتْباعِك.

فقال القَلَم: مَهْلًا أيُّها المُسَاجِل، وعلىٰ رِسْلِك أيها المُغَالِبُ والمُنَاضِل؛ لقد أَفْحَشْتَ مَقَالا، ونَمَّقتَ مُحَالا؛ فغادَرْتك سُبُلُ الإصابه، وخرجتَ عن جادَّة الإنَابَه، وسُؤْتَ سَمْعًا فأسَأْتَ جَابَه؛ إنِّى لمبارك الطَّلْعة وَسِيمُها، شريفُ النَّفْسِ كَرِيمُها؛ آخِذٌ بالفضائل من جميع جهاتها، مُسْتَوْفٍ للمَادِح بسائرِ صِفَاتِها؛ فطائِرِى مَيْمُون، وغُولِى مَأْمُون، وعطائى غيرُ ممْنُون؛ أَصِلُ وتَقْطَع، وأُعْطِى وتَمْنَع، وتُفَرِّق وأَجْمَع؛ وإنَّ آزدِراءَك بى من الكِبْرِ المَنْهِيِّ عنه، وغَضَّك عَنِّى من العُجْبِ المُسْتَعاذ منه؛ ومن حَقَّر شيئًا قَتَله، ومن آستهانَ بفاضِلٍ فَضَله؛ وإنِّى وإن صَغُر جِرْمِى فإنى لَكَبِير الفِعال، وإن نَحُفَ بَدَنِى فإنى لشَدِيد البأس عند النِّزال؛ وإنْ عَرِىَ جِسْمى فكم كَسَوْتُ عارِيا، وإن جَرىٰ دَمْعِى فكم أرْوَيتُ ظامِيا؛ وإن ضاق ذَرْعِى فإنى بِسَعَة المَجَال مَشْهور، وإن قَصُر بَاعِى فكَمْ أطلقتُ أسِيرًا وأنا فى سِجْنِ الدَّواة مَأْسُور؛ إذا آمتَطيْتُ طِرْسِى، وتَدرَّعْتُ نِقْسِى، وتقلدتُ خَمْسِى، وجَاشَتْ على الأعداء نَفْسِى:—

رَأيتَ جَلِيلًا شَأْنُه وهو مُرْهَفٌ * ضَنًى وَسَمِينًا خَطْبُه وهو نَاحِلُ!

أنَسِيتَ إذْ أنتَ فى المَعْدن تُرابٌ تُداسُ بالأقدام؟، وتَنْسِفُك الرِّياحُ وتُزْرِى بك الأيام؟؛ ثم صرتَ إلى القَيْنِ تَقْعدُ لك السَّنادِينُ بالمَرَاصِد، وتَدْمَغُك المَقَامِعُ وتَسْطُو

بك المَبَارِد ؛ ثم لولا صِقَالك لأذهبك الجَرَبُ وأكلك الصَّدَىٰ، مع قِلَّة صَبْرِك علىٰ المَطَر والنَّدَىٰ .

فقال السَّيْفُ : إنَّا لِلّٰه ! لقد ٱسْتَأْسَدَتِ الثَّعالِب، وٱسْتَنْسَرَتِ البُغَاثُ فَعَدَّ العُصْفورُ نَفْسَه من طَيْرِ الوَاجِب ؛ وجاء الغُرابُ إلى البَازِى يُهَدِّده، ورَجَع ابن آوَىٰ على الأَسَدِ يُشَرِّده ؛ فلو عَرَفْتَ قَدْر نَفْسِك ، ولَزِمتَ فى السَّكِينة طَرِيقَ أبْناءِ جِنْسِك ؛ ووقفتَ عند ما حُدّ لك، وذكرتَ عَجْزَك وكَسَلَك ؛ لكان أجْدَرَ بك ، وأَحْمَدَ لعاقِبَتِك، وأَلْيَقَ بأدَبِك .

إن المُلُوكَ لَتُعِدُّنِى لِمُهِمَّاتِها، وتَسْتَنْجِدُ بِى فى مُلِمَّاتِها ؛ ونَتَعَالىٰ فى نَسَبِى ، ونَتَغالىٰ فى حَسَبِى ؛ ونتنافَسُ فى قِنْيَتِى ونَتَحَاسَد ، وتَجْعلنِى عُرْضَةً لأَيْمانِها فتتعاقدُ بالحَلِف عَلَيَّ ونَتَعاهَد ؛ وتَدَّخِرُنى فى خَزَائِنها ٱدِّخارَ الأَعْلاق ، وتَعُدُّنِى أنْفَس ذخائرها على الإطلاق ؛ فتُكَلِّلنى الجَوَاهِر، وتُحَلِّيني العقود فأظْهَر فى أحْسَنِ المَظَاهِر ؛ أُبْرُزُ للشُّجْعانِ خَدِّى الأَسِيلَ فأُنْسِيهم الخُدُودَ ذواتِ السَّوالِف ، وأَزْهو بقَدِّى فأسلبهم هَيَفَ القُدُود مع لِينِ المَعَاطِف ؛ وأُوهِمُ الظَّمْآن من قُرْبٍ أن بأَنْهارِى مَاءً يَسِيل ، وأُخَيِّل للمَقْرور من بُعْدٍ أنِّى جَذْوَةُ نَارٍ فيَطْلُبنِى على المَدَى الطَّوِيل ؛ ويَخَالُنِى مُتَوَقِّعُ الغَيْثِ بَرْقًا لامِعا، ويَظُنُّنِي الحَائِرُ فى الشَّرْق نَجْماً طالِعا ؛ فالشَّمْسُ من شُعاعِى فى خَجَل ، واللَّيْلُ من ضَوْئِى فى وَجَل ، وما أسْرَعْتُ فى طَلَبِ ثَأْرٍ إلا قِيل : « فَاتَ ماذُبِح » و «سَبَقَ السَّيْفُ العذَل» .

فقال القَلَم : بَرِّق لِمَن لاعَرَفَك ، و رَوِّج علىٰ غير الجَوْهَرِىِّ صَدَفَك ؛ فما أنت من بَزِّى ولا عِطْرِى ، ولستَ بمُساوٍ حَدَّك القاطعَ بقُلَامَة ظُفْرِى ؛ إن بَرْقَك لخُلَّب ، وإن رِيحَك لأَزْيَب ؛ وإن مَاءَك لجَامِد ، وإن نارَك لخَامِد ؛ ومن ٱدَّعَىٰ ماليس له فقد باء بالفُجُور، ومن تَشَبَّع بما لم يُعْط فهو كَلابِس ثَوْبَى زُور .

ومَن قَالَ : إنَّ النَّجْمَ أكْبَرُها السُّهَىٰ * بغَـيْرِ دَلِيـلٍ كَذَّبَتْـهُ ذُكَاءُ!

أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيْقُها المُرَجَّب، وكَرِيمُها المُبَجَّل وعالمها المُهَذَّب؛ يختلف حالى فى الأفعال السَّنية بٱختلاف الأعراض، وأَمْشِى مع المقاصد الشريفة بحسب الأغراض؛ وأَتَزيَّا بكلِّ زِىٍّ جميـلٍ، فأنْزِلُ فى كلِّ حَىٍّ وأسِـيرُ فى كلِّ قَبِيل؛ فتَارةً أُرىٰ إمامًا عالمـا، وتارة لِدُرِّ الكلام ناثِرًا وأُخرىٰ لعُقُود الشِّعر نَاظِما؛ وَطورًا تُلْفِينِى جَوادًا سابقا، ومَرَّةً تَجِدُنِى رُمْحًا طَاعِنًا وسَهْمًا راشِقا؛ وآونَةً تخالُنِى نَجْمًـا مُشْرِقا، وحِينًا تَحْسَبُنِى أُفْعُوَانًا مُطْرِقا؛ قد فُقْتُ الشَّـبَّابَة فى الطَّرَب، وبَرَّزْتُ عليها فى كلِّ معـنًى وإن جمع بيننا جِنْسُ القَصَب؛ فكانتْ للأغانى، وكُنتُ للمَعـانى؛ وجاءتْ بغَريب النَّغَم، وجِئتُ ببَـديعِ الحِكَم؛ ولَعِبتْ بالأسمـاع طَرَبا، ووَلِعْتُ بالألباب فاتَّخذَتْ لدَهْرِها ممـا عَراها عَجَبًا.

فقال السَّيْف: ذَكَّرتَنِي الطَّعْن وكُنْتُ نَاسيا، وطَلَبتَ التَّكَثُّر فازْددتَ قِلَّةً وعُدتَ خَاسِيا؛ فكنتَ كطالب الصَّيْدِ فى عِرِّيسَةِ الأسَدِ إن لَقِيَه أهْلَكه، وخَالَفْتَ النَّصَّ فألقَيْتَ بيَدَيْك إلى التَّهْلُكه؛ فٱقْنَعْ من الغَنِيمة بالإياب، وعُدَّ الهَزِيمةَ مع السَّـلامَةِ من أرْبَحِ الأكساب؛ فلستَ ممن يَشُقُّ غُبَارِى، ولا يُقـابِل فى الهَيْجاءِ ضَرَمِى ولا يَصْطَلِى بنَارِى؛ فكَمْ من بَطَل أبطلتُ حِراكَه، وكَمْ من شُجاعٍ عجلتُ هلاكَه؛ وكَمْ صِنْدِيدٍ أرَقْتُ دَمَه، وكَمْ ثابِتِ الجَأْشِ زَلْزَلْتُ قَدَمَه.

وأراد القَلَمُ أن يأخُذَ فى الكلام، ويَرْجِعَ إلى الجدال والخِصام؛ فَغَلَب عليه رِقَّةُ طَبْعِه وحُسْنُ مَوارِدِه، وسَلاسَة قِيادِه وجَمِيـلُ مَقاصِده؛ فمـال إلى الصُّلْح وجَنَح إلى السِّلْم، وأعرض عن الجَهْل وتَمَسَّك بالحِلْم؛ وأقبل على السَّيْف بقَلْب صَاف، ولِسان رَطْبٍ غيرِ جَاف؛ فقال: قد طالتْ بيننا المُجادَلَه، وكَثُرتْ المُراجعة والمُقَاوَلَه؛

مع ما بيننا من قَرابَةِ الشَّرف ، وأَخْذ كلٍّ منّا من الفضْــل بطَرَف ؛ فنَحْنُ فى الكَرَم شَقِيقان ، وفى المَجْد رَفِيقان ؛ لا يَسْــتَقِلُّ أحدُنا بنَفْسه ، ولا يأْنَس بغير صَاحِبه وإن كان من غير جِنْســه ؛ وقد حَلَبْتُ الدَّهْرَ أشْطُرَه ، وعَلِمتُ أصْفَاه وأكْدَرَه ؛ وقَلَّبْتُه ظَهْرا وبَطْنا ، وجُبْتُ فَيافِيــه سَهْلا وحَزْنا ؛ وإنَّ مُعادَاةَ الرَّفِيق ، ومُبايَنَــة الشَّقِيق ؛ تُوجِب شَمَــاتة العَدُوِّ وتَغُمُّ الصديق ؛ فهلْ لكَ أن تَعْقِد للصلح عَقْدًا لا يُتَعدَّىٰ حَدُّه ، ولا يُحَلُّ علىٰ طُولِ الزَّمان عقْدُه ؟ ؛ لنَكونَ أبدًا مُتآلِفَيْن ، وعلى السَّرَّاء والضَّرَّاء مُتَصاحِبَيْن ؛ حتى لا يُضْرب بنَدِيمَيْ جَذِيمَــةَ مع اَصْطِحابنا مَثَــل ، ولا يَتَشَبَّهُ بنــا الفَرْقَدان إلا بآءا بالخَطَل .

ولَسْت بمُسْــتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّــهُ * علىٰ شَعَثٍ ، أىُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ؟

فقال السَّيْفُ : لقد رأيتَ صَوَابا ، ورَفَعتَ عن وَجْه المَحَجّة نِقابا ؛ وسَرَيْتَ أحْسَن مَسْرىٰ وسِرْت أجْمَلَ سَيْر ، وصَحِبَك التَّوفيقُ فأشَرْتَ بالصُّلْح : وَالصُّلْحُ خَيْر .

وَقَدْ يَجْمَــعُ اللهُ الشَّتِيتَيْن بعــد ما * يَظُنَّانِ كلَّ الظَّنِّ أن لا تَلَاقِيَا !

ثم قالا : لا بُدَّ من حَكَمٍ يكونُ الصُّلْح علىٰ يدَيْه ، وحاكِمٍ نَرْجِع فى ذلك إليــه ؛ لنَحْظىٰ بزيادة الشَّرَف ، ونَظْفَر من كَمال الرِّفعــة بغُرَفٍ من فوقها غُرَف ؛ ولَسْــنا بفائزين بطَلِبَتِنا ، وظَافِرين ببُغْيَتِنا ؛ إلا لدىٰ السَّــيِّد الأكمل ، والمَــالِكِ الأفْضَل ؛ المــاجد السَّرِىّ ، والبَطَل الكَمِىّ ؛ والبَحْر الخِضَمّ ، والغَيْث الأعَمّ ؛ مَوْلى المَعَالِى ومُولِى النِّعَم ، ومُمْتَطِى جَوادِ العِزِّ ورَافِع أعلام الكَرَم ؛ جامِع أشتات الفضائل ومَالك زِمامها ، وضَابِط أمْرِ الدَّولة الظاهرية وحَافِظ نِظامها ؛ المَقَرّ الكريم ، العــالى ، المَوْلَوِىّ ، الزَّيْنىّ ، أبى يَزِيدَ الدَّوادار الظَّاهِرِىّ : ضاعف الله تعــالىٰ حَسَناته المُتَكاثِره ، وزاده رِفْعــةً فى الدَّارَيْن ليَجْمع له الاَرتقاءَ بين منازل الدُّنيــا والآخِره ؛ فهو قُطْبُ

المملكة الذى عليه تدُور، وفارِسُها الأروَع وأسَدُها الهَصُور؛ وبطَلُها السَّمَيْدَع وليثُها الشهير، وأبُو عُذْرَتِها حقًّا من غير نُكْرٍ وٱبْنُ بَجْدَتِها السَّاقِطَةُ منه على الخَبِير؛ ومَعقلُها الأمْنَع وحِرْزُها الحَصِين ، وعِقْدُها الأنْفَس وجَوْهَرِها الثَّمين ؛ وتِلَادُها العَالِمُ بأحوالها ، والجَدِير بمعرفة أقْوالِها وأفْعالها ؛ وتَرْجُمانُها المُتَكلِّم بلسانها، وعَالِمها المُتَفَنِّن فى أفْنانِها؛ وطَبِيبُها العارِفُ بِطِبِّها، ومُنْجِدُها الكاشف لكُرَبِها .

هذا : وإنَّه لَمَالِكُ أمْرِنا ، ورَافِعُ قَدْرنا ؛ والصَّائِل منا بالحَدَّيْن ، والجَامِع منا بين الضِّدَّين ؛ فلو لَقِيه «فَارِسُ عَبْسٍ» لولَّىٰ عابِسا، أو طَرَق حِمىٰ «كُلَيْبٍ» لبات من حِمَاهُ آيِسا ؛ أو قارَعه «رَبيعة بن مُكَدَّمٍ» لعَلا بالسَّيْف مَفْرِقَه، أو نازَله «بِسْطامٌ» لبَدَّد جَمْعه وفَرَّقه ؛ كما أنه لو قُرِن خطُّه بنَفِيس الجوهر لعلاه قِيمَه، أو قاسَمه «ٱبنُ مُقْلَةَ» فى الكتابة لما رَضِىَ أن يكون قَسِيمَه ، أو فاخَره «ٱبن هِلالٍ» لَرأَىٰ انه سَبَقه إلىٰ كلِّ كَريمَه .

وبالجُمْلة فعزُّه الظاهِر وفَضْله الأكمل ، وسِمَاكُه الرَّامِحُ وسِمَاكُ غيره الأعْزَل ؛ فلا يَسْمَح الزمانُ أن يَأْتِىَ له بنَظِير، ولا أراد مُدَّعٍ بُلُوغَ شَأْوِه إلا قِيل : ٱتَّئِدْ فلَقَد حَاوَلْتَ الانْتِهَاضَ بجَنَاحٍ كَسِير :

فَحَيَّهَلًا بالمَكْرُماتِ وبالعُلَىٰ * وحَيَّهَلًا بالفَضْلِ والسُّؤْدُدِ المَحْضِ!

فالحمدُ لله الذى جَمَعنا بأكْرَم محلٍّ وأفضل، وأحْسَنِ مَقامٍ وأجْمل ؛ فَهلُمَّ إليه يَعْقِدْ بيننا عَقْد الصُّلح، ونُبَايِعُه على ملازمة الخِدْمة والنُّصْح .

ثم لم يَلْبَثا أن كَتَبا بينهما كتاباً بالصُّلْح والمُصافَاه ، وتَعاهَدا على الوُدِّ والمُوافَاه ؛ وأعْلَنَ بعَقْدِ الصُّلح مُنادِيهما، وحَدَا بِذِكْر التَّعاضُدِ والتَّناصُر حَادِيهما؛ وراح يُنْشِد :

حَسَم الصُّلحُ ما ٱشْتَهَتْه الأعَادِى، * وأذَاعَتْه ألْسُنُ الحُسَّادِ!

وزَالتْ عنهما الأحْقادُ والإِحَن ، وباتا فى أعَزّ مكانٍ وأشرفِ وَطَن ، وثَلَّث قِرَانهما فأسْعد ، ثم قام مُنْشِدُهما فأنْشَد :

لايُنْكَر الصُّلْحُ بين السَّيفِ والقَلَمِ * فعَاقِدُ الصُّلْحِ عَالى القَدْر والهِمَمِ !

أبو يَزِيدَ نِظَامُ المُلْكِ ما لِكُنا * ووَاصِلُ العِلْمِ فى عَلْياه بالعَلَمِ .

فهو المُراد بمـا أبْدِيهِ من مِدَحٍ * وغَايَةُ القَصْدِ من تَرْتِيبِ ذَا الكَلِمِ !

وإنْ جَرىٰ مَدْحُ سَيْفٍ أو عَلاَ قَلَمٌ ، * فَذَاكَ وَصْفٌ لما قد حَازَ من كَرَمِ !

قلتُ : وسَببُ إنْشائِى لهذه الرسالة أن الأمير أبا يَزِيدَ الموضوعة له ، تَغَمَّده الله تعالىٰ بالرحمة والرضوان ، كان من جَوْدة الخَطِّ وتَحْرِير قواعِده فى الطَّبقة العُلْيا ، وعَظُمَتْ مَكَانَتُه عند سلطانه الملك الظاهر «برقوق» وعَلَتْ رُتْبته حتى ولَّاه وَظيفة الدَّوَادَارِيَّة بإمرة تَقْدمة ألْف ، ولم يَزَلْ مُقدَّمًا عنده حتى مات وهو مُتَولِّيها ، وأوْلَانِى عند عَمَلِها له من الصِّلَة والبِرِّ المُتوالى ما يَقْصُر عنه الوَصْف ، ويَكِلُّ عنه اللِّسان .

الصِّنْفُ الخامس

(من الرسائل ـ الأسئلةُ والأجوبةُ ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الأَسْئِلة الامْتِحانيَّة)

قد جَرَتْ عادةُ مَشَايخ الأَدَب وفُضَلاءِ الكُتَّاب أنهم يَكْتُبون إلى الأفَاضِل بالمَسَائل يَسْألُون عنها : إمَّا على سبيل الاسْتِفهام واسْتِماحَة ما عند المَكْتُوب إليه فى ذلك ، وإمَّا علىٰ سبيل الامْتِحان والتَّعْجِيز . ثم تارةً يُجاب عن تلك الأسْئِلة بأجْوِبَة فتُكْتَب ، وتارةً لا يُجاب عنها ، بحسب ما تَقْتضيه الحال .

وهـذه رسالةٌ كتبها الشيخ جمال الدين بن نَباتة المِصْرىّ إلىٰ الشيخ شِهاب الدِّين محمود الحلبيّ صاحب ديوان الإنشاء بالمَمْلكة الشَّاميـة ، وقد بَلَغه أن بعض أهْـلِ الديوان نَالَ منه ، وأن الشيخ شِهاب الدِّين المذكورِ ناضَلَ عنه ودَافَع ، فكتب إليه يَشْكره علىٰ ذلك ويسألُ كُتَّابَ الدِّيوان عن أسـئِلة بعضُها يرجع إلىٰ صَنْعة الإنشاء ، وأكثَرُها يرجع إلىٰ فَنِّ التَّاريخ . وقد بَيَّنتُ بعضها ونبهتُ عليه فى مواضعه فى خلال هذا الكتاب ، وهى :

لا يُخرِجُ الكُرْهَ منِّى غيرُ نَابِيَةٍ(١) * ولا أَلِينُ لِمَن لا يَبْتغى لِينِى !

الاستفتاح بـ«لَا» تَيمُّنٌ ببركة الشَّهاده ، وهى هٰهنا مِقْراضٌ يقطَعُ من العَيْب المَدَّةَ ويَحْسم المَـادَّه ، فَحَسم الله عن سـيِدنا الإمامِ العلَّامةِ القُدْوة ، شِهابِ الدِّينِ ، مُكمِّلِ الآدَابِ ، ومَلِكِ الشُّعراءِ والكُتَّاب ، شَرَّ كلِّ عَيْنِ حاسِدٍ ولو أنها عَيْن الشَّمْس ، وحَمَاه عن مدّ أَلْسِنَةِ ذوى الاغْتِياب والارْتياب مِن الهمج والهَمْس ، وهَيَّأَ له أسْبابَ الخير حتى يكون يَومُه فِيه مُقصِّرًا عن الغد زَائدًا على الأمسِ ، واسْتخدَم له الأقدارَ حتَّىٰ تكونَ فَرائِضُ تَقبيل أنَامِلِه العَشر عندهم كفَرائِض الخَمْس ، وجَعَل ما يَرُدُّ عنه العَيْنَ من العَيْب ـ بُعْدَ شَأْنِه عن المُتَنَاوَلِ ـ وِقايةً عن اللَّمْس ، حتَّىٰ يكونَ المَعْنِىَّ بقَوْل القَائِل :

ولَا عَيْبَ فِيــه غيرَ أنَّ عَلَاءَهُ * إذا حَدَّدُوه كان قَدْ جَاوَزَ الحَـدَّا ،

ولا عَيْبَ أيْضـا فى مَآثِرِ بَيْتِـــه * سِوَى أنَّها تُروىٰ بألْسِـنَةِ الأَعْدَا !

وحتَّى يُؤمِّنَ عليه القَائِلُ :

مَا كَانَ أحْوجَ ذَا الكَمَالِ إلَىٰ * عَيْبٍ يُوقِّيه مِنَ العَيْنِ !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيّره لما يريد وإنما هو . لا يُخرِجُ القَسْرَ منى غيرُ مَأبِيَةٍ . القَسْرُ ، القهرُ والمأبية مصدر كالمَحْمِيَة معناها الإباء والبيت من كلمة لذى الإصبع العَدوانى .

ويُقبَلَ من الآخرِ قولُه :

شَخَص الأنامُ إلىٰ كَمالك فاْستَعِذْ * مِن شَرِّ أعيُنِهِم بعَيْبٍ وَاحِدِ!

العَبْد يَخْدمُ بسَلامٍ مارَوضَـةٌ نَقَّطَها الجَوُّ بدَرِّ سَحائِبِه ، وأفْرَغَ عليها الأُفُقُ سَفَط كَواكِبه ، وآمْتدّ نَوْء الذِّراعِ لتَدْبيج سمائها ، وتأْرِيج أرْجائها ، وتَخْيش مَعاصِم أنْهارِها المُنْشَقَّة بأفْنائها ، وصِقال نَسَماتها السَّحَرِيه ، ومُغازَلة عُيونها السِّحْرِيَّه ، وهَوان الغالِية بنَفَحاتِها الشَّجَرِيَّه ؛ تَصْرِفُ دَنانير أزْهارِها الصُّروف ، ويَسُلُّ جَدْولُها على الهُمُوم السُّيوف ، وتَجْذِبُ حَمائِمُها القُلوبَ بالأطْوَاق ، ويَتَشَفَّع دَوْحُها إلى النواظر بالأوْراق ؛ قد تَرَقْرَق فى وَجَناتِها ماءُ الشَّباب ، وغَنَّىٰ مُطْرِبُ حَمامِها وعَنْتَرُه(١) فى حك من الذُّباب ، وبَحرها رَوْنَق السَّيْف وفى قَلْبِ رَوْضَتِه الذُّباب(٢) .

فما كُلُّ أَرْضٍ مِثْل أَرْضٍ هِيَ الحِمَىٰ ، * وما كُلُّ نَبْتٍ مِثْـل نَبْتٍ هُوَ البَانُ!

يَوْمًا بأَبْهَج منـه أشْواقا ، وأطْيَبَ منـه آنْتشَاقا وآتِّسَاقا ، والطَّيِّبون للطيبات ، ولكلِّ غَيْثٍ نَبَات ، وما لذلك الغَيْث إلا هٰذا النَّبات .

ونَعُود فنَقُول : لا أدْرى أأَتعجَّب :

عَلىٰ أنَّهـا الأيَّامُ قد صِرْنَ كُلُّها * عَجَائِبَ حتَّىٰ ليس فيها عَجَائِبُ ! !

من قَوْمٍ هُمْ ما هُم : شَرْبٌ مُناسِب ، وطِيبُ مَكَاسِب ؛ قد أَمْكَنَتْهم المَعالى ، وطاوَعَتْهم الأيامُ واللَّيالِى ؛ وخَدَمتْهم جَوارِى السُّعُود ، وتَطامَنَتْ لكلِّ منهم مَراقِى الصُّعود ، كابر بسكون الجاش منحدر (؟) وكنتُ قد آسْتَجْدَيْتُ كُلًّا منهم ولكن بالكَلام ، وآسْتَسْقَيْتُ ولٰكن قَطْرةً من غَمام الأَقْلام :

وأَيْسَرُ ما يُعْطِى الصَّدِيقُ صَدِيقَه * من الهَيِّنِ المَوْجودِ أنْ يَتكَلَّما !

(١) العنتر الذباب أو صوته . (٢) ذباب السيف حدّه أو طرفه المتطرف .

"وليُسْعِد النُّطْق إن لم يُسْعِد الحالُ" فضَنَّ وظَنَّ ماظَنّ ، واْستَعْطِف بنَسِيم الكَلام غُصْنُ يَراعِه فما عَطَف ولا حَنّ ؛ وبَخِل بما رَزَقه الله فإنَّ الفَضِيلة من الرِّزْق ، وحَرَمني لذَّة أَلْفاظِه فإنها التي إذا أُدْخِلت فى رَقٍّ دخل حُرُّ البلاغة تحْت ذلك الرِّق ؛ وهَلْ هو البَحْر فكَيْف شَحَّ بمَدَّةٍ من مَدِّه ، والْغَيْثُ ولا أقولُ : إن الذى حَبَسه إلا ما قَسَمه الله تعالىٰ من الحَظِّ عند عَبْده :

وإذا الزَّمانُ جَفَاكَ وهو أبو الوَرَىٰ ✻ طُرًّا فَلَا تَعْتِبْ على أَوْلَادِه!

فأعلى الله كلمةَ سَيِّدنا العلَّامَة فى الدَّارَيْن ، وشكر غَنِيَّ جُودِ كَرمِه وكَلِمه الدَّارَّيْن ، [فهو] صاحِبُ ديوانهم ، وحُجَّة زَمَانِهم ؛ فلقد وَصَفني بما يَزِيد على الجواب ، وشافَهَنِي من الشُّكر بما لا يَتَوارَىٰ من الرِّزْق بحِجَاب ، وأَمَّنِني العِزَّ والزمانُ حَرْب ، ونَصَرني والأيامُ سُيوفٌ تَتَنوّع من الضَّرْب فى كلِّ ضَرْب ؛ وأعطانى كَرَمه والمَحَلُّ مَحْل ، وفى قَلْب الزَّمانِ دَخْل ، ونَحَلَنى شُهْدَةَ إحْسانه والأوقاتُ كإبَر النَّحْل ؛ حتىٰ عَذَرَنى فى حُبِّه من كان من اللائمين ، واْهتديْتُ من لَفْظه وفَضْله بقَمَرَيْنِ لا يَميلُ أحَدُهما ولا يَمِين ، وصُلْتُ من جَاهِه ومَالِه بيَدَيْنِ إلا أن كِلْتَيْهما فى الإعْراض يَمِين :

ويَلُومُني فى حُبِّ عَلْوة نِسْوَةٌ ✻ جَعَل الإلٰهُ خُدُودَهُن نِعالَها!

وحَرَس الله سَيِّدَنا شِهابَ زَمانِهم ، كما حَرَس به سَماءَ دِيوانِهم ؛ فلقد أسمعني من الشُّكْر ما أرْبَىٰ علىٰ الأَرَب ، وجَعَلِني كحَاجِب حينَ دَخَل على كِسْرَىٰ وهو وَاحِدٌ من العَرَب خَرَج وهو سَيِّدُ العَرَب ، وهَدَتْنِي أنْوارُه وأنا أَخْبِط من لَيْلِ القَرِيحَة فى عَشْواء ، وجَادَتْ علىَّ أنْواؤُه ونَاهيكَ بتلك الأنْوار من الأَنْواء ، ورَفَعتْنِي أَلْفاظُه ولٰكِنْ على السِّماك برَغْمِ حَسُودِى العَوَّاء ؛ وهٰذه قَصَائِدُه فِىَّ تَتَدارَسُها أَلْسنةُ الأقلام ، وتُكْتَب بأنْقاس اللَّيالى علىٰ صَفَحاتِ الأيَّام ؛ من كلِّ بَيْتٍ هو بَيْتُ مالٍ لا يَنْقُصُه الإنفاق ، ولولا التُّقىٰ لقلتُ : إنَّه البَيْتُ الذى أَمَر الله تعالىٰ بحَجِّه الرِّفاقَ من الآفاق ؛

فمتى أتفرَّغ لطلب مدحه، وقد شغلني بمنحه؟، ومتى أجاريه بامتداح وإنما مدحى له من فوائد مدحه:

وما هو إلَّا من نداه وإنَّما * معاليه تُمْلِيني الذي أنا كاتبُه!

أم أتعجَّبُ ممن ثنيتُ عنان الثناء إليه، وجلوتُ عرائس المدائح عليه؛ وعاديتُ فى تنضيد أوصافه الكرى، وأنضيتُ بالقلم له فى نهار الطِّرس وليل النِّقس من السَّير والسُّرى؛ ومدحتُه بملءِ فِيَّ واجتهدتُ فى وصفه وكان سواء علىَّ أن أجهدتُ، فى وصفه أو اجتهدت؛ فجازانى مجازاة السِّنِمَّار، وأوقعني من عنت عتْبه فى النَّار، وجعل محاسنى التى أُدلِي بها ذنوبًا فكيف يكون الاعتذار؟:

وكان كذئب السُّوءِ إذ قال مرَّةً: * لعمروسةٍ والذِّئب غرثانُ مُرمِلُ:

أأنتِ التى من غير سُوءٍ شتمتِنِي؟ * فقالتْ: متى ذا؟ قال: ذا عامُ أوَّلُ

فقالتْ: وُلِدتُ الآنَ بل رُمْتَ غدرةً * فدُونَكَ كُلْنِي لا هنالكَ مأكلُ!

وحلُّ هذا المُترجَم، وتحقيق هذا الظَّنِّ المُرجَّم؛ أنه بلغني أن جماعةً من الذين استفتيتُهم استنباطًا لفوائدهم، والتقاطًا لفرائدهم؛ لا تكليفًا لهم فيما لا يقوم به إلَّا الأقوى من الأقوام، ولا يُستنجَدُ به فى هذا الوقتِ إلا بأرباب صفحاتِ السُّيوف لا أربابِ قصباتِ الأقلام؛ أرادوا الغضَّ منِّي، ونفيَ الإحسانِ عنِّي؛ وهيهات!

* أنا أبو النَّجْمِ وشعْرى شِعْرِى *

هأنا وبضاعتِي، وهذه يدى لا أنِّى ألقيتُ بها إلى السِّلْمِ ولكنْ لأعْرِضَ صناعتِي: * هو الحِمَى ومغانيه مغانيه *

وإنهم اجتمعوا بالمَيْدانِ على حديثِي، وذكروا قديمِي وحديثِي؛ وتسابقوا فى الغيْبة أفراسَ رهان، وأعجب كلًّا منهم أن يقولَ: هذه الشَّقْراءُ فى يدى وهذا المَيْدان؛

ولاَمُوا وعَذَلوا، وهَمُّوا بالسَّبِّ وفعَلوا، وٱسْتطابُوا لحمَ أخيهم فسَلَقُوه بألْسِنةٍ حِدَاد وأكلوا؛ حتى تعدَّىٰ ذلك إلىٰ من جادَ علىَّ بالجوَاب، وفعلُه إمَّا جزاءٌ للمَدْح وإمَّا للثَّــوَاب :

فقلتُ لها عِيثِي جَعَارِ وجَرِّرِي * بلَحْمِ ٱمْرِئٍ لم يَشْهدِ اليَوْمَ نَاصِرُه!

وما كان المَليح أن يُغْرِي بى من سبق مَدْحُه إلىّ، ومَن ٱنْتَصَر بعِزِّه لنَفْسِه فما ٱنتَصَر لَدَىّ" "وهذا لعَمْرى جَهْد من لاَلَه جَهْد" وما تخلو هذه الأفعال: إمَّا أن تكونَ مُجازَاةً علىٰ مَدْحهم، فأيْنَ الكِرَام وفَضْلُهم، والمُنْصِفُون وعَدْلُهم ؟، أو ظَنًّا أنِّى عَرَّضتُ بهم فيمَنْ عَرَّضْتُ، فأيْن ذَكَاء الأَلِبَّاء وأينَ عَقْلُهم ؟ ؛ وهَلْ تَظنُّ السَّماءُ أن يَدًا تَصِل إليها، والنُّجُومُ أن خَلْقًا تَحْكُم عليها ؟ ؛ والذَّهَب مَحْرُوسٌ لا يَصْدَا جِرْمُه، والجَوْهر مَعْروفٌ لايُجْهَلُ حُكْمُه؛ ومَن الذى تُحَدِّثه نَفْسُه أن يَجْحَد الشَّمسَ فَضْلها الطَّائِل، أو يُحَسِّنَ له عَقْلُه أن يقولَ : سَحْبانُ وائِلٍ كَبَاقِل ؟ (١) ... ... أدْرِكْنِي ذَلك اليَوْمَ ولَمَّا أُمَزَّق، وأَنْجِدْنِي بكلِّ لَفْظةٍ هى أمْضىٰ من السَّهْمِ وأرْشَق، وأضْوَءُ من النَّجْمِ وأشْرَق؛ وما أعْرِفُ كَيْفَ صَبْرِى علىٰ هذا الحَرْب فى صُورة السِّلم؟، وما أظُنُّه أراد إلا أن يُعَلِّم قَلْبِي الذى فى يَده الحُكْم، كما عَلَّمه للقَلَم؛ وحيث قَضَى الحديثُ ما قَضَىٰ، ومَضَى الوقْتُ وما كان إلا سَيْفًا فى عرْض العَبْد مَضَىٰ :

فَكَرَّتْ تَبْتَغِيــهِ فَصَادَفَتْــهُ * علىٰ دَمه ومَصْرَعه السِّــباعا

فأنا أَنْشُــدُ الله تَعالىٰ هؤُلاءِ السادةَ الغائِبين، أو القَوْمَ العاتِبين؛ هلْ يَعْرِفون أنَّ الذى عَرَّضتُ به منهم قَوْمٌ قد ٱسْتولَىٰ عليهم العِيّ بجَرِيضه، ونَزَل فيهم الجِهَاد بقَضِّه وقَضِيضه؛ وأصْبح بابُهم لهم كبُسْتانٍ بلا ثِمار، ودِيوانُهم علىٰ رَأْيِ أبِي العَلاءِ كديوانِ أبي مِهْيار؛ لايُحْسِنُ أحدُهم فى الكِتابة غيرَ العامة المُدَرَّجه، والعَذَبَة المُعَوَّجه،

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة .

والعَباءَةِ الضَّيِّقةِ والأثْواب المُفَرَّجَه ؛ و يتَناوَلُ السلم باليمين وكِتَابه إن شاء الله تعالىٰ بالشمال، ومَشَىٰ هذا علىٰ هـٰذا ولٰكن على الضَّلال؛ لو سُئِل أحدُهم عن «البَدِيع» في الكِتَابة لم يَعْرِف من السؤال غَيْر التَّرْدِيد، وعن «عبدالحميد» لزاد في الفِكْر ونقص: وعَبْدُ الحميد عَبْدُ الحميد؛ و«الصَّاحِب» لقال: إنه تبَرْقُع بمَجْلِسي، و «الخُوارِزْميّ» لقال: سَرْجُ فَرَسِي، «والفَاضِل» لقال: ها هو ذا ذَيْلُ مَلْبَسِي. فإن كان الأمر كذلك فِيمَ المَلَام والتفنيد:

عَلَّقُوا اللَّحْمَ للبُزَا * ةِ عَلَى ذِرْوَتَيْ حَضَنْ(١)

ثُمَّ لامُوا البُزَاةَ أنْ * قَطَّعتْ نَحْوَها الرَّسَن،

لَوْ أرادُوا صِيانَتِي * حَجَبُوا وَجْهَكَ الحَسَن!

والوَجْه الحَسَن هٰهُنا وَجْه المَنْصِب وحِجابُه عن شَيْن تلك الآثار، وتَخْميش تلك الألفاظ.

و إن كان غَيْر ذلك فما مَثَلِي مع من ذَكَرَني إلا قولُ القائل:

سَافِرْ بطَرْفِك حَيْثُ شِئْـ * ـتَ فَلَنْ تَرَىٰ إلَّا بَخِيلَا!

فقيل له: بَخَّلْتَ الناسَ، فقال: كَذِّبوني بواحِد. وها أنا فلْتُكَذِّبُوني بواحِدٍ مِمَّنْ عَرَّضتُ، وصَحِيحٍ مِمَّن أمْرَضْتُ؛ وليَبْرُزْ إلىٰ مَضْجَعِه، وليَكُنْ على يَقِينٍ من مَصْرَعِه؛ ولا يَتْرُك شيئا من أدَوَاتِه، ولا يأْتِي إلَّا ومعه نَادِبَتُه من حَمَائِم هَمَزاتِه.

وأنا أقْتَرِحُ عليه من مسائل الكتابة بَعْضَ ما ٱقْتَرحه الفُضَلاء، ونَبَّه عليه العُلَماء؛ وإلّا فما أنا أبُو عُذْرَتِه، ومَالِكُ إمْرَتِه؛ ولا يَلُومُ إلَّا القَائِل:

مَن تَحَلَّىٰ بغَيْرِ ما هو فيه * فَضَحَتْه شَوَاهِدُ الإمْتِحانِ!

(١) حضن جبل بأعالي نجد.

فانه الذى نَبّهنِى عليه و إن لم أ كُنْ سَاهيا ، وذَكَّرنى الطَّعْنَ وما كنتُ نَاسيا ؛ حتىٰ رَمَيْتُهُ من هذه المسائل ، فى مجَاهل ؛ لا يُهْتدىٰ فيها بغَيْر الذِّهْن الوَاقد ، وآقْتَحَمْتُ به فى بِحارٍ لا يَعْصِم منها جَبَلُ الفِكْر الجَامد ؛ علىٰ أنَّها فيما أغفلت كالثَّمَدِ من البِحَار ، واللَّمْحَةِ من النَّهار ؛ ولولا الآخْتِصار ، لأتَيتُ منها بالجَمْع الجَمّ فلنَحْمَدِ اللهَ والآخْتِصَار ، فأقول :

من كَتَب فى الوَرَقِ وآستَنْبطه ؟ ومن خَتَم الكِتَاب بالطِّينِ و ربطَه ؟ ومن غَيّر طِينَ الكِتَاب بالنَّشَا وَضَبطه؟ ؛ ومن قال : أمَّا بعدُ فى كتابه ؟ ومَن جعلها فى الخُطَب وأَسْقَطَها فى آبْتِدائه فى المكاتبة وجَوابِه؟ ؛ ومن كَرِه الآستشهادَ فى مُكاتَبات المُلُوك بالأَشْعار؟ ، وكيف تَرَكها علىٰ ما فِيها من الآثار؟ ؛ ومَن الَّذى أراد أن يَكْتُب نثرًا فجاء شِعْرا ؟ ، ومن وَضَع هذه الطُّرَّةَ فى التقاليد وآخْتَرعها ؟ ، وما حُجَّته إذ قدَّمها على آسْمِ اللهِ ورَفَعها ؟ ، ومَن الَّذى باعَدَ بين السُّطور ووَسَّعَها ؟ ، وكيف تَرَك بالتعاظم فى كُتُبِه سُنَّة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ولم يَسَعْه من التَّواضُع ما وَسِعَها ؟ ؛ ومن آسْتَغْنىٰ بكتابة آيَةٍ من كتاب الله عن الجَوَاب؟ ، ومن آ كْتَفىٰ ببيْت من الشِّعر عما يحتاج من تَطْويله الكِتَاب؟ ؛ ومن الَّذى عَانَى المُتَرجمات ورَتَّبها ؟ وأخْفىٰ مُلَطَّفاتِ الجَوَاسيس وغَيَّبها ؟ ؛ ومَن الَّذى سَنَّ البُرُدَ وبَعثها فى المُلِمَّات ؟ ، ومَن حَاكَىٰ شَيئًا من مُلْكِ سليمانَ فآستخدم الطُّيورَ فى بَعْض المُهِمَّات ؟ ؛ وما أوْجَزُ مكاتبةٍ كُتِب بها عن خَليفةٍ فى مَعْنى ؟ ؛ وما أَبلغُ جوابٍ وأوْجَزُه أجابَ به عن خَليفــةٍ مَن لا سَمَّىٰ ولا كَنَّىٰ ؟ ؛ ولِمَ أُرِّخَ بهِجْرة النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم؟ وكَيْف لم يؤَرَّخْ بمَوْلِده أو غير ذلك من الأيام ؟ ، ومن الذى أمَرَه الخليفةُ بكِتَابة مَعْنى فأُرْتِجَ عليــه الكلامُ ولُقِّنَه فى المَنَام؟ ، ومن الذى وَصَف برسالةٍ طويلةٍ شيئًا لم يَصِفْه بنِثَارٍ ولا نِظَامٍ؟ ؛ وكَيْفَ جَاز للكاتب أن يَكْتُب آيةً من الكِتَاب فى لفظةٍ يَحْسَبها من لا يَحْفظُ أنَّها من عِنْده

لامن حِفْظِه ؟، مثلُ قوْله مع الرسول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقولِ الآخَرِ فى كتابه : ﴿ هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ ﴾ . وكثيرٍ من هذا؟ وهَلْ يُؤخَذُ عليه فى مِثْل ذلك كما أُخذَ على الحَجَّاجِ فى أسماء(١) المُسْتَغِيثِينَ به من أهلِ السِّجْن : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ؟ . وما الفَرْقُ بينهما ؟

وعَلامَ يُطَوِّل الكاتِبُ باءَ البَسْمَلَه ؟ ، ولا يُثْبِت إلا قليلًا واوَ الحَسْبَلَه ؟ ؛ ولا يُحَمْدِل ولا يُبَسْمِل علىٰ ما أُلِف ، وكَيْفَ يُعلِّمُ فى بَعْض السَّجعاتِ على الأسماء المَقْصورة بالياءِ والأَصلُ فيها الأَلِف ؟؛ وأَسْأَلُه كَيْف يَصِفُ القَراطيسَ والأقلام ويَسْتَدْعيها ؟ ، والسِّكِّين والدَّواةَ ويَسْتَهْدِيها، وكَيْف يكتب مَلِكٌ طَلَب منه عَدُوٌّ قَطِيعةً عن جَيْشِه يُعْطِيها ؟؛ وكَيْف يَكْتب عن خَليفةٍ ٱستَسْقىٰ ولم يُمْطَر؟، وخَليفةٍ صارَع فصُرِعَ كالمُعْتَصِم وكَيْف يعْذَر؟ ؛ وما الذى يَكْتُبُ فى نارٍ وقعتْ فى حَرَم النَّبِيِّ صلَّى الله عليه وسلم ؟ وما الَّذى يَكْتب عن المَهْزُوم إلىٰ من هَزَمه فى معنى رُكُونه إلى الإحجام ؟ ؛ وكَيْف يُهَنِّى خليفةً خُلِعَ فَرَجع، وغُرِّبَ عن السِّجن وطَلَع ؟ ؛ وأَسَرَه العَدُوُّ ثم تَخَلص وٱستقام بعد ماأَنهَضه الدَّهْر بمَرَض، أو تَمَرَّض فانْتَهَض؟؛ وكيف يُهَنِّى من زَوَّجَ بعد موت أبيه أُمَّه ، ويُعَزِّى والدا قَتَلَ ولده وولدا قتل والِدَه ويُصَوِّب حُكْمَه ؟؛ ويَكْتُب عمن حَاصرَ حِصْنًا وتركه بعد تَسْهِيل المَسالك، وكَيف يَكْتُبُ فى نِيلٍ لم يُوفِ لا أحْوجَ اللهُ لِذٰلك ؟؛ ويُعَزِّى كافرًا عن بَعْض الأعِزَّاء الألْزام، ويُنْشِئُ عَهْدَ يَهُودِيٍّ بوزارة أمير المؤمنين عليه السلام؟؛ ويكتبُ تَقْليدًا لثلاثة أو أربعة من الحُكَّام؛ ويَسْتَنْجِدُ بأموالٍ أو مَسَاكِينَ(؟)من عَدُوٍّ كافرٍ علىٰ كافر؟ ويُبَشِّر عَدُوّا بأخْذِ بلاده منه، ويَعْتَذِر عن مَلِك أخذَتْ شَوانيه وحُجِزت عنه؟؛ ويُهَنِّى خَصِيًّا بزَواجِه، ويَعْتَذِرُ عمن فَرَّ وتَرك وَلَده تَحْكُمُ الظُّبا فى أوْداجِه؟؛

(١) كذا فى الأصول . ولعله فى إساءة .

ويكتب لملك بنىٰ مبانِىَ فآحترقت أو وقعت، أو أجرىٰ خيول رهانٍ فسبقت خيله وآنقطعت؟؛ أو خرج لصيد فلم يجد ما يصاد، أو ابرزة بندق آحتفل فيها ولم يصرع شيئًا من الواجب المعتاد؟؛ أو ركب أوّل يوم من تملّكه فتقطّر به الجواد، أو وضعت له أنثىٰ فضّلها بكلامٍ علىٰ ما يرجوه من ذكور الأولاد.

ومن هٰهنا أكفّ القلم عن شوطه، وأرفع عنه ما وضعه اللسان من سوطه؛ خوفًا من الملال والصّخب، وكفىٰ بالغرفة عن معرفة النهر.

فاذا نشط هذا الكاتب من هٰذا العقال، وتصرّف فى فنون هذا المقال، وخرج من هذه الأسئلة خروج السّيف من الصّقال؛ آمتدّت كفّ الثّريّا فى هذا النّسيان بمسح جبهته، وجاء بجواب هـذا النكث كما يقال: برمتـه؛ (؟) وأماط لثامها، وشمّر عن أزهارها أكمامها ــ آنقطعت الأطماع دون غايته، وبسطت أيدى رسائل البلغاء لمبايعة رسالته، بل أتته وحمل قلمه علىٰ أقلامٍ فرسان الكلام سوداء رايته؛ وبان هنالك ظلم العائب وحيفه، فكان كمن سلّ لنحره سيفه؛ وعذر علىٰ توالى التأنيب مؤنّبه، وكان يومئذ له الويل لا لمن يكذّبه، وآمتاز هذا الفاضل بما تحدثه هذه الواقعة من الفخر وتجلبه:

فعاجوا فأثنوا بالّذى أنت أهله * ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب!

والمسئول من إحسان سيّدنا أن يسدّ الخلل كيف ما وجده، ويصلح الخطأ والخطل كما عوّدته منه وكما عوّده؛ فإنّه أمير هـذه الصّناعة ونحن الرعايا، وشيخ الفصاحة ونحن الفقراء الذين كم وجدنا فى زواياه منها خبايا؛ وما هـٰذه الرسالة إلا يدٌ آمتدّت تسأل من الحلم ما يسعها، وهـٰذه السّطور إلا حبائل تتصيّد من عوائده ما ينفعها ويرفعها:

فأرخ عليها ستر معروفك الّذى * سترت به قدمًا علىّ عوارى!

والله تعالىٰ العالم أنها وَرَدتْ عن قَلْبٍ مَذْهُولٍ عن حُسْن الإيقان ، مُعَدَّدٍ عليه نوائِبَ الدَّهْر بأنامِل الخفقان ، مَرْمِيٍّ بسِهامِ الأعادى فى قِسِيِّ الضُّلوع ، غائِص فى بحْر الهَمِّ وكلما رُمْتُ أن يُلْقِى إلىّ دُرَّ الكلام ألْقىٰ دُرَّ الدُّموع :

أَبْكِى فتجْرِى مُهْجَتِى فى عَبْرَتِى * وكَأَنَّ ما أَبْكَيْتُه أبْكَانِى!

لا يَدَع لِىَ الفِكْرُ فى قِلَّةِ ... ... الإِخْوان(١) وَقْتا أَسْتَنبِطُ فيه مَعْنًى ، ولا يُفْسِحُ لِىَ التَّعجُّب من أبْناءِ الزَّمان لنَقْصِهم أنْ أُصَحِّحَ نَقْدًا ولا وَزْنا ؛ أَجْنَح لِسلْم الأيَّام فكَأَنِّى لحَرْبِها جَنَحْت ، وأَقْدَح فِكْرِتى فى ٱستعطاف الزَّمانِ فكَأَنِّى فيه قد قَدَحْت ، فلو قضىٰ الله لى بالمُنْيَة من المَنِيَّة لأَرَحْتُ الزَّمانَ وٱسْتَرَحْت :

فَالْأَرضُ تَعْلَمُ أنِّى مُتَصَرِّفٌ * من فَوْقِها وكَأَنِّى من تحْتِها!

ولا فَرْقَ فيما بيْنَنَا غَيْرَ أنَّنا * بمَسِّ الأذَىٰ نَدْرِى ومن مَاتَ لا يَدْرِى!

ولا بدّ لى أن أطَلِّقَ هذه الصِّناعةَ طَلاقًا قَطْعيا ، لا طَلَاقا رَجْعِيًّا ؛ وأُجَاهِرَها جِهارًا حَرْبيًّا لا جِهارًا عيْنِيا ؛ وأَضَعُ صَعْدَة حملها من أدبٍ عن بدنى ، وأتولى قوس داله مع سهم بائها فما أصبتِ غيرَ كَبِدِى ؛ "كأنَّما القَوْس منها مَوْضع الوَتَر" ، "وقُلتُ ٱذْهَبِى ياصَبْوَتِى بسَلَامٍ" فماذا لَقِيت من آفاتها ، ومُنِيت به من الخَوْف فى عَرَفاتِها ، ومُطِرْتِ لا من عَوارِض قَطْرِها ولكِنْ من عَوارِض مُرْجِفاتِها :

وإنِّى رأيتُ الحُبَّ فى القَلْبِ والأذَىٰ * إذا ٱجتمعا لم يَلْبَث الحُبُّ يَذْهَب!

ومع هذا الحديث لم أشُكَّ أنَّ أحدًا سَيَنْتَقِدُ علىٰ تَشْبِيهِى ، وطُرُقه قديمة فى ٱسْتِفتاح المُكاتَبه ، وٱسْتِنْجاح المُخاطَبه ؛ ويقولُ : تِلْك أُمَّةٌ قد خلَتْ ، ودَوْلَةٌ فاضِلِيَّةٌ أدْبرت مِثْل ما أقْبلَت ؛ فكيف تَبِعها وتَرك طَرِيقة فُضَلاءِ عَصْرِه ، وأَبْناءِ مِصْرِه ؛ فالجوابُ

---

(١) بياض بالأصل ولعله : «مصافاة الاخوان» أو نحوه .

ما قاله القَاضِى السَّعِيدُ بنُ سَناءِ المُلْكِ رحمه الله تعالىٰ ، فما كان أسعَدَ خَاطرَه ! ، وأكْثرَ ذَهبَ لَفْظه وجوَاهِرِه ! ! :

إنِّى رأيتُ الشَّمْسَ ثم رَأيْتُها * ما ذَا علَيَّ إذا عَشِقْتُ الأحْسَنَا ؟ !

وذكرت أن الاس عدره ونسيت أن الاس أفعلها(١) .

انتهت إلىٰ هذا الموضع ، والديك قد نَعى بعيدَ الظَّلام ، وبَلَّغ عن الصُّبْح السَّلام ، والأزهارُ قد سَلَبَتْه عَيْنَه فقام من كَرَاه يَصيح ، ومَيْدانُ الغُصُون قد أَصْحَب بمَغْنَى الأَطْيارِ وشَغَبِ الرِّيح ؛ ونَسْرُ السَّماءِ قد فَرَّ من الغَدَاة وبَازِيها ، والنُّجُوم قد حُمِلَتْ إلىٰ مَلْحَدِها من الغَرْب علىٰ نُعُوش دَياجِيها ؛ والمَجَرَّةُ من الجَوْزاءِ عاطِلَةُ الخَصْرِ ، وخَاقَانُ الصُّبْح قد حَمَل علىٰ نَجَاشِيِّ الظَّلامِ رَايَةَ النَّصْر .

لا بَرِحَ سَيِّدنا مَعْصومَ الرَّوِيَّة والارْتِجال ، مسجلا بِشَجاعَة اليَرَاعة والحَرْبُ سِجال ، محْمودَ المَوَاقِفِ والمَسَاعِى "والنِّقْسُ نَقْعٌ والطُّرُوس مَجَال" ، والسَّلام .

الصِّنف السادس

(من الرسائل ما تُكْتَب به الحَوَادِثُ والمَاجَرِيات)

ويختلف الحال فيها باختلاف الوَقَائِع : فإذا وقعتْ للأديب ما جَرِيَةٌ وأراد الكتابةَ بها إلىٰ بعض إخْوانِه ، حكىٰ له تِلْك المَاجَرِيَةَ فى كتابه مع تَنْمِيقِ الكلام فى ذلك ، إما ابتداءً وإما جوابًا ، عند مُصادَفَة وُرُود كتابه إذ ذاك إليه .

وهذه نُسْخَةُ رسالةٍ أنْشأها الإمامُ قاضِى قُضاةِ المُسلمين مُحْيِي الدِّين ، أبو الفَضْل يحيىٰ ، بنُ قاضى القضاة الإمامِ مُحْيِي الدِّين أبى المعالى مُحمد ، بن علىّ ، بن محمد ،

---

(١) وَرَدت هذه الجملة فى الأصل هكذا ولا معنى لها .

ابن الحُسَين، بن علىّ، بن عبد العزيز، بن علىّ، بن الحسين، بن محمد، بن عبدالرحمٰن، ابن القَاسِم، بن الوليد، بن القَاسِم، بن عبد الرحمن، بن أَبَانَ، بن عُثْمَانَ، بن عفَّانَ رضى الله عنه، لمَّا وَرَد إلى القاهرة المحروسة فى التَّاسِع من جُمادىٰ الأولىٰ من سنة تِسْع وعشرين وستمائة، وتُعْرف "برسالة النِّمْس" وهى :

وردتْ رُقْعةُ سَيِّدنا أسعدَه الله بتَوْفِيقِه، وأوْضَح فى ٱكتساب الخَيْرات سُبُلَ طَرِيقِه ؛ فوقفتُ عليها وُقُوف السَّارّ[1] بورودها، المُسْتَسْعِد بوُفُودِها، المُبْتَهِل إلى الله فى إبقاء مُهجَتِه التى يَتَشَرَّف الوجود بوُجُودِها :

وليْس بتَزْويقِ اللِّسانِ وصَوْغِه * ولٰكنَّه قد مَازَجَ اللَّحْمَ والدَّما !

وفَضَضْتُها عن مِثْلِ النَّوْرِ تَفْتَحه الصَّبا، وبُرُودِ الرِّياض تَساهَمتْ فى ٱكْتساءِ وَشْيِها الأَهْضابُ والرُّبَا ؛ يَكْبُو جَوَادُ البليغ فى مِضْمار وَصْفِها، ويَنْبو عَضْبُ لِسانه عن مُجاراتِها فى رَصْفِها ؛ يُخْجِلُ مُحيَّا النهارِ بياضُ طِرسْها، ويَوَدُّ الليلُ لو نَفَضتْ عليه صِبْغَةَ نِقْسِها ؛ وتحسدُ الكواكبُ رائقَ مَعانيها، وتَمَنَّى لو أُعيرتْ فَضْلَ إشراقها وتَلالِيها ؛ فى كلِّ فِقْرةٍ رَوْضةٌ وكلِّ معنًى كَأْسُ مُدام، وكلِّ أَلِفٍ سَاقٌ وكلِّ سِينٍ طُرَّةُ غُلام ؛ وكلِّ وَاوٍ عَطْفةُ صُدْغٍ وكلِّ نُونٍ تَقْويسُ حَاجِب، وكلِّ لَامٍ مَشْقَةُ عِذارٍ وكلِّ صَادٍ خَطَّةُ شَارِب ؛ تُصِيبُ من سامعِها أقصىٰ ما يُراد بالنَّفْثِ فى العُقَد، وتَسْتولِى بلَفْظِها علىٰ لُبِّه ٱستيلاءَ الجَواد على الأَمد .

فلمَّا ٱجتليتُ منها المَعانى المُسْهبَة فى اللَّفظِ المُوجز، وأجلْتُ طَرْفى منها ما بين نُزْهة المُطْمَئِنّ وعُقْلَة المُسْتَوفِز، وأسلمتُ قيادى إلىٰ سِحْرِها المُحلَّل وإن جَنىٰ قَتْلَ العَاشِقِ المُتحرِّز — علمتُ أن سَيِّدنا أجرىٰ فى حَلْبَة السِّباقِ فحَاز قَصَبَ سَبْقِها،

(١) كذا فى الأصل ولعله المسرور .

وذُلِّلتْ له البلاغةُ فتوغَّل فى شِعابها وطُرُقها، وحُكِّمَتْ يدُه فى أعنَّة الفضائل فسلَّمت القَوْسَ إلىٰ بَاريها، ودَرَجاتِ العُلَىٰ إلىٰ مُسْتحقِّيها، فَمَن وَائِل؟ ومَن سَحْبان؟، ومن عَبْـدُ الحميد؟ وٱبنُ صُوحَان، وأىُّ خَبَرٍ يقابِلُ العِيَان؟ ومَن يُقاوِمُ ما هو كائنٌ بمـا كان؟. فسألتُ خَاطِرِى الجامدَ أن يُعارِضَ بوَابِلِه طَلَّها، وأن يُقابِلَ بجُثْمانه ظِلَّها، وأن يُجارِيَها فى حَلْبة المُساجَلَةِ وإن دُعِىَ بالسُّكَيت، ولقـدْ أسْمَعْتَ لو نَادَيتَ حَيًّا وكَيْف بنُطْقٍ من مَيْت، وأنَّىٰ يُطْمع فى مُجارَاةِ البَحْرِ ولَاتَ حِينَـ لَعَلَّ أولَيْت، فوجدتُه أصْلَدَ من الصَّخْرة مَسًّا، وألْفَيْتُ بَاقِلًا لَدَيْه قُسًّا، فمـا كلُّ من طُرِقَ قرىٰ، ولا مَنْ إذا خَلَق فَرَىٰ، وهٰذا المعهودُ من خَاطِرِى إذا كان جَامًّا فكَيْف وقد نَضَب مَاؤُه وكَدَّرتِ الحوادثُ بَحْرَ عِلْمِه والغِيَر، فمِنْ دُونِ أن تُسْتَخْرَجَ منه الدُّرَرُ أن يَلِينَ لِضِرْسِ المَـاضِغ الحَجَر، فبَذَل جُهْده لمـا شَعَّبتِ الهُمومُ سُبُلَه، وتَقَنَّع بالخَلَقِ مَن لا جَدِيدَ له .

هٰـذا مع وَاقِعَةٍ وقعتْ له فأصْبَح مُتَشَتِّتا، وثَنَىٰ عِنَانَه عن كلِّ شىءٍ إليها مُتَلَفِّتا، وذلك أنَّه فى بَارِحَتِه ٱستولَىٰ عليـه القَلَقُ بسُلْطانه، وٱسْتلَبَتْ يَدُ الأَرَق كَرَاه من بين أجْفانه، كأنَّه سَاورتْه ضَئِيلةٌ سُمُّها نَاقِـع، أو مَدَّتْ إليه خَطاطِيفُ حُجْنٌ لهـا أيْدِى الخُطُوبِ نَوَازِع :

إِذَا اللَّيْلُ أَلْبَسَنِى ثَوْبَه ٭ تَقَلَّبَ فيــه فَتًى مُوجَعُ

فتارةً فِكْرَتُه مُتَوجِّهةٌ نحو قِلَّة حَظِّه، وآوِنَةً لايَقَعُ إلَّا علىٰ ما يَقْذِفُه طَارِفُ لَحْظِه، وإن يَدَ الخُمُول قد ٱسْتولتْ عليـه، وأَزِمَّةَ المَطَالِب صُرِفَتْ عنه وحَقُّها أن تُصْرَف إليه، والسعادَة شاردةٌ عنه وما أجْدَرها أن تُطِيفَ ببَابه وتَسْتَقِرَّ بين يَدَيْه :

لئِن كان أدْلَىٰ حابِلٌ فتَعَـذَّرَت ٭ عَلَيْـه وكانَتْ رَادَةً فتَخَطَّتِ،

لَمَا تركته رَغْبةً عن حِبالِه * ولٰكنّها كانَتْ لآخرَ خُطَّتِ!!

ولقد جَهِد فى سِلْم الدَّهرِ وهو يُحَارِبُه، "وكَيْف تُوَقّىٰ ظَهْرَ ما أنْتَ رَاكِبُه"؟ فما شَامَ بارِقَةَ أَمَلٍ إلا أَخْفقَتْ ورَجَع بخُفَّىْ حُنَيْن، وقَرّتْ أعْيُنُ أعَادِيه كلّما سَخِنَتْ منه العَيْن، فلقد أصْبح أفْرغ من حَجّامِ سَابَاط وإن كان "أشْغَل من ذَاتِ النِّحْيَيْن".

وكلما تأمّل جَدَّه العَاثِرَ النَّاكِص، ونَظَر رِزْقَه النَّاضِبَ النَّاقِص، وقابَلَه الدَّهْر بالوَجْه العَابِس الكَالِح، ومَنَّىٰ نَفْسَه عُقْبَىٰ يَوْمٍ صالِح، رَبَع عليها فَمَنْ لى بالسَّانِح بعد البَارِح؟، وناجَىٰ نفسه بإعْمال الركائب، والاضطراب فى المَشَارِق والمَغَارِب، وأن يَرَىٰ بالجود طَلْعَةَ ثَائِر وبالعِرِمِس غُرَّةَ آئِب، ويَصل التَّهْجير بالسُّرَىٰ، ويَبُتَّ من قيد الأوطان مُوثَقات العُرَىٰ، وإن كَسَدتْ فَضِيلةٌ من فضائله، أو رَثَّتْ وَسِيلةٌ من وَسَائله، اكْتَسب بأخرىٰ من أَخَوَاتِها، ونَفَث فى عُقَدها ومَتَّ بها وقال: أنا ابْنُ بَجْدتِها، فإلَامَ وعَلَامَ وحَتّى مَتَىٰ، أُجاوِرُ من أنا فيهم أضْيَعُ من قَمَرِ الشِّتا؟، وحَالِى أظهرُ من أن يُقامَ عليه دَلِيل، و"إذا ذَل مَوْلَى المَرْءِ فهو ذَلِيل":

وما أنَا كالعَيْرِ المُقِيمِ بأهْـلِه * على القَيْدِ فى بُحْبُوحَةِ الدَّارِ يَرْتَعُ!

ثم اسْتَهْوَلَ تَقَحُّم الإغْوار والإنْجاد، واسْتَفْتح لقَادِح زِنَادِ الحَظِّ الإكْداءَ والإصْلاد، وأقولُ: أخْطَأَ مُسْتَعْجِلٌ أوكَاد، فأثُوبُ مَثَاب من حَلَب الدَّهرِ أَشْطُرَه، وأَخَذَ إذا ارْتَفَع عن الدَّنِيَّة من حَظِّه أيْسَرَه، وبَنَىٰ كما بَنَىٰ سَلَفُه وقَرَّر ما قَرَّرَه، فأقولُ: ارفُضِ الدَّنِيَّة ولا تَلْوِ عليها، فتكونَ "أحْمَقَ من المَمْهُورَةِ إحدىٰ خَدَمَتَيْها"، "فالحُرَّةُ تَجُوعُ ولَا تَأكُلُ بثَدْيَيْها":

ولَسْـنَا بأوّلِ مَنْ فَاتَه * علىٰ رِفْقِـه بَعْضُ ما يَطْلُبُ.

وقَدْ يُدْرِكُ الأمْرَ غَيرُ الأرِيبِ * وقَدْ يُصْرَعُ الحُـوَّلُ القُلَّبُ!

وتارةً يخطُر أنْ لو شَكَوْتُ حالى إلىٰ أصْدقائى من ذَوى الجَاه، وسألتهم بإلحاقى بهم فى الآبتغاء من فَضْلِ الله ؛ وأَحُضُّهم على آنْتِهاز فُرْصَة الإِحْسانِ قبـل الفَوْت ، وأَضْربُ لهم : "أَعِنْ أخَاكَ ولَو بالصَّوْت" فليس علىٰ مِثْلِى ممن يُحِيفُه الدَّهْرُ فى ذلك من جُنَاح ، "وهَلْ يَنْهَضُ البَازِى بغيرِجَنَاح" ؛ ثم أرىٰ أنهم لو فَضَل عنهم شئ لجَادُوا ، بل لو زُوِيتْ الأرض لهم لآزْدَادُوا ؛ ولو مُلِّكوا ظِلَّ الله لأصْبحتُ لدَيْهم ضَاحِيا ، وما حَالِى بخَافٍ عليهم وكَفَىٰ بُرغَائِها مُنَادِيا ، وقَبْلِى بَغَى عَلِيٌّ الأمْرَ ففَاتَه وأدْرَكَ الجِـدَّ السَّعِيدَ مُعاوِيا ؛ وإلىٰ كَمْ أُعَلِّلُ تَعْلِيلَ القَطِيم بالخِضَاب :

سَئِمْتُ العَيْشَ حِينَ رأيتُ دَهْرِى * يُكلِّفُنِى التَّـذَلُّلَ للرِّجَالِ !

وأُخْرَى يُسَلِّى نَفْسَـه عن مُصَابِها ومَصَائِبِها ، ويُمَنِّيها كَرَّ الأيام بتَعاقُبِها ، ويَقُصُّ عليها تَقَلُّبَ اللَّيالِى بالأُمَم الماضية فى قَوالِبِها ، وأنها ماقَدَّمَتْ لأحدٍ سعادةً إلا عَقَّبَتْها بتَغْيير ، وما سَقَتْ صَفْوَ الأمانى بَشَرًا إلا شابَتْ كَأْسَه بتَكْدِير ، وأنَّ سَبِيلَ كلِّ أحدٍ منها سَبِيلُ ذِى الأَعْوادِ ، وقُصَارَاىَ ولو آتخذْتُ الأرضَ مَسْكنًا وأَهْلَها خَوَلًا سَبِيلُ رَبِّ القَصْرِ من سَنْدَاد ، ولو عَمَّرتُ عُمْرَ نُوحٍ كنتُ كَأَنِّى وآدَم وقْتَ الوَفَاةِ علىٰ مِيعاد ؛ فان شِئْتَ فارْفَع عَصَا التَّسْيارِ أوضَعْ ، فما هُو إلَّا : "حَارِبْ بجِدٍّ أودَعْ".

فبينا أنا أَعُومُ فى هذه الخَوَاطر مُتَفَكِّرًا ، وأقْرَعُ سِنَّ النَّدَم علىٰ تَقَضِّى عُمْرِى فى غير مَآرِبِى مُتَحَسِّرا ، وأتَسَلَّى بمَصارِع الأوّلين أخْرىٰ مُعْتَبِرا ؛ ولو أنْجَزَتْنِى الأيامُ مَواعيدَ عُرْقوب ، لأفْضَتْ بى إلىٰ أحْلَىٰ من مِيراثِ العَمَّةِ الرَّقُوب ، ولقد تَقَاعَس أمَلِى حتى قَنِعْتُ بحَالِى "وشَرٌّ مَا أَلْجَأَكَ إلىٰ مُخَّة عُرْقُوب" ثم يُخاطِبُنى حِجَاى بأن تَثَبَّتْ وآصْبِر ، فالليلُ طَوِيلٌ وأنت مُقْمِرٌ ؛ فَستبلغ بك الأسْباب ، ويَنْتَهِى بك إلى المَقْدورِ الكِتَاب ، فلا تَعْجَلْ بَجَرْىِ المُذْكِيات غِلاب .

فاسْتَرَوَحْتُ إلى فَتْح بابٍ كان مُرْتجا ، وٱرْتَدْتُ باستجلاء مُحَيَّا السماء من بَعْض هَمِّى فَرَجا ، وٱنْتَشَقْتُ من نسيم السَّحَرِ ما وجدتُ به من ضِيق فِكْرى مَخْرجا ؛ فَفتحْتُه عن شُبَّاكٍ كتَخْطيط الأوْفاق ، أو كرُقْعة شِطْرَنْج وُضِعَتْ بين الرِّفاق ؛ أُلْبِس من صِبْغة اللَّيل شِعارا ، وٱتُّخِذَ لاسْتِجْلاءِ وَجْه الغَزالة نَهارا ؛ جَلْدٍ على القيام والكَدّ ، صَبُورٍ على الحالَيْن فى الحَرِّ والبَرْد ؛ يُحَوِّل جُثْمانَ المَرْء عما واراه ، ويُبِيحُ إنْسانَ الطَّرْف رَعْىَ حِماه ؛ يُدِيلُ من ظُلْمة اللَّيلِ ضَوْءَ النهار ، وينِمّ بما ٱسْتودَعْتَه من الأسرار ؛ يُشْرِف إلى غَيْضَةٍ قد ٱلْتَفَّتْ أشْجارُها ، وتَهَدَّلَتْ ثِمارُها ، ورَقَصتْ اغْصانُها إذ غَنَّتْ أطْيارُها ، وٱطَّردَتْ بِصَافِى الزُّلالِ أنْهارُها ، ونَمَّتْ بعَرْف العَنْبرِ الشِّحْرىّ أزْهارُها ؛ وقد قامتْ عَرائِسُ النَّارنْج على أرْجُلها ، تَخْتالُ فى حَلْيها وحُلَلِها ؛ قد أُلْبِسَتْ من أوْراقِها خِلَعًا خُضْرا ، وحُلِّيَتْ من ثِمارها تِبْرا ؛ ونَظَّم قِدَاحُها فى جِيادِها لُؤْلُؤًا رَطْبا ، ورَنَّحها نَسِيمُ السَّحَرِ فمالتْ عُجْبا ؛ وقد مُدَّتْ فى أرْضِها من البَنَفْسَج مَفارِشُ سُنْدُسٍ فُرُوزَتْ بالجَداوِل ، كبِساطٍ أخْضَر سَلَّتْ أيْدِى القُيُون عليه صَقِيلَاتِ المَعَاول ؛ وقد حَدَّقتْ عُيُونُ الرُّقباء من النَّرْجِس قائمةً على سَاق ، ولَعِبَتْ بها يَدُ النَّسيم فتمايَلَتْ كعِناق المُحِبِّينَ عند الفِرَاق ، فٱجْتَلَيْتُ مُحَيًّا وَسِيمًا تَتَبَلَّج أَسِرَّتُه ، ومَنْظَرًا جَسِيما تَرُوقُ بَهْجَتُه ؛ قد مَدَّ السِّماطَ بساطًا أزْرقا ، بزُهْرِ الكَواكِب مُشْرِقا ؛ وطَرَّزه بالشَّفَقِ طِرَازًا مُذْهَبا ، وأبْدَى تحته للاصْباح مَفْرِقًا أشْيَبا :

وَرَثَّ قَمِيصُ اللَّيْـلِ حتَّى كأَنَّه * سَلِيبٌ بأنْفاسِ الصَّبَا مُتَوَشِّحُ ،
ورَقَّـع مِنْـه الذَّيْلَ صُـبْحٌ كأَنَّه * وقد لاحَ شَخْصٌ أشْقَرُ اللَّوْن أجْلَحُ ،
ولَاحَتْ بَقِيَّاتُ النُّجُوم كأَنَّها * على كَبِدِ الخَضْراءِ نَوْرٌ يُفَتَّـحُ !

وجَنَح البَدْرُ للغُرُوبِ فتداعَتِ الكَواكِبُ تَتْبَعه كَوْكَبًا فكوكَبًا ، فكأنه مَلِكٌ ٱتَّخذ المَجرَّة عليه مَضْربا ؛ وتَوَّج بالثُّرَيا إكْليلا ، وخَنَستِ الكَواكِبُ بين يديه تَوْقيرًا له

وتَبجِيلا ، واصْطَفَّتْ حَوْله خَدَمًا وجُنُودا ، ونَشَرتْ من أشِعَّتِها أَلْوِيَةً وبُنُودا ؛ وأخذتْ مَقَاماتِها فى مَرَاكِزِها بجُيُوشٍ عبِّئَتْ لِلِقَاءِ مُنَاجِزِها ، ومُسَابِقُها أخْذَ فُرْصَة النَّصْر ومَنَاهِزَها :

ولَاحَ سُهَيْلٌ من بَعِيدٍ كأنَّه * شِهابٌ يُنَحِّيه عن الريح قابِسُ !

وآنبرىٰ نَسِيمُ السَّحر عليلا ، وجَرَّ علىٰ أعطاف الأزهار ذَيْلًا بَليلا ، وَروَىٰ أحاديث الرِّياض بِلِسان نَشْرِه ، مُذِيعًا لأسرار خُزَاماه وزَهْرِه ، وغَرَّدَتْ خُطَباءُ الطَّيْر علىٰ مَنَابِر الأغْصان ، وآسْتَنبطَتْ من قُلُوب المُحِبِّين دَفَائِنَ الأشْجَان ؛ وحَثَّ دَاعِى الفَلَاح ، طَائِفَةَ التُّقَىٰ والصَّلاح ؛ علىٰ أن تُؤَدِّى فَرْضَها ونَفْلَها ، وتَرْتَقِى بخُضُوعها بين يدى مَوْلاها دَرَجاتِ السَّعادة التى كانتْ أحَقَّ بها وأهْلَها ؛ وهَتَفَ بَشِيرُ النُّجح بمن أحْيا لَيْلته لما تمزَّق قَمِيصُ اللَّيل وآنفرىٰ : "عِنْد الصَّباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرىٰ" .

فَبَيْنا أنا أتفكَّر فى أنَّ جُمْلةَ ما عايَنْتُه سَيُصْبِح زَائِلا ، وعَن تِلْك الصِّبْغَة العَجِيبَة حَائِلا ، وأتدبَّرُ : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ إذْ أهْدتْ إلىَّ الأيامُ إحْدَىٰ طُرَفِها وغَرائِبها ، وكُبْرَىٰ أَوابِدِها وعَجائِبها ؛ فطَرَق سَمْعى من الشُّبَّاكِ نَبأَه ، وتَلَتْها وَجْبَةٌ تَتْبَعُها وَثْبة ؛ فآسْتَعَذْتُ من كَيْد الشَّيْطانِ المَرِيد ، وقلتُ : أَسَعْدٌ أم سَعِيد ؛ وإذا بِنِمْسٍ قد فَارَقَ وِجَارَه إلىٰ وِجارِى ، وآخْتارَنى على الصَّحراء جارًا فآرْتَضَيْتُه لجِوَارِى ؛ فوَلَج مُسْتأْنِسا ، ومَرَح بين يَدَىَّ آنِسا ، وأرَانِى أحَدَ كَتِفَيْه فى الآسْتِرسال لَيِّنًا والآخَرَ بالتَّمنُّع شَامِسا ؛ فمدَّ له الحِرْص علىٰ جَوْرِه حَبائِلَ مَكْرِه وشِبَاكَه ، ويَدُ الغَبَش تَحُول دُون قَنْصِه وإمْسا كه ؛ وبَقَايا الظَّلام تَقْضى بتَمنُّعِه ، وتَصُدُّ عن جَعْله من الوَثَاق فى مَوْضِعه ؛ وأنا مُلازِمُه مُلازَمَةَ المُعْسِر لرَبِّ الدَّيْن ، حتى يَتَبيَّن الصُّبْح لِذِى عَيْنَيْن .

فلما خشيتُ على صلاتي الفوتَ عدلتُ إلى تأديةِ فرضها ، وتوجيهها بين يدَي مُوجبها وعَرْضِها ؛ فلما آنفتلتُ من مُصَلَّاى ، وآنصرفتُ عن مُناجاة مولاى ؛ بَرَقتْ لى بارِقه ، خُيِّل إلىَّ أنها صاعِقه ؛ فقلتُ : أَذَرَّ قرنُ الغزاله ؟ ، و إلا فلاتَ حينَ ذُبَاله ؛ فقيل : إنَّ الغُلامَ نظر إليه شَزْرا ، وهَزَّ له المُهنَّد فشقَّ له من الظَّلماءِ فَجْرا ، وأبدى له وجهًا مُكْفهِرا ، ورَام أن يُعطِيَه من المَنِيَّة مَركبًا وَعْرا ، كأنَّه قد لاقى أسَدًا هِزَبرا ؛ وأترع له كأس الحِمَام بالوافِي ، ورَماه بثالثة الأثافِي ؛ فعطفتُ عليه باللائمة مُنكِرًا لجهلِه ، وهتفتُ به زاجِرًا عن قُبْحِ فِعْله ، ثم عذرتُه : "ومَنْ لك بأخيك كُلِّه" ، وقلتُ له : ماذا تراكَ تصنعُ لو لاقيتَ أسدًا أغلبا ؟ ، لقد خِلْتُ أنك تَرْتَدُّ ـ و إن كُنتَ وليدًا ـ أشيبا ؛ أَمِن هذا بادرتَ إلى السَّيفِ مُختَرِطا ؟ ، " إنَّك لأَجبنُ من المَنْزُوفِ ضَرِطا " لقد أظهرتَ من الفَشَلِ ما جاوز قَدْرَ الحَدّ ، ووضعتَ المِزَاح في مَحَلِّ الجِدّ وقابلتَ الأسهلَ بالأشدّ ؛ فسُحقًا لك وبُعدا ، لقد قدحَ مُرَجِّيك بعدها زِنادًا صَلْدا ، وآستنبع الماءَ جَلْمَدًا جَلْدا .

فصوَّب طَرْفَه فِيَّ وهتف مُناديا ، وأظهر وفاءً أزرى بالسَّمَوْءَل بن عاديا : أَنُجُ هَرَبًا ولا إخالُك ناجيا ؛ إنِّي رُميتُ من الخُطُوب بأصعبِها ، ولا يُنبِّئُك بالحُروب كمُجرِّبها ، والغاصُّ باللُّقْمة أخبرُ بها ؛ فلقد أوطأنِي مالا أستقيلُ منه العَثْره ، وما لاقيتُ في حَرْبٍ كهذه المرَّه ، "والعَوانُ لا تُعَلَّمُ الخِمْرَه" ؛ لقد صَرَّح لى بالشَّرِّ ولم يُجَمْجِم ، وكشر عن أنيابِه غيرَ مُتبسِّم ، "وحَسْبُك من شرٍّ سَماعُه" و"آستُ البائنِ أعلم" ؛ تالله إنَّه لأجرأُ من خاصِي الأسد ، ولئن سَبَرتَه لتعلمَنَّ ما بين الذِّئبِ والنَّقَد ؛ ولقد رضيتُ نفسي من الغنيمة أن تؤوبَ بدمائِها ، لما تشبَّثتْ بخِنْصِري نَخْضِبُها بدمائها ، فقلتُ : "أَجْفَلَ عن جَنابِك الخيرُ وأَجْلَى" ، "أضَرِطًا وأنتَ الأعْلَى" ؟ ؛ ثم تضاحكتُ إليه لما شاهدتُ آستِعبارَه ، وأَوَيتُ له إذ رأيتُ آستكثارَه الخطبَ وآستِكبارَه ؛ وقلتُ : من ضافَ الأسد

قَرَاه أظْفَاره، ومن حَرَكَ الدَّهر أرَاه ٱقْتِدَارَه، وعَدَلتُ إلى الذَّلُول الشَّامِس، المُسْتأسِد المُسْتأنِس، ومَدَدْتُ يَدِى إليه فٱنْقاد لهـا طَائِعا، وخَضَع لإجابة دَعْوتِى سَامِعا .

فلمَّا حَازَه فى القَبْضَـةِ الإسَار، وبَطَل الإقْلالُ من ذلك اللَّفظ والإكثار، وقد كانَ أعزَّ من الأَبْلَقِ العَقُوق، وأبْعدَ من بَيْض الأَنُوق، ٱسْتجليتُ صُورَتَه مُتَأمِّلا، إذ لم يَبْقَ له سِوىٰ قَبْضَتِي مَوْئلا، فرأيتُ هَامَةً نَخْمَه، وجُثَّة ضَخْمَه، وشِدْقًا أهْرَتًا رَحْبا، ذا مِرَّةٍ على ٱختلاف الحَوادث صَعْبا، وأنيابًا مُحَدَّدَةً عُصْلًا كالنِّصال، وطَرْفًا مُخالِسًا غيرغِرٍّ بالمَكْرِ والخَتَال، كأنَّه شِهَابٌ يتوقَّد، أو شُعْلَةُ نارٍ لم تَخْمد، وسامِعَتَيْن تَتَوجَّسانِ مادار فى الأوهام، وتُدْرِكانِ ما ينَاجِى به المَرْءُ نَفْسَه ولو فى الأحلام، قد نِيطَتْ بعُنُق صَغُرتْ هَامَتُه بالنسبة إليـه، إن ٱسْتَدْبرتَه قلتَ : هو مُشْرِفٌ عليهـا أو ٱسْـتَقْبلتَه قلتَ : هى مُشْرِفَةٌ عليه، يَشْتمِلُ علىٰ نَحْرٍ خَصِيب، وصَدْرٍ رَحِيب، فيه نَزْعتا بياضٍ كهِلَالَينِ قُرِنا فى نَسَـق، أو نَجْمَىْ ذُؤَابة ظَهرا فى غَسَق، تُسَرُّ نفس الناظرِ إليها، ويُعْقَد خِنْصِر الٱختيار فى حُسْنِ الشِّيَاتِ عليها، ٱتَّصل ذلك بمَنْكِب عَتِيد، وسَاعِدٍ شَدِيد، وبُرْثُنٍ شَثْنٍ ومِخْلَبٍ حَدِيد :

ذَوَات أَشَافٍ رُكِّبَتْ فى أَكُفِّهـا * نَوافِـذَ فى صُمِّ الصُّخُورِ نَواشِبِ،
مُعَقَّفَـــةِ التَّرهِيف عُوجٍ كأنَّهـا * تَعَقُّرُبُ أصْدَاغِ الحِسَانِ الكَواعِبِ ! !

قد جَاوَر جُؤْجُؤًا نَهْـدا، وقَابَل كَاهِلًا مُمْتَـدًّا، يكاد خَصْرُه ينعقد ٱضْطِرَارًا، وهِمَّتُه تَتَسَعَّر نارا، برِجْلينِ تَسْـبِق فى الحُضْرِ يدَيْه، وتَقُـدُّ بأظْفارِها أُذُنَيْه، وذَنَبٍ كالرِّداءِ المُسْبَلِ يجُرُّه ٱختيالا ومَرَحا، ويَتِيهُ عُجْبا وفَرَحا، إن ٱنْسابَ قلتَ : ٱنْساب أُفْعُوان، أو صَالَ قلتَ : أَسَدُ خَفَّان، أو وَثَب سَبَق الوَهْم فى ٱنحِطاطه، أو طَلَب أدْرَك البَرْق من نَشَاطِه، أو طُلِب فاتَ الطَّرْف فى ٱنخِراطه، أنْعَمُ مَسًّا من أرْنَب،

وأزهىٰ من ثَعْلَب، قد كَساه الظَّلامُ خِلْعته، وقَبَّل الصباحُ طَلْعَتَه، حازَ من القُنْدُس صِقَالَه وبَهْجَتَه، ومن الفَنَك لِينَه ونَعْمَتَه، أُلبِس رِداءَ الشَّباب، ونُزِّه عن تزْوِيرِ الخضَاب، إن اخْتلَس فما تَأَبَّط شرّا، أو خاتَل أزْرَىٰ بالشَّنْفَرىٰ مكرا، أحدّ نفسا من عَمْرو بنِ مَعْدِى، لا يُصْلِدُ قَادِح زِناد بَطْشه ولا يُكْدِى، أنزقُ من أبِى عبَّاد، وأَصْوَل من عَنْترَة بْنِ شَدَّاد، أفتكُ من الْحرِث بن ظَالِم، وأنْهر فَصْدًا للدّمِ من حاتِم، لا يَلِينُ ولا يَشْكُو إلى ذِى تَصْمِيت، ‹‹كأنَّه كَوْكَبٌ فى إثْرِ عِفْرِيت››، يَكادُ عند المُخاتَلَةِ فى انْسِيابه، يَفُوتُ الخاطِرَ أو يَخْرُجُ من إهَابِه، إنْ قارَنَ طَيرًا أباحَه مِنْسَرًا كَمِنْسَرِ الأسَد، أَغْلَبَ فيه شَغًا كأنَّهُ عِقْدُ ثَمانِين فى العَدَد، فيُنْشِده : أَلَا عِمْ صباحًا أيُّها الطَّلَلَ البَالِى، فلا يُحَسُّ له بعَيْنٍ ولا أثَرٍ سجِيسَ اللَّيالى، فكأنَّ قُلُوبَها رَطْبًا ويَابِسًا لدىٰ وَكْرِه العُنَّابُ والحَشَفُ البَّالِى، اعتاد قَنْصَ السَانِح والبَارِح، فما فات وِرْدَ المَنِيَّة مِنه غادٍ ولا رَائِح، طَوِيلُ القرا مُدْمَجُ الأَعْظُم، له مُخاتَلَةُ سِرْحَانٍ وهجمة ضَيْغَم، أَحن من نقبه(؟)، وأظْلَم من حيَّه، أطْيَشُ من فَرَاشَه، وأسْبَقُ إلى الغَايَات من عُكَّاشَه، أخْطَفُ من عُقاب، وأشْجَع من سَاكِن غَاب، أَسْرَق من جُرَذٍ وأنْوَمُ من فَهد، وأَلْيَن من عِهْنٍ وأخْشَن من قِدّ، بأْسُه قَضَاءٌ على الطَّيرِ مُنْزَل، وبَطْشُه مَلَكٌ بآجَالِها مُرْسَل .

فلما تأملتُ خَلْقَه، وسَبَرتُ بتَجْرِبَة الفِرَاسة خُلُقَه، عَجَّلْتُ له جرِيرًا مُسْتَحْصِد المِرَّةِ لوَثَاقِه، وأحكمتُ شَدَّه فى مَحَلِّ خِناقِه، وقلتُ له : إنِّى مُجَرِّبُك سَحابَةَ هـذا النهار، ‹‹ومَنْ سَلَكَ الجَدَدَأمِنَ منَ العِثار››، فِعْلَ ذِى خِبْرة بمَكْرِه، وعلىٰ ثِقةٍ من غَدْرِه، فإن اللَّئِيم ذُو صَوْلَةٍ بعد الخُضُوع، وفَضَح التَّطَبُّعَ شِيمَةُ المَطْبُوع، وكَيْف الثِّقة به و إن اسْتَقرّ ولم يَنْبِس؟ وأنَّى الطُمأْنِينَةُ إليه وهو الأزْرَقُ المُتَلمِّس؟ .

ثم انصرفتُ إلى البَلَد لبَعْض شَانِى ، والاجْتماع بأخِلّائى وأَخْدانِى ؛ واستغرقْتُ أديمَ النهار فيما توجَّهتُ له ، وقطعتُ عُمْر يومٍ ما كان أطْولَه !.

فلما قضيتُ نَهْمَتِى ، من نُجْعَتِى ، وحانت مع وُجُوب الشَّمْس رَجْعَتِى ، ألْفيْتُه عَمَد إلى الوَثَاقِ فقَرَضه ، ووفَّاه بالكَيْل الوَافِى ما اقْتَرضَه ؛ وصالَ علىٰ شَيْخَةٍ نَسْتَسْعِدُ بدُعَائها ، ونَفْزَعُ إن دَهَمَنا هَمٌّ قبلَ نِداءِ أُولِى البَطْش إلى نِدَائِها ؛ ذاتِ خُلُقٍ عَظِيم ، ومَنْطِقٍ رَخِيم ، وقَلْبٍ رَحِيم ، ووَجْهٍ ذِى نُضْرةٍ ونَعِيم ؛ إن قامتْ أحْيَت اللَّيلَ بالسَّهَر ، أو قرَأتْ رَأَيْتَنا حَوْلَها زُمَرًا بعد زُمَر ؛ إن حَادَثْتَها نطقَتْ بالسِّحْر مُحَلَّلا ، أو تارَكْتَها رَأَت الصَّمْتَ علىٰ كثيرٍ من النُّطْق مُفَضَّلا ؛ تسرُّ نَفْسَك فى حَالةِ الصَّخَب ، وتُرِيك وَجْه الرِّضا فى صُورَةِ الغَضَب ؛ فمَدّ إليها يَدَ العُدْوان ، وأطَاعَ بأذاهَا أَمْرَ الشَّيْطان ؛ ولم يَرْقُبْ فيها إلًّا ولا ذِمَّه ، وحَملها فحَمَّلَنا من أذاهَا غُمَّـه ؛ ومَزَّقَ قَشِيبَ أثْوابِها ، وحَكَّم مَخَالِبَه الحَدِيدَة فى إهَابِها ؛ فعَظُم مُصَابُ من حَوَتْ دَارِى بمُصَابِها .

فلما وصلتُ رأيتُها باكيَــةً ذاتَ قَلْبٍ مَرِيض ، وجَنَاحٍ مَهِيض ؛ فسَلَّيْتُها بأنَّ المَصائِبَ تُلَقَّاها الأبرار ، وتَرَفَّقتُ بها إلىٰ أن رَقَأَتْ تلك الأَدْمُع الغِزار ، وأوردتُ : «إنَّ جَرْحَ العَجْمَاءِ جُبَار» ؛ وقالتْ : إيهًا لكَ وَآها ، لقد ارْتَكَبتَ خُطَّةً ما ألْيَقها بعُذْرِك وأوْلاها ! ! ، "فلقد أنْصَفَ القَارَةَ من رَامَاها" ثم آلَيْتُ ألِيَّةً بَرَّه ، لأُوطِئَنَّه من الوَثَاق جَمْره ، ولأَقْتَصَّنَّ بهذه المَرَّةِ تلك المَرَّه ؛ وأتيتُه بسِلْسِلَةٍ تَنْبو أنيابُه عن عَجْمِها ، ولا تَثْبُت شَياطِينُ مَكْرِه برَجْمِها ؛ قد أبْدَع قَيْنُها الصَّنْعَة بإحْكامِها ، وأتَىٰ بالعَجَب فى نِظامِها ؛ فلِلّه هو ممن تحكَّم فيما يَقْطَع الجَلْمَــد ، فجَعَلَه من اللَّطافَة يُحَلُّ ويُعْقَد ؛ فاسْتَودَعْتُ عُنُقَه منها أمِينًا لا يَخْفِر وَثِيقَ ذِمَّتِــه ، ولا تَتطرَّقُ الاوهامُ إلىٰ تُهَمَتِه ؛ مُسْتَحكَم القُوّة فى الشَّــد ، فتغَيَّظ تَغَيُّظَ الأَسِيرِ على القِدّ ، ونَظَر إلىَّ بطَرْفٍ حَدِيد ،

وتَذَلُّلٍ بعد بَأْسٍ شديد، وبَصْبَص بذَنَبِه فقلتُ : "أمَكْرًا وأنتَ فى الحَديد" . فلمّا أَيِسَ من الخلاص، تلوتُ : ﴿ ولَاتَ حِينَ مَنَاص ﴾ .

فلما تمَّ ما ذكرتُه، وأبْدَأْتُه وأعدتُه، وردتْ رُقْعةُ سيِّدنا على عَقابيلِ(١) هذه الوَقْعة التى وَقَعتْ، وصدّتْ عن الجَواب ومَنَعت، واقتضىٰ بى الحالُ كَتْبَ هذه الخُرافة وإن تَشبَّثَتْ بأذيال الجِدّ، فأخرجتُها مَخْرَجَ الهُزْؤ وإن دلَّتْ علىٰ حَوْزِ قَصَباتِ المَجْد؛ لِيُعلم أن فى الزَّوايا خَبايا، وإذا صَحَّ أنَّ الأصولَ عليها تَنْبُتُ الشَّجر "فأنا ٱبنُ جَلا وطَلَّاعُ الثَّنَايا" .

هذا : وإنْ أبْقَىٰ قِراعُ الخُطوبِ فى حَدِّي فُلُولا ، "فالفَحْل يَحْمِى شَوْلَه مَعْقُولا"؛ ولقد تَجَمَّعتِ الخُطوب علىَّ من كلِّ وِجْهةٍ وأَوْب، وطَرَقتِ الرَّزايا جَنَابِى من كلِّ صَوْب؛ وجَرَيتُ مع الخُطوب كفَرَسَيِ الرِّهان، وما هَمَمْتُ بمَقْصِدٍ إلا سَقَط بِى العَشاءُ علىٰ سِرْحَان؛ وبكلِّ حَبْلٍ يَخْتَنِقُ الشَّقِي، ولَعَمْرُكَ مايَدْرِى ٱمْرُؤٌ كَيف يتّقِى؛ والجَلْد يرىٰ عَواقِبَ الأُمورِ فيَحْمَدُ عند النَّجاح عُقْبَى السَّيْر، ﴿ ولَوْ كُنتُ أعْلَمُ الغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ .

تَجُوزُ المُصِيباتُ الفَتَىٰ وهو عاجِزٌ * ويَلْعَبُ صَرْفُ الدَّهْرِ بالحازِمِ ٱلجَلْدِ!

فسَطَّرْتُ هذه الأحْرُفَ إلىٰ سيّدنا ليوافِقَ خَبَرِى عند أصحابه خُبْرَه، "ومن يَشْتَرِى سَيْفِى وهذا أثَرُه" وأعْلَمَ أنها سَيُضْرَب بها فى بَابِها المَثَل، وقد "أوْرَدَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مُشْتَمِل" .

(١) العقابيل جمع عقبولة وعقبول بالضم . وهى الشدائد .

وهــذه رسالة فى الشُّكرِ علىٰ نُزُول الغَيْث ، من إنشاء أبى عبــد الله محمد بن أبى الخِصَال الغَافِقى الأنْدَلُسِىّ ، نقلتُها من خَطِّ الشيخ شَمس الدِّين محمد بن محمد بن محمد آبن سَيِّد الناس اليَعْمُرىّ المِصْرىّ، وهى :

الحمدُلله الذى لايَكْشِفُ السُّوءَ سواه، ولايَدْعُو المضْطَرُّ إلا إيَّاه، نُنْزِلُ فَقْرنا بغِنَاه، ونَعُوذُ من سُخْطِه بِرِضَاه، ونَسْتغفِره من ذُنُوبنا : ﴿ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا اللّٰه﴾ .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلهًــا عَلَا فٱقْتَــدَر ، وأوْرَد عِبادَه وأَصْــدَر ، وبَسَط الرِّزْق وقَدَرَ ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بَشَّرَ وأنْذَر ، ورَغَّب وحَذَّر، وغَلَّب البُشْرىٰ على الإقْنَاط، ودَلَّ على الصِّراط، وأشارَ إلى السَّاعة بالأَشْراط، ولم يَأْلُ أُمَّتَه فى الذَّبِّ والاحْتِياط، صلَّى الله عليه وعلى الوُزَراء الخُلَفا ، والبَرَرةِ الأتْقِيا ، والأشِدَّاء الرُّحَما ، والأصْحاب الزُّعَمــا، صــلاةً تَمْلأُ ما بين الأرض والسَّما، وتُوافِيهم فى كلِّ الأوقات والآنَا، وتَضَعُ الثَّنَاءَ مَوْضِعَ النَّثَا .

ولمــا لَقِحَتْ حَرْبُ الجَدْب عن حِيال، وأشْفَق رَبُّ الصَّرِيحَةِ والعِيَال، وتَنَادى الجِيرانُ للتَّفَرُّق والزِّيَال، وتَنَاوحَتْ فى الهُبُوب رِيحُها الجَنُوبُ والشَّمال ، وتَرَاوَحَتْ على القُلُوبِ رَاحَتا اليَمِين والشِّمال ، وأُحْضِرَتْ أَنْفُسُ الأغْنِياء الشُّح ، وَوَدُّوا أنْ لا تَنْشَأَ مُزْنَةٌ ولا تَسِــحّ ، وتَوَهَّم خَازِنُ البُرِّ ، أنَّ صَاعَه يَعْدِل صَاعَ الدُّرّ ، وخَفَّت الأزْوَاد، وماجت الأرْضُ وٱلتقت الرُّواد، وٱنتزعت العازبَ القَصىّ، فألْقَت العِصِىّ، وصَدَرَتْ بحَسَرَاتِها، وقد أَسْلَمَتْ حَزَرَاتِها، وأَصبحت كلُّ قُنَّةٍ فَدْعَاء، وهَضْبَةٍ دَرْعاء، (صفاه وها ونقبا وها) (؟)(١)، والصُّبْح فى كل أُفُقٍ قطْرٌ أو قطع، والأرْضُ كلُّها سَيْفٌ ونِطع، والشّعر يشمر ذَيْلَه للنّفاق، ويُضَمِّر خَيْلَه للسِّباق، وجاء الجِدُّ وراح الهَزْل،

(١) كذا فى الأصل، ولم نصل إلى حله مع البحث والتنقيب .

وقُلْنا : هٰذه الشِّدَّة هـذا الأَزْل، ولِلْمُرْجِفِينَ فى المَدِينَة عَجَاجَةٌ ظَنُّوها لا تَلْبَد، وقِسِيٌّ نحو الغُيوب تُعْطَف وتُلْبَد؛ فما يَسْقُط السَّائِلُ منهم إلا علىٰ نابٍ يَحْرُق، وشِهابٍ يَبْرُق؛ حتّىٰ إذا عَقَدُوا الأَيْمان، وأَخَذُوا بزَعْمِهم الأَمَان، وقالُوا : لا يُطْمع فى الغَيْث، وزُحَلُ فى اللَّيْث؛ فإذا فارق الأسد، لكَدَّ ما أفْسَد :

تَخَرُّصًا وأحادِيثًا مُلَفَّقَةً * لَيْسَتْ بنَبْعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ!

أنْشَأَ اللهُ العَنان، وقال له : كُنْ فكَان؛ فبَيْنا النُّجومُ دَرارِيّها الأعلام، وأغْفَالها التى لا تُحْمد عندهم ولا تُلَام؛ قد اخْتَلط مَرْعاها بالهَمَل، ولم تَدْرِ السِّدّة بالحَمَل؛ ولا علم الجَدْىُ بالزِّبْال، ولا أحَسَّ الثَّوْر بالرَّامى ذِى الشِّمال؛ إذ غَشِيَتْها ظُلَلُ الغَمام، وحَجَبَتْها أسْتارٌ كأَجْنِحَةِ الحَمَام؛ وأخَذَتْ عليها فى الطُّرُوق، مَصادِرَ الغُرُوب والشُّرُوق؛ فما منها إلا مُقَنَّع بنَصِيف، أو مُزَمَّلٌ فى نِجادٍ خَصِيف؛ لم تُتْرَك له عَيْنٌ تَطْرِف، ولا ثُقْبَةٌ يَطْلعُ منها أو يُشرِف؛ فباتَتْ بين دُوَرٍ مُتَدارِكة السُّقُوط، ودُرَرٍ مُتَناثِرَة السُّموط، ودِيَمٍ مُنْحَلَّة الخُيُوط؛ وجُيُوشٍ مَنْصورةِ الأعلام، ثابِتَةِ الأقْدام؛ وكَتائِبَ صَادِقَةِ الهُجومِ، صَائِبَةِ الرُّجُوم؛ تَطْلُبُ المَحْلَ ما بين التُّخُوم والنُّجوم؛ وما زالتْ ترميه بأحجاره، وتَحْتَرِشُه فى أجْحَارِه؛ وتَغْزُوه فى عُقْر دارِه؛ حتّىٰ عَفَّتْ علىٰ آثارِه، وأخَذَتْ للحَزْنِ والسَّهْل بثارِه .

فيا أيُّها المُؤْمِنُ بالكَوَاكب، أُنْظُر إلى الدِّيَم السَّوَاكب؛ واسْبَح فى لُجَج سُيُولِها، وارْتَع فى مَمَرِّ ذُيولها؛ وسَبِّح باسْمِ رَبِّكَ العظيم الذى قَذَف بالحَقِّ على الباطل، وأعاد الحَلْيَ إلى العاطِل؛ فبُرُودُ الظواهر مُخْضَرّه، وثُغُورُ الأزاهِر مُفْتَرّه؛ ومَسَرّات النُّفُوس مُنْتَشِرَه، والدُّنيا ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِره؛ وأَرْواحُ الأدْواحِ حامِلَه، وأعْطافُ الأغصان مائِله؛ وأوْراقُ الأوْراق تُفَصَّل، وأجْنِحَةُ الظِّلال تُرَاش وتُوصَل؛ وخُطَباءُ الطَّيْر

تَرْوِى وتُخْبِر، وشُيوخُ المَحَارِب تُهَلِّل وتُكَبِّر، وإنْ من شَىْءٍ إلا يَخْضَع لجَبَرُوتِه، ويَشْهَد لمَلَكُوتِه، وتَلُوحُ الحِكْمَة ما بين مَنْطِقه وسُكُوتِه.

فأما الخَطَاطِيفُ فقد سَبَق هَا يِها، ونَطَق شَادِيها، وتَراجَعَ شُكْرًا لله نَادِيها؛ فعُشٌّ يُرَمّ، ولَبِنَةٌ إلى أخرىٰ تُزَمّ، وشَعَثٌ يُلَمّ، وبَدْأَةٌ تُوَفَّىٰ وتُتَمّ؛ وكأنَّها حَنَّتْ نَحْو المَشَاهِد، وسابَقَتِ اللَّقَالِقَ إلى المَعَاهِد؛ فظَلَّت اللَّقَالِقُ بعدها نُزَّاعا، وسَقَطَتْ علىٰ آطَامِها أَوْزَاعا، وأَجَدَّتْ إقطاعا، وأجَابَتْ من الخِصْبِ أمْرًا مُطَاعا، وحَازَتْ من الحَدَائِق والبَسَاتِين إقْطَاعا؛ وسَيُغَرِّد فى رَوْضَتِه المُكَّاء، ويُضْحِكُه هذا الوَابِلُ البَكَّاء، وتَرُومه فلا تَلْحَظُه ذُكَاء؛ تَحْتَه من الأفنان النَّاعِمَة قِلَاص، وأحْصَنَتْه من الخضراء التُّبَّعِيَّةِ دِلَاص؛ فالوَيْل لأَهْلِ الأَقْوالِ المُنْكَرات، والنَّيْلُ لأهلِ الثَّنَاء والخَيْرات؛ والمَرْعَىٰ والسَّعْدان، وأرْضٌ بكَوَاكِبِ النَّوْرِ تَزْدَان، وبِقاعٌ تَدِينُ الغَيْث كما تُدَان؛ أَذْكَرَها فذَكَرَت، وسَكِرَتْ من أَخْلاقِه فشَكَرَت، وعَرَّفَها ما أنكَرَتْ؛ كأنَّما أعْدَاؤُها من أم خارجة نسب أو ملح، قالت لها: خِطْبٌ فقال: نِكْح، فَمَثَلَت الأزهارُ بسَبِيلِه، ونَبَتَتْ فى مَسِيلِه، وثَبَتَتْ كاللَّحْظَةِ فى شَطَّىْ نَحِيلِه.

فمِن نَرْجِسٍ تَرْنُو الرَّوَانِى بأحْدَاقِه، وتَسْتَعِير الشَّمْس بَهْجَة إشْراقِه؛ ويَوَدُّ المِسْكُ نَفْحَةَ ٱنْتِشاقِه، يَحْسُد السُّنْدُسُ خُضْرَةَ سَاقِه، ويَتَمَنَّاه الحَمَام بَدَلًا من أطْواقِه؛ كُحُلَةِ نَدًى تَتَرَقْرَق، أو غُصْنِ بَانٍ لا يزال يُورِق.

ومن عَرَارٍ تَغَنَّىٰ مُطَالِعُه علىٰ عَرَار، وكَلِفَتْ به السَّوَارِى والغَوَادِى كَلَفَ عَمْرٍو بعِرَار؛ بجاء كسَوَالِف الغِيد تَرِفّ، وكَوَمِيضِ الثُّغُور يَعْبَقُ ويَشِفّ.

ومن أُقْحُوانٍ جَرَىٰ على الثَّنايا الغُرّ، وسُبِكَ من نَاصِعِ الدُّرّ؛ يُقَبِّله النَّسِيم فَيَعْبَق، ويصبح الجَوُّ بما (١) ويَغْبِق، ويَسْتَقْبِله ناظِرُ الشمس فيُشْرِق.

---

(١) بياض بالأصل.

ومن بَنَفْسَجٍ كأطواق الوُرْق، أو كاليَوَاقِيتِ الزُّرْق ؛ تَشَرَّفَ بأبْدَعِ الخلق، وتألَّف من الغَسَــقِ والخَلَق ؛ تَلْحَظُه من بين أوراقه نَوَاظِرُ دُعْجٌ بالأجفانِ وُقِيتْ، وبدُمُوع الكُحْلِ سُقِيَتْ ؛ نَسِيمُه أَلْيَنُ من الحَرِير، ونَفَسُه أَعْطَرُ من العَبِير؛ يُفَاخِر به كانُونُ البرد، مُفَاخَرةَ نَيْسَان بالوَرْد .

وكلّ رَبْوَةٍ قد أخذَتْ زُخْرُفَها وٱزَّيَّنَتْ ، وبَيَّنَتْ من آياتِ الله ما بيَّنَتْ ؛ كما تَتَوَّجَ فى إيوَانِه كِسْرىٰ، وٱستَقبلَتْه وُفُودُه تترىٰ، وٱنقلبَتْ عن حُسْنِ نَادِيه النَّواظِرُ حَسْرىٰ، وكلِّ تَلْعَةٍ مَذَانِبُ نُصُولِها تُسَلُّ ومَضَارِبُ فُصُولِهــا لاتُثْنىٰ ؛ وأرَاقِمِ تَنْساب، وبِجَيْن يُذْأب ويُذَاب ؛ علىٰ حَافَاتِهــا نُجُومٌ من النَّوْرِ مُشْتَبِكه ، وجُيُوبٌ عن لَبَّاتِ الغَوَانِى مُنْتَهِكَه ؛ فلوٱفْتُتِحَت الظُّهورُ والبُطُون ، ونَطَقَتِ السُّهُول والحُزُون ، لقــالتْ : ﴿قُتِلَ الخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ .

فشُكْرًا لِرَبِّنَــا شُكْرا ، وسُحْقًا للذين بدَّلُوا نِعْمَةَ الله كُفْرا ؛ اللَّهُــمَّ بارِئَ النَّسَم ، ودَارِئَ القَسَم ، ونَاشِرَ الرَّحْمة والنِّعَم ، ومُنْزِلَ الدِّيَم ، وبَاعِثَ الرِّمَم ، ومُحْيِيَ الأُمَم ؛ فإنَّا نُؤْمن بقَــدَرِك : خَيْرِه وشَرِّه ، ونطوى غَيْثَــكَ علىٰ غِرِّه ، ولا نَتَعرَّضُ لنَشْرِه حتَّى تَأْذَنَ بنَشْرِه؛ ونَعْتَقِد رُبُوبِيَّتَــك كلَّ الاعتقاد ، ونَبْرأُ إليك من أهْــلِ المُرُوق والإلْحاد ؛ ونَسْــتَرِيدُكَ من مصالح العِبَاد ومَنَافِعِ البِــلاد ؛ رِزْقُنا لَدَيْك ، ونَواصِينَا بِيَدَيْك، وتوكُّلُنا عَلَيْك، وتَوَجُّهُنا إليك ؛ ولا نُشْرِكُ بك فى غَيْبِك أحدا ، ولا يَجِدُ عَبْدٌ من دُونك مُلْتَحَدا ؛ تبَارَكْتَ وتعالَيْت ، وأمَتَّ الحَىَّ وأحْيَيْتَ المَيْتَ ؛ لا هَادِىَ لمن أَضْلَلْتَ ولا مُضِــلَّ لمن هَدَيْت، فاكْفِنا فِيمَنْ كَفَيْت ، وتَوَلَّنا فِيمَنْ تَوَلَّيْت ، إنَّك تَقْضِى ولا يُقْضىٰ عَلَيْك ، ونَقْرأ : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ الآية .

* * *

وهذه نُسْخة رسالةٍ ، كَتَب بها الصاحِبُ فَخْر الدِّين عبـدُ الرَّحْمٰن بن مُكَانِس ، تَغَمَّده الله برَحْمَته ، إلى الشَّيْخ بَدْرِ الدين البَشْتَكى عند ما زَادَ النِّيلُ الزيادة المُفْرِطة ، سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وهى :

ربَّنا ٱجْعَلْنا فى هذا الطُّوفَانِ من الآمِنِين ، وسَلامٌ علىٰ نُوحٍ فى العَالَمِين . ما تأْخِير مَوْلانا بَحْرِ العِلْمِ وشَيْخِه عن رُؤْيَةِ هٰذا المـا ؟ ، وما قُعادُه عن زُرْقَةِ هـذا النِّيلِ الذى جُعِل النَّاسُ فيه بالتَّوْبَةِ كالمَلَائِكة لمَّا غدا هو أيضًا كالسَّما ؟ ، وكَيْف لم يَرَ هذا الطُّوفَان الذى ٱسْتَحال للزِّيادة فما أشْبَه زِيادَتَه بالظَّما ، فهى كَزِيادَةِ الأَصَابِع الدَّالَّة فى الكَفِّ علىٰ نَقْصِه ، وأولىٰ أن نُنْشِد بَيْتَ المَثَلِ بِنَصِّه :

طَفَحَ السُّرُورُ عَلَىَّ حتَّىٰ إنَّه * من عُظْمِ ماقَدْ سَرَّنِى أبْكَانِى !

فإنه قَارَب أن يَمْتَزِجَ بنَهْرِ المَجَرَّة بل وَصَل وٱمْتَزج ، وأَرانَا من عَجَائِبه ما حَقَّق أنه المَعْنِىّ [بقَوْلِ القائل] : "حَدِّثْ عن البَحْرِ ولا حَرَج" ، وتَجاوزَ فى عَشْرِ الثَّلاثين الحَدّ ، وأَرانا بالمعاينـة فى كلِّ ساحِلٍ منه ما سَمِعْناه عن الجَزْرِ والمَدّ ، وأساء فى دَفْعِه فلم يَدْفَع بالتى هى أحْسَن ، وأقْعَدَ المَـاشِىَ عن التَّسَبُّب والحَرَكَةِ حتَّى شَكَا إلى الله فى الحَالَيْنِ جَوْرَ الزَّمن ، وسَـقَى الناسَ من ماء حَيَاته المعهودةِ كما شَرِبُوا من المَوْتِ أصْعَبَ كَاس ، وسُـئِلَ ٱبْنُ أبى الرَّدَّادِ عن قياس الزيادة فقـال : زَادَ بلا قِيَاس ، ٱمْتَلأَ اليَبَاب ، وهَالَ العُبَاب ، وضَاعَ العَدُّ وٱخْتَلَط الحِسَاب ، كَالَ فطَفَّف ، وزَارَ فمـا خَفَّف ، غَسَل الجُسُور ، وأعَادَ الإمْلاقَ بعَزْمه إلى البُحُور ، وبَرَع فكان أولىٰ بقَوْلِ الحِلِّىّ من ٱبن مَنْصُور :

بمَكَارِمٍ تَذَرُ السَّبَاسِبَ أبْحُرًا * وعَزائِمٍ تَذَرُ البِحَارَ سَبَاسِبَا !

جمع فى صُعُودِه إلى الجبال بين الحادِى والمَلّاح، ودَخَل النّاسُ إلىٰ أسْواقِ مِصْر وخُصُوصا سُوقُ الرَّقِيقِ علىٰ كلّ جَارِيةٍ ذَاتِ ألْوَاح ؛ وغَدا التَّيّار يَنْسَابُ فى كلِّ يَمٍّ كالأَيْم، وأصْبَحَتْ هِضَابُ المَوْجِ فى سَماءِ البَحْرِ وكأنَّما هى قِطَعُ الغَيْم ؛ وآسْتَحالت الأفلاكُ فكُلُّ بُرْجٍ مَائِى ، وتَغيَّرتِ الألوانُ فكلُّ ما فى الأرْض سَمَائِى ؛ وحكَىٰ ماؤُه حُكَاكَةَ الصَّنْدَل لمَّا مسَّه شَيْطانُ الرِّيح فتَخَبَّط ، وزادَ فآسْتَحالَ نَفْعُه فتحقَّق ما يُنْسَب إلى الصَّنْدَلِ من الاستحالة إذا أَفْرَط ؛ فلقد حَكَتْ أمْواجُه ودَوائِرُه الأعْكَان والسُّرر، وغَدا كُلُّ حَىٍّ مَيِّتًا من زيادته لا كما قَالَ المَعَرِّى : حَيًّا مِنْ بَنِى مَطَر[1]؛ وتعالىٰ إلىٰ أن أَقْرَف اللَّيْمونَ الأخْضَر، وآحْمَرَّتْ عَيْنُه على النـاس فأذاقَهُم المَوْتَ الأحْمَر؛ ولقد صَعُبَ سُلُوكه وكَيْف لا؟ وهو البَحْر المَدِيد، وأصْبَح كلُّ جَدْوَلٍ منه جَعْفَرًا ويَزِيد :

فَلَسْتُ أَرَىٰ إلا إفَاضَةَ شَاخِصٍ * إليـه بعَيْنٍ أو مُشيرًا بأُصْبُعِ!

فلكم قال الهَرَم للسَّارِينَ ياسَارِيةُ الجَبَلَ، وأنْشَد وقَدْ شَمَّر سَاقَه للخَوْض : أنا الغَرِيقُ فَمَا خَوْفِى منَ البَلَل؟ وكَمْ قال أبو الهَوْل : لا هَوْلَ إلا هَوْلُ هذا البَحْر، وقال المسافرون : ما رَأَيْنا مثل هذا النّيل من هُنا إلىٰ ماوَرَاءَ النَّهر، وقال المُؤَرِّخون : لم نَنْقُلْ كهٰذه الزيادة من عهد النَّهْرَوَانِ وإلىٰ هـذا الدَّهْر .

وكَيْف يَسُوغُ لمولانا فى هذه الأيام غيرُ آرتشاف فَمِ الخُمُور؟ ولِمَ لا يُغَيِّر مَذْهَبَه ويُطَيِّب علىٰ هـذه الخُلُج بالسَّلْسَلِ والدَّوْر ؟ ؛ وكَيْفَ وكَيْف؟!! ، ولِمَ لا يَتَّخِذُ مولانا حَمْوَ النِّيـلِ وبَرْدَه رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْف؟ ؛ وهو فى المبادرة إلىٰ عُلُوِّ المعـالى وغُلُوِّ المعانى، وآنتهاز الفُرَص فى بَلَاغ الآمال وبُلُوغ الأمَانِى :

(١) يشير الى بيت المعرى فى قوله :

وإن بخلت عن الأحياءِ كلهم * فاسـقِ المواطر حَيًّا من بنى مَطَر

آنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠) .

عَجَبٌ من عَجَائِبِ البَرِّ والبَحْـ * ـرِ ونَوْعٌ فَرْدٌ وشَكْلٌ غَرِيبُ!

نَعَـم :

مَنْ قَاسَكُم بِسِوَاكُمُ * قَاسَ البِحَارَ إلى الثِّمَادِ!

أَعْلى الأَنَام فى العُلُوم قَدْرا ، و إمام النُّحَاةِ من عَهْد سيبَوَيْهِ وهَلُمَّ جرّا ، وشَيْخ العَرُوضيين على الحقيقة بَرّاً وبَحْرا :

وشَيْخ سَيْحُونَ والنِّيـ * ـلِ والفُرَاتِ وَدِجْلَهْ ،

وشَيْخ جَيْحُونَ أيضا ، * وشَيْخ نَهْرِ الأُبُلَّهْ !

اِى وَاللهِ :

أَقُولُهَا لَوْ بَلَغَتْ مَا عَسَىٰ : * الطَّبْلُ لا يُضْرَبُ تَحْتَ الكِسَا !

لا مَخْبأَ لعِطْرٍ بعد عَرُوس ، أنتَ أعْوَمُ فى بُحُور الشِّعْر من ٱبن قَادُوس ، وأصْلَحُ إذا حَدَّثتَ من صَالِح بن عَبْد القُدُّوس ، وأَشْهَىٰ إذا هَزَلْتَ من ٱبنِ حَجَّاجٍ إلىٰ النُّفُوس :

وَلَوْ أنَّ بَحْر النِّيلِ جَارَاكَ مَا زَجَا * وَحَقِّكَ ما ٱسْتَحْلَىٰ له الناسُ زَائِدا !

نَعُود إلىٰ ما كُنَّا فيه من وَصْف النيل ، وذِكْر حاله الذى أصْبَح كما قال ٱبن عبدالظَّاهِر : كَوَجْهٍ جَمِيل ؛ : فلو رآه مولانا وقد هَجَم علىٰ مِصْر بجَاس خِلاَل الدِّيار ، ودَخَل إلى المَعْشُوق فتركه كالعَاشِقِ المَهْجور لم يُرَ منه غَيْرُ الآثار ، لبَكَىٰ بعَيْنَىْ عُرْوَه ، وأَوَىٰ من الرَّصَد وقد تَفَجَّرت من صَلْده عيون النَّز إلىٰ رَبْوه ؛ أورَنَا لَرَوْض الجَزِيرَة وقد خَلَع حِلاَه ، وتَخَاخَلَتْ عَرَائِسُ أشجاره على الحالين بالمياه . والنَّخِيل وقد قُتِلَتْ مُلاَّكُها ـ حِينَ فَتَكَ ـ بالأَسَف ، وجَفَّ أحْمَرُ ثَمَرِها وأصْفَرُه فأرانا العُنَّاب والحَشَف . والجِيزَةِ وقد قلتُ لها : تَبًّا لجَارِكِ النِّيلِ إذ أفْسَدَكِ صُورةً ومَعْنى ، وسَكَن مَغَانِيَك فَسَقَىٰ

دِيارَك بغير ٱسْتِثْنا . وقُراها الغَرْبيّة وقد قلتُ لها حِينَ أَوَتْ إلىٰ أعالِى الأرض هَرَباً من المِيـاه ، وٱعْتَصَمَتْ بالجَبَل الغَرْبى : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ . وكُلّ سَفِينةٍ وقد عَلَتْ علىٰ وَجْه المـاء ، وٱرْتَقَتْ لٱرتقاء البَحْـر إلىٰ أن ٱختلطتْ بالسَّماء ، وقد قالتْ لها أتْرابُها عند الفِراق : إلّا تَرْجِعى ، وقُلْنا لها نحن علىٰ سَبِيل التَّفَاؤُل : ياسَمَاءُ أَقْلِعِى ، والنِّيل تَبْدُو عليه القُلُوع خَافِيَةً لبُعْدها فكأَنَّها الخِيامُ بذى طُلُوح[1] ، وجارَ على الناس بطُغْيانه فكأَنَّمـا هو أخُو فِرْعونِ مِصْرَ أو ٱبنُ طُوفَانِ نُوح .

فلقد طَارَ النَّسر مَبْلُول الجَناح ، ودَنَا نَهر المَجَرَّةِ من السَّكَارىٰ بالشَّخَاتيت إلىٰ أن كاد يَدْفَعُه من قام بالرَّاح . ونَرْجِس البَسَاتِينِ وقد ٱبْيَضَّت عيناه من الحُزْنِ فهو كَظِيم ، وفَارَق أَحْبابَه من الرَّيَاحِينِ ولم يَبْق له غَيْرَ القَلَانِس صَدِيقٌ وغَيْرَ المـاءِ حَمِيم . والوَرْدِ وقد قِيل له : مالَكَ من آس ، وغُصْنِ البَانِ وقد قيل له : طُوبىٰ لمن عَانَقَك ولا بَاس . والأسماكُ وقد أَلْجَمهم العَرَق ، والقُلْقَاس وقد شَـكا شَكْوىٰ ٱبن قلاقِس وٱبنِه من الغَرَق . والقَصَب بالجِيزَة وقد شَرِب مَاءَ النَّزِّ فهو بِئْسَ الشَّراب ، والقَصَب ببُولَاق لم يُنْجِـه من مُشَاهدة الغَرَقِ إلا كونُه غَاب ، والفَارِسىّ بالبَسَاتِينِ وقد تَرَجَّل ووَقَع فأرَانَا كَيْف تَكْسِير الأَقْصَاب ، وقِيل للآس : عاجِل جِيرَانَك بالغِيطَانِ فالنَّاس بالنَّاس ، وبَادِرْ إلىٰ جَبْرِ ما كُسِر فالحَاجَةُ تَدْعو المَكْسورَ فى الحالَين إلى الآس .

هـذا وأنا مُقيمٌ بالروضة إذْ زَهَتْ علىٰ سائر الرِّياض ، وسَلِمَ جَوْهَرُ حَصْبائِها من أكثر هذه الأعْرَاض ، وإن ٱعتَلَّتْ بالٱسْتِسْقاءِ فهو عين الصِّحَّة كما يُنْسَب السَّقَم إلى العُيُون المِرَاض ، أو كما قَالَ المملوك قديمـا من قَصِيدَة فى بعض الأغْرَاض :

وقَائِل : فى لِحَاظِ الغِيدِ باقِيَــةٌ * من السّقَامِ وما ضَمَّتْ خُصُورُهُمُ ،

---

(١) ذو طلوح موضع .

وفى النَّسيم فقلتُ : الأمرُ مُشتَبِهٌ * عَلَيك فَالْزَم فأنتَ الحاذِقُ الفَهِمُ .

قلتُ الصَّحيح ولٰكِنِّى بمُوجَبِـه * أقولُ : تلك دَوَاةٌ بُرْؤُها السَّقَمُ !

قد أحاط بها النِّيلُ إحاطةَ المَرَاشِفِ باللَّمَا ، فأشرَقتْ ضِيـاءً بين زُرْقَته فكأنَّها البَدْر فى كَبِد السَّما :

بصَحْنِ خَدٍّ لم يَغِض مَاؤُه * ولم تَخُضْـهُ أعينُ النَّـاسِ !

مُتَعَطِّش مع هذا الطُّوفان لرَيَّاك ، مُتَشَوِّف وإن كنتُ مُغازِلَ النُّجوم الأرْضية والسَّمائِيَّة يا بَدْرُ لرُؤْيَاك ، لٰكِنِّى يُسلينى أنى ما نَظَرتُ إلى النِّيلِ إلا رأَيْتُك من سائر الجهات ، ولا لَمَحْتُ بيوتَ البَحْرِ بل البُحُورِ إلا رَأَيْتُك عِمَارةَ الأبيات :

ولا هَمَمْتُ بشُرْبِ المـاء من عَطَشٍ * إلا رأيتُ خَيـالًا منكَ فى المَـاءِ !

ولٰكِنْ للعِيَـانِ لَطِيفُ مَعْـنًى * له طَلَبَ المُشَاهَــدَةَ الكَليمُ !

فهَلُمَّ إلى التَّمتُّع برُؤْيةِ هذا النِّيل الذى لم تَرَ مِثْلَه العُيُون ، والنَّظَرِ إلىٰ سائر المَخْلُوقات لعُمُومه وكلٌّ فى فَلَك يَسْـبَحُون ، فليس يَطِيبُ للتِّلميذ رُؤْية هـذا البَحْر بغَيْرِ رُؤْيةِ شَيْخِه ، ولا يَلَذُّ له التَّمَلِّى بمشاهدة هذا الفُلْكِ ما لم يُشْرِقْ وجْهه وذِهْنه ببَدْرِه ومَرِّيخِه ، فمـا هذا الإهمال ؟ ، ولَيْتَ شِـعْرِى يا أَدِيبُ تَشَاغُلُك بأَىِّ الأعمال ؟ ، أَبا لكِتَابة ؟ فلْتَكُن فى هذا النِّيل الذى هو كالطَّلْحِيَّة بغير مثال ، أو بالنَّثْر والنَّظْم ؟ ففى هذا البَحْر الذى منـه تُؤْخَذ الدُّرر وفيه تُضْرَبُ الأمثال ، ولَقَد وَلَّد فيه الفِكْرُ للمَمْلُوك ، كيفَ تَصَادُم الأكْفَاءِ وقَهرُ المُلُوك للمُلُوك ، فإنه لم يُسْمع فى مَمْلَكة الإسلام ، ولا وُرِّخَ فى عام من الأعْوام ، بمِثْلِ هذه الزيادة الزائده ، والجَرْىِ علىٰ خَرْقِ العادة التى لا أجعَلَ

الله بها صِلَةٌ ولا منها عائده ، وغايةُ ما وَصَل إليه فى الماضى من عِشْرِينَ : فَضيَّق بسَعَتِه المسَالِكَ ، وأوْجَبَ المهالك ، وتَطرّق تَطرُّقَ أهْلِ الجرائم والفَسَاد فقطع الطَّرِيقَ على السَّالك ، وأحْوَجَ مَرَّاتٍ إلى الاستضحاء لا أَحْوَجَ اللهُ لذٰلِكَ .

ودَلِيلُ ما شَمِل به من الفساد ، وما عَامَل به البِلادَ وأهْلَ البلاد ، ما قاله أُدَباءُ كلِّ عَصْرٍ ، عند ما أبيح للمسافر فى مَدِّ عَرْضِه القَصْر .

فمن ذلك ما قاله مولانا القَاضِى الفَاضِل ، وما هو رحمه الله إلا بَحْرٌ طَفَح دُرُّه ، فللهِ دَرُّه ، من رسالةٍ :

وُرُودُ مِثالِه يتَضمَّن نَبأَ سُطورِه العظيمةِ أَمْرَ طوفانِ النِّيلِ التى كأنَّها جَداوِلُه ، وأنه جاد لمُؤَمِّلِه بنَفْسِه التى ليس فى يَدِه غيرُها فَلْيَتقِ اللهَ سَائلُه ... .

ومنها : ولَمْ يَزَلْ يجرى لمُسْتَقَرٍّ له ، ويَضُمُّه شَيْئًا فشَيْئًا إلىٰ أن أدْرَكَ آخِرُه أوّلَه ؛ حتى إذا تكامل سُمُوُّ أمْواجِه حالًا علىٰ حَال ، وتَنوّر أقاصِى الأرْض من بِنْيَةِ المِقْياس فأدناها النَّظَرُ العَال ؛ فلم يَتْرُك بُقْعَةً كانت من قبلُ فارِغَةً إلا وكلُّها عند نَظَرِه مَاق ، ولَيْتَ هواه المُعْتَلّ كان عَدْلًا فحمَّلَ كلَّ غَدِيرٍ ما أطاق ؛ وطَالمَا جرىٰ بالصَّفا ولكن كدّر صَفَاه بهذا المَسْعىٰ ، والمَرْجُو من الله أن يَتْلُوَ ما أفسده هٰذَا المَاءُ ما يُصْلِحه خُرُوجُ المَرْعىٰ .

وما قاله القاضى مُحْيِى الدِّين بن عبد الظاهر ، سَقَى اللهُ تلك الألْفَاظ النِّيلِيَّةَ صَوْبَ المَاطِر :

ويُنْهِى إليه أمْرَ النِّيلِ الذى سَرَّ فى أوائله الأنْفُسَ بأنْفَس بُشْرىٰ ، ويَقُصُّ عليه نَبأَه العظيمَ الذى ما يُرِينا من آية إلا هى أكْبَرُ من الأخْرىٰ ، ويَصِفُ له ما سَاقه إلى الأرْض من كلِّ طَلِيعَةٍ إذا تَنفَّس اللَّيْلُ تَفرّق صُبْحُها وتَفَرَّىٰ ؛ فهو وإن كان

خصَّ اللهُ البلاد المصرية بوفوره ووَفَائه، وأغنىٰ به قُطْرَها عن القَطْرِ فلم يحتج إلىٰ مَدِّ كَافه وفَائه ، ونَزَّهَه عن مِنَّةِ الغمام الذى هو إن جاد فلا بُدَّ من شَهْقَة رعده ودَفْعَة بُكَائه ؛ فقد وَطِئَ بِلادَها بعَسْكَرِه العَجَّاج، وزَاحَم ساحَتَها بأفواجِ الأَمْواج؛ فعَمِل فيها بِذرَاعِه ، ودار عليها بخَنَاقِه وتَخَلَّلها بنِزَاعِه ، وحَمَلَها علىٰ سَوَارِى الصَّوَارِى تحت قُلُوعه وما هى إلا عُمُـدُ قِلَاعِه ؛ وزار زَرَابِىَّ الدُّورِ المبْثُوثَه ، وجَاس خِلَالَ الحَنَايا كأنَّ له فيها خَبَايا مَوْرُوثَه ؛ ومَرَق كالسَّهْم من قَنَاطِرِه المَنْكُوسه، وعلا زَبَدُ حَرَكَتِه ولولاه ظَهَرتْ فى بَاطِنِه من الأقمـارِ والنُّجومِ أشِعَّتُها المَعْكُوسَـه ؛ وحمل علىٰ بِرْكَة الفيلِ حَمْلَ الأسُـودِ على الأبطال ، وجَعَـل المجْنُونةَ من تيَّاره المُنْحَدِرِ فى السَّلاسِل والأغلال؛ والمَرْجُوُّ من الله أن يُزِيلَ أذَاه، ويُعِيدَ علينا منه ماعَهِدْناه؛ فانَّ له الإِيابَ الأكْبَر، وفيه العَجَائِبُ والعِبَر؛ فها وُجُودُ الوَفَاء، عند عَدَمِ الصفاء؛ وبُلُوغ الهَرَم، إذا ٱحْتَدَمَ وٱضطَّرم؛ وأمن كلّ فَرِيق، إذا قَطَع الطَّرِيق؛ وفَرِحَ قُطَّان الأوطان، إذا كُسر وهوكما يقال : سُلْطَان ؛ إلىٰ غير ذلك من خَصَائِصه ، وبَراءتِه مع الزيادة من نَقَائِصه ؛ طَالَمَـا فتح أبوابَ الرَّحْمَـة بتَعْلِيقِه ، وفَازَ كلُّ أحدٍ عنـد رُؤْية مائه المُعَصْفَرِ بتَخْلِيقِه .

وما قاله المولى زينُ الدِّين عُمَرُ الصَّـفَدِىّ تَغَمَّده الله بعفوه، وجَمَع له بين حلاوة الكَوْثَر وصَفْوِه :

وأما النِّيلُ فقد أخَذ الدَّارَ والسُّكَّان، وقال ٱبن الخَامل كما قال ٱبنُ النَّبِيه : الأمانَ الأمان ، وبَكَى النَاسُ عنـد ما رَأَوْه مُقْبِلًا عليهم بالطُّوفَان ؛ وٱنْسابَتْ أرَاقِمُ غُدْرانه فى الإقليم فٱبْتَلعَتْ غُدْرانَ أرَاقِمِـه ، ومَحَا سَـيْلُه المتدَفِّقُ مَعالِمَه المَجْهُولة فٱسـتعمل الأقلام فى إثْباتِ مَعَالِمه؛ وأحَاطَ بالقُرَىٰ كالمُحَاصِر فضَرَبَ بينها وبين السماء بسُور، وأخَذَ الطريقَ على السَّالِكِينَ فلا مَرْكَبَ إلا المَرَاكِبُ ولا عَاصِمَ إلا البُحُور .

وما قاله السديد ابنُ كاتبِ المَرْج ، نُصْرَةُ الأقباط ، وأحَدُ عُمُدِ الشِّعْر المشهورة بالفُسْطاط ، فما أطْيَبَ مَدَائحه النَّبَويَّة التى جعلها سُورًا بينه وبين النار، وما أَعْجَب رثاءَه : جعل اللهُ قبْرَه بالرحمةِ كالرَّوض غِبَّ القِطَار ! ! :

يا نِيلُ يا مَلِكَ الأنْهارِ قد شَربَتْ * مِنْكَ البرايا شَرابًا طَيِّبًا وَغِذَا ،
وَقَدْ دخلتَ القُرَى تَبْغِى مَنافِعَها * فعمَّهابعد فَرْطِ النَّفْع منك أَذَى .
فقَالَ : يُذْكَر عنِّى أنِّى مَلِكٌ * وتَعْتَدى نَاسِيًا : إنَّ المُلُوك إذًا !

وما قالَه شيخُنا الشَّيْخ جمالُ الدين بن نُبَاتة الذى أطاعَتْه من الآدابِ جوانحُ نَظْمِها ونَثْرِها ، وسُخِّرتْ له بُحُور الشِّعر فقالتْ له الآداب : اخْتَرْ من دُرِّها ؛ فسُبحانَ من يَسَّر له مُمْتَنِع الكلام وهوَّنَه ، وجعله من الذين يَسْتمِعُون القوْلَ فيَتَّبِعُونَ أحْسَنَه ؛ فما أَشَفَّ دَقيقَ فِكْرِه الجَليل ، وما أكْثَر ما يَضْحَك زَهْرُ تَقَاطِيعه علىٰ زَهْرِ مُقَطَّعات النِّيل ؛ فما كان إلا مَخْصوصًا فى الأدب بحور الهِبَات ، وكلامُه فى العُذُوبة والبلاغة يُزْرِى بالفُرَات وابنِ الفُرات ؛ وإن قيل أىُّ أصْدقِ كَلِمةٍ قالها شاعِرٌ بعد لَبِيد ، يقال قولُ ابن نُبَاتَة .

فلا عَجَبٌ للفظِى حِينَ يَحْلُو * فهذا القَطْرُ من ذَاكَ النَّبَاتِ ! :

وأما النِّيل فقد استوىٰ على الأرض فثَبَتت فيها قَدَمُه ، وامتدَّ نَصْلُ تَيَّارِه كالسَّيْف الصَّقِيل فقَتَل الإقليمَ وهذا الاحْمِرارُ إنَّما هو دَمُه :

حُمْرَتُها من دِمَاءِ ما قَتَلَتْ * والدَّمُ فى النَّصْل شاهدٌ عَجَبُ !

فلم يترك وَعْدًا بل وعِيدًا إلا وَفَّاه ، ولا وَهْدًا بل جَبَلًا إلا أخْفَاه ؛ أقبل كالأسَد الهَصُورِ إذا احتَدّ واضطَّرم ، وجاء من سِنِّ الجَنَادِل فتحدَّر وعَلَا حتى بلغ أقْصَى الهَرَم ؛ وعامَلَ البلادَ بالخُيَلاءِ وكَيْفَ لا ؟ وهو سُلْطانٌ جائِرٌ أُيِّدَ بالنَّصْر ، قائلًا :

إن كُنْتُ بُلِيتُ بالاَحْتِرَاق فى أرْضِكُم فأنا أَفِيضُ بأن أَرْمِىَ من بُرُوقِ تَيَّارِى بشَرَرٍ كالقَصْر .

هذا وطالَمَا قابَلَنا قبلها بوَجْهٍ جَمِيل ، وسَمِعْنا عنه كلَّ خبَرِ خَيْرٍ ثابتٍ و يَزِيدُ كما قال جَمِيل ، وكلَّ بَدِيعٍ من آثار جُودٍ يصبغ الثَّرىٰ فيَخْضَرُّ بخلاف المشهور عن صَبْغَة اللَّيْل ؛ وطالَمَا خصصناه بدُعاءٍ فكانت الراحةُ به كمِقْياسه ذَاتَ بَسْطَه ، وكَمَنازِل الخِصْبِ بقُدُومه المُبارَك ذَات غِبْطَه ، ومَنَحْناه بوَلاءٍ وثَنَاءٍ هذا يَدُور من الإخلاص بفُلْكٍ وهذا يَعْذُب من البِحَارِ بنُقْطَه ؛ كَمْ وَرَد إلى البِلاد ضَيْفًا ومعه القِرىٰ ، وكَمْ أَتَى مُرْسَلًا بمُعجِز آيات الخِصْبِ إلىٰ أهْلِ القُرىٰ ؛ فهو جَوَادٌ قد خَلَع الرَّسَن ، ساهِرٌ فى مصالح الخَلْق وقد مَلأَ الأمْنُ أجفانَهم بالوَسَن ، جامعٌ لأهل مِصْرَ من سُقْيَاهُ ومَرْعاه ووَجْهِه بين المَاءِ والخُضْرة والوَجْهِ الحَسَن ؛ كَمْ باتَ سَيْرُ مقْياسه يشمل بظِلِّه الغَائِبِينَ والحاضرين ، وكَمْ رَفَع على الوَفَاءِ رايَةً صَفْراءَ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظرين ؛ وبَلَغ وبَلَّغ بجَرِيرِ التَّيَّار سَلامَه ، وباتَ الناسُ بوَفَائه من حِذارِ الغَلاءِ تحْت السِّتْر والسَّلامَه ؛ وخَلَّق صَدْرَ العَمُود وكيف لا يُخَلَّق بَشِيرِ العباد والبلاد ، ودَعَا مِصْرَ لأَخْذ زُخْرفِها فسَوَاءٌ قيل : ذَات العَمُود أو ذَات العِمَاد ؛ وبَسَط يدَه ببركَة المَاءِ فقيل : سلامٌ لكَ من أَصْحابِ اليَمين ، وخَضَّب بَنَانه وأقْسم بحُصُول الخَيْرِ فقِيلَ لمَخْضُوب البَنَان يَمِين ؛ وأشار إلىٰ وُصُول المَدِّ المتتابع ، وقَبَضَ يدَه المخَلَّقَةَ على الماء فوَفَتْ وما خَابَتْ فُروجُ الأصابع ؛ ونادىٰ رَائِدُ الوَفَاء ولٰكِنْ كَمْ حَياةٍ فى الأرْضِ لمن يُنَادِى ، وتَمَّت أصابِعُ الزيادة ونَمَتْ حتَّى قَال الناسُ : ما ذِى أَصَابِعُ ذِى أَيَادِى .

هذا وقد قُرِنَتْ زرابىُّ الدُّورِ المَبْثوثَة بالنَّمارِق ، وقال المقياسُ : تَغطَّت منها الدَّرجُ فنال الرَّجاء وظَهَرتِ الدَّقائق ؛ فهو جَمُّ المَنافع ، عَذْبُ المَنابِع ، يُشار فى الحقيقة والمجاز إليه بالأَصَابِع .

فأعاده الله إلىٰ ذلك النَّفْع المعهود ، وأرانا منــه الأمَانَ من الطُّوفَانِ إلىٰ أن نَرِدَ الحَوْضَ المَوْرود ؛ وكَفَىٰ أهـلَ مِصْرَ هـذه المُصيبة التى إذا أصَابَتْهم قالوا : إنَّا لِلّهِ وإنا إلَيْـهِ رَاجِعُون ، ولَا ٱبْتَلاهم بِمِثْلِ ما ٱبتـلىٰ به قوْمًا جعَـلُوا أصَابِعهم فى آذَانِهم وٱسْتَغْشَوْا ثيابَهُم فإنَّمـا يَسْتَغْشِى ثِيَابَه منهـم الفُقَراء فى المَطَر ويَجْعَـلُ أصَابِعَه فى آذَانِه منهـم المُؤَذِّنُون ؛ اللّٰهُـمّ إنكَ ولىُّ النِّعمه ، وأوْلىٰ برحْمةِ خَلْقِك من فَيْضِ هٰذه الرَّحْمه .

وما قاله صاحِبُنا الشـيخُ شِهابُ الدين بن أبِى حَجَلَةَ الذى كان أغْرَبَ من زَرْقَاءِ اليمَامَه ، وأعْجَبَ اذا رَكِبَ بَغْلَته وزُرْزُورَه من أبِى دُلَامَه ؛ الأديبُ الذى كان حُجَّة العَرَب ، والنَّـاثرُ الذى كان بِنِسْبَتِه إلى الطُّيُور مُحَرِّك المَنَاطق وإلى الشِّـعْر صَنَّاجة الأَدب ، والنَّاظمُ الذى كان إذا أنْشَدَ مَقَاطِيعَه فى التَّشْبِيبِ فاقَ على المَوَاصِيل ذَوَاتِ الطَّرَب ؛ والصَّـدِيقُ الذى كانتْ منه عَوَائِدُ الوفاء مَأْلُوفه ، وشَـيْخُ الصُّوفِيَّة الذى لاعَجَب إذا كانتْ له المَقَاماتُ المَوْصُوفه ؛ أسْكَنه الله فَسِيحَ الجِنان ، وخصَّ ذلك الوَجْه الجميلَ بالعَارِضِ الهَتَّان ؛ من مَقَامَتِه الزَّعْفَرانِيَّة عن أبى الرِّياش :

فٱعْتَنَقْتُه لَدَى السَّـلام ، وقلتُ : ما وَرَاءَكَ ياعِصَام ؛ فقد بَلَغَنا أن النِّيــلَ تَزَايَدَ دَفْعُه ، وأدَّىٰ إلى الضَّرر نَفْعُه ؛ فقال : خُذِ العَفْو ، ولا تُكَدِّرْ بذِكْرِ النِّيلِ الصَّفْو ؛ فقد ٱمْتَزَج بالمُعْصِرَات ثَجَّاجُه ، وأعْيَىٰ طَبِيبَ الغِيطَانِ عِلَاجُه :

وشَرَّق حتَّىٰ ليس للشَّرْق مَشْرِقٌ * وغَرَّبَ حتَّىٰ ليس للغَرْبِ مَغْرِبُ !

قلتُ : فمـا فعل النُّغَيْر ، بجَزِيرَةِ الطَّيْر ؛ قال : لم يبْقَ بها هاتِفٌ يُبَشِّر بالصَّـباح ، ولا ساعٍ يَسْعىٰ برِجْلٍ ولا طَائِرٌ يَطِير بجَنَاح ، إلا ٱتخذ نَفَقًا فى الأرض أو سُلَّمًا فى السَّماء ، أو أَوَى إلىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُه من المـاء ، فاذَاقَ بها الحَمَامَ الحَمَامَ فى المُرُوج ، وترَكَ أرْضَها

كسماءٍ مالها من فُرُوج، وتَلَا على الحَمَام : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِى بُرُوجٍ﴾ . وكَمْ فى سماء مَائِها من نَسْرٍ واقع، وبُومَةٍ تُصَفِّر علىٰ دِيَارِها البَلَاقِع :

ومَنْهَــــل فيه الغُرَابُ مَيْتُ * سَقَيْتُ منه القَوْمَ وآسْتَقَيْتُ !

قلتُ : فمِصر؟ قال : زَحَف عليها بعَسْكَرِه الجَرَّار، ونَفِط مائَه الطَّيَّار .

قلتُ : فالجِيزَة ؟ قال : طَغَى المـاءُ حتَّىٰ علَا علىٰ قَناطِرها وتَجَسَّر، ووَقَع بهـا القَصَبُ من قَامَتِه حين عَلَا عليه المـاءُ وتَكَسَّر؛ فأصْبَحَ بعد آخْضِرارِ بِزَّتِه شاحِبَ الإهاب، نَاصِلَ الخِضَاب، غَارِقًا فى قَعْرِ بَحْرٍ يَغْشَاه مَوْجٌ من فَوْقِه مَوْجٌ من فَوْقه سَحَـاب؛ وقَطَع طريقَ زَاوِيَتِهـا علىٰ من بها من المُنْقَطِعينَ والفُقَراء، وترَكَ الطَّالِحَ كالصَّالِح يَمْشِى على المـاء؛ فتَنادَوْا مُصْبِحين، أَلَّا يَدْخُلَنَّهـا اليَوْمَ عَلَيكُم مِسْكِين؛ وأَدْرَكهـم الغَرَقُ فأَيِسُوا مِن الخَلَاص، وغَشِيَهم من اليَمِّ ما غَشِيَهُمْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاص؛ وخَرَّ عليهـم السَّقْفُ من فَوْقِهم فهُدَّت قُوَاهُم، وآسْتَغاثُوا من كَثْرةِ المـاء بالذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقَليـلٌ مَّا هُم .

قلتُ : فالرَّوْضَة؟ قال : أحاط بها إحَاطَةَ الكِمَامِ بزَهْرِه، والكَأْسِ بحُبَابِ خَمْرِه:

فكَأَنَّها فيـــه بِساطٌ أخْضَر * وكأَنَّه فيها طِـرَازٌ مُذْهَب!

فلم يَكُن لها بدَفْع أصَابِعه يَدَان، وكَمْ أنْشَدَ مَرْجُها حِينَ مَرَج البَحْرينِ يلتَقِيان :

أَعَيْنَىَّ كُفَّا عن فُـؤَادِى فإنَّه * من البَغْيِ سَعْىُ آثْنَيْن فى قَتْلِ وَاحِد!

قلتُ : فدَارُ النُّحاس؟ قال : أنْحَسَ حالَهَا، وأفْسَدَ ما عليها وما لهَـا؛ فدخل من حَمَّامها الطُّهْر، وقطع الطريقَ بالجـامع الظُّهر؛ فأَلْحَقَ مَجَازَ بابه بالحقيقه، ورَقِى منه علىٰ دَرَجَتَينِ فى دَقيقه؛ كَم آغْتَرَف ما جاوَرَه من الغُرف غَرْفًا، وأطلق من مائه الأحْمَرِ النَّارَ بمَوْرِدَة الحُلَفا .

قلتُ : فالخليج الحاكِمى ؟ قال : خرج عَسْكَر مَوْجِه بعد الكَسْر على حَمِيَّه ، ومَرَق من قِسِيّ قَنَاطِرِه مُرُوقَ السَّهْم من الرَّمِيَّه .

قلتُ : فالمنشاة؟ قال : أصبحتْ للبَحْر مَقَرّه ، بعد أن كانتْ للعُيُون قُرَّه ، وقيل لمنشئها : أنَّى يُحْيِي هٰذه الله بعد مَوْتِها قال : يُحْيِيها الذى أنْشَأَها أوّلَ مَرّه ؛ قَدْ مالَ علىٰ ما فيها من شُوَن الغِلال كلَّ المَيْل ، وتَرَكها تَتْلُو بفَمِها الذى شَفَتاه مِصْراعا بابها : ﴿ يٰأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْل ﴾ .

قلتُ : فجزيرةُ أروىٰ ؟ قال : قد أفْسَدَ جُلَّ ثِمَارِها ، وأتَىٰ علىٰ مَغَانِيها فلم يَدَعْ شيئًا من رَدِيِّها وخِيارِها ، أخْلَقَ ديباجةَ رَوْضِها الأُنُف ، وتركَ قُلْقاسَها فى الجُرُوف علىٰ شَفَا جُرُف :

بعَيْنِي رأيتُ المَاءَ يَوْمًا وقد جَرَىٰ * علىٰ رَأْسِه من شاهِقٍ فَتَكَسَّرَا!

طَالما تَضَرَّع بأصابِعه إلىٰ رَبِّه ، ولَطَم برُؤُوسه الحيطانَ مما جرىٰ من الماء علىٰ قَلْبه ؛ وتَمَثَّل بقول الأوّل :

وإنْ سَأَلُوكَ عن قَلْبِي وما قَاسَىٰ * فَقُلْ : قَاسَىٰ ، وقُلْ : قَاسَىٰ ، وقُلْ : قَاسَىٰ ! ! !

لم يُفْدِه تَحَصُّنه من وَرَقِه بالدَّرَقِ والسَّتائِر ، ولا حَنَّ عليه حين تَضَرَّع بأصابِعه فَضَحَّ أن المَاءَ سُلْطانٌ جائِر .

قلتُ : فحِكْرُ ابن الأثير؟ قال : لم يَبْقَ منه غير الثُّلُث والثلثُ كَثِير ، قد أخْمَل من دُورِه خَمائِلها ، وجَعَل عالِيَها سافِلَها ؛ فكَمْ دارٍ أعدم صاحبَها قَرَارَه ، ونَادَىٰ فى عَرَصاتِها المُتَداعِيةِ : إيّاكِ أعْنِي فاسْمَعِي ياجارَه ؛ فأَصْبحتْ بعد نفعها قَلِيلةَ الجَدا ، مُسْتَولِيَةً عليها يَدُ الرَّدىٰ ، شَبِيهةً بدار الدُّنيا لأنها دارٌ مَتَىٰ أضْحكتْ فى يَوْمها أبْكَتْ غَدَا .

قلتُ : فبولاق ؟ قال : إمْلَاق، قد ٱلْتَفَّتْ بهـا من الزَّلَق السَّاقُ بالسَّاق؛ فأتَىٰ من النُّوتية على الصَّغير والكَبِير، ومن المَرَاكب ومَمَرِّها على النَّقِير والقِطْمِير .

هذا بعد أن ترَكَ جامِع الخَطِيرىّ علىٰ خَطَر، وحِيطَانَه يانعةَ الثَّمر، قد دَنَا قِطَافُها، وحَان تِلافُها؛ فكأنّى به وقد مَنَع رِفْدَه، وتَلَا علىٰ محْرابِه سُورَة السَّجْدَه .

قلتُ : بجزيرة الفيـل ؟ قال : ٱقتلع أشْجارَها بشُرُوشِها ، وترَك سَواقِيَها خاوِيةً علىٰ عُرُوشِها .

قلتُ : فالتاج والسـبعة وجوه ؟ قال : هَجَم علىٰ حُرَمِها ، وعَمَّ الوُجوهَ من فَرْقِها إلىٰ قَدَمِها ؛ فبَلَّ ثَرَى المَوْتَىٰ فى التُّخُوم ، وعَنَتِ الوُجُوهُ للْحَىِّ القَيُّوم ؛ قلتُ : فما الحِيلَه؟ ، قال : تَرْكُ الحِيلَه :

دَعْها سَماوِيَّةً تَجْرِى علىٰ قَدَرٍ * لَا تُفْسِدَنْها بِرَأْيٍ مِنْكَ راضى(؟)

طَالَ الكِتَاب ، وخَرَجنا عن فَصْل الخِطَاب :

ولَرُبَّما سَاقَ المُحَدِّثُ بعضَ ما * لَيْسَ النَّدِىُّ إليـه بالمُحْتَاجِ !

وكأنّى بقائلٍ يقولُ : أليس من الكِبْر أن يَسْتَخْدِم هذا فى رسالته مُلُوكَ الكلام، ومن الحُمْق أن يُحْلِيَ عَرائِسَ أفكاره بمـا للناس من حَلْيِ النِّثَارِ والنِّظَام ؛ فأقولُ : مُسَلَّمٌ أنَّ كلَّ ما أوردتَه دُرَرٌ وجَواهِر، وعُقُودٌ كزَهْرِ الرَّبيع عُيون وُجُوهِها النواضر نَوَاظِر؛ ولٰكنَّها هاهُنا أَمْثَل ، وجَمْع شَمْلِها علىٰ هٰذى العَرُوس أجْمَل :

* وفى عُنُقِ الحَسْناءِ يُسْتَحْسَنُ العِقْدُ! *

وعلى الجُمْـلة فيرجع المملوك إلى التَّواضُع وهو الأَلْيَقُ بالأدب، فيقول : لا عَيْبَ على الفقيرة إذا تَجَمَّلَتْ بحُلِىّ الغَنِيَّـه ، ولا عَارَ على الجَوْهَرِىّ إذا نَظَم سِـلْكا كانتْ دُرَرُه علي الطُّرق مَرْمِيَّه، ونَرجِعُ إلىٰ ما وَلَّده الفِكْر من عَجَبِ البَحْر، وما ظَهر من دَفْع

الملوك لأمثالها عن جَرْيِها إلىٰ غاياتها بصُوَر القَمَر، فأقولُ : إنما قالتِ الأدباءُ ذلك لما جرىٰ من جَوْرِ النِّيل على الأرض، ولما عَمَّ الناس من الإرْجافِ بُطولِ أذاه وهَرْجِه فكأنّما هم في يَوْم العَرْض ؛ وكلُّ ذلك وما وصل إلىٰ هـذا الارتفاع ، ورُبَّما كان أنْقَصَ من هذه الزيادة بقَرِيبِ الذِّراع .

وعلىٰ هذا القياس إنَّما دَفَع ضَرَرَه، وجَمَّل في البلاد أثَرَه، وحَسَّنَ في السَّماءِ خَبَره وفي الأرْضِ مَخْبَرَه ؛ السَّرِيُّ الذي اهْتِمامه بالمَعْروف مَعْروف ، وسَيْفُ الدِّين الذي سَهِر في مصالح الرعايا لمَّا تنامُ مِلْءَ أجْفانِها السُّيوف ؛ أتابِكُ العساكر، والمَلِكُ الذي هو بالإسلام وله مَنْصُورٌ ونَاصِر؛ حَصَّن سائر الكُوىٰ بالجُسُور، ورَكَز على أفواه البَحْر والخَلِيج الأمَرَاءَ كما يَرْكُزُ المجاهدون على الثُّغُور ؛ وقابَلَ البَحْر من سَطَوَاته بما ليس له به قِبَل ، ورَدَّ دَفْعَه بكلِّ دَفْعٍ من الرَّأْيِ والتَّدْبِير يُغْنِي عن البِيضِ والأَسَل ؛ وحَارَبه بجَيْشِ عَزْمٍ إلىٰ أن وَلَّىٰ هارِبًا مع التراع والقَناطِر، وجاهَدَه بجُنْدٍ رَكَزَهم علىٰ جَوَانِبِه لمَّا تَحَقَّق أن البَحْر سُلْطانٌ جائر ؛ وحَصَره بالتَّضْيِيق عليه كما تُحْصر البِرَك والتِّراع ، وغَلَّ يَدَه عن التَّصَرُّف فسَقاه المَوْتَ كما سَقَى الناس أنواعَ النِّزاع ؛ فما هو إلا أن تَضاءَل بنِيرانِ سَطَواته واحْترق ، وذَلَّ خاضعًا وكَفَىٰ به تَضَرُّعًا بالأصابع وتَوَسُّلا بالمَلَق، وأطاعَ لمَّا لم تُنْجِه مُجاهَرَتُه من تَيَّارِه بالسيوف ولا تَحَصّنُه من دَارَاتِه بالدَّرَق .

علىٰ أنه تَطاوَل ليُضاهِيَ بأصابعه جُودَ أيَادِيه فقَصَّر، وتَحَسَّر فركب خَيْل خُيَلائه ليُحَاكِيَ بَأْسَه فوقع من جُسُور عُجْبِه وتَقَطَّر، وسَمَتْ نَفْسُه كِبْرًا لأن يبلغ قَدْرَه فقيل: يا بَحْرُ هذا خَلِيفةُ الله في أرْضِه واللهُ أكْبَر ؛ نَعَمْ :

رَأَى البَحْرُ الخِضَمُّ نَداهُ طَامٍ * يَفِيضُ على الوَرَىٰ منه بِحارُ،
فَصار البَحْـرُ مُلْتَطِمًا وأضْحَىٰ * على الحَالَيْن ليس له قَـرارُ!

فلو زدْتَ فى أيَّام غيره من المُلُوك المُترَفين، وفيمَنْ يُؤْثِر لاذَّ نَفْسه علىٰ مصالح المُسْلمين؛ كنتَ أيُّها المَلك بلغتَ قَصْدَك، وفعلتَ فى أبناء مصْرِك جُهْدَك؛ وكنتَ من الملوك الذين إذا دخلوا قَرْيةً آنتعلُوا فيها الأهِلَّه، وأفسدوها وجَعَلوا أَعِزَّة أهْلِها أَذِلَّه؛ لٰكن هبَّ قَبُولك إدْبارا، ولاقتْ رِيحُكَ إعْصَارا؛ فايئس لك به قِبَل، "والسَّيْلُ أدْرَىٰ بالجَبَل"؛ فمالك سبيلٌ إلىٰ بلاده، ولا طاقةٌ بإياب الخَيْر علىٰ عِناده؛ فانه خَادِم الحَرَمَيْن، والمدعوُّ له حتَّىٰ فى مَوَاقِف الحَرْب بين العَلَمَيْن؛ حامى السَّواحِل والثُّغور، والمَخدومُ بأيادى السَّحائِبِ وأصَابِع البُحُور، وإن كنتَ يا أبا خالدٍ أبا جَعْفرٍ فلستَ بمَنْصُور؛ والرَّأْىُ أن تَقِفَ مُسْتَغْفِرا، وتَقولَ مُعْتَذِرا؛ : لم أُفْرِط بالزيادة فى أيامه، ولم أَفِضْ علىٰ طَرَف المَيْدان إلا لِأَفُوزَ بتقبيل آثارِ جَوَادِّ خَيْلِه ومَوَاطِئِ أقْدامه؛ ونَتَّبِع نَواهِيَه ونَمْتَثِل أوَامِرَه، ونَدْعُوَ له كالرعايا بطُولِ البَقاءِ فى الدُّنيا وحُسْنِ الثواب فى الآخرَه .

ونحنُ نسألُ الله كما بَلَّغ بك المَنَافِع، أن يُرِينَا كَوْكَبَ نَوْئِكَ عن قريبٍ راجع؛ وكما أغْنىٰ بزيادتك عن الاَسْتِسْقاء، لايُحْوِجُنا فى نَقْصِك إلىٰ الاَسْتِصْحاء، إنه سميعٌ مُجيب الدُّعاء؛ بمَنِّه وكَرَمه .

الفصــــل الثالث

من البـاب الأوّل من المقـالة العاشرة

(فى قدْماتِ البُنْدق)

جَمْع قِدْمَةٍ بكسر القافِ وسكون الدال المهملة، وهى رَسَائِلُ تشـتمل على حال الرَّمْي بالبُنْدق، وأحْوالِ الرُّماة، وأسْماءِ طَيْرِ الواجب، واْصْطِلاحِ الرُّماةِ وشُرُوطِهم.

وهذه نسخةُ قِدْمة، كتَبَ بها شَيْخُنا الشيخُ شمسُ الدِّين محمدُ بن الصَّائغ الحَنَفِيّ الأديب رحمه الله، لصلاحِ الدِّين بن المقرّ المُحْيَوِيّ بن فَضْل الله، ونَصُّها :

الحمدُ لله الذى سَدَّد لصَـلاحِ الدِّينِ سِهَام الواجب، وشَيَّد بنَجاحِ المَطْلُوبِ مَرَامَ الطَّالب، وجعـلَ حُصولَ الرِّزق الشَّارِد بالسَّعْى فى المَنَاكب، وسَهَّلَ المُمْتَنِـعَ على القَاصدين فمـا منهم إلا مَن رَجَع وهو صَائِب.

وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا وَلَد ولا صَاحِب، شهادةً تزجُرُ طَيْرَ الإشْراكِ بهـذه الأشْراكِ من كلِّ جانب، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسـولُه الذى قَرَّبَه فكان قَابَ قَوْسَـيْنِ أو أدْنىٰ وهـذه أعْلَى المَرَاتب، صلى اللهُ عليـه وعلىٰ آله وأصحابه الذينَ رَقَوْا فى العَلْياء لمَرَاقٍ لم يَسْمُ إليها طَيْرُ مُراقِب، صلاةً يَسْبِق بها المصلِّى إلى بِقاعِ شَرفٍ يُشْرِق سَنَاهُ فى المَشَارق والمَغَارِب، ويَرْجع طائرًا بالسُّرورِ ولا رُجوعَ الطائر الشَّارِدِ إلى المَشَارِب.

وبعدُ، فإن الصَّيْد من أحَلِّ الأشياء وأحْلَاها، وأجَلِّها وأجْلَاها، وأبْهَرِها وأبْهاها، وأشْهَرِها وأشْهاها، وأفْخَرِها قِيمَه، وأغْزَرِها دِيمَه ؛ بوُرُودِ الطَّيْر فيـه إلى المَنَاهِلِ تَنْشَرِح الصـدور، وبوُقُوعه فى شُرُور الشَّرَك يَتِمُّ السُّرور ؛ يُحَصِّـلُ عند مُتَعاطيه نَشَاطا، ويَزِيدُه انْبِساطا ؛ ويَشْرَحُ خاطِرَه، ويُسَرِّح ناظره ؛ ويَملأُ عَيْنـه قُرَّه،

وقلبه مسرّه، يُشجّع الجبان، ويُثبّت الجنان، ويُقوّى الشّهْوه، ويُسوّى الخطْوه، ويسُوقُ الظّفر، ويَشُوقُ النّظر، ويَرُوقُ منه الورْد والصّدَر، ويفُوق فيه الخُبْر على الخبَر. قال بعض الحكماء: قلّما يغمَش نَاظِرُ زَهْرَةٍ، أو يَزْمَنُ مُرِيعُ طَرِيدَةٍ، يعنى بذلك من أدْمن الحرَكة فى الصّيد ونظَر إلى البَساتين، فاستمتع طَرْفه بنُضْرتها، وأنيق مَنْظرها.

ومَن ذا الذى يُنكِر لَذّة الاصْطِياد، والطّرَبَ بالقَنص على الإطْراد؟ ولله درّ القائل:

لَوْلا طِرَادُ الصّيْدِ لم تكُ لَذّةٌ * فتَطَارَدِى لى بالوِصَالِ قَليلَا.
هٰذا الشّرابُ أخُو الحَيَاةِ وما له * مِنْ لَذّةٍ حتّىٰ يُصيبَ عَليلَا!

يا حُسْنه من فِعْل اعتلّتْ بالنّسِيم مَوارِدُه ومَصادِره، وفاقَتْ أوائله فى اللّذاذَة أوَاخِرُه، ولله القَائل:

إنّما الصّيْدُ هِمّةٌ ونَشَاطٌ * يُعْقِبُ الجِسْمَ صِحّةً وصَلاحَا،
ورَجاءٌ يُنالُ فيه سُرُورٌ * حِينَ يَلْقَىٰ إصابةً ونَجَاحَا!

وما أطْيَبَ الاقتناصَ بعد الشُّرُود، وكَيْف يُرىٰ مَوْقعُ الوَصْلِ بعد الصّدود:

وزَادنِى رَغْبَةً فى الحُبّ أنْ مَنَعَتْ * أَحَبُّ شَىْءٍ إلى الإنسان ما مُنِعَا!

تَقْضِى رياضاتُ النّفوسِ السامية بمُعاطَاةِ كَاسِه، ومُصَافَاةِ نَاسِه؛ لما فيهم من الفُتُوّه، وكَمال المُرُوّه، وصِدْق اللسان، وثَبَات الجَنَان، وطِيب الأخْلاق، وحِفْظ الميثاق، لا يعرفون غيْر الصِّدْق وإن كانوا يَميلُون إلى المَلَق، ولا يَبْغُون بصاحِبِهم بَدِيلًا يَعْطِفُون عليه عَطْفَ النّسَق، لا سِيّما تَعاطى صَيْد طُيُور الواجب، الذى سَنّه الأكابرُ وجعلوا أمْره من الوَاجِب، وتَشَرّفتْ به هِمَمُهم العَالِيةُ: تَارةً إلى السّماء، وآوِنَةً إلىٰ مَشَارِع المَاء.

لا يَتِمُّ سرورُهم إلا برُؤيَةِ تَمٍّ كبَدْرِ التَّمَام، ومِصْباحِ الظَّلام؛ يَفِرُّ من ظِلّه فِرَارا، ويُرِيكَ بَياضَ لَوْنِه وسَوَادُ مِنْقارِه شَيْبًا ووَقَارا؛ ولا يُدَاوِى هُمُومَ لَغَبِهم مِثْلُ كُىّ، لأجْنحَته الخَوَافِقِ فى الخَافِقَيْن نَشْرٌ وطَىّ؛ ولا تَبْتهِج نُفُوسُهم النَّفِيسَةُ إلا بإوَزَّه، يَزْدَرِى دَلالُهَا بالكَاعِب المُعْتَزّه؛ ولا يُطْرِبُ أسْماعَهم غيرُ لُغَاتِ اللَّغْلَغَه، حين تَمْتَدُّ كأنها مُدامَةٌ فى الزُّجاجة مُفْرَغَه؛ ولا يُؤْنِسُهم إلا الأَنِيسَةَ الأَنِيسَه، والدُّرَّة النَّفِيسه؛ ولا يُذْهِبُ حَرَجَهم غيرُ الحُبْرُجِ الصَّادِح، المُسْتَوْقِف بحُسْنِه كلَّ غَادٍ ورَائِح؛ تَكادُ قُلوبهم تَطِير بالفَرَح عند رُؤْية النَّسْرِ الطائر، وتُجْبَر خَواطِرُهم بكَسْرِ ذلك الكَاسِر؛ إذا عاينوا عِقْبانًا أعقبهم الفَرَح، ونَزَح عنهم التَّرَح؛ وإن كَرَّ كُرْكِىٌّ فَرَّ عنهم البُوس، ورَأَوْا علىٰ رَأْسه ذلك التَّاجَ الذى لم يَعْلُ مِثْلُهُ على الرُّؤُوس؛ وإن عَرَضَ غِرْنَوْقٌ غَرِقوا فى بِحَارِ أفكارِهم، وجَدُّوا إلىٰ أن يَقَع بجَدْول أَوْتَارِهم؛ وإن لاح ضُوَعٌ كالذَّهب المَصُوغ، أَلْقَوْه فى الحِبَال وهو بدَمِه مَصْبُوغ؛ وإن مَرَّ مِرْزَمٌ كالخَوْدة الحَسْناء، ضَرَبوا له الآلَةَ الحَدْباء؛ وإن مَرَّ السَّبِيطَر أجْنِحَتُه كالسَّحائب، جاءته المَرَامِى من كلِّ جَانِب؛ وإن عَنَّ عَنْزٌ عَمَدوا إليه، حتّىٰ يُسْقَط فى يَدَيْه؛ قد تَعَالَوْا فى رُتَبِها، وتَغالَوْا فى وَصْفِ وَشْيِها.

وجَعَلُوا كلَّ آلةٍ صَنِيعَه، ورُبَّة بجَمال مَنِيعه، وبَعِيدَة الرَّمْى بديعه: —

من كلِّ قَوْسٍ هى فى العَيْن كالحاجِب، أو النُّونِ التى أجادَها الكَاتِب؛ تُدَوِّر الطائرَ عند الرَّمْى وتُذِيبُه، وتَئِنّ أَنِينًا أوْلىٰ به من تُصِيبُه. وبُنْدُقٍ جُبِلَتْ طِينَتُه علىٰ صَوْبِ الصَّواب، يَسْتَنْزِلُ الطَّيْرَ ولو آسْتَتَرَ بذَيْل السحاب؛ كأنه النَّجْمُ الثَّاقِب، والشِّهابُ الصَّائب؛ يَرَى الطَّيْرَ كالسحاب الوَاكِف، فيَنقَضُّ عليه انْقِضاضَ البَرْقِ الخَاطِف؛ ويَرْجِع النَّسْرُ من حَتْفِه راتِعا، ويَغْدو بعد أن كان طَائِرًا واقِعا؛ ويَصير بعد أن كان كاسِرًا مَكْسورا، وفى سِوَارِ القسىِّ مَأْسُورا؛ فهنالك يُلْفَى الغَالِبُ

وهو مَغْلوب ، والطير الوَاجِبُ وهو مَنْدُوب ؛ فحينئـذٍ تَنْشَرِحُ النفوس ، وتَطْرَبُ ولا طَرَبها بالكُؤُوس .

ولمـا كان بهذه المَنْزِلة العظيمه ،والمَرْتبة الجَسيمه ؛ تَعاطَتْه الملوكُ وأبناءُ المُلُوك ، ونَظَمُوا عِقْدَه بحُسْنِ السُّلوك ؛ وآرْتاضَتْ به النفوسُ الطَّاهِره ، وآعتاضَتْ به عن الكُؤُوس الدَّائِره ؛ ورَأَتْ به تَكْمِيـلَ الأدَوات ، وسامَتْ به فِعْـلَ الواجب و إنْ قيـل : إنَّ ذلك من الهَفَوات ؛ فهو تَعَبٌ تَنْشأ الراحةُ عنـه ، ولَعِبٌ لم يكن شيءٌ أشبهَ بالجِدِّ منه .

فلذلك قَصَد الجنابُ الكريمُ ، العالى ، الصَّلاحِىُّ ، صلاحُ الدُّنيا والدين ، ونجاحُ الطَّالِبين ؛ سَلِيلُ الوُزَراء ، ونَجْل الكُبَرَاء ، وصَدْرُ الرؤساء ، وعَيْنُ العظماء ؛ آبنُ المقرّ المَحْيوِىّ بن فَضْل الله ، أدام الله تعالىٰ علاه ، وكَبَتَ عِداه ؛ وأعلىٰ مَعَالِيَـه ، وشكر مَسَاعِيَه ؛ وأطالَ حياتَه ، وأطاب ذَاتَه ـ أن يسلُكَ تلك المَسَالك ، ويُرِيض نَفْسَه الكريمةَ بذلك ، ويَتَحَيَّلَ علىٰ تَحْصِيل اللذات بالتَّحَوُّل ، عَمَلًا بقول الشاعر :

* تَنَقَّلْ فَلَذَّاتُ الهَوَىٰ فى التَّنَقُّل ! *

وعَمَد إلىٰ تَحْصِـيل آلاَتِه ، سائرًا كالبَـدْر فى هَالاَتِه ؛ فسار مع سَرَايا كالنُّجُوم ، يتَفَاكهونَ فى الحَديث بالمَنْثور والمَنْظوم ؛ ويَخْلِطون جِدَّ القول بِهَزْلِه ، كلَّمـا خُلِط لهم طَلُّ الجُودِ بوَبْلِه ؛ وآنْحَدرُوا فى النِّيل بجَمْعِهم الصحيح ، وقَصَدُوا المَرَامِىَ العالية ولم يَقْنَعوا مِن الأيام بالرِّيح ؛ وظَلُّوا يسـيرون فى تلك المَرَاكب ، التى كأنهـا قِطَعُ السَّحائِب .

هذا وهم يَتَشَوَّفون إلى المَصَايِد ، ويُشْرِفون إلى الشَّوارِد ؛ فيَطْلُعون أحْيـانًا إلى البَرِّ مَتفَرِّجين ، وبِطِيبِ ذلك النسيم مُتَأَرِّجين :

نَسيمٌ قد سَرىٰ فيهم بنَشْرٍ * فأذْكَرهم بمَسراه السَّرِيَّا!
كَرَامَتُهُ آستقرّتْ حينَ وَافَىٰ * له نَفَسٌ يُعيدُ المَيْتَ حيًّا!

ويَجْتَنُون من الغُصْنِ الزَّاهى قدّا ، ويَجْتلُون من الوَرْدِ الزَّاهِرِ خدّا ؛ ويتأمَّلُون ضِحكَ الأرض من بُكاء السماء ، وشَماخَة القُضُب عند خَرِيرِ الماء ؛ لاتَذُوق أجْفانُهم طَعْمَ الكَرىٰ ، ولا يَميلُون عن السَّيْر ولا يَملُّون السُّرىٰ ؛ مامنهم إلا مَن إذا رَأَى الطَّيْر جانِئًا ، عاد من وَقْته له حَائشا ؛ بينما هم يَسِـيرون مُتَفَرّقين ، حتّىٰ إذا لاح لهم طَيرٌ تَدَاعَوْا إليه غيرَ مُقَصّرين وآلْتَفُّوا مُحلّقين ؛ ولم يزالوا كذلك يَنْهَمون العَيْش ، بالدَّعة والطَّيْش ؛ حتّىٰ إذا أقبـل اليومُ المُبـارك الثامنُ والعشرون من جمادىٰ الآخرة سنة تسعٍ وثلاثين وسبعمائة ، وهو اليومُ الذى عَزَم فيه الجنابُ الصَّلاحىُّ على الاصطياد ، بالبَنادق الحِدَاد ؛ فتباشرتْ به الطُّيور ، وسَـدّت بأجْنِحَتها الثُّغور ؛ وسَهُل عندها فيـه نُزُول الرئيس ، فجـادتْ له بالنَّفيس ؛ وخرجَتْ من قشْرِها ، وسَمَحتْ عنـد مَدِّ القَوْس بحَزِّ نَحْرِها ؛ ورَغِبَ كلٌّ منها أن يكون له بذلك أوْفَرُ القِسَم ، وتَرَجّى أن يكونَ هو المكتوب له فى القِدَم .

ومدّ يَدَه نحو السَّما ، فأصاب مِرْزَما ؛ فيالَه من صَيْدٍ فاقَ به على الأكابر الصِّيد! ويالَه من يَومٍ صار بنَحْرِ الطَّيرِ يَوْمَ العيد! قام فيه بواجِب ماشَرَعه الرُّماة من الشَّرع ، وذَكَّرنا بهذا الصَّرْع يوم ذلك الصَّرْع ؛ فلا زال سَهْمُه مسدّد الأغْراض ، وجَوْهَرُه مَحْميًّا من الأَعْراض ؛ يَجْرى بمُراده المَقْدور ، ويُطيعُه فى سائر الأمور .

وقد نظمتُ مُخَمَّسًا مشتملاً علىٰ ذكْر طُيُور الواجب ، وطَرَّزْتُه بآسْمِه ، لأن هـذه القِـدْمة قد قُدِّمتْ له وجُعِلتْ برَسْمِه ، غير أنى أَعْتذرُ عنهـا ، لعَدَم مادّة عنـدى أسْتَمِدُّ منهـا :

جَلِّ كُؤُوسًا عُطِّلتْ بالرَّاحِ، * ولا تُطِعْ فيها كَلَامَ لَاحِ،
وٱشْرَبْ هَنيئًا وٱسْقِنِي ياصَاحِ، * وٱذْكُرْ زَمانًا مَرَّ بالأفْراحِ،
* هَبَّتْ به فيما مَضىٰ رِيَاحِى! *
أيامَ كنتُ أَصْحَبُ الأكَابرَا، * وأَغْتَــدِى مع الرُّماةِ سَائِرا،
ولا أزَالُ بالغِيـار غَائِرا، * إذا رأيتُ فى المِيَاهِ طَائِرا،
* نَحَوْتُه من سَائِرِ النَّواحِى! *
فتارةً كنتُ أصِــيدُ النَّسرا * وبَعــده العُقَاب يَحْكِى الجَمْرَا
والكُىَّ والكُرْكِىَّ صِدْتُ جَهْرا * وصِدْتُ غِرْنَوْقًا وعَنْزًا قَهْــرا
* وكُنْتُ بالإوَزِّ فى ٱنْشِرَاحِ! *
وتَارةً تَمًّا كَبَدْرِ الــتِّمِّ * تَتْبَعُــه أَنِيسَــةٌ كالنَّجْمِ،
ولَغْلَغٌ أسْوَدُ مِسْــكُ الهَمِّ، * وحُبْرُجٌ عن الرُّماةِ مَحْمِى،
* والضُّوعُ مع سَبَيْطَرٍ(١) سَيَّاحِ! *
وكَمْ وكَمْ قد صِدْتُ يومًا مِرْزَمَا * أنْزلتُه بالقَوْسِ من جَوِّ السَّما،
جَنَاحُه يَحْكِى طِرَازًا مُعْلَمَــا * علىٰ بياضٍ شِيَةٍ شِــبْهِ الدِّما،
* كأنَّه لَيْــلٌ علىٰ صَــبَاحِ! *
حَيْثُ الصَّبا تُشْفَعُ بالقَبُول، * وشَمْلُنَــا يُجْمَعُ بالشَّــمُولِ،
فى مَجْلِسٍ ليس به فُضُــولِى، * وجاءَنا التَّوْقيعُ فى الوُصُــول :
* فَسَادُكُمْ يُغفَرُ بالصَّــلَاحِ! *

(١) ورد فى (ص ٦٧ ج ٢) من هذا الكتاب : بالشين المعجمة مضمومة .

السَّيِّدِ الفائقِ فى أفعالِه، * والمُزْدَرِى بالبدرِ فى كَمالِه،
والمُشْتَرِى حُسْنَ الثَّنا بمالِه، * لا أحدٌ يَحْكيه فى نَوالِه:
* إلا أَخُوه مَعْدِنُ السَّماحِ! *
مَنْ سادَ فى الدُّنيا على الكُتَّابِ، * وصانَ سِرَّ المُلْكِ فى حِجابِ،
عَلِيٌّ العالِى على السَّحابِ، * البَاذِلُ المالَ بلا حِسابِ! (١)

زاده الله نِعما، وأجرى له فى النَّدى يَدا وثَبَّت له فى العُلى قَدَما؛ بمَنِّه وكَرَمه.

وهذه نسخةُ رسالةٍ فى صَيْد البُنْدقِ، من إنشاء الشَّيخ شهاب الدِّين أبى الثَّناء محمودِ بن سلمانَ الحَلَبِيِّ رحمه الله، وهى:

الرِّياضَةُ - أطالَ اللهُ بقاءَ الجَناب الفُلانِيِّ، وجعل حُبَّه كقَلْب عَدُوِّه واجِبا، وسَعْدَه كوَصْفِ عَبْدِه للسارِّ جَالِبا، وللمَضارِّ حاجِبا - تَبْعثُ النفسَ على مُجانَبَة الدَّعة والسُّكون، وتَصُونُها عن مُشابَهَة الحَمائم فى الرُّكُون إلى الوُكُون؛ وتَحضُّها على أَخْذ حَظِّها من كلِّ فَنٍّ حَسَن، وتَحُثُّها على إضافَةِ الأدوات الكامِلَةِ إلى فَصاحَةِ اللَّسَن؛ وتأخذُ بها طَوْرًا فى الجِدِّ وطورًا فى اللَّعِب، وتَصْرِفُها من مَلاذِّ السُّموِّ فى المَشاقِّ التى يَسْتروحُ إليها التَّعب. فتارةً تَحْمِلُ الأكابرَ والعُظَماءَ فى طَلَبِ الصَّيْد على مُواصَلَةِ السُّرى، ومُقاطَعَةِ الكَرى؛ ومُهاجَرةِ الأوْطار، ومُهاجَمَةِ الأخْطار؛ ومُكابَدَةِ الهَواجر، ومُبادَرةِ الأوابد التى لا تُدْرَكُ حتى تَبْلُغَ القلوبُ الحَناجر؛ وذلك من مَحاسن أوصافِهم التى يُذَمُّ المُعْرِضُ عنها، وإذا كان المقصودُ من مَيْلِهم جِدَّ الحَرْب فهذه صُورةُ لَعِبٍ يُخْرَجُ إليها منها. وتارةً يدعوهم إلى البُرُوزِ إلى المَلَق، ويَحْدُوهم فى سُلوكِ طريقها مع مَن هو دونهم

(١) سقطت الشطرة الخامسة من قلم الناسخ.

علىٰ مُلازَمَةِ الصِّدْق ومُجانَبَـةِ المَلَق؛ فيَعْتَسِفُون إليها الدُّجىٰ، إذا سَجى؛ ويَقْتَحِمون في بلوغها حرق النَّهار، إذا آنْهار؛ ويَتَنَعَّمون بوَعْثاءِ السَّـفر، في بُلُوغ الظَّفَر؛ ويَسْتَصْغِرُون رُكوبَ الخَطَر، في إدراك الوَطَر؛ ويُؤْثِرونَ السَّهَر على النَّوْم، واللَّيلةَ على اليَوْم؛ والبُنْدقَ على السِّهام، والوَحْدَة على الآلْتِئام .

ولمَّا عُدْنا من الصَّيْد الذى آتَّصل به حَدِيثُه، وشُرِحَ له قَدِيمُ أمْرِه وحَدِيثُه؛ تُقْنا إلىٰ أن نَشْفَع صَيْد السوانح، بِرَمْيِ الصَّوادِح؛ وأن نَفْعلَ في الطَّيرِ الجَوانِح، بأَهِلَّة القِسِيِّ ماتَفعل الجَوَارِح؛ تَفْضِيلًا لملازمة الآرتحال، على الإقامة في الرِّحال؛ وأخْذًا بقولهم :

لايُصْلِحُ النَّفْسَ إذ كانت مُدَبِّرَةً * إلَّا التَّنَقُّلُ من حالٍ إلىٰ حَالِ!

فبرزنا وشَمْسُ الأصِيلِ تَجُود بنَفْسِها، وتَسِيرُ من الأُفُقِ الغَرْبِيِّ إلىٰ مَوْضِع رَمْسِها؛ وتُغَازِلُ عيونَ النَّوْر بمُقْلةِ أرْمَد، وتنظُر إلىٰ صَفَحاتِ الوَرْدِ نَظَر المَرِيضِ إلىٰ وُجُوه العُوَّد؛ فكأنها كَئِيبٌ أضْحىٰ من الفِراق علىٰ فَرَق، أو عَلِيلٌ يقضِي بين صَحْبِه بقايَا مُدَّة الرَّمَق؛ وقد آخْضلَّت عيونُ النَّوْرِ لوَدَاعِها، وهَمَّ الرَّوْضُ بخَلْعِ حُلَّتـهِ المُوَهَّةِ بذَهَب شُـعَاعِها :

والطَّلُّ في أعْيُنِ النُّوَّارِ تَحْسَبُه * دَمْعًا تَحَيَّرَ لم يَرْقَأْ ولم يَكِفِ:
كلُؤْلُؤٍ ظَلَّ عَطْفُ الغُصْنِ مُتَّشِحًا * بعِقْدِه وتَبَدَّىٰ منه في شَنَفِ.
يُضَمُّ من سُنْدُسِ الأوْراق في صُرَرٍ * خُضْرٍ ويُجْنَىٰ من الأزهار في صَدَفِ!
والشَّمْسُ في طَفَلِ الإمْسَاءِ تَنْظُرُ من * طَرْفٍ غَدَا وهو من خَوْفِ الفِراقِ خَفِي:
كعَاشِقٍ سَارَ عن أحْبابه وهَفَا * به الهَوَىٰ فتَرَاآهُمْ علىٰ شَرَفِ.

إلىٰ أن نَضَّى المَغْرِبُ عن الأُفُقِ حَلْيَ قَلائِدِها، وعَوَّضَه عنها من النُّجومِ بخَدَمِها ووَلائِدِها؛ فَلَبِثْنا بعد أداء الفَرْضِ لبْثَ الأَهِلَّه، ومَنَعنا جُفُونَنا أن تَرِدَ النَّوم

إلا تَجلّه؛ ونهضنا وبُرْد اللّيلِ مُوَشَّع، وعقْده مُرَصَّع، وإكْليلُه مُجَوْهَر، وأديمه مُعَنْبَر، وبَدْره فى خِدْر سِرَارِه مُسْتَكِن، وفجْره فى حَشا مَطالِعه مُسْتَجِن؛ كأن آمتزاج لَوْنه بشَفَق الكواكب خليطًا مِسْك وصَنْدَل، وكأنَّ ثُرَيَّاه لآمتداده مُعَلَّقةٌ بأمْرَاس كَتَّانٍ إلىٰ صُمِّ جَنْدَل:

وَلاحَتْ نُجومُ اللّيلِ زُهْرًا كأنَّها * عُقُودٌ علىٰ خَوْدٍ من الزِّنْجِ تُنْظَمُ،
مُحَلِّقَةً فى الجَوِّ تُحْسَبُ أنَّها * [طُيورٌ] علىٰ نَهْرِ المَجَرَّةِ حُوَّمُ
إذا لاحَ بازِى الصُّبْحِ وَلَّتْ يَؤُمُّها * إلى الغَرْبِ خَوْفًا منه نَسْرٌ ومِرْزَمُ!

إلىٰ حَدائِقَ مُلْتَفَّه، وجَداوِلَ مُحْتَفَّه؛ إذا خَمَش النَّسيمُ غُصُونَها آعتنقَتْ آعْتِناقَ الأحْباب، وإذا فرَكَ مَرُّ المياه مُتُونَها آنسابَتْ فى الجَداوِل آنْسِيابَ الحُباب، ورَقَصتْ فى المَناهِل رَقْصَ الحَباب؛ وإنْ لَثَم ثُغُورَ نَوْرِها حَيَّتْه بأنفاس المَعْشُوق، وإنْ أيْقظَ نَواعِسَ وُرْقِها غَنَّتْه بألحانِ المَشُوق؛ فنَسيمُها وَان، وشَميمُها لعَرْفِ الجِنانِ عُنْوان، ووَرْدُها من سَهَر نَرْجِسها غَيْرَان:

وطَلُّها فى خُدود الوَرْدِ مُنْبَعِثٌ * طَوْرًا وفى طُرَرِ الرَّيْحانِ حَيْرانُ!

وطَائِرُها غَرِد، ومَاؤُها مُطَّرِد، وغُصْنُها تارةً يَعْطِفُه النَّسيمُ إليه فيَنْعَطِف، وتارةً يُعَلِّل تَحْت وَرَقائه فتُحْسَبُ أنها هَمْزةٌ علىٰ أَلِف؛ مع ما فى تلك الرياض من تَوافُق المَحاسن وتَبايُن التَّرْتِيب، إذ كلّما آعتلَّ النَّسيمُ صَحَّ الأرَجُ وكلّما خَرَّ الماءُ شَمَخَ القَضِيب:

فَكَأنَّما تلك الغُصُونُ إذا ثَنَتْ * أعْطافَها رِيحُ الصَّبا أحْبابُ:
فلَها إذا آفتَرَقَتْ من آسْتِعْطافِها * صُلْحٌ ومن سَجْعِ الحَمامِ عِتابُ.
وكأنَّها حَوْلَ العُيُون مَوائِسًا * شَرْبٌ وهاتيكَ المِياهُ شَرابُ!
فغَديرُها كأْسٌ وعَذْبُ نِطافِها * رَاحٌ وأضْواءُ النُّجُومِ حَبابُ!

يحيط بملَقَى نِطاقُها صَاف، وظِلاَل دَوْحِها ضَاف، وحَصَاها لصفَاءِ مائِها فى نفْس الأمْرِ راكِدٌ وفى رَأْىِ العيْن طَاف ؛ إذا دَغْدَغها النَّسيمُ حَسِبْتَ ماءها بتَمايُلِ الظِّلال فيه يتَبرَّجُ ويَمِيل، وإذا اطَّردتْ عليه أنْفاسُ الصَّبا ظننتَ أفياءَ تلك الغُصونِ تارةً تَمَوَّجُ وتارةً تَسِيل :

فكأنه مُحِبٌّ هَامَ بالغُصون هَوًى فمثَّلَها فى قَلْبِه، وكأنَّ النسيمَ كَلِفٌ بها غارَ من دُنُوِّها إليه فميلها عن قُرْبه :

والنَّوْرُ مِثْلُ عَرائِس * لُفَّتْ عليهنَّ المُلاَءُ،
شَمَّرْنَ فَضْلَ الأُزْرِ عن * سُوقٍ خَلاخِلُهُنَّ مَاءُ،
والنَّهْرُ كالمِرْآةِ تَنْـ * ـظُرُ وَجْهَهَا فيه السَّماءُ! ! !

وكأن صَوافَّ الطُّيور المُتَّسِقة بتلك الأرْض خِيام، أو ظِباءٌ بأعْلَى الرَّقْمَتيْنِ قِيام، أو أبَارِيقُ فضَّةٍ رُؤُوسها لها أقْدام، ومَنَاقِيرُها المحْمَرَّة أوائلُ ما انْسَكَبَ من المُدَام؛ وكأنَّ رِقَابَها رِماحٌ أسِنَّتُها من ذَهَب، أو شُموعٌ أسْوَدُ رُؤُوسها ما انْطَفَى وأحْمَرُه ما الْتَهَب؛ وكُنَّا كالطَّيْرِ الجَليل عِدَّه، وكطِرَازِ العُمْر الأوّل جِدَّه :

من كُلِّ أبْلَجَ كالنَّسيم لَطافَةً * عَفِّ الضَّميرِ مُهَذَّبِ الأَخْلاقِ،
مِثْلِ البُدُورِ مَلاحةً، وكعُمْرِها * عَدَدًا، ومِثْلِ الشَّمْسِ فى الإشْرَاق!

ومعهم قِسِيٌّ كالغُصون فى لطافَتها ولِينِها، والأَهِلَّةِ فى نَحافَتِها وتَكْوِينها، والأزَاهِرِ فى تَرَافِتها وتَلْوِينها؛ بُطُونُها مُدبَّجه، ومُتُونُها مُدَرَّجه؛ كأنها كواكبُ الشَّوْلَةِ فى انْعِطافها، أو أرْواقُ الظِّباء فى الْتِفَافِها؛ لأوْتارِها عند القَوَادِم أوْتار، ولبَنادقِها الحَواصِلَ أوْكار؛ إذا انْتُضِيَتْ لصَيْدٍ ذَهَب من الحَيَاةِ نَصيبُه، وإن انْتَصَتْ لِرَمْىٍ بَدَا لها أنها أحقُّ به ممن يُصيبُه؛ ولعلَّ ذاكَ الصَّوْتَ زَجْرٌ لبُنْدقِها أن يُبْطِئ فى سَيْره،

أو يتخطّى الغَـرَضَ إلىٰ غيره ، أو وَحْشَـةٌ لمُفارَقَةِ أفْلاذِ كَبِـدِها ، أو أَسَـفٌ علىٰ خروج بَنِيهـا من يَدِها ، علىٰ أنها طالمَـا نبذتْ بَنِيها بالعَـراء ، وشَفَعتْ لخَصْـمِها التَّحْذِيرَ بالإغْراء :

مِثْـلَ العَقَارِبِ أَذْنابًا مُعَـقَّدَةً * لِمَن تأَمَّلها أو حَقَّقَ النَّظَرا !

إنْ مَـدَّها قَمَـرٌ منهـم وعَايَنَه * مُسافِرُ الطَّيْرِ فيها أو نوَىٰ سَفَرا ،

فهو المُسِيءُ ٱخْتِيارًا إذْ نوَىٰ سفَرًا * وقَدْ رأىٰ طَالِعًا فى العَقْرَبِ القَمرا !

ومن البَنَادقِ كُراتٌ متَّفِقَةُ السَّرْد ، مُتَّحِدَةُ العَكْس والطَّرْد ، كأنما خُرِطَتْ من المَنْدَلِ الرَّطْب أو عُجِنَتْ من العَنْبَرِ الوَرْد ، تَسْرى كالشُّهُب فى الظلام ، وتَسْبِقُ إلىٰ مَقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدَّداتِ السِّهام :

مِثْل النُّجومِ إذا ماسِرْنَ فى أُفُقٍ * عَنِ الأَهِـلَّة لٰكِن نُونُهـا راءُ .

مافَاتَها من نُجُوم اللَّيلِ إن رُمِقَتْ * إلا ثَبَـاتٌ يُرىٰ فيها وأَضْواءُ ،

تَسْرى ولا يَشْعُرِ اللَّيلُ البَهِيمُ بها * كأنَّهـا فى جُفُون اللَّيلِ إغْفاءُ ،

وتَسْـمَعُ الطَّيْرَ إذ تَهْفُو قَوادِمُه * خَوافِقًا فى الدَّياجِى وهى صَمَّـاءُ ! ! !

يَصُونها جِرَاوةٌ كأنّها دُرْج دُرَر ، أو دُرْجُ غُرَر ، أو كِمَامَةُ ثَمَر ، أو كِنَانةُ نَبْـل ، أو غَمامة وَبْل ، حَالِكةُ الأَدِيم ، كأنَّمـا رُقِمَتْ بالشَّفقِ حُلَّةُ لَيْلِها البَهِيم :

كأنَّهـا فى وَضْـعِها مَشْرِقٌ * تَنْبَثُّ منه فى الدُّجى الأَنْجُمُ ،

أو دِيمَةٌ قد أطْلعتْ قوْسَها * مُلَوَّنًا وٱنْبَثَقَتْ تَسْـجُمُ !

فاتَّخذ كُلٌّ له مَرْكَزًا ، وتَقَضَّى من الإصابة وَعْدًا مُنْجَزا ، وضَمِنَ له السَّعْدُ أن يُصْبِحَ لمراده مُحْرِزا :

كَأَنَّهمْ فى يُمْنِ أفعالِهِم * فى نَظَرِ المُنْصِفِ والجَاحِدِ:
قَدْ وُلِدوا فى طَالِعٍ وَاحِدٍ، * وأَشْرقُوا من مَطْلَعٍ وَاحِدِ!

فسَرتْ علينا من الطَّيْرِ عصابَه، أظَلَّتنا من أجْنحَتِها سحَابَه؛ من كلِّ طائرٍ أقْلَعَ يرْتادُ مَرْتعا، فوجَدَ ولٰكِنْ مَصْرعا، وأَسَفَّ يَبْتغِى ماءً جَمًّا فوجدَ ولٰكنّ السُّمَّ مُنْقَعا، وحَلَّق فى الفَضَاءِ يبْغِى مَلْعباً فباتَ هو وأشْياعُه سُجَّدًا لمَحَارِيب القِسِىِّ وركَّعا؛ فتبَرَّكْنا بذلك الوَجْه الجميل، وتَدارَكْنا أوائِلَ ذلك القَبِيل .

فاستقبلَ أَوَّلُنا تَمامَ بَدْرِه ، وعَظم فى نَوْعِه وقَدْرِه ؛ كأنه بَرْقٌ كَرَعَ فى غَسَق ، أو صُبْحٌ عَطَف علىٰ بَقِيَّة الدُّجىٰ عَطْفَ النَّسَق ؛ تَحْسبه فى أَسْدَاف المنىٰ غُرَّةَ نُجْح ، وتَخالُه تحتَ أذيال الدُّجىٰ طُرَّةَ صُبْح ؛ عليه من البياض حُلَّة وَقَار ، وله كدُهْنِ عَنْبرٍ فوق مِنْقارٍ من قَار ، له عُنُق ظَلِيمٍ ، والْتِفاتَة رِيم ، وسُرىٰ غَيْمٍ يُصَرِّفُه نَسِيم :

كَلَوْنِ المَشِيبِ ، وعَصْرِ الشَّبابِ ، * ووَقْتِ الوِصَالِ ، ويَوْمِ الظَّفَر!
كأنَّ الدُّجَىٰ غَارَ من لَوْنِه * فأَمْسَكَ مِنْقَارَهُ ثم فَرّ!

فأرسل إليه عن الهلال نَجْما ، فسقط منه ما كَبُر بما صَغُر حَجْما ؛ فاستبشر بنَجَاحِه ، وكَبَّر عند صِياحِه ، وحَصَّلَه من وَسَط الماءِ بجَنَاحِه .

وتلاه كُرْكِىٌّ نقِىُّ اللِّباس ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّاس ، كأنَّه فى عَرَانِين شَيْبِه لا وَبْلِه كبيرُ أُنَاس ؛ إن أَسَفَّ فى طَيَرانِه فغَمام ، وإن خَفَق بجَنَاحِه فقِلْعٌ له بيَدِ النَّسِيم زِمَام ؛ ذو عَيْبَةٍ كالجِرَاب ، ومِنْقَارٍ كالحِرَاب ، ولَوْنٍ يَغُرُّ فى الدُّجىٰ كالنَّجْم ويَخْدَع فى الضُّحَىٰ كالسَّراب ؛ ظَاهِرِ الهَرَم ، كأنما يُخْبِر عن عَادٍ ويُحَدِّثُ عن إِرَم :

إن عَامَ فى زُرْقِ الغَدِير حَسِبْتَه * مُبْيَضَّ غَيْمٍ فى أَدِيمِ سَمَاءِ ،
أوطَارَ فى أُفُقِ السَّماءِ ظَنَنْتَه * فى الجَوِّ شَيْخًا عائِمًا فى مَاءِ ،

مُتَنَاقِضُ الأَوْصَافِ فيه خِفَّةُ الْـ * ـجُهَّالِ تَحْتَ رَزَانَةِ العُلَمَاءِ!

فَثَنَى الثانى إليـه عِنَانَ بُنْدُقِه، وتَوخَّاه فيما بين رأسِـه وعُنقِه، فخرّ كَمارِدٍ ٱنْقَضَّ عليـه نَجْمٌ من أُفقِـه؛ فتلقَّاه الكَبِير بالتَّكْبير، وٱخْتَطفه قَبْـل مصافحة المَاء من وَجْهِ الغَدِير.

وقارنَتْه إوَزَّةٌ حلْباء دَكْناء، وحُلَّتُها حَسْناء، لها فى الفَضَاء مَجَال، وعلىٰ طَيَرانِها خِفَّةُ ذَوَات التَّبرُّج وخَفَرُ رَبَّاتِ الحِجَال؛ كأنَّما عَبَّتْ فى ذَهَب، أو خاضَتْ فى لَهَب؛ تختالُ فى مِشْيتها كالكَاعِب، وتَتَأَنَّىٰ فى خَطْوِها كاللَّاعِب، وتَعْطِف بجِيدها كالظَّبْيِ الغَرِير، وتَتَدافعُ فى سَيْرها مَشْيَ القَطَاةِ إلى الغَدِير:

إذا أَقْبلَتْ تَمْشِى تَخَطُّرَةَ كَاعِبٍ * رَدَاحٍ، وإن صَاحَتْ فَصَوْلَةُ حَازِمِ،
وإن أَقْلَعَتْ قالتْ لها الرِّيحُ: ليتَ لِى * خَفَا ذِى الخَوَافِى أو قُوَىٰ ذِى القَوادِمِ.
فأنْعِمْ بهـا فى البُعْـد زَادُ مُسَـافِرٍ، * وأَحْسِـنْ بها فى القُرْبِ تُحْفَـةُ قَادِمِ!

فَلَوى الثالثُ جِيدَه إليها، وعَطَف بوَجْهِ إقباله عليها؛ فلَجَّتْ فى تَرَفُّعها مُمْعِنَه، ثم نزلت علىٰ حُكْمِه مُذْعِنَه؛ فأعجلها عن ٱستكمال الهُبُوط، وٱستولىٰ عليها بعد ٱستمرار القُنُوط.

وحاذَتْها لَغْلَغةٌ تَحْكِى لَوْنَ وَشْـيها، وتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِها؛ وتُرْبِى عليها بغُرَّتِها، وتُنَافِسها فى المَحَاسن كضَرَّتِها؛ كأنها مُدَامةٌ قُطِبَتْ بمَـائِها، أو غمامةٌ شَفَّتْ عن بعض نُجُوم سَمَـائِها:

بغُـرَّةٍ بَيْضاءَ مَيْمُـونَةٍ * تُشْرِقُ فى اللَّيل كبَدْرِ التَّمَامْ!
وإن تَبَدَّتْ فى الضُّحىٰ خِلْتَها * فى الحُلَّةِ الدَّكْناء بَرْقَ الغَمَامْ!

فنَهَض الرابعُ لٱستقبالهـا، ورمَاها عن فَلَك سَعْده بنَجْم وَبَالهـا؛ فجَدَّتْ فى العُلُوِّ مُبْتَدّه، وتَطَاردتْ أمام بُنْدُقِه ولولا طِرَادُ الصَّيْد لم تَكُ لَذَّه؛ وٱنقضَّ عليها من يده

شِهابُ حَتْفِها، وأدركها الأجَلُ لِخِفَّة طَيَرانِها من خَلْفِها؛ فوقعتْ من الأُفُقِ فى كَفِّه، ونَفَر مافى بقايا صَفِّها عن صَفِّه .

واتَتْ فى إِثْرِها أَنيسةٌ آنِسَه، كأنَّها العَذْراءُ العَانِسَه، أو الأدْماء الكَانِسَه؛ عليها خَفَر الأبكار، وخِفَّةُ ذَوَاتِ الأَوْكار، وحَلَاوةُ المَعَانى التى تُجْلىٰ على الأفكار؛ ولها أُنْسُ الرَّبِيب، وإدْلَال الحَبِيب، وتَلَفُّتُ الزائرِ المُرِيب من خَوْف الرَّقِيب؛ ذَاتُ عُنُقٍ كالإبريق، أو الغُصْنِ الوَرِيق، قَدْ جمعَ صُفْرة البَهارِ إلىٰ حُمْرة الشَّقِيق؛ وصَدْرٍ بَهِىِّ الملبوس، شَهِىٍّ إلى النفوس، كأنَّما رُقِم فيه النهارُ باللَّيلِ أو نُقِشَ فيه العَاجُ بالآبَنُوس؛ وجَناحٍ يُنْجِيها من العَطَب، يَحْكى لونُها المَنْدَلَ الرَّطْب لولا أنه حَطَب :

مُدَبَّجَــةُ الصَّــدْرِ تَفْوِيفُــهُ * أَضَاف إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهارِ!
لهـا عُنُــقٌ خَالَه مــن رَآه * شَــقَائِقَ قد سُيِّجَتْ بالبَهارِ!

فوثَبَ الخَامِسُ منها إلى الغَنِيمه، ونظم فى سِلْكِ رَمْيِه تلك الدُّرَّةَ اليَتِيمه، وحصَل تَحْصِيلها بين الرُّماة على الرُّتْبة الجَسِيمه .

وأَتَىٰ علىٰ صَوْتِها حُبْرُجٌ تَسْبِق هِمَّتُه جَناحَه، ويَغْلِب خَفْقُ قَوَادِمه صِياحَه؛ مُدَبَّجُ المطا، كأنَّما خَلَع حُلَّةَ مَنْكِبَيْه على القَطَا؛ يَنْظُرُ من لَهَب، ويَخْطُو علىٰ رِجْلَين من ذَهَب :

يَزُورُ الرِّياضَ، ويَجْفو الحِياض * ويُشْبِه فى اللَّوْنِ كُدْرَ القَطا،
ويَغْوِى الزُّرُوعَ ويَلْهُو بهـا، * ولا يَرِدُ المـاءَ إلا خَطَـا!

فبَدَره السادسُ قبل ٱرتفاعِه، وأعانَ قَوْسَــه بامْتِداد بَاعِه، نخَرَّ على الأَلَاءِ كبِسْطَامِ ٱبْنِ قَيْسٍ(١)، وٱنْقَضَّ عليه رَامِيه فحمله بحِذْقٍ وحمله بكَيْس .

(١) يشير الى قول الشاعر فى بسطام :
خَرَّ على الألَاءَةِ لم يُوَسَّــدْ * كأنَّ جبينه سَيْفٌ صقيلُ :
الألاء، بوزن العلاء، شجرٌ والألاءة أخص منه .

وتعذّر على السابع مرامُه، ونبا عن بلوغ الأرب مقامُه؛ فصعد هو وتربٌ له إلى جبل، وثبت فى موقفه من لم يكن له بمرافقتهما قبل .

فعنّ له نسرٌ ذو قوائم شداد، ومناسر حداد . كأنّه من نسور لقمان بن عاد؛ تحسبه فى السماء ثالث أخويه ، وتخاله فى الفضاء قبّته المنسوبة إليه ؛ قد حلق كالفقراء رأسه ، وجعل مما قصّر من الدلوق الدكن لباسه ؛ واشتمل من الرّياش العسلىّ إزارا ، وألف العزلة فلا تجد له إلا فى قنن الجبال الشواهق مزارا ؛ قد شابت نواصى الليل وهو لم يشب ، ومضت الدهور وهو من الحوادث فى معقل أشب :

مليكُ طيور الأرض شرقًا ومغربًا * وفى الأفق الأعلىٰ له أخوان!
له حالُ فتّاك، وحلية ناسك، * وإسراعُ مقدام، وفترةُ وان!

فدنا من مطاره، وتوخّى ببندقه عنقه فوقع فى منقاره ؛ فكأنّما هدّ منه صخرا، أو هدم به بناءً مشمخرا؛ ونظر إلى رفيقه، مبشرًا له بما امتاز به عن فريقه .

وإذا به قد أظلته عقابٌ كاسر، كأنّما أضلّت صيدًا أفلت من المناسر ؛ إن حطّت فسحابٌ انكشف، وإن أقامت فكأنّ قلوب الطير رطبًا ويابسًا لدىٰ وكرها العنّاب والحشف، بعيدةُ ما بين المناكب :

إذا أقلعت لجّت علوًّا كأنّما * تحاول ثأرًا عند بعض الكواكب!

يُرى الطّيرُ والوحشُ فى كفّها * ومنقارها ذا عظام مزاله .
فلو أمكن الشمس من خوفها * إذا طلعت ما تسمّت غزاله!

فوثب إليها الثامنُ وثبة ليث قد وثق من حركاته بنجاحها، ورماها بأوّل بندقة فما أخطأ قادمة جناحها ؛ فأهوت كعود صريع ، أو طود صدع ؛ قد ذهب بأسها ،

وتَذَهَّب بدَمِها نِباسُها، وكَذَلك القَدَرُ يُخادِعُ الجَوَّ عن عُقابِه، ويَسْتَنزِلُ الأَعْصَم من عِقَابِه؛ فحملها بجَناحِها المَهِيض، ورَفَعها بعـد التَّرفُّع فى أَوْجِ جَوِّها من الحَضيض، ونزلَ إلىٰ الرُّفْقه، جَذِلًا برِبْحِ الصَّفْقَه .

فوجد التَّاسِعَ قد مرَّ به كُرْكِيٌّ طويل الشِّـفَار، سَرِيعُ النِّفار؛ شَهِيُّ الفِراق، كَثِير الاغْتِرابِ يَشْـتُو بمِصْرَ ويَصِيفُ بالعِراق؛ لقَوَادِمه فى الجَوِّ حَفِيف، ولأَدِيمه لَوْنُ سَماءٍ طَرَأَ عليها غَيْمٌ خفيف؛ تحِنُّ إلىٰ صَوْته الجَوارِح، وتَعْجب من قُوَّته الرِّياح البَوَارِح؛ له أَثَر حُمْرةٍ فى رَأْسِه كوَمِيض جَمْرٍ تَحْت رَماد، أو بَقِيَّة جُرْحٍ تحت ضِمـاد، أو فَصِّ عَقِيقٍ سَفَت عنه بَقَايا ثِمـاد؛ ذُو مِنْقارٍ كسِنَان، وعُنُقٍ كعِنَان؛ كأنَّمـا يَنُوس، علىٰ عُودَيْن من آبَنُوس :

إذا بَدَا فى أُفُـقٍ مُقْلِعًا * والجَوُّ كالمَـاءِ تَفَاوِيفُهُ:
حَسِبْتَه فى لُجَّـةٍ مَرْكَبًا * رِجْلاه فى الأُفْقِ مَجَادِيفُهُ!

فصَبَر له حتَّىٰ جازه مُجَلِّيا، وعَطَف عليه مُصَلِّيا؛ فخرَّ مُضَرَّجًا بدَمِه، وسَقَط مُشْرِفًا علىٰ عَدَمه؛ وطالمـا أفلتَ لَدَى الكَوَاسِر من أظْفَارِ المَنُون، وأصابَه القَدَرُ بحبَّةٍ من حَمَإٍ مَسْنُون؛ فكَثُر التكبيرُ من أجْلِه، وحَمَله علىٰ وَجْهِ المـاء برِجْلِه .

وحاذاه غِرْنَوْقٌ حكاه فى زِيِّه وقَدْرِه، وآمتاز عنـه بسَوَادِ رَأْسِه وصَـدْرِه؛ له رِيشَتَان مَمْدُودتان من رَأْسِه إلىٰ خَلْفِه، معقودتان من أُذُنَيْه مكان شَنْفِه :

له من الكُرْكِيِّ أوصَافُـهُ * سِوَىٰ سَوَادِ الصَّـدْرِ والرَّاس.
إن شَالَ رِجْلا وآنبَرىٰ قَائمًا * أَلْفَيْتَـه هيْئَـةَ بِرْجَاس!

فأصْغى العاشرُ له مُنْصِتا، ورَماه مُتَلَفِّتا؛ فخرّ كأنَّه صَرِيع الأَلْحان، أو نَزِيفُ بِنْت الحَـان؛ فأهوىٰ إلىٰ رِجْله بيَدِه، وآنقضَّ عليه آنقضاضَ الكَاسرِ علىٰ صَيْده .

وتبعه فى المَطار صُوع[1]، كأنَّه من النُّضار مصنوع؛ تحسبه عاشقًا قد مَدَّ صفحته، أو بارقًا قد بثَّ لفحته:

طَويلةٌ رِجلاه مُسْوَدَّةٌ * كأنَّما منقارُه خَنْجَرُ:
مِثْلُ عَجُوزٍ رأسُها أشْمَط * جاءت وفي رقبتها مِعْجَرُ!

فاستقبله الحادى عشر ووثب، ورماه حين حاذاه من كَثَب؛ فسقط كفارسٍ تقطَّر عن جَوادِه، أو وامِقٍ أُصيبتْ حَبَّةُ فؤاده؛ فحمله بساقه، وعدل به إلى رفاقه.

واقترن به مِرْزَمٌ له فى السماء سَمِيٌّ معروف، ذو منقارٍ كصُدْغٍ معطوف؛ كأن رِياشَه فَلَقٌ اتَّصل به شَفَق، أو ماءٌ صافٍ عَلِق بأطرافه عَلَق:

له جِسْمٌ من الثَّلج * على رِجلين من نارِ:
إذا أقْلَع لَيلًا قُلْ * تَ بَرْقٌ فى الدُّجى سارِى!

فانتحاه الثانى عشر مُيَمِّمًا، ورماه مُصَمِّمًا؛ فأصابه فى زَوْرِه، وحَصَّله من فَوْرِه، وحصل له من السُّرور ما خرج به عن طَوْرِه.

والتحق به سَبيطر، كأنه مِذَبَّةُ مُبيطِر؛ يَنْحطُّ كالسَّيل، ويكُرُّ على الكَواسر كالخَيْل، ويجمع من لَوْنَيْه بين ضِدَّيْن يُقْبِلُ منهما بالنَّهار ويُدْبِر باللَّيل؛ يتلَوَّى فى منقاره الأَيْم، تلَوِّىَ التِّنِّينِ فى الغَيْم:

تَراهُ فى الجَوِّ مُمْتَدًّا وفى فَمِه * من الأَفَاعى شُجَاعٌ أرْقَمٌ ذَكَرُ:
كأنَّه قَوْسُ رامٍ عُنْقُه يَدُها * ورِجْلُه رِجْلُها والحيَّةُ الوَتَرُ!

---

(١) هو بضم الضاد المعجمة وكسرها مع فتح الواو. وورد فى الجزء الثانى (ص ٦٤) من هذا الكتاب: "صُوغ" وانظر ما كتبناه عليه فى الحاشية الثانية هناك.

فصوّب الثالثَ عَشَر إليــه بُنْدُقَه، نقطع لَحَيَــه وعُنُقَه، فوقع كالصَّرْح المُمَرَّد، أو الطِّرَاف المُمَدَّد .

وٱتَّبعه عِنَازٌ أصبح فى اللَّوْن ضِدّه، وفى الشَّكْلِ نِدّه، كأَنَّه لَيْلٌ ضَمَّ الصُّبحَ إلىٰ صَدْره، أو ٱنطوىٰ علىٰ هَالَةِ بَدْرِه :

تَرَاه فى الجَوّ عند الصُّبحِ حينَ بَدَا * مُسْوَدَّ أجْنِحَةٍ مُبيَضَّ حَيْزُومِ:

كَأَنَّه حَبَشِيٌّ عَامَ فى نَهَــرٍ * وضَمَّ فى صَدْرِهِ طِفْلًا من الرُّومِ!

فنهض تَمَــامُ القوم إلى التَّتِمَّه، وأسفرتْ عن نُجْحِ الجماعة تلك اللَّيْلَةُ المُدْلَهِمَّه، وغَدا ذلك الطَّيْر الواجِبُ وَاجِبا، وكَمُل العددُ به قبل أن تُطْلِعَ الشمسُ عَيْنًا أو تُبْرِزَ حاجِبا، فيالَها لَيْلَة حَضَرَنا بها الصادِحُ فى الفَضَاء المُتَّسِع، ولَقِيَتْ فيها الطيرُ ما طارتْ به من قَبْلُ علىٰ كلِّ شَمْلٍ مُجْتَمِع، وأصبحت أشْــلاؤُها علىٰ وَجْه الأرض كفَرائدَ خَانَها النِّظام، أو شَرْبٍ كأنَّ رقَابَهُــم من اللِّينِ لم يُخْلَق لهنّ عِظَام، وأصــبحنا مُثْنِين علىٰ مَقَامنا، مُنْثَنِين بالظَّفَرِ إلىٰ مُسْتَقَرّنا ومُقَامِنا، دَاعِين للولىٰ جُهْدنا، مُذْعِنِينَ له قَبِلْنَا أو رَدّنا، حَامِلين ما صَرَعْنا إلىٰ بين يديه، عَامِلينَ على التَّشَرُّف بخِدْمته والانتماءِ إليه :

فَأَنْتَ الذى لم يُلْفَ مَن لا يَوَدُّه * ويُدْعىٰ له فى السِّرِّ أو يُدَّعَىٰ لَه :

فان كَانَ رَمْيٌ، أَنْتَ تُوضِحُ طُرْقَه، * وإنْ كَانَ جَيْش : أَنْتَ تَحْمِى قَبِيلَه !

والله تعالىٰ يجعل الآمَالَ مَنُوطةً به وقد فعَل، ويجعله كَهْفًا للأَولياء وقد جعل ؛ بمَنِّــه وكَرَمِهِ :

الفصـــــل الرابع
من البـاب الأوّل من المقـالة العـاشرة
(فى الصَّدُقات ، وفيـــه طَرَفان)

الطـــرف الأوّل
(فى الصَّـــدُقات المُلُوكيَّـــة وما فى معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوّج سلطانٌ أو ولَدُه أو بِنْتُه أو أحدٌ من الأمراءِ الأكابرِ وأعيانِ الدَّوْلة أن تُكْتبَ له خُطْبةُ صَدَاقٍ تكون فى الطُّول والقِصَر بحسب صاحب العَقْد، فتطالُ للملوك وتُقَصَّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخةُ صَدَاقٍ، كُتِب به للملك السَّعِيد بَرَكَة ، ٱبنِ السلطان الملك الظاهر بِيبَرس البُنْدُقْدارىّ ، علىٰ بِنْتِ الأمير سَيْف الدِّين قَلَاوُون الصالحىّ الألْفىّ قبل سَلْطَنته ، بالقَلْعة المحروسة ، من إنشاء القاضى مُحْيِي الدِّين بن عبد الظاهر ، وهى :

الحمدُ لله مُوَفِّق الآمال لأسْعَدِ حَرَكَه ، ومُصَدِّق الفَأْل لمن جَعَل عنده أعْظَم بَرَكَه ، ومُحَقِّق الإقبال لمن أصبح نَسِيبُه سُلْطانَه وصِهْرُه مَلِكَه ؛ الذى جعل للأولياء من لَدُنْه سلطاناً نَصِيرا ، ومَيَّز أقْدَارهم بٱصْطِفاء تأَهُّلِه حتّىٰ حَازُوا نَعِيماً ومُلْكاً كَبِيرا ؛ وأفْرد فَخَارَهم بتَقْرِيبه حتّىٰ أفاد شَمْسَ آمالهم ضِيَاءً وزاد قَمَرها نُورا ، وشَرَّف به وُصْلتهم حتّىٰ أصبحَ فضلُ الله عليهم بها عظيماً وإنعامُه كثيرا ؛ مُهَيِّئِ أسْبابِ التَّوْفيق العاجلة والآجله ، وجَاعِلِ رُبوع كلِّ إمْلاكٍ من الأمْلاك بالشُّموسِ والبُدُور والأَهِلَّة آهِلَه ، جامِعِ أطْراف الفَخَار لذَوِى الإيثار حتّىٰ حَصَلت لهم النِّعمةُ الشاملةُ وحَلَّت عندهم البَرَكة الكَامِلَه .

نَحْمَدُه علىٰ أن أحسنَ عند الأولياء بالنِّعمة الاْستيداع، وأجْمَل لتأْميلِهم الاْستِطْلاع، وكَمَّل لأَخْيارِهم الأجْناسَ من العِزّ والأنواع، وأَتَىٰ آمالَهم بما لم يكن فى حساب أحْسابِهم من الاْبتداء بالتَّخْويل والاْبتداع؛ وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً حسنةَ الأَوْضاع، مَلِيَّةً بتَشْريف الألْسِنةِ وتكريم الأَسماع؛ ونُصَلِّى علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى أعلى الله به الأقدار، وشَرَّف به المَوَالِىَ والأَصْهار، وجعل كَرَمَه دارًّا لهم فى كلِّ دار، وفَخْرَه علىٰ من اْسْتَطْلَعه من المهاجرين والأنصار مُشْرِقَ الأنوار، صلّى الله عليه وعليهم صلاةً زاهيةَ الأَزْهار، يانِعَةَ الثِّمار.

وبعدُ، فلو كان اْتصالُ كلِّ شىءٍ بحسب المُتَّصل به فى تَفْضيله، لما اْسْتَصْلَح البَدْرُ شيئًا من المنازل لنُزُوله، ولا الغَيْثُ شيئًا من الرِّياض لهُطُوله، ولا الذِّكْر الحَكيم لِسانًا من الألْسِنة لتَرْتيله، ولا الجَوْهَرُ الثمينُ شيئًا من التِّيجَان لحُلُوله؛ لٰكن ليَتَشَرَّف بَيْتٌ يَحُلُّ به القمر، ونَبْتٌ يَزُوره المَطَر، ولِسانٌ يتعوّذُ بالآيات والسُّوَر، ونِثارٌ يتَجَمَّلُ باللآلِئ والدُّرَر؛ ولذلك تجمَّلتْ برسول الله صلى الله عليه وسلم أصْهارُه وأصحابُه، وتشرَّفَتْ أنْسابُهم بأنْسابِه؛ وتَزَوّجَ صلَّى الله عليه وسلم منهم، وتمَّتْ لهم مَزِيَّةُ الفَخار حتى رَضُوا عن الله ورَضِىَ عنهم.

والمُرَتَّب علىٰ هذه القاعدة الفاضلةِ نُورٌ يَسْتَمِدُّه الوُجود، وتَقْريرُ أمرٍ يقارن سَعْدَ الأَخْبِيةِ منه سَعْدُ السُّعود؛ وإظهارُ خِطْبةٍ تقول للثُّرَيَّا لاْنتظام عُقُودها: كَيْفَ، وإبْرازُ وُصْلَةٍ يتجمَّلُ بتَرْصيع جَوْهَرِها مَتْنُ السَّيْف الذى يَغْبِطُه علىٰ إبداع هذا الجَوْهَر به كلُّ سَيْف؛ ونَسْجُ صِهارةٍ يَتِمُّ بها ـ إن شاء الله ـ كلُّ أمرٍ سَديد، ويَتَّفِقُ بها كلُّ توفيقٍ تَخْلق الأَيَّام وهو جَديد، ويُخْتارُ لها أَبْرَكُ طالعٍ: وكيف لا تكون البَرَكة فى ذلك الطَّالِع وهو السَّعيد؟.

وذلك بأن المَرَاحِمَ الشريفةَ السلطانيةَ أرادتْ أن تُحَصِّنَ المجلسَ الساميَّ بالإحسان المُبْتَكَر، وتُفْرِدَه بالمَوَاهِب التي يُرْهَفُ بها الحَدُّ المُنْتَضَى ويَعْظُم الجَدّ المُنْتَظَر، وأن تَرْفَع من قَدْره بالصِّهارَةِ مِثْل ما رَفَعه صلى الله عليه وسلم من قَدْر صَاحِبَيْه: أَبي بَكْرٍ وعُمَر، فخَطَب إليه أَسْعَدَ البَرِيَّه، وأَمْنَعَ من تَحْمِيها السيوفُ المَشْرَفِيَّه، وأَعَزَّ من تُسْبَل عليها سُتُور الصَّوْن الخَفِيَّه، وتُضْرَبُ دونَها خُدُورُ الجَلال الرَّضِيَّه، وتَجَمَّلُ بنعوتها العُقُود: وكيف لا؟ وهي الدُّرَّة الأَلْفِيَّه، فقال والدها وهو الأميرُ المذكورُ: هكذا تُرْفَع الأَقْدارُ وتُزان، وكذا يكون قِرَان السَّعْد وسَعْدُ القِرَان!!!؛ وما أَسْعد رَوْضًا أصبحتْ هذه المَرَاحِم الشريفةُ السلطانيةُ له خَمِيلَه!، وأَشْرَفَ سَيْفًا غَدَتْ مِنْطَقَةُ بُرُوجِ سَمَائها له حَمِيلَه!؛ وما أَعْظَمَها مُعْجِزَةً آتَتِ الأولياءَ من لَدُنْها سُلْطَانا!، وَزادَتْهم مع إيمانهم إيمانا!؛ وما أَفْخَرها صِهارةً يقول التوفيق لإبرامها: لَيْتَ!، وأَشْرَفَها عُبُودِيَّةً كَرُمَتْ سَلْمانها بأن جَعَلَتْه من أَهْلِ البَيْت!.

وإذْ قد حصلتْ الاستخارةُ في رَفْع قَدْر المملوك، وخَصَّصته بهذه المَزِيَّة التي تقاصرتْ عنها آمالُ أكابر الملوك؛ فالأَمْرُ لِمَلِك البَسِيطة في رَفْع درجات عَبِيده كيف يَشَاء، والتَّصَدُّق بما يَتَفَوَّهُ به هذا الإنشاء؛ وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ مباركٌ تحاسَدَتْ مِلَحُ الخَطِّ وأقلام الخَطِّ على تَحْرِيره، وتنافَسَتْ مَطَالِع النُّوَّار ومَشَارِقُ الأَنْوار على نَظْمِ سُطُوره؛ فأضاءَ نُورُه بالجلالة وأَشْرق، وهَطَلَ نَوْءُه بالإحسان فأَغْدَق، وتَنَاسَبَتْ فيه أجناسُ تَجْنِيس لَفْظِ الفَضْل فقال الاعتراف: هذا ما تَصَدَّق، وقال العُرْفُ: هذا ما أَصدقَ مولانا السلطانُ: أَصْدَقَها ما مَلأَ خَزَائنَ الأَحْساب فَخَارا، وشَجَرة الأَنْساب ثِمَارا، ومِشْكَاةَ الجلالة أنوارا، وأضاف إلى

ذلك ما لولا أدبُ الشَّرْع لكان أقَاليمَ ومَدَائِنَ وأمْصارا؛ فبَذَل لها من العَيْنِ المِصْرِىّ ما هو باسمِ والدها قد تَشَرَّف ، وبنُعُوتِهِ قد تَعرَّف ، وبين يَدَىْ هِباتِه وصَدَقَاتِه قد تَصَرَّف .

* * *

وهذه نسخةُ صداقِ المَقَام الشَّريفِ العالى السَّيْفِىِّ أنُوك ، ولَدِ السلطان الشَّهِيدِ المَلِك النَّاصِر «محمدِ بن قَلاوُون» علىٰ بِنْتِ المقرِّ المَرْحوم السَّيفىّ «بكتمر الساقى» . وكان العاقِدُ قاضِىَ القُضَاة جلالَ الدِّين القَزْوِينىّ، والقابِلُ السلطانَ المَلِكَ الناصر والِدَ الزَّوْج، وهى :

الحمدُ لله مُسَيِّرِ الشَّمسِ والقَمَر، ومُيَسِّرِ حَياةِ كلِّ شىءٍ بٱتصال الرَّوْضِ بالمَطَر، ومُبَشِّرِ المتَّقِينَ من دَرارِىِّ الذَّرارِى بأسْعَدِ كَوْكَبٍ يُنْتَظَر ، وأحْمَدِ عاقبةٍ تَهْتَزُّ لها أعطافُ عظماء الملوك علىٰ كِبَر، وتَجَابُ عن الأنجاب كما تَتَفَتَّح الأكمام عن الثَّمَر؛ الذى مَدَّ من الشَّجَرةِ المباركةِ الملوكيَّة فُروعًا ٱلْتَفَّتْ بَعْضها علىٰ بَعْض، ورَفَّتْ علىٰ من ٱستظلَّ بها فراقَبَ السماءَ على الأرض .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى أطَابَتْ لنا جَنَى الغُرُوس ، وأطالَتْ منا مُنَى النُّفُوس ، وأطافَتْ بمُلُوكٍ حتَّىٰ مُدَّتْ لسُؤالهم الأيْدى وخَضَعَتْ لأمرهم الرُّؤُوس؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَتَّخِذها عِصْمةً نافعه ، ونِعْمةً لحُسْنِ العاقبة جَامِعَه ، ورحمةً تُبارِك علىٰ أئِمَّتِنا وعلىٰ أبنائهم البُدُورِ الطالعه ، والأنوارِ الساطعه، والبُرُوقِ اللَّامعه، والغُيُوثِ الهَامِعه، والسُّيولِ الدَّافِعه، والسُّيُوفِ القَاطِعه، والأُسُود التى هى عن حَرَمِ حَضْرتِها مَانِعه؛ ونشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أزَانَ من تمسك له بحَسَب، وشَرَّفَ من ٱعتزىٰ إليه بالقُرْبىٰ أو ٱعْتَزَّ منه بصِهْرٍ أو نَسَب؛

صلّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين أرضاهم ورَضِىَ عنهم، وكرّمهم بصلته الشريفة لمـا زوَّجَهم وتزوَّج منهم، وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعدُ، فإنّ من عادة الغَمام أن يتفقَّد الأرضَ بمطره ، والبحرِ أن يَسْقِىَ الزُّرُوع بمـا فاضَ من نَهره، والمَصابِيح أن تمدّ بأنوارها ما يتوقّد ، والسّماءِ أن لا يَخْلُو أُفُقُها من ٱتّصال فَرْقَدٍ بفرقد ؛ ولو توقّفتِ القُرْبىٰ علىٰ مُقارَبة كبـير، أو مُقارَنة نَظير، لمـا صَلَحتِ الأغْمادُ لمَضاجِع السُّـيوفِ ولا دَنَتِ الكَواكِبُ من الشّمس والقَمر المُنير، ولا صافَحَتْ يَمِينٌ شِمَـالا ، ولا جاوَرتْ جَنُوبٌ شَمالا، ولا حَوَتِ الكَنائِنُ سِهاما، ولا جَمَع السِّلْكُ للجواهرِ نِظاما ، ولا طَمَح طَرْفٌ إلىٰ غايه ، ولا قَدَر لِسانُ إنسانٍ علىٰ تلاوة سُورَةٍ ولا آيه ؛ وإنّمـا الصَّدَقات الشَّريفـة المُلُوكية لهـا فى البرّ عَوائد، وفى الخَيْر سَجَايَا يَقْتدِى فيها الوَلَد بالوالِد .

ولم يَزَلْ من المقام الشريف ، الأعْظمِ، العَالى، المَوْلَوِىّ، السُّلطانِىّ، المَلَكِىّ، النَّاصِرىّ، أعَزَّ الله سُلْطانَه علىٰ من لاذ به تُسْبَلُ ذُيول الفَخار، وتُودَع فى هَالَاتِ أقْمارِهم وَدائعُ الأَنْوار، وتُؤَهّل أَهِلّتهم لأن يكون منها أحَدُ الأَبَوَيْنِ لذُرِّيّته الأطهار، وتَخْطُب من حُجُبِهم كلَّ مَصُونةٍ يَغُور بها بَدْر الدُّجىٰ وتَغار منها شَمْسُ النَّهار .

وكان من تمـام النِّعمة الشريفة السلطانية، النَّاصريّة ، علىٰ من تعرّض لسَحابِها المَـاطِر، ووَقَف للاعْتراف من بَحْـرِها الزّاخر ـ ما رفعتْ به ذِكْره إلىٰ آخر الأَبَد، وأتَمّتْ له السّـعادةَ إذ كان يُعَدّ فى جُدُود من يُنْسب إليـه من وَلَد ؛ وأكّدتْ له بالقُرْبىٰ مَزِيّةَ مَزيد ، وٱستخرجتْ من بَحْره جَوْهرةً لا يَطْمَعُ فى التَّطوُّق بهـا كُلُّ جِيد؛ وقالتْ : نَحْنُ أحقُّ بتكميل ما بَنَيْنا، وتَخْوِيل الخُؤُولَةِ مَن أَوْلَيْنا؛ وتأهِيل من قرّبنَا عَيْنـا وقَرَّبْناه إلينا، وتَفْضِيل غَرْسِ نِعْمةٍ نحنُ غَرسْناه وٱجْتَنَيْنا ثمراته بيَدَيْنا .

فاقتضى حُسْنُ الاختيار الشريف المَلَكيّ الناصرىّ، لولده المقام العالى السَّيْفىّ؛ أحسن الله لهما الاختيار، وأجرى بإرادتهما اقتدار الأقدار - أن تُزَفّ أتمّ الشموس إلى سُتُوره الرفيعه، وتُصانَ أكمل معاقل العقائل بحُجُبه المنيعه؛ وتُحاط أشرفُ الدُّرَر فى مُستودَعه، وتُناط أشرفُ الدَّرارىّ بمَطْلَعه، وتُساق إليه الكريمةُ حَسَبا، العظيمةُ بأبيه - عظّم الله سُلْطانه - أبَا؛ الذى كَمْ له فى خدمة الدولة القاهرة من مَناقبَ كالنجوم، ومَذاهبَ تَشبَّه بها البرقُ فتشبَّث بأذيال الغُيوم، ومراتبَ تقدّم فيها على كلّ نظيرٍ قال: وما منّا إلّا من له مَقامٌ معلوم؛ من قَدْرُه لا يُسامىٰ ولا يسام، ورأيه لا يُرامىٰ ولا يُرام، وسَيفُه فى غير طاعتنا الشَّريفة لا يَشِيمُ ولا يُشام، وهو «سيفُ الدولة» لا كما يُسمَّى به من استعار هذا اللّقب فى سالف الأيام؛ كم له فى مَراضى سُلْطانه من رَغْبةٍ بَذَل بها ما لَدَيْه، وسمح فيها بولَده وهو أحبُّ شىءٍ إليه، وجاد بروحه أو بما هو أعزّ عليه؛ كم نُبِّهَتْ بعزائمه السُّيوفُ من سِناتها، كم وُهِبَتْ من مكارمه الأيامُ ما يُعَدّ من حَسَناتها؛ كم التهبت صوارمُه نارًا فجّرتْ أنهارًا فُجِّرَتْ من جَنَباتها؛ كم لسماء المُلْك بشُهُبه من حَرَس، وبقُضُبه من قَبَس، وكم قام وقعد فى مَصْلَحةٍ وكان أدناهم من مَلِكه مَقامًا لمّا قام وأعلاهم مجلسًا لمّا جلس؛ فسَمِع المقامُ العالى السَّيْفىُّ وأطاع، وانتهىٰ إلىٰ ما برزتْ به مراسم والده - أنفذها الله - وامتثل أمْرَه المُطاع، وعمل برأيه الشريف وهو ناصرُ السُّنَّة فقدّم فيها ما استطاع، وسارع إلىٰ ما أمر اللهُ به من الأُلْفة والاجتماع، واتّبع السُّنّة النبويّة فى تكثير الأُمّة ذُرّية أئمّةٍ مُلُوكيّةٍ كلُّ واحدٍ منها له الأُمّة أتْباع؛ لعلمه اليقين أنه لو خطب له والدُه فى أقطار الأرض إلىٰ جميع الملوك، لم يجدْ منهم إلا كلَّ ملكٍ عظيمٍ وهو له عبْدٌ مملوك؛ فأحيىٰ سُنّةً شريفةً مُلوكيّةً ما برحت الخلفاءُ والمُلُوك تحفظ بها قلوب أوليائها علىٰ أمداد المَدَىٰ، ويكفى من هذا ميمونُ فعل «المأمون» لمّا تزوّج

« بُورَانَ » من أبيها « ٱبنِ سَهْلٍ » وخَطَب « المعتَضِدُ » إلىٰ « ٱبن طُولُون » ٱبْنَتَه « قَطْر النَّدَىٰ » .

ورأى والِدُها أعَزَّه الله تعـالىٰ قَدْرا هَالَه مهابَةً فسَـلَّمَ وقال : لمَـالِكِ التَّصرُّفُ ولِلْمَلِد التَّصْرِيف ، وإذا ٱقتضَىٰ حُسْنُ النَّظَرِ الشَّرِيف تَشْرِيفَ عَبْدٍ فياحَبَّـذَا التَّشْرِيف ؛ وياحَبَّذا السَّبَبُ الذى ٱتصلتْ له بالمقام الشَّرِيف الأسباب ، وٱحْتَفَلَتْ دِيَمُ النِّعَمِ وٱحْتَفَّتْ للٱجتماع علىٰ سُنَّةٍ وكِتَاب ، فتَحَاسدتْ علىٰ إثباته صُفْرُ الأصائل وحُمْرُ النَّعَم ، وتنافَسَتْ علىٰ رَقْمِ سُطوره صحائِفُ السَّـحاب وصَفِيحُ المـاء وصَـلِيلُ السَّيْف وصَرِيرُ القَلَم ؛ وتَمنَّت الكواكِبُ لو ٱجتمعتْ مَوَاكِبَ فى يَوْمه المَشْهود ، والمَنَاقِبُ لو أنها حَوْلَه بمَقانِبَ خَافِقَـةِ البُنُود ؛ ووَدَّتْ نَسماتُ الأسْحار لو كانت هى التى سَعَتْ بالٱتِّفاق ، والحَمَائِمُ لو أُبيحَ لها أن تُغَرِّد وتَخْلع مافى أعناقها من الأطْواق ؛ بَلِ السُّيوفُ لـمَّا رأتْ مَقامَ الجلالة أغْضتْ وغَضَّتِ الأحْداق ، والرِّماحُ لـمَّا بَدَا لها سَرِيرُ الملك مائِلا وقفَتْ علىٰ سَاق .

فبرزت المَرَاسِمُ الشريفةُ ــ زادها الله شَرَفًا ــ بتَحْرِير هذا الكِتَاب الكَرِيم ، وتَنْضِيد ما يَصْلُح من الدُّرَرِ لهذا العِقْدِ النظيم ؛ ونَفَّذ المرسومُ العالى المولوىُّ السلطانىُّ ماأمر به وصَدَّق ، وتَأَدَّب إجلالًا لمقام أبيه الشريف فأطْرق ، وتَواضَع لله فلم يقلْ : هذا ما تَصَدّق ؛ بل قال : هذا ما أصْدَق المقامُ العالِى السَّيْفىُّ أنُوك ٱبنُ مولانا السلطان الأعظم ، مالكِ رقاب الأمَم ؛ المَلِك النَّاصر ، السَّيِّد الأجَلّ ، العالم ، العَادل ، الغَازى ، المُجاهِد ، المُؤَيَّد ، المُرابِط ، المُثاغِر ، المُظَفَّر ، المَنْصور ، الشَّاهِنْشاه ، ناصر الدنيا والدِّين ، سُلطانِ الإسلام والمسلمينَ ، مُحْيِي العَـدْل فى العالَمين ، مُنْصِف المَظْلومين من الظالمين ، مَلِكِ البَسِـيطة ، ناصِر السُّـنَّة ، رُكْنِ الشريعة ؛ ظِلِّ الله فى أرْضه ،

القائم بسُنَّته وفَرْضِــه ؛ وَارِثِ المُلْك ، مَلِكِ العَرَب والعَجَم والتُّرْك ، خداوند عالم بادشاه بنى آدم ، بهلوانِ جهان ، شهريارِ إيران ، إسْكَنْدرِ الزَّمان ، مُمَلِّكِ أصحابِ المَنَابِر والأسِرَّةِ والتُّخوتِ والتِّيجان ؛ فاتِحِ الأقْطار ، وَاهِبِ المَمَـالك والأقَاليم والأمْصار ، مُبِيدِ البُغاةِ والطُّغاةِ والكُفَّار ؛ صاحِبِ البَحْرين ، حامِى الحَرَمَين ، خادِمِ القِبْلَتين ؛ كَفِيلِ العُبَّاد والعِباد ، مُقِيم شَعائرِ الحَجِّ والجِهاد ؛ إمامِ المُتَّقِين ، قَسِيمِ أمير المؤمنين ، أبى المعالى محمد بنِ السلطان الشهيد الملك المنصور ، السَّيِّد ، الأجَلِّ ، العالِم ، العادِل ، المجاهِد ، المؤيَّد ، سيفِ الدِّين ، والدِ المُلوك والسلاطين ، أبِى الفَتْح «قلاوون» خلَّد الله سلطانه ، ونَصَر جُنودَه وجُيوشَه وأعْوانَه ـ : الجِنَـابَ الكَرِيمَ ، الرفيعَ ، المَنِيعَ ، المَصُونَ ، المَكْنونَ ، الجِهَـةَ المُكَرَّمَةَ ، المُفَخَّمة ، المُعَظَّمةَ ، بنتَ الجَنابِ الكَرِيم ، العالى ، الأميرىِّ ، الأجَلِّ ، الكَبِيرىِّ ، العَالِمِىِّ ، العَادِلىِّ ، المُمَهِّدىِّ ، المُشَـيِّدىِّ ، الزَّعِيمىِّ ، المُقَدَّمِىِّ ، الغِياثِىِّ ، الغَوْثِىِّ ، الذُّخْرِىِّ ، الأوْحَدِىِّ ، الظَّهيرىِّ ، الكافلىِّ ، السَّيفىِّ ، رُكْنِ الإسلام والمسلمين ، سَيِّدِ الأمراء فى العالَمِين ، نَصِيرِ الغُزَاةِ والمُجاهِدين ، زعيمِ الجيوش ، مقـدَّمِ العساكر ، عَوْنِ الأمة ، غِياثِ المِلَّة ، ممهِّدِ الدُّول ، مُشَيِّد المَمَـالك ، ظَهيرِ المُلُوك والسلاطين ، عَضُدِ أمير المؤمنين ، بكتمر الساقى الناصرىّ ، ضاعف الله نعمته .

أَصْدَقها ما تَلقَّتْ به أنسابُها إجلالا ، وبَلَغَتْ به أحْسابُها جَمالا ، وطلعَتْ فى سماء المُلْكِ هِلَالا ، ولَبِستْ نَخَارا ، وقَبَستْ أنْوارا ، وأَوَتْ إلىٰ حِصْنٍ حَصِين ، ووَصَلَتْ إلىٰ مَقامٍ أَمِين ، وا س (؟) بأَمْوال وبَنِين ؛ مالولا أَدَبُ الشَّرَف ، وتَجَنُّبُ السَّرَف ؛ والعَمَلُ بالشَّرع فى تَعْيين مَعْلوم ، وتَبَيُّن مقـدارٍ مَفْهوم ؛ لخَـرَج عن كلِّ وَصْفٍ مَحْـدود ، وقَدْرٍ معدود ؛ ولمَـا قام به مَوْجُود ، ولكان ممـا تَقلُّ له المَمـالك ولا يُسْتَكْثر لأجلِه الوُجُود .

قَدَّم لها من الذَّهَب العَيْنِ المِصْرىّ المَسْكوك ما هو بنَقْدِ ممالك وَالدِه مَعْروف، ومن حُقُوقه مَقْبوضٌ وفى هِبَاتِه مَصْروف ، ما يُحْمَد مآلا، ويُنَمِّىٰ مالا ، ويأتى كلُّ دِينَارٍ منه ووَجْهُه بذكر الله وٱسْمِ أبيه يتَلَالا .

أَصْدَقها علىٰ بَرَكَةِ الله تعالىٰ وعَوْنِه وتَوْفيقه كذا وكذا، عَجَّل لها كذا وكذا، قَبَضه وكيلُ والدها من وَكِيلِه ، قَبْضًا تامًّا كاملًا، وتَأَخَّر بعد ذلك كذا وكذا دِينَارًا حالًّا، علىٰ ما أمَرَ اللهُ به من إمساكٍ بمعروف أو تَسْرِيحٍ بإحْسَانٍ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

ووَلِىَ تَزْويجَها منه على الصَّداق المُعَيَّن بإذْن والدها ـ أَعَزَّه الله تعالىٰ ـ المقدّم ذِكْرُه : ـ العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ، قاضِى القُضاة، حاكِمُ الحُكَّام، خطيبُ خُطَباءِ المسلمين، جلالُ الدِّين، خالصةُ أمير المؤمنين ، أبُو المعالى ، محمد بنُ قاضى القضاة سَعْدِ الدِّين أبِى القاسم، عبدِ الرحمن ٱبنِ الشَّيخ الإمامِ العالِمِ العلَّامةِ إمامِ الدِّين، أبِى حَفْصٍ عُمَرَ بن أحمدَ القَزْوِينىّ الشافعىّ، الحاكم بالديار المصريةِ المحروسةِ وأعمالها وبِلادِها، وجُنْدِها وضَواحيها، وسائرِ الممالك المضافةِ إليها، بالولاية الشَّرْعية، أدام الله أيَّامَه، وأعزَّ أَقْضِيَتَه وأَحْكامَه . فقَبِل مولانا السلطانُ ـ خَلَّد الله مُلْكَه ـ لولده المسمَّى ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمَتَه ـ ذلك منه قَبُولًا شَرْعيًّا، يخاطَبُ عليه شِفَاها بحُضُور من تَمَّ العَقْد بحُضُوره ، فى دار المُلْكِ بالقَصْر الأَبْلَق ، بقَلْعةِ الجَبَل ، حرسها الله تعالىٰ ، بُكْرَة يوم السَّبت حادى عشرين من صَفَر سنة ٱثنتين وثلاثين وسبعمائة .

✥

وهذه نسخةُ صَدَاق المَقَرِّ الشَّرِيف إبراهيم بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد ٱبن قلاوون، من إنشاء المَقَرّ الشِّهابىّ بن فَضْل الله، وهى :

الحمدُ لله مُغْنِي المُلوكِ بالمُظافَره ، ومُكَثِّر زِينَةِ الأسمـاء بُنجُومهم الزَّاهِـره ، ومُكَبِّر أقدار الأولياء بمـا تمَّتِ النِّعْمَةُ به من شَرَفِ المُصاهَـره .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التي شَرَّفتْ قَدْرا ، وصَرَّفَتْ أَمْرا ، وأَطْلعتْ من هَالَةِ البَدْرِ المُنِير شَمْسًا لا تتخـذ غير الأُفُق خِدْرا ، ولا تَتَمَنَّى الليالى والأيامُ إلا أن تُقَلِّدَها من الأَشِعَّة يَاقُوتًا ومن الكوا كب دُرّا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهـادةً تجمعُ من حُماةِ الدِّين نَسَبًا وصِهْرا ، وتَرْفع فى أنباء الأبناء لهـا حَسَبًا وذِكْرا ؛ ونشهدُ أن سـيدَنا محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى عَصَم به ، وخصَّ صَفْوةَ الخَلْق فى المصاهرة باختلاط نَسَبِهم بنَسَبِه ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَستوثِقُ بها الأَسْباب ، وتَسْتَوسِق الأنساب ، وتَبْقَىٰ أنوارُها بملْكِ أبنـاء الملوك كلِمةً باقِيـةً فى الأعقاب ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فلمَّـا جمع اللهُ بمُلُوكِ البَيْت الشريف المنصورىّ ـ كَثَّر الله عَدَدَهم ـ شَـتَاتَ الإسلام ، ومحَـا ببَوارِق جِهادِهم ما آمْتَـدَّ من ظَلَام ؛ حتَّى آنتهتِ النَّوْبةُ إلىٰ مَن أصبحتْ به الدولة القَاهِرة وكلُّ أوْقاتِها أنوارُ صَـبَاح ، ونُوّار أَقَاح ، وسَمَاء سَمَـاح ، وأَسْمَىٰ نِعَمٍ لا تُعَـدُّ إلا معَاقِد تِيجَانِ المُلُوك علىٰ كلِّ جَبِينٍ وَضَّاح ؛ المَقَامِ الشريفِ العـالِى المَوْلوىِّ ، السُلْطانىِّ ، المَلَكِىِّ ، النَّـاصرىِّ ، زاد الله شَرَفه ، وأعلىٰ علىٰ شُرُفات بُرُوجِ السماء غُرَفه ؛ فأَحَبَّ ـ لمـا أجراه اللهُ به وبمَن سَلَف من ملوك بَيْته الشريف من تأييد هـٰذه الأمَّه ، وتأْبِيد ما شَمِلها بفُتُوحاتهم المُذْهَباتِ الفُتُوحِ من سَوَابغ النِّعمه ؛ ـ أن يَعْمل بقَوْل نَبِيِّـه المُشَرَّف بموافقة آسْمِـه ومُتَابَعَة حُكْمه فى التزويج ، وأن تَقَع مَوَاقِعُ أَمْطارِه علىٰ كلِّ أرْضٍ حُرَّة فتُنْبِت كلَّ زَوْجٍ بَهِـيج . وكان من بَنِيـه ـ أدام الله سُعُودَهم ـ مَن يُطيع فى كلِّ أمْرٍ أمْرَه العـالىَ أدام الله تَمْكينه ، ولولا هذا لمـا رَضِى سوىٰ أقران الفُرْسان له قَرِينَه ؛ وكان من نُجَبائِهم إذا

عُدَّت الأولاد ، وأَحِبَّائهم إذا كان كما يقال : الوَلَد ثَمرةُ الفُؤَاد؛ ومَن هو لجملتهم جَمال، ولدَوْلَتِهم دَلَال، ولغَابِهم أَسَد الأَشْبال ـ من يَعْترِفُ كلُّ مَن عرفه بفَضْله، ويؤمّلُ فى أبنائه ما لأبناء سَمِيِّه إبراهيمَ صلى الله عليه وسلم من برَكةِ نَسْلِه .

بَرَز المرسومُ الشريفُ العالى، المَوْلوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الناصِرىّ، أنفذه الله فى الأقطار ـ بأن يُتَخَير لمَغرِسِه الكريم ، ونَسَبِه الصَّمِيم، وصَبَاحه المُشْرق، وسَمَاحِه المُغْدِق؛ فصادف الإحسانُ مَوْضِعه، وٱنْتُخِبَ له من مَشْرِق البَدْرِ التَّمام مَطْلَعه؛ ومَن هو من هذه الدَّولة القاهِرة على الحَقِيقَة باليمين، ومَن هو البَحْر الزَّاخِر ومن مَكْنُونه يُسْتخْرَج أَنْفَرُ الثَّمين ، فبَادَر الخَاطِب إليه إلى ٱغتنام هذا الشَّرَف الذى لا يُطاوَل، وعاجَلَ هذه النِّعْمة التى لَولا فَضْلُ الله وصَدَقاتُ سُلْطانه ـ خلَّد الله مُلْكَه ـ ما كانتْ مما تُحَاوَل ؛ وقال : إن رَضِيَتْ تلكَ السُّتور بهٰذه المَخْطوبَة ، أو أَهَلَّتْ تلك السماءُ العَلْياءُ هٰذه المَحْجُوبه ، فهى لما أُهِلَّتْ له فى خِدْمة ذلك المَقام الأَمِين، وهى كما شاء مالِكُها المُتَصدِّق من ذوات العِفَّة وإلا فهى مما مَلَكت اليمين؛ فأَتمَّتِ الصدقةُ الشريفةُ عَوارِفَها بما هو أشرفُ مَقاما، وأعظم لها فى رتبة الفَخَار فهى تَسْمُو بهذا ولا تُسامىٰ ؛ وشَرَّفته بما وَصَلَتْ إليه عند المَقرِّ الشريف من المَقَامِ الكريم ، ولم تكُنْ إلا من ذَوَاتِ العُقُودِ ولا كَيْد ولا كرامة لما يَنْجلى به اللَّيْلُ البَهِيم ، ولا لما يَتحلَّى فى جِيدِ الجَوْزاءِ من عِقْدِ دُرِّها النَّظِيم ؛ ولولا إجْلالُ المقامِ عن التطويل لما ٱختصر القائلُ فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أصدق ... ...

الطـــرف الثـانى

(فى صَدُقاتِ الرُّؤَساء والأعيانِ وأوْلادِهم)

وهى علىٰ نَحْوٍ من الصَّدُقات المُلُوكِيَّة فى التَّرْتِيب، إلا أنها أَخْصَر، ومن الألقاب بِحَسَبِ أحوال أصحابها من أرْبابِ السيوف والأَقْلام .

وهذه نسخةُ صَدَاق جمال الدِّين عبد الله [بن سيف الدين أبى سعيد أمير حاجب] (١) على بنت بيدمر العمرىّ، من إنشاء المَقَرّ الشِّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله مُبَلِّغ كلِّ آمِلٍ ما يَرجُوه، وراَعِى ذِمَم من لم يَنْسوا عَهْده ولم يُخْلِفُوه، ومُكَمِّل الخَيْر لكل ذى (١) يصدّ من يَجْفُوه، ومُجيبِ كُلِّ مُنِيبٍ يَدْعوه قائِمًا وقاعدا : ﴿وَلَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ .

نحمدُه حمدًا نُكَرِّر فَضْـله ونَتْلوه، ونُحُلُّ مُعْضَلَه ونَجْلُوه؛ ونشهدُ أن لاإلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهـادةً يتظافَرُ عليها الآمِرُ المُسْـلم وبَنُوه، وتَبْيَضُّ بهـا وُجُوه الأوِدَّاء، وتَسْوَدُّ وجوهُ الأعداء، يوم تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وتَسْوَدُّ وُجُوه؛ ونشهدُ أن سَيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى سَـعِد بِه ذَوُوه، وصَـعِد قَدْر صِهْره وحَمُوه، وشَرَّفَ نَسَـبًا ما ٱلتقىٰ فيه علىٰ سِفَاحٍ هو ولا أَوَّلُوه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صـلاةً لا يزال بها الرَّوْض الأَرِجُ يَفُوه، والسَّحَر يُبَلِّغُها ولو سَكَتَ وخُتِم بالبَرْقِ فُوه؛ وسلَّم تسليماً .

وبعـدُ، فإن أَزْهىٰ زَهْرٍ طاب مُجْتَنوه، وطالَ باعًا فى الفَخَار مُجْتَبُوه؛ زَهْرُ كِمَامَةٍ جَرَت عنها لأُمَّةُ كَمِىّ، وأبرزتْها سُـنَّة الإسلامِ من حِجَابِ ذى أَنْفٍ حَمِىّ؛ وطَلَعتْ من أُفُقٍ بَدْرِىّ طالَمَـا سَنَح مُجْتلُوه، وحِمىٰ سَيْفٍ أَمِنَ فى كَلَئِه بكِلَاءَتِه مُخْتَلُوه .

(١) بياض بالأصول والتصحيح من الصفحة التالية .

وكان الجنابُ الجَمَالىُّ عبدُ الله بنُ المرحومِ سيفِ الدِّين أبى سعيدٍ أمير حاجب، أدام الله تعالى عُلاه، ورَحِم أباه؛ هو ولَدَ ذلك الوالد، وطَارِفَ ذلك التالد؛ ونَشْوَ هٰذِه الدولة الشريفــة الكامِلية التى أَخَذ منها حَظَّه بالتمــام والكمال، وأصبحتْ به كالغَادَةِ الحَسْــناءِ ذاتِ الحُسْنِ والجَمَال؛ ولم يَمُتْ أبُوه فى أيَّام سلطانهـا ــ خلَّد الله مُلْكه ــ حتَّى قَرَّتْ به عَيْنُه، وسَاوَاه فى الإمْرَةِ لولا تَفَاوُت العدَّة وقِدَمُ المُدَّة بَيْنَه وبَيْنه؛ وجاء منه وَلَدٌ نَجِيب، وٱبنٌ شاعَ وذَاعَ سِرُّأبيه وحُمِد وهٰذا عَجِيب !!!.

ولمـا ٱنْتَقَلَ والِدُه رحمه الله تعالىٰ إلىٰ رحمة رَبِّه، وشَرِب بالكَأْس الذى لا بُدَّ لكلِّ حَىٍّ من شُرْبه ــ تطَلَّب مِثْــلَ ذلك الأَبِ ولم يَزَلْ يَجِدُّ حتَّىٰ وَجَد، وظَفِر بوالِدٍ إن لم يكن وَلَدَه حقيقةً فإنه عنده مِثْلُ الوَلَد؛ وهو المَقرّ بيدمر، وهو الوَالِد الذى لم يَفْقِد معه من وَالِده ذَرَّه، والأبُ الذى هو أَرْأَفُ من كلِّ أُمٍّ بَرَّه؛ والنَّيِّرُ البَــدْرِىّ الذى سَعِد قِرانا، وصَعِد ودَاسَ بقَدَمِه أَقْرانا، وقَسَّم دَهْره شَطْرَيْنِ: نَهارَه للضُّيوف قِرًى ولَيْلَه لله قُرآنا .

هذا إلىٰ أنه طَالَمَـا طَيَّب لزكاة أَمْوالِه وثَمَّرها، وزَيَّن فى أعماله بمَدْرسةٍ عَمَّرها، وقَيَّد شَوَارِدَ حسناته وثَقَّفها؛ مع أنه شَيَّد الممَـالكَ وسَدَّدَ أمُورها، وسَدَّ ثُغُورها؛ وحَمَىٰ ببِيضِ سُــيوفه السَّوادَ الأَعْظَم، ورَمَىٰ بصوائبِ سِهامِه النَّوائِبَ ولم تُسْتعظَم؛ ولم تَزَل نُوَبُ الأيام تُجَرِّب منه مِسْوَرِيًّا، وتُجَرِّدُ حُرًّا كريمًـا جاء فى أوَّلِ السَّنَة صَقْرا بَدْرِيًّا؛ فكان من تمـام بِرِّه بمن سَلَف إجابةُ ولَدِه، وإجَالةُ الرَّأْى فيما يكون سببا لصيانةِ عَزْمَتِه وذَاتِ يَدِه؛ فأنعم له بعَقِيلَتِه المَنَّعَه، ورَبيبَتِه التى غَدَت الشمس منها سَافِرةً مُقَنَّعه؛ وقال : على الخَيْر والخِيرَه، وٱبنُ أخٍ كريم وجَدَعَ الحَلالُ أَنْفَ الغَيْره؛ وما أَسْنَىٰ عَقْدا يكون مُتَوَلِّيه، ومُنْشِئَه إحساناً منه ومُسْنِيه؛ مَوْلًى به نُظِمَتْ عقودُ اللَّآلى، ورُقِمَت بعلَمِه أعلامُ الأَيَّام وذَوائِبُ اللَّيالِى؛ وسُلِّمت القضايا به إلىٰ مُنَفِّذ

أحكامها، ومُنيـل الفَضْل لِحُكّامِها؛ البَحْرِ الزَّاخر، والنَّجْمِ الذى كَمْ تركَ الأوّلُ منه للآخر؛ والغَمامِ إلا أنه قَضَتْ صَواعِقُه على الخُصُوم، والإمامِ الذى أجمعتْ عليـه السُّنَّة ولم تُنْكِرِ الشِّيعَةُ أنه الإمامُ المَعْصُوم؛ والعالِمِ الذى ما برحَتْ بُرُوقُه تُشام، وحُقُوقه علىٰ أهْـلِ مِصْر والشَّام؛ والذى وَلَّى الظُّلْمُ مُنْذُ وَلِى، وآعترف ذَوُو الفَضْل والفَصْل فى القَضَاء أَنَّ أتقاهم تَقِىُّ الدِّين وأقضاهم :

قَاضِى القُضَاةِ أبو الحَسَن * بِبَقَائِه يُجْلَى الحَزَن،
و[هو](١) الذى فى حُكمه * يَجْرِى علىٰ أَقْوَىٰ [سَنَن](١)!
طَـوْدٌ إذا وَازَنْتَـهُ * بالطَّوْدِ فى حُكْمٍ وَزَن!
والبَحْـرُ طَىُّ رِدَائِه * قَلَدَ(٢) العُقُودَ بلا ثَمَن!

فأضاء المَحْفِل به وبالحاضرين، وقام شِعار الدين حتّىٰ قال القائلُ : هذه سُيُوف المجاهدينَ وهٰذا سـيف المُناظِرين؛ وقيل: هـذا وَقْتُ جُودٍ قد حضر، ومَوْضِعُ سُرُورٍ ينْبَغِى أن يُعجَّلَ منه ما يُنْتَظر؛ فَٱبْتَدَأَ السَعْد محياه الوَسِيم، وٱفْتتح فقـال :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ... ...

وهٰـذه نسخةُ صَدَاق ناصِر الدِّين مُحمد بن الخطيرى، من إنشاء المَقَرّ الشِّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمـدُ لله الذى زاد الأُصُولَ الطَّيِّبةَ قُرْبا، وزانَ الأنسابَ الطَّاهِرةَ بِصِلَةٍ تتأكَّد حُبّا، وصانَ كَرَائمَ البُيُوت القَدِيمةِ الفَخَارِ بمَن يُناضِلُ عن حَسَبِه ذَبّا، ويُناظِرُ العَلْياءَ فلم يَبْنِ إلا بين مَنَازِل النُّجوم بيُوتًا ولم يُسْبِلْ سِوىٰ السُّمْرِ سُمْرِ القَنا حُجُبا .

(١) بياض بالأصول، والتصحيح من المقام .
(٢) بمعنى جمع .

نحمَـدُه حَمْدَ من دعاه قبْـل بثّ النَّسَم فَلَبّىٰ ، وآستدعاه لأَخْذِ العَهْد عليـه أَمَام تَفْرِيق القِسَم فمـا تأَبَّىٰ ، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَسْتنطِقُ أَلْسِنةً وتشكرِ قلْبا ، وتَسْتغدِقُ أنواعَ السُّرورِ فتُضِيءُ البَشائرَ بُروقًا وتُمْطِر الرَّحمـةَ سُحبا ؛ ونشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى قام فى تَكْثِيرِ الأمَّة حتى زاد عَدَدُها علىٰ مَوَاقِع القَطْرِ وأَرْبىٰ ، وقال مما أَمَرَ به : ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه وعلىٰ أقْرِبائه صلاةً تَضُمُّ آلًا وصَحْبا ، ماسَارَت الشُّهُب تَقْطع الآفاقَ شَرْقًا وغَرْبا ؛ وسلَّم تسليمًا .

وبعــدُ ، فإنَّ أولىٰ ما آشْتَبَك وَشِيجُه ، وآشْتَبه فى مَنَابِت الأَيْك بَهِيجُه ، وآنْتَبَه فى أَرَائِك الخَمَائِل أَرِيجُه ، وآنتُدِبَ لإتيانه الأُفُق وظَهَر عليه من ذَهَبِ العِشَاءِ تَمْوِيهُه ومن لَمْعِ الصَّباح تَدْبِيجُه ــ ما آتُّبِعَتْ فيه الشريعةُ المطَهَّرةُ حيثُ لا تختلِفُ الأَئمَّه ، والسُّــنةُ النبويَّةُ علىٰ من سَنَّها أفضلُ الصلاة والســلام فيما تَأْتَلِفُ به البُعَداء وتَكْثُر لمباهَاتِه الأمَمَ يوْمَ القيامة هٰذه الأُمَّه ، وتَدْنُو به الأجانب بَعْضهم من بَعْضٍ ويَجْعَـلُ بينهم مَوَدَّةً ورَحْمَــه ، وتُعَدّ به أيادٍ جَمَّةٌ لا تُحْصَر ويُخَـلَّد به فى العاقبة شَرَفُ الذِّكْر ويُتعجَّلُ به شَرَفُ النِّعْمَه ؛ وهو النِّكاحُ الذى تَشْتَدّ به الأَوَاصِر ، وتَعْتَدُّ به المَوَارِد لتمثِيل أَكْثَرِ الصُّوَر من أَزْكَى العَنَاصِر ، وتمتدّ به هِمَمُ الأَبْطال لمـا يَسْتخْرِجه بحَفَدَةِ أبنـائه من أَتَمِّ قُوَّةٍ وناصِر . وأَكْمَلُه ما تمـاثَلَتْ فى أشرف البيوت العَرِيقـة وُجُوهُ نِخَارِه ، وتقابَلَتْ فى مَطَالِع السُّعودِ ــ حيثُ البَـدْرُ المنيرُ والشَّرَفُ الخطيرُ ــ مَشارِقُ شُمُوسِه ومَطَالِعُ أَقْمَـارِه .

وكان الأَبَوَانِ فى أَهْلِ الفَخَار من جُرْثُومةٍ بَسَـقا ، وأَرُومَةٍ تَفَرَّقَتْ فُرُوعُها ثم تلاقىٰ منها غُصْنان وآعْتَنَقا ، من بَيْتٍ ما حُجُبُه إلا مَواضِى الصِّـفاح ، ولا شُهُبُه

إلا طَلائعُ الأَسِنَّة فى رُؤُوس الرِّماح، ولا سُحُبه إلا ما يَفِيضُ علىٰ جَنَباتِه من النُّفوس او يَفيضُ من السَّماح، ولا سُجُفُه إلا المَنَاقِبُ لولا أن الثُّرَيَّا جاذبَتْ ما يعرِضُ فى السماء أَثْنَاءَ الوِشَاح ؛ وكان هو الرَّاغبَ إلىٰ عَمِّه، الخَاطبَ إليـه ما لم يكن يُخْبَأُ إلا لقِسْمِه، الطَّامحَ بنَظَرِه إلىٰ عَقيلة الفَخَار فى غُرَفِها، الطَّامعَ بخِطْبَة الشَّمْسِ شَمْسِ النَّهار إلا أنها فى بَيْتِ شَرَفِها؛ المُتَوَقِّعَ من كَرَم عَمِّه الإجابةَ التى لحَظَها بأَمَلِه، وتَوْلِية يدٍ كَرِيمةٍ لا يَعْتدِلُ الزمانُ إلا إذا حُلِّيتْ شَمْسُها فى بَيْتِ حَمَلِه ؛ تَوقُّعًا لنَسْلٍ لا يزال به شَرَفُ هذا البَيْت الكَرِيم مَوْجودا، ونَسَبٍ إذا عَدَّ وَلَدٌ منه الآباءَ عَدَّ جَدَّيْنِ سَعِيدَيْنِ هٰـذا مَسْعُودا وهٰذا مَحْمُودا ؛ فتَلَقَّىٰ قصـدَه بإكرامٍ بَوَّأَه أَكْنَافَ الشَّرَف ، وأَوطَأَه فُرُشَ الكَرَامَةِ ممتَّعًا بنَعِيم التَّرَف ، ٱبتـداءً للكَرَم المألوف ، وٱتِّباعا للسُّـنَّة الشَّرِيفة إذ كان الأَقْرَبون أَوْلىٰ بالمعروف .

فتَبارَيا جُودًا سارعَ كلٌّ منهما فى أَدَاءِ حَقِّه إلى الواجب، وتَجَارَيا إليـه ليَلْحقا شَأْوَ أَبَوَيْهما وكلٌّ منهما يعـلم أنه العَيْن والعَيْن لا تَرْتفِعُ على الحَاجب؛ وأَتَمَّ الجنابُ الشَّرَفىُّ محمودٌ ـ أدام الله نِعْمته بحُسْنِ إجابته، ويُمْنِ رَغْبَتِه فى أَهْلِ عُصْبَته ، وأَهْلَ جُنُودَه إلىٰ أن سَارُوا إلى الهَيْجاءِ تَحْت عِصَابَتِه ـ بأن فَوَّضَ هـذا الأمر إلىٰ أَخيه الكبيرِ وَالدِ الخاطِب، وسَكَت وقال : هو فى التَّصرف وعَنِّى المخاطب؛ وله الأَمْرُ ولولا الشَّرفُ بنِسْبةِ الأُخُوَّة إليه لمـا قُلْنا : إلا أَنَّا مِلْكُ يَدِه ، وإذا كان العَمُّ صِنْوَ الأَب فأَىُّ فَرْقٍ بين وَلَدِى وولَدِه؟ ، ولَئِن ٱخْتَصَّ فى نِسْبةِ هذه الزَّوْجة فى يَوْمِه هذا فإنَّ أولادها لا تُعْرف إلَّا به فى غَدِه ؛ فكَمُل هـذا العَقْد، وأَشْرق به السَّعْد الطالِـعُ أَضْوأَ مِمَّـا قَدَّم وأَخَّرمن النَّقْد ؛ وكان من تَمَـام التَّكْرِيم، أَنْ قال قَائِلُه :

بسم الله الرحمٰن الرحيـم ... ...

وهذه نسخةُ صداق القاضى تقِيِّ الدِّين، وهى :

الحمدُ لله الذى رَفَع إلى المَنازِل العلِيَّة من كان تَقِيًا ، وجَمع شَمْلَ من لم يبرحْ لسَنَنِ السُّنَن تابِعًا وبها حَفِيًا، وخلَع أثوابَ الثَّوابِ علىٰ من سَرَّح طَرَفَ طَرْفِه فى رَوْض التَّأهُّل وجعله وَضِيًا .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمِه التى من هَزَّ جِذْع نَخْلِها تساقَط عليه رُطَبًا جَنِيًّا ، ونَشْـكره علىٰ فَضْله الذى كَمْ أجرىٰ لقَاصِـدِه من بَحْرِه المعروف سَرِيًا ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تمنحُ قائِلَها فى غُرَفِ الجَنَّة مكانًا عليًا، ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى آتاه اللهُ الكتابَ وجعله نَبِيًا، الآمِرَ أمتَّه بالنِّكاح ليُكاثِرَ بهم الأُمَمَ يومَ يُقَرِّبُه اللهُ نَجِيًا ، صلّى الله عليه وعلىٰ آلِه وأصحابِه الذين كان يحُلّ منهم فى حَالَتِي الكَرَم والكَرامات وَلِيًـا ، ما أَطْلَعَ التوفيقُ فى آفاق الاتِّصالِ من الأنْساب الكَرِيمـة كَوْكَبًا دُرِّيًا ، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ، فإن أَوْلىٰ السُّنَنِ بالاتباع سُنَّةُ النِّكاح، التى أَخْفىٰ نُورُ مِصْباحِها شَمْسَ الصَّباح، وخَفَقتْ علىٰ مَعالِمها أعْلامُ النَّجاةِ والنَّجاح، وحُمِدَ المَسِيرُ إلىٰ رُبُوعها الآهِلة بأَهِلَّة العِصْمة فى الغُدُوِّ والرَّواح ؛ يالها سُنة سُنَّةُ وجْهِها جَمِيلة ، وأصابِـعُ نِيلِ نَيْلِها بل أيادِيه جَزِيلة ؛ بها تحْيىٰ أشْجار النَّسَب ويَطِيب جَناها؛ وتبلغُ النفوسُ من الصِّيانة أقْصىٰ مُناها ؛ ويَظْفر أُولُو الرَّغْبة فيما أَحَلَّ الله بمَطْلُوبهم ، وتُؤَلِّف بين من لَوْ أَنْفَقتَ ما فى الأَرْض جميعًا ما أَلَّفْتَ بين قُلُوبِهم؛ وهى الوَسِيلة التى تُكَثِّر سَوَادَ هٰذه الأمَّة، والذَّرِيعــةُ إلىٰ [بَقَاء] النَّوْعِ الذى أظهرَ اللهُ فى سَمـاء التَّكْرِيم نَجْمَه ؛ وإليها الإشارةُ فى قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مودَّةً ورحْمه ﴾ .

ولما كان كذلك رَغب فى ٱقْتِناء آثَارها، وٱهْتَدىٰ بالضَّوْءِ اللَّامع من أقْمارها؛ مَن يتشرفُ المَكَانُ بذِكْرِ وَصْفه، ويتَعطر ما ٱنْتَشر فى طِيبــهِ من طِيبِ عَرْفِه؛ ماجدٌ عَمَر البــلادَ السَّاحِليَّةَ بدوام دِيَــه، وجَوَادٌ ما جاوره البَحْر إلا لِيَقْتبِسَ من كَرَمه؛ ورئيسٌ ٱمْتطىٰ ذِرْوة العَلْياء بحُسْنِ السُّلوك، وأَرْيَحِيٌّ لو لم يكن صَدْرًا لما أُودِعَ سِرَّ الملوك؛ إن تكلَّم أبْرَزَ لك الجَوْهر المَصُون، وإن كَتَب ضَحِكَتْ لبُكاء قَلَمــه ثُغُور الثُّغور والحُصُون؛ لِلّٰهِ نَسَــبه المشهورُ بين الأَكابر الأَعْيــان، وبَيْتُه المعمورُ بالعِينِ المَرْفُوعِ خَبَرُها إلىٰ فِتْيان؛ نَخَطب من عَلَا قَدْرُها، وٱشْتَهر بالحُسْنِ الجَميلِ ذِكْرُها؛ وجَلَّتْ عن أن تَرَى العُيونُ لهــا فى الصَّوْنِ شَبِيها، وعَمّت البِقَاعَ سُحُبُ بَرَكَةِ أبيها؛ أَكْرِمْ به عالِمًــا عامِلا، وإمامًا لم يزلْ يُبْدِى فَضْــلا ويُسْدِى نائلا؛ كَمْ له من آثارٍ مَشْهُوره، ومَناقِبَ مَأْثوره، وصَدَقاتٍ مَبْروره، ومَوَاطِنَ بذِكْرِ الله مَعْمُوره.

فقُوبِل بالبِشْر قَوْلُ رَسُوله، ورُدَّ رائِدُه مُخْبِرًا ببلُوغِ سُولِه؛ وقيل له بلِسَانِ الحَال:

هــذا ما كانت تَنْتَظِرُ الآمال؛ يالَه عَقْــدا غَلَتْ جَواهِرُ عُقُوده، وأنارتْ فى آفَاقِ الاتِّفاقِ أَنْجُم سُــعُوده؛ وتَمَــايَلتْ قُدُود أَغْصانِ الأَفْراح، وزَهَتْ مجالِسُ السُّرور بالانْشِراح؛ وهَبَّتْ قَبُول الإقبال، وقام القَلَم خَطِيبًا على مِنْبر الطِّرْس فقال:

هذا ما أصدق... ... .

* * *

وهذه نسخةُ صداقٍ من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِىّ، للقاضى بَدْرِ الدين خَطِيب بَيْتِ الآثار، علىٰ بِنْتِ شمسِ الدِّين الخَطِيب من بَيْتِ الآثار، تُسَمَّىٰ سُولى، فى مُسْتَهل جُمادَى الآخرة ســنة ثلاث وخمسين وسَبْعمائة، فى مَجْلس مولانا قاضى القضاة تَقِيِّ الدين السُّبْكىّ الشافعىّ، أدام الله أيَّامَه، وهى:

الحمدُ لله الذى زيَّن سماءَ المعَالى ببَدْرِها، وأَنْبتَ فى رِياضِ السَّعادةِ يانِعَ زَهْرِها، وأَلْهَم ذَوِى الهِمَم أن يبْذُلوا فى الكَرائِم غوَالِىَ مَهْرِها .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى حَلَّتْ ما صَفا من لِبَاسِها ، وسَوَّغَتْ ما صَفَا من رُضَابِ كَاسِها، وخَصَّنا بمَا عَمَّت به من أنواع أجْناسِها ؛ وأشهدُ أن لاإلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، أَعْلَمنَا فِى الإيمَانِ نَصَّها بالأداء، وبَنَى ٱسْمَها على الفَتْح كما فُتِح المضافُ فى النِّداء، ورفَع خَبرَها : إمَّا علىٰ رَأْيِ الرُّواة للشُّهرةِ وإما عَلىٰ رأى النُّحاةِ بالابْتِداء ؛ ونشهدُ أن سيدَنا محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى شَرَع النِّكاح لهذه الأُمَّه، ومَنَع السِّفاحَ فلم يكن أمْرُنا علينا غُمَّه، ونَهَج الصَّوابَ فمَا ظَنُّك بالصَّباح إذا ٱبتلج عَقيبَ اللَّيلةِ المُدْلَهِمَّه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين تَلَقَّوْا أوامِرَه بالطاعه، وٱجْتنَبوا نَواهِيَه حتَّىٰ بلغوا جُهْد الاسْتِطاعه، وفَهِمُوا مُرادَه بمُكاثَرَةِ الأُمَم فكان البِضَاعُ عندهم خَيْرَ بِضَاعَه ؛ صلاةً رِضْوانُها يُضِيء إضاءةَ الكواكب فى أَبْرَاجِها، وغُفْرانُها يُكاثِرُ البِحَارَ فى أَعْدادِ مَوْجِها ؛ ما ٱتَّصل سَبَبٌ بالنكاح، وٱنْفَصل نَسَبٌ بالسِّفاح ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يَوْم الدِّين .

وبعدُ، فإن النِّكاح من محَاسِنِ هذا الدين القَيِّم ، وفَضَائِل هذا الشَّرْع الذى لا زال شَرَفُه بَدْرًا بين مُشْرِقاتِ النُّجوم وهو مُخَيِّم ؛ به يُحْفَظ النَّسَبُ الشَّرُود، ويُرْعىٰ عَهْدُ القَرِينة الوَلُودِ الوَدُود .

وكان فلانٌ ممن أَشبه أباه، وأَبْيَنِ ما أَوْدعه من نَفَائِسِ العُلُوم وحَباه؛ تَصدَّر فى المجَالِس، ودَرَّس فى المَدَارِس، وأَوْرد ما عنده من النَّفائِس؛ كَيفَ لا ؟ وهو سِبْط شيخ الإسلام وإمَامِ المسلمين، وقاضِي قُضاة الشَّافِعِيَّة وأَوْحَدِ المجتهدين؛ وقد أراد الآنَ إحْصانَ فَرْجِه، وأن تَنْزِلَ الزُّهَرَةُ مع بَدْره فى بُرْجِه .

فلذلك رَغب إلى المَجْلس العالى (المسمى) وخَطَب الجهة المَصُونةَ المُحَجَّبة، النَّقيَّة، التَّقيةَ، العَفيفةَ، الخَاتونَ، غُصْنَ الإسلام، شَرف الخَواتين، جَمَالَ ذَواتِ السُّتور، قُرَّةَ عين الملوك والسلاطين، السَّيِّدةَ "سُولى" بنتَ فلان، صان الله حِجَابَها - فأَكْرَم مَوَارِدَ قَصْدِه، وحَبَاه أَنْفَس دُرَّةٍ فى عِقْده.

فلذلك قام خَطِيبُ هذا الحَفْلِ الكريم، والنَّجْمُ الذى لم يَزَلْ نَجْمُه بالطَّالِع المُسْتقيم، وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم ... ...

* * *

قلتُ : وهذه نسخةُ صداقِ زَيْنِ الدِّين صَدَقة السَّيْفِى أزدمر، علىٰ بنت أمير المؤمنين «المُتوكِّل على الله». أنشأتُه له فى خِلافةِ أخِيها المستعينِ بالله العَبَّاسى، وهى :

الحمدُ لله مُسْتخرِجِ الدَّوْحَةِ الهاشِميَّةِ من أَطْيَبِ العَنَاصر، ومُفَرِّعِ النَّبْعَةِ العَبَّاسيَّة من أكْرَمِ صِنْوٍ انْعَقدتْ علىٰ فَضْلِه الخَنَاصر، ومُخَصِّصِ بيْتِ الخلافة منها بأعَزِّ جانِبٍ ذَلَّتْ لعِزِّه عُظَماءُ الملوكِ ما بين مُتَقَدِّم ومُعاصِر.

نحمدُه علىٰ أن صَانَ عقائِلَ الخُلَفاء بمَعاقِلِ الحَسَب، وحَصَر كَفَاءَتَها فى العِلْمِ والدِّين حيثُ لم يُكافَأ بحِرْفَةٍ ولا نَسَب؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له الذى سَنَّ النِّكاحَ وشَرَعه، وأرْغَمَ بالحِلِّ أَنْفَ الغَيْرة لَدَى الإبَاءِ وقَمَعه؛ شهادةً يُسْتَنْشَقُ من رَيَّا عَبِيرِها كُلُّ شَذَى أَرِيج، وتُجْتَنَىٰ ثِمارُ يَنْعِها بشريف النِّتاج من كلِّ زَوْجٍ بَهِيج؛ ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفضلُ نَبِيٍّ وُفِّرَ فى الفَضْل سَهْمُه حتى لم يُسَاهَم، وأكْرَمُ رسولٍ رَخَّص فى تَزْويج بَنَاتِه من صِحَابه وإلا فأَيْنَ كُفْءُ رسول الله من العَالَم؟؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين شَرَّفهم بقُرْبه، وقَرَن الصِّهْر

بالنَّسب فيهم نخصَّ مُصاهَرته أَخَصَّهُمْ به ؛ صلاةً تصل سَبَبَ قائلها بسَبَبه ، وتجعلُ الفَخَار بها كلمةً باقِيَةً فى عَقِبه؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ ما أطال فيه المطيلُ ، وشُحِذَ فى وَصْفه الذِّهْنُ الكَليل، ورُقِمَتْ مَحاسِنُ ذِكْرِه علىٰ صَفْحة النَّهار بذَائِبِ ذَهَبِ الأَصِيل ـ ما تَواصَلَتْ به الأنْساب ، وتُوُصِّل بواسطته فى دَرَارِيِّ الذَّرَارِى إلىٰ شَرَف الأَحْساب؛ وتَوفَّرتْ عليه الدَّواعِى فٱشتَدَّتْ به الأَوَاصِر، وحَسُنَتْ فى طريق قَصْدِه المَسَاعِى فتأَكَّدتْ به المَوَدَّةُ فى البَوَاطِن والظواهر . وهو النِّكاحُ الذى نَدَب الله تعالىٰ إلىٰ مُعاطَاته، وحَضَّ على التَّحلِّى بحَلْيِه حتى أَلْحقه بالعِبادة فى بَعْض حالاته؛ طَلَباً للتَّحْصِين الكافل بسُلُوك نَهْج الاستقامه، ورَغْبةً فى تكْثِير النَّسْلِ الواقع [به] مُكاثَرةُ الأُمَمِ يومَ القيامَه .

هـذا وكَرائمُ بَيْت الخلافَه ، ورَبائبُ مَحْتِد المَجْد والإِنَافَه ؛ فى حَيِّزٍ لو طَلَب مُناوٍ مُكافَأَتها لطَلَب مُعْوِزا ، أو رَامَ مُقاوِمٌ مُضاهَاتَها فى عُلُوِّ الرُّتبة لرَامَ مُعْجِزا ؛ لِما ٱختصَّتْ به من السِّيادة التى لا يُرْقَىٰ إلىٰ مَنْزِلتها، والمَعَالِى التى لا تَسْمو النُّفُوسُ وإن شَمَخَتْ إلىٰ رُتْبَتها ؛ إذ كان النَّظِيرُ لشَرَف أُرُومَتِها مُمْتَنِعا، والنَّقِيضُ بما ثَبَتَ من طِيبِ جُرْثُومَتِها مُرْتَفِعا؛ فبَرْقُ مَعالِيها فى التَّطاوُلِ لا يُشَام ، وجَوْهَرُ فَخَارها فى المآثِرِ لا يُسَامىٰ ولا يُسَام؛ فعَزَّ بذلك فى الوُجُود مُكافِيها، وٱمْتَنَع ـ خَوْفَ الهُجُوم بالاَخْتطابِ ـ مُوافِيها ؛ إلا أن المَوَاقِفَ الشريفةَ المقدَّسةَ المُتَوكِّلِيَّةَ ـ زاد الله تعالىٰ فى شَرَفها، وأدام رِعايَتَها بحُلَّة الملوك وحِمايَتِها وكَنَفِها ـ مع ما ٱنفردتْ به من العِزِّ الشَّامِخ الذى لا يُساوَىٰ، والشَّرف البَاذِخ الذى لا يُنَاوىٰ؛ قد رَغِب تَفَضُّلُها فى أَهْلِ الفَضْل فمال إليهم، وٱخْتَصَّ بإقباله أَهْلَ الدِّين فأقبل بكُلِّيته عليهم ؛ مُحِلًّا لهم من شريف مقامه العَلِيِّ مَحَلَّ الاصطفاء ، ومُقَدِّمًا لهم فى المُصاهَرَة علىٰ أبناء المُلُوك والخُلَفاء ؛ فوافَق

فى الفَضْـل شَنَّ طَبَقَه، وحَاوَل سارّةَ النِّعم منهـا خَيرُ خَاطِبٍ فتلقَّىٰ بقَبُولٍ : إنَّ الله تَصَدَّق عليكم بصَدَقَه؛ فعند ذلك ٱبْتَدَر القَلَمَ مِنْبَرَ الطِّرْس فخَطَب، وخَطَب بالمَحَامِد لِسانُه اللَّسِنُ فكَتَب :

هذا ما أَصْدق العَبْد الفقيرُ إلى الله تعالىٰ، الجَنابُ العَالى، الأَميرىُّ، الكَبِيرىُّ، الشَّيْخىُّ، الإمامىُّ، العالِمىُّ، العامِلىُّ، العَابِدىُّ، الخاشِـعِىُّ، النَّاسِكىُّ، البَلِيغىُّ، المُفَوَّهِىُّ، الصَّـدْرىُّ، الرَّئيسىُّ، الأَصِيلىُّ، العَرِيقىُّ، الزَّيْنىُّ، أبو المعالى صَدَقَةُ ـ الجِهَةَ الشَّرِيفةَ العاليةَ، الكُبْرىٰ، المعظمةَ، المحَجَّبةَ، المَصُونةَ، سَليلةَ الخِلافَةِ، فَرْعَ الشجرةِ الزَّكِيَّة، جليلةَ المَصُونات، جَمِيلةَ المُحَجَّباتِ، سَارَّةَ، البِكْرَ البَالِـغَ، ٱبنةَ سَيِّدنا ومولانا المَقَامِ الأشرفِ، المقدّسِ، العَالِى، المَوْلَوِىِّ، السَّيِّدىِّ، الإمامىِّ، النَّبَوىِّ، المُتَوكِّلِ على الله "أبى عبدالله محمد" أميرِ المؤمنين، ٱبنِ المقامِ الأشرفِ العالى، المَوْلوىِّ، الإمامىِّ، المُعْتَضِدِ بالله "أبى الفَتْح أبى بَكْر" بن الإمام المُسْتَكفِى بالله "أبى الرَّبيع سُلَيمان" ٱبنِ الإمامِ الحاكِم بأمر الله "أبى العباسِ أحمد" لازال شَرَفُه باذِخا، وعِرْنِينُه الشَّرِيفُ شَامِخا، وذِكْرُ مَناقِبه العَلِيَّة لكلِّ مَنْقَبَةٍ نَاسِخا ـ صَـدَاقًا جُمْلته كذا وكذا، زَوَّجَها منه بذلك فلانٌ، وقَبِلَه فلانٌ؛ وتَمَّ علىٰ بَرَكَةِ الله تعالىٰ وحُسْنِ تَوْفِيقه، كاملةً شُروطه ولَوَازِمُه، مُباركةً عُوَدُه وتَمَـائِمُهُ، مَيْمونةً فَواتِحُه وخَوَاتِمُه؛ مُفْتَتَحةً بِطِيبِ العَيْش أزَاهِرُه مُفْتَرَّةً عن [نَورِه] إن شاء الله تعالىٰ كَمَائِمُه .

الفصل الخامس

من الباب الأوّل من المقالة العاشرة

(فيما يُكتب عن العُلَماء وأهلِ الأَدَب مما جَرَت العادة بمراعاة النَّثْر المسجوع فيه، ومُحاوَلَة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان)

الطرف الأوّل

(فيما يُكْتب عن العلماء وأَهْلِ الأدب، ثم هو علىٰ صنفين)

الصنف الأوّل

(الإجازاتُ بالفُتْيا والتَّدْريس والرِّواية وعِرَاضَاتِ الكُتُب ونحوها)

أما الإجازة بالفُتْيا، فقد جرتِ العادةُ أنه إذا تَأَهَّل بعضُ أَهْلِ العِلْم للفُتْيا والتَّدْريس أن يَأْذَنَ له شَيْخُه فى أن يُفْتِيَ ويُدَرِّس، ويَكْتُبَ له بذلك . وجَرَتِ العادةُ أن يكونَ ما يُكْتبُ فى الغالب فى قَطْع عريضٍ ، إما فى فَرْخَة الشَّامىِّ أو نَحْوِها من البَلَدِىّ ، وتكونُ الكتابةُ بقَلَمِ الرِّقاع أَسْطُرًا متوالية، بين كلِّ سطرين نحوُ أُصْبُعٍ عريضٍ .

وهذه نسخةُ إجازَةٍ بالفُتْيا والتَّدْرِيس علىٰ مَذْهَبِ الإمام الشافعىّ رضى الله عنه وأرضاه ، كُتِبَتْ لِى حين أَجازَنِى شيخُنا العلَّامة سِراجُ الدِّينِ أبو حَفْصٍ عُمرُ بن أبى الحسن الشهير بآبن المُلَقِّن ، سَقَى الله تعالىٰ عَهْدَه ، عند قدومه ثَغْرَ الإسكندرية ، وأَنا مُقِيمٌ به فى شهور سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكَتَب لى بذلك القاضى تاجُ الدِّين بن غنوم مُوَقِّعُ الحُكْم العزيز بالإسكندرية فى دَرْجٍ وَرَقٍ شامِىٍّ فى قَطْعِ الشامىّ الكامِل، وسِنِّى يومئذٍ إحدىٰ وعِشْرون سنةً، فَضْلًا من الله ونِعْمَة .

ونُسْخَتُها بعد البَسْمَلةِ الشريفة :

الحمدُ لله الذى رفَعَ للعُلَماء مِقْداراً ، وأجْزَل نِعَمَه عليهم إذْ أعْلىٰ لهم مَناراً ، ووفّق بسَواءِ الطَّرِيق مَن ٱقتدىٰ بهم إيرَادًا وإصْـدَاراً ؛ أشْرعَتْ هِمَمُهم العَلِيَّـةُ فى حَلْبة السِّباقِ فهى لا تُجارىٰ ، وتحلَّوْا بالمَفاخرِ جَهْرًا وقد عَجَز غيرهم أن يَتَحلّىٰ بهـا إسْرَاراً ؛ أبْرز بهم فى هَالَاتِ المَفاخرِ أقْـماراً ، وأزالَ بضِياءِ عُلومِهم رَيْبَ الشَّكِّ حتّىٰ عاد لَيلُ الجَهَالةِ نهاراً ؛ جعَلهم لدِينِه أنصاراً، وصيَّرهم نُخْبةَ أصْفِيائه إذ أوْدعهم من المَعارِف أسْراراً، وٱختصَّهم بكَوْنِهم وَرَثَة أنبيائه : وناهِيكَ بها فَخَـاراً .

أحمَـدُه حَمْدَ من هُدِىَ إلى الحَقِّ فجعله شِعاراً ، وٱستضاء بنُورِ الهُـدَىٰ فلَجَأَ إلىٰ مولاه فى حالَتَىْ سِرِّه وجَهْرِه ٱفْتِقاراً ، وعَجَز عن شُكْرِ ما أسْدَىٰ إليه من النِّعَم لمَّـا تَوالَىَ عليه وَبْلُها مِدْراراً ؛ وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له تَصْـدِيقاً وإقراراً ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه أرسلَه والأصنامُ قد عُبِدَتْ جِهاراً ، والكُفَّار قد أعرضوا عن الحقِّ ٱسـتكباراً ؛ فقام بأمْرِ الله ٱنْتِصاراً ، وقَهَر مَن أعْرضَ عن الله ٱغْتِراراً ، وأخْمد بضِياءِ نُورِه البَاطِلَ وأهْدره إهْدَاراً ؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِه صـلاةً تَزِيدنا فى دِينِنا ٱسْتِبْصاراً ، وتَحُطُّ عنَّا من ثِقْـلِ الذُّنوب أوْزَاراً ، وتُبَوِّؤُنا إن شاء الله تعالىٰ فى دار الخُلود قَرَاراً .

أما بعدُ ، فقد وَضَحَ لذَوِى الأبْصار والبَصَائِر ، وٱتَّضَح عند ذَوِى الأسْرار والسَّرائِر ؛ وٱسْتَقَرَّ عنـد ذَوِى القُـلُوب السَّلِيمه ، والعُقُول الرَّاجحة المُسْتقيمه ؛ أنَّ منزلةَ عِلْم الشَّريعة عند الله تعالىٰ أعْلى المَنازِل ، وفَضْلَه أفْضلُ المَآثِر وآثَرُ الفَضائل ؛ وخُصوصًا معرفةُ تفاصيلِ أحْكامِ أفعالِ المُكلَّفِين بالشَّريعة المُحَمَّدِيَّه ، التى مَن عَلِمَها وعَمِلَ بها وعَلَّمها فقد سَعِد السَّعادةَ الأبَدِيه ؛ إذ هى الشريعةُ الجامعةُ لمصالح الدُّنيا والآخِره ،

النَّاسخةُ لما خَالفَها من الشَّرائع الغَابِره ، البَاقيةُ إلىٰ أن يَأْتِيَ وَعيدُ الله وكُلُّ شَريعةٍ سواها دَاثِرَه ؛ فقد أَعْظَم اللهُ تعالىٰ علىٰ مَن حَفِظها علىٰ عِبادِه المِنَّه ، إذْ جعله وِقايةً لهم من مَهَالك الجَهْل وجُنَّه ، ووَعَده أن يَنْزِل فى أعلىٰ مَنَازل الجَنَّه ، لما شَهِدتْ به نُصُوص الكِتَاب والسُّنَّه ؛ قال الله تعالىٰ لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . فنَبَّهه علىٰ أنَّ العِلْمَ أقوىٰ أسباب العِبَاده ، إذْ خَصَّه به وحَضَّه علىٰ أن يَطْلُب منه الزِّياده . وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ . فثَنَّى بِذِكْرِهم بعده ، لكَوْنِهم أفضلَ الخَلائِقِ عنده . وقال تبارك وتعالى آسمُه ، وتقدّس عِلْمُه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . فأوضح بذلك أنَّ أولياءَه من خَلْقِه العُلَماء ، إذ وصفهم وخَصَّهم بأنهم الخائِفُون منه الأَتْقِياء . وقال عليه السلام : "مَنْ يُرِدِ اللهُ بِه خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فى الدِّين" . وقال أيضا : "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ له طَرِيقًا إلى الجَنَّة" . وقال أيضا : "أَلَا إِنَّ الدُّنْيا مَلْعُونةٌ مَلْعُونٌ ما فيها إلا ذِكْرُ الله تعالىٰ وما وَالَاه ، وعَالِمٌ ومُتَعَلِّمٌ" .

ولما كان فلانٌ ــ أدام الله تعالىٰ تَسْدِيدَه وتَوْفِيقَه ، ويَسَّر إلى الخيرات طَرِيقَه ــ مِمَّن شَبَّ ونَشَأَ فى طَلَب العِلْم والفَضِيله ، وتَخَلَّق بالأخلاق المَرْضِيَّة الجميلةِ الجَلِيله ؛ وصَحِبَ السَّادةَ من المشايخ والفُقَهاء ، والقَادَة من الأكَابِر والفُضَلاء ؛ وآشْتَغل عليهم بالعِلْم الشريف آشتغالًا يُرضِى ، وإلىٰ نَيْل السعادة ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ يُفْضِى ــ آستخار اللهَ تعالىٰ سَيِّدُنا وشَيْخُنا وبَرَكَتُنا العَبدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ ، الشيخُ الإمام العَلَّامه ، الحَبْرُ الفَهَّامه ؛ فَرِيدُ دهرِه ، ونَسِيجُ وَحْدِه ، جمال العُلَماء ، أوْحَد الفُضَلاء ، عُمْدة الفُقَهاء والصُّلَحاء ؛ سراجُ الدِّين ، مُفْتِى الإسلام والمسلمين ؛ أبو حَفْص عمرُ آبنُ سيدنا العبْدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ ، الشيخِ الإمامِ العالمِ ، العامِلِ ، الأوْحدِ ، الكامل ، القُدْوة ، المرحومِ نُور الدين أبى الحسن عَلِىّ ، آبنِ سيدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ ،

الشيخِ الصالِحِ، الزاهِدِ، العابِدِ، الخَاشِعِ، الناسِكِ، القُدْوةِ، المَرْحومِ شِهابِ الدِّين، بَرَكةِ الصالحين، أبى العبَّاس أحمدَ، ٱبنِ سيدِنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ، الشيخِ الصالِحِ، القُدْوةِ، العارِفِ، المرحومِ، شَمسِ الدِّين، أبى عبد الله محمد الأنصارىِّ الشافعىِّ، أدام الله تعالىٰ النَّفْعَ به وبِبَرَكَتِه، وأشْرَكَنا والمسلمين فى صالح أَدْعيَتِه، بمحمدٍ وآله وصَحْبه وعِتْرَتِه.

وأَذِن وأجاز لفلان المسَمَّىٰ فيه، أدام الله تعالىٰ مَعاليه، أن يُدَرِّس مَذْهبَ الإمام المجتهِدِ المُطْلَقِ العالم الرَّبَّانىِّ، أبى عبد الله محمدِ بن إدريس المُطَّلِبىِّ، الشافعىِّ، رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجَنَّةَ مُتَقَلَّبَه ومَثْواه؛ وأن يقرأ ما شاء من الكُتُب المصنَّفةِ فيه، وأن يُفِيد ذلك لطَالِبِيه، حيثُ حَلَّ وأقام، كيف ما شاء متىٰ شاء وأين شاء، وأن يُفْتِيَ مَن قَصد ٱسْتِفتاءَه خَطًّا ولفظا، علىٰ مقتضى مَذْهَبه الشريف المشار إليه: لعِلْمِه بديانته وأمَانَتِه، ومَعْرِفته ودِرَايَتِه، وأَهْلِيَّتِه لذلك وكِفايَتِه.

فلْيَتَلَقَّ أيده الله تعالىٰ هذه الحُلَّةَ الشريفه، وليَترَقَّ بفَضْلِ الله تعالىٰ ذِرْوَةَ هذه المرتبةِ المُنِيفَه، وليعلَمْ قَدْرَ ما أنعم الله تعالىٰ عليه، وأَسْدَىٰ من الإحسان الوَافِرِ إليه؛ ولْيُراقِبْه مراقبةَ من يعلم ٱطِّلاعَه علىٰ خَائِنَةِ الأَعْيِنِ وما تُخْفِى الصدور، وليُعامِلْه معاملةَ مَن يَتَحقَّق أنه يعلم ما يُخْفِيه العبد وما يُبْدِيه فى الوُرُود والصُّدُور؛ ولا يَسْتَنْكِفْ أن يقول فيما لا يَعْلَم: لا أَعْلم: فذاك قَوْلٌ سعِدَ قائِلُه. وقد جاء: "جُنَّةُ العالِمِ لا أَدْرِى فإن أخْطَأَها أُصِيبَتْ مَقَاتِلُه" فالله تعالىٰ يرزقنا وإياه التَّوفيقَ والتحقيق، ويَسلكُ بنا وبه أَقْرَبَ طريق؛ ويهدينا إلىٰ سواء السبيل، فهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

وكُتِب فى تاريخ كذا.

وكتب شيخُنا الشيخُ سراج الدين المشارُ إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالىٰ ما صُورتُه:

ما نُسِبَ إلىَّ في هذه الإجازة المُبارَكَة من الإذْنِ لفلانٍ ـ أدام الله تعالىٰ النَّفْعَ به ، وأجزئ كلَّ خيرٍ بسَبَبِه ، بتَدْرِيس مَذْهب الإمام المُطَّلِبيِّ ، محمدِ بن إدريسَ الشافعيّ ، قَدَّسَ الله رُوحَه ، ونَوَّرَ ضَرِيحَه ، والإفتاءِ به لفظًا وخَطًّا ـ صحيحٌ . فإنه ممن فَاقَ أقْرانَ عَصْرِه بذَكَائه ، وبَرَع عليهم بالاستحضار وتَحْرِير المَنْقُول ووَفَائه .

وقد اعْتَنىٰ وَفَّقَه الله تعالى وإيَّايَ من جملة محفوظاته بـ "مُخْتَصَرِ الجوامع" لشيخنا العَلَّامة كمالِ الدِّين النشائيّ تغمده الله تعالى بغُفْرانه ، فاستحضر بحَضْرَتي مواضِعَ منه جَمَّـه ، وأزال ببديع فَصَاحَتِه جُمْلَةً مُدْلَهِمَّـه ؛ وأظهر من مُشْـكلاته ما يعْجِزُ عنه اللبيب ، ومن أغَارِيبِه ما يقف عنده البارع الأرِيبُ .

فليتَّقِ اللهَ حينئذٍ فيما يُبْدِيه ، ولْيَتَحَرَّ الصوابَ في لَفْظِه وخَطِّه ولْيراقِبِ اللهَ فيه ؛ فإنه مُوَقِّعٌ عن الله تعالىٰ فَلْيَحْذَرِ الزَّلل ، ومُحاوَلَةَ الخطإ والخَطَل ؛ ويَسْتَحْضِرْ ما اشتملت عليه من الجـلاله ، فإن الله تعـالىٰ تولَّاها بنَفْسِه حيثُ قال : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكَلَالَه﴾ .

وأجَزْتُ له مع ذلك أن يروِيَ عَنِّي مالِي من التآليف ، ومنها "جَامِعُ الجوامع" أعان اللهُ علىٰ إكماله ، وكذا شرح "صَحِيح الإمام أبي عبد الله محمـد بن إسمـاعيلَ البُخاريِّ" . ومنها "البَدْرُ المنير ، في تخريج الأحاديث والآثار الوَاقِعَـةِ في الشَّرْحِ الكبير" للامام أبي القاسم الرَّافعيّ . وبه تكمُلُ معرفة الفَقيه ويَصِير محدِّثًا فَقِيها .

وأجزتُ له مع ذلك ماجاز لِي وعَنِّي رِوَايَتُه بشَرْطِه عند أهله ، زاده الله وإيَّايَ من فَضْلِه . ومنها الكُتُب الستة : "البُخَارِي" و "مُسْلم" و "أبو دَاود" و "التِّرمِذِي" و "النَّسائي" و "ابن مَاجَه" . والمسانيد : "مُسْـند أحمد" و "مُسْند الشافعي" وغير ذلك .

وكان ذلك فى تاريخ كذا . وكَتَبَ عمرُ بن علىّ بنِ أحمدَ الأنصارىُّ الشّافعىّ ، غفر الله لهم : حامدا ومُصَلِّيا ومُسَلِّما ، وأشهدَ عليه جماعةً من أهل العلم بآخره .

قلتُ : وتكون ألقاب المُجازِ علىٰ قَدْر رُتْبته ، مثل أن يُكْتبَ له : «الفقيرُ إلى الله تعالىٰ ، الشيخُ ، الإمامُ ، العالِمُ ، العاملُ ، الأوْحَدُ ، الفاضـلُ ، المُفِيد ، البارِعُ ، عَلَمُ المفيدين ، رُحْلَةُ القاصدين ، فلانُ الدين ، أبو فلان فلانُ بن فلان» (بحسب رُتَبِ آبائه) . وإنمـا أهملتُ ذِكْرَ الألقابِ فى هذه الإجازة ، من حيثُ إنه لايليقُ بأحدٍ أن يذكرَ ألقابَ نَفْسِه فى مُصَنَّفٍ له ، لأنه يصير كأنّه أثنىٰ علىٰ نَفْسه .

وأمَّا الإجازة بعِرَاضةِ الكُتُب ، فقد جَرَتِ العادةُ أن بَعْضَ الطَّلَبة إذا حفظ كتابًا فى الفِقْه ، أو أصول الفِقْه ، أو النَّحْوِ ، أو غير ذلك من الفنون ، يَعْرِضُه على مشايخ العَصْر ، فيقطَعُ الشيخُ المعروضُ عليـه ذلك الكتاب ، ويَفتَحُ منه أبوابًا ومواضع ، يَسْتَقْرِئُه إيَّاها من أىِّ مكان اتّفق ، فإن مضىٰ فيها من غير تَوَقُّف ولا تَلَعْثُم ، استدلَّ بحِفْظه تلك المواضـع علىٰ حِفْظه لجميع الكتاب ، وكتبَ له بذلك كلُّ من عُرِضَ عليـه ، فى وَرَقٍ مربَّعٍ صغيرٍ ، يأتى كلٌّ منهم بقَدْر ما عنده من المَلَكةِ فى الإنشاء ، وما يناسبُ ذلك المقامَ من براعة الاستهلال ونَحْوِها : فمن عالٍ ، ومن هابِطٍ . وربَّمـا خَفَّف بعضهم فكتبَ : «وكذلك عَرَضَ علىَّ فلان» ، أو : «عُرِض علىّ وكتبه فلان» . إما رِياسَـةً وتأبيًا عن شُغْل فِكْرِه وكَدِّ نَفْسِه فيما يكتبه ، وإما عجزًا عن مُضاهَاة من يكتب معه .

وقد اخترتُ أن أضَعَ فى هذا المحلِّ ماوافق الصنعةَ ، وجرىٰ علىٰ أسلوب البلاغة .

فمن ذلك ما كتب به الشيخُ الإمامُ العلّامة ، لسانُ العرَب ، وحُجَّة الأَدب ، بَدْر الدين محمدُ بنُ أبى بكر المخزومىّ المـالكىّ ، للنَّجْلِ النبيل الذى تنتهى الألقاب ولانِهَايَة

لمناقبه، شهابِ الدِّين أبي العباسِ أحمدَ ابنِ سيدنا الفقيرِ إلى الله تعالى، ذى الأوْصافِ التى تَكِلُّ شَبَا الألْسُنِ عن حَدِّها، شمسِ الدِّين أبي عبد الله محمد العُمَرِيّ الشافعيّ، حين عرض عليه "عمدةَ الأحكام" للحافظ عبد الغَنِيّ، و"شُذُورَ الذَّهب" للشيخ جمال الدِّين بن هِشَام، فى رمضان سنة سبع عشرة وثمانمائة، وهو :

أما بعدَ حَمْدِ الله على كَرَمه الذى هو عُمْدتنا فى النَّجاة يوم العَرْض وناهيكَ بها عُمْدَه، وسَنَدُنا الذى لايزال لِسَانُ الذَّوْق يَرْوِى حَديثَ حلاوته عن صَفْوانَ بن عَسَّال من طريق شُهْدَه؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أحْيا برُوحِ سُنَّته الشريفة كلَّ من جاء ومن ذَهَب، وأعْرَبَتْ كلماتُه النَّفِيسةُ عن عُقُود الجوهر و"شُذُور الذَّهَب" وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أحسنوا الرواية والدِّرايه، وَبَنَوا الأمْرَ علىٰ أَساسِ التقوىٰ وأعربوا عن طُرُق الهِدَايه؛ ما انْهَلَّ من أُفُقِ الكَرَم المحمدىِّ كلُّ عارضٍ صَيِّب، وتَحَلَّتِ الأسماعُ والأفواهُ من أخباره بنفائس الشُّذُورِ البديعة وحَلاوَةِ الكَلِم الطَّيِّب ــ فقد عَرَضَ علىّ الجَنابُ العالى البارِعىُّ، الأوْحدىُّ، الألْمعىُّ، اللَّوْذَعِىُّ، الشِّهابِىُّ، شهابُ الدين، نُخْبةُ النُّجَبَاء، أوحدُ الألِبَّاء، نَجْلُ السَّادَةِ العظماء، سُلالةُ الأعيان العلماء، أبو العَبَّاس أحمدُ ابنُ سيدنا المَقَرِّ الكريم العالى، المولوىِّ، العالمىِّ، الفاضلىِّ، البليغىِّ، المُفِيدىّ، الفَريدىِّ، المُفَوَّهِىِّ، الشَّمْسِىِّ، العُمَرِىِّ، أطاب الله حَديثَه، وجمع له بالإعْراب عن عُلُوِّ الهِمَّة قَديمَ الفَضْل وحَديثَه ــ طائفةً متفرِّقةً من "عُمْدة الأحكام" للحافِظ عبد الغَنِيِّ المَقْدِسىّ، و"شُذُور الذَّهَب" للعلامة جمالِ الدِّين بن هِشَام رحمة الله عليهما ــ عَرْضًا قَصُرت دونَه القرائحُ علىٰ طُول جَهْدِها، وكانت الألفاظ المُورَدةُ فيه لأْمَةَ حَرْبِ الفئَة الباغية عليه فأحْسَنَ عند العَرْض فى سَرْدِها؛ وزَيَّن أبقاه الله تلك الأماكنَ بطَيِّب لَحْنه وإعراب لَفْظه، وآذَنَ امْتِحَانُه فيها بأنَّ جَواهر الكتابَيْنِ قد حَصَلت بمجموعها فى خزانة حِفْظه.

فحبذا هو من حافظ روىٰ حديث فضله عاليا، وتلا على الأسماع ما اقتضىٰ تقديمه على الأقران فلله دره مقدما وتاليا؛ وسار فى حكم العرض على أعدل طريق وناهيك بالسيرة العمريه، وصان منطقه عن خالِ المعانى وكيف لا؟ وقد تمسك بطريقة والده وهى "المقدمة الشمسيه"؛ وسابق أقرانه فكانت له زبدة التفضيل فى حلبة السباق، وطابق بين رفع شأنه وخفض شانيه ولا ينكر لمن هو من هذا البيت حسن الطباق؛ واشتغل فلم يقع التنازع فى حسن دخوله من باب الاشتغال، ونصب فكره لتحصيل العلم فتعين تمييزه علىٰ كل حال؛ وتوقدت نار ذهنه فتلظّىٰ حاسده بالالتهاب، ورويت أحاديثه بالغة فى العلو إلىٰ سماء الفضل ولا بدع إذا رويت أحاديث الشهاب؛ وافتخر من والده بالفاضل الذى ارتفع فى ديوان الإنشاء خبره، وهز المعاطف بتوقيعه الذى لا يزال يحرره ويحبره؛ ووشّى المهارق فكأنما هى رياض قد غرد فيها بسجعه، ونحاها بإنشائه الذى هو عمدة المتأدبين فلا عجب فى رفعه؛ ونظم ببيانه نفائس الدرر ففدتها بالعين "صحاح الجوهرى"، وفتح بجيش بلاغته معاقل المعانى الممتنعة وحسبك بالفتح العمرى:

بيانه السحر قد أخفى معاقده * لكن أرانا لسر الفضل إنشاء
إذا أراد أدار الراح منطقه * نظما ويطربنا بالنثر إن شاء!

والله تعالىٰ يبهج نفسه بما يصبح به الحاسد وهو مكمد، ويقر عينه بهذا الولد النجيب حتى لا يبرح يقول: أشكر الله وأحمد؛ بمحمد وآله.

* * *

ومن ذلك ما كتب به الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدائم، لولدى نجم الدين أبى الفتح محمد، حين عرض عليه "المنهاج" فى الفقه للنووى، فى سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، وهو:

الحمدُ لله الذى أوضح بنَجْم الدِّين مِنهاجَ الفقْه وأناره ، وأفْصَح لسانَه بكتاب من عنـد الله وأثَارَه ، فسطعتْ أنوارُ شِهابِه لمن ٱستَنْبطه وأثاره ، مَنْ يُرِد اللهُ به خيرًا يُفقِّهْه فى الدِّين ويَرْفعْ مَنَارَه ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمد المخصوص بعموم الرِّساله ، والمنصوص فَضْـلُه بجميع أنواع الدِّلاله ، وعلى آله وصَحْبه نجوم الهُـدىٰ ، وشُهبِ التَّأسِّى والاقْتِدا :

وبعدُ ، فقد عَرَض علىَّ الفَقيهُ الفاضلُ نَجْلُ الأفاضل ، وسَلِيلُ الأَماثِل ، ذُو الهِمَّة العَلِيَّه ، والفِطْنة الذَّكِيَّه ، والفِطْرَةِ الزَّكِيه ، نَجْم الدِّين ، أبو عبد الله محمدُ بن فلان : نفع الله به كما نَفَع بوالده ، وجَمَع له بين طَارِف العِلم وتَالِده ـ مواضِعَ متعدِّدةً من "المِنْهاج" فى فِقْه الإمام الشافعىّ المُطَّلِبىِّ رضى الله عنه وعَنَّا به ، تأليف الحَبْر العلّامة ولىِّ الله أبى زَكَرِيا بن شَرَف بن مرى النَّوَوِىّ ، سقى الله تعالىٰ ثَرَاه ، وجعل الجَنَّة مأواه ، دَلَّ حِفْظُه لهـا على حِفْظ الكتاب ، كما فَتَح الله له مَنَاهِجَ الخَيْر دِقَّه وجِلَّه ، وكان العَرْض فى يوم كذا .

⁂

وكتب علَّامةُ العَصْر الشيخُ عِزُّ الدِّين بن جَماعَةَ ما صورته :

كذلك عَرَض علىَّ المذكورُ باطِنَها عَرْضًا حَسَنا ، محرَّرًا مُهذَّبا مُجَادًا مُتْقنا ، عَرْضَ من أُتْقِنَ حِفْظُه ، وزُيِّن بحُسْن الأَدَاءِ لَفْظُه ، وأُجْزِلَ له من عَيْن العناية حَظُّه ، مَرَّ فيه مُرُور الهِمْلاج الوَسَّاع ، فى فَسِيح ذى السِّباع . وقد دَلَّنِى ذلك منه ـ نفعه الله تعالىٰ ونَفَع به ، ووصل أسباب الخَيْر بسَبَبِه ـ على عُلُوِّ هِمَّته ، ووُفُور أَرْيَحِيَّته ، وتَوَقُّد فِكْرِه ، وٱتِّقاد فِطْنَته ، وأَصْلُه فى ذلك كلِّه عَرِيق :

سَجِيَّـةٌ تِلْك منهـم غَيْرُ مُحْـدَثَة * إنَّ الخلائقَ ـ فاعْلَمْ ـ شَرُّها البِدَعُ !

وقد أذنتُ له أن يَرْوِىَ عنِّى الكتابَ المذكورَ، وجميعَ ما يجوزُ لى وعنِّى رِوايتُه من مُصَنَّفاتِى وغيرها من مَنْظوم ومَنْثُور، ومَنْقولٍ ومَعْقُول ومأْثُور، بشَرْطِه المعتبر، عند أهْلِ الأَثَر. وكتب فلانٌ فى تاريخ كذا .

* * *

ومن ذلك ما كتبتُه لمن آسمه «محمد» ولَقَبُه «شَمْسُ الدين» من أبناء بعض الإخوان:

وقد عَرَض علىّ "الأرْبعينَ حديثًا" للشيخ مُحْيِي الدِّين النَّوَوِىّ رحمه الله، و"الوَرَقَات" فى الأُصُول لإمام الحرمين، و"اللَّمْحَةَ البَدْرِيَّة" فى النَّحْو للشيخ أثير الدِّين أبى حَيَّانَ دَفْعةً واحدة، وهو لدُونِ عَشْرِ سنين، وهو :

الحمدُ لله الذى أطْلَع من دَرَارِىّ الأفاضل فى أُفُقِ النَّجابة شَمْسا، وأظهر من أفاضل الدَّرارِى ما يغُضّ به المخالفُ طَرْفاً ويرفع به المُحَالِفُ رَأْسا، وألْحَقَ بالأصل الكريم فَرْعَه فى النجابة فطاب جَنًى وأعْرَقَ أصْلًا وزَكَا غَرْسا؛ وأبْرَزَ من ذَوِى الفِطَرِ السليمة من فَاقَ بذكائه الأقرانَ فأدْرَكَ العَرَبِيَّةَ فى لَمْحَه، وسَما بفَهْمِه الثاقب على الأمثال فأمْسَى وفَهْم "الوَرَقَاتِ" لديه كالصَّفْحَه، وخَرَق بكَرَمِ بدايته العادةَ فجَازَ الأربعين لدُونِ العَشْر وأتَى على ذلك بما يَشْهَدُ له بالصِّحَّه؛ والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمدٍ الذى عَمَّتْ بركةُ آسْمِه الشريف سَمِيَّه ففاز منها بأوفر نَصيب، وخُصَّ بإلهام التَّسمية به أولو الفَضْل والنُّهى فما سُمِّىَ به إلا كَرِيمٌ ولا سُمِّىَ به إلا نَجِيب؛ وعلى آله وصَحْبِه الذين أيْنعتْ بهم رَوْضَةُ العلم وأزْهَرتْ، وأوْرَقت شجرةُ المعارف وأثْمَرَتْ .

وبعدُ، فقد عَرَض علَىَّ فلانٌ مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فمرّ فيها مُرُورَ الصَّبا، وجَرَى فى مَيْدانها جَرْىَ الجَواد فما حادَ عن سَنَنِ الطريق ولا كَبَا[1] .

[1] يظهر أن بقية هذه النسخة سقطت من قلم الناسخ كما ترى .

وأما الإجازة بالمَرْوِيَّات علىٰ الاستدعاآت : ـ

فمن ذلك ما كتب به الشَّيْخُ صلاح الدين الصَّفَدِيُّ رحمه الله على استدعاء كَتَبَ له به القاضي شِهابُ الدين أحمدُ الحَنْبلىّ خطيبُ بَيْت الآلهة ، وكاتبُ الدَّسْتِ بالشَّأْم ، يطلب منه فيه الإجازةَ لنَفْسِه ، وهو :

الحمدُ لله الذى إذا دُعِىَ أجاب ، وإذا أنْعَم على الأدِيبِ بذَوْق أتَىٰ فى نَظْمِه ونَثْرِه بالعُجَاب ، وإذا وَهَب البليغَ فِطْرةً سَايِمةً لم يكن علىٰ حِجَاهُ حِجَاب .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى منها البَلاغَه ، وإتقانُ ما لصناعة الإنشاء من حُسْنِ الصِّياغَه ، وصَيْدِ أوَابِدِ المعانى التى من أعْمَل فِكْرَه فى اقْتِناصِها أو روَّىٰ [أَمِنَ] روَاغَه ، ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له شهادةً فُطِر الضميرُ علىٰ إخلاصها ، وجُبِلَ الفِكْر على اقْتِناء أدِلَّتِهـا القَاطعةِ واقْتِناصِها ، وجُعِلتْ وِقايةً لقائِلِها يوم يَضِيقُ على الخلائق فَسِيحُ عِرَاصِها ، ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفصحُ من نَطَق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العَرَبيَّة بالنُّكَتِ الحِسَان ، وحَثَّ على الخَيْر وحَضَّ على الإحسان ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِـه الذين رَوَوْا أقوالَه ، وبَلَّغوا لمن لم يَرَه سُنَنَه وأفْعالَه ، وعَلِمُوا أنَّ هـذه الشِّرْعة المُطَهَّرَةَ أذْخَرها الله تعالىٰ له فلم تَكُنْ تصلحُ إلا لَه ؛ صلاةً هامِيَةَ الغُفْران ، ناميةَ الرِّضْوان ؛ ما أجاب مُجِيبٌ لمن اسْتَدْعَىٰ ، وعَمِلَتْ إنَّ فى المُبْتدإ نَصْبًا ولم تُغَيِّرْ على الخَبَر رفْعًا ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يَوْم الدِّين .

وبعدُ ، فإن [عِلْمَ] الرِّوايةِ من مَحاسن الإسلام ، وخَصَائِص الفُضَلاء الذين تَخْفِقُ لهم ذَوائبُ الطروس وتَنْتَصِبُ رِماحُ الأقلام ؛ ولم تَزَلْ رَغْبة السَّلَف تتوفَّرُ عليه ، وتُشير أناملُ إرشادهم للانام بالحَثِّ إليـه . قِيـل للإمام أحمد بن حَنْبل رضى الله عنـه ما تَشْتَهِى ؟ فقال : سَنَدٌ عَالٍ ، وبَيْتٌ خَالٍ . وما بَرِحَ الأئمَّة الكبار يَرْتحلون إلىٰ أقاصى

الأقاليم فى طَلَبِه، و يتحملون المَشَاقَّ والمَتَاعِبَ فيــه و يَتَجَمَّلون بسَبَبِه ؛ فقد آرْتَحــل الإمامُ الشافعىُّ رضى الله عنه وغيره إلىٰ عَبْــد الرَّزَّاق باليَمَن، وكان فيمَنْ أخَذَ عنــه ممن هو أحَقُّ بالتفضيل عليه قَمِن ؛ ولٰكنه فَنٌّ يحتاج إلىٰ ذَوْقٍ يُعاضِدُ من لا يُعانِدُه ، وأَمْرٌ لا يَصْــبِر عنه من أَلِفَه وما يَعْلَم الشَّوْقَ إلا من يُكَابِدُه ؛ فمــا عنــد من طَلَبَ الروايةَ أَجَلُّ من أبناء جِنْسِه ، ولا عنــد المُفِيدِ المُفِيدَ أحْلَىٰ من قوله : حَدَّثَنا فلانٌ أو أَنْشَدَنا فلانٌ لنَفْسِه ، ولكن :

مَا كُلُّ من طَلَبَ المَعَالِىَ نافِذًا * فيها ولا كُلُّ الرِّجال فُحُــولَا !

ولمــا كان الشيخُ الامامُ شهابُ الدِّين أبو العَبَّاس أحمدُ آبنُ الشيخ .... ممَّن نَظَم فَوَدَّت الدُّرَر فى أفلاكه لو آتَّسَقَتْ ، وكَتَبَ فَرَقَمَ الطُّروسَ ووَشَّاها ، وغَشَّــاها من زَهَرات الرِّياض ماغَشَّاها ؛ وحَلَّ المُتَرْجَمَ فسَحَر عَقْلَ كلِّ لَبِيبٍ وخَلَبَ لُبَّه ، ووقع على القَصْد فيه فكأنَّه شيءٌ من الغَيْب خَصَّ الله به قَلْبَه ، وأتىٰ فيه ببدائِــعَ ما تَسَاوَى آبنُ الصَّيْرِفِىِّ ولا آبن (١) عندها بحَبَّه ؛ وخَطَب فصَــدَع القُلُوب ، وأجْرَىٰ ذَنُوبَ المَدَامِــع من أهْلِ الذُّنوب ، وحَذَّر فكانت أسجاعُه كألْحَــانِ إسْحٰق وسَامِعُه يبكى بأجْفانِ يَعْقوب ؛ كأنَّمــا هو فى حُلَّة الخَطَابة بَدْرٌ فى غَمــامَه ، أو منبره غُصْنٌ وهوفوقه حَمامَه ، أو بَحْرٌ وفضائِلُه مِثْلُ أمْواجِه ودُرُّه يحكى كَلَامَه ؛ لو رآه "آبنُ نُبَاتَة" ماأورقت بالفصاحة أعْوادُه ، أو "آبنُ المُنَيِّر" مارُقِمتْ بالبلاغة أبْرادُه ، أو "آبن تَيْمِيَة" ما حَظِيَتْ بالحُــدُود أَجْدادُه ؛ فأراد أن يُشَرِّف قَــدْرِى ، و يُعَرِّف نُكْرِى ؛ فطلب الإجازة منى وأنا أحقُّ بالأخْذِ عنه ، وآستدعىٰ ذلك مِنِّى : ورُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلىٰ من هو أفْقَه مِنْه .

(١) بياض بالأصول ولعله : ولا آبن نباتة .

فنعم قد آستخرتُ الله تعالىٰ وأجزتُ له ما يجوز لى تسميعه ، وذكرتُ هنا شيئًا من مَرْوِيَّاتِى وأشياخى رحمهم الله وذكرتُ مُصَنَّفاتى :

إجازة قاصِرٍ عن كلِّ شيْءٍ * يَسِيرٌ من الرِّوايةِ فى مَفَازَه :
لِمَنْ مَلَكَ الفَضائِلَ وآقْتَناها * وجَازَ مَدَى العُلَىٰ سَبْقًا وحَازَه !

ومن ذلك ما كتب به الشيخُ العلَّامة شمسُ الدِّين محمد بن الصائغ على آسْتِدْعاءٍ لبعض من سأله الإجازة .

أقولُ بعد حَمْدِ الله الذى لا يُخَيِّبُ من آسْتَجْدىٰ كَرَمه ، ولا يَخِيبُ من آسْتَدْعىٰ نِعَمَه ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمدٍ وآله وصَحْبِه وخدمه وما آسود مدمه[1] : (؟)

أَثْرَتَ الجَوَىٰ بى إذ أَرَدتَ جَوَابِى * وعَظَّمْتَ خَطْبِى إذ قَصَدتَ خِطَابِى :
ومَنْ أنا فى الدُّنْيا أُجِيبُ ومَنْ أنا ! * أُجِيزُ ؟ مَضَى الأشياخُ تَحْتَ تُرابِ !
عَجِيبٌ لطُلَّابٍ لَدَيْنا تَخَلَّفُوا * وكَمْ قد أتانا دَهْرُنا بعُجَابِ !
نحن إلىٰ المويلحه أمر ناى * عربناه بالعذيب عذاب[1]

ياأخانا : إنَّ بِضاعَتنا فى العِلْمِ مُزْجَاه ، وصِناعَتَنا فى الوَقْت مُرْجاه ، ونَسِيم أخباره عَليل ، وأَدَب إخباره قليل ، وتَصانِيفى وُجُوهُ أكثرها مُسْوَدَّه ، وآمالى فى تَبْيِيضها لِقصَرِ الهِمَمِ ممتدّه ، سُئِلْت قديماً من بعض الفضلاء أن أُعِدَّها ، فكتبتُ فيها رسالةً لاأَعْرِف لصَقْلِ الأذهان حدَّها ، ومَنَّ الله بعد ذلك بتصانيفَ أُخَر ، ومَقاطِيعَ إن لم تَكُن كالزُّهْرِ فهى كالزَّهَر ، ثم عَدَّد نَيِّفًا وثلاثين مُصَنفا ، منها "مَجْمع الفرائِد" فى ستَّ عشرةَ مجلَّدةً[2] . ثم أنشد فى آخر ذلك :

(١) كذا فى الأصل ، ولم نهتد اليه مع دقة البحث .
(٢) فى كشف الظنون : تسعة عشر مجلدا .

وَلَقَـدْ شَرَّفْتَ قَـدْرِى * بِنَفِيسٍ مِن هَدَايَا:
بِنِظَـامٍ شَــنَّفَ السَّمْــعَ * بِــدُرٍّ كالثَّنايَا.
فارْوِمِــنِّى وٱرْوِعَنِّى * وٱغْنَ عَن شَـدِّ المَطَايَا،
وٱنْتَقِ الفَضْلَ وحَصِّلْ، * وٱحْظَ مِنِّى بِمَــزَايَا،
وتَحَرَّ الصِّــدْقَ وٱعْلَمْ * أنهُ خَــيْرُ الوَصَايَا!!!

أَجَزْتُ لك أن تَرْوِىَ هذه وغيرها عنِّى، ولك الفَضْلُ فى قَبُول ذلك منِّى.

الصــــنف الثــانى

(التَّقريضات التى تكتب على المُصَنَّفات المُصَنَّفةِ والقصائد المَنْظومة)

قد جَرَت العادة أنه إذا صُنِّف فى فَنٍّ من الفنون أو نَظَم شاعِرٌ قصيدةً فأجاد فيها أو نحو ذلك، أن يَكْتُبَ له أهْلُ تلك الصــناعة علىٰ كتابه أو قَصِــيدَته بالتَّقْرِيض والمَدْح، ويأتِىَ كلٌّ منهم بمـا فى وُسْعِه من البلاغة فى ذلك.

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صـلاحُ الدين الصَّفَدِىُّ على مُصَنَّفٍ وضعه الشيخُ تاجُ الدِّين علىّ بن الدِّرهم المَوْصِلىُّ الشافعىُّ فى الآسـتدلال على أن البَسْمَلةَ من أوَلِ الفاتحة، وهى:

وقَفْتُ علىٰ هــذا التصنيف الذى وضــعه هذا العَــلَّامه، ونَشَر به فى المَذْهَب الشافعىِّ أعْلامَه، وأصْبحَ ونِسْبَته إليه أشهرُ عَلَمٍ وأبْهر عَلَامَه؛ فأُقْسِمُ ما سَامَ الرَّوْضُ حَدَائقه، ولا شَام أبُو شَامَةَ بَوارِقَه، كلُّ الأئمة تعترفُ بمـا فيه من الأَدِلَّه، وكلُّ التصانيف تقول أَمامَه: بِسْمِ الله، كَمْ فيه من دليل لا يُعارَضُ بمـا يَنْقُضُه، وكَمْ فيه من حُجَّــةٍ يَكِلُّ عنهـا الخَصْمُ لأنَّ عَقْلَه علىٰ مَحَكِّ النَّقْدِ يَعْرِضُــه؛ قد أيَّدَ ما ٱدَّعاه بالحَـديث والأَثَر، ونَقل مَذْهب كلِّ إمامٍ سَــبَق وما عَثَر؛ لقد سُرَّ الشافعىُّ بنَصِّ

قَوْله الذى هَذَّبه ، وجَعَل أعلامَ مَذْهَبِـه مُذْهَبَه ؛ وأتى فيـه بنُكَتٍ تُطْرِب من أَسْرار الحَـرْف ، وفَوَائدَ عُرِف بها ما بين ٱبن الدِّرْهَـمِ وبين البُونِى من البَوْن فى تَفاوُت الصَّرْف :

أَكْرِمْ به مُصَــنَّفًا * فاقَ تَصَانيفَ الوَرَىٰ!
لَيْــلُ المِدَادِ فيــه بالْـ * ـمَعْنَى المُنِـيرِ أَقْمَـرَا!
كَمْ فيــه بُرْدُ حُجَّــةٍ * قَـدْ حَاكَـه مُحَرَّرا،
وكَمْ دَلِيــل سَــيْفُه * إذا ٱلْتَقَى خَصْما فَـرَىٰ.
فَـلَمْ يَكُنْ من بَعْدِه * مُخَالِفٌ قَــطُّ يُرَىٰ!!

⁂

ومن ذلك ما كتب به المَقَرّ الشِّهابىُّ بن فَضْـلِ الله على قَصِيدةٍ مِيمِيَّةٍ ، للشيخ غَرْس الدِّين خليل الصَّفَدِىّ المعروف بالصَّلاح الصَّفَدِىّ ، مَدَح بهـا الأميرَ سَيْفَ الدين ألجاى الدَّوادَار النَّاصِرىّ ، فى شهور سنة تِسْعٍ وعشرين وسبعمائة ، وهى :

وقَفْت علىٰ هـذه القصيدة التى أشْرَقتْ معانيها فكادَتْ تُرىٰ ، وتَمكَّنتْ قَوافِيها فاسْتَمسكَ بها الأَدَبُ لَمَّـا كانَتِ المِيَاتُ فيها كالعُرَا ؛ فوجدتُها مشتملةً من البـلاغة بوَزْنِها على البَحْرِ المحيط ، لَطِيفةً لا تُقاسُ بأمثالها من الكلام المُركَّب لأنها من البَسِيط ؛ فنَظَرتُ إليها مُكْتَسِبًا من بَيانِهـا سِحْرَ الحَدَق ، مُتَعَجِّبا من مُنْشِئِها لغَرْسٍ يُسْرِعُ الإثمـارَ فى الوَرَق ؛ ثم فَطِنتُ إلىٰ أنَّ الممدوحَ بها أعَزَّه الله تعالى سَحَّتْ دِيمُه فَرَوَّضتِ الطروس ، وبَرَّحَتْ مَنَاقِبُه بمـا كان مَصُونًا فى أَخْبِيَةِ النُّفوس ؛ وقد ٱستوجبَ هذا المَـادِحُ عَطَّفَ الله تعالىٰ قَلْبَه عليه من مَنَائِحه حَظًّا جَزِيلا ، وحُبًّا يقول به لمن قصد المساواة به : لو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لَاتَّخذتُ فُلانًا خَلِيلا :

مُـدَبِّرِ المُـلْكِ له * على العُلىٰ مقاعِـدُ،
تَهْـوِى إلىٰ جَنَابِهِ الـ * ـقُصَّادُ والقَصَـائِدُ!

قلتُ : وكتبتُ علىٰ قَصيدةٍ نظمها شَرَفُ الدِّين عيسى بن حَجَّاج الشاعِرُ المعروفُ بالعَالِيةِ ، مَدَح بها النبيَّ صلى الله عليه وسلم وضَمَّنها أنواعَ البَدِيع ، ضَاهَىٰ بها بَدِيعِيَّةَ الصَّفِيِّ الحِلِّيِّ ، فى شهور سنة آثنتين وتسعين وسبعمائة ، ما صُورَتُه :

أما بعدَ حمدِ الله الذى أَحَلَّ سِحْرَ البَيَان ، وأَقْدر أَهْلَ البلاغة من بَدِيعِ التَّخَيُّلِ علىٰ ما يَشْهد بصِحَّته العِيَان ، وذَلَّل برَائِضِ أفكارِهم صِعَابَ الألفاظِ فَآمْتَطَوْا من مُتُون احَاسِنِها الجِيَـاد ، وأوْضَحَ لهم طُرُقَ الفصاحة فغَدَتْ لديهم ـ بحَمْدِ الله تعالىٰ ـ سَهْلَةَ القِياد ، وأحْيَىٰ مَيِّتَ الأَدَبِ برُوحِ الأنفاس العِيسَوِيَّة وعَمَّر بأُنْسِها رُبُوعَه الخَالِيَـه ، وحَمَىٰ نفس الفَضْـل فى رُقْعة المُسَاجَلَة أن تَصِلَ إليها فَرازِنَةُ الدَّعاوىٰ ولا غَرْوَ أَنَّ حَمَاها العاليه ؛ والصَّلاة علىٰ رسوله محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم أَفْصحِ من نَطَق بالضَّاد ، وأُوتِىَ جَوامِعَ الكَلِم فلن تَحْصُر مَعَـانِىَ كلامِه الأَعْداد ـ فإنِّى وقفتُ على البَدِيعِيَّـةِ البَدِيعَـة التى نظمها الفاضِـلُ الأرْفع ، واللَّوْذَعِىُّ المِصْقَع ؛ أَدِيبُ الزَّمان ، وشاعِرُ الأَوَان ؛ شرفُ الدِّين أبو الرُّوحِ عِيسى العالية ـ أعلى الله تعالىٰ مَنَارَ أدبه ورَفَعه علىٰ مُنَاوِيه ، وبلغ به من قَصَبِ السَّبْقِ ما يَمْتَنِـعُ أن يراه على البُعْد مُضَاهِيـه ـ فأَلْفَيْتُها الدُّرَّةَ الثمينة غير أنها لاتُسام ، والخَرِيدةَ المُخَدَّرَةَ إلا أنها لا يَلِيقُ بها الآحْتِشَام :

تَرُومُ آحْتِشامًا سَـتْرَ لَأْلَاءِ وَجْهِها ! * ومَنْ ذَا لِذَاتِ الحُسْنِ يُخْفِى ويَسْتُرُ؟ !

قد آتَّخَذَتْ من الآحتشام مَعْقِلًا وحِصْنًا لا يُغْشَىٰ ، وآنْتَبَذَتْ من حُسَّادها مكانًا قَصِيًّا فلا تخافُ دَرَكًا ولا تَخْشَىٰ :

ولَمْ أَدْرِ ــ والأَلفاظُ منها شَرِيفةٌ ــ * إلَى البَدْرِ تَسْمُو أَمْ إلى الشَّمْسِ تَرْتَقِي؟!

أراد المُدَّعِي بلوغَ شأْوِها الجَرْيَ فى مِضْمارِها فقِيلَ: كَلَّا، ورَامَ المُلْحِدُ فى آياتها الغَضَّ منها عِنَادًا فأبَى اللهُ إلَّا:

مَا إنْ لها فى الفَضْلِ مِثْلٌ كائنٌ! * وبَيَانُها أَحْلَى البَيَانِ وأمْثَلُ!

فأَمْسَوْا فى مُعارَضَتِها غيرَ طَامِعِين، وتَلَتْ عليهم آياتُ بَلاغَتِها: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾:

كَمْ جَدَّلَتْ يَوْمَ الوَغَى من جَنْدَلٍ * صاحَتْ به فما أَطَاقَ تَصَبُّرًا!

وكيف لا تَخْضَعُ لها الأعناق، وتَذِلُّ لها رِقابُ الشُّعَراء على الإطلاق؛ وهى اليَتِيمَةُ التى أَعْقَمَتِ الأفهامُ عن مِثْلها، والفَرِيدةُ التى اعترف كلُّ طَوِيلِ النِّجادِ بالقُصُورِ عن وَصْلِها:

زَادَتْ عُلًى، مَنْ ذا يُطِيقُ وِصَالَهَا؟ * ومَحَلُّها منه الثُّرَيَّا أَقْرَبُ!

وأَنَّى بذلك وقد أخذتْ من المحاسنِ بزِمامِها، وأحاطَتْ من الطَّلاوة بِكمامِها، وأَحْدَقَتْ رِياضُ الأَدَبِ بحَدَائِقها، واقتطفتْ من أفْنانِ الفُنُونِ ثِمَارَ مَعانٍ تَلَذُّ لناظِرِها وتَحْلُو لذائِقِها؟:

ولا تُعِرْ غَيْرَها سَمْعًا ولا نَظَرًا * فى طَلْعةِ الشَّمْسِ ما يُغْنِيكَ عن زُحَلِ!

وتَصَرَّفتْ فى جميع العلوم وإن كانت على البَدِيع مَقْصُورَه، وشَرُفَتْ بشَرَفِ مُتَعَلَّقِها فأصبحتْ بالشرف مَشْهُورَه:

أَهَانتِ الدُّرَّ حتَّى ماله ثَمَنٌ، * وأَرْخَصَتْ قِيمةَ الأَمْثالِ والخُطَبَا!

لا جَرَم أضحتْ أمَّ القَصائدِ وكَعْبَةَ القُصَّاد، ومَحَطَّ الرِّحالِ ومَنْهَلَ الوُرَّاد؛ فأَرْبَتْ فى الشُّهْرة على "المَثَل السائر"، واعترفَ بفَضْلِها جَزالةُ البادى وسُهُولةُ الحاضر:

فللأَفاضِلِ فى عَلْيائِها سَمَرٌ * إنَّ الحَديثَ عن العَلْياءِ أَسْمارُ!

فأَعْجِبْ بها من بادِرَةٍ جَمَعتْ بين مُتَضادَّيْنِ سُمْرٍ وسَمَر، وقَرَنَتْ بين متباعِدَينِ زُهْرٍ وزَهَر، وجادَتْ بمستنزهين رَوْضٍ ونَهَر؛ وتَفَنَّنَتْ فى أساليب الكلام وجالَتْ، وطاوَعَتْها يَدُ المَقَالِ فقالتْ وطالَتْ؛ ودَعَتْ فُرْسانَ العَرَبيَّةِ إلى المُبارَزَة فنَكَسُوا، وتَحقَّقَ المُفْلِقُون العَجْزَ عن مُؤاخَاتها ولو حَرَصُوا:

فأَعْربَ عَنْ كُلِّ المَعَانِى فَصيحُها * بما عَجَزتْ عنه نِزَارٌ ويَعْرُبُ!

إن ذُكِرَتْ ألفاظُها فما الدُّرُّ المَنْثور؟ أو جُلِيَتْ مَعانِيها أَخجلتِ الرَّوْضَ المَمْطُور؛ أو ٱعْتُبِرَ تَحْرِيرُ وَزْنِها فاق الذَّهَب تَحْرِيرا، أو قُوبِلَتْ قَوَافِيها بغيرها زَكَتْ تَوْفِيرا وسَمَتْ تَوْقِيرا؛ أو تَغزَّلَتْ أسكتَتِ الوُرْقَ فى الأَغْصان، أو ٱمْتَدَحَتْ قَفَتْ إِثْرَ «كَعْبٍ» وسَلَكتْ سَبِيلَ «حَسَّان»؛ فإِطْنَابُها ـ لفَصاحَتِها ـ لا يُعَدُّ إطنابا، وإيجازُها ـ لبلاغَتِها ـ يَمُدُّ على المعانى من حُسْنِ السَّبْك أَطْنَابَا:

أَيْنَ لِى مَغْزَاهَا أَخَا الفَهْمِ إنَّها * إلى الفَضْلِ تُعْزَىٰ أو إلى المَجْدِ تُنْسَبُ؟

هذا وبَراعةُ مَطْلَعِها تحثُّ علىٰ سماع باقيها شَغَفا، وبَديعُ مَخْلَصِها يَسْتَرِقُ الأسماعَ لَطافةً ويَسْتَرِقُّ القلوبَ كَلَفا، وحُسْنُ ٱخْتِتامِها تكاد النُّفوسُ لحلاوةِ مَقْطَعِه تَذُوبُ عليها أَسَفا:

لَهَا مِن بَرَاهِينِ البَيَان شَوَاهِدُ: * إذِ الفَضْلُ وِرْدٌ والمَعَالى مَوارِدُ!

وبالجملة فمآثِرُها الجميلة لاتُحْصىٰ، وجَمَائِلُها المأثورة لاتُعَدُّ ولا تُسْتَقْصىٰ؛ فكأنَّما «قُسُّ بن سَاعِدَةَ» يأتَمُّ بفَصاحَتِها، و«ٱبنُ المُقَفَّع» يَهْتَدِى بِهَدْيِها ويَرْوِى عن بلاغتِها؛ «وٱمْرُؤُ القَيْسِ» يقْتَبِسُ من صَنْعةِ شِعْرِها، و«الأَعْشَىٰ» يَسْتضىءُ بطَلْعةِ بَدْرِها؛ فلو رآها «جَرِيرٌ» لرأىٰ أنَّ نَظْمَه جَرِيرةٌ ٱقترفها، أو سَمِعَها «الفرزْدَقُ»

لعرف فَضْلها وتحقق شَرَفَها ؛ أو بَصُر بها « حَبِيبُ بنُ أَوْسٍ » لأَحَبَّ أن يكونَ من رُوَاتِها، أو اطَّلَع عليها «المُتَنَبِّي» لتَحيَّرَ بين جَمِيل ذاتها وحُسْن أدوَاتِها :

فَلِلْبصائِرِ هَادٍ مِنْ فَضَائِلِهَا * يَهْدِى أُولِى الفَضْلِ إنْ ضَلُّوا وإنْ حَارُوا !

ولا نُطِيلُ فمَبْلَغُ القول فيها أنَّ آيَتها المُحْكَمة ناسِخَةٌ لما قبلها، وبُرْهانَها القَاطِعَ قاضٍ بأن لا تَسْمحَ قَرِيحةٌ أن تَنْسُجَ علىٰ مِنْوالِها ولا يَطْمَعَ شاعِرٌ أن يسلك سُبُلَهَا :

وآيَتُها الكُبْرىٰ التى دَلَّ فَضْلُها * علىٰ أنَّ مَن لم يَشْهَدِ الفَضْلَ جَاحِدُ !

الطرف الثانى

(فيما يُكْتب عن القُضَاة، وهو علىٰ أربعة أصناف)

الصنف الأوّل

(التقاليد الحُكْمِيَّة ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ

(أن تُفتتحَ بخطبة مفتتحةٍ بـ«الحمد لله»)

ثم يقال : «أمّا بعد» ثم يقال : «ولمَّا عَلِمنا من حال فلان الفُلَانىّ كذا وكذا، آستخرنَا الله تعالىٰ وفوّضنَا إليه كذا وكذا، فليباشِرْ ذلك» ويُوصِ بما يناسب . ثم يقال : «هذا عَهْدُنا إليك، وحُجَّتنا عند الله عليك، فٱعلَمْ هذا وٱعمَلْ به، وكُتِب ذلك عن الإذن الفلانىّ» .

وهذه نسخة تقليد :

الحمدُ لله الولىِّ الحَمِيد ، الفعَّالِ لِمَا يُرِيد ، نحمَدُه علىٰ ما أولانا من إحسانه فهو المَوْلىٰ ونحن العَبِيد، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً توصِّلُنا إلىٰ

جَنَّة نَعيمُها مُقِيم ، وتَقِينا من نَارٍ عَذابُها شَدِيدٌ أَلِيم ؛ وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه النبيُّ الكريم ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه المشتملين على الطاعة والقلْبِ السَّليم ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا .

أما بعدُ، فإن مَرْتبةَ الحُكْمِ لا تُعْطىٰ إلَّا لأهْلِها ، والأقْضيةَ لايَنْتَصِبُ لها إلَّا من هُو كُفْءٌ لها ؛ ومن هو مُتَّصِفٌ بِصفات الأمانة والصِّيانَه ، والعِفَّةِ والدِّيَانه ؛ فمَنْ هذه صِفَتُه آستحقَّ أنْ يُوجَّهَ ويُسْتَخْدَم ، وَيَترَقَّىٰ ويتقدَّم .

ولَمَّــا عَلِمْنا من حَالِ فلانٍ الفلانىِّ الأوصافَ الحَميدَه ، والأفعالَ السَّديدَه ؛ فإنه قد حَوَىٰ المعرفة والعُلُوم ، والآصْطِلاحَ والرُّسوم ، وجُمِعَتْ فيــه خِصَالٌ حَمَلَتْنا علىٰ آسْتِنَابَتِه ، وقَوَّتْنا علىٰ نِيَابتِه ؛ ــ آسْتَخرنا الله تعالىٰ وفَوَّضْنا إليه كذا وكذا .

فلْيُباشِرْ ذلك مُتَمسِّكًا بحَبْلِ الله المَتِين ، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فإنَّ اللهَ لَا يُضيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ ولْيجتَهِدْ فى إقامة الدِّين وفَصْلِ الخصومات ، وفى النَّظَر فى ذَوِى العدالات والتَّلَبس بالشهادات وإقَامَةِ البَيِّنات ؛ فمَنْ كان من أهْــلِ العَدَالةِ نَزِهًا ، وإلى الحَقِّ مُتَوَجِّهًا ؛ فلْيُراعِه ويُقَدِّمْه علىٰ أقرانه ، ومَن كان منهم خلاف ذلك فلْيُقْصِه ويُطالِعْنا بحاله . ولْينظُرْ فى أمْرِ الجوامع والمَسَاجِد ويفعلْ فى ذلك الأفعالَ المَرْضِيَّه ، وفى أموال الأيتام يَصْرِفُ منها اللَّوازِمَ الشَّرْعيه ؛ فمن بَلَغَ منهم رَشِيدًا أَسْلَمَ إليه ما عساه يَفْضُل له منها ، ويُقَرِّر الفُرُوضَ ، ويُزَوِّجُ الخالياتِ من الأزواج والعِــدَدِ والأَوْلياء ، من الأَزْواج الأَكْفَاء ، ويَنْدُبُ لذلك من يَعْلَمُ دِيانَتَه ، ويَتَحقَّق أمَانَتَه ؛ ويَتَخَيَّر لكتابة الصُّكوك من لايرتاب بِصِحَّتِه ، ولايَشُكُّ فى دِيَانَتِه وخِبْرَتِه ؛ وينظر فى أَمْرِ المتصَرِّفين ، ومَن عنده من المُسْتَخْدَمين ؛ فمن كان منهم على الطريقة الحميدة فلْيُجْرِه علىٰ عَادَتِه ، ولْيُبْقِه علىٰ خِدْمَتِه ؛ ومن كان منهم بخلاف ذلك فلْيَسْتَبْدِلْ به ولْيُقْصِه .

هذا عَهْدِى إليك ، وحُجَّتِي غدًا عند الله عَلَيك ، فاعلَمْ هذا وآعْمَلْ به .

وكُتِب ذلك عن الإذْنِ الكريم الفلانىّ وهو فى محَلّ ولَايَتِه وحُكْمِه وقَضَائه ، وهو نافِذُ القَضَاء والحُكْم ماضِيهما ، فى التاريخ الفلانىّ . (ثم يكْتُب الحاكِمُ علامَتَه والتاريخ) وحَسْبُنا الله ونِعْم الوَكِيل .

***

وهذه نُسْخة تَقْليد :

الحمدُ لله الحَكَمِ العَدْلِ الهَادِى عِبادَه صِراطًا مُسْتقيما ، الحاكِمِ الذى لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وإنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ، المُثِيب من قدّم له الطاعةَ من قَبْل أن يأْتِىَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خِلَال ، الرَّقِيب علىٰ ما يَصْدُر من أفعالهم فلا يُغَيِّر ما بِقَوْمٍ حتَّىٰ يُغَيِّروا ما بأنْفُسِهم وإذَا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وما لَهُمْ مِنْ دُونِه مِنْ وَالٍ .

أحمدُه علىٰ نِعَمِه التى تُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقال ، وأَسْتعِيذُه من نِقَمِه التى يُرْسِلُها فيصيبُ بها من يَشَاءُ من عِبادِه وهو شَدِيدُ المِحَال ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُفيد المُخْلِصَ بها فى الإقرار النَّجاةَ يومَ المآل ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى نَعَتَه بأكرمِ الشِّيَمِ وأشْرَفِ الخِصَال ، وعَرَّفه بما يجبُ من عُبُودِيَّته فقال : ﴿وَلِلّٰهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين آتَّبعوه فى الأقوال والأفعال ، وسلَّم تسليماً كثيراً .

أما بعدُ ، فإن مَنْ حَسُنتْ سَرِيرَتُه ، وحُمِدَت سِيرتُه ، وعُرِف بوَرَعٍ وشُهِر بعَفَاف ، ودِيانةٍ وخَيْرٍ وإنْصَاف ، وأضحىٰ نَزِهَ النَّفْس عن الأمور الدَّنيَّه ، فَقِيهًا دَرِبًا بالأحكام الشَّرْعيه ، عارفًا بالأوضاع المَرْضِيه — آسْتحَقَّ أن يُوجَّه ويُسْتخدَم ، ويُرَقَّىٰ ويَتقدَّم ،

ولمّا علمنا من حال فلانٍ الفلانىّ من الأوصاف الحَميده، والأفعال السَّديدَه ــ آستخَرْنا الله تَعالىٰ وفوّضنا إليه كذا وكذا .

فَلْيَكُنْ متَمَسِّكًا مُعْتَصِمًا بحَبْلِ الله القَوِىِّ المتين ، ﴿إنَّه مَنْ يَتَّقِ ويَصْبِرْ فإنَّ اللهَ لَا يُضيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ ولْيُباشِرْ ما قلَّدناه أعانه الله سبحانه وتعالىٰ ، ويُرَاعِ حُقُوقَ الله تعالىٰ فى السِّرِّ والعَلَانيةِ : فإنَّه مُعِينُ من آستعان به وتوكَّلَ عليه ، وهَادِى من آسْتَرْشَدَه وفَوَّضَ أُمُورَه إليه .

ولْيَجْتَهِدْ فى فَصْلِ الأحكام بين المتنازِعين ، والمُساوَاةِ فى العَدْل بين المُتَحاكِمين ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ .

وأن يَثْبُتَ فى الخُصُومات ، ويَفْرِقَ بين الحَقَائِق والشُّبُهات ؛ ويُنْصِفَ كلَّ ظالِمٍ من ظَالمه بالشَّريعَةِ المحمَّديَّه ، ليكون ذلك سَبَبًا للسعادة الأبَديَّه ؛ ويَنْظُرَ فى أمْرِ الشهود : فمن كان منهم نَزِهًا ، وإلى الحقّ مُتَوَجِّها ؛ فلْيُراعِه ، ومن كان منهم غير ذلك طَالَعنا بحاله . ويَنْظُرَ فى أمْرِ الجوامع والمَسَاجِد مُعْتَمِدًا فى ذلك قولَ الله العَزِيز القَاهِر : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

ويَنْظُرَ فى أمْرِ الأيتام ، ويَحْتاطَ علىٰ مالهم من الأموال ، ويَفْعل فى ذلك علىٰ جَارِى عَادَة أمثاله من الحُكَّام ؛ من نَفَقَةٍ وكُسْوَةٍ ولَوَازِمَ شَرْعِيَّه ، فمن بَلَغ منهم رَشيدًا أسْلَمَ إليه ما فَضَل من مَاله بالبَيِّنة المَرْضِيَّه ؛ ويُقَرِّر الفروضَ علىٰ مقتضى قول الله تعالىٰ : ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ . ويُزَوِّج النِّسوةَ الخاليَةَ من العِدَدِ والأوْلياء ، مِمّن رَغِبَ فيهنّ من الأَكْفَاء ؛ ويَنْدُب لذلك من يَعْلَمُ أمَانَتَه وخِبْرَتَه ، وينظر فى أمْرِ المتصرّفين : فمن كان منهم على الطَّرِيقَةِ المَأْثورة أجْراهُ علىٰ عَادَته ،

وأبقاه على حُكْمه وخِدْمَته ؛ ومن كان منهم خلافَ ذلك يُبْعِدُه ويُقْصيه ؛ ويَسْتَبْدِلُ به غيرَه ليَبْقَى مكانَه وفى تَصرُّفه .

هـذا عَهْدى إليك ، وحُجَّتِى يوم القيامة عنـد الله عَلَيك ، فلتعلَمْ ذلك وتَعْمَلْ به إن شاء الله تعالى . (ويُؤرِّخ ، ويكون ذلك بخَطّ الحاكم) ويكتبُ : «وحَسْبُنا اللّهُ ونِعْمَ الوكِيل» ويُتَوِّجُه بعلامَتِه الكَرِيمة .

* * *

وهذه نسخة تقليـــد :

الحمدُ لله ذِى الفَضْلِ والسَّخاء ، واللُّطْفِ فى الشِّدَّة والرَّخاء ؛ الذى من تَواضَعَ إليه رَفَعَه ، ومن أطاعه نَفَعَه ، ومن أَخْلَص له فى العبادة أَمَالَ عنه كَيدَ الشيطان ودَفَعَه ؛ الذى أحاط عِلْمُــه بالموارِدِ والمَصَادِر ، وٱسْـتَوَتْ عنده أحوالُ الأوائِلِ والأواخِر ، وٱطَّلَع على ضمـائر النفوس ولا ينبغى لغيره أن يَطَّلِـعَ على الضمائر ؛ الخافِضِ الرَّافِع ، والمُعْطِى المَـانِـع ؛ فإليه الأمْرُ والتَّـدْبير ، المُقْسِـطِ الجامِع : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

أحمده حمدًا يَقْضِى للسعادة بالتَّيْسِير ، وأشكُرُه شكرًا يُسَهِّل من المآرب العَسِــير ، وأشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له سبحانه نِعْمَ المولى ونِعْمَ النَّصير ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أرسله بالهُدَى والكِتابِ المُنِير ، وجَعَله للأمَّة خيرَ بَشِيرٍ ونَذِير ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحابَتِه شهادةً يَحُلُّ المخلصونَ بها جَنَّةً ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ .

أما بعدُ ، فإنَّ مَن كان عارِفًا بأحكام الشَّرِيعه ، مُتَهَيِّئًا لنَيْل دَرَجاتها الرَّفِيعَه ؛ مستندًا إلى بَيْتٍ مَشْكُور ، وقَدْرٍ موفور ، قُلِّدَ الأحكامَ الدِّينيَّه ، ليعملَ فيها بالشَّرِيعَة المُحَمَّديَّه .

ولمّا علمنا فلانَ بنَ فلان بنِ فلانٍ الفلانىّ، قلّدناه كذا وكذا .

فباشِرْ أعانَكَ الله : مُحافِظًا علىٰ تَقْوى اللهِ الذى إليه المَرْجِع والمَصِير، قال الله تعالىٰ فى كتابه العزيز : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وٱستَشْعِرْ خيفَةَ اللهِ وٱجْعَلْها نُصْبَ عَيْنِك، وتَمسَّكْ بالحقِّ وٱجْعَلْه حِجابًا بين النار وبَيْنَك؛ وٱنْتَصِبْ لتنفيذِ الأحكام ٱنْتِصَابَ من يُرَاقِبُ اللهَ ويَخْشاه، وحَاسِبْ نَفْسَك مُحاسَبَةَ من يتحقَّقُ أنه يطَّلِعُ عليه ويراه؛ وٱبْذُلْ فى إنصاف المظلوم من الظالم وُسْعَك، ورَحِّبْ للتحاكمين ذَرْعَك؛ وٱنْظُر فى أَمْرِ الشُّهود وحَذِّرْهم أن يَزُوغُوا عن الحَقّ، وحاسِبْهم فيما جَلَّ ودَقّ؛ ولا تُرَخِّصْ لهم، وأَلْزِمْهم أن يَتَّخِذُوا الصِّدْقَ مَنْطِقَهم؛ وٱنْهَهُم عن التَّسَمُّح فيها، وعَرِّفْهُمُ التَّحَرُّز عما يؤدّى من التُّهَمَةِ والتَّطرُّق إليها؛ وٱنظر فى أَمْرِ المتصرفين بباب الحُكْم العزيز نَظَرًا يؤدّى إلىٰ صَلَاحِهم، ولا تُعَوِّلْ فى النيابة عنك إلا علىٰ من تَخْتارُه وتَرْتَضِيه، ولا تُعَرِّجْ إلىٰ من هو مُسْتَنِدٌ إلىٰ غايةٍ ولا تَمِلْ إليه؛ وٱنْظُرْ فى أمر الأَحْباسِ نظرًا يحفَظُ أصولَها، ولا تُراعِ فى ٱستخلاص مايتعيَّنُ لها كبيرًا ولا صغيرا، ولا تُعامِلْ فيها إلَّا ذَوِى الوَفَاء واليَسَار، وٱرْفُضْ معاملة من يَسْتَنِدُ إلى العُدْمِ والإعْسار؛ وٱفْعَلْ مايفعله مِثْلُك من الحُكَّام، من إنشاء العَدَالةِ والفَسْخ والإنكاح وغير ذلك فقد قَلَّدْناكَ هذه الأَحْكام؛ فإن عَمِلْتَ فيها بتَقْوى الله تعالىٰ وطَاعَتِه يُعينُك علىٰ ذلك، وإن عَمِلْتَ غير ذلك فأنتَ واللهِ هَالِكٌ ثم هَالِك؛ وٱسْتَمِعْ نَصِيحَتِي، وٱفعلْ ما تُبَرِّدُ به جِلْدَتَك وجِلْدَتِى؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : ورُبَّما كُتِب التقليدُ بصيغة كِتَاب[1]، مِثْلُ أن يُكْتَب إلىٰ الذى يتَوَلَّى علىٰ قدرِ مَرْتبته، من : «صَدَرتْ هذه المكاتبة» أو : «هٰذِه المكاتبة» ثم يقال :

(١) هذه هى المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان فى الأصل .

«تتضمّن إعلامَه أنّ المجلس الفلانىّ» بلقبه، ويُدعَىٰ له : « لمَّا علمنا من حاله كذا وكذا ــ آستخرنا الله تعالىٰ وفوّضنا إليه الحُكْمَ والقضاءَ بمكانِ كذا، فليباشِرْ ذلك» علىٰ نحو ما تقدّم فى التقليد الذى قبله .

الصنف الثانى

(إسجالاتُ العَدَالة)

قد جرت العادةُ أن أبناء العُلَماء والرُّؤساء تثْبت عدالتُهم على الحُكّام، ويُسجّل لهم بذلك، ويحكُم الحاكمُ بعَدالةِ من تثْبُت عَدالتُه لديْه، ويُشْهِدُ عليه بذلك، ويكتب له بذلك فى دَرْجٍ عَرِيضٍ، إمَّا فى قَطْع فرْخة الشامىّ الكاملة، وإما فى نحو ذلك من الورَق البَلَدىّ، وتكون كتابته بقلَم الرِّقاع وأسْطُره متوالية، بين كلِّ سَطْرين تقدير عَرْضِ أصبع أو نحو ذلك .

قلتُ : وهذه نُسْخة سِجِلٍّ أنشأتُه، كُتِبَ به لولَدى نجْمِ الدِّين أبى الفَتْح محمد، وكُتِبَ له بها عند ثُبوت عَدالتِه، على الشَّيخ العَلّامة ولىِّ الدِّين أحمدَ، آبنِ الشَّيْخ الإمامِ الحافِظ زَيْنِ الدِّين عبد الرَّحيم العِراقىِّ، خليفةِ الحُكْمِ العزيز بمصرَ والقاهرةِ المحروستين، فى شهور سنة ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة، وهى :

الحمدُ لله الذى أَطْلعَ نَجْمَ العَدَالة من سَماءِ الفضائل فى أُفُقِ معاليها، وأنار بدرارىِّ العُلَماء من حَنادِسِ الجهالة مُدْلَهِمَّ لياليها، وكَلَّلَ عُقُودَ النَّجابة من نُجَباءِ الأبناء بأعلىٰ جَواهِرِها وأنْفَس لآليها؛ وأشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُرَقِّى قائلَها إلىٰ أرفع الذُّرا، ويَمتطى مُنْتَحِلُها صَهْوَةَ الثُّرَيّا : وإنَّا لنَرْجُو فوقَ ذلك مَظْهَرا؛ وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بمحاسِنِ الشِّيَم، والموصوفُ بكَرَمِ المآثِرِ ومآثِرِ الكَرَم؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحْبِه الذين تمسَّكوا من عُرا الدِّين بالسَّبَبِ

الأَقْوىٰ، وسَلَكُوا جادَّةَ الهِـدايَةِ فحَصَلُوا من أقصىٰ مُغَيَّاها على الغَـايَةِ القُصْوىٰ؛ وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا .

وبعدُ، فلمَّا كانتِ العدالةُ هى أُسَّ الشريعة وعِمادَها، ورُكْنَهَا الأعْظَمَ فى الآستناد إلى الصَّوابِ وسِنَادَها، لا تُقْبَل دونَها شهادةٌ ولا رِوَايَه، ولا يصحُّ مع عَدَمِها إسْنادُ أمْرٍ ولا وِلَايَه ــ فقد بُنِيَتِ الشريعةُ المطَهَّرةُ علىٰ أرْكانِهـا ، واعْتَمَد الرُّواة فى صِحَّةِ الأخبار علىٰ أُصُولِهـا وتعلقتِ الحُكَّام فى قَبُولِ الشهادة بأحْضَانِهـا ؛ إذ هى المَلَكَة الحَامِلَة علىٰ مُلازَمَةِ التَّقْوىٰ ، والحَفِيظَةُ المـانِعَةُ من الوقوع فى هُوَّةِ البِدَعِ المُتَمَسَّكُ بسَبَبِها الأَقْوىٰ ؛ والحَكَمَةُ الثَّانِيَةُ عن الجِمَاحِ إلى آرتكاب الكبائر، والعِنَانُ الصَّارِفُ عن الجنوح إلى الإصرار على الصَّغائر؛ والزِّمامُ القَائِدُ إلىٰ صَلاحِ أعمـال الظواهر وسَلَامة عَقَائد الضَّمائر .

ولمـا كان مجلسُ القاضى الأجَلِّ ، الفَقِيهُ ، الفاضِـلُ ، المشتغلُ ، المحصِّـلُ ، الأصيلُ، نَجْمُ الدِّين، سَلِيلُ العلماء، أبو الفَتْح محمدُ بن فلان القَلْقَشَنْدىُّ الفَزَارىُّ ، الشَّافِعىُّ، خليفةُ الحُكْم العزيز بالقاهرة المحروسـة والِدُه، والحاكِمُ بالعَمَـلِ الفلانىِّ ومامعهما: أيَّدَ الله تعالىٰ أحكامَه، وأقرَّ عَيْنَه بولَدِه ــ هو الذى وُلِدَ علىٰ فِرَاشِ الدِّيانه، وظَهَرتْ عليـه فى الطُّفُولية آثارُها، ونَشَأَ فى أحْياءِ الصِّيانه ، فرُوِيَتْ عنه بالسَّـنَد الصحيح أخبارُها، وآرْتَضع ثَدْىَ العِلْمِ حين بُزُوغِ نَجْمِه، وغَذِيَه مع لِبَانِ أُمِّه فأمْتَزج بَدمِه ولَحْمِـه وعَظْمِه ؛ وأَعْلَنَ مُنادِى نَشْأته بجميل الذِّكْر فأغْنَىٰ فيه عن الآسْتِخْبار ، ولاحَتْ عليـه لوائِحُ النَّجابة فقضى له بالكمال قبل أن يَبْلُغَ قمرُ عُمْرِه زَمَنَ الإبْدار ؛ فلم يَرِدْ مَنْهَلَ التكليف إلا وقد تَزَيَّن من مَحَاسِنِ الفضائل بأكمل زَيْن، ولم يَبْلُغْ مَبْلَغَ العِلْمِ حتّىٰ صار لوالده ــ ولله الحمدُ ــ قُرَّةَ عَيْن ــ رُفِعَتْ قِصَّةٌ مخبِرةٌ عن حاله فيها من مضمون السؤال طَلَبُ الإذْنِ الكريم بسَماعِ بَيِّنَـةِ المذكور، وكتابة إسجالٍ بعدَالَتِه،

فشملها الخطُّ الكريمُ العالى ، المَوْلَوِىُّ ، القاضَوِىُّ ، الإمامىُّ ، العالِمىُّ ، العاملىُّ ، العَلَّامىُّ ، الشَّيْخىُّ ، المحدِّثىُّ ، الحَافظىُّ ، الحَبْرِىُّ ، المجتهِدىُّ ، المحقِّقِىُّ ، المدقِّقىُّ ، الوَحيدىُّ ، الفَريدىُّ ، الحُجِّىُّ ، الحُجَجِىُّ ، الخَطيبىُّ ، البَليغىُّ ، الحاكِمىُّ ، الجَلالىُّ ، الكَنَانىُّ ، البُلْقِينىُّ ، الشافعىُّ ؛ شيخُ الإسلام ، الناظرُ فى الأحكام الشرعية بالديار المصرية ، والممالك الشريفة الإسلامية : أدام اللهُ تعالىٰ أيامَه ، وأعزَّ أحكامَه ؛ وأحْسَنَ إليه ، وأسبغ نِعَمَه فى الدَّارَيْنِ عليه ـ لسَيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ ، الشَّيخِ الإمامِ العالِمِ ، الحافظ ، ولىِّ الدِّينِ ، شرفِ العلماء ، أوْحَدِ الفُضَلاء ، مُفْتِى المسلمين ، أبى زُرْعة أحمدَ ابنِ سَيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ زَيْنِ الدِّين ، شيخِ الإسلام ، قاضِى المسلمينَ ، أبى الفضلِ عَبْدِ الرَّحيم ، ابنِ سَيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ بَدْرِ الدين ، شرفِ العُلَماء ، أوْحَدِ الفُضَلاء ، مُفْتِى المسلمين ، أبى عبد الله الحسين العِرَاقىِّ الشافعىِّ ، خليفةِ الحُكْمِ العزيزِ بالقاهرة ومِصْرَ المحروستين ، والحاكِمِ بالأعمال المُنُوفيَّة ، ومُفْتِى دار العَدْلِ الشريف بالديار المصرية : أيَّد الله تعالىٰ أحكامَه ، وأحسنَ إليه بالنظر فى ذلك على الوَجْهِ الشَّرعىِّ .

فحينئذ سَمِعَ سيدُنا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ الشيخُ الإمامُ ، العالمُ ، الحافظُ ، ولىُّ الدِّين ، الحاكمُ المشارُ إليه : أحسنَ الله تعالىٰ إليه ـ البَيِّنَةَ بتَزْكِيَتِه ، وصَرَّحَتْ له بالشَّهادة بعدالته ، وقَبِلَها القبولَ الشرعىَّ السائغَ فى مثْلِه .

ثم أشهدَ علىٰ نَفْسِه الكريمةِ مَن حَضَر مجْلِس حُكْمِه وقَضَائِه ، وهو نافذُ القضاء والحُكْمِ ماضيهما ، وذلك فى اليوم المبارك يومِ الأربعاء الثامنِ والعشرين من شَهْر رجب الفَرْد سنةَ ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة ـ أنَّه ثَبَتَ عنده وصَحَّ لديه : أحسن الله إليه ـ على الوَضْعِ المعتبر الشرعىِّ ، والقانون المُحَرَّر المَرْعىِّ ؛ بالبينة العادلة المَرْضيَّة ، التى

تَثْبُت بمثلها الحقوقُ الشَّرْعيَّه ـ عَدَالةُ القَاضِى الأجلِّ، العَدْلِ ، الرَّضِىِّ ، نَجْمِ الدين محمدٍ المسمىٰ أعلاه : زاده الله تعالىٰ تَوْفيقا، وسَهَّلَ له إلى الخَيْرِ طريقا، وما ٱشتمل عليه من صِفَاتها، وتحلَّىٰ به من أَدواتها، ثُبُوتًا صَحِيحًا مُعْتبرًا، مستوفَى الشرائِط مُحَرَّرًا.

وأنه ـ أيَّد الله تعالىٰ أحكامه ، وسَدَّد نَقْضَه و إبْرامَه ـ حَكَمَ بعَدَالته ، وقَبُولِ شهادته ، حُكْمًا تامًّا وجَزَمَه ، وقضىٰ فيه قَضَاءً أبْرَمَه، وأَذِنَ له ـ أيَّد الله تعالىٰ أحكامَه ـ فى تَحَمُّلِ الشهادة وأَدَائها، وبَسْطِ قَلَمِه فى سائر أَنْدِيَتِها وأَرْجَائها، وأجراه ـ أَجْرَى الله تعالى الخيراتِ علىٰ يَدَيْه ـ مُجْرىٰ أمثالِه من العُدُول، ونَظَمَه فى سِلْك الشُّهَداءِ أَهْلِ القَبُول، ونَصَبه بين الناس شَاهِدًا عَدْلا، إذ كان صالحًا لذلك وأَهْلا.

فلْيَبْسُطْ بالشهادة قَلَمَه، ولْيُؤَلِّفْ علىٰ شروط أَدائها كَلِمَه، ولْيَحْمَدِ اللهَ تعالىٰ علىٰ ما مَنَحه من مَلابِسها الجميله ، وأَنالَه من التَّرَقِّى لرتبتها الجَلِيله ، ولْيتَّقِ اللهَ تعالىٰ فى مَوَارِده ومَصَادِره، ولْيَسْلُكْ مَسالكَ التقوىٰ فى أَوّلِ أَمْرِه وآخِرِه، وليعلَمْ أن مَن سَلَكَ الحَقَّ نَجا، ومن يَتَّقِ اللهَ يجعلْ لَهُ مَخْرَجا . أَوْزَعَه الله تعالىٰ شكرَ هذه الرتبة العليه، والمَنْزِلةِ السَّنِيَّه .

وتقدّم أَمْرُ سيدنا العَبْدِ الفقيرِ إلى الله تعالى الشيخِ الإمام، العالِم، الحافِظ، وَلِىِّ الدين، الحاكِمِ المذكور، وَقَاه الله تعالىٰ كُلَّ مَحْذُور، بكتابة هذا الإسجال، فكُتِبَ عن إذنه الكريم، متضمِّنًا لذلك مسئولا فيه، مُسْتَوْفيا شرائطَه الشرعية . وأَشْهَدَ علىٰ نَفْسِه الكريمة بذلك فى التاريخ المقدّم ذِكْرُه بأعاليه، المكتوب بخَطِّه الكريم ـ شرفه الله تعالىٰ، حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوَكِيل .

قلتُ : والعادة أن يُعَلِّمَ فيه الحاكم عَلامةً تِلْوَ البسملة، ويَكْتُبَ التاريخَ فى الوَسَط، والحَسْبَلَةَ فى الآخِر، كل ذلك بخَطِّه ، ويُشْهِدَ عليه فيه من يَشْهد عليه من كُتَّاب الحُكْم وغيرهم، كما فى سائر الإسجالات الحُكْمِيَّة .

الصـــــنف الثـالث

(الكُتُب إلى النُّوّاب ومافى معناها)

واعلَمْ أنَّ الكُتُبَ التى تُكْتب عن القُضاة ألْفَاظُها مُرْسلةٌ، لاجُنُوح فيها إلىٰ فَنّ البلاغة والسَّجْعِ إلا فى القَليل النَّادِر .

وهذه نسخةُ كتابٍ كُتِب به عن قاضى القُضَاة فَخْرِ الدِّين الشافعىّ، إلى الحُكَّام بالمملكة، وهو :

أدام الله فضائل الجَنَابات العَالِيَــة والمجالس العالية ، وجعلهم قَادَةً يُقْتَدىٰ بهم فى القَوْل والعَمَل، و و (١) الاْحتِفال من يعتنىٰ بأمْرِه ويُحْتفل ، ولاسيَّما من سارتْ طريقةُ فَضْله المُثْلىٰ فى الآفاق سَيْرَ المَثَل ؛ ولا زَالَ عَرْفُ مَعْروفهم علىٰ ذَوِى الفضائل يَفُوح، وجِيَاد جُودِهم تَغْدُو فى مَيْدان الإحسان وتَرُوح، ونيلُ نَيْلِهم يَسْرِى إلى القُصَّاد فيُحْمَد سُرَاه عند الغَبُوق كما يُحْمَد سُرَاه عند الصَّبُوح .

هذه المكاتبةُ إليهم تُقرِيهم سلامًا ألْطَفَ من النَّسِيم ، وتُهْدِى إليهم ثَنَاءً مِزَاجُ كاتبه من تَسْنِيم ؛ وتُبْــدِى لعلومهم الكريمة أن الجناب الكَرِيمَ ، العالِىَ، الشَّيخىَّ ، الإمامىَّ ، الفاضلىَّ ، البارِعىَّ ، الأوْحَدِىَّ ، الأكْمَلىَّ ، البليغىَّ، المقَدَّمِىَّ، الخَطِيبىَّ، البَهائِىَّ، أوحدَ الفضلاء، فَخْرَ العلماء، زَيْنَ الخُطَباء، قِبْلةَ الأدَباء ، قُدْوة البُلَغاء، صَفْوَةَ الملوك والسلاطين ، خَطِيبَ المَوْصِل ـ أدام الله المَسَرَّةَ به ، ووَصَــل الخَيْر بسَبَبِه ، ونفعَ بفوائد فَضْله وأدَبِه ـ ورَدَ علينا بطَرَابُلُسَ المحروسةِ، فحصلَت المسَرَّةُ بذلك الوُرُود، وتجدَّد بخِدْمته ماتقدم من وَثِيق العُهُود، وأبْدىٰ لنا من نَظَرِه الفَائِقِ الرَّقِيق ، وإنْشائه المُغْنِى عن نَشْــوَة الرَّحيق ، وكِتَابَتِــه التى هى السِّحْرُ الحَلَالُ على

(١) بياض بالأصول .

التَّحْقِيق ؛ ما نَزَّه الأَبْصارَ وشَنَّفَ الأسماع ، وقَطَعَ من فُرْسانِ الأدَبِ أسْبَاب الأَطْماع ؛ فأزالَ عن القَلْبِ الكَئِيبِ فِكْرا ، وأَنْجَلَ من الرَّوْض الأَنِيقِ زَهْرا ، وأَحْمَل من المِسْكِ السَّحِيق عِطْرا ؛ وكَيْفَ لا ؟ وهو النَّفِيسُ الذى جُمِعَ فيه قَدِيمُ الأدَبِ وحَدِيثُه ، والجَلِيسُ الذى لا يُسْأَم كَلامُه ولا يُمَلُّ حَدِيثُه ؛ يالَه أَبِيًّا ليس فيما يُبْدِيه من الأَدَبِ تَحْرِيفٌ ولا غَلَط ، وفاضِلًا لو لم يكنْ بَحْرًا لما كان الدُّرُّ من فِيه يُلْتَقَط ؛ يَمِينُه وفِطْنَتُه الكَرِيمتان ذَواتَا أفْنان ، فهذِه إن رَقَمَتْ طِرْسًا فرُوحٌ ورَيْحان ، أو بَذَلَتْ بِرًّا فعينان تَجْرِيان ؛ وهذِه إن نَظَمتْ شِعْرًا فيَاقُوتٌ ومَرْجَان ، أو نَثَرتْ تِبْرًا فثَمِينُ الدُّرِّ أَلْوان ؛ ما بَرِح الفضلاءُ إلى لِقَائِه يُسارِعُون ، وحَقَّ لهم أن يُسارِعُوا ومن أبواب مَعْروفِه يَقْتَبِسُون ؛ وكَيْفَ لا ؟ وهو الشِّهاب السَّاطِع ، والجَلِيلُ الذى لم نَزَلْ نُشِير إليه بالأصَابِع ، والنَّبِيلُ الذى تَجْرِى لفِراقِه من عُيُونِ اللَّبِيبِ المَدَامِع ، والنَّزِيل الذى يُنْشِدُه العَارِفُ عند وَدَاعِه :

* بِعَيْشِكَ خَبِّرْنِى مَتَى أنْتَ راجِع *

يَعْرِفُ المُحْسِنُ إحْسانَه فينشُرله من الثَّناء لِواء ، ويُجْمِلُ فى مَدْحِ صِفاتِه ونُعوتِه الإنشاءَ إن شَاء ؛ ويُجْزِلُ فى ذَمِّ مستحِقِّ الذَّمِّ منه الهِجاء ، فأَكْرِمْ به مَدَّاحًا وأعْظِمْ به هَجَّاء ؛ العُلَماء لحُضُورِه يترقَّبُون ، وإليه يتقرَّبون ؛ والفُضَلاء بفَضْله يَعْتَرِفُون ، ومن بَحْرِه يغْتَرِفُون ؛ والأُدَباء إليه يَسْتَبِقُون ، ومنه يَقْتَبِسُون ؛ والطَّلَبَةُ بأَذْيالِ فَضْله يتَمَسَّكُون ، وبنَشْرِ أثْنِيَتِه يتَمَسَّكُون ؛ وإخْوانُه فى اللهِ بوجُوده يَفْتَخِرون ، وإلى جُوده يفْتَقِرُون ؛ كُلَّما عَرَضَتْ لهم حَاجَةٌ تمَسَّكُوا بإيثاره ، وكُلَّما عانَدَهم الدَّهر سَأَوه الإمْداد بأنْصارِه ؛ فيُجَوِّدُ فى خِدْمتهم بيانَ بَنَانِه ، ويُجَرِّدُ فى نُصْرتِهم سَيْفَ لِسانِه .

ثم من قبل أن نَبْلُغَ منه الوَطَر، ومن دُونِ أن يَكْتَفِيَ منه السَّمْع والبَصَر؛ عَرفْنا أنه قَصَـد التَّوجُّه إلى البلاد الساحِليَّه، والأعمال الطَّرابُلُسيَّه؛ ليُمْلِيَ على أهْلِها من فضائله البَاهِرة الباسِـقَه، وألفاظِه التى هى كالدُّرَرِ المُتناسِـقَه؛ ويُجْلِيهم عَرائِسَ الأفكار من أفكاره، ويُجْنِيهم غَرائِسَ الأَثْمَـارِ من أشجار عِلْمِه، ويُرِيهم البَدِيهة البديعه، والقَوَافِيَ المُجِيبةَ المُطِيعَه.

فلْيَتَقَدَّمْ الجمـاعةُ ـ أيدهم الله تعالىٰ ـ بإكرامه إكْرامَ الأهْلِ والأصحاب، وتَلَقِّيه بالبِشْرِ والطَّلاقَةِ والتَّرْحاب؛ وإحْلالِه مِن الإحسان مَحَـلًّا ساميا، وإنْزالِه من الإفضـال مَنْزِلًا عَاليا؛ والاعْتِناءِ الوَافِرِ بأمْرِه، واسْتِجلابِ بَثِّ حَمْـدِه وشُكْرِه؛ والْتِقاطِ دُرَرِ فوائده، واكْتِسابِ غُـرَرِ فرائده؛ والإصْغاءِ إلى المَنْثُور والمَنْظُوم من أقواله، والتَّعَجُّبِ من حُسْنِ بَدَاهَتِـه وسُرْعة ارْتِجالِه.

ولْيُحْتَفَلْ كلَّ يومٍ بخِدْمتِه غاية الاحْتِفال، ويُعْتَنَ بأمْرِه اعتناءً لا يُشَارِكُه تقْصِيرٌ ولا إهمـال؛ ويُرْعَ له حقُّ الضَّيْفِ الجليل، والقَادِمِ الذى إذا رَحَلَ عن بَلَدِه أبقىٰ له بهـا الذِّكْرَ الجميل؛ ويُسَاعَدُ علىٰ ما تَوجَّه بصَدَدِه كلَّ ساعةٍ يَعُودُ نفعها عليـه، ويُنْفِق ممـا آتاه الله ويُحْسِن كما أَحْسَنَ الله إليه.

ونحن نُؤَكِّد على الجماعة ـ أيَّدَهم الله ـ فى ذلك كلَّ التأكيد، ونُبَالِـغُ فيه مُبالَغَةً ماعليها من مَزِيد؛ ونُحذِّرُهُم من الإهمـال والتَّسْوِيف والتَّقْصِير، ومن مُقابَلَةِ جَنَابِه الكريم بالنَّزْرِ الحقـير والقَـدْرِ اليَسِير؛ فإكْرامُ هـذا الرجل ليس كإكْرامِ مَن لم يَسِرْ بسَيْرِه، وما هو إلا لعِلْمِه وفَضْله وخيرِه، وقد قال الإمام الشافعىُّ رضى الله عنه: « ولَيْسَ من يُكْرَمُ لنَفْسه كالذى يُكْرَمُ لغَيْرِه ».

فَلْتُعَظِّمُوه كلَّ التعظيم وتُنْزِلُوه منزلةً تَلِيق بأهْـلِ الفَضْلِ والإفضال، وتَرْفَعُوا له المَقـامَ وتَحْفَظُوا له المَقَال؛ ليَعُودَ مُحقِّقَ الآمالِ مُبَلَّغَ المَقَاصِـد، ناشرًا أَلْوِيَةَ الثَّناءِ

والمحامد ، مشمولًا بجميل الصِّلَة والعائد ؛ ونحن منتظرون ما يَرِدُ عنه من مكاتباته الكريمة بما وصل إليه من ... ... الحسنه (١) .

وفى هِمَمِهم العليَّه ، ومكارِمِهم السَّنيَّه ، ما يُغْنِي عن التأكيد بسَبَبِه والوصيَّه ؛ والله تعالىٰ يُديمُ عليهم سابِغَ الإفضال والإنعام ، ويُجَمِّلُ بوجودهم وجُودِهم الأَحْكامَ والحُكَّام ؛ بمنّه وكَرَمه .

الصنف الرابع
(ما يُكْتَب فى ٱفتتاحات الكُتُب)

فمن ذلك ما يُكْتب فى أوائل كُتُبِ الأوقاف .

وهذه نسخة خُطْبة فى ٱبتداء كِتابِ وَقْفٍ علىٰ مَسْجِد ، وهى :

الحمدُلله جامِعِ الناسِ ليَوْمٍ لارَيْبَ فِيهِ إنه لايُخْلِفُ الميعاد ، ونَاصِرِ الدِّين المُحَمَّدِيِّ بنَبِيِّنَا صلَّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله الكِرَامِ الأَمْجاد ، ومُشَرِّفِ هذه الأمَّة بالأَئِمَّةِ والجُمَعَة والجماعات من أهْل الرَّشاد ، وجاعِلِ من ٱرْتضاه من أرْبابِ سُنَّةِ نَبِيِّه المختار من عباده العُبَّاد ، ومُيَسِّر القُرُباتِ إليه لأهْلِ السَّداد ، ومُرِيد الأعمال الصالحات مِمَّن أخلصه بالطاعات ومَزِيدِ الإرْفاد ، ومُفَضِّل الأوقاف علىٰ أَفْضَلِ وُجُوهِ البِرِّ من جعله للخَيْرِ أهْلًا بالنَّفْعِ المتعدّى وكَثْرة الأَمْداد ، ومُعَظِّمِ الأَجْرِ لمن بَنَىٰ بيتًا للهِ بِنِيَّةٍ خَلِيَّةٍ من الرِّياء والعِناد ، وقد قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم : "مَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا للهِ ولَوْ كَمَفْحَصِ قطَاةٍ بَنَى اللهُ تعالىٰ له به قَصْرًا فى الجَنَّة" ونَرْجُو من كَرَمِ الله الآزْدِياد .

(١) بياض بالأصل ولعله : من المنازل الحسنة الخ أو ما أشبهه .

أحمدُه علىٰ مَوَادِّ نِعَمِه التى جَلَّتْ عن التَّعـداد ، وأشْكُره شُكْرًا وافيًا وافرًا نجعلُه ذَخِيرةً ليومِ التَّنادِ ، وأَسْتَمِدُّ من اللُّطفِ لَوَازِمَ الفَضْـلِ الخَفِيِّ وهو الكَرِيم الجَوَاد ، وأشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الخاتِمُ الحَائِمُ علىٰ حَوْضِه الوُرَّاد ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه ما أُصْغِىَ إلى الذِّكْر وأُجِيبَ كلُّ داعٍ من حاضِرٍ أو بَاد .

وبعدُ ، فلمَّـا كانتِ المَثُوباتُ مَضمونَةَ الأَجْرِ عند الكريم ، والأعمـالُ متعَدِّدةً فى التَّقْديم ، وكان بُنْيانُ المَسَاجد وافِرًا أجْرا ، لمن أقام بواجِبِ تِبْيانِ الظَّنِّ الجميـل وسَدَّد إلى الخيرات سَيْرا ، وقد قال تعالىٰ : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِى بِى.فَلْيَظُنَّ بِى خَيْرا » . ورَأَى العُـقَلاءُ أنَّ الأَوْقاف على المَسَاجد والجَوَامِع من أنفَسِ قَواعِدِ الدِّين وأعلىٰ ــ فلذلك قيل فى هذا الإسْجالِ المُبارَك :

هذا ما وَقَفَه وحَبَّسَه، وسَبَّله وأبَّدَه فلان.وقَفَ وحَبَّس رَغْبةً فى مزيد الثَّواب ، ورَجَاءً فى تَهَوُّن تَهْويل يَوْمِ الحِساب ، واغْتِنامًا للأجْرِ الجَزِيل من الكريم الوَهَّاب ، لقول الله تعالىٰ فى الآيات المَبْرورة : ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَه﴾ . وقَفَ بنِيَّةٍ خَالِصَه ، وعَزِيمَةٍ صالِحَه ، ونِيَّـة صادِقَه ، ما هو له وفى مِلْكه ، وحَوْزِه ويَدِه وتَصَرُّفِـه ، من غير مُنَـاظِرٍ له فى ذلك ولا شَرِيك ، (ثم يَذْكُر الوَقْف) .

الفصـــل السادس

فى العُمراتِ التى تكتَبُ للحـاجّ

وهذه نسخةُ عُمْرةٍ ٱعتمرها أبو بكر بن محمد الأنصارىّ الخَزْرِجىُّ ، عند مُجاوَرَتِه بمكّةَ المشرفةِ فى سنة سبعٍ ، وسنة ثمـانٍ ، وسنة تسعٍ ، وسنة عشر وسبعمائة ، للسلطان المَلِك الناصر «محمد بن قلاوون» ، وهى :

الحمدُ لله الذى جَعَل البَيْتَ مَثابَةً للناس وأَمْنا ، وأَمَّنَ مَن فيه بالقائم بأمْرِ الله ومَنْ هو للإسلامِ والمُسْلمين خَيْرُ ناصر ، وجَعَله ببكّةَ مُباركًا ، ووَضَع الإِصْرَ بمَن كَثُرتْ منه ومن سَلَفه الكَريم على الطّائِفِين والعاكفين الأواصر ، وعَقَـدَ لِواءَ المُلْك بخير مَلِكٍ وهو واحدٌ فى الجُودِ أَلْفٌ فى الوَغَىٰ : ففى حالَتَيه تُعْقَد عليه الخَناصر ، وأَطاب المُقَام فى حَرَمِ الله تعالىٰ وحَرَمِ سَـيِّدنا رَسُولِ الله صـلَّى الله عليه وسلم بمَن يَسْتَحقُّ السَّلْطنة بذَاته الشريفة وشَرَف العَناصر ؛ وسهل الطَّرِيقَ ، إلىٰ حَجِّ بَيْته العَتِيقِ ، من المَشارِق والمَغارِب فى دَوْلَةِ مَن أَجْمعتِ القُـلوبُ علىٰ محبَّته ووَرِثَ المُلْكَ كابِرًا عن كابِر ، وأَنْطقَ الأَلْسِنَةَ بالدعاء له من كلِّ وافِدٍ إلىٰ بَيْته الحَرام على ٱختِلاف لُغَاتِهم وٱهْتَزَّتْ لوَصْفِ مَناقبِه المَنابِر .

أحمدُه علىٰ ما بَلَّغ من جَزِيل إنْعامه ، وأشْكُره شُكْرًا أسْتَزِيدُ به من فَضْـلِه ونَوالِه وإكْرامه ، وأشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له نعم الذَّخيرةُ لصاحِبها يوم لِقائه وعند قِيامه ، وأَقُولهـا خالِصًا مُخْلِصًا ويَافوْزَ من كانت آخِرَ كَلامه ؛ وأشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ مبْعوثٍ إلى الحَقِّ دُعِيَ فجاء بأشْرَفِ مِلَّه ، فقال صلى الله عليه وسلم : «عُمْرَةٌ فى رَمَضان تَعدِلُ حَجَّه» صلى الله عليه وعلىٰ جميعِ آله وأصحابه

خُصُوصا علىٰ خَلِيفَتِه فى أُمَّتِـه المَخْصوصِ بالسَّبْق والمُؤَازَرَةِ والتَّصْـديق ، مولانا أبى بكْر الصّدّيق ؛ وعلىٰ مُظْهِرِ الأَذَانِ ومُصَـدِّقِ الخطَّاب ، مولانا أمير المؤمنين عُمَر بنِ الخَطَّاب ؛ وعلىٰ من جَمَـع على الأُمَّةِ آياتِ القُرآن ، مَوْلانا أميرِ المؤمنـين عُثْمانَ بنِ عَفَّان ؛ وعلى ٱبْنِ عَمِّـه ، وَارِثِ عِلْمِه ؛ الجـامع لجميع المآثِرِ والمَنَاقب ، مَوْلانا أميرِ المؤمنين عَلِيّ بنِ أبِى طَالِب ؛ وعلىٰ بَقِيَّة الأنصار والمُهَاجِره ، سادَاتِ الدُّنيا ومُلُوكِ الآخِرَه ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

و بعدُ ، فإن الله تعالىٰ مَالِكُ المُلْكِ يُؤْتِيه مَن يَشَاءُ من عباده ، والخَيْرُ بِيَدِه يُفِيضُه علىٰ خَلْقِـه فى أَرْضِـه و بِلَادِه ؛ فإذا أراد اللهُ تعالىٰ بعباده خَيْرًا نَصَر نَاصِرَهم و رَفَع عنهم الغَلَا ، ودَفَع عنهم العِدَا ، و وَلَّى عليهم خِيَارَهم ؛ فيُقِيمُه من خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس ، لِيُـذْهِبَ عنهم الضَّرَرَ و يُزِيلَ عنهـم البَاس ؛ و يَأْمُرَ بالمعروف ويَنْهىٰ عن المُنْكَر ، ويُنْصِفَ المَظْلومَ من الظَّالم ويقيمَ مَنَار الشَّرْعِ المُطَهَّر .

ولمـا كان مولانا السلطانُ الأعْظَم ، والشَّاهِنْشاه المُعَظَّم ؛ المَلِكُ النَّاصِرُ ـ خَلَّد الله سلطانه ـ قد جمع فى المَحْتِدِ بين طَارِفٍ وتَالِد ، ووَرِثَ المُلْكَ عن أَشْرَفِ أَخٍ وأَعْظَم وَالِد ؛ وقامتْ على ٱسْتِحقاقه للسَّـلْطنة الدلائل ، وأَلِفَه سَرِيرُ المُلْك وعَرَفَ فيه من وَالِدِه ومن أَخِيه ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ الشَّمائِل ؛ فهُو المَـالِكُ الذى لم يَزَلِ المُلْكُ به آهِلًا ولم يَزَلْ له أَهْلا ، والسَّيِّد الذى لَبِسَ حُلَّةَ الفَخَار فلم نَجِدْ له فى السُّؤْدُدِ والفَخَار مِثْـلا ، والمَلَكُ الذى ما بَدَا لِرَائِيه إلا قيـل : بَحْرٌ طَمَىٰ أو بَدْرٌ تَجَلَّىٰ ؛ والمُؤَيَّدُ الذى خَصَّه الله تعالىٰ بعُلُوِّ شَأْنه وٱرْتقائه ، ولم يَرْضَ مَرَاقِدَ الفَرَاقِد لعَلْيائِه ؛ والكَرِيمُ الذى سادَ الأَوَائِلَ والأَوَاخِر ، وأُضْفِيَتْ عليه حُلَلُ المَفَـاخِر ؛ والمَنْصُورُ الذى أُعْطِى على الأَعْدَاءِ قُوَّةً ونَصْرا ، والنَّاصرُ الذى ٱتَّسَع مَجَالُ نَصْرِه فأخذ الكُفَّارَ حَصْرا ، وحكمت سُيُوفُه القَواضِبُ فوَضَعَتْ عن الأولياء إِصْرا ؛ قد خَصَّه الله تعالىٰ بالعِزِّ والنَّصْرِ كَرَّةً

بعد كَرَّه، وفَضَّلَه علىٰ سَائرِ مُلُوك الإسلام بالحَجِّ وزِيارَةِ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم مَرَّةً بعد مَرَّه، ومَرَّة أخرىٰ إن شاء الله تعالىٰ ومَرَّةً ومَرَّه !!! كم سَلَكَ سَنَن وَالِدِه وأَخِيه ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ بالغَزَاةِ فكان له كُلُّ مَشْهَدٍ مَذْكور، وعُرِفَ تَقَدُّمه وإقْدَامُه فكان أعْظَم ناصِرٍ وأشْرَف مَنْصور، يَحْمَدُه الله تعالىٰ والناسُ عن جميل ذَبِّه عن الإسلام وحَمِيد فعله، وٱسْتَقَلَّ الجَزِيل فيُنِيلُ الجَمِيلَ لمن أَمَّ أبْوَابَه الشريفةَ فلا يُسْتَكْثَر هذا من مِثْلِه؛ ما حَمَلَتْ رَايَاتِه الشَّرِيفة كَتِيبَةٌ إلا نُصِرَتْ، ولا وَقَفَ بوجهه الكريم فى دَفْعِ طائفةِ الكُفْر إلا كُسِرَتْ؛ ولا جَهَّزَ عساكِرَه المنصورةَ إلىٰ قَلْعةٍ إلا نَزَل أهْلُها من صَيَاصِيهم، ولا حَاصَرُوا ثَغْرًا للكُفَّار إلا أَخَذُوا بنَواصِيهِم؛ ولا سَيَّرَ سَرِيَّةً لمُوَاجَهَةِ مُحَارِبٍ إلا ذَلَّ علىٰ رَغْمِه، ولا نَطَق لِسانُ الحَمْد للمُجَاهِد أو سَارَ الشاهد إلَّا وَقَفَ الحَمْدُ علىٰ قَوْله وٱسمِه؛ فاختاره الله تعالىٰ علىٰ عِلْمٍ على العالَمِين، وٱجْتَباه للذَّبِّ عن الإسلام والمسلمين؛ وجعله لسُلْطانه وَارِثا، وفى الملك مَالِكًا، وللقَمَرَيْنِ ثالثا؛ ولأموره سِدَادا، ولثُغُور بلاد الإسلام سَدَّادا؛ وفَوَّضَ إليه القيامَ بمَصَالح الإسلام، والنَّظَرَ فى مَصالح الخاصِّ والعَامّ؛ وعَدَق به أُمُورَ الممالك والأملاك، وأَطْلَع بسعادته أيْمَنَ البُرُوجِ فى أثْبَت الأفلاك؛ وحَمَى الإسلام والمسلمين من كُلِّ جانِبٍ شَرْقًا وغَرْبا، وملأَ بمَهَابَتِه البِلادَ والعِبادَ رُعْبًا وحُبّا؛ وبَسَط فى البسيطة حُكْمَه وعَدْلَه، ونَشَر على الخلائق حِلْمَه وفَضْلَه؛ وفَرَض طاعَتَه علىٰ جميع الأُمَم، وجَعَله سَيِّدا لملوك العُرْب والعَجَم؛ وأَمَّن بمَهَابَتِه كلَّ حَاضِرٍ وبَاد، ونَوَّم سُكَّانَ الحَرَمين الشريفين من كَنَفه فى أَوْطَإِ مِهاد؛ وسَكَّنَ خَوَاطِرَ المجاورين من جميع المَخَاوِف، وصَانَ بالمُقَام فى مَكَّة الطَّائفَ والعَاكِف؛ قد حَسُنَ مع الله تعالىٰ سِيرَةً وسَيْرا، ودَلَّتْ أيامُه الشريفةُ أنه خَيْرُ مَلِكٍ أراد الله تعالىٰ برَعِيَّتِه خَيْرا؛ ورَاعَى الله فيما رَعىٰ، وسَعَىٰ فى مصالح الإسلام عالِمًا أنْ لَيْسَ للإنْسَانِ إلَّا مَاسَعَىٰ.

قد ملأ أعين الرعايا بالطمأنينة والهجوع، وأمنهم فى أيامه الشريفة بالرخاء من الخوف والجوع؛ وجمع لهم بين سعادة الدنيا والأخرى، وسهل لهم الدخول إلى بيته الحرام برًّا وبحرا؛ وفتح الله تعالى على يديه - خلد الله تعالى سلطانه - جميع الأمصار، وملأ من مهابته جميع الأقطار:

فسارت مسير الشمس فى كل بلدة * وهبت هبوب الريح فى القرب والبعد!

فوجب على العالمين أن يدعوا لدولته الشريفة المباركة بطول البقاء، و[دوام] العلو والارتقاء؛ ووجب على كل من الواصلين إلى بيته الحرام وحضرة قدسه، أن يبتهل بالدعاء له قبل أن يدعو لنفسه؛ فكيف من هو مملوكه وابن مملوكه ووارث عبوديته، ومن لم يزل هو ووالده وإخوته فى صدقات والده الشهيد - رحمه الله تعالى - وعميم نعمته؛ العبد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر بن محمد بن المكرم الأنصارى الخزرجى، فإنه لم يزل مدة أيامه مبتهلا بصالح دعواته، متوسلا إلى الله تعالى بدوام نصره وطول حياته؛ طائفا عند مقامه الشريف حول بيته الحرام، والمشاعر العظام.

وأحب أن يتحفه بأشرف العبادة فلم يجد أجل مقدارا ولا أعظم أجرا، من عمرة يعتمرها عنه ويهدى ثوابها لصحائفه الشريفة ويزيد بذلك فخرا؛ فقام عنه بعمرتين شريفتين اعتمرهما عنه فى رمضان، مكملتين بإحرامهما وتلبيتهما، وطوافهما وسعيهما؛ يتقرب بذلك إلى أبوابه الشريفة، ويسأل الله تعالى ويسأل صدقاته الشريفة أن ينعم عليه بنصف معلوم صدقة عليه، وبنصفه لأولاده: ليقضى بقية عمره فى الثلاثة المساجد، ويخصه بجزيل الدعاء من كل راكع وساجد؛ وأن يكون ذلك مستمرا عليه مدة حياته، وعلى ذريته ونسله وعقبه بعد وفاته؛ لتشمل صدقات مولانا السلطان - خلد الله تعالى ملكه - الأحياء والأموات، ويطيب لغلمانه

فى أيامه الشريفة الممات ؛ جعل الله تعالىٰ مولانا السلطانَ وارثَ الأعمار ، وأجرىٰ بدوام أيامه الشريفة المقدار ؛ وجعل كلمة المُلْك باقيةً فى عقبه ، وبلَّغه من النَّصر والظَّفَر والأجر غاية أَرَبه ؛ وجعل أيامه كلَّها مَسَارَّ وبشائر ، ودولته تَسُرّ النَّواظر ، وسعادته ليس لها آخر ، ويهنِّئه بما قد أتمَّه الله له من مُلْك والده الشَّهيد رحمه الله تعالىٰ :

[أُهَنِّيكَ] بالمُلْكِ ياخيرَ مَنْ * أجارَ البرايا ومَنْ مارَها ،
ومَنْ ليس للأرض مَلْكٌ سواه * تُميلُ له الخَلْقُ أبصارَها !
وأنت الذى تَمْلِكُ الخافقين * (١) وإعْصارَها ،
وتَمْلِكُ سَيْبَ تَكْفُورِها * وتَركَبُ بالجيش أوْعارَها ،
وتَحْكُمُ فى المَرْءِ حُكْمَ المُلُوكِ * وتُنْشِدُ فى التَّخْتِ أشْعارَها ،
وتَفْتَحُ بَغْدادَ دارَ السَّلامِ * وتَنْفِى بمُلْكِكَ أكْدارَها ،
وتأخُذ بالعَسْكَرِ النَّاصِرِىِّ * قُصُورُ الخلافة أوْتارَها ،
ويأمَنُ فى ذلك العالَمُون * وتَحْمِى الأُسُودَ وأوْكارَها ،
وتَبْقَىٰ إلىٰ أن تَعُمَّ البِلادَ * بنُعْمَىٰ تُتَابِعُ إدْرارَها ،
ويَبْلُغُ مُلْكُكَ أقْصَى البِلاد * وتُجْرِى العِبادَ وأوْطارَها ،
ويَنْظِمُ سِيرَتَكَ النَّاظِمُونَ * وتُعْيِى مَغازِيكَ سُمَّارَها ،

[والله يُبْقِيه] (١) بعدها دائماً ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين ، كما سماه والده ناصرَ الدُّنيا والدِّين ؛ إنه علىٰ مايشاء قَدير ، وبالإجابة جَدير ؛ وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوَكيل .

---

(١) بياض بالأصول والتصحيح من المقام .

الباب الثانى

من المقالة العاشرة فى الهَزْلِيَّات[(١)]

ٱعلم أنه رُبَّما ٱعْتَنَت الملوكُ ببَعْضه، فاقْتَرَحتْ علىٰ كُتَّابها إنشاءَ شَيْءٍ من الأمور الهَزْلِيَّة، فيحتاجون إلى الإتيان بها علىٰ وَفْق غَرَض ذلك المَلِك . كما وقع لمُعِين الدَّولةِ ٱبن بُوَيْه الدَّيْلَمِيِّ فى ٱقتراحه علىٰ أبى إسحٰق الصَّابِى كتابةَ عَهْدٍ بالتَّطَفُّل، لرجُلٍ كان عنده ٱسْمُه عليكا، يُنْسَب إلى التَّطَفُّل، ويَسْخَر منه السلطانُ بسَبَبِ ذلك .

وهذه نسخةُ عَهْدٍ بالتَّطَفُّل، التى أنشأها أبو إسحٰق الصَّابِى لعليكا المَذْكُور :

هٰـذا ما عَهِدَ علىُّ بنُ أحمدَ المَعْرُوفُ بعليكا إلىٰ عَلِيِّ بن عُرْس المَوْصِلِيِّ ، حين ٱسْتَخْلفه علىٰ إحياء سُنَنِه، وٱسْتَنابه فى حِفْظ رُسُومه ؛ من التَّطَفُّل علىٰ أهل مَدِينَة السَّلَام وما يَتَّصِلُ بها من أرْباضِها وأكْنافِها، ويَجْرِى معها فى سَوادِها وأطْرافِها؛ لِمَا تَوَسَّمه فيـه من قِلَّة الحَيَـاء، وشِدَّةِ اللِّقاء، وكَثْرة اللَّقْم، وجَوْدَة الهَضْم ؛ ورآه أهْلًا له من سَدِّ مكانه، والرَّفاهَةِ المُهْمَلَةِ التى فَطِنَ لها، والرَّقَاعة المُطَّرَحَةِ التى ٱهْتَدىٰ إليهـا؛ والنِّعَم العائدةِ علىٰ لابسِيها بمَلَاذِّ الطُّعوم، وخِصْبِ الجُسُوم ؛ ورَدًّا علىٰ مَن ٱتَّسعَتْ حاله، وأقْدَره اللهُ علىٰ غَرائِب المأكولات، وأظْفَره ببدائع الطَّيِّبات؛ آخِذًا من ذلك كُلِّه بنَصِيبِ الشَّرِيك المُنَاصِف ، وضَارِبًا فيـه بسَهْم الخَلِيطِ المُفَاوِض ؛ ومُسْتَعْمِلًا للمَدْخَل اللَّطِيف عليه ، والمُتَوَلَّج العَجِيب إليه؛ والأسْباب التى سَتُشْرَح فى مَوَاضعها من أَوَامِر هذا الكتاب، وتُسْتَوفَى الدِّلالةُ علىٰ مافيها من رَشَادٍ وصَوَاب؛ وبالله التَّوْفِيق وعليه التَّعْوِيل، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوَكِيل .

(١) ذكر المؤلف فى بيـان محتويات الكتاب فى الجزء الأوّل (ص ٣٢) أن الباب الثانى فى الهزليات يشـتمل على فصلين : الفصل الأوّل فيما ٱعتنت الملوك ببعضه . الفصل الثانى فى سائر أنواع الهزل، ولكنه لم يذكر هنا الفصل الثانى، فليتنبه .

أمَرَه بتَقْوى الله التى هى الجانبُ العَزِيز، والحِرزُ الحَرِيز، والرُّكْن المَنيع، والطَّوْد الرَّفِيع، والعِصْمَة الكالِئَه، والجُنَّة الواقِيَه، والزَّادُ النَّافعُ يوم المَعَاد، وحيثُ الأمثلة من الأزْواد، وأن يَسْتَشْعِر خِيفتَه فى سِرِّه وجَهْرِه، ويُرَاقِبَه فى قَوْلِه وفِعْلِه، ويَجْعَل رِضَاه مَطْلبَه، وثوابَه مَكْسَبه، والقُرْبَةَ منه أرَبَه، والزُّلْفىٰ لديه غَرضَه، ولا يُخَالِفَه فى مَسْـعاةٍ قَدَم، ولا يَتعرَّضَ عنده لعاقبـةِ نَدَم، ولا يُقْـدِمَ علىٰ ما كَرِه وأنْكر، ولا يَتَقاعَسَ عما أَحَبَّ وأَمَر.

وأمَرَه أن يتأدَّبَ بأدبِه فيما يأْتِى ويَذَر، ويَقِفَ علىٰ حُدُودِه فيما أباحَ وحَظَر؛ فإنه إذا كان ذلك هِجِّيراه ودَيْدَنَه، وجرَىٰ عليه مِنْهاجَه وسَنَنَه؛ تكفَّلَ اللهُ له بالنَّجاح والصَّلاح، وأفْضىٰ به إلى الرَّشاد والفَلاح، وأظْفَره بكُلِّ بُغْيَـه، وأَوْصله إلىٰ كُلِّ مَشْـيَه، ولم يُخْلِه من الفوْز بمـا يُرِصد، والحَوْز بمـا يَقْصِد، بذاك وَعَد، وكذاك يَفْعَل، وما تَوْفيقُنا إلا بالله، ولا مَرْجِعُنا إلا إليه.

وأَمَرَه أن يتأمَّل ٱسْمَ التَّطْفِيلِ ومَعْناه، ويَعْرِفَ مَغْزاه ومَنْحاه، ويَتصفَّحَه تَصَفُّحَ الباحِثِ عن حَظِّه بمَحْمُودِه، غيرِ القائلِ فيه بتَسْلِيمه وتَقْليِده؛ فإنَّ كثيراً من الناس قد ٱسْتَقْبحه ممن فَعَـله، وكَرِهَه لمن ٱستعمله، ونَسَبه فيه إلى الشَّرَهِ والنَّهَم، وحَمَلَه منه على التَّفَهِ والقَرَم؛ فمنهم من غَلِط فى ٱستدلاله، فأساء فى مَقالِه؛ ومنهم من شَحَّ علىٰ ماله، فدافع عنه بٱحْتِيالِه؛ وكُلُّ الفريقين مَذْمُوم، وجَمِيعُهما مَلُوم؛ لا يتعلقان بعُذْرٍ واضِح، ولا يَعْتَرِيان من لباسٍ فَاضِح؛ ومنهم الطائفةُ التى ترىٰ فيها شَرِكَةَ العِنَان: فهى تَتَدَلَّه إذا كان لها، وتَتَدَلَّىٰ عليه إذا كان لغيرها؛ وترىٰ أن المِنَّة فى المَطْعَم للهَاجِم الآكل، وفى المَشْرَب للوَارِدِ الوَاغل، وهى أحَقُّ بالحُرِّيَّه، وأخْلَق بالخَيْرِيَّه؛ وأحرىٰ بالمُرُوَّه، وأولىٰ بالفُتُوَّه؛ وقد عرفت بالتَّطْفِيل، ولا عَارَ فيه عنـد ذَوى التَّحْصِيل،

لأنه مُشْتَقٌّ من الطَّفَلِ وهو وَقْت المَسَاء، وأَوَانُ العَشَاء، فلما كَثُر ٱسْتُعْمِلَ فى صَدْر النَّهار وعَجُزِه، وأوَّلِه وآخِرِه، كما قيل للشَّمْس والقَمَر: قَمَرانِ وأحَدُهما القَمَر، ولأبى بَكْر وعُمَر: العُمَران وأحَدُهما عُمَر، وقد سَبَق إمَامُنا بَيَانَ رَحْمَةُ الله عليه إلىٰ هـذا الأمر سَبْقًا أوجَبَ له خُلُود الذِّكر، فهو بَاقٍ بَقَـاءَ الدَّهر، ومُتَجَدِّدٌ فى كُلِّ عَصْر، وما نعرف أحدًا نَالَ من الدُّنيا حَظًّا من حُظُوظِها فبَقِىَ له منه أَثَرٌ يخلفـه، وصِيتٌ يَسْتَبِدّ به إلا هو وَحْدَه، فبَيَانٌ رِضْوانُ الله عليـه يُذْكر بتَطْفِيـلِه كما تُذْكَر الملوك بسِـيَرِها، فمَن بَلَغ إلىٰ نِهايَتِه، أو جَرىٰ إلىٰ غايَتِـه، سَعِدَ بغَضَارَة عَيْشِـه فى يومه، ونَبَاهَةِ ذِكْرِه فى غَدِه، جعلنا اللهُ جميعًا من السابقين إلىٰ مَدَاه، والمَذْكُورين كذِكْرَاه.

وأمَرَه أن يَعْتَمِدَ مَوائِدَ الكُبَرَاء والعُظَماء بغَزَايَاه، وسُمُطَ الأُمَرَاء والوُزَراء بسَرَايَاه، فإنه يَظْفَر منهـا بالغَنِيمَة البارِدَه، ويَصِلُ عليها إلى الغَرِيبَة النَّادِرَه، وإذا ٱسْتَقْراها وَجَد فيها من طَرَائِف الألوان، المُلِذَّة للسان، وبَدَائِع الطُّعُوم، السَّائغَة فى الحُلْقوم، ما لا يَجِدُه عند غيرهم، ولا يَنَاله إلا لَدَيْهِـم، لحِذْقِ صِناعَتِهم، وجَوْدة أدَوَاتِهـم، وٱنْزِياحِ عِلَلِهِم، وكَثْرة ذَاتِ بَيْنِهم، واللهُ يُوَفِّر من ذلك حَظَّنا، ويُسَدِّدُ نحوه لَحْظَنا، ويُوَضِّح عليه دَلِيلَنا، ويُسَهِّل إليه سَبِيلَنا.

وأمَرَه أن يَتَّبِع ما يَعْرِض لمُوسِرِى التُّجَّار، ومُجَهِّزِى الأمصار، من وَكِيرَةِ الدَّار، والعُرْس والإعْذار، فإنهم يُوَسِّعون علىٰ نفوسهم فى النَّوائب، بحَسَب تَضْيِيقِهم عليها فى الرَّاتِب، ورُبَّمـا صَبَروا علىٰ تَطْفِيـل المُتَطَفِّلين، وأَغْضَوْا علىٰ تَهَجُّم الوَاغِلين، ليَتَحَدَّثوا بذلك فى مَحَافِلِهم الرَّذْله، ويَعُدُّوه فى مَكَارِم أخلاقهم النَّذْله، ويقولُ قائلُهم البَاجِحُ باتِّساع طَعَامِه، المُبَـاهِى بكَثْرة حُطَامِه: إنِّى كنتُ أرىٰ الوُجُوه الغَرِيبَةَ فأُطْعِمها، والأَيْدِىَ المُمْتَدَّةَ فأمْلَؤُها. وهـٰذه طائفةٌ لم تُرِدْ بمـا فعلَتْه الكَرَمَ والسَّعه،

وإنما أرادت المَنَّ والسُّمْعَه ، فإذا آهْتَدَى الأرِيبُ إلىٰ طَرائِقِها وَصَل إلىٰ بُغْيَته من إعلانِ قَضيِّتها، وفاز بمُرادِه من ذَخَائِر حَسَنَتِها ، إن شاء الله .

وأمَرَه أن يُصادِقَ قَهَارِمَةَ الدُّورِ ومُدَبِّرِيها ، ويُرافِقَ وُكَلاءَ المَطَابِخ وحَمَّالِيها ؛ فإنَّهم يَمْلِكون من أصحابهم أَزِمَّةَ مَطاعِمِهم ومَشَارِبهم ، ويَضَعُونها بحيثُ يُحِبُّون من أهل مَوَدَّاتِهم ومَعَارِفِهم ؛ وإذا عَدَّتْ هـذه الطائفةُ أحدًا من الناس خَلِيلًا من خُلَّانِها ، وآتَّخَذَتْه أَخًا من إخوانها ؛ سَـعِدَ بمُرَافَقَتِها ، ووَصَلَ إلىٰ مَحابِّه من جِهَاتِها ، ومآربِه فى جَنَباتِهـا .

وأمَرَه أن يتَعَهَّد أسْوَاقَ المُسَوِّقين ، ومَوَاسِمَ المُتبايِعِين ؛ فإذا رأىٰ وَظِيفةً قد زِيدَ فيها ، وأَطْعِمَةً قد آحْتَشَد مُشْـتَرِيها ؛ آتَّبعها إلى المَقْصِد بهـا ، وشَيَّعها إلى المَنْزِل الحَاوِى لهـا ؛ وآسْتَعلم مِيقَاتَ الدَّعْوه ، ومن يَحْضُرها من أهـل النِّسْيان والمُرُوَّه ؛ فإنه لا يَخْلُو فيهم من عَارِفٍ به يُرَاعِى وَقْتَ مَصِيرِه إليها لِيَتْبَعَه ، ويُكْمِنَ له لِيَصْحَبه ويَدْخُلَ معَـه ، وإنْ خَلا من ذلك آخْتَلط بزُمَرِ الدَّاخِلِين ، وعُصَبِ الرَّاحِلين ؛ فمـا هو إلا أن يَتَجَاوزَ عَتَبَ الأَبْواب ، ويَخْرُجَ من سُلْطان البوّابين والحُجَّاب ؛ حتَّىٰ يَحْصُلَ حصولا قَلَّ ما حَصَل [عليه] أحدٌ قَبْلَه فانْصرفَ عنه إلا ضَلِيعًا من الطَّعَام ، بَرِيقًا من المُدَام ؛ إن شاء الله .

وأمَرَه أن يَنْصِب الأَرْصَاد علىٰ مَنَازِل المُغَنِّيات والمُغَنِّين ، ومَوَاطِنِ الأبليات(؟) والمُخَنَّثِين ؛ فإذا أتاه خَبَرُ جَمْعٍ يَضُمُّهم ، ومَأْدُبَةٍ تَعُمُّهم ؛ ضَرَب إليهـا أعْناقَ إبِله ، وأَنْضَىٰ نَحْوَها مَطَايا خَيْله ؛ وحَمَل عليها حَمْـلةَ الحُوتِ المُلْتَقِم ، والثُّعْبانِ المُلْتَهِـم ؛ واللَّيْثِ الهَـاصِر ، والعُقَاب الكَاسِر ؛ إن شاء الله .

وأمَرَه أن يَتَجَنَّبَ مَجَامِعَ العَوَامِّ المُقِلِّين ، ومَحَافِلَ الرَّعاع المُقْتِرِين ؛ وأن لا يَنْقُل إليها قَدَما ، ولا يُعَفِّر لمأْكَلِها فَمًـا ؛ ولا يَلْقَىٰ فى عَتَبِ دُورِها كَيْسانا ، ولا يعدّ الرَّجل

منها إنسانا ؛ فإنها عِصَابَةٌ يجتمع لها ضِيقُ النُّفوس والأحلام، وقلّة الإحكام والأموال؛ وفى التَّطْفيل عليها إجْحافٌ بها يُوسَم، وإزراؤُه بمُرُوءَةِ المُتَطفِّل يُوصَم؛ والتَّجنُّبُ لها أحرىٰ، والآزْوِرَار عنها أحْجَى؛ إن شاء الله .

وأَمَرَه أن يَحْزِرَ الخِوَانَ إذا وُضِع، والطعامَ إذا نُقِل؛ حتىٰ يَعْرِف بالحَدْس والتَّقْريب، والبَحْثِ والتَّنْقيب؛ عَدَدَ الألوان فى الكَثْرة والقِلَّه، وآفْتِنانَها فى الطِّيب واللَّذّه؛ فيُقَدِّر لنفْسِه أن يَشْبَع مع آخِرِها، ويَنْتَهِىَ منها عند آنتهائها؛ ولا يَفُوتُه النَّصيبُ من كثيرِها وقليلِها، ولا يُخْطِئُه الحَظُّ من دَقيقها وجَليلها . ومَتىٰ أَحَسَّ بقِلَّة الطَّعام، وعَجْزِه عن الأقْوام؛ أَمْعَنَ فى أَوَّله إمْعانَ الكَيِّس فى سَعَتِه، الرَّشيدِ فى أَمْرِه، المَالِئِ لبَطْنِه؛ من كُلِّ حارٍّ وبَارِد، وخَبيثٍ وطَيِّب؛ فإنه إذا فعل ذلك سَلِمَ من عَواقِب الأَغْمَارِ الذين يَكُفُّون تَطَرُّفا، ويُقِلُّون تَأَدُّبا؛ ويَظُنُّون أن المَادَّة تبلغهم فى آخرِ أَمْرِهم، وتَنْتَهِى بهم إلىٰ غاية سَعْيِهم؛ فلا يَلْبَثوا أن يَخْجَلوا خَجْلة الوَاثِق، ويَنْقلِبُوا بحَسْرة الخائب؛ أعاذَنا اللهُ من مِثْل مقامهم، وعَصَمَنا من شَقَاء جُدُودِهم؛ إن شاء الله .

وأَمَره أن يَرُوضَ نَفْسَه، ويُغالِطَ حِسَّه؛ ويَضْرِبَ عن كَثيرٍ مما يَلْحَقُه صَفْحا، ويَطْوِىَ دُونَه كَشْحا، ويَسْتَحْسِنَ الصَّمَمَ عن الفَحْشا؛ وإن أَتَته اللَّكْزَة فى حَلْقِه، صَبَر عليها فى الوُصُول إلىٰ حَقِّه؛ وإن وَقَعتْ به الصَّفْعة فى رَاسِه، صَبَر عليها لمَوْقِع أَضْراسِه؛ وإن لَقِيَه لاقٍ بالجَفَاء، قابَلَه باللُّطْف والصَّفَاء؛ إذ كان قد وَلَجَ الأبواب، وخَالَط الأَسْباب؛ وجَلَس مع الحُضُور، وآمْتَزج بالجُمْهور؛ فلا بُدَّ أن يلقاه المُنْكِرُ لأَمْرِه، ويَمُرُّ به المُسْتغْرِبُ لوَجْهِه؛ فإن كان حُرًّا حَيِيًّا أَمْسك وتَذَمَّم، وإن كان فَظًّا غَليظًا هَمْهَم وتَكَلَّم؛ وتَجَنَّب عند ذلك المُخاشَنَه، وآستعمل مع المُخاطِب له المُلاينَه؛ ليُبَرِّد غَيْظَه، ويَفُلَّ حَدَّه؛ ويَكُفَّ غَرْبَه، ويَأْمَن شَغَبَه؛ ثم إذا طال المَدىٰ

تكررت الالحاظ عليه فعُرف، وأَنِسَت النُّفوسُ به فَأُلِف؛ ونال من المَحَالِّ المُجْتَمَع عليها، مَنَالَ من حُشِم وسئل الذَّهابَ إليها .

وقد بَلَغنا أن رَجُلًا من العِصَابَة كان ذا فَهْمٍ ودِرَايه، وعَقْلٍ وحَصَافَه، طَفَّلَ علىٰ وَلِيمَه، لرجلٍ ذِى حالٍ عَظِيمَه، فرمَقَتْه فيها من القوم العُيُون، وصُرِفتْ بهم فيه الظُّنُون، فقال له قائلٌ منهم : من تَكُون أعزَّك الله ؟ فقال : أنا أوَّلُ من دُعِى إلىٰ هذا الحَقّ . قيل له : وكَيْف ذَاكَ ونحنُ لا نَعْرِفك؟ فقال : إذَا رأيتُ صاحِبَ الدَّارِ عَرَفَنِى وعَرَّفْتُه نَفْسِى . فجىءَ به إليه، فلما رآه بَدَأَه بأن قال له : هَلْ قُلْتَ لطَبَّاخِك : أن يَصْنَع طَعامَك زَائِدًا علىٰ عدد الحاضرين، ومِقْدار حَاجَة المَدْعُوِّين؛ قال : نعم! قال : فإنَّما تلك الزيادةُ لى ولأَمْثالِى، وبها يُسْتَظْهَر لمن جَرَىٰ مجْرَاى، وهى رِزْقٌ لنا أنزله الله علىٰ يَدِكَ وبِك، فقال له : كَرَامَةً ورُحْبا، وأَهْلا وقُرْبا؛ والله لا جَلستَ إلا مع عِلْيَةِ الناس ووُجُوه الجُلَسَاء، إذْ أَطْرَفتَ فى قَوْلك، وتَفَنَّنْتَ فى فِعْلك . فلْيَكُنْ ذلك الرجُلُ إمامًا يُقْتَدَىٰ به، ويُقْتَفَىٰ طَرِيقُه، إن شاء الله .

وأَمَره بأن يُكْثِر من تَعاهُد الجوارِشنات المُنَفِّذَة للسُّدَد، المُقَوِّيَة للمِعَد؛ المُشَهِّيَة للطعام، المُسَهِّلة لسُبُل الآنْهِضَام؛ فإنها عِمادُ أَمْرِه وقِوَامُه، وبها آنْتِظَامُه وآلْتِئامُه؛ إذْ كانت تُعِينُ علىٰ عَمَلِ الدَّعْوتين، وتُنْهِض فى اليومِ الواحدِ الأَكْلَتين؛ وهو يتناولها كذا كالكاتب الذى يَقُطُّ أَقْلامَه، والجُنْدِىِّ الذى يَصْقُلُ حُسَامَه؛ والصَّانِع الذى يُحَدِّد آلتَه، والمَاهِرِ الذى يُصْلِح أَدَواتِه، إن شاء الله .

هذا عَهْد عليكا بن أَحْمَد إليك، وحُجَّته لَكَ وعليك؛ لم يَأْلُك فيه إرْشادًا وتَوْقِيفا، وتَهْذِيبا وتَثْقِيفا، وبعْثًا وتَبْصِيرا، وحَثًّا وتَذْكِيرا؛ فكُنْ بأوامره مُؤْتَمِرا، وبزَوَاجِرِه مُزْدَجِرا، ولرسومه مُتَّبِعا، وبحِفْظِها مُضْطَلِعا؛ إن شاء الله تعالىٰ، والسَّلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه .

الخاتمـــــة

فى ذِكْرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة، وفيهـا أربعـــة أبواب

البـاب الأوّل

فى الكلام على البَرِيدِ، وفيـه فصلان

الفصـــــل الأوّل

فى مقدمات يحتاج الكاتِبُ إلى معرفتها، ويتعلَّقُ الغَرَضُ من ذلك بثـــلاثة أمور

الأمر الأوّل

(مَعْرفة معنىٰ لَفْظِ البَرِيدِ لُغَـــةً وٱصْطِلاحا).

أما معناه لُغَةً، فالمراد منـه مَسَافَةٌ معلومة مُقَـدَّرةٌ بٱثنى عَشَر ميلًا، واحْتَجَّ له الجَوْهَرِىّ بقول مُزَرِّدٍ يمْدح عَرَابَةَ الأَوْسِىَّ:

فَدَتْكَ عَرَابَ اليومَ أُمِّى وخَالَتِى، * ونَاقَتِىَ النَّاجِى إليـــك بَرِيدُها!

يُرِيدُ سَيْرها فى البَرِيد. وقد قَدَّره الفُقَهاءُ وعلمـاءُ المَسَالك والمَمَالك بأنه أربعةُ فَرَاسِخَ، والفَرْسخُ ثلاثة أمْيالٍ، والمِيلُ ثلاثةُ آلاف ذراعٍ بالهَـاشِمِىّ، وهو أربعـةٌ وعشرون أُصْبُعا، كُلُّ أُصْبُعٍ سِتُّ شعيراتٍ مُعْترِضاتٍ، ظَهْر إحداها لبَطْنِ الأخْرىٰ، والشَّـعيرة سَبْعُ شَـعَرات معترضات من ذَنَبِ بَغْـلٍ أو بِرْذَوْنٍ.

قال الجَوْهرىّ : ويقال أيضا على البريد : المُرَتَّبُ، يقال : حُمِل فلانٌ على البَرِيد . قال : ويُطْلَقُ أيضا على الرَّسولِ بَرِيدٌ .

ثم آختلف فيه فقيل : إنه عَرَبِىٌّ . وعلىٰ هذا ذَهَب الخليل إلىٰ أنه مُشْتَقٌّ من بَرَدتُ الحَديد إذا أرسلتَ ما يخرجُ منه . وقيل : من أَبْردتُه إذا أرْسلْتَه . وقيل : من بَرَد إذا ثَبَت، لأنه يأتى بما تَسْتقِرُّ عليه الأخبار، يقال : * اليَوْمَ يَوْمٌ بارِدٌ سُمُومُه * أى ثابِتٌ .

وذَهَب آخرون إلىٰ أنَّه فارِسِىٌّ معَرَّبٌ . قال أبو السعادات بنُ الأثير فى كتابه "النِّهاية فى غَرِيبِ الحَديث" : وأصله بالفارسيَّة بريده دم ، ومعناه مَقْصُوص الذَّنَب . وذلك أن مُلوكَ الفُرْسِ كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بَغْلًا فى البريد قَصُّوا ذَنَبه، ليكونَ ذلك علامةً لكونه من بِغَال البريد . وأنشد الجَوْهَرِىُّ لآمْرِئِ القَيْس :

عَلَىٰ كُلِّ مَقْصُوصِ الذُّنَابَىٰ مُعاوِدٍ * بَرِيدَ السُّرَىٰ باللَّيْلِ مِن خَيْلِ بَرْبَرَا .

الأمــــر الثانى

(أَوَّلُ من وَضَع البَرِيدَ وما آل إليه أمْرُه إلى الآن)

أما فى الجاهِليَّةِ، فقد ذكر فى "التعريف" : أنَّ البريد كان موجودًا فى عَهْدِ الأكاسرة من مُلوكِ الفُرْس، والقَياصِرَة مُلُوك الرُّوم . قال : ولكن لا أَعْرِفُ هل كان على البريد المُحَرَّر أو كانت مَقَادِيرُه مُتفاوِتَةً كما هو الآن؟ . ثم قال : ولا أظُنُّه إلا على القَدْرِ المحرَّر، إذ كانت حِكْمَتُهم تَأْبَىٰ إلَّا ذلك .

وأمَّا فى الإسلام فقد ذكر أبو هِلالٍ العَسْكَرِىُّ فى كتابه "الأوائل" : أنَّ أوَّلَ من وضَعَه فى الإسلام مُعاوِيَةُ بنُ أبى سُفْيان رَضِى الله عنهما . قال فى "التعريف" :

وذلك حِينَ ٱستقرَّتْ له الخلافةُ، ومات أميرُ المؤمنين علىٌّ رضى الله عنه، وسلَّم له ٱبنُه الحَسَنُ عليه السلام، وخلا من المُنَازِع، فوضَعَ البَرِيد لتُسْرِعَ إليه أخْبارُ بلاده من جميع أطْرافها، فأَمَر بإحضار رِجَالٍ من دَهَاقِين الفُرْس وأهْلِ أعمال الرُّوم وعَرَّفَهم ما يُرِيد، فوضعوا له البَرِيد. قال: وقيل: إنما فُعِل ذلك زَمَن عَبْد الملك ٱبن مَرْوانَ حين خَلَا وَجْهُه من الخَوَارِج عليه: كعَمْرِو بنِ سَعِيدِ الأَشْدَق، وعَبْد الله بنِ الزُّبير، ومُصْعَب بن الزبير، والمُخْتار بنِ أبى عُبَيْد.

والذى ذكره العَسْكرىُّ: أن عَبْدَ الملك إنما أَحْكَمه. وذُكِرَ عنه أنه قال لٱبنِ الدغيدغة: ولَّيْتُكَ ماحضَر بابِى إلا أَرْبعةً: المُؤَذِّنَ، فإنه دَاعِى اللهِ تعالىٰ فلا حِجابَ عليه. وطَارِقَ اللَّيلِ، فَشَرٌّ ما أَتَىٰ به ولو وَجَد خَيْرًا لنَامَ. والبَرِيدَ، فمتىٰ جاء من لَيْلٍ أو نَهارٍ فلا تَحْجُبْه، فربَّما أفسد على القوم سَنَةً حَبْسُهم البَرِيدَ ساعَةً. والطَّعامَ إذا أَدْرك، فٱفْتح البابَ وٱرْفَع الحِجابَ وخَلِّ بين الناس وبين الدخول. ثم قال: ويُذْكر هذا الكلام عن زِيادٍ أيضا.

قال فى "التعريف": وكان الوَلِيدُ بنُ عبد المَلك يَحمِلُ عليه الفُسَيْفِسَاءَ وهى الفصُّ المُذْهَبُ من القُسْطَنْطِينيَّة إلىٰ دِمَشْق، حتى صَفَّحَ منه حِيطانَ المسجد الجامع بها، ومَساجِدَ مَكَّةَ والمدينةِ والقُدْسِ.

قال: ثم لم يَزَلْ البريدُ قائمًا، والعملُ عليه دائمًا، حتى آنَ لبِناءِ الدَّوْلة المَرْوانيَّة أن يَنْتقض، ولِحَبْلِها أن يَنْتَكِث، فٱنقطع ما بين خُراسانَ والعِراق، لٱنصراف الوُجوه إلى الشِّيعة القائمة بالدَّولة العَبَّاسِيَّة. ودام الأمْرُ علىٰ ذلك حتَّى ٱنقضَتْ أيامُ مَرْوانَ بنِ محمدٍ آخرِ خُلَفاء بنى أُمَيَّة، ومَلَك السَّفَّاحُ، ثم المَنْصور، ثم المَهْدىُّ، والبَرِيدُ لا يُشَدّ له سَرْج، ولا تُلْجَم له دَابَّةٌ. ثم إن المَهْدىَّ أغْزَى ٱبنَه هٰرُونَ الرشيدَ الرُّومَ، وأَحَبَّ أن لا يزالَ علىٰ عِلمٍ قَرِيبٍ من خَبَرِه، فرتَّب فيما بينه وبين

مُعَسْكَرِ آبنِــه بُرُدًا كانت تَأْتيه بأخباره، وتُرِيهِ مُتَجَدِّداتِ أيَّامه . فلما قَفَلَ الرشــيدُ قَطَع المَهْدِىُّ تلك البُرُدَ ، ودام الأمر علىٰ هذا بَاقِى مُدَّته ومُدَّةِ خلافة موسى الهادى بعده . فلمــا كانتْ خِلافةُ هٰرُونَ الرَّشيد، ذَكَر يومًا حُسْنَ صَنِيعِ أبيه فى البُرُد التى جعلها بينهما، فقال له يَحْيى بنُ خَالدٍ : لو أمَر أميرُ المؤمنين بإجراء البَرِيد علىٰ ما كان عليه، كان صَلاحًا لمِلْكه . فأمره به فقرَّره يحيي بنُ خَالدٍ، ورتَّبه علىٰ ما كان عليــه أيامَ بنى أُمَيَّة، وجَعَل البغالَ فى المراكز ، وكان لا يُجَهَّز عليه إلا الخليفةُ أو صاحبُ الخَبَر، ثم آستمرَّ علىٰ هذا . فلما دَخَل المأمونُ بلادَ الرُّوم ونزل علىٰ نَهْر البِرْذَوْنِ وكان الزمان حَرًّا، والفَصْل صَيْفًا، قعَدَ على النَّهر ودَلَّىٰ رِجْليه فيه وشَرِبَ ماءه ، فآسْتَعْذَبه وآسْتَبرده وآستطابه ، وقال لمن كان معــه : ما أطيَبُ ما شُرِبَ عليه هذا المــاءُ؟ ، فقال كلُّ رَجُلٍ برأْيِه . فقال هو : أَطْيبُ ما شُرِبَ عليه هــذا المــاءُ رُطَبُ إزَازَ ، فقالوا له : يَعِيش أميرُ المؤمنــين حتَّىٰ يأتِىَ العراقَ ويأكل مــن رُطَبِها الإزاز ، فما آستَتَمُّوا كلامَهُم حتى أقبلتْ بِغالُ البريد تحمــل ألْطافًا فيها رُطَبُ إزاز ، فأُتِىَ المأمونُ بها فأكَلَ منها وأَمْعنَ وشَرِبَ من ذلك المــاء . فكثُر تعجُّبُ الحاضرين منه لسعادَتِه فى أنه لم يَقُمْ من مَقامه حتَّىٰ بلغ أُمْنِيَّته ، علىٰ ما كان يُظَنُّ من تَعــذُّرِها . فلم يقم المأمون من مَقامِه حتَّىٰ حُمَّ حُمَّى حَادَّةً كانتْ فيها مَنِيَّته .

ثم قطع بَنُو بُوَيْهٍ البريدَ حين عَلَوْا على الخلافة وغَلَبوا عليهــا ، ليَخْفَىٰ على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحَرَكَاتِهــم أحْيانَ قَصْدِهم بَغْداد، وكان الخليفةُ لا يزال يأخذُهم علىٰ بَغْتَة .

ثم جاءتْ ملوكُ السَّلاجِقَة علىٰ هذا ، وأَهَمَّ مُلُوكَ الإسلامِ آخْتِلافُ ذات بينهم وتَنازُعُهُم، فلم يكن بينهم إلا الرُّسُل على الخَيْل والبِغَال، فى كلِّ أرْضٍ بحَسَبِها .

فلما جاءت الدَّولَةُ الزَّنْكيَّة أقامتْ لذلك النَّجّابة ، وأعدّتْ له النُّجُبَ المُنْتَخَبَة . ودام ذلك مُدَّةَ زمانِها ثم زمانِ بَنِي أَيُّوبَ إلى انقراض دَوْلتهم . وتَبِعَها علىٰ ذلك أَوَائلُ الدَّولة التُّرْكية ، حتّىٰ صار المُلْك إلى المَلِك الظاهر بِيبَرْس رحمه الله ، واجتمع له مُلْكُ مِصْر والشامِ وحَلَبَ إلى الفُراتِ ، وأراد تَجْهيز دَوْلته إلىٰ دِمَشْق فعَيَّن لها نائبًا ، ووَزِيرًا ، وقاضِيًا ، وكاتبًا للانْشاء .

قال : وكان عَمِّي الصاحِبُ شرفُ الدِّين أبو محمد عبدُ الوَهّاب رحمه الله هو كاتبَ الإنشاء ، فلما مَثَل إليه ليُودِّعَهُ ، أوصاه وصايا كثيرةً ، آكَدُها مُواصَلَتُه بالأخبار وما يَتَجَدَّدُ من أخبار التَّتار والفَرَنْج ، وقال له : إن قَدَرْتَ أن لا تُبَيِّتَنِي كلَّ لَيلة إلا على خَبَرٍ [ولا تُصَبِّحَنِي إلا علىٰ خَبَرٍ](1) فافْعَلْ ، فعرّض له بما كان عليه البريدُ في الزَّمان الأوّل وأيامِ الخُلَفاء ، وعَرَضه عليه فَحَسُن مَوْقِعُه منه وأمر به . قال عَمِّي : فكنتُ أنا المقرِّرَ له قُدّامَه وبين يَدَيْه . ثم ذكر أنه لم يَزَلْ باقيًا علىٰ ذلك إلىٰ أيّامه . ثم قال : وهو جَنَاحُ الإسلام الذى لا يُحَصّ ، وطَرَفُ قادِمَتِه التى لا تُقَصّ .

قلتُ : ولم يَزَل البريدُ بعد ذلك مُسْتقرًّا بالديار المصريّة والممالك الشّاميَّة إلىٰ أن غَشِيَ البلادَ الشامية تمرلَنْكُ صاحِبُ ما وراء النَّهْر ، وفَتَح دِمَشْقَ وخَرَّبَها وحَرَّقها فى سَنَة أربعٍ وثمانمائة ، فكان ذلك سببًا لحَصِّ جَنَاح البريد وبُطْلانِه من سائر الممالك الشامية . ثم سَرَىٰ هذا السُّمُّ إلى الدِّيار المصرية فألحقها بالهَمَل ، ورَمَاها بعد الحَلْيِ بالعَطَل ، فذَهَبتْ مَعالِمُ البَريد من مِصْر والشام ، وعَفَتْ آثارُه ، وصار إذا عَرَض أمرٌ من الأمور السلطانية فى بَعْض نَواحى الديار المصرية أو الممالك الشامية ، رَكِبَ البريديُّ علىٰ فَرَسٍ له ، يسيرُ بها الهُوَيْنا سَيْرَ المُسافِر إلى المكان الذى يُرِيدُه ، ثم يعود علىٰ هذه الصورة ، فيحْصُل بواسطة ذلك الإبطاءُ فى الذَّهاب والإِيَاب .

(1) الزيادة من التعريف (ص ١٨٧) .

الأمر الثالث

(بيانُ مَعَالِمِ البَرِيدِ)

اِعلَمْ أنه كان فيما تقدّم فى زَمَنِ الخُلَفاء للبريد شَخْصٌ مَخْصُوصٌ يتولّىٰ أمْرَه بتَنْفيذ ما يَصْدُرُ وتَلَقِّى ما يَرِد، يُعَبَّر عنه بـ«صَاحِب البريد» . وممن تعرّض إلىٰ ذِكْر ذلك أبو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ فى كتابه "صناعة الكُتَّاب" فى الكلام علىٰ أرباب الوظائف ، وٱشْتِقاق أسْمائِهم . وقد أشار إليه الجوهرىُّ فى صَحَاحِه أيضا فقال : ويقال أَبْرَدَ صاحِبُ البريد إلى الأمير فهو مُبْرِدٌ يعنى أرسلَ إليه البريد .

ثم قد تقدّم فى مُقَدِّمة الكِتَاب فى الكلام علىٰ صاحِبِ دِيوانِ الإنشاء وماله التَّحَدُّثُ عليه ــ أن صاحِبَ دِيوانِ الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المُتولِّى لأمر البَرِيد وتَنْفِيذِ أُمُوره فى الإيراد والإصدار . وكان للبريد ألْواحٌ من فِضَّةٍ مُخَلَّدَةٌ بديوان الإنشاء تحتَ أمْرِ كاتب السِّرِّ بالأبواب السلطانية، مَنْقُوشٌ علىٰ وَجْهَيِ اللَّوح نَقْشًا مُزْدَوِجًا ماصُورتُه : «لاإله إلا الله محمدٌ رَسُولُ الله، أَرْسَلَه بالهُدَىٰ ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ . ضُرِبَ بالقاهرة المحروسة» . وعلى الوَجْهِ الآخَرِ ما صُورتُه : «عِزٌّ لمولانا السُّلطانِ المَلِكِ الفُلانىِّ : فلانِ الدُّنيا والدِّينِ، سلطان الإسلام والمسلمين، فلانٍ، ٱبنِ مولانا السلطانِ الشهيدِ المَلِكِ الفلانىِّ فلانٍ ، خَلَّد الله مُلْكَه» . وفى ذلك اللوح ثَقْبٌ مُعَلَّق به شُرَّابة من حَرِيرٍ أصْفَر ذات بَنْدَيْنِ، يجعلُها البَرِيدىُّ فى عُنُقِه، بإدْخاله رَأْسَه بين البَنْدَيْنِ ، ويُصيِّر اللوحَ أمامه تحتَ ثيابه ، والشُّرَّابةَ خَلْفَه من فَوْق ثِيابه . فإذا خَرَج بريدىٌّ إلىٰ جِهَةٍ من الجهات، أُعْطِى لَوْحًا من تلك الألواح ، يُعَلِّقُه فى عُنُقِه، علىٰ ما تقدّم ذكره ، ويذهب إلىٰ جِهَة قَصْدِه ، فكلُّ من رأىٰ تلك الشُّرَّابة خَلْفَ ظَهْرِه علم أنه بَرِيدىٌّ . وبواسطة

ذلك تُذْعِنُ له أربابُ المَرَاكز بتَسْلِيم خَيْلِ البريد . ولا يزالُ كذلك حتّىٰ يَذْهَب ويعودَ ، فيُعِيدُ ذلكَ اللَّوْحَ إلىٰ دِيوانِ الإنشاء .

وكَذلك الحُكْم فى دواوين الإنشاء بِدمَشْق وحَلَبَ وغيرهما من الممالك الشامية، لا يَخْتَلِف الحُكْم فى ذلك إلا فى الكِتَابة بمَحَلِّ ضَرْب اللَّوْح . فإن كان بِدمَشْقَ كُتِب : «ضُرِبَ بالشَّام» . وإن كان بحَلَبَ كُتِب : «ضُرِب بحَلَبَ المحروسةِ» وكذلك باقى الممالك .

الفصل الثانى

من الباب الأول من الخاتمة فى ذِكْرِ مَرَاكِزِ البريد

وهى الأماكِنُ التى تَقِفُ فيها خَيْلُ البريد لتغيير خَيْلِ البَرِيديَّة فيها فَرَسًا بعد فَرَس ، قال فى "التعريف" : وليْستْ على المقدار المُقَدَّرِ فى البريد المُحرَّر، بل هى مُتَفاوِتَةُ الأبعادِ، إذ أَلْجَأَت الضَّرورةُ إلىٰ ذلك : تارة لبُعْدِ ماءٍ، وتارة للأُنْس بقَرْيةٍ، حتى إنك لَتَرَىٰ فى [هذه](١) المَرَاكِز البريدَ الواحدَ بقَدْرِ بريدين . ولو كانت على التَّحْرير [الذى عليه الأعمال](١) لَمَا كان تَفَاوُتٌ . وقد ذكر منها المقرّ الشِّهابىّ بن فَضْل الله رحمه الله فى "التعريف" ما أَرْبىٰ فى ذلك على المقصود وزاد، وهو بذلك أَدْرىٰ وأَدْربُ . وهأنا أذْكُر ما ذَكَره ، موضِّحًا لما يحتاج منه إلى التَّوْضيح ، مع الزيادة عليه وتَقْريبِ التَّرْتيب .

ويَشْتمل علىٰ ستة مَقَاصد :

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٤) .

المقصـــــد الأوّل

(فى مَرْكَزِ قَلْعة الجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التى هى قَاعِدَةُ المُلْك، وما يتفرّع عنه من المَرَاكز، وما تَنْتَهِى إليه مَرَاكِزُ كلِّ جِهَةٍ)

اِعلم أن الذى يتفرّعُ عن مَرْكَزِ القَلْعة ويَتَشَعَّبُ منه أربَعُ جِهاتٍ، وهى: جِهَةُ قُوصَ من الوَجْه القبلِىّ وما يتّصِلُ بذلك من أُسْوانَ وما يَلِيها من بلاد النُّوبَة، وعَيْذَابَ وما يليها من سَوَاكِن. وجِهَةُ الإسْكَنْدرِيَّة من الوَجْه البَحْرِىّ. وجِهَةُ دِمْياطَ من الوَجْه البَحْرِىّ أيضا، ومايتفرّع عنها من جِهَةِ غَزَّةَ من البلاد الشامية.

فأما مَرَاكِزُ قُوصَ وما يليها: فمن مَرْكزِ قَلْعَةِ الجَبَل المحروسة، ومنها إلىٰ مَدِينَةِ الجِـيزَة، وهى قاعدةُ الأعمال الجيزِيَّة، وقد تقدّم الكلام عليها فى الكلام علىٰ بلاد المملكة فى المقالة الثانية. ثم منها إلىٰ زَاوِيَة أمِّ حُسَين، وهى قَرْيَةٌ من عَمَل الجيزَة. قال فى "التعريف": والمَرْكَزُ الآنَ بمُنْيَةِ القَائِد وهى على القُرْب من زاوية أُمِّ حُسَينٍ المذكورة، ثم منها إلىٰ وَنا وهى بَلْدةٌ من عَمَلِ البَهْنَسَىٰ؛ ثم منها إلىٰ دَهْرُوط وهى بَلْدةٌ من عمل البَهْنَسَىٰ أيضا. ثم منها إلىٰ أقلوسنا (١)، وهى بَلْدةٌ من عَمَلِ الأُشْمُونَيْنِ. ثم منها إلىٰ مُنْيَةِ بَنِى خَصِيبٍ، وهى مَدِينَةٌ من عَمَل الأُشْمُونَيْن، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية. ثم منها إلىٰ مَدِينة الأُشْمُونَيْن وهى قاعدةُ بِلادِها، وقد تَقَدَّم الكلام عليها فى المقالة الثانية. ثم منها إلىٰ ذِرْوَة سَرْبَامَ وهى بَلْدةٌ من عمل الأُشْمُونَيْنِ علىٰ فَمِ الخليج اليُوسُفِىّ الوَاصل من النِّيل إلى الفَيُّوم، وتعرف بذِرْوَةِ الشريف، إضافةً إلى الشَّرِيف نَاصِرِ الدِّين محمد بن تَغْلب الذى كان عَصَىٰ بها فى زَمَنِ الظَّاهِر بيبَرْس، وسَمَتْ نَفْسُه إلى المُلْكِ حتّىٰ كادَه الظّاهِرُ وقَبَضَ عليه وشَنَقَه بالإسكندرية، وبها

(١) فى معجم البلدان لياقوت: قَلُوسَنَا.

دِيَارُه وقُصُوره والجامعُ الذى أنشأه بها إلى الآن . ثم منها إلىٰ مدينة مَنْفَلُوط، وهى قاعدَةُ الأعمال المَنْفَلُوطِيَّة التى هى أَجَلُّ خَاصِّ السُّلْطان. ثم منها إلىٰ مَدِينَةِ أُسْيُوطَ، وهى قاعِدَةُ الأعمال الأُسْيُوطِيَّة، ومَقَرُّ نائِبِ الوَجْهِ القِبْلِيِّ الآن، وقد تقدّم ذِكْرُها فى المقالة الثانيــة . ثم منها إلىٰ طِمَا، وهى قَرْيَةٌ من عَمَل أُسْيُوطَ المقدّمةِ الذِّكْر علىٰ ضَفَّةِ النِّيل، ثم منها إلى المَرَاغَةِ، وهى بَلْدَةٌ من عَمَلِ إِخْمِيمَ . قال فى "التعريف": ورُبَّمــا سُمِّيت المَرَائِـغ . ثم منها إلىٰ بلسبورة وهى بَلْدة من عَمَل إِخْمِيم أيضا . قال فى "التعريف" : ورُبَّمــا قيل بلزبورة بإبدال السِّين زَايًا . ثم منها إلىٰ جَرْجَا، وهى بلدة من العَمَل المذكور، ثم منها إلى البُلْيَنَــةِ، وهى بَلْدَةٌ من عمــل قُوص، ويقال فيها البُلْيَنَا بابدال الهاء أَلِفًا . ثم منها إلىٰ هو، وهى بَلْدَةٌ من عَمَل قُوص أيضا، قال فى "التعريف": ويليها الكَوْمُ الأحمر، وهمــا من خَاصِّ السلطان، وعندهما يَنْقَطِعُ الرِّيفُ فى البَرِّ الغربىّ، ويكون الرَّمْل المتَّصِلُ بدَنْدَرىٰ ويسمَّىٰ خَانَ دَنْدَرىٰ، وقد تقدّم الكلام علىٰ ذلك مستوفًى فى المقالة الثانية . ومنها إلىٰ مَدِينَةِ قُوص قاعدةِ الأعمــال القُوصِيَّة، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية .

ثم من قُوص تَنْقطع مَرَاكِزُ البريد، ويتَشَعَّبُ الطريقُ إلىٰ جِهَــة أُسْوانَ وبلادِ النُّوبة، وجِهَة عَيْذَابَ وسَوَاكِن .

فمن أراد المَسِير إلىٰ جِهة أُسْوان رَكِبَ الهُجْن من قُوص إلىٰ أُسْوان، ثم منهــا إلىٰ بلاد النُّوبة .

ومن أراد المَسِيرَ إلىٰ عَيْذَابَ سار من قُوص إلىٰ كِيمَانِ قِفْط على القُرْب من قُوص .

قلتُ : ثم يَسِير فى قِفَارٍ وجبالٍ، من كِيمَانِ قِفْط إلىٰ ماءٍ يسمىٰ ليطة علىٰ مَرْحلةٍ من الكيمان، به عينٌ تَنْبع وليستْ جارية، ثم منها إلىٰ ماءٍ يسمى الدريح على القُرْب

من مَعْدن الزُّمُرُّذ ، به عَيْنٌ صغيرة يُسْتقىٰ منها من الماء ما شاء الله ، وهى لا تزيد ولا تَنْقُص . ثم منها إلىٰ حُمَيْثَرَة حيثُ قبر سيِّدى أبى الحَسَنِ الشَّاذِلِىِّ ، وهُناك عَيْن ماء يُسْتق منها . ثم منها إلىٰ عَيْذابَ ، وهى قريةٌ صغيرةٌ علىٰ ضَفَّةِ بَحْر القُلْزُم فى الشمال إلى الغَرْب ، وعلى القُرْب منها عينٌ يُسْتقىٰ منها .

وتَقْدِيرُ جميع المسافة من الكِيانِ إلىٰ عَيْذَابَ نحو عَشَرة أيامٍ بِسَيْر الأثقال . علىٰ أنه فى "مسالك الأبصار" قد ذَكَر أنَّ الطَّرِيقَ إلىٰ عَيْذابَ من شُعْبَةٍ على القُرْب من أُسْوان ، ثم يَسِير منها فى بلاد عَرَبٍ يُسَمَّوْنَ بنى عامرٍ إلىٰ سَوَاكِن ، وهى قَرْية حَاضِرة البَحْر صاحِبُها من العَرَب ، وكُتُبُ السلطانِ تنتهى إليه ، علىٰ ما تقدّم ذِكْره فى الكلام على المكاتبات .

⁂

وأما الإسْكَنْدرِيَّة فالمراكز المُوَصِّلة بها فى طريقين :

الطريق الأولىٰ : الآخذَةُ على الجَبَل الغَرْبىّ ويسمّى طَرِيقَ الحَاجِر . والمَسِيرُ فيها من مَرْكز القلعة المقدَّمِ ذِكْرُه إلىٰ مدِينة الجيزِيَّة . ثم منها إلىٰ جزِيرة القِطّ ، وهى قريةٌ من آخِرِ عمل الجيزَةِ من الجهة البَحْرية . ثم منها إلىٰ وَرْدَانَ ، وهى قريةٌ من عَمَل البُحَيْرة . [ثم منها إلى الطَّرَّانَةِ](١) . ثم منها إلىٰ طيلاس وهى بَلْدةٌ من عَمَل البُحَيْرة أيضا وتعرفُ بزَاوِيَةِ مُبَارك . قال فى "التعريف" : وأهلُ تلك البلاد يقولون : أنْبَارَك . ثم منها إلىٰ مدينة دَمَنْهور وتعرف بدَمَنْهُور الوَحْش ، وهى قاعدةُ أعمال البُحَيْرة ، ومحلُّ مُقَامِ نائبِ السَّلْطنة بالوَجْه البَحْرىّ ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ لُوقين وهى قَرْيةٌ من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسْكَنْدَرِيَّة .

الطريق الثانية : الآخذة فى وَسَطِ العُمْران ، وتعرفُ بالوُسْطَىٰ .

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٩) .

وهى من مَرْكز القَلْعة إلىٰ مدينة قَلْيُوب قاعدة الأعمـال القَلْيُوبيَّة ، وقد تقـدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ مَدِينة مَنُوف العُلْيا ، وهى قاعدَةُ الأعمال المَنُوفيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ مدينة المَحلَّة المعروفة بالمَحلَّة الكُبْرىٰ ، وهى قاعدة الأعمـال الغَرْبِيَّة ، وقد تقـدّم الكلام عليها فى المقالة الثانيــة . وقد وَهِم فى "التعريف" فسماها مَحلَّة المَرْحُوم بلدةٌ من بلاد الغَرْبِيَّــة غيرها . ثم منهـا إلى النحْرِيرِيَّة ، وهى مدينةٌ من عَمَل الغَرْبيــة . ثم منها إلى الإسْكَنْدَرِيَّة .

❖

وأما الطريق إلىٰ دِمْياط وغَزَّةَ ، فمن مَرْكز القَلْعـة إلىٰ سِرْيَاقُوس ، وهى بلدةٌ من ضَوَاحى القـاهرة ، وليس المَرْكَز فى نَفْس البَلَد ، بل بالقَرْية المُسْـتَجَدَّة بجوار الخَانِقَاه النَّاصرية التى أنشأها السلطانُ المَلِكُ الناصرُ محمدُ بنُ قَلاوُونَ على القُرْب من سِرْيَاقُوس . قال فى "التعريف" : وكان قبل هـذا بالعُشِّ ، وكان طويل المَدىٰ فى مكان مُنْقَطِع ، وكانت البَرِيديَّة لاتزال تَتَشَكَّىٰ منه ، فصَلَح بنَقْله ، وحَصَل به الرِّفْق لأمورٍ لو لم يَكُنْ منها إلا قُرْبُه من الأَسْواق المجاورةِ للخانِقَاه النَّاصريَّة وما يوجدُ فيها ، وأُنْسه بمـا حَوْلها [لكفىٰ] . ثم منها إلىٰ بِئْر البَيْضاء ، وهى مَرْكَزُ بَرِيدٍ مُنْفَردٌ ليس حَوْله ساكنون . ثم منها إلىٰ مَدينة بِلْبَيْس قاعدةِ الأعمـال الشَّرْقية ، وقد تقـدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . قال فى "التعريف" : وهى آخرُ المراكز السُّلْطانية ، وهى التى تُشْـتَرىٰ خَيْلُها من الأموال السلطانية ويُقامُ لهـا السُّوَّاسُ وتصرفُ لهـا العلُوفات . ثم منها إلى السَّـعيديَّة . ثم من السَّـعيدية إلىٰ أُشْمُومِ الرُّمَّان قاعدةِ بلاد الدَّقَهْلِيَّة والمُرْتَاحِيَّة ، وقد تقدّم ذكرها فى المقالة الثانية . ومنها إلىٰ دِمْياطَ ومَن أراد غَزَّة . وقد تقدّم أنَّ مَدِينةَ بِلْبَيْس هى آخرُ المَرَاكِزِ السلطانية . ثم السَّعيديَّة ومابعدها

إلى الخرُّوبَة تُعْرف بالشَّهّارة، خَيْلُ البَريد بهـا مقترةٌ على عُرْبانٍ ذَوِى إقطاعاتٍ، عليهم خُيُولٌ مُوظَّفَةٌ يَحْضُرُ بها أرْبابُها عنـد هِلَال كلِّ شَهْرٍ إلى المراكز، وتَسْتَعِيدُها فى آخر الشَّهْر ويأتِى غيرها، ومن هنـالك سُمِّيت الشَّهّارة . قال فى "التعريف" : وعليهـم وَالٍ من قِبَل السُّـلْطان يَسْتَعِرِضُ فى رَأْسِ كلِّ شَهْرٍ خَيْـلَ أصحاب النَّوْبَة ويُدَوِّغها بالدَّاغِ السـلطانىّ . قال : وما دامتْ تستجدُّ فهى قائمة ، ومتى آكترىٰ أهـلُ نَوْبةٍ ممن قبلهم فَسَـدَتِ المراكز، لأن الشَّهْر لا يَهِلُّ وفى خَيْلِ المُنْسَلِخ قُوَّة، لا سِيَّـا والعربُ قَليلة العَلَف .

وأوَّلُ هذه المَرَاكِزِ السَّعِيديةُ المقدَّمُ ذِكْرُها ، ثم منها إلى الخَطَّارة، ثم منها إلىٰ قَبْر الوايلى . قال فى "التعريف" : وقد آسْتُجِدّ به أبْنِيَةٌ وأسْوَاقٌ وبَسَاتِينُ حتَّىٰ صار كأنه قَرْيَة . ثم منها إلى الصَّالحِيَّة، وهى قريةٌ لَطِيفة . قال فى "التعريف" : وهى آخِر مَعْمُور الديار المصرية ، ثم منها إلىٰ بئر عفرى(١) ، وإلىٰ هـذا المركز يجلب المـاء من بئرٍ وراءه. ومنها إلى القُصَيْر. قال فى "التعريف" : وقد كان كَرِيمُ الدِّين وكِيلُ الخاصّ بَنَىٰ بها خانًا ومَسْجِدا ومِئْذَنَةً، وعَمِل ساقِيَةً، فتهدَّم ذلك كُلُّه، ولم يوجد له من يُجَدِّده، وبَقِيتِ المِئْذَنةُ خاصَّة، ورُتِّب بها زَيْتٌ للتَّنْوير . قال : وهذا القُصَيْر يقارِبُ المركزَ القَدِيمَ المعروفَ بالعَاقُولة المُقارِبَ لقَنْطَرة الجِسْر الجارى تحتها فَوَاضِلُ ماء النيل أوَانَ زيادته إذا خرج إلى الرَّمْل . ثم منها إلىٰ حبوة . قال فى "التعريف" : وليس بها مَاءٌ ولا بناءٌ، وإنمـا هى مَوْقِفٌ يَقِف به خَيْلُ العرب الشَّهّارة، ويُجْلَبُ المـاء إليها من بئرٍ وراءها . ثم منهـا إلى الغرابى . ثم منها إلىٰ قَطْيـا ، وهى قَرْيَةٌ صغيرةٌ بها تؤخذ المُرَتَّبات السلطانية من التُّجَّار الواردين إلىٰ مصر والصادرين عنها،

(١) الذى فى التعريف : بئر غزىٰ ، انظر ص (١٩٠) .

وهنـاك رَمْلٌ بالطريق يُخْتم فى الليـل ويُحْفَظ ما حوله بالعُرْبان ، حتّى لا يمُرّ أحدٌ لَيْـلًا . فيكونُ من القاهرة إلىٰ قَطْيا آثنـا عَشَر بَرِيدًا . ثم منها إلىٰ صَبِيحة نَخْـلة مَعْن . قال فى "التعريف" : ومن الناس من يَقْتَصِر علىٰ إحدىٰ هذه الكلمـات فى تَسْميتها . ثم منها إلى المُطَيْلب ، ثم منها إلى السَّوادة . قال فى "التعريف" : وقد حُوِّلتْ عن مكانها فصار المُسافرُ لا يحتاج إلىٰ تَعْرِيج إليها . ثم منها إلى الوَرَّادَة ، قال فى "التعريف" : وهى قرية صغيرةٌ بها مسْجدٌ علىٰ قارعة الطريق ، بناه المَلِكُ الأشرفُ « خَلِيل » بن المنصور قلَاوُون تغمده الله برحمته ، حَصَل به الرِّفقُ بمَبِيت السَّفَّارة به . قال : وقد كان فَخْرُ الدِّين كاتبُ المماليك بَنَىٰ إلىٰ جانِبه خانًا فبِيعَ بعده . ثم منها إلىٰ بِئْر القَاضِى . قال فى "التعريف" : والمَدَىٰ بينهـما بَعيدٌ جِدا يَمَلّه السَّالكُ . ومنها إلى العَرِيش . قال فى "التعريف" : وقد أحْسن كَرِيمُ الدِّين رحمـه الله بعَمَلِ ساقِيَة سَبِيلٍ به وبِنَاءِ خَانٍ حَصِينٍ فيه يَأْوِى إليـه من ألْجَأَهُ المَساء ، وينامُ فيـه آمنًا من طوارق الفَزَع . ثم منهـا إلى الخَرُّوبة ، وبها ساقيـةٌ وخانٌ ، بناهما فَخْرُ الدِّين كاتبُ المماليك ، حَصَل به من الرِّفق والأَمْنِ ما بالعَرِيش . قال فى "التعريف" : وهذا آخر مراكز العَرَب الشَّهَّارة . ثم ممّـا يليها خَيْلُ السلطان ذَواتُ الإصْطَبْلاتِ والخَدَم تُشْترىٰ بمـال السلطان وتُعْلَف منه ، وأوّلهـا الزَّعْقَة ، ثم منها إلىٰ رَفَحْ ، ثم منها إلى السلقة . قال فى "التعريف" : وكان قبل هذا المَرْكز بِبِئْر طَرنْطَاى حيثُ الجُمَّـيْز ويسمىٰ سَطر . قال : وكان فى نَقْله إلى السـلقة المصْلَحَةُ . ثم منهـا إلى الدَّارُوم ، ثم منها إلىٰ غَزَّة . يكون من قَطْيـا إلىٰ غَزَّةَ أحَدَ عَشَر مَرْكَزًا .

المقصـــــد الثـانى

(فى مَرَاكِزِ غَزَّة وما يتفرَّع عنه من البلاد الشامية)

والذى يتفرَّعُ عنه مَرَاكِز ثلاثِ جِهَاتٍ، وهى : الكَرَكُ، ودِمَشْقُ، وصَفَدُ .

فأما الطريق إلى الكَرَك : فمن غَزَّة إلى ملاقس وهو مَرْكَز بَرِيدٍ، ثم منها إلى بَلَد الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصَّافِيَة، ثم منها إلى الكَرَك .

وأما مراكز دمشق : فمن غَزَّة إلى الجينين، وهو مَرْكَز بَرِيدٍ، ومنها إلى بَيْتِ دَارِس، والناس يقولون : تدارس، وبها خانٌ بَناه ناصِرُ الدِّين خزندار تنكز . قال فى "التعريف" : وكان قديمًا بياسور، وكان قريبَ المدى فنُقِلَ وكانتِ المَصْلحةُ فى نَقْلِه، ثم منها إلى قطرى . قال فى "التعريف" : وهو مَرْكَزٌ مُسْتجدٌّ كان المُشيرُ به طاجار الدوادار الناصرىّ، وبه بِئْرُ سَبِيلٍ وآثارٌ له . قال : وقد حصل به رِفْقٌ عَظِيمٌ لبعد ما بين [لُدّ وبَيْتِ دَارِس] (١) أو ياسور، ثم منها إلىٰ لُدّ، ثم منها إلى العَوْجَاء . قال فى "التعريف" : وهى زَوْراء عن الطَّرِيق، ولو نُقِلتْ منه لكان أَرْفَق، ثم منها إلى الطيرة . قال فى "التعريف" : وبها خانٌ كان قد شَرَع فى بنائِه ناصِرُ الدِّين دوادار تنكز ثم كَمُل بيَدِ غَيْره . ثم منها إلى قَاقُون، ثم منها إلى فَحْمَة [ثم منها إلىٰ جِينِين] (١) . قال فى "التعريف" : وهى على صَفَد، يعنى القِيَام به، وبه خانٌ لطَاجَار الدَّوادار، حَسَنُ البِنَاءِ جَلِيلُ النَّفْع، ليس على الطريق أَخَصُّ منه ولا أَحصَنُ، ولا أَزْيدُ نَفْعًا منه ولا أَزْيَن .

---

(١) بياض بأصله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١) .

ومن أراد دِمَشْــقَ وما يليها سَارَ من جِينِينَ إلى ذَرْعِين . قال فى "التعريف" : ومنها ينزل علىٰ عَيْن جَالُوت ، وهو مَرْكَزٌ مُسْتَجَدٌّ حصل به أَعْظَم الرِّفْق والرَّاحة من العَقَبَةِ التى كان [يُسْـلَكُ](١) عليها بين جِينِين و بَيْسَانَ مع طُولِ المَدَىٰ . ثم منهـا إلى بَيْسانَ، ثم منها إلى المَجَامِع . قال فى "التعريف" : وهو مَرْكَزٌ مستجدّ عِنْـد جِسْرِ سَامَة، كنتُ أنا المشيرَ به فى سنة إحدىٰ وأربعين وسبعمائة ، وحَصَل به الرِّفْق لبُعْدِ ما كان بين بَيْسانَ وزحر . قال : وقد كان الطريقُ قَديمًـا من بَيْسان علىٰ طَيْبَةِ آسم ، ثم إلى أَرْبَد، وكانت غَايةً فى المَشَقَّة، إذ كان المسافرُ ما بين بَيْسان وطَيْبةِ آسمٍ يحتاجُ إلىٰ خَوْض الشَّرِيعَة ، وبهـا معدّية للفَارِس دون الفَرَس ، وإنمـا يَعْبُر فيها الفَرَسُ سِبَاحَةً ، وكان فى هذا من المَشَقَّة ما لا يوصف، لا سِيَّما أيامَ زيادة الشَّرِيعَةِ وكَلَبِ البَرْد : لقَطْع المَـاءِ ومُعانَاةِ العِقَـاب التى لا يَشُــقُّها جَنَاح العُقَاب . ولٰكن الأمير الطنبغا كَافِل الشَّامِ رحمه الله نَقَل هذه الطَّرِيقَ وجعَلها على القُصَيْر حيثُ هى اليوم، ونَقَل المَرْكَز من الطَّيبة إلى زحر حين غَرِقَ بعضُ البَرِيدِيَّة الجَبَلِيِّين بالشَّرِيعَة . ثم من المجامع المذكورة إلىٰ زحر، ثم منها إلىٰ أَرْبَد، ثم منها إلىٰ طفس، ثم منها إلى الجامع . قال فى "التعريف" : وكان قديمًا فى المكان المسمَّىٰ برأس المـاء، فلما مَلَكه الأميرُ الكبيرُ تنكز كافِلُ الشَّامِ رحمه الله نَقَل المَرْكَز منه إلىٰ هذا الجامع ، فقَرُب به المَدَىٰ فيما بينه و بين طفس، وكان بَعِيدًا فما جاء إلا حَسَنًا . ثم منها إلى الصَّنَمَيْنِ، ثم منها إلىٰ غَبَاغِب، ثم منها إلى الكُسْوة، ثم منها إلىٰ دِمَشْق المحروسة .

وأما الطريق المُوَصِّلة إلىٰ صَفَد : فمن جِينِينَ المقدّمِ ذِكْرُها إلىٰ تِبْنِينَ ، ثم منها إلىٰ [حِطِّين](١) وبها قبر شُعَيْب عليه السلام، ثم منها إلىٰ صَفَد .

---

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .

المقصـــــد الثـالث

(فى ذِكْر مركز دِمَشْــق وما يتفرّعُ عنه من المراكز الموصّلة
إلىٰ حِمْص وحَمَاة وحَلَب، وإلى الرَّحْبة، وإلىٰ طَرَابُلُس، وإلىٰ جَعْبَر، ومِصْياف
وبَيْروت وصَيْدا وبَعْلَبَكّ والكَرَك وأَذْرِعَات)

فأما طريق حَلَب: فقال فى "التعريف": من دِمَشْــق إلى القُصَيْر. والذى رأيتُــه فى بَعْض الدَّسَاتِير أنه من دِمَشْــق إلىٰ خَانِ لَاچِينَ، ثم إلى القُصَيْر. قال فى "التعريف": ثم من القُصَـيْر إلى القَطِيفَة، ثم منها إلى القَسْــطَل. ورأيتُ فى الدُّسْتُور المَذْكُور أن من القُصَـيْر إلىٰ خان الوَالِى، ثم إلىٰ خَانِ العَرُوس، ثم إلى القَسْطَل، ثم منها إلىٰ قَارا، ثم منها إلىٰ بريج العَطَش ويقــال فيه البزيج أيضا. قال فى "التعريف": وقد كان مَقْطَع طَرِيقٍ، ومَوْضِــعَ خَوْف، فَبَنَىٰ به قاضى القُضَاة نَجْمُ الدِّين أبُو العَبَّاس أحمدُ بن صصرى رحمه الله مَسْـجِدًا وبِرْكَةً، وأَجْرى المــاءَ إلى البِرْكَةِ من مِلْكٍ كان له هُناك وَقَفَه علىٰ هذا السَّبِيل، فبَدَّلَ الخَوْفَ أَمْنًا، والوَحْشَــةَ أُنْسًا، أثابه الله علىٰ ذلك. ثم منها إلى الغَسُولة، ثم منها إلىٰ شُمْسِــينَ، ثم منها إلىٰ حِمْص، ثم منها إلى الرَّسْتَنِ، ثم منها إلىٰ حَمَاة، ثم منها إلىٰ لَطْمِيــــن، ثم منها إلىٰ طَرَابُلُس، ثم منها إلى المَعَرَّة، ثم منها إلى أنقراتا، ثم منها إلىٰ إيادٍ، ثم منها إلىٰ قِنَّسرِينَ، ثم منها إلىٰ حَلَب.

وأما طريق الرَّحْبَة: فمن القَطِيفَة المقدَّمَةِ الذِّكْرِ إلى العطنة. قال فى "التعريف": وليس بها مَرْكَز، وإنَّمــا بها خَانٌ تُفَرَّق به صَدَقَةٌ من الخُبْزِ والأَحْذِيَة ونِعَالِ الدَّوابِّ إلىٰ جُلَيْجِلَ، ثم منها إلى المَصْنع، ثم منها إلى القَرْيَتَيْنِ، ثم منها إلى الحسير، ثم منها إلى البَيْضاء، ثم منها إلىٰ تَدْمُر، ثم منها إلىٰ أَرَكٍ، ثم منها إلى السُّخْنَة، ثم منها إلىٰ

قُبَاقِبَ، ثم منها إلىٰ كَوَاثِلَ . قال فى "التعريف" : وهو اليَوْم عُطْل. ثم منها إلى الرَّحْبة وهى حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُس : فمن الغَسُولَةِ المتقدّمَة الذّكر [إلى القصب، ثم منها إلى قَدَس[1]] إلىٰ أقمار، ثم منها إلى الشَّعْراءِ، ثم منها إلىٰ عرقا، ثم منها إلىٰ طَرَابُلُس .

وأما طريق جَعْبَر وما يليها : فمن حِمْص المتقدّمة الذّكر إلىٰ سَلَمْيَة ، ثم منها إلىٰ بُغَيْدِيدَ، ثم منها إلىٰ سُورِيَا، ثم منها إلى الحص، ثم منها إلىٰ جَعْبر، إلىٰ عَيْنِ بذال، ثم منها إلىٰ صهلان، ثم منها إلى الخَابُور، ثم منها إلىٰ رَأْسِ عَيْنٍ .

وأما طريق مِصْياف : فمن حِمْص المُقَدّمة الذّكر إلىٰ مِصْياف .

وأما طريقُ صَفَدَ : فمن دِمَشْق إلىٰ بريح الفلوس، ومنه إلىٰ أُرَيْنِبَة ، ومنها إلىٰ لغران، ومنها إلىٰ صَفَدَ .

وأما طريق بَيْروتَ : فمن دِمَشْق إلىٰ خَانِ ميسلون، ومنها إلىٰ زُبْدانَ، ومنها إلى الحُصَيْن، ومنها إلىٰ بَيْرُوت .

وأما طريق صَيْداء : فمن دِمَشْق إلىٰ خان ميسلون المقدّم الذّكْر، إلىٰ جَزِيرَةِ صَيْداء، إلىٰ كَرَكَ نُوح ، ثم منه إلىٰ بَعْلَبَكّ . قال فى "التعريف" : وٱعلم أنَّ من صَيْدَاءَ إلىٰ بَيْرُوتَ قَدْرُ مَرْكَز .

وأما بَعْلَبَكّ ، فلها طريقان : إحداهما من خَانِ ميسلون المقدّمِ الذّكرِ إلىٰ كَرَكَ نُوحٍ إلىٰ بَعْلَبَكّ . والثانيةُ من دِمَشْقَ إلى الزَّبَدانِيِّ إلىٰ بَعْلَبَكّ .

ومن أراد من بَعْلبكّ حِمْص ، توجّه منها إلى القَصَبِ ، ثم إلى الغَسُولَة المتقدّمة الذّكر، وبعدها شَمْسِين ، ثم حِمْصُ علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه .

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٩٤) .

وأما طريق الكَرَك : فمن دِمَشْق ـ فى المَرَاكز المذكورة فى الوُصُول من غَزَّة إلىٰ دِمَشْقَ ـ علىٰ عَكْس ما تقـدّم ، إلىٰ طفس ، ومنها إلى القنيـة ، ومنهـا إلى البُرْج الأَبْيض ، ومنهـا إلىٰ حُسْبَانَ ، ومنها إلىٰ [ديبـاج](١) ومنها إلىٰ [اكريه](١) ومنها إلى الكَرَك .

وأما طريق أَذْرِعاتٍ، مَقَرِّ وِلَايةِ الوُلاةِ بالصَّفْقة القِبْلِيَّـة : فمن طفس المقدّمة الذِّكْر إلىٰ أَذْرِعات . قال فى "التعريف" : فهـذه جملة مَرَاكز دِمَشْق إلىٰ كل جِهَـةٍ .

قال : فأما مقدار الولايات، فمِن كلِّ واحدةٍ إلىٰ ما يليها، حتىٰ يَتَوصَّلَ المسافرُ على البريد إلىٰ حَيْثُ أراد .

المقصـــد الرابع

(فى مركز حَلَب وما يتفرّع عنه من المراكز الواصلة إلى البِيرَةِ وبَهَسْنىٰ وما يليهما، وقَلْعةِ المسلمين المعروفة بقَلْعة الرُّوم، وآيَاسَ مدينةِ الفُتُوحات الجَاهَانية، وجَعْبَرَ)

فأما الطريق المُوَصِّلة إلى البِيرَةِ : فمن حَلَبَ إلى البَاب، ثم منها إلى السَّاجُور، ثم منها إلىٰ كلنـاس(٢) ، ثم منها إلى البِيرَةِ ، وهى فى البَرِّ الشَّرقِيِّ من الفُرَات . قال فى "التعريف" : وهى أَجَلُّ ثُغُورها(٣) .

---

(١) بياض بالأصل، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجل قلاع الاسلام ، وعقائل المعاقل التى لم تفترع على طول الأيام» فلعل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقعت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

وأما طريق بَهَسْنَى (١) وما يَلِيها : فمن حَلَب إلى السموقة، ثم منها إلى سندرا، [ثم منها إلى بيت الفار] (٢) ثم منها إلى عَيْنتاب ، ثم منها إلى بَهَسْنَى .

ثم منها يُدْخَلُ إلى جهة قَيْسارِيَّة والبلادِ المعروفةِ الآن ببلاد الرُّوم وهى بلاد الدُّرُوب . قال فى "التعريف" : وقد ٱسْتَضَفْنا نحنُ (يعنى أهلَ هـذه المملكةِ) فى هـذا الحِينِ القريبِ إلينا منها : قَيْسارِيَّة ودَرَنْدَة ، و إنمـا المستقِرُّ المعروفُ أنَّ آخرَ حدِّ الممـالك الإسلامية من هذه الجهَة ــ بَهَسْنَى .

وأما طريق قَلْعَة المسلمين ومايَلِيها : فمن عَيْنتابَ المقدَّمة الذِّكر إليها، وهى وَسط الفُرات ، وهو خُلْجَانٌ دَائِرَةٌ عايها . ثم من قلعـة المسلمين إلى جسر الجر ، ثم إلى الكَخْتا، وهى آخر الحدِّ من الطَّرَف الآخر .

وأما طريق آياس: فمن حَلَبَ إلى أرحَاب، ثم منها إلى تِيزِينَ، ثم منها إلى يَغْرا، ثم منهـا إلى بَغْراس ، قال فى " التعريف " : وهى كانت آخرَ الحدِّ ممـا يلى بلاد الأَرْمَن . قال : وقد ٱسْتَضَفْنا نحنُ فى هذا الحِينِ ما ٱسْتَضَفْنا، فصار من بَغْراسَ إلى باياس، وهى أوّل جِبِل الأَرْمَن ، ثم من باياس إلى آياس .

وأما طريق جَعْبَر: فمن حَلَبَ إلى الجَبُّول، ثم منها إلى بالِس، ثم منها إلى جَعْبَر . قال فى "التعريف" : هذه جُمْلة مراكز حَلَب . أما بقايا القِلاع ومَقَارُّ الولايات، فمن شُعَبِ هذه الطُّرُق، أو من واحِدةٍ إلى أُخرى .

---

(١) فى التعريف سندار .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصـــــد الخامس

(فى مَرْكَز طَرَابُلُس وما يتفرّعُ عنه من المراكز المُوَصِّلة إلى جِهَاتِها)

فأما طريق اللّاذِقيَّة : فمن طَرَابُلُس إلىٰ مَرْقية، ثم منها إلىٰ بِلِنْياس، ثم منها إلى اللّاذِقِيَّـة ، ثم منها إلى صِهْيَوْنَ ، وهى قَلْعَـةٌ جَليلَةٌ كانت دَارَ مُلْكٍ . ثم منهـا إلىٰ بَلاطُنُس . قال فى "التعريف" : ومَن شاء فمن صِهْيَوْن إلىٰ بُرْزَيْه ، وهو حِصْنٌ سُمِّىَ باسم من عَمَره أو عُرِف بِمِلْكِهِ ، ومن شاء فمن بَلاطُنُس إلى العُلَيْقَةِ أوّلِ قلاع الدَّعْوةِ ممـا يلى بَلاطُنُس، ثم منها إلى الكَهْف، ثم منها إلى القُدْمُوس، ثم منها إلى الخَوَابى ، ثم منها إلى الرُّصَافَةِ ، ثم منها إلىٰ مِصْيافَ . قال فى "التعريف" : فهذه جملة مَرَاكِزِ طَرَابُلُسَ . فأما مَقَارُّ الولاياتِ فمن واحدةٍ إلىٰ أخرىٰ ، ثم ذَكَر جميع مراكز البَرِيدِ بالممـالك المحروسة .

قال : فأمَّا من أطراف مَمَالِكنا إلىٰ حَضْرة الأردو، حيث هو ملْكُ بَنِى هُولاكُو، فلهم مراكز تسمَّى خَيْل الأولاق وخيل اليام يُحْمَل عليها، لا تُشْترى بمـال السلطان ولا يُكَلَّف ثمَنها ، وإنمـا هى علىٰ أَهْلِ تلك الأرض، نحو مَرَاكِزِ العَرَبِ فى رَمْل مِصْر ونحو ذلك .

المقصـــــد السادس

(فى معرفة مَرَاحِلِ الحِجَاز المُوَصِّلةِ إلىٰ مَكَّة المُشَرَّفةِ والمَدينة النَّبوِيَّة علىٰ ساكنها سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام، إذْ كانتْ من تَتِمَّة الطُّرُق الموصِّلة إلىٰ بَعْض أقطار المملكة)

وكما ضُـبِطَتْ تلك بالمَرَاكز فقد ضُبِطَتْ هـذه بالمَرَاحل . وعَادةُ الحُجَّاجِ أنهم يَقْطعون فى كلِّ يومٍ ولَيْلَةٍ منها مَرْحلتين بسَيْرِ الأَثْقال، ودَبِيبِ الأقدام، [ويَقْطعُونها

كلّها] فى شهر، بمـا فيه من أَيَّام الإقامة بالعَقَبة والينْبع نحو سِتّة أيام. أما من يُسافِر على النُّجُبِ مُخِفًّا مع الجِدِّ فى السَّيْر فإنه يَقْطعُها فى نحو أَحَدَ عشَر.

ثم أوّل مَصِيرِهم من القاهرة إلى البِرْكة المعروفة ببِرْكَةِ الحَاجّ، ثم منها إلى البُوَيْب، ثم منها إلى الطُّلَيْحات، ثم منها إلى المنفرح، ثم منها إلىٰ مراكع موسىٰ، ثم منها إلىٰ عجرود، وبها بِئْر ومَصْـنَعُ ماءٍ مُتَّسعٌ يملأ منها. ثم منها إلى المنصرف، ثم منهـا إلىٰ وَادِي القِبَاب، وهو كثير الرَّمْل. ثم منها إلىٰ أوّل تِيه بنى إسْرائيلَ، وهو وَادٍ أَفْيَحُ مُتَّسعٌ. ثم منها إلى العُنُق، ثم منها إلىٰ نخِل، وبها ماء طَيِّب. ثم منها إلىٰ جَسَـد الحىّ، ثم منها إلىٰ بِئْر بيدرا، ثم منها إلىٰ تمد الحصا، ثم منها إلىٰ ظَهْر العَقَبة، ثم منها إلىٰ سَطْحِ العَقَبة، وهو عُرْقُوب البَغْلة علىٰ جانب طَرَف بَحْر القُلْزُم، وفيها ماء طَيِّبٌ من حَفَائِر. ثم منها إلىٰ حَقْل علىٰ جانب طَرَف بحر القُلْزُم، وفيها ماء طَيِّب من الحفائر. ثم منها إلىٰ عُشّ الغُرَاب، ثم منها إلىٰ آخر الشرفة، ثم منها إلىٰ مَغَارةِ شُعَيْب، وبها ماءٌ ومَصْـنَع. ثم منها إلىٰ وادى عَفَّان، ثم منها إلىٰ ذَاتِ الرَّخِيم، ثم منها إلىٰ عُيُون القَصَب، وبه ماءٌ نابعٌ وأَجَمَـةُ قَصَبٍ نابِتَـةٌ فيها. ثم منهـا إلى المُوَيْلِحَة، وبها ماءٌ فى آبار. ثم منها إلى المُدَرّج، ثم منها إلىٰ سَلْمَى مُجَاوِر بَحْر القُلْزُم، وبها ماء ملْح. ثم منها إلى الأتيلات، ثم منها إلى الأَزْنَم، والناسُ يقولون: الأَزْلَم باللام بدل النون، وبه آبارٌ بها ماءٌ رَدِىءٌ يُطْلِق بَطْنَ مَن شَرِبه، لا يسقىٰ منه غالبًا إلا الجِمَالُ، وهى نِصْفُ الطَّرِيق. ثم منها إلى رَأْس وَادِى عَنْتَر. ثم منها إلى الوَجْه، وبه آبارٌ قليلةُ المَـاءِ، وما هو داخل الوَادِى يَعِزُّ المـاء فيه غالبًا ولا يُوجد فيـه إلا حَفَائِر، ويقال: إنه إذا طَلَعتِ الشَّمْسُ عليـه نَضَبَ ماؤُه، وفيه يقولُ بعض من حَجَّ من الشعراء وعَزَّ عليه وُجُودُ المـاء فيه:

إِذَا قَلَّ ماءُ "الوَجْهِ" قَلَّ حَيَاؤُه، * وَلَا خَيْرَ فى "وَجْهٍ" بغَيْرِ حَيَاءِ!

ثم منه إلى المحَاطب ، ثم منها إلىٰ أكرا ، ثم منها إلىٰ رَأْس القَاع الصَّغير ، ثم منه إلىٰ قَبْر القروىّ ، ثم منـه إلىٰ كَلْخا ، ثم منها إلىٰ آخرِ القَاع الصَّـغِير ، ثم منه إلى الحَوْراء ، وبها ماء غير صالح . ثم منها إلى العُقَيْق بضم العين تَصْغيز عَقيق بفَتْحها ، وهو مَضِيقٌ صَعْبٌ . ثم منها إلىٰ مَغَارَة نبط ، وبها ماءٌ عَذْبٌ ليس بطريق الحجـاز أَطْيبُ منه . ثم منها إلىٰ وَادِى النُّور ، ثم منها إلىٰ قَبْرِ أحمدَ الأَعْرج الدَّلِيل ، ثم منه إلىٰ آخرِ وادى النُّور ، ثم منه إلىٰ رَأْس السَّبْع وَعْرات ، ثم منها إلىٰ دَارِ البَقَر ، ثم منها إلى اليَنْبُع ، وهى النِّصْف والرُّبُع من الطريق ، وبها تَقَع الإقامةُ ثلاثةَ أيامٍ أو نَحوها ، وبهـا يُودِعُ الحُجَّاجُ ما ثَقُل عليهم إلىٰ حِينِ العَوْدِ ، ويَسْتَمِيرُون منها ممـا يَصِلُ إليها من الديار المصرية فى سُفُنِ بَحْر القُلْزُم . ثم منها إلى المحاطب فى الوَعْر . ثم منها إلىٰ رَأْسِ وادى بَدْر ، وهى منزلة حَسَنةٌ بها عُيُونٌ تجرى وحَدَائِق . ثم منها إلىٰ رَأْس قَاعِ البزوة ، ثم منه إلىٰ وَسْط قَاعِ البزوة ، ثم منه إلىٰ رَابِـغ ، وهو مقابل الجُحْفة التى هى مِيقَاتُ الإحْرام لأهل مِصْر ، وبها يُحْرِمُ الحُجَّاجُ ولا يَغْشَوْن الجُحْفَة ، إذ قد دَعَا النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم بنَقْل حُمَّى المدينة إليها بقوله : «وآنْقُلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَة» فلو مرّ بها طائرٌ لَحُمَّ . ثم منها إلىٰ قُدَيْدٍ بضم القاف . ثم منه إلى عَقَبة السَّوِيق ، ثم منها إلىٰ خُلَيْص ، وبه مَصْـنع ماء . ثم منها إلىٰ عُسْفَان ، ثم منها إلىٰ مدرّج عَلِىٍّ ، وهو كثير الوَعْر . ثم منه إلىٰ بَطْنِ مَرٍّ ، والعامة يقولون : مَرْو ، بزيادة واو ، وبه عُيُونٌ تجرى وحَدَائِق . ثم منه إلىٰ مَكَّة المُشَرفةِ شَرَّفها الله تعالىٰ وعَظَّمَها ، ثم من مَكَّةَ إلىٰ مِنًى ، وبها ماءٌ طَيِّبٌ من آبار تُحْفَر ، ثم منها إلى المَشْعَرِ الحَرَامِ والمُزْدَلِفَة ، ثم منها إلىٰ عَرَفَةَ وهى المَوْقِفُ ، وإليها يَنْتَهى سَفَرُ الحُجَّاج .

ثم العَوْد فى المَنَازِل المتقدّمة الذِّكْر إلىٰ وادى بَدْر علىٰ عَكْسِ ما تقدّم .

الطريق إلى المدينة النَّبَــــوِيَّة
(علىٰ ساكِنِها أفْضَــلُ الصلاة والســـلام)

من مِصْر فى المَرَاحِلِ المتقدّمِة الذِّكْر ، إلىٰ وَادِى بَدْرٍ المُتَقَدِّمَة الذِّكْر ، إلى رأس وَادِى الصَّفْرَاء ، وبه عيونٌ تَجْرِى وحَدَائِقُ وأشجارٌ . ثم منهـا إلىٰ وَادِى بَنِى سَالِمٍ ، ثم منه إلىٰ وَادِى الغَزَالة ، ثم منه إلى الفَرْش ، ثم منه إلىٰ بِئْرِ عَلِيٍّ ، وبها ماء طَيِّب . ثم منهـا إلى المَدِينَة الشريفة النَّبَوِية علىٰ ساكنها أفضــلُ الصلاة والسلام والتحية والاكرام .

ومن شَاءَ ذَهَب إليها من اليَنْبُع إلىٰ رأس نَقْبِ عَلِيٍّ عنــد طَرَف الجَبَل ، ثم إلىٰ وَادِى الصَّفْرَاء ، ثم فى المَرَاحِل المتقدّمة الذِّكْر إلى المَدِينَــة . وهى أقرب الطريقين للذَّاهِب من مصْر ، وتلك أَقْرَبُ للعائد من مَكَّة .

الباب الثانى

من الخاتمة فى مَطَارَاتِ الحَمَام الرَّسَائِلِيّ، وذِكْرِ أبْرَاجِها المقرَّرةِ بطُرُق الديار المصرية والبِلَاد الشَّامِيَّة، وفيه فصلان

الفَصْـــل الأوّل

فى مَطَـارَاتِه

قد تَقَدّم فى الكلام علىٰ أوصاف الحَمَام ـ عند ذكر ما يُحْتاج إلىٰ وَصْفِه فى أواخر مَقَاصِد المكاتبات من المَقَالة الرَّابِعة ـ أَنَّ الحَمَام اسْمُ جِنْسٍ يقع علىٰ هَذا الحَمَام المُتَعارف بين الناس، وعلى اليَمَام والدَّباسىّ والقَمارىّ والفَوَاخِت وغيرها، وأنَّ المُتَبادِرَ إلىٰ فَهْم السامع عند ذكر الحَمَام هو هذا النَّوْع المَخْصوص، وأن أَغْلاه قِيمةً وأعلاه رُتْبة الحَمَامُ الرسَائِلىُّ، وهو الذى يَتَّخِذُه الملوكُ لحَمْلِ المكاتبات، ويُعبَّر عنه بـ«الهَدِى».
وتقدّم هناك الكلام علىٰ ذِكْرِ ألوانها على آختلافها، وعَدَدِ الرِّيَاشِ المعتبرة فيها، وهى رِيَاشُ أجْنِحَتِها وأَذْنابها، وبَيَانِ الفَرْق بين الذَّكرِ والأنثىٰ، وصِفَةِ الطائر الفَارِه، والفِرَاسةِ فى نَجَابَتِه فى حال صِغَرِه، والزَّمانِ والمكانِ اللائقين بالإفْرَاخ، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وَصْفِه لبيان النَّجِيبِ منه من غيره، فأغنىٰ عن ذِكْرِه هنا.

والمختصُّ منه بهذا المكان ذِكْرُ الاعتناء بهذا الحَمَام، وأَوَّلِ من آهتمَّ بشَأْنه، واعْتَنىٰ بأمْرِه، ومن قام به من الملوك، ومَسَافات طَيَرانه، وما يجْرى هذا المَجْرىٰ.

فأما الاعتناء به والاهتمام بشأنه ـ فقد اعتنى به فى القديم خلفاء بنى العباس : كالمهدى ثالث خلفائهم، والناصر منهم . وتنافس فيه رؤساء الناس فى العراق لا سيما بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا فى اقتنائه ، ولهجوا بذكره، وبالغوا فى أثمانه، حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار . ثم قال : ويقال : إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . قال : وكانت تباع بيضتا الطائر المشهور بالفراهة بعشرين دينارا، وأنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب، وأنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمام، والمنافسة فيه، والإخبار عنها ، والوصف لأثرها، والنعت لمشهورها، حتى وجه أهل البصرة إلى بكار بن شيبة البكرانى قاضى مصر، (وكان فى فضله وعقله ودينه وورعه على مالم يكن عليه قاض) بحمامات لهم مع ثقات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولى إرسالها بنفسه، ففعل . وكان الحمام عندهم متجرا من المتاجر، لا يرون بذلك بأسا .

وذكر المقر الشهابى بن فضل الله فى "التعريف" أن الحمام أول مانشأ بالديار المصرية والبلاد الشامية من الموصل، وأن أول من اعتنى به من الملوك [ونقله][1] من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكى صاحب الشام رحمه الله، فى سنة خمس وستين وخمسمائة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وصنف فيه الفاضل محيى الدين بن عبد الظاهر كتابا سماه : "تمائم الحمائم" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف فى ذلك ـ أبو الحسن بن ملاعب الفوارس البغدادى ، فصنف فيه كتابا للناصر لدين الله الخليفة العباسى ببغداد ، وذكر فيه

(١) بياض بالأصول ، والتصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أسماءَ أعضاءِ الطّائرِ ورِياشِه ، والوُشُوم التى تُوسَم فى كلِّ عُضوٍ ، وألْوان الطُّيور وما يُسْتَحْسنُ من صفاتها ، وكيفية إفْراخِها ، وبُعْد المَسَافاتِ التى أرسلت فيها ، وذِكْر شيء من نَوَادِرِها وحِكَاياتِها ، وما يَجْرِى هذا المجرى . وأظنُّ أنَّ كِتابَ القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر نَتِيجَةٌ عن مُقَدِّمته .

وأما مَسَافاتُ طَيَرانه ، فقد تقدّم أن الطائرَ الذى بِيعَ بألْفِ دِينارٍ طَارَ من القُسْطَنْطِينِيَّة إلى البَصْرة ، وأن الحَمَام أُرْسِلَ من مِصْر إلى البَصْرةِ بحَضْرة القاضى بَكَّارٍ قاضى مصر .

وذكر ابن سَعِيدٍ فى كتابه "حَيَا المَحْل وجَنَى النَّحْل" أنَّ العَزِيزَ ثانِىَ خُلَفاءِ الفاطِميِّين بمصر ، ذكر لوَزِيرِه يَعْقوبَ بن كِلّس أنه ما رأى القَرَاصِيَةَ البَعْلَبَكِّيَّةَ ، وأنه يُحِبُّ أن يراها . وكان بدَمَشْق حَمَامٌ من مِصْرَ وبمِصْرَ حَمَامٌ من دِمَشْقَ ، فكتب الوزيرُ لوَقْتِه بِطاقَةً يأمر فيها مَن هو تحت أَمْرِه بدَمَشْقَ أن يجمع ما بها من الحَمَام المِصْرِىِّ ، ويعلِّقَ فى كلِّ طائرٍ حَبَّاتٍ من القَرَاصِية البَعْلَبَكِّية ، ويُرْسِلَها إلى مِصْر ، ففعل ذلك ، فلم يَمْضِ النَّهارُ حتَّى حضرتْ تلك الحمائم بما عُلِّق عليها من القَرَاصِية ، فجمعه الوَزيرُ يعقوبُ بن كِلّس وطَلَع به إلى العَزِيزِ فى يَوْمِه ، فكان ذلك من أَغْرَبِ الغَرائِبِ لَدَيْه .

وذكر أيضًا فى كتابه "المُغْرِب فى حلى المَغْرِب" أن الوَزيرَ البازُورِىَّ المَغْرِبِىَّ ، وَزيرَ المستنصر بالله الفاطمىِّ وَجَّه الحَمَام من تُونس من أفريقية من بلاد المغرب فجاء إلى مِصْر ، والعُهْدة عليه فى ذلك .

الفصـــــل الثـانى

من الباب الثـانى من الخاتمة فى أبراج الحَمَـام المقرَّرة لإطَارتها بالديار المِصْرية والبـــلاد الشَّاميَّـــة

وهى من القَوَاعد والطُّرُق، على ماتقدّم فى البريد .

أما فى المَسَافات فإنَّهـا تختلفُ، فإن مَطَاراتِ الحَمَـامِ رُبَّمـا زادت علىٰ مَرَا كِز البــريد .

الأَبْراجُ الاخِذَة من قَلْعة الجَبَل المحروسة إلىٰ جهات الديار المصرية

قال فى "التعريف" : وٱعْلَمَ أن الحَمَـام قد ٱنقطع تَدْرِيجُه من مِصْر إلىٰ قُوص وأُسْوَانَ وعَيْذاب . وهـذا ظاهِرٌ فى أنَّ الحَمَـام كان يُدَرَّج إلىٰ هـذه الأمَاكِن، ثم أُهْمِلَ تَدْرِيجُه بعـد ذلك . قال : ولم يَبْق منـه الآن إلا ما هو من القَاهِرةِ إلى الإسْكَنْدَرِيَّة، ومن القاهرة إلىٰ دِمْيـاط، ومن القَاهِرة إلى السُّوَيْس من طريق الحَاجِّ، ومن القَاهِرة إلىٰ بُلْبيس متَّصِلًا بالشام .

قلتُ : وآهَلُ هـذه الأبراج كُلِّها بُرْجُ قَلْعةِ الجَبَل المحروسة، ومنهـا التَّدْريج إلىٰ سائرالجهَات .

ثم لم يذكر فى "التعريف" : الأَبْراجَ الموَصِّلَة إلىٰ أسْوان وعَيْذابَ والإسْكَنْدرِيَّة ودِمْيــاط .

الأبراج الاخذة من قَلْعة الجَبَل إلىٰ غَزَّة

من بُرُوج قَلْعة الجَبَل — إلىٰ بُلْبَيْس، ثم منها إلى الصَّالِحِيَّة، ثم منها إلىٰ قَطْيا، ثم منها إلى الورَّادَة، ثم منها إلىٰ غَزَّة .

الأبراج الآخذة من غَزَّة ومايتفرّع عنها

اِعلم أن الأبراج من غَزَّة تتشعَّبُ فيها مَسَارِحُ الحَمَام إلىٰ غيرِجِهَةِ دِمَشْق وإلىٰ جِهَتِها .

فأمَّا غيرِجِهَةِ دِمَشْقَ ، فمن غَزَّةَ إلىٰ بَلَد الخَلِيلِ عليه السلام ، ومن غَزَّة إلى القُدْسِ الشَّرِيف ، ومن غَزَّة إلىٰ نَابُلُسَ .

وأما جِهَةُ الشَّام : فمن غَزَّةَ إلىٰ لُدّ ، ومن لُدَّ إلىٰ قَاقُونَ ، ومن قَاقُونَ إلىٰ جِينِينَ .

ومن جينِينَ تَتَشعَّبُ المَسَارِحُ إلىٰ غيرِجِهَةِ دِمَشْق وإلىٰ جِهَتِها .

فأمَّا ما إلىٰ غَيْرِجِهَةِ دِمَشْق : فمن جِينِينَ إلىٰ صَفَدَ . وأمَّا ما إلىٰ جِهَةِ دِمَشْقَ : فمن جِينِينَ إلىٰ بَيْسانَ ، ومن بَيْسَانَ إلىٰ أَرْبَدَ ، ومن أَرْبَدَ إلىٰ طفْس ، ومن طفْسٍ إلى الصَّنَمَيْنِ ، ومن الصَّنَمينِ إلىٰ دِمَشْقَ .

قال في "التعريف" : ومن كلِّ واحدٍ من هذه المَرَاكِز إلىٰ ما جَاوَر ذلك من المَشَاهِير : مِثْـل من بَيْسانَ إلىٰ أَذْرِعاتٍ مَقَرِّ ولاية الوُلاة بالصَّفْقةِ القِبْلِيَّة ، ومن طفْسٍ إليها ــ لإشعار وَإلى الولاة .

الأبراج الآخذة من دِمَشْق وما يتفَرَّعُ عنها

تتشعَّبُ مَسارِحُ الحَمَام من دِمَشْق إلىٰ غيرِجِهَةِ حَلَبَ ، وإلىٰ جِهَتِها .

فأما إلىٰ غيرِجِهَةِ حَلَب : فتُسَرَّح من دِمَشْقَ إلىٰ بَعْلَبَكَّ ، ومن دِمَشْق إلى القَرْيتين .

وأما ما هو إلىٰ جِهَةِ حَلَب : فتُسَرَّح من دِمَشْق إلىٰ قارا (١) ، ثم من قارا (١) إلىٰ حِمْص ، ثم من حِمْص إلىٰ حَمَاةَ ، ثم من حَمَاةَ إلى المَعَرَّة ، ثم من المَعَرَّةِ إلىٰ حَلب .

(١) سماها في معجم البلدان : قَارَة بالهاء .

الأبراج الآخذة من حَلَب وما يتفرّع عنها

بُرْجُ الحَمَـام من حلَب إلى البِيرَةِ ، ومن حَلَبَ إلىٰ قَلْعَـةِ المسلمين ، ومن حَلَبَ إلىٰ بَهَسْنىٰ . قال فى " التعريف " : وإلىٰ بقيـة [ماله شأن(١)] ممَّـا حَوْلَهـا [ثم من القَرْيَتَين إلىٰ تَدْمُر ، ومنها إلى السُّخْنَة ، ومنها إلىٰ قُبَاقب ، ومنها إلى الرَّحْبة . وقد تعَطَّلَ الآن تَدْرِيجُ السُّخْنَة إلىٰ قُبَاقِب ، وإنما صار يَسُوق ببَطَائِقِ تَدْمُرَ الواقعة بالسُّخْنَةِ منهـا إلىٰ قُبَاقَبَ ، ثم يُسَرَّح على الجناح من قُباقِب إلى الرحْبَة(١)] . قال : وبمـا ذُكِرتَمَّ ذِكْرُمراكِزِ الحَمَـام فى سائر الممـالك الإسلامية .

قلتُ : وقد تَعَطَّل تَدْرِيجُ الحَمَـام الآنَ .

---

(٢) الزيادة من التعريف ليتمَّ الكلام .

الباب الثالث

من الخاتمة فى ذِكْر هُجُنِ الثَّلْج والمَرَاكِبِ المُعَدَّة لحَمْلِ الثَّلْج الذى يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصريَّة، وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأوّل

فى نَقْل الثَّلْج

اِعلم أنَّ ماءَ نيلِ مِصْر لما كان من الحَلَاوة واللَّطافة علىٰ ما لا يُساوِيه فيه نَهْرٌ من الأنهار، علىٰ ماتقدّم ذِكْرُه فى الكلام على الديار المصرية فى المقالة الثانية، مَعَ شِدَّةِ القَيْظ بها فى زَمَن الصيف، وسُخُونة الهواء الذى قد لايَتأَتَّىٰ معه تَبْريدُ الماء، وكان الثَّلْج غيرَ موجودٍ بها، وكانت الملوكُ قد ٱعتادت الرَّفاهيَةَ مع ٱقتِدارِها علىٰ تَحْصيلِ الأشياء العَزِيزة، ووَلُوعِهِم بجَلْبها من الأماكِنِ البعيدة – إكْمالًا لحال الرَّفاهِيَة، وإظهارًا لأُبَّهَةِ المُلْك – دَعَاهم كَمَالُ الرَّفاهِيَةِ والأُبَّهة إلىٰ جَلْبِ الثَّلْج من الشام إلىٰ مصر: لتَبْرِيدِ الماء به فى زَمَن الحَرّ. علىٰ أنَّ ذلك كان فى غيرهم من الملوك التى لا تَثْلَجُ بحاضرتهم.

وقد ذكر أبو هلالٍ العَسْكَرىُّ فى كتابه "الأوائل" أنَّ أوّلَ من حُمِلَ إليه الثَّلْجُ الحَجّاج بن يُوسُف بالعِراق. ثم لاَعتناء مُلوكِ مِصْر بالثَّلْج قرَّروا له هُجُنًا تحْمله فى البَرّ وسُفُنًا تحمله فى البَحْر، حتى يَصلَ إلى القلعة المحروسة.

الفصـــــل الثـانى

من الباب الثالث من الخاتمة فى المَرَاكِبِ المُعَدَّة لنَقْلِ الثَّلْج من الشام

قد ذكر فى "التعريف" أنها كانت فى أَيَّام المَلِك الظَّاهِر «بيبرس» تَغَمَّده الله برَحْمته ثَلَاثُ مَرَاكِبَ فى السنة، لا تَزِيدُ علىٰ ذلك . قال : ودامتْ علىٰ أيَّام سُلْطاننا (يعنى المِلكَ النَّاصِرَ «محمدَ بنَ قَلَاوُون») فى السَّلْطنة الثالثة، وبَقِيتْ صَدْرًا منها، ثم أخذت فى التزيُّد إلىٰ أن بلغتْ أحدَ عَشَر مَرْكَبًا فى مملكتى الشام وطَرَابُلُس، ورُبَّما زادت علىٰ ذلك . قال : وآخِرُ عَهْدِى بها من السَّبْعة إلى الثمانية تُطْلَب من الشام ولا تُكَلَّف طَرَابُلُس إلا المساعدة، وكلُّ ذلك بحَسَب ٱختلاف الأوقاتِ ودَوَاعى الضرورات .

قال : والمَرَاكِبُ تأتى دمْياطَ فى البَحْر، ثم يخرج الثَّلْج فى النِّيلِ إلىٰ ساحل بولاق، فيُنْقَلُ منه على البِغَال السلطانية، ويُحْمَل الى الشرابْخاناه الشريفة، علىٰ ما تقدّم ذكره .

وقد جَرَتِ العادةُ أن المراكب إذا سُفِّرَتْ سُفِّرَ معها من يَتَدَرَّكُها من ثَلَّاجِينَ لمداراتها . ثم الوَاصِلون بها فى البَحْر يعودون على البريد فى البَرِّ .

الفصـــــل الثـالث

من الباب الثالث من الخاتمة فى الهُجْنِ المُعَدَّة لنَقْل ذلك

قد ذكر فى "التعريف" أنه ممـا حَدَث فى الدَّولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وٱستمرَّ . وقد كان قبل ذلك لا يُحْمل إلا فى البَحْر خاصَّةً . ثم ذكر أن هذه المَرَاكِزَ من دمَشْقَ إلى الصَّنَمين، ثم منها إلىٰ بَانِيَاسَ، ثم منها إلىٰ أَرْبَدَ، ثم منها إلىٰ بَيْسانَ،

ثم منها إلىٰ جِينِينَ ، ثم منها إلىٰ قَاقُون ، ثم منها إلىٰ لُدٍّ ، ثم منها إلىٰ غَزَّة ، ثم منها إلى العَرِيش ، ثم منها إلى الوَرَّادة ، ثم منها إلى المُطَيْلِب ، ثم منها إلىٰ قَطْيا ، ثم منها إلى القُصَيْر ، ثم منها إلى الصَّالِحِيَّة ، ثم منها إلىٰ بُلْبَيْس ، ثم منها إلىٰ القَلْعَة .

قال : والمُسْتَقِرّ فى كلِّ مَرْكَز ستُّ هُجُنٍ : خمسةٌ للأَحْمال ، وهَجِينٌ للهَجَّان ، تكونُ كلُّ نَقْلةٍ خَمْسةَ أحمال . وهــذه الهُجْن من الشام إلى العَرِيش على المملكة الشَّامِيَّة ، خلَا جِينِين فإنها علىٰ صَفَد . ومن الوَرَّادةِ إلى القَلْعة هُجُنٌ من المَنَاخَاتِ السُّلْطانية ، والكُلْفة علىٰ مال مِصْر . ولا تَسْتَقِرُّ هذه الهُجْن بهذه المراكز إلا أَوَانَ حَمْل الثَّلْج ، وهى : حَزِيرَانُ وتَشْرِينُ الثانى . وعِدَّة نقلاته إحدىٰ وسبعون نَقْلة ، مُتَقارِبٌ مُدَد ما بينها ، ثم صار يَزِيدُ علىٰ ذلك . ويُجَهَّزُ مع كلِّ نقلة بَرِيدِىٌّ يتداركه ، ويُجَهَّز معه ثَلَّاجٌ خَبِير بحَمْلِه ومُدَاراته ، يُحْمل علىٰ فَرَسٍ ببَرِيدٍ ثانٍ . قال : وآستقرَّ فى وَقْتٍ أن يُحمَلَ الثَّلَّاجُ علىٰ خَيْل الوِلَاية .

وآعلَمْ أن الثَّلْجَ إذا وصــل على المَرَاكِب والهُجْنِ حتّى آنتهىٰ إلى القَلْعة ، خُزِنَ بالشرابخاناه السلطانية . قال فى "التعريف" : ومذ قرّر أن يُحْمَل من الثَّلْج على الظَّهْر ما يُحْمَــل ، آسْتَقرَّ منه خاصُّ المَشْرُوب ، لأنه يَصِــلُ أَنْظَفَ وآمَنَ عاقِبَةً ، علىٰ أن المُتَسَفِّرِين يأخذون الحَــاشِنى منــه بحضور أَمير مَجْلس وشَادِّ الشَّرَابْخَاناه الســلطانية وخُزَّانهــا . أما المَنْقول فى البَحْر فلمَــا عدا ذلك . قال : وللمُجَهِّزِين به من الخِلَــع ورُسُومِ الإِنْعام رُسُومٌ مُسْتقِرَّه ، وعَوائِدُ مُسْتَمِرَّه .

قلتُ : وقد جَرَت العادة أنَّ واصِلَ الثَّلْج فى كلِّ نَقْلةٍ فى البَرِّ والبَحْر تُكتَبُ به رَجْعةٌ من دِيوَانِ الإنشاء ، وهذا هو وَجْه تَعلُّقه بديوان الإِنْشاء .

البـاب الرابـــــع

من الخاتمة فى المَنَاوِر والمُحْرِقات ، وفيـــه فصلان

الفصـــــل الأوّل

فى المَنَـاوِر

قال فى "التعريف" وهى مَوَاضِعُ رَفْعِ النَّارِ فى اللَّيلِ والدُّخان فى النَّهار .

وذلك أن مَمْلكةَ إِيرانَ لمَّا كانتْ بيَدِ هُولَاكُو من التَّتار، وكانتْ الحُرُوب بينهم وبين أهْلِ هذه المَمْلَكَةِ، كان من جُمْلة آحتياط أَهْلِ هــذه المملكة أن جَعَلوا أماكِنَ مُرْتَفِعةً من رُؤُوس الجبال تُوقَد فيها النَّارُ ليلًا و[يُثَارُ] الدُّخَانُ نهارا، للإعلام بحَرَكة التَّتار إذا قَصَدوا دُخولَ البلادِ لحَرْبٍ أو إِغَارة . وهذه المَنَاوِر تارةً تكونُ علىٰ رُؤوس الجبال ، وتارةً تكون فى أَبْنِيَةٍ عاليةٍ ، ومَوَاضِعُها معروفةٌ تَعَرَّف بهـا أكْثَرُ السَّفَّارة، وهى من أقصَىٰ ثُغُور الإسلام كالبِيرَةِ والرَّحْبَة، وإلى حَضْرة السلطان بقَلْعَة الجَبَل، حتَّىٰ إنَّ المُتَجدِّدَ بالفُراتِ إن كان بُكْرَةً عُلِمَ به عِشَاءً ، وإن كان عِشَاءً عُلِمَ به بُكْرَةً. ولِمَـا يُرْفَع من هذه النِّيران ، أو يدخَّنُ من هــذا الدُّخَان أدِلَّةٌ يُعرَفُ بهـا آختلافُ حالات رُؤْيَةِ العَدُوِّ والمخبر به بآختلاف حَالَاتِها، تارةً فى العَدَد، وتارةً فى غير ذلك. وقد أُرْصِدَ فى كلِّ مُنَوِّرٍ الدَّيادِبُ والنَّظَّارة ، لرؤية ماوراءهم وإيراء ما أَمَامَهم ، ولهم علىٰ ذلك جَوَامِكُ مُقَرَّرة كانت لا تزال دَارَّة . قال : وكان يُنَوِّرُ بمدينة عانَةَ من تلك المملكة قَوْمٌ من النُّصَّاح بحُجَّة أمرٍ سِوَى التَّنْوير، ويستر عليهم أهلُ البَلَد حُبًّا لملوكنا، فترىٰ [نَارُهُ أو دُخَانُه بخَرِبَة الرُّوم وبالحرف أيضًا، ويُرْفَعُ فيهما أوفى إحداهما فيرىٰ][1]

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠) .

من كلٍّ منهما بوادِى الهَيْكَل، ويُرفَع فيه فيُرىٰ [بالقَنَاطِر، ويُرْفع بالقناطر فيُرىٰ بالرَّحْبَة وقاها الله ، ويُرْفع بها فيُرىٰ فى كَوَاثِل ، ويرْفع فيها فيُرىٰ فى مَنْظرة قُبَاقِب ، ويُرْفع فيها فيُرىٰ فى حَفِير أسَدِ الدِّين، ويُرْفع بها فُيرىٰ] (١) بالسُّخْنَة ، فُيرْفع فيها فيُرىٰ بمَنْظَرة أَرَكِ ، فُيرْفع فيها فيُرى بالبُوَيْب وهو قَنْطرةٌ [بين أَرَكِ] (١) وتَدْمُر ، فيُرفَع فيها فيُرىٰ بمَنْظَرة تَدْمُر ، فيرفع فيها فيُرىٰ بمَنْظَرة البَيْضَاء ، فيرفع فيها فيُرىٰ بالحَيْر ، فيرفع فيها فيرىٰ بجُلَيْجِل ، فيُرْفع فيها فيُرىٰ بالقَرْيتَين ، فيرفع فيها فيرىٰ بالعطنة ، فيرفع فيها فيرىٰ بثَنِيَّة العُقَاب ، فيُرْفع فيها فيُرىٰ بمئْذَنَة العَرُوس ، فيُرفع فيها لِمَا حَوْلها ، إنْذارًا للرعايا وضَمًّا للأطراف ، فيُرْفع حَوْل دِمَشْق بالجَبَل المُطِلّ علىٰ بَرْزَة فيُرىٰ بالمانع ، فيُرْفع به فيُرىٰ بتَلّ قَرْية الكتيبَة ، ثم يُرفع فيها فيُرىٰ بالطُّرَّة ، ثم يرفع فيرىٰ بجَبَل أَرْبَد وبجَبَل عَجْلُون ، ثم يُرْفع بهما فيُرىٰ بجَبَــل طَيْبة آسم ، ثم يرفع بها فيُرىٰ بالمُنَوِّر المعمولِ بإزاء البِئْر الذى برَأْس الجَبَل المُنْحَدِر إلى بَيْسانَ المَعْروف بعَقَبَة البَرِيد ، لا عُدُولَ (٢) بطريق البريد الآن عنه ، ويُرىٰ منه أطرافُ أعمالِ نَابُلُس [نحو جبال أبزيق وما حَوْلها ، ويُرْفع من هذا المُنَوِّر الذى برأس عَقَبة البَرِيد فيرىٰ بالجَبَل المعروف بقَرْية جِينِينَ ، ثم يُرفَع منه فيُرىٰ بجَبَل فَــمة ، ثم يُرفع منه فيُرىٰ بشُرْفة قَاقُونَ ، ثم يرفع منه فيرىٰ بأَطْراف أعمال نَابُلُس] (١) ويُرَىٰ علىٰ قَصْد الطريق بذِرْوة الجَبَل المُصاقِب لمجدل بابا ، فيرفع منه فيُرىٰ بمَرْكَز ياسور المَعْدول بالبريد الآن عنه ، ثم يُرْفع منــه فيُرىٰ بالجبال المطِلّة علىٰ غزَّة ، فيرفع بغزّة علىٰ أعَالِى الحَدَب المعروف بحَدَب غَزَّة ، ثم [لا مُنَوَّر و] (١) لا إخْبَــارَ بشَأْنِ التَّتار إلا على الجَنَاح والبَرِيد .

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ — ٢٠١) .

(٢) الذى فى التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فتنبه .

قال : ثم ٱعْلم أن جَمِيعَ ما ذكرناه مَناوِرُ تتشعَّب إلىٰ ما خَرَج عن جادَّة الطريق إلى البلاد الآخذة علىٰ جَنْبٍ جنوبًا وشَمَالا ، شرْقًا وغرْبًا . أما منذُ أصلح الله بين الفِئَتَيْن، وأَمَّنَ جَانِبَ الجِهَتَين، فقد قلَّ بذلك الاْحْتِفال، وصُرِفَ عن البال. وهذه المناور رُسُومٌ قد عَفَتْ ، وجُسُومٌ [أَكَلَت شُعُلُ النَّارِ أرْواحَها] (١) فأنْطَفت .

علىٰ أنه قد نَصَّ فى "التعريف" علىٰ مَنَاوِر طريقِ البِيرَة، ومناور طريق الرَّحْبَة، وهما من نَفْس المملكة .

قلتُ : وهذه المَنَاوِر مأخوذةٌ عن مُلوك الهِنْد . فقد رأيتُ فى بعض الكُتُب أنَّ ببلادهم مَنَاوِرَ علىٰ جِبالٍ مرتفعةٍ، تُرى النَّارُ فيها علىٰ بُعْدٍ أكثر من هذه .

علىٰ أن مُرَتِّبها بهذه المملكة أوّلًا أتَىٰ بحِكْمةٍ مُلُوكيَّةٍ لا تُساوَىٰ مِقْدارا، إذ قد ترَقَّىٰ فى سُرْعة بُلُوغ الأخبـار إلى الغَايَة القُصْوىٰ . وذلك أن البَرِيدَ يأتى من سُرْعة الخَبَر بما لم يأتِ به غيرُه، والحَمَامَ يأتى من الخَبَرِ بمـا هو أسْرَعُ فى البريد، والمَنَاوِرَ تأتى من الخَبَر بما هو أسرع من الحَمَـام . وناهيكَ أن يَظْهَر عُنْوانُ الخَبَر فى الفُراتِ بمصر فى مَسَافة يَوْمٍ ولَيْلةٍ .

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠١) .

الفصـــل الثـانى

من الباب الرابع من الخاتمة فى المُحْرِقَات

قال فى "التعريف": وهى مَوَاضِعُ ممّـا يلى بِلادنا من حَدّ الشَّرْق داخلةٌ فى تلك المَمْلَكةِ (يعنى مملكةَ بِنى هُولاكُو من التَّتار) يُجَهَّز إليها رجالٌ فتُحْرِقُ زَرْعها، كأرض البُقْعة والتَّرْثَار والقيِنة، وباشزة، والهَتَّاخ، ومَشْهد ابن عُمَر، والمُوَيْلِح، وبلادِ نِينَوىٰ من بَرّ الموصـل التى يقال، إن يُونُس عليه السـلام بُعِثَ إلىٰ أهْلِهـا، والوَادى، والمَيْدان، والبَابِ، والصَّوْمَعَة، والمَرْجِ المعروفِ ببَنِى زَيْد، والمَرْج المُحْتَرِق، ومنازل الأويراتية، وهى أطراف هذه المواضع إلىٰ جَبَـل الأكراد. وبِلَاد سِـنْجَار ـ المنطق والمَنْظَرة والمَزْيدة، وتحتَ الجبال عند التُّليلات، وكذلك التارات، وأعالى جَبَل سنْجار وما والىٰ ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التَّتر أنّهم لايكلفون عُلُوفَةَ خَيْلهم بل يَكِلُونها إلىٰ ماتُنْبِتُ الأرضُ، فإذا كانت تلك الأرضُ مُخْصِبةً سَلَكُوها، وإذا كانت مُحْـدِبةً تَجَنَّبُوها، وكانت أرضُ هذه البلاد المتقدمة الذّكْر أرضًا مُخْصِبةً، تقومُ بكِفايَةِ خَيْل القَوْمِ إذا قصـدوا بلادنا، فإذا أَحْرَقُوا زَرْعها ونَبَاتَها ضَعُفُوا عن قَصْدِ بلادنا وحصل بذلك جميعُ الرِّفْقِ، والدَّفْعُ عن مباغَتَة الأطراف ومُهاجَمة الثُّغُور.

وكان طَريقُهم فى إحراقها أن يُجَهِّزوا إليهم الرجالَ ومعهم الثَّعالِبُ الوَحْشيَّة وكلابُ الصَّـيْد، فيَكْمُنُون عنـد أُمناءِ النُّصَّاح فى كُهُوف الجبال وبُطُون الأَوْدِيَة، ويَرتَقِبُون يومًا تكون رِيحُه عاصفةً وهَواؤُه زَعْزَع، تُعَلَّق النارُ مُوثقةً فى أذْنابِ تلك الثعالب والكلاب، ثم تُطْلَقُ الثَّعالِبُ، والكِلَابُ فى أَثَرِهـا وقد جُوِّعَت، لتجدّ

الثعالبُ فى العَدْوِ ، والكِلابُ فى الطَّلَبِ ، فتُحرِقُ ما مَرَّتْ به من الزَّرْع والنَّبات ، وتُعْلِقُ الريحُ النارَ منه فيما جاوَرَه ، مع مايُلْقيه الرَّجَّالةُ بأيديهم فى اللَّيالى المُظْلِمه ، وعِشاء الأيام المُعْتِمه . وكان يُنْفَق فى نَظِير هذا الإحراقِ من خزانة دِمَشْق جُمَلٌ من الأموال. قال : وكان الاَهتمامُ بذلك فى أوّل الأمْرِ قبل أن يَفْطُنوا بقَصْد التَّحْرِيق ، ثم نَبَّههم علىٰ ذلك أهْلُ المُدَاجَاة ، فصاروا يَرْبطون عليها الطُّرُق ، ويُمْسِكُون منها بالأطراف ؛ وقُتِلَ عَدِيدٌ من الرجال بسَبَبِها ، وأَحْرَقُوهم بأشَدَّ من نَارِها .

وذَكَر أنَّ مما كان يُجْتَنَب تَحْرِيقُه ــ أرضَ الجِبَال ، من حيثُ إنها بِلادُ بَقِيَّة السَّلَفِ الصالح من ذُرِّيَّة شيخ الإسلام الإمامِ الكبيرِ العارفِ بالله «عَبْدالقَادرالجيلِيّ» المعروف بالكِيلَانِيِّ ، نفع الله تعالىٰ ببركاته ، لتَعْظِيمهم من الجهتين ، مع مالَهم عنـد مُلُوكِنا من المكانة العَلِيَّة : لقَدِيم سَلَفِهم ، وصَمِيم شَرَفِهم ، ولِمَا للإسلام وأهْلِه من إسْعافهم بما تَصِلُ إليه القُدْرةُ ويَبْلُغه الإمْكَان .

قلتُ : وبتَمام القَوْل فى هذا الطَّرَف قد تَمَّ ما كنتُ أُحَاوِلُه من التأليف ، وأَهْتَمُّ به من الجَمْع ؛ وباللهِ التَّوفيق ، وإليه الرَّغْبة ؛ وهو حسبِى ونِعْم الوَكِيل .

واَعْلَم أن المصَنَّفاتِ تَتفاوَتُ فى الحُظُوظ إقْبالًا وإدْبارا : فمن مَرْغُوبٍ فيه ، ومَرْغُوبٍ عنه ، ومُتَوسِّط بين ذلك . علىٰ أنه قَلَّ أن يَنْفُق تَأْلِيفٌ فى حياة مُؤَلِّفه ، أو يَرُوجَ تَصْنِيفٌ على القُرْب من زَمانِ مُصَنِّفه .

قال المَسْعُودىُّ فى كتابه "التَّنْبِيه والإشراف" وقد تَشْتَرِكُ الخَواطِر ، وتَتَّفِقُ الضمائر ؛ ورُبَّما كان الآخِرُ أحْسَنَ تأليفا ، وأمْتَنَ تَصْنِيفا ؛ لحِكْمَةِ التَّجارِب ، وخَشْيةِ التَّتَبُّع ، والاَحتراسِ من مَوَانِـع المَضارِّ . ومن هاهُنا صارتْ العلومُ نامِيـةً ، غيرَ مُتَنَاهِيَـة ، لوجود الآخِرِ ما لا يَجِـدُه الأوّلُ ، وذلك إلىٰ غيرِ غَايَةٍ مَحْصُورة ، ولا نِهايَةٍ مَحْـدُودة .

علىٰ أنَّ من شِيَم كثيرٍ من الناس إطْراءَ المُتقدِّمين، وتعظيم كُتُب السَّالفين، ومَدْحَ الماضِي، وذمَّ الباقِي؛ وإن كان فى كُتُب المُحْدَثِينَ ما هو أعظم فائده، وأكْثَر عائده.

ثم حَكَى عن الجاحظ — علىٰ جلالة قَدْرِه — أنه قال: كُنْتُ أُؤَلِّف الكتاب الكثيرَ المعانى، الحسنَ النَّظْم، وأَنْسُبُه إلىٰ نَفْسِى، فلا أَرَى الأَسْماعَ تُصْغِى إليه، ولا الإراداتِ تَتَيَمَّم نَحْوَه، ثم أُؤَلِّف ماهو أنقصُ منه رُتْبةً، وأقل فائدةً، وأَنْحَلُه عَبْد الله بنَ المُقَفَّع، أو سَهْلَ بنَ هٰرُونَ، أو غيرَهما من المُتَقَدِّمين، ممَّنْ صارت أسماؤهم فى المُصنِّفِين، فيُقْبِلُون علىٰ كَتْبها، ويُسارِعُون إلىٰ نَسْخها، لا لِشَىْءٍ إلا لنِسْبتها للتقدّمين، ولِمَا يُداخِلُ أهلَ هذا العَصْر من حَسَدِ مَن هو فى عَصْرِهم، ومُنافَسَته على المَنَاقِب التى عُنِىَ بتَشْيِيدها.

قال: وهذه طائِفةٌ لا يَعْبأُ بها كِبارُ الناس، وإنَّما العَمَلُ على أَهْلِ النَّظَر والتَّأَمُّلِ الذين أَعْطَوْا كلَّ شىْءٍ حَقَّه من القَوْل، ووَفَّوْه قِسْطَه من الحَقِّ؛ فلم يَرْفَعُوا المتقدِّمَ إذا كان نَاقِصًا، ولم يُنْقِصُوا المتأَخِّرَ إذا كان زَائِدًا؛ فلِمِثْلِ هٰؤلاء تُصَنَّفُ العُلُوم، وتُدَوَّن الكُتُب.

وإذا كان هـذا نَقْلَ المَسْعُودِىّ عن الجاحِظ الذى هو رَأْسُ المُصنِّفِين، وعَيْنُ أعْيانِهم، فَمَا ظَنُّكَ بغَيْرِه؟.

لٰكِنِّى أَحْمَدُ اللهَ تعالىٰ علىٰ رَوَاجِ سُوقِ تَأْلِيفِى، ونَفَاقِ سِلْعَتِه، والمُسارَعَة إلى اسْتِكْتابِه قبل انْقِضاء تأْلِيفه، حتّىٰ إنَّ قَلَمَي التَّأْليف والنَّسْخ يَتسابَقان فى مَيْدانِ الطِّرْس إلىٰ اكْتِتابِه، ومُرْتَقِبَ نَجازِه للاسْتِنْساخ يُساهِمُهما فى ارْتِقابِه. فَضْلًا من الله ونِعْمَة، ﴿ذٰلك فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾.

قال المُؤَلِّف : تَجَزَّتْ تَأْلِيفه فى اليَوْمِ المُبَارك ، يَوْمِ الجُمعة الثامنِ والعِشْرين من شَهْر شوّال، سنة أربعَ عَشْرة وثَمـانِمـائةٍ .

ونُجِّزَتْ هـذه النسخة فى يوم السبت المبارك التّاسِعِ والعشرين من شَهْر صَـفَر الخير، سنة تسعٍ وثمـانين وثمـانمـائة .

فَرَغ منه كِتابةً وسِتَّةٍ قَبلَه ، فقيرُ رَحْمة ربه الغَنِيّ الفاتح، عَبْدُ الرزّاق بنُ عَبْد المُؤْمن آبن محمـد الناسخ الشّافعىّ، نَزِيلُ الصّالِحيَّة النَّجْمِيَّة المعروفةِ بالسّادةِ الحَنَابِلَة، بخطِّ بين القَصْرَيْن : غَفَر الله ذُنُوبه، وسَتَر عيُوبَه، وخَتَم له وللمسلمين بخَيْر، آمين

وحَسْبُنا اللهُ ونِعْم الوَكيل، وصـلَّى الله علىٰ سـيدنا محمد خَاتَم الأنبياء
وسَـيِّد المرسلين، وعلىٰ آله وصَحْبه أجمعين : سُبْحان رَبِّك
رَبِّ العِزّةِ عمَّـا يَصِفُون وسَلَامٌ على المُرْسلين
والحَمْـدُ لله رَبِّ العَالَمين

(المطبعة الاميرية ١٦٩٤/١٩١٨/٣٠٠٠)

فهـــــرس

الجـــــــزء الرابع عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشـــندى

صفحة

المقـالة العـاشـــرة

الخاتمة

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى)

كلمـــة

فى التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمـــة مؤلفـــه

بقـــلم

حضرة الأســتاذ الشيخ محمـــد عبد الرسول

رئيس التصحيح العربىّ بالقسم الأدبىّ

بالمطبعة الأمـــيرية

كلمة

فى التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمـــة مؤلفـــه

بسم الله الرحمن الرحيم

نَحْمَدُ الله تعـالى على ما مَنَح من الإعانة ووَهَب من التَّيْسير، ونَشْكُره على ما أَولى من التَّوْفِيق فهو نِعْم المَوْلىٰ ونِعْم النَّصِير، ونُصَلّى ونُسَلِّم على سيدنا محمدٍ صُبْح الهِدايَة وشِهابِها السَّاطع، وعلى آله وأصحابه النُّجُومِ الثَّوابتِ والبُدُورِ الطَّوالع .

وبعــدُ، فإنَّ الأُمَمَ بآثارها، والشُّعُوبَ بسِــيَرِها وأَخْبارِها؛ ومن أَعْظَمِ الآثار قِيمَه، وأغْزَرِها دِيمَه؛ ما تُعْرف بواسطته نَتائج أفْكارِ القادَةِ العُلَمــاء، وتَتَبيَّن به قرائِحُ الجَهابِذَة الحُكَماء .

ولم تَزَل الأُمَم الرَّاقِيةُ فى سَالِف الدُّهور وإلى وَقْتِنا الحــاضِر تُعْنىٰ بشَأْنِ علمائها : على آخْتِلاف مَذَاهِبِهِــم، وتَبايُنِ مَشَارِبِهــم؛ وتحِلُّهم من الكرامة والإِجلال أَعلى الدَّرجات، وترْجِعُ فى أمر مَعَاشِها ومَعَادِها إلى آرائهم السَّدِيده، وأفكارِهم الرَّشِيده؛ وتَعْمل بكُلِّ جُهْدِها فى إنشاء دُورِ الكُتُب وتَشْييدها، والمُبالَغةِ فى تَنْسيقها وتَرْتِيبها : لتَحْفَظ فيها دَفَاتِرهم وطَوَامِيرَهم التى أَوْدعوها ثَمَرة أفْكَارِهم، ونَتِيجَةَ بحوثِهم .

ولقد أخَذَتْ مِصرُنا العَزِيزَة فى صَدْرِ الإسلام تُسابِقُ «البَصْرة والكُوفَة» فى هذا المَيْدان العظيم، مَيْدانِ التَّقَدُّمِ والآرْتقاء .

وسارَتْ من بَعْدهما تُناهِضُ « بَغْـدادَ » دارَ السلام، ومَرْكَزَ الخلافة العَبَّاسيَّة وكَعْبةَ العالَم، وقِبْلةَ الآدابِ ـ مع ما كان يَبْذُله الخُلَفاء لعُلَمائها من أنواع التُّحَف، ويُفْرِغُونه عليهم من بِدَرِ الأموال : حُبًّا فى نَشْرِ العِلْم وبُلُوغِه إلى دَرَجة الكَمَال .

ولم تَكُنْ فى ذٰلك أقلَّ حَظًّا من الأَنْدَلُس : جَنَّة العالَم وزِينَةِ الدُّنيا، حتَّىٰ فى أعْظَمِ عُصُورِها الذَّهَبِيَّةِ المَمْلُوءَةِ بالمَعَالِى والمَفَاخِر، يوم كانَتْ تَنْشُر على العالَم أَلْوِيَةَ الحَضَارة، وتَتْلو عليه آياتٍ بَيِّناتٍ من الهُدَىٰ والفُرْقان .

* * *

وفَتَحتْ مِصْر ذِراعَيْها : مُرَحِّبةً بكلِّ وَافِدٍ عليها من أهْلِ العِلْمِ والأَدَب، خُصُوصًا بعدَ أن طَوَّحتْ يَدُ الرَّدىٰ بمُدُن العِراق وحَوَاضِر الأَنْدَلُس، ودارَتْ عليها الدَّوائر، وذَهَب كلُّ ما كان لها من آثارِ العِلْم وأَعْمالِ المَجْد والحَضارة . فوَفَدَ عُلَماؤُها على هذا البَلَد الأَمِين وَوَجَدُوا فيه ضَالَّتَهم المَنْشُودَة وأُمْنِيَّتَهم الكُبْرىٰ .

فأصبحَتْ مَيْدانًا واسِعًا يَتَسابَقُ فيه طُلَّابُ العُلُوم والمَعَارِف، ومَوْرِدًا عَذْبًا يَزْدَحِم عليه عُشَّاقُ الآداب ومُحِبُّو الحِكْمة، وجَنَّةً زاهِيَةً بأكابِرِ العُلَماءِ ونَوابِغِ الحُكَماء .

وأَصْبحَ مُلُوكُها وأُمَراؤُها يَنْظُرون إلى العِلْم والعُلَماء بعَيْنٍ مِلْؤُها الإعْظامُ والإجْلال، وأَخَذُوا يساعِدُونهم، ويُبالِغُون فى إكْرامِهم وإدْرارِ النِّعَم عليهم، ويُشَجِّعُونهم على الإكْثار من التَّأْلِيفِ والتَّصْنِيف فى العُلُوم المختلفة . وصارُوا لا يُؤَسِّسُون مَسْجِدًا للصَّلاة، ولا يَبْنُون مَدْرسةً أو مَعْهَدًا من معاهِد العِلْم إلا ويُشَيِّدُون فى داخِلِه خِزانةَ كُتُبٍ جامِعَةً، يُودِعُونها الكَثِيرَ من نَفائِس الأسْفار والمُصَنَّفات فى كلِّ فَنّ ومَطْلَب : مَيْلًا منهم إلى نَشْر المعارف، ورَغْبةً فى تَخْلِيدِ الذِّكْر وجَمِيلِ الأَثَر .

وقد كان لخُلَفائِها الفاطِميين خِزانةُ كُتُبٍ كُبرىٰ ، كانتْ من أجَلِّ الخزائن وأعْظَمِها شأناً عندهم ، وأكْثَرِها جَمْعاً للكتب النَّفيسة من جميع العلوم والفُنُون .

يقال : إنَّه لم يكنْ فى جميع بِلادِ الإسلام دَارُ كتبٍ أعْظَم من التى كانتْ بالقَاهِرَة فى قَصْر الخُلَفاء الفاطميين .

* * *

ولم تَزَل الأمَّةُ المِصْريَّة الكَريمةُ سائرة على هـذا المَنْهَج القَويِم : تَرِدُ مَناهِلَ العِلْمِ العَذْبة ، وتَتَغذَّىٰ بِألْبانِه الطَّيِّبة ـ حتَّىٰ أصابها ما أصابَ غيرَها من الأُمَم الإسْلامية ، فتَفرّقَتْ شِيَعًا وأحزابًا ، وٱنْصرفَتْ عن الشُّؤُون العامّة ، وصار كلُّ واحِدٍ لا هِيًا بذاته لا يشعر إلا بنفسه التى بين جَنْبَيه .

فقلَّ الاحْتِفالُ بالعِلْم وأَهْلِه ، وأُهْمِلتِ العِناية بدُورِ الكُتُب وخَزائنِ الأسفار على كَثْرتها ، وٱمْتَدَّتْ إليها يَدُ الخِيانة تَعْبثُ بنَفائسها أنَّىٰ شاءتْ بدُونِ مُحاسِبٍ أو رَقِيبٍ . وٱسْتولَى المغِيرون على الديار المِصرية على أنْفَس ما كان مُودَعًا فيها من الكُتُب والآثار ، ونَقَلوا منه إلىٰ بلادهم وممالِكهم ماشاء الله أن يَنْقُلوا .

وهاهِى اليوم تُنَادِى أهـلَ مِصْر من وراءِ البِحار ، وتُناجِيهم بما كان لسَلَفِهم النَاهِض من آثار العَمَل ودلائِل النُّبوغ .

وما بَقِى فى تلك الدُّور والخَزائن ، مما زَهدتْ فيه نُفُوس الطَّامِعين ـ صار رَهْنًا عليها ، لاتقع عليه الأبصار ، ولا يمرُّ بفِكْر : كأنَّه كَنْزٌ مَدْفونٌ لم يُهْتَدَ إليه بعدُ ، أو سَجِينٌ حُكم عليه بالسِّجْن الأبَدىِّ لا يجِدُ لنَفْسه خَلَاصا .

تلك كانتْ حالةُ مِصْر حِيناً من الدَّهْر كادت تَذْهَبُ بكلِّ ما بَنىٰ أهْلُها فى الزَّمن السَّابقِ من مَجْـدٍ وأَسَّسُوا من قُوَّة ـ لَوْلا أنَّ الله تعالى أرادَ بها خيرًا ، فجلسَ على أَرِيكَتِها ذلك المُصْلِح الكَبير، والعِصاميُّ الشَّهير، مُؤَسِّسُ «مِصْرَ الحديثة» ساكِنُ الجنان " محمد على باشا " رأسُ العائِلة العَلَوِيَّة الكَرِيمة .

فانَّه — نَوَّرَ اللهُ ضَريحَه — أعاد لهـذه الأمةِ سَالِف مَجْدِها ، ونَبَّه الأفْكار بعد طُول رُقادِها ، ونَشر العُلومَ والمَعارِف بين أبْنائِها ، وأرْسَل البِعْثاتِ العِلْمِيَّة إلىٰ أشْهر الجامِعاتِ بأورُوبَّا : ليَتعلَّموا أساليبَ التَّعليم الحَديثَة ، ويعودوا إلىٰ مصر بفُنُونٍ من التَّرْبيةِ والتَّهْذيب تدعو اليها سُنَّة التقدّم والارْتقاء .

وقَرَّب إليه العُلَماءَ والأدَباء ، وشَجَّعهم على التَّأْليف والتَّصْنِيف . ووَصَل اللَّيلَ بالنَّهار فى سَبِيل إنهاضِها وإسْعادِها ، وأَسَّس المَدارِس ، وشاد دور الصناعات والمعامل فى حواضر هذا القطر السعيد .

وأنْشأَ " المطبعة الأميرية الكبرى " ، وجَهَّزها بكلِّ ما يَلْزم لها من الآلات والعُدَد ، حتَّىٰ صارتْ من أرْقىٰ دُورِ الطِّباعة فى الشَّرْق ، واخْتار لها نَوابِغَ العُلماءِ وأَساطين الكُتَّاب : ليقوموا بتَصْحيح ما يُطْبع فيها . وإليها يَرْجع الفَضْل الأكبر فى تَقْوِيةِ النَّهْضَة العِلْمية فى مِصْر وغيرها من البِلاد ، ونَشْر العلوم والآداب العَرَبِيَّة فى جميع أَنْحاءِ العالَم .

وجاء من بَعْدِه حفيدُه أبو الأَشْبالِ، المَغْفورُ له "إسماعيل باشا" خديو مصر، فأنشأ "دَارَ الكُتُب" بالقاهرة، وجَمَع فيها ما بَقِيَ من الكُتُب في خَزائِنِها المُتَفَرِّقة في الدُّورِ والمَسَاجِد . وأَخذ الأمراءُ وغيرُهم من كِبارِ الأَئمَّة يَتَبَرَّعون لها بما في دُورِ كتبِهم وخَزَائِنِها من نفائس المصنفات .

واهْتَمَّ بها بعدَه وَلَدُه طَيِّبُ الذِّكْرِ "محمد توفيق باشا" خديو مِصْر فوَقَفَ عليها ألفًا وثَمانمائة فَدَّانٍ من أجْوَد أراضِي القُطْرِ الزِّراعِيَّة ، وجَعَلها إدَارةً مُسْتَقِلَّةً بعد أَنْ كانتْ عالةً على إدارة المَكَاتِب، يُنْفق عليها من الأوقاف المُحَبَّسَةِ عليها .

وامْتلأتْ خَزَائِنُها بنَفَائِس الأَسفار وجَلائِل المُؤَلَّفاتِ، من مِصر وغيرها من سائر المَمالك، بما كان يُنْفَق عن سَعَةٍ وكَرَمِ نَفْسٍ في سَبِيلِ الحُصُول عليها .

وبها مَعْرِضٌ كَبِير حَوَىٰ كثيرًا من المصاحف الشريفة والآثار النَّفِيسة، والمُؤَلَّفات القَدِيمَةِ، والمَخْطُوطات العَرَبِيَّة والنُّقود القديمة في كلِّ دولةٍ من الدُّول الإسْلامية .

وهي علىٰ أَهْل هذا القُطْرِ السَّعِيد حَسَنَةٌ من أعظم الحَسَنات، وأثرٌ خالدٌ من الآثار الباقِيات؛ ولها على العِلْم وأهْلِه الأيادي التي لا تُنْكَر، والمَفَاخِرِ التي تُذْكَر فتُشْكَر؛ فقد أعَدَّت للتردِّدين إليها قاعةً كُبْرىٰ للمُطالَعة، وجَهَّزَتها بكلِّ ما يلزم لراحَتِهم وتَسْهِيل أَعْمالِهم – فأقبل عليها الطُّلَّاب والعُلَماء، والكُتَّاب والشُّعَراء، والمُتَرجِّمون والحُكَماء وغيرهم : يرِدون نميرها، ويُوَلُّون وُجُوهَهم شَطْرَها : على اخْتِلاف لُغاتِهم، وتَبايُنِ أجْناسِهم وطَبَقاتِهم .

ولما أشرفَ عليها حضرةُ صاحبِ السعادة "أحمد حشمت باشا" وزيرُ المَعَارف الأَسْبق وَجَّه — حفظه الله — عِنَايَتَه إلى تَنْظيمها تَنْظِيما يكْفُل لَها التَّقَدُّمَ فى طريقِ الإصلاح اللَّائقِ بمَكَانَتِها : لتأتِىَ بالثَّمَرَة المَطْلُوبة منها ، وتَقُوم بالخِدْمةِ الواجبةِ عليها : وذلك بنَشْر العلومِ والمَعَارفِ بين طَبَقاتِ الأُمَّة ، وطَبْع الآدابِ العَرَبيَّة و إذَاعَتِها بين أَبْنائِها .

فاختار طائفة مما فيها من نَفَائس الأَسْفارِ ونَوادِر المُؤَلَّفات ، وخُصُوصًا المُؤَلَّفات المِصْرِيَّة ، وأمَرَ بأن تُطْبَع فى «القِسْم الأَدَبِىّ» بالمَطْبعة الأَميريَّة ، فتُشْرِق أنوارها على طلّاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قَرُب ومن بَعُد ، ضَنًّا بها أن تَبْقَى مَقْصُورةً على قاعات المطالعة وغُرَفِها ، لا ينتفع بها غيرُ فَرِيقٍ من المقيمين فى مدينةِ القاهرة .

فكانَ أجل كِتَابٍ ظهر من هذه الكُتُب فى سماء الآداب العَرَبيَّة ، كِتَابُ :

"صبح الأعشى فى كتابة الإنشا"

(للقلقشندى)

التعريف بهذا الكتاب

مَهْما أطَالَ الكَاتِب فى وَصْف هـذا الكتاب ، وَجَوّد فِكْره ، وأَجْهَدَ قلَمه فى التَّعْرِيف به و بقِيمَتِه العِلْمِيَّة والأَدَبيَّة ـ فانه لا يبلغُ تَعْدادَ ما أُودِعَ فيه من الفَوائِد ، وٱنْطَوىٰ تَحْته من الدَّقائِق .

فهو كِتَابٌ جَلِيلُ القَدْر ، عَظِيم النَّفْع ، كَبِير الفائِدَة ، لم يُنْسَجْ علىٰ منْوالِه فى عَالَم التَّأْلِيف فى فُنُون الأدَبِ والكِتابة . ولا نُعَدُّ مُبالِغين إذا قُلْنا : إنه أنفسُ كِتابٍ أُلِّفَ فى اللُّغةِ العَرَبِيَّة وتاريخ آدَابِها .

كِتَابٌ بين لنا فيه القَلْقَشَنْدِىُّ مُؤَلِّفُه ـ رحمه الله ـ حالَةَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة الشَّرِيفَة ، وكَيْفَ كانت فى العُصُور الأُولَىٰ قبل الإسلام ، إلىٰ أن وَصَلَتْ إلىٰ ما وصَلَتْ إليه من الاْنْتِشار بعد أَنْ صارت لُغَة القُرْآن الكريم ، لُغَة الشَّرِيعة الإسلامِيَّة السَّمْحةِ والدِّين الحَنِيف ، تَبَعًا لاْنْتِشارهما فى أكْثَر أنْحاءِ الكُرَة الأَرْضِيَّة : فى بلاد فارِسَ وما وَرَاء النَّهْر ، فى بلاد الرُّوم ، فى البِلاد المِصْرِيَّة (وقاها الله) فى بلاد أفريقية والمَغْرِب الأَقْصَىٰ ، فى بلاد الأَنْدَلُس ، فى بلاد الهِنْد ، فى بلاد الصِّينِ ، فى بلاد كثيرة من أوروبا .

كِتَابٌ بيَّن لنا فيه مُؤَلِّفُه كيف زَهَتْ هٰذِه اللُّغَة الشَّرِيفة فى عُصُور الخلفاء : من بنى أُمَيَّةَ وبنى العَبَّاس ، وغزرَتْ مادَّتُها ، وٱتَّسَعَ نِطَاقُها ، ودَنَا قِطَافُها : فصَارَتْ لُغَةَ العِلْمِ والحِكْمَة ، لُغَة الأَدَبِ والشِّعْر ، لُغَة القَضاء والأَحْكَام ، لُغَة الجَدَل والمناظَرَة . كما صارتْ لُغَة التَّأْليف والتَّصْنِيف : فى أَحْكَام الدِّينِ ، وتَهْذِيب النُّفُوس ، وتَثْقِيف العُقُول ، ونِظَامِ المُلْكِ والمَمَالك ، وسِياسة الأُمَمِ والشُّعُوب . وعلوم الفَلْسَفَة ، والرِّياضة ، والنُّجُوم ، والطِّبِّ ، والكيمياء ، وما أَشْبَهَهَا .

كِتَابٌ بين لنا فيه مُؤَلِّفُه الكِتابة العَرَبِيَّة فى البلاد والممالك الإسلاميَّة، وما بَلَغتْه من دَرَجاتِ الرِّفْعَة والآرتقاء، ثم ما آلَتْ إليه بعد ذلك من الضَّعْف والوَهنِ، تَبَعًا لضَعْفِ اللُّغَة العَرَبِيَّة : باستيلاءِ المُغيرين علىٰ بِلاد الخلفاء وممالكهم، ممن لَيْسُوا من أهلها فى اللُّغَة، أو فى اللُّغَة والدين . كما بيَّن لنا طَبَقَاتِ الكُتَّاب وأَهل الأدب، وما كان لهم عند الملوك من الرِّعاية وعظيم الآحْتِرام .

كِتَابٌ بَيَّنَ لنا فيه مؤلفه الخلافة الإسلاميَّة وشُرُوطَها ورُسُومها، ومَن وَلِيَهَا : من الخُلَفاء الرَّاشِدينَ ومَرَاكِز وِلاياتِهم، وخُلَفاءِ بَنِى أُمَيَّةَ بالشَّام والأنْدَلُس، وخُلَفاءِ بَنى العبَّاس ببَغْدَادَ ومِصْر، وخُلَفاءِ الفاطِمِيِّين بالديار المِصْرِيَّة، ومُدَّعِى الخلافَة من بقايَا المُوَحِّدِين بأفْرِيقِيَة .

كِتَابٌ بَيَّنَ لنا فيه مُؤَلِّفُه المَمَالك الإسلاميَّة فى المَشْرِق والمغرب، وما بلغته من دَرَجاتِ المَجْد والحَضَارة، وحُدُودَها، وأنْظِمَتَها، ورُسُومَها، وما آشْتَمَلَتْ عليه من الفَضَائِل والمحاسن، والخَوَاصِّ والعَجائب، وما بها من الآثار القديمة، ومن وَلِيَهَا من المُلُوك والسلاطين جاهِلِيَّةً وإسلاما .

كِتَابٌ بَيَّنَ لنا فيه مُؤَلِّفُه — وهو هو ذلك المصرىّ الصَّمِيمُ، الذى أقَلَّتْه أرضُ مِصْر، وأظَلَّتْه سماؤُها، وشَرِب حتى رَوِىَ من نِيلِها — البِلادَ المِصْرية، وفَضَائلَها ومَحَاسِنَها، وخَوَاصَّها وعَجائِبَها، وما فيها من الآثارِ القَدِيمة . وبين نهر النِّيل ومَنْبَعَه ومَصَبَّه، وزِيادَتَه ونَقْصَه، ومقاييسَهُ، وما يَنْتَهِى إليه فى الزِّيادة، وما يَصِل إليه فى النُّقْصان، وخُلْجانَه المُتَفَرِّعة عنه، وجُسُورَه الحابِسَةَ لمائه . وبَيَّنَ بُحَيْرَاتِها، وجبالَها، وزُرُوعَها، ورَياحِينَها، وفَوَاكِهَها، ومَوَاشِيَها، ووُحُوشَها، وطُيُورها . وبيَّنَ حُدُودَها، وآبتداء عِمارَتِها، وسَبَب تَسْمِيَتِها بمصر، وتَفَرُّعَ الأقالِيم التى حَوْلَها

عَنْها . وبَيَّنَ أَعْمالَها وقواعِدَها القَديمةَ ، ومَبانِيَها العَظِيمة الباقية علىٰ مُرُور الأزمان . وبَيَّنَ قَواعِدَها الحَديثَة وما اشْتَمَلَتْ عليه من مَحاسِنِ الأبنيــة . وبَيَّنَ من وَلِيها من الملوك والسلاطين قبل الإســلام وبعده . وبَيَّنَ تَرْتِيبَ أحْوالهــا ، ومُعَامَلاتِها ، ونُقُودها ، وترتِيب مَمْلَكَتِها ، ووَظائِفَ دُوِلها القَدِيمَة والحَدِيثَة .

كتابٌ دوّن فيه مؤلفه عدّة كُتُبٍ أدَبِيَّة نَفِيسَة بتمامها ، وجَمَع فيه كثيرا مما تَفَرّق فى غيره من المُؤَلَّفات .

ورَتَّبه على مُقَدِّمةٍ وعَشْر مقالاتٍ وخَاتِمة ، بناها بالإجمــال على التَّعْرِيف بحقيقة دِيوانِ الإنشاء وأصْلِ وَضْعِه فى الإسلام ، وتَفَرُّقِه بعد ذلك فى الممالك ، وبَيانِ كِتَابةِ الإنشــاءِ وتَفْضِيلها على سَائِر أنواعِ الكتابة ، وصِفاتِ الكُتَّابِ وآدابِهــم ، ومَدْحِ فُضَلائِهم وذَمِّ حَمْقَاهُم .

ومَعْرِفةِ كلّ ما يحتاجُ إليه كاتِبُ الإنشاء فى الأمور العِلْمِيَّة والعَمَلِية : كَمَعْرِفةِ المَوادِّ اللّازمةِ للمُنْشِئ : من الخَطِّ وتَوابِعِه ولَواحِقه وغير ذلك .

ومعرفةِ المَسَالِكِ والممَــالِكِ (عِلم تَقْوِيم البُلْدان) : كمعرفة شَكْلِ الأرض وإحَاطة البَحْر بهـــا ، وبيانِ جِهاتِها الأَرْبع وما اشتملتْ عليــه من الأقاليم السَّبْعة الطَّبِيعيَّة ، وبيانِ مَوْقع الأقاليم العُرْفِيَّة منها ، وذِكْر حُدُودها الجَامِعة لهـــا ، وما فِيها من الجِبالِ والبِحارِ والأنهــار ، والأقاليم والممــالك والبلدان ، ومُلُوكها فى القَدِيم والحَدِيث وما يَتْبع ذلك .

ومعرفة الأمور التى تَشْــترك فيها أنواعُ المُكاتَباتِ والوِلَايات وغيرهما : من ذِكْر الأسمــاء والكُنىٰ ومَواضِع ذكرهما فى المُكَاتبات ، وذِكْر الألقاب وأَصْل وَضْعِها ، وما كان يُلَقَّبُ به أهلُ كلِّ دَوْلة إلىٰ زَمَنــه ، وكَيْفية تَوْزِيع الأَعْمــال على كُتَّاب

الإنشاء ، ومَقَادِير قَطْع الوَرَق وما يناسبها من الأقلام ، وغير ذلك من قَوَانِين الكِتَابة وأَنْظِمَتها .

ومعرفةِ المُكاتبات العامَّة وأُصُولِها ومَقَاصِدِها ، فى القَدِيم والحديث ، ومُصْطَلَح المكاتبات الدائرة بين كُتَّاب الإسلام ، وكُتُبِ النَّبِيّ (صلَّى الله عليه وسَلَّم) إلى أَهْلِ الإسلام وغيرهم ، والكُتُبِ الصَّادِرة عن الصَّحابة والخُلَفاء والمُلُوك ومَن فى معناهم ، وبيانِ مذاهِبِ الكُتَّاب فيما تُفْتَتح به المكاتبـاتُ ، وما يُخاطَبُ به أَهْلُ الإسلام وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرفةِ الوِلايات وطَبَقاتها ، وما يَتْبعها من البَيْعاتِ والعُهُود ، ومَعْناهما ، والوِلَاياتِ الصادرة لأرباب المَنَاصِب : من أَصْحابِ السُّيُوف والأقلام وغيرهم .

ومعرفةِ الوَصَايا الدِّينيَّة وما يُكْتب فيها فى القَدِيم والحَدِيث ، والمُسَامحات والإطلاقاتِ وما يكتب فيهما ، والطَّرْخانيات وتَحْوِيل السِّنِينَ ، والتَّوفِيقِ بين السِّنِين القَمَرِيَّة والشَّمْسِيَّة ، وما يُكْتَب فى التَّذَاكِر التى يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعاتِ وأَصْلِ وَضْعِها فى الشَّرْع ، وما يكتب فيها فى القَدِيم والحَدِيث ، وأوّلِ من وَضَع دِيوانَ الجَيْش فى الإسلام .

ومعرِفة الأَيْمـانِ وما يَقَع به القَسَم ، والأَيْمـانِ التى أَقْسَم الله تعالى بها ، وما كان يَحْلِف بها العَرَب فى الجاهِلِيَّة ، وما يُقْسِم به أهلُ كلِّ مِلَّةٍ ونِحْلة .

ومعرفةِ عُقُود الأمانات والصُّلْح ، والهُدَنِ الواقعةِ بين ملوك الإسلام وغيرهم .

وذكر فيه فُنُونًا كثيرةً يَتَداوَلُهـا الكُتَّاب والأُدَباءُ ويَتَنافَسُون فى عَمَلِها ، لا تعلُّق لهـا بديوان الإنشاءِ : كعَمَل المَقَـامات ، والرَّسائِلِ المُلُوكِيَّـة المشتملةِ على الغَزْوِ

والصَّيْد ، ورَسائِلِ المَدْح والذَّمِّ ، ورسائِلِ المُفاخَراتِ بين الأشياء، والرَّسائِلِ المُشْتملة على الأسئلة والأجوبة ، والرَّسائِلِ المُكْتَتبة بالحَوادثِ والمَاجَريات وغيرها ، وكقِدْمات البُنْدُق ، والصَّدُقات المُلوكية وغيرها ، والعُمراتِ التى تُكْتب للحَاجِّ ، وذِكْرِ نُسَخٍ من ذلك كلِّه . وما يُكْتب عن العُلَماءِ وأهل الأَدَب : من الإجازةِ بالفَتْوىٰ والتَّدْرِيس والمَرْويَّات، وما يُكْتَبُ على الكُتُب المصَنَّفةِ والقَصائد من التَّقْريظات ، وما يُكْتب عن القُضاةِ : من التَّقاليد الحُكْمِية وإِسجالات العَدَالة وغير ذلك .

وتكلَّم فيه على البَرِيدِ وأَوَّلِ من وَضَعه فى الجاهِلِيةِ والإسلامِ ، وبيانِ مَعالِمِه ومَرَاكِزِه ، ومَطاراتِ الحَمَام الرَّسائِلىّ وأبراجه بالدِّيار المِصرية والبلاد الشَّاميَّة ، ومَرَاكِبِ الثَّلْجِ والهُجْنِ المُعَدّة لنَقْلِه ، والمَناوِرِ والمُحْرِقات .

وذكر فيه كثيرًا من الآيات القُرآنيـة الشَّريفة والأحاديث النَّبوية الكريمة ، والأَمْثال والحِكَم العَرَبيَّة، وأقوال الكَثِيرين من أَئِمَّة اللُّغة والتَّفْسيرِ والحَديث والفِقْه وعلوم العربية .

وأتىٰ فيه علىٰ كَثِيرٍ من أسماءِ الكُتُب والفُنونِ، وكثِيرٍ من أسماءِ مشاهِيرِ المُؤَلِّفين والعلماءِ والأُدباءِ والكُتَّاب والشُّعراءِ .

وأورد فيه من أصولِ الصَّنْعةِ فى الكِتابة مايُغْنِى قارِئَه عن تَصَفُّحِ كثِيرٍ من المؤلفات الأدبِيةِ وغيرها .

وضَمَّنه شيئًا كثيراً يفوقُ الحَصْرَ من الرسائِلِ البَلِيغة لمشاهير الكُتَّاب وأَهل الأَدَب فى الشَّرق والغَرْب والقَديم والحَديث .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلا من فصوله دون أن يحليه من غرر منشآته لنفسه بالمعجب والمطرب .

ولم يدع صغيرةً ولا كبيرةً إلا ذكرها، ولم يغادر شاردةً ولا واردةً إلا أحصاها .

فصار كتابه لذلك ـ كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسير للقرآن والحديث، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتاب ممتع، ودائرة معارف أدبية كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة والذكاء، وطول الباع فى هذا الفن الجليل فن كتابة الإنشاء، وقوة التمكن فى اللغة العربية وآدابها، وينطق بماله من كثرة الاطلاع على دقيقها وجليلها .

وإن حسن نية مؤلفه، واعتماده على فضل الله تعالى فى النفع به ـ ساعدا على حفظه إلى هذا الزمن من أيدى العوادى، وانتشاره هذا الانتشار العظيم .

فقد قال فى خاتمة تأليفه لهذا الكتاب ـ تحدثاً بنعمة الله عليه ـ بعد أن ذكر أن المصنفات تتفاوت فى الحظوظ إقبالا وإدباراً: فمن مرغوب فيه، ومرغوب عنه، ومتوسط بين ذلك، وأنه قل أن ينفق تأليف فى حياة مؤلفه، أو يروج تصنيف على القرب من زمان مصنفه، وبعد أن استشهد على ذلك بما رواه المسعودى فى كتابه "التنبيه والإشراف" عن الجاحظ . قال :

لكنى أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفى ونفاق سلعته، والمسارعة إلى استكتابه قبل انقضاء تأليفه، حتى إن قلمى التأليف والنسخ يتسابقان فى ميدان الطرس إلى اكتتابه، ومرتقب نجازه للاستنساخ يساهمهما فى ارتقابه، فضلا من الله ونعمة : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

ترجمـــــة مؤلفـــــه

أما مُؤَلِّفه "أبو العباس أحمد القَلْقَشَنْدىُّ" رحمه الله تعالى، فقدْ تَرْجمه السَّخَاوىّ فى الجزء الأوّلِ من كتابه : "الضَّوْء اللَّامع ، فى أعيان القَرْن التاسع" فقــال :

« هو أحمــدُ بن علىّ بن أحمدَ بن عبــد الله ، الشِّهاب بن الجَمَــال بن أبِى اليُمْن القَلْقَشندىّ، ثم القَاهِرِىّ الشَّافِعىّ .

ولِد سنة ستٍّ وخمسين وسَبْعِمائةٍ ، وآشتغل بالفقْه وغيره ، وسمِعَ على آبن الشيخة . وكان أحدَ الفُضَــلاء ، ممن بَرَع فى الفِقْــهِ والأَدبِ وغيرهما . وكَتَب فى الإنشاءِ ، وناب فى الحُكْم ، وشَرَح قِطَعًا من "جامِع المُخْتصرات" بل شَرَع فى نَظْمِه .

وعمِل "صُبْح الأعْشىٰ فى قَوَانينِ الإنشا" فى أرْبع مُجَلَّدات ، جَمَــع فأوعىٰ . وكان يستحضِر أكثر ذلك مع "جَامِع المُخْتصرات" و"الحاوِى" . وألَّف كتاباً فى أنْسابِ العَرب . وكان فيه تَواضُعٌ ومُرُوءةٌ وخَيْر .

مات يوم السَّبْت عاشر جمــادى الآخِرةِ ســنةَ إحدىٰ وعشرين وثمــانمــائةٍ ، وله خمسٌ وستُّون سنةً . ذكره المَقْرِيزىّ فى "عُقُودِه" والعَيْنِىّ وآخرون . وسَمَّى المقريزىُّ والِدَه عَبْد الله وهو وَهَم » .

✤✤✤

وترجمه صاحبُ "شَذَرات الذَّهب فى أخبار من ذَهَب" فقال :

« شِهاب الدِّين أحمدُ بن علىّ بن أحمدَ القَلْقَشَندىّ الشافِعىّ ، نَزِيلُ القاهِرة . تَفَقَّه ومَهَر، وتَعانَى الأَدب، وكَتَب فى الإنشاء، ونَابَ فى الحُكْم . وكان يَسْتحْضر "الحاوى" ، وكَتَب شيئًا على "جامع المختصرات" . وصَنَّف كتابًا حافلا سَمَّاه "صُبْح الأَعشىٰ فى معرفة الإنشا" وكان مُسْتحضِرًا لأكثر ذلك، وصَنَّف غير ذلك . وكان مِفْضالًا وَقُورا فى الدَّولة إلىٰ أن تُوفِّىَ ليلة السَّبْت عاشِر جُمادى الآخرة ، عن خَمْس وستِّين سَنَة (١) » .

⁂

وقد وَقَفْنا علىٰ شىءٍ من تَرْجَمته وقت تَصْحِيحِنا لكِتابه "صبح الأعشىٰ" نُورده هنا، إتْمامًا للفائدة، فنقول :

ميــــلاده ونسبته

وُلِد المُؤَلِّف فى سنة سِتٍّ وخمسين وسَبْعِمائَةٍ كما ذكره السخاوىّ فى "الضَّوْء اللامع" ببلدةٍ يقالُ لها "قَلْقَشَنْدَة" من أَعمال مُديريَّة القَلْيوبِية بالدِّيار المصرية : من أَصْلٍ عَرَبىّ صَمِيم ، من بَنِي بَدْرِ بن فَزَارَةَ من قَيْس عَيْلان . وكان بَنُو فَزَارةَ وردُوا مِصْرمع من وَرَدها من العَرَب، أيَّام الفَتْح الإسْلامىّ وبعده،

---

(١) سماه صاحب "كشف الظنون" مرة بأحمد بن علىّ ، ومرة أخرى بأحمد بن عبد الله ، وثالثة بأحمد بن عبد الله بن محمد .

وذكر فى عنوان "نهاية الأرب" للؤلف ، المطبوع ببغداد أنه : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله ابن سليمان بن إسماعيل القلقشندىّ ، الشهير بابن أبى غدّة .

ووجد مكتوبا على بعض أجزاء "صبح الأعشى" الخطية المحفوظة بدار الكتب أنه أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن محمد بن سليمان بن إسماعيل .

وَنزلُوا باقليم القَلْيوبِيَّة ، وٱستولىٰ بَنُو بَدْرٍ منهم علىٰ أجَلّ بِلاده . وكانتْ لهم الرِّآسةُ والغَلَبة علىٰ جِيرانِهم من بنِي عَمِّهم بنى مَازِن بن فَزارة . وكان بقَلْقَشَنْدَة فِرقتان : فِرَقةٌ من بنى بَدْرٍ وفِرْقةٌ من بنى مَازِن (١) .

نشأته وتربيته

ونَشَأَ نَشْأةً حَسَنة ، وترَبّىٰ تَرْبية عِلْميَّة صحيحةً ، وتَوجَّه إلىٰ ثَغْر الإسْكَنْدرِية وأقام به مدّةً من عُمْره ، وطَلَب العلومَ الشَّرعِيَّةَ علىٰ مَشْهُورى العُلَماء فى عَصْره ، وٱشْتَغَل بفُنُون العَرَبيَّة والأَدب حتَّى ٱجتمع له مِقْدارٌ وَافِرٌ منها . وٱطَّلع علىٰ كثير من الكُتُب والأسفار فى مختلف العُلُوم والفُنُون .

إجازته بالفُتْيا والتَّدْريس

وفى سنة ثمانٍ وسبعين وسبعِمائةٍ حِينما كان مُقيماً بثَغْر الإسْكَنْدرِيّة أجازه الشَّيخُ سِراج الدِّين أبو حَفْصٍ عُمَرُ بن أبى الحسنِ الشَّهير بابنِ المُلَقِّنِ ـ بالفُتْيا والتَّدْرِيس علىٰ مَذْهبِ الإمام الشافعيِّ رضى الله عنه ، ولم تَكُنْ سِنُّه إذ ذاك تَتَعدَّىٰ إحدىٰ وعشرين سنة ، كما أجازه بأن يَرْوِىَ عنه كلَّ ماله من التآلِيف فى الفِقْه والحَدِيث وغيرهما ، وأن يَرْوِى كلَّ ماجازت له رِوايتُه بشَرْطه عند أهْلِه ، كالكُتُب الصِّحاحِ السِّتَّة ، ومُسْنَدِ الشافعيّ ومُسْند أحمدَ بن حَنْبل وغير ذلك .

وكُتِبتْ هذه الإجازة بخَطِّ القاضِى تاجِ الدِّين بن غنوم مُوَقِّع الحُكْم العزِيزِ بمدينة الإسْكَنْدرِيَّة .

---

(١) أنظر "نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب" للمؤلف (ص ١٥٠) .

تَصَدُّره للإفادة

وجلس بعد ذلك للإفادة، فانْتفعَ الكثيرون من فِقْهه ووَرَعِه وأمانَته .

وعَرضَ عليه كثيرٌ من تَلاميذِه ما حَفِظوه من الكُتب وغيرها في الفِقْهِ والأُصول وعُلوم العَرَبية، فأجازهم بما حَفِظُوه منها .

الْتِحاقُه بديوان الإنشاء

وفي شهورِ سنةِ إحدىٰ وتسعين وسبعمائة الْتَحق بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المِصرية، وأنشأ مقامةً في تَقْريظِ القاضي بَدْرِ الدِّين، بن القاضي عَلاءِ الدين، بن القاضي مُحْيي الدين، بن فَضْل الله : رئيس دِيوان الإنشاء وَقْتئِذٍ، سماها "الكَواكِب الدُّرِّية، في المَنَاقِبِ البَدْرية" (١) بناها على التَّعريف بكِتابة الإنشاء وَعُلُوِّ قَدْرِها، وعِظَم خَطَرِها، وأنها الحِرْفةُ التي لايليقُ بطالِبِ العِلم غيرُها، والصِّناعةُ التي لايجوز له العدولُ عنها إلىٰ ماسِواها، وضَمَّنها كثيراً من أُصولِ الصَّنْعة في الكِتابة وفروعها . إلا أنها لإيجازِها، مع ما اشْتملتْ عليه من كثيرِ المعاني ـ احتاجتْ إلىٰ شرحٍ وافٍ يكشِف إشاراتِها، ويُوضِّح عِباراتِها، فألَّف كِتابه "صبح الأعشىٰ" وجعله كالشَّرح لها .

وفرغ من تأليفه في يوم الجُمُعة الثامِنِ والعشرين من شَهْر شوّال سنة أربع عشرة وثمانمائة .

---

(١) ذكرت في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

قيمته فى الكتابة والإنشاء

كانتْ كِتابتُــه وإنشاؤه كإنشاء أهل عَصْره وكتّابهم ، مَبْناها على التَّخَيُّل والْتزام المُحَسِّنات البَديعيَّة : من السَّجْع والجِناس والتَّورِية وغيرها، والغُلُوِّ فيهـا ، على نَحْوِ ما كان من كِتابةِ « القاضى الفَاضِل » و « ٱبن نَبـاتَة » والقاضِى « شِهاب الدِّين ٱبن فَضْل الله العُمَرىّ » وأضرابهـم . غير أنها كانت تَبْـدُو أخَفَّ رُوحًا وأعظم وُضُوحا من كتابة أمثـاله .

وإنَّ من قرأ مَقامتَه التى أنشأها عند ٱلْتحاقه بديوان الإنشاء، عَرَف ما كان عليه : من غَزارة المـادَّة، وسَلامةِ الذَّوق، وقُوّة الذّاكِرة .

مُؤلَّفــــاته

وله تآليف كثيرة ، منهـا :

كتابُ "صبح الأعشى فى كتابة الإنشا" وهو هذا الكتاب .

وكِتابُ " ضَـوْء الصُّبْح المُسْفِر وجنى الدَّوْح المُثْمِر " وهو مختصر كتاب "صـبح الأعشى" . طبع الجزء الأوّل منـــه فى مطبعة الواعظ بالقـاهرة فى سنة ١٣٢٤ هـ .

وكِتابُ " الغُيُوث الهوامِـع ، فى شَرْح جامع المختصرات ومختصراتِ الجوامع " فى علْم الفقه على مذهب الإمامِ الشافعىّ رضى الله عنه .

وكتابُ "نهاية الأرَب، فى معرفة قبائِل العرب" فى الأنساب، ألَّفه للمقرّ الجمالىّ يوسف الأُمَوىّ(١)، وطُبع فى مطبعة الرياض بمدينة بَغْداد (دارِ السلام) .

وكِتَابُ "قلائد الجُمَان، فى قبَائل العُربان" فى أنساب العربِ أيضا(٢) .

وله غير ذلك رَسائلُ كثيرةٌ تزيد على المائة أودعها كتابه "صبح الأعشىٰ" .

* * *

هـــذا : وقد أُسنِد إلينا تصحيحُ كتابِه "صُبح الأعشىٰ" المطبوعِ علىٰ نفقة دار الكُتُب، بالقِسْم الأدبىّ بالمطبعةِ الأميرية . فقُمْنا نَحْوه بما يجب بإزاءِ مؤلِّفٍ جليلٍ مثلِه، واجْتهدنا فى تَهْذيبه وتَنْقيحه بقَدْرِ الطَّاقة .

واسْتَعنَّا علىٰ ما وجدناه بأَصْلِه من التَّحْرِيف الكثير والتَّصْحيف الغريب ـ زيادةً علىٰ ما فيه من الطَّمْسِ والسَّقَم فى مواضِعَ من بَعْض أجزائِه ـ بمُراجعةِ كثيرٍ من المؤلفات فى الفُنُونِ المختلفة، ونُسَخٍ شتّىٰ من رسائل الكُتَّاب ودواوينِ الشعراء وأَهل الأَدب، باحثِين فيها عن كلِّ مَوْضوعٍ تكلَّم عنه المؤلِّفُ أو أَشار إليه فى كتابه . ومتَىٰ توقَّفْنا فى شىءٍ من مَسائله أثناء التَّصْحيح : لعَدَم وُضُوحه، أو لأن يَدَ النَّاسخ مَسَخَتْه، أو لغير ذلك ـ رَجَعنا إلى تلك الكُتُب والرَّسائل فصَحَّحْناه منها، مع المحافَظَة التَّامَّةِ علىٰ عبارة الأَصلِ مَهْما بلغتْ من السَّقَم . وما لم نَقِفْ عليه فيها، أبقيناه علىٰ حالِه،

---

(١) كما ذكر ذلك المؤلف فى خطبته، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبى الجرد «بتر بن راشد» أمير العربان فى البلاد الشرقية والغربية .

(٢) نسبه صاحب "كشف الظنون" لوالد المؤلف، وذكر أنه نبه على ذلك فى كتابه "نهاية الأرب" . [وقد تصفحناه فلم نعثر على ذلك] .

ووَضَعْنا بجانِبِه علامةً تدلُّ على التَّوقُّف ، ووكلناه إلىٰ فَهْم القارِئ الكرِيم وعَبْقَرِيَّته ، ناسبين كلَّ إصلاحٍ أدخلناه عليه إلىٰ مَوْضِعِه من كُتُب المُراجَعة .

وقَيَّدنا أكثر كلِماتِه بالشَّكْل ، مُعْتَمِدين فى ضَبْطِها علىٰ مَعَاجِم اللُّغة المشهورة ، وبَذَلنا الجُهْد فى تَقْرِيبِه إلى فَهْم القَارِئ ، بوَضْع علاماتِ التَّرقيم بين جُمَلِه وأجزاءِ عِباراتِه .

ومَيَّزنا ما فيه من الآياتِ القرآنِية الكَرِيمة ، والأحاديث النَّبَوِيَّة الشَّرِيفة ، وأمْثالِ العَرَب وحِكَمِها ـ بعلاماتٍ مختلفةٍ تُمَيزها عن سِواها .

ووَشَّيْنا أكثر صَفَحاته بحواشٍ شَرَحْنا فى بعضها ما يُوجد فى مَتْنِه من غَرِيب اللُّغة ، وأَثْبَتنا فيها أسماءَ كلِّ الكُتُب التى آعتمدنا عليها عند التَّصْحِيح .

وها هُو ذا نقدّمه لحضرات قُرَّائه الكِرام ـ من أكابر الكُتَّاب وأساطِين اللُّغَة والأَدَب ـ فى ثَوْبِه الجَدِيد الذى يَسُرُّ النـاظِر ويَشْرَحُ الخـاطِر ، مُعْتَذِرِين إلىٰ حضراتهم فيما يقِفون عليه من خَطَإٍ مطبَعِيٍّ وقَع فيه أثناء الطَّبْع ولم نَتَنَبَّهْ له ، والكمالُ لله وَحْدَه .

وَفَّقنا الله تعالى إلىٰ ما يُحِبُّه ويرضاه ، وأعاننا على مَشَاقِّ هـذه الصِّناعة ، ووَهَبنا من لَدُنْه الصَّبْر وحُسْنَ الثَّباتِ ، فهو حَسْبنا ونِعم الوَكِيل ؟

القاهرة فى ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ ينـاير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول

إبراهيم